



الإمام الجليل
أبو زهرة

عبد الرحمن

معرفة البغاسير

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

AL - AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing & Translation

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

السيدة الدكتورة / حبيبة النفوس محمد أبو زهرة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

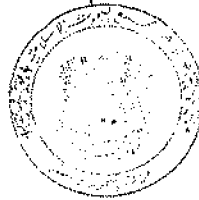
والله
قد بدت في إلى الطلب المقدم منكم لإعارة أصح ونشر تفسير القرآن
المكرّم حيث الآية ٧٢ من سورة النحل للمرحوم الشيخ / محمد أبو زهرة .
فقد كنتم بأنّه لا مانع من إعارة أصح ونشر التفسير المذكور مع الالتزام بالهيئة
الخاصة بالفتوى القرآنية وتحريرها من صنف معتد ومراجع بواسطة
الإدارة .

رطاب العالم والإمامة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مدير

إدارة البحوث والتأليف والترجمة



تاريخ ١٨/٧/١٤٠٦ هـ

٢٠١٩٨٧/٢/٨

د. /

٨٧/٢/١٨



تعريف بالإمام الجليل محمد أبو زهرة

هذا التعريف مأخوذ أساساً مما كتبه فضيلته بنفسه بناء على طلب أحد طلاب العلم من باكستان متقدماً برسالة لنيل درجة الدكتوراه عن الإمام أبو زهرة. ولد الإمام محمد أحمد مصطفى أبو زهرة في مارس سنة ١٨٩٨م في مدينة المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

حفظ القرآن الكريم في صدر حياته في الكتاب، إذ هو من أسرة دينية تنتسب إلى ولي من أولياء الله هو الشيخ مصطفى أبو زهرة الشهير بالششتاوي الذي يزار ضريحه بمسجده ببلدة شيشتا في مدينة المحلة الكبرى ووالده هو الشيخ أحمد مصطفى أبو زهرة مشهور بالصلاح والالتزام بالدين الحنيف ومكارم الأخلاق ووالدته حافظة للقرآن الكريم وكانت تراجع معه ما حفظ قبل الذهاب إلى الشيخ في الكتاب، وتميز عن إخوته وأخواته بحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز التاسعة من العمر، ولأنه كان ذا حافظة قوية، سارع بالديهة فلم ينل من قسوة أستاذه بالكتاب إلا قليلاً.

كانت الأسرة من متوسطي الحال يظنها الناس من الأثرياء اشتهرت بالعلم والذكاء، وقد نبغ منها شقيقه الأستاذ الدكتور مصطفى أحمد أبو زهرة منشي ورئيس قسم هندسة الطيران بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) وأيضاً الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة لندن بإنجلترا.

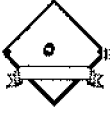
بعد حفظ القرآن الكريم تعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضيات، التي كان شديد الولع بها، والجغرافية والفلسفة مع العلوم العربية.

التحق في سنة ١٩١٣م بالجامع الأحمدي بطنطا ومكث فيه ثلاث سنين، وفي هذه الفترة ابتداء نبوغه وتفوقه يظهر حتى أن شيخ الجامع وهو الشيخ الأحمدي الظواهري الذي صار شيخاً للأزهر، اقترح أن يمنح مكافآت خاصة لامتيازه، كما اقترح بالآيكت في طلب العلم الأزهرى خمسة عشر عاماً، كما كانت المدة المقررة، بل إن مثله يصح أن يتجاوز سنين عدة في سنة واحدة، ولم يتم تنفيذ هذا القرار لصعوبته قانونياً، ولانتقاله إلى مدرسة القضاء الشرعى.

التحق في سنة ١٩١٦ بمدرسة القضاء الشرعى بعد امتحان مسابقة كان فيها من الأوائل. وتكوينه العلمى الحقيقى كان فى هذه المدرسة التى أنشأها سعد باشا زغلول فى وزارة المعارف على أن تكون عالميتها من درجة أستاذ وعهد بإدارتها إلى رجل عظيم هو عاطف باشا بركات. ومن وقت أن دخل المدرسة كان ينظر إليه ناظرها عاطف باشا بركات نظرة اهتمام وتشجيع، وقد مكث فيها تسع سنين، أربعة فى القسم الثانوى وخمسة فى القسم العالى، وفيها اتسعت آفاقه الفكرية ولما تخرج منها ونال شهادة العالمية من درجة أستاذ عام ١٩٢٥ كون لنفسه منهجاً فكرياً فى فهم الشريعة وتفسيرها، وكلما تعمق فيها ازداد إيماناً بها.

فى ذلك الحين كان قيام ثورة (١٩١٩م)، فوقف على الكثير من دقائق أحداثها ووقائعها، وأحب سعد باشا زغلول وتعلق به وكان حريصاً على حفظ خطبه وترديدها.

أخذ دبلوم دار العلوم من الخارج سنة ١٩٢٧م وفى هذه السنة عين مدرسا للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعى لمدة ثلاث



سنتين ثم انتقل بعد ذلك إلى التدريس في المدارس الثانوية العامة لمدة سنتين ونصف .

انتقل في أول يناير سنة ١٩٣٣م إلى كلية أصول الدين مدرسا للجدل والخطابة فيها ثم تاريخ الديانات والملل والنحل ، وفيها أخرج أول مؤلفاته كتاب «الخطابة» وكتاب «تاريخ الجدل» ثم كتاب «تاريخ الديانات القديمة» ثم كتاب «محاضرات في النصرانية» الذي ترجم إلى عدة لغات .

في ٢ نوفمبر ١٩٣٤م نقل مدرسا للخطابة بكلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الأول) مع بقائه بالانتداب في كلية أصول الدين التي استمر بها إلى يونيو سنة ١٩٤٢م وارتنى الزى الأزهرى .

في سبتمبر سنة ١٩٣٥م انتقل من تدريس اللغة العربية إلى تدريس الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الأول) متدرجا في مراتبها من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ كرسى إلى رئيس قسم الشريعة ووكيلا لكلية الحقوق جامعة القاهرة لمدة خمس سنوات انتهت ببلوغه سن التقاعد سنة ١٩٥٨ واستمر في التدريس بكلية الحقوق كأستاذ غير متفرغ وفي غيرها حتى توفاه الله عام ١٩٧٤م .

وقد تولى التدريس في كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر سنة ١٩٦٣م وكذلك معهد الخدمة الاجتماعية وغيره من المعاهد .

وقد اشترك في إنشاء وتولى التدريس ورئيسا لقسم الشريعة الإسلامية بمعهد الدراسات الإسلامية ومعهد الدراسات العربية العالى التابع لجامعة الدول العربية . واشترك في إنشاء جمعية الدراسات الإسلامية .



أختير عضوا لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى سنة ١٩٦١م ومقررا للجنة بحوث القرآن ولجنة المتابعة ولجنة السنة المطهرة وشيخا فى لجان التقنين للمذهبين الحنفى والشافعى .

كان أيضا عضوا بمجلس جامعة الأزهر، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومعهد البحوث الجنائية والاجتماعية، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، ومجلس محافظة القاهرة .

صفاته - سعة علمه ومبدؤه:

كان رحمه الله، أبيض اللون، جهير الصوت، شديد الذكاء، سريع البديهة، منظما وحر الفكر، راجح العقل، شديد الإيمان بما يقول، مستقل رأى لا يخشى فى قول الحق لومة لائم، ويمزج فى محاضراته العلم الجاد الوقور بالدعابة الحلوة الخفيفة .

كان رحمه الله عالما متبحرا فى الفقه وأصوله وفى علوم القرآن وتفسيره، وخطيبا مفوها، وأصوليا متعمقا، ومجتهدا يقرع الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق لا يشق له غبار يسعى دائما لتقديم الجديد والفريد للمكتبة العربية والإسلامية رافضا أن تكون كتاباته تردادا لأقوال الآخرين لما عرف عنه من اعتزازه بنفسه وبغضه لسيطرة الآخرين بغير حق .

كان رحمه الله يعيش للمبادئ ويكافح من أجلها، يناضل لعقيدة يحيا فيها ويعيش لها، يعلن رأيه ويجمع الناس عليه فقد كان فقيها فى مقدمة الفقهاء ورائدا تقدم القافلة وقد تشابهت أمامها السبل المتباينة . وقد عرض عليه البقاء والعمل بالخارج فقال: «إن وجودى فى مصر هنا يودى واجبا أرى أنه أصبح بالنسبة لى أشبه بفرض العين؛ فأنا على ثغر من ثغور الإسلام يتأثر بها أى بلد عربى وأى بلد إسلامى، فمصر هى العقل وهى القلب وهى الأزهر» . فكان رحمه الله بحرا زاخرا، وفيضا فياضا، ورائدا عاش حياته حاملا اللواء يمزج بين العلم والشجاعة، ومن هنا كثر رواده وعظم قصاده . وقيمة العالم



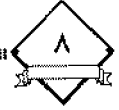
بما خَرَجَ من تلامذة علماء أوفياء فى جميع أنحاء العالم وبما أثرى المكتبة العربية والإسلامية من مراجع علمية.

المؤلفات والبحوث:

بجانب أشهر المؤلفات والموسوعات الإسلامية التى تزيد عن الأربعين فقد كانت له الكثير من البحوث فى العديد من المجالات العلمية والاجتماعية: مجلة القانون والاقتصاد، ومجلة المسلمون، ومجلة حضارة الإسلام، ومجلة القانون الدولى، وكتاب أسبوع الفقه الإسلامى، وكتاب أسبوع القانون والعلوم السياسية، ومجلة الأزهر، ومجلة العربى والعديد من المجالات بمختلف الدول العربية. وكذلك عدد لا يحصى من الأحاديث الصحفية كان يرد بها على المهاجمين للإسلام وللدفاع عن قوانين الأحوال الشخصية.

أما فى مجلة لواء الإسلام الشهرية لصاحبها أحمد باشا حمزة فكانت للإمام أبو زهرة أربعة أبواب ثابتة هى: تفسير القرآن الكريم، ومقال اجتماعى، وندوة لواء الإسلام، وباب الفتاوى للرد على أسئلة القراء. هذا على مدى ما يقرب من الأربعين عاما فيما لا يقل عن أربعة آلاف صحيفة.

كان لفضيلة الإمام نشاط واسع فى محاضرات وندوات عامة فى مختلف الجمعيات الاجتماعية والإسلامية العامة والخاصة داخل مصر وخارجها. لفضيلة الإمام العديد من الأبحاث ألقيت فى المؤتمرات والندوات الدولية التى حضرها مثل: حلقة الدراسات الاجتماعية التى انعقدت فى دمشق ١٩٥٢م - مؤتمر الندوة الإسلامية الذى عقد فى لاهور (باكستان) فى الفترة من ١٩٥٧/١٢/٢٩ إلى ١٩٥٨/١/١٣ - مؤتمر الخبراء الاجتماعيين الذى انعقد عدة مرات بالقاهرة وانهقد بالكويت عام ١٩٥٨ - مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد بالجزائر عام ١٩٦٩ ثم بالمغرب عام ١٩٧١ ثم بالقاهرة عام ١٩٧٣.



هذا بخلاف المحاضرات والنشوات خلال زيارات فضيلة الإمام لسدول السودان،
والكويت، والجماهيرية الليبية، والجزائر، وسوريا، وغيرها.

قام العديد من الباحثين بعمل رسائل ماجستير ودكتوراه عن الإمام محمد أبو زهرة
فى باكستان والهند وسائر البلاد الإسلامية كما ترجمت له العديد من المؤلفات.

أشهر مؤلفاته وكتبه:

- ١- الخطابة.
- ٢- تاريخ الجدل.
- ٣- تاريخ الديانات القديمة.
- ٤- محاضرات فى النصرانية.
- ٥- محاضرات فى الوقف.
- ٦- محاضرات فى عقد الزواج وآثاره، مقارنة بين المذاهب الفقهية والقوانين العربية.
- ٧- أصول الفقه.
- ٨- أحكام التركات والمواريث.
- ٩- الجريعة فى الفقه الإسلامى.
- ١٠- العقوبة فى الفقه الإسلامى.
- ١١- الميراث عند الجعفرية.
- ١٢- أصول الفقه الجعفرى.
- ١٣- الأحوال الشخصية.

- ١٤- الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ١٥- الإمام الصادق: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ١٦- الإمام أبو حنيفة: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ١٧- الإمام مالك: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ١٨- الإمام الشافعي: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ١٩- الإمام أحمد بن حنبل: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ٢٠- الإمام ابن حزم الأندلسي: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ٢١- الإمام ابن تيمية: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.
- ٢٢- تاريخ المذاهب الإسلامية جزآن في مجلد واحد.
- ٢٣- المعجزة الكبرى (القرآن).
- ٢٤- خاتم النبيين - ثلاثة أجزاء في ثلاثة مجلدات.
- ٢٥- الملكية ونظرية العقد.
- ٢٦- شرح قانون الوصية.
- ٢٧- الدعوة للإسلام.
- ٢٨- الولاية على النفس.
- ٢٩- العقيدة الإسلامية.
- ٣٠- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام.
- ٣١- التكافل الاجتماعي في الإسلام.



- ٣٢- العلاقات الدولية فى ظل الإسلام.
- ٣٣- تنظيم الإسلام للمجتمع.
- ٣٤- تنظيم الأسرة وتنظيم النسل.
- ٣٥- بحوث فى الربا.
- ٣٦- الوحدة الإسلامية.
- ٣٧- نظرية الحرب فى الإسلام.
- ٣٨- مقارنة بين الفقه الإسلامى والقانون الرومانى.
- ٣٩- بحث فى قانون الأسرة - نشر بكتاب عن الفقه الإسلامى بنشرة معهد واشنطن للقوانين الدولية.
- ٤٠- بحث فى السياسة الإسلامية - نشر فى مجلة القانون الدولى المصرية.
- ٤١- نظرات فى العبادات الإسلامية.
- ٤٢- تفسير القرآن الكريم (زهرة التفاسير) حتى الآية ٧٣ من سورة النمل.

وفاته:

عقد الإمام محمد أبو زهرة فى أواخر عام ١٩٧٣ وأوائل عام ١٩٧٤ العديد من الندوات والاجتماعات بجامعة القاهرة والإسكندرية وفى جمعية الشبان المسلمين لمحاربة التعدى على الشريعة الإسلامية، وكانت له صولات وجولات فى مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بخصوص تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات والطلاق فى مشروع قانون الأحوال الشخصية لوزارة الشؤون الاجتماعية، وقرر فضيلة الإمام رحمه الله إقامة مؤتمر شعبى لمناقشة هذا الأمر فى سرادق كبير فى شارع العزيز بالله أمام منزله بضاحية

الزيتون، أقامه الإمام رحمه الله على نفقته الخاصة وقام فضيلته بمعاينة المكان وإنشاء السرادق مبكرا في صباح يوم الجمعة ١٢/٤/١٩٧٤ ثم عاد إلى حجرة المكتب بالدور العلوى وشرع في إكمال تفسير سورة النمل حتى أذان الظهر، وأثناء نزول فضيلته حاملا القلم والمصحف مفتوحا على آخر ما وصل إليه في التفسير وأيضا الورق الذي به ما كتب من التفسير تعثر رحمة الله عليه وسقط ساجدا على المصحف وعلى أوراق التفسير، ثم فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغرب. وهكذا شاءت إرادة الله العظيم أن يكون هذا السرادق الذي أشرف فضيلته على إقامته لمؤتمر شعبي هو سرادق العزاء للإمام.

رضى الله عن شيخ مشايخ عصره، الإمام محمد أبو زهرة وأرضاه، وأسكنه فسيح جناته وأجمل فراديسه، وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أسرة الإمام الجليل محمد أبو زهرة



مقدمة

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على محمد النبى الأمى الذى بُعث رحمة للعالمين وسراجاً منيراً، وعلى آله وأصحابه الذين قبسوا من نوره، وجمعوا القرآن وحفظوه ليكون حجة الله تعالى القائمة إلى يوم الدين؛ وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر].

أما بعد :

فمنذ كنت طالباً أشدُّو فى طلب العلم، وأنهل من معارفه على قدر طاقتى، وأنا أتَشَوِّفُ لمعرفة القرآن الحكيم، وأتعرف أسرار بيانه ومعانيه، وأرى أن علمه هو الشريعة، وأنه ما ترك صغيرة ولا كبيرة منها إلا أحصاها، وأن محمداً ﷺ علَّم الناس علمه، وبينه وأحكم بيانه، وحكم به بين الناس، وأظهر برهانه، فهو برهان الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [النساء] وهو الحق الذى لا ريب فيه، وهو حكم الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء].

ولقد كانت أمنيته العلمية أن أكون قريباً منه دائماً، وكنت أراجع الكتب التى تصدت للتعريف بمعانيه؛ موجزها ووسيطها ومبسوطها، قديمها وجديدها، مؤمناً

بأن علمه هو علم الإسلام، بل هو علم النفوس البشرية، وأسرار الوجود، وأنه علم النبوة الإلهية في مختلف العصور.

ولما شرفنا الله تعالى بتدريس العلوم العربية والشرعية كان أول دروسنا في تعرف معاني القرآن، فكان ذلك يمناً وبركة وإشعاراً بتوفيق الله تعالى لنا، في مستقبل أعمالنا.

ولكننا شُغِلْنَا عن تفسير القرآن بدروس إسلامية أخرى، وإن كنا لم نقطع عن القرآن، وإن كان ذلك في أوقات قصيرة، فكلما دعينا لمحاضرة عامة، جعلنا القول في علم القرآن غايتنا، فكنا نعود إليه الفينة بعد الفينة، حتى دعتنا مجلة دينية كانت لها مكانتها، ولصاحبها مكانة من تقوى الله؛ لنكتب فيها تفسيراً أتمم به ما بدأه طيب الذكر فضيلة الشيخ محمد الخضر التونسي رضى الله عنه، وكان قد وصل في تفسيره إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ...﴾ [البقرة].

وقمنا بما استطعنا، ووسعته طاقتنا حتى وصلنا إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ...﴾ [الأنعام] ثم حيل بيننا وبين السير في عملنا، بمعوقات تتصل بوحدة النسق والكرامة.

والآن قد ابتدأنا الكتابة في معاني القرآن الكريم من أوله إلى ما وصل إليه الشيخ الإمام الخضر، رحمه الله تعالى.

حتى إذا وصلنا إلى ذلك نشرنا ما كنا قد كتبناه في المجلة، ثم نستأنف بعد ذلك القول في معاني القرآن من قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ [الأنعام].

وقد كان مقررًا أن نكتب مقدمة للتفسير نبين فيها نزول القرآن منجماً، وجمعه في عهد الشيخين أبي بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما. وجمعه في عهد ذى النورين، وبيان إعجازه ووجوه ذلك الإعجاز، وعن قصصه، وعلومه وجدله بالتى هي أحسن، وعن مناهج تفسيره وترجمته، (والغناء به)^(١).

(١) الغناء - بالفتح - في كلام العرب: النفع والكفاية.

كان ذلك فى تقديرنا، وأردنا القيام به بتوفيق الله تعالى، ليكون مقدمة للتفسير،
يكون فيها تعريف به، وإن كانت حقيقة كتاب الوجود فوق التعريف والبيان.

ولكن وقد اتجهنا إلى ذلك اتسع البحث علينا، ووجدنا أن ذلك قد يكون فى
ذاته غرضاً مقصوداً يقصد بالذات لا بالتبع؛ ولذلك أخرجناه كتاباً قائماً بذاته سميناه
«المعجزة الكبرى».

فهذا الكتاب وإن كان مقصوداً بالجواهر والذات، هو أيضاً مقدمة للتفسير،
ويغنى عن كتابة مقدمة جديدة، وإنا بعون الله تعالى نتجه إلى الله تعالى ضارعين
إليه أن يمدنا بعونه وتوفيقه فى القيام بحق كتابه الكريم علينا، وإنا بكرمه وفضله
دائبون على كتابة ما قصدنا، حتى يوافينا الأجل المحتوم ونحن فى جوار كتابه
العزیز، عاملين لا نبتعد عن عرفه^(١) ولا تتجافى مقاعدنا عنه.

اللهم أيدنا بالقوة والإخلاص، وأن يجعله نوراً لنا، وأن يحفظ كتابه من
الآهواء التى تبغى تأويله بغير هدى نبيه، وتحويل معانيه عن غاياتها، وأن يقيه من
الذين فى قلوبهم ريغ فيتبعون ما تشابه منه ولا يسلكون الجدد^(٢)، اللهم وفقنا لما
نحب وترضى.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران].

الإمام محمد أبو زهرة

(١) العرف، هكذا بالفتح: الرائحة مطلقاً، وأكثر ما يستعمل فى الطيبة منها.

(٢) يسلكون الجدد: يجتهدون. والجدد: الأرض المستوية.



الحمد لله رب العالمين الذي أرسل بالحق محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار.

أما بعد، فقد كانت معجزة هذا الرسول الأمين، خاتم النبيين تتناسب مع امتداد زمانها إلى يوم الدين، كانت خالدة باقية بخلودها، فكانت كلاماً معجزاً يتحدى الأجيال كلها، إنسها وجنّها أن يأتوا بمثلها: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨) [الإسراء].

وفيه علاج النفس، وطبها ودواؤها، وغذاؤها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) [يونس] وهو برهان رسالة محمد ﷺ ونورها المبين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (١٧٤) [النساء].

وإن الرسل السابقين كانت لهم معجزات تفرع الحسن، ولكنها انقضت بانقضاء زمانها، ولولا أن القرآن الكريم سجلها ما علمها أحد، أما القرآن فباق إلى يوم

الدين، وأحسب أنه حجة الأديان السماوية كلها، فلولا القرآن ما عرفت المسيحية الحق، ولطويت في وسط الأوهام والخرافات التي اعترت العقل النصراني.

وإنا والحمد لله قد شغفنا حباً بالقرآن وتعرف أسرار ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وما وسعه وقتنا، وكنا ونحن نتلوه، ونتعرف ما يمكن أن نسمو إلى معرفته من معانيه نجد أمرين :

أولهما: أن كتب التفسير المطولة تبثّر المعاني السامية منه - وكل معاني سامية - وسط مضطرب من الأقوال في علم الكلام ومذاهبه، وآراء الفقهاء واستدلال كل صاحب مذهب على مذهبه، فوجدنا بعض التفسيرات يتجه إلى الإعراب، ومذاهب النحويين، والمعاني الروحية السامية للقرآن تتمزق بأوجه الإعراب، والقرآن المعجز وراء ذلك مستور بغشاء من الجدل والاختلاف وتوجيه الأقوال. والموجزات من التفسير يتجلى فيها القرآن مشرقاً نيراً كما هو في ذاته، ولكن لا تخلو من توجيه النص القرآني بالمذهب الأشعري أو المعتزلي وإن كانت لا تثير جدلاً حول المعاني القرآنية إلا قليلاً .

ثانيهما : أننا وجدنا تطابق أقوال المفسرين في فهم آيات لا نرى أنها متفقة مع المبادئ المقررة في القرآن كأقوال المفسرين في قوله تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف] وتفسيرها على أنها تبين رفعة الأغنياء على الفقراء، وما ذلك بصحيح في المبادئ الإسلامية، ولا المقررات الدينية. وكذلك قول المفسرين إلى عهد الحافظ ابن كثير في تفسير الآيات ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب] وقد أجمع الأكثرون قبل الحافظ على أنها في عشق النبي ﷺ لزَيْنَب بنت جحش، وما كان لنا إلا أن نصحح المعاني ونقول الحق الذي يناسب علو القرآن وكمال الرسالة مخالفين هؤلاء؛ فكتاب الله أعلى من أقوالهم، ومقام الرسول الأمثل أعلى من أقوالهم، ولو

تطابقوا عليها مع مخالفة هذه الأقوال للنصوص، وتجايفها عنها بمقدار تجايفها عن الحق، حتى وجد المضللون الذريعة لأن يقولوا: النبي العاشق، فضللوا وأضلوا كثيرا.

من أجل هذا تسامينا بما فوق طاقتنا، واستخرنا الله تعالى، وكتبنا معاني الذكر الحكيم، كما أدركت عقولنا، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة) [البقرة] ولا يكلف إنسان فوق طاقته، وإننا نقارب ونسدد.

وإنه يجب أن ننبه إلى أمور ثلاثة :

أولها : أننا لا نتجه إلى الأغارب إلا إذا اضطررنا لتوجيه المعاني وتقريب الناس من إدراكها، وإن ذلك نادر، وليس بالكثير.

ثانيها : أننا لا نذكر من القراءات المختلفة إلا إذا ترتب على اختلافها اختلاف في المعاني، فنذكرها كلها، على أنها كلها قرآن، وأن هذه المعاني كلها مقصود في القرآن السامي، ودليل على إعجازه .

ثالثها : أننا في بعض المواضع نأتى بالكلام مطنبا، وذلك لتقرب الناس من معاني القرآن التي تكون موجزة في ألفاظها ثرية في معانيها، فنحاول أن نقرب الناس من هذه المعاني؛ لأنه ليس عندنا طاقة هذا الإيجاز البليغ الذي هو من دلائل الإعجاز.

هذا وإننا لا نحاول فيما يتعلق بالكون أن نحمل الألفاظ السامية فوق ما تحتمل أو غير ما تحتمل.

اللهم نسألك التوفيق؛ فلو لا توفيقك ما اهتدينا، ولا وصلنا إلى غاية. إنك أنت السميع البصير، ولا نستمد العون إلا منك، وإنك نعم المعين.

تمهيد

كان أحب إلىَّ منذ كنت طالباً علم القرآن، ودراسة هذا الكتاب العظيم في بيانه المعجز الذى تحدى العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، وتحدى الخليفة إلى اليوم فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء].

وهو يتحدى الفكر الإنسانى ببلاغته، ومعانيه، وقصصه، وشريعته، وتوجيهه الأنظار إلى الكون بما فيه من ذكر السموات والأرض، وخلق الإنسان، واختلاف ألوانه وألسته، والنفس الإنسانية فى خواطرها، وما يعليها، وما يُدسِّسها، وسيطرة الخالق على ما خلق، له الملك فى السموات الأرض وهو على كل شىء قدير.

كنت طالباً بالأزهر ثم بمدرسة القضاء الشرعى، وكنت أميل إلى علم تفسير القرآن؛ يصغى قلبى إليه، ويصبو فكرى نحوه، وذلك من بين علوم الإسلام وعلوم الحياة المختلفة التى كانت تدرس، فكان لكل علم ناحية فى نفسى، أما علم القرآن فكان قلبى كله له.

ولما تخرجت فى هذه المدرسة كان حب القرآن وعلوم القرآن مختلطاً بنفسى، ومن حسن المصادفات الموفقة أن يكون أول درس ألقيه، بعد أن شددت فى العلم، هو القرآن.

لقد علمت أنى عينت مدرسا بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعى فى يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٢٧، فلما ذهبت لأتسلم العمل فى ذلك اليوم، سلمنى شيخنا العارف بالله المرحوم الأستاذ حسن منصور الذى كان وكيلاً لمدرسة القضاء الشرعى، وأستاذ التفسير بها - سلمنى الجدول، وكله فى مادة التفسير، فى السنة



الخامسة من التجهيزية، ثم روى أن يقسم بينى وبين أحد زملائي الكرام، رحمه الله وطيب ثراه، ومكنت أدرس التفسير بالتجهيزية سنتين، وكان أحب إلي من أى عمل سواه، انقطعت بعد ذلك عن هذا الدرس الحبيب بمقتضى سنة العمل فى الحياة العلمية، وشغلت بعلوم العربية وقتاً غير طويل، نحو ثلاث سنين، ثم شغلت بالفقه فى أطول مدة قضيتها. ولكنى كنت على شوق إلى القرآن، وكانت مجلة «لواء الإسلام» تنشر فى كل عدد منها تفسيراً للقرآن، وكان يتولاه الرجل المؤمن العارف بالله الشيخ الخضر حسين، وواصل تفسيره حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ...﴾ [البقرة] ووقف عند هذه الآية، لأسباب نفسية، لم تكن من صاحب المجلة الرجل الطيب، فاعتذر، وطلب إلى أن أتم ما بدأت، وأيده صاحب المجلة فيما طلب، فتوليت كتابة التفسير من هذه الآية راغباً دائباً، فعدت إلى التفسير كما بدأت فى حياتى العلمية، واستمرت فى هذا العمل المحبوب، إلى أن منعت من التفسير، ومن غيره بأمر طاغوتى بمن كان يحكم مصر إبان ذلك، وكنت قد وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام].

ولما تكشفت الغمة، وزال الحكم الطاغوتى، وزالت آثاره التى بقيت بعده شهوراً، وحملت القلم لأعود إلى أداء الواجب، تعذر على أن أقوم بواجبى مع الكرامة، وكان لى ما كان للمرحوم الخضر رضى الله عنه، وقد ألح على الكثيرون من أهل العلم وطلابه أن أتم ما بدأت فى «لواء الإسلام»، وتكرر الطلب، فوجدت أن من الواجب على أن أقوم بكتابة التفسير مستعيناً بالله، متوكلاً عليه، ضارعاً إليه أن يمن بتوفيقه، فلولا توفيقه ما اهتدينا إلى عمل، وما أتمنا عملاً بدأناه.

فابتدأت بكتابة الجزء الذى كتبه الإمام الخضر، ليكون التفسير كله نسفاً واحداً، وعلى منهاج واحد، وما نحن أولاء نسير فى الطريق ضارعين إليه سبحانه وتعالى أن نصل إلى الحق فيما نكتب.

المنهاج الذى اتبعناه:

نحن ممن يتبعون إلى حد ما ؛ ما كان يقوله الأستاذ العظيم العبقري عاطف بركات فى أن القرآن كتاب مبين لا يحتاج إلى تفسير، فإنه لا إبهام فيه يحتاج إلى توضيح، وكل من يحاول توضيحه لا يصل إليه، فمن ذا الذى يصل إلى آفاقه، وعن كتب فى تفسيره من الماضين من حجب معانيه بكثرة الأقوال المتعارضة والآراء المتباينة، حتى أثار غبارا حجب عن الباحث نوره.

ولكن القرآن الكريم فيه فقه هذا الدين، وفيه خبر من مضى، وعلم الآخرين، وفيه علم الكون والوجود الإنسانى، وفيه توجيه إلى مناحى الحياة، وفيه القصص الحكيم، وفيه أسماء الأماكن وإشارات إلى وقائع، وفى الجملة فيه الكون والإنسان، وهو فوق ذلك حمّال للمعاني السليمة، وفيه علوم الدولة والآحاد، فلا بد من أن يتصدى لذلك أهل الخبرة فى العلوم، والفقه، واللغة والبيان، وإن كانوا لا يبلغون الغاية، ولا ينالون مما يبلغون الكفاية.

فلا بد أن يكون للقرآن تفسير تتولاه جماعة علمية، من أولى العصبة من العلماء، ولكن لا نجد التعاون العلمى الجماعى، فى الحاضر، وقد حاولناه مع غيرنا، ولم نجد ذلك التعاون فى الماضى، وإن وجدنا مخلصين لله وكتابه، مستبحرين فى علوم الآثار واللغة، ويا حبذا لو أن هؤلاء اجتمعت آراؤهم، وأضيف إليهما ما يراه علماء الكون فى آيات الله الكونية، على ألا نطوع القرآن لنظرية مفروضة، ولا أن نرهق ألفاظه لتحتمل نظرية لم يتحقق صدقها، ولكن ليستعان به لتأييدها، لا كأولئك الذين يرون صحة الفروض التى تقول بالنشوء والارتقاء ويريدون أن يؤيدوها من القرآن، أو يحملوا ألفاظ القرآن لها ليروجوها!

اتجهنا إلى كتابة معانى القرآن، كما ظهرت لنا، وكما أدركت عقولنا، وكما بلغت طاقتنا، غير محمّلين وضعًا ما لا يحتمل، أو نطوعه لتفكير سيق إلينا، ولسنا منكرين لما بذله العلماء الذين خصوا معانى القرآن بأكبر عناية، بل إننا نجد فيما كتبوا أو نقل عنهم ذخيرتنا التى ندرع بها غير مفتاتين عليهم فى قول، ولا متهجمين

عليهم فى رأى، ومنهم من قام على الحق المبين، أو يستمد قوته من أثر عن النبى محمد ﷺ، ولا يتجافى عن النص القرآنى فى ظاهره ونصه، فإن جافاه حذفناه، ونظرنا فى ذلك هو نظر شيخ الفقهاء أبى حنيفة النعمان فهو لا يقدم أثراً على نص قرآنى ظاهر الدلالة أو هو نص فيه.

ولا نتهجم بذلك على حديث لرسول الله ﷺ، فهو الحكمة كلها كما قال ذلك الإمام الشافعى، فقد فسر الحكمة فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾ [البقرة] بأن الحكمة هى سنة رسول الله ﷺ، فإذا رددنا منها ما يخالف القرآن فنحن نرد ما يجعلها فوق القرآن، وبالأحرى يكون ذلك تمحيصاً للسنّة، وتبييناً لصحيحها من سقيمها، إن عبارات القرآن التى هى نص فى دلالتها، ومعانيها، فيها تنزيه لرسالة محمد ﷺ، وتنزيه للبعث المحمدى، فإنما ندفع الريب عن الرسول ﷺ، ولا نتهجم عليه ولا على حكمته، كتلك الآثار التى توهم أن النبى ﷺ سحر، وكتلك الأخبار الكاذبة التى تقول إن محمداً ﷺ قال عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: تلك الغرائيق العلاء، وإن شفاعتهن لترتجى. إنا نرد هذا وأشباهه تنزيهاً للرسالة المحمدية الإلهية، مهما يكن راويها من الثقة، ونعدها عليه، وليس بمنزه عن الخطأ والنسيان، ودخول الغلط عليه، وأخشى أن أقول إن من يعتقد ذلك يكون كأهل الجاهلية الذين قالوا: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا﴾ [الإسراء] فليبحثوا عن موقفهم كمسلمين مؤمنين؛ وذلك لأنهم آثروا راوياً على القرآن وعلى الرسالة المحمدية كلها، إذ جعلوا الشك يرد على بيانها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا كنا قد رددنا بعض ما ينسب للرسول ﷺ فنحن نعد المفسر الأول للقرآن هو الرسول ﷺ، فهو المفسر لأحكامه المبين لحقائقه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل] ولا نتصور أن نجد بياناً يفوق بيان النبى ﷺ؛ لأنه يفصل مجمله، ويبين ما يعلو على مدارك الناس، وإن كان فى ذاته مبيناً، ولا يصح أن نفتات على الإسلام فنرد قولاً صح عن رسول

الله محمد ﷺ مادام القرآن يتسع لدلوله، ولا نقدم عليه احتمالا آخر مهما تكن مكانة قائله من الفقه والبيان؛ فإنه مهما يكن لا يناهد مقامه مقام مبلغ الرسالة في الإحكام، ولا مقامه في البيان، وإدراك معاني القرآن؛ ولذا نعد السنة النبوية هي المفسر الأول.

وبلى ذلك تفسير الصحابة الذي صحت نسبته إليهم، وخصوصا علماءهم، والسابقين الأولين الذين قال تعالى عنهم في بيعة الرضوان: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [١٨] ﴿[الفتح].

ونأخذ بأقوال هؤلاء على أساس ألا تخالف نصا قرآنيا، أو تناهضه، أو تحمله ما لا يحتمل، وعلمهم بالقرآن أعظم من علمنا به؛ إذ كانوا كما أشرنا من قبل أهل بيعة الرضوان، لا الذين جاءوا بعد الحديبية، وكان بعض أولئك من الذين لهم جهاد مذكور مشهور، لا يغض من مقامهم، ولكن ليسوا حجة في فهم القرآن إلا من ناحية اللغة والبيان؛ فإن ذوقهم العربي ربما يجعل لقولهم مكانا، ولم يعن أحد من هؤلاء بالتفسير رواية أو دراية؛ لأنهم شغلوا بغيره، إلا ما كان من ابن عباس، وأشباهه من شباب الصحابة الذين وعوا أفأويقه في آخر حياة الرسول، ومنهم بعض من التزموا الرسول ﷺ.

فقد كان ابن عباس ترجمان القرآن كما عبر بعض علماء الصحابة، وقد أخذ من علم كثير من الصحابة، وخصوصا ابن عمه عليا، الذي قال فيه ابن عباس: ما انتفعت بكلام بعد كلام محمد ﷺ كما انتفعت بكلام على كرم الله وجهه. فقد كان على أستاذه بعد المرشد الأكبر محمد ﷺ.

وإن الصحابة علموا التابعين مما تعلموا من فهم القرآن وأولئك هم التابعون، فما صح عن التابعين أهل الثقة الذين لارموا الصحابة واخترنوا علمهم، وهو علم بنوه ونقلوه نقلا صحيحا أخذنا به. بيد أنه يجب الاحتراس عند الأخذ من الأقوال

المنسوبة للتابعين؛ فإنه قد حدث في عهد التابعين أمران كانا سببا في دخول كلام في تفسير القرآن ليس منه، ولا مقتبسا من روحه:

أولهما - دخول كلام من بنى إسرائيل إلى العلم الإسلامي ونسبوه إلى التابعين على أنه من أقوالهم، وقد روى أن بعض من ينسبون إلى صحبة النبي ﷺ استهواه ما عند اليهود، فنقله، حتى إنه ليُروى أن عبد الله بن عمرو بن العاص، نقل في غزوة اليرموك حمل راحلتين مما عند اليهود، وتسرب إلى العقل الإسلامي ونسب إلى بعض التابعين، بل إلى بعض الذين لهم صحبة بالرسول ﷺ، وإن لم يكونوا من الرعيل الأول الذي حمل علم الرسول ﷺ، وما زال العلماء في هذا يعانون الكثير، مما اختلط بالتفسير من الإسرائيليات، ومحاولة رحض^(١) التفسير منها، كما يرحض الثوب الأبيض الناصع من الأقدار التي علقت به.

وإذا كان اليهود عجزوا عجزا مطلقا عن أن يعبثوا بالقرآن كما عبثوا بغيره، فإنهم أتوه من ناحية تفسيره، ولكن ذلك لا يمسُّه، بل يمسُّ العقول التي لا تمحص ولا تدرك، ولا تحكم بقرآن، ومقاييس العقل؛ ولذلك بقي النبع الإلهي الصافي يدركه من يتأمل ما أحيط به فينبذ الزيف، ويدرك الجوهر الصافي.

ثانيهما - أنه في عهد الأمويين، وهو عهد التابعين، وجد من النصارى الذين كانوا في حاشية الأمويين من يعملون على بث الروايات الكاذبة حول القرآن، وينسبونها للتابعين، كما نرى في القصة المكذوبة على رسول الله ﷺ في زواجه بالسيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش، فقد ادعى النصارى أن النبي ﷺ رأى زينب في حال أثارت عشقه، فأمر زيدا أن يطلقها، وأن يتزوجها، وبث هذا الادعاء فيهم يوحنا الدمشقي الذي كان في خدمة الأمويين وراجت هذه الأكذوبة التي لا أصل لها إلا إفك هذا الأفك، ونقلت عن بعض التابعين، وفسر بها قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) رَحَضَ - من باب منع - الثوب رَحَضًا، ورُحُوضًا: غسله فهو راحض، والمفعول مرحوض ورحيض [الوسيط]. والمقصود: تنقية كتب التفسير مما علق بها من الأقوال غير الصحيحة، والوجوه غير المحتملة.

كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ [الأحزاب].

راجت هذه الأكذوبة بين المفسرين الذين يتلقون الأخبار من غير تمحيص لذاتها، ولا تعرف دقيق لمصادرها. ووقع فيها شيخ المؤرخين والمفسرين محمد بن جرير الطبري، وتكلف وخرج عليها تفسير هذه الآيات الكريمة، وتبعه في ذلك المفسرون، حتى الذين من شأنهم أن يمحصوا الحقائق كالزمخشري والرازي وغيرهما، وتلقاها الذين لا يرجون للقرآن ولا لمحمد ﷺ وقارا في عصرنا، فكتب كاتب في كتاب له «محمد العاشق» وتبعه غيره من تلاميذه أو أشباهه الذين لا يمحصون الحقائق وليس للحقائق الإسلامية في قلوبهم روعة تدفعهم إلى التمحيص، وخاض كل المفسرين الذين كانوا قبل الحافظ ابن كثير، الذي ردها ومحصها ونقد ابن جرير الذي خاض فيها، وأثبت أنه لا توجد رواية عن الصحابة في هذا صحيحة أو غير صحيحة.

وظواهر النص القرآني، ومعانيه تنافيها جميعا، وصريح القرآن يردها، فالله تعالى يحكى أن زواجها كان بأمر من الله تعالى، ويخبر أن طلاقها كان بأمر من الله، فالله يصرح بأن الأمر كان الحرج من المسلمين في تزوج زوجة المتبنّى، فيقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أُنْيَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿٤١﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ [الأحزاب] ومحمد ﷺ كان قد تبنى زيد بن حارثة، وتزوج زيد زينب على أنه ابنه ﷺ، فلما ألغى التبني بحكم الإسلام تملكت به، وتعلم من كبرياتها، فأراد أن يطلقها، فقال له محمد الأمين ﷺ كما أخبر القرآن: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب] وهو إرادة الله في الطلاق، وتزويجها النبي ﷺ، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا...﴾ (٢٧) [الأحزاب] وسنبين ذلك أفضل بيان عندما نتكلم في معاني هذه الآيات إن شاء الله تعالى.

تفسير القرآن بالرواية:

إنه لا شك أن تفسير القرآن بالرواية عن النبي ﷺ أمر مقرر ثابت؛ لأن القرآن الكريم بيانه أولاً للنبي ﷺ، ويجب تحرى السنة الصحيحة، ولا يتبع إلا الصحيح، بيد أنه في بعض المروى عن النبي ﷺ ما يخالف ما نحسه ونعائنه، كقول بعض المفسرين معتمدين على بعض الروايات بأن بعض الأنهار تنبع من الجنة وأنها تفيض منها، مع أنه ثبت بالمعينة أنها تفيض من سيول في جبال، أو تنبع من منابع وبحيرات يراها الناس. ومن المقرر أنه إذا كان حديث آحاد بما يثبت العقل أو الرؤيا نقيضه، يُردُّ حديث الآحاد، ويثبت بطلان نسبته إلى النبي ﷺ، وكذلك ما يُثبت علم علماء الكون خلافه ثبوتاً قطعياً بالبرهان القاطع الذي لا يتطرق إليه ريب، فقد ذكر الغزالي أنه إذا كان خبر الآحاد يناقض ما أثبتته العلم ثبوتاً قطعياً، ترد نسبته إلى النبي ﷺ أو يؤوَّل، وإن النص المناقض قطعياً يؤوَّل بما لا يكون بينه وبين العلم القطعي خلاف.

وقد أكدنا في عباراتنا أن العلم الذي يؤوَّل النص القطعي، أو نرد به الخبر عن النبي ﷺ يجب أن يكون علماً قطعياً، لكيلا نغير في النصوص بفروض ونظريات لم تثبت بدليل قطعي، ولا يلتفت إليها إزاء النصوص، ولو كانت خبر آحاد ثبتت صحته؛ لأنها فروض لم تؤكد بدليل قطعي كنظرية النشوء والارتقاء،

فإنها فروض لم يثبت صدقها. وإنما الأخبار الصحيحة - أى من حيث السند - التى تكون تفسيراً للقرآن ولا تجوز مخالفتها هى الأخبار التى لا يطعن فى صحة متنها ولا تخالف أمراً يقطع العقل بخلافه.

هل النبى ﷺ فسر القرآن كله؟

إن ابن تيمية العالم الفقيه يقول^(١): إن النبى ﷺ، بين القرآن كله، ولم يترك فيه جزءا يحتاج إلى بيان ولم يبينه، ولا جزءا يحتاج إلى تفصيل ولم يفصله، ولا مطلقا يحتاج إلى تقييد ولم يقيده، ويحسب أن ذلك جزء يجب الإيمان به لقوله تعالى: ﴿... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾ [النحل].

وقد تلقى الصحابة تفسير النبى ﷺ، وقد قال عبد الرحمن السلمى: «حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل». وإن الصحابة كانوا لا يستحفظون القرآن فقط، بل كانوا يتعلمونه ويتعلمون معانيه، ويقول فى ذلك رضى الله عنه - أى ابن تيمية - : «من المعلوم أن كل المقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالعادة تقرّ ألا يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه، فكيف بالكلام الذى هو عصمتهم ونجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم وديناهم؛ ولهذا كان النزاع فى تفسير القرآن قليلا جدا».

ويتعين علينا إذن أن نقول إن تفسير الصحابة عن رسول الله ﷺ، هو تفسير الرسول ﷺ إلا ما ثبت عن الرسول ﷺ من قول يخالفه.

وإن الصحابة علّموا تلاميذهم من التابعين ما تلقوا عن رسول الله ﷺ، وهم أهل صدق، فابن عباس كان له تلاميذ تلقوا عنه كمجاهد، وعكرمة، ونافع وغيرهم ممن تلقوا عن ابن عباس، ولكن ما ينسب إلى التابعين يجب تمحيصه، فقد نفذت

(١) راجع هذا المبحث فى مقدمة أصول التفسير لابن تيمية.

الإسرائيليات وما دسه النصارى إليهم كما أشرنا من قبل، وعلى هذا يسنُّ ابن تيمية أمثل المناهج في اعتقاده.

فأعلى المراتب تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن كتاب متكامل، ما يجمله في موضع يفسره في آخر، وهكذا. وتلى هذه المرتبة تفسير النبي ﷺ، وقد بينا ذلك بما يناسب المقام.

والمرتبة الثالثة تفسير القرآن بأقوال الصحابة، وهم الذين تلقوا تفسيرهم عن النبي ﷺ، ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناولته المطايا إلا آتيته.

المرتبة الرابعة مرتبة التابعين الذين تلقوا علم الصحابة كمجاهد وقتادة، وقد يختلفون، فيرى ابن تيمية أنه إذا اختلف التابعون اختار من أقوالهم، ولا يخرج عنها. فإن التابعين قد دخلت في عهدهم الإسرائيليات، ومعايب النصارى، فيجب الأخذ عنهم باجتراس ويقظة، وإذا اختلفوا نأخذ من أقوالهم ما ليس فيه دسٌّ على الإسلام لنصون كتاب الله تعالى عن تطاول المفسدين، كما ذكرنا في قصة زينب بنت جحش المدسوسة على المفسرين.

وإنه يجب التنبيه إلى أن الواجب العلمي إبعاد الإسرائيليات عن تفسير القرآن، وتنقية كتب التفسير منها، وإذا قيل إن منها ما يوافق النصوص القرآنية، ولا يخالفها، نقول إن في القرآن غنى عنها، والأكثر فيه تهویش على معانى القرآن، وإثارة للأوهام الكاذبة.

تفسير القرآن بالرأى:

ابن تيمية وبعض علماء السلف يقصرون التفسير على ما يكون بالرواية عن النبي ﷺ ويمنعون التفسير بالرأى، ويستدلون على ذلك بما يأتي:

أولاً: قول النبي ﷺ فيما صح عن الرسول ﷺ عند ابن تيمية: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَغِيرَ عِلْمٍ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَايَهُ، وَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ»^(٢).

ثانياً: شدد أصحاب الرسول ﷺ في منع الأخذ بالرأى في معانى القرآن، ويروون في ذلك عن أبي بكر أنه قال: (أى أرض تُقْلُنِي، وأى سماء تُظِلُّنِي إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم).

ثالثاً: وكان التابعون يتخرجون في القول في التفسير إلا أن تكون الرواية عن النبي ﷺ أو الصحابة، ولقد قال مسروق: «اتقوا التفسير فإنه الرواية عن الله»^(٣).

وهكذا نرى طائفة من علماء السلف يمنعون التفسير بالرأى المجرد، وابن تيمية يوضح آراءهم ويؤيدها مشدداً فيها، ونحسب أن المبرر الذي جعل ابن تيمية يتشدد في ذلك هو سد الذريعة لمنع الأوهام التي وجدت بتفسير بعض الإمامية، والإسماعيلية، والباطنية، فقد رويت تفسيرات سموها باطن القرآن وجعلوا للباطن باطناً، حتى وصلوا إلى سبعة بواطن، فكان منع التفسير بالرأى دفعاً لهذه الأوهام الباطنية التي أفسدت المعانى القرآنية بتأويلات لا برهان عليها.

فإذا كان الإسرائيليون قد أدخلوا على التفسير ما ليس بمعقول ولا مقبول، فالباطنيون قد أدخلوا بتأويلاتهم وبواطنهم ما ليس من التفسير في شيء، والله حافظ كتابه من الفريقين، وهو بنوره الساطع يلفظ الخبث كما يلفظ الفلز في كير النار خبثه.

(١) أخرجه الترمذى: كتاب تفسير القرآن - باب: ما جاء في الذى يفسر القرآن بغير علم، وأحمد: كتاب مسند بنى هاشم - باب: بداية مسند عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

(٢) رواه الترمذى. الموضوع السابق (٢٩٥٢)، وأبو داود في كتاب العلم (٣٦٥٢) بلفظ: «فى كتاب الله» كلاهما عن جندب بن عبد الله.

(٣) قال أبو عبيد: عن الشعبي عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله. [مؤلفات ابن تيمية (أصول التفسير) ج ١٣ ص ٥٢١].



والغزالي أجاز التفسير بالرأى، وفتح الباب، ولكن قبل أن نقدم إسناده من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة نحرر رأيه، فهو:

أولاً: لا يهمل السنة ولا آثار الصحابة وأقوالهم، ويقرر أن ما أثر عن النبي ﷺ والصحابة بسند صحيح لا تصح مخالفته، ويجب الأخذ به.

ثانياً: لا يفتح الباب على مصراعيه لكل من يرى رأياً فيفسر القرآن برأيه، بل يجب أن يكون عنده علم اللغة، وعلم القرآن، وعلم السنة، لكيلا يقول على الله تعالى بغير علم.

وإن الفهم في كتاب الله تعالى باب متسع لكل من عنده أداة الفهم لعلم القرآن، ويستدل على ذلك بنصوص من القرآن والسنة وأقوال الصحابة:

(أ) إن القرآن الكريم فيه كل علوم الدين بعضها بطريق العبارة، وبعضها بطريق الإشارة، وبعضها بالإجمال، وبعضها بالتفصيل، وإن ذلك يحتاج إلى التعمق في الفهم، والاستبصار في حقائقه. وذلك لا يكفى فيه الوقوف عند ظواهر التفسير التي تجيء على ألسنة بعض السلف، بل لابد من التعمق، واستخراج المعاني ما دامت لا تخالف صريح المأثور، ولكنها أمور تسيّر وراءه، وعلى ضوئه وعلى مقتضى هديه؛ ولذا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين، فليستدبر القرآن» وإن ذلك لا يكون بغير التعمق في الفهم والتعرف بالإشارة للمرائى البعيدة والقريبة من غير اقتصار على ظاهر النصوص.

(ب) إن في القرآن بيان صفات الله سبحانه وتعالى، وذكر ذاته القدسية وأسمائه الحسنی، وإن معرفة ذلك مع التنزيه وعدم المشابهة للحوادث يحتاج إلى تدبر وبيان ليعرف القارئ لكتاب الله تعالى أنه سبحانه وتعالى منزّه نزاهة مطلقة عن المشابهة للحوادث.

(ج) إنه قد وردت آثار كثيرة تدعو إلى الفهم والتدبر، فقد قال على - كرم الله وجهه -: «من فهم القرآن فسّر به جمل العلم»، وقال رضى الله عنه: «ما

أعطاني رسول الله ﷺ شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى السله عبدا فهما في كتابه»^(١).

(د) إن عبارات القرآن تدعو إلى فهمه فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ [البقرة] فقد قال فقهاء السلف إن الحكمة هي فهم القرآن، وإذا كان فهم القرآن خيرا كثيرا، فإنه سبحانه يدعو القادرين على الفهم للبحث والتأمل والنظر في الآيات وفهمها.

ولقد قال تعالى: ﴿... وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾ [النساء] وفي هذا دعوة إلى الاستنباط، واستخراج المعاني العميقة، كما يستنبط الماء من الآبار، وفيه إشارة إلى وجوب تعرف معاني القرآن بالفهم بصحيح كما يتعرفونها بالآثار الصحيحة، فهما طريقان مستقيمان، فمن منع أحدهما فقد خالف العقل والنقل.

(هـ) إن النبي ﷺ دعا لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بالفهم في القرآن فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(٢) وليس التأويل إلا فهم مرامي العبارات والمآل والمكان للمعاني التي تشتمل عليها الألفاظ وجمل القول. ولو كان التفسير مقصورا على ما ورد من أقوال النبي لقال عليه الصلاة والسلام: «حَقَّقْهُ».

والغزالي لا يقف في استدلاله عند تأثير التفسير بالرأى، بل ينقد أدلة الوقافين الذين يقفون عند المأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين لا يعدونهم - وينقدهم من وجوه:

أولها: أنه لكي يصح الوقوف على تفسير رسول الله ﷺ يجب أن يكون كل ما نأخذ به من تفسير مسندا إلى رسول الله ﷺ، أو ثابتا بالضرورة عن النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري - كتاب العاقلة - باب: الديات (٦٩٠٣). وينحوه عند مسلم - كتاب العتق (١٣٧٠) وكذا رواه الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وأحمد.

(٢) أخرجه أحمد: كتاب: مسند بني هاشم - باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٨٧٤-٣٩٣٢) وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

بأن يقول التفسير صحابي أو تابعي، ولا يتصور أن يكون ذلك من غير النبي ﷺ وليس للرأى فيه مجال، فإذا كان للرأى فيه مجال فاحتمال أن يكون ذلك من رأى الصحابي أو التابعي، وخصوصا أنه فى عهد التابعين أدخلت الإسرائيليات، ونقل عبد الله بن عمرو بن العاص حمولة زاملتين فى موقعة اليرموك، وإن ما نقل لنا عن رسول الله ﷺ من تفسير ليس كل التفسير، ولا جُلّه.

ثانيها: أن الراجع أن تفسير الصحابة الذين قالوه لم ينسبوه إلى النبي ﷺ، فكان من المحتمل أن يكون بأرائهم، وإن كان لها فضل الاقتباس من هدى النبي ﷺ، وإن واجب الاقتداء بهم أن نفسر بالرأى مثلهم مسترشدين بأقوالهم فى فهم الآيات كما نسترشد بأرائهم فى الفقه، وفى معانى الألفاظ العربية.

ثالثها: أن الصحابة اختلفوا، وكذلك التابعون، وسماع كل هذه الأقوال محال، فلا بد أن يكون بعضها صحيحا وبعضها غير صحيح. ولو كان بعضها مسموعا لوجب رد الباقي، ولا يمكن معرفة ما يرد وما يبقى؛ لأن المسموع منها غير متميز ولا معين، ويؤدى هذا إلى أن بعض هذه الأقوال كان بالرأى، وأن المتبع للآثار ولا يعدوها لا يكون له مناص من أن يختار من هذه الأقوال المختلفة، وأن ذلك سيحمله على أن يعمل الرأى فى تخير ما يختار، ويكون المتبع قد فر من الرأى ابتداء ثم وقع فيه انتهاء.

وبين الغزالي موضع النهى عن الرأى فى فهم القرآن فيرى أنه فى موضعين:

أولهما: أن يكون له رأى فى موضوع الآية، ويميل إليه بطبعه وهواه، فيتأول الآية من القرآن لتكون على وفق رأيه، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى ما كان ليلوح إليه ذلك المعنى. وهذا تارة يكون مع العلم بأنه ينزل القرآن على فكره وهواه كبعض المبتدعة الذين يجادلون فى آيات الله ويلحفون فى الجدل للغلب، وهم يدركون أن القرآن لا يؤيد رأيهم ولكن يتغالبون به.

وقد يكون غير قاصد الغلب، بأن تكون الآية تحتل معنيين أو تبدو له كذلك، فيختار منهما ما يكون أوفق مع فكره، ولولا فكره السابق ما اختار ذلك المعنى.

ثم يقول الغزالي: وهذا الجنس مما تستعمله الباطنية لتغريب الناس، ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم، وعلى أمور يعلمون قطعاً أنها غير واردة به، فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأى، ويكون على هذا المراد بالرأى الممنوع الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح.

ثانيهما: المسارعة إلى تفسير القرآن بظواهر الألفاظ من غير معرفة المنقول في موضوعها، ومن غير مقابلة الآيات بعضها ببعض، ومن غير معرفة العرف الإسلامي الذي خصص بعض الألفاظ العربية، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وإدراك مواضع الإضمار والحذف، وغير ذلك من الأساليب القرآنية المعجزة، فإن ذلك يكون تفسيراً بالرأى من غير أهله، واجتهاداً في الفهم بغير أدواته، وليس ذلك من التفسير بالرأى، إنما ذلك من التهجم على ما لا يحسن والعمل فيما لا يتقن، وذلك قبيح في كل شيء^(١).

الطريقة المثلى:

وإن الطريقة المثلى التي توصل إلى الغاية في فهم القرآن، وتعرف معانيه، وإدراك دلائل إعجازه هي الاعتماد على النقل والعقل، فلا يصح الاختصار على النقل وحده، ولا على العقل وحده، وإنما النظر الأمثل هو أن يعتمد على العقل والرأى وعلى السماع من أقوال رسول الله ﷺ في فهم القرآن، فظواهر القرآن من الألفاظ، والآثار التي تعاضد الظاهر، لا تكفي وحدها بل تساعد العقل، وتفتح له السبل لاستخراج معاني القرآن المتسعة الأفق البعيدة المدى التي توجه الفكر إلى أعمق الحقائق العلمية والكونية والنفسية، وكلما تفتح العقل في ظل إدراك الألفاظ وظواهر اللغة أدرك إدراكاً صحيحاً ما تشير إليه الحقائق الكونية، وما يشير إليه القرآن.

(١) قال المصنف - رحمه الله - في الهامش: راجعنا هذا البحث على الإحياء مع بيان النتائج من مقدماتها.

وإنه كلما اتسع أفق العقل البشرى فى فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم، ولعل هذا هو الحقيقة التى أشار إليها بعض الصحابة، إذ روى عن أبى الدرداء أنه قال: «لا يفقه الرجل، حتى يجعل للقرآن وجوها» أى اتجاهات متلاقية، ولكن بعضها أعمق من بعض، وكله حق.

وروى عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن للقرآن ظاهرا وباطنا» (١) وليس هو الباطن الذى يقوله الباطنية، إنما الباطن الذى أشار إليه النبى ﷺ هو الباطن الذى تدل عليه إشارات العبارات القرآنية، من أسرار الإعجاز البيانى، وإلى ما تشير إليه من حقائق كونية ونفسية وخلقية وأحكام عملية، وغير ذلك من المعانى التى يدركها العالم المتعمق ذو البصيرة النيرة الذى آتاه الله تعالى نفاذ بصيرة، واستقامة فكر، كالذى يدركه علماء الأكوان فى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء ٣٠] فالمعنى الظاهر لكل مُلمٍّ باللغة العربية هو أن السموات والأرض كانتا متصلتين، وهذا معنى سليم هو الظاهر، والعالم المدرك للأكوان الباحث فيها يعرف كيف كانت السماء والأرض كتلة واحدة، وكيف انفصلت الأرض وتكونت عليها القشرة الأرضية، وكيف كان الماء العذب، والملح الأجاج.

وهكذا نجد أن كل تالٍ للقرآن يدرك من معانيه بمقدار إدراكه وعلمه.

والغزالي يقرر أن المعانى اللغوية، وما يشير إليه النقل والسمع هو المفتاح والطريق للمعنى العميق الذى يدركه الناس كلما تفتقت العقول واتسعت المدارك واطلعت على حقائق الكون، وأدركت معانى الآيات الطالبة للنظر فى الكون، فهو اللوح الذى كتبت فيه حقائق هذا الوجود، وفيه الدلالة على وجود الله تعالى، وإبداعه. ويقول الغزالي فى ذلك: «العقل والسمع لا بد منهما فى ظاهر التفسير أولا؛ ليتقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط واستخراج الغرائب التى لا تفهم إلا بالسمع، ولا مطمع فى الدخول إلى الباطن قبل إحكام

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه وذكره العراقي فى تخريج أحاديث الإحياء ج ١ - ص ٩٩.

الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن وهو لم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يريد البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك، فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم.

والمعنى الباطن الذي جاء على حكم الغزالي ليس هو ما عند الباطنية كما ذكرنا، إنما هو تحرى الدقائق التي تكون في مطوى ألفاظ القرآن، والأسرار التي لا يدركها إلا العلماء المتخصصون في العلوم المختلفة كل بمقدار طاقته في علمه بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف وإضمار، وعموم وخصوص، وإطلاق وتقييد.

ويقول حجة الإسلام عمّا فيه من أسرار ما نصه: «وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسرار بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حدٌّ في الترقى إلى درجة أعلى منه، أما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً، فأسرار كلمات الله تعالى لا نهاية لها، فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق في الفهم بعد معرفة ظاهر التفسير، وظاهر التفسير لا يغنى عنه».

هذا ما نقلناه عن الغزالي وذلك ما قاله ابن تيمية، ونحن بلا ريب نأخذ برأى الغزالي وعليه سار المفسرون، حتى مفسرو الروية، فإنهم لا يردونه، حتى شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري، فاخياره من أقوال التابعين فيه عمق، واتجاه إلى تعرف الأسرار في الألفاظ القرآنية، والعبارات، واستقصاء المعاني. وقد يقول قائل: إن الغزالي يشجع تفسير القرآن بالعلوم الكونية، فهل نشجعه كما شجع؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: إن ما يكون من آيات القرآن دالا على حقيقة علمية كما تلونا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] فإنه بلا ريب أن بيان الحقيقة العلمية يكون من بيان القرآن، ويعتمد فيه على كلام أهل الخبرة، وذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ
سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴿فصلت﴾.

فهذه الآيات وأمثالها كثير، ولا بد فيها من الاستعانة بأهل الخبرة، ويقررون
فى ظلها الحقائق العلمية، ويجب أن يلاحظ أمران:

أولهما: ألا تفسر الآيات الكريمات بنظريات وفروض لم يقم الدليل القاطع
عليها، وقد تتغير العلوم الكونية بتغير النظريات حولها وقتاً بعد آخر، ولا يصح أن
يفسر القرآن بنظريات قابلة للنقض والتغير. إنه كتاب الله تعالى لا تبديل لكلماته،
وهو العزيز الحكيم، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثانيهما: ألا يكون الاتجاه إلى تحميل الألفاظ فوق ما تحتل، فلا تجهد الآيات
إجهاداً ليطبقوها على الحقائق أو ليطبقوا الحقائق عليها، بل لا يفكر أهل الخبرة فى
أسرار الآيات إلا ما يكون ظاهراً واضحاً كما رأينا فى الآيات التى تُليّت، ويكون
عمل الخبير العلمى تصويرها من غير إجهاد لألفاظها، أو تحميلها ما لا تحتل، وإن
الأخذ بهذا المنهاج السليم فيه بيان للقرآن الكريم، وصيانة له، وبعد به عن مواطن
الشبهات.

علم الكلام وآراء الفقهاء:

كثر القول فى تفسير القرآن الكريم فى الكتب التى تصدرت للتفسير كتفسير
الزمخشري، وفخر الدين الرازى وغيرهما من أمهات كتب التفسير فى أمور هى
من علم الكلام؛ كتعلق إرادة الله تعالى بأفعال العباد، وكذلك الآيات القرآنية
التي تتعرض للمشية والإرادة، وهداية العبد وضلاله، وللصفات أهى غير الذات،
أم هى الذات شىء واحد، وغير ذلك من مسائل علم الكلام. والزمخشري مع
مقامه فى البيان، وإثباته إعجاز القرآن من تفسير القرآن، يذكر مذهبه الاعتزالي
ويخرج تفسيره على هذا المذهب، وتعقبه من جاء بعده فى إثبات صحة مذهب

الأشاعرة^(١) أو الماتريدية، حتى يغلب القول التفسير والبيان، وتختفى معانى القرآن الكريم فى لجاجة التعصب المذهبى، وهذا النوع من التفسير هو أحد القسمين اللذين ينطبق عليهما النهى عن الرأى؛ لأن المفسرين سبقت آراؤهم تفسيرهم، فحملوا معانى القرآن على ما يوافق مذهبهم، والقرآن الكريم فوق آرائهم، ومعانى القرآن فوق كل رأى ومذهب، وتحمل الآراء والمذاهب على معانى القرآن لأنه الأعلى، وهو الشرع الحكيم.

فليست معانى القرآن أشعرية ولا ماتريدية، ولا اعتزالية، وإن تخريج الآراء على مقتضى مذهب من المذاهب يجعل القرآن مفرقا، ويجعله عضين^(٢)، وذلك حرام؛ لذلك لا نفتح - بعون الله تعالى وتوفيقه - مجالا لهذه المجادلة فى ذكر معانى القرآن، بل نتجه - إن شاء الله تعالى - إلى المعانى الواضحة البينة، من غير أن ننزلها من مقامها السامى إلى مضطرب المذاهب والآراء.

وبالنسبة للآراء الفقهية نلاحظ أمرين:

أولهما: أن اختلاف الآراء الفقهية حول ما ثبت من الأحكام بالنصوص القرآنية قليل، فلا اختلاف لأنظار الفقهاء فى آيات الأحكام بالنسبة للزواج وشروطه، والمحرمات، وغيرها، والاختلاف أساسه اختلاف الروايات، وهو فى الأحكام الفقهية نادر، ولا يعلو إلى درجة الاختلاف الذى يورث عداوة، أو يوجد تراميا بالكفر والخروج عن الرتبة عند العلماء رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم.

ثانيهما: وليس ثمة خلاف جوهري فى أمر يتعلق بالأحكام الثابتة بالقرآن إلا الاختلاف بين جماهير المسلمين وطائفة الإمامية فى الميراث، وهذا الاختلاف لا يخرج عن دائرة الثابت بالقرآن، وهو فى تقديم بعض الورثة على بعض، فليس ثمة

(١) الأشاعرة: أو الأشعرية نسبة إلى أبي الحسن إسماعيل بن إسحاق. ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري.

ولد بالبصرة ٢٦٠ هـ، والماتريدية نسبة إلى أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٢ هـ.

(٢) عضون: جمع عضة وهي القطعة الوجيز (عضي).

خلاف في أن للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا في أن الميراث يكون للأقرب فالأقرب، ولكن الاختلاف في معنى القرابة أحيانا، وأحيانا نجد النص القرآني يقرب، ولا يبعد.

ومسلكتنا في آيات الأحكام أن نذكر الأحكام الثابتة بالقرآن بإجمال مستعينين بالسنة القولية والعملية في العبادات، وفي الأنكحة، وغيرها.

نذكر الأحكام بإجمال تفسير الآيات القرآنية مبينين ما يحتاج إلى بيان بالسنة النبوية، مرجحين ما يتفق مع السنة، أو ما نراه أقرب إلى النص، كمعنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ (البقرة) فإنما في هذه نأخذ بما يفهم من السنة.

وهكذا لا نتعرض للخلاف الفقهي إلا في أضيق دائرة، وما يوجهه علينا ذكر معاني القرآن واضحة نيرة كشأنها دائما، ولا نخضع هذه المعاني لآراء الفقهاء، إنما نخضع آراء الفقهاء لها؛ لأنها الحكم الذي لا ترد حكومته، والقرآن هو الحاكم بالصحة لآراء الفقهاء وليس محكوما بها.

النسخ في القرآن الكريم:

لا بد قبل أن نبدي رأينا في النسخ في القرآن الكريم أن نقرر حقائق ثلاثا لا بد من بيانها أو الإشارة إليها، نكتفي هنا بالإشارة إليها:

الحقيقة الأولى: أن القرآن الكريم نسخ من الشرائع السابقة التي أتى بها الوحي وهي الشرائع السماوية، فما بقي منها أبقاء القرآن الكريم، ونص على بقائها كـ بعض أحكام القصاص، وكتحريم الربا، وكتحريم المحرمات وغير ذلك، وكان النص عليه في القرآن الكريم دليلاً على بقائه من غير نسخ.

الحقيقة الثانية: أن النسخ جرى في السنة، ذلك أن السنة كما تتولى بيان الأحكام تتولى علاج المسائل الوقتية، ويختلف الحكم الوقتي في بعض الأوقات عنه في بعضها؛ ولذا جرى النسخ في السنة.

الحقيقة الثالثة: أن القرآن الكريم سجل هذه الشريعة الخالدة، بل سجل الشرائع السماوية، ومعجزات النبيين جميعاً، وما نسخ منها أشار إلى نسخه، وما بقي منها صرح ببقائه، كالقصاص، وخصوصاً في الأطراف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة] .

ولذا نحن نرى ما رآه من قبل أبو مسلم الأصفهاني، وهو أنه لا نسخ في القرآن قط؛ لأنه شريعة الله تعالى الباقية إلى يوم القيامة؛ ولأن النسخ لم يثبت بنص عن النبي ﷺ، وأنه لم يصرح النبي ﷺ بنسخ آية من القرآن، وما جاء من عبارات النسخ في القرآن إنما في نسخ المعجزات الحسية بالقرآن الكريم، وقد بينا ذلك في موضعه من معاني الذكر الحكيم.

ولأن النسخ يقتضي أن تكون آيتان في القرآن موضعهما واحد، وإحدهما مُثَبِّتة والأخرى نافية، ولا يمكن الجمع بين النفي والإثبات، وما ادَّعى النسخ فيه التوفيق بينهما سهل ممكن، وما أمكن التوفيق فلا نسخ، وقد اشتركنا في كتابة التفسير مع بعض العلماء ولم نجد آيتين متعارضتين لم يمكن التوفيق بينهما، وقد طبع ذلك التفسير وسمى بـ «المنتخب» طبعته إحدى الجامعات الإسلامية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ

ابتدأ كلام الله تعالى بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهى مقدمة لتلاوة كل سورة من سور القرآن، وروى عن بعض الصحابة: «إننا كنا نعرف نهاية سورة وابتداء سورة بنزول قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾» وروى عن جعفر الصادق بن محمد رضى الله عنهما، أنه قال: «البسمة تيجان السور»، وقد قال عبد الله بن المبارك: «إنها جزء من كل سورة؛ ولذلك يجب ابتداء السورة بقراءتها.

على أنها جزء منها»، وقال الشافعى: «إنها جزء من الفاتحة»، وتردد في عدّها جزءاً من كل سورة، ولكنها مهما تكن ليست جزءاً من غير الفاتحة، وهى لازمة للفصل بين سورة وسورة من السور التى ابتدأت بذكرها.

ولأن ثمة كلاماً فى كون سورة براءة ليست مستقلة عن سورة الأنفال، وعدّها الاكثرون جزءاً منها - لم تكن مبتدأة بالبسملة، وينسب إلى الإمام مالك رضى الله تبارك وتعالى عنه أنها ليست جزءاً من سورة الفاتحة أو غيرها، ومؤدى هذا القول أنها ليست من القرآن ككلمة «آمين» فى آخر الفاتحة؛ إذ إن الفاتحة ضراعة إلى الله تعالى، فناسب أن تذكر بعدها «آمين»، وعدّ القرطبى فى كتابه «أحكام القرآن» أن فى مذهب مالك أن البسملة ليست من القرآن هو الصحيح، وذكر أن القرآن كله متواتر، والبسملة ليست متواترة، فلا تعد من القرآن، ولكن تكون علامة على انتهاء سورة، وابتداء سورة أخرى.

ومع أنه قرر ذلك - يقرر أن مالكا يرى أنها يُبتدأ بها فى الفرض والنافلة، كما رواه ابن نافع، وفى الحق أن ذلك القول غريب عن القرآن، وذلك لأن البسملة متواترة تواتر كل أجزاء القرآن، فلم تثبت بحديث آحاد، بل ثبتت بالقرآن نفسه، فقد كتبت فى مصحف عثمان وما قبله، ولا تواتر أبلغ من هذا، وما كان للشيخين أبى بكر وعمر، وذى النورين وجميع الصحابة أن يدوّنوا فى المصحف ما ليس من القرآن، و «آمين» هى التى أمر النبى ﷺ بالنطق بها فى عقب قراءة الفاتحة.

إن ادعاء أنها ثبتت بخبر آحاد يقتضى ذكر ذلك الخبر، ورواته، ومقدار قوتهم، وضعفهم، وعددهم، وليس كذلك، بل هى ثبتت مقترنة بسور القرآن على أنها ثابتة بين كل سورة وسورة.

والسورة التي لم تصدر بها، ثبت عدم تقدمها لهذه السورة بالتواتر، فهي متواترة بالذكر في كل السور، ومتواترة بالسلب في سورة واحدة.

ولهذا نرى أن نسبة ذلك القول إلى إمام دار الهجرة مالك هو في ذاته موضع نظر، وقد اقترن ذلك بادعاء أنه لم يقرأها أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقول القرطبي عفا الله عنه: «في مسجد النبي ﷺ بالمدينة انقرضت عليه العصور ومرت عليه الأزمنة والدهور من لدن رسول الله ﷺ إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قط ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ».

وإن لنا أن نرد ذلك القول، ونأخذ ذلك من كلامه هو، فهو قد روى أن عمر، وعلياً، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، كانوا يقرأونها ويسرون بها.

وروى هو أيضاً عن النبي ﷺ أنه كان يسر بها ولا يجهر، فقد روى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه أنه قال: «كان يصلى بنا رسول الله ﷺ فلم يُسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم»^(١) وروى عنه أيضاً: صليت خلف رسول الله ﷺ، وخلف أبي بكر، وعمر، فلم أسمع أحداً منهم يجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢).

فالأمر أمر الجهر بها، لا أمر تركها، وفرق كبير بين الترك لها أصلاً، وترك الجهر بها.

وبذلك ينتفي ما ادعاه من أن أحداً لم يقرأها، اتباعاً للسنة إن كانت سنة، وذلك لأنهم قرأوها خفية وفي سر، آخذين ذلك من سنة النبي ﷺ.

(١) رواه النسائي: كتاب الافتتاح - باب: ترك الجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» (٩٠٦) ويتحوه عند البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٣٩٩)، والترمذي (٢٤٦)، وأبو داود (٧٨٢)، وابن ماجه (٨١٣)، وأحمد (١١٥٨٠).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ النسائي: كتاب الافتتاح (٩٠٧)، راجع التخريج السابق.

ومن كتاب الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف].

وننتهي من هذا إلى أن البسملة جزء من القرآن الكريم، وهي فاصلة بين السور تدل على الانتهاء من سورة والابتداء بسورة أخرى.

وإن الشافعي يعدها جزءاً من الفاتحة، ومهما يكن فإنه لا بد من البدء بقراءتها، وغيره يوجب البدء بها لا على أنها جزء من الفاتحة، ولكن على أنها قرآن يبدأ به في أول كل سورة.

والأكثر عدوها على أنها يبدأ بها سرا لاجهراً أو تضرعاً في خفية، ودون الجهر من القول، والله سبحانه وتعالى أعلم.

التعوذ في ابتداء التلاوة:

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل] فهم من هذا النص الكريم أنه عند التلاوة لا بد أن يقدمها بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم تكون بعدها «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد حكى ذلك عن عطاء وغيره، فقالوا: «إن الاستعاذة واجبة عند كل تلاوة في غير الصلاة»، وإنما في الصلاة فلا وجوب، ويظهر أن ذلك بالاتفاق؛ لأنه يكون زيادة واجب في الصلاة لم يثبت عن النبي ﷺ، وكل وجوب في عبادة من غير إيجاب من صاحب الشرع يرد ولا يؤخذ به. وكان النخعي، ومعه قوم يتعوذون استحباباً في كل ركعة في الصلاة، فحيث كانت قراءة قرآن تعوذوا استحباباً، وروى عن أبي حنيفة التعوذ في قراءة الركعة الأولى فقط.

ومن المتفق عليه أمران :

أحدهما: أن الاستعاذة ليست جزءا من الصلاة، ولا شرطاً لقراءة الفاتحة، كما هو مقرر عند الشافعى، لا سرا ولا جهرا؛ لأنه لم يثبت عن النبى ﷺ أنه التزم بها لا جهرا ولا خفية.

الثانى: أن كلمة «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ليست قرآنا، وإنما استجابة لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النحل] وكلمة «أعوذ بالله» هى الكلمة التى يرددها الناس عند الاستعاذة، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول فى الاستعاذة: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»، وروى ابن مسعود أنه تعود بها أمام النبى ﷺ فقال له: «يَا بْنَ أُمِّ عَبْدِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ هَكَذَا أَقْرَأْنِي جِبْرِيلُ عَنِ اللّٰوْحِ عَنِ الْقَلَمِ»^(١)، وإن هذا النص يستفاد منه أن كلمة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هى المروية عن النبى ﷺ. وننتهى من هذا إلى أنها مستحبة وليست واجبة، ولكن إذا قالها أيسر أم يجهر؟

الجمهور على أنه يجهر عند الصلاة بها، وقال حمزة: يسر بها، ومن قال إن الاستعاذة تكون بعد القراءة لأن الله يقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ...﴾ [النحل]، فالقراءة تسبق الاستعاذة امتثالا لأمر الله تعالى؛ ولكيلا يكون القارئ متغنيا، ولا متلهيا، وليكون فى حضرة الله فى قراءته وبعدها، ويكون طائعا لله تعالى فى كل أحواله.

(١) ذكره بهذا اللفظ القرطبي فى مقدمة تفسيره ص ١٢٨.



الفاتحة، أو فاتحة الكتاب

قال جابر الله الزمخشري في كتابه الكشاف: إنها مكية؛ لأنها أنزلت بمكة، وذلك هو المشهور، وقيل إنها أنزلت بمكة مرة، والمدينة مرة أخرى عند تحويل القبلة إلى الكعبة، والظاهر أنها مكية، نزلت عند فرض الصلاة بمكة، وكونها نزلت بعد ذلك بالمدينة تكرار للنزول، ولا نحسب ثمة حاجة للتكرار فإنها متى نزلت كانت واجبة التلاوة على أنها جزء من القرآن ولا حاجة إلى تكرار نزولها.

وتسمى أم القرآن، لاشتغالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى، بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد، وتسمى أيضا سورة الكنز، وسورة الوافية لذلك الشمول الإجمالي الذي اشتملت عليه فيما ذكرنا، وتسمى المثاني لأنها تتثنى في كل ركعة ولأنها السبع المثاني. وتسمى سورة الصلاة، لأنها مأمور بقراءتها فيها، وتسمى الشفاء والشافية وهي سبع آيات بالاتفاق^(١).

وكلها أسماء سميت بها لمعان فيها، ولاحظها من جوانبها من سماها، فكل اسم يمثل جانبا من جوانبها.

ابتدئت الفاتحة كما ابتدئت كل سورة ما عدا براءة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وعدها الشافعي وفقهاء مكة جزءا من الفاتحة؛ لأن النبي ﷺ عدَّ الفاتحة سبع آيات، ولا تكون سبع آيات إلا إذا عدت بسم الله الرحمن الرحيم جزءا منها، وعند أهل المدينة ومالك ليست جزءا من الفاتحة، وقد علمت القول المختلف في ذلك، وقد قررنا أنها جزء من القرآن وابتداء لكل سورة، وقال الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة: «ما بين دفتي المصحف قرآن»، وقد كانت

(١) الكشاف للزمخشري: جزء ١ ص ٤.

مكتوبة في مصحف عثمان رضى الله عنه والمصحفين من قبله، وتواتر المصحف بتواتر القرآن، والإجماع انعقد على ذلك، ولم تنقل بخبر آحاد كما ادعى بعض المالكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ﴾ الباء هنا هي حرف جر يدل على السببية، وهي مبنية على الكسر كـ «لام» الأمر، والمعنى: بسبب اسم الله الذى لا يعبد سواه وأنه الرحمن الرحيم أبتدئ، فهي متعلقة بمحذوف يذكر بعدها، لبيان اختصاص الابتداء أو التبرك باسم الله تعالى، فالتأخير يفيد الاهتمام بتعلق الباء ومزيد الاختصاص بالاستعانة والتمن والتبرك به.

والبسملة يبدأ بها فى كل أمر ذى بال، كما قال ﷺ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِى بَالٍ لَمْ يُبْدَأْ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَبْتَرَّ» والفعل الذى تعلق به الباء محذوف، وكما ذكرنا يقدر مؤخراً؛ لأن المقدم يكون محل التخصيص.

ولأن البسملة يبدأ بها كل أمر ذى بال، فإنه يقدر الفعل على حسب ما نبتدئ البسملة، ويرى بعض المفسرين أن يقدر الفعل المحذوف «أبتدئ»؛ لأنه يكون صالحاً، لكل أمر ذى بال وشأن، والآخرون قالوا: إنه يقدر فى القرآن أتلو أو أقرأ أو أرتل أو نحو ذلك، وبعض العلماء قال: إنها فى القرآن الكريم فى معنى القسم بأن القرآن حق لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتكون على هذا للقسم، ويقدر الفعل بـ «أقسم». والمعنى على ذلك فى أول كل سورة اجعل قسمك بالله الرحمن الرحيم أن ما تتلو هو الحق الذى لا ريب فيه، فهو الكتاب لا ريب فيه هدى للمؤمنين.

و﴿الله﴾ هو لفظ الجلالة الدال على أنه وحده له كمال العبودية، واسم الله - قال بعض العلماء إنه المراد فيه الذات العلية فهو اسم يعنى المسمى. والمعنى هو القسم بالذات العلية، وقرر بعض العلماء أن الاسم الأعلى هو المقصود بالافتتاح تبركا وتيمنا باسم الذات العلية، ولها المكان الأقدس من العباد تبارك الله، والاسم ذاته يتيمن به ويتبرك، فليس المراد بالاسم الذات؛ لأنها مذكورة، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) [الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى] وهذا ما غيل إليه؛ لأنه لا يحتاج إلى تحول من المعنى الأصلي لكلمة الاسم إلى غيره، ولأن إطلاق الاسم على المسمى من قبيل المجاز، ولا يصار إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، ولأن قصد الاسم الأسمى ابتداءً يفيد معنيين، وهو تقديس الاسم في كلمة بسم الله، وتقديس المسمى وهو الله سبحانه. ولو أطلق الاسم على المسمى، لكان تقديسا للذات العلية من غير إعلاء للاسم في ذاته، ولا شك أن الأول أبلغ تسبيح لله تعالى لقاء التبرك بذكره، والتيمن به سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وكلمة ﴿الله﴾ تعالى لا تطلق إلا على الذات العلية خالق الكون، ومنشئ الوجود على غير مثال سبق، بديع السموات والأرض. وقالوا: إن أصل كلمة الله: الإله، ثم كان حذف الهمزة، مع تقدير أنها مطوية في الكلام مقدرة فيه. والإله تطلق على المعبود، وتعم المعبود بحق وبغير حق، ولكن كلمة ﴿الله﴾ تعالى لا تطلق إلا على المعبود بحق، فيقال: آلهة المشركين، وآلهة الرومان، وآلهة المصريين، ولا يقال: «الله» إلا في مقام أنه الخالق المدبر المنشئ المستحق للعبادة؛ ولذلك كانت ألفاظ القرآن الكثيرة في مخاطبة المشركين، على أن الله تعالى معروف بأنه المنشئ، وأنه غير آلهتهم، فكانوا يقولون: الآلهة هبل، واللات، والعزى، ومناة الثالثة؛ يقولون عنها إله وآلهة ولا يقولون عن واحدة منها إنه «الله»، لقد قال تعالى

عنهم: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ﴾ [لقمان] وكان يحتج عليهم بأنهم يعبدون مع الله آلهة أخرى، وجدل القرآن الكريم لهم لإلزامهم بالتوحيد بأنهم يعترفون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض فهو الجدير وحده بالعبادة، اقرأ قوله تعالى: ﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۚ﴾ [٦٠] ﴿أَمِنْ جَعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ﴾ [٦١] ﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۚ﴾ [٦٢] ﴿أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ﴾ [٦٣] ﴿أَمِنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ﴾ [النمل]

ونرى من هذا أن العرب كانوا يعرفون الله سبحانه وتعالى، وأنه الخالق لكل شيء وما كانوا يطلقون كلمة «الله» إلا على الخالق المدبر المنفرد بالإيجاد والإبداع، وما كانوا يطلقون على آلهتهم كلمة الله، وهذا عُرِفُ لغتهم ودلالاتها.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هذان وصفان لله تعالى قرنا في البسمة، وكلاهما يدل على كمال رحمة الله تعالى في ذاته وعلى خلقه، والرحمة رقة في القلب، والله تعالى لا يتصف بذلك؛ لأن هذا من صفات الحوادث، والله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وإنما يراد من الأوصاف التي يتصف بمثلها العباد غايتها، وثمرتها، وثمرة الرحمة الإنعام الكامل، والنفع ودفع الضر، والرزق، وغفران الذنوب، وكلاءة الله تعالى لهم، والقيام على كل ما يمدهم به بالخير والنعمة.

والوصفان اقترنا واجتمعوا في البسملة، كما اجتمعوا في بسملة كتاب سليمان عليه السلام لبلقيس، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل] وهذه بسملة كبسملة أوائل السور، كما اجتمع الوصفان في آيتين أخيرين من آيات القرآن، ففي أول سورة فصلت ذكر للقرآن الكريم، وقال سبحانه عن الذكر ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت] وجاء في سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر].

ولا شك أن الوصفين من أسماء الله الحسنى وصفاته، ولا شك أن لكل منهما معنى قائماً بذاته، منفرداً به عن الآخر. يقول الزمخشري (نقلاً عن الزجاج): إن صيغة فعْلان من الصيغ التي تدل على الامتلاء، كغضبان، وشبعان، وسكران، وجوعان، فإنها تدل على الامتلاء من الفعل الذي اشتقت منه، فكذلك الرحمن معناها الممتلئ رحمة، ورحيم تدل على الاتصاف بالرحمة التي تليق بذاته العلية من غير امتلاء.

ولذلك يقول الزمخشري ومن تبعه في دراساته البيانية للقرآن الكريم: إن «الرحمن» أبلغ من «الرحيم»، وإن كان كلامه تعالى كله فوق الكلام البشري وما ترى فيه من تفاوت، وإن كان كله في أعلى درجات البيان لا يساويه بيان للإنسان. وبدراسة اللفظين في القرآن يتبين لنا الفرق بينهما في الاستعمال القرآني السامي في بلاغته إلى ما لا يتسامى إليه كلام بشر، ولا يدانيه شيء من الكلام الإنساني.

وعند الاتجاه إلى استقراء الآيات القرآنية نجد القرآن الكريم جمع بين الوصفين في آيتين غير البسملة وقد ذكرتا، وذكر وصف الرحمن منفرداً في نحو ستين

موضعاً من كتاب الله العزيز، وكان يذكر ذلك الوصف السامى غير مضاف إلى فعل من الأفعال، ولا واقع على أحد كقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾ (١١٠) [الإسراء] وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) [مريم] وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ (١) [الرحمن] ومثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) [الزخرف].

وهكذا فى نحو ستين آية يذكر وصف الرحمن مجرداً من الإضافة إلى شىء أو شخص أو فعل كما يذكر «الله» تعالى، وذكر وصف الرحيم منفرداً عن الرحمن فى أكثر من ثلاثين ومائة آية، ونجد أنها مضافة إلى رحمته سبحانه وتعالى بالعباد مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٣) [البقرة] ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٥) [الحج] ومثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٢) [البقرة].

ومن هذه الموازنات بين استعمال القرآن لكلمة «رحمن»، واستعماله لكلمة «رحيم» ننتهى إلى ما يأتى:

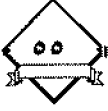
أولاً: أن وصف الرحمن وصف ذاتى للذات العلية لا يتعلق بفعل ولا بشخص يذكر، ولكنه وصف لله أو اسم له كلفظ الجلالة، ولكنه يشعرنا بالرحمة، كما أنه لفظ يشعر بالآلوهية واستحقاق العبادة؛ ولذلك قال بعض العلماء: إن كلمة «الرحمن» اسم لله تعالى، وأما «الرحيم» فهو وصف لله تعالى يتعلق برحمته بالعباد المكلفين المخاطبين بشريعته، والذين طلب منهم أن يقوموا بحق الله تعالى فى إجابة أوامره، واجتناب نواهيه؛ ولذلك يقترن كثيراً بالتوبة والمغفرة.

ثانياً: أن الرحمة في «الرحمن» أكثر من «الرحيم»؛ ولذلك قالوا: إن رحمة الرحمن، هي الرحمة بالوجود كله، فبرحمة الرحمن يرزق الله من في السموات والأرض، وبرحمته الواسعة ينزل الغيث، ويرسل الرياح، ومهد الأرض، وجعل الجبال، وبرحمة الرحمن بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وبرحمة الرحمن جازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام].

وهكذا كانت رحمة الرحمن شاملة الوجود كله، والرحيم متعلق في رحمته بالملكفين.

ثالثاً: أن «الرحمن» أكثر رحمة لما في الوصف بالرحمة فيه من شمول يشمل الوجود الإنساني كله، ووصف «الرحيم» خاص بالملكفين، كما يدل على ذلك سياق اللفظ في القرآن الكريم.

ومن هذا الاستقراء والتتبع، واستنباط المعاني لألفاظ «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» من استعمال القرآن نتهى إلى أن بيان معاني «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نتلو القرآن مبتدئين تالين لآياته باسمه الأقدس. نتبرك به ونتمن ونسبح باسمه، وهو الله الإله المتفرد بالخلق والتكوين والتدبير والمتفرد بالعبودية وحده جل جلاله لأنه بديع السموات والأرض والوجود كله، وهو «الرحمن» ذو الرحمة الواسعة التي تعم الوجود كله في السموات والأرض، والدنيا والآخرة، المدبر للوجود برحمته، وهو «الرحيم» بعباده يغفر لهم ويتوب عليهم، ويشرع لهم من الشرائع ما يكون خيراً لهم في معادهم ومعاشهم، وهو بكل شيء عليم.



الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وسورة الفاتحة كما ذكرنا مكية، وقد أجمع العلماء على ذلك، بل إن بعض العلماء يدعى أنها أول سورة نزلت من القرآن، ولكن يخالفهم الأكثرون في ذلك، ويقررون أن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ [العلق] وقد روى البيهقي في ذلك خبرا عن النبي ﷺ. وقد وفق العلماء بين ما رواه البيهقي وما هو مقرر من أن أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ بأن الفاتحة هي الأولى نزولا، وهي سورة نزلت دفعة واحدة، أما الثانية فأية، وهي قد أخبرت عن الأولى - أى عن الفاتحة - الأمر بالقراءة، فالأمر بالقراءة يقتضى مقروءا.

والذى أميل إليه أن الفاتحة ليست أول ما نزل من القرآن، ويرجح عندي أنها نزلت عندما فرضت الصلاة فى الإسراء والمعراج.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد هو الثناء الكامل على الأفعال الاختيارية، وعلى من تصدر عنه هذه الأفعال الاختيارية فيعم نفعها وهى مصدر الخير لهذا الوجود الكونى والإنسانى.

وهناك كلمات ثلاث تتلاقى معانيها فى جملتها، وتختلف فى دقتها، وهى كلمة «حمد»، وهى تكون كما ذكرنا الثناء الجميل على من يعمل أعمالا اختيارية عامة النفع، ودافعة للضرر للوجود كله بحكمة من يفعلها، والكلمة الثانية «المدح»، وهى الثناء على الصفات الذاتية، والشخصية الطيبة، فيقال: مدحت الصفات الطيبة فى فلان، ولا يقال: حمدتها، إنما يقال: حمدت الله تعالى ومدحت خصال فلان، وقيل: إن الحمد والمدح مترادفان، ولعل قائل هذا القول

نظر إلى معنى الثناء فيهما من غير أن ينظر إلى الباعث، فإن الباعث في الحمد أعمال الإنعام والخير، والباعث على المدح الشخص والذات، فيقال: مدحت الجميل في صفاته الحسنة، وخلال الكريمة، ولا يقال حمدته، ومن العلماء من قال إن المدح أعم، ومن قال العكس، ونميل إلى التفرقة بينهما باختلاف الموضوع.

و«الشكر» امتلاء النفس بالإحساس بالنعمة، واندفاع النفس إلى الطاعة والخضوع، والقيام بحق المنعم ومقابلة الفضل والنعمة بالإحسان في الطاعة والواجبات، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ ﴿٥٧﴾ [إبراهيم] ويقول ابن جرير الطبري: إن الحمد والشكر بمعنى واحد، والحق أنهما يتلاقيان ويختلفان، فيتلاقيان في معنى الإحساس بالنعمة والقيام بحقها، وما يجب بالنسبة للمنعم، ولكنهما يختلفان في القيام بحق المنعم، فالقيام بحق المنعم في الشكر الطاعة والعمل وجعل الجوارح كلها في طاعة الله تعالى، والخضوع المطلق لله تعالى في كل شأن من شئونه، وحال من أحواله. والقيام بحق المنعم في الحمد الثناء على الله تعالى ثناء مطلقا كاملا مع تذكر نعمائه، وتذكر ما يحيطه من الوجود كله، لا في ناحية من نواحي شخصه؛ ولذلك روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الحمد رأس الشكر»^(١) والحمد ذاته عبادة والشكر يكون على النعمة وبالثابرة على الطاعة والعبادة.

ومهما يكن فالألفاظ الثلاثة مستقاربة في مؤداها - وإن تخالفت في مدلولاتها و«ال» في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للاستغراق والكمال، أي الحمد كله وبكماله لله تعالى وحده، فلا يستحق أحد من خلقه حمدا؛ لأن الحمد كما ذكرنا عبادة، والعبادة لله تعالى، وحده وحمد غيره عبادة لغيره، وشرك بالله تعالى، وأصل

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الضلال يستدئ من حمد غير الله، والثناء عليه، ثم ينقاد من بعد ذلك إلى ما يخرج عن طاعة الله، فلا حمد إلا لله ولا ثناء إلا لله.

وإن الحمد إنما هو ابتداءً على ما أنعم الله تعالى على الوجود الكونى والإنسانى من غير وجود فيكون الحمد له وحده، وتقرأ كلمة «الحمد لله» برفع الدال. والمعنى: الحمد الثابت الكامل المستغرق لكل صنوف الحمد هو لله وحده، ولا يحمد سواه؛ لأن كل نعم هذا الوجود الكونى والإنسانى لله تعالى، فكل خير الوجود منه وإليه.

وهناك قراءة بفتح الدال على أنه مصدر، ومنصوب بفعل محذوف، ويكون المؤدّى للقول: احمّد الحمد كلّهُ لله تعالى، فلا تحمّد سواه، وإن حمد سواه شرك لما ذكرنا من أن الحمد ذاته عبادة، وهذه القراءة تفيد تجدد الحمد أنا بعد أن بالتذكير بنعم الله تعالى وآلائه، والقراءة السابقة تفيد دوام الحمد، كما تدل على ذلك الجملة الاسمية؛ لأنها تفيد الاستمرار.

وإنى أرى أن القراءات المتواترة كلها لا تتباين، ولا تتضارب، بل تتلاقي، وتكمل واحدة معنىً فى الأخرى، فبالجمع بين القراءتين يكون معنى النص السامى: اجعل الحمد دائماً مستمراً ومتجديداً؛ ليكون القلب دائماً عامراً بذكر الله تعالى.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فى هذا الوصف للذات العلية إشارة إلى سبب الحمد الكامل، الدائم المستمر المتجدد؛ لأنه هو المالك والسيد، والمربى لهم والرقيب عليهم، الذى ميزهم بالنعم المستمرة، والآلاء المتكررة التى لا تنقطع أبداً.

فالرب هو المالك وهو السيد، وهو المصلح والمدير، والجابر والقائم على كل شىء، الذى يسير الوجود كله بحكمته وبقدره وإرادته.

و«الرب» وصف لله تعالى مأخوذ من ربّ الشيء يرَبُّه بمعنى قام بإصلاحه وتقويمه، وتتبعه بالإصلاح والتنمية في كل أدواره، وروى أن النبي ﷺ قال: «هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا»^(١) أى تصلحها وتنميتها، ثم أطلقت كلمة «رب» على الله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى يتلاقى مع «رَبِّى»، فإن التربية هى الإصلاح والتغذية، والعمل على الإنماء، ولقد جاء فى الصحاح للجوهري: «رَبٌّ فُلَانٌ وَلَدَهُ يَرَبُّهُ رَبًّا، وَتَرْبِيَّةٌ بِمَعْنَى: رَبَاهُ، والمربوب المُرَبَّى».

وعلى ذلك يصح أن تقول إن الرب من رَبَّه، بمعنى نماء، أو من التربية بمعنى الإصلاح والإنماء، والمعنى فى الحالين أن الله رب العالمين بمعنى مغذيهم ومنميتهم والقائم عليهم، والمصلح لهم، والمدير لأموالهم، وهو مربيتهم لأنه القائم عليهم والمهذب لهم بما خلق فيهم من عقول مدركة تدرك الخير والشر، وتختار ما تفعل وتحاسب على ما تقدم من خير فتتال به الثواب، وما تكسب من شر فينالها العقاب.

وكلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ يريد بها العقلاء من الملائكة والإنس والجن، فهو رب هؤلاء جميعا، هو الذى رباهم وأصلحهم، ودبر أمورهم، والعالمون جمع لعالم، وهو كل موجود غير الله تعالى، ولكن إذا جاءت «عالمون» بجمع المذكر العاقل، أريد بها العقلاء ممن خلق الله تعالى، وقد أيد ذلك القول بقول ابن عباس رضى الله عنهما: «العالمون الجن والإنس»، ودليله قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان] فلا ينذر إلا الجن والإنس؛ لا تنذر الجبال ولا الأرضون، وإنما ينذر العقلاء الذين يتصور الشر منهم، أو لا يتصور كالملائكة، وقد قلنا إن لفظ العالمين يعمهم.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة باب فضل الحب فى الله (٢٥٦٧)، وأحمد: باقى مسند المكثرين

ويسأل سائل: لماذا جمع هنا، والأقرب الأفراد، ونقول ما قاله العلماء: إن المفرد هنا (وهو عالم) أعم من الجمع، ولكن يبقى السؤال لم ذكر الجمع؟ أجابوا بأن في ذلك إشارة إلى أن كل عاقل، أو العاقلين بشكل عام فيهم العوالم كلها، ففيهم دقة التكوين وجمال التصوير وروعة الخلق، من عقل يدبر، ولسان وجوارح تتحرك، فجمع الله تعالى في عالم العقلاء كل العوالم الأخرى في إحكام الصنع وبديع التكوين كما قال تعالى في تقديم العلم بالنفس، وجلال الخلق والتكوين: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) [الذاريات] ففي الإنسان أكمل صورة للخلق والتكوين.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذان وصفان من أوصاف الله تعالى، أو اسمان من أسمائه ذُكِرَا في مقام السببية لاستحقاق الله تعالى الحمد وحده، وقد ذكرنا هذين الوصفين في الكلام في البسملة، فلا نعيده، ولكن نذكر هنا مقامهما من النسق بعد قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنقول إن «الرحمن والرحيم» يدلان على الرحمة التي يصلح بها الكون ويدبر أمره بحكمته وقدرته، فهو سبحانه يرب العالمين ويصلحهم رحيمًا بهم، ويصلح الكون والوجود كله برحمته الشاملة لاسمه الأعلى الرحمن.

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

يوم الدين هو يوم الجزاء، وقيل يوم الطاعة، وقيل يوم الشريعة الحاكم على كل عقيدة باطلة، ومهما يكن من اختلاف هذه الألفاظ في مدلولاتها الخاصة، فإن النهاية تتجه إلى أن ذلك اليوم هو اليوم الذي يجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء

بإساءته، وهو الذى تجد فيه كل نفس ما عملت محضرا، يُعْلِنُ ما تستحق من عقاب أو ثواب.

و ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه قراءات تختلف فى أشكالها، ولا تختلف فى مضمونها فقرأى هكذا : مالك يوم الدين، وقرأى: مليك يوم الدين، وقرأى: مَلِكِ يوم الدين، وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه: مَلَكَ يومَ الدين، وقرأى: مالكا يومَ الدين، وقرأى: مالكٌ. والقراءات كلها تنتهى إلى معنى واحد، وإن كانت تختلف فى أعاريبها، والنص العثماني يشملها جميعا، ولا تخالف فى النسخ المتواتر، بيد أن قراءة النصب «مالكا» تكون حالا من الذات العلية، أى أنه الرب للوجود كله والمنعم عليه بجلالته النعم؛ جليها وخفيها، حال كونه مالكا من بعد ذلك ليوم الجزاء، الذى يجرى كل نفس ما كسبت، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، و«يوم الدين» تكون ظرفا غير مضاف إليه، وكذلك فى قراءة الرفع مع التنوين يكون يوم الدين ظرفا للملك وكمال السلطان.

وقراءة «مالك» تفيد أن كل شيء مملوك لله تعالى فى ذلك اليوم، فالنفوس فى مآلها وفى نهايتها ملك لله، ومستقبلها القريب والبعيد لله لا تملك من أمرها شيئا، بل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٩) [الانفطار] وإذا كان سبحانه وتعالى يملك كل شيء فى هذا اليوم؛ فالسلطان، والتدبير له، وحده الذى يملك الجزاء، والمغفرة إذا أراد، ولا إرادة لسواه، إنه الحكم العدل اللطيف الخبير.

و«مَلِكٌ»، و«مَلِكٌ»، الفرق بينهما وبين قراءة «مالك» كالفرق بين المصدرين، المَلِكِ، والمُلْكِ، فالمَلِكُ استيلاء على الأشياء يكون مردها إليه، والمُلْكُ السلطان

بالأمر والنهي وتنفيذ ما يريد، وألا يكون معه أمر ولا ناه ولا حاكم سواه، ولا إرادة فوق إرادته، ولا حكم فوق حكمه.

ويلاحظ أن معنى المَلِك يتضمنه بالاقضاء معنى المَلِك؛ لأن من ملك شيئاً ملك السلطان فيه، والسيطرة عليه، فالمَلِك يقتضى المَلِك والسلطان، والمَلِك لا يقتضى المَلِك والسلطان؛ ولذلك يقال سبحان مَالِك الملك، ولا يقال مَلِك الملك.

ورأينا أن كل قراءة متواترة قرآن، وأن القرآن لا يخالف بعضه بعضاً، بل قد يُتِمُّ بعضه بعضاً، وليس لنا أن نراجع بين قراءة وقراءة، لأن كليهما تتمم الأخرى.

وخلاصة القول فى القراءتين أن قراءة (مَلِك يوم الدين) موضحة لما تضمنته (مالك يوم الدين)، ولا نتصور أن تتعارض قراءتان متواترتان؛ لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضاً. وفى الإعراب «مالك» أو «مَلِك» مضاف إلى يوم الدين على أنه هو المسيطر المتصرف المالك لأحداث ذلك اليوم من جزاء: ثواب أو عقاب أو مغفرة، وأنه واقع لا محالة، وأن ما فيه فى ملكه وتحت سلطانه وحده.

وإن اسم الفاعل يدل على الاستقبال، فلا يقال إنه مالك لليوم واليوم لم يجرى، وإن الأزمان الماضى والحاضر والمستقبل كلها بالنسبة لله تعالى واحدة.

هذا، ويلاحظ أن الأسماء أو الصفات هى كما أشرنا من قبل من قبيل السبب لانفراد الله تعالى بالحمد الكامل، فالربوبية الكاملة بالإنشاء لهذا الوجود وما فيه ومن فيه، وتعهده بالإنماء والتربية والتهديب والتكميل، والرعاية لكل شىء، وإن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا ما أمسكهن أحد من بعده، ثم رحمته الظاهرة والباطنة، والعاجلة والآجلة التى تعم الوجود كله من سماء



وأرضين، وشموس ونجوم، ورحمته الخاصة بعباده العاقلين المكلفين من قبول للتوبة، وغفران، وثواب.

ثم كونه بعد ذلك مالكاً وحده ليوم الجزاء، كل هذه الأسماء والصفات من شأنها أن تجعله مستحقاً للحمد الكامل بكل ضروبه، وفي كل الأحوال، وذلك بربوبيته الشاملة، ورحمته الكاملة، وامتلاكه وحده ليوم الجزاء.

وإن الأسماء أو الصفات كما أنها سبب لانفراده باستحقاق الحمد، هي أيضا سبب لانفراده بالعبادة والاستعانة، وطلب الهداية، وقد التفت الكلام الحكيم من بعد ذلك من الإخبار باستحقاق الحمد لله تعالى وحده، وبيان جليل أسمائه إلى ذكر ما ينبغي للمؤمن من إفراده بالعبادة والاستعانة به دون غيره، والضراعة إليه في طلب الهداية؛ لذا قال سبحانه:

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٦٢﴾

كان الكلام السامى يسير على نهج الغيبة بذكر مقام الربوبية وأسماء الذات العلية التى هى أوصافها من شمول الرحمة فى كل الأحوال ولكل الوجود إلى تخصيصها بالمكلفين من عباده.

وبعد ذلك انتقل القول من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الانتقال من باب إلى باب فى البيان يعطى للكلام روعة تليق بأبلغ من فى الوجود، فالانتقال فى القول من غيبة إلى خطاب يجدد فى النفس الإقبال على الاستمتاع بالتلاوة، والاستمتاع بالسماع، والاعتبار بما فى الكتاب، والإقبال الذى يتولد عنه التدبر والتفكر فى آيات الله تعالى.

وإن الأوصاف السابقة لذات الله تعالى توجب على العبد التفكير في أمر الله تعالى وعبادته سبحانه، فكان من بعد ذلك ذكر أحوال العباد الواجبة، خاطبهم الله تعالى بكماله، فخاطبوه بما يليق بهم أن يفعلوه، وهو إفراده بالعبادة والاستعانة، وأن يطلبوا منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

وإن العباد إذ يتدبرون صفات الذات العلية، ويستحضرون جلالها، وإفضالها، وإنعامها وسلطانها يصلون في مداركهم إلى مرتبة المشاهدة الروحية لله تعالى؛ ويرتفعون إلى إدراك ملكوت الله تعالى ليخاطبوه قائلين: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

ولقد قال في هذا المقام العلامة أبو السعود في تفسيره: «إن حق التالي بعدما تأمل فيما سلف من تفردته تعالى بذاته الأقدس المستوجب العبودية بامتياز ذاته عما سواه بالكلية، واستبداده بجلال الصفات وأحكام الربوبية المميزة له سبحانه عن العالمين، وافتقار الكل إليه في الذات والوجود ابتداء وبقاء منه، أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهود، ويلاحظ نفسه حاضرا في محاضر الأنس كأنه واقف لدى مولاه، مائل بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا: يا من هذه شئون ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، فإن كل ما سواك كائنا ما كان بمعزل عن الوجود فضلا عن استحقاق أن يعبد أو يستعان»^(١).

وإن الارتفاع إلى مقام المشاهدة، ومخاطبة الله تعالى هو الذي من أجله كانت - أي الفاتحة - واجبة التلاوة في كل ركعة من ركعات الصلاة؛ لأن الصلاة وقوف بين يدي الديان، واتجاه إلى حضرته العلية، ومشاهدة روحية.

(١) تفسير أبي السعود: ج ١، ص ١٨.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ «إِيَّا» ضمير منفصل أصله بمقتضى السياق العادى «نعبدك» فلما قدم الضمير انفصل، و«الكاف» حرف للدلالة على الخطاب، كما أن «الهاء» للدلالة على الغيبة فى قوله: «إياه»، و«الياء» دلالة على المتكلم، و«إيانا» دلالة على المتكلمين، وهكذا. وقيل إن «الكاف» وأخواتها أجزاء من الضمير، وهو اختلاف إعرابى لا جدوى فيه فى مقامنا هذا. والعبادة أكمل أنواع الخضوع، والتذلل لله تعالى، ولا تكون لغير الله تعالى، فهو وحده المعبود بحق، فلا يعبد سواه، وإن دوام العبادة والاستمرار عليها مع القيام بحقها من خشوع وخضوع لله وتذكر مقام الله العلى الأعلى، وحضور لذاته العلية كأنه يرى الله تعالى، مع الإحساس بأنه - سبحانه - يراه.

إن دوام العبادة على هذا النحو تولّد فى نفسه صدق العبودية، فيحس فى كل أحواله بأنه لله، ويحب الشيء لا يحبه إلا لله، ويكون ربانيا، مستجيبا لأمر الله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ...﴾ (٧٩) [آل عمران].

والاستعانة طلب العون من الله تعالى، مستحضرا مافى الذات العلية من صفات الربوبية، والرحمة، والسلطان المطلق يوم الجزاء؛ إذ لا سلطان فى يوم الدين لأحد سواه، وقد جاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قبل ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن العبادة حق الله تعالى، والتقدم إليه بالخضوع الذى لا خضوع مثله، والاستعانة حق العبد أو طلبه العون له، فما هو حق أوثق وأولى بالتقديم، ولكن يجب أن نلاحظ أن الاستعانة والضراعة إلى الله تعالى، وإفراده سبحانه بطلب العون منه سبحانه هو عبادة أيضا، كما هو طلب من الله؛ لأن الدعاء المخلص لله تعالى هو عبادة فى حد ذاته، حتى روى: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»^(١)، وكما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا

(١) أخرجه الترمذي فى سننه: كتاب الدعوات (٣٣٧١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وَحِيفَةٌ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠﴾ [الأعراف]
 وإطلاق الاستعانة من غير متعلق بذكر المستعان عليه من الأمور دال على أنه يستعين
 الله تعالى في كل أمور حياته. والاستعانة هي نوع من استصغار حاله بجوار عظمة
 الله تعالى، وافتقاره إليه تعالى، وأنه محتاج إليه دائماً، ولا يركبه غرور الحياة
 والضلال في أن يُقَرَّبَ بنفسه الغرور، وهو استجابة وفهم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ
 أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر].

وإن من أعلى أبواب الاستعانة، الاستعانة بالله تعالى على أداء الواجبات
 والقيام بفروض الله تعالى، فهو يستعين بالله تعالى على أداء واجب العبادة ليصل
 إلى درجة العبودية، ويكون ربانياً.

وتقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ على ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ لتعظيم الله تعالى بذكره أولاً،
 ولأن التقديم للاهتمام بالمعبود والمستعان؛ وللدلالة على أنه سبحانه وتعالى هو
 المختص بالعبادة وحده، وأنه لا يستعان بغيره، وفي ذلك كمال التوحيد والخضوع له
 وحده سبحانه وتعالى، ولقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله
 تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: معناه نعبدك ولا نعبد غيرك.

فتقديم إياك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ [البقرة] وقوله سبحانه: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة] وتكرار ﴿إِيَّاكَ﴾ في ﴿نَعْبُدُ﴾
 و ﴿نَسْتَعِينُ﴾، لبيان التباين بينهما، وأن ذلك حق الله، وأن هذا طلب من العباد،
 ولتكرار النص على تخصيص ذلك بالله الواحد الأحد الفرد الصمد.

وأول الاستعانة طلب الهداية؛ ولذلك قال تعالى:

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

بعد أن ذكر دعاء العباد لربهم باختصاصه بالعبادة، طلب الاستعانة بالله تعالى في كل شيء مرغوب فيه محمود غير مذموم، وذكرت الاستعانة متجهة إلى الله تعالى من غير الباء، إذ هي تتعدى بها، فيقال استعان به، وتركت الباء للتوجه إلى الله تعالى من غير توسط، ولو كان توسطًا لفظيًا بحرف الباء، والتوجه إلى الله وحده بحيث يواجه الذات العلية بإشراف النفس من غير رؤية ولا حس إلا أن يكون روحيا.

وقد ذكر أعلى مراتب الاستعانة، وهي التي لا تكون لأمر تتعلق بالرغبات الدنيوية ولو كانت في حلال، بل أعلاها ما يتعلق بالنفس وهدايتها، فقال سبحانه على لسان المتقين: ﴿اهْدِنَا﴾ ومجيء ذلك في كتاب الله تعالى ويقول الحكيم تعليم وتربية للنفس المؤمنة أن تكون استعانتها بالله تعالى تكون أولا بطلب الهداية من الله، وقوله تعالى على السنة عباده المتقين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو دعاء من العباد لربهم بأمره سبحانه، وذلك تجلٍّ من الله العلي الأعلى بالإرشاد والتعليم فقله تعالى: ﴿اهْدِنَا﴾ والدعاء ذاته عبادة كما روينا عن رسول الله ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»^(١).

دعائهم بطلب الهداية، والهداية ذات مراتب يعلو بعضها فوق بعض ..

المرتبة الأولى: أن يملأ سبحانه وتعالى نفوسهم وقلوبهم بالحق يميلون نحوه، ويتجهون إليه، وأن يكونوا ممن كتبت عليهم التقوى، وأن تكون هدايتها إلى نجد الخير، وقد قال، وقوله الحق: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد] وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس]، وذلك ليكونوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات - باب: ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء - باب: فضل الدعاء (٣٨٢٩)، وأحمد: كتاب باقي مسند المكثرين (٨٥٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمرتبة الثانية: بعد أن تصغى قلوبهم إلى الحق وتفتح بقوله والنظر في بيناته وهى إقامة الدلائل على الحق ليتبعوه عن بينة، أو تفتح نفوسهم وعقولهم لقبول ما تدل عليه آيات الكون وأدلة الحق وهى أماراته، بل بيناته من سماء ذات أبراج، وأرض ذات جبال كالأوتاد، وزروع وثمار، ذات بهجة للناظرين، وأن يتدبروا فى ملكوت الله تعالى وخلقه فينظروا نظرة الإدراك والاعتبار كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية].

هذه هى المرتبة الثانية من الهداية: وهى أن يهديهم سبحانه إلى مواضع العبر والاستدلال فى آياته الكبرى فى خلق السماء والأرض وما بينهما، وفى آياته الكونية، ما دق منها وما جلّ، فهو خالق كل شيء.

أما المرتبة الثالثة: فهى إرسال الرسل هداة مبشرين ومنذرين، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] وإن إرسال الرسل للهداية والإرشاد، وتبليغ رسالته، إنما هو لكيلا يكون على الله حجة بعد الرسل، فهو بعد أن يخلق الخلق على الفطرة المستقيمة، والاستعداد للعلم بالوجود، وما فيه من أدلة على منشئ الوجود، ثم يؤيد العلم الفطرى بعلم كسبى وهو علم النبوة الذى يجيء به رسول مبين يدعو إلى الهدى بإذنه ويهdy إلى صراط مستقيم.

والمرتبة الرابعة: مرتبة الوحي والكشف وتعليم الله تعالى لخلقه، وهو ما يكون للرسول الكرام دعاة الحق والهداة إليه، فهداية الله تعالى بالوحي، أو إرسال رسول أو أن يكلمه الله تعالى من وراء شيء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا... ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

وهكذا هداية الله تعالى تبتدىء من هداية النفس والعقل إلى الحق وطلبه، ثم الإدراك للآيات البينات الدالة على واجب الوجود، ثم هداية الله تعالى بالرسول يرسلهم ليكونوا للعالمين نذيراً، ثم هداية الله تعالى بما يكون لرسوله المصطفين الأخيار.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ إِنَّ هَدَى تَعْدَى بِإِلَى وباللام كقوله تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطِّيبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ٢٤﴾ [الحج] وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْكَاهُ لِيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٥﴾ [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ٢٦﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ٢٧﴾ [الإسراء].

ولكن هنا لم يتعلّق قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بـ «اللام» ولا بـ «إلى»، ولذلك حكمة بيانية، وذلك أنها تضمنت معنى الهداية باختيار خير عاقبة، فتضمنت الهداية معنى الاختيار، ويكون المعنى اهدنا مختاراً لنا في هدايتك الصراط المستقيم. و«اختار» تتعدى بنفسها من غير أداة جر كما قال: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف]

والصراط معناه الطريق الجدد أو الجادة، وقالوا إنه «السطر» بالسين، وبذلك قرئت في بعض القراءات المتواترة، وقالوا: إن الأصل في السراط الاستراط بمعنى الابتلاع، كأن الطريق يبتلع من يسلكه لاتساعه، وأنه جادة متسعة، لا يبين سالكها، وقد وصف بأنه المستقيم لأن المستقيم أقرب خط بين نقطتين، فهو أقرب موصل للغاية المرجوة.

والمعنى على هذا: اختر لنا يارب العالمين أقرب طريق متسع يوصل إلى ما يرضيك، وهو غايتنا، ومطمعنا ورجاؤنا، والصراط المستقيم هو طريق الله الذي أمر

باتباعه، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) [الأنعام] فهم يطلبون أن يهديهم الله تعالى إلى هذا الطريق المستقيم وهو صراط الذين أنعمت عليهم من عبادك الصالحين.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٥﴾

هذا بيان للصرط المستقيم، أى المستوى الذى لا اعوجاج فيه، وهو معبد لا يقف السائر فيه بعثرة يعثرها ولا بحجارة تدعثره، فأعراب (صرط الذين أنعمت عليهم) بدل من ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعمل فيها عامله ﴿أَهْدِنَا﴾ فمعنى النص الكريم اهدنا طريق الذين أنعمت عليهم.

وأصل النعمة ما يستلذه الإنسان أو يستطيبه، ولكنها هنا تفسر بأنها المنفعة التى تدوم، ويستطيبها القلب، سواء أكانت عاجلة أم آجلة، وسواء أكانت دنيوية أم كانت أخروية، وسواء أكانت مادية أم كانت روحية، وإن نعم الله تعالى على عباده لا يحصيها العد ولا يحيط بها الحصر، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ (٣٤) [إبراهيم] فهناك نعمة الخلق الإنسانى القويم والتكوين الجسمى السليم الذى يوجد أحيانا الغرور عند غير المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

ومن النعم أن يمكّنه من زخارف الحياة من لباس حسن يلبسه، وزخرفة باهرة يزخرف بها مسكنه، وطيب رائحة يطيب بها نفسه، ويقبل بها على جمعه، فهذه نعم ظاهرة وباطنة، فإن آمن بالنعم وشكر له، فإنها نعمة، وإن غره الغرور، وفاخر بها، واستطال على الناس فإنها عند الله النعمة.

ومن النعم أن يحس بإشراق النفس وإخلاص القلب، والاتجاه إلى الله تعالى، وأن يكون مستقيم الفكر، نير المدارك، ولا يضل، بل يهتدى بما أنعم، ومن النعم نعمة الإخلاص في القول والصدق فيه، وأن يعمل العمل، لا يعمله إلا لله، وأن يراقب الله في سره وجهره وعمله، حتى يصدق عليه قول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»^(١).

إذا كان المؤمن كذلك يكون ممن هداه الله إلى صراط الذين أنعم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ [النساء].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ المغضوب عليهم هم الذين ينزل عليهم غضب الله، ووراء غضبه عذابه إلا أن يتغمدهم الله برحمته فيتوبوا، والتوبة تجب ما قبلها، وبذلك لا يكونون من المغضوب عليهم، بل ينخلعون منهم، وإنما الأعمال بخواتيمها، وإنما المغضوب عليهم من انتهوا إلى ألا يتوبوا، وألا ينتهوا عما يوجب غضب الله تعالى.

والذين ينطبق عليهم غضب الله تعالى لدوام شرهم، وبقاء فسادهم حتى يلقوا ربهم، وهم على هذه الحال - الكافرون سواء أكانوا وثنيين، وكثير ما هم في الماضي والحاضر، أم كانوا من الذين أوتوا الكتاب كاليهود - لعنهم الله - ونصارى بولس الذين يعبدون المسيح، وهو بريء منهم، هؤلاء هم المغضوب عليهم ولا ريب في نزول غضب الله تعالى بهم إلى يوم القيامة ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ [المجادلة].

والضالون قال بعض العلماء إنهم النصارى لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة] وإنه لينطبق عليهم بلا ريب

(١) أخرجه البخاري بنحوه، كتاب الأدب - باب: الحب في الله (٦٠٤١).

وصف الضالين؛ لأنهم عند تخليهم عن مبادئ المسيح أضلهم بولس وأشباهه، فضلوا، ثم أضلوا غيرهم من بعدهم، وكفروا بما جاء به المسيح، وضلوا ضلالا بعيدا، وكفروا، ولا يزالون يتيهون في أوهامهم، كما توهموا وأوهموا فيما سموه رؤية العذراء، وكذبوا وافتروا، وحاولوا الإضلال كثيرا.

ومع انطباق الضلال والتضليل عليهم أولى بهم ثم أولى أن يكونوا ممن غضب الله تعالى عليهم، فغضب الله تعالى يحيط بهم من كل جانب؛ ولذلك نرى أن يدخلوا فيمن غضب الله تعالى عليه، ويصح أن نقول: إن فيهم الأمرين، فهم مغضوب عليهم وهم يَصِلُونَ، وَيُضِلُّون كثيرا إلى اليوم كما رأيت في أمر العذراء.

والضالون كما تدل الآية الكريمة هم الذين في حيرة من أمر اعتقادهم، لا يهتدون إلى عقيدة يطمثون إليها ويستقرون عليها، وليسوا مع هؤلاء ولا هؤلاء... ولقد قيل إنهم المنافقون الذين ينطبق عليهم ذلك الوصف، وتلك الحال المضطربة. ولقد يكون ذلك من ناحية حالهم قريبا في ذاته؛ لأن النبي ﷺ وصفهم بالاضطراب والحيرة، فقال ﷺ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ غَنَمَيْنِ، إِلَى أَيِّهِمَا تَذْهَبُ»^(١)، فالمنافق ضال حائر، لا يستقر على قرار، ولا يطمئن إلى إيمان أو كفر، والمنافقون كما وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ...﴾ (١٤٣) [النساء].

وهم أيضا موضع غضب الله تعالى؛ لأنهم كفار كإخوانهم المغضوب عليهم، ولكنهم اختصوا بأنهم ليس لهم اعتقاد، فالمشركون لهم اعتقاد باطل، وكذلك النصراني واليهود يعتقدون اعتقاداً باطلا ليس لهم سلطان ولا حجة في اعتقادهم.

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٤)، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٥٠٥٩)، والنسائي: كتاب الإيمان وشرائعه (٥٠٣٧).

وقراءة الفاتحة مطلوبة في الصلاة بحيث لا تكمل الصلاة إلا بها بيد أنها فرضٌ عند الشافعي لا تصح الصلاة إلا بها، وكذلك عند الجمهور لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(١)؛ ولذلك سميت الصلاة، كما ذكرنا من قبل؛ لأن الصلاة ملازمة لها، ومن المجاز المرسل أن يسمى اللزم باسم الملزوم؛ ولأن النبي ﷺ ما عُرف أنه ترك قراءة الفاتحة. وعند أبي حنيفة رضى الله عنه الفاتحة واجبة، والواجب عند الحنفية دون الفرض؛ لأن الفرض ما ثبت طلبه حتماً بدليل قطعي لا شبهة فيه. والواجب ما ثبت طلبه الحتمي بدليل ظني فيه شبهة، والفرض في الصلاة بالنسبة للقراءة قراءة ما تيسر من القرآن لقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...﴾ [المزمل]؛ ولذلك لو ترك الفاتحة وقرأ أى قدر من القرآن تصح صلاته، وإن كانت غير كاملة؛ لأن الفاتحة تعينت للوجوب بدليل ظني فيه شبهة، وهو حديث الآحاد.

و(أمين) يجب النطق بها عقب قراءة الفاتحة لقول النبي ﷺ: «وعلمني جبريل أمين عند فراغي من قراءة الفاتحة»، وقال: «إنه كالتختم على الكتاب»^(٢)، فقد روى أن علياً كرم الله تعالى وجهه قال: (أمين خاتم رب العالمين)^(٣) روى عن وائل ابن حجر أن النبي ﷺ قال: «ولا الضالين أمين»^(٤)، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين»^(٥).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان - باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم، ومسلم: كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

(٢) سنن أبي داود: الصلاة - التأمين وراء الإمام بنحوه.

(٣) أخرجه ابن عدي، والطبراني في الكبير؛ عن أبي هريرة بلفظ: أمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين.

(٤) الترمذي: الصلاة - ما جاء في التأمين وكذا رواه أبو داود: الصلاة (٩٢٣) وبنحوه عند أحمد: أول مسند الكوفيين (١٨٣٦٢) والدارمي: الصلاة (١٢١٩).

(٥) أخرجه البخاري: الأذان: جهر المأموم بالتأمين (٧٨٢)، ومسلم بنحوه: الصلاة: (٢٥٠).

وهكذا جاءت الأخبار عن النبي ﷺ، بذكر آمين من المأمومين عندما يقرأ الإمام «وَالضَّالِّينَ»، والمنفرد ينطق بها، وبذلك قال جمهور الفقهاء وروى أن أبا حنيفة لم يلتزم ولم يلزم بقولها، وروى عنه أنه يخفت بها ولا يجهر عند قول الإمام ولا الضالين، ومهما يكن ما روى بالنسبة لها من أخبار فإن المجمع عليه أنها ليست من القرآن فهي زيادة بطلب إجابة الدعاء الذي اشتملت عليه فاتحة الكتاب من الضراعة والاستعانة وطلب الهداية، فهي اسم فعل بمعنى استجب.

وإنما أجمع على أنها ليست من القرآن لأنها ليست بين دفتي المصحف كالبسمة، ولأن النبي ﷺ مع طلبها لم يذكر أنها قرآن ولا من القرآن.

ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبي بن كعب: «ألا أخبرك بسورة لم تنزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها»، قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «إنها الفاتحة وإنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

تم - بحمد الله - تفسير سورة الفاتحة

(١) أخرجه الترمذي في سننه: فضائل القرآن: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (٢٨٧٥).

سورة البقرة

بين يدي السورة:

سورة البقرة مدنية نزلت في المدينة في مدد، وقيل إنها أول سورة نزلت بالمدينة، وقد ادعى بعض العلماء أن بعض هذه السورة كان آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ (٢٨١) [البقرة] نزلت في حجة الوداع بمكة، وهي على هذا باعتبار نزولها في مكة تكون مكية.

وإن الذي نراه أن فيصل التفرقة بين المكي والمدني، ليس هو مكان النزول، إنما هو كونه بعد الهجرة أو قبلها، فإن كان قبلها، فهو مكي، وإن كان بعدها فهو مدني ولو نزل بمكة، إذ إن الفارق بين المكي والمدني موضوعي، لا مكاني إذ إن أكثر الموضوعات التي تتصدى لها السور والآيات المكية: بيان أصل العقيدة الإسلامية، ومجادلة المشركين حولها، وسوق الأدلة لبطلان الوثنية، وتأكيد الوحدةانية، والتعرض لأحوال المشركين، ومعاداتهم للنبي ﷺ ومن آمن معه، وأخبار المبادرة بالدعوة وإنذار العشيرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) [الشعراء]. وهكذا أكثر القرآن المكي يتعرض لإثبات العقيدة، ومجادلة من ينكرونها من عبدة الأوثان.

أما السور المدنية وآياتها، فإنها تبين الأحكام الفرعية، وأحوال أهل الكتاب مع أهل الإيمان، وتنظيم الدولة الإسلامية، وسن النظم لتكوينها، وتكوين

المجتمع الفاضل الذي تقوم عليه، وما يحل وما يحرم فى هذا المجتمع، وفيها قيام الأسرة الإسلامية التى تقوم على تقوى من الله تعالى، ورضوان من الله ورحمة.

وإذا كانت السور المكية فيها الإشارات لإيذاء المؤمنين، واستضعافهم، مع رجاء القوة كقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص].

إذا كانت السور المكية فيها إشارة إلى الاستضعاف فالسور المدنية فيها الإذن بالقتال، وتنظيمه، والسير به فى طريق الحق والعدل، وبيان الغاية من القتال ونهايته، وهى منع الفتنة فى الدين.

وسورة البقرة أطول سور القرآن، وسميت البقرة لأظهر الحوادث التى ذكرتها، وأغربها، وهى بقرة بنى إسرائيل التى لجؤا فى السؤال عنها، وما تدل على أخلاقهم من اللجاجة فى القول، وإرادة التلبيس فى الأمر الواضح البين، فقد كانوا كلما زادت لجاجتهم زاد الأمر تعقيدا عليهم، وتلبيسا على أنفسهم.

موضوعات السورة:

وبمقدار ما فى السورة من طول، كان فيها القدر الأكبر من الموضوعات، فهو طول فى كثرة الآيات، وليس طولاً مما يمجّه علماء البلاغة، فهو كثرة موضوعات وليس بطول ممل، وها نحن أولاء نشير إلى موضوعاتها قبل الخوض فى تفسيرها.

ابتدئت السورة الكريمة بذكر شأن الكتاب الكريم، وشرف الذين يؤمنون به، وأنهم الذين يؤمنون بالغيب.

ثم ذكر القسم المقابل لأهل الإيمان وهم الكافرون الذين لا تجدى فيهم الآيات والنُّذُر سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وأنهم صم بكم لا يعقلون.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أمر الحائرين الذين يترددون بين الإيمان والكفر، وهو يحيط بهم، وهم المنافقون الذين يحسبون أنفسهم أنهم المصلحون فى الأرض، وهم المفسدون.

وضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال التي تصور حالهم وتبين أمرهم، وبين سبحانه وتعالى أن النفاق مرض القلوب ومرض الجماعات، ثم ذكر سبحانه وتعالى أن الناس جميعاً في قبضته وأنهم خلقه سبحانه وتعالى هم ومن كان قبلهم، وأنه مكنّ لهم في الأرض وجعلها لهم فراشاً، وأن ذلك التمكين والخلق والتكوين يوجب عليهم عبادة الله تعالى وحده، وألا يتخذوا الأوثان. ثم بين لهم مقام الحجة النبوية التي جاءت معجزة للنبي ﷺ تثبت لهم رسالته، وتحدثهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأن يأتوا بشهداء لهم ليثبت عليهم التحدى والعجز بشاهد من أهلهم، ودعاهم إلى أن يتقوا ناراً وقودها الناس والحجارة.

وقد تكلم سبحانه وتعالى في الخلق والتكوين من البعوضة إلى الإنسان، وذكر أن خلق البعوضة عظيم، حتى أن الله تعالى لا يستحيى من الخلق أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، وأن المؤمن يدرك ويعتبر، ويعلم أنه الحق من ربه، وأما الذين كفروا فيتشككون ويضلون، ويزيد ضلالهم، وينقضون ما أمر الله به أن يوثق، ويبين سبحانه وتعالى أعلى درجات الخلق، وهو خلق الإنسان والجن وجعل الإنسان خليفة في الأرض، وبين أنه خلق فيه العقل والاستعداد لعلم الكائنات، ويبين سبحانه زيادة خلقه عن الجن وعن الملائكة، وأمر الملائكة والجن أن يسجدوا له فأبى إبليس وجَهِل وقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، واعترض على الله تعالى خالق النار وخالق الطين، ثم كان الاختبار الإلهي لأبى الإنسان، وهو آدم، فهاء هو وزوجه عن الأكل من شجرة، فوسوس لهما الشيطان إبليس، فأكلا منها، فأخرجهما الله تعالى مما كانا فيه ونزلا إلى الأرض، وبينهما إبليس من العداوة الشديدة، والمغالبة بين الخير والشر.

ولقد أشار سبحانه إلى المعركة الدائمة، وذكر أوضح مثل لها بما كان يفعله بنو إسرائيل، لقد أوتوا علم النبوة بما أرسل الله فيهم من رسل، وأوتوا نعماً كثيرة تثبت قدرة الله تعالى بما أنعم، ولكنهم ضلوا، وذكر سبحانه ما أمرهم به وما نهاهم عنه. وبين أنهم كانوا في علم الدين أكثر من غيرهم، ولكنهم كانوا يأمرون الناس بالبر،

ولا يبرؤون، ولقد أخذ سبحانه وتعالى يذكرهم بنعمه عليهم، وذكرهم بحالهم من فرعون إذ نجاهم منه، وكان يسومهم سوء العذاب، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، وذكرهم إذ فَرَّقَ بهم البحر، وآياته الكبرى فيهم، وذكرهم إذ قابلوا هذه النعم بالشرك إذ اتخذوا العجل، وذكرهم بعفوه سبحانه وتعالى عنهم، وذكرهم بأنه طالبهم بعد هذا العفو أن يقتلوا دواعي الشهوات في أنفسهم، لتكون قوة في هذا الوجود، فلا وجود لجماعة غلبت عليها شهوتها، وذكرهم بنعمته عليهم في أن أتى لهم بالمن والسلوى ليأكلوا منها رغداً، وذكرهم بأنه أمرهم بدخول قرية لهم متطامنين متواضعين، فإن مع التواضع مغفرة الله، ولكنهم بدلوا بالطاعة الظلم، فعاقبهم الله تعالى في الدنيا.

وذكر لهم آياته سبحانه في أن أمدهم بالماء في وسط الجذب، بأن ضرب لهم موسى الحجر بعصاه، فأنفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وبين أن شهواتهم، قد تحكمت فيهم فطلبوا ما كانوا يأكلون في مصر من الفوم والعدس والبصل بدلا من المن والسلوى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذى هو خير، وأنهم إذ تحكمت فيهم شهوتهم ضربت عليهم الذلة، فكانوا أذلة؛ لأنه حيثما كانت الشهوة المستحكمة كانت الذلة، ثم بين سبحانه أنه أخذ عليهم الميثاق وأكد برفع الجبل عليهم، فَأَعْطَوْهُ - أي الميثاق -، ولكنهم نقضوه وجاء من بعد ذلك أمر موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وقد كانت مقدسة في مصر فسرت عدوى ذلك إليهم، فتلكئوا في الأمر فسألوا عنها: أكبيرة أم صغيرة؟ وما لونها؟، ثم سألوه: أهى عاملة أم غير عاملة؟ فقال: إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها، فذبحوها وما كادوا يفعلون، ثم ذكر في السورة قصة القتل الذى ادعى كل فريق أنه لم يقتله، فأمرهم أن يضربوه ببعضها، فظهر القاتل، وأمر الله تعالى بالقصاص منه.

والله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر هذه الأحوال لهم بين أنه (لا يُطمع فى إيمانهم)، وقد استولى النفاق عليهم، فإذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم

إلى بعض قالوا جاهلين: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم؟! كأن الله تعالى لا يعلم، ولقد ركبهم الغرور في أنفسهم، فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودات، فيبين الله أن الخطايا تركبهم، وسيؤخذون بها، ولقد أخذ الله تعالى عليهم الميثاق ألا يعبدوا إلا الله وقيموا الصلاة، وأخذ عليهم الميثاق ألا يسفكوا دماءهم وألا يقتل بعضهم بعضا، ومع ذلك أخرجوا بعضهم من ديارهم، ولا يفكون أسراكم إلا بفدية، ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ويحكم عليهم سبحانه، بالحكم الخالد لكل من اتبع الشهوات بأنه اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، وبعد ذلك ذكر الله تعالى سلسلة الرسالة الإلهية التي ابتدئت بموسى، ثم عيسى، وأنهم كفروا بالأنبياء، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كفروا به أو قتلوه، ولما جاءهم القرآن مصدقا لما بين يديه كذبوه، وهم عندهم العلم به.

وعيب الله تعالى عليهم قتلهم الأنبياء، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بغير الحق.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى أنه قد جاءهم موسى بالبينات وأنقذهم من فرعون، ومع ذلك بفقدتهم التفكير المستقل المدرك عبدوا العجل، كما كان يعبد فرعون وملؤه، ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق، لبيان أنهم لا يرعون ذمة، ولا يقومون بخير، ولقد كانوا يحسبون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس فتحداهم الله تعالى بأن يتمنوا الموت ولن يتمنوه؛ لأن عبد الشهوة يتعلق بالدنيا وما فيها، يعبد الشهوة العاجلة، ولا يرجو الآجلة، وذكر سبحانه عداوتهم لجبريل مما يدل على صغر تفكيرهم.

وبيّن أنهم كلما جاءهم رسول كذبوه، وكلما عاهدوا عهداً نقضوه، ونبدوه وأنهم بدل أن يتبعوه اتبعوا السحر والأهواء، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، واتبعوا السحرة، وعلموا الناس السحر، وتعلموا منه ما يفرقون به بين المرء وزوجه، ولقد بين سبحانه جملة حالهم، وما ييغنون فقال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ

يُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ [البقرة].

ولقد كان المشركون يعييون على النبي أنه لم يأت بمعجزة حسية، وأنه يأتي بالمعجزة المعنوية، وهى القرآن، فبين الله تعالى أنه إن ترك معجزة يأت بخير منها أو مثلها، وأن قوم موسى - عليه السلام - قد سألوا أن يروا الله جهرة.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى أن كثيرين من أهل الكتاب يريدون أن يردوا المؤمنين عن دينهم حسدا لهم على ما آتاهم من فضل يعلمونه ويجحدون؛ ه ولذا أمر الله المؤمنين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأعلمهم أن ما يقدمونه من خير يأت الله تعالى به ويجدوه عنده، ثم ذكر سبحانه وتعالى مزاعم النصارى واليهود، وتكفير بعضهم لبعض، وذلك شأن الذين لا يعلمون . ثم بين سبحانه وتعالى ظلم الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وهم المشركون واليهود والنصارى.

ثم بين سبحانه وتعالى كفر الذين قالوا: إن الله تعالى اتخذ ولداً سبحانه، وضلال الذين يطلبون أن يكلمهم الله تعالى.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى مقام الرسالة المحمدية، وأنه ﷺ إن طلب رضا اليهود، فلن يرضوا عنه، وذكر سبحانه بعد ذلك نعمه على بنى إسرائيل .

ولقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك خبر أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو أب لموسى وعيسى ومحمد صلوات الله تعالى عليهم، وذكرهم بهذا أن أصلهم - وهو إبراهيم - واحد، وأنه ما كان لهم أن يختلفوا.

ثم ذكر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، ومعاونة ولده إسماعيل له، ودعاءهما لرب البرية أن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يتعلما مناسك الحج، ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يبعث فى العرب رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وذلك الرسول هو محمد ﷺ، فهو دعوة أبى الأنبياء إبراهيم، وأن ملة إبراهيم هى ملة الأنبياء أجمعين، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد وصى بهذه الملة الطاهرة إبراهيم، ووصى بها يعقوب.

وإنه لا يجوز التفرق في دين الله بين اليهود والنصارى وأتباع محمد، ولقد جاء محمد ﷺ بهذه الوحدة الدينية، ﴿... لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة].

وإنه بهذه الوحدة الدينية التي تقوم على التوحيد، قد اتجه النبي ﷺ إلى بيت المقدس؛ لأن البيت الحرام الذي به الحج كانت الأوثان تحوطه، فلما آذن الله تعالى بأن دولة الأوثان ذاهبة بعد الانتصار في غزوة بدر الكبرى حَوَّلَ الله تعالى قبله المسلمين إلى الكعبة إيدانا بتخليصها من الشرك وأهله.

فأخذ السفهاء من اليهود يثيرون الشكوك حول ذلك التحويل: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! وقد رد الله تعالى عليهم، وبين أن ذلك أمر قدره، وأن وسطية الأمة الإسلامية، وعلوها اقتضى الاتجاه إلى ما بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وبين سبحانه أن تغيير القبلة بجعلها لبيت المقدس أولا، ثم تحويلها ثانيا للكعبة إنما هو اختبار للإيمان والتسليم، وفَصَّلَ الله تعالى من بعد ذلك كيف يولون وجوههم شطر المسجد الحرام أينما كانوا.

ثم ذكَّرهم بنعمة الله تعالى عليهم، وأشار إلى أنهم سيجدون أياما غلاظا شدادا: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة].

أحكام تكليفية

وتلتقى الأحكام الشرعية مع العبر والعظات، وما مضى من السورة عظات، وأخبار عن الأنبياء السابقين - وخصوصا إبراهيم عليه السلام - الذي ينتهى إليه أكثر أنبياء بنى إسرائيل وإسماعيل ومحمد ﷺ: وما بعد ذلك تكليفات مع بعض عبر الماضين.

إذا كانت القبلة ربطاً للمسلمين بمكة، فمناسك الحج الذى تقوم شعائره فى مكة حول البيت الحرام فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ...﴾ (١٥٨) [البقرة].

ويذكر مآثم اليهود وغيرهم ممن يكتمون العلم فيذكر سبحانه وتعالى، أنهم مبعدون عن الله تعالى وعن رحمته، ويذكر الشرك بالله تعالى، وما يفعله المشركون، ويقرر وحدانية الله تعالى، ويثبت التوحيد بالخلق والتكوين، والنعم المتضافرة فيقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤) [البقرة].

ويذكر سبحانه بعد هذه الآلاء والنعم من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، ويذكر حال أولئك يوم القيامة حيث يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا. ويبين سبحانه ما أباحه الله من الطيبات. ويذكر حال الذين كفروا من ندائهم الأوثان بأنهم فى حالهم كالبهائم التى تنعق بما لا تسمع، ويكرر سبحانه إباحة الطيبات ووجوب الشكر على إباحتها، ثم يذكر تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهلَّ لغير الله به، وأن الإثم يرفع فى حال الاضطرار، ويذكر من بعد ذلك الذين يكتمون كتاب الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأن مأواهم النار.

يذكر سبحانه أن البر ليس فى أعمال الجوارح، إنما البر فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين، والقيام بالواجبات الاجتماعية كلها من وفاء بالعهد، وصبر فى البأساء والضراء وحين البأس.

ثم يبين سبحانه وتعالى حكم القصاص، وأن فيه حياة الجماعة هائلة فاضلة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩) [البقرة] ويذكر

الوصية للأقربين (الذين لا يرثون)، لأنه حيث يذكر القصاص يذكر معه الموت ونتائجه.

ثم يذكر فرضية الصوم، وأنه إذا كان القصاص فيه حياة آمنة، فالصوم فيه الروحانية الكاملة، فذكر فرضية صوم رمضان والأعذار المسوغة للإفطار والقضاء إن أمكن، وإن لم يمكن فالفدية، ثم يذكر سبحانه ليالي رمضان، وإباحة الرفث إلى النساء فيها. ويذكر حدود أوقات الصوم، وبجوار تلك الروحانية يمنع من أكل أموال الناس بالباطل.

وإنه بعد بيان أوقات الصوم ذكر سبحانه وتعالى فضل الأهلّة، فبين أنها مواقيت للأشهر بالنسبة للصيام وبالنسبة للحج، وبالنسبة للمعاملات بين الناس.

هذه كلها أحكام تكليفية آحادية أو جماعية، وهناك الحكم الجماعي الذي تتصافر عليه الأمة، وهو الجهاد، وقد بين فيه أنه رد للاعتداء ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا...﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفيه منع للفتنة، وأنها هي التي ينتهى عندها ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٩٣].

وبيّن أن العمل في القتال هو المعاملة بالمثل، فإن قاتلوا في الشهر الحرام قوتلوا فيه والحرّمات قصاص، ثم بيّن أن أخذ الأهبة والاستعداد لا بد منهما، والإنفاق في سبيل الله يمنع التهلكة.

ويتنقل من الجهاد إلى ذكر بعض مناسك الحج؛ لأن الحج والجهاد متقاربان في تحمل المشقة. فيذكر الهدى والتحلل من الإحرام، والإفاضة من المشعر الحرام، وما يحل محل الهدى من صيام عشرة أيام، وما يحل في الحج وما لا يحل، ويشير إلى أحوال الناس وهم في ضيافة الرحمن.

ويذكر الله سبحانه وتعالى وجوب ذكره سبحانه في أيام معدودات، وأن من تقدم في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى .

ثم يذكر سبحانه وتعالى أخلاق الحاكم الفاسد، وهو من فقد الإيمان بالله وأوتى حلاوة اللسان والتغريير بها، والحاكم الفاضل هو من يتتقى مرضاة الله تعالى .

ويدعو القرآن الكريم إلى الدخول في السلم (أى الإسلام)، ويثبت أن الناس جميعا أمة واحدة، ويبين سبحانه أن النبيين جاءوا لمنع الاختلاف بين الناس بسبب الأهواء والشهوات، ويبين سبحانه أنه لا علاج للشر إلا بتحمل أعباء الجهاد للخير، وأن مقاومة الشر تستدعى تحمل أعباء الجهاد : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة] .

ويبين سبحانه أن ذلك يقتضى أن يكون الإنفاق فى الأسرة وفى الجهاد، ويقتضى الاستعداد للقتال دائما، وهو ما تكرهه الطوائع البشرية ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة] وأن الأشهر الحرم، وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، القتال فيها حرام إلا إذا اضطروا إلى ذلك، وأن من يرتد عن دينه بالفتنة، فيموت على الردة يكون من الذين ﴿... حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة] وأن الرحمة للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا، ويبين سبحانه وتعالى حرمة الخمر والميسر، وأنه إذا كان فيهما بعض النفع فالإثم أكبر .

ويبين سبحانه وتعالى العناية باليتامى بإصلاحهم، وضمهم إلى الأسر الفاضلة، وإلا كانوا مادة تخريب فى الأمة، فلا تكون صالحة للجهاد الذى يكون به رفعة الدين، والعزة الإسلامية .

أحكام فى الأسرة

اشتملت هذه السورة على أحكام كثيرة فى الأسرة منها:

(أ) النكاح بين المشركات والمؤمنين، فحرم الله تعالى أن ينكح المسلم مشركة، وأن تنكح المسلمة مشركا ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِآذَنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة].

(ب) أن الحائض يحرم الدخول بها فى حيضها؛ لأنه أذى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أذى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ ... ﴾ [البقرة].

(ج) أنه يحرم على الرجل أن يحلف ألا يأتى امرأته أربعة أشهر، فإن مضت ولم يأتها فقد عزم الطلاق (فتطلق) والله سميع عليم .

(د) أن عدة المطلقة بعد الدخول ثلاثة قروء، وقبل أن تنتهى بعولتهن أحق بردهن إن أرادوا إصلاحا، وللمرأة من الحقوق مثل الذى عليها من الواجبات.

(هـ) وأن الطلاق الذى تجوز الرجعة فيه اثنتان فإن طلقها الثالثة من بعد، فلا تحل حتى تنكح زوجا غيره.

(و) أنه يجوز للمرأة أن تفتدى نفسها بمال تدفعه ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ... ﴾ [البقرة].

(ز) أنه لا يحل للزوج إذا طلق وانتهت العدة أن يمنع المرأة من الزواج، وكذلك لا يجوز للولى ذلك.

ومن الأحكام فى الأسرة أيضا أن مدة الرضاعة الكاملة حولان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى الأب رزق الموضع وكسوتها بالمعروف، وعلى من يليه

من الورثة مثل ذلك، وأن استرضاع غير الأم جائز عن تراض منهما وتشاور، وأن إنهاء الرضاع يكون برضا. وقد ذكر سبحانه وتعالى عدة المتوفى عنها زوجها الحائل غير الحامل، وهى أربعة أشهر وعشرة أيام قمرية، وأنه تجوز خطبتها فى بحر العدة تعريضاً لا تصريحاً.

(ح) أن الرجل إن طلق من تزوجها قبل الدخول فلها نصف المهر، إذا كان قد سمي مهراً، وإن كان لم يسم مهراً، فلها المتعة، وهى قدر من المال أو الكسوة يناسب حالهما، ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ...﴾ (٢٣٦) [البقرة].

وقد ذكر سبحانه أن التى يموت زوجها تبقى فى بيته سنة ولا يخرجها أحد متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين.

وقد ذكر سبحانه فى أثناء أحكام الأسرة الأمر بالصلاة القيّمة التى لا اعوجاج فيها.

الدولة تقوم على النظام

وبعد أن بين الله تعالى نظام الأسرة - وهى قوام الجماعة - أخذ سبحانه وتعالى يبين نظام الجماعة، وأنها لا تعيش إلا فى عزّة، واستقلال بنفسها، فصور سبحانه جماعة أصيبت بالذلة فماتت نخرة فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم بالبأس والعزّة، فالذلة موت، والعزّة حياة.

ثم بين الله تعالى حال قوم من بنى إسرائيل طلبوا أن يكون لهم ذو سلطان ممكّن منهم وبرضا الله سبحانه وتعالى، فمكن الله لحاكم ذى سلطان، وهو طالوت، لأن له مؤهلات الحكم، فقد أوتى بسطة فى العلم والجسم، ولكنهم لا يريدون إلا ملكاً مسيطرًا بحكم الوراثة ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ

بِالْمَلِكِ مِنْهُ ﴿...﴾ [البقرة] ولكن الله سبحانه وتعالى أراهم ملكه بأن يتغلب على أعدائهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨) [البقرة] وقد خرج بهم طالوت مجاهدا مستردا عزتهم، واختبر الله إرادتهم بنهر، فمن شرب منه فليس له من القوة المصممة ما يجاهد به، ومن لم يشرب منه فله إرادة الجهاد وعزيمته.

ومهما يكن من حالهم فقد كان النصر ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١) [البقرة].

الرسول والألوهية

بين الله تعالى مقام الرسول، وشرعية القتال ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مِّن كَلِمٍ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ (٢٥٣) [البقرة] (وهو جبريل عليه السلام)، وقد اقتتل من بعد ذلك المتبعون للرسول لاختلافهم أو بعضهم على أنبيائهم.

وأن الإنفاق في سبيل الله هو دعامة القوة؛ لأنه يبنى مجتمعا متعاونًا، ويشد أزر أهل الحق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤) [البقرة].

وأن الجامع بين الأنبياء جميعا هو الوحدانية، والإيمان بالله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ...﴾ (٢٥٥) [البقرة] إلى آخر الآية الكريمة.

وأن الإيمان قد قامت دلائله، فـ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...﴾ (٢٥٦) [البقرة] وقد ضرب الله تعالى أمثالا ثلاثة :

أولها: مناقشة إبراهيم عليه السلام للذي ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ...﴾ (٢٥٨) [البقرة] فادعى أنه يحيى الموتى ويميت الأحياء، فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ...﴾ (٢٥٩) [البقرة].

الثاني: وهو في الإعادة بعد الموت، كان في الذي مر على قرية ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ...﴾ (٢٦٠) [البقرة] .. إلى آخر الآية الكريمة.

الثالث: طلب إبراهيم - عليه السلام - من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، وأنه طلب ذلك للاطمئنان، فأراه الله تعالى ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ...﴾ (٢٦١) [البقرة].

الإنفاق في سبيل الله قوة الجماعة

إن الإنفاق في سبيل الله أعظم القربات عند الله، وإن الله تعالى يضاعف الإنفاق في سبيله بسبعمائة ضعف، وهذا كناية عن الكثرة، وأنها تفوق عدد الحاسبين.

وإن شرط ذلك ألا يتبعوا ما أنفقوا منّا ولا أدّى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ...﴾ (٢٦٤) [البقرة] هذا مثل من يبطل صدقاته بالمن والأذى، ومثل الإنفاق ابتغاء مرضات الله وتثبيتنا من أنفسهم كمثل جنة بربوة تؤتى أكلها ضعفين.

وإن شرط النفقة التي تثمر ضعفها أن تكون طيبة لا نعيم الخبيث تنفق منه، وإن النفقات تربط المودة بين الجماعة وأنها حكمة الاجتماع، ومن يؤت الحكمة فقد

أوتى خيراً كثيراً، والنفقة إذا ابتغى بها وجه الله خير في كل أحوالها، أبدائها أو أخفائها، فنعماً هي في كل أحوالها، والله تعالى مكافئ عليها، ومن ينفق فعاقبة النفقة لنفسه؛ لأنه يصلح جماعته، وصلاحها يعود عليه، وإن الإنفاق يكون في كل طريق للخير، ويجب أن يبحث عن مستحقه من الفقراء ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ [البقرة].

الاقتصاد الإسلامي خال من الربا

أعقب الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم الترغيب في الصدقات، وبيان ثمرتها، وغايتها التعاونية التي تربط بين آحاد المجتمع المؤمن وجماعته، وذكر بعد ذلك ما يهدم بناء المجتمع ويقطع ما بين آحاده وهو الربا وتحريمه فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ [البقرة].

وتحريم الربا تنظيم اقتصادى لقيام بناء اقتصادى سليم لا تكون فيه أزمات، ولا تؤكل فيه أموال الناس بالباطل ولا يؤدي إلى التعطل والكسل، ولا إلى أن يكون ربح من غير تحمل للخسارة.

وبعد آيات الربا، جاءت آية توثيق الديون بالكتابة وشهادة شاهدين، وأن يذكر الأجل، وأن يكتبه كاتب عدل وأن يملأ من عليه الدين ليكون ذلك إقرارا مكتوبا بالدين، وإذا كان من عليه الدين سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملأه فليملأ وليه بالعدل، والشهادة تكون برجلين عدلين أو رجل وامرأتين ممن ترضون من الشهداء؛ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله، إلا أن تكون تجارة دائرة بينكم.

وأوجب سبحانه وتعالى الشهادة فى البيوع، ومنع أن يكون فيها إرهاب للشهود ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ...﴾ [البقرة] ومن دعى للشهادة فلا يكتمها، فإنه يكون آثما قلبه.

ولتوثيق الكتابة والتشدد فيها ذكر حال السفر، وأنه إن لم يكن فيه كاتب فرهان مقبوضة

وبعد هذا التوثيق ختم الله تعالى السورة بالدعوة إلى الإيمان، والإخبار بأن الرسول آمن بما أنزل إليه من ربه والملائكة... ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وبين سبحانه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، وعلمنا كيف ندعو ربنا:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة].



ابْتَدَتْ السُّورَةُ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا، فَيَقَالُ: أَلِفٌ لَامٌ مِيمٌ، وَكَذَلِكَ ابْتَدَتْ عِدَّةٌ سُوَرٍ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا مُفْرَدَةً حَرْفًا حَرْفًا، وَهَذِهِ الْأُولَى، وَقَدْ أُعْقِبَتْ الْحُرُوفُ بِذِكْرِ الْكِتَابِ وَشَرْفِهِ، وَجَاءَتْ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ مُبْتَدَأَةً بِهَذِهِ الْأَحْرَفِ نَفْسَهَا ﴿الْم﴾ [آلِ عِمْرَانَ] وَعَقِبَهَا ذِكْرُ جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ].

ثُمَّ كَانَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ مُبْتَدَأَةً بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحْرَفِ وَهِيَ ﴿الْمَص﴾ [الْأَعْرَافِ] وَذَكَرَ بَعْدَهَا الْكِتَابَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ...﴾ [الْأَعْرَافِ].

وَكَانَتْ سُورَةُ يُونُسَ مُبْتَدَأَةً بِحُرُوفٍ مُفْرَدَةٍ، وَهِيَ ﴿الر﴾ [يُونُسَ] وَذَكَرَ بَعْدَهَا الْكِتَابَ وَآيَاتِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يُونُسَ].

وَجَاءَتْ سُورَةُ هُودَ مُبْتَدَأَةً أَيْضًا بِهَذِهِ الْحُرُوفِ ﴿الْم﴾ [هُودَ] وَذَكَرَ بَعْدَهَا الْكِتَابَ، فَقَالَ تَعَالَى بَعْدَهَا: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُودَ].

وَسُورَةُ يُوسُفَ ابْتَدَتْ أَيْضًا بِهَذِهِ الْحُرُوفِ ﴿الر﴾ [يُوسُفَ] وَجَاءَ بَعْدَهَا ذِكْرُ الْكِتَابِ فَقَالَ تَعَالَى عَقِبَهَا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يُوسُفَ].

وَجَاءَتْ أَيْضًا سُورَةُ الرِّعْدِ مُبْتَدَأَةً بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُفْرَدَةِ ﴿الْمَرْ﴾ [الرِّعْدِ] وَقَدْ ذَكَرَ بَعْدَهَا الْكِتَابَ الْكَرِيمَ فَقَالَ تَعَالَى عَقِبَهَا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرِّعْدِ].

وَابْتَدَتْ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ الْأَحْرَفِ الْمُفْرَدَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الر﴾ [إِبْرَاهِيمَ]، وَجَاءَ بَعْدَهَا ذِكْرُ الْكِتَابِ فَقَالَ تَعَالَى بَعْدَهَا: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
[إبراهيم].

وجاءت سورة الحجر مبتدأة بحروف مفردة وهى ﴿الر﴾ [الحجر]
وذكر بعدها الكتاب فقال تعالى عقبها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر].

وجاءت سورة مريم مبتدأة بخمسة حروف وهى ﴿كهيعص﴾ [مريم]،
ولم يذكر بها (القرآن) عقب هذه الحروف، ولكن ذكرت برحمة الله تعالى على
زكريا، فقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا
﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ... ﴿٤﴾ [مريم]، وقد ذكر (الكتاب) فى عدة مواضع بعد ذلك
فى السورة، فكان يأمر الله تعالى بذكره عند ذكر القصص عن أنبياء الله تعالى،
فإذا كان (الكتاب) لم يُذكر فى الكتاب الكريم عقب هذه الحروف، فقد تكرر ذكره
تعالى كلماته فى مواضع مختلفة بعد ذلك.

وجاءت سورة (طه) وإذا لم نعتبر كلمة ﴿طه﴾ ﴿١﴾ [طه] اسمًا فإنها تكون
حروفًا مجردة، وذكر بعدها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لَتَشْقَىٰ﴾ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ
﴿٤﴾ [طه].

وجاءت سورة الشعراء مبتدأة بحروف ثلاثة ﴿طسم﴾ [الشعراء]
وجاء عقب هذه الحروف ذكر القرآن ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء].

وابتدئت سورة النمل بحرفين هما ﴿طس﴾ [النمل]، وجاء ذكر القرآن
بعدها فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل].

وَابْتَدِئْتُ سُورَةَ الْقَصَصِ بِثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ ﴿ط س م﴾ [القصص] وجاء بعدها ذكر القرآن الكريم، فقال تعالى عقب الحروف: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص].

وجاءت سورة العنكبوت مبتدأة بهذه الحروف ﴿آ ل م﴾ [العنكبوت] وجاء بعدها اختبار الناس وهو قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت].

وجاءت سورة الروم مبتدأة بالحروف ﴿آ ل م﴾ [الروم] ثم ذكر بعد ذلك انهزامهم ثم انتصارهم ﴿آ ل م﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ... ﴿٤﴾ [الروم].

وجاءت سورة لقمان مبتدأة بالحروف ﴿آ ل م﴾ [لقمان] وذكر بعدها الكتاب: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان].

وجاءت سورة السجدة مبتدأة بهذه الحروف ﴿آ ل م﴾ [السجدة] وعقبت بذكر الكتاب ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة].

وابتدئت سورة يس بحرف الياء والسين ﴿ي س﴾ [يس]، وذكر بعد الحرفين القرآن الكريم، وذلك إذا لم تعد اسماً.

وجاءت سورة (ص) مبتدأة بالحرف ﴿ص﴾ [ص]، وجاء ذكر القرآن الكريم فقال تعالى عقب هذا الحرف: ﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص].

وابتدئت سورة غافر بحرفين ﴿ح م﴾ [غافر]، ذكر بعدها القرآن فقال تعالى عقبها: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر].

وابتدئت فصلت بالحرفين ﴿ح م﴾ [فصلت] وعقبت بقوله تعالى عن الكتاب: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت].

وَابْتَدَتْ سُورَةُ الشُّورَى بِخَمْسَةِ أَحْرَفٍ، وَهِيَ ﴿حَمَّ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ ﴿يَ﴾ [الشورى] وجاء بعدها ذكر لنزول القرآن فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى].

وَابْتَدَتْ سُورَةُ الزَّخْرَفِ بِـ ﴿حَمَّ﴾ ﴿يَ﴾ [الزخرف] وعقب الله تعالى هذين الحرفين بقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف].

وَابْتَدَأَتْ سُورَةُ الدُّخَانِ بِحَرْفِي ﴿حَمَّ﴾ ﴿يَ﴾ [الدخان] ثم جاء بعد ذلك ذكر القرآن فقال تعالى عقبها: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان].

وَابْتَدَأَتْ سُورَةُ الْجَاثِيَةِ بِحَرْفِي ﴿حَمَّ﴾ ﴿يَ﴾ [الجاثية]، وعقبها الله تعالى بتنزيل القرآن فقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية].

وَابْتَدَتْ سُورَةُ الْأَحْقَافِ بِالْحَرْفَيْنِ ﴿حَمَّ﴾ ﴿يَ﴾ [الأحقاف] وذكر الله تعالى بعدهما القرآن، فقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف].

وَابْتَدَتْ سُورَةُ ﴿قَ﴾ [ق] بحرف - وجاء بعده القسم بالكتاب ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق].

وَابْتَدَتْ سُورَةُ الْقَلَمِ بِحَرْفِ ﴿نَ﴾ [القلم] وجاء بعدها ذكر القلم فقال تعالى: ﴿وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم] وفيه إشارة إلى الكتاب الكريم.

هذه هي السور التي ابْتَدَتْ بالحروف المفردة ، ومن هذا الإحصاء يتبين:

أولاً: أن السور التي صُدِّرَتْ بهذه الأحرف سور مكية نزلت بمكة ماعدا ثلاث سور هي البقرة، وآل عمران، والرعد، فإن هذه السور الثلاث مدنية، بينما الباقي مكى نزل بمكة حيث كان أكثر التحدى بالقرآن الكريم، وإن كان هناك تحدُّ به في

المدينة؛ لأنه المعجزة الدائمة التي يُتحدى بها المنكرون في كل الأحيان والعصور ﴿قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨) [الإسراء].

ثانياً: أن السور التي صدرت بهذه الحروف ذكر الكتاب بعدها، مما يدل على أن للكتاب الكريم صلة بالابتداء بهذه الحروف، وثلاث سور فقط هي التي لم يأت ذكر للكتاب عقبها، وهي سورة مريم، فلم يذكر الكتاب عقب الحروف، وإن جاء ذكره بعد ذلك في مناسبات أخرى، وكرر ذكره بهذه المناسبات، وسورة العنكبوت فإن ذكر القرآن لم يعقب الأحرف، وكذلك سورة الروم، وما عدا هذه السور الثلاث ذكر القرآن الكريم في أعقابها.

ثالثاً: أن عدد الحروف التي ابتدئت بها السور أربعة عشر حرفاً، وهي نصف الحروف الهجائية، وهي تشتمل على أنواع مخارج الحروف المختلفة، وهذه الحروف هي الألف، واللام، والميم، والصاد، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والراء، والسين، والطاء، والحاء، والقاف، والنون.

ولا يحفظها ويقرأها إلا من يعرف القراءة والكتابة، فالأُمى لا يعرفها وإن عرف بعضها، لا يعرفها كلها، وإلا كان قارئاً كاتباً؛ ولذلك هي في القرآن على لسان النبي الأمى من دلائل إعجازه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) [العنكبوت].

وإنه بتتبع السور الكريمة التي صدرت بهذه الحروف التي قدسها الله سبحانه وتعالى بذكرها، وإعقاب القرآن في أكثرها بها يدل على الارتباط الوثيق بينها وبين القرآن الكريم؛ لأنه اشتمل عليها، ولأنها تشير إلى مقامه وإعجازه ومزنته في هذا

الوجود الإنساني، وإن كانت معانيه المحررة مستورة عنا، وهى فى علم الله تعالى المكنون، ولكن لها إشارات توحى إلى معانٍ عالية، تليق بتصدّرها لكثير من سور القرآن. هذا ما نشير إليه إجمالاً ونعرض له ببعض التفصيل.

﴿الْم﴾ روى عن أبى بكر وعلى رضى الله عنهما أنهما قالَا: إن هذه الحروف التى ابتدئت بها السور هى سر الله تعالى فى الكتاب، ولله تعالى فى كل كتاب سر. وتبعهما فى هذا القول عامر الشعبى وسفيان الثوري، وجماعة من المحدثين، بل قاله أكثر علماء السلف، وهى من التشابه الذى اختص به علم الله تعالى، وروى عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا رضى الله عنهم: الحروف المقطعة فى أوائل السور من المكتوم الذى استأثر به علم الله تعالى. وروى عن الربيع ابن خيثم، أنه قال: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه فليستم بنائليه فلا تسألوا عنه، وأما الذى أطلعكم عليه، فهو الذى تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، وما بكل ما تعلمون تعملون.

وإن هذه المأثورات عن كبار الصحابة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهى تدل على أن هذه الحروف من التشابه الذى لا يعلم به أحد إلا الله تعالى، وعليها أن تكف عما لا نعلم، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء].

ولكن العقل طُلعة^(١) يحاول تعرّف المجهول أو المكتوم، وكلما كان الإبهام كان تعرّف كشفه، ولذلك حاول علماء أن يعرفوا سر وجود هذه الحروف وإن لم يعرفوا حقيقة المراد منها، وقالوا فى ذلك أقوالاً أربعة؛ ثلاثة منها متلاقية فى صوابها وواحد حاول تفسيرها، فأخطأ فيما قصد.

(١) طُلعة: أى كثير الطلوع أو التطلع، ونفس طُلعة: كثيرة التطلع إلى الشيء. [الوسيط: (ط ل ع)].

أولها: أن بعضهم حاول تفسيرها بأنها رموز للذات العلية، أو أنها رموز لله ولآخرين، فقال قائل إن ﴿الْم﴾ ترمز إلى أن الله يقول أنا الله أعلم، فالآلف: أنا، واللام: الله، والميم: أعلم، وقالوا: ﴿الْم﴾ أنا الله أرى، وقال بعضهم في ﴿الْم﴾: إن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، وقيل الألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح لطيف، والميم مفتاح مجيد، وكل هذه التفسيرات ظنون، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا، ولم يرد واحد منها عن الرسول ﷺ، ولو وردت عنه لقبلناها صاغرين ولخرجت من المتشابه إلى المحكم .

ثانيها: ليس تعرفا لمعانيها، ولكنه تعرف لسر وجودها، أو لبعضها، وذلك بيان لإعجاز القرآن مع أنه مكون من حروفهم التي تتكون منها كلماتهم، ومع ذلك يعجزون عن أن يأتوا بمثله في تأليف نغمة، وسياق معانيه، وتآلف ألفاظه وفواصله، فهذا يدل على أنه من عند الله ويدل على عجزهم عن أن يأتوا بمثله .

وثالثها: وهو كسابقه يدل على بعض أسرار وجودها، ولا يتعرض لذات معانيها، وهي أنها تدل على نزول القرآن من عند الله تعالى، وأن محمدا ﷺ لم يأت به من عنده، لأنه أمسى لا يقرأ ولا يكتب، فهو النبی الأمي، والأمي ينطق بالكلمات ولا يعرف الحروف، فمجيء الحروف على لسانه ﷺ، وهي حروف كثيرة، هي نصف عدد الحروف الهجائية، وهي متنوعة المخارج، وتشمل المخارج كلها، وإن لم تشتمل كل عددها، إن هذا دليل على أنها من عند الله عالم الغيب والشهادة، الذي علّم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم .

رابعا: وهو كسابقه فيه بيان سر وجود هذه الحروف، وذلك أن العرب المشركين كانوا يحسّون بأثر القرآن في نفوسهم إذا سمعوه، حتى أنهم قد تفاهموا على ألا يسمعوه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت]. فكانوا يحاولون ألا يسمعوا، فكانت تلك الحروف الصوتية التي

تبتدأ بها السور الكريمة إذا قرئت مرتلة مجودة تسترعى أسماعهم، ويستغربون، وقد يستنكرون، وبينما هم فى استغرابهم وعجبهم، يهجم عليهم رسول الله ﷺ بالقرآن ونغماته، وجميل ألفاظه، ورنه موسيقاه، فيخضعون للسمع، وينقضون ما أبرموا من قبل، فهذه الحروف كانت ليستغربوا ويفتحوا أسماعهم، ويسمعوا.

وإن هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة فيها بيان لسر وجود هذه الحروف، والله بكل شىء عليم.

ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَا لَآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الإشارة هنا إلى الحروف ﴿الْم﴾ التى تتألف من كلمات الكتاب العزيز الحكيم ؛ ولذلك قيل إن ﴿الْم﴾ اسم للسورة، ولكن نقول إن هذه الإشارة إلى الحروف باعتبارين :
أولهما : أن هذه هى الحروف الذى كوّن منها الكتاب المعجز الذى تحدى به الإنسانية كلها.

والثانى : أنها اسم للسورة التى افتتحت بها، وذلك من قبيل إطلاق اسم الكل وإرادة الجزء، أو أن جزء القرآن قرآن يتحدى. ألم تر أن الله تعالى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ والإشارة هنا للبعيد ، وموضوعها قريب ؛ لأن الحروف جاء بعدها فوراً ذكر الكتاب فكان الظاهر أن تكون الإشارة بما يدل على القرب ، كـ (هذا) الكتاب ، ولكن لأن ﴿الْأَمَّ﴾ تدل على السورة التي هي جزء متكامل من الكتاب ، أو الكتاب نفسه ، وقد نزل من الروح الأقدس ، فنزل من العلا إلى النبی المرسل ، فكان ذلك إشعاراً بالبعد بين الملكوت الأعلى وخلق الله سبحانه وتعالى ، أو يقال : إن الإشارة بالبعيد تنويه بذكره وعلو مقامه فإنه تكون الإشارة بالبعيد في هذا المقام ، وأى مقام يقارب كتاب الله تعالى ؟! فهو على في ذاته ، ثقیل في ميزانه كما قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل] .

وفي قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثلاثة وقوف :

أولها : الوقوف عند ﴿الْكِتَابُ﴾ ، وتكون ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ ، والكتاب خبر ، ويكون فيه تعريف الطرفين الذى يدل على القصر ، أى ذلك وحده هو الجدير بأن يسمو ، فلا يعلو علوه كتاب ، ولا يُنَاصِي سَمَتَهُ مقروء سواء ، إذ هو تنزيل من رب العالمين ، وفيه علم بشرائع الله تعالى ويكون قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملة مستقلة على هذه القراءة ، وهى تأكيد لمعنى العلو والسمو فيه ، إذ إنه لا شك فى حقائقه ، وهى بينة تهتدى إليها العقول ، ولا ترتاب فيها فهو حجة بصدقه فى ذاته ، وإدراك العقول لحقائقه ، وهذا شرف ذاتى فيه ، وهو لا ريب فى أنه من عند الله ، إذ تحدى المَقَاوِل^(١) من قريش وفحول الكلام منهم أن يأتوا بسورة من مثله فعبجروا ، فكان ذلك شرفاً إضافياً فوق شرفه الذاتى .

والثانى : الوقوف عند ﴿لَا رَيْبَ﴾ ، ومؤداها مقارب من مؤدى القراءة السابقة تقريباً ، إذ المؤدى أن يكون المعنى : ذلك هو الكتاب بلا ريب ، ويكون قوله تعالى :

(١) مَقَاوِل : جمع مَقُول : أى حسن القول لِسِن . الوسيط (ق و ل) .

﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جملة جديدة مستقلة، وتكون لبيان كماله، فوق أنه لا ريب فيه.

والثالث: الوقوف عند كلمة ﴿فِيهِ﴾، ويكون المعنى كالمعنى السابق، ثم يكون قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جملة مستقلة، وهذه القراءات تتجه كلها إلى سمو القرآن وعلوه، وأنه فوق طاقة البشر، وفوق علم الناس، إنه كتاب الله العلى الحكيم. ومعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه لا يعتريه الريب لكمال حقائقه ووضوح مقاصده، والبراهين القاطعة المثبتة أنه من عند الله تعالى، فلا مساع لمرتاب أن يرتاب. وإذا كان قد وقع فيه إنكار، فلأنهم جحدوا آيات الله تعالى، واستيقنتها أنفسهم، والنفي لوقوع الريب منه في ذاته، ويضل ناس فيجحدون ولا يؤمنون، ولا ينفي ذلك أنه لا مكان للريب، ولا موضع له، إذ هو ارتياب حيث اليقين، وإنكار حيث يجب الإيمان، وهو الحق الذى لا يأتية الباطل من أى ناحية من نواحيه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى مصدر على وزن فَعَلَ، كالسرى، والبكى، ومعناه الدلالة على الطريق الموصل للغاية الذى لا اعوجاج فيه، ولا تستعمل غالبا إلا للتوصيل إلى الخير، بدليل مقابلتها بالضلالة فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، وبدليل نسبة الهدى إلى الله تعالى، فقد قال تعالت كلماته: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ...﴾ [٧٣] ﴿آل عمران﴾ والمهتدى من انتفع بما وجد من هداية ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...﴾ [يونس: ١٠٨].

وإذا قيل: فإن الهداية إنما تكون للضالين ليسترشدوا، ويسيروا فى طريق الحق، ويتبعوا عن الغواية، وما يدفع إليه من ضلالة كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

نقول فى الإجابة على ذلك: إن المراد بالمتقين ليس من وصلوا إلى أقصى درجات الهداية إنما المراد من شارفوها وطلبوها وأرادوها، وحاولوا الازدياد من العلم، ولم تكن قلوبهم متحجرة، مُبْلِسَة لا تسترشد ولا تهتدى، وبيان ذلك أن الله تعالى خلق النفوس وسواها، وألهمها فجورها وتقواها.

فمن النفوس من فطرها الله تعالى على الفطرة المستقيمة المدركة للحق فى ذاته، التى تتجه إلى الحق بتبغيه وتريده، وتظل فى حيرة حتى تجد المرشد من السماء برسول مبين يرشدها إلى صراط مستقيم، كأولئك الحنيفيين الذين رفضوا عبادة الأوثان لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا يتبعها إلا الغاؤون.

إن هذه نفوس متقية تبغى الرشاد، فتكون مصغية للحق عند الدعوة إليه متبعة للنور إذا أشرق، وهذا ما نراه موضعاً للتعبير بقوله تعالت كلماته: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

والمتقون مشتق من الوقاية، يقال: وقاه الله تعالى، ووقى نفسه السوء، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩﴾ [الحشر].

واتقى: افتعل، من وقى، فهى فى أصلها: أوتقى، ثم قلبت الواو تاء، فأدغمت فى تاء الافتعال، فصارت اتقى، ومنه أخذت التُّقى، والتُّقاة، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران].

والمتقون مراتب فى إدراكهم لتقوى الله تعالى، وأعلاها: إدراكهم لمعنى الحق وخضوعهم لما يطلبه، وإنهم بهذا يطيعونه ويستجيبون له، ويلتزمون به، وينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ... ٢٦﴾ [الفتح] فإذا علا فى نفوسهم طلب الحق والاستعداد له، تركوا شر الأشرار مهتدين بهديه، وتجنبوا الإساءة إلى غيرهم، فإذا ساروا فى مدارج الهداية والتقوى نزهوا أنفسهم عن كل ما يخالف الحق، وصارت قلوبهم نورا مبصرا، وكانوا أولياء الله تعالى، وينطبق عليهم

قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...﴾ (٩٦) [الأعراف] ألا إن هؤلاء هم المتقون الذين يستفعون بهداية الله، وإنَّ علم الله تعالى وهدايته قد مثله النبي ﷺ بغيث ينزل من السماء فيجيء إلى أرض طيبة فتنبت النبات الطيب، وينزل على أرض لا تنبت، ولكن ينتقل منها إلى أخرى تنبت فيها النبات الطيب، وهناك أرض هي قيعان لا تنبت، ولا ينتقل منها إلى غيرها^(١).

ولقد ذكر الزمخشري في تنسيق هذه الآيات ﴿الْم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿٢﴾ كلمات طيبة محققة مفادها أن قوله تعالى: ﴿الْم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و ﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية، و ﴿لا ريب فيه﴾ جملة ثالثة، و ﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، وقد أصاب بترتيبها من البلاغة، وموجب حسن النظم؛ حيث هي متناسقة هكذا من غير حرف نسق (أى عطف) وذلك لمجيئها متآخية آخذة بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها، وهلمَّ جرا إلى الثالثة، والرابعة.

بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشار إلى أنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدى وشدا من أعضائه، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلا بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ قال: في حجة تبختر اتضاحا، وفي شبهة تتضاءل افتضاحا.

(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيعٌ قِيلَتِ الْمَاءُ فَأَنْبَتَ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءُ فَفَعَلَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ» قال أبو عبد الله (آي البخاري): قال إسحاق: «وكان منها طائفة قِيلَتِ الْمَاءُ». قاع: يعلوه الماء والصفصف: المستوى من الأرض. [أخرجه البخاري: كتاب العلم (٧٧) ومسلم بنحوه: الفضائل: (٤٢٣٢) وأحمد: أول مسند الكوفيين (١٨٧٥٢) واللفظ للبخاري].

ثم أخبر عنه أنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتب هذا الترتيب الأتيق، ونظمت هذا التنظيم السري^(١)، من نكتة ذات جزالة، ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشفه، وفي الثانية، ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة: الحذف ووضع المصدر الذي هو موضع الوصف الذي هو هادٍ، وإيراده منكراً، والإيجاز في ذكر المتقين، زادنا الله اطلاعا على أسرار كلامه، وتبيننا لنكت تنزيله وتوفيقا للعمل بما فيه.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ هذا هو الوصف الأول للمتقين الذين يتلقون هدى الله تعالى كما تنلقى الأرض الطيبة الغيث فتأتى بأطيب الثمرات. والإيمان: التصديق، ويتعدى بالباء لتضمنه معنى الاعتراف والإقرار والإذعان، والخضوع، ويتعدى باللام ويتضمن حيثئذ معنى الاستسلام أو الاستجابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا...﴾ (١٧) ﴿يوسف﴾ قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى...﴾ (٨٣) ﴿يونس﴾، ومن ذلك ما حكى الله تعالى عن اليهود إذ يتآمرون فيقول بعضهم لبعض، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ...﴾ (٧٣) ﴿آل عمران﴾.

وأول وصف من أوصاف المتقين الذي يميزهم - وهو في غالب أحوالهم سبب لتقواهم - الإيمان بالغيب. والغيب: كل ما يغيب عن الشخص، ويستتر، ولقد فسره العلماء بما يتفق مع أن يكون وصفاً للمتقين، فقالوا أقوالا مختلفة في ألفاظها، وتتلاقى في مضمونها أو المراد منها - فيما نعلم - كلها، ففسروه بأن الغيب هو الله تعالى؛ لأننا نؤمن به ولا نراه، فالبرهان يوجب الإيمان به، وهو لا يُرى بالحوس بل يرى بالقلب، وفسروه بأنه القدر، وفسروه بأنه الإيمان بالملائكة،

(١) السرى: الشريف. من سَرُو سَرَاوَة، وسَرَوَا: شَرُف. فهو سَرِيّ، والجمع: أسرياء، وسُرَاة.

وفسروه بالقرآن وما فيه من أخبار الملائكة واليوم الآخر، والجنة، والنار. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدى العقول إليه من علامات الساعة والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة . . . إلخ.

والحق أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، بل هي متلاقية في جملة معانيها. وإنَّا نرى أن الإيمان، بالغيب هو الإيمان بما وراء الحس من أمور غيبها الله تعالى عن عقولنا، وبيان ذلك أن الناس قسمان: ضالون ومتقون ..

فالضالون هم الذين لا يؤمنون إلا بالمادة، ولا يعرفون غيرها، وينكرون ماعداها، ويقولون: إن هي إلا حياتنا الدنيا غوت ونحيا، ولا يؤمنون بشيء وراء ذلك، ويقول قائلهم: الطبيعة خلقتنا، ونُردُّ إليها، فلا يؤمنون بإله ولا بروح إلا أن تكون عرضاً من أعراض المادة، وهؤلاء منهم الملاحدة ومنكرو الأديان.

والقسم الثاني: أمارتهم أنهم يؤمنون بالحس على أنه خاضع للغيب، فهم لا يقصرون إيمانهم على ما يحسون وما يرون وما يبصرون، بل يؤمنون بأن وراء المادة عالماً كبيراً، وأن مدبر الكون ومنشئه، هو صاحب السلطان المطلق فيه، فله تعالى محيانا ومماتنا.

إن فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة هو الإيمان بالغيب، فالمؤمن أول خلاله الإيمان بالغيب، والزنديق لا يؤمن إلا بالمادة.

إن الإيمان بالغيب يجعل النفس دائماً خاضعة متطامنة^(١) لا تستكف عن عبادة الله تعالى ولا تستكبر، ولقد كان ذلك لـ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق] وإذا كان الإيمان بالغيب يولد الخشية في النفس، فذلك هو لب الإيمان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [١٢] [الملك].

(١) تطامن: بهمز وبغير همز: سكن وانخفض. الوسيط: (طمن).

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ كانت الصفة الأولى للمتقين إيماناً بالغيب، وما يمكنه من مستورات عن المحسوسات، تولد في النفس الخشية، والإحساس بحاجة الجسم إلى الروح، وبأن الروح فيما وراء المشاهد هي التي تسير هذا الوجود الإنساني، وأن الله تعالى لم يخلق الإنسان إلا ليحاسب على ما قدم من شر أو خير، وأنه سيرى ما اكتسب إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

بعد ذكر هذه الصفة النفسية، ذكر صفتين أخريين تنبعثان من النفس، ولكن لهما مظهر عملي، وهما إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقه الله سبحانه وتعالى.

والصلاة أصلها على وزن فَعَّلَ، من صلى، فأصل الصلاة صَلَوَة، فنقلت فتحة الواو إلى ما قبلها، فصارت صلاة، والصلاة كانت معروفة عند العرب بأنها الدعاء. ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة] وإطلاقها على الصلوات الخمس من قيام وقراءة، وركوع وسجود، ونحيات - اصطلاح إسلامي.

ولقد فسر بعض العلماء الصلاة هنا بالدعاء، أي الضراعة إلى الله تعالى، والاتجاه الروحي إليه راجياً ما عنده مؤمناً به مستجيباً لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف].

ولكن الأكثرين - وهو الظاهر الذي يبدو من القول - على أن المراد بها الصلاة المكتوبة، وإن الاتجاه الروحي بالضراعة والدعاء تتضمنه الصلاة المكتوبة، وإن الصلاة قد فرضت في مكة، وصارت متعارفة، كغيرها من الكلمات التي كان في معناها عموم، ثم خصصها الإسلام.

وإقامة الصلاة الإتيان بها مستوية مقومة معدلة قد استوفت أركانها ظاهراً وباطناً، فكانت مشتملة على الخشوع والحضور، واستحضار عظمة الله تعالى في

كل لفظ يذكره، ويعبد الله بهذه العبادة، كأنه يرى الله سبحانه وتعالى، ويتوالى ذلك فى كل صلواته عامة النهار، أو أطرافاً من النهار وزلماً من الليل، فإن كانت صلاته كذلك كان مُحسباً برقابة الله تعالى، ومن أحسن برقابة الله لا يعصيه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ [٤٥] [العنكبوت] وقال عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين»^(١).

وبعض المفسرين يفسر إقامة الصلاة بالمداومة عليها من غير تقصير، وبعضهم يفسرها بالمسارعة إليها عند النداء بها، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ...﴾ [٩] [الجمعة] وبعضهم يفسرها بالسعى إليها عند إقامة الجماعة فيها، ولكن يردُّ ذلك ما روى أن النبى ﷺ أمر بأن يمشوا إليها فى سَكينة ووقار.

وإن التفسير الأول للإقامة هو الأوضح البين، والمعانى الأخرى تدخل فى ضمنه، أو تقتضيها.

وبعد أن بين الله تعالى الوصف الذى يترتب على التقوى، والإيمان بالغيب، ذكر وصفاً آخر عملياً ونفسياً، فكل ما يذكره الإسلام من تكليفات، وصفات للمؤمن، لا ينظر فيها إلى ناحية العمل فقط، بل ينظر فيها إلى ناحية العمل والباعث عليه، والنية التى هى طهارة النفس؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٢).

الوصف العملى النفسى ما عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وفى هذا الوصف بيان أن الخير الذى يكون بالصلاة فى الضراعة إليه

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عمر - رضى الله عنه.

(٢) صدر به البخارى صحيحه كتاب بدء الوحي (١)، كما رواه البخارى فى الإيمان والنذور باب النية فى الإيمان برقم ٦١٩٥ ومسلم فى الإمامة (١٩٠٧).

سبحانه وتعالى ينعطف على التَّقَى نفعاً للناس يقصدُ التقرب به إليه سبحانه وتعالى، فهو يتقرب إلى الله تعالى بذكره الدائم، وضراعه القائمة، ويتقرب إلى الله تعالى بالإِنفاق على خلقه، ومد يد المعونة لغيره، وسد حاجتهم ورفع فاقتهم لرضا الله، وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.

والرزق هو: العطاء، وهو من رزق يرزق رزقا، وهو بمعنى اسم المفعول كـ «طَحَنَ» بمعنى مطحون، و«رَعَى» بمعنى مرعى، وذَبَحَ بمعنى مذبوح كقوله تعالى: ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧) [الصافات].

والمرزوق ما ينعم الله تعالى به على الإنسان من متاع الحياة الدنيا، من حيوان ونقود، ومطاعم ومساكن، والإِنفاق إعطاؤها في كل سبل الخير، وتشمل بذلك الزكوات، والإِنفاق على من يعولهم، والإِنفاق على نفسه ليقوى على الحياة، ويقوم بما يجب عليه من طاعات، ومعاونة للضعفاء بقوته، وليقوى على الجهاد في سبيل رفع الحق وخفض الباطل، وإمداد جند الله تعالى بما يحتاجون إليه من عتاد وأسباب القوة كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ (١٠٥) [البقرة].

والإِنفاق كالإِنفاد، بيد أن الإنفاد يرمي إلى إنهاء المال، وألا يبقى منه شيء، والإِنفاق يُبقى. وقد خص بعض العلماء الرزق بأنه خاص بالحلال، فإن الله تعالى لا يرزق إلا بالحلال، والحق أن الله تعالى يفيض على ابن آدم بكل ما يقيم به أوده، ويعين به غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا...﴾ (٩) [هود] وابن آدم هو الذي يجعل منها الحلال والحرام، فإن كسبه كسباً طيباً لا خبث فيه فهو حلال، وإن كسبه من غير الحلال، أو أنفق فيما حرم الله تعالى، فهو الذي أوجد فيه الحلال، وفي الحلال الثواب، وفي الحرام العقاب. ولقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَى لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) [يونس].

والله تعالى يعد الرزق نعمة، وإذا أنفق في الحلال وكسب من الحلال كان من القربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، ولا يتقرب إليه سبحانه بكسب يكون طريقه ليس بحلال خالص. ويروى أن رجلاً يكسب من الغناء والضرب على الدف فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ أُرَانِي لَا أُرْزَقُ إِلَّا مِنْ دُفِّي يَكْفِي فَأَذْنُ لِي بِالْغَنَاءِ فِي غَيْرِ فَاحِشَةٍ، فقال له رسول الله ﷺ: «لَا أَذْنُ لَكَ وَلَا كَرَامَةٌ وَلَا نِعْمَةٌ، كَذَبْتَ أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَزَقَكَ اللَّهُ تَعَالَى حَلَالًا طَيِّبًا، فَاخْتَرْتَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ رِزْقِهِ مَكَانَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ مِنْ حَلَالِهِ»^(١).

وفى العبارة السامية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إشارتان بلاغيتان:

إحدهما: تفليص ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على ﴿يُنْفِقُونَ﴾ وفى ذلك بيان أنهم لا ينفقون من كسب خالص لهم بل إنهم ينفقون من رزق الله تعالى، فهو وحده الرزاق إن شاء أعطى، وإن شاء منع، ولست أيها المتنفق ترزق نفسك إنما يرزقك الله وحده، فأنت تعطى من عنده، وتجدود على نفسك وعلى عباده من عنده، فالتقديم للقصير أولاً، وللإهتمام بالإنفاق ثانياً.

الثانية: أن الإنفاق لا يكون بكل ما رزق الله تعالى بل يكون ببعضه وإن كان الكثير فـ «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ للتبقيص؛ أي: ينفقون بعض ما أعطاهم الله، فلا يكونون كالمبذرين، وإن المبذرين إخوان الشياطين، والإنفاق في سبيل الله تعالى لا يستكثر فيه الكثير، فكما قال ابن عباس رضي الله عنه: إنفاق ألف في برٍّ لا سرف، وإنفاق درهم في غير برٍّ سرف. وإنما موضع الإسراف أو الزيادة في الإنفاق على نفسه، والله تعالى عليم خبير.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بعد هذه الأوصاف الذاتية التي يؤمنون فيها بالغيب، فتخشع قلوبهم لذكر الله، ويطيعون

(١) رواه ابن ماجه: كتاب الحدود: باب المختشين (٣٦١٣).

الصلاة فتسجّه قلوبهم إليه ، وينفقون مما رزقهم الله تعالى على أنفسهم وعلى عباد الله تعالى إنفاقاً في غير تبذير أو إسراف .

بعد ذلك بين الله تعالى أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم من أجل صفاتهم أنهم يؤمنون برسالات الله إلى خلقه بالكتب المنزلة التي أنزلها قبل القرآن، وبالقرآن المنزل من عند الله العلي الحكيم، ويؤمنون بالشرائع التي جاءت في القرآن الكريم وفي الكتب التي أنزلت، لا يفرقون بين أحد من رسله، ولا بين كتاب من كتبه إلا أن يكون قد نسخ الله تعالى بعض أحكام في كتب أنزلها .

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ هم المتقون الذين يؤمنون ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وتكرار (الاسم) الموصول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ لا يدل على المغايرة فيمن نزلت فيهم الآيات، إنما يدل على المغايرة في الصفات، وإن كان الموصوف واحداً، كما يقول الشاعر:

إلى الملك القرم^(١) وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقد ادعى بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية. إنما نزلت في اليهود الذين آمنوا بمحمد ﷺ: كعبد الله بن سلام وغيره، وينطبق عليهم قول النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَمِنَ بِي، وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ آدَى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقَّ مَوْلَاهُ، وَرَجُلٌ آدَبَ جَارِيَتَهُ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا»^(٢).

والحق أن فصل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ عن سياق ما قبلها من غير دليل - مُخَالَفَةٌ لظاهر السياق من غير باعث يبعث على ذلك، والسياق واضح متسق

(١) القرم: السيد العظيم، والجمع قروم. واستشهد به ابن كثير لمثل ما ذهب إليه المصنف رحمه الله تعالى.

(٢) متفق عليه [أخرجه البخاري كتاب العلم (٩٧)، ومسلم - واللفظ له - كتاب الإيمان (١٥٤)].

على أن ذلك كله وصف للمتقين، فهم لإيمانهم بالحق، وخشوع قلوبهم يتقبلون الهدايات السماوية مذعنين غير معاندين ولا منحرفين، وإن المتقين يشملون من اتصف بتقوى الله تعالى مُصْغِينَ إلى تكليفه، مؤمنين بغيه مَقْرِّين بحق عبادته، وهم من كل خلق الله، لا فرق بين عربى وكتابى، ولا من كان أصلاً وثنياً، أو كان يهودياً أو نصرانياً؛ فمن اتقى الله واستقام على الجادة وآمن بالغيب واتجه إلى ربه، فالآية تشتمل عليه، ولا يخرج عنها، فالعموم أولى وأوفق مع السياق من الخصوص.

والذى أنزل إليك فى قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من تكليفات وشرائع، وما جاء به من أخبار الماضين، وقصص الغابرين، ولقد قيل إن القرآن لم يكن قد نزل كله، فكيف يكون الإيمان به قبل نزوله كله، وإنه يُرَدُّ ذلك القيل بأن بعض القرآن قرآن فى دلائل إعجازه، وأن الإيمان بالجزء إيمان بالكل، وأنه يصح أن يطلق سماع القرآن على سماع بعضه، كما قال تعالى عن سماع الجن للقرآن، إذ قال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾ (٢٩) [الأحقاف] وما سمعوا إلا جزءاً منه.

وإنه لا وجه للاعتراض بأن القرآن لم يكن قد نزل إلا بعضه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وقد ابتدأ النزول، فابتداء التنزيل المستمر نزول له كله، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾ (١٨٥) [البقرة] فما نزل فيه إلا أوله، ولكنه مستمر التنزيل إلى أن كمل الدين.

وإن الآية الكريمة تبين أن الإيمان الكامل بمحمد ﷺ، وما أنزل عليه من شرائع يتقاضى المؤمن أن يكون مؤمناً بكل النبيين السابقين وشرائعهم كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ...﴾ (١٥٦) [النساء]. ولقد روى فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا



تَكْذِبُوهُمْ وَلَا تُصَدِّقُوهُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ»^(١).

وإن الإسلام دين الوحدةانية، ودين الوحدة الإنسانية، ودين الرسالة الإلهية التي لا تفرق بين نبي ونبي إلا في آيات الله تعالى المثبتة للرسالة التي تخص كل نبي، وكلها يجب الإيمان به وتصديقه، ومن لم يصدق فقد كفر.

ولقد قرر الله سبحانه وتعالى أن شأن أولئك المتقين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فهذا ما جاءت به الديانات الإلهية كلها، فأساس الإيمان في هذه الأديان، وفي كل دين حق أن يؤمن بأن الحياة الآخرة هي المآل، وأن الحياة الدنيا سبيل إلى الحياة الآخرة، ذلك أن هذه الحياة فيها تنازع الخير والشر، وأنه معتركها، وأن الشر كثيرا ما ينتصر على الخير فيها، فلا بد للخير من أمل يكون فيه الانتصار للخير، وتجزى كل نفس ما كسبت؛ ولذلك كان الإيمان بالآخرة، إيمانا بانتصار الخير على الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...﴾ ﴿٣١﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، فيه الإيقان مصدر أيقن، وهو إحكام العلم وإتقانه، بحيث لا يكون شك ولا ريب في أية ناحية من نواحيه، ولا أى حقيقة من حقائقه، وبمقدار قوة الإيمان بالآخرة تكون قوة الإيمان فمن كان مؤمنا بربه حق الإيمان كان مؤمنا بالآخرة كأنها عيان.

وقد أكد سبحانه ضرورة الإيمان بها في تقديم الجار والمجرور على الفعل، فإن التقديم فيه مزيد من الاهتمام بهذا اليقين، واختصاص، أى أنه لا يؤمن إلا بالحياة الآخرة، وما فيها من جنة ونعيم، وبعث وحساب، وجحيم، كأنه رأى

(١) أخرجه البخارى: كتاب التفسير (٤٤٨٥)، وأخرجه أبو داود: كتاب العلم (٣١٥٩)، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٥٩٢).

العين، وأن الحياة الدنيا ليست موضع إيمان، فالحياة الآخرة وحدها هي الجديرة بالإيمان، وكان التأكيد بكلمة ﴿هُمْ﴾ فهو تصوير لليقين بصورة الجملة الاسمية، والجملة الاسمية تدل على بقاء اليقين واستمراره بحيث لا يضطرب ولا يتزعزع ولا ينسى ذلك اليوم أبداً.

وقد يقال ما موضع ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؟ ونقول في ذلك إن قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ كما فهمنا، وكما ذكرنا فيه أنهم لا يؤمنون بأن الوجود مادة، ليس فيما وراءه وجود، كأولئك الملاحدة الذين يظنون المادة هي «الموجود» وحدها، بدون أن يكون وراءها ما يؤمنون به، فذكر الله سبحانه وتعالى أن النفس التقية الخاشعة الخاضعة، لا تقول: خلقنا الله عبثاً، بل تدرك بالفطرة أن وراء المادة معنى وحياة.

أما قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فهي تخصيص من العموم، والله ولى المؤمنين فى الدنيا والآخرة.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ذكر الله تعالى ما تحلى به المتقون الذين يؤمنون بما غيَّب الله تعالى عنهم، ودلت عليه الفطرة، والذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله تعالى، ويؤمنون بالرسالات الإلهية، ويوقنون بالآخرة، وبعد أن ذكر هذا ذكر سبحانه وتعالى حكمه - تعالت كلماته - عليهم، مؤكداً ذلك، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وأولئك: إشارة إلى حالهم موصوفين بهذه الصفات قائمين بهذه الصفات، والإشارة إلى الصفات وتعقيب الحكم بعد الإشارة يومئ إلى أن هذه الصفات هي علة الحكم بأنهم على هدى من ربهم، وكررت الإشارة لبيان أن هذه الصفات أيضاً هي سبب الفوز بالنعيم المقيم، والبعد عن العذاب الآليم، فالتكرار للتنبيه على أنها سبب للثانية كما هي سبب للأولى.

والتعبير بـ ﴿عَلَى هُدًى﴾ بالتعديّة بعلى إشارة إلى العلو على الهدى والتمكن، كما يقال: ركب فلان متن الغواية أو علا على الهداية، فكأنه صار مستمكنا عليها لا يفارقها، ولا تفارقه. فأصحاب هذه الصفات العالية ينالون الهداية ولا يزيلونها، فهم في هداية دائمة مستمرة.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ معناها أن هذه الهداية جاءتهم من ربهم الذى ربهم وكونهم ووفقهم إلى سبيل الخير والعمل الصالح، والإيمان واليقين باليوم الآخر، فإسناد الهداية إلى أنها من الرب الكريم بيان لشرفها واستمرارها مع تمكّنهم منها؛ لأنها من رب هذا الوجود الذى ربّه ونمائه وهذبته وأعلاه.

وهنا إشارتان بيانيتان:

إحدهما: الإشارة بالبعيد لوجود اللام، والبعد هنا بُعد المنزلة، وعلوها وشرفها، فهؤلاء الأتقياء الأطهار الذين نزهت نفوسهم، وسامتوا^(١) أعلى العلاء، يشار إليهم بالبعيد إعلاء وتشريفاً وتكريماً.

الثانية: تكرار اسم الإشارة أولئك، ففي هذا التكرار بيان تنويع الفضل الذى حكم الله تعالى عليهم، فهو قد حكم سبحانه وتعالى عليهم حكمين كريمين أولهما: الهداية الكاملة الدائمة التى نالوها، وركبوا متنها وعلوا عليها، والحكم الثانى: أنهم ينالون الفوز، والفوز هنا هو الفوز فى الدنيا بعلو نفوسهم، واستقامتها، والاتجاه إلى معالى الأمور ورضا الله تعالى، وهو أكبر جزاء، فريضان من الله أكبر، والفوز فى الآخرة بالنعيم المقيم.

وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك الفلاح الذى ينالونه بالجملة الاسمية، فالتعبير بالجملة الاسمية يدل على دوام الفلاح، وأنه دائم بدوام من يعطيه، وهو رب

(١) سَامَتَ الشَّيْءُ: قابله ووازاه وواجهه. [الوسيط - س م ت].

العالمين، وأكدته بتعريف الطرفين، وهما اسم الإشارة، وكلمة: «المفلحون»، وتعريف الطرفين يدل على القصر، أى أنهم هم المفلحون وحدهم دون غيرهم، فهم قد خلصت قلوبهم وعقولهم وكل مداركهم للحق جل جلاله، وفاضوا بخيرهم، وتحملوا المشاق فى سبيلهم، وآمنوا بكل الرسالات، ولم يطمعوا بغير أن يعدوا أنفسهم لحكم ربهم.

وأكد سبحانه وتعالى الحكم بأنهم المفلحون دون غيرهم بضمير الفصل وهو ﴿هُمْ﴾ فإن فى ذكره فضل التأكيد بأنهم المفلحون وحدهم، وأنه لا ينال منالهم إلا من سلك مثل سبيلهم، واختار مثل طريقهم . . اللهم اجعلنا ممن يقتدى برسلك وبهم، فإنهم هم الفائزون.

والمفلح - من الفلح بمعنى الشق والقطع، ويطلق المفلح على الفائز، فكأنه قد شق الطريق، ونالته المتاعب حتى نال مطلوبه، وفاز بمرغوبه، فما وصل إليه إلا بجهد جاهد، وعمل ولُغوب حتى نال ما نال، وذلك هو الفلاح، فلا فلاح إلا إذا كان ثمرة لجد وجهاد، وطلب، وسير فى الطريق إلى غايته، فالفوز الرخيص بأمر لا يعد فلاحاً، وإن الإنسان يعلو على ملائكة الله تعالى بجده ومغالbته للأهواء الإنسانية، حتى يتتصر عليها، ويصل إلى الملكوت الأعلى؛ لأنه وصل بمغالبة وجهاد، والملائكة لا مغالبة فيهم؛ لأن الله خلقهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أعلى صنف في الوجود الإنساني، وهم الذين علوا بنفوسهم وأعمالهم، وذكر في مقابلهم الذين أركسوا أنفسهم في مهاوى الباطل حتى سدت عليهم كل مسالك الإدراك للحق، ثم ذكر من بعدهم الحائرين بين الهداية والضلال، يرون نور الحق ويبصرونه، ثم يتركونه، فيتركون الحق وقد بدت لديهم معالمه، ويتجهون إلى الظلام، وقد أشرق نوره، ولمعت في الوجود شمس، وأولئك هم المنافقون.

وقد روى عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتين في نعت الكافرين وثلاث عشرة آية في المنافقين^(١).

وقد تم بيان صفات المتقين، ونبث في آيتي الكافرين، فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

بين سبحانه الذين يتقبلون هداية القرآن، فينزل على قلوبهم كما ينزل الغيث على الأرض الطيبة، فتنبت أطيب النبات، وتثمر خير الثمر. وهم المتقون الذي جرى في القرآن الكريم في الآيات السابقة وصفهم. والكافرون جاء وصفهم في الآيات الكريمة على نقيض المتقين، إذ إن هؤلاء المتقين امتلأت نفوسهم بالاتجاه إلى ما وراء المادة، فلم يستول على قلوبهم بريق المادة، ولم يستغرقهم سلطانها، بل انفعلت نفوسهم متأثرة بما وراءها متعرفة أسرار الوجود من الموجود، أما الذين كفروا فقد استغرقتهم المادة، وسيطرت عليهم، فلا يفكرون إلا فيها، وفيما تحيط به، والله سبحانه وتعالى خلق كل نفس، وهداها، فإن استقامت في إدراك الحقائق أوصلها إلى الحق، وإن عميت واعوجت ابتداء، فلم تر إلا المادة سارت في طريق غير سوى. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا

(١) تفسير القرطبي - تفسير سورة البقرة آية (٨).

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ... ﴿٧٨﴾ [النحل]. فالله تعالى خلق الخلق، وأودع كل نفس طريق العلم، فأعطاه أدوات المعرفة كلها، وجعل السمع يستمعون به والأبصار يبصرون بها، والقلوب يدركون بها، فمن جعل هذه الأدوات متجهة إلى النور فقد أبصر، فيكون من المتقين، ومن أحاطت به مادة الدنيا، ولم ينفذ ببصره وقلبه إلى ما وراءها، فإنه لابد سائر في طريق الغواية، مبتعد عن طريق الهداية، وكل إنسان وما يُسرُّ له، فإن غلبت عليه السعادة اتقى، وإن غلبت عليه الشقوة كفر.

والكفر فى أصل معناه اللغوى السُّتْرُ، ومن ذلك إطلاق الكفار على الزراع لأنهم يسترون البذر لينبت نباتا طيبا كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ...﴾ [الحديد]، أى أعجب الزراع نباته، وقد أطلق من بعد ذلك على ستر الفطرة وطمس الحق؛ لأن الفطرة الإنسانية فطرة الله؛ فطر الناس عليها تتجه إلى الحق، وتدرك نوره، فالكفر ستر نور الفطرة الذى ينبثق نحو الحقيقة، كما يطلق الكفر على جحود النعمة، وإنكارها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم].

ومن ذلك ما روى عن النبى ﷺ إذ قال: «أُرِيتِ النارَ فلم أرَ منظرا كالיום قط أظفع، ورأيت أكثر أهلها النساء، قيل: بِمَ يا رسول الله؟ قال: بكفرنهن. قيل: أَيْكُفِّرْنَ بالله؟ قال: يكفرن العشير، وَيَكْفُرْنَ الإحسان، لو أحسنت إليهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط»^(١). وذكر الله تعالى الكفر من غير مُتَعَلِّق فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للدلالة على جحود كل خير، فلا يكفر الكفار بالله تعالى وحده، بل يكفرون بكل نعمة، وينكرون كل خير، وتغلب عليهم

(١) أخرجه البخارى: كتاب الإيمان - باب: كفر دون كفر (٢٩)، ومسلم: كتاب الكسوف - باب: ما عرض على النبى ﷺ (٩٠٧).

مادية شرسة لا يؤمنون إلا بها وينكرون ماعداها، وتسد عنهم مسامع الخير، فلا يصلون إليه، ولا يتجهون نحوه، وبذلك تسد مسامعهم عن كل إنذار بعاقبة ما يفعلون.

وإذا كانوا قد فقدوا كل الإنصات إلى ما يهديهم، فهم لا يؤمنون سواء أأنذرتهم أم لم تنذرهم، والإنذار يفسره علماء اللغة بأنه تخويف من أمر مستقبل يتوقع وقوعه أو يؤكد وقوعه، وعند المنذر سعة من الوقت يمكنه فيه أن يتوقاه، وقالوا: إذا لم يكن متسع من الوقت لتفاديه يكون ذلك إشعارا .

ومعنى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ﴾، أنه يستوى عندهم إنذارك وعدم إنذارك، فالاستفهام هنا للمعادلة، أى أنه يستوى الإنذار وعدمه، والمصدر هنا ثبت بالاستفهام، أو من غير أداة مصدر، كقولك: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أى: سماعك بالمعيدي خير من أن تراه.

ومعنى ذلك أنه سجل عليهم الكفر والجحود؛ لأن الشر قد استغرق نفوسهم، ولم يكن ثمة موضع لسماع داعى الهدى حتى أغلق قلبه عن كل ما يدعو إلى الخير، ولقد قال ﷺ: «إن الرجل ليصدق فتنتك فى قلبه نكتة بيضاء، وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه»^(١). وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليقترف الذنب فيسود قلبه»، فإن هو تاب صقل قلبه^(٢)، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين] أولئك الذين كفروا وسترُوا الفطرة، وأطفأوا نور الإيمان بتوالى ذنوبهم، واستمراء جحودهم، تحيط بهم خطاياهم فلا يؤمنون بالحق سواء أأنذرتهم أم لم تنذرهم.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى بـ «إِنَّ» الدالة على تأكيد حكم ما بعدها.

(١) رواه مالك فى الموطأ: كتاب الجامع.

(٢) رواه الترمذى كتاب تفسير القرآن (٣٢٥٧)، وأحمد (٧٦١١)، وابن ماجه: الزهد (٤٢٣٤).

أكد الله تعالى هذا المعنى شارحا حالتهم النفسية، وانطباعها على الشر، وعدم تقبل الهداية، فقال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾.

الختم مصدر ختمت ختما فهو مختوم ومعناه تغطية الشيء، والاستيثاق من الغطاء حتى لا يدخله شيء من خارجه، والختم يكون محسوسا، وإطلاقه على الأمور المعنوية يكون مجازا أو استعارة، ويكون المعنى أن الله تعالى شبه ابتعادهم عن الهداية، والحيلولة بين قلوبهم ووصول الحق إليها، بسبب ما تواردت عليه من أسباب الشك والارتياب وإظلام القلوب، وعدم قبولها لنور الهداية - شبهه بحال ما ختم عليه بختم استيثاقا من ألا يفتح ويدخل عليه شيء من الإيمان، وكان على القلوب، فلا يكون معها مكان لهداية، وعلى السمع، فلا يفتح لسماع كلمة حق هادية، وذلك من كثرة ما توارد عليها من أسباب العصيان والجحود، حتى طبع الله تعالى عليها بكفرهم، فقد قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين؛ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا (أى مقلوبا) لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا»^(١) رواه الصحيحان، ولقد قال ابن جرير فى تفسيره: «إن الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها آتاها حيث الختم الذى ذكره الله سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾».

والمعنى أن الذين أركست قلوبهم بتضافر ذنوبهم، وتوالى جحودهم، واستغراق المادة تغلق عليهم مسالك الهداية، وتسد عليهم مسام النور، فلا تصل إليهم هداية.

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان: باب: بدأ الإسلام غريبا (٢٠٧).

وعبر عن ختم قلوبهم وسمعهم بجمع القلوب، وإفراد السمع؛ لأن الأسباب التي تغلق القلب متعددة، بتعدد أصناف الهوى، فكأن كل واحدة تسكن قلباً، وتتعدد القلوب بتعدد ما ملأها من أهواء، وتتضافر هذه الأهواء، وأفرد السمع؛ لأنه طريق واحد، وجارحة واحدة، ونور الحق واحد، وصوته واحد، ولكن لا يسمع.

والوقف على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فإن ختم القلوب يكون على القلب، وعلى السمع، أما الأبصار، فإن عليها غشاوة، وتكرار ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ للدلالة على تقوية الختم، وتأكيده بحيث لا يصل إلى النفس منه شيء عن طريق القلب المدرك أو السمع الواعي.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ الغشاوة الغطاء الذي يحول بين البصر والرؤية، وذكر الأبصار بالجمع بدل الأفراد لتعدد المبصرات الموجهة التي يتوجه البصر إليها، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات أوتاد، وماء ينزل من السماء، ومرسلات حاملات للرياح، وخلق مجدد مستمر، وحياة وموت، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية] وهكذا تتعدد المبصرات، وفيها الآيات البينات الدالة على قوة القادر على كل شيء، القاهر فوق عباده.

فلتعدد هذه المبصرات ذكرت الأبصار بالجمع لا بالمفرد، والله بكل شيء محيط.

ولقد ذكر الله تعالى عقاب أولئك الكافرين الذين لا تجدى معهم النذر، ولا يجدى معهم بيان الحق في ذاته، وقد طبع الله تعالى على قلوبهم التي شعبتها الأهواء، وعلى سمعهم فلا يستمعون للحق، ووضع الله على أبصارهم غطاء يحول

بينهم وبين معرفة الآيات البينات، وبين سبحانه وتعالى ما قرره لهم من عقاب، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب كالنكال، وقد ذكر الزمخشري المعنى اللغوي له، فقال في كشفه: العذاب مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه، كما تقول: «نكل عنه»، ومنه العذب، لأنه يقمع العطش ويردعه، ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخا لأنه ينقح العطش أى يكسره، وفراثا لأنه يرفثه على القلب^(١)، ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذابا، وإن لم يكن نكالا، أى عقابا يرتدع به الجانى عن المعادة.

هذا تحليل لغوى كتبه الزمخشري ونقلناه، والذي نخرج منه أن العذاب نكال وإيلاء فادح لمنع المعادة، وأنه يلتقى مع العذاب، فسبحان الله يجعل من العذب الذى ينقع العطش عذاباً يمنع الجريمة.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أى أنهم يستحقون استحقاق اختصاص ومِلك، عذابا عظيما، كبيرا ليس بصغير، جزاء ما كان من تشويه فطرتهم، والطمس على قلوبهم، عذابا كبيرا، لا يكتنه كنهه، ولا يعرف قدره.

وفى الحقيقة، إنهم ينالهم عقابان: أحدهما - ما فسدت به طبائعهم وتشوهت به مداركهم، فإن نزول الإنسان عن مرتبة الإنسان إلى ما دونه من مرتبة الحيوان والخنازير والقردة الذين ينزون إلى الشهوات نزواً هو فى ذاته عقوبة مستمدة من ذواتهم.

العقوبة الثانية أن لهم عذابا عظيما يوم القيامة. والتنكير فى ﴿غِشَاوَةٌ﴾ فيه إشارة إلى أنه نوع من أنواعها خاص بهم أساسه تعالى على الحق.

(١) كما فى الكشف / ج ١ / ١٥٥، وفى لسان العرب: النَّقْحُ كسر الرأس عن الدماغ، والنَّقْحُ: الماء العذب البارد الذى ينقح العطش أى يكسره ببرده.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخْدِعُونَ
إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى حال المتقين ثم حال الكافرين ومآلهم، بين الله سبحانه وتعالى حال الحائرين بين الحق والباطل، وبين العداوة وإظهار المودة، وهم المنافقون. وقد ذكرهم سبحانه وتعالى كلماته في ثلاث عشرة آية، لتنوع أعمالهم، وتغير أحوالهم، بسبب حيرتهم، ونفاقهم، وأوهامهم المضلة.

ابتدأ سبحانه وتعالى بيان حالهم. يقول تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ نقل سبحانه وتعالى قولهم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ﴾.

الناس أصلها الأناس، ويعبر بالناس في هذا بأنهم ليس لهم من الصفات إلا الوصف الآدمي الأصلي وهو أنهم ناس من الناس، فلا يقال متقون، ولا يقال مؤمنون، ويقال كفرون فقط؛ لأن لهم لونا اختصوا به، وهو أنهم كفرون، أما هؤلاء المنافقون، فإنهم حائرون، فلا يعبر عنهم إلا بأنهم ناس، لا دين لهم ولا خلق، وليس معنى ذلك أنهم خيرٌ حالا من الكافرين، بل هم أشد كفرا، وأبعد إغالا في الشر، وأكثر فسادا، وإذا كان في الكافر وضوح، فهو يعلنه، فأولئك كفرون يُبهمون ويجنبون، ولا يصارحون.

ولم يذكرهم الله تعالى في الذين لا يجدى فيهم إنذار نذير، وأن الله تعالى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، لم يذكرهم الله في

أولئك، وإن كانوا داخلين فيهم؛ لأنهم جمعوا مع هذه الأوصاف أوصافاً أخرى، فكانوا أشد عند الله مقتاً، وأبعد في الفساد والأذى، ذلك أنهم زادوا المراءاة والاستهزاء بالمؤمنين، وبث روح الفشل فيهم، وموهوا، وعادوهم أشد من عداء الآخرين، وحاربوا في العقيدة والفساد بأشد مما حاربوا فكانوا يحاربون بالعداوة يُسرونها فتكون أفعال وبإشاعة التردد وبث روح الهزيمة عند الإقدام، وبإشاعة المآثم والمفاسد في الذين آمنوا.

هنا يسأل سائل : كيف ينفي عنهم وصف الإيمان، وقد كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ (البقرة) [١٤٦] وأنهم كانوا يستفتحون على المشركين بنبي جاء أوانه، وأدركهم زمانه. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ...﴾ (البقرة) [٨٩].

وإذا كانوا كذلك فهم يعرفون النبي! فكيف يكون قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر، ليس فيه إيمان، ومنفى بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؟ ونقول في الجواب عن ذلك: إن الإيمان ليس هو المعرفة المجردة، إنما هو التصديق والإذعان والتسليم، وهؤلاء مع معرفتهم الحق في عهد النبي ﷺ وكانوا من اليهود، فلم يذعنوا ولم يسلموا، ولم تصل المعرفة إلى تصديق؛ ولذلك نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عنهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى ليسوا مؤمنين. واليوم الآخر وهو يوم القيامة، وما يجرى فيه من حساب ثم ثواب أو عقاب.

فالله سبحانه وتعالى أكد نفى إيمانهم بالجملة الاسمية، أى أنه سبحانه نفى الإيمان وأصله عن ذواتهم، كما أكدوا هم فى نفاقهم الإيمان بالله، وباليوم الآخر، بتكرار الباء فى بالله وباليوم الآخر.

وهنا إشارة بيانية إلى أن المنافقين ليس من شأنهم الإيمان بشيء؛ لأن الإيمان بشيء من الأشياء يقتضى الإذعان والتصديق والتسليم، والعمل بموجب الاعتقاد والاستجابة، والمنافق قلبه غير مستقر، ولا مطمئن إلى شيء، هو قلب خاوٍ، والحقائق تتردد فلا تسكن، ولا تدفع إلى عمل ولا اطمئنان، فلا يؤمن بشيء، ولقد قال ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين، لا تدرى إلى أيهما تذهب»^(١)، وقال تعالى فى وصفهم: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ...﴾ (١٤٣) [النساء] ومهما تكن حالهم فهم أشد الكفر عنادا وعتسا وخبثا ومقتا عند الله ورسوله، وعند الناس أجمعين. ولقد يبلغ النفاق أن يغلب على نفوسهم، فيظنون أنهم يخادعون الله، ويحسبون أنه ليس عليهما بخفايا نفوسهم؛ ولذلك قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الخدع: أن يظهر الشخص أنه يريد أمرا ليخفى إرادته الحقيقية، ومقصده، ومن ذلك ضَبَّ خادع إذا أخفى نفسه فى جحره، وقد أراد أن يضل من يراقبه، فأظهر الخروج من باب ويختفى فى غيره.

وكذلك حال أولئك المنافقين أرادوا أن يظهروا الإيمان أو أظهره، وهم يبتغون الكفر، ولا يريدون غيره، بل يريدون تضليل المؤمنين، كحال ذلك الضب الخادع الذى يوهم مراقبه أنه خارج من ناحية ليختفى فى ناحية أخرى، فالنص الكريم تصوير لحالهم فى فعلهم من إظهار الإيمان لأهل الإيمان، وإبطانهم الكفر، وتبادل كلماته فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) [البقرة] وفى آية أخرى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ (١٤) [البقرة].

فآية الكريمة وصف لحالهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي وصف لحالهم وما يرتكبون، فعملهم عمل المخادع الذى يخادع الله والذين آمنوا بأن يوهبهم ويخادعهم فيظهر الإيمان ويبطن الكفر والعداوة وتربص الدوائر، ويحسب أنه يخادع الله ورسوله والمؤمنين. والمخادعة مفاعلة بين اثنين كلاهما يريد خدع صاحبه، والمفاعلة بين أولئك المنافقين من جانب والله ورسوله من جانب آخر، وكيف يخادعون الله، وهو علام الغيوب الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض؟ وكيف يخادعهم الله تعالى وهم فى قبضته، وكل من فى السموات والأرض فى قبضته يوم القيامة؟ وقد أجاب الزمخشري عن ذلك فقرر أن الله تعالى يعاملهم معاملة المؤمنين، فيتزوجون، ويرثون، ويعاملهم كأنهم المؤمنون الصادقون فى الإيمان، فهم يخادعون بإظهار ما لا يبطنون، والله تعالى يعاملهم بما يظهرون، ولا يعاملهم بما يبطنون، أو يقال إن المعنى أنهم يتزلون بالمؤمنين ما يحسبونه مخادعة لهم، وإيهامهم بأنهم آمنوا، وما هم بمؤمنين، أو يقال إن المخادعة للنبي ﷺ ومن معه، وهم يعاملونهم معاملة المخادع لهم، وإن كان النبي ﷺ يعلم من لحن قولهم خفى أمرهم كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...﴾ (٢٠)

[محمد].

والمعنى فى الجملة بعد أن خرجنا المخادعة تلك التخريجات المختلفة أنهم يظهرون ما لا يبطنون محاولين أن يتزلوا بالمؤمنين ما تكون كالمخادعة، وقرر ذلك الراغب الأصفهاني فى المفردات فذكر أن الخداع للرسول ﷺ وأوليائه من المؤمنين، وفى التعبير عن ذلك بخداع الله تعالى إشارة إلى أن الذين يخادعون النبي إنما يخادعون الله تعالى، وأن الله تعالى كاشف أمرهم لنبيه ﷺ وأنهم إذ يضارونه، ويخفون عليه أمورهم، يبطنون عنه سبحانه وتعالى ما لا يدون وهو من ورائهم محيط.

وإنهم إذ يخادعون المؤمنين بإظهارهم الإيمان، وإبطانهم الكفر، إنما يخدعون أنفسهم، بأن يظهروا لغيرهم الإيمان وأمرهم مكشوف غير مستور، وحالهم معروف، وكفرهم يبدو فى لحن أقوالهم، فهم يحسبون أنهم يخفون على غيرهم أمرهم، وهو معروف لغيرهم، فهم المخدوعون أنفسهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أى أنهم يحاولون أن يخدعوا غيرهم فيظنون أنهم ستروا كفرهم وهو مكشوف لمن يخدعونهم، وأن المؤمنين يعاملونهم بما يظهرون حتى يكون يوم الدين، فهم المخدوعون؛ لأنهم يعاملون كأنهم مسلمون حتى ينكشف أمرهم، ولكنهم لا يشعرون، أى لا يحسون بأنهم مخدوعون مغرورون وأمرهم بين. والله من ورائهم محيط.

وإن فى ذلك القول الحكيم تصويراً دقيقاً لحال المنافقين، إذ إنهم لفرط ضلال نفوسهم، وفقدانهم الإيمان تفسد مداركهم، وتضل أفهامهم، فيحسبون أمرهم خفياً على غيرهم وما هو بخفى، وتأخذهم عزة النفاق، فلا يدركون ويستمرثون كذبهم ونفاقهم، حتى يغتروا فيحيط بهم الضلال وهم لا يشعرون.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ الآفات الاجتماعية والنفسية أمراض تصاب بها النفس الإنسانية، وهو ضعف يرد إلى النفوس، وأفحش هذه الأمراض النفاق، فهو ضعف يصيب النفوس يبتدىء من أحقر الأفراد إلى أن يصل إلى أعلاها، ولا يظن أن النفاق يكون فقط لجلب نفع آثم، أو لدفع ضرر جائم، بل هو ضعف نفسى يحيط بالإنسان ويتغلغل فى نفسه، وإطلاق كلمة ﴿مَرَضٌ﴾ هنا، يصح أن يكون من قبل الحقيق؛ لأن المرض هو ما يؤذى النفس، ويلقى بها فى الضعف، وليس ذلك مقصوراً على المرض الذى يصيب الجسم بل هو يشمل ما يصيبه فى أعصابه، كالجنون الذى يستر العقل، وكالعتة الذى يمنع الإدراك، وكالسفه الذى لا يدرى النفع من الضرر، فهذه كلها أمراض، وتعد

فى اللغة أمراضا، كذلك مرض النفاق الذى يصيب النفوس بالوهن والخيرة، والحقد والبغض لخير الناس، وأن يكون صاحب هذا المرض غير مستقر بل هو فى بلبال مستمر، تزداد حاله كلما تمكن فيه هذا الداء، وهو ساكن فى النفس لا تخرج مظاهره، وكلما استتر واستكن ازداد قوة وإيغالا فى النفس حتى يصعب علاجه، فإذا كان الكذب المجرد قد يعالج، فالنفاق مرض لا علاج له.

وكان يراد المجاز بتشبيه النفاق بالمرض العضال الذى لا يشفى، ومرض النفاق فساد القلب، وقد صور ذلك الزمخشري فى قوله: والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد، والغل والحسد، والميل إلى المعاصى والعزم عليها والبغضاء؛ لأن صدورهم كانت تغلى على رسول الله ﷺ والمؤمنين، غلا وحنقا، ويبغضونهم البغضاء التى وصفها الله تعالى فى قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صدورُهُمْ أَكْبَرُ...﴾ [آل عمران].

ومن التفسير المأثور أن المرض هو النفاق، وهو مرض إذا أصاب القلب فقد الإيمان بأى شىء من شئون الأخلاق أو الاتصال بالناس، فإنه يصبح فى غربة عن أهل الحق وأهل المعرفة، والاتصال بهم، فيكون فى جو معتم، تسوده الكآبة ولا يظله نور الحق، وذلك شر ما يقع فيه الإنسان.

وإن المنافق إذا أوغل فى قلبه النفاق انتقل به من دركة إلى دركة أسفل منها، فيزيد خسرانا بإيغاله. كالسائر فى متاهة، كلما أوغل فيها ازداد ضلالا وبعدا عن الطريق الجدد، حيث الأعلام^(١). وهذا معنى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أى أنهم بسيرهم فى هذا الطريق الضال يزدادون إيغالا فيه، فيزيد مرضهم بتقدير الله تعالى؛ لأنهم قد أوغلوا مختارين فيه.

(١) مفرد علم: شىء منصوب فى الطريق يهتدى به. [الوسيط ع ل م].

وهكذا كل المعاصى والذنوب التى هى أمراض القلب، من اختارها، فقد اختار الضلالة كلما سار فيها ازداد بعدا عن الحق وعن الطريق القويم فيوغل فى المعاصى، لا يعود ولا يتوب.

وقد بين الله تعالى عاقبتهم، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى عذاب مؤلم شديد، فالإيم هنا بمعنى مؤلم، يصيب أجسادهم يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [البقرة] ١١٧ أى مبدع السموات والأرض يعنى منشئها على غير مثال سبق، فيكون لهم جزاء ان أحدهما دنيوى، وهو متولد من النفاق نفسه إذ يكونون فى اضطراب لا يستقرون على قرار، ولا يطمثون؛ إذ الغل والحقد والحسد يقتل نفوسهم قتلا، ويستمرون على ذلك، حتى يكون هذا مرضاً خبيثاً يسكن نفوسهم، حتى ينغص عليهم كل حياتهم، وتكون كل نعمة تنزل بأهل الإيمان والحق نعمة عليهم.

الجزء الثانى هو العذاب الشديد المؤلم الذى ينالهم يوم القيامة، وهو ينتظرهم، وهم واردون عليه بلا ريب، ولقد بين الله سبحانه وتعالى سبب ذلك العذاب الذى هو الجزء الثانى فقال تعالت كلماته: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فالباء هنا باء السببية، أى بسبب الكذب المستمر الذى كانوا يقومون به، فـ «كانوا» هنا دالة على الاستقرار والدوام، كما فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [٧٠] [الفرقان] وكما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [٧٢] [الأحزاب].

فمعنى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، بسبب كذبهم المستمر الذى لا ينقطع، وقد اتصفوا بالكذب: (١) فكذبوا على أنفسهم، فكلما بدا لهم ضوء الحق طمسوه، وغروها الغرور، وخدعوها بأنهم أهل الحق، وموهوا عليها، كما موهوا على الناس، فصارت فى عماء، وغلبت عليها شقوتها.

(٢) وكذبوا على الرسول وأصحابه، وقالوا آمنا بالحق وباليوم الآخر.

(٣) وكانوا لا يصدقون فى حديث مع الناس، ولقد قال النبى ﷺ فى وصف المنافق: «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا
 كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
 وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
 إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ
 بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أوصاف المنافقين النفسية التى استغرقت نفوسهم، وصارت مرضاً ملازماً لهم كالمرض الجسمى العُقَام الذى لا يزائل المريض حتى يقضى عليه، وفى هذه الآيات يبين الله تعالى أحوالهم فى معاملة المؤمنين، فذكر سبحانه أنهم يفسدون فى الأرض ويزعمون لطفوانهم^(٢) أنهم يصلحونها، وأنهم فوق الناس، ويمارون فى القول، ويظهرون للمؤمنين بوجه ولغيرهم من إخوانهم بوجه آخر حين يلقونهم، يحسبون أنهم يستهزئون بالمؤمنين.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الإيمان - باب: علامة المنافق (٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان - باب: خصال المنافق (٨٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) الطغوان: لغة فى الطغيان من طغى: إذا جاوز القدر وارتفع وغلا فى الكفر. [لسان العرب - باب الطاء - طغى].

ولقد كان المنافقون يفسدون فى الأرض بين الناس، والفساد فى الأشياء أن تخرج عما خلقت له إلى ما يضر، والصالح استقامتها حتى تكون فى دائرة النفع الإنسانى العام، والمنافقون فى عصر النبى ﷺ وفيما بعده من العصور شأنهم الفساد، ومن كانوا فى عصر النبى ﷺ قد وضع فسادهم، واستشرى شرهم، فهم قد كفروا بالحق إذ جاءهم، وأنكروا كتاب الله تعالى ورسوله الأمين، وقد عرفوه، ومشوا بالنميمة والسعاية بين الناس، وكلما أطفأ الله ناراً للحرب أوقدوها، ومالخوا المشركين على المؤمنين، وإذا خرج المؤمنون للقتال عملوا على أن يهموا بالفشل، يعرفون ضعفاء المسلمين ويغرونهم بالتخلف، يستغون الفتنة بين المؤمنين ويقلبون الأمور لإثارتها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨) [التوبة].

ولقد قال ابن جرير فى تفسيره فى بيان إفسادهم: أهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم فى دينه الذى لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم على المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه، مقيمون على الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين فى الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها، فهم يحرضون المشركين على المؤمنين، ويتفقون معهم، ويدلون على عورات المؤمنين، ومقاتلتهم، وهكذا.

ويسأل سائل: لماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ونقول: إن ذلك لبيان عموم فسادهم، وأنه يتناول المدينة وما حولها. وأن الأرض موطن فسادهم، يثيرون الحروب فيها، ويشيعون الشر فى ربوعها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ مع البناء للمجهول للإشارة إلى عموم شرهم، وأن الناس جميعاً يتساءلون: لماذا كان ذلك الفساد؟ وأى مآرب لهم فيه؟

ولسان الخير يقول لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فهم في حال من الإفساد، يستنكرها كل إنسان، ولا يرتضيه رجل للأخلاق عنده مكانة، وللخير عنده منزع، فتجهيل اللائم لهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لعموم المستنكرين لحالهم، وأنهم في وادٍ والناس في وادٍ آخر، فلا تجد أحدا يوالى منافقا إلا إذا كان على شاكلته.

وإن أشد فساد الفاسد أن يغتر بحاله، ويزعم أنه ليس بفساد، فهو معكوس النفس مركوس، قد انقلبت الحقائق في عقله، فلا يعرف الخير من الشر، ولا الفساد من الصلاح، وهكذا المنافقون تنكس عليهم الأمور، فجميعها منكوس.

ولذلك يرد المنافقون قول من يستنكر فسادهم بما حكاه الله تعالى عن نفوسهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أى قصرُوا نفوسهم على الإصلاح، وذلك أن «إنما» تدل على القصر أى قصرهم على الصلاح لا يكون منهم فساد قط، وذلك أعظم الغرور وأشد الفساد، فكل ما يفعلون مما ذكرنا وما لم نذكر يعدونه إصلاحا، ولا يعدونه فسادا، وهكذا زين لهم سوء عملهم فأروه حسنا، وذلك الغرور لا يكون إلا ممن أحاطت به خطيئته، فأصبح لا يرى إلا ما يكون فى دائرتها، وقد سدت عنه كل منافذ الخير.

وقد حكم الله تعالى عليهم ذلك الحكم القاطع مؤكدا له أفضل تأكيد بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فالله تعالى يحكم عليهم بأن الفساد يستغرقهم وأنهم مقصرون عليه، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك الحكم بعدة مؤكدات:

أولها: التعبير بـ «ألا» لأن لا نافية دخلت عليها همزة الاستفهام الدالة على التنبيه والنفي، فهي نفى مؤكّد لصلاحهم، وتأكيّد لفسادهم.

وثانيها: التأكيد بـ «إن» المؤكدة لفسادهم.

الثالثة : ضمير الفصل، وهو «هم».

الرابعة - تعريف الطرفين^(١) وهو دال على القصر، أى أنهم مقصورون على الفساد، لا يتجاوزونه، وهو محيط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، فهم يسارعون فيه، ولا يخرجون عنه.

ومع هذه الحال، وهذا الحكم المؤكد ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، والشعور هو الإحساس الجسدى والنفسى والعقلى بخطأ ما يفعلون، فالشر قد استغرقهم، حتى أصبحوا لا يدركون بعقلهم الذى غمره الفساد ولا بنفوسهم الأمانة بالسوء، ولا بإحساسهم الذى آفته آفة الشر.

وإذا كان فسادهم قد ذاع وشاع فسيبه أنهم جعلوا أنفسهم فى حيز فكرى ونفسى وأهل الإيمان فى حيز غيره، وشأن المنافق دائما أنه يعتقد أنه فى مكانة من الفكر والتدبر، وغيره ممن يدركون الحق فى سفه وحمق، فهم يريدون أن يصرفوهم عن الإيمان ليضلوهم، ويفتنوهم لولا أن يتداركهم الله برحمته، فيستنقذهم منهم.

كانوا صنفا قائما بين الناس لا هم كفار أعلنوا كفرهم، ولا هم مؤمنون قد رضوا بالإسلام ديناً، وانحازوا بحالهم التى هى أشد كفرا ومقتا عند الله وعند الناس، فكان من سنة الناس أن يسألوهم لماذا لم يؤمنوا بقلوبهم، ولماذا يقفون ذلك الموقف الحائر المحير. لابد أن يكونوا كفارا معلنين كفرهم، وإلا اختاروا الإيمان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ بنى الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمجهول للإشارة إلى عموم القائلين لأن موقفهم المتردد المتذبذب بين حق خالص لا ريب فيه، وباطل لا ريب فى بطلانه، فهم يعلنون الإيمان، ولم يعلنوا الكفر، وإن كانت حالهم أشد الكفر وأمقته، كان هذا السؤال يتردد فى كل القلوب،

(١) أى : اسم إن وخبرها، وأصلهما المبتدأ والخبر، إذا عرفنا دل على القصر.

ويتساءل عنه كل أهل العقل والمنطق؛ ولذلك كان التعميم فى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قال المخلصون: آمنوا أى صدقوا واعتقدوا الوحداية، وأن تؤمنوا بالله ورسوله والملائكة والرسل جميعا، ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، و «آل» فى الناس للعهد أى الناس المعهودين المعروفين، وهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه المجاهدون الذين أخلصوا دينهم لله.

وعبر عنهم بالناس إشارة إلى أنهم الناس حقا وصدقا الذين بلغوا أعلى درجات الإنسانية بإيمانهم وطهارة نفوسهم، وعظم مداركهم، وإذعانهم للحق إذ دعوا إليه.

ولكن مع جلال ما آمنوا به، وصدقه، استعلى المنافقون بالباطل، وكذلك شأن المنافق يظن أن ما هو عليه من نفاق ومراء هو عين العقل، وما عليه غيره هو عين السفه.

قالوا مستنكرين ما قيل ويقال لهم: ﴿أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ والسفهاء جمع «سفيه»، وهو الأحمق الذى لا يتخير الأمور، ولا يتعرف أحسنها فيتبعه، وقد ظن المنافقون أنهم أهل الحكمة، فقالوا: ﴿أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وهم فى زعمهم محمد وأصحابه، والاستفهام إنكارى بمعنى النفى أى: لا تؤمن، ولا نصدق برسالة محمد إلى الخلق، كما صدق محمد وأتباعه، ومن ساروا على منهاجه، وكذلك زين لهم تفكيرهم الفاسد، وغرهم ما كانوا يفترون، ويكذبون به، وتكرر كذبهم، حتى ظنوها الأعلى، وهو الدرك الأسفل، ولقد حكم الله تعالى، وهو الحكم العدل، وهو خير الفاضلين، فقال تعالت كلماته: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يقرر الله تعالى الحكم عليهم بالسفه، وجعلهم مقصورين عليه يدورون فى إطاره ويسارعون فيه، فهم يخرجون من سفه إلى سفه، ويسارعون فى السفاهة، ويسيرون فيها حتى يصلوا إلى الدرك الأسفل منها.

وقد أكدت السفاهة بقوله: ﴿أَلَا﴾ التى هى استفهام داخل على النفى، فكان تأكيدا للنفى مع التنبيه، وقد أكد أيضا بـ «إن»، وهى تحيىء بعد قوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ كما يجيىء القسم بعدها.

وأكد بضمير الفصل، فى قوله تعالى: ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾.

وأكد القول بتعريف الطرفين الذى يفيد قصرهم على السفه، بحيث لا يكون منهم إلا ما هو سفه، ولا يجيىء منهم حكمة قط؛ لأن الحكمة لا تكون إلا من قلب سليم.

﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مقدار ما أوتوا من سفه الرأى، وما أوتى غيرهم من حكمة الإيمان، وهنا نجد أنهم عند قصرهم فى النص القرآنى على الفساد، قال: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأن الفساد والصلاح حسيان، فناسبهما أن يكون عنهم شعور حسى، أما حكم السفه فأمر فكرى فناسبه نفى العلم لا نفى الحس.

فذكر القرآن الكريم قياس بعض أحوال المنافقين فى أنهم يدعون الإيمان ويبتغون الكفر، وأن النفاق والإيمان نقيضان لا يجتمعان، والمنافق ليس من شأنه أن يؤمن بشيء، وأنهم يزعمون أنهم هم الصالحون - وهم المفسدون الفاسدون - وأنهم يحسبون أنهم بشكهم ونفاقهم فى مرتبة عالية، وأن المؤمنين بالنسبة لهم ضعاف الأحلام سفهاء.

بعد ذلك بين سبحانه علاقتهم بالمؤمنين ومعاملتهم، وكيف يمارونهم، ولا يجهرون أمامهم بكفرهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.

كان أولئك المنافقون يشيعون فى مجالسهم أن المؤمنين سفهاء، وأنهم هم المدركون وحدهم، العارفون بحقيقة العقائد، وأنهم الأعلون؛ لأن فى المؤمنين موالى كصهيب وبلال وخباب وعمار وغيرهم.

ولكنهم كانوا إذا لقوا كبار المؤمنين رفثوهم^(١) بأحسن القول كأنهم معهم فى الإيمان، بل يدخلون المسجد، كما يدخلون ليوهموهم بأنهم مؤمنون، يروى فى ذلك أن عبد الله بن أبى وهو كبير النفاق والمنافقين خرج وصحبا له فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال رعيم النفاق وقد أخذ بيد أبى بكر: مرحبا بالصديق سيد بنى تيم، وشيخ الإسلام وثانى رسول الله ﷺ فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر، فقال: مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد على، وقال: مرحبا بابن عم رسول الله ﷺ وختنه، سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله.

قال هذا القول، ثم افترق وانصرف إلى الذين رأوه من أصحابه وقال لهم: كيف رأيتمونى فعلت؟ فأنكروا عليه، وهم يعلمون أنه لا يحكى بقوله ما فى نفسه، فهو معهم، وهو يسخر من المؤمنين، ويستهزئ، وذلك من إمعانه فى كفره، ونفاقه، وحقده وحسده.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لقى معناه قاربه، أو استقبله عن قرب، أو جمعهما مكان، وقرئ ﴿لَقُوا﴾ من لَقِيَ، كما قرأ أبو حنيفة وغيره «لاقوا». والأولى تدل على مجرد لقائهم مع أصحاب رسول الله عفو، أو من غير إرادة، والثانية على الملاقاة بينهم والتلاقى المقصود، والآية الكريمة بالقراءتين تدل على المعنيين فهم حيثما التقوا بأصحاب رسول الله ﷺ سواء ألقوهم عفو، أم لاقوهم قصدا واجتمعوا بهم قالوا لهم: آمنا، فهم يسترون كفرهم دائما، ويعلنون إيمانهم دائما

(٢) رَفَاً فَلَانَا: حبابه، ورقاه: دعا له بالرفاء، والرفاء بالكسر: المد الانتقام والاتفاق، من رفأت الثوب أى أصلحته. وقيل: السكون والطمأنينة، ثم استعير للدعاء للمتزوج وإن لم يكن بهذا اللفظ. وقد نهى عن قولهم: بالرفاء والبين، مع ما فيه من التفسير عن البنات، والتقرير لبغضهن فى قلوب الرجال؛ لكونه من عادات الجاهلية. وكان يقول بدله ونعم البذل: «بارك الله لكما، وبارك عليكما وجمع بينكما فى خير». (الوسيط (رف أ) - مرقاة المصابيح ج ٣، ص ٢٦٩).

فى عوج، وقد يحرفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم بما ظاهره يدل على أنهم آمنوا، وباطنه كفر وطغيان.

هذا قولهم بأفواههم للمؤمنين، يقولون: آمنا. أى: دخلنا فى جماعتكم مؤمنين مصدقين، ولكنهم إذا تركوا المؤمنين وكانوا فى جماعتهم قالوا: إنا معكم. وعبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ فكانت كلمة ﴿خَلَوْا﴾ متعدية بإلى، وأصلها بالباء، يقال: خلا به، ولا يقال: خلا إليه، وإنما عدل عن الباء إلى التعدية بإلى للدلالة على معنى الانصراف، إذ كلمة خلا تتضمن ذلك، والمعنى خلوا منصرفين إليهم، تاركين المؤمنين، أو المعنى خلوا عن المؤمنين بمعنى تركوهم إليهم، فلا مجاز فى التعدى. ومهما يكن التخريج، فإن معنى خلوا بهم لا يراد، لأن معناه الانفراد، والتستر، وهم لا يستترون فيما بينهم، يقولون جهرا بينهم، وفى أوساطهم، فلم تكن خلوة بهم، ولكن كانت خلوة معهم وإليهم.

والشيطان فعَلان من شَطَنَ بمعنى بَعَدَ، وشياطين جمع شيطان وسموا شياطين لبعدهم عن الحق، وتجايفهم عنه، وأضيفت شياطين إليهم للدلالة على أنهم جماعتهم، وكلهم شياطين بَعْدَاءَ عن الحق لا يهتدون ولا يستمعون إلى الحق ولا يرومونه، وقد بعدوا عن كل معنى من معانى الحق، والقصد المستقيم.

وإذا انصرفوا إلى شياطينهم، وخلوا أهل الإيمان ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهنا يؤكدون أنهم لم يخرجوا عنهم بذلك الكلام الذى زوروه للمؤمنين ليخدعهم.

وقد أكدوا أنهم لم يخرجوا من صفوف النفاق إلى صفوف المؤمنين فى قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بـ «إن» التى تؤكد الحكم الذى يكون وراءها، وبقولهم: معكم، أى أننا ما خرجنا عنكم بهذا القول، ولكن ما زلنا فى صحبتكم أنتم دون غيركم، فلم نفارقكم بهذا القول، وإنما هو من بضاعتنا التى نروج بها لأنفسنا.

ولم يؤكدوا للمؤمنين ادعاءهم الإيمان؛ لأنهم قالوا قولاً لم يصدر عن قلوبهم، وإن تلوّث به ألسنتهم، ولم يسكن الإيمان قلوبهم، فهو قول باللسان، ولم يذكروا تفصيل الإيمان، فلم يقولوا آمنا بالله ورسوله، والكتاب الذى جاء به وباليوم الآخر، إلى آخر ما يشتمل عليه الإيمان، لأنهم لا يريدون حقيقة الإيمان، ولكن يريدون أن يثيروا قولاً يسترون به كفرهم المستكن فى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ ليس تكرر لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [البقرة] لأن الآيات الأولى فى التعريف بالصنف الذى يقابل أهل الإيمان الحقيقى، وأهل الكفر، أما هذه فهى لبيان أحوال تلك الطائفة، وكيف يقولون ما لا يفعلون، ويظهرون ما لا يبطنون، فالأولى حكم عام، والأخيرة بيان لبعض أحوالهم.

وإن أولئك المنافقين عندما يلاقون شياطينهم لا يذكرون المعوية فقط بقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بل يفسرون معنى كلامهم للمؤمنين، وقولهم: آمنا. وكأن سائلا منهم سأل: لماذا قلتم ما قلتم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ الاستهزاء السخرية والتعابث، يقال: هزئ به واستهزأ، أى سخر منه، وتعابث بالقول معه.

وقد أكدوا الحكم بأنهم يستهزئون - بالجملة الاسمية، وبـ «إن» الدالة على التوكيد، وبذكر «نحن» لتأكيد الحكم باستهزائهم، وذكر بـ «إنما» الدالة على القصر، والمعنى: إننا فى عملنا هذا نستهزئ، فهم يقصرون أنفسهم على الاستهزاء قصراً إضافياً.

وإن الحكم بأنهم مستهزئون يتضمن الحكم بأنهم لا يؤمنون؛ لأن من يؤمن بشئ لا يستهزئ به؛ فهم تجاوزوا حد الكفر إلى أبعد منه، هو الاستهزاء بالمؤمنين والسخرية منهم، وأصل الباب الهزء، بمعنى الخفة.

ولكن الله تعالى بين أنهم إن يسخروا من المؤمنين فالله تعالى يسخر منهم لخفة عقولهم، وسفه أحوالهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ والمعنى أن الله تعالى يتصف للمؤمنين فيستهزئ منهم، ويسخر بهم، ويتنقم من قولهم يوم القيامة، وليس المراد معنى الاستهزاء، وهو الاستخفاف، فإن ذلك لا يليق بذات الله تعالى، وإنما المراد إنزال الهوان وأن يكونوا موضع السخرية التي يجلبونها لأنفسهم بأفعالهم، فهم موضع تهكم من أهل الحق دائما، فهم جديرون بأن يسخر منهم ومن أفعالهم الساخرون، إذ هم يتملقون الكافرين من المشركين، وهم معهم، ويدهنون بالقول مع المؤمنين، ولا تخفى على أحد حال من أحوالهم، فهم أرادوا ستر كفرهم فكُشف، وأراد إظهار إيمانهم.

وإن الله تعالى يذكر أفعال المشركين، ويوردها بمثل ألفاظها، وإن كانت دلالة الألفاظ عدلا وحقا لغير ما يريد الكافرون. مثل قوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة: ١٩٤]، فسمى الفعل اعتداء مجازة لأفعالهم، وليس إلا دفعا وقصاصا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا...﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَكَرَّ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ...﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا...﴾ [١٥] وأكيد كيدا ﴿[١٦]﴾ [الطارق]، وقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ...﴾ [٧٩] [التوبة] وهكذا. وهنا يسأل سائل: لماذا ذكر الله حالهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ باسم الفاعل الدال على الدوام، ورد الله تعالى أمرهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ بفعل المضارع، والجواب عن ذلك أن المضارع يدل على الدوام مع تجدد الفعل أنا بعد آن، فالاستهزاء متجدد مستمر، لا يبقى على حال، بل يتجدد وقتا بعد وقت، فهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين، وأفعالهم تجدد الاستهزاء، والآيات تنزل بفساد أحوالهم وسقم نفوسهم، والمؤمنون يحذرون،

وكلما ابتغوا الفتنة ردت إليهم وتكاثر شرهم، والبراءة منهم، حتى أن أهل كل بيت فيه منافق استأذنوا النبي ﷺ في قتله، حتى كانوا موضع السخرية وأحسوا بها في ذات أنفسهم، حتى برموا من أعمالهم، وإن كانوا قد استمروا في غيهم.

ولكن لم ينزل بهم عقابهم في الدنيا، وذلك لحكمة أرادها، ولمصلحة تغياها النبي ﷺ، وهي ألا يقتلهم حتى لا يقال بين الأعراب وغيرهم إن محمدا يقتل أصحابه^(١).

﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ المدُّ هو زيادة المدة في حياتهم بأن يمهلهم الله ثم يأخذهم أخذ عزيز، كما قال تعالى: ﴿نُمَلِّي لَهُمْ لَيَزِيدُوا إِنَّمَا...﴾ (١٧٨) ﴿آل عمران﴾ والطغيان: الكفر والضلال، وأصله تجاوز الحد، والطغيان هنا الكفر مع الإسراف فيه، والتفاق بلا ريب إسراف في الكفر.

والزَمْخَشَرِي يفسرُ «مَدَّ» لا بمعنى زيادة المدة، بل بمعنى زاده، والحق به ما يقويه ويكثره مثل قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩) ﴿مريم﴾، ولقد قرئ: (وَيَمْدُهُمْ) بضم الياء، وهي من المدد لا محالة.

وقول الزَمْخَشَرِي: في ذلك حجة ونرجحه على غيره.

والمعنى على ذلك، أنهم مغرورون مخدوعون، يعطيهم الله سبحانه من مدد الغرور في طغيانهم، وبيان الحق وتركه ما يزيدهم في حيرتهم واضطرابهم واستمرارهم في أسباب السخرية منهم؛ ولذلك قال إنهم بهذا المدد ﴿يَعْمَهُونَ﴾، والعَمَّةُ مثل العمى، إلا أن العمى يكون في البصر والرأى، أما العمه فإنه يكون في الرأى بمعنى الحيرة، فمعنى يعْمَهُون يتحIRON، فهم في حيرة دائمة مستمرة... زاد الله المنافقين في كل العصور عمى، وزادهم عمها..!

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: كتاب المناقب - باب: ما ينهى من دعوة الجاهلية (٣٢٥٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة - باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما (٤٦٨٢)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تَبَجَّرْتُهُمْ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا
فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمٍ
لَّا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

المنافقون الذين جاوروا النبي ﷺ في المدينة، سواء أكانوا من المشركين أم كانوا من اليهود، وقد كانت عدوى الأخلاق بينهم. . أولئك المنافقون كانوا يحضرون مجالس النبي ﷺ، ونور الحق يشع بينهم، فيرون مطالعه، ويدركون مشارفه، فأسباب الهداية بين أيديهم يرونها عيانا، ويسمعونها بيانا، والفتنة تحثهم، وترشدهم، والحق لا تخفى منه خافية، فعندهم العلم أو أسبابه، ولكنهم مع ذلك يتركون النور الهادي إلى الظلام الدامس، يتركون الحق الأبلج، وهو بين أيديهم، وعن أيমানهم، وعن شمائلهم، يتركون ذلك إلى الضلالة، فهم قد استحبوا العمى على الهدى؛ ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ الإشارة هنا إلى المنافقين الذين ذكرت أوصافهم، والإشارة إلى المَعْرِفِ بالوصف هي إشارة إلى الأوصاف، وقد حملوها، وبذلك تكون الأوصاف هي علة الحكم، وسببه، إنهم بإخفائهم الكفر، وإعلانهم الإيمان، وإفسادهم في الأرض، وهم يزعمون إصلاحها، وما فيهم من مرض النفاق الذي يعمى ويصم. وظنهم أنهم أهل الكمال، وأن غيرهم أهل السفه والخسران.

إنهم بهذه الأوصاف التي اختاروها، والأحوال التي كانوا عليها مع رؤيتهم النور والهدى، وتركهم إياه كمن يشتري الضلال بثمن هو أعلى الأثمان، وهو الهدى يدفعونه في سبيل أن ينالوا أقيح ما في الوجود وهو الضلال، وهل يستوى

الهدى والضلال فى سوق الخير والفضيلة، إنهما لا يستويان. شبه الله تعالى أولئك المنافقين بحال التاجر الذى يطلب الكاسد يقدم فى سبيله الربح، وهنا يصح أن يكون تخريج الكلام بتشبيه إفرادى، أو استعارة تمثيلية، وعلى الاستعارة الإفرادية يكون تشبيه الضلالة التى يطلبونها بالبضائع المزجاة المردودة الكاسدة، والهدى بالبضاعة الرائجة المطلوبة غير البائرة، وبهذه الاستعارة يكون المعنى أنهم يتركون الطيب المطلوب، ويأخذون بدله الردىء، المردود، فهم الخاسرون لا محالة؛ لأنهم يأخذون شيئاً لا خير فيه، وفيه فساد كبير، ويقدمون فى سبيله أمراً كله خير ونور.

وإذا خرجنا على أنها استعارة تمثيلية، فيكون المعنى تشبيه حال رجل فى يده هدى ونور وخير وفضل، يتركه ليستبدل به شيئاً لا خير فيه، وفيه فساد وضرر، بحال تاجر يترك البضاعة الرائجة المثمرة إلى بضاعة كاسدة لاثمرة فيها.

وقد رشح الله فى بيان كتابه بأن ذكر ما يقوى الاستعارة بذكر أوصاف للمشبّه، فقال: ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ أى أنهم فى هذه المبادلة المعنوية خاسرون، وليسوا كاسبين لأنهم خسروا الخير وأخذوا الشر، وأى كسب فيها؟! ونسب الربح إلى التجارة، وهى محل التصرف، وذلك تعبير بليغ كقولك: نهار صائم وليل قائم، وذلك من قبل المبالغة فى الصوم والمبالغة فى الصلاة، وإنما قوله: ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ مبالغة فى نفى الربح وثبوت الخسارة، لمن ترك الهداية وأخذ الضلال.

وقد أكد سبحانه ضلالهم، ونفى الهداية عنهم كنتيجة لهذه المبادلة الخاسرة فقال: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لأن نفوسهم أركست ذلك الإركاس، وفسدت ذلك الفساد، ماكان من شأنهم أن يهتدوا أبداً، فنفى عنهم الاهتداء نفياً مؤكداً بالجملة الاسمية، وبكلمة كانوا الدالة على الدوام والاستمرار، فليس من شأن من كانت هذه الحال حاله أن يهتدى أبداً، لأن الشر قد استمكن من نفسه وأظلمت واربادت بالضلالة حتى إنه لا منفذ لنور يدخلها أبداً.

ولقد ضرب سبحانه مثلاً آخر لضلالهم، وقد بدت لهم معالم الهداية، وبرز بين أيديهم نورها، فقال تعالت كلماته: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

المثل: الحال الشبيهة والشأن، واستوقد النار، أوقدها بعد علاج وطلب للوقود، فاستوقد معناها أوقد، والفرق بينهما أن الأول يكون بطلب وجهه؛ لأن السين والتاء للطلب، وهى تفيد المعالجة فى الإقادة، فلا يصل الإقادة إلا بجهد ومشقة، وضرب الأمثال فى القرآن كثير، بعقد المشابهة بين الأحوال الواقعة، وما يماثلها فى الحياة، لتقريب المعانى العالية التى اشتملت عليها كثير من آيات القرآن، لتقريب المعانى المجردة للناس بعقد المشابهة بينها وبين أمر محسوس.

والمعنى السامى فى الآية أن حال المنافقين فى أنهم فى وسط المؤمنين يناكحونهم، ويتوارثونهم، ويعاملونهم، ويوادونهم، ويدلون بالحوار بينهم وبينهم، ومعرفتهم للإيمان وأهله وذوقهم محبة بعض المؤمنين، وهذه الأحوال التى تكنفهم، ومن شأنها أن يعلموا بها الحق، وقد ربطتهم مودة الجار، كل هذا، حالهم فيه، كحال من يستوقد النار ويناله ضوءها، وتخرج عليه بنورها، حتى إذا انتفع وأدرك الحياة وعلم مغزاها ومعناها، إذا كان كذلك خمدت النار بريح أو نحوها، فبعد الضوء اللامع، فذهب الله بنورهم فهم فى ظلمات بعد ذهاب الضوء لا يبصرون.

ويصح أن يكون هنا تشبيه إفرادى، وتشبيه تمثلى.

أما الإفرادى، فهو تشبيه الحال التى هم فيها من معاشرة أهل الإيمان ومخالطتهم، ومجاورتهم، وبذل المؤمنين المودة لهم من أهل وأقارب، وإقادة النار المضئة التى ينتفع بضوئها، ثم تخمد فيذهب الضوء، وشبهت حال النفاق التى آل إليها أمرها، بالظلمات المتضافرة المتكاثفة؛ لأن النفاق ضلال متكاثف كلما أوغلوا فيه ازدادوا ضلالاً، وأبعدوا فيه، حتى لا مرجع إلى النور من بعد، وشبه ما يحدثه

النفاق في النفس من حيث إنه يسد الإدراك ، فيصبح العقل لا يدرك والنفس لا تتكشف، بحال من لا يبصرون ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج] هذا تشبيه إفرادي، إنه استعارة في أجزاء القول، لا في جملة.

والاستعارة التمثيلية في جملة القول أنه شبه حال المنافقين في أن أسباب النور بين أيديهم، وتحيط بهم، ولكنهم لا ينتفعون بها - بحال قوم أو فوج من الناس استوقدوا نارا، وعالجوها حتى أضاءت فلما أضاءت، ما حولهم لم ينتفعوا بها فخدمت، فذهب الله تعالى بنورهم فهم في ظلمات متكاثفة بنفاقهم لا يبصرون.

وفي النص عبارات بلاغية يجب الإشارة إليها:

أولها - أنهم جماعة، والمفروض أنهم استوقدوا النار جميعا، أو بتعاونهم، ولكنه عبر بالمفرد، فقال تعالت كلماته: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فعبر بالمفرد، قالوا إنه مفرد أريد به الجمع، وعبر بالمفرد لثلاثة وجوه:

(أ) أن الموصول العبرة فيه بالصلة لا بلفظه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا...﴾ [التوبة].

(ب) وأن الحقيقة أن الذي استوقد هو بعضهم أو فوج منهم، وإن كانت الإضاءة للجميع، والنفع بالضوء للجميع لا للذي استضاء وحده؛ ولذلك كان التعبير بالجمع في حال الانتفاع، إذ قال فلما أضاء لهم، وبعضهم قد استوقد النار والجميع يستفيد من النور، إذ هو يشيع ويعم، ولا يخص من استقاد النار.

(ج) أن المشبه به في الآية ليس هو الذي استوقد، إنما المشبه به هو الحال التي كان فيها الاستيقاد أولا ثم خمود النيران، وسيرهم في ضلال، فعبر بالذي كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ

أَسْفَارًا ... ﴿٥﴾ [الجمعة] وكقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ...﴾ [محمد] فهو تشبيه حال بحال فى كل هذه الأمثلة.

وثانى ما يجب الإشارة إليه أن ناراً مصدر لنار، وهى مرادفة؛ ولذا يقال فى التصغير نويرة، ومنها يؤخذ النور ويجمع على أنوار.

والإضاءة النور الشديد - كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ...﴾ [يونس] والمعنى أنهم صاروا فى نور شديد موضح ثم خمد وأخمدوه هم فى أنفسهم، فلم يتفعوا به، فأشع النور ولم يتمكنوا من الانتفاع به. وثالث ما يجب الإشارة إليه هو جواب «لَمَّا» فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ فقد كان فى هذا الجواب نظران أحدهما: أن الجواب هو قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وذلك كلام صالح للجواب، والثانى: أن الجواب محذوف دل عليه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ والمعنى، أن الجواب خمدت النار أو انطفأت وذهبت الإضاءة.

وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ معناها أذهب الله تعالى نورهم الذى كانوا يسرون فيه، ويمكن أن يتفعوا به؛ ولذا أضيف النور الذى أذهبه إليهم، إذ هم الذين خصص ابتداء لهم.

وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لأن الباء للملابسة، ومعناه هنا ذهب الله تعالى عنهم أخذاً نورهم الذى أوقدوا ناره، وقد ذكر الزمخشري الفرق بين أذهبه وذهب به فقال: «والفرق بين أذهبه، وذهب به أن معنى أذهبه أزاله أى جعله ذاهباً، ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى معه، وذهب السلطان بماله أخذه فذهب به. والمعنى أخذ الله نورهم فأمسكه، وما يمسكه الله تعالى فلا مرسل له.

ومضمون هذا الكلام أن النور الذى أضاء لهم لا يذهب الله تعالى، ولا يُضَيَّعُ، بل يحفظه ويمسكه ليهتدى به غيرهم، وهنا ملاحظة لاحظها الزمخشري، وهى التعبير عن نورهم بالإضاءة، وهى النور الشديد، وذلك بأنها إضاءة شديدة

تعقبها ظلمة شديدة كقولهم: «للباطل صولة ثم يضمحل، ولريح الضلالة عصفة، ثم تخفت» فهي إضاءة شديدة لهم، ثم ذهب الله بنورها لينتفع غيرهم، أما هم فلا ينتفعون ولا يهتدون.

وإذا كان الله تعالى قد أخذ النور وذهب به ممسكا له غير مرسل إلا لمن يهتدى فقد تركهم بعد ذلك فى ظلمات لا يبصرون. وعبر بالجمع، فقال ظلمات للإشارة إلى تكاثف الظلمات فى النفاق، فإن المنافق فى حال كذب مستمر، إذ إنه دائما يظهر غير ما يبطن، وذلك كذب، فحال المنافق كذب مستمر، وهم يدهنون فى القول، وهم يمالئون الظلم، ولا ينتصرون للحق، ودأبهم الإفساد فى الأرض والسعى بنميم بين الناس، وإرادة الأذى المستمر، وكراهيتهم للناس؛ ولذلك لما ذهب عنهم نور الحق، تركهم الله تعالى فى ظلمات متكاثفة لا يبصرون حقا، ولا يدركونه، ونفى الله تعالى عنهم الإبصار بالفعل المضارع، لتجدد العمى عليهم، وعدم الإبصار بتكرار أفعالهم المظلمة الدائمة.

وعدم الإبصار هو عدم الإدراك، فلم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل.

وأنه قد سدت كل مدارك إدراك الخير، قد اشتروا الضلالة بالهدى، وأنهم إن استوفدوا بسبب استغراق الفساد لنفوسهم تنطفئ نار الحق فيهم، ويصطحب النور، ويستمسك به غير، فسدت عليهم أبواب الحق لا يسمعون إذا دعاهم، ولا تنطق به ألسنتهم إذا خاطبوا ولا يرون طريق الهدى، فيبصروه؛ ولذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ﴾.

وإذا كانت لهم آذان فهم لا يسمعون بها، وإذا كانت لهم أعين فهم لا يبصرون بها، وإذا كانت لهم ألسنة فهم لا ينطقون بها فى حق قط .

وكانت هذه الآية الكريمة تشبيها لحالهم التى آلوا إليها فليست استعارة، ولكنها تشبيهه صريح، إذ إن قوله تعالى: ﴿صُمُّكُمْ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: «هم» أو: المنافقون، فهم كالصم لأنهم إذا استمعوا القول لا يتبعون أحسنه ويقولون سمعنا بل ينغضون رءوسهم علوا واستكبارا ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل]، وإذا بصرتهم بالدلائل الواضحة، والبيئات الناصعة، لا يستبصرون فلهم قلوب لا يفقهون بها، ولا ينطقون بحق استنطقتهم به، فهم كالكم الذين لا ينطقون، وهم لا يبصرون وإن كانت لهم أعين.

وختم الله تعالى وصف حالهم بأنهم لا يرجعون، أى لا يرجعون إلى الهداية، بعد أن ساروا فى الغواية، أى هم وقوف عند الشر الذى وصلوا؛ لأنه ليس وراءه شر، بل هو الضلال البعيد، وقد وصلوا إلى نهايته، فماذا بعد النفاق من ضلال، ولقد قال الزمخشري: إن وقوفهم فى الحيرة هو الذى حكم عليهم بأنه يتركهم فى طغيانهم يعمهون أى يتحiron.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي
ءَآذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يَكَادُ
الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

يضرب الله تعالى الأمثال ليقرب المعانى السامية إلى العقول المدركة، ويكثر فى كتابه الحكيم من الأمثال لتكون المعانى العالية التى تخفى على الأفهام - معروفة

مألوفة لديهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (٤٣) [العنكبوت].

وقد ضرب الله سبحانه مثلاً للمنافقين بمن استوقد ناراً، ولكن لم يستفيدوا، وذلك لأنهم في وسط علم النبوة، والإشراق المحمدى، والجوار لأهل الحق. ولكن استمروا في ظلمتهم.

وقد ضرب الله تعالى مثلاً آخر، يبين فيه سبحانه ما نزل لهم من نور، وما قرعهم الله تعالى به من قوارع، وما أصاب نفوسهم من نوازل، كان من شأنها أن تجذبهم إلى الإيمان، فلم يتجهوا إليه، ولم يخلعوا أنفسهم مما هم فيه من انحراف عن الحق، ومقام عن إدراكه.

لقد نصر الله تعالى المؤمنين، ونصرهم كان كالصواعق والرعد، وفيهم الهدى، فضرب مثلاً بهذه الحال، فقال: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ...﴾ الآية. أو هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ (١٧) أى أن مثلهم كمستوقد النار، أو مثلهم كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، ويقول الزمخشري: إن «أو» أصلها للشك، ثم صارت بالمجاز دالة على التسوية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ أَتِمًّا أَوْ كَفُورًا﴾ (٢٤) [الإنسان] أى أن الإثم والكفر سواء فى أن طاعة أهلها حرام تجر إلى الوبال وسوء العقبى والمآل، والتسوية هنا بين المثل فى أن كليهما فيه عبرة واعتبار، وتصوير لحال المنافقين، فالأول يصورهم، ونور الحق بجوارهم، وهم يعيشون فيه بأجسامهم، وإن جافته قلوبهم، والثانى يصورهم، وماء الحياة ينزل عليهم مدراراً من السماء، ومن شأنه أن يحيى موات الأرض والنفوس، ولكنه لهم ظلمات، وفيه رعد مزعج وبرق يبرق ويبين، وصواعق تنزل قارعة للأجسام، عسى أن تقرع النفوس فتحولها من الضلال

إلى الهدى، فهما مثلان متلاقيان غير متباينين، كل واحد منهما يصور جانباً من جوانب المنافقين، الأول يصور الحق كنور رأوه، ولم يهتدوا به، والثاني كماء الحياة ينزل عليهم وسط نذر وإرعاد وإبراق، فلم يرتدعوا به، فهم لم يهتدوا بنور هاد، ولم تردعهم النذر والآيات.

والصيب هو الماء ينزل، وهو وزن فَيَعْل من صاب يصوب بمعنى نزل، فأصلها صَيَّوبٌ اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء كـ «سيد» و«ميت»، وغير ذلك مما يشابهها من كلمات في التصريف، واللفظ في القرآن له فصاحة وبلاغة قائمة بذاتها، فصيب تدل على ماء نازل بقوة تفرع الرءوس قرعاً، وينبهم على الماء الذي جعل الله تعالى منه حياة كل شيء.

والسما ما أظلك، ولماذا أسند إلى السماء، والمطر ينزل منها دائماً؟ ونقول إن ذكر السماء يدل على أمرين، أحدهما - أنه نازل من السماء، وليس من العيون والينابيع، فإن ماءها لا ينزل، ولكن يخرج سلسيلاً، وثانيهما - للإشارة إلى أنه يجيء من علٍ، فينصب انصباباً.

ووصف سبحانه الماء، وهو يمطر وابلاً بأن فيه ظلمات، وهى جمع ظلمة، وقد تكاثفت هذه الظلمات فاجتمع فيها ظلمة الدُّجَّة^(١) الخالكة، وظلمة السحب الداكنة، وظلمة الليل الدامس، وظلمة الانهمار الذي ينصب على الرءوس انصباباً، وفيه رعد وبرق، وفيه صواعق تصك آذانهم صكاً شديداً، وتفرعهم، حتى إنهم يجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت، خوفاً من أن يموتوا.

وهذا تصوير للنذر التى كانت تأتِيهم مع ماء الحياة الذى يحييهم عساهم أن يهتدوا بالنذر إذ لم يهتدوا بالحق فى ذاته، وقد كان نورا قد أشرق.

(١) الدُّجَّة من الغيم: المطبَّقُ تطبيقاً، الرِّيانُ المظلم، الذى ليس فيه مطر؛ يقال يومٌ دَجَنٌ، ويومٌ دُجَّةٌ، وكذلك الليلة على الوجهين، بالوصف والإضافة. (الصحاح - باب النون فصل الدال).

والرعد على ما هو مقرر الآن مظهر من مظاهر الكهرباء التي أودعها الله تعالى فى الأجسام، فبعض السحاب يحتوى على كهرباء تسمى موجبة، وأخرى تحتوى على كهرباء تسمى فى اصطلاحهم سالبة، وإذا اصطدم السحاب الموجب بالسحاب السالب حدث صوت شديد هو الرعد، وصحب الاصطدام نور هو البرق، وقد تنزل نار محرقة من جراء ذلك هى الصواعق، فالمطر الصيب يكون فيه ظلمات ورعد وبرق وصواعق، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى هذا المثل، ونرجع رجعة نعرف فيها تفسير علماء الأثر للرعد والبرق والصواعق، وسنجد من بينهم من يقارب تفسيره لما تقرر فى هذا العصر، ومن باعده.

فممن باعده ما رواه الترمذى عن ابن عباس أنه قال، سألت اليهود النبى ﷺ عن الرعد فقال: «ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، فقالوا: فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال: «زجره السحاب إذا زجره، حتى ينتهى إلى حيث أمر»، قالوا: صدقت^(١). وفسر ابن عباس - فى رواية لا ندرى مقدار صحتها - البرق بأنه سوط من نور بيد الملك يزجر به السحاب.

ولقد جاء فى تفسير القرطبي: قالت الفلاسفة الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب، والبرق مما ينقدح، من اصطكاكها. ولا شك أن تفسير الفلاسفة قريب مما قرره العلماء فى عصرنا من أنه احتكاك سحابة سالبة بأخرى موجبة، يتولد عنه صوت هو الرعد، ونور هو البرق.

وإن الزمخشري رضى الله عنه فسر الرعد والبرق بمثل ما فسر الفلاسفة، فقال: والرعد الصوت الذى يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب، وتتفرض إذا حدثها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد، والبرق الذى يلمع من السحاب، ولا شك أن ذلك قريب مما يقرره الفلاسفة، وإن لم يكن هو.

(١) رواه بهذا اللفظ - عن ابن عباس - الترمذى: كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الرعد (٣٠: ٤٢).

وهنا يجب أن نتكلم فى الرواية التى تقرر أن ملكا هو الذى يكون الرعد والبرق، فالخبر لم تروه الصحاح، ولم يروه إلا الترمذى، ومن المقرر أن الأخبار إذا خالفت العلم الضرورى القاطع أوّلت، أو كان ذلك دليلا على ضعفها لضعف متنها، فقد قال الغزالى: إذا خالفت النصوص ما قرره علماء الكون والطبيعة على أنه حقيقة مقررة تؤول النصوص إذا خالفتها، وإذا كانت حديث آحاد ردت نسبته إلى النبى ﷺ.

وعلى ذلك فنحن نفسر القرآن الكريم فى قضية الرعد والبرق والصواعق بما تقرر فى العلم، ولا نحسب أن حديثا ثابت السند، ولو حديث آحاد خالف ذلك. وقد صور الله سبحانه وتعالى قوة الصواعق فى قرعها الشديد للأذان بقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

وإن الإنسان عندما يقرع أذنه قارع شديد، لا يضع أصابعه كلها فى أذنه، بل يضع فقط طرف أصبعه السبابة فلا يجعل فى أذنه جملة أصابعه؛ ولذلك كان فى الكلام مجاز لاستحالة الحقيقة، ويعدون ذلك من المجاز المرسل بإطلاق اسم الكل وإرادة الجزء، وإن إطلاق اسم الكل وإرادة الجزء كثير فى الاستعمال العربى، وفى القرآن الذى هو أبلغ الكلام، فقد قال تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ...﴾ [المائدة]، ولا يراد الأيدي كلها، بل يراد بعضها، وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ...﴾ [المائدة] ولا تقطع اليد كلها فى حد السرقة.

ويقرر الغزالى أن أصبع السبابة هى التى تسد الأذن بطرفها، ثم يقول: فإن قلت: إن الأصبع التى تسد بها الأذن أصبع خاصة فلم ذكر الاسم العام دون الخاص، قلت: لأن السبابة فعالة من السب، فكان اجتنابها أولى بأداب القرآن، ألا ترى أنهم قد استسبحوا بها فكنا عنها بالمسبحة.

وفي الحلية^(١): إن ذكر الأصابع مع إرادة بعضها فيه بيان عظم الهول في نفوسهم واشتداده على حواسهم حتى أصابتهم رعدة الخوف، وظنوا الظنون من هول ما يرون، وقوله تعالى: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أى خوفاً من الموت، فهى مفعول لأجله، والصواعق جمع صاعقة، وهى ما ينزل من السماء من نار، فى الرعد والبرق.

وهنا يسأل سائل: هل جعل الأصابع أو أطراف بعضها فى الأذان يمنع الموت عنهم، فيحذرونه بوضع الأصابع، والجواب عن ذلك، أن التعليل ليس لمجرد وضع الأصابع، بل هو تعليل للحال التى هم عليها، والتى كان وضع الأصابع فى الأذان أثراً من آثارها، أو مظهراً من مظاهرها. فهى ذعر دائم من ظلمات متكاثفة من سحب داكن، وليل معتم، وأمطار منهمرة، ورعد وبرق وسحاب، حتى توهموا أن وضع الأصابع فى الأذن فلا يسمعون صوت الصواعق والرعد - قد يدفع الموت. فهم يفعلونه حذر الموت.

وقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الله تعالى محيط بهم، والإحاطة معناها هنا السلطان والاستيلاء والقوة، فيقال أحاط به السلطان أى أخذه، ولم ينج منه، وهى مجاز يراد به ألا يفوته، وقد تطلق الإحاطة ويراد بها الهلاك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ...﴾ [يوسف] أى تهلكوا فمعنى ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى هم فى قبضته، إن أراد أهلكهم، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ [الزمر].

والمعنى على ذلك: إنهم يحذرون الموت، ولا حذر منه، ولا ينجيهم الحذر، فإن الله تعالى محيط بهم، لا يفلتون، وذكر الكافرين هنا لأنهم كافرون أمقت النفاق، فذكر وصف الكافرين إرهاب لهم أشد إرهاب، وأنه جزاء ما يفعلون فى الدنيا، ويستقبلون فى الآخرة عذاباً ألماً عظيماً.

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم.

وصور سبحانه وتعالى قوة البرق وأثرها في نفوسهم بقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ والخطف معناه الأخذ السريع؛ ولذلك يطلق على الطائر إنه الخطاف لسرعة أخذه، وخطف من باب فرح، وهى اللغة الفصيحة السائغة فى لغة العرب، وهناك لغة تجعلها من باب ضرب، فيقال خطف يخطف، وقد قرئ بها فهما قراءتان، وقالها الأخفش، فروى أن الأخفش قال: خطف يخطف، ولكن قال الجوهري: وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف.

وعندى أنه إذا كانت هناك قراءة بكسر الطاء لا يليق أن تذكر بأنها رديئة، وقد روى أنه قرأ بها على زين العابدين، ويحيى بن وثاب، وقرأ بها يونس، والأولى أن يقال إنهما لغتان فى حركة الطاء. هذا والآية الكريمة تصور شدة البرق من حيث إنه يكاد يخطف الأبصار ويذهبها لشدة، كما فى قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور]، أى يكاد البرق يأخذ أبصارهم سريعاً، فلا يبصرون، وكانت السرعة فى أخذه، لأنه ومضات تحيى سريعة وتختفى سريعاً، ولا تبقى طويلاً.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أى كلما كان البرق كان الضوء المنير، فعندئذ يمشون فيه مطمئنين غير مسرعين؛ لأن المشى إذا اشتد كان سعياً، وإذا اشتد السعى كان عدواً، فكلما أضاء ساروا فيه سير اطمئنان، وإذا أظلم أى إذا انطفأ فأظلم الجوّ، وصار ظلاماً - قاموا - أى وقفوا ساكنين سكون الحيارى راكدين، فهو قيام الحائر الراكد الذى لا يدرى ما الله فاعل، وعبر فى الإضاءة بكلما لأنها مكررة بتكرر البرق، ولأنها حركة تغدو وتروح، فإذا جاء البرق وذهب توقعوا عودته، أما الإظلام فلا يطلبونه، وهو حال سلبية لا تجدد فيها، لا يطلبون، وقاموا تتضمن السكون والبقاء على ما هم عليه متحيرين مضطربين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ لو شاء سبحانه وتعالى أن يذهب بسمعهم بالرعد والصواعق أو ببصرهم بالبرق الخطاف لذهب بها، أى لأخذها كما أعطاهما، فقوله تعالى: ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ معناه لاستردها، وأعادهم صماً وعمياً،

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [النحل].

ثم ذُيِّلَ سبحانه وتعالى الآيات الكريمات بكمال قدرته، فقال تعالى كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك التذييل لتأكيد قدرة الله تعالى على إذهاب سمعهم وأبصارهم، وكل قواهم، وقد أكد سبحانه قدرته القاهرة فوق عباده بعدة مؤكدات: بالجملة الاسمية أولاً، وبـ «إن» ثانياً، وبذكر لفظ الجلالة الذي يدل على أنه مالك الوجود، ومالك كل موجود، وعموم قدرته على الأشياء كلها ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ (٥١) [الشورى].

وهذه الأخبار كلها - من نزول الصيب المنهمر انهمارا، والظلمات المتكاثفة والرعد والبرق، وكون الأبصار يكاد سبحانه وتعالى يخطفها، أهى مجاز لأمر معنوية؟، أم هى حقائق وليست مجازا؟ ونقول إن هناك استعارة تمثيلية فى جملة القول، ولا مانع أن تكون فى كل جملة مجازا، ويتكون من هذه المجازات الصورة التمثيلية الكبرى.

ويميل إلى ذلك أكثر المفسرين، يقول الفراء فى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مُمْسِرًا فِيهِ﴾: أنهم كانوا كلما سمعوا القرآن، وظهرت لهم الحجج أنسوا ومشوا معه، فإذا نزل من القرآن ما يَعْمُونَ فيه، ويضلون به، أو يُكَلِّفُونَهُ قاموا أى ثبتوا على نفاقهم.

وروى عن ابن عباس «المعنى أنه كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم النعم قالوا دين محمد دين مبارك».

وكذلك يفسر الصيب بالقرآن حياة الأرواح، والظلمات والرعد والبرق بما يكرهون به أنفسهم مما يحسبونه شرا عليهم من نصر للمؤمنين، وتمكين للإيمان، وهكذا.

وإن الحق هو أن المثل كله استعارة تمثيلية، أو تشبيه تمثيلى، فقد شبهت حالهم من أن القرآن ينزل فى المؤمنين وهم جيرانهم ومعاشروهم، وفيه ماء الحياة الذى

يحيى القلوب ويغذيهم. وأنالهم العبر والمثالات من تأييد الله تعالى، ونصره الدائم المستمر للمؤمنين، والخذلان الدائم لهم، وما يقرعهم من آيات بينات، وما يجيء إليهم من بلايا بسبب الخزايا التي تنزل بهم كالرعد الذي يقرع الأسماع والبينات نجى إليهم نورا يسرون فيه، ثم تظلم قلوبهم وينطفئ نور الحق بينهم.

شبهت حالهم والعلم البين بين أيديهم بحال قوم نزل عليهم غيث منهمر فيه ظلمات ورعد وبرق وصواعق، ومع ذلك لم ينتفعوا ولم يهتدوا.

فالكلام الكريم، فيه تشبيه حال بحال، وما فيه من مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ إنما هو من ترشيح الاستعارة، والترشيح هو ذكر الأوصاف المختصة بالمشبه به، كما إذا قلت عن شجاع: إنه ليث، ثم قلت: له لبد، أظفاره لم تقلم، فإن ذلك تقوية للاستعارة بذكر أوصاف خاصة بالمشبه به. والله أعلم.

العبادة والقدرة والكتاب

ذكر الله تعالى في أول السورة مكانة الكتاب، وأوصاف المتقين ثم أوصاف الذين كفروا، ثم ذكر أوصاف المنافقين، لأنهم شر هذا الوجود الإنساني، ودأؤه، ويكمن فيهم سبب فساد.

بعد ذلك ذكر الله واجب العبادة، ومقام كتابه، فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ
بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا
تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

هذه الآيات الكريمات تدعو إلى عبادة الله تعالى وحده، وتذكر أنه خالق من في الوجود، وأنه ربه الذي يَرْبُّه وأنعم عليه بالنعم، وهذا يبين أن الكافرين والمنافقين على باطل، وأن أهل الحق وحدهم هم الذين يسلكون الصراط المستقيم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال بعض العلماء: إن الخطاب بـ «يا أيها الناس» يكون لأهل مكة، وخطاب «يا أيها الذين آمنوا» يكون للمؤمنين بعد الهجرة، ونرى أن هذا التخصيص ليس محكما دقيقا، فهذه سورة البقرة مدنية، وأهل الإيمان قد قاموا واستقروا، وأهل الشرك لا يزالون قائمين بمكة.

وفوق ذلك جاء الخطاب بـ «يا أيها الناس» في سورة النساء، وهي مدنية فقد قال تعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ قَامِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء]؛ ولذلك نرى أن ذلك الاستقراء غير كامل، والأقرب أن نقول إنه إذا كان بـ «يا أيها الناس» فإنه يعم المؤمنين والكافرين؛ لأنه يكون متضمنا خطابا للكافة، ويكون المطلوب فيه إجابة الدعوة المحمدية بالتوحيد، مع ذكر البرهان العام الدال على التوحيد وصدق الرسول ﷺ. أما النداء بـ «يا أيها الذين آمنوا» فإنه يكون متجها إلى بيان الأحكام التكليفية: نهيا أو طلبا، أو إباحة بنص شرعى، وسواء أكان التكليف يتعلق بالأسرة أم بالعلاقات الدولية، أم كان بالتحريض على الجهاد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قالوا إن النداء بـ «يا» يكون للبعيد، والنداء بـ «أى» يكون للقريب، وهنا النداء بـ «يا» و«أى» معا، ثم يزداد عليها ها التى تفيد التنبيه، وينادى للبعيد حسا بـ «يا»، وللبعيد معنويا بها أيضا، والنداء من الله تعالى لعبيده نداء من أعلى من فى الوجود إلى خلقه؛ ولذا كان النداء بأداتى نداء، وهما «يا» و«أى»، ويضاف إليهما، فهو منه عز وجل إلى الخلق جدير بأن يكون بأعلى الصيغ، لبعد ما بين الكون وخالقه فى المنزلة، وفوق أن هذا النداء من الخالق، وهذا يقتضى أعلى

العلو وأبعده، وموضوع النداء له جلال وخطر، وعظيم شأن؛ لأنه العبادة أو الشرائع. ويقول الزمخشري في ذلك إجابة على سؤال وهو: لماذا كثر النداء في القرآن بـ «يا أيها»؟ فقال: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله تعالى به عباده من أوامره ونواهيه، وعظائمه وزواجره، ووعدته ووعديه، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

كان المنادى الناس، مؤمنين وغير مؤمنين، فهو سبحانه وتعالى ينادى الإنسانية كلها لا فرق بين كافر ومؤمن، وأبيض وأسود، وعربي وأعجمي، والذي يناديهم به أن يعبدوه وحده لا إله غيره. وطلب العبادة من المؤمنين وغير المؤمنين، وتحقيقها في كل منهما بما يناسبه، فالكافرون الذين يعبدون مع الله تعالى الأنداد، ويتخذونهم شركاء لله - تعالى عن الشبيه والمثل - تكون عبادتهم بخلع عبادة الأوثان، والإيمان بواحد أحد فرد صمد، ليس بوالد ولا ولد، وتصديق الرسول ﷺ في كل ما جاء به وطاقته سبحانه فيما أمر به ونهى عنه، وبالخضوع الكامل له وحده سبحانه.

وبالنسبة للمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوا محمدا ﷺ فيما جاء به من عند ربه العلى الأعلى، فإن ذلك يكون بزيادة الإيمان، والإذعان، والاستمرار على الإيمان والبقاء عليه مستوثقين، كلما جاءتهم آية زادتهم إيماناً لا يرتابون، ويجمعون ويكونون قوة في هذه الأرض، وإن الازدياد من العبادة عبادة في ذاته، وكأنها منشأة بعد أن لم تكن.

والعبادة الخضوع المطلق لله سبحانه وتعالى وحده بحيث يكون القلب كله لله تعالى، لا يحب إلا لله ولا يكره إلا لله، والعبادات تعم الصلوات، والزكوات، والصوم والحج، وغير ذلك مما يكلفه العباد، حتى الأعمال التي تكون بها الحياة، كلها تكون عبادة إذا قصد بالخير فيها وجه الله تعالى، ونفع عباده، فالصانع في

مصنعه والزراع فى مزرعته إذا قصد بعمله نفع الناس ووجه الله تعالى، فهو فى عبادة، فالعبادة تعم كل أفعال الإنسان، واختصت من بينها الفرائض، لأنها لا يمكن أن تكون إلا لله تعالى، وهو عليم بذات الصدور.

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - ذاته العلية بصفات تدعو إلى العبادة، من له قلب يخشع، وعقل يخضع، فوصفه أولا بأنه الرب الأوحد، فقال ﴿رَبِّكُمْ﴾ أى رباكم وغماكم، أو وربكم: تولاكم، وكلائكم بالليل والنهار، ويتبع حياتكم، فيرعاكم حق الرعاية فى كل أجزاء جسمكم، ونفوسكم وعقولكم، ولا تخفى عليه خافية من أموركم، وهو بهذه الربوبية يستحق أن تعبدوه وحده، لا شريك له؛ لأنه لا أحد سواه يربكم.

ووصفه ثانيا بأنه ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ والخلق معناه الإنشاء والإبداع والتقدير والتصوير، صوركم، فأحسن صوركم، والعرب كانوا يعرفون الله تعالى، وأنه وحده الذى خلقهم، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ... ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان] وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى... ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر].

فهم يؤمنون بوحدة الخالق المنشئ المكون، ويؤمنون بوحدة الذات والصفات، وإشراكهم كان إشراك العبودية، فهم يعبدون مع الله غيره آلهة أخرى، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ووصفه ثالثا بأنه خلق الذين من قبلهم، وقد يسأل سائل: لماذا كان هذا الوصف، والسابق يتضمنه، فمن خلق جيلا فإنه يخلق الأجيال كلها: من مضى، ومن حضر، ومن يجىء بعد ذلك من الأخلاف؟

والجواب على ذلك أنه لا يغنى المتضمن عن الصريح، وذكر الجيل السابق، أو الأجيال السالفة للإشارة أولا إلى عموم قدرته، وإلى أنه قادر على الإحياء والإماتة

فهو خلق السابقين، وأماهم ثانياً، وللإشارة إلى أن الحاضرين ليسوا مخلصين، فهم سيموتون، كما مات من سبقوهم وسيبعثون جميعاً يوم الدين، ولأن العرب كانوا يعتزون بأسلافهم فالله سبحانه وتعالى يبين أنه هو وحده الذى خلق أسلافهم، سواء كانوا ضالين أم كانوا مهتدين. وإن صفة الربوبية وصفة الخلق والتكوين للكون كله، ولمن حضر من الناس، ومن سبقوهم وقبروا فى مقابرهم، تقتضى ألا يعبد سواه، ولا يحمد غيره، ولا يستحق الألوهية الحق غيره، فهو الله الواحد الأحد.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أى اعبدوه رجاء أن تتقوا بأن تقوا أنفسكم شر عذابه، وتكونوا فى أمن من عقابه، و«لعل» الدالة على الرجاء، الرجاء فيها من العباد، والمعنى اعبدوا فالعبادة طريق التقوى ومعها رجاؤها، وتحقيقها، ويقولون إن التقوى أقصى درجات العبادة، لأن تغليب الخوف عبادة، ورجاء النجاة عبادة.

وقد يقال إن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متصلة بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات] والمعنى أن الله تعالى خلق الناس فى ماضيهم وحاضرهم وقابلهم رجاء أن يعبدوه أبلغ العبادة بالتقوى وامتلاء النفس بهيبته، والاعتزاز بعزته.

وإن الله تعالى عالم بكل شيء فليس يجوز عليه الرجاء؛ لأنه يحتمل الوقوع وعدم الوقوع، والرجاء لا يجوز أن يكون من أحوال الله تعالى، بل هو من أحوال الخلق.

ولذلك قرروا أن (لعل) هنا مجازية أى أنها ذكرت على سبيل المجاز، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، وجعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة وقدرة وقوة بها يختارون ويفعلون، لا يقع شيء من أفعالهم الاختيارية إلا بإرادتهم، يدركون الأمور ويتخيرون ويعرفون أسبابها ونتائجها، فحالهم حال من يرجو أن يتجهوا نحو العبادة

يتغونها، فالرجاء من حالهم، والله تعالى لا يرجو، ولا يتصور منه، إنما يتصور منه العلم، ووقوع الأمر كما علم، وكما قدر.

وعندى أن الاتصال بين رجاء التقوى والأمر بالعبادة أظهر وأوضح، ولا إشكال فيه .

وقد بين سبحانه بعد ذلك بديع التكوين، والنعم التي ينعم بها العباد، فقال تعالت كلماته: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ جعل تستعمل بمعنى صير، وتستعمل بمعنى خلق، كما قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ...﴾ [الأنعام] وتأتى بمعنى سمى، كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا...﴾ [الزخرف] وتأتى بمعنى أخذ واتخذ.

وجعل هنا بمعنى صير لأنها ذات مفعولين، الأول ﴿الْأَرْضَ﴾ والثانى ﴿فِرَاشًا﴾، والمعنى جعل الله تعالى الأرض مهددة معبدة كأنها فراش يستقر عليه الإنسان، ويجد فيها مقاما ثابتا، وإذا كان فيها تنوء كالجبال فقد جعلها الله تعالى مشبها لذلك الفراش، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبا] وأوتادا ﴿ي﴾ [النبا] وقد وصفت الأرض بأن الله تعالى جعلها مهادا، ووصفت بأنه جعلها بساطا، فهى مهددة كالفرش وكالبساط، وتلك نعمة من الله تعالى لتسهيل الإقامة عليها، والانتقال بين آفاقها، والهجرة بين أجزائها، وهى للإنسان كالعرصة^(١) فى مسكنه، وكون الأرض فراشا لا ينافى أنها كرة تدور حول الشمس، فإنها لعظمها وانبساطها تعد فراشا أو كالفرش، ولا يحس بأنها كرة إلا من تتبع الليل والنهار والشمس والقمر، والسير فيها من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وما يقرره العلم الاستقرائى المتتبع لما خلق الله سبحانه وتعالى.

(١) العرصة: كل بُقعة بين الدُورِ واسعة ليس فيها بناءٌ والجسمع: عِراضٌ، وعِرَصاتٌ، وأعراسٌ. [القاموس المحيط - فصل العين - باب: عرص].

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أى وجعل السماء بناءً، أى كأنها البناء أو الخباء الذى يحيط بأهله فهى السقف، أو كالسقف، ولقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا...﴾ (٣٢) [الأنبياء] ويقال: بنى على أهله. أى: زفت إليه زوجه؛ لأنه من العادة المعروفة عندهم أن المرأة كانت إذا زفت لزوجها بنى لها خباء يسترهما، فهى من الأرض بمنزلة الخباء الذى يحيط بها ويظلها؛ ولذا تسمى الأرض المِقْلَة وتسمى السماء التى نراها المِظْلَة.

وإن الازدواج بين المظلة والمقلة تكون نتيجته الماء الذى ينزل من السماء مدرارا، فيكون غيثا ينبت الزرع، ويكون منه الكلا تأكل منه الأنعام والحرث.

ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى مما كان بناء الأرض ﴿مَاءً﴾ ولم يقل من السحاب أو الغمام، وهى التى يتقاطر المطر منها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٤٣) [النور] فهذه الآية الكريمة تدل على أن الماء ينزل من السحب المتراكمة التى تكون كالجبال، وعبر سبحانه وتعالى عن نزول الماء بأنه من السماء، لأنها وعاء السحاب، ولأنه سبحانه وتعالى من على عباده، بأنه جعل السماء مظلة الأرض، فناسب أن يذكر السماء مضافه إليها نعمة أخرى، وهى نعمة نزول الماء الذى يكون به الخصب والسماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠) [الأنبياء].

وقد قال سبحانه بالتكثير: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى أن هذا الماء بعض نعمه، فله نعم من الماء، وليس الماء الذى ينزل إلا بعضا من مياه كثيرة، تنزل فتفيض بها الأنهار، وتجرى فى الأقطار، فالتكثير للبعضية.

وقال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ ومن للتبعيض مثل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾ (٥٧) [الأعراف] وأسند الإخراج إليه، فلم يقل سبحانه أخرجت الأرض، أو أنبتت الأرض، أو أنبت الماء نباتا، لبيان

جلال نعمته لأنه هو المخرج ، وهو المنبت ، وهو الذى يُربى البذر، ويتج الثمر، وتلك أسباب وهو خالق الأسباب والمسببات، فالمولود لا يولد بنطفة الفحل، ولكن بخلق الله تعالى، وجعل سبحانه وتعالى النطفة سبب الوجود.

وقال تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ورزق بمعنى المرووق، فهو فعل بمعنى المفعول، كطحن بمعنى المطحون، ونقض بمعنى المنقوض، وتنكير رزق إنما هو للبعضية، فالثمرات بعض الرزق الذى رزقه الله تعالى، فالنعم رزق من رزق الله تعالى لعباده، والفلزات فى باطن الأرض من رزق الله تعالى لعباده، والسّمك اللحم الطرى من رزق الله تعالى، واللالئ فى البحار من رزق الله تعالى، فتكثير ﴿رِزْقًا﴾ فى هذه الآية الكريمة التى نذكر معانيها للدلالة على البعضية، أى أنه بعض ما رزق الله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ [النحل].

وإنه إذا كانت هذه القدرة القاهرة التى خلقت الحاضرين والماضين ومهدت لهم الأرض تمهيدا، وجعلت لهم السماء سقفا محفوظا، وأنعمت برزق من زواج السماء بالأرض، وأخرجت لهم منها بعض رزق الله، وهو كثير، فهو وحده المستحق للعبادة وحده، إذ لا قدرة لبشر ولا لحجر أن ينشئ خلقا أو يرزق رزقا؛ إذ لا ينفع ولا يضر؛ ولذا قال تعالى بعد هذه النعم فى الخلق والتكوين: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجعل هنا هو الاتخاذ، والند هو المثل الذى يفرض فيه أنه مماثل مناوئ، كما تقول فلان ند لفلان أى مثل مناوئ كفاء له.

وهؤلاء المشركون مع إيمانهم بأن الله خالق كل شيء، ومجرى النعم، ومنزل السحاب، مع علمهم بذلك يتخذون الأنداد ويشركون بها، يعبدونها مع الله سبحانه وتعالى وكأنها ند لله تعالى فى زعمهم، وإنهم يفعلون ذلك، وهم يعلمون، أى هم يعلمون أن الله وحده هو خالق كل شيء، وأنه منزل النعم، وأنهم لا يستجبرون إلا به أو نقول: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنهم من أهل المعرفة والإدراك، والفهم والذكاء، ولا يليق بذكائهم أن يجعلوا المخلوق كالخالق، ومن لا يضر ولا ينفع كمن يملك الضر والنفع، أو إنهم يعقلون ويدركون، فذلك حث لهم على الإيمان بإثارة علمهم وعقلهم وتفكيرهم .

القرآن المعجز

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾

دعا الله سبحانه وتعالى الناس جميعا إلى أن يعبدوه، وذكر لهم سبحانه وتعالى من النعم الظاهرة، والقدرة القاهرة التي يخضع لها الوجود كله ما يدل على أنه وحده الذى يستحق أن يعبد، فالذين يعبدونهم مما يجعلونهم أندادا لله تعالى لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولكن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالرسول الذى جاء بالحق والذى بعث رحمة للعالمين، وقد أتى لهم بما يدل على أن الله تعالى بعثه إليهم، وهو القرآن الكريم الذى يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله، وهو الكتاب الجدير وحده بأن يسمى كتابا؛ لأنه كتاب الله تعالى إلى خليقته يهديهم إلى سبل السلام، وهو برهان محمد ﷺ، وهو الخالد إلى يوم الدين، فالمعجزات المادية الحسية تنتهى بانتهاؤها، أما القرآن الكريم، فإنه قائم إلى يوم الدين، يتحدى الناس فى كل جيل أن يأتوا بمثله، ولقد قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(١) لأن معجزته التى تحدى بها أن يأتوا بمثلها ما زالت قائمة لم ينقض زمانها، ولقد كان للنبي ﷺ خوارق حسية جرت على يديه، ولكنه ما تحدى بها، بل تحدى بالقرآن لأنه معجزته الخالدة الباقية: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء].

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: فضائل القرآن - كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٤٩٨)، ومسلم. الإيمان - وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

هذه الآيات التي نتكلم متسامين إلى معانيها هي مما تحدى القرآن الكريم بها العرب بعد أن ذكر قدرة الله ونعمه التي تثبت وحدانيته في العبودية. هذه الآيات من التحدى الشامخ التي أثبت عجزهم.

قال تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ذكر سبحانه وتعالى احتمال أن يكونوا في ريب من أن القرآن من عند الله، وأنه الدلالة الدالة على نبوة محمد ﷺ، فقال: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ عبر سبحانه بأداة الشرط التي لا تدل على وقوع الريب قطعاً كـ «إذ»؛ لأن التعبير بـ «إن» يدل على الشك في فعل الشرط، لا على تحققه للإشارة - إلى أنهم لو كانوا في شك من أمر القرآن حقيقة، وأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثله، كما كانوا يقولون ﴿لَوْ نَشَاءُ لَفَلَقْنَا مِثْلَ هَذَا...﴾ [الأنفال] ما كان ذلك مبنيًا على تفكير سليم، إذ إن أي تدبر وتفكير في معانيه يزيل كل ريب، ويوجه إلى الحقيقة توجيهًا مستقيماً، لا مجال فيه لأي ريب أو أي شك.

وهنا يسأل سائل: لقد وصف القرآن الكريم في أول السورة بأنه لا ريب فيه، فكيف يتصور أن يكون ثمة ريب فيه؟. ونقول في الجواب عن ذلك: إن الريب منهم لا منه في ذاته، فهو في ذاته يعلو عن الريب، لأنه يعلو عن المثل والشبيه في تساوق ألفاظه ومعانيه، وجمال فواصله، ورنه نغمه، وحلاوة موسيقاه، وكل ما اشتمل عليه مما أدهش المشركين، وحاروا، ولم يجدوا محيصاً من الإذعان والسكوت والانتقال من العجز الدليل إلى الاضطهاد والإيذاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ بالتعبير بكان المصورة لما وقع منهم، إشارة إلى أنه لا ريب فيه لذاته، وإنما الريب من عقولهم المنحرفة. ونفوسهم الوثنية، التي استهوتها الأحجار فعبدتها. فالشك منهم، والقرآن أعلى من ذلك، ولا ريب فيه، وفي أنه من العزيز الحكيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد يقال: إنهم لم يكونوا في ريب من أمره، بل كانوا جازمين بأنه ليس من عند الله، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في تكذيبكم، فنقول في ذلك: إنهم كانوا جازمين في تكذيب أنه من عند الله تعالى، ولكن النص القرآني ينههم إلى أن حالهم في مثل إدراكهم البياني وذوقهم البلاغي، وكونهم مقاول العرب، وأهل الفصاحة والبيان والدربة في القول، ومعرفة موازينه، وتنبيههم الآية الكريمة إلى أن مثلهم في حالهم لا ينبغي أن يجزموا منكرين، بل يترددوا حتى يصلوا إلى الحقيقة، في أمر هذا النوع من القول الذي لا ينهد إلى مكانته قول من أقوالهم.

وإن الثابت في سيرة رسول الله ﷺ أنه كان له أثر في نفوسهم، وأحسوا بأنه فوق ما يقوله البشر، فقال بعضهم: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، ما يقول هذا بشر»، وكانوا يتفاهمون فيما بينهم على ألا يسمعه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت] فإذا اتفقوا على ذلك ذهب كل واحد منهم سرا إلى حيث يسمعونه، وكل يظن أنه وحده الذي جاء يستمع إليه، فإذا هم يلتقون، وينقضون ما اتفقوا عليه.

ولذلك سموه سحرا، وسموا النبي ﷺ ساحرا.

ولذلك نقول: إن ذكر القرآن الكريم لهم بأنهم كانوا في ريب منه وخصوصا أهل العلم بالبيان منهم وصف صادق، فما كانوا مؤمنين به، وما كانوا منكرين إنكاراً قاطعا بأنه ليس من عند الله؛ ولذلك لم يعرف عن أحد من عقلائهم أنه أراد أن يأتي بمثله، وإن تنكير الريب دليل على أنه ريب ليس بالقوى، أو الشديد، وذلك لكمال وضوح الأدلة الدالة على أنه ليس من طاقة أحد أن يأتي بمثله، وإن الشك إن كان منهم فليس له محل ولا مسوغ.

ومن في قوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ معناها بيان موضع الشك الذي يشور عندهم، فيقال في شك من الأمر، باعتبار أن موضع الشك هو الأمر، وقوله

تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ تدل على التنزيل منجما زمنا بعد زمن، ولم ينزل دفعة واحدة، وكانوا يثيرون الشك حوله بسبب ذلك، وقد قال تعالى فيما حكى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۚ﴾ [الفرقان] فكان مما يثير ربهم الباطل أن القرآن لم ينزل دفعة، ولكنه نزل منجما ليثبت به قلب النبي ﷺ، وليتعلم ترتيله، ويعلمه أصحابه؛ وليحفظوه في الصدور ولا يكتفى بالسطور.

وذكر الله تعالى تنزيله على النبي ﷺ بقوله تعالت كلماته: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وهو محمد ﷺ ذكره بالعبودية لله تعالى، وفي ذلك تشريف للنبي ﷺ، وبيان لحماية الله تعالى له، وبيان بأن الرسالة لا تبعده عن مقام العبودية فهو عبد لله تعالى، ولن يستنكف أن يكون عبدا لله تعالى، وأن الله تعالى عاصمه في رسالته من الناس كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ [المائدة].

كان فعل الشرط هو قوله تعالى: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وكان جواب الشرط هو التحدى بالمطلب المعجز وهو قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ وهذا تحد للإعجاز، كما جاء في حكاية إبراهيم مع الطاغية عندما تحداه أن يأتي بالشمس من المغرب بدل المشرق إذ قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

والتحدى: هو أن يأتوا بسورة من مثله: السورة عدد من الآيات أقلها ثلاث كما في قوله تعالى في سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر] وهي في أصلها من السور لأنها تحيط العدد من الآيات كأنها سور حولها، يحيط، أو من السورة وهي الدرجة الرفيعة،

والسورة يتحقق فيها المعنيان، فهما متحققان في معنى السورة، فهي درجة من درجات البيان الرفيع لا تتفاوت مقاديرها وتتلاحق في درجاتها وتقديرها، وكل واحدة لها مقامها حتى أنها تسمى قرآنا وحدها.

ومن في قوله تعالى: ﴿مَنْ مِثْلَهُ﴾ بيانية، والمعنى على ذلك فأتوا بسورة من كتاب مثله إن كان في استطاعتكم أن تأتوا بكتاب مثله، فأتوا بسورة منه تكون واضحة التماثل والتشابه بها.

وقال بعض العلماء أن «من» زائدة لتقوية السياق وتكون كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس]، ولا يقال في القرآن إن حرفا زائد.

تحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من قراءة ﴿مِثْلِهِ﴾ يستطيعون بها أن يقولوا بها كما يقولون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا...﴾ [الأنفال]، تحداهم ذلك التحدى، وتحداهم أن يدعوا من يشاءون ممن ينصرونهم ويؤازرونهم في الملمات والشدائد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الشهداء جمع شهيد، وهو الحاضر؛ أي ادعوا الحاضرين الذين يناصرونكم ويعاونونكم في الملمات وأجمعوا أمركم من دون الله أى متجاوزين الله سبحانه أو من تجمعونهم مهما يكونوا دون الله تعالى، فشهداءكم مهما تكن قوتهم، ومهما تكونوا تفرعون إليهم في أموركم وعظائمها؛ فإنهم لا يمكن أن يأتوا بذلك. افعلوا ذلك: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم تستطيعون، وهذا كقوله تعالى في التحدى: ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس].

كان التحدى من الله سبحانه وتعالى وكان العجز منهم، وقد كان التحدى يطالبهم بأن يجمعوا من يشاءون ومن يستطيعون جمعه من الأنصار والمقاول ليقولوا، ولكنهم عجزوا لا بصرف الهمم، ولكن لعجزهم، فكان الإعجاز في ذات القرآن لا بصرف الأفهام كما ادعى المقلدون من الفلاسفة وبعض علماء الكلام.

وإنه بمقتضى الحكم السليم والمنطق المستقيم أنهم إذا عجزوا ذلك العجز الصارخ أن يذعنوا للحق الذى جاءهم؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فإن لم تفعلوا أى لم تأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، بعد أن تتصافروا وتتعاونوا، وتدعوا من استطعتم أن تدعوه، ومع ذلك تعجزون عن أن تأتوا فاعلموا أن ربيكم لا موضع له، وأنه شك حيث يجب اليقين، وعناد حيث يجب التسليم، وعليكم أن تتخذوا الإيمان وتدخلوا فى الإسلام، وتتنقوا النار التى وقودها الناس والحجارة التى تعبدونها تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء].

فقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ جواب الشرط فى ظاهر اللفظ، وهى تطوى فى ثناياها كلاماً هو بمنزلة السبب لهذا الجواب، تقديره: فإن لم تأتوا بمثله فدعوا عنادكم، وصدقوا بالحق الذى جاءكم، وبذلك تتقون النار التى يكون وقودها أنتم والحجارة التى تعبدونها، وإن جواب الشرط على هذا إنذار بعد ذكر البرهان على الحق.

الوقود هو ما تستعر به النيران وتشتعل، وذكر الحجارة التى لا تنفع ولا تضر تنديد بهم وبعقولهم التى تعبد ما لا ينفع ولا يضر، ويضل ولا يهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه، وهى مسارعة إلى بيان عجزهم، لأنه من الله، وجعله الله تعالى فوق قدرة البشر، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يستطيعون، فكانت هذه الجملة الاعتراضية لتسجيل العجز المطلق، ونتيجته وهى أن يتقوا النار التى أعدت وهيئت للكافرين الجاحدين المعاندين للحق، وهذه الآية الكريمة كانت فى سورة مدنية، وهى تدل على استمرار التحدى بالقرآن فى المدينة. كما تحدى به فى مكة، وكما يتحدى الأجيال كلها من بعد ذلك.

لقد تحداهم الله تعالى فى سور مكية مثل قوله تعالى فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى فى سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] وندع الكلام فى أسباب إعجاز القرآن، فقد خصصنا له كتابا، وصلنا فيه إلى سبب الإعجاز بقدر طاقتنا.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ
رَّزَقَافَا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

بعد أن أشار سبحانه إلى ما أعد للكافرين، وهو النار التى وقودها الناس والحجارة التى كانوا يعبدونها، فتلك حصب جهنم، وقد أعدت تلك النار للذين يكفرون بالوحدانية وينكرون الرسالة الإلهية، والعصاة يقيمون فيها بقدر معاصيهم إلا أن يتغمدهم الله تعالى بعفوه وغفرانه ورحمته.

بعد هذا ذكر سبحانه ما أعد للمتقين المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهكذا يقرن الله ترهيبه بترغيه، فهو يرهب أهل الجحود بالإنذار الشديد ليقرع الحق أسماعهم، بعد أن سلك بهم طريق الحجة والبرهان، وبيان القسطاس المستقيم، ولكن إذا لم يدخل إلى قلوبهم كانت العاقبة ما يستقبلهم من عذاب شديد.

ومن أشد العذاب أن يروا مآلهم، ومآل أهل الإيمان، فهم بسبب عنادهم معذبون سلباً وإيجاباً. . معذبون سلباً بحرمانهم مما جرى به أهل الإيمان من جنات ونعيم، ومعذبون إيجاباً بعذاب الجحيم.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بشر فعل أمر من التبشير، وأصله من البشارة، وأصلها الخبر الذى يجيء المبلغ به فتبدو آثار السرور على بشرته، فهو الخبر بالأمر الذى يسر ولا يضر، ويكون أول الخبر بالسرور، وصاحبه يسمى البشير: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا...﴾ (٩٦) [يوسف] والنبي ﷺ هو البشير النذير، الذى يبشر أهل الحق واليقين، وينذر أهل الجحود والإنكار.

وقد تطلق على سبيل المجاز كلمة التبشير فى مقام التهديد والإنذار كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) [آل عمران] وهذا على سبيل السخرية والتهكم، كأنهم يترقبون مايسرهم، فيجىء الخبر بما يضرهم ويسمى باسم البشارة تهكما بهم، وإشارة إلى أن ذلك ما يجب أن ينتظروه ويترقبوه، والله محيط بهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيه إشارة إلى سبب البشارة، لأن التعبير باسم الموصول دليل على أن الصلة سبب الحكم، فالإيمان والعمل الصالح هما السبب فى البشارة، أو هما السبب فى الجزاء بأن تكون لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وثمرات الجنة المتشابهة المختلفة الطعوم.

والإيمان هو التصديق والإذعان بالقلب، وأن يصدق المؤمن بكل ما جاء به النبي ﷺ، وأن يصدق الرسول فى كل ما جاء به مدعنا له، مصدقا بأنه من عند الله تعالى، والإسلام هو إعلان الإيمان، والإذعان لأحكام الإسلام، ولقد قال النبي ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلب...» (١) ولقد حدث فى أثناء

(١) أخرجه أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه: باقى مسند المكثرين (١١٩٣٣).

الدعوة المحمدية، وتبليغ الرسالة، أن كان بعض الأعراب يعلن اتباع النبي ﷺ، ولكن القلوب لم تدعن إذعانا كاملا؛ ولذلك قال الله تعالى عنهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (١٤) [الحجرات] ولقد روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الإسلام علانية والإيمان في القلب». قال: ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات ويقول: التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»^(١).

ولقد ذكر الله مع الإيمان العمل الصالح، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والعمل الصالح هو العمل الذي يصلح به الناس وتستقيم جماعتهم، وتأنف قلوبهم، ويكون فيه صلاح الأرض، ولا يكون فسادهم، وهو الذي يسوده الإيثار، فحيث كان وجد الائتلاف، ومع الائتلاف الخير والقوة، ولا يكون فيه الأثرة، فإنها حيث كانت وجدت الفرقة، ووجد الانقسام وذهبت القوة.

ويشمل العمل الصالح الصلوات والزكوات، والصيام والحج، كما يشمل كل خير يقدم للمجتمع، كما روى أن النبي ﷺ قال: «خير الناس أنفعهم للناس»^(٢). ولا شك أن العمل الصالح ثمرة من ثمرات الإيمان الصادق، والإذعان المطلق لله سبحانه وتعالى، والطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ.

ولكن هل يزيد الإيمان بالعمل الصالح، وينقص بترك العمل بموجبه وما يقتضيه ويدعو إليه؟ وهي قضية يخوض فيها علماء الكلام من حيث إن الإيمان يزيد وينقص أو لا يزيد ولا ينقص، وأنه حقيقة واحدة، وهي التصديق والاعتقاد الجازم، والإذعان المطلق لله ولرسوله، وتلك لا تزيد ولا تنقص.

ولا نريد أن نخوض في ذلك. ونقول مقررين حقيقتين ثابتتين.

(١) السابق.

(٢) أخرجه «القضاعي» في مستند الشهاب «عن جابر».

إحداهما: أنه قد جاء فى النصوص القرآنية أن الإيمان يزيد، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

وهكذا نرى فى صريح القرآن أن الإيمان يزيد، وأنه وإن كان أصله الاعتقاد والتصديق، فإن زيادته تكون بتوثيقه بحيث يكون عميقا لا ترعزعه الرياح، أو راسيا ثابتا، كالجبال، ولا شك أن العمل بموجبه يوثقه، ويؤكدده، وأن ترك العمل يجعله يجف، وإن كان لا يموت ولا يذهب وإن الجزاء يكون على الإيمان وللعمل جزاؤه. والحقيقة أنه وردت أحاديث كثيرة تجعل الأعمال من الإيمان، وقد روى ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون أو سبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأعلىها قول لا إله إلا الله، والحياء شعبة من الإيمان» (١).

وإنَّ عد هذه الأعمال من الإيمان على أنها من ثمراته، ولا مانع من أن تعد الثمرة من الأصل إذا كانت لا تظهر إلا ثمرة له فلا تكون إلا من أصل الإيمان، فهى من قبيل الاتحاد بين اللازم والملازم.

ومهما يكن القول فى الاتصال بين الإيمان والعمل، فإن العمل يزكى الإيمان ويقويه، وهو كالماء، والغذاء، يتغذى منه الإيمان ويقوى، وإن الإيمان من غير عمل يجف، ولا يكون مثمرا منتجا، فمن يكون مؤمنا من غير أن يعمل بموجب إيمانه يكون كمن يملك أرضا طيبة، لا يزرعها، ولا يثمرها.

ثانيهما: أن المؤمن، وإن لم يعمل، خير من الكافر، وإنه وإن أهمل فقد يعمل، والله تعالى يجزيه الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، وهو خير كله إذا عمل، واتقى وآثر الحياة الآخرة على الدنيا.

(١) رواه ابن ماجه: المقدمة (٥٦) وبنحوه البخارى: الإيمان (٨)، ومسلم: الإيمان (٥١)، والترمذى (٢٥٣٩)، والنسائى (٤٩١٨)، وأبو داود: السنة (٤٠٥٦)، وأحمد (٨٥٧٠).

وإن الجزاء الذى بشر به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجنات الحدائق التى تشتمل على نخيل وأشجار متكاثفة، حتى تستر الأرض وتجنها، فهى جنات، لأنها تستر ما تظله، والضمير فى تجرى من تحتها الأنهار، يعود على أشجارها، وإن لم تذكر باسمها، فكلمة جنات متضمنة لها، إذ لا تتحقق الجنات إلا بأشجار متكاثفة ملتفة، والجريان للماء، لا للأنهار؛ لأن الأنهار هى ما يشق فى الأرض ليجرى فيه الماء فهو من إطلاق اسم المحل، وإرادة الحال، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [١٧] ﴿العلق﴾، وإن الناظر إلى الماء وهو يجرى منسابا فى الأرض لا يرى النهر ولكن يرى الماء، فكأن النهر اختفى فى الماء ولا يرى غير الماء.

وإن هذه الجنات فيها بهجة للناظرين، فهى متعة للأنظار، وبهجة للنفوس بذاتها، وفيها ثمرات شهية من كل شئ، وكما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [١٥] ﴿محمد﴾.

وإن الثمرات متشابهة فى اللون، وإن كان الطعم فى الذوق متغيرا، وهى دائمة متجددة، مستمرة لا تمل ولا تُسأم بل فيها المتعة المتجددة؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أى أن هذه الثمرات تجيء إليهم رزقا من الله تعالى من غير جهد يبذلونه، ولا عمل يعملونه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿رُزِقُوا﴾ وأكده سبحانه بقوله تعالى: ﴿رِزْقًا﴾ أى أنه يجيء بأمر الله وإنعامه رزقا حسنا من غير أن يقوموا بمجهود فيها، فهى دار الجزاء والنعيم، فإذا كانوا لم يعملوا فى الجنات فهو جزاء وفاق لما سبقوا به من عمل صالح، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فهو جزاء لمجهود سابق، وثمره لإيمان وعمل صالح.

وهم يقولون: هذا الذى رزقنا من قبل، وهذا يدل على التجدد المستمر، ويدل على التشابه فى الشكل، فمعنى النص: هذا الذى رُزِقناه فى الجنة مثل الذى رُزِقناه من قبل فى شكله، ولكنهم يجدون الطعم متغيراً، وسبحان خالق كل شيء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ فى شكله، وإن تغير طعمه.

وهناك فوق متعة الطعام، والتمكن من كل الخير متعة الأنس بالحياة الزوجية، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ والأزواج جمع زوج ذكراً كان أو أنثى، فهى تطلق على المرأة المتزوجة، كما تطلق على الرجل المتزوج، وإلحاق التاء بها بالنسبة للمرأة قليل نادر، ولكنه صحيح؛ ولذلك قال عمار بن ياسر فى عائشة أم المؤمنين عندما أخرجت فى واقعة الجمل: «إنها زوجته فى الدنيا والآخرة، ولكنه البلاء»^(١).

ومعنى مطهرة أنها خالية من الدنس النفسى المعنوى والجسدى، فهن طاهرات مطهرات من كل رجس.

وقد يقول قائل: إن المرأة متعة الرجل فى الآخرة، ونقول إن الجزاء لهما معاً، فلها كل الثمرات التى للرجل، والأزواج متعة للرجل والمرأة، فهو متعتها وهى متعته، إن صح هذا التعبير؛ ولذلك صرح القرآن الكريم بأن الجزاء لهما، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ... ﴿١٩٥﴾ [آل عمران].

وإن ذلك النعيم دائم لا ينغصه توقع زواله، بل النعمة كاملة بدوامه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا ويجب أن ننبه إلى أن نعيم الجنة نعيم مادى

(١) أخرجه البخارى كتاب الفتن: (٦٥٧١) واللفظ له، وأحمد: أول مسند الكوفيين (١٧٦١).

حسى؛ لأن ذلك هو ما تدل عليه الألفاظ، ولا يصح تأويلها بغير سند من الشرع، ولا حجة، ولا دليل، ولا نؤولها بعقولنا المجردة، فإن ذلك يعد إنكاراً للغيب الذى قرر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم أن أول صفة من صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، وأن فرق ما بين الإيمان والزندقة الإيمان بالغيب.

ولكن ورد عن ابن عباس أن الألفاظ التى وردت فى نعيم الجنة ليست على حقيقتها التى نراها، فثمراتها، ورمانيها وعسلها ولبنها، وخمرها، ليست هى خمرنا، وأن نعيم الجنة فوق علمنا، ولكن الله تعالى قرب لنا نعيم الجنة بما يشبهها فى استعمالنا، ولكنها مادية حسية، ويتحقق بذلك قول النبى ﷺ : «فإنها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

الأمثال فى القرآن وموقعها فى النفوس

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَىٰ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

بين الله تعالى حال المنافقين، وضرب سبحانه وتعالى مثلين يبينان حالهم التى يبدو فيها النور لهم ولا يتفتعون منه، فشبههم سبحانه بحال الذى يستوقد ناراً، وما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة (٥٠٥٣)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢١٧٦٠).

إن يتم له أن يتنفع حتى تنطفئ، ويذهب الله تعالى بنورهم فلا يبصرون، وشبههم ثانيا بحال قوم أصابهم صيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إن ماء الحياة يجيء إليهم، ولكن لسوء حالهم وفساد قلوبهم تنعكس بين أيديهم الأمور، فلا يدركون . . إلى آخر ما بين سبحانه وتعالى .

وإنه من منهاج الذكر الحكيم ضرب الأمثال تقريبا للأفهام، وتصويراً للمعاني التي تسمو بها المدارك بالأمور المحسوسة القريبة لكل من عنده لب، والأمثال تضرب لذي اللب الحكيم، فيعتبر بها، ويكون المغيب غير المحسوس كأنه المحسوس الذي يرى ويشاهد، ولقد ضرب الله الأمثال بالذباب في بديع تكوينه وسر خلقه الذي تعجز العقول عن أن يخلقوا مثله . وشبه الأوثان التي يعبدونها وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تملك من أمرها شيئاً بأنها أوهام توهموها، وأخيلة من القدرة تخيلوها .

ولقد قال تعالى في الذباب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۚ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ [الحج]

فهو في هذا المثل بين أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له هم وآلهتهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتغلبوا عليه إن سلبهم شيئاً .

وفي سورة العنكبوت شبه آلهتهم التي يتوهمون فيها سلطاناً، كمثل بيت العنكبوت أى الخيوط التي ينسجها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) [العنكبوت] أكثر الله تعالى من ضرب الأمثال لتقريب المعاني السامية للعقول التي لا تدرك إلا المحسوسات الدانية، ولكن المعاند الجاحد، والعاجز الحسود يقلب الحسنات، ويتهمكم على الحقائق الرائعة، فتكلموا متعجبين مستغربين من

ضرب الأمثال بالبعوض والذباب، وكأنهم إذ لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله وعجزوا عجزا صارخا أخذوا يثيرون الشك حول بعض أجزائه وما اشتمل عليه، فاختاروا الأمثال موضعا لإثارة الاستغراب والعجب يتوهمون أن ذلك يضعف من تأثيره .

لذا رد الله تعالى أمرهم وإثارة العجب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾، ضرب - معناها ذكر، والمثل هو الحال التي تشبه حالا قائمة قدرت أو وقعت، فمعنى ضرب المثل بيان الحال التي تشبه وتمثل بحال واقعة ثابتة، ويقول علماء البلاغة، إن للمثل مضربا وموردا فالمورد هو الحال التي تشبه بها القول، والتي صدر فيها، والمضرب هو الحال التي يشبه الحال التي وقعت أو هي ثابتة.

ومهما يكن فالمثل تشبيه حال غير منظورة ولكن تدركها العقول بحال أمر واقع ثابت، والاستحياء انقباض النفس عن أن يكون منها ما يستقبحه الناس الذين يسيطر عليهم عرف قويم، وهو أساس من أسس الأخلاق؛ ولذا قال النبي ﷺ: «الحياء خير كله»^(١)، ولكن هذا المعنى يليق بالناس، ولا يليق بالذات العلية؛ ولذلك بالنسبة لله تعالى أريد لازمه، لأن من لوازم ذلك الانقباض الترك، إذ من استحيا من عمل شيء يتركه.

والمعنى أن الله تعالى كلماته، وتسامى قرآنه، لا يترك خاشيا لومة لائم أن يضرب مثلا، بأن يمثل أمرا ثابتا محققا بأمر واقع محسوس، تقريبا للمعاني إلى ما هو محسوس، وتوضيحا للأمور، لتكون بينة للجميع أو لمن يصغون إلى تلقى البيان بقلب سليم، وإدراك مستقيم.

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم: كتاب الإيمان (٥٤)، وأبو داود: الأدب (٤١٦٣)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٨٩٧٧) وأخرجه البخاري بلفظ: «الحياء لا يأتى إلا بخير» كتاب الأدب (٥٦٥٢)، ومسلم: كتاب الأدب (٥٣)، وأحمد: مسند البصريين (١٨٩٨). عن عمران بن حصين رضى الله عنه.

والبعوضة أصغر من الذبابة، ﴿مَاءٌ﴾ هي التي تسمى في عرف النحاة نكرة تامة بمعنى شيء، فهي شيء مبهم، وإذا جاء بعد نكرة كانت للدلالة على إيقاعها في الإبهام، فالمعنى بعوضة أيا كانت هذه البعوضة صغيرة أو كبيرة حقيرة أو خطيرة، فالله سبحانه وتعالى لا يترك ضرب الأمثال بالبعوضة أو ما دونها.

وإن الكلام البليغ يضرب المثل للحقير، بحقير، والمثل للعظيم بعظيم، فيضرب فيه أوهامهم في آلهتهم من حيث إنها لا تقوى على النظر، ولا يمكن أن تكون معقولة، وحالها يناقض كل معقول بأنها كمسكن العنكبوت الذي تهدمه الرياح لأنه أوهن البيوت، وإن كان نسجها محكما، يدل على حكمة اللطيف الخبير، ولكن موضع المشابهة هو الوهن فقط.

وقد يكون ضرب المثل للبعوضة، ببيان إحكام تكوينها، وبديع خلقها، كما كان مثل الذباب من حيث خلقه وتكوينه، وعجز الآلهة ولو اجتمعوا له أن يخلقوه. ونرى من هذا أن التمثيل بالبعوضة يكون فيه تشبيه حال الضعف، ببغض الضعف في نواحيها، كما رأينا في تشبيه أوهامهم حول الأصنام التي يعبدونها، من حيث إنها لا تقوى على نظر مستقيم في أمرها، يبيت العنكبوت الذي هو أوهن البيوت.

وإن هذا النص الكريم يدل على أن ضرب الأمثال بصغير الأشياء وكبيرها يليق بالبيان الحكيم، وذكر الله تعالى في كتابه الحميد المجيد.

وإن الأمر الجدير بالاعتبار والتقدير يختلف تلقى الناس له، فالقلب الذاكر الطاهر الذي يطلب الحقائق ويتقبلها ويدركها معتبراً متعظاً مؤمناً يزداد إيماناً، والقلب المضطرب الذي يعاند، ويكابّر ويثير الاستغراب والعجب، وكأنه يحاول بذلك أن يثير غباراً حول الحقائق الثابتة.

ولذا يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا﴾ هى للتفصيل، أى تفصيل حال الذين يتلقون الأمثال المضروبة لهداية المتقين، وهى فى معنى أداة الشرط بمعنى مهما يكن من شىء، والمعنى مهما يكن من الأمر فى المثل الذى ساقه الله تعالى فالذين آمنوا وأذعنوا للحق إذا بدا لهم يعلمون أى يعرفون جازمين بالدليل القاطع أنه الحق أى الأمر الثابت الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ويرشحون لذلك الإيمان المذعن والعلم الجازم بأنه من ربهم أى من الله العلى القدير الذى يربهم، ويدبر أمور الوجود بحكمته، وقوته، وبذلك يزدادون إيماناً.

وأما الذين كفروا فيظهرون استغرابهم بل استنكارهم، فيقولون: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ فهم يستفهمون استغراباً أو إنكاراً ما الذى يريده تعالى بهذا المثل، والتجاهل يؤدى إلى الجهل، وعمى البصيرة يؤدى إلى العمى فى طرق الإدراك. إنهم يعرفون المثل ومضربه، وما تشبه به من حالهم، فإذا ضرب مثل ما يعبدون من آلهة بيت العنكبوت فهم يعرفون أن الله تعالى بين وهن الأسباب التى يقيمون عليها، ولكن لاعتقادهم الواهم فى أصنامهم يثير المثل استغراباً ثم إنكاراً، وذلك من رسوخ الضلال فى نفوسهم، فلا يزيدهم المثل إلا إمعاناً فى الضلال.

و «ما» الاستفهامية، و «ذا» موصول بمعنى الذى، والمعنى على ذلك ما الذى أراد الله تعالى بهذا المثل، أو نقول: إن ماذا كلها للاستفهام، وهى مركب يراد به الاستفهام، والفرق إعرابى، ولا مؤدى له، فالمعنى واحد.

وإن هذا الاستغراب أو الإنكار الذى سبق إليهم، سببه أمران:

الأول: ضلال اعتقادهم فى أوثانهم كما أثر.

والثانى: غطرستهم وعنادهم، وحبهم لبقاء سلطانهم، وإن المعاند يزداد إصراراً وينفض رأسه كلما زاد الدليل وضوحاً.

وقوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ يراد بالفوقية الزيادة فى القوة على توجيه بعض المفسرين، ويكون المؤدى أن البعوضة أضعف الحيوان، وأنها يصح أن تكون ابتداء لضرب الأمثال من أدنى الأحياء إلى أعلاها، وهذا تخريج بعض المفسرين، وهو صحيح فى ذاته، ويفسر بعضهم الفوقية بمعنى الزيادة فى الصغر، وكأنه يتصور أن فى الأحياء ما هو أصغر من البعوضة ويقرآن الفوقية فى كل شىء بما سبقه، فإن كان ضرب المثل للصغر، فالفوقية فى الصغر أى أكثر صغرا منها.

ونحن نرى أن الأول هو الأظهر، ولكن يجب التنبيه إلى أن ذلك لا يقتضى أن يضرب المثل بما دونها فإن مؤدى القول أنه سبحانه لا يترك المثل الأكبر أو الأصغر لصغر عقولهم أو عنادهم، فإن القرآن أعلى البيان عند الله، ولا يترك سبحانه البيان السامى لاستغرابهم أو إعجابهم.

وإن المثل الذى يسوءهم لأنه تنزيل لمكان ما يقدسون فى زعمهم، يستغربون ثم ينكرون فيزيد ضلالهم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾. أى أن ضرب المثل يضل الله تعالى به كثيرا من الضلال، وكثيرا من الناس، وكثرة الضلال بالإيغال فيه حيث يقوم الدليل على بطلان ما يعتقدون، فيلوون رءوسهم فيزدادون ضلالا، وكثرة الضالين لكثرة المفاصد.

وأسند الإضلال إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى ضرب المثل، وقد تسبب ضرب المثل فى نفوسهم التى أصابها الفجور والعناد فى أن استكبرت وزادت نفورا عن الحق، وإيغالا فى الباطل، وإن الله تعالى يسن طريق الهدى، ويبينه فمن عاند وجحد، وسار فى طريق الضلال، وكلما سار فيه أوغل، حتى يزداد ضلالا - كالذى يضرب فى الأرض؛ إن سار فى الطريق الجدد وصل، وإن سار فى الطريق المعوج تاه وكلما سار زاد فى التيه.

وأما الذين آمنوا فإنهم يجدون فى المثل الحق وازدادوا إيمانا بالحق وتصديقا به؛ ولذلك حق عليهم أن يقول الله تعالى فيهم: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ هديا كثيرا فيزيدهم إيمانا بعد إيمانهم.

وإن أولئك المؤمنين سلمت مداركهم، واستقامت عقولهم، فأدركوا معنى الحقيقة، فكلما جاء ما يؤكد ما يبينها ازدادوا هداية، وساروا على الجَدَد، وأما الآخرون فهم يخرجون عن سنن الفطرة، وما يوجه إليه الإدراك الصحيح؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أى الخارجين عما توجبه الفطرة، الذين شامت عقولهم، وانعكست الحقائق أمامها، فصاروا يدركون الأمور عكس حقيقتها. والفاسق فى أصل معناه اللغوى الخارج عن الطاعة، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها، ويقال للفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للفساد، ويطلق على الحشرات والمؤذيات فواسق، ولقد روى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الحداة، والغراب، والفأرة، والعقرب، والكلب العقور»^(١).

والفاسق فى هذه الآية هو الكافر سواء أكان يجمع الكفر والنفاق أم يكون كافرا من غير نفاق؛ وذلك لأنه خرج عن مقتضى الفطرة، والعقل المستقيم، فهو قد كفر بالله ورسوله، وبالأوامر والنواهي، وإنها دين الفطرة، كما قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم].

ولقد بين تعالى أولئك الفاسقين الخارجين عن سنن الفطرة، فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. ذكر الله تعالى أوصافا ثلاثة هى التى تنقطع بها أوصال الجماعة الإنسانية، ويكون بها التدابر، وأن يكون بها ابن الإنسان على أخيه الإنسان أشد من الوحوش، وأقصى من كل ما فى الوجود:

(١) رواء بهذا اللفظ النسائي: مناسك الحج - قتل الحداة فى الحرم (٢٨٤١)، وهو متفق عليه؛ أخرجه بنحوه البخارى: بدأ الخلق - خمس من الدواب فواسق يقتلن فى الحرم (٣٣١٤)، ومسلم: الحج - ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب (١١٩٨). عن عائشة رضى الله عنها.

الصفة الأولى - نقض عهد الله تعالى من بعد ميثاقه، والنقض فك ما أبرمه الشخص ووثقه وأكده من بناء أو وثيقة أو عهد، وإن الميثاق الذى يعقد بين الناس يوثقه بيمين الله تعالى؛ ولذلك يسمى اليمين، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا...﴾ (٩١) [النحل] ويسمى عهد الله تعالى؛ لأنه إذا أكده بيمين فكأنه عاهد الله تعالى على الوفاء بها، وعدم النكث فيها فكأنه عاهد الله تعالى.

و﴿مِيثَاقِهِ﴾ معناه كما أشرنا العهد الموثق باليمين. وما المراد بالميثاق الذى نقضوه؟ قال بعض العلماء ونحن، نوافقهم، أنه ميثاق الفطرة الإنسانية، فقد خلق الله الناس، وأخذ منهم ميثاقهم بمقتضى الفطرة بالعبودية لله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٣) [الأعراف].

وإن أولئك الفاسقين الذين خرجوا على الفطرة قد نقضوا ذلك العهد التكويني الذى كون الله تعالى بنى آدم على أساسه؛ ولذلك يقول ابن حزم، ومعه بعض العلماء، إن معرفة الله بدهية لذوي العقول المستقيمة المدركة. وكانت الرسالة للتذكير بهذه الفطرة، وإيقاظها، إذا غفلت، ولحسابها إذا نبتت ولم تنتبه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) [فاطر]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء].

هذا معنى واضح جيد مستقيم تؤيده نصوص الكتاب الحكيم، ولكن مع ذلك قد يراد نقض العهود الموثقة بالإيمان وعدم الوفاء بالمواثيق التى تنظم العلاقات بين الناس آحادا وجماعات؛ لأن ذلك من سمات الكفر، وخصوصا الذى يصحبه نفاق، وقد وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بذلك فى أكثر من آية، فقال تعالى:

﴿لَا يَرْجُونَ فِي مُمْرِنٍ إِلَّا وَلًا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (١٠) [التوبة] وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة].

إن الوفاء بالعهود والمواثيق شأن من يراقب الله تعالى، ويحس برقابة الله تعالى، وهو لذلك خاصة من خواص المؤمنين، وكرر الله الأمر بالوفاء بالعهد مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء) وإن الكافر لا يحس بمسئولية أمام الله تعالى؛ لذلك كان أول وصف من أوصاف الفاسقين أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

وإن النبي ﷺ عقد ميثاقاً لليهود فنقضوه، وعقد صلح الحديبية، فنقضوه، ونصروا بنى بكر على خزاعة حلفاء النبي ﷺ.

الصفة الثانية - أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، القطع فصل المتصل، وجعله أجزاء متفرقة، وقطعهم الذي كان الله تعالى أمرهم بوصله ما هو؟، قيل: قطع الأرحام، فلا يصل ذا رحمه، ولا يعمل بالمودة بين ذوى قريابه، ولكن الإنسانية كلها رحم واحدة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء).

فالرحم الإنسانية ثابتة بين الناس، وقطعها يكون بأساليب شتى، وسبل مختلفة وكلها سبل الشيطان كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) [الأنعام] ومن قطعها أن يتحكم القوى في الضعيف، وأن ينظر إلى الناس على أنهم طبقات منهم غنى ومنهم فقير، وأن يكون لكل قانون ونظام، وأن تختلف المعاملة، وأن تتنافر الشعوب، ولا تتصافر ولا

تعارف كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [١٣] ﴿[الحجرات] وأن ينقطع التعاون بين الناس فلا يكون التعاون على البر والتقوى ويحل محله التعاون على الإثم والعدوان، وفي كل ما يكون فيه قطع للعلاقات الإنسانية يكون قطعاً لما أمر الله تعالى به أن يوصل. ووصل ما أمر الله به أن يوصل هو اتباع أوامره تعالى واجتناب نواهيه، فهي كلها لربط الناس بعضهم ببعض بالمودة والعمل الصالح، وبسيادة الفضيلة والبعد عن الرذيلة، وإذا كانت ثمة حروب فلدفع أذى المفسدين، وتقويم الظالمين ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٢٥١] ﴿[البقرة]﴾.

وفي الجملة كل قطع بين عباد الله تعالى هو قطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل وقطع للأرحام؛ لأن الناس جميعاً رحم واحدة، من قطع ما بينهم فقد قطع الأرحام.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ و ﴿مَا﴾: هي مفعول ﴿يَقْطَعُونَ﴾، أى يقطعون الذى أمر الله تعالى به - أى بشأنه - أن يوصل. «أن» وما بعدها مصدر، أى أمر الله تعالى وصله، وعدم قطعه.

الوصف الثالث - من أوصاف الفاسقين، بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ والفساد فى الأرض يشمل فساد العقائد إذ إن سلامة العقيدة فيها سلامة النفس، وفساد العقيدة بالآل يؤمنوا بالله وحده، ولا يعبدوه وحده، ويتعلقون بالأوهام حول الأصنام، وأى فساد أعظم من أن يحقر الإنسان نفسه وعقله، وإدراكه فيسجد لصنم لا يضر ولا ينفع، وقد رآه يصنع بين يديه، إنه ضلال العقل، وضلال النفس، وسيطرة الوهم. ويشمل الفساد بث روح النزاع المستمر بين الناس قبائل وشعوبا، وكلما أطفأ الله نار الحرب أوقدوها باسم العصية

القبلية، أو العصبية الوطنية، أو بالرغبة فى أن تربو أمة عن أمة، أو التنافس الاقتصادى، حتى ينظر الإنسان للإنسان نظرة من يتربص به الدوائر.

ويشمل الفساد فى الأرض ألا يكون الحكم المرضى الحكومةً هو الحق، وأن يكون الحكم للغلب، وأن يسود قانون الغابة لا قانون الفضيلة بين الناس، وأن يكون ذلك فى كل العلاقات الإنسانية، القوى يأكل الضعيف، والغنى يحقر الفقير، والعالم لا يعلم الجاهل، بل يتخذة مطية لأهوائه وشهواته.

ويشمل الفساد فى الأرض ألا يكون تعاون فى استخراج ينابيع الثروة من باطن الأرض، بل يستبد بها القادر عليه، ويشمل الفساد ألا يوزع بين أهل الأرض خيراتها، بل يلقية بعضهم فى البحار، ولو جاع الباقون، ضنا به على فى أخيه الإنسان.

ولقد حكم الله تعالى على من كانت هذه أوصافهم فقال تعالت كلماته: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

اسم الإشارة إلى هؤلاء المتصفين بهذه الصفات، والإشارة إلى المتصفين بصفة أو صفات تسمى إلى أن هذه الصفات هى سبب الحكم. فنقض العهود والمواثيق، وقطع الصلات الإنسانية، وإشاعة الفساد فى الأرض هو السبب فى الخسران الذى لا ينجو منه أولئك الفاسقون.

والخاسر هو الذى نقص حفظه من الغاية التى كان يتغنيها، وكذلك الذين اتصفوا بهذه الصفات، فالناقص للعهد يحسب أنه كسب من نكثه فى عهده، ولكنه خسر؛ لأن الناس لا يثقون بعهده من بعد، والذى يقطع أرحام الإنسانية يحسب أنه كسب بالانفراد، ولكنه خسر المعاونة والمودة، والأخوة الإنسانية، والمفسد فى الأرض يحسب أنه كسب أرضاً أو خيراً من وراء ما يفعل، وقد خسر الناس جميعاً، فهو كمن أراد ربحاً بالغش والخديعة فخسر كل ماله، وهكذا كل الفساق الآثرون الذين

يحسبون بأثرتهم أنهم الكاسبون، وهم الخاسرون. فمن كسب بغدر وخيانة وقطع الأرحام، ومن أفسد فى الأرض بالحروب الظالمة، والغدر فى العهود، فهو خسران دائما، فإن انتصر فى حرب ونال ثمرة انتصاره ظلما، وإزهاقا وإفسادا، فإن المهزومين يتأهبون، وهو يتربح متوجسا خائفا حذرا، وسيكون منهم الانتقام، ويكون الشر المستطير، بين الغالب والمغلوب، ولا سلام، بل خسران.

وأكد سبحانه وتعالى الخسران فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .. بمؤكدات ثلاثة أولها: التعبير بالجملة الاسمية، ففى التعبير بها تعبير بأكمل القول الدال على الاستمرار. وثانيها: التأكيد بكلمة «هم»، وهى تدل على انفرادهم بالخسارة دون المؤمنين الطائعين، فهم الراحون دائما، وثالثها: تعريف المسند والمسند إليه^(١) الدال على القصر؛ أى أنهم مقصورون على الخسارة، فلا يربحون أبدا ماداموا على الأخلاق التى تفسد الجماعات وتقطع العلاقات، والريح للإيمان وأهله.

الكفر بالخالق المنشئ المسخر الوجود للإنسان

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ
الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى
السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(١) أى الخبر والمبتدأ، والمسند فى الجملة الفعلية: الفعل، والمسند إليه: الفاعل.

إن الكافرين يتعجبون من ضرب الأمثال، ويقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ وحالهم عجب لأنهم يرون المحسوس الذى يدفعهم إلى الإيمان بالله الذى خلق السموات والأرض ومن فيهن، ومع ذلك يكفرون ولا يؤمنون، ولقد وبخهم الله سبحانه وتعالى أبلغ توبيخ فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

﴿كَيْفَ﴾ يستفهم بها للحال، والمعنى كيف حالكم وبعثكم عن الإدراك والحق وأنتم تكفرون بالله الذى أنشأكم وأخرجكم من الموت إلى الحياة؟! إنكم ترون أن الطفل يولد، ويحيى من غيب الله تعالى، وترونه يشب غلاما فصيبا فشابا فكهلا فشيخا فيموت ثم يقبر ثم تكون الحياة بعد ذلك، ترون الأمور الثلاثة؛ الأولى موت، ثم حياة، ثم موت، أفلا يكون بالقياس على البدء بالموت ثم الحياة ثم الموت أن نحْيِيكم تارة أخرى؟ وقد قدر سبحانه على الأمور الأولى، أفلا يقدر على الأخيرة؟ ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف].

والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع لا لإنكار الوقوع، والفرق بينهما أن إنكار الوقوع معناه النفى، وهو لا يصلح هنا، وأما إنكار الواقع فمعناه التوبيخ أبلغ التوبيخ على ما وقع، فقد وقع ذلك الأمر الغريب، وهو أنهم يكفرون أو يجحدون بالله بآلا يعبدوه وحده، وهو الذى خلقهم، فأحياهم، وقد كانوا أمواتا، وذلك محسوس مرئى، وأوثانهم لم تصنع شيئا من هذا ولا يمكن أن تفعل.

ومعنى الموت الأول الذى يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ هو أنهم كانوا عدما ليست فيهم حياة، أو كانوا أجساما جامدة هى الطين، أو نطفا فى بطون الأمهات ثم مضغا مخلقة وغير مخلقة، فجعلكم أحياء.

وكيف يطلق على الجماد أنه ميت، مع أن الموت أمر نسبى تكون قبله حياة، ثم تسلب هذه الحياة فيكون الموت، والجماد لم تسبقه حياة، حتى يكون من بعدها موت؟.

ونقول فى الجواب عن ذلك: إن الموت لا يقتضى وجود حياة سابقة، بل يطلق على الجمد ذاته، فيقال: أرض موات، وأرض ميتة، وإحيائها يكون بوجود الغيث وإنباتها النبات بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٢) [يس]، وقال تعالى: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١١) [ق].

فقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، أى كنتم لا حياة فيكم فأحياكم فخلق التراب ثم أنشأكم منه، فأحياكم فأفاض عليكم بالحياة، وهم قبل هذا الإحياء لم يكونوا شيئاً مذكوراً كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) [الإنسان] وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ خطاب لهم بالانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وهو دال على أن ذلك يعلمونه بالعيان والحس، لا بمجرد التصور والتفكير، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ و ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخى؛ لأنه بعد الإحياء يعيش أجلاً محدوداً، ثم يموت، و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٢٨) [الرعد]، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث والنشور، ثم تكون القيامة، ثم إليه سبحانه ترجعون، وذلك هو مدلول قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا...﴾ (١١) [غافر]، وإنه كما ذكرنا أخذ من الواقع الذى يحسونه، دليلاً على وقوع ما ينتظرهم، وينتظرونه، وهو البعث، فإذا كان سبحانه وتعالى أنشأ من العدم حياة ثم سلبها، فإنه قادر على إعادتها، ولكنهم يؤمنون بالحس وحده، ولا يؤمنون بالغيب الذى لا يحسونه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ و ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخى؛ أى بعد أن يقضوا حياتهم، ويموتوا ويدفنوا فى قبورهم يرجعون ليحاسبهم على ما قدموا من عمل، فإن خيراً فخير، وإن شراً فالعذاب.

وتقديم ﴿إِلَيْهِ﴾ على ﴿تَرْجَعُونَ﴾ للإشارة إلى أنه وحده هو الذى إليه يرجعون، لا إلى آلهتهم التى يتوهمون بأوهامهم فيها قدرة، ولا قدرة، فالرجوع إليه سبحانه وتعالى.

إن الله تعالى خلق الخلق، وأحياهم بعد العدم، ولم يتركهم، بل أنعم عليهم بالأرض وخيراتها، وكل ثمراتها، وسخر لهم مافى السموات والأرض، ومع ذلك كفروا بربهم الذى أولاهم الحياة، وأولاهم نعم الوجود؛ ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

أى أنه سبحانه وتعالى خلق لكم معشر بنى آدم الأرض، وما فيها جميعاً، خلق لكم كل ما فى الأرض من ثمرات وزروع تنبت بإذن الله تعالى، وما يستنبطون من فلزات، ومعادن سائلة وجامدة، خلق لكم جميعاً، كل ما فى الأرض مما حوت بطونها، وجرت به أنهارها، ونزل من السماء ماءها.

ومعنى ﴿لَكُمْ﴾ اللام فيه للاختصاص أو التملك، خلقه مملوكا لكم بتمليك ربكم، وهذا من آلائه ونعمه عليكم، أو نقول خلق وقدر وأنشأ كل ما فى الأرض جميعه، لأجل أن تنتفعوا به؛ تستطيعون طبياته، وتكون خبائثه، وجاءكم بالشرائع التى تبين لكم الطيب فتناولونه مباحا لكم حلالاً طيباً، وتبين الخبائث لتجتنبوها، فأنتم فى نعم الله دائماً فى هذه الأرض، جعلها فراشا، وملأها بالنعم على ظاهرها، وفيما اكتنزته بطونها، وبين الطيب ليميز عنه الخبيث.

وهنا كلمتان لابد من ذكرهما:

أولاهما - ما قرره العلماء من أن هذه الآية تدل على أن الأصل فى الأشياء الإباحة إلا ما ثبت بالدليل منعه، فكل شئ مباح بحكم الإباحة الأصلية التى ثبتت بأن الله تعالى خلق للناس ما فى الأرض جميعاً لينتفعوا به، وما كانوا لينتفعوا بهذه الأشياء إلا إذا كان قد أباحها، واستثنى الأكثرون العلاقة بين الرجل والمرأة، فإنها على المنع إلا أن يكون السبب المبيح، وإن ذلك لا يمنع أن الأشياء مباحة فى أصلها، فالتنظيم بالزواج لا يمنع الإباحة.

وإن الأمر فيما، يطلبون متروك عند الإباحة إلى ما يجدون من متعة يستمتعون بها أو أمراً حسناً يستحسنونه، وهذا مبنى على أن الأشياء لها حسن ذاتى وقبح،

وهذا لا يستلزم أن يكون التكليف قائما على الاستحسان أو الاستهجان، إنما التكليف من أمر الله ونهيه.

الكلمة الثانية - أن قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ متعلقة بما فى الأرض أى أنه جميعه لكم معشر الناس، فليس لكم بعضه دون بعضه، بل هو لكم كله، لأجلكم، تنعمون به، وتعبدون الله تعالى على آلائه، فهو يؤدى إلى أن تكون هذه الملكية التى منحها الله تعالى لكم لشكروها، ولتعبدوه بهذا الشكر، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].

ولا يتبادر إلى الذهن أنها تأكيد لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾. أى أن الله تعالى خلق الأشياء لكم جميعا، فلا ينفرد قبيل دون قبيل، ولا جماعة دون جماعة، ولا قوم دون قوم، ولا غنى دون فقير.

وإننا لا نرى ذلك - أولا: لأن ذلك بعيد فى اللفظ لأن التأكيد يكون للقريب، والقريب هنا هو ما فى الأرض كله للناس، يتخيرون منه، ولا يطلبون خبيثه، فلا يؤكد اللفظ إلا ما يقترب به من القول، فلا يفصل بين المؤكّد والمؤكّد، وعلى أى حال فإنه بمقتضى عموم قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ أن الخلق لكم كلكم، وهذه الكلية التى تعم الناس أجمعين ثابتة بعموم الخطاب، لا بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾.

وليس معنى أن ما فى الأرض لهم كلهم، أن يتقاسموه، وأن يأخذوا الخير جميعهم مقسما، من غير تمييز بين عامل وخامل، ولا بين موفق وغير موفق، إنما لكل امرئ عمله، ولكل امرئ ما كسب.

ولا تقتضى الكلية أن يتساوى الناس فى أرزاقهم، فإن الرزق يمنحه الله تعالى لمن يعمل ويكسب، ولكن يتساوى الناس فى تمكينهم من الأرض، وكلُّ ما يكسبه، والله هو الغنى الحميد.

وإنه كما ملك الله تعالى عبده كل ما فى الأرض لكلهم عاملين فيه جادين، سخر لهم ما فى السموات والأرض؛ ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر نعمة الأرض عليهم بما فيها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

استوى معناها قصد مرتفعاً، أو ارتفع إلى السماء، وهى فى هذه الآية ما علا، وكان كالسقف المحفوظ، فسوى السموات سبعا أى جعلها سبعا؛ ولأن السماء، وهى الجهة العالية، كما أشرنا واحدة فى لفظها متضمنة السبع التى سواهن الله سبحانه وتعالى فى معناها؛ ولذا أعاد الضمير عليها بما يدل على الجمع الذى يشمل أفراداً متعددين.

والمراد من السموات السبع التى سواهن الله تعالى أى خلقهن، أو قسمهن وجعلهن سبعا متساوية، فمعنى سواهن: قسمهن بالتسوية سبعا، وهى مجموعات النجوم المتطابقة طبقة بعد طبقة، الواحدة أعلى من الدنيا وهكذا.

وكان الشائع بين علماء الفلك خمسا، لا سبعا، ولكن بعد عصر القرآن بنحو أربعة عشر قرناً إلا قليلاً كشفوا بآلات الكشف الحديثة نجمين كوكبين دلا على أنها سبع، وهى: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، وكشف أورانوس ثم نبتون، وكل كوكب فى طبقة من السماء، والشمس والقمر ليسا من السبع، وهذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۖ ﴿١٦﴾﴾ [نوح] فبمقتضى هذا النص تكون الشمس والقمر ليسا من السموات السبع اللاتى عدهن القرآن الكريم، وإن كانتا فى السماء، وتسمى السبع المجموعة الشمسية، والشمس فى طبقة أعلى منهن.

وإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ﴾، يدل بظاهره فى العطف بثم على أن السموات سويت سبعا بعد خلق الأرض، ولكن لا يدل على

ذلك دلالة قاطعة، فإن التعبير بـ "يدل على الترتيب البياني في الذكر ولا يدل على الترتيب الواقعي"، فإن الآيات قد تدل على غيره، وإنا نقرر أن الزمن لا يحكم أفعال الله تعالى؛ فكما أنه تعالى لا يكون في مكان، فأفعاله تعالى فوق الأزمان.

ولقد جاء النص الكريم بأن الأرض أخذت من السماء، وكانتا رتقا، أو شيئا واحدا، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠) [الأنبياء].

ولقد قال تعالى في بيان خلق السماء والأرض: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ [فصلت].

وقد يقال: أنك نفيت الزمان عن أفعال الله تعالى، وقد ذكر سبحانه أنه خلق الأرض في يومين، وأنه جعلها على ما هي عليه في أربعة أيام، وأنه قضى السموات في يومين، فكيف تنفى الزمان عن خالق الزمان والليل والنهار؟ ونقول في جواب ذلك: إن اليوم ليس هو اليوم الذي نعه بالغروب والشروق بأن تدور الأرض حول الشمس دورة تستدئ بشروق الشمس، وتنتهى بغروبها أو العكس، فإن ذلك تقدير نسبي بين الأرض والشمس، وما كانتا قد خلقتا، كما يدل صريح القرآن، إنما اليوم هنا المراد به الدور التكويني، وإذا أردنا أن نتصور الدور التكويني، فلإننا نتصور على ضوء العلم أن الأرض انفصلت عن الكتلة الشمسية التي أشار إليها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...﴾ (٣٠) [الأنبياء] فهذا يوم، أي دور تكويني، هو دور انفصال الأرض عن الكتلة الشمسية.

وعند هذا الانفصال تكونت بإرادة الله تعالى وقدرته القاهرة، وإرادته المسيطرة القشرة الأرضية، وهذا هو اليوم الثانى، أو الدور الثانى، وقد بين سبحانه وتعالى، الأدوار الأربعة بعد ذلك.

هذا وقبل أن ننتهى من القول تحت إشراق القرآن فى بيان الخلق والتكوين، نقول إن بعض المفسرين أو كثيرين منهم قال إن كلمة سبع سموات، لا يراد بها العدد المحدود المذكور، إنما يراد بها الكثرة من الأعداد، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) [لقمان]، فإنه ليس المراد والله أعلم سبعة أبحر، إنما المراد عدد من الأبحر كثير.

ومثله قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...﴾ (١٨٠) [التوبة] فالسبع، والسبعون يراد بها الكثرة، ولا يراد بها عدد محدود بالسبعة أو السبعين.

وإن لذلك القول بجوار ما قلنا مكانه من الحق، فإن السماء ذات أبراج، وإن الشمس فى أعلى طبقاتها، وفوقها شمس، وفى السديم^(١) علو لا يعلمه إلا الله تعالى.

ولقد ختم سبحانه وتعالى الآية الكونية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله تعالى خالق الكون وربّه ومدير أمره علیم به علم من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وعلم من أنشأ وكون وقدر ودبر، وقد ابتدأ العبارة السامية، بلفظ الجلالة لتربية المهابة فى نفس التالى للكتاب، وأكد علمه السرمدى، بثلاثة مؤكدات: بالجملة الاسمية التى تدل على دوام العلم وثباته؛ لأنه علم أزلى دائم لا يجرى عليه ما يجرى على الناس، وأكد سبحانه وتعالى بذكر

(١) السَّديمُ: الضبابُ الرقيق. [لسان العرب: الزاى - سدم، والقاموس المحيط: باب الميم - فصل السين].

الإحاطة التامة بكل شيء، وأكدته سبحانه بذكر صفة من صفاته فقال: ﴿عَلِيمٌ﴾، سبحانه من أحاط بكل شيء علما، وسبحان من عنت له الوجوه.

خلق الإنسان

ذكر سبحانه وتعالى خلق الأرض وتمليكها الإنسان حق الانتفاع بها، وأشار إلى خلق السموات فكان من بعد ذلك أن تكلم على خلق الإنسان الذى سخر له هذا الوجود الكونى، من أرض وسماء، فقال تعالت كلماته:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

وقبل أن نتعرف القصة الحقيقية التى صورها القرآن لخلق الإنسان نذكر عوالم ثلاثة للعقلاء جاء ذكر بعضها فى بيان علاقة الإنسان فى خلقه وتكوينه بها.

وهذه العوالم الثلاثة هى: عالم الملائكة وهم خلق الله تعالى، قيل إنه سبحانه خلقهم من نور، وهم أرواح طاهرة مطهرة لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. لا يتصور منهم معصية ولا يكون منهم إلا الطاعة، ركب الله تعالى كونهم على أنه لا تتصور منهم معصية، فليست شهوات ولا أهواء، وهى بواعث العصيان.

والثانى من هذه العوالم: هو عالم الجن، وعبارات القرآن تدل على أنهم خلقوا من نار، وقد ذكر ذلك إبليس الذى هو من الجن، فقال فى غروره مفضلا

نفسه على آدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦) [ص]، وإبليس كان من الجن، ولكنه جن فاسق، فقد ذكر عنه ربه أنه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...﴾ (٥٠) [الكهف].

والجن يظهر أن فيهم أهواء وشهوات؛ ولذلك كان منهم العاصون، ومنهم العادلون المقسطون، وأنهم مكلفون، وأنهم سمعوا القرآن، وسمعوا من قبل توراة موسى، وقد قال تعالى فيهم.

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ (٤) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (٧) [الجن] إِلَى أَن يَقُولَ تَعَالَتْ كَلِمَاتِهِ: ﴿وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ (٨) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (٩) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (١٠) وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (١١) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٢) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ (١٣) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٤) [الجن].

والجن كما ذكر القرآن عالم غير عالم الملائكة، وغير عالم الإنسان، وتأويل القول فيهم أنهم من عالم الإنسان، وأنهم قبيلة منهم - تأويل بغير دليل، يخالف ظاهر القرآن، وليس لقائله من سند إلا أن يكون تحريفاً للقول عن مواضعه.

والعالم الثالث هو: عالم الإنسان، وقد خلق من سلالة من طين، والعالمان الخفيان، وهما عالم الملائكة وعالم الجن، تدل الآيات الكريمات على أنهما خلقا

قبل العالم الثالث، وهو الإنسان، بدليل أن الملائكة ذكر الله تعالى لهم أنه جاعل الإنسان خليفة، وأنهم عجبوا أن يكون خليفة في الأرض من يفسد فيها ويهلك الحرث، وبدليل أن أبلis الذى كان من الجن عصى ربه، فلم يسجد، وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين.

والإنسان خلق فيه العقل المدرك الذى يرفعه إلى درجة الملائكة، وخلق فيه الشهوة والهوى اللذان يجعلانه مفسدا فيها ويهلك الحرث والنسل، وذلك وجه استغرابهم.

ولنذكر القصة الكاملة الحقيقية التى يصور الله تعالى فيها خلق هذا العالم الثالث، وهو الإنسان.

أعلم الله تعالى الملائكة -وهم جمع ملك - بأنه سيجعل فى الأرض من يسكن ظاهرها، ويحكم فيها، وينسل فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أى يكون ساكنا فيها بالخلافة عمن كانوا فيها، ولم يذكر سبحانه وتعالى من كانوا فيها أهم كانوا من الملائكة أم كانوا من الجن، أم كانوا خلقا آخر، ولقد ترك الله سبحانه وتعالى ذكر من خلفهم، فلنسكت عما ترك، ولا نرجم بالغيب، حتى لا نطلب ما ليس لنا به علم.

وقد يقال إن ﴿خَلِيفَةً﴾ معناها الخلافة عن الله تعالى فى الأرض، بمعنى أن الله تعالى بما أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير، والسيطرة على نفسه، وعلى ما فى الوجود، فى الأرض، التى خلفه الله تعالى عليها ليكون خليفة خلافة نسبية عن الله تعالى، والله تعالى غالب على كل أمره، وأموره.

قد يكون هذا هو الظاهر، أو أن ﴿خَلِيفَةً﴾ معناه أنه وجنسه خلائف يخلف بعضهم بعضا، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ...﴾ [١٦٥] [الأنعام].

وعندى أن ما أشرنا مرجحين له: وهو أنه خليفة عن الله تعالى وهي خلافة نسبية، ترك الله تعالى له الخلافة، ليلبوه فيما ملكه من منافع الأرض التي خلقها جميعا له.

ذكر الله تعالى لملائكته أنه جعل له تعالى خليفة فى هذه الأرض، ويظهر أن الله تعالى أعلمهم بطبيعة هذا العالم الثالث فى هذا الوجود من أنه أوتى عقلا مدركا، وشهوة قد تكون طاغية، وأنها إن طغت أفسدت، وأهلكت.

ولذلك قالوا لربهم مستغربين: أتجعل فيها من يفسد فيها، لأنه ركب فيه الشهوة وإذا غلبت أفسدت؛ وإن الشهوات إذا تحكمت كانت الأثرة، وكان التنازع، ومع التنازع سفك الدماء، ولذا قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟! وقد كانوا مع اعتقادهم فى الإنسان ذلك الاعتقاد أشاروا إلى أنهم أولى منه بالخلافة فى الأرض من غير أن يعترضوا على الله تعالى فى حكمه، بل أبدوا استغرابهم من أن الله تعالى يتركهم إلى المفسد السافك للدماء، وهم المسيحون بحمد الله المقدسون له، . فقالوا مقابلين بين حالهم وحال الإنسان، ﴿وَتَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أى نحن نذكرك مديمين بحمدك على ما أنعمت، لأن ذاته العلية تستحق الحمد فى ذاته، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أى نعظمك وننزهك لك أنت. أى: لأجل ذاتك العلية.

يبين الله تعالى لهم، أن الله يعلم ذلك، فيعلم أحوالهم وأنهم فى تسبيح دائم، وتقديس ملازم، ولكن فى الإنسان ما يجعله جديرا بالخلافة فى الأرض ليلبوه فيما آناه الله تعالى من خيرها، فهو يعلمه ويعلمهم، ويعلم الجدير منهم بأن يجعله فى الأرض؛ ولذلك قال تعالى ردا لاستغرابهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أعلم الجدير بما أعطى وغير الجدير.

وقد بين الله تعالى ما أودعه نفس الإنسان من العلم بالأشياء أو الاستعداد للعلم بها، أو أودع نفسه الاستعداد بعلمه بالأشياء كلها مما لا يعلمون هم، فقال تعالى:

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
فَقَالَ أَنِ يُؤْمِنُوا بِالْأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا
سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أُنْبِأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

والأسماء هي الأشياء من قبيل ذكر الاسم وإرادة المسمى، إن جهل الملائكة
بأسماء الأشياء وعلم آدم بها هو الأمر الذي ميز آدم على الملائكة، خلقوا للطاعة،
ولا يعلمون طبائع الأشياء والوجود الأرضي إلا ما أعلمهم الله تعالى إياه، أما آدم
فإن الله تعالى أودعه القدرة على العلم بالأشياء، وكان في طبيعة نفسه التي أوجدها
الله تعالى العلم بالأجناس أو مثلها. فالإنسان يولد وفي استعداداته العلم بالمثل في
هذه الأرض كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ...﴾ (٧٨) [النحل].

بهذه الخاصة التي وهبها الله تعالى للإنسان، وهي الاستعداد للمعرفة والعلم
بكل ما في الأرض، فكان بذلك ممتازا على الملائكة ويتبعهم الجن.

ولقد أعلم سبحانه بهذا علو عليهم، فأمرهم بالسجود له، فقال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

كان إبليس عند أمر الله تعالى له مع الملائكة، ولنا أن نقول إنه ليس مما خلقهم تعالى من ماداتهم، فإنه خلق من نار كما حكى الله تعالى عنه إذ قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف].

وإذا لم يكن منهم، فإن الاستثناء يكون منقطعاً، ولكن الخطاب موجه إليه لصحبته لهم. والسجود الذى أمر الله تعالى به ما هو؟ قال بعضهم: إنه الخضوع وهو يستعمل فى كلام العرب بمعنى التذلل والخضوع، وليس السجود الذى يعد من أركان الصلاة، ومن المعنى اللغوى قوله فى سورة يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا... ۝١٠٠﴾ [يوسف] أى دخلوا فى حكمه.

ولقد قال تعالى فى الخلق فى سورة أخرى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر] فهل يدل هذا على أنه كسجود الصلاة؟ الجواب عن ذلك أنه يدل على كمال الخضوع له سبحانه وتعالى، بما يدل على الخضوع الكامل بالانحناء له، وإذا كان يوهم أنه كسجود الصلاة، فليس عبادة لآدم ولكنه إطاعة الله تعالى: وإن كان آدم كالقيلة، فالعبادة تكون للأمر وهو الله تعالى لا لمن اتخذه كالقيلة وكان كأنما السجود له.

ومهما تكن حال السجود، والعلم الجازم بها عند الله تعالى، فإن الأمر به دليل على تكريم الله تعالى لآدم أبى البشر، وأن له اختصاصاً بالتكريم على الملائكة الأطهار الأبرار، كما أمر الله تبارك وتعالى الذى خلق الفريقين، وميز بين العالمين. وإبليس الذى كان من الجن خرج عن طاعة الله ففسق عن أمر الله مستكبراً بغير مسوغ للكبر؛ لأنه زعم أن أصل خلقه خير من أصل خلق آدم، فهو خلق من نار، وآدم خلق من طين، والله تعالى خالق المادتين، فهو يفاخر ويعاند بأمر خلقه الله تعالى الذى أمره بالسجود، فكان فى أشد أحوال الغفلة، وصح أن يقال فيه إنه أشد من خَلَقَ الله تغفيلًا، وكذلك كان أتباعه من بعده، فهم فى غفلة عن الحق دائماً.

ولقد وصفه الله تعالى بأنه كَفَرٌ، وهو قد طغى في كفره، وتعدى إلى معاندة الله تعالى فى أمره ونهيه، حتى لقد حكى الله تعالى أنه اعتزم الشر، وأراد فتنة بنى آدم، بل آدم نفسه، فقال عنه الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢) [الإسراء] وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) [ص].

وإن الله تعالى بعد أن خلق آدم، قال الله سبحانه آمرا آدم، وكان قد خلق معه زوجه:

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾

لم يذكر الله سبحانه مكان هذه الجنة، ولا حقيقتها، أهى فى السماء أم فى الأرض، أهى الجنة التى تكون جنة الخلد. أم هى حديقة فى الأرض، ومهما يكن فإنها جنة فيها رغد العيش وسعته.

ولم يذكر سبحانه وتعالى اسم زوجه، ولكننا علمنا من مصادر أخرى أنها حواء^(١)، وأنه خلقها من نفس آدم، أو من جنس خلقه، فقد قال تعالى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ [النساء]، فحواء زوجة آدم من نفس خلقه أو خلقها الله تعالى من جنس نفسه.

أمر الله آدم أن يكون هو وزوجه فى الجنة ساكنين، وأن يأكلا منها موسعين على أنفسهما غير مضيقين، يأكلان رغدا أى من غير انقطاع، ولكنه نهاهما عن

(١) صرح النبى ﷺ بهذا الاسم فى الصَّحاح ومن ذلك ما رواه البخارى: كتاب أحاديث الأنبياء (٣٠٨٣)، ومسلم: الرضاع (٢٦٧٣). قال النووى: رَوَيْنَا عَنْ أَبِي عُبَّاسٍ قَالَ: سُمِّيَتْ حَوَاءُ لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ.

شجرة من أشجارها .. ما هي وما كنهها؟ لم يذكر سبحانه وتعالى هذه الشجرة، ولكنه وإن لم يبينها لنا كانت معلومة عند آدم وزوجه؛ ولذلك كان إغراء آدم من شجرة معينة.

ابتدأ إبليس يتخذ طريق الغواية حاقدا حاسدا، فجاءهما من هذه التي أمر الله سبحانه وتعالى ألا يقرباها، وكان النهى عن القرب لا عن الأكل، لأنه أبلغ في النهى عن الأكل، فالنهي عن القرب مبالغة في عدم الأكل بالابتعاد عنها، وهنا كان الاختبار بهذه الشجرة، إذ حيث يكون الهوى فإنه يجر إلى العصيان.

جاءهما الشيطان من ناحية هذه الشجرة، وجاء الإغراء من النهى عن الأكل منها؛ ولذلك قال تعالى:

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

وترى في الآية ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، وعبر بالشيطان وهو إبليس لأنه ابتداء يتحرك فاسدا مفسدا، وأزلهما معناها أوقعهما في الزلل، ولقد ذكر سبحانه وتعالى النتيجة وهي أنه أوقعهما في الزلل بأكلهما منه، وفصل سبحانه وتعالى عمل إبليس في موضع آخر في سورة الأعراف، فقد قال تعالى في هذه السورة ما فعله بإبليس عندما عصى أمر ربه بالسجود إذ أخرجه منها، وقال بعد استكباره: اخرج منها فإنك من الصاغرين .. وقال لآدم: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فوسوس لهما الشيطان ليؤدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (٢٠) وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (٢١) فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾
 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ [الأعراف].

ففى هذا النص الذى تدل عليه هذه الآيات الكريمات يبين سبحانه كيف كان الإغواء، وأنه جاء من جهة الترغيب فى الاستعلاء والبقاء، فأوهمهما أن النهى كان لكيلا يكونا من الملائكة، مع أن آدم سجدت له الملائكة، ولكنهما غفلا عن هذا، وأوهمهما أنهما يكونان خالدين فى الجنة إن أكلا.

وكانت النتيجة من الأكل أن بدت لهما سوءاتهما بعد الأكل من الشجرة، وادعى بعضهم أن هذا يدل على أنها شجرة الشهوة، ولكن لا دليل، فيبقى أمر الشجرة غير معلوم.

والأمر الذى ترتب على الأكل فى آية البقرة وآية الأعراف هو الخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، أى النزول من مكان أعلى منها، ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أى أمر التكوين كان لآدم وزوجه وإبليس، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أى أن إبليس عدو لكم فاحذروه، وإنه وذريته ينفثون فى نفوس الناس الشر، فتكون العداوة الدائمة المستمرة، والتنازع والحروب.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى الأرض التى خلقها، وخلق لكم ما فيها جميعا ستكون مستقرا أى موضع قرار دائم، لا أن تكون مسكنا تتركونه، ويكون فيها متاعكم إلى حين، أى إلى وقت أن تموتوا ثم تحيوا فيكون البعث والنشور، وهكذا كان الشيطان بعداوته طريق الخروج من جنة الله تعالى إلى أرضه.

وإن آدم أحس بأنه عصى ربه، وأنه ظلم نفسه، فآلهمهما الله تعالى أن يقرأ بالمعصية، وأن يطلبها منه سبحانه وتعالى غفران هذا العصيان ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٢٣] ﴿الأعراف﴾، هذه هي الكلمات التي تلقاها من ربهما كما قال تعالى :

فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾

وكما جاء فى سورة طه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [١٢٢] ﴿طه﴾.

هذه القصة الحقيقية فى خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وهى تدل على ثلاثة أمور: أولها: أن الله تعالى كرم آدم على خلقه من الملائكة والجن بدليل أنه سبحانه أمرهم بالسجود له.

ثانيها: أن الله تعالى خلقه ووهبه الاستعداد لمعرفة الأشياء، وبها امتاز على الملائكة، وبهذا الاستعداد للعلم، ومعرفته أسماء الأشياء سخر الله تعالى له ما فى السماء وما فى الأرض، وذلل له كل ما فى الأرض وما فى السماء.

ثالثها: أنه يؤتى من قبل أهوائه وما يغريه، وأن إبليس له عدو مبين، وأنه سلط على آدم، وسلط على بنيهِ من بعده، وأنه موسوس فى نفسه، فهو لا يتصل بحسه، ولكن يتصل بنفسه.

ولسنا نقول إن الجن وإبليس، هما وسوسة النفس، أو ما يحيك فى الصدر، ولكن نقول إن الجن مخلوقات موجودة، وإن إبليس موجود مخلوق، ولكن مع ذلك نقول إن إبليس وذريته من بعده يوسوسون فى النفوس بالشر، وإن كانوا يعجزون عن النفوس المؤمنة الطاهرة.

وإن إبليس وذريته يجيئون إلى النفوس من قبل الشهوات، والأهواء، وعلى المؤمن أن يسد مسام الشيطان.

الأرض موطن التكليف

خرج آدم وزوجه من الجنة، ولم يكن فيها تكليف إلا أمرهما بألا يأكلا من شجرة معينة، خرجا إلى هذه الأرض، وكان التكليف، وكان اختبار بنى آدم فيها، وعلى قدر ما يفعلون من خير يكون جزاء الخير، وعلى قدر ما يكسبون من إثم يكون جزاؤه، وفي كل نفس استعداد للخير، وللشر، والخير هو الأصل؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [٨] ﴿[الشمس] فكانت النفس الأمانة بالسوء بجوار النفس اللوامة فكان الاختبار بعد هبوط الأرض.

قال تعالى بعد قصة الخلق والتكوين:

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ
هُدَايَ فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

جاء التكليف عند نزول الأرض، وقوله: ﴿قُلْنَا﴾ معناه أنه أخرج من الجنة، وقال له تعالى بلسان التكوين: اهبطوا، والهبوط هنا معنوى أو حسى، والمعنوى أنهم نزلوا من الجنة حيث كان القرب من الملائكة الأطهار، وحيث كان العيش رغدا لا مشقة فيه، ولا جهد، بل هو راحة واطمئنان - إلى حيث اللغوب والمشقة، والمعتك الذي يكون فيه الغلب والقهر والانهزام، وحسى لأنه نزول من مكان عال إلى أدنى منه، والهبوط المعنوى ظاهر؛ ولذا تقتصر عليه، لأن الحسى غير ظاهر، وإذا كان الهبوط حيث التكليف فالجميع يهبطون: آدم وزوجه وإبليس، والتكليف على الجميع، فكل ينال أثر عمله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ يدل على أن الله تعالى يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فالهدى الذى يجىء من قبل الله تعالى هو ما يكون بالرسالة الإلهية التى تكون عن طريق من يرسلهم الله تعالى مؤيدين بالمعجزات الظاهرة الباهرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا﴾ فيه «ما» زائدة فى الإعراب، وليست زائدة فى البيان؛ لأنها دالة على تأكيد الإتيان؛ ولذلك يكون بعدها تأكيد الفعل بنون التوكيد الثقيلة تأكيداً وجوبياً عند أكثر علماء البيان، كالقسم لأن إما فى معناه، بيد أن هذه تأكيد لفعل الشرط، وهنالك تأكيد لجواب القسم - وإن معنى التأكيد لفعل الشرط أن مجىء الهداية ثابت ثبوتاً لا مجال للريب فيه.

وتكثير هدى هنا للتعظيم والتكثير، فهو هدى يهدى إلى الحق، ويهدى إلى حياة قويمه مستقيمة، ويهدى إلى النفع الإنسانى العام، وإلى استخراج ينابيع الأرض مما فى باطنها، وإلى الفضيلة الإنسانية، والعدالة فى كل نواحى الحياة.

وجواب الشرط فى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ﴾ أى أن الذين يتبعون ما يجىء به النبيون من رسالات إلهية فإنهم يكونون طائعين خاضعين لأحكام الله تعالى، محاربين للشيطان وإغرائه ووسوسته، ولا يعاقبون؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهو جواب ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ لأنها هى الأخرى شرط، فكان جواب ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ جملة شرطية، أى فيها شرط وجواب، فقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جواب شرط الثانية.

ومعنى ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم يكونون فى أمن من عذاب الله تعالى، ولا يحزنون على أمر فاتهم، لأنهم سبقت طاعتهم، ولا يكونون فى حال حزن، بل فى سرور، وعلى سرر متقابلين.

وليسوا كالذين يخضعون لوسوسة إبليس، وإغرائه، فلا يطيعون، ويجحدون، ولذا ذكر عقوبة الأشرار بجوار ثواب الأخيار ليدرك أهل الحق الفرق بين الفريقين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وكفروا معناها جحدوا أو ستروا ينابيع الإيمان في قلوبهم، وأفسدوا فطرة الله تعالى، وكذبوا بآياتنا.

وآيات الله تعالى آيات كونية، وهى خلق السموات والأرض وكل ما فى الكون مما يدل على الله تعالى، وأنه خالق كل شىء، وآيات تحيى على أيدى الرسل الذين يجيئون بهدى الله سبحانه، وهى المعجزات التى تدل على أن حاملها رسل من عند الله سبحانه وتعالى العلى القدير، وآيات تتلى فى كتبه.

وقد كذبوا بكل هذه الآيات؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى طمس الله تعالى على بصائرهم فلا يدركون حقا، ولا يذعنون للدليل، ولو كان من عند العزيز العليم.

وكما ذكر سبحانه جزاء الذين اتبعوا الهدى، وآمنوا بالحق، وهو أنهم لا يخافون، ولا يحزنون، وذكر الخوف بقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى لا تنزل بهم ما يوجب الخوف.

كما ذكر سبحانه وتعالى جزاء هؤلاء المتقين الذين يتنفعون بالآيات والعظات، ذكر جزاء الكافرين فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر الله سبحانه وتعالى عقوبتهم فى الآخرة بهذا النص السامى، فابتدأ باسم الإشارة، وقد ذكرنا آنفا أن الإشارة إلى المذكور بصفات تكون الإشارة إلى الصفات، وفيها إيماء إلى أن هذه الصفات هى علة الحكم التالى الذى هو خبر اسم الإشارة، والحكم أنهم أصحاب النار؛ أى أنهم الملازمون للنار لا يفارقونها، ولا تتخلى عنهم

كما لا يتخلى صاحب عن صاحبه، وذكر سبحانه وتعالى أنهم خالدون فيها، فقال تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقد أكد خلودهم فى النار بالجملة الاسمية، وتقديم الجار والمجرور، أى هم خالدون، وخلودهم مقصور عليها، فلا حول لهم ولا قوة.

بنو إسرائيل وكفرهم بنعم الله تعالى

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُكُمْ ﴿٤٠﴾ وَعَامِنُوا إِنَّمَا أَنْزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكُنُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وذكر من قبل أوصاف الفاسقين التى فيها نقض الميثاق الفطرى الذى أخذه سبحانه وتعالى من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم.

بعد ذكر المنازعة التى أقامها إبليس عدوا لبنى آدم، وأن الله تعالى وعد أنه سيأتهم بهدى من عنده برسل يرسلهم، وأن من اتبع هداه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهدد بالعذاب الشديد من يخالف ويعصى، بعد ذلك كله ذكر طائفة من العصاة اتسموا بكفران النعمة، وإنكارهم الحق وتلييسهم الباطل به، فذكر بالنعم التى أنعم بها عليهم، وهم بنو إسرائيل الذين توارثوا ما أنكره الله تعالى عليهم من كفران للنعمة.

هم بنو إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم جميعا السلام، فهم ذرية إبراهيم من فرع إسحاق، والنبي ﷺ فرع إبراهيم من إسماعيل الابن البكر له عليهما السلام، وقد وهب إسماعيل وإسحاق لإبراهيم على الكبر؛ ولذلك قال فيما حكاه عنه رب العالمين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) [إبراهيم].

وإن بنى يعقوب ذرية إبراهيم من إسحاق جعلهم الله تعالى صورا للإنسانية التي يختبرها سبحانه وتعالى بالنعم، فمنهم من يشكرها، ومنهم من يكفرها وهم الأكثرون، واختبرهم سبحانه بالنقم تنزل بهم بكفرهم، واستيلاء الشر عليهم، فكانوا بهذا مثلا واضحا للإنسان الذي يتسلط عليه إبليس فى النعم والنقم فإن اختبرهم بالنعم لم يشكروها وطغوا واستكبروا كما فعل إبليس، وإن اختبرهم بالنقم ذلوا واستكانوا؛ ولذلك كانوا مثلا للخاضعين لإبليس وهم فى نعمهم ونقمهم يحسدون الناس على ما أتاهم من فضله.

﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ النداء لأولاد إسرائيل من عهد موسى عليه الصلاة والسلام، ولكن المخاطبين هم الذين عاصروا النبي ﷺ، وخطب من كانوا فى عصر النبي ﷺ بالنعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل فى ماضيهم، مع أنهم لم يروها، فالذين عبدوا العجل ليسوا هم، والذين كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ليسوا هم، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

خطبوا بكفرهم النعم ونقضهم الميثاق، لأنهم أمة واحدة، ويخاطب الحاضرون بمآثم الماضين إذا علموها وأقروها وساروا على مثلها، ولو أنهم ناقضوها، أو استنكروها، كعبد الله بن سلام وغيره، ما خطبوا بأخطاء من سبقوهم، لأنهم لم يرضوا عنها ولم ينادوا بشرف الانتماء إليهم.

والنداء كما علمت للبعيد لأن النداء بـ «يا» يكون للبعيد، ويراد هنا بالبعد البعد المعنوى، وهو علو الله فى ندائهم، وناداهم ببنى إسرائيل تذكيرا بمقام يعقوب

وشرفه، وأنه كان ذلك النسب مقتضيا أن يكونوا في مثل شرفه النبوى، وإيمانه وإذعانه وأن يكونوا عوناً للخير، وأن يكونوا شاكرين لأنعمه مثله.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ومعنى اذكروها، تفكروا في أمرها، وما يوجبها، فإن ذلك التفكير في مقدارها وفي مجيئها في وقت الشدائد والغمة يحملكم على القيام بشكرها، وشكر النعم واجب بالعقل كما هي بدائه العقول، وإن الله تعالى أنعم عليهم بأن نجاهم من فرعون وطغيانه عليهم، ونجاهم باجتياز البحر، وقد انفلق حتى مروا فكان كل فرق كالطود العظيم، وانطبق على فرعون وملئه الذين ساموهم سوء العذاب وكانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأنعم عليهم في الصحراء بالمن والسلوى يتغذون منه بأطيب الغذاء، وأنعم عليهم بأنهم استسقوا فأنبجست من حجر ضربه موسى عليه السلام بعضاه - اثنتا عشرة عينا، لكل أناس مشربهم.

أنعم سبحانه وتعالى بهذه النعم كلها، وكان من شأنها أن تحملهم على الشكر والطاعة، ولكنهم وهم أهل حسد وحقد على الناس، اتخذوها ذريعة للكفر والطغيان، وحسبوا اختصاصا من الله تعالى وتديلا، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فزادوا بالنعمة كفرا وطغيانا.

وكان الحاضرون في عصر النبي ﷺ صورة للماضين يفعلون مثل ما كانوا يفعلون، ويرضون عما كانوا عليه، ويقولون مثل ما قالوا.

أمرهم سبحانه وتعالى عساهم يشكرون، ويعتبرون بما نزل من الأمور بمن سبقوهم، ثم أمرهم سبحانه من بعد هذا التذكير بالوفاء بالعهد، فقال تعالى كلماته: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أخذ الله تعالى عهدا بمقتضى الفطرة، وهو أنه أخذ عليهم من ظهورهم ذريتهم أن يؤمنوا، وأخذ عليهم العهود والمواثيق في عهد موسى، ومن جاء بعد موسى من النبيين، وأخذ عليهم العهد بالآل يسفكوا

دماءً، وأخذ عليهم سبحانه وتعالى عهداً موثقاً ببيان قدرة الله تعالى إذ تنق الجبل فوقهم فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف] وصرح سبحانه وتعالى بهذا الميثاق وعهده لهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧٢﴾﴾ [المائدة].

هذا عهد من العهود التي واثقهم الله تعالى عليها، عهد عليهم أن يقيموا الصلاة ويؤدوا العبادات وأن يؤمنوا بالرسول، وكان عهد الله تعالى أن يكفر عنهم سيئاتهم، وأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وقد أوجب الله تعالى على نفسه تفضلاً، ورحمة وإنعاماً كالإنعام المتوالى عليهم، والله تعالى لا يجب عليه شيء. يقرن القرآن الكريم وعده الله تعالى بوعيده، لقد وعدهم سبحانه بأنه يوفى بعهدهم بأن يكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار إذ أوفوا بعهدهم بأن عبدوه وحده، وآمنوا برسله ونصروهم، ولا شك أن ذلك ترغيب في النعيم، ولكن النفوس لا تخضع للترغيب فقط، وخصوصاً من كانوا على شاكلة بنى إسرائيل الذين لم تُجد فيهم النعم؛ ولذا أردف سبحانه الوعد بالنعيم - بالترهيب، فقال تعالى: ﴿إِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ النون هنا تسمى بنون الوقاية التي تكون بين الفعل وياء المتكلم، والياء حذفت مع تقديرها في الكلام: فارهبوني، وهذا تخويف بأشد صيغ التخويف والترهيب، وتخصيص التخويف بالله، وأنه لا يُخاف أحد سواه كما أنه لا يُعبد سواه.

وقد دل على التخصيص قوله تعالى: ﴿إِيَّايَ﴾ فهي دالة على التحذير، وفعلها محذوف تقديره مثلاً احذرنى، كما تقول فى كلامك إياك إياك محذراً

مخوفاً، فمعنى إياي: احذروني وحدي، فإن رحمتي يلحقها عذابي، وهي للمطيع، وعذابي للعاصي، وقوله: ﴿فَارْهَبُونِ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر تقديره: فإن كان من ترهبونه فارهبوني أنا وحدي؛ ولذلك كان الكلام فيه تأكيد للخوف من الله وحده أولاً بذكر كلمة الله تعالى: ﴿وَأَيَّايَ﴾ الدالة على التحذير وتقديمها، وفي التقديم اختصاص وفي تكرار التخويف، وفي ذكر الفاء المفصلة عن شرط، وهي جوابه.

والرَّهَبُ: إبقاء الخوف في النفس مع التحذير والتيقظ وتوقع العذاب الأليم.

هذا وفي الآية نص على وجوب الوفاء، وعلى شكر النعمة، وأنه لا يصح أن يخاف المؤمن أحداً غير الله تعالى، وقد أوجب الله عليهم الوفاء بالعهد فقال تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

أخذ الله تعالى عهداً بأن يؤمنوا برسله، إذا أرسلهم الله تعالى إليهم مؤيدين بالمعجزة، ولا يكفروا بالرسول بعد أن يتبين الهدى؛ ولذا أمرهم بأن يؤمنوا بالكتاب الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ، ولم يذكر الرسول ابتداء بل ذكر ما أنزل على ذلك الرسول، وإن الإيمان به يتضمن الإيمان بصدق محمد ﷺ، وذلك لأن ذات المنزل هو الحجة الدامغة، وهو فيما يدل عليه من علم حجة عليهم، لأنه مصدق لما عندهم فهو يحمل في نفسه دليل صدقه، وذكره أخذ للحجة عليهم ابتداء وإذا آمنوا بالكتاب فقد آمنوا لامحالة برسالة من نزل عليه الكتاب الحكيم؛ ولأن ما نزل على محمد ﷺ هو الحق الذي لا ريب فيه؛ فهو يدعو إلى تصديقه، وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ بما يدل على أنهم إذا آمنوا بهذا الكتاب المنزل من عند الله يؤمنون بما عندهم، وأنهم إن كفروا به يكفرون بما عندهم.

وهذا يدل على أن الذي نزل على موسى، وبقي عندهم من تعاليمه يصدق ما فى هذا الكتاب، إذ التعاليم واحدة فى أصلها وفى لبها؛ ولذا قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم: «لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعى»^(١).

وإن التوراة التى نزلت على موسى فيها التبشير بمحمد ﷺ: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾ (١٥٧) [الأعراف] وإن قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ (٤٨) [المائدة] وقوله فى هذا النص الكريم: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ لا يدل على أن التوراة الحاضرة صادقة لم يعترها تحريف ولا تبديل، فإن القرآن قد نص على التحريف، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ (١٣) [المائدة] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ (٧٨) [آل عمران] وإذا كانوا يريدون أن يستدلوا من القرآن على صدق ما عندهم، فليأخذوا به كله، لا أن يتعلقوا بحرف مما جاء فيه ويستدلوا به.

وإن معنى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، أى ما بقى معكم من غير تحريف ولا تبديل وهو الرسالة الموسوية فى أصلها ومعناها من عبادة الله وحده، ومن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومن تبشير بمحمد ﷺ، وهم يعلمون. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ (١٤٦).

وبعد أن طالبهم الله تعالى بأن يؤمنوا بما أنزل من كتاب بين لهم أنهم جديرون بأن يسارعوا إلى الإيمان لمعرفةهم ما جاء فيه من الحق، وأن يكونوا أسوة للمشركين الذين لم يؤتوا علم الكتاب، ولم تكن لهم البينات التى عندهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، أى: لا تكونوا أول من يكفر به.

وأول «أفعل» فى وزنه، والبصريون يقولون إنه لا فعل له، والكوفيون يقولون إن له فعلا، هو من وآل إذا نجا، فـ «وآل» فعل بمعنى نجا وخرج ومنه اشتق أول.

(١) أخرجه أحمد: ما فى مسند المكثرين (١٤٠١٤)، والدارمى: المقدمة (٤٣٦) بنحوه..

وهنا مسألتان نتكلم فيهما قد تبينان ناحية من نواحي الآية الكريمة:

الأولى - أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ والخطاب لجماعة لا لواحد، فالظاهر من سياق القول أن يقال أول الكافرين به، ولكن الله تعالى اختار التعبير بالمفرد، على تقدير الفريق، والمعنى لا تكونوا أول فريق يكفر به، أى لا تكونوا أول من يجتمع على الكفر به، باعتبارهم موحدّين فى الفكرة والغاية، وأنهم يتضافرون فيما يفعلون، وإن المراد تقييح أن يقع منهم فعل الكفر، أو أن يقع فيهم الكفر، لأنهم أهل علم بالنبوة، وفى ذلك إغراء لهم بالاتباع وحث لهم على الإيمان لأنهم أولى به وأجدر.

الثانية - أنهم إن كفروا فلن يكونوا أول الكافرين لأن قوما من قريش قد كفروا به من قبل فى مكة، وهذه الآية فى سورة مدنية فكيف ينهون عن أن يكونوا أول كافر به، ونقول: إننا فسرنا أول كافر بأول فريق يكذب به، وإن قريشا لم يكفروا على أنهم فريق، بل كفروا به آحادا، ثم كان منهم من يؤمن، وقيل إن المراد أول كافر به من أهل الكتاب.

ومهما يكن من تخريج، فالآية الكريمة تحث على المسارعة فى الإيمان، وأن يكونوا أول الجماعة المؤمنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى لا تستبدلوا بآياتى القائمة المبينة للحق، وتتركوها فى نظير أى أمر من الأمور، فهو مهما يكن ثمن قليل بالنسبة للآيات البينات الدالة على الحق؛ لأن الحق أعلى ما فى الوجود، فإذا ترك فإن ثمن تركه لا يمكن أن يكون فى منزلته، والتذكير فى قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ للدلالة على أن أى ثمن - مهما يكن - قليل بالنسبة لذات الحق، وأنهم كانوا يتركون الحق لمآرب دنيوية، وهو السلطان والغلب والمفاخرة، وغير ذلك مما تدفع إليه أهواء أهل الدنيا.

وبعد ذلك التحريض والحث على الاتباع، وبيان أنهم إن اشتروا بالحق شيئاً فهو ثمن قليل، بعد ذلك حذرهم من ترك الحق، وخوفهم من عاقبة هذا الترك، فقال: ﴿وَأَيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ تحذير من المخالفة بالتقوى والخوف من الله سبحانه وتعالى والمعنى: وإياي فاحذروا ﴿فَاتَّقُونِ﴾ النون هنا نون الوقاية التى تكون بين الفعل وياء المتكلم، والفاء جواب عن شرط مقدر أفصحت عنه، والمعنى إن كان هناك من يتقى عذابه ومن يجب أن تكون وقاية بينكم وبينه، فاتقوني أنا وحدى، أى اجعلوا بينكم وبين عذابي وقاية تقيكم من عذاب النار.

أمرهم سبحانه وتعالى أن يؤمنوا بالحق وهو الكتاب الذى أنزل مصداقاً لما معهم، وهو القرآن الذى نزل على محمد ﷺ وإن الأمر بالإيمان بالقرآن أمر بالإيمان بمن نزل عليه القرآن.

وإن اليهود من دأبهم التمويه، ليصلوا من وراء ذلك إلى باطلهم؛ ولذا قال تعالى ناهياً لهم: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

اللبس معناه الخلط ومزج شئئين بعضهما ببعض، حتى لا يميز أحدهما عن الآخر، ولبست الحق بالباطل أى خلطت بينهما، بحيث لا يميز الحق عن الباطل الذى اختلط، فلا يدرك إلا مشوباً بالباطل، فلا يكون الحق واضحاً لا تحوطه الريب والظنون، ويقال إن الرجل ملبوس عليه إذا اختلط عليه الحق بالباطل، ولقد روى عن على كرم الله وجهه لبعض صحابته: (يا حارث إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله).

واليهود قد غيروا فى كتبهم، فلبسوا الحق بالباطل فنهاهم الله عن ذلك، وقال تعالت كلماته: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما فى تفسير هذه الآية أن معناها: لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل، وهو التغير والتبديل.

والمعنى الجملى للنهى، لا تخلطوا الحق الذى جاء فى شرع موسى عليه السلام بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه بأيديكم، كما توهمت فى التوراة التى بأيديكم من أن هارون عليه السلام عبد العجل مع الذين ضلوا منكم، فهم يخلطون بين الحق والباطل، فيلبس الحق، وتختفى معالمه، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، ونهاهم عن أمر آخر، يقع منهم، وهو أن يكتموا ما أنزل الله تعالى، فإنهم يعملون عمليين: أولهما: أن يخلطوا الحق بالباطل، فلا يدرك الحق على وجهه، ولا يعرف صريحه مما اختلط به، وكذلك شأن المضللين يأتون ببعض الحق، ويخلطونه بالباطل، فيختفى نور الحق ببهرج الباطل. الثانى: أنهم يكتمون الحق الذى لا التباس فيه، ولم يستطيعوا أن يخلطوه فيكتموه ككتمانهم البشارة بمحمد ﷺ، وكتمانهم تحريم الربا وقد نهوا عنه، وغير ذلك مما حرم كتمانهم، وكاستباحتهم ما حرم عليهم يوم السبت، وغير ذلك.

وقد نعى الله تعالى عليهم ذلك الكتمان للحق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة].

وإنهم إذ يكتمون الحق من الكتاب يفعلونه متعمدين قاصدين التضليل؛ لأنهم يعلمون ما يلبسون به الحق بالباطل، ويعلمون ما يكتمونونه؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الحق فيما لبستم به، وتعلمون الحق الذى كتمتموه قاصدين كتمانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أو بالأحرى معطوف على قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ

عَلَيْكُمْ ﴿فَقَدْ أَمَرَهُمُ تَعَالَى بِأَوَامِرٍ مُتَعاقِبَةٍ بَعْضُهَا مُتَرْتِبٌ عَلَى بَعْضٍ، أَوَّلُهَا أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِيَتَذَكَّرُوا وَيَتَفَكَّرُوا وَلَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ هَذِهِ السَّعْيُ، وَلَا يَكْفُرُونَهَا، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِسُبْحَانِهِ بِأَنْ يُوَفُوا بِالَّذِي عَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُوَفُوا لَهُمْ بِعَهْدِهِ بِأَنْ يَكْفُرَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَدْخُلَهُمُ الْجَنَّةُ، ثُمَّ حَذَرَهُمْ وَأَرْهَبَهُمْ، ثُمَّ طَالَبَهُمْ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي يَصْدُقُ مَا مَعَهُمْ، وَأَلَّا يَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، ثُمَّ حَذَرَهُمْ، وَشَدَّدَ فِي أَمْرِهِمْ بِالتَّقْوَى ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَخْلُطُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَأَلَّا يَكْتُمُوا الْحَقَّ الْخَالِصَ.

ثُمَّ بَعْدَ أَمْرِهِمْ بِالْإِيمَانِ أَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ لِبِ الْإِيمَانِ، وَهَذِهِ الصَّلَاةُ نَزَلَ بِهَا الْكِتَابُ الْكَرِيمُ الَّذِي جَاءَ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ، وَهِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَعَلَّمَهَا، وَقَالَ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(١)، لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَمَرَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَأَمَرَ بِالزَّكَاةِ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ بِرُكْنِي الْإِسْلَامِ، وَشَعْبَتِيهِ، وَهُمَا تَهْذِيبُ الرُّوحِ بِالصَّلَاةِ، وَمِثْلُهَا الصَّوْمُ، وَالشَّائِنِ قِيَامُ بِنَاءِ اجْتِمَاعِي مُتَعَاوِنَ فَأَمَرَ بِالزَّكَاةِ، وَبَقِيَّةِ الْعِبَادَاتِ بَلِ التَّكْلِيفَاتِ كُلِّهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ هَاتَيْنِ الشَّعْبَتَيْنِ: تَهْذِيبُ الرُّوحِ، وَرَبْطُ الْمُجْتَمَعِ بِالتَّعَاوُنِ الْوَثِيقِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وَذَلِكَ إِمَّا بِالْإِنْدِمَاجِ بِالصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْإِتِّلَافِ مَعَهُمْ فِي جَمَاعَاتِهِمْ، وَإِمَّا بِالْخُضُوعِ الْمَطْلُوقِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بَارَكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ الْأَمْرَانِ مَعًا وَهُوَ الصَّلَاةُ فِي جَمَاعَةٍ، وَالْخُضُوعُ بِالْإِتِّلَافِ مَعَ الرَّاكِعِينَ، وَالْإِنْدِمَاجِ فِيهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) بهذا اللفظ هو رواه البخاري: كتاب الأذان (٥٩٥)، عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

﴿٤٥﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٦﴾

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ

﴿٤٧﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٨﴾

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا

يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٠﴾

هذا خطاب لبني إسرائيل في أمرٍ يفعله علماءهم، ويرضى به سائرهم، فيلامون جميعاً عليه، وهو خطة يسير عليها أسلافهم، ويرضى عنها أخلافهم، فصح أن يخاطب بها جميعهم، إذ هو عيب فيهم سلفاً وخلفاً، وهو عيب الناس إذا ضعف وازع الدين، وغلب عليهم حب الدنيا، وهو أن يأمروا الناس بالحقائق الدينية، ويدعونهم إليها، ولا يأخذون بهديها، وتلك إحدى صفات النفاق، وهي شأن الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون ما أنزل الله تعالى، فيكون قولهم مخالفاً لفعلهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف].

كان أحبار اليهود في كل أدوارهم عندما صار التدين شكلاً لا روح فيه، ومظهراً لا حقيقة له كانوا يذكرون للناس حقائق دينية، لا يعملون بها، ويعلنون أموراً في نجواهم ينكرونها في جهرهم، فكانوا يقررون أن أوصاف النبي ﷺ في كتبهم، وينكرونها أمام النبي ﷺ وأصحابه لكيلا يحاجوهم بها عند ربهم، وكأنه سبحانه وتعالى لا يعلم خفى أمرهم.

ولذا خاطبهم الله سبحانه وتعالى مستنكراً تلك الحال فيهم؛ لأن من فعلها منهم لم ينكرها سائرهم، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، أي أنه كان منهم،

ويستنكره الله تعالى عليهم، وإنكار الواقع توبيخ، وبيان أنه لا يصح، ولا ينبغي أن يكون، والبر هو الخير، وهو ضد الإثم، والنبي ﷺ عرف الإثم بأنه «ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١).

والنص استنكار لحالهم من أنهم يأمرؤن الناس بالخير، وينسون أنفسهم، أي يتركونها من غير توجيه إليه، ويكونون بمنزلة من ينسونها، ولا يفكرون في أمرها، مع أن دواعي التذكير والتفكير في ذات أنفسهم قائمة لأنهم يتلون الكتاب؛ ولذلك قال تعالى في هذا النص السامي: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي وأنتم تجددون تلاوته أنا بعد أن، فالاستنكار للحال التي يجتمع فيها الأمر بالخير والحث عليه مع ترك أنفسهم لا تفعلها، وكأنهم نسوها ولم يذكروها، والمذكر دائم مستمر، وليس الاستنكار للبر مجردا عما لا به من حالهم، لأن الأمر بالبر في ذاته ليس بمستنكر، ولا يمكن أن يكون مستنكراً؛ لأنه دعوة إلى الحق، ولا تنكر الدعوة إلى الحق في ذاتها.

وإن حالهم من دعوة إلى الحق مع نسيان أنفسهم، وتركه مع استمرار التذكير به، وكان ينبغي مع التذكير التذكر - لا يغفله الذين يفكرون ويعملون عقولهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والاستفهام هنا لالتبيه إلى مناقضة حالهم للعقل المدرك.

والعقل مصدر عقل بمعنى منع، ثم أطلق على ما يكون به الإدراك السليم لأنه يمنعه من القبيح، ويعقله ويقصره على الجميل، ومعنى الاستفهام، أن حالهم هي حال من لا عقل له ولا إدراك، و(ألا) هنا - كما ذكرنا - للاستفهام والتنبية إلى نفى ما وراءه، والفاء فاء السببية أي بسبب هذه الحال يحكم عليهم بأنهم لا يعقلون، وأخرت الفاء عن الهمزة لأن الاستفهام له الصدارة، فهي مؤخره عن تقديم.

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٣٢)، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٩٧٣). من حديث نواس بن سمعان الكلابي الأنصاري. وبنحوه رواه الترمذي والدارمي.

وقد أشرنا إلى أن المستنكر هو الحال المجتمعة من دعوة إلى الخير وعدم العمل مع التذكير الدائم، أما الأمر نفسه فلا إنكار فيه، وقد تكلم الناس في أن من وقع في المعاصي أيجوز له أن ينهى عنها ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أم يظهر نفسه من المعاصي، ثم يتولى الإرشاد؟.

إن الحق أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بنفسه، تركه معصية كغيره، ووقوعه في معاص غيره لا يسوغ له أن يتركه، فيقع في معصية الترك، نعم إن الموعظة نصابها الألفاظ، كما قال الغزالي في إحدى رسائله، ولكن الموعظة في ذاتها لا تحتاج إلى نصاب، وقد قال سعيد بن جبير التابعي، الشهيد في الحق الأمر بالمعروف: إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون ممن يقع في معصية، فلن يكون هناك داع إلى الخير. ولكن مع ذلك يجب أن يروض المؤمن نفسه دائما على ألا ينهى عن أمر يقع هو فيه، فيمتنع عن النهي عن المنكر، ولكن يمتنع عن أن يقع فيما نهى عنه، كما حكى الله عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُحِلَّكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود].

وإن الواعظ الذي لم يكن يتعظ بوعظه يحاسب على إهماله بأكثر مما يحاسب عليه غيره، ويحاسب أشد من كان يعلم الحق ولا ينطق به، فيُحرم الموعظة والانتعاز ويحاسب من بعد حسابا عسيرا، ولقد روى عن رسول الله ﷺ: «إن الله يعافى الأميين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء»^(١) وروى: أنه «يغفر للجاهل سبعين حين يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم»^(٢).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية، من حديث عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عن سيار بن حاتم بن جعفر بن سليمان الضبي عن ثابت عن أنس، «والضياء» المقدسي في المختارة من هذا الطريق «عن أنس» بن مالك.

(٢) الترغيب والترهيب - الترهب من أن يعلم ولا يعمل بعلمه ج ١ ص ٧٢.

هذه عيوب من يأمرهم بالخير، ولا يأمرون به ومن ينهاون عن الشر، ولا ينهاون عنه، ولكن كيف تربي النفس على أن تكون متعظة قبل أن تعظ؟ ذكر الله سبحانه وتعالى الدواء؛ وهو الصبر، والصلاة، فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. الاستعانة بطلب العون، والمساعدة، وفي استعمال القرآن أنها إذا كانت للمعين تعدت بغير باء، كقوله تعالى: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] وفي الدعاء «اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك»، وإذا كانت الاستعانة بما تكون به الإعانة كانت بالباء، فيقال نستعين بكذا لفعل كذا، وهكذا نجد بالاستقراء استعمال القرآن.

وهنا الاستعانة بشيء ولذا تعدت بالباء فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أى استعينوا على تربية نفوسكم لتكون متعظة فاعلة الخير، آمرة به ولا يتجافى فعلها عن قولها. ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ والصبر ضبط النفس وسيطرة الإرادة، على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، فإنه إذا سيطرت الإرادة والعقل والفكر المستقيم انقمعت الشهوات، وإذا انقمعت استقامت النفس، وكان التنسيق بين القول والعمل، وقذف الله في القلب بنور الحكمة، والقول الطيب، والعمل، وكل ما فى الحياة يحتاج إلى الصبر، فالجهاد قوته فى الصبر، وكما قال النبى ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١)، ونقص الأموال والأنفس والثمرات إنما يكون بالصبر. كما قال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُوكُمْ شَيْءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ [البقرة].

ويقول الفاروق الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصبر صبران صبر على المصيبة، وهو حسن، وصبر عن المعاصى وهو أحسن^(٢). فالصبر على المعاصى، هو السيطرة على الأهواء والشهوات، وهو تهذيب النفس وتقويمها.

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الجناز (١٢٠٣). مسلم: الجناز (١٥٣٤).

(٢) رواه ابن أبى حاتم. [جامع الأحاديث والمراسيل (٢١٨٨) مسند عمر بن الخطاب ج ١٤ ص ٩١].

هذه كلمات موجزات في الصبر، وهو طريق السيطرة على النفس؛ ولذا أمرنا الله تعالى بالاستعانة به.

أما الصلاة فإنها بما اشتملت عليه من ركوع وسجود وقراءة، وخشوع، واستحضار لعظمة الله تعالى وإحساس بأنه في حضرته وواقف بين يديه سبحانه وتعالى تتفعل نفسه في وجودها بحضرته، بأوامره، ونواهيه، وطلب مرضاته. ولقد قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٤٥) [العنكبوت] ولقد كان النبي ﷺ «إذا حزبه أمر صلى»^(١) وكان يأمر بالصلاة، من كان به وجع ليصبر وينسى ألمه، فيقول ﷺ: «قم فصل فإن الصلاة شفاء»^(٢) لأنه يكون في مناجاة بينه وبين ربه، فينسى الدنيا وما فيها ينسى ألمه ووجعه، وهمومه.

وإن الصبر والصلاة تجعلان النفس تتغلب على المحن، كما تتغلب على الإحزن، فيلقى الله تعالى بقلب سليم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت].

وإن الاستعانة بالصبر والصلاة ليست أمرا هينا لينا، ولكنها أمر عظيم خطير، لا يتلقاها إلا النفوس القوية ذات العزيمة الحازمة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأِنَّهَا﴾ قيل إنه يعود إلى الضمير المنسبك من ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، لأن الصبر والصلاة الحقيقية أمران كبيران خطيران

(١) رواه أبو داود: الصلاة (١١٢٤)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٢١٠) عن حذيفة رضى الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه: الطب (٣٤٤٩) وأحمد: باقى مسند المكشرين (٨٧٠٥). وفى الزوائد: فى إسناده ليث، وهو ابن سليم.

عظيمان يسيران بالنفس فى مدارج الكمال النفسى والروحانى، فيكون الانسجام بين القول والعمل، ولكن قد يقال إن المصدر غير موجود، والضمير يعود إلى أقرب مذكور، فعوده إلى الصلاة أقرب وأظهر، ولذلك قال الأكثرون إنه يعود إلى الصلاة.

ولا شك أن الصلاة إذا أدت على وجهها باستحضار عظمة الله والشعور بأنه فى حضرته سبحانه وتعالى، حتى كأنه يراه ويخاطبه بقرآنه عندما يتلو آياته، وأنه عندما يقول : إياك نعبد، وإياك نستعين يحس بأنه فى حضرته، وأنه يخاطبه، وأنه يناجيه، فمقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] مقام، لا يندرج فيه إلا الخاشعون.

والخاشع هو الخاضع المتطامن الساكن الذى لا يتحرك لشهوة، والخشوع مظهر الخضوع الذى يظهر فى الأعضاء والجوارح، ولذلك يسند إليها فيقول تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه] فالخشوع خضوع كامل فى النفس والجسم، وأصله فى القلب؛ قال عمر لشاب قد نكس رأسه فقال له: «يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع ما فى القلب»^(١). وقال على كرم الله وجهه: الخشوع فى القلب، وأن تلين نفسك للمرء المسلم، وألا تلتفت فى صلاتك^(٢).

وقد ذكر سبحانه أثر الخشوع فى القلب والعقل والنفس، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

عرف الله سبحانه وتعالى الخاشعين بأخص صفات المؤمنين، وهو الإيمان بالغيب، لأنه فرق بين الإيمان والإسلام والزندقة، وإن أبلغ الإيمان بالغيب تأثيرا

(١) جامع الأحاديث والمراسيل (٢٧١٢) - مسند عمر بن الخطاب ج ١٤ ص ١٦٧.

(٢) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. [المستدرک للحاكم (٣٥٢٩) - شرح معنى الخشوع - ج ٢ ص ٤٢٦]. ورواه عبد الله بن المبارك، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو القاسم بن منده فى الخشوع.

فى النفس الخاشعة الإيمان بقاء الله تعالى الذى يجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بجزاء ما يعمل، ولذلك ذكر إيمان الخاشعين بقاء الله تعالى فقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ الظن يطلق بمعنى العلم الراجح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ [الجاثية] ويستعمل الظن بمعنى اليقين: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة].

والظن بمعنى العلم اليقيني، ولكن التعبير عن العلم بالظن يفيد مع اليقين توقع الأمر المعلوم، فمعنى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾، أنهم يتوقعون هذا اللقاء وقتا بعد آخر، فهم يؤمنون إيمانا صادقا بقاء الله، ويتربصون ذلك اللقاء، وينتظرونه متوقعين له، فيقينيهم يقين المتوقع المترقب، فيكون فى قلوبهم دائما ويستعدون له بعمل صالح يقدمونه رجاء أن يغفر لهم وأن يتغمدهم برحمته، ويكفر عنهم سيئاتهم.

والتعبير بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ فيه شعور بنعمه تعالى عليهم، لانه هو الذى رباهم وأنشأهم وتعهدهم فى الوجود، كما يتعهد المزارع زرعه بالسقى والإصلاح.

ويؤمنون مستيقنين متوقعين أنهم إليه وحده راجعون، وتقديم ﴿إِلَيْهِ﴾ للدلالة على أنه وحده الذى يرجعون إليه ويجزيهم بالإحسان إحسانا وأنه الغفور الرحيم.

هذا الذى مضى من القول الكريم من قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ خطاب لبنى إسرائيل الحاضرين منهم والماضين باعتباره واقعا منهم فى حاضرهم وماضيهم، وهو يصلح خطابا لبنى إسرائيل وغيرهم لما فيه من توجيه وتهذيب وإصلاح بين الناس، وبه تستقيم أمورهم فى معاشهم ومعادهم.

ذكر الله تعالى بعد ذلك بنى إسرائيل بنعمه عليهم، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

تكلمنا فى ماضى قولنا فى معنى السداء بيا بنى إسرائيل، وأشرنا إلى النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل، وقد ذكر نعمة لم يذكرها سبحانه وتعالى فيما مضى من قوله الحكيم، وهو أنه سبحانه وتعالى فضلهم على العالمين، والعالمون جمع عالم كما ذكر من قبل، ويراد أهل العقل والتفكير فى هذه الأرض.

والتفضيل ليس تفضيل ذاتهم على غيرهم كما توهموا هم، ودلاهم غرورهم، فزعموا أنهم صنف الله المختار، ودلوا على الناس بذلك بل دلوا على الله تعالى وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وأكلوا الحقوق، وعاملوا غيرهم بكل أمر ليس فيه خلق ولا دين، وقالوا ليس علينا فى الأميين سبيل.

ليس التفضيل لذواتهم إنما الفضل الذى اختصهم الله تعالى به فى جيلهم أنه جيل فيهم أنبياء، ودعاهم أولئك الأنبياء إلى التوحيد لله سبحانه وتعالى، فقد كانوا موحدين كما دعاهم موسى ومن جاء بعده من الأنبياء فى وسط وثنيين، فكان كل من حولهم وثنيين؛ فالمصريون وثنيون يعبدون الشمس ومن دونها، والفرس يعبدون النيران، والروم يعبدون الأوثان، واليونان من قبلهم على شاكلتهم، والبابليون يعبدون الكواكب، وهكذا كان جيلهم الأول جيل موسى، وحين نزول التوراة على موسى.

اختارهم الله تعالى أن يكونوا قوم موسى، وأن يكون التوحيد فيهم، وكان مقامهم يمكنهم من أن يدعوا إلى التوحيد؛ لأنهم كان مقامهم فى وسط تلك الأراضى التى كان يسكنها الوثنيون.

وإن ذلك التفضيل نعمة أنعم الله تعالى بها عليهم، وأنها توجب شكرا، وتحملهم تكليفا، أما الشكر فلأن شكر النعم واجب بحكم العقل، وبحكم التكليف الإلهى وقد كفروا بأنعم الله تعالى، وأما التكليف الذى حملوه فهو الدعوة إلى الوحداية ولم يقوموا بحققها، بل إنهم اعتبروا اليهودية جنسا، ومن دخل معهم فى

ديانة موسى عليه السلام من غيرهم كالسامرة لم يعترفوا به، وبذلك ضلوا ضلالا بعيدا.

ولقد أخذ بعد ذلك سبحانه يذكر موجبات التفضيل وغاياته فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾ أى اجعلوا لكم وقاية تقيكم عذاب يوم شديد الهول، فيه العذاب الشديد، ولا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل، وهو يوم القيامة، وقال سبحانه: ﴿يَوْمًا﴾ بالتكثير لتذهب النفس مذاهب شتى فى تصوير هوله، والإبهام وحده يوجد رهبة، ويشعر بالتهويل، ويأنه لا يحدد عذابه وصف، ولا هوله ذكر، وإن ذلك اليوم الذى اتقاؤه بالعمل الصالح والقيام بالحقوق التى للغير، وأداء الواجبات التى عليه، يتقدم فيه الإنسان منفردا إلا من عمله، لا يجزيه إلا عمله إن خيرا فخير، ولا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا، أى لا يجزى عمل نفس عن نفس شيئا من الجزاء، فيقدر فى قوله لا تجزى نفس عن نفس أى عمل نفس عن نفس أخرى، أو نقول تجزى بمعنى تقضى، أى لا تقضى نفس عن أخرى أى شيء قل أو جل، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وكل امرئ بما كسب رهين.

وعقب سبحانه وتعالى بما يؤكد أن النفس لا يجزى عنها غيرها، وأنه لا منفعة إلا من عملها، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ والشفاعة من الشفع، والشافع يضم قوته إلى من يشفع فيه، فلا يقبل الله تعالى شفاعة من أحد لأحد، إنما العمل وحده هو الذى ينفع كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر] وإذا كان للأنبياء شفاعة فبأمر الله تعالى وحده ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء]. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى لا يؤخذ منها بدل، فالعدل البذل، فلا ينجيهم من عذاب شفاعة ولا فدية من العذاب ببذل يدفع، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لأنه لا ناصر إلا الله، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار.

أخذ سبحانه وتعالى يذكر النعم التي أنعمها عليهم، وابتدأ بنعمة الإنقاذ،

فقال تعالى:

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَجْلُ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
﴿٥٣﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٥﴾

ابتدأ سبحانه وتعالى بأعلى النعم التي أنعم بها عليهم، وهى نعمة الإنقاذ من شر من فى الوجود إبان ذلك، وهو فرعون الذى اتخذه الفساق الظالمون من الحكام قدوة يقتدون به فى مظلالمه، وإن لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أن يتصوروا فى الحروب مثل انتصاره فى عصره.

أنقذهم الله تعالى على يد موسى كليم الله من بطش فرعون، وقد كان بطشه شديدا بهم؛ لأنهم كانوا يعدون أجنب فى مصر، وكانوا أعداء لهم، فكان فرعون يتخذ السبيل لإفنائهم، أو إضعافهم، فكان يقتل شبابهم ذبحا، ويبقى النساء، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أى اذكروا الوقت الذى أنجيناكم فيه من آل فرعون، فإذا تدل على الوقت الماضى، ومعنى ذكر الوقت ذكر ما كان فيه من أحداث خطيرة وشديدة، واستحضار الأحوال التى كانوا يعيشون فى بأسائها،

وضرائها، وإنه تقدر النجاة من الله تعالى بمقدار ما كان هول الأمر الذى نجاهم الله تعالى منه.

ولقد قال تعالى: ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يقل أنجاهم من فرعون، وذلك لأن آله شيعته ونصراؤه وأعوانه، وطغاة الدنيا يكون شرهم من أنفسهم أولا، ومن حاشيتهم الذين يحيطون على أهوائهم ثانيا، فيزينون لهم ظلمهم، ويسمونهم عدلا ويبينون له وجوه الكيد، ويمكرون مكرهم، فلولا بطانة السوء ما كان السوء، ولولا حاشية فساق الحكام ما استمكنوا، وما طغوا فى البلاد، وكلمة حق من حاشيتهم تقيم عدلا، وتدفع ظلما.

لذلك عبر بآل فرعون، لأنه لم يستمكن وحده من الظلم.

وذكر سبحانه ما كان يفعله فرعون وآله، فقال سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى يذيقونكم سوء العذاب ويجعلونه ملازما لكم لا تفارقونه، ولا يفارقكم، ويقال: سامه خطة خسف، وأولاه خطة خسف، أى جعل ولايته خسفا وعسفا، ولقد قال عمرو بن كلثوم الفارس العربى:

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا أَيْنَمَا أَنْ تُقَرَّ الْخَسْفُ فَيَنَـا

وسوء العذاب أشد سوءا وأثرا فى النفوس، ويديمونه؛ لأن «سام» تدل على الدوام، ومن ذلك السائمة التى تديم الرعى فى الكلاء، وبين سبحانه وتعالى هذا العذاب الهون فقال مبينا: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فهم يعملون على إفناء الذكور، وإبقاء النساء.

والتعبير بـ ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كناية عن العمل على إفنائهم وتخضيد شوكتهم وإبعادهم عن مواطن السلطان، وذلك بذبحهم أحيانا، ووضعهم فى مواضع الذل والمهانة، والغاية ألا يكون لهم وجود قائم بذاته، فقد حكى عنهم أن فرعون كان

يذبح منهم، وكان يتخذ منهم عمالا مسخرين فى الأبنية التى يشيدها، وكان يسخرهم لحرث الأرض، والشمرة لغيرهم ليدلهم، وكان يتخذ منهم خدما فى البيوت وهم الأرذلون.

وذكر الذبح بالذات، وهو إحدى وسائل فرعون لسوء العذاب الذى كان يذيقه إياهم لأنه أشدها هولاً، ولأن إفناءهم هو الغاية، وهو أقرب طرقه، وهو المصدر لما كانوا عليه من الآلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أى أبقوهن أحياء لم يذبحوهن، وكانوا راغبين فى ذلك، ولذلك كانت السين والتاء اللتان تدلان على الطلب، والمعنى طلبوا حياة نسايتهم لغايات فى نفوسهم وليشبعوا بهن شهواتهم، وقد بين الله تعالى أن ذلك هول شديد تختبر به نفوسهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة هنا إلى هذا العذاب الشديد السيئ، والخطاب لهم، ولأن الإشارة إلى ما نزل بهم جعل الخطاب لهم لا بالكاف المفردة بل بالكاف وعلامة خطاب الجمع، وبلاء معناه الاختبار الشديد لتتربى نفوسهم على التحمل، ولبت الرحمة فى قلوبهم، لأنه لا تكون الرحمة إلا بالآلام الشديدة التى يحس بها الشخص فيرحم غيره، فإنه لا تنبع الرحمة إلا من قلب أحس بالآلام، وتربى فى أحضانها فلا يكون قاسياً على الناس، ويكون رحيماً بهم، فكان هذا البلاء الفرعونى تربية لنفوسهم لتكون بارة؛ ولذلك قال: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى من الله الذى خلقكم، وربكم بعنايته وحماكم بكلاءته، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾ لكبر هوله، وبعد أثره.

وإن الله تعالى مكّن فرعون منهم لكى يعلموا أنهم ليس لهم فضل لذواتهم، ولكن لما هيأهم الله تعالى لتلقى رسالته، وتبليغ كلمته، وهى كلمة التوحيد، والعمل بالأوامر الإلهية.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى كيف نجاهم بقدرته الإلهية القاطعة فى الدلالة على إخراجهم من ظلمات القهر والطغيان إلى نور العدالة والإيمان، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ والمعنى اذكروا ذلك الوقت الذي فرقنا أى أوجدنا شقا طوليا فى البحر من ساحل مصر إلى ساحل سيناء، وقد كان متصل الأجزاء، وسطحا لا فرقة فيه ولا انشقاق، فسرتم فيه، كأن الماء قد افترق على قدر حاجتكم، وسرتم فيه آمنين مطمئنين، وسار وراءكم الذين عذبوكم، ودبروا السوء لكم، وذبحوا أبناءكم، واستحيوا نساءكم لأهوائهم، وهم آل فرعون الذين ناصروه وأيدوه، وقد ازدلفوا من ورائكم فأغرقهم، وأنتم تنظرون إلى تدبير الله تعالى، وإعجازه، وأنتم ترونه رأى العين لا بالخبر والسمع.

وقد فصل الله سبحانه وتعالى تلك النجاة وذلك الإغراق وما أحاط بهما بعض التفصيل، فقال تعالت كلماته فى سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ٥٢﴾ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ ٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦٨﴾ [الشعراء].

نجى بنو إسرائيل، وظهرت آيتان؛ إحداهما أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه، فانشق وانفلق، وكان كل فرق من أقسامه، كأنه الجبل العظيم من الماء. والثانية أن هذا كان على قدر مسير بنى إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، وظن فرعون وآله أن الطريق مفتوح لهم، كما فتح لبنى إسرائيل، فساروا وراءهم فانطبق البحر عليهم، وكانوا مغرقين.

كانت هذه النجاة بمعجزة من الله تعالى كافية لإيمان الكافر حتى إن فرعون قال آمنت بالذي آمن به بنو إسرائيل، وإن كان لم ينفعه إيمانه، كما قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠﴾ وَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١ ﴿فَالْيَوْمَ نَنْجِيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ٩٢﴾﴾ [يونس] نزل بنو إسرائيل أرض سيناء التي انبعث فيها نور الرسالة الموسوية. وكان حقاً أن يكونوا أول المؤمنين، ولكن الله أخبر أنه لم يكن أكثرهم مؤمنين مع هذه المعجزات الحسية الباهرة، وكانوا قد ألفوا عبادة العجل من غير بينة ولا دليل بل قلدوا المصريين تقليداً في عباداتهم، وتأثروا طريقهم، وألفوا ما ألفوه هم، وإن الهوى والوهم هما اللذان سيطرا على نفوسهم، فضلوا بضلالهم، ولذلك صنعوا عجلاً من الخلى؛ وجعلوه في مهب الريح، فكانت الريح إذا مرت به كان له خوار كخوار العجل الخى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ هذا ما كان منهم كفرا بالنعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وفيها الدلالة القاطعة مع النعم الظاهرة، ومع ذلك قلدوا المصريين في عبادتهم.

واعد الله تعالى نبيه موسى عليه السلام على أن يترك بنى إسرائيل لتلقى التوراة، وفيها الألواح العشرة التي تتضمن التكاليفات التي كلف الله تعالى بنى إسرائيل.

فتركهم فتحرك فيهم ما ألفوه من عبادة العجل، كما كان يعبد المصريون العجل وقد جعل لهم السامرى ذلك العجل من الذهب، وكان عجلاً جسداً لا حياة فيه، ولكن كان له خوار أى صوت كصوت البقر، إذا مرت الريح فى التجاويف التى صنعت فيه، وقد ذكر الله تعالى هذا العجل المصنوع ببعض قليل من البيان فى

سور أخرى، وذكر عنهم الله تعالى في هذه السورة أنهم عبدوه، وأن هرون أخا موسى وردده في الرسالة نهاهم عن العبادة، وقد خلفه موسى فيهم، فقال تعالى حكاية في ذلك: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ [طه] وذكر تمام ذلك في سورة طه: ﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضْلَهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفُتَالُ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أُرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمُ فَقَدَفْنَاها فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمُ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَقَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بَنُوؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ [طه].

وقد نسبت العبادة إلى كلهم، والذي عبد العجل بعضهم؛ لأن الذين لم يعبدوا لم ينهوا غيرهم فكانوا مثلهم كما قال تعالى فيهم: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة].

ومعنى لنحرقنه أى نحكه ونبرده ثم بعد برده لننسفه فى اليم نسفًا، وذلك كقولهم حرقَّ الأرم^(١) أى حكها حكا شديدًا.

هذا خبر عبادتهم العجل، وكيف كانت وذلك لتأثرهم طريق المصريين، وسلوكهم طريق الأوهام التى سلكوها. وقوله: واعدنا موسى أربعين ليلة فيها قراءتان: إحداهما (واعدنا موسى)، والقراءة الأخرى: (واعدنا موسى)، وإن المواعدة لا تكون إلا بين طرفين، وذلك بعيد عن الله تعالى، ولذا قيل إن معنى واعدنا ليس المفاعلة التى تكون بين طرفين، بل معناها واعدنا، وقد تستعمل: صيغة فاعل فى غير معنى المفاعلة، كقولهم داويت العليل، وعالجت المريض، وعاقبت المجرم.

وعندى أن المواعدة على معناها وهى من الله الوعد، ومن موسى التلقى والاستجابة وإنجاز ما وعد الله.

توالت نعمة الله تعالى، ولكنهم فتنوا بما كان عليه المصريون الأقوياء، وكانوا هم الضعفاء، والضعيف دائما مأخوذ بتقليد القوى، فسرى ما عند الأقوياء، وهم قوم فرعون إلى الضعفاء، وكانوا يشعرون بالمذلة والاستكانة، وشعروا من بعد بأنهم ذلوا، فتأبوا وتاب الله تعالى عليهم وعفا عنهم، وعدَّ الله تعالى ذلك عليهم نعمة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أى أن هذه الجريمة الكبرى، وهى الإشراك بالله تعالى ما كانت لتغفر، ولكن الله تعالى عفا عنها، والتعبير هنا بشم الدالة على التراخى والبعد، لبيان بُعد ما كان منهم عن أن ينالوا من بعده عفو الله تعالى، ولكنه سبحانه وتعالى تواب رحيم وسعت رحمته كل شئ ما دام التوبة قد حصلت.

(١) حرقَّ الحديد حرقًا: برده، يقال: حرقه بالمبرد. ويقال: هو يحرقُّ عليه الأرم: يحك أضراره بعضها ببعض من الغيظ. [الوسيط - أرم - ح ر ق].

وهنا نجده سبحانه وتعالى عبر بالعفو، ولم يعبر بالغفران وقبول التوبة، وذلك لأن العفو يكون عما وقع بجهالة، وهم كانوا في حال جهالة، لتأثرهم بما كان عند المصريين من عادات جاهلية، ولأنهم خرجوا من ذل المعاصي إلى عزة الحق، فكان العفو أدنى إليهم، لأنهم كانوا في فتنه.

وقوله من بعد ذلك الكفران، والفتنة التي أضلتهم، فالإشارة إلى البعيد، لبعد ما ارتكبوا عن موجب العفو الذي نالوه، فهم كفروا كفرًا مبينًا، ولكن التوبة تجب ما قبلها، ولم يكن الخطاب بالجمع لأن فتنة العجل لم تكن منهم أجمعين، بخلاف ما كان يسومهم به فرعون وآله من عذاب، فقد كان يعمهم، ولا يخص فريقًا. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، لعل هنا للرجاء، والرجاء هنا من العبيد لا من الله، والمعنى: عفونا عنكم لتكون حالكم حال الرجاء لشكر الله تعالى، فالرجاء لأمر يقع أو لا يقع إنما هو من شأن الناس، ولا يمكن أن يكون من الله تعالى الذي يعلم ما يقع وما لا يقع، ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض، ولا في السماء، والله سميع عليم.

أو يكون الرجاء من الله تعالى، ويكون بمعنى الأمر، كما يقول السيد الخادمه فعلت معك كذا وكذا رجاء أن تعترف بالجميل، وتشكر لي حسن صنيعي، فهذا يكون حثًا على فعل الجميل، بذكر موجب، وعلى هذا المعنى تكون ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ في مقام التعليل لوجوب الشكر، وتكون بمعنى: لكي تشكروا، إن كنتم لا تكفرون بالنعمة، ولكن تشكرونها.

وبعد أن بين الله تعالى أنه سبحانه وتعالى عفا عنهم، مع عظيم ما ارتكبوا، وأنه سبحانه يدعوهم إلى شكره، وأن حالهم حال من يوجب على نفسه الشكر، بعد ذلك ذكر الله تعالى أنهم قد صاروا في منزلة ليست كمنزلة فرعون وقومه، وآله الذين ناصروه، ومالئوه في كفره، ولم يرشدوه أو يوجهوه إلى طريق الهداية؛ لأنهم بيعت

موسى عليه السلام إليهم، قد صاروا أهل كتاب، ولذا ذكرهم الله تعالى بنعمة النبوة فيهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾، يذكرهم الله تعالى بنعمه عليه بأن آتاه سبحانه وتعالى الكتاب، وهو التوراة، وفيها أحكام الله تعالى، وأنهم بها يخرجون من حكم الطاغوت الظالم الذى يسيطر عليه هوى فرعون وأوهامه والذى كان لا يرمى فى عذابكم عهدا ولا ذمة، ولا خلقا، ولا مراعاة، تخرجون من هذا إلى حكم الله تعالى بكتاب تتقيدون بأحكامه حكاما ومحكومين، فلا يفرط عليكم حالكم ولا يطغى كما كان بشأن فى فرعون لعنه الله تعالى.

والفرقان هو الكتاب نفسه، وهو التوراة، فهى كتاب مكتوب لا تخالف أحكامه، ومسجل عليكم، وهو ميثاق الله تعالى، وهو مع هذه الحال فارق بين الحق والباطل وحكم الله تعالى، وحكم فرعون، فالتعبير بالفرقان إشارة إلى أنه قد نزل عليهم ما هو مفرق بينهم، وبين ما كانوا فيه، فإذا كانت المعجزة الباهرة أن الله تعالى فرق لكم البحر فخرجتم، فقد فرق بينكم وبين طغيان فرعون بحكمه السماوى، الذى لا يخالطه باطل ولا ظلم.

وإن هذا الكتاب هو سبيل هدايتكم، ولذا قال سبحانه لعلمكم تهتدون، أي رجاء أن تهتدوا بهداية الله تعالى، فالرجاء منهم، أو الرجاء من الله تعالى على معنى أن حالهم فيما أنزل إليهم، وفيما جاءهم من الآيات حال من يرجون الهداية، أو أن ذلك أمر لهم بالهداية، وهم على رجاء منها.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلَّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ذكرهم سبحانه وتعالى بعبادتهم فى هذا النص الكريم، وهو ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾. وإذ هنا دالة على الوقت الماضى، والمعنى واذكروا ذلك الوقت، يأمر الحاضرين والماضين لأنهم أمة واحدة فى ضلال الفكر، والكفر بالنعمة، اذكروا ذلك العمل الفاجر، وما جرى فيه من نسيان للحق والإيمان، واذكروا كيف كان ضلالكم باستهواء قوم فرعون، واذكروا الوقت الذى ناداكم فيه على أنكم قومه، وأنكم نابذتم الحق، واتبعتم الباطل، واذكروا وقت أن قال موسى لكم ﴿يَا قَوْمِ﴾ لأنهم قومه الذين ناصرهم وأيدهم، وأحبهم ولم يتركهم للظالمين، فالنداء بقوله ﴿يَا قَوْمِ﴾ إشارة إلى ما يربطه بهم من مودة ومناصرة، وتأيد، وإعزاز، وتنزيه لهم عن الباطل، فالقريب نداؤه محبوب ومجانب، ولقد منَّ الله تعالى على العرب أن بعث فيهم رسولا منهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة] ناداهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾، وهذا عتب رقيق لإثم قوي، ومعنى اتخاذ العجل أنهم عبدوه، وعبر سبحانه وتعالى عن عبادة العجل بأنهم اتخذوه تنزهاً عن أن يقول أنهم عبدوه، لأن ما كان منهم وهم باطل لا يسمى عبادة فى الحق، والقول الطيب، ولأنهم لم يعبدوه فقط، بل صنع بأيديهم، أو بأيدي بعضهم، وهو ما لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر فهذا كله يدل عليه كلمة اتخذوه.

ولقد أكد موسى نبي الله تعالى عليه السلام أنهم إذ اتخذوا العجل ظلموا أنفسهم، باتخاذهم العجل، أكد ذلك بـ «إن» الدالة على التوكيد، وظلمهم لأنفسهم

بأن أضلّوها عن الحق، ونوره ساطع بينهم إذ قد قامت لديهم البراهين على قدرة الله تعالى في ضرب البحر بعصا موسى، وانشقاقه، وفي نجاتهم من الدل، وظلموا أنفسهم بأن أعادوا إليها عهد الدل والضلال باتخاذهم العجل، كما كان يفعل الذين أضلّوها، وظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى، وضلّوا ضلالاً بعيداً.

هذه خطيئة ارتكبوها، ولا يكفرها إلا توبة نصوح يقومون بها، وقد بين لهم موسى الطريق للتوبة النصوح أو حقيقة التوبة النصوح، فقال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا﴾ هي فاء الإفصاح التي تفصح عن شرط مقدر، أي إذا كنتم قد ضلّتم هذا الضلال وظلمتم أنفسكم ذلك الظلم فتوبوا إلى بارئكم أي فارجعوا إلى الله تعالى الذي خلقكم على غير مثال سبق، ومعنى «برأ» أبدع وأنشأ وجودكم، والتوبة رجوع إلى الحق، والتعبير ببارئكم يؤكد معنى ظلمهم لأنفسهم، لأنهم تركوا من خلقهم إلى ما خلقوه بأيديهم، وصنعوه تحت نظرهم، ولا يضرهم، ولا ينفعهم.

والطريق الذي بينه موسى هو قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي فابخعوها واجعلوها مطية ذلولا للعقل والإرادة، واقطعوا شهواتها، والتعبير عن ذلك بقتل النفس، لأن النفس الفاجرة الضالة إذا فطمت عن الشهوات كأنها قتلت، وحلت محلها النفس الطاهرة اللوامة التي تقهر الشهوات قهراً، والشروع دائماً من الأهواء والشهوات، وقد جاء في الأمثال عند أهل المعرفة: «من لم يعذب نفسه لم ينفعها، ومن لم يقتلها لم يحفظها» وتعذيب النفس الذي يريده أهل المعرفة هو فطمها عن الشهوات.

وقد أخذت الكثرة من المفسرين بظاهر اللفظ وهو القتل، ورووا في ذلك روايات عن بعض الصحابة لم يصح سندها، وبالأولى لم يصح كلام في نسبته إلى الرسول ﷺ.

واستعمال القتل والبخع بالنسبة للنفوس، وإرادة غير الظاهر كثير في كلام العرب، وفي القرآن كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

وإن هذا النص الكريم يشير إلى أن التوبة النصوح التي يقبلها الله تعالى، ويغفر بها الذنوب توجب قهر الشهوات والأهواء وقتل منابعها في النفس.

وقد حثهم كليم الله تعالى على هذه التوبة النصوح، فقال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الإشارة إلى بخر النفوس عن شهواتها وسد منابع الأهواء وقتل نوازع الشيطان الذي يوسوس في الصدور، وأشير بالبعيد لبعدها ما بين التوبة ورياضة النفس على ترك الأهواء والضبط بالصبر، وقوة الإرادة المسيطرة القاهرة الطاهرة، وكان الخطاب بصيغة الجمع لأن الإشارة إلى عمل صدر منهم.

وقد أشار النص إلى قبول التوبة النصوح التي كانت على هذه الشاكلة فقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِمْ﴾. أى رجع سبحانه عليهم وقد طهرت نفوسهم وزكيت قلوبهم بالانخلاع عن الشهوات وقتلها، رجع عليهم سبحانه وتعالى بالغفران. وعبر سبحانه وتعالى بـ «على» للإشارة إلى علوه سبحانه وتعالى عليهم فى كفرهم وتوبتهم، وأن ذلك لرحمته بهم، لا لحاجته إلى طاعتهم، وقد ذيل الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. والثواب كثير قبول التوبة إذا قيل ذلك عن الله تعالى، أو كثير التوبة إذا قيل عن العبد، وتواب صيغة مبالغة من تائب، وتائب تطلق على التائب من الذنب، وتطلق على من يقبل التوبة، وهو الله سبحانه وتعالى، وهى هنا على هذا المعنى.

وقد اقترن وصف الثواب بوصف الرحيم؛ لأن كليهما وصف لله تعالى، ولأن قبول التوبة من رحمة الله تعالى بعباده، ولقد قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه].

وقد أكد سبحانه اتصافه بهذين الوصفين اللذين كانا من فضل الله تعالى، وممته، بصيغة المبالغة، وبالجمله الاسمية، وبالتأكيد بأن - اللهم تب علينا وارحمننا.

يذكر الله سبحانه وتعالى النعم التي أنعم بها على بنى إسرائيل، وكفرهم بها، وبالله. ثم يذكر سبحانه تعنتهم فى طلب الدليل رغم الآيات التي أراهم الله سبحانه وتعالى إياها، ولكن المتعنت لا يقنعه الدليل مهما يكن باهرا ظاهراً قاهراً.

ولذا طلبوا عتنا وانحرفا وجهلا أن يروا الله تعالى جهرة، وقد ذكر الله تعالى ذلك مبينا تعنتهم، وتدللهم فى كفرهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى اذكروا أيها الحاضرون فى عهد النبى محمد ﷺ ما فعلتموه، وخاطبهم هم بذلك مع أن الذى فعله أسلافهم؛ لأنهم يسيرون سيرهم، ويفترون ويفترون مثلهم.

اذكروا ذلك الوقت الذى قلتم فيه ذلك، وليس غريبا أن تقولوه الآن، قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى لن نؤمن مسلمين لك، مستجيبين لما تدعونا إليه، حتى نرى الله جهرة، أى حتى نرى الله تعالى رأى العين، ولن لتأكيد النفى فى المستقبل، وقيل لتأييد النفى، والزمخشري وسائر المعتزلة يرون أنها دالة على الاستحالة، أى استحالة استجابتهم حتى يروا الله عيانا، ولقد ضاهى قولهم هذا قول المشركين.

وإن الله تعالى لا يرى فى الدنيا بإجماع العلماء قط؛ لأن رؤية الدنيا تقتضى مكانا والله سبحانه وتعالى منزّه عن المكان، والأمر فى الآخرة أمر الله تعالى لا نعلمه إلا منه، وهو عالم الغيب والشهادة، وقد أجابهم موسى إلى ما يريدون فطلب من الله تعالى أن يراه، ويروه، كما ذكر تعالى أن ذلك لا يمكن فى سورة الأعراف، فلما تجلّى ربهم أصابتهم الصاعقة، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. وقد فصل الله سبحانه وتعالى مسألة الرؤية وطلب موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف].

لما طلب بنو إسرائيل رؤية الله تعالى جهرة أى عيانا، طلب موسى ذلك من الله تعالى ليروا ما رآه، وليعلموا ما علم، وقيل إن الذين طلبوا ذلك هم السبعون الذين اختارهم موسى ليكونوا معه عندما واعدته الله لميقاته الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ... ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف] فهم الذين

حملوا موسى على أن يطلب رؤية ربه فطلبها عليه الصلاة والسلام، ومهما يكن الطالبون فإن رؤية الله تعالى مستحيلة في الدنيا، على ما أشرنا.

والصاعقة الأمر الشديد الهائل الذي ينزل من السماء نارا، أو الذي يدك الجبال دكا، وقد يترتب عليه أن يصعق الإحساس فيغشى على من يراه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، أى أخذت ألبابهم، ونفوسهم فلم يشعروا وهم ينظرون إليها، وقد أذهلتهم وذهبت بمشاعرهم فصعقوا كما صعق موسى إذ قال تعالى: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا...﴾ (١٤٣) [الأعراف].

وعلى ذلك يكون معنى أخذتهم الصاعقة أنهم غشى عليهم كما يدل على ذلك ما كان لموسى عليه السلام. ونرى أن القرآن يفسر بعضه بعضا وبين بعضه الدلالة الواضحة لبعضه، تعالى كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) [النساء].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٥٥) أى ينظرون إلى الأمر الذى هز مشاعرهم من دك الجبال دكا، وهول ما وقع نتيجة لما طلبوا، ثم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٦) أصل البعث هو الإثارة، جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني: «أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به، فبعثت البعير أثرته وسيرته، وقوله تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمْ﴾ يخرجهم ويسيرهم إلى يوم القيامة.

وموتهم هنا هو ما غشيهم، وفقدوا به إحساسهم، وعبر عنه بالموت، لأنه يشبه الموت من حيث إنهم فقدوا شعورهم وأصبحوا لا يحسون شيئا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أى أثرناهم، وحركناهم، وأوجدنا فيهم الإحساس. والتعبير بـ «ثم» للإشارة إلى البعد بين حالهم، وهم أشباه الموتى بما صعقهم من غاشية، وما آلوا إليه من شعور بالحياة والحركة...، وقد فقدوا ذلك، بسوء ما طلبوا، وعدم فهمهم. والله تعالى ولى المؤمنين.

وإن ذلك يقتضى شكرهم؛ لأنه كان قادرا على تركهم فيما آل إليه أمرهم ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى رجاء أن تشكروا، فالرجاء منهم لا من الله تعالى.

بعد أن بعثهم الله تعالى، أو كان ذلك مقارنا لخروجهم من مصر، وهو الظاهر؛ لأن هذه النعم، وما كان منهم من حوادث جاء بعد أن أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وفرق البحر بهم، والواو لا تقتضى ترتيبا، ولا تعقيبا، لقد انتقلوا من الوادى الخصيب إلى صحراء تلفح الوجوه، وليس فيها ظل ولا ظليل، ولكن الله تعالى لم يتركهم فى حرور الصحراء وجردائها بل أظلمهم بالغمام، وأمدهم بأطيب الطعام، وأبركه، فقال تعالى مبينا هذه النعمة: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾.

أى جعلنا الغمام، وهو السحاب الشديد العتمة، اسم جنس جمعى للغمامة، واسم الجنس الجمعى هو الذى يفرق بينه وبين مفردة بالتاء المربوطة أو ياء النسب، مثل روم ورومى.

تكاثف الغمام فى الصحراء، حتى صار كمظلة تظلمهم أينما ساروا فلا يحسون بوهج الحر يلفح وجوههم، وقد شكوا من حر الشمس والجوع، فأنزل الله تعالى رزقا طيبا: المن والسلوى.

والمن كان بدل الخبز، وقد أصبحوا فوجدوه فى الأرض صغيرا كحب الجزرة، وكانوا يتناولونه كالرقاق التى اختلطت بعسل فالتقى فيه خواص الدقيق والعسل معا، وسبحان الرزاق العليم، فكان خبزهم، فالمن على ذلك غذاء جيد ينزل من السماء ويبسط على الأرض فيه خواص الدقيق والعسل معا.

والسلوى طير، كان يجىء إليهم يطير على مقدار رمح من الأرض أو يزيد قليلا، فيأخذونه باليد من غير صيد أو أى محاولة، وبذلك اجتمع لديهم كل عناصر الغذاء الكامل، من غير كد، ولا لُغوب.

وعبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك الرزق الذى رزقهم الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ لأنه ما كان بكسب كسبه، ولكنه رزق الله تعالى من السماء أنزله إليهم لطيب إقامتهم فى الصحراء، حتى يقضى الله تعالى أمره فيهم، فالإنزال معنوى لأنه بأمر الله تعالى لطفًا بهم ورحمة، وليكون ذلك معجزة فوق المعجزات التى تواتت عليهم، ومع ذلك جحدوا بآيات ربهم، ولقد قرر الله سبحانه وتعالى أنه مكن لهم ذلك تمكينًا، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك الطعام بأنه طيب، والطعام الطيب هو الذى تشتهيه النفس، ويكون مريئًا لا يضر ولا يعاف، و ﴿مِنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ هى للتبعض باعتبار أنهم يأكلون منه ما يشتهون وما يطيقون غير مدخرين، لأنهم يجدون ما رزقهم الله تعالى مجددًا دائمًا، ويذكر فى بعض الكتب أنهم كانوا يأكلون رزق كل يوم، وقد أمروا بذلك لأنه يفسد فى اليوم التالى ويجيء الجديد ليحل محل الفاسد^(١).

ويحتمل أن تكون «مِنْ» بيانية، ويكون المعنى كلوا طيبات ما رزقناكم، وعلى التقديرين يتحقق وصف الطيبات، وذكر سبحانه أنه رزق خالص من الله جاءهم من غير جهد ولا نصب، بل هو رزق الله تعالى ساقه إليهم سبحانه وتعالى.

وإنهم بتوافر هذه النعم التى منحها الله سبحانه وتعالى لهم، إذا هم جحدوا آياته، وأعرضوا عن بيناته.. ما كان سبحانه وتعالى إلا منعمًا عليهم إذ أنجاهم من ظلم فرعون وإذلاله، وبعد أن كانوا مستضعفين مكن الله لهم فى الأرض، ومنَّ عليهم، وكلما شكوا أمدهم الله تعالى بعونه، وسهل لهم الحياة العزيزة الكريمة المنية.

(١) روى البخارى (٣٠٨٣) ومسلم (٢٦٧٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْتَرْ اللَّحْمُ» قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ: قَوْلُهُ: «لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْتَرْ اللَّحْمُ» يَخْتَرْ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ الْخَاءِ وَكَسْرِ النُّونِ وَيَفْتَحُهَا أَيْضًا بَعْدَهَا رَأَى أَى يَنْتِنُ، وَالْخَتَرُ التَّغَيَّرُ وَالْتِنُّ.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أى ما نقصهم سبحانه وتعالى شيئا من أسباب الحياة والقوة والسلطان، ولكنهم جحدوا شكر ما أنعم الله تعالى به عليهم، فكفروه، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٥٧ وأكد الله سبحانه وتعالى عليهم أنهم هم الظالمون لأنفسهم وذلك بالاستدراك فى قوله: ﴿وَلَكِنْ﴾ إذ معنى الاستدراك عن ظلم الله تعالى لهم يبان أن ظلمهم لأنفسهم كان منهم لا من الله سبحانه وتعالى، وأكدته بالتعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ وهى تدل على الاستمرار، كما نوهنا بذلك مرارا، وأكدته سبحانه وتعالى بتقديم ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن التقديم يدل على الاختصاص، أى أنهم بهذا الجحود يظلمون أنفسهم، ولا يتجاوز ظلمهم أنفسهم إلى؛ فهم يظلمون أنفسهم وحدها.

وظلمهم أنفسهم، لأن الكفر ظلم للنفس، إذ هو ضلال فى ذاته، وأى ظلم للنفس أشد من تدليتها فى الضلال؟! وكفروا بأنعم الله تعالى، وذلك ظلم كبير واقع عليهم.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٥٩

كان بنو إسرائيل يعيشون فى صحراء سيناء مع موسى عليه السلام، وقد أنزل الله تعالى عليهم المن والسلوى، فأكلوا منها رزقا طيبا، وما كان يمكن أن يبقى ذلك رزقا دائما، وإن كان ذلك ممكنا سائغا فى ذاته، ولكن لأنهم برُمون متململون مما يرزقهم الله تعالى رتبيا مستمرا، بل إنهم يطلبون التغيير.

والقرية هي المدينة العظيمة الجامعة لعدد كبير من السكان، من قرى بمعنى جمع؛ ولذلك أطلق على مكة أنها قرية وأم القرى، ولم يبين القرآن الكريم ما هي هذه القرية، لم يرد في القرآن ما يبين عين هذه القرية أهى الأرض المقدسة أم هي قرية قريبة أمرهم موسى بالدخول فيها، وإن الذى نفهمه من النص والسياق أنها قرية ليست بعيدة عن صحراء سيناء، وأن ذلك فى عهد موسى عليه السلام.

أما أنها قرية ليست بعيدة فقد أخذناه من الإشارة، فقد أشير إليها بالإشارة الدالة على القرب، وهى «هذه»، فهى لابد أن تكون قرية، والنص يدل على أنهم دخلوها، وقد عصوا أمر ربهم الذى أمر به عند دخولهم.

وأما أنها كانت فى عهد موسى عليه السلام، ولم يكن قد فارقهم بالموت، فإن ذلك يثبت من سياق القول؛ لأن موسى عليه السلام من قبل الأمر بالدخول كان هو الذى يخاطبهم بأمر الله تعالى، ومن بعد الأمر بالدخول هو الذى كان يخاطبهم ويخاطبونه، فلم يكن من مقتضى ذلك أن يكون الدخول، وقد انقضى عهد موسى عليه السلام، وجاء غيره.

وعلى ذلك نقول إن الله سبحانه وتعالى أبهم ذكر هذه القرية، ولا نتعرض لبيان ما أبهمه الله تعالى، ولم يذكره نبيه ﷺ، ولم يثبت قول عن أصحابه الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ علم النبوة ليلغوه للناس، وإن القول فى هذه القرية ما هى؟ داخل فى النهى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾ (٣٦) [الإسراء].

ولكن قال بعض العلماء إنها أريحا، أو بعض بلاد فى الأردن، ورجح الأكثرون وقالوا إنه القول الصحيح، أنها بيت المقدس التى كتب الله تعالى لهم أن يدخلوها، وقالوا إن ذلك ذكر فى القرآن فى سورة المائدة، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ

نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ [المائدة].

وإني وإن كنت لا يمكنني أن أعين قرية بعينها، فإني لا أختار أنها الأرض المقدسة؛ وذلك لأن الإشارة إلى القرية كانت إلى قرية قريبة، ولأن الأرض المقدسة لا تذكر بهذا الإبهام المستغرق، ولأن ما حدث منهم من تبديل القول يدل على قرب عهدهم بالكفر، وأنه لم يكن التيه الذي يقوى شكيمتهم، ولأنه إذا كانت بيت المقدس، فإن دخولهم فيها بعد التيه كان على يد سيدنا يوشع عليه السلام.

وإنا ننتهي إلى هذه القرية، وليست في هذه القرية عبرة خاصة توجب معرفتها إذا كانت القرية، إنما يكفى في التعريف بها أنها كانت ذات رزق راغد، وعيش واسع؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أى فكلوا أى أكل تشاءونه رغدا في هذه القرية، فلا تقتصروا على المن والسلوى، كما أنزل الله تعالى رحمة بكم، وهما أطيب الطعام وأشهى وأمرؤه، وأهنؤه، كلوا أى أكل شتتم من الحلال رغدا واسعا كثيرا.

ثم أمرهم سبحانه أن يدخلوا الباب لهذه القرية خاشعين خاضعين شاكرين لنعمة الله تعالى التي أنعم بها عليهم طالبين غفران خطاياهم، فقال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أى ساجدين شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليكم وأن أخرجكم من الظلمات إلى النور، ومن الدل إلى العزة، ومن الظلم المرهق إلى العدل المنصف، وأن أعطاكم ما تحبون من طيب العيش، وما تشتهون من حلال.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أى حط عنا ذنوبنا، وتغمدنا برحمتك والتوبة إليك، وإن الله رتب على خضوعهم، وشكرهم لنعمة الله تعالى، وطلبهم من الله تعالى أن يحط

عنهم ذنوبهم، ويخلعوها متبرئين، ويتطهروا، رتب على ذلك غفران خطاياهم فقال تعالى: ﴿نُغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠).

ومعنى نغفر لكم أى نستر ذنوبكم ثم نرفعها عنكم، ووعد الله تعالى بأنه سيزيد المحسنين خيرا وبركة، والمحسن هو من أتقن وأجاد فعل الخير، والمعنى أن الله تعالى يغفر لهم ما ارتكبوا من آثام كبيرة كانوا قد تعودوها حتى صارت خطايا، يغفرها، سبحانه وتعالى، ثم وعد سبحانه ووعد الحق أنه سيزيد المحسنين، وينعم عليهم بالتوفيق إذا تابوا وآمنوا، ويجزيهم أحسن الجزاء.

والخطايا جمع خطيئة، وهى الذنوب التى تتكاثر، حتى يفعل الذنب، وكأنه يقع منه من غير قصد إليه لتمرسه به، وقساوة نفسه وقلبه، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) [البقرة].

ويقول الخليل بن أحمد فى تصريف خطايا إنها جمع خطيئة، أصلها خطائي، ثم قلبت الياء ألفا، كما قلبت فى قوله تعالى: ﴿يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ...﴾ (٨٤) [يوسف] فصارت خطاء، ثم قلبت الهمزة ياء لأنها صارت بين ألفين، وذلك تسهيل فى النطق.

هذا ما أمرهم ربهم، أمرهم بالدخول خاشعين ساجدين، وأن يقولوا حطة أى حط عنا ذنوبنا، ولكنهم وقد تعودوا المعصية وألفوها: غيروا الألفاظ، وبدلوها إلى ألفاظ تدل على نقيض معناها، وكذلك دائما شأن العصاة المذنبين وخصوصا بنى إسرائيل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ لقد قيل لهم قولوا حطة أى حط عنا ياربنا ذنوبنا، ولا تعذبنا بما فعلنا واعف عنا، بدلوها هذه الكلمة الضارعة الخاشعة إلى كلمة أخرى قريبة اللفظ ولكن فيها معنى مغاير، فقالوا: (حنطة) أى أنهم بدل أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالضراعة توجهوا إليه بطلب المادة، والحنطة هى القمح، يتركون الضراعة التى هى نعمة التقوى إلى طلب القوت، وفى ذلك عدول عن إرضاء الله تعالى إلى طلب ما يرضى أهواءهم،

ويشبع شهوات بطونهم، وفوق ذلك فيه تلاعب بأمر الله تعالى ونهيه، واستهزاء بأوامر ربهم، وتحريف للقول عن مواضعه، كما فعلوا من بعد موسى عليه السلام، إذ حرفوا القول عن مواضعه، وضلوا ضلالاً بعيداً. وذكر الله تعالى الموصول، فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فأظهر في موضع الإضمار للإشارة إلى أن الدافع لهم على التغيير والتبديل في أمر الله تعالى أو نهيه هو ظلمهم وإلحادهم في دين الله تعالى.

وقد عاقبهم الله تعالى فأنزل العذاب بهم فقال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٥٩) الرجز هو العذاب، أو هو الرجز، والرجز قاذورات النفوس وفسادها، وقد أصابهم الله تعالى بالأمرين ففسدت نفوسهم إلا أن يتوبوا، وأنزل الله تعالى عذابه بهم إذ جعلهم أذلاء مستضعفين في الأرض إلا أن يتسربلوا سربال التقوى، ويسيروا في طريق العزة، ويهجروا أسباب الذل.

والرجز قسمه الأصفهاني في مفرداته إلى قسمين: رجز ينزل بسبب أعمال الإنسان من عصيان للرب، ومخالفة لأمره، وسوء تدبيره، وهذا عذاب الله تعالى، ورجز ينزل بلاء من الله، واختباراً يصهر نفوسهم. كطاعون ينزل بهم، أو إهلاك للحرث والنسل، أو ضرب الذلة عليهم.

وقد أصاب الله تعالى بنى إسرائيل بالتنوعين من الرجز فعذبوا في الحياة الدنيا رجاء أن يتوبوا ويهتدوا، وأصيبت نفوسهم بالذلة، التي ضربت عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس، ونزلت بهم الآفات البشرية.

وذكر سبحانه وتعالى أن السبب في ذلك ظلمهم وفسقهم، فأما الظلم فينبه سبحانه بالإظهار في موضع الإضمار إذ قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والتعبير بالموصول يفيد أن الصلة سبب لما أنزل الله تعالى من رجز، وهذا بيان للسبب بالإشارة، أما فسقهم فقد بين سبحانه سببته بصريح اللفظ الكريم، فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى بسبب أنهم يفسقون، و﴿كَانُوا﴾ دالة على

الاستمرار، والتعبير بالمضارع يفيد أن فسقهم على دوامه يتجدد وقتاً بعد آخر فكلما تاب عليهم فسقوا مرة أخرى.

والفسق هو الخروج، يقال فسقت الفأرة خرجت من جحرها، وفسق الثمر خرج، فهؤلاء يخرجون عن الحق، ويسرون وراء الباطل سيرا متجددا مستمرا أنا بعد أن.

وذكر الله تعالى أن الرجز من السماء إشارة إلى أنه يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يظنون، وأنه من الله العزيز الحكيم، فإن ما يكون من السماء مغيب لا يعلم متى يجيء ولا من أي جهة يجيء.

❖ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ

لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ

اثنتا عشرة عَيْنًا قَدَعًا كُلُّ نَاسٍ مَّشْرَبُهُمْ كُلُوا

وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ

يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا

وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ

بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأَلْتُمْ

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ

اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ بَغَىٰ الْحَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٢﴾

كان بنو إسرائيل يعيشون مع موسى عليه السلام فى معجزات حسية مستمرة، ولو كانت قوة الدليل وحسيته سببا للإيمان لكان بنو إسرائيل أشد الناس إيماناً وأقواهم يقيناً، ولكن الإيمان نور يقذفه الله تعالى فى قلوب الأتقياء فيدركون الحق، ويدعون له، ويطمئنون إليه. وقد أَرانا الله تعالى آياته فى بنى إسرائيل، فكلما أتاهم بدليل وكلما أتهم آية كفروا بها، فلو كانوا يذعنون للحق لأذعنوا لبعض هذه الآيات، ولكنهم قوم معاندون، مناقضون الحس.

شكوا إلى موسى أنهم لا يجدون الماء الذى يشربونه فاتجه موسى إلى ربه ضارعا يطلب الماء، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾.

وإذ - كما ذكرنا - دالة على الوقت الماضى، والمعنى اذكروا ذلك الوقت الذى استسقى فيه موسى لكم، تذكروا عطشكم فى ذلك الوقت، وكيف استسقى موسى ربه لأجلكم، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يضرب بعصاه الحجر، فضرب، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، هى بقدر عدد الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام، وذريتهم من بعدهم، اذكروا ذلك وتذكروه، فإنه معجزة من الله تعالى. فكان لكل سبط عينه، يشرب منها هو ومن معه من سبطه لكيلا يتزاحم على الماء، فينال الماء القوى، ويضع الضعيف، واستسقى؛ السين والتاء للطلب، أو السؤال، والاستسقاء الضراعة إلى الله تعالى أن ينزل الماء، فهذا الاستسقاء عبادة لأنه دعاء الله تعالى ضارعا إليه أن ينزل عليه الماء، والدعاء المتضرع عبادة فى ذاته، ولقد كان النبى ﷺ إذا جف المطر، وأجذبت الأرض استسقى. . فقد خرج إلى المصلى متواضعا، متذللا متوسلا متضرعا ودعا ربه أن يسقى المطر، فتزل مدرارا، حتى خشى الناس أن يضر، فقال النبى ﷺ: «اللهم حوالينا، ولا علينا»^(١).

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَحَطَ الْمَطَرُ، قَادَعُ اللَّهُ أَنْ يَسْقِيَنَا. فَدَعَا فَمَطَرْنَا، فَمَا كُنَّا أَنْ نَصِلَ إِلَى مَنَازِلِنَا، فَمَا زِلْنَا نُمَطِّرُ إِلَى الْجُمُعَةِ الْمُسْبِلَةِ، قَالَ: فَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا» قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ السَّحَابَ يَتَقَطَّعُ يَمِينًا وَشِمَالًا يُمَطِّرُونَ وَلَا يُمَطِّرُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ. [متفق عليه رواه البخارى: كتاب الجمعة (٩٥٩)، ومسلم صلاة الاستسقاء (١٤٩٠)].

ولما استسقى موسى عليه السلام لم ينزل عليه مطر، ولكن قال له ربه: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ والعصا هي آية الله تعالى، ومعجزة موسى التي انقلبت حية تسعى، والتي بها ضرب البحر بها فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، ضرب بها الحجر، ولم يكن حجرا معينا له صفات ذاتية، بل إنه للعهد الذهني الذي ينطبق عليه اسم الحجر، كما تقول ادخل السوق، فالمراد أى شىء ينطبق عليه اسم السوق، ضرب موسى عليه السلام الحجر ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت: انشقت، وخرجت من الحجر اثنتا عشرة عينا، والعين هي الموضع الذي يخرج منه معين زمزم، فماء العيون لا يكون من السماء كالمطر، ولكن يكون من الأرض، أو الحجر، كما رأينا ما فعلته عصا موسى عليه السلام؛ وهنا ثلاث معجزات خارقة للعادة:

الأولى: ضرب الحجر بالعصا، فينبثق منه الماء، وهذه معجزة العصا.

والثانية: أن الضرب في الحجر الذي لا يخرج منه الماء عادة، ولا يعلم أن الماء ينبع من الأحجار، ولكن من الأرض اللينة التي لا تكون حجرا متماسكا، وقد يخرج ماء العيون من الجبال ولكن يكون من شقوق يخرج منها لا من ذات الحجر، أما الذي يخرج من ذات الحجر فإنه خاص بمعجزة موسى عليه السلام.

الثالثة: كون الماء يخرج اثنتى عشرة عينا على قدر عدد الأسباط، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ أى مكان شربهم، أى العين التي خصصت لهم، وقد كان الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه مكعبا له أربعة جوانب ظاهرة على الأرض، فكان فى كل جانب قد انبثق فيه ثلاث عيون، فيكون عددها فى كل اثنتى عشرة عينا، وعلم كل أناس العين التي يشربون منها، فكان لكل سبط منهم ثلاث عيون. وإن هذا التوزيع بينهم لا يفرق، ولكنه يجمعهم، فالعدل يجمع ولا يفرق، وفوق ذلك فيه تسهيل للتناول فلا يتزاحمون ولا يتنازعون ولا يضعف الضعيف بينهم.

وقد بين الله تعالى أن الماء مباح لهم، كما أبيح لهم الطعام؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أى أنه أبيح لهم الأكل من المن والسلوى، كما ذكرنا آنفا، أو أبيح

لهم أن يأكلوا من ثمرات هذا الماء الذى يجيء إليهم من هذه العيون التى تفيض فى الأرض غير مقطوعة، ولا ممنوعة.

وإن النعمة إذا كثرت على أمثال بنى إسرائيل كانت مظنة الفساد، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٦٠) العثو، من عثى يعثى بمعنى أفسد، أو بمعنى أضاع كل ما فيه من خير، فاعتدى على حق غيره، فيعثون يشمل كل فعل يؤدي إلى الاضطراب والإفزاز ومنع الخير، ويتقارب من معنى العيث، ويكون قوله تعالى: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ ليس تكراراً للفظ لا تعثوا أو تأكيداً، إنما هو لبيان العثو، وهو القصد إلى الإفساد، فمفسدين معناها قاصدين إلى الإفساد.

وإن بنى إسرائيل شأنهم دائماً ألا يستقروا، بل هم فى غملم مستمر، ولا يهتمهم إلا الطعام والشراب؛ ولذا قالوا لموسى عليه السلام الذى ابتلى بهم: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

كان اليهود (لعنهم الله) لا يهتمهم إلا ما يطعمون، فسألوا الأكل أولاً ثم سألوا الماء ثانياً، ثم سألوا تلون الأطعمة، ولم يفكروا فى أمر معنوى، لم يفكروا فى العزة بعد الذلة، ولا فى النجاة بعد القتل، ولا فى المعانى الروحية التى جاء بها موسى عليه السلام، ولا فى الإيمان بعد الكفر، ولا فى الرفعة بعد الحطة.

لم يفكروا فى شىء من هذا إنما فكروا فى الطعام وألوانه، لم يطلبوا الهداية، ولكن طلبوا ألوان الطعام، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ والمعنى: اذكروا معشر الحاضرين ما قلتم أنتم وأسلافكم، ولا تفكير لكم فى جهاد تجاهدونه، ولكن فى طعام تأكلونه، نادوا موسى وهو لهم كالأم الرؤوم: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهو المن والسلوى، وقالوا: على طعام واحد، لأنه لون واحد متكرر مستمر، لا يتغير، فهو يعرض بطريقة واحدة، والشىء المتكرر

يكون شيئاً واحداً، ولو تجدد وتكرر، ولو كان أكثر من واحد، ولو كان طيباً، وإن الرجل المادى يسأم ما يقدم له كل يوم، ولو كان أشهى، وقالوا يائسين من أن يرضوا : لن نصبر على طعام، فأكدوا النفي بـ «لن»، ودلوا على تحملهم بقولهم: «لن نصبر»، أى لن نستطيع أن نضبط أنفسنا فنحملها على الرضا بطعام واحد.

ورتبوا على نفهم الصبر نفيًا مؤكدا قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾، الفاء فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر دل عليه قولهم لن نصبر تقديره؛ فإذا كنا لا نصبر، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ومعناه اضرع إلى ربك الذى خلقت وربك لا إلى أن يهدينا بل إلى أن يخرج لنا مما تنبت الأرض، وقوله «يخرج» فى معنى جواب الأمر، أى إن تدع ربك فإنه يخرج لنا، فهم لتلهفهم على ما يأكلون افترضوا أن الدعاء قد وقع، وافترضوا أن إجابة الدعاء قد تمت، فقالوا هذا الكلام الدال على رغبتهم فى الإجابة السريعة.

والبقل معروف، وهو كل نبات لا ساق له غالبا كاللوبيا والفاصوليا ونحوهما كالفول، وفومها وهو الثوم وقيل القمح واللغة لا تساعد ذلك، وعدسها ويصلها وهما معروفان، ولكن موسى عليه السلام لم يسارع بالدعوة التى طلبوها، ولم تكن الإجابة التى رغبوها لإشباع نهمتهم، بل ذكروهم فيما يطلبون، وبين لهم أنهم يطلبون غير الحسن ويتركون الحسن، فقال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، أى أتركون الخير، وتطلبون بدلا منه الذى هو أدنى منه وإن كان من نعمة الله تعالى.

وعبر عن الذى طلبوه بأنه هو الذى أدنى فى الرتبة والمنزلة الغذائية وأنه خلق كذلك، وإن كان نعمة فى ذاته ولكن رتبته دون ما أنتم فيه، وعبر بقوله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أى أنه فى ذاته دان فى رتبته ولا يعلو عنها ولا يصل إلى الذى هو خير فى ذاته، وثابت على الخيرية؛ لا يزيل صفة الخيرية ما تطلبون.

والأدنى معناه القريب، ولما كان القريب سهل التناول، والبعيد صعب التناول أطلق الأدنى على كل أمر يسهل الحصول عليه وفى العادة لا يكون ذا منزلة.

والسؤال استفهامي تقريرى لإنكار الواقع، أى فيه معنى التوبيخ، لأنهم فى نعمة بالطعام الطيب الذى يجىء من غير كد ولا لغوب، وهو المن والسلوى، ولأنهم فى مكان من العزة والنعمة يحمدون الله تعالى عليهما، ولا يفكرون فى شهوة البطن مع هذه العزة إن كانوا أعزة كراما.

ولقد قال موسى كما أخبر ربه: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ ويفيد ذلك ضمنا بأن موسى لم يدع ربه كما طلبوا ولكن بين لهم المكان الذى يرون فيه ذلك، وعبر بقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾؛ لأن فيه إشارة إلى أنهم ينزلون من منزلة مرتفعة العزة والرفعة إلى مكان دون ذلك؛ لأن الهبوط نزول من مرتفع إلى منخفض، وهم ينزلون من العزة، وضيافة الله تعالى إلى حيث يشعون بطونهم ويرضون أهواءهم، وبذلك استبدلوا الخبيث بالطيب.

وقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ بالتنكير يجعلنا نفكر أهى مصر التى اضطهدوا فيها، وذبحت أبناءهم، واستحيت نساءهم، أم مصر فيه ريف وأرض طيبة زارعة منتجة ما يريدون من قوم وقثاء وعدس وبصل.

إن التنكير يفيد أى مصر فيها زرع وثمار، ولكن الكثيرين من المفسرين يذكرون أنها مصر التى أخرجوا منها والتى أرهقوا فى حياتهم فيها، ومع ذلك لم يذكر أنهم عادوا إلى أرض مصر، وموسى بينهم؛ ولذا نرجح أن موسى عليه السلام طلب إليهم أن ينزلوا من علياء الضيافة الربانية والعزة الإلهية وأن يشبعوا شهواتهم فى أى مصر فيه الريف وما تنبت الأرض من زروع وعيون بدل عزة الصحراء.

بعد هذا يثس موسى من إصلاحهم .. أراد أن يريهم على الوحداية فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .. وأراد موسى عليه السلام، أن يبعدهم عن فرعون وقومه، وأن يخلصهم من أوهامهم، فانتهزوا غيبته، واتخذوا العجل، وعبدوه .. وطلب إليهم أن يقتلوا منابع الأهواء والشهوات فى نفوسهم فتابوا وقبل الله تعالى توبتهم .. ولما أراد الله تعالى أن يختبر نفوسهم فأمرهم أن يدخلوا القرية ساجدين، ويطلبوا ضارعين إليه أن يحط عنهم ذنوبهم، (دخلوا على أستاذهم طالبين الحنطة).

طلب الله تعالى إليهم كل ذلك، ولكن نفوسهم طبعت على الأهواء والشهوات والأوهام فتركهم الله تعالى لتؤدى هذه الأخلاق إلى ما تنتهى إليه، وهو الذلة، فما أذل النفوس كالشهوات والأهواء، وإذا هانت النفوس ذلت، وإذا سيطرت عليها الأهواء خنعت، ولا يورث فى النفس المذلة إلا المطامع.

ولذا قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أى أحاطت بهم المذلة لا يخرجون من دائرتها، بل يتنقلون فى دائرتها؛ يتنقلون فيها من جانب إلى جانب، ولا يخرجون منها، فصارت حالهم فى ذلتهم، كحال من ضربت عليهم قبة لا يخرجون منها، ولذلك عبّر بضربت عليهم، والمسكنة هى الخضوع والاستسلام للوهن والضعف، وهى لازمة للذلة، فحيث كانت الذلة كانت المسكنة، والخضوع للظالم، ولا يرضون إلا بالذل، ولا يقبلون غيره، فإن النفس إذا ألقت الذل، واستمرته، ترضى بكل من يذلها وتسكن خاضعة له.

فالمسكنة مصدر ميمى على وزن مَفْعَلَةٌ معناه الخضوع المطلق والرضا بالظلم، أو الظهور بمظهر قبوله، وهو السكون ممن لا يجابهون أهل الباطل بقولهم الحق يصك آذانهم صكا.

هذه الأخلاق هى نتيجة لسيطرة الأهواء والشهوات، وهى الداء الذى يصحب من يعيشون فى خصب الأرض ولين العيش، ويفكهون فى ملاذ الدنيا، ويستمرثون البقاء فيها.

ولقد قرر الله تعالى عقوبة قاسية لذوى الضمائر الفاسدة، وهى أنهم يرجعون بغضب الله تعالى، فهم مطرودون من رحمة الله تعالى، فمعنى ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى أنهم رجعوا مصاحبين غضب الله تعالى ملازما لهم لا ينفكون عن الغضب، بل إنه يلازمهم فى كل أدوار حياتهم.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك الغضب الذى لازمهم بعد أن طردهم من رحمته، وأنهم لا يستحقونها، ذكر سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فقال تعالت كلماته: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

الإشارة إلى ما أنزله الله تعالى عليهم من الذلة والمسكنة وأنهم أبعدوا عن رحمة الله مصحوبين بغضبه وقد لبسهم غضب الله تعالى، ومعه الخزي والعار.

قال سبحانه في سبب ذلك: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ آيات الله تعالى المعجزات الدالة على رسالة موسى، وهى فى ذاتها نفع لهم، أنجاهم من فرعون الذى كان يقتل أبناءهم، ويستحيى نساءهم، إذ ضرب البحر بعصاه عليه السلام ففرقت البحر ونجا بنو إسرائيل وأغرق الله تعالى فرعون، وأنه أنزل عليهم المن والسلوى إلى آخر آيات الله التى كانت نعماً عليهم ومعجزات دالة على نبوة موسى عليه السلام، والتعبير منه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بيان لاستمرار كفرهم، وتكرره بتكرر آياته، فإن «كانوا» دالة على الاستمرار، والتعبير بالمضارع للدلالة على تكرار الكفر بتكرار الآيات، فما جاءتهم آية إلا كفروا بها، وهى باهرة تتضمن نعمة أنعم بها سبحانه وتعالى عليهم، فاجتمع فيهم كفر الإيمان بالكفر بدلائله، وكفر النعمة بعدم شكرها، وشكر النعم واجب بحكم العقل والشرع، وما جرى عليه الناس، ويجرون عليه إلى يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى جريمة ثانية إيجابية فالجرائم السابقة كلها سلبية، الكفر سلب، وعدم شكر الله تعالى حيث يجب الشكر جريمة سلبية أيضاً، أما الجريمة الإيجابية فهى قتلهم الأنبياء بغير حق، فهم لا يكتفون بعصيان الله تعالى وكفرهم بآياته، بل يزدون على ذلك لإمعانهم فى الضلال بقتلهم النبيين الصديقين الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لهدايتهم ودعوتهم إلى الحق كما قتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام.

ويظهر أنهم لم يقتلوا واحداً، بل كانوا يقتلون النبيين كلما خالفوهم لا يراعون مقامهم من الله تعالى، ولذلك كان التعبير بالمضارع الدال على التكرار، وكأن قتل النبيين كان عادة لهم وشأننا من شئونهم لتغلغل الكفر والعصيان فى نفوسهم، واستمرارهم الباطل والعصيان؛ ولذلك علل تعالى تكرار كفرهم للآيات، وقتلهم للأنبياء بقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى في وصف قتلهم للأنبياء بأنه بغير الحق، وصف لإفادة عتوهم وكفرهم لا لبيان أن القتل للنبيين قد يكون بحق، بل لبيان أن فعلهم إثم وليس له مبرر، وأن كونه بغير الحق للتشنيع على فعلهم، وقبح تصرفاتهم، وقد علل تعالى كما تلونا بأن ذلك كان بعصيانهم واعتدائهم.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ أى ذلك الجرم الذى ارتكبه سببه أنهم عصوا؛ أى أن نفوسهم تمردت واستمرت العصيان، وأنها أظلمت بتراكم المعاصى حتى استمراتها، وهل يصدر من النفوس المظلمة إلا ما يكون فسادا وشرًا! ويصلون إلى أقبح أنواع الشرور، وهو قتل الهداة أحباب الله تعالى وهم الأنبياء.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن ذلك كان لمجرد الاعتداء، فهم فى طبيعتهم العدوان؛ لأن المعصية إذا استمرت ولجوا فى العصيان، وسيطرت الأثرة عليها يكون من آثارها لا محالة الاعتداء، الاعتداء فى طلب الأشياء، والاعتداء بسيطرة الأهواء والشهوات، والاعتداء بقتل الأنبياء، فالاعتداء والعصيان من شئونهم، وهكذا هم بلاء هذا الوجود.

الناس جميعا سواء أمام الله يجزيهم إن آمنوا

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

اختص الله سبحانه وتعالى الآيات السابقة ببنى إسرائيل وكفرهم بالآيات المتتالية آية بعد آية، وتكرار وتوالى ذلك الكفر ليعين سبحانه وتعالى انصرافهم عن الحق مع كثرة الآيات، وكفرهم بالنعم مع تواليها. وكأن القارئ للقرآن الكريم يحسب أن العبر تنزل لمن يكفر بها، والآيات المعجزة تتوالى على من ينكرها ..

فيبين الله تعالى أن الغاية من هذه النعم هي الإيمان، وأنهم إن كفروا بها فباب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم، وأن الله تعالى خلق الخلق ليتفكر الناس فيؤمنوا وليجدوا فيها البرهان فيؤمنوا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات].

وقد قضى الله تعالى أن الإيمان مقبول من كل الطوائف والملل، وقد جعل سبحانه وتعالى ذلك الحكم الخالد الأبدى معترضا في أخبار بنى إسرائيل ليفتح باب الإيمان لهم، ولغيرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

والإيمان بالله تعالى هو الإيمان بالله باعتقاد وحدانيته في الخلق والتكوين بآلا يعتقدوا أن أحدا شارك الله تعالى في إنشائه الخلق، وأنه وحده خالق كل من في الوجود وأنه لا تخرج حركة عن حركة في الوجود، وإنما ذلك قيوميته وإرادته، وأنه ليس بوالد ولا ولد ولم يكن له كفواً أحد، وأنه جلت صفاته، فليس كمثله أحد، وهو السميع البصير، وأن يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب، وثواب وعقاب، وأن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله.

هذا هو الإيمان فمن آمن من أتباع محمد ﷺ ذلك الإيمان، وأردف إيمانه بالعمل الصالح الذي يكون طاعة لله تعالى وفيه صلاح الناس؛ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وكذلك من آمن من اليهود بالله والملائكة الأطهار والرسل الأمجاد ومنهم محمد بن عبد الله رسوله الأمين، علم أن الله منزّه عن مشابهة المخلوقين، وأنه ليس كمثله شيء وعمل صالحا ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وكذلك النصارى إذا آمنوا بالله ورسله وأنه ليس بوالد ولا ولد ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. هذا هو الإيمان بالله حق الإيمان.

وكذلك الصابئون من توافر فيهم ذلك الإيمان الموحد بالله تعالى في الخلق والتكوين والعبادة وآمن بالغيب، وملائكته وكتبه ورسله عامة ورسوله محمد ﷺ خاصة.

هؤلاء إذا آمنوا ذلك الإيمان، وأخلصوا لله ذلك الإخلاص وقوّوا إيمانهم بالعمل الصالح الذى يكون فيه الطاعة لله ولرسله والاستجابة لكل ما أمر به - من كانوا كذلك فلا خوف عليهم من عقاب ينزل بهم، ولا يحزنون على ما فاتهم فى ماضيهم من شر، لأن الإيمان يجبُ ما قبله كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...﴾ (٣٨) [الأنفال] فلا يأسون على ما فاتهم ويفرحون بما آتاهم.

ونقبس قبسة من صورة الإيمان كما علم جبريل أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم:

روى ابن ماجه عن عمر رضى الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فجاء رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد شعر الرأس، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع يديه على فخذه، ثم قال: «يا محمد، ما الإسلام؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. قال: صدقت، فعجبنا منه يسأله ويصدقه، ثم قال: يا محمد، ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، قال: صدقت، فعجبنا منه يسأله ويصدقه، ثم قال: يا محمد، ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك، قال: فمتى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فما أمارتها؟ قال: أن تلد الأمة ربّتها، وأن ترى الحفاة العرّة العالة رعاء الشّاء يتطاولون فى البنيان»^(١).

هذا هو الإيمان الذى يزيل الفوارق التى تكون بين الأمم والجماعات والأديان، وقبل أن نتم الكلام حول الآية الكريمة نذكر أموراً ثلاثة فيها بيان للناس فى ظل بيان القرآن الكريم.

(١) حديث جبريل الشهير، رواه بهذا اللفظ ابن ماجه: المقدمة (٦٢)، ورواه مسلم: كتاب الإيمان (٩)، والبخارى: الإيمان (٤٨)، والنسائى (٤٩٠٤) وأبو داود (٤٩٧٥) وأحمد: مسند العشرة المبشرين (١٧٩).

أولها: الفاء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هى فى جواب الشرط أى أن الإيمان الذى شرحناه والعمل الصالح الذى ذكرناه هو الشرط لأن ينالوا الجزاء من أمن الخوف، وألا ينالهم حزن على الماضى.

الأمر الثانى: قد عرفنا اليهود، وهم منحرفون دائماً، ولكن فتح لهم باب الرجاء، والنصارى كذلك، فمن هم الصابئون؟.

الصابئون الذين ظهروا فى الإسلام وقبله هم أكتم الناس لعبادة الأوثان، ويعلمون صبيانهم كتمانها، وقد قال عنهم أبو بكر الرازى فى كتابه أحكام القرآن: وأصل اعتقادهم تعظيم الكواكب السبعة أو عبادتها واتخاذها آلهة، وهم عبدة أوثان فى الأصل إلا أنهم منذ ظهر الفرس على إقليم العراق، وأزالوا مملكة الصابئين لم يجسروا على عبادة الأوثان ظاهراً، لأنهم منعوهم من ذلك، وكذلك الروم وأهل الشام والجزيرة كانوا صابئين، فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على الدخول فى النصرانية، فبطلت عبادة الأوثان من ذلك الوقت، ودخلوا فى غمار النصارى فى الظاهر، وبقي كثير منهم على تلك النحلة مستخفين بعبادة الأوثان، فلما ظهر الإسلام دخلوا فى غمار النصارى، ولم يميز المسلمون بينهم وبين النصارى، إذ كانوا مستخفين بعبادة الأوثان، كاتمين لأصل اعتقادهم، وهم أكتم الناس لاعتقادهم، فالصابئة يعبدون الكواكب والأوثان، ويظهرون بالنصرانية، هذا ما يجب بيانه هنا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا تاريخ الجدل.

الأمر الثالث: إن بعض النصارى - وما لَمَ يَلَهُمْ من فى دينه لين - قال: إن القرآن الكريم يعترف بأن النصارى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ونقول إنه اشترط للاعتراف للنصارى بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - الإيمان بالله تعالى، وأنه الواحد الأحد، وأنه ليس بوالد ولا ولد، وليس له كفوا أحد، فهل يؤمن النصارى فى عصرنا ذلك الإيمان وهم يقولون إن الله ثالث ثلاثة، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ [المائدة ٧٣] ويقولون بالوهية المسيح كما قرروا ذلك فى مجمع نيقية بإجماع القساوسة وإجماعهم إلى اليوم،

والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...﴾ (٢٦) [المائدة].

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ
ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾

عاد القول إلى بنى إسرائيل بعد أن ذكر اليهود والنصارى والصابئين، لبيان أنه لا يصح أن ييئسوا من رحمة الله تعالى بعد ما كان منهم في ماضيهم، وما يكون منهم في حاضره إن آمنوا بالله حق إيمانه، وبالأخرة إيمان إذعان ورجاء إن أطاعوا، وخوف العقاب إن عصوا.

بين الله تعالى حال اليهود في ماضيهم ويتحمله الذين حضروا النبي ﷺ، لأنهم أقروهم عليه فكان الخطاب بما حصل من أسلافهم موجهًا أيضًا لأخلافهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

الطور هو الجبل الذي هو في سيناء، فهو جبل معين ذكره الله تعالى في عدة آيات، وهو منسوب إلى سيناء كما قال تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالرَّيْتُونَ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) [التين].

أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل، والميثاق مفعال من الوثوق أى: وثقنا القول والأوامر التي أمر الله بها ونهى فيها، وبين لهم عظمة قدرته وقوة عظمتهم، وترهيبًا لأمره بعد ترغيبهم فيه، وفي هذا الرفع آية حسيّة تدل على رسالة موسى عليه السلام، وأنه يتلقى أوامره من ربه، إذ كانوا قد طلبوا رؤية ربهم فخرجوا صعقين، فهذا ربهم يخاطبهم بآية، ورفع الجبل هذا هو ما قاله الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ...﴾ (١٧١) [الأعراف].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى مضمون الميثاق إجمالاً، فقال خذوا ما آتيناكم بقوة، أى بجِد وإتقان، وتعرف، وعناية، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أى اجعلوه فى ذاكرتكم دائماً لا تغفلون عنه، ولا تهملونه، واجعلوه حاضراً دائماً فى قلوبكم لتعملوا به، ويكون فى وعيكم دائماً، ولقد ذكر بعض ما فى هذا الميثاق بالتفصيل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

هذا هو بعض التفصيل لهذا الميثاق المحكم الذى واثقه الله عليهم مؤكداً ذلك الوثيق برفع الجبل فوقهم كأنه ظلة يظلهم، وطالبهم بأن يأخذوا ما آتاهم الله تعالى من تكليفات ذكرنا بعضها، بقوة، أى ييقن وجزم وتصديق وإذعان، وأن يقرن ذلك بالعمل، فلا تأخذونه بيد، وتردونه باليد الأخرى، واذكروا ما فيه، أى اجعلوه دائماً فى وعيكم وذاكرتكم وقلوبكم، ولا تنسوه.

وإن ذكر الشريعة وأحكامها هو أساس تنفيذها، وإن المسلمين اليوم قد عراهم ما أصاب فى ماضيهم، يحفظون القرآن ولا يعونه، ويرددون حروفه، ولا يتدبرونه، ولقد روى مالك فى موطئه عن ابن مسعود أنه قال: (سيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطى يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة يُبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم)^(١). أى يتبعون أهواءهم ويتركون ما افترض عليهم.

كانت هذه الأوامر التى واثقهم الله تعالى عليها، وأمرهم أن يذكروها دائماً لأجل أن يتقوا الله تعالى أى يجعلونها وقاية لهم من ذنوبهم، أو رجاء أن تمتلئ

(١) عن عبد الله بن مسعود قال لإنسان: إنك فى زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه، تحفظ فيه حدود القرآن، وتضيع حروفه، قليل من يسأل، كثير من يعطى، يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة، يُبدون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه، يحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطى، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يُبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم. [موطأ مالك: كتاب النداء للصلاة (٣٧٩)].

بتقوى الله تعالى قلوبهم، وتغلب عليهم مخافة ربهم فلا يعصوه، ويبادروا إلى طاعته، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٣) أى ترجون التقوى والخوف منه.

ولكن كان هذا الميثاق الذى وثقه تعالى بأمر حسى، لأنهم لا يعتبرون إلا بالمحسوسات مؤديا إلى أن يتقوه سبحانه بل إنهم تلقوا أمراً موثقاً ذلك التوثيق، مؤكداً ذلك التوكيد، ولكنهم كعادتهم فى استهانتهم بأمر الله ونهيه نسوه وتولوا عنه معرضين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التولى هو الإعراض، وأصله الإدبار، وأن يجعل جسمه مولياً وجهه من يطالبه بقول أو عمل، والمعنى أنهم أعرضوا إعراضاً شديداً واضحاً، كمن يعرض عن القول بتولية جسمه، واتجاهه فى اتجاه غير اتجاه من يواجهه بالقول، ومعنى ذلك أنهم جعلوا الله وميثاقه وراءهم، ودبر آذانهم.

والتعبير هنا بـ «ثم» التى تدل على التراخى للإشارة إلى البعد عن الميثاق وموجبه، وعملهم المناقض لأمر الله تعالى، والإشارة فيها بالبعيد فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ لبيان بعد عملهم، عن الميثاق الذى أمرهم سبحانه وتعالى أن يأخذوه بقوة، وأن يذكروه دائماً وأن يكون فى وعيهم فى كل أحوالهم.

وإن ذلك التولى كان بالإعراض عما جاء فى التوراة أو الألواح العشرة التى أخذوها بقوة، وطولبوا بذكرها دائماً لئلا يمكنهم أن يعملوا بها، وقد قال القفال الشاسى بعض ما تولوا به عن التوراة فقال: وإنهم بعد قبول التوراة، ورفع الطور تولوا عن التوراة بأمور كثيرة فحرفوا كلمها عن مواضعه، وتركوا العمل بها، وقتلوا الأنبياء، بعد أن كفروا بهم، وعصوا أمرهم، ومنه ما عمله أوائلهم، ومنه ما فعله متأخروهم، ولم يزالوا فى التيه مع مشاهدتهم لأعاجيب البلاء يخالفون موسى ويعترضون عليه، ويلقونه بكل أذى، ويجاهرون بالمعاصى فى معسكرهم ذلك، حتى لقد خسف ببعضهم وأحرقت النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون، ثم نقل متأخروهم ما لا خفاء فيه، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح وهموا بقتله.

هذه كلمات صوّرت توليهم عن الحق، واستدباره في عامة أمورهم، وكان منهم في عهد موسى وهو يكلمهم عن الله، ويتولى تربيتهم وبث روح الإيمان في قلوبهم التي قست وكانوا صورة واضحة للناس الذين تغلب عليهم شقوتهم.

ولقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الفاء فاء الإفصاح التي تفصح عن شرط مقدر أي إذا كان ذلك كله منكم بعد ذلك التوثيق لأمر الله تعالى ونهيه، وأمركم أن تأخذوه فإنه كان ينزل بكم الخسران المبين والعذاب المهين، ولكن لولا فضل الله عليكم ورحمته... و«لولا» هنا هي التي يقال فيها أنها حرف امتناع وجود أي حرف امتناع الجواب لوجود الشرط. والمعنى أنكم كنتم تستحقون بذلك عذاب الهون، ولولا فضل الله أي إرادته أن يزيد خيره عليكم تمكيناً لكم من فعل الخير يأمهالكم لكنتم من الخاسرين، ولقد قال الراغب في تفسيره: الخاسر المطلق هو الذي خسر أعظم ما يقتنى، وهو نعيم الأبد.

فالخاسرون: هم الذين خسروا أنفسهم، بأن أوقعوها في الهلكة والعذاب. وإن النص القرآني يفيد أن الله بفضلله ورحمته أعطاهم مهلة ليتداركوا أمرهم، ولم يكتبهم من الخاسرين.

اعتداؤهم في السبت

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَبَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

لقد كان بنو إسرائيل قوما غلبت عليهم شقوتهم، فكان رب العالمين يشرع لهم من الشرائع ما يربون به نفوسهم، ويعودهم ضبط النفس، وفطمها، ليتربوا على البعد عن الشهوات، ويقتصروا على ما فيه مصلحتهم، ويقيم حياتهم مستقيمة؛ ولذلك حرم عليهم بعض المباحات قرعاً لنفوسهم وفطماً لها، وقد قال

تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام].

من ذلك كان تحريم الصيد عليهم يوم السبت قمعا للشهوات، وقد يكون فيه تنظيم اقتصادي، وراحة لهم، وأن يعكفوا على العبادة، ويروضوا أنفسهم على حياة روحية تتطهر فيها نفوسهم وتتجرد من سطوة المادة وشهواتها.

حرم الله تعالى عليهم الصيد في يوم السبت، ولكنهم مرقوا عن أمر الله تعالى، واستباحوا السبت، أو بعبارة أدق استباحه بعضهم، وسكت عن نهيم سائرهم، وإن كان الذين امتنعوا خيرهم، وقالوا في إخوانهم: ﴿لَمْ تَعْظُونَنَا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ...﴾ [الأعراف] ولأن أصواتهم لم تصل إلى درجة المنع - نسب الاعتداء إليهم جميعا.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أكد سبحانه وتعالى علمهم بهذا الاعتداء باللام التي تكون للتأكيد، وبقد التي تكون للتحقيق دائما سواء أدخلت على المضارع أم دخلت على الماضي، كما هو في القرآن الكريم.

وقالوا: إنه سبحانه وتعالى قال: علمتم، ولم يقل عرفتم؛ لأن المعرفة تميز للشخص في ظاهر أمره، فتقول: عرفت فلانا إذا لقيته ولم تخبر أحواله، وإذا قلت: علمته؛ فمعنى ذلك أنك علمت أحوال ظاهره وباطنه، فتقول: علمت زيدا إذا علمت أحواله ظهورها، وخفاياها.

أي أنكم علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت، في شره نفوسهم، وقمرهم إلى الصيد، واندفاعهم نحو المخالفة لأمر ربهم مدفوعين بشهوات جامحة يتحايلون فيها تحايل الولهي لتحقيقها، حاسين أن ذلك يخفى على الله تعالى، ولكن سبحانه وتعالى يزيد في اختبار نفوسهم، فيرسل حيتان السمك إليهم شارعة يوم السبت، ثم لا تأنيهم بعد ذلك؛ ولذلك قال تعالى مبيِّنا الاختبار في آية أخرى، فقال تعالى:

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف].

وهذه القرية يروى ابن كثير فى تفسيره أنها كانت بين الأبله والطور، ولعلها المصر الذى هبطوا إليه فى قول موسى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾. ويروى ابن كثير أنه انتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا إلى البحر. فإذا كان يوم السبت فتح السد فأقبل الموج بالحيثان يضربها حتى يلقيها فى الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيها فإذا كان يوم الأحد جاءه، فأخذه، فشواه، وقد قلده جاره، وشاع هذا وفشا فيهم . . فقال لهم علماؤهم: إنكم صدقتموه يوم فتحت له الماء فدخل، فأنتم اصطدتموه يوم السبت.

وما أشبه هؤلاء بإخوانهم ينتسبون إلى دين محمد ﷺ حتى إنهم يستبيحون الربا بحيل محرمة، والله عليهم وبأحوالهم، ولهم ما أعده الله لبنى إسرائيل، وهم أصل الداء فى هذا وفى غيره^(١).

وقد قال تعالى ما يفيد أنهم إذا لم تنهذب نفوسهم، ولم تترب بالضبط قلوبهم فإنهم كالقردة والخنازير، فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الفاء كأخواتها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا قد اعتدوا ذلك الاعتداء وشروها ذلك الشره، قلنا لهم بلسان التكوين: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٥٠﴾﴾ وروى عن مجاهد أنه قال أنه مسخت قلوبهم فصارت كقلوب القردة تنزوا لشهواتها ولا تتعقل ولا تدبر فى عاقبة أمرها فهبطوا إلى هذه المنزلة الدون وقال: إنه مثل ضربه الله تعالى مبينا حالهم، كالمثل فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا... ﴿٥١﴾﴾ [الجمعة] فصارت قلوبهم قلوب قردة.

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَيْبًا شَيْبًا وَدِرَاعًا بِدِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟» [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الاعتصام بالسنة (٦٧٧٥)، ومسلم: العلم (٤٨٢٢)].

وإنه يزكى ذلك المعنى أنه شبه حالهم فى آية أخرى بالقردة والخنازير لا بالقردة وحدهم، وذلك فى قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة].

ومعنى خاسئين .. أى مبعدين يقال خسى أى بعد، وخسأته أبعدته، والمعنى بعيدون عن مواطن العزة ورضا الله تعالى، لأن الشهوة والعزة نقيضان لا يجتمعان فالشهوات مطية الذلة والهوان، ولا يهون إنسان إلا إذا هانت نفسه، وصارت أمة للشهوات .

إن الله تعالى جعل تلك القرية التى كانت مكان الفسق عن أمر الله تعالى نكالا وموعظة فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ .

النكال المنع والزجر، والنكل القيد، والأنكال القيود، لأنها تمنع .

والفاء للإفصاح، كما ذكرنا فى غير ذلك الموضع، والضمير فى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾، يعود إلى العقوبة أى جعلنا هذه العقوبة التى كان من مقتضاها أن يفقدوا معانى السمو الإنسانى، والارتفاع عن حضيض الحيوانية الأوهد، وقيل: إنها تعود على القرية التى كان فيها ذلك الاعتداء؛ لأنها حاضرة فى الذهن ومشار إليها بذكر الذين اعتدوا منكم فى السبت، أى والقرية التى كان فيها الاعتداء، فهى إن طويت فى البيان ملاحظة فى المعنى، وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا، وما يطوى فى مكان يصرح به فى مكان آخر، تعالت كلمات الله تعالى .

وقد أنزل سبحانه وتعالى بسبب هذه الشهوات الجامحة الخارجة عن مقتضى الطبع الإنسانى عذابا شديدا من الذل بعد العزة، ومن الضيق بعد السعة، ومن الشدة بعد الرخاء ما جعلها عبرة لمن بين يدي الحاضرين، ومن يجىء بعدها من الناس، وعبر سبحانه وتعالى عن الحاضرين بقوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ كناية عن وجودها معهم، وأنها على مقربة منهم، قرب ما بين اليدين من الصدر، والذين تحوطهم ويحوطونها .

وإن ذلك العقاب يكون له صدى يتردد فى الأجيال بعدهم جيلا بعد جيل، ومثل هذه القرية كمثل قرية عصت أمر الله تعالى، وكفرت بأنعمه سبحانه، وقال فيها تعالت كلماته: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١١٣﴾ [النحل].

فما أشبه حال بنى إسرائيل فى أنعم الله تعالى عليهم بحال تلك القرية، وكأنها مثل بين لهم، والموعظة ورنها تفعلة بمعنى المصدر الميمى من الوعظ، وهو التخويف والزجر بما وقع لغيره، ويكون للتذكير بالخير مما يرق له القلب، كما يكون للتذكير والإنذار بما وقع للعصاة.

وخص سبحانه وتعالى تأثير الموعظة بالمتقين، وإن كانت هى للعالمين لتفردهم بالتأثر بها، والاهتداء بهديها وهم الذين تنفعل نفوسهم للخير لأنهم ليسوا مغرورين بعزة الشيطان، ولكن تمتلئ قلوبهم بتقوى الله تعالى، بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله تعالى وقاية، فمن دأبهم الحذر من الشر، وإذا ذكروا ذكروا، والله هو الهادى إلى الرشاد.

بقرة بنى إسرائيل

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هَذَا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ١٧
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ
١٨ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا قَالَ إِنَّهُ

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ
 ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا
 وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
 لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا
 قَالُوا آلَتَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

كان بنو إسرائيل في مصر، وكانوا أذلّوهم يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ولكنهم عاشروهم حقبة طويلة من الزمن تأثروا بعاداتهم، وألفوا ما كانوا يألفون، لقد كان المصريون يعبدون العجل، ويقدسونه وقد أراد الله تعالى أن يقتلع من بنى إسرائيل ما تأثروا به، وقد رأينا السامري أضلهم فعبده بعضهم، ولم ينههم سائرهم عن عبادته، فاشتركوا جميعاً في هذا المنكر.

وإن الله تعالى قد اختبرهم ليزيل ما في نفوسهم من نزعة إلى تقديسه أو بقية من هذا التقديس فقال رسولهم الأمين القوي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ولو أتوا إلى أية بقرة فذبحوها لكان في ذلك استجابة لأمر الله تعالى؛ لأن الأمر المطلق يتحقق الإجابة فيه بالتنفيذ في أية جزئية من جزئياته، والمطلق يتحقق وجوده في أي فرد من أفراده.

ولكن الطلب لم يصادف أهواءهم، وحالهم في ذات أنفسهم فأخذوا يراوغون بكثرة الاستفهام، وإن أول التمرد هو كثرة الأسئلة، فالطاعة ألا تتمرد، ولا تثير الجدل، وكان أول قولهم في مجاوبة نبي الله وكريمه موسى عليه السلام أن قالوا، وكأنهم يتهمون: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ والهزو اللعب والسخرية، أى أنهم يستغربون ذلك الطلب، ولا ندرى لماذا يكون الأمر بالذبح سخريه بهم، وعيثا بعقولهم العابثة إلا أن يكون ذلك مخالفاً لما لو فهم، وبالفعل في الهزء فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ أى

اتجعلنا بأمرك فى موضع الهزء والسخرية، وذلك لما ألفوه من أن البقرة مقدسة لا تذبح بل تعبد، وإذا لم تكن عندهم هذه الحال فإنه لا موضع لأن يستهزأ بهم، ولا أن يسخر منهم بذكر أمر الله تعالى.

فقال موسى كليم الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧) كانت إجابتهم لأمر الله تعالى خروجًا عن طاعته بأغلظ القول وأفظه، فأجابهم الرسول الرفيق، فقال: أعوذ بالله تعالى أن أكون من الجاهلين؛ أى أجا إلى عائذا به، متجها إليه أن أكون من الجاهلين، لأن الجاهل هو الذى يجعل الهزء والسخرية فى موضع الجد وبيان أمر الله تعالى، ونفى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وصف الجهل، ولم يكتف بنفى الفعل؛ لأنه أبلغ وبيان أنه لا يليق بنبي من أنبياء الله تعالى: أولى العزم من الرسل، وبأبلغ عليه السلام فى نفي الجهل بنفي أن يكون من زمرة الجاهلين لما يجب على الرسول من بيان أمر الله تعالى.

وإن ذلك الجواب القاطع كان جديرا بأن يمنعهم من اللجاجة والمراوغة فى الاستجابة لأمر الله تعالى، ولكن لأن نفوسهم متأثرة بأوهام المصريين، استمروا فى لجاجتهم ومراوغتهم عساهم يجدون مناصا للخروج من هذا الأمر الجازم قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينْ لَنَا مَا هِيَ﴾ يقولون لنبي الله موسى: ادع ربك واضرع إليه الذى ربك وكونك أن يبين لنا ما هى، وصيغة السؤال هكذا استفهام عن ماهية البقرة وحقيقتها وكأنهم لم يروها ولم يعرفوها، ولم يكونوا مع الذين كانوا يعبدونها، ولكن نبي الله الحكيم، أجابهم بالأسلوب الحكيم، وهو ما ينبغى أن يكون السؤال عنه فقال عليه السلام بهداية من الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ والفارض هى التى فرضت سنها أى أنها حطت سنها، وبلغت نهايته، أى كانت طاعنة فى السن، ولا بكر: ليست صغيرة، أى أنها بقرة وسط ليست صغيرة ولا كبيرة؛ ولذا فالعوان بين ذلك أى وسط بين الصغر والكبر المفرط، ويظهر أن تلك كانت أوصاف عجل أهل مصر، وقد قال موسى بأمر ربه ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٨) بلا لجاجة ولا مراوغة، ولا محاولة الإفلات من أمر الله تعالى.

وكان حقا عليهم أن يطيعوا بعد ذلك فقد بين لهم كل شيء، والفاء للإفصاح ولكن لاجتهدهم لم تنته عند ذلك، وهم يريدون أن يراوغوا وأن يثيروا الجدل عساهم يفلتون من إجابة الأمر.

قالوا مجادلين مراوغين: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أى يبين اللون الذى يريدونها أم الصفراء أم السوداء، أم الخليط من ذلك، ولقد بين سيدنا موسى اللون، فقال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾ مسندا القول لرب العالمين: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (٦٩) الصفراء هى ما فيها لون الصفرة، ومعنى فاقع لونها أى خالص صافٍ له بريق ولمعان، ولذلك يسر الناظرين، أى تتلقاه الأنظر بالسرور، وكأن هذه كانت أوصاف العجل الذى كان المصريون يعبدونه، وكان يجب عليهم بعد ذلك أن يفعلوا ما أمروا غير متلومين، ولا متحيرين ولكنهم أثاروا بعد ذلك ما يفيد حيرتهم، ولا حيرة فى ذات الموضوع إنما الحيرة فى نفوسهم الملتوية التى سرى إليها تقديس البقرة.

قالوا كأنهم متحIRON: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وإن التشابه من عقولهم، لا من الجهل فى ذلك قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧٠) كان هذا التساؤل المستمر كاشفا لسوء نيتهم وعدم رغبتهم فى الطاعة، وقد تكشف أمرهم فستروه مظهرين رجاءهم فى الهداية وكان ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أكدوا رغبتهم فى الهداية بالجملة الاسمية، وبـ «أن» وبـ «لام» التوكيد، والمشية الربانية، ومع ذلك كان سؤالهم عن الماهية، ولكن عدل فى الإجابة إلى الأسلوب الحكيم، وهو بيان أنها ليست ذلولا معدة لحراثة ولا لسقاية الزرع، بل هى فارغة عن عمل؛ ولذا قال موسى فى الرد: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا﴾.

أوصاف يشترط وجودها ليكون ذبحها سائعا جائزا:

أولها: أنها ليست ذلولا أى ليست مذلة لعمل معين بل هى مطلقة ترعى فى الكلاء، لا رقابة عليها، ولا سلطان لأحد.

وثانيها: أنها لم تعد لحرث الأرض وإثارتها ليرمى فيها الزرع.

وثالثها: أنها لا تسقى الزرع فلا تدير ساقية تسقى الزرع.

والوصف الرابع: أنها مسلّمة، أى سليمة من العرج، ومن كل ما يشوب جسمها من شوائب المرض، فمسلّمة اسم مفعول من سلّم، أى أن الله تعالى سلمها من كل العيوب الجسمية، فلا بها عرج، ولا عور، ولا أى عيب جسمى.

والوصف الخامس: أنه لا شية فيها، أى ليس فيها لون يخالف لونها الذى يعم كل أجزائها، والشية أصلها وشية حذفت فاؤها، لأنها وصلة، والشية مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين.

ونرى أن هذه الأوصاف فى البقرة تشبه الأوصاف التى كان يذكرها قدماء المصريين فى العجل الذى يعبدونه، فأتى الله سبحانه وتعالى بأوصافه، لتبين أنهم خلصوا من نفوسهم كل أوهام المصريين فى البقر.

وقد يقال: إنه كان عجلا، ولم يكن بقرة، فنقول: إن بقرة مفرد لاسم جنس جمعى هو البقر، ويراد به الذكور والإناث، وإن طلب ذبح بقرة تتشابه فى أوصافها مع أوصاف العجل الذى توهّموا أنه يستحق أن يعبد، فيه اختبار شديد لهم، وحمل لهم على أن يخلعوا كل أوهام المصريين التى سرت إلى نفوسهم.

ولقد قال تعالى من بعد ذلك: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أى قاموا بذبحها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة لجأجتهم، ومرأواغاتهم وجدلهم، ولكن الله سبحانه وتعالى راضهم على ذلك حتى فعلوا كارهين غير راضين.

اذرأؤهم فى قتل نفس

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأُوهَا فِيهَا وَآلَهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

المفسرون على أن هذه الآيات جزء من قصة البقرة إلا ما يتعلق بقسوة قلوبهم، والحجارة وبعض خواصها، فهم يقولون إن الأمر بذبح البقرة كان ليضربوه بها أى ليضربوا المقتول بها فيحيا، فقله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ الضمير يعود إلى البقرة التي ذبحت: يضرب ببعضها فيحيا ويخبر عن قتله ونحن لا نرد ذلك ولا نكذبه فأخبار بنى إسرائيل فيها العجائب الكثيرة التى ساقها الله تعالى ليؤمنوا ويدعنوا، ولكن لم يدعنوا قط مع توالى هذه الأمور المخارقة للعادة التى تواتت وكثرت.

ولكن فى العصر الحديث قرر المرحوم الأستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار، أنهما قصتان سيقنا لغرضين مختلفين: أما الأولى فهى قصة البقرة، وهى قائمة بذاتها سيقت لبيان آثار العقائد المصرية فى نفوس بنى إسرائيل، ولجأجتهم فى الامتناع عن ذبح البقرة متأثرين بتقديس المصريين للبقرة . . والثانية سيقت لبيان أثر رؤية المقتول فى نفس القاتل، وتأثره بذلك، وأنه يحمله على الاعتراف بالجريمة عندما يرى المقتول ويمس جسده، وقد ذكر ذلك الرأى فى كتابه قصص القرآن قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأُوهَا فِيهَا﴾ أى لم يعرف القاتل، ودرء كل فريق القتل عن

نفسه باتهام الآخر، فالأدراء أو التدارؤ، أن يدفع كل فريق التهمة عن النفس، ويتهم الآخر.

وكل منهم يعلم الواقع، ولكن يقرر غيره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) أى من الحق، ومؤدى ذلك أنهم عالمون فيما بينهم من القاتل ولكن يجهلون الأمر، ولكن الله تعالى كاشف الأمر.

فالمفسرون جملة يقولون: الضمير فى بعضها، فى قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ أى ببعض البقرة، وإن ضربهم للمقتول ببعض البقرة، يحييه الله تعالى فيخبر عمن قتله، ويعرف القاتل، وقصة البقرة سبقت لبيان إحياء الله تعالى الموتى فى وسط قوم ينكرون البعث والنشور؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أى كذلك الإحياء الذى شاهدتموه عيانا، إذ كان ميتا فأحياء الله تعالى؛ أى مثل ذلك الإحياء الجزئى الذى شاهدتموه وعايينتموه يحيى سبحانه وتعالى الأجسام بعد موتها، ويكون النشور ثم تقوم القيامة.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) أى رجاء منكم لأن تعقلوا وتدركوا الأمور على وجهها، وعلى هذا التفسير يكون المقصود أن الأمر بالذبح لكى يضرب ببعضها الميت فيحيا، وإن هذا يقتضى أن يقدم خبر الإحياء والضرب ببعضها على الأمر بالذبح.

وقد أجاب عن ذلك الزمخشري بأن التأخير يفيد بأن فى الخبر أمرين عجيبين، وأن كليهما يصلح أن يكون قصة قائمة بذاته، فالأولى المراوغة فى الطاعة، والثانية إظهار الأمر الخارق للعادة، فى إحياء الميت بضربه ببعض بقرة، ولقد قال فى ذلك:

إن كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الخطايا، وتقريعا لهم عليها، ولما جُددَ فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما خصت بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدثين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك، والثانية

للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ حتى يتبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع - وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة .

هذا بيان أنها قصة، ولكن الزمخشري ذكر أنهما قصتان متحدتان في قصة واحدة، وأن الضمير العائد إلى البقرة في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ أى ببعض البقرة.

لكن المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، عدهما قصتين منفصلتين لا اتصال بينهما بأى نوع من الاتصال البيانى؛ ولذا لم يجعل الضمير في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ عائداً على البقرة إنما جعله عائداً إلى جثة المقتول، بمعنى فاضربوا القاتل الذى قام الاتهام على أنه القاتل ببعض جثة المقتول فإن ذلك يحمله على الاعتراف، وإذا قام الاعتراف فقد قام الدليل الموجب للقصاص، وبذلك القصاص يحيى الله تعالى من مات بالقصاص له.

ذلك كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٣٢] وإحيائها بالقصاص، فالقصاص إحياء للنفس كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقد ثبت بالإحصاء فى تحقيق جرائم القتل أن مجرد رؤية الجانى للمجنى عليه وهو مقتول يحركه للاعتراف، واعتمد المرحوم النجار فى ذلك على إحصاءات كثيرة كتبها له رجال الشرطة، وأن من الوسائل المتبعة لحمل المتهم على الاعتراف أن

يمكنوه من رؤية القتل، فإن ذلك يجعله يقشعر ويحس بعظيم ما ارتكب، وربما حمله ذلك على الاعتراف، والاعتراف سلطان الأدلة.

وإنه يزكى كلام المرحوم الأستاذ النجار ما يأتي:

أولاً: أن القصة الثانية: وهي قصة القتل ابتدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾؛ ولذلك لم يسع الزمخشري وهو الذواق للبيان القرآني إلا أن يذكر أنهما قصتان، وإن كان قد حاول أن يصل بينهما بأن الضمير في قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ يعود على البقرة، مع البعد بينهما بطائفة من القول، وعدم ظهور ذلك العود على البقرة.

الثاني: أن الضمير في ﴿اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ إذا عاد إلى النفس المقتولة يعود إلى أقرب مذكور، وعودة الضمير إلى أقرب مذكور هو القاعدة العامة إلا إذا أدى فيها الأمر إلى شذوذ غير معقول، أو كان ذلك مستحيلاً.

الثالث: أن عود الضمير على النفس يؤدي علماً نفسياً اجتماعياً هادياً مرشداً، فيكون في ذلك فائدة جديدة لم تكن في قصة البقرة؛ لأن قصة البقرة تدل على عناد بني إسرائيل وتأثرهم بأهواء المصريين في تقديس العجل.

الرابع: أن الآية اختتمت بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهو يدل على أن الموضوع يحتاج إلى تدبر، وفكر رشيد، وإدراك لمرمى التكليف.

وما نراه أن الفرق بين رأى المفسرين، ورأى المرحوم الأستاذ النجار أن اتجاه المفسرين إلى جعل مسألة البقرة مسألة معجزة، وأمراً خارقاً للعادة على أساس أن الضرب ببعضها يحيى نفساً ميتة على أساس أن ذلك دليل حسي على إمكان البعث وقربه، والمرحوم النجار يرى أن ذلك تكليف اجتماعي ينبه العقول إلى أمر مقرر ثابت في الدراسات النفسية والاجتماعية.

ونحن نميل إلى رأى الأستاذ النجار؛ لأنه لو كانت الحياة من الضرب ببعضها لأدى ذلك إلى إشباع ما في نفوسهم من أوهام حول تقديس البقر كما كان يتوهم

المصريون، بينما رأى الأخير لا يؤدي إلى شىء من ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

بعد هذه الآيات البينات، والمعجزات الباهرة، والإرشادات الكثيرة لم ترق قلوبهم للحق، بل زادت قساوة ونفرة منه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وثم هنا للتراخي لبعد ما بين هذه الآيات البينات، والمعجزات الباهرة، وما انتهت إليه من قسوة القلوب وصلابتها، حتى كأنها الحجارة أو أشد من هذه الحجارة.

فقد توالى عليهم البينات، من إنقاذ من فرعون، وإغراقه وآله، ومن المن والسلوى، ومن أخذه الميثاق، ومن أنهم طلبوا أن يروا الله فصعقوا ثم أفاقوا . . . إلخ، فقسوا من بعد ذلك فكان الفارق كبيراً. فما جاءهم من البينات، وما انتهوا إليه من قسوة فى القلوب، فجمدت حتى لا يكون فيها ينبوع لرحمة.

والخطاب للذين حضروا النبى ﷺ باعتبارهم مع من كانوا قبلهم أمة واحدة يرضى حاضريهم بماضيهم وأخلافهم بأعمال أسلافهم، ولذا صح أن يوجه الخطاب إليهم على أساس أنهم مشتركون معهم، إن لم يكن بالفعل فبالرضا والتأييد والسير على منهاجهم.

وقد وصف سبحانه وتعالى حال قلوبهم بأنها كالحجارة، بل إنها أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة قد يكون فيها رحمة أو يجعلها الله تعالى سبباً للرحمة، أما هؤلاء فلا رجاء للرحمة فيهم قط، لأن القلوب إذا جفت فيها ينابيع الرحمة لا تخرج رحمة من بعد ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ خبر بعد خبر، فالمعنى فهي كالحجارة أو هي أشد قسوة من الحجارة.

وقد رشح الله تعالى لمعنى أن قلوبهم أشد قسوة، فذكر خواص بعض الحجارة، أو ما يكون منها أنهاراً فقال تعالت كلماته: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أى إن من الحجارة للذى يتفجر منه الأنهار وهى الحجارة التى تهطل عليها الأمطار وابلا، فيتفجر منها ومن صخورها أنهار تجري كأنهار جبال الحبشة

وغيرها من الجبال التي تنحدر السيول من فوقها فتتفجر خلالها أنهاراً تجري فيها المياه، وإن من الأحجار الذى يتشقق منه الماء أى ينبع الماء من عيونها بتشقق منها فتجرى منها عيون يكون فيها أنهار ماء عذب فرات .

وإن من هذه الحجارة الذى ترجف فيه الرجفة خشية من الله تعالى أو أنه يرى كذلك كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾ (٢١) [الحشر] .

وإذا كانت الحجارة منها ما هو مصدر خير عام، فقلوبهم أشد قسوة منها، لأنهم لا خير فيهم قط، ولا تنبع منهم رحمة، كما تنبع العيون من هذه الأحجار وكما تتفجر فتجرى فيها الأنهار .

وختم الله سبحانه وتعالى مهتدا منذرا من عاصروا النبى ﷺ، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ نفى مؤكدا غفلة الله تعالى عن أعمالهم، وأنها لأعمال خارجة من تلك القلوب القاسية التى غمها كُرُّ الأيام واستمرت سارية، حتى كاد منهم للنبي ﷺ .

وأكد سبحانه وتعالى بالباء فى قوله تعالى: ﴿بِغَافِلٍ﴾ وبالجمله الاسمية، وإذا كان تبارك وتعالى غير غافل عما يعملون، فإنه لامحالة مجازيهم به، أخذهم من نواصيهم فهذه الجملة السامية إنذار شديد .

﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَفَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٧٥ وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٧٦

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

ذكر الله تعالى أحوال بنى إسرائيل عقب ما كان من إبليس لآدم عليه السلام، وقد كان ذكرهم بعد آدم وإن لم يكونوا أول أولاد آدم فى الأرض، بل جاءوا بعده بمئات الألوف فيما نزعهم، لأنهم أوضح صورة إنسانية، لتحكم إبليس فى ابن آدم، فقد قامت بين أيديهم الأدلة، والآيات الحسية، والنعم، ومع ذلك كفروا وإذا كانت تلك حالهم فى الماضى، والحاضرون يوافقونهم ويعتزون بهم مع هذه المآثم، ويحسبون أنهم بماضيهم الذى نسوه مفاخرون العرب، ويقولون فيهم: ما علينا فى الأميين من سبيل، فإنه لا مطمع فى إيمانهم؛ لأن الجاهل يطمع فى إيمانه إذا علم وقامت البيئات الداعية، أما المغتر المعاند فى ماضيه وحاضره، فإنه لا مطمع فى إيمانه.

ولذا قال الله تعالى مخاطبا محمدا ﷺ، ومن اتبعه من المؤمنين: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

الفاء مؤخرة عن تقدم، لأن الاستفهام له الصدارة، والفاء للإفصاح عن شرط متضمن ما كان فى ماضيهم منذ آدم، وكفر متوال بأنعم الله تعالى، والاستفهام إنكارى بمعنى النهى، لأنه إنكار للواقع، إذ الواقع أن النبى ﷺ لأنه رسول يدعو إلى الهدى يطمع فى إيمان من يدعوهم، فينكر الله تعالى عليه ذلك، ويكون الاستنكار بمعنى النهى، أى لا تطمعوا فى أن يؤمن هؤلاء فإن ماضيهم الذى يراه حاضره يؤمنون به ليس من شأنه أن يطمعكم فى إيمانهم، بل إنه يلقى باليأس من الإيمان فى قلوب الذين يدعونهم، ويخلصون فى دعوتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ التعدية باللام؛ لأنها تتضمن معنى الاستجابة، والمعنى أطمعون أن يؤمنوا مستجيبين لكم. وآمنوا تتعدى بالباء إذا كان

ما بعدها هو الذى يؤمن به كقولك: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ ﴿٧﴾ [الحديد]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ [البقرة].

وتتعدى باللام إذا كانت متضمنة معنى الاستجابة للداعى، ومن ذلك: ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ...﴾ ﴿٢٦﴾ [العنكبوت] ومثل قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ...﴾ ﴿٧٣﴾ [آل عمران].

ولذلك كان التعدى هنا باللام، إما لتضمن الإجابة معنى الاستجابة، وإما لأن اللام للتعليل، أى لا تطمعوا فى إيمانهم لأجل دعوتكم، فهم ميثوس من إيمانهم لما كان منهم فى الماضى، وما يكون منهم فى الحاضر.

وقد بين سبحانه سبب الغواية فى جملة حالية وهى ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ﴾ هذا الفريق أكان فى عهود سابقة فى عهد موسى أم حالهم الحاضرة.

قال كثير من مفسرى السلف: إنهم كانوا فى عهد موسى عليه السلام، وقد كانوا يحاولون أن يسمعوا كلام الرب سبحانه وتعالى، كما يسمعه كلهم الله موسى عليه السلام، ولكن ذلك بعيد، إنهم سمعوا كلام الله تعالى من لسان موسى فى التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام، وعقلوه، وفهموه ثم حرفوه قاصدين تشويه ما سمعوا، وإفساد الحقائق وقد فهموها.

وبعض المفسرين يرون أن الخطاب للنبي ﷺ ومن معه، وأن الفريق الذى سمع كلام الله تعالى بتبليغ النبي ﷺ هو من اليهود الذين عاصروا رسول الله ﷺ، وسمعوا ما يدعوهم إليه النبي ﷺ وعقلوه، وأدركوا مراميه وغاياته وما يدعوهم إليه، ثم بعد ذلك يحرفونه، وينقلونه إلى إخوانهم محرفا، غير دال على حقيقة ما يريد النبي ﷺ، فهم فريقان: سامع محرف، ومعرض ابتداء لايحضر فى المجلس النبوى، وما التحريف وكيف يكون؟ فنقول: التحريف فى الكلام له معنيان: أحدهما التغير فى معناه، بأن يحرفوه على طرف من المعنى، بأن يخرجوه

عن لب معناه إلى طرف من أطرافه؛ لأن الحرف أصله الطرف دون اللب والوسط فهم يتجهون إلى التعلق بغير لب القول.

والتحريف إمالة القول إلى غير معناه، وهذا هو النوع الثاني، وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته ونص كلامه «تحريف الكلام» أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين. قال عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة: ١٣] ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة: ٤١] ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥].

والتعريض بـ «ثم» يفيد البعد المعنوي بين ما سمعوه وعقلوه، وتدبروه، وعرفوا غايته، وبين التحريف الذي حرفوه مما يدل على فساد نفوسهم، وضلال قلوبهم.

وأخبر سبحانه وتعالى أن التحريف من بعد ما عقلوه، وعرفوه عرفان الخبير المدرك، الفاهم، لا أنهم حرفوا عن غير علم ومن غير معرفة بمدلولات الألفاظ ومراميها، ومقاصدها، وغاياتها، فتحريفهم بقصد التضليل، ومن يقصد التضليل يكون قلبه مصروفاً عن الحقائق فلا يدركها، ولا يدعن لها إن أدركها، بل هو يصد عن سبيلها.

ثم أكد سبحانه وتعالى سوء مقصدهم، وغاية عملهم، فقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى وهم يدركون الكلام الذى سمعوه، ويعرفون مرماه ومقصده، ومع ذلك يحرفونه آثمين فاسدين مفسدين.

هذا على اعتبار أن الذى خاطب الفريق محمد ﷺ وأتباعه.

ويجب فى مقام ذكر معانى هذه الآية أن نذكر أموراً ثلاثة:

أولها: أن الذين حرفوا القول عن مواضعه فريق منهم، وليسوا جميعهم، فكيف يكون اليأس من إيمان كلهم بعمل فريق والجواب عن ذلك أن الفريق الذى سمع أرضى بقوله الفريق الذى لم يسمع، بل إن الفريق الذى لم يسمع كان معرضاً

عن سماع النبي ﷺ، فهو كان قابلاً لاستماع القول المحرف راضياً به مصداقاً له، فهم كانوا على سواء، وكذلك الأمر على التفسير بأن السماع كان من فريق من قوم موسى سمعوا من موسى وحرفوه، فقبله الآخرون وهم راضون، فكانوا مع غيرهم على سواء، ولا فرق بينهم.

الأمر الثاني: أنه إذا كان الفريق الذى حرف فى عهد موسى أو بعده، فإن ذلك سائغ بعد موسى ثابت، والراجع للتوراة القائمة بين أيدينا يجد أمارات التحريف تلوح، وقد بينا ذلك فى بحث رددنا به على بعض الكذابين، الذين قالوا فى القرآن ما قالوا من افتراء وكذب رددناه فى نحورهم.

وقد أثبت كتاب النصارى أن التحريف لا يزال يجرى فى الكتب عندهم ما بين كتب العهد القديم، والجديد، وقرأ فى ذلك كتاب «ذخيرة الألباب» لأحد كتاب النصارى، فإنه بين بطريق لا يقبل الشك أن التحريف حدث فى التوراة والإنجيل، وأثبت الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه «إظهار الحق» أن التفسير والتبديل لا يزال يجرى إلى الآن فى كتبهم.

الأمر الثالث: الذى نشير إليه أن أثارة باقية فى كتبهم ربما تكون صادقة، ولكن اختلطت بباطل كثير.

كان اليهود يسمعون كلام الله تعالى، ثم يحرفونه من بعد أن يعقلوه، وهم يعلمون موضع التحريف. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالاً أخرى من أحوالهم، وهى أنهم كانوا يظهرون الإيمان فى حضرة المؤمنين فإذا خلوا مع أحد منهم تلاوموا على إظهارهم الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

هذ وصف للمنافقين ذكره الله تعالى من قبل فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٨ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩ إلى آخر الآيات التى ساقها القرآن الكريم، والأمثلة التى ضربها فى كشف حالهم.

وهذه الآية التى نتكلم فى معناها أتت بأمر خاص باليهود الذين عاصروا النبى ﷺ، وهى أنهم لفرط غرورهم يحسبون أن الله تعالى لا يعلم خفى أمرهم، فهو نوع من النفاق أضلهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أى صدقنا وأذعنا لكل ما جاء به محمد ﷺ. آمنا بأنه الحق من عند الله وبأن ما جئت به هو الحق.

وقد حسبوا أنهم بذلك قد نجوا من الملامة، فحفظوا المظهر بما أظهروه، وحفظوا كفرهم فلم يعلنوه، ولكن إخوانهم وهم على ملتهم، وعلى جحودهم لم يرضوا بالظهور بهذا المظهر.

فإذا خلا بعضهم إلى بعض، فالتقى الذين أظهروا ما لم يبطنوا، والذين لم يلقوا الرسول، كان التلاوم فيقول الذين لم يلقوا المؤمنين ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، أى بما حكم الله تعالى به عليكم، فالفتح فى لغة العرب والحكم بأمر القضاء، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ...﴾ (٨٩) [الأعراف].

وما حكم الله تعالى به فى هذا المقام هو بشارة التوراة بالنبى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾ (٦) [الصف]، وقد أخذ العهد عليهم بأن يتبعوه ويؤمنوا به إذا جاءهم، فالاستفهام إنكارى لإنكار فهم الوقوع فهم يوبخونهم على أنهم حدثوهم بما قضى الله تعالى عليهم بأن يؤمنوا بالنبى عليه الصلاة والسلام إذا جاءهم، وإنه كان يجب عليهم أن يستمروا فى جحودهم، وعللوا لوم إخوانهم بقولهم: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أى ليكون حجة عليكم عند ربكم، يحاجونكم به، والاعتراف حجة ظاهرة.

وإنهم بذلك يزعمون أمرين كلاهما باطل:

أولهما - أنهم يحسبون أن الله تعالى يحتاج فى معرفة ما هم عليه إلى إقرارهم، وهو عالم الغيب والشهادة، وعالم السر والجهر، وأنهم مأخوذون بما واثقهم عليه، وبالحق الذى أمرهم باتباعه.

وثانيهما - أنهم يحسبون أن النبي ﷺ وأصحابه ما كانوا يعلمون ما عند اليهود إلا بإقرارهم أمام النبي ﷺ، والمؤمنون يعرفون ما في كتبهم من بشارة بالنبي ﷺ وهم أنفسهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ولقد بين الله تعالى بطلان كلامهم وبعده عن المعقول فقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) الفاء مؤخّرة عن تقديم لأن صيغة الاستفهام لها الصدارة، والفاء للإفصاح، والاستفهام داخل على نفى، فهو من قبيل نفى النفي وهو في نتيجته يدعوهم سبحانه وتعالى إلى أن يعقلوا، ويتفكروا ويتدبروا، ويدركوا ما يؤدي إليه كلامهم، وهو بعده عن كل معقول، فهم يتصورون أن الله تعالى لا يعلم حالهم، وما أخذ عليهم من موثيق، وما وضع من إشارات إلى النبي ﷺ في كتبهم، يتصورون ذلك ويحسبون أن المؤمنين يحاجونهم عند الله بهذا الاعتراف، ولا يعرفون أن الله تعالى يعرف سرهم ونجواهم. وقد يفسر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) على أنه من كلام بعضهم، ويكون معناه على أنه من لسانهم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) وتدبرون نتيجة كلامكم من أنهم يحاجونكم به عند ربكم، ويكون هذا إمعانا في الجهل بحالهم وعلم الله تعالى، ونحن نميل إلى احتمال توجيهه من الله تعالت كلماته.

وإنهم ممنعون في الجهل بالله سبحانه وتعالى، وظنهم أن الله تعالى لا يعلم ما يخفون وما يبدون، وإنه لا فائدة في أن يحدثوا النبي والمؤمنين، لأن الله تعالى بكل شيء عليم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧) هذا استفهام إنكارى لجهلهم، وتوبيخ لهم على عدم علمهم، فالاستفهام داخل على فعل محذوف دل عليه عطف ما بعده والمعنى يقولون ما يقولون من ذلك القول، ولا يعلمون أن الله - جل جلاله - وقد أحاط بكل شيء علماً ويعلم ما يسرونه وما يجهرون به، وما يعلنونه للناس، يعلم ما تخفى صدورهم، ويعلم ما يجهرون، وفي بيان ذلك العلم تهديد بالجزاء الذي ينتظرهم، فهو سبحانه يعلم ما يفعلون، وما يخالفون به موثيقهم وعهودهم، وما ينكثون به في أيمانهم، ومؤاخذهم به.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال اليهود، فأشار سبحانه إلى أن اليهود قسمان: أحبار أو علماء، وأميون يضلون الآخرين بدعوى أنهم وحدهم أوتوا علم الكتاب؛ ولأن الآخرين لا يعرفون الكتاب إلا أمانى يتمنونها، فيشبعوا أمانيتهم وأهواءهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ﴾.

الأمى هو الذى لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأمة الأمية التى لا يسودها العلم، وكان الأحبار من أهل الكتاب يقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ...﴾ (آل عمران)، وقد ينسب الأمى إلى الأم على اعتبار أنه على أصل ولادة أمه، فهو لم يزد علما عما ولدته عليه أمه.

وهؤلاء الأميون لا يقرأون الكتاب، ولا يعرفون أحكامه، وما اشتمل عليه من تكليفات اجتماعية وعبادية، وإنهم لفرط جهلهم بالكتاب لا يعلمون إلا ما يكون فيه إرضاء لأمانيتهم، والأمانى جمع أمنية، وهى ما يتمناه القلب ويحبه، وما يتمنونه أهواء مسيطرة عليهم كقول عامتهم وخاصتهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ...﴾ (البقرة) [البقرة] أى ما يتمنونه ويقول تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء).

وفى الجملة الأمانى التى يعلم الأميون من أهل الكتاب مضمون كتابهم بها هى ما يكون متفقاً مع ما يتمنون، فلا يعلمونه تكليفات وأحكاماً، فيها حساب، وثواب أو عقاب، إنما يعلمونه رغبات تتحقق، وأهواء تثبت، ومثلهم كمثل عوام المسلمين، الذين يقولون أمة الإسلام على خير، ولو لم يعملوا أى عمل، بل لو لم يعملوا عملاً صالحاً قط، ولو زنوا أو سرقوا، وسكروا، وعبثوا فى كل معبث، ولم يتركوا منكراً إلا ارتكبوه، وسدوا باب الجهاد، وكانوا كلاً على أعدائهم يتصرفون فى مصائرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ﴾ قالوا: إن الاستثناء منقطع، فيكون المعنى لا يعلمون شيئاً من الكتاب الذى يتلون ولا يفهمونه، ولكن

يعلمونه أمانى يتمنونها وأهواء يبتغونها، ولا يدركون التكليفات والأحكام، ولا يعلمون المواثيق التى أخذت عليهم.

ولا مانع أن يكون الاستثناء متصلا، ويكون المعنى أنهم لا يعلمون من علم الكتاب إلا ما يرضى أمانيتهم، ويشع أهواءهم. ويرشح لذلك قوله تعالى من بعد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى إن علمهم ظن، وليس بيقين له مقدمات يقينية ينتج علما يقينيا، وإنما تنتج ظنا، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا، فعلمهم أوهام فى أوهام، وهل تنتج الأهواء التى تنبعث من الأمانى يقينا أو علما صادقا؟.

لقد قال بعض العلماء: إن الأمانى من التمنى، وهو لا يكون إلا كاذبا، ولقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) أى ليس علمهم إلا ما يظنونه علما، وماهم بمتيقنين، وقد أكد الله تعالى قصر علمهم على الظن الذى يتجدد لهم آنا بعد آن، فنفى عنهم العلم وقصره على الظن، أى ما عندهم من علم إلا الظن الذى تدفع إليه أوهامهم، وعبر بالمضارع للإشارة إلى أن ظنهم يتجدد ويستمررون فى أكاذيب يبتدعونها، وظنونا يخلقونها أو يخلقها لهم أخبارهم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

إذا كان من أهل الكتاب أميون لا يعلمون من علم الكتاب إلا الأمانى التى يشبعون بها أهواءهم، ويدخلون بها الكذب والتمويه على نفوسهم، فإن أولئك الأجبار أو العلماء يمالئون نفوسهم من الأكاذيب، ويكتبون بأيديهم ما ليس من الكتاب، ويوهمونهم أنه من الكتاب، وما هو من الكتاب، وفى ذلك رد على الذين يزعمون أن القرآن يقر كل ما جاء فى كتبهم، فهل هو يقر ما يكتبونه بأيديهم، ويقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا؟، كذبوا وبهتوا، وأعظموا الفرية على كتاب الله تعالى.

ولقد أخبر سبحانه أن أولئك الذين يجلسون مجلس العلماء فيهم ينتهزون أن فيهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وأن علمهم ظن والظن لا يغنى من الحق شيئا، فيكتبون الكتاب بأيديهم حاذفين ما شاءوا ويزيدون عليه ما شاءوا، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وقعت فى جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كذلك فويل، والويل الدعوة بالهلاك وترفع عندما لا تضاف كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين] وتنصب إذا أضيفت فتقول: وويل ونفسى على أنها بمعنى المصدر، وتستعمل «وى» منها فى معنى التعجب كقوله تعالى: ﴿وَيَكَاَنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص].

والمعنى أن الهلاك نازل لا محالة بأولئك الظالمين للحق فى ذاته ولأنفسهم الذين يكتُمون ما أنزل الله تبعا لأهوائهم، ويكتبون الكتاب بمحض أهوائهم، ولإثبات ما يريدون إثباته ومحو ما يريدون محوه وكتمان ما يريدون كتمانهم لما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ...﴾ [المائدة] فهم بكتابة ما يكتبون قد أخفوا كثيرا، وقد بينه القرآن الكريم أو بين ما وجب بيانه.

وقوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فيه تأكيد لبيان أنهم هم مصدر الإعلام به، وأنه لا مصدر له من الله تعالى، يضلون به الأميين منهم، ويعلمونه

على أنه من عند الله تعالى، وهم الذين كتبوه وصنفوه، وقد يكون فيه بعض ما جاء عن طريق موسى والنبيين من بعده، ولكنه فى جملة ليس صادقاً فى كل ما كتبوا، ويكون قوله تعالى: ﴿بأيديهم﴾ بيان لأنهم كتبوه حقيقة لا مجاز فيه، وفيه تصوير لحالهم، وهم يكتبون بأيديهم.

هذا الوجه يكون فيه قوله تعالى عنهم: ﴿يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى المكتوب لا إلى التأويلات التى يتأولونها خارجين بالكلام عن مواضعه، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ [آل عمران] أى ليس ما كتبوه بأيديهم من عند الله، وهناك تأويل آخر فى الإشارة فى قوله: ﴿يَقُولُونَ هَذَا﴾ الإشارة فيه ليست إلى المكتوب، ولكن إلى التأويلات التى يحرفون بها الكلام عن مواضعه، ويتجهون به إلى أوهام توهموها، وكذبوا على الحقائق الثابتة، ويكون المكتوب هو كتابهم. والمعنى على هذا: ويل لهم إذ يكتبون الكتاب بأيديهم، ومع أنهم يكتبونه بأيديهم يحرفونه عن مواضعه، ويقولون عن تحريفهم إن هذه التأويلات هى من عند الله، والحقيقة أنه وقع منهم الأمران، فهم كتبوا كتابهم محرفاً زادوا فيه، ونقصوا منه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وعبثوا بحقائقه، وتأولوا ما صدقوا من نقله منه بغير مثأوله.

كان منهم الأمران، وعبثوا بما أنزل الله تعالى عبثاً بينا، وغيروا وبدلوا، وأولوا تأويلات باطلة. وقد علل الله تعالى الباعث لهم بأنه ثمن قليل، وهو أعراض الدنيا، بأن يكون لهم سلطان ورياسة، وأن يكون اختصاص باطل بالنبوة، وأن يمالئوا أهواء الناس، ولقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه: إن الدنيا بحذافيرها ثمن قليل بالنسبة للحق الذى ضيعوه، والباطل الذى ريفوه.

﴿لَيْشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهنا نجد النص الكريم يفرض معاوضة قامت بين أحبار اليهود فى أفعالهم، اشتروا بالبضاعة الثمينة الغالية التى فى أيديهم بأن دفعوها فى نظير ثمن ضئيل هو أعراض الدنيا، أو نقول أن اشترى هنا معناها باع أى باعوا ما فى أيديهم من حقائق أو تمنوا عليها وأخذوا ثمناً قليلاً مهما حسبه كثيراً.

وقد أكد سبحانه وتعالى الهلاك النازل بهم يوم القيامة فقال تعالت كلماته: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩). ومعناها ويل لهم أى هلاك بسبب ما كتبت أيديهم، لأنها بهذه الكتابة حرفت وبدلت وسجلت فى الكتاب هراء وأباطيل، فكانت فى ذاتها إثما، وهذا يرجع أن موضع إفكهم الكتابة الباطلة نفسها لا تأويلاتهم فقط، وويل لهم من الكسب الذى كسبوه من أعراض الدنيا، لأنه سحت فى ذاته، إذ إن ما دفع فى سبيله كان باطلا، وهو أخذ لئال الله بالباطل، وما يكسبونه من جاه أو سلطان أو رياسة أمر باطل؛ لأنه دفع الحق عن سبيله، وإن الله تعالى لا يبارك شيئا أخذ بغير حله، فهو كالاغتصاب لا يطيب لنفسه، وكذلك عد سبحانه وتعالى الكتابة سببا للعقاب الشديد، والكسب الذى كسبوه بالتضليل سببا للويل، وقال تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بالمضارع للدلالة على تجدد ما يكسبون، وكذلك الويل يكون متجدداً مثله، وقد بين سبحانه بعض هذه التأويلات الفاسدة، والتفسيرات الكاذبة، فحكى سبحانه وتعالى عنهم فقال: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾.

هذا القول من التأويلات الفاسدة، وهو مبنى على قولهم نحن أبناء الله تعالى وأحباؤه، وأنهم لا يعذبون، ولكن يُمتَّعون ولا يَأْتَمُونَ ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ قالوا: لن تعذبنا النار إلا أياما معدودة، بل قالوا: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ﴾، كأنهم لا يدخلونها حتى فى هذه الأيام، بل تمسهم ريحها أو نحو ذلك مما يفترى المفترون كما تقول أنت تهديدا بالضرب أو نحو ذلك: لن تلمسنا بيدك قط إلا مساً خفيفاً.

فهم نفوا نفيًا مؤكداً - بلن - أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة تمسهم مساً، ذلك قولهم، وتلك أمانيتهم ومعنى معدودة أنها عدد قليل يعد وليس عددا كبيرا تجاوز الحسبة. وهذا القول يدل على أمرين:

أولهما - بيان أنهم صنف مختار والعذاب والحساب على غيرهم، فهم الذين يحاسبون ويعاقبون، أما هم فهم فوق الحساب، وفوق العقاب.

وثانيهما - الاستهانة بأوامر الله تعالى، وما يكون وراء ذلك من حساب أو عقاب.

ويبين سبحانه أن ذلك الوهم الذى يتوهمونه، ويغترون به ليس له أساس يعتمدون عليه، وأنهم لا عهد لهم بذلك فقال سبحانه: ﴿أَتُخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، وتوبيخهم على فعلهم الواثقين به فى ذات أنفسهم الموقنين به كأن الله عاهدكم، والمعنى أن الله تعالى لم تأخذوا منه عهداً عاهدكم عليه، وهو وحده الذى يملك العقاب ومقداره، بالأل يعاقبكم إلا بهذا القدر، وهو أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة، فالاستفهام يتضمن النفي، ويتضمن التوبيخ لهم على ما هم عليه، ويتضمن التعريض بنقضهم للعهود التى أخذت عليهم والمواثيق التى وثقها وأكدها، ومنها رفع الطور عليهم، وأخذهم ما أوتوا بقوة.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن العقاب يكون على قدر العمل، والثواب يكون على قدر العمل، فلا ينظر فيه إلى الذات، بل الجميع خلق الله تعالى، ولا يريد سبحانه إلا العمل الصالح، والامتناع عن الشر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) [الزلزلة].

ولذا قال تعالى كلماته: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فتضمن الإجابة على قولهم ورده، والإضراب عنه، فالمعنى: تبين كلامكم، وهو باطل مخالف لما شرعه الله سبحانه وتعالى من عقاب وثواب أنه للأعمال من غير نظر إلى الذوات، بل الجميع على سواء أمام الله سبحانه وتعالى، فى الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وذكر العقاب فى الرد دون الثواب، لأنهم اجتروا على الله تعالى فخالفوه، وكفروا بنعمه، وعصوه ظاهراً وباطناً فقال: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾. الكسب العمل الذى يصير حالاً ثابتة قائمة مستمرة، فمن عمل خطأ لا يقال إنه كسبه، ومن عمل إثماً عن جهالة وضلالة ثم تاب من قريب لا يقال إنه كسبه، إنما

يقال إنه كسبه إذا عمل قاصداً مستمرا، حتى يكون له مجرى في قلبه، وينكت فيه نكتا سوداء، فهذا هو الذى يقال له كسب السيئة، والسيئة فيعلة من ساء يسوء سيؤة فهي فى أصلها سيؤة؛ اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء بمقتضى القاعدة الصرفية، والسيئة كل فعل يكون أثره سيئا فى الناس أو فى الجماعة أو فى النفس، فيفسد التقدير، ويكون وبالا، فيظلم نفسه، والناس، ومن حوله.

والخطيئة فعيلة من الخطأ، ولكن هناك فرقا بينهما فالخطأ يقع من غير قصد ابتداء، ولكن لا يتكرر، أما الخطيئة فهي الفعل المقصود الآثم المتكرر الذى يخط فى النفس خطوطا، حتى يصير الذنب عادة له أو كالعادة فيصدر الشر عنه وباستمرار من غير قصد خاص إليه، وكأنه يقع غير مقصود، وفى الحال تكون النفس قد أركست بالشر إركاسا، فالخطيئة حال نفسية للنفس الآثمة التى تمرست بالإثم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أى أن الخطيئة استولت على النفس، وصارت كأنها قبة قد أحاطت بالنفس الآثمة من كل جوانبها .

وفى هذا إشارة إلى أحوال بنى إسرائيل، وأنهم أحاطت بهم خطاياهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى جزاء هؤلاء وهو محقق بالنسبة لبنى إسرائيل ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الإشارة إلى الذين كان منهم كسب العمل الخبيث، وأحاطت بهم خطيئاتهم، واستغرق الشر نفوسهم، فالإشارة إلى الذين فيهم هذه الحال، وقد حكم سبحانه وتعالى بأنهم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقد أكد خلودهم فى النار بأنهم أصحابها أى الذين يلازمونها، والذين حكم عليهم بصحبتها، وأكد سبحانه وتعالى خلودهم فيها بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل هم. وكان تأكيد خلودهم وملازمتهم بالصحة ردا على ادعائهم أنها لن تمسهم إلا أياما معدودة، وأنهم غير مخلصين بل هم أصحابها الخالدون فيها.

وإن الرد على أولئك الذين دلاهم الشيطان بالغرور فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ينتهى إلى هنا إن كانوا يتدبرون ويعقلون.

ولكن سنة الله تعالى فى كتابه الحكيم أن يقرن ببيان العقاب لأهله، وبيان الثواب لمن عمل الخير وداوم عليه لتكون العظة كاملة، فيها جزاء الخير وجزاء الشر، وكل بما كسب رهين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾. وقد ذكر الإيمان فى تأويل بعض الآي الكريمة التى تلونها آثفاً، ومقام العمل الصالح، وقلنا إن الإيمان والإذعان للحق بالإيمان بالله وحده، ورسوله محمد الأمين والرسول أجمعين، والملائكة والجن والغيب كله. وإن الإيمان يستكن فى القلب، والعمل ينميه ويزكيه، وقلنا: إن الإيمان كالبذر الطيب الذى يلقى فى الأرض لابد له من سقى ورعى وجو صالح ينمو فيه ويزكو، ولا يكون ذلك إلا بالعمل بموجب الإيمان، والإيمان من غير عمل كالبذر من غير إنتاج، وإنه يجف بل يموت إن لم يسق بالعمل، ولذلك لا يؤكد القرآن على الإيمان وحده بل يكون معه العمل الصالح، وهو العمل الذى يكون صالحاً مصلحاً للنفس وللناس، فيه استجابة لداعى الإيمان. وكثيراً ما ذكر العمل بوصف الصالح من غير أن يبين ما هو العمل الصالح، وذلك ليضمن كل ما فيه خير للإنسان فى الآحاد، والجماعات والأقاليم، والإنسانية كلها، وذلك مع القيام بالعبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة، وتعاون اجتماعى فى الأسرة والجماعة والدولة، والإنسانية عامة.

وقد قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢). الإشارة إلى الذين آمنوا وعملوا صالحاً أى أنهم متصفون بهذه الصفات، وقد أكد سبحانه وتعالى استحقاقهم للجنة وأنهم خالدون فيها بعدة مؤكدات:

أولها - الجملة الاسمية لأنها تدل على قوة الحكم، وبقائه.

وثانيها - بالملازمة بينهم وبين الجنة بأنهم أصحابها الملائمون. وأكد سبحانه وتعالى الخلود بضمير الفصل الذى يدل على القصر، والله سبحانه وتعالى يعجزى الإحسان بإحسان، وجزاء سيئة سيئة مثلها.

اللهم اجعلنا ممن ترضى عنهم، وإن كنا لا نرجو أن نكون أحسنًا، حتى ننال جزاء الإحسان، ولكن نرجو أن تتغمدنا برحمتك الواسعة التي تسع الذين يؤمنون ويتقون.

الميثاق الإنساني على بني إسرائيل

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر الله تعالى نبيه والمؤمنين بالميثاق الذي أخذ الله تعالى عليهم، وهو ميثاق يصلح نفوسهم، ويهذب جماعتهم ويجعلهم يتألفون فيما بينهم، ويألفهم الناس، ويتألفون، ولكن رضوا النفور بدل الائتلاف، والمنازعة بدل الالتقاء في ظل الرحمة والمودة الجامعة، وإن ذلك الميثاق الذي يذكره الله تعالى لهم هو ميثاق كل الأنبياء.

قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أى اذكروا أيها المؤمنون الميثاق الذي أخذناه على بني إسرائيل، فـ «إذ» تدل على الوقت الماضي، فاذكروا وقت ذلك الميثاق الذي أخذناه عليهم، وذكر الوقت ذكر ما يقع فيه واضحا بينا يتصور وجوده، كأنه موجود قائم وليس متخيلا غير واقع.

هذا ميثاق بني إسرائيل، وهو محكم يشتمل على تهذيب النفس والجماعة الإنسانية كلها، وهو ميثاق النبيين في كل العصور وقد اشتمل على أمور:

أولها: وهو لبها عبادة الله تعالى وحده لا يشرك به شيئا، وقد عبر سبحانه عنه بقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى لا تعبدوا غير الله، فالله وحده هو المعبود

ولا يعبد سواه، والصيغة فى ظاهرها خبرية وهى طلبية بمعنى النهى عن عبادة غير الله تعالى كقوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ...﴾ (١٣٣)، وكقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ...﴾ (٢٢٨) وكقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...﴾ (٢٣٣) والتعبير عن الجملة الطلبية بصيغة الجملة الخبرية فيه إشارة إلى أن الإجابة أمر فطرى طبيعى، وأنه كان الطلب وكانت الإجابة، فعبر بما هو دال على الإجابة.

والتوحيد دعوة النبيين أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣٦) [النحل].

وإن الأمر الثانى - الذى ولى الأمر بالعبادة لله وحده، وهى تطهير النفوس من رجز الوثنية، والأوهام الفاسدة. الثانى - هو ما يتعلق بالأسرة لأن الأسرة قوام المجتمع يقوم عليها بناؤه، فلا يمكن أن يتكون مجتمع فاضل إلا من أسر قوية متماسكة برباط المودة، والمحبة والإحسان الذى هو غاية المحبة، وإن أول رباط فى الأسرة هو رباط الولد بأبويه، بالإحسان إليهما؛ ولذا قال سبحانه بعد الأمر بعبادة الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، والإحسان زيادة فى المعاملة عن المعاملة بالمثل أو بالعدل، وإنه زيادة عن العدل، بل فيه المحبة والرحمة؛ ولذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ (٩٠) [النحل] والإحسان أصله مصدر أحسن، وهو إتقان والإجادة، وبلوغ أقصى الغاية فى الإجادة، فالإحسان فى العبادة أن تبلغ أقصى درجات التجرد لله تعالى بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى الأبوين أن تبلغ أقصى درجات الوفاء لهما فى البر والمكافأة، وأن تزيد فى المعاملة الحسنة، عما كان يكون منهما، احتياطا للرعاية والشفقة، والإحسان إلى الناس أن تعاملهم بالمودة الظاهرة، وإفشاء السلام بينهم فخير الإسلام

أن تقرأ السلام على من تعرف ومن لم تعرف، وإحسان العمل إتقانه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف].

وإن الإحسان إلى الوالدين ابتدأ بهما لأنهما رأس الأسرة، وهما أصل تكوينها، فمنهما تشعب، وتمتد من الأصول إلى الفروع ثم إلى الحواشي؛ ولذلك كان الإحسان واجبا لكل من يربطهم بهما رحم، وذكر الإحسان إلى ذوى القربى، فكان الميثاق الإنسانى العالى الذى أخذه الله تعالى على بنى إسرائيل فقال تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ والقربى مؤنث أقرب، والمعنى أن بعد الوالدين ذو القربى، صاحب القرابة الأقرب مرتبة الأقرب فالأقرب، وذلك يتفق مع ما روى عن النبى ﷺ. وقد سئل: من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك^(١) ثم الأقرب فالأقرب، فمعنى ذى القربى، القريب الأقرب ثم يتوالى الأقرب فالأقرب.

والأسرة فى الإسلام ممتدة، ليست مقصورة على الأبوين أو الزوجين، بل إنها ممتدة تشمل الأقرباء أجمعين، يحسن إليهم الأقرب فالأقرب حتى يعمهم ويبرهم جميعا، ولقد قال ﷺ: «من أراد أن يبارك له فى رزقه، وينسأ له فى أثره، فليصل رحمه»^(٢)، وإن ذلك كله تقوية لبناء الأسرة على التواصل والمودة والرحمة فإن المجتمع الكامل يتكون من أسر قوية وهى لبنة البناء، ولا يتكون بناء قوى إلا من لبنات قوية.

وإن العناية بالأسرة عناية بالجماعة، وإن الوطن لا تتربى محبته إلا فى بناء الأسرة، والنزوع الجماعى، والتربية الاجتماعية هى التى تودع النفس الإنسانية محبة الجماعة وحسن التبادل العادل بينها وإنما يبدأ ذلك بالأسرة، وقد أراد بعض الفلاسفة - وسارت وراءهم بعض النظم - أن يمحوا الأسرة ويربى الأطفال مع غير آبائهم

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب الأدب (٥٥١٤) ومسلم: البر والصلة (٤٦٢١) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْسَأَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيَنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب البيوع (١٩٢٥) ومسلم: البر والصلة والأداب (٤٦٣٩)].

ليكونوا جميعا متممين للجماعة . . فتمت أجسامهم، ولكن من غير عواطف إنسانية فمحووا الأسرة، والجماعة معاً.

الأمر الثالث - أنه قد اتجه الميثاق الإنساني الذي أخذ على بنى إسرائيل إلى الإحسان إلى الضعفاء فقال تعالى: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ واليتيم هو من فقد أباه، فإن الأب هو العائل الكالئ الحامى، ومن فقداه فقد انفرد فى هذا الوجود، والام وإن كانت هى الحانية العاطفة التى تغذيه بأنبال العواطف، لا تحميه، وبالفطرة الأولى لا تعوله؛ ولذلك لا تعوض حماية الأب، وكلاءته.

والمسكين هو الذى أسكته الحاجة، أو المرض المزمن، وإن كلمة المسكين بعمومها تشمل الفقير، لأن الفقير أسكته الحاجة وأذلته، وهؤلاء جميعا الضعفاء، وإنه قد يشمل ابن السبيل أيضاً، وهو الذى ينقطع عن ماله، ويكون فى بلد بعيد عن بلده فهو قد أذلته الحاجة أيضاً.

وفى الحقيقة إن اليتامى والمسكين بهذا العموم هم الضعاف فى الجماعة، ورعاية الضعفاء وقاية لبناء الأمة من الانهيار، وإلا كانوا أشتاتا غير متراحمين، يأكل بعضهم بعضاً. وقده الإحسان على اليتامى وإن كانوا أغنياء على المساكين؛ لأن اليتيم ضعيف، وإن كان كثير المال وهو ذو حاجة وإن كان غنياً، والإحسان إليه أن يقوم القائم عليه بتربيته، وألا يقهره ولا يذله، وأن يضمه إلى عياله.

فإنه إن لم يُحط بالعطف والرعاية والمحبة تربي على النفرة من الجماعة فيكون الشذاذ والكارهون للمجتمعات؛ ولذلك كانت النصوص الكثيرة الداعية إلى إكرام اليتيم، ولقد قال النبى ﷺ: «خير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم، وشر بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم»^(١). فاليتامى إكرامهم فيه تقوية للأمة بإنشاء نشء على الخلق القويم.

الأمر الرابع - بعد إقامة الأسرة ومراعاة الضعفاء فى هذا الميثاق الإنساني الذى أخذ على بنى إسرائيل وليس خاصا بهم دعا سبحانه وتعالى إلى بناء مجتمع

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ». [أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب - باب حق اليتيم (٣٦٦٩)].

إنساني سليم يعم الإقليم والجنس والناس أجمعين فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا﴾ معطوف على لا تعبدون إلا الله، لأنها مرادف هذا الميثاق الإنساني الذي أخذ على بني إسرائيل، وهو يحمل في نفسه موجب تنفيذه، لأنه حقيقة الدين، وهو في أعلى درجات المعاملات، فهل استجابوا وأقروا به، وقد أخذ عليهم بقوة، ورفع الجبل فوقهم ليخضعوا للحق ويدعوا له؟ إنهم أعرضوا عنه؛ ولذا قال تعالى في حالهم بعد أخذه عليهم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

التولى الإعراض الذي تدل عليه مظاهر حسية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ...﴾ (٨٣) [الإسراء] فالأصل فيه أنه إعراض يدل عليه مظهر حسي، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ معناه أنهم تولوا بأجسامهم ونأوا عنه بحسهم، والمعنى أنهم معرضون مقاطعون لمبادئه وهذا تأكيد للإعراض وأنهم تركوه جملة وتفصيلا من غير أن يقبلوا منه شيئا، وقد أكد سبحانه الإعراض بالتصريح بالإعراض مع أن التولى يتضمن معناه، وأكد بالجملة الاسمية، أي أنه مع أنه ميثاق مؤكد، ومعناه قويم ترتضيه العقول وتطلبه - أعرضوا عنه.

والخطاب للذين كانوا في عهد محمد ﷺ ومن سبقوهم؛ لأنهم شاركوهم في ملتهم، واتبعوهم في توليهم، فكانوا صالحين لأن يخاطبوا بما خوطب به أسلافهم، وبيان حالهم وأمرهم.

وإن الله تعالى حكم عدل يحصى عمل الفاسدين، ويسجل خير الأخيار؛ ولذلك استثنى في الإعراض فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ فهم استجابوا لمقتضى الميثاق ولم يعرضوا وكان الحكم بالتولى ابتداء عليهم جميعا، ثم استثنى سبحانه الذين استجابوا ولكن لقلتهم كان الخطاب لهم جميعا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ﴾ التعبير بثم في موضعه من البعد بين الميثاق وما اشتمل عليه من أمور معقولة مطلوبة في حكم الشرع والعقل، ثم يكون من بعد ذلك الإعراض الجافى الشديد منكم، إنه لأمر غريب لو كان من غيرهم.

سفك دمائهم وإخراجهم وأسرتهم

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِآلَاتِهِمْ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومُونَ ﴿٨٥﴾
 إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْهُمُونَا بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ
 وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

إن اليهود قد أصابهم ما أصاب الأمم من تفكك في وحدتهم، فكانوا يتسافكون دماءهم ويمالئ بعضهم جماعات أخرى بينهم وبينهم حرب، فينضم فريق منهم إلى بعض المتقاتلين، وآخرون إلى غيرهم فيقاتل بعضهم بعضا، في ظل العدوين المتقاتلين، وقد أخذ الله تعالى عليهم العهد بمنع سفك دمائهم، وأخذ عليهم العهد بالألا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم، ومع أن ذلك العهد حفظ لجميعهم وحقن لدمائهم ويفرض التعاون بينهم - خالفوه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ كان الميثاق ألا يسفك بعضهم دماء بعض فلا يتقاتلوا ولا ينضموا إلى قوم يقاتلون أحدا

منهم، وعبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ بصيغة الخبر الدالة على النهي وعبر عن القتال بينهم بقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ فنسب السفك المنهى عنه إليهم والدماء إليهم للإشارة إلى الفعل ليعود على جميعهم بسفك الدماء، وإهدار الأنفس، لأنه إذا كان القاتل والمقتول من أسرة واحدة، فقد قتلت نفسها، وسفكت دمها، وأهدرت أهلها.

ومنع سبحانه وتعالى أن يخرج بعضهم من دياره، وعبر عن ذلك المنع بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ فالخبر هنا فى معنى النهي عن ذلك، والتعبير عن إخراج البعض بأنه إخراج لأنفسهم بيان الاجتماع على أن يكونوا أمة واحدة متآزرة بحيث تكون إصابة عضو منها إصابة لجميعها، فأخراج بعضهم لبعض إخراج لكلهم إذ يفرق جمعهم، ولأنه يطمع فيهم أعداؤهم، فيخرجهم جميعا، فأخراج بعضهم سهل إخراج كلهم.

وإن هذا الميثاق قد أخذه الله تعالى عليهم وأقروا به وشهدوه؛ ولذا قال تعالى موثقا ذلك الميثاق بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقَرَّرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) أى أنتم الحاضرون أقررتهم ما أخذ على أسلافكم من هذا الميثاق، وأنتم تشهدون مؤمنين بصدقه.

وكان الخطاب فى الإقرار والشهادة للذين عاصروا النبى ﷺ لأنهم الذين نقضوا العهد ظاهرا، وهم الذين سفكوا دماءهم، وهم الذين أخرجوا فريقا منهم، وإن كان الاحتمال بأن ذلك حصل من بعضهم فى الماضى ليس ببعيد فقد تشابه فى مخالفة الميثاق الخلف مع السلف، وهم جميعا فى إثم مبين، وعدوان ظاهر.

وإذا كان ذلك الميثاق حفظا لوحدهم ولجميعهم فقد نقضوه، وقتل بعضهم بعضا، وأخرج فريق منهم الآخر من داره، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ العطف هنا بثم للبعد المعنوى بين الميثاق الذى أخذ عليهم وأقروه بالاستتهم وشهدوا عليه بقلوبهم، وبين الحال التى وجدوا فيها من أنهم قتلوا أنفسهم بأن تقاتلوا فيما بينهم سواء أكان قتالهم لأنفسهم

بأنفسهم، أم كانوا قد انضم فريق إلى قوم عدو لقوم آخر وتقاتل الإسرائيليون مع أنفسهم في ظل آخرين، وكان كل فريق من اليهود يعاون من يظاھرہ من أهل الشرك على قومه بالإثم والعدوان، وفي ذلك سفك دمائهم.

وإن ذلك التعاون مع آخرين متعادين اقتضى أن يخرج فريق منهم من ديارهم، وذلك لأجل القتال الذي انضم فيه كل فريق من اليهود إلى فريق المشركين المتقاتلين؛ ولذا قال تعالى كلماته: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

روى عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية: أنبأهم الله تعالى بذلك من قبل وقد حرم عليهم سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير وقريظة وهم مع الأوس فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاھر كل واحد من الفريقين حليفه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما لهم وما عليهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا نارا ولا حلالا ولا حراما، ولا بعثا ولا قياما ولا كتابا.

وخلاصة هذه الرواية عن ابن عباس الذي سماه التابعون ترجمان القرآن: أن سفك اليهود لدمائهم كان في العصر القريب للهجرة عندما كانت الحرب مشبوبة بين الأوس والخزرج، وكانوا على شفا حفرة من النار، كما أخبر القرآن العزيز، وأن اليهود لم يقفوا محايدين كما هو واجب الجوار بل تدخلوا ليوسعوا شقة الخلاف ويؤرثوا نيران الحرب لتستمر مستعرة فكان مع الخزرج بنو قينقاع، وكانوا حلفاء لهم، ومع الأوس النضير وقريظة، فتقاتل الفريقان كل في صفه، وأخرج كل فريق الآخر من داره، فكان هذا نقضا للعهد الذي أقروه وصدقوه وشهدوه.

وعلى ذلك يكون الخطاب في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ لليهود الذين عاصروا النبي ﷺ والإشارة إليهم، وكانت الإشارة مع الخطاب لبيان الصفات القائمة فيهم، فالعنى أنتم ترون أنكم تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم.

ومن الغريب أنهم كانوا يتقاتلون غير متأثمين، ولا متحرجين من أن يقتل بعضهم بعضاً، ويخرج فريق الآخر من داره ومع ذلك إذا وقع أحدهم في أسر من أى الفريقين فادوه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتَوْكُمْ أُسْرَىٰ تَفَادَوْهُمْ﴾ إنهم يظهرون على إخوانهم بالإثم والعدوان، ومع ذلك إذا جاءوكم مأسورين دفعتم فديتهم لتفكوا عنهم، للذين كانوا سبياً في أسرهم، وشدوا الوثاق عليهم، فلو أن الفريق الذى تحاربون معه أسر أسرى من اليهود الذين يعاونون خصمه، وجاء إليكم هؤلاء الأسرى فإنكم تدفعون فديتهم لحليفكم الذى أسرهم، وهذا غريب متناقض . . أولاً: لأنكم جعلتموهم مُقاتلين وسفكتم دماءهم وقتلتموهم فكيف تحمون حريتهم وأنتم الذين أخرجتموهم للقتال بسبب مناصرتكم لحلفائهم، ومناصرتهم لحلفائهم؛ ولذلك يقول تعالى تنديداً بحالهم وتناقضهم: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

ومعنى ﴿تَفَادَوْهُمْ﴾ أى تدفعون دياتهم؛ لأن فدى ويفادى تدل على أحد معنيين إما أخذ الفدية ممن يدفعها أو دفعها، وتفسر هنا بمعنى دفعها؛ لأنه المناسب للمقام من حيث وقوعهم فى التناقض فى أوامر دينهم وميثاقهم فهم قد أخرجوا إخوانهم للقتال ومع ذلك إذا وقعوا فى الأسر قدموا فديتهم اعتماداً على نص عندهم يقول: (إذا رأيت أخاك الآخر مملوكاً فأخرجه من رقه) وبالتالي إذا رآه مأسوراً أخرجه من أسره وإنه كان عليه ألا يكون سبياً فى إخراجهم، وإنه محرم عليه إخراجهم فلا يكون سبب الرق لذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ والحال والحكم الثابت المبين أنه محرم عليكم أن تخرجوهم، فإذا كان محرماً عليكم ألا تتركوهم أسرى، فإنه من المحرم عليكم قبل ذلك ألا تخرجوهم فيكون ذلك سبب الأسر.

ولذلك قال تعالى مستنكراً حالهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر، تقديره إذا كانت هذه حالكم فأنتم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، والهمزة للاستفهام قدمت على الفاء لأن الاستفهام له الصدارة دائماً.

والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع لأنهم بعملهم هذا يؤمنون ببعض الكتاب وهو تحريم البقاء على الأسر، ويكفرون ببعضه الآخر، وهو تحريم سفك دمهم، وإخراجهم من ديارهم للقتال، فهو استفهام لإنكار الواقع، ولومهم عليه، ويبان أنه تناقض فى إيمانهم يتفنون ما يكون هواهم فى تنفيذه، ويجحدون بما لا يكون لهم هوى فى تنفيذه فاتخذوا إلههم هواهم.

وإن هذا يؤدى إلى هوانهم وذلهم ووصفهم بالعار الدائم؛ ولذا قال سبحانه ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخزى: الهوان والعار والذلة، والفاء للترتيب، فإن الأمر الذى يترتب على تسليم أنفسهم لسفك دمائهم وإخراجهم من ديارهم يترتب عليه خزيهم بتسليم أنفسهم، وعار لخيانتهم لأقوامهم، ووراء ذلك كله الذلة وهوان أمرهم بين الناس، وإن ذلك جزاء مأخوذ من العمل فى ذاته، ولذلك بين القرآن الكريم أنه لا جزاء سواه، وذلك بالنفي والإثبات بالاستثناء، أى: أن الذين يفعلون ذلك الفعل لا جزاء لهم إلا العار والذلة والمهانة، وإذا كان ذلك هو المتعين جزاءً فهو من العفل فى ذاته؛ ولذلك كانت الإشارة إليه فى قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة أن الفعل ذاته هو العلة.

والحياة الدنيا هى الحياة الحاضرة، وسميت الدنيا، فهى مؤنت أدنى؛ لأنها القريبة المرئية المحسوسة، والحياة الآخرة هى الحياة الحقيقية الدائمة التى تكون سعادة دائمة، أو شقوة مستمرة.

وإذا كان ذلك جزاء فى الدنيا، فجزاء الآخرة أشد وأبقى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ ويوم القيامة هو يوم الحساب والعقاب أو الثواب، بعد البعث والنشور، وقوله تعالى: ﴿يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ يفيد بإشارة اللفظ إلى أنه مرجعه إلى عذاب سابق، فالخزى عذاب دنيوى نتيجة لفعلهم، وهذه هى الدفعة الأولى، ويردون بعد ذلك إلى أخرى يوم القيامة فيها أشد العذاب وأكمله.

وقد بين سبحانه وتعالى أن حسابهم عند الحكيم العليم الذى لا يخفى عليه شئ، ولا يغفل عن شئ؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥)

نفى الله تعالى بهذا النص السامى نفيا مؤكدا أن الله غافل عما يفعلون، فإذا كانوا هم ينسون ما يفعلون من آثام لاستمرارهم لها، واستمرارهم عليها، فالله تعالى لا ينساها، وقد أكد سبحانه نفى ذلك بالباء فى قوله تعالى: ﴿بِغَافِلٍ﴾ وينفى وصف الغفلة عن ذاته العلية، بأن الغفلة ليست من شئونه، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى إحصائه سبحانه وتعالى أعمالهم حال عملها وحال تلبسهم بآثامها.

تنبيه: هذه الآيات نزلت فى بنى إسرائيل، والخطاب لهم ابتداء، ولكنه شامل عام فى عبرته بالنسبة للأمم جميعها، وخصوصا الأمم التى تقوم على مبادئ رسالة إلهية من السماء، فإنها يجب أن تكون بناء واحدا قائما لا تتداعى لبناته فيهبى، والنبي ﷺ قال فى أمته: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١). وأوجب الإسلام على المسلم أن يعين أخاه المسلم فى شدته وكربته، فقال: «من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته»^(٢)، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يُسلمه»^(٣) ومع ذلك فعلنا الكثير نحن المسلمين فى عصرنا، وهو امتداد لعصور قبلنا من العصر العباسى الثانى إلى اليوم، سفكنا دماءنا بأيدينا لهوى الملوك، وفساد الحكام، فكانت الحرب بين المسلمين شديدة لُحِيَّة، وصار كل فريق يرى فى الآخر عدوه الذى ينتهز الفرص للقضاء عليه، وصار بعضهم يغرى أعداء الإسلام من الوثنيين وغيرهم بالمسلمين، حتى وقعوا بالمسلمين وحاربوهم حرب إفناء.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الأدب (٥٥٥٢) ومسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٨٥) واللفظ له، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة». [متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب المظالم والغصب (٢٢٦٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٧٧)].

(٣) انظر السابق. وروى أحمد عن ابن عمر أن النبى ﷺ كان يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله»، ويقول: «والذى نفس محمد بيده ما تواد اثنين ففرق بينهما إلا بذنب يُحدثه أحدهما»، وكان يقول: «للمرء المسلم على أخيه من المعروف ست: يشتمه إذا عطس، ويعوده إذا مرض، وينصحه إذا غاب، ويشهده ويسلم عليه إذا لقى، ويحييه إذا دعاه، ويتبعه إذا مات، وتهى عن هجرة المسلم أخاه فوق ثلاث» [مسند الكثرين (٥١٠٣)].

ولقد كانت الأرض الإسلامية تُلْتَهَمُ قطعة قطعة، وفي المسلمين أقوياء لا يرون للدين حقا عليهم يوجب أن ينقذوا إخوانهم من المؤمنين، فقد كان النصارى يعذبون المسلمين حتى أفنواهم فيها، والأتراك من النظارة الذين ينظرون ولا يتحركون.

وجاء العصر الأخير، فرأينا أعداء الله وأعداء الإسلام يجندون من المسلمين من يحاربون المسلمين، ووجدنا من الذين يتمسحون باسم علماء الدين من يؤيدون محاربة المسلم للمسلم، ووجدنا في السنين الأخيرة من الحكام من يقتل المقاتل العظيمة في المسلمين من رعيته، حتى يلجئهم إلى الوثنيين لينقذوهم، وتذهب جماعات إسلامية، وقتًا بعد آخر ووجدنا بيت المقدس يخربه اليهود ويستولون عليه، ووجدنا من الملوك من يؤيدونهم... اللهم لاحول ولا قوة إلا بك وأنه ينطبق علينا قولك الحكيم: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥).

وإن أولئك الذين يسفكون دماءهم، ويخرجون أنفسهم من ديارهم باعوا آخرتهم بدنياهم، وكانت الحياة الآخرة هي الثمن للدنيا التي اشتروها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦) الإشارة إلى الذين سفكوا دماءهم وأخرجوا أنفسهم من ديارهم، ونقضوا موثيق الله التي جاءتهم بالأحكام التكليفية، والإشارة إلى الموصوفين بصفات تشير إلى أن هذه الصفات هي سبب الحكم الذي يقترون باسم الإشارة، أي أن هؤلاء بسبب أوصافهم قد اشتروا الحياة الدنيا بثمن هو أغلى الأثمان، وهو الآخرة، ولكننا نجد أنهم خسروا في الدنيا؛ لأنهم لحقهم الخزي والعار، وفسدت نفوسهم، حتى صارت كالقردة والخنزير، وإن ذلك حق، ولكنهم فهموا الدنيا متاعا يستمتعون به كالحیوان فاشتروا هذه الدنيا التي رعموها، وتركوا الآخرة فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومع أنهم طلبوا الحياة، وتركوا الآخرة لم ينالوا ما طلبوه طيبا، بل أخذوه ذليلا مهينا، مصحوبا بالخزي، ولكنهم يريدون الحياة الدنيا على أية صورة كانت، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، وإن جزاءهم في الآخرة التي تركوها وباعوها،

قال الله تعالى فيهم: ﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ الفاء فاء الإفصاح التي تفيد ترتب ما بعدها على ما يفهم مما قبلها، أى أنه بسبب تلك المبادلة الخاسرة التي خسروا فيها الآخرة لا يخفف الله تعالى عنهم العذاب الشديد الذي يستقبلهم؛ لأن أسباب التشديد من التقاطع والتناذب والحسد والجحود قائمة، ولا مسوغ للتخفيف قط، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، فلا ترى من نبي ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم لأنهم عدموا الشفعاء، وقتلوا النبيين.

استكبارهم على الرسل

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ
بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ذكر الله تعالى المواثيق التي أخذها على بنى إسرائيل، وكيف نقضوا ميثاقا بعد ميثاق حتى ما يتعلق بسلامة جماعتهم، وحمايتهم لأنفسهم. بعد ذلك، ذكر استقبالهم للرسل، وكتبهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، الكتاب الذى أنزله الله على موسى هو التوراة، وليس هو الذى يطلقون عليه اسم التوراة، أولاً: لأنه يشتمل على أخبار الأنبياء من بعده داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء الذى جاءوا من بعده، فلا يمكن بالبداهة أن يكون قد نزل على موسى ما جاء بعده من أخبار نبيين جاءوا من بعده بمئات السنين، وثانياً: لأنهم حرفوا وغيروا وبدلوا ونسوا حظا كثيرا مما نقل إليهم، ولا يزالون يحرفون، ويغيرون ويبدلون، ويعبثون. وإن الكتاب الذى نزل على موسى هى الأسفار الخمسة، وقد حرفوها وغيروا وبدعوا، ولا يزالون يفعلون. أتى الله تعالى موسى عليه السلام

الكتاب الصادق، الذي هو حجة عليهم، وليس ما بأيديهم حجة لهم لأنهم كتبوه بأيديهم ليشتروا به ثمنًا قليلاً ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

﴿٧٩﴾

وإن الله تعالى أرسل الرسل من بعد موسى، ليؤيدوا ما دعا إليه في الكتاب الذي نزل عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أى جاء بعده رسل تترى، رسولاً بعد رسول، فمعنى قفينا أرسلنا رسولاً وراء رسول وراء رسول لأن التقفية التتابع بحيث يكون كل رسول فى قفا الرسول الآخر وراءه، ومعنى هذا التتابع أن يكون الجميع على نمط واحد، وغاية واحدة، فإن الخط المستقيم المتتابع فى نقطة ينتهى إلى نقطة واحدة، وهى الوجدانية، والتكليفات الإلهية الواحدة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى].

ولقد ذكر بعد ذلك عيسى عليه السلام، وقد بعث فى اليهود، أى كانت دعوته الأولى فى اليهود، ومعه المعجزات الباهرة فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ذكره سبحانه وتعالى فى ضمن الرسل الذين تتابعوا من بعد موسى، وفقاهم الله تعالى به، رسولاً بعد رسول، فهو رسول من بينهم، ولكن اختصه تعالى ببيّنات أى معجزات حسية باهرة قاطعة فى الدلالة على رسالته، ولكنهم كفروا، وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه البيّنات فى آيات أخرى من القرآن، منها ما جاء فى سورة آل عمران، فقد قال تعالى مبشراً مريم بولادة المسيح عليه السلام، وهى مستغربة أن يكون من غير أب: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ

الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ [آل عمران].

هذه بعض البينات، وذكرت بينات أخرى في سورة المائدة منها أنه يأذن الله يرُدُّ الحياة إلى الموتى، والفاعل هو الله تعالى وأجرى الإحياء على يد عيسى عليه السلام، وأنه ينادى الموتى من قبورهم فيخرجون بإذن الله تعالى العلى القدير، وأنه نزل عليه مائدة من السماء، فكانت آية أخرى.

وفى هذا المقام لابد من ذكر أمرين:

أولهما - أن اليهود كفروا بهذه الآيات البينات، ولم يذعنوا للحق وحاولوا قتل المسيح عليه السلام، وأرادوا أن يكون فى عداد النبيين الذين قتلوهم، ولكن الله تعالى حماه منهم، وادعى النصارى الذين جاءوا بعد المسيح عليه السلام أنهم قتلوه لأوهام توهموها، وأكاذيب اخترعها بولس الذى كان له عدواً مبيهاً.

الأمر الثانى - وهو لماذا كانت هذه البينات الخارقة للعادة للمسيح من بين سائر النبيين؟ وإن كان لمحمد ﷺ ما هو أجل وأعظم، وجاء مثلها على يديه، ولكنه لم يتحدَّ بها، بل تحدى بالقرآن العظيم الخليفة كلها فى كل أجيالها، ولا يزال يتحدى العصور إلى اليوم.

كانت معجزات عيسى أو بيناته كما عبر القرآن الكريم من هذا النوع؛ لأن اليهود ما كانوا يؤمنون إلا بالمادة ولا يعترفون بالروح فى كتابتهم، ولا فى دراساتهم الدينية فى العصر الذى بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فيه ولا العصر الذى قارنه وسبقه، فكان لابد من أمر روحى يقرع حسهم وحالهم المادى فكان خلق عيسى عليه السلام، وكان أمراً خارقاً للعادة مبطلاً سلطان المادة، وكانت المعجزات كلها من الناحية الروحية فهو يخبرهم بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم، وهو يرى الأكمه والأبرص وهو ينفخ فى الطين فيكون طيراً، وهو يحيى الموتى، وهو يخرج الموتى من قبورهم بإذن الله تعالى، والله تعالى ينزل المائدة فيأكلون

منها، كما كان ينزل المن والسلوى على بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر، وهم يعيشون فى سيناء.

هذا بالنسبة لبنى إسرائيل خاصة، أما بالنسبة للعقل البشرى عامة الذى عاصر المسيح عليه السلام، وكان فى القرون التى قبلها، فهو أنه عصر الفلسفة الأيونية التى تولدت منها الفلسفة اليونانية، وقد كان هذا العصر تسوده فلسفة الأسباب والمسببات فلكل شىء سبب عادى، وكل سبب هو سبب لشىء وأتبع سبباً، فالوجود كله يؤثر بعضه فى بعضه، فالولد يكون من أب وأم، يُكوّن من أصلاب الآباء وبطون الأمهات، والأبرص والأكمه لا يشفيان، ولا يمكن أن يعود الميت حياً، ولا أن يخرج الأموات من قبورهم، وهكذا فكان لابد من قوارع تبين أن الأسباب والمسببات من الله، الله تعالى أبدعها بديع السموات والأرض، وهو يغيرها، وهو الفعال لما يريد.

لقد تناولوا حتى قالوا: إن الوجود منشأ من موجدته بنظام الأسباب والمسببات، فهو وجد منه وجود المعلول من علته، فهو ليس مختاراً حتى فى وجوده، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فهو القادر المختار المريد العليم السميع البصير، ليس كمثله شىء وهو فعال لما يريد.

كانت معجزات عيسى عليه السلام قاطعة فى إبطال الأسباب العادية والمسببات ولوازمها، فتعالى الله، وتقدس ذاتة وتنزهت صفاته.

وما يدعى من أن عصر عيسى عليه السلام كان عصر علم الطب لا يؤيده التاريخ، بل كان اليهود الذين بعث فيهم عيسى وخاطبهم برسالته ومعجزاته كانوا أجهل الناس بالطب كما حكى عنهم الفيلسوف المسيحى رينان فى كتابه.

أيد الله تعالى المسيح عليه السلام بالبينات الباهرة، ولكن بنى إسرائيل كفروا بها، وأيده عليه السلام بروح القدس، فقال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وروح القدس هو جبريل رسول الله تعالى إلى رسله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾ (٥١) [الشورى] فالرسول

الذى يرسله الله تعالى إلى رسله هو الملك جبريل عليه السلام، وقال حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء]، وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الوصف، أى الروح القدس أى الطاهر وقد وصف بالأمين، كما ترى فى الآية التى تلونا، وليس إلهها، ولا ثالث ثلاثة كما قال الذين لا يؤمنون إلا بالأوهام، وهم النصارى الذين يتبعون بولس عدو المسيح، ولا يتبعون المسيح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

كفر بنو إسرائيل بالمسيح عليه السلام، وقد أتى بهذه البينات القاهرة، ولكنهم كفروا استكبارا عن اتباعه عليه السلام، ولأن ما جاء به يخالف أهواءهم فهم يريدون الرسول داعيا إلى ما تهوى أنفسهم، والكفر ملازم لكل من جعل إلهه هواه، فهو يدين لكل ما يتبع أهواءهم، ولا يدينون دين الحق الذى يقوم الدليل على صحته، وأنه من عند الله؛ ولذلك قال الله تعالى فى بنى إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

والهوى هو الميل إلى الشئ بالانحراف، ويسمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى الباطل من كل شئ فهو يهوى إلى الخلق الفاسد، وإلى الضلال، ومن بعد ذلك يهوى به إلى النار.

وإنهم يرفضون طاعتهم للحق إطاعة لهواهم ولكنهم يسترون ذلك بالاستكبار، واستصغار الحق ومن يدعو إليه مستعلين عليه، كأنهم هم وحدهم، حملة الرسالة الإلهية ولا يحملها سواهم، لأنهم أبناء الله وأحباؤه؛ ولذلك كانوا مستمرين فى غوايتهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من حكم على ما كان قبلها من كفر متوالٍ مستمر، والهمزة للاستفهام وهو لإنكار الواقع الذى هم فيه،

وكلما شرطية تدل على تكرار الفعل وهو الجواب إذا تكرر الشرط، والمعنى يتكرر منكم الاستكبار كلما جاء نبي من الأنبياء بما لا تهوى ولا تحب أنفسكم، وإن ذلك توبيخ لهم لحاضرهم وماضيهم على سواء، لأنهم فى الباطل أمة واحدة، يتبع خلفهم سلفهم، ويدين آخرهم بما يدين به أولهم، فهم جميعا يستكبرون عن الحق، وحالهم مع النبي ﷺ هو حال أسلافهم مع أنبيائهم، فهم استكبروا عن إجابة النبي ﷺ لأنه ليس من بنى إسرائيل ولأنه لم يجئ بما تهوى نفوسهم.

وإنهم إذ يستكبرون يرتبون من ماضيهم على الاستكبار إما التكذيب المجرد، كما كانوا يفعلون مع الأنبياء، وكما فعلوا مع عيسى عليه السلام، إذ حاولوا قتله، فأنجاه الله تعالى منهم، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله تعالى إليه، وإما التكذيب المقرون بالاعتداء الآثم؛ ولذا قال تعالى فيما ترتب على الاستنكار: ﴿فَفَرِّقُوا كَذِبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ﴾.

فالفاء للترتيب، أى ترتب على الاستكبار الآثم أن كذبتهم، وأن زدتم على التكذيب القتل، كما فعلتم مع يحيى وزكريا عليهما السلام، وكما حاولتم أن تفعلوا مع عيسى فرد الله تعالى كيدهم فى نحوركم.

وقد عللوا تكذيبهم للأنبياء الذى دفع إليه استكبارهم بقولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وغلف جمع أغلف وهو ما عليه غلاف أى غطاء يمنع وصول ما يدعو إليه الرسول إلى قلوبهم، وهو كقوله تعالى حكاية عن أمثالهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ...﴾ [فصلت] وذلك لأن الهوى إذا سيطر سد مسامع الإدراك الصحيح فيكون لهم قلوب لا يفقهون بها، فهم لا يدركون، وهم إذ يحكمون على أنفسهم ذلك الحكم، فهو صادق فعلى قلوبهم غلاف من الهوى سد معرض عن الحق، وهم يقولون ذلك القول مصرين على التكذيب؛ ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أى طردهم سبحانه وتعالى من رحمته، وهو حكم تقريرى، مثبت لغلف قلوبهم، والإضراب فى قوله تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ﴾ إضراب عن قبول اعتذارهم، ورده عليهم بأن هذا طرد لهم من رحمة الهداية إلى كفر الغواية.

ويفسر ابن عباس رضى الله تبارك وتعالى عنهما معنى قولهم فى قلوبنا غلف «إن قلوبنا ممتلئة علما لا تحتاج إلى علم جديد يأتى به الرسول محمد أو غيره، وقرأ ابن عباس غُلف جمع غلاف، والمعنى أن قلوبهم امتلأت علما حتى الكظة ووضع عليها غلاف محكم يمنع أن يخرج العلم، ويمنع أن يدخل إليه غيره، وهو تعبير تصويرى ويتفق معه وصف استكبارهم، ويكون معنى: ﴿بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ لعناهم، وطردها، فالإضراب فى «بل» رد لادعاء العلم بالنبوات، بل هو غرور راکز فى نفوسهم منعهم من إدراك الحقائق الدينية، والرسالات الإلهية التى انتهت برسالة خاتم النبیین محمد ﷺ^(١).

وإن ذلك متفق مع قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء].

وقد رتب الله تعالى على تغليف قلوبهم ووضعهم الغطاء المانع من دخول الحق إليها، فقال تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [٨٨] الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى أنه ترتب على تغليف قلوبهم عن الحق ألا يؤمنوا به، و «ما» فى النص السامى الكريم للدلالة على القلة الشديدة، والمعنى قليلا أى قلة يؤمنون، والعلة واضح أنها فى العدد لا فى الإيمان، فالإيمان لا يتجزأ إلى قليل أو كثير، فهو كامل دائما، أو هو الإذعان للحق بعد تصديقه، وذلك لا يكون إلا كاملا، فالقلة والكثرة فى عدد المؤمنين لا فى مقدار إيمانهم، فالمعنى بسبب تغليف قلوبهم لا يؤمن إلا عدد قليل وقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ إن قليلا وصف لمصدر محذوف تقديره: إيماننا قليلا أى (قلة يؤمنون) والقلة كما أشرنا ليست فى أصل الإيمان، بل فىمن اتصفوا بالإيمان، لأنهم يكونون عددا قليلا، ومصدق ذلك قوله تعالى فى أهل

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ رَأْوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْوِفُونَ بِهِ وَيَعْبَجُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ قَالَا اللَّيْنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ». [متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب المناقب (٣٢٧١) ومسلم: كتاب الفضائل (٤٢٣٩) وغيرهما].

الكتاب: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة] وقوله تعالى في أهل الكتاب السابقين على رسالة محمد ﷺ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [١١٤] وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران].

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَبِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

ذكرهم الله تعالى بأعمال سلفهم مع الأنبياء بصورة عامة، ثم بدأ سبحانه وتعالى أعمالهم مع النبي ﷺ بصفة خاصة، وهى فى ذاتها أشد كفرا عما كان من أسلافهم مع الأنبياء السابقين، ولذا كان الخطاب متصلا بخطاب أسلافهم، فأسلاف أخذ عليهم الميثاق لا يعبدون إلا الله، وأسلاف أخذ عليهم الميثاق ألا يسفكوا دماءهم وألا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، خطوب أسلافهم بذلك، وكان الخطاب موجها

لهم، والميثاق فى رقابهم ولذلك ندد بقتلهم أنفسهم، وإخراجهم فريقا منهم من ديارهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أخبر سبحانه وتعالى أنهم جاءهم كتاب، وهو قد جاء مع رسول من بنى إسماعيل عليه السلام بهذا الكتاب، فذكر الكتاب، وهو يقتضى أن يكون مع رسول، فأعلم بالكتاب لأن الأمر أنه كتاب يشتمل على الموائيق مثل الموائيق التى أخذت عليهم، ونقضوها، فهو ميثاق جديد للموائيق التى جاءتهم من قبل، ولم يذكر اسم الرسول؛ لأن الاعتبار لهذا الكتاب الذى وصفه الله تعالى بوصفين أنه من عند الله تعالى، وما يكون من عند الله جدير بأن يتقبلوه بقبول حسن، وأن يأخذوه بمأخذ الطاعة لأوامره ونواهيه، والوصف الثانى أنه مصدق لما معهم فهو مصدق لما جاء فى التوراة من وصف للنبي ﷺ، ومصدق للموائيق التى أخذت عليهم من ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا، وأن يحسنوا إلى الأبوين وذوى القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأن يقولوا للناس حسنا من القول، ويترتب على ذلك المعاملة الطيبة، وإن هذا النبي الذى جاء معه الكتاب الذى أنزله الله تعالى، وهو مصدق لما معهم من أوامر ونواهٍ وموائيق أخذت عليهم بقوة - قد كانوا يعلمون بمجيئه ويتوقعونه.

ومعنى تصديق الكتاب لما معهم أنه تصديق لما معهم من كتاب كانوا يكتبونه بأيديهم، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، حتى يجيء بعض البهتانيين الكاذبين من دعاة نصرانية بولس، فيقولون إن القرآن صدق ما بأيديهم من محرف التوراة المحرفة والمنحرفة والإنجيل المحرف، إنما صدق القرآن الأوامر الأصلية مما اشتمل الموائيق التى أخذت عليهم بقوة، ولم يصدق الذى حرفوه ولا المنحرف عن الحق والخلق المستقيم، كالذى اشتملت من أن نبي الله داود زنى بحليلة جاره، وأرسله إلى الميدان ليخلو له وجه عشيقته، ذلك إفك بين لا يليق بأخلاق نبي جعله الله تعالى خليفته فى الأرض ولا يليق بذى خلق كريم، فهل هذا ما صدق به

الكتاب ما معهم، ذلك هو الضلال البعيد، ولن يكون فى كتاب منزل من عند الله، ولا يدعى إلا الذين هوت نفوسهم إلى مثل هذا الخضيض الأوهد من الأخلاق.

وإن اليهود الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ كانوا يعلنون أنه سيكون نبى، وأنهم يتوقعون أن لا يكون منهم كما ذكر من قبل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ السين والتاء للطلب أى يطلبون الفتح، والفتح هو النصر كما فى قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ...﴾ [المائدة ٥٢] وأطلق الفتح على النصر العادل، لأن النصر يفتح الطريق أمام الحق، وقد بشر الله تعالى بالنصر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ٢ وينصرك الله نصراً عزيزاً ٣﴾ [الفتح].

كان اليهود إذا كانوا فى حرب مع المشركين ممن يجاورونهم فى المدينة يطلبون النصر بالنبى الذى حان حينه وحل، أوانه ويحسبون أنه سينصرهم على المشركين؛ لأنه سيجىء بمحو عبادة الأوثان وتحطيمها.

روى محمد بن إسحاق بسنده عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم: قال: فىنا والله وفيهم، (يعنى فى الأنصار واليهود الذين كانوا جيرانهم) نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ كنا قد علوناهم قهراً دهرًا فى الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبيا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله، وكان من قريش آمنا به واتبعناه وكفروا به.

ولم يكن ذلك الاستفتاح بين اليهود من بنى النضير وجيرانهم فى المدينة، بل كان بين اليهود، وغيرهم فى داخل الجزيرة، يروى ابن عباس رضى الله عنهما أنه كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هُزِمَت يهود خيبر فدعت بهذا

الدعاء. وقالوا : إنا نسألك بحق النبي الأُمى الذى وعدتنا أن تخرجه إلا تنصرنا عليهم» فكان إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان .

كان معروفًا عند اليهود ذلك النبي محمد ﷺ، يستفتحون به ويدعون الله بحقه أن ينصرهم، ولكنهم كسائر أسلافهم يتبعون أهواءهم، فلما جاء من غير قبيلهم أنكروا معرفتهم، وادعوا أنه لا ينطبق عليه أوصاف من كان يستفتحون به، وهم كما قال الله تعالى : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ...﴾ (١٤٦) [البقرة].

ولذا قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾، الفاء للترتيب أي أنهم مع هذا الاستفتاح ترتب نقيضه وهو أنهم لما جاءهم الذي عرفوه جحدوه وكفروا به، فهم رتبوا على الشيء نقيضه وبدل أن يذعنوا للحق الذى عرفوه أنكروه وكفروا به، وهكذا شأنهم هم وأسلافهم دائما يعرفون الحق ويكفرون به، عرفوا باطل فرعون ومع ذلك اتخذوا العجل .

عبر قوله تعالى عن إدراكهم للنبي ﷺ وعلمهم به بأنهم عرفوه، والمعرفة هي العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل، ومع ذلك كفروا به، فكانوا مطرودين عن رحمة الله، والحق الذى جاء به النبيون، ولذا قال تعالى : ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الفاء للإفصاح، إذ تفصح عن شرط مقدر مؤداه إذا كانوا قد كفروا بما عرفوا واستيقنوا فلعنة الله تعالى عليهم، وأظهر فى موضع الإضمار للتصريح بأنهم صاروا فى عداد الكافرين، وخرجوا عن دائرة المؤمنين الذين يؤمنون بأى شئ فى كتابهم فهم قد كفروا بكتابهم وبما عندهم واللعنة هي الطرد، ووراء الطرد المذلة، وإن كفرهم هو السبب فى طردهم وذلتهم.

﴿يُسْمَأُ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بشس من أفعال الذم كنعم من أفعال المدح، ويكون معها تمييز ثم يعقبه المخصوص بالذم أو المدح كأن تقول: نعم محمد رجلا، ف «رجلا» تمييز

ومحمد المخصوص بالمدح أو الذى يُمدح . وقد تكون «ما» هى التمييز فتكون نكرة تامة بمعنى شئ مذموم .

فـ «ما» - هنا على ما يخرجها النحاة نكرة موصوفة بالذم - لما اشتروا به أنفسهم - ويكون المعنى بثس شيئاً مذموماً، والمخصوص بالذم هو أن يكفروا بما أنزل الله بغياً . . إلى آخره . فاشتروا هنا بمعنى باعوا، أى أنه بثس هذا الفعل الذى باعوا أنفسهم أن يكفروا بما أنزل بغياً ظلماً وحسداً وحقداً .

هذا ما يقوله النحويون فى «ما» ونحن لا نرى مانعاً من أن تكون اسماً موصولاً بمعنى الذى، فيكون المعنى بثس الذى باعوا به أنفسهم فقد باعوها بأمر حقير مضرتة شديدة وهو أن يكفروا بما أنزل الله تعالى من قرآن كريم هاد إلى الرشاد وإلى سواء السبيل، وقوله: بغياً مفعول لأجله أى لأجل ما فى نفوسهم من حسد أدى إلى ظلم شديد، والبغى فى أصله طلب الشئ بشدة، إرضاءً لهوى، وأن ذلك يؤدى إلى أن يطلب الشئ بغير حله، وإلى الظلم؛ ولذلك أطلق البغى على الظلم الذى يستغنى ويطلب فى حرص ولذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] . وإن ذلك البغى الناتج عن الهوى والحسد هو أنهم يكرهون أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ومعنى النص الكريم ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ لأجل البغى المستكن فى نفوسهم، وهو كراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .

فهم ارتكبوا إثمين كبيرين بذلك:

أولهما - الكفر بما أنزل الله تعالى وذلك إثم فى ذاته، وهو كفر مبين؛ لأن من ينكر ما أنزل الله تعالى، وقد قامت بيناته، وعرفوه من قبل فى كتبهم فقد كفر كفراً مبيناً . .

وثانيهما - أن الباعث إثم عظيم واغترار، بأنهم المختارون وحدهم لرسالة الله - فمعنى ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى من رسالة ربه، فهى من فضل الله، والله ذو الفضل العظيم، يختص برحمته من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالته .

إن اليهود يحسدون محمدا ﷺ لأنه جاء من ولد إسماعيل لا من ولد إسحاق، يريدون أن يكون خاتم النبيين من ولد إسحاق، فهم يكفرون بما أنزل الله تعالى لأنهم يكرهون أن ينزل الله رسالته على من يشاء من عباده، فهم يريدون أن تكون إرادة الله تعالى على هواهم في إرسال الرسل، وقد بين الله تعالى أن ذلك أدى إلى غضبه عليهم، وبعدهم عن رحمته؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أى فرجعوا وكانت النتيجة لهذا البغى والحسد، أن نزل بهم غضب، والمراد أنهم باءوا بغضب متزايد متكاثر شديد لتزايد أسبابه، وتعدد دواعيه، وبواعثه.

ويقول فخر الدين الرازى: «إن غضب الله تعالى يتزايد ويكثر فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة كغضبه على من كفر بخصال متعددة».

وقد كفر اليهود الذين خاطبهم النبي ﷺ مرتين كما أشرنا؛ إحداهما - بكفرهم بما أنزل الله تعالى، وقد عرفوه من قبل، وكانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، والثانية - أنهم يريدون أن يكون أمر الله تعالى فى رسله على هواهم.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ والغضب يكون حالا تليق بذات الله تعالى يتجلى فى عدم رضاه وإنزاله العذاب بمن يغضب عليه وطرده من رحمته ولعنه، وكل ما يذكر الله تعالى من صفات وأحوال يتشابه أسماؤه مع ما يتصف به من صفات وما تكون عليه من أحوال لا يكون مشابهاً لنا، بل يكون أمراً يليق بالذات العلية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى) [١١] تعالى الله عن مشابهة الحوادث.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى ما ينزله بهم سبحانه من عذاب فقال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى عذاب يوقعهم فى الذل والمهانة، وذكر سبحانه وتعالى العذاب لهم بأنه مهين مذل موقع فى المهانة؛ لأنه عقاب لاستعلائهم الكاذب، وغرورهم حتى حسبوا أن الله تعالى يتصرف كما يهوون، وكما يتتغون، والله تعالى القاهر فوق عباده وهو الحكيم العليم.

وإن الله يذل دائما كل من يتناول، ويتسامى بغرور، روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك لا ملك إلا الله»^(١).

ونحن نقول مقتدين بالنبي ﷺ، متبعين له: اشتد غضب الله على كل عتل جبار أذل البلاد، وأفسد العباد، وأنه القادر الذي ليس فوقه أحد.

وإن اليهود سيرا على غلوائهم وزعمهم الفاسد أنه لا نبي إلا من بينهم. إنهم ييغون حسدا لغيرهم إذا قيل آمنوا بما أنزل الله قالوا لا نؤمن إلا بما أنزل علينا، ولذلك قال تعالى فيهم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ».

كان الكلام للغيبة، ولم يكن بالخطاب لأنه للحاضرين من بنى إسرائيل إذ هم الذين يعتذرون ذلك الاعتذار وبه يجحدون ذلك الجحود، وكان الكلام بالغيبة فيه تنديد بهم وبأسلافهم من قبل، وقوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» بالبناء للمجهول لكثرة القائلين، فكتبهم تقول لهم ذلك، وهم أنفسهم كانوا يقولون ذلك، إذا كانوا يستفتحون على الذين كفروا بالنبي الأمي ﷺ، والنبي ﷺ والمؤمنون يدعونهم، وحلفاؤهم من المؤمنين كانوا يدعونهم، فكثر القائلون، وإن البناء للمجهول له معنى آخر، وهو تركيز القول على ما يكون من ردهم للداعى فهذا موضع اللام، فلا لوم على من قال، فلا حاجة إلى ذكره، إنما اللوم كله فى ردهم.

القائل يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل فيقول آمنوا بما أنزل الله تعالى، فالله هو الذى أنزله وهو جدير بالإيمان به، لأنه من عند الله والكفر به كفر بالله تعالى.

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد فى مسنده (٩٩٨٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَجُلٍ قَتَلَهُ نَبِيٌّ - وَقَالَ رُوْحٌ: قَتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ تَسَمَّى بِمَلِكِ الْأُمَلَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وهو متفق عليه رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة: «اَخْتَعُ اسْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَقَالَ سَفِيَانُ غَيْرَ مَرَّةٍ اَخْتَعُ الْأَسْمَاءَ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الْأُمَلَاكِ». قَالَ سَفِيَانُ: يَقُولُ غَيْرُهُ: تَفْسِيرُهُ شَاهَانُ شَاهٌ. وهذا لفظ البخارى: الادب (٥٧٣٨)، وينحوه عند مسلم: الآداب (٣٩٩٣).

وردهم نؤمن بما أنزل علينا، أى لا نرى الإيمان إلا بما أنزل علينا نحن مع أن المنزل واحد، وهو الله تعالى ولكنهم يغالون فى اتباع هواهم وشهواتهم، فيزعمون أنه لا أنبياء إلا فيهم وإنهم يكفرون بما وراءه، أى بكل ما جاء بعده، ف وراء يبين ما جاء خَلْفَهُمْ ويعددهم كما كفروا من قبل بعيسى عليه السلام.

ويبين الله تعالى أن ما أنزل من القرآن هو الحق وهو مصدق لما معهم، فقد وصفه سبحانه وتعالى بوصفين أحدهما ذاتى وهو الحق أى أنه ثابت فى ذاته ما أتى إلا بأمور ثابتة يقرها العقل، وتقرها الفطرة، وتدل عليها البيّنات وهو ذاته معجز، مثبت وجوده بنفسه، لا يحتاج إلى بينات وراءه، والثانى إضافى وهو أنه مصدق لما تضمنته المواثيق التى أخذت عليهم، وهذا الوصف يرد زعمهم الفاسد، بإثبات عدم المغايرة بين ما جاءهم به النبى ﷺ وما نزل، وبين ما عندهم؛ فالأصل واحد وأن تفريقهم بين ما أنزل الله من قرآن، وما أنزل عليهم تفرقة بين شيئين غير متغايرين إن كانوا يؤمنون حقا بالحق من كتبهم.

ولكنهم قوم لا يؤمنون بشيء لا بما عندهم، ولا بما أنزل الله من قرآن كريم؛ ولذا قال تعالى مثبتا كفرهم بكل شيء، بالوقائع التى كانت من أسلافهم، وارتنصوها هم، فقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. والمعنى: قل لهم يا نبى الله، إن كنتم تزعمون أنكم آمنتم بما عندكم، فلم تقتلوا أنبياء الله؟ أى الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إليكم، وذكر الأنبياء مضافين إلى الله تعالى لإثبات جحودهم المطلق، وأنهم يعاندون أوامر الله تعالى سواء أكان من بعثه من ولد إسحاق أم كان من ولد إسماعيل، فقد قتلوا زكريا ويحيى، وهما من ولد إسحاق، وإنه إذا كان عندهم بقية من إيمان فما كان يسوغ قتل أنبياء الله؛ ولذلك قال تعالى فى ختام الآية الكريمة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى أن ما كان منهم فى ماضيهم وأمره حاضرهم يتنافى مع صفات المؤمنين وذلك تنديد بهم، وبيان أنهم لم يؤمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معهم، ولا يؤمنون بما عندهم.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ

ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
بِسْمَايَا أَمْرِكُمْ بِهِ إِيْمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

تبين في الآيات السابقة أن بنى إسرائيل كفروا بمحمد ﷺ، وقد كانوا يستفتحون به على المشركين وأنهم قرروا في ذاتهم ألا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم، فلا يؤمنون بالقرآن وإن جاء مصدقا لما معهم، وذلك الكفر أكبر العناد، وفي هذه الآيات الكريمات يبين الله تعالى أن العناد فيهم منذ أرسل موسى إليهم، لقد أتى لهم بينات حسية قاطعة في الدلالة على أن موسى أرسله الله تعالى لإنقاذهم.

ولقد أوتى عيسى بينات كثيرة وكفروا به وحاولوا قتله، ولم يمكنهم الله تعالى منه، فما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وموسى عليه السلام أتى لهم بمعجزات حسية بلغت تسعا، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ...﴾ (الإسراء: ١٠١) ومنها العصا التي أبطلت سحر الساحرين، والتي ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، والتي ضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم، ومنها ما ظهر بين أيديهم مما جرى لفرعون وقومه، وقد قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنُخْرِجَ

كَشَفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ [الأعراف]، ولما خرجوا إلى سيناء ظللتهم السحاب من هجيرها، وأمدهم الله تعالى بالمن والسلوى.

جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام بالبينات القاهرة الظاهرة المحسوسات، ومع وضوحها وظهورها ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ أى اتخذوه معبودا وهو مصنوع بين أيديهم وتحت أبصارهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وقد أشرنا إلى بعضها أو جلها، ثم قال تعالى مخاطبا الذين عاصروا النبي ﷺ، لأنهم فى تفكيرهم وجحودهم وعنادهم امتداد للسابقين يحذون حذوهم، وما يعملونه صورة مما عملوا والباعث واحد، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، والعطف بـثم للمفارقة الواجبة بين ما تقتضيه الآيات الحسية الظاهرة من إيمان واتخاذهم العجل معبودا، وهو لا يضر ولا ينفع، ولا عذر ولا مبرر إلا أن يكون التقليد لفرعون وآله وقومه الذين عبدوا العجل وكانوا يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم لأهوائهم وشهواتهم.

وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى: وأنتم كافرون؛ لأنه كفر يتضمن أشد الظلم وأفحشه، فقد ظلموا أنفسهم بأن أعطوا قوة الحق، فأبوا إلا أن يستضعفوا ويدلوا لمن أذلّوهم، وظلموا الحق وظلموا من أجرى الله تعالى على يده إنقاذهم فهو كفر يتضمن ظلما، وكما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة].

هذه حالهم مع موسى الذى دفعه الله تعالى لإنقاذهم مع ما جاءهم من البينات، فكيف يمكن أن ينتزع الضلال من قلوبهم بالقرآن الكريم يا محمد، فلا تأس على القوم الفاسقين.

إن اليهود لا يؤمنون بشيء مهما تكن قوة أدلته ومهما تكن قوة الدعوة إليه .
لقد رأينا الآيات الكثيرة التى ذكر الله تعالى أنها بلغت تسعاً، وكلها حسى قاهر،
وفيه نعمة النجاة والرعاية الكاملة حتى ظنوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، ثم بين بعد
ذلك قوة الدعوة إلى الحق فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ دعوة إلى الحق الذى قامت أدلته بميثاق أخذه الله
تعالى، وأخذه وقد رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة أظلتهم وطالبهم الله تعالى على
لسان كليمه أن يأخذه بقوة أى بجد، ولا ينحرفوا عنه، وأن يسمعوا إليه، ولا
يخالفوه .

اجتمع لهدايتهم قوتان قوة الدليل فى الآيات التسع، وقوة الدعوة فى الميثاق
الذى أخذ عليهم فى حال رفع الجبل فوقهم ودعوتهم إلى سماع الحق، فهل
أجابوا؟ .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ هذا ما جاء به القرآن نصاً فى إجابتهم . وإن ما حكى
الله تعالى عنهم من أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ تفسر على ظاهرها فإنه كان النداء قويا
والجبل مرتفع عليهم، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أى ما شرعناه لكم من شرائع بجد
وعزم، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ فإنه لا بد أن يكون الجواب ﴿سَمِعْنَا﴾، أما ما حكاه سبحانه من
أنهم قالوا: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ فيصح أن تخرج على أنهم قالوها بالستهم، وذلك بعيد
يتنافى مع قوة الميثاق وتأكده ومع طلب الأخذ بقوة أى بجد وعزم على التنفيذ، ولذا
نستبعد ذلك الاحتمال لقيام القرائن ضده، وما نحسب أنهم وصلوا إلى هذه الحال
أن ينكثوا بالعهد وقت توثيقه وأن يجاهروا بعصيانهم، والعهد بينهم وبين المنقذ لهم،
والعهد قريب، ولذلك قرر المفسرون أن كلمة عصينا مجاز عن أفعالهم، أى أن
عصيانهم كان بلسان الفعال لا بلسان المقال، فهم قالوا سمعنا بالقول وقالوا عصينا
بأفعالهم .

ويصح أن نقول: إن عصينا القلبية كانت مقارنة لسمعنا، أى أنهم قالوا سمعنا، وقلوبهم جافية معرضة كأنها تنطق بحالهم، وهو عصينا فكأنهم سمعوا، وهم على نية العصيان فقلوبهم جافية عن الاعتاظ بما يسمعون.

ولقد كان أوضح المظاهر التى دلت على عصيانهم، وأنهم سمعوا وعصوا هو عبادتهم العجل، أو بالتعبير القرآنى المنزه الحكيم اتخاذهم، ولذلك ذكره بعد تسجيل العصيان فقال: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾. بعض علماء اللغة يقولون إن المعنى على حذف مضاف تقديره حب العجل، وذلك مجاز مشهور يسمى مجاز الحذف، فذكر القلوب، والقلوب لا تشرب العجول قالوا إنه مجاز بالحذف، والقلوب تنكت فيها المفساد، روى عن النبى ﷺ أنه قال: «تعرض الفتن على القلوب عودا عودا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء».

وبعض المتفقيين فى اللغة قالوا: لا حاجة إلى تقدير محذوف؛ لأن أشرب متعلق بالعجل مباشرة، لأن تعلق الإشراب به ليس مقصورا على المحبة، بل إنه يتجاوزها إلى العبادة، وإلى أنه تكون صورته فى قلوبهم لا تفرق عنها، ويكون من قبيل أشرب الثوب الصبغة، أى خالطت أجزائه، وتغلغل فيه، فالعجل تغلغل فى قلوبهم فألفوه وصار جزءا من تفكيرهم، كما صارت الصبغة جزءا من الثوب، لا تنفصل عنه، وهذا نوع من الاستعارة، فاستعيرت كلمة الإشراب لتغلغل ذكره فى قلوبهم كأنه حل حلول الشراب فيها.

وكلمة فى قلوبهم قرينة الاستعارة، وأشرب للبناء للمجهول لكثرة الأسباب الباطلة التى أشربته قلوبهم، فالشيطان زينه لهم، وسول لهم عبادته، وعشرتهم للمصريين الذين كانوا يقدسونه، والعشرة المستمرة لهم مع مظالمهم، وضلال نفوسهم كل هذا سهّل سريان عبادة العجل إليهم؛ ولذلك قال بكفرهم، أى بسبب كفرهم المستكن فى نفوسهم، ولقد حكم الله تعالى عليهم بقولهم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا

يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿الْأَمْرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ وَاجِهُوهُ﴾ (النبي ﷺ) بقولهم: ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ...﴾ ﴿٩١﴾ [البقرة] وهذا القرآن الكريم بين ما يدل على أنهم لا يؤمنون بشيء حتى تركوا ما يدعوهم إليه النبي ﷺ إلى الإيمان بما عندهم، وهذه صورة من الإيمان بما عندهم ﴿بِئْسَمَا﴾ دالة على ذم ما يأمرهم به إيمانهم الباطل، وهذا تهكم شديد على حالهم وعلى ما يتصورونه إيماناً بما عندك، كقوله تعالى حكاية عن قول قوم شعيب له: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ...﴾ ﴿٨٧﴾ [هود]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن كنتم فى الماضى والحاضر مؤمنين، وبيان أن إيمانهم موضع شك بل لا إيمان.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾
وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
أَشْرَكُوا يَوْمَ ذَلِكَ إِثْمًا أَن يُدْعُوا إِلَىٰ مَا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحَةٍ
مِّنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرُوا وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

كان السبب في غرورهم، واستعلائهم الفاسد أنهم بتوالى نعم الله تعالى عليهم حسبوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولذلك قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾ [البقرة] وقد تلونا ذلك من قبل.

وقد دلاهم الشيطان بغرور فكانوا يحسبون ذلك، ويدعون في ظاهر قولهم أنهم يؤمنون، ويواجهون النبي ﷺ بكفرهم به، فأمر الله تعالى نبيه الذي يواجهونه بذلك الكفر أن يتحداهم ليكشف أمرهم بأن يتمنوا الموت فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ إن كانت الدار الآخرة التي تكون عند الله علام الغيوب ولا سلطان لأحد سواه، خالصة لكم من دون الناس، أى أنكم فى منزلة والناس دونكم، ولا تكون إلا لكم؛ لأن غيركم من الناس - سواء كانوا أتباع محمد أم لا - هم دونكم لا يبلغون منزلتكم بل أنتم وحدكم الذين تنالونها.

إن كانت هذه الحياة الآخرة لكم خالصة فتمنوا الموت الذى هو الطريق إليها إن كنتم صادقين فى زعمكم؛ لأن من آمن بأنه المختص بنعمة تمنى الوصول، أن يسرع فى الذهاب إليها، وإنها جنات ونعيم مقيم، فتمنوا الموت الذى هو الطريق الوحيد إليها، إن كنتم مؤمنين إيمان صدق وإذعان بما تدعون.

وهنا إشارة بيانية يحسن التنبيه إليها:

الأولى: فى كلمة ﴿لَكُمْ﴾ فيها اللام المفيدة للملكية أو الاختصاص، وقد ابتدأ بها بيانا لزعمهم، ولذلك جاء بعدها خالصة لكم من دون الناس.

الثانية: الإشارة إلى أن الدار الآخرة هى عند الله تعالى مالك يوم الدين، وهو الذى تدعون أنكم أبناؤه وأحباؤه ومع ذلك تكفرون به وتتخذون العجل تشركون وتعبدونه.

الثالثة: الإشارة إلى أنهم ليسوا صادقين، بل هم كاذبون؛ ولذلك كانت أداة التعليق هى إن فى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولهذا نفى الله سبحانه أن يتمنوه.

تنبيه: يلاحظ أن الله تعالى أمر نبيه بأن يتولى الرد عليهم فى قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا...﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ...﴾ [البقرة] وفى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

لم يتول الله تعالى الرد والجدل معهم وأمر النبى ﷺ أن يتولى الجدل معهم فما الحكمة فى ذلك؟ ونقول ما تصل إليه مداركتنا - والله هو الحكيم العليم - إن مجادلتهم التى فيها التحدى كانت مع النبى ﷺ فناسب أن يتولى بأمر الله تعالى الرد هو عليه الصلاة والسلام؛ ولأن مقام الله تعالى أعلى من أن ينزل لمجادلة الكافرين الظالمين لأنفسهم.

ولقد قال سبحانه وتعالى حاكما على حالهم بأنهم فى ذات أنفسهم وفى مداركهم يعلمون مآثمهم، ويعلمون كذبهم؛ ولذلك ليست الجنة لهم، ولذا لا يتمنون الموت، فقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ نفى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك التمنى نفيا مؤبدا، وأكد ذلك النفى بـ «لن» الدالة على النفى المؤبد، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَبَدًا﴾ ويذكر السبب ألا وهو ما قدمت أيديهم، ومعنى ذلك أنهم كاذبون فى ادعاءهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم كاذبون فى قولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً...﴾ [البقرة].

وإنهم يعلمون ما قدموا من كفر، وما قدمه أسلافهم، ولم ينكروه عليهم من اتخاذ العجل، ومن كفر بالنعم التي أنعم الله عليهم وكفروا بها.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، والمراد ما قدموه هم بأنفسهم، من كفر قلوبهم، وجحودهم بآيات الله تعالى، واعتدائهم في يوم السبت، وتأيدهم لأسلافهم في ذلك، ومن كفرهم بالآية يجب الذي جاء مصدقا لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا به، ولكن لماذا عبر بأيديهم، دون أنفسهم؟ ونقول: أولا - يجوز ذلك تعبيرا عن الكل باسم الجزء، وإن ذلك الجزء أظهر الأجزاء في العمل، فهو الذي به البطش والاعتداء، وارتكاب المآثم الجماعية.

وثانيا - فيه إشارة إلى الناحية الحسية فيهم، فهم أيد باطشة آثمة، وليس لهم قلوب مدركة عامة.

ولقد سجل الله تعالى عليهم الظلم، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وقد صدر الله سبحانه وتعالى الحكم بلفظ الجلالة تربية للمهابة، ولبيان أنهم مأخوذون والله القادر القاهر هو الذي يأخذهم بظلمهم، وبين عظيم علمه، ودقة علمه، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأظهر في موضع الإضمار فلم يقل سبحانه وتعالى عليهم بهم وبما قدمت أيديهم بل قال: ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ ليسجل عليهم وصف ظلمهم، وأنهم معاقبون بهذا الظلم الذي هو كالسجية لهم.

ولقد قال الله تعالى في هذا المعنى، وهو طلب تمنى الموت، وامتناعهم في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَوَّنُهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة] والفرق بين النصين، وإن كان كلاهما في مرتبة من البيان يعجز عنه البشر، في أمرين:

الأمر الأول - أن الشرط في الآية الكريمة التي تتصدى لتعرف معناها شرط كبير، وهو أن تكون لهم الدار الآخرة من دون الناس، فالشرط يتضمن الخلوص لهم وقصرها، ولن يتمنوا ذلك فكان النفي بلن، والشرط خال من معنى زعمهم.

الثانى - أن الآية الثانية كان الشرط الزعم بأنهم من أولياء الله من دون الناس، فكان النفى بـ «لا»، وهو دونه؛ فكان النفى بـ «لا» لا بـ «لن» على مقدار الشرط، وكذلك يصرف الله الآيات فى كتابه الحكيم.

وبعد ذلك التحدى من النبى ﷺ بأمر ربه، كان الوصف الحقيقى لبنى إسرائيل بالنسبة للموت والحياة الآخرة، وأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يؤمنون بأن لهم جزاء محمودا، وأنه يرتقبهم خير؛ ولذا تمسكوا بالحياة الدنيا؛ لأن العصاة يظنون أنها الحياة وحدها، ولا يرجون خيراً لأنفسهم المادية فى لقاء الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى الحكم بأنهم أحرص الناس على حياة بالقسم المؤكد باللام ونون التوكيد الثقيلة، ونكر سبحانه وتعالى «حياة» فى قوله تعالى: ﴿عَلَى حَيَاةٍ﴾ لتعميم معانى الحياة، فهم يحرصون على حياة أيا كانت صورتها، سواء كانت حياة ذل أم كانت حياة عز، وسواء كانت حياة استعباد أم كانت حياة حرية، وسواء أكانت تحكمها الفضيلة أم كانت تحكمها الرذيلة، إنهم يحرصون على الحياة ذاتها من غير نظر إلى وصفها سواء أكانت مقبولة فى ذاتها، أم كانت بكرامة من غير مهانة. وإن هذا يدل على كمال الحرص.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أى منهم من هم أحرص على حياة أيا كانت من الناس جميعا، ومن الذين أشركوا، وهم الوثنيون، وخُصوا بالذكر، لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وأولئك اليهود أهل كتاب ويؤمنون به فى الجملة، ولكنهم مذنبون تحيط بهم خطاياهم من كل ناحية.

وهم أحرص من المشركين على الحياة؛ لأنهم يريدون الحياة على أية صفة عزيزة كريمة أو ذليلة، أما المشركون من العرب فإنهم لا يريدونها إلا عزيزة لا ذلة فيها، وشاعرهم الجاهلى يقول :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الخنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

ولذلك كانوا أحرص على حياة، والمشركون يحرصون على حياة عزيزة كريمة، وإن كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور، ولا حساب ولا عقاب، ويصور الله سبحانه وتعالى حرصهم على الحياة بقوله تعالت كلماته: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يود هنا بمعنى: يتمنى أحدهم، أى أحد اليهود، لو يعمر ألف سنة، ولو هنا مصدرية وهى التى تجىء بعد التمنى كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم] فهنا «لو» مع الفعل بعدها مصدر غير أنها لا تنصب (مثل أن). وذكر ألف عام لأنه أكبر عدد فى زعمهم . . طلب أعرابى عطاء من حاكم من حكام بنى أمية، فأعطاه ألفا، فقال له قائل: لو طلبت أكثر من ألف لأعطاك، فقال: لو كنت أعلم أن فوق الألف عدداً لطلبت، فالألف كناية عن أكبر عدد.

ومع أنهم يودون الحياة إلى أقصى أمد، ألفا أو أكثر، فإن العذاب ملاقيهم، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ...﴾ [الجمعة] بالعذاب الذى يستقبلكم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزْحِرٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ الزحزحة الإبعاد أو الإزالة، وهى تدل على المعاناة فى الإبعاد والإخراج من المكان الذى حل فيه كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ...﴾ [آل عمران].

و «ما» فى قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزْحِرٍ مِنْ الْعَذَابِ﴾ النافية، والباء دالة على استغراق النفى، وهى زائدة فى الإعراب لها دلالة فى المعنى، والضمير «هو» يعود على الأحد الذى يود أن لو يعمر ألف عام أو أكبر عدد ممكن، والمعنى على هذا التخريج: وما هو؛ أى هذا الشخص بمبعده ولو بمعاناة ومعالجة عن العذاب تعميره، فالمصدر المكون من ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فاعل لمزحزحه، وقد أكد سبحانه وتعالى النفى بإعادة الضمير لتأكيد النفى، وبالباء، وبكلمة مزحزح.

وما ذلك النفى المؤكد لوجود العذاب مهما طال الزمن - إلا لأنه ارتكب من الخطايا ما يستحق ذلك، والله تعالى عليم بكل شئ ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء؛ ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله ذو الجلال والإكرام القادر القاهر الفاعل المختار بصير أى عالم علم من يبصر

على مثال ما به الناس، بما يعملونه من شرور وآثام، وجحود آيات الله تعالى في ماضيهم وحاضرهم، ومنزل من العذاب بمقدار ما يستحقون. ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

عداوة الملائكة

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيره: أجمع مفسرو السلف على أن هذه الآية وما بعدها نزلت؛ لأن اليهود يعدون الروح القدس جبريل الأمين عدوا لهم؛ لأنه ينزل بالعذاب والهلاك، وأن ميكائيل وليهم لأنه ينزل بالغيث والرحمة، وتعددت الروايات عن الصحابة في ذلك، وكلها ينتهي إلى أنهم واجهوا النبي ﷺ بأن جبريل، وهو ولي النبي ﷺ، هو عدوهم، وأن ميكائيل وليهم، وأنهم لهذا يفارقون النبي ﷺ ولا يتبعونه.

ولئن صحت هذه الروايات أو بعضها ليكونن مؤداها أنهم يتخذون تعة لكفرهم سواء أكانت التعة مقبولة في العقل أو مردولة، ومهما يكن فقد رد الله تعالى قولهم، وأمر النبي ﷺ بأن يرد قولهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي إذا كان جبريل عدوا لكم فأنتم تعادون الله تعالى؛ لأن الله تعالى اختاره رسولا آمينا لنزول القرآن فما نزل القرآن بغير إذن الله تعالى إنما نزل على قلبك بإذنه سبحانه وتعالى.

وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بكاف الخطاب للنبي ﷺ دون أن يقول قلبي، لبيان أن النبي ﷺ يحكى قول ربه، ولتأكيد معنى قوله تعالى بإذنه.

والضمير الأول فى ﴿فَإِنَّهُ﴾ يعود على جبريل عليه السلام، والضمير الثانى فى ﴿نَزَّلَهُ﴾ يعود على القرآن باعتبار أنه حاضر للذهن؛ لأنه ذكر فى السياق فى قوله تعالى من قبل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ...﴾ (٨٩) وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعين أن الضمير يعود على القرآن الحاضر فى الأذهان.

وإنه مع قبول الروايات التى انتهى المفسر السلفى فيها إلى إجماعهم من أن اليهود كانوا يعدون جبريل عدوا، فإننا نرى من المعانى القرآنية والإشارات البيانة أنهم كانوا يجعلونه عدوا؛ لأنه نزل بالقرآن على قلب النبي ﷺ، وذلك لسفه عقولهم وفساد تفكيرهم، فرد الله عليهم بأنه هو الذى نزل القرآن بإذن الله، فلا محل لعداوته، فعادوا من أنزله، ولكن سوء ظنهم جعلهم يحملون جبريل عليه السلام التبعة، وإذا كان نزول القرآن سببا للعداوة، فاتخذوا الله عدوا، ولا غرابة فى ذلك ممن اتخذوا العجل ولما لهم.

ويكون المعنى الذى يفهم من الآية: لقد اتخذتم جبريل عدوا لما انتحلتم من كذب بأنه ينزل بالهلاك أو نحو ذلك، إنما اتخذتموه عدوا؛ لأنه ينزل بالقرآن على قلب النبي عليه السلام وإذا كان نزول القرآن هو السبب فإنه يكون الله هو العدو ويكون قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ شرطا، ويكون قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تعليلا لجواب الشرط المحذوف إذ تقديره، فإنه عدو لله تعالى؛ لأنه الذى نزل على قلبك بإذنه.

والتعبير بـ «قلبك» أى أن التنزيل على قلبك للإشارة إلى أن القرآن ينزل على القلب ليحفظ فى الصدور، لا أن يكتفى فيه بالسطور؛ لأن السطور يجرى فيها التصحيف والتحريف، أما ما يحفظ فى القلب فإنه فى أمان لا يجرى فيه تغيير ولا

تبديل؛ ولذا قال تعالى في نزول القرآن الكريم وتلقى قلب النبي ﷺ له، ثم حفظه قلوب الصحابة من بعده، في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قُرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) [القيامة].

هكذا بين الله تعالى طريقة نزول القرآن على القلب ليحفظه ويحتويه ثم يحفظه أصحابه، ثم يتواتر من بعد ذلك محفوظا، وإن كان مع ذلك مكتوبا بأمر النبي ﷺ (١).

وصرح القرآن بأن نزول جبريل به يكون متجها إلى قلب النبي عليه الصلاة والسلام في آيات أخرى، فقد قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٢) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) [الشعراء].

ولقد قال في وصف القرآن الكريم الذي نزل به بإذن الله جبريل على قلبه بأنه مصدق، وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ والمراد بما بين يديه من الكتب التي

(١) عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ادْعُوا فُلَانًا» فَجَاءَ وَمَعَهُ الدَّوَاءُ وَاللُّوْحُ، أَوْ الْكَتَفُ، فَقَالَ: «اكَتُبْ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَخَلَفَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا ضَرِيرٌ، فَتَزَلَّتْ مَكَانَهَا (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ). [رواه البخاري، واللفظ له: تفسير القرآن (٤٢٢٨) ومسلم كتاب الإمامة (٣٥١٦)].

وعن زيد بن ثابت الأنصاري - رضى الله عنه - وكان ممن يكتب الوحي قال: أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ مَقْتَلِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرْآنِ فِي الْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَرَاغِبُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِدَلِّكَ صَدْرِي وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلَا تَنْهَمُكَ؛ كُنْتُ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَتَّبِعُ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ، قَوْلَ اللَّهِ لَوْ كَلَفْنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أُمِرْتُ بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَعْمَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ أَزَلْ أَرَا جَعَهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَصَغُتُ فَتَنَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعَهُ مِنَ الرَّقَاعِ وَالْأَكْتَفِ وَالْعُسْبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ اثْنَيْنِ مَعَ خَزِيمَةِ الْأَنْصَارِيِّ، لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِهِمَا وَكَانَتْ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ. [أخرجه البخاري: تفسير القرآن (٤٣١١)] ورواه الترمذي وأحمد بنحوه.

أنزلها تعالى على النبي ﷺ قبل بعث محمد ﷺ، والتعبير بين يديه كناية عن أنه أمامه فما يكون أمام الإنسان يكون بين يديه سابقاً له، فهو مصدق لكل ما اشتملت عليه الكتب السابقة التي لم يجر بها تحريف، ولم ينس فيها حظ مما ذكروا به.

وكان حقاً عليهم ألا يعادوا الملك الذي اتخذه الله تعالى روحاً أميناً نزل به، ولكنهم أعداء الحق دائماً عادوا موسى وربه إذ كفروا بأنعم الله تعالى.

وقال تعالى في وصف الكتاب: ﴿وَهْدًى﴾ أى فيه الهداية إلى الحق في ذاته، وفيه البشرى بالنعيم المقيم للمؤمنين الذين من شأنهم الإيمان والإذعان للحق إذ جاءه، وهو مع ذلك شفاء للقلوب ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾ [الإسراء: ٨٢].

وإن الله سبحانه وتعالى بعد أن بين عداوتهم لجبريل؛ لأنه الروح الأمين الذي نزل بالقرآن، بين سبحانه أنه من كان عدواً لله تعالى وملائكته، وكتبه ورسله، فإن الله عدو للكافرين.

فى هذا النص الكريم إثبات أن من كان عدواً للملائكة أو لواحد منهم، ومن كان عديداً للكتب التي أنزلها التي لم تحرف والرسل الذين أرسلهم رحمة للعباد، وهداية لهم فهو عدو لله تعالى، وهو كافر، والله تعالى عدو للكافرين، ابتداءً الله تعالى بذكر عداوة الله تعالى فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد أيها البشير النذير ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾، فابتداءً سبحانه بلفظ الجلالة الكبير فى ذاته خالق الوجود، وخالق الملائكة والجن والإنس، والشمس والقمر والسموات والأرض ابتداءً بذكره جل جلاله لبيان أن من عاداه، فقد تعرض لأعظم نقمة وأشد ضلال وخروج عن الحق، فالابتداء به سبحانه وتعالى لبيان أعظم خطورة يتعرضون لها بجهلهم وفساد نفوسهم وضلال فكرهم.

وثنى سبحانه بالملائكة، وأضافهم سبحانه وتعالى إليه للإشارة إلى أن عداوتهم هى عداوة له فهم يعادونه ابتداءً بمعاداة ذاته العلية، ثم يعادونه ثانياً بمعاداة ملائكته الذين خلقهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم فى

الملكوت . . ثم ثلث بكتبه التى أنزلها هداية للناس ورحمة، وشفاء لأدواء الجماعات، ونسبها سبحانه وتعالى إليه إشعاراً لهم بأن عداوة هذه الكتب عداوة لله تعالى لأنها هجر لكلامه، ورد لرسالته، وأى ذنب أقبح من عداوة رسالات الله تعالى التى شرفت بإرساله واحتوت على البينات والحكم الباهرة، ثم بين بعد ذلك عداوتهم لرسله الأكرمين، وأنها عداوة لمن أرسلهم، فمن عادى الرسول فقد عادى من أرسله مبشراً ونذيراً، وداعياً إليه وسراجاً منيراً.

وذكر سبحانه وتعالى عداوة جبريل وميكائيل وخصهما بالذكر مع أنهما دخلا فى عموم الملائكة؛ لأن الله تعالى خصهما بالشرف والتفضيل على غيرهما من الملائكة وهو يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم، ولأن جبريل كان روح القدس الأمين الذى نزلت عن طريقه الرسالات الإلهية على من أرسلهم مبشرين ومنذرين، وأن اليهود حكى عنهم أنهم كانوا يفاضلون بين هذين الملكين الكبيرين، فيعادون جبريل، لأنه ينزل بالقرآن ويوالون ميكائيل؛ لأنه يأتى بالرحمة والغيث، فأشار سبحانه إلى أن عداوة أحدهما عداوة له، ومن عادى جبريل لأنه مكلف بالقيام بأمر من الله تعالى فقد عادى الآخر؛ لأنه قائم بمثل مقام به.

هذا هو فعل الشرط الذى يتضمن عداوة الله وملائكته وكتبه ورسله، وجبريل وميكائيل، وجواب الشرط هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فجزاء هذه العداوة الظالمة، كراهية عادلة، ويتبعها العقاب الشديد، وهنا إشارتان بيانيتان:

إحدهما - فى تقدم الكتب على الرسل، والسياق يسوغ تقديم الرسل على الكتب؛ لأنهم الذين جاءوا بها، ونزلت عليهم، فلم قدمت الكتب؟ والجواب عن ذلك أنها موضوع الرسالة ولبها، وهى المشتملة على أمر الله تعالى ونهيه وهى خطاب الله تعالى إلى عباده، فقدمت كما يقدم الكتاب الذى تكتبه على الرسول الذى تحمله الكتاب.

الثانية - أن الله تعالى أظهر فى موضع الإضمار فقال: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾، ولم يقل لهم، وذلك لبيان أنهم بهذه العداوة قد كفروا وجزاء الكفر

العذاب الأليم فالإضمار كان فيه وصف هو سبب العقاب، ولقد جاء في البخارى فى حديث قدسى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيدنه».

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾
 أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
 مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يذكر القرآن أخلاق بنى إسرائيل فى ماضيهم الممتدة فى حاضرهم، إذ قد اتصف بها حاضرهم كما اتصف بها ماضيهم، وهو الإنكار لكل ما يجيء به نبي من الأنبياء، فيذكر الله سبحانه وتعالى ما تلقوا به ما أنزل إلى النبي ﷺ من آيات بينات.

الآيات البينات هى القرآن، وقد فسر بعضهم الآيات بالآيات الكونية، وإن ذلك بعيد، لأن وصف الآيات بالبينات دليل على أنها الآيات المتلوة، وهى بيته؛ لأن الكتاب بين واضح فى ذاته، وواضح الدلالة على رسالة النبي ﷺ، ونلاحظ إشارة بيانية فى الدلالة على أنه معجزة النبي ﷺ، وهى قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ بالتعدي بـ «إلى» دون التعدية بـ «على» إذ كان التعبير فى غير هذه بالتعدية بـ «على»، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء]، وكانت التعدية للدلالة على أن النزول والرسالة هى متجهة إلى

النبي ﷺ فهذا النبي الأُمى المقصود بالرسالة، وكان حقاً عليهم أن يتبعوه بمقتضى البشارة التى بشرت به التوراة والإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى أن هذه البينات وحدها فيها الدلالة على صدق ما جاء به محمد ﷺ، وهى المعجزة الكبرى التى تحدى بها عباده أجمعين، الجن والإنس والأجيال كلها ﴿قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء] وقد جاءت على يدى النبي ﷺ خوارق للعادة حسية كثيرة، ولكنه لم يتحد المشركين وغيرهم أن يأتوا بمثله إلا بالقرآن، وقد قال ﷺ: «ما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلىّ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(١).

وكانت المعجزة من هذا النوع؛ لأن رسالة محمد خاتمة الرسائل الإلهية، وهو خاتم النبيين، فكانت من نوع الكلام الذى يبقى متحديا الأجيال كلها حجة قائمة إلى يوم القيامة.

ولقد أكد الله تعالى نزول القرآن باللام وقد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولكن كفروا ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن كل حد، إذ إنها آيات واضحة شاهدة بصدق ما جاء بها الرسول ﷺ، فالفاسق الكافر المتمرد الخارج عن كل حد، ولقد قال الحسن البصرى: إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى، وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره، فالفاسق الكافر أشد أنواع الكفر؛ لأنه تمرد على كل معقول.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ نفى وإثبات للدلالة على أن الكفر بهذه الآيات البينات لا يمكن أن يقع من إنسان فيه الفطرة الإنسانية، بل لا يقع فيه

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [متفق عليه: رواه البخارى: فضائل القرآن (٤٥٩٨) ومسلم: الإيمان (٢١٧)].

إلا المتمرد على الفطرة وعلى كل ما يتقاضاه العقل المدرك، واللام في ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ للجنس، وليس المراد بها قوما معهودين، وإن كان أشد من ينطبق عليه الأمثال اليهود الذين كفروا بها. وإن اليهود إذا كانوا فسقوا، وكفروا بالقرآن الكريم معجزة النبي ﷺ، فهم قد نقضوا العهد الذي عاهدوا الله تعالى عليه في الميثاق الذي أخذ عليهم، وناقضوا أنفسهم، إذ كانوا يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

فإذا كانوا قد كفروا بالكتاب الذي جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد نقضوا عهدا أخذ عليهم مرارا، نقضوا الميثاق الذي أوجب تعالى عليهم أن يؤمنوا برسله، ونقضوا العهد الذي أخذوه على أنفسهم إذ كانوا يستفتحون على الذين كفروا، ولما عقد النبي ﷺ الميثاق بينهم وبينه عندما هاجر نقضوه جميعا؛ فنقضه بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير وأوى الناقضون إلى خير، وشنوها حربا مشبوبة على المؤمنين^(١).

وقد بين الله تعالى أن ذلك شأنهم، فقال: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى لإنكار الواقع، وهو ما يقع منهم من نقض العهد، ونبد للمواثيق، والواو عاطفة وهى مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما، والمعنى أنكروا الكتاب والنبي الذي عرفوه كما يعرفون أبناءهم ونقضوا الميثاق، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم إلى آخر الآية، وتأخير العاطف عن الاستفهام كثير في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة ٥٠] وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس] وهكذا مثل ذلك كثير في القرآن المبين.

(١) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَارَبَتِ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ، فَأَجَلَى بَنَى النَّضِيرِ وَأَقْرَ قُرَيْظَةَ وَمَنْ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتِ قُرَيْظَةَ، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا بَعْضَهُمْ لِحَقْوًا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَأَمَّتَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجَلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنَى قَيْنَقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَيَهُودَ بَنَى حَارِثَةَ، وَكُلَّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ. [أخرجه البخارى: كتاب المغازى (٣٧٢٤)، ومسلم: الجهاد والسير (٣٣١٢)].

﴿أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا﴾ تدل على نقض العهد بين طرفين، وأكثر ما تكون عهود اليهود بين رب العالمين وبينهم، والعهد الذى يكون بين طرفين لا ينقض إلا بتراضيهم، ولكنهم لا يلتزمون بذلك، بل ينفردون بالنقض. أو بعبارة أدق لا يعرفون معهودهم، وقال تعالى: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ النبذ الطرح والرمى، ومعناه فى العهود، نبذ الوفاء وطرحه، من غير موجب ولا مراعاة ذمام، ولم يجز القرآن النبذ إلا عند الخيانة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال].

ونسب سبحانه وتعالى النبذ إلى فريق منهم ولم ينسبه إلى جميعهم، لأن الله العدل الحكيم لا يقرر إلا ما هو عدل حكيم، وقد سكت سبحانه عن موقف الفريق الآخر فهل ماله؟ الظاهر أنه إن لم يمالئ فلم يستنكر، ولم يمنع وهو قادر على المنع؛ ولذا يصح أن ينسب إلى جميعهم إذ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، ولقد حكم الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فـ «بل» هنا للاضراب ودفع معنى يتوهم من قبل، وهو أن أكثرهم فاضل، ومنع لهم من الشر، وذلك لقوله تعالى: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، فبين سبحانه أن كثرتهم لا يؤمن بالحق فقال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فنفى سبحانه وتعالى عنهم أصل الإيمان بشيء من الفضيلة أو الخلق فبعضهم يمعن فى الشر إمعانا والآخرين يسكتون ولا يتحركون لأن الأكثر لا يؤمنون، فكل من كان على مثل حال هؤلاء اليهود كان كل كلامه وأفعاله لا يصدر عن قلب مؤمن مدعن للحق. وإذا كانوا لا يؤمنون بكتاب الله تعالى الذى أنزل متجها إلى محمد ﷺ، فإنهم أيضا لا يؤمنون بمحمد ﷺ، مع ما كان منهم قبل أن يبعث ﷺ، وينبذون كتابه.

ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ التعبير بلما دليل على أنهم كانوا يتوقعون مجيئه، وقد كانوا يتوقعون ذلك ويعرفونه ويستفتحون على الذين كفروا،

وعبر سبحانه بـ «رسول من عند الله» للإشارة إلى أنه من عند الله ذى الجلال الذى أنعم عليهم بالنعم المتوالية، و«رسول» التذكير فيها للتعظيم، أى رسول بالغ أقصى درجات الفضل وقد اختاره الله تعالى.

وقد وصفه الله تعالى بأنه مصدق لما معهم، وتصديقه لما معهم من ناحيتين. الناحية الأولى: أنه قد جاء بالتكليفات الكثيرة التى جاءت فى المواثيق التى أخذها الله تعالى عليهم، والناحية الثانية أنه تصديق للبشارات التى جاءت بها كتبهم، وقد بشرت به فى عدة نصوص منها، كما أشار القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ﴿٨٩﴾ [البقرة].

هذا هو معنى التصديق، وليس التصديق بالإقرار بصديق ما حرفوا وبدلوا حتى يقول ذلك الذين لا يفهمون، فإن القرآن يفهم بعضه ببعض، وقد كفرهم، وسجل التحريف عليهم ولا يزالون يغيرون ويبدلون.

ولما جاءهم محمد - رسول الله - نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله أى طرحوه، وهو يدل على أنهم لم يأخذوا به، ونبذوا تعاليمه، وراءهم ظهرياً، وعبر الله تعالى بالذين أوتوا الكتاب توبيخاً لهم، وتنديداً بفعلهم فإنهم كانوا جديريين بأن يكونوا أول من يأخذ بالكتاب لا أن ينبذوه ويجعلوه وراء ظهورهم، ودبر آذانهم. والكتاب الذى نبذوا تعاليمه وجعلوه وراء ظهورهم كما هو السياق يدل على أنه القرآن؛ لأنه هو الذى جاء به الرسول الكريم، الذى جاء به مصدقاً لما معهم.

وقال بعض المفسرين: إن المراد بكتاب الله التوراة، أى أنهم نبذوا بشاراته بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، ونرى أن ذلك بعيد، ولم نجد ذكراً للتوراة فى هذا المقام، ولأن الكلام فى محمد ﷺ، وما جاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثل لمن يستغنى عن شيء، فإنه يرميه وراء ظهره، ولا يعنى به، أو يقبل عليه بوجهه، مثل قول العرب: (اجعل هذا خلف ظهرك، ودبرا منك وتحت قدمك).

فهذه أمثال للاستخفاف، وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ معناه أنهم لم يقرءوه؛ لأن ما وراء الظهر لا يقرأ، وإنما يقرأ ما يكون أمامك، وتقبل عليه.

وقد صور الله سبحانه وتعالى حالهم فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنهم لا يعلمون أمر النبوة ورسائل الله تعالى إلى رسله وهم أهل الكتاب، أو المعنى كأنهم لا يدركون ولا يفرقون بين علم نازل من قبل الله تعالى وأهوائهم، والله عزيز حكيم.

السحر

وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

جاءت آيات الله بينات داعيات إلى الحق فنبذوها، وجاءهم رسول الله تعالى بكتاب مصدق للحق الذي معهم، فنبذوه وراءهم ظهريا.

تركوا الحق الذى ظهر نوره، وكان من دأبهم أن يتركوا النور، ويتبعوا الظلام، لتعشعش فيه أوهامهم، ولذلك مع تباعد العهد بينهم وبين نبي الله سليمان عليه السلام الذى سخر الله له الطير والحيوان أخذوا يتبعون أوهاما كانوا قد حرفوا بها التوراة، لقد زادوا فى التوراة قصة ما أنزل الله بها من سلطان، لأنهم كانوا يكتبون بأيديهم ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

لقد جاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الملوك أن السحرة هم الذين أقاموا ملك سليمان، وأن سليمان ارتد وكفر، فأخذوا يذكرون هذا السحر!! وذلك لأن الذين يضلون دائما عن الحق يتبعون أوهاما لا أساس لها من المنطق ولا من العقل.

ترك اليهود كتاب الله تعالى الذى يتلى بينا هاديا مرشدا إلى الحق، واتبعوا كلام السحر المكذوب، وراحوا يرددونه فى مدراسهم، ومواضع عبادتهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ اتبعوا ذلك القول، وصغت قلوبهم العامرة الممتلئة بهذا العطن من الأقوال الفاسدة، والشياطين هنا هم أهل الشر من الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة] والشياطين يكونون من الإنس، كما يكونون من الجن كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...﴾ [الأنعام].

فالظاهر فى هذه الآية أن الشياطين هنا من الإنس، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أنهم يتبعونها مصغين إليها متتبعين لها، كما يتبع الكلام القيم؛ ولذا عبر بتتلو لأن التلاوة قراءة واضحة بينة تتوالى كلماتها، فعبر بذلك للإشارة إلى أن الشياطين يحسنون تسويق الكلمات ويلقونها بنغمات معينة كسجع الكهان، وأولئك اليهود يستمعون إليها بعناية مصدقين، مع أنها كاذبة، ولكن أوهامهم ثبت لهم صدقها، فسمعوها محافظين على السماع.

والله سبحانه وتعالى رد عليهم أوهامهم التى سجلوها فى التوراة على أنها من عند الله، وما هى عند الله فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

ما هو هذا الكفر الذى نفاه الله عن نبيه سليمان عليه السلام، أهو ما ادعته الكذبة التى ألحقت بالتوراة - بتوراتهم - وما هى منها؟ وهو أنه ارتد وكفر، فنفى الله تعالى عنه ذلك الكفر، وتلك الردة، وأن شياطينهم الذين قالوا ذلك هم الذين كفروا بدعواهم على سليمان الكفر. وافترائهم عليه وادعائهم السحر، والتمويه على الناس به، فكل هذا كفر.

هذا هو ظاهر القول، إذ كان اليهود قد اتبعوا هذه القصة المكذوبة التى وضعت فى التوراة افتراء على الله تعالى.

ونظر بعض المفسرين نظرة أخرى فقالوا: إن الكفر هو السحر، فما كفر سليمان بادعائهم أنه استعان بالسحر على تثبيت ملكه. وما كفر سليمان باتخاذ السحر واعتقاد أن فيه قوة ولا وقع منه ذلك، ولكن الشياطين الذين كانوا يتلونهم على ملك سليمان، هم الذين كفروا باتخاذهم السحر وهو كفر.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أى على تثبيت ملك سليمان فى زعمهم، وقال بعض علماء اللغة إن عَلَى تَجِىء بمعنى فى، والمعنى ما تتلو الشياطين فى ملك سليمان، وعندى أن على فى موضعها من حيث إنها تعويذات، والتعويذات تقع على موضوعها، وموضوعها هو ملك سليمان فى زعمهم الفاسد، وكما كذب ما فى توراتهم.

وقد بين سبحانه أن أولئك الشياطين لا يقتصرون على ذكر ما ادعوه على ملك سليمان، وافتروه عليه، وهو النبى الذى سخر الله تعالى له بعض الرياح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، بل يتجاوزون ذلك إلى تعليم الناس السحر فقال تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

هؤلاء الذين يسيطر عليهم الوهم، وتخيل الناس، فيتصورون أموراً واقعة، وما هى بواقعة. ولكن حال السحر أهو حقيقة ثابتة أم هو تخييل وتصوير للأمور بغير صورتها فيخيّل إليه أنه يرى؟.

ونقول فى الجواب عن ذلك: جاء السحر فى القرآن ووصف بأوصاف، نتعرف حقيقته من هذه الأوصاف . . أول وصف جاء فى أخبار موسى عليه السلام مع فرعون، فقد قال تعالى فى سحر آل فرعون: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ [الأعراف] ونرى أنه يتصف بأنه سحر أعين الناس، أى أنهم لم يجعلوا الحبال أفاعى، بل إن تأثيره أنه كان فى الأعين لا فى الوقائع، فتأثيرهم فى الرؤية لافى تغيير الحقيقة وتحويلها من حبال إلى ثعابين، وفى سورة طه قال الله تعالى حكاية عنهم عندما التقوا يوم الزينة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ [طه].

ونرى أن السحر تأثير فى الأعين المبصرة، وليس تغيير للحقائق الواقعة فلا يكون تغييرا، ولكن يكون تأثيرا فى العيون، ولكنه تأثير نفسى قبل أن يؤثر فى العين؛ ولذا قال تعالى فيما تلونا من سورة الأعراف ﴿اسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى اتجهوا إلى إلقاء الرهبة فى قلوبهم؛ ولذا جاء فى سحر بابل أرض السحر أنه لا يؤثر فى النفوس إلا بما يسبق إليها من تصديقه.

ولنذكر ما عرف من سحر بابل فقد جاء ذكره فى الآية التى نتعرف معناها الكريم، فقد قال تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إن تأثيره مثل له أبو بكر الرازى بمن يركب جارية تجرى فى الماء، فإن ضلال الأعين يجعل الناظر إلى الأشجار يحس أنها تسير لا الباخرة.

وربط أهل بابل الذين كانوا يعبدون الكواكب تأثير سحرهم بالكواكب، وكانوا يقولون الرقى والتمائم والعقد والنفت باسمها ويوهمون العوام، والضعفاء صدقها ويشترطون فى القيام بأفعالهم الساحرة أن ينالوا أولا ثقة من يريدون التأثير فيهم، ويعقد مجالس سرية لذلك، ولقد جاء فى أحكام القرآن لأبى بكر الرازى ما نصه: «وكانوا يدعون عوام الناس وجهالهم سرا، كما يفعل الساعة (أى فى أيامهم) كثير

من يدعى ذلك مع النساء والأحداث الأغمار، والجهال الحشو، وكانوا يدعون من يعملون له ذلك إلى تصديق قولهم، والاعتراف بصحته.

هذه إشارة إلى السحر، وما يعمل السحرة، وننتهى من ذلك إلى أن فى السحر ثلاث صفات:

أولها - أنه يسبقه الثقة بالساحر ليستطيع أن يؤثر تأثيره فى النفوس.

ثانيها - أنه يكون فيه إلقاء الرهبة فى النفوس، وتحويلها إلى الرهبة من الساحر، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف].

الثالثة - أن السحر فى أعلى صورته وأدناه يؤثر فى النظر، فيجعل الرائي يتخيل غير ما يرى، ولا يمكن أن يعرف الحقائق، فالجبال جبال، وإن بدت ثعابين.

وإن هذه الأوصاف تتفق الآن مع الاستهواء الذى يفعله بعض الناس بالتأثير فى غيرهم وتوجيه مشاعرهم وأهوائهم، والسيطرة على خواطرهم، ويمسحون أفكارهم، وهو ما يسمى بالتنويم المغناطيسى الذى يفعله كبار المجرمين الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا هو السحر فيما نعلم، وقد مهر فيه أهل بابل، حتى ضللوا به، وكان السحرة علماء، وكان اليهود يعلمون الناس السحر ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ فاليهود كانوا يعلمون ما أنزل على الملكين بابل هاروت وماروت، فهل هما ملكان حقيقيان نزلتا لتعليم الناس السحر، أو طرق الوقاية منه، ولا يمكن أن نعرف طرق الوقاية إلا بمعرفة طريقة التأثير.

الظاهر أنهما ملكان؛ لأن الله تعالى سماهما ملكين، ولأن الله تعالى سمى ما كانا يقومان به أنزله تعالى عليهما، ولم يبين المدة التى أقاماها فى بابل، لتعليم الوقاية منه وإنذار الناس منه، كما قال إمام الهدى على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه، وإن نزول الملك للتعليم كما ثبت بنزول جبريل فى حديث الإيمان الذى رويناہ آنفا.

وإننا نسير فيما نكتب في فقه الإسلام، وعلم القرآن على أساس أننا لا نعدل عن الظاهر إلا إذا تعذر تحقيق الظاهر، ولا ننتقل منه إلى غيره إلا مهتدين بنص؛ ولذا نرى أنهما ملكان نزلا لبيان السحر في ذاته والتضليل به وطريق الوقاية منه فهما منذران كما قال الإمام على.

ورأى بعض الكتاب المتأخرين في التفسير أن من سميا الملكين كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل وهي مدينة على نهر الفرات، ونالوا ثقة الناس حتى ظنوا أنهما ملكان نزلا من السماء، وبلغ مكر هذين الرجلين أنهما كانا يقولان: إنما نحن فتنة فلا تكفر.

واحتج الذين قالوا هذا القول من مفسري هذا القرن بأن الملك لا ينزل إلى الأرض معلما منذرا؛ لأن المشركين طلبوا أن ينزل ملك، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام] وكان المشركون يقولون: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان]. وقالوا: إن نزول الملك مستحيل؛ لأنه لو كان ممكنا لأرسل إليهم ملكا مؤيدا للرسول.

ونحن نقول إن نزوله ليس مستحيلا، والله لم يرد عليهم بأنه مستحيل، ولكن علم أنهم متعتون، وقد طلبوا غير ذلك، وقالوا في طلبهم آيات أخرى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [٩٠] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا [٩١] أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلًا وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا [٩٢] أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [٩٣] [الإسراء]. فهم طلبوا هذه الآيات الحسية الكونية كما طلبوا أن ينزل ملك بقرطاس من السماء، وذلك كله كفر بالقرآن الذي تحداهم فعجزوا.

فهل هذا كله مستحيل أن يأتي الله به، أم أن الله تعالى لا يريد أن يأتي بآيات أخرى وهو يعلم أنهم لن يؤمنوا؛ ولهذا نقول إنه لا يوجد دلا

أن ينزل الله تعالى ملكا إلى الأرض، وقد نزل جبريل عليه السلام في صورة رجل للنبي ﷺ في حديث الإيمان الذي رواه البخارى.

لهذا نحن نرى كما ذكرنا أنهما ملكان؛ لأن الله تعالى ذكر أنهما ملكان، وسماهما وذكر أنه أنزل عليهما، وأنهما كانا يحتاطان في بيان السحر، ويقولان ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

كان هذان الملكان غير مضلين للناس، إنما جاءا لإنقاذ الناس من فتنة السحر إذ كانا يعلمان الحيل والتمويهات، وطرق الاستهواء التى أشرنا إليها من قبل آخذين لها من القرآن أدلة، كانا يعلمان الناس ذلك حتى لا يضلوا بالسحر، وقد اشتد ظلامه، وطم سيله ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، أى إن ما نعلمه فتنة يختبر الناس به ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، أى فلا تأخذ به لأنه كفر، وإنما علمناك هذا لتتخذ منه وقاية، ولتحذره، وليكون ذلك إنذاراً حتى لا تصدقه بعد ذلك، ولتعلم أنه يضل السحر والساحر.

اتبع اليهود ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وتعلموا السحر، وأخذوا يعلمونه، وجاء الملكان ليبينا زيفه وطرق التمويه فبدل أن يحذروه تعلموه منهما.

وهكذا هم دائماً يأخذون من كل شيء ما يضر ويتركون ما ينفع، فهم دائماً يأخذون من التحذير طريق الوقوع فى المحذور، كما أخذ إخوة يوسف من قول أبيهم يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ...﴾ (١٣) [يوسف]، فقالوا عندما ألقوه فى غيابة الجب: أكله الذئب.

علم الملكان أهل بابل التمويه الذى يكون فى السحر ليتقوه، فأخذ اليهود ذلك، واتخذوه سبيلاً؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ هذه صورة من أقبح الصور، ذكرها مثال غيرها، كاستهواء النفوس بمسح تفكيرها، وأن يستبد بما فيها تفكيراً، ويسمون ذلك فى هذه الأيام المخ.

وقال تعالى: ﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ ولم يقل فيعلمانهم، لأن الملكين ما كانا بصدد تعليمه، بل كانا بصدد بيان زيفه ولكن هؤلاء تعلموه ليكون نقيض ما أراد الملكان كفقيه بين الحيل الفقهية الباطلة، فيتخذها الفاسق سبيلا للتحايل على شرع الله سبحانه، وكرجل يجمع الأحاديث الموضوعة لكيلا تتخذ للاستشهاد فيجىء فسقة الناس وينشرونها، وهكذا شأن الفاسدين يتبعون الشواذ فيقولونه.

وما يفرقون به بين المرء وزوجه هو طريق الاستهواء بأن يعملوا بالطريق الذى يسمونه التنويم المغناطيسى، وهو من أشد أنواع السحر، ينزع شعور المحبة من أحد الزوجين لزوجته فيكون التفريق بينهما، والسحرة الآن لا يفرقون بين المرء وزوجه، بل يفرقون بين المؤمن ودينه، والناس عنهم غافلون، ألا يستيقظ المسلمون وذلك كله فسوق عن أمر الله تعالى ونهيه.

وليس ذلك الكفر خارجا عن إرادة الله، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ويطلق إذن الله تعالى تارة بمعنى الترخيص فى فعل، كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] ويطلق إذن الله تعالى تارة أخرى بمعنى تسخير، ككون السم يؤثر فى الجسم، والسحر يؤثر فى النفس، والترياق فى إزالة السم فعل هذا بإذن الله تعالى، كذلك السحر ما كان ليؤثر تأثيره فى النفوس إلا بالأوهام الفاسدة إلا بتسخير من الله تعالى، أو إذن منه سبحانه وتعالى.

فتأثير السحر فى النفوس إنما هو بتسخير الله تعالى اختباراً للنفوس القوية التى تقاوم النفوس الشريرة والتأثير الفاسدة، وقد يسأل سائل: لماذا كان السحر، وهو على هذا النحو من الإفساد للنفوس وتخليق الأوهام؟

ونقول فى الجواب عن ذلك، كما خلق الأفاعي والجرد؛ فإنها خلق الله تعالى، خلقها لاختبار عباده، وقد يكون لها فوائد يعلمها الله تعالى، وإنه هو الفاعل، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن اليهود الذين اختاروا السحر على علم الكتاب يتعلمون ما يضرهم ولا نفع فيه فقال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ والضرر في السحر واضح لأنه يفسد العقول، فالساحر الدائب على السحر، ينتهي أمره بفساد عقله، فيضطرب وتسارع إليه الوسواس، فلا يكون عنده ميزان عقلي سليم، يدرك به الحق من الباطل، ويكون في وسواس مستمر، ويضر المجتمع؛ إذ به تفسد القلوب وتضطرب الأفهام، ولا يكون حق واضح، ولقد كان لنا صديق كان يتخذ السحر والتنويم المغناطيسي، وكان عالماً رياضياً منظم العقل مستقيم الفكر، فلما أكثر من هذا التنويم الذي هو السحر، اضطربت موازين تقديره، وصار يصدق ما لا يقبل التصديق ويقبل من القول ما لا يصدقه.

وآخر كان مؤمناً أشد الإيمان، وأكثر من هذا التنويم الذي هو السحر حتى فسد التقدير عنده، وصار يهرف بقول لا يصدر عن مؤمن عاقل، فيفضل الرسول على رب العالمين.

وذلك لأن السحر أفسد عقله المؤمن، وتفكيره السليم، ونفى الله النفع منه، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أى لا ينفع متخذه بأى صورة من صور النفع.

وليس لعاقل أن يقوم بعمل مؤكد الضرر، ولا نفع فيه بأى صورة من النفع؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾.

أكد الله سبحانه وتعالى أن من اتخذ هذا النوع؛ أى أن من اشترى السحر، ودفع نفسه وعقله وإحساساته - ليس له نصيب في الآخرة، فالخلاق هو النصيب.

وأكد ذلك باللام الأولى الداخلة على قد، وبالإلام الثانية والجملة فى معنى المجاز بتشبيه المشتري للسحر بتقديم نفسه العاقلة الطاهرة بحال من يشتري شيئاً تافهاً، ويدفع فيه شيئاً قيماً ويبيع آخرته، فلا يكون له نصيب فيها.

ولقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فى هذه الجملة السامية تأكيد الذم للسحر وأكده باللام،

وبش فعل دال على الذم، أى بش هذا السحر الذى باعوا به أنفسهم، أى أن السحر فوق مضراته الواضحة المفسدة للنفس وللجماعة هو فى ذاته أمر مذموم لا يصح أن يطلب فى ذاته، ولكنهم يدفعون فيه أغلى الأثمان إذ يدفعون أنفسهم، وعقلهم وإحساسهم وقلوبهم، وقوله تعالى: ﴿شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أى باعوا؛ لأن شروا بمعنى باعوا، ولكنهم فى عمياء من أمورهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى نوع من العلم، فلا يقدم عليه من عنده ذرة من العلم.

وإن الفقهاء أجمعين يقررون أنه من ثبت أنه يتخذ السحر عملاً يقتل لحماية الناس من إفساده للنفوس، وتفريقه للأخيار، والله تعالى بكل شئ محيط.

اليهود يختارون الشر

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا
وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
﴿١٠٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

يرشد الله إلى الحق بدل الباطل لليهود؛ لأنهم يعرضون، ويطلبون السحر، وينبذون آيات الله تعالى البيّنات الداعية إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وذلك من اضطراب إدراكهم وعدم إيمانهم كشأن من تحكمه الأوهام وتسيطر عليه الأهواء؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

لم يقل سبحانه آمنوا بمحمد ، والضمير يعود إلى اليهود، بل قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ وذلك لأنهم لا إيمان عندهم بشيء، بل هم فى اضطراب لا قرار فى قلوبهم بشيء، والإيمان إذعان للحقائق، وجعلها مستقرة فى القلوب مصدقة للحق فالمعنى: لو ثبت أنهم آمنوا وأذعنوا وصدقوا بالحق واتقوا غضب الله تعالى وطلبوا رضاه، واتجهوا إلى السير فى الطريق السوى لكان ذلك خيرا بدل الاعوجاج الذى اختاروه لأنفسهم، فساروا فى طريق عوج، لو فعلوا ذلك لكان لهم ثواب؛ ولذا قال تعالى فى جواب الشرط المقدر من «لو» ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، أى لو ثبت أنهم آمنوا وأذعنوا وسكن ذلك قلوبهم، واتقوا أى اتقوا غضب الله بعمل صالح ينفعهم وينفع الناس، ويكونون به مصدر خير لخلطائهم من الناس - لكان لهم الثواب الدائم، فالمثوبة هى الثواب الدائم المستمر، وذكر سبحانه وتعالى أن ذلك خير لهم مما هم فيه من اضطراب مستمر وفساد قلب، وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ إما عطف بيان، وإما خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو خير.

وقد أكد الله تعالى المثوبة باللام المؤكدة الواقعة فى جواب فعل لو المحذوف، وبين سبحانه وتعالى بعد علمهم بهذه الأمور التى يكون علمها والأخذ بها خيرا لهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وعلماء النحو يقولون فى «لو» أنها حرف امتناع لامتناع أى يمنع جوابها لا متناع شرطها، والمعنى أنه يمتنع علمهم بذلك فيمتنع إيمانهم، فهم فى ضلال مبين.

وإن اليهود دائما عشراء سوء، فكانوا يغمزون فى القول دائما بالنسبة للنبي ﷺ كان المؤمنون يتوجهون إلى النبي ﷺ طالبين إرشاده وتوجيهه ودعاه فكانوا يقولون ﴿رَاعِنَا﴾ وأصل راعنا مفاعلة من رعى يرعى، ومعنى المفاعلة راعنا بالقول الموجه المرشد نرعىك بالاستماع والإنصات، فإنك هادينا ومرشدنا وقد تفيد معنى اتجه إلينا، ولقد روى عن ابن عباس فى تفسير كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ أنه قال: «كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ راعنا على جهة الطلب والرغبة من المراجعة أى التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبا أى اسمع لا سمعت فانتهزها اليهود وقالوا: كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً.

كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود: عليكم لعنة الله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا أولستم تقولونها فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾.

نهاهم الله تعالى عن قول راعنا لأن اليهود فسروها بما يدل على السب كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه ولووا بها ألسنتهم بما يدل على أن معناها رعونة من القائل والمخاطب الكريم، ولقد صرح سبحانه وتعالى في موضع آخر بلى ألسنتهم فقال تعالى كلماته: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

كانوا يقولون: ﴿رَاعِنًا﴾ يقصدون الرعونة، بمعنى عدم الاستقرار الفعلى والفكرى فأمر الله المؤمنين أن يتوقوا هذه الكلمة وأن يقولوا انظرونا بمعنى اشمئنا بنظرتك وإرشادك وتوجيهك، وأمرهم مع ذلك بأن يسمعوا للرسول لإرشاده وتوجيهه.

وإن ذلك يفيد أمرين:

أحدهما - إرشاد المؤمنين بأن يتخيروا العبارات التي لا تثير حولها المراتبين إلى ما يتعدى مقاصدهم، وما يحرفونها عن مقصودها، وأن يتخيروا جميل الألفاظ التي لا يؤذى جرسها الأسماع.

الأمر الثاني - أنه يجب الأخذ بسد ذرائع فساد الفهم، وما يؤدى إلى الغمز فى القول، وإخراج الكلام عن معناه، وتعدى مقصده.

بل إن بعض المشتغلين بالفقه قال: «إنها دليل على الأخذ بمبدأ سد الذرائع الذى يقوم على أن الذرائع أو الوسائل تأخذ حكم ما تؤدي إليه، فما يؤدى إلى المطلوب يكون مطلوباً، وما يؤدى إلى الممنوع يكون ممنوعاً» وإن لذلك وجهاً من

القول، فإن نهى الله تعالى عن أن يقولوا ﴿رَاعِنَا﴾ سد لفساد اليهود الذين يغمزون فى القول، ويتحكمون بهذا على المؤمنين، وعلى مقام النبوة السامى الجليل.

ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والمراد من الكافرين اليهود الذين لووا ألسنتهم غمزا واستهزاء، وقد أظهر فى موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم ولبیان السبب فى عذابهم فهم كافرون بما كان منهم، وجحودهم للنبوة المحمدية وإنكارهم للقرآن الكريم ونبذهم له وراءهم ظهرها، والكافر له عذاب أليم، وأليم بمعنى مؤلم، وتكثيره للدلالة على أنه عذاب أليم لا يدرون كنهه، ولا حقيقته.

وإن المشركين عبدة الأوثان لم ينزل عليهم كتاب بعد إبراهيم عليه السلام، واليهود أهل كتاب فنزل عليهم كتاب سماوى ثم حرفوه من بعده، ونسوا حظاً منه وزادوا عليه أوهاما من عندهم، وكنتموا جزءا كبيرا مما بأيديهم. إن هؤلاء المشركين واليهود جمعهم أمران: أحدهما الكفر، والثانى بغض محمد ﷺ، أو بغض ما جاء به، فإذا فرقهم العلم بكتاب سماوى، فقد جمعهم كفر وبغض لما جاء به محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

يود هنا معناها يحب، وإن الود يجىء بمعنى محبة الشيء، وبمعنى تمنيه، وهى هنا بمعنى المحبة فقط، وما هو بمعنى التمنى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم]، وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ...﴾ [آل عمران].

وهنا تكون بمعنى المحبة، أى ما يحب الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ونفى المحبة يومئ إلى الكراهية، أى يكرهون أن ينزل الله تعالى عليكم أى خير من ربكم، ومن فى قوله تعالى: ﴿مَنْ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لاستغراق النفى ومعناها أى خير من ربكم، وأعظم الخير من الله تعالى هو أن يكون رسولا من رب العالمين، وربكم الذى رباكم وصنعكم على عينه.

وقدم سبحانه وتعالى أهل الكتاب على المشركين؛ لأن الكلام كان فى أهل الكتاب؛ ولأنهم أشد جحودا وإعناتا؛ ولأن الجحود منهم وهم أهل كتاب أشد من جحود غيرهم الذين لم يؤتوا كتابا؛ فالجهل قد يكون عذرا أحيانا، وإن لم يكن هنا عذرا. وإن سبب كراهية أن ينزل عليكم خير من ربكم يختلف عند المشركين عنه عند اليهود، فهو عند المشركين كفر للوحدانية، وخوف الرياسة، والتنافس بين العشائر، وأما عند اليهود، فهو كراهية أن تكون الرسل فى ولد إسماعيل، وهم فى طبيعتهم الحسد، يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وموضع الكراهية أن ينزل عليهم أى خير من ربهم، وتنزيل الخير من رب الوجود هو الرسالة، كان المشركون الذين عاندوا النبى ﷺ ينفسون على عشيرته بنى هاشم، ولقد قال عمرو بن هشام أبو الحكم الذى لقبه الإسلام بأبى جهل فى سبب كفره: (تنازعنا وبنى عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى تجاثينا على الركب، وصرنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى فأنى يكون ذلك؟ والله لا نؤمن به).

واليهود قد علمنا أنهم كانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

ولقد رد الله تعالى كراهيتهم، وأنه سبحانه وتعالى يسير فى اختيار نبيه على مقتضى حكمته وإرادته فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾، والله ذو الجلال والإكرام، والفاعل المختار يختص برحمته من يشاء وهى رحمة الرسالة التى ترحم الناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] ورحمة القرآن الذى جاء هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين.

فمعنى يختص برحمته، أى يختص بحمل رسالته وقرآنه من يشاء، أى من يختاره بحكمته والله أعلم حيث يجعل رسالته، وإن ذلك من فضله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أى صاحب الفضل العظيم الذى يلازمه سبحانه وتعالى، فلا يكون منه إلا فضل عظيم يعم الناس أجمعين.

النسخ

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ١٠٦ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ١٠٧ ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ١٠٨

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى بعض أفعال اليهود من إنكار وجوده وكفر بالنعمة وكفر بما يعرفون صدقه واتخاذ السحر وأوهامه واتباع ما يضر .. بين سبحانه النسخ لأنه يتضمن نسخ بعض ما جاء في التوراة وإن صدق أصلها، ونسخ المعجزات التي كان يأتي بها موسى عليه الصلاة والسلام، ليؤمن بنو إسرائيل وآل فرعون، ذكر الله تعالى نسخ الشرائع القديمة ونسخ المعجزات الحسية السابقة وأنه أتى بمعجزة هي القرآن، وإنها أمر أوحى للنبي ﷺ وأنه كان آخر صرح للنبوة، إذ كان محمد ﷺ آخر لبنة في صرح النبوة، وكان خاتم النبيين.

بعد ذلك تعرض النبي ﷺ للنسخ في الشرائع والآيات.

النسخ معناه الإزالة كما تقول نسخت الشمس الظل، أي أزالته وحلت محله، ويطلق أيضا النسخ بمعنى نقل المكتوب كما قال: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات].

والآيات تطلق على طائفة من القرآن مفصولة عما بعدها كآية الكرسي، وآيات المنافقين وآية الربا، وآية حد السرقة وغير ذلك من آيات الله تعالى البيّنات.

وتطلق على الآيات الكونية التي تدل على قدرة الله تعالى وعلى حكمته،
وبدیع خلقه ومنها معجزات النبيين الحسية كالعصا، وفلق البحر وإبراء الأكهم وإحياء
الموتى بإذن الله، والإخبار عما في بيوتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ
مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً...﴾ (٥٠) [المؤمنون] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا
تَخْوِيفًا﴾ (٥٩) [الإسراء] ومن الآيات الحسية قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً
تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨) [الشعراء]؛ لأن البناء العالی فيه دلالة على براعتهم في البناء.

والنسخ في اصطلاح الفقهاء على أساس أن الآية هي الآية القرآنية هو إزالة
حكم الآية، ويقسمون النسخ إلى ثلاث:

القسم الأول - نسخ الحكم وبقاء التلاوة، كما ادعوا لآيات نسخ حكمها
وبقيت تلاوتها، كآية تقديم الصدقة بين يدي الرسول إذا ناجوا الرسول في قوله
تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ...﴾
(١٢) [المجادلة].

والقسم الثاني - آية نسخت تلاوتها ولم ينسخ حكمها، كما قيل إنه كان في
القرآن آية «إذا زنى الشيخ والشيخة، فارجمهما البتة»^(١) فنسخت تلاوتها وبقي
حكمها.

(١) عن عبد الله بن عباس يقول: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى أَنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَاتِلُ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيُضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ. وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَيْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتْ، أَوْ كَانَ الْحَبْلُ، أَوْ الْأَعْرَافُ. [متفق عليه: رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٧٧٨)، ومسلم: كتاب الحدود (٣٢٠١) واللفظ له].

ورواه مالك في الموطأ عن سعيد بن المسيب بلفظ: إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلِكُوا عَنْ آيَةٍ: أَنْ يَقُولَ قَاتِلُ: لَا نَجِدُ حَدِيثَيْنِ فِي كِتَابِ اللَّهِ. فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ ابْنَ الْخَطَّابِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَكَتَبْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ) فَلَمَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا. قَالَ مَالِكُ: قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا اسْلَخَ ذُو الْحِجَّةِ حَتَّى قُتِلَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ. قَالَ يَحْيَى: سَمِعْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى، يَقُولُ: قَوْلُهُ الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ يَعْنِي الثَّيِّبَ وَالثَّيِّبَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ. [موطأ مالك: كتاب الحدود (١٢٩٧)].

والقسم الثالث - وهو الأصل آيات محكمة لم يعرها نسخ ولا تأويل، وهذا القسم يقولون إنه أكثر القرآن.

وفى هذا الكلام نظر يستبين مما نقول إن شاء الله تعالى.

ويقولون: إن هذه أقسام بالنسبة لذات النسخ، أما بالنسبة للناسخ فيقولون القرآن ينسخ السنة، ولكن يشترط الشافعى لنسخ القرآن للسنة - أن يكون من السنة ما يدل على النسخ، كالسنة التى دلت على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.

وإدعوا نسخ القرآن بالسنة بل ادعوا نسخ عموم القرآن بأحاديث الآحاد.

وكل على تفسير الآية فى قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾. فإنها الآية القرآنية المشتملة على أحكام تكليفية بإلغاء تكليف ووضع تكليف آخر فى موضعه كنسخ تحريم بإباحة، أو إباحة بتحريم، ولكن يلاحظ أن نسخ القرآن بالسنة لا يستقيم مع النص الكريم؛ لأن النسخ يوجب أن يأتى بخير من المنسوخة أو مثلها، ولا يمكن أن تكون السنة خيرا من القرآن أو مثله.

ولكن هل الآية تدل على وقوع النسخ، أو تدل فقط على جوازه على فرض تفسير الآية بالآية القرآنية (ولنا فى ذلك نظر) نقول إن الآية تدل على الإمكان لا على الوقوع؛ لأن النص السامى بشرط وجواب هذا الشرط - إذ إن «ما» من أسماء الشرط جزم به نسخ وجوابه: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ فهى دالة على الإمكان لا على الوقوع بالفعل، والوقوع بالفعل يجىء من تتبع الأحكام الشرعية الناسخ منها والمنسوخة كما ادعى فى الآيات التى ذكرنا، والأحكام التى تكلم فيها الفقهاء مدعين فيها نسخ آيات بآيات.

فالآية لا تدل على وقوع النسخ، ولا على لزومه.

وقبل أن نتقل بتفسير الآية إلى معنى آخر نتكلم فى معنى ﴿نُنسِهَا﴾ وعلى هذه القراءة يكون ننسها من قلوب الناس لأنها من أنساها - من قلوب الناس، أى

أنه أنساها للناس، وربما يتفق هذا على قول الذين يقولون إن ثمة آيات نسخت تلاوتها، وبقيت أحكامها، كما ادعى في الرجم.

وهناك قراءة (نَسَاها) بفتح نون وهمزة، وبمعنى نُوْجِلها من النَّسَاء بمعنى التأجيل، وخارج بعض اللغويين القراءة الأولى ﴿أَوْ نُسِيَهَا﴾ على هذا المعنى، فقال إن الهمزة قلبت ياء إذ أصلها نُسِيها فسهلت الهمزة فعوملت الياء معاملة حرف العلة فحذفت في حال الجزم، وعلى هذا المعنى تتلاقى القراءتان على معنى التأجيل، ويكون المعنى لا نزيل حكم آية أو نُؤْجِل حكمها، إلا أتينا بخير منها أو مثلها. ثم قال تعالى مؤكدا جواب الشرط بقوله تعالت كلماته: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى تعلم علماً يقينياً مؤكداً أن الله تعالى على كل شيء قدير. وقدم قوله على كل شيء لاختصاصه تعالى بكمال القدرة وعمومها، ﴿أَلَمْ﴾ استفهام للنفي مع التنبيه ونفي النفي إثبات مع التنبيه وتأکید العلم.

وهذا القول كله على تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية.

وأولئك كما ذكرنا يقررون النسخ في القرآن، وقرره الشافعي، وغيره من الفقهاء الكبار، وعلى رأسهم شيخهم أبو حنيفة وإمام دار الهجرة مالك وإمام السنة أحمد بن حنبل.

وحجة قولهم هذه الآية، وما جاء عن الصحابة من نسخ بعض آيات لأخرى وإن كانوا يسمونه التخصيص كما أثر عن ابن مسعود أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ [البقرة] وقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ...﴾ [الطلاق] وفيها ظاهر التفارق في المتوفى عنها زوجها الحامل، فقرر ابن مسعود أنها تعتد بوضع الحمل، وهذا تخصيص للآية الأولى بأنها لغير الحامل، فقال رضى الله عنه: أشهد أن سورة النساء الصغرى، أى الطلاق نسخت الكبرى. وهى قد خصصتها، ولكن كان السلف يعتبرون التخصيص نسخاً، ولا مُشاحة في الاصطلاح.

وإن النسخ فى ذاته لافى القرآن بالذات لا ينكره أحد؛ لأن النبى ﷺ كان يربى المؤمنين، ويدع الدين الحق فى قلوبهم، وقد مكث بينهم ثلاثة وعشرين عاما يريهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وما كانوا ليقبلوا ذلك التهذيب الكامل الذى ينقلهم من الجاهلية إلى العلم والتفكير، والعمل التقى الطاهر دفعة واحدة؛ بل لابد أن يأخذهم فى رفق وأناة يقر أمورا على رجاء التغيير، حتى تشرب قلوبهم حب الإسلام، وحب آدابه، ولقد روى عن النبى ﷺ: «ما من نبوة إلا تناسخت» أى حولت النفوس بالتدريج، وترك أمور فى مرتبة العفو حتى تشرب النفوس الحقائق الإسلامية، وليس معنى ذلك أن الله تعالى كان يجهل الحقائق ثم علم وهو ما يسمى بالبداء، والله تعالى منزه عنه تبارك وتعالى، وإنما معناه أن الله عالم بكل شىء، ولكن نبيه كان كالمربى الذى يتدرج بتعليمه حتى يشب ويعلو فكره، فتتكمّل الشريعة نزولا إذ تكامل عقله إدراكا وبيانا.

لذلك كان النسخ وكانت الأحكام التى تحيى فى السنة موضع التناسخ الثابت بالحديث .

ولكن هل يجيىء النسخ فى القرآن، قال جمهور العلماء ذلك مستدلين بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ولكن نقول: إن الآية الكريمة كما فى بيان الشرط وجوابه، وتدل على الإمكان لاعلى الوقوع فعلا، وإن هذا على أساس تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية المشتملة على حكم تكليفى، ولكن كلمة الآية تدل معانيها على الآية الكونية، والمعجزات الكونية والحسية التى يجيىء بها الرسل كإحياء عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله تعالى، وإحياء الموتى من قبورهم، وتصويره كهيئة الطير فينفخ فيه فتكون طيرا بإذن الله تعالى، وكعصا موسى عليه السلام التى فلقت البحر وفجرت الماء من الحجر، وكإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات .

وإن المشركين طلبوا من النبى ﷺ أى معجزات دالة على رسالته كمعجزات عيسى وموسى ويظهر أن اليهود طلبوا مثلها، فرد الله تعالى عليهم

بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ أى ما نزل آية لنبي أو رسول أو نؤجلها إلا أتينا بخير منها أو مثلها، وفى ذلك إشارة إلى أن معجزة القرآن خير من المعجزات التى سبقت كمعجزة موسى وعيسى؛ لأن معجزاتهم حوادث تنقضى، وتنتهى بانتهاء وقتها ولا تؤثر إلا فى نفوس من عاينوا، وشاهدوا، أما معجزة القرآن، فإنها باقية خالدة تتحدى الأجيال كلها إلى يوم القيامة.

وإننا نميل إلى تفسير الآية بالمعجزة، وذلك للأمور الآتية:

أولا - تعقيب النسخ والتغيير بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن ذلك يتناسب بوضوح مع الآية بمعنى المعجزة القاهرة التى تدل (على قدرة الله وصدق رسوله)، والمعجزة الكونية، ولا تظهر مناسبة مع آية التكليف.

وثانيا - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فذكر هذا النص السامى يدل قياساً أن النسخ أو الترك يكون لآية كونية بخير منها، تكون أبقى وأعظم أثراً.

ثالثا - أنه كان لوم على طلب آية أخرى، فقد قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ هذه الآيات كلها جاءت تالية لآية النسخ وهى فى تواليها تناسب أن تكون الآية المنسوخة معجزة من معجزات الرسالة الإلهية، ومعجزات النبيين.

ورابعا - أن النسخ يقتضى ألا يمكن الجمع بين الناسخ والمنسوخ، وليس فى القرآن آيات تتعارض، ولا يمكن التوفيق بينها، والله سبحانه وتعالى أعلم بمrade.

وإن الله تعالى إذا أنزل معجزة لنبي، وبذل بها معجزة فذلك من كمال قدرته وليس لمؤمن أن ينكر معجزة، ولا يطلب معجزة معينة، وألا يقال: إن الرسول الذى جاء بالمعجزة القاطعة مغتر، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ [التحل] فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ هو الذى يختار من الآيات الدالة على رسالة أنبيائه ما يراه أقوى دلالة، وأكثر بقاء، فهو الذى يعلم الآيات كلها، وهو الذى يدبر كل شىء بحكمته، وإرادته، وإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بمكان آيته، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى النفي أى إنكار الوقوع، فما بعدها يكون منفيًا بها، ولم نافية لما بعدها، فيكون نفي النفي، ونفي النفي إثبات، كما يقر علماء البيان، والنفي على طريقة الاستفهام فيه تنبيه بليغ، لأن الاستفهام فى ذاته فيه إثارة للانتباه، والمعنى: تعلم أيها الرسول، أن الله تعالى له السلطان الكامل فى السموات والأرض، فله التدبير المطلق الذى لا قيد يقيد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فإذا اختار آية دالة على رسالة نبي مرسل، فله أن يختار آية أخرى لنبي آخر، فإذا اختار تسع آيات لموسى، واختار مثلها لعيسى، فله أن يختار لمحمد ﷺ غيرها أبقي وأدوم، وأقوى دليلا، وتحديا للأجيال كلها الإنس والجن.

وإن الله سبحانه وتعالى ببيان هذا العلم الشامل الواسع يشير سبحانه وتعالى إلى بيان القدرة على عقاب من يكذب وينكر، ويجحد بآيات الله تعالى ويقول حيث وضع الحق وقام، إنما أنت مفتر؛ ولذلك قال تعالى من بعد بيان شمول علم الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهذا أنفى لهم عند العذاب النازل بهم من أن يكون لهم ولى، أى صديق، أو ذو ولاية عليهم يحميهم بولايته، ويكلؤهم بحبته أو نصير ينصرهم والشدائد نازلة بهم يوم القيامة.

وقد أكد الله تعالى نفي الولى والنصير، بمن التى تدل على استغراق النفي، أى ليس للمعاندين لآيات الله تعالى ولى أى ولى كان، ولا نصير أى نصير كان قويا أو ضعيفا، وأكد سبحانه النفي بتكرار لا. وإن ذلك النفي المؤكد يفيد أنهم يجيئون إلى الله تعالى فرادى كما خلقهم أول مرة، وهو سبحانه مالك يوم الدين.

أشرنا إلى أننا اخترنا أن يكون النسخ في هذه الآيات الكريمات هو نسخ الآيات الدالة على رسالة النبي ﷺ، وأن تغيير آية يأتي الله تعالى بخير منها أو مثلها، وإن قدرة الله على ذلك ثابتة وله فيما يفعل حكم ظاهرة قد نعلمها بإدراكنا الناقص، وقد تعلو على إدراكنا.

ولذا قال تعالى موجهها الخطاب لامة محمد ﷺ ملتفتا إليهم، وهم يشملون الوثنيين واليهود فهم جميعا أمة محمد فقد أرسل إلى الناس كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) [سبا].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلَ﴾ أم للإضراب عن الكلام السابق إضرابا لفظيا، مؤداه علمتم أن الله على كل شيء قدير، وعلمتم أن الله تعالى له ملك السموات والأرض، وأنه يصرف الآيات لرسله الكرام فيختار لكل رسول آية، ولا يستبعد أن تكون تلك الآيات كلها على نسق هذه الآية لمن يجيء بعده، والله يصرف دلائله وآياته.

أتريدون يا من تخاطبون برسالة محمد أن تسألوا رسولكم آية دالة على رسالته، كما سأل اليهود موسى من قبل، أي أتريدون أن تختاروا معجزة دالة على نبوة محمد ﷺ، كما سئل موسى من قبل.

والاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أي أنه كان ممن خاطبهم محمد ﷺ، ممن سأل النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء يحمله ملك، ومنهم من سأل أن يكون المبعوث ملكا ولا يكون رجلا يمشى في الأسواق، كان ذلك من المشركين، ومن أهل الكتاب، وقد قال تعالى في سؤال أهل الكتاب: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (١٥٣) [النساء].

والمخاطبون في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ هم الذين خطبوا برسالة محمد ﷺ، وهم الناس جميعاً، مشركوهم وأهل الكتاب فيهم، فقد بعث النبي ﷺ للأحمر والأسود والذين طلبوا تغيير المعجزة المحمدية بغيرها من المعجزات الحسية كان منهم المشركون واليهود فهم أخص من بعث إليهم بالخطاب.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى آخره فيه الاستفهام متجه إلى إرادة السؤال لا إلى السؤال نفسه، وإذا كان الاستنكار للإرادة فهو للسؤال أشد لأنه إذا استنكرت ذات الإرادة، فالأولى يكون للفعل، وإنهم ما أرادوا المشابهة بين فعلهم وفعل بنى إسرائيل من قبل، إنما نبههم الله تعالى إلى المماثلة بقوله: ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، أى مثل ما سئل موسى من قبل.

وإن ذلك انحراف عن السبيل، وترك للحق، وانصراف عما يوجهه الدليل، إلى سؤال عن دليل آخر مع سلامة هذا الدليل الذى يعترضون عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى ومن يجعل الإيمان فى مقابل الكفر فقد سار فى طريق منحرف ولم يسلك السبيل المستقيم، وضل يعنى بعد، ومعنى ذلك أن من يطلب الكفر يترك سواء السبيل والقصد، وفى ذلك إشارة إلى أمرين:

أولاً - أنهم ضلوا القصد ولم يسلكوا سواء السبيل أى وسطه؛ لأن وسط السبيل لا يكون اعوجاجاً ولا انحرافاً، وأنهم إذ ضلوا سواء السبيل وبعّدوا عنه سلكوا طريق الكفر، واختاروه على الإيمان.

ثانياً - أن السبب فى سلوكهم طريق الغى والضلال وطلبهم معجزات يريدونها هو أنهم فى أصلهم جاحدون كافرون، ومن ترك الطريق الواضح مع وضوحه وقيام برهانه فقد كفر؛ لأنه يتبدل الكفر بالإيمان.

الحسد في الدين

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَارًا حَسَدًا
 مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا
 وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 ﴿١٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ
 مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
 ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ
 تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
 فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٢﴾

كان المشركون والذين أوتوا الكتاب لا يرضون معجزة النبي ﷺ حجة دالة على صدق النبي ﷺ، وقد تحداهم أن يأتوا بمثلها فعجزوا وعلموا مقامه من البيان، وأنه أعلى من البيان الإنساني حتى يقول قائلهم: (إن له لخلوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، والله ما يقول هذا بشر). فقد تبين لهم الحق، وأن ما يشتمل عليه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، ومع ذلك جحدوا وكفروا وتمادوا واضطهدوا ضعاف المؤمنين، وكانوا يودون أن يعود النبي ﷺ ومن معه إلى ما هم عليه، حسدا لهم، إذا علموا أنهم على الحق، وليكونوا تحت سلطانهم وليحتفظوا بهم وكانوا بين إحساسين: إحساس السلطان وحسد أهل الإيمان؛ ولذا كانوا يتعتون في طلب آيات غير القرآن.

واليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا بالنبى ﷺ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فالحق قد تبين وكان أشد تبيناً، لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك طلبوا آيات أخرى وجحدوا، وما كان ذلك إلا تبريراً لكفرهم بما علموا، ولم يكتفوا بكفرهم بل ودوا أن يكون المؤمنون مثلهم كفراً وعناداً.

ولذا قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ ود هنا معناها تمنى، فإنها تستعمل بمعنى أحب، وبمعنى تمنى، وحيث كانت لو وما بعدها موضع الطلب كانت بمعنى تمنى؛ فإن أمنية أهل الكتاب (وكذلك المشركون) أن يختفى هذا الدين، ولا يكون إلا الوثنية وخصوصاً الوثنيين الذين بقوا على وثنيته من الأوس والخزرج لكيلا يكون محمد ﷺ وصحبه مسيطرين على المدينة.

ويلاحظ أمران:

أولهما - أن القرآن الكريم الذى أنزله العادل الحكيم لم يذكر أهل الكتاب جميعاً، بل ذكر الكثير منهم فقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ لأن بعضهم يرجى إيمانه ويسير فى طريق الإيمان، ومن سار فى طريق الإيمان لا يرجو زواله، ومن يريد الهداية لا يود زوالها.

الأمر الثانى - أنه ذكر أهل الكتاب دون غيرهم لأنهم كانوا أشد رغبة فى تضليل المؤمنين، وكان الحق عندهم أشد بيانا، وأقوى برهانا؛ ولأن حسدهم أوضح، فكلما كانت الحجة أقطع، كان حسدهم أوضح وأبين وعداوتهم أشد، ولجأجتهم فى الباطل.

ويقول سبحانه فى موضع التمنى وباعثه: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ تمنوا أن تعودوا إلى الكفر، بعد أن ذقتم بشاشة الإيمان، وعبر بقوله تعالى: ﴿يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ للإشارة إلى أن ذلك رجعة بعد تقدم، وانتكاسة بعد استقامة.

وما كان الباعث على ذلك الحسد؟ وعبر عن حسدهم بأنه متبعث من نفوسهم، وذلك التعبير يشير إلى أمرين:

أولهما - أنه ليس له مبرر إلا من نفوسهم فلا وجه لأن يحسدوكم على ما آتاكم الله تعالى من فضله.

ثانيهما - تأكيد ما في نفوسهم من غل بقوله تعالى: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ...﴾ [البقرة]، كما في قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ [البقرة].

والحسد تمنى زوال نعمة غيره، سواء أعادت النعمة إليه أم لم تعد. فالحاسد لا يريد الخير لغيره، وهو بهذا يملأ قلبه بالضغن والحقد من غير أن يعود إليه شيء؛ ولذلك قيل إن الحسد مرض نفسى، لا يؤذى إلا صاحبه لأنه بمقدار ما ينال غيره من خير تتوالى آلامه، وخير الدنيا كثير فيزيد مرضه بمقدار ما يؤتى الناس من فضل، وقد يسمى بعض الناس حسداً ما ينال الناس من غبطة كقول النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله تعالى القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»^(١).

واستعمال الحسد هنا من قبيل المجاز؛ لأن موضوع الغبطة والحسد، هو الخير بيد أن الحاسد يتمنى الزوال والغابض يتمنى الدوام والإتباع، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وإن حسد اليهود كان بادياً في كل معاملاتهم للنبي ﷺ، وفي أقوالهم وأفعالهم، وحسد بعض الذين بقوا على وثنيته كان بادياً في نفاقهم وفي أفعالهم، وكانوا يجاهرون بالحسد قبل وقوعه إذ كانوا يجاهرون به، ولا يخفون كفرهم.

يروى أن النبي ﷺ كان راكباً دابة فمر بمجلس فيه مسلمون، ويهود ومشركون من عبدة الأوثان من بقايا الأوس والخزرج الذين لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى بنحوه: كتاب التوحيد (٦٩٥٧)، ومسلم: صلاة المسافرين (١٣٥٠).

بعد، ولو نفاقاً، فسلم رسول الله ﷺ ثم نزل عن دابته وأخذ يدعوهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي: إن كان حقاً، فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاعش مجالسنا فإننا نحب ذلك، فاستبّ المشركون والمسلمون واليهود، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادَةَ فقال رسول الله ﷺ: «ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب» يريد عبد الله بن أبي بن سلول فكناه تقريباً لنفسه «قال كذا وكذا» فقال: أي رسول الله بأبي أنت وأمي! اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطَلَح أهل هذه البحيرة على أن يتوجّوه ويعصّوه بالعصاة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق، فذلك فعل ما رأيت^(١).

والحسد هنا واضح.

ولقد قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، والعفو معناه، ترك المؤاخذة على الذنب والرفق في المظهر، والمعاملة الحسنة، والصفح هو إزالة كل أثر في النفس، فالعفو يتعلق بالمظهر كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف] والصفح ألا يبقى في النفس أثر من الآلام التي أثارها الحسد والعمل على مقتضاه، وكلاهما أعلى درجة من الصبر المجرد؛ لأن الصبر معناه الضبط والتحمل مع ملاحظة ورجاء، والعفو يتضمن كالصفح معنى الصبر، مع تجمل المظهر وألا تكون آلام قط مما يصنعون.

وقد حد الله تعالى نهاية للعفو والصفح، وهو أن يأتي أمر الله قال تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وإن ذلك يكون بأحد أمور ثلاثة: إما بالقصاص منهم، بإجلالهم أو قتالهم، وإما بنزع الحسد والحق من قلوبهم وهدايتهم، وإما بالغلب عليهم وأن يكونوا في ظل المسلمين، وبعملنا إسلامهم وقلوبهم ليست مؤمنة وإن الأمر بالصفح والعفو كان لإرضاء قلوبهم، وإخراج الحسد من نفوسهم فإنه لا يدني القلوب إلا عفو رفيق وصفح جميل.

(١) هذه القصة مذكورة في البخاري: تفسير القرآن (٤٢٠٠)، ومسلم: الجهاد والسير (٣٣٥٦).

ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات قدرة الله تعالى فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإذا أمر الله كان قادرا على نزع الأحقاد من القلوب، والقصاص من الظالمين، وكشف ضلال المنافقين؛ لأنه قادر على كل شيء وقد أكد قدرته سبحانه بالجملة الاسمية وإن المؤكدة، وعموم موضوع قدرته واختصاصه سبحانه وتعالى بالقدرة على كل شيء بتقديم الجار والمجرور على قدير. تعالت قدرته وعظمته وحكمته.

وإن العفو والصفح صفحا جميلا لا منة فيه، يحتاج إلى رياضة نفسية وطهارة روحية وإلف اجتماعي؛ ولذلك قرن الله تعالى الأمر بالمعروف والصفح والأمر بالصلاة والزكاة وتقديم الخير رجاء من عند الله قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

إقامة الصلاة أداؤها على الوجه الأكمل بأن يأتي بأركانها الظاهرة، وأركانها الباطنة مقومة غير معوجة طيبة خارجة من القلوب ليست النفس منفصلة عما تقوم به الجوارح، فإذا قال: «الله أكبر» شعر بعظمة الله وأحسن برقابته، وأنه دخل بالتكبير في ظل رحمته، وأنه رقيب عليه وأنه يواجهه، وأنه في حضرة منشيء هذا الوجود بما فيه من سماء وأرض وجبال ووهاد، وأن نفسه في قبضة يده، والوجود كله في قبضته، وإنه بذلك يحس كأنه يرى الله لأنه في حضرته، وبذلك يعلو عن الأحقاد وعن الحسد، وعن كل ضغن وإحن؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ ﴿٢٥﴾ [العنكبوت].

والزكاة تعاون إنساني؛ لأنها معاونت القوى للضعيف وإعطاء الغنى للفقير، والربط بين الإنسان بالأخوة الجامعة والمحبة الراحمة والمودة الواصلة، وعندها يزول الحسد ولا يتمنى أحد زوال نعمة أحد، وعند ذلك يكون العفو الشامل والصفح الجميل، ويدرك معنى قوله تعالى فاصفح الصفيح الجميل، ويراه بقلبه عيانا.

وإن مع الأمر بالصلاة التي هي رمز للطهارة النفسية والاتلاف النفسي، وإيتاء الزكاة التي تدل على الطهارة الجماعية والاتلاف - أمر سبحانه وتعالى بفعل الخير

فى شتى صوره، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ و«ما» هنا من أسماء الشرط، وفعله تقدموا، وجوابه تجدوه عند الله، والنص الكريم حث على فعل الخير وبيان جزائه؛ لأن جزاءه يجده عند الله تعالى وما يجده عند الله أوفى مما قدم، وأكثر مما فعل، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ونلاحظ ثلاثة أمور فى كل واحدة إشارة بيانية، وحكمة ربانية.

الإشارة الأولى - أن الله تعالى عبر عن فعل الخير سواء أكان لنفسه أم كان للجماعة بقوله: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لأن فعل الخير للجماعة فعل لنفسه، والخير يعود على فاعله ابتداء، ويعود على الجماعة انتهاء، فمن تصدق فإنما يتصدق لنفسه؛ لأن الفائدة إليه إذ يعيش فى مجتمع متكافل غير متدابر، ولتطيب بفعله القلوب وتسود المحبة الكامنة، وكذلك كل فعل خير يكون لنفسه، وهو يقدمه لنفسه أو يكون له ثوابه.

الإشارة الثانية - أنه يجد العمل قائماً ثابتاً عند الله، فيكون مهياً حاضراً يراه ويعاينه، وذلك كناية عن جزائه الذى لا ينقص عنه، بل قد يزيد عليه رحمة من الله تعالى، ويراه عند الله محفوظاً لا يضيع.

الإشارة الثالثة - تذييل الآية الكريمة بما يفيد علم الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذه الجملة السامية تفيد علم الله الذى لا تخفى عليه خافية، فلا يضيع عمل عامل منكم، وقد أكد سبحانه وتعالى إحاطة علمه بما يظهر وما يخفى مؤكداً ثلاثاً:

أولها - إحاطته وسموا ذلك بالتعبير بـ «ما» الدالة على العموم، فإنها بمعنى الذى، وهى تدل على العموم الشامل.

ثانيها - بالجملة الاسمية وتأكيد الجملة بأن وتقديم الجار والمجرور على بصير، والتقديم دال على التخصيص.

وثالثها - التعبير عن العلم بالبصير؛ فمعناه علم كأنه مبصّر بالبصر، يعلم

الخفى الدقيق، والجلى الواضح، فلا يخفى عليه شئ من عمل الإنسان ويعلمه علم من يبصره.

ذكر سبحانه وتعالى حسد اليهود بالمدينة، وكيف يداوى المؤمنون داء الحسد عند هؤلاء وهو بالعفو والصفح رجاء أن يقربوا بدل أن يستمروا على جفوتهم ونفرتهم، حتى يكون اليأس من إدنائهم فيكون القصاص أو الكشف والإبعاد، والله تعالى على كل شئ قدير.

ولقد بين سبحانه سبب حسدهم وهو غرورهم بأنهم أهل الجنة وخدمهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

الضمير يعود على أهل الكتاب فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾ والضمير فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يتعين عودته على أهل الكتاب للقول نفسه؛ لأن الذين قالوا هذا القول اليهود، والنصارى وهم أهل الكتاب وهم الذين كانوا يجاورون النبى ﷺ.

والقول بالترتيب الجماعى فاليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وإلا فكل فريق لا يؤمن بالآخر فاليهود لا يعترفون بالنصرانية وهم الذين عادوا المسيح، وحرصوا على قتله وإن كان الله تعالى قد نجاه من دسهم وشبه عليهم، وقد دل على ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ...﴾ [البقرة].

وهود قيل إنها هنا بمعنى يهود، ولكنها بمعنى الجمع؛ لأن «مَنْ» هنا لفظ يدل على الجمع فالجمع أنسب إليه ويكون جمعا لها كعود جمع لعائد، ولأنه مقابل لنصارى ونصارى جمع، وإن قولهم هذا كذب نشأ من غرورهم وإغلاق قلوبهم على ما عندهم، وما يتمنونه من أمانى كاذبة إذ يتمنون ولا يعملون؛ ولذلك قال تعالى فى تصوير حالهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وهى جمع أمانة وهى على وزن أفعولة فأصلها أمنية اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، وقد

ذكرنا ذلك من قبل، أى أن هذا ما يتمنونه، ولكن لماذا قال تلك أمانيتهم ولم يقل تلك أمانيتهم فذكر ذلك بلفظ الجمع «قالوا»؟ إذ الجمع يدل على أنه أمنية كل واحد بعينه فجمعت للدلالة على عموم التمنى؛ وذلك لأنهم يحكمون لأنفسهم بأمانيتهم لا بأعمالهم بما يتمنونه لا بما يتخذون لنيله الأسباب.

ولأن لفظ الجمع تأكيد لأن يكون هذا غنيا لهم استجابة لغرورهم وأهوائهم، وقد قال تعالى لبيان أنها أمان كاذبة ليس لها من سبب ولا دليل «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أقر رسوله ﷺ أن يقول لهم: هاتوا برهانكم، ولم يقل سبحانه سنكل طلب البرهان إلينا؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، يعلم كذب ما يقولون وافتراءهم، وقد حكم سبحانه وتعالى بأنه ما يتمنونه لا ما يستحقون فلا يطلب الدليل من يعلم؛ وقد فرض على النبي ﷺ أن يطلب لا ليقنع ولكن ليبين كذبهم فى ادعائهم.

طلب منهم أن يأتوا ببرهان، والبرهان هو الدليل القاطع الملزم الذى لا يعتره ريب ولا شك أنه ليس عندهم دليل ظنى أو قطعى من كتاب منزل أو قول نبي مرسل.

ولذلك قال سبحانه: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فجعل أداة التعليق الدالة على الشك، وهى «إن»؛ إذ إنه لا دليل عندهم فهم غير صادقين.

ثم بين سبحانه وتعالى أن دخول الجنة بالإخلاص والعمل لا بالتمنى الكاذب فقال تعالى: «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» بلى حرف للجواب بالنفى كما أن نعم للجواب بالإيجاب، وبلى تتضمن معنى الإضراب وهذا الكلام رد على المفتريين الذين يتمنون الأمانى الكاذبة فليست الجنة إلا جزاء المتقين ولا تكون للكذابين الجاحدين.

«مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» ومعنى أسلم وجهه لله تعالى أسلم نفسه كلها لله تعالى، فتكون كل جوارحه وكل أحاسيسه وحركات قلبه خالصة لله تعالى خائفة منه خاضعة لكل ما يأمر وينهى، وعبر بالوجه فإنه كثير ما يعبر به عن الذات

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾ (٨٨) [القصص]، ولأنه مظهر النفس، ولأنه هو الذى تكون به المواجهة وهو الذى يكون به السجود ومظاهر الطاعة والخضوع والاستجابة.

ولا يكون إسلام النفس إلا وهو معه الإحسان فى الأعمال كلها، فمعنى وهو محسن أنه يكون محسناً للناس فى معاملتهم فيمدهم بالعون عند موجه يعين الضعيف ويغيث الملهوف، ويحمل الكلّ، فلا يحسد الناس على ما آتاهم من خير ولا يكذب ولا يحقد ولا يمشى بنميم بين الناس ولا يتخذ السعاية سبيله، ولا يقطع ما وصل الله، ولا يفرق بين الأحبة، هذا كله يشمله معنى الإحسان وهو لا يحصى فى خصائصه ومزايده وجملته ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حالية ومعناها أنه متلبس بالإحسان لا يصدر عنه غيره.

و﴿مَنْ﴾ من أسماء الشرط و﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ شرطه، وجزاؤه قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ ثواب ذلك الإحسان وإسلام الوجه لله تعالى، أما الادعاء المغرور، والتمنى الكاذب فجزاؤه جهنم وبئس المصير، وإنه لا خوف عليهم من عقاب، ولا حزن يعتريهم من عمل أسلفوه.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى أنهم لا يخافون حساباً ولا عقاباً ولا يحزنون لأمر نالهم، بل إن إخلاصهم لله، وإحسانهم العمل لا يجعل للعقاب سيلاً لهم، فهم فى أمن من الله لأنهم أطاعوه، أما غيرهم فهم فى غيهم وغرورهم يوم القيامة يخافون مما يستقبلهم ويحزنون على ما فاتهم.

الاختلاف بين أهل الكتاب

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

زعم اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وزعم النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهم بذلك قد جمعهم الغرور، والأمانى الكاذبة، لأن الاعتقادات الباطلة يجمع أهلها الأمانى الكاذبة، أو يستحسنون أعمالهم ويحسبون أنها الأمور الحسنة، لتزين لهم أعمالهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا وأوهامهم تسيطر عليهم وتتردى بهم فى مهاوى الضلال.

وفى هذه بين سبحانه وتعالى ما يفرقهم بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى ما يجمعهم. وما يفرقهم هو التناكر أو التكذيب والتضليل، فاليهود يقولون: ليست النصارى على شيء والنصارى يقولون ليست اليهود على شيء، ومعنى على شيء: على شيء من العلم، ولا من الحق، ولا من الهداية، والتكثير لبيان عموم نفى الخير والأشياء الحسنة الطيبة التى ترفع صاحبها إلى مقام عال من الإنسانية الكاملة.

واختلفوا ذلك الاختلاف المفرق الذى يجعل كل فريق منهم فى جانب مع أنهم علماء بالكتب السماوية، ونزل عليهم فى أصل نحلثهم رسول من الله تعالى رب العالمين؛ ولذا قال تعالى موبخا مبينا سوء تفكيرهم: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ والمراد الكتاب أى يقرأونه، ويعلمون ما فيه إن أرادوا ولم يحرفوه، وفيه الميزان بين الحق والباطل، وما فيه رضا الله، وما فيه غضبه، وفيه بيان ما يرفع، وبيان ما

يخفّض، ولكن أهواءهم هي التي تحكمهم، والهوى يفرق، والحق يجمع، والحق يهدي، والهوى يضل.

وإن هذا النوع من التفكير الخاضع للأهواء المردية الذي يسرف فيه صاحبه لا يفرق فيه من أوتى علم الكتاب عمن لم يؤت علما بكتاب؛ ولذلك كان المشركون يقولون مثل قولهم؛ لأن المنزع واحد، وأهل كل ملة يقولون مثل قولهم إذا كان مصدر الحكم الهوى والشهوة؛ لأن كل حزب بما لديهم فرحون؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أى قالوا ليس غيرهم على شيء من الحق والخير، بل الحق عندهم دون غيرهم وزينت لهم أفعالهم، فلم يروا غيرهم يستوجب الجنة فهي لهم وحدهم دون غيرهم.

ولعل عذرهم فى عدم العلم، أما الذين يتلون الكتاب من يهود ونصارى فما عذرهم ؟!

وقد بين سبحانه وتعالى أنه هو الذى يفصل بينهم يوم القيامة، فقال تعالت آياته: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى ليست أمورهم سداً بديداً لا حكم فيها يحكم، ولا الأهواء هي التي تتحكم، بل هناك الحاكم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض والسماء، وهناك يوم يكون فيه الميزان والحكم؛ ولذا قال: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ أى الذى يحكم، هو الذى يعلم صغائر الأمور وكبيرها، هو الذى يحكم وسيكون حكمه الفصل يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، وموضوع حكمه تسامى فى علمه وعدله وما كانوا فيه يختلفون أى الأمر الذى كانوا فيه يختلفون ويتجدد خلافهم آناً بعد آن. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج].

وإن الله تعالى نهى نبيه الأمين ﷺ عن أن يكون من الذين يفرقون دينهم شيعا، ونهيه نهى لأمته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام].

ومع هذا الخبر الناهى الذى فيه العبرة وقع المسلمون فى الاختلاف ولا حول ولا قوة إلا بالله .

المساجد للعبادة فلا يمنع منها أحد

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ
 اللَّهُ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ
 لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
 وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
 فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى ما يتوهمه أهل الكتاب وما يجرى بينهم من خلاف يُكفِّرُ فيه بعضهم بعضاً، وأن المشركين يفعلون مثل فعلهم، ويقولون مثل قولهم، بعد ذلك ذكر أمراً حدث من أهل الكتاب ومن المشركين معاً، وقد جمعتهم الأمانى الكاذبة كما جمعهم الاعتداء على بيوت الله تعالى التى خصصت لعبادته .

فقد وقع ذلك من اليهود والنصارى إذ يمنعون غيرهم من المسجد الأقصى حتى دمره المتمردون من المغول والرومان والنصارى، منعوه أيضاً بعد أن دخل قسطنطين وحرف النصرانية فى مجمع نيقية على ما هو معروف، والمشركون منعوا المسلمين من حج بيت الله الحرام وصدوا المسلمين فى الحديبية . فالمنع من المساجد . وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ . «مَنْ» هنا للاستفهام بمعنى إنكار الوقوع أى النفى، فالمعنى لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيه اسمه، فقله : ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بدل من المساجد، والمنع إنما هو من أن يذكر فيها اسمه وأضيف إلى المساجد للإشارة إلى أن ذلك اعتداء عليها، والاعتداء عليها اعتداء على الله سبحانه وتعالى؛ لأنها مساجد الله تعالى؛ إذ قد خصصت لعبادته سبحانه وتعالى، ومنع أن يذكر فيها اسمه، منع من ذكر الله تعالى وهو أكبر الآثام .

ثم المنع أهو من مسجد واحد، أم منع من مساجد متعددة، أو حكم عام - وهو الظاهر - أم ذكر لوقائع معينة؟ قال بعض العلماء، وعلى رأسهم ابن جرير الطبري: إن المراد مسجد واحد، وهو المسجد الأقصى، إذ منع النصارى الصلاة وذكر الله فيه، وخربوه بعد أن حرقوا النصرانية ودخلوا في الديانة المحرفة.

وقال الأكثرون من المفسرين: إن الكعبة المكرمة هي التي منع المشركون في مكة أن يذكر فيها اسم الله تعالى، وذلك عام الحديبية فقد منعوا النبي ﷺ والمسلمين من أن يدخلوا البيت الحرام. وعلى رأس هذا الفريق من مفسرى السلف الحافظ ابن كثير رضى الله تبارك وتعالى عنه ولترك الكلمة له. قال: والذي يظهر لى القول الثانى وهو أن المنع كان من البيت الحرام، وروى عن ابن عباس أن النصارى منعت اليهود الصلاة فى بيت المقدس؛ لأن دينهم أقوم من دين اليهود (وفى ذلك نظر) وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضا فإن الله تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوه من الصلاة فى المسجد، وأما اعتماده (أى ابن جرير) على أن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة؛ فأى خراب أعظم مما فعلوا؟! أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ [التوبة].

ويسترسل الحافظ ابن كثير فى سوق الآيات الدالة على منع المشركين من أن يدخل المؤمنون البيت الحرام، وفسر تخريب البيت لا بمعنى تدميره ونقض بنيانه،

كما تمسك ابن جرير، بل فسر التخريب بمعنى خلوها من العبادة الحق، وإن ذلك هو الأقرب إلى الدلالة اللفظية؛ لأن الله تعالى لم يقل تخريبها أو تبييرها كما عبر عن اليهود إذا دخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، حيث قال: ﴿وَلْيَتَبَرَّأَ مَا عَلَوْا تَتَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]، وإنما عبر في هذا المقام فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ أى أنهم بهذا المنع من ذكر الله تعالى سعوا في خرابها. وأى خراب لبیت من بيوت العبادة المخصصة لها ولذكر الله أعظم من منع هذا الذكر؟

ولذلك اختار ابن كثير أن يكون الذى منع ذكر الله تعالى فيه هو البيت الحرام، إذ منعوا المؤمنين من دخوله، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَرَجَلٌ مُّؤْمِنٌ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْهُوهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

فالخراب هو خلوها من العبادة . والبيت المسكون يكون خرابا إذا خلا من السكان، ويقول الحافظ: ليس المراد بالعمارة زخرفها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله تعالى فيها، وإقامة شرعه. وإن هذا الكلام ينتهى لا محالة إلى أن الكلام فى المنع من مساجد الله تعالى المنع فيه كان من مسجد معين هو البيت الحرام، فلماذا عبر إذن بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فلماذا ذكر المساجد بدل المسجد؟ ونقول فى ذلك: إن المنع كان فى مسجد، وهو سبب النزول والاستنكار والظلم فيه شديد، ولكن الظلم يكون أيضا فى المنع من غيره، فالسبب إذا كان واحداً، قد يكون الحكم أوسع شمولاً، ويكون الظلم فى منع أى مسجد، ولأن التفسير بالجمع يدل على أن المنع ظلم لما يكون من جنس المساجد كلها، ولا يختص بواحد من بينها.

ولقد قرر الله تعالى لهم عقوبة الدنيا، بأن ينزل الله على هذا المانع الظالم عقاباً دنيوياً صارماً، وهو أنهم لا يدخلونها، لأن من سكن مكاناً اعتدى فيه لا

يدخله، والجزاء من جنس العمل، وقد نبأنا القرآن الكريم بأن العقاب سينزل بهم، وأن مكة وما حولها ستكون في قبضة أهل الإيمان، وأنهم من بعد ذلك لا يملكون منعاً به بل قد يُمنعون إن شاء الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، الإشارة في أولئك إلى الذين منعوا مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه، والإشارة إلى موصوف تدل على أن هذه الأوصاف علة الحكم أو الخبر، وهو ألا يدخلوها إلا خائفين، وقد عبر الله عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أى ما كان يسوغ لهم أن يدخلوها إلا وقد خرجت من أيديهم فلا يدخلون مستمكنين قاعدين مستقرين، بل يدخلونها مضطربين فيها خائفين من أن يؤخذوا بظلمهم عالمين أنها بعيدة عليهم، وليست مكان استقرار، وقال ابن كثير: إن هذه الأخبار معناها الطلب أى لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت هدنة، وهذا النص لما فيه من أمر وطلب فيه بشارة بأن أمرهم زائل، وأنه خارج من أيديهم إلى أيدي محمد وأصحابه.

وذكر الله تعالى عقاباً دنيوياً آخر وهو أنهم يلحقهم الخزي بعد استعلائهم، والذل بعد استكبارهم، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو أن يخرج البيت من أيديهم، ويكون أمره لغيرهم، وأن تهدم أصنامهم، وترمى من فوقه، ويظهر بناء البيت المكرم من رجسهم، ثم أن يُمنعوا من البيت إلا أن يكونوا مؤمنين وقد مُنعوا من البيت، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...﴾ [التوبة: ٢٨] وقد بلغ أبو بكر في السنة - التاسعة عندما كان أميراً على الحج، بالألا يطوف بالبيت مشرك قط^(١). وقد أشرنا في بدء كلامنا بهذه الآية الكريمة بأن اليهود قد منعوا من بيت المقدس وخرابه، والنصارى، وقلنا أنهم فعلوا ذلك بعد أن حرقوا الإنجيل، وآمنوا بالتثليث.

(١) عن حميد بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة أخبره أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر، في رهط يؤذن في الناس: «ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان». [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الحج (٥١٧١) ومسلم: كتاب الحج

ولقد جاء في عبارة ابن كثير أنهم - أى النصارى - خير من اليهود، وأنهم أقرب اعتقاداً، ونقول: إن هذا ليس بصحيح. إنهم لا يقلون فساداً فى اعتقادهم عن اليهود، وإنهم ملة واحدة فى سوء الاعتقاد، وضياع الإيمان، وإذا كان بعض النصارى فى عصر النبى ﷺ كانوا أقرب مودة للذين آمنوا، فجلهم آمن واهتدى، ومن بعد ذلك فهم واليهود على سواء فى العداوة الأئيمة.

والآية كما قال بعض المفسرين تشمل المشركين والنصارى واليهود، فالمشركون منعوا المسجد الحرام أن يذكر فيه اسم الله تعالى، والنصارى منعوا اليهود وخربوا المسجد الأقصى، واليهود بما حرفوا وبما عصوا واعتدوا، وبكفرهم عجزوا عن حماية المسجد الأقصى فدمره القوم عليهم تدميراً.

وإن الذين قالوا هذا: إن هؤلاء جميعاً نالهم خزي الدنيا، فالمشركون بإزالتهم أصنامهم، ومنعهم من دخول البيت وهم مشركون، واليهود والنصارى بالجزية تفرض، ويدفعونها خائفين غير مستكبرين.

ثم ذكر سبحانه العذاب الأكد والأشد فى الآخرة فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله «لهم» معناه أنه مختص بهم، ونكر العذاب لشدة، ووصف بأنه عظيم لقوته.

وكان اليهود الذين يسكنون النبى ﷺ فى المدينة وعقد معهم العقود، وانتهكوا حرمتها، ونقضوها - كثيرى القول فى الإسلام، لا يتركون أمراً يظنونه مكيدة للمسلمين إلا فعلوه، ولا علماً علموه فيه إلا نابذوه وأشاعوا بين المسلمين الشك فيه.

كانت القبلة ابتداء - وقد هاجر النبى ﷺ - إلى بيت المقدس، فأخذوا يشيعون فى المؤمنين تبعية محمد ﷺ إلى دينهم، وقد كان من قبل يتجه إلى القبلتين، ولكن لما هاجر كانت مكة تحت سلطان الشرك وفى قبضته والأوثان حولها ولم يكن فى ظاهر الأمر أنها ستخرج من أيديهم، وإن كان أخذ يضايقهم فى غيرهم؛ الرائح إلى الشام، والقافل منها.

مكث المؤمنون على الاتجاه إلى بيت المقدس في صلاتهم ستة عشر شهرا حتى أذن الله تعالى بأن الأمور ستخرج من أيديهم، وقاربت غزوة بدر الكبرى في علم الله تعالى، فحول القبلة إلى الكعبة، وكان النبي ﷺ حريصا على تحقيق ذلك، وكان يقلب وجهه في السماء طالبا داعيا، فحوله الله تعالى إليها، فأخذ اليهود يشددون غمزه في القول لهذا التحويل، ويتخذون ذلك سبيلا للطعن في محمد ﷺ ودينه، ويقولون إن ذلك تقلب في الإيمان واضطراب في معرفة الحق، كيف يتغير من القبلة الحق - في زعمهم - إلى ما دونها، وهم سفهاء حقا في كلامهم.

وقد بين الله سبحانه أن ذلك لا يتعلق بلب الإيمان، فالقلب موطنه، والله يختار أى مكان يكون القبلة وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

لما كثر لفظ اليهود قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى أن الأرض كلها ملك لله سبحانه وتعالى مشرقها ومغربها، وما بينهما، والمشرق المكان الذى تشرق منه الشمس، والمغرب، المكان الذى تغرب فيه، ولا فضل لمكان على مكان إلا باختيار الله تعالى له، ﴿فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أينما شرطية دالة على المكان وتولوا الفعل مجزوم بها، لأنه فعل الشرط، والجواب دل عليه «فثم وجه الله» أى فولوه واتجهوا إليه، فإن هناك وجه الله تعالى، فثم بمعنى مكان أو هناك وجه الله، والمراد ذاته العلية الكريمة وعبر بالوجه لأن الوجه بالنسبة للعباد هو الجزء الواضح البادى، وإذا روى فقد رؤيت الذات، ولذا كان فى التحدث عن الله تعالى الوجه هو الذات، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَقْبَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٧﴾﴾ [الرحمن].

ومعنى ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾، ولوا وجوهكم فإنكم ستجهون إلى الله تعالى إذ ستجدون الله بنوره وجلاله فى أى مكان. ولا يضير الإيمان أن يتغير الاتجاه من قبله إلى قبله؛ لأنه حيث كان يجد الله فيتجه، والأمر إليه سبحانه فى اختيار مكان اتجاه المؤمن.

ثم ذيل سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والسعة بالنسبة لله تعالى سعة الملك، فالله تعالى واسع ملكه وسلطانه لا يقتصر ملكه وسلطانه على مكان دون مكان، بل كله فى ملكه سبحانه الذى وسع ملكه كل شىء، وهو عليم بما يجري فيه، فالعبادة المخلصة المحسنة يعلمها ويصل إلى صاحبها ثوابها، سبحانه وتعالى ..

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ليس بوالد ولا ولد

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبِنُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ
وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

تكلم القرآن الكريم عن اليهود، وخياناتهم وغدرهم فى ماضيهم وحاضرهم وكفرهم بآيات الله تعالى، ومع ما صنعوا ادعوا أنهم أهل الجنة، وأن النار لن تمسهم إلا أياما، وقالوا مع النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا، وذكر عنهم اختلافهم وتنازلهم مع أنهم يتلون الكتاب، ثم أشار سبحانه إلى كلامهم فى شأن القبلة ولجأجتهم فى التشنيع على المسلمين بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

وبعد ذلك يشير إلى الوثنية في الديانة النصرانية المثلثة، التي ابتدأت بادعاء أن المسيح ابن الله، وإذا كان اليهود قد شاركوهم في أن عزيزاً ابن الله، فإنهم لم يلجوا فيه، ويجعلوه جزءاً من دينهم، كما لج النصارى قبحهم الله، وزادهم ضلالاً فوق ضلالهم، ووهما فوق أوهامهم فقد ضلوا سواء السبيل ولا أمل في هدايتهم إلا أن يتخلصوا عن هذه الأوهام وإلا فذرهم في غيهم يعمهون، وإن الله تعالى يهدي من يشاء.

وقالوا - أى النصارى ومن قاربهم من اليهود، وإن لم يلجوا لجاجتهم - قالوا وعليهم إثم ذلك القول لأنه اختراع كاذب، ونسب سبحانه وتعالى القول إليهم، لأنه ضلالهم الذى به ضلوا، وخرجوا عن التوحيد إلى الوثنية.

وقولهم هو: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أى أن الله تعالى هو الذى اختار ولداً، أو جعله ولداً، وهذا يدل على زعمهم الباطل من أن الله تعالى احتاج إلى أن يكون له ولد، ورغب فيه وأراد، أو اشتهى كما يشتهي الأحياء أن يكون له ولد لحاجته إليه. وقد رد الله تعالى عليهم ذلك الزعم بأربعة أدلة تدل على بطلان ذلك الزعم الوثنى الذى يشابه مقالة عبدة الأصنام:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى تنزهه عن ذلك وتقدس ذاته العلية أن تكون مشابهة لأحد من الحوادث الذين يتوالدون ويتناسلون، فهو الواحد الأحد الذى لا يشابه أحداً من خلقه، ليس كمثله شئ، ولو كان له ولد لكان مشابهاً للحوادث ولكان له زوج، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً...﴾ [١٠١] [الأنعام] وأنه لو كان له ولد تولد منه لكان له والد، وهو منزّه عن ذلك فهو الواحد الأحد الذى ليس له والد ولا ولد.

الدليل الثانى: أنه لو كان له ولد لكان مفتقداً إلى من يكمل وجوده؛ لأن الولد امتداد لأبيه، فهو كمال وجوده، والله تعالى ليس بمفتقر لأحد؛ لأنه الكامل المنفرد بالكمال، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك الدليل بقوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبلى هنا للإضراب والانتقال من تنزيهه إلى تنزيهه، والمعنى أن له

الملك الكامل والسلطان التام فى السموات والأرض، فيستحيل أن يكون محتاجا إلى ولد، بل كل الوجود فى سلطانه، وليس فقيرا إلى ولد يعينه، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) [فاطر] وأن كل شىء خاضع لسلطانه مسبح بحمده كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤) [الإسراء].

الدليل الثالث: أنه إذا كان الوجود كله ملكا له، فكيف يتخذ ولداً، وإنه إذا كان الوجود كله ملكا له، فكيف يكون محتاجا له، وإن الوالد قد يحتاج للولد ليكون مسخرا فى حاجاته يقوم بحق الوالد عليه، والله لا يحتاج إلى ذلك، لأن الوجود كله فى قبضة يده، وكلهم خاضعون له؛ ولذلك قال: ﴿كُلُّ لُهُ قَانِتُونَ﴾ والقنوت: هو الخضوع المطلق، والعبادة والتسبيح له سبحانه وتعالى. والتنوين فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ﴾ دال على عموم كل من فى الوجود خاضع لله تعالى لا يحتاج إلى من يكون فى طاعته.

والقنوت يشمل العبادة من ذوى الإرادة، ومن يقتنون بمقتضى التكوين الفطرى، والتكوين كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (١٥) [الرعد].

الدليل الرابع: أن الله تعالى هو الذى أبدع السموات والأرض على غير مثال، وخلق الوجود كله الأرض والسماء والأحياء فهو الذى ذرأ من فى السموات والأرض، وكلهم عبيده، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٢) [مريم] فكيف يكون له ولد، وأنه إذا كان له ولد، فإنه يكون من جنسه، ويكون من مثله والله المبدع للوجود والخالق منزّه عن أن يكون بعضه من الحوادث والولد بعض أبيه وبضعة منه.

وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبديع بمعنى مبدع أى منشئ على غير مثال سبق، وقد أخذ بعض المفسرين من هذا دليلاً

على أنه لا يمكن أن يكون الإبداع متفقاً مع اتخاذ الولد، فقد قال الراغب في ذلك: «إن الأب هو عنصر للابن منه تكون، والله مبدع الأشياء كلها فلا يمكن أن يكون عنصراً للولد، فمن المحال أن يكون المتفعل فاعلاً اهـ.

وإن هذا بلا ريب يتنافى مع الإبداع.

وإن الذين قالوا: إن الله اتخذ ولداً قالوا: إنه نشأ عنه ملازماً له، كما ينشأ الضوء من الشمس وكما ينشأ النور من السراج، أى أنه نشأ من الموجد الأول نشوء المعلول من علته والمسبب عن سببه، وهم قالوا ذلك آخذين له من الفلسفة، وهى الأفلاطونية التى تتوافق مع النصرانية تمام التوافق، وهى بعد أن حرفت عما جاء به المسيح عليه السلام كما هى والأفلاطونية الحديثة على سواء.

فهم يقولون: إن الله ليس فاعلاً مختاراً وإنما نشأ الولد نشوء المعلول عن العلة؛ ولذلك كان رد الله تعالى عليهم بإثبات ملكه وقدرته على الخلق والتكوين، وأنه أبدع السموات والأرض بإرادته ردّ لكفرهم وضلال عقولهم، وأوهامهم الباطلة، التى ضلوا بها، وأضلوا الناس بالدعوة إلى تصديقها.

ولقد بين سبحانه إرادته المختارة بأنه مبدع السموات، ويقول تعالى: ﴿وَلِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى أنه إذا أراد خلق شيء ممكن قال له كن فيكون.

والواو عاطفة والمعطوف عليه بديع السموات والأرض، «بديع» صيغة مبالغة بمعنى مبدع فهى فى معنى الفعل؛ ولذا صح عطف الفعل عليها، أو عطف الجملة الفعلية عليها.

وهى بيان الاختيار والفعل المنافى للتوالد، وقضى بمعنى أنشأ وخلق وكون، والأمر هنا هو بمعنى الشيء فإذا أراد الله تعالى خلق شيء لا يكون بتوليد شيء فى شيء أو مادة من مادة، إنما يكون بكلمة يقولها وهى «كن» والأمر أمر تكوينى فيكون الشيء الذى أراه الله تعالى.

وهذا يدل على أمرين :

أولهما - أنه سبحانه وتعالى فاعل مختار يفعل ما يريد، وأن الأشياء نشأت بإرادته المختارة، فهو فعال لما يريد، والأشياء لم تنشأ نشوء المعلول عن علته، أو المسبب عن سببه .

ثانيهما - أنه لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد يتولد عن والد، ولا يخلق الله تعالى الأشياء بطريق التوالد، من توليد لاحق بسابق، بل إنه سبحانه وتعالى ينشئ في الابتداء، والتوالد بين الأحياء يكون بسلطانه، وبحكمته وهو العزيز العليم .

إن المسيحية بعد المسيح عليه السلام سارت في ذلك المسار الذي انتهى بوثنيتها وانحرافها، وتحللها من العقيدة التي دعا إليها المسيح عليه السلام، وهي عقيدة المسيح، وأنه رسول الله تعالى، وأنه عبده ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ...﴾ [النساء] وقد تم ذلك على النحو التالي:

أ - عندما توفي الله المسيح إليه، توالى التعذيب على أتباعه، والتعذيب ابتداء في حياته عليه السلام في هذه الدنيا فقد اضطهده اليهود ودسوا عليه عند الرومان حتى هموا بصلبه ونجاه تعالى إذ شبه لهم، وما قتلوه وما صلبوه وتوالى من بعد ذلك تعذيب الرومان، في عهد ملوك كثيرين منهم، فكان منهم نيرون الذي كان يطلى أجسامهم بالقار ويشعل فيه، ويسرون في مواكبهم مشتعلين، وكان زينة موكبه تلك المشاعر الإنسانية، ومنهم دقلديانوس الذي قتل مقتلة عظيمة في سنة ٢٨٢، وإنه في وسط هذا الاضطهاد كان المسيحيون يقيمون شعائهم الدينية في الخفاء إذ كلما ظهروا عذبوا، وكانوا إذا ظهروا أخفوا عقائدهم فكانوا يفتشون القلوب وينقبون عن خبايا النفوس، ولا يسلم الدين مع هذا الاختفاء إذ لا يكون مرشد هاد، ولا رقيب يمنع دخول الزيف في دينهم .

ب - وفي هذه العصور دخلت عناصر من الوثنيين يحملون وثنياتهم، وخلطوا ما بينها وبين عقيدة التوحيد التي جاء بها المسيح عليه السلام، وإن الاختلاط بمرضى الحقائق يجعل الضلال يسرى إليهم كما تسرى عدوى الأمراض .

ولعل أشد الوثنيين الذين أغاروا عليهم - بولس، الذي سموه رسولا، فقد كان عدوا للمسيح في حياته في هذه الدنيا، كان إلّبا عليه يحرض الرومان، ثم ادعى أنه دخل المسيحية، وما دخل، أو دخلها ليخربها وهو أول من أدخل الوثنية فيها، واطرح فيها تعاليم المسيح اطراحاً.

ج - وقد كانت الأفلاطونية الحديثة تتكون، وأساسها أن الأوثان الرومانية فقدت قوتها، والفلسفة هي الأخرى فقدت سلطانها، فأرادت الأفلاطونية الحديثة أن تصل إلى نفوس الرومان باسم الدين وأرادت أن تجمع من بقايا من الوثنية، ومن اليهودية والنصرانية التي ظهرت دينا جديدا، فكانت النصرانية التي خرجت عن دين المسيح عليه الصلاة والسلام، وهي جمعت بين الوثنية بالوهية المسيح وروح القدس مع الله، واليهودية باعتبار التوراة أصلاً لها فصارت النصرانية.

والأفلاطونية الحديثة التي يعد أكبر رؤسائها أفلوطين المتوفى سنة ٢٧ ميلادية تعتقد أن العالم نشأ عن الشيء الأول، وهو الله أو العقل الأول عندهم، ثم نشأ عنه العقل الثاني وهو ماسمى عند النصارى بالابن، ثم نشأ عنهما الروح العامة المتصلة بالمخلوقات جميعا.

د - مع هذه الأعراض التي ظهرت في المسيحية، ومع هذه المحاولات الوثنية كان التوحيد هو المسيطر وهو الأكثر أتباعا في القرون الثلاثة الأولى والثاني والثالث، وخصوصا في الأول والثاني، وإذا كانت وثنية تظهر، فإن الكثرة الموحدة تطردها كما يطرد الجسم السليم بحيويته الأمراض ويتغلب عليها، واستمرت كذلك طول هذه القرون الثلاثة.

حتى جاء بطريق الإسكندرية، وهي موطن الأفلاطونية الحديثة، جاء باتفاق مع قسطنطين إمبراطور الرومان في أول القرن الرابع، وادعى أن التوحيد بدعة في المسيحية، وأن الأصل فيها ألوهية المسيح في زعمهم، وأن آريوس الموحّد وكان في الإسكندرية قد ابتدع التوحيد مع أن كل كنائس مصر والشام موحدة لا يرتاب أتباعها في ذلك.

وأنه يجب طرد أريوس الموحد المنكر لألوهية المسيح من المسيحية، مع أنه صورة للكثرة المسيحية الكاثرة التي كانت منبثة في ربوع مصر والشام.

هـ - دعى بسبب هذا لعقد مؤتمر عام في نيقية الذي عدّه النصارى المصدر الأخير لديانتهم، دعى في هذا المجمع العام ٢٠٤٨، ثمانية وأربعون وألفاً أسقف، وجرى بينهم اختلاف، والسائد فيهم التوحيد وإن كان فيه انحراف من بعض الطوائف.

ولكن قسطنطين يريد الدخول في النصرانية، بعد أن يصيرها قريبة من دينه بإدخال الوثنية فاختر من هذا العدد الكبير ٣١٨ أى ثمانية عشر وثلاثمائة، وقد رضوا بما يدعو إليه، وسلطهم على المسيحيين كلهم وأعطاهم شارة الملك ووصلجانه. فقرروا ألوهية الابن أى المسيح بقيادة بطريق الإسكندرية مهد الأفلاطونية الحديثة، وكان ذلك المجمع سنة ٣٢٥.

ولكن المسيحيين عارضوا ذلك المجمع، واعتبروه خارجاً على المسيحية، وأيدت المعارضة مؤتمرات في الشام كمؤتمر صور.

ولكن الأفلاطونية الحديثة لم تتم فصولها، فقد تقرر في هذا المجمع ألوهية الابن في زعمهم، ولكن ثالث الأفلاطونية الحديثة الله أو الأب، أو العقل الأول، والابن أو العقل الثانى، وروح القدس لم يتقرر بعد! ولذا كان لابد من أن يتقدم بطريق من الإسكندرية سنة ٣٨١ بطلب تقرير ألوهية روح القدس فانعقد مؤتمر القسطنطينية، وقرر باقتراح بطريق الإسكندرية ألوهية روح القدس.

وبذلك تم ثالث النصارى، وهو ثالث الأفلاطونية الحديثة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ [المائدة ٧٣] وهم بهذا وثنيون يشركون مع الله أحداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تشابه المشركين وأهل الكتاب

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ
 قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ
 قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
 بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾
 وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ
 هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَادِي وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَ هُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ
 مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ
 الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

اليهود يتعتنون والمشركون طلبوا آيات مختلفة، آيات حسية مطَّرحين الآيات المعنوية، مع أن الله تعالى أجرى على يديه خوارق للسعادات باهرة كالإسراء، والطعام الكثير من الغذاء القليل، وَسَحَّ الماء بين يديه، وحنين الجذع إليه، وتعشيش اليمام حول الغار، وسير السحاب معه لتظله، ونصره بالرياح وقد اشتدت الشديدة، وغير ذلك كثير، ولكنه لم يتحد إلا بالقرآن؛ لأنه الآية الكبرى، والمعجزة الدائمة القاهرة.

ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذين أى الذين لم يؤتوا علما سابقا وهم الأميون، وتكون الآية الكريمة نصًّا فى المشركين؛ لأنهم الأميون الذين لم يعلموا كتابا ولم

يكونوا من أهل الكتاب، وقد جرى تعبير القرآن بذلك فى مقابل أهل الكتاب، ولقد طلبوا آيات مختلفة، فطلبوا أن ينزل عليهم قرطاسا من السماء يخاطبهم به الله، أو ملكا رسولا، كما رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ [الأنعام].

وهذا على أن الذين لا يعلمون هم المشركون، لقد طلبوا هذا وطلبوا آيات كثيرة فى سورة الإسراء وتلونا من قبل قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ لولا هنا للتحريض والطلب، تقارب معنى هلا، وليست للشرط الدال على امتناع الجواب لوجود الشرط، مثل: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١) [سبأ] والفرق اللفظى أن لو التى تكون للطلب يكون بعدها الفعل، ولولا الشرطية يكون فى صدر فعلها اسم، كما دل على ذلك استقراء اللغويين، وفسر كثيرون من الفقهاء، أن الذين لا يعلمون هم من أهل الكتاب الذين حضروا عصر النبى ﷺ، ويرشح لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقد قال الذين من قبلهم أرنا الله جهرة.

وقوله تعالى: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أى فى التعت وتطلب الآيات الحسية، وإذا كانوا قد طلبوا ذلك مع تسع آيات بينات حسية، فإن الذين فعلوا مثلهم طلبوا ذلك مع ما هو أعظم من ذلك، وهو القرآن المعجزة الإلهية الكبرى.

وليس فى الأمر تضاد بين الرايين؛ ولذلك يكون الجمع بينهما أولا، فالذين لا يعلمون الحق، ولا يدركون معانى الإيمان طلبوا ذلك سواء أكانوا من المشركين، أم كانوا من اليهود والنصارى المتعتتين الذين إذا كان علمهم بالكتاب فقد جهلوه أو تجاهلوه أو أنكروه، فهم مع الذين لا يعلمون على حد سواء.

وقد بين الله سبحانه وتعالى تشابه ما بين ماضى الكافرين وحاضرهم، فقال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى أن قلوبهم تتشابه فى الإلحاد فى دين الله

تعالى، وتعتهم في طلباتهم، وجحودهم المستكن في قلوبهم الذي يظهر على أقوالهم، فإذا كانت أقوالهم متحدة، فلأنها ناشئة من قلوب متحدة في أنها لا تؤمن بشيء، ولقد جاء عيسى ببينات قاطعة من إحياء للموتى وإخراج لما في القبور، وتصوير للطين ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله تعالى. جاءهم بكل هذا فقالوا: هذا سحر مبين فالجاحد لا يؤمن بشيء وليس عدم إيمانه لنقص في الدليل، بل كلما زاد الدليل قوة زادوا عتيا وكفروا، وصرفوا عقولهم ونفوسهم لا في الإيمان به، بل في أعمال الحيلة لرده.

ولذلك رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى أنه بين للذين لا يعلمون في الحاضر، والذين قالوا مثل قولهم في الماضي، وأتى لهم بآيات من شأنها أن تدخل إلى القلوب بالإيمان، ولكن بشرط تقبل القلوب للحقيقة، وإن من شأنها أن توقن بالحق إذا عين لها دليله؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أى من شأنهم أن يوقنوا عند وجود الدليل، لا يترددون وليس من شأنهم التردد، ويتنهي ترددهم بالجحود.

إن الدليل إذا كان قويا صدقوا بعقولهم، ولكن إذعانهم لا يكون إلا إذا كانت قلوبهم خاضعة من شأنها اليقين، وقد تستيقنها النفس ولكن لا تسكن القلوب إلا إذا كان اليقين من القلب المؤمن بالحق أو المستعد له الذي يقذف الله تعالى في قلبه بالنور؛ ولذا قال تعالى في شأن الجاحدين المتعنتين: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾ (١٤) [النمل].

والآيات هنا إذا كانت عامة للحاضرين والماضين فهي الآيات التي سبقت لموسى ولعيسى، وآية محمد الكبرى، وهى القرآن العظيم الخالد الباقي إلى يوم القيامة.

ومعنى قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ قد أنزلنا بينة مقنعة بذاتها؛ لأنها العلامات والأمارات القاطعة في الدلالة على الله، وعلى نبوة الرسول الذي بعثه الله تعالى.

ويلاحظ أن هذا في موضوع نسخ الآيات المعجزات، واستبدال آية بآية، والقرآن الكريم في هذا النسق يفصل بعضها وما عرض من أخبار اليهود والنصارى والقبلة. والاعتراض والرد لم يكن بعيدا عن ذلك بعدا تاما.

وإن هذا التعتن في طلب الآيات، وعقد مشابهة بين آيته الكبرى، وآيات النبیین السابقين التي لم تأت بإيمان أهل الكتاب بل عاندوها، وجحدوا بها، وقالوا: هذا سحر مبين، وقالوا اثنتا بآية غير هذا القرآن، وقد ذكر أنه إن نسخ آية أى تركها يأت بمثلها، أو خير منها.

ولذا ذكر سبحانه وتعالى أن رسالة النبى ﷺ حق في ذاته يدعو إلى نفسه، وقد أيدت بآية هي حق، ويدعو إلى الحق، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى إنا بعثناك نبيا مرسلا، مقترنة أو متلبسة رسالته بالحق، فهي حق يثبت نفسه، وما فيها حق، وما تدعو إليه حق، والحق وحده كاف لإقناع من يكون عنده قلب يدركه، ويمتلئ قلبه حكمة، وبصيرة، وإذا كان القلب مخلصا أدرك وآمن، يروى أن أكثم بن صيفى حكيم العرب عندما بلغه بعث النبى ﷺ أرسل ولده يسألون عما يدعو إليه فلما ذهبوا إليه تلا عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فلما عادوا تلوا على أبيهم ما تلاه عليهم النبى ﷺ، فقال حكيم العرب: إن هذا إن لم يكن ديننا كان فى أخلاق الناس أمرا حسنا، كونوا يا بنى فى هذا الأمر أولا، ولا تكونوا آخرًا فالحق نور يدعو إلى أتباعه.

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى مبينا الحق، ومبيناً أن جزاء من تبعه الحسنی، ومبيناً أن من يعانده يكون السوء مصيره فـ ﴿بَشِيرًا﴾ بيان لبشرى من يتبع، و ﴿نَذِيرًا﴾ بيان للسوء لمن يعاند ويجحد، إنما أنت عليك البلاغ وإنما أنت نذير، لما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيْنَا فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] و ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ لست أيها الرسول مشغولا بمن يتردون فى الضلال، وهم أصحاب الجحيم، وعبر سبحانه وتعالى

عنهم للدلالة على ما يستقبلهم من عقاب فللذين أحسنوا الحسنى وللذين أساءوا السوءى .

والجحيم وصف من الجحمة والجحمة شدة تأجج النيران، والمعنى لا تسأل عن الذين يلازمون النار ملازمة الصاحب فهم أصحابها والمختصون بها .

وإنه لا يسأل عنهم، فهو النذير العريان الذى لا يتحمل تبعة مخالفة المخالفين، بل هذا جزاؤهم وهو بشير أو نذير، ﴿بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ ... ﴿٤١﴾ [الزمر] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد] ﴿٧﴾ فلست بمسئول عمن كفر وطفى .

وإن الذين يشيرون القول فى الآيات البينات وخاصة معجزة القرآن هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين غلفت دون الهداية قلوبهم، وتعصبوا لأوهام باطلة سيطرت على نفوسهم، وحسبوا ألا يكون دين فوق دينهم يجب اتباعه، وجعلوا ما عندهم، وضلوا فيه ضلالا مبينا، وغاضبوا محمداً ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فى هذا النص إشارة إلى أنهم هم الذين يعارضون، ويتعتنون؛ لأنه سبق إليهم ما يحسبون به أنهم فوق أن يتبعوا غيرهم، بل غيرهم عليه هو أن يتبعهم، وقد أكد الله تعالى أن ذلك المعنى فى نفوسهم، فنفى عنهم الرضا على النبى ﷺ نفيا مؤكدا للحال التى كانوا عليها عند المبعث المحمدى؛ لأن رسالته عليه الصلاة والسلام، واجهت فى نفوسهم شعورا مملوءا بالضلال والهوى والانحراف عن الجادة المستقيمة، ولكى يدخل الحق إليها لابد من تفريغ ما فيها من ضلال وفساد، وهداية النفس الخالية من فساد المنكر أقرب من النفس الممتلئة بالباطل .

فهم يريدون أن يكونوا متبوعين لا تابعين، وتلك توجد فيهم جحودا، وقسوة فى قبول الحق لا يقل عن المشركين، فى تمسكهم برياساتهم، وشرف قبائلهم وعشائيرهم، والمنافسات بينهم .

والملة هي الشريعة، وقد قال الراغب في مفرداته: (الملة كالدين وهي اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوسلوا به إلى جوار الله تعالى، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه السلام التي تسند إليه نحو ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ (٩٥) [آل عمران]، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي...﴾ (٣٨) [يوسف] ولا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى آحاد أمة النبي، ... لا يقال: ملة الله، ولا يقال: ملتي، ولا: ملته).

وعلى ذلك يكون: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أى الملة التي جاءتهم عن أحبارهم ورهبانهم، وإن ملة اليهود، ومثلها ملة النصارى أوهم أوجدتها شهوات حبيسة، فملة اليهود أهواء وملة النصارى أوهم وأهواء، وكلهم ضلال فى ضلال.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ اتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى نهى النبي ﷺ باللام الدالة على القسم مع إن، وهما أشد ألفاظ التوكيد فى بيان عاقبة الاتباع، وأنه إذا كان الاتباع المنهى عنه نهياً مؤكداً، فالعاقبة ألا يكون لمن اتبع أهواءه إلا أن ينزل عليه عقاب الله تعالى، ولا يكون له ولى محب يدفع عنه، ولا نصير ينصره من غير الله.

فمعنى النص السامى أنك أيها الرسول إن اتبعت أهواءهم فإنه من المؤكد أن العذاب نازل، ولا ينجيك منه ولى ولا نصير.

وهنا ملاحظتان بيانيتان: أولاهما - أن تحذير النبي ﷺ لا يقصد به شخصه أولاً وبالذات، إنما يقصد به أتباع محمد ﷺ، وأن عليهم أن يحرصوا على مجانبتهم، وألا يغتروا بهم، وإنه فى وقت ضعف النفوس المؤمنة يكون كيد هؤلاء مستمراً، دائماً ومذهبا يصلون به إلى قلوب ضعاف الإيمان، فقد يميلون - وإن لم يكفروا - فيستحسنوا ما عندهم، وإنا نرى من ضعفاء الإيمان فى عصرنا من يستحسنون كل ما عند النصارى واليهود، فإذا ذكرت أحوالهم استحسنوها، وإذا

ذكرت مكارم المسلمين استهجنوها، حتى طمع أولئك الفجرة الفسقة فى بعض المسلمين، فأخذوا يستهونونهم بكل الأساليب، وقى الله أهل الإيمان منهم.

الملاحظة الثانية - أن هؤلاء ما عندهم ليس بدين يتبع، ولكنه أهواء باطلة وأوهام فاسدة، وأى عقل يدرك أن الواحد اثنان وأن الاثنين ثلاثة !!؟ ولكنها أوهام ضالة، والله المنقذ من الضلال.

وإن الله تعالى منصف فى أحكامه، فهو سبحانه وتعالى لا يعمم فتشمل البرى والسقيم؛ ولذا بعد أن ذكر حال اليهود فى عصر النبى ﷺ بين أن من أهل الكتاب من يتلونه حق تلاوته، ويتعرفون غايته ومراميه، وإن هؤلاء يؤمنون بمحمد ﷺ، ويتبعونه؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

آتيناهم معناها أعطيناهم، وتقبلوا العطاء بنفس شاكرة، وعقل مدرك وقلب مؤمن، فلم يكن إعطاؤهم كآى إعطاء، والكتاب هو ما أعطاهم الله تعالى من قبل كتوراة موسى أخذوها من غير محاولة تحريفها، وإنجيل عيسى أخذوه كما هو داعيا إلى الوجدانية مع الإيمان بأنه بشر كسائر البشر، رسول كغيره من الرسل أولي العزم، ليس ابنا ولا إلها، قال لقومه: اعبدوا الله ربي وربكم، فالكتاب هو كتاب أهل الكتاب، وهم الذين عرفوه، وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أى يتعرفون معناه فينزعجون بزجره، ويتعظون بعظاته، ويعتبرون بقصصه؛ ولذلك فسر بعضهم التلاوة فى هذا المقام بالاتباع، كما فى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس]، أى تلا الشمس أى اتبعها واستضاء بنورها.

فمعنى ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أى التلاوة الحق، وهى التلاوة المتبعة المتفهمة المدركة، والمتقبلة غير المعاندة. وبين سبحانه وتعالى جزاءها وأوصاف أهلها فقال تعالت كلماته: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يصدقونه ويدعون لما يأمر به وينهى عنه، ويعملون بموجبه.

وهؤلاء هم من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥) [آل عمران].

وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهَا قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٥٤) [القصص].

هذا التفسير على أساس أن الكتاب هو كتاب أهل الكتاب الذي آمنوا به ولم يحرفوه عن مواضعه، ولم يكتبوه بأيديهم ويلوون به ألسنتهم، ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

ولكن من المفسرين من قالوا إنه القرآن الكريم، وإطلاق اسم الكتاب عليه من غير ذكر أنه القرآن، للدلالة على كماله وأنه لا يماثله من الكتب كتاب ولو كان سماوياً؛ لأنه الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ (٢) [البقرة].

ويكون معنى تلاوته حق تلاوته أن يتدبر معناه، ويتعظ بمواعظه، ويعتبر بقصصه كما ذكرنا آنفاً، ولقد كان النبي ﷺ وهو يتلو القرآن إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ^(١) ولقد قال عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه، فى معنى قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منه ولقد قال الحسن البصرى فى الذين يتلونه حق تلاوته: هم الذين يعملون بحكمه ويؤمنون بمشابهه، ويتفهمون معانيه.

(١) عَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَالَ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ رَأْسَ الْمِائَةِ فَقُلْتُ يَرْكَعُ ثُمَّ مَضَى حَتَّى بَلَغَ الْمِائَتَيْنِ فَقُلْتُ يَرْكَعُ... الحديث إلى أن قَالَ: «وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ فِيهَا عَذَابٌ تَعَوَّذَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَنْزِيهٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبَّحَ». [خرجه أحمد: كتاب باقى مسند الانصار (٢٢١٧٥) وغيره، وأصله عند مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها (١٢٩١)].

هؤلاء هم أهل الإيمان - من الماضين - بكتبهم، المؤمنون بالقرآن الكتاب الأكمل، أما من كفروا فقد ذكر الله تعالى ما يستميلهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكفر به جحود بآياته وإنكار لأحكامه، ومعاندة، وقال أولئك الإشارة إليهم محكمين كفرهم متصفين به، وحكم سبحانه بالخسران مؤكدا له بضمير الفصل هم، وبالجمله الاسمية ويحصرهم في الخسران، والله أعلم بهم.

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
 أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا
 لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا
 شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

تقدم بيان معاني هاتين الآيتين الكريمتين^(١)، وبقي أن يسأل سائل لماذا تكررت الآيتان، ونقول إنه ابتدأت قصة بنى اسرائيل بهاتين الآيتين، وذكر من بعدها النعم المتوالية، والكفر المتوالى، وكيف كانت النعم لا تزيدهم إلا كفرًا وخسارًا، وذكر سبحانه وتعالى تعلقهم في نعمه تبارك وتعالى، وكفرهم المتوالى بهذه النعم. وفى ذلك اعتبار للناس، وتسلية للنبي ﷺ، وأنه كان فى قصصهم عبرة لأولى الأبصار، وأنه ما كان حديثا يفترى.

وفى ختام قصصهم فى هذه السورة (سورة البقرة) تأكيد لنعمه عليهم، وتأكيد لم كان زجرهم؛ ليتبين أن ابتداء أمرهم كنهائته. ﴿كَذَٰلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [الأعراف].

(١) راجع تفسير الآيتين ٤٧، ٤٨ من سورة البقرة فى هذا التفسير المبارك.

إبراهيم وبناء الكعبة

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرَ ابْنَيْ لِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّرْمَةِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَتَّسِلُ لِمَصِيرٍ ﴿١٢٦﴾﴾

بعد أن قص الله تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل وما كفروا به هذه النعم في حاضرهم وماضيهم، وكانوا يفخرون بأنهم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإنهم لهذا أبناء الله وأحباؤه، وما أدام ذلك الاعتقاد الواهم الباطل إلى ضلال توارثوه، وفساد فكر تناقلوه، وكفر بالله، وقتل للنبيين، أخذ سبحانه يقص قصص إبراهيم أبى إسماعيل وإسحاق وجدَّ يعقوب وجدَّ النبيين الذين ذكروا في التوراة والإنجيل والقرآن.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ و«إذ» ظرف زمان يدل على الماضى متعلق بمحذوف تقديره: اذكر الوقت الذى ابتلى الله فيه إبراهيم بكلمات فاتمهن، وذكر الوقت ليس ذكراً للزمن المجرد، إنما هو ذكر للوقائع فى هذا الزمن، للعبارة بها، والاتعاظ فى مثلها.

وقد ابتداء هذه الوقائع بابتلاء إبراهيم عليه السلام بكلمات، والابتلاء معناه الاختبار من الله تعالى لا عن جهل بما سيكون، بل لإظهار ما علمه الله تعالى عما

يكون، ولا يكون إلا في أمر يعمله العبد بمجاهدة، وصبر وجهاد نفس، وقد كان الابتداء بذكر الابتلاء لبيان أن إمامة النبوة لا تكون إلا بمجاهدة، وجهاد نفس، وقدم المفعول على الفاعل وهو «الكلمات» التي ابتلى بها؛ لأن موضع الحديث هو إبراهيم ذاته وليست الكلمات، فكان هو موضع الاهتمام وحده، وكان المراد كشف حال نفسه القوية الطاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ...﴾ (٣١) [محمد].

والكلمات التي اختبر الله تعالى بها إبراهيم، ليست هي ألفاظها وكلماتها وحروفها، إنما المراد بالكلمات المدلولات والمطلوبات التي تتضمنها من أوامر ونواه، ووقائع.

وقد اتجه بعض مفسري السلف إلى إحصاء ما تدل عليه هذه الكلمات، واعتمدوا في ذلك على أقوال الصحابة والتابعين، ولكن لم يسند فيها إلى الرسول ﷺ شيء؛ ولذا قال شيخ المفسرين السلفيين ابن جرير: لا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع... ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة يجب التسليم له. اهـ.

وإذا كان لم يصح خبر بهذه الكلمات أو بالوقائع التي تدل عليها الألفاظ، فإننا نتلمسها من القرآن الكريم سجل النبوات وأخبارها.

وأول واقعة تجلّى فيها اختبار الله تعالى لإبراهيم هو في طلبه معرفة ربه رب الوجود، ورب المشارق والمغارب، فقد اختبره الله تعالى بذلك - كما حكى القرآن الكريم - فقد كفر بالأوثان، ابتداء؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ثم أخذ يتعرف رب الوجود من الوجود والملك وقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَأَىٰ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٤) وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين (٧٥) فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين (٧٦) فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما

أَفَلَمْ يَأْتِ قَوْمَ إِبْرَاهِيمَ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ [الأنعام].

هذا اختبار من الله تعالى عرف به عقل إبراهيم السليم، وإدراكه المستقيم.

وقد اختبره الله تعالى وألهمه أن يحطم الأوثان فحطمها، وجعلها جذاذًا، وألقوه في النار عقابًا فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء]. واختبره الله تعالى بكلمة مدلولها أشد ما يكون على النفس البشرية أن يذبح ولده البكر إسماعيل عليه السلام، فاستجاب لأمر ربه، وأخذ يذبح ولده الحبيب استجابة للحبيب، ولكن فداه الله تعالى بذبح عظيم.

واختبره الله تعالى بالهجرة من بلده إلى الشام، وإلى مكة حيث ولده العزيز إسماعيل وأمه واختبره الله تعالى بالحنيفية السمحة فحملها وكانت ملته المتبعة، وما كان من المشركين.

اختبره الله تعالى بكلماته، أي بمدلولها، وما ذكرنا بعضها، فأتمهن أي أتم ما طلب منه فيها، وكان أمرها عظيمًا وكان إبراهيم في إتمامها عظيمًا.

ولذا كانت مكافأة الله تعالى له أعظم، فكانت جزاء وفاقًا لما أتم به الكلمات، قال الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي يقتدى به ويتبع، فالإمام ما يؤتم به ويتبع و«جاعلك» أي مصيرك بإتمام الكلمات، ووفائك لهذا قدوة طيبة، وأسوة صالحة، فمن اتبعك فقد اهتدى، وأي امرئ عنده طاقة إبراهيم أبي الأنبياء في القدرة على الاقتداء به، والاهتداء بهديه والوفاء بكلماته إن ذلك لمقام عظيم.

وإبراهيم كان شفيقًا رفيقًا محبًا لأسرته في غير ظلم ولا اعتداء، وكان يعطف على الأطفال ويرفق بهم؛ ولذلك لم يكتف بأن كان هو الإمام، بل أراد أن يكون

إمام من ذريته يعمل بمثل عمله ويقتدى به فى الهداية، فهو يطلب الهداية لذريته لاستئثارا بالمحبة ولكن بالتقوى والهداية؛ ولذلك قال مناجيا ربه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أى اجعل يا رب العالمين من ذرىتي أئمة صالحين يؤتمون ويقتدى بهم، فهو يدعو الله تعالى إلى أن تكون ذريته طيبة صالحة يقتدى بهم، فتكون خلفا له فى الإمامة لا بمجرد الانتساب إليه بل لعملهم وتقواهم وإيمانهم بكلمات الله.

ولكن الله تعالى العليم الذى يعلم كل شىء يعلم ما هو كائن، وما يكون أشار إلى أنه لن تكون ذرية إبراهيم كلها من الصالحين الذين يؤتم بهم، بل سيكون منهم الظالمون الذين يظلمون أنفسهم، وغيرهم بالمعاصى يرتكبونها وبالشر يعملونه ويطلبونه؛ ولذا قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

أى أن ذريته سيكون منهم محسن، وسيكون منهم ظالم لنفسه، بالمعاصى، فالمحسنون ينالهم عهدي، ويكون منهم أئمة يقتدى بهم، وأما الظالمون فلن ينالوا إمامة فى الدين من الله سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مِينٌ ۝١١٣﴾ [الصافات] والمعنى أن ذرية إبراهيم من أحسن منها نال الإمامة، ومن لم يحسن فهو ظالم لا ينالها؛ لأنه يضل الناس، ولا يهدى أحدا؛ ولذلك كان من ذريته أئمة فى الدين، وقد قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت].

والعهد فى اللغة مراعاة الشىء والمحافظة عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه] والعهد أيضا الأمر الموثق الذى لايجوز نقضه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٢٤﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۝٩١﴾ [النحل].

والعهد فى هذه الآية هو الإمامة، وكأنها مأخوذة من العهد بمعنى الرعاية فعهد الله تعالى أن يعهد برعاية الدين والإمامة إلى إمام فى الدين، وإنه لا ينال هذه

الإمامة ظالم، ولا يشمل عهد الله بمعنى أن يعهد بالرعاية للظالمين، أى لا يشمل عهدي ظلما قط .

وقد تكلم بعض المفسرين على ضوء هذه الآية الكريمة على الولاية وإمامة الناس، فقال بعضهم: إن هذه الآية تدل على أنه لا يجوز ولاية الظالم، ولا يصح أن يكون إماما، وأنه إذا ولى ظالم لا تجوز طاعته، أو على الأقل فى ظلمه، وقال آخرون: تجب طاعته فى الطاعة وتجب مخالفته فى المعصية؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ويستمر فى ولايته، ويسعى فى تغييره .

وإن الاتفاق على أنه لا يجوز تولية الجائر، ولكن أتسقط ولايته بجوره؟، أم تبقى ويسعى فى تغييره؟ المعتزلة والشيعة والخوارج قالوا: لا طاعة له، ويغير بالقوة .
والذى عليه الأكثر كما قال القرطبي: أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن فى منازعته والخروج عليه استبدال الخوف بالأمن، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء وشن الغارات على المسلمين والفساد فى الأرض .

وقد كان الإمام مالك يمنع محاربة الخوارج وأمثالهم إذا خرجوا على الظالمين ويقول: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما، ولكن إذا خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز وجب على الناس أن يقاتلوهم ويمنعوهم من طغيانهم .

أنعم الله تعالى على العرب بإبراهيم عليه السلام إذ جعل البيت الذى بناه وهو بيت الله الحرام مثابة للناس وأمنا، كما قال تعالى فى سورة أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ...﴾ [١٧] العنكبوت .

ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ . والمعنى: واذكر الوقت الذى جعلنا فيه البيت مثابة للناس، أى اذكر ذلك الوقت بما فيه من نعم، وإكرام لأهل التقوى، والبيت المراد منه المسجد الحرام، وإطلاق كلمة «البيت» وإرادة البيت الحرام إشعار بفضلله، وإشارة إلى كماله، وإلى أنه أكمل بيت وضع

للناس، لأنه أول بيت للعبادة، ولأنه بناء إبراهيم أبي الأنبياء، ولأنه موضع الأمن من الخوف، ومثابة الناس، ولأنه أنشئ مطهرا من الأصنام وما جاء بها العرب بعد ذلك إلا بعد أن انحرفوا عن ملة إبراهيم وإن كان - البيت - شرفهم ومحتدم الكريم .

والمثابة: أى المرجع الذى يأوون إليه، والمثابة مصدر تاب يثوب مثابا، وثوبيا، أى مأوى يأوون إليه عندما تشتد بأحدهم شديدة ويريد الالتجاء إليه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا﴾ فهو مصدر موصوف به البيت فهو أمن للناس يأمنون فيه من القتل أو الاعتداء، حتى إن الرجل ليلقى فيه قاتل أبيه أو أخيه فلا يمتد إليه، وحرّم فيه القتل والقتال، وكان محترما فى الجملة من العرب أيام شركهم، وذلك من هداية الله تعالى لهم بالأخذ بأثارة من بقايا ملة إبراهيم.

ولقد قال الله تعالى فى هذا البيت: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧) [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ وَأَمَّا﴾ فيه إشارة أولا إلى أن الكعبة مثابة للناس، يجيئون إليها فى حجهم، كما صرح سبحانه وتعالى، وفيها قبلتهم إذ يثوبون إليها فى الصلاة ويلتفون حولها التفاف الدائرة حول قطبها، فهم يتجهون إليها من كل أرض الله تعالى.

وإن باني الكعبة المكرمة إبراهيم عليه السلام هو وابنه إسماعيل عليه السلام، وإنه ليبقى الاتصال بين الحاضر والماضى أمر الله تعالى أن يكون مقام إبراهيم للبناء مصلى لمن جاء بعده من الذين سماهم إبراهيم المسلمين، وهم أمة محمد ﷺ؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرئ بالطلب بكسر الخاء، وقرئ بالفتح على أنها خبر، وفى الحالين هى معطوفة على ﴿جَعَلْنَا﴾ فعلى قراءة فتح الخاء يكون المعنى جعلناه للناس مثابة وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعلى قراءة

الأمر يكون عطف جملة طلبية على مثلها؛ لأن ﴿جَعَلْنَا﴾ وإن كانت بلفظ الخبر ولكن معناها الطلب؛ لأن المؤدى أنها أمر من الله تعالى بأن يكون البيت مشابه للناس يرجعون إليه ويأوون ويحيطون به في صلاتهم إحاطة الدائرة بقطبها، وأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

و ﴿مَقَامٌ﴾ اسم مكان القيام، أى الشيء الذى قام إبراهيم عليه بينى البيت بمعاونة إسماعيل عليهما السلام، وقد قالوا إنه الحجر الذى يعرفه الناس، فى الحج، واتخاذ مصلى، أى اتخاذ المكان الذى هو فيه مصلى أى مكانا للصلاة فالمصلى اسم مكان للصلاة.

وفى البخارى أن مقام إبراهيم الحجر الذى ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التى كان إسماعيل يناوله إياها فى بناء البيت^(١) وغرقت قدماه فيه، وقال أنس: رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه.

وإن اتخاذ مقام إبراهيم مكانا للصلاة إبقاء لذكر إبراهيم عليه السلام وتنويه بالصلاة فى ذاتها وأنها الصلة بين الماضى والحاضر، وقد كانت بأمر الله تعالى، وليست بدعا قد أتيتها.

وقد تكلم المؤرخون فى الحجر الذى قام عليه إبراهيم لبناء الكعبة المكرمة، وأوثق من قال فى ذلك ابن كثير، لقد قال فى ذلك: «مقام إبراهيم هو الحجر الذى يصلى عنده، وهذا الحجر هو الذى قام إبراهيم عليه عند بناء البيت لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة، فيضعها بيده لرفع الجدار

(١) جاء فى صحيح البخارى فى حديث طويل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّى مُطَّلِعٌ تَرَكْنِى، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءَ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ رَبِّكَ أَمَرَنِى أَنْ أَبْنِىَ لَهُ بَيْتًا قَالَ: أَطِيعَ رَبِّكَ. قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِى أَنْ تُعْبِسَنِى عَلَيْهِ؟ قَالَ: إِذْنٌ أَفْعَلُ - أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَ: فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ بَيْنَى وَإِسْمَاعِيلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعَفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). [أحاديث الأنبياء: باب (واتخذ الله إبراهيم خليلا): (٣١١٤)].

وكان كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه وكلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة».

ويقول ابن كثير في موضعه الذى وضعه إبراهيم بعد البناء: «وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى مكان الباب مما يلي الحجرة يمين الداخل من البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام، لما فرغ من بناء الكعبة، وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا - والله أعلم - أمر الله تعالى بالصلاة عند الانتهاء من الطواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة». اهـ

وبهذا تبين أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى كان يقف عليه إبراهيم لإتمام البناء، ولما أتمه وضعه بجوارها، وكان الصلاة عقب الطواف عنده حيث انتهى إبراهيم من البناء وحيث انتهى الطائفون من طوافهم. ولقد جاء فى العام السابع عشر من الهجرة سبل شديد نقل الحجر من موضعه فهال ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وركب إلى مكة وتحرى الموضع الذى كان فيه الحجر فوضعه فيه رضى الله تعالى عنه. لقد أقام البناء للبيت العتيق نبیان، وبهذا البناء بنيا مجد العرب، وبنيا أمنهما ومكان عبادة الناس، ومثابتهم التى يستقبلونها فيحيطون بها.

وقد بنياه طاهرا، مطهرا، وعهد الله تعالى إلى اللذين بنياه أن يقوموا على استمرار طهارته ليتحقق الغرض الأول، وهو أن يكون مقصدا للحجيج الطائفين والذين يجاورونه عاكفين على العبادة فيه، فقال تعالى: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

والعهد فى هذا النص السامى، من عهد إلى هذا برعاية بيته أو أهله فى غيبه. فمعنى ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، أى جعلنا لهما عهدا وفوضناهما برعاية البيت إنشاءً وتطهيرا وقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ تفسير للعهد المذكور، وتطهيره

هو التطهير من الرجس الحسى من الخبائث الحسية، والتطهير المعنوى بأن يخصص لعبادة الله تعالى وحده فلا يكون مكانا لوثن، ولا معبداً لغير الله تعالى، وقد قال تعالى فى هذا المعنى السامى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّاغُوتِ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكْعَ السُّجُودَ﴾ [الحج: ٢٦].

ويصح على هذا أن نقول إن العهد أن يبنياه مطهرا من كل خبث فى بنائه بقلب سليم، ونفس مخلصه لوجه الله تعالى، وأن يجعلاه طاهرا معنى وحسا ليكون للقاصدين له من غير مكة، والمقيمين حوله، وسماهم هنا العاكفين مشيرا إلى أن البقاء بجواره مجاورين له قائمين بحقه عبادة، وعبر فى الآية الأخرى بالقائمين أى المستمرين حوله. والطائفون عند أكثر الكاتبين هم القادمون للطواف وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا، وإنه مع أنه موطن الحجيج الطوافين والمقيمين حوله مجاورين معتكفين هو مسجد الله تعالى تقام فيه الصلاة، فيكون لهؤلاء الطائفين العاكفين ويكون للمقيمين للصلاة، وأشار إليهم سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَالرُّكْعَ السُّجُودَ﴾ هم الراكعون وهو جمع تكسير، وهم الذين يخضعون لله تعالى راكعين متضرعين متبتلين، والسجود جمع ساجد، كقعود جمع قاعد، ورقود جمع راقد. ويراد الركوع الذى هو ركن الصلاة، والسجود الذى هو الركن أيضا، واكتفى بذكرهما دون بقية الأركان من قراءة وقيام وقعود؛ لأنهما مظهر الخضوع الكامل، والتطامن لرب العالمين.

بعد أن بنى خليل الله أبو الأنبياء بيت الله تعالى بأمر ربه اتجه ضارعا إليه، أن يجعل ما حول البيت آمنا، وقد أقاموا فى مكان جذب؛ ولذا دعا ربه أن يرزقهم من الثمرات، فقال تعالى حاكيا دعاءه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وفى هذا دعاء إلى أن يكون ما حول البيت بلدا آمنا، وأن يرزقه من الثمرات، وهذا يشير إلى أنه عند بناء البيت لم يكن البلد قد تكون، ولكن آية أخرى تشير أن هنا بلدا متكونا؛ ولذلك ذكر بالتعريف، فقال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد قال بعض المفسرين إن الدعوة قد تكررت، فالدعوة الأولى كانت ولم يكن البلد، ولذلك كانت الدعوة بتكوين البلد وجعله آمناً، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٢٧﴾ [إبراهيم] وإنه عند تمام البيت استجاب الله تعالى لنبيه، فأخذ الناس يأوون إليه بينون ويقيمون الخيام، وإن البلد ينشأ بعد بضع سنين فلما نشأ، وإبراهيم ذو ضراعة، وأواه حليم دعا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وخشى من الكثرة النسبية في البلد الذى وجد أن يكون فيهم عبدة الأوثان فضمن دعاءه قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وإن كثيرين يرون أن طلب إبراهيم لم يكن إنشاء بلد آمن، بل كان طلبه فقط أن يكون آمناً، فالطلب من إبراهيم عليه السلام كان منصبا على الأمن، والإشارة إلى المكان، فالعنى اجعل هذا بلدا موصوفا بالأمن، ويكون المطلوب الأمن، كما تقول مشيراً إلى ابنك اجعل هذا ابناً باراً، ويكون المراد وصفه بالبر، وقد أجاب الله سبحانه تضرعه، فجعله بيتاً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم.

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، والرزق الإعطاء والتمكين، ومن هنا للبعضية، أى ارزقهم بعض الثمرات فكان الطلب قانعا غير مسرف فيه، وكذلك شأن الذين لا يسرفون على أنفسهم، والثمرات ظاهرها أنه يكون مما تنبت الأرض، وقد أعطاه الله تعالى الثمرات فى حدائق الطوائف وغيرها من نخيل وأعناب، وأعطاهم ثمرات التجارة، فكانت مكة موطن الاتجار فى الجزيرة العربية، وكانت مزار العرب فى الحج، وقد كان ذلك إجابة لإبراهيم خليل الله تعالى إذ قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٢٧﴾ [إبراهيم].

وإنه فى هذه الآية طلب أن تهوى إليهم أفئدة الناس، فيقدموا على الحج، وطلب أن يعطيهم من الثمرات، كما طلب فى الآية الكريمة التمه. نتكلم فى معناها

السامى، وطلب الثمرات لا يتنافى مع أنها غير ذات زرع؛ لأن الثمرات من الأشجار لا من الزرع وقد رزقهم النخيل والأعناب، والفاكهة والرمان، وغيره مما ينبت فى الصحراء.

وخص خليل الله تعالى المؤمنين من ذريته بهذا الدعاء، فقال: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بدل اشتمال من أهله فكان الطلب لهؤلاء فقط، وذلك لأن الله تعالى رد طلبه بتخصيص غير الظالمين بالنسبة للإمامة، إذ قال تعالى بعد إتمام الكلمات التى اختبره الله تعالى بها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فرد الله تعالى طلبه بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فظن نبي الله تعالى أن الرزق يكون للمؤمنين فقط كالإمامة، فبين الله تعالى أن الرزق يعم والإمامة خاصة بالعادلين غير المشركين؛ ولذلك قال تعالى ردا لخليله: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ أى أن الرزق يعم، البرىء والسقيم، والعادل والظالم، والمؤمن والكافر، بخلاف الإمامة التى تكون من الله تعالى، فلا تكون إلا لمؤمن عادل: ولقد قال تعالى فى سورة الزخرف: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف].

وإن ذلك ليس للمحبة ولا للرضا عن كفره، ولكنه لاستدراجه إذا لم يرشد ويهتد كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف] ولذا قال سبحانه، بعد أن نبه خليله إبراهيم إلى أنه يرزق الكافر ﴿فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا﴾ أى أعطيه المتعة أمدا قليلا، وهو ما يكون فى الدنيا، والدنيا مهما طالت أمد قليل بالنسبة للآخرة التى هى الباقية الخالدة، وعذابها خالد، ونعيمها مقيم، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ والعطف بضم هنا، للدلالة على تفاوت ما أعطاه من رزق وما ادخره من عذاب، واضطره معناها ألجئه وأسوقه إلى جهنم سوقا، كما قال: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾﴾ [الطور] أى يدفعون دفعا،

وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) [القمر]. وبذلك ينالهم عذاب الحرمان، والإلجاء إلى جهنم فاقدى الاختيار؛ لأنه جزاءً وفاً لما قدموا، والثانى النار الدائمة كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها، جنبنا الله عقابه، وغفر الله لنا، وكتب ثوابه.

بناء الكعبة

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

كان بناء الكعبة من الكلمات التى اختبر الله تعالى بها نبيه إبراهيم، فقد قلنا إن المراد من الكلمة مدلولاتها من أمر ونهى، ونحوها، وقد أمر الله تعالى نبيه إبراهيم ببناء الكعبة لتكون المزار، وبها نسك الحج؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، و«إذ» ظرف زمان دال على الماضى، ويتعلق بمحذوف تقديره اذكر أو اذكروا الوقت الذى كان يرفع فيه القواعد من البيت وإسماعيل، وذكر الوقت ليس بذكر الزمان المجرد إنما يكون بذكر الوقائع التى وقعت فيه، وإنها تكون قليلة خطيرة، لها أثرها فيما وراءها، وحكى الله تعالى قصة البناء بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ وعبر بفعل المستقبل، وهى واقعة فى الماضى؛ لأن الفعل المضارع يصور الواقع كأنه حاضر تستحضره، وتراه: شيخ هو خليل الله تعالى وشاب هو ذبيح الله تعالى يقومان معا ببناء البيت،

ويتضرعان إلى الله تعالى في كل حجر يضعانه، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

والقواعد جمع قاعدة، وهى الأساس لما فوقها، وكل حجر يوضع هو قاعدة لما فوقه، والحجر الثانى قاعدة للثالث؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ وعبر سبحانه عن وضع القواعد بعضها فوق بعض بـ «يرفع»؛ لأن البناء هو الغاية من الوضع، فعبر سبحانه وتعالى عن الفعل بغايته ونهايته.

وإن إبراهيم الخليل وولده الطاهر الذبيح المحتسب، لا ينيان لذات البناء ولا لغرض دنيوى ولا للمأوى والسكن، بل استجابة لأمر الله تعالى، بأمره، ويتضرعان بالبناء، طالبين قبوله.

ولقد ذكرنا أن البناء كان بأمر الله، روى البخارى وجاء مثله فى مصنف عبد الرزاق أن إبراهيم عليه السلام كان يزور ولده - الذى تركه فى البداء - الوقت بعد الآخر، فجاءه وقد صار فتى سويا وتزوج فوجده يصلح النبل، فقال: يا إسماعيل إن ربي عز وجل أمرنى أن أبني له بيتا، فقال الابن البار المطيع: أطع ربك عز وجل، قال: إنه قد أمرنى أن تعينني عليه، فقال الشاب القوى: إذن أفعل، فقام فجعل إبراهيم يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة، ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم^(١).

والدعاء على ما بينه الحديث كان محفوفاً بالعمل فهما يعملان بأيديهم، ويحملان على عاتقهما، وقلوبهما ضارعة بالدعاء وألستهما لاهجة بالشاء على الله تعالى، والتقرب إليه، وقد قيل إن إبراهيم الخليل كان يبنى وإسماعيل كان يدعو، وذلك يخالف النص فى القرآن ويخالف الحديث ويخالف منطق العبادة، فإنه لا تكون عبادة أحدهما بالدعاء مغنية عن عبادة الآخر.

(١) سبق تخريجه قريبا.

وإن هذا العمل من الخليل إبراهيم، وابنه الذبيح المقدس، يدل على أن أى عمل يمكن أن يكون عبادة إذا كان لله تعالى . . نعم إن ذلك العمل كان استجابة لأمر الله، فهو أجل من أى عمل، ولكن ذلك لا يمنع أن أى عمل فيه أداء فرض كفاية يكون بأمر الله مادام مطلوباً لصالح الجماعة، وإذا اقترنت به نية القربى كان عبادة، ولقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب العمل لا يحبه إلا لله»^(١).

أقام إبراهيم خليل الله مع ابنه المطيع لأبيه وربه البناء، وداراً حول جدرانها، وهما يحفانه بدعائهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، وقد أحسا بالاستجابة، لكمال الضراعة، وخاطبا ربهما فى إحساس بالقرب منه قائلين: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقد أكدا أن علمه تعالى علم من يسمع من غير أذن، وعلم من يعلم علم إحاطة لا يخفى عليه شيء؛ أكداه أولاً بالجملة الاسمية، وأكداه يان، وأكداه بالتأكيد اللفظى بتكرار «أنت» وأكداه بتعريف الطرفين، أى أنه لا سميع غيرك، ولا عليم سواك، وهكذا كانت ضراعة الإيمان.

أتم إبراهيم بناء الكعبة، وكان مما اختبره الله به، ومن الكلمات التى أتمها كما أشرنا إلى ذلك.

وقد اتجه الأبواب الحليم بعد أن دعا ربه بقبول عمله، إذ قال: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، أى اقبله راضياً عنا؛ لأن التقبل أبلغ من القبول، إذ القبول المجرد أقل من التقبل برضا، وجزاء لهذا العمل.

اتجه خليل الله تعالى إلى ربه داعياً لجماعته، بعد دعائه لنفسه وابنه، فقال هو وابنه عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

الواو فى قوله تعالى ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾، عاطفة على قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ وكرر بين المعطوفين كلمة (ربنا) للشعور بكمال ربوبية الله تعالى، وبكمال

(١) يشهد له من الصحيح الكثير، ومنه ما رواه أبو داود فى سننه عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَابْتَغَى لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِنَفْسِهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ». لكتساب السنة: باب زيادة الإيمان: [٤٠٦١].

الضراعة له سبحانه، فتكرار الربوبية شعور بذكر الله تعالى دائما، وبذكر نعمه، وأنه كالي هذا الوجود كله.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ جعل هنا بمعنى صَيَّر، وَكَوَّنَ؛ أى اجعل فى كوننا ووجودنا أن نكون مسلمين لك، أى مخلصين لك ولوجهك الكريم، والإسلام هنا بمعنى الإخلاص والاستسلام، وأن يكونا لله وحده، مثل قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة] وإن الإيمان والإسلام هنا بمعنى واحد، بل إن الإسلام فى هذا المقام درجة عالية بعد الإيمان، فالإيمان تصديق وإذعان والإسلام هنا تصديق وإذعان، وإسلام النفس والعقل والجوارح كلها لله تعالى، فهو أعلى درجات الإيمان.

وإنهما لم يدعوا لأنفسهما فقط، بل دعوا أيضا لذريتهما، فقالا فى دعائهما الضارع المخلص، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أى: واجعل فى ذريتنا أمة مسلمة لك.

و«من» هنا للتبويض، والمعنى اجعل بعض ذريتنا أمة مسلمة، أى مؤمنة مصدقة مدعنة مسلمة وجهها لك، بحيث تكون كلها لك.

وقالوا: إن الدعاء لبعض الأمة اتعاضا بقول الله تعالى له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة] ونحن نرى أن «من» بيانية؛ لأن الدعاء لله تعالى يكون بأعلى ما يطلب لا بأدناه، والمعنى اجعل من ذريتنا أمة مسلمة، أى اجعل ذريتنا أمة مسلمة لك، والمقام مختلف عن دعاء الإمامة؛ لأن الإمامة لا تكون للجميع، إنما تكون للبعض المختار منها، الذى يصلح أن يكون قدوة تتبع.

والأمة هنا الجماعة التى تجتمع على فكرة ثابتة قائمة.

هذا دعاء إبراهيم - عليه السلام - لذريته، وهو دعاء أب شفيق مخلص يرتاد لذريته أكمل المناهج، وأتم الإخلاص والضراعة ولقد دعا عليه السلام هو وابنه المخلص المطيع قالوا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أى اجعلنا نبصر ونعلم مناسكنا، والمناسك

جميع منسك، وأصل النسك الطهارة، وأصله الغسل والتنظيف، ثم أطلق بمعنى العبادة عامة، ويطلق على العباد بالحج، وإقامة شعائره من طواف، وسعى وذبح ورمى جمار بعد الوقوف بعرفة، وبالمزدلفة، ويقال كما ذكرنا لكل عبادة، ومن ذلك الناسك بمعنى المنصرف للعبادة.

وما المراد بالمناسك هنا؟، فسرها بعض العلماء بأنها العبادات الدينية سواء أكانت تتعلق بالحج، أم تعم كل العبادات كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها، ومنها الحج.

وقال بعض المفسرين إنها مناسك الحج من طواف، وسعى وذبح هدى ووقوف بعرفة والمزدلفة ورمى الجمار، وغير ذلك من شعائر الحج.

وإني أميل إلى تعميم مدلول المناسك ليشمل كل العبادات الشرعية.

والدعاء الذى يدل على قوة الإحساس الدينى ، وقوة إسلام الوجه هو قوله تعالى: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنْكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التوبة: الرجوع إلى الله تعالى، وتاب عليه بمعنى قَبِلَ التوبة، ومعنى ﴿تُبَّ عَلَيْنَا﴾، اقبل توبتنا، وارجع علينا بالمغفرة إنك أنت التواب الرحيم، والتواب صيغة مبالغة من تائب، والمراد منها قبول التوبة، وكأن المعنى: إنا تبنا ومن الله تعالى قبول التوبة فى رحمة، فالتواب كثير القبول لتوبة التائبين، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ...﴾ [٣] غافر، وإن قبول التوبة، والإكثار من قبولها هو من رحمة الله تعالى؛ ولذا قرن فى هذه الآية الكريمة قبول التوبة ووصفه سبحانه وتعالى بها بوصفه بالرحمة؛ لأن من رحمته أن يقبل التوبة فهي من فضل الله تعالى ورحمته لا عن استحقاق.

وهنا يسأل السائل: إن الأنبياء معصومون عن الذنوب، فلم يتوبون، فإنه لا يحصل منهم ذنوب تستوجب التوبة والغفران؟ والجواب عن ذلك أن التوبة رجوع إلى الله وتقرب إليه سبحانه، والتوبة على ذلك مراتب:

المرتبة الأولى: وهى أدناها الإقلاع عن الذنوب بالندم على ارتكابها والابتعاد عنها، واعتزام ألا تقع من بعد ذلك وهذه تكون للعصاة الذين ارتكبوا كبائر أو أصروا على صغائر، وقد دعاهم الله تعالى إلى أن ينيبوا إلى ربهم فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...﴾ [الزمر].

المرتبة الثانية: وهى متوسطة بين أعلاها وأدناها، وهى الاستغفار عما يكون من خطأ أو نسيان، أو هفوات إنسانية فقط مما يؤاخذ عليه الأبرار الأطهار، وهو الذى ينطبق عليه قول بعضهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

المرتبة الثالثة: وهى الإحساس بالقصور فى حق الله تعالى لفرط إيمانهم، وقربهم من الله، وهذه توبة الأطهار من النيبين والرسل، فهذه توبة إبراهيم.

والتوبة كيفما كانت رتبها عبادة، وأهل الله يقولون: رب معصية أورثت ذلا خيرا من طاعة أورثت ذلا، فالطاعة من الأنبياء لا تورث ذلا، بل نفوسهم لقربهم من الله تحس بالذل له، فيتوبون، ثم يتوبون.

وإن نبي الله وخليفه وابنه لا يكتفيان بالدعوة لذرتهما ولأنفسهما بالتوبة، بل يطلبان هاديا مرشدا لهم من بعدهما؛ ولذلك يقولان فى دعواتهما: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الواو عاطفة عطفت «ابعث» على «واجعل»، واعترضت كلمة ربنا لكمال الضراعة والشعور بنعمة الربوبية، والرسول هو المرسل من قبل الله تعالى، وبعثه تكليفه بالقيام برسالة ربه، وتبليغها، و«فيهم» أى فى وسطهم على أنه منهم، ليكون بهم أرحم وعليهم أعطف، ولهم ألف، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة] وواضح أن الرسول الذى دعا إبراهيم وإسماعيل ببعثته هو محمد

ﷺ، وقد روى أنه قال إجابة لنفر من الصحابة قالوا: يا رسول الله عرفنا بنفسك، فقال: «نعم، أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى» فأبراهيم عليه السلام دعا، ببعثه وعيسى بشر به كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ

اللَّهُ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ... ﴿٦﴾ [الصف].

وقد نكر «رسولا» للتعظيم، أى رسولا عظيما كريما منهم. وقد ذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما أرسل به إليه فقال: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ والآيات هنا هى الآيات القرآنية، والقرآن هو المعجزة الكبرى الدالة على نبوة محمد ﷺ، ومعنى «يتلو» يقرأها مرتلة تتلو كل كلمة أختها، ويتلوها عليهم يعنى يقرأها فقد نزل مرتلاً كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ﴿٣٢﴾ [الفرقان] أى أنزلناه كذلك لنثبت به فؤادك باستمرار نزوله، ولنعلمك ترتيله حتى تحفظه، وقيل إن الآيات هى الدلائل على نبوته، وإذا علمنا أن المعجزة الكبرى الدالة على رسالة محمد هى القرآن المتلو، تكون النتيجة واحدة، وهى أن المتلو القرآن.

وكان عمل النبى ﷺ بعد أن يتلو عليهم الآيات مرتلة ترتيلاً، أن يعلمهم علم الكتاب من أوامر ونواه لهم تبييناً، ولذا قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ والكتاب هو القرآن لأنه الكتاب الكامل الذى إذا أطلق اسمه انصرف إليه، لأنه الكامل كاملاً مطلقاً.

وتعليم الكتاب بتبيين أحكامه، فالنبى ﷺ هو المبين له، والشارح لأحكامه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴾ ﴿٤٤﴾ [النحل].

فتعليمهم الكتاب هو تعليم أحكامه، وبيان شرائعه، وما اشتمل عليه، و«الحكمة»: قال الشافعى: إنها السنة؛ ولذلك اقترنت بالكتاب باعتبارها المصدر الثانى وروى ابن وهب عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه: المعرفة بالدين والفقه فى التأويل والفهم الذى هو منحة ونور من الله تعالى، وقيل: الحكمة هى الحكم، والفصل فى عدالة بين الناس.

وإن الحكمة معناها حسن التدبير للأمور، وفهمها وفقه الدين، ومعرفة أسرارها، وفى الجملة هى المعنى الجامع لصفة الإسلام وإدراك غاياته، وعلاجه للأمور، وسياسة الناس، وتصريف الأمور معهم، وكانت جلسات النبى ﷺ تحوى الكثير من أدب النفس، وتعليم لياقة المجتمع والتقريب والتأليف بين النفوس، وكل ذلك من الحكمة النبوية حتى لقد قال أبو حنيفة: إن ساعة فى حضرة النبى ﷺ تغني عن فقه سنين. وإن عمل النبى ﷺ بعد تلاوة الكتاب وتعليمه تركية النفوس وتنميتها وتطهيرها فقال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى يطهرهم من رجس الجاهلية وينميهم، بمعنى ينمى فيهم قوة الخلق وقوة الدين، وما يكون سببا لنمو عددهم وشيوع أمر الإسلام، وبقائه خالداً قائماً.

وإنه يستفاد من هذا أن القرآن الكريم يتعبد بتلاوته وأشار إلى ذلك قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾، ويعلم الشرع منه؛ إذ فيه كله، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾.

وإن النبى ﷺ يهذب النفوس، ويزكى القلوب بتعليم الحكمة والتركية.

وقد ختم إبراهيم عليه السلام دعوته بالضراعة إلى ربه فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز: هو ذو العزة. وتتضمن معنى القدرة والمنعة، والغلب، والسلطان، أى أنت الغالب المعز العزيز الحكيم المدبر المنظم للوجود، الواضع كل شيء فى موضعه بإحكام.

وأكد هذين الوصفين بيان المؤكدة، وبتوكيد القول، بقوله «أنت»، وبتعريف الوصفين الدال على اختصاصه سبحانه وتعالى بالعزة والسلطان، فلا عزة لأحد بجوار عزته، ولا سلطان لأحد بجوار سلطانه.

ملة إبراهيم هي ملة الأنبياء وهو أبوهم

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ
 مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
 وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ
 قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
 وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
 وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾

إن إبراهيم أبو الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم وجاءوا بعده، وقد يكون هناك أنبياء آخرون بل لا بد أن يكون ذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾ [فاطر] ويقول: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...﴾ ﴿٧٨﴾ [غافر].

ولقد دعا الله تعالى إلى ملة إبراهيم الناس جميعاً من بعده؛ لأنها إجابة للفطرة، وتنبعث من النفس المستقيمة واتجاه العقل الحكيم، ولقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ومن هنا استفهام إنكارى يتضمن معنى نفى الوقوع، ويتضمن التوبيخ على من وقع منه هذا، والمعنى لا يرغب عن ملة إبراهيم ويتركها متجاوزاً لها إلى غيرها من الأوهام الباطلة إلا من سفه نفسه.

وقوله تعالى: ﴿يَرْغَبُ عَنْ﴾ فيها التجاوز والترك إلى أوهام، ونقيض يرغب عنها: يرغب فيها، فالرغبة فيها إقبال عليها، والرغبة عنها تجاوز عنها، وترك لها، وهذا يتضمن أمرين: أولهما - أنه علمها، وكان ينبغي أن يرغب فيها ولكنه تجاوزها وتركها لا عن انصراف مجرد، بل عن قصد وإعراض، وثانيهما - أنه اتجه ورغب في غيرها، ونفى الله تعالى الرغبة عنها إلا من سفه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، أى جهلها فى حمق ورعونة؛ لأن النفس الإنسانية المستقيمة تتجه إلى الله لما فى داخلها من ينبوع الخير الداعى إلى إدراك الحق المستقيم، ولأن كل ما فى النفس من عقل مدرك، ويد تبطش وعين تبصر وأذن تسمع ورجل تسير بها كلها يدل على الإيمان الحق ويهدى، كما قال فى الذين يضلون إذ ينسون خلقهم وكونهم، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]. فالنفس الإنسانية لو تأملنا خلقها وتكوينها تهدى وترشد إلى الحق، ولقد قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، أى جهلها عن سفه وحمق ورعونة كما ذكرنا، والفرق بين جهل النفس، وأن يكون قد سفهها أن الجهل قد يكون عدم علم وعدم اهتمام إلى الحق، وألا يكون عنده أدوات العلم وطرق المعرفة، أما السفه فمعناه أن يجهل وعنده طرق المعرفة، وأسبابها ويتركها حمقًا ورعونة، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ... ﴿١٩﴾﴾ [الحشر] وسفه نفسه، قيل إنها بمعنى سفه بتشديد الفاء بمعنى أوقعها فى جهل وسلك بها غير ما تهدى إليه الفطرة.

وإن ملة إبراهيم هى ملة النبيين فقد قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى فى سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ... ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

وإن ملة إبراهيم كانت ملة النبيين؛ لأن الله تعالى اختاره للإمامة، وابتلاه بالكلمات، ولأنه كان يشكر نعم ربه، ولأنه اختاره لبناء البيت، ولأنه اختاره لتعليم مناسك الحج، ولأنه اختاره ليكون أبا الأنبياء؛ ولذلك كله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [النحل].

ومعنى اصطفاه الله تعالى، أى اختاره بعد أن ابتلاه بما صفى نفسه وخلصها لله تعالى، وصار ليس فى قلبه موضع لغيره فاختره من بين خلقه خليلا له، وكان أمة وإماما، وكان أواها حليما رجاءا إلى الله تعالى دائما.

وأكد سبحانه وتعالى أنه فى الآخرة لمن الصالحين، ففى الدنيا اصطفاه، فكان معه فيها على الخير المطلق، وقد ابتلى فأحسن البلاء، وكان صفيا وكان وليا، واختص بأن يكون خليلا.

وقد وصف سبحانه وتعالى حاله فى الآخرة مؤكدا فقال: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وقد قال بعض الناس: إن العمل الصالح فى الدنيا وإن جزاءه فى الآخرة فالآخرة دار جزاء لا دار عمل، فكيف يقال فى الآخرة إنه من الصالحين؟!

ونقول فى الجواب عن ذلك إن ما ذكره الله تعالى عن حاله فى الآخرة أنه سجل له الوصف بأنه من الصالحين فقد سجل عليه سبحانه وصف الصلاح، والمعنى أنه ختم أعماله فى الدنيا بالخير، وصار فى زمرة من كتب الله لهم الصلاح فى الآخرة، ففى الآخرة جعله تعالى فى جملة من رضى عنهم ووسمهم بالصلاح فكافأهم برضوانه تعالى وهو أكبر الجزاء، فليس فى الآخرة عمل، وإنما فى الآخرة تسجيل الصلاح، والجزاء عليه، وأنه يكون الصالح الذى جعل له لسان صدق فى الآخرين.

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه فى زمرة الصالحين الذين نالوا رضوان الله بقوله: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فأكد بأن الدالة على توكيد الخبر، وأكد بـ «اللام» فى قوله لمن الصالحين، وأكد بتقديم فى الآخرة، وذلك التأكيد لأنه من الذين وصلوا إلى أعلى درجات الصلاح.

وإن عده من الصالحين يوم القيامة، إنما كان لأنه أخلص وأسلم وجهه لله رب العالمين مستجيبا طلب الله تعالى منه، إذ طلب ربه منه أن يكون كله له وحده؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الإسلام هنا هو الإخلاص والإذعان لله تعالى، وهو كالإسلام فى قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ ... ﴿١١٢﴾ [البقرة] فهو غاية الإيمان وأقصاه، وقد ذكرنا أن الإيمان تصديق وإذعان وتسليم، والإسلام تخليص القلب والنفس والجوارح لله تعالى، فهو أعلى درجات الإيمان.

وهو ليس الإسلام الذى هو نقيض الإيمان أو يغايره، وهو الإذعان المادى، والخضوع لأحكام الإسلام سواء أكانت مع القلب، أم لم تكن، وهو الذى قال فيه للأعراب إذ قالوا: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...﴾ ﴿١١٤﴾ [الحجرات].

وهذا هو الإسلام الذى يفرق علماء الكلام بينه وبين الإيمان، وليس موضوعه، وإنما هنا الإسلام بمعنى إسلام الوجه والجوارح لله تعالى، وهو الذى قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ...﴾ ﴿١٩﴾ [آل عمران].

وقد يقال إن إبراهيم أثبت إخلاصه لله تعالى ودعا الله تعالى أن يجعله وابنه إسماعيل مسلمين، فقال فى ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ...﴾ [البقرة] فلم كان الأمر بذلك، وقد طلبناه؟

فقالوا فى الإجابة عنه أنه أمر بالاستدامة على الإسلام وتثبيت التوحيد، ونقول فى ذلك أيضا إن الآية لبيان مقام إبراهيم عليه السلام فى الاستجابة لأمر ربه، وخلوص نفسه إذ أمره بذلك فاستجاب فوراً قائلاً أسلمت لرب العالمين، فهذا النص لبيان مدى استجابة خليل الله تعالى لربه غير متردد، ولا متلكئ، ولكن صار إبراهيم يقول: أسلمت أى خلصت نفسى وجعلتها لرب العالمين، أى لخالق العالمين والقائم عليهم وربهم وكالئهم، وإن ذلك شكر له، فهو فى ذلك شاكر لأنعم الله تعالى كحاله دائما.

وإن إبراهيم عليه السلام، وصى بهذه الملة بنيه من بعده جيلا بعد جيل، وصى بها بنيه، ووصى بها أحفاده، وأبناءهم، فمن كفر بها، فقد كفر بالله وبوصية إبراهيم، وما كان إبراهيم ليرضى عنهم إذ كفروا بربه كالمشركين، إذ غيروا وبدلوا فى دين إبراهيم، وكاليهود الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهوديا، ولقد رد الله تعالى

قولهم بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ...﴾ [آل عمران].

ذكر الله تعالى وصية إبراهيم وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ الضمير في ﴿بِهَا﴾ يعود إلى ملة إبراهيم التي هي موضوع الذكر من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، ووصى بأنها الإخلاص لله فقد قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهي موضوع الحديث.

والتوصية طلب الشخص من غيره القيام بأمر معين والتشدد في طلبه، وهي غالبا يكون تنفيذها بعد الوفاة، فهي طلب أو إعطاء في الحياة أو في آخرها ليكون تنفيذها بعد وفاته.

وقد وصى إبراهيم بنيه بأن يستمروا مستمسكين بملته بعد وفاته، ويعقوب عليه السلام - وهو حفيد إبراهيم من إسحق عليه السلام - قد وصى أيضاً بذلك.

وأولاد إبراهيم المذكورون في القرآن هم إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وذريتهما من بعدهما، وقد قال تعالى في ذرية إسحاق: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَوَصَّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ برفع يعقوب بالعطف على إبراهيم عليه السلام أى أن إبراهيم عليه السلام وصى بهذه الملة بنيه، ويعقوب وصى بها بنيه كذلك، وكانت صيغة الوصية كما ذكرها القرآن ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ وهذه الجملة السامية تفسير لمعنى ووصى؛ لأنها صيغة الوصية؛ ولذا قالوا إن هناك تقديرا، وهو أن بفتح الهمزة التي تدل على أن ما بعدها بيان لما قبلها.

والوصية أو صيغتها كانت بنداء كل من إبراهيم، ويعقوب لأبنائه بقوله: يابني، بجمع المذكر السالم الذي حذفت منه النون بالإضافة إلى ياء المتكلم.

وناداهم بهذه الصيغة التى تدل على النسبة إليه تقريبا لهم من نفسه، وفى ذلك دليل على الشفقة بهم والرفق، وأنه يؤثرهم بما يدل على محبته وحده عليهم، ومضمون الملة التى وصى بها ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ﴾، أى أن الله جل جلاله، وهو ربكم الذى ذراكم وأنعم عليكم، اختار لكم الدين الكامل، والدين هنا، هو ملة إبراهيم، فهى دين إبراهيم ودينكم ودين الخليفة من بعده، وهو ملته، وهو الإخلاص لله رب العالمين وإسلام الوجه له، كما فسر الله تعالى، من قبل بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد صرح سبحانه وتعالى بغاية الوصية ونهايتها كما جاءت على لسانهم، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، والفاء هى للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانت هذه الملة هى الدين الذى اختاره لكم وهو الإسلام، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ حال من تموتن.

وقد أكد سبحانه وتعالى الطلب بنون التوكيد الثقيلة، وليس النهى متجها إلى الموت؛ لأن الموت ليس أمراً اختيارياً يجرى فيه التكليف بالأمر، وإنما الأمر منصب على البقاء على الإسلام، أى لا بد أن تبقوا على الإسلام مؤكداً ذلك حتى تموتوا وأنتم على حاله وقيامه، كما تقول: لا تصل إلا وأنت خاشع فهو أمر بالخشوع وليس نهياً عن الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ﴾ أهى وصية إبراهيم وحفيده يعقوب معاً؟ الظاهر ذلك، وقال بعضهم: إنها وصية إبراهيم وأمها وصية يعقوب فقد أشير إليها فى قوله تعالى من بعد: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

وأرى أن قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ﴾ وصيتهما معاً، ولما جادل اليهود فى ذلك قال تعالى مفندا كلامهم، مبينا حقيقة الأمر ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ إلى آخر الآية، وعلى هذا التخريج فالوصية واحدة، اللهم إنا أسلمنا وجهنا لك كما أسلم إبراهيم وجهه لرب العالمين.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
 الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ
 إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا
 وَحِيدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
 مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾
 وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

ادعى المشركون أنهم على ملة إبراهيم، شرفهم وشرف محتدمهم، وادعى
 اليهود أنهم يسيرون على ملة إبراهيم وقد غيروا وبدلوا، بل جرى على ألسنتهم ما
 يومية إلى أن إبراهيم كان يهوديا، وبذلك يقلبون التاريخ، فيجعلون أوله آخره،
 وصدده عجزه، وادعى النصارى الذين يعبدون الأوهام أن ثالثهم دين النبيين
 أجمعين وافتروا فرية واهمة تبته العقول، ولكن الأوهام غلبتهم، فديانتهم وهم
 في وهم، ليس فيها إلا أوهام تكاففت فاعتنقوها، والمسيح منهم براء.

هؤلاء جميعا، وخصوصا من كانوا يتحلون نحلة ينسبونها إلى نبي من أبناء
 يعقوب عليه السلام كانوا يدعون أنهم على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
 ويعقوب.

ولقد وجه الخطاب إليهم، وخصوصا اليهود والنصارى لبيان أنهم ليسوا على
 ملة إبراهيم، وهم على غير الوصية التي وصى بها إبراهيم بنيه، ويعقوب، فقال
 تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم هنا تدل على الاستفهام
 والإضراب معا فهي تتضمن معنى «بل» و«الهمزة»، فهي استفهام إنكارى مع التوبيخ

والاضراب عن إفكهم. والمعنى نضرب صفحا عما تقولون، ونسألكم: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ وشهداء جمع شاهد، كما قال تعالى في الشهادة على الديون: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ...﴾ [البقرة] وتكون جمع شهيد، والمعنى على كل حال أكنتم حاضرين الوقت الماضي الذى حضر فيه يعقوب الموت، أى كنتم حاضرين الوقت الذى بدت فيه على يعقوب أمارات الموت، فمعنى حضور الموت ظهور أماراته، ومقدماته، أى وهو يحتضر؛ ولذا كان التعبير بحضر، فحضور أماراته ومقدماته، حضوره؛ ولذا لم يقل نزل به إذ الأولى فى قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ﴾ تدل على وقت حلول الموت بمقدماته وأماراته، وقد ذكر سبحانه وتعالى ﴿إِذْ﴾ مرة أخرى فى قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِبْنِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ وهما يدلان على وقت واحد قد مضى.

قال يعقوب أبو بنى إسرائيل الذين غيروا وبدلوا، قال لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أى من الذى تعبدونه من بعدى؟، وعبر بما هنا دون من لأن ما يستفهم بها عن الماهية فيقال ما الإنسان، فالسؤال متجه إلى طلب حقيقة ما يعبدون من بعده أستمرون على عبادة الله تعالى؟ قالوا مجيبين فى غير تردد ولا تلكؤ: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

ابتدأوا إجابتهم بما يدل على الأسوة والقودة الحسنة وهى تدل على أنهم لا يغيرون ولا يبدلون بل هم مقتدون، ولذلك قالوا: ﴿إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ ولم يقولوا مثلاً: نعبد الله وحده.

وإن أباهم إبراهيم وإسحاق وليس من آبائهم إسماعيل بل هو عم يعقوب وليس أباه ولا جده ولكن العرب تسمى على المجاز العم أبا - كما يسمى العم ابن أخيه ابنه، كما قال أبو طالب لقريش عندما طلبوا أن يعطوا أبا طالب بدلا لمحمد ابن أخيه أنهدف فتى من قريش ليسلم إليهم محمدا ﷺ فقال لهم موبخا: آخذ ولدكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونهم؟ وروى على بن أبى طالب أن النبى ﷺ قال:

«عم الرجل صنو أبيه»^(١) هذا وإن عدَّ إسماعيل عليه السلام في آباء يعقوب يدل على أن إسماعيل وإسحاق، لا يفرق بينهما في نسب ولا دين كما يفعل الحاقدون من بنى إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ قيل إنها بدل من إلهك ولا مانع من أن تكون النكرة بدلا من المعرفة مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ^(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ^(١٦) [العلق].

ويصح أن تكون حالا من إلهك، أى حال كونه إلهًا واحداً، أى نعبد على هذه الحال، ولعل اعتباره بدلا؛ على أنه يكون بدل اشتغال أى أن البديل والمبدل منه شئ واحد.

ونرى في ذكر الله سبحانه وتعالى مضافا إلى ضمير المخاطب يعقوب، ثم ذكره من بعد ذلك موصوفا بالوحدانية تصريح بالوحدانية فى العبادة والامتناع عن إشراك غيره معه، وإشارة ثانية إلى الاتباع والقدوة والأخذ بالوصية التى أوصى بها إبراهيم ويعقوب، وفيها إثبات السلسلة الموحدة فى أولاده فى يعقوب عليه السلام، وإن هذا التوحيد هو الدين الذى اصطفاه الله تعالى لأنه دين الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ^(٢٥) [الأنبياء].

ولقد ختم الأبناء المخلصون إجابة أبيهم، البر الرحيم، الذى ضرب به المثل فى الصبر والشفقة بقولهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، أى مخلصون قد سلمنا وجوهنا وقلوبنا له وحده؛ ولذا قدم قوله: ﴿لَهُ﴾ على ﴿مُسْلِمُونَ﴾ لما يدل عليه التقديم من معنى اختصاصه سبحانه بإسلام أنفسهم له تبارك وتعالى، وقد أكدوا إسلام أنفسهم له بالجملة الاسمية.

(١) عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ فِي الْعَبَّاسِ: «إِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُّ أَبِيهِ». وَكَانَ عُمَرُ تَكَلَّمَ فِي صَدَقَتِهِ. [رواه الترمذى: كتاب المناقب (٣٦٩٣) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ (٦٨٧)، وَبَنَحُوهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: كِتَابُ الزَّكَاةِ (١٦٣٤)].

إن اليهود كانوا كلما ذكرت محمّدة لإبراهيم وبنيه انتحلوها لأنفسهم، وتفاخروا بها على غيرهم حتى ظنهم الناس أنهم هداة آبائهم، وإن لم يهتدوا بهديهم. فرد الله سبحانه وتعالى قولهم وقول غيرهم ممن كانوا يتفاخرون بأنهم سلالة إبراهيم وإسماعيل ولا يعملون عملهم، ولا يسلكون مسلكهم، وكانوا يحسبون مجرد النسب يكسبهم شرفا وذكرًا عند الله والناس فقال: ﴿تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإشارة إلى هذه الجماعة الفاضلة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وذريتهم الذين اهتدوا بهديهم وقبسوا من نور الله تعالى بوصيتهم، وهي ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أى مضت، وصارت في عبر التاريخ لهم ما كسبوه من خير فيكون عند الله جزاؤه، وعليكم معشر العرب أن تقتدوا بإبراهيم، وتأخذوا بوصيته، وأن تعبدوا إلها واحدا هو الله جل جلاله، إن كنتم تنتمون إليه فتجمعون بين شرف النسب وشرف الاتباع، والنسب وحده لا يغنى فتىلا من غير اتباع.

وكذلك أنتم معشر اليهود ليس لكم أن تفخروا بأن هؤلاء آباؤكم، وتلحقوا تاريخهم بتاريخكم إلا أن تتبعوهم فى الإخلاص لله رب العالمين والإسلام له، وإلا كنتم الخارجين عليهم المحاربين لمآثرهم. وإن لم تجتدوا فى اتباعهم فلکم جزاء فعلکم.

ولذا قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أى لها ما كسبته مكسوبا إليها بقدره محسوبا لها فى اليوم الآخر بجزائه، ويتضمن قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الجزاء لهذا الكسب، وهو خير ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾، إن عملتم مثل عملهم، واتبعتم هديهم وأخذتم بوصيتهم وكانت لكم شعارا ودثارا تتحلون به، وهذا حث على الاقتداء، ودعوة إليه، فإن تجانفوا لإثم، وتخالفوا الوصية فعليكم إثم ما تفعلون.

وإنكم لستم مسئولين عن أفعالهم إن خيرا أو شرا فكذلك ليس لكم أن تدعوا أن عملهم عملكم ونسبهم نسبكم؛ لأنكم انفصلتم بعملكم عنهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك لا يكفيكم عملهم، إن خيرا فخير له إلا أن تكونوا قد عملتم مثل عملهم ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إن ملة إبراهيم عليه السلام، وهى التوحيد، والطهارة من الوثنية هى لب الدين اصطفاه الله تعالى لنا، وهى الحق الذى لا ريب فيه، وهى مقياس الحق الذى يتميز به من الباطل، فمن آمن بها فقد اهتدى، ومن خالفها فقد ضل وغوى، وأهل الكتاب الذين حرفوا القول عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، وخرجوا عن المنهاج وتركوا ملة إبراهيم عليه السلام يزعمون أن ما عندهم حق، وهو الهداية، كذلك ضلت أفهامهم، فزعم اليهود أن فى يهوديتهم السلامة، وزعم النصارى بنصرانيتهم الوثنية أنها الهداية وكل فى غيهم يعمهون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ أى قال اليهود: أى الحاقدون الكافرون بأنعم الله التى تواتت عليهم: كونوا هودا، أى كونوا يهودا تهتدوا؛ لأن الهداية تحوطهم، وهم فى قبتها، وقال النصارى المثلثون الوثنيون: كونوا نصارى تهتدوا؛ لأن الهداية فى حقبتهم لا تخرج عنهم أبدا والعاقبة لهم فى زعمهم، مع أنهم وثنيون، لا يتبعون نبيا مرسلًا، ولكن يتبعون فلسفة كاذبة ضالة مضلة^(١).

قال اليهود ما قالوا، وقال النصارى المثلثون ما قالوا، فأمر الله تعالى نبيه بأن يرد قولهم بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قل لهم يارسول الله: إن المقياس الصحيح الواجب الاتباع؛ لأجل البعد عن الباطل، والاهتداء بهدى الحق - مضربا عن كلامهم صفحا - هو ملة إبراهيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وبلى هنا للإضراب عن أوهامهم وترهاتهم، وملة مفعول لفعل محذوف تقديره: بل اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، أى مائلا للاستقامة أو مائلا نحو الحق هاديا إليه، فالحنيفية السمحة أى الحق، وَجَنَفَ وَحَنَفَ معناه الميل، بيد أن الجنف الميل إلى الباطل كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ...﴾ [المائدة]، والحنيف المائل نحو الحق، والحنف يطلق على الاستقامة والحنيف معناه المستقيم الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

(١) راجع: «محاضرات فى النصرانية» للمؤلف.

ويثبت الله سبحانه وتعالى الوحداية فى ملة إبراهيم، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا نفى للشرك عن ملته، ورد للعرب المشركين عن تبعيته، وإن كانوا من سلالة.

وكل الله تعالى إلى رسوله الأمين الرد على اليهود والنصارى والمشركين؛ لأنه من تبليغ رسالة ربه، وبيان الحقائق التى يجب عليه بيانها، وإن ذلك الرد كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران].

وحدة المؤمنين باتباع ملة إبراهيم

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَأَلْسَبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿١٦٣﴾
فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿١٦٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَبِيدُونَ ﴿١٦٨﴾

يجمع الرسل على اختلاف ما أنزل على النبيين من كتب لا تتباين فى معناها، وإن اختلفت أزمانها، يجمع هذه الكتب أنها كلها فى لبها وغايتها ملة إبراهيم عليه السلام، فهى ملة جامعة لا تختلف رسائل النبيين ولا تتباين عندها،

فهى ملة النبيين أجمعين، وقد كانت رسالة محمد ﷺ هى ملة إبراهيم عليه السلام؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...﴾ (٧٨) [الحج] وقد تلونا هذا النص الكريم من قبل، ولذا دعا الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يعلنوا أنهم يؤمنون بذلك فقال تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وإن هؤلاء جميعا على ملة إبراهيم، وهى التوحيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) [الشورى].

إن إبراهيم ويعقوب وصى كلاهما أبناءه بملته، واتبعه من بعدهم موسى وعيسى والنبيون الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، فهم جميعا على ملة واحدة جامعة، وهى ملة إبراهيم التى هى التوحيد والتنزيه، والاستقرار على الحق، والحنيفية السمحة.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين، ولم يكن أمره إلى النبى ﷺ وحده، بل كان أمره له ولمن اتبعه، وفيه بيان أن إيمانهم هو إيمان إبراهيم، وبنيه، ويعقوب وبنيه، والنبيين أجمعين، فهو إيمان عام بالرسالة الإلهية لا فرق بين رسول ورسول، ولذلك قال بحق بعض الذين علموا الإسلام وما يدعو إليه: إن الإسلام دين عام. وقيل لمسيحي أسلم: لماذا خرجت عن المسيحية؟ فقال: إنى لم أخرج عن المسيحية دين المسيح، ولكن دخلت فيها بدخولى فى الإسلام.

أمر الله المؤمنين أن يقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾، والأسباط هم ولد يعقوب عليه السلام الذى قال لهم: ما تعبدون من بعدى، وهم اثنا عشر، وقد ذكر القرآن لهم ذلك العدد فى رؤيا يوسف بن يعقوب، إذ قال الله تعالى عنه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا

أَبَتْ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٤٢﴾ [يوسف]. وإن الأحد عشر كوكبا رمز لأبناء يعقوب غير يوسف، وبضم يوسف إليهم يكونون اثني عشر .. والأسباط واحد هم سبط، وهو بمنزلة القبيلة في العرب، وسموا الأسباط من السبط وهو التابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل إن السبط هو الحفيد، وسموا بذلك لأنهم في أصلهم حفدة إبراهيم.

ولماذا ذكر الأسباط مع أن ذكر يعقوب يغنى عن ذكرهم، لأنهم أبناء يعقوب، وقد وصاهم باتباع ملة إبراهيم وشدد في الوصية؟ والجواب عن ذلك أنهم صاروا من بعده جموعا، كونوا العشائر والقبائل، فكانت لهم صفة بهذا الانفراد وقد أمر الله تعالى المؤمنين، بأن يقولوا ﴿لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ لأنهم جميعا يتكلمون عن الله، ويذكرون أمره ونهيه، ورسالتهم رسالة من الله تعالى، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، أى أسلمنا وجهنا وقلوبنا وكل جوارحنا له سبحانه وتعالى، جمع الله قلوبنا ونفوسنا وحواسنا لتكون لله تعالى، وهو الحكيم العليم.

إن ذلك هو الإيمان الحق، وهو الإيمان الجامع غير المفرق؛ ولذلك كان هو ميزان الإيمان الصادق الموحد للناس حول ربهم، وهو الوحدانية لله تعالى، والوحدة فى الرسالة الإلهية؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾.

الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُتُمْ بِهِ﴾ يعود إلى اليهود والنصارى؛ لأنهم هم الذين ظنوا أن الاهتداء عندهم فقط، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا...﴾ [البقرة] ﴿١٣٠﴾ وأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة].

وفى الآية السابقة صورة للإيمان الموحد الجامع الذى لا يفرق، فإن آمن اليهود والنصارى بمثل ذلك الإيمان الجامع غير المفرق فقد اهتدوا، لا أن يكونوا قد اهتدوا بما هم عليه من الانحياز المفرق.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ والمعنى فإن آمنوا بإيمان مثل الذى آمنتم به، أى مشابه له من حيث إنه يجمع الناس على الوجدانية لله تعالى، والوحدة فى الرسالة، والوحدة فى الإنسانية بالصورة التى أنتم عليها - فقد اهتموا، فكلمة «مثل» فى موضعها من القول ولها دلالتها، فالمراد - وعند الله تعالى علمه - أن يؤمنوا بما آمنتم على أن يكون مثله فى المعنى الجامع، ولقد تهجم بعض المفسرين فى العصر الحديث، فقال إن مثل «مُتَّحَم» أستغفر الله لى وله، إنه ليس فى القرآن متحهم، إنما ألفاظ القرآن الكريم ليس فيها متحهم قط، إنما هى تنزيل من حكيم حميد.

ونقول إن الإيمان الذى ثبت من قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ إلى آخر الآية الكريمة، يتحقق فيه أمران: أولهما - الإيمان بالوجدانية، والثانى - الصفة الجامعة، فالمثلية ليست فى أصل الإيمان، وإنما هى فى الصور الجامعة غير المفرقة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ التولى هو الترك الجسمى والبعد الذى يدل على الإعراض النفسى فإن أعرضوا عن الإيمان الجامع للرسالة الإلهية فهم فى شقاق مستمر؛ لأن من ترك الوحدة فى الرسالة الإلهية فقد اختار النزاع والمجادلة، وحيث دخل النزاع فى الدين كانت العصبية والتعصب، والانحياز، ويفقد الدين سلطانه فى القلوب، ويصير لاجئة، وعداوة وبغضاء بين الناس، ويكون كل ملة أو دين فى شق منحاز لا يلتقى ولا يهتدى؛ ولذلك قال: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾، والشقاق: أن يكون كل جانب فى شق من الأرض أو الفكر والنفس.

وإنه عند ذلك تكون العداوة المستحكمة من أولئك الذين تولوا عن الحق وأعرضوا عن الدين الجامع إلى الفرقة المعادية، وكأن الله تعالى ينبه نبيه الأمين، إلى أن يتوقع منهم الشر، والبغضاء المستمرة؛ ولذلك أشار سبحانه إلى أنه معه، وأنه

ناصره تعالى عليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والمعنى: إذا أظهروا العداوة المفرقة على الوحدة المقربة، وصاروا أعداء لكم فسيفيكفهم، أى سيكون الله تعالى كافيا لك، ومانعك منهم. يقال كفاك هذا الرجل، أى منعك ودافع عنك، و«السين» هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، ف «السين» و«سوف» الدالان على المستقبل القريب أو البعيد، يدلان مع ذلك على تأكيد الوقوع، والمؤدى أن عداوتهم سترد فى نحورهم وسيكون وبالهم عليهم.

وقد أكد سبحانه وتعالى حمايته لنبيه ولمن معه بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عليم بما ينوون، وما يخفون وما يعلنون، عليم علم من يسمع، ومن صفاته العلم فهو يعلم ما يكون وما يقع، وإنه بذلك العلم المحيط الدقيق يعلم خائنتهم، ويكفيك أمرهم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

إن الإيمان الجامع بالنبيين أجمعين لا يفرق بين أحد من رسله، لأنهم جميعا يحملون رسالات ربهم إلى عباده وهى واحدة، إن هذا الإيمان هو دين الله تعالى، وهو ملة إبراهيم وهى الشارة الوحيدة للدين الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

الصبغة هى الملة التى اختارها الله تعالى، وهى ملة إبراهيم، وهى دين الله الحق الذى اصطفاه واختاره وصح أن يكون دينه.

والصبغة فى الأصل ما يصبغ منه، ويتشربه الثوب حتى يصير لونا غير قابل للتغيير، بيد أن هذه الصبغة فى القلب يتشربها فتكون لونا ثابتا مستقرا دائما بالإيمان والإذعان، يخالط مداركه، ويتشربها قلب المؤمن كما يتشرب الثوب صبغته؛ لأنه مفطور على الإيمان والإيمان فى فطرته، إلى أن يتدرن بالأهواء والشهوات فتطمس الفطرة، ولقد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم].

ولقد قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء»^(١).

وصبغة هنا منصوبة على الإغراء لفعل محذوف تقديره إلزم صبغة الله، فإنها إيمان القلوب، وزينة النفوس للمؤمنين؛ كما يتزين الجسم بزينة الثياب الملونة بأبهى الصباغ.

وإن التعبير عن الدين بأنه صبغة الله إشارة لما يفعله اليهود والنصارى من صبغ أولادهم باليهودية أو النصرانية بما يغمسونهم فيه بماء يسمى المعمودية.

فإذا كان هؤلاء يعملون تلك الأعمال حاسبين أنها تصبغهم بدينهم غير الحق الذى ارتضوا، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يجعل القلوب تشرب حب الدين الحق، فلا تتحول ولا تتغير ولا تبدل.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن صبغة الإيمان الجامع الذى اختاره الله تعالى ديناً للعالمين هى أحسن صبغة وأبهاها حساً ومعنى، وطهارة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أى لا صبغة أفضل من صبغة الله تعالى؛ لأنها الحق والحق وحده زينة القلوب. وغيرها الباطل، وهو طمس للفطرة وفرق بين زين القلب وحسن الإيمان، والإشراق بنوره، وطمس النور منه وامتلائه بالظلمات.

وقد قال تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ...﴾^(٢) [ق] من شأنه الإذعان للحق، والتمسك به، وقال هنا: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ فالقلوب قسمان: قلوب على الفطرة يدخلها نور الإيمان فيشرق فيها، وقلوب طمست عليها

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ هَلْ تَحْسُونُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» [مسند الكثرين (٦٨٨٤)]، وبنحوه فى البخارى: الجنائز (١٢٧٠)، ومسلم: القدر (٤٤٠٣). والجدةاء: مقطوعة الأنف أو الأذن أو غيره، ولفظ البخارى: عن أبى هريرة - رضى الله عنه - كَانَ يُحَدِّثُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تَحْسُونُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا...»^(٣) [الروم].

الاهواء وسيطرت عليها وأخفت منابع الهداية فهي فى عمياء عن الهدى، غلقت فلا تدخلها هداية.

وإنما يدرك جمال صبغة الله تعالى، وتزينها للقلب والنفوس الذين يوقنون بالحق، ومن شاء الإيمان به إذا قامت دلائله، وبدرت محاسنه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ خاضعون له لا لسواه؛ ولذا قدم «له» على «عابدون» إذ التقديم للاختصاص فلا نعبد سواه ولا نؤمن بغيره.

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمْ
نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كان اليهود والنصارى يدَّعون أن ما عندهم هو دين الله تعالى، وأنهم أعلم الناس بالله، وأنهم أبناء الله تعالى وأحبائه، وحسبوا أنهم أقرب إلى الله تعالى لأنهم ليسوا وثنيين ولم يشركوا به أحدا، والوثنيون ليسوا كذلك، وبذلك يحتاجون النبی فی أنهم أقرب إلى الله، وأنه أقرب إليهم، وأنهم أولى به، فأمر الله تعالى نبيه بأن يبين لهم أن الله ربنا وربكم، وأن القربى إليه بالعمل، فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم فقال تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ كان الأمر للنبي ﷺ، وليتولى الحجاج معهم إعلاء لكلمة الله تعالى لمن يتولى المحاجة والمجادلة، والله

أجل وأعلى من ذلك فترك للنبي ﷺ أمر هذه المحاجة. والاستفهام هنا للتوبيخ؛ أى ما كان لكم أن تحاجونا فى الله تعالى بادعاء القرب، وأنكم أولى به وبمحبتة ومعرفته، فالمحاجة فى الله تعالى لا فى أصل وجوده، ولا فى أصل وحدانيته لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخِرُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد]. ففى هذا النص كان الجدال فى الله تعالى، من حيث وجوده، وأنه الفاعل المختار.

أما هنا فى هذا النص الذى نتكلم فى معانيه، فالمحاجة فى الله تعالى من جهة القرب منه، والمنزلة عنده لا محاجة أصل وجوده، والمحاجة من جانب اليهود والنصارى بادعائهم على الله سبحانه وتعالى بأن دينهم هو الذى ارتضاه وأنهم أقرب إلى الله، وأنهم أحبابه، وأنهم أبناؤه، إلى غير ذلك من الأوهام التى يثيرونها حول الله تعالى.

وهم يثيرون قولهم على اعتقاد أن النبى يحاجهم كما يحاجونه؛ ولذلك كانت صيغة المفاعلة.

وقد أمر الله تعالى نبيه، بأن يبين لهم أنه لا حاجة إلى المحاجة؛ ولذا أمره تعالى بأن يقول: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فصلتنا بالله واحدة، وهو أنه ربنا جميعا، وقد بين المماثلة فى الصلة بالله تعالى لصلة الربوبية، وهى متحدة فى معنى الربوبية، ولا تفاوت بيننا فى هذا، فلستم أقرب إليه، ولا نحن أقرب من هذه الناحية، ونبيهم النبى ﷺ بأمر ربه بأن التفاوت إنما هو بالأعمال؛ ولذلك أمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فأعمالنا بما فيها من خير ونفع تتحمل فى ذاتها استحقاق جزائها، ولكم أعمالكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن القرب إلى الله تعالى أو البعد إنما هو بحسب الأعمال، فهى التى تقرب، وهى التى تبعد، وهى التى يكون عليها الجزاء.

وقد وصف الله أمراً نبيه بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أى نحن قد أخلصنا بقلوبنا فى عبادة الله تعالى فلا نشرك فى العبادة سواء، ولا نعكر إخلاصنا لله تعالى

بسبب من أسباب الدنيا، فنحن صرنا لله نحب الشيء لا نحبه إلا لله، وهذا تحريض لليهود وغيرهم على أن يكونوا مثلهم، فإن كانوا مثلهم اتقوا على الإيمان الجامع غير المفرق.

والإخلاص كما قلنا تصفية النفس من أن يكون فيها غير الله تعالى، وتصفية الفعل من أن تكون لغير الله فيه شائبة، ولقد قال بعض الصوفية: الإخلاص سر بين العبد وبين الله لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده. وفي الجملة الإخلاص حصن العبادة الحصين.

إن اليهود والنصارى افتروا مع كفرهم وجحودهم وقولهم: عزيز ابن الله، وقولهم: المسيح ابن الله وإيمانهم بالثالوث، وافتروا فادعوا أنهم أقرب إلى الله وأحب، ثم انحدروا في تفكيرهم فقلبوا التاريخ فجعلوا أوله لاحقا وآخره سابقا، وضلت عقولهم ضلالا بعيدا، فزعموا أن إبراهيم كان يهوديا أو كان نصرانيا ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

وإن هذا قلب كما قلنا للأوضاع، فاليهود والنصارى أولاد ليعقوب عليه السلام، وهم تابعون له، ولآبائه، فكيف يقلبون المتبوع ويجعلونه تابعا، ولكنهم يحسبون لغرورهم أن ديانة إبراهيم وأبنائه كانت متفقة مع اليهودية أو النصرانية، اليهود يقولون إنهم كانوا على ديانتهم، والنصارى يبهتون الناس بالكذب فيدعون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يؤمنون فيما يزعمون بثالوثهم الباطل بطلانا مطلقا، ولتفنيد أوهامهم أمر الله تعالى نبيه أن يرد عليهم ردا طيبا متفقا مع قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (٤٦) [العنكبوت] وقال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ كان جواب النبي ﷺ لهم سؤالا لهم محرجا كاشفا لهم؛ لأنهم ادعوا أنهم أعلم بعد أن كفروا، وإن قالوا أن الله أعلم فقد كذبوا على أنفسهم، فهو سؤال ينتهي برد كلامهم بأنفسهم، وهو سؤال من علمه تعالى الحكمة وفصل الخطاب.

وإن أولئك اليهود والنصارى يعلمون أن ملة إبراهيم هي الإسلام، والإيمان الجامع لكل الرسل، ويعلمون ما حرف من التوراة والإنجيل، ويعلمون أن التوراة بشرت بمحمد ﷺ، وأن الإنجيل بشر بأنه بعد المسيح رسول اسمه أحمد، يعلمون ذلك وغيره وينكرونه، ويكتمونه حتى لا يعلم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، والمعنى أنه لا أحد أظلم ممن كتم شهادة أودعها الله تعالى في كتابه وما عنده من علم، فالاستفهام هنا إنكارى توبيخى لنفى الواقع والوقوع، فهو نفى أنه لا أحد أظلم ممن عنده شهادة من الله تعالى وكتمها، وفي الوقت نفسه أشارت الآية إلى أن ذلك وقع من أهل الكتاب من اليهود فهم يكتمون علم التوراة عن اليهود ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) [البقرة] فيضلونهم بعلم، ويعلمون الكثير ويكتمونه.

والشهادة هي الخبر الذي يجب بيانه سواء أكان بين يدي القضاء أم لم يكن، فإن هذه الأخبار في التوراة كان يجب بيانها، ولم تكن أخباراً تقرأ ولا تعلم، ولكنها حقائق يجب أن تعلم وتبين، فالإعلام بها كالإعلام بالشهادة. وقد هددهم الله تعالى بقوله تعالت كلماته ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهذا وعيد، وإخبار بأمر الله تعالى، وقد نفى الله تعالى نفياً مؤكداً أنه غافل عن عملهم، بل إنه سبحانه أخذهم بذنوبهم، فنفى بما وبالباء الدالة على استغراق النفي.

والغفلة هي: عدم التنبه إلى ما يقع، وهو مأخوذ من الأرض الغفل وهي التي لا معالم فيها ولا بناء، والآية تهديد ووعيد بلا ريب، وقد صور فخر الدين الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب» الوعيد في هذا فقال: هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصور أن الله تعالى عالم بسره وإعلانه، ولا تخفى عليه خافية، وأنه من وراء ذلك مجازاته، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، لا تمضى عليه طرفة عين إلا وهو خائف حذر، ألا ترى أن أحداً لو كان عليه رقيب من جهة السلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل، مع أن ذلك الرقيب لا يعلم إلا الظاهر فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفى إذا هدد وأوعد.

وقد نبه سبحانه وتعالى اليهود والنصارى وغيرهم إلى أنه لا يصح لهم أن يتمسحوا بالأسلاف، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد تكلمنا فى معنى هذه الآية الكريمة فى ماضى قولنا فلا نعيد ما قلنا فى ذكر معانى ألفاظها.

ولكن نتلمس المعنى فى إعادة ذكرها ونرى أنها ختام لما يقوله بنو إسرائيل وغيرهم بالنسبة لأسلافهم، ودعوة لهم إلى أن الله تعالى سائلهم عما يعملون هم لا ما عمل أسلافهم.

وأيضاً فإن الناس تعودوا اتباع الأسلاف، فالله تعالى يكرر سبحانه أن كل امرئ بما كسب رهين، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولهم ما كسبوا وعليكم ما اكتسبتم، وأن خير الماضين ليس خيراً لكم وأن شرهم ليس وزرهم عليكم.

ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَعْضُ رِئَاسَةٍ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾ [النجم: ١٦٤] [الأنعام: ٣٩] قال تعالى: ﴿وَأَنْ لِّىْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

الْقَبْلَةِ

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

اعلم أن القرآن كله متصل الأجزاء غير منفصل بعضها عن بعض، وقد رأينا
في الجزء الأول اتصال معانيه ومبانيه اتصالاً محكمًا حتى يكاد يكون لكل موضوع
منه أجزاءه المتصلة، فابتدئت سورة البقرة ببيان أقسام من تلقوا علم القرآن بعد
الإشارة في ابتدائها إلى أنه الكتاب الكامل الجدير وحده بأن يختص باسم الكتاب.

وقد قسم الذين تلقوه إلى أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النفاق، وصور
النفاق وأهله بتشبيهات حسية تبين معانيهم النفسية، ثم بين سبحانه قصة خلق آدم
ومكانه بين العالمين من جن وإنس وأنه كامل التكوين.

ثم أشار تعالى إلى النعم التي توالى على بنى إسرائيل، وتوالى كفرهم
مفصلاً آثامهم، وقتلهم الأنبياء وتكذيبهم لهم، وقد فصل بعض التفصيل أمر
إبراهيم عليه السلام وبنيه من بعده، وحقيقة إيمان المؤمن الجامع الذي يؤمن بكل
الرسائل الإلهية والأنبياء الذين جاءوا.

وقد ذكر سبحانه أن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة هو وابنه إسماعيل، وكان الأمن حول البيت إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ (١٢٦) [البقرة].

وكان من مقتضى النسق أن يذكر عقب أخبار إبراهيم وبنيه، والإيمان الجامع لكل الرسالات الإلهية أن يذكر أمراً يتعلق بالكعبة المشرفة، وهو أن تكون قبلة المسلمين الذين يتبعون ملة إبراهيم والذين سماهم إبراهيم - خليل الله - المسلمين ولذا قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

وإن النبی بصريح هذا النص يشير إلى أنه كانت قبلته إلى الصلاة ليست هي الكعبة، وأن الله تعالى حوله عن القبلة السابقة إلى الكعبة، وذلك أنه عندما فرضت الصلوات الخمس عند الإسراء والمعراج أمر الله نبيه أن يتجه إلى الصخرة حول المسجد الأقصى، وكان النبی ﷺ لا يستدبر الكعبة فى صلاته، بل يتجه إلى بيت المقدس واقفا بين الركنتين من الكعبة متجها إلى بيت المقدس فكان فى الحقيقة متجها إلى الكعبة وبيت المقدس^(١).

ولما هاجر كان لا يمكنه أن يتجه إلى القبلتين، فاتجه إلى بيت المقدس؛ لأن أمر الله بالاتجاه إليه قائم ثابت، ولم يكن من قبل أمر بالاتجاه إلى الكعبة، بل كان النبی ﷺ حريصا على ألا يستدبرها تكريما لها وتشريفا، ولأنه كان يتجه إليها قبل الأمر بالاتجاه إلى بيت المقدس، وقد أخطأ من أهل الكتاب من زعم أن النبی ﷺ كان يصلى إلى بيت المقدس ليتألف قلوب اليهود فما كان للنبي ﷺ أن يشرع عبادة أو فرعا من عبادة من تلقاء نفسه، بل إنه أمر تعبدى من الله تعالى لا يملك فيه رسوله الأمين تحويلا ولا تبديلا.

وإنه بلا شك كان ثمة ناسخ ومنسوخ، وقد كان المنسوخ هو الصلاة إلى بيت المقدس، والناسخ هو الصلاة متجها إلى الكعبة، ثم إلى بيت الله الحرام.

(١) قاله ابن عباس وغيره، وذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: باب الصلاة من الإيمان.

ولم يكن الناسخ والمنسوخ ثابتين بالقرآن، بل إن كليهما ثبت بالسنة فالمنسوخ ثبت بالسنة، وهى عمل النبي ﷺ بوحي من الله تعالى، وتحويل القبلة - وهو الناسخ - ثبت بالسنة أيضا، فقد روى البخارى عن البراء أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر، وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وإن أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد - أى قباء - فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت^(١).

ولقد أعلم من يصلون فى قباء فى صباح اليوم التالى، روى مالك عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة^(٢)».

ونرى من هذا أن استقبال بيت المقدس ثبت بالسنة، وثبت التحويل أيضا بالسنة، والقرآن ذكر آثار التحويل، وما يقوله الناس، وأكد التحويل، والقرآن الذى أشار إليه الراوى فى الحديث هو الذى نزل بعد أن تحول النبي ﷺ ومن معه بالفعل، وقد تأكد أمر القبلة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾ (١٥٠) [البقرة].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾. قال بعض المفسرين أن الاستقبال هنا موضوع موضع الماضى؛ لأنهم قالوا: وإنما عبر بالمستقبل المؤكد بالسين للدلالة على دوام قولهم إذ قالوه فى الماضى، وسيقولونه فى المستقبل، فسفه القول لا ينتهى، بل هو يمتد ويكرر ما دام السفه قائما.

(١) سبق تخريجه فى المقدمة من رواية البخارى ومسلم.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الصلاة (٣٨٨) ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٨٢٠).

وإن ظاهر اللفظ يدل على أنهم سيقولون مع ما قالوا، وإن ذلك إخبار من الله تعالى، وخبر الله تعالى لا يقبل التخلف، ولم يثبت أنهم قالوا ذلك من قبل نزول الآيات، إذ إن نزول الآيات اقترن بالتحويل، أو بعده بقليل وإن لم يكن التحويل به بل كان بوحي من الله للنبي ﷺ وهو يصلى، وما كان الله تعالى ليقرئه القرآن وهو يصلى، فإنه عند القراءة كان يقرئه تعالى فقد قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** (١٧) **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** (١٨) **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** (١٩) [القيامة].

وإنا نستبعد أن يكون إنزال القرآن وإقراؤه وترتيبه وهو فى الصلاة يصلى، والله على كل شىء قدير.

والسفيه هو: الخفيف العقل، وذلك مأخوذ من قولهم: ثوب سفیه إذا كان خفيف النسج، وقد يكون السفه نوعيا، فقد يكون مترن العقل حكيما، ويكون فى أمور أخرى سفیها، كبعض العرب الذين كان فيهم عقل، ولكن الإدراك الدينى فيه سفه، وكبعض أهل الكتاب، فإنهم كانوا فى أمور الدين سفهاء، إذا تكلموا سفهوا أنفسهم.

ومن هم السفهاء الذين تكلموا فى القبله متعجبين من تحويلها؟ قال بعضهم: المشركون، فقد توهموا أنه عندما حولت القبله إلى مكة أن محمدا سيرجع إلى دينهم، وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم، وقال اليهود: لقد التبس عليه أمره، وتحير، واستهزأ المنافقون بالمسلمين، وهم جميعا تساءلوا: **﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾**.

الاستفهام هنا للتعجب الساخر المتهمك المستهزئ - لعنهم الله تعالى - وهم جديرون بهذا بوصف السفه، فليست الحقائق الدينية موضع تهكم إلا من سفه نفسه، وكان جهولا، ومعنى **﴿وَلَهُمْ﴾** أى جعلهم يعدلون صارفين النظر عن القبله التى كانوا عليها، وهى بيت المقدس، فالتولية معناها العدول أو الانصراف أو الإعراض، وإن هذا السؤال يدل على جهلهم وعتوهم فى الفساد؛ لأنهم نسوا أنهم يعترضون على الله تعالى.

ولقد رد الله تعالى أمراً النبي ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وقد أمر الله تعالى: بأن يتولى النبي ﷺ الرد عليهم؛ لأن الاعتراض المتهم كان على النبي وأصحابه، وهم يرمونه بالتحير، وكان الرد ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، أى أن الله تعالى مالك الأرض شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، وذكر الشرق والغرب؛ لأن من ملكهما ملك الأرض كلها، لا فرق بين قريب وبعيد، وإذا كان هو المالك ملكية مطلقة للأرض، فهو يتخير لموضع قبلته ما يشاء من أرضه وليس لأحد سلطان فيما يريد، وهو يختار من أرضه ما يراه أصلح وأقرب وأنسب، وقد اختار البيت الحرام، كما اختار من قبل بيت المقدس، والبيت الحرام بناء إبراهيم وأول بيت وضع للناس، وهو كما قال علماء الكون فى وسط الأرض، واختصه الله تعالى بأن به وحوله مناسك الحج، وقالوا إنه منذ خلق الله تعالى مكة لم يكن بها زلزال ولا خسف، فكان الله تعالى قد أمنها من هذه الظروف الكونية، كما كان الناس فيها آمنين من القتل، وجعله سبحانه وتعالى حرماً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن هذا الذى اختاره من قبلة هو الهداية لا يرضى به إلا من هداه الله تعالى، فذيل الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى أن الله تعالى بحكمته كان فى عباده من اهتدى، وكان فى عباده من ضل وغوى؛ فمن سلك الجدد، وحارب هواه، ووسوسة الشيطان، فإن الله تعالى يأخذ بيده، ويوجهه إلى صراط - أى طريق - مستقيم، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق للوصول إلى الغاية، إذ إن الخط المستقيم أقرب خط بين نقطتى الابتداء والانتهاء.

وإن الله تعالى اختار خير أماكن الأرض لتكون قبلة الناس، وهى وسط الأرض وخير بقعة فيها؛ لما ذكرنا من مناقب لهذا البيت، ولأن منشئها أول نبي عرف بأنه حطم الأوثان، وجعلها جذاذاً، ولقد كانت أمة محمد ﷺ - آخر محطم للأوثان - والذى جعلها جذاذاً مطروحا - خير أمة، وإنه كما اختار الله خير بقعة فى الأرض لتكون قبلة إذ أنشأها محطم الأوثان فكذلك جعل أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

الوسط يطلق بإطلاقين: أحدهما - الشيء المتوسط أو الأمر المتوسط بين أمرين أو نحو ذلك مما يكون متوسطا، الثاني - الوسط بمعنى الخير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) [القلم] أى: قال أعدلهم، ويقال وسط الوادى أى خير موضع فيه.

ولقد قال القائلون بالتفسير الثانى: إن الوسط كان خيرا؛ لأنه متوسط بين طرفين كلاهما إثم أو باطل، إذ الوسط مجانية للغلو والتقصير، فاليهودية قصرت فى حق الأنبياء، فقتلتهم، والنصرانية غلت فى حق نبي فعبدته، فكان الوسط ألا يكون غلو ولا تقصير، بل تلقى للرسالة، وإيمان بها، ولقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الأمور أوسطها»^(١)؛ لأن الأوسط بعيد عن الغلو والتقصير ولقد أثر عن على بن أبى طالب أنه قال: «عليكم بالنمط الأوسط فإنه ينزل العالى، وإليه يرتفع النازل».

ولأن التوسط خير دائما، صار يطلق الوسط على الخير فيقال عن أفاضل الناس أوساطهم، وعن خيار الأمور أوسطها، وكل موضع فيه إصلاح أو صلح بين الناس يقال فيه وسط.

والنسبية فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ من المشابهة بين خيرية الكعبة وخيرية الأمة، والمعنى كما جعلنا لكم الكعبة قبلة، وهى خير بقعة فى الأرض جعلناكم أمة وسطا.

وقد فسر بعض العلماء الوسط هنا بالإطلاق الأول، وهو التوسط بين أمرين، ومعنى التوسط أن أمة محمد ﷺ فوق الأمم ودون الأنبياء، وهم على ذلك خير

(١) حديث: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا». رواه ابن السمعاني فى (تاريخه)، من حديث على بن مسعود عن أنس بن مالك. وأخرجه ابن جرير فى (تفسيره) من كلام مطرف بن عبد الله، ومن كلام يزيد بن مرة الجعفى. وروى أبو يعلى عن وهب بن منبه قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ طَرَفَيْنِ وَوَسْطًا، فَإِذَا أَمْسَكَ أَحَدُ الطَّرَفَيْنِ مَالَ الْآخَرِ، وَإِذَا أَمْسَكَ الْوَسْطُ اعْتَدَلَ الطَّرَفَانِ. فَعَلَيْكُمْ بِالْأَوْسَاطِ مِنَ الْأَشْيَاءِ». [الدرر المنتشرة - ج ١ ص ٤١٥] وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ أَحْمَرَتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ... إِلَى أَنْ قَالَ: وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْأُمُورِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». [المقدمة: اجتناب البدع والجدل (٤٤)].

الأمم وأعدلهم، وأقومهم سبيلا، وإن أمة محمد ﷺ تعلم الناس، وإن محمدا يعلمها.

وفسرها بعض العلماء بأن معنى ﴿أُمَّةٌ وَسَطًا﴾ أى أمة عادلة قويمه ارتضاها الله تعالى دون غيرها من الأمم كما قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ (١١٠) [آل عمران].

ولماذا كانت أمة محمد الذين يتبعونه ويهتدون بهديه خير أمة أخرجت للناس؟ الجواب عن ذلك أن خيرية هذه الأمة أو كونها فوق الأمم كانت لأنها بعيدة عن غلو النصارى فى عيسى، وسقوطها فى الأوهام الباطلة، وبعيدة عن حسد اليهود ومقتهم لكل حق، وفوق ذلك أنها تؤمن بجميع الأنبياء كما تلونا قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة) (١٣٦) فهى أمة الكمال الدينى الجامع، وفوق ذلك هى التالية لملة إبراهيم حقا وصدقا، من أجل هذا الإيمان الكامل بالأنبياء جميعا والشرائع السماوية كلها، كان لهم حق الشهادة على غيرهم بأنهم آمنوا بالله الإيمان الكامل، هل آمنوا برسالاته الإلهية، أم لم يؤمنوا؟ ولذا قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

أى تشهدون للناس بأنهم آمنوا بمثل إيمانكم، والرسول يشهد لكم بأنكم آمنتم بالله الإيمان الكامل وآمتكم بوحدة الرسالة الإلهية، فالرسول يشهد بإيمانكم الذى يسمح لكم بأن تشهدوا على غيركم، فمقياس الإيمان وميزانه عندكم.

واللام فى قوله تعالى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ هى للتعليل، أى لكونكم وسطا وعدولا فى إيمانكم تكونون شهداء على الناس، مع شهادة الرسول ﷺ

عليكم، فالخيرية التي اتسمت بها هي علة الشهادة، وهي باعثها، والسبب في أنكم فوق الناس تحكمون لهم أو عليهم^(١).

ويصح أن تكون (اللام) ليست للتعليل، وتكون للعاقبة أو الغاية، والمعنى أن خيريتكم أو كونكم فوق الناس ودون الأنبياء غايتها وثمرتها أن تكونوا شهداء على الناس، وأن يكون الرسول شاهداً عليكم، بأنكم استحققتهم هذه الخيرية.

والشهداء يصح أن تكون جمعاً لشاهد، أو جمعاً لشهيد، وقد ذكرنا أن من جمع الشاهد، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ...﴾ (٢٨٢) [البقرة].

وهنا أنسب أن تكون جمعاً لشهيد؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر المفرد في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والشاهد هو الحاضر الذي يعاين الأمر الذي يشهد عليه، وهذا الأمر الذي يعاينه، وينظر إليه إما أن يكون بعينه المبصرة، وإما أن يكون ببصيرته المدركة المؤمنة الفاهمة، ولا شك أن الشهادة في هذا المقام تكون بالافتدة التي في الصدور، لا بالأبصار التي ترى الحسيات، ويصح أن تكون رؤية القلوب واضحة بينة كروية الأبصار.

وهنا إشارة بيانية يجب أن نذكرها، وهي أنه تعالى عدى الشهادة بـ «على» دون اللام، فقال تعالى: ﴿تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ مع أن الشهادة قد تكون لهم، وقد تكون عليهم. والجواب عن ذلك أن الشهادة هنا حكم، أو هي متضمنة معنى الحكم؛ ولذا تعدت بـ «على»، لتكون بمعنى الحكم، وقد تكون الشهادة بمعنى تعليم الناس، وشهادة الرسول بمعنى تعليم أمته.

وقد يسأل سائل: لماذا كانت القبلة أولاً إلى بيت المقدس، ثم حولت إلى الكعبة، بعد أن كانت في مكة ملتزمة إلى أمد يسير؛ إذ كان مع الاتجاه إلى بيت

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوْحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالُ لَأَمْتَهُ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأَمْتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾

(٢٨٢) [البقرة] وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ. [رواه البخاري: كتاب تفسير القرآن (٤١٢٧)].

المقدس كان الانجاء أيضا إلى الكعبة بعدم استدبارها كما نقلنا فيما سلف من قول.

ونقول في الجواب عن ذلك إن هناك بيانا لحكمة ذلك ذكره القرآن الكريم، وحكما أعظم وأعلى، وهناك سبب قد نتلمسه والسبب الذي نتلمسه هو أولا: بيان وحدة الأديان السماوية، وثانياً: الإشارة إلى أن بيت المقدس مسجده مقدس كالكعبة، وإن كان دونها تقديسا، وثالثا: إن الكعبة كانت الأصنام تحوطها في ذلك الوقت. وأن التحويل إلى الكعبة كان إيذانا بتحطيم الأوثان وزوال دولتها؛ إذ كان التحويل في النصف من شعبان، وكان يوم الفرقان بغزوة بدر حول منتصف رمضان كما هو ثابت في سيرة رسول الله ﷺ وهي سيرة الإسلام.

هذا ما نتلمسه وقد يكون غير ذلك.

أما ما ذكره الله سبحانه وتعالى، وهو المحكم الذي لا يأتيه الباطل أبدا، فقد ذكره سبحانه في قوله تعالت كلماته: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي ما جعلنا القبلة التي كنت عليها متبعا في صلاتك لها إلا لنعلم من يستمر على تبعيته للرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه.

وما القبلة التي كان عليها النبي ﷺ: أهى بيت المقدس؟ فقد كان النبي ﷺ يتجه إليه قبل هذا التحويل، وذلك ظاهر، لا يحتاج إلى تأويل... أم هي الكعبة؟ وهي التي كان عليها بمكة، وإن اشترك معها الاتجاه إلى بيت المقدس بأمر ربه كما ذكرنا من قبل، وكان يتجه إليهما، ولم يتغير ذلك الاتجاه إلا بعد أن هاجر، وللمفسرين في ذلك اتجاهان:

أولهما - أن القبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس، وقد كان الاختبار للمهاجرين، وللذين دخلوا في الإسلام، وفي قلوبهم مرض أو ضعف في الإيمان.

أما المهاجرون فقد ألفوا البيت الحرام، والاتجاه إليه، وقد كان مطافهم وشرفهم في الجاهلية، وقبلتهم في الإسلام، وإن كان الله تعالى قد أمر بالاتجاه إلى بيت المقدس، فقد كانوا يتجهون للثنين على ما أشرنا وروينا، فكانت القبلة على ما

ألفوا من غير منافرة ولا استدبار لها، فلما كانت الهجرة، وكانت القبلة إلى بيت المقدس فقط، واستدبروها كان الاختيار، وقد أحسنوا الاختبار، وما كان لمهاجر في سبيل الله أن يرتد على عقبيه.

وأما الذين في قلوبهم مرض، فكان الاتجاه إلى بيت المقدس ثم التحول عنه مظهرا ما بطن من كفر المنافقين، ومن ضعف إيمان من الضعفاء في إيمانهم ولذا ارتد منهم من ارتد، وأظهر الكفر من أظهر فمحص الله الذين آمنوا. هذا على تفسير القبلة التي كانوا عليها ببيت المقدس.

ثانيهما - تفسيرها بالكعبة، فالمعنى على هذا: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها، وهي الكعبة قبل الهجرة، ثم الرجوع إليها إلا للاختبار، وقد وقع من المنافقين ما أظهر ما كانوا يخفون، وارتد بعض ضعفاء الإيمان، وبذلك كان التمييز، وقد فسر بعضهم ﴿كُنْتَ عَلَيَّهَا﴾، وهي الكعبة بمعنى صرت عليها، مثل قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ (آل عمران)، أى صرتم بإيمانكم خير أمة أخرجت للناس.

وإنى أرى أن تفسيرها ببيت المقدس هو الأقرب والأظهر، والتفسير لكتاب الله تعالى بما يكون ضاحيا واضحا أولى وإنه لا يحتاج إلى تأويل، ومن المقررات اللغوية أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل.

ولقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى وإن كانت القبلة فى تحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة لكبيرة إلا على الذين أودع الله قلوبهم هداية ثابتة مطمئنة لا تزعزعها الرياح، ولا مكان فيها للشبهات التى يثيرها من لا يؤمنون.

فـ «إن» هنا مخففة من «إن» الشقيلة، والدليل على ذلك دخول اللام المؤكدة، وهى لا تدخل على «إن» إذا كانت نافية، وكانت دالة على تأكيد القول ببقاء الحال لمن ضل، وبعدها عنم اهتدى.

والله سبحانه وتعالى العليم الخبير الذى أحاط بكل شيء علما يبين أن الاختبار كبير لا يثبت فيه من تزلزل إيمانه الشبهات وتطحيه الشكوك؛ ولذلك أكد عظم الاختبار بـ «إن» المخففة من الثقل وبالفعل الماضى (كانت) وباللام.

بقى أن نشير إلى أمر لا بد من بيانه، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وهو: هل كان الله تعالى لا يعلم من يتبع الرسول من غيره، وهو يحيط بكل شيء علما؟ ويجاب عن ذلك بجوابين:

أولهما - أن علم الله تعالى محيط بكل شيء، وهو يعلمه من قبل أن يقع، ومن بعد وقوعه ويعلمه واقعا، فذلك العلم لا غيره هو الذى يظهر به الفعل ويستبين، فالمعنى ليظهر من يتبع ممن لا يتبع، وليتبين الآثم من المطيع ومن يستمر على اتباعه ومن ينقلب على عقبيه.

والثانى - أن الضمير فى ﴿لَنَعْلَمَ﴾ ليس لله وحده، ولكنه للجماعة المؤمنة والنبي ﷺ مع الله تعالى، وكون الله معهم لا يستلزم أنه لا يعلم، إنما الذى لا يعلم هم المؤمنون، فالاختبار وظهور الطائع المتبع، والعاصى المرتد على عقبيه إنما هو للمؤمنين وهم داخلون فى قوله تعالى: ﴿لَنَعْلَمَ﴾. والتعبير عن الأعلى، ويقصد من دونه كثير فى اللغة العربية فإذا قال رئيس دولة استولينا على كذا، فإن الاستيلاء الفعلى يكون من الجند لا منه، وكأن يقول رئيس دولة صادقا أو غير صادق نظمنا الإدارة، وأحكمنا العمل، والذى عمل ونظم غيره.

وقد عبر سبحانه وتعالى عن الذين لم يحسنوا البلاء وكشفهم الاختبار فارتدوا أو أعلنوا كفرهم، وما كانوا مؤمنين بقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ والعقب هو مؤخر القدم، والمرتد على عقبيه، هو الخارج عن الإسلام، وهذا التعبير ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ استعارة تمثيلية، فقد شبه الخارج عن الإسلام الذى دخل فيه أو أوشك أن يدخل الإيمان قلبه بحال المرتد إلى الورا سائرا على عقبيه، سيرا مضطربا غير متماسك، فقد سجل عليه أنه رجع إلى الورا بعد أن تقدم إلى الأمام، وأن رجوعه مضطرب بغير خطوات تسير بل على الأعقاب ينقلب، وهذا التشبيه على أساس أن الانقلاب بمعنى الرجوع إلى الورا، بعد أن سار بضع خطوات إلى الأمام.

ويصح أن يفسر الانقلاب بمعنى أن يجعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، فيكون المعنى أنه شبه حال من يرتد بحال من انتكس فصار رأسه في أسفل، وعقباه في موضع رأسه، وفي هذا بيان أن من تكون هذه حاله معكوس منكوس قد نقض إنسانيته وكل مقومات الإنسانية في نفسه.

وإن بعض المؤمنين خافوا من أن تضع صلاتهم الماضية، وخصوصاً أن بعضهم قد مات، وصلاته بعد الهجرة كانت على القبلة إلى بيت المقدس، فشكا الأحياء منهم إلى النبي ﷺ فذكر الله تعالى مطمئناً أنه لا تضع صلواتهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ والمراد من الإيمان هنا الصلاة، وعبر عن الصلاة بالإيمان؛ لأن الصلاة ركنه، وقوامه، فلا يعد الاعتقاد والإذعان إيماناً من غير صلاة متجهة إلى الله تعالى، وإذا كان الاعتقاد به سلامة النفس والعقل، فالصلاة بها تأليف القلوب، وتطهيرها من الآثام، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٤٥) [العنكبوت] ولقد قال ﷺ: «لا دين من غير صلاة»^(١) فالتعبير عن الصلاة بالإيمان بيان لمكانها.

ولقد عبر سبحانه عن أن الله تعالى لا يضيع الإيمان بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، أى ما كان من شأن الله تعالى، وستته في الوجود أن يضيع إيمان المؤمنين، ونفى الضياع يقتضى غيره والجزاء عليه بشوابه عنه يوم الحساب، وإن الله تعالى لا يضيع عمل عامل، فقد قال تعالت كلماته في استجابة دعاء الضارعين إليه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْشَأَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ (١٩٥) [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا...﴾ (٣٠) [الكهف] فذلك شأن الله وما سنّه، وهو العادل الحكيم.

وإنه لا عقاب من غير شرع ينزل ببيان الأمر والنهى، فالذين صلوا على القبلة التى كانوا عليها كانوا طائعين، ولم يكونوا مخالفين عاصين، ولا عقوبة فى طاعة.

(١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا صلاة لمن لا طهور له، ولا دين لمن لا صلاة له، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد». [رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير وقال: تفرد به الحسين ابن الحكم الحبرى. وانظر مجمع الزوائد (٤١٦١)].

وإن الله مع ما ذكر رؤوف رحيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرأفة في معناها اللغوي أشد من الرحمة، أو أعلى منها، وإن هذين الوصفين من صفات الذات العلية أو من أسماء الله تعالى، وهما متغايران وإن لم يكونا متعارضين، بل هما في حقيقتهما متلازمان، فحيث كانت الرأفة كانت الرحمة لا محالة، فالله رحيم بعباده في غفران ذنوبهم، وفي نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، وفي كشف الضر عنهم، وفي قبول توبتهم، وفي أنه منع اليأس من رحمته، وهكذا وسعت رحمة الله تعالى كل شيء، ولو كان في بعض الرحمة آلام، كقطع العضو المثلث ليسلم الباقي.

والرأفة في أن الله يريد توبة العاصي، ولا يريد به خسارا، وفي الهداية إلى الصراط المستقيم، فيعين من كتب عليه الخروج من الشقاء، وهكذا نجد الرحمة والرأفة متقاربتين، وإن كانتا متغايرتين كتغاير الأخ عن أخيه، وإن الرأفة رحمة صافية لا ألم فيها، أما الرحمة فقد يكون فيها ألم كالرحمة بالمريض في أخذ الدواء المر. وقد أكد سبحانه وتعالى وصفه بالرأفة والرحمة بالوصف برءوف ورحيم، وبالجمللة الاسمية وبالتأكيد بإن، وباللام. نضرع إلى الله تعالى أن يعمننا برحمته، وأن يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا، ويهدينا، إلى سواء الصراط، وأن يرحم المسلمين بالرجوع إليه.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
فَلْنُؤَلِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ

آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
 بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

بين الله سبحانه وتعالى أنه سيقول السفهاء: ما ولاهم عن قبلتهم، وأن منهم أهل الكتاب، وقد كان النبي ﷺ يتجه إلى ربه بقلبه ووجهه راجيا أن تكون القبلة هي البيت الحرام، فكانت إجابة هذه الرغبة، وكان التحويل، والسفهاء قالوا ما قالوا، ولجَّ بنو إسرائيل في سفههم، وهم يعلمون أنه الحق، وهو تحويل القبلة إلى بيت الله الحرام، وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

كان النبي ﷺ يرجو أن يحول من بيت المقدس إلى البيت الحرام؛ لأن الكعبة بناء إبراهيم، ولأن ملته هي ملة إبراهيم، ولأنه مشابة الناس وأمنهم، ولأنه مجتمع العرب، ومؤتلفهم، ولأن في الاتجاه إليه تأليف قلوبهم، ومعنى تقلب الوجه الكريم أن يخفضه خضوعا، ويرفعه رجاء، فالتقلب التردد بين الرفع لله راجيا ضارعا أن يحوله إلى قبلة يرضاها، وترضى العرب، ولا يكون فيها تابعا لبنى إسرائيل، بل يولى وجهه إلى قبلة إبراهيم وإبراهيم أبو الأنبياء.

فتقلب الوجه، هو الضراعة إلى الله تعالى لكي تكون القبلة هي البيت الحرام، والرجاء منه بأن يتجه إلى السماء داعيا، وراجيا أن ينزل قرآن بتحويل القبلة.

وقد قصر بعض المفسرين تقلب الوجه وتردده بين رفعه ضارعا، وخفضه خاضعا على رجاء نزول قرآن بالتحويل، وظن أن الدعاء بتحويل القبلة تقدم بالطلب على الله تعالى، والحق أن التقلب لرجاء الوحي وللضراعة إليه والدعاء، وليس في

ذلك تقدم على الله فى طلب شرعه؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام فهم أن الاتجاه إلى بيت المقدس ليس دائماً، وأنه سيعود إلى بيت الله الحرام، فهو إذا دعا بذلك وتضرع إنما يستنجز وعد الله تعالى، ويرجو أن ينزل قرآن بذلك.

ولقد أجابه سبحانه إلى ما يرضيه ويرجوه فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَيْكَ قِبْلَةٌ تَرْضَاهَا﴾ الفاء هنا تشير إلى أن ما قبلها سبب لما بعدها؛ أى أن الله تعالى استجاب لرجاء النبى ﷺ، ودعائه، وقوله: ﴿فَلَوْلَيْكَ قِبْلَةٌ تَرْضَاهَا﴾ معناها لنمكن لك ونعطيك القبلة التى ترضاها، من قبيل وليت الأمير أى جعلته والياً، فالمعنى لنعطيك القبلة التى ترضاها، أو لنولين وجهك ناحية القبلة التى ترضاها.

وقد أكد الله تعالى إجابة مطلب النبى ﷺ أو دعائه ورجائه بالقسم المطوى فى الكلام الذى دل عليه جواب المصدر بلام القسم، وتقدير القول: فوالذى يحلف به لنولينك قبلة ترضاها، وهى الحق الذى قدره الله تعالى فى علمه المكنون أن المسلمين على ملة إبراهيم عليه السلام، فلا بد أن يتجهوا إلى بيته.

وإن هذه الآية فى معناها سابقة على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ...﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ لأن تقدير قول السفهاء لا يكون إلا بعد أن حولهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، كما نص القرآن الكريم.

وقد بين سبحانه القبلة بقوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والفاء للتضريع عما قبلها، والوجه المراد به حقيقة الوجه؛ لأنه يتجه بوجهه نحو البيت الحرام، وقد يراد به الشخص كله، ويكون الوجه المراد به الذات، والتعبير بالوجه عن الذات؛ لأنه الذى تكون به المواجهة، ولأنه أظهر جزء فى جسم الإنسان.

والشطر الناحية والاتجاه، والنحو، ولقد جاء فى تفسير أبى السعود العمادى: وقيل الشطر اسم لما ينفصل من الشيء، ودار شطر، إذا كانت منفصلة عن الدور، ثم استعمل لجانيه وإن لم ينفصل.

ويستعمل أيضا في نصف الشيء أو جزئه، ومهما يكن من الأصل اللغوى فالمراد هنا الجهة أو الناحية أو نحو ذلك، والبيت الحرام قبله الناس في مشارق الأرض ومغاربها، روى عن ابن عباس أنه قال إن النبي ﷺ قال: «البيت قبله لأهل المسجد، والمسجد قبله لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ، وهو إجابة لما رجاه، فخصه أولا بالإجابة إرضاء وتقريبا وإيناسا، وتشريفا، ولتبيين منزلته عند الله تعالى.

وقد بين من بعد ذلك أن هذا حكم عام، وليس بخاص بالنبي ﷺ، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وقد كان النص السابق ربما يفيد معنى الخصوص، وإن كان لا يدل عليه، فقد يفيد خصوص النبي ﷺ، وخصوص المكان الذى يقيم فيه النبي ﷺ، فكان هذا النص يفيد عموم الخطاب، وعموم الناس، وعموم الأمكنة، وكل يتعرف مكانه وموضع اتجاهه، ففى أى مكان حيث يكون يتجه إليه مجتهدا يتعرف مكان اتجاهه، جاعلا وجهه صوب الكعبة على جانب من جوانبها، وعلى أى ريح من ريحها مادام متجها نحوها، غير مستدبر لها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى سفه الذين قالوا ويقولون: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...﴾ (١٤٢) [البقرة] وكان اليهود مبعث هذا التشكيك، وإن كانوا لم ينالوا فيه مأربا. وقد بين سبحانه وتعالى أنهم دائبون على إنكارهم وسفهمهم، وإثارتهم للريب وإن لم يستطيعوا، فقال تعالى مينا مبالغتهم فى الجحود مع علمهم بالحق: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ والضمير فى قوله

(١) رواه البيهقى فى سننه: باب من طلب باجتهاده الكعبة (٢٢٦٦) ج ٢ ص ٢٨٠. وانظر نصب الراية للزلى

تعالى: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ قد يعود إلى النبي ﷺ وهو حاضر في الأنفس وفي العقول فكأنه حضور عقلى لا يقل عن العود على مذكور، لأنه مبشر به فى كتبهم، معلوم عند أحبارهم، ومعنى ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أى أن ما جاء به هو الحق، فليس فيما أتى به الباطل.

ولعل ذلك قد يكون بعيدا من ناحية الصياغة البيانية، لا من ناحية الحقائق المنزلة؛ ولذا نرجح أن الضمير يعود على التحويل أو التولى الذى رجاء النبي ﷺ، وكان يقلب وجهه رجاء أن ينزل به وحى الله تعالى، ورجحنا ذلك؛ لأنه فى الموضوع، ولأن السياق البيانى يتلاقى معه، ولأنه الجدير بأن يوصف بالمصدر وهو الحق، فالنبي عند الكلام فى شأنه يقال إنه جاء بالحق أو الصدق، أو نحو هذا من البيان.

وإن ذلك هو الحق عندهم، فقد علموا مما عندهم من كتب أن النبي وجدوده كانوا فى «فاران»، وأن «فاران» هى بيت عبادة أولاد إسماعيل، و«فاران» هى مكة وما حولها.

وأكد الله تعالى علمهم بالحق فقال: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فأكّد سبحانه كونه الحق بأن المؤكدة، وبالقصر بتعريف الطرفين، فهو الحق، ولا حق سواه، ثم إنه وصفه بأنه من عند ربهم الذى خلقهم ورباهم، وخلق الأرض كلها، وله مشارق الأرض ومغاربها، فهو أعلم حيث تكون القبلة التى يختارها كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته.

ثم بين ما يعقب أقوالهم وإثارتهم للريب، فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أى أن الله تعالى عليم بهم علم من لا يغفل عن أفعالهم من بث للشك، وغمز من القول، ومنهم ساخر بأعمال الرسول ﷺ التى هى من عند ربه، فهم مراقبون فى أعمالهم، وذنوبهم وآثامهم لا تخفى عليه، وهو آخذهم بها يوم القيامة.

إذا كان الذين أوتوا الكتاب قد أثاروا عاصفة من الشك حول تحويل القبلة من بيت المقدس، وهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، فليس ذلك لجهل منهم بالحق كما بينا، ولكن لتعصب الذى استولى على قلوبهم، والتعصب إذا سكن القلوب حال بينها وبين الإدراك السليم فلا تغنى الآيات والنذر، ولا تزيدهم اليينات إلا خسارا؛ لذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

اللام فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ﴾ هى اللام الموطئة للقسم أى الدالة على أن ثمة قسما محفوظا، وأن جوابه سد مسد جواب الشرط، وهو ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أى والذى يقسم به إن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية قاطعة ملائمة للعقل الحر الخالى من العناد والتكبر والتعصب لكى يتبعوا قبلك ما اتبعوها؛ لأنهم ليسوا طلاب حق يقنعهم الدليل، بل هم معاندون مكابرون، لا تزيدهم الحجة القوية إلا إصرارا، ولقد قال تعالى: ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾، أى لوجمعت الحجج كلها، ورميت بها، ما تزايدوا عن إنكارهم الذى سيطر عليهم عداوة وبغضاء واستكبارا.

وقال المفسرون: إن الكلام السامى فيه إظهار فى موضع الإضمار فقد قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وكان موضع الإضمار؛ لأنهم ذكروا بهذا الاسم فى الآية السابقة، وكان الإظهار لبيان موضع الإنكار عليهم فى تعصبهم، وإنغاض رءوسهم عن الحق وقد قامت أماراته وأدلتها مما بين أيديهم، ومع ذلك إذا زدتهم آيات أخرى ما تبعوا قبلك.

ولقد قال الله تعالى بأن النبى ﷺ ومن معه لا يتبع قبلتهم؛ لأن الحق لا يخضع للباطل المعاند المستكبر؛ ولذا قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ أى أنت على الحق، ولست بتابع باطلهم، وقد أكد سبحانه وتعالى أنه عليه الصلاة والسلام لا يتبع قبلتهم بالجملة الاسمية الدالة على استمرار نفي تبعيته عليه السلام لقبلتهم، وبضمير الخطاب وهو أنت، أى أنت بصفتك التى فى علمهم، وهو أنك المرسل وهم الكذابون المبطلون، وأكده أيضا بالباء فى ﴿بِتَابِعٍ﴾ الدالة على استغراق النفي

وتأكيده، وكان النفي وكانت الحاجة موجهة للنبي ﷺ، وقومه في اتباع القبلة تبعاً له وهم من ورائه وهو إمامهم.

كان النفي وكانت الحاجة موجهة للنبي ﷺ لأنهم كانوا يحاجون النبي ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام الذي يمكنه أن يأتي لهم بكل آية، ولقد روى أن اليهود عندما تحولت القبلة أصابهم غم شديد بمقدار ما كان قد أصابهم من فرح عندما كانت القبلة متجهة شطر بيت المقدس، وقد كانوا يقولون: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وكان ذلك تغريراً وخداعاً، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة].

وإنه في الواقع أن أهل الكتاب ليست لهم قبلة واحدة، فاليهود لهم قبلتهم إلى الصخرة كما سارت عليه تقاليدهم، والنصارى كانت قبلتهم إلى المشرق حيثما كانوا كما روته التقاليد، لا كما جاءت به نصوص عندهم، ولقد عبر القرآن بإفراد القبلة دون جمعها مع تعددها؛ لإثبات أنها كلها باطلة في أصلها، لانتها دياناتهم، وبطلان ما هم عليه، بما فيها قبلتهم.

ولقد قال تعالى في اختلاف قبلتهم: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةِ بَعْضٍ﴾ أى ليس اليهود قابلين لأن يتبعوا قبلة النصارى إلى المشرق حيثما كانوا، كأنهم يعبدون الشمس في شروقها في مطلعها، وليس النصارى بمختارين قبلة اليهود قبلة لهم، فكل الفريقين يتعصب لقبلة، ويعاند الآخر، ويستكبر عن اتباع قبلته، فهم في عناد مستمر، وكلاهما يتبع هواه، ولا يتبع نصاً جاء به دينه، فليس في التوراة نص على قبلة معينة حتى يكون ما هم عليه اتباعاً لنص، وكذلك النصارى ليس في الإنجيل نص على قبلة، وإنهم بعد نزول القرآن وبيان القبلة يتمسكون بأهوائهم في التعصب والعناد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

أى لئن اتبعت ما يدعون إليه، وليس له مصدر ديني عندهم، وهو يخالف ما جاءك من العلم الحق في أمر القبلة وغيرها فقد اتبعت الهوى، والأهواء جمع هوى، وهو ما يستدعونه على حسب هواهم، إذ اتخذوا إلههم هواهم، ومن اتبع

هو الفاسدين الذين يكون هواهم منبعثا من شهواتهم الجامحة، لا من دين اتبعوه، ولا من نصوص، بل هواهم، وليس كمن قال فيه الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»^(١)، بل أهواؤهم تبعا لشهواتهم، وتبعاً لانحراف في نفوسهم.

﴿لَنْ﴾ اللام فيها دالة على القسم، والجواب جواب القسم وقد سد مسد جواب الشرط، وهو قوله تعالى منها النبي ﷺ إلى أنه لا يقع في اتباع أهوائهم إلا الظالمون ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ففي هذا تحذير للنبي ﷺ في ظاهر اللفظ وهو تحذير لأئمة، وخصوصا من يقعون تحت مثل هذا الإغراء بإتيان الهوى، وإنه يجب الحذر من أن يكون في سلك الظالمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه إذن الدالة على الشرطية والجزاء والدالة على ترتب الحكم على ما كان من اتباع أهوائهم، إذ معنى إذن، أنه إذا كان ذلك الاتباع قد وقع، فبسببه تكون من الظالمين، فوقع «إذن» بين اسم إن وخبرها فيه إشارة إلى سبب الحكم وهو هذا الاتباع الذي لا يمكن أن يكون ممن جاءه العلم النبوي بمقتضى الرسالة الإلهية.

هذا وإن الكلام فرضي لا واقعي، ولكنه فرضي فيه تحذير من الوقوع فيه، فالمعنى: إن فرض واتبعت أهواءهم مع علمك ببطلان ما عندهم، فقد ساءرت الذين ظلموا ورسخوا في ظلمهم، فإنك إذن معدود في سلوكهم وجمعهم الآثم. وقد أكد الله سبحانه وتعالى الظلم ممن يتبع الهوى، وهو عالم غير غافل أولا بيان، وثانيا باللام، وثالثا بالجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والثبات، وإن ذلك كله للتحذير من اتباع الهوى، وموافقة الآثمين في إثمهم، والله سبحانه وتعالى هو العاصم من الضلال.

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين. [فتح الباري: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم (٦٧٦٤)].

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
 فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُومٌ لَهَا
 فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

إن أهل الكتاب جادلوا النبي ﷺ في أمر رسالته، وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بالنبي المنتظر في حروبهم مع المشركين، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وقد جادلوا النبي ﷺ في أمر القبلة، وظنوا أنهم يستطيعون إغراءه عليه الصلاة والسلام بقبلتهم، وهم يعلمون أن أمرها معروف في التوراة عندهم، ولهذا سجل الله تعالى معرفتهم له ﷺ معرفة مستيقن وهو علم جازم قاطع فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ وذلك تشبيه يفيد اليقين في المعرفة، فإن الإنسان لا يمكن أن يجهل ولده الذي يعرف نسبه ساعة من زمان ما دام عاقلا مدركا، وقد يجهل نفسه في الوقت الذي لم يكن قد بلغ فيه سن التمييز، فكما أن الذين أوتوا الكتاب لا يمكن أن يجهلوا آبائهم الذين من أصلا بهم؛ فكذلك لا يجهلون الرسول الأمين ﷺ، روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال لعبد الله بن سلام، وهو من آمن من أهل الكتاب: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال عبد الله بن سلام: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابنى لا أدري ما كان من أمه، والضمير في قوله ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعود على النبي ﷺ؛ لأن بعض شريعته موضوع الحاجة بين نبيه عليه الصلاة والسلام وبين اليهود، وهو حاضر في العقول والنفوس دائما.

ومعرفة أهل الكتاب للنبي ﷺ معرفة لرسالته، وما جاء به من حلال وحرام، وللأرض التي يبعث منها، ولقسومه الأمين، ولقد قال تعالى في ذكره عليه السلام في كتبهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

وإن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا من وقت بعث محمد ﷺ قسمين: قسم آمن واهتدى، وقسم كابر وعاند فعوى؛ ولذلك قال: ﴿وَأَنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى أن فريقاً من أهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ليكتمون ذكر النبي ﷺ مع أنهم أعلنوا قبل مبعثه أنهم يعرفونه، وكانوا يستفتحون به على المشركين، وعبر سبحانه وتعالى عن النبي وشريعته، وأظهر في موضع الإضمار، فقال: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾، وذلك لبيان فساد نفوسهم ومقام ما أنكروه من رسالة ونبوة وشريعة، فهم يكتمون الحق، ومن يكتم الحق يكتم النور، ولا بد من أن يظهر، ثم أكد فساد نفوسهم، فقال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أى والحال أنهم يعلمون أنه حق، وأن من يكتم الحق يضل ويفسد، فهم يعلمون أن فعلهم إثم ويعلمون نتائج ذلك الإثم، ولكنهم فى غيٍّ دائم وضلال مستمر.

هذا شأن الذين يعلمون الحق ويكتمونه، وبالإشارة إليه يتبين أن هناك من يقر به، ويؤمن به، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قد يشير إلى أن هناك من لا يعلم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّٰى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة] وإثم هؤلاء على من كتموا الحق وهم يعلمون فوق ما عليهم من إثم؛ إذ إن النبي ﷺ دعاهم إلى الحق.

وإن النبي ﷺ كان يجاور اليهود، والمؤمنون كانوا يختلطون بهم، ومنهم من كانت لهم مخالفة ببعض منهم؛ ولذلك ثبت الله قلوب المؤمنين، حتى لا تجرهم المودة إلى أهوائهم، أو الشك فيما عندهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى أنه لا يجوز لمن جاءه الحق هو ومن معه أن يتبعوا أهواء الذين أوتوا الكتاب، وأن من يفعل ذلك يكون من الظالمين ظلما مؤكدا لا مرية فيه، بعد هذا بين أن ما عند النبي ﷺ والمؤمنين هو الدين وأنه الحق فقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أى الحق الجدير بالاتباع الذى لا ريب فيه هو الذى ينزل عليك من ربك وما غيره باطل لا يتبع، فإن خالفت ما جاء من ربك، فقد خالفته إلى الظلم؛ لأن ماعداه سير وراء هوى التعصب المنحرف والشرك، وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أنه من عند الله ذى الجلال الذى رباك وعلمك وهذبك وهداك، وهو الذى يعلم ما ينفع وما يضر وما فيه الهداية وما فيه الضلال.

وإذا كان الحق لا يكون إلا ما هو من جانب الله وأن ما عند غيره هو هوى النفوس، ووسوسة الشياطين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، والمعنى إذا كان ما نزل عليك هو الحق من منزل الحق الذى لا ريب فيه فلا تكونن من الممترين. والامتراء التردد بين الشك واليقين، بحيث يعتريه دور يحس فيه باليقين ودور يحس بالشك الذى يناقض اليقين، وقد يطلق على مجرد الشك لتردده بين اليقين والشك، بل إن هذا التردد هو الشك فى ذاته، فمعنى الشك موجود، واحتمال الشك ولو من وجه ينافى العلم الجازم.

والنهي عن الامتراء نهى عن أن تدخل أسبابه النفس، وأمر باليقين الدائم ويقول بعض المفسرين: إنه أمر بالاحتياط والتوقى، ذلك أن الشك يدخل النفوس بسريان ما عند أهل الأهواء إلى غيرهم، يبتدئ باستحسان ما عندهم، وأول الشر استحسانه؛ ثم يدخل الشر إلى النفس شيئا فشيئا حتى يحدث الشك فيما عنده.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، أى لا تدخل فى صفوف أهل الشك، وفى ذلك إيذان بأنه لو شك فيما عنده لدخل فى صف الذين يمارون فى الحق ويشككون فيه.

وأمر النبي ﷺ هو أمر لأمته، فإن الشك أو الامتراء غير متصور منه، وغير متصور أن تكون من النبي ﷺ أسباب الامتراء أو أن يدخل فى صفوف المرتابين فى

أمر ربهم الذين يكتمون الحق وهم يعلمون، إنما هو أمر لأمته، بأن يحتاطوا لدينهم الحق، فيزدوا أنفسهم دائماً بالعلم الذى يزيدهم إيماناً، وبالقيام بالفرائض، واتباع السنن التى تزيدهم قوة فى الاعتقاد، وتبعدهم عن مواطن الشبهات فيزدادوا يقيناً، ولا يُبعد الشك ويحدث الاطمئنان إلا العمل الصالح وذكر الله تعالى دائماً ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) ﴿[الرعد]﴾.

وإن الله تعالى ينبهنا إلى أننا يجب علينا أن نتجه إلى قبلتنا وشرعنا، وليس علينا أن نغير ما عند غيرنا إن اتبعوا أهواءهم بعد أن نبين لهم الحق وندلهم عليه بالآيات البينات، فإن أعرضوا فلهم أعمالهم، ولنا أعمالنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

الوجهة قال كثير من المفسرين إنها القبلة، والتكثير فى «لكل» دال على محذوف، والمعنى: لكل ملة أو جماعة قبله يتسجهون إليها، وتبين الحق فى هذه الجهات، بيينة الله وقلته المختارة من بينها، وإن العبرة بعد الاتجاه إلى القبلة الحق أن تستبقوا الخيرات، أى تسارعوا متسابقين إليها، غير مدخرين جهداً فى الوصول إلى الخير من عمل صالح، وصلاة وصوم وزكاة، وتعاون على البر والتقوى، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوكَا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ (١٧٧) ﴿[البقرة]﴾.

هذا على تفسير الوجهة بالقبلة، ويصح أن تفسر الوجهة بالملة أو الشريعة أو الحق كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨) [المائدة] وكقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧) ﴿[الحج]﴾.

وإن المعنى على هذا: إن لكل أمة اتجاهها فى اعتقاداتهم، وهم سائرون على ملتهم التى اختاروها، وعقيدتهم التى أرادوها ولهم طريقهم ومنهجهم، ولا نجادلهم، ولكن أمرنا بأن نستبق بالمسارعة فى السبق إلى الخيرات، أى كل ما هو فيه

خير في ذاته، وفيه نفع للناس والأنفس، ومافيه تطهير القلوب، والاتجاه بها إلى الله تعالى رب الوجود ومن في الوجود.

وإنه بعد الاستباق إلى الخير، والاختلاف في الملة سيكون الحساب، والثواب والعقاب، وبيان الحق والباطل؛ ولذا قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وأيضا اسم شرط دال على المكان، وجواب الشرط يأت بكم الله جميعا.

والمعنى أنه في أى مكان كنتم لابد أن يأتى الله تعالى بكم وتجتمعوا يوم القيامة، فيعرف أهل الحق من أهل الضلال، ويحاسب كل على ما قدم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وإن هذا النص السامى فيه تبشير وإنذار؛ فيه تبشير لمن استبقوا إلى الخير، وكان دينهم الحق، وإنذار لمن اعتقدوا الباطل، ولجؤا فيه وعاندوا أهل الحق وكابروا.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيه إشارة إلى أنها حياة لا يجيئون إليها مختارين، بل يأتى بهم الله تعالى طائعين أو كارهين، ومن يأتى بهم هو الله تعالى القاهر فوق عباده، ولذا ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وقد أكد قدرته بهذه الجملة السامية المؤكدة بأن والجملة الاسمية، وتصديرها بلفظ الجلالة الدال على القدرة التى ليست فوقها قدرة، وهو سبحانه وتعالى الغالب على كل هذا الوجود، كل شيء فى قدرته وفى سلطانه، وهو العزيز العليم.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا

اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُ إِلَّا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعْنِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

تبين في الآيات السابقة اتباع القبلة في حال المقيمين، فبينت حيث يقيم النبي ﷺ، وبيئت حيث يقيم المسلمون في الأماكن الإسلامية، كل في مكان إقامته، فقال فيما تلونا من قبل: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وفي النص السامى يبين أن القبلة لا بد من الاتجاه إليها في السفر كما يجب الاتجاه إليها في حال الإقامة، فإذا خرج من مكان إقامته اتجه إليها، فلا تسقط فرضيتها في السفر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ «من» هنا أى من أى مكان خرجت، وفي أى مكان حللت، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، أى ناحيته؛ إذ لا فرق بين مكان ومكان ولا سفر ولا إقامة، فالاتجاه ضرورى، أى أن السفر لا يسوّغ ترك الاتجاه شطر البيت أى ناحيته ووجهته.

وذكر ذلك النص لتأكيد الاتجاه، وأنه شرط لصحة الصلاة دائم مستمر لا فرق بين سفر وحضر، ولا فرق بين راكب وراجل، ولقد روى الدارقطنى عن أنس ابن مالك قال: «كان النبي ﷺ إذا كان في سفر فأراد أن يصلى على راحلته استقبل القبلة وكبر ثم صلى حيث توجهت به»^(١)، أى أنه كان يلاحظ دائما أن يكون ناحية القبلة.

وقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الفاء هنا فى معنى جواب الشرط.

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة: باب التطوع على الراحلة (١٠٣٦) بلفظ: عن أنس بن مالك «أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر، فأراد أن يتطوع، استقبل بناقته القبلة، فكبر ثم صلى حيث وجهه ركابه». كما رواه أحمد (١٢٦٣٥) في مسنده عن أنس قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَاحِلَتِهِ نَطَوَّعًا اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَكَبَّرَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ خَلَّى عَنْ رَاحِلَتِهِ فَصَلَّى حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ»

وقد أكد الله تعالى القبلة إلى البيت الحرام، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ والضمير يعود على تولية الوجه، وقد أثبت الله تعالى بهذا أنه الحق، وأكد به إن واللام، والجملة الاسمية، وإسناد هذا الحق لله تعالى، والتعبير عن الله جل جلاله للدلالة بربك للإشارة إلى أنه اقتضته تربيته لك، وقيامه على شئونك، وأنه سار على حكمته، ولأنه رأى تقلب وجهك في السماء، وإن ذلك الحق ثابت في كتبهم، فإنه ثابت في التوراة أن القبلة تتحول إلى فاران أى إلى مكة.

وبعد أن أكد سبحانه وتعالى وجوب الاتجاه إلى القبلة في السفر والإقامة - بين سبحانه، أن النبي ﷺ وأصحابه تحت سلطان علمه وحكمته، وأنه قريب على المؤمنين ليس بغافل عنهم ليتحروا القبلة ويتعرفوها، ولا يصلوا إلا بعد هذا التحرى فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

نفى الله تعالى وجل جلاله عن نفسه الغفلة، أى أثبت العلم الكامل، بتأكيد نفى أن يقع فعل في الوجود على غير علم منه، باستغراق النفي، وبذكر لفظ الجلالة الذى يتصف بكل كمال، ويستحيل عليه أى نقص، وبالباء الدالة على استغراق النفي.

وإن هذا الكلام السامى قد يكون إنذاراً، ولكنه موجه إلى المؤمنين، وليس موجهاً إلى النبي ﷺ بدليل أن الخطاب كان باللفظ الدال على الجمع، ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقد أكد سبحانه وتعالى الأمر للنبي ﷺ بتكراره، وذكر الأمر للمؤمنين أجمعين تعميماً للأماكن، حيثما كانوا في سفر أو إقامة كما أشرنا، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. وكان التكرار في شأن النبي ﷺ لتعدد أسفاره، وغزواته، وأن القبلة الاتجاه إليها شرط لصحة الصلاة في كل الأحوال إلا أن يكون ذلك في حال الخوف، وتكون صلاة الخوف، ولا يمكن الاتجاه إلى القبلة، إذ يستدبر العدو، فيأتيهم من حيث لا يشعرون، وقد بين الله تعالى صلاة الخوف فقال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ

مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ [النساء].

وقد تشير هذه النصوص الكريمة إلى أن استقبال القبلة إذا تعذر في حال الحرب جاز الاتجاه إلى غيرها من غير استتبار للضرورة والله تعالى هو الواقى .

وإن الله سبحانه وتعالى كرر طلب الاتجاه إلى البيت الحرام حينما كانوا، ومن حيث خرجوا في سفرهم وفي مغازيهم، وكرر ذلك تأكيداً للطلب لكيلا يرتاب مرتاب، ولكي يكون حجة على الناس، ولا يكون لهم حجة على النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أى أكدنا الاتجاه إلى البيت من أجل ألا يكون للناس حجة فى عدم العلم، ودليل عليكم فى عدم تحويل القبلة إلى الكعبة، وأن يسيروا على القبلة التى كنتم عليها، وهى إلى بيت المقدس، والحجة هى التى يستدل بها المخالف، وذلك لأن اليهود والمنافقين لجؤا فى التساؤل والمناقشة وتوهين ذلك التحويل، فأكد الله تعالى التوجه إلى البيت الحرام، والحجة التى نفاها الله تعالى هى حجة عدم العلم فأكدته.

وقد استثنى الله تعالى من الذين لا تقوم لهم قائمة الذين ظلموا فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهذا الاستثناء أهو استثناء متصل أم استثناء منقطع بمعنى لكن؟ لقد قال الطبرى: إنه استثناء متصل بمعنى أن الذين ظلموا لا تنتفى حجتهم، وإن كانت واهية داحضة عند ربهم، وقال: المعنى لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا: «ما ولاهم»، وقالوا: تحير محمد فى دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا كنا أهدي منه، وغير ذلك من الأقوال التى لا تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودى أو منافق، أى أنه لا حجة عليكم إلا المماراة وما يحسبونه حججا. وهو أقوال واهية

تدل على ضعف الإيمان عند قائلها وأنهم يقولون ما لا يؤمنون به، ويكون الذين ظلموا هم اليهود والمنافقون.

وقال بعضهم: إن الاستثناء منقطع، ويكون المعنى: لثلا يكون للناس حجة عليكم، لكن الذين ظلموا، لا يقنعهم دليل ولا تعظمهم حجة، بل إنهم يلجون في الباطل بأوهام باطلة، فلا تنتظر منهم أن يلزموا أنفسهم بدليل مهما كانت قوته؛ لأنهم معاندون جاحدون مكابرون.

ولذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ الخشية نوعان: خشية الله تعالى وهي طمأنينة في القلوب تبعث على التوقى مما يغضب الله تعالى، وهذه هي الخشية من الله تعالى وقد أمرنا بها، وأن تمتلىء قلوبنا بالاطمئنان مع التوقى مما يغضب الله.

والخشية الأخرى الخوف والفرع، وهي ما نهانا الله تعالى عنه، فنهى أن نخاف أو أن نفرع أو أن نتوقع الأذى من هؤلاء الظالمين، وأن نخشى الله تعالى فتمتلىء نفوسنا بالاطمئنان والتقوى.

كان التأكيد للاتجاه إلى البيت الحرام لذلك، ولأمر جليل آخر، أشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أى كانت القبلة لكيلا يكون للناس حجة عليكم. ﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، إن نعم الله تعالى تتوالى على النبی ومن معه من المؤمنين ومن تمامها نعمة الاتجاه إلى الكعبة، إذ إنها تضمنت إجابة النبی ﷺ، إذ كان يقلب وجهه في السماء ليؤليه قبلة يرضاها، ولما فيه من تشريف البيت الحرام، ولما فيه من إحياء ملة إبراهيم عليه السلام، ولما فيه من تأليف للعرب، ولأن ذلك إيدان بفتح مكة وإزالة دولة الأوثان، وإقامة دعائم الإسلام، وتلك كبرى النعم.

وذكر الله تعالى أمراً آخر، وهو جماع الأمور كلها، وسبيل الحق والإيمان وهو رجاء الهداية الكاملة، فهذا من طرقها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الرجاء من الناس لا من الله، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي
أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

ولى الله تعالى نبيه إلى الكعبة، تكريماً للبيت وتشريقاً له ولبانيه، وأتم نعمته عليهم بالإيدان بإزالة الأصنام عنه، فعل الله تعالى ذلك لتتم الهداية كما أرسل رسولا منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وفى هذا إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، إذ قال تعالى فى ذكر دعائه: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾ (١٢٩) [البقرة] فكما أجب دعاءه عليه السلام بجعله بلدا آمنا وأن يكون مثابة للناس وأمنا أجب دعاءه بإرسال رسول منهم يتلو عليهم آياته.

يمن الله تعالى على العرب بأن جعل فيهم رسولا منهم ليقول ماأنا عليهم بذلك كما منَّ عليهم بجعل القبلة إلى الحرم الأمن الذى قدسوه وكرموه، فالرسول ﷺ أرسل فيهم وهو منهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) [التوبة].

فهو فيهم ومنهم، وهو أكثر تأليفا لقلوبهم. ورعاية لنفوسهم وهو الحق من ربهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾ (١٦٤) [آل عمران].

وتلاوة الآيات التى جاءت فى قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ﴾، تلاوة الآيات هنا أى القرآن بقراءته فى ترتيل وفهم، وإدراك لمعانيه، وإجابة لأمره، واعتبار بقصصه، وذلك عبادة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أى تعليمهم علم القرآن من بيان للصلاة والزكاة والحج والصوم وأحكام الأسرة،

وأحكام الحرب وما يحل فيها وما يحرم، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وآداب وأخلاق المسلم فهو مآذبة الله تعالى، وهو سجل المعجزات التي جاء بها الرسل من عهد نوح إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

والحكمة هي الشريعة، وما فيها من إصلاح بين الناس، وإقامة للعلاقة الإنسانية. وفسرها الشافعي بأنها السنة وقد بينها عند ذكر قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ...﴾ [البقرة]، فارجع إليها.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أى يطهركم من أرجاس الجاهلية ومآثمها كواد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر بله عبادة الأوثان والأنصاب، وينمى فيهم قوة الخلق والشكيمة ويوجهها نحو مكارم الأخلاق.

وقال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ علمهم الله علما لم يكونوا يعلمونه من قبل؛ علمهم علم النبوة، وعلمهم علم البعث والنشور والقيامة والحساب، وعلمهم علوما تنفعهم فى الحياة الدنيا، وتزودهم بالخير فى الآخرة، وعلمهم مكارم الأخلاق وعلمهم تنظيم الدولة، وقيام حكم صالح يستظل فى ظله البر والفاجر، وعلمهم العدالة والامتناع عن الظلم... وأخيرا علمهم علم الإسلام، وقد جمعه تعالى فى قوله جلت حكمته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل] وجعل منهم دولة الإسلام الفاضلة التى لم تر الإنسانية لها نظيرا من يوم أن خلق السموات والأرض.

بين الله تعالى نعمة الرسالة المحمدية فى العرب، وفى الإنسانية كلها، وإن ذلك يقتضى أن يشكر صاحب هذه النعم ﴿وَأَن تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ [إبراهيم]؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾، الفاء هنا هى ما تسمى فاء السببية، وهى ما يكون قبلها سببا لما بعدها، وذكر الله تعالى امتلاء النفس بعظمته وقدرته وجلالته والإحساس بنعمه الظاهرة والباطنة، وليس ذكره جلت قدرته بترديد اللسان فقط، ولا بترطيب القول بذكر

جلاله وإنما تكون أولاً بامتلاء النفس بذكره، حتى يكون كأنه سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، نطق اللسان أو صمت أو جهر به أو خفت، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ [٥٥] ﴿[الأعراف] و﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [٢٠٥]﴾ [الأعراف] وإن الله تعالى يقول اذكرونى أذكركم؛ اذكرونى فى كل حياتكم وفى قلوبكم أذكركم بالنعمة والغفران، اذكرونى بالشكر أذكركم بالزيادة ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [٧] ﴿[إبراهيم] روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة: «أنا مع عبدى حين يذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإذا ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء هو خير منه وإن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعا وإن اقترب إلى ذراعا، اقتربت منه باعا وإن أتانى يمشى أتيت إليه هرولة» وقد أخرجه البخارى^(١). وإن ذكر الله تعالى يكون فى القلب، ويبدو فى العمل، فالطاعات التى يقصد بها وجه الله تعالى ويبتهل فيها إليه ويطلب رضوانه بها هى ذكر لله.

وكل أعمال كالتيجارة والصناعة والزراعة إذا قام بحققها، وتوكل على الله تعالى حق توكله هى ذكر لله، وكل عمل لا يعمل إلا لحب الله تعالى، فالصانع فى مصنعه، والزارع فى مزرعته، والتاجر فى متجره إذا قصد وجه الله تعالى ونفع الناس يكون ذاكرًا لله تعالى، وإن المؤمن لا يفرغ قلبه من ذكره، إذا قام بحق الله تعالى، وإن ذكر الله تعالى يصحبه الخوف من الله فيتقى الله تعالى فى كل عمل يعمل به ويكون دائما فى حذر من غضب الله تعالى، وقد قال تعالى فى وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢] ﴿[الأنفال].

(١) البخارى: كتاب التوحيد - باب: قول الله تعالى: ويحذرکم الله نفسه (٦٨٥٦) ومسلم: الذكر والدعاء (٤٧٣٢).

إن ذكر الله تعالى هو الخير كله، روى ابن ماجه أن أعرابيا قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأنبئني منها بشيء أتشبث به قال: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل»^(١).

وإن أعلى درجات الذكر شكر الله تعالى؛ ولذا قال تعالى بعد الأمر بالذكر: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ وهنا نجد الشكر تعدى باللام وقد قال الفراء: إن ذلك هو الأفصح، ولكن يجوز اشكر لى واشكرنى.

وشكر العبد لله تعالى؛ الشناء عليه، وأن تكون نعمه لما خلقت له من طاعة، خلق له السمع فشكره لنعمته ألا يسمع زور القول ولا ينفذه، وشكر نعمة اللسان ألا ينطق إلا بالحق، وشكر نعمة اليد ألا يبطش إلا لتحقيق العدل، وألا يعمل إلا ما هو حق وألا يعتدى على حق غيره، وألا يؤذى، وأن يحمى الضعيف وينصر المظلوم، ويغيث المستغيث، ويدفع الكوارث عن المؤمنين، وأن يفك العانى... وشكر نعمة الرجل ألا يسعى إلا فى خير، وألا يسعى فى ظلم، وأن يذكر دائما أن من سعى مع ظالم فقد ظلم.

وإن شكر نعم الله تعالى ليرجو به الشاكر زيادتها، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ تَأْذِنَ رَبِّكُمْ لَنِ شُكْرَتِكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنِ كُفْرَتِكُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم].

وإذا كان الله تعالى قد أمر بالشكر، وهو الطاعات، والأخذ بالهدى الحمدي، فقد نهى عن الكفر فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ والنهى عن الكفر معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ يجعلنا نتصور أن تكفرون فيها ياء المتكلم محذوفة أو بالياء كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخْشَوُا اللَّهَ...﴾ [المائدة] ويكون معنى كفر الله تعالى عدم ذكره، وعدم معرفة حقيقة نعمه، ولكن الظاهر أن المراد النهى عن الكفر المطلق، وهو ألا يعتقد بالوحدانية وألا يؤمن برسالة محمد ﷺ وهو مقابل للشكر لأن حقيقة الشكر ابتداء هى القيام بالطاعات كلها، وهو مع ذكر الله تعالى الإحساس بأنه كله لله تعالى. وفقنا الله تعالى للشكر وجنبنا الكفر.

(١) رواه ابن ماجه: الأدب - فضل الذكر (٣٧٩٣) عن عبد الله بن بسر، وينحوه عند الترمذى: الدعوات - فضل الذكر (٣٣٧٥) وأحمد: مسند الشاميين - حديث عبد الله بن بسر (١٧٢٤٥).

أول الجهاد جهاد النفس

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ

لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ

وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

اتجه المسلمون بأمر الله تعالى إلى البيت الحرام الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ، وقد اتجهوا إليه في الصلاة إيدانا بإبعاده عن الشرك ، وأن تحيط به الأوثان ، وقد أشار سبحانه وتعالى بأنه سيكون الفتح ، وأنه سيكون في حوزة أهل التوحيد ، وأنه من بعد سيكون يأس الشيطان من أن يعبد في الأرض المباركة ، وقد كان البيت الحرام في أيدي المشركين ولا يخرجون منه إلا بجهاد لإخراج أعداء الله من بيت الله ، أو لجعل كلمة الله تعالى العليا في بيته ، وإنه بالتحقيق ثبت بالتقريب أن تحويل القبلة كان في الليلة الخامسة عشرة من شعبان ، وكان ابتداء يوم الفرقان لغزوة بدر الكبرى في السابع عشر من رمضان ، فكان بين التحويل ويوم الفرقان شهر واحد .

ولذلك جاءت الدعوة إلى الجهاد، عقب تحويل القبلة، وأول الجهاد جهاد النفس، فجهاد النفس قبل امتشاق الحسام في الميدان، وجهاد النفس بتعويدها الصبر

وقمع الأهواء والشهوات والاتجاه إلى الله تعالى؛ ولذا ابتداءً به فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ استعينوا في أموركم، وفي استجابة أوامر ربكم والأخذ بأحكام دينكم وإعداد العدة للقاء عدوكم، فمجاهدة النفس مقدمة على جهاد العدو، بل هي عدته وقوته.

والصبر ضبط النفس والاستيلاء عليها، وهو يتنوع بتنوع موضوعه، فهناك صبر على منازعة الأهواء والشهوات لتعميمها والاستيلاء عليها بجعل الشهوة أمة للعقل ليست مسيطرة عليه، ولا مسيرة للنفس، وهناك صبر لأداء الطاعات والقيام بالواجبات فإن ذلك يحتاج إلى عزم قوى لا يكل ولا يمل، وهناك صبر على لغو القول من الناس، واستهزاء السفهاء، وتهكم ذوى الأهواء، وهناك صبر بالإقامة مع الضعفاء وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ (٢٨) [الكهف].

وهناك صبر عند المصائب في الدنيا فلا يفزع ولا يجزع ويعلم أن الصبر فيه أجر وأن الجزع فيه وزر، وهناك صبر عند لقاء الأعداء ولعله نتيجة لصفة الصبر وتشعبها في كل النواحي التي ذكرناها.

والصبر خير كله، وهو أول صفات المؤمنين، ومن الصبر ألا يكفر عند النعمة وألا ييش عند النعمة، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ (٩) وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) [هود].

ولقد قال ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن صهيب، قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» (١) فالصبر كله خير، وهو عدة الإيمان والأخلاق، وبناء المجتمع الصالح، وهو أقوى عدة للجهاد.

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرفائق (٥٣١٨)، وبنحوه رواه أحمد والدارمي.

هذا أمر الصبر. والاستعانة به مناجاة العبد لربه، وصرف القلب إليه، والاتجاه إليه، وهى التى تملأ القلب بذكر الله تعالى فينسى ما بينه وبين الناس، وهى استحضار العزة من الله، وامتناء الإنسان بجبروت الله، وأنه فوق قوى البشر، والاستعانة هى سلوك المؤمن، روى «أن النبی ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى»^(١).

ولقد أمر الله تعالى نبيه بالصبر والصلاة إذا اشتدت عليه شديدة الناس بالقول والعمل، فقال تعالى كلماته: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه] فعبّر عن الصلاة هنا بالتسبيح فسييل الرضا بالنوازل والشدائد من الناس - كما تدل الآية - الصبر على ما يقولون، والصلاة إذ هى اطمئنان القلوب، وسرور النفوس وبها تستبدل النعمة بالنقمة، والسراء بالضراء.

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بمعاونته لهم، فينصرهم، بسيطرته على نفوسهم، ثم ينصرهم على أعدائهم، ثم يغلبهم على كل شر فى الحياة، ثم تقوية عزمهم، وضبطهم لنفوسهم، فالله معهم فى كل أعمالهم، وهو وليهم ونعم المولى ونعم النصير.

هذا ما يعدّ الله به تعالى نفوس المجتهدين، صبر وذكر لله تعالى، وإنه من بعد ذلك يكون القتال، ويكون الشهداء، وفى ذلك إشارة إلى أنه ليس القتال شهوة، ولا نزهة، ولكنه فداء وبلاء، واستشهاد، وإن الشهداء لا يموتون ولكنهم أحياء عند ربهم يرزقون، والحياة ليست للأشباح فقط، بل هى للأرواح، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

النهى عن القول، والقول دليل الاعتقاد فهو نهى عن الاعتقاد، وقد صرح الله تعالى بالنهى عن الاعتقاد فى آية أخرى فى معنى هذه الآية الكريمة وفى موضوعها فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران] وفى الآية التى نتكلم فى معناها قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ

(١) رواه أحمد (٢٢٢١٠)، وأبو داود (١١٢٤)، عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

لَا تَشْعُرُونَ»، أى ولكن لا تحسونهم بمرأى العين، وذلك لا يقتضى أنهم ماتوا، بل هم عند ربهم يرزقون، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [آل عمران].

وإن حياتهم روحية يستبشرون بها بأنهم فدوا إخوانهم، وأنهم قدموا أنفسهم، وآثروا إخوانهم، ولقد صور النبي ﷺ حياتهم فيما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأى شئ نبغي وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك، ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل مرة أخرى، فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون» (١).

هذا حديث مصور لحياتهم الروحية، وأنهم فى جنات النعيم، وأنهم ما ندموا على أن قتلوا شهداء بل إنهم فرحون بذلك، وأنهم يتمنون أن يعودوا ليقتلوا فى سبيل الله تعالى؛ لأنهم راضون بما فعلوا، فهم يطلبون الشهادة بأرواحهم كما

(١) رواه مسلم، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ - أَيْ ابْنَ مَسْعُودٍ - عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مَعْلُوقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطْلُعُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةٌ فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَى شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَقَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ نَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرَكُوا». وبنحوه عند الترمذى (٢٩٣٧) فى كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران وابن ماجه (٢٧٩١) فى كتاب الجهاد - باب فضل الشهادة فى سبيل الله (٢٧٩١) وجاء من رواية جابر بن عبد الله عند الترمذى (٢٩٣٦) وابن ماجه (٢٧٩٠) واللفظ له يَقُولُ: لَمَّا قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا جَابِرُ أَلَا أَخْبَرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَأَبِيكَ؟» قُلْتُ: بَلَى قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَكَلَّمَ أَبَاكَ كَفَاحًا فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَىَّ أُعْطِكَ قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأَقْتُلْ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ: إِنَّهُ سَيَقُومُ مَعَهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ قَابِلُغْ مِنْ وَرَائِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران].

طلبوها بأبدانهم، وإن ذكر الشهداء بعد الأمر بالصبر والصلاة تأكيد لضرورة الصبر، ولا يكون من غير صلاة . وإن الجهاد بلاء، ولا بد أن يستعدوا له، فهو اختبار؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ .

إن هذا النص جاء توطئة للجهاد، وليتحملوا كل ما فيه من شدائد، وكله شدائد إلا على المؤمنين الصابرين، وإنه يجب أن يتوقعوا ذلك ويتحملوه، فإن الأمر المتوقع إذا وقع سهل حمله، وإذا جاء على غير توقع صعب وقعه، وهلعت النفوس، وهذا النص كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢٤﴾ [البقرة] ومثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران] .

فهذه من أخوات هذه الآية التي نتكلم في معناها، فهي بيان لما يتوقعه المجاهدون، وخصوصا إن هذه الآية كما يبدو من سياقها مع الآيات كانت في السنة الثانية من الهجرة، وقد فتح باب الجهاد الأكبر ويوم الفرقان قريب الوقوع وهو بدر الكبرى الذى فرق بين عهد النصر المؤزر، وعهد الاستضعاف .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ البلاء الاختبار لا ليعلم الله تعالى، بل ليظهر للناس ما أكنه الله تعالى فى علمه المكنون، ولقد أكد الله تعالى البلاء ليؤكد موضوعه بالقسم الذى دلت عليه لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ قال بعض العلماء: التنكير فيه للتقليل، وإنى أرى أن المقام موجب أن يكون التنكير فيه للتكثير لكى يتحقق معنى الابتلاء فيقدمون على حرب لقوم شداد غلاظ من شأنهم أن يُخَوِّفُوا وَيُفَزِّعُوا، وقد قيل إن ذلك الخوف يتنافى مع الشجاعة التى عرف بها النبى، وصحبه الكرام أمثال حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وعلى بن أبى طالب فارس الإسلام والزبير وغيرهم من الصناديد الذين يتقدمون فى الميدان لا يهابون إلا الله، ونقول فى ذلك إن الشجاعة لا تنافى الخوف؛ لأن الخوف يحمل على تدبير الأمور،

وبعد تديرها يفترق الشجاع عن الجبان، فالجبان لا يُقدِّم والشجاع مُقدِّمٌ مقدراً النواحي المخوفة، والنواحي التي فيها جانب الله تعالى فيقدم على بينة، وقد حقق الذين درسوا النفوس فقرروا أن الشجاعة لا تكون شجاعة إلا إذا أحس بخطورة الأمر وأقدم غير هيب، وإن المؤمنين قد أصيبوا بما من شأنه أن يخيف ولكن لم يجبنوا عن اللقاء، بل أقدموا عليه في غير تلكؤ ولا اضطراب.

هذا شأن الخوف، ثم قال تعالى: ﴿وَالْجُوعُ﴾ فقد أصيبوا بشيء غير قليل من الجوع، وقد كانوا يربطون الأحجار على بطونهم.

كما كانوا يفعلون في حفر الخندق، ﴿وَنَقْصُ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾، فإنه في الحروب يتوقف اشتغال المؤمنين بالتجارة وغيرها، فهل كان أبو بكر التاجر تجرى متاجره، والحروب قائمة؟ وهل كان عثمان ذو النورين تستمر متاجره غادية رائحة والحرب قائمة بين الشرك وأهل التوحيد. ﴿وَالْأَنْفُسُ﴾؛ فإن ملحمة الحرب يكون فيها الشهداء، وقتل الأبطال. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ وقد أصيب الأنصار في المعارك وقد خرجوا للجهاد فلم يسقوا زرعهم ولم يرعوا ثمرات نخيلهم فنقصت ثمارها.

ذكر الله تعالى ذلك الابتلاء قبل وقوعه، وكانوا على مقربة منه؛ لأن ذلك كان قبيل غزوة بدر الكبرى، فذكر الله تعالى ذلك ليتوقعوه قبل أن يقع فيعدوا له الأنفس بالصبر، وضبط النفس، والاستعانة بقوى النفس في الجهاد وتحمل الأذى من الحرب، فقد كتب عليكم القتال، وهو كره لكم، ولكنه خير في نتيجته مادام رداً للاعتداء ومنعاً للفتنة وفتحاً لطريق الدعوة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ والبشارة هي النصر الكامل، وذكر أن المبشرين هم الصابرون، فالوصف علة للحكم فكانت البشارة بالنصر بسبب الصبر؛ لأن الصبر عدة النصر، كما قال على رضى الله عنه بطل الحرب الإسلامية: كنا ننصر بالصبر والتأييد.

وإن الصابرين هم الذين يضبطون أنفسهم فلا تنخلع قلوبهم بفرع، ولا يصيبهم عندما يفاجئون بما لا يحبون؛ ولذا عرفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الصبر يكون بمعنى ضبط النفس عن الأهواء والشهوات، وعما يكون فيه معصية الله تعالى، ويكون بعزيمة المؤمن القوى في طاعة الله، ويتحمل ما ينزل مما يفرغ القلب، واطمئنان من غير أنين، ومن هذا النوع الصبر على ما يصيب من نوائب الدهر ومصائبه.

والمصائب جمع مصيبة، وهى كل ما يصيب الإنسان بالأذى فى نفسه من مرض، أو ماله من خسارة فادحة، أو فقد حبيب، أو مفاجأة بما لا يسر بل يضر كهزيمة فى حرب، أو غدر غادر، أو غير ذلك مما يكرث الإنسان من كوارث، والصبر المحمود فى هذه الأحوال وغيرها هو الصبر الجميل الذى يكون من غير أنين وشكوى كصبر يعقوب عندما غاب ابنه يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨) [يوسف].

وإنه مما يجعل الصبر جميلا لا أنين فيه ولا شكوى، ولا تملل مما أنزل الله تعالى أن يفوض أمره إلى الله تعالى، وأن يحيل المرجع والمآب إليه، وأن يعتقد أن كل شيء من الله تعالى، وأن إليه مرجع الأمور وعنده المستقر والمعاد؛ ولذا قال تعالى فى حال الصابرين وقولهم عندما تصيبهم المصيبة وتنزل بهم النازلة لا قبل لهم بها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. وإن هذه الجملة فيها من كمال التفويض والاعتزاز بجلال الله تعالى والاطمئنان إلى قدرته ما يعلو بالنفس على الأنين والشكوى لغير الله تعالى العلى القدير.

ومعنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أى أننا ملك له تعالى يتصرف فىنا كيف يشاء، وأمورنا بين يديه يصرفها كما يشاء، وهو نعم المعتمد فى كشف الضر وإزالة الكرب، وإنه ملكنا بخلقه وتقديره وتصريفه فىنا وله الأمر والتدبير، وإليه مرجعنا فنحن راجعون إليه وحده؛ ولذا قدم الجار والمجرور ﴿وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فنحن هنا فى الحياة مملوكون له، ومن بعد ذلك نرجع إليه وعسى أن يكون ذلك خيرا لنا. روى مسلم بسنده عن

رسول الله ﷺ أنه قال: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته»^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالتوحيد واستشعار للعبودية، وإيمان بالبعث والنشور، وفي ذلك عزاء أى عزاء وسلوى عن البلاء، ولقد روى مسلم بسنده عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها»^(٢).

وإن الصالحين لا يفرون من المصائب تنزل بهم، ولا يرونها من جانبها الشديد، بل يرونها من جانبها الصالح المفيد، فهى تربي فى المؤمن الإحساس بالربوبية والضعف أمام القدرة الإلهية والإخلاص لله تعالى، فالإخلاص حيث الضعف أمام الله، وأنه لا كاشف للضرر سواه، وإن ذلك يجعله يرجع إلى الله تعالى ويكون من أناب إليه سبحانه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَاطِلٌ دَعَاؤُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ (٣٢) [لقمان] وحيث يحس بشدة المصيبة يتضرع إليه، فيدعو إليه متضرعا ليكشف عنه الضرر. وإن المصائب تجعل النفوس بعيدة عن الاستكبار فتطمئن إلى الضعفاء، ويتربى فيها الحلم، والعفو وكثرة الثواب بكثرة الصبر، ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١٠) [الزمر] وإن الصالحين لهذه المصائب وثمراتها من طهارة القلب وتنزيه النفس يفرحون ولا يكرهون، وإن كانت تجعل غيرهم فى كرب، وإنه إذا فرح شكره وإنها تحصى القلوب وتطهرها من الغطرسة والعتو.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: كتاب المرضى (٥٢١٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب (٤٦٧٠) واللفظ له عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٢) رواه بهذا اللفظ مسلم: كتاب الجنائز: باب ما يقال عند المصيبة (١٥٢٥)، وينحوه عند أحمد (٢٥٤١٧) فى مسنده عن أم المؤمنين أم سلمة - رضى الله عنها - . كما رواه الترمذى، وابن ماجه، والنسائى، ومالك، والدارمى.

وإن الصالحين بتفويضهم أمورهم لله تعالى، وثقتهم بالله تعالى يعلمون أن وراء ما نزل من مصيبة ضرا لهم وخيرهم ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۖ﴾ [النساء] وإن المصائب تفتطم النفس عن الأشهر، وتبعد عن الترف، ووراء الترف الظلم فيكون الاستماع للبشير النذير قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ﴾ [سبا].

وإن الرضا بقدر الله تعالى فيما ينزل من نوازل يجعل النفس فى اطمئنان من الجزع والهلع، وبعد عن السخط والغضب.

وأخيرا إن المصائب تصقل النفوس، وتربى فيها قوة الاحتمال إن صبرت وفوضت، ورجت الثواب والفرج من الله تعالى، وفيها يكثر الدعاء لله تعالى، والدعاء مخ العبادة، ولقد قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ [٦٠] ﴿غافر﴾ وكان بعض الصالحين إذا ألم به مرض أو وصب دعا ربه أن يجعله يحس بنعمة المرض والسقم، إذ إنه يقربه من ربه فلا يطغى ولا يستغنى بنفسه عن ربه.

ولقد قال تعالى فى جزاء الصابرين عند النازلة التى تكثرهم، والرضا بما يأتى به الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

الإشارة هنا إلى الصابرين الذين يتحملون الخوف مهما يكن مقداره، ونقص الأموال والأنفس والثمرات فى سبيل الله تعالى، وإذا نزلت بهم نازلة أصابت نفوسهم من فقد حبيب أو حرمان من مطلب من مطالب الدنيا. هؤلاء الذين تلك أحوالهم، هم من الصديقين والشهداء ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلوات جمع صلاة، وجمعها الله تعالى لكثرتها، وتنوع آحادها، والصلاة معناها الدعاء ولكنها من الله تعالى استجابة الدعاء، وذلك بالعفو والمغفرة، وعفو الله ومغفرته دليل رضوانه، ورضوان الله تعالى أكبر الجزاء، كما قال تعالى فى

ختام جزاء الآخرة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) [التوبة] وإن الله تعالى لم يمن على عباده الصابرين بالمغفرة والرضوان فقط، وحسبهما جزاء للصبر ولكن من بالرحمة، رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، فرحمهم في الدنيا بالهداية والتوفيق لفعل الخير، ورحمهم في الآخرة بالنعيم المقيم.

وقد وصفهم سبحانه بأنهم المهتدون، فقال تعالى كلماته: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أى المتصفون بالصبر على الشدائد من الخوف ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات، هم الذين كتب الله تعالى لهم الهداية، وفى النص السامى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ إشارة إلى قصر الهداية عليهم وأنهم المهتدون حقاً، وذلك بتعريف المسند والمسند إليه وبالضمير «هم» وذلك أشرف بيان أنهم المختصون وحدهم بالهداية الكاملة وهبنا الله تعالى عفوه ومغفرته ورحمته وهدايته.

مقدسات البيت الحرام

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ
فَمَن حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

ما زالت النصوص القرآنية الشريفة السامية تتكلم حول الكعبة من ناحية كونها قبله، وأن الصلاة لا تصح من غير الاتجاه إلى البيت الحرام، وإنه مما حول البيت والصفاء والمروة، وهما جبلان مجاوران للكعبة، قيل إن هاجر أم إسماعيل كانت تتردد بينهما عندما أصابهما الجوع والعطش وهي تناجي ربها أن يمن عليها بالغوث فأنبع الله تعالى لها زمزم، وقيل كانت لها طعم وغذاء وشفاء لليلة من عطشها، وقد قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾.

والشعائر جمع شعيرة، وهي المتعبد الذي يكون فيه عبادة الله تعالى والقيام بحق الطاعة، وفي هذا النص تقرير بأن الصفا والمروة موضعاً تعبد لله تعالى، وقد قال بعض العلماء: إن ذكر أنهما من شعائر الله دليل على طلب السعي بينهما، ولكن ابن جزى الكلبي الفقيه المالكي ضعف هذا، ولكن لا نجد فيه ما يسوغ التضعيف لأن كونهما متعبدا يدل على طلب التعبد عندهما، وقد بين النبي ﷺ التعبد فيهما بطلب السعي بينهما فقد قال ﷺ: «كتب عليكم السعي فاسعوا»^(١) وإنه ﷺ في حجة واعتماره سعى والناس بين يديه وهو وراءهم؛ لأنه كان راكباً، فهو منسك من مناسك الحج والعمرة، والنبي ﷺ قال: «لتأخذوا عني مناسككم»^(٢).

ويقول تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ فمن قصد البيت حاجاً أو معتمراً فلا جناح عليه أن يطوف بهما والحج هو المعرف بأركانها وركناته الأكبر الوقوف بعرفات، ومن مناسكه النحر ورمي الجمار، والوقوف بالمزدلفة، أما العمرة فهي زيارة البيت والطواف حوله، والسعي بين الصفا والمروة، وقد سعى فيهما رسول الله

(١) عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنَّ امْرَأَةً أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ يَقُولُ: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيُ فَاسْعُوا». [رواه أحمد في مسند القبايل (٢٦١٩١)].

(٢) رواه مسلم: كتاب الحج (٢٢٨٦)، وأبو داود: المناسك (١٦٨٠) وأحمد في مسنده (١٤٠٩١) عن جابر بن عبد الله بلفظ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَأْسِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحِجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ».

ﷺ، ولكن كان النص في هذه الآية، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ وتشكلم هنا في ثلاثة أمور:

أولها: إن نفي الجناح - والجناح هو الميل إلى الإثم - يقتضى نفي الإثم لا الوجوب؛ لأن نفي الإثم يؤدى إلى معنى الجواز لا الوجوب، أو الطلب فرضاً أو سنة، فمن أين جاء الطلب؟ نقول إن الطلب جاء من كلمة «شعائر» أولاً، وقد بينا ذلك، ومن بيان النبي ﷺ بأن بين أن السعى كتب علينا، ومن مداومته ﷺ على السعى في عمرته وحجه؛ ولذلك قال مالك وأحمد والشافعى: إن السعى فرض، وقال أبو حنيفة: واجب وهو مرتبة بين السنة المؤكدة والفرض، ويعرفونه بأنه ما ثبت طلبه الحتمى اللازم بدليل ظنى فيه شبهة.

الثانى: لماذا عبر سبحانه بنفى الجناح، ولم يعبر بالطلب ولا شك أنه كان ثمة موجب لنفى الإثم، وجعله أساس القول، ولقد قيل فى هذا كلام فرددته بعض كتب التفسير قالوا: إنه كان على الصفا صنم اسمه إساف، وعلى المروة صنم اسمه نائلة، وقد تخرج بعض المسلمين من السعى بينهما لمكان هذين الصنمين اللذين كان أهل الجاهلية يعبدونهما، ولأن الوحداية طردت الوثنية من القلوب، فنفى الله تعالى الإثم لهذا، ولا يمنع نفي الإثم من الوجوب أو الطلب بشكل عام، وقيل إن بعض الأنصار لم يجدوا النص على السعى فى القرآن فتخرجوا من أن يفعلوا ما كان يفعل الجاهليون من غير نص، فبين أنه لا إثم، ودل على الطلب بالنص الذى صدر به القول فيهما ويعمل النبي ﷺ وقوله.

الأمر الثالث: قوله تعالى: ﴿أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ أصل يطوف يتطوف قلبت التاء طاء وأدغمت الطاء فى الطاء قوله تعالى: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج] والتطوف المبالغة فى الطواف بأن يعددوه، ولا يكتفوا بواحدة، ولكن الصفا والمروة لا يطوف حولهما ولكن يسعى بينهما، والمشابهة بينهما ليست بعيدة؛ لأن السعى سير على الأرض بينهما وتكرار ذلك سبع مرات، فكان كالطواف فى الأرض

التي بينهما والله سبحانه وتعالى هو مبين مناسك الحج بالقرآن والسنة النبوية المبينة للقرآن.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ التطوع المبالغة في الطاعة فيما أمر الله تعالى به من فرض وواجب ومندوب، فهي المبالغة في أصل الطاعة، وإطلاقها على النفل غير المفروض والمندوبات ونحو ذلك هو من قبيل الاصطلاح الفقهي باعتبار أن النوافل والمندوبات مكملات للفرائض التي هي أصل الطاعات، و«خيرا» وصف لمصدر محذوف وهو مفعول مطلق، والوصف يقوم فيه أحيانا مقام المصدر كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...﴾ [الأنفال].

والخير كل ما يكون فيه نفع للناس، وأداء لما أمر الله، وقيام بالواجبات الاجتماعية والإنسانية والدينية، ووصف طاعات الله أو المبالغة في الأداء بأنها خير؛ لأنها في ذاتها خير، ولا يكون ما يأمر الله تعالى به إلا خيرا خالصا، ونافعا خالصا، فكل أمر من الله تعالى فهو خير نافع لا ينفع سواه.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فعل شرط جزاؤه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ وهذه الجملة السامية هي دالة على الجزاء، مستضمنة له؛ لأن تقدير الجواب فله أجر يكافئ ما فعل؛ لأن الله شاكر عليم، أى مجاز جزاء حسنا على ما فعل؛ لأن الله شاكر، والتعبير بالشكر في هذا، وهو أعظم من أن يشكر عبداً له فالكل منه وإليه، وقد وصف نفسه بأنه غفور شكور، فكيف يشكر المنعم من أنعم عليه؟! وكل ما يقدم العبد من طاعات هو شكر للمنعم جل جلاله، وشكر المنعم واجب بالعقل والنقل، فكيف يكون الله شاكراً لأنعمه؟ ولكن عبر بذلك، تكميلا لنعمه وتفضله أولا، كما يشكر من يقوم بالواجب تفضلا، ولتحريض العبد على كمال الطاعة ثانيا، ولتعليم العبد شكر النعم ثالثا، ولإثبات رضوان الله تعالى رضوانا كاملا، فإن الشكر زيادة في الرضوان، والرضوان الجزاء.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه مع الشكر الدال على الرضا بقوله: «عليم» أى وصف نفسه بالعلم؛ للدلالة على أنه عالم بمن يقوم بالطاعات فيجازه،

ومن يعمل بالمعصية، فيجزيه بالسوء سوءاً، فهو إشعار للطائع بأنه يعمل تحت رعاية الله تعالى، تحت سمعه وبصره، وهو القائم بكل ما فى الوجود، وهو القادر على مكافأة كل بما يعمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وإن الله تعالى من أول قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة] كان كلامه فى بنى إسرائيل، وكفرهم بنعم الله تعالى ومخالفتهم لشرائع النبيين الجامعة لرسائل الله تعالى إلى خلقه، وما تخلل ذلك من استقبال القبلة كان رداً على سفاهتهم وغيهم، ثم ما كان يومئذ إليه تحويل القبلة من إيدان بفتح مكة، وأن ذلك يحتاج إلى جهاد، فبين سبحانه أن عدة الجهاد الصبر والصلاة، وجاء ذكر الصفا والمروة تبعاً لذكر الكعبة وما حولها.

ويختتم الله تعالى الكلام فى أهل الكتاب ببيان أقبح ما كانوا يعملون، وهو كتمان آياته، ويكتبون بدلها بأيديهم ما يسمونه كتاب الله على أنه من عنده سبحانه، وما هو من عنده فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾، البيّنات الأخبار البيّنة، والأحكام المبيّنة فى الكتاب بعد بيانها، وقد أنزلها الله تعالى فى كتبه التى كانت للنبيين السابقين، والهدى هو ما بينه سبحانه من أوامر ومنهيات، فمن كتم البيّنات الدالة على الرسالات، والأخبار الصادقة عن النبيين، والأحكام الهادية إلى الصراط، فقد كتم علم الله، والكتمان للعلم، إنما يكون حيث تكون الحاجة إلى البيان من قبل أن يكون المقام مقام بيان وتوجيه وإرشاد، فيكون ممن عنده علم كما أنكر اليهود والنصارى ما عندهم من علم بالنبي ﷺ ومكة وما حولها، وإبراهيم وأولاده، وكما ينكر العلم من يسأل عنه فلا يجيب، وقد قال النبي ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار»^(١).

والآية موضوعها كل كتمان لعلم أو هداية، وقالوا إنها نزلت فى اليهود، ولكن حكمها عام يشمل كل كتمان لعلم فيه هداية للناس، فيشمل الذين يعلمون رسالة محمد ﷺ، ولا يبلغونها للناس، ومن لا يبينون الشرع الإسلامى لأهله،

(١) أخرجه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة (٨٢٨٤)، وأبو داود: كتاب العلم (٣٢٧٣)، وابن ماجه (٢٦٢). وله طريق أخرى من رواية أنس بن مالك - رضى الله عنه.

قربوا أو بعدوا، ولمن يجهره، فإنه كما قال على كرم الله وجهه: لا يسأل الجاهل لم لم يتعلموا، حتى يسأل العلماء لم لم يعلموا.

وقد حكم الله تعالى على الذين يكتمون العلم بقوله تعالت كلماته: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ اللعن الإبعاد والطرده، والنبذ من جماعة الخير، وجماعة الحق، وأولئك إشارة إلى الذين يكتمون العلم، والإشارة إلى موصوف بوصف، إشارة إلى أن الوصف علة الحكم، فكتمان العلم علة للإبعاد عن رحمة الله تعالى، ونبذه من الناس، ولعن الوجود كله، واللاعنون تشمل الملائكة والجن والإنس، وكل من يسبح بحمد الله تعالى.

ولقد قال النبي ﷺ: «إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء»^(١) وهذا إذا بين العلم وذكره للناس وهدى من ليس عنده علم، فإذا كتبه لعنه كل شيء لعنته الملائكة، ولعنه الناس، ولعنه كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء، فاللعن عند الكتمان جزاء، هو نظير الاستغفار عند البيان.

وقد استثنى من هؤلاء الملعونين الذين يبينون من بعد الكتمان، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ التوبة هي الإقلاع عن الذنب، والشعور بالندم، والعزم المؤكد على ألا يعود إليه من بعد، وإذا كان الذنب بالترك عمل، وإذا كان الذنب بالعمل ترك، فذنب الكاظمين كان بترك البيان والتبليغ فتكون التوبة بالبيان والتبليغ؛ ولذلك قال تعالى «وبينوا» أي أكدوا بفعل نقيض ما ارتكبوا.

وقوله «وأصلحوا»، أي تركوا الإفساد واتجهوا إلى الإصلاح، وعمارة الوجود، ونشر الخير بين الناس وإرشادهم إلى أقوم السبل في هذه الحياة، وفي ذلك إشارة إلى أمرين جليين:

(١) روى الترمذي: كتاب العلم - باب فضل العلم (٢٦٠٦)، عن أبي الدرداء قال: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخَيْثَانِ فِي الْمَاءِ، وَتُفَضِّلُ الْعَالَمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَبْطِ وَافِرٍ». كما رواه ابن مساجه في المقدمة (٢١٩)، وأبو داود: العلم (٣١٥٧)، وأحمد في مسنده في مسنده (٢٠٧٢٣) وغيرهم.

أولهما - أن كتمان العلم فيه فساد فى الأرض؛ لأنه يجعل الناس فى متاهة من الباطل فتتقلب الأوضاع، ويختلط الحق بالباطل، ولا يعرف الناس سبيلا للهداية، وتسد مسالك الخير؛ إذ لا هادى إلا أن يرحم الله عباده بها، ويرشدهم إليها.

ثانيهما - أن بيان الخير والحق هو الإصلاح فى هذا الوجود فلا سلامة يسكت فيها الحق، وينطق فيها الباطل، وقد لعن بنو إسرائيل لسكوتهم عن البيان فى وقت الحاجة إليه، وقد قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَمِ فَعْلُوهُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة] وكما قالت الحكمة: السكوت عن الحق نطق بالباطل، والساكت عن الحق ناطق بالباطل.

وقد جزى الله تعالى الثائنين العاملين المؤكدين لتوبتهم بالبيان للحق والإصلاح بأنه يقبل توبتهم، فقال تعالى كلماته: ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

هنا التفات من الإخبار إلى التكلم، فالله تعالى أخبر عنهم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى آخر الآية، ثم التفات من الإخبار إلى التكلم عند الجزاء، وكذلك الأمر فى أكثر البيان يكون ذكر المعاصى والتوبة منها بالإخبار أو الخطاب؛ ويكون الجزاء من الله تعالى بضمير المتكلم تربية للمهابة، والإشراق فى النفس، والإشعار بالرضا، وإن قبول التوبة أحب إلى العاصى التائب من كل ما فى الوجود، وهو رفع له من ذلة الذنب وخسته إلى رفعة الحق وعزته؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالتوبة الذين بينوا ما كتموا وأقاموا الإصلاح مكان الإفساد، وكما قلنا وكررنا الإشارة إلى الموصوف بيان أن العلة هى الوصف، فقبول التوبة سببه التوبة النصوح، والعمل على نقيض المعصية وما ترتب عليها، و«أتوب عليهم» معناها أرجع عليهم

بالقبول والجزاء، فكما أنهم رجعوا إلى من تبه المعصية أرجع بقبول التوبة وغفران الذنوب، ثم قال عز من قائل: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أى كثير قبول التوبة لأنى رحيم بعبادى، وإن كان الناس لا يذنبون أتيت بمن يذنب لأقبل توبته كما ورد فى معنى الأثر^(١).

وإن هاتين الآيتين تدلان على وجوب بيان الهادى إلى الرشاد، كما ورد فى الأثر، وإن تبليغ العلم يجب أن يكون على علم بسياسة البيان بأن يبين للناس ما يطبقون، ويتدرج من اليسير، حتى يكون العسير سهلا يسيرا، ولقد قال ﷺ: «حدث الناس بما يفهمون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!»^(٢).

ويجب بيان الحق الذى لا ريب فيه، ولقد قال ﷺ: «لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها فى غير أهلها، فتظلموها»^(٣) وقال عليه الصلاة والسلام فى هذا المعنى: «لا تعلقوا الدر فى أعناق الخنازير»^(٤). وفق الله العلماء للنطق بالحق وألا يفتحوا باب التأويل لذوى السلطان حتى لا يضعوا الدر فى أعناق الخنازير.

(١) عَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: كُنْتُ كَتَمْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ لَا أَنْتُمْ لَذُنُبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يَذُنُبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ».

رواه مسلم: كتاب التوبة (٤٩٣٤) ورواه أيضا (٤٩٣٦) عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تَذُنُبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقِسْمٍ يَذُنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ». كما رواه أحمد والترمذى.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَلِيٍّ مَوْقُوفًا: «حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَرْفُقُونَ أَتَحِبُّونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟» [كتاب العلم: (١٣٤)].

(٣) جَاءَ فِي كَشَفِ الْخِفَاءِ (٣١٢٤): لَا تَضَعُوا الْحِكْمَةَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهَا فَتُظْلَمُوا وَلَا تَمْنَعُوا أَهْلَهَا فَتُظْلَمُوا. رواه ابن عساکر عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم قام فى بنى إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكمة غير أهلها فتظلموها، والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين لكم فيه فاجتنبوه، وأمر يختلف عليكم فيه فدرؤا علمه إلى الله تعالى.

(٤) جَاءَ فِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ: الْمَقْدَمَةُ (٢٢٠) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَأَضَعُ الْعِلْمَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمَقْلَدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرِ وَالذُّلُوفِ وَالذَّهَبِ».

الوحدانية والوثنيون

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
 كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ
 ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ
 ﴿١٦٢﴾ وَاللَّهُ كُذِّبَ إِلَهُ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
 إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
 بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

بعد أن أنهى الله تعالى موضوعات أهل الكتاب في هذا الموضع من القرآن،
 وقد كان فيهم كفران النعم، والنفاق وكثرة العدوان والفساد في الأرض، والعبث
 بالأحكام، والاستهزاء بآيات الله تعالى. بعد ذلك أخذ يبين أقوال الوثنيين وإثبات
 وحدانية الله تعالى، وابتدأ القول في بيان حال الكفار من المشركين وأهل الكتاب
 الذين ماتوا على الكفر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ...﴾.

ذكر بعض العلماء أن موضوع الآية الكريمة كفر مكة الوثنيون قبل أن يدخلوا
 في الإسلام، بدليل الكلام بعد ذلك في الوثنية والوثنيين، وبيان الوحدانية ودليل
 التوحيد من خلق الكون.

ونحن نرى أن وصف الكفر يعم المشركين والكتابين، فالكتايبون كافرون كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ...﴾ [البينة] ولقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ [المائدة] ولقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة].

وهذه أوصاف الكفار؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، فهم داخلون في وصف الكفار، والكفر كله ملة واحدة، فلا تفاوت فيهم، ولا فضل لكافر على كافر وليس كفر دون كفر، بل جميعهم في الجحيم على سواء.

وقد حكم الله تعالى عليهم بالحكم الأبدي، إذا ماتوا على الكفر مصرين عليه بعد أن بلغوا بالرسالة فكفروا بها، وماتوا على الكفر بها جاحدين معاندين منافرين معذيين الضعفاء، ومثيرين للبغضاء والأحقاد، حكم الله تعالى عليهم بقوله عز من قائل: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولعنة الله تعالى إبعادهم من رحمته، وألا ينظر إليهم نظرة رضا، ومن تكون حاله كذلك يكون في النار خالدا فيها، ولعنة الملائكة تعذيبهم لهم بأمر الله تعالى، وإبعادهم عن رحمته، ولعنة الناس بنبذهم، والدعاء باللعة عليهم.

وهنا أمران بيانان نشير إليهما ونجمل ولا نفصل:

أولهما- أن الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ تعود على الكفار الذين ماتوا مصرين على الكفر قد بلغتهم دعوة الله، وكما قلنا ونكرر الإشارة إلى موصوف فيه إشارة إلى أن علة الحكم الوصف، وهو موتهم على الكفر بعد البيان والإنذار الشديد، ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء].

الثانى - أن الله تعالى ذكر فى بيان عذابهم أن عليهم اللعنة، أى أن اللعنة تنصب على رءوسهم انصبابا وتحيط بهم من فوق رؤوسهم وعن أيانهم، وعن شمائلهم، فهم بعداء عن رحمته، وعليهم غضب الله والملائكة والناس أجمعين، وإن تلك اللعنة تنالهم بسبب موتهم على الجحود والإصرار على الكفر.

وقد أثار الناس جدلا موضوعه هل تجوز لعنة الكافر وهو حى، فناس لم يجيزوها؛ لأنه يجوز أن يتوب الله تعالى عليه، وجواز اللعنة إنما كانت على الكفار الذين ماتوا على الكفر، ومن كان حيا ترجى توبته، أو تجوز توبته.

ومن العلماء من أجاز اللعنة على الحال التى هو عليها، وخصوصا إذا كان ممن يؤذون صاحب الدعوة، ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ لعن عمرو بن العاص، وهو على الكفر، فيروى فى ذلك أن النبى ﷺ قال: «اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر، فالعنه واهجه عدد ما هجانى».

وقد اتفق أهل العلم على أن اللعن الذى ذكرته هذه الآية عقاب من الله تعالى، وغضب على الكافر، وجزاء له كجزاء جهنم.

وأكثر العلماء على أن لعن المسلم لا يجوز ولو كان عاصيا؛ لأنه يخزيه ويذله، وخزيانه وذله يقربه من الشيطان ويجعل للشيطان مدخلا فى نفسه، يروى عن النبى ﷺ أنه أتى بشارب خمر مرارا، فقال بعض من حضره: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال الرسول الكريم ﷺ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيك»^(١).

وقد بين سبحانه أنهم خالدون فى عذابهم، فقال تعالى كلماته: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ الخلود هو البقاء الدائم الذى لا نهاية له، وكثيرا ما يذكر الخلود موصوفا بالديموم، وبصيغة مؤكدة، وقد انحرف بعض الناس فقال إنهم يبقون فى العذاب بمقدار جرمهم الدنيوى وزمانه، وذلك انحراف فى الفكر وإن قاله بعض الذين لم يعرفوا بالانحراف.

(١) [أخرجه البخارى: كتاب الحدود - باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٦٢٨٣)، كما أخرجه أبو داود (٣٨٨٢) وأحمد (٧٦٤٥)].

والضمير في «فيها» يعود على اللعنة، وتكون اللعنة من الله تعالى مقتضية الدخول في النار؛ لأنها متضمنة غضب الله تعالى يوم القيامة، وغضب الله تعالى مقترن به عذابه، وإنه عذاب مؤلم مستمر لا يخفف عنهم، ولا ينقطع بل هو مستمر؛ لأن سببه استمر طول حياتهم في الدنيا، ولا ينظرون، وقد أكد الله تعالى أنهم لا ينظرون ولا يؤجلون بذكر ضمير الفصل الذي يؤكد الحكم.

وقد صرح الله سبحانه وتعالى بالوحدانية، فقال تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وقوله تعالى: «والهكم» بالإضافة إليهم فيه إشارة إلى أن المعبود الذي تعبدونه بحق إله واحد، فالذين تعبدونهم من أوثان وأحجار ليسوا بآلهة بل إلهكم الحق الذي يجب أن تعبدوه واحد لا إله إلا هو، لا يعبد بحق إلا هو، ولا يمكن أن يسمى غيره من الأوثان باسمه، إنما هي أسماء سميتوها ما أنزل الله بها من سلطان، فالإله هو الخالق الذي ينفع ويضر، وأنشأ الوجود برحمته، وعمهم بنعمته، ولقد وصفه سبحانه وتعالى بأنه «الرحمن الرحيم» الذي يتصف بالرحمة، وتعتبر صفة من صفاته، وهو الذي يرحم العباد فعلاً، وقد بينا معنى الاسمين الكاملين من قبل.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الوصفين من بين الأسماء الحسنى؛ لأنهم يحسون بأنهم في آلائه، ورحمته، فهم إذا كانوا في شدة لا يستغيثون بآلهتهم، وإذا كانوا في ضر لا يلجئون إلا إليه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ...﴾ (٦٦) [النمل] ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢) [يونس] ويقول تعالى في بيان حالهم في مأساتهم وشدائدهم وأنهم يضرعون إليه: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَجَّأْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٦٤) [الأنعام].

فأولئك الوثنيون من العرب كانوا يعرفون الله تعالى ولكن يعبدون أوثانهم، وعندما تشتد الشديدة عليهم يلجئون إلى الله وحده مستعينين طالبين الرحمة من

عنده، ولا يرجون الرحمة من غيره قط؛ ولذا كان وصفه بالرحمة؛ لأنهم يلجئون إليه وحده عند رجاء الرحمة فلا يرجونها من غيره، وكأن المعنى: الواحد الأحد هو الذى يرحمكم عندما تضرعون إليه فكان المنطق يوجب عليكم ألا تعبدوا غيره.

ولقد بين سبحانه دلائل وحدانيته، وأن خلق الوجود بإرادته، ولم يخلق الوجود من غير إرادة خلاقة مسيطرة على ما فى الوجود، يعرف ما خلق، ويدبره والدليل على ذلك:

أولاً- تنوع خلقه من سموات وأرضين، ومن ماء ينزل فيحى الأرض بعد موتها، مما يدل على أنه مخلوق بإرادة واحدة.

ثانياً- تصريف الوجود من حال إلى حال، من ظلمة ونور وليل ونهار، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل.

ثالثاً- المخلوقات المستمرة من رياح تتحرك وسحاب مسخر، وجريان الفلك على الماء بأمره، وكل ذاك لمعنى أريد، وغاية قصدت لا تكون إلا من خالق مريد منفرد بالإيجاد.

رابعاً- الإيجاد بالتوالد المستمر، وانتظام هذا الوجود مما يدل على وحدة الموجد، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء].

فهذه الآية الكريمة تشير إلى القدرة المنفردة بالتكوين، فتنفرد لا محالة بالعبادة والألوهية، وفى معنى هذه الآية وإن كانت بأسلوب بيانى آخر، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۖ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۖ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۖ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق].

هذه إشارات إلى بعض ما في الآية من بينات، وأدلة على أن خالق الكون واحد مدبر وحده لا يشاركه في هذا الإيجاد المحكم الذي يسير على سنة رسمها منشئه، لا تقدير لخلق إلا من الله وحده، وهو العليم الحكيم. ولندكر ما ساقه سبحانه وتعالى من كلمات في هذا الكون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قالوا: إن المشركين لما ذكّر الله سبحانه وتعالى وحدانيته طلبوا دليلا على الدعوى، وإردافها ببينة واضحة، فقال الله تعالى ذلك، وإذا لم يكن سؤال، فإنها جواب على فرض سؤال إذ العقل طُلعة يريد معرفة سر كل شيء.

والسماوات جمع سماء، وجمعت لأنها تشتمل على طبقات مختلفة من أبراج ونجوم وكواكب يمسكهن الله تعالى برباط محكم مما سنه في الكون من جاذبية رابطة، ونسق بهيج، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ (٤١) [فاطر]، فهو سبحانه خلقها وأمسكها وحفظها من أن تتشر أو أن تنفطر ووحد الأرض؛ لأنها في سطحها وظاهرها شيء واحد، وإن كانت هي الأخرى طبقات.

وآية السماوات ما فيها من أبرج ونجوم وارتفاعها بغير عمد ترفعها، وما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة الباهرة مشرقة ومغربة نيرة، وغير نيرة.

وآية الأرض ما فيها من بحار وجبال رواسي، وما في باطنها من فلزات ومعادن وماس، وما في بحارها من لآلئ ومرجان وعنبر، فكل هذا آية على وجود الله تعالى ووحدانيته؛ فهو خالق الوجود وحده.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بأن يكون كل واحد منهما خلفا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً...﴾ (٦٢) [الفرقان] واختلافهما من حيث الظلمة والنور، ومن حيث الطول والقصر وأن يطول الليل مرة أكثر من النهار وأن يطول النهار أخرى أكثر كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ...﴾ (٦١) [الحج] وقد قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ [يس] وآية الليل والنهار هي انتظامهما وتغير أحوالهما بفعل الواحد الحكيم العليم .

وقوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ والفلك تذكر وتؤنث، وهى السفن التى تحمل الأثقال وتنقلها من بلد إلى آخر، أو إقليم إلى آخر، ليتنفع أهل الأرض بكل خيراتها، وما يفضل من إقليم ينقل إلى غيرها، فيعم الخير، ويتبادل الناس جميعا ما فى الأرض من نبات وحيوان؛ ولذا قال سبحانه: ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ وآية الفلك أنها تحمل أثقالا ويحملها الماء السائل الرقيق، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٤٤﴾ [يس] .

وإن فى الفلك آيات أخرى فى تسخير الله تعالى لها بالرياح تجريها وتحرك حيث أراد محركها، وإنه بعد اتساع العلم، وقدرة الإنسان فى تسخير الآلات والسيطرة عليها ما زالت الرياح عاملا قائما فى تسيير الجاريات وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ السماء المراد بها ما علا مما يتصل بالأرض، وإن الله وحده هو الذى ينزل الماء أى الأمطار، ولأنها تجىء من غير حساب، وتجىء بالاستسقاء أحيانا، أسند إنزال الماء إليه سبحانه وتعالى، لأنه المصرف للسحاب، ولا يمكن ابن الأرض أن يعرف متى تمطر السماء، ومتى يكون مطرها غيثا يسقى الناس والدواب والأنعام والحرث والنسل ومتى يكون وابلأ عاصفاً مفسداً وفاسداً . وبين الله تعالى وجهاً من وجوه النعمة فى نزول المياه من السماء إلى الأرض بتسخيره، فقال تعالى: ﴿فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ والمراد الظاهر أنها من قبله كانت جرداء لا نبات فيها، ولا زرع ولا ثمر، فكانت كالمت فىنزل الماء فيحييها بالخضرة والنضرة، وتصير كأنها الحى، فى ريق حياته، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ [يس] .

وقوله تعالى: ﴿وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ الدابة كل ما يدب على الأرض من الحيوان كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا...﴾ [هود]، وبث أى فرقها ونشرها من أنعام وإنسان وطير وغير ذلك من الحيوان، فإن ذلك كله من الماء الذى ينزل من السماء سواء أكان سيلا يسيل، أم نهرا يجري، أم عينا تختزن فيها مياه الأمطار فى باطن الأرض، ولقد قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء] والآية فى ذلك أن الماء به الحياة، والله تعالى منزله ومجريه ولو شاء ما كان فى الناس هذه الحياة من كل زوج بهيج.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾، معناه إرسالها على غير صورة واحدة، فقد تكون عقيما، وقد تكون مملوءة ماء، وقد تكون عاصفا وقد تكون رخاء، وتكون حارة أحيانا وباردة أحيانا، وقد تجيء من الشمال وقد تكون من الجنوب ومن الشرق أحيانا، ومن الغرب أحيانا أخرى، وفى مقدار تسييرها للسفن الجاريات فى البحر ما بين كبيرة وصغيرة ودافعة ورافعة، وإن ذلك كله بتقدير العزيز العليم، وقد يقولون: إن ذلك كله يكون تابعا لسنن كونية آتية من حرارة الأرض أو برودتها، وإن ذلك لحق، ولكن من الذى سن هذه السنن الكونية؟ إنه هو الله تعالى، وهو قادر على تغييرها، وهذه آية من آيات الله تعالى فى الكون، وفيه بيان قدرة الله تعالى وحكمته العالية.

وإن الله تعالى نصر نبيه بالريح فى غزوة الخندق، وقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلكك عاد بالدبور»^(١)، ولقد قال تعالى فى غزوة الخندق: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا...﴾ [الأحزاب] وكل خواص الرياح من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وانفراده بالخلق والتكوين وذلك يقتضى انفراده تعالى بالعبادة فلا يعبد سواه ولا إله إلا الله.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الجمعة (٩٧٧)، ومسلم: كتاب الاستسقاء (١٤٩٨) عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

وقوله: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والسحاب ظلال تنتقل بين السماء والأرض، وسميت سحاباً لانسحابها من مكان إلى آخر، وهى قد تكون ممتلئة فتنزل على الأرض إذا بردت، ويكون منها الودق. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور]. والسحاب المسخر المذلل لأوامر الله تعالى يبعثه من مكان إلى مكان كما يريد سبحانه، وهو العليم الخبير، فيذهب بمطره إلى الأرض التي يريد الله تعالى إحياءها، ولقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ... ﴿٤٩﴾﴾ [فاطر] ويقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ... ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف] فالسحب هى التى سخرت لتوزيع المياه بإرادة الله تعالى من أرض لا تنبت إلى أرض أخرى تنبت، فإذا كان الله ينزل من السماء ماء ليكون منه حياة كل شىء، فالله سبحانه وتعالى سخر السحاب لتوزيع هذا الماء الذى ينزله على حسب الحاجة وعلى حسب حكمته، وسنته.

هذا الذى ذكره سبحانه من خلق السموات والأرض والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، والمطر الذى ينزله من السماء، وتصريف الرياح بسنن كونية نظمها، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، فيه آيات بينات، وأدلة واضحات قاطعة تدل على وجود الله تعالى وانفراده سبحانه بتدبير الكون، وعلى أن إرادة واحدة هى التى أنشأته وهى التى تديره، سبحانه الله رب العالمين؛ ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر تلك الآيات البينات ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذه الجملة السامية فيها جواب «إن» فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية الكريمة. «آيات»، أى أدلة قاطعة لا مجال للريب فيها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى يعملون عقولهم لا أهواءهم، ولم تطمس عليها أوهام توارثوها، وتقليد استمسكوا به، وقالوا ما نعبد إلا ما كان يعبد آبائنا من قبل.

وعبر سبحانه وتعالى بـ «قوم» للإشارة إلى الأقوام التى لا تعقل ولا تفكر.

وَمِنَ

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوَ أَنَّا
لَنَآكِرَةٌ فَنَتَّبِعَ آمَنَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

ذكر الله وحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه لا إله إلا هو، وذكر الأدلة على
الوحدانية، وأنه حافظ الإنسانية ومنميتها، والأحياء جميعاً، ومع هذه الأدلة
الواضحة ومع ما غمر الإنسان من نعم ووجود وكيان قائم، مع ذلك وجد من
يجعل للخالق المدبر أنداداً في العبادة؛ ولذا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَنْدَادًا﴾ الأنداد جمع ند وهو النظير المقابل المماثل، وأنهم يتخذون الأصنام أو
الأشجار أنداداً مماثلة لله تعالى يتعبدون الأصنام، ولا يذكرون الله إلا قليلاً، أو
الأشخاص فيطيعونهم كأن أوامرهم هي من الله تعالى، وإن ذلك كله مع قيام الأدلة
التي لا ريب فيها مما نيط بهم في هذا الكون الذي هو في ذاته دليل الوحدانية،
ونعم من آلائه، سبحانه وتعالى فالإنكار ابتداء هو في اتخاذهم هؤلاء الأنداد أيا
كانوا، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيه إشارتان بيانيتان:

الإشارة الأولى - التعبير ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ فمن للبعضية، أي بعض الناس، وفي

ذلك تصغير لشأنهم وتهوين لأمرهم سواء أكانوا عدداً قليلاً، أم كانوا عدداً كثيراً

فهم مهينون في تفكيرهم، إذ هم رفضوا الدليل المشتق من وجودهم، وما يحيط بهم، فضلوا ضلالا بعيداً، والتعير عنهم بذلك ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إشارة إلى أنهم ليس لهم من وصف إلا أن يقال إنهم من الناس، فليس لهم وصف علم ولا إيمان، ولا شيء من المكارم التي تعلو الإنسان وتسير به في مدارج الرقي، كما تقول عن رجل محتقرا: هذا آدمي، أى ليس له من الصفات إلا أنه آدمي.

الإشارة الثانية - أن الله تعالى قال: ﴿يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً﴾. فيه إشارة إلى أنهم - أى الأنداد - ليس لهم وجود ذاتي بهذا الاعتبار، إنما هم الذين جعلوهم كذلك جعلاً، فما كان لهم ذلك إلا بزعمهم الباطل وحدهم، وهم يحسبون أنهم بهذا الاتخاذ يحسنون صنعا.

وإنهم لا يكتفون بذلك الاتخاذ الباطل، بل يعبدونهم ويحبونهم كحب الله تعالى بأن يجعلوهم نظراء الله تعالى في المحبة والخضوع وطلب الرضا.

وقوله تعالى: ﴿كَحِبِّ اللَّهِ﴾ قد يكون معناه أنهم يسوونهم بالله تعالى في العبودية، والطاعة والرضا بما يعتبرونه مرضيا لهم مع أنهم يرون أنهم لا ينفعون ولا يضرّون، وإذا أنزلت بهم شديدة لا يلجأون إلا لله، ولا يطلبون كشف الضر إلا منه كما تلونا من كتاب الله تعالى ما يحكيه عنهم، فهم يفرقون بين معبوداتهم، وبين الله في شدائدهم، ولا يفرقون في رخائهم، وقد علمت أن وثنيي العرب ما كانوا ينكرون وجود الله وأنه المنشئ المكون للوجود، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾ [لقمان] ويقولون في أوثانهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله.

وهذا التخريج هو الأقرب إلى الخاطر، وهناك تخريج آخر، يقول إن معنى قوله تعالى ﴿كَحِبِّ اللَّهِ﴾ أنهم يحبونهم كحب المؤمنين لله تعالى، فهم ينزلون أندادهم منزلة الله تعالى عند أهل الإيمان فيفردونها بالعبادة كما يفرد المؤمنون الله تعالى بالعبادة وحده.

والتخريج الأول أظهر وأقرب إلى الخاطر، وهو المتبادر، ولقد قال بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، أى أن المؤمنين لوصفهم بالإيمان ولإدعانهم بالحق ولأنهم يعبدون من يملك النفع والضرر، وأنه خالق الكون؛ ولأن حبهم مقصور على الذات العلية، فإنهم بذلك أشد حبا لله، ومظهر حب الله تعالى الإخلاص له، وتسليم الوجه والطاعة له، والخضوع له، ولما يأتى من عنده، فحب الله طاعته، وأن تمتلئ النفس بذكره، وأن يكون حبه كله لله تعالى لا يحب شيئا في الوجود إلا لله، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة] ولقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»^(١) فالله فى قلبه وفى عمله، وقوله واختلاطه بالناس، وهو معه دائما.

وإن الله تعالى قد أعد العقاب الشديد لأولئك الذين اتخذوا الأنداد، وقدموا الحجارة، وعبدوا الطاغوت، وقد قال تعالى فى وصف عقابهم الهائل: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ والذين ظلموا هم الذين اتخذوا الأنداد، وأظهرهم، ولم يعبر عنهم بالضمير أو الإشارة، لبيان أنهم ظالمون ظلموا أنفسهم وظلموا الحقيقة، وضلوا وأضلوا، وإن ما ينالهم من جزاء هو بسبب ظلمهم، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ مفعول يرى، ويصح أن تكون يرى الأولى علمية، ويكون المؤدى أن ذلك يوم القيامة وظلمهم كان فى الدنيا، ويكون سياق الكلام هكذا: لو يرى الذين ظلموا أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب، لو يرى الذين ظلموا ذلك، وهم يرون العذاب الواقع فعلا، والمعنى يرون العذاب رأى العين بالعين البصرية يوم القيامة ويعلمون أن القوة لله جميعا، وأن الله شديد العقاب.

فهم يرون العذاب فعلا رأى العين، وقد علموا فى ذلك الوقت أن الله سبحانه وتعالى له القوة جميعا، فلا قوة لأحد أن يزعجهم من النار التى هم فيها، ويعلمون أن الله شديد العقاب.

(١) عَنْ أَبِي إِسْمَاعِيلَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ». [سنن أبى داود: كتاب السنة (٤٠٦١)].

وهنا إشارتان بيانيتان لا بد من ذكرهما:

الأولى - أنه سبحانه يقرر أن الذين ظلموا لو علموا قوة الله وأنه شديد العقاب، ﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ وهم يرون العذاب برؤية العين البصرية، وإذ هنا للزمن الماضي وذكرت هنا لبيان تحقق الرؤية كما يذكر الماضي في موضع المستقبل لتؤكد الوقوع.

الثانية - أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إلى آخره، هذا فعل شرط، فأين الجواب؟ ونقول: إن الجواب محذوف ومقدر بما يناسب المقام، وهو الهوان الشديد، ويكون المعنى لو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب لرأوا هولاً شديداً لا يكتنه كنهه، ولا تدرك حقيقته إلا عند رؤيته.

وإن العلم بقوة الله تعالى، وشدة عقابه، وأنهم قد رأوا بوادره، فيه تهديد شديد، وعذاب شديد، ويلاحظ أن الله تعالى قال: شديد العقاب، ولم يقل شديد العذاب كما قال في موضع آخر؛ لأنه ذكر الجريمة، وهو اتخاذهم الانداد، فالعذاب الذي يرونه هو عقاب، والعقاب دائماً من جنس الفعل، وليس عذاباً لذات العذاب بل هو جزاء وفاق لما قدموا.

وإنهم في هذا اليوم لا يكون لهم خل ولا شفيع، وإن الذين يتبرءون منهم، لأنهم جميعاً في عذاب أليم، وكل يفكر في هول ما نزل به، ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ تبرأ المتسبوع من التابع وتبرأ الرئيس المتغترس من المرءوس الدليل الضعيف، وهذا كما قال الله تعالى في سورة إبراهيم ﴿وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ۝٢٢﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ «إذ» للدلالة على الزمن الماضى، وهى هنا للمستقبل فيكون استحضار الحال المستقبل، أو يقال إنها لزمن القول، وهو عن زمن فى الماضى وفيما بعد إخبار عن المستقبل، يتبرأ المتبوعون من التابعين الذين يقولون: هؤلاء الذين أضلونا فأتهم عذابا ضعفا من النار. فيتبرأ المتبوعون منهم ويقال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون. فهم إذ يرون العذاب لا يفكر أحد منهم فى تضليله للآخر، وإن ذلك التبرؤ وهم قد رأوا العذاب. لقد ضل التابع وضل المتبوع وقد كان مآل الفريقين النار.

وقد كانت بينهم مودة موصولة جعلت بعضهم يتبع الآخر على الشرك والضلالة، وكانت أحيانا تكون الصلة نسبية، أو عصبية جاهلية، وقد بين سبحانه أن تلك الصلات كلها تنقطع؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ الأسباب جمع سبب وهو فى الأصل الحبل الذى يشد به الشئ أو يصل بين أمرين يرباط بينهما والمراد هنا الصلات التى كانت تربطهم من عصبية جاهلية أو رحم أو رياسة أو من أى تبعية كانت. هذه الصلات تقطعت، وتقطعت مبالغة فى القطع، أى أنها قطعت من كل ناحية بحيث لا يمكن وصلها بحال من الأحوال.

وإن أولئك الذين أضلهم كبرائهم، وأخذوا عليهم طريق الهداية ينالهم الألم المرير؛ لأنه كان - بين طريق الحق المستقيم ومخاوف الشيطان على الطريق - النبى ﷺ يدعو ويهذى، وعلى رأس السبل الأخرى شياطين الإنس يقودونهم إلى الضلال، فسلكوا طريقهم، فلما كان عذاب يوم القيامة يتخلى عنهم الذين قادوهم إلى مهاوى الشر، وكانوا معهم فى النيران وتبرءوا منهم؛ فتمنى التابعون أن يعودوا إلى الدنيا، ليتبرأوا منهم كما تبرأوا هم منهم؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ «الكرَّة»: الرجعة مرة أخرى إلى ما كانوا فى الدنيا، و«لو» للتمنى، ومعنى الجملة لو ثبت أن لنا كربةً نتمناها ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾، وإن تفسير هذا التمنى أنهم فى الآخرة، أحلوا بهم وتبرأوا منهم فتمنيهم العود إلى الدنيا ليتبرءوا من دعوتهم إلى الباطل وينفروا منهم ويتبعوا

الصالحات. فالتَّابِعُونَ يتبرءون منهم في الآخرة، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا، ليعلموا التبرؤ منهم ومنافرتهم بالبعد عنهم كما خذلوهم في هذه الشدة، وقد بين سبحانه أن تمنياتهم لو حققت ما تبرأوا وما عملوا فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ...﴾ (٢٨) [الأنعام] وإن غرور الحياة لا يمكنهم من أن يعتبروا بل ستدفعهم أهواؤهم إلى مثل ما فعلوا أولاً فهم في ريبهم يترددون، وإن ذلك التصوير الذي صورهُ الله تعالى لحالهم يوم القيامة هو ليريبهم أعمالهم حسرات عليهم، ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

أى كان هذا منهم كذلك ليكون ذلك عقاباً لهم فوق عقابهم بعذاب النار، وذلك العقاب بأن يريهم أعمالهم التي مضت على أنها حسرات، توالى عليهم حسرة بعد حسرة، فكان جمعها للدلالة على كثرتها وأنها متوالية حسرة تخلفها حسرة، وإذا أعمالهم كثيرة، فحسراتهم كثيرة، وحسرات مفعول ثان؛ فالله تعالى يريهم تلك الأعمال حسرات تكبو لها النفوس بعد أن كانت في الدنيا مسرة يفرحون بها ويطربون بسوء ما يفعلون.

ومع هذه التمنيات التي تجعل نفوسهم متلهفة على العودة إن كان ذلك ممكناً، والحسرات المتتابعة فهم في النار خالدون فيها، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فنفى الله تعالى نفياً باتاً قاطعاً خروجهم من النار، وأكد ذلك النفي باستغراق النفي الثابت بالباء وبضمير الفصل وبالجملة الاسمية.

الطَّيِّبَاتِ حَلَالِ اللَّهِ، وَالشَّيْطَانِ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

وَإِذِ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
 ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا
 يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ
 بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

النداء بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشمل الناس جميعا مؤمنهم ومشركهم، وكافرهم سواء أكان وثنيا أم كان كتابيا، وإن الله تعالى بين حال الذين اتخذوا من دون الله تعالى أندادا. وأنه يوسوس لهم فى طعامهم وطيباتهم وما أحل الله تعالى لهم، ولذا جاء الأمر بالأكل من الحلال والنهى عن تتبع خطوات الشيطان، بعد التنديد باتخاذ الأنداد، وبيان الذين يتخذونها يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الأمر هنا للإباحة من حيث الجزء، ولكنه للطلب المفروض من حيث الكل، فيباح الأكل بالجزء فى الأوقات التى يتخيرها، وفى الطيبات التى يستحسنها، ولكن لا يباح أن يترك الأكل جملة؛ لأنه يؤدى إلى الهلاك وهذا منهى عنه.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أى مما تخرجه الأرض من نبات وزرع وثمار وما يمشى من حيوان طيب يحل أكله وما يكون فى جوها من طير يطيب أكله.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما يباح أكله أو يطلب بوصفين: أحدهما أن يكون حلالا لم يحظر أكله كالحنزير والميثة وسباع البهائم وسباع الطير والمنخفة والموقوذة والمتردة فى بثر حتى ماتت، والنطيحة، وما أكل السبع من غير تذكية، وما كان فى أصله حلالا، ولكن اقترن به ما جعله محظورا كالذبح على النصب والاستقسام بالأزلام أو سمي عليه بغير اسم الله، أو لم يذك تذكية شرعية فإن ذلك كله ليس بحلال.

والطيب هو الذى تستطيه النفوس، وينميها ويغذيها غذاء صالحا، ولا يكون طيباً إلا إذا كان كسبه من حلال ولا يكون من حرام، ولا يكون حلالا إذا كان من الرشوة أو من السحت أو الربا أو من غلول، وفى الجملة أن يكون كسبه خبيثا، ولو كان فى أصله طيبا. روى أن رسول الله ﷺ سمع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأما عبد نبت لحمه من السحت أو الربا، فالنار أولى به»^(١).

وبعد الأمر بالحلال نهى عن كل حرام بآلا يطيع الشيطان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وهذا يصل الكلام بالآية السابقة التى بينت أن من الناس من اتخذ أندادا بوسوسته وإغرائه.

الخطوات جمع خطوة بضم الخاء وهى الأفصح، ويجوز فيها خطوة بفتحها والخطوة ما بين القدمين عند انتقالهما، والخطوات ما بينهما متتابعاً، وهذا كناية عن السير فى طريق، وتتبع السير فيه، باتباع حركاته، وسيرها، وكأنما شبهت حال أتباعه بحال من يتبع سيره خطوة بعد خطوة، فلو سار به فى ضلال سار معه، وانتهى به فى هاوية من الفساد، وإن السير وراءه هو سير وراء عدو واضح العداوة؛ ولذا قال تعالى معللاً النهى بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، بمعنى بين العداوة لا يخفيها ولا يطويها، فمبين بمعنى إن عداوته جلية واضحة؛ لأنه يبينها ولا يخفيها من يوم أن عارض آدم كما قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ ﴿٢٤﴾ [الأعراف]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٦﴾ [فاطر] وكما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ [القصص]، وكما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ...﴾ ﴿٢٦٨﴾ [البقرة].

(١) رواه بهذا اللفظ الطبراني فى الصغير عن ابن عباس رضى الله عنهما. [راجع مجمع الزوائد (١٠١٨١)، والترغيب والترهيب (٢٦٦٤)] وتخرج أحاديث الإحياء للعراقى ج ٢ ص ٩٠ (الخليل).

وإن النهي عن اتباع خطوات الشيطان له مغزاه ومعناه، ذلك أن الشيطان يجيء من الحلال الطيب الذي تشتبهه الأنفس فيخلطه بغيره، ويأخذ بالنفس التي تطيعه من طيب المال إلى سوءه، ويأخذهم من مشبهات الحلال إلى الحرام، كما قال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات»^(١)، فهو يجيئهم من هذه المشتهيات ومن أجل ذلك كان الأمر بالحلال قد اقترن به النهي عن تتبع خطوات الشيطان الآثمة لأنها تجيء على مقربة من الحلال.

وكذلك من تتبع خطوات الشيطان أن يحرم المباح على نفسه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ...﴾ [٨٧] [المائدة] ولقد أتى عبدالله بن مسعود بضرع وملح وجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم فقال: لا أريد. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن أكل ضرعا أبداً فقال ابن مسعود: «هذا من خطوات الشيطان»^(٢)، وكذلك كل تحريم للطيبات هو من خطوات الشيطان، فكان النهي عن اتباع الخطوات مقترنا بإباحة ما أحل الله تعالى؛ لأنه مخالفة لما قرره الشرع.

ولقد ذكر الله تعالى أن الشيطان لا يكون منه خير قط، بل سوء وفحشاء، وما لا يكون فطرياً، فقال تعالى معللاً النهي عن اتباع خطواته: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الأمر هنا من الشيطان هو الغواية القوية، كما قال مخاطباً ربه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٢] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [٨٣] [ص]. ولما كان أهل الغواية يطيعونه شبه بالأمر فعبر عنه بالأمر، والسوء: هو ما يسوء وتكون عاقبته السوء، سواء أكانت السوء في النفس، فتسوء الأنفس، أم كانت الإساءة للمجتمع، فالسوء هو ما يكون فيه فساد وهو ضد المصلحة التي يأمر بها الله تعالى، وإذا كان إغواء الشيطان بما يسوء خاصة وعامة بلا ريب يكون مقتاً للنفس وللجماعة وللأخلاق أن تتبع خطواته؛ لأنها إلى ضرر لا محالة.

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: كتاب الإيمان (٥٠) ومسلم: كتاب المساقاة. (٢٩٩٦) عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٣٣٩) ج ١١ ص ٢٥٩.

ويأمر أيضا بالفحشاء أى يغوى بها، والفحشاء من الفحش والأمر الفاحش، وهو الذى يكون خارجا عن الفطرة المستقيمة؛ إذ الأمر الفاحش هو الزائد زيادة كبيرة، والفحشاء باعتبارها خروجاً على الفطرة الإنسانية تعم المعاصى كلها من زنى وشرب خمر، وسعى فى الأرض بالفساد، والإيقاع بين الناس بالنميمة والغيبة، وغير ذلك من المعاصى النفسية واللسانية والاجتماعية، وتطلق فى كثير من آيات القرآن على الزنى فقط، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء].

وتطلق الفحشاء على المعاصى الكبيرة التى تزيد عن المعقول، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل].

فالشیطان لا يأمر إلا بما فيه مفسدة تسوء الآحاد والجماعات إلا بالمعاصى التى تفحش حتى لا يستسيغها عاقل إلا من يكون الشيطان قد أغواه.

ويأمر الشيطان أيضا، أى يغوى ويضل على ما فسرنا معنى الأمر، بأن يحرموا على أنفسهم ما لا يعلمون أن الله حرمه، ويقولون على الله تعالى ما لا يعلمون له دليلا من عند الله؛ ولذا قال تعالى فى الأمر الثالث الذى يغوى به الشيطان بعد إغوائه بالسوء والفحشاء ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أغواهم الشيطان بأن يحرموا على أنفسهم بعض الغنم من الإبل والبقر والنعم يحرمون أنواعا منها، ويزعمون أن الله تعالى حرمها عليهم من غير حجة من عند الله، كما أشركوا وادعوا أن الله تعالى لا يكره ذلك، ولو كان يكرهه لمنعنا، وقال الله تعالى فى ذلك: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تنبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴿١٤٨﴾ [الأنعام]، فالشيطان كما سول لهم

الشرك بالله تعالى سول لهم أيضا أن يحرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله ونسبوا ذلك لله تعالى، وهذا تطاول على الله تعالى كتطاول الشرك؛ إذ يقولون على الله ما لا يعلمون أنه قاله وحكم به، بظن آثم من عندهم، ولقد قال الله في جملة ما حرم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣) [الأعراف].

ونرى من هذا أن الشيطان يأمر بنقيض ما يأمر الله تعالى، وأن الشيطان يغرى بالظنون الفاسدة التي لا أصل لها، وإن من أقبح ما يقع فيه الإنسان أن يحل ويحرم وينسب إلى الله تعالى قوله كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١١٦) متاع قليل ولهم عذاب أليم (١١٧) [النحل].

وإن إغواء الشيطان لا حدود له فمخارفه مختلفة متكاثرة وصراط الله المستقيم واحد؛ ولذا يغرى أتباعه باتباع الباطل بكل الطرق يغريهم بالإشراك هم وآباؤهم، ويغريهم بتحريم ما أحل الله هم وآباؤهم، ويظهره لهم كأنه الحق جلياً بيناً، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

نهانا سبحانه وتعالى أن نتبع خطوات الشيطان، وبين لنا أنه يأمرنا بالسوء والفحشاء وأن نفتري على الله الكذب، وأشار سبحانه وتعالى إلى أثره في إغواء المشركين، وبين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة إغواء شديداً آخر لهم، وهو اتباع الآباء من غير فكر ولا عقل يتدبر فعلهم وأقوالهم، يتدبر ما أثر عنهم أهو حق فيتبع أم باطل فينبذ، أو هو صدق فيقبل أم كذب فيرد، أو هو حسن فيقتدى بهم أم هو قبيح عليهم فينكره عليهم، لا يفكرون في شيء من ذلك، بل إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، وألفينا معناها وجدنا آباء كانوا واستمروا إلى أن جاءوا وهم تابعون لهم. يقال لهم اتبعوا ما أنزل الله، وما أنزل

الله تعالى يحمل حجته في ذاته؛ لأنه أنزله الله ذو الجلال الخالق الرزاق ذو القوة المتين، فدليله معه لأنه من عند الله وكفى بهذا دليلاً مبيناً.

ولكنهم يعرضون عن هذا الأمر الموجّه للحق إلى باطل لا دليل فيه، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، يضربون عن طلب اتباع الله ويستبدلون به اتباع ما وجدوا عليه آباءهم من غير حجة قائمة هادية، ولا دليل مرشد موجه. إن اتباع الآباء وحده ليس حجة، وكونهم استمروا عليه ليس دليلاً مرشداً، وإن اتباع الآباء إنما يكون حجة إذا كان عن علم وبينة، وإذا علمتم أنه كان عن علم وبينة فيكون اتباعهم للحق في ذاته لا لآبائهم لمجرد أنهم آباؤهم، ولكنهم يتبعونهم من غير بينة ولا دليل، بل لمجرد التقليد الذي لا يهدى ولا يرشد؛ ولذا قال تعالى مندداً بتقليدهم الذي أضلهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

الهمزة للاستفهام التوبيخى الذى هو إنكار ما وقع منهم فقد اتبعوا على غير عقل بوجه، ولا على اعتقاد هداية قائمة، والهمزة داخلية على فعل محذوف، أى أيتبعونهم، ولو كانوا لا يعقلون ولا يدركون بعقولهم أى شىء فى هذا الاتباع، يتبعونهم فى إشراكهم بالله، ويتبعونهم فى تحريم ما أحل الله من طيبات من غير أى سبب موجب، ولا أى دليل مرشد، ولا هو فيه هداية، بل فيه ضلال مبين، لم يكن عند آبائهم دليل على ما هم عليه عقلوه، ولم يكن عندهم داعية حق يهتدون بهديه، وذكر قوله «لا يهتدون» بجوار قوله «لا يعقلون» لاختلاف موضوعهما، فموضوع العقل تفكر وتدبر وطريقه المنطق والبرهان، وموضوع الاهتداء اتباع لهاد مرشد كنبى مرسل، فما كان لهم عقل مفكر ولا هاد يهتدون بهديه، ولقد قسم الغزالي أهل الإيمان إلى قسمين: قسم يدرك بالبرهان ويسير بالقسط المستقيم، وقسم يطمئن قلبه إلى الحق ويرتضيه بإشراق قلبه بنور الحكمة والفطرة المستقيمة، أو باتباع هاد يهديه ويوجهه ويهتدى به، وقد فقد هؤلاء الأمرين فليس لهم عقل يتدبر ولا هاد يهدى إلى التى هى أقوم؛ ولذلك استنكر الله تعالى على المشركين اتباع آبائهم فى الشرك وتحريم ما أحل الله تعالى حيث حرموه ونسبوا التحريم إلى الله تعالى من غير حجة ولا سلطان مبين.

وإن ذلك مثل قوله تعالى في موضع آخر من الذكر الحكيم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ...﴾ (١٠٤) ﴿[المائدة] ومثل قوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣)﴾ [الزخرف].

وإن هذا النص السامي الكريم يدل على أن التقليد في العقائد لا يجوز، وشذ من قال غير ذلك، وعلى الذين لا يعرفون دليلاً أن يسألوا أهل العلم بذلك كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣)﴾ [النحل]؛ ولذا يجب على العلماء أن يبينوا للناس عقائدهم، لا بطريق علم الكلام، بل بطريق القرآن، فدليل القرآن هو الغذاء والدواء الشافي، وأدلة علم الكلام كالدواء الذي يعطى بقدر لمن أصيبوا في عقيدتهم.

وإن المشركين الذين يتبعون خطوات الشيطان في عقيدتهم، ويتبعونه فيما يحلون وما يحرمون، ويقولون نتبع ما ألفينا عليه آبائنا، ويقولون إنا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون بسبب ما أركسوا أنفسهم فيه قد صموا أنفسهم عن سماع الحق، ولذا قال سبحانه في حالهم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

وقد تكلم المفسرون في هذا التمثيل البليغ، فقال بعضهم: إن ذلك التمثيل هو تمثيل لدعوة النبي ﷺ والذين كفروا كمثل الراعى الذي يرعى غنمه، فينعق: أى فيصيح بالغنم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء زاجراً لينتقل بهم من كلاً إلى كلاً، ولكن هذا التشبيه لا يليق بدعوة النبي ﷺ؛ لأنها لا تسمى بهذا الاسم وهو النعيق.

وقال بعضهم: إن ذلك تشبيه للذين كفروا في دعوتهم إلى أصنامهم التي لا تملك نفعا ولا ضرا، كمثل الراعى الذي ينادى غنما لا تسمع إلا دعاء ونداء ما يزجره في الانتقال من كلاً إلى كلاً، وهذا تشبيه حسن في ذاته، ولكن القرآن نسق واحد في البيان تأخذ كلماته بعضها بحجز بعض، وربما لا يتقارب هذا التفسير مع



قوله بعد ذلك ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ﴾ لأن هذه أوصاف للكافرين وليست أوصافا للغنم .

بقى التخريج الثالث للمثل وهو بأن يشبه الذين كفروا وما معهم من غنم يرفعونها، يشبهون بالبهايم التي تنعق بأن تصيح بما لا يسمع إلا دعاء إن كانوا في كرب، ونداء إن كانوا بعيدا .

والكافرون مع غنمهم مثلهم كناعق ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، فأصوات الغنم تتبادل بنعيق لا يفهم، وبصياح مجاوب للنداء، فالجميع يتصايح بالنعيق، والجميع لا يفهم إلا دعاء ونداء .

ولذا صح أن يوصف المشركون بالأوصاف التي ذكرها الله عنهم، فقال ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى أنهم فى عدم سماعهم للحق الذى دعوا إليه كالصم الذين لا يسمعون، وهو تشبيه حالهم المعنوية فى عدم سماعهم لدعوة الحق إذا نادى المنادى به بحال الأصم الذى لا يسمع شيئا، وفى عدم نطقهم بالحق، واستجابتهم له بحال الأبكم الذى لا يتكلم . شبه عدم إدراكهم الحق الذى بدت معالمه، وظهر نوره بحال الأعمى الذى لا يبصر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج] .

وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يدعون إليه، ويتفكرون فيه ويبدون وكأنهم لم يسمعه، ولا يفكرون فى الاستجابة بالإذعان والتسليم ولا يستضيئون بنوره .

فتح الله قلوبنا للحق إذ نسمع داعيه، ورطب ألسنتنا للحق لنجيب نداءه، وأثار بصرنا وبصيرتنا لنراه إنه سميع الدعاء .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ الْمَيِّتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ
لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

بين الله سبحانه وتعالى أننا فيما أباحه الله لنا لا نتبع خطوات الذى يغوينا بتحريم ما أحل لنا، وذكر حال المشركين فى اعتقاداتهم ثم بين بعد ذلك ما أحله وما حرمه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وكان النداء إلى الناس الذين كان منهم من اتبع خطوات الشيطان، أما الآن فالخطاب للمؤمنين خاصة، وهم لا يتبعون خطوات الشيطان إنما يتبعون شرع الرحمن.

الأمر هنا للإباحة، والإباحة بالجزء، أى لنا أن نتخير من الطيبات، وعلينا أن نتناول ما نجب لا ما لا نجب، من غير أن نحرم على أنفسنا شيئاً كما تلونا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وبالنسبة لمجموعة الأوقات فالأكل من الطيبات فرض، فهو وإن كان مباحاً بالجزء مطلوب بالكل، ليس لأحد أن يترك الأكل من الطيبات فإن ذلك يكون حراماً، ويؤدى إلى الهلاك كما ذكرنا فى ماضى قولنا.

والطيبات هى ما تستطيه النفوس، ويكون حلالاً، والأكل منه مطلوب لتقوى الأجسام ولتقوى العقول والنفوس فى ذاتها، ولتقوى للجهاد فى سبيله وبشرط أن تكون حلالاً، وحرم الله الخبائث التى تكون فى ذاتها مستقرة كالخنزير والميتة أو التى تكون من كسب حرام كالربا والسحت، وأكل مال الناس بالباطل. وإن من

أعظم القربات بعد تقوى الله ، طلب الطيبات الحلال . وقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليرضى من العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(١) .

ولقد أردف الله سبحانه وتعالى الأمر بالأكل من الطيبات بالأمر بالشكر؛ لأن هذه الإباحة للطيبات نعمة، والنعمة توجب الشكر من المنعم، الذى أباح ومكن، والشكر يكون بترك المعاصى ولزوم الطاعات والتقوى والتقرب إليه سبحانه وتعالى، وطلب رضوانه، ويقول سبحانه: ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (٧) [إبراهيم]، ولقد قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(٢) .

وإن هذه المباحات نعم الله تعالى فى هذه الدنيا يُسأل عن حقها وعن شكرها، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨) [التكاثر] وإن الشكر هو الطاعات الكاملة، والعمل الصالح، وإن ذلك شريعة الرسائل الإلهية كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٩) [المؤمنون] .

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أضيفت الطيبات، وهى إضافة تشير إلى المصدر، وهو إنعام المنعم؛ لأن الطيبات مما رزق الله تعالى، ومما تمكن عباده منه، فكان هنا نعمتان أنعم الله تعالى بهما، وهما: نعمة الرزق والعطاء، ونعمة الإباحة للطيبات، وكان الشكر على النعمتين واجبا .

ولذا قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ أى اشكروا الله، وقد بينا أن «شكر» تتعدى باللام، وهو الأفصح، وتتعدى بنفسها، وإن الشكر ملازم للعبادة أو هو منها، أو

(١) أخرجه مسلم: كتاب الدعاء (٤٩١٥) والترمذى فى الأطعمة (١٧٣٨) وأحمد فى مسنده (١١٥٣٥) عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) ذكره البخارى تعليقا فى كتاب الأطعمة - ترجمة باب الطاعم الشاكر، ورواه الترمذى: كتاب صفة القيامة (٢٤١٠)، وابن ماجه: كتاب الصيام (١٧٥٤)، ومن طريق عند أحمد بسند منقطع (٧٤٧٣) كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

هو هـ، ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى إن كنتم تعبدونه وحدى من غير إشراك غير، وتقديم الضمير على الفعل للإشارة إلى اختصاصه تعالى بالعبادة وحده، اللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمائك وراضين فى السراء والضراء.

بعد أن ذكر الله ما أحله من طيبات بين ما حرمه من خبائث سواء أكانت هذه الخبائث حسية أم كانت معنوية، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

حرم الله تعالى ثلاثة أشياء من الخبائث الحسية، وهى الميتة والدم ولحم الخنزير، ومن الخبائث المعنوية ما أهل به لغير الله، أى ما ذبح لصنم ونحو ذلك. والميتة هى التى ماتت حتف أنفها من غير ذبح شرعى، وتشمل النطيحة والمتردية؛ ولذا قال فى الخبائث المحرمة فى سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِى يَوْمِ النَّارِ يُنْفَخُ الْأَزْلَامُ فَأَنْتُمْ عَنْ آيَاتِكُمْ غَافِلُونَ﴾ [المائدة].

وإنه يدخل فى الميتة كل ما مات من غير أن يسال دمه ولو بسبب من العباد أو السبع، فيدخل فى الميتة المنخنقة التى ماتت بالخنق من غير ذبح يسيل دمها، والموقوذة التى رميت حتى ماتت، والنطيحة التى ماتت بنطح ولم يسال لها دم، والمتردية وهى التى تردت فى حفرة أو بئر فماتت بهذا التردى، ولم تذبح وما أكل السبع بعضه، ولم يذبح فإنه أيضا يكون محرماً، وحرم الاستقسام بالأزلام وهى أقذاح الميسر كما حرم الذبح على النصب، وحرمت هذه الأشياء لا لخبث فى ذاتها ولكن لما اقترن بذبحها وهو النصب، كما حرم الاستقسام بالأزلام فهى فى ذاتها طيبة حسية، ولكن لازمها خبث معنوى وهو ما يقتترن بها من ميسر، والقرآن الكريم قد حصر التحريم فى هذه الأشياء المذكورة فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وإنما أداة من أدوات القصر، أى حرمت هذه الأشياء من النعم التى هى البقر

والإبل والغنم وغيرها مما يشبهها أكلة العشب كالغزال والأوعال، أما سباع البهائم كالأسد والذئب وغيرها فهي محرمة بذاتها؛ لأن لحمها لا يؤكل وتعافه النفوس المستقيمة، فالخصر في التحريم، إنما هو بالنسبة للنعم وما يشبهها من أكلة العشب، والمحرمات هي الميتة ويدخل فيها كما سبق من القول المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا أن يذكى بأن يبقى بعد أكله حياً، فيذكى والتذكية إسالة الدم.

والميتة يبقى فيها الدم، فبمضي الزمن يفسد أجزاء جسمها وتتعض ببقائه فيها فيفسد لحمها وتسارع إليها الجراثيم المفسدة، فتكون خبيثة وتحول من لحم طيب إلى لحم خبيث، ويدخل في ذلك الموقوذة والمنخقة والمتردية والنطيحة والدم، والمراد به الدم المسفوح، أى السائل، وليس المتجمد بأصل تكوينه وإن كان التكوين من الدم وهو الكبد والطحال، والدم المسفوح يسارع إليه الفساد وهو ثقیل الهضم وهو يفسد الجسم والنفس، وإنما قيد الدم بالمسفوح؛ لأنه صرح في آية الأنعام بأن المحرم هو الدم المسفوح فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...﴾ (١٤٥) [الأنعام].

ومن المقررات أن المطلق يحمل على المقيد إذا اتحد الحكم والسبب، فيجمل الدم المذكور في الآية التي نتكلم في معناها على المقيد في آية الأنعام، والدم يسارع إليه الفساد وأكله يربى القسوة وهو ثقیل الهضم.

ولحم الخنزير ذكر الله تعالى في القرآن أنه رجس أى قذر يحتوى على كل ما يضر البنية الإنسانية، وقد ثبت بالتجربة أنه أثقل طعام على المعدة، والمعدة بيت الداء، وثبت أنه يحوى من الديدان ما يضر الجسم، وأنه يحدث فقد الشهوة، ويوجد أعراضاً عصبية، ويظن كثيرون أنه مورد من موارد داء السرطان العضال. وما أهل لغير الله تعالى به، والإهلال رفع الصوت بذكر الله تعالى عند الذبح، والإهلال لغير الله تعالى بأن يذكر عند الذبح أنه لصنم أو وثن أو نار أو نحو ذلك،

ويدخل في ذلك ما ذبح على النصب التي كانت تقام للأوثان وتذبح الذبائح عليها.

وقد بين سبحانه وتعالى أن ذلك عند الاختيار، وأما عند الاضطرار فإنها يرفع عنها الإثم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من كان في حال ضرورة، بحيث تتعرض الحياة للهلاك إذا لم يأكل شيئاً من هذه المحرمات، فإنه لا إثم عليه إذا أكل، ويكون واجباً عليه أن يأكل إن لم يجد غيرها؛ لأن ضرر الموت أشد من ضرر الأكل، والضرر القليل يتحمل في سبيل دفع الضرر الكبير، ولقد بين النبي ﷺ حال الضرورة لمن سألته عن ذلك، فقال: «أن يأتي الصبح والغبوق ولا تجد ما تأكله»^(١)، ولقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة].

ولقد قيد الله تعالى رفع الإثم، فقال تعالت كلماته: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي غير طالب لها تبسغي إشباع رغبتك، كأن يكون في عطش شديد ولم يجد إلا خمرًا، فيشربها مبتغياً لها لا يقصد دفع الضرورة ولكن يرغب فيها، وكمن يكون في حال ضرورة فيكون بين يديه الميتة والخنزير فيستغنى الخنزير اشتهاً له ورغبة فيه، ولا عاد أي غير متجاوز حد الضرورة، والضرورة تدفع بأقل قدر فلا يتجاوزها، فيتعدى ما رفع الله تعالى الإثم عنه.

وروى عن مجاهد وابن جبير أنهما قالاً في معنى باغ وعاد، غير باغ على المسلمين ولا عاد عليهم، فيدخل في الباغي والعادي الخارج على السلطان العادل وقاطع الطريق، وبهذا أخذ الشافعي في أحد قوليه فمن كان مضطراً للطعام ولا يجد

(١) عن أبي واقد الليثي قال: قلت: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها مخمصة، فما يحل لنا من الميتة؟ قال: «إذا لم تصطبحوها، ولم تغتبقوها، ولم تحفثوها بقلا فشأنكم بها». زواه أحمد في مسند الأنصار (٢٠: ٨٩٣)، والدارمي في الأضاحي (١٩١٢) والحاكم في المستدرک (٧٢٣٤) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

والمخمصة: المجاعة والشدة، والصَّبُوح: شرب أول النهار، والغبوق: شرب آخر النهار، أي اللبن، ثم توسعوا فأطلقوه على الطعام أول النهار وآخره، وهو مقصود الحديث، وتحفثوا: تقتلعوا فتأكلوا.

إلا بعض هذه المحرمات وكان خارجاً في معصية فإنه لا يترخص له في أكل واحد من هذه المحرمات؛ لأن وقوع الضرورة بسبب معصية، والمعصية لا تحل المحرم.

وأبو حنيفة ومالك وأحمد، والرأى الثانى عند الشافعى أن الرخصة قائمة وسببها ليس هو المعصية أو غير المعصية، وإنما سببها الاضطراب والخشية من الهلاك والمعصية فى قتل النفس أشد من المعصية فى الخروج على الأحكام؛ ولأن الجهة منفكة؛ فرفع الإثم لدفع الجوع والظلم فى العصيان فلا خلط بينهما، ومن المقررات أن الظالم فى معصية لا يحرم من حقوقه فى ناحية أخرى، وإلا كان ظلماً والظالم لا يظلم، ولكن يقتصر منه فى موضع ظلمه، هذا وإن الرخصة نتيجتها أن يرفع الإثم لا أن تباح الميتة وأخواتها، ولكن قرروا أنه فى حال الضرورة هذا يكون الأكل مطلوباً طلباً حتمياً بحيث يأثم إن لم يأكل، لأن عدم الأخذ بالرخصة قتل للنفس والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء].

ولقد ختم الله تعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هذا النص السامى فيه تسجيل لرحمة الله تعالى، ولغفرانه فى الدنيا والآخرة ما يرتكب إن كان بقصد حفظ النفس من التلف، وكان من غفرانه أن رفع الإثم وسببه قائم عن المضطر إلى أكل المحرمات، وكان من رحمته أن أباح هذه الطيبات، وإن حرم الخبائث، فتحريم الخبائث لأضرارها، وإباحة الطيبات لنفعها من رحمته سبحانه، إذ إن الشريعة الغراء قامت على جلب ما هو نافع ودفع ما هو ضار، وكان من رحمته جلّت قدرته أن رفع الإثم عند الاضطراب.

وقبل أن تنتقل إلى آياته البينات نقرر أمرين. أولهما: ما قرره بعض العلماء ذوى النظر الثاقب أن الجوع الشديد يجعل الجسم يستطيع تناول هذه الخبائث الضارة إذ الجوع يذهب بأضرارها، أو لا يجعلها تؤثر بالأذى فى الجسم ما دام لا يتعدى حد الضرورة، فإن تعداها كان الضرر المؤكد من هذه الخبائث. الثانى: إن هذه المحرمات إنما هى فى حيوانات البر والنعم كما قررنا، أما صيد البحر فإنه حلال كما قال تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُم صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلْغَيَّارِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا... ٩٦﴾ [المائدة]. جعل الله طعامنا حلالاً طيباً، وهنيئاً مريئاً.

كتمان الحق

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
 الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
 فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا
 أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِي أَنْ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَفَوْا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

بعد أن بين الله تعالى في كتابه الحكيم ما يحل وما يحرم، وذكر أن الشيطان
 يجيء بوسوسته فيما يحل فيحرمه، وفيما يحرم فيبيحه فهو يجعل المشركين يحرمون
 على أنفسهم بعض ما أحل، ويحملهم على أن يستبيحوا الزنى والقذف والخمر
 والقتل والغصب، بعد ذلك بين سبحانه أن ما جاء في كتاب الله تعالى يجب أن
 يبين، وما جاء في الكتب السابقة يجب ألا يكتسب من بشارة بالنبى ﷺ وحلال
 وحرام في هذه الكتب، وأن من يكتسب الذي أنزله الله سبحانه لغرض من أغراض أو
 هوى من هوى الأنفس أو رجاء رشوة أو سحت من المال، إنما يبيع الحق بثمن بخس
 مهما يكن مقداره؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ
 الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ﴾. الكلام في كل من يكتُمون ما أنزل
 الله في الكتاب سواء أكانوا مؤمنين لا يبلغون الدعوة إلى الله ويبينون ما اشتمل
 عليه الكتاب من الأحكام التي يجب إعلانها وبيانها للناس، أم كانوا من اليهود أو
 النصراني الذين يعلمون أمر النبى ﷺ وما يجيء به من أحكام ويكتُمونها، وقد قال
 تعالى في ذلك: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي

التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ... ﴿١٥٧﴾ [الأعراف].

وكان من المناسب ذكر كتمانهم، والقرآن الكريم يبين الطيبات التي أحلها، والخبائث التي حرمها، والأغلال التي رفعها، وقد كتموا أمر محمد ﷺ ورسالته.

وقوله تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا﴾ معناه يقدمونه في نظير قليل، وعبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأن المشتري طالب لمقابل المبيع، فهم يتركونها طالبين ثمنها راغبين، وهو مهما يكن مقداره قليل، فهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، والتمن هو استعلاء واستكبار عن الاتباع، وإنكار وجحود، وعرض من أعراض الدنيا وقد بين الله تعالى سوء فعلتهم في الدنيا، وعذابهم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾.

الإشارة إلى الذين يكتمون ما أنزل الله في الكتاب الحق، وتركوا الواجب في نظير قليل بالنسبة لما تركوه فهو زهيد مهما يكن مقداره بجوار الحق الذي باعوه، فقد باعوا غالبا بما لا يكافئه مهما يكن قدره، الإشارة إلى هؤلاء الذين اتصفوا بذلك، والإشارة إلى الموصوف بصفة يبين أن سبب الحكم هو هذه الصفة.

وقد حكم الله تعالى عليهم بأربعة أحكام: أولها أنهم ما يأكلون من الثمن الذي أخذوه إلا النار تلهب بطونهم، وقوله ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ مجاز فيه عبر عن حالهم بالمآل الذين يثولون إليه، فعبر سبحانه عن حالهم في الثمن الذي أخذوه شرها، طمعا وإشارا للباطل، وتركوا للحق بأنهم أكلوا نارا، نزلت في بطونهم وألهبها ومزقت لحومهم، واختار التعبير بكون النار في بطونهم؛ لأن المال الباطل يطلب لأجل شهوة البطن وملذاتها والتعبير عن الجزء وإرادة الكل إذ المراد أن النار تعمهم، وتشمل كل أجزائهم، ولكن عبر بالجزء؛ لأن ذلك الجزء له مزيد من الاختصاص؛ لأن شهوتهم وشرهم هو الذي جعلهم يختارون ذلك الثمن الحقيق وإن كان كبيرا فإن الذي تركوه من الحق أكبر وأعظم وهو الحق الذي كتموه.

والعقاب الثاني: أنهم ينالهم غضب الله تعالى، وغضب الله الواحد القهار فيه إيلام لأهل الضمائر وإنذار شديد لأهل الشر، لأنه غضب مقتص الجبار الذى لا يفلت منه أثيم، ولا تنفع عنده شفاعة الشافعين، ولا يغنى أمامه سبحانه وتعالى شئ فى الوجود مهما يكن ومهما تكن صلتة، ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ [الزخرف].

والعقاب الثالث: أن الله تعالى لا يزيكهم أى لا يطهرهم من ذنوبهم فإنهم فى كون الجزاء، لا يخفف عنهم ولا يرجعون، يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا، ولكن لا يعودون، ولا يخرجون من النار التى تحيط بهم.

والعقاب الرابع: أن لهم عذابا أليما أى مؤلما، نتيجة لغضب الله تعالى، وعبر سبحانه وتعالى عن غضبه عليهم بأنه لا يكلمهم، وكأنه يقول لهم اخشوا فيها ولا تكلمون.

وإن الآية كما يقولون نزلت فى اليهود أو النصارى كذلك، فإن اللفظ أعم وأشمل فهو يشمل اليهود الذين كتموا الحق غرورا واستعلاء وكبرياء وطلبا للدنيا وما فيها من سيطرة وسلطة ويشمل كل من يكتم الحق من أمة محمد ﷺ فيشمل الذين تقاصروا عن الدعوة إلى الإسلام، وهم عليها قادرون، وتركوها استرخاء، وتقاصروا فى الهمم وتركوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويشمل الوصف الذين لا يذكرون ما أحل الله تعالى وما حرم، تهاونا وكسلا، أو لينالوا مأربا من مآرب الدنيا، وهو الثمن البخس الذى تركوا الواجب لأجله.

ويشمل الذين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تخاذلا عن الحق، ورضا بالباطل، ويشمل الذين يماثلون الحكام، ويخطون على هواهم، ويقررون من الأحكام ما يخالف النقل والعقل، كأولئك الذين يستبيحون الربا، والذين يدعون إلى قتل النسل، لإرضاء الحاكمين وتقربا وإزدلافا إليهم، ويشمل الذين يقتون الناس على حسب أهوائهم بأجر معلوم، أو رجاء معونة عند الحكام الذين ليس للدين حريجة فى قلوبهم، وكل أولئك نراه فى عصرنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإن أولئك الذين كتموا الحق الذي أنزله تعالى لغرض أو لمال أو لجاه، أو لرشوة وسحت أو لمنصب يريدونه أو يرجونه، هؤلاء تركوا الهداية وطلبوا الضلالة؛ ولذا قال تعالى مشيرا إليهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾. الإشارة في الأولى إشارة للذين اتصفوا بكتمان الحق وقت الحاجة إلى بيانه، وأن ذلك الوصف هو سبب الحكم الذي تقرر عليهم، وهو أنهم اشتروا الضلالة بالهدى، أى تركوا الحق، وهو المبيع الثمين لأنه هدى الله تعالى وهو الطريق، وهو الإعلام بالحق المبين تركوه، وباعوه بثمن حقير فى ذاته بالنسبة لمقابله، فهو الضلالة، فى مقابل الهداية، قد تركوا الطريق المستقيم وهو الهداية التى منحهم الله تعالى بحكم الفطرة التى فطر الله تعالى الناس عليها، تركوا ذلك الطريق المستقيم إلى متعرجات الشيطان فضلوا فى صحراء هذا الوجود ضلالا بعيدا.

وكما استبدلوا بالهداية الضلالة استبدلوا أيضا العذاب بالمغفرة، أى سلكوا الطريق الموصل إلى العذاب وتركوا الطريق الموصل إلى مغفرة الله تعالى، وقد عبر الله تعالى بالعذاب، والظاهر أنه أراد سببه والطريق الموصل إليه، إشارة إلى أنه موصل إليه لا محالة، والمغفرة هى الثواب والتعظيم المقيم الذى أعده الله تعالى للمهتدين، وعبر عن الثواب بالمغفرة؛ لأن المغفرة دليل الرضا أولا، وللإشارة إلى أن من يعمل صالحا يغفر الله له ما عساه يكون من سيئات؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ثانيا، ولأن من ينال غفران الله تعالى من المقربين.

وقد أكد الله تعالى دوام عذابهم بقوله تعالت كلماته: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أى أنهم يأخذون فى أسباب الجحيم، ودخول النار والبقاء، ويقال فى مثل من يكون فى حالهم ممن يسيرون سيرهم، ما أصبرهم على النار وهو من قبيل التهكم كما يقول القائلون لمن يرتكب أسباب العقوبة من حد أو تعزير: ما أصبرك على السياط تكوى ظهرك كيا؛ لأنه يتخذ أسبابها، وقد يقال إن الصبر بمعناه اللغوى وهو الحبس كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ... ﴿٢٨﴾ [الكهف]، ويكون المعنى ما أطول وأدوم حبسهم على النار يصلونها.

روى عن الكسائي أنه قال: أخبرني قاضي اليمن أن خصمين اختصما إليه، فوجبت اليمين على أحدهما فحلف فقال له صاحبه: ما أصبرك على الله أى ما أجراك عليه. والمعنى على ذلك: ما أشجعهم على النار إذ يعملون عملا يؤدي إليها .. اللهم قنا عذاب النار، وألهمنا الصبر على النطق بالحق إنك أنت الرحمن الرحيم .

وما كان ذلك الوجوب إعلام بإعلان الحق فى الكتاب الكريم والعقاب على الكتمان إلا لأن الكتاب أنزل بالحق، والذين يختلفون فيه اختاروا المشاققة على الإيمان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى أن الله تعالى نزل القرآن فى مدى ثلاث وعشرين سنة بالحق الثابت الذى لا مزية فيه، ولا شك أن من يكتمه ولا يبينه للناس ليستضيئوا بنوره، وليهتدوا بهديه - يرتكب إثما عظيما، يستحق عليه عقابا أليما، وهو الطريق المستقيم، ولا يتبغى لأحد أن يخالفه أو يختلف فى شأنه وصدقه؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، فمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض ويترك ما يدعو إليه، أو يجعله عضيئ مفرقا يفهمه غير مستقيم فى فهمه بل يفهمه متناقضا على حسب هواه، لا على مقتضى نسقه الحكيم، من يفعل ذلك فشأنه فى شقاق بحيث يتخذ كل واحد شقة من القول، ويكون كل شق بعيدا عن الآخر، لا يتلاقون أبدا فهم فى خلاف وكل حزب بما لديهم فرحون.

البر

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
 الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
 وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
 الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
 وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

كان أمر تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام أمر هذه النفوس المؤمنة، والنفوس المشركة والكتابية وأثار جدلاً وحماسة، فالْمُؤْمِنُونَ تقبلوها بقبول حسن، لأنها بناء إبراهيم، وهو الذي سماهم مسلمين، وهو الحرم الآمن الذي جعله الله تعالى للناس مثابة وأمناً، وهو مزار العرب إليه يحجون ويعتَمرون من وقت أن بناه إبراهيم عليه السلام، وهو عزهم، وأما المشركون من العرب فقد ظنوا أن محمداً عاد أو سيعود إليهم وما علموا أن ذلك إيذان بذهاب دولة الأوثان، وإزالتها من حول الكعبة، وأما اليهود فقد أذهب أطماعهم في النبي ﷺ والمؤمنين، وعلموا أنه هو النبي الأمي الذي بشر به في التوراة يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وقد صدقهم الله تعالى.

إن هذا الأمر الذي يشغلهم جميعاً، إنه الأمر الأعظم، وهو مقصد الأديان كلها، وغاياتها، وهو الذي يهذب النفوس، والمجتمعات ويربيها وقيمها على التعاون على البر والتقوى ويحميها ويدفع عنها وهو نسب الأديان كلها؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أى ليس هذا هو البر

المقصود الجامع لكل معانى الخير، الذى حرص الدين عليه حرصا كاملا، بل هو إلى الشكل أقرب، أو هو الوسيلة وما يكون من الأمة هو الغاية العليا من كل دين جاء من الله تعالى لهداية البشر، وتوجيههم نحو الصلاح الإنسانى آحاد وجماعات؛ صلاحا يمس نفوسهم ويملأ قلوبهم إيمانا، وليس فى العبارة السامية ما يرمى إلى الاستهانة بأمر القبله، بل إن فيها توجيها إلى الناحية التهذيبية والكمالية للإنسان فى آحاده، وجماعاته؛ ولذا قال تعالى مستدركا مثبتا: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾.

قال العلماء: إن «من آمن بالله» إن الكلام فيها على تقدير مضاف ومعناه، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . وحذف المضاف إذا دل عليه المضاف إليه كثير فى القرآن وهو من إيجاز الحذف البليغ كقوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا... (٨٢)﴾ [يوسف] أى أهل القرية، وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (٤٧)﴾ [العلق] أى فليدع أهل ناديه.

وإن ذلك الإيجاز من دلائل الإعجاز، وإننا نرى أن حذف المضاف أو عدم تقديره يعلو بالكلام إلى أعلى درجات البيان، إن الكلام يكون دالا على البر بمفهوم الحال المكونة من الكلام كله، فيكون المعنى ليس البر المقصود من الديانات الإلهية أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر المقصود وهو الغاية من الديانات الإلهية هو الحال التى يكون عليها من آمن بالله واليوم الآخر . . وآتى المال على حبه ذوى القربى إلى آخر ما بيته الآيات، فهذه الحال المجتمعة من تلك الصفات، وهذه الأعمال المهذبة المربية لمجتمع فاضل هى البر، وعلى ذلك لا تحتاج إلى تقدير، والبر كما يقول المفسرون هو المعنى الجامع لكل ما فيه نفع للنفس وللناس، وإنى أراه مرادفاً فى العرف الخلقى.

وقد ذكر الله تعالى صنوف البر كلها فى هذه الآية الكريمة، وكانت بحق آية البر؛ لأنها جمعت أطرافه، ونواحيه كلها، وهى من أجمع الآيات للتكليفات الدينية.

* وأول البر وسنامه وأصله الإيمان، وهو التصديق والإذعان، وأول من يجب الإيمان به الله، فالإيمان به هو لب الإيمان كله، وهو الخضوع والإذعان والعبادة له وحده لا شريك له، وامتلاء النفس بذكره، بحيث لا تذكر غيره في الغدو والآصال، وفي الصحو، وفي المنام، ومن الإيمان بالله تعالى الإيمان بأنه وحده الخالق للوجود، والإيمان بأنه وحده الموصوف بصفات الكمال، والإيمان بأنه وحده المستحق للعبادة، فليس في الوجود من يستحق العبادة سواه.

والإيمان باليوم الآخر، ويشمل الإيمان بالبعث والنشور، والإيمان بيوم القيامة، وما يجري فيه من حساب وعقاب وثواب، وأن من أحسن فله النعيم المقيم، ورضوان من الله أكبر، وأن من خالف وغير وبدل فجزاؤه جهنم، وبئس المصير، وإن ذلك كله مادي حسي، وليس روحيا كما توهم بعض الكاتبين.

وكان الإيمان باليوم الآخر تاليا للإيمان بالله تعالى؛ لأنه تصديق لما أمر الله به، ولأنه سلوان المحسن العابد وإنذار للمشرك المكذب، والمعاند المستكبر الجاحد، وقد تبين له الحق.

ثم يلي الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالملائكة الأخيار الأطهار الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهو إيمان بالغيب الذي لا يرى ولا يحس، وأول شعار المؤمن الإيمان، وهو الفصيل بين المسلم والزنديق، فالزنديق أو الملحد في دين الله تعالى لا يؤمن إلا بالمحسوس، ولا يصدق ما لا يرى ويحس، والمؤمن يعلم أن وراء المحسوس سرا خفيا، وقد أمرنا الله تعالى بالإيمان فحق علينا أن نؤمن بوجودهم، وهم مذكورون في كتابه الكريم، وفي الكتب التي صدقها، فالكفر بهم كفر بالله وبالقرآن، وذكر الله بعد ذلك الإيمان بالكتاب، وهو القرآن الكريم، والإيمان تصديق بكل ما جاء به ويدخل في ذلك الإيمان بالكتب السابقة؛ لأنه سجلها في قصصه، فهو سجل النبوة كله، فيه ذكر كتبها، وفيه بيان معجزات النبيين، فلولا قصصه الحكم الصادق ما عرف كتاب من كتب النبيين، ولا معجزة من معجزاتهم.

وذكر سبحانه وجوب الإيمان بالنبیین السابقین؛ لأن الإيمان الذى جاء به القرآن هو الإيمان الجامع بالنبوات الإلهية كلها، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦).

هذا هو الإيمان الذى أمر به الله تعالى، وكانت حال المتصف به والقائم بما يأتى من تكليف، وأعمال، هى البر المطلق من الإنسان فى كل دين.

ولنتقل إلى بيان الأعمال التى هى بر فى ذاتها، وحال القائم بها هى البر الخالص التى تأمر به كل الأديان التى جاءت من الله لا من أوهام البشر:

* فى حال من آتى المال على حبه، ولقد قال تعالى فيه، ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى أعطى المال على حبه له فالضمير يعود إلى المال، والمعنى على حبه للمال ورغبته فى اقتنائه، ولكنه أثر العطاء وعلى هذا السبب وذلك كقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) [الإنسان]، وكقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ (٩٢) [آل عمران].

ويفسر هذا ما رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه سئل: أى الصدقة أعظم أجراً، فقال ﷺ: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان»^(١).

وقد فسر بعضهم بأن الضمير يعود على الإيتاء وهو المصدر المنسبك من آتى، والمعنى أعطى المال محباً للإعطاء راغباً فيه راضى النفس، طيباً بالعطاء، راغباً فى رضا الله به، وبذلك يجتمع له قربتان قربة العطاء فى نفسه، وقربة الاتجاه إلى إرضاء ربه.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الزكاة - باب فضل صدقة الصحيح الشحيح (١٣٣٠) ومسلم: كتاب الزكاة: بيان أن فضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٧١٣).

وهو في مؤداه لا يختلف عن التقدير الأول، وإن كان الأول يدل على مجاهدة النفس في العطاء بين ما يحبه ويشح به، بين إرضاء الله بالعطاء فيؤثر إرضاء الله تعالى على شح نفسه، فتكون قرينة العطاء، وقرينة المجاهدة حتى يكون مطيعاً لله تعالى متقرباً إليه، طالباً رضاه، وهو الغنى الحميد.

وقد ذكرت الآية الكريمة من يخصصهم بعطائه، أو من يؤثرهم بهذا العطاء، ويبدو من الذكر ومعناه ترتيبهم في العطاء وأن بعضهم يفضل في العطاء على بعض إن لم يتسع ماله لهم أجمعين.

(أ) ذوو القربى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهم قراباته، ويفضل الأقرب فالأقرب ويبدأ بالوالدين، كما قال النبي ﷺ رداً على من سأله من أحق الناس بحسن صحبتي: «أمك» كررها ثلاث مرات مع تكرار السؤال، ثم قال: ثم من؟ قال: «أبوك، ثم الأقرب فالأقرب»^(١)، ولقد قال ﷺ فيما رواه النسائي: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة»^(٢)، ولأن الإسلام أقام على دعامة الأسر المتحابية المتعاونة المتكاتفة، والأسرة مقصورة على الأبوين والأولاد، بل هي ممتدة إلى أن تشمل الأقارب؛ ولذا قال ﷺ: «من أراد منكم أن يبارك له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٣)، ولقد عد من ذوى القربى الزوج إذا كان فقيراً، فقد سألت امرأة عبدالله بن مسعود النبي ﷺ أيعد إعطاء زوجها صدقة؟، فقال ﷺ: «نعم»^(٤).

(١) عن بهز بن حكيم، حدثني أبي عن جدي، قال: «قلت: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك. قال: قلت: ثم من؟ قال: أمك. قال: قلت: ثم من؟ قال: أمك. قال: قلت: ثم من؟ قال: ثم أبوك، ثم الأقرب فالأقرب». [رواه الترمذي: كتاب البر والصلة (١٨١٩) وأبو داود: كتاب الأدب (٤٤٧٣) وأحمد: أول مسند البصريين (١٩١٧٥)].

(٢) رواه الترمذي: كتاب الزكاة (٥٤١) والنسائي (٢٥٣٥) وابن ماجه (١٨٣٤) وأحمد في مسنده (١٥٦٤٤) عن سلمان بن عامر.

(٣) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن ييسر له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه». متفق عليه من رواية البخاري: كتاب الأدب (٥٥٢٧) ومسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٣٩).

(٤) رواه بالمعنى وأصله في الصحيحين من رواية البخاري: كتاب الزكاة (١٣٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان (١١٤) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - خرج رسول الله ﷺ في أضحى - أو فطير - إلى =

(ب) والذين يلون أولى القربى فى العطاء اليتامى، سواء أكانوا من ذوى القربى أم لم يكونوا، وإذا كانوا من ذوى القربى يكونون أولى من غيرهم من الأقراب إلا الأبوين.

واليتيم هو الذى مات أبوه، وهو صغير، ورعاية اليتيم مما حرص عليه الإسلام فى عدة أحاديث، وأوصى القرآن بهذه الرعاية فى عدة من آى القرآن، وأنه يجب ألا يذل ولا يقهر؛ ذلك لأن اليتيم إن أهمل كان عضوا هداما فى المجتمع، إذ يخرج إلى الحياة ناقما عليها متمردا لا يألف ولا يؤلف، إذ إن تربية النزوع إلى الألفة تكون من الأبوين، ومن الشعور بالرحمة والحيطة والعناية وخصوصا من الأب الحانى الرفيق الحانى العطوف.

فإذا حرم من ذلك فقد يتربى على النفور وعداوة المجتمع إن لم يجد من يحل محله فى إلفه ومودته وحياطته؛ ولذا نهى الإسلام عن قهر اليتيم، حتى لا يتربى فيه نزوع النفور، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى] وقال ﷺ: «خير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتييم، وشر بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتييم»^(١) وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى»^(٢).

وقال ﷺ: «من ترك مالا فلورثته، ومن ترك كلا فالى وعلى»^(٣) وهو اليتيم.

= المصلى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «أيها الناس تصدقوا فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء». ثم انصرف فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه فقيل: يا رسول الله هذه زينب فقال: أرى الزنايب؟ فقيل: امرأة ابن مسعود. قال: «نعم انذنوا لها» فأذن لها قالت: يا نبي الله إنك أمرت اليوم بالصدقة وكان عندى حلى لى فأردت أن أتصدق به فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم. فقال النبي ﷺ: «صدق ابن مسعود زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم».

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخارى: كتاب الأدب (٥٥٤٦). وقال بإصبعيه: أى أشار بهما يقرن بينهما، كما صرحت به رواية أحمد ومالك وغيرهما.

(٣) متفق عليه أخرجه البخارى: كتاب الفرائض - ميراث الأسير (٦٢٦٦) ومسلم: كتاب الفرائض: باب من ترك مالا فلورثته (٣٠٤٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلا فالينا». والكل: العاجز الفقير الذى يحتاج من يعوله ويدخل فيه اليتيم الذى هذه صفته.

(ج) والمرتبة التي تلي اليتيم في العطاء، هو المسكين وهو من أسكته الحاجة، وهذا يشمل الزَّمن أى المريض بمرض مع الفقر، وعدم القدرة على العمل، ويشمل أولئك الفقراء الذين لا يملكون شيئاً، ويتعففون عن أن يسألوا الناس، ولقد قال النبي ﷺ في ذلك «ليس المسكين هو الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين هو الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»^(١) وهو الذى ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ...﴾ (البقرة).

(د) والذى يلي المساكين ابن السبيل وهو الذى انقطع عن ماله، وصار فى مكان لا يجد فيه ما يمد به بأسباب الحياة من طعام يطعمه، أو مال ينفقه أو مأوى يأوى إليه؛ ولذلك أطلق عليه ابن السبيل؛ لأنه انقطع إلا عن السبيل الذى يسير فيه، وإن إتياء المال لهذا يكون بإعطائه ما يسعفه من قوت، وبإيوائه حتى يثوب، وإعطائه قدرا يصل به إلى بلده، ويصح أن يسهم فى إنشاء مضيف يأوى إليه أبناء السبيل الذين ينقطع بهم الطريق، ولا يجدون مأوى، ولقد قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، ومحمد الباقر: إن ابن السبيل هو الضيف الذى يتزل بالمسلمين، وهو لتعبير جدير بنى هاشم الأكرمين، فقد سماه ضيفاً يجب إكرامه.

(هـ) ويلى ابن السبيل فى المرتبة التى تؤتى المال على حبه فيها السائلون وهم الذين يسألون ما يقوتهم من طعام أو مال يشترون به قوتهم، وهم لهم حق على كل مسلم له غنى أو فضل مال، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٤)

= وجاء فى سنن أبى داود: كتاب الخراج - أرزاق الذرية (٢٥٦٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلَا هِلَةَ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلِيَ أَوْ عَلَى». والضيايع الأبناء والذرية الذين لا يجدون من يعولهم.

(١) روى مسلم: كتاب الزكاة: (١٧٢٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ» قَالُوا: فَمَا الْمُسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يَغْنِيهِ وَلَا يَفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا». وبنحوه النسائي (٢٥٢٥). ورواه أحمد عن أبى هريرة فى مسنده (٩٤٢٢).

لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ [المعارج] وقد روى الإمام أحمد عن الإمام الحسين أحد السبطين والثاني لسيدى شباب أهل الجنة^(١)، عن النبي ﷺ أنه قال: «للسائل حق وإن جاء على فرس»^(٢)، وإنه لا يرتكب مذلة السؤال إلا عن حاجة، ومن اللؤم أن تسأله عن مقدار حاجته.

هذا ما جاء عن رسول الله ﷺ، وقد كان هناك بيت مال يسد حاجة كل محتاج، ويبحث عن المحاويج ليعطيهم ما يغنيهم عن السؤال.

وكيف تكون الحال، ولا توجد أية ناحية تبحث عن المحاويج لتغنيهم عن السؤال؟! إنه يكون إعطاء السائل أهم وأوجب، ولكن من الناس من يمنع الماعون عن هؤلاء؛ بحجة أن هؤلاء لهم مال ويتخذون تكفف الناس حرفة يحترفونها، ويؤثر المنع على العطاء، بل إنهم يذهب بهم فرط مغالاتهم في المنع إلى أن يحرموا العطاء، ولا حجة لهم إلا ادعائهم أنهم محترفون، فهل فتشتم عن حالهم، ونقبتهم في بيوتهم، وكيف يفرون من أن للسائل والمحروم حقا معلوما كما في الكتاب السامي وقول النبي ﷺ فيما رواه أبو داود «للسائل حق ولو جاء على فرس»^(٣) إنهم يظنون الظن، ويحكمون به من غير أن يستيقنوا في الأمر شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(و) المرتبة الأخيرة التي تؤتى المال على حبه هم العبيد ليفك عتقهم، وعبر عنهم رب العالمين بقوله عز من قائل: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ والرقاب جمع رقبة، والمراد العبد الذي تعلق به الرق، وعبر عن الرقيق بالرقبة من قبيل التعبير بالجزء وإرادة الجميع، وعبر عنه بالرقبة؛ لأن الرقبة هي مظهر الخضوع حسا، إذ يطأطئ العبد رقبته، خشوعا وخضوعا، وكان تعبير القرآن عن الرقيق بالرقبة مثل قوله تعالى:

(١) روى الترمذى (٣٧٠١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه أبو داود: كتاب الزكاة - حق السائل (١٤١٨) وأحمد في مسند أهل البيت - رضى الله عنهم

(٦٤٠١).

(٣) سبق أنفا.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكُ رَقَبَةً ۚ﴾ [البلد] وقال فى
كفارة القتل الخطأ ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ...﴾ [٩٢] [النساء].

وقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أى يؤتى المال على حبه فى الرقاب أى فى فكها،
وذلك يشمل إعطاء المكاتب وهو الذى تعاقد مع مالكة على أن يعطيه ثمنه أو ما
تراضيا عليه على أن يعتقه، وقد أمر الله تعالى بالمكاتبة، فقال تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...﴾ [٢٣] [النور] وإيتاء المال بأن
يعطيه ما يستعين به على ما تعهد به لفك رقبة.

ويشمل الإعطاء فى الرقاب أن يشتري عبيدا ويعتقها، كما يشمل الإعتاق إن
كان له رقيق.

وإن إعتاق الرقاب من أحب ما يطلبه الله تعالى من عباده إليه؛ لأن فى ذلك
صيانة لكرامة الإنسان من الابتذال، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [٧٠]
[الإسراء] ولأن فى الحرية كمال الإنسانية وكمال التكليف الاجتماعى، ولأن فى
الحرية قوة وتحمل الأعباء وأن يكون جزءاً من المجتمع يسيره إلى الخير.

* ابتدأ سبحانه وتعالى فى ذكر الخلال التى يتكون من مجموعها حال البر
الذى هو غاية الغايات من الأديان الإلهية بالإيمان الجامع فى معناه، ثم ثنى ببيان
المحبة للخير والإنسانية بإعطاء المال عن رغبة ومحبة للمحاييج من الأقرب فالأقرب
من بنى الإنسان ثم ذكر التربية النفسية والاجتماعية فى الأحاد، والجماعات، فقال
تعالى حكمته: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

وإن هذه أمور تهذب النفس والمجتمع فى الأمة، ومجتمع الإنسانية فإقامة
الصلاة بأدائها على وجهها الذى شرعت له، وهو إخلاص النفس لله، وامتلاؤها
بذكر الله، والإتيان بها مستوفية الأركان من قيام وقراءة وركوع وسجود، واستشعار
خشية الله تعالى فى كل حركاتها، بحيث تكون النفس مستحضرة عظمة الله فى كل

حركة من حركاتها، وتلاوة للقرآن فيها، ويكون القلب مع الجوارح في معانيها، وتكون كلها ذكر لله تعالى وتفضى إلى غايتها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ [العنكبوت].

* وإيتاء الزكاة المفروضة، وهي التي تكون في المال النامي المنتج إذا بلغ نصابا مقدورا بنحو عشرة مثاقيل، أو يكون من أرض زراعية أو شجر مثمر، أو نحوهما بمقدار العشر صافيا من النفقات على ما هو مصرح به في كلام الرسول ﷺ، ومستنبط من جملة الأحكام التي قررها النبي ﷺ.

والزكاة يجمعها ولي الأمر وينفقها في مصارفها المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة] فولى الأمر هو الذي يجمعها، وهو الذي يوزعها.

وقد أجمع العلماء على أن في المال حقا غير الزكاة، وهو الذي أشار إليه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلى آخر النص الكريم في موضوع إيتاء المال على حبه.

وذلك لأن الزكاة مفروضة وموزعة بالحق وفي مصارف ثابتة منها الفقراء والمساكين وفي الرقاب، ومنها الغارمون وابن السبيل، وفي سبيل الله أولئك في نطاق علم ولي الأمر، أو ما يصل أمره إلى ولي الأمر، وفوق ذلك هناك واجبات غير الزكاة فإذا كان له ذوو قربي يحتاجون إلى ماله يكون إعطاؤهم واجبا غير واجب الزكاة، فإذا كان له أبوان فقيران فمن الإحسان إليهما الإنفاق عليهما، وكذلك ذوو قربي القربات القريبة.

ومن اليتامى من لا يعلم ولي الأمر حالهم فكل من يعرف يتيما يجب عليه أن يكرمه ويعزه، وكذلك أولئك المساكين المتجملون الذين لا يسألون الناس إلحافا تعففاً وتجملا، وأولئك لا يعرف أمرهم إلا الأقربون منهم، وأبناء السبيل حالهم تكون عارضة وتحتاج إلى إصلاح سريع، وسد حاجة، ومعاونتهم على إعادتهم.

ومن الناس من تضطربهم الحاجة إلى السؤال لصعوبة وصولهم إلى بيت المال، الذى يجمع الزكاة ويوزعها فى مصارفها، ومنهم من يكون فى صحراء بعيدا عن العمران فيكونون فى حاجة إلى الإسعاف السريع.

وكل هؤلاء وأولئك هم مصارف من يؤتى المال على حبه، والجزاء عند الله تعالى.

* وذكر الله سبحانه الوفاء بالعهد، وهو يشمل الوفاء بالعقود التى تعقد بين الناس فى بيوعهم وتجاراتهم والجماعات فى تعاملها.

وهى أظهر فى معاملات الدولة الإسلامية فى علاقاتها بغيرها من الدول والجماعات، فالوفاء بها تنظيم من الإسلام للعلاقات الإنسانية بين أهل الأرض، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤) [الإسراء] وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ اللَّهُ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٢) [النحل].

فالوفاء بالعهد قوة، وهو أساس التنظيم بين الدول، ولقد قال النبى ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة، وأعظم لواء غدره لواء أمير عامة»^(١).

* والأمر الأخير فى الأمور التى جعلها الله تعالى قوام البر الكامل - الصبر، وهو ملاك الأخلاق الإنسانية كلها، فما من خلق كريم إلا كان الصبر قوامه، وهو قوة يقين تعين على كل ما ذكر فى آية البر، فإيتاء المال على حبه يحتاج إلى الصبر، والصلاة والزكاة والوفاء بالعهد، كل هذا يحتاج إلى الصبر وضبط النفس، وقوة العزيمة.

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَةٍ» [رواه مسلم: كتاب السير - باب تحريم الغدر (٣٢٧٢)]. كما رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه.

وقد قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

وإن مقتضى النسق أن يقول سبحانه والصابرون بالعطف على الموفون بعهدهم إذا عاهدوا ولكن كان النصب على أنه مفعول لفعل محذوف هو أخص الصابرين فهي منصوبة على الاختصاص، لمعنى فى الصبر وهو واحد فى الفضائل وأفعال الخير السابقة.

وهنا يسأل سائل، إن الجمل السابقة متعاطفة فقوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ عطف عليها ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ فلماذا كان عند الكلام على الوفاء والصبر عبر بالوصف دون الفعل؟ والجواب عن ذلك فيما يظهر لى - والحقيقة عند منزل القرآن فعنده سر البيان الذى لا نسو إلى إدراكه - وهو أن إعطاء المال وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة أفعال مطلوبة فى ذاتها، وهى تتجدد آنا بعد آنا وإن كانت واجبة على الدوام، أما الوفاء فالفضيلة فيه أن يكون صفة دائمة لا أن يكون فعلا ثم ينقطع، بل يكون حلية يتحلى بها المكلف، وكذلك الصبر المطلوب فيه أن يكون صفة مستمرة تظهر فى كل أعماله من عبادات ومعاملات وأعمال، يصبر فى كل أمر يقتضى الصبر على النعماء فيرضى ويشكر، ويصبر على الشديدة فلا يفزع، ويصبر على الضراء فلا يثن.

وقد ذكر سبحانه وتعالى مواطن للصبر يختبر فيها النفس فلا تطيش ولا تضطرب؛ إذ الصبر ضبط النفس فلا تهلع ولا تتبرم ولا تجزع ولا تضطرب ولا تطيش. وقد ذكر الله الصبر فى البأساء وهى الشدة التى تنزل من فقر مدقع، ومن طاغية يطغى، ومن نوارل تنزل، كخسف أو ريح عاصف، أو سوء معاملة أو نحو ذلك مما يصيب الإنسان فى الحياة، والصبر فيها هو ألا يهلع، وأن يفوض أمره إلى الله تعالى، ويرجو كشف الغمة ولا تذهب نفسه شعاعا، بل يكون مالكا لنفسه مدركا بقلبه ومبصرًا بما يدفع عنه الأذى راجيا من الله تعالى العون فى هذه الشديدة النازلة.

والصبر فى الضراء، والضراء ما ينال الجسم والنفس من مرض عارض أو من مرض مزمن، أو من فقد عضو من الأعضاء أو إصابته، والصبر فى هذه الحال ألا يشكو ولا يئن ولا يئس من رحمة الله تعالى، روى أن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أما عبد من عبادى ابتليته فى فراشه فلم يشك إلى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، فإن قبضته فإلى رحمتى، وإن عافيته عافيته وليس له ذنب»^(١).

والموطن الثالث الذى يكون فيه الصبر، وفضله كبير لأنه يحمى الجماعة، وهو «حين البأس»، والبأس هنا هو الحرب وقال تعالى: «حين» إشارة إلى أن الحرب تحيى وقتاً بعد وقت، وليست مستمرة، وإن استمرت أمداً طويلاً تبدل الرجال بعد الرجال، ولا يحارب الجيش كله.

وأصل البأس الشدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ...﴾ [الأعراف] أى شديد، وسميت الحرب بأساً لما فيها من الشدة، وإن هؤلاء الذين كانت حالهم برا قد قرر تعالى حكمه فيهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

الإشارة الأولى والثانية إلى الذين اتصفوا بالبر، حتى كأنهم هم البر فى أعمالهم المؤلفة للقلوب، والمقربة للنفوس، وصفاتهم المثبتة لقوة الإيمان وحسن العمل، والإشارة إلى الأوصاف كما ذكرنا فيها إيدان بأن هذه الأوصاف هى علة الحكم وقد حكم الله تعالى الحكم وأكد به بضمير الفصل «هم»، وحكم لهم بحكمين مؤكدين: أولهما: أنهم صدقوا، والثانى: أنهم المتقون.

(١) ذكره القرطبى بتمامه فى هذا الموضع من تفسيره. [كتاب الجامع - ما جاء فى أجر المريض (١٤٧٥)].

وروى البيهقى (٦٥٨٠) والحاكم فى المستدرک (١٣٢٣) عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن وكلم يشكني إلى عواده أطلقته من أسارى ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وهم صدقوا فى إيمانهم بأن كان إيماننا ساكنا فى القلب، والنفس مذنة خاشعة، وصدقوا فى العمل، فكان عملهم منبعثا من إيمانهم، وصدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه، وصدقوا فى عهودهم إذا عاهدوا، وصدقوا فى الصبر من غير أنين ولا ضجر، ولا تملل ولا امتعاض، وصدقوا فى الحرب فلم يفروا يوم الزحف، وكانوا الصابرين من غير هلع ولا فزع، وطلبوا إحدى الحسنين النصر أو الاستشهاد، فكانوا بهذه الأعمال هم الصادقون.

والوصف الثانى هو التقوى، فهم المتقون الذين وضعوا وقاية بينهم وبين العذاب، وادرعوا بطاعته فيما أمر ونهى، وهو العزيز الحكيم.

البر فى القصاص

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى
بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّ
إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَى
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

هذا كلام فى البر أيضا، ذلك أن البر عمل موجب وعمل مانع، أو عمل يبنى الجماعات فيكون موجبا، وعمل يحميها فيكون حاميا مانعا، والأول تبين بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾ ﴿١٧٧﴾ [البقرة] إلى

آخر الآية، والآية التي نتعرض للكلام في معانيها الآن، هي لحماية الجماعة الإسلامية من الآفات التي تفتك في بنائها، وتحميها أيضا من الاعتداء وتفريق النفوس، وتأريث الأحقاد، فإذا كان من البر إعطاء المال على حبه للضعفاء، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصبر لأنه يؤلف القلوب، فمن البر أيضا الضرب على أيدي المفسدين، ومنعهم من أن يعيشوا في الأرض فسادا.

ولذا كانت آية القصاص في ترتيب التنزيل وراء آية البر؛ لأن كليهما في بناء الجماعات الإسلامية، ونفى ما يهدد بنيانها، وإن العرب في الجاهلية كانوا لا يقتضون من الجاني، وإنما يثأرون من القبيلة، والدماء فيهم لا تتكافأ في نظر العvisية الجاهلية، فإذا قتل رجل من عامة الناس رئيس قبيلة لا يقتل القاتل أو لا يقتفى بقتله، بل يقتل من يكافئ رئيس القبيلة، وقد يقتل بالواحد مئاة لكى يتكافؤوا مع من قتل، وهكذا كان قانون الغلب، وقانون العvisية لا قانون القصاص العادل هو الذى يحكم، وكان ذلك ناشئا من العvisية أولا، وفرض التفاوت ثانيا، والثأر الذى لا عدل فيه ثالثا.

جاء القرآن الكريم ليمحو هذه العادة الجاهلية، وإثبات أن الناس جميعا سواء، وأن المسلمين كما قال النبى ﷺ: «تتكاأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(١)، وفى ذلك إشارة إلى أنهم لا يكون أقوياء أمام من سواهم إلا بالعدل الذى لا يفرق بين شريف وضعيف.

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد: مسند المكشرين (٦٥٠٦) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وذكره، وبنحوه أخرجه أبو داود فى الجهاد (٢٣٧١) وابن ماجه: الديات (٢٦٧٥).

ورواه النسائى: كتاب القسامة (٤٦٥٠) من طريق أخرى قال: عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَالْأَشْتَرُ إِلَى عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْنَا: هَلْ عَهْدُ إِلَيْكَ نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً؟ قَالَ: لَا إِلَّا مَا كَانَ فِي كِتَابِى. هَذَا فَأَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ قَرَابِ سَيْفِهِ فَإِذَا فِيهِ: «الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ أَلَا لَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ بِعَهْدِهِ مَنْ أَحْدَثَ حَدًّا فَعَلَى نَفْسِهِ أَوْ أَوْى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». وأصله فى البخارى ومسلم. وقد سبق فى المقدمة.

وجاءت هذه الآية الكريمة لرد هذه العادة الآثيمة فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾، وَكُتِبَ معناها فُرضَ فرضاً مؤكداً مسجلاً، لا مرية فيه، والفرضية على الجماعة الإسلامية كلها، فيفرض على الحاكم أن يقتص من القاتل أو المقتول بشكل عام، وفرض على القاتل أن يقدم نفسه، وفرض على ولي الدم أن يطالب بالدم، أو يعفو حتى لا يُطْلَ دم قط في الإسلام، وفرض على الجماعة كلها أن يعين ولي الدم ليقصص القاضى من المعتدى، ولو كان ولي الأمر، فقد قرر الفقهاء على ضوء هذه الآية أن ولي الأمر، ولو كان الجماعة الأعظم إذا قتل شخصاً بغير حق، وأراد ولي الأمر القصاص وجب على الأمة مجتمعة أن تعينه على القصاص فإنه لا يُطْلَ دم قط في الإسلام كما قال إمام الهدى على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه^(١).

والقصاص مصدر قاص، وهو المساواة وتتبع الأثر، وقد كتبه الله تعالى بأن يؤخذ الجانى بما جنى، وتكون العقوبة مساوية للجريمة، وأساس الإسلام فى قواعد العامة، وإن ذلك هو العدل، وهو أردع للجانى؛ لأنه إذا علم أنه سينزل مثل ما نزل بالجانى، فإنه يتردد فى الارتكاب ثم يعدل، ولقد قال بعض علماء الاجتماع والقانون: إن العقوبة إذا اشتقت من الجريمة كانت رادعة إذ تجعل المجرم يحس بأنه نازل به مثل إجرامه.

وقد فصل الله تعالى حكم القصاص، فقال تعالت كلماته: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ أى الحر يقتل فى مقابل الحر، ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ والعبد يقتل فى مقابل العبد، ﴿وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ والأنثى تقتل فى مقابل الأنثى.

هذا هو العدل، وهو رد على الجاهليين الذين كانوا لا يسوون فى الدماء، فالعبد إذا قتل حراً من قبيلة أو الحر إذا قتل حراً من قبيلة، وكان الأول من دهماء

(١) جاء فى صحيح ابن خزيمة (٢٣٧٢) عن بشير بن يسار أن رجلاً من أهله يقال له ابن أبى حثمة أخبره: «إن نفراً منهم انطلقوا إلى خير ففترقوا فيها فوجدوا أحدهم قتيلاً، فقالوا للذين وجدوه عندهم: قتلتم صاحبنا، قالوا: يا رسول الله إنا انطلقنا إلى خير...». فذكر الحديث وقال فى آخره: «فكره نبي الله ﷺ أن يُطْلَ دمه ففداه بمائة من إبل الصدقة».

الناس، وكان الثانى من أشرافهم لا يقتل به بل يبحث عن يكافئه وربما لا يكافئه واحد، وذلك من العصبية الجاهلية، ومن نظام التفاوت الذى لا يزال يسرى بين الناس مقبياً، وإن كان مألوفاً.

وبين القرآن حال المساواة فى الوصف من حرية ورق، وذكرورة وأنوثة، ولم يذكر إذا اختلف الوصف أو الجنس بأن قتل الحر العبد، والعبد الحر، والمرأة الرجل، والرجل المرأة، وذلك لأن النص سيق لإبطال العادة الجاهلية التى كانت تقتل غير القاتل، وتتعدى القاتل إلى قبيلة، وغير الشريف فى زعمهم إذا كان هو القاتل إلى شرفائها، فرد الله تعالى زعمهم، وصحح الأمر فى هذا المقام بالقصاص العادل.

أما التساوى فى النفوس لا فى الأوصاف، فقد ثبت بقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ...﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ...﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وثبت أيضاً بقوله تعالى بعد أن ذكر قصة ولدى آدم حين قتل قابيل أخاه هابيل لأنهما قدما قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ...﴾ [المائدة: ٢٧] إلى أن قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ...﴾ [المائدة: ٣٠]، بعد هذه القصة التى تصور الاعتداء فى أقبح صورته، قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٣٢].

وقد تقرر بذلك القصاص على أساس تساوى النفوس، وعلى ذلك يقتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، والعبد بالحر، والحر بالعبد.

ولكن ترد هنا أسئلة من حيث شمول هذه الآية، والآيات التى تلونا للصورة الآتية:

أولاً: تكافؤ الدم بين المسلم والدمى، أيقتل المسلم بالكافر؟، قد اتفقوا على أن الكافر إذا قتل المسلم قتل به، ولكن كان الأكثرون على ألا يقتل المسلم بالكافر لما

ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقتل مسلم بكافر»^(١) ولعدم التكافؤ بين دم فى أصله مباح، ودم فى أصله حرام.

قال أبو حنيفة والثورى: يقتل المسلم بالكافر إذا قتله عمداً بمحدد؛ وذلك لأننا أخذنا عليهم العهد بأن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولأننا أعطيناهم العهد بحقن دماهم ولو لم يقتص لهم كان فى ذلك إخلال بالعهد، ولأنهم وقد عقدوا الذمة معنا صار دمهم حراماً كدمنا، ولأننا إذا وجد من يسرق الذمى قطعنا يده، ومؤدى ذلك أن ماله غير مباح فبالأولى دمه.

ثانياً: إذا قتل الحر العبد أقتص منه؟ قال جمهور الفقهاء: لا يقتص لأنهما ليسا سواء فالعبد مملوك والحر مالك ولأنه لا ند، والعبد شئ يقوم بقيمته فإذا قتل به الحر وهو ليس بمال لا يكون عدلاً، لأن الإنسان لا يقتل فى نظير مال.

ولكن قال الإمام أحمد ونفاة القياس والثورى وبعض الكوفيين: إن الحر يقتل بالعبد إذا قتله؛ لأنه نفس والإسلام جعل أساس القصاص المساواة فى النفوس، وقال عليه الصلاة والسلام: «النفس بالنفس» وهؤلاء الذين قالوا إن الحر يقتل بالعبد قالوا: إن المالك يقتل إن قتل عبده، لما ذكرنا، ولقول النبي ﷺ فيما رواه النسائي وأبو داود: «من قتل عبده قتلناه، ومن جده جدهناه، ومن أخصاه خصيناه»^(٢) وقد أخذ به البخارى وارتأى ما اشتمل عليه الخبر صحيحاً، فكان تصحيحاً ضمناً له^(٣).

(١) أخرجه البخارى: كتاب العلم (١٠٨)، والترمذى: الديات (١٣٣٢)، والنسائي: القسامة (٤٦٥٣)، وابن ماجه: الديات (٣٦٤٨)، وأحمد: مسند العشرة (٥٦٥)، والدارمى (٢٢٥٠) من حديث على - رضى الله عنه.

(٢) رواه النسائي بهذا اللفظ: كتاب القسامة (٤٦٥٥) وأبو داود. كما رواه الترمذى وحسنه، وابن ماجه والدارمى من غير «ومن أخصاه خصيناه» كلهم عن سمرة بن جندب. قال الحاكم فى المستدرک ج ١ ص ٤٠٨ (٨١٦٣): هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه، وله شاهد من حديث أبى هريرة.

(٣) قال البخارى: قال على بن المدينى: سماع الحسن من سمرة صحيح، وأخذ بحديثه: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ» وأكثر أهل العلم على أنه لا يقتل السيد بعبده. [راجع نيل الأوطار للشوكانى: الدماء - ج ٧ ص ٩].

ولما ورد عن النبي ﷺ من إكرام للرفيق، وفوق ذلك فإن الأساس هو المساواة فى النفس، وهى ثابتة فكان القصاص حقا على الحر إذا قتل عبدا، وعلى المالك إذا قتل عبده.

ثالثا: إذا قتل الجماعة واحدا فهل يؤخذون به؟ فجمهور الفقهاء أقروا على أنهم يقتلون به لأنه ما داموا قد اشتركوا فى القتل فقد قتل كل واحد منهم فيؤخذ بحكم القصاص، وإن تعددوا، وبهذا الاعتبار يكون التساوى لا بين الجماعة مجتمعين، بل بين كل واحد منهم، واستحق كل واحد منهم القصاص عليه.

ولأنه لو لم نقتل الجماعة بالواحد، لأهدرت الدماء، وإذا رأى واحد قتل شخص فقد تضافر مع غيره من الأثمين فيقتلون، وإن الآثار من الصحابة قد أقرت قتل الجماعة بالواحد، وقد روى عن الإمام عمر رضى الله تعالى عنه أن سبعة قتلوا واحدا، فقتلهم به، وقال كلمة حازمة: لو ثمالاً أهل صنعاء عليه لقتلتهم به.

وقتل على كرم الله وجهه جماعة من الخوارج لقتل عبد الله بن خباب بن الأرت، فإنه عندما أخبر الإمام على بذلك قال الله أكبر، فدعاهم وقال لهم: أخرجوا إلينا قاتل عبد الله، فقالوا: كلنا قتلناه، ثلاث مرات، فقال الإمام لأصحابه: دونكم القوم. فما لبث أن قتلهم.

واقص علي كرم الله وجهه بذلك من قتلة عبد الله بن خباب بن الأرت، هذا ما نرى أن الأخذ بالقصاص فى الآية ينطبق عليه، وثمة فروع فى القصاص تقتل الرجل ولده وعدم جواز القصاص بتركه، لأنه ليس تطبيقا للآية، ولكنه أخذ بحديث^(١).

والقصاص بإجماع الفقهاء كما قرر القرطبي فى أحكام القرآن يتولاه ولى الأمر بطلب ولى الدم، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء].

(١) راجع كتاب «العقوبة فى الإسلام» للمؤلف دار الفكر العربى.

العفو

والآية الكريمة فتحت باب العفو، وهو من سلطان ولى الدم، فقال تعالى:

﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

وفى هذا النص تحريض على العفو، لكيلا تنهار دماء المسلمين، ولكيلا تتأثر الأحقاد، ولينسل البغض ويعود التسامح بين المسلمين، ولأن جعل الحق للولى فى القصاص يرهب الجانى، وقد يكون القصاص ضارا لولى الدم، كرجل قتل أخاه، وولى الدم أبوهما فإنه إن كان القصاص، وأغلق باب العفو، فإن الأب المكلوم يفقد الولدين معا.

ولذلك كان من التخفيف والرحمة أن يكون حق القصاص قابلا للعفو، وإنه إذا كان العفو كانت الدية كما قال كثيرون من الفقهاء، ودل على ذلك قوله تعالى:

﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يدل ضمنا على وجوب الدية، ولقد قال ﷺ: «أيا عبد أصيب بقتل أو خبل - أى جرح - فله إحدى ثلاث: القصاص أو الدية أو العفو فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يدل على ثلاثة أمور:

أولها: التحريض على العفو بذكر الأخوة الرابطة التى لم يقطعها الاعتداء؛ لأنها برباط الله تعالى فلا يفكه العبد.

ثانيها: أن أى قدر من العفو يسقط القصاص، فلو تعدد الأولياء فى درجة واحدة، وعفا أحدهم سقط القصاص.

(١) عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصِيبَ بِقَتْلِ أَوْ خَبْلِ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَى ثَلَاثَ: إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ وَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابُ أَلِيمٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الدِّيَاتِ (٣٨٩٨) وَرَوَاهُ أَحْمَدُ (١٥٧٨٠) بِلَفْظٍ: «مَنْ أَصِيبَ بِدَمٍ أَوْ خَبْلٍ - الْخَبْلُ الْجِرَاحُ - فَهُوَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثَ: إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ أَوْ يَأْخُذَ الْعَقْلَ أَوْ يَعْفُوَ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، فَإِنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ عَدَا بَعْدَ قَتْلٍ، فَلَهُ النَّارُ خَالِدًا فِيهَا مُحْلَكًا». وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَه (٢٦٢٣)، وَالدَّارِمِيُّ (٢٢٤٥).

ثالثها: أن التعبير بالبناء للمجهول يدل على تلمس العفو.

ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

أى إذا كان العفو، فالأمر ينتقل من إراقة دم جديد إلى أن يكون اتباعا للقاتل من غير إرهاب بالملازمة، بل بالأمر الذى لا يستنكر فى العرف وتتعاون أسرة القاتل فى أدائه من غير غيباب، وهذا من جانب ولى الدم، ومن جانب القاتل وأسرته يكون الواجب هو الأداء بإحسان، أى تكون نفوسهم سمحة، ويؤدون الدية فى مواقيتها من غير لي، والإحسان الإجابة والإتقان وهو فى مثل هذا المقام يكون بالمسارعة فى الأداء والسماحة ولا مانع من الزيادة تطييباً للنفوس المكلمة.

والنص الكريم يفيد بالإشارة إلى أن الدية بدل من القصاص عند العفو، ولذلك ذكرت مرتبة عليه، وكأنه إذا كان العفو تنتقل من القصاص صورة ومعنى بقتل القاتل، إلى القصاص معنى وهو الدية، فالقصاص ثابت فى الحالين، وإن اختلف الشكلى.

ولقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الإشارة إلى العفو بعد وجوب القصاص، فهو تخفيف من عنف القتل قصاصا، الذى يفرع النفوس، ويزعج وهو قاس؛ إذ يقدم للقود فى وقت لا يكون فيه انفعال مغيظ محقق، بل فى صبر وأناة، وذلك يكون أشد وأعنف، وفيه رحمة بالجاني، إذ خرجت رقبته من القتل الذريع إلى الفداء بمال، ورحمة بالعافى إذ به يتخلص من الأحقاد، وأضعافها، وقد يكون فيه رحمة خاصة بأسرته، على النحو الذى ذكرناه، ورحمة بالامة لكونه بدل أن ينقص عددها اثنين ينقص إلى واحد، وبدل أن تتبادل الدماء تنتهى المعركة.

وإن ذلك لا يسوغ الاعتداء ولا يسهله، ولا يفتح الباب لاعتداء جديد، بعد أن أفلتت الرقبة من ضرب سيف قاطع، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى فمن اعتدى بعد العفو والدية، وبعد شرعية القصاص العادل، فله عذاب أليم فى الدنيا، وله عذاب أليم أى مؤلم فى الآخرة، ولقد فهم بعض الفقهاء

أن عذابه فى الدنيا أن يحرم من رحمة العفو، وتحقيقه؛ ولذلك قرر كثيرون من الفقهاء أنه إذا عاد المعفو عنه فى قصاص إلى القتل مرة أخرى، فإنه يكون من المفسدين، فيقتل حداً وليس قصاصاً، وذلك لأنه قد يكون من الشُّطَّار الذين اعتادوا الاعتداء على الأنفس، وإرهاب النفس، ويكون عفو الولي رهبة منه لا رغبة، فعندئذ يكون القتل لمنع فساد، ولقطع طريق الشر، ولذلك لا يكون محلاً للعفو إذ يكون تمكيناً من الشر.

وهنا نلاحظ أن فتح باب العفو، وأن يكون القصاص بطلب ولى الدم يخالف القوانين القائمة على أن جريمة الدماء تكون اعتداء على الجماعة، ويكون المجنى عليه شاهداً، وليس صاحب الحق الأول، وإن العدل هو فى النظرية الشرعية التى تعتبر الجريمة ابتداء متجهة إلى أسرة المجنى عليه، وعن طريقها تتجه إلى الجماعة، وذلك تمكين للأسرة من أن تنال حقها، وردع للأشرار عن طريق القصاص، أو التمكين منه، ويكون منعا للثارات والفساد فى الأرض، والعقوبة واحدة، القصاص صورة ومعنى أو صورة فقط، ولا يفتح باب للتخفيف من عقوبة أشد إلى أخف منها إلا بإرادة المجنى عليه، فيكون ذلك أمنع له من أن يفكر فى ثأر، أو يكون فى نفسه غيظ مكظوم دفين.

وإن شرعية القصاص على النحو الذى ذكره القرآن الكريم فيه حفظ للأنفس، وإشاعة للطمأنينة فى النفوس وإرهاب للعصاة المتمردين على المجتمع، وإحساس بالراحة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وإن هذه الكلمات السامية أبلغ تعبير عن آثار شرعية القصاص فى الأمة.

والقصاص كلمة عامة يشمل القصاص فى النفس الذى اختصت به آية القصاص، إذ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أما فى هذه الآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فإن القصاص يشمل النفس والأطراف والجروح، كما قال تعالى فى سورة المائدة، بل يشمل القصاص فى الضرب واللطم على ما حققه فقهاء السلف، وأخذ به الإمام أحمد.

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ تعميم للقصاص مع تعريفه بآل التي تفيد الاستغراق، وتنكيره لكلمة حياة، والتنكير هنا للتعظيم، أى حياة سعيدة هادئة مطمئة خالية من عبث السفاكين، واعتداء المعتدين واستهزاء المستهزئين هى حياة كريمة تظهر فيها الفضيلة، وتختفى فيها الرذيلة؛ تحترم فيها الحقوق، وتحقق فيها الواجبات؛ يقام فيها العدل، ويختفى فيها الظلم، ويتحقق الاجتماع، ولا يكون التناذب والافتراق فلا شيء يربط الحياة بين الجماعات والآحاد سوى العدل والحق.

وكلمة الله السامية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ اشتملت على إيجاز القصر البالغ إلى ما لا يصل إليه إلا كلام رب العالمين، ولقد كان هناك مثل سائر فى العرب، يقولون إنه أبلغ الكلام فى إيجازه، وأعمقه فى أدائه، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل»، وعقد بعض العلماء موازنة بينها، وبين الجملة السامية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وقد استنكر ابن الأثير هذه الموازنة؛ لأنه لا يوزن كلام الله تعالى بكلام أحد من الناس، وعقد هواة الموازنة ربما يكون فيها تنزيل من مقام المعجز الذى لا يستطيع أحد من البشر أو الجن أن يأتى بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وإن الموازنة انتهت بأنه لا يمكن الماثلة بين كلام العرب وكلام الله تعالى، وأنه بالنظرة العابرة نرى كلام الله تعالى فى مكانة وكلام العرب فى دركه، فنجد أولا التكرار فى لفظ «القتل أنفى للقتل»، ولا تكرار فى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ونجد أن الآية تدل على القصاص العادل، و«القتل أنفى للقتل» لا تدل على القتل العادل، بل تدل على مجرد القتل، ونجد أن القصاص يشمل القتل وقطع الأطراف، بينما كلمة العرب لا تدل إلا على القتل فقط، ونجد أن لفظ العرب لا يدل على حياة الجماعة، بينما أن النص القرآنى السامى لا يدل فقط على نفي القتل بل يدل على قيام الحياة الكريمة من هذا القصاص العادل، وإن المقابلة بين القصاص والحياة الكريمة تبين منزلة العدالة فى القصاص.

وهكذا نجد أوجه الإعجاز في هذا الإيجاز بما لا يمكن أن يصل إليه كلام مهما بلغت مكانته من البيان عندهم، فهي بلاغة تليق بكلام الإنسان، وتتقاصر عن أن تصل إلى كلام الديان، وكلام الناس يجرى في مساره، ولا يصل إلى برج القرآن الأقدس، تعالت كلماته وتعالى منزله.

ولقد قال تعالى مخاطبا الذين يدركون مافى القصاص من ثمرة وهي الحياة العزيزة الآمنة الطاهرة من رجس الآثام وفسق الفساق واعتداء المعتدين، فقال تعالى: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الألباب جمع لب وهو العقل المدرك الذى لا يكتفى فى إدراكه بمظاهر الأمور، فهؤلاء أصحاب الألباب التى تغوص إلى الحقائق فتدركها.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ولعل هنا للرجاء والرجاء من الناس لا من الله تعالى، فالتقوى منهم وهو سبحانه وتعالى يتقبلها ويقرب بها عباده إليه سبحانه وتعالى، والتقوى رجاء من عند الله تعالى أن يتقوا بها عذاب النار وأن يتقوا فى جماعتهم كل ما يفرقها، ويعملوا على أن يقوا من شر فسق الفاسقين واعتداء المعتدين والله سبحانه وتعالى ولينا، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الوصية فى الأسرة

كُتِبَ عَلَيْكُمْ

إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ

بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ

عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

بعد أن بين سبحانه بناء الجماعة الإسلامية بما ذكره في آية البر، وبين حماية الجماعة الإسلامية من آفات المجتمع من الاعتداء والتفريق بالقصاص بين سبحانه وتعالى بعض أحكام الأسرة التي تربط بينها بعد الوفاة، وبين في آية البر إيتاء ذوى القربى فى حياته، وفى هذه الآية يبين سبحانه وتعالى الوصية بالإيتاء بعد وفاته.

فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وقد قال بعض الفقهاء مناسبة الآية بعد آية القصاص فوق ما ذكرنا أن آية القصاص تفيد أن للولى أن يقتص فيكون هذا الذى يقتص منه قد حضرته الوفاة، فكان له أن يوصى، بما يوصيه، إذ قد حضره الموت، فيجب عليه أن يوصى، إن ترك خيرا.

وهذه أول آية ذكرت فيها الوصية، وقد ذكرت بعد ذلك فى توزيع الميراث، وأنه يكون بعد وصية يوصى بها أو دين، ثم ذكرت فى آخر المائدة عند الشهادة عليها، إن حضر الموت وهو فى سفر.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ إلى آخر الآية، كُتِبَ تدل على الفرضية المؤكدة مما يؤكد به القول عادة وهو الكتابة المقيدة المسجلة.

وقد قال بعض الفقهاء: إن الوصية لمن كان عنده مال يسمى «خيرا» تكون واجبة، وقد احتجوا بما روى عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصى به فيه بيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»^(١) وإذا استدل على هذا بأن ذلك إذا أراد الوصية، فإذا لم يردها لا جناح عليه إذا لم يوص ولم

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الوصايا (٢٥٣٣) ومسلم: الوصية (٣٠٧٤) عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما.

يكتب، فنقول إنه بعد ذكر صيغة الوجوب، وهى «كتب» الدالة على الفرضية يكون الحديث دالا على الكتابة تنفيذاً للفرضية وتأكيذاً لها، وتثبيتاً، وقال الأكثرون الوصية ليست واجبة فى غير الودائع، والديون التى عليه، والصدقات التى وجبت ولم يؤدها، وقد اتفق الفقهاء على وجوب الوصية فى هذه الأمور التى تكون حقاً عليه، ولم يَقم بأدائه فى حياته فيوصى به بعد وفاته.

والظاهرية من نفاة القياس قرروا أن الوصية واجبة بظاهر الوجوب فى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ وأنه إن لم يَقم بذلك كان للقاضى أن يأخذ قدراً من الوصية يعطيه لمن يستحقه أى قدر كان.

وقد علق تعالى طلب الوصية على وجود قدر من المال يسمى «خيراً» فقال تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وما المراد بالخير؟ قال بعض العلماء: إن أى قدر من المال خير، لأن الله تعالى سماه خيراً فقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة] وإن المال القليل يطلق عليه إنه خير؛ ولذا قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص] وإطلاق كلمة خير على المال قل أو جل لأنه سبيل للخير، وخلق المال لجلب الخير، ودفع الضرر.

وروى عن كثير من الصحابة أن الخير المراد به فى الآية الكثير كثرة نسبة النسبة لحال الورثة وعددهم، روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن رجلاً قال لها: إني أريد أن أوصى، قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف درهم. قالت: فكم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وهذا شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل لك^(١).

(١) عن أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - قالت: قال لها رجل: إني أريد أن أوصى، قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، فقالت: قال الله سبحانه: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ...﴾ [البقرة] وإن هذا شيء يسير، فاتركه لعيالك فهو أفضل. [رواه البيهقى فى السنن الكبرى: باب من استحب ترك الوصية إذا لم يترك شيئاً كثيراً (١٢٢٧)].

وروى أن علياً كرم الله وجهه دخل على رجل يعوده، فقال الرجل: أوصى؟ فقال الإمام كرم الله وجهه: «قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لأولادك»^(١).

ويفهم من هذا أن المراد بالخير المال الكثير، وتقديره نسبي بحسب حال الورثة وحاجتهم وعددهم؛ ولذلك اختلف الصحابة في تقدير الكثرة فمعظمهم قدرها بما فوق الستين ديناراً، وقدرها بعضهم بثمانين ديناراً فأكثر، وروى عن قتادة أنه قال: ألف فما فوقها، أى من الدراهم. وهكذا نرى أن الكثرة من علماء الصحابة فسروا الخير بأنه المال الكثير الذى يتناسب مع حاله وحال ورثته وعددهم وأن أحداً من الصحابة لم يفسره بأنه أى مال.

ولم يقدر مقدار الموصى به، ولا دليل على تقدير قدر معين له، وقد ترك التقدير لتحقيق كلمة بالمعروف، أى الأمر الذى لا تستنكره العقول، وتعرفه وتقر به، وتعبير القرآن الكريم فى قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يدل على ما لا يستنكر فى العرف والعادات، المستقيم الذى يضع الأمور فى مواضعها ويزنها بميزان الحق.

وقوله تعالى: ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقد ذكرنا معنى بالمعروف، وقد كان النصب يوجب على من يقول بالوجوب الوصية للوالدين والأقربين وذكر الوالدين أولاً؛ لأن الله تعالى أوصى بالإحسان إليهما وأكد الإحسان ولو كانا مشركين وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...﴾ [لقمان].

والأقربون من الأقارب هم الذى تدنو قرابتهم أكثر من غيرهم كالإخوة والأخوات والأبناء والبنات، وغيرهم من ذوى العلاقات المباشرة بالقرابة كالعم وابن الأخ.

(١) رواه البيهقى: كالسابق (١٢٧٢٦) عن هشام بن عروة، بلفظ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ...﴾ [البقرة] وَأَنْتَ إِنَّمَا تَدْعُ شَيْئًا يَسِيرًا، فَدَعُهُ لِعِيَالِكَ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ.

وهنا يثور بحث أيوصى لها وجوبا بالمعروف، ولو كان لهم ميراث مقرر فى آية الموارث، والميراث فريضة محكمة، وقد قال النبى ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث»^(١).

لقد قال الأكثرون من الفقهاء: إن هذه الآية إنما يؤخذ بها إذا كان هؤلاء غير وارثين كما كان الأمر فى أول الإسلام إذا أسلم وأبواه مشركان، وكما كان من بعد من تراحم الورثة أو تقديم بعضهم على بعض، كأن يكون له أخت شقيقة أو لأب، وله ابن، فإن الأخت لا ترث وهى من الأقربين، وكذلك أخوه؛ لأن الابن حجبته فى الحال إذا كان الأخ ذا حاجة كمتقدم السن فإنه يوصى له.

ولذا قال هؤلاء الغلبة من الفقهاء إنه يجمع بين آية الوصية وآية الموارث وتكون آية الميراث مخصصة لآية الوصية بأنها فى غير الوارثين من الأقارب.

هذا ما عليه الجمهور العظمى من الفقهاء، ولا يقال إن آية الميراث نسخت آية الوصية؛ لأنها بقيت شريعتها فى غير الوارثين، وهى فى ذاتها سير لما عساه يكون من حاجة عند بعض الأقارب الأقربين الذين لم يصل إليهم تقسيم الميراث ويكون هذا هو العدل، وهو البر والرحمة بذوى قرياه.

ويرى بعض الفقهاء أنه لا تعارض لا فى الكل ولا فى الجزء بين آيات الميراث، وآية الوصية، فأية الوصية فى الثلث يوصى به لمن يراه أشد حاجة وأقوى

(١) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فى خُطْبَتِهِ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ. الْوَلَدُ لِلْفَرَّاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ التَّابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. لَا تُنْفَقُ امْرَأَةٌ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا الطَّعَامُ؟ قَالَ: «ذَلِكَ أَنْفَضَ أَمْوَالَنَا»، ثُمَّ قَالَ: «الْعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالْمَنْحَةُ مُرَدُّودَةٌ، وَالذَّيْنُ مُقْضَى، وَالزَّعِيمُ غَارِمٌ». رواه بهذا اللفظ الترمذى: كتاب الوصايا (٢٠٤٦) ورواه أبو داود مختصراً: كتاب البيوع (٣٠٩٤) ورواه ابن ماجه بلفظ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فى خُطْبَتِهِ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ».

قراية، والميراث في الثلثين، ولقد قال ﷺ: «إن الله تصدق عليكم في آخر أعماركم بثلث أموالكم فضعوه حيث شئتم»^(١).

ولقد قال ذلك القول من الشيعة الجعفرية، وقالوا: إنه حديث «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث إلا بالثلث». ولعلمهم عللوا ذلك بأن بعض الورثة ربما لا يسد نصيبه حاجته، فالأخ قد يكون ذا متربة فلا يسد نصيبه حاجته، وقد يكون أحد الورثة زمنا مريضاً بمرض لا يرجى البرء منه، وهو في حاجة إلى أكبر من نصيبه، فيوصى له بما يكمل حاجته وقد شرع الله تعالى الوصية لتكميل ما عساه يكون في توزيع الميراث من رأب يجب سده.

وقد أخذ القانون المصري برأى الإمامية في جواز الوصية.

ونقول إن الاعتبار في حال الأخذ بجواز الوصية للوارث أن يكون ذلك بالأمر المعروف الذي لا يستنكره الشرع ولا يستنكره العقل، فإن فعل فقد ارتكب إثماً، فلا يوصى لابنه الغنى، أو الذي يكون من الزوج المحبوبة ويترك الآخر، وقد قال النبي ﷺ: «سووا بين أولادكم»^(٢) أو يوصى لابنه، ويترك ابنته فإن الوصية للوارث مهما يكن مبررها هي مخالفة للميراث، أو استثناء من أحكامه ويستقيم الاستثناء إذا كان في بر وعدل، لا في قطيعة وإثم.

وإن القاعدة الشرعية في الأمور الاستثنائية أو الاستحسانية التي تجيء على خلاف القاعدة أن تكون مكملة للقاعدة أو الأصل العام والباعث عليه، غير مناقضة له.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ عِنْدَ وَقَاتِكُمْ بثلث أموالكم زيادة لكم في أعمالكم» [رواه ابن ماجه: كتاب الوصايا: الوصية بالثلث (٢٧٠٠) وأحمد عن أبي الدرداء (٦٢٢١٠) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بثلث أموالكم عِنْدَ وَقَاتِكُمْ».

(٢) عن الشعبي قال: سمعت النعمان (هو ابن بشير) على منبرنا هذا يقول: قال رسول الله ﷺ: «سووا بين أولادكم في العطية، كما تحبون أن يسووا بينكم في البر» [شرح معاني الآثار: كتاب الهبة والصدقة ج ٤ ص ٥٨].

ولقد أكد سبحانه طلب الوصية، فقال تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وحقا في الآية مفعولا لفعل محذوف يقدر بما يناسب القول أو الحكم، فيقدر مثلاً يجعلها الله حقا، أو أوجبه حقا على المتقين.

وإن اقتران حكم الوصية الدال على وجوبها للوالدين والأقربين يومئ إلى أنها محكمة لا تنسخ؛ لأن الله تعالى لا يؤكد حكما جرى فى علمه المكنون أنه سينسخه ذلك التأكيد.

وهو يدل على الوجوب ويؤكد، وذكر الوجوب على المتقين للإشارة إلى أنهم الذين يطيعونه اتقاء غضب الله سبحانه وتعالى وابتغاء رضوانه، وإلى أنهم يسارعون بإجابه، وأنهم ينفذون فى دائرة المعروف غير المنكور.

وإن الوصية تكون عطاء من رجل فإن يتركها لمن بعده من ذوى قرابته أو الاتصال به، وهى تكون وديعة بين أيديهم، هى وديعة ذلك المتوفى الذى صار لا يملك من أمره شيئا، وهى أيضا وديعة السله إذا كانت فى سبيل الخير الذى يرضاه الله تعالى؛ ولذا نهى الله تعالى عن تبديلها، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وهذا يدل على أن التبديل إثم ممن يقع منه التبديل سواء أكان وصيا فى التركة أم كان وصيا على الورثة الضعفاء أم كان شاهدا، أم كان قد أودع الوصية، وبعبارة عامة، كل من يكون فى قدرته التبديل والتغيير فى موضوعها، أو فى مقدارها، أو فى مستحقها، ولا يقال إن التبديل من الموصى نفسه للسياق؛ إذ يقول ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾، أى القول الدال على الوصية، والموصى لم يسمع القول بل قاله، متفق عليه أن الموصى له أن يغير فى الوصية، ويبدل ما دام حيا؛ لأنها تصرف غير لازم، ولا تنفذ إلا بعد وفاة، ولا يأنثم إلا إذا غيرها من خير إلى غيره، ولا يكون الإثم إلا من قصد الشر.

وكان التبديل إثما لأنه خيانة للموصى الذى استودعه أسراره، ولأنه اعتدى بغير وبدل فيما لا يملك التغيير، ولأنه كشاهد الزور الذى يشهد بغير ما يعلم أنه الحق، ولأنه يفوت الخير المعروف الذى قصده الموصى بوصيته.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ الفاء هنا واقعة فى جواب الشرط، و«إنما» دالة على القصر، أى فإن الإثم واقع على الذين يبدلون، وليس على الموصى وزر فيما فعلوه، فقد احتسب الخير ونواه، وأراد تنفيذه، وليس عليه وزر الذين غيروا وبدلوا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ بواو الجمع، وقد يكون الذى غيره واحداً، للإشارة إلى أن ذلك التغيير عادة يكون من الورثة الذين يريدون أن يغيروا إرادة المورث، ففى التعبير بواو الجماعة إشارة إلى ائتمار منه ولا ينسب إلى واحد يتحمل وحده الوزر، بل يتحملون جميعا الوزر.

ولقد هدد الله تعالى أولئك المغيرين المبدلين المناعين للخير، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى سميع لأقوالهم التى غيروا بها وبدلوا، ومنعوا الخير عن صاحبه، وعليم بكل شىء، عليم بالوصية الحق التى كتبها الموصى، وعليم بمن غير وبدل وهو المتصف بالعلم الكامل، وهو الذى أحاط بكل شىء علما سبحانه وتعالى.

وإن ذلك إنذار شديد لمن يغير.

وقد أكد سبحانه الكلام بأن المؤكدة، والجملة الاسمية، وذكر اسم (الله) سبحانه وتعالى العالم بكل شىء.

وإنه قد يكون الموصى ظالما، أو ميالا لظلم، أو يريد إثما لوصيته كمن يوصى فى موضع، أو يعين فى وصيته على إثم فهل تنفذ هذه الوصية، وهل يجوز تغييرها؟ قال الله تعالى فى ذلك: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

الخوف يكون فى الأمر المتوقع فيخاف أن يقع، فتقول أخاف أن تفعل كذا، إذا كنت تتوقع الفعل المخوف، كما قال يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ...﴾ (١٣) [يوسف]، أو رأيت بواوارة من قول أو فعل أو نحو ذلك، والجنف الميل إلى ناحية

الظلم، وهو ضد الخنف فهو الميل إلى ناحية العدل فقله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ معناه من خاف من موص ميلا إلى ظلم، أو توجهها خطأ إلى ظلم أو إثما مقصودا فأصلح بينهم أى بينه وبين ورثته وحمله على الاتجاه إلى العدل والخير، أو قصد إثما بأن أوصى لبيه دون بناته أو أراد أن يوصى فى معصية، أو فى ناحية لا خير فيها، فحملوه على اختيار ما لا معصية فيه ولا ظلم، فإنه لا يكون عليه إثم، كإثم التبديل؛ لأنه ما بدل إنما الذى بدل الموصى، وله فضل الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر وفضل الصلح والصلح خير، وفضل منع الظلم، ومنع الظلم خير لا شك فيه.

وإن مثل هذا عمل عام يجب القيام به على عامة المؤمنين، وإن قام به البعض سقط الحرج عن الباقيين، وإنه يجب على والى الحسبة القيام بالإصلاح فى هذه الوصايا التى تجنف لإثم والقاصدة الإثم.

وإذا كانت الوصية فيها جنف لإثم أو تعتمد لإثم، ومات الموصى مصرا عليها، كأن يوصى لغير قرابته، وهم أغنياء، وفى قرابته فقراء فإنه إن حولت الوصية إلى فقراء ذوى قربا كان أولى لأنها عدلت إلى خير.

وقد روى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أن معنى الآية من علم بعد موت الموصى جنفاً أو تعتمد إيذاء بعض فأصلح ما وقع من الإثم وما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إثم أى لا يكون إثم التبديل، بل يكون له ثواب الإصلاح، وروى النسائي أن رجلا أعتق ستة مملوكين عند موته، وليس له مال غيرهم فبلغ ذلك النبى ﷺ، فغضب من ذلك وقال: «لقد هممت ألا أصلى عليه»، ثم دعا مملوكيه فجزأهم ثلاثة أجزاء، ثم أقرع بينهم، فأعتق اثنين وأرق أربعة^(١)، وقد أخرج مسلم هذا الحديث.

(١) رواه بهذا اللفظ عن عمران بن حصين النسائي: كتاب الجنائز - باب من يحيف فى وصيته (١٩٣٢)، ورواية مسلم عنه أيضا بلفظ: «أَنَّ رَجُلًا أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلُوكِينَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرُهُمْ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَزَأَهُمْ أَثْلًا، ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً، وَقَالَ لَهُ قَوْلًا شَدِيدًا». [كتاب الأيمان - باب من أعتق شركا له فى عبد (٣١٥٤)].

وقد اشترط في نفاذ الوصية ألا يكون فيها مضارة، فلقد قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ...﴾ (١٢) [النساء] وقرر مالك أن كل وصية فيها مضارة تكون باطلة.

هذا وقد اتفق الفقهاء على أن الوصية بمعصية تكون باطلة، وكذلك الوصايا التي يكون الباعث عليها معصية من المعاصي كان يوصي لخليلته لتبقى معه على العشرة الحرام، وإن تكلموا في مدى قوة الباعث.

وفي الجملة إن الآية الكريمة تدل على أنه لا إثم على من بدل وصية آئمة فحولها إلى الخير، أو أبطلها إن لم يمكن تحويلها، وإن ذلك يكون للقضاء أو لوالى الحسبة.

ولأن التبديل لا يكون في دائرة الإثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى بالغ الغفر؛ غفار للموصي أن هم وعدل، وغفار لمن أصلح ونجح، ولا يَأْثُم من غيّر بعد الوفاة، وحولها من جنف إلى عدل، وأن الله يرحم الموصي ويرجى ألا يؤاخذ ما دام لم يتم ما أقدم عليه، وقد أكد سبحانه الغفران والرحمة بصيغة الغفور الرحيم، وبيان المؤكدة، وبالجملة الاسمية. اللهم اجعلنا ندخل في غفرانك، ونحن في رحمتك.

الصوم

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الصَّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ

لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ
 رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ
 وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
 فَلْيُصِمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
 أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
 الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا
 هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

ذكر الله تعالى في آية البر، أن من البر إتيان المال مع حبه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأشار إلى الجهاد، ولم يذكر الصوم والحج، وقد ذكر هنا الصوم، وسيذكر من بعد الحج في محكم آياته، وبذلك تجتمع الأركان الخمسة التي هي عماد الإسلام، وهي الإيمان بالله وشهادة أن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وقد بين الله تعالى صوم رمضان في هذه الآيات الكريمات التي تلونها وتتكلم في معناها الآن، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كتب بمعنى فرض لأنه قرره الله تعالى، وكتبه حتى صار مكتوباً على المؤمنين، وقد أكد سبحانه الفرضية بقوله تعالى عليكم، وبأنه شريعة النبيين أجمعين؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وأنه سبيل لتقوى النفس، ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ وذكر أنه أياماً معدودات معروفة القدر، مبينة الابتداء والانتهاء، وقد بينها سبحانه وتعالى في قوله تعالت كلماته: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.

والصوم فى اللغة الإمساك، وذلك كقول مريم فيما حكى القرآن: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦) [مريم]، والصوم فى المعنى الدينى القرآنى الظاهر هو الإمساك عن الطعام والشراب، وعن النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس كما قال تعالى فيما سيأتى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...﴾ (١٨٧) [البقرة] بهذا النص الكريم يحد الصيام من طلوع الفجر، حتى يدخل الليل وذلك بغروب الشمس.

كتب الصوم على الذين آمنوا فهو فرض مؤكد، وقد قال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من أهل الديانات السماوية كديانة موسى عليه السلام، وديانة عيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتشبيه كما قال معاذ بن جبل من فقهاء الصحابة رضى الله تبارك وتعالى عنهم: التشبيه واقع على أصل الصوم، لا على صفته وعدد أيامه. وهذا يكفى فى التشبيه فهو يثبت أن الصوم شريعة فى الشرائع السماوية كلها، وهذا يدل على كمال فرضيته، وأنه لا يختص بالمسلمين وحدهم بل يعم الديانات السماوية كلها.

وقد بين الله تعالى حكمة شرعيته الأزلية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى رجاء منكم لأن تصلوا إلى درجة المتقين، فتتقوا المعاصى، وسيطرة الأهواء والشهوات على نفوسكم؛ وذلك لأن الصوم يربى النفس على الضبط، والاستيلاء على أهوائها وشهواتها وحيث قويت الإرادة قوى سلطانها على الالتواء وعلى الشهوات؛ ولذلك كان من آدابه المكملة له أن يمتنع عن المحظورات كلها فلا يسب ولا يقول الزور، ولا يعمل به، ولا يجترح المنهيات بلسانه، ولقد قال النبى ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه»^(١) وقال

(١) أخرجه البخارى: كتاب الصوم (١٧٧٠) عن أبى هريرة - رضى الله عنه -، كما أخرجه الترمذى وأبو داود وابن ماجه وأحمد.

ﷺ: «الصوم جنة»^(١) وإن الصوم بهذه المعاني الجليلة المهيبة للنفس الضابطة للإرادة كان من أعظم العبادات عند الله تعالى؛ ولذا روى عن النبي ﷺ عن ربه: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به»^(٢)، وكان الصوم من بين العبادات مختصاً بأنه لله تعالى وحده؛ لأنه تجرد روحى، وانخلاع من الأهواء والشهوات وعلو بالنفس الإنسانية عن العالم المادى وشهواته وهو سر بين العبد وربّه.

وحدّ الله سبحانه وتعالى مقدار الصوم بأنه أيام معدودات ليست كثيرة، ولا مرهقة، ولكنها فى مؤداها جليلة وهذه الأيام المعدودات التى لا تتجاوز الحسبة هى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان.

وإن الصيام فى هذه الأيام المعدودات فرض، رخص فيه لذوى الأعذار أن يفطروا ويؤدوا بدل الأيام ولذا قال تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ».

العدة العدد من الأيام، وقال أحمد: إن هذه العدة تبتدىء من وقت قدرته على الصوم بعد رمضان، وأوجب الشافعى أن تكون فى السنة التى يكون فيها رمضان، وقال أبو حنيفة: إن القضاء واجب على التراخى وهو يقدر، ويحسن أن يكون عند القدرة، والمرض الذى يبيح الإفطار قسماً: أحدهما - المرض الذى لا يسع المريض فيه أن يصوم قط، وهذا بالاتفاق يسوغ الإفطار والقضاء، والقسم الثانى - مرض يمكن معه الإفطار والصوم، ولكن الصوم يكون بمشقة زائدة عن المعتاد من المشقات

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: باب فضل الصوم (١٧٦١)، ومسلم (١٩٤٣) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - بلفظ: «الصيام جنة»، وفى بعض رواياته عند الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وأحمد، والدارمى بلفظ: «الصوم جنة».

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخارى (١٧٧١)، ومسلم (١٩٤٤) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامُ فَإِنَّهُ لى وَأَنَا أَجْزَى بِهِ، وَالصَّيَّامُ جَنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَوْثُ وَلَا يَصْنَبُ، فَإِنْ سَاءَ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقِلْ إِلَى أَمْرٍ صَائِمٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ».

التي يجيز الشارع احتمالها، وقالوا إنه الصوم الذي يزيد المرض شدة، أو يطيل مدته، أو يخبر طبيب مسلم عادل بأن الصوم يضره لوجود هذا المرض.

والسفر الذي يجيز الإفطار اختلف فيه الفقهاء باختلاف أنظارهم في السفر الذي يوجد مشقة توجد الرخصة، فقليل سفر يوم وليلة: وقال أبو حنيفة ثلاثة أيام، بالسير المعتاد للإبل بحيث يسير نصف النهار، ويستريح النصف الآخر وإن السفر بدابة على هذا المعنى مشقة - ولقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا الأثر لقلت العذاب قطعة من السفر، والأثر الذي يشير إليه جبر الأمة هو قول النبي ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»^(١) ولا شك أن الانتقال في الصحراء ينطبق عليه ذلك الوصف.

وهنا يثار بحث: أيكون الأفضل في المرض والسفر الفطر، أم الصوم؟ وقد أجاب عن ذلك بعض العلماء بأنه إذا لم يجد مشقة شديدة في المرض يكون خيرا أن يصوم، ولا يكون معاندا لرخصة الله تعالى، ولكن يكون محتاطا في معنى المرض الذي يسوغ الرخصة، وإلا فالرخصة أفضل، وكذلك في حال السفر، إذا كان يرى أنه يستطيع الصوم من غير إجهاد، فالأفضل الصوم، ويكون ذلك ليس معاندة للرخصة.

والسفر المجرد في هذه الأيام لا مشقة فيه؛ ولذا أرى أن الأفضل الصوم، من غير أن نقرر وجوبه حتى لا نكون معاندين لرخص الله؛ فإن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

والسفر أقسام ثلاثة: سفر للجهاد في سبيل الله، وهذا لا يحسن فيه الصوم، وإلا خالف السنة وعارض الرخصة؛ لأن الله تعالى اختبر المؤمنين في غزوتين كانتا في رمضان وهما غزوة بدر الكبرى، وفتح مكة، كانت الأولى في السابع عشر من

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: كتاب الحج (١٦٧٧)، ومسلم: كتاب الإمارة (٣٥٥٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ يَمْتَنِعُ أَحَدُكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَتَوَمُّهُ فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيَعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ».

رمضان، والثانية فى الثالث عشر، وقد أفطر فيهما النبى ﷺ هو ومن معه من المجاهدين.

والقسم الثانى: السفر فى مباح كالتجارة، والانتقال من بلد إلى بلد للإقامة ويترك الأمر فيه إلى حال المسافر على النحو الذى ذكرناه، إن وجد المشقة شديدة أفطر وإلا صام وينطبق عليه رأينا فى السفر فى السكة الحديدية.

القسم الثالث: السفر للمعصية، وكثيرون من الفقهاء لا يرون أن الرخصة تشمل له لأنه عاص بسفره، والرخصة نعمة، والمعصية لا تبرر النعمة.

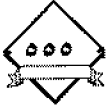
وهناك عذر يبرر الإفطار من غير قضاء ولكن تكون فدية هى طعام مسكين يوما، وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والإطاقة كما قال الراغب الأصفهاني فى مفرداته: الطاقة اسم لمقدار ما يمكن الإنسان أن يفعل به مشقة...، فقله تعالى: ﴿وَلَا تُحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ...﴾ [البقرة ٢٨٦] معناه ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا.

والمعنى على ذلك لقله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أى يتكلفون مشقة هى أقصى الطاقة لا يستطيعون المداومة عليها، وهم الشيوخ الفانون الذين تقدمت سنهم، وقد قال ابن مسعود فى تفسير «يطيقونه» أى يصلون إلى أقصى المشقة، ولا أمل لهم، فى قضاء وقال ابن عباس: إن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ﴾ نزلت فى الشيخ والشيخة إذا كانا لا يصومان إلا بمشقة..

وقد أفطر أس خادم رسول الله ﷺ عندما طال عمره، فأفطر ستين فى آخر حياته، وكانت الجفان تقام لإطعام المساكين ثلاثين جفنة لثلاثين مسكينا على عدد أيام الصوم.

ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ الفاء هنا للإفصاح، أى إذا كان قد كتب عليكم الصوم ويسر الله تعالى عليكم بالرخص التى رخص بها فمن تطوع خيرا، أى فمن قصد الطاعة، وتكلفتها قاصدا الخير فهو خير يدخره له يوم القيامة، فالتطوع هنا ليس النافلة كما



قال الفقهاء فإن ذلك اصطلاح فقهي لا تخضع له عبارات القرآن في دلالاتها، بل تخضع للغة، والآثار النبوية فقط، والتطوع هنا هو المبالغة في الطاعة قاصداً أو طالباً خيراً، فهو خير له وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تحريض على القيام بالواجب المفروض الذي كتب عليكم وعلى الذين من قبلكم ولا شك أن أداء الواجب خير عظيم، وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم، وما الواجب عليكم، وقد ذكر سبحانه التعليق بـ «إِنْ» حثاً على طلب علم الغاية من فرضية الصيام وهو تربية نفوسكم على الصبر، ولقد ورد أن الصوم نصف الصبر، والصبر صفة المؤمنين، كما أشرنا من قبل.

ويلحق بذوى الأعذار الحامل والمرضع، وقد اختلف في شأنهما أهماً ملحقان بالمرضى مرضاً قريب البرء فيكون لهما الإفطار وعليهما عدة من أيام أخر، إذ هما كحال المريض الذى يصعب الصوم عليه، ويضره الصوم، أو يضر ما فى أرحام الحوامل، ومن يتغذى منهما، ونظر آخرون إلى أن المرأة الولود، وهى التى ينبغى التزوج منها، إما أن تكون حاملاً، وإما أن تكون حائلاً، وفى هذه الحال تكون مرضعاً فتتردد بين الإرضاع والحمل، ولا فرصة لأن تكون لها عدة من أيام أخر؛ ولذلك تدخل فيمن لا يطيقون، ويكون عليهن فدية، وروى عن ابن عباس: لا فدية، وتكون كالمرضى بمرض مزمن إذا كان لا يجد ما يفدى به، يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى فرضية الصوم أياماً معدودات ذكر الله تعالى تلك الأيام وعينها بشهر رمضان، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.

أى هذه الأيام هى شهر رمضان الذى كان أول نزول القرآن فيه، فقد أنزله تعالى فى ليلة القدر وهى فى العشر الأواخر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) [القدر].

وإن اختصاص شهر رمضان بالصوم؛ لأنه نزل فيه القرآن فيه تذكير بمبدأ الوحي، واحتفال بأكبر خير نزل في الأرض وهو بعث النبي ﷺ، فإنه نور الأرض وإشراقها، والاحتفال به احتفال بنعمة الهداية، ونعمة الخروج من الظلمات إلى النور، ونعمة إرسال نبي الرحمة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير ما خلاصته: إنه في شهر رمضان نزلت هداية الله تعالى من السماء إلى الأرض فناسب ذلك أن يفرض فيه الصوم؛ لأن الصوم فيما فيه من إمساك عن شهوات البطن والفرج، وفيه علو من الأرض إلى السماء بالتجرد الروحي الذي كان في الصوم، ولقد قال النبي ﷺ في هذا الشهر الذي هو احتفال بذكرى البعث المحمدي: «إن الله تبارك وتعالى فرض عليكم صيام رمضان، وسنت لكم قيامه، فمن صامه وقامه احتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١).

وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه هدى للناس، فقال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أى حال كونه هادياً للناس؛ لأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وهو معجزة الله تعالى الكبرى وهو بهذا هداية وتوجيه إلى مقام الرسالة المحمدية، وهو مع ذلك فيه آياته البينات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى﴾ أى أن آياته بينات واضحة من الهدى وهو الشريعة التي جاء بها، والفرقان أى الأمر الفارق بين الحق والباطل، والظلم والعدل والشورى والاستبداد، والإصلاح والإفساد، وعمران الأرض وخرابها.

هذا شهر رمضان شهر البركات، ولقد بينه سبحانه وتعالى، والابتداء يرمز إلى الانتهاء فقال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وقد تكلمنا في أعذار المرض والسفر والعجز في الآيات السابقة.

(١) رواه - عن عبد الرحمن بن عوف - النسائي: الصيام (٢١٨٠) واللفظ له، وأحمد في مسند العشرة (١٥٧٢)، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣١٨).

وقال الله تعالى فى ابتدائه ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾، ويريد سبحانه بالشهر هنا هلال رمضان، وشهده أى حضره ورآه، وعبر عن الهلال بالشهر؛ لأن العرب كانت ترى الهلال ويراد الشهر عرفاً عندهم، وهذا فى الأصل مجاز، والمجاز إذا اشتهر صار عرفاً وإطلاق الشهر وإرادة الهلال من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب، وذلك من علاقات المجاز المرسل؛ لأن الهلال أمانة ابتداء الشهر فكان جارياً مجرى السبب، ولأن الاعتبار بالرؤية، والرؤية لا تكون إلا لمحسوس والشهر عدد من الأيام يعد بالحساب، وذلك معنى نعيش فيه ولا نراه، والهلال هو الذى يرى فكان التعبير بالشهر عنه تعبير بالمدلول على الدال الذى يرى ويعلن الابتداء.

وإذا كان الهلال دليل الابتداء فهو الذى نيط به الوجود، فيكون دليلاً على الانتهاء، برؤية هلال الشهر فهو دليل الابتداء والانتهاء معاً، ولقد ذكر النبى ﷺ ذلك، فقال: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين»^(١) وهذا النص يدل على أمرين:

أولهما: أن الصوم يجب عند رؤية الهلال، فى ابتداء الشهر، والفطر عند رؤية هلال شوال أى الشهر الثانى، وإنه إن غم أولاً أو آخر فتكمل العدة ثلاثين يوماً، فإن غم الهلال أولاً أكمل عدة شعبان ثلاثين وذلك بعد ارتقاب الهلال فى التاسع والعشرين من شعبان، فتكمل ثلاثين إن غم، وكذلك هلال شوال إذا غم تكمّل عدة رمضان.

الأمر الثانى: الحديث يدل على أن الهلال واحد، وذلك أنه القمر فى أول منازل، والقمر واحد، فى كل الشهور وفى كل شهر يتغير من هلال حتى يصير بدراً، ثم يتغير من بعد ذلك حتى يكون المحاق، ويرتقب من بعد ذلك الهلال، فالأخير، والأول واحد.

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الصيام (١٧٧٦)، ومسلم (١٨١٠) بنحوه عن أبى هريرة -رضى الله عنه-، وبلغف المصنف - رحمه الله - أخرجه النسائى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : كتاب الصيام - ذكر الاختلاف على عمرو بن دينار (٢٠٩٥).

ويثار فى هذا الموضوع أمران:

أولهما: إذا غم الهلال أيمكن تعرف الهلال أولد أم لم يولد بالحساب، وقد كان معروفا بتتبع أدوار القمر فى منازل من حاله هلالا، حتى يصير بدرا، ثم يضل من بعد حتى يختفى فى السرار، أم نقف عند حد الغمة فتكون ثلاثين كما ورد عن النبى ﷺ وكلامه فى المنزلة الأولى ولا معقب لقوله؟ رأى الجمهور الأكبر من العلماء الوقوف عند النص، وهو قول النبى ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غمي عليكم فأكملوا العدد»^(١) وإن الشريعة نزلت ابتداء لقوم أميين لا يعرفون حساب النجوم، فيكون على قدر ما يحسون ويرون، وجاء الحديث بذلك.

وقد ذهب مطرف بن عبد الله بن الشخير وهو من كبار التابعين وابن قتيبة فقالا: يعول على الحساب عند الغيم بتقدير المنازل واعتبار حسابها فى صوم رمضان، حتى إنه لو كان صحوا لرؤى لقوله ﷺ: «فإن أغمى عليكم فاقدرُوا له»^(١) أى استدلو عليه بمنزله، وقدرُوا إتمام الشهر بحسابه»^(٢).

وقد قال بذلك بعض الشافعية، وروى ابن نافع عن مالك أنه أجاز ابتداء الشهر بالحساب، وانتهاه بالحساب^(٣).

وإن الأخذ بالحساب الدقيق قد يكون ممكنا، وخصوصا أن الإرصاء يكون رؤية بآلة فهل يؤخذ بها؟ يقول الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۚ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٩﴾ [يس].

(١) رواء بهذا اللفظ مسلم فى صحيحه: كتاب الصيام - صوموا لرؤيته (١٨١٠) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - راجع - متفضلا - التخرىج السابق والذى قبله.

(٢) هذه رواية مسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - كتاب الصيام (١٩٩٥، ١٩٩٦).

(٣) ذكر المصنف - رحمه الله - أنه أفاد هذا المبحث من (تفسير القرطبي) وهو كذلك من بداية قوله: وقد ذهب مطرف بن الشخير [تفسير سورة البقرة: ١٨٥].

وإن التقدير بالمنازل كان ممكنا عند العرب والأعراب، حتى إنهم كانوا يعرفون اليوم من الشهر بمعرفة منزلة الهلال ليعرفوا اليوم الأول من رؤيته في ليلة، واليوم الثاني بما كان من تغيير، وهكذا حتى يصير بدرا، ثم اليوم السادس عشر من التغيير إلى آخره. ونقول في هذه القضية: بعد أن كانت الأرصاد، وهي تخترق الغمة فيرى الهلال من ورائها، يجوز الاعتماد عليها عند الغمة، وتكون هذه رؤية، ويكون الصوم لرؤيته والإفطار لرؤيته، ويكون العمل بالحديث قائما. ويكون الحديث بظاهره منطبقا على من ليس عندهم أرصاد، فإنه يؤخذ بالنظر المجرد إذا لا سبيل إلى الرؤية إلا بالنظر الطبيعي وعلى ذلك قرر مجمع العلماء في القاهرة، وأقره المؤتمر الإسلامي العام أنه يؤخذ بالحساب العلمي إذ غمت الشمس ولم تمكن الرؤية.

الأمر الثاني الذي يثار وقد أثير في القديم وهو أن مطالع القمر مختلفة في البلاد شرقا وغربا، فقد يرى الهلال في المشرق، قبل أن يرى في المغرب، فهل يصوم كل على مطلقه، أم الأساس هو أول رؤية، فيصوم أهل الغرب مثلا على رؤية أهل الشرق الهلال على أساس أول رؤية، ولا اعتداد باختلاف المطالع، لأن الأمة الإسلامية أمة واحدة، ولا يفرق بينها اختلاف الأقاليم ليكون ابتداء الصوم واحدا، وانتهاؤه واحدا فلا يصوم إقليم ويفطر آخر في يوم واحد؟.

قال الشافعي الرأي الأول، وقال الجمهور الرأي الثاني، أي أن الاعتداد بأول رؤية، وروى عن ابن عباس، وقد كان بمكة فرأى أهل الشام الهلال ليلة الجمعة فصاموا يومها، ورأى أهل الحجاز الهلال ليلة السبت فلم يصوموا السبت، وقال: هكذا أمرنا رسول الله ﷺ (١).

(١) عَنْ كُرَيْبٍ أَنَّ أُمَّ الْقُصْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ بَعَثَتْهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِالشَّامِ قَالَ فَقَدِمْتُ الشَّامَ فَقَضَيْتُ حَاجَتَهَا وَاسْتَهْلَ عَلَى رَمَضَانَ وَأَنَا بِالشَّامِ فَرَأَيْتُ الْهَلَالَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ فَسَأَلَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ثُمَّ ذَكَرَ الْهَلَالَ فَقَالَ: مَتَى رَأَيْتُمُ الْهَلَالَ فَقُلْتُ: رَأَيْنَاهُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: أَنْتَ رَأَيْتَهُ فَقُلْتُ: نَعَمْ وَرَأَاهُ النَّاسُ وَصَامُوا وَصَامَ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ: لَكُنَّا رَأَيْنَاهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ فَلَا تَزَالُ نَصُومُ حَتَّى نَكْمِلَ ثَلَاثِينَ أَوْ نَرَاهُ فَقُلْتُ: أَوْ لَا نَكْتَفِي بِرُؤْيَا مُعَاوِيَةَ وَصِيَامِهِ فَقَالَ: لَا؛ هَكَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[أخرجه مسلم: كتاب الصيام - بيان أن لكل بلد رؤيته (١٨١٩)].

ففهم الشافعى من هذا أن اختلاف المطالع يعتبر، بحيث لا يكلف أهل مطلع، إلا على مقتضى مطلعهم، وإنى أرى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن العبرة بمطلع مكة؛ أولا: لأنه كان بمكة ولم يعتبر برؤية الشام وثانيا: لأن مكة قبله المسلمين يتوحدون عندها، فيكونون كالدائرة حولها، وثالثا: أن هلال ذى الحجة لا يعد إلا بهلالها، ويوم عرفة وأيام التشريق وغيرها لا يعتد إلا بها، ولأنها مجتمع الوحدة فى الصلاة والحج فتكون مجتمع الوحدة الإسلامية فى الصوم.

هذا رأى رأيناه وعرضناه والله أعلم بالصواب.

وإن شرعية صيام رمضان مع الرخص التى تسوغ الإفطار هو من تيسير أداء الفريضة؛ ذلك أن من شأن هذه الشريعة أنها إذا كلفت تكليفا فيه مشقة فتحت باب الترخيص ليسهل الأداء وليداوم عليه ويستمر من غير قمل، ولا تحمل المكلفين على أقصى المشقات ولذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وهذا النص الكريم فيه إشارة إلى تعليل هذه الرخص، وفيه إشارة إلى الوصف العام لشرع الله تعالى، الذى دعا إليه النبى ﷺ فقال: «يسروا ولا تعسروا» وما خير النبى بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن معصية، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾ (٧٨) [الحج] ولمقام التعليل فى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، عطف عليه تعليل آخر، وهو قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أى لتتموا عدة الشهر فى يسر من غير إعنات، وهنا فعل محذوف تقديره، شرع لكم ذاك التيسير لكيلا يكون حرج وضيق فى صومكم، ولتكملموا العدة أى لتستطيعوا أداء العدد كاملا غير منقوص بالأداء لمن لا عذر له، وبالأداء مع القضاء من أيام آخر لمن كان ذا رخصة تجيز الفطر وتوجب القضاء، فتكون عدة الشهر قد كملت، أداء وقضاء أو أداء فقط لمن له عذر.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، ولتجهوا إلى الله مكبرين ضارعين إليه جل جلاله على هدايته لكم بأن وفقكم للإيمان بدل الكفر، وبأن مكنكم من أداء الواجب كاملا.

وقالوا إن ذلك إيدان بالعيد، وهو تكبير الله إذ إن التكبير يكون للفرح بالعيد، وللصائم فرحتان يوم فطره ويوم لقاء ربه ^(١) وفرحته يوم فطره هي فرحته بأداء الواجب وسروره بالطاعة وفرحته يوم لقاء ربه هي فرحته بالنعيم المقيم، وبالرضوان من الله تعالى وهو لدى الأبرار أكبر من النعيم كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) [التوبة].

وإن هذه النعم نعمة الإيمان، ونعمة التيسير، ونعمة أداء الواجب كاملاً ونعمة الفرحة به يوم الفطر، وتكبيره سبحانه وتعالى يقتضى الشكر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولعل للرجاء وهو من الناس، ومن ترتيب الأمور، لا من الله تعالى أى لترجوا شكرا لله تعالى على هذه النعم المتوالية، والله غفور رحيم.

وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ

لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ

أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ

وَابْتَغُوا مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ

(١) متفق عليه من رواية أبي هريرة. وقد سبق قريبا.

إِلَى الْآيِلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

إن شهر رمضان شهر التجرد الروحي، والاتجاه إلى الله تعالى، فقد كتب الله تعالى علينا صيامه، وسنَّ ﷺ قيامه، وسنَّ ﷺ الاعتكاف في المساجد، وإن المؤمن إذا تجرد ذلك التجرد كان الله تعالى ملء قلبه وناجى ربه سرا وعلانية، وذكره خفية وجهرة، ودعا ربه ضارعا إليه، وقد وعده الله تعالى بإجابة دعائه، وأنه قريب منه وأنه مستجيب له لأنه استجاب له؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وإن العبد إذا أحس بعظمة الله تعالى، وامتلاً قلبه بخشيته أحس بأنه عونه، وأنه سنده، وإن أولئك الذين يشكرون لله تعالى نعمته فى شرعه الرخص بجوار العزائم يتجهون إلى الله تعالى، وكأنهم يسألون قربه ليصل دعاؤهم فقامت حالهم مقام سؤالهم، أو هم سألوا فعلا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ جعل سبحانه الشرطية تتعدى بإذا - الدالة على تحقق السؤال وقد كان بحالهم الخاشعة الضارعة الطالبة، وقال سبحانه عن السائلين بحال نفوسهم: «عبادى أى» الذين يشعرون بحق العبودية ويرتضونها طيبة نفوسهم راضية خائفة قلوبهم فإذا سألوك فإنى قريب منهم قرب نفوسهم بإحساسهم بمقام العبودية وأنا قريب منهم بالربوبية ثم قال سبحانه عن نتيجة هذا القرب: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أى أن هذا القرب ليس قرب مكان ولكن قرب إجابة ورضا ورحمة وكأنه سبحانه وتعالى يقول: ادعوني أستجب لكم كما قال فى آية أخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] وهذا يدل على أن الدعاء عبادة إذ قال عن الذين لا يدعون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾: فالدعاء عبادة وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ

العبادة»^(١)، وإن الله تعالى يحب دعاء عبده وقد روى عن النبي ﷺ: «إن الله يحب المُلْحِنين في الدعاء»^(٢)، روى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من لم يدعُ الله تعالى غَضِبَ عليه»^(٣).

فالدعاء على هذا عبادة واستغاثة واتجاه إلى الله تعالى كما جاء في المعنى اللغوي فقد جاء في القاموس وشرحه: الدعاء الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير، والابتغال إليه بالعبادة والاستعانة، وبالثناء عليه تعالت ذاته العلية عن الشبيه والمثيل.

وإذا كان ذلك شأن الدعاء ومقامه، فقد قرب الله الداعين إليه وقال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

الفاء للإفصاح عن شرط مقدر مضمونه إذا كنت قريباً منهم أجيب دعوتهم إذا دعوني وأقبل عبادتهم - إذ كان دعاؤهم عبادة واستغاثة وثناء عليه سبحانه - إذا كنت كذلك بالنسبة لهم فليستجيبوا لي فيما أدعوههم إليه من إقامة للعدل ودفع للظلم، وإصلاح في الأرض، ومنع للفساد، وإصلاح ذات بينهم، ومن إفراده بالعبادة والالتجاء إليه. والاستجابة الإجابة بعد معالجة النفس وحملها على الإجابة أو المبالغة في الإجابة بالطاعة والإحسان فيها وأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فليشعر أنه في رقابة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أى حق الإيمان بأن يؤمنوا بأن الله واحد أحد لا شريك له، وأن يؤمنوا بقدرته التي أبدعت وخلقت كل شئ فقدرته تقديراً، وأنه المستعان في الشدائد والملجأ في المكاره، وليستنوا بسترته في كل أحوالهم، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال].

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - .

(٢) أخرجه الطبرانى في الدعاء بسند رجاله ثقات إلا أن فيه عنعنة بقية عن عائشة - رضى الله عنها - مرفوعاً [أفدته من فتح البارى - أول كتاب الدعوات].

(٣) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج ٢ ص ٤٤٣، ٤٧٧، بلفظ (من لم يدع الله غضب الله عليه).

ثم بين سبحانه وتعالى أن طاعة الله تعالى فى كل ما يأمر به، وينهى عنه، والإيمان به حق الإيمان هو سبيل الرشاد فى هذه الدنيا، وإدراك حقيقتها وفهمها والإصلاح فيها، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، أى يرجون بالإيمان الصادق والالتجاء إليه سبحانه وحده أن يرشدوا بأن يسيروا فى طريق الرشاد الذى لا عوج فيه فيصلحون ويصلح الناس بهم، ويسلكون جميعاً طريق الهداية والله يهدى من يشاء.

كانت آية الدعاء وقرب الله تعالى لمن يدعوه واستجابته له، كان هذا إشارة إلى صفاء النفس الذى يكون للصائم إذا قام بحق الصيام، وقرب من الله تعالى، ولقد كان ابن عمر - وغيره من الصحابة المقربين - كثير الدعاء فى رمضان، وسماء بعض العباد شهر الاستجابة.

وبعد ذلك أخذ القرآن الكريم يبين بعض أحكام الصيام يشرح وقته، وإزالة بعض الأوهام، فقال تعالى: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

فهم بعض الناس أن اتصال الرجل بأهله فى ليل رمضان كان ممنوعاً ثم أحل، وفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، فالإحلال لا يكون إلا فى موضع كان محرماً، وقد نسخ التحريم، وإن ذلك ظن الذين يفرطون فى ذكر الناسخ والمنسوخ فى القرآن، وعندى أن «أحل» تدل على أن الرفث إلى النساء حلال قد أحله الله تعالى، وذكر بالبناء للمجهول للدلالة على أنه حلال من قبل ومن بعد.

وإنه قد جاءت الروايات عن الصحابة بأن بعضهم حسب أنه بمجرد نوم أحدهم ينتهى وقت الفطر، ويستدئ وقت الصوم^(١)، ويظن من يأتى أمراته بعد أن

(١) عن البراء - رضى الله عنه - قال: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَحَضَرَ الْإِفْطَارُ قَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُنْسَى، وَإِنْ قَيْسُ بْنُ صَرْمَةَ الْأَنْصَارِيُّ كَانَ صَائِمًا فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ فَعَلَيْتُهُ عَيْنَاءُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خِيَّةٌ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَتَرَكَتْ =

ينام أنه قد انتهك حرمة الصوم، فرد الله تعالى ذلك الزعم بقوله تعالت حكمته: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾. والرفث ذكر ما يكون بين الرجل والمرأة من جماع ومقدماته ونحو ذلك من القول، وهو هنا كناية عن الجماع كما يُكنى بلفظ لامستم النساء عن الجماع، وكذلك بلفظ لمستم.

وقول الله تعالى ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ لتضمن الرفث معنى الإفضاء إلى النساء بجماعهن كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٢٠﴾ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ٢١﴾ [النساء].

وقد بين الله تعالى صلة الرجل بامرأته بأدق عبارة وأرق قول، فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ اللباس ما يستر البدن للرجل والمرأة، فالعلاقة بين الزوجين تجعل الزوجة كأنها لباس لزوجها تستره، وقمس جسمه وتكون منه بمنزلة الشعار والدثار^(١)، وهو لها كأنه لباس يسترها، ويكون منها بمنزلة الشعار والدثار يلامس جسمها جسمه، فتكون المشاعر التي تثير وتهيج.

وإن هذا اللفظ يدل على الحاجة الحسية من الرجل لامراته، ومن المرأة لزوجها، والحاجة النفسية والرباط الروحي الذي يربط بينهم بالمودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ [الروم].

وقد بين الله تعالى أنهم كانوا يكلفون أنفسهم ما لم يكلفوا، فكانوا يمتنعون عن مباشرة النساء طائنين أن ذلك غير حلال لهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ

= هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ...﴾ [البقرة] [١٨٧] ﴿فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَتَزَكَّى وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ...﴾ [البقرة] [١٨٧] [رواه البخاري: كتاب الصوم (١٧٨٢)].

(١) الشعار: ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه. والدثار: الثوب الذي يُستَدَقُّ به من فوق الشعار. وفي المثل: هم الشعار دون الدثار؛ يصفهم بالمودة والقرب. لسان العرب.

تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى تخونون باستباحة ما أحل الله لكم إذ تضطرون بحكم العلاقة الشرعية والإنسانية أن يكون منكم لأزواجكم ما يظنونهم ممنوعا، وهو غير ممنوع فتأب عليكم من هذا الظن وبين لكم أنه حلال قال تعالى آمرا بإباحة المباشرة، وحدا لميقات الصوم ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

المباشرة كناية عن الجماع، ككناية الملامسة، والرفث إليهن، ولكنها أقرب إلى الصراحة من الملامسة والمس. وابتغاء ما كتب الله تعالى هو ابتغاء الولد حفظا للنسل، وعمارة للكون بالإنسان الذى هو الخليفة فى هذه الأرض، فالتكاح ما شرعه الله تعالى إلا لابتغاء ذلك لا لمجرد الشهوة، وإن الله تعالى قد أودع غرائز الإنسان ما ينوط به تكليفه فأودع فيه الشهوة ليسهل وجود النسل وتكاثره، وإن الأسرة تكليف شديد، ويتعلق به تبعات كثيرة من تربية الأولاد، والإنفاق وحضانتهم، وحمله كرها ووضع كرها، وحمله وهنا على وهن، وغير ذلك من المشاق الظاهرة ولولا الشهوة الدافعة ما تزوج ولا تزوجت، ولكن الله تعالى لحكمته، ولما كتبه من البقاء للإنسان ركب فيه هذه الغريزة الجنسية لتدفعه إلى الزواج راغبا ولطلب الولد محبا.

والذين يدعون إلى الحسد من النسل وأن تكون الشهوة للشهوة لا لطلب الولد، محاربون للفطرة، وينحدرون إلى درك دون الإنسان، بل دون الحيوان.

وذكر نعمة الولد وقال: ﴿وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أى ما قدر الله تعالى لكم من ولد وهذا إشارة إلى أن الولد؛ رزق كتبه الله تعالى لكم، فأكرموه؛ لأنه عطاء الله واحفظوه لأنه أمانته التى كتبها لكم واثمنكم عليها.

وحده الله تعالى ميقات الإفطار والصوم، فقال تعالى كلماته: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

والخط الأبيض هو خيط الفجر يشق السماء بنور كالخط ثم يتشر ذلك الخط شيئاً فشيئاً حتى يختفى الظلام ويكون النهار . . والخط الأسود ما يكون حول ذلك الخط الأبيض من ظلام وقوله من الفجر من هنا بيانية أى أن الخطين يبدوان في الفجر وهو ابتداء النهار وهو ابتداء الصوم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أى إلى غروب الشمس فالخط الأبيض فى سواد الليل هو نهاية الأكل والشرب وكل المباحات فى الإفطار وابتداء المنع بالصيام حتى يكون الغروب، وبذلك حد الوقت للإفطار وللصوم معا.

وإنه فى العشرة الأخيرة من رمضان يستحب الاعتكاف فى المسجد بأن يبقى فيه متعبداً متنسكاً لا يخرج منه إلا لحاجة ضرورية ويعود فور زوالها ويمنع من النساء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾.

وبهذا أشار سبحانه وتعالى إلى استحسان الاعتكاف وهو سنة عن النبى ﷺ إنه بهذا البيان الحكيم قد حد الله تعالى ما يحل وما لا يحل ووقت الحل ووقت الصوم، وحد ميعاد الصوم وميعاد الفطر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ فالتزموها ولا تقاربوا الابتداء ولا الانتهاء، أو لا تقربوها بمعنى لا تعتدوا عليها فتمتنعوا حيث لا يجوز المنع كالامتناع عن الأكل والشرب، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى كذلك البيان الذى بين فيه الصوم ورخصه وعزائمه وحدوده وما يجوز فيه وما لا يجوز ولا بيان كهذا البيان، يبين الله تعالى الأحكام والتكليفات رجاء أن يتقوا الله تعالى ويجعلوا وقاية بينهم وبين غضبه سبحانه وتعالى وينالون رضوانه.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعل فيه للرجاء، والرجاء من العباد لا من الله تعالى؛ لأن الرجاء معنى لا يليق بذات الله العلية الذى جل علمه وتزهت ذاته.

وهذا يفيد أن كل التكليفات الشرعية وخصوصاً العبادات لتربية النفس المؤمنة على التقوى، وإيداع المهابة من الله تعالى فى قلوب العباد فلا يجترئون فيستهكوا حرمت الشهر الذى عظمه الله تعالى، وجعله مباركاً، وأنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

تطهير النفس من المال الخبيث

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ
بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ
أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى الصوم وما فيه من تهذيب النفس - بين سبحانه وتعالى أن من التهذيب النفسى أو بث التقوى فى روح الجماعة الإسلامية نزاهة المال عن الخبث كنزاهة النفس؛ ولذا عطف على الأوامر والنواهى الخاصة بالصوم النهى عن أكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾.

الواو هنا عاطفة على ما سبق من إباحة ونهى، فى قوله، ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾ وما تبع ذلك من صيغة أمر تبيح الأكل والشرب، ونهى عن المباشرة، وجاء النهى بعد ذلك عن أكل مال الناس بالباطل؛ لأنه من جنس الأوامر والنواهى السابقة، فإذا كانت لنزاهة النفس وطهارتها، فالنهى عن أكل مال الناس بالباطل؛ لنزاهة النفس والمجتمع وطهارته من أسباب النزاع، فالنواهى تتدرج فى النصوص الإسلامية فى هذه الآيات من إبعاد نفوس الأحاد عن الإرجاس فى العبادات، إلى النهى للجماعة كلها عما يفنى الجماعات من أخذ المال بالباطل؛ لأنه قتل لها كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

فأخذ أموال الناس بالباطل، وشيوع ذلك، واستمراؤه يقتل الأمة؛ لأنه يشيع فيها الفساد، ضياع الحقوق، وألا يحترم العدل، ويسود الظلم، وبذلك تفتنى الأمم، وتذهب قوتها أمام من يتربص بها الدوائر.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أمر عام للجماعة الإسلامية، بأن يكون التعامل المالى بينها على أساس من احترام كل حق الآخرين، وألا يأخذ مالا إلا بحقه، فلا يأخذه بربا أو غش أو تدليس أو بميسر، أيا كان شكله، ولا بسرقة أو غصب.

وعبر سبحانه وتعالى عن الأخذ بالباطل؛ لأن أظهر مظاهر الانتفاع بالمال الأكل حلالا أو حراما وهو أشد ما يطلب المال لأجله، ولأن الأكل إن لم يكن مصدره حلالا كان كالنار وتدخل بطن الأكل.

وقال تعالى: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ للإشارة إلى أن مال الأحاد مال الأمة، إن غما قويت، وإن ضعف ضعفت، وإن كان حلالا كان طيبا، كان عزا، والإشارة إلى وجوب التعاون بين الناس فى جعله لخير الجماعة، وتنميته لعمومها، وللناس كافة مع بقاء كل ملك كان على ملكيته لقوله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه»^(١).

وقوله تعالى: «بينكم»، أى متبادلا بينكم متقلا من حيز إلى حيز بالحق، وفى ذلك إشارة إلى أنه لا يصح أن ينقل بينكم إلا بالحق، فلا يصح أن ينتقل من حيز إلى حيز إلا بالحق ولا يجوز أن ينتقل بالباطل، سواء أكان برضا كالربا، والبيوع الربوية وكالميسر، والعقود التى تشتمل عليه، وغير ذلك من العقود التى جاءت على غير ما أمر به الشرع، أم كانت بغير رضا صحيح كامل، كالغصب والسرقه والغش والتدليس والتغريب، فإن أخذ المال بهذا الشكل لا يجوز مطلقا؛ لأنه غير مبنى على علم صحيح فلا يكون الرضا كاملا.

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿وَتُدْثَلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ هذا معطوف على النهى، فالنهى منصب على أكل مال المؤمنين بينهم، وعن

(١) رواه أحمد فى مسنده عن أبى حرة الرقاشى، عن عمه، فى حديث خطبة الوداع الطويل، وأورده أبو يعلى بلفظ المؤلف دون زيادات - عنه أيضا - فى باب مسند أبى سعيد الخدرى، ج ٣ ص ١٤٠ (١٥٧٠)، والدارقطنى عنه ج ١ ص ٢١ (٢٨٤٣)، كما أورده الدارقطنى من رواية أنس - رضى الله عنه (٢٨٤٢).

الإدلاء إلى الحكام، وقد وردت قراءة أبيّ بزيادة «لا»، وهى أقرب إلى أن تكون تفسيراً، ومهما يكن فإن النهى ثابت عن الإدلاء، كالنهي عن الأكل؛ لأنه ينتهي إلى أكل للمال بالباطل، فالآية تنهى عن الأكل الظالم سواء أكان فى ضمن التعامل الآثم بينكم، أم كان بالاستعانة بالحكام، بتضليل القضاء، أو بتحويل الحاكم عن الإنصاف بسحت من المال يقدم.

والإدلاء فى أصله إلقاء الدلو فى الماء ليحمل الماء إليه من البئر، أو من حفرة فيها ماء، ثم أطلق على إرسال أى شيء يأتى بما يفيد، وأطلق على الذى يحتاج على غيره، أدلى بحجته لأنه أرسلها، ليأخذ الحق من غيره، ويقال أدلى بنسب إنما اتصل بالنسبة.

ومعنى أدلى إلى الحكام بالمال، أى أنهم يقدمونها للحكام الآثمين، من نسقه الذين يجلسون فى مناصب القضاء، أو الحكام الذين يملكون العطاء والمنع، أو يملكون القسمة بين الناس، ومعنى الإدلاء بالمال على هذا تقديم المال لهؤلاء ليعدلوا بهم عن قسمة الحق إلى القسمة الضيزى التى تمنع الحق، وتقرر الباطل . . . والرشوة لها صور شتى، فمرة تكون بإعطاء المال لتحول من هو فى منصب القضاء عن العدل، أو بالإهداء، أو بالضيافة، أو بأداء الخدمات حلالها وحرامها، أو بمقارضة الظلم، كأن يظلم فى قضية لمجلس فى منصب القاضى، ليظلم فى قضيته وكل ذلك استخدام للمال، أو ما يقوم مقامه من أداء أمور تقوم بمال أو لا تقوم بمال وفيها نفع واضح.

هذا تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ أى أكلا متلبسا بالإثم، وأنتم تعلمون أنه إثم، لا حق لكم فى أكله، وهذا تأكيد لمعنى الإثم والظلم وأكل أموال الناس بالباطل، ولقد قال النبى ﷺ: «لعن الله الراشى والمرتشى»^(١).

(١) «لعن رسول الله ﷺ الراشى والمرتشى» رواه الترمذى: الأحكام - ما جاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم (١٢٥٧) عن عبد الله بن عمرو، وقال: حديث حسن صحيح، كما رواه أبو داود، وابن ماجه، وأخرجه أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٢٤٦).

وهناك تخريج آخر لقوله تعالى: ﴿وَتَدُلُّوْا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوْا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بأن المراد بالإدلاء بها الخصومة بشأنها، والترافع في أمرها، وأنت تعلم أنك أخذها بغير حق، ولكن لا حجة لخصمك على أن ما في يدك سلطانتك عليه بالباطل، ولقد قال في ذلك الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الآية: ﴿وَتَدُلُّوْا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ في الرجل يكون عنده مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه.

فهؤلاء رشوا من هو في منصب القضاء، ولكن يفضل له لياكل مقدارا من أموال الناس بالإثم، فكلمة فريق معناها مقدار قطعه من مال الناس، وهو يعلم أنه إثم.

ومن هؤلاء من يلحن بالحجة لضل الحاكم، وقد روت أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنُّ بِحِجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»^(١).

هذان تخريجان لمعنى النص الكريم ﴿وَتَدُلُّوْا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ وإن الإدلاء لتحويل الحكام عن الحكم يكون بسحت من المال يقدم لحكام السوء، فيحولهم عن الحق إلى الباطل، وإما بحجة براءة، أو نقصان في دليل الخصم يتحولون به مخطئين من الحق إلى الباطل، ويصح الجمع بين التخريجين إذ لا معارضة بينهما. والحكام هم المنفذون للأحكام.

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأحكام - موعظة الإمام للخصوم (٦٦٣٤)، ومسلم: الأفضية: الحكم بالظاهر واللعن بالحجة (٣٢٣١).

الأهلة

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾

عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ
بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى
وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الشهر وهو الهلال هو حد ابتداء شهر رمضان، وحد انتهائه؛ ففي أوله برؤية هلاله، وفي آخره برؤية هلاله، فناسب بعد تمام ما أراد الله تعالى بيانه من الصوم أن أشار سبحانه إلى ما كان يدور على الألسنة خاصة بالأهلة بجوار ما ابتدعه الجاهليون من دخول البيوت من ظهورها في موسم الحج، فقال تعالت كلماته: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

كان الناس من اليهود والمشركين، وبعض المسلمين يسألون عن أمور ليست من الدين وقد تكون عن الكون، وما يجرى فيه أمر الوجود، وما كانت الشريعة الإلهية لذلك، إنما هي لبيان ما يعبد الله تعالى به، وما يصلح به العباد في معاشهم، فليس منها لماذا كانت الشمس مضيئة كحجمها، والقمر نور يتغير حجمه من هلال كالخيط، ثم يزيد، حتى يصير بدرا، ثم يأخذ مرة ثانية في الضيق حتى يكون المحاق.

كانوا يسألون هذه الأسئلة، وهي في موضوعها معقولة من حيث علم الخلق والتكوين والبحث في أسرار الوجود، ولكنها ليست من أحكام الدين، وما يجب أن يبينه ويعلم الناس به، بل أمره إليهم يتعلمونه ويتعرفونه ويذكرونه على أمور دنياهم، لا من أمور دينهم الذي به صلاح معاشهم ومعادهم.

ولذلك لما سألوا هذه الأسئلة التي لا تتعلق بعلم الدين صرف الله تعالى نظرهم، وأخذهم إلى الناحية الدينية التي يجب أن يعرفوها ويدركوها، فقال تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ وهذا لفت لهم إلى أن الواجب أن يسألوا عن فوائدها في الدين والمعاملات، وهذا يقال عنه في علوم البلاغة الأسلوب الحكيم، وذلك هو أن يكون السؤال في غير موضعه فيجيب المستول عن أمر آخر هو الذي ينبغي أن يكون السؤال فيه، ومن ذلك في القرآن الكريم: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ...﴾ [البقرة]، فيجيبهم النبي ﷺ بأمر ربه: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ...﴾ [البقرة] إلى آخر الآية الكريمة، وكذلك هنا سألوا النبي عن الأهلة عن كونها، وبُذِّعَ لها للناظر صغيرة ثم تكبر فأمر الله تعالى نبيه بأن يقول: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

مواقيت للناس في معاملاتهم، وفي بيوعهم وفي ديونهم المؤجلة وإجاراتهم، ومزارعاتهم، ومسافاتهم وغير ذلك مما يجرى، وفيها تتبين مواقيت الحج، ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ...﴾ [البقرة] وبها تعين أوقات المناسك، ويضاف إلى ذلك مواقيت الصيام، إلى آخر ما هو معلوم في الدين وأعراف الناس.

وجمع في الآية الأهلة وهي هلال واحد في كل الأوقات والشهور، ولكن لتغير حاله من ضمور فاتساع حتى يصير بدراً، ثم يصير كالعرجون القديم عدت هذه الصور أهلة، وإن كانت الحقيقة واحدة، والتغير في المنظر بسبب توسط الأرض بين الشمس والقمر في دورانها حولها.

والقمر حساب يدل العرب في صفو الصحراء على أيام الشهر، ولقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ...﴾ [يونس].

ولقد بين سبحانه وتعالى أن الأمور يجب أن توضع في مواضعها، وأن يعلم أن البر هو التقوى، وليس المظاهر والأشكال، كما ورد عن النبي ﷺ: «إن الله

لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١)؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

قيل إن بعض العرب كان إذا أحرم، لا يدخل بيته من بابه وإنما يدخل من ظهره، قال ابن عباس في رواية عنه كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج، فإن كان من أهل المدر (أى البيوت المبنية بالآجر) نقب في ظهر بيته نقبا، فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سلما فيصعد منه ويحدر عليه، وإن كان من أهل الوبر (دار أهل الخيام) يدخل من خلف الخيمة.

وقالوا إن الآية نزلت لإبطال هذه العادة التى كانت بقية من بقايا الجاهلية، وبين أن هذا ليس من الإسلام؛ لأن هذه أمور شكلية لم يأمر بها الله تعالى، وكل ما لم يأمر به الله تعالى ويتخذ على أنه عبادة يكون بدعة محرمة وخصوصا إن كان له صلة بالعبادة.

هذا هو التخريج الذى يتفق مع بعض المأثورات وإن كانت لم تثبت صحتها على وجه الجزم واليقين.

وهناك تخريج آخر، وهو أن هذا الكلام تصوير للذين يسألون عن الأهلة، ولا يعنون بصلتها الشرعية من حيث إنها مواقيت للناس والحج، من حيث إنهم مثل الذين ينظرون إلى أمور من ظواهر الشرع، فلا يأتون الأمور من بابها، وهو ما يتعلق بالقلب فهم لم يدخلوا الأمور من بابها بتساؤلهم عن الأهلة، وأخذوها من غير بابها، وقد قال فى ذلك الراغب فى تفسيره قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ بأن تطلبوا الأمر من غير وجهه، وذلك أنه يقال إن فلان أتى الأمر من غير وجهه، وجعل ذلك مثلا بسؤالهم النبى ﷺ لما هو ليس من العلم المختص بالنبوءات وإن ذلك عدول عن النهج، وذلك أن العلوم ضربان: دنيوى يتعلق بأمر المعاش لمعرفة الصنائع، ومعرفة حركات النجوم ومعرفة المعادن والنبات،

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». [رواه مسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٥١)].

وطبائع الحيوانات، وقد جعل سبيلا إلى معرفته على غير لسان نبيه ﷺ.

الضرب الثاني: شريعة وهو البر ولا سبيل لأخذه إلا من جهته، وهو أحكام التقوى ومؤدى ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ إلى آخر الآية رد على الذين سألوا عن أدوار الأهلة. إنهم طلبوا العلم الإسلامى من غير طريقه المرسوم كمن أتى البيت من ظهره لا من بابه، وإنه كان عليهم أن يسألوا عن البر فى الشريعة لأنه المختص بالنبوة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ يتمثل فيمن اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها، فاسألوا النبى ﷺ فيما يختص به، وهو تبليغ رسالة الله تعالى حتى ترشدوا وتدرکوا لعلکم تفلحون، أى رجاء أن تفلحوا وتنالوا الفوز برضا الله تعالى، وهو الثواب الرحيم.

أحكام الجهاد^(١)

ذكر الله تعالى فى آية البر أن من أعلى أوصاف أهل البر، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ...﴾ [البقرة]، والجهاد هو البأس الذى يوجب الصبر، ولذا قال تعالى:

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلَوْكُمْ

(١) بدءا من الآية ١٩٠: ١٩٣ من سورة البقرة ساقط من الأصل؛ وقد أثرتا استحماله من تفسير القرطبي، لما له من مركز الصدارة فى مراجع المؤلف رحمه الله، وإتماما لفائدة بعيدا عن اجتهاد ربما لا يرضاه المصنف رحمه الله تعالى. والله من وراء القصد. الناشر.

فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْهُمْ فَقَاتِلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا
فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا﴾ هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظورا قبل الهجرة بقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ ﴿٩٦﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ...﴾ ﴿١٣﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿١٠﴾ [الزمل]، وقوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسيطرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ [الغاشية]، وما كان مثله مما نزل بمكة. فلما هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قاله الربيع بن أنس وغيره. وروى عن أبي بكر الصديق أن أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا...﴾ ﴿٣٩﴾ [الحج]. والأول أظهر، وأن آية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن يقاتل من المشركين. وذلك أن النبي ﷺ خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة، فلما نزل الحديبية بقرب مكة - والحديبية اسم بئر، فسمى ذلك الموضع باسم تلك البئر - فصدّه المشركون عن البيت، وأقام بالحديبية شهرا، فصالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء، على أن تخرى له مكة في العام المستقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين ورجع إلى المدينة، فلما كان من قابل تجهز لعمرة القضاء، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال في الحرم وفي الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية؛ أي يحل لكم القتال لمن قاتلوكم من الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها، فكان ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، حتى نزل: ﴿فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ...﴾ ﴿٥﴾ [التوبة] فنسخت هذه

الآية، قاله جماعة من العلماء. وقال ابن زيد والربيع: نسخها ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً...﴾ [التوبة] فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي محكمة، أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وما شابههم. على ما يأتي بيانه. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح القولين في السنة والنظر؛ فأما السنة فحديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان. رواه الأئمة^(١). وأما النظر فإن «فاعل» لا يكون في الغالب إلا من اثنين، كالمقاتلة والمشائخة والمخاصمة؛ والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان ومن أشبههم، كالرهبان والزمنى والشيخ والأجراء فلا يقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام؛ إلا أن يكون لهؤلاء إذابة. أخرجه مالك وغيره. وللعلماء فيهم صورست:

١- النساء إن قاتلن قُتلن؛ قال سحنون: في حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾. وللمرأة آثار عظيمة في القتال، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن، غير أنهن إذا حصلن في الأسر فلا استرقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن وتعذر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال.

٢- الصبيان فلا يقتلون؛ للنهي الثابت عن قتل الذرية، ولأنه لا تكليف عليهم؛ فإن قاتل قتل.

(١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان. [متفق عليه أخرجه البخاري وهذا لفظه: كتاب الجهاد والسير - قتل النساء في الحرب (٢٧٩٢)، ومسلم (٣٢٨٠) كما رواه الترمذي وابن ماجه ومالك والدارمي، وأحمد.

٣- الرهبان لا يقتلون ولا يسترقون، بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر، لقول أبي بكر ليزيد: وستجد أقواما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له؛ فإن كانوا مع الكفار في الكنائس قتلوا. ولو ترهبت المرأة، فروى أشهب أنها لا تُهاج - أى لا تزجج ولا تنفر - وقال سحنون: لا يغير الترهّب حكمها. قال القاضي أبو بكر بن العربي: «والصحيح عندى رواية أشهب؛ لأنها داخلة تحت قوله: «فذرهم وما حبسوا أنفسهم له».

٤- الزمّني^(١)، قال سحنون: يقتلون. وقال ابن حبيب: لا يقتلون. والصحيح أن تعتبر أحوالهم، فإن كانت فيهم إذابة قتلوا، وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزمانة وصاروا مالا على حالهم وحشوة.

٥- الشيوخ، قال مالك في كتاب محمد: لا يقتلون. والذي عليه جمهور الفقهاء: إن كان شيخاً كبيراً هرمًا لا يطبق القتال، ولا يُتّفع به في رأي ولا مدافعة فإنه لا يقتل، وبه قال مالك وأبو حنيفة. وللشافعي قولان: أحدهما - مثل قول الجماعة. والثاني - يقتل هو والراهب. والصحيح الأول لقول أبي بكر ليزيد؛ ولا مخالف له فثبت أنه إجماع. وأيضا فإنه ممن لا يقاتل ولا يعين العدو فلا يجوز قتله كالمرأة. فأما إن كان ممن تخشى مضرته بالحرب أو الرأي أو المال، فهذا إذا أسر يكون الإمام فيه مخيرا بين خمسة أشياء: القتل أو المن أو الفداء أو الاسترقاق أو عقد الذمة على أداء الجزية.

٦- العُسَفاء، وهم الأجراء والفلاحون؛ فقال مالك في كتاب محمد: لا يقتلون، وقال الشافعي: يقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية. والأول أصح، لقوله ﷺ في حديث رباح بن الربيع: «الحق بخالد بن

(١) جمع زَمَن، وهو من به آفة من عرج أو عمى أو مرض شديد.

الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسفا»^(١). وقال عمر بن الخطاب: اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب. وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حرثا، ذكره ابن المنذر.

الثانية: روى أشهب عن مالك أن المراد بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أهل الحديبية أمروا بقتال من قاتلهم. والصحيح أنه خطاب لجميع المسلمين، أمر كل أحد أن يقاتل من قاتله إذ لا يمكن سواه. ألا تراه كيف بينها في سورة «براءة» بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ...﴾ [١٢٣] وذلك أن المقصود أولا كان أهل مكة فتعينت البداءة بهم؛ فلما فتح الله مكة كان القتال لمن يلي ممن كان يؤدي حتى تعم الدعوة وتبلغ الكلمة جميع الآفاق ولا يبقى أحد من الكفرة، وذلك باق متماد إلى يوم القيامة، تمتد إلى غاية هي قوله ﷺ: «الخیل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة؛ الأجر والمغنم»^(٢) وقيل: غايته نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وهو موافق للحديث الذي قبله؛ لأن نزوله من أشراط الساعة.

(١) جامع الأحاديث والمراسيل (٤١٣٠). ورواه أبو داود: قتل النساء (٢٢٩٥) عن رباح بن ربيع بلفظ: قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ فَرَآى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: انظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ فَبَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ لِنَقَاتِلَ قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدَّمَةِ خَالِدُ ابْنُ الْوَكِيدِ فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: قُلْ لَخَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيقًا ورواه ابن ماجه: الجهاد - قتل النساء والصبيان (٢٨٣٢) بنحوه عنه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَرَرْنَا عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ فَأَفْرَجُوا لَهُ فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ فِيمَنْ يُقَاتِلُ». ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ: «انْطَلِقْ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَكِيدِ فَقُلْ لَهُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ يَقُولُ لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيقًا» وبنحوه رواه أحمد: مسند المكين (١٥٤٢٣) والذرية الأطفال والصبيان، قلت: والعسيف الأجير. ومثله العسيف، غير أن الأولى على صيغة المبالغة (فعل) والثانية على صيغة المبالغة (فعل).

(٢) متفق عليه؛ رواه - بهذا اللفظ عن عروة البارقي - البخاري: كتاب الجهاد والسير - الجهاد ماض إلى يوم القيامة مع البر والفاجر (٢٦٤٠)، ومسلم: كتاب الإمارة - الخيل في نواصيها الخير (٣٤٨٠). ورواه الترمذي وابن ماجه والنسائي والدارمي وأحمد، إما مثله أو نحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ قيل في تأويله ما قدمناه، فهي محكمة. فأما المرتدون فليس إلا القتل أو التوبة، وكذلك أهل الزيغ والضلال ليس إلا السيف أو التوبة. ومن أسراً الاعتقاد بالباطل ثم ظهر عليه فهو كالزنديق يقتل ولا يستتاب. وأما الخوارج على أئمة العدل فيجب قتالهم حتى يرجعوا إلى الحق. وقال قوم: المعنى لا تعتدوا في القتال لغير وجه الله، كالحمية وكسب الذكر، بل قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم. يعني ديناً وإظهاراً للكلمة. وقيل: لا تعتدوا، أي لا تقاتلوا من لم يقاتل. فعلى هذا تكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال لجميع الكفار، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يقال: ثقف يثقف ثقفًا، ورجل ثقف لقف: إذا كان محكما لما يتناوله من الأمور. وفي هذا دليل على قتل الأسير. وسيأتي بيان هذا في «الأنفال» إن شاء الله تعالى. ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي مكة. قال الطبري: الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشد من القتل. قال مجاهد: أي من أن يقتل المؤمن، فالقتل أخف عليه من الفتنة. وقال غيره: أي شركهم بالله وكفرهم به أعظم جرماً وأثر من القتل الذي عيروكم به. وهذا دليل على أن الآية نزلت في شأن عمرو بن الحضرمي حين قتله واقد بن عبد الله التميمي في آخر يوم من رجب بالشهر الحرام، حسب ما هو مذكور في سرية عبد الله بن حنشل. على ما يأتي بيانه، قاله الطبري وغيره.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ الآية. للعلماء في هذه الآية قولان: أحدهما - أنها منسوخة، والثاني - أنها محكمة. قال مجاهد: الآية محكمة، ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل، وبه قال طاوس. وهو الذي يقتضيه نص الآية، وهو الصحيح من القولين، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه. وفي الصحيح عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»^(١). وقال قتادة: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...﴾ [التوبة]. وقال مقاتل: نسخها قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ثم نسخ هذا قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. فيجوز الابتداء بالقتال في الحرم. وما احتجوا به أن «براءة» نزلت بعد سورة «البقرة» يستتين، وأن النبي ﷺ دخل مكة وعليه المغفر^(٢). ف قيل: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة؛ فقال: «اقتلوه»^(٣).

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَاَنْفِرُوا» وَقَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُفَرَّقُ صِيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ، إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاءٌ» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَبْتِهِمْ وَلِكَيْبُوتِهِمْ. قَالَ ﷺ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ». [متفق عليه؛ رواه البخاري: كتاب الجزية - ثم الغادر البر والفاجر (٢٩٥١)، ومسلم: كتاب الحج - تحريم مكة (٢٤١٢)].

(٢) المغفر ومثله المغفرة والغفارة (كلها بالكسر): زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

(٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمَغْفَرُ، فَلَمَّا نَزَعَهُ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ خَطْلٍ مَتَّعَلِقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ. فَقَالَ: «اقْتُلُوهُ». [متفق عليه؛ رواه البخاري: كتاب الحج - دخول الحرم ومكة بغير إحرام (١٧١٥) وأطرافه في ثلاثة مواضع آخر، ومسلم: كتاب الحج (٢٤١٧)].

«وقال ابن خويزمنداد: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ منسوخة؛ لأن الإجماع قد تقرر بأن عدوا لو استولى على مكة وقال: لأقاتلنكم، وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة؛ لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال. فمكة وغيرها من البلاد سواء. وإنما قيل فيها: هي حرام، تعظيما لها؛ ألا ترى أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد يوم الفتح وقال: «احصدهم بالسيف حتى تلقاني على الصفا»^(١). حتى جاء العباس فقال: يا رسول الله، ذهبت قريش، فلا قريش بعد اليوم. ألا ترى أنه قال في تعظيمها: «وَلَا يَلْتَقِطُ لِقَظَتِهَا إِلَّا مَنْشِدٌ»^(٢). واللقطة بها وبغيرها سواء. ويجوز أن تكون منسوخة بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾. قال ابن العربي: «حضرت في بيت المقدس - طهره الله - بمدرسة أبي عقبة الحنفي، والقاضي الزنجاني يلقي علينا الدرس في يوم الجمعة، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بهى المنظر على ظهره أطمار، فسلم سلام العلماء وتصدر في صدر المجلس بمدارع الرعاء. فقال القاضي الزنجاني: من السيد؟ فقال: رجل سلبه الشطار أمس، وكان مقصدي هذا الحرم المقدس، وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم. فقال القاضي مبادرا: سلوه؛ على العادة في إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم، ووقعت القرعة على مسألة الكافر إذا التجأ إلى الحرم، هل يقتل أم لا؟ فأفتى بأنه لا يقتل. فسئل عن الدليل. فقال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ قرئ «ولا تقتلوهم، ولا تقاتلوهم» فإن قرئ «ولا تقتلوهم» فالمسألة نص، وإن قرئ «ولا تقاتلوهم» فهو تنبيه؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذي هو سبب القتل كان دليلا بينا ظاهرا على النهي عن القتل. فاعترض عليه القاضي منتصرا للشافعي ومالك - وإن لم ير مذهبهما - على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. فقال له الصاغانى: هذا لا يليق بمنصب القاضي وعلمه، فإن هذه الآية التي اعترضت بها، عامة في الأماكن، والتي احتججت بها

(١) تفسير القرطبي: سورة البقرة: ١٩٢.

(٢) جزء من حديث مستفق عليه، رواه البخارى: الديات - من قتل له قتيل (٦٣٧٢)، ومسلم: الحج - تحريم مكة (٢٤١٥) عن أبي هريرة رضى الله عنه. ولنقله: «وَلَا يَلْتَقِطُ سَاقِطَتِهَا إِلَّا مَنْشِدٌ»

خاصة، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العام ينسخ الخاص. فهت القاضي الزنجاني. وهذا من بديع الكلام. قال ابن العربي: «فإن لجأ إليه كافر فلا سبيل إليه، لنص الآية والسنة الثابتة بالنهاي عن القتال فيه. وأما الزاني والقاتل فلا بد من إقامة الحد عليه، إلا أن يتدئ الكافر بالقتال فيقتل بنص القرآن».

وأما ما احتجوا به من قتل ابن خطل وأصحابه في الحرم فلا حجة فيه، «إن ذلك كان في الوقت الذي أحلت له مكة وهي دار حرب وكفر، وكان له أن يريق دماء من شاء من أهلها في الساعة التي أحل له فيها القتال، فثبت وصح أن القول الأول أصح، والله أعلم.

الرابعة: قال بعض العلماء: في هذه الآية دليل على أن الباغي على الإمام بخلاف الكافر، والكافر يقتل إذا قاتل بكل حال، والباغي إذا قاتل يقاتل بنية الدفع، ولا يتبع مدبراً ولا يجهز على جريح.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ أى عن قتالكم بالإيمان فإن الله يغفر لهم جميع ما تقدم، ويرحم كلا منهم بالعفو عما اجترم. نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...﴾ (٣٨) [الأنفال]. وسيأتي.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فيه مسئلتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أمر بالقتال لكل مشرك في كل موضع، على من رآها ناسخة، ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ﴾ والأول أظهر، وهو أمر بقتال مطلق، لا بشرط أن يبدأ الكفار. دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾. وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»^(١). فدللت الآية والحديث على أن سبب القتال هو

(١) عَنْ أَبِي عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». [متفق عليه: رواه البخاري: الإيمان (٢٤)، ومسلم (٣٣)].

الكفر؛ لأنه قال: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أى كفر، فجعل الغاية عدم الكفر، وهذا ظاهر. قال ابن عباس وقتادة والربيع والسدي وغيرهم: الفتنة هنا الشرك، وما تابعه من أذى المؤمنين. وأصل الفتنة: الاختبار والامتحان، مأخوذ من فتنت الفضة إذا أدخلتها فى النار لتمييز رديئها من جيدها. وسيأتى بيان محاملها إن شاء الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ أى عن الكفر، إما بالإسلام كما تقدم فى الآية قبل، أو بأداء الجزية فى حق أهل الكتاب؛ على ما يأتى بيانه فى «براءة» وإلا قوتلوا وهم ظالمون لا عدوان إلا عليهم. وسمى ما يصنع بالظالمين عدوانا من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمن العدوان، فسمى جزاء العدوان عدوانا، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا...﴾ (٤٠) [الشورى]. والظالمون هم على أحد التأويلين: من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: من بقي على كفر وفتنة^(١).

الشَّهْرُ الْحَرَامُ

يَا شَهْرَ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

بينت الآيات السابقة بعض أحكام القتال، وفى هاتين الآيتين بيان لبعض آخر، وقد تبين مما سبق أن المشركين إن انتهكوا حرمة البيت الحرام، وقاتلوا عند المسجد الحرام، واعتدوا على المسلمين فيه، فإنه لا يصح أن يحول بينهم وبين رد الاعتداء حرمة ذلك البيت الكريم؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعله حرما آمنا، فمن اعتدى من المشركين بالقتال فيه فقد ازدوج اعتداؤه، ابتداء بالاعتداء، واعتدى على أهل الحق، واعتدى على حرمة البيت، وكان من الواجب أن يرد كل هذا الاعتداء، ليشفى الله قلوب قوم مؤمنين، ولأن إلقاء السلم لمن حمل السيف تمكين للباطل من

(١) انتهى كلام القرطبي من الجامع لأحكام القرآن.

الحق يجعل المبطل يمتري الظلم، فيكرر الاعتداء في البيت الحرام، إذ يراه أنهز للفرصة، وأنكى للمسلمين، إذ يُقتلون ولا يُقاتلون.

ومثل حرمة القتال في البيت الحرام القتال في الشهر الحرام؛ فإن الله سبحانه قد حرم القتال فيه؛ ولكن إن اعتدى المشركون فقاتلوا فيه لا يلقي إليهم المسلمون السلم لينالوا منهم؛ وهذا ما تعرضت له الآية الأولى من هاتين الآيتين:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾: الباء هنا للمقابلة، أى الشهر الحرام من جانبكم مقابل بالشهر الحرام من جانبهم؛ فإن تقيدوا بالحرمة فيه ولم يثيروا حرباً ولم يعتدوا، التزمت حرمة، ولم تقاتلوهم فيه، ولو كان قتالهم في ذاته عدلاً، بعد أن فتنوا الناس عن دينهم؛ وإن انتهكوا حرمة الشهر الحرام، وناذروكم فيه وقاتلوكم فلا تكفوا عن قتالهم، ولا تقبضوا أيديكم عنهم احتراماً له؛ بل اسطوا عليهم أيديكم، وخذوهم إلى الحق من نواصيهم؛ لأنه إذا كان الشهر الحرام واجب الصيانة فنفس المؤمنين ألزم صيانة وأحق بها، وإذا تعارضت الحقوق والواجبات قدم ألزمها، وأحفظها لدين الله وإعلاء كلمته؛ ولا شك أن ترك المشركين يكذبون في المؤمنين ويشتدون عليهم، أشد ضرراً من القتال في الشهر الحرام الذي انتهكوا حرمة، وقد أخرجوا من قلوبهم كل حريجة دينية وخلقية وإنسانية.

و«أل» في كلمة ﴿الشَّهْرُ﴾ هي التي يسميها علماء اللغة: آل الجنسية، والشهر هنا مفرد في معنى الجمع؛ لأن الشهر الحرام ليس واحداً، بل هي أربعة أشهر: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، والتعبير بالمفرد وإرادة الجمع فيه إشارة إلى المعنى المشترك في هذه الأشهر الأربعة، وهو تحريم القتال ابتداء فيها، احتراماً لها، ولبت روح الأمن والطمأنينة بين الناس؛ لأن المعنى الجامع لها جعلها وحدة قائمة بذاتها، وكأنها معنى واحد تعددت صورته؛ فالتعبير عن الجمع بلفظ هو في أصل ذاته للمفرد، مشيراً إلى الوحدة المشتركة الجامعة بين الأفراد، مبيّناً أن الحكم قد نيط بالمعنى الجامع بينها، ولا يتصل بالصفات الشخصية المميزة لأحاديها.

وقد ذكرت عدد الأشهر الحرم آية أخرى هي قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ...﴾ (٣٦) [التوبة].

فهذه الآية تصرح بأنها أربعة وليست واحداً، ثم بينت السنة هذه الأشهر الأربعة من أشهر السنة كلها؛ فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما أن الرسول ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً؛ منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»^(١).

وقد اتفق العلماء على أن النبى ﷺ لم يبدأ بقتال فى الشهر الحرام، فلم يتسدى فيه بغزو، ولكن إذا قوتل فيه لم يكن يمتنع عن القتال؛ وكذلك إذا ابتدأ القتال قبل الشهر الحرام، واستمر القتال إلى أن حل الشهر، لم يكن ينقطع عن القتال حتى يأمن الرجعة؛ فقد روى عن جابر بن عبد الله أنه قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يغزى، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ»^(٢).

ولقد استعد النبى ﷺ للقتال فى الشهر الحرام مرتين، إحداهما عام الحديبية عندما ذهب معتمراً هو وصحبه ومنعوه من البيت الحرام، حتى هم بقتالهم إن بدأوه بالقتال، ولكنه صالحهم على الدخول من قابل؛ والثانية عندما عاد إلى قضاء عمرته؛ فلقد كان على استعداد لأن يقاتل المشركين إن قاتلوه على ألا يبدأهم، وكان ذلك فى ذى القعدة فى العامين.

ولقد ابتدأ القتال فى العام الثامن مع هوازن وحنين فى الأشهر الحلال، ولكن استمر القتال حتى دخل ذو القعدة الشهر الحرام، والنبى ﷺ يحاصرهم، وقد استمر

(١) البخارى: كتاب تفسير القرآن - باب إن عدة الشهور (٤٢٩٤)، ومسلم: كتاب القسامة (٣١٧٩) عن أبى

بكرة - رضى الله عنه - وهو نعيم بن الحارث بن كلفة. ورواه أبو داود وابن ماجه وأحمد والدارمى.

(٢) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يَغْزَى أَوْ يَغْزَوْا، فَإِذَا حَضَرَ ذَلِكَ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ. [رواه أحمد فى مسنده (١٤٠٥٦)].

النبي ﷺ في الحصار أياماً ثم قفل راجعاً احتراماً للشهر الحرام؛ ولعل الأيام التي استمرها لينظم الرجوع ويأمن ظهره، وحتى لا يأخذه في رجعته عدو الله وعدوه.

هذه حقائق مقررة ثابتة تبين أن النبي ﷺ كان يحرم على نفسه ابتداء القتال في الشهر الحرام إلا أن يقاتل فيقاتل، ولقد تقرر التحريم بالقرآن الكريم في أكثر من آية، منها قوله تعالى في أول سورة المائدة، وهي من آخر القرآن نزولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ...﴾ (٢) [المائدة].

ولكن مع ذلك اختلف الفقهاء، فقال بعضهم وهم الأكثرون: إن تحريم القتال في الشهر الحرام قد نسخ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٦) [التوبة] وقالوا إن معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ (٣٦) [التوبة] أي يمنع القتال فيها كما ذكر ابن جرير الطبري وقالوا: لقد قاتل النبي ﷺ هوازن وحنيناً فيها، وما لأحد أن يحرم ما أحله رسول الله. ذلك قولهم ودليله.

وقال بعض آخر أقل عدداً من الأول: إن تحريم القتال فيها ابتداء من غير اعتداء من الأعداء فيها شريعة باقية؛ لأنه لم يوجد نص صريح يعارض نصوص التحريم، ولا يمكن إعماله إلا بالنسخ، ولأن تحريم هذه الأشهر ثبت بآيات من آخر آيات القرآن نزولاً وهي سورة المائدة كما نوهنا، ولأن النبي ﷺ أكد التحريم بذكر تلك الأشهر في خطبة الوداع التي سجل فيها شرع الله على عباد الله، وأشهد عليهم فيها أنه بلغهم رسالات ربه؛ وما كان قتال النبي ﷺ لهوازن وحنين في الشهر الحرام ابتداء بل كان امتداداً، ولقد قطع القتال ولم يستمر فيه لما صارت الرجعة عن القتال لا تعرض جنده لمضار تكون أشد من تحريم القتال في الشهر الحرام.

ولأجل هذا قال عطاء بن رباح حالفاً بالله: إنه ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها، وما نسخت.

ولعل الفقهاء الذين قرروا إباحة القتال في الأشهر الحرم، قد استمدوا حكمهم مما ذكرنا متأثرين بأحوال زمنهم؛ فإنه بعد أن اتسع الفتح الإسلامي صار جند المسلمين في مذابحة من الأمم المعادية تنتهز الفرص من غير هوادة أو مهادنة؛ فإذا رأوا المسلمين قد أغمدوا القُضْب في أجفانها انقضوا عليهم، وأتوهم من مأمَنهم؛ بل لعلهم وجدوا أن الفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد الصديق والفاروق، وامتدت في عهد ذى النورين، لم تغمد فيها السيوف في الأشهر الحرم؛ لأنها كانت حرباً ممتدة مستمرة موصولة غير مقطوعة، فحسبوا أن تحريم القتال في الشهر الحرام قد نسخ؛ ولكننا إذا قيدنا التحريم بالابتداء وفي غير حال مباكرة الأعداء بالاعتداء، نجد النصوص سائرة مع عمل النبي ﷺ والصحابة من غير تضارب يسبغ النسخ، والله سبحانه أعلم بالصواب. ولماذا حرم الله سبحانه وتعالى القتال في الشهر الحرام؟ يظهر لى أن السبب في ذلك أمران جليان:

أحدهما: تأمين السبل في الحج، ذهاباً وجيئة؛ ولذلك كان أكثرها أشهر الحج، كما قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ...﴾ (١٩٧) [البقرة] فمنع القتل فيها تأميناً للسبل، ولأمن بيت الله الحرام، وأما رجب الذى بين جمادى وشعبان فقد كان شهر الاعتماد، فيه تؤدى العمرة المندوبة انفراداً؛ وعلى هذا يكون تحريم القتال في الشهر الحرام ليتحقق الأمن الكامل للبلد الحرام ولحرم الله الأمن إلى يوم القيامة؛ كما قال سبحانه: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ...﴾ (٦٧) [العنكبوت].

ولعل الفقهاء الذين قالوا: إن تحريم القتال في الأشهر الحرم قد نسخ لاحظوا هذا المعنى؛ لأن النبي ﷺ قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى صارت الصحراء العربية بوبرها ومدرها كلها تحت سلطانه، وفي ظل الله، فصار الحجاج يصلون إلى البيت الحرام آمنين، ولو كان القتال دائر الرحى في غير البلاد العربية، فظنوا النسخ؛ لأن التحريم حينئذ يكون قد استوفى أغراضه والغاية منه؛ واستنبطوا مع ذلك من نصوص وحوادث ما يزكى ذلك وينميه، على نظر في ذلك.

وثانى الأمرين اللذين نظنهما حكمة التحريم: أن الإسلام يكره القتل والقتال، وهو في نظره أمر بغیض لا يلجأ إليه إلا عند الاضطرار، وإن النفوس السليمة تقر ذلك؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ

لَكُمْ... ﴿٢١٦﴾ [البقرة] فكان من حصر القتال في أضيق دائرة أن يتفق الفريقان على إلقاء السلاح أمدا معلوما في أثناء القتال لعل العقول تشوب إلى رشدها، والنفوس تهذا حداثتها، فيكون التضاهم والسلام وحقن الدماء. وإذا كان ثمة أشهر يحرم فيها، ويرتضى الفريق الآخر ذلك التحريم حقنا للدماء فيها، فإنها ستكون هدنة في أوار الحرب، ولعلها تكون نسيم السلام؛ ولقد لاحظ الناس بالتجارب المستمرة أنه ما كانت هدنة في حرب ضروس إلا فُلَّتْ حداثتها، وأُضْعِفَتْ شِرَّتُهَا؛ والله عليم بذات الصدور.

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ تعالت كلمات الله؛ تلك حكمة بالغة، وكلمة جامعة لكل ما سبقها من معانٍ في القتال ومبينة لمقاصد الإسلام في علاقات المسلمين مع غيرهم، وعلاقة بعضهم ببعض في اجتماعهم، وهي قضية خلقية سليمة صحيحة تقبلها العقول السليمة، وتقرها الأخلاق القويمة.

والحرمات: جمع حرمة، كما أن الحجرات جمع حجرة؛ والظلمات جمع ظلمة، والحرمة الأمر الذي حرمه الله ومنع انتهاكه، والقصاص من معانيه المساواة، وتتبع آثار الجريمة بالعقوبة، ومعنى القصاص في الحرمت أن يعامل متتهك الحرمت بمثل ما فعل، وأن يكون العقاب من جنس العمل، وألا يقيد المعاقب بحرمة انتهاكها الجاني، فإذا انتهك الجاني حرمة النفس بقتلها، لا يتقيد المعاقب بحرمة نفسه، بل يقتصر منها، لأنه إذا انتهك حرمة غيره بقتل أو اعتداء فقد أباح من حرماته مقابل ما انتهك.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ في هذا المقام^(١) أن ما انتهكوه من حرمة الأنفس بقتلها وفتنتها عن دينها، وحرمة البيت الحرام التي انتهكوها بإخراج أهله منه وصددهم عنه، وقتالهم فيه، وحرمة الشهر الحرام إذا انتهكوها، كل هذا

(١) يشير الفقهاء بحوثا في هذه القضية عند تطبيقها تطبيقا جزئيا، ويختلفون في حل ما يشيرونه بتطبيقها عليه؛ ومن هذه الأمور التي يشيرونها: يسوغ للشخص أن يقتص لحقه بغير أمر الحاكم؟ لقد اتفقوا على أنه في الدماء لا يسوغ ذلك قط؛ بل لابد من حكم الحاكم ليكون القصاص؛ أما في الأموال إذا اغتصبت أو أنكرت فهل يسوغ أخذها من غير حكم؟ بعض الفقهاء منع ذلك منعا مطلقا، ولكن أولئك ليسوا الأكثرين، وجمهور الفقهاء على أن الشخص إن ظفر بعين حقه أو بمال من جنسه أخذه، ويكاد يتعقد الإجماع على الأول، أما ما كان من الجنس فالأكثر على الجواز مادام لا يعد سرقة؛ فعلى ذلك الحنفية والشافعية وأكثر المالكية، وأما إن ظفر بغير جنسه من مال مقتصبه، فقال بعضهم يسوغ، وبعضهم لا يسوغ، وهو المعقول حتى لا تكون أمور الناس فوضى.

يعامل بالقصاص والمساواة والعدل؛ فما انتهكوه من حرمة في حق غيرهم، يقتص بمثله منهم ولا تحترم فيه حرمة لم يحترموا مثلها في غيرهم.

وذلك قانون شامل يعم ولا يخص؛ ينظم العلاقات الدولية، كما ينظم التعامل في المجتمع الإسلامي؛ فمن اعتدى على غيره في ماله، أو نفسه أو بعضه، أباح الحاكم من نفسه وماله ما أباحه لنفسه من نفس غيره وماله؛ والمعتدى على المسلمين من الدول يعامل بقدر اعتدائه، وبطريقة اعتدائه، وفي زمان اعتدائه ومكانه؛ فإن انتهك حرمة الزمان فليس له أن يستمسك بحرمتها، ومن انتهك حرمة المكان قتل فيه، ومن اعتدى بنوع من الاعتداء عوقب بمثله إلا أن يكون أمراً لا يحله شرع السله، ولا تحله الطبائع السليمة؛ كالمثلة، وقتل من لا يقاتل أبداً - على ما سنين إن شاء الله تعالى.

وإن قضية «وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» هي المعاملة العادلة التي تنظم الاجتماع الإنساني في دوله وآحاده؛ وليس من الفضيلة في شيء أن تغل يد الفضائل عن حرمة خصمها في الوقت الذي استباح المبتل كل الحرمة؛ وإن ذلك ليس له معنى إلا نصر الرذيلة على الفضيلة، وخضد شوكة الحق ليأكله الباطل؛ وإن التسامح في هذه الحال هو شر ذرائع الرذائل، والقوة والقصاص في هذه الحال هو حماية الفضيلة وفل شوكة الرذيلة. . وهكذا فضائل الإسلام دائماً فضائل لها شوكة وقوة، ولا تعد التسامح الذي يمكن للباطل من أن يتغلب على الحق إلا الاستسلام والذلة.

«فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» هذا تخصيص بعد تعميم، أو تفريع بعد ذكر القاعدة الكلية، بذكر بعض القواعد الجزئية بالإضافة إليها، أو الخاصة بالنسبة لها؛ لأن قوله تعالى: «وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» قضية عامة، كما بينا، تعم معاملة الدول ومعاملة الآحاد، وتنظم الاجتماع الإنساني وتنظيم الاجتماع في الأمة الواحدة؛ وهي قضية الفضيلة الإنسانية الموجبة التي تحمي نفسها من الرذيلة بالقصاص منها أي كانت صورة الرذيلة، وأي كان موضوعها.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ فهي تبين العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم ؛ لأن الخطاب فيها للمسلمين مجتمعين كدولة واحدة لها نظم حاكمة، وسياسة قائمة، يبين هذا الخطاب ما يجب على دولتهم في معاملة غيرهم به في حرب أو سلم، وفي منازلة أو مهادنة، فذكر الله سبحانه أن تلك المعاملة هي المعاملة بالمثل.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أن من يعتدى عليكم من أمم غيركم بانتهاك حرمة من حرمت دولتكم أو إلحاق أذى بجماعتكم، بحرب يشنها عليكم، أو مصادرة لتاجرركم، أو ترصد في الطرق التي تسلكها قوافلكم أو سفنكم، فعاملوه بالمثل، وأنزلوا به مثل ما ينزله بكم؛ وإن انتهك حرمة مكان فانتهكوا منه مثل ما انتهك من غير تخرج في ذلك ولا تأثم، فإن هذا ما تقضى به قوانين المساواة والمعاملة بالمثل.

وهنا يشير العلماء بحثاً لفظياً: كيف يسمى المقابلة بالمثل اعتداء؟ إن الاعتداء هو الابتداء، أما العقوبة أو المقاومة فهي عدل وانتصار، لأن مقاومة الظلم هي عين العدل، فكيف تسمى اعتداء؟ وقد أجابوا عن ذلك بأن المشكلة في الفعل التي تقتضيها المماثلة سوغت أن يسمى الفعل باسم نظيره، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا...﴾ [الشورى] وإن ذلك لا يمنع الحقيقة، لأنه وإن تشاكلت الأفعال والأوصاف المنبثقة من الفاعل مختلفة؛ فالفعل الأول اعتداء لأنه صدر عن ظالم، وكان ظلمًا، والثاني ليس في حقيقته اعتداء، لأنه انبعث عن عادل، وكان عدلاً.

هذا مرمى ما قاله العلماء اعتراضاً وإيراداً، وجواباً ورداً؛ وعندى أن تسمية مقاومة الاعتداء بمثله اعتداء، إذا كانت المقاومة حرباً ونزلاً، فيه إشارة إلى معنى إنسانى جليل، وهو أن القتل في كل صوره وأحواله، ولو كان رداً لمثله، فيه اعتداء على النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها بغير نفس أو فساد في الأرض، وأنه عمل خطير تقشعر من هول الأبدان، ولا يصح الإقدام عليه إلا إذا اضطرت الفضيلة والأخلاق إليه؛ وإن الإقدام عليه يكون كالإقدام على الضرورات المحظورة في

ذاتها، يقدر بقدرها، فلا يسرف القاتل في القتل؛ لأنه في أصله محظور ممنوع كأكل الميتة لا يباح إلا للضرورة، ولا يصح للمقاتل باسم الإسلام أن يسرف في القتل ما أمكنه الانتصار بدونه؛ ولعل هذا المعنى الجليل هو الذي جعل عمر الفاروق الذي كان ينظر بنور الله يكره قتال خالد بن الوليد، ويقول: «إن في سيفه لرهقاً» ويعجب بقتال عمرو بن العاص الذي فتح مصر بأقل ما يتصور من الدماء، ويقول: «إن حربه رفيقة».

وقوله سبحانه «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»^(١) هو القاعدة العامة للقانون الدولي في الإسلام في السلم والحرب معا؛ فمن لم يعتد على المسلمين، وترك دعوة الإسلام الحق تسير في مسارها، وتستقيم على منهاجها من غير محاجزة بين الناس وبينها، فالعلاقة به سلمية خالصة، كالشأن مع النجاشي ملك الحبشة؛ ومن اعتدى على المسلمين كانت العلاقة بينهم وبينه بقدر ذلك الاعتداء؛ سواء أكان الاعتداء في سلم أم لبس لبوس الحرب؛ وإذا عاهدكم أحد حفظوا عهودهم إلا أن ينكث معهم «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ...» ﴿١٠﴾ [الفتح].

ولكن الخصم إذا لم يكن له خلق قد يقع في أمور تضر بالخلق القويم، كأن ينتهك الأعراض في الحرب، أو يقتل الذرية الضعاف، أو الشيوخ الذين لا حول لهم ولا طول، فهل يعتدى بمثل اعتدائه، ويسلك المسلمون مثل مسلكه؟ هذا ما بيته الجملة الآتية، وهو عدم الجواز.

«وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهاتين الجملتين لكيلا يندفع المقاتلون المسلمون في القتال فيضعوا سيوفهم على أعناق من يستحقها ومن لا يستحقها، وينزلوها في موضع البرء والسقم، فيقتلوا ويتجاوزوا الحد؛ لأنه إذا اشتجرت السيوف، وكثرت الختوف؛ قد تتجاوز موضعها،

(١) طبق الفقهاء هذه الفقرة من الآية الكريمة على حوادث جزئية بما يجرى بين الناس:

أ - منها هل يشترط في القصاص إذا كان قتلا أن يكون بالآلة التي قتل القاتل بها ولو كان عصا أو ناراً؟ قال الشافعي إن القود يكون بالآلة تماماً؛ لأن المماثلة توجب ذلك. وقال مالك مثل قوله إلا أن يؤدي ذلك إلى التعذيب. وقال الحنفية القود بالسيف دائماً.

ب - أنه من أتلف مالا لغيره قال أبو حنيفة وأصحابه والمالكية: إن كان قيميا وجبت القيمة، وإن كان مثليا وجب المثل، والمثلي عند الحنفية المكمل والموزون والعنبدى الشقارب، واقتصر المالكية على المكيلات والموزونات، وقال الشافعية عليه دائماً المثل ولا يعدل عن المثل إلا عند عدم وجوده، يستوفى في ذلك القيمي والمثلي. وقال بعض العلماء القيمة تجب دائماً؛ لأنها وحدة التقدير وهي المماثلة في المعنى المتحققة دائماً.

فتكون في غير العدل؛ وقد يسايرون خصومهم في أذاهم فيقتلون الذراري أو الشيوخ أو الضعاف أو الرهبان والعباد في الصوامع كما يفعل خصومهم، أو يحرقون الزرع ويقتلون الضرع كما يعيث غيرهم في الأرض فساداً؛ فأمر الله سبحانه بتقوى الله في الحرب بأن يراقبوه وحده، ويخافوه وحده، ويلاحظوا التقوى في قتالهم؛ فإنه ينبغي أن تكون هي الوصف الملازم لهم في حربهم وسلمهم؛ فإن حولتهم الحرب إلى أسود كواسر، فليعلموا أن القلوب الإنسانية الدينية التي تخشى الله ما زالت في إهابها، أو يجب أن تكون كذلك دائماً.

ولقد نهى الإسلام عن قتل العساء وهم العمال الذين لا يشتغلون بحرب، والذرية؛ كما نهى عن قتل الرهبان الملازمين لمعابدهم، ولقد قال عمر بن الخطاب: اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب. وقال أبو بكر في الرهبان لقائد الجيش: وستجد أقواماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذروهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له. ولقد خشى النبي ﷺ خالد بن الوليد أن يقتل الذرية والضعاف فقال لبعض أصحابه: «الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً»^(١).

ولكن قد يقول قائل إن أعداء الإسلام إن قتلوا الذرية والضعاف والشيوخ الذين لا يعينون في حرب فإن العدل معاملتهم بالمثل، وإن ذلك يكون أنكى بهم، والنكاية الشديدة قد تدفعهم إلى الخذلان، أو على الأقل تمنعهم من قتل من لا يقاتلون؟ ونقول إن الإسلام أمر بقتل من يقاتل فقط، ﴿وَلَا تَرْرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى...﴾ [الإسراء] وما كان الضعفاء ليقاتلوا، فما يسوغ في حكم التقوى أن يقتلوا؛ وإن تقوى الله في الحروب تقوى القلوب، والرافة بعباد الله تدني نصر الله؛ ولذلك قال سبحانه في ختام الآية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فاستشعروا التقوى في حربكم، وادرعوا بها في قتالكم، فلا تعتدوا في القتال، ولا تقاتلوا من لم يرفع سيفاً، فإن الله مع المتقين بالنصر والتأييد دائماً؛ والله ولي الصابرين.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بين سبحانه مشروعية القتال عند الاعتداء، ورد الاعتداء بمثله قدراً وزماناً ومكاناً مع ملاحظة الدين وعدم الاسترسال في أمر يخالفه

إن وقع من المشركين، أو المحاربين بشكل عام مثله؛ ولقد أخذ بعد ذلك يبين ما هو عدة الحرب، وقوة الجماعة الإسلامية، ورياط بنيانها، وهو المال، فأمر الأغنياء بإتفاق المال في سبيل الله أى في كل ما هو خير وبر؛ فإن كل خير وطاعة يعد سبيل الله سبحانه؛ وإتفاق المال على ذلك هو قوة الأمة في سلمها؛ وقوة السلم هي عدة الحرب؛ وإن من الإتفاق في سبيل الله الإتفاق في الحروب، وإعداد العتاد الحربى؛ ولكن ذلك وإن كان قوة الحرب المباشرة، لا ينفى أن قوة الحروب تعتمد على قوة الوحدة في الأمة، وقوة الصلة بين ضعفائها وأقويائها، وأغنيائها وفقرائها، وذلك يكون بسد حاجة المعوزين، وإعطاء المحرومين؛ ولذلك قال النبي ﷺ «أبغونى في ضعفائكم فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»^(١).

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ التهلكة بضم اللام: مصدر بمعنى الهلاك، كما قال أبو عبيدة والزجاج؛ وادعى بعض علماء اللغة أنه لم يوجد مصدر على وزن «تفعلة» إلا هذا، ولكن روى عن سيبويه كلمتان أخريان هما تنصرة وتسترة، بمعنى نصر وستر. وقد جوز الزمخشري أن يكون أصلها «تهلكة» قلبت الكسرة ضمة، ككسرة الجوار قد تقلب ضمة فيقال: «الجوار»، ومهما يكن فإن «التهلكة» إذا كانت بمعنى «الهلاك» في المال، فلا بد أن يكون ثمة فرق دقيق اقتضى العدول من لفظ الهلاك إلى لفظ التهلكة كما هو الشأن في التخيير من الألفاظ المترادفة في الكلام البليغ، ولو أن لنا أن نتلمس فرقاً فهو أن نقول: إن التهلكة هلاك خاص، وهو الذى يباشر سببه من ينزل به الهلاك، وربما لا ينزل دفعة واحدة، بل يسرى شيئاً فشيئاً، ولكن نتيجه تكون مؤكدة؛ أما لفظ الهلاك فهو يشمل ما ينزل دفعة واحدة وما لا يكون للإنسان فيه إرادة وغيرهما.

والباء في قوله سبحانه ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ قيل زائدة في الإعراب لتقوية معنى الإلقاء المنهى عنه، فيقوى النهى؛ وقيل المعنى: لا تلقوا أنفسكم مجذوبة

(١) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَبْغُونِي ضَعْفَاءَكُمْ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضَعْفَائِكُمْ» [رواه الترمذى: الجهاد - ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين (١٦٢٤) وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٠٧٣٨) وبنحوه رواه ابن ماجة والنسائى]. ابغونى بهمة الوصل والقطع بمعنى الطلب.

بأيديكم وإرادتكم إلى التهلكة. فلا تكون زائدة. وعلى أن الباء زائدة في الإعراب يكون المراد بالأيدي الأنفس، من قبيل إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل، والمعنى: لا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة. والمؤدى فى التخريجين واحد.

والنهي عن الإلقاء فى التهلكة بعد الأمر بالإنفاق وبعد شئون القتال، يعين المعنى بأنه فيما يتعلق بشئون الدفاع عن الدولة والذود عن حياضها، وحفظ كيائها، أو على الأقل يتجه نحو هذه الغاية أو ذلك المرمى أولاً وبالذات؛ ولذلك فسر الأكثرون الإلقاء إلى التهلكة بأنه الكف عن القتال والتقاعد عنه فتكون الأمة نها للمغيرين بسبب ذلك، والكف عن الاستعداد للحرب بإعداد العدة وأخذ الأهبة كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ [الأنفال] ويقبض الأغنياء أيديهم عن إعطاء حق الفقراء؛ فيكون بأس الأمة بينها شديداً، يسهل إغارة المغيرين عليها؛ ولذلك روى ابن عباس فى تفسير هذه الآية وهو ترجمان القرآن ما نصه: لا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا.

هذا هو معنى الآية على ما عليه الأكثرون وهو الذى يتفق مع السياق، ومع المروى فى جملته؛ فقد روى البخارى فى سبب نزول هذه الآية أنها نزلت فى النفقة، وروى يزيد بن أبى حبيب عن أسلم قال: «غزونا القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه مه^(١) لا إله إلا الله: يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب الأنصارى: «سبحان الله أنزلت هذه الآية فىنا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه، وأظهر دينه قلنا هلم نقيم فى أموالنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد.

(١) بمعنى: اكفف.

وقد تضافرت الروايات بمثل ذلك مما يجعلنا نفهم أن الآية الكريمة تتجه إلى حماية الدولة والجماعة من أن تلقى بيدها إلى التهلكة، بترك الضعفاء فيها، وترك الجهاد دفاعاً عنها، وعدم الاستعداد لأعدائها.

ولكن عموم الآية قد يشمل حال الأحاد إذا أقدموا على ما يضرهم من غير أى فائدة تعود على الجماعة من إقدامهم ولو كانت الفائدة معنوية أدبية، فإن ذلك يسير عليه النهى بمقتضى العموم؛ وليس منه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقول كلمة الحق للظالمين؛ فإن ذلك فيه فائدة معنوية للأمة؛ وقد قال ﷺ: «أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل تكلم بكلمة حق عند سلطان جائر فقتله»^(١).

وقد اختلف العلماء فيمن أقدم على مهاجمة عدو كثير العدد وحده، فسوغه ناس^(٢) لما فيه من فائدة للجماعة ولو معنوية، ومنعه آخر لأنه لم ير فيه أية فائدة للأمة، وفيه المضرة على من أقدم؛ فتطبق عليه الآية.

والخلاصة أن الآية ينطبق النهى فيها على الأمة إن تركت أمر حمايتها من الآفات الاجتماعية فى الداخل، وغارات الأعداء فى الخارج حتى هلكت؛ وينطبق النهى على الأحاد إن أقدموا على ما يهلكهم من غير أى نفع مادي أو أدبي لأمتهم.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان فى لغة القرآن الكريم يطلق بإطلاقين؛ أحدهما: الإتقان والإجادة فى العمل والقيام بالطاعات على وجهها؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف]، وقوا تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...﴾ [السجدة]. والثانى: التفضل على

(١) «أفضل الشهداء حمزة ورجل قال كلمة حق عند سلطان جائر فقتله» أى: فقتله السلطان أو أمر بقتله. [دليل الفالحين باب ٨٠ - وجوب طاعة ولى الأمر، ولسان الميزان - باب من اسمه حكيم (حكيم بن يزيد) عن جابر رضى عنه رفعه «أفضل الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فنهاه فأمر بقتله»]. وقال الأزدى: حكيم متروك الحديث.

ورواه الحاكم فى المستدرک عن على موقوفاً بلفظ: أفضل الخلق الرسل، وأفضل الخلق بعد الرسل الشهداء وأفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

(٢) ذكر الإمام محمد بن الحسن فى كتابه السير الكبير أنه لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع فى نجاته أو نكاية فى العدو، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه؛ لأنه عرض نفسه للتلف فى غير منفعة للمسلمين. فإن قصد تجربة للمسلمين حتى يصنعوا مثل صنعه فلا يبعد جوازه، لأن فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه، وإن قصد إرهاباً للعدو، وليعلم صلابة المسلمين فى الدين فلا يبعد جوازه.

غيره بالعطاء والزيادة فيه؛ وعندى أن هذا فى الجملة يعود إلى الأول لأن ذلك من قبيح إتقان العبادة، والإخلاص الكامل فيها.

وعلى ذلك نرى أن الإحسان هنا هو الإجابة والإتقان؛ وقد أمر الله سبحانه المؤمنين بعد الأمر بالقتال أن يجيدوا كل أعمالهم كل الإجابة، وأن يحتاطوا فى كل ما هو متصل بحياتهم الشخصية وأحوالهم الاجتماعية، وشئون دولتهم وما يقيم أودها ويصلح أمرها؛ ففى الحرب جلال وجهاد وفداء، وفى السلم إعداد واستعداد ومحبة وولاء، ومودة بينهم وإخاء؛ ليكونوا كما وصف الله الأسلاف ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾ [٢٩] ﴿الفتح﴾ ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾ [٥٤] ﴿المائدة﴾ فإن لم يكونوا كذلك فقدوا عون الله ونصرته، بعد أن فقدوا عزة الإسلام وهدايته؛ لأن الله مع من يحسن، ولا يحب سواه؛ إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الحج

وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ
الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ
فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٧٧﴾

هاتان الآيتان متصلتان بما قبلهما أوثق الاتصال، وذلك بأن الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [البقرة] ﴿١٧٧﴾ فيها تنظيم للجماعة الفاضلة؛ ببيان حق الفقير في مال الغنى، وبيان المساواة العادلة في تطبيق القوانين الإسلامية، لا فرق بين قوى وضعيف، ولا شريف ووضيع، وبيان أن العقوبة تكون على قدر الجريمة، وإن في ذلك حياة الجماعة حياة فاضلة عادلة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ [البقرة] ﴿١٧٩﴾ وفيها تنظيم للأسرة بالتعاون بين أحادها؛ بأن يمد الغنى الفقير بالهبات في الحياة، والوصايا بعد الوفاة، وفيها بيان لما يهذب النفس، ويقوى الروح فذكر الصيام، ثم فيه إشارة إلى الحج الذي يجمع في ثناياه بين إصلاح الأحاد في ذات أنفسهم، وإصلاح الجماعة وتنظيمها، وفي أحكامه تتلاقى ذرائع التنظيم الاجتماعى، والإصلاح النفسى؛ فهو في ذاته رحلة روحية يشارف المؤمن فيها المقام القدسى، إذ يحل في المكان الذى شرفه الله سبحانه بنسبته إليه، ووضع قواعده النيون الصديقون، وفيه الصدقات وإمداد الفقراء؛ بل في بعض كفاراته الصوم؛ وفيه التنظيم الاجتماعى العام بالتعارف بين المسلمين فى كل البقاع؛ فكان حقا أن يجىء الحج بعد الأحكام المنظمة، والعبادات المصلحة للنفس، المهذبة للروح؛ لأنه يجمعها فى أحكامه.

ولكن الحج فى إبان نزول القرآن كان متعذراً أو متعسراً؛ لأن المزار الأكبر وهو البيت الحرام، والمشعر الحرام، كان المشركون قد سيطروا عليه، والأصنام تحيط به من كل جانب، وهم يمنعون المسلمين منه، والعداوة بينهم وبين النبى وصحبه مستعرة؛ فكان لابد من القتال للوصول إليه، وأداء تلك الشريعة الإسلامية؛ لذلك جاء ذكر

القتال بين الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...﴾ [البقرة] وبين بيان بعض أحكامه في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

ثم هناك ارتباط خاص بين أحكام القتال وأحكام الحج؛ لأن القتال جهاد لحماية الدولة في الخارج، والحج جهاد لتهديب النفس وحماية الدولة الإسلامية في الداخل؛ بالجمع بين أقطارها، والتعارف العام بين شعوبها، ونشر المساواة العادلة بين آحادها؛ ولذلك لم يعتبر النبي ﷺ عبادة تلي الجهاد في سبيل الله غير الحج لله.

ثم هناك مناسبة خاصة بين الآية الأولى وأحكام القتال؛ لأن فيها بيان حكم من يمنعه عدو من الوصول إلى البيت الحرام؛ وقد حدث في العام السادس أن منع النبي ﷺ من الوصول إلى البيت الحرام، وهم بأن يمتشق السلاح ويقاتل حتى يصل إليه بقوة السلاح، ولكن كان الصلح على أن يرجع من عامه هذا، ثم عاد في العام السابع وأدى عمرة القضاء. فكانت هذه الآية ذات مناسبة خاصة تربطها بالقتال والجهاد في سبيل الله تعالى.

وهذه الآيات في بعض أحكام الحج؛ ولذلك نبين هذه الأحكام ولا نتعرض للتفرع واختلاف الفقهاء إلا بالقدر الذي يكون تفسيراً لكلماتها؛ أو يكون مستمداً من ظلالها أو قابساً من نورها.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ الحج في أصل معناه اللغوي: القصد، وخصه الراغب الأصفهاني بالقصد للزيارة؛ ومن ذلك قول الشاعر:

يحجون بيت الزبرقان المعصفر

والعمرة في الأصل اللغوي تتلاقى مع مادة العمارة التي هي ضد الخراب ويراد بالعمرة في اللغة: الزيارة التي يقصد بها عمارة المكان، وعمارة القلوب بالود، وتلاقيها على صفاء المحبة والإخلاص.

هذا هو الأصل اللغوي لمعنى كلمتى الحج والعمرة؛ وقد صارت الكلمتان من الألفاظ الإسلامية التى خصصها الشرع بمعان تتصل بأصل معناها اللغوى؛ فالحج فى أصل معناه كما رأيت قصد المكان للزيارة، فصار فى المعنى الإسلامى يطلق على قصد بيت الله الحرام وعرفات والمشعر الحرام للزيارة بشروط خاصة وأركان خاصة، جماعها المتفق عليه الذى لا خلاف فيه بين أهل العلم ثلاثة: الإحرام، وهو بالنسبة للحج كتكبيرة الإحرام بالنسبة للصلاة، والوقوف بعرفة، وهو كما قال النبى ﷺ: «الحج عرفة»^(١) لأن له وقتاً معيناً إذا فات الشخص فاته الحج فى هذا العام؛ ووجب الحج من قابل؛ والطواف.

وقد اختلف فى الوجوب فيما عدا هذه الثلاثة من السعى بين الصفا والمروة والوقوف بمزدلفة وغيرهما.

والعمرة قد رأيت أنها فى أصل معناها للزيارة المقصود بها عمارة المكان بالأشخاص، وعمارة النفوس بالمودة والإخلاص، وقد خصصها الإسلام بزيارة بيت الله الحرام، وتلاقى النفوس فيه على مودة ورحمة وإخاء، ولها أركان خاصة وشروط، وجماع أركانها المتفق عليها بين الفقهاء اثنان: الإحرام والطواف.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بإتمام الحج والعمرة لله؛ فنص بهذا على وجوب أن تكون هذه العبادة خالصة لله سبحانه وتعالى لا يشرك المؤمن فيها مع الله سبحانه وتعالى أحداً؛ وكذلك الشأن فى كل عبادة، بل فى كل عمل خير، يجب أن يتجه العبد فيه إلى الله سبحانه، لا يقصد غير الله، ولا يريد بعمله إلا وجهه؛ لأن من كمال الإيمان أن يحب المؤمن الشئ لا يحبه إلا لله، ومن كمال الإيمان أن يكون هوى المؤمن وغاياته ومقاصده تبعاً لما جاء به النبى ﷺ، ولا يقصد به إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

(١) جزء من حديث رواه فى المناسك الترمذى (٨١٤) والنسائى (٢٩٩٤) وأبو داود (١٦٦٤) وابن ماجه (٣٠٠٦) وأحمد فى أول مسند الكوفيين (١٨٠٢٣) والدارمى. كلهم عن عبد الرحمن بن يعمر الدبلى - رضى الله عنه.

وكل عبادة لا يقصد بها وجه الله لا يثاب عليها صاحبها، بل إنها جديرة بالعقاب لا بالثواب؛ لأن النبي ﷺ قد قرر بأن ذلك شرك؛ وهو الذى يقول عنه العلماء إنه الشرك الخفى، ولقد قال ﷺ: «من صلى يرأى فقد أشرك، ومن صام يرأى فقد أشرك؛ ومن تصدق يرأى فقد أشرك»^(١) وقد سماه العلماء شركا خفيا لأن صاحبه يخفيه ولا يبيديه، ولأنه دقيق لا يدركه إلا ذوو النفوس الطاهرة، والقلوب البارة التى تحاسب نفسها؛ ولأنه بلا ريب دون عبادة الأوثان، وإن كان من بابها؛ وقد وجدنا فى عصرنا ناسا يجاهرون بأنهم يتصدقون بالصدقة العظيمة يتغنون بها الجاه، أو ملق أصحاب الجاه، فبأى اسم يسمى عملهم؟ أيسمى شركا خفيا، أم يسمى شركا جليا؟ وهو على أى حال مروق من الدين، إذ قد اطرح فيه جانب رب العالمين.

وما المراد بالأمر بإتمام الحج والعمرة: أيراد بالأمر إقامتهما، وإيجادهما، أم يراد بالأمر إتمامهما لا أصل إقامتهما بأن يراد الإتيان بهما تامين؛ فيكون الأمر منصبا على الإتمام، لا على أصل الأداء؛ ويكون المعنى على الأول: أقيموا الحج والعمرة أى أدوها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...﴾ (البقرة) [١٨٧] فليس الاتجاه إلى الإتمام بل إلى الإنشاء؛ والمعنى على الثانى اتوا بهما تامين، أى كاملى الأركان قد استوفيت شروط كل منهما، خالصين لوجه الله سبحانه وتعالى لا تشوبهما شائبة من رياء.

هناك اتجاهان فى هذا المقام؛ فبعض الفقهاء ومعهم بعض المفسرين، وسبقهم بعض التابعين والصحابة على أن المراد بالأمر الإنشاء والإتيان والإقامة، فمعنى أتموا الحج والعمرة اتوا بهما؛ وعلى هذا المنهج علقمة والنخعى وسعيد بن جبير وعطاء، وطاوس، وروى عن ابن عمر وابن عباس وعلى رضى الله عنهم؛ ولهذا قرروا أن العمرة واجبة كالحج، وهذا ما قرره الشافعى على أحد قوليه وسفيان الثورى.

(١) رواه أحمد: مستند الشاميين: حديث شداد بن أوس (١٦٥١٧).

والاتجاه الثانى هو أن المراد بالأمر بالإتمام؛ أى أنه إذا شرع فيهما أو فى أحدهما عليه أن يتمه ويأتى به كاملاً، وإذا لم يستطع إتمامه أو عدل عنه فعليه أن يعيده، وتكون الإعادة واجبة، كما فعل النبى ﷺ وصحبه فى عمرة القضاء؛ وعلى ذلك رأى لا تكون العمرة واجبة لعدم قيام الدليل على وجوبها، وليس فى هذه الآية الكريمة ما يفيد الوجوب فهى لا تفيد وجوب حج ولا وجوب عمرة، بل تفيد وجوب الإتمام إن شرع فى أحدهما، وقد ثبتت فرضية الحج بآية أخرى، وهى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ (٩٧) [آل عمران].

وعلى هذا رأى جمهور الفقهاء وجمهور التابعين وكثرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فهى على هذا الاتجاه سنة. وقد تأيد استنباط هؤلاء من الآية الكريمة بأقوال للنبى ﷺ قد صحت عنه، وثبتت نسبتها إليه؛ وفوق ذلك فإن أركان العمرة تدخل فى ثنایا أركان الحج؛ ولذلك ورد فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال «دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة»^(١).

والقول الجملی أن فرضية الحج مجمع عليها؛ وأما فرضية العمرة ففيها خلاف، وقد فرض الحج فى العام التاسع من الهجرة على أرجح الروایات.

وقد ذكرنا أن أول أركان الحج الإحرام، وأنه من الحج كتكبير التحريم بالنسبة للصلاة، ينوى به الدخول فى الحج، كما ينوى بها الدخول فى الصلاة؛ وإذا تم الإحرام على وجهه صار الشخص حاجاً، فيلبس غير المخطط، ولا يحلق رأسه، ولا يقصر شعره، ويحرم عليه الصيد، وتحرم عليه النساء، كما يحرم على المرأة الرجال. . وهكذا يستمر فى تلك الشعيرة المباركة حتى يتحلل من الإحرام بالذبح والحلق، كما يخرج المصلی من الصلاة بالتسليم.

(١) رواه مسلم: كتاب الحج - حجة النبى ﷺ (٢١٢٧) عن جابر بن عبد الله، ورواه أحمد فى مسنده (١٣٩١٨)، والدارمى (١٧٧٨)، والترمذى (٨٥٤) والنسائى (١٥٢٥) وأبو داود (١٦٢٨) وابن ماجه (٣٠٦٥).

والإحرام له ميقات من الزمان والمكان، فهو بالنسبة للزمان يكون في أشهر الحج، كما تبين، وفي المكان يكون في مداخل الحرم المكي؛ وقد بين النبي ﷺ الأمكنة لأهل كل جهة ومن وراءهم ويحىء عن طريقهم؛ فجعل لأهل المدينة ومن وراءهم قرية ذى الحليفة، ولأهل الشام ومن وراءهم كأهل مصر قرية الجحفة التي تقرب من قرية رابع، ولأهل نجد جبل قرن، ولأهل العراق ذات عرق^(١).

فإذا نوى الحج أحد من هذه الأماكن صار مُحْرِمًا تحرم عليه محرمات الحج؛ إلا أنه قد يعرض له ما يرخص له قطع الإحرام أو التحلل من بعض ما حرم عليه؛ وذلك في ثلاثة أحوال، اثنتان فيهما معنى الاضطرار، وثالثة فيها اختيار؛ فالأوليان حال الإحصار، وحال المرض؛ والثالثة حال التمتع؛ وقد ابتدأ سبحانه بذكر الأولى فقال: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

مادة الحصر في اللغة تدل على التضييق، ومن ذلك قوله تعالى في شأن القتال: (واحصروهم) أى ضيقوا عليهم؛ ولذلك أطلقت على الحبس. وقال سبحانه: ﴿... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء] أى محبسا.

هذا موضع اتفاق بين علماء اللغة، ولكن الخلاف بينهم في الفرق بين الإحصار، والحصر؛ فقد قال الكسائي وأبو عبيدة وكثيرون من علماء اللغة: الإحصار المنع بالمرض أو ذهاب النفقة، أى ما يكون الحبس فيه من ذات الشخص لامن أمر خارج عنه؛ والحصر هو حصر العدو؛ وعلى هذا يقال أحصره المرض، وحصره العدو، وقال الفراء: هما بمعنى واحد؛ فيقال حصره المرض وأحصره، وحصره العدو وأحصره، وقال الراغب الأصفهاني: إن الإحصار أعم من الحصر،

(١) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «وَقَتَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلِأَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ الْجُحْفَةَ، وَلِأَهْلِ الْعِرَاقِ ذَاتَ عَرِيقٍ، وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ، وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ». أخرجه النسائي - ميقات أهل العراق (٢٦٠٨) وفي الصحيحين من رواية عبد الله بن عباس قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَّتْ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلِأَهْلِ الشَّامِ الْجُحْفَةَ، وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ الْمَنَازِلِ، وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ هُنَّ لَهُنَّ وَلَكِنَّ أَمِّيَ عَلَيْهِنَ مِنْ غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَمِنْ حَيْثُ أَتَى، حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ مَكَّةَ». [البخارى - مهل أهل مكة للحج والعمرة (١٤٢٧)، ومسلم - مواقيت الحج والعمرة (٢٠٢٢)].

فهو يستعمل للحبس بالعدو وبالمرض ونحوه، وأما الحصر فيستعمل في المنع من ذات الشخص بالمرض ونحوه فقط.

ولقد قال أبو العباس المبرد والزجاج: إن كليهما يكون للحبس بعمل العدو، وبالمرض ونحوه؛ ولكنهما مع ذلك مختلفان في المعنى؛ فالحصر معناه الحبس، والإحصار معناه التعرض للحبس والضيق، بالعدو أو المرض؛ كما يقال حبسه بمعنى أدخله في الحبس، وأحبسه بمعنى عرضه للحبس، وقتله بمعنى أوقع به القتل، وأقتله بمعنى عرضه للقتل، وقبره بمعنى دفنه، وأقبره بمعنى عرضه للدفن. وعندى أن هذا هو الفرق الدقيق الذى يكون بين الحصر والإحصار، فالفرق بينهما فى معنى الاستعمال الدقيق؛ لا فى موضع الاستعمال.

وقد فصلنا القول ذلك التفصيل فى هذا اللفظ، وانتهينا إلى ما انتهينا إليه؛ لأن الفقهاء اختلفوا فى الحكم، وبنوا اختلافهم على اختلاف اللغويين فى معنى اللفظ؛ فالحنفية قرروا أن الإحصار بالمرض أو بالعدو يسبغ التحلل بذبح الهدى، على أن يقضى الحج والعمرة من بعد إن كان الإحرام بعمرة؛ والمالكية والشافعية قرروا أن الإحصار فى الآية لا يكون إلا من العدو؛ أما المريض فإنه يستمر على إحرامه حتى يبرأ من مرضه، ويذهب إلى البيت فيطوف به سبعاً، ويسعى بين الصفا والمروة، وبهذا يتحلل من عمرته أو حججه؛ وقريب من ذلك قال المالكية؛ فإنهم يرون أيضاً أن المريض لا يتحلل بالذبح، بل ينتظر حتى يبرأ من المرض، فإن برئ وكان فى استطاعته أداء الحج بأن يدرك وقفة عرفات أتم الحج، وإن لم يدرك كان مخيراً بين أن يستمر على إحرامه حتى يؤدى من قابل، وبين أن يذهب ويتحلل بالطواف والسعى بين الصفا والمروة؛ وقد أخذوا ذلك الحكم من الآية الكريمة، إذ فهموا أن الإحصار لا يكون إلا للعدو؛ ولأن النبى ﷺ عندما منع هو وأصحابه من أداء الحج تحملوا بالذبح^(١) وأما المرض فلم يرد عن النبى ﷺ أنه بذاته أباح التحلل

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَدْ أَحْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَّقَ رَأْسَهُ وَجَامَعَ نِسَاءَهُ وَتَحَرَّ هَدْيُهُ حَتَّى اعْتَمَرَ عَامًا قَابِلًا. [رواه البخارى: الحج - إذا أحصر المعتمر (١٦٨١)].

المطلق؛ بل يرخص للمريض في بعض ما يحرم على المحرم، ولذلك فدية سنينها. و«الهدى»: اسم جنس جمعى، وهو الذى يفرق بينه وبين مفرده بالتاء أو الياء المشددة، والمفرد هدية، والمراد ما يذبح من نحو الشاة والبقر والإبل، أى ما يذبح من النعم؛ والمطلوب أيسره؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ والأيسر هو الشاة ونحوها.

واستيسر بمعنى يسر وتيسر؛ لأن الاستيسار واليسر بمعنى واحد؛ كاستصعب وصعب بمعنى واحد؛ ولكن يجب أن يلاحظ أن السين والتاء فى استيسر ما زالتا تشيران إلى المعنى الأصلي لهما وهو الطلب؛ وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ على هذا المعنى يكون حثا للمكلف على أن يطلب اليسر السهل الذى يؤدي من غير كلفة ومشقة، لا العسير الصعب الذى لا يؤدي إلا بمشقة وجهد.

وإن ذلك سير على مبدأ الإسلام العام الذى يطلب دائما بالسهل اليسير، لا بالصعب العسير؛ ولقد كان النبى ﷺ كما أخبرت عائشة رضى الله عنها: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما»^(١). ولقد كان ﷺ يحث على طلب الرفيق من الأمور والتكليف، ويقول فى دينه «أوغل فيه برفق»^(٢)، وينهى عن التشدد وطلب الشاق، ويقول: «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه»^(٣)، ويقول: «سدّدوا وقاربوا»^(٤).

(١) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبَعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا». [متفق عليه؛ رواه البخارى: المناقب (٣٢٩٦)، ومسلم: الفضائل (٤٢٩٤)].

(٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرَفْقٍ». [أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٥٧٩)].

(٣)، (٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ». [رواه البخارى: الإيمان - السدين يسر (٣٨) والنسائى (٤٩٤٨)] قلت: يشاد: يكلف نفسه من العبادة فوق طاقتها. السداد: التوسط فى العمل من غير إفراط ولا تفريط. قاربوا: اقتربوا من السداد والصواب فى أداء الطاعات. الغدوة: الخروج أول النهار، والروحة: الخروج آخر النهار، والدلجة: السير أول الليل، قيل: سير الليل كله. يعنى: اغتتموا أوقات نشاطكم مع تحرى أفضل الأوقات للعبادة قدر المستطاع.

هذه قاعدة الإسلام: طلب اليسير من الأمور دائماً، واجتناب العسير ما لم يكن تكليفاً كالجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ حلق الرأس أو تقصيرها شعار الانتهاء من الإحرام، والتحلل من تلك الشعيرة المباركة، كما أن السلام مظهر الخروج من الصلاة، وانتهائها، أو قطعها عند الاضطرار إلى قطعها.

وقد بين الله سبحانه أن المحرم عند الاضطرار بالإحصار، يكون له التحلل بذبح الهدى، وتحري اليسير دون العسير؛ ولكن لا يتم التحلل ولا يسوغ الحلق أو تقصير الشعر الذي هو مظهره إلا بعد أن يبلغ الهدى مَحَلَّهُ، ويذبح عند بلوغه محله.

و«المحل»: اسم زمان الحلول أو مكانه؛ فهو يطلق على الزمان والمكان، فيقال: بلغ الدِّينُ مَحَلَّهُ إذا حل وقت وفاته، وبلغ الأجل الذي يستحق فيه الأداء؛ ويقال: بلغ الشخص مَحَلَّهُ إذا وصل إلى المكان الذي يحل فيه.

وما المراد بالمحل في الآية؟ أيراد به اسم الزمان، أم يراد به اسم المكان؟ لاشك أن اللفظ يحتملهما، فيحتمل الزمان والمكان، وإن كان في المكان أظهر، وأقرب وروداً للخاطر؛ ولذلك كان لابد من السنة لمعرفة المراد يقينا، أو أن يستبين ذلك من آيات أخرى؛ وقد قال الحنفية: إن المحل هو اسم مكان يراد به البيت الحرام، وقد تبين ذلك بالقرآن، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]، والقرآن يفسر بعضه بعضاً؛ وعلى ذلك لا يصح للمحصر أن يحلق ويتحلل، حتى يصل الهدى الذي يرسله إلى البيت العتيق ويذبح؛ وقد تأيد ذلك بآية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ... ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة]، ففيها التصريح بأن الهدى في الكعبة. وقد قال الجمهور إن محل الهدى للمحصر هو المكان الذي كان فيه الإحصار، كما فعل النبي ﷺ عام الحديبية؛ فإن المسور بن مخرمة يروى: «أن رسول الله ﷺ عندما منع من البيت الحرام في تلك السنة وعقد الصلح قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فوالله ما قام رجل منهم، حتى قال ذلك

ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فقالت له: يا نبي الله أحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك؛ ففعل؛ فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا^(١).

فهذا يدل على أن محل الهدى للمحصر هو حيث الإحصار؛ وإنه إذا كان ممنوعا فإن الهدى قد يمنع أيضاً. وقد أجاب الحنفية عن ذلك بأن النبي ﷺ كان في الحرم لا في الحل، فهو كان في محله؛ لأنه أحصر في طرف الحديبية القريب من مكة وهو من الحرم.

ولاشك أن رأى جمهور الفقهاء يتفق مع السنة النبوية، وفيه تسهيل على المحصرين، والمناسب لحالهم هو التيسير لا التصعيب. ولا شك أن ذبحهم في المكان الذي أحصروا فيه أيسر كلفة؛ والصدقة لا يتعين مكانها في الضيق، ولكن النص الكريم «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» لا ينطبق تمام الانطباق على رأى الجمهور، إذا فسرنا المحل بالمكان؛ لأن البلوغ يقتضى مسافة بين المكانين؛ ولا ينطبق ذلك على مكان الحصر، بل ينطبق على مكان يكون فيه بلوغ؛ وإذا فسرنا المحل بالزمان تأتى معنى البلوغ بأن ينتظر المحصر حتى يجيء وقت الهدى وهو يوم النحر، ويكون بالغاً محله أى بالغاً زمانه؛ وحيث لا يتقيد المحصر بالمكان، ولكن يتقيد في الذبح بالزمان، وإن زال الإحصار قبل زمانه، وأمكن الوصول إلى الحج فى إبانه، فقد زال موجب الذبح، وتعين إتمام الحج.

(١) جزء من حديث طويل رواه البخارى: كتاب الشروط (٢٥٢٩) وفى أوله: عَنْ الْمُسَوِّبِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ (ابن الحكم) يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخَذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ ... إِلَى أَنْ قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ اخْلُقُوا». قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ أَخْرَجَ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بَدَنَكَ وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يَكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بَدَنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا ... الْحَدِيثُ. وَرواه أحمد فى مسندهما (١٨١٦٦).

ولقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ خطاب عام لكل المكلفين في هذه الشعيرة، لا فرق بين محصر وظليق، وذى عذر وغيره؛ فهو بيان لوقت التحلل من الإحرام بشكل عام، وبيان لمكان الذبح بشكل عام وهو الكعبة؛ وإن لذلك الكلام وجاهته واستقامته؛ وهو تخريج يعارض رأى الجمهور؛ لأن الكلام يكون فى مكان الذبح العام، لا فى الإحصار، ومكان الذبح فى الإحصار علم من السنة الصحيحة فى الحديثية.

وقبل أن نترك الكلام فى المحصرين ينبغى أن نبين مذهب الحنفية وغيرهم فى قضاء الحج أو العمرة إذا أحصروا؛ فقد قال مالك والشافعى: إذا تحلل بالهدى فليس عليه قضاء إلا أن يكون الإحصار فى الحجة الأولى؛ لأن الذبح قد أحله من إحرامه فلا قضاء عليه.

وقال الحنفية: إن عليه عمرة وقضاء ما أحرم به من الحج، فإن كان محرماً بحج نفلا كان عليه عمرة، وعليه قضاء حجه؛ لأن القاعدة عندهم أنه إذا شرع فى نفل ولم يتمه وجب عليه أن يعيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ...﴾ [محمد]. وإذا كان محرماً بعمرة قضاها عمرة؛ لما تقدم، ولقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فإن ذلك النص بعمومه يشمل حال من يشرع فى حج أو عمرة، ولم يتمهما اختياراً أو اضطراراً.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾
بعد أن بين سبحانه أن مظهر الانتهاء من الإحرام هو الحلق أو تقصير الشعر، وتبين مما تقدم أن الحلق غير جائز فى مدة الإحرام، أخذ سبحانه يبين حكم ما إذا تعذر أو تعسر على الشخص أن يستمر من غير حلق بأن اضطر إليه لمرض فى جسمه أو رأسه استوجب الحلق ليدفع الضرر به، أو كان برأسه هوام تؤذيه وتجعل غيره يتقزز منه، وقد يصير به الشخص مصدر أذى لغيره، أو عدوى، كما هو مؤذ لنفسه؛ ففى هذه الأحوال يحل له الحلق، ولا يحل له سواه، لأنه لا يتحلل بذلك من الإحرام، بل يرخص له فى بعض محرماته ليدفع الضر عن نفسه وغيره، ولا ضرر ولا ضرار فى الإسلام؛ فالكلام فى الآية السابقة فى الانتهاء من الإحرام قبل أداء الأركان لعذر

قاهر، والكلام هنا فى الترخيص من بعض المحرمات من غير إنهاء الإحرام دفعاً للأذى من غير قهر.

والكلام السابق كان فى الأمور التى تمنع من الوصول إلى البيت الحرام؛ أما الكلام هنا فهو قد يقع قبل الوصول إلى البيت الحرام أو بعده.

والترخيص فى الحلق له فدية، وهى صوم، أو صدقة، أو نسك. والفدية هى العوض عن شيء عظيم جليل نفيس؛ ولاشك أن محرمات الحج والعمرة أمور لها جلالها وخطرها؛ لأنها مهذبات الروح والقلب، فهى نفيسة جلية، وعبر سبحانه بالفدية ولم يعبر بكفارة؛ لأنه لا ذنب ولا اعتداء، حتى يكون التكفير من الإثم. والنسك جمع نسكة وهى الذبيحة، وتكون من النعم: الإبل والبقر والغنم، ويستيسر ولا يستصعب كما هو الشأن فى أمور الإسلام.

ولم يبين القرآن عدد أيام الصيام، ولا عدد المساكين الذين يطعمهم، ولا مقدار ما يتصدق به، كما لم يبين هذه الأنواع الثلاثة فى مرتبة واحدة أيها اختار كان فيه غناء، ولو كان قادراً على أعلاها.

وإن السنة بيان القرآن قد فسرت ذلك وبيته، فقد قال ﷺ لكعب ابن عُجْرة وقد رأى الهوام تتساقط من رأسه: «لعلك آذاك هوامك» قال: نعم يارسول الله قال: «احلق وصم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق على ستة مساكين، أو انسك شاة»^(١). وفى رواية أخرى أنه قال: «احلق وأهد هدياً»، فقال: ما أجد هدياً، قال: «فأطعم ستة مساكين»، فقال: ما أجد، فقال: «صم ثلاثة أيام»^(٢).

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الحج - قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى ...﴾ (١٦٦) [البقرة] (١٦٨٦)، ومسلم - جواز الحلق للمحرم (٢٠٨٣) وقد رواه الأئمة بنحو من ذلك.

(٢) عن كعب بن عجرة الأنصارى أنه حدثه أنه كان أهلاً فى ذى القعدة وأنه قتل رأسه فأتى عليه النبى ﷺ وهو يوقد تحت قدر له فقال له: «كأنك تؤذيك هوام رأسك؟» قال: أجل، قال: «حلق وأهد هدياً» فقال: ما أجد هدياً قال: «فأطعم ستة مساكين» فقال ما أجد فقال: «صم ثلاثة أيام». [التمهيد ج ٢ ص ٢٣٣].

والفرق المذكور فى الرواية الأولى هو مكيال يسع ما وزنه من البر نحو ستة عشر رطلا .

والحديث بروايته قد بين ترتيب الأنواع الثلاثة، فهى ليست بدرجة واحدة؛ وبين مقدار الصيام ومقدار الصدقة، والله عليم خبير .

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد أن بين سبحانه وتعالى طريق الإحلال عند الإحصار، وطريق الإحلال الجزئى من بعض المحرمات عند المرض أو الأذى، بين الإحلال حال الأمن، فقال: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أى إذا زال خوفكم من العدو وعندكم فرصة الحج من عامكم هذا . والحكم الذى سيتبين من بعد يشمل حال الأمن المستمر، ولا يقتصر على الأمن العارض بعد الإحصار فقط؛ لأن الحكم إذا كان ثابتا للأمن العارض بعد الخوف، فأولى أن يثبت للأمن المستمر الذى لا خوف معه؛ أو نقول إن كلمة ﴿أَمِنْتُمْ﴾ المراد بها ثبوت حال الأمن سواء أكان عارضا بعد ضده أم كان حالا مستمرة؛ فإن الماضى يدل فى كثير من أحواله على الإخبار عن الحالات المستمرة .

والتمتع أصل معناه الانتفاع الممتد المستمر؛ مأخوذ من المتوع بمعنى الامتداد والارتفاع؛ والمراد هنا معنى إسلامى، وهو الجمع بين العمرة والحج فى عام واحد على أن يحرم بالعمرة أولا ثم بالحج؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أى فمن أحرم بالعمرة مستنفا بعبادته ونسكه إلى أن أحرم بالحج، فلكى يتحلل فى إبان التحلل يذبح هديا . . إلى آخره . وسمى ذلك الجمع تمتعا؛ لأن المحرم يجمع بين متعة الروح ومتعة الجسد، فيحرم بالعمرة ويستمر فيها، وتلك متعة روحية، ويجوز أن يتحلل منها ثم يحرم بالحج، وتلك متعة جسدية، ثم هو يعتمر ويحج فى سفر واحد، وتلك متعة مادية؛ من أجل ذلك سُمى هذا تمتعا .

ولكى يتجلى الحكم المستفاد من الآية نقول إن الإحرام ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- إفراد: وهو أن يفرد بالحج، ولا يجمع معه العمرة في أشهر الحج من عامه، وقد يكون الإفراد بالعمرة؛ وإذا أفرد الحج لا يحرم بها في أشهر الحج ويحج من العام.

٢- قران: وهو أن يجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد، أو يحرم بالعمرة في أشهر الحج، وقبل أن ينتهى من أعمالها يحرم بالحج.

٣- تمتع: وهو أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج وبعد أن ينتهى من أعمالها يحرم بالحج؛ وقد يتحلل بنسك إذا لم يكن قد ساق الهدى عند إحرامه. وقد اختلف الفقهاء في أيها أفضل وأكثر مشوبة، وأرجى لرضا الله سبحانه؛ فبعضهم قال: إنه الإفراد، وأولئك هم الأقلون، وبعضهم قال: القران، وهؤلاء هم الأكثرون؛ وبعضهم قال: التمتع، وقد أجاز النبي ﷺ الثلاثة، وفي كل منها فضل، وأساس الخلاف هو حج النبي ﷺ؛ فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنه كان إفراداً، ولعله اختار ذلك ليكون قدوة للناس في طلب اليسير، ولكيلا يفهم أحد أن القران أو التمتع فرض لازم؛ وروى أنه كان قراناً؛ وروى أنه كان تمتعاً؛ وقد نقل القرطبي الجمع بين الروايات المختلفة، فقال: «من أحسن ما قيل أن رسول الله ﷺ أهل بعمرة فقال من رآه: تمتع، ثم أهل بحجة فقال من رآه: أفرد، ثم قال: «ليكن بحجة وعمرة»، فقال من سمعه: قرن.

وقبل أن نترك هذا يجب أن نقرر أمرين:

أحدهما: إن كلمة التمتع قد تطلق بمعنى يشمل القران والتمتع، وهو المراد في هذه الآية الكريمة، وبذلك يمكن التوفيق بين الروايات التي تقول إنه تمتع، والتي تقول إنه قرن؛ والراجح أنه قرَن.

ثانيهما: إنه روى أن عمر رضى الله عنه قد نهى الناس عن التمتع والقران، وقد روى ذلك البخارى^(١) وغيره؛ ولعله لم يفعل ذلك تحريماً لما اعتبره النبي ﷺ وجاء به القرآن؛ بل فعل من قبيل السياسة العامة؛ لأنه رأى الناس يزدحمون فى موسم الحج ويمكنون أمداً طويلاً لجمعهم بين العمرة والحج فى أشهره، ثم يخلو البيت من الناس طول العام؛ فأمرهم - سياسة لا ديناً - أن يفردوا بالحج ليعتصروا فى أثناء العام، ويكون للبيت الحرام أفئدة من الناس تهوى إليه طول العام؛ ولم يوافق عمر أحد على ما رأى. والله أعلم بالصواب.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى التحلل من الإحرام للمتمتع والقران، فقال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى يطلب السير من النعم وهو الشاة، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

هذه هى العبادة التى تحل محل النسك، وهى الصيام، فقامت العبادة الروحية مقام العبادة المالية؛ لأن كليهما تلتقى عند غاية واحدة، وهى تهذيب النفس وإصلاح المجتمع؛ ولقد جعل الله سبحانه الصيام على مرحلتين:

إحداهما: وهى الأقل - تكون فى الحج، وهى ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الحج مشقة؛ فلكى يكون سهلاً فى أدائه على ذوى الفقر جعل أقل الصيام فيه، فلا يجمع بين مشقة الصيام ومشقة الحج، وهو سفر فيه مشقة.

(١) روى الأئمة أن عثمان بن عفان نهى عن التمتع والقران، ومن ذلك ما رواه البخارى: عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: شَهِدْتُ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَعُثْمَانُ يَنْهَى عَنِ الْمُتَعَةِ وَأَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا رَأَى عَلَى أَهْلِ يَهُمَّا: لَيْلِكَ بِعُمُرَةٍ وَحَجَّةٍ قَالَ: مَا كُنْتُ لَأَدْعَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ لِقَوْلِ أَحَدٍ. (البخارى: الحج - التمتع والإفراق والإفراد بالحج (١٤٦١)).

أما عمر فسقده روى النسائي عن ابن عباس قال: «سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْهَأَكُمُ عَنِ الْمُتَعَةِ وَإِنِّي لَأَفِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَقَدْ فَعَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. يَعْنِي الْعُمُرَةَ فِي الْحَجِّ». قلت: يعنى أنه لم يقصد بذلك النهى مخالفة الكتاب والسنة إلى غيرهما، وإنما أمر بالأفراد، وهو من أنواع الحج المعتمدة بالكتاب والسنة؛ لما رأى فى ذلك مصلحة المسلمين. فهذا اجتهد عمر وعثمان وعلى وكلهم مهديون راشدون رضى الله عنهم.

والمرحلة الثانية: وهى الأكثر، بعد العودة إلى أهله حيث يطمئن ويستقر، وتذهب مشقة السفر، فيصوم سبعة أيام.

وقد اتفق العلماء على أنه لا يصوم السبعة الأيام قبل الانتهاء من الحج؛ ولكن اختلفوا أيجوز القيام بها بعد الانتهاء وقبل العودة؟ فقال فريق: إنه لا يجوز إلا إذا رجع، مستمسكا بحرفية النص لا يتجاوزها، وقال بعضهم: يجوز بمجرد الانتهاء من الحج أن يصوم؛ لأن التأخير إلى الرجوع إلى الأهل ترخيص وتسهيل، فمتى سهل عليه أن يصوم صام؛ مادام ذلك بعد الحج.

ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ليتقرر الحكم نصاً؛ وليتبين أن الذى يحل محل النسك هو العشرة الكاملة لا بعضها؛ ولكى لا ينسى الناس صوم السبعة الأيام إذا عادوا إلى أهلهم حاسبين أن حجهم قد تم، بل عليهم أن يفهموا أن الحج لم يتم حتى يصوموا.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى أن التمتع بنوعيه من قرآن يجمع فيه الحج والعمرة فى إحرام، أو تمتع يجمع به بينهما فى أشهر الحج، لمن لم يكن أهله مقيمين فى مكة وما حولها؛ فإن أولئك يفردون ولا يجمعون؛ لأن العمرة فى إمكانهم فى طول العام، وهذا ما يقرره فقهاء الحنفية.

وقال الشافعية: إن أهل مكة وما حولها يقرنون ويتمتعون كغيرهم من أهل الآفاق، والإشارة فى قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إنما هى للنسك وما يقوم مقامه، وذلك لأن الإشارة لأقرب مذكور؛ أى أن هذا الإهداء يكون على أهل الآفاق، لا على أهل البيت الحرام؛ لأنهم بوادٍ غير ذى زرع، كما ذكر إبراهيم عليه السلام فى دعائه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة التى كانت فيها الإشارة إلى أعمال الحج ونسكه وشعائره بالأمر بتقواه للإشارة إلى أن الاعتبار فى أعمال الحج لا يكون لما تعمله الجوارح، وما تقوم به من أفعال، إنما العبرة فى ذلك إلى أثرها فى القلوب، فإن أوجدت رحمة بالعباد، ورهبة

من الخلاق، وتقوى من الله، فقد أدبت على وجهها إذ خلصت النية، واستقامت الإرادة؛ وإن لم تؤد إلى تقوى الله والرحمة بعباده فقد خالطها رياء ولم تخلص النية، وحق العقاب؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ليلقى في نفوس الناس الرهبة من عقابه حال رجاء ثوابه، والناس يصلحون بالثواب والعقاب، حتى إذا علت المدارك وقويت الروح كان الثواب رضا الرحمن؛ ولذا قال سبحانه بعد ثواب المؤمنين: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ...﴾ (١٥) ﴿آل عمران﴾.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قد بين في الآية السابقة بعض أحكام الحج، وفي هذه الآية الكريمة يبين ميقاته، وما ينبغي للمؤمن في وقت حجه.

وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أى وقت الحج أشهر معلومات، وإنما جعلت النسبة إلى الحج نفسه، لا إلى وقته، فكأن الإسناد إليه - للإشارة إلى أن هذه الأشهر لأنها ميقات تلك العبادة المقدسة، تكتسب تقدساً منها، وكأنها هى. والأشهر المعلومات اتفق على أن منها شوالا وذا القعدة والعشرة الأولى من ذى الحجة؛ واختلف في العشرين الأخيرة أهى منها أم ليست منها؛ وعلى أنها ليست منها الأكثرون والصحاح من الروايات.

وإن هذه الأشهر سميت أشهر الحج؛ لأن أركانه تستوفى فيها، وتؤخذ الأبهة له فيها، ويحرم به فيها؛ ولكن قال أبو حنيفة ومالك والشافعى: يصح الإحرام بالحج قبلها؛ وذلك رأى جمع من التابعين؛ ورأى الشافعى تابعا لبعض الصحابة والتابعين أن الإحرام بالحج لا يكون إلا فى أشهره، كما أن نية الصيام لا تكون إلا فى رمضان، وكما أن نية الصلاة لا تكون إلا وقت أدائها؛ وإن ذلك هو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ إذ جعلهن وعاء الفرض وظرفه.

ومعنى فرض الحج فيهن الإحرام به؛ فإذا أحرم بالحج نزه نفسه ولسانه عن كل قول يؤدى إلى نزاع؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾. وقد فسر بعض العلماء الرفث بما يكون بين الرجل والمرأة؛ والفسوق بالخروج عن

محظورات الحج، كلبس المخيط والحلق من غير رخصته، والصيد، وغير ذلك مما حظر الله سبحانه. والجدال هو المماراة.

وقد فسر بعض العلماء الرفث بأنه النطق بالفحش مما يكون بين الرجل والمرأة وغيره؛ والفسوق بالسباب؛ لأن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(١). والجدال: المماراة والمنازعة.

وعندى أن مرمى القول الكريم هو النهى عن كل قول يجعل اللسان غير نزه، وكل قول يؤدي إلى النزاع، والجدال يؤدي إلى الخصام؛ لأنهم اجتمعوا على مائدة الرحمن الروحية ليتعارفوا، وليتلاقوا، وليقوى اتحادهم، ويعتزوا بعزة الله، فيجب اجتناب كل ما يؤدي إلى النزاع والخصام.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ وإذا كنتم قد تنزهتم في حجكم عن كل شر فاعلموا أنكم اجتمعتم لعمل الخير، فتنافسوا فيه، وتبادلوا النفع، وليتعرف الشرقي حال الغربي، واعملوا على ما يقوى جمعكم، ويزيل الضر عنكم، ويدفع عنكم كيد الكائدين؛ فإن الحج الذي يزكى نفوسكم لا يثمر ثمرته، ولا ينتهى إلى غايته، إلا إذا اعتبرتموه المؤتمر الأكبر لدولتكم، والمجتمع الأعظم لمثلئ أمتكم؛ وإن الوادى المقدس هو ناديكم الذي اجتمعتم فيه؛ واعلموا أن خيركم محسوب لكم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ سبحانه، فيعرف المحسن والمسيء، وحسب المحسن فضلا أن يعرف الله فضله، وأن يكون عنده من الأخيار الأبرار، وأن يكون عمله مقدوراً من ربه، مذكوراً عنده؛ ثم إنه يجازى الإحسان إحساناً، وما عنده خير وأبقى.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ التزود هنا معنى نفسى، لا مادى مالى؛ فالتزود: الإكثار من التقوى، وتهذيب النفس، وإشعار المؤمن بمودة المؤمن، وتوثيق العلاقة به، والتحاب على مائدة الرحمن، وتحت سلطان الديان. والدليل على أن الزاد معنى لا مادى قوله سبحانه من بعد معللاً

(١) متفق عليه؛ رواه - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه - البخارى: الإيمان - خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٦) ومسلم: الإيمان - سباب المسلم (٩٧).

لطلبه، مثبتاً الحكمة من أمره: ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ففى الكلام استعارة، وهو تشبيه التقوى والمودة والمحبة والإخلاص الذى يملأ قلب الحاج بالزاد المادى؛ لأن الأول غذاء القلوب، كما أن هذا غذاء الأجسام.

ولقد قال بعض العلماء إن التزود مادى؛ وهو نهى للحجاج الذين لا يتزودون فى حجهم ويتكففون الناس، وقد كان يفعل ذلك أهل اليمن فنهوا عنه.

ولكن المعنى الواضح من الآية هو الأول؛ ولذلك أردفت الآية بالأمر بالتقوى أمراً عاماً فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى اتخذوا من عمل الخير واجتناب الشر، والقيام بالطاعات والامتناع عن المنهيات وقاية من غضبى، وخص ذوى الألباب بالنداء، وهم ذوو العقول المدركة الواعية للإشارة إلى أن من لا يتقى الله ليس عنده لب يدرك، ولا قلب يعى، ولا إرادة تعمل على مقتضى العقل والحكمة. إن فى ذلك لعلبة لأولى الأبصار، والله سبحانه وتعالى هو العليم الخبير.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سِكِّكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ

يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
 خَلْقٍ ﴿٢٠١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٢﴾
 أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٣﴾
 ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي
 يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٥﴾

هذه الآيات الكريمات فى ذكر بقية مناسك الحج؛ وقد ابتدأت الآيات السابقة؛ فذكرت ابتداءه، وأشارت إلى انتهائه، وكيف يكون الانتهاء، وفى هذه الآية بيان أو بالأحرى إشارة إلى ركن الحج الركين الذى يفوت الحج بفواته، وهو الوقوف بعرفات. فهذه الآيات وما سبقها فى موضوع واحد.

وقد انتهت الآية السابقة بأن الحاج عليه أن يتزود من المعانى الروحية؛ لأنها لب الحج ومعناه، وغايته وممراته: ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. وقد ابتدئت هذه الآيات ببيان أن التزود الروحى لا يتنافى مع بعض الأغراض المادية، إذا توافرت التقوى، وتسامت النفس وعلت قوة الروح، فإن المادة فى هذه الحال تكون مطية الروح، وفى خدمة المبادئ الفاضلة؛ فليست التقوى فى الإسلام هى التجرد النفسى، والانخلاع من دواعى الجسم أو تعذيب الجسم لتطهير الروح؛ إنما التقوى فى الإسلام تقوية الروح لتسيطر على الجسم، وتقوية الجسم ليؤدى مقاصد الروح، ويصل إلى غاياتها ومراميها؛ ولذلك أردفت الآية الداعية إلى طلب الزاد الروحى من التقوى بالآية التى تنفى الإثم عن مطالب الجسد، ما دامت خاضعة لقوة الإرادة والعقل؛ لأن المادة

ومقتضياتها من ملاذ ومتع ليست محرمة في الإسلام، بل هي محللة على أن تكون أمة للعقل والروح والإرادة الحازمة الفاضلة لا أن تكون سيذا حاكما مسيراً، أو أن تكون الغاية والقصد، فتلك هي الحيوانية.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الجناح هنا الإثم؛ وأصله من جنح إذا مال؛ يقال جنحت السفينة إذا مالت؛ وقال تعالى: ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ [الأنفال: ٦١]. ولما كان الإثم ميلاً متطرفاً نحو الباطل صارت كلمة الجناح تطلق على الإثم لما فيه من معنى الانحراف المائل عن الحق، والابتغاء: الطلب الشديد؛ والفضل أصل معناه الزيادة وهي تكون في الخير وفي الشر؛ ولكن يعبر عن الزيادة القبيحة بأنها فضول، وعن الزيادة في الخير بأنها فضل؛ فزيادة العالم على الجاهل فضل، وزيادة المصلح على المفسد فضل؛ وزيادة الأعمال والمقاصد الخيرة على غيرها فضيلة.

وتطلق كلمة فضل ويراد بها المال الحلال من التجارة التي لوحظت فيها الفضيلة؛ ولقد جاء ذلك في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقد تطابقت كلمة المفسرين على أن الفضل في هذه الآية الكريمة هو المال الحلال المكتسب من التجارة أو غيرها؛ لأنه جاء في السنة النبوية التصريح بذلك؛ فقد كان الناس يتأثمون من الاتجار في عشر ذي الحجة الأولى^(١)؛ لأنهم يحسبون أن تلك الأيام تكون للعبادة خالصة لا يخالطها أي أمر من أمور الدنيا؛ وكانوا يسمون من يتجر في هذه الأيام الداج لا الحاج؛ لأنهم أعوان الحجاج في غايتهم الروحية، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةٌ وَذُو الْمَسْجَارِ أَسْرَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ فَكَانَتْهُمْ تَأْتِمُوا فِيهِ، فَتَزَلَّتْ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ﴾. قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ.

[صحيح البخاري: كتاب البيوع (١٩٠٩)]، وَقَرَأَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ «فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ» مَعْدُودَةً مِنَ الشَّأْدِ الَّذِي صَحَّ إِسْنَادُهُ وَهُوَ حُجَّةٌ وَلَيْسَ بِقُرْآنٍ. قاله الحافظ ابن حجر في الفتح.

رَبِّكُمْ»، ولقد روى أن رجلا سأل ابن عمر فقال: إنا قوم نكري، أى نستأجر، فهل لنا من حج؟ فقال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذى سألتني عنه فلم يدر ما يقول حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ»^(١).

والمعنى على هذا: ليس عليكم إثم أن تبتغوا رزقا حلالا فى أيام الحج، على أن تكونوا فى طلبكم وأخذكم بالأسباب معتمدين على الله الخالق المنعم الذى رباكم، وأنشأكم ونماكم؛ فإضافة الرزق إلى الله ليس معناه أن نطلبه بالدعاء والتفويض، بل معناه أن نأخذ فى الأسباب ونسعى، ثم نفوض أمور المقادير إلى مدبر الكون العليم الخبير.

وإباحة طلب المال فى الحج لا يقتصر على الاتجار الأحادى، أو طلب المال من الأحاد فقط، بل يشمل العمل على التبادل الجماعى، ونمو الاقتصاد بين الأقاليم الإسلامية؛ فأهل الخبرة بشئون المال من الحجاج يتصل بعضهم ببعض من الأقاليم المختلفة، ويعرف أهل كل إقليم ما عند الآخرين من فاضل الرزق الذى تخرجه أرض الله، وما ينقصهم من أسباب الحياة، ويتبادلون الفائض، ويسدون النقص وهو ما يسمى فى لغة العصر الحاضر التبادل التجارى؛ فيعم الخير، ولا يكون إقليم من الأقاليم الإسلامية فى نقص من الموارد، وآخر فى الكثير منها.

وهذه تكون إحدى منافع الحج المادية التى اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ...﴾ (٦٢٨) [الحج].

ولقد قال بعض العلماء: إن الاتجار وطلب المال هو من قبيل الرخصة؛ لأن الله لم يطلبه بل نفى الإثم؛ فقد قال: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ» ونفى الإثم يشير إلى أنه

(١) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ السَّيْمِيِّ قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عُمَرَ إِنَّا نَكْرِي فَهَلْ لَنَا مِنْ حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَتَأْتُونَ الْمَعْرَفَ - أَيْ عَرَفَةَ - وَتَرْمُونَ الْجِمَارَ وَتَحْلِقُونَ رُءُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا بَلَى. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الَّذِي سَأَلْتَنِي فَلَمْ يُجِبْهُ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِهَذِهِ الْآيَةِ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ) فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ». أَخْرَجَهُ بِهَذَا اللَّفْظِ أَحْمَدُ: مُسْنَدُ الْكَثِيرِينَ (٦١٤١)، وَبَنَحُوهُ أَبُو دَاوُدَ: الْمَتَّسُكُ - الْكُرَى (١٤٧٣).

عفو، لا مباح، أى أن الأولى تركه، ونحن نخالف أصحاب هذا الرأى لأن الرخصة تقتضى أن تكون هناك عزيمة مانعة من الكسب، ولم يقم دليل على منع الكسب، فيبقى على الإباحة الأصلية، وجاءت الآية الكريمة مؤكدة لهذه الإباحة بنفى الإثم، ولأن النبى ﷺ خطأ الذين يتوهمون أن الاتجار مانع من الحج؛ ولا يكون الفعل من قبيل العفو إلا إذا كان موضوعه غير مباح، ولكنه لأحوال خاصة نفى الإثم نحو كل لهو باطل إلا لعب الرجل بقوسه.. إلخ. وطلب المال الحلال أمر مباح بإطلاق؛ ولقد قال رجل لعمر رضى الله عنه: يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون فى الحج فقال رضى الله عنه: وهل كانت معاشهم إلا فى الحج؟!

وفوق ذلك أن المعنى العام الذى يهينى له الحج وهو التبادل التجارى بين المسلمين أجمعين، بأن يقدم كل إقليم فائض ما عنده لأهل الإقليم الذى ينقصه؛ هو أمر مطلوب يقوى الوحدة الإسلامية، وهو إحدى منافع الحج المذكورة فى قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ...﴾ (٢٨) [الحج] كما نوهنا؛ فما نفى عنه الإثم هنا ذكر فائدة هناك، فكان مشروعاً على سبيل الإباحة من الآحاد؛ وأحسب أنه مطلوب على سبيل الوجوب من الجماعات الإسلامية، فهو من قبيل المباح بالجزء المطلوب بالكل، أى أنه مباح للآحاد أن يتجروا فى الحج، وواجب على جماعة كل إقليم وأهل الخبرة منهم أن يقيموا أسباب التبادل التجارى، فالحج فرصته المهيأة لهم، ولا فرصة سواه، أو تبلغ درجته.

﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ الفاء هنا لتفصيل بعض ما أجمل من قبل فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَ الْحَجَّ...﴾ (١٩٧) [البقرة] إلخ. والإفاضة السير متدافعين فى جمع متزاحمين، وذلك تشبيه لهم بالماء إذا أفاض ودفع بعضه بعضاً فانتشر وسال من حافتى الوادى أو الإناء. وعرفات هو الجبل المعروف الذى اتفق الفقهاء على أن الوقوف عنده هو ركن الحج الأكبر حتى لقد قال عليه السلام، كما ذكرنا من قبل: «الحج عرفة» وسمى اليوم التاسع يوم عرفة؛ لأنه اليوم الذى يقف فيه الحجاج فى ذلك الجبل الذى شرفه الله ذلك التشريف، وقد اختلف فى السبب فى تسميته عرفات مع اتفاقهم على أنه اسم مرتجل لا منقول؛ فقال بعضهم: لأن إبراهيم عليه السلام عرفه بمجرد أن وصف له.

وقيل لأن إبراهيم عليه السلام علمه جبريل فيه مناسك الحج، فكان يقول: عرفت، عرفت. وقيل لأن آدم وحواء تعارفا فيه. وقيل لأن عرفات من عرف بمعنى طيبه الله بالعرف بخلاف منى، فإن فيها الذبيح وأفراث الذبائح. وأحسن تعليل للتسمية ما جاء في الزمخشري: قيل لأن الناس يتعارفون فيها. وهذا ما أختاره، وإن كانت الأسماء لا تعلل؛ ذلك لأن عرفات يجتمع الناس جميعاً عليه في وقت واحد، فيجري التعارف بينهم، وليست هذه الخاصة في غيره من المناسك، فغيره يؤدي أفراداً أو جماعة، أما هذا فيؤدي في جماعة زاخرة، هي جماعة الحجاج أجمعين.

والمشعر الحرام: هو المزدلفة؛ وسمى كذلك؛ لأنه من معالم الحج التي لا يصح أن يعمل فيها إلا ما ورد به النص، وهو منسك له حرمة وتقديس، وقد سمي المزدلفة؛ لأن الحجاج يزددلون إليه من عرفات، كما سمي جمعاً؛ لأنهم يجتمعون فيه، ولأنهم يجتمعون فيه بين صلاتي المغرب والعشاء جمع تأخير، كما يجتمعون بين صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم في عرفات. ووقت الوقوف بعرفات عند الجمهور^(١) من بعد زوال اليوم التاسع إلى فجر اليوم العاشر؛ والوقوف بمزدلفة بعد فجر اليوم العاشر.

وقد روى المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «أما بعد فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، وإننا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفاً هدينا هدى أهل الشرك»^(٢) ويبين ذلك عمل النبي

(١) قال المصنف - رحمه الله -: اتفق الفقهاء على أن الوقت من الزوال إلى الفجر وقت للوقوف، وانفقوا على أن من وقف قبل الغروب وبعده فقط صح حجه إذا استوفى ركنه. واختلفوا في أمرين فيما إذا وقف بعد الزوال واقترب قبل الغروب؛ فقد قال الجمهور يصح؛ وقال مالك في المشهور لا يصح حتى يكون الغروب ليفترق عن فعل المشركين، كما نص الحديث؛ واختلفوا إذا وقف بالزوال؛ فقال الجمهور لا يصح، وقال أحمد يجوز لما روى أن النبي ﷺ قال: من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ووقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى نفسه والسؤال والنبي ﷺ بالمزدلفة.

(٢) عن المسور بن مخرمة قال: خطبنا رسول الله ﷺ بعرفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من هاهنا عند غروب الشمس حين تكون الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها، فهدينا مخالفاً لهديتهم، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام عند طلوع»

ﷺ؛ فقد كان يدفع من عرفات بعد الغروب ويدفع من المزدلفة قبل الشروق، بينما المشركون كانوا يدفعون من عرفات قبل أن تغيب الشمس، ومن المزدلفة بعد أن تطلع. والوقوف بالمزدلفة ليس شأنه في الحج شأن الوقوف بعرفات، فجمهور الفقهاء على أن من تركها لا يفوته الحج^(١).

وعرفات لها امتدادات أربعة؛ فهي تمتد في أولها: إلى طريق المشرق، وثانيها: يمتد إلى حافة الجبل الذي وراءها، وثالثها: إلى البساتين التي تلى قرنيها على يسار مستقبل الكعبة، والرابع: وادي عرنة، وليس منها؛ ولذا لا يصح الوقوف فيه. والمزدلفة تمتد من عرفات إلى وادي محسر، وليس منها، بل هو في أصله مسيل ماء، وقد استوت أرضه الآن^(٢).

وإن الآية الكريمة تشير إلى ذلك العمل الإجماعي الذي يقوم به الحجاج، وقد وقفوا في عرفات تهز أعطافهم، وتنير قلوبهم ابتهالات جموعهم الضارعة، وتلبيتهم نداء الله الجامع، وتعلو الأرواح، وتسمو عن منازل الأشباح، تنادي الألسنة رب العالمين، وتناجي القلوب علام الغيوب؛ حتى إذا قضوا الساعات في تلك المشاهد الربانية، وتلك المدارك الروحية، أفاضوا مسرعين إلى المشعر الحرام، سائرين حيث سار محمد النبي الكريم؛ ومن قبله أبو الأنبياء إبراهيم، وقد طولبوا بالذكر الحكيم، بأن يذكروا الله وهم في المشعر الحرام بالقلوب المبتهلة الخاشعة،

= الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها فهذه ثلاثا مخالفاً لهذه. رواه الحاكم في المستدرک ج ٢ ص ٣٠٤ (٣١٤٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه بنحوه البيهقي: شعب الإيمان (٩٥٢٩) ومجمع الزوائد (٩٥٥٥) والطبرانی في الكبير، ومسنند الشافعي (١٤٦٣).

(١) قال المصنف - رحمه الله -: أقوال الفقهاء في الوقوف بالمزدلفة ثلاثة أولها: أنه فرض وركن كالوقوف بعرفات، وعلى هذا الرأي بعض التابعين، وبعض الشافعية؛ وقال آخرون: إنه واجب وليس بركن بحيث من فاته وجب عليه دم، ولا يبطل حجه، وعلى هذا الحنفية والشافعية؛ وقال آخرون: إن الوقوف بالمزدلفة سنة مؤكدة، وعلى هذا أكثر المالكية.

(٢) راجع تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذي نقله عن درسه الشيخ رشيد رضا.

وبالأسنة الجاهرة التى تقرع أجواز الفضاء بذكر الله العلى العليم (الله أكبر الله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد).

﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ الخطاب فى هذه الجملة الكريمة، إما أن نجعله خطابا خاصا بالذين صاحبوا النبى ﷺ إذ أنجاهم ربهم من ضلال الوثنية ورجسها إلى نور الوحداية وسموها، ويكون المعنى اذكروا الله وقوموا له بحق العبودية، وامثلوا قلوبكم وألسنتكم بأعمالكم بذكره دائما، واجعلوه مقترنا بكل ما يكون منكم فى وجودكم الإنسانى؛ فقلوبكم لا يملؤها سواه، وألسنتكم لا تضرع لغير الله، وأعمالكم لا يقصد بها إلا وجه الله؛ فإن ذلك ثمن الهداية، وأجر التوفيق؛ ولذا قال: ﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أى فى مقابل هدايتكم؛ فالكاف التى تفيد فى أصل معناها التشبيه تقتضى أن يكون المعنى اجعلوا الذكر لله مشابها ومساويا للهداية الربانية التى فاض نورها عليكم، وإنكم لتعلمون ذلك الفضل السابغ، وإشراق الهداية إن تذكروا ما كنتم عليه من قبل ذلك النور الذى قذف الله به فى قلوبكم؛ ولذا ذكر حالهم ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة؛ أى إن حالكم أنكم كنتم من قبل هدايته من زمرة الضالين وجماعتهم، فاعرفوا ماضيكم من حاضر أولئك الذين ما زالوا على ضلالهم ووازنوا بين حالكم وحالهم؛ فإن تلك الموازنة تريككم نعمة ربكم عليكم، وتريككم حالكم كما كنتم من قبل؛ ولذا عبر عن حالهم الماضى بالوصف إذ قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ أى من هذه الزمرة الضالة التى ترون حالها، ولم يقل إنكم ضللتكم من قبل.

وإذا كان الخطاب للصحابة الأولين فعلى غيرهم أن يعرف فضل الهداية، وإن لم يسبقها ضلال، فليذكر الله إذ وفقه من أول الأمر، وكان فى الإمكان أن يكون من الضالين.

وإن جعلنا الخطاب فى الآية لجماعة المسلمين عامة الماضين واللاحقين الذين توارثوا الهداية الإسلامية ولم يسبق إليهم شرك، ولم يكونوا من أهل الوثنية، يكون الذكر لأن الله جنبهم إيها، فباعده عنهم أسبابها؛ فإن معنى الهداية هو إنقاذ

نفوسهم من وساوس الشيطان؛ فإن له على كل قلب لمة؛ فإن أصابت من كتب الله عليه الضلال انحدر فيه، وإن أصابت من كتب الله عليه الهداية تذكر الله وعظمته، فساق الله إليه هدايته؛ ويكون المعنى اذكروا الله سبحانه وتعالى ذكرا مساويا لهدايتكم مشابها لها، وبقدرها، وإنكم لولا هذه الهداية كتمت من الحائرين، ولولا نور الحق لبقيتم فى حيرتكم أو لسرتم فى مخارف الشيطان.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ بعد أن أشار سبحانه إلى الوقوف بعرفة والإفاضة إلى المزدلفة، وذكر الله فيهما، بين طريق الإفاضة فقال هذه الجملة الكريمة، واستعمال «ثم» لبيان الترتيب والتراخى البيانى أو المعنوى؛ ففى الأول ذكر مطلق الإفاضة، ثم ذكر طريق الإفاضة وكيف تكون، كمن يقول أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم؛ لبيان التفاوت بين مطلق الإحسان وتخصيص الكريم بالإحسان؛ وكذلك هنا كان التعبير بـ «ثم» لبيان التفاوت فى الفضل بين مطلق الإفاضة، والإفاضة مع الناس وفى جمعهم الزاخر المتدافع ليشعر كل مسلم بأنه فى منزلة واحدة مع غيره من المؤمنين، فيستوى السوق والأمير، والكبير والصغير، والغنى والفقير والحاكم والمحكوم؛ فتصقل هذه الزحمة القدسية قلوب المؤمنين، وتشعرهم بالمساواة أجمعين.

فهذه الجملة عامة فى خطابها تشمل الحجاج أجمعين إلى يوم الدين؛ فهم جميعا مطالبون بأن يفيضوا مع الناس، ومن حيث يسرون، لا يختص أحد بطريق، ولا يمنع لأحد طريق ولا يكون لفريق مسلك، وللناس مسلك، ولا يمنع الناس حتى يمر بعض الناس؛ بل الجميع فى المرتفع والمهبط، والسير والموقف سواء، لأنهم فى ساحات رب العالمين الذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء.

ولقد قال بعض مفسرى السلف: إن الخطاب فى هذه الجملة خاص بقريش وحلفائهما؛ لأنهم فى الجاهلية كانوا يسمون أنفسهم الخمس يقفون بالمزدلفة، ولا يقفون مع سائر الناس بعرفة، فأمرهم الله سبحانه بأن يقفوا كما يقف كل الناس، ويفيضوا كما يفيض كل الناس.

وعندى أن الخطاب عام، ويدخل فيه النهى عن هذه الحال التى كانت من قريش؛ ومرمى الآية فى معناها العام أو الخاص هو التسوية المطلقة بين الناس فى تلك البقعة المباركة وفى ذلك المنسك المعظم.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ختم سبحانه الآية الكريمة التى تشتمل على آخر منسك من مناسك الحج، إذ يكون بعده التحلل، وإن بقيت بعض العبادات الأخرى، بالأمر بالاستغفار وهو طلب المغفرة من الله القدير؛ وطلب المغفرة نور العبادة أمر توحى به النفس المؤمنة البرة؛ وذلك لأن العبادة تطهر قلب العابد، وتزيل أدرانها، فتجعله يحس بما كان منه قبلها؛ فيضرع إلى المولى أن يستره بستره، ويصفح عنه بعفوه؛ ولأن المؤمن الخالص الإيمان كلما أرهفت مشاعره وقويت روحه، أحس بأنه مقصر أمام المنعم، لا يصل إلى الوفاء بحقه؛ فيلجأ إلى الاستغفار عن التقصير؛ ولأن الاستغفار نفسه عبادة، وهو أبر الطاعات؛ ولذا يقول بعض الصوفية: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت دلاً واستكباراً.

والاستغفار ثمرة الحج، لأنه التطهير النهائى للنفس، فيعود الحاج الذى لم يفسق ولم يرفث كيوم ولدته أمه، ولقد ذيل سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى كثير المغفرة، وأن الغفران وصف له سبحانه فى معاملته لعباده؛ والسبب فى ذلك أنه رحيم بالناس؛ ومن الرحمة بهم أن يغفر للمذنب؛ ليعطيه فرصة النجاة من ماضيه واطراح مآثمه، واستقبال حياة جديدة نزهة ينعم فيها بالطهر وينتفع منه الناس؛ وذلك رحمة به وبالناس؛ فالمجتمع يستفيد من كثرة التائبين، ولا يستفيد من كثرة اليائسين من رحمة الله، إذ يستمرون فى غيهم يأساً من غفران ربهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر].

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ المناسك: جمع منسك وهو العبادة؛ أى إذا أدبتم عباداتكم التى بينها النبى ﷺ على وجهها،

وكما شرعها ربكم، فاملثوا قلوبكم بشمرتها، وهى ذكر الله دائما وعمران القلوب به، فهو غاية العبادة وممرهاها؛ وذكر الله دائما فى كل الأعمال والأقوال هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر؛ فإن المرء إذا عمر قلبه بذكر ربه آناء الليل وأطراف النهار - ما أقدم على معصية، وما آذى مخلوقاً، وما أفسد مجتمعاً، وما ظلم وما بغى؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ [العنكبوت].

ولذلك طالب سبحانه الحجاج بأن يذكروا الله كذكورهم آبائهم، فإن المرء لا ينسى أباه، وإذا كان لا ينسى أباه لأنه كان السبيل الذى وصل به إلى هذا الوجود، فليذكر خالق أبيه وخالقه وخالق كل من فى هذا الوجود.

وإن ذكر الله سبحانه يقتضى أن يغضب المؤمن لعصيان الله فى الأرض؛ لأن ذلك اعتداء على محارم الله؛ ومن اعتدى على محارم الآباء قوتل فمن اعتدى على محارم خالق الآباء أولى أن يقاتل ويحارب؛ وقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فقيل له: قد يأتى على الرجل اليوم ولا يذكر أباه فقال ابن عباس: ليس كذلك، ولكن أن تغضب لله إذا عصى أشد من غضبك لوالديك إذا شتما، ففسر ابن عباس رضى الله عنه الآية بلازمها ونتيجتها وغايتها؛ إذ إن نتيجة ذكر الله دائما الغضب عندما تنتهك محارم الله سبحانه وتعالى، وإن الله طالب بأن نذكره كذكر آبائنا أو أشد ذكراً أى اذكروه سبحانه كذكوركم آبائكم أو أشد ذكراً من آبائكم؛ و«أو» فى معنى الإضراب والترقى، أى أنه يطالبهم سبحانه بأن يذكروه كما يذكرون آبائهم، ثم يترقى فى معانى التقرب منه، فيطالبهم بأن يكونوا أشد ذكراً له من آبائهم؛ وكأن لطالب الهداية درجتين: أولاهما، أن يكون ذكره لله كذكره الآباء، فيغضب لمحارمه كما يغضب لشم أبويه، ثم تترقى حاله فى مراتب التهذيب الروحى والنفسى، فيكون أشد ذكراً لله فيغضب لمحارمه أكثر مما يغضب لشم الآباء.

وفى الآية فوق هذه المعانى السامية تعريض بما كان يفعله أهل الجاهلية من قيامهم بعد يوم النحر فى الأسواق يتفاخرون بالأنساب والآباء؛ كما تروى كتب

الأدب عما كان يجرى من المسابقات الشعرية في الفخر والغزل في سوق عكاظ.

ولقد استبدل النبي ﷺ بهذه المفاخرة خطبة استعرض فيها أمر الإسلام وذكر بعض أحكامه ليقنتدى من بعده الأمراء فقد روى الإمام أحمد من حديث أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة النبي ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ»^(١).

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ بعد أن بين سبحانه وتعالى ما يجب على الناس أن يذكروه عقب القيام بمناسك الحج، وهو أن يذكروه هو وحده، وينسوا أهواءهم وشهواتهم ويغضبوا لمحارم ربهم، بين ما يقع من الناس؛ فذكر أنهم طائفتان: طائفة تذكر الدنيا، ولا يدعون الله بعد مناسك الحج إلا بما يشبع رغباتهم وأهواءهم، ولا يذكرون الآخرة، كأن العبادة في نظرهم ليست إلا ذريعة لطلب الشهوات أو الرغبات، أو مصالحهم الشخصية في الدنيا؛ وفريق يذكر الدنيا والآخرة؛ وقد ذكر الفريق الأول بقوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ الفاء هنا للإفصاح، أي إذا كان ذلك أمر الله فالناس ليسوا جميعا سواء في طاعته، فمنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا، وقد حذف المفعول للفعل آتينا للدلالة على تعميم المطلوب، فهم يطلبون كل ما يمكن أن يصل إليهم؛ ومن طلب الدنيا لا يفرق بين هوى يريده، وصالح يقيمه؛ ومعنى ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي لا نصيب لهم. وخلاصة المعنى: أن هؤلاء يلجأون إلى ربهم لينيلهم حظهم من الدنيا، راغبين في كل ما فيها لأنها همهم، ولا شيء سواها في نفوسهم، ولا غاية عندهم غيرها، وليس لهم أي نصيب في الآخرة.

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار - حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٢٣٩١). وأبو نضرة هو المنذر ابن مالك بن قطعة، من الطبقة الوسطى من التابعين.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

هذا هو الفريق الثاني؛ ليس همه الدنيا وليست مطالبه مقصورة عليها؛ بل مطالبه ثلاثة:

أولها: حسنة في الدنيا، أى حال حسنة في الدنيا، فلا يذل للئيم، ولا يرام بضيم، ولا تكرثه كوارث الحياة، ولا يبتلى في دينه ومروءته وخلقه، ولا يسلط عليه حاكم ظالم أو متسلط غاشم؛ وهكذا يعيش آمناً في سريره عنده قوت يومه، يتفجع الناس ويصل رحمته؛ فكل ما يؤدى إلى الاطمئنان والبعد عن الحرام فهو حال حسنة في الدنيا.

والمطلب الثانى: حسنة فى الآخرة، أى حال حسنة فى الآخرة، بأن يكون من المرضى عنهم من رب العالمين، فلا تلحقه آثام من آثام الدنيا. والمطالبة بالحال الحسنة فى الآخرة هى مطالبة بأن يجنبه السيئات فى الدنيا، ويوفقه للطاعات فيها؛ لأن حال الآخرة مبنية على حال الدنيا، فإن كان قائماً بالطاعات نافعا للناس فيها غير ظالم ولا متكبر، لا يعيث فى الأرض فساداً، فحاله فى الآخرة حسنة؛ وإن انهوى فى الشر وركبته الآثام فى الدنيا، وأحاطت به خطيئته، فليست حاله فى الآخرة حسنة.

والمطلب الثالث: أن يقيه عذاب النار؛ وقد ذكر ذلك مطلباً قائماً بذاته مع أنه داخل فى حسنة الآخرة؛ إذ إن حسنة الآخرة تقتضى ألا يكون فى النار؛ لأن المؤمن الخاشع الخاضع يُغلب الخوف على الرجاء؛ فكلما ازداد قرباً من الله ازدادت خشيته ورهبته، وكلما أكثر من الطاعات استصغر ما صنع فى جانب ما أنعم عليه الكبير المتعال؛ ولذلك كان الصديقون والنيبون أخوف لله من غيرهم لأنهم أقرب إليه، وأدنى منه، ومراتب الناس فى الخوف من العقاب هى كمراتبهم فى الطاعات لا كدركاتهم فى المعاصى؛ لأن أهل المعاصى فى لهو شغل، أما أهل الطاعات فهم فى ذكر لله دائم، وقد وصف الله الطائعين بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال].

ولقد وصف القاسم بن عبد الرحمن ذلك القسم الذى يطلب حسنة الدنيا والآخرة، فقال: من أعطى قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وجسدا صابرا، فقد أوتى فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار.

ولقد كان أكثر دعاء النبى ﷺ «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»^(١).

ولم يذكر قسم ثالث وهو الذى يطلب الآخرة فقط، ولا يطلب الدنيا؛ لأن الإسلام لا يرضى أن ينسى المسلم حظه من الدنيا؛ ولأن من يطلب الآخرة يطلب الأعمال الحسنة فى الدنيا؛ لأنها قنطرة الآخرة، ولأن الإسلام لا يقر الانقطاع عن طيبات الدنيا لحظ الآخرة لأنه لا يرضى بتعذيب الجسم لتهديب الروح كما يزعم الذين يسلكون ذلك المسلك.

ولقد روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ عاد رجلا من المسلمين صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله!! لا تطيقه، أفلا قلت: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»^(٢).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فى هذا بيان لجزاء الذين يتجهون إلى ربهم داعين أن يوفقهم لما فيه حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة، ويقيهم عذاب النار. والإشارة للبعد لبيان علو منزلتهم؛ وقد بين أن الجزاء هو نصيبهم مما كسبوه من عمل الخير والقيام بالحق الواجب عليهم، وفى هذا التعبير الذى يفيد أن النصيب مأخوذ مما كسبوه من أعمال إشارة إلى أمور ثلاثة:

(١) متفق عليه رواه البخارى: كتاب الدعوات (٥٩١٠) ومسلم: الذكر والدعاء (٤٨٥٥) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) رواه بهذا اللفظ مسلم: الذكر والدعاء (٤٨٥٣) وقال فى آخره: قدعا الله له فشفاء. والترمذى: الدعوات (٢٤٠٩) وأحمد (١١٦٠٧) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

أولها: إن هؤلاء الذين دعوا ربهم بالتوفيق لابد أن يقرن دعاؤهم بإرادة قوية عاملة متجهة إلى تحقيق ما ييغنون وما يدعون الله سبحانه وتعالى في التوفيق له، وإن لم يكن عمل فالدعاء أمانى وأحلام، ولا يتحقق فيها القصد الكامل والضراعة الخاشعة لرب العالمين؛ لأن الدعاء مخ العبادة؛ فإن كان صادقا فالإرادة تتجه نحوه.

الأمر الثاني: الذى يشير إليه التعبير الكريم: أن الجزاء ليس على الدعاء، وإنما الجزاء على العمل، فيجب أن يعملوا؛ فليس الدعاء وحده بمستحق جزاء إن كان العمل ينافيه.

الأمر الثالث: أن كسب العبد لعمل الخير يطوى فى ثناياه جزاءه، وكذلك كل عمل للإنسان جزاؤه مشتق من منهاجه، إن خيرا فخير وإن شرا فشر؛ فمن أسدى إلى الناس معروفا، فقد قدم بهذا الإساءة لنفسه؛ ومن أعان مكروبا، فقد كسب الجزاء ساعة عمل، وكذلك من قتل نفسا، فقد قتل نفسه إذ استحق ذلك الجزاء، ومن سرق فقد قطع يده، ومن زنى فقد رجم نفسه، وهكذا ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور].

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله الكريم ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وسرعة حسابه سبحانه وتعالى كناية عن تحقيقه، وتحقيق يوم القيامة وقربه، وعلمه سبحانه وتعالى بإحسان المحسن وإساءة المسىء؛ لأن تطويل الحساب يكون من جهل المحاسب، فيبطئ ليعرف؛ فلذا كان المحاسب هو العليم الحكيم الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، فإن حسابه يكون سريعا؛ إذ لا تخفى عليه سبحانه خافية.

وفى هذا التذييل إشارة إلى عقاب الذين ليس لهم فى الآخرة من خلاق على ما يرتكبون من موبقات ما داموا قد جعلوا الدنيا كل همهم، وغاية أمرهم، ومقصد وجودهم.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هذا ذكر لله خاص فى أيام مذكورة بعد قضاء مناسك الحج؛ وقد أمر الله فى الآية السابقة بالذكر العام، وفى هذه الآية ذكر

خاص، والأيام المعدودات التي يصحبها ذكر خاص، أيام التشريق الثلاثة، وقد نقل القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن عن أبي عمر بن عبد البر الإجماع على أن الأيام المعدودات في الآية الكريمة هي أيام منى، أيام التشريق الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة، وهى أيام أكل وشرب. وذكر الله الخاص فى هذه الأيام بالتصدق على الفقراء من الذبائح التى ذبحوها فى يوم النحر، ورمى الجمار فيها، بعد أن يكون الحجيج قد رموا جمرة العقبة فى يوم النحر؛ وفى رمى الجمار يكبر عند كل حصاة يرميها؛ وهذا بلا شك ذكر خاص.

ورمى الجمار على ذلك الشكل فى أيام منى الثلاثة عملى حى مادى يقتزن به عمل نفسى وجدانى، وهو إشعار القلب بعظمة رب العالمين، وتلك الحركات الجسمية هى للدلالة على التعلق القلبى بالأرض التى بارك الله فيها، وبالتالي التعلق بمن شرفها بالانتساب إليه؛ فسمائها حرمه المقدس، وبيته الأمن. وكون الحركات على هذا الشكل وبهذا الوضع ليس من الأمور التى تعلل، كما أن محاولة معرفة العلة فى كون الصلاة على هذا الشكل محاولة فى غير جداء، إنما هذا أمر توقيفى، قد ارتضاه رب العالمين على لسان النبى الكريم سبيل الزلقى إليه، وتوجه القلوب نحو ذاته العلية التى لا يحدها مكان، ولا يجرى عليها الزمان.

وقد أشار النبى ﷺ إلى أن هذه الأيام هى أيام منى بما روى الدارقطنى والترمذى أن ناسا من أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو بعرفة، فسألوه، فأمر مناديا فنادى: «الحج عرفة، فمن جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك، أيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه»^(١).

وإن هذه الأيام يحرم الصوم فيها عند جمهور الفقهاء؛ فقد روى أن النبى ﷺ قال: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله»^(٢).

(١) رواه الترمذى عن عبد الرحمن بن يعمر: كتاب الحج - من أدرك الإمام بجمع (٨١٤)، ورواه النسائى (٢٩٩٤) وأبو داود (١٦٦٤) وابن ماجه (٣٠٠٦) وأحمد (١٨٠٢٢) والدارمى (١٨١١).

(٢) رواه مسلم: كتاب الصوم - تحريم صوم أيام التشريق (١٩٢٦) وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٧٩٧).

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾

هذه الأيام هي التي يكون بعدها النفي إن كان قد أدى الحاج كل الأركان، وقد بين القرآن الكريم أنه لا يلزم أن يبقى الأيام الثلاثة بمنى فإن شاء بقى يومين يرمى فيهما الجمرات، ونفر قبل فجر اليوم الثالث؛ وإن شاء بقى اليوم الثالث؛ وهذا معنى الجملة الكريمة ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى سافر معجلاً فى اليومين الأولين فلا إثم عليه فى التعجيل ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أى من بقى إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه.

وقد قيد الله سبحانه نفى الإثم بقوله ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ للإشارة إلى أن العبرة بتقوى القلوب فتلك الحركات الحسية من التزام مكان معين فى زمان معين، ورمى الجمار الثلاث لكل جمرة سبع حصيات؛ كل هذا لا غاية له، ولا ثمرة إلا تربية التقوى وتنميتها فى القلوب، لتتهذب النفس، ويربى الوجدان، ويخشى العبد الديان، فيراقبه فى كل الأفعال وكل الأقوال، فيكون مجتمعاً مهذباً كاملاً صالحاً قوياً؛ لأن تهذيب الأحاد تقوية لبناء الجماعة، فلا تتنافر أجزاءها، ولا تتباعد أحادها، وتقوم على تقوى من الله ورضوان.

وإن هذه الأيام التي يقوم فيها الحجيج بذلك الذكر فى البقعة المباركة، يشاركون فيها المسلمون فى كل بقاع الأرض فى بعض أفعالهم، وذكرهم؛ فالحجيج ينحرون ليتحللوا، وسائر المسلمين ينحرون ليضحووا، ويشاركوا وفود الله فى صدقاتهم؛ والحجيج يكبرون ويرمون الجمار، والمسلمون فى الأمصار يشاركونهم فى التكبير عقب الصلوات.

وقد اتفق الفقهاء على أن المسلمين يسن لهم أن يكبروا عقب الصلوات من صبح يوم عرفة وهو اليوم التاسع إلى ما بعد صلاة العصر يوم عيد الأضحى؛ واقتصر أبو حنيفة على ذلك وتبع فى ذلك عبد الله بن مسعود، ولكن أبا يوسف ومحمداً مع جمهور الفقهاء على أن التكبير لا ينتهى عقب صلاة عصر يوم النحر، بل يستمر إلى عصر اليوم الثالث من أيام التشريق، أى اليوم الثالث عشر من ذى

الحجة؛ وأن تكبير المسلمين جميعا إشعار لهم بأنهم جميعا مع الحجيج بقلوبهم وذكرهم؛ وأن المجتمع الأكبر في حرم الله هو جمعهم أجمعين، وأن أولئك الضيوف الذين حلوا في ساحة الكرم المنان هي وفودهم إلى ذلك المؤتمر الأكبر، وأن المؤمنين مهما تتباعد الديار كلهم على قلب رجل واحد في رفع راية الإسلام ونشر مبادئه الفاضلة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى آيات الحج التي أشار فيها إلى مناسكه، وذكر فيها بعض أعمال الحجيج الواجبة فيها، بهذه الجملة السامية، وبذلك الأمر الجازم القاطع، وهو الأمر المكون من عنصرين أحدهما: تقوى الله، وثانيهما: العلم اليقيني بالحشر، وأنه سيكون إلى رب العالمين؛ وفي هذا إشارة إلى خلاصة التدين وثمرة العبادات بكل أنواعها وكل طرقها، فإن لم تؤد أية عبادة إلى هذين الأمرين، فهي صورة لا روح فيها، وشكل لا ثمره منه، فإن لم ترب العبادة قلبا خاشعًا، وعقلا خاضعًا، وهوى ممنوعًا، وترقبا خائفًا، فهي عبادة جوفاء، وإن نسى الشخص لغفلة في نفسه أو غفوة من عقله؛ أو غشيان الضلال على قلبه - الحشر والحساب والعقاب والثواب فقد ضل ضلالا بعيدا . . إن الإيمان باليوم الآخر هو لب الدين، وهو الفاصل بين المهتدى والضال، فمن حسبها دنيا لا آخرة بعدها، فقد خسر خسرانا ميينا؛ خسر نفسه، فضل وأضل، وخسر حياته ففهمها أجلا محدودا لا غاية وراءها، ولا سمو بعدها، وخسر العزاء الروحي الذي يجعله يرضى بشدائد الحياة رجاء لما وراءها؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...﴾ (٣١) [الأنعام].

وفي الجزء الثاني من الأمر تهديد بالعقاب، بعد الترغيب في الثواب، وعند الله حسن المآب.

وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ
عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٧﴾

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بعض العبادات التي تطهر النفوس
وتركز القلوب، وتحمي الجماعات وتوجهها نحو الخير العميم؛ فذكر الصدقات ثم
ذكر الصوم، ثم ذكر الحج الذي تتلاقى فيه القلوب وتلتقى فيه وفود الجماعات
الإسلامية من كل فج عميق في الساحة الربانية؛ وقد ذكر في طي الكلام أصناف
الناس في أدعيتهم التي تكشف عن خبايا قلوبهم، وأن منهم من يطلب الدنيا، ولا
غاية له وراءها، ومنهم من يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢١).

والعبادات أيا كان نوعها دواء الجماعة ويلسم القلوب الشافي، وبعد أن ذكر
الله سبحانه وتعالى ذلك الدواء الناجع ذكر سبحانه داء الجماعات المستحکم،
ومرضها الممض، وهو النفاق، وخرابة اللسان مع فساد القلب والمظهر الحسن مع
القصد السيئ، ومحاولة اجتذاب الناس بالقول المعسول مع فعله المردول حتى إذا
نال ثقتهم ملأ الدنيا بالشر، وظهر الفساد في البر والبحر.

وهكذا يذكر الله سبحانه دواء القلوب، ويذكر داءها، ليطب كل امرئ لنفسه بما يداويها، وتطب الجماعة لنفسها باجتثاث الشر من بين ربوعها، ونفى الخبث عنها كما ينقى الكير خبث الحديد.

وهذا التداوى يقوم به فريق الخير الذى نصبه الله سبحانه حجة للحق ومناراً للشرع، وهذا ما ترمى إليه الآيات الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآيات المذكورات.

وقد ذكر الله سبحانه فى هذه الآيات أن الناس فريقان: فريق الشر أهل النفاق، وهم الداء، وهم درن الامة، بل السرطان الذى يقضى عليها، إن لم ينجث من أصله. والفريق الثانى، وهم الذين يتولون العلاج وهم الاخيار الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله.

وقد ابتدا سبحانه بذكر الداء، ليعلم أهل الخير مقدار ما يتتلون به، وقد ذكر صفات أهل الشر؛ فكانت ثلاثة:

اولها: حسن البيان والقول الحلو. وثانيها: كثرة الحلف الكاذب.

وثالثها: اللدد فى الخصومة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذه هى الصفة الاولى، وهى اصل الداء القاتل وقوته، فإن خلافة اللسان المنافق، وقوة البيان الكاذب، وحسن العرض للقول الباطل، هى المعاول القوية التى يرفعها المبتلون لهدم الفضائل؛ فهم بمعرفتهم بماتى القول ومورده يثيرون الإعجاب بحسن تأنيهم، وينالون الاستحسان العظيم بلطف مداخلهم، أو بزخرف القول وزوره، ويسترعون الباب بعض أهل الخير الكرام؛ فالمؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم^(١).

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ غُرٌّ كَرِيمٌ وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَّئِيمٌ». [رواه الترمذى: كتاب البر والصلة - ما جاء فى البخيل، (١٨٨٧) وأبو داود: كتاب الأدب - حسن العشرة (٤١٥٨)، وأحمد فى مسنده (٨٧٥٥)]. الغر: قليل الفطنة للشر لكرمه وحسن خلقه. والخب: الخداع الذى يسعى بالإفساد بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إما أن يكون متعلقًا بالقول، ويكون المعنى يعجبك قولهم الذى يكون موضوعه الحياة الدنيا، إذ يفهمون ما فيها ولا يدركون سواها؛ لأنها خلَّب أكبادهم، وغاية أمورهم؛ ومن أحب شيئًا أحسن القول فيه، ومن كانت الدنيا همه أحسن حكاية أمورها، حتى إن قوله فيها ليكون عجيبيًا؛ أما الآخرة فلا يحسن القول فيها، لأنه لا يبتغيها، فإن تكلم فى أمر يتعلق بها اعترته حبة وعى وحصر.

وإما أن يكون ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلقًا بالإعجاب، أى أن قدرته على إثارة الإعجاب والاستحسان لبيانه إنما يكون ذلك فى الدنيا فينتج ثمرته حيث يكون الحكم للظاهر، ولا ينقب عن القلوب والسرائر، كما قال عمر رضى الله عنه: أيها الناس إن الوحى قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم هذا أمر الدنيا، أما الآخرة فالحكم فيها علام الغيوب الذى يعلم ما تخفى الصدور، فلا سبيل للخديعة بالقول، فالله يكشف مستور القلوب، ويحكم عليه بمقصده وغايته، لا بقوله وإجاده.

ونحن نختار أن يكون متعلق الجار والمجرور لا القول؛ لأنه الذى يتفق مع السياق؛ إذ إن السياق فى بيان الذين يخدعون الناس فى الدنيا وقلوبهم مريضة لبيان حال من يجيدون القول فيها، وإن بغض الذين يجيدون القول فى الدنيا أختيار لا أشرار.

هذا أول حال من أحوال الذين يظهرون ما لا يخفون، ويقولون ما لا يفعلون.

أما الصفة الثانية فهى قوله تعالى: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أى أن هذا الذى يثير إعجاب الناس فى الدنيا بخلاصة لسانه وقوله الخلو المعجب المطرب، إن رأى الناس يتشككون فى قوله أقسم بصدقه؛ لأنه قد يبدو من فحوى بيانه ما يدل على جنانه كما قال تعالى سبحانه فى شأن المنافقين ومن فى قلوبهم مرض: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...﴾ (٢٠) [محمد] فإذا ملح المخادع من النظرات التى

توجه إليه استغراباً لدعاويه، أو استبعاداً لها، وثقتها بأن أشهد الله على أن ما في قلبه يوافق ما يجرى على لسانه.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه يقسم بالله تعالى إن ما جرى على لسانه هو نفس ما يختلج في قلبه، أو ما يؤمن به ولقد قرر علماء اللغة أن من ألفاظ القسم: الله يعلم أنى فعلت كذا، أو الله يشهد أنى قلت كذا؛ فهذا تأكيد بالآيمان معروف في لغة العرب، ولقد قرروا أن الحلف على هذا النحو أكد وأوثق من القسم الصريح، وقال بعض الفقهاء: إن من يقول كاذباً: الله يشهد بكذا أو يعلم بكذا، مؤكداً كذبه بذلك، يعتبر مرتداً؛ لأنه كذب على الله، أو رماه بالجهل، وعندى أن ذلك لا يعد كفراً لعدم القصد إلى ذلك المعنى الإلحادى؛ ولكنه على أى حال مستهين بحق الله عليه كشأن كل حالف بالكذب، سواء أكان الحلف بلفظ صريح فى الحلف، أو بلفظ يؤدى إليه.

أولئك المخادعون الذين يخدعون الناس ولا يخدعون الله هم الذين يقطعون أوصال الأمة، وبهم تبلى، وبسببهم تنزل الفتن ويشور الشر، وتذهب الثقة بين الناس، وتقوم العداوة بينهم مقام المودة، والبغضاء محل الإخاء؛ لأنهم بخديعتهم للناس، ثم تكشف أحوالهم بمرور الأيام تضيع الثقة؛ ثم الذين يعمدون إلى تلك الأساليب الماكرة لا يبعون خيراً، بل لا يبعون إلا شراً؛ لأن الأختيار لا يحتاجون إلى إخفاء نياتهم، وما يجول فى قلوبهم؛ إنما الذين يريدون ما لا يخفون هم الذين توسوس نفوسهم بالشر والهوى، ولا يريدون أن يطلع عليه أحد؛ ولذلك عرف النبي ﷺ الشر بأنه: «ما حاك فى الصدر وكهرت أن يطلع عليه الناس»^(١)، فالشر لا يعيش إلا فى كِنٍ مظلم والنور يقتله، والخير يزيده النور وضوحاً وقوة ونماء؛ ومن كان الشر غايته فهو عنصر مخرب مفسد مهلك؛ وهو بلاء لأمتة وجماعته وأسرته؛ بل بلاء على نفسه فى الدنيا عندما يعلم أمره، وفى الآخرة له عذاب أليم.

(١) عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِنِّمِ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِنِّمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ». [رواه مسلم: البر والصلة: البر والإثم (٤٦٣٢)، والترمذى فى الزهد (٢٣١١) وأحمد (١٦٩٧٣)، والدارمى: الرقاق (٢٦٧٠).]

ولذلك كان أخوف ما يخافه النبي ﷺ على أمته من بعده: رجلا عليم اللسان منافق القلب^(١)؛ فإن ذلك النوع من الرجال يثير التظن بالصالحين، ويفسد الأمر على المحقين؛ ويجعل بأس الأمة بينها شديدا، ولقد روى ابن جرير عن بعض الصالحين أنه قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب؛ ويقول الله عز وجل: فعلى يجترئون وبى يفترون، وعزتى لأبعثن عليهم فتنة ترك الحليم فيها حيران^(٢).

ومهما يكن من أمر ذلك الخبر، فإن معناه متحقق سجله الإسلام، وأثبتته الوقائع، فما من أمة ابتلاها الله بهيمنة هذا النوع من الرجال إلا فسد أمرها، واضطرب حالها، وسارت في طريق أوله نفاق وفساد، وآخره فتنة وخراب.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ هذه هي الصفة الثالثة اللازمة للمخادعين الذين يستلبون قلوب الناس من جنوبهم بحسن بياهم وكذبهم على الله بأيمانهم، والالذ من معناه في اللغة: العوج، وفسر بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾^(٣) [مریم] أى عوجًا، والمنافق ألد دائما لأنه أعوج دائما.

واللد من معناه اللغوى أيضا: الشدة في الخصومة والمغالبة فيها، ويقال رجل ألد وامرأة لداء، وقد لدَدَ يَلْدُ - كفرح يفرح - لددا؛ أى صار ألد، ولدَدته ألد كنصر ينصر إذا جادله فغلبه، وقال الزجاج في أصل اشتقاق اللدد بمعنى الشدة في الجدل والخصومة إنه مأخوذ من لديدى العنق، وهى صفحتاه؛ وتأويله أنه من أى وجه أخذ من يمين أو شمال فى أبواب الجدل غلب.

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُتَافِقٍ عَلَيْهِمُ اللُّسَانُ». [رواه أحمد فى مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٣٧)].

(٢) روى الترمذى: كتاب الزهد - باب ما جاء فى ذهاب البصر (٢٣٢٨) عن أبى هريرة يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُخْرَجُ فى آخِرِ الزَّمَانِ رَجَالٌ يَحْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللَّيْنِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السَّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذُّنَّابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أِبَى يَغْتَرُونَ؟ أَمْ عَلَى يَجْتَرُونَ؟ فَسَبَّيْ حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا».

والخصام - إما أن يقال إنه مصدر خاصم أى جادل أو عادى؛ أو تقول جمع خصم كضخم وضخام؛ وقال أبو عبيدة الأول أى أنه مصدر خاصم، وقال الزجاج الثانى.

والمعنى على الأمرين: أن ذلك النوع من الناس الذى يحاول أن يخدع الناس بحلو لسانه، ويضلهم بقدرة بيانه، فيه طبع ملازم له، وهو شدة الخصومة، ويصح أن نفسر الخصومة بالعداوة، كما يصح أن نفسرها بالجدل والمغالبة البيانية فى ميدان المناظرات.

وعلى الأول يكون المعنى إنه شديد العداوة واللجاجة فى الخصومة، فليس هينا لنا قريب الرضا سهل الرجوع، بل إنه لحب نفسه وكرهيته لخير الناس، لا يصفح عمن ينال منه ولو بالحق فهو قد أكل الحقد قلبه، واعتكرت فى نفسه حسكة^(١) الحسد؛ وكذلك كل شرير؛ لا يحب الناس، ولا يظهر لهم المودة إلا برئاء القول: بل ذلك شأن المجرمين؛ ففى طبيعة كل مجرم بغض للمجتمع، وكأن بينه وبين الناس ثارا لا يطل، وترات^(٢) يجب استيفاؤها؛ وكلما انحدر فى جريمة وتلقفته يد العدالة ازداد للناس كرها وعاد إلى مثلها أو أكثر؛ وكذلك أولئك الذين فى قلوبهم مرض، وفى ألسنتهم حلاوة يخدعون بها الناس: يبغضون الناس ولا يحبونهم إلا بمقدار ما ينالون من أرب فيهم، ولا يصفحون عمن ينالهم بالقصاص العادل، ويتبعون العورات؛ وهكذا هم فى خصومات قلبية بينهم وبين الأخيار؛ يظهرون القول الحسن ليتمكنوا من الرقاب، ثم يشفوا غيظهم.

وعلى الثانى، وهو أن يكون الخصام بمعنى المجادلة والمنازلة البيانية، يكون المعنى: أن هؤلاء الذين يخادعون الناس بالقول الحلو، يثيرون الإعجاب بحسن بيانهم، ويوثقونه بالأيمان المغلظة، ويجادلون عنه بقوة وعنف وغلب؛ فالكلام

(١) الحسكة: نبت له ثمرة خشنة (السعدان)، أو عشب له شوك يؤذى، وحسكة الصدر: العداوة والحسد والضيغنة، على التشبيه. لسان العرب.

(٢) ترأت: جمع ترّة، من ترّ العضو إذا بان وانقطع بضربة بالسيف ونحوه. لسان العرب.

يكون كله فى بيان منهاجهم فى خدع الناس، وسلب ثقتهم بقول الزور؛ ولذلك كان هذا المعنى أنسب للسياق.

واللدد فى الجدل فى ذاته صفة ملازمة للمراء والمهاترة؛ لأن من يكون همه الجدل يندفع إلى تأييد مذهبه بالحق وبالباطل، إذ لا يهمه الحق بمقدار ما يهجم انتصار فكره، وغلبه فى ميدان النزال البيانى؛ ولذلك كان مبغضا إلى الله، وإلى الذين يدعون إلى الحق المجرد؛ ولقد قال النبى ﷺ فيما رواه مسلم: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(١) ولقد كان الإمام مالك رضى الله عنه يقول: كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص مما جاء به محمد ﷺ.

وفى الحق إن أولئك الذين يحاولون أن يكسبوا قلوب الناس ليتمكنوا من رقابهم بالقول المعسول الخادع فيهم الأمران السابقان: فيهم البغض الشديد للناس، وفرضهم أعداء وخصوما، ولا يفرضونهم أولياء وإخوانا؛ وفيهم اللدد فى الجدل ومحاولة الغلب بالحق وبالباطل.

بل إن بغضهم للناس، أو على الأقل عدم نظرتهم إليهم نظرة أخوة واصله، ومودة مقربة، هى التى جعلتهم يحاولون خديعتهم بالقول البراق، واليمين الغموس، والجدل الذى تبرق فيه الألفاظ، ويختفى فيه نور الحق وتنقطع به أسباب اليقين؛ ولو كانوا يفرضون الأخوة الرابطة بينهم وبين الناس، لأحبوا لهم ما يحبون لأنفسهم، ولكرهموا مايكرهون لهم، ولكشفوا عن نيتهم واضحة بينة؛ فالحق دائما أبلج، والباطل لجلج^(٢)؛ فحيثما كانت خديعة فثمة هوة فارقة، لا أخوة جامعة؛ وحيثما كانت لجاجة فثمة حق ضائع وباطل رائج.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب المظالم والغضب (٢٢٧٧)، ومسلم: العلم (٤٨٢١) عن أم المؤمنين السيدة

عائشة - رضى الله عنها وأرضاها.

(٢) يقال: الحقُّ أبلجٌ والباطلُ لجلجٌ، أى يُردَّدُ من غير أن يُنْقِذَ، واللَّجْلَجُ: المختلط الذى ليس بمستقيم، والأبْلَجُ: المضيء المستقيم. لسان العرب.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْفُسَادَ﴾ في هذه الآية الكريمة بيان الغاية التي تغياها من يريد أن يخدع الناس، فهو
يخدعهم ليتمكن لأهوائه وشهوته. وإذا تمكنت الأهواء والشهوات واندفع الشخص
في اجتراحها، يشار عسلها^(١) من غير دين رادع، ولا حكم زاجر - سرى الفساد في
جسم الأمة كما يسرى الداء العضال في جسم المريض، وبذلك يهلك الحرث
والنسل، أى يهلك الزرع والحيوان، وفيهما جماع حاجات بنى الإنسان، فما من أمر
يحتاج إليه الإنسان في مقومات جسمه إلا كان من الحيوان أو من النبات، وهلاكهما
كناية عن الخراب العام، والضيق الشديد، والفساد المستحكم، وضياح المصالح.

والحرث: مصدر حرث يحرث؛ بمعنى أثار الأرض لإعدادها للزراع ثم أطلق
وأريد به المحروث وهو الأرض نفسها، ثم أطلق وأريد به ثمرات الحرث وهو الزرع
الذى حان حصاده، والثمر الذى آتى أكله؛ والمراد به هنا ذلك.

والنسل فى أصله: مصدر نسل ينسل بمعنى خرج وسقط، ومنه قوله تعالى:
﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس] وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [٩٦] ﴿[الأنبياء]، أى يخرجون، ثم أطلق على خروج الحيوان^(٢) من بطن أمه وولادته، ثم
أطلق وأريد به ذات الحيوان الوليد.

وفى التعبير بهلاك الحرث والنسل بسبب استحكام الشهوات وسيطرة أهل
الأهواء، إشارة كما قلنا إلى عموم الفساد فى المدائن والقرى، وبين أهل الزرع
وسكان البوادي، أى بيان عموم الشر للحاضرة والبادية؛ لأن هلاك النسل رمز
لهلاك ما تقوم عليه البادية وما به قوام حياتها؛ إذ إن رأس مال البادية النعم من
الإبل والبقر والغنم وأخواتها، وقيام الثروة فى سواد الأرض الزرع وما تنتجه

(١) اشتار العسل: اجتناء من خلایاه ومواضعه. قلت: وسياق الكلام يدل على المقصود وهو ما يجده الفاجر
من لذة الشهوات المحرمة، هى عنده كالعسل حلاوة لما مات قلبه، وفسد حسه، حتى إذا ما جاءهم الموت
حيل بينهم وبين ما يشتهون.

(٢) الحيوان: الجسم النامى الحساس المتحرك بالإرادة [التعريفات - باب الحاء - ج ١ ص ١٣]. فيشمل الإنسان
والبهائم.

الأرض، فإذا هلك الأمران بسبب استحكام الأهواء والشهوات، فقد عم الفساد؛ وهلك العباد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ قد قال العلماء فيه إن التولى يحتمل أحد أمرين: إما أن يكون معناه الانصراف والذهاب بعد أن خدع الناس بحلو القول وأقسم بالأيمان المغلظة الكاذبة وجادل وناضل فيما يدعيه من حب للخير والإصلاح، وإما أن يراد به التولى بمعنى الولاية والإمرة على الناس، ولقد قال العلماء إن الآية الكريمة تحتمل الأمرين كما نوهنا.

وعلى الأمر الأول يكون المعنى والله سبحانه وتعالى أعلم بمبراه: إن ذلك الذى يدعى الإصلاح والإصلاح، وحب الخير والمنفعة، ويعلن ذلك بحلو اللسان، ويقسم عليه الأيمان، ويجادل عنه بأبلغ البيان - إذا تفرقت المجالس، وانصرف إلى العمل، بدت طويته، وظهرت نيته، وانكشفت سريرته، فاندفع فى الشهوات ينال منها؛ وقد ترك قوله دبر أذنه، وما قال ما قال إلا ليكيد أو ليخفى حقيقة أمره، فيكون منه الشر والفساد، وإذا كثر من على شاكلته فسدت الحال، وكانت العاقبة السوء.

وعلى الأمر الثانى، وهو أن يكون معنى تولى صار واليا: أن هذا الذى اجتذب ثقة الناس بالأمانى البراقة، والأقوال الخادعة والأيمان الكاذبة واللسن فى الجدل إذا تحققت بغيته، ونال طلبته، وصار واليا على الناس، لا يسعى لنفعهم، ولا يقيم الحق بينهم، بل يسعى لإشباع رغباته، ويحكم الناس لنفسه لا لهم، والفاصل بين الحكم العادل والحكم الظالم، أن الحاكم العادل يعتقد أنه تولى أمر الناس لتكون ثمرة الحكم للناس، كما كان الشأن فى أبى حفص عمر رضى الله عنه، وأما الحاكم الظالم فهو الذى يحكم الناس لتكون الثمرة له ومن معه، وأمثلة ذلك فى التاريخ كثيرة لا يحصيها العد.

وهذا الخادع الكاذب المجادل المرائى يكون حكمه الناس لنفسه لا لهم، ومن ثم تحكم رغباته وأهوائه، ومن حكمت رغباته وأهوائه فإن سعيه لا محالة يؤدى إلى الفساد، لا إلى الإصلاح؛ لأن الطمع يلد الطمع، والهوى يلد الهوى فتتسلسل

الأهواء فى سلسلة أولها إعجاب بالنفس وزهو وخيلاء، وآخرها ضياع وفساد، وهلاك للحرث والنسل، ثم ذل واستخذاء.

واللام فى قوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ هى التى يسميها العلماء لام العقابة أى أنها تشير إلى أن العقابة - فى عمل المتولى الذى يحكم الناس لنفسه ولرغباته وأهوائه لا لمصالحهم ونفعهم - هى الفساد فى الأرض، والهلاك العام لكل ينابيع الثروة فى البلاد، والله يتولى برحمته العباد.

ونحن نختار أن يكون معنى التولى هو صيرورته والياً؛ لأنه ذلك هو الذى يتفق مع الآية الآتية، وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾. وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ وذلك لعدة أمور:

أولاً- لبيان أن الله لا يحب ذلك الصنف من الناس الذى يخدع الناس ويكذب على الله، ويجادل ويمارى، ويضل عن بيته، ويسعى فى الأرض بالفساد؛ إذ الله لا يحب الفساد فلا يحب المفسدين، ومن لا يحبه الله فهو بعيد عن رحمته، معرض لنقمته.

ثانياً- وليبين أن الله سبحانه وتعالى لا يريد بما فرض من عبادات إلا مصلحة الناس ودفع الضر عنهم، فهو الغنى الحميد الذى لا يكسب من عبادة عابد؛ ولا يضار من فسق فاسق؛ إنما الأمر فى ذلك إلى مصلحة الناس ودفع الضر عنهم.

ثالثاً- وفوق ذلك هذا التذييل يدل على أن شرع الله كله أساسه إقامة المصلحة ودفع المضرة، فما من أمر شرعه الله إلا فيه جلب نفع أو دفع ضرر، وأن دفع الضرر، مقدم على جلب النفع، وأن دفع الضرر العام مقدم على دفع الضرر الخاص، وأن جلب المنفعة العامة مقدم على جلب المنفعة الخاصة.

رابعاً- وإن هذا التذييل فوق ذلك يشير إلى أن الله سبحانه استخلف الإنسان فى هذه الأرض ليعمرها لا ليفسدها، فأولئك الذين يبذلون الجهود العقلية ليصلوا

إلى ما يدمر الأرض ويخربها ويجعلوا عاليها سافلها قد ضلوا عن سنة الله، وخرجوا على قانون الفطرة وهم بعيدون عن محبة الله؛ لأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذه حال الطغاة يرتكبون ما يرتكبون، وينزلون بالناس ما ينزلون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ وقد زين لهم سوء عملهم فأراه حسناً، وإذا كانت النوارل تنزل بالضعفاء لم يلتفتوا إليها لحماية الطغيان وفساد البصر والمدارك، فإذا تقدم أحد الناس مرشداً واعظاً نهروه، وربما امتدت إليه أيديهم بالأذى، وأخذتهم العزة؛ أى الاستعلاء الجاهلى وحماقة الكبرياء؛ ودفعتهم الجرائم إلى إثم آخر فوق إثم الطغيان، وفوق ما ارتكبوا من آثام، وما أنزلوا بالضعفاء من آلام.

والباء فى قوله تعالى: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ إما أن تكون بمعنى المصاحبة والاقتران، والمعنى على هذا أخذتهم العزة واستولت عليهم مقترنة بالإثم مصاحبة له، فهى ليست عزة محمودة، بل كبرياء مبغوضة؛ أو تكون الباء للسببية بمعنى لام التعليل، ويكون المعنى: أخذتهم العزة الغاشمة والعنجهية الظالمة بسبب الإثم الذى استغرق قلوبهم وأحاط بنفوسهم، أى أنهم لفطروا ما ارتكبوا من آثام، قد أحاطت بهم خطيئاتهم فسدت مسارب الهداية إلى قلوبهم، فإذا سمعوا كلمة الرشاد لم يتقبلوها، وأنغضوا رءوسهم حاسبين أن ذلك إهانة لسلطانهم؛ وإصغار لشأنهم، وما هو فى حقيقة الأمر إلا حماية للسلطان، وإكبار للأمر، وخصوصاً إذا كان من ناصح أمين.

وإذا كانت تلك حالهم فلا صلاح لهم فى الدنيا؛ وهم فى إحدى حالين، وكلتاهما نتیجتها السوء: إما أن يدبّل الله منهم فى الدنيا، ويجعلهم عبرة للمعتبرين، ويذيقهم وبال أمرهم فى الدنيا، وتأممه فى الآخرة .. وإما أن يمهّلهم ويملى لهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ويلقى بهم فى نار جهنم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، الفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانت هذه حال ذلك الطاغى الفاجر: لا يقيم الحق، بل يفسد، ولا

يطيع الناصح بل يؤذيه، وربما يقتله؛ فالله كافيه ومتوليّه، وهو العزيز المنتقم الجبار، والله سبحانه ينزل به العذاب الأليم، بإلقائه في نار الجحيم؛ فمعنى ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أى جهنم هى التى تكفيه، بدل كلمة الحق التى كانت تؤذيه، ﴿وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ اللام هنا تنبئ عن قسم مقدر وهى داخله على جوابه، والمهاد جمع مهد، وهو المكان المهيأ للنوم، والتعبير عن جهنم بأنها بئس المهاد لا يخلو من تهكم بأولئك الفاجرين، كما يقال: (تحية بينهم ضرب وجيع) وكقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق].

وبعد، فإن أول مظاهر الطغيان صم الآذان عن سماع كلمة الحق؛ ولعل الأمانة الظاهرة للحاكم العادل هى سماعه النقد والملام، فضلا عن الوعظ والإرشاد؛ وأمانة الحاكم الطاغى تبرمه بنصح الناصحين ونقد الناقدین فضلا عن لوم اللاتمين؛ والمثل فى التاريخ كثيرة مستفيضة؛ يروى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب أمثل الحكام: اتق الله، فقال بعض الحاضرين أو تقول لأمير المؤمنين: (اتق الله) فالتفت الفاروق، وقال: ألا فليقلها، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها! وعمر هذا هو الذى صاح عندما تولى: من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه فقال أعرابى: والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا! فقال أبو حفص: الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم عمر إذا أعوج!

ولو تنزلنا عن مقام عمر مقام الصديقين لوجدنا من بعض الحكامين حتى فى عصور الاستبداد من يستمع إلى كلمة الحق أحيانا؛ يروى التاريخ أن يهوديا له حاجة تلقى هارون الرشيد، وهو خارج، وقال له: اتق الله يا أمير المؤمنين وذكر حاجته، فنزل هارون عن دابته وخر ساجدا، ثم أمر فقضيت لليهودى حاجته؛ فقيل له: يا أمير المؤمنين نزلت عن دابتك لقول يهودى! قال: لا، ولكن تذكرت قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾.

وبجوار هذه الذكريات العطرة، توجد صور معتمة؛ ومن ذلك ما قاله أحد ملوك بني أمية: من قال لى: اتق الله قطعت عنقه.

بل إن هذه الصور المعتمدة هي التي يسود بها تاريخ المستبدين، فإن لم يقولوها بلسان المقال قالوها بلسان الفعال، وهو أقوى أثراً وأبعد طغياناً؛ ولذلك كان من الجهاد في سبيل الله: أن يقول المؤمن لهم كلمة الحق؛ وقد قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق لسultan جائر»^(١).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه بعض الناس الذين يعدون داء الجماعات التي تؤدي إلى الفساد، وإلى الهلاك، وحالهم إذا تولوا حكم الناس - ذكر أهل الفضل الذين يعدون دواء هذا الداء، وعلاج ذلك المرض الفتاك، وصلاح ذلك الفساد؛ فإنه إذا كان طغيان بعض الولاة هو الذي يؤدي إلى هلاك الحرث والنسل، فأولئك الأبرار الذين يجاهدون الطغيان هم الذين يقفون تياره، ويصدعون بأمر الله، وهم الذين باعوا أنفسهم مجاهدين ناطقين بكلمة الحق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ أى يبيع نفسه لله سبحانه؛ فيفدى دين الله والحق بنفسه وماله وكل ما يملك وفي ذكر الفريق المقابل لأهل الشر بذلك الوصف الذي يشعر بأن أخص حالهم بذل النفس والنفيس، لا مجرد الإخلاص والبراءة من النفاق - إشارة إلى عظم المهمة الملقاة على عاتقهم، وهي مجاهدة الشر والتغلب عليه، وإزالة أضراره؛ فإن ذلك يقتضى التعرض للأذى، بل للتلف، ومن قتل في سبيله قتل شهيداً، بل إنه يكون أفضل الشهداء، كما صرح بذلك النبي ﷺ^(٢).

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد في مسنده (١٠٧١٦) في حديث طويل فيه مواظ وفوائد. ورواه الترمذى في الفتن (٢١٠٠)، وأبو داود في الملاحم (٣٧٨١).

(٢) عَنْ نَعِيمِ بْنِ هَمَّارٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ إِذَا يُلْقُوا فِي الصَّفِّ يَلْفَتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُمُتُّوا، أُولَئِكَ يُنْطَلِقُونَ فِي الْغُرُبِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ وَيُصْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ، وَإِذَا صَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ». [رواه أحمد: باقى مسند الأنصار (٢١٤٣٨)].

وروى الترمذى: فضل الشهداء عند الله، عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدٌ الْإِيمَانُ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا» وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وَقَعَتْ قَلَنْسُوتهُ - قَالَ: فَمَا أَدْرَى أَقَلَنْسُوتهُ عُمَرُ أَرَادَ أَمْ قَلَنْسُوتهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدٌ الْإِيمَانُ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا ضُرِبَ جِلْدُهُ بِشَوْكٍ طَلَعَ مِنَ الْجَيْنِ أَنَاءَ سَهْمٍ غَرَبَ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ =

وإن هذا الذى يبيع نفسه لله سبحانه، ويفدى الحق بنفسه وماله، لا يطلب إلا ثمنا واحدا، هو أعلى الأثمان، وهو رضا الله سبحانه وتعالى؛ ولذا قال سبحانه فيما يطلبه: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ الابتغاء: الطلب الشديد والرغبة القوية الصادقة؛ ومرضاة مصدر ميمي بمعنى الرضا، ولا شك أن التعبير بالمصدر الميمي دون المصدر الأصلي له معنى يدركه السامع بذوقه، ولم نجد النحويين ولا البلاغيين تعرضوا لبيان التفرقة بين التعبير بالمصدر الميمي وغيره؛ والذى يتبدى لنا ونظنه تفرقة بينهما أن المصدر الميمي يصور المعنى المصدري واقعا قائما متحققا فى الوجود، أما المصدر غير الميمي فيصور المعنى مجردا؛ فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول، فإن التعبير بالقول يصور معنى مجردا من غير نظر إلى كونه تحقق وجوده أو لا، أما كلمة مقال فتصور معنى وجد وتحقق، أو فى صورة الوجود المتحقق؛ وعلى ذلك يكون معنى ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلبا موثقا رضا الله سبحانه حقيقة واقعة مؤكدة، ويتصورون رضاه سبحانه حقيقة قائمة قد حلت بهم، فيشتد طلبهم، وافتدائهم للحق بأموالهم وأنفسهم.

وأولئك الذين باعوا أنفسهم لله، وافتدوا الحق بأموالهم وأنفسهم، هم حجة الله القائمة فى عهد الظلم والظلمات؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى يتلى الجماعات بأهل الشر والطاغوت، وحكم الظالمين؛ فإنه يرسل فى هذا البلاء أولئك الذين ندبوا أنفسهم للحق يدعون عليه، ويجهرون به، ويجاهدون فى سبيل الله لرفع مناره، وجعل كلمة الله هى العليا؛ وعندئذ يكون معهم كل من يميل إلى الحق قلبه، وبين هؤلاء قوم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وبذلك يكون الناس أربع طوائف:

أولها - أهل الشر الطاغون، الظالمون.

= حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْعَذَابَ فَصَدَّقَ اللَّهُ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ. قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ (١٤٥).

وثانيتهما - أهل العدل الذين يفتدون الحق بأنفسهم وأموالهم، ويطرحون كل هوى لهم فى سبيل رضا الله وإقامة الحق.

وثالثتها - أولئك الذين يتبعونهم وإن لم يبلغوا شأوهم، ولم يفتدوا الحق مثل افتدائهم.

ورابعتها - أولئك الذين ينظرون، ويتبعون الفريق الغالب فى هذه المعركة التى تقوم بين الخير والشر؛ وأولئك هم الذين سماهم النبى ﷺ الإمعة؛ وقد نهى ﷺ عن مسلكهم، فقال: « لا تكونوا إمعة؛ تقولون إن أحسن الناس أحسناً، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا »^(١).

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ذَلَّ اللهُ سبحانه وتعالى الآية الكريمة بتلك الكلمة السامية؛ للإشارة إلى أمور ثلاثة وصلت إليها مداركنا:

أولها - إن الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده جعل الخير القوى بجوار الشر المنذفع، فهدى الله أهل الخير الأقوياء إلى مدافعة أهل الشر الطغاة، ولولا ذلك لعم الفساد، وهلك العباد، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ...﴾ [البقرة].

وثانيها - الإشارة إلى أن الغلب للحق دائماً؛ لأن ذلك من دواعى رأفته ورحمته بعباده، والحق الذى يجىء بالمغالبة حق قوى عزيز يعض عليه بالنواجذ؛ وفيه إعلان لغلبة المعانى الإنسانية على النواحي الحيوانية.

وثالثها - إن من رحمة الله بعباده ألا يمكن للظالمين، وأن يمكن للعادلين؛ فإن الحكم العادل يكون رحمة بالناس ورفقاً بهم؛ والحاكم العادل ظل الله فى أرضه، ورحمته بخلقه؛ وتسليط الظالمين من أماراة غضب العلى الحكيم.

(١) رواه الترمذى: كتاب البر والصلة - باب الإحسان والعفو (١٩٣٠). والإمعة من يقلد غيره فى قوله أو فعله.

ثم في تذييل الآية ذلك التذييل فوق ما سبق دعوة إلى الرحمة بالناس والرفق بهم والحدب عليهم؛ ولقد قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارق به»^(١) اللهم هب لنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا
فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣٠﴾
سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٢﴾

(١) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ فَقَالَتْ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَتْ: مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَ الْبَعِيرِ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرُ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدُ، وَبِحَتَّاجٍ إِلَى النَّفَقَةِ فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةُ، فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَحَدٌ أَنْ أَخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ». [رواه بهذا اللفظ مسلم: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (٢٣٠٧) ورواه أحمد مختصرا (٢٣٤٨١)].

بين الله سبحانه في الآية السابقة على هذه الآيات حال أولئك الذين يفرقون بين الجماعات، ويعيشون في الأرض فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، وفيهم لدن وعنف وخصومة تغرى بالعداوة، وتنشر الفرقة والانقسام؛ وكل هذا ضد مبادئ الإسلام؛ ولذلك ناسب بعد أن بين عمل المفسدين، أن يبين واجب المصلحين؛ وهو السلم بين بنى الإنسان، والوحدة بين أهل الإسلام؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ قرئ السِّلْم بكسر السين، كما قرئ في قراءة مشهورة بفتحها؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ (٦١) [الأنفال] فقد قرئ بفتح السين، كما قرئ في قراءة أخرى مشهورة بكسرها^(١)؛ ولذلك قال الكسائي وعلماء البصرة: إن السِّلْم والسَّلْم بمعنى واحد، ويطلقان على المسالمة وعلى الإسلام؛ وفرق عمرو بن العلاء فقرأها في هذه الآية بالكسر، وقال: إنه الإسلام، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ...﴾ [الأنفال] قرأها بالفتح، وقال: المراد المودعة والمسالمة؛ وأنكر المبرد هذه التفرقة.

وعندى أن لفظ السلم بالكسر أو الفتح هو للمسالمة والصلح، وإطلاقه على الإسلام من حيث إن أحكام الدين الحنيف تتجه كلها نحو تحقيق السلام بين الناس، وتخليص القلوب من أدرانها، وتوجيه الناس نحو السلامة، والبعد بها عن مواقع الهلاك.

وما معنى السلم في الآية: أهو الإسلام، أم هو المسالمة والمودعة والصلح؟

اتجه بعض المفسرين من السلف والخلف إلى أن معنى السِّلْم في الآية الإسلام؛ ومعنى كافة: مجتمعين، وتكون كافة حالاً من الواو في «ادخلوا» أو تكون حالاً من كلمة «السلم»، والمعنى على الأول: يا أيها الذين آمنوا وصدق إيمانهم ادخلوا في الإسلام مجتمعين غير متفرقين ولا متنازعين، أى انقادوا لأحكامه

(١) (للسِّلْم) هذه القراءة لأبى بكر والفضل كلاهما عن عاصم، وقرأها بالفتح ﴿لِلسَّلْمِ﴾ نافع وابن كثير وأبو جعفر والكسائي. غاية الاختصار - ج ٢ / ٤٢٧.

مجتمعين لا يفرقكم إقليم ولا يحاجز بينكم جنس ولا لون؛ لأن وصف الإيمان جامعكم، وكلمة التوحيد رابطة بينكم؛ فإيمانكم يبعثكم إلى أن تكونوا طائعين منقادين للإسلام في اجتماع لا افتراق معه، ويوجب عليكم أن توحّدوا كلمتكم.

والمعنى على أن كافة حال من «السلم»: ادخلوا في الإسلام بكل شرائعه وأحكامه، فلا تأخذوا بحكم وتتركوا حكما، فلا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة، ولا تأخذوا بأحكام الزواج وتتركوا أحكام الربا، ولا تأخذوا بنظام الميراث وتتركوا أحكام الحدود وتعطلوها، وهكذا لا يصح أن يؤخذ ببعض الإسلام، ويترك بعضه؛ من فعل ذلك كان كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه، وكان كمن جعل أحكام القرآن عضين، فيفرق بينها بالطاعة والعصيان، والأخذ والترك، وأحكام الإسلام كل لا يقبل التجزئة، ومجموعها هداية العقول، وطب القلوب، وعلاج الأدواء الاجتماعية والشخصية، فمن أخذ ببعضها وترك الآخر، فقد فتح في قلبه للشيطان ثلمة ينفذ منها، وحيثما حل الشيطان في قلب زلت الأقدام، وحكمت الأوهام، فيطمس نور الهداية من قلبه، وتنحل عرى الإسلام في نفسه من بعد ذلك عروة عروة.

هذا توضيح المعنى على تفسير كلمة السلم بمعنى الإسلام، وهو قول الأكثرين. وقال قتادة ووافقه بعض مفسري السلف: إن معنى السلم المسالمة والمواذعة والصلح، وهو يشمل مسالمة المسلمين فيما بينهم، فلا يفترقون، ولا يختصمون، ولا يتنازعون حتى لا يكون بأسهم بينهم شديدا، ويكونوا طعمة للأكلين ونهزة للمفترضين، كما يشمل مسالمتهم لغيرهم، فلا يعتدون على غيرهم مادام لم يعتد عليهم.

والمعنى على هذا: يأبها الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم أن تدخلوا في السلام العام، فلا تنابذوا أحدا لم يعتد عليكم، ولا تقااتلوا من لم يرفع عليكم سيفاً، ولم يوال عليكم عدوا، ثم قوا وحدتكم بالسلم الموثقة والإخاء الجامع.

ولاشك أن السلام بين المسلمين أمر يفرضه الدين، وهو مما علم من الدين بالضرورة لا يمارى فيه من في قلبه ذرة من إيمان، ومن قال غيره فقد أعظم الفرية على الإسلام وأهله.

أما مسألة المسلمين لغير المسلمين فقد أثار القول حولها من فهم ظواهر الأمور، ولم يتغلغل في بواطنها، إذ قال إن الإسلام قد أباح القتال، والقتال والسلام نقيضان لا يجتمعان، والكثرة الكبرى من فقهاء المسلمين تقرر أن الأصل في العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم الحرب، حتى يتقدموا بعهد أو موادة، كما قال سبحانه: ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ (٦١) [الأنفال].

ذلك قول الذين فهموا الأمور بظواهرها. والحقيقة أن الإسلام دعا إلى السلام وحث عليه، ومبدؤه العام التعارف بين بنى الإنسان لا التنازع بينهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ...﴾ (١٣) [الحجرات] فما جاء الإسلام للحرب والخصام، بل جاء بالهدى والسلام، ولكن سلام الإسلام سلام عزيز قوى، وليس سلام ذليل خانع، والسلام القوى يرد الاعتداء بمثله؛ ولذلك لما اعتدى المشركون على المسلمين أباح الإسلام القتال وقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) [الحج] فما أباح الإسلام القتال إلا لدفع الاعتداء، وليس القتال لدفع الاعتداء إلا دعوة إلى السلام القوى الفاضل، وفرق ما بين السلم العزيزة القوية، وبين الذل والخضوع، أن السلام القوى هو القدرة على رد اعتداء المعتدين إن اعتدوا؛ أما الذل فهو الاستسلام والخضوع للمعتدين، وما بذلك أمر الإسلام، وليس هذا من السلام في شيء، بل هو إغراء بالقتل والقتال وتمكين لظلم الظالمين.

وإنه لا يغرى بالقتال إلا ضعف الضعفاء واستخذاؤهم، فإن أخذوا الأهبة وأعدوا العدة وقاوموا الشر بمثله، تروى القوى في غارته، أو امتنع عن عدوانه، فما استمر الذئب لحم الشاة إلا لأنها ليس لها ناب، وما عاف الأسد لحم الأسد إلا

لأن له نابا وبرائن يفتك بها، فالحرب أنفى للحرب، والقوة العادلة سبيل السلم العزيزة.

ولقد قرر الفقهاء أن الأصل الحرب حتى يكون عهد، لأن الأصل بين الدول فى وقت استباطهم كان الاعتداء حتى يتعاهدوا، فما كان الإسلام ليسالم وهم يحاربون.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الخطوات: جمع خطوة بفتح الخاء وضمها، وهى ما بين قدمي من يخطو، والمعنى: لا تتبعوا سير الشيطان. وعبر عنه بخطواته لأن الشيطان والنفس الأماره بالسوء لاتجر المرء إلى الشر دفعة واحدة، بل تأخذه إليه درجة درجة، فيبتدئ بأيسرها وأصغرها فيقتحمه من أغواه لصغره، حتى إذا ألفه جرأه على ما هو أكبر منه، ثم ما هو أكبر حتى تحيط بالنفس خطيئاتها، وتستغرقها مآثمها، فيكون الشرير الآثم الذى تصعب عليه التوبة ولقد قال العلماء: إن كثرة ارتكاب الصغائر تجرئ على الكبائر، والشيطان يأتى من صغائر المعاصي ليغرس فى النفوس غرس الرذائل، فخطوات الشيطان مدارجه يغرى بالواحدة بعد الأخرى حتى يصل بالمرء إلى أقصى درجات الرذيلة.

ولقد كان ذلك النهى بعد الأمر بالدخول فى السلم، لأننا إن فسرناه بالإسلام يكون المعنى ادخلوا فى الإسلام كله، ولا تحلوا عراه عروة عروة باتباع خطوات الشيطان، وإطاعة هوى النفس الأماره بالسوء، فإن ذلك يذهب بالإسلام كله وبحرماته فى النفس؛ وإن فسرنا السلم بالسلام والمواذعة، فيكون المعنى: لا تحلوا وحدتكم، ولا تتبعوا خطوات الشيطان المفرق لجماعتكم بإغرائه وتدرجه فى الإغراء وإردافه المعصية المفرقة بأكبر منها حتى يكون الانقسام، ويكون بأس المسلمين بينهم شديداً.

ولقد ذيل الله سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أى إن الشيطان الذى يتحكم فى النفس الأماره عدو مبين، أى ظاهر العداوة، بظهور آثار المآثم التى يحرض عليها، فى تفريق الجماعة، وضياح الكلمة، وإصابة أهل الإسلام بالذلة،

وجعلهم طعامًا سائغًا؛ فظهور العداوة بظهور آثار الأعمال الوخيمة؛ إذ إنه يغرى باتباع الشهوات وهى حلوة المذاق، فإذا ذاقها من أغواء اندفع فيها، وهى مردية فى نتائجها وبيئة فى نهاياتها، فىكون الضرر المحقق بالآحاد والجماعات.

وإن عداوة الشيطان مقررة ثابتة من بدء الخليقة، فهو الذى أغوى آدم وأنزله من الجنة، وبمثل ما صنع مع الأب يصنع مع الأبناء؛ وإن الله سبحانه قد سجل أن عداوته مستمرة، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْطَا بِكُمْ لِبَعْضِ عَدُوِّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة).

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يقترن فى آى الله الحكيم الأمر بالشئ بالنهى عن تقيضه، وعن أسباب المخالفة؛ ويقتربان بالترغيب فى نعيم الله أحيانًا، وبالترهيب من بطش الله العزيز الحكيم أخرى؛ وفى هذه الآية قد اقترن النهى بالترهيب من العصيان؛ لأن النهى كان منصبًا على اتباع خطوات الشيطان والخضوع لإغرائه؛ وهو يجىء إلى النفس من جهة شهواتها وما تألفه، فناسب ذلك الترهيب من العقاب؛ ليعلم من يجترح اللذات أن وراءها محاسبة القوى الجبار الذى لا تخفى عليه خافية؛ ولقد بين عداوة الشيطان للإنسان، فمن والاه فقد عادى نفسه وربه، ويحق عليه العقاب، وقبل نزوله يلزم التهديد به ليكون على بينة من أمره.

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ أى عدلتم عن الطريق المستقيم إلى الطريق المنحرف، وأصل الزلل يكون فى القدم، ثم استعمل فى الآراء والمسالك المعنوية؛ يقال زل يزل زللاً وزلولا، أى دحضت قدمه؛ وهناك لغة فى زل تجعلها من باب فرح يفرح، ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى من بعد أن ساق الله سبحانه وتعالى لكم الحجج والأدلة المبينة لكم الحق من الباطل، والضلال من الهدى.

ومعنى الآية إجمالاً: إن حدثم عن طريق الاستقامة والإخلاص والحق من بعد أن علمتموه ببرهانه، فليس ثمة إلا العقاب الرادع بعد الدليل القاطع؛ واعلموا أن الله عزيز لا يغلب، ولا يهزم من ينصره، ومن عاداه وعادى أوليائه فهو عرضة

لنقمته؛ وهو حكيم يضع الأمور في مواضعها؛ فلا يجعل السيئ كالحسن، ولا المصلح كالفسد؛ فكان من مقتضى حكمته أن يفرق بين الأخيار والأشرار وأهل الإيمان وأهل الكفر.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ نادى الله سبحانه أهل الإيمان بأن يدخلوا في الإسلام بكل شرائعه وأحكامه، وأن يدخلوا في السلام العام، كما يقيم فيما بينهم السلام والأمن؛ وحذرهم من الشيطان وغروره؛ وحذرهم من أن يزلوا فيحرموا من نصر الله، وينزل بهم عقابه؛ وبعد ذلك أشار سبحانه إلى أهل الضلال، وكيف استمروا الغواية، وسدوا في نفوسهم طريق الهداية؛ وقد أقام سبحانه عليهم الدليل بعد الدليل والحجة بعد الحجة، وقد استنكر حالهم منذراً، فقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ ويتظنون: معناها يتظنون؛ يقال نظرت وانتظرت بمعنى واحد؛ و«ظلل»: جمع ظلة. كظلم جمع ظلمة؛ و«الغمام» اسم جنس جمعى لغمامة، وهى السحاب الرقيق؛ وسمى بذلك لأنه يغم أى يستر؛ والاستفهام إنكارى؛ فمعنى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ لا يتظنون. وقد وجه بعض المفسرين الآية على أن الكلام على حذف مضاف؛ فمعنى إتيان الله إتيان عقابه؛ وعلى ذلك يكون المعنى: إن هؤلاء المشركين الذين كفروا بالله بعد أن جاءتهم البينات هم فى غيهم يعمهون، وكأنهم لا يتظنون بعد هذه الحجج الدامغة القاطعة إلا أن يأتيهم عذاب الله فى ظلل من السحاب يحسبونها عارضاً ممطرهم، وهى عذاب يسحقهم، فتأتيهم النعمة من حيث يتظنون النعمة، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون فعلى هذا التخريج تكون الآية للوعيد؛ ويكون معنى إتيان الله وملائكته إنزال عذابه الدنيوى؛ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ على هذا التخريج أنه إذا نزل عذاب الله فى الدنيا فقد قضى أمره فيهم؛ إذ لم يكن ثمة رجاء فى إيمانهم؛ وكذلك كان يفعل الله سبحانه فى الأقسام الذين طغوا وبغوا، وحالوا بين الناس والهداية، كما فعل بعاد قوم هود، وبشمود قوم صالح، وبفرعون وجيشه، ومن قبل ذلك بقوم نوح، وغيرهم، أما الذين علم الله أن سيكون فيهم هداية، فإنه يمهلهم ولا يهملهم.

وهناك اتجاه آخر، وهو عدم تقدير كلمة عذاب، وأن مجيء الله هو تجليه يوم القيامة، وكشف الحجاب للناس يوم الجزاء؛ فيتجلى عليهم ربهم وملائكته؛ والمعنى على هذا الاتجاه أن أولئك الجاحدين سادرون في ضلالهم ولهوهم حتى يأتيهم أجهلهم، وكأنهم لا ينتظرون وهم مستمرون في ضلالهم إلى اليوم الآخر حيث يحاسبهم الديان، وتجرحهم إلى النار ملائكة الجبار، وينال المؤمنون مثوبة الرحمن؛ ويكون معنى «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» أنهم عاينوا الحقائق التي أنكروها حيث قضى الأمر نهائيا ولم تعد لديهم فرصة للتوبة والرجوع إلى ربهم؛ ولقد قال ﷺ: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي»^(١).

وقد بدا معنى لى غير المعنيين السابقين فى إتيان الله سبحانه وملائكته، وهو أن أولئك المشركين قد كفروا مع أن الحجة قاطعة، والبينات دامغة، والحق واضح أبلغ والرسول بين ظهرائهم قد عرف طول حياته بالصدق والأمانة، وإذا كانوا قد كفروا مع تلك البينات فهل ينتظرون أن يأتيهم الله هو وملائكته فى ظلل من الغمام، لكى يؤمنوا برسالة محمد ﷺ بعد أن يشاهدوا الله وملائكته؛ ولقد طلبوا أن ينزل ملك من السماء برسالة محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۚ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ۚ﴾ [الأنعام] فالاستفهام حيثئذ للتوبيخ واللوم مع النفي؛ أى أن حالهم حال من لا يريدون أن يؤمنوا إلا بعد أن يعاينوا ويروا الله وملائكته جهرة؛ كما قال إخوان لهم سبقوهم لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَكَ جَهْرًا...﴾ [النساء]؛ ومعنى «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» أى انتهى الأمر عند هذه المعجزة التى جاء بها محمد، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ...﴾ [الكهف] ٢٩. «وَأَلِى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورَ» إليه سبحانه وحده لا إلى أحد سواه، ولا إلى أحد معه، تصير الأمور خيرها وشرها، وسيجزي كلا بما يستحق، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١) رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى من طرق أحدهما صحيح، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَآئِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ وإذا كان المشركون قد كفروا مع البينات وطلبوا ملائكة ينزلون من السماء، أو كتاباً في قرطاس يقرءونه، فليس ذلك لنقص في الدليل؛ أو لأنه عقلى ويريدون حسيماً؛ بل الكفر غشاوة تكون على قلب الكافر تجعله ينكر الحق، ولو كان مع الحق ألف دليل؛ وهذا أمر بنى إسرائيل: نزلت عليهم عدة آيات، ومع ذلك قالوا أرنا الله جهرة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ سل الحاضرين منهم أو استقر أخبار السابقين وسل تاريخهم: ﴿كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ من معجزة واضحة مثبتة إثباتاً لا مجال للشك فيه، ولا إثارة الريب حوله؛ فيد موسى تنقلب بيضاء من غير سوء، وعصاه تنقلب حية تسعى، ويضرب بها البحر فتفلقه اثني عشر طريقاً، وتضرب الحجر فينبجس منه اثنتا عشرة عينا، وتظلمهم الغمام في الحر، وينزل عليهم المن والسلوى؛ ومع كل هذه الآيات البينات قالوا: أرنا الله جهرة، ومنهم من كفر وعبد العجل؛ فقوة الدليل لا تحمل الجاحد على الإيمان، ومن كفر لا يكفر عن نقص في الدليل، ولكن عن فساد في الفكر، بسبب غشاوة على القلب وضلال في النفس؛ وقوة الدليل مع هذه الحال لا تزيده إلا عناداً وإصراراً.

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ نعمة الله هنا عامة تشمل نعمه الظاهرة والباطنة؛ فتشمل نعمة الصحة، ونعمة المال، ونعمة الجاه، كما تشمل نعمة العقل، ونعمة الهداية بإرسال الرسل وإقامة الأدلة على رسالتهم؛ ومن يبذل هذه النعم السابغة فيجعلها حجة عليه تؤدي إلى العقاب، فلا يبذل جهده في مرضاة الله، بل في معصيته، ولا يبذل ماله في النفع بل في الضرر، ولا يبذل جاهه لإعانة الضعيف، بل لحيف الشريف؛ ولا يعمل عقله ليصل إلى الحق، بل ليضل نفسه؛ ولا يقبل الهداية بل يردّها؛ ومن يبذل نعمة الله ذلك التبديل، فإنه سبحانه وتعالى سيعاقبه لا محالة؛ ولذلك قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والكلام فيه حذف، إذ حذف السبب، اكتفاء بذكر المسبب، كما تذكر المقدمة ولا تذكر النتيجة لأنها مفهومة ضمناً؛ والمعنى: من يبذل ذلك التبديل فإن الله سيعاقبه عقاباً شديداً، لأنه سبحانه شديد العقاب، كما أنه عفو غفور، ثواب رحيم.

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد أن بين سبحانه أن الذين كفروا قد جحدوا بالله، وقد كثرت البيّنات، وقامت الدلائل القاطعة، بين السبب في غشيان الضلال قلوبهم؛ وهو أن الدنيا زينت لهم فحسبوها كل شيء وأنساهم ذلك ذكر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب، بل إنه بسبب ضيق عقولهم انحصر تفكيرهم في هذه، وحسبوا أن لا بعث ولا نشور، وأنكروا ذلك إنكاراً تاماً؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فهي كل شيء في تفكيرهم وقد دفعهم إلى اللجاجة في الكفر والجحود أن وجدوا من لم يؤتوا حظاً من الدنيا، وهم الضعفاء والفقراء والعبيد هم الذين سبقوا بالإيمان؛ ولذلك سخروا من الحق والمؤمنين إذ علموا في أنفسهم أن التقدير عند الله هو التقدير بحال الدنيا من مال وجاه، وحسب ونسب، لا بمقدار الحق في ذاته؛ ولم يعلموا أن الله لا ينظر إلى الأحساب والأموال والصور ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال^(١)؛ ولذلك سخروا من الذين أحبوا الإيمان وأهله وقالوا: أهؤلاء الذين سبقونا بالإيمان؟ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يستهزئون بالذين آمنوا. ولقد قال عطاء في هذه الآية: نزلت في المنافقين: عبدالله ابن أبى وأصحابه، كانوا يتنعمون في الدنيا، ويسخرون من ضعفاء المؤمنين، وفقراء المهاجرين، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم.

وإن أهل الحق دائماً ليسوا ممن نالوا حظاً كبيراً في الدنيا؛ فإن أولئك أقرب إلى بذل النفوس في سبيله بعد الإيمان، والعبر كل يوم قائمة شاهدة مثبتة.

ولقد ذكر سبحانه منزلة المؤمنين الذين يستهزأ بهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ﴾ الذين آمنوا واتقوا الله فوق أولئك الجاهلين الجاحدين الذين كفروا بالآخرة، وآمنوا الإيمان كله بالدنيا؛ ولا ارتباط بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، بل قد يكون

(١) ذكره المنذرى في الترغيب والترهيب وقال: رواه ابن أبى الدنيا والطبراني من طرق أحدهما صحيح واللفظ له والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

محروم الدنيا هو المنعم فى الآخرة، والجزاء على الأعمال لا على الأموال، وعلى القلوب لا على الأحساب، وعلى التقوى لا على الأنساب؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالله سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، ولا أحد يحاسبه، وليس عطاؤه دليل رضاه، فقد يعطى الكافر، وهو غير راض عنه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف] والرزق فى الدنيا منوط بأسباب دنيوية يجيدها الكافر كما قد يجيدها المؤمن، ومن سلك سبيلها وطلبها من مظانها رزقه الله، مؤمنا كان أو كافرا، ومن تنكب الطريق، لم يرزقه الله، وله فوق الأسباب تصريح الحكيم وتدبير العليم سبحانه، إنه على ما يشاء قدير.

والخطأ أن يجعل تقدير الناس بأموالهم لا بأعمالهم، وبمظاهرهم لا بنفعهم، روى أن رسول الله كان بين أصحابه فمر بهم رجل فقال النبى ﷺ لرجل جالس عنده: «ما رأيك فى هذا؟» فقال: رجل من أشرف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن تكلم أن يسمع فسكت رسول الله؛ ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيك فى هذا؟» فقال: يارسول الله إن هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حرى إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»^(١).

وإن المال هو الذى يضل العباد فيجعلهم يخطئون فى تقدير الناس، وتقطع به الأواصر، ولو قدره الناس حق قدره، ولم يتجاوزوا به الحد ما كانت تلك الآفات، ولو كان الناس يقدرون بفضائلهم لا بأموالهم وتساووا فى الحقوق أمام القانون ما كان ذلك الألم الذى يمرض الفقير، وحسب الغنى أن المال عبء عليه، وأنه ظل زائل، وعرض حائل؛ ولقد قال ﷺ: «يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك من مالك

(١) رواه البخارى: النكاح - الأكفاء فى الدين (٤٧٠١) عن ابن سعد رضى الله عنه.

إلا ما أكلت فأفئيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس»^(١) والله سبحانه مالك الملك ذو الجلال والإكرام.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق يسعى في الأرض فساداً، ويضل الناس بخلافة لسانه؛ وفريق باع نفسه للحق يفتديه، ولربه يتبغى رضاه، ولا يرجو سواه؛ وإن النضال بين الفريقين قائم، على مقتضى سنة هذا الوجود، من التنازع بين الخير والشر، وبين أهل الحق والضلال؛ وإنه من أجل ذلك سوغ الله سبحانه وتعالى لأهل الخير أن يحملوا السيف مناضلين مدافعين، وإن كان أصل الفضيلة في الأمن والسلام؛ ولكن إن كانت الحرب سبيل السلام الفاضل فهي مطلوبة لأجل السلم، وإن كانت شجرة السلام التي تظل أهل الحق لا تقوم إلا إذا سقيت بالدماء، وجب القتال؛ لأن ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب، والسلام واجب على بنى الإنسان.

وفى هذه الآية يشير سبحانه إلى أن الاختلاف بين الناس ما بين محق فاضل، ومبطل شرير، مستكن في أصل الوجود قائم على أصل من الفطرة التي ألهمت فيها

(١) رواه - بهذه الزيادة في آخره: «وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس» - مسلم: الزهد (٥٢٥٩) وأحمد (٨٤٥٧). والترمذي (٢٢٦٤)، والنسائي في الوصايا (٣٥٥٥) وأحمد في مسنده (١٥٧١٥).

النفوس فجورها وتقواها، وهداها الله النجدين؛ وأن الله العليم الحكيم بعث الرسل مبشرين بحسن العقبى لأهل الخير وسوء العقبى للأشرار؛ ليكون من ضل إنما يضل عن بينة، ومن اهتدى فعن بينة؛ ولتحقق التبعة على الأفعال بالعقاب والثواب؛ وليكون الجزاء العادل على العمل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ وليخفف بعث النبيين الخلاف وإن كان لا يمحوه؛ فإن الممارسة واللد في الخصومة التي اختص بها أهل الشر يمنعونهم من أن يسلموا بالحق رغبا، وإن كانوا أحيانا يسلمون به رهبا، وبعضهم يطمس الله على بصيرته فلا يجديه ترغيب، ولا يؤثر فيه ترهيب؛ بل هو ضال مضل إلى يوم الدين.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الأمة مأخوذة من أم بمعنى قصد؛ والجماعة من الناس التي تربطها رابطة، وتجمعها جامعة تسمى أمة؛ لأن كل واحد منها يؤم المجموع ويقصده، ويعتمد عليه في مدلهام الأمور. ولقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني في معنى الأمة ما نصه: «والأمة كل جماعة يجمعهم أمر؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا، وجمعها أمم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ...﴾ [الأنعام] أى كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة^(١)، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع؛ وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى صنفا واحداً وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ [هود] أى فى الإيمان؛ وقوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ [آل عمران] أى جماعة يتخبرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم؛ وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ...﴾ [الزخرف] أى على دين مجتمع... إلخ.

(١) السرفة بضم السين وسكون الراء: دويبة تتخذ بيتا من دقاق العيدان فتدخله وتموت، ومنه المثل: أصنع من سرفة - قاموس.

ومن هذا التحقيق، وتتبع الآيات الكريمات، تبين أن معنى «أمة» الطائفة التي يجمعها أمر، ويربط بينها وصف جامع؛ فقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى كان الناس على اختلاف أجناسهم وأقاليمهم وألوانهم أمة واحدة، أى تجمعها رابطة واحدة، ووصف مشترك يوحد بينهم جميعاً، مهما تختلف المنازع وهنا يتطلع العقل لمعرفة ذلك الأمر الذى اشترك الناس جميعاً فيه، فكانوا بذلك الاشتراك أمة واحدة ثم إلى ما تدل عليه كلمة «كان» أهو الدلالة على الماضى من غير استمرار، بمعنى أن ذلك الوصف الجامع كان فى الماضى وانتهى وانقطع، أى أن الناس فى الماضى كانوا أمة واحدة، وفى الحاضر والاستقبال زال ذلك الوصف عنهم، أو على الأقل فى حكم المسكوت عنه، والحكم على الماضى يشمل الحال والاستقبال؛ أم أن مدلول كان هو الوجود والاستقرار، فتدل على الوقوع فى الماضى يشمل الحال والاستقبال، فتدل على وقوع فى الماضى والاستمرار فى الحاضر، والبقاء إلى المستقبل ككان فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان].

هذان هما الأمران اللذان يعدان مجال القول، عند تفهم مدلول تلك الجملة السامية: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلنقصّد لذكر أقوال العلماء فيهما، وهى فى نظرنا ترجع إلى ثلاثة أقوال:

أولها - أن الوصف الجامع الذى كان يجتمع الناس جميعاً عليه هو أنهم كانوا مهديين، وعلى الفطرة المستقيمة التى فطر الله الناس عليها؛ وقد اختلف العلماء فى نوع هذه الهداية وأسبابها؛ والذى نخشاه ما أشرنا إليه من أنها هداية الفطرة؛ «وكان» تكون للماضى ولا يستمر الحكم بها فى الحاضر، ولا يمتد إلى القابل. ويكون على هذا التخريج لا بد أن يقدر ما يدل على زوال وصف الهداية، حتى تكون الحاجة إلى بعث الله النبيين؛ ولذلك قال العلماء: إن معنى الآية على هذا التخريج: كان الناس أمة واحدة مهديين فاختلفوا ما بين ضال ومهتد، فبعث الله النبيين بالكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ويصح أن نقول: إن «كان» تدل على الاستمرار، ويكون المعنى أن الناس كانوا وما زالوا أمة واحدة مهدين بمقتضى الفطرة، ولكنهم يضلون أنفسهم، فبعث النبيون ليكونوا حجة على الناس، وليكون الجزاء من عقاب وثواب، وليتحمل كل امرئ عاقبة ما صنع بالتبليغ.

القول الثاني - أن الناس كانوا أمة واحدة من حيث إنهم كانوا ضالين، فبعث الله الأنبياء لهدايتهم، ولإنقاذهم من حيرتهم، وليكونوا حجة عليهم، ولتترتب تبعات الأعمال، من عقاب وثواب، وذلك بالإنذار والتبشير.

«وكان» على هذا التخريج تكون للماضى واضحة المعنى، بينة، ولا حاجة إلى تقدير كلام محذوف.

القول الثالث - وهو قول القرطبي، إذ يقول فى أحكام القرآن: المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة فى خلوصهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا من الله عليهم، وتفضله بإرسال الرسل إليهم؛ فلا تختص «كان» على هذا التأويل بالمضى فقط. بل معناه معنى قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان].

وإن هذا هو الذى نختاره^(١) وعلى هذا التأويل لا يكون ثمة حاجة إلى تقدير محذوف؛ لأن ذات حالهم من كونهم لا علم لهم بالشرائع، ولا تهتدى عقولهم إلى الحقائق بنفسها، توجب البعث؛ ولأن تلك الحال التى تكون على الفطرة وحدها توجب الاختلاف فتوجب بعث النبيين؛ وذلك لأن النفوس إن تركت لمقتضى جبلتها من غير شرع مبين، ولا كتاب يحكم، تكون بين نفس غلبت عليها شقوتها؛ وبين نفس ضالة حائرة، تدفعها الغرائز إلى الشهوات دفعا، فيكون التناحر والتنابد؛ ولا بد حيثئذ من حاكم يقضى، ويقدر النفوس عن شهواتها.

(١) قال المصنف - رحمه الله -: وهو عين ما اختاره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وقد استفاد فى توجييه، وحرره بقلمه البليغ رضى الله عنه، فارجع إليه.

ثم إن نفس كل إنسان فيها نزوع إلى الاجتماع، واستعانة بعضهم ببعض؛ وحيث كان الاجتماع لا بد من نظام يربط، وشرع يحكم، وعقاب يردع؛ وإلا أكل القوى الضعيف، كما يأكل كبار السمك صغارها عند اجتماعها، وكما تفترس السبع الأوبد من يكون أضعف منها.

وعلى هذا تكون الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ للترتيب والتعقيب في موضعها من غير حاجة إلى التقدير؛ لأن كون الناس أمة واحدة اقتضت الرسالة واقتضت الاختلاف، فكان لا بد من شرائع السماء لتبضع الشهوات، ولتقضى على الخلاف، ولتهدى الناس وتنقذهم من الضلال.

ولأن اتحاد الفطرة واتحاد الغرائز، واندفاعها إن لم يكن لها عاصم من شرع زاجر وعقاب مانع، يجعل الناس يتناحرون ويتنابدون فلا بد من حكم صالح بين الناس، فكان ذلك الحكم من السماء.

«وكان» على هذا التأويل تكون دالة على الاستمرار والثبوت؛ لأن الناس بمقتضى فطرهم دائما في حاجة إلى شرع من السماء، لا يهتدون إلا به، ولا ينير السبيل لهم شيء سواه؛ وإنه مهما تعلّ العقول فلن تقوى على التهذيب من تلقاء نفسها؛ بل لا بد من دين قد اشتمل على الترغيب والترهيب من بارئ الكون ومنشئ الخلق، الذي خلق الإنسان وهذاه النجدين: طريق الخير، وطريق الشر. واعتبر بما ترى بالمدينة الحاضرة؛ فقد علت العقول عند أهلها، حتى استخرجوا كنوز الأرض، وتعرفوا على كثير من نواميس الوجود، ولكنهم يأكل بعضهم بعضا لهجرهم الأديان، وعدم وجود داع ينادى بينهم باسم القرآن.

وقد يقول قائل: إن جعل «كان» للاستمرار، يفيد أن وحدة الناس في الفطرة وتأديها إلى التناحر يقتضى بعث النبيين إلى يوم القيامة، وإنه لا بد من نبي لعصرنا؛ ونحن نسلم بالاعتراض، ولا ندفع إirاده، ونقول: نعم إنه لا بد من قيام رسالة إلى يوم القيامة، وتلك الرسالة قائمة إلى يوم القيامة؛ وهى رسالة محمد ﷺ التى جاءت بكتاب تتجدد به الرسالة والبعث إلى أن تفتنى الأرض ومن عليها، وذلك

بالقرآن الكريم لا تبلى جدته، وبقائه محفوظا إلى يوم القيامة من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل؛ وكون الذى يقرؤه كأنما يتلقاه عن النبى ﷺ، فيتلقى التكليف؛ وهو فى ذاته حجة قوية معجزة، ولا يختص إعجازها بجيل من الأجيال، ولا عصر من العصور؛ إذ هو بما اشتمل عليه من علم وشريعة، وقصص مستقيم، معجز إلى يوم الدين؛ وإذا كان الناس فى جهالة به، ولم يتلقوا رسالته، فهذا من تقصير الذين توارثوه وانتقل إليهم متواترا جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة؛ فبعثة النبى ﷺ مبشرا منذرا إذن متجددة فيه؛ وحق على حملته، ومن توارثوا علمه أن يعلنوه بين الناس، ليصدق عليهم قول الرسول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١) وإلا فهم عن ذلك فى واد يهيمون.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ بعث الله سبحانه وتعالى النبيين مبشرين ومنذرين، أى مبشرين بحسن العقبى فى الدنيا والآخرة إن أطاعوا ربهم، ومنذرين بسوء العقبى فى الدنيا والآخرة إن عصوا ربهم، ووقعوا فى الشر، ولم يستقيموا على الطريقة.

ولقد أنزل الله سبحانه كتابا مشتملا على الحق مع كل نبى يرشد به ويبين ويهدى ويقوم ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، بالحق الذى اشتمل عليه، إذ إن الاختلاف من طبيعة التكوين الإنسانى، ومشتق من كونهم أمة واحدة فى الجهل بحقائق الوجود إلا من رحم الله، وإن الفرائز إن لم يكن لها عاصم من الإرادة القوية والهداية الإلهية تندفع إلى الشهوات فتتناحر القوى ويأكل القوى الضعيف ولقد ذكر الكتاب بصيغة المفرد، مع أن كل نبى مبعوث له كتاب، وجاء محمد بكتاب جامع مصدق لما بين يديه وما خلفه يهدى للتى هى أقوم؛ عبر بصيغة الواحد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت هى فى لبها كتاب واحد؛ لاشتغالها على شرع واحد فى أصله، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي

(١) جزء من حديث رواه الترمذى فى العلم (٢٦٠٦)، وأبو داود: العلم (٣١٥٧)، وابن ماجه فى المقدمة (٢١٩)، والدارمى فى المقدمة (٣٤٦)، وأحمد فى مسند الانصار رضى الله عنهم (٢٠٧٢٣) كلهم عن أبى الدرداء رضى الله عنه، وذكره البخارى تعليقا فى ترجمة باب «العلم قبل القول والعمل».

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى].

وكلمة ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ قرئت بضم الياء للبناء للمجهول؛ وقال القرطبي إنها قراءة شاذة؛ والمعنى عليها أن الكتاب مشتمل على ما يحكم به بين الناس فيما يختلفون فيه مما يتعلق بالدنيا والآخرة، فهو المرجع الذى يدركون به الحق فى ذاته إذا اختلفوا فى العقائد أو الشرائع، أو اليوم الآخر؛ وهو الحكم العدل إذا اختلفوا فى شئون دنياهم، ومآرب الحياة، والمعنى على القراءة المشهورة «ليحكم» بفتح الياء للبناء المعلوم: أن القرآن هو الذى يحكم بين الناس، فهو الفيصل فى الخلاف، وهو المصدر العلمى فى كل شئ يتعلق بالدين، وفيه الحكم العادل إلى يوم القيامة، وإسناد الحكم إلى الكتاب للإشارة إلى وجوب الرجوع إليه عند كل اختلاف، وللإشارة إلى ألا نحكم أهواءنا فى فهم الكتاب وتأويله تأويلا بعيدا ليتفق مع رغباتنا، أو ما يسميه البعض مصالحنا، ولا مصلحة فى غير ما جاء به النص المبين، ولقد قال فى هذا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ما نصه:

الحكم مسند إلى الكتاب نفسه؛ فالكتاب ذاته هو الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وفيه نداء للحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه ولا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء؛ فإن الكتاب نفسه هو الحاكم وليس الحاكم فى الحقيقة سواه؛ ولو ساء للناس أن يؤولوا نصا من نصوص الكتب على حسب ما تنزع إليه عقولهم، بدون رجوع إلى بقية النصوص، وبناء التأويل على ما يؤخذ من جميعها جملة - لما كان لإنزال الكتب فائدة ولما كانت الكتب فى الحقيقة حاكمة، بل تتحكم فيها الأهواء، وتذهب النفوس منازع شتى، فينضم إلى الاختلاف فى المنابع اختلاف آخر جديد، وهو الاختلاف فى ضروب التأويل، وبناء كل واحد حكما على ما نزع إليه، فتعود المصلحة مفسدة، وينقلب الدواء علة! ولهذا رد الله تعالى الحكم إلى الكتاب نفسه لا إلى هوى الحاكم به... ونسبة الحكم إلى الكتاب كنسبة النطق

والهدى والتبشير إليه في قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ...﴾ ﴿٢٩﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ ﴿٩﴾ [الإسراء].

ويقول رضى الله عنه في إفساد الناس لمعانى الكتب المقدسة بسبب تحكيم المنافع الدنيوية والشهوات فيها: «يتخذ الواحد منهم كلمة من الكلمات أو أثرا ممن جاء به، وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد، وذلك بقطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء في الكتاب والآثار الأخرى، ولى اللسان أو تأويله بغير ما قصد منه، وما هم المؤول أن يعمل بالكتاب، وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب لشهوته، أو عضد لسطوته، سواء أهدمت أحكام الله أم قامت، واعوجت السبيل أم استقامت؛ ثم يأتي ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال غيره فيحرف ويؤول، حتى يجد المخدوعين بقوله، ويتخذهم عوناً على الخادع الأول، فيقع الاختلاف؛ والاضطراب؛ وآلة المختلفين في ذلك هو الكتاب»^(١).

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

من شأن الكتاب أن يزيل الخلاف ويحسم النزاع إن احتكموا إليه واهتدوا بهديه، وهو لا يحمل الناس على الهداية حملاً بل ينير الطريق ويهdy إلى التى هى أقوم، فهو كالضوء لا يخلق البصر، ولكن ينير للمبصر؛ وهو كالدليل فى الصحراء يبين المسلك ولا يحمل على السير؛ ولذلك لم يزل الخلاف بين الناس بنزول الكتاب، بل يوجد خلاف آخر حوله؛ لأن الأهواء إذا استحكمت، لا تسترشد بمرشد، ولا تتبع هادياً؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾.

(١) قال الشيخ الإمام رحمه الله: نقلنا ذلك الكلام مع طوله ليعلم الناس رأى الإمام فى طريق التأويل الصحيح، وليدركوا بطلان أقوال الذين يتعلقون بالإمام ليخضعوا للشرعة لحكم الزمان، فيعاقبون على الطلاق بالحبس والغرامة بدعوى عدم صلاحية ذلك للزمان، ويبيحون الربا بدعوى أن ذلك مصلحة الأيام، ويبيحون القمار بدعوى أنه كالبيع، أو هو تبرع، وهكذا وهكذا، ويحسبون أنهم يقلدون الإمام، والإمام من منهجهم برىء إلى يوم الدين، وتلك عباراته بقلمه، فسقد كتب تفسير هذه الآية بقلمه (ج ٢ ص ٢٨٦، ٢٨٩).

الضمير في «فيه» وفي «أوتوه» إما أن نجعله يعود إلى الحق، وإما أن نجعله يعود إلى الكتاب، وكلاهما مذكور، وله وجه؛ فإن كان الضمير يعود إلى الحق، فالمعنى على ذلك: إن الذين يختلفون في شأن الحق، اختلافهم ظلم، هم مأخوذون به معاقبون عليه، فليس الاختلاف مبنياً على جهالة كالاختلاف قبل نزول الكتاب، بل هو ترك للحق عن بينة؛ لأنهم أوتوا الحق أى أوتوا العلم به، فليسوا جاهلين كشأنهم الأول؛ ولأنهم علموا الحق ببينات جاءتهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى من بعد ما جاءتهم الحجج البينة المثبتة له التى يدركها كل إنسان إلا من ران الله على قلبه؛ ولأن البغى أى الظلم الشديد هو الذى يدفعهم إلى ذلك الاختلاف.

ولو جعلنا الضمير يعود على الكتاب، يكون المعنى أن الاختلاف يكون حول الكتاب الذى هو بيان الحق ونوره؛ وذلك لأن الذين فى قلوبهم مرض، وعلى أعينهم غشاوة، تبعث الرسل إليهم لهدايتهم بكتب فيها الحق والميزان فيجعلون تلك الكتب موضع الجدل والاختلاف ولكنه ليس كخلافهم قبل البعث؛ لأن الخلاف الأول عن جهل ففيه العذر، أما الخلاف الثانى فلا عذر فيه؛ لأنه خلاف بعد أن أوتوا علم الكتاب، وما اشتمل عليه، وبعد أن جاءتهم البينات والدلائل على الصدق.

ولقد ذكر سبحانه الباعث على الخلاف بعد نزول الكتب المقدسة بالحق المبين المؤيد بالأدلة القاطعة، فقال سبحانه: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ والبغى معناه طلب الشئ متجاوزاً حد الاقتصاد. وقال الراغب الأصفهاني:

البغى على ضربين: محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع؛ والثانى مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل.

وأكثر ما يكون البغى فى الثانى، وهو المراد هنا، أى أن الباعث على الخلاف فى الكتاب بعد نزوله مؤيداً بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة هو الشهوات المستحكمة التى تدفع النفوس إلى مجاوزة الحد فى الطلب، وقال سبحانه: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى أن

البغى واقع فيهم، وإن لم يكونوا كلهم بغاة، فيكفى أن يكون بعضهم باغيا ليقع الخلاف حول الكتاب، بين طلاب الحق المهتدين، والذين أركسوا في الباطل فلا ينطقون إلا تحت سلطانه، ولا يعملون إلا تحت تأثيره.

والاختلاف في الكتاب يشمل الاختلاف في شأنه ما بين مصدقين بما جاء به ومكذبين، ومذعنين لأحكامه ومخالفين، ويشمل الاختلاف في أحكامه ما بين منفذين خاضعين، وعصاة لها قد ارتضوا حكم الجاهلية بدل حكم الله، ويشمل أيضا الاختلاف في تفسيره وتأويله ما بين راسخ في علم الكتاب يطلبه من أوجهه، وبين زائغ القلب والبصيرة يتبع المتشابه، أو يشير حوله الشبه ولو كان واضحا بيّنا صريحا.

وكل هذا يدفع إليه البغى والعدوان، ولا يعتمد على حجة من برهان، وهو حجة كما قررنا على المختلفين؛ لأنه بعد أن «أوتوه» أى أوتوا علم الكتاب مؤيدا بالبينات، ولكن جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم، واستحكمت شهواتهم، وسموها مصالح ومنافع، وأرادوا أن يخضعوا نصوص الكتاب لها، فضلوا ضلالا بعيدا.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أشار سبحانه في الجملة الكريمة السابقة إلى السبب في غواية الغاوين، وإثارة الخلاف، وهو البغى وتحكم الشهوات التى تدفع إليه؛ وفي هذه الجملة الكريمة يبين موقف المهتدين؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، إذ المعنى: إذا كان هذا شأن الظالمين فقد هدى الله الذين آمنوا. . إلى آخره.

وعبر بالذين آمنوا للإشارة إلى سبب هدايتهم للحق، وهو الإيمان والإذعان؛ فهم يؤمنون بالحق إذا جاءهم، ويدعون له ويخضعون؛ وهم لاستقامة نفوسهم يتبعون النور الذى يكشف لهم الطريق ويسرون فيه.

وأسندت الهداية إلى الله سبحانه وتعالى لأنه مقلب القلوب، وهو علام الغيوب، المسيطر على كل شئ. وللعبد إرادة أيضا، فمن كان له قصد إلى الخير، واتجه إلى الفضيلة وسار فى الطريق المستقيم، قذف الله فى قلبه بنور مشرق، وسار

به مهديا فى مضطرب الخلاف، ومعترك النزاع؛ فالمؤمن باتجاهه المستقيم وإذعانه لليقين، وهداية رب العالمين يصل إلى الحق فى موضوع الخلاف، والصواب فى متنازع الآراء؛ لأن الذى يفسد رأى هو الهوى، وتسلب الشهوات؛ فهى إذا استحكمت أضلت ذا اللب، وطمست البصيرة إذ أصبح محكوما بالأهواء والشهوات، يسير فى مسارها، وهو يحسب أنه يسير وراء العقل؛ وذلك هو الضلال المبين؛ فإذا خلص المؤمن من أدران الهوى ولم تتحكم فيه الشهوات فسيصل إلى الحق لا محالة؛ لأن الذى يضل العقول رَيْنُ الشهوات.

و«من» فى قوله تعالى: ﴿لَمَّا اختلفوا فيه من الحق﴾ هى البيانية، والمعنى: هدى الله الذين آمنوا للحق فى موضع الخلاف، فلا يطيش عقله ولا يضل فهمه، بل يتجه إلى الحق الذى جرى الخلاف حوله من غير أن تتأثر نفسه بهوى أهل الأهواء الذين اختلفوا فيه، وكانوا بسبب الاختلاف فى ريب يترددون؛ لأن الاختلاف بالنسبة للمؤمن يجلو الحق ويمحصه، وبالنسبة لمرضى القلب يطمس الحق فى نفسه فيتخذ منه تعللات يبرر بها ضلاله.

وقوله تعالى: ﴿يَا ذُنْه﴾ معناها بتيسيره وتوفيقه؛ وقال الزجاج معناها: بعلمه؛ وقال بعضهم: بأمره؛ ونحن نرى أن التيسير والتوفيق يتضمن هذا كله؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بالحق وأمر به؛ وهذا من تيسيره؛ ثم وفق سبحانه المؤمن للعمل به، لاستقامة فكره وقلبه؛ ولم يوفق غير المؤمن ذلك التوفيق لتحكم الأهواء والشهوات فى قلبه، فلم يتجه اتجاهها مستقيما لطلب الحق والعمل به.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الصراط: هو الطريق المستقيم، فوصفه بالاستقامة تأكيد لمعنى الاستقامة؛ وقد ذيل الله سبحانه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية الحكيمة؛ لبيان كمال سلطانه سبحانه، وأن الذين يعاندون حكم الكتاب هم فى قبضة يده لو أراد أن يهديهم لفعل؛ فليس لأحد سلطان بجوار سلطان الله؛ وليس الشر قوة قائمة بذاتها، إنما الجميع تحت أمر الله الكونى وسلطانه؛ ولو أراد أن يكون الجميع مهدين لكانوا، ولكنه يختبر الإنسان فى هذا

الوجود، فجعل الشر بجوار الخير، وجعل المعركة قائمة بينهما ليكون للمهتدى ثواب الهداية إذا قصد إليها، وعلى الضال إثم ضلاله؛ وإن الاعتراك بين الخير والشر يصقل أهل الحق، ويزكى نفوسهم. وفقنا الله إلى الحق. ومن الدعاء الماثور: اللهم أرنا الحق حقًا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله متلبسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماما.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٦١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ
مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالتَّامَّةِ وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٦١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١٦﴾

بين الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة أن الناس جميعًا قد فطروا على فطرة واحدة، وأن من هذا الاتحاد كان الافتراق والاختلاف؛ ولقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها؛ وخلق الناس مستعدين للخير وللشر، وللطاعة والعصيان؛ فكان منهم من غلبت عليه شقوته فاتجه نحو الشر، ومنهم من غلبت عليه رحمة الله فاهتدى إلى الخير؛ فكان من الناس الأخيار والأشرار؛ وكان هذا من مقتضى الاستعداد للأمرين بمقتضى الفطرة التي فطر الناس عليها وكانوا فيها على سواء.

ولا شك أن العاقبة للخير؛ لأن الله هو الذى أمر به؛ فإذا كان الناس فيهم
الفجار والأبرار، وأن فى نفس كل امرئ استعداداً للفجور والتقوى؛ فالله سبحانه
قد دعا إلى الخير، وحث عليه، وهو غالب على أمره، وهو لا بد ناصر للخير،
هازم للشر، والعاقبة للمتقين؛ ولكن النصر يكون على مقتضى تدبير محكم، وصبر
على البلاء، وعدم استئمامة إلى الرخاء.

فلا ينتصر الخير على الشر إلا بشدائد ومكاره تنزل بالأخيار ويتغلبون عليها
بعد مغالبتها، ومغالبة الأشرار معها؛ ولذلك أردف الله سبحانه وتعالى الآية الدالة
على اتفاق الناس واختلافهم، بالآيات الدالة على الشدائد النازلة بالأخيار وأتباع
النيبين؛ فقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ .. إلخ.

فى هذه الآيات إذن يبين الله سبحانه وتعالى ما ينزل بالأخيار فى سبيل
الاستمساك بالحق والدفاع عنه، وكيف يغالبون المحن التى تنزل بهم، والأعداء الذين
يحيطون بدولتهم؛ ولقد وصف سبحانه وتعالى أولا البلاء فى الداخل والخارج، ثم
وصف علاجه فى الداخل بالبر والإنفاق ثم وصف علاجه فى الخارج، بالمقاومة
وحمل السيف عند الاضطراب.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا﴾ فى هذه الجملة السامية بين الله سبحانه وتعالى أن طريق الجنة
محفوف بالشدائد؛ كما قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»^(١)
وأن نعيم الجنة مرتقى عظيم، لا يرتفع إليه إلا المجاهدون؛ وأنه كلما عظمت الشدة
وطالت المدة كان الخير أعظم، ومعه رضوان الله وهو أكبر، وأن البلاء منوع
مختلف؛ فهو بالبأساء وهى الشدائد والمكاره التى تكون من خارج الجسم، كحرب
ضروس، أو خطر داهم؛ والبلاء قد يكون بالضراء، وهى الآلام والشدائد التى تحل
بالجسم، كجراح شديدة، أو أمراض ممضة، أو آلام نفسية مزعجة وإن هذه الآلام قد
ترعجهم وتشتد عليهم، وتصير كالزلازل تهز نفوسهم هذا عنيفاً؛ كما يهز الزلازل

(١) رواه مسلم: صفة الجنة (٥٠٤٩)، والترمذى (٢٤٨٢)، وأحمد فى مسنده (١٢١٠١)، والدارمى فى الرقاق (٢٧٢٠) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

أديم الأرض؛ وإذا كان زلزال الأرض يهزها حتى يلقي ما عليها من قصور مشيدة، فزلزال المؤمنين لا يقلب نفوسهم، ولا ينكس ما في صدورهم؛ بل يصقلها وينفض عنها ما عساه يعلق بها من درن.

ولقد فسر العلماء البأساء - بالشدة من خارج الجسم، والضراء بما يكون داخله كما نوهنا - وهى واضحة فى الأحاد؛ وقد تكون البأساء والضراء بالنسبة للمجموع؛ فالبأساء التى تنال المجموع هى مهاجمة الأعداء، واعتداؤهم وتوالى إيذائهم؛ وعدم تركهم أهل الحق فى قرار واطمئنان؛ والضراء فى المجموع هى ما يكون من فقر ومرض، وما يتخلل صفوف المؤمنين من منافقين يرجفون بينهم بالأقوال الكاذبة، ويخذلون ضعف الإيمان عند لقاء الأعداء، ثم ما يكون من نقص فى الأموال والأنفس والثمرات كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة].

و«أم» فى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ قد اختلف العلماء بشأنها من ناحية التخريج اللفظى بمقتضى الأحوال التى تستعمل فيها «أم»، فقال بعضهم: إنها للاستفهام المجرد، وهذا هو ما قاله الزجاج، وجوزه الزمخشري؛ والمعنى على ذلك التخريج واضح، ويكون من قبل الاستفهام الإنكارى بمعنى إنكار النهى؛ أى لا تحسبوا أنكم تدخلون الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى لم تأتكم حال كحال الذين مضوا من قبلكم إذ مستهم أى أصابتهم البأساء والضراء، والتعبير بمستهم للإشارة إلى أنها نالتهم بالأذى أحسوا به، والآلام نالت حسهم، ولكن لم تنل قلوبهم.

وقال بعضهم: إن «أم» هى «أم المتصلة»؛ وكأن فى الكلام محذوفا دل عليه لازم قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ [البقرة] وما قبلها، وكأن تقدير القول هكذا: أفرضيتم بالحق تنصرونه، وتدفعون بغى الباغين عليه متحملين الشدائد والمكاره، «أم» حسبت أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء... وبهذا تكون «أم» متصلة؛ دالة على المعادلة بين حالين،

والموازنة بين أمرين؛ وقد قال سيويه في الكتاب: إن «أم» المستصلة تكون دائماً دالة على المعادلة والتسوية، وإن كان التعادل غير مذكور، كان مقدراً في القول مطوياً في ثناياه.

وقال بعضهم إن «أم» هي أم المنقطعة الدالة على الإضراب؛ وقد قال البصريون: إن أم المنقطعة تدل على الإضراب والاستفهام معاً؛ وكأن تقدير القول لقد نزلت بكم الشدائد من أذى شديد في مكة وأنتم مستضعفون، ومن حرب وبلاء وهزيمة أحياناً وأنتم بالمدينة، ونزعت العرب كلها عن قوس واحدة في غزوة الأحزاب؛ لتقتل مدينة الله من أرضه، فعليكم أن تصبروا... ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة].

و «لما» في هذا الكلام الكريم تدل على النفي مع توقع وقوع المنفى كما قال الزمخشري؛ والمعنى: لم ينزل بكم مثل حال الذين خلوا من قبلكم وقد ينزل أو سينزل، فإن نزل فاصبروا واعلموا أن الله مع الصابرين.

والزلزلة: شدة التحريك، وهي تكون في الأشياء وفي الأشخاص، وفي الأحوال؛ فيقال زلزلت الأرض إذا تحركت واضطربت، وزلزلوا أى خوفوا. وقال الزجاج: أصل الزلزلة من زل الشئ عن مكانه، فإذا قلت زلزلته فمعناه كررت زلله.

والمعنى في الجملة أن أهل الحق دائماً مُعْتَنُونَ بِظُلْمِ الظالمين، وتضييق الأشرار عليهم، ودس الأشرار ونفاق المنافقين، ودعاة التردد والهزيمة؛ وهم لهذا في بأساء وضراء؛ وقد نزل ذلك بالذين خلوا من قبل؛ فحياة الأنبياء وحواريهم كانت كلها امتحاناً واختباراً، وأن على أصحاب محمد أن يعلموا أنه نازل بهم ما نزل بالسابقين من بأساء وضراء، وشدائد تزلزل النفوس وتضطرب لها القلوب بين الجنوب؛ وأن ذلك طريق الجنة؛ ولقد قال ﷺ: «ألا إن عمل الجنة حزن وبروة، ألا إن عمل النار سهّلٌ بسهوة»^(١).

(١) رواه أحمد في مسند بنى هاشم (٢٨٦٠).

وإن تلك الشدائد كانت تبلغ أقصاها، حتى إذا وصلت القلوب إلى حال تقارب اليأس من الفرج، إذ تغمرها الشدائد غمرا، حتى تكون في شبه ظلماء لولا نور القلوب، جاء نصر الله؛ وهذا ما يدل عليه قوله تعالى:

﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أى أن الشدائد كانت تنزل بالماضين من أنصار الحق والدعاة إليه، ويطول زمنها، ويطاول فيها أهل الباطل، حتى تصير النفوس فى حال تريد النصر القريب.

وليس معنى ذلك أن الهلع يستولى عليهم، أو أن اليأس يملك قلوبهم؛ فإن المؤمن لا يئس من روح الله؛ إنما معناه أنهم تنزل الشديدة فيحتملونها ويألفونها ثم تنزل الأخرى التى تكون أشد قسوة فيروضون نفوسهم على احتمالها مستعذبين العذاب فى سبيل الحق؛ وهكذا تترادف عليهم الشدائد، وتتوالى عليهم المحن حتى تصل إلى أقصى ما تحتمله النفوس الآدمية، وتبلغ حد الطاقة البشرية؛ عندئذ يطلب الرسول والذين آمنوا معه النصر. وقدم الرسول فى هذا المقام للدلالة على أمرين: أولهما: أن الشدة قد بلغت متنهاها بدليل أن الرسول ﷺ سارع بطلب النصر من رب العالمين؛ والثانى: أن رأفة الرسول ﷺ بأتباعه تجعله يسارع بطلب نصر الله، رحمة بهم، وإشفاقاً عليهم.

وعند بلوغ الشدة هذا الحد يكون ابتداء الفرج؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أى الله سبحانه وتعالى يشترهم فى هذه الحال بأن النفوس قد انتهى اختبارها، وبدا جوهرها، وأن النصر لا محالة آت وهو قريب؛ فهذه الجملة الكريمة من كلام الله تعالى لهم. وقد قال بعض العلماء: إن هذه الجملة يصح أن تكون من كلام الرسول ﷺ ومن معه؛ أى أنهم لفرط إيمانهم بحسن العقبى، ورجائهم فى نصر ربهم، وإيمانهم بأن الحق منصور، يحسون فى الحال التى يطلبون فيها النصر بأن النصر منهم قريب؛ فيقول لهم الرسول ﷺ بعد طلب النصر ويستمعون إليه مصدقين كأنهم القائلون: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ والتعبير على هذا الشكل يدل على توكيد الخبر بالنصر؛ من جملة وجوه؛ ففيه التعبير بالجملة الأسمية

فى مقام الفعلية فلم يقل ستنصرون، والتعبير بالجملة الاسمية دليل على التوكيد؛ وفيه أداة الاستفتاح؛ وفيه «إن» الدالة على التوكيد؛ وفيه إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) [الحج].

والرسول فى الآية الكريمة للجنس، أى أن هذه الحال هى حال عامة تعرض لكل رسول من الرسل فى قومه إذ يدعوهم إلى الحق؛ وإن قصص القرآن عن النبيين ينبئ عن ذلك؛ فموسى عليه السلام آذاه وأصحابه فرعون حتى قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم فى جذوع النخل؛ وعيسى عليه السلام آذوه هو ومعه الحواريون؛ ومن قبل إبراهيم ولوط ونوح؛ وهكذا أهل الحق لا يصلون إلى الغاية الفاضلة إلا بعد أن يقطعوا كل ما يلقيه فى طريقهم أهل الباطل من أحجار تدعشه، وأشواك تعوق السالك فيه.

ولقد قال العلماء: إن هذه الآية نزلت بعد أن أصاب المسلمين القرع فى أحد، فكانت هذه الآية للتسلية لهم؛ ولكن الذى نزل فى غزوة أحد هو قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) [آل عمران] بدليل ما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ...﴾ (١٤٠) [آل عمران]؛ ولذلك يرجح أكثر العلماء الذين عنوا ببيان أسباب النزول أن هذه الآية نزلت عند غزوة الأحزاب، حين أصاب المسلمين ما أصابهم من جهد ومشقة، وهم يحفرون الخندق، ثم أصابهم من تهديد فى الأموال والأنفس عندما جاء أولئك الأحزاب مجتمعين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (١٠) [الأحزاب].

ومهما يكن من سبب لنزول هذه الآية الكريمة فإنها تدل على أن أهل الحق فى مغالبة دائمة، وأنهم لا يتقلون من شدة إلا إلى أعلى منها حتى يفوزوا؛ فإن الشيطان من يوم أن وسوس لآدم وحواء وأخرجهما من الجنة، وأبناؤهما فى بلاء: تستغوى الشهوات جموعهم، فيندفعون فيها مجترعين من غسلها الوبىء، ثم يلغون

فى الشر، ويكلبون على أهل الخير؛ فإذا تقدم دعاة الخير يدعونهم بعد أن يتبين الرشد من الغى يبعث النبيين مبشرين ومنذرين، عادوهم وناوؤهم وأصابوهم، واعتقدوا أن ما يدعون إليه فيه ذهاب طغيانهم، وقدر شهواتهم، والحد من أهوائهم، وحاولوا افتراسهم كالوحوش الأوبد عندما تحس بمن يمنعها من الافتراس، ويكبحها عن الأذى.

وإذا كان أهل الحق يصابون بالضراء وهى الأذى الذى يكون فى داخل جماعتهم كما قررنا، والبأساء وهى الأذى الذى يأتى من خارجهم، فقد وجب عليهم أن يدعروا، ويعملوا صابرين على دفع الأذى فى الداخل والخارج؛ ودفع الأذى فى الداخل بالتعاون والتكافل الاجتماعى، ودفع الأذى الخارجى بأخذ الأبهة للقتال، والتعاون أيضاً؛ فإن التكافل الاجتماعى هو العدة لدفع أذى الداخل والخارج معا.

ولقد أخذ يبين الله سبحانه أساس التكافل الاجتماعى، وهو معاونة الفقير والضعيف ودفع حاجته بالمال؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ لقد سألوا عن نوع ما ينفقون، وقد تضافرت الآيات الحاثية على الإنفاق الداعية إليه، باعتبار أن التعاون الاجتماعى ركن من أركان الإسلام؛ فقد قرن سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة باعتبارهما صنوين لا يفترقان؛ سألوا عن نوع ما ينفقون ومقداره بعد أن سمعوا الدعوة إليه، ولكن الله سبحانه وتعالى قال فى الإجابة عن هذا السؤال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وظاهر القول أن الجواب ليس عن السؤال؛ لأنهم سألوا عن النوع، فأجيبوا عن المصرف؛ وعلى حد تعبير علماء الاقتصاد: سألوا عن وعاء الفريضة فأجيبوا بموضع صرفها؛ فلماذا عدل الله سبحانه وتعالى عن الإجابة عن سؤالهم إلى هذه الإجابة؟ الجواب عن ذلك أن النوع والمقدار يبينه المصرف، فأجاب عن المصرف؛ ليعلموا أن المطلوب هو سد حاجة هؤلاء؛ والنوع الذى يسد حاجتهم مطلوب إنفاقه. فالإجابة ببيان

المصرف فيها أسلوب حكيم، وفيها إيجاز معجز؛ لأنه قد بين بها موضع الصرف، وإن لم يسألوا عنه، وبين فيها المقدار؛ لأن حاجة هؤلاء هي التي تعنيه؛ وفيها بين النوع، فإن كانوا محتاجين إلى ثياب يكسون، وإن كانوا محتاجين إلى طعام يطعمون، وإن كانوا محتاجين إلى مأوى يؤوون. وفي هذه الإجابة فوق ذلك تصريح بحق هؤلاء على ذويهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه، وهو أن يمكننا من العيش طاعمين كاسين آوين مطمئنين؛ وأى مقدار ينفق فى ذلك من حقهم على ذويهم وعلى الناس.

وإن ذلك الحق واجب على كل من عنده يسار بالنسبة لهم، واليسار يفهم من قوله تعالى ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ فكلمة خير تطلق بالنسبة للمال على الوفير منه، لا على القليل؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ...﴾ [البقرة: ١٨٠] فالخير هنا هو المال الوفير كالخير فى تلك الآية الكريمة.

ذكر سبحانه أن موضع الإنفاق هم الوالدان، والأقربون، واليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل؛ ذكر هؤلاء بذلك الترتيب؛ وإذا كان العطف بالواو لا يفيد ترتيباً من الناحية النحوية فمن المؤكد أن الترتيب فى الذكر يفيد معنى الأولوية من الناحية البلاغية؛ فالترتيب فى الذكر إذن يشير بلا شك بأولوية البعض على البعض، فيسد حاجة الأبوين، ثم يسد حاجة الأقربين؛ ثم يسد حاجة المحتاجين من غير أسرته.

وقد روى فى سبب النزول عن عطاء: أن هذه الآية نزلت فى رجل أتى النبى ﷺ فقال: إن لى ديناراً؛ فقال: «أنفقه على نفسك» قال: إن لى دينارين، قال: «أنفقهما على أهلك» قال: إن لى ثلاثة، قال: «أنفقها على خادمك» قال: إن لى أربعة، قال: «أنفقها على والديك»، قال: إن لى خمسة قال: «أنفقها على قرابتك»

قال: إن لى ستة، قال: «أنفقها فى سبيل الله تعالى»^(١). وروى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تصدقوا»، فقال رجل: عندى دينار. قال: «تصدق به على نفسك» قال: عندى دينار آخر، قال: «تصدق به على زوجك» قال: عندى دينار آخر، قال: «تصدق به على ولدك»، قال: عندى دينار آخر، قال: «تصدق به على خادمك» قال: عندى دينار آخر، قال: «أنت أبصر»^(٢).

فهذه الآثار تبين أن الترتيب فى الذكر هنا يفيد الأولوية فى العطاء إن ضاق الخير عن أن يشمل الأنواع كلها، وقد ذكر سبحانه الوالدين والأقربين من غير ذكر ما يدل على الحاجة، وذكر بقية الأصناف مع ذكر بقية الأوصاف الدالة على الحاجة؛ لأن الوالدين والأقربين يجب رعايتهم والإحسان إليهم، وإن لم تكن فيهم حاجة شديدة؛ فإن كانوا فى حاجة شديدة فالإنفاق ألزم. ولقد قال ﷺ: «أملك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»^(٣)، ولقد قال ﷺ: «من أراد منكم أن يبارك له فى رزقه، وينسأ له فى أجله فليصل رحمه»^(٤). والبر بذى الرحم مطلوب فى القطيعة أشد منه عند المودة؛ فقد قال ﷺ: «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح»^(٥).

(١) ذكر ذلك عن عطاء الرازى فى تفسيره: البقرة (٢١٥) وجاءت الرواية فى البحر المحيط، وفى آخرها: «أنفقهما فى سبيل الله، وهو أحسنهما»، وذكرت فى ضعفاء الكامل عن جابر قال: قال رجل: يا رسول الله عندى دينار. قال: أنفقه على نفسك. قال: عندى آخر. قال: «أنفقه على زوجتك». قال: عندى آخر. قال: «أنفقه على ولدك أو خادمك» - شك الوليد - قال: عندى آخر. قال: «اجعله فى سبيل الله وهو أحسنها موضعا». وروى عن جابر أيضا: جاء رجل إلى النبى ﷺ وأنا جالس عنده فقال: يا رسول الله عندى دينار، فقال: «أنفقه على نفسك». قال: يا رسول الله عندى آخر. فقال: «أنفقه على زوجتك». قال: يا رسول الله عندى الثالث. قال: «أنفقه على خادمك إن كانت لك». قال: يا رسول الله عندى الرابع الذى أكرمك ما عندى غيره، قال: «فاجعله فى سبيل الله عز وجل وهو أدناها أجرا».

(٢) رواه النسائى فى الزكاة (٢٤٨٨)، وأبو داود (١٤٤١)، وأحمد (٧١١٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه النسائى: كتاب الزكاة (٣٤٨٥) عن طارق المحاربى، وأبو داود: بر الوالدين (٤٤٧٤) عن ج كليب بن منفعة، وأحمد عن أبى رمثة رفاعة بن يثربى (٦٨٠٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه أحمد: مسند المكين (١٤٧٨١)، والدارمى: الزكاة (١٦١٧) عن حكيم بن حزام رضى الله عنه.

والكاشح: الذى يطوى العداوة فى باطنه ولا يظهرها.

وقال ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة»^(١).

أما بقية الأصناف فإن العطاء فيها أساسه الحاجة، فاليتمى يعطون لاحتياجهم إن تركهم آبائهم من غير مال. والمسكين: هو الفقير الذى أسكنته الحاجة، أو أسكنه المرض أو السن وجعله فى عوز. وابن السبيل: المسافر الذى لا مأوى له، وقد انقطع عن ماله إن كان له مال؛ وأولئك يعطون ما يسد حاجتهم، وينتفع غلتهم.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه الجملة السامية لبيان فضل عمل الخير، والحث عليه؛ لأنها تدل على فضل ذلك العمل وتدفع إلى الرغبة فيه؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى يعلمه؛ وإحساس المؤمن التقى بأن الله يرى عمله فى الخير حين يعمل، وأنه يبصره وهو يقدم عليه، يشجعه على الاستمرار عليه؛ لأنه إذا كانت رؤية أى عظيم من الناس لعمل خير عمله الإنسان يحمله على الاستمرار، فكيف إذا شعر المؤمن الذى يحس بعظمة خالق الكون بما فيه ومن فيه؟ ثم إنه فوق ذلك ينال جزاءين مع ذلك؛ أولهما: رضاه: وهو وحده جزاء ليس فوقه جزاء؛ ولذلك قال سبحانه بعد بيان ثوابه فى الآخرة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) [التوبة]. وثانيهما: النعيم المقيم يوم القيامة جزاء وفاقا لما قاموا من عمل صالح علمه رب العالمين وقت وقوعه، وحين أدائه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ بين سبحانه الطريق لدفع الضراء، والآلام الداخلية، وهو التعاون، ثم بين بعد ذلك ما يدفع البأساء، وهى الشدائد التى تدهم الجماعة من الخارج، وهو أخذ الأهبة والاستعداد للقتال؛ فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ﴾ وقد قرئ بضم الكاف وفتحها، والضم أكثر، وهو بمعنى الكراهة؛ أى القتال لشدة ويلاته وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها ويصح أن يكون كرهه بمعنى المكروه أى خبز بمعنى المخبوز، أى هو أمر مكروه فى

(١) رواه البخارى: الأدب (٥٥٣٢)، والترمذى: البر والصلة (١٨٣١)، وأبو داود فى الزكاة (١٤٤٦)، وأحمد فى مسنده (١٤٤٦).

ذاته وعلى قراءة الفتح يكون فيه معنى الإكراه، فيكون المعنى عليه: كتب عليكم القتال، وهو أمر أنتم تلجئون إليه إلهاء، وتضطرون إليه اضطرارا؛ إذ إن الكره ضد الطوع؛ فكأنكم لا تدخلون الحرب طائعين، بل تدخلونها مكرهين كارهين، مضطرين غير مختارين، أُلجأكم إليها الاعتداء عليكم، وانتهاك الحرمات والفتنة في الدين، فأنتم مضطرون مكرهون على القتال؛ لإزالة الفتنة وصونا للحرمات، وذودا عن الدين؛ تقاتلون حتى يكون الدين كله لله.

والأمر على قراءة الفتح واضح؛ لأن القتال في الإسلام أمر غير مرغوب فيه لذاته، إنما اضطر إليه المسلمون اضطرارا، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج].

وأما على القراءة المشهورة، وهي قراءة ضم الكاف، فكيف كان القتال مكروها، مع أن الصحابة كان الموت في سبيل الله أحب إليهم، وكانوا يرون الشهادة في سبيل الحق غنما وليست غرما؟.

لقد قال المفسرون: إن القتال مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد تتلوها شدائد، ومشقات تتلوها مشقات؛ فلا يمكن أن يكون محبوبا مع ما فيه من صعب، ومع ما يكتنفه من شدائد، فهو كان مكروها لشدائده، والعافية أحب.

ولكن ذلك لا يتفق مع ما عرف عن العرب عامة من أنهم أهل بأس وقوة، وعزيمة ونجدة، ولا ما عرف عن أصحاب محمد خاصة من أنهم كانوا يتنافسون على أماكن الردى، يلقون بأنفسهم في مواطن الموت، لا يهمهم إلا أن يغنموا النصر أو يغنموا الشهادة، ففي كليهما فضل عظيم.

ولذا لا بد أن نبحث عن سبب آخر للكرهية؛ وذلك السبب هو الذي يتفق مع الهدى المحمدي، والمنزع الإسلامي؛ ذلك أن الإسلام أودع قلوب المؤمنين رافة ورحمة، وإلها وائتلافا، وسلاما واطمئنانا، وبرا بالرحم، وحنانا على الأقربين؛ وتلك المبادئ لا تلتقى في قلب مع الحب في إزهاق الروح، وقتل النفوس، وإلقاء الحثوف في ميادين القتال؛ فليس من خلق المؤمن المحب للسلام، أن يكون محبا

للقِتال، ولعله كان من الصحابة من يؤثرون مطاولة المشركين، رجاء إيمانهم، ورغبة في هدايتهم، مساوقا بذلك الهدى الإسلامى ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى كتب القتال مع هذه الكراهة، لأنه الأهدى سبيلا بعد أن قامت الحجة، ووضحت المحجة، واستطالوا على المؤمنين بالأذى، وأخرجوهم من ديارهم، وألبسوا العرب عليهم، وجمعوا الجموع.

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ أى عسى أن تكرهوا القتال رحمة بمخالفكم ورجاء هدايتهم، ورجاء الخير منهم، وهم لا يريدون لكم إلا خبالا، ولو سكتكم عنهم لكان أمرهم وأمركم وبالا، وفسدت أمورهم وأموركم، واضطربت حالهم وحالككم؛ فكانوا يغيرون عليكم، وأنتم ساكتون؛ ولو قاتلتموهم وأریتموهم الحق مؤيدا بالسلاح يجمع رءوس المعاندين المعتدين الذين يفتنون الناس عن دينهم ويحاولون نشر الفساد، لكان ذلك خيرا لكم ولهم. ووجه الخير لكم أنه رد الاعتداء، ووقف الأعداء، والذود عن الحياض؛ وأما وجه الخير لهم فهو أنهم عساهم يهتدون؛ فإن الناس أقسام ثلاثة فى قبول الحق: نوع يقنعه الدليل ويهديه البرهان، ونوع تجديه الموعظة الحسنة، ونوع جائر بائر طاغ فاسد مفسد لا تجدى فيه الموعظة ولا يقنعه الدليل، فقال الله فيه: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...﴾ (٢٥) [الحديد] فبقته قد يسكت عن الشر واللجاجة فيه، ويتدبر الأمر من جديد، كما قال أبو سفيان فى غزوة: لو كانت آلهتنا تنفع وتضر لنفعتنا! فكان ذلك هو السبيل لدخول الإيمان إلى قلبه، فأمن وصار من المهتدين وإن لم يكن من السابقين بالقبول والإحسان.

ثم عسى أن تحبوا الأمن والسلام وتؤثروا المحبة على الخصام، وأعداؤكم يتربصون بكم الدوائر، ويرتعون فى الشر رتعا شديدا، فلو تركتموهم وأمرهم لكان ذلك شرا لكم، ولكانوا هم قوما بورا، لا يرشدون ولا يسترشدون؛ فمن الرحمة ما تحوى فى نفسها أقصى الظلم، ومن الرفق ما يشجع أشد العنف؛ ولذا ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالله يعلم مغيب الأمور

ومكنون المستقبل وأنتم لا تعلمون، والله يعلم ما تكنه الصدور وما تخفيه وأنتم لا تعلمون، والله يعلم ما تصلح به أمور الناس في الدنيا والآخرة وأنتم لا تعلمون؛ وأنى يكون علم المخلوق كعلم الخالق، وعلم الناقص كعلم الكامل، وعلم القاصر كعلم اللطيف الخبير!

وقبل أن ننهي الكلام في تفسير هذه الآية نقرر أمرين:

أحدهما: أن قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ هي قضية عامة في كل التكليفات الشرعية يجب أن نقر صاغرين بها، وأن نقبلها طائعين ما دامت قد ثبتت بدليل قطعي لا شبهة فيه، وألا نمكن أهواءنا من التحكم في أمور ديننا، فعسى أن يكون ما نحب شرا، وما نكره خيرا؛ كما يجب ألا نتمللمل بأحكام الشارع بدعوى معارضتها للمصالح، أو لروح العصر، فقد يكون ذلك هوى لا مصلحة، وفسادا ومضرة. وليس صلاحا ومنفعة!

ثانيهما: أن هذه الآية فيها فرضية القتال؛ وظاهرها أنها تفرض الجهاد على جميع الناس القادرين عليه، وقد قال بعض العلماء لهذا: إن الجهاد فرض عين على القادرين عليه؛ ولقد قال ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية»^(١) وقال بعض العلماء: إن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين؛ وقد قال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر. وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو بساحة البلاد وجب القتال على كل المسلمين، كل بمقدار قدرته؛ وقد ابتلى الله أكثر البلاد الإسلامية بالعدو نزل بساحتها، فالجهاد حق على كل مسلم حتى لا يكون فيها عدو متحكم، وتكون العزة لله ولرسوله، وللمؤمنين.

(١) رواه مسلم: الإمامة (٣٥٣٣)، والترمذي: فضائل الجهاد (١٥٨٩)، والنسائي: الجهاد (٣٠٤٦) وأبو داود (٢١٤١) وأحمد في مسنده (٨٥١٠).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
 الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
 عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَبِّلُونَكُمْ
 حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
 مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
 هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
 اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

شرع الله القتال دفاعاً للأذى، ومنعاً للفتنة، ونصراً للحق وخفضاً للباطل،
 ولقد بين سبحانه أن المؤمنين الذين أرهف وجدانهم ومازج حب البشرية قلوبهم،
 كرهوه، فقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ﴾ كرهه المؤمنون
 المخلصون، وتمنوا لو أن قومهم آمنوا طائعين أو كفوا عن أذاهم حتى لا تزهق
 أرواح، ولا تخضب الأرض بالدماء، ولكن الله سبحانه بين لهم أنه لا سبيل لرفع
 الحق إلا بعزة أهله، ولا عز له بين المشركين إلا بنور الحق، وبريق السيف، وإن
 ذلك في مصلحتهم، كما فيه إعلان الحق لهم، ومنع الأذى عن المؤمنين، وزوال
 الفتنة في الدين، حتى يصير الدين كله لله، يطلبه من يريده حراً، ويريده من يريده
 مخلصاً، لا لوم ولا تثريب، ولا فتنة ولا تعذيب.

والمؤمنون الذين كرهوا القتال في ذاته كرهوه أيضاً لملاساته، فقد يكون في
 زمان له حرمة وتقديس، أو في مكان مقدس قد حرم فيه القتال جاهلية وإسلاماً،

فتتضاعف الكراهة؛ إذ تجتمع الكراهة الذاتية، والكراهة الإضافية لزمان القتال أو مكانه؛ فبين الله سبحانه ما يطمئن قلوب المؤمنين، وإن من يرد الاعتداء بر لا فاجر، ولو اضطر إلى القتال في الشهر الحرام أو البيت الحرام ولذا قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

الشهر الحرام - قد بيناه في تفسير قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ...﴾ (البقرة: ١٩٤). وأنه مفرد أريد به الجمع وإن الأشهر الحرم أربعة، هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وبيننا البلاغة التي أدركناها في التعبير بالمفرد في معنى الجمع.

وقوله تعالى: ﴿قَاتِلْ فِيهِ﴾ يدل اشتغال من الشهر الحرام، قد وقعت كلمة قتال في موضع الجر على البدلية، والمعنى: أن السؤال عن القتال في الشهر الحرام، لا عن ذات الشهر، وإنما ابتداء بذكر الشهر لأنه موضع القداسة في نفوسهم، ولأنه أساس التحريم، فالقتال في ذاته لم يعد موضع تفكير، بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى أمر ربهم، وأنه سبيل الدفاع عن نفوسهم، إنما موضع السؤال هو القتال في تلك الأزمنة، فابتدئ بذكرها، لأنها الباعث على السؤال: وهو الذي سارع إلى الخطر، فكان الابتداء به مجاوبة للمسارعة الفكرية بالسبق البياني.

ومن هم الذين سألوا؟ أهم المشركون، فيكون السؤال تشجيعاً، أم هم المؤمنون فيكون السؤال تحرجاً وتأثماً من الوقوع، أو ندماً أن فرط ذلك منهم؟ إن ذلك أمر لا يعرف إلا من صحيح الآثار.

لقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني، والبيهقي في سننه بسند صحيح أن النبي ﷺ بعث بعثاً على رأسه عبد الله بن جحش ليتبع غيرا لقريش قبل غزوة بدر، وكتب له كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا، وقال له: «لا تكرهن أحداً على السير معك»، فلما قرأ الكتاب قال: سمعا وطاعة، وخير أصحابه، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع منهم اثنان وتبع العير فغنم غنائم وأسرو أسيرين، وكان ذلك في أول ليلة من رجب حسبوها آخر ليلة من جمادى، وقيل في

آخر ليلة من رجب، ولم يستأنوا إلى أول شعبان حتى لا تفلت طلبتهم، ولما جاءوا إلى النبي ﷺ، وقد علم أنهم قاتلوا في الشهر الحرام، توقف وقال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»^(١).

ويروى أن المشركين قالوا: قد استحل محمد الشهر الحرام، فسفك فيه الدماء، وقالوا لمن عندهم من المسلمين المستضعفين: يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام، وقاتلتم فيه.

وهذا الخبر يفسد فائدتين: أولاهما - أن تلك السرية قاتلت في الشهر الحرام جاهلة بدخوله، أو مضطرة، وكلتا الحالين تحمل العذر أو المسوغ.

الثانية - إن قريشا عيرت المسلمين بذلك وأن النبي ﷺ توقف عن التصرف حتى ينزل قرآن فتزل، وعلى ذلك يصح أن يكون السؤال من المشركين، وهو أوضح.

ومهما يكن فإن القتال في الأشهر الحرم حرام في حال الاختيار والابتداء فلا يصح البدء بالغزو فيه. ولقد قال جابر: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل في الشهر الحرام إلا أن يغزى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ^(٢).

ولقد قال بعض العلماء: إن تحريم القتال في الشهر الحرام منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...﴾ (٣٦) [التوبة]، وبقتال النبي ﷺ أهل الطائف فيه، ولكن قال عطاء: إنه لم ينسخ.

والحقيقة إنه لم يثبت ناسخ صريح في النسخ فإن قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال، وإن النبي ﷺ لم يبتدئ قتالا في الشهر الحرام مختاراً قط، والتحريم في الاختيار والابتداء كما بينا لا في البقاء والاضطرار؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ...﴾

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، ج ١٣ ص ٢١٠ عن جندب بن عبد الله (٩٠/١٨١)، وعن عروة بن الزبير ج ١٣ ص ٣١٦ (١٨٣٦٢). وانظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٤٥.

(٢) سبق تخريجه.

﴿٣٦﴾ [التوبة] ولأن الأشهر الحرام نص عليها في خطبة الوداع، وكل ما جاء فيها غير منسوخ. وقد بينا حكمة تحريم القتال في الأشهر الحرم عند تفسير قوله تعالى: **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ** ... ﴿١٩٤﴾ [البقرة].

﴿قُلْ قَاتَلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ غير المشركون المؤمنون بأنهم قتلوا أو قاتلوا في الأشهر الحرم مع أنهم كانوا معذورين، لجهلهم بالمليقات، أو لدفع الضرر عن أنفسهم بمبادرة عدوهم قبل أن يقتلهم. وما سوغ أحد ترك الدفاع عن النفس إن هاجمه العدو، فرد الله سبحانه قولهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ قَاتَلْ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ فهو رد بالموافقة؛ أي أن القتال في الشهر الحرام أمر كبير على النفوس تستثقله القلوب المؤمنة فكيف إذا كان هو أمرا مكروها في الجاهلية والإسلام؛ لأن الشهر الحرام مقدس في الإسلام، أو يقال إن المعنى القتال فيه ذنب كبير، وعمل خطير؛ لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس.

وهذا التسليم ليس لأن المؤمنين جديرون بأن يعيروا، لأنهم معذورون بل إن التسليم ليأخذ الكفار من نواصيهم إلى الحق، ويبين لهم مقدار ضلالهم وفسادهم، فإذا كان كبيرا وخطيرا وذنباً وإثماً قتال في الشهر الحرام لأنه اعتداء عليه هو، فكيف يكون الصد عن سبيل الله، والكفر بالله، والكفر بالمسجد الحرام، وإخراج أهله منه، وكيف تكون الفتنة في دين الله، وحمل الناس على الخروج منه؟ إن ذلك يكون بلا شك أعظم وأخطر لأنه اعتداء على الله وعلى بيت الله، وعلى الأنفس، وعلى الأهل والعشيرة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾. أي أن هذه الأمور مجتمعة ومنفردة أكبر من القتال في الشهر الحرام، ومع ذلك ارتكبوها وأخذوا على الناس القتال الشريف اضطراباً في هذا الزمان.

والكلام مستقيم تمام الاستقامة على أن السؤال كان من المشركين، والإجابة له مفعمة ملزمة موجهة باعثة على الخير. وإذا كان السؤال من المؤمنين كالسؤال في

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ...﴾ (٢١٥) [البقرة] وكالسؤال فيما يأتي: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ (٢١٩) [البقرة] إذا كان السؤال من المؤمنين إعلانا لندمهم على صنيعهم، فقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه بيان معذرتهم، وأنهم مضطرون لا مختارون وإن الذين قاتلوهم ارتكبوا معهم الشر بكل صنوفه، فإن أخطأتم غير قاصدين فأولئك ارتكبوا أصناف الشر قاصدين، وهم لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة.

والأصناف التي ذكرها الله سبحانه من اعتدائهم خمسة: هي الصد عن سبيل الله، والكفر بالله، والكفر بالمسجد الحرام، وإخراج أهله منه، والفتنة في دين الله. أما الصد عن سبيل الله فمعناه المنع من سبيل الله، أي السنن المستقيم الذي سنه الله سبحانه وتعالى لخلقهم ليسيروا على الفضيلة متأخين متحابين وابتدأ الله ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق في ذاته ويمنعون أن تقام العلاقات بين الناس على أسس من الفضيلة.

والفعل صد: يستعمل لازما ومتعديا، فيقال: صد عن هذا الأمر أو عن فلان صدودا إذا أعرض عنه وانصرف، ويقال: صده عن هذا الأمر صدا أي منعه وصرفه.

والكفر بالله يشمل الشرك، ويشمل كفر النعم التي غمرهم الله بها وأسبغها عليهم، سواء أكانت مادية بيسط الرزق، أم كانت معنوية بآياته البينات، وبعث الرسالة فيهم تهديهم وترشدتهم، وكون الرسول ﷺ منهم ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ...﴾ (١٦) [الأنعام].

والكفر بالمسجد الحرام عدم شكر السله على نعمته إذ جعلهم في حرم آمن والناس يتخطفون من حولهم: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ...﴾ (٦٧) [العنكبوت]، ومن الكفر أنه بيت الله ومع ذلك يقيمون عليه الأصنام وهي الأحجار التي يشركونها بالله في العبادة، ومن الكفر به أن يمنعوا الناس من القيام بحقه في الزيارة والطواف في الحج والاعتمار، ومن الكفر أن يؤذوا الناس حوله ويقتلوهم ويفتنوهم عن دينهم في بطحاء مكة، وهكذا لم يقيموا للبيت

أى حرمة ويتمسحون بالشهر الحرام والقتال فيه، فيعيبون ناسا اضطروا إلى القتال غير قاصدين، وقد ارتكبوا هم معهم المنكر والزور.

وإخراج أهل المسجد منه، فإن إخراج الأمنين من مستقرهم جريمة كبيرة، وإخراج الساكنين حول البيت أكبر جرما وأعظم إثما؛ لأنه اعتداء عليهم، واعتداء على البيت واعتداء على الأمن الذى بقى لهم من شريعة إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ﴾ [إبراهيم] فهم تعدد اعتداؤهم عليه: فأزالوا الأمن الذى أوجبه الله، ووضعوا حوله الأصنام، وأخرجوا أهله منه.

هذه الأمور الأربعة كلها جرائم متتالية، وكل واحدة منها جريمة بذاتها، ولكنها فى مجموعها تساوى جريمة واحدة قائمة بذاتها وهى الفتنة فى دين الله، ولذلك خصها الله سبحانه وتعالى بالذكر كأنها وحدها تساوى الكل أو تزيد وهى مبعث أكثرها، فقال سبحانه: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

فالفتنه فى دين الله، يأنزال الشدائد بالمؤمنين ليحملوهم على ترك دينهم وتضليلهم وصرفهم عن الحق الذى اختاروه بالمحن والشدائد، وتوهين نفوس الضعفاء ليرتدوا عن دينهم.

وأصل اشتقاق كلمة الفتنة من الفتن، وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من روائته، واستعمل فى إدخال الإنسان النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۚ﴾ [١٣] ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ... [١٤] [الذاريات] أى عذابكم، وتستعمل الفتنة فى الاختبار ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفَتَّاكَ فُتُونًا ۚ﴾ [٤٠] [طه] وجعلت الفتنة كالبلاء فى أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما فى الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا، وقد جاء فيهما قوله تعالى: ﴿وَيَلْوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۚ﴾ [٣٥] [الأنبياء]. وقال فى الشدة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [١٠٦] [البقرة] ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ﴾ [١٩١] [البقرة] ^(١).

(١) جاء فى الهامش: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني - فتن.

والفتنة التى أنزلها المشركون بالمؤمنين، وهم مستضعفون بمكة كانت أكبر من القتل؛ لأنها أذى شديد يلحق الروح، وأذى الروح وبخعها بحملها على الكفر بعد الهداية لا يقل عن القتل، فهذا موت مادي، وذلك موت أكبر وأعظم، ولقد قال تعالى ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...﴾ (١٢٢) [الأنعام] فالضلال كالمت، بل هو أشد الموت، والهداية حياة أى حياة.

والفتنة فوق ذلك محاربة الفضيلة، ومحاربة قيام الجماعة على أسس من الخير فهى تؤدى إلى موت الجماعة؛ لأن حياة الأمم بروابط الفضيلة بين أحدها وكيف يكون قتل واحد أو اثنين أو عشرة مساويا لقتل أمة، وذهاب وحدتها وتحكم الأشرار وسيادة الظلم وانتشار الفوضى؟! وإن الحرية الدينية هى معنى الإنسانية، فقتلها بالفتنة قتل لأقدس معانى الإنسانية.

ولقد كان أولئك المشركون يفتنون المسلمين الأولين عن دينهم بصنوف الأذى، والابتلاء لم يسلم من أذاهم ضعيف أو ذو عصبية، فذوو العصبية كانوا يستهزئون بهم ويشيرون السخرية حولهم، وقد تمتد أيديهم بالأذى إليهم، وقد كانوا يقاطعونهم ويمتنعون عن معاملتهم كما فعلوا ببني هاشم عندما ناصرُوا النبي ﷺ ولم يسلموه إليهم ليقتلوه.

وكان أشد الأذى بالضعفاء وخصوصا الموالى، وقد حفظ التاريخ بلاء شديدا لكثيرين من المؤمنين أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه، وقد مات الأب والأم فى العذاب الأليم، وبقي الابن وقد خرج من المحنة مصقول النفس قوى الجنان ثابت الإيمان، وكذلك نزل ببخبا بن الأرت وبلال وغيرهم.

وإن أولئك الذين فتنوا المؤمنين الأولين وهم مستضعفون، ولا يزالون على نيتهم، وقد صار الإسلام فى عزة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ فهؤلاء المشركون أعداؤكم لا تأخذكم بهم هوادة، ولا تجعلوا لهم عندكم إرادة، لأنهم أعداء دينكم، فتتوكم فيه فى الماضى،

وأخرجوكم من دياركم، وما زالوا على هذه النية في الحاضر، لا يودون لكم إلا خبالا، وهم دائما في قتال معكم، فالتعبير بالفعل الدال على الاستمرار مع التعبير بالمضارع يدل على الدوام والبقاء، فهم مستمرّون على القتال معكم، وأنتم معهم في قتال دائم، فإن قاتلتموهم في الشهر الحرام، فأنتم لم تبدئوهم، بل هم الطغاة المبتدئون، وإن تركتموهم لم يتركوكم، وإن تركتموهم زما فقد مكنتموهم من فرصة يتهمونها، وسهلتهم لهم رغبتهم التي يضعونها نصب أعينهم وهي أن يردوكم عن دينكم.

وقد بين الله سبحانه أيضا غايتهم من هذا القتال، وأمنتهم التي يتمنونها، وهي أن يردوكم عن دينكم الذي ارتضيتم؛ لأنهم رأوا أن هذا الدين يهدم طغيانهم، ويأتى بنيانهم من قواعده، ولأنه دين الفضيلة وهم أعداؤها ودين المساواة وهم لا يحبونها، ودين العدل وهم لا يرتضونه، ودين النور وهم يطمسونه.

ولكن الله سبحانه وتعالى لا يمكنهم وهو ناصرهم، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ...﴾ [آل عمران]. ولقد عقب الله سبحانه وتعالى الجملة الكريمة بقوله: ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾.

والتعبير بـ «إِنْ» يفيد الشك في قدرتهم، بل إن الزمخشري يقول إن قوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ دالة على عدم قدرتهم على ذلك أو استبعاد ذلك، فهو كقول الرجل لعدوه، لا تبق علىّ إن ظفرت بى وهو واثق أنه لن يظفر به، وكأنه قيل لهم وأنى لهم أن يستطيعوا ذلك، والله محيط بهم، ولهذا الدين رب يحميه، ولن يذل قوم الله ناصرهم!!

بيد أنهم إن عجزوا عن ذلك بالنسبة للجماعة فلن ترد تلك العصابة المطهرة عن دينها، قد يميل معهم من يكون في قلبه مرض، أو فيه ضعف، أو لم يكن قوى الإيمان بحيث يصبر على المحن، وتصلقه التجارب، وتضىء قلبه الشدائد.

ولقد حذر الله سبحانه وتعالى أولئك الضعفاء، فقال تعالت كلماته:

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بين الله سبحانه وتعالى في تلك العبارات السامية حال من يرتد، ويستمر على رده إلى أن يموت، ولقد أشار في قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ إلى أنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين، وهى أن يردوكم أجمعين، بل أقصى ما يصلون أن ينالوا ضعف الإيمان، فيعيدوه إليهم ولا خير فيهم ولا فيه، والنار أولى بهم جميعا.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الردة عن الدين وحكمها، والردة أن يكفر بالله بعد إذ آمن، أو بالرسول بعد أن أذعن لما جاء به أو ينكر شيئا مما جاء بالكتاب من أخبار النبيين، أو الأعمال التكليفية، وبالجملية ينكر شيئا مما علم من الدين بالضرورة، ولقد عقب الله سبحانه وتعالى الردة بالموت كافرا غير مؤمن؛ ولذا عطف بالفاء، وكأن الردة يترتب عليها الموت كافرا، وذلك لأن الشخص إذا كان مضطربا غير مستقر، يؤمن ثم يكفر، ليس من شأنه أن يموت مستيقنا ثابتا قارا على حال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء] فالمضطرب العقيدة يغلب عليه ألا يموت مستقرا على حال، بل يموت كافرا، وإذا كان الشرع الإسلامى قد أوجب استتابة المرتد فلكيلا يكون ثمة عذر في قتله، ولقد منع الإمام مالك استتابة الزنادقة لكيلا يتخذوا التوبة الظاهرة ذريعة لدسهم الخبيث.

وقد ذكر الله سبحانه جزاء المرتدين، فذكر عقوبتين: إحداهما: بطلان أعمالهم الصالحة في الدنيا، فلا يكونون أمام الناس مؤمنين، وفوق ذلك تفسد نفس المرتد، فيذهب عنه نور البصيرة الذى يستفيده بالإيمان، فإن العقيدة الصحيحة توجه الفكر والعمل توجيهها صحيحا يكون إشراقا في العقل، واستقامة في الأفعال والأقوال، وفوق ذلك يفقد المرتد الثقة بنفسه وثقة الناس به، وأما بطلان أعماله في الآخرة فبعدم الجزاء عليها، وهو النعيم المقيم الذى خصص للمتقين.

وعبر عن بطلان أعمال المرتدين بقوله تعالى: ﴿حَبِطَ أَعْمَالُهُمْ﴾، وأصل الحبط من الحبط وهو أن تأكل الدابة أكلا حتى تنتفخ بطنها، فلا تنتفع بما أكلت ويفسد حالها، وكذلك الأعمال التي يحبطها الله يكون فسادها من صاحبها وتكون ضررا له وقد كان الأصل أن تكون خيرا.

العقوبة الثانية: ملازمة النار في الآخرة والخلود، ولذا قال سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أن هذا التعبير فيه تأكيد نزول العذاب بهم من ثلاثة وجوه:

أولها - الإشارة إلى سببه، فإن الإشارة في قوله سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ إلى هؤلاء الذين يرتدون باضطراب قلوبهم وفساد خلقهم، وذكر السبب مع الحكم تأكيد له.

والثاني - أنه ذكر أنهم ملازمون للنار ملازمة الصاحب لصاحبه، وكأنهم مختصون بها وهي مختصة بهم.

والثالث - التعبير بالجملة الاسمية مع التأكيد بضمير الفصل، وإن ذلك التعبير السامى كثير الورود في كتاب الله تعالى في مقام العقاب ومقام الثواب، والتعبير عن العقاب والثواب بالنسبة للكافرين والمؤمنين بالخلود، يدل على الدوام السرمدي والبقاء الابدي؛ لأن ذلك صريح، ولكن فهم بعض العلماء أن المراد طول المدة لا البقاء الدائم، وأولئك يحسبون أن عذاب النار غير دائم، وذلك لا دليل عليه بل عبارات القرآن صريحة قاطعة، وأحاديث النبي ﷺ لا تقبل الشك في دلالتها. وإنها للجنة أبدا أو للنار أبدا.

وأن أولئك المشركين قد اعترضوا على القتال في الشهر الحرام مع أنهم المعتدون ولا ييغون إلا أن يرتد المؤمنون عن دينهم، وقد تألم المجاهدون لقتالهم في الشهر الحرام مع أنهم مدافعون، ولم يكونوا قاصدين القتال فيه وقد رد الله سبحانه كيد الضالين في نحورهم، وبين عقاب من يجيئون رغبتهم، وقد بين بعد ذلك حال المؤمنين ومنزلتهم من ربهم ليزول ندمهم، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذه أوصاف ثلاثة لأولئك المقربين الصديقين:

أولها - أنهم آمنوا، والإيمان تصديق للحق، وإذعان لحكمه، وتنفيذ لأوامره، وإخلاص في القلب، ونور في البصيرة، وذلك وحده كاف للجزاء إن قام المؤمن به، وحقق لوازمه وخواصه، وصار شعاره ومظهره، وسريته وحقيقته.

وثانيها - الهجرة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وكرر الموصول هنا للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل رائد على الإيمان يستحق وحده الثواب لأنه ترك للمال والأهل، وطلب للعزة وإعزاز الدين، بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين وقد أمر الله بالهجرة عند الاستضعاف، ونهى عن البقاء تحت نير غير المسلمين؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٩٩ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠﴾ [النساء].

وثالثها - الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو باب الجنة، وهو رهبانية هذه الأمة، فإن النبي ﷺ يقول: «رهبانية هذه الأمة في الجهاد في سبيل الله عز وجل»^(١).

ولقد بين سبحانه جزاءهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أى إن أولئك المتصفين بهذه الصفات ليس من شأنهم أن يخافوا العذاب خطأ غير مقصود في الجهاد، بل إنهم يرجون الرحمة والثواب، ومن رجا طلب، ومن خاف هرب، فلا

تخافوا فى الجهاد إلا الله، ومن أخطأ فله أجر، ثم ذيل سبحانه الجملة الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لبيان أنه سبحانه يقبل التوبة عن عباده فيقبل إسلام الكافرين والإسلام يجب ما قبله، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ...﴾ [٢٨] [الأنفال] ويقبل توبة العاصى ويدينه، وإن غفران الذنوب تشجيع على الطاعات وهجر المنكرات، وعند اليأس تموت النفس ولا يقدر الهوى، وإن ذلك كله برحمة الله تعالى لعباده آحادا وجماعات، فمن مصلحة الآحاد أن يهجروا المعاصى ويكونوا عاملين فى بناء الفضيلة، ومن مصلحة الجماعة تكثير العاملين على الخير وإقامة الحق والعدل، والله من ورائهم محيط.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾

وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١٩﴾
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِئْتِمَارِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢٠﴾

أسئلة ثلاثة وإجاباتها، وكلها يتصل بإصلاح المجتمع، وتقوية بنيانه، وكل واحد منها يتجه إلى ناحية إصلاحية، وكلها يتلاقى نحو مقصد واحد، وهو إقامة بناء المجتمع على دعائم من الفضيلة والمودة والتعاون على الخير، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وقد جاءت هذه المعانى الإصلاحية التى توثق الوحدة، وتقوى الروابط بعد الأمر بالجهاد مع بعض أحكام القتال؛ لأن القتال حماية للدولة من أن

يلتھمھا العدو الخارجی، والإصلاح فی هذه المسائل الثلاث يتناول حماية الأمة من أن تأكلھا نيران العدو الداخلي، وهو التناؤذ، وأن تنظر كل طائفة للأخرى نظر العدو المترصد، لا نظر العضو المتعاون والأخ المتوؤد، ولأن الوحدة الداخلية والاتحاد المکین عدة القتال، وذخيرة الحرب، فقوة الحرب تستمد من السلم، ولأن مقصد الإسلام الأسمى هو إيجاد جماعة متآخية متحابة على أسس من الفضيلة والخلق الكريم ولكنه ما إن دعا بدعايته، حتى خرج عليه إخوان الشيطان يحاولون أن يبيؤوه وأن يقضوا عليه فی مهده، وفتن المسلمون فی دينهم، وعذبوا فی إيمانهم عذابا شديدا فأذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وساروا على سنة الوجود، وهو أن يدافعوا ذلك العدو المعتدى الذى يريد الفتنك بهم، حتى إذا دفعوه وأمنوا شره، أو فلوا قوته، وخضدوا شوكته، اتجهوا إلى إقامة مدينهم الفاضلة، وإرساء قواعدھا وحققوا بهذا القصد الأول، ومكنوا لأنفسهم وأعدوا بالفضائل عدة أقوى لمنازلة الأعداء.

وقد ابتأ القرآن الكريم فی إصلاح المجتمع الإسلامى بهذه المسائل والإجابة عنها؛ لأنها هى التى تنفى الأذى وتدفع الخطر الاجتماعى، ومن المقرر عند علماء الإسلام أن التخلية مقدمة على التحلية، أى أن نفى الإثم مقدم على جلب النفع، وأن دفع المفسدة مقدم على جلب المنفعة، إذ إنه لا منفعة مع أن الفساد يشيع، والداء يستشرى، والأذى يستمكن، ومثل الجماعة فى علاجها من أوائها، كمثل الجسم الإنسانى فى علاجه من أمراضه، فإن الطيبب النطاسى^(١) لا يبادر بتقوية الجسم ويترك الجرائم تفتك به بل يجتهد أولا وبالذات فى محاربة هذه الجرائم والقضاء عليها، ثم يقوى الجسم، وإن عمد إلى التقوية فى أثناء العلاج فلتقوى المقاومة، ولتزداد الحصانة، ولتشتد المناعة وغرضه الأول محاربة الآفات، وكذلك الأمر فى إصلاح الأمم: يبتدئ بإماطة الأذى الذى يفتك بها، ثم يثنى بأعمال الإنشاء، التى تقيم البناء.

(١) نطاسى: عالم بالأمور حاذق بالطب وغيره. [لسان العرب - نطس].

وإن هذه الأسئلة الثلاثة - هي: السؤال عن الخمر والميسر والسؤال عن مقدار ما ينفق والسؤال عن اليتامى وإصلاحهم.

أما السؤال الأول، فقد جاء فيه قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ السؤال عن الخمر والميسر هو بلا شك عن الحل والتحريم لا عن الحقيقة والذات، فإنهم يعرفونهما بلا شك، وكان الأغنياء وذوو المقدرة فيهم منغمسين فيهما، ولذلك كان الجواب مشيراً إلى عدم رضا الشارع عنهما أو مشيراً إلى تحريمهما؛ لأن ما غلبت مضرته على منفعته - كما هو حكم الإسلام - يكون حراماً، ولا يكون حلالاً، وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك، فكان يحق على المؤمن النقي النفس، الذي خلص من أدران الهوى أن يكتفى بذلك ويجتنبهما، وكذلك فعل خواص المؤمنين، والعلية من أصحاب الرسول الأمين كأبي بكر وعمر وغيرهما من السابقين المقربين. ولقد كان عمر رضى الله عنه يحس بأن شرب الخمر لا يسوغ في الإسلام؛ ولذا كان يدعو الله قائلاً: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً، خصوصاً بعد أن نزلت الآيات التي تشير إلى التحريم، ولا تصرح به.

ولماذا كان السؤال عن الخمر والميسر، ومن كان السؤال؟ إن السؤال بلا ريب من المؤمنين، ولم يكن من غيرهم؛ لأنهم رأوا الخمر تذهب الرشد، وتضعف العقل، وتجعل المرء يقع فيما لا يحسن، حتى أنه ليرى أن حمزة بن عبد المطلب شرب الخمر، فعقر ناقة لعلى بن أبى طالب قد أعدها ليحطب عليها، ويجمع بذلك مهر فاطمة الزهراء، فشكا إلى النبي ﷺ عمه، ولما خاطبه النبي ﷺ كان سكران، فقال للرسول الكريم: ما أنتم إلا عبيد أبى^(١)! فما كان المؤمنون الأولون وقد أزهف الإيمان قلوبهم وزكت أرواحهم، وطهرت نفوسهم ليرضوا عن الخمر، وإن لم يصرح القرآن بالتحريم، ولذلك كثر سؤالهم عنها، ليكون القطع في أمرها.

(١) متفق عليه؛ رواه بنحو من ذلك البخارى: كتاب المساقاة - بيع الحطب والكلأ (٢٢٠٢)، ومسلم: الأشربة - تحريم الخمر (٣٦٦٠) عن علي بن أبى طالب - رضى الله عنه.

ولقد نزل في الخمر أربع آيات من القرآن الكريم:

أولها: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) [النحل].

والثانية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

والثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ...﴾ (٤٣) [النساء].

والرابعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (٩٠) [المائدة].

ولقد اتفق العلماء على أن الآية الأولى أول ما نزل في القرآن خاصا بالخمر، مشيرا إليها، لأنها نزلت بمكة، إذ إنها من سورة النحل وهي مكية. وقد اتفقوا أيضا على أن آية المائدة وهي الرابعة آخر آية نزلت في الخمر، لأنها القاطعة في التحريم؛ ولذا قال عمر عندما سمع قوله تعالى في آية المائدة: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١) [المائدة]: انتهينا، وشفى ذلك ما في نفس الفاروق من الخمر. والأكثرون على أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ سبقت في النزول آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ...﴾ (٤٣) [النساء] ولكن يميل بعض المتأخرين^(١) إلى أن آية ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ مقدمة على آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ لأن هذه فيها إشارة إلى التحريم المطلق لأنه من المقررات الشرعية أنه إذا كان الضرر أكبر من النفع، فإن الحكم هو التحريم، وكذلك كل المحرمات ضررها أكبر من نفعها، ولا يكاد يوجد أمر يكون ضارا ضررا محضا، إذ إنه ما من ضار إلا فيه نفع، وما من شر إلا كان فيه بعض الخير، وما من نفع إلا تأشب به بعض الضرر، والعبرة في التحريم بالغالب فإن غلب النفع كانت الإباحة، وإن غلب الضرر كان التحريم، فإذا كانت آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ قد صرحت بعلّة التحريم فقد أومات إلى التحريم المطلق، أما آية ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ فهي لم تصرح بالتحريم المطلق،

(١) قال الشيخ رحمه الله: ذكر ذلك الأستاذ الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا رضي الله عنهما.

بل أومات إلى التحريم المؤقت أو المعلن بكونه لأجل الصلاة، وإذا كان الترتيب فى النزول لأجل التدرج فى المنع، فالمنطق يوجب أن يكون ما فيه إشارة إلى التحريم المطلق مؤخرا عما فيه إشارة إلى التحريم المؤقت، والمعلن بكونه لأجل الصلاة.

وقبل أن نترك الكلام فى آيات الخمر عامة إلى الكلام فى هذه الآية الخاصة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ لابد أن نشير إلى معنى خاص بالآية الأولى وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا...﴾ [١٧] [النحل]، فقد فهم بعض الناس أنها تبيح الخمر، ومن المقررات العلمية فى الإسلام أن ما أباحه الله لا يرد نص صريح بإباحته بل يكون متروكا لا نص فيه بالإباحة ولا بالمنع، ولذا يقول علماء الأصول أنه لا يكون مباحا، بل يكون فى مرتبة العفو لأن ما فيه من أسباب التحريم قائم، ولكن لا نص يمنع، فيكون محل عفو الله، إذ لا عقوبة من غير نص، فكيف تكون هذه الآية مشيرة بالإباحة؟ والجواب عن ذلك أن ذا الفهم المستقيم لا يأخذ من الآية الأولى دلالة على الإباحة لا بالإشارة ولا بالعبارة، بل إنها تدل على التحريم بالإشارة، وإن لم تكن قريبة كالإشارة فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ووجه الإشارة إلى التحريم فى تلك الآية أن الله سبحانه وتعالى يمين عليهم بنعمه وذكرها لهم، فذكر أنه سبحانه وتعالى رزقهم ثمرات النخيل والأعناب فاتخذوا منه سكرًا، ورزقا حسنا، أى أنهم أخذوا منه نوعين متقابلين: أحدهما مسكر والآخر شراب حسن وطعام جيد سماه رزقا حسنا، فتسميته أحد النوعين بأنه رزق حسن معنى ذلك أن مقابله ليس رزقا حسنا، بل هو استعمال سيئ لما أنعم الله به، وفى ذلك بلا ريب إشارة إلى أنه مبغض غير مستحسن، ولا يقر من يتخذه كذلك على ما يفعل، فليس فى هذه الآية إذن إشارة إلى الإباحة بل فيها إشارة إلى التحريم أو تصريح بعدم الاستحسان أو ما هو فى حكم التصريح من حيث الدلالة اللغوية.

وبعد ذلك نتكلم عن حقيقة الخمر عند الفقهاء، ثم نتكلم عما فيها من إثم، ومافيه من نفع، ووجه الكبر فى إثمها والقلّة فى نفعها، وقبل أن نخوض فى كلام الفقهاء نذكر الاشتقاق اللغوى لكلمة الخمر:

أصل كلمة خمر تستعمل بمعنى الستر، وبمعنى الترك، وبمعنى الاختلاط فيقال خمر بمعنى ستر، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها، ومنه: خمروا آيتكم أى غطوها، ويقال للشجر الملتف (خمرا) لأنه يستر بعضه بعضا ومنه قول القائل: دخل فى غمار الناس وخمارهم، أى اختفى فيهم وستر بهم.

ومن استعمالها بمعنى الترك قولهم: اختمر العجين، أى ترك حتى بلغ إدراكه، وقولهم خمر الرأى واختمر أى تركت حتى تبين وجه الحق فيه ومن استعمالها بمعنى المخالطة أن يقول القائل: ما خامرنى شك، أى خالطنى شك.

والخمر التى تسكر فيها المعانى الثلاثة، فهى تستر العقل، وهى لا تكون كذلك مسكرة إلا إذا تركت مدة طالت أو قصرت حتى تتكون منها المادة المسكرة، وهى تجعل الشارب لها يختلط عقله، ويغلب صوابه، فلا يعرف الحق من الباطل، واللائق من غير اللائق، والضار من النافع.

وقد اختلف الفقهاء فى مدلول كلمة خمر التى نص عليها القرآن بالتحريم مع أن كل مادة من شأنها الإسكار تكون حراما، إنما موضع الخلاف فى الأمر الذى حرم بنص الآية أى تشمل المسكرات كلها، فيدخل فى عموم التحريم بالنص كل الأنبهة وكل المواد التى من شأنها أن تسكر، وإن لم يسكر المتناول فعلا سواء أكانت تلك المواد من عصير العنب أم كانت من غيره . . أم أن النص الوارد بالتحريم فى الخمر هو فيما كان من عصير العنب، وغيره من المحرمات ثبت تحريمه بالقياس عليه لتحقق علة التحريم فيه، ولعموم النص فى الحديث «كل مسكر حرام»^(١).

قال الجمهور الأول، وهو أن كلمة خمر تشمل كل مسكر، وحجتهم فى قولهم أصل الاشتقاق لأن كل مسكر يتلاقى مع أصل الاشتقاق فى الكلمة، لأنه يستر العقل، ويجعل الشارب مختلط الفكر مضطرب النظر لا يعرف الحق من الباطل، وقد تبين من قبل أصل الاشتقاق. وقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب المغازى - بعث أبى معاذ إلى اليمن (٣٩٩٧)، ومسلم: الأشربة - بيان أن كل مسكر خمر وكل خمر حرام (٣٨٢٩).

قال: «كل مسكر خمر» فكان هذا تبييناً من النبي ﷺ لمعنى كلمة خمر، والنبي ﷺ هو المبين الأول للقرآن الكريم، فلا تفسير وراء تفسيره ﷺ، ولقد روى أن الرسول ﷺ قال: «إن من العنب خمراً وإن من التمر خمراً، وإن من العسل خمراً وإن من البر خمراً، وإن من الشعير خمراً»^(١) فلم يقتصر النبي ﷺ في تفسيره على عصير العنب، بل شمل أكثر المواد التي كان يتخذ العرب منها خمرورهم.

ولقد فهم الصحابة، وهم من العرب الذين أوتوا علم هذه اللغة، تحريم كل مسكر عندما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾ [المائدة: ٩٠]؛ ولذلك أراقوا كل الأنبياء التي كانوا يتناولونها، وليس فيها شيء من عصير العنب. ولقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «حرمت علينا الخمر حين حرمت وما نجد خمراً من الأعتاب إلا قليلاً وعامة خمرنا البسر والتمر»^(٢).

هذا تفسير الجمهور لكلمة خمر الواردة في القرآن الكريم، ولقد خالف أبو حنيفة وأصحابه الجمهور في تفسير كلمة خمر التي ورد بها النص القرآني، فقالوا: إنها النبي من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، وما عدا ذلك لا يسمى خمراً، وإن كان مسكراً محرماً. وترى أنهم لا يعدون حتى كل عصير العنب من الخمر، فلا يدخل في كلمة الخمر المطبوخ من ماء العنب، إنما كلمة خمر مقصورة على النبي منه غير المطبوخ، ويستدلون لقولهم هذا بأن النبي ﷺ أتى بنشوان فقال: «أشربت خمراً؟» فقال: ما شربتها منذ حرمها الله ورسوله. قال: «فماذا شربت؟» قال: الخليطين. فحرم الرسول ﷺ الخليطين^(٣). فنفي الشارب اسم الخمر عن

(١) رواه أبو داود: كتاب الأشربة (٣١٩١)، وبنحوه الترمذي (١٧٩٥)، وابن ماجه (٣٣٧٠)، وأحمد (١٧٦٢٧) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري: كتاب الأشربة (٥١٥٢).

(٣) قال المصنف رحمه الله تعالى: راجع كتاب أحكام القرآن للجصاص. والخليطان من نبيذ الرطب والتمر، أو العنب والزبيب، أو الزبيب والتمر. وأنا لا أرى في ذلك حجة؛ لأن الرجل كان نشوان فيحاول التخلص، كما ادعى بعض الشارحين أن قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ [المائدة: ٩٣] يدل على الحل، وما كان النبي ﷺ ليجادل نشوان ويصحح له اللغة، بل جاء من أقرب طريق وهو أن هذا حرام أيضاً. انتهى كلامه رحمه الله.

الخليطين بحضرة النبي ﷺ، فلم ينكره عليه، ولو كان ذلك يسمى خمرا من جهة لغة أو شرع لما أقره ﷺ.

وقد روى أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع، «وقد سئل عن الأشرية: «حرام الخمر بعينها والمسكر من كل شراب».

ومهما يكن من الاختلاف في تفسير كلمة خمر، فقد اتفق الفقهاء على أن كل مادة من شأنها الإسكار تكون حراما وتأخذ حكم الخمر تماما، وإنما موضع الخلاف هو في أن كل المسكرات داخلية في النهي بنص الآية أم داخلية بالقياس وبالحديث؟ قال الجمهور الأول، وقال الحنفية الثاني.

وإن الأحاديث الصحيحة تثبت أن علة تحريم الخمر إسكارها أو تخديرها على حد تعبير العلماء اليوم، فقد ورد أن النبي ﷺ قال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام»^(١)، وإذا توافرت هذه العلة في شراب كان حراما قليلا وكثيرا؛ لأنه يكون حرام تناول في الكثير لذاته، وفي القليل لسد الذريعة، ولأنه إذا كان مسكرا فإنه لا يكون عند الأكثرين طاهرا، ولأنه إذا كان مسكرا في ذاته فإن قليلا مهما قل يكون مخدرا.

وفي الحقيقة أن المسكر حرام، لا لأنه مسكر فقط، بل لأنه يميئ الضمير، أو يخفت صوت الوجدان الخلقي، ويضعف صوت النفس اللوامة، وإن ذلك يحدث في القليل والكثير، ويحدث لكل الناس، حتى أولئك الذين لا تظهر عليهم أمارات السكر من اضطراب القول واختلاط مظاهر التفكير. وتعجبني كلمة في هذا قالها الفيلسوف تولستوى فقد قال في كتابه الآفات الاجتماعية: (إن النبي محمدا ﷺ حرم الخمر لأنها تميئ الوجدان أو تضعفه). والخمر كذلك حقيقة، لأن الرجل يؤنبه ضميره على فعل، فلا يتناول الكأس حتى يزول تأنيب الضمير، والرجل يهم أن يقدم على الشر فيستيقظ وجدانه، ويقف حائلا بينه وبين فعله، فلا يلبث أن يتناول الكأس أو بعضه حتى تزول محاجزات الضمير، ويندفع في الشر اندفاعا لا يقف في

(١) رواه مسلم: كتاب الأشرية (٣٧٣٤)، والترمذي (١٧٨٤)، والنسائي (٥٤٩١)، وأبو داود (٣١٩٤)، وأحمد (٤٤١٦).

سبيله واعظ من ضمير، أو زاجر من نفس لائمة، ويستوى فى ذلك قليل الخمر وكثيره، كما يستوى فى ذلك من لا يسكر ومن يسكر من الشرب.

بعد هذا نشير فى إمامة موجزة إلى معنى قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ولنبتدئ الآن ببيان إثم الخمر ثم نعقب على ذلك ببيان إثم الميسر.

الإثم فى أصل معناه: اسم لكل فعل معوق مبطئ لا يوصل إلى الأغراض والنتائج، ثم أطلق فى لغة القرآن على أفعال الشر؛ لأن الشر يعوق الإنسان عن الوصول إلى الغاية الإنسانية الكاملة، ويبطئ عن الوصول إلى الثواب فى الآخرة. وقد تطلق كلمة إثم فى لغة القرآن الكريم ويراد منه العذاب والعقاب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان].

والمراد من الإثم فى الآية الكريمة ما يقابل النفع وهو الضرر. وفى الحقيقة أن الخمر فيها ضرر لا شك فى ذلك، وضررها أكبر من نفعها بلا ريب، وحسبها ضرراً أمراً لا شك فى وجودهما، ولاريب فى أنهما يترتبان عليها:

أولهما - إضعاف صوت الضمير، ولا شئ يضر فى الاجتماع أكثر من صوت الضمير أو إضعافه؛ لأن الخلق الاجتماعى الذى يترتب عليه الإلف، والاتلاف بين الناس أساسه الحياء، والإحساس بسلطان الجماعة لائمة ومهذبة، وتبادل الشعور بينه وبين غيره، ثم النفس اللوامة، وإن الكأس تذهب بكل هذا: تذهب بالحياء والحياء خير كله، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت، ويندفع الشخص فى مخالفة الجماعة غير هباب ولا وجل، وكثيراً ما يكون القصد الأول من الشرب خرق حجاب الحياء، لينطلق بالقول والفعل بما لا يليق.

وإن ذلك الأمر يعم كل شارب، سواء أكان ممن تقرب سكرتهم، أم كان ممن تبعد، وسواء أكان المقدار قليلاً، أم كان كثيراً، فلا يكاد يكون شارب بعد شربه فى حياته الذى كان عليه من قبل، وفى قوة وجدانه وضميره التى كانت له قبل أن يتناول ذلك السم الخلقى الذى يفتك بالأخلاق والفضيلة؛ ولذلك سميت الخمر بحق

أم الخبائث؛ لأنها بعد تناولها تسهل كل خبيثة كانت مستعصية لا تقبلها النفس ويعافها الشارب.

ثانى الأمرين اللذين يترتبان على الشرب بلا مراة: ذهاب الرشد، أو إضعاف الإدراك ووزن الأمور وزنا صحيا، وإننا والله لنعجب لأولئك الذين يرضون الضلال بدل الرشد، والغفلة بدل الصحو، وقد كان فى الجاهلية رجال عافوا ذلك، ولم يرتضوه لأنفسهم، وقد قيل للعباس بن مرداس، وكان لا يشرب: (ألا تشرب الخمر، فإنها تزيد فى حرارتك؟) فقال: (ما أنا آخذ جهلى بيدي، فأدخله فى جوفى، ولا أرضى بأن أصبح سيد القوم وأمسى سفيهم).

ولكن الفوضى الخلقية التى صار عليها الناس اليوم جعلتهم يغفلون عن هذه الحقائق المقررة الظاهرة، ولا يلتفتون إليها، بل لقد ذهب بعضهم إلى المغالاة فزعم أنها ضرورية للمدنية اليوم، فإن الآلام النفسية قد اشتدت، والمحن قد كثرت، ولا دواء لهذا الداء إلا الخمر، فهى اليوم دواء لاداء، وإنها علاج المجتمع! ذلك قولهم بأفواهم، وذلك تفكيرهم فى أهوائهم.

ونحن نقول: إنها تناسب مدنيهم، وهى خاصة من خواصها؛ لأنها مدنية. اتسمت بالرديلة، وصارت شعارها، فكان من المناسب أن تكون الخمر دواءها؛ لأن الدواء يكون من جنس الداء، وأم الخبائث هى التى ترأى الخبائث، وتكنفها وتحوطها وترعاها، فلا عجب إذا رأينا التفكير المعكوس هو الذى يدافع عن الخمر، ولا بد أن قائله قاله ورائحتها تنبعث من فيه!.

من ذا الذى يقول إن تفاقم الرذائل داعٍ للانغمار فيها؟ إنه كلما تفاقم الشر وجب جمع العزائم لمحاربتة، وإن المحن النفسية إذا اشتدت وجب تقوية الوجدان الخلقى، والضمير الخلقى، وتربية الناس على ضبط النفس والصبر الجميل، وإيقاظ النزوع الدينى، والعزاء الروحى، أما إذا تأملت النفس وقوى الضمير، واشتد اللوم النفسى فأخذ المتألم الكأس ليخفى الألم وليضعف صوت الضمير، فإنه كالجندي يفر من مواطن الجهاد، وميدان العمل إلى أن يكون فى موضع الهمل، فهل يرضى كريم

لإنسانيته بتلك المنزلة الهون فيميت آدميته ويقتل خلقه، ويذهب بمروءته ورشده، ويكون ملهى الصبيان، يتلعب بكرامته الغلمان، أو على الأقل يعمل على أن يفسد تقديره ووزنه للأمور؛ لأن معرفتها على حقيقتها تؤله! وهل يذهب بأسباب المحن غفلته عنها وابتعاده عن الإحساس بها!! كلا إنه يتردى بالخمير من محنة إلى محنة فغفلته عن المحنة، بالخمير تدفعه إلى ثانية ثم إلى ثالثة، وهكذا تتوالى عليه المحن بها، حتى يضيع نفسه، وأهله، وأولاده، وأصحابه ولا يبقى معه إلا إخوان الشر، ودعاة الفساد!

هذه إشارة إلى مضار الخمير المعنوية والاجتماعية، أما مضارها الجسمية، فيكاد العلم الحديث يثبت أنه لا شيء يدخل الجسم أضر عليه من الخمير، فهي تأكل الكبد وتضخمه، وتفسد الكلية، وتضعف أنسجة الجسم وتتهك الأعضاء الداخلية العاملة، وتفقد الشهية للطعام، وتفسد المعدة وتحدث تصلبا في الشرايين وتمتددا فيها، وأحيانا يموت السكير فجأة لهذا الداء، والخمير تضعف الحنجرة، وشعب التنفس، وتكثر السعال.

وقد أثبت التحليل الطبى أن الجسم لا يستفيد منها أية فائدة، فإنها وإن كانت فيها مواد غذائية، يذهب السم الذى صاحبها بفائدتها فهي فى جملتها عقاقير سامة، وما يحدث من نشاط فى الجسم ونشوة عند شربها سببه أنها مواد غريبة على المزاج الجسمى، فعناصر الجسم تقاومها وتدافعها وبهذه المقاومة والمدافعة يتولد الإحساس بالنشاط، وإذا كانت الخمير فى أحيان قليلة تقى من بعض الأمراض التى لا خطر منها، فالضرر الناشئ عنها أشد من الأضرار الناشئة عما تدفعه!.

وقد يقول قائل: إنها تتخذ دواء أحيانا؛ ولذلك يتساهل بعضهم فى ذلك، ولكن وجدنا طبيبا إنجليزيا يصرح فى قوة قائلا: (أنا لا أعلم مرضا قط شفى من الخمير)! ويقول آخر أسكتلندى: (الخمير لا تشفى شيئا) ويقول ثالث: (إن الخمير تدخل الجسم وتخرج منه ولا أثر لها إلا ما تحدثه من أضرار)^(١). وهكذا تتوارد

(١) قال المصنف رحمه الله: هذه النقول من كتاب جواهر القرآن للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى.

أقوال الأطباء في أنها لا تصلح شفاء وإن كانت تقى في حالات قليلة من بعض أمراض لا خطر فيها، وبهذا يصح الأثر عن السلف: «لا دواء في محرم»، ولقد روى مسلم أن طارق بن سويد سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاء، أو كره أن يصنعها، فقال: «إني أصنعها للدواء، فقال الرسول ﷺ: «أنه ليس بدواء ولكنه داء»^(١) فما أصدق الرسول ﷺ، ولكنه المبلغ عن ربه، وكفى ذلك تصديقا.

وليست أضرار الخمر الجسمية والعقلية مقصورة على المتناول، بل إنها تنتقل إلى ذريته من بعده، إذ يكون النسل ضعيفا ضاويا، في جسمه وعقله، حتى يكون أقرب إلى الجنون، وأشد استعدادا له، فإن تناولها يجعل السكر ضعيف العقل، إذ تضعف قواه العقلية شيئا فشيئا حتى يصير كالأبله، ويتنقل ذلك إلى ورثته. ولقد قال بنتام في كتاب «أصول الشرائع» ما نصه: (النيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله، وفي الأقاليم الجنوبية يصير كالمجنون، وقد حرمت ديانة محمد ﷺ جميع المشروبات، وهذه من محاسنها)^(٢).

ولقد علم الأوروبيون مضار الخمر علما يقينا، ووجدوا أن الإكثار منها بين أمم أفريقيا والشرق قد يبيدها، أو يفسد العناصر الصالحة فيها؛ ولذا جاء في كتاب «الإسلام خواطر وسوانح» في عجز المدينة الأوربية عن إيادة المسلمين: (إن المسكرات التي استعملها بعض الفاتحين لا تؤثر في أهالي الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديدا)^(٣).

ولكن المسلمين قد أصبح قادة الفكر فيهم لا يمقتونها اليوم، فهل فتحت أبواب الفناء، وزالت حواجز البقاء؟ اللهم أصلح الأحوال، وقو العزائم، وهب لنا من أمرنا رشدا!

هذه بعض آثار الخمر، فما منافعها؟ والله العلى القدير لولا أن القرآن الكريم ذكر أن فيها منافع للناس ما ظننت أن فيها نفعا ولو بطريق الشبهة، ولكن هكذا قال

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة (٣٦٧٠)، والترمذي: الطب (١٩٦٩)، وأبو داود (٣٣٥٧)، وأحمد: مسند الكوفيين (١٨٠٣٦).

(٢) (٣، ٢) ترجمة فتحى زغلول باشا.

القرآن، وليس لنا إلا الإيمان. ولقد ذكر بعض العلماء منافع ظاهرة لها، منها أنها وقاية أحيانا من بعض جراثيم الأمراض بما فيها من كحول، ومنها أنها قد تشير التخوة، ومنها أنها تسلى، ومنها أنها تسخى البخيل أحيانا، وأن ما يكنف هذه الأمور التي يكون ظاهرها نفعاً من أضرار يجعل النفع لا جدوى فيه، بل يكون الضرر في هذه الأحوال نفسها أكثر من النفع.

هذه الخمر، أما الميسر، فهو قمار العرب، ويطلق على كل قمار اسم الميسر، فكل ما يتخاطر فيه الناس من معاملة فيها خطر الكسب المطلق أو الخسارة المطلقة يعد ميسراً أو قماراً، وأصل اشتقاق كلمة ميسر إما من الميسر بمعنى السهولة؛ لأن المال يجيء للكاسب عفواً من غير جهد، وإما من يسر بمعنى وجب؛ لأن اللاعب إذا آل إليه الكسب يصير واجباً، وإما من يسر بمعنى جزأ، وقد اختار ذلك الأزهري، فقال: «الميسر: الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه، سمى ميسراً، لأنه يجزأ، فكأنه موضع التجزئة، وكل شيء جزأته فقد يسرته، والياسر الجزار، لأنه يجزىء لحم الجزور .. وهذا الأصل في الياسر، ثم قيل للضاربين بالقساح والمتقامرين على الجزور ياسرون؛ لأنهم جازرون إذ كانوا سبياً لذلك).

هذا هو الأصل في استعمال كلمة ميسر، وقد أطلقت على كل قمار، وقمار العرب الذي أطلقوا عليه كلمة ميسر هو أنهم كانوا يقسمون البعير المذبوح إلى ثمانية وعشرين قسماً، ويوضع عشرة أقداح، ثلاثة منها غفل لا علامة عليها تسمى: السفيح، والمنيح، والوغد، ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئاً، وقد تزايد الغفل على هذا العدد، أما السبعة الأخرى فهي الكاسبة وهي: الفذ وله سهم واحد، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والجلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسل وله ستة، والمعلّى وله سبعة، والمجموع ثمانية وعشرون.

ولا شك أن هذا من قبيل ما نسميه اليوم (ورق اليانصيب)، وقد كانت عادة العرب أن يفعلوا ذلك عند اشتداد الضائقة ليتبرعوا بنتائج الكسب على الفقراء، وما أشد الشبه بين هذا وبين عمل الجماعات التي تجمع التبرعات بهذه الطريقة!

ولقد جاءت النصوص الصريحة بتحريم كل قمار، وقد ورد أن رجلاً قال: إن أكلت كذا وكذا بيضة فلك كذا، فارتفعوا إلى على فقال: ذلك قماراً!

والميسر مضاره كثيرة، فهو يؤدي إلى إتلاف المال وإهمال الأعمال، وهو أكل لمال الناس بالباطل، ويفسد الأخلاق، وقد يترتب عليه خراب البيوت، وهو فوق ذلك يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويورث العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

ومنافع الميسر ضئيلة أيضاً بجوار مضاره، ومنها إعطاء الفقراء، كما يرى فيما تصنع جماعات الإحسان، وأن الحكومات التي تعنى بتربية شعوبها وتهذيب نفوسهم تحارب انتشار القمار، وتقطع السبل المؤدية إليه، ولو كانت تبخه في النوادي الخاصة فبعض الأمم الأوروبية يحرم قانونها بيع أوراق اليانصيب، ولو كانت للبر؛ لأنها تربي في الشعب روح المقاومة، مع أن هذه الأمم تبيع فتح النوادي للقمار، فهي لا تمنع فتحها للحرية الشخصية في زعمها، ولكنها تمنع ما يبعث في الشعب روح المقاومة.

ويلاحظ في الكلمات السامية: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أنه أطلق الإثم ولم يصفه فلم يقل إثم على الناس أو للناس، وقيد المنافع بأنها للناس، وهذا يدل على أن الإثم في الخمر والميسر ذاتي، فهما في ذاتهما رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيهما من منافع فهي ضئيلة وهي بالنسبة لبعض الناس، فهي منافع إضافية، لا منافع ذاتية، فجوهر الخمر والميسر شر لا خير فيه، وما يكون من نفع فيهما في بعض الملابس، كما يلاحظ في بيع الأوراق لتمويل بعض جماعات البر، فليس ذلك لأن في الميسر خيراً أو نفعاً، بل لأن النفوس فسدت، وشحت بالخير، فلا تجود إلا من هذا الطريق الفاسد، فما فيه من نفع إضافي سببه فساد الناس، وهو نفع ضئيل للناس ومشتق من أحوالهم.

وأما السؤال الثاني فقد جاء في قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢١٩) في الدنيا والآخرة، ومناسبته للسؤال الأول أنهم كانوا يتخذون من الخمر والميسر طريقا لتسخية نفوس الأشحّة على الخير الذين لا يجدون من تلقاء أنفسهم، فكان السؤال عن الإنفاق على البر، عقب السؤال عن الأمر الآثم الذي كانوا يحسبونه برا وهو إثم لا بر فيه. وفي الإجابة عن هذا السؤال بيان طريق العطاء المنظم المعلوم الخالي من الإثم، بدل العطاء المجهول غير المنتظم للتأشب بالإثم الذي أحاط به. والعفو معناه: السهل، أو الزائد فإن كلمة عفو لها ثلاثة إطلاقات أولها الترك، كما قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ...﴾^(٢٢٥) [المائدة] أى تركه وتجاوز عنه، وبمعنى السهل، كما قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢٢٩) [الأعراف]. وبمعنى الزيادة. والمعنى هنا السهل الزائد عن الحاجة. سألوا عما ينفقون من مال فى البر، فقال لنبيه ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ أى السهل الزائد عن حاجتكم الأصلية الذى لا يشق عليكم بذله، إن استقامت النفوس، وامتلات القلوب بالإيمان، وعمرت بالرحمة وأجابت نداء الرحمن. والعفو يشمل الزكاة المفروضة؛ لأنها ليست إلا فضلا قليلا من المال، كما يشمل صدقة التطوع، وكما يشمل الصدقات التى يتعين أداؤها إذا كان شخص فى مخرصة ولا يدفع غائلة الجوع إلا شخص واحد يعرفه، ولا يعرفه سواه، فإنه يتعين عليه الأداء، وأنه فى وقت الحاجات يفيض الغنى على الفقير بكل مايسد حاجته. ولقد روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: بينما نحن فى سفر مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل^(١).

(١) رواه مسلم: كتاب اللقطة (٣٢٥٨) واللفظ له، وأبو داود: الزكاة (١٤١٦)، وأحمد: باقى المكشرين (١٩٨٦٣).

وإن الآية كما تدل على ذلك توجب على المتصدق أن يبقى لنفسه ولعيله ما يكفيهم؛ ولذا قال ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»^(١) وروى أن رجلا أتى النبي ﷺ ببضة من ذهب أصابها في بعض المعانم فقال: خذها مني صدقة فأعرض عنه حتى كرر عليه مرارا... فردها الرسول ﷺ وقال: «يأتني أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس ويتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى»^(٢).

وقد ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أى يبين سبحانه وتعالى فى كل الأحوال بيانا كهذا الذى ذكره فى الإنفاق وفى الخمر والميسر لكى تفكروا وتتدبروا فى مصالحكم فى الدنيا والآخرة، فتسيروا على الطريق المستقيم فى الدنيا، وتتكون منكم الجماعة الفاضلة المتعاونة المتآزره، ويحسن جزاؤكم فى الآخرة، وتحظوا برضوان الله، وذلك هو الفوز العظيم. و«لعل» للرجاء، وهو من الله سبحانه وتعالى فى معنى التعليل، لأنه لا رجاء من الله، إنما الرجاء من العبيد فهذا التمثيل والتصرف فى آيات الله البينات ليرجوا التفكير والتدبر، ويسيروا فيه ليصلوا إلى الغاية الصالحة.

وأما السؤال الثالث فقد جاء فيه قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالُطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. والإجابة فيه وأساسها أيضا إمطة الأذى عن الجماعة الإسلامية، فإنه إذا كان الإنفاق على الفقراء يحمى المجتمع من الفقر وأهواله وغوائله، فحماية اليتامى وكلاءتهم تحمى المجتمع من أن يكون منهم شريرون يبغيضون المجتمع، ويجلبون له الويلات وهم فى كنف المجتمع ورعايته. لقد سألوا عن اليتامى أياضمونهم إليهم ويأكلون معهم أم يدعونهم وأموالهم، وكيف يرعونها، وكيف يقومون عليها؟ سألوا هذه الأسئلة ومايشبهها، وقد قرأوا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى] وقوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) رواه البخارى: كتاب الزكاة (١٣٣٧)، والنسائى (٢٤٩٧)، وأبو داود (١٤٢٧)، وأحمد (٦٨٨٥)، والدارمى (١٥٩٢).

(٢) رواه أبو داود: الزكاة (١٤٢٥)، ورواه الدارمى: الزكاة (١٦٠٠) بنحوه.

تَقَرَّبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴿١٥٢﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ [النساء] فكانوا من أمرهم فى حيرة: إن قاربوهم وأموالهم يخشون على أنفسهم أن ينالوا إثمًا، وإن تركوهم ضاعوا وهم فى كفالة المجتمع كله، فأمر الله نبيه أن يقول لهم أن المطلوب إصلاحهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أى أن المطلوب إصلاحهم وإصلاح مالهم، وذكر إصلاحهم؛ لأنه المقصد الأول، ولأن إصلاح مالهم إصلاح لهم، وخير لكم ولهم، وإصلاح حالهم بالتهذيب والتربية والعطف والمحبة، والرافة، وعدم تكليفهم ما يشق عليهم؛ لأن الغلظة معهم تربي فيهم الجفوة، وتنشأ عنها القسوة، فينشئون وهم ييغضون الناس، ويتربصون بهم الدوائر. وقد أثبت علم النفس الجنائى أن روح الإجرام تنبعث عند النشأة الأولى فى الغلمان الذين يحسون بأن المجتمع يجفوهم، ويغلظ عليهم فيخافونه ويغضونه، ويتربصون الفرصة السانحة ليستلبوا المال أو الأرواح، أو ما يمكنهم أن يصلوا إليه، فكان لابد من تربية اليتيم بالإصلاح والتهذيب، والا يقهر نفسه حتى لا يجفو فيكون من وراء ذلك الشر المستطير والخطر الكبير.

وإذا كان المطلوب هو الإصلاح بكل وسائله، وهو الغاية المطلوبة فإن كان الإصلاح بمخالطتهم وضمهم إليهم من غير أن تؤكل أموالهم، فالمخالطة سائغة جائزة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أى عند المخالطة استشعروا أنهم إخوانكم فى الدين والإنسانية وأبناء إخوانكم، وعاملوهم بتلك الأخوة الرحيمة الرابطة، ولا تنظروا إليهم شذراً، وتؤكلوهم نزراً؛ لأنهم غرباء عن بيتكم، بل أشعروهم بأنهم دائماً فى بيت أهلهم وذويهم، حتى لا تربي نفوسهم على الجفوة فيغضوا الناس، ويتربصوا بهم الدوائر، ويكون ذلك فى طبعهم إذا كبروا وبلغوا أشدهم..

ثم قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وهذا ترغيب في الإصلاح، وترهيب من الفساد؛ لأنه إذا كان يعلم المؤمن أن الله مطلع على ما يفعل، تجنب الشر، وأثر الخير، فتجنب إهمال اليتيم لكيلا يفسد وعمد إلى تهذيبه لكي يكون عضوا عاملا في الجماعة يبنى كما يبنى غيره، وتقوم الجماعة على سواعد قوية يشترك الجميع في إقامتها. ثم إنه إذا علم الله المصلح فسيجزيه خير الجزاء، وما دام يعلم المفسد، فحسابه وعقابه بمقدار فساده.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ﴾. العنت المشقة، وأعتكم: أوقعكم في المشقة، وذلك بأن يترككم تهملون أيتامكم، فيكونون إلبا عليكم في قابل حياتهم، وشوكة في جنب الدولة، ويكون منهم قطاع الطريق واللصوص والمتكهنون لحرمت المنازل، ويفتكون بمجتمعكم، وينزلون الأذى بكم ولكن الله سبحانه كان من رحمته أن دعاكم إلى العناية باليتامى ليكونوا عاملين بدل أن يكونوا هادمين، وليكونوا قوة للجماعة بدل أن يكونوا قوة عليها هادمة في بنائها.

ثم ذيل الله سبحانه الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ للإشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن الله سبحانه عزيز يعز من يشاء ويذل من يشاء فمن أذل يتيما أذله الله، ومن أعزه أعزه الله سبحانه.

وثانيها: أن الله سبحانه وتعالى هو الغالب على كل شيء، فهو الذي سيجزى القوامين على اليتامى بما يفعلون، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وثالثها: أن هذا التنظيم هو من حكمته ورحمته، فمن رحمته بخلقه أن حشهم على معاونة اليتيم وإصلاحه، والقيام على شئونه، وليكون التراحم بين الناس، وليضعف الشر فيهم، ويكثر الخير والإنتاج، والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم.

وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
 مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ
 يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّمَّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ
 يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
 وَيُبَيِّنُ ۚ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

ابتدأ الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة ببيان الروابط التي توثق العلاقات
 الفاضلة في المدينة الإسلامية، التي هي المقصد الأول من هذا الشرع الحكيم؛ فقد
 تضافرت الأخبار والآثار، وجاءت آيات الله اليناث المثبتة أن شرع الله سبحانه
 وتعالى لخير الناس في الحال والمآل، وإقامة مدينة فاضلة في الدنيا، يكون الثواب لمن
 شاد بنائها، في الآخرة، وكل عبادات هذا الدين تتجه نحو هذه الغاية، وتستهدف
 هذا الهدف؛ ولقد قال سبحانه في وصف شرعه وكتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
 مُّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ
 وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

وقد ذكر سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين بعض الأمور التي تحل عرى
 الجماعة، وتوقع بينهم العداوة والبغضاء، وعلاج هذه الأمور، والطب لها بدواء
 ناجع يشفى من سقامها؛ فذكر مافى الخمر والميسر من مآثم، واكتفى في هذا الموضع
 بذلك بياناً للعاقل الرشيد؛ وأشار إلى التناذب والتدابير إن ضمن الغنى بالعطاء، وفقد
 الفقير الرجاء، فأوجب الإنفاق؛ وأشار إلى المعاول التي تهدم الجماعة الإسلامية،
 وتقوض أمنها، وتكثر شذابها، وأولئك هم الضعفاء واليتامى ومن لا مأوى لهم،
 فإن لم يصلحوا وعودهم أخضر، كان منهم الشطار واللصوص والهادمون الذين
 يأتون ببيان الجماعة من قواعده.

وبعد أن أشار إلى الأذى والوقاية منه، والداء ودفعه، أخذ يبين أسس البناء الاجتماعي الفاضل، وابتدأ من هذه الأسس بالقاعدة التي يشاد عليها البناء، والوحدة التي يتكون منها البنيان، والتي إذا قويت فيها الروابط قوى، وشد بعضه بعضا؛ وتلك القاعدة هي: الأسرة؛ فهي وحدة البناء الاجتماعي، وقاعدة كل بناء فاضل، وفيها تتربى كل المنافع الاجتماعية الفاضلة.

ولقد ابتدأ من أحكام الأسرة ونظمها الإسلامية الفاضلة بالانتقاء في ركنيها؛ وهما الزوج والقرينة؛ فإنه إن كان الاختيار فيهما حسنا كانت العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (٢١) [الروم].

ولقد ابتدأ ببيان أساس الاختيار وهو التدين، فقال تعالت كلماته:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾ عندما ابتدأ النبي ﷺ بدعوته، وانبعث في مكة نور هدايته، كان أكثر المؤمنين، من الضعفاء غير ذوى الجاه والنسب والحسب، والأقلون كانوا كذلك، وكل المعاندين أو جلهم من أوسط قريش نسبا، وقالوا للنبي ﷺ مثل مقالة الكفار الذين سبقوهم لأنبيائهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بِادِي الرُّأْيِ...﴾ (٢٧) [هود]. ولما قويت شوكة الإسلام، كثر دخول ذوى الأنساب فيه شيئا فشيئا، وإن كانوا مع ذلك قلة من قريش، وكان أولئك بمقتضى نسبهم الرفيع يرون فى بنى أعمامهم من قريش الكفاءة النسبية فى الزواج، وربما كان فيهم بعض الميل لمصاهرتهم، بل كان من بعضهم فعلا من أبدى رغبة فى المصاهرة؛ فجاء النهى القرآنى عن نكاح المشركات، حتى يؤمن.

والنكاح فى أصل معناه اللغوى: الضم، وتداخل أجزاء الشئ بعضها فى بعض، ثم أطلق على العقد الذى يحل علاقة الرجل بالمرأة، وعلى العلاقة التى تكون بينهما بما يتقاضاه الطبع^(١)؛ وإطلاقه بمعنى العقد إطلاق معروف قبل

(١) قال الشيخ رحمه الله: يختلف فقهاء الحنفية وفقهاء الشافعية فى قضية الحقيقة والمجاز فى كلمة النكاح؛

فيقول الحنفية: هو مجاز فى العقد حقيقة فى الوطء، ويقول الشافعية: هو مجاز فى الوطء حقيقة فى =

الإسلام، وقد أقره الإسلام بشروط، والدليل على أنه بمعنى العقد كان معروفاً في الجاهلية قوله ﷺ: «ولدت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»^(١) أى أنه ﷺ في سلسلة نسبه الشريف لم تكن ولادة أى جد من جدوده، أو جدة من جداته إلا من نكاح صحيح حتى إسماعيل عليه السلام؛ وعلى ذلك يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ النهى عن العقد عليهن.

والإنكاح: هو التزويج؛ فالنكاح الزواج، والإنكاح مباشرة العقد، وهو أكثر ما يكون عندما يتولى الشخص الزواج عن الغير؛ فمعنى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ لا تتزوجوهن؛ ومعنى ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تزوجوهن من نسائكم؛ فقد جرى العرف على أن المرأة يتولى زواجها أحد قرابتها؛ وقد استنبط الجمهور من هذه الصيغة أن المرأة ليس لها أن تتولى عقد زواجها، وأن العقد لا ينعقد بعبارة النساء؛ وخالف في ذلك أبو حنيفة وانفرد بالمخالفة؛ وروى عن أبي يوسف تلميذه أنه يرى رأيه؛ وقد قال أبو حنيفة: إن المرأة لها أن تتولى زواج نفسها، وتنفرد بالعقد، بشرط أن يكون الزوج كفئاً، فإن كان غير كفء فلا يجوز العقد؛ وأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ جرى مجرى الأغلب الشائع، ولأن ذلك هو الحسن المندوب إليه؛ لا اللازم الذى لا يجوز خلافه.

والمشركون - هم عبدة الأوثان. وأصله من الإشراك، وأصل كلمة أشركته بمعنى جعلت الشئ بينه وبين غيره شركة، والشركة كما تكون في الحسيات والأشياء، تكون في المعاني؛ فيقال أشركته في أمرى؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى

= العقد؛ ولقد قال بعض الحنفية والزجاج والفارسي: إنه مشترك بينهما، فهو حقيقة فيهما؛ ولقد صرح الزمخشري أن أكثر وروده في القرآن بمعنى العقد، وقال أبو الحسين بن فارس: إن النكاح لم يرد في القرآن إلا للتزويج إلا قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ...﴾ [النساء]، ويختار الراغب الأصفهاني أنه مجاز في الوطء؛ لأن العرب ما كانوا يصرحون بهذه العلاقة بل يكونون، فالأولى أن يكون إطلاقه على الوطء مجازاً.

(١) رواه البيهقي: باب نكاح أهل الشرك وطلاقهم ج ١ ص ٤٥٥، عن جعفر بن محمد عن أبيه، ورواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الأوسط عن علي رفعه.

حاكيا عن موسى عليه السلام ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أُمْرِ﴾ [طه] وفى الحديث النبوى: «اللهم أشركنا فى دعاء الصالحين».

ومن هذا الباب أطلقت كلمة «إشراك» على عبادة غير الله معه؛ لأن من فعل ذلك فقد أشرك مع الله غيره فى العبادة والتقديس والألوهية؛ وألفاظ القرآن الكريم الدالة على ذلك كثيرة جداً، ولا تكاد تحصى؛ ولكثرة استعمال القرآن هذا اللفظ فى هذا المعنى كان لكلمة «مشرِك» إطلاق خاص فيه؛ وهو إطلاقه على من يعبد الأوثان؛ فكلمة: مشرك، ومشرِكين، ومشركات، كلها إذا ذكرت فى القرآن انصرفت إلى عبدة الأوثان من غير أية قرينة دالة على ذلك؛ لأنها صارت فى الإسلام حقيقة عرفية عليهم؛ ولا تطلق على اليهود والنصارى؛ وإن قال الله سبحانه عن النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ [المائدة] وعن اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ...﴾ [التوبة] إذ صار لفظ المشركين اسماً لجنس معين؛ ولذا كان يذكر النصارى واليهود بعنوان أهل الكتاب، وعبدة الأوثان باسم المشركين؛ فقد قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة] فذكر فى هذه الآية الكريمة الجميع بعنوان الكفر؛ ولكنه فصل بينهما، فجعلهما جنسين مختلفين، وإن ذلك أدى إلى الاختلاف فى المعاملة، والاختلاف فى الأحكام؛ وكانت العلة فى هذا الاختلاف مشتقة من التسمية نفسها؛ فأولئك لهم كتاب، وإن كان محرفاً؛ والمشركون ليس لهم كتاب، فلا ضابط يضبطهم، ولا عاصم يحول بينهم وبين الإيغال المطلق فى الشر، ولا حريجة دينية تقيدهم، بل هم حائرون باثرون.

وعلى هذا التحقيق اللغوى يتبين أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْخُحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يَأْمَنَ﴾ لا يدخل فى عموم النهى إلا الوثنيات ولا يدخل فيه قط الكتابيات، لأن الحقيقة العرفية القرآنية لا تدخل اليهود والنصارى فى عنوان المشركين، ولا فى عموم الوثنيين، وإن كانوا مثلثين. ولقد قال بعض المفسرين: إن كلمة المشركات تشمل بمقتضى عمومها الكتابيات؛ لأنهن يشركن بالله فى العبادة، ويثلثن، ولكن جاء بعد ذلك النهى العام بإباحة زواج الكتابيات فى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ

الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... ﴿٥﴾ [المائدة]. فكان في نظر أولئك تخصيصاً لعموم النهي، أو نسخاً لبعض هذا العموم، كما يقول بعض الفقهاء.

ولكن ذلك التوجيه غير مستقيم عند الدارسين للقرآن الكريم العارفين لأسلوبه، وتقييد العبارات التي اشتمل عليها، والتبديل الذي يطرأ في أسلوبه على عمومها؛ فما من نص يخص أهل الكتاب وصفوا فيه بالإشراك، بل ترى كل النصوص الخاصة باليهود والنصارى إما أن يعبر عنهم باليهود والنصارى، كما في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...﴾ [المائدة] أو يعبر عنهم بأهل الكتاب، كما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمَنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...﴾ [٧٥] [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣] [آل عمران].

وحتى إنهم في مقام الذم يوصفون بالكفر ولا يوصفون بالشرك، كما في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨] [المائدة].

وبهذا كله يتبين أن التحريم من أول الأمر كان خاصاً بالمشركات، ولم تحرم الكتابيات؛ بل جاء النص بإباحة الزواج منهن؛ وعلى ذلك تضافرت الأخبار عن الصحابة والتابعين بإباحة زواج الكتابية، وتحريم زواج المشركة؛ وقد قال جمهور المفسرين إنه لا يعرف أن أحداً من الصحابة قد حرم زواج الكتابية، وقد جاءت الروايات بأن عثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت وأن طلحة بن عبيد الله، وحذيفة اليمان تزوجا يهوديتين؛ ولكن مع ذلك روى عن عمر وعبد الله ابنه رضى الله عنهما أنهما حرما ذلك أو كرهاه، والثاني هو الأصح، فإن عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان رجلاً متوقفاً حذراً، وقد خشى على المسلم من زواج الكتابية؛

أما أبوه النافذ البصيرة القوى الفراسة، الصادق الحس والحدس، فقد رأى أن المسلم الذى يتزوج الكتابية لا ترضى به كرائم العقائل منهم، بل ترضاه من ترضاه للمأرب حسى من مال أو جمال، أو نسب، ولا ترضاه ذات الأسرة الكريمة العريقة منهم؛ ولذلك ورد أنه استنكر من طلحة وحذيفة ما صنعوا، فقال له حذيفة: أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: (لا أرعم أنها حرام، ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهم!) رضى الله عن أبى حفص الفاروق! لقد خشى ألا يتزوجوا إلا المومسات منهم؛ وإن ذلك الظن الذى ظنه وخشيه نرى كثيراً منه يقع فيمن يتزوج من غير دينه؛ إذ لا يجد إلا المنحرفة فى نفسها وخلقها وعقلها التى ترضى أن تخرج على أهلها وذويها، وأهل دينها لتتبع مسلماً، لماله أو جماله أو جاهه، لا لدينه أو خلقه؛ لأنها لو كانت كذلك لارتضت الإسلام ديناً.

وإن المسلمين قد أجمعوا على كراهة تزوج المسلم غير المسلمة، وإن كان جمهورهم على حلّ الكتابية اتباعاً للنص القرآنى الكريم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [المائدة] وكانت الكراهة لما سبق من أنه فى الغالب لا يرضى بالمسلم منهم إلا المنحرفات؛ ولأن المودة التى تكون بين الزوجين قد تؤثر فى دينه فينخلع من أوامره، وإن لم ينخلع من عقيدته؛ وتؤثر قطعاً فى دين الأطفال، فيخرجون إلى الحياة، وقد رضعوا الميل إلى دين أمهم، فغذتهم به كما غذتهم بلبانها؛ وقد رأينا رجالاً متعلمين يعدون فى عداد المسلمين فى الإحصاء ويدخلون الكنيسة؛ لأن أسهاتهم عودتهم ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولولا النص الكريم لقلنا إن حالنا، وانحلال الدين فى نفوس الذين يقومون على ذلك توجب التحريم سدا للذريعة، ومنعا للفساد؛ وإن السلف الصالح كان لهم من قوة الدين، والحرص على مصلحة أولادهم، وتنشئتهم على الإسلام، ما يحصنهم وأولادهم، وما يجعلهم يجذبون أرواجهم إلى دينهم من غير أن يخلعوا هم الريقة.

النص الكريم الذى نتكلم فى معناه فى تحريم المشركات فقط كما تبين، والكتايبات فى هذه الآية مسكوت عنهن، ونص على الإباحة فى آية المائدة.

وقوله تعالى في الغاية التي ينتهى إليها التحريم ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ فيه إشارة إلى توقع إيمان المشركين رجالهم ونسائهم، وأن الفتح المبين قريب وليس ببعيد؛ فأولئك الذين يتعلقون بأنسابهم، ويرون المصاهرة معهم، لا يتعجلون أمراً لهم فيه أناة، فسيأتى اليوم الذى يؤمن هؤلاء جميعاً، وبذلك يزول السبب الذى كان من أجله التحريم، وهو الإشراك، وإن فى ذلك بشرى للمؤمنين بعامة بهذا الفتح، وبإعلاء كلمة الله، وبانتهاء القتال بين ذوى الأرحام الواصلة؛ وبشرى خاصة للذين يرغبون فى الزواج من بنات أعمامهم، ويحول الشرك دونهم.

﴿وَالْأَمَّةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فى هذه الجملة السامية بيان فضل التدين والإيمان على الشرك والكفر، وبيان فضل المؤمن على الكافر، وبيان فضل كمال النفس على جمال الجسم، وبيان فضل شرف القلب على شرف النسب؛ ومثلها فى هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ فكلتا الجملتين الساميتين تشير إلى فضل الحقيقة الخلقية والدينية على المظهر الجسمى، والاستعلاء النسبى.

والأمة: الأنثى من الرقيق؛ والسبب فى أن زواج المؤمن من أمة مؤمنة لا يروقه منظرها، خير من زواجه من حرة مشركة يروقه منظرها، ويشير الإعجاب حسنها، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ السبب فى ذلك أن الزواج ليس علاقة وقتية، بل هو علاقة دائمة وليس قضاء وطر عاجل يكون الإعجاب المجرد سببه، بل الزواج صلة مودة رابطة يلاحظ عند الإقدام عليه عوامل بقائه لا الدوافع المجردة إلى إنشائه. وإذا كانت الأمة المؤمنة التى لا تشير الإعجاب قد اجتمعت فيها صفتان لا تثيران النفس، بل تمنعان، وهما الرق، وعدم رواء المنظر، ففيها صفة توجد المودة والوئام، وهى الإيمان. وإذا كانت الحرة المشركة التى تثير الإعجاب بجمالها فيها صفتان تسترعيان الأنظار، وهما النسب والجمال، ففيها صفة تقطع العلائق، وتفسد البيت، وهى الشرك الذى ليس معه عاصم عن إثم ولا غواية، ولا اتجاه معه إلى فضيلة ومودة واصله وخلق كريم.

إن الزواج اختلاط روحى، وشركة أدبية، وتعاون دائم على قطع لأواء هذه الحياة وشذبتها، والبيت الزوجى فى هذه الحياة اللاعبة الكادحة كالواحة فى وسط

الصحراء، يأوى الرجل إليها بعد التعب واللغوب، فلا يصح أن يكون مناط الاختيار هو الجمال ولا النسب فقط، ولاهما معا من غير أن يكون إيمان وخلق واطمئنان نفس وعلو إدراك وأمانة، وحسن عشرة ولطف مودة، والمؤمنة ولو كانت أمة لا تثير الإعجاب بمنظرها فيها تلك الخصال الكريمة، فهي عالية المدارك؛ ولذا هجرت الشرك إلى الإيمان، وفيها حسن عشرة ومودة وخلق، واستمسك بالأمانة والفضيلة وبعد عن الخيانة والرذيلة، وقد كوّن ذلك كله الإيمان.

أما المشركة ولو كانت جميلة نسبية فإنها في غالب أحوالها لا تتوافر فيها عوامل بقاء الحياة الزوجية؛ فهي مستعلية بنسبها، مزهوة بجمالها، لا عاصم من دين يعصمها عن الغواية، ولا مانع من خلق يمنعها من الخيانة، وليست عالية المدارك، بدليل أنها بقيت على الشرك مع قيام البينات على التوحيد شاهدة معلمة موضحة مبينة؛ وكيف يلتقى قلبان قلب يعبد الواحد القهار، وقلب يعبد الأوثان وليست المفاضلة بينهما في المنفعة التي تعود على العشير فقط، بل المفاضلة من حيث أثرهما في ثمرة هذا الزواج، وهما الأولاد؛ فالمشركة تغذى طفلها بالأوهام، والمؤمنة تربيته على الإيمان؛ والمشركة تضع في نفسه بذور الفساد والانحلال، والمؤمنة تغرس في قلبه غرس الفضيلة والاستمسك بالعروة الوثقى؛ فالطفل بين المسلم والمشركة ينشأ حائر النفس، مضطرب الوجدان، سقيم الضمير؛ بينما أولاد المؤمن والمؤمنة ينشأون على خلق قوى، ووجدان مستقيم، وقلب سليم.

﴿وَلَا تُكْهِمُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾

وإذا كان زواج المؤمن من المشركة حراما فتزويج المؤمنة من المشرك حرام أيضاً، بل إنه أشد تحريماً إذا كان التحريم مراتب؛ لأن في الزواج نوع ولاية من الرجل على المرأة، بدليل أن له حق تأديبها إن خرجت عن جادة الحق من غير تبريح ولا اعتداء، ولا قصد إلى الإيذاء؛ ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن أن يزوج الأولياء نساءهم من مشركين. والإنكاح كما قلنا تزويج الإنسان غيره.

وإن الأسباب في تفضيل المؤمن ولو عبداً على المشرك ولو كان يثير الإعجاب بجمال جسمه وقوة بدنه، وجاهه الدنيوى، هي التي ذكرناها هناك، ويزاد عليها أن المشرك بما فيه من عنجهية ورجس الجاهلية، والطغيان النفسى، يسئ معاملته زوجته من غير دين مانع، ولا خلق زاجر، ولا ضمير لائم؛ فمن زوج ذات رحم منه مشركاً فقد أسلمها إلى الجحيم، وألقى بها في فتنة، تفتن بها في دينها وفي خلقها، وفي كرامتها وفي إنسانيتها؛ وإن ذلك لا يغنى عن كونه حراً نسياً، فإن تلك المعانى التي تبذل أغلى من الحرية والنسب والمال والنسب؛ لأنها معانى الإنسانية السامية، ولهذا كان عبد مؤمن خيراً من كافر نسيب ولو غير مشرك.

ويجب أن نشير في هذا المقام إلى أمرين:

أولهما - أن التعبير بلفظ الإنكاح في جانب تزويج المؤمنة بالمشرك، استدل به لجمهور الفقهاء بأن المرأة لا تبشر عقد زواجها بنفسها، وأنها لا تنفرد باختيار الزوج، ولو كانت بالغة عاقلة رشيدة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل؛ وهنا نبين وجه الاستدلال للجمهور ومستنده من السنة: أما وجه الاستدلال بالآية فهو أنه عند النهى عن الزواج من المشركة، قال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ وعند النهى عن الزواج من المشرك قال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ والأول العقد للنفس، والثاني العقد للغير، فذكر العقد للغير في مقام تزويج الأنثى دليل على أنها لا تتولى إنشاء العقد بنفسها، ولا يسوغ لها أن تنفرد به دون وليها؛ وقد أيدت ذلك أحاديث قد وردت مثل قوله ﷺ: «لا نكاح إلا بولي»^(١) ومثل قوله ﷺ: «أبما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل»^(٢).

وخالف الجمهور أبو حنيفة، وفي رواية عن أبي يوسف أنه منعه؛ وقد زعم أن كل الأخبار الواردة بمنع الزواج إلا بولي لم تصح نسبتها إلى الرسول، وروى أن

(١) رواه الترمذى في النكاح (١٠٢٠)، وأبو داود (١٧٨٥)، وابن ماجه (١٨٧١)، وأحمد: أول مسند الكوفيين (١٨٦٩٧)، والدارمى (٢٠٨٧) عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٢) رواه الترمذى: النكاح (١٠٢١) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، ورواه أبو داود (١٧٨٤)، وابن ماجه (١٨٦٩)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٣٢٣٦)، والدارمى (٢٠٨٩).

الرسول ﷺ قال: «الأيام أحق بنفسها من وليها»^(١) وإن التعبير بالإنكاح فى الآية جرى مجرى العرف الشائع الغالب، وأن النكاح قد أسند إليها فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ...﴾ [البقرة] ولأنها تدير أموالها، وتتولى العقود عليها، فأولى أن تتولى أمر زواجها؛ ولأن الولاية تثبت فى الشرع لمصلحة المولى عليه، ومصلحتها فى أن تكون حرة، ولا ضرر على أوليائها إذا تقيد الزواج بالكفاءة ومهر المثل، فلا عار يلحقهم حينئذ.

ومع أن أبا حنيفة يطلق حرية المرأة فى الزواج، فإنه يستحسن أن يتولى زواجها وليها كما هو العرف الجارى بين الناس.

أما الأمر الثانى الذى يجب أن نشير إليه - فهو أن هذه الآية حرمت نكاح المسلمة بالمشرك، وليس فيها ما يدل على تحريم المسلمة بالكتابى؛ لأن كلمة مشرك لا تعم الكتابى فى لغة القرآن الكريم، والحقيقة العرفية الإسلامية، والتى أجمع المسلمون عليها تحريم زواج المسلمة بالكتابى؛ وسند هذا الإجماع قوله تعالى فى سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حَلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ...﴾ [الممتحنة] فهذه الآية صريحة فى أن زواج المسلمة بالكافر لا يحل، وإن كانت زوجته وأسلمت دونه انتهت وصارت لا تحل له، ولا يحل لها. وكلمة كافر تشمل الكتابى والمشرك، كما قال تعالى: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ [البقرة].

وعلى هذا النص وعمل الرسول ﷺ اعتمد إجماع الصحابة والتابعين من بعدهم إلى اليوم.

(١) رواه مسلم: النكاح - باب استئذان الشيب فى النكاح بالنطق والبكر (٢٥٤٥) ورواه الترمذى: النكاح - ما جاء فى استثمار البكر والشيب (١٠٢٦) والنسائى (٣٢٠٨)، وأبو داود (١٧٩٥) وأحمد فى مسنده (١٧٩٠) ومالك فى الموطأ (٩٦٧). والدارمى (٢٠٩٢).

﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ وازن سبحانه وتعالى بين الزواج من المؤمنة والزواج من المشركة، والزواج من المؤمن والزواج من المشرك؛ وكانت الموازنة من حيث الخيرية في كل جانب؛ فكان خير المشركين والمشركات حسيا ماديا، والمنفعة فيه عاجلة غير باقية؛ وكان الخير في جانب المؤمنين والمؤمنات نفسيا وروحيا والمنفعة فيه باقية غير سريعة الزوال، وتناسب مع عقد الزواج وهو عقد الحياة الذي يمتد بامتدادها؛ وانتهت الموازنة بأن المؤمنة ولو كانت أمة خير من المشركة ولو كانت نسيبة حسناء؛ وبأن المؤمن ولو كان عبداً خير من المشرك ولو كان حسيباً نسيباً ونهداً قويا.

وفي هذه الجملة السامية يبين سبحانه مغبة السوء في الزواج بالمشركين والمشركات، فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى أن أولئك المشركين والمشركات إذا كان فيهم ما يستهوى الراغب في الزواج منهم من نسب رفيع، وجاه عريض، ومال وفير، وجمال ومنصب، فهم بهذه الأوصاف الدنيوية التي تستهوى النفوس الضعيفة إذا كان معها الشرك بالله وعبادة الأوثان، يدعون إلى الإقدام على أسباب النار في الآخرة والعذاب الأليم فيها؛ فإن الاستهواء المادى للنفس الضعيفة، والخلطة المستمرة بين الزوجين، والاتصال الدائم بينهما، كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ...﴾ [البقرة: ١٨٧] إن هذه الأمور كلها من شأنها أن تسهل قبول المسلم أو المسلمة لما عليه المشرك من عادات جاهلية، وأخلاق وثنية؛ تبتدئ تلك المفاصد بالسريان إلى النفس بالسكوت عنها، ثم بالرضا عن فاعلها؛ ثم بالرضا عن فعلها، ثم باستحسانها؛ وأول الشر استحسانه؛ وبذلك تنحل عرى الإسلام في نفس المسلم عروة عروة، حتى لا يبقى من الإسلام إلا الاسم والرسم؛ وهما لا يغنيان عن حقيقته شيئا!

وكلما كانت عوامل الإعجاب أكثر، كانت عوامل التأثير والدعوة أشد وأقوى؛ فإذا كانت مسلمة تحت سلطان رجل مشرك له فضل سطوة وجاه ومال وقوة ونسب وله جمال وهمة وإقدام، فإن تلك العوامل كلها تؤثر في نفسها شيئا فشيئا

حتى تخرجها من الإسلام خطوة بعد خطوة، وتكون خارجة عنه وهى لا تحس ولا تشعر.

وكذلك إذا كان الرجل المسلم قد تزوج مشركة حسناء لها منصب ومال ونسب، ولطف مودة وحسن مدخل، فإنها كلما قويت عوامل التأثير عندها، ضعف مقدارها من خلق الإسلام عنده، حتى يستحسن ما تستحسن؛ ويستهجن ما تستهجن؛ ولا دعوة إلى النار أقوى من هذا!

وليس المراد بالدعوة القول والنداء إلى ما يدخل النار؛ بل المعنى أن المودة والإغراء ولطف المدخل والاستيلاء النفسى؛ كل هذا من شأنه أن يؤثر، فيكون كالدعوة إلى الشرك والنار بالقول، بل أقوى تأثيراً.

وقد يقول قائل: هذه الدعوة إلى النار بهذا التأثير قد تكون أيضاً فى زواج المسلم بالكتابية، كما هى فى زواج المسلم بالمشركة؛ فإنها إن كانت ذات جمال ومنصب فى قومها، ولها استهواء خاص، قد تدعو إلى النار، كما تدعو المشركة، وتحل الخلق الدينى فى نفس المسلم، كما تحله المشركة؛ وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقاً كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقاً؛ وإن لذلك الكلام موضعه؛ ولذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتابية؛ بل لقد زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من الكتابية مجرم كزواجه من المشركة.

ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحل، ولا يعملون العلة ليهمل النص؛ بل يرون أن علة التحريم لا تتوافر فى الكتابية توافرها فى المشركة؛ فإن المشركة لا ترتبط بأى قانون خلقى يعصمها من الزلل، ويجعل الزوج يربطها به؛ أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية من الصدق والأمانة، ومنع الخيانة، وحسن المعاملة وحسن العشرة، وغيرها من المبادئ الفاضلة لا تزال باقية فى تعاليم دينها؛ فيمكن الاحتكام إليها، كما يمكن الاطمئنان إلى أن الزوجة تستمسك بالفضيلة فى الجملة إن أحسن الاختيار.

وإن القرآن الكريم فى جدله مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها، كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [آل عمران] وقوله تعالى فى مجادلتهم: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ...﴾ [البقرة] كما أمر الله سبحانه المسلمين عامة بالألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالرفق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَنَا وَالْهَكْمُ وَاحِدٌ...﴾ [العنكبوت].

فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة المقررة، غير المبعدة، أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات.

بيد أنه يلاحظ فى إباحة الزواج من الكتابيات أمران:

الأمر الأول: أن النص القرآنى المبيح خاص بالمحصنات منهن، إذ قال سبحانه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [المائدة] والمحصنات فى أظهر التفسير هن العفيفات؛ فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن فى أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرن، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب؛ لأن الله أحل المحصنات، وهم استحلوا المنحرفات، ووقع ما توقعه عمر رضى الله عنه.

الأمر الثانى: أن ولى الأمر إذا رأى خطرا على الدولة الإسلامية، أو على المجتمع الإسلامى، له أن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سداً للذريعة ومنعاً للشر؛ وذلك من باب السياسة الشرعية، لا من باب تحريم ما أحل الله؛ لأن الحل قائم على أصله، والمنع وارد على الضرر الذى يلحق المسلمين، إذ فى ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه؛ كما أن أصل الأكل حلال؛ ولكن اغتصاب أموال الناس لتأكلها حرام؛ للاعتداء فيه؛ ولذلك سارت الدولة على منع رجال السلك السياسى من الزواج من الأجنيات. وقد علمنا أن ضباطا فى الجيش

يجلسون فى مناصب قد تمكنهم من معرفة سر عدته وعتاده قد تزوج بعضهم من يهوديات، فحق على الدولة أن تنحيهم من أماكنهم، خشية على الجيش وقادته، وأن تسن قانونا يمنع ذلك فى المستقبل !.

هذه دعوة المشركين والمشركات بالإغراء وبعُدوى الأخلاق، إلى النار، وهى نقيض نداء الله لعباده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ فالله سبحانه بأوامره السامية، وشريعته المحكمة ينادى المؤمنين إلى سلوك طريق الجنة بأن يقوموا بالأعمال الصالحة، ويحصنوا نفوسهم فى زواجهم بما يحمى أنفسهم من الشر والفساد، وبواعثهما، وما يغرى بهما، ويحموا جماعتهم من أن تكون فيها تلك الأدواء الفتاكة بقيام أسر من أزواج قد انحلت فى نفوسهم روابط الفضيلة والأخلاق، فإن ذلك التحصين الشخصى والاجتماعى هو السبيل إلى جنة الرضوان، كما أنه السبيل إلى مغفرة الرحمن؛ لأن صون النفوس وعفة القلوب، وسيادة الفضيلة فى المجتمع؛ كل هذا من شأنه أن يوجه إلى الخير وإلى الكمال، فتذهب عن النفس أدرانها، وتستتر عيوبها؛ وبذلك يغفر الله ذنوبها إذا تابت وأقلعت.

ولقد قيّد سبحانه الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله سبحانه: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ والإذن يطلق على الإعلام، كما يطلق على الأمر، ويطلق على الإرادة مع الرضا والتوفيق والتيسير؛ وإن تلك المعانى الثلاثة متحققة فى هذه الجملة السامية؛ فإن الله سبحانه أعلم الناس بطرق الجنة والمغفرة، وأذنهم بها ليسلك من يريد السلوك، وأمرهم أمراً قاطعاً بالحق فى كل شئ ليطيع من طلب الحق وسلك سبيله.

وإنه سبحانه موفق من طلب الهداية ميسر له السبيل، آخذ بيده إلى الحق الذى لا مرية فيه.

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يدعو الله سبحانه وتعالى إلى الجنة والمغفرة ويعلم الناس بالحق ويأمرهم به، ويسر السبيل إليه؛ ولا يكتفى سبحانه

وتعالى بذلك، بل يقيم البيّنات والآيات الدالة القاطعة على أن الحق هو ما يدعو إليه، والمصلحة فيما يأمر به، والفضيلة والكمال فيما يشرع لهم من شرع ويوضح لهم من مناهج؛ فقد اقترن كل حكم بحكمته، وكل أمر بوجه المصلحة فيه، وكان ذلك لأجل أن يتذكر الناس دائماً، ويكونوا على علم بوجه الخير في أوامر دينهم، وأحكام الشرع الذى نزل من عند الله الحكيم العليم؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فالرجاء هنا فى معنى التعليل؛ لأن الرجاء من الله تعالى فى موضع التحقيق؛ أو نقول: الرجاء على حقيقته، وهو من العبد لا من الرب؛ أى أن الله سبحانه وتعالى شرع ما شرع من شريعة محكمة لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وبين بالآيات البيّنات وجه الخير فيما يشرع ليرجو الناس أن يكونوا فى حال تذكر دائم لربهم وشرعه، وخالقهم وما أنزل لهم من أحكام تصلح دنياهم، وتقربهم إلى الله زلفى فينالون رضوانه يوم الدين.

أما بعد: فإن هاتين الآيتين الكريمتين توضحان لكل مؤمن الطريق الذى يتخذه ليختار زوجاً يرضاه قريته له ويقطعا معا صحراء الحياة، وتكون له السكن والمطمأن؛ وتبينان له أنه يجب عليه ألا يسير وراء ما يثير الإعجاب من رواء المنظر، أو علو النسب، أو جاء دنسوى؛ بل يطلب ذات الدين أولاً؛ فإنه إن استقامت الأخلاق وتلاءمت النفوس والتقت القلوب، حسنت العشرة، وقامت الأسرة على دعائم من الفضيلة والخلق الكريم، وأثبت الله لهما الذرية الصالحة نباتاً حسناً؛ وإن لم تستقم الأخلاق ولم يكن الدين، تقطعت الروابط، وكاد كل منهما لصاحبه، أو أفسد الاستهواء قلب الصالح منهما لصاحبه، فيصير سبباً ويرين الله على قلبه، ولا يكون نبت الذرية إلا نكداً، وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(١) والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: النكاح - باب الأكفاء فى الدين (٤٧٠٠)، ومسلم: الرضاع - استحباب نكاح

ذات الدين (٢٦٦١) عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

وَيَسْأَلُونَكَ

عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأْتُوا حَرَّتْكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِنَفْسِكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

بين الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة من شئون الأسرة كيف يختار الزوج، وكيف يصطفى عشير الحياة، وأن الأساس هو الدين والفضيلة في الاختيار، لاجاء الدنيا ولا أحسابها ولا أنسابها؛ لأن العشرة الحسنة تقوم على الفضيلة ومكارم الأخلاق، لا على الاستعلاء بالنسب، والتفاخر بالحسب.

وفي هذه الآيات يبين سبحانه وتعالى العشرة الحسنة؛ وقد تصدى فيها القرآن الكريم لبيان النزاهة البدنية في العلاقة الطبيعية التي يتقاضاها الطبع السليم بين الرجل والمرأة، والتي بها يعمر الكون، ويبقى الإنسان الذي جعله الله سبحانه وتعالى في الأرض خليفة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وصايا كريمة في أمرين، وتشير هذه الوصايا إلى بعض مقاصد الزواج العليا؛ ثم ذكر حكماً شرعياً قاطعاً في أمر ينفذ فيه بحكم القضاء، لابعام التدين المجرد.

أما الأمران اللذان جاءت فيهما الوصايا الكريمة المرشدة الهادية، العفيفة النزاهة، فهما يتعلقان بمباشرة الحائض، والنهي عنه، وبالمقصد من الزواج وملاحظته عند المسيس وقضاء الوطر الجنسي؛ وهو النسل السقوى ذو الخلق الكريم؛ والأمر الثالث الذي ينفذ بحكم القضاء هو الامتناع عن العلاقة الفطرية الطبيعية مضارة وإيذاء لامرأته بأيمان يحلفها للضرر والإيذاء؛ فقد حكم فيه الشارع حكماً مقررًا،

وهو الفرقة بعد الامتناع أمدا معلوما؛ ونؤجل الكلام فى هذا الأمر إلى موضعه من تفسير الآيات الكريمات التى تصدت لحكمه، ونكتفى هنا ببيان الوصايا فى الأمرين الأولين.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ السؤال كان من المؤمنين، ولم يكن من غيرهم؛ لأنهم أرادوا أن يعلموا حكم دينهم فى أخص شئونهم؛ ولأنهم أدركوا بقوة وجدانهم الدينى أن الإسلام مرشد إلى الأمر الصالح فى كل شىء وفى كل الأمور، ما دق منها وما جل، بل ما خص منها وما عم؛ وليس أى شأن من الشئون الخاصة إلا له صلة بالشئون العامة؛ لأن الإنسان ليس شيئا قائما بذاته منفردا عن غيره مفصولا عن سواه، بل هو جزء من كل، موصول بما عداه، فالأجزاء تتلاقى فتكون ذلك المجموع وتربطه بروابط من الفضيلة، فما من خصوص لآحاد إلا له صلة وثيقة بعموم الجماعة؛ ومن فصل الأمور الشخصية عن الأمور العامة لم يفهم علاقة الإنسان بالإنسان ولم يفهم قانون الجماعات وسر الاجتماع.

من أجل هذا المعنى سأل المؤمنون عن هذا الأمر الخاص الذى يتصل بأدق العلاقة بين الرجل والمرأة.

والمحيض مشتق من الحيض، وأصله بمعنى السيل؛ يقال: حاض السيل بمعنى فاض، ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم فى حال فراغه من الحمل؛ والمحيض قال الزمخشري فيه: إنه مصدر مسمى ك: مجىء، ومبيت؛ وعلى ذلك يكون السؤال عن المحيض أى عن حكم العلاقة بين الرجل والمرأة عند وجوده. وقد يراد منه اسم الزمان، ويكون السؤال عن حكم العلاقة بين الرجل والمرأة فى وقته؛ وقد يراد منه اسم المكان من حيث العلاقة فى مكان الحيض وهو جهاز المرأة التناسلى.

والظاهر أن السؤال عن حكم العلاقة عند وجود الدم وكل التخريجات السابقة تصلح لذلك وكلها تحتاج إلى تأويل محذوف مقدر وهو السؤال عن الحكم، وكل التقديرات تنتهى إلى معنى واحد وما جرى بين المفسرين من خلاف فى هذا هو

خلاف لفظى لا جدوى - من حيث المعنى - فيه، ولماذا كان السؤال؟ ألم يكن من مقتضى الفطرة أن يعلموا الجواب؟ نعم لقد كان من مقتضى الفطرة أن يعلموا أن الحيض أذى فى كل أحواله، وأنه يعتزل موضعه إبان ظهوره؛ ولكن أهل الديانات السماوية التى كانت تصاقب^(١) أماكنهم فى بلادهم من اليهود والنصارى قد اختلفوا، ما بين متشددين فى شأن الحائض، ومتسامحين فى شأنها؛ فالنصارى ما كانوا يفرقون بين حائض وغير حائض فى المعاملة والمباشرة؛ واليهود كانوا يشددون عليها وعلى أنفسهم فى المعاملة فيتجنبونها اجتناباً تاماً، ولا يعتزلونها فى المباشرة وحدها، بل يعزلونها فى كل الأحوال عن أنفسهم عزلاً كاملاً، حتى ليعتبرون كل ما مسته يكون نجساً، ومن يمسه يكون نجساً، وكأنها تكون من الأنجاس فى هذه المدة^(٢).

وكان من العرب من تأثروا بطريق اليهود، ومنهم من سلكوا مسلك النصارى، فسألوا عن حكم الإسلام إلى أى الطريقين يتجه، فكان الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وكان بين ذلك قواماً؛ فأباح المعاملة ومنع المباشرة.

﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أجاب الله سبحانه وتعالى بما أمر به النبى ﷺ أن يجيب به ﴿هُوَ أَذَى﴾ أى هذا الدم الذى يلفظه الرحم أذى يتأذى به الإنسان تأذياً حسياً جسياً؛ فرائحته، يتأذى منها من يشمها، وهو قدر فى ذاته، وهو فوق ذلك أذى نفسى للرجل والمرأة معاً؛ فالمرأة لا تكون فى حال تستسيع معها المباشرة؛ بل إنها تكون متقرزة منها فى هذه الحال نافرة إلا فى الأحوال الشاذة والصور النادرة، وجهازها التناسلى يكون فى حال اضطراب، فتألم من كل مباشرة، وأعصابها وأحوالها وعامة شئونها تكون فى حال تتأذى معها

(١) صاقبه مصاقبة، وصقبا: إذا قاربه وواجهه، يقال: جار مصاقب. [الوسيط (صقب)].

(٢) قال الشيخ رحمه الله: جاء فى الفصل الخامس عشر من سفر اللاويين (أن كل من مس الحائض فى أيام طمثها يكون نجساً، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء، وكل من مس متاعاً فجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء، وإن اضطجع معها رجل، فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجساً). وبهذا يستبين أن اليهود كانوا يشددون فى شأن الحائض، حتى تنطوى على نفسها، فلا تمس شيئاً حتى لا تنجس.

من كل اتصال جنسى؛ والرجل يتأذى نفسياً؛ إذ يكون خليطه فى حال نفرة بل بغض لما يقدم عليه؛ ثم إن المباشرة فى هذه الحال لا يتحقق معها القصد الأسمى وهو النسل؛ فإن المرأة فى هذه الحال لا تكون صالحة للإنسال.

وإذا كان موضع الحيض أو الحيض نفسه شيئاً يتقزز منه، فإن الوصية الواجبة فى حاله هى الاعتزال؛ ولذا قال سبحانه مرتباً الوصية على تلك الحال التى يتأذى منها: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أى اعتزلوهن فى وقت الحيض، والمراد بالاعتزال الامتناع عن المباشرة؛ وقد روى عن ابن عباس أن المراد بالاعتزال هو اعتزال الفراش، وهو فى ذلك أقرب إلى مسالك اليهود؛ ولكن تلك الرواية شاذة لا يلتفت إليها، ولا تنقض إجماع العلماء على أن المراد بالاعتزال هو الامتناع عن المباشرة، لا ترك الفراش وتجنب النوم معها على فراش واحد؛ فقد أجمع العلماء وتضافرت الروايات على أن المنهى عنه فقط هو المباشرة نفسها.

ولعل تلك الرواية المروية عن ابن عباس رضى الله عنه تتجه إلى أن اعتزال الفراش بأن ينام فى مكان وهى فى مكان إنما هو للاحتياط حتى لا يكون اتحاد الفراش مؤدياً إلى ذلك الأمر الممنوع.

ولئن أخذنا بهذه الرواية لكان تحريم المباشرة لذاته، وتحريم الاجتماع فى المبيت على فراش واحد لغيره؛ لأنه يؤدى إلى الممنوع لذاته.

ويلاحظ فى نسق الكلمات السامية ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أنه قد قدم السبب على المسبب، والعلة على المعلول؛ فإن سبب الوصية بالاعتزال هو كون المحيض أذى يوجب الاعتزال فيه.

وإذا كان سبب الاعتزال وعدم المباشرة هو أذى المحيض فإن الاعتزال مؤقت بوجوده، ويزول بانتهاه؛ ولذلك بين سبحانه مدى تحريم الاعتزال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ والقرب المنهى عنه كناية عن المباشرة، وهى من الكنايات القرآنية التى تربي الذوق وتمنع عن الأسماع الألفاظ التى يجافى سماعها الأذواق السليمة؛ وكم للقرآن الكريم من كنايات ومجازات تعلق بمستوى القارئ، ولها

وضوح وقصد إلى المعانى من غير خطأ فى الفهم، ولا غموض فى الموضوع؛ وأى قارئ يقرأ كلمات: ﴿فَاعْتَرَلُوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾، ولا يفهم منها النهى عن الحال التى يتقضاها الطبع فى الأحوال الاعتيادية، وأن النهى موقوف بذلك الوقت المعلوم.

والقراءة المشهورة هى بفتح الراء فى ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ وبضم الهاء ﴿يَطْهُرْنَ﴾ من غير تشديد الطاء. وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية المفضل: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بفتح الهاء، وتشديد الطاء.

ويذكر العلماء فى مادة «قرب» أن هذا الفعل من باب كَرُم، ومن باب فرح، فيقال قرب يقرب، ويقال قرب يقربُ، والأول لازم والثانى متعدٍ، والمعنى فيهما مختلف؛ فالأول يكون بمعنى الدنو، والثانى كذلك، ولكنه غلب فى العرف أنه مجاز عن اللبس أى الاتصال بالشيء؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ...﴾ (١٥٢) [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...﴾ (٢٨) [التوبة] أى لا يدخلوه وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾.

وقوله تعالى فى القراءة المشهورة يطهرن يكون معناها انقطاع الدم؛ لأنه إذا كان سبب الأذى هو الدم، فانقطاعه طهور منه، فهو وصف وحال قائمة بالمرأة تثبت عند انقطاع الدم لزوال سبب النجاسة. وأما قراءة يَطْهُرْنَ، فمعناها يغتسلن؛ لأن التطهر غير الطهور، إذ هو فعل من المرأة نفسها منسوب حدوثه إليها؛ فهى التى تنشئه لا أنه حال طهر يعود بعد زوال سبب النجاسة المؤقتة.

هذا تفسير بعض العلماء، وبه أخذ الحنفية. وقال آخرون وعلى رأسهم شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى: إن القراءتين فى معناهما واحد، وهو التطهر، فلا تعد طاهرة إلا بالاغتسال؛ وهذا ما سلكه جمهور الفقهاء غير الحنفية.

وقد انبنى على ذلك الخلاف فى التفسير خلاف فقهى؛ فالحنفية قالوا: إنه بمجرد انقطاع الدم إذا كان الانقطاع لأقصى مدة الحيض وهو عشرة أيام تحل المباشرة ولو قبل الاغتسال أخذا بالقراءة المشهورة وهى قراءة ﴿يَطْهُرْنَ﴾ لتأكد زوال الدم،

وبه الطهارة، وإن كان الانقطاع لأقل من عشرة أيام فلا بد من تأكد زوال الدم بعمل آخر من جانبها وهو الاغتسال الفعلى، وبذلك تنطبق قراءة ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ فالحنفية قد أعملوا القراءتين فى نظرهم.

وغيرهم لم يفرق بين القراءتين فى المعنى وفسرهما بمعنى الاغتسال فلا تحل قبله مطلقا؛ فالطهر حقيقة فيه، وغيره مجاز، ولا قرينة تدل على إرادة المعنى المجازى، فلا يعدل عن الحقيقة؛ وفوق ذلك فإن إباحة المباشرة صرح فيها بأن ذلك متصل بالتطهر، لا بالطهور؛ فقد قال سبحانه:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وإذا كان المنع مؤقتا، فإنه بزواله تجب الإباحة، وتعود الحال إلى ما كانت عليه؛ وهنا كلمتان ساميتان تشير إلى بعض ما اشتملنا عليه من معان سامية؛ وهما قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ والثانية قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. والطلب فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ ليس المراد به الحتم واللزوم. فليس بلازم الإتيان عقب التطهر؛ لأن ذلك مبنى على الرغبة والطاقة، إنما المراد هو إباحة المباشرة فإنه من المقرر عند علماء الأصول أن الأمر بعد النهى يكون للإباحة، وخصوصا إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا...﴾ [المائدة] ومثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾ [الجمعة].

وأما الكلمة الثانية وهى ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فمِن هنا المسماة بمن الابتدائية؛ أى الإتيان يكون مبتدئا من المكان الذى أحله الله سبحانه، وهو الذى كونه الله سبحانه على أنه المكان الفطرى الطبيعى لتلك العلاقة الجنسية، وهو مكان البذر والإنسال؛ فالمراد من أمر الله فى هذا المقام الأمر الإلزامى الذى جاء الإلزام فيه بحكم الشرع الإلهى، وبحكم الفطرة التكوينية؛ فقد أمر الله بأن تكون المباشرة فى موضع النسل والحرث والبذر، والفطرة التى فطر الله الناس عليها توجب ذلك وتلزم به؛ إلا من إفت مشاعرهم وشذ تكوينهم؛ ولذلك كانت تلك الفطرة هى الوضع

الإنسانى الذى التزمه بنو الإنسان حتى المتوحشون المتبدون، ولم يخرج عن ذلك إلا الذين أصابهم شذوذ فى عقولهم ونفوسهم من بعض الذين سماوا متمدينين .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بتلك الجملة السامية ؛ والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا هفا، منيب إليه إذا انحرف ؛ كثير الرجوع إلى رب العالمين بتوبة نصوح ؛ والتواب وصف مدح يمدح به العبيد .

وإن للتوبة منزلتين :

المنزلة الأولى : أن يرتكب الشخص منكرا أو معصية بشكل عام، سواء أكانت صغيرة أم كانت كبيرة، ويفعل ذلك بجهالة، ثم يتوب توبة نصوحا، ويحسن التوبة فيغفر الله له، فإن الله سبحانه يغفر الذنوب جميعا لمن أحسن التوبة ؛ والتوبة فى هذه الحال وصف مدح بلا شك، وخصوصا إذا استشعر التائب ما كان فيه، وأحس بالخضوع وأحسن التضرع، وكان تذكره للماضى حافزا على الاستمسك بحاضره، والاتجاه إلى ربه، وطلب المغفرة ؛ فإن الإحساس بذل المعصية يذنيه من ربه، ويقربه منه .

والمنزلة الثانية من التوبة وهى العالية السامية : أن يحس المؤمن التقى بمقام ربه، فيحس مع ذلك بالقصور فى حقه، فيراجع ربه بالتوبة الحين بعد الحين، تداركا لما ظن من تقصيره، وما ارتكب فى تقديره، فيكون توابا منيبا مستمرا فى توبته .

والله سبحانه يحب التائب فى كلتا حاله، وإن تفاوتت المنازل واختلفت الدرجات . ومجبة الله تعالى للتائبين رضاه عنهم، وإسباغ رحمته عليهم ؛ فالمحبة رضا ورحمة وتقريب . والمتطهرون هم الذين طهروا حسهم ونفوسهم، وظاهرهم وباطنهم .

وإن تذييل الآية بهذه الجملة السامية يفيد ثلاث فوائد :

أولها: إشعار المؤمن بأن الله غفار للذنوب لمن ارتكب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...﴾ [الزمر: ٥٣].

ثانيتها: أن الله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الذي لا يعتري بطاعته، حتى لا يزين لنفسه كل أعماله، فقد يتأذى الأمر بمن يزين لنفسه عمله إلى أن يزين له سوء عمله فيراه حسنا، وإن الذي يستصغر حسناته فيكثر من التوبة قريب من ربه مستمتع بحبته سبحانه وتعالى، وهي أقدس ما في هذا الوجود.

ثالثتها: أن طهارة الحس تؤدي إلى طهارة النفس، فمن كان طهور النفس لا يقبل أن يقدم على أمر مستقذر في ذاته، تعافه الطباع السليمة، والفطرة المستقيمة. ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ في هذه الآية يشير الله سبحانه وتعالى إلى ثلاثة أمور:

أولها: بيان أن المقصد من الزواج ليس هو قضاء الوطر وإشباع الشهوة، فإن ذلك كما يكون في زواج شرعى يكون في المسافدة الحيوانية؛ إنما المقصد هو النسل وبقاء هذا الإنسان في الوجود على أكمل وجه، وتهذيب النشء بين أبويه وفي أحضانهما لتنمو غرائزه وتهذب طباعه، وتستيقظ ينابيع الخير فيه.

وثانى هذه الأمور: أن ما يكون بين الزوجين اللذين جمعهما الله بكلمة الشرع وحكمه هو الأُنس الروحي مع المتعة الجسدية؛ وإن ذلك ليقضى زوال الكلفة، وأن يكون بينهما من المباشطة ما تسهل معه الحياة، ويكون في البيت تخفيف أعبائها، واستجمام القوى، ليستطيع تحمل تكليفاتها.

وثالث هذه الأمور: أن الدين يجب أن يكون مسيطرا، ويجب أن تكون العدالة قائمة، والمودة حاکمة فيما بين الرجل والمرأة.

وقد أشير إلى الأمر الأول بقوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ وأشير إلى الأمر الثانى بقوله تعالى: ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ وأشير إلى الأمر الثالث بقوله تعالى: ﴿وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبعد هذا الإجمال نتكلم فى معانى هذه الجمل السامية لنستبين هذه الإشارات من تلك العبارات القدسية، فتكلم فى معنى قوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أصل كلمة حرث تطلق على إثارة الأرض لإلقاء البذر فيها، وقد تطلق كلمة الحرث على الأرض المحروثة نفسها، فتسمى الأرض المحروثة المهيأة للزراعة أو المزروعة فعلا حرثا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم] ثم أطلقت كلمة حرث فى الآية الكريمة وأريد بها الزوجة على سبيل التشبيه، وقد قال فى وجه التشبيه الراغب الأصفهاني (بالنساء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان، كما أن بالأرض زرع ما به بقاء أشخاصهم).

ففى الكلام إذن تشبيه للزوجة بالحرث؛ ووجه التشبيه الذى ذكره كان بين الزوجة وبين الأرض الخصبة المنتجة من حيث إن كليهما يمد الوجود الإنسانى؛ فالزوجة تمده بعنصر تكوينه وإنشائه، والأرض تمده بالزرع الذى يكون به بقاؤه. وذكر الزمخشري أن التشبيه بين ما يلقى فى الأرحام من النطفة والبذر الذى يلقى فى الأرض من حيث إن كلا منهما ينمو فى مستودعه، ويكون به البقاء والتوالد. وكيفما كان توجيه التشبيه من الناحية اللفظية، فإن الجملة الكريمة ترمى إلى معنى كريم، وهو أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست هى قضاء الوطر لإشباع الشهوة المجردة، بل هى تنظيم النسل فلا يصح للرجل الكامل الذى اتجهت به الإنسانية نحو الكمال أن ينظر إلى زوجه إلا على أنها مستودع سر الوجود الإنسانى، وأنها مربى ولده، وأن قطعة منه تتصل بها فيختلط وجوده بوجودها، وتخرج من رحمها وديعته، وقد امتزجت فيها عناصرهما وخواصهما وطبائعهما، وصارت صورة فى الوجود لأشخاصهما، ومنارعهما، وإذا كانت الخلطة الفطرية قد أوجد الله بها ذلك المخلوق الذى يريان فيه أنفسهما موحدة متلاقية، فإن ذلك يتقاضاهما أو يحملهما على تنشئته على صورة لما يصبوان إليه من كمال؛ وإذا تقاصرت نفس أحدهما عن الآخر فقد يكون الاضطراب فى تكوينه الخلقى، بل يكون نقص فى تكميل نموه الجسمى.

وإذا كان ذلك بعض ما يشير إليه التعبير عن الأزواج بأنهن حرث، فإنه بلا شك يحث الرجل على أن يتخير موضع حرثه، كما يتخير موضع زرعه، فإنه لا يطلب لبذره إلا الخصبة القوية من الأرض، فكذا لا يطلب إلا القوية من النساء فى جسمها وخلقها ودينها، وطيب أرومتها، وكرم بيتها؛ ليكون الولد قويا، ولينشأ نشأة كاملة تربي فيه قوة الجسم والخلق والدين والعقل؛ ولذا جاء فى المأثور «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»^(١) وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «إياكم وخضراء الدمن» وهى المرأة الجميلة التى نبتت فى منبت سوء^(٢). فلا تطلب المرأة لجمالها ولا لمالها، ولا لجاه أسرتها، ولكن تطلب لدينها وخلقها، وليستها الدينية الخلقية الطاهرة.

وقوله تعالى: «فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» تشير إلى المباشطة التى تكون بين الزوجين، وإبعاد ما يتكلفه الإنسان فى لقاء الإنسان؛ فإن ذلك يزول عندما يكون الرجل مع زوجته، ويستروح راحة الحياة، ومودة العشرة الزوجية؛ فإن قوله: «فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» معناه قاربوا أو باشروا نساءكم كيف شِئْتُمْ. وقد روى الرواة أن اليهود الذين كانوا يجاورون أهل المدينة كانوا عند المباشرة لا يرى الرجل من زوجته شيئا، ولا تكون المباشرة إلا بإبعاد حرف من الثياب؛ وقد سرت تلك الحال من التكلف إلى الذين كانوا يسكنونهم من أهل يثرب، ولعلمهم ظنوا ذلك أدبا وتهذيبا، وحسبوه أمرا فى هذه الحال مطلوبيا، فسلكوا مسلكهم؛ وكانت قريش تزيل كل تكلف من هذا عندما يختلى الرجل بزوجه؛ فلما كان التزاوج بين المهاجرين من قريش، والأنصار من أهل المدينة الذين سرى إليهم ذلك التزمت من اليهود، كانت تحدث نفرة أحيانا بين الزوجين بسبب التزمت من جانب، ورغبة التبسط من جانب آخر، فكان قوله تعالى: «فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» مزيلا للتكلف، داعيا إلى

(١) رواه ابن ماجه: كتاب النكاح - الأكفاء (١٩٥٨).

(٢) مسند الشهاب (٩٥٧)، وجاء فى كشف الحفا (٨٥٥): «إياكم وخضراء الدمن». رواه الدارقطنى فى

الأفراد، والرامهرمزى والعسكرى فى الأمثال، وابن عدى فى الكامل.

المباشطة، ليكون ما بين الرجل والمرأة فيه استرواح للنفوس، واستجمام للقلوب؛ فكلمة (أنى) معناها (كيف) أى باشروا نساءكم فى موضع الحرث على أى شكل كانت المباشرة.

ويقول علماء اللغة إن (أنى) يستفهم بها وتكون بمعنى كيف، وذلك أصل استعمالها، وقد تكون مع استعمالها بمعنى كيف للمكان أيضا؛ ولذلك يقول الراغب الأصفهاني: (أنى للبحث عن الحال والمكان؛ ولذا قيل هو بمعنى أين وكيف لتضمنه معناه؛ قال الله عز وجل: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا...﴾ (٢٧) [آل عمران] أى من أين وكيف لك هذا؟).

وهى هنا بمعنى كيف الذى هو أصل استعمالها. وذكر الحرث^(١) فى قوله سبحانه: ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه مع إباحة الاستمتاع الجسدى، والاسترواح النفسى، وإحلال المباشطة محل التكلف والتزمت، مع كل هذا لا ينسى المقصود الأصلى، وهو أن الغاية هو النسل والقيام على شئونه وتربيته؛ فإذا كانت الحياة الزوجية يزول فيها كل ما يحجب الإنسان عن الإنسان من ظواهر وأشكال، فإن لذلك غایتين ساميتين:

إحداهما: النسل وتهذيبه والقيام على شئونه.

والثانية: الاستجمام والاستعداد بهذا الاستجمام للقيام بأعباء الحياة موفور القوى النفسية التى هى معين الصبر، وأساس الاحتمال.

(١) قال المصنف رحمه الله: أصحاب النفوس المنحرفة والأهواء المردية يقولون الأقاويل، وقد انحرفوا فى تفكيرهم بمقدار انحراف نفوسهم عن الفطرة القويمة، فقد زعم بعض الجهلاء الذين إيفت نفوسهم أن معنى قوله: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أى فى أى مكان شئتم فى القبل أو الدبر، ولم يكتفوا بذلك الفهم الضال، بل حاولوا إسناده إلى عبد الله بن عمر، وإلى مالك، وقد كان ذلك كذبا لا شك فيه، فسقد نفاه ابن عمر نفيا باتا عندما ترمى إليه، بل إننا لا نتصور أن شخصا مستقيما الفطرة يقوله، وكذب الثقات بالإجماع نسبته إلى مالك، والآية لا تفسده، ولا يتصور أن تفسده، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَاتُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أى بمقتضى الفطرة والتكوين وذلك فى موضع النسل؛ ولأن الله يقول: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ﴾ ويكون حراثا إذا كان المقصود موضع النسل، ولأن الله يقول: ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أى اتوا موضع الحرث، ولا يتصور ذلك إلا فى موضع النسل، وما كان لنا أن نخوض فى هذا لولا هؤلاء الذين انحرفت فطرتهم فضل فهمهم.

﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اشتملت هذه الجملة السامية على ثلاثة أوامر، وبشرى؛ أما الأوامر الثلاثة فهي ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾؛ وأما البشرى، فهي ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والأمر الأول: وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ معناه اعملوا في حاضرکم ما يكون لمستقبلکم ذخرا وعتادا، وقدموا من الأعمال الصالحة في الحاضر، ما يكون نفعا لكم في المستقبل؛ لأن من يعمل عملا صالحا في حاضره، يمكن للمستقبل الحسن لنفسه؛ وهذا المعنى عام يشمل كل عمل صالح، وكل بر يقدم عليه الإنسان، فهو حصن المستقبل، يقدمه لنفسه من بناء الحاضر على عماد مكين من الخير؛ وهو في هذه الآية يدل مع هذا العموم على معنى فيها على وجه الخصوص، وهو ما يتناسب مع الزواج وعشرة الأهل، والقيام على شئونهم؛ فالمعنى على هذا: قدموا لأنفسكم في أمر الزواج وما يشره، بأن تختاروا عند الزواج ذات الخلق والدين والعفاف والاعتدال، حتى يكون لكم حياة هنيئة في حياتكم الزوجية، فمن اختار الزوج العفيفة ذات الدين فقد قدم لنفسه، وللمستقبله، وإذا أحسستم الاختيار فاطلبوا النسل وقوموا على شئونه وتعهده بالخلق الجميل وبث الفضيلة في نفسه، فإن من قام على تربية ولده فقد قدم لنفسه والولد عمل صالح لأبيه؛ وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من بر يؤثر عنه، وولد صالح يذكره ويدعو له، وصدقة جارية مأثورة عنه؛ ثم إذا أحسستم اختيار الزوج فأحسنوا عشرتها، وخذوها بالرفق والدين والفضيلة والمعاملة الحسنة والقيام بحقوقها، فإن من يفعل ذلك يقدم لنفسه، فإن المرأة إذا جمحت نغصت البيت، وكان العيش نكدا، فمن أحسن معاملة أهله فقد قدم لنفسه.

وعلى هذا يكون لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ معنى عام يشمل كل خير، ويدخل في عمومه معنى خاص، وهو ما يتعلق بالزواج والعشرة الزوجية والولد.

والأمر الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وله معنى عام وهو أن يجعلوا بينهم وبين عصيان الله وقاية، ويخافوا الله سبحانه، ويجتنبوا المعاصي، والأذى، وظلم الحقوق، والاعتداء على الناس، وخصوصاً الرقيق؛ ويدخل في هذا المعنى العام معنى خاص يتصل بموضوع الآيات الكريمات، وهو الزواج وما يثمره، وهو أن يتقى أذى العشير، وظلم المرأة، وهضمها حقوقها، وظلم الأولاد بعدم القيام على شؤونهم، وحسن تربيتهم؛ وإن أذى المرأة ظلم ليس فوقه ظلم، وهو ظلمات يوم القيامة. وفي المأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم، اتخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١). وكان آخر ما وصى به النبي ﷺ أن يتقوا الله تعالى في المرأة والرقيق.

والأمر الثالث: قوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ والإيمان بلقاء الله تعالى هو الذي يربى النفس على فعل الطاعات واجتناب المنهيات، وهو الذي يجعل الإنسان يطمئن إلى فعل الخير، إذ يعلم أن فيه رضوان الله، وهو سيلقاه، ويجنب نفسه فعل الشر؛ لأن فيه غضب الله، وسيلقاه، وسيجزيه الجزاء الأوفى؛ سيجزيه على الإحسان إحساناً، وعلى السوء سوءاً؛ إنه بكل شئ عليم؛ وهذا المعنى عام في كل شئون الحياة؛ ويدخل في هذا العموم المعنى الخاص بالحياة الزوجية، وهو أن يراقب الله في معاملته لأهله وولده، وإن المرأة إن كانت بين يديه قد فقدت النصير، أو حيل بينها وبين نصرائها، فليعلم أن الله معها، وأنه عليه رقيب، وأنه سيلاقيه، وسيأخذه أخذ عزيز مقتدر، ومتقم جبار، وأنه إن استبد به طغيانه فأكل حقوقها، وانحرفت فطرته فضيع أولاده، فإن الله عليه رقيب، وسيلقاه، ويجزيه على سوء ما صنع؛ وإذا أحسن العشرة، وقام بحق الله وحق الزوج وحق الولد، فأعطى كل ذي حق حقه، فإن الله سيلقاه، وسيجزيه من الخير بما قدمت يده.

(١) رواه مسلم: الحج (٢١٣٧)، وأبو داود: المناسك (١٦٢٧)، وابن ماجه (٣٠٦٥) عن جابر رضى

الله عنه، والدارمي (١٧٧٨)، وهو جزء من حديث طويل في حجة النبي ﷺ.

قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ يَعْنِي أَسْرَى فِي أَيْدِيكُمْ. كما رواه ابن ماجه: النكاح - حق المرأة على زوجها (١٨٤١) ورواه أحمد في أول مسند البصريين، عن عم أبي حرة الرقاشي (١٩٧٧٤).

وإن هذه هي بشرى المؤمنين، وهي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فالإيمان يتقاضى المؤمن أن يقوم بحق أهله وبحق ولده، وأن يكون حسن العشرة، وألا يهضم أهله، وإن لم يفعل فليس من الإيمان فى شيء، والله ولى المتقين.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

كلام الله سبحانه وتعالى من قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمَشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ...﴾ [البقرة] فى الأسرة وبيان أسس التلاؤم بين ركنيها ودعامتها؛ وهى الدين والأخلاق، لا المال ولا الجاه ولا الجمال؛ فإن تلك أمور قد تكون عند التفاضل بعد تحقق الأصل وهو التدين والخلق؛ فلا ينظر إلى هذه الأمور إلا بعد تأكيد هذين الأصلين.

وقد بين سبحانه بعد ذلك شيئاً من العشرة الزوجية يتصل بالعلاقة الفطرية بين الزوجين؛ وفى هذه الآيات ذكر الأمر الذى يتصل بظلم الرجل لزوجته فيما يتصل بتلك العلاقة، وذلك بأن يمتنع عما يتقاضاه الطبع مضارة لها، وقد يكون له زوج أخرى يشبع عندها حاجته الفطرية، ويترك هذه كالمعلقة، لا هى زوج تأنس بالحياة الزوجية، ولا هى مطلقة تأنس بأهلها ولا تذوق مضاضة الظلم والحرمان مما أحله الله؛ وقد يوثق ذلك بيمين يحلفها، ويتوهم أن من الخير البر بهذه اليمين، وأن يترك روجه تأكلها الغيرة، وتكتوى بلوعة الظلم والأذى والمكايدة، وتستوحش بتلك النفرة المستحكمة.

ولقد بين سبحانه وتعالى الأمر، ووثق البيان، فنهى عن الأيمان إن حلف وكان الاستمرار على البر باليمين ظلماً، وذكر العقوبة الرادعة لمن يعمد إلى مكايده أهله، والإساءة إليها والإضرار بها إن استمر في غيه ولم يسلك الطريق الذى بينه رب العالمين للخروج من تبعه اليمين، وهو تحلتها، وهى الكفارة.

وفى بيان الأمر الأول قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ العُرْضَةُ

بضم العين: تطلق على النصب التى تتعرض للسهام ونحوها؛ وأطلقت على كل ما يتعرض للأشياء والأمور ويكون هدفاً لها فيقال: فلان عرضة للسفر أى متعرض له. وتطلق العرضة على القوة وعلى الهمة؛ ومن ذلك قول بعض الشعراء فى مدح الأنصار: «والأنصار عرضتها اللقاء» وتطلق العرضة على الحاجز الذى يحول ويمنع.

واليمين تطلق بمعنى الحلف والقسم؛ وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا وثقوا عهودهم بالقسم يقسمونه، وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه فى يمين صاحبه وأطلق على القسم كلمة اليمين؛ وتطلق اليمين على الأمور المحلوف بها؛ ومن ذلك قوله ﷺ: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك»^(١).

وكلمة العرضة فى الآية الكريمة يصح أن تكون بمعنى القوة؛ والمعنى عليه لا تجعلوا الله قوة لأيمانكم التى تمتنعون فيها عن أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، أى لا تتخذوا من قسم الله سبيلاً للامتناع عن فعل الخير.

ويصح أن تكون العرضة بمعنى المعرض للأمر كقول القائل: (فلا تجعلونى عرضة للوائيم) ويكون المعنى على هذا كما قرر الزمخشري: لا تجعلوا الله سبحانه وتعالى معرضاً لأيمانكم فتبتذلوا القسم بالله بكثرة الحلف؛ وذلك لكى تبروا وتتقوا وتصلحوا؛ وذلك لأن من يكثر الحلف يكون مهيناً بين الناس، كما قال تعالى:

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الأيمان والنذور قول الله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم)

(٦١٣٢)، ومسلم: الأيمان - نذب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها (٣١٢٠).

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم]، ولأن الكثير من الحلف لا يكون ممن يصون يمينه فير بها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ...﴾ [المائدة] ومن لا يصون يمينه لا يبر بها بل يقع في الحنث الكثير وقد يكفر وربما لا يكفر؛ ومن يعرض اليمين في القليل والكثير، والعظيم والحقير من الأمور لا يكون متقيا لله، ولمهاتته لا يصلح بين الناس.

ويصح - وهو الراجح - أن تكون العرضة بمعنى الحاجز المعترض، ويكون المعنى على ذلك: لا تجعلوا الحلف بالله سبحانه وتعالى حاجزاً ممانعاً بينكم وبين فعل الخير، فلا تحلفوا في أمر يكون الامتناع فيه امتناعاً عن خير وتقوى وإصلاح بين الناس؛ وذلك لأن الرجل كان يحلف على الامتناع عن بر غضبا على من يطلبه؛ كما روى أن سيدنا أبا بكر حلف ألا يعطى ذا قرابة له عندما خاض في شأن ابنته عائشة في حديث الإفك عليها، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور].

وقد روى أيضا أن عبد الله بن رواحة كان بينه وبين ختنته (زوج أخته) النعمان ابن بشير شيء، فحلف بالله ألا يدخل عليه ولا يكلمه، ولا يصلح بينه وبين خصمه، وإذا قيل له فيه قال: قد حلفت بالله ألا أفعل فلا يحل لى إلا أن تبر يميني؛ فكانت الآية الكريمة ناهية عن ذلك فمن حلف على شيء فرأى خيراً منه، فلا يصح أن يجعل الحلف بالله عرضة محاجة دون فعل الخير، بل عليه أن يفعل الخير ويحث ويؤدى كفارة اليمين المذكورة في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ...﴾ [المائدة].

وإن تفسير العرضة بمعنى المحاجر المعارض دون فعل الخير، هو الأرجح كما نوهنا، والإيمان حيثئذ تفسر بأنها أفعال الخير المحلوف على الامتناع منها؛ ووجه الترجيح من ناحيتين:

أولاهما - أن هذا التفسير هو المناسب لما يجئ بعد ذلك، وهو المقصد من السياق، وهو قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن مقتضاها أنه لا يصح أن تكون اليمين محاجة دون فيء الرجل إلى أهله، ومنع الأذى والضرر عنها.

وثانيتهما - أن الأحاديث كثيرة متضاربة تحت الحالف على الحنث في يمينه إذا كان الحلف مؤداه الامتناع عن البر؛ فقد روى في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وتحملتُها»^(١) وروى أيضاً أن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن ابن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنتَ عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»^(٢).

وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «والله لأن يلعج أحدكم بيمينه في أهله أثم له عند الله من أن يعطى كفارته التي افترض الله عليه»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ هو بيان للخير الذي كانت اليمين تحاجز عنه، وتمنع القيام به؛ والمعنى: لا تجعلوا الله محاجزاً دون أيمانكم لكي تتمكنوا من أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس. والنسق البياني الكريم يفيد أن علة النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ هو ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فالخير الذي يطلب، ولا يصح أن تحاجز اليمين عنه ثلاثة أنواع على حسب ما كان يقع من الناس في أيمانهم:

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري في عشرة مواضع أولها في كتاب فرض الخمس - الخمس لنواب المسلمين (٢٩٠٠) ومسلم في ثلاثة مواضع أولها: الأيمان - نذب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها (٣١٠٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأيمان والنذور (٦١٣٥)، ومسلم (٣١٢٧) عن أبي هريرة - رضى الله عنه.

أولها: البر بالرحم، كما حصل في يمين الصديق الكريم أبى بكر رضى الله عنه.

وثانيها: التقوى بأن يجعل بينه وبين أذى الناس وغضب الله بأذاهم وقاية، كما يتبين في حلف الرجل في أهله مضارة بهن وإيذاء لهن.

والنوع الثالث: الصلح بين الناس كما حدث في يمين عبد الله بن رواحة مع ختنته النعمان بن بشير رضى الله عنهما، وما من خير يحلف الناس على الامتناع عنه إلا وهو داخل في هذه الأنواع الثلاثة.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى كلماته الآية الكريمة بهذه الجملة السامية للإشارة إلى أنه سميع لأيمانهم عند النطق بها وتوثيقهم القول بها، عليم بالدوافع إليها، والبواعث التى بعثت عليها، والنتائج التى تتأدى إليها؛ وإنه تقدست ذاته، وتعالى صفاته، يغفر لهم أيمانهم بالحنث ثم الكفارة فى نظير الخير العميم والنفع العظيم، ومنع الضرر والضرار بالأهل، والبر بذوى الأرحام؛ ثم ذلك التذليل الكريم لا يخلو من إنذار بغضب الرحمن الرحيم إن أصروا على ما هم عليه ولم يثوبوا إلى رشدهم ويتخذوا تحلة أيمانهم طريقاً للعودة إلى البر.

﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو من الكلام: ما لا يعتد به، ولا يصدر عن فكر وروية؛ وأصله من لغا الطير، وهو صوت الطيور الذى لا يفهم منه شىء ويظن الإنسان أنه لا يقصد به شىء، وقد يطلق اللغو على الكلام القبيح الذى ينبغى ألا يعتد به؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ۖ﴾ [النبا] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ...﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان].

وإذا كان اللغو من الكلام ما لا يعتد به ولا يورد مورد الروية والتفكير، فلغو اليمين ما لا يعتد به ولم يصدر عن روية وتفكير. وقد روى فى الآثار صور لأيمان اللغو، وأخذ بعض الفقهاء صورة منها وحصر اللغو فيها، وأخذ غيره بصورة أخرى، وقصر اللغو عليها.

وأرى أن كل صور أيمان اللغو الواردة عن الصحابة تدخل فى معنى يمين اللغو التى كان من فضل الله على عباده ورحمته بهم أن رفع عنهم إثمها، ولم يجعلها موضع مؤاخذه ولا اعتداد، فلا إثم ولا كفارة فيها.

ولنسرد هذه الصور بإسنادها، وكلها يقع مثله فى الحياة اليوم، كما وقع مثله بين الناس فى الماضى :

(أ) ومن صور يمين اللغو ما رواه الزهرى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: إن اللغو هو ما يكون بين القوم يتدارءون به فى الأمر، فيقول هذا والله وبلى والله، وكلا والله يتدارءون فى الأمر، ولا تعقد عليه قلوبهم؛ أى أن القوم يتحادثون أو يتذاكرون فتجرى على ألسنتهم ألفاظ اليمين لا يقصدون بها يميناً، فلا يقصدون توثيق قول، ولا تأكيد خبر، وقصر الشافعية اللغو على هذا.

(ب) ومن صور اللغو ما روى عن عائشة أيضاً أن اللغو هو الشيء يحلف عليه أحدهم لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه؛ أى أن الشخص يحلف على أمر يعتقد أنه الصدق، ثم يتبين أنه كان مخطئاً فى اعتقاده؛ فهذا لا يؤاخذ عليه رب العالمين، ولا كفارة فيه. وبهذا فسر الحنفية اللغو.

(ج) ومن صور اللغو المروية عن ابن عباس يمين الغضب الذى يذهب فيه اللب، ويفقد التقدير؛ فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: (لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان) وإن ذلك فيه بعض النظر، وهو سليم إن قصد به الغضب الذى يفقد فيه الغاضب وزن الأمور.

(د) ومن صور اللغو ما روى مرسلاً عن الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ مر على قوم يتتضلون - يعنى يترامون بالسهام - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله؛ فقال

الذى مع النبي ﷺ: «حنت الرجل يا رسول الله! قال: «كلا؛ أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة»^(١). وهذه الصورة قريبة من الصورة الأولى أو الثانية.

وإنا نرى كما نوهنا من قبل أن هذه الصور كلها تدخل فى معنى اللغو؛ لأن معنى اللغو يفهم من مقابله؛ وهو ما ليس بلغو، وغير اللغو هو ما يقصده القلب قصداً صحيحاً مبنياً على علم صحيح، وهو موضع المؤاخذة والله سبحانه عبر عن موضع المؤاخذة بأنه ما اكتسبته القلوب أى قصده واتجهت إليه بعزيمة وعلى علم صحيح؛ وكل الصور السابقة ليس فيها كسب للقلب مبنى على إرادة وعلم صحيح، فلا مؤاخذة، فتكون لغوا.

ومعنى عدم المؤاخذة أنه لا إثم فى الآخرة ولا عقوبة فى الحنث؛ لأنه لا يمين حتى يكون منع، وحتى تجب الكفارة، وقد يقول قائل: إن الحلف بالله ولو لغوا وتكرر ذلك فيه بلا شك ما لا يتفق مع ماله اسم الكريم من إجلال وما يستحق من صون وتحفظ عند النطق، وهو الأمر الذى اتفق عليه العلماء، فكيف لا تكون مؤاخذة فى لغو الأيمان؟

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إنه بلا شك يجب أن يسان اللسان عن النطق بأيمان اللغو ما أمكن، وإن ثمة إثماً إذا كررها وأكثر منها فى الجليل والحقير، والصغير والكبير، حتى صار اللفظ يجرى على لسانه من غير احتياط؛ لأن ذلك قد يؤدى إلى الحلف غير لاغ، بل مع اكتساب القلب؛ ولكن ذلك الاسم الذى جاء من الإكثار والتكرار والاستمرار، ليس هو الإثم المنفى فى الحلف الواحد فالإثم الثابت هو ما كان فى الكل والاستمرار، والإثم المنفى ما كان فى الجزء والانفراد. على أن نفى المؤاخذة إنما هو ليقدم على الفعل من غير تخرج، وذلك متحقق فى كل أيمان اللغو، سواء أكانت ممن يكثر أم كانت ممن يقل، وإن كان ثمة لوم فهو موجه إلى الشخص فى جملة أحواله وصفاته، لا فى ذات اليمين منفردة.

(١) من مراسيل الحسن، ذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح باب (لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم) ..

﴿وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ هذا موضع المؤاخذة، وهو ما كسبته القلوب، أى قصده وأرادته. ولم يجئ عفو الخاطر؛ أو لم يبن على علم ناقص وما قصده القلوب نوعان:

أحدهما - أن يقصد إلى فعل أمر أو الامتناع عن أمر مستحصداً عزيزته على ذلك، موثقاً تلك العزيمة بيمين الله سبحانه وتعالى.

وثانيهما - أن يحلف على شئ كاذب مؤكداً قوله لسامعه ليعتقد السامع صدقه، والحالف جازم بأنه كاذب؛ وتسمى هذه اليمين يمين الغموس، ويدخل فيها الأيمان التى يحلفها شهود الزور، والكاذبون فى التقاضى.

والمؤاخذة فى النوع الأول بوجوب الكفارة إن حنث فى يمينه، وفى النوع الثانى بالإثم المستمر، حتى يتوب توبة نصوحاً، ويرد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على يمينه ضياع حق أو حكم بباطل. ولقد قرر الشافعى رضى الله عنه أنه تجب مع ذلك كفارة يمين، ولم ير الحنفية فيها كفارة، إنما الكفارة فيما يقبل الحنث، وتلك لا تقبل الحنث.

وعبر سبحانه وتعالى عن القصد والتعمد بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وكسب القلب أدق وأخص من مجرد التعمد؛ وذلك لأن كسب القلب معناه أن اليمين كان لها أثر فيه، قد اكتسبه منها، كما كسبت منه القصد والابتعاد عن معنى اللغو.

والأثر الذى تنتجه الأيمان المقصودة يختلف باختلافها؛ فإن كانت يميناً برة هى خير فى ذاتها وفى موضوعها، والإصرار عليها لا ينتج إلا خيراً، اكتسبت القلوب عزيمة نحو الخير، وإصراراً عليه وإيماناً به، فتشرق بنور الله، وتستنير بذكر الله. وإن كانت اليمين فاجرة كاذبة فى موضوعها لم يقصد الحالف فيها إلا تزكية الإثم، فإن القلب يكسب منها شراً، إذ ينكت فيه الإثم نكتة سوداء، وتكرارها تحيط بالقلب خطيئاته، وتستغرقه سيئاته، ويرين الله سبحانه وتعالى عليه بغشاوة كثيفة من الآثام.

وإن كانت اليمين غير فاجرة، ولكن الإصرار على موضوعها فيه منع للخير، يكون الكسب شرًا إن أصر عليها، ويغفر الله إن اتخذ السبيل الذي يكون به تحلة الأيمان، وهو الكفارة السهلة الميسرة لكل إنسان.

هذا بعض ما يشير إليه التعبير الكريم السامى ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية لتأكيد معنى عدم المؤاخذه فى اللغو، وليبان أنه سبحانه يأخذ عباده بالرفق، ويسهل لهم سبيل العودة إلى الجادة المستقيمة إن حادوا عنها، وتنبهوا سبيل المؤمنين، ويرشداهم إلى ما يخرجون به مما يلغون بأنفسهم فيه من أقوال وأفعال؛ فهو يبين طريق التحلل من الأيمان إن حلفوا لتركوا خيراً، أو ليرتكبوا شراً، وهو يحلمه وتديره وحكمته يبين لهم الحق والسبيل إليه؛ وإن سبقت الأيمان محاجة دون الخير طلب إليهم ألا يتمسكوا بها ويفعلوا الخير.

وإن رحمة الله سبحانه وتعالى فى الأيمان وغفرانه وحلمه قد بدا فى الإعفاء من يمين اللغو، وعدم اعتبارها، وفى المؤاخذه على ما تكسبه القلوب مع تسهيل العودة إلى فعل الخير، وفى بيان التحلل من اليمين إن حالت بين صاحبها والبر والتقوى والإصلاح بين الناس.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْثِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هذه إحدى الأيمان التى لو استمسك بها الخالف كانت محاجة ممانعة دون البر والتقوى، فهى من جهة تطبيق عملى للحكم الذى قرره العلى القدير فى قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾، ومن جهة ثانية هى بيان لحكم حال تعرض فى أثناء العشرة الزوجية؛ وذلك جزء من موضوع الأسرة الذى ابتدأه سبحانه بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ...﴾ [البقرة: ٢٢٠] أو بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُوا الْمَشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ...﴾ [البقرة: ٢٢١] على حسب الاختلاف فى معنى الأسرة من حيث العموم والخصوص.

والإيلاء مصدر آلى يؤلى بمعنى حلف، وخصه الأصفهاني بالحلف على التقصير فى الأمر فقال: (حقيقة الإيلاء والآلية الحلف المقتضى لتقصير فى الأمر الذى يحلف عليه).

وقد خص فى الشرع بالحلف على الامتناع عن القرب من امرأته ومسيستها، وكان ذلك التخصيص مشتقا من هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾. والتربص الانتظار، والترقب، ومعنى الجملة الكريمة أن الله سبحانه وتعالى جعل للذين يحلفون ويجعلون موضع حلفهم الابتعاد عن نسائهم وتجنبهن متجنين عليهن ظالمين - تربص أربعة أشهر ينتظرونها، والله يرقبهم فيها، وحكم الله يترقبهم، فإطلاق التربص من غير أن يضاف إلى الحالفين، ولا أن يضاف إلى الله سبحانه وتعالى كان بمعنى الانتظار، وهو من العبيد توسعة لهم، ومن الله سبحانه وتعالى وشرعه ترقب لهم حتى يقطع السبيل على ظلمهم إن طال الأمد وقست قلوبهم.

وتلك المدة التى وسع لهم فيها ليعودوا إلى رشدهم. ويقلعوا عن غيهم، وإلا حقت عليهم كلمة الله سبحانه وتعالى؛ هى أربعة أشهر، وبعدها يوضع حد لذلك الظلم والمضارة فى العشرة الزوجية.

إن العشرة الزوجية أنس وإلف والتقاء روحى وجسدى بتحقيق ما يتقاضاه الطبع الإنسانى، والإنسال؛ ليبقى الإنسان فى هذه الأرض يعمرها إلى أن يقضى الله سبحانه وتعالى أمرا كان مفعولا؛ فإذا جاء الرجل وهو القوام على الأسرة وهو رأسها وعمادها، واشتط واتخذ المضارة والكيد، بدل أن يؤلف القلوب ويؤنس النفوس ويربط بالمودة بينه وبين أهله؛ إذا فعل ذلك فإن الجو يعتكر، والأمور تضطرب، وتحل البغضاء محل المحبة، والمضرة محل المودة؛ فوجب أن تنتهى هذه الحال إما بإعادة الود إلى صفائه، وإما بفصم عرى الزوجية التى صارت لا تنتج إلا نكداً.

وإن من أشد مظاهر المضارة والمكايدة القطيعة فى المضجع، والهجر غير الجميل فى المبيت، فإنه أذى شديد، لا لأنه امتناع عن قضاء الوطر، بل لأنه يدل

على البغض الشديد، ولا شيء يفعل فى نفس المرأة أشد من الإحساس بالبغض من العشير والضجيع الذى وهبت له نفسها، وأعطته قلبها، فكان منه ذلك النكر وذلك الهجر.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى أقصى غاية الصبر منها هو أربعة أشهر، وبعدها يكون الفصم، وإنهاء تلك الحياة الزوجية التى تحكم بين الزوجين فيها البغضاء.

ولماذا كانت المدة أربعة أشهر؟ لقد ذكر بعض العلماء أن تلك المدة أقصى ما تصبر عليه المرأة فى المضارة بذلك الهجر غير الجميل. ولقد سأل عمر نساء عن مقدار ما تصبر المرأة عن زوجها، فقالت بعضهن شهرين، ويقل صبرها فى ثلاثة، وينفذ صبرها فى أربعة أشهر. ولقد كان عمر رضى الله عنه بعد هذا يسترد الغزاة ويستبدل بهم غيرهم بعد أربعة أشهر.

ثم إن التقدير بأربعة أشهر هو الذى يتفق مع جملة الأحكام الشرعية؛ ذلك لأن الرجل أبيض له أن يتزوج أربعاً من النساء، وإذا كان فى كل شهر يقرب نساءه مرة، ويبادل بينهما، فإن قسماً يكون مرة كل أربعة أشهر، فكان من تناسق الأحكام الشرعية أن جعلت المدة التى تصبر فيها المرأة مع هذا الهجر أو تتصبر أربعة أشهر؛ وذلك فوق أن الفطرة تقول: إن ذلك أقصى غاية الصبر على البعد المتعمد.

﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإن تلك المهلة التى أعطاها الزوج يتربص فيها ويتنظر، والله يرقبه، والشرع يترقبه، إنما هى لكى يقطع عن الظلم وتعود المودة إلى ما كانت عليه، ويؤد بينهما بحياة رفيقة يقطعانها، فإن فاء إلى زوجه أى رجع إلى مضجعه الذى هجره، وقرب من امرأته ومسها، وحنث فى يمينه، كفر إذ جعل الله سبحانه وتعالى الكفارة تحلة الأيمان، وعندئذ يغفر الله سبحانه ما كان منه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم ما فرط منهم فى جنب أهلهم، والقطيعة التى كانت منهم ما داموا قد رأوا الصدع وعادوا إلى رشدهم وطيبوا قلوب أهلهم، وأقاموا المودة، وملئوا البيت أنسا بعد أن ملئوه

وحشة؛ ويغفر لهم سبحانه حثثهم في يمينهم؛ لأن الله سبحانه لا يريد إلا إصلاح حالهم، ولا ينقص من عظمته وجلاله أن يحث عبد في قسمه، ما دام الخير يريد والشر يجتنب؛ والله سبحانه وتعالى رحيم بعباده في أن جعل لهم تحلة إيمانهم كفارة يستطيعونها وأن غفر لهم الحث، وأن دعاهم إلى ذلك الحث رحمة بالأسرة من أن تتهدم أركانها، وتقطع أوصالها وتذهب المودة بين العشير وعشيرته، والأليف وأليفه؛ ورحيم بهم في أن غفر لهم ما فرط من كل منهما في حق أخيه إذا أعادا المودة إلى سابق أمرها بعد أن كاد الهجر يقطعها.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا هو الفرض القاسى الغليظ، بعد الفرض الرحيم الرفيق؛ وهذه هى العقوبة التى وضعها الشارع الحكيم؛ أى أنهم إن أصروا طول الأشهر الأربعة ولم يرعوا عن غيهم، فإن الطلاق واقع لا محالة بحكم الشارع وكان ذلك الاستمرار هو عزيمة الطلاق القاطعة، وإرادته من الزوج حين صمم عليها؛ لأن الشارع جعله عقوبة لفعله، فمن لم يأت امرأته أربعة أشهر كاملة بيمين حلفها، فإن طلاقها يقع، وهو عقوبة ثابتة مقررة يعتبر الزوج قد اعتزمها وأصر عليها.

فهذه الآية الكريمة تفيد وقوع الطلاق عقوبة للزوج إن أصر على يمينه ولم يحث فيها، ولم يتحلل منها ويحسن عشرة أهله؛ وهو فى ذلك إنهاء لحال ظالمة للمرأة لا تقوم فيها حقوق الزوجية، ولا هى حرة يختارها من يريد الزواج، وهو منع للمرأة أن تتردى فى مهاوى الرذيلة بسبب هذه المضارة، بل يفتح لها الباب لتختار زوجا عادلا بدل هذا الظالم.

وقد يقول قائل: إن إيقاع الطلاق بحكم الشارع هو عقوبة، فكيف تنسب عزيمة الطلاق إلى الزوج الذى حلف فعوقب بإيقاع الطلاق بغير إرادته، ورغم أنفه، مع أن من يعزم أمراً ويقطعه لابد أن يكون مختاراً حراً، وأن يكون الفاعل للأمر ينسب إليه على وجه الجزم واليقين؟

والجواب عن ذلك السؤال من وجهين:

أحدهما - أن طائفة من العلماء قرروا أن الطلاق لا يقع فور انتهاء الأربعة الأشهر، بل يمهل الحالف إما أن يفئ إلى أهله بأن يقربها ويحسن العشرة، وإما أن يقع الطلاق عليه؛ فإن لم يفئ واستمر مستمسكا بقوله، فقد اختار الطلاق واعتزمه حقاً وصدقاً، وأراده عن بينة وعلم، ولا ينفي تلك العزيمة أن يوقعه القاضي، أو يوقعه هو؛ لأنه باشر سببه واختار الطلاق وأصر عليه، وذلك هو قول طائفة من الصحابة والتابعين، وقول مالك والشافعي وأحمد والليث وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، وداود الظاهري.

وأما قول أبي حنيفة رضى الله عنه فهو أن الطلاق يقع بانتهاء الأربعة الأشهر، والفيء إنما وقته في الأربعة الأشهر، فلا زيادة فوقها بنص الشارع، وحيث لا يقال كيف اعتزم الطلاق وهو لم يوقعه؟ وحيث لا يكون الجواب هو:

الوجه الثاني - أن هذه العقوبة حتمية بأمر الشارع أعلنها دفعاً للظلم، أو منعاً لاستمراره، أو حملاً على العشرة الحسنة ويجب أن يضعها الزوج الحالف نصب عينيه طول مدة الإيلاء، وأن يعرف أنها نتيجة لازمة لاستمراره عليه، فإن أصر عليها من بعد، فقد ارتضى الطلاق واعتزمه، وكيف لا يقال إنه اعتزم الطلاق من استمر أربعة أشهر مصرراً على الامتناع الظالم وهو يعرف أن نتيجته الطلاق الحتمي؟ وكيف يعطى فرصة أخرى من ترك فرصة أربعة أشهر؟.

والطلاق في هذه الحال هو عقوبة عادلة؛ لأنه من جنس الجريمة، وهو نتيجة طبيعية لمن يظلم زوجه في العشرة الزوجية؛ وهو باب الفضيلة، إذ يمنع الزوج من أن تتقحم في الرذيلة.

والطلاق الذي يقع يكون رجعيًا عند الأئمة الثلاثة؛ ودليلهم أن كل طلاق رجعي إلا ما ورد النص بأنه بائن، وليس منه ذلك الطلاق؛ وعلى هذا يكون له الرجعة في العدة؛ وقد روى عن مالك رضى الله عنه أنه اشترط للرجعة أن يفئ إلى أهله، فلا تتم بمجرد القول، بل لا بد من الدخول، وقال أبو حنيفة: الطلاق بائن لأنه دفع للضرر، ولا يتحقق إلا بالبينة، وإلا كان تمكيناً للزوج من معاودة الظلم.

وقد أشار الله سبحانه إلى غضبه وعقوبته إن عزم الطلاق؛ فقد جعل جزاء الشرط كونه سميعاً عليماً، إذ قال ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى سميع إلى ما كان من الزوج الخالف، قد سمع يمينه التى لم يرد بها خيراً، وكلامه الذى لم يرد به إلا ضراً؛ عليم بما وقع منه من مضارة وإيذاء، وأنه لم يحسن العشرة الزوجية، ولم يحسن الفراق، فإنه لم يسرحها بمعروف، بل تركها هملاً حتى أنقذها الله من ظلمه بحكمه العادل الحاسم الرحيم؛ وإن الله سبحانه إذا كان عليماً بما وقع، سميعاً لما قيل فإنه لا بد يوم القيامة مجاز الإحسان إحساناً والسوء سوءاً؛ والطلاق ليس العقوبة الكاملة، إنما العقوبة الكاملة يوم الجزاء الأوفى، وعندئذ تجزى كل نفس بما كسبت، وإلى الله مرجع الأمور.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ

بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي
أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ
فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أشارت الآيات السابقة إلى أمثل السبل لاختيار الزوج، وهو أن يكون أساس الاختيار الدين والتقوى والخلق، لا المال والنسب، ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ...﴾ (٢٢١) [البقرة].

ثم أشارت الآيات أيضاً إلى حسن العشرة الواجبة، ولطف المودة الواصلة، وبينت أن العلاقة بين الزوجين طهر لا دنس فيه، ونظافة لا رجس معها يستوى فى ذلك الحس والمعنى، والمخير والمظهر.

وأوجبت أن تكون العلاقة قائمة على العدل من غير ضرار ولا ظلم، وبينت الحكم فى الظلم الواقع إن استمر عليه مرتكبه، ووثق إصراره بيمين يحلفها،

وذكرت أن القطع فى هذه الحال أولى من الوصل، والإنهاء أولى من البقاء لأن بقاء الحياة الزوجية فى هذه الحال استمرارا للظلم، وبقاء للإثم، ولا منفعة ترجى، ولا جدوى تلتمس؛ ولذلك قرر الله سبحانه وتعالى حكمه الصارم وهو الطلاق القاطع لهذا الظلم المستمر.

ولقد بينت بعد ذلك هذه الآية الكريمة التى تلونهاها، والتى ستتكمّل فى معناها حكم الطلاق، وفصلت أحواله ومراته الآيات من بعدها.

وقبل أن نخوض فى معنى هذه الآية الكريمة، والإشارة إلى دقائق ألفاظها ومعانيها، نقرر أن شريعة القرآن شرعت الزواج عقدا أبديا فى أصل شرعته؛ لأنه شرع لمعان وأغراض لا تتحقق إلا مع البقاء والدوام، فقد شرع لإقامة الأسرة، وتنظيم الحياة بين الرجل والمرأة، وإنجاب النسل، والقيام على تربيته وتهذيبه والسير به فى مدارج الحياة، وتلك أغراض لا تكون على الوجه الأكمل إلا إذا استمرت الحياة الزوجية موصولة موثقة بروابط من المودة والأخلاق والشرع إلى أن يقضى الله قضاءه. ذلك حكم الشرع، وهو سنة الوجود، وهو أكثر أحوال الزواج بين بنى الإنسان، لا يختلف فى ذلك شرقى عن غربى ولا مسلم عن مسيحى.

والإسلام هو دين المبادئ السامية، يبين المثل العليا ويدعو الناس إليها، فهو يشير إلى المثل السامى فى الزواج فى مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم] ويقول سبحانه وتعالى فى العلاقة الزوجية: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ...﴾ [البقرة].

ولكن الإسلام مع دعوته إلى تلك المثل العالية فى العلاقة الزوجية يعترف بالحقائق الواقعة ويعالجها، ويطب لها، ليأخذ النفوس إلى السير فى طريق الكمال، فإن عجزت أو انبتت فى الطريق عالج ذلك العجز.

وكذلك عالج الأمر فى شأن الزواج فشرعه أبديا، ولكن الشرط فى استمراره أن يكون الوداد هو الرابطة الواصلة، وأن تلك الرابطة قد تقطع أسبابها وتنفر

القلوب بعد مودتها، وتنقسم عروتها، فهل يبقى المثل السامى للزواج وهو الاستمرار ولا يلتفت إلى النفرة المستحكمة والعداوة المسيطرة، ونيران البغضاء الملتهية؟ لذلك اتجه الإسلام إلى علاج تلك الأدواء القائمة والطب لها، فلم يكتف بالمثل العليا يعلنها ويدعو إليها، بل اعترف بالواقع وعالجه، وطب للأسقام، فكان دين الحقائق الثابتة، والسمو النفسى.

والنزاع بين الزوجين أمر يقع، مهما يكن الزوجان، ومهما تكن درجة كمالهما، وقد كان نساء النبى ﷺ يختلفن معه فى الشأن الذى يربط بينهما، بمطالبته بما ليس عنده، وكان النبى ﷺ الأسوة الحسنة لقومه وأمتة فى أخلاقه ومعاملته لأهله، فى الغضب والرضا، وفى الوفاق وفى الخلاف، ولكن أنى يكون للناس أخلاق السنيين، والوحى ينزل عليهم من السماء، ونفوسهم علت إلى الملكوت الأعلى ولقد كان النبى ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»^(١).

ولقد دعا الإسلام إلى إصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة بينهما تسير فى غير طريق المودة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء].

ودعا الزوجين من له بهما صلة أن يتدخلوا عند الشقاق بينهما أو عند خوفه، بأن يحكموا حكمين عند خوف الشقاق وتوقع النزاع؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء].

وإذا تعذر الإصلاح ولم يمكن التوفيق وصار الأمر نيرانا، ولم يكن سلاما كان لابد من التفريق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

(١) رواه ابن ماجه: النكاح - حسن معاشره النساء (١٩٦٧) عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

لابد إذن من التفريق بينهما؛ لأن عقد الزواج أصبح غير صالح للبقاء، ولكن من الذى يملك التفريق؟ لاشك أنهما إن اتفقا عليه وقع الطلاق، ولا ضير فى ذلك ما دام لم يكن فى نوبة غضب جامحة، ولم يكن لأمر عارض، فيجب الاحتياط لذلك ما أمكن الاحتياط.

هذا إذا لم يتفقا فهل يقع الطلاق بإرادة منفردة من غير حكم قضائى؟ لقد قال بعض الذين يظنون أن فى ذلك صلاحا أنهما إن لم يتفقا على الطلاق لا يقع إلا بأمر القضاء، وإن ذلك القول له وجهته لو كانت كل أمور الأسرة يجرى فيها التقاضى، ويسوغ فيها الإعلان، وأن تتكشف أسرارها بين الناس، ولكن الأمور بين الزوجين لا تجرى فيها البيّنات، وهى مستورة بستر الله لا يسوغ إعلانها، وليس من مصلحة المجتمع إظهار العيوب الخاصة فيها.

وهب السبب المسوغ للطلاق هو النفرة الشديدة فكيف يمكن إثباتها؟ إنها لا تعرف إلا من صاحبها؛ لذلك لم يكن الطلاق فى الإسلام فى عامة أحواله بيد القضاء، بل جرى الأمر فيه على أن يكون بيد الزوج إن كان هو الراغب، وبيد القضاء إن كانت هى الراغبة فيه.

وهنا يرد سؤالان: أولهما: لماذا كان بيد الزوج مطلقا وبيد الأخرى مقيدا؟ والثانى: ألا يخشى ألا تكون النفرة مستحكمة، ويطلق الزوج لنوبة غضب جامحة، وتحت تأثير هوج ليست فيه إرادة مستقيمة؟

والجواب عن السؤال الأول: أن الزوج تكلف فى سبيل الزواج ما لا كثيرا، وسيعقب الطلاق تكاليفات مالية أخرى، فوق ما يحمله الزواج الجديد من أعباء جديدة، فكل هذا يدفعه إلى التأنى والتروى فلا يتدفع وراء هوى جامح إلا إذا أيفت مشاعره، وفسدت مداركه، أما المرأة فعكس ذلك، فلو كان الطلاق بيدها من غير تدخل قضاء لا تدفع وراء هواها جامحة، ولكان فى ذلك ظلم شديد على الرجل بضياىع ماله، وتكليفه بأعباء مالية جديدة فكان لابد أن يتدخل القضاء ليعرف أكان

الزوج ظلماً فيذوق وبال أمره بضیاع ماله، وهدم الحياة الزوجية التي أقامها على الظلم، أو ليعرف أن الزوجة ظالمة بالنشور فيقضى بالطلاق، ويكلفها المغارم المالية التي غرمها الزوج في سبيل الزواج كما هو مذهب مالك؟ وليس السبيل لمعرفة الحق في الأمر هو الإثبات بالبينات فقط، إنما هو الإثبات بتحكيم الحكّمين من أهلها وأهله.

وأما الجواب عن السؤال الثاني، وهو الخاص بالألا تقع الحياة الزوجية تحت تأثير الغضب الجامح، فقد احتاط الشارع الإسلامي لأمر ذلك الغضب في الطلاق بأحكام شرعها قبل الطلاق وبعده:

(أ) فهو أولاً: فرض أمر الحكّمين والإصلاح ما أمكن الإصلاح إذا كان شقاق بين الزوجين كما أشرنا من قبل.

(ب) وأوجب ثانياً: أن يكون الطلاق في وقت لا تكون المرأة فيه على حال تسوغ النفرة، إلا إذا كانت مستحكمة، فمنع الطلاق في حال الحيض ومنع الطلاق في الطهر الذي دخل بها فيه، وظواهر السنة أن يكون الطلاق في هذه الأحوال باطلاً.

(ج) واحتاط الشارع الإسلامي ثالثاً بالنسبة للزوج المدخول بها وهي التي قامت معها الحياة الزوجية فعلاً، فلم يسوغ أن يكون الطلاق في هذه الحال باتاً، فلم يسوغه إلا واحدة، ولم يسوغه إلا رجعيًا في أثناء العدة.

(د) واحتاط الشارع رابعاً: فجعل للزوج الحق في مراجعة زوجته من غير عقد جديد ولا مهر جديد مدة طويلة تقارب نحو ثلاثة أشهر، فإذا مضت هذه المدة الطويلة، مع الإصرار والباب مفتوح وتدخل أهل الخير بينهما محتمل، فإن ذلك يكون دليلاً على استحكام النفرة، وإن القلوب قد تشعب ودها، ولم يعد من الصالح بقاء الحياة الزوجية في ظلها.

(هـ) واحتاط الشارع الإسلامى خامسا فسوغ لهما أن يستأنفا حياة زوجية جديدة، إن عادت القلوب النافرة، واستقامت على الحق، وندم كل واحد على ما فرط منه فى جنب صاحبه.

فإن تكرر الطلاق من بعد، تكررت الاحتياطات السابقة، فإن كانت الثالثة فهى التحريم المؤقت، حتى تكون التجربة القاسية بزواجها من رجل آخر زواجا صحيحا للدوام والبقاء وقيام العشرة الزوجية الجديدة ثم انتهائها بأى سبب من أسباب الإنهاء الشرعية الصحيحة، فإنها بعد ذلك تحل لزواجها الأول، وقد صقلته التجربة وصقله البعد، والله عليم بذات الصدور.

ولقد سقنا هذا القول فى مقدمة تفسير هذه الآيات الكريمة المشتملة على أحكام الطلاق؛ لأن ذلك القول خلاصتها، وهو مرامها، ولنضع الأحجار فى أفواه الذين يعيبون أحكام الطلاق فى القرآن، وهى أحكام قد اشتقت من الفطرة وطبيعة الحياة الزوجية، والاحتياط لها ما أمكن الاحتياط ولم يكن شئ منها معروفا من قبل، ولم يصل العقل البشرى لأدق منها وأحكم من بعد؛ إنها شريعة اللطيف الخبير.

﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ التبرص معناه: التأنى والانتظار، وقد قال بعض العلماء أنه مقلوب التصبر، فهو تكلف الأناة، وتكلف الانتظار مع صعوبة الاحتمال، كما هو الشأن فى أمر الصبر والتصبر، وسواء أصح ذلك القول أم لم يصح، فالتصبر والتبرص متلاقيان فى المعنى، ومتشابهان فى اللفظ.

والتعبير «يتبرصن» يدل على الأمر، وهو الطلب اللازم المؤكد، وإن كانت الصيغة فى ظاهرها صيغة خبرية، وقد قرر الخبراء بالبيان العربى أن أوكد الصيغ دلالة على اللزوم الموثق: الصيغ الخبرية التى تساق للطلب، مثل ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ومثل هذه الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها، ولكن مع ذلك لماذا كان النسق البياني

السامى فى أن يجىء الأمر فى هذا المقام بتلك الصيغة الخبرية، فيكون معنى
يتربصن: ليتربصن؟.

والجواب عن ذلك من عدة وجوه:

أولها: الإشارة إلى أن ذلك التربص يجب أن يكون من ذات نفس المطلقة،
لأنه هو الذى يليق بكرامتها، ويتفق مع فطرتها، فإن كانت الرغبة تدفعها إلى
الزواج العاجل السريع إن كان الزوج الجديد كفتا، فإن الكرامة توجب عليها الانتظار
والتريث، فلا يليق بالحرمة الكريمة أن تنتقل بين الأزواج انتقالا سريعا، لافاصل فيه
بين الزوجين.

وثانيها: أن نداء الفطرة يوجب عليها الانتظار لتستبرئ رحمها، حتى إذا كان
حمل نسب لأبيه ولا يتنازع الأزواج، فهن إذا انتظرن وامتنعن عن الزواج هذه المدة
فكأن ذلك من أنفسهن لامن أمر فوقهن، وكأن ذلك إلزام الفطرة قبل أن يكون إلزام
الشرع.

وثالثها: الإشارة إلى أن الأمر بالتربص أجيب وحصل التربص فعلا، فالتعبير
بصيغة الخبر إشارة إلى الأمر والتنفيذ معا.

وإن من أبلغ الإشارات السامية الإتيان بكلمة «بأنفسهن» فى الإلزام
بالتربص، فإن فيها الإشارة إلى ما فى معنى التربص من الصيانة لأنفسهن عن
الابتذال والاحتفاظ بكرامتهن. ولقد قال الزمخشري: فى ذكر «الأنفس» تهيج لهن
على التربص وزيادة بعث؛ لأن فيه ما يستنكفن منه، فيحملهن على أن يتربصن،
وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على
الطموح ويجبرنها على التربص.

ولماذا كانت تلك الإشارات المتعددة على المرأة؟ لأن التربص لا يعرف إلا من
جانبها، فمداه لا يعرف إلا منها، فكان ذلك التشديد النفسى، لتغلب على أهوائها
ولا تقول إلا حقا.

وقد كانت مدة التبرص بحكم القرآن الكريم هي ثلاثة قروء، والقروء جمع قرء، بضم القاف وفتحها، وقد اتفق علماء اللغة على أن كلمة القرء تطلق على الحيضة وعلى المرة من الطهر الذى يكون بين الحيضتين، وأصل معنى القرء بمعنى الجمع عند بعض علماء اللغة، ووافقهم الشافعى، ولكن خالف فى ذلك أبو عمر ابن عبد البر، وقال: أن القرء مهموز لا مقصور، والذى يكون بمعنى الجمع مأخوذ من قرئت لامن قرأت، ولكن علماء اللغة على غير ما قاله ابن عبد البر.

والقرء كما يطلق فى أصل معناه على الجمع، يطلق على الانتقال والخروج من حال إلى حال، فيطلق على الانتقال من الحيض إلى الطهر، ومن الطهر إلى الحيض.

ويطلق القرء أيضا بمعنى الوقت، وهو المعنى الذى جرى فيه الاشتراك وهو وقت الطهر، أو وقت الحيض.

هذا هو الأصل اللغوى لكلمة «قُرء»، وقد اتفق علماء اللغة على أنه يجوز إطلاقه على مدة الحيضة، وعلى مدة الطهر، ولكن اختلف مفسرو السلف فى المراد بالقرء فى الآية: أهو مدة الطهر بين الحيضتين، أم هو مدة الحيضة؟ فعمر وعلى وابن مسعود وأبو موسى الأشعرى، ومجاهد وقتادة وعكرمة والسدى وغيرهم على أن المراد فى الآية مدة الحيضة، وبهذا أخذ فقهاء العراق، وعلى رأسهم أبو حنيفة، ثم جاء على ذلك رأى من بعد أحمد بن حنبل.

وقالت عائشة رضى الله عنها، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، والزهرى وغيرهم: إن المراد بالقرء مدة الطهر بين الحيضتين، وبهذا أخذ فقهاء الحجاز، وعلى رأسهم إمام دار الهجرة مالك رضى الله عنه، ثم جاء من بعده الشافعى، ونهج هذا المنهاج.

وقد حاول كل واحد من الفريقين المختلفين من الفقهاء، أن يلتمس من آى القرآن ومن السنة ما يؤيد مذهبه، ويوضح تفسيره، وقد استدلت الحنفية والحنابلة فى تفسير القرء بالحيضة بأدلة، منها:

(أ) أن النبي ﷺ فسر القرء بمعنى الحيض، وذكر ذلك في عدة مواضع، فقد قال النبي ﷺ: «دعى الصلاة أيام أقرائك»^(١). ولا شك أن المراد في هذا الحديث الحيض؛ لأنه الذى تفسد الصلاة فيه، وأيضا فإن فاطمة بنت أبي حبيش فشكت إلى رسول الله ﷺ الدم فقال لها ﷺ: «إنما ذلك عرق، فانظري إذا أتى قرؤك؛ فلا تصلى، وإذا مر القرء فتطهري ثم صلى من القرء إلى القرء»^(٢).

وفوق ذلك فقد قدر عمر على جمع من الصحابة ووافقوه ولم يعرف لهم مخالف عدة الأمة بالحيض دليلا على أنهم فهموا القرء حيضة؛ لأن عدة الأمة من جنس عدة الحرة، وإن كانت نصفها، فكان لابد أن يكون المراد من القرء من الآية الحيض فى نظرهم.

(ب) وإن الدليل على أن المراد بالقرء فى تقدير العدة هو الحيض لا الطهر أن القرآن الكريم جعل الأساس فى تقدير العدة بالأقراء كون المعتدة حائضا أو غير حائض، فكان الأساس هو الحيض، فقد قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئْسَنُ مِنَ الْمَحِضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ...﴾ [الطلاق] وإذا كان الحيض هو الأساس فى تقدير الأقراء، فلا بد أن تكون الأقراء هى الحيضات.

(ج) وإن الغرض الأول من العدة لا يتحقق إلا بالحيض؛ لأن الغرض براءة الرحم، وذلك لا يتحقق إلا بالحيض، ولأن الحيض هو الأساس للطهر الذى يتخلل الحيضتين، فكان الأنسب للسياق البيانى أن تقدر العدة بالحيضات لا بالأطهار التى تتخللها، وفوق هذا أننا لو قدرناها بالأطهار لكانت العدة دون الثلاثة إن احتسبنا الطهر الذى حصل فيه، وتكون أكثر من الثلاثة إن لم تحتسبه، وإن احتسبنا الأقراء بالحيضات كانت الأقراء ثلاثة ما دام هو طلاق السنة الذى لا يكون إلا فى طهر: وهو المفروض شرعا.

(١) رواه الدارقطنى (٨٠٩) ج ١ ص ٢١. وجاء فى البخارى: الوضوء (٣١٤) ومسلم الحيض (٥٠١).

(٢) رواه النسائى: الطهارة - باب ذكر الأقراء (٢١١). ورواه أبو داود: الطهارة (٢٤٢)، وابن ماجه (٦١٢)، وأحمد (٢٦٠٩٤).

ثم فوق كل ذلك إن الذى يتفق مع معنى الجمع الذى هو فى معنى القرء هو الحيض؛ لأنه دليل الامتلاء والاجتماع الكامل، فهو الفيض بعد أن امتلأ الإناء.

هذه حجج الحنفية والحنابلة الذين قرروا أن القرء هو الحيض فى الآية: وأن العدة تقدر بالحيضات، لا بالأطهار التى تتخللها.

أما الشافعية والمالكية ومن سلك مسلكهم، فقد قالوا فى الأحاديث السابقة إنها إن صحت تكون دليلاً على أن الحيض تطلق عليه كلمة قرء، ولا مشاحة فى ذلك وليست دليلاً على أنه المراد فى الآية الكريمة، وأما قول عمر إن عدة الأمة حيضتان، فهو سير على رأيه فى تفسير القرء بالحيضة، ولا يدفع رأى صحابى برأى صحابى مثله بل يختار أقواهما، والاستدلال بآية ﴿وَاللَّائِي يَسْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ ...﴾ [الطلاق] لا ينتج؛ لأن الأقراء إذا فسرت بالطهر لا تكون إلا لذات الحيض، إذ هو فاصل بين حيضتين.

وقد استدل لهؤلاء الذين فسروا الأقراء بالأطهار بأدلة من الكتاب والسنة واللغة والرأى:

أما الكتاب والسنة فقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ...﴾ [الطلاق] وقد وردت السنة بأن الطلاق لا يكون فى الحيض، ولا يتصور أن يكون الطلاق فى العدة مع نهى النبى ﷺ عن الطلاق فى الحيض إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض.

وأما استدلالهم باللغة والرأى، فلأن القرء معناه الجمع، يتم فى الطهر لا فى الحيض؛ لأن الحيض، مؤداه أن يرخى الرحم فيخرج الدم، فهو تفرغ لا جمع، والجمع فى الطهر.

ولأن القرء معناه فى اللغة الانتقال، فيكون المطلوب ثلاثة انتقالات، وهى الانتقال من الطهر إلى الحيض، ثم من الحيض إلى الطهر، ثم من الطهر إلى الحيض وبه تتم العدة، وذلك يقتضى أمرين:

أولهما: أن يفسر القرء بالأطهار؛ لأنها التى بها تتحقق الانتقالات الثلاثة، ولا يفسر بالحیضات؛ لأن بها تتحقق انتقالات أربعة لا ثلاثة.

الأمر الثانى: أنه يحتسب من الأطهار الثلاثة الطهر الذى حصلت فيه الطلقة.

وفى الحق أننا بعد ذلك الاستدلال الطويل غيبل إلى رأى عمر وعلى وابن مسعود، وهو رأى الحنفية؛ لأن الأساس فى تقدير العدة بالاتفاق هو الحيض، سواء أفسرنا القرء بالطهر أم بالحيضة؛ لأن الطهر زمن بين حیضتين، والمناسب أن يكون الحيض هو وحدة التقدير؛ لأنه الأمر الإيجابى فى المقام، والطهر أمر سلبى، ولأنه المناط المفرق بين الحامل وغير الحامل، والمفرق بين العدة بالأشهر، والعدة بالأقراء.

وقبل أن نترك هذا المقام نشير إلى أن قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ خاص بالمعتدات من المطلقات ذوات الحيض غير الحوامل، أما غير المطلقات وهن المتوفى عنهن أزواجهن فقد بينت عدتهن بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ (٢٣٤) [البقرة].

وأما الحوامل فقد بينت عدتهن بقوله تعالى: ﴿... وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ...﴾ (٤) [الطلاق].

ومن لا يحضن لباس من الحيض، أو لأنهن لم يرين الحيض، فقد ثبتت عدتهن بقوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَكْتُمْنَ مِنَ الْمَخِضِّ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ...﴾ (٤) [الطلاق].

﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أودع الله أحشاء المرأة أمانات ناط بها أحكاما، فكانت الأمانة على تلك الأحكام كما كانت الأمانة بمقتضى نظام الله فى الكون، على الأنساب والأولاد، وبمقدار عظم الأمانة كان عظم التكليف؛ لذلك قرر سبحانه وتعالى أنه لا يحل لهن أن يكتمن أمانة الله التى خلقها فى أرحامهن من ولد لينسبه إلى غير أبيه، فإن ذلك خيانة للأمانة وكذب على الله،

وافترء على الحق، وكذلك لا يكتمن ما خلق فى أرحامهن من دم تلفظه الأرحام بعد أن خلقه الله سبحانه وتعالى فيها، وذلك لتطول العدة ويمتد الإنفاق، كما كان يفعل ذلك كثيرات من نساء هذا العصر، مما اضطر الحكومة أن تمنع سماع دعوى نفقة المعتدة لأكثر من سنة ميلادية، ولا يزلن مع ذلك يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن!!.

وعبر الله سبحانه وتعالى عن الدم والولد بأنه ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ للإشارة إلى أن الكتمان كذب على الله، ونفى لخلقهِ وتكوينهِ، وفى ذلك مضاعفة الجرم وعظم الإثم، وذلك فوق أن هذا التعبير عام شامل كامل لموضوعى الإنكار والكتمان وهما الحمل والحيض.

وقد قرن سبحانه وتعالى النهى عن الكتمان بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ للحث على عدم الكتمان، والإخبار بما خلق الله، لتستقيم الأحكام، وتتقرر الحقوق، وفى ذلك تعظيم لأمر الكتمان، بأنه ينافى الإيمان، لأن الإيمان يبعث على الصدق، ويدعو إلى المحافظة على الأمانة، وليس من المحافظة على أمانة الله ووديعته جحودها وكتمانها، وما ترتب على ذلك من ضياع الحقوق التى تعلقت بها، والاستهانة بأحكام الله سبحانه وتعالى التى ناطها بها، وأى مؤمنة ترضى لنفسها أن تعاند أحكام الله، وتخون أمانته، وتجحد وديعته!!.

وفوق ذلك فى هذه الجملة السامية تهديد ووعيد، باليوم الآخر، وما يكون فيه من عذاب شديد، ثم ما يكون فيه من إظهار ما كتم، وكشف ما أسر، وإظهار ما أخفى.

هذا وقبل أن نترك الكلام فى هذا الكلم المحكم نقرر أن الفقهاء مجتمعين قرروا أن القول قول المرأة فى الإخبار عن عدتها، ابتداء وانتهاء، ولكن قرروا مع ذلك أمدا ينتهى للكتب الفقهية، فإننا لا نمس من أقوال الفقهاء إلا ما له صلة بفهم ألفاظ القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى بكل شئ محيط.

﴿وَبَعُولُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ في هذه الجملة السامية بيان لبعض المقاصد الشرعية التي أَرادها الشارع الحكيم من شرعية العدة، وهو أن يكون لدى المطلق فرصة مراجعة نفسه، بعد أن تكون قد ذهبت عنه نوبة الألم التي أدت إلى الفراق، وقد تكون سحابة صيف نقشت، وعارضا قد زال، وفي هذا بيان لعلاج الله سبحانه وتعالى لنفوس المطيقين، إذ جعل لهم وقت التريص من جانب المرأة، وقت تروية وتدبر من جانب الرجل، وفرصة لائحة لمن يريد الإصلاح من الأهل والعشيرة، وكل من يهمهم أمر الزوجين، وما كان بينهما من ثمرة لهذا الزواج، والبعولة هم الأزواج، قال فيه الزمخشري: إنه جمع بعل على وزن فعول، ولكن ألحقت به التاء، وجوز أن تكون مصدرا على وزن فعولة أريد به الجمع، أو يكون الكلام على حذف مضاف تقديره أهل بعولة.

وتسمية المطلق بعلا، بعد أن أوقع الطلاق فعلا، دليل على أن الطلاق الرجعي الذي تجوز فيه المراجعة لا تنفصم به عرى الزوجية، بل تستمر قائمة، ويعتبر المطلق زوجا، وتعتبر المطلقة زوجا أيضا، وكذا يتوارثان إذا مات أحدهما والعدة قائمة.

وفي اعتبار كل مطلقة زوجة إذا كان الطلاق الأول أو الثاني وهي ذات عدة ما دام الطلاق من غير فداء بالمال - إشارة إلى أن الطلاق الأول والثاني رجعي دائما ما دام إلى عدة، ومن غير فداء، وهو مذهب الجمهور من الفقهاء، فقد قرروا أن ذلك حكم الشارع، وأنه لا يسوغ للمطلق أن يجعل بائنا ما اعتبره الشارع رجعيا، وخالف في ذلك الحنفية وقالوا: إنه يسوغ للمطلق أن يجعل الطلاق بائنا ولو كان بعد الدخول ودون الثالثة ومن غير فداء؛ لأن الرجعة حقه فله أن يسقطها.

ولكن الجمهور يرون أن الشارع الذي أعطى الزوج حق الطلاق هو الذي قيد ذلك التقيد فالرجعة ليست حقا مطلقا للزوج ولكنها فرصة، وقيد في الطلاق، فلا يرفع القيد، ولا يزيل الرخصة التي رخصها الله سبحانه وتعالى له، ونظم بها أمر

الطلاق، ولكنه يستطيع ألا يتنفع بها من غير أن يسقطها، فإنها لتدارك ما فاته، إن جمحت به نفسه، فنطق بالطلاق ثم تبين خطؤه.

وإن تسمية المطلق زوجا أو بعلا فهم منه فقهاء الحنفية أن الطلاق الرجعي لا يزيل الحقوق الزوجية ما دامت العدة قائمة، والتربص فيها لازما؛ ولذلك لا يعتبرون الرجعة إعادة للزواج، أو فى معنى إنشائه، بل يعتبرونها استدامة لأحكام الزواج واستمرارا له؛ لأنه لم يزل ما دامت العدة قائمة؛ ولذلك لا يعتبرون الدخول بها حراما قبل النطق بالرجعة، ويعتبرون الدخول نفسه رجعة، وفهموا أن الرد فى قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ معناه الاستدامة والاستمرار على أحكام الزواج.

ولكن الشافعية فهموا أن الرجعة ليست استدامة لأحكام الزواج، ولكنها إعادة له؛ ولذا لم يسوغوا الدخول قبل النطق بالرجعة، والدخول لا يعتبر رجعة لأنه قبل النطق بها حرام، والحرام لا يكون سببا لنعمة الحلال.

والرجعة عمل من جانب الزوج وحده، وليس فيها مهر جديد، ولا تعتبر عقدا يحتاج إلى رضا المرأة، وقد اشترط بعض الشافعية والحنابلة الإشهاد عليها لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ...﴾ (٢) [الطلاق] وكان ذلك القول الكريم بعد بيان الطلاق والرجعة، والحنفية استحسنا الشهادة فى الرجعة القولية ولم يوجبوها.

وقد قيد الله سبحانه وتعالى جواز الرجعة بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أى أن الرجل لا يسوغ له أن يفكر فى الرجعة إلا إذا حاول إصلاح حاله، وتقويم معوج نفسه، وحملها على الاستقامة فى المعاملة، والعمل على خير الأسرة، وإبعاد الغضب عن أن يكون حكما فى الحياة الزوجية، كما يحاول أخذ زوجه بالرفق، والتقويم بالموعظة الحسنة، وتقريبها بالمودة الواصلة، مع الإرشاد الحكيم، والإعراض عن البهتان، وتجنبها الزلات، وسياسة الأسرة على أسس قوية من الرحمة ولطف العشرة، والحزم الصادق، من غير إرهاق، ومن غير إعنات، وتعجبنى كلمة حكيمة قالها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقد قال: (يعجبني الرجل يكون فى أهله كالصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلا).

فإن راجع الرجل روجه وهو على هذه النية فقد اختار الطريقة المثلى، وسيكون التوفيق من الله، وإن راجعها فى نوبة رضا غير مدركة، ولم يفكر فى الأمر فعسى الله أن يحدث أمراً، وإن راجعها على نية الكيد والأذى والمضارة فهو إثم عند الله، والله عزيز حكيم.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ هذا هو القانون العادل الشامل، نطق به القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً، وقد شرعه الإسلام فى وقت لم يعترف أى قانون من قوانين العالم بأن للمرأة أى حق من حقوق، وفرضت عليها القوانين فى العصور الغابرة كل الواجبات، فجاء الإسلام ووضع تلك القاعدة العادلة، وهى أن الحقوق يجب أن تكون متكافئة مع الواجبات، فما على الإنسان من واجبات يكافئ ماله من حقوق، وما من حق إلا تعلق به واجب، فإذا كان للرجل سلطان فى البيت وعلى المرأة واجب الطاعة، فلها حق، وهو العدل . . وإذا كانت المرأة قارة فى البيت قائمة بشئون، وفرض عليها ذلك الواجب فلها حق الإنفاق . . وإذا كان عليها أن تعد البيت إعداداً حسناً بمقتضى العرف فلها حق المهر . . وإذا كان عليها أن تؤنس زوجها، فعليه ألا يوحشها، وقد أدرك ذلك المعنى الجليل، وهو التساوى بين الحقوق والواجبات الصحابة الأولون، حتى أن ابن عباس كان يقول: (إنى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى).

وإن التساوى بين الحقوق والواجبات ليس مقصوراً على ما بين الرجل والمرأة، بل إنه قانون شامل سنه الإسلام وأيده العقل، وبه يقوم العدل، فقد جعل الواجب على المرء بمقدار ما له من حق، وعلى هذا السنن المستقيم جعل الإسلام عقوبة العبد نصف عقوبة الحر؛ لأن الرق الذى أسقط بعض حقوق آدمية، أسقط أيضاً بعض واجباتها.

وليس معنى أن الواجبات على المرأة مساوية للحقوق التى لها على الرجل أن المرأة مساوية للرجل من كل الوجوه، فإن الإسلام قرر فقط تساوى الحقوق والواجبات، بالنسبة لها وليس لذلك علاقة بشأن المساواة بينها وبين الرجل فى نوع

الحقوق والواجبات، ولكي لا يفهم أحد هذا المعنى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ فالرجل ليس مساويا للمرأة، وليست المرأة مساوية الرجل؛ لأن قانون المساواة يوجب أولا تحقق الماثلة، ومن البدهة أنه لا ماثلة بينهما، فهما وإن كانا من جنس واحد إلا أنهما نوعان متقابلان غير متماثلين، وإن كان كلاهما متما للآخر، ومن ازدواجهما يتكامل النوع الإنساني، ويسير في مدارج الكمال.

وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين، فلا بد أن يشرف على تهذيب الأسرة، ويقوم على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين، وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة فوجد الرجل أملك لزام نفسه، وأقدر على ضبط حسه، ووجده الذي أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه، فجعل له الرياسة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ...﴾ (٣٤) [النساء].

هذه هي الدرجة التي جعلها الإسلام للرجل، وهي درجة تجعل له حقوقا، وتجعل عليه واجبات أكثر، فهي موازنة كل الموازنة لصدر النص الكريم فإذا كان للرجل فضل درجة، فعليه فضل واجب.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قيد الماثلة بين حقوق المرأة وواجباتها بالمعروف، كما قيدها بما للرجال من درجة تضاعف واجباتهم، والتقيد بالمعروف معناه التقيد بالأمر الذي لا تستكره العقول، بل تقره وترضاه، ويتعارفه العقلاء، فلا يطالب الرجل بخدمة البيت كما تطالب بها المرأة.

فعلى المرأة أن تقوم بواجباتها، وتطالب بحقوقها بالنسبة لنفسها ولأولادها في دائرة العقل، والعرف المستمد من قضايا الحق والعدل، وألف العقول والفضلاء؛ لأنه لا يستقيم أمر الأسرة بغير ذلك التقيد العادل، وذلك التوزيع الحكيم.

ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي ذلك دلالة على ثلاثة أمور:

أولها - أن تلك المماثلة بين الحقوق والواجبات فى الحقوق الزوجية بل فى كل شئون الاجتماع الإنسانى، هى مقتضى الحكمة الإلهية والعدل الربانى، وإن ذلك أقصى ما تصل إليه المعاملة الإنسانية من سمو.

ثانيها - إن الله سبحانه وتعالى القاهر القادر العزيز هو الذى أعز المرأة بعد ذلها، وأعطاه حقوقها بعد هضمها، وليس لها أن تطلب العزة من غير شرع الله فهو الملجأ والمعاذ لكل ذى حق مهضوم، وقد أعلاها بعد خفض، وكرمها بعد المهانة، فما يسوغ لامرأة مسلمة من بعد أن تتمرد على حكم العزيز الحكيم، وإن حكمته اقترنت بعزته، فما للرجل من درجة هو مقتضى الحكمة، والله بكل شىء محيط.

ثالثها - إشعار الرجل بأن الله فوقه، وهو القادر القوى الغالب، وهو المعز المذل، الحكم العدل اللطيف الخبير، فإن تجاوز الرجل شرعه، وعدا ما حذره له الكبير المتعال، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وناله عقابه وحرم من ثوابه.

تلك شريعة الله العادلة، فليتدبرها الذين يشترطون فى القول والعمل، وليعلموا أن القرآن أول صوت سجل حقوق المرأة المعقولة كاملة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢٧) [ق].

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ

فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ

هُمُ الظَّالِمُونَ

ذكر سبحانه وتعالى في الآية السابقة شرعية الطلاق، ومداه إذا طلق الرجل امرأته المدخول بها طلقة رجعية؛ وفي هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى الحد الذي ينتهي فيه ما للرجل من حق المراجعة، فيبين سبحانه وتعالى أن الرجل ليس حرًا يطلق ثم يراجع، ثم يطلق ثم يراجع لغير حد محدود؛ ولقد قيل إن الرجل في الجاهلية كان يطلق ويراجع لغير عدد ولا حد فتضطرب حياة المرأة؛ وقد يتخذ ذلك للكيد والأذى، لا للعشرة الحسنة، والرغبة في البقاء؛ ولقد روى أن رجلاً قال لامرأته: والله لا أويك ولا أفارقك! قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾.

وسواء أصبح هذا سبباً لنزول الآية أم أن الآية مقترنة بالآية قبلها متممة لموضوعها مقيدة لإطلاقها؛ فقد ذكرت الأولى أن المطلق أحق بامرأته ما دامت العدة قائمة، ثم بينت هذه وهي الثانية أن ذلك ليس على إطلاقه إنما هو مقيد بالطلقتين الأولى والثانية، أما الثالثة فقد ذكر من بعد حكمها، وهو أنها لا تحل له حتى تتزوج زوجاً غيره.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ كلمة الطلاق في هذه الجملة السامية؛ ذكر الزمخشري أن المراد بها التطليق، كالسلام بمعنى التسليم؛ أي أن التطليق الشرعي الذي يقره الشارع ويسوغه هو الطلاق الذي يكون على التفريق، واحدة بعد واحدة، ومرة بعد مرة؛ وليس التطليق الذي يكون بالإرسال مرة واحدة، وعلى هذا التخييج الذي ساقه الزمخشري يكون مساق الآية لتقرير أن الطلاق الشرعي لا يكون دفعة واحدة، بل يكون مرة بعد مرة؛ وتكون التثنية في هذه الحال لبيان التكرار لا للعدد، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ...﴾ [الملك] وكقول: (لبيك اللهم ليك) ويكون قوله تعالى من بعد: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَانٍ﴾ لبيان الغرض من التكرار وهو أن يكون بعد كل طلاق فرصة مراجعة نفسه ليمسك زوجته ويقيها معاملاً لها بالمعروف لدى أهل العقول المستقيمة الذي لا ينكره عقل ولا شرع، أو يصبر على طلاقها، وإخراجها.

وإن ذلك التخريج يستقيم فى ذاته، ولكن قرن بالآية الكريمة بعد ذلك. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ...﴾ (٢٣٠) [البقرة] فدل هذا على أن المراد حقيقة الثنية، لأن بعد الثانية الثالثة.

ولذلك نختار التخريج الثانى، وهو أن الطلاق فى قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ آل فيه للعهد الذكرى، أى الطلاق المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ (٢٣٨) [البقرة] فالطلاق المذكور هو الذى يكون فيه للزوج حق مراجعة زوجته فيه؛ فالسياق يكون لبيان الطلاق الذى تبقى معه عصمة الزوجية؛ ولذلك قال بعد ذلك: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ...﴾ (٢٣٠) [البقرة] فهو ذكر حكم المرتين، ثم ذكر من بعد ذلك حكم الثالثة، وتكون الثنية على هذا التخريج المستقيم من كل الوجوه على حقيقتها لا لمجرد التكرار.

ومهما يكن السياق، فإن قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾، يستفاد منه أن الطلاق لا يقع العدد به مرسلاً دفعة بل هو دفعات ومرات، وكل واحدة منها يتخللها رجعة أو عقد جديد؛ وذلك ليتحقق المقصد الحكيم الذى قصد إليه الشارع من عدد الطلاق، وإعطاء فرصة المراجعة بعد كل طلاق نحو ثلاثة أشهر، ثم تكرار تلك الفرصة، حتى إذا كانت الثالثة فصم ذلك العقد الذى أصبح بقاؤه شراً، ﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ...﴾ (١٣٠) [النساء]، وأصبح من الضروري أن يكون ثمة تجربة قاسية، عساها تصلح من قلب الناشئ منهما.

وذلك ما فهمه السلف الصالح، فما كان الطلاق يقع دفعة واحدة، بل كان يقع دفعات، لكيلا يقطع الرجل السبيل على نفسه، ولكيلا يتعدى حدود الله، وكما قال الله تعالى فى هذا المقام: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق]؛ فلعل الله فى مدة العدة أو بعدها إذا طلق واحدة، أو اثنتين على دفعتين، أن يحدث أمراً بإحلال المودة محل العداوة، والرحمة محل البغضاء، فتستأنف حياة زوجية هنيئة سعيدة.

وإذا أوقع الرجل الطلاق دفعة واحدة، ولم يوقعه على ثلاث مرات، أو أوقعه في مجلس واحد متتابعاً، أو أوقعه في مجالس متفرقة، فما حكمه، وما مؤداه؟
 لا شك أن صريح الآية أن الطلاق لا يقع مرة واحدة، فلا يقع الطلاق الثالث بلفظ الثلاث ثلاثاً، ولكن يقع طلقة واحدة لأنه مرة واحدة، وليس ثلاث مرات، ولكي يكون ثلاثاً يجب أن يكون ثلاث مرات.

وذلك لأن اقتران الطلاق بكلمة ثلاث لا يجعله ثلاث مرات، بل إنه مرة واحدة، ولو وصفه بالمائة، كمن يقول أحلف بالله ثلاثاً، فهو يمين واحدة، وكمن يقول قرأت هذه السورة ثلاث مرات، وقد قرأها مرة واحدة، فهو كاذب.

إن كلمة المرة توجب أن يكون الطلاق في حال واحدة، ولسبب واحد، وفي مجلس واحد، ولغاية واحدة، مرة واحدة ولا يخرج عن كونه مرة واحدة، تعدد الألفاظ في المجلس، أو لأجل السبب، أو لهذه الغاية؛ ولهذا قرر كثيرون من العلماء منهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وطائفة من شيوخ قرطبة، منهم ابن زبائغ، ومحمد بن بقى، ومحمد بن عبد السلام، وإصينغ بن الحباب، أنه يقع واحدة؛ وكل أولئك قد اختاروا رأى ابن عباس.

وقد روى عن بعض الصحابة كعلي بن أبي طالب وأبى موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وقاله من بعدهم بعض التابعين، ثم تتابع العلماء يقولونه.

وقد روى طاووس عن ابن عباس أنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وستين من خلافة عمر بن الخطاب طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر رضي الله عنه: (إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم فيه أناة فلو أمضيته عليهم) فأمضاه.

هذا تفسير قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، وهذا ما فهمه منه بعض العلماء تابعين لبعض الصحابة والتابعين؛ ولكن الأئمة الأربعة يرون أن الطلاق المقترن بالعدد لفظاً أو إشارة يكون ثلاثاً أو اثنين على حسب ما اقترن به؛ وقد قال العلماء

إنه قد اتفق عليه أئمة الفتوى، وكان غيره من الأقوال من شواذ الفتيا الذى لا يلتفت إليه وقد استندوا إلى الأخذ بفتوى عمر، وادعوا أن الإجماع قد انعقد عليه، ومن المؤكد أن طائفة كبيرة من الصحابة كانت على ذلك الرأى، وما كان لمثلهم أن يقولوا ما يخالف ظاهر القرآن من غير سند من حديث صح عندهم، والآية الكريمة تبين ما ينبغى، ولا تبين بطلان سواء، وأنه لا يقع إلا ذلك النوع من الطلاق (١).

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ الإمساك بالمعروف هو العشرة الحسنة، والمعاملة الرفيعة بأهله؛ فالمعروف هو الخلق الفاضل الذى تعرفه العقول السليمة، وتدركه الفطر المستقيمة، وتعالج به النفوس، وتطمئن به القلوب والتسريح إرسال الشيء وتفريقه؛ ولذلك يقال سرح الشعر، أى فصله وفرقه ليخلص بعضه من بعضه، ويقال سرح الماشية، أرسلها وفرقها فى المرعى.

ولاشك أن لفظ التسريح بإحسان يتضمن مع ما يشتمل من معنى التفريق والإرسال، معنى الرفق فى التفريق، فلا يفرق بعنف، وحرص للنفوس، وخدش للمروءة، ولمكارم الأخلاق، بل يفرق فى رفق وعطف، من غير حرمان، بل بإعطاء من غير منع، كما قال تعالى فى هذا المقام: ﴿وَلَا تَسْوَأُوا الْفُضْلَ بَيْنَكُمْ...﴾ (٢٣٧) [البقرة] فالإحسان فى هذا المقام، بمعنى الرفق والعطف والتسامح المادى والمعنوى، فهو من أحسن إليه، بمعنى أسدى إليه خيراً، أو أدى معروفًا، أو أعطى عطاء.

(١) قال المصنف رحمه الله: الأقوال بالنسبة للطلاق بلفظ الثلاث ثلاثة:

أولها: قول الأئمة الأربعة أنه يقع الثلاث، وقد اعتمد ذلك الرأى على قول عمر ومن معه من الصحابة. وثانيها: قول بعض الشيعة إن الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث لا يقع به شيء؛ لأنه بدعة، فهو جاء على خلاف المنهاج الذى سنة القرآن، وسنه النبى ﷺ للطلاق، والطلاق إنما ثبت فى الحدود الشرعية التى جدها الشارع، وما جاء على خلاف ما حده فهو باطل مهما يكن العدد.

القول الثالث: إن الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث لا يقع إلا طلقة واحدة، وهذا رأى بعض الشيعة، ورأى ابن تيمية وابن القيم وبعض الظاهرية وغيرهم؛ لأن الطلاق الموصوف بالثلاثة لا يكون إلا مرة واحدة بنص الآية، وما دام مرة واحدة فهو يقع واحدة. وقد اختار القانون المصرى ذلك الرأى فى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ (راجع فى هذا الموضوع كتاب «الأحوال الشخصية» وكتاب «ابن تيمية» للمؤلف).

ووقت الإمساك أو التسريح في هذا المقام، مقام ذكر الطلاق ومراته، هو ما بعد الطلقة الأولى أو الثانية، أى أنه بعد إحدى هاتين الطلقتين، إما إمساك بمعروف، بمعنى رجعة على نية البقاء والإصلاح، وإطراح أسباب النزاع والخلاف، والأخذ بالرفق والحسنى، والعيشة الهنيئة الكريمة؛ وإما تسريح بإحسان، بمعنى تركها حتى تنتهى عدتها، ويغنى الله كل واحد عن الآخر من سعيه.

فكان هذه الجملة السامية تشير إلى ما ينبغى أن يكون في فترة الروية والتفكير، وهى الأجل المفروض الذى تتربصه المرأة بعد طلاقها، بأن يفكر فى ماضى أمره، ويقدر عاقبة حاله إن أمضى الطلاق؛ فإن رأى أن الحسنى فى الإبقاء أبقاها على نية الإصلاح من شأنه، والتقويم من معوجه، والأخذ بالرفق؛ وإن رأى أن الخير فى التفريق فرق غير مجاف ولا مشاق ولا مضار، كما قال تعالى: ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ٤٩﴾ [الأحزاب].

وعلى هذا يكون الإمساك بمعروف والتسريح بالإحسان موضعه فى هذا المقام هو فى وقت النظر والتروية، وإن كان الإمساك بالمعروف مطلوباً دائماً.

ولقد قال بعض العلماء: إن المراد من التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة؛ أى بعد الطلقتين الأوليين يتروى فى الأمر فيمسك بالمعروف أو يطلق الطلقة الثالثة.

وعندى أن ذلك التخرج بعيد لوجهين:

أولهما: أن التسريح يكفى فيه بعد الطلقتين أن يسكت من غير مراجعة حتى تنتهى عدتها، ولأن التردد بين الإمساك بالمعروف، والتسريح بالإحسان لا يكون إلا فى وقت يجوز فيه الأمران، والأنسب فى ذلك ما بعد الطلاق؛ وهو المراجعة أو تركها؛ وليس المناسب فى ذلك هو إرداف الطلاق بالطلاق؛ إن ذلك لا يكون فيه تسريح بإحسان، بل فيه تضيق على نفسه وظلم لها، إذ قطع السبيل، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. وفوق ذلك فيه مجافاة ومبالغة فيها بإيقاع طلاق ثان من غير حاجة إليه.

ثانيهما: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ...﴾ [البقرة] ٢٣٠ فإن هذه الطلقة الثالثة، ولو كان التسريح بإحسان هو الثالثة لكانت هذه رابعة، ولم يقل ذلك أحد.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إذا كان الفراق بين الزوجين يجب أن يكون مصحوبا بالإحسان والرفق، وألا ينسوا الفضل بينهم، فلا يصح أن يأخذ شيئا مما آتاها من مال؛ لأن ذلك يكون مجافاة لا إحسانا؛ ولأن ذلك يكون ظلما لا عدل فيه؛ ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [النساء] ٢٠.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾... [النساء] ١٩.

وإن أخذ شيء حرام بلا ريب عند الفرقة، وإن الحرمة سببها ألا يجمع على المرأة أمرين كلاهما مؤذ لها؛ أولها الفراق الذي لا تريده، وثانيهما استرداد ما وهب. وقد يقول قائل: إذا طابت نفسها بذلك فلماذا لا يأخذ؟ فنقول: إذا كان طيب نفسها من غير نشوز منها، والبغض منه هو الذي رغب في الطلاق وأراده، فإن ذلك مكارم أخلاق منها، وفساد نفس منه، ومثل ذلك لا يكون حلالا؛ وليس من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء] ٤. لأن هذه الآية موضوعها حال قيام الزوجية، كما أنه ليس منه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...﴾ [البقرة] ١٧٧. لأن تلك الآية موضوعها الطلاق قبل الدخول الذي يسقط نصف المهر، فإنهما لم تقم بينهما عشرة زوجية، فسوغ العفو منها إذا لم تكن قد قبضت شيئا، أو قبضت دون نصف المهر؛ وسوغ العفو منه إن كانت قد قبضت أكثر من النصف؛ ولذلك لم يكن في ذلك أخذ لما أعطى عند عفوها، بل إسقاط لما يجب، وعساه يكون في عسرة، وعسى أن يكون ذلك سبب الفراق ولم يكن منه أخذ، ولكن كان منها إسقاط، فلا ظلم ولا بهتان.

ولم يسوغ الشارع الحكيم الأخذ إلا إذا خافا ألا يقيما حدود الله، ففي هذه الحال يحل الأخذ. وحدود الله سبحانه وتعالى ما أوجبه من حقوق للرجل على زوجته، ولها عليه، وهى مقاصد الزواج؛ فإن لم يتحقق من الزواج مقاصده، ولم تقم الأسرة الهنيئة التى تربط بين أحادها المودة الواصلة بين الزوجين فأخذ المال جائز.

وتلك الحال التى يخافان ألا يقيما حدود الله، وواجباته، وحقوق كل منهما على صاحبه، تتحقق بسببين:

أحدهما - أن تكون المرأة ناشزا عاصية أو كارهة، كذلك المرأة التى ذهبت إلى رسول الله ﷺ تقول: «والله ما أعتب على ثابت فى دين ولا خلق، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام؛ لا أطيقه بغضا! فقال لها النبى ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» - وهى المهر الذى أمهرها - قالت: نعم. فأمره أن يأخذ منها حقيقته ولا يزداد^(١)؛ ففرق رسول الله ﷺ بينهما بطريق الخلع، ويقال إنه كان أول خلع فى الإسلام.

وأحيانا تكون المرأة كارهة ولا تبدى بغضها بهذه الصراحة، ولكنها تثير الشغب فى البيت لأتفه سبب، وتعصى زوجها، وتقوم بالكفر فى الإسلام، ولا تتورع عنه، وهذا ما كرهت امرأة ثابت بن قيس التى جاءت الرواية بأمرها.

ثانيهما - أن يكون بالمرأة عيب مستحكم ولا يمكن معه القيام بالحقوق الزوجية، فإن أخذ المال فى هذه الحال يكون سائغاً، وإن لم يكن نشوز ولا عصيان؛ ولذلك سوغ الحنابلة والمالكية أن يطلب الرجل من القاضى التفريق على أن يأخذ ما أعطى أو بعض ما أعطى، وإن لم يعتبر التفريق خلعاً.

وإن هذين السببين كلا منهما يدل على أن أخذ المال جائز إذا كان سبب الفراق من جانبها، أو سبب عدم القيام بحدود الله وتحقق العدالة من جانبها؛ ولكن الآية الكريمة مطلقة لا تقيد فى جواز الأخذ بكون النشوز من جانبها أو من جانبها، بل

(١) هذا لفظ ابن ماجه: الطلاق (٢٠٤٦)، ورواه البخارى: الطلاق (٤٨٦٧)، والنسائى (٣٤٠٩).

يقول سبحانه في الاستثناء: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾. وذلك كما يكون عندما يكون الشوز من جانبها، يكون عندما يكون من جانبه.

وإن ذلك العموم قد يبدو بادی الرأى، ولكن المتأمل البصير فى عبارات الجملة الكريمة يستنبط من إشاراتھا أن جواز الأخذ مقصور على الحال التى يكون الشوز من جانبھا أو سببھ من جانبھا، أو على الأقل كان الجانب الأكبر منه يتصل بھا؛ وذلك لأنه عبر عن حال جواز الأخذ بالأخافا ألا يقيما حدود الله وحال الخوف الذى يكون من جانبھما معاً لا من جانبھا وحدها تكون فى الحال التى يكون السبب من جانبھا؛ وذلك لأنه مفروض أن الخوف الذى يكون هو الخوف الذى يكون سببھ لا ظلم فيه؛ وذلك فى غالب الأحيان لا يتحقق إلا إذا كان السبب من جانب المرأة؛ لأنه إن كان من جانب الرجل فهو ظلم؛ إذ يملك أن يطلق، ولا يقال إنه إذا خاف أن يظلم يجوز أن يأخذ المال؛ لأن أخذ المال فى ذاته ظلم إذا كان البغض من جانبھ؛ لأنه يكون داخلا فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ...﴾ [النساء] وخوف الظلم لا يبرر ظلماً آخر، وخصوصاً إذا كان ثمة مندوحة عنه، ويكون داخلا فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّعْتَدُوا...﴾ [البقرة] وفوق ذلك فإن النسق القرآنى قد جعل للرجل حاليين، وهى حال الطلاق الذى لا يحل فيه الأخذ، وحال جواز الأخذ، وكلاهما لا يجوز إلا إذا تعذر قيام الحياة الزوجية على أسس الإصلاح والصلاح، وقد جعل الطلاق إذا كانت النفرة من جانبھ، فكان السياق يوجب أن يكون الافتداء إذا كانت الفرقة من قبلھا؛ فهذه حال وتلك حال؛ ولذا قال أهل البصرة من النحويين: إن الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن؛ لأن ما بعد إلا غير داخل فى عموم ما قبلھا، بل هو حال مغايرة له.

وأخيراً إن قوله تعالى عن إعطاء المال بأنها تفتدى نفسها، أى تخلص نفسها بفداء تقدمه، دليل على أن خوف عدم القيام بحدود الله هو من جانبھا، أو على الأقل هو من جانبھا أظهر.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الجناح معناه الإثم، من جنح بمعنى مال. والافتداء معناه تخلص النفس بمال يبذل لتخليصها، ودفع الأذى عنها؛ وأصله من الفدى والفداء بمعنى حفظ الإنسان نفسه عن النائبة بما يبذله.

والخطاب فى الآية إما أن يكون لجماعة المؤمنين من حيث إنهم متعاونون فيما بينهم، بحيث وجدوا الشر بين الزوجين؛ وإما أن يكون خطاباً لجماعة الأزواج الذين كان بينهم وبين نسايتهم ما يخشى معه ألا يقيم كلاهما حدود الله التى رسمها للحياة الزوجية؛ فالخطاب لإباحة الأخذ والفداء.

وعندى أن جعل الخطاب لجماعة المؤمنين أولى بالاعتبار؛ فإن على من يعرف ما بين الزوجين أن يتدخل بالنصح والإرشاد وبيان حكم الله؛ ولذلك كان الخطاب عاماً لجماعة المؤمنين بقوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ ونفى إثم الأخذ خاصاً بالزوجين؛ ولذا قال ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ ولقد فهم بعض العلماء من التابعين من كون الخطاب موجهاً إلى جماعة المؤمنين أن الخلع الذى هو التفريق بين الزوجين فى نظير مال تفدى نفسها به، ولا يكون إلا بأمر ولى الأمر أو القاضى الذى يقيمه ولى الأمر لذلك؛ وقد فهم هذا الفهم الحسن البصرى، وسعيد بن جبير، وابن سيرين؛ وكان يسير على ذلك رأى زياد بن أبيه فى حكمه، وقد كان مقبول الولاية من عمر وعلى، وكلاهما مكانته فى الفقه مكانته.

وإن قصر الخلع على السلطان على هذا المذهب لا نحسبه صواباً؛ ولكن نرى أن الأولى أن يقال: إن الخلع كما يجوز بتراضى الزوجين إذا خافا ألا يقيما حدود الله، كذلك يجوز بأمر القاضى إذا تبين له بعد تحكيم الحكيمين أنهما لا يقيمان حدود الله بسبب نفرة المرأة من الحياة الزوجية؛ وذلك ما نص عليه فى مذهب مالك رضى الله عنه؛ فقد جاء أن الأمر إذا فسد بين الزوجين، ولم تعلم له أسباب ظاهرة حكم الحكمان، فإن تبين أن العشرة بينهما غير ممكنة، فرقا بينهما، وجاز أن يكون التفريق خلعاً إذا كانت الإساءة من جانب المرأة.

ومن صريح الآية يتبين أن الخلع لا يكون إلا إذا خافا ألا يقيما حدود الله؛ ومن سياق الآيات وتناسقها، وإشارة الآية الكريمة وصريح الحديث النبوي يفهم أن الخلع يكون حيث تكون النفرة من جانب الزوجة؛ ولذلك قال ابن رشد في بيان المقصد من شرعية الخلع: (الفقه أن الفداء إنما جعل للمرأة في مقابل ما بيد الرجل من الطلاق، فإنه لما جعل الطلاق بيد الرجل إذا فرك^(١) المرأة، جعل الخلع بيد المرأة إذا فركت الرجل) ولهذا قال الظاهرية إن الخلع لا يكون إلا إذا كان النشوز من جانبها؛ لأنه إذا كان النشوز من جانبها يكون النهى عن أخذ المال لوقوعه في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا...﴾ [البقرة] وقرروا أنه لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطى، ولكن الحنفية والمالكية والشافعية سوغوا الخلع في كل الأحوال، وبأى قدر من المال، وإن كرهوا الخلع إذا كان النشوز من قبله، وكرهوا أخذ أكثر مما أعطى.

هذا وللفقهاء خلاف طويل في شأن الخلع، نتركه لكتب الفقه^(٢).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

بعد بيان أحكام الطلاق وعدده وأحواله، قال سبحانه ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ والإشارة إلى ما تقدم من الأحكام، والإشارة للبعيد لبيان علو قدرها، وعظم منزلتها، وجلال ما فيها من مصالح ظاهرة بينة لذوى الألباب؛ وسمى تلك الأحكام حدود الله للإشارة إلى أنها فاصلة بين الحق والباطل والظلم والعدل، والمصلحة والمضرة؛ وإضافتها إليه سبحانه وهو العليم الخبير البصير إشارة إلى أنه لا ينبغي أن

(١) الفرق: البغض يكون بين الزوجين.

(٢) قال المصنف رحمه الله: لا مانع من أن نشير هنا إلى أن الخلاف في موضعين:

أولهما: في وصفه الفقهي. فالحنابلة والشافعي في أحد قوليه وهو أرجحهما قالوا: إنه فسخ لا يحتسب من عدد الطلقات، والحنفية والمالكية قالوا: إنه طلاق يحتسب من عدد الطلقات، ولكنه طلاق بائن، وروى عن سعيد بن المسيب أنه طلاق، ولكن عند المراجعة يرد ما أخذ.

ثانيهما: في سببه وطريقه ومقدار المال، فقال بعضهم: إنه لا يجوز إلا من السلطان، وكلام المالكية يفهم منه أنه يجوز من السلطان بعد تحكيم الحكيم، وجمهور الفقهاء على أنه لا يقع إلا بتراضى الزوجين، وقال الظاهرية: إنه لا يكون إلا إذا كان النشوز من قبلها، ولا يقع إذا كان النشوز من قبله، وقال بعض الحنابلة إنه إن كان النشوز من قبله لا يثبت المال ويقع الطلاق، ويثبت الخلع عن الجمهور في الحالين وبأى مقدار، ولكن يحرم ديانة لا قضاء أن يأخذ أكثر مما أعطى. وعندى أن رأى الظاهرية أوضح الآراء.

يتطرق الريب إليها، وأن من يخالفها يعاند الله ويحاربه، ويتجنب الصالح، ويتبع الطالح، ويترك النافع إلى مافيه الضرر فى الدنيا والآخرة.

وإذا كانت تلك الأحكام حدوداً فلا يصح تجاوزها وتركها، وإلا كان معتدياً على حرمان الله، متهمجماً على شرع الله؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فالفاء هى فاء السببية التى تبين أن ما قبلها سبب لما بعدها؛ أى أنه إذا كانت تلك الأحكام حدود الله ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتجاوزوها إلى الشقة الحرام، وإلا كان الردى وسوء العقبى وفساد المال؛ لأن تلك الحدود عدل الله القائم إلى يوم القيامة، وهى عدله فى الأسرة التى هى عماد المجتمع، وبها قام بنيانه، فإذا قامت على الظلم انهار المجتمع من دعائمه.

ولقد ذيل الله سبحانه الآية الكريمة بقضية عامة هى فى عنق التاركين لأحكام الله إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ من يترك أحكام الله سبحانه وتعالى التى شرعها فى قرآنه، وبينها على لسان نبيه الكريم، فإنه بسبب تركه لها ظالم لنفسه، وظالم لجماعته، وظالم فى الحكم بين الناس.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى الحكم على من يترك شرع الله بالظلم، فقد ربط بفاء السببية بين التعدى لحدود الله والحكم بالظلم، وتكرار الربط بالسببية للتوكيد، وعبر بالإشارة مع وجود ما يغنى عنها لتأكيد معنى السببية، أى أن السبب فى ظلمهم تحملهم لتلك المخالفة والمعاندة لحدود الله ولله، وأردف ذلك بقوله «هم» وهو للتأكيد؛ ثم عبر بالجملة الاسمية للإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم ووصف ملازم لهم ما داموا تاركين لحدوده؛ ثم كان القصر، أى قصر الظلم عليهم، وهو قصر حقيقى.

ولماذا كان ذلك التأكيد الشديد؟ كان لسببين:

أولهما: أن الإنسان مغرور دائماً، ومحكوم نفسياً بأمور زمنية، تسيطر عليه الأحوال التى تلبسه، وقد يكون فيها الظلم والضرر، ويتوهمهما العدل والمصلحة،

ويتوهم أن لا مصلحة فى شرع الله ويحاول إخضاع حدود الله لزمانه، أو يتركها، كشأن الناس فى الربا والطلاق وتعدد الزوجات والحدود وغير ذلك، فبين الله سبحانه وتعالى أنهم ظالمون لأنفسهم إن تركوا شرع الله إلى أهوائهم، بل يجب أن تكون أهواؤهم خاضعة لحكم الله، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١).

ثانيهما: المقام الذى سبق فيه ذلك النص الكريم، وهو ما يتعلق بالأسرة، فإن الظلم فيها أقبح الظلم.

وقفنا الله سبحانه لأن ندرك شرع الله، ونؤمن بأنه الحق الذى لا حق سواه، وفيه المصلحة التى يقوم عليها بناء اجتماعى فاضل. والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ
يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى طريقة إيقاع الطلاق، وأنه يكون على دفعات لا دفعة واحدة، حتى لا يضيق الرجل على نفسه، ولا يغلق باباً قد فتحه الله سبحانه وتعالى له؛ ولعل الله سبحانه وتعالى يحدث من بعد ذلك أمراً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [٢٢] [الطلاق]. وبين سبحانه الطلاق الذى يكون للرجل فيه أن يستأنف حياة زوجية؛ ثم بين سبحانه وتعالى الحكم إذا كان الطلاق

(١) سبق تخريجه.

بافتداء المرأة نفسها من الرجل على براءة من صداقها أو بمال تدفعه، أو بإسقاط حقوق مالية نشأت عن الزواج؛ أو نشأت حال قيام الحياة الزوجية.

وفى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه الطلاق الذى لا يمكن بعده استئناف الحياة بل تحرم عليه مؤقتا، وهو الطلاق المكمل للثلاث، فقال تعالى:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أى أنه إن طلقها بعد الطلقتين اللتين سوغ الله سبحانه وتعالى له الرجعة بعد كل منهما فى أثناء العدة، أو عقد زواج بعد انتهائها؛ إن طلقها بعد هاتين الطلقتين فلا تحل له من بعد طلاقه حتى تنكح زوجاً غيره؛ فمعنى «تنكح»: تتزوج بعقد شرعى صحيح.

ففى هذه الجملة السامية بيان لانتهاء الحل بالطلاق الثالث، وإثبات الحرمة ووقوعه؛ كما أن فيها بيان انتهاء ذلك التحريم؛ فهى قد حدثت المبدأ والغاية؛ فمبدأ التحريم من الطلقة الثالثة، وينتهى التحريم بعد تزوج شخص آخر، والدخول بها، ثم تطبيقها من بعد ذلك.

والنكاح المراد فى الآية هو الزواج وظاهر الآية أن الزواج ثم الطلاق من بعده يحلها للزوج الأول من غير حاجة إلى الدخول؛ وبذلك أخذ سعيد بن المسيب؛ ولكن جمهور الفقهاء والتابعين من قبلهم ثم الصحابة أجمعين قد قرروا أنه لا بد من الدخول الحقيقى لكى تحل له، وذلك لنص الحديث المخصص لظاهر الآية؛ فقد ورد فى البخارى ومسلم، ومسند الإمام أحمد، ومسند الشافعى من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة، فطلقنى، فبت طلاقى، فتزوجنى عبد الرحمن بن الزبير، وما معه إلا مثل هذبة الثوب؛ فتبسم النبى ﷺ وقال: «أتريدى أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقى عسيلته، ويذوق عسيلتك»^(١) وواضح أن معنى ذوق العسيلة أن يفضى إليها ويدخل بها.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الشهادات - شهادة المختصين (٢٤٤٥)، ومسلم: النكاح - لا تحل المطلقة ثلاثا لطلقها حتى تنكح (٢٥٨٧) عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

وقد تعددت روايات الحديث بهذا المعنى، فكان حديثاً مستفيضاً مشهوراً، وهو يخصص عموم القرآن الكريم، بل هو فى الحق تفسير لظاهره، وليس بعد تفسير النبى ﷺ لكتاب الله تفسير؛ وعلى هذا انعقد الإجماع قبل سعيد بن المسيب، وانهقد الإجماع بعده؛ فقوله من شواذ الفتيا التى لا يلتفت إليها.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أى فإن طلق الزوج الثانى، فلا جناح على المرأة وزوجها الأول أن يتراجعا، أى لا إثم عليهما فى أن يستأنفا حياة زوجية جديدة؛ فالضمير فى «عليهما» يعود إلى المرأة والزوج الأول؛ لأن العلاقة بينهما هى مساق الآية الأول؛ فقد بينت الآية التحريم بالطلقة الثالثة، وأنه ينتهى بالزواج من الثانى والتطليق منه، ثم صرحت هذه الجملة السامية بابتداء الحل بعد انتهائه، وهو أنه يبتدئ بالطلاق من الثانى وزوال بقايا النكاح الثانى وآثاره بانتهاى العدة؛ فهذه الجملة الكريمة توضيح لابتداء الحل، كما كانت الأولى فيها بيان لابتداء التحريم وإشارة إلى انتهائه.

وعلى هذا سار أكثر المفسرين، وكلامهم واضح بين؛ ولكن اختار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه أن يكون الضمير فى «عليهما» فى قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ يعود على الزوج الثانى والمرأة لا على الزوج الأول فهى كقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا...﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فهى تدل على معنى جديد، لم يتضمنه معنى الجملة التى سبقتها، وهو بيان أن الزواج الثانى يكون ككل أنواع الزواج، وله كل أحكامها وحدودها؛ فلا يكون زواجا مؤقتا، ولا لغرض مؤقت، إنما يعقد للبقاء والدوام ويقصد فيه معنى الزواج كاملا غير منقوص، وقد يتوهم بعض الناس أن الزوج الأول أحق بها، فدفع ذلك بأن المراجعة فى العدة حق ثابت للمطلق الثانى، وهو أولى بمقتضى الحكم العام الذى جاء به النص الذى نوهنا عنه، وهو قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ...﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقد يعترض معترض على ذلك الرأى فيقول: إنه لا يوجد على ذلك الترخيع ما يفيد حلها للأول، فنقول فى رد ذلك الاعتراض: إن الحل بالزواج ثم الطلاق بعد الدخول وانتهاء العدة فهم من انتهاء التحريم بقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ فالتحريم مؤقت بتوقيت زمنى غير معلوم ينتهى بالزواج الثانى، وزوال سائر أسباب التحريم الأخرى.

ومهما يكن من الأمر، فإن السياق يسير على مقتضى رأى الجمهور؛ لأن السياق كله متعلق بشأن المرأة مع زوجها الأول، والكلام فى الزوج الثانى جاء لتتميم الكلام فى الزواج الأول وإنهائه، ومدى ذلك الإنهاء؛ ويزكى ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبر عن عودة الزواج بقوله: ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ وهذا يفيد أن ذلك بعقد جديد، ولو كان المراد الرجعة ما عبر بصيغة المشاركة؛ لأنه ينفرد بها الزوج إن كان الثانى.

وحلها للزوج الأول منوط بأمر دينى مقرر ثابت، وهو أن يكونا قد انتفعا من ذلك الدرس القاسى، وهو الفرقة المحرمة بينهما، وتجربتها عشرة غيره، وتجربته لرؤيتها عشيرة لسواه؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى فى بيان إنهاء التحريم: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فنفى الإثم فى العودة إلى الزوج الأول مربوط دينياً وقلبياً بقصدهما إلى العشرة الحسنة وإرادتهما لها، وظنهما القدرة عليها، وزوال النفرة التى كانت توجب الشقاق والنزاع، وتؤدى إلى الطلاق وتكراره المرة بعد الأخرى.

وقد فهم بعض العلماء أن المراد بالظن هنا هو العلم واليقين؛ فالمراد إن تيقنا أنهما سيقيمان حدود الله، فليس للرجل والمرأة، وقد فرق بينهما تفريقاً بمحرّم بالطلاق الثلاث المتكرر، أن يستأنفا حياة زوجية بعد زوال التحريم إلا إذا علما على وجه الجزم واليقين أنهما سيقيمان فى هذا الزواج الجديد حدود الله بإعطاء كل واحد منهما ما للآخر من حق، ويقوم بما عليه من واجب، لتكون المودة بينهما فى ظل من الرحمن الرحيم.

هذا نظر بعض العلماء فى تفسيرهم الظن باليقين؛ ولكن الزمخشري لم يرتض ذلك النظر، ولم ير أنه يتفق مع الذوق البيانى لمن يذوق كتاب الله؛ ذلك بأن

إقامة حدود الله أمر يتعلق بالمستقبل، والمستقبل مغيب مستور غير معلوم، وما كان للمؤمن ولا مؤمنة أن يجزم في أمر يتعلق بالمستقبل بأنه سيكون على ما ينبغي وما يريد، ولو كان يتعلق بقلبه ونيته؛ فالله سبحانه مقلب القلوب، وهو وحده علام الغيوب؛ بل إن أقصى ما يستطيعه الزوجان في مثل هذا المقام أن يعتزما العشرة الحسنة، ويطحرا أسباب الخلاف التي كانت منها الفرقة الجافية، والتي هي أبغض الحلال إلى الله سبحانه وتعالى، وهما مع ذلك يظنان أن في قدرتهما تنفيذ ما أرادا، واجتناب ما كان منهما قبل تلك التجربة الشديدة.

وإنه لو اوضح كل الوضوح من أن الرجل إذا طلق امرأته مرة بعد مرة، حتى أتم الثلاث، يكون هو وهي في حاجة إلى علاج؛ إذ إن العشرة بينهما صارت غير صالحة للبقاء، وأنهما إن يتفرقا نهائيا يغن الله كلا من سعته؛ فهو وهي يسيران في خطين متقاطعين، لا يلتقيان إلا يصطدمان، فيطلقها، ثم يراجعها أو يعقد عليها، حتى إذا التقيا تنابذا للمرة الثانية وتدابرا، فيطلقها ثم يراجعها أو يعقد عليها، حتى إذا استأنفا حياتهما الزوجية تكررت منهما المأساة؛ إن ذلك هو الكفر في الإسلام، وإن ذلك هو الظلم الذي يجب اجتثاثه من أصله، وذلك بمنعهما من استئناف الحياة الزوجية فقد أثبتت التجربة المبررة أن الزوجية بينهما غير صالحة للبقاء، إما لعب فيه أو لعب فيها أو لعب فيهما، وذلك هو غالب الأحوال؛ لأن أحدهما لو كان خالصا من العيوب التي تتعلق بالحياة الزوجية لصبر على الثاني، ولأصلح بصره حاله؛ ولسارت السفينة في جو هادئ لا يؤدي إلى الفصم والقطع.

وبعد تلك الفرقة المحرمة قد يحدث أن تتزوج زوجاً آخر، وتعاشره معاشرة الأرواح على قصد أن تدوم العشرة بينهما؛ ولكن بعد مدة طالت أو قصرت ينتهي هذا الزواج وتزول آثاره، إما بموت الزوج وانتهاء عدة الوفاة، وأو بتطليقه وانتهاء عدة الطلاق، فيبدو لزوجهما الأول أن يستأنف حياة زوجية وتبادل هذه الرغبة؛ عندئذ ينهى رب العالمين التحريم الذي أوجده الطلاق المكمل للثلاث؛ لأنه عسى أن يكون الزمان والتجربة، وعشرة غيره قد صقلت نفوسهما وأصلحت قلوبهما، ولطفت من حدة النفور منهما.

وترى من هذا أن الزواج الذى ينهى التحريم هو الزواج غير المؤقت الذى لا يقصد به مجرد التحليل للأول، بل الزواج الدائم المستمر، أو الذى يكون على نية الدوام والاستمرار؛ لأن الشارع الكريم جعل نهاية التحريم هو هذا الزواج والدخول فيه ثم الطلاق؛ لتكون تلك التجربة الشديدة المبررة، ولتصقل النفوس الرعناء المتمردة؛ فإذا لم يكن العقد زواجا قصد به البقاء والدوام، ما كانت تلك التجربة، وما كان ذلك الغرض المقصود من الشارع الحكيم.

ولكن الناس ضيقوا على أمرهم ما وسع الله، ثم أخذوا يفكون ما قيدوا أنفسهم به؛ فطلقوا لأدنى ملايسة، وطلقوا الطلاقات الثلاث إما فى مجلس واحد أو بلفظ واحد، أو فى دفعات متقاربة، وقطعوا على أنفسهم الطريق ولم يفهموا قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق] ثم بعد أن سدوا طريق الحلال، وأخذوا يتحايلون لفتحها بمفاتيح من الحرام، فأوجدوا ما سُمى فى عرف الناس والفقهاء «زواج المحلل» أى الزواج الذى لا يقصد به عاقده العشرة الزوجية الدائمة، إنما يقصد به مجرد إحلالها للأول؛ فهو فى الواقع يتحايل على الأحكام الشرعية ليهدمها، لقد جعل الشارع نهاية التحريم أن تنكح زوجا آخر زواجا شرعيا صحيحا يقصد به دوام العشرة، ثم تجيء الفرقة عارضة لتكون تلك التجربة التى تهذب النفوس، وتضبط الإرادة، وتمنع الأهواء من الاندفاع؛ ولكن يجيء الناس فيهدمون مقصد الشارع ويمنعون التهذيب الذى أراده، فيكون ذلك العقد الذى ما قصد به الدوام ولا تتحقق به تجربة، وإن كانت تسقط به المروءة، وتنحرف النفس عن الجادة، ويتحايلون على أوامر الله بذلك ليسقطوها، ويخدعوا الله ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة].

ولقد ابتداء ظهور ذلك النوع من الخداع الدينى فى صدر الإسلام؛ ولذلك نهى عنه النبى ﷺ وشدد فى النهى، وتضافرت بذلك الأخبار عنه وعن الصحابة، وسماه استهزاء بكتاب الله، ونقتبس من تلك الآثار النبوية قبسة تضى للناس فى عصرنا، حتى لا يضلوا، فيضيقوا على أنفسهم واسعا، ثم يجتهدوا فى فتح باب الإثم إذ ضيقوا الحلال، ومن ذلك:

(أ) أنه روى عن ابن عباس أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن المحلل فقال ﷺ: «لا، إلا نكاح رغبة لا نكاح دكسة، ولا مستهزئ بكتاب الله عز وجل لم يذق العسيلة»^(١).

ب - وروى الإمام أحمد والنسائي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له»^(٢).

ج - وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا وموكله وكاتبه وشاهده، والمحلل والمحلل له»^(٣). وهكذا تعددت الروايات والإسناد عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى.

وبهذا الهدى أخذ أصحابه رضى الله عنهم، ولم يعرف مخالف بينهم في أن هذا النوع من العقود حرام؛ ولذلك قال الفاروق رضى الله عنه: (لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما) فاعتبر عمل الأول زنى؛ كذلك الثانى إن عقد بناء عليه، ودخل بها يكون رانيا يستحق كلاهما عليه الرجم.

ولقد جاء رجل إلى عبد الله بن عمر يسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا، فيتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل له؟ قال: «لا، إلا نكاح رغبة؛ كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ».

ولقد روى البيهقي أن عثمان بن عفان رضى الله عنه تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما.

وهكذا استفاضت الأخبار عن أصحاب رسول الله ﷺ، بتحريم نكاح التحليل واعتباره خداعا للشرع. ولقد سئل ابن عباس رضى الله عنه، عن رجل

(١) رواه الطبراني، وراجع جامع الأحاديث والمراسيل - الإكمال من الجامع الكبير (٢٦٢٧٥) ج ٨ ص ٢٩١.

(٢) رواه ابن ماجه: كتاب النكاح - باب المحلل والمحلل له (١٩٢٦) عن عقبة بن عامر - رضى الله عنه.

(٣) رواه أحمد في مسند العشرة (٦٣٤).

طلق امرأته ثلاثاً ثم ندم، فقال: هو رجل عصى الله فأندمه، وأطاع الشيطان فلم يجعل له مخرجاً، فقيل له: فكيف ترى في رجل يحلها؟ فقال: من يخادع الله يخدعه.

ولقد اتفق المسلمون على أن نكاح التحليل حرام إن قصد العاقد به التحليل؛ لتضافر الأخبار بلعن النبي ﷺ له، ولأنه يخادع الشرع الشريف، ويتحایل لإسقاط أحكامه؛ ولأنه ما قصد بالعقد زواج رغبة وبقاء، بل قصد التحليل، فهو عقد مؤقت، وهو منهي عنه؛ ولأن الباعث على العقد ليس أمراً أحله الشارع، وإنما هو نقيض أمره، وكل أمر على خلاف أمر الشارع فهو رد على صاحبه؛ والعبرة في الأمور الشرعية ببواعثها ونياتها؛ لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) فمن نوى أن يخدع الشرع بفعله فعليه إثم نيته، ومن نوى بعقده ما أحله الله سبحانه وتعالى فله نيته.

ومع اتفاق فقهاء المسلمين على أن نكاح التحليل حرام لصريح النصوص، إلا أنهم قد اختلفوا في بطلانه، وفي تحليلها للمطلق الأول بمقتضى ذلك العقد؛ ذلك أن بعض الفقهاء يرون أن النهي عن عقد لا يمنع صحته، فالصحة والحل ليسا متلازمين تلازماً لا يقبل الافتراق؛ فالنهي عن البيع وقت الجمعة لا يقتضى بطلانه والنهي عن الزواج مع تأكيد الظلم إن تزوج لا يمنع صحته إن تزوج مع هذه الحال، وهكذا..

وبتطبيق هذه النظرية عند أولئك الفقهاء على نكاح التحليل نراهم يقررون أنه حرام، ولكنه إن وقع فهو صحيح، ويترتب عليه حلها للأول مع إثم الاثنين أو الثلاثة.

وأما الذين قالوا إن النهي عن عقد يقتضى بطلانه، فقد قرروا أن عقد التحليل إن ثبت أنه للتحليل فهو حرام، وغير صحيح، ولا يترتب عليه حل للأول.
وإنما نبين موضع الخلاف بإجمال؛ فنقول: إن عقد التحليل له حالان:

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري؛ بدء الوحي (١) بهذا اللفظ.

إحداهما: ألا تظهر نية التحليل في أثناء العقد، بل تختفى في أنفس الثلاثة: الزوج الثاني، والأول، والمرأة، فلا ينطق واحد منهم في العقد بهذه النية، ولكنها في أطواء نفوسهم جميعاً؛ وفي هذه الحال قال مالك وأحمد: إن العقد غير صحيح، ولا تحل للأول؛ لأن الأحكام بالنيات، والبواعث والغايات تناط بها الأحكام، وما كان النكاح نكاح رغبة، بل هو نكاح دلسة كما عبر النبي ﷺ، وهو تحايل في شرع الله، فلا يقر عليه المتحايل، والله لا يقرُ أمراً جاء على خلاف ما أمر، وهو داخل في عموم نهيهِ.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إنه في هذه الحال ينعقد العقد صحيحاً مع تحقق الإثم، ويترتب عليه حلها للأول بعد الدخول والطلاق وانتهاء العدة؛ لأن الأحكام تناط بظواهر الألفاظ، والنيات علمها عند الله، وهو الذي يؤخذ عليها.

والشافعي قد أثار عنه قولان: أحدهما وهو القديم كمذهب مالك وأحمد، وثانيهما وهو الجديد، كمذهب أبي حنيفة وفقهاء العراق.

الحال الثانية: أن يصرح بالتحليل في العقد، فيعقد العقد على شرطه، وهذا قال فيه الشافعي: إنه كنكاح المتعة فهو باطل؛ لأنه نكاح مؤقت؛ ومالك وأحمد على أصلهما وهو بطلانه وعدم حلها للأول بمقتضاه؛ والشافعي يوافقهما كما رأينا، وإن كان الأساس مختلفاً؛ فالشافعي أبطله لأنه مؤقت كنكاح المتعة، ومالك وأحمد أبطلاه لذلك، ولأن الباعث عليه حرام، وما كان باعته حراماً فهو حرام.

هذه أقوال الأئمة الثلاثة، وقد وافقهم أبو يوسف من أصحاب أبي حنيفة، من حيث إنه عقد فاسد لا يحلها للأول؛ وقال أبو حنيفة وزفر: يصح العقد ويحلها للأول؛ لأن اشتراط إحلالها للأول شرط فاسد، فهو يلغى ولا يكون لازماً، ويصح العقد، ويحلها للأول بعد استيفاء شروط الحل.

وقال محمد من أصحاب أبي حنيفة: إن عقد الثاني صحيح مع هذا الشرط؛ لأن الشرط يلغى، ولكن هذا العقد لا يحلها للأول، أما صحة العقد فلأن الشرط ملغى لا يلتفت إليه، ولكن لأنه قد اشترط حلها للأول قد استعجل أمراً أخره الله

تعالى، وهو بذلك قد ارتكب محرماً، وكان مستعجلاً أمراً قبل أوانه، فلا يصل إلى غايته، كمن قتل مورثه مستعجلاً ميراثه فإنه لا يرث لأنه استعجل أمراً قبل أوانه فعوقب بحرمانه.

هذه خلاصة أقوال الفقهاء فى نكاح المحلل، وهو أقبح عقود الزواج، وترى منها أن جميع الفقهاء يرون أنه حرام، وأنه خداع لله سبحانه وتعالى، وأنه تحايل على إبطال أحكام الله، وتفويت لمقاصد الشارع الحكيم، وأن جمهور الفقهاء يرون أنه عقد فاسد لا تحل به للأول؛ وإذا كان ذلك شأن عقد المحلل فليتنق الله الناس فى أنفسهم وأخلاقهم ومروءاتهم، وليجنبوا أنفسهم ألفاظ الطلاق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولا يضيقوا على أنفسهم ما أفسح الله لهم؛ وليحفظوا على أنفسهم أعراضهم ومروءاتهم فلا يضطروا إلى ذلك العقد الذى هو إثم فى إثم؛ وجرم فى جرم، وتعريض الحرمات للانتهاك.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى أحكام الطلاق وعَدَدَهُ، ودفعاته، وما يترتب عليه بهذه الجملة السامية؛ ومعناها أن تلك الحقوق والواجبات التى بينها سبحانه وتعالى فى الطلاق من أن الزوج أحق بزوجه بعد الأولى والثانية، ومن أن النساء لا يسوغ لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن، ومن أن الطلاق ثلاث، بعدها تحرم عليه حتى تتزوج زوجاً آخر، ومن أنه لا يحل له أن يأخذ منها شيئاً إلا أن يكون فداء لنفسها خشية نشوزها. كل هذه الأحكام، هى الحدود التى أقامها سبحانه فارقاً بين العدل والظلم، والحق والباطل، والخطأ والصواب، وهى التى تقوم عليها معالم الأسرة الإسلامية؛ وقد بينها لقوم من شأنهم أن يعلموا الأمور على وجوها ويدركوها على حقيقتها، ومن لم يلتزمها فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وإن ذلك التذليل الكريم يستفاد منه ثلاثة أمور:

أولها: بيان أن الأحكام الخاصة بالطلاق هى حدود حدها الشارع، من يتجاوزها فقد تجاوز ماله إلى ما ليس له، وترك الحلال إلى الحرام، وترك الحق إلى

الباطل؛ وفي ذلك حث على الطاعة، وتحريض على التزام ما أمر الله سبحانه وتعالى.

ثانيها: الإشارة إلى أن هذه الأحكام هي المصلحة الحق، وأن الناس إن تجاوزوها فقد تركوا الخير إلى الشر والنفع إلى الضرر.

الأمر الثالث: حث الناس على تعرف حكم الشارع وغاياته؛ فإن مقاصد الشارع لا يعرفها على وجهها إلا الذين من شأنهم أن يعلموا، ويصلوا إلى لب الحقائق، ومرامى الأحكام الشرعية القاصية والدانية، والله بكل شيء محيط.

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّلنَّعْدُوْا وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يُعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾
وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ
مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

بين الله سبحانه وتعالى نظام الطلاق في الإسلام، فذكر عدده، وأن الرجل أولى بزوجه، له ردها من غير عقد ما دامت في العدة، إذا كان ذلك بعد الطلقة الأولى أو الثانية؛ ثم بين متى يسوغ أن تفندي المرأة نفسها بمال تقدمه، وبين التحريم الذي يعقب الطلقة الثالثة، ومتى ينتهي ذلك التحريم؛ وفي الجملة بين نظام الطلاق

الذى يجعله فى دائرة المعقول، وعند الحاجة إليه؛ وبين معه طريق تفادى نتائجه من الفصم، متى كانت ثمة ندحة، أو متى كان هناك أمل فى استئناف حياة زوجية سعيدة، يعالج فيها كل واحد من الزوجين نفسه، ويجعلها ملائمة لنفس صاحبه، ويصلح من حاله وحال من معه، متى كان ذلك فى دائرة الإمكان.

بعد بيان ذلك النظام المحكم الوثيق الأركان، أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يجب على الرجال إذا كانت الفرقة، وقد انشعبت القلوب، ولم يكن سبيل للالتئام، أو كان ثمة سبيل موصل إليه؛ أى أن الآيات السابقة فى بيان نظام الطلاق، وهاتين الآيتين فى بيان ما ينبغى اتباعه فى معالجة نتائجه، ليكون العدل والحق، ولا يكون الجور والباطل، أو الشطط والتهور. وقد قال سبحانه عز من قائل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

الأجل هنا: العدة؛ ويصح أن يطلق على آخرها؛ فإن كلمة أجل تطلق على المدة كلها، كما تطلق على الزمن الذى تنتهى إليه؛ فيقال: أجل الدين هو شهران، ويقال: أجل الدين هو نهاية شهر كذا؛ وكلا التفسيرين يصح أن يكون مراداً هنا، والأقرب أن يراد به انتهاء المدة.

ويلوغ الأجل المراد به هنا قرب انتهاء العدة، ومشارفة ذلك الانتهاء؛ وذلك لأن الإمساك بالمعروف؛ وهو المراجعة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا فسرنا بلوغ الأجل بقرب انتهائه؛ إذ لا معنى للإمساك بمعروف بعد انتهاء الأجل؛ فإن المراجعة لا تكون بعد انقضاء العدة.

ولقد قال الراغب الأصفهاني فى معنى البلوغ ما نصه:

(البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمتهى، مكاناً كان أو زماناً، أو أمراً من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه، وإن لم ينته إليه؛ فمن الانتهاء ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً...﴾ [الأحقاف] وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وأما قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾ [الطلاق] فللمشارفة؛ فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها له).

وإن استعمال البلوغ بمعنى مشارفة الانتهاء مثاله في المكان أن تقول: بلغت المدينة. إذا وصلت إليها، وصرت على مقربة منها بحيث صرت تشرف عليها، وتبدو لك مطالعها.

ومعنى الجملة السامية: إذا شارفت العدة الانتهاء، وقاربت العلاقة على الانقطاع التام وجب على الرجل أن يتدبر في أمره، فينظر في ماضيه معها وحاضره، وما يرجوه في المستقبل ويترقبه؛ فإن رجح لديه أن البقاء أولى من القطع، وأن ما كان سبباً لكلمة الطلاق لا يصلح أن يكون سبباً لقطع العلاقة قطعاً باتاً، وأن يتفرقا، وأنه إن أعاد الحياة أقام العدل معها، ولم يكن فيها ما يدفعه إلى الظلم، ولا في طباعه ما يدفع إلى الأذى؛ إن كان ذلك كذلك فليمسكها بمعروف، أى فليرجعها إليه معتزماً إمساكها والبقاء معها بالمعروف، أى بالتزام الأمر المعقول الذي تعرفه العقول وتقره، ويرضاه الناس، ويزكيه الحق سبحانه وتعالى.

وإن رجح لديه بعد أن ينظر في غابر أمره وحاضره أنه لا يرجو في المستقبل خيراً، وتأكد لديه ذلك، أو كان قريباً منه، أو غلب الظن بذلك، فليسرحها^(١) بمعروف أى فليمض الطلاق، ويخل بينه وبينها بمعروف، أى بالأخلاق الحسنة من غير مشاحة ولا معاندة ولا إيذاء، فإن ذلك هو الذي يعرفه العقلاء، ويؤمن به الأتقياء؛ ولقد كان الصالحون من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم لا يذكرون نساءهم اللائي يطلقونهن بسوء قط. سئل بعض التابعين: لم طلقت زوجك؟ فقال: إن العاقل لا يذكر ما بينه وبين أهله.

وإن التبريح بالمعروف يتقاضى أن يؤدي لها كل حقوقها من مال كان عليه، وألا يذكرها إلا بخير، وأن يعاونها إن كانت في حاجة إلى معونته؛ حتى لقد قرر

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى: حقق الراغب الأصفهاني معنى التبريح، فقال: «السرح شجرة لها ثمرة، الواحدة سريحة، وسرحت الإبل أصله أن ترعيه السرح ثم جعل لكل إرسال في الرعى. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل] والتبريح الطلاق نحو قوله تعالى: ﴿... أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ...﴾ [البقرة] وقوله: ﴿... وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب] مستعار من تبريح الإبل، كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل.

الفقهاء أنه تستحب المتعة لكل مطلقة؛ وقد ادعى بعض الفقهاء وجوبها، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة].

وفى الجملة إن التيسير بالمعروف يتقاضى الامتناع عن كل أذى، ومد يد المعونة إن تعينت إليه؛ وهذا هو التيسير الجميل المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب].

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وإذا كان الإمساك بالمعروف، أو التيسير بالإحسان هو المطلوب، فإن الإمساك الذى يترتب عليه الضرر لا يسوغ وقد يسأل سائل: إن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالإمساك بالمعروف، أو التيسير بالإحسان، وإن ذلك يفهم منه ضمنا النهى عن الإمساك ضاراً وإيذاء؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى قد خير المؤمن بين أمرين لا ثالث لهما، فكان ذلك نهياً عن الثالث والرابع، وهو الإمساك ضاراً، والتيسير مع الإيذاء.

والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خص الإمساك ضاراً بالنهى بعد أن فهم النهى عنه وعن غيره ضمناً، ليبين للمؤمن أنه لا يحل له أن يراجع إلا إذا كان قد اعتزم العدل وأراد، ولم يجد معوقاً له عن إقامته، بل وجد أنه يستطيع أن يتعاون مع أهله عليه، وأن التنفير من الطلاق والنهى عن القطيعة لا يسوغان له أن يرضى بإعادة العشرة مع توقع الضرر والأذى، واستمرار الحياة المعتكرة بالشر والحدة والأذى، فإنه إذا كانت القطيعة والفراق أمرين غير مرغوب فيهما، ويتنافيان مع المودة التى يدعو إليها الإسلام؛ فإن الضرر بين الزوجين أمر منهى عنه، وإن المودة هى المطلوبة، فإن تعذر قيامها، أو غلب على الظن عدم قيامها، فلا يسوغ استئناف الحياة الزوجية مع النفرة المستحكمة، والأذى والنشوز؛ فإن ذلك هو الكفر فى الإسلام؛ لأنه كفر فى العشرة، وعداوة فى موطن المودة، ومكايدة فى موضع المسألة.

وقد فهم بعض العلماء أن المراد من الضرر هو الإضرار، فإن ذلك هو الذى يصلح سبباً من جانب الذى يملك الرجعة وحده وهو الزوج؛ أما الزوجة فإنها لا

تملك الرجعة فلا يتصور ضرر من جانبها يكون مقصوداً عند الرجعة، والضرار يوجب عملاً مشتركاً من الجانبين، والاشتراك غير متصور؛ فالضرار يكون بمعنى الضرر؛ وإن ذلك الفهم صحيح في جملته؛ ولكن لم عبر عن الضرر بالضرار، وعدل عن اللفظ الأصلي الموضوع له إلى لفظ آخر؟

والجواب عن ذلك هو أن الرجل عند الإمساك الذي يؤدي إلى الضرر - وهو مبادلة الضرر التي تنشأ عن المعاندة والمكايدة - له حالان:

إحدهما: أن يقصد إلى الضرر والأذى بالرجعة، بأن يمسكها مكايدة وعنائاً ومبالغة في الظلم لتكون كالمعلقة؛ وذلك كما كان يقع من بعض الناس في عصر التنزيل، إذ يرجعون أزواجهم قبل انتهاء العدة، ثم يطلقونهن لتطول العدة، وليبالغوا في الأذى، وذلك أمر منهى عنه، لا حاجة إلى النص عليه، ومعنى الضرر فيه خفي؛ لأن الضرر فيه واقع على جانب واحد، ومن جانب واحد، أو هو على الأقل واضح في أحد الجانبين، وليس واضحاً في الآخر.

ثانيهما: هو أن يكون المطلق قاصداً الرجعة الحق، ولكنه لم يعتزم العدل، ولم يتوقعه، ولم ير أن أسباب الطلاق قد زالت، بل أراد العودة مع قيام أسباب النفرة؛ فإن ذلك يكون كقاصد الضرر، وإن لم يعلنه وإن لم يشعر؛ لأنه سيكون بينهما لا محالة وسيقع؛ ويكون حيثئذ الضرر على أصل معناه، ويكون مقصوداً من فاعل الرجعة، أو في حكم المقصود.

وقد بين سبحانه وتعالى أنه سترتب على الرجعة مع قيام الأسباب التي أوجبت الطلاق والتي اعتبرت ضراراً - أمران:

أحدهما: أن يعتدى في الحياة الزوجية فيظلم، بل إن إقدامه مع توقع الكيد والأذى اعتداء؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَتَعْتَدُوا﴾ فاللام هنا هي التي تسمى لام العاقبة، فهي تبين أن ثمرة الرجعة التي لا يتوقع فيها العدل هو الاعتداء، بل إن ذات الرجعة في هذه الحال من الاعتداء والظلم.

الأمر الثاني: الذى يترتب على الرجعة ضراراً، هو أنه يظلم نفسه، فكما أنه يترتب على ذلك الضرار اعتداء على غيره يكون فعله ظلماً لنفسه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أى أن من يرجع مطلقته إضراراً أو ضراراً فقد ظلم نفسه ظلماً مؤكداً، وإذا كان قد أراد ظلمها فمن المؤكد أنه قد ناله حظ عظيم من الظلم قبل أن ينالها؛ وذلك لأنه عصى ربه فاستحق عذابه، ولأنه جعل البيت الذى هو مثابة الراحة والقرار مكان نكد واضطراب يستبدل فيه بالمودة البغضاء؛ ولأنه لا يعيد إلى حظيرة الزوجية زوجاً ودوداً، بل عدواً شديداً، وأشد الأعداء من كان منك قريباً، وقد يكون كالثعبان بين جنبيك؛ وأى ظلم للنفس فوق هذا الظلم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ بعد أن نهى سبحانه وتعالى عن أن تتخذ الرجعة ضراراً، أو يقدم الرجل عليها وهو يعلم أو يظن أنه لن يكون إمساكاً بمعروف؛ أعقب ذلك بنهى آخر هو تأكيد للنهى الأول، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى رسم فى آياته حدوداً ونظماً تتقرر بها الحياة الزوجية، فشرع الرجعة لتدارك ما فاتته وقت الغضب، ولرجاء أن يستقيم الأمر، وتقام الحياة الزوجية بالمعروف، بعد أن تهددتها القطيعة، وقاربت على الانفصال؛ فمن اتخذ الرجعة للضرار، أو وهو غير مستيقن صلاح الحال أو يرجو ذلك، فهو كمن يستهزئ بأحكام الله، وآياته سبحانه؛ لأنه ينفذ الأوامر فى غير موضعها، ويكذب على نفسه وعلى دينه وعلى ربه، فهو يعمل عمل من يريد الصلاح ولا يريد، وعمل من يقيم الحياة الزوجية الصحيحة ولا يقيمها، ثم هو فى أعماله يشبه اللاعب الهازئ، بل إنه لاعب هازئ فى موضع الجسد، يطلق لآتفه الأسباب، ويرجعها من غير أن ينوى الصلاح والعشرة بالمعروف، فيطلق ثانياً عابثاً، ثم يرجعها عابثاً، ثم يطلق، فيكون التحريم بسبب العبث والمجون.

ويصح أن يراد بالآيات الآيات التكوينية، لا الآيات القرآنية الحكمية المتلوة؛ وذلك لأن من آيات الله في الكون أن جعل الزوج سكتاً تربطها به المودة، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ [الروم] ﴿٢١﴾ فمن طلق عابثاً وراجع عابثاً، وجعل الحياة الزوجية اضطراباً وضرباً وعداوة بدل المودة، فقد استهزأ بآيات الله الكونية، فحرم نفسه من نعمتها؛ ولذا قال سبحانه بعد هذا النهي: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾. فقد أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يتذكروا دائماً نعمة الله تعالى عليهم، وأن يتذكروا ما في الكتاب وما جاءت به السنة من أحكام وعظات.

أما النعمة التي يجب تذكرها فهي نعمة الزوجية خاصة، ونعمة سبحانه وتعالى عامة، ونعمة الزوجية تتجلى في أن يكون للشخص ألف في الحياة يقطع معه بيداءها، ويتحمل معه لأواءها؛ ويكون بيت الزوجية فيها كواحة في وسط صحراء الحياة، وروضة يأوي إليها بعد المشاق وبعد الكد واللغوب، فمن عبث بهذه النعمة فقد ظلم نفسه، ونسى أنعم الله سبحانه وتعالى عليه، ثم حق عليه أن يتذكرها؛ ومن كمال نعم الله أن ذكره بها في مقام نسيانه لها.

والتذكير الثاني هو بما أنزل الله من الكتاب والحكمة؛ والكتاب هو القرآن الكريم، والحكمة هي السنة النبوية كما فسرهما الشافعي رضي الله عنه، وهو تفسير حكيم نقبله؛ لأن العطف يقتضى المغايرة، فلا بد أن تكون الحكمة غير الكتاب؛ ولا شيء نزل على النبي ﷺ بعد الكتاب غير ما اشتملت عليه السنة من أحكام؛ فما كان النبي ﷺ ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ﴿١﴾ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ [النجم] والحكمة معناها العلم النافع الذي يتجه إلى ناحية العمل الذي به تنضبط النفس، وذلك يتلاقى مع السنة النبوية، فكانت جديرة بهذه التسمية؛ لأنها تفصل الأحكام العملية الجزئية، وترشد إلى تنفيذ ما اشتمل عليه القرآن الكريم من قواعد كلية، ونظم جامعة.

والتذكير بالكتاب والسنة هو تذكير بأمرين يجب أن يكونا في ذاكرة كل مؤمن، فهو تذكير زاجر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ فالوعظ تذكير فيه زجر وتخويف؛ ولذلك قال الخليل بن أحمد في تعريف الوعظ: (... هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب). والضمير في ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ يعود على المذكور من الكتاب والسنة، وجعل الضمير واحداً؛ لأنهما في مؤداهما وغايتهما شيء واحد؛ وإن السنة ليست إلا تابعة للكتاب، منه أخذت قوتها وسلطانها، إذ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ [الحشر].

وقد قال تعالى في ختام الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بعد أن بين سبحانه العواقب الوخيمة لمن يعثب بالحياة الزوجية، ويجعلها مضارة وعداوة، لا مودة فيها ولا خير، وذكر بنعمة الله عليه في أحكامه وشرعية الزواج، وبين مغلبة العيب بالأحكام؛ بعد هذا كله حذر وأنذر، فأمر بتقوى الله سبحانه وتعالى بأن يجعل بينه وبين غضب الله سبحانه وتعالى وعذابه وقاية، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ وإن تربية معاني التقوى في النفس تجعلها تدرك الخير والشر، وتمنعها من أن يتأشب إدراكها نوازع من الهوى والعبث؛ لأن التقوى تربي المهابة من الله والخوف منه، وتجعلها تذكر عقابه.

ثم وصل سبحانه بالتهديد إلى أقصى الغاية ببيان علمه الكامل بكل شيء فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإنه سبحانه يعلم ما تخفى الصدور، وما تطويه النيات، وما تكنه السرائر؛ ثم إن التذكير بعلم الله فوق أنه إنذار أي إنذار، فيه بيان أن المصلحة فيما يشرع من أحكام، وما يبين من نظم؛ لأنه على قدر العلم يكون الإحكام، وعلى قدر الإحاطة يكون الإتقان؛ فهذا التنزيل فيه حث على الطاعة، كما أن فيه إنذاراً بالمخالفة؛ والله سبحانه الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بعد أن بين سبحانه العواقب الوبيلة التي تترتب على الإمساك ضراراً، وما فيه من ظلم للرجل والمرأة معاً، أخذ يبين حكمه سبحانه في ظلم آخر يقع بالنساء وعاقبته وبيلة للمجتمع، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

بلوغ الأجل هنا هو بلوغ أقصى العدة، فالبلوغ هنا غير البلوغ في الآية السابقة، إذ الأول كان للمقارنة والمشاركة، وهنا للانتهاء والسياق هو الذي عيّن معنى البلوغ في الأول كما بينّا، وهو الذي عيّن معنى البلوغ الثانى، إذ إن العقد المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿أَنْ يَكُونُوا أَزْوَاجَهُنَّ﴾ يدل على أن المراد هو انتهاء العدة؛ إذ لا يتصور النكاح وهو العقد الذى يكون من طرفين إلا بعد انتهاء العدة؛ ولذا قال الشافعى رضى الله عنه فى هذه الآية والتى سبقتها: (دل سياق الكلامين على اختلاف البلوغين).

والعَضْلُ معناه هنا المنع الظالم، وأصله بمعنى الحبس والتضييق مع الألم، ومنه: عضلت الدجاجة إذا تعلقّت بها بيضتها فلم تخرج منها، وعضل المرأة يمنعها من الزواج من غير مبرر فيه حبس لها وتضييق عليها، وإرهاق لنفسها وحسها.

وإن النساء اللاتى يطلقن يتعرضن لظلم المطلقين، فيحاول المطلقون أن يرهقوهن من أمرهنّ عسراً، بأن يمنع كل مطلق من طلقها من أن تتزوج من غيره، خصوصاً إذا كان صاحب سطوة باغية، أو كان ذا جيروت طاغية؛ وتلك نزعة جاهلية، لا يقرها عرف ولا شرع ولا عقل، ويتعرض أولئك المطلقات لظلم ذويهن، فقد يردن العودة إلى أزواجهن، ويتراضين معهم على ذلك، ولكن يقف الولي محاجزاً، حاسباً أن ذلك مهانة له ولها، كما فعل بعض الناس فى عصر النبى ﷺ؛ وقد ترتضى المطلقة رجلاً زوجاً لها، عفا فى عرضه، تقياً فى دينه فيملا نفسها؛ ولكن لا يرتضيه أولياؤها لأمر لا ينقص من قدره، كفقر أو نحوه، فيمنعونها من ذلك الزواج!

فى كل هذه الصور يكون عضل المرأة، وجبسها والتضييق عليها فى ذات نفسها؛ فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

وقد قال بعض العلماء: إن الخطاب للمطلقين ليمتنعوا عن تلك العنجهية الجاهلية؛ وقال بعضهم الخطاب للأولياء لكيلا يحولوا بين النساء وبين الزواج ممن يردن من غير سبب ومبرر، سواء أكان الزوج الذى ارتضته هو المطلق السابق أم كان غيره.

ونحن نرى أن الخطاب عام لكل المؤمنين ممن يقع فى دائرتهم ذلك، فهو يعم المطلقين، ويعم الأولياء، ويعم غيرهم ممن يتصلون بهم، ويعم أولياء الأمر الذين ييدهم الهيمنة على الأمور؛ والتعميم بهذا الشكل يدل على التكافل بين آحاد الأمة، ووجوب التعاون بينهم فى منع كل ظلم، وخصوصاً ما يقع على الضعفاء، وما يمس الحرية الشخصية فى أدق ما تتجه إليه، ولا شىء يهم المرأة أكثر من اختيار زوجها، ولا عقد أمس بالوجدان من عقد الزواج، ولا اتفاق أكبر خطراً فى الحياة من ذلك الاتفاق؛ فالظلم فيه خطير بمقدار ماله من خطر وشأن.

غير أن المرأة ليست لها الحرية المطلقة فى اختيار من تشاء من الأزواج، بل إن رضاها مقيد بالمعقول والمشروع؛ ولذا قيد التراضى بقوله: ﴿إِذَا تَرَاضَا بَيْنَهُمَا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى بالأمر الذى تسير عليه العقول، ويجرى به العرف، ويقره العقل، ولم يكن ثمة سبب للاعتراض، فليس من المعقول أن يطلق اختيارها ويحترم إذا اختارت لمجرد الهوى العارض، سواء أكان كفتا لها أم لم يكن كفتا؛ ولذلك سوغ أبو حنيفة للولى أن يعترض إن تزوجت بغير كفاء، فهو قد أطلق حريتها، ولكن إن أساءت الاختيار كان للولى الاعتراض، وغير أبى حنيفة أشركوا الولى معها فى الاختيار حتى لا تضل، ولكن نهاهم القرآن عن أن يمتنعوا من غير سبب معقول، وإلا كان ذلك عضلاً، ولها أن ترفع الأمر إلى القاضى صاحب الشأن ليرفع ظلم الأولياء.

وهنا نكتة بلاغية نشير إليها؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبر عن الذين يختارهم النساء ويمنع عنهم ظلمًا بالأزواج مع أن الزواج لم يتم، للإشارة إلى الحقيقة المقررة الثابتة، وهو أن من يقع اختيارها عليه، ويتراضيان عليه بالمعروف، ولم يكن الزواج بينهما فيه ما يشينها أو يشين أسرتها هو الذى ينبغى أن يكون ازدواجها به، وهو فى حكم الفطرة زوجها، وعلى الأولياء ألا يعاندوا حكم الفطرة، بل عليهم أن ينفذوه ويقروه، ولا يصح لأحد أن يعارضه.

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ذلك القول الحكيم، والأمر الكريم يذكر الله به تذكيرًا يرق معه قلب المؤمن وتخضع نفسه، ويوجل قلبه إذا كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ ذلك لأن الإيمان بالله، والإحساس بعظمته وكبريائه، يمنع الظالم من أن يظلم، ولا يظلم الظالم إلا وهو فى غفلة عن الله، ولو أحس بأن الله محاسبه، وأنه يأخذ الظالم بظلمه، وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ما استمر فى ظلمه، ولا استرسل فى غيه، ولكنه يكون حال ظلمه فى غفوة عن الإيمان، ونسيان للواحد الديان وهو القاهر فوق كل شىء.

والإيمان باليوم الآخر من شأنه أن يحس معه المؤمن بالحساب والعقاب الذى يرتقبه، ومن شأنه أن يجعل المؤمن يستهين بالدنيا وما فيها، ويعلم أنها ظل زائل، وعرض حائل، وأن الآخرة هى الباقية وإذا كان كذلك قلل من الرغبات، وإذا قلت الرغبات ضعفت الدوافع إلى الظلم، وخمدت نوازع الشر.

﴿ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلكم أيها المؤمنون أجمعون من غير تخصيص طائفة بالخطاب، وهو ما شرعه الله سبحانه من أحكام خاصة بسلطان الأزواج والأولياء، أركى وأطهر، والزكاة النماء، أما أنه أركى وأنمى؛ فلأن قيام الأسرة على العدل والمودة والتراحم يزيد فى عدد الأمة فيكثر النسل؛ ويزيد من قوتها؛ لأن الجماعات القوية هى التى تقوم على أسرة قوية، ولا شىء يقوى الأسرة أكثر من المودة والعدل والرحمة؛ وأما أنه أطهر فلأن المرأة إذا عوملت معاملة كريمة بالحق والعدل وأطلقت حريتها فى دائرة المعروف المعقول ولم

تظلم في رغباتها العادلة، أدى ذلك إلى الطهر والعفاف؛ فإن احترام النفس صون وعفاف، وامتهانها نقيض ذلك؛ لأن النفس إذا أكرهت جمحت، وإذا جمحت لم ترتبط برباط من الحكمة والصون والعفاف، بل إنها إذا جمحت عमित، فلا تدرك خيراً ولا شراً. ولقد روى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: (إن للقلوب شهوات، وإقبالا وإدباراً، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمى) ولا عفة ولا طهر عند عماية القلوب.

ولقد قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ﴾ بضمير الجمع، وغير النسق؛ للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضيق عليها في اختيار زوجها، إن كان الاختيار في دائرة المعقول - حق على الجميع، وفائدته للجميع.

ولقد ذيل سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ للإشارة إلى أن شرع الله تعالى فيه النفع الدائم، والمصلحة الحقيقية، والنتائج المرضية؛ لأنه شرع من يعلم كل شيء ولا يجهل شيئاً، وليس للناس أن يتمردوا عليه، أو يخالفوه، أو يهونوا مخالفته في أنفسهم بدعوى أنهم يرونه في الظاهر مخالفاً للظاهر من مصلحتهم؛ فإن ما يدركونه مصلحة ليس بمصلحة في ذاته إذا جاء نص الشرع القاطع على خلافه؛ لأن علم الإنسان قاصر، وعلم الله وحده هو الكامل؛ فلتتبع شرع الله، ولا تُحكّم الهوى في نصوص الكتاب، ولنُحِثُ التراب في وجوه الذين يحاولون مخالفة النصوص الصريحة القاطعة بدعوى أن المصلحة في خلافها؛ لأنه لا توجد مصلحة قاطعة تخالف نصاً قاطعاً؛ إنما هي أوهام، وعقول خاضعة لأزمان محكومة بالشر المتكاثف، حتى حجب النور؛ ولنقل لهم إن شرع الله هو المصلحة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
 حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
 وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
 وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ
 فَإِنْ أَرَادَا فِصَاً لَعَنَّ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
 أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا
 ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَاتَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

بين الله سبحانه وتعالى حقوق الزوجين، وما لكل واحد منهما على صاحبه، ثم أحكام الافتراق إن لم تكن المودة سائدة؛ وبهذا بين العشرة الحسنة والتسريح بإحسان، أو الفراق الجميل.

وبعد بيان حقوق الزوجين في الاجتماع والافتراق، أخذ سبحانه وتعالى يبين حقوق من كانوا ثمرة لهذا الزواج، في حالى الاجتماعى والافتراق أيضاً؛ وهذه الآية تبين ذلك؛ وقد ذكرت أول حق يتقرر للطفل فور ولادته؛ وهو حق التغذية الأولى التى تناسب سنه، وتكون لحمه، وتنشئ عظمه؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

الوالدات: هن الأمهات، سواء أكن أزواجاً لآباء^(١) الأولاد أم كن مطلقات منهم؛ والتعبير عن الأمهات بالوالدات فيه إشارة إلى أمرين:

(١) قال المصنف رحمه الله: كون المراد بالوالدات الأمهات سواء أكن أزواجاً أو مطلقات هو الذى اخترناه من بين ثلاثة آراء لأنه هو الذى يتفق مع عموم كلمة الوالدات ومع المعانى التى يشير إليها التعبير بالوالدات، والرايان الأخيران:

أولهما: أن المراد المطلقات؛ لأن السياق كله فى الطلاق وأحكام الطلاق والمطلقات، ولأنهن مظنة إهمال =

أحدهما - أنهن اللاتي ولدنهم وكن الوعاء الذى برزوا منه إلى الوجود، وقد تربوا فيه ومنه تغذوا، فكان من الحق أن يتغذوا منه حتى يستغنوا عنه؛ وفى هذا إيماء إلى وجوب الإرضاع على الأمهات.

وثانيهما - أن الغذاء الذى يناسب الطفل فى مهده هو الغذاء الذى يكون من نوع ما كان يتغذى منه فى بطن أمه؛ وكان فى التعبير بالوالدات إشارة إلى ذلك؛ لأن الولادة انفصال الحمل عن أمه وبروزه إلى الوجود؛ فهى تشير إلى الصلة بين المكان الذى خرج منه، وحياته التى يستقبلها؛ وذلك إيماء إلى وجوب التناسب بين الحالىين، والتناسب بينهما من حيث الغذاء، يوجب التجانس بين حالى الغذاء، وذلك يوحى من جهة ثانية إلى وجوب إرضاع الأم ولدها، وهو ما سيقى له الجملة السامية.

وقوله تعالى: ﴿يُرْضَعْنَ أَوْلَادُهُنَّ﴾ هو أمر جاء على صيغة الخبر؛ فمعنى ﴿يُرْضَعْنَ أَوْلَادُهُنَّ﴾ ليرضعن؛ أى عليهن إرضاع أولادهن؛ وعبر عن الطلب بصيغة الخبر؛ للإشارة إلى أن ذلك الوجوب تنادى به الفطرة، ويتفق مع طبيعة الأمومة، وأن الأمهات يلين الطلب فيه بداع من نفوسهن؛ فلذلك عبر بالخبر، كأن الإرضاع وقع من غير طلب خارجى، فكان ذلك التعبير مفيداً للأمر التكليفي، ومقررراً للأمر الفطرى.

والفقهاء يقررون أنه مطلوب من المرأة أن ترضع ولدها، ولكنهم يختلفون فى مدى هذا الطلب؛ فالحنفية يرون أن هذا الطلب للندب فى جملته، فليس على الأم إرضاع ولدها، إلا فى حال الضرورة، بأن لم يوجد من يرضعه سواها، أو لا يلزم الولد إلا ثديها، أو كان الأب عاجزاً عن استرضاع ولده عند ظنر؛ إذ لا يملك أجرتها؛ وينافى هذا رأى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ

= الولد عند المكابدة، ولأن إيجابه الرزق بعد ذلك فى نظير الرضاع يوجب ذلك، وللنهي عن المضارة وهى لا تصور إلا عند الطلاق.

ثانيهما: أن المراد الزوجات وهذا قول لا حجة له، وما اخترناه أولى لما فيه من عموم ولا دليل على التخصيص.

عَلَيْكُمْ ﴿لأن هذا يفيد أن الأب غير ملزم بالاسترضاع، بينما رأى الحنفية يفيد بأنه الملزم، والأم غير ملزمة؛ ولما رأوا ذلك قالوا: إن الأم عليها الإرضاع ديانة لا قضاء.

والمالكية يرون أن المرأة عليها إرضاع ولدها إلا لعذر، واعتبر من الأعذار أن تكون من الطبقة التي لا ترضع أولادها عادة.

وقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ يفيد أن الإرضاع اللازم للغذاء لا يتجاوز حولين كاملين؛ ووصف الحولين بأنهما كاملان؛ للإشارة إلى النهاية الكاملة التي لا يدخلها تجاوز ولا تسامح؛ وليتناسب مع قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وإن بيان الحدود من حيث الابتداء والانتهاء يجب أن يكون دقيقاً، وإن الناس قد يعدون ما دون الحولين إذا كان قليلاً كشهر أو نحوه غير ناقص للمدة؛ فذكر سبحانه وتعالى وصف الكمال، لينفي مثل هذا الاحتمال.

وفى التعبير عن السنة بالحول في هذا المقال، إشارة إلى معنى دقيق؛ يبين أنه في انتهاء السنتين يكون الطفل قد بلغ حد الاستغناء؛ ذلك أن كلمة حول تدل على التحول من حال إلى حال، فيكون التعبير بها مشيراً إلى تحول الطفل في مدارج نموه من وقت ظهوره في الوجود، ورؤيته شمساً، فإنه ينتقل شهراً بعد آخر في التغذية، تبعاً لنمو قواه، وحاجة جسمه، فهو يتدنى ضعيفاً لا يستطيع أن يتناول غذاءه إلا من ثدى أمه، ثم يتناول غيره قليلاً، ثم يزداد حتى إذا أتى على الحولين حالت الحال، واستغنى تماماً عن الرضاعة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وهذه الجملة السامية تشير إلى أنه قد يستغنى الطفل عن أمه قبل الحولين، وأن من أراد التمام إن وجدت أسبابه يصل إلى نهاية الحولين، سواء أكان المريد الأب أو الأم.

وهذه المدة هي حد لثلاثة أمور عند جمهور الفقهاء:

أولها - أجرة الرضاعة التي تستحقها الأم، والتي دل عليها قوله تعالى من بعد ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وثانيها - على نهاية الوجوب الذى أوجبه الشارع على الأم عند القائلين بأنه يجب عليها قضاء إرضاع ولدها؛ وعلى نهاية الوجوب الدينى عند الذين لا يفرضون عليها إلا الوجوب الدينى دون القضائى.

وثالثها - أن الرضاع المحرم الذى يكون موجباً لصلة تكون الأئشى فيها حراماً كالنسب تماماً فى كل أحوال التحريم لا يكون إلا فى هذين الحولين؛ أما بعد ذلك فالرضاع لا يحرم^(١)؛ وعلى ذلك رأى جمهور الفقهاء. وقال أبو حنيفة: الرضاع المحرم مدته ثلاثون شهراً، وأما الرضاع من حيث الأجرة، ومن حيث الوجوب على الأم ديانة أو قضاء فمدته حولان كنص الآية الكريمة.

وإن هذا الوجوب الذى أوجبه القرآن الكريم على الوالدة يدل على مقدار عناية الإسلام بالرضاعة، ومقدار عنايته بتربية الأطفال، وتغذيتهم، وعنايته بأجسامهم، وسلامة دمهم؛ فإن لبن الأم هو الغذاء الطبيعى لولدها، ينمو بنموه، ويسير من حيث كم الغذاء مع تقدم سن الطفل شهراً بعد شهر، وهو غذاؤه فى بطن أمه، فيكون هو غذاؤه بعد ولادته وإن تعرض الطفل للمراضع يعرضه للأدواء الوراثية تنتقل إليه؛ بل يعرضه للأدواء النفسية والعقلية تؤثر فيه؛ فإن الموضع تحمل إليه مع اللبن ما فى جسمها من عيوب وراثية، وما فى نفسها وعقلها من عيوب أيضاً؛ وقد أثبتت التجربة أن العيوب النفسية فى الموضع تسرى إلى من أرضعته، وتشربها نفسه، بل تتكون منها طباعه، كما تكون من لبنها جسمه.

ومن عناية الشارع بالرضاعة جعلها من أسباب التحريم، فيوجد الرضاعة بين الطفل ومن أرضعته وذويها وكل من تلقوا من ثديها صلة تشبه صلة النسب، ولكى يتحرى الآباء من يرضعن أولادهم، وتتحرى الأمهات من تقمن مقامهن، أو من يشركنهن فى الأمومة الفطرية التى أوجدتها الولادة.

(١) قال المصنف رحمه الله: فرق أبو حنيفة بين مدة الرضاعة التى تجب فيها الأجرة، ومدة الرضاعة المحرمة، فاعتبر الأولى حولين كاملين كنص الآية الكريمة، واعتبر الثانية ثلاثين شهراً، بقوله تعالى: ﴿وَحمله وفصله ثلاثون شهراً﴾ إذ فهم منها أن مدة الفصال الذى ينتهى بانتهاء الرضاعة تحتمل أن تكون ثلاثين شهراً، فلاحتمياط عمل ذلك الاحتمال فى التحريم بالرضاع.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فى

الجملة السامية السابقة نص على واجب الأمهات المشتق من كونهن والدات؛ وفى النص واجب يقابله على الآباء لكونهم قد ولد لهم، فالتعبير عن الأب بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ هو فى مقابل التعبير عن الأمهات بالوالدات؛ وكما أن الأول أوجب عليهن الرضاعة، فالثانى أوجب على الآباء النفقة؛ لأن الولادة لهم، فالنسب لهم، والولد تابع تبعية مطلقة لهم؛ وكأنه كسب كسبه، وغنم غنموه، فحق عليهم القيام على شئونه ورعايته، والإنفاق على من خصصت نفسها وخصصتها الفطرة لخدمته ورعايته وتغذيته بلبنها الذى هو دَرٌّ من دمها.

ويلاحظ هنا عندما أوجب الله سبحانه وتعالى على الآباء الإنفاق على

الأمهات اللاتى يرضعن أولادهن، أمران:

أولهما: أنه قيد الإنفاق بالمعروف، وهو الأمر الذى يتعارفه العقلاء، فلا تستكره العقول ولا ينفوه الذوق السليم بأن يليق بحالها ويكفيها شئونها، ولا يخرج عن طاقة الأب، ولا يكلفه شططا، ويسهل لها الأب ذلك الإنفاق؛ فيجىء إليها من غير جهد منها، ولا إعانات لها.

ثانى الأمرين: أن الله سبحانه وتعالى ذكر أن الإنفاق يكون فى وضع الرجل

فلا يرهقه، ولا يشق عليه؛ ولذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهى قضية عامة، وقاعدة كلية فى كل تكليفات الشارع الإسلامى، يلاحظ فيها أن تكون فى وسع المكلف، وليس معنى الوسع هو الطاقة، فإن الفرق بينهما كبير؛ لأن الطاقة هى أقصى قدرة المكلف بحيث لا يستطيع الأمر إلا بمشقة وجهد؛ أما الوسع فهو قدرة المكلف على الأمر، مع بقاء فضل من جهده، بحيث لا يستغرق العمل أقصى قدرته؛ وقد وضع ذلك المعنى فى إيجاز بليغ فجعل مناط التكليف ما تسعه قدرة المكلف؛ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة [٢٨٦]) تنبيها إلى أنه لا يكلف دون ما تنوء به قدرته.

وإذا كان الأمر كذلك فكل التكليفات الشرعية يكون في الوسع القيام بها، بمعنى أنها تؤدي بيسر وسهولة ولا مشقة فيها لمن ذاق طعم الطاعة، وفهم معناها؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ (١٨٥) [البقرة].

ولا شك أن الإنفاق على الأم بالمعروف، هو تكليف بما في الوسع الذي يقوم به المرء بيسر وسهولة؛ لأن أساس المعروف ألا يكون فيه غضاضة على المرأة، وألا يكون شطط على الرجل؛ فلا يكلف أحدهما إلا وسعه وما يكون يسراً من أمره.

ولقد عبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عن الإنفاق بالرزق والكسوة، أي بالإطعام والإيواء والكسوة، وعبر في آية الطلاق بالأجرة، فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ...﴾ (٦) [الطلاق] فالأجرة هنالك هي الكسوة والرزق هنا؛ وتخالف التعبيران؛ لأن كل واحد فيما يناسبه؛ فالتعبير بالأجرة؛ لأن الكلام في المطلقات، وما يفرض لهن من نفقة وأمداء؛ ثم بين ما يستحق في مقابل الإرضاع إن أرضعن وقد خرجن من بيت الرجل وسلطانه.

أما في هذه الآية فالكلام في أصل وجوب الإرضاع على الأمهات، وبيان توزيع التكليفات؛ والآية هنا عبر القرآن فيها عن الأم بوصف كونها والدّة، وعلى الأب بوصف كونه مولوداً له، فناسب أن يعبر عن النفقة هنا بالرزق والكسوة لأن مؤدى التعبير الكريم أن الواجبات للطفل موزعة، والحقوق فيه متقابلة؛ فالأم لأنها تفرغت لخدمته، وقامت على حياضته، وغذته من لبنها بعد أن غذته من دمه، وأوجب عليها الشارع ذلك الغذاء - كان على الأب في نظير ذلك أن يكدح ويعمل ليوفر لها رزقها وكسوتها بالمعروف من غير غضاضة ولا شطط.

﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ هذه الجملة السامية في مقام التعليل للأحكام السابقة الموزعة بين الوالد والوالدة، والتي أساسها القيام بحق ذلك المخلوق الذي كان كل واحد منهما طريقاً لخروجه إلى هذا الوجود الإنساني. والمعنى أنه لا يصح أن يقع ضرر على الأم بسبب ولدها لما لها من حنو وعطف، فيستغل ذلك الحنو وذلك العطف لإنزال الأذى بها وإعناتها وتكليفها ما ليس في وسعها، وما

ليس متفقا مع فطرتها؛ وكذلك لا يصح أن يقع ضرر بالأب بسبب ولده لأنه يعنى بإنباته نباتاً حسناً وتنشئته على أكمل وجه، فيرهق بالمطالب المالية، ويكلف ما ليس فى وسعه أو لا تتسع له قدرته عليه إلا بمشقة وجهد شديد.

وفى هذه الجملة السامية بحثان لفظيان نقولهما بإيجاز:

أولهما - أن كلمة «لَا تُضَارَّ» من مادة المفاعلة من الضرر، وقد قرئت مرفوعة على معنى نفى الضرر، ونفى الضرر يقتضى النهى عنه؛ وقرئت مجزومة، وعند الوصل خفف السكون بالفتح على أصل التخلص من التقاء الساكنين، وإن لم يكن هنا ساكنان؛ ولذا قرئ بالسكون، وقراءة السكون تدل على النهى الصريح.

ولأن كلمة «لَا تُضَارَّ» من المفاعلة تصلح أن تكون مسببة للمفعول؛ والمعنى فى الفرضين واحد، وهو أنه لا يجوز أن يضر كل واحد منهما صاحبه، أو يُضَرَّ من صاحبه بسبب عطفه على ولده وحنوه عليه.

البحث الثانى - فى التعبير بقوله سبحانه، «وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» وتقديم الأم على الأب؛ فإن ذلك التعبير يشير إلى منزلة الولد من قلب كل منهما، وأنه قطعة من قلوبهما؛ ولا يصح أن يكون مزيد العطف الوالدى سبباً فى أن يتخذ كل منهما ذريعة لإيذاء الآخر والعبث بحقوقه، ولإشعارهما بأن الإيذاء باسم الحنو قد يؤدى إلى نقص العطف على الولد، ولكى يعرف كل منهما أن الولد ولدهما معاً ومزيج من جسمهما معاً، فلا يصح أن يتخذ سبيلاً للكيد والإعنات والإرهاق؛ وقدمت الأم لأن حنوها أشد، ولأن مظنة إنزال الأذى بها أقرب.

«وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ» هذه الجملة الكريمة سبقت لبيان من ينفق على الولد إن لم يكن له أب، أو كان له أب عاجز عن الإنفاق عليه؛ فإن الإنفاق فى هذه الحال يكون على الوارث الذى يرث الولد إذا مات؛ لأن الغنم بالغرم، فما دام يرثه عند الوفاة إن كان له مال، فإنه ينفق عليه إذا كان محتاجاً عاجزاً.

وفى التعبير بكلمة «الْوَارِثِ» بدل كلمة قريب، إشارة إلى أن الوراثة هى السبب فى وجوب تقديم الرزق والكسوة، لا مجرد القرابة، أو القرابة المحرمية؛

وعلى ذلك يكون الوجوب تابعا لمقدار الميراث، ولدرجة التوريث؛ لأن الميراث هو السبب في الوجوب، فيكون الوجوب مشتقاً من درجته ومقداره وقوته.

وفى هذا الكلام الحكيم تنظيم للعلاقات المالية بين الأسرة أو إشارة إليه؛ فإنه يوضح أن الحقوق المالية في الأسرة متقابلة، فمن كان له حق الميراث عليه واجب الإنفاق؛ وكان مال الأسرة شركة بين أحادها بتوارثون المال فيما بينهم؛ ويتعاونون فى الإنفاق فيما بينهم؛ فالقادر ينفق على العاجز، والغنى يمد الفقير بحاجته فى موضع الحاجة.

ولقد فهم الإمام أحمد بن حنبل من هذه الآية أن نفقة القرابة تسير مع الميراث وجوداً وعدمًا، وقوة فى الوجوب، وتقديرًا له؛ لأن الميراث جعل أساس الإنفاق بمقتضى نص الآية الكريمة ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

وقبل أن نترك الكلام فى هذا نشير إلى معنى لفظى أشار إليه النص، وهو قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ فإنه أشار إلى أن الوجوب على الوارث هو وجوب بدلى، أى أن الوارث قام فيه مقام الأب، والوجوب الأصلى على الأب؛ فقد قال فى الوجوب على الوارث: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ فالتعبير بالمثل يشير إلى أن أصل الوجوب على الأب؛ ولذلك قرر أن الأب لا يشاركه أحد فى الإنفاق على ولده، ولو كان يشارك الأب فى الميراث من الولد غيره، فلا تشارك الأب القادر غير العاجز الأم فى الإنفاق إذا كانت غنية.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ تبين فى سابق النص الكريم أن الحسد بالحولين من حيث وجوب الإرضاع ووجوب الإنفاق ليس حدًا لازمًا بل هو حد للكمال لمن أراد أن يتم الرضاعة كما صرح النص الحكيم؛ ولذلك كان للأب والأم مجتمعين غير منفرد أحدهما ولا مستبد أن يقطعا الطفل قبل هذه المدة؛ ولذا سقت الجملة السامية، ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أى لا إثم عليهما إن فعلا ذلك، والفصال هنا هو الفطام؛ لأن الفطام يفصل الولد عن ثدى أمه، ويفصله تدريجيا عن ملازمتها. وإن الفصال لا بد فيه من أمرين:

أحدهما - التشاور فيه بأن يفحصا حال الطفل من حيث قوته وقدرته على الاستغناء عن لبن الأم، وسلامة جسمه ونموه، ولا مانع من أن يستعينا في ذلك برأى خبير رشيد وقد أوجب سبحانه وتعالى التشاور عند الفطام؛ لأن ذلك سيؤثر في صحته في قابل حياته، بل ربما أثر في أعصابه؛ وإن لذلك خطره وشأنه فوجب التشاور فيه، والشورى واجبة في كل أمر ذي شأن وخطر.

وثاني الأمرين اللذين لا بد من وجودهما عند الفطام: أن يكون الفطام بإرادة حرة صريحة واضحة ورضا كامل من كل منهما؛ ولذلك أكد الرضا من كل منهما بالذكر مرتين: أولهما أنه قال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ فأوجب تحقق إرادتهما، وثانيهما أنه قال: ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ أى إرادة حرة صريحة صادرة عن تراض صحيح ليس فيه شائبة إكراه.

وفى ذلك فوق ما فيه من رعاية مصلحة الطفل احترام لإرادة المرأة فيما يتعلق بطفلها، وأنها ليست كمأ مهملا في البيت، بل لها رأى بجوار رأى الرجل فى أخطر الأمور وأشدّها أثرًا.

وإن العناية بأمر الفطام على ذلك النحو تدل على عناية الشارع الإسلامى بالناشئة وتربيتها تربية جسمية وخلقية وعقلية؛ فإن العناية بالطفل بعناية بجيل كامل من الأمة؛ وعلى حسب العناية بالتربية الأولى يكون الجيل من الأجيال.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما تقدم كان فى إرضاع الأم ولدها، وفيه بيان وجوبه عليها، وما يقابل ذلك من حق لها على الأب؛ وفى هذا الكلام يبين الله الحكم فى استرضاع الأب غير الأم، فبيّن أن ذلك يكون برضا الأم وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أى إن اجتمع رأى الأب ورأى الأم على أن يسترضعوا لولدهما ظئرا، فلا إثم عليهما فى ذلك، ولكن على الآباء أن يلاحظوا حق ذلك المرضع من الأجرة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى سلمتم ما وجب عليكم إعطاؤه بالمعروف أى يكون تقديره بالمعروف بين الناس

الذى يتعارفونه أجراً، ويكون عطاؤه من غير ممانعة، ولا بمأكسة، بل بالمعروف الذى لا يستنكره الناس وتقره العقول والأخلاق القويمة، وهنا بحث لفظى فى موضعين:

أولهما: فى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ فإن استرضع كما قال الإمام الزمخشري منقول من أرضع؛ يقال أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي، فهي متعدية إلى مفعولين، كما يقال نجحت الحاجة، واستنجحت الحاجة؛ وفى الآية الكريمة قد حذف أحد المفعولين، إذ المعنى أن تسترضعوا المراضع أولادكم، وحذفه متسق مع السياق الكريم؛ لأن الحذف يدل على العموم وعدم تخصيص مريض دون مريض، فإنه عند إرادة الاسترضاع لا يتقيد الأب بواحدة دون الأخرى ما توافرت السلامة فيهن، ولم ينل الطفل من إحداهن ضرر فى جسمه أو خلقه أو أعصابه.

الموضع الثانى: فى قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ﴾ ففى قوله تعالى ﴿آتَيْتُمْ﴾ ثلاث قراءات: أولاها آتيتم بالمد، وثانيها من غير مد مع ضم الهمزة، وثالثتها (أوتيتم) والقراءات الثلاث تتلاقى فى معنى واحد، وهو إعطاء الأجرة بالمعروف أى المتعارف كما نوهنا؛ وتخريجه على القراءة الأولى ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ أى أردتم إتياءه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ [المائدة] أى أردتم القيام إلى الصلاة، وعلى القراءة الثانية «ما آتيتم» أى مما أعطيتم من مال، لأن أتى تستعمل بمعنى أحسن، فيقال أتى إليه إحساناً إذا فعله، وتكون متعدية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم]. وعلى القراءة الثالثة (أوتيتم) أى أعطيتم المعنى واضح صريح فيها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة التى تبين واجب الآباء والأمهات نحو الأمانة التى سلمها الله لهم؛ ليقدموها للمجتمع الإسلامى غرساً طيباً وجيلاً قوياً طاهراً؛ ذيل تلك الآية الحكيمه بالأمر بتقواه، والتذكير بأنه علم بكل شئ علم المبصر الذى يرى؛ إذ خلجات القلوب فى علمه الأزلئ المحيط، كأنها المراتب المبصرة.

ولذلك التذليل الكريم فوائد ثلاث :

أولها: تربية المهابة في قلوب المؤمنين؛ ليتذكروا الله سبحانه وتعالى في كل أعمالهم الصغيرة والكبيرة، وليعلموا أن شئون الحياة كلها سواء كان منها ما يتعلق بالأسرة أو ما يتعلق بالمجتمع، وما يتعلق بالآحاد، لا تستقيم إلا بمراقبة الله تعالى، والإحساس بتقواه، وأنه عليم بما تخفى الصدور وما تكنه القلوب؛ وأن من يعمل عملاً يعمل به كإنه يرى الله، فإن لم يكن يراه فإن الله سبحانه وتعالى يراه.

وثانيها: بيان أن العلاقات بين الآباء وأولادهم وأمهاتهم لا يغفل الله عنها، وسيجزى المحسن إحساناً والمسيئ سوءاً، وإن استطاع الرجال أو النساء أن يستطيلوا ويظلموا في الدنيا، أو يخذعوا القضاء بزور من القول، فلن يخذعوا الله سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء رقيب، وسيجزى كلا بما صنع، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والثالثة: التذكير بأن شئون الأسرة تقوم على التدين، لا على الظواهر المادية، فإنه إذا صلحت القلوب استقامت العلاقة بين الرجل وأهله وأولاده، وإن تقطعت حبال المودة، وذهبت التقوى من القلوب، وأقفرت النفوس، فسيكون الظلم مهما تكن الأحكام، ومهما يكن القضاء.

منحنا الله سبحانه رضوانه، ووهبنا عرفانه، وأصلح لنا في ذريَّاتنا، إنه سميع مجيب الدعاء.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
 ﴿٢٢٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ
 أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
 وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا
 وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

فى الآيات السابقة بين سبحانه إنشاء الزواج، وما ينبغى أن يكون فى الاختيار وما يجب، ثم بين العشرة الزوجية، ثم بين الفراق بين الزوجين والأحكام التى تتبع عند الافتراق، وأن الزواج إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وأنه إذا لم يكن واحداً منهما فهو الكفر فى الإسلام، أو الجهل بأحكامه أو الزيف عن قانونه، والخروج من ريقته ونظامه؛ ثم أشار سبحانه إلى حقوق ثمرة الزواج فى حالى الوفاق والخلاف، وأنها حقوق مقررة فى الحالىين.

وبعد ذلك بين الحكم إذا فرق بين الزوجين الموت، فذكر القيود المعقولة التى تقيد بها المرأة، وبعدها تكون الحرية التى يكون من آثارها اختيار الزوج الكفء، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فى هذه الآية الكريمة يتبين عدة المتوفى عنها زوجها، وهى أربعة أشهر قمرية وعشرة

أيام؛ وعبر سبحانه عن العشر بما يدل على أن المعداد مؤنث؛ إذ إنه حذف التاء، فدل على أن المراد عشر ليال والمؤدى واحد، ولكن التعبير بالليالى فيه فائدة أكبر من التعبير بالأيام؛ لأن فيه إشارة إلى أن تقدير الأشهر بالقمرية كما نوهنا؛ لأن الليالى هى التى تعرف فيها أحوال القمر وأدواره؛ فكان التعبير بها توجيهها لما يكون فيها، وهو القمر بأطواره وأحواله.

وقبل أن نخوض فى حكمة تقدير عدة الوفاة ذلك التقدير، وما يعارض ظاهرها فى سورة الطلاق؛ وما كان عليه العرب من عادات فى حداد المرأة على زوجها؛ قبل ذلك نذكر بعض مباحث لفظية فى تلك الجملة السامية.

وأول تلك المباحث اللفظية، هو فى كلمة ﴿يَتَوَقَّونَ﴾ بالبناء للمجهول، ولم تقرأ غير ذلك؛ لأن الفعل توفى متعد؛ فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ (٤٢) [الزمر] فإذا لم يذكر الفاعل بنى للمفعول.

وثانيها: فى كلمة «يذرون» معناها يتركون؛ وقد ادعى علماء النحو أنه من الأفعال التى مات ماضيها، ولم يعرف إلا فعل المستقبل لها؛ مضارعاً كان أو أمراً؛ ولكن وجدنا فى أساس البلاغة للزمخشري ما دل على أن ماضيها حى وليس بميت؛ فقد جاء فيه ما نصه: (ذره واحذره والعرب أماتت المصدر منه فيقولون: ذر تركاً، وإذا قيل لهم ذروه قالوا وذرناه)^(١).

ونرى من هذا أن ذلك العالم اللغوى العظيم لم يعترف إلا بأن العرب أماتوا المصدر، أما الماضى فلم يميته، وذكر الاستعمال الذى يدل على حياته، فقال: (إنهم إذا قيل لهم: ذروه. قالوا: وذرناه).

وثالث المباحث اللفظية: فى كلمة «أزواج» وهى جمع لزوج، وهو كلمة تفيد بأصل معناها الدلالة على اثنين اتحدا فى الخواص والصفات وكل الشخصات حتى صار كل واحد منهما صورة كاملة من الثانى، وكأنه هو فى شخصه؛ ولذلك أطلق

(١) قال المصنف - رحمه الله -: انظر أساس البلاغة ج٢ ص ٤٩٨ طبع دار الكتب.

على كل واحد منهما بأنه زوج، وأطلق على كل واحد من الرجل والمرأة بعد ذلك العقد المقدس بأنه زوج؛ لأنه ثانی اثنين قد امتزجت حياتهما، وتلاءمت شخصياتهما حتى صار كل واحد منهما كأنه صورة من الآخر، وكأنه شخصه في كونه ووجوده لما ارتبطا به من حياة، ولكمال الخلطة بينهما، ولتماثل الحقوق والواجبات عليهما ولاتحاد شخصيتهما بذلك الزواج الموحد بينهما.

ورابع المباحث اللفظية: في كلمة «يتربصن» والتربص معناه الانتظار؛ فقد قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ﴾ (٢٥) [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفَقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ...﴾ (٩٨) [التوبة] وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۖ﴾ (٣٥) [الطور] وفي كل هذه الآيات الكريمة كان التربص معناه الانتظار مع الترقب؛ والتربص من المتوفى عنها زوجها في هذا المعنى تقريبا.

و«يتربصن» هي خبر في معنى الطلب فالمعنى ليتربصن، كقوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...﴾ (٢٣٣) [البقرة] وفي ذلك إشارة إلى أن التربص أمر نظري يتلاقى مع الأمر الشرعي؛ فإن الحرة الكريمة لا ترضى لنفسها ولا ترضى معها أسرتها أن تتزوج فور وفاة زوجها، أو بعدها بمدة قليلة؛ فإن ذلك أمر مستهجن في الفطرة السليمة، وفي الشرع الحكيم، وفي عرف الناس، ولا ترضى العقول به والمدارك الصحيحة.

وكان مع ذلك التعبير بقوله تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ فيه إشارة إلى أن ذلك التربص فيه صيانة لأنفسهن، وحفظ لكرامتهن، ودفع لمعنى الامتهان والعار الذي يلحق المرأة من أن يموت ضجيعها، فلا تلبث إلا قليلاً بعد أن يسجى ويدفن، حتى تعرض نفسها طالبة الأزواج، كأنه ليس المتوفى عشيراً أليفاً يستحق الحداد.

وقد حد الشارع للمتوفى عنها زوجها عدة هي في جملتها أكثر من عدة المطلقات؛ لأن تلك ثلاثة قروء تجيء عادة في نحو ثلاثة أشهر. وهنا يرد سؤالان:

أولهما: لماذا كانت العدة فى المتوفى عنها زوجها بالأشهر دون الحيض، فلم تجعل أربع حيضات بدل ثلاثة؟ . . ولماذا كانت الزيادة؟

ولم نجد أحداً تصدى لبيان الحكمة فى جعلها بالأشهر، ويبدو لنا أن الحكمة التى تدركها عقولنا - وإن كانت الحكمة الشرعية السامية قد تعلو على مداركنا - هى أن عدة الوفاة تكون للمدخل بها وغير المدخول بها، وللصغيرة والكبيرة، والأساس فيها هو الحداد على الزواج السابق الذى انتهى بوفاة أحد ركنيه، فلزم أن يكون بأمر يشترك فيه الجميع ما دام السبب واحداً فى الجميع؛ وفوق ذلك إن العدة فى الوفاة لو قدرت بالحيض، وهو أمر لا يعلم إلا من جهة المرأة، فربما تدفعها الرغبة فى الزواج إلى الكذب فتدعيه وهو لم يقع؛ وفى المطلقات العدة حق للمطلق فيستطيع أن ينكر عليها، أو يظهر كذبها، وهى تخشى صولته، فتبتعد ما أمكن عن المراء؛ أما فى حال الوفاة فصاحب الحق الأول قد مات وصار الحق لله خاصاً، فحد ذلك الحق بالأشهر والأيام حتى لا يكون مساعاً للكذب وادعاء ما لم يحصل؛ لأن الأيام والأشهر تعرف بالكتاب والحساب، وليست أمراً يعرف من جهتها فقط.

أما الجواب عن الأمر الثانى وهو: لماذا كانت العدة بالوفاة أكثر فى الجملة من العدة الناشئة عن الطلاق؟ فيبدو يادى رأى، من الفرق بين حال الطلاق وحال الوفاة، أن الطلاق نتيجة شقاق؛ فالحداد على الزوج الذى ينشئه ليس قوياً، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فرصة للرجعة يكون أوضح فى معنى العدة، ويكفى لذلك نحو ثلاثة أشهر؛ أما حال الموت، فإن مرارة الفراق فيها أوضح وأشد، ومعنى الحداد يغلب فيها معنى براءة الرحم؛ ولذلك تجب على المدخول بها وغير المدخول بها؛ وإن الشارع قد جعلها لذلك أطول من عدة الطلاق؛ وإن الشارع الحكيم قد خفف من حدة ما كانت تعمله النسوة الجاهلية؛ فقد كانت المرأة فى الجاهلية تغلق على نفسها أضيق مكان فى مسكنها وتقضى فيه سنة كاملة؛ حدادا على زوجها، فجاء الإسلام، وخفف عليها وجعلها أربعة أشهر وعشراً، ولندكر لك ما كان فى الجاهلية وما كان فى الإسلام، كما روى فى صحاح السنة:

فقد روى البخارى ومسلم عن زينب بنت أم سلمة أنها قالت: «دخلت على أم حبيبة حين توفى أبو سفيان (أبوها) فدعت أم حبيبة بطيب فدهنت منه جارية، ثم مست بعارضيهما، ثم قالت: والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»^(١)، قالت زينب: سمعت أمى أم سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتى توفى زوجها وقد اشتكت عينيها أفتكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا» مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: «إنما هى أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول؟» قال الراوى^(٢) قلت لزينب: ما ترمى بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: «كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشاً^(٣) ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بعة، فترمى بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره»^(٤).

وترى من هذا أن الإسلام قد ألغى تلك العادات الجاهلية، وقصر أمد الحداد على الوفاة، فجعله أربعة أشهر وعشراً بدل سنة.

وقد يرد سؤال آخر: لماذا حد العدد بأربعة أشهر وعشراً؟ وإن تقدير الأعداد كما يقرر الفقهاء أمر توقيفى خالص لا يجرى فيه القياس؛ ولكن ليس معنى ذلك أنه لاحكمة فيه؛ وإن الحكمة يقررها العلماء فى أمرين:

أولهما - أن الأشهر الأربعة هى التى يظهر فيها الحمل ويستبين، وقد جعلت العشر بعدها للاحتياط، وتعرف أعراضه وظواهره؛ وذلك لأنه لما وكل أمر براءة الرحم إلى مدة، لوحظ فيه المدة التى فيها يعرف ويستبين وتظهر أعراضه.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الجنائز - إحداد المرأة على غير زوجها (١٢٠١)، ومسلم: الطلاق - وجوب الإحداد فى عدة الزواج (٢٧٣٠).

(٢) الراوى هو حميد بن نافع، شيخ البخارى، من الطبقة الوسطى من التابعين، وكنيته أبو أفلح.

(٣) الحفش: المكان الضيق فى البيت.

(٤) هذا الحديث متفق عليه، رواه البخارى: الطلاق: تحد المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً (٤٩٢٠)، ومسلم: وجوب الإحداد (٢٧٣٠).

ثانيهما - أن مدة أربعة الأشهر هي المدة التي قررها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال؛ ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر، بحيث إذا حلف الرجل ألا يقرب امرأته أربعة أشهر، ومضى في يمينه وانتهت المدة طلقت منه، فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الزواج في حدود هذه المدة، ومقاربة لها في الجملة؛ وليس من المعقول أن يعاقب الشارع الرجل إذا أصر على هجر زوجته بالفراق إذا أصر عليه أربعة أشهر، وفي الوقت نفسه يلزمها بالإحداد مدة أطول من ذلك، بل ينبغي أن تكون مدة الإحداد حول هذه المدة أيضاً.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بيّنت الجملة السامية السابقة مدة العدة للمتوفى عنهن أزواجهن، وفي هذه الجملة الكريمة يبين سبحانه وتعالى انتهاءها وما يترتب على الانتهاء؛ والمعنى: إذا انتهت المدة المقررة للتربص؛ فلا إثم على الناس فيما يفعلن في أنفسهن من زينة واستعداد للزواج والزواج بالفعل؛ ونرى في التعبير الفعل المباح منسوباً لهن، ونفى الإثم عن الناس المتصلين بهؤلاء المتوفى عنهن أزواجهن؛ وفي ذلك دلالة على أمرين:

أحدهما: أن المرأة تباح لها الزينة بالمعروف، أي بالأمر المعقول الذي تقره العقول، وتدركه الأفهام، وتعرفه أهل المدارك السليمة والأذواق الدقيقة المحكومة بشكائهم الأخلاق؛ ويدخل فيما يفعلن بأنفسهن الزواج، فلها اختيار الزوج، وتولى العقد، بشرط أن يكون ذلك في دائرة العرف والتقيّد بالكفاءة، وألا تجلب عاراً على أسرتها وذويها.

وثانيهما: أن نفى الإثم عن الجماعة فيما يفعلن بأنفسهن بالمعروف غير المستنكر، دليل على أن الجماعة الإسلامية متعاونة متآزرة متماسكة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن على كل امرئ أن يصلح من شأن أخيه، ويقوم به بالمعروف، ويبين له أوامر الشرع وحكم الله تعالى، ولا تذهب عنه هذه المسؤولية حتى يكون عمل من يكون ذا صلة به في دائرة الشرع والخلق القويم.

وقبل أن نترك الكلام في عدة المتوفى عنها زوجها، نشير إلى موضوع يتصل به، أو هو من لبه، وهو مقدار شمول هذا النص للمعتدات من وفاة: أي شمل الحامل وغير الحامل، أم يختص بغير الحامل فقط؟ لقد ورد في عدة الحامل قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ...﴾ [٤] [الطلاق] وورد في عدة الوفاة هذه الآية الكريمة التي نتكلم في معناها، وهذان عمومان متعارضان، أو يبدو في الظاهر أنهما متعارضان.

وقد قال جمهور الفقهاء: إن آية عدة الوفاة التي نتكلم فيها خاصة بغير الحوامل؛ فعدة المتوفى عنها زوجها غير الحامل تكون بأربعة أشهر وعشرًا، وعدة الحامل بوضع الحمل عملاً بآية الحمل، فكانت آية الحمل شاملة لحال الطلاق وحال الوفاة؛ ويستدل على ذلك الرأي، بالحديث الشريف؛ فإنه روى أبو داود عن النبي ﷺ أنه أفتى سبيعة الأسلمية، بأنها حلت حين وضع حملها، وكانت قد ولدت بعد موت زوجها بنصف شهر.

هذا رأى جمهور الفقهاء، وذلك نظرهم؛ ولكن يروى عن علي، وابن عباس رضی الله عنهما أن المعتدة الحامل من وفاة تعتد بوضع الحمل، بشرط ألا تقل العدة عن أربعة أشهر وعشر؛ أي أنها تعتد بأبعد الأجلين: وضع الحمل، أو مضى أربعة أشهر وعشر.

وذلك الرأى إعمالاً للآيتين الكريمتين وإمضاءً لعمومهما، وهو يتفق مع الحكمة من إطالة مدة العدة بالنسبة للمتوفى عنها زوجها؛ فإنه لا يتفق مع ذلك أن تنتهى العدة بوضع الحمل بعد ساعة من الوفاة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذَبَّلَ اللَّهُ سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا التذييل؛ لبيان أنه سبحانه وتعالى عليم علم الخبير الدقيق الذي لا تخفى عليه خافية، بما يعملون من تنفيذهم لأوامره، أو إهمالهم؛ وأن من سنته سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه بعد كل أمر أو نهى يذكر رقابته سبحانه وتعالى في التنفيذ، ليعلم من

يهمل ومن يطيع، ولكل جزاؤه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ وإذا كان المكلف يحس بأنه تحت رقابة الله دائماً فإنه يراقب الله في عمله، ويكون منه الخير واجتناب الشر.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الخطبة من الخطاب، وهى مخاطبة المرأة أو ذوبها فى أمر زواجها؛ والتعريض ضد التصريح، وهو إفهام المراد لكلام يحتمل ما يريد المتكلم، ويحتمل غيره، وهو فى ظاهره غير ما يريد، ولكن يبدو من لحن القول وإشاراته والمقام ما يريد، وهو من عَرَضَ الشئ وهو جانبه، كأنه يحوم به حول الشئ وعلى جوانبه ولا يظهر مراده. والنساء المراد بهن فى الآية هن المتوفى عنهن أزواجهن فى أثناء العدة. والإكتمان فى النفس أن يخفى إرادة الزواج والرغبة فيه مع الإصرار عليه، واعتزامه من غير إعلان لأحد.

ومعنى الجملة الكريمة: أنه لا إثم فى التعريض بخطبة المتوفى عنهن أزواجهن، كما أنه لا إثم فى الرغبة فى الزواج منهن مع إكتمان ذلك وستره من غير كشف وإعلان؛ لأن الكشف والإعلان قد يؤذى الميت، وهو فوق ذلك لا يليق بأهل المروءة من الرجال.

والتصريح بالخطبة لا يجوز، حتى لا يؤذى أهل الميت، وحتى لا يدفعها إلى الامتناع عن الحداد على زواجها، فوق أن ذلك نقص فى الخلق. وفساد فى الذوق لا يصدر عن ذى إحساس كريم؛ فالتعريض فقط هو المباح فى الخطبة فى حال عدة الوفاة؛ وأساليب التعريض متباينة يبينها المقام؛ ومن ذلك ما يروى عن سكينه بنت حنظلة أنها قالت: «استأذن على محمد بن على زين العابدين فقال: قد عرفت قرابتى من رسول الله ﷺ، وقرابتى من على، وموضعى فى العرب.. فقلت: غفر الله لك يا أبا جعفر، إنك رجل يؤخذ عنك؛ تخطبنى فى عدتى!! قال إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ ومن على».

وقد أخرج الدارقطني أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة وهي متأيمه من أبي سلمة، فقال: «لقد علمت أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي». وكانت تلك خطبة^(١).

﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَدْرُوْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾
في هذه الجملة الكريمة يشير سبحانه وتعالى إلى طبائع النفس البشرية فيمنعها من الانسياق فيما يردى ويفسد، ويبيح لها ما لا ضرر فيه، وقد يكون فيه ما تطيب به نفوس، وتطمئن إليه قلوب.

فالله سبحانه وتعالى علم أن العارفين لأخبار المتوفى عنها زوجها وأحوالها وحقيقتها، من جمال أو نحوه، ومن حسن عشرة ولطف مودة، أنهم سيذكرونها في نفوسهم ويقرنون الذكر بالرغب والاتجاه إلى طلبها، وإعلان الرغبة والتحبب إليها وإمالة قلبها؛ ولقد علم الله سبحانه وتعالى حال النفوس هذه فأباح للناس ما تكون مغبته حسنة، ومنع غيره؛ فأباح إكثان الرغبة في الأنفس وحديث النفس بها، فإن حديث النفس ليس موضع مؤاخظة؛ وأباح التعريض بالخطبة، ونهى عن أمرين:

أولهما: المواعدة السرية، سواء أكانت تلك المواعدة على الزواج أو غيره. وقد تكلم العلماء في معنى كلمة «سرًا» فقليل: إن معناها ما يكون بين الرجل وزوجه من متعة جسدية. وقيل: إن معناها عقد الزواج. وقيل إن سرًا، معناها زنا. وروى أن ابن عباس وابن جبير والشعبي ومجاهدًا وعكرمة والسدي، فسروا «سرًا» بآلا يأخذ عليها ميثاقا بآلا تتزوج غيره في استسرار وخفية.

وإن الذي غلب إليه أن «سرًا» وصف لمحذوف أى لا تواعدوهن وعدًا سرًا بأي شكل من الأشكال، وفي أى موضوع من الموضوعات؛ لأن الإسرار يدفع إلى الخلوة فتكون الحال في مكان النهي حيث قال النبي ﷺ: «لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما»^(٢) والمعنى على هذا: لا تندفعوا وراء رغباتكم فتلتقوا بهن سرا

(١) ذكره بهذا اللفظ وهذا التخريج القرطبي في تفسيره: سورة البقرة ٢٣٥ وراجع الدارقطني في سنته ٢٢٤/٣.

(٢) جزء من حديث رواه أحمد: مسند العشرة (١٠٩) من حديث عمر بن الخطاب - رضى الله عنه، والترمذي بنحوه: الفتن - ما جاء في لزوم الجماعة (٢٠٩١) عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وتقولوا معهن ما تستحيون من قوله جهراً؛ إما لأنه قبيح لا يعلن، وإما لأنه فى غير وقته فيستنكر القول فيه فور الوفاة؛ وذلك فوق قبح الخلوة فى ذاتها.

ولقد استثنى سبحانه استثناء منقطعاً فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ والمعنى لكن المباح لكم أن تقولوا قولاً معروفاً لا تستنكره العقول، وتقره الأخلاق، ولا يقبح إعلانها، بل يقال فى غير استسرار؛ وبهذا الاستثناء يحد الله سبحانه فرق ما بين الحلال والحرام فى هذا المقام؛ فالسرية ممنوعة أياً كان موضوعها، لما يكون معها من ملابسات محرمة، والقول المعروف الذى يكون بالتعريض، وإظهار المودة بشكل لا يؤدى إلى محرم، ولا تستهجنه العادات الفاضلة والأخلاق الكريمة، هذا حلال لا ريب فيه.

وقبل أن نترك الكلام فى هذا الأمر المنهى عنه، نذكر تحقيقاً لفظياً ذكره الزمخشري، وهو مقام «لكن» فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، مما قبلها؛ فقد قرر رحمه الله أن المعنى: علم الله أنكم ستذكرون النساء فاذكروهن، ولكن لا تواعدوهن سرراً، ويكون المؤدى اذكروهن ذكراً حسناً معروفاً معلناً غير منكر، لا تمجّه الأذواق، ولا تنبو عنه الأخلاق.

الأمر الثانى الذى هو فى موضع النهى ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾ العزم: القطع، وهو يتعدى بعلی، وبنفسه، فيقال: عزم الأمر وعزم عليه، وعقدة النكاح: الارتباط به. والكتاب: هو الأمر المكتوب المفروض، وهو هنا العدة. والأجل: هو انتهاء المدة المقررة للعدة والمعنى: لا تعقدوا العزم نهائياً فى أثناء العدة على أن تنموا الزواج بعدها، بأن تقطعوا فى أمر الخطبة فتجعلوها تصريحاً بدل أن تكون تعريضاً؛ فإن العزم القاطع لا يكون بالتعريض، بل يكون بالتصريح؛ لأن عبارة التعريض كيفما كانت يدخلها الاحتمال، فلا تنبئ عن القطع أو الجزم؛ وعلى ذلك يكون هذا الكلام السامى ذكراً لما فهم عند نفى الإثم عن التعريض من منع التصريح؛ وفوق ذلك فيه دلالة على منع العزم مطلقاً ولو بإصرار النية، وإكثان النفس؛ لأن العاقل لا يسوغ له أن يعزم

أمراً ولو في نفسه قبل أن يجيء وقته؛ لأن المستقبل بيد الله ولا تدرى نفس ماذا تكسب غداً، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ في هذا الكلام الكريم الحكيم تحذير وتقريب، وتخويف ورحمة؛ إذ بين سبحانه أنه يعلم خلجات القلوب، وخطرات النفوس، وما تخفى الصدور وما يستكن فيها، وما يعلن؛ وإن للنفس هواجس وخواطر، فإذا همت النفس أو جالت فيها أمور تستهجن ولا تستحسن، كأن يجول بخاطره أن يكلم المعتدة من وفاة في أمر منكر لا يسوغ في الدين، ولا في العرف، ولا في الأخلاق، فليعلم أن الله عليه رقيب يعلم تلك الخواطر؛ فليحذره؛ لكيلا يبرزها إلى الوجود، فيندفع وراءها، وإنه إذا قمعها وقدع نفسه عنها، وجعلها في محيط قلبه لا تخرج منه، فإن ذلك يكون في عفو الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر الله فلا يأخذ العبد إلا بما يفعل ولا يأخذه بما يجول بخاطره، ولا بما تحدثه به نفسه، ومن هم بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شيء، تبارك الله سبحانه هو المنتقم الجبار العفو القدير، الغفور الرحيم.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ
قَدَرُهُ، وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ، مَتَّعَا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
﴿١٣﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا
الَّذِي بَيْنَهُ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٤﴾

بين سبحانه آثار الفراق بين الزوجين بالطلاق أو الموت؛ فقد بين العدة، وهي فى معناها حق الزواج وحق الزوج وحق الولد؛ وقد ذكر بعد ذلك حق المرأة الخالص، وهو المهر أو المتعة؛ وقد أمر الله سبحانه وتعالى بإيتاء المهر فى قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً...﴾ (٤) [النساء] ووجوبه كاملاً فى حال الطلاق بعد الدخول فى قوله تعالى: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٢٠) [النساء].

وفى هذه الآية يبين سبحانه المهر الواجب أو ما يقوم مقامه فى الصورة التى قد يتوهم الناس أنه لا مهر فيها، لأنه لم يفض أحدهما إلى صاحبه؛ إذ لم يحصل مساس بينهما؛ فقال تعالى:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ الجناح معناه الإثم، ومعنى تمسوهن هنا أى لم تباشروهن ولم تدخلوا بهن، وهو كناية جميلة من كنايات القرآن الكريم التى هذبت الألفاظ العربية، وعلمت الناس الأدب فى التعبير، ليتهدب الذوق الخلقى، والبياني، والاجتماعى.

والمس فى أصل معناه اللغوى: اللمس، فهو يطلق على كل ما يكون فيه إدراك بحاسة اللمس، ثم أطلق على سبيل الكناية على كل ما يكون فيه إصابة حسية أو معنوية ولها مظهر حسي؛ ولذا كنى به القرآن الكريم عما يكون بين المرأة وزوجه، كما فى هذه الآية الكريمة، وكما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ...﴾ (٤٩) [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿أَتَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ...﴾ (٤٧) [آل عمران].

وكنى بالمس عما يصيب العقل أو الجسم من مرض أو أذى؛ فقد قال تعالى: ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾ (٢٧) [البقرة]، وقال تعالى: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ...﴾ (٢١٤) [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لَجَنَّتِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا...﴾ (١٢) [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً...﴾ (٨٠) [البقرة].. وهكذا.

والفريضة معناها المهر المقدر، وأصل الفرض معناه التقدير؛ فمعنى لم تفرضوا لهن فريضة: لم تقدروا لهن تقديرًا.

ومعنى الآية الكريمة بعد ذلك التفسير اللفظي، أنه لا إثم على من يطلق قبل الدخول إذا لم يكن ثمة فريضة مقدرة.

ونفى الجناح أو الإثم عن الطلاق قبل المسيس لا عن مطلق طلاق؛ ولقد فهم بعض العلماء أن نفي الإثم هو عن مجرد الطلاق، لا عن الطلاق المقيد، واستتبط من هذا أن الطلاق مباح في ذاته من غير نظر إلى دواعيه؛ وذلك النظر لا نحسب أنه الصواب، لسببين:

أحدهما: أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله^(١)، وأن الله ما أحل شيئاً أبغضه كالطلاق^(٢). فلا يمكن أن يكون الأصل فيه الحل من غير نظر إلى دواعيه وبواعثه؛ لأنه شرع للحاجة النفسية إليه، وذلك إذا تعذر قيام المودة في الحياة الزوجية؛ ولذا قال سبحانه بعد محاولة الإصلاح بين الزوجين بكل الطرق وتعذر الإصلاح: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ...﴾ [النساء].

ثانيهما: إن من المقررات اللغوية أن أداة النفي إذا دخلت على شيء مقيد بوصف أو حال، فإن النفي لا يكون منصبا عليه مقيداً بذلك القيد، ويكون القيد هو موضع النفي، لا أصل الشيء في ذاته؛ وكذلك هنا؛ فالنفي منصب على الطلاق المقيد بأنه قبل الدخول وقبل فرض فريضة، أو بالأحرى هو منصب على الطلاق قبل المسيس، سواء أكان ثمة فريضة أم لم تكن، ولكنه في حال الفرض للمهر قدر مخصوص، وفي حال عدم الفرض للمرأة حق آخر معلوم.

(١) رواه أبو داود: الطلاق - في كراهية الطلاق (١٨٦٣)، وابن ماجه: الطلاق - باب حدثنا سويد بن سعيد (٢٠٠٨).

(٢) عَنْ مُحَارِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ شَيْئًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّلَاقِ». [رواه: أبو داود الطلاق - كراهية الطلاق (١٨٦٢)] وهو حديث مرسل؛ ومحارب بن يسار السدوسي من الطبقة دون الوسطى من التابعين، وكنيته أبو مطرف، أقام بالكوفة وتوفي بها ١١٦ هـ.

وننتهى من ذلك إلى أن موضوع الآية الكريمة هو حق المرأة فى حال الطلاق قبل الدخول، سواء أكان ثمة فرض أم لم يكن فرض؛ وإذا كان ثمة نفى للإثم فهو عن الطلاق فى هذه الحال، وإن نفى الإثم عن الطلاق فى هذه الحال؛ لا يقتضى نفى الإثم فى غيرها، وإن الفرق بين الحالىين واضح؛ فإن الفرة قبل الدخول يكون الضرر الواقع فيها على المرأة أقل، ولم يستوف فيها شىء من أحكام الزواج، ولم توثق الصلة فيها بأولاد، وإقامة بيت، يتهدم بالطلاق؛ أما الطلاق بعد الدخول، فإن جُل أو كل أحكام الزواج فيها تكون قد استوفيت، والضرر فيها أشد، وقد يتعدى الضرر إلى ثمرات الزواج؛ فنفى الإثم فى الحال الأقل ضرراً، أو التى لا ضرر فيها لا يستلزم نفى الإثم فى الحال الأشد ضرراً.

وقد يقول قائل: إن الطلاق قبل المسيس قد يسيىء إلى سمعة المرأة، ويقول الناس إنه ما طلقها إلا من شىء، وقد يكون اختياره لها مفوتاً لزواج كفاء ربما لا يمكن تداركه، وذلك حق فى بعض الأحوال. ويجاب عنه بأن حسن سمعة الأسرة التى تنتمى إليها الزوجة، وكرم محتدها قد يردُّ كل إيهام أو اتهام، وإن ما يعرفها من ألم بسبب ذلك الفراق المعجل يخففه التمتع، وهو إعطاء المتعة؛ وفوق كل هذا إن الاختلاف الذى أدى إلى الافتراق قبل الدخول يدل على أن الاختيار فى الزواج لم يكن موفقاً، فكان إنهاؤه قبل الدخول من المصلحة الحقيقية للزوج، ويهون بجواره كل ألم فى سبيل تلك المصلحة؛ لأنه يكون الأمر بعد ذلك عيشة كلها مضارة، أو افتراق فى غير الوقت المناسب، وإذا كانت المرأة قد تأملت فالرجل قد أصابه غرم مالى.

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا بيان لما تعوض به المرأة إذا حصلت فرة قبل الدخول وقبل أن يُقدَّر لها شىء من المهر؛ فذكر الله سبحانه أن الواجب هو المتعة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾، والمعنى أعطوهن متعة يتفعلن بها ويكون فيها تسرية عن أنفسهن، وبعض التعويض عما نالهن، وما فاتهن فى هذا الزواج، فتطيب نفوسهن. والتمتع

مأخوذ من المتاع، وأصل المتاع الامتداد فى الارتفاع، يقال متع النهار إذا ارتفع؛ ثم انتقل إلى الانتفاع الممتد، ثم إلى الشيء المنتفع به انتفاعاً ممتداً يعلو به الشخص فى الحياة الدنيا، ثم أطلق على كل ما ينتفع به؛ ومنه المتعة فى الزواج، وهو ما يعطى للمطلقة لتتفع به مدة عدتها؛ ويلاحظ أن يكون الانتفاع مما يمتد زمناً، ومما يعلو به الشخص؛ ولذا عرّفها الشافعى بأنها: شىء نفيس يعطيه المطلق للمرأة لتتفع به أمداً.

وقد جعل الله سبحانه المتعة تابعة لحال الرجل، فقال: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾.

الموسع: القادر المطبق للإنفاق عن سعة، فهو ذو السعة أى القدرة الكبيرة، كما قال تعالى فى الإنفاق: ﴿لَيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ...﴾ [٧] [الطلاق] والمقتتر هو من كان قليل المال، مأخوذ من أقتر الرجل بمعنى قل ماله؛ والقدر: الطاقة، أو المقدار؛ والمعنى؛ على الموسع قدر طاقته، وعلى المقل قدر طاقته؛ وقرئ ﴿قَدْرُهُ﴾، وهما بمعنى واحد. وبعض العلماء يفرق بينهما فيجعل «القدر» بالتحريك المقدار، و«القدر» بالتسكين الطاقة، والمؤدى واحد بلا ريب؛ إذ المراد والله أعلم: أن ذلك المال الكثير يكون عطاؤه متناسباً مع ما آتاه الله من بسطة فى الرزق؛ وذو المال القليل يكون عطاؤه بقدر طاقته.

ولكن مع هذه الرخصة التى أعطيت للمقتتر يجب أن يكون ما يعطيه مقداراً يكون الانتفاع به ممتداً زمناً؛ ولذا قال سبحانه: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى يكون شيئاً ينتفع به انتفاعاً ممتداً فى الزمان بالقدر المتعارف بين الناس، الذى لا يستنكره عرفهم، ولا الطبقة التى يكون فيها الزوجان بين الناس. والناس أصناف وألوان، وكل بقدر ما يتعارفه.

ولقد أكد سبحانه وتعالى الطلب فى قوله: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أكد به بصيغة تفيد أن التمتع لازم لا مساغ من التخلص من لزومه، فقال سبحانه عز من قائل: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، أى أن التمتع هو حق أى أمر ثابت لازم واجب على المحسنين

الذين يتحرون الإحسان إلى معاشريهم ومخالطيهم والمتصلين بهم؛ فالتعبير بالمحسنين؛ للإشارة إلى أن ذلك الواجب هو من قبيل الإحسان في المودة، والإشعار بالقربى في وقت الانفصال، ومنع الغضاضة والألم، وتطيبب القلوب؛ وذلك لا ينافي الوجوب واللزوم.

ولقد قال بعض العلماء: إن التعبير بالمحسنين يدل على أن المتعة غير واجبة، وذلك لاعتقاده أن الإحسان تبرع غير واجب، وكان ذلك حقا على المحسنين الذين يلزمون أنفسهم بما لا يلتزم به الناس. ولكن الظاهر غير ذلك القول؛ لأن الإحسان لا ينافي الوجوب الذي دل عليه الأمر في قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُمْ﴾ وتأكد ذلك الأمر بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأن الإحسان في ذاته: الإجابة والإتقان وتحري الحق وأداؤه على الوجه الأكمل، وذلك يتلاقى مع معنى الوجوب؛ وقد ورد الإحسان في القرآن في معنى الواجب فقد قال تعالى عن نفوس الكافرين يوم القيامة: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر] أى يكون ممن يؤدون الواجبات كلها فيكون من المحسنين، وذلك لا يتصور فيه معنى التبرع، بل وفوق ذلك فإن قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾، يؤكد معنى الوجوب؛ إذ فيه التعبير بعلى التى تفيد اللزوم؛ وفيه أن المقل والمكثر عليهما أداء بطاقتهما؛ ولو كانت المتعة تبرعا لأعفى منه المقل، واستحسنت من المكثر.

ومع أن المتعة واجبة إذا لم يكن ثمة مهر مسمى فى العقد، ولم يكن دخول؛ فإن الشارع قد ترك تقديرها إلى نظر المطلق، وتقديره وطاقته، ولم يكن لها حد معلوم؛ وقد قدرها الحنفية بكسوة كاملة للمرأة وهى لباس الخروج، فإن المرأة تلبس عادة عند خروجها أكمل ثيابها، وتركوا نوع الثياب إلى طاقة الرجل وتقديره، واشترطوا ألا تقل عن خمسة دراهم، وهى نصف الحد الأدنى للمهر عندهم، وإذا اختلف الرجل والمرأة فى تقديرها، كان الحكم فى ترجيح قول أحدهما على الآخر نصف مهر مثلها؛ فإن كان أقل مما ادعى الزوج كان القول بقوله، وإن كان أكثر مما تدعى الزوجة كان القول قولها.

والمتعة عند الشافعى شئ نفيس يقدمه المطلق لمن طلقها قبل الدخول، ويكون فى طاقته^(۱).

وأحمد بن حنبل يتبع ما روى عن ابن عباس من أنه يرى أن المتعة تكون على حسب حال الرجل من يسار وإعسار؛ ونوعها يختلف باختلاف اليسر والعسر؛ وقد قال ابن عباس: أرفع المتعة الخادم (أى عبد أو أمة يعطيها أياها) وأوسط المتعة الكسوة، وأدناها النفقة. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: متعة الطلاق أعلاها الخادم، ودون ذلك الورق (أى الدراهم تعطاهما) ودون ذلك الكسوة. وقد كان الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم والتابعون من بعدهم يبالغون فى العطاء على قدر طاقتهم ليقوموا بالتسريح بإحسان، وتطيب نفس مطلقاتهم؛ حتى إن الحسن بن على رضى الله عنهما قد متع امرأة طلقها بعشرة آلاف درهم، فقالت المرأة: متاع قليل من حبيب مفارق.

﴿وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾^(۲) بين سبحانه فى الآية السابقة، ما يجب عند الطلاق قبل الدخول إن لم يكن قد سُمى مهر وقت العقد، وفى هذه الآية يبين المطلوب إذا سُمى مهر، وكان الطلاق قبل الدخول أيضا، وقد قدم حكم الحال الأولى؛ لأن عدم ذكر المهر مظنة ألا تعطى شيئا إذا كان الطلاق قبل الدخول، فسيقت الآية الكريمة ببيان هذا الوجوب ليزول من الأفهام ما يسبق إليها.

وقد بينا معنى الفرض فيما سبق؛ ومعنى الآية الكريمة: إن طلق أحدكم المرأة وقد قدر لها مهرا وقت العقد، فالواجب عليه هو نصف المهر الذى تراضيا عليه وقت العقد. وقد صرحت الآية بوجوب النصف، ولم تصرح بوجوب دفعه؛ لأنه

(۱) قال المصنف - رحمه الله تعالى - فى الهامش: جرى خلاف فى الفقه الخنفى: أينظر فى المتعة إلى حال الرجل، أم إلى حال المرأة، أم إلى حاليهما؟ قال بعضهم: ينظر إلى حال الرجل، وهو صريح الآية ﴿... عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ...﴾ [البقرة]، وذلك هو الراجح، وقال بعضهم: ينظر إلى حالها؛ لأنها بدل نصف مهر المثل، وهو يقدر على حسب حال المرأة. وقال بعضهم: إنه يقدر على حسب حالهما، لقوله تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف هو الذى ينظر فيه إلى حالهما.

عسى أن يكون قد قدم لها المهر كله أو بعضه، بل إن ظاهر الحال أنه يكون قد قدم المهر كله، أو نصفه، أو أكثر منه؛ فكان التعبير بالوجوب ليعين حق المطلق في استرداد ما دفعه أكثر من النصف، ويشمل وجوب الأداء ومقداره إن لم يكن قد أدى شيئاً أو أدى أقل من النصف.

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هذا استثناء من الوجوب الذي قدره الله سبحانه وتعالى بالنصف، وهذا الاستثناء يبين الله سبحانه وتعالى فيه أن وجوب المهر إنما هو لحق العاقدين، وأن العفو عنه بابه متسع لمن يريد أن يصل إلى رحابه الفسيح، والعفو معناه: الإبراء والتتزل عن المطالبة سماحاً؛ فإن كان الزوج أدى المهر كله فقد فتح له الشارع باب العفو بأن يترك لها حقه مبالغه في مرضاتها، وقد أرمض نفسها^(١) بالطلاق؛ وإن كان الزوج لم يقدم لها مهرًا، وحدث الطلاق برغبة منها فإنه يحسن العفو منها وترك المطالبة، حتى لا تصيبه الخسارة في عقد لم ينل منه مأرباً؛ وقد يكون مظهر العفو بالعطاء بأن يقدم الرجل كل صداقها إن لم يكن قد أعطاها شيئاً منه، وفي الجملة إن العفو مستحسن من كل منهما في موضعه، فيستحسن منها إن كانت راغبة في الطلاق غير راضية بالبقاء، ويحسن منه إن كان الطلاق بغير طلبها.

وقوله ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ معناه: إلا أن يعفو النساء عن صداقهن، أو عن حقهن، فالنون هنا نون النسوة، ووزن يعفون يفعلن.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أى يعفو الزوج الذى بيده عقدة النكاح؛ فيستطيع فكها بالطلاق إن شاء، وإبقائها إن شاء. وقيل: إن المراد به الولي الذى عقد الزواج؛ وذلك لأن الولي على مقتضى مذهب جمهور الفقهاء هو الذى تولى عقد الزواج، فهو الذى بيده عقدة. وإن الذى نختاره هو أن المراد الزوج لا الولي؛ وذلك لأمر ثلاثة:

(١) الرَّمَضُ: شدة الحر. والإِرْمَاضُ كُلُّ مَا أُوجِعَ. يقال: أَرْمَضَنِي أَيْ أَوْجَعَنِي. وَارْتَمَضَ الرَّجُلُ مِنْ كَذَا أَيْ اشْتَدَّ عَلَيْهِ وَأَقْلَقَهُ. [لسان العرب - باب الذال - رمض].

أولها: إن العقدة ليس معناها العقد؛ لأن العقد هو الربط الذى يتم به الاتفاق بين الرجل والمرأة ويكون به النكاح، وهو الزواج؛ أما العقدة، فهى الرابطة التى تكون بعد العقد أو الأثر الذى ينتجه العقد. ولا شك أن العقدة بهذا المعنى يملكها الزوج، ولا يملكها الولي.

ثانيها: إن مقتضى الآية أن من بيده عقدة النكاح أى الزواج يستطيع أن يعفو عن مقدار من المهر؛ ومن المقررات الفقهية أن الولي على النفس ليس له أن يسقط حقًا ماليًا، خصوصًا إذا كان فى وقت الطلاق.

ثالثها: إن العفو من جانب النساء يثبت بقوله: ﴿يَعْفُونَ﴾ والعفو مستحسن من الرجل، كما هو مستحسن من المرأة، وكل له موضع، فإذا ذكر الله سبحانه عفوهم، فمقتضى السياق أن يذكر عفو الرجل، ولو فسر قوله: ﴿بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ بولي الزوجة لكان معنى هذا أن العفو هو المستحسن من النساء دائماً، مع أن الله يقول مخاطباً الجميع: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

والتعبير بقوله تعالى عن الزوج بأنه بيده عقدة النكاح يشير إلى أن الزوج هو الذى يملك فك الزواج بالطلاق، فكان العفو من جانبه أحق وألزم.

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى وجوب التسامح والتعاطف فى وقت ذلك الافتراق القاطع، وإلى أنه تجب الرحمة فى وقت الانفصال؛ ولذلك صرح سبحانه بأن العفو: أى ترك بعض الحقوق فى ذلك الوقت، أقرب لتقوى الله سبحانه، وأدنى إلى رضاه، لكى يكون الافتراق بمفرده، ولا تكون مشاحة تدفع إلى المشادة، ثم إلى الخصومات التى تورث العداوات، وتستمر الأحقاد بين الأسرتين، وتكون الإحزن ومن ورائها المحن.

ولقد ذكر سبحانه أهل الفضل بفضلهم فقال: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أى لا يذهب بكم الغضب والمكايدة إلى درجة لا تذكرون فيها ما يكون عندكم من شمم وإباء، وإرادة للتفضل والعطاء.

والفضل فى أصل معناه: الزيادة فى كل شىء، وأكثر ما يكون فى الزيادة فى الأشياء المحموده؛ ولذا صار يطلق بمعنى العلو، فيقال: فضل هذا على ذاك كذا. ومنه الفضيلة؛ لما فيها من خير رائد، ولما فيها من علو نفسى وكمال وسمو.

فالله سبحانه وتعالى، حين ذكّر المطلقين بالفضل الذى أنساهم إياه الغضب، صرفهم إلى الاتجاه إلى الكمال، والتعالى عن سفاسف المشاحنات والمنازعات؛ ليكونوا هم الأعلىين دائما.

ولقد كان أصحاب النبى ﷺ يتجهون ذلك الاتجاه السامى؛ فيروى أن بعض الصحابة تزوج امرأة، وطلقها قبل أن يدخل بها، فأعطاهما الصداق كاملا، ف قيل له فى ذلك، فقال: أنا أحق بالعفو منها.

ويروى أن جبير بن مطعم تزوج ابنة سعد بن أبى وقاص، ثم طلقها قبل الدخول وبعث لها المهر كاملا؛ ف قيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها على فكرهت رده، قيل: فلم بعثت بالصداق؟ فقال: وأين الفضل؟.

ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى أوامره الحاسمة، وإرشاده الحكيم بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ للإشارة إلى أنه مطلع على حركات الجوارح، وخلجات النفوس، ونيات القلوب، وما تخفى الصدور؛ فليعلموا ذلك، فإن العلم به يربى فيهم المهابة منه سبحانه وتعالى؛ إذ يشعرون برقابته، فيكفّفون^(١) من غضبهم، ويَتَنَهَّوْنَ^(٢) من حدتهم وقت الطلاق، حتى لا يذهب بهم فرط الغضب إلى نسيان المعروف، وتجاهل الفضل؛ فلا يسرّحوا بإحسان بعد أن فات الإمساك بمعروف.

وقبل أن نهى الكلام فى معانى هذا النص الكريم لابد من الإشارة إلى أمرين:

(١) الكَفَفَةُ: كَفَّ الشَّيْءُ أى رَدُّ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ، وَكَفَفْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ. [لسان العرب - الكاف - كفف].

(٢) النَّهْيَةُ: الْكَفُّ. تقول: نَهَيْتُ فُلَانًا إِذَا زَجَرْتَهُ فَتَنَّهُتْهُ أى كَفَفْتَهُ فَكَفَّ. [لسان العرب - باب النون - نهته].

أولهما: لماذا كان المهر فى الزواج من جانب الزوج؟

والثانى: ولماذا وجب النصف أو ما فى معناه، وهو المتعة إن حصل الطلاق

قبل الدخول؟

والجواب عن السؤال الأول: أن المهر شرع فى الزواج على أنه ثمرة من ثمرات العقد، وأثر من آثاره، وليس ركناً من أركانه، وليس شرطاً من شروطه، فليس هو كالشئ فى البيع كما فهم بعض الذين لا يفقهون المعانى الشرعية على وجهها؛ وشرعيته على أنه هدية واجبة من الرجل لزوجته؛ لأن المرأة إذ تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها، تستقبل حياة جديدة، وهى تحتاج فى سبيلها إلى ثياب، وزينة وعطر وغيرها بالقدر الذى يليق بحالها، فكان من اللازم أن يقوم لها الزوج ببعض ما يعينها على ذلك؛ ولذا أوجب الله لها المهر، وأوجب العرف أن يقدم بعضه على الزفاف إليه.

وقد جرى عرف الناس على أن المرأة هى التى تعد أثاث البيت، وما يحتاج إليه من فراش، فكان من الواجب أن يعينها الزوج على ذلك ببعض المال يقدمه، فكان هو المهر، أو بعبارة أدق معجلة.

وإن تقديم المهر من جانب الرجل هو النظام الفطرى؛ لأن الرجل هو الكادح العامل الكاسب للمال. وقد خالفت أوربا ذلك النظام الفطرى، فجعلت المرأة تقدم مالاً؛ هى، فكانت الفتاة تسعى إليه، فتتعر فطرتها، وتنحرف عن الفضيلة، وتقع فى حماة الرذيلة قبل أن تصل إلى المال الذى تعده لخطيبها، فكان ذلك جزاء كل جماعة خالفت فطرة الله التى فطر الناس عليها.

هذا هو الجواب عن السؤال الأول، أما الجواب عن السؤال الثانى، وهو يتعلق بالسبب فى وجوب النصف بدل الجميع عند الطلاق قبل الدخول؛ فنقول: إن إعطاء نصف المهر أو المتعة من قبيل التسريح بإحسان كما أشرنا من قبل؛ وقد قال تعالى: ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٤٩﴾ [الأحزاب] وإن التفرقة قبل الدخول تجرح

إحساس المرأة إن لم تكن بطلبها، فأوجب سبحانه نصف المهر، ثم حث الرجل على إعطائها النصف الثاني فضلا وسماحا.

وذلك شرع الله، وهديه الحكيم، وإرشاده السامي؛ والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ
قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

توسطت الآيات التى تبين أحكام الأسرة، وعلاقات الزوجين عند الافتراق بالطلاق، أو عند التفريق بينهما بالموت - آيتان كريمتان تدعوان إلى الصلاة والمحافظة عليها، والإتيان بها على وجهها الكامل: من قنوت لله، وخضوع له، وخشوع وابتهاال وضراعة؛ ولذلك التوسط مغزاه ومرماه؛ ذلك بأن الله سبحانه وتعالى دعا إلى العفو والتسامح، وعدم نسيان الفضل عند الافتراق، ومنع المشاحنة والمنازعة حيث تشوقعان؛ ولقد بين سبحانه بعد ذلك ما يربى فى النفس نزوع التسامح، والبعد عن التجافى وهو ذكر الله سبحانه وتعالى، والإحساس بالخضوع له والانصراف إليه، ومحبته وطلب رضاه؛ فإن من يحب الله ورضوانه يحب الناس ولا ينازعهم؛ لأن الله سبحانه رب الناس وخالق الناس، وهو القاهر فوق عباده والقادر على كل شئ، والمحبة فى الله والبغض فى الله ركن الإيمان، ولا يكون ذلك كله إلا بالقيام بالصلاة وأدائها على وجهها؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ ﴿٤٥﴾ [العنكبوت]. وإن أداء الصلاة على وجهها والقيام بحقها ليس أمراً صغيراً، بل إنه أمر كبير خطير، له نتائجها العليا فى الاتجاه بالنفس الإنسانية نحو السمو والتعالى عن متنازع الأهواء فى هذه الحياة؛ ولذلك قال تعالى فى الاستعانة على التغلب على الأهواء فى حياتنا الدنيا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ [البقرة].

وقد يقول قائل: أفما كان الأولى أن تذكر آيات الصلاة بعد بيان أحكام الأسرة كلها؟ ونقول في الجواب عن ذلك: إن الحق الذي لا ريب فيه هو فيما سلكه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن كتاب الله ليس مؤلفاً ينهج مناهج التأليف من حيث التوبيخ والتقسيم، بل إن كتاب الله تعالى كتاب عظة واعتبار، وبيان شرع، وإرشاد، ولترتيب منهاجه وحده، ولا يضارعه كتاب فيه، فهو يتتبع في ترتيبه تداعى المعانى فى النفس، وتواردها على الفكر، ويأتى بالحكم حيث تتطلع النفوس إليه، فيملؤها ببيانه الرائع، وحكمه الخالد.

ولا شك أن العقل البشرى يتطلع ويستفهم كيف يمكن تذكر الفضل فى وقت تلك الفرقة التى فى أغلب أحوالها تكون نتيجة للبغض الشديد، وكيف يكون التسامح والعفو فى موطن تحكم البغض؛ فأجاب الله سبحانه داعية العقل، وتطلع الفكر، بأن الصلاة على وجهها حيث يخاطب العبد ربه، وينصرف إليه خاشعاً ضارعاً محساً بعظمته وتجليه، ومتجهاً إليه سبحانه فى علو سلطانه؛ إن ذلك كله هو الذى يعلو بالنفس عن شهواتها، ويصعد بها فى سموها؛ تعالت كلمات الله العلى القدير، وتسامت حكمة العليم الخبير.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ الصلوات جمع صلاة، والصلاة لها معنى إسلامى، وهى تلك الهيئة المعروفة، ومعنى آخر وهو الدعاء والتسبيح؛ والمراد هنا المعنى الإسلامى، وهذا أمر صريح بالمحافظة على الصلاة؛ وحفظ الصلاة معناه: المداومة عليها، والاستمرار على أدائها، وعدم التهاون فى ركن من أركانها فالمحافظة على الصلاة تقتضى لا محالة أمرين:

أولهما: أداؤها باستمرار فى أوقاتها من غير تخلف ولا تفريط، وهذا هو الحد الأدنى من المحافظة.

وثانيهما: هو الإتيان بها كاملة الأركان مستوفية للشروط، تشترك فيها النفس مع حركات الجسم، ويشارك فيها القلب مع حركات الجوارح وما ينطق به اللسان؛ فإن قال فى صلاته: (الله أكبر) أحس بجلال الألوهية، وعظم الربوبية، وأخلص

قلبه للعبودية؛ وإذا قال: (الحمد لله رب العالمين) استشعر معانى الشكر والثناء على ذات الله العلية بما هو فى طاقة العبد الأرضية؛ وهكذا فى كل ما ينطق به، وفى كل ما يعمل من ركوع وسجود، حتى إنه لا ينتهى من صلاته إلا وقد صار كله لله، وامتلات نفسه بهيبته، وقلبه بعظمته، وعقله بنوره؛ وبذلك يتحقق المعنى السامى فى الصلاة، وهو نهىها عن الفحشاء والمنكرات، والتسامى بصاحبها عن متنازع الأهواء.

وهنا بعض الإشارات اللفظية التى لا بد من التصدى لها بإجمال؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى عبر عن إقامة الصلاة المطلوبة بالمحافظة عليها فلم عدل عن التعبير بإقامة الصلاة إلى التعبير بالمحافظة؟ ولماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ ولم يقل: احفظوا الصلوات؟

والجواب عن السؤال الأول: أن المحافظة أو الحفظ تتضمن مع الأداء والإقامة معنى الصيانة والحياطة، فهى فوق ما تدل عليه من طلب الإقامة على وجهها، تدل على أن الصلاة فى ذاتها شئ نفيس عزيز تجب حياطته وصيانتته، وأن من نال فضل الصلاة فقد نال أمراً عظيماً وخطيراً، وقيماً فى ذات نفسه.

وأما الجواب عن السؤال الثانى: وهو التعبير بالمحافظة بدل الحفظ - فهو: أن التعبير بالمحافظة يدل على المداومة، والاستمرار؛ ولأن الأصل فيه أنه يكون للأفعال التى تكون من جانبين مشتركين، لأنه من مادة المفاعلة التى تدل على المشاركة، وقد تتضمن المنازعة أو المقابلة؛ والمداومة على الصلاة فيها هذا المعنى الجليل، وقد وضحه الراغب الأصفهاني بقوله فى المفردات: (إنهم يحفظون الصلاة بمراعاتها فى أوقاتها ومراعاة أركانها والقيام بها فى غاية ما يكون من الطوق، وإن الصلاة تحفظهم الحفظ الذى نبه الله سبحانه وتعالى عليه فى قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ [العنكبوت] فالمشاركة فى الحفظ بين الصلاة وبين من يؤديها: يحفظها هو بأدائها على الوجه الأكمل وتحفظه هى نفسه بإبعاده عن (السوء).

وقد قيل إن المحافظة بين العبد والرب؛ العبد يحفظ الصلاة ويصونها ويؤديها على وجهها، والرب يحفظه ويصونه عن المعاصي، وهذا فى معنى الأول أو قريب منه.

ويصح أن يكون معنى المحافظة هو المداومة عليها بمغالبة دواعى التفریط مما توسوس به النفس فى الطاعات؛ فصيغة المحافظة ليست للدلالة على المشاركة فى الحفظ، بل تدل على المغالبة فى سبيله، كالمصابرة؛ وذلك لأن من يديم الصلاة مقيماً لها على وجهها تقاومه نوازع النفس الأمارة بالسوء، وإن ذلك يقتضى مغالبة نفسية، فكان التعبير بالمحافظة دالا على ذلك أو مشيراً إليه.

والى هذا المعنى أشار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما رواه عنه السيد رشيد رضا من تفسير.

ولقد قال سبحانه بعد الأمر بالمحافظة على الصلوات عامة: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فما هى الصلاة الوسطى التى خصها الله سبحانه بالذكر، أهى واحدة من ذلك المجموع الذى أمر به، أم هى المجموع موصوفاً بهذا الوصف؟

فى التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين اتجاهاً واضحاً:

أحدهما: اتجاه الجمهور وهو أن الصلاة الوسطى واحدة من الخمس الصلوات المفروضة وإن اختلفوا فى تعيينها؛ وكثرتهم على أنها صلاة العصر؛ لوصف النبى ﷺ الصلاة العصر بأنها الوسطى^(١)؛ ولأنها تقع فى وسط الصلوات الخمس؛ فقبلها اثنتان وبعدها اثنتان؛ ولأنها وسط بين صلاتى النهار وصلاتى الليل، فمعنى التوسط فيها واضح؛ وخصت بالمحافظة عليها، لأنها مظنة التفریط، إذ تجئ بعد القيلولة، فيكون كسل، فخصت بالذكر لهذا المعنى لا لأنها أفضل من غيرها، فجميعها قربات تزكى النفس وتطهر القلب.

(١) عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «سَعَلُونَا عَنْ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» ثُمَّ صَلَاةً بَيْنَ الْعِشَاءِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ.

[رواه مسلم: المساجد ومواضع الصلاة - الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هى صلاة العصر (٩٦٦)،

والبخارى: الجهاد والسير - الدعاء على المشركين (٢٧١٤).]

والاتجاه الثانى: وليس عليه الجمهور من التابعين - أن المراد بالصلاة الوسطى الصلاة كلها، والوسطى ليس معناها المتوسطة، بل الوسطى معناها الفضلى؛ وذلك لأن الوسطى مؤنث أوسط، والأوسط فى أكثر استعمال القرآن الأمثل والأفضل؛ ولذا قال سبحانه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) [القلم].

والمعنى على ذلك الاتجاه: حافظوا على الصلوات كلها بالمداومة عليها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها من النوع الأمثل الفاضل بإقامة الأركان خاشعين متبتلين خاضعين منصرفين فى أدائها عن كل شئون الدنيا متجهين إلى رب العالمين دون سواه.

وهنا يرد سؤال: لماذا جمع الصلوات فى الأول، وأفرد الصلاة فى الثانى؟ والجواب عن ذلك أن المراد من الصلوات فى الأول الفرائض الخمس بأعيانها، والمعنى فى الصلاة فى الثانى هو الفعل، فكان المؤدى: داوموا على الصلوات وأن تكون صلاتكم كلها من النوع الأمثل الفاضل.

وقد روى هذا الاتجاه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقد اختار ذلك الاتجاه الحافظ أبو عمر بن عبد البر إمام الأندلس فى الحفظ والآثار، وإنا نميل إلى ذلك، وخصوصاً أن الروايات فى كونها صلاة معينة من الخمس متضاربة، فقليل العصر، وقليل الظهر، وقليل الصبح، وقليل الجمعة، وقليل الظهر والعصر، وقليل الصبح والعصر؛ وإزاء ذلك نميل إلى ما اختاره ابن عبد البر، وهو الثقة الثبت فى الحفظ ونقد المتن والرجال.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ القنوت فى معناه المداومة على الفعل، وقد خصه القرآن الكريم بمعنى الدوام على الطاعة والملازمة لها وأدائها على وجهها؛ ومن ذلك قوله تعالى فى وصف نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا...﴾ (١٦٠) [النحل] وقال سبحانه مخاطباً نساء النبى ﷺ: ﴿وَمَنْ يَقْنَتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ (٢٦) [الأحزاب] وقال فى وصف المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ...﴾ (٣٥) [الأحزاب].

فالقنوت على هذا المعنى الإسلامى الرائع: ملازمة الطاعة والقيام بالعبادة فى خشوع ضارع، وانصراف كامل، وشعور بالعبودية الحققة لله رب العالمين؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾: قوموا بعبادتكم على وجهها الكامل ملازمين للخضوع والخشوع، غير مفرطين، ولا منصرفين عن رب العالمين، مستشعرين عظمته، قد ملأت قلوبكم هيئته.

ونرى من هذا أن قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ يزكى ما اختاره ابن عبد البر ويقويه، وهو أن معنى الصلاة الوسطى، الصلاة الفضلى والمثلّى، وهى التى تؤدى على الوجه الأكمل.

ولهذا المعنى السامى فى الصلاة، كانت أعظم أركان الإسلام بعد شهادة أن لا إله إلا الله، فإن كانت (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هى الفارق بين الإسلام والكفر، فالصلاة ثمرتها الأولى، والدعامة من بعد ذلك لكل الطاعات والفرائض؛ بها إن أدبت على وجهها تستعصم النفس عند الشهوات، وبها إن أدبت على وجهها يلتزم العبد ما أمر الله، وينتهى عما نهى الله سبحانه وتعالى عنه، وبها يكون التعامل الفاضل بين الناس بعضهم مع بعض؛ لأنها ذكر دائم لله سبحانه وتعالى، فتمتلىء النفس البشرية بعظمة الله، وتستنير البصيرة، ويتجه المؤمن إلى الخير؛ ولقد قال بعض العلماء إن ترك الصلاة كفر وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»^(١) وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال عندما ذكر الصلاة: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف»^(٢).

(١) [رواه مسلم: الإيمان - بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١١٦) كما رواه الترمذى: الإيمان (٢٥٤٤)، وأبو داود: السنة (٤٠٥٨)، وابن ماجه: إقامة الصلاة (١٠٦٨)، وأحمد: باقى المكثرين (١٤٤٥١)، والدارمى: الصلاة (١٢٠٥)].

(٢) رواه بهذا اللفظ الدارمى: الرقاق - فى المحافظة على الصلاة (٢٦٠٥)، وينحوه أخرجه أحمد: مسند المكثرين (٦٢٨٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه.

ولأن الصلاة لها تلك المنزلة لم تسقطها رخصة، ولا تجب على فريق دون فريق، فلها عموم الوجدانية، ولها لزوم الشهادتين، فأكثر العبادات قد تسقط عن فريق دون فريق إلا الصلاة، فإنه لا رخصة لسقوطها؛ ولذا وجبت في حال الأمن والخوف، وقال تعالى في حال الخوف:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ هذا بيان ما يجب من الصلاة حال الخوف، وهى أعم من حال الحرب، وأخص منها؛ فبينهما ما يسميه المنطقة عموم وخصوص من وجه؛ فإن حال الخوف قد تكون في حال الحرب، وقد تكون في غيرها كهجوم وحش مفترس؛ وحال الحرب ليست دائما حال خوف؛ فقد يكون فيها وقت يأمن على نفسه فيصلى آمنا مؤديا الأركان بالجوارح.

وإيجاب الصلاة في حال الخوف وحال الأمن يدل على أمرين:

أحدهما - أن الصلاة ركن لا يقبل السقوط إلا في حال العجز التام حتى عن الصلاة بالإيماء، وقد نوهنا إلى ذلك من قبل، وبيننا أنها اختصت من بين الفرائض العملية بذلك.

ثانيهما - أن الصلاة في لب معناها هي اتجاه القلب، وعمل الحركات مظهر ذلك الاتجاه القلبي، والتزوع الروحي السامي؛ فإذا حالت الأحوال دون القيام ببعض هذه الحركات من ركوع وسجود كاملين أغنت عنهما الإشارات إليهما، وهو ما يسمى الصلاة بالإيماء والمعنى متحقق في الحالين، ولكن لا ينتقل المصلى من حال كمال الحركات إلى ما دونها إلا عند تعذر الإتيان بها كاملة في نحو خوف أو مرض.

وقد رخص الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في حال الخوف أن يصلوا رجالا، أى راجلين مشاة على أقدامهم، أو وقوفًا في أماكنهم، وأن يصلوا ركبانًا أى راكبين.

وركبان جمع لراكب، وأما رجالا فهي كما يقول الزمخشري: جمع راجل كقيام جمع لقائم، أو جمع رجل يقال رَجُلٌ رَجُلٌ أى راجل، وتوجيه قول

الزمخشري أنه يقال رَجُلُ الإنسان يَرَجُل إذا لم يكن معه ما يركبه ومشى على قدميه فهو رَجُلٌ ورَجُلٌ بضم الجيم ورجلان ورجيل ورجلٌ بسكون الجيم، ويجمع في الأحوال كلها على رجال. وقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني ما نصه: (اشتق من الرجل رَجُلٌ وراجلٌ للمشى بالرجل، ورَجُلٌ.. ويقال رَجُلٌ راجل أى قوى على المشى، جمعه رجال).

والخلاصة: أن الصلاة كما تؤدي بالحركات كاملة، تؤدي بالإشارة إليها بما يكون في وسع المكلف القيام به؛ وذلك لأن الصلاة كما قلنا في لب معناها؛ اتجاه قلبي إلى الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء.

وقد يقول قائل: إن الصلاة إذا كان ذلك لب معناها فلماذا كانت تلك الحركات؟ وألا يغنى فيها الاتجاه القلبي، وحصر الذهن والنفس لله، وفي ذلك عمران القلب بذكر الله وامتلاء النفس بهيبته؟ قد يقول قائل ذلك، وقد قاله بعض المقلدين الفرنجة، واتبعوا من زعموا أن ذلك طريق الإصلاح الخلقى. وقد يكون ذلك القول مجدياً لو كان يمكن تحقيق معناه من غير تلك الحركات، ومن غير هذه الأقوال التي تشتمل عليها الصلاة إن هذه الحركات معين لاستذكّار القلب، وامتلاء الفكر بعظمة الله سبحانه وتعالى، والأقوال التي تقال في الصلاة هي لهذا الاستحضار؛ ف(الله أكبر) التي تتكرر عند الانتقال من حال إلى حال هي في معناها ملء النفس بعظمة الله، والآيات التي تتلى هي حمد لله وثناء على الله سبحانه وتعالى وشعور بالربوبية وسلطان الله سبحانه مالك يوم الدين، ودعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، وتجنب طريق الضالين؛ والحركات هي مظاهر الطاعة والخضوع، والقيام بحق الربوبية.. وهكذا كل قول وفعل في الصلاة إنما هو لتوجيه القلب نحو الملوكوت الأعلى، وذكر الله العلي القدير، اللطيف الخبير.

ولا يمكن استحضار القلب لذكر الله بغيرها؛ بل إنها تكون ثمرة ذلك الاستحضار؛ فإن القلب إذا شعر بعظمة الله نطق اللسان بها وتطامنت الرأس خضوعاً، وخر الإنسان ساجداً صاغراً لله رب العالمين.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أى إذا زال الخوف، وأقبل الأمن، فأقيموا الصلاة مستوفية لكل الأركان، أى تأتون بحركاتها كاملة؛ وذلك فى معنى قوله تعالى بعد بيان صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١٠٣) [النساء].

فالذكر المراد به هنا الصلاة الكاملة المستوفية الأركان، وعبر عنها بالذكر للإشارة إلى أن المغزى فيها هو ذكر الله تعالى، وإلى أن ذكر الله مطلوب أشد الطلب، وأن الصلاة بغيره لا تسمى صلاة ولو كانت مستوفية الأركان الظاهرة؛ وبهذا يتبين أن هذه الحركات مهما تكن كاملة لا يمكن أن تغنى عن استحضار القلب لمعانى العبودية والخضوع الكامل لرب العالمين؛ ولذا يقول الصوفية: إن الصلاة بغير هذه المعانى الروحية لا تكون صحيحة مهما تكن كاملة من حيث الأقوال والأفعال.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أشار فيه الزمخشري إلى تفسيرين، على أن النص الكريم يحتملهما:

أحدهما: أن المعنى أدوا الصلاة كاملة كما علمكم على لسان رسوله الكريم، وبأفعاله، بأن تأتوا بالركوع والسجود تامين؛ فالكاف معناها المشابهة بين ما يفعلون وما يطلب منهم فعله، وبين ما علمهم إياه رب العالمين بتبليغ النبی الأمين إذ قال: «صلوا كما رأيتموني أصلى»^(١).

وثانيهما: أن المعنى أدوا الصلاة شاكرين حامدين ذاكرين رب العالمين، ويكون ذكركم مقابلا بما أنعم الله به عليكم من تعليمكم شريعته التى يكون فى اتباعها صلاح حالكم فى الدنيا والآخرة؛ ففى الدنيا صلاح أنفسكم وأسرکم ومجتمعكم، وفى الآخرة بالزلفى لرب العالمين؛ ويكون معنى الكاف على هذا هو المشابهة المقربة

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى: الأذان - الأذان للمسافر (٥٩٥)، ومسلم: المساجد (١٠٨٠) غير أنه لم يذكر قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلى»، ورواه الدارمى بنحو من رواية البخارى: الصلاة - من أحق بالإمامة (١٢٢٥).

بين النعم التي أسبغها عليكم، والتكليفات العبادية التي كلفكم إياها، فيكون الشكر بالعبادة مشابها ومماثلا لنعمة التعليم التي علمنا الله إياها بتلك الشريعة المحكمة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ وهذا معنى قول بعض العلماء: إن الكاف هنا للتعليل، وذلك مستقيم من حيث المؤدى وإن كانت مع ذلك لم تخرج عن معنى التشبيه والمماثلة.

ولعل التفسير الثاني الذي أشار إليه الزمخشري ووضحناه بعض التوضيح هو الذي يتفق مع سياق الآيات الكريمة التي تسبق آية الصلاة وتلحقها؛ لأن فيها إشارة إلى أن تعليم الله تعالى لنا ما علّم من أحكام الشرع الشريف هو في ذاته نعمة تستحق الشكر لله وذكره سبحانه؛ فالصلاة وإن كانت باعثة على أحسن التعامل، هي كذلك شكر للمنعم على ما علّم وأنعم وهدى.

وفي الآية الكريمة بعض إشارات لفظية نذكرها: ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال في حال الخوف: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ معبراً سبحانه بأن الدالة على التعليق في موضع الشك أو القلة، وفي حال الأمن قال: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ معبراً بإذا الدالة على التحقيق والكثرة؛ وفي ذلك إشارة إلى أن حال الأمن هي الكثرة، وهي الأمر المحقق الثابت، وأن حال الخوف هي القلة وهي ليست أمراً مؤكداً ثابتاً. وفي ذلك بيان لنعم الله على الإنسان أنه وهب الأمن والدعة والاطمئنان، وما يكون من اضطراب وجزع وقلق فمن فعل الإنسان. فقد وهب الله الإنسان العقل، وجعله في أطوار نفسه يألف ويؤلف، فإذا غلبته شقوته فبدّل من الأمن حرباً، ومن السلام خصاماً، فقد تعدى حدود الله وتجاوز فطرته، والله من ورائهم محيط.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ
مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَتِ مَتْعٌ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

توسّط آيات الصلاة بين الآيات التي تبين ما للمعتدات وما عليهن؛ وذلك ليتوسّط التهذيب النفسى التعامل الاجتماعى، وليستين المؤمن أن التقوى أساس الصلات التي تربط آحاد الأسرة، وأن التقوى لازمة لتكون روح الاتصال، وميزان الاعتدال عند قيام الحياة الزوجية وعند انقطاعها.

وقد بينت الآيات السابقة ما للمطلقة من حقوق أوجبها العقد نفسه؛ فتصف المهر أو المتعة عند الطلاق قبل المسيس وقبل تسمية المهر أمران أوجبهما العقد نفسه؛ لأن العقد الصحيح يوجب مهرًا على أى صورة كان المهر.

وهاتان الآيتان اللتان سنتكلم فى معناهما تبيان ما يجب ليكون الانتهاء من غير قطيعة، ولتكون المودة موصولة بعد انتهاء عقدة النكاح؛ والوجوب فيهما لا يشتق من ذات العقد، ولكنه يترتب على انتهاء العقد، وتوجهه الأخلاق الكريمة.

والآية الأولى تبين ذلك النوع من الحقوق الذى يجب للمتوفى عنها زوجها، والثانية تبين ما يجب للمطلقة على أنه أثر للطلاق نفسه، لا على أنه من مقتضى عقد الزواج؛ كنصف المهر، أو المتعة السابقة.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ والمعنى الجملى للآية الكريمة - فيما يظهر ويسبدو بادى الرأى - أن الذين

يتوفون ويذرون أى يتركون أزواجاً، والمراد الزوجات؛ لأن كلمة الزوج تطلق على الذكر والأنثى - فرض الله وصية لهؤلاء الزوجات متاعاً أى انتفاعاً مستمراً إلى نهاية الحول، أى حتى يحول الزمن ويגיע الوقت الذى مات زوجها فيه «غَيْرَ إِخْرَاجٍ» أى يتنفعن بالإقامة فى مسكنهن الذى كن يسكن فيه فى حياة أزواجهن من غير إخراج منه؛ ويصح أن يقال غير مُخْرَجَاتٍ منه، فيكون المصدر على معنى اسم المفعول؛ والمؤدى واحد.

وهنا بعض مباحث لفظية نشير إليها:

أولها: كلمة «وصية» فيها قراءتان مشهورتان؛ إحداهما بالفتح، والثانية بالضم؛ وعلى قراءة الفتح يكون تقدير القول: كتب الله وصيةً متاعاً إلى الحول غير إخراج. وعلى قراءة الضم يكون تقدير القول: عليهم وصيةٌ لأزواجهم حال كون هذه الوصية متاعاً إلى الحول غير إخراج، أو لأجل الانتفاع إلى الحول غير إخراج.

ثانيها: إنه عبر بحول بدل سنة؛ للدلالة على التحول حتى تعود الأيام التى كانت فيها الوفاة، ولو قيل إلى السنة مثلاً لاحتمل أن ينتهى الانتفاع بالسكن بانتهاء السنة التى حصلت فيها الوفاة، ولو لم يحل الحول، فكان التعبير السامى بالحول نصاً فى أن يمر عام كامل من وقت الوفاة.

ثالثها: قوله «غير إخراج» فالمعنى: غير مخرجات، أو يبقين فى مسكنهن من غير إخراج من ورثة المتوفى لهن؛ والتعبير بالمصدر فى هذا المقام هو الأصل، وهو المغزى والمرمى؛ لأن الوصية هى عدم الإخراج؛ فالوصية ألا يخرجن؛ ولذلك كان التعبير بالمصدر هو الأصل؛ وقوله «غير إخراج» صفة لمتاع، ومتاعاً بدل أو عطف بيان لكلمة «وصية» على قراءة النصب، وحال على قراءة الرفع، أو تمييز.

رابعها: إن الله سبحانه وتعالى عبر عن حق الانتفاع بالسكنى سنة بعد الوفاة بأنه وصية، وبأنه متاع؛ أما التعبير بأنه وصية، فلأنه حق يثبت بعد وفاة الزوج فى ماله لا على أنه ميراث، بل على أنه وصية أوجبها الله سبحانه وتعالى بموجب الفرقة بالوفاة؛ فهو يثبت من غير أن يكون له أثر فى قدر ميراثها فى تركة زوجها؛

وأما التعبير عنه بمتاع، فلأنه فى مقابل ما للمطلقات من متاع فى الآية الكريمة الآتية ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١).

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ بقاء المتوفى عنها زوجها سنة فى مسكن الزوجية من غير نظر إلى مقدار ميراثها ومن غير تأثير فى مقداره أيا كان ذلك المقدار هو حق للزوجة، وليس بواجب عليها؛ وكان حقًا لها من قبيل أنه متصل بحقوق الميت فى تركته، فكأن حق الزوجة من المقام فى بيت الزوجية من المقام سنة بعد الوفاة هو من قبل حقوق المتوفى فى ماله كالديون.

ولما كان ذلك حقًا لها، وهو واجب على الورثة أن يوفروه، فليس واجبًا عليها، فلها أن تبقى ولها أن تخرج؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ أى فإن خرجن مختارات راضيات راغبات غير مخرجات، فلا إثم عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف، أى فيما فعلن من أمور تتعلق بأنفسهن؛ أى أن البقاء فى مسكن الزوجية وعدم البقاء أمر يتعلق بأنفسهن وهن أدرى بمصلحة أنفسهن، فى ذلك؛ فإن وجدت مصلحتها وراحتها واطمئنانه وقرارها فى أن تنتفع بحق البقاء سنة كاملة بعد وفاة زوجها فإنها تبقى، ويجب أن تمكن من ذلك، ولا يخرجها أحد؛ وإن رأت أن مصلحتها فى أن تأوى إلى بيت ذويها، أو عرض لها أن تتزوج بعد انتهاء عدتها وهى أربعة أشهر وعشرة أيام، فإن لها ذلك.

وقد قيد نفى الإثم عن الجماعة فيما يفعلن فى أنفسهن بكلمة (من معروف)؛ وهو الأمر الذى تقره الشرائع، وتعرفه العقول ولا يستنكر من أحد؛ قيد نفى الإثم بذلك؛ للإشارة إلى أن الجماعة الإسلامية مسئولة عما يقع من آحادها مخالفًا للمعروف فى الشرع والعقل، فمن يآثم فعلى الجماعة أن تعمل على إصلاحه، ولا ينتفى عنها الإثم حتى تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفسر بعض العلماء المعروف بأنه الزواج بعد انتهاء العدة، وهى أربعة أشهر وعشرة أيام؛ والحق أن المعروف أعم من ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بهذا للإشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن هذه الأمور التي شرعها الله في الأسرة إنما هي بحكمته، وفيها صلاح المجتمع، وإذا كان يسوغ أن تجبر المرأة على الخروج من منزل الزوجية بمجرد وفاة الزوج، فإن ذلك قد يؤدي إلى فساد كبير، وتهزيع للأخلاق؛ ولقد أعطاه الله سبحانه وتعالى ذلك الحق درءاً لهذا الفساد ومنعاً له.

وثانيها: إن الله سبحانه وتعالى غالب على كل شيء، وله سبحانه وتعالى العزة في السموات وفي الأرض، وأن الورثة إن استضعفوا شأن المرأة فمنعوا حقها فالله فوقهم قاهر غالب، وهو مجازيهم بعملهم، وهو ناصر الضعيف.

وثالثها: إشعار النفوس بتذكر الله رب العالمين عندما ينظمون علاقاتهم بعضهم مع بعض، وخصوصاً في شئون الأسرة.

تبين مما سبق أن موضوع هذه الآية الكريمة لا صلة لها بمدة العدة بالنسبة للمتوفى عنها زوجها؛ لأن هذه الآية الكريمة بالفاظها ومعانيها لا تلزم المرأة بالتريص والامتناع عن الأزواج مدة معينة كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ [البقرة] وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ [البقرة] إنما تدل هذه الآية على ما للمتوفى عنها زوجها من حق البقاء في بيت الزوجية سنة بعد موت زوجها، وأن لها أن تبقى فيه، وأن تخرج منه على ما تراه مصلحتها ويكون فيه اطمئنانها وقرارها.

وعلى ذلك لا تكون ثمة معارضة بأي نوع من أنواع المعارضة بين هذه الآية وقوله تعالى في عدة المتوفى عنها زوجها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ [البقرة] لأن هذه في بيان العدة، أما الآية التي نتكلم في معناها ففي بيان حق المرأة، لا بيان الواجب عليها.

ولكن فرض الكثيرون من المفسرين تعارضاً بين الآيتين، واعتبروا الآية الأولى ناسخة للآية الثانية، وادعوا أن جمهور السلف على ذلك الرأي؛ واعتمدوا في ذلك على روايات رويت عن عثمان بن عفان، وعبد الله بن عباس وغيرهما.

وقد خالف ذلك شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، فروى عن مجاهد أن هذه الآية - وهي التي نتكلم في معناها - آية محكمة لا نسخ فيها؛ فقد قال مجاهد: العدة تثبت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصية سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة؛ فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قوله تعالى: ﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

ولقد روى البخاري مثل ذلك عن مجاهد أيضاً؛ فقد أخرج البخاري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾. قال: «كانت هذه العدة تعتدها عند أهل زوجها واجباً، فأُنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت.

وبهذا التخريج وذلك السند الصحيح يثبت أن لا تعارض قط بين الآيتين، وشرط النسخ التعارض ولم يوجد فلا نسخ، ولكن الجمهور من الفقهاء يعتمدون في النسخ على قوله ﷺ: «إنما هي أربعة أشهر وعشراً وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمى البعرة عند رأس الحول»^(١) ففي هذا الحديث تصريح بأن أربعة أشهر وعشر ليالٍ نسخت وجوب البقاء حولاً، وهذا كلام حق، وهو لا يخالف الآية التي نتكلم فيها؛ لأن الجاهلية كانت تجعل العدة سنة فجعلها الإسلام أربعة أشهر وعشراً، وهذه الآية لا توجب عدة الجاهلية، فهي لا تلزم المرأة بالامتناع عن الأزواج سنة كاملة، ولكنها تعطى حق البقاء سنة كاملة، فهي تبين ما لها من حق، ولا تذكر ما عليها من واجب اكتفاء بما ذكر في آيات العدة التي تعتدها.

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم.

وعلى هذا نقرر أن حكم هذه الآية باق لم ينسخ، وثابت مقرر بنص القرآن الكريم؛ وقد قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد وجه الحكم بعدم النسخ من قبله فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير، فقد جاء فيه ما نصه بعد بيان قول من حكم بالنسخ:

القول الثانى قول مجاهد: إن الله أنزل فى عدة المتوفى عنها زوجها آيتين إحداهما ما تقدم وهو قوله تعالى ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ (٢٣٤) [البقرة] والأخرى هذه الآية، فوجب تنزيل هاتين الآيتين على حالتين، فنقول إنها إن لم تختار السكنى فى دار زوجها ولم تأخذ النفقة من مال زوجها كانت عدتها أربعة أشهر وعشرًا فى تلك الآية المتقدمة، وأما إن اختارت السكنى فى دار زوجها والأخذ من ماله وتركته فعدتها هى الحول، وتنزيل الآيتين على هذين التقديرين أولى حتى يكون كل واحد منهما معمولاً به.

القول الثالث وهو قول أبى مسلم الأصفهاني: إن معنى الآية من يتوفى منكم ويذرون أزواجًا، وقد وصوا وصية لأزواجهم بنفقة الحول وسكنى الحول، فإن خرجن من قبل ذلك وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التى ضربها الله تعالى فلا حرج فيما فعلن فى أنفسهن من معروف، أى من نكاح صحيح؛ لأن إقامتهن بهذه الوصية غير لازمة؛ قال: والسبب أنهم كانوا فى زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولا كاملا، وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول، فبين الله تعالى فى هذه الآية أن ذلك غير واجب؛ وعلى هذا التقدير النسخ زائل؛ واحتج على قوله بوجوه:

أحدها: أن النسخ خلاف الأصل فوجب المصير إلى عدمه بقدر الإمكان.

والثانى: أن يكون الناسخ متأخرًا عن المنسوخ فى النزول، وإذا كان متأخرًا عنه فى النزول كان الأحسن أن يكون متأخرًا عنه فى التلاوة أيضًا؛ لأن هذا الترتيب أحسن، فأما تقدم الناسخ على المنسوخ فى التلاوة فهو وإن كان جائزًا فى الجملة يعد من سوء الترتيب، وتنزيه كلام الله عنه واجب بقدر الإمكان؛ ولما كانت هذه الآية متأخرة عن تلك فى التلاوة كان الأولى ألا يحكم بكونها منسوخة بتلك.

الوجه الثالث: هو أنه ثبت في علم الأصول أنه متى وقع التردد بين النسخ وبين التخصيص كان التخصيص أولى، وها هنا إن خصصنا هاتين الآيتين بالحالتين على ما هو قول مجاهد اندفع النسخ، فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل؛ وأما على قول أبي مسلم فالكلام أظهر؛ لأنكم تقولون تقدير الآية فعليهم وصية لأزواجهم، أو تقديرها فليوصوا وصية، وأنتم تضيفون الحكم إلى الله تعالى، وأبو مسلم يقول في تقدير الآية: والذين يتوفون منكم ولهم وصية لأزواجهم، فهو يضيف هذا الكلام إلى الزوج، وإذا كان لابد من إضمار فليس إضماركم أولى من إضماره، ثم على تقدير أن يكون الإضمار ما ذكرتم يلزم تطرق النسخ إلى الآية، وعند هذا يشهد كل عقل سليم بأن إضمار أبي مسلم أولى من إضماركم؛ وإن التزام هذا النسخ التزام له من غير دليل. اهـ.

هذا كلام الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وهو يدل على أمرين:

أحدهما: أن رأى أبي مسلم أن الوصية من الأزواج وليست من الشارع، وهذا رأى لا جديد فيه إلا جواز مثل هذا النوع من الوصايا؛ وأما قول مجاهد فالوصية من الله، وهي ملزمة للورثة، وليست ملزمة للزوجة، وهو الذى نختاره، ويتفق مع السياق.

الأمر الثانى: أن فخر الدين الرازى يميل ميلاً واضحاً إلى منع النسخ، ولذلك نراه يبتدى موجهاً الأقوال موضحاً التوجيه ثم ينتهى بعبارات واضحة كل الوضوح فى أن التزام النسخ التزام له من غير دليل؛ وذلك حق لا ريب فيه.

﴿وَالْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) بينت الآية السابقة حق المتوفى عنها زوجها من متاع أى انتفاع بالسكن بعد وفاته على ألا تخرج من بيت الزوجية، وفى هذه الآية يبين سبحانه وتعالى حق المطلقات.

والمَتَاعُ فى أصل معناه ما يتنفع به، وهو المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةٌ لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ وقد بينا ذلك فيما سبق من قول؛ وقد ذكرنا أيضاً من قبل أن المتاع انتفاع ممتد الوقت، وهو على هذا التوجيه قد يراد منه النفقة

أمدًا طال أو قصر؛ لأن النفقة - وهى الإدرار على الحى بما به حياته وبقاؤه انتفاع ممتد فى الزمان، وقد يراد المتعة أى إعطاء شئ من نحو الثياب ينتفع به أمدًا ممتدًا.

والمُتَاع فى هذه الآية ما المراد به؟ أهو المتعة التى ذكرناها فى قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]؟ أم المراد الانتفاع بالنفقة فى أثناء العدة؟

ذكر الفخر الرازى أن معنى كلمة متاع للمفسرين فيها قولان هنا:

أحدهما: إن المراد بالمتاع هو المتعة، وهو ما يعطيه المطلق للمطلقة لها من نصف المهر، أو كسوة أو نحو ذلك من كل عطاء غير ممنون لمطلقتها ليكون التسريح بإحسان.

والقول الثانى: المراد به النفقة التى تكون للمطلقة فى العدة.

وإن القول الأول قد خاض تحت ظله الفقهاء كل يريد أن يخرج الآية على مقتضى مذهبه، ومنهم من أطلق نصها وجعله على عمومها؛ فأبو ثور والشافعى فى أحد قوليه قد أخذوا بعموم الآية الكريمة، وقرروا أن لكل مطلقة متعة واجبة، فإنها قد وثق الوجوب فيها بقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ولا يوجد تعبير يوثق الوجوب كقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن الوجوب فيه قد تأكد بأنه من موجبات التقوى التى يتقى بها العذاب، وبالتعبير بعلى التى تفيد الإلزام، وبكلمة «حقًا» وهى مصدر حذف فعله، وهو يدل على تقرير الأمر وتثبيته.

ولقد اتبع هذان الإمامان فى ذلك القول الزهرى وسعيد بن جبير وغيرهما.

وقال مالك قريبًا من ذلك، وهو أن المتعة تكون واجبة لكل مطلقة إلا المطلقة المسمى لها مهر قبل الدخول بها؛ فقد جاء فى المدونة فى إرخاء الستور: جعل الله المتعة لكل مطلقة بهذه الآية ثم استثنى فى الآية الأخرى التى قد فرض لها ولم يدخل بها، فأخرجها من المتعة.

وفى قول آخر للشافعى: إن هذه الآية خاصة بغير المدخول بها التى لم يسم لها مهرًا، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه فى المتعة الواجبة؛ وقد قال الطبرى فى ذلك إن الآية الأولى، وهى: ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]: فهم بعض الناس منها أن المتعة لمن لم يسم لها مهرًا ولم يدخل بها، من الإحسان غير الواجب وليست بواجبة، فجاءت هذه الآية صريحة فى الوجوب.

وعلى ذلك رأى تكون هذه الآية عامة فى لفظها أريد بها الخصوص فى معناها.

هذه هى التخريجات الفقهية على تفسير المتاع بأنه المتعة، وقد رأيت اضطراب أقوال الفقهاء بشأنها واختلافهم فى معناها؛ وقد ادعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بالآية السابقة: ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

أما القول الثانى وهو تفسير المتاع بالنفقة فالذين قالوه أقل عددا، ولكنه أكثر اتساقًا، وأبعد عن كل معانى التأويل، وقد قال فيه الفخر الرازى: والقول الثانى بالمتاع النفقة، والنفقة قد تسمى متاعًا، وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة اندفع التكرار فكان ذلك أولى.

ونحن نوافق الرازى على أن ذلك التفسير أولى؛ لأنه أولا يندفع به التكرار، وتندفع به ثانيًا دعوى التخصيص ودعوى النسخ، ويندفع به الاضطراب الكثير فى تحرير معنى الآية الكريمة السامية؛ وأخيرًا هو الذى يتسق مع ما كان للمتوفى عنها زوجها من متاع هو السكنى، وهى إحدى شعب النفقة، فوجبت حقًا فى مال المتوفى، ولم يجب الباقي لعدم وجود من يجب عليه، أما المطلقة فتجب لها النفقة كاملة بشعبها الثلاث السكنى والطعام والكسوة، والله سبحانه هو العليم بمراده، تعالى كلام الله علوًا كبيرًا.

﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بهذه الجملة الكريمة السامية ختم الله سبحانه وتعالى الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة، وقد ابتدأ بيانها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة].

وإن ذلك الختام الكريم فيه تصوير لبيان الله سبحانه وتعالى لأحكام الأسرة وشدة عنايته بأمورها، وتوضيح الأسس الصالحة التي تقوم عليها، والعدالة والمودة والرحمة التي تربط بين أفرادها، وكيف فصل سبحانه القول فيها تفصيلا لم يفصله في غيرها من شئون الدين، فلم يبين الصلاة والزكاة والحج كما بين الله سبحانه في كتابه الكريم أحكام الأسرة والروابط التي تربط بين أفرادها؛ لأن الأسرة قوام المجتمع الإسلامي الفاضل، فإذا تزلزلت اضطرب ميزان الاجتماع، وتهدمت أركانه. ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى مثل هذا البيان القوى الواضح العالى الذى يوجه النفوس نحو المودة الرابطة، والرحمة العاطفة، والعدالة المنصفة، يبين الله سبحانه وتعالى آياته المتلوة، وآياته النفسية، وآياته الكونية؛ أى أن الله سبحانه وتعالى يبين دائما آياته المذكورة مثل البيان الذى يبين به أحكام الأسرة؛ فهذا التشبيه لتصوير بيان الله دائما لآياته بهذه الصورة التى يقرأها القارئ لكتاب الله فى آيات النكاح، والطلاق، وما يعقبه من التسريح بإحسان أو التسريح الجميل كما عبر القرآن الكريم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وفى هذه العبارة السامية إشارة إلى الغاية من بيان الله سبحانه وتعالى لحقائق الشرع وتوجيه النظر إلى النفس وإلى الكون، وتلك الغاية هى أن يعقل الناس أى يفكروا بعقولهم، ويبعدوا عنها أرجاس الجاهلية، ويحرروها من ربة التقاليد القديمة التى كانوا يعبرون عنها بقولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعْ مَا آَلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾ [البقرة] والتعبير بصيغة الرجاء، وهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو فى معنى التعليل أى لتعقلوا؛ لأن الرجاء من الله سبحانه وتعالى لا يكون على معناه الأسمى،

أو يقال إن ذلك البيان من شأنه أن يرجى أن يعقلوا ويتفكروا، فالتعبير بلفظ يدل على الرجاء للإشارة إلى هذا المعنى المحكم.

هذا وإن أحكام الأسرة كما جاءت في الآيات الكريمة باعثة على التأمل وإحكام النظر، والإيمان بأن هذه الشريعة من عند اللطيف الخبير، والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم.

﴿الْم تَر

إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

في الآيات السابقة قد بين سبحانه وتعالى أحكام الأسرة، والدعامة التي يقوم عليها بنائها، والنظم التي تربط آحادها، وحقوق كل واحد فيها على سائرهما؛ فبين حق الزوج، وحق الولد، وما ينبغي لتستمر المودة الرابطة حال بقاء الزوجية وعند انتهائها ليكون حبل الوداد موصولا دائما.

والأسرة هي بناء المجتمع الإنساني، واللبنة التي يشاد منها صرح مجتمع فاضل؛ فالمجتمع القوى الفاضل لا يقوم إلا على دعائم من أسر قوية فاضلة؛ ففي الأسرة يتعلم الطفل مبادئ المجتمع المشترك المتحد المؤتلف، وفي الأسرة يسمو نزوعه المدني إلى الاجتماع والاتلاف، ويتجه اتجاهاً مستقيماً نحو أسمى الغايات الاجتماعية، وهو أن يكون امراً يألف ويؤلف؛ وإن الأساس الحقيقي للاجتماع أن يكون آحاده ممن يألفون ويؤلفون؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «المؤمن مألوفة، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(١).

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار (٢١٧٧٣) عن سهل بن سعد الأنصاري، كما رواه عن أبي هريرة فى مسنده (٨٨٣١) بلفظ: «المؤمن مؤلف».

وإن القادة والزعماء الذين يعدون أمهم للكفاح يتدنون بالأسرة، فيحمونها ويقيمون دعائمها على أسس الخير وحب الاجتماع، والاستعداد للفداء في سبيله والنظم الاجتماعية التي جرب فيها محو الأسرة لتتربى الأمة على الكفاح - كنظام ليكورغ في أسبرطة - أدى إلى وجود شباب قد يكون قويا في جسمه، ولكن لا يمكن أن يكون قويا في خلقه وإيمانه بالفضيلة، والمثل العليا للمجتمع الفاضل الذي يحمي نفسه من ذرائع الانحلال في داخله، ويدرع بعدة القتال لحماية الحوزة ودفع اللذل.

من أجل هذا كانت أحكام الأسرة بين أحكام الجهاد في القرآن؛ فقد سبق أحكام الأسرة كلام من الله تعالى في القتال وأعقبها دعوة وتحريض على الجهاد، وحث عليه بضرب الأمثال من الأمم السابقة، وكيف جاهدت في سبيل الحق، وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها؛ وقد ابتدأ سبحانه وتعالى هذا بقوله تعالت كلماته:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ الاستفهام هنا يؤدي في مغزاه معنى التقرير والتثبيت؛ وذلك لأنه للإنكار والنفي، وقد دخل على مسنفي فنفي النفي، وبذلك تقرر المعنى وثبت؛ لأن نفي النفي إثبات؛ فالمعنى قد رأيت ونظرت وعلمت، والخطاب عام لكل قارئ وسامع إلى يوم القيامة، والرؤية بمعنى العلم؛ فإن رأى تكون بمعنى علم وبمعنى أبصر، أو تكون دائما بمعنى أبصر، ولكن الإبصار قد يكون بالبصر، وقد يكون بالبصيرة فيكون علما؛ وقد تتضمن الرؤية معنى النظر وهو نظر بالبصيرة؛ ولأنها تضمنت معنى النظر قد تعدت بإلى، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ وقد ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته: أن رأى إذا تضمنت معنى النظر، ولو كان النظر بالبصيرة، تتعدى بإلى.

والمعنى الإجمالي: لقد علمت أيها القارئ المستمع لسنن الله في الناس واجتماعهم الناطقة به آياته في نفوسهم وفي الآفاق، علم اليقين والجزم الناشئ عن

دليل منير - حال أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ومن لم يعلم ذلك ينبغي أن يعلم؛ لأن البيانات قائمة؛ والعلامة المعلمة واضحة فالاستفهام في الآية يقرر العلم، ويوجه الأنظار إلى وجوبه، ويحثها على الأخذ في أسبابه والالتفات إلى أماراته وأعلامه؛ فهو تقرير وتنبيه، وإثارة للمعجب من حال من فروا من الجهاد فلقوا الموت.

ومن هم أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؟
قبل أن نخوض في الجواب عن ذلك نتكلم في أمرين لفظيين قد يهدى أحدهما إلى الحق في شأن أولئك الذين خرجوا من ديارهم.

الأمر الأول - كلمة «ألوف» فإن بعض العلماء فسرها بمعنى كثرة العدد، أى أنهم عدد كثير، ألوف مؤلفة، وكثرة كاثرة؛ فما كان خوفهم عن قلة، بل كان عن كثرة؛ أو ما كان الخوف عن سبب يسوغه، بل كان عن جبن يخلد.

وبعض العلماء قال: إن معنى «ألوف» مؤتلفون مجتمعون؛ فالوف على هذا جمع آلف، كقعود جمع قاعد، وركوب جمع راكب، ونحو ذلك؛ والمعنى على ذلك أنهم قبل خروجهم من ديارهم، وتفرقهم فى الأرض كانوا مؤتلفين مجتمعين توحدهم كلمة جامعة، ووحدة رابطة، ففرقهم الخوف على الحياة أيا كانت صورتها ولو كانت حياة الذل والانكسار، وإنه ليعقبها الشقوة والانهيار.

الأمر الثانى - كلمة «حذر الموت» تنبئ عن الباعث على فرارهم، وهو حرصهم المطلق على الحياة على أى صورة كانت تلك الحياة، كما وصف سبحانه وتعالى اليهود فقال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...﴾ (البقرة) [البقرة] أى مهما يكن نوع هذه الحياة، ثم خوفهم المطلق من الموت، أيا كانت أسبابه، ومهما تكن نهاية الفرار منه، وإن ذلك الخوف كان قبل أن تتحقق أسبابه فلم يكن الموت قد نزل ضربة لازب لا مناص منه إلا بالخروج من الديار؛ بل إن الذى دفعهم هو الحذر من الموت، وليس الحذر إلا توقياً للأسباب واحتراساً وابتعاداً قبل أن تظهر الأسباب قوية ملزمة موجبة، وعلى ذلك يكون الحذر من الموت أدق

فى بيان جنبهم من الخوف، إذ الخوف يكون وقد ظهرت موجباته، وتعددت الأمارات؛ أما الحذر فإنه توق مانع قبل وجود الأسباب وإن بدت ولاحت بعض أمور احتمالية لوجود هذه الأسباب.

ولقد كانت نتيجة خروج أولئك الحذرين من الموت أن استقبلهم الموت المقدور، فقال لهم الله موتوا؛ وأمر الله سبحانه وتعالى هنا أمر تكويني؛ أى أنه سبحانه وتعالى أماتهم، وإن أمر الله التكويني هو بإيجاد ما ساقه على أنه أمره ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) [يس].

فإذا كان أولئك قد فروا من الموت فليلقاهم الموت، وكيف يفرون من أمر وهو واقع لا محالة طال الأمد أو قصر، وهو واحد مهما تعددت أسبابه، والموت فى شرف خير من الحياة فى خسة، والموت فى عزة خير من الحياة فى ذلة!

بعد هذا نجيب عن السؤال: من هم هؤلاء الذين فروا من الموت فلقيهم من حيث لا يقدرون، ثم أحياهم من ذلك رب العالمين؟ وهل هذه الحياة كانت فى الدنيا؟

قد وردت فى ذلك أخبار وروايات لم تثبت بسند صحيح عن النبى ﷺ الذى بين الكتاب للناس، ولا عن أحد من أصحابه الذين تلقوا ذلك البيان.

ومن تلك الروايات أنهم قوم من بنى إسرائيل خرجوا هاربين من الوباء فترلوا وادياً، فأماتهم الله ثم أحياهم اعتباراً وإجابة لدعاء نبى من أنبيائهم.

وفى رواية أخرى أنهم قوم من بنى إسرائيل فروا من الجهاد مع نبىهم، فأماتهم الله ليعلمهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم ليجاهدوا.

ورواية ثالثة تقول: إن أولئك القوم كانوا من بنى إسرائيل، حرضهم ملك من ملوكهم على الجهاد فخرجوا حذر الموت، فأماتهم الله سبحانه ثم أحياهم.

وفى كل رواية من تلك الروايات تفصيلات لا حاجة إلى ذكرها، ولقد نقل القرطبى فى أحكام القرآن بعد ذكر هذه الروايات ما نصه: قال ابن عطية: وهذا

القصص كله ليِّن الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً ﷺ إخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا هم وكل من خلف من بعدهم أن الإمامة إنما هي بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا اغترار مغتر؛ وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد؛ وهذا قول الطبري، وهو ظاهر وصف الآية^(١).

هذه كلمة نقلها القرطبي، وقد اختار من قبله شيخ مفسري الأثر ابن جرير ذلك، وقد ارتضى ألا يتعرض لأولئك الأقوام من هم؟ إذ لو كان في ذكرهم فائدة لذكرهم القرآن، أو لذكرتهم السنة النبوية.

وإن المفسرين السابقين قد نهجوا على أساس أن الموت حقيقى حسى، وأن أولئك قد ماتوا حساً وأحياهم الله سبحانه وتعالى حساً، وإن ذلك بلا ريب يكون فيه مع إعلامهم بأن الموت لا مناص منه، بيان لقدرة الله الخارقة للعادات، المتحكمة فى السنن الكونية، فلا تخضع لهذه السنن؛ لأن الله منشئها.

ولقد جاء من بعد أولئك المفسرين السابقين الأستاذ الشيخ محمد عبده، فرأى أن الموت معنوى، والحياة حسية، فرأى رضى الله عنه أن الموت هو موت الأمم، والحياة هى حياتها، وموت الأمم بتفرق كلمتها وذهاب وحدتها، وضرب الذلة عليها؛ وأن حياتها هى اجتماع كلمتها، ونيل عزتها، وتولى أمرها بنفسها؛ وخروجها من ديارها أن يتحكم فيها عدوها، فإنها تكون غريبة فى أرضها ما دام لأمر لها فيها، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، ولترك الكلمة له كما رواها تلميذه السيد رشيد رضا رحمه الله تعالى، فقد قال:

«أطلق القرآن القول فى هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يعين عددهم ولا أمتهم ولا بلدهم، ولو علم لنا خيراً فى التعيين والتفصيل لتفضل علينا بذلك فى كتابه المبين، فلنأخذ القرآن على ما هو عليه، لا ندخل فيه شيئاً من الروايات.

الإسرائيلية التي ذكروها، وهى صارفة عن العبرة، ولا مزيد كمال فيها. المتبادر من السياق أن أولئك القوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قلتهم، فقد كانوا ألوفا أى كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذى يولده الجبن فى أنفس الجبناء، فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقعى من الموت، وما هو إلا سبب الموت.. ولما خرجوا فارين ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أى أماتهم بإمكان العدو منهم؛ فالأمر أمر التكوين، لا أمر التشريع؛ أى قضت سنته فى خلقه بأن يموتوا بما أوتوه من سبب الموت؛ وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم وقتل أكثرهم؛ ولم يصرح سبحانه بأنهم ماتوا؛ لأن أمر التكوين مشيئة الله سبحانه.. ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إنما يكون الإحياء بعد الموت؛ والكلام فى القوم لا فى أفراد... فمعنى موت أولئك القوم أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذابت جامعتها، فكان من بقى خاضعين للغالبين، ضائعين فيهم مدغمين فى غمارهم لا وجود لهم فى أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم؛ ومعنى حياتهم هو عودة الاستقلال إليهم؛ ذلك أن من رحمة الله تعالى فى البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديباً لهم، ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم قوية، فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التى كانوا فيها إلى عز الاستقلال. فهذا معنى حياة الأمم وموتها^(١).

وهذا نظر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ونراه نظر إلى مرمى الآية الكريمة، وهو يتجه إلى أن الموت والحياة هو موت الأمم وحياتها؛ وموت الأمة ليس بموت آحادها، إنما هو بذهاب الجامعة التى تربطها، واندغامها فى غيرها، حتى لا يصبح لها كيان قائم بذاته؛ وحياتها هى عودة هذه الوحدة الجامعة، والعزة المسيطرة والكيان المستقل.

وبعد هذا العرض الذى سقناه بياناً لأراء العلماء أجد فى نفسى ميلاً لأن أعتبر الحياة التى منحهم الله سبحانه وتعالى ليست تلك الحياة المادية فى الدنيا بإعادة الروح إلى العظام واللحم؛ وإن كان ذلك فى قدرة الله سبحانه وتعالى؛ ولو كانت الآية فى مقام إثبات البعث والنشور لقررنا ذلك وقلنا إن الآية لا تحتمل سواه، ولكن المقام هنا هو مقام الحث على القتال والتحريض عليه وسوق القصص الدالة على وجوبه، ليكون حفاظاً للأمم، وسياجاً لوجودها، فيكون الإحياء بمعنى غير إعادة الروح إلى الجسد فى هذه الدنيا، وعلى ذلك لا مناص لى من أن أختار أحد أمرين:

أولهما: أن نقول إن الحياة هى حياة الأمم برد عزتها بعد أن فقدتها، والموت هو موت الأمم بذهاب جامعتها على النحو الذى بينه الأستاذ الإمام؛ فالحياة والموت هنا معنويان، والقرآن الكريم قد أطلق الحياة والموت على الأمور المعنوية، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ [٢٤] [الأنفال] وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...﴾ [١٢٢] [الأنعام].

وإننا إذا اخترنا ذلك المنهاج الذى نهجه الأستاذ الشيخ محمد عبده، فإننا نقرر أن الله سبحانه قد ذكر لنا فى آية أخرى فى بنى إسرائيل أنهم تفرقوا فى الصحراء تائهين عندما عجزوا عن دخول الأرض المقدسة مع موسى فذهب وحدثهم، حتى إذا رد إليهم بأسهم وقويت نفوسهم بالحياة البدوية جمعهم الله فأحياهم وجعلهم جماعة تقاتل فى ظل النبیین. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك فى سورة المائدة فقد قال تعالى فى مجاوبة بنى إسرائيل لموسى عندما دعاهم إلى القتال ليدخلوا الأرض المقدسة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [٢٤] قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [٢٥] [المائدة].

فهؤلاء الذين تاهوا فى الأرض قد ماتت وحدتهم، وقد أحياهم الله سبحانه من بعد بجمع كلمتهم فى عهد الملوك والنبيين. وإنه ليزكى ذلك النظر أن الآيات من بعد ذلك فى قتال بنى إسرائيل مع ملوكهم وأنبيائهم، وانتصارهم وهم فئة قليلة مع داود عليه السلام على أعدائهم وقد كانوا كثيرين.

الأمر الثانى: الذى تحتمله الآية الكريمة فى معنى الحياة والممات: أن يكون المراد الموت الحقيقى بموت أكثرهم، وتشتت باقيهم؛ وذلك لأن حذر الموت جعل عدوهم يعمل سيفه فى رقابهم حتى أباد خضراءهم، واجتث شأفتهم؛ والحياة من بعد ذلك هى الحياة الآخرة، وما يجرى بعدها من حساب وعقاب؛ فهم قد أذاقهم الله سبحانه وتعالى بها مغبة الجبن فى الدنيا، وسيحاسبهم على ما كان منهم فى الآخرة؛ فهم بهذا قد خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وقد يقول قائل: إن التعبير بالماضى والحياة فى الآخرة أمر مستقبل غيب الله سبحانه زمانه، وأكد وجوده، فنقول: إن التعبير بالماضى للدلالة على تأكيد أن الوقوع فى المستقبل منهاج قرأنى كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ [النحل] ف (أتى) هنا بمعنى سيأتى، بقرينة «فلا تستعجلوه» ومثل قوله تعالى فى أهوال يوم القيامة: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ حَبَآءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان].

هذان هما الأمران، ولعل أولهما أبين وأوضح، ونحن إليه أميل. وقد يقول قائل: لماذا تستبعد الإحياء الجسمى فى الدنيا؟ أهو مستحيل؟ وجوابنا عن ذلك: إنه ليس بمستحيل، ولكنه خارق للعادة، والله سبحانه وتعالى يسير أمور الناس على مقتضى ما سنه فى الكون حتى تقتضى حكمته خرق ذلك النظام ليكون حجة على رسالة رسول، وليس فى الآية ما يدل على ذلك، كما أنه لم يسق الآية لبيان البعث حتى يكون خرق سنن الله التى سنها فى الكون لبيان قرب البعث وقدرة الله عليه؛ إنما الأمر فى الجهاد، ويناسب ذلك أحد المعنيين اللذين ذكرناهما، والأول فى هذا المقام أنسب، وهو على النحو الذى وضحنه يكون تمهيداً لبيان قصص بنى إسرائيل فى قتالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بعد بيان حال الذين فروا من الجهاد، وآثروا الدعة والراحة فلم يأخذوا الأهبة للقاء عدوهم الذى يتربص بهم الدوائر، وينتهز أية فرصة لينقض عليهم؛ بعد بيان حال هؤلاء وأنهم يفرون من الموت فى شرف إلى الموت فى خسة، ومن الموت العزيز الكريم، إلى الموت الذليل الذى يدفع إليه الطبع اللئيم؛ بعد هذا كله أشار سبحانه إلى فضله تعالى على الناس أجمعين؛ وإن الإشارة إلى فضل الله تعالى فى هذا المقام تنبيه للعقول الغافلة، وإيقاظ للأفكار الراقدة إلى عظيم نعمته تعالى على الناس فى أنفسهم وفى اجتماعهم؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى أنشأ النفوس الإنسانية، وأودعها الإلف والاتلاف، وبذلك يتكون الاجتماع، ويعاون كل امرئ الآخرين، وبفضل التعاون تقوم الأمة، ويشد ساعدها؛ ولقد أودع الله سبحانه وتعالى مع تلك النعمة المؤلفة الرابطة قوة أخرى فى الإنسان، وهى القدرة على الدفاع عن النفس، ومغالبة الذين يضاولونه، ويريدون به الأذى، من أعداء مغيرين، أو حيوان مفترس؛ فهذه القوة الخلقية التى أودعت نفسه، وبذلك القوة الجسمية المكافحة يضاول أعداءه، ويحمى أوليائه؛ ومن مزيد فضله على الناس أن أباح الدفاع عن النفس، والقتل فى سبيل ذلك، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ومن فضل الله على الناس أن مكن للمظلوم من ظالمه، وللمعتدى عليه من المعتدى إذا أخذ المظلوم فى أسباب دفع الظلم واستعد، ولم يمكن الظالم من رقبته؛ فإن مات فى سبيل ذلك مات شهيداً، وجعل الله سبحانه وتعالى له فى الآخرة نعيماً مقيماً، وثواباً دائماً، واعتبره أفضل الأحياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

واعتبر سبحانه وتعالى الجهاد فى الدفاع عن الحوزة والديار مادام عادلاً، جهاداً فى سبيله سبحانه وتعالى.

كل هذا من فضل الله على الناس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون هذه النعم ويقومون بحققها عليهم، فإن شكر النعم أن يحس المنعم عليه بفضل المنعم، ويحمده ويشنئ عليه، ويقوم بحق الإنعام بأن يجعل ما أنعم الله به عليه لخيرته وخير الناس، ويستعمله فيما أحله سبحانه.

وأكثر الناس قد كفروا هذه النعم؛ فمنهم من أشرك مع المنعم سبحانه غيره من أحجار وأوثان وشمس وبقر ونار، فطمس الله على بصيرتهم؛ ومنهم من كفر بما أودع الله نفسه من قوة، فاستخذى واستكان، ورضى بالمكان الدون، والمنزل الهون؛ ومنهم من تقاعس في الدفاع عن حوزته ودياره وهو على ذلك قادر حتى أبيع الحمى وهدمت الديار؛ ومنهم من فر من لقاء الأعداء، حتى آل إلى الموت الخسيس، وقد جهل نعمة الله على الناس، وسنته فيهم وهي أنه لا ينجى من الموت إلا الإقدام على الموت مدرعاً بكل وسائل القتال والدفاع؛ وأن من يطلب الموت ينال الحياة، ومن يفر من الموت الشريف يطلبه الموت الدليل تلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

هذا موضع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ في مقام بيان عاقبة الذين يتركون الجهاد ويفرون حذر الموت، وهو يدل على أن أولئك الفارين لم يقوموا بحق المنعم الذي أنعم عليهم؛ إذ لم يطيعوه بأخذ الأهبة والاستعداد، ولم يعتمدوا عليه سبحانه بعد أن يأخذوا بالأسباب، وكفروا بأنعم الله عليهم ولم يقوموا بحققها فعطلوا قواهم ورضوا بالفرار والعار، وعندهم القدرة على الدفاع مستعينين بالله سبحانه.

وقد قال تعالى في وصف ذاته الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لصاحب فضل دائماً، أي أن الفضل على الناس بلازم ذاته الكريمة، فهو المتفضل سبحانه وتعالى دائماً؛ تفضل بالإيجاد، وتفضل بإيداع القوى، وتفضل بسن السنن الكونية والشرائع الهادية، والإرشاد القويم؛ وتفضل بأن أقام الأمور على الحق والقسط، وأن الخير يدفع الشر، وأهل الحق يدفعون الباطل وأنصاره، وأن

المعتدى عليه يدفع اعتداء المعتدى، وفي كل ذلك صلاح الأرض ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٤٤] هذه الآية الكريمة استئناف مترتب فيه الأمر الملزم بالقتال على القصة المشار إليها آنفاً، فإنه إذا كان الخروج من الديار حذر الموت يؤدي لا محالة إلى الموت، فإنه من الواجب القتال في سبيل الله تعالى ورد الاعتداء؛ وإذا كان الموت في القتال محتملاً أو راجحاً، فالموت في الفرار والخروج من الديار حذر الموت مؤكد لا محالة؛ ولو خير العاقل بين موت احتمالي وفيه الفخار، وموت مؤكد وفيه العار، لا اختار بلا ريب القتال.

وإن القتال في سبيل الله هو الحياة الكاملة؛ فإن قتل في ذلك فقد رزق الشهادة، وهي رزق يتنافس فيه المؤمنون، ويطلبه المتقون؛ وسبيل الله هي سبيل الحق؛ فكل قتال لأجل الدين والدفاع عنه فهو قتال في سبيل الله، وكل قتال في سبيل الجماعة هو قتال في سبيل الله ما دام القتال عادلاً، وقاتل المرء دون عرضه هو قتال في سبيل الله، وقاتله دون ماله هو في سبيل الله سبحانه^(١)، فكل قتال لدفع الظلم وإعلاء منار الحق هو من القتال في سبيل الله سبحانه، ولقد قال الإمام مالك رضي الله عنه: (سبيل الله كثيرة) وكل طريق للوصول إلى الحق أو حمايته أو الدفاع عنه هي من سبيل الله سبحانه وتعالى.

والخطاب في الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للمسلمين أجمعين في كل الأجيال وفي كل العصور، ولم يقل في هذه الآية كما قال في غيرها: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا...﴾ [البقرة] مع أن أصل القتال في الإسلام لدفع الاعتداء فقط، لم يقل سبحانه وتعالى ذلك إلا للإشارة إلى أمرين:

(١) عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قَتَلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قَتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قَتَلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. [سنن الترمذي: كتاب الديات - من قتل دون ماله فهو شهيد (١٣٤١)].

أولهما: وجوب الاستعداد الدائم للقتال فإنَّ حب الغلب في فطرة الإنسان، وتوقع الاعتداء مع ذلك أمر لا بد منه كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ (١٠) [الأنفال] ولا شيء يمنع الاعتداء أكثر من الاستعداد لدفع الاعتداء، فلو كان للحمل ثابٌ ما عدت عليه الذئاب؛ ولو كان للظبي ظفر وثاب ما افترسته أوابد الوحوش.

ثانيهما: القتال في سبيل نصرة الحق ودفع الظلم ومعاونة المظلومين ضد الظالمين؛ وذلك حق على كل مسلم وإن لم يكن الاعتداء واقعاً عليه؛ فالقتال لدفع الظلم وإقامة الحق قتالاً عادلاً وهو قتال في سبيل الله سبحانه، ولو لم يقع الاعتداء على شخص القتال؛ لأن ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ (١١٠) [آل عمران]. ولقد بارك النبي ﷺ حلف الفضول، وقد كان عهداً بين المتحالفين أن ينصروا المظلوم على الظالم^(١).

ولقد عطف الله سبحانه وتعالى على الأمر بالقتال قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو أمر منه سبحانه بأن يتذكروا دائماً أن الله سبحانه وتعالى سميع لكل أقوالهم التي ينطقون بها سواء أكانت تلك الأقوال تدل على رغبة في الجهاد وطلب للاستشهاد، أم كانت هذه الأقوال مخذلة معوقة للمجاهدين الأبرار من مثل قول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا...﴾ (١٥٤) [آل عمران] ومثل قول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ (١٢٨) [آل عمران] وإنه سيجازي كل واحد بقوله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وكما أمرنا أن نتذكر دائماً أنه سميع لنشعر برقابته على أقوالنا، أمرنا بأن نتذكر بأنه عليم بخواطرنا وبالذوابع التي تدفعنا إلى القتال، فهو يعلم الوسوس التي تلقى في النفس ضعفاً يظهر على الشفاء، وتعلنه الأفعال، ويعلم البواعث التي تدفع إلى القتال أهي فخر ورغبة في دنيا يصيبها، أم لتكون كلمة الله هي العليا،

(١) راجع في ذلك: فتح الباري (١٢٣٠) - لا حلف في الإسلام.

ولرفع منار الحق، وخفض الباطل؛ فإن كانت الأولى فقد ذهب ثوابه بما أصاب من دنيا قصدها، وإن كانت الثانية فكل خطوة خطاها لها ثوابها، وكل مقام شهده له أجره؛ وإن ظفر بالشهادة فقد ظفر بغاية الغايات للمؤمن الصبور التقى الطاهر، والله سبحانه عليم بحال المقاتلين: اندفعوا في قتالهم إلى الاعتداء، أم ساروا على الطريق المستقيم، فلا اعتداء في قتال، فلم يقتلوا غير مقاتل، ولم يقاتلوا من لا يقاتل.

هذا هو الجهاد في الإسلام: دفاعاً عن الدمار، وطلباً للحياة الكريمة في الوغى حيث يحمى الوطيس، ويكون الموت قد فغر فاه، وحيث المنايا تعددت طرائقها؛ وإن المجاهد في الإسلام إنما يخط بسيفه نور الحق في وسط ظلمات الباطل؛ وإن الجهاد لسبيل لإعلاء كلمة الله، حيث يشتد الظلم، ويستغلظ الظالمون، ويريدون أن يلتهموا الأمم والجماعات، ويبيدوا خضراءها، فعندئذ يكون القتال في الإسلام، ومن يفر منه حذر الموت فإنما يفر من العزة إلى الذلة، ومن الحياة الكريمة إلى الموت؛ ولذلك قال على بن أبي طالب: (الجهاد باب من أبواب الجنة) وعند الله النصر المبين.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُضْعَافًا
كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ



بين الله سبحانه وتعالى أن الجهاد سبيل لحياة الأمم، والقعود عن الدفاع سبيل لفنائها، وبذهاب دولتها، وتقطع وحدتها، وفقد لكيانها المجتمع، وأمرها المؤتلف، وأنه لا سبيل لأن تعيد الجماعة قوتها، ودولتها إلا بالجهاد والاستعداد له؛ ففي الاستعداد للجهاد الحياة، وبالجهاد ترد الحياة؛ والجهاد في أدق معناه هو تعرض النفس للتلف ليبقى المجموع، فهو إثارة بالنفس، وبذل للمهج والأرواح، وتقديم للبأس من القادرين؛ بيد أن الجهاد لا بد له من عدة وعتاد، وشكّة وسلاح؛ ولا بد له من أن تكون الكلمة موحدة، والقوى مجتمعة بالتعاون بين الغنى والفقير؛ فإذا كان

الجهاد بذلاً للأنفس والمهج في سبيل حياة أعز فلا بد فيه من بذل المال؛ فالجهاد بذل للنفس والنفس معاً؛ ولذا أردف سبحانه الأمر بالقتال بعد ضرب الأمثال، بالأمر بالبذل والعطاء، فقال عز من قائل:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض: أصل معناه اللغوى: القطع، ومنه المقرض، ثم أطلق على معنى المجاوزة؛ لأنها قطع للمكان؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ ثَغْرُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ...﴾ (١٧) [الكهف] أى تتجاوزهم وتدعهم إلى أحد المكانين؛ ومنه انقرض القوم أى انقطعوا من الدنيا وتجاوزتهم. وسمى إسلاف المال وبذله في سبيل الخير قرضاً لأنه يقطع من المال المدخر، ويتنقص منه، والمال نظير النفس فكأنه يقطع من النفس؛ ولذلك كان الجواد شجاعاً عادة؛ لأن بذل النفس كبذل النفس كلاهما ينبع من نفس واحدة فالجود والشجاعة صنوان أو أخوان لا يولدان إلا من أب واحد، ولا يترعرعان إلا في منبت واحد وبيئة واحدة، والبخل والجبن أخوان منبتهما واحد، ومولدهما واحد؛ فالبخل جبان في مجرى العادة، وقد دل على ذلك الاستقراء.

والقرض بعد هذا البيان هو إسلاف المال في السبيل الحسن لمعاونة صديق أو سد حاجة معوز أو حماية الدولة أو إغاثة ملهوف على أن يرد مثله من غير وكس ولا شطط؛ وقد يكون من جنسه مالاً بمال، وقد يكون العوض أركى من المال وأسمى منه، وأنفع وأبقى، وذلك هو الإسلاف في سبيل الخير غير مبتغ جزاء ولا شكوراً إلا من خالق الناس مالك الملك ذى الجلال والإكرام.

والزمخشري يرى إطلاق القرض على بذل المال من غير رجاء لرد البذل في الدنيا إطلاقاً مجازياً، كأنه يرى - رحمه الله - أن القرض في حقيقته اللغوية، إسلاف المال على أن يأخذ بدله؛ لأن ذلك هو الحقيقة التى آل إليها اللفظ بعد انتقاله من معنى القطع المجرد فيكون استعمال القرض في هذا الموضع من قبيل المجاز في نظر الزمخشري؛ فقد شبه هنا بذل المال فى سبيل الخير ورجاء ما عند الله ورضوانه والثواب المقيم فى الآخرة، والتوفيق والبسط فى الرزق فى الدنيا؛ شبه هذا بمن يبذل المال ليرد عليه مثله، فعبر باللفظ الدال على المشبه به فى معنى المشبه.

وعبارات كثيرين من المفسرين يستفاد منها أن كلمة القرض هنا مستعملة في معناها من غير مجاز؛ لأن معنى القرض ثابت؛ إذ إنه اقتطاع من مدخر المال، ورجاء البدل متحقق ثابت بشكل أوضح ممن يرجو بدل المال في الدنيا؛ لأن ما عند الله خير وأبقى؛ ولأن البركة في الرزق والبسطة فيه قد قدرها الله سبحانه وتعالى لمن يعطى سماحاً جواداً من غير من ولا أذى.

والقرض الحسن المذكور في الآية الكريمة، هو القرض الذي يكون منبعثاً من نفس طيبة بالعطاء، قاصدة وجه الخير ورضا الله سبحانه وتعالى، ومتحرية موضع الإنفاق وزمانه، فالقرض الحسن في هذا المقام لا بد لتحقيقه من أن يكون الباعث عليه خيراً مقصوداً به وجه الله تعالى، فلا ينفق رياء الناس، ولا ينفق ابتغاء جاه ولا مَلَقاً لذي جاه، كأولئك الذين يتصدقون بالصدقات العظيمة لإرضاء كبير مسيطر، لا يقصد الصدقة لذاتها ولا وجه الله فيها، ولا المعاونة لمستحقيها، وإنما يقصد إرضاء الكبير فقط؛ وإن ذلك هو الشرك الخفى؛ ولقد روى أن النبي ﷺ قال: «من تصدق يرائي فقد أشرك»^(١).

ولا بد لتحقيق القرض الحسن أن يتحرى الشخص موضع الحاجة فيسد حاجة المعوزين، وينفق على المحتاجين، يؤثر أشدهم حاجة؛ فالأدنى منه، ما وسع فضل ماله؛ ثم ينفق في المصالح العامة لإقامة مشروعات اجتماعية أو عمرانية، والإنفاق للجهاد في سبيل الله هو المرتبة السامية العليا.

هذه معاني القرض الحسن في ذاتها ولبها؛ وما المراد به هنا؟ أيراد به المعنى العام الشامل، أم يراد به المعنى الخاص الذي يدل عليه ما قبل الآية وما بعدها؟ إنَّ الاتجاهات في هذا ثلاثة:

أولها: القرض الحسن هنا هو المعنى العام له، وهو كل إنفاق في سبيل الخير، سواء أكان الإنفاق لسد حاجات المحتاجين من الأفراد، أم كان للمصالح التي يعم

(١) سبق تخريجه من مسند الإمام أحمد رضي الله عنه.

نفعها، ويشمل خيرها، أم كان في الجهاد في سبيل الله، ووجهة هؤلاء في هذا العموم أن كل ذلك يضاعف الله في جزائه، وذلك قرينة العموم، والمقام لا يمنعه؛ لأنه يدخل فيه الجهاد.

وثانيها: أن القرض الحسن ما ينفق في سبيل المصالح العامة من إنشاء جماعات للبر بكل ضرويه والإنفاق عليها، ومن بذل في سبيل إعداد الأمة إعداداً حريياً؛ لأن كل ذلك تقوية للوحدة في الأمة، وهو من عدة القلوب، فالتعاون فيه قوة، بل هو عماد القوة.

وثالثها: أن المراد الإنفاق في الجهاد، بدليل توسط الآية بين الآيات الدالة على القتال المحرصة عليه؛ فهي تخص البذل في القتال، وهو في ذاته أقواها أثراً، والمقام يؤيد إرادته.

وعندي أن السياق حقا يجعل القرض الحسن في هذا المقام متجهاً أولاً وبالذات نحو البذل لإعداد العدة وأخذ الأهبة؛ ليتحقق على الوجه الأكمل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ [الأنفال] ولكن ذلك لا يمنع الشمول، فإن الله سبحانه وتعالى يأتي بالعبارات السامية المحكمة الشاملة في معناها في مقام يستدعي ذكرها لوجود حال تدخل في العموم، فلما ذكر القتال ذكر معه وجوب البذل عامة كقاعدة شرعية وأصل من أصول الاجتماع الإسلامي الفاضل، ودخل في هذا العموم البذل في القتال على وجه الخصوص وخصوصيته جاءت من السياق القرآني السامي. ولقد حث المولى الكريم عباده المؤمنين على البذل والعطاء لمعاونة المحتاجين، وعلى الإنفاق في مصالح الاجتماع، والإنفاق في الحروب بشكل خاص، وقد جاء النص الكريم متضمناً بعبارته وإشارته أبلغ ما يدل على التحريض على البذل، والدعوة إليه؛ وإنا نذكر قدرًا مما وصلت إليه مداركنا.

وأول ما يدل على المبالغة في الحث على البذل في الخير التعبير بقوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فقد تضمن ذلك التعبير الحث على البذل من عدة وجوه:

منها: التعبير بالاستفهام؛ فإنه للتنبيه وبعث الأذهان وحفز العقول على الالتفات، وبمقدار الوعى عند الاستماع تكون الإجابة وبمقدار الحث على الانتباه يكون الطلب.

ومنها: أنه جمع الإشارة والموصول فى الاستفهام فقال ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ وفى ذلك بيان لعلو شأن من يبذل؛ فإنه لا يستفهم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان موضع الاستفهام خطيراً وعظيماً وكان المخاطب له شأن جليل إلى درجة أن يشار إليه، ويتحدث عنه؛ فالإشارة كناية عن أنه يشار إليه فى كل أمر جليل، والموصول كناية عن أنه يتحدث عنه عند ذكر كل أمر جليل.

ومن وجوه الحث على البذل فى الجملة السامية: أن الله سبحانه وتعالى سماه قرضاً؛ لأن فيه إشارة إلى أنه سيرد لصاحبه، وأنه ليس مالاً يبذل من غير بدل يعود إليه، بل إن له بدلاً أسمى منه، وعوضاً أجل وأعظم؛ واعتبره سبحانه قرضاً لله تعالى؛ وأى سمو تعلو إليه نفس الباذل عندما يحس بأن المقترض منه هو رب العالمين، الذى يملك كل شىء وهو خالق كل شىء؟ أى كلام يحرض على البذل أبلغ من أن يسمى فعله قرضاً لله المنعم بالوجود، والمالك لكل موجود؟ ثم إن القرض لله تعالى قرض مضمون الوفاء، مؤكداً الأداء.

ومن وجوه الحث على البذل فى التعبير السامى: أن سماه سبحانه قرضاً حسناً؛ فهو حسن فى باعته، وفى عطائه، وفى نتيجته وثمرته.

وقد ذكر سبحانه بدل القرض فقال: ﴿فِيضَاعُفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وهذا هو الأمر الثانى الذى يدل على المبالغة فى الحث على البذل والعطاء فى سبيل الجهاد والنفع العام؛ فإذا كانت الجملة السابقة تدل على علو شأن الباذل الذى يعطى وعظم البذل فى سبيل الخير والعطاء، وشرف ذلك العمل لأنه عطاء لله العلى القدير مالك كل شىء؛ إذا كانت الجملة السامية التى سبقت تدل على ذلك، فإن هذه الجملة الكريمة تحرض على العطاء من ناحية العوض الذى يعوض عنه، فإنه ليس بقدره، بل هو أضعافه.

والضَّعْفُ: مِثْلُ الشَّيْءِ، وضعفه أى مثلاه، وقد يراد من الضعف المثلان، وقد جاء فى القاموس المحيط ما نصه: (ويقال لك ضعفه يريدون مثليه وثلاثة أمثاله؛ لأنه زيادة غير محصورة) وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني: (الضعف من الألفاظ المتضايقة التى يقتضى وجود أحدهما وجود الآخر كالنصف والزوج، وهو تركيب قدرين متساويين، ويختص بالعدد فإذا قيل أضعفت الشئ وضعفته وضاعفته ضمنت إليه مثله فصاعداً؛ قال بعضهم: ضاعفت أبلغ من ضعفت).

ومن هذا يتبين أن (يضاعف) فى الآية الكريمة معناها يرد إلى البازل المعطى المقرض لله بدلا ما أعطى أمثالا كثيرة؛ فمعنى أضعافاً: أمثالا كثيرة. ولم يذكر سبحانه وتعالى العدد، وذلك يدل على الكثرة الكثيرة التى لا حُدَّ لها، ولا عدد يحصيها؛ وحسبك أن تعلم أن الذى يوفى بالقرض هو مالك السموات والأرض.

وإذا علم البازل أن ذلك جزاء عطائه وإنفاقه، فلا بد بالغ أقصى غايات الجود، باذل كل موجود، وليس بذهاب ما يكون فى سبيل الخير، ولا ضائع ما يكون فى سبيل النفع العام.

وما هذا الجزاء؟ أهو فى الدنيا أم فى الآخرة؟ لا شك أن ثمة جزاء فى الآخرة وأن جزاءها هو الجزاء الأوفى، والغاية القصوى، والأمل المرجى لكل مؤمن؛ وإن فيها للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

وإنه مع ذلك الجزاء الأوفى يوجد جزاء دنيوى، ومضاعفة لفعل الخير فى هذه الحياة تبدو لكل من يفهم معانى الحياة، وإن هذا الجزاء الدنيوى هو العيش العزيز، والحياة الكريمة له ولقومه، ودفع الهلاك عن أمته؛ فإن بذل المال دفاعاً عن الحوزة هو الحياة، وهو أقصى غاية الوجود بعد بذل النفس؛ ولذا اعتبر من لم ينفق قد ألقى بنفسه فى الهلكة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ [١٩٥] [البقرة].

وليس بذل المال للجهاد هو وحده الذى يكون فيه الجزاء الدنيوى ودفع الهلاك عن النفس، بل سد حاجة المعوزين وإعطاء المال للسائل والمحروم فيه عزة الأمة؛ لأنه لا عزة لأمة لا تدفع المتربة عن آحاديها وتذل فقراءها؛ ولئن تمللوا بحياتهم لكان التقاطع والتنازع، ومن وراء ذلك الخراب، وأن يكون بأس الأمة بينها شديداً، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.

هذا فوق أن البذل فى سبيل الله والإنفاق فى سبيل الخير والنفع العام والمصالح الإنسانية يلقى فى النفس سعادة واطمئناناً لا يشعر بهما إلا الأبرار؛ وإن الله يبارك فى رزق الذين ينفقون، فوق غنى النفس الذى تمتلئ به النفس؛ وقد قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١).

فالبذل والعطاء فى سبيل الخير يدفع ضرراً، ويقى من شر، ويحمى الجماعة من الآفات، ويسعد النفس، ويبارك فى رزق المعطى، ويكثر قوى الإنتاج فى الأمة، فتقوى الأيدى كلها على العمل فيعم الخير، وتكثر الثمرة، ويكون الإنتاج الطيب الذى يعم ولا يخص، فمن أعطى قليلاً يأخذ كثيراً فى نفسه وقومه وأهله وعشيرته.

وقد ذكر سبحانه أن الأرزاق كلها بيد الله، فعلى كل امرئ أن يعرف أن الغنى ليس بالعمل فقط، بل بتوفيق الله تعالى وتقديره وهو العزيز العليم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَصْطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وهذا هو الطريق الثالث الذى اشتملت عليه الآية الكريمة فى الحث على البذل والعطاء فى سبيل الخير؛ فقد بين بهذا سبحانه أنه تعالى القابض الذى يقتر الرزق على من يشاء، وييسط الرزق لمن يشاء؛ فعلى الغنى أن يستشعر فى نفسه أنه كان يجوز أن يخلقه الله فقيراً لا يستطيع إعطاء، فعليه أن يشكر النعمة التى أعطاها الله سبحانه وتعالى إياه، وإن شكرها أن يبذلها فى سبيل النفع العام؛ ثم ليعلم أن

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الرقاق - الغنى غنى النفس (٥٩٦٥)، ومسلم: الزكاة (١٧٤١) عن أبى هريرة - رضى الله عنهما.

المال إليه سبحانه وتعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى إليه وحده ترجعون فيحاسبكم سبحانه وقد جردتم من كل قوة قاهرة، وكل سلطان ظاهر، ولم يكن معكم إلا عمل صالح.

وهنا نشير إلى بعض المباحث اللفظية، وبعض المعانى الاجتماعية:

أما المباحث اللفظية فهى معنى القبض والبسط، والسبب فى تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾.

القبض معناه: جمع اليد على الشيء، ويقال حيثئذ قبضته اليد، ويقال قبض عنه يده أى جمعها قبل تناوله، فلم يأخذه، وذلك يقال فيه إنه إمساك عنه، ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ...﴾ [التوبة] أى يمتنعون عن الإنفاق؛ ولذلك أطلق القبض على المنع، والبسط على العطاء؛ قال الأصفهاني فى قوله تعالى: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾: (أى يسلب تارة، ويعطى تارة أخرى، ويسلب قوما ويعطى قوما، ويجمع مرة ويفرق أخرى).

والبسط معناه النشر والتوسعة، وبسط الرزق التوسعة فيه، والبسطة فى الجسم أن يكون مديد القامة بعيد ما بين المنكبين وذلك كناية عن القوة؛ والبسط المد، وقد يطلق ويراد به الصولة والقوة، كما يراد به الإعطاء، ومن الأول قوله تعالى: ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوء...﴾ [المتحنة] ومن الثانى قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ [المائدة].

وتقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ للدلالة على كمال سلطان الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة، وأنه لا سلطان لأحد سواه، ولا مرجع إلا إليه؛ فالمعنى: إليه سبحانه وتعالى وحده ولا أحد غيره ترجعون، تعادون بالبعث فى الآخرة، وترجعون إليه فى الدنيا، فهو وحده فوق عباده يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويقبض ويبسط، ويفرق ويجمع، وكل ذلك بأسباب وضعها، وسنن أحكمها؛ فلا ينصر إلا من يعمل للنصر، ولا يخذل من أخذ الأهبة واستعد

للأمر، ولا ينصر بعد أخذ الأسباب إلا أهل الحق ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

وقد يقول قائل: إن الحكمة الإلهية قد اقتضت أن يكون كل عمل له نتائج وثمراته، فمن يعمل خيراً يجد ثمرة عمله، ومن يجِدُ يجِدُ نتائج جدّه؛ فالغنى والفقر ثمرتان للعمل والكسل، فمن عمل واتخذ الأسباب وسار فيها نال الثمرة، ومن كَسِلَ وأهمَل ناله الفقر ولا يلومُ إلا نفسه، وقد تكرر في القرآن أن الله القابض الباسط، وأنه الرازق، وأنه يرزق من يشاء، فكيف يوفق القارئ بين ذلك السنن الحكيم، وبين ذلك القول الكريم؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إن على كل مؤمن أن يعمل، وأن يجد ويجتهد، وعليه فوق ذلك أن يعلم أن الله هو الرازق، وأنه فوق كل شيء، وأنه القابض الباسط، وأنه الرزاق ذو القوة المتين، ولكل موضعه، وإن المستقرئ لشئون الناس وأعمالهم في الحياة ونتائجها ينتهى به الاستقراء إلى أن الرزق لا يمكن أن يجيء ثمرة للعمل وحده، بل إنه يجيء مع العمل توفيق الله، ومصادفات قدرها العليم الخبير، اللطيف البصير؛ فاثنتان يعملان عملاً واحداً، فيلقيان البذر بعد الحرث، ومع البذر السماد، والأرض طيبة منتجة، والرى متحد الزمان في كليهما، ولكن زرع أحدهما قد يبتلى بأفة تستمكن منه فتبيده أو تكاد، ولا تصيب زرع الآخر إلا قليلاً، فيكون في سعة والآخر قد قتر الله عليه في الرزق؛ وقد تكون الثمرات متحدة في النتائج والمقدار، ولكن أحدهما سارع بالبيع، فصادف غلاء، والثاني أخر في البيع فصادف كساداً؛ وقد يبيع هذا لتاجر حسن الأداء ملىء، والثاني يبيع لآخر مثله، ولكنه قبل الأداء يصاب في تجارته؛ وهكذا؛ فاتخاذ الأسباب أمر لا بد منه؛ ولكن وراء الأسباب القدرة القاهرة التي هي فوق كل شيء، وهي قدرة الله تعالى، فاتحاد الأسباب لا يستدعى اتحاد المصادفات ولا اتحاد الفرص؛ واتحاد الفرص المهنية لا يوجب اتحاد الثمرات والنتائج؛ فقد تكون ثمة ملابسات لم تكن في الحسبان، وما كان يستطيع تقديرها إنسان، وإن تقدير الإنسان مهما يكن من قوة هو في دائرة القدرة الإنسانية، وهي محدودة الأفق، محدودة

الغاية، وإن كان له سلطان على الأعمال فليس له سلطان على النتائج والأحوال، ومن هنا كان الواجب على المؤمن أن يعمل ثم يفوض أمره إلى الله، ويقول: ﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤٤) [غافر].

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإذا كان الرزق بيد الله فعلى الغنى أن يعلم أن ما بيده فيض من الله تعالى القدير؛ وإذا كان فيضاً من الكريم الحليم فعليه أن يشكر لله بإنفاقه في الحلال دون الحرام، وفي إنفاقه على عيال الله، وهم الفقراء الذين اقتضت حكمته تعالى أن يحرمهم مما أعطاه، وفي سبيل النفع العام الذي يقيم دولة إسلامية فاضلة، بها يعتز دين الله، وبها تعلق كلمته، وبها يحق الله الحق ويبتل الباطل، وبها تعتز الفضيلة وتعلو الإنسانية، وعليه أن ينفق مال الله الذي أعطاه في سبيل نصرته دينه وإعلاء كلمته؛ ولقد سمى الله سبحانه وتعالى ذلك كله قرضاً حسناً له، وهو سبحانه وتعالى الذي أعطى والذي وهب ورزق؛ سبحانه ربى تعاليت، وإنك كما قلت في كتابك المحكم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨) [البقرة]، ولقد قال رسولك الأمين: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»^(١).

لقد علم الاتقياء الأبرار في كل العصور أن الأسباب مهما تكن قوية محكمة فإن النتائج بيد الله تعالى، ولأن كل الكون في سلطان الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿... إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) [الرحمن].

ولهذا المعنى بذلوا في نصرته الله تعالى، فهذا أبو بكر في الجهاد يشطر ماله في ذلك، وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه يجهز في زمان العسرة جيش تبوك من ماله إذ كان الناس في عسرة وجذب، حتى يروى ابن هشام أن عثمان رضى الله عنه أنفق ألف دينار غير الإبل والزاد والعدة؛ فقال النبي ﷺ: «اللهم أرض عن عثمان فإنني عنه راض»!

(١) رواه أبو يعلى، والبيهقي عن أنس، والطبراني عن ابن مسعود - رضى الله عنه. [جامع الأحاديث والمراسيل

وروى زيد بن أسلم أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ جاء أنصارى اسمه أبو الدحداح فقال: فذاك أبى وأمى يارسول الله! إن الله يستقرضنا، وهو غنى عن القرض! قال: «نعم يريد أن يدخلكم الجنة»، قال: فإننى إن أقرضت ربى قرضاً يضمن لى ولصيتى الدحداحة معى الجنة؟ قال: «نعم». قال: ناولنى يدك، فناولوه رسول الله ﷺ يده، فقال: إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى! قال رسول الله ﷺ: «اجعل إحداهما لله تعالى والأخرى دعها معيشة لك ولعيلالك» قال: فأشهدك يارسول الله إنى قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستمائه نخلة، قال: إذن يجزيك الله به الجنة^(١).

هذا هو الإيمان حقاً وصدقاً، وهذا هو شكر النعمة، وهذه هى المعاونة الصادقة، وهذه هى القوة الروحية التى تشع النور على الوجود الإنسانى؛ فهل للخلف أن يقتدوا بما كان يفعله السلف؟ وهل آن للمؤمنين أن يقدوا دينهم ودولتهم بأموالهم؟ وهل آن للمسلمين أن يعتبروا بالعبر وقد خلت من قبلهم المثلثات، وأن يعلموا حق الله فى أموالهم؟

لقد صار الهوى متبعاً، والشح مطاعاً، وتشنت الفتن، وتحكمت الإحن، وغلبت على المسلمين الشقوة، وضربت عليهم الذلة، حتى إنه ليقتطع من جسم العالم الإسلامى قطعة هى منه بمنزلة الكبد من الجسم، والأعداء يسلطون على المشردين والمقيمين فى الوادى المقدس الفقر والجوع، ويحاولون إخراجهم بالجوع والعرى من دينهم، والمسلمون يرون ويسمعون، وهم فى غفلة لاهون! ألا فأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) «رواه أبو يعلى والطبرانى ورجالهما ثقات ورجال أبى يعلى رجال الصحيح». [مجمع الزوائد - ج ٨ ص ٤٠٤].

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا
لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنْ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ
يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٧﴾

كانت الآيات السابقة في الحث على القتال دفاعاً عن النفس والحوزة، ورفعاً
لمنار الحق، وخفضاً للباطل، ولتكون كلمة الله هي العليا، ولبيان أن الاستعداد
للجهاد وردّ الاعتداء يقتضى البذل والعطاء. وفي هذه الآيات يقص سبحانه وتعالى
قصصاً صادقة في وقائعه، وصادقة في حكايته للأمم التي تبلى بالهزيمة كيف يتفرق
أمرها وتذهب وحدتها، وكيف تفعل الهزيمة في قلوب الأكثرين منها، وبيان أن
الطريق لجمعها قيادة حكيمة رشيدة، ونفر قليل أو فئة قليلة لم تذهب الهزيمة
بنخوتها، ولم يضعف اليأس من بأسها وعزمها.

اختار الله سبحانه وتعالى لقصصه الذى جعله عبرة للمعتبرين بنى إسرائيل؛ لأنهم اتصلوا بالعرب، ولأن النبوات المعروفة للعالم فى عصر نزول القرآن كانت فيهم، ولأنهم يلتقون مع قريش فى إبراهيم أبى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولأنه تتمثل فيهم الطبائع البشرية فى عزتها وانتصارها، وفى هزيمتها وانكسارها؛ وتتمثل فيهم الطبيعة البشرية فى لجاجة القول والمغالبة به فى حال الضعف والاستخذاء، ونقدهم كل شئ فى تلك الحال، وبعدهم عن العمل إلى الخلاف فى المقال؛ وتتمثل فيهم الطبائع البشرية للجماعات المغلوبة عندما يعمل على إنقاذها من لم تل الهزيمة من قلوبهم، ومن لم يستول الخور على نفوسهم.

قص الله سبحانه وتعالى ذلك القصص، وقد قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ [يوسف]. فالمقصود من قصص القرآن العبرة والاعتبار لاسرد وقائع وإمتاع الناس بسردها وتفصيلها عبرة لأولى الألباب، ولذلك يقصد المولى الكريم إلى موضع العبرة فيجلبه، وإلى مكان الاستبصار فيبينه وتلك أقوم السبل؛ التربية بالتاريخ، والتثقيف بأحوال السابقين.

إن الإنسان ابن الإنسان، فمن يريك صورة للماضى مع العبرة، فهو يريك نفسك مع العظة، والماضى دائماً نور يضيء للمستقبل، فهو المصباح الذى يحمله من يبتغى الهداية ويرجوها.

وإن فى تلك القصة التى ذكرها القرآن الكريم، المنزل من حكيم عليم، عبرة للناس أجمعين، وخصوصاً الأمم التى تبلى بالهزيمة. وقبل أن نخوض فى تفسير مفصل، نتكلم بكلام مجمل فى القصة.

هُزِمَ بنو إسرائيل من بعد موسى هزيمة شديدة سبى فيها نساؤهم وذريتهم وأخرجوا من ديارهم، وكان ذلك قبل مبعث داود عليه السلام، كما يدل على ذلك اشتراك داود عليه السلام في المعركة التي أشارت إليها الآية الكريمة، وقد بعث الله سبحانه وتعالى فيهم نبيا وهم في هذه الهزيمة، ولم يذكر سبحانه مَنْ هذا النبي الكريم، فلا نحاول معرفة مَنْ هو، وإن بعث النبي وهم في هذه الهزيمة - وقد أراد سبحانه وتعالى أن يفيقوا من هذه الضربة دليل على أن السبيل لإنقاذ الأمم من كبوتها وإنهاضها يكون بالرجوع إلى الدين؛ لأنه هو الذى يصهر القلوب ويملوها بقوة الله، فتتهون بجوارها قوة الناس، وقد كان الرجوع إلى الدين قبل مبعث محمد ﷺ بنى يرسل، وأما وقد ختمت النبوة بمحمد ﷺ فقد أصبح الرجوع إلى الدين بالرجوع إلى كلام الله تعالى الخالد وهو القرآن الكريم؛ لأنه صوت الوحي الدائم إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر].

وبعد أن تعمر القلوب بالإيمان ويذهب عنها الخور بقوة اليقين، تتلاقى القلوب فيحاول الفضلاء أن يجمعوا الشمل تحت قيادة موحدة، وتحت إمرة قوية، وسلطان يصرف الأمور، ويدبر الشئون في السلم وفي الحرب؛ وذلك ما اتجهوا إليه: ﴿قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ فاختار الله سبحانه وتعالى ملكا لم يكن اختياره بالوراثة والسلالة، بل كان اصطفاؤه للمزايا التي تتفق مع الإمارة والسلطان، وهى قوة العقل وقوة الجسم، فاصطفى الله سبحانه وتعالى طالوت؛ لأنه زاده بسطة فى العلم والجسم، وهما الصفتان اللازمتان للأمير، ولكن بنى إسرائيل وقد أُرهِق نفوسهم الذل، وتعودوا المراء والجدل، وعجبوا كيف يختار طالوت، وهو ليس بذى فضل عليهم فى النسب، وليس ذا مال وفير؛ فبين الله لهم أن الغاية من الإمارة هى بسط السلطان، والخروج من ذل الهزيمة إلى عزة الانتصار، وأمانة استحقاق طالوت لهذه الإمارة أن يحقق ذلك الانتصار، وأن تأتى إليهم شارة عزهم ومجدهم وهى التابوت.

حمل طالوت الملك راية الجند إلى ميدان الجهاد، وكذلك يكون الملك حقاً؛ ولكنه قبل أن يتقدم للقاء عدوهم، أراد أن يختبر قوة إرادتهم وصدق عزيمتهم، وذلك بمعرفة مقدار استيلائهم على أنفسهم، فمن استولى على نفسه فهو معه في الجهاد، ومن لم يستطع جهاد نفسه، فهو عن لقاء العدو أعجز: قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُتَبِّعُكُمْ بِنَهْرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ...﴾ [البقرة: ٢٤٩] فإنه مني، ولكن النتيجة ظهرت في هذا الامتحان مبينة أن القليل هم الذين استطاعوا أن يجاهدوا أنفسهم ويتصروا عليها ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ...﴾ [البقرة: ٢٤٩] وهم الذين اجتاز بهم النهر، وترك الآخرين مخلفين مع نفوسهم التي لم يستطيعوا التغلب عليها.

أصبح جند طالوت قليلى العدد، وليس فيهم إلا مجاهد مجالد مصابر، ولكن اعتراهم شيء من رهبة الموقف؛ إذ رأوا عدوهم كثير العدد عظيم العدد يعتز بكثرته وعدته وسابق غلبته، فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، ولكن الصفوة من تلك الصفوة لم تعترها تلك الرهبة ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فتقدم الجميع مستعينين بقوة الله ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وبالإيمان القوى، والعزيمة الصادقة، والتفويض المطلق لرب القدرة والعزة، انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ...﴾ [البقرة: ٢٥١].

وآل الأمر من بعد طالوت إلى داود ومعه عزة بنى إسرائيل ﴿وَاتَّاهُ اللَّهُ الْمُلُوكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

هذه قبسة من قصص الذكر الحكيم في جهاد بنى إسرائيل، وإن العبر فيه لكثيرة، فهي تشير إلى الشدة كيف تصهر النفوس فتجعلها تتجه نحو المعالي

فتطلبها، وكيف يكون الدين أساس العزة لمن غلبت عليهم الشقوة، وأنه لا سلطان من غير إمرة يعمل تحت سلطانها البر، ويزجر بها الفاجر، وأن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل وقوة الجسم وسعة العلم وكمال التجربة ما يقود به الشعب إلى صالح الأمور، وأن أساس الانتصار السيطرة على النفس فلا يغلب خصمه من لا يغلب نفسه، ولا يجمع عدوه من لا يجمع شهوته، وإنه بعد أخذ الأهبة يفوض المجاهد أمره إلى الله، ويتوكل عليه. بعد هذا نتجه إلى تسبع الآيات الكريمة آية آية، مستبطين العبر من ثناياها كما تلوح العبر في مجموعها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ قد ذكرنا ما فى هذا التعبير من إثارة الاهتمام والتقرير، وتثبيت المعنى فى نفس القارئ والسامع، وقد عبر هنا بالرؤية، وهى إما أن تكون بمعنى العلم كما ذكرنا من قبل، وهى تكون للعلم القلبي الذى يستيقن فيه الإنسان كما يستيقن بالعلم الحسى الذى يكون طريقه النظر والإبصار . . وإما أن يراد بالرؤية النظر أو البصر؛ وفى هذا تصوير للقصة المخبر عنها كأنها المرئية المحسوسة المشاهدة. والملأ هم الكبراء وأشراف القوم، كأنهم ممثلون شرقاً. وقال الزجاج: سموا بذلك؛ لأنهم ممثلون مما يحتاج إليه منهم، ويطلق الملأ ويراد به الجماعة، من قبيل إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل؛ لأن ذلك الجزء له مزيد فضل وشرف على بقية الأجزاء، وقد فسر الراغب فى مفرداته الملأ بأنه «الجماعة يجتمعون على رأى فيملثون العيون رواء ومنظرا، والنفوس بهاء وجلالا».

وما المراد بالملأ هنا؟ أهم كبراء بنى إسرائيل، أم القوم كلهم؟ أكثر المفسرين على أن المراد بنو إسرائيل وعلى هذا تكون «من» ييانية؛ فالمعنى أن بنى إسرائيل جميعا اجتمعوا وقالوا فى عصر من العصور لنبي لهم ابعث لنا ملكا. وإنى أرى أن كلمة الملأ هنا المراد بها الكبراء وأهل الرأى منهم، فإن الدهماء دائماً فى شغل شاغل حتى ينههم كبرائهم، وذوو الرأى والشأن فيهم، وخصوصاً إذا كان الدهماء قد غلبت عليهم الشقوة والدلة، وكذلك يكونون دائماً فى حال الانهزام وتغلب الأجنبى على الأمة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ بيان لزمان تلك الهزيمة، فذكر أنه من بعد موسى، ولم يبين الزمان بالتعيين، وذكر كونه من بعد موسى للإشارة إلى أن تلك الهزيمة كانت بعد أن أخرجهم موسى من ذل فرعون الذي كان يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، وبعد أن ظهر منهم الاستخذاء والضعف، بعد أن خرجوا من ريق الذل، حتى إن موسى عليه السلام لما دعاهم لأن يدخلوا الأرض المقدسة ظهر خورهم وضعفهم فتأهوا في الأرض أربعين سنة استردوا فيها بأسهم وذهب عنهم خور العزيمة، ثم بعد ذلك نزل بهم ما نزل؛ فقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ فيه إشارة إلى تلك التجارب الشديدة التي كانت تنزل بهم، فهم ذلوا في مصر، ثم أعزهم الله بموسى فلم يقووا على حياة العزة وتكليفاتها من جهاد ونضال إلا بعد أن تعودوا حياة الشدة والبأس في الصحراء، ثم بعد هذه العزة دخلوا الأرض المقدسة، ثم أخرجوا منها بعد أن استناموا إلى الدعة والراحة؛ وفي هذه التجارب بيان لأطوار الأمم بأنها إن استنامت إلى الراحة واستمرت الحياة الوادعة غلب على أمرها، ثم كان من وراء ذلك ذهاب سلطانها، حتى إذا أحست بمرارة الهزيمة، وذاتت وبالراحة، استيقظت فيها القوى الكامنة، واستفاقت من سبات الغفلة وسكرة النعمة، فعملت على استرداد أمرها، ومقاومة عدوها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه بيان موضع القصة ومكان الالتفات، والاتجاه بالنظر والقلب؛ فالمعنى: ألم تنظر وتتفكر وتعتبر في أمر نبي إسرائيل عندما قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله؟ لقد وجدوا أنهم قد تفككت وحدتهم، وضاعت كلمتهم، وفقدوا كوثنهم فاتجهوا إلى جمع الكلمة، ولم يجدوا السبيل إلا برياسة ثلُم الشعب، وتجمع المتفرق، وكان بينهم نبي مبعوث، فعهدوا إليه أن يختار من بينهم ملكا، ليكون اختياره منزهاً عن الغرض، بعيداً عن الهوى، لا يقصد به إلا الخير، ولا يكون إلا في الخير، لا خطأ فيه؛ لأنه نبي لا ينطق عن الهوى، لقد قالوا لنبيهم: ابعث لنا ملكا. وأصل البعث الإثارة والإخراج، فمعنى ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يتضمن أنه يفحص

الجماعة بإثارة أحوال رجالها وتعرف خواصهم ومزاياهم وتخبر أمثلهم، وإخراجه من بين صفوفهم ليكون ملكا عليهم، فلا يكون مفروضاً عليهم، بل يكون مستخيراً من بينهم بتخير من لا يشك في تخيره، وهو نبي مبعوث.

وقد قالوا في طلبهم إن الغرض من طلبهم ملكا ينصب عليهم أن يقاتلوا في سبيل الله، وهو إعلاء كلمة التوحيد، ورد عزتهم المسلوبة، وأرضهم المغصوبة.

وفي هذا الطلب منهم عبر وعظات:

أولها: أنهم أحسوا بالضيق، إذ أصبحوا لا رياسة من بينهم تجمعهم.

وثانيها: أنهم آمنوا بأن القتال لا يكون إلا تحت إمرة حازمة تسير بهم نحو الهدى والرشاد، وأنه لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا رياسة فيهم.

وثالثها: أن القتال دفاعاً عن الحوزة، واسترداداً للحق المسلوب، والوطن المغصوب، قتال في سبيل الله. وقد طلبوا أن يكون الرئيس ملكا، لأن نظام الحكم الذي كان سائداً إبان ذاك كان ملكياً، والمذموم منه هو الظالم، والممدوح منه هو العادل، وليس ذلك دليلاً على أن النظام المطلوب في الشرائع السماوية هو الملكي على ما نعرفه وهو الوراثة بالسلالة؛ بل إن إجابة الله لطلبهم بهداية نبيهم لملك أى رئيس دولة قد اختاره الله، دليل على أن نظام الحكم هو ما يكون إجابة لداعى الشعب، وتكون فيه ملاءمة لحال الأمة وملابساتها وما يقترن بها. ولقد كانت حال بنى إسرائيل لا تسمح بأن يختاروا هم بأنفسهم رئيساً للدولة؛ لأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم لا سلطان لهم، والاختيار يكون من ذوى السلطان، ولا يكون من مكروه مغلوب على أمره، والملك الذى اختاره ليس ملكا بالمعنى الذى نعده كما سنبين.

كانت حال بنى إسرائيل فى أشد الاضطراب، وقد انخلعت منهم الإرادات الحازمة، إلا من قلوب ربط الله عليها بالإيمان؛ ولذلك توقع نبيهم ألا يصبروا على القتال إذا حمى الوطيس واشتد البلاء؛ ولذلك حكى الله سبحانه ذلك الشعور الذى خالج قلب نبيهم، فقال تعالى:

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ توقع نبههم إن كتب عليهم القتال ألا يقاتلوا فيجمعوا بين ذلة الهزيمة، والفرار يوم الزحف، والنكوص فى مقام الإقدام وعصيان الله سبحانه وتعالى؛ فبين لهم العقبى إن كتب عليهم القتال أى فرض ولزم بإلزام الشارع، ثم جاءوا بعد ذلك ونكصوا على أعقابهم، وفى هذا القول من النبى الكريم تنبيه إلى أمرين:

أحدهما: أن يفكروا فى أنفسهم وفى حالهم، وفى قوة أعدائهم، وفى عاقبة القتال، فإن رأوا فى أنفسهم القدرة على اللقاء، فى ميدان القتال مع أعدائهم مهما يتكاثف جمعهم، أصروا على طلب فرضية القتال، واختيار ملك يتولى قيادتهم، ويكون قطباً تدور رحى الحرب به وتبديره.

ثانيهما: أخذهم الأهبة والاستعداد للقتال إن أصروا عليه، فإن فيه الفصل، وليس بالهزل؛ حتى لا تكون عقبى القتال أسوأ مما هم عليه.

وهنا بحث لفظى نشير إليه، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ فالاستفهام هنا للتنبيه إلى مخاطر القتال وحالهم من الاضطراب، وتحلل الإرادة وتفكك العزائم، وأن حالهم هذه لا يصلح لقتال، فعليهم أن يغيروها، فالمعنى: أنتوقعون إذا كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، فتبوءوا بإثم الهزيمة، وإثم الفرار، وإثم العصيان!

و(عسى) معناها هنا توقع وقارب، فمعنى فهل عسيتم أي: فهل توقعتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؛ أى تومىء حالكم التى يبدو أنكم لا تحاولون تغييرها، مع أن الاستعداد للقتال يوجب تغيير الحال، وأنكم إذ توقعتم ذلك عاجلتم حالكم.

و(عسى) لها استعمالان:

أحدهما: أن تكون بمعنى لعل، مثل قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ...﴾ [المائدة: ٥٢]. فالمعنى: لعل الله أن يأتى بالفتح أو أمر، ويكون ما بعدها اسمها، وما يليه خبرها.

وثانيهما: أن تكون في معنى الفعل توقع أو قارب، وما بعدها يكون في معنى الفاعل، ويصح أن يكون في مقام الاسم إعراباً، وهى هنا بهذا المعنى، كما هى في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد].

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا﴾ أجابوا نبيهم بأنهم قدروا حالهم، وعالجوا ضعف نفوسهم، وبينوا أن بواعث القتال قد توافرت، فحق علينا أن نقاتل؛ إننا قد أخرجنا من ديارنا باستيلاء العدو عليها، وأخرجنا من أبنائنا بسبيهم، وفصلهم عنا، وجعل قوتهم لأعدائنا وليست لنا، فساغ لنا القتال، بل وجب علينا؛ أى أننا في حال توجب القتال علينا، فما الذى يمنع منه؟ لقد توافر الباعث، وزال المانع فحق الجهاد، فإما فناء في طلب العزة، وإما بقاء في ظلها؛ بل إن حالنا شر أنواع الفناء؛ لأنه موت الأحياء!

وهنا بحث لفظى نشير إليه، وهو فى موضعين:

أولهما: فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فالاستفهام هنا للنفى، والجار والمجرور «لنا» متعلق بفعل محذوف تقديره: ما سوغ لنا ألا نقاتل وقد أخرجنا من ديارنا! أى أنه لا مسوغ قط لعدم القتال بعد خراب الديار وذهاب الأبناء إن المرء يدافع عن أرضه وعن ولده، وقد أخرجنا من الاثنين، فأرضنا ليست بيدنا، وأنفسنا ليست بأيدينا؛ إذ أخرجنا عن فلذات أكبادنا، وقُطِعَ عنا من هم قطع من نفوسنا.

الموضع الثانى - قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا﴾: الواو هنا واو الحال، ولكن ما حقيقة الإخراج؟ أهو الإخراج الحسى بطردهم من بلادهم، والفصل بينهم وبين أبنائهم، فطردوا الكبار من الديار، وأبقوا الصغار عبيداً فى الأرض وعسفاء فيها، أم المراد الخروج المعنوى بأن يكونوا فى أرضهم وليس لهم من أمرها شئ، وأن يروا أولادهم وليس لهم من أمرهم شئ بأن يسيبهم عدوهم، أو يتخذهم قوة له بكل الوسائل المادية والنفسية؟.

تحتل كلمة الإخراج المعنيين؛ فيحتمل أنهم أخرجوا الكبار، وأبقوا الصغار لينشئوهم عبيداً لهم أو أدوات عمل؛ ويحتمل أنهم أبقوهم أذلاء قد ألصقوا بالأرض وليس بصاحب بيت من لا يديره، ولا بصاحب البلد من لا يكون له أمره؛ وأولادهم لا سلطان لهم عليهم، فهم ليسوا لهم، بل لعدوهم.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ قال بنو إسرائيل الحق، وفعلوا الباطل؛ قالوا إنه لا مسوغ للعود عن القتال، لأنه منا جهاد عن النفس، والمال والولد، والأهل والديار؛ ولكنهم عندما اشتدت الشديدة والتقى الجمعان، تولى الكثير منهم، وصبر القليل؛ وذلك عندما اختبروا بالنهر كما بينا؛ وهذا ما يذكره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، أى فلما فرض عليهم وكانت القيادة الحكيمة القادرة، وانتظمت الصفوف، وتولوا عن القتال أى عرضوا عنه؛ والتولى عن القتال والإعراض عنه يتضمن معنى الفرار فى الزحف بأن يولوهم أدبارهم، وبألا يسلحوا نفوسهم بالصبر، والضبط، فلا يجعلوا لشهواتهم سلطاناً على إرادتهم، وبأن يتمردوا على القيادة، ولا يطيعوها فى وقت لا يجدى فيه إلا الطاعة المطلقة.

وإن بنى إسرائيل بتوالى الهزائم عليهم، وسيطرة الشهوات على إرادتهم، وتفكك وحدتهم، كشأن كل الأمم المغلوبة على أمرها، قد تحقق فى الكثيرين منهم كل أسباب الإعراض عن القتال، أو الفرار فى الزحف، أو التمرد وقت الحاجة إلى الطاعة المطلقة، وتحكم الشهوة فى أشد أوقات الحاجة إلى ضبط النفس والصبر؛ وإن هذه الحال كما قلنا تلازم الأمم المغلوبة على أمرها، حتى تتجه عزائم أهلها إلى التغيير من هذه الحال، أو يكون منهم فئة قادرة تتولى فى أول الأمر لقاء العدو بنفسها، ثم يسرى الخلق القوى شيئاً فشيئاً فى سائر الأمة، فتكون العزة بعد الذلة، ويبدلهم الله من بعد خوفهم أمناً.

لقد صبر القليل من بنى إسرائيل، وكانوا فئة الله الغالبة، وسرى دم الحياة فى الأمة بانتصار تلك الفئة القليلة، فقادها من بعد ذلك نبي الله داود إلى مواطن النصر والظفر.

وإن الله سبحانه وتعالى قد ذيل الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وفى هذا التذييل إشارات إلى معان جلية، منها: الإشارة إلى علم الله السابق بأن هؤلاء الكثيرين سيكون منهم ما كان؛ لأن حالهم كانت تؤدي إليها، ومنها أن الله يميز الخبيث من الطيب ويعلم الصالح والطالح، ويضع كلا فى موضعه الذى يليق به عند الناس وعنده يوم القيامة؛ ومنها أن الذين نكصوا على أعقابهم والباءُ بلاءٌ ظالمون؛ ظلموا أنفسهم بالرضا بالذل، وبالمزل الهون، وبأدنى معيشة؛ وظلموا إخوانهم بعدم معاونتهم فى الشديدة؛ وكانوا ظالمين بعصيان أوامر القيادة الحكيمة، ثم ظالمين أكبر الظلم بعصيان الله رب العالمين؛ ثم كانوا ظالمين للذرائع والأخلاف من بعدهم، لولا توفيق الله للفئة القليلة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ لقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالهم عند القتال عندما طلبوه، ليعين سبحانه الفارقة بين القول والعمل عند الذين غلبت عليهم الذلة، واستولت عليهم شهواتهم؛ ثم أخذ سبحانه يذكر بقية القصة والعبرة فيها: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أى أن الله سبحانه قد أخرج من صفوفكم - وهو العليم الحكيم الخبير بأحوالكم - شخصاً قد استوفى كل أسباب الرياسة وجعله ملكاً عليكم. وفى التعبير إشارة إلى أنه أمثلهم وأقواهم على تحمل أعباء الحكم؛ لأن «بعث» تتضمن معنى الإثارة والفحص ثم الإخراج.

والملك المراد به هنا فيما يظهر مالك أمرهم، والمتولى ملكهم، وليس المراد منه المعنى المتعارف، وهو من يتولى بالسلالة، فإنه سيتبين أنه لم يختَر لسلالته، بل اختير لعلمه وحكمته وقوته؛ ولم يستمر الملك فى ذريته، بل آل من بعده لنبي الله داود كما تدل على ذلك أخبار داود التى ذكرها القرآن الكريم؛ فقد آتاه الله الملك والحكم، وإنه اختير باختيار الله تعالى بما أوحى به لنبيه، ولم يكن باختيارهم حتى لا يتنافسوا فيكون بأسهم بينهم شديداً، بدل أن يكون على عدوهم.

فليس فى الآفة دلالة على أن النظام الملكى الذى نعرفه فى عصرنا مطلوب لا بالعبرة ولا بالإشارة؛ لأنها ليست ملكفة الوراثفة والسلالة، بل رفاة العلم والقدرة والحكمة، فما اختفر طالوت لسلالته ونسبه بل اختفر لمعان شلفة فىه.

لقد كان مقتضى ما طلبوه من نبفهم من أن فختار ملكا أن فنفذوا من ففر تردد الأمر فىما اختاره بهدافة الله ووففه؛ لأنهم ففوضوا الأمر إلى نبفهم؛ ولأن الله سبفانه وتعالى هو الذى اختاره، وما كان لهم الففيرة بعد اختيار الله سبفانه وتعالى، ولأن الله قد اختاره لأفجلهم ولمصلحتهم؛ ولذا عبر سبفانه وتعالى بقوله: ﴿بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ فالتعبفر بـ «لكم» إشارة إلى أنه فى مصلحتكم، وأنكم ستفففعون بقوته، وستكون قوته لكم على أعدافكم.

ولكنهم بدل أن فطفعوا وفأخذوا الأهبة أثاروا اللفافة التى تعودوها؛ ولذلك قال سبفانه فكاكة عنهم: ﴿قَالُوا أَنفئ ففكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم ففوت سعة من المال﴾.

فرددوا على نبفهم بذلك الاعتراض؛ لقد أبذوا اعتراضهم بعد أن ففوضوا الأمر فناقضوا أنفسهم، وبنوا الاعتراض على أسباب ففعلوها مناط الملك، ولفست هى السبب للرفافة الصالحة والملك القوى؛ فظنوا أن سبب الملك أحد أمرفن: إما سعة من المال وثرة طائفة، وإما سلالة ملكفة فوارثها، ففقالوا: ﴿أَنفئ ففكون له الملك﴾ من أى ففة استمد الملك، أى أنه لفس فى عروقه دم ملكى ففستحق به الملك، ولفس هو ذا نسب رففع، بل أى واحد منا أحق بالملك منه؛ لأنه لفس من الأشراف، ولئن ففجاوزنا شرف النسب وكرم الولادة لفجسدن أنه فقفر لفس فى سعة من المال، فقد سلب منه سبفا السفاة، وهما النسب والمال.

وكذلك ففكون تفكفر الفجماعات التى سفلطرت عليها الأهواء، وغلبت على أمرها، فففجه إلى المادفات ففحكمها، وفففقد ففقدفر المعنوفات؛ وبذلك ففختل مقافس الففقدفر؛ فأول ما ففبلى به الفجماعات الضعيفة أن ففختل مقافس العظمة فىها؛ ففانه إذا ففختل مقافس العظمة ففمر العظماء، ولم ففظهروا إلا بالمصادفات أو القوى الففارقة،

والعظماء فى الأمم هم القمم العالية التى تهدى إلى مواطن القوة، وتثير العزة من مكانها.

وإن أردت أن تعرف مقياساً ضابطاً لرقى أمة من الأمم فخذ من مقياس العظمة فيها، وقد كان بنو إسرائيل فى وقت هذه القصة فى أشد الانهيار الخلقى كما يدل على ذلك مقياسهم للعظمة بالسلالة والمال.

وفى هذه الجملة الكريمة مباحث لفظية نشير إليها:

أولها: قوله تعالى: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أنتى، قد تستعمل بمعنى كيف، وقد تستعمل بمعنى من أين، وهى هنا يجوز أن تكون بمعنى كيف، ويكون المعنى: كيف يكون له الملك علينا، على أى حال يسوغ ذلك ويمكن؟ فهو استفهام المقصود منه الاستبعاد المطلق، أى أنه لا يتصور أن يكون مثله ملكاً؟ أى أنه ليس فيه من الصفات، ولا فى بيته من المحتد، ما يسوغ معه أن يكون ملكاً. فالمقصود من الاستفهام استبعاد أن يكون فيه سبب من الأسباب المسوغة للملك.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ المتكلم بهذا الملام من بنى إسرائيل أى كبراء بنى إسرائيل؛ فكل واحد منهم يقرر أنه أحق بالملك، ومجموعهم يقرر أنه دونهم، وأحقيتهم من ناحية النسب وناحية الجاه فى بنى إسرائيل، وناحية الأنصار والعصية.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أصل السعة أن تكون فى المكان وفى الفعل وفى الحال، والسعة فى الحال أن يكون على حال من القدرة أو المال بحيث لا يكون مضيقاً عليه أو لا يكون فى ضيق، فلما كنى عن قلة المال بالضيق كنى عن كثرته بالسعة.

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ لقد اعترضوا على اختيار طالوت بأنه ليس خيراً منهم سلالة ومحتداً، وأنه ليس ذا مال وفير؛ فرد نبههم قولهم:

أولاً: بأن الله اصطفاه أى اختاره من الصفوة وأهل الهمة والنبيل؛ وقال: ﴿اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل منكم مع أنه منهم، للإشارة إلى فضله عليهم واستعلائه بما منحه الله من خواص وصفات؛ وإنه كان يكفى اصطفاء الله له ليسكتوا ولا يعترضوا؛ لأنه ليس فوق إرادة الله إرادة، وليس لهم الخيرة فيما اختاره الله؛ ولأنهم فوضوا أمر اختيار الملك إلى النبى، وقد اختاره الله ربهم ورب النبى.

ثانياً: وردَّ نبيهم اعتراضهم ببيان المقياس الصحيح لعظم الرجال واستعدادهم لقيادة الشعوب إلى مواطن العزة والشرف؛ لقد حسبوا النسب والمال مقياس العظمة، فبين لهم مقياسها، فقال: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أى أنه أعظم منكم جميعاً؛ لأن الله سبحانه زاده عليكم فى الأمرين اللذين هما سبب للقيادة الحكيمة، وهما:

أولاً: قوة العقل وسعة العلم وكثرة التجارب، وثانياً: قوة الجسم وعظم المنة^(١). وفى ذلك فوق التنبيه إلى مقاييس العظمة الحقيقية، إشارة إلى الأهلية للمنصب فى الدولة، فالأهلية للمنصب ليس الحسب والنسب والمال، ولكن الأهلية للمنصب بالكفاية فيه، فإذا كان الملك أعلى المناصب، وإذا كانت الرياسة الكبرى أعظم الأعمال تبعات، فليس الذى يؤهل للمناصب السعة والمال، بل الكفاية لها والقدرة عليها؛ ففى الآية الكريمة إشارة إلى مقياس العظمة، وإلى مقياس الاختيار للأعمال والمناصب.

والبسطة فى العلم معناها الاتساع فى الأفق والتجارب، وقوة العقل والتدبير والإحكام فى التفكير، فالبسطة معناها الاتساع، وإذا أضيفت إلى العلم فمعناها الاتساع والإحاطة بكل ما يوجه العقل إلى التفكير المستقيم مع سلامة العقل نفسه.

وبسطة الجسم اتساعه، لا بمعنى كثرة اللحم والشحم، بل بأن يكون سبط العظام مديد القامة بعيد ما بين المنكبين؛ وقد يراد ببسطة الجسم تلك الحقيقة، وهو

(١) المنة: المنة، بالضم: القوة، وخص بعضهم به قوة القلب. [لسان العرب - الميم - منز].

بذلك فوق قوة المنة، يلتقى بالرعب منظره فى قلوب الأعداء، وبالهبة فى قلوب الأولياء؛ أو يراد ببسطة الجسم مطلق القوة؛ لأن طویل العظام عريض ما بين المنكبين يكون فى غالب الأحوال قوى الجسم، فأطلق ذلك وأريد مطلق القوة.

ويلاحظ أنه قدمت بسطة العلم على بسطة الجسم للإشارة إلى أنها فى الرياسة أقوى تأثيراً، وأنها الأصل وغيرها التابع، وأنه ليست الحاجة إلى قوة الجسم بمقدار الحاجة إلى قوة الرأى والتدبير وسعة العلم وكثرة التجارب.

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية؛ للدلالة على أمرين:

أولهما: أن الأمور كلها بيده سبحانه وتعالى، وأنه فعال لما يريد، وأن ما يشاء فى هذا الكون يقع، وما لا يشاء لا يقع، وأنه سبحانه يؤتى الملك فى الدنيا لمن يشاء، وأنه إذ يعطيه هو المسيطر عليه؛ ولذلك أضيف الملك إليه إذ قال ﴿مُلْكُهُ﴾ فهو إذ يعطيه لمن يعطيه هو الغالب على أمره يستطيع أن يسلبه فى أى وقت شاء، فهو مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، ويتزع الملك ممن يشاء، وهو القاهر فوق عباده.

ثانيهما: أن كل شىء فى الوجود تحت سلطان الله تعالى، وهذا معنى أن الله واسع، أى محيط بكل شىء، قد وسع كل شىء برحمته وقدرته، وأنه يدبر الأمور على مقتضى العلم الواسع الشامل؛ فهو يربط الأسباب والمسببات، وهو يعطى لحكمة يعلمها، ويمنع لحكمة يعلمها، يبتلى الأمم بالقوة والضعف والعزة والذلة، والهزيمة والانتصار، والبأساء والضراء، ثم النعماء والسراء، كما قال تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ [الأنبياء] وعلى الأمم المغلوبة أن تتخذ الأسباب بجمع الكلمة، وتآليف القلوب، وتحرير النفوس من ربة الأهواء والشهوات، ولا تستسلم للضعف، ولا تستخذى للقوى، وتناضل وتكافح وتصابر، وتتوكل على الله، وإلى الله مصير الأمور.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَن أُغْرِفَ عُقْرَهُ بِيَدَيْهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

انتهينا في قصة بنى إسرائيل الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم إلى أنهم أرادوا أن يتخذوا الأسباب لإعادة ملكهم وإخراج العدو من ديارهم، فوجدوا أنه لا بد من رئاسة تقود إلى موطن العزة، وميدان الشرف والجهاد، فطلبوا من نبيهم أن يختار لهم قائداً يكون رئيسهم ويكون له ملكهم؛ وسموه ملكاً؛ لأنهم لم يعرفوا الرئيس المالك للسلطان إلا باسم الملك؛ وقد اختار الله لهم طالوت، ولم يكن من ذى النسب فيهم، أو على الأقل لم يكن من أعلى الأنساب فيهم وكان فى المال قلا؛ وما علموا أن الملك يكون فى غير ذى المال والنسب؛ فبين الله سبحانه أن مناط الاختيار للسلطان القدرة على تحمل أعباء الملك؛ وذلك يتحقق بقدرة الجسم، وسعة المعرفة والعلم، وهما أمران قد تحققا فى طالوت الذى اختاره الله سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه وتعالى يبين أن أساس الولاية قدرة الوالى على تحمل الأعباء الجسام بالتزود بالعلم الكثير والتجارب الواسعة، والجسم القوى الذى لا يخذله فى ميدان الجهاد؛ وهم يرون الولاية بالوراثة وبين ذوى الأموال؛ فالمناط عندهم المال الوفير والنسب، ولا عبرة بشيء وراء ذلك، والله سبحانه وتعالى يبين لهم أن الاعتبار للقدرة، ولا عبرة بما وراء ذلك.

فسكتوا، ثم أراد رب العالمين أن يشبث قلوبهم، ويزيل شكهم، فذكر لهم علامة ملكه، وأمرة السلطان الذى أفاضه الله سبحانه وتعالى على ذلك الحاكم المختار، فأوحى إلى نبيهم المبعوث أن يسوق إليهم البشرى، فقال سبحانه:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقد خضعوا لقول نبيهم ولحكم الله باختيار طالوت وليا لأمرهم، متوليا قيادتهم، ولكنه خضوع القلق المضطرب الذى لم يصب السكون قلبه، فلم تطمئن قلوبهم، فساق الله إليهم آية تدل على سلطان الله، إذ لا بد من أمانة تثبت القلوب، وخصوصاً أنهم مقدمون على حرب فيها تشدد الشديدة وتبتلى القلوب، فلا بد من نفوس ملتفة حول قائد لا يرين عليها شيء من الريب؛ ولا يمسها شيء من ظلمة الشك، بل يكون الخضوع الكامل، والاتحاد الشامل، والتآلف بين الجيش والقائد.

فكانت آية ملك طالوت، أى أمانة سلطانه المتقرر الثابت، أن يأتيهم التابوت فيه سكينه من ربهم. والتابوت على وزن فعلوت، كما قال الزمخشري ورجحه، على اعتبار أنه من تاب بمعنى رجع وآب؛ لأن نفوسهم كانت تثوب إليه وتثوب، وتسكن وتطمئن، ويرون فيه شارة عزهم، ورمز مجدهم، وصلة حاضرمهم بماضيهم. والتابوت الذى ارتبطت به قلوبهم ذلك الارتباط صندوق فيه آثار من آثار آل موسى وآل هرون، وقد فقدوه وقت أن ضربت عليهم الذلة، وأخرجوا من ديارهم، فكانت الذلة مقارنة لذلك الفقد، والعزة مقارنة للبقاء.

وقد وصف التابوت بأن فيه سكينه أى أن فيه اطمئناناً لهم، من حيث إنهم يرون فى عودته بشرى بالسلطان والعزة والقوة، وقال سبحانه: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن السكينه والاطمئنان فيض من فيوض الله سبحانه وتعالى يرحم به الناس؛ وإن اقترنت تلك السكينه بأسباب فليست تلك الأسباب العادية هى المؤثرة فى وجودها، بل الذى يوجدها هو رب العالمين، ومن حكمته سبحانه أن جعلها مقترنة بتلك الأسباب الدنيوية، وإن كانت غير مؤثرة فيها بالإيجاد، بدليل أنه قد توجد تلك الأسباب ولا توجد معها السكينه، ولا يكون معها الاطمئنان قط، واقتران السكينه والاطمئنان بالأسباب ليطلب الناس الأسباب، ويرجوا الرحمة منه، وكل شئ عند الله بمقدار.

وفى التابوت كما ذكرنا بقية من آل موسى وآل هرون، أى آثارهم، وتلك الآثار هى سبب الاعتزاز به والتميم واعتباره أمانة عزمهم، والصلة بين حاضرهم وماضيهم؛ وفى تقديم السكينه على «بقية» إشارة إلى أن السكينه هى الغاية المطلوبة، والاطمئنان هو الأمر المرغوب، فتلك الآثار ليست فى ذاتها الغاية، إنما الغاية هى السكينه، وقد اقترنت بوجودها لتكون علامة ومظهراً، وإن المؤثر بالإيجاد هو رب العالمين كما ذكرنا.

وهنا يثار بحث: كيف كان إتيان التابوت؟ أ جاء بأمر خارق للعادة، أم جاء بأمر عادى، وكان التنبؤ بمجيئه أمانة سلطان طالوت واختيار الله سبحانه له؟ ثم كيف كانت تحمله الملائكة؟ أهو الحمل الحقيقى، أم هى القوة الروحية الغيبية التى كانت بأمر الله تعالى من غير أن تعرف أسبابها ومظاهرها؛ كما ذكر الله سبحانه من أن الله كان يؤيد المسلمين بالملائكة فى غزوة بدر، وما كانت إلا القوى الروحية؟

للإجابة عن هذا السؤال نقرر أن الباحثين فى المسائل الدينية، والمعنيين بالدراسات القرآنية فريقان:

فريق يتجه إلى تفسيره بما يقرب معانيه من الأسباب العادية، ولا يفسره بالخوارق إلا إذا لم يكن مناص، من غير أن يؤول الألفاظ بما يناقض ظاهرها، ولا يتفق مع أسلوب القرآن ومنهاجه البيانى.

وفريق لا يحرص على تفسير القرآن بالأسباب العادية، بل يفسره بالخوارق ما دام ظاهره يؤدي إلى ذلك من غير محاولة تقريب؛ لأنه كتاب يتحدث عن الله، والأسباب إنما يقيد بها العباد، والله خالق كل شيء فهو فوق الأسباب والمسببات، وهو الفعال لما يريد، وكل محاولة لتقريب الألفاظ التي يدل ظاهرها على خرق للعادات إنما هو لتحكيم الأسباب العادية في الإرادة الإلهية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولقد كانت العبارة السامية ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ هذه العبارة الكريمة موضع نظر أولئك الباحثين على اختلاف منهاجهم، فالذين لا يحكمون العبارات بالأسباب العادية قالوا: إنه قد أتاهم التابوت تحمله الملائكة حقاً، وإن كان هذا بطريقة لم يفصلها القرآن، فهي واضحة الدلالة بينة المعنى؛ ويرشحون قولهم بأن الآية الإلهية التي تدل على اختيار طالوت يجب أن تكون أمراً خارقاً للعادة، لتكون الدلالة على اصطفاء الله له قائداً ومديراً واضحة بينة؛ فالملائكة حملته حقاً، وهم جنود الله الذين لا نراهم وإن كنا نؤمن بهم.

والفريق الثاني الذي يفسر القرآن بالأسباب العادية ما وسعت العبارات ذلك قالوا: إن التابوت قد جاء إلى بنى إسرائيل إما بأنهم عثروا عليه، وقد غيب عنهم أمداً طويلاً من غير أن يعلموا له مكاناً، والآية هي إخبار نبيهم لهم بذلك قبل وقوعه، وحمل الملائكة له هو بالقوة الروحية التي وفقتهم له بعد طول فقدهم كالقوى الروحية التي أيدت المسلمين في غزوة بدر وغيرها من الغزوات الإسلامية. وإما أن يقال: إن إعادة التابوت في جولات الحرب التي كللت بالانتصار هي العلامة على إمرة طالوت التي كانت باختيار إلهي، وأمر لدني؛ والمعنى على ذلك: إن آية ملكه وأمارته أنه سيقودكم إلى مواطن الظفر ومواضع الفخار وستعود إليكم في حروبه شارة عزتكم، وأماره مجدكم التليد، وعزكم الغابر وهي التابوت، وإنه سيعود إليكم مكرماً معزراً تحمله ملائكة الله، والقوى الروحية. وفي هذا إشارة إلى أن أماره السلطان العمل المنتج المثمر.

وقد أخطأ بعض المفسرين المحدثين، فذكر أنه يحتمل أن المراد من ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أن التابوت كان فى شكل صندوق تحمله تماثيل كانوا يسمونها الملائكة من حيث إنها صورة ملائكة فى خيالهم. إن ذلك خطأ مبين، وإن ذكر فى التوراة الحاضرة! لأن القرآن الكريم الذى حارب الوثنية وذرائعها لا يتفق مع منطق أن تسمى التماثيل ملائكة، ولو كان فى ذلك مجازة لتعبيراتهم، ولا يصح أن يفسر القرآن بما لا يتفق مع منطق ويخالف اتجاهاته ومراميه.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه العبارة السامية، لبيان أن عليهم أن يخضعوا لإمرة طالوت بعد أن تبين لهم اختيار الله له، واصطفاه؛ والمعنى: إن فى عناية الله سبحانه وتعالى بكم، من إعادته التابوت شارة عزكم - لآية لكم وعلامة توجب عليكم أن تخضعوا، ولا تتمللوا، ولا تمردوا إن كنتم مؤمنين. أى إن كان شأنكم أن تؤمنوا بالحق، وتذعنوا إذا علمتموه.

وهذا التخريج على اعتبار أن هذه الجملة السامية من كلام بنى إسرائيل لهم، فهى تبين وجوب الطاعة عليهم بعد هذه البيانات.

ويحتمل أن الخطاب فى هذه الجملة السامية للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، ويكون المعنى: إن ذلك القصص الحكيم، وتلك العظات البالغة لآية، أى لأمرة تدل على صدق محمد ﷺ فيما يدعوكم إليه، وأنه يتحدث عن ربه؛ لأنه وهو النبى الأمى الذى لم يقرأ كتاباً، ولم يجلس إلى معلم ولم يلقن أى علم من أى طريق قد ساق إليكم تلك الأخبار الصادقة، فهى آية من آيات نبوته إن كان من شأنكم الإذعان للحق إن بدت آياته وظهرت بيناته.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ تولى طالوت إمرة بنى إسرائيل، وقيادة جيوشهم، وتقدم بهم للانتصاف من أرفقهم وأذلهم؛ فخرج بهم من هدوء الاستخذاء والاستكانة إلى ميدان الجهاد. و«فصل» معناها انفصل، وقد قال فى ذلك الزمخشري: (فصل عن موضع كذا إذا انفصل عنه وجاوزه،

وأصله فصل نفسه، ثم كثر حذف المفعول حتى صار فى حكم غير المتعدى كـ «انفصل»، وقيل فصل عن البلد فصولاً، ويجوز أن يكون فصله فصلاً، وفصل فصولاً، كوقف وصد، ونحوهما؛ والمعنى انفصل عن بلده) ويستفاد من هذا النقل أن فصل تستعمل لازمة ومتعدية عند بعض اللغويين، وعند الأكثرين هى متعدية أجريت مجرى اللازم لكثرة حذف المفعول.

ولما خرج طالوت بجند بنى إسرائيل قال لهم: إن الله مبتليكم أى مختبركم «نهر» وهو بالفتح والسكون لغتان فيه؛ والنهر: المجرى الواسع الذى يجرى فيه الماء، مأخوذ من نهر الأرض بمعنى شقها شقاً واسعاً.

وما نوع الابتلاء؟ أهو ابتلاء لمعرفة مقدار طاعة جنده؛ لأنهم بايعوه وما أرادوا، وقبلوا ملكه وماكادوا يفعلون، فأراد قبل أن يخوض غمار الحرب أن يعرف من أذعن ورضى فيقاتل به؛ لأنه يكون كنفه، ومن كان فى قلبه ذرة من التمرد أو عدم الإذعان القلبى، فإنه ليس له به حاجة. والنصرة فى الجيش باتحاد القلوب والقوة المعنوية، وحسن الطاعة للقيادة، فجند قليل متحدة أهواؤهم ينتصرون بعون الله. على ذلك جمهور المفسرين.

ويصح أن يكون المراد بابتلاء الله لهم أنهم يفصل بينهم وبين أعدائهم نهر، وقد وصلوا إليه مجهدين من العطش والتعب، فخشى أنهم إن مكثوا حوله، وملثوا مزاداتهم وبطونهم واستراحوا واستجموا، أحس بهم أعداؤهم، فاجتازوا النهر إليهم، وأبعدوهم عنه؛ فأراد طالوت أن يأخذ عدوه بالجولة الأولى المفاجئة، فيجتاز النهر قبل أن يحسوا به، وإن اجتازوه صار النهر فى قبضتهم يشربون منه ما شاءوا من غير حاجة إلى التزود، وكانوا هم على الماء، وعدوهم أسفل منه.

هذا احتمال قريب لا ينافيه نسق القرآن الكريم، ويتحقق فيه معنى الابتلاء الشديد؛ لأن كونهم بجوار الماء بعد جهد وعطش، ولا يأخذون منه إلا غرفات تذهب بالعطش من غير شبع وتزود منه، هذا بلا شك ابتلاء من الله، ويتحقق فيه أيضاً معنى الاختبار للطاعة، وهو يتفق مع الخطط الحربية؛ لأن الفجاءة فى الحروب

سلاح يقتل ويفرق الجمع، ثم فيه اختبار لعزائمهم وقوة إرادتهم فوق اختبار طاعتهم.

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أى فمن شرب منه متزوداً مستجماً حوله مستبرداً بمائه مستمتعاً به مستنهما إلى الراحة بجواره ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أى فليس فى قيادتى، بل هو خارج على طاعتى، وليس معنا فى هذا الجهاد المتعب فى أوله، والمثمر فى آخره؛ ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أى لم يذقه ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أى أنه لم يذق من ماء النهر إلا بقدر اغترافه بيده ما ييل عطشه، ويتنع غلته، ويدفع حاجته العاجلة من الماء أى فمن لم ينل من ماء النهر إلا بهذا القدر ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أى معى فى جندى، وهو فى سلطان قيادتى، وله معى غب النصره وفخار الانتصار.

والاغتراف هو الأخذ من الشيء باليد، والغرفة مقدار الماء الذى يغترف باليد.

وهنا بحث لفظى نبه إليه الزمخشرى، وهو تقديم جواب الشرط على الاستثناء من الشرط، فقد قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ وكان التأليف المعهود للناس أن يقال: (ومن لم يطعمه إلا من اغترف غرفة بيده فإنه منى) ولكن النص السامى جاء بتقديم الجواب على مستثنى الشرط لحكمة بليغة، وهى التسارعة إلى الحكم بالاتصال؛ وإثبات أن أساس الصلة التى تربطهم ألا ينالوا من الماء، ثم رخص لهم فى الغرفة بيد لنقع الغلة، وذلك ليقللوا ما كان فى طاقتهم التقليل؛ لأنهم إن استرسلوا فى أخذ الماء لا يقفوا عند القليل، بل ينالوا منه الكثير.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ لم تكن نتيجة ذلك الامتحان الذى اختبرت فيه حكمتهم، وطاعتهم، وعزيمتهم تتفق مع رغبتهم فى العزة بدل الذلة، فلم ينظروا إلى المآل بدل الحال، لم يصبروا على التعب الوقتى بالعطش ليفاجئوا عدوهم فى عقر داره، وما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا؛ ولم يطيعوا قائدهم الحكيم، والطاعة أساس الجندية؛ ولم يستحصدوا بعزائمهم فلا يستنيموا إلى الراحة قبل وقتها.

ولذا قال تعالى: ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أى فشربوا منه وكرعوا واستراحوا حوله واستجمعوا قبل أن يجيء وقت الاستجمام، إلا قليلا منهم ربط الله على قلوبهم؛ وبذلك لم يطيعوا ولم يصبروا، ولم يجمعوا عزمهم متحملين التعب العاجل، فى نظير النصر والظفر الآجل.

ولقد قرأ أبى والأعمش «إلا قليل» ومن المعروف أن المستثنى بعد الكلام التام الموجب يكون المستثنى منه منصوبًا، فما وجه الرفع هنا؟ قالوا: إن معنى «فشربوا» أنهم ليسوا منه؛ لأنه تبين الارتباط اللازم بين الشرب، وكونهم ليسوا منه، فقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فالمعنى إذن «فليسوا منه إلا قليل منهم» فقراءة الرفع إيماء بليغ بمقتضى المنهاج العربى إلى تضمن فشربوا معنى فليسوا منه المصرح بها سابقًا. ولقد قال فى ذلك الزمخشري: «قرأ أبى والأعمش إلا قليل بالرفع، وهذا مع ميلهم إلى المعنى، وإعراض عن اللفظ جانبًا، وهو باب جليل من علم العربية، فلما كان معنى فشربوا منه: فلم يطيعوه، حمل عليه، كأنه قيل فلم يطيعوه إلا قليل منهم».

وإن لذلك فائدة بلاغية هى أنه كما قلنا إيماء إلى النتيجة المقررة للشرب، وكأنه تصريح بها، وهى أنهم ليسوا منه وقد انقطعت الصلة بينهم وبينه، فصاروا فى ضفة من النهر مستريحين مستتيمين إلى هوى النفس، وطالوت ومن معه قد صاروا فى الضفة الأخرى، قد فاجئوا العدو وحالوا بينه وبين الماء؛ ولذا قال سبحانه من بعد:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب، ولم ينالوا من الماء إلا ما يدفع العطش الميت؛ ولقد عبر سبحانه عن أولئك الصابرين الطائعين المدركين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ للإشارة إلى أن الإيمان بالله والإذعان له سبحانه هو السبب فى طلبهم العزة، وتحملهم المشاق فى سبيلها، والصبر على المتاعب لنيلها، والطاعة لمن اصطفاه الله وليا لأمرهم، ومدبرا لشئونهم، وقائدًا لهم فى ميدان العزة والكرامة.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ يحتمل أن يعود على بعض الذين اجتازوا النهر، ويحتمل أن يعود على الذين استناموا للراحة ولم يجتازوا النهر.

وعلى الأول يكون المعنى: إن الذين اجتازوا النهر، وهم الطائعون الصابرون المعتمرون كانوا فريقين: فريق هاله العدو وكثرته، فاعتراهم الخوف، وقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت (وهو قائد جيش العدو) وجنوده؛ وفريق آخر لم تأخذ فواده الكثيرة ولم يذهب قلبه شعاعا، وهم الذين قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وكأنه على هذا التخريج يكون بنو إسرائيل مراتب ثلاثا: أولاها وأدناها: أولئك الذين ارتضوا بالعصيان وخالفوا أمر قائدهم؛ والثانية: أولئك الذين اجتازوا النهر وأطاعوا، ولكن هالتهم الكثرة الكاثرة، وحسبها الكارثة؛ والمرتبة العليا هم أولئك الذين آمنوا بقاء الله تعالى، وفضلوا الباقية على الفانية، وباعوا أنفسهم لله سبحانه وتعالى.

وعلى أن الضمير فى «قالوا» يعود على الذين لم يجتازوا النهر، يكون المعنى: إن الذين استناموا للراحة، وآثروا العصيان تقاولوا فيما بينهم وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، أى أننا فى حاجة إلى الراحة اليوم وإذا نلنا حظنا من الاستجمام والماء فقد يكون اللقاء. وأما الفريق الذين اجتازوا النهر، فقد وجدوا أنفسهم قلة قليلة أمام جموع كثيرة، وقد تخلف من إخوانهم الأكثرون، وقعدوا فى الضفة الأخرى مخالفين، ولكنهم مطمئنون إلى نصر الله وتأيدهم وقد آمنوا بالآخرة فطلبوا الموت لينالوا الحياة، كما قال الصديق خليفة رسول الله: (اطلب الموت توهب لك الحياة) وقالوا: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ومعنى لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده: لا قدرة لنا اليوم على ملاقاته جالوت وجنوده، ولو بتحمل أقصى المشقة؛ إذ الطاقة معناها أقصى ما يبذل من مشقة لحمل الأمر، وإذ انتهى ذلك فمعناه أن الأمر مستحيل بالنسبة لقدرهم، وهذا

هو ما يصوره الضعف والاستخذاء، واستمراء الذلة والضعفة والهوان. ولأن القائلين لذلك القول فيهم هذه الصفات، نرجح أن الضمير يعود على الذين لم يجتازوا النهر ورضوا بالمقام مع العصيان.

فهذا قول الذين عصوا وذلوا، أما قول الآخرين فقد حكاها الله تعالى بقوله:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

الظن هنا بمعنى العلم القطعى الجازم؛ لأن شأن المؤمن أن يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر إيماناً قاطعاً جازماً لا شك فيه، وإنما عبر عن العلم اليقيني فى هذا المقام بلفظ الظن لسببين:

أحدهما: أن اليوم الآخر مغيب غير محسوس.

وثانيهما: أن الظن يتضمن معنى الرجاء، ورجاء لقاء الله سبحانه وتعالى

راضياً عن فعل العبد يدفعه إلى العمل والجهاد فى سبيله، وبيع النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

ووصف أولئك الثابتين الصابرين الذين أرادوا العزة فافتدوها بأنفسهم وأعظموا الفداء بأنهم الذين يظنون أنهم ملاقوا الله، بيان للباعث القوى الدافع للرضا بالفداء، والصبر على البلاء؛ وذلك لأن الإيمان بقاء الله يجعل المرء يستهين بكل ما ينزل به فى الدنيا؛ لأنه مهما يكن مقداره، تعب ضئيل فى مقابل نعيم مقيم يوم القيامة، ولأنه مهما يكن ما يلقاه من عنت فى الدنيا لا يعد شيئاً مذكوراً فى نظير لقاء الله تعالى راضياً عنه، مستقبلاً لأعماله، فذلك الرضوان دونه الدنيا كلها بحذاقها.

وإذا كان المؤمن بقاء الله المستشعر لعظمته يستهين بكل ما فى الدنيا ومن

فيها، فهو مستهين بعدوه مهما تكن كثرته؛ ولذلك قالوا: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الفئة: الجماعة المتعاونة المتساندة التى يفتى بعضها إلى بعض، ويظهر بعضها بعضاً، والمعنى كم من مرات كثيرة غلبت جماعة متعاضة قليلة العدد جماعة كثيرة العدد، لقوة إيمانهم بالله وبحقهم.

وفى هذا إشارة إلى أن من أسباب النصر ألا يؤخذ الخصم بقوة خصمه بأكثر من أن يستعد له ويأخذ الأهبة للقائه؛ أما إن هاله أمره فإنه لا محالة مغلوب؛ لأن القوة المعنوية ذخيرة فوق العدة والسلاح، ولا تكون القوة المعنوية لقوم يرهبون لقاء عدو الله وعدوهم، بعد أن اتخذوا الأهبة، واختار الله سبحانه وتعالى لهم القيادة الرشيدة، ذات الرأى السديد؛ والمنهج الحميد.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآيات التى تفيد الاستعداد للقتال بتهيئة النفوس، واتخاذ سلاح المفاجأة أول سلاح يرفع ضد الأعداء - ببيان سلاح آخر هو أمضى الأسلحة التى تغالب الزمان، وتناضل الحداث، وهو الصبر، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أى أن على الذين يتقدمون للجهاد فى سبيل الله أن يدرعوا بالصبر، ويجعلوه أخص صفاتهم، ويستمسكوا به؛ فإن الله سبحانه وتعالى مع الصابرين. والمصاحبة الكريمة التى أفاض الله بها على الصابرين فقال: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هى مصاحبة النصرة والتأييد والتوفيق. فالله جل جلاله، وعظمت قدرته، مع الصابرين، ومن كان الله معه فهو منصور، فإنه هو نعم المولى ونعم النصير.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

اجتاز المؤمنون الصابرون النهر، وجمعوا عزائمهم فى عزيمة واحدة، وقدروا النصر مع قلتهم وكثرة عدوهم؛ لأن الإيمان بالحق وحده عدة هى أقوى عدد الجهاد، وبهذه النفوس المؤمنة المتوثبة المفوضة أمورها لرب العالمين، تقدموا للقاء الأعداء، ولم يغرمهم بالله الغرور ولم يفرضوا أن قوة البدن والسلاح والشعور بالحق وحدها كافية للنصر بل لابد من تأييد الله؛ ولذا قال سبحانه فى وصفهم فى ميدان القتال:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠) أى أنهم خرجوا إلى الأرض الفضاء المتسعة التى تتلاقى فيها القوى المناضلة، «فبرزوا» معناها خرجوا إلى البراز، أى الفضاء المتسع المترامى الأطراف، وكان بروزهم وظهورهم لقوى جبار غالب، ومعه جند مدرب تعود الانتصار فى الماضى، وأذاق بنى إسرائيل من الذل أكؤسا؛ ذلك هو جالوت وجنوده.

وذكره بالاسم ومعه جنوده للإشعار بأن المؤمنين لا قوا جماعة موحدة منظمة، لها فوق كثرة العدو والعدد قوة النظام وتوحيد القيادة وقوة الانتصار فى الماضى والغلب عليهم. ولكن التعبير يشعر مع ذلك بأمر آخر قد يكون من أسباب الضعف مع هذه القوة وهو أنهم جند لشخص واحد، يعملون لغايته بمصلحته وسلطانه، بل شهواته ورغباته، فهم لا يعملون لأنفسهم وجماعتهم، بل يعملون للملكهم، وكأنهم مع دريتهم وقوتهم وغلبهم مسخرون لإرادة شخص وهواه، وذلك من أسباب ضعف الإرادات، وعدم الصبر عند الشدائد، وهكذا حكم الواحد المستبد، يحمل فى داخله دائما عوامل ضعفه مهما يكن فيه من توحيد وتنظيم للقوى وجمع للقيادة، وذلك يكون إذا كان حكم الفرد صالحا، ولم يكن فسادا غاشما وظغيانا آثما.

عندما التقى المؤمنون الصابرون من بنى إسرائيل بعدوهم، هالهم أمره، وهالهم أمر قائده، ولكنهم كانوا مستولين على قلوبهم، مؤمنين بالنصر أن أخلصوا

فى أمرهم، وشروا أنفسهم لربهم؛ ولذلك اتجهوا إليه بعد أن أخذوا الأهبة، فدعوه ضارعين بثلاث عبارات مفوضة تفيد إدراك أسباب النصر:

أما الدعاء الأول فهو: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يقال أفرغ الإناء: صب ما فيه من ماء، وأفرغ الدلو على نفسه: صب ما فيه من ماء على نفسه، فمعنى أفرغ علينا: أفض علينا صبراً يعمننا فى ظاهر جمعنا، وفى خاصة نفوسنا. فالتعبير بـ «أفرغ علينا صبراً» فيه استعارة تمثيلية شبه فيه حالهم والله سبحانه وتعالى يفيض عليهم بالصبر يظهر فى جماعتهم مجتمعة وفى الأفراد منفردين بحال الماء يفرغ على الجسم فيعبه كله، يعم ظاهره ويتسرب إلى باطنه، فيلقى فى القلوب برداً وسلاماً، وهدوءاً واطمئناناً.

وصدروا الدعاء بالنداء «ربنا» أى خالقنا ومنشئنا ومربينا ومميتنا، وفى ذلك إشعار بأنهم دعوا مجيياً، وضرعوا إلى قادر غالب، وإلى منشئ موجد، فهو قادر على أن يأويهم بالصبر، ويغنيهم به عن نقص العدد.

وابتدءوا بالدعاء بالصبر؛ لأن الصبر هو عدة القتال الأولى، وهو ذخيرة المؤمنين وبه ضبط النفس فلا تفزع، وبه يجتمع قلب الشجاع فلا يجزع. والانتصار فى القتال بصبر ساعة، والصبر عند اللقاء الأول هو الذى تتبدد به قوى العدو مهما تكاثرت؛ ولذا قال النبى ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١).

والدعاء الثانى الذى ضرعوا إلى ربهم فيه قولهم: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾، وهذا كناية عن أن يمنحهم سبحانه وتعالى الثبات فى الزحف وعدم الفرار فى النزال، فمعنى: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾، أى ثبتنا، ومكنا من عدونا، ولا تمكن عدونا منا، ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا، فالتعبير بقوله: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾، تعبير بالجزء وإرادة الكل؛ لأن الأقدام هى التى يكون بها الفرار، فتثبيتها إبعاد للفرار بثبات أداته وعدم تحركها إلا إلى الأمام، وأن الثبات مظهر الصبر، وذريعة النصر بل مظهر القوة،

(١) رواء البخارى: (١٢٠٣): الجناز - زيارة القبور، ومسلم (١٥٣٤): الجناز - الصبر عند الصدمة الأولى.

وعنده تتحطم قوى العدو، وتتفرق كلمته إذا لم يكن محاربًا فى سبيل حق، بل كان يقيم الظلم ويؤيد الباطل.

والدعاء الثالث، وهو قولهم: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وإن إجابة هذا الدعاء هو تحقيق لثمرة الصبر والثبات، وكان الدعاء بتحقيقه للإشارة إلى أن الأمور كلها بيد الله، وإن أولئك المؤمنين الصابرين الثابتين كانوا يأخذون بالأسباب، ثم يفوضون الأمور إلى الله مسبب الأسباب معتقدين أنه مهما يتحقق السبب ولا تكون المعونة الإلهية، والتوفيق الربانى، والتأييد من القوى الجبار - فلن يكون الانتصار، وأن الجيش القوى مهما يكن عنده من صبر وثبات يجب أن يؤمن بأن النصر من عند الله العزيز الحكيم القوى الغالب على كل شيء. وقد رأينا فى العصور الحديثة قادة عظاما يأخذون بالأسباب ثم ينهزمون، مع أن تحت سلطانهم جنودًا مدربين طائعين صابرين ولكنهم لم يقولوا: المستقبل بيد الله، بل قالوا: المستقبل بأيدينا، فكف الله أيديهم عن الناس، وكانوا عبرة للمعتبرين.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الفاء هنا للسببية، أى أنه بسبب قوة عزائمهم، وحسن صبرهم واتجاههم إلى ربهم ضارعين أن يلهمهم الصبر عند اللقاء، والثبات عند الزحف، والنصر فى النهاية لأنه المالك لكل شيء، بسبب كل هذا هزموهم بإذن الله، أى بتوفيقه سبحانه وإرادته وهدايته، وإمداده سبحانه بعونه بعد اتخاذهم الأسباب كلها.

وأصل الهزم معناه الكسر، وكثر استعماله فى كسر الأعداء، وتشيت شملهم، وذلك لأن العدو فى هجومه يشبه الصخرة المنقضة فى تجمعها وصلابته وحدة صدمته، فإذا رد على أعقابها تكون حاله كالتكسر بعد الاجتماع والتقطع بعد الاتصال.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ فى هذا التعبير السامى، بيان لسبب من أسباب الانتصار الدنيوى بعد أن وهبهم الانتصار اللدنى، ذلك أن طاغيتهم قد قتل، وهو الذى كان يفرض أهواءه وشهواته عليهم فيجعل

منهم جنوداً طائعين له يسرون مع رغبته فى السلطان والقهر والغلب بالحق وبالباطل، وكذلك الشأن دائماً فى أهل الباطل يجتمعون على رجل ويسرون وراءه، فليست لهم إرادة غير إرادته، ولا روح جماعية تجعل لهم كيانه قائماً بذاته، مظهره قائدهم، بل يكون الطاغية هو المسلط عليهم، يملأ إرادته على أحدهم، ولا إرادة لأحد وراء إرادته، فإذا قتل ذلك الطاغية أو قضى على سلطانه تفرق الجمع وذهبت الوحدة الرابطة، وعملت السيوف فى أفقيتهم.

وكذلك كان أمر أعداء الله، جمعهم جالوت تحت إمرته، وفرض عليهم إرادته بحكم القهر، أو بالاستهواء، أو التبعية الشخصية، فمكّن الله أوليائه منه، حتى إذا قتل تفرق الجمع وولى الأدبار، ولا يكون الأمر كذلك إذا كانت الجماعة تحس بالوحدة الجامعة التى تربط أحادها، وقائدها مظهر توحيد الإرادة وجمع الكلمة، وليس موجد هذه الوحدة لتسخر لإرادته؛ فإنه فى هذه الحال إذا ذهب القائد، قام مقامه من يماثله أو على الأقل يقاربه؛ لأن الجماعة لها إرادة موحدة، وليست خاضعة لإرادة مسلطة وهى الموحدة لقائدها، وليس قائدها هو الموجد لإرادته، والإرادة التى أقامته تقيم غيره مقامه إذا خلا مكانه.

كان القاتل لجالوت رأس العدو هو داود، وقد رشحته قوته الجسمية، وإحكامه للقتال وعلمه وحكمته لأن يتولى الملك من بعد طالوت والملك الذى تولاه ليس هو الملك الوراثى الذى يثول فيه السلطان إلى أحد من أسرة الملك السابق بالوراثة القانونية؛ لأن داود لم يكن من أسرة طالوت، وما رشحته للملك وراثة قانونية، بل رشحه للملك انتخاب طبعى، وإرادة إلهية آتته الحكم والنبوة، فليس الملك الذى آل لداود هو الملك الوراثى، بل السلطان الحكم ذلك الانتخاب.

وقد ذكر سبحانه العناصر التى ترشح للسلطان وحكم الناس، فكانت قوة الجسم، والحكمة والعلم؛ ولذا قال سبحانه بعد ذكر قتله لجالوت: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ والحكمة هى وضع الأمور فى مواضعها والتدبير المحكم على وفق العلم، فالحكمة تقتضى صفتين ذاتيتين فى الشخص: عقلاً مدرِكًا نافذاً

بصيراً يرى بواطن الأمور ويتغلغل في أعماقها، وإرادة محكمة تجعل العمل يتلاقى مع الفكر الصحيح والإدراك السليم، فلا يكون سلطان يعارض دواعي العقل، وأحكام الفكر السليم، فليس بحكيم من يبادر بالحكم على الأشياء من غير دراسة عميقة مستقصية وليس بحكيم من يكون عمله على غير ما تقتضيه قواعد الفكر المستقيم.

ولقد ذكر سبحانه أنه علّم داود مما يشاء أى علّمه علماً كثيراً واسعاً مما شاء أن يعلمه. فقله تعالى: ﴿مِمَّا يَشَاءُ﴾ يشير إلى سعة العلم، وأنه كثير متشعب لا تحده إلا مشيئة الله وإرادته.

فعلمه سبحانه سياسة الملك، وأحوال الناس، ومنازع النفوس، وأحوال البلدان وما تنتج من خيرات، وغير ذلك، وكان تعليم الله سبحانه وتعالى له بالنبوة التى أفاضها سبحانه وتعالى عليه، والتجارب التى ساقها الله إليه، والذخيرة التى بين يديها من أحوال الحاكمين السابقين، والهداة المرشدين، وما أوتيّه من علم التوراة، والأخبار الصحاح عن النبيين السابقين، وفى كل ذلك هداية وإرشاد إلى أقوم مناهج الحكم الصحيح.

تلك هى عناصر الحكم الصالح، لا بد أن يكون الحاكم قوياً فى جسمه، بحيث لا يخذل جسمه إرادته، فكثيراً ما يكون ضعف الإرادة من ضعف الجسم، وضعف التدبير من تخاذل القوى البدنية عن الاحتمال، ولكن قد تكون الإرادة القوية والعزيمة الماضية فى جسم ضعيف، وفى هذه الحال قد يستغنى عن ذلك العنصر إن لم يوجد شخص تتوافر فيه قسوة النفس وقوة الجسم معاً، فالاعتبار الأول لقوة النفس، وقوة الجسم خادمة لقوة النفس وليست مقصودة لذاتها.

والعنصر الثانى هو الحكمة: وهى كما رأيت جعل العمل يسير مع العقل فلا تتحكم الأهواء والشهوات، وآفة الحكم الصالح هوى الحاكم، فإن غلبت رغبته عقله غلب الفساد حكمه، فليختبر كل حاكم نفسه، فإن رأى أهواءه هى المسيطرة فليعلم أن الشر قد استحكم، وأنه أولى به ثم أولى أن يعتزل وإن وجد عقله هو المسيطر فليعلم أن الله أجرى عليه التوفيق.

والعنصر الثالث الإحاطة التامة بمصالح الناس وأحوالهم: فإن الحكم عمل للمصلحة، وليس سيطرة وتحكما، ومن ظنه سيطرة وتحكما فهو ممن طمس الله بصيرته، وغلبت عليه شهوته، ثم غلبت عليه شقوته.

إن فرق ما بين الحكم الصالح وغير الصالح دقيق فى معناه، وإن كان الأثر كبيراً فى مبناه، فالحكم الصالح أساسه أن يكون الحكم لمصلحة المحكوم وإجابة لرغبته، والحكم غير الصالح أساسه أن يكون الحكم تحكما فى المحكوم، فمن تحكم فى الرعية ولو باسم مصلحتها، فقد سلك سبيل الفساد؛ لأن التحكم ينبعث من الرغبة فى السيطرة، ولو لبس لبوس المصلحة. والسيطرة تسلط، والتسلط فى ذاته فساد يؤدى لا محالة إلى فساد، ويؤدى إلى موت الإرادات فى الجماعة، وفى ذلك إضعاف لقوتها.

وأما الحكم المنبعث من إرادة الجماعة الذى يقودها لمصلحتها، فهو يؤدى إلى الصلاح لا محالة، وإن تعثر فى أخطاء أحيانا؛ لأنه من الخطأ يتعلم الناس الصواب، ومن الخط المعوج يعرف الخط المستقيم.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بين الله سبحانه وتعالى قصة بنى إسرائيل، وهى قصة يتجلى فيها استخذاء الضعفاء، إن خافوا الموت، وجعلوا أن البقاء على الذل هو حقيقة الفناء، ثم بين كيف تتحفز بعض العزائم لرفع نير الظلم وكف يد الظالم، ثم بين كيف يقوم فى المغلوب عليهم نزاع بين دعاة التردد والهزيمة ودعاة الإقدام، وكيف تخضع النفوس لخواطر الرغبة فى العزة والإقدام على التغيير، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ثم بين حال الجيوش القوية فى وجوب توحيد قيادتها تحت سلطان قائد قوى عالم مفكر مجرب، وكيف تضعف العزائم عند الذين ألفوا الذل فيستنيمون إلى الراحة الدليلة، بدل الشدة العزيزة، ثم بين سبحانه كيف تغلب فئة قليلة مسلحة بالإيمان القوى والتصميم على طلب العزة، مستعينة بالصبر، معتمدة على الله جلّت قدرته.

بَيِّنْ سُبْحَانَهُ كُلَّ ذَلِكَ فِي عِبَارَةٍ جَلِيَّةٍ، أَوْ إِشَارَةٍ وَاضِحَةٍ، ثُمَّ بَيْنْ سُبْحَانَهُ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يَدْفَعَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَأَنْ تَكُونَ الْمُدَافَعَةُ بَيْنَهُمَا مُسْتَمِرَّةً، حَتَّى لَا تَفْسُدَ الْأَرْضُ، فَإِنَّهُ إِنْ غَلَبَ الشَّرُّ كَانَ الْخَرَابُ وَالْدَّمَارُ.

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَتَلَيَّ النَّاسُ مِنْ يَوْمٍ أَنْ هَبَطَ آدَمُ وَحَوَّاءُ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَدْ ابْتَلَاهُم بِإِبْلِيسَ وَإِخْوَانِهِ، فَكَانَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالظُّلْمِ وَالْعَدْلِ، وَاللَّهُ دَائِمًا يَسْخَرُ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا يَعْمَلُونَ لِنَصْرَتِهِ، وَيَتَخَذُونَ الْأَسْبَابَ وَالْأَهْبَةَ، ثُمَّ يُؤَيِّدُهُمْ بِنَصْرِهِ وَتَوْفِيقِهِ فَإِنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ قَائِمٍ لِلْحُجَّةِ ظَاهِرًا مَشْهُورًا، أَوْ مُسْتَوْرًا مَغْمُورًا، حَتَّى لَا تَذْهَبَ بَيِّنَاتُ اللَّهِ كَمَا قَالَ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ.

وَلِذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أَيُّ لَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَعْضَ النَّاسِ الْأَشْرَارِ بِبَعْضِ النَّاسِ الْأَخْيَارِ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، لِأَنَّهُمْ إِنْ تَرَكُوا مِنْ غَيْرٍ أَنْ يَدَافِعُوا عَمَّ الْفُسَادِ وَعَمَّ الدَّمَارِ. وَإِنْ دَفَعَ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ يَكُونُ فِي دَاخِلِ الْأُمَمِ وَبَيْنَ الْأَحَادِ، وَبَيْنَ الْأُمَمِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، فَالْأَمَّةُ الْوَاحِدَةُ يَكُونُ مِنْ أَحَادِهَا الْأَخْيَارُ وَالْأَشْرَارُ، وَيَدْفَعُ اللَّهُ بِعَمَلِ الْأَخْيَارِ وَبِالْعَمَلِ الْأَشْرَارِ.

ودفع ذلك يكون بطرق مختلفة:

منها: أَنْ يَكُونَ الشَّرُّ فِي خِفَاءٍ، وَالْخَيْرُ فِي جَلَاءٍ، فَيَكُونُ انْزَوَاءُ الشَّرِّ دَفْعًا لَهُ وَفِي ظَهْوَرِ الْخَيْرِ دَعْوَةً إِلَيْهِ، وَحِثًّا عَلَيْهِ.

ومنها: أَنْ يَقِلَّ عَدَدُ الْأَشْرَارِ الظَّاهِرِينَ وَيَكْثُرَ عَدَدُ الْأَخْيَارِ الْبَارِزِينَ فَيَدْفَعُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِتِلْكَ الْكَثْرَةِ الظَّاهِرَةِ شَرَّ تِلْكَ الْقَلَّةِ الْفَاجِرَةِ.

ومنها: أَنْ عَمَلَ الْأَبْرَارِ فِي الْأَمَّةِ يَصْلُحُ اللَّهُ بِهِ مَا أَفْسَدَهُ الْأَشْرَارُ مَهْمَا يَكُنْ عَدَدُ هَؤُلَاءِ، فَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ الْعَذَابَ - أَيُّ الدُّنْيَوِيِّ - بِمَنْ يَصَلِّي مِنْ أُمَّتِي عَمَّنْ لَا يَصَلِّي وَبِمَنْ يَزْكِي عَمَّنْ لَا يَزْكِي، وَبِمَنْ يَصُومُ عَمَّنْ لَا يَصُومُ، وَبِمَنْ يَحُجُّ عَمَّنْ لَا يَحُجُّ وَبِمَنْ يَجَاهِدُ عَمَّنْ لَا يَجَاهِدُ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا

على ترك هذه الفرائض ما أنظرهم الله طرفة عين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾^(١).

وأما دفع الله بعض الناس الأشرار ببعض الناس الأخيار في الأمم بعضها مع بعض فإن ذلك بجهد الأمم التي تعمل للحق للأمم التي يناصر أكثرها الباطل، أو تسكت عن ظلم حكامها لغيرهم من الأمم. ولقد روى أن ابن عباس قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾: «لولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلِبَ المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد».

وفي الجملة أنه لا بد للحق من قوة تدفع الباطل، وأن الله قد أمد الأخيار بقوته، ليدفعوا الشر ويكفكفوا من حدته.

وفي العبارة السامية إشارة إلى أن تلك المغالبة هي في طبيعة البشر بمقتضى خليقتهم وفطرتهم، إذ قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فهو سبحانه قد حكم بأن دفعه للناس أجمعين، ثم أردف القول بالبدل بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن تلك المدافعة بين الناس مستمرة، وأنها ليست في جيل دون جيل، ولا زمان دون زمان، ولا يتعين أن يكون قوم بأعيانهم للشر، وآخرون للخير، فقد يكون بعض الناس فيه خير في بعض نواحيه، فيدفع شر غيره في هذه الناحية، ويكون في الآخر ما يدفع به شرا في بعض نواحي الأول، وقد يكون بعض الأقوام في جانب الحق ينصرونه لغايات في نفوسهم، وإن لم يكونوا فضلاء في عامة أحوالهم، فالشر يدفع بالبر والفاجر، وينصر الحق بالأخيار والأشرار؛ ولذا لم يقل سبحانه وتعالى: ولولا دفع الله الأشرار بالأخيار، بل قال سبحانه: ﴿بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ليعم تلك الأحوال، وذلك من فضل الله على عباده؛ ولذا ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(١) راجع الدر المنثور للسيوطي ج ١ ص ٧٦٤، كما ذكره القرطبي: سورة البقرة (٢٥١).

وقد دل ذلك الختام الكريم على ثلاثة أمور:

أولها: أن ذلك التنظيم الحكيم هو من فضل الله ورحمته، وإنعامه على خلقه، وليس ذلك بواجب عليه سبحانه؛ وذلك لأنه خلق الناس، وخلق معهم عقولا يعرفون بها خيرهم وشرهم، فإن ساروا في طريق الخير والصلاح فلهم ما قصدوا إليه، وإن ساروا في طريق الشر والفساد فالى الهاوية يسيرون، وعليهم وبال أمرهم، وعاقبة عملهم إنما هو من فضله، وقد دل على ذلك الاستدراك بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾ ووصف ذلك بأنه فضل من رب العالمين خالق الناس أجمعين.

الأمر الثانى: فضل الله سبحانه وتعالى الكثير، ووصفه سبحانه بأنه ذو فضل، وقد دل على كثرة الفضل التنكير فى قوله تعالى: ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ أى ذو فضل كثير، لا يدرك الناس قدره، ولا يعرف كنهه، ولا يحد بمقدار حتى يعرف ويعين بالتعريف.

الأمر الثالث: أن النعمة التى أنعم الله بها على خلقه من دفع الفساد ينعم بها المؤمنون والمشركون، والأشرار والأبرار؛ لأن الفساد إذا عم لا يسلم منه أحد، والخير إذا تحقق عم الجميع، وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فلم يقل على المؤمنين أو المتقين، بل عم الخير على الناس أجمعين للإشارة إلى ذلك المعنى الجليل.

هذه قصة بنى إسرائيل الذين غلبوا على أمرهم ثم بدلوا من الذلة عزة، وهى قصة تكشف عن سنن الاجتماع والحروب، وأمثلة طرق الحكم.

فمن سنن الله فى الجماعات التى أشارت إليها الآيات أن الجماعة إن غلبت على أمرها، وسامها الغالب الخسف والهوان تحفزت قوى آحاد منها للحياة، فطلبوها عزيزة كريمة، فإذا طالبوا اتجهوا إلى قيادة تجمع أمرهم، وتنظم شئونهم، ثم ساروا تحت لواء تلك القيادة، وقد تصارعت عوامل الضعف مع دوافع العزة، فإن كان الصبر كان معه النصر وإن ضاقوا بأمرهم كان الخذلان، وضربت عليهم الذلة إلى يوم القيامة.

ومن سنن الله في الحروب التي استبانت من القصة أن النصر يكون عند اتحاد العزائم وتلاقى القلوب، وأخذ الأهبة، والصبر والثبات، وأن النصر ليس بكثرة العدد، وإنما هو بالعزيمة الماضية والثبات والصبر، والمعونة من الله العلى القدير، وأن الحق في ذاته قوة إن آمن به صاحبه، وأراده عزيزاً كريماً غير ذليل.

ولقد سن سبحانه في هذا القصص الطريق لاختيار الحكام، فبين أن الحاكم لا يُختار لنسب رفيع، ولا يختار لمال وغير، ولكن يختار لقدرته على القيام بأعباء الحكم من قوة في نفسه، وقدرة على الاستيلاء على أهوائه وشهواته، وعلم غزير بشئون الاجتماع وأحوال الناس، ومن تجارب هادية إلى الحق في الأمور، وإخلاص ينير الطريق والبصائر، وليس الحكم عطاء يُعطى، ولكنه ابتلاء وأعباء.

وإن الحاكم الذى تجتمع القلوب حوله هو حكم الجماعة، والحاكم مظهرها، وأن قُتِلَ الحاكم أو مات أقامت الجماعة مثله، أو خيراً منه، أما الحاكم المتسلط المتجبر فإنه جامع للناس على رغباته، فإن قُتِلَ أو مات تفرق الجمع وولى الأدبار. وهذه إشارات إلى العبر في ذلك القصص الحكيم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥٢) بعد ذكر تلك القصة المرشدة الهادية لكل مستبصر معتبر، بين الله سبحانه أن هذه الآيات المتلوة هي من عند الله، وهى تتلى بالحق الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنها تتلى على الرسول الكريم وهى معجزته وآية رسالته، وإنما ذلك بعد هذه القصة لما فيها من الدلائل الواضحة البينة التى تثبت رسالة النبى الكريم؛ لأن ذلك القصص الصادق جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب، لم يجلس إلى معلم، ولم يأت علم لا بطريق كتاب يقرؤه؛ لأنه ليس بقارئ، ولا بطريق معلم يعلمه، ولا بتلقين من أى جهة كان التلقين، إذ كان ﷺ من أمة أمية ليس فيها علم مدون فى كتب، ولا علماء يتدارسون، ولم يكن جو علمى ينال منه الأريب بالخلطة والاتصال، ولم يكن محمد ﷺ فى حياته ذا نجعة وأسفار، بل لم يتنقل من مكة إلا مرتين كانت أولاهما وهو غلام، وكانت الثانية وهو يقارب الخامسة والعشرين.

فإذا كانت حال النبي كذلك والقصص جاء على ذلك النحو من الأحكام والإرشاد والتعليم وبيان سنن الاجتماع والحكم الأمثل والقيادة الرشيدة مع صدقه في ذاته، فهو دليل على أنه من عند الله.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إلى الآيات المتلوة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ...﴾ [البقرة] إلى آخر القصة وكانت الإشارة للبعيد، لما في ذلك من معنى الاستقصاء للآيات من أولها إلى آخرها ولعلو شأنها، وكمال معانيها والوفاء في مقاصدها. وإضافة الآيات إلى الله لأنها جزء من القرآن وكله من عند الله، فالإضافة لتقرير هذا المعنى وتوكيده، وتنبيه الأذهان دائما إليه ليعطوه حقه من الفهم والتدبير والاسترشاد به، والاعتبار بما اشتمل عليه من مواظب وقصص وعبر.

وقوله تعالى: ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ يفيد أمرين:

أولهما: أن القرآن كان يتلى على النبي ﷺ ويتلقاه بالروح الأمين. وإسناد التلاوة إلى الله العليّ القدير مع أن الذي كان يلقي القرآن على النبي ﷺ هو جبريل - للإشارة إلى أن تلاوة جبريل هي تلاوة الله فهو رسوله الأمين إلى رسله المكرمين.

الأمر الثاني: أن ما في القرآن حق دائما، أي أمر ثابت لا يقبل التغيير فليس لأحد أن يقول إن القرآن صالح لزمان دون زمان؛ لأنه الحق الثابت المستقر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فعلى العقول أن تتفهمه وتدبره ثم تخضع لأحكامه المستقرة الثابتة من غير محاولة للتغيير أو التبديل.

والتلاوة هي القراءة المتتابعة المفسرة الواضحة التي تتصل فيها المعاني وتتسابق فيها الألفاظ بحيث يكون الأداء ممثلا للمعنى مصورا له. وقد قال الراغب في مفرداته إن مادة «تلا» أصلها بمعنى تبع متابعة ليس بينها ما ليس منها، وذلك يكون تارة بالجسم، وتارة بالاعتداء في الحكم ومصدره تَلَوَّ وتَلَوَّ، وتارة بالقراءة وتدبر المعنى، ومصدره تلاوة.. ثم قال:

«والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب، وهى أخص من القراءة فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة».

فالتلاوة خاصة بقراءة كلام الله سبحانه وتعالى بمقتضى التخصيص القرآنى.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وإن ذلك كالتيجة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يتلو عليه آياته بالحق والصدق، فإن تلك الآيات برهان النبوة ومعجزة الرسالة، وقد أكد الله سبحانه وتعالى رسالة رسولنا محمد ﷺ بثلاثة مؤكدات:

أولها: «إن»، فإنها فى أصل معناها للتأكيد، وهو يصحبها فى دلالتها دائماً.

وثانيها: «اللام» فى قوله تعالى ﴿لَمِنَ﴾.

وثالثها: «الجملة الاسمية»، وإدخاله ﷺ فى عداد المرسلين.

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يدل على أمر آخر، وهو أن إرسال رسول من قبل رب العالمين أمر مقرر ثابت معروف عند أهل العلم فلم تكن رسالة محمد وهو من البشر بدعاً، ولا أمراً غير مألوف أو معروف فلا يمارى فى أصل الرسالة إلا جهول، أو جحود.

وإن القرآن وحده حقا هو الدلالة على رسالة محمد ﷺ، فهو جبل الله الممدود من السماء إلى الأرض.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ
 وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
 وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلْنَا الَّذِينَ
 مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا
 فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿٢٥١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا
 مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
 شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٥٢﴾

فى الآيات السابقة ذكر الله سبحانه وتعالى اضطراع الحق مع الباطل، وانتصار
 الحق فى المال؛ لأن غلبة الباطل فيها فساد الأرض ﴿وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ...﴾ ﴿٢٥١﴾ [البقرة] وذكر فى ختام الآيات السابقة أن النبى
 ﷺ من المرسلين الذين بعثوا لينصروا الحق، وليعم نور الله فى الآفاق.

وفى هذه الآيات التالية يبين سبحانه أن الرسل، وإن كانوا جميعاً مبعوثين من
 رب العالمين، ليسوا فى درجة واحدة، وأن بعثهم ينصر الحق ولا يمحو الباطل،
 ويرفع منار الهدى، ولا يزيل الضلال، ولكنه يكون ضلالاً بعد البيّنات، ولا يكون
 ضلالاً عن جهالة، فلا يعذر فيه الضال؛ ولذلك كان القتال بعد الأنبياء بين المهتدين
 والضالين، وتلك إرادة الله؛ وقد ابتلى الخير بالشر، والمهتدين بالضالين ﴿وَلِيُمَحِّصَ
 اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ ﴿٢٥١﴾ [آل عمران].

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الإشارة هنا إلى جماعة الرسل
 الحاضرة فى ذهن التالى للقرآن الكريم، المستقرة فى وعيه بما ختمت به الآيات

السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة]. والإشارة باللفظ الدال على البعيد، لبيان علو منزلتهم أجمعين، وأنهم المصطفون الأخيار، وأنهم مهما تفاوت منازلهم في رسالاتهم، هم جميعاً ليسوا كسائر الناس، فلهم شرف البعث والرسالة والاصطفاء.

والتفضيل مشتق من الفضل وهو الزيادة؛ فمعنى ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [الإسراء] أى جعلنا لبعضهم زيادة في بعض النواحي على البعض الآخر. والفضل هنا إضافي وليس بذاتي؛ أى أن هذا ليس من ذات الرسل، إنما هو بما يختص الله بعضهم من معجزات مغايرة لمعجزات الآخرين. ثم التفضيل إضافي لأنه يكون في ناحية من النواحي، وقد يكون هناك ناحية أخرى فَضَّلَ بها المفضلون غيره؛ فموسى فَضَّلَ على عيسى بأنه كلمه الله، وعيسى فَضَّلَ على موسى بأنه أحيا الموتى؛ فالتفضيل إذن إضافي في موضوعه، وفي نوعه، وفي نواحيه.

وإن تفسير التفضيل على ذلك النحو فيه توفيق بين الآيات الكريمة المثبتة للتفضيل بين الرسل وبين ما ورد عن النبي ﷺ من النهي عن التخيير بين الأنبياء. فقد روى الأئمة الثقات أن النبي ﷺ قال: «لا تخيروا بين الأنبياء»^(١) «ولا تفضلوا بين أنبياء الله»^(٢) وفوق ذلك فإن النهي عن أن يجرى على السنة الناس تفضيل نبي بذاته على نبي آخر فتكون المشادة والملاحاة. وروى في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودى؛ والذي اصطفى موسى على العالمين؛ فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى وقال: أي خبيث! وعلى محمد ﷺ؟! فاشتكى المسلم، فقال ﷺ: «لا تفضلوني على الأنبياء»^(٣).

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى (٦٤٠٥): الديات - إذا لطم المسلم يهوديا عند الغضب، ومسلم (٤٣٧٨):

الفضائل - من فضائل موسى عليه السلام [عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى: أحاديث الأنبياء (٣١٦٢)، ومسلم: الفضائل (٤٣٧٦).

(٣) راجع السابق، وبهذا اللفظ رواه البخارى (٢٢٣٥): الخصومات - ما يكون في الأشخاص والخصومة، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والنهي عن التفضيل معنا للممارسة لا ينفي حقيقة التفضيل المقررة، كما أن النهي عن سب الأوثان لا يثبت أنها واجبة الاحترام، إذ النهي لسد الذريعة، فلا يمنع ثبوت الحقيقة.

وإن هذه الآية الكريمة سبقت لبيان فضل بعض النبيين على بعض لكيلا يندفع بعض الناس إلى الجحود، فيقولوا: إننا نتبع النبي موسى أو عيسى دون محمد، وما داموا جميعاً أنبياء فأيهم نتبع يكون في اتباعه النجاة؛ فبين سبحانه أنه فضل بعض الرسل على بعض في الشريعة والزمان، فجعل محمداً شريعته عامة ناسخة لما عداها، ورسالته للناس كافة، وهو خاتم النبيين، وذلك من فضل الله؛ كما أن من فضله أنه كلم موسى تكليماً، ومن فضله أن جعل عيسى يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخبر الناس بما في بيوتهم، فليس لأحد أن يرفض شريعة محمد لأنه اختار شريعة عيسى، إذ إن من فضل الله الذي اختص به محمداً ﷺ أن جعل شريعته ناسخة لغيرها؛ لأنها آخر الشرائع، ولأن محمداً خاتم النبيين، ورسالته عامة شاملة للناس كافة، وكانت رحمة للعاملين.

﴿مَنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ في هذه الجملة السامية من الآية الكريمة بيان لبعض وجوه التفضيل التي اختص الله سبحانه وتعالى بها بعض النبيين، وهي في الحقيقة وجوه للتفضيل لا تتصل بأشخاصهم، بل تتصل برسالاتهم، وما تؤيده هذه المعجزات من شرائع، ومن تخاطبهم من أقوام تكون تلك المعجزات مناسبة لهم.

وفي هذه الجمل ذكر الله نبيين من أولى العزم من الرسل، وأشار إلى ثالث:

فأما الأول فهو موسى؛ قد أشير إليه بما يشبه النص بقوله: ﴿مَنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فإن ذلك هو موسى عليه السلام، فقد قال سبحانه وتعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقال سبحانه: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي...﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا...﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فهذه الآيات الكريمات تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد اختص موسى عليه السلام بكلامه، وهو إحدى طرق اتصال رب العالمين بالمبعوث من خلقه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَبِشْرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى) وكلام الله سبحانه وتعالى مع موسى كان من النوع الثانى، وهو الكلام من وراء حجاب.

وكان خطاب الله سبحانه وتعالى بتكليمه من وراء حجاب مناسباً لأقوام موسى؛ لأنهم قد غلبت عليهم المادية، وغلب عليهم الجحود وإنكار الألوهية لرب السموات والأرض، حتى لقد قالوا: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا نَدْعُوهُ لَغِيْوَ أَعِزُّ إِلَهُنَا مِنَ اللَّهِ الْغَيْبِ﴾ (النساء)؛ فكان المناسب لمثل هؤلاء الأقوام أن يكون كلام الله للمبعوث إليهم مباشرة ولا يكون وحياً يوحى، ولا برسول من الملائكة يرسله إليه، فما كان ذلك تشريقاً فقط لموسى، بل كان مع ذلك التشريف مقصد يتفق مع حكمة الله سبحانه وتعالى، وهو العلى الحكيم.

وليس معنى ذلك الاختصاص أن الله سبحانه وتعالى قد رفع الله به موسى عليه السلام على كل الرسل، بل إن الله سبحانه رفع بعض الأنبياء درجات، وإن لم يكن لهم ذلك الاختصاص؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرفع ويخفض، وهو الذى يختص برحمته واصطفائه من يشاء؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى بعد ذكر تكليم الله لبعض رسله ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ فقرن هذه بكلام موسى لتدل على أن التكليم وإن كان شرفاً عظيماً لا يقتضى أن يكون الملك فوق الأنبياء منزلة، بل إن بعض من لم يكلمه الله رفعه الله درجات.

والدرجات جمع درجة، وهى المنزلة الرفيعة السامية، وفى التعبير بالجمع إشارة إلى علو المنزلة، وكبر التفاوت بينه وبين غيره ممن لم يؤت ما آتاه الله، وما نيط به من تكليف هو عين التشريف.

وإن الله سبحانه قد ذكر أنه رفع مقام بعض النبيين؛ فقد ذكر عن إدريس عليه السلام أنه رفعه مكاناً علياً، فقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم)

ولكن الرفع إلى مكان على غير الرفع درجات؛ لأن الرفع درجات يدل على التفاوت بينه وبين غيره كما قال تعالى في حقوق الرجال والنساء: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ...﴾ [البقرة] أما الرفع إلى مكان على فلا يدل على هذا التفاوت.

وإن ذلك الارتفاع درجات عن النبيين كان لنبينا محمد ﷺ، فهو ذو الدرجات الرفيعة؛ لمعجزته الباقية إلى يوم القيامة، ولشريعته الخالدة، ولعموم رسالته، ولأن أمته الأخذة بشرعه المتبعة له حقاً وصدقاً خير أمة أخرجت للناس. ولقد قال الزمخشري في ذلك المقام ما نصه: «الظاهر أنه أراد محمداً ﷺ؛ لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتى ما لم يؤت أحد من الآيات المتكاثرة. . . ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتى الأنبياء؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات. وفي هذا الإبهام - (أي أنه لم يذكر اسم محمد) من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى؛ لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشبهه، والتميز الذي لا يلتبس، ويقال للرجل من فعل هذا؟ فيقال أحذكم أو بعضكم، يريد به الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به، وأنوه بصاحبه. وسئل الخطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيرا والنابعة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يفخم أمره».

وإن القرآن الكريم قد جاء فيه ما يدل على رفعة محمد ﷺ درجات بشريعته، فقد كانت شريعته رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [سبا] ورفعه سبحانه بمعجزته الكبرى وهى القرآن، فقد قال فيه سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ [الزمر] ولقد قال ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأَحْلَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ، وَأَعْطَيْتِ الشَّفَاعَةَ»^(١).

(١) رواه أحمد في مسنده (١٣٧٤٥). ورواه البخاري (٤١٩) ومسلم (٨١٠).

بعد أن أشار سبحانه إلى علو منزلة النبي ﷺ، ذكر ما اختص به عيسى عليه السلام من فضل فقال: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وكان ذكر فضل النبي ﷺ بين فضل النبيين قبله للمسارعة إلى أنه مهما يكن ما اختص كل واحد منهما من معجزات ترفعه فمقامه ليس أعلى من مقام النبي ﷺ، بل للنبي فوق ذلك درجات.

ذكر الله سبحانه ما اختص به عيسى من فضل ﴿وَأَتَيْنَا﴾ أى أعطينا ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى المعجزات المبينة لصدق رسالته، من إحياء للموتى، وإبراء للأكمه والأبرص، وتصوير للطين كهيئة الطير، ثم يصير طيراً بإذن الله، وإخبارهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، وغير ذلك مما يدل على علو روحى، وأنه مؤيد من رب العالمين؛ وقال سبحانه فى فضله أيضاً: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ والقدس أصل معناه الطهارة، وهو يطلق على الطهارة المعنوية؛ وروح القدس الذى أيد الله به عيسى عليه السلام هو جبريل الأمين، وهو فى عبارات الإسلام وفى لغة القرآن يطلق عليه؛ فقد قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ...﴾ (النحل) [أى أن القرآن الكريم نزل به الروح القدس الأمين؛ ولذا قال سبحانه فى آية أخرى ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ﴾ (١٩٢) عَلَى قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء]. وقد قيل إن روح القدس هو الإنجيل؛ وذلك لا يختلف فى الجملة عن سابقه، إذ إن جبريل هو الذى نزل بالإنجيل والتأييد بروح القدس حيثئذ يكون مقصوراً على نزول الإنجيل، ولكن إطلاق العبارة فى التأييد يشمل نزول جبريل بالإنجيل وتأييده بغير ذلك، فتفسير روح القدس بالإنجيل تفسير يؤدى إلى تأييد جزئى، أما تفسيره بجبريل الأمين فهو تفسير يؤدى إلى تأييد أوسع شمولاً.

ولماذا خص سيدنا عيسى عليه السلام بأنه مؤيد بالروح القدس وهو جبريل، مع أن أكثر النبيين كانوا مؤيدين بنزول الشرائع من الله عليهم عن طريق جبريل؟ والجواب عن ذلك أن السيد المسيح عليه السلام لم يكن محارباً لخصومه، بل عاش حياته كلها بين خصومه وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر، من رومان ووثنيين

ويهود ماديين، ولم يؤذن له في القتال، حتى يتولى حماية نفسه بسيفه وسيوف أنصار الحق معه، كالشأن بالنسبة لموسى وداود وسليمان، ومحمد ﷺ، فكان يتولى حمايته رب العالمين بملائكته الأطهار والأمين جبريل يعاونه، ولعله هو الذى أنقذه من بنى إسرائيل وقد بسطوا أيديهم لقتله، وأغروا به الرومان ليقتلوه، فرفعه الله سبحانه وتعالى إليه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى رسله، وخص كل رسول بمعجزات قاطعة من شأنها أن تهدى إلى الصراط المستقيم إن استقامت الفطرة، ولم تنحرف العقول، ولم يطمس على القلوب؛ ولكن الدليل وحده لا يهدى، بل لابد من نفوس متقبلة، واتجاه لطلب الحق اتجاها مستقيما؛ ولذلك لم يكن الناس متفقين فى تلقى ما جاء به الرسل بل كان منهم من غلبت عليه شقوته، فحارب الحق وحارب النبيين معه، ومنهم من آمن واهتدى، فكانت المغالبة بين الحق والباطل، والهداية والضلالة؛ وكان الاقتتال بين أنصار الحق، وأنصار الباطل، وبين الضالين والمهتدين؛ لا يترك الضالون الحق يسير فى مجراه، ويصل فى القلوب إلى متناه، بل يقاومونه، وينزلون الأذى بأهله.

وهنا يتساءل العقل البشرى: لماذا لم يكن الناس جميعا على شرع سواء؟ ولماذا لم يكن الناس جميعا على الهداية؟ فبين سبحانه وتعالى أن تلك مشيئته، وهذا هو التكوين الذى كون الخلق عليه؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أى لو شاء ألا يقتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا، فالمفعول للفعل شاء محذوف دل عليه جواب الشرط؛ والمعنى أن الذين جاءوا من بعد الرسل بعد أن بين لهم الرسل المحجة الواضحة البيضاء التى لا يضل فيها سالك، قد اقتتلوا حولها ما بين مؤيد لها، ومعاند كافر بها؛ ولو شاء الله سبحانه ألا يكون فى كل نفس استعداد للطاعة، واستعداد للعصيان، ونزوع إلى الشر، واتجاه إلى الخير، كما قال تعالى فى تكوين الإنسان: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١)

[البلد]، أى خلقناه وفى نفسه استعداد للسير فى نجد الخير، واستعداد للسير فى نجد الشر، وكما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشمس]، وإذا كانت النفوس كذلك، فمنهم من يغلب عليه الخير فيطلب الحق ويهتدى به، ومنهم من يغلب عليه الشر فيعرض عن الخير فيطلب الحق ويهتدى به، ومنهم من يغلب عليه الشر فيعرض عن الخير وينأى بجانبه؛ فالأولون يؤمنون بما جاء به الرسل، والآخرين يكفرون بالحق الذى جاءوا به؛ ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ أى اختلفوا فى النفوس والعقول والمدارك، واستقامة الفطرة وانحرافها؛ فترتب على ذلك أن كان منهم من آمن لأن قلبه يتجه إلى الحق اتجاها مستقيما، ومنهم من كفر لأن قلبه عمى عن إدراك الحق، واستولت عليه النزعات المردية، فاتخذ إلهه هواه.

وهنا إشارات بيانية من أسرار إعجاز القرآن، فلنذكر بعضها مما أدرسته

مداركنا:

- ومن هذه الإشارات البيانية الرائعة، أن الله سبحانه وتعالى ذكر المسبب قبل أن يذكر السبب؛ لأن الاختلاف فى الإيمان هو سبب الاقتتال؛ فذكر الله سبحانه وتعالى أولاً الاقتتال الذى هو النتيجة لهذا الاختلاف، للإشارة إلى بيان أسوأ أحوال الاختلاف، ليبين للناس ما يتعرض له الدعاة إلى الحق من تعرضهم للقتل والقتال، وللإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه؛ فالله سبحانه وتعالى لا يتقيد بالأسباب والمسببات؛ لأنه سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات، وهو الرابط بين الأشياء ونتائجها؛ وليقرن سبحانه وتعالى أسوأ النتائج بخير المقدمات، فيتبين الناس مقدار ضلال العقل البشرى إن انحرف عن فطرته.

- ومن الإشارات البيانية قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، ففى

ذلك بيان مقدار ما فى حيز الإنسان من حب المنازعة، وما استقر فى ثنايا الإنسان من تنازع بين الخير والشر فى أنفس الآحاد وأنفس الجماعات؛ لأن ذلك الاقتتال بعد

أن جاءتهم البينات أى الأدلة الواضحة المعلنة للحق الكاشفة له، فليس اقتالهم عن جهالة، بل هو بعد أن تبين الحق ووضحت معالمه؛ وذلك لأن الهوى يعمى، والأعمى لا يبصر ولو كانت الشمس مشرقة.

- الإشارة الثالثة: الاستدراك فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ فإن هذا الاستدراك يشير إلى أمرين:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يزيل القتال؛ لأنه سبحانه وتعالى خلق الناس مختلفى المنازع، منهم من يتقبل الحق ويصغى فؤاده إليه، ومنهم من يعرضون عنه ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٨) [النور].

الأمر الثانى الذى دل عليه هذا الاستدراك: أن مجيء البينات المعلنة الكاشفة كانت توجب أن يكونوا جميعاً مجيبين، ولكنهم كانوا مختلفين، فالناس ليسوا سواء.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتُلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الاقتتال خالد إلى يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال لآدم وزوجه وإبليس: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ [البقرة: ٣٦]، وقد كان القتال السابق بسبب الإيمان والكفر أو بسبب إجابة بعض الناس للأنبياء وجحود الآخرين لرسالات الرسل بعد أن قامت عليها البينات، وثبتت دعوة الحق بالأدلة؛ وهنا يبين بشكل عام أن الله سبحانه لو شاء لمنع الاقتتال سواء أكان الاختلاف على غرض من الأغراض؛ فإن المغالبة فى طبيعة الإنسان؛ ذلك أن فى الإنسان بطبعه حبا للعلو، والمنازع مختلفة، والقوى متباينة، والفرص قد تواتى فريقا، وتناوى فريقا، وإذا اتحدت القوى والفرص فقد يحدث موانع لهذا لا تحدث لذلك، وبهذا يعلو فريق على فريق، فيكون النزاع، ويكون الغلاب ويكون الاضطراع، ويسرى ذلك التعالى فى كل شئ فى السلطان وفى التجارة، وفى الاقتصاد، بل فى المذاهب الاجتماعية.

وإذا وجد ذلك الصراع فسيكون من ورائه - إن اشتد - القتال، ولو شاء الله لجعل بنى آدم على طبيعة الملائكة لا يتنازعون، ولا يتقاتلون، ولكن الله الذى خلق

السموات والأرض فأتقن كل شئ خلقه، خلق طبيعة الإنسان تتأدى إلى ذلك النوع من المغالبة؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فإنه لما وجد الاعتراض بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا﴾ كرر مشيئة الله سبحانه؛ ليعقبها بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

ولكننا نميل إلى تعميم الاقتتال بتعدد أسبابه من غير نظر إلى مجرد الاختلاف بسبب الإيمان والكفر.

والاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيه الإشارة إلى أنه سبحانه لم يشأ منع الاقتتال، بل أراد أن تكون هكذا طبيعة الإنسان، وهو العلى القدير، فعال لما يريد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ بعد أن بين سبحانه أن الاقتتال قائم في الدنيا، وأن الحق لا ينال في راحة واطمئنان؛ لأن البغى والعدوان في طبيعة كثير من بنى الإنسان؛ وإذا كان الحق في ذاته أنبل ما يطلبه ابن الإنسان فإن الطريق إليه ليس خالياً من مذآبة من ابن الإنسان؛ وإذا كان ابن آدم قد قتل أخاه؛ لأنهما قربا قرباناً فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، فقال من رُدَّ عليه قربانه لأخيه: لاقتلنك، وقتله؛ فالتزاع مستمر؛ لذلك ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج ٣٩] فكان لابد من أخذ الأهبة، وبذل النفس، ثم بذل النفيس أيضاً.

ولذلك أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يستعدوا للقتال بالإنفاق في سبيل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أى أنفقوا في سبيل الله. فالإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق في سبيل الحق، وسبيل كل خير في هذا الوجود، فكل ما ينفق في سبيل الفضيلة من إعطاء لليتامى والمساكين وابن السبيل، وإقامة دعائم الاقتصاد الفاضل، والعمران الشامل هو مما ينفق في سبيل الله، وأقواها مما ينفق في سبيل حماية الحوزة، والدفاع عند الاعتداء.

وإن إنفاق المال في سبيل الله على المعنى الذى وضحناه هو عنصر القوة فى الأمة، وبالقوة تستطيع الأمة أن تدافع عن نفسها، وترد كيد أعدائها فى نحورهم.

وكان الإنفاق على ذلك النحو عنصر القوة فى الأمة لثلاثة أسباب:

أولها: أن المال عدة التسليح، ولا قتال من غير سلاح يفلُّ شوكة العدو ويدفع كيده، بل يمنعه من أن يفكر فى الاعتداء، فإنه لا شئ أنفى للقتال من السلاح؛ فذو الناب لا يعدو على ذى الناب، وتعدو الذئاب على من لا كلاب له.

وثانيها: أن الإنفاق فى سبيل إقامة العمران رفع لمستوى الأمة الاقتصادى، والاقتصاد سلاح ماض، والحرب اليوم تلبس لبوس الاقتصاد فى الحصار الاقتصادى والتضييق التجارى.

وثالثها: أن الإنفاق على ضعفاء الأمة يجعل منهم سواعد قوية تحمى الذمار، وإن تركهم يجعل منهم شوكة فى جنب الدولة يعوقها عن العمل، وقد يكونون قوة مدمرة مخربة، وإن الهرة إذا جوعتها انقلبت ذئباً.

وقد قال سبحانه وتعالى فى المال المنفق منه ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أفاض بنعمته على الغنى فهياً له الأسباب، ومكنه من الفرص، ومنع عنه العوائق، فإن أنفق فى سبيل الله فأعطى المجاهدين، والضعفاء، فمن المال الذى مكنه الله منه أنفق؛ ولقد قال ﷺ: «ابغونى فى ضعفائكم، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»^(١).

والإنفاق المطلوب فى هذه الآية واجب، بدليل الوعيد الذى تضمنه الطلب؛ ولذا قال كثير من المفسرين إن الإنفاق المطلوب فى هذه الآية هو الزكاة، والزكاة ينفق منها فى الجهاد والفقراء والمساكين وابن السبيل والغارمين؛ ففيها كل المعانى التى تتحقق بها قوة الأمة من حماية للحوزة وسد للخلة، وإقامة للعمران.

وإننا نوافقهم على أن الإنفاق المطلوب فى هذه الآية إنفاق واجب؛ ولكنه أعم من الزكاة، فليس الإنفاق الواجب مقصوراً على الزكاة... بل الإنفاق فى الحرب

عندما تشتد الشديدة، ولا يكون فى بيت المال ما يكفى - يكون واجبا. والإنفاق على الفقراء إذا لم تكف الزكاة يكون واجبا؛ فالفقر على الزكاة ليس بصحيح. وقد ذكر الله سبحانه وعيدا شديدا لمن لا يتفق فى سبيل الله فقال سبحانه: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ والخُلَّةُ المودة والمحبة، وأصلها من الخلل بمعنى الفرجة بين الشيئين، وقد جاء فى مفردات الراغب ما نصه: «الخُلَّةُ المودة، إما لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها، وإما لأنها تُخلُّ بين النفس فتؤثر فيها تأثير السهم فى الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها؛ يقال منه خالته مخاللة وخلالا فهو خليل». والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، فالشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه، وأكثر ما تستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو دونه، ومنه الشفاعة يوم القيامة.

وقد صرح سبحانه وتعالى بأن الإنفاق يجب أن يتداركه المنفقون قبل أن يأتى اليوم الذى لا يجدى فيه بيع ولا مودة ولا شفاعة. ولا شك أن هذا اليوم هو يوم القيامة، ولكن ما المراد من نفى البيع والصدقة والشفاعة فيه؟.

هناك منهاجان فى معنى هذا النفى:

أحدهما: أن معنى هذا النفى أنه يوم لا بيع فيه أى لا تجارة حتى يدفع الحرص عليها إلى عدم الإنفاق، ولا صداقة حتى يؤثر الإنفاق عليها أو طلب المادة عن طريقها فى عدم الإنفاق، أو شفاعة أى طلب المال بطريق شفاعة الشفعاء ووساطة الوسطاء، والمعنى على هذا: أنفقوا قبل أن يجيء اليوم الذى لا تجدون فيه جدوى للمال بتجارة، أو بصداقة تتبادل فيها المنافع المعنوية والمادية، أو بشفاعة شفعاء يطلب المال عن طريقهم. والمغزى فى هذا أنه إذا غرتكم فوائد المال فى هذه الأبواب الدنيوية، فأنفقوا لتتقوا بهذا الإنفاق اليوم الذى لا تروج فيه هذه الأسباب، بل يحكم فيه الحكم العدل مالك الملك.

والمنهاج الثانى: أن يكون المراد نفى هذه الأمور فى الآخرة؛ فالمعنى: أنفقوا قبل أن يأتى اليوم الذى لا تستطيعون فيه أن تفتدوا نفوسكم بعدل تقدمونه فيكون

كالبيع، ولا تجدون صديقا يدفع عنكم، ولا شفيعا يشفع لكم فيحط من سيئاتكم إلا أن يأذن رب العالمين. والمغزى على هذا يكون الوعيد فيه أشد وأوضح؛ لأن المعنى نجوا أنفسكم بالإتفاق قبل أن يكون زمان لا منجاة فيه.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ذيلت هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية للإشارة إلى أن المؤمنين عدول إذا قاتلوا الكافرين؛ لأنهم هم الذين اعتدوا، وإلى أن الذى يقع بهم من عقاب يوم القيامة يستحقونه، وإلى أنهم هم الذين حركوا ذلك الشر، وأنهم هم الذين أشعلوا نيران الحروب بالشر الذى كان فى نفوسهم.

ثم إن الكافرين ليس ظلمهم فقط لغيرهم، بل ظلمهم لأنفسهم، لأنهم طمسوا قلوبهم، وجعلوا أنفسهم فى شدة وبلاء، ثم هم ظالمون فيما بينهم؛ كبرائهم يظلمون ضعافهم، وضعفاؤهم يظلمون أنفسهم، بالاستضعاف والحياة الهون بينهم، وظلموا أنفسهم بأن حرموها من سعادة الإيمان وبرد اليقين ونور الحق، ورضوان الله ونعمة الله ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ...﴾ ﴿٤٥﴾ [يونس].

لكل هذه المعانى كانوا ظالمين، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ظلمهم بالقصر، أى قصر الظلم عليهم؛ لأنه لا ظالم غيرهم؛ وبالجملة الاسمية والضمير المنفصل. هداانا الله إلى سبيل الحق والعدل والنور، إنه سميع مجيب الدعاء.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

اقتل الذين جاءوا بعد النبيين كما بينت الآية السابقة، واختلفوا في تلك الحقيقة المقررة الثابتة التي دعا إليها النبيون منذ أول مبعوث رحمة للعالمين؛ ولقد ناسب أن يبين سبحانه بعد ذكر الخلاف ثم القتال ما جعله المشركون موضع خلاف، وهو في حقيقة الأمر فوق كل خلاف إن استقامت العقول، وسلمت الفطرة، ولم يُدسّ النفس في الشر نازغ الشيطان، ويضل ابن آدم حتى يطمس في قلبه نور البرهان.

ولذلك قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وهذه الآية الكريمة تذكر صفات الله تعالى وسلطانه وكمال وجوده، وفيضه بنعمة الوجود على كل شيء في الوجود. ولقد ذكر العلماء أنها تشتمل على حقيقتين مقررتين تؤكدان معنى الوحدةانية، وتربيان المهابة الإلهية في قلب كل مؤمن صافى السيرة قد خلا قلبه من كل رين الشرك؛ ومن مظاهر العبودية لغير الله سبحانه وتعالى:

الحقيقة الأولى: أنها تشتمل على عشر جمل، كل جملة منها تشتمل على وصف أو وصفين فيه بيان كمال الله العلى الأعلى، وسلطانه الشامل الكامل، وألوهيته الحق المستقرة في ثنایا كل نفس إلا من ختم الله على قلبه.

الحقيقة الثانية: أنها أكثر آى الكتاب الكريم ذكراً لله رب العالمين. ولقد ذكر بعض العلماء أن الله العلى العليم ذكر فيها بالاسم الظاهر أو الضمير أكثر من سبع عشرة مرة، وقد أحصاها عدا.

ولاشتمال تلك الآية الكريمة على ذكر الاسم المقدس، وتنزيهه سبحانه وكمال سلطانه، وامتيازها بتكرار ذكر الله - ذكر كثير من العلماء أنها أعظم آية في كتاب الله، واستندوا في ذلك إلى أخبار صحاح وردت في صحاح السنة، من أقوال النبي الأمين^(١). والقرآن كله فوق قدرة العقل البشرى، وهو في ذاته أعظم كتاب نزل من

(١) عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْظَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا الْمُنْذِرُ» [رواه مسلم: صلاة المسافرين - فضل سورة الكهف وآية الكرسي].

رب العالمين؛ لأنه كتاب الحقيقة من بدء الخليقة؛ ولا نرى ما يمنع أن تتفاوت آياته في العظم، وإن كان أصل العظم المتسامى عن قدرة البشر محققاً مؤكداً فيه كله، وفي كل آية بخصوصها.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تلك هي الجملة السامية الأولى من الجمل العشر التي اشتملت عليها الآية الكريمة، ولفظ الجلالة «الله» قال العلماء: إن أصله: إله، دخلت عليه أداة التعريف «أل» وحذفت الهمزة فصارت: الله. وهي بهذا المعنى تفيد التعريف بأنه وحده هو الإله، فهي تتضمن معنى الألوهية المنفردة؛ دلت على ذلك «أل» التي تفيد التعريف، فمعنى كلمة الله: الإله المنفرد بالألوهية التي لا يشاركه فيها سواه؛ وعلى ذلك تكون كلمة الله تفيد معنى استحقاق العبادة، ومعنى الوجدانية، ومعنى الكمال كله؛ لأنه المنفرد بذلك كله؛ فإذا أطلق اللفظ انصرف إليه، ولم يفهم منه سواه؛ تعالى سبحانه عن الشبيه والمثيل، والمقارب والنظير.

وإن ذلك المعنى المفهوم من لفظ الجلالة وأصل اشتقاقه قد صرح به في هذه الآية الكريمة؛ فقد قال سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو تصريح بما فهم ضمناً مما قبله، فاجتمعت في الدلالة على الوجدانية الدالتان: الدلالة التضمنية، والدلالة اللفظية، أو الدلالة بالإشارة، والدلالة بالعبارة؛ فكان في ذلك تأكيد فضل تأكيد لمعنى الوجدانية في الألوهية. ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو، وهذا هو المعنى الذي اختاره جمهور المفسرين، وهو واضح، وفيه إشارة إلى وقائع الأمور؛ ذلك لأن بعض الناس عبدوا غير الله تعالى، فعبد بعضهم الشمس والكواكب، وعبد بعضهم النار، وعبد بعضهم الأوثان، واعتبروا كل هذه آلهة، فكانت عبادتهم باطلة وبغير حق إنما المعبود حقاً، والمستحق للعبادة صدقاً هو الله سبحانه وتعالى، وهو العليم الحكيم، العلى القدير.

ولقد سلك بعض العلماء مسلكاً آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فذكر أن معنى الألوهية هو تسخير الكون كله لقوة القادر الغالب على كل شيء، وتعلق الخلق كله بخالقه، واتصاله به اتصال إنشاء وتكوين، ثم اتصال تدير

وتنظيم، ثم اتصال خضوع وسيطرة كاملة، وتعلق به سبحانه. وعلى هذا يكون المعنى: لا منشئ ولا خالق ولا مسخر ولا مسيطر على الوجود إلا رب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى، ولا خضوع إلا لقدرته، ولا تعلق الأشياء إلا بذاته سبحانه وتعالى؛ وإذا كان كذلك فإنه لا مستحق للعبادة سواه؛ وبذلك يجيء المعنى الأول نتيجة لهذا المعنى وثمرة له، وهما بهذا متلاقيان.

وفى الحق أن أصل اشتقاق كلمة «إله» يتضمن معانى الخلق، والعبادة، والمحبة، والضراعة إليه سبحانه. ولننقل عبارة الأصفهاني في أصل اشتقاقها، فإنها في هذا شاملة كاشفة؛ فقد قال:

«وإله جعلوه اسماً لكل معبود لهم، وسموا الشمس إلهاً؛ لاتخاذهم إياها معبوداً، وآله فلان يآله عبد، وقيل تآله؛ فالإله على هذا المعنى هو المعبود، وقيل هو من آله أى تحير... وذلك أن العبد إذا تفكر في صفاته تحير فيها؛ ولذا قيل: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله. وقيل أصل إله ولاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق وآلهاً نحوه، إما بالتسخير فقط كالجملات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة معاً كبعض الناس. ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها. ودل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾ [الإسراء].

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هذا خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو الحى القيوم. والحى هو ذو الحياة الكاملة، والحياة الكاملة مظهرها الشعور والإدراك والعلم، وهى كمال الوجود فى المحسوسات والمخلوقات، ولكنها بالنسبة لله سبحانه وتعالى صفة كمال له جلت قدرته، مظهرها العلم والإرادة والقدرة، والخلق والتكوين؛ فإنه وإن اشترط لفظ الحياة بين الباقي والفانى، فمعناه فى الفانى لا يليق بذاته، ومعناه فى الباقي سبحانه وتعالى يليق بذاته العلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ [الشورى].

والحياة على هذا صفة كمال قد وصف الله سبحانه وتعالى بها ذاته الكريمة، والعقل يوجب اتصافه سبحانه بها؛ لأنها من كمال الوجود؛ والله سبحانه وتعالى

هو وحده كامل الوجود، وفوق كل موجود. وقد ذكر الأستاذ الشيخ محمد عبده بيان وجه الكمال في صفة الحياة له سبحانه، فقال في رسالة التوحيد:

«إذ وجب أن يكون له سبحانه صفة الحياة، وهى صفة تستتبع العلم والإرادة؛ وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالات، للوجود بداهة؛ فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة، وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار، فهى كمال وجودى، ويمكن أن يتصف بها الواجب، وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له، فواجب الوجود حى، وإن باينت حياته حياة الممكنات، فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة، ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً. . . والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف يكون فاقداً للحياة ويعطيها؟».

وإذا كان الله سبحانه وتعالى حياً ذا إرادة كاملة، وعلم شامل، وقدرة قاهرة، فإن الكون نشأ بإرادته، وقام بسلطانه، وهو فوقه والمسيطر عليه، ولم ينشأ عنه سبحانه كما ينشأ المعلول عن علته، كما قال بعض الفلاسفة قديماً، وكما يزعم بعض الماديين حديثاً، ممن ينكرون القوة الغيبية المسيطرة القادرة المريدة.

و﴿الْقِيَوْمُ﴾ معناه القائم بنفسه الذى لا يقوم بغيره، فلا يحل فى شخص ولا فى شىء؛ والقائم على كل شىء بالتدبير والحياطة والكلاءة ﴿مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ [٤٢] ﴿[الأنبياء] والقائم على كل نفس يحصى عليها ما كسبت وما اكتسبت، والقائم الدائم الذى لا يفنى ولا يزول.

ويظهر أن كلمة قِيَوْم بهذا المعنى كانت معروفة عند العرب وصفاً لله سبحانه وتعالى؛ فقد قال أمية بن أبى الصلت:

لم تُخلق السماء والنجوم	والشمس معها قمر يقوم
قدره مهيمن قيوم	والحشر والجنة والنعم
إلا لأمر شأنه عظيم	

وأصل اشتقاق قيوم من قام يقوم قياما، ووزن قيوم فيعول، أصلها قيوم، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء.

﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ هذا وصف سلبى يؤكد الوصف الإيجابى السابق؛ فإن قيامه سبحانه وتعالى على الكون وكلاءته له يقتضى ألا تأخذه سنة ولا نوم؛ لأن الحركة المستمرة للعالم، والبيان الذى ارتبطت به أجزاءه يقتضيان ألا تعرض غفلة للقائم عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ [فاطر]. ولأن السنة والنوم من أعراض الجسم الحيوانى، سواء أكان ناطقا أم كان غير ناطق، والله سبحانه وتعالى منزّه عن مشابهة الحوادث، وليس سبحانه وتعالى جسما، وليست له أعراض أى جسم. والسنة هى النعاس، وهو ما يسبق النوم من فتور، وقيل إن السنة أسبق من النعاس؛ وذلك أنه تحدث ثلاث مراتب عند وجود أسباب النوم: أن يُحسَّ الشخص بفتور ويتبدئ يفقد سيطرته على أعضائه، ثم يجئ النعاس، فتتراخى العين، وتبتدئ الأجزاء كلها فى التراخى؛ ثم يحصل النوم، وبه يفقد الشخص وعيه؛ ولذا قال المفضل: «السنة، من الرأس، والنعاس فى العين، والنوم فى القلب» والسنة أصلها وسنة، حذفت الواو ثم كسرت السين ليتمكن الابتداء بها؛ ففعلها وسن. وقد قال عدي بن الرقاع:

وَسَنَانُ أَفْصَدَهُ النَّعَاسُ فَرَنْقَتُ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

ولقد كان مقتضى النسق أن ينفى عنه سبحانه النوم، ثم ينفى السنة؛ لأن نفى النوم لا يقتضى نفى السنة، وعلى العكس نفى السنة يقتضى نفى النوم.

ولكن عدل عن ذلك؛ بنفى السنة ثم نفى النوم لمعنى بلاغى؛ ذلك أن الترتيب الطبيعى لهذه الحقائق فى الوجود أن السنة تسبق النوم، وإن ذلك الترتيب الطبيعى يعطى للقارئ صورة حية للتالى لكتاب الله تعالى، إذ يتصور الذين يعرض لهم النوم كيف يتبدئ بالسنة ثم النعاس ثم النوم؛ وإذا تصور ذلك المنظر الطبيعى تصور معه الضعف الإنسانى أمام سلطان النوم بمقدماته؛ وإذا تصور ذلك تبينت له استحالة

ذلك على الله سبحانه وتعالى القوى القادر القاهر لكل شيء، فكان ذلك الترتيب الطبيعي فيه إشارة إلى دليل مانع من أن يوصف المولى العلى القدير بهما.

وفى التعبير بقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إشارة أخرى إلى استحالة قيامهما بالذات العلية فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ فيها دلالة على القوة القاهرة للنوم، وأنها تأخذ الحى أخذًا، وتقهره قهراً؛ وذلك مستحيل أن يكون للقاهر فوق عباده.

والنوم معروف، وهو حقيقة ترى، كما يرى الضوء، وكما نحس الحرارة، ولكن ما سببه؟ وقد اتفق المتقدمون والمتأخرون على أن سببه التعب الجسمى، وإن كانت عباراتهم مختلفة فى تأثير التعب على الجسم حتى يكون منه النوم، فيقول البيضاوى فى تفسيره: «النوم حال يعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً».

وقال علماء العصر: (إن النوم وقوف سلطان المخ على الأعضاء بسبب ما تولده الحركة من السموم الغازية المؤثرة فى العصب). وقيل بسبب ما تفرره الحويصلات العصبية من الماء الكثير وقت العمل، فكثرة هذا الماء تضعف قوة تأثير المخ فى العضلات، فيحدث الفتور، فيكون النوم، ويستمر ذلك إلى أن يتبخر ذلك الماء، وعند ذلك تنتبه الأعصاب ويرجع إليها تأثيرها وإدراكها.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فى هذه الجملة السامية إثبات كمال سلطانه سبحانه، وتام سيطرته على الكون؛ لأنه ملكه، ولا مالك فيه غيره. وذكر السموات بالجمع، للإشارة إلى ملكية كل دقائقها، وكل نواميسها وسننها، فهو الذى يغير فيها ويبدل، وهو الذى أوجدها على ذلك النسق البديع المحكم الذى ربط أجزاءها بأواصر قوية. وكان أفراد الأرض مع جمع السموات للإشارة إلى وحدتها فى الجملة بالنسبة لعالم السموات، وإن كانت الأرض طبقات؛ وللإشارة إلى أن ما فى الأرض ليس إلا مظهرًا من حركات السماء، وأن الأرض شيء صغير بجوار السموات وما فيها.

والجملة السامية تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين، فيملك ما فيها من حى وجماد، ومن ناطقين وغير ناطقين، والجميع فى قبضة العليم الخبير.

وتقديم الجار والمجرور وهو «له» لإفادة القصر، أى ملك السموات والأرض له سبحانه، فليس لأحد سواه، فهو المنفرد بالسلطان فيها، والملكية لها؛ فهذا القصر يدل على الوحدانية فى الخلق والتكوين، كما يدل قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ [البقرة] على الوحدانية فى العبادة.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الاستفهام فى هذه الآية إنكارى بمعنى النفى، أى لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه؛ وسبق النفى بطريق الاستفهام للإشارة إلى استحالة ذلك كأنه قد سئل ويبحث عن نظير تكون له قدرة الخالق البارئ حتى يكون شفيعاً عنده قريباً منه يؤثر فى إرادته، فلم يوجد؛ لأن ذلك مستحيل استحالة مطلقة.

والشفيع يكون بمعنى النصير للمشفوع لأجله، المعاضد له، ويكون فى مرتبة المشفوع عنده أو قريباً منه؛ لأنه يؤثر فى إرادته، ويحوله من نظر إلى نظر، وله معه أو عنده سلطان أو شركة فى أمره؛ وإن ذلك مستحيل على الله سبحانه وتعالى، فلا نظير له سبحانه؛ إنه القادر فعال لما يريد، فلا إرادة لأحد بجوار إرادته سبحانه، إنما الإرادة له وحده؛ ولذلك كان أكثر العلماء على أن هذه الجملة السامية سبقت لبيان عموم سلطانه، وأنه قد انفرد بالتدبير، فلا إرادة لأحد فى سلطانه غير إرادته.

ولقد قال البيضاوى، وهو من أئمة أهل السنة، فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ «بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه، يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعاً واستكانة، فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة أى مخاصمة».

وإنه من كمال سلطانه وشمول إرادته أنه لا إرادة لأحد إلا مشتقة من إرادته؛ ولذا كان الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أى أنه لا يكون لأحد إرادة إلا إذا كانت مستمدة من إذنه؛ فهو المسيطر على كل شئ، يعطى من يشاء ويمنع من

يشاء، ويأذن لمن يشاء، ويعطى لمن يشاء إرادة فى سلطان إرادته، هو المنفرد بالامر والتدبير.

وأصل كلمة الشفاعة من الشفع بمعنى الضم، ولقد وضحتها الأصفهاني فى غريب القرآن، فقال:

«الشفع ضم الشيء إلى مثله. . والشفاعة الانضمام إلى آخر مناصراً له وسائله عنه ؛ وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة فى القيامة؛ قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [٨٧] وقال تعالى: ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ...﴾ [١٠٩] [طه].

وترى أن هذه الآية الكريمة على تخريج كثير من المفسرين لا صلة لها بالشفاعة يوم القيامة، التى هى موضع خلاف فينفىها المعتزلة، ويؤولون الآية الواردة بها بأنها معلقة على الإذن، ولم يثبت تحقق ذلك الإذن بدليل قطعى، وما ورد من الأحاديث المثبتة للشفاعة المفصلة لما يجرى فيها يوم القيامة من شفاعة النبى ﷺ، إنما هى أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد لا تثبت بها العقائد، والإيمان بالشفاعة يوم القيامة لا يسوغ أن يثبت إلا بدليل قطعى لا شبهة فيه.

والجمهور على إثبات شفاعة النبى ﷺ بإذن ربه، تكريماً له عليه الصلاة والسلام، ورحمة بالناس، وعفواً من الله العلى القدير؛ والأحاديث الواردة فى هذا الباب صحيحة كثيرة، قد أثبتت فى الصحاح من كتب السنة، فلا يصح أن ينكرها أحد، وإن لم تبلغ فى قوة الاستدلال بها مبلغ الدليل القطعى الذى لا شبهة فيه، ولا يدخله الاحتمال قط.

ولقد قرر الزمخشري وهو من المعتزلة أن هذه الجملة السامية لا تثبت بها، وقال فى ذلك: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بيان للمكوتة وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له فى الكلام، كقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ...﴾ [النبا].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هذه الجملة تأكيد لنفى الشفاعة وتأكيد لكمال سلطان الله سبحانه وتعالى فى هذا الوجود. والضمير فى أيديهم وخلفهم يعود إلى ما فى السموات وما فى الأرض؛ وعبر بضمير الذكور العقلاء تغليباً لجانب العقلاء فى السموات والأرض من ملائكة أطهار وأناسى سواء أكانوا أشراراً أم كانوا أبراراً؛ وما بين أيديهم هو ما يعلمونه من شئون سابقة أو حاضرة، وما وقع منهم مما يوجب الحساب والجزاء من ثواب أو عقاب. وعبر عن هذا بما بين أيديهم؛ لأنه حاضر يستطيعون أن يعرفوه؛ ولا عجب فى أن يعرف الإنسان ما وقع فى الماضى؛ فهو من حيث التمكن من معرفته كالشئ الذى يكون بين يدى الإنسان من حيث إنه يكون محضراً مهيئاً، وكذلك يكون مما بين يدى الإنسان المحسوسات والمعلومات التجريبية التى يمكن الإنسان بعقله أن يدركها. وأما ما خلفهم فهو ما يكون علمه مغيباً عنهم، إما لأنه فى ذاته خفى لا يدرك كنهه، ولا تعلم حقيقته؛ وليس فى طاقة العقل البشرى - من غير استعانة بالنقل - معرفته؛ وإما لأنه أمور ستقع فى المستقبل قد غيب عن البشر العلم بها، ومنه ما يكون يوم القيامة، أو اختص بها عالم الغيب فى السموات وفى الأرض، وعبر عن ذلك النوع من العلم بأنه ﴿خَلْفَهُمْ﴾ لأنه يخلفهم فى زمانه، ولأنه مستقبل وليس من مستدبر الماضى.

وإن العلم بالماضى والحاضر والمستقبل وما وقع وما لا يقع ينفى الشفاعة بمعنى أن يستنزل الشفيع المشفوع عنده عما اعتزم وأراد؛ لأن ذلك يقتضى ألا يكون عالماً بما مضى أو بما يكون، إذ الشفيع ينبه المشفوع عنده بما غاب عنه من أمر، وذلك لا يليق فى حق العليم الخبير، وهو ينافى علمه بالماضى والقابل وما يقع فى الحس، وما يكون فى الغيب؛ ولذلك أجمع علماء المسلمين على نفى الشفاعة بهذا المعنى، إذ الشفاعة التى قررها جمهور أهل السنة هى الشفاعة لمن ارتضى، والتى قدر الله سبحانه وتعالى إجابتها تكريماً للشافع، ورحمة بالمشفوع لأجله.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ هذه الجملة السامية بيان لنقصان علم المخلوق بجوار علم الخالق، والعلم المراد به المعلوم، أى لا يحيطون بشئ من

المعلومات التى يعلمها الله سبحانه وتعالى . والإحاطة معناها هى العلم الكامل بالأمر فيدركه العقل إدراكا ويستولى عليه استيلاء، كما تحيط الدائرة بكل أقطارها وما فى داخلها . وهذه الجملة السامية تدل على نقص العلم البشرى من ناحيتين :

أولاهما: أن أحداً من البشر لا يستطيع أن يعلم كل شىء ، بل إن ما يجهل أضعاف كثيرة مما يعلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء].

الثانية: أن الجزء الذى يعلمه البشر من الأشياء علمه فيه ناقص كل النقص، وهذا ما قرره سبحانه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ أى أنهم لا يعلمون شيئاً واحداً علم إحاطة واستغراق لكل ما يشتمل عليه، وعلم الإحاطة هو العلم الكامل . ولقد فسر الأصفهاني بقوله «الإحاطة بالشىء علماً» هى أن تعلم وجوده، وجنسه، وكيفيته، وغرضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا لله تعالى».

وعلم الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذى يشاؤه الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك كان الاستثناء فى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ إذ إنه إذا كان علم الإحاطة الكامل لشىء لا يمكن أن يكون إلا لله العليم الخبير، فالله سبحانه يعطى البشر من العلم ببعض الأشياء بالقدر الذى يريده سبحانه ويقدره، وقد خلق البشر على استعداد له.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الكرسي فى تعارف الناس ما يقعد عليه، وهو منسوب إلى الكرسي بمعنى المجتمع، ومنه الكُرْأَسَة للمتجمّع من الأوراق ويقال كَرَسَ الرجل كثر علمه.

والعلماء فى تفسير معنى الكرسي هنا على وجهين :

أحدهما: أن لله سبحانه وتعالى كرسيًا وعلينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا ندرك كنهه ولا نعرف حقيقته، إذ ليس ذلك فى مقدور العقل البشرى؛ ومن هؤلاء العلماء من قال: إن الكرسي هو العرش، وقد قبله الزمخشري احتمالاً للآية؛

وروى فى ذلك قول الحسن البصرى: «الكرسى هو العرش» وقد اختار ذلك الوجه جمهور المفسرين.

الوجه الثانى: أن الكرسى فى الآية كناية عن عظم السلطان ونفوذ القدرة وشمول الإرادة، فهو كقول بعض الناس: شمل كرسى الملك الفلانى ربع أقطار الأرض والمراد نفوذ سلطانه، وعظم دولته.

أو يكون الكرسى كناية عن عظم العلم وشموله واتساعه. وتفسيره بعظم السلطان يتناسب مع قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ وتفسيره بمعنى شمول العلم يتناسب مع قوله سبحانه قبل ذلك: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ولذلك يصح أن نقول إن قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كناية عن عظيم قدرته ونفوذ إرادته، وواسع علمه، وكمال إحاطته.

وإن ذلك الوجه قد ورد عن السلف، كما ورد الوجه الأول عن السلف؛ فقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: «كرسيه علمه» وروى مثل ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه، وقد اختار ذلك المفسر السلفى ابن جرير الطبرى.

وقد لخص الآراء ووجهها توجيهها جيداً الزمخشري فى تفسيره، فقال: «وفى قوله وسع كرسيه أربعة أوجه:

أحدها: أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته، ولا كرسى ثمة ولا قعود ولا قاعد كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّمِمينِهِ...﴾ (٦٧) [الزمر] من غير تصور قبضة وطى ويمين، وإنما هو تصوير لعظمة شأنه وتمثيل حسى.

والثانى: وسع علمه، وسمى العلم كرسياً تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم.

والثالث: وسع ملكه، تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك.

والرابع: أنه خلق كرسياً هو بين يدي العرش، دونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعن الحسن (الكرسى هو العرش).

وعندى أن أجود هذه الوجوه هو أن يكون كناية عن سعة الملك وسعة العلم، وهو المناسب لنسق الآية الكريمة، وهو تفسير ترجمان القرآن عبد الله بن عباس.

﴿وَلَا يَتَّوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ هذا وصف يدل على كمال قدرته، وعظيم حيطة خلقه، ومعنى ﴿وَلَا يَتَّوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ لا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض وكلاءتهما؛ لأن ذاته العلية منزّهة عن التعب، إذ هو من صفات الأجسام الحيوانية، والله سبحانه وتعالى منزّه عن مشابهة الحوادث.

وأصل آد من الأود بمعنى العوج، فأده يؤده بمعنى عوجه بثقله وعبثه. وإن ذلك النص الكريم يدل على أن كل شيء في الكون في حفظ الله وحياطته؛ فالسماء بأفلاكها وطبقاتها وكواكبها، وكل ما فيها يسير على نظام محكم محفوظ بعناية بديع السموات والأرض، والأرض وما عليها ومن عليها، وما فيها ظاهراً وباطناً، كل ذلك في حفظ الله خاضع لقوانينه التي سنّها في خلقه، ولا شيء يكون فيها أو منها إلا بإرادته سبحانه ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ [الرعد].

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ هذان هما الوصفان الشاملان لكل الأوصاف السابقة؛ فالله سبحانه هو العليّ: علا بصفاته وذاته عن مشابهة المخلوقات، وعلا أيضاً على خلقه بمعنى سيطر عليهم، وسيرهم؛ فالعلو يشمل معنيين:

أولهما: علو المنزلة والقدر، وذلك متحقق بتزّهه سبحانه عن مشابهة المخلوقين وأنه فوق كل موجود.

وثانيهما: علو السلطان؛ والقدرة - والقهر - ومن هذا الباب لغة (لا معنى لأنه يناسب المقام هنا) قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا...﴾ [القصص] والله سبحانه غالب على كل شيء، قاهر كل شيء، وهو فوق عباده. هذا هو الوصف الأول. أما الوصف الثاني فهو عظم الذات العلية وصفاتها،

فذااته العلية جلّت عن المشابهة، وهو الخالق القاهر القادر، وهو وحده الإله المعبود بحق، وهو الذى يسبح كل شىء فى الوجود بحمده، فهو العظيم وحده، والمعبود حقاً وحده، المعظم وحده. وإذا كانت غواشى الحياة قد أضلت الأكثرين فلم يدروا عظمتة فى السفانية، فستجلى لهم عظمة ذى الجلال فى الباقية، وهم من خشيته مشفقون ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ١٠٩ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ١١٠ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ١١١ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ١١٢﴾ [طه].

أما بعد، فهذه آية الكرسي، أعظم آية فى كتاب الله، كما ورد فى بعض الآثار المثبتة فى الصحاح؛ وإنها لتدل على وحدانية الله تعالى بكل شعبها؛ ذلك بأن الوحدانية لها شعب ثلاث: وحدانية الألوهية، وقد دلت عليها بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ووحدانية الخلق والتكوين فلا خالق مع الله تعالى، ولا إرادة تمنع إرادته، وقد دل على ذلك بأكثر ما فى الآية الكريمة كقوله سبحانه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ والشعبة الثالثة وحدانية الذات والصفات، بمعنى أنه لا يشبهه شىء أو أحد من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ [الشورى] وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ تعالى الله رب العالمين علواً كبيراً؛ تولانا سبحانه بعنايته وتوفيقه وهدايته.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ
 مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ
 بِاللهِ فَكَدِ
 اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾
 اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
 النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

في الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى أمرين:

أحدهما: المغالبة بين أهل الحق وأهل الباطل، وأن تلك مشيئته الأبدية الأزلية منذ خلق بنى آدم على ذلك التكوين الذى يضم فيه كل آدمى بين جنبيه نزوع الخير ونزوع الشر، ومنذ قال لآدم وحواء وإبليس: ﴿... اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٢٦﴾ [البقرة].

الأمر الثانى: هو ما يجرى حوله الخلاف بين أهل الحق الذين يستمسكون بالهدى والنور، وأهل الباطل الذين يستمسكون بالضلالة؛ وذلك الأمر هو وحدانية الله سبحانه وتعالى فى الألوهية، وفى الخلق والتكوين، وفى المشيئة والإرادة وفى الذات والصفات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ [الشورى]. وإن هذا أمر تقره بداهة العقول، ولا مجال فيه للريب فما كان ينبغى القتال حوله، ولكن من ضل وغوى أيجوز إكراهه على الدخول فى ذلك النور بحكم تلك المغالبة بين الحق والباطل المقررة فى هذا الوجود؟ أجاب الله سبحانه وتعالى عن ذلك السؤال الذى يتردد فى قلب كل من يؤمن بالحق، إذ يكون أمام حق نير واضح مستبين، ولجاجة فى باطل مظلم، وقد تكون الهداية أن يقضى على تلك اللجاجة الآتمة.

وقد كان جواب الله العلى القدير، كلاماً محكمًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو قول الحق:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ نفت الجملة الأولى من هاتين الجملتين الساميتين الإكراه فى الدين، وبينت الجملة الثانية علة هذا النفى، وكيف تدرك الأديان، ومهمة الداعى إليها؛ فأما النفى الذى قررته الجملة الأولى فهو يتضمن أمرين:

أحدهما: تقرير حقيقة مقررة ثابتة، وهو أن الإكراه فى الدين لا يتأتى؛ لأن التدين إدراك فكرى، وإذعان قلبى، واتجاه بالنفس والجوارح بإرادة مختارة حرة إلى الله سبحانه وتعالى، وتلك معان لا يتصور فيها الإكراه؛ إذ الإكراه حمل الشخص على ما يكره بقوة ملجئة حاملة، مفسدة للإرادة الحرة، ومزيللة للاختيار الكامل؛ فلا يكون إيمان ولا تدين، إذ لا يكون إذعان قلبى، ولا اتجاه حر مختار بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين.

الأمر الثانى: الذى تضمنه نفى الإكراه هو النهى عن وقوعه، فلا يسوغ للداعى إلى الحق أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؛ لأن الإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر، ونتيجة له؛ لأنه كلما حمل الإنسان على أمر بقوة قاهرة غالبية ازداد كرهاً له ونفوراً منه.

فالتنفى عن الإكراه إذن تضمن نفى تصويره فى شئون الدين، ونفى المطالبة به، أو بالأحرى نهى الداعى إلى الحق عن سلوك سبيله؛ لأنه ليس سبيل المؤمنين، وليس من الموعظة الحسنة فى شىء: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذه معانى الجملة الأولى السامية، أما الثانية وهى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، فمعناها قد تبين وجه الحق ولاح نوره، وتبين الغى، وهو الضلال والبعد عن محجة الحق، وطمس معالمه؛ وهذه الجملة السامية تفيد أمرين كسابقتها:

أحدهما: أن طريق التدين هو بيان الرشد، وبيان الصواب، وبيان الضلال في وسط النور؛ فمن رأى الحق بيناً فقد أدرك السبيل، وعليه أن يسير فيها، وليس لأحد أن يحمله حملاً؛ لأنه لا سبب للتدين إلا المعرفة، بإدراك الحق وغايته، ومعرفة الباطل ونهايته. وذلك المعنى في مرتبة التعليل للنهي عن الإكراه ونفيه، لأنه إذا عرف الحق معرفة مثبتة له بالأدلة القاطعة، وعرف الباطل معرفة مبنية وجه الضلال فيه، فقد توافر سبب التدين، ومن كفر بعد ذلك فعن بينة كفر، ولا سبيل لهدايته، وليتحمل مغبة كفره بعد هذه البيانات الواضحة الكاشفة.

الأمر الثاني: الذى يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، هو بيان أقصى قدر من التكليف للداعى إلى الحق من الرسل ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فليس على الداعى إلى الحق إلا تكليف واحد، وهو بيان الرشد من الغي، فهو لم يكلف حمل الناس على الهدى، إنما هو مكلف أن يبين الهدى من الضلال، والهداية بعد ذلك من الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ [القصص].

وإذا كان الرشد قد تبين من الغي وتميز، ولم يعد مختلطاً به، بل خلص منه، وخرج نيراً واضحاً، كما يخرج النور من الظلمة عند انبثاق فجر الحقيقة، وظهوره ساطعاً منيراً هادياً، إذا كان الأمر كذلك فعلى كل طالب للتدين أن يسلك سبيل الحق، ومن بقى متردياً في الباطل، فعليه إثم بقاءه، وما عليك من أمره شيء، ولذا قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ الطاغوت أصله مأخوذ من الطغيان، ويؤدى معنى الطغيان، وإن اختلف علماء اللغة في أصل اشتقاقه، وفي وزنه الصرفى.

والطاغوت يطلق فى القرآن على كل ما يطغى على النفس فيسيطر عليها، أو على العقل فيضله، أو على الأمة فيتحكم فيها ظلماً، أو على الجماعة فينشر فيها أهواء مردية، وآراء فاسدة؛ ولذلك يطلق الطاغوت على الكاهن، والشيطان، وكل رأس للضلال. وقد جاء فى تفسير القرطبى: قد يكون واحداً؛ قال الله تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ...﴾ [النساء] وقد يكون جمعاً، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ...﴾ [البقرة].

وما المراد بالطاغوت هنا؟ الظاهر أن الطاغوت هو كل طغيان يطغى على النفس أو العقل أو الجماعة، فيتسلط عليه، ويمنعهم من اتباع الحق من زعماء يقودونها إلى الضلال، أو ملوك يسوقونها إلى الباطل سوقاً؛ ولعل أظهر معانى الطاغوت أن يفسر بالملوك المتحكمين والكبراء المتجبرين الذين يفتنون الناس عن دين الحق، ويكرهونهم على اعتناق الباطل. وقد سوغ لنا استظهار ذلك ما جاء من نفى الإكراه فى الدين سابقاً لهذه الجملة السامية، وما سبق بعد ذلك من قصة ملك متجبر يريد أن يتحكم فى عقائد الناس وأهوائهم، فإن ذلك يومئ لنا أن نفهم من كلمة الطاغوت بأنه الحاكم المتجبر، أو الكبير المسيطر، أو الملك القاهر بالباطل، ويكون المعنى: فمن يكفر بالطاغوت، أى يزيل سلطان المتجبرين عن نفسه، ويمنع تحكم المسيطرين على قلبه، ويحرر عقله من أوهام الطغيان، ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى، أى اعتمد على جانب قوى، وعماد على لا يهن من اعتمد عليه، ولا يسقط من ركن إليه، وفى ذلك إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن لا يحجب النفوس عن الإيمان بالله إلا طغيان المتجبرين عليها، وسيطرة أوهام الكبراء، فمن تحرر من ريقه الطاغوت تنكشف له الحقيقة العالية فيؤمن بها، ويدركها، ويعتصم بالله سبحانه وتعالى.

ثانيهما: إرشاد ضعفاء النفوس ومن أصاب الخور عزائمهم وأماتت الأوهام ثقتهم بأنفسهم أنهم إن رفضوا سلطان الطغاة، وحاجزوا بينهم وبين قلوبهم، فقد آمنوا، ولن يصيبهم ضرر إن آمنوا؛ لأنهم آووا إلى ركن شديد، وإلى معتصم حصين، فلن تضيرهم مخالفة الملوك وغيرهم؛ لأن سلطانهم وهمى، وسلطان الله حقيقى، وقوتهم فانية، وقوة الله أزلية باقية، فمن آمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

والعروة فى أصل معناها اللغوى تطلق على ما يتعلق بالشئ من عراه أى ناحيته، فالعروة من الدلو والكوز المقبض، ومن الثوب مدخل الزر؛ وتطلق العروة أيضا على الشجر الملتف الذى تأكل منه الدواب حيث لا كلاً ولا نبات.

والوثقى مؤنث الأوثق، وهو الشئ المحكم الموثق، وتطلق كلمة الموثق أيضا على الشجر الذى يتجه إليه الناس عندما ينقطع الكلاً. والانفصام الانكسار، وهو مطاوع فصم بمعنى كسر؛ وإنما تكون المطاوعة حيث يحتاج الفصم إلى معالجة، أى أن الشئ المفصوم يكون قويا، بحيث يعالج الشخص كسره حتى ينكسر بعد طول المحاولة وعلى ذلك فالعروة الوثقى فى الآية إما أن تخرج على أنها الحبل الموثق الشديد الأسر الذى يربط بين شيئين، ويكون المعنى: من آمن بالله وكفر بالطاغوت فقد استمسك، أى أمسك بقوة وشدة طالباً العصمة بحبل موصول موثق قوى لا انفصام له. وقد تخرج العروة على أنها الشجر الذى لا يوجد سواه للمرعى والغذاء، فيكون من كفر بالطاغوت وآمن بالله فقد اتجه وأخذ الجانب المقيد المربى المغذى وترك الجذب الذى لا يجدى. وقد مال الزمخشري إلى التخريج الأول، وهو عندى أوضح وأشهر.

والاستمسك كما أشرنا هو الإمساك المطلوب المستقر؛ لأن السين والتاء تدل على الطلب، والطلب هنا يفسر بأنه هجر الطاغوت طلباً للاعتصام بهذا الجانب القوى الذى لا يضل من طلبه، ويصل إليه من اعتمد عليه ولم يطلب سواه. وقد ذكر الزمخشري فى تفسيره أن هذا التعبير الكريم كله ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ فيه تمثيل وتصوير للمعانى السامية بالأشياء المحسوسة فقال: (هذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنما ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده واليقن به).

هذه هداية الله سبحانه وتعالى، لا يكره أحد عليها، ولكن يدعى الناس إليها بالبيّنات الواضحة التى يتميز بها الخير من الشر، والحق من الباطل، والنور من

الظلام، وبعد ذلك يكون الأمر لله تعالى، ولقد ذيل سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفى هذا إشارة إلى أمرين جليلين:

أولهما: رقابة الله سبحانه وتعالى فى الدنيا رقابة العليم الخبير، فهو يعلم علم من يسمع همسات القلوب، وخلجات الأنفس، وهو وحده المتصف بالعلم المطلق الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا فى الأنفس؛ وإذا كان المؤمن يحس برقابة الله تعالى المطلقة فإنه يتجافى عن المعاصى، ويتعد عنها استحياء من الله، فقوة الإحساس بعلم الله ترهف وجدان المؤمن وهذا مقام الإحسان كما فى الحديث الشريف «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

الأمر الثانى: التنبيه إلى ما يترتب على العلم من الرضوان والثواب المقيم الدائم لمن أطاع الله وطلب رضاه، والعذاب الأليم وغضب الله لمن عصاه سبحانه.

هذه الآية الكريمة واضحة كما قررنا فى حقيقتين ثابتتين:

إحداهما: أن التدين لا يكون مع الإكراه؛ لأن الإكراه ينافى الاختيار الحر، والتدين طلب الحق والأخذ به فى حرية واختيار لا تشوبهما شائبة.

الحقيقة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى ينهى عن الإكراه فى الدين، وحمل الناس عليه بقوة السيف حتى لا يكثر النفاق والمنافقون. وكثرة المنافقين، وإن كثر عدد المسلمين فى الظاهر، تفسد جماعتهم فى الحقيقة والواقع.

ولكن مع هذا الحق السائغ، والنور المبين، وجدنا الكثيرين يدعون أن هذه الآية منسوخة، وادعوا أن الذى نسخها قوله تعالى فى آيات كثيرة من آيات الجهاد ما يدل على القتال، حتى يكون الإسلام مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

(١) جزء من حديث جبريل الشهير، متفق عليه؛ من رواية البخارى (٤٨)، ومسلم (١٠): كتاب الإيمان عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلَظْ عَلَيْهِمْ ... ﴿٧٣﴾ [التوبة] ومثل قوله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ...﴾ ﴿١٦﴾ [الفتح] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ [التوبة] ففي هذه الآية تصريح بالقتال والغلظة مع الكفار، وفي بعضها جعلت غاية القتال أن يسلموا، ولقد ورد أن النبي ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال إني أجدني كارهاً، فقال ﷺ: «وإن كنت كارهاً»^(١).

والحق أن حكم هذه الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ماض إلى يوم القيامة؛ لأنها تؤيد حقيقة ثابتة، وتركيها آيات أخرى، وأحاديث للنبي ﷺ؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ [يونس].

وإن الباعث على القتال كما تصرح آيات القتال هو دفع الاعتداء، فقد قال تعالى: ﴿أُذِّنُ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ [الحج] وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ...﴾ ﴿١٩٠﴾ [البقرة] وجعل سبحانه وتعالى نهاية القتال أن تنتهي الفتنة في الدين، والإكراه عليه؛ فقد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩٣﴾ [البقرة] وهكذا فليس القتال في الإسلام للإكراه على الدين لأن الدين اختيار ورضا، ولا اختيار أو رضا مع الإكراه، والآيات الواردة بالأمر بالجهاد كلها محمولة على حال الاعتداء، أو التحفز للاعتداء، فلا يسوغ للمؤمن أن ينتظر حتى يغزى؛ فإنه ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا.

وحياة النبي ﷺ في مكة والمدينة تنبئ عن منع الإكراه في الدين؛ فقد كان ﷺ في مكة هو ومن معه من المؤمنين في اضطهاد ومحاولة لفتن الضعفاء منهم عن دينهم، وحملهم على تغيير اعتقادهم وأنزلوا بهم من الأذى والعذاب ما لا تحتمله النفس البشرية حتى اضطر بعضهم إلى النطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛

(١) رواه أحمد في مسنده (١١٦١٨).

ولما انتقل إلى المدينة لم يحارب أحداً إلا بعد أن شنوا عليه الغارة، أو استعدوا لها، وألبوا عليه، وكان على ذلك إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وإن حديث النبي ﷺ الذي قال فيه لرجل: «أسلم وإن كنت كارها» لا يدل على جواز الإكراه في الدين؛ لأن النبي ﷺ ما أكرهه بالسيف أو بالأذى على أن يسلم، بل إن الرجل بدت له البيئات الواضحات، والحجج النيرات، ومع ذلك كان مأخوذاً بما ألف، كارهاً بعاطفته لأن يغير ما كان عليه أباًؤه؛ فالنبي ﷺ يوصيه بأن يتغلب على إحساسه ويتبع البرهان والدليل؛ وكثير من الناس يبدو له وجه الحق واضحاً، وتلوح له بيناته باهرة، ومع ذلك يكره السير في هذا النور، اتباعاً لما كان معروفاً، وسيراً وراء ما كان مألوفاً؛ فمثل هذا عليه أن يتبع الحق ولو كان كارهاً، وأن يستولى على نفسه فيحملها على اتباع الحق ولو كرهته؛ والطاعات قد تثقل على النفوس، ولكن يجب اتباعها؛ ولذا قال ﷺ «حفت الجنة بالمكاره»^(١) فحديث النبي ﷺ لهذا الرجل من هذا الباب.

بعد هذا البيان نكرر ما قررنا وهو أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وخصوصاً أن ادعاء النسخ لا دليل عليه، وإن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين، فلو أمكن التوفيق ولو بتخصيص إحدى الآيتين لوجب السير إلى التخصيص دون النسخ؛ وإن التوفيق هنا ممكن بين آيات القتال وهذه الآية، بل إن شئت الحق فقل إنه لا تعارض حتى تكون محاولة التوفيق، فما كان القتال لحمل الناس على الإسلام، بل كان القتال لدفع الاعتداء أولاً، ولكي يخلو الوجه للدعوة الإسلامية ثانياً، ولتكون كلمة الحق هي العليا ثالثاً، والناس في كل الأحوال أحرار فيما يعتقدون وما يؤمنون به ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ [القصص].

ولقد روى في سبب نزول هذه الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أن رجلاً من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الرقاق (٦٠٦)، ومسلم: الجنة وصفة نعيمها (٥٠٤٩).

مسلمًا، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أيا إلا النصرانية؟ فتزلت هذه الآية. وفي رواية أخرى أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال الأنصاري: يا رسول الله يدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه! فنزل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١).

وقد كان المسلمون يسرون على هذا المبدأ وهو ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ويروى فى ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لعجوز نصرانية: أسلمى تسلمى، إن الله بعث محمدًا بالحق، فقالت: أنا عجوز كبيرة والموت إلي قريب. فقال عمر رضى الله عنه: اللهم اشهد، وتلا ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لقد ذكرنا فى الآية السابقة أن الطريق للإيمان هو الكفر بالطغيان، بالامتناع عن إجابة كل دعاة الشر من كبراء متجبرين، وحكام مسيطرين بأوهام باطلة، وهكذا؛ وأن من كفر بالطاغوت فقد آوى إلى ركن شديد، إذ لجأ إلى الله العلى القدير، ومن بقى تحت سلطان الطاغوت من ملوك عاتين، ورؤساء ضالين، فقد آوى إلى ما لا يعتمد عليه؛ لأنه ركن هوى يهوى بصاحبه فى نار جهنم.

والولى فعيل بمعنى فاعل من الولاية. ولقد قال الراغب الأصفهاني: الولاية بالكسر النصرة، والولاية بالفتح تولى الأمر. وقيل الولاية والولاية واحدة، نحو الدلالة والدلالة؛ والولى والمولى يستعملان فى ذلك، كل واحد منهما فى معنى الفاعل والولاية كما تطلق بمعنى السلطان تطلق بمعنى المحبة والولاء، كما فى قوله تعالى: ﴿هَٰئِلِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ...﴾^(٤٤) [الكهف].

والولى فى الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يكون بمعنى ناصرهم؛ وقد ذكرنا أن الولاية تكون بمعنى النصرة، وبمعنى المسيطر على نفوسهم وحده الموجه الهادى، إذ قد سلمت نفوس المؤمنين من نزغات الشيطان.

(١) رواه ابن جرير الطبرى (٤٥٣٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما، وروى أبو داود: الجهاد - الأسير يكره على الإسلام (٢٣٠٧).

والظلمات جمع ظلمة، والمراد بها هنا الضلالة؛ ففي الكلام مجاز؛ لأن
 المفسد التي ينشرها الطغيان تظلم بها النفس وتكون في حيرة، وتنقطع عن سبيل
 الهداية؛ والنور هو الهدى؛ لأن الهدى يكشف عن ينابيع الحق والخير في النفس،
 وهو سلوك الطريق الموصل إلى ما يسعد الإنسان في الفانية والباقية فهو كالمصباح
 للمؤمن به يهتدى، وبه يصل إلى الغاية. والمعنى للجملة السامية: الله سبحانه جل
 جلاله الذي ليس فوقه شيء وهو القاهر فوق كل شيء هو ولي الذين آمنوا أي
 ناصرهم يأخذ بأيديهم من ضلالات الشرك والأوهام والشهوات، والذلة والاستعباد،
 إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام ومن الذلة، والاستقامة نحو العزة. فهذه
 الجملة تتضمن ثلاثة أمور:

أولها: نصره الله القوى القادر، فلا يصح لمؤمن أن يضعف أمام جيروت
 الملوك الطغاة أو الجبابرة العتاة، أو الكبراء المضلين.

وثانيها: أن الله سبحانه وتعالى هو المسيطر على النفوس يوجه القلوب المؤمنة
 إلى الحق فيلوح لها نوره، وتشرق فيها حججه.

وثالثها: أن الذين يفيض الله عليهم بهذا النور ويؤيدهم بنصره هم الذين
 ارتضوا الحق بإرادتهم المختارة، ورفضوا طغيان الكبراء والجبابرة، وقاوموا نزغات
 الشيطان؛ فإن هؤلاء هم الذين ينصرهم رب العالمين، ويهديهم بنوره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ المؤمنون
 يوجه قلوبهم رب العالمين، وينصرهم بقدرته، ويعتزون بعزته، وهو رب العزة، له
 الكبرياء في السموات وفي الأرض، وهو العلى العظيم؛ أما الذين كفروا فالطاغوت
 أي الطغيان بكل أنواعه من جبابرة متحكمين، وكبراء مضلين، وأوهام مستحكمة،
 وضلالات مهيمنة، هو الذي ينصرهم ويسيطر على قلوبهم؛ والسبب في ذلك أنهم
 جعلوا الكفر وستر الفطرة هو الذي يتحكم في قلوبهم، فهم اختاروا تلك الأوهام
 المضلة، وولاية الجبابرة المذلة، واتباع الكبراء المردى، ففتحو بسبب ذلك قلوبهم
 للضلالة تدخل فيها جزءاً جزءاً حتى أظلمت وبعدت عن نور الفطرة، وغلقت عليها

أبواب الحق، فلا يدخلها إلا ضلال، وكأن للقلب بابين: باباً للنور، وباباً للضلال؛ فإن أركست النفس فى الشهوات، فإن باب الضلالة يتسع ويضيق باب الحق حتى يغلق فلا يدخل النور إليها.

وفى الجملة الكريمة السامية إشارات بيانية يجب التنبيه إليها:

أولها: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِاهُمْ الطَّاغُوتُ﴾ ففى التعبير بالذين كفروا إشارة بيانية إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يجعلوا الطغيان متحكماً فى قلوبهم، إذ كفرهم واستيلاء الشهوات على نفوسهم هو الذى سهل استمرار ولاية الطاغوت عليهم، وتحكمه فيهم، وسيطرته على نفوسهم، وحيث كانت الشهوات مستحكمة فلأوهام سلطان، وللجبابرة سلطان، وللكبراء المضلين مكان.

والثانية: أنه أفرد الطاغوت، وجمع الأولياء، ففى ذلك إشارة بيانية إلى أن الطاغوت مهما تعدد ضروبه، وأشكاله ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد، أساسه أن يتحكم الوهم والهوى والذل والضعف فى النفس ولكن مع ذلك يتعدد سلطانه، فهو مرة يظهر فى مظهر ذى سلطان متجبر تخضع الرقاب لطغيانه لتحكم الذلة أو الشهوة المردية فى نفوس الذين يتحكم فيهم، ومرة يظهر سلطان الطاغوت فى دعوة إلى الباطل زخرفها تمويه داعية مضل، وأحياناً تكون فى أوهام مسيطرة على الجماعة تجعلها تعبد حجراً أصم لا يسمع ولا يبصر؛ وعلى ذلك يكون الطاغوت واحداً؛ لأنه ضلال كيفما كان، ولكن لتعدد مظاهر سلطانه تعددت ولاياته وكلها لاقوة لها أمام قوة الله سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

والثالثة من الإشارات البيانية: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ أى الضلالات المردية المختلفة الأنواع، فإن فى ذلك إشارة إلى أن الفطرة فى أصلها نور، ففى الفطرة الإنسانية نور الحق ووجدان الهداية، والإيمان الفطرى؛ حتى يكون الضلال إذ تتحكم الأهواء والأوهام وتستخذى النفوس، فكل

مولود يولد على الفطرة^(١)، وهى نور، حتى يكون الضلال بما فى النفس من استعداد له مع وجود ذلك النور.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الإشارة إلى الذين كفروا، وفى هذه الإشارة بيان إلى أن أحوالهم التى عرفوا بها من كفرهم، ورضاهم بالطغيان حاكماً عليهم متحكماً فيهم مسيطراً على قلوبهم، هى السبب فى ذلك الحكم الخالد عليهم، وهو أنهم أصحاب النار.

وفى التعبير بأصحاب النار إشارة إلى ملازمتهم لها، وبقائهم فيها، واختصاصها بهم؛ لأن أصحاب جمع صاحب، والصاحب هو الرفيق الملازم الذى اختصت بصحبته، فهذا التعبير أفاد ملازمتهم للنار واختصاص النار بهم.

وفى قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصها بهم دون غيرها؛ ذلك لأن التعبير بالجملة الاسمية فيه تأكيد، وتكرار المسند إليه بذكر كلمة «هم»، فيه فضل تأكيد، وتقديم الجار والمجرور وهو «فيها» دليل على اختصاصها بخلودهم فيها فلا منفذ لهم فى غيرها؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب النور فى الدنيا، فسدت عليهم أبواب الرحمة فى الدنيا والآخرة.

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيَنْصَرَانِهِ أَوْ نَجْرَانِهِ، كَمَا تَنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ فِطْرًا عَلَيْهِمْ لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ...﴾ [٢٠] [الروم] [رواه البخارى (١٢٧١): الجناز، ومسلم (٤٨٠٣): القدر].

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
 أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
 وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
 كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ
 عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
 بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
 قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
 فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
 حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى
 الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
 تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾
 وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِم
 تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لَيْتُمْ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ
 الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا
 ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

بعد أن بين سبحانه تحكم الطغيان في نفوس الكافرين ذكر سبحانه وتعالى لوئاً من ألوان الطغيان أو أظهر ألوانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وفي هذا تصوير للملك من الملوك يدفعه اغتراره بملكه إلى أن ينكر رب العالمين ويسأل إبراهيم عنه، وتصوير لطاغية من طغاة الدنيا يدفعه طغيان الغرور على نفسه ثم طغيانه على شعبه إلى أن يدعى الربوبية.

فلننظر إلى تلك الحاجة: ينهنا الله سبحانه وتعالى إلى تلك الحال الشاذة فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقد بينا ما في هذا التركيب من أسرار بلاغية عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ...﴾ [البقرة] وخلاصة المعنى: لقد عرفت هذه القصة بالخبر القرآني اليقيني معرفة واضحة جلية بينة كأنها في تعينها ووضوحها المعرفة بطريق الرؤية البصرية والنظر، وهذا على أن رأى بمعنى أبصر. وإن كانت رأى بمعنى علم فالمعنى: تأمل وانظر بعين بصيرتك وادرس حال تلك النفس الطاغية التي تحمل الناس على الظلمات بطغيانها وإذا تأملتها علمت أيها المكلف أو أيها القارئ للقرآن إلى أي مدى يصل الطغيان من الظلمات والضلالات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ حاجه: أى بادلته المحجة وفي تسمية كلامه حجة إنما هو من قبيل المماثلة اللفظية أو هو حجة في نظره السقيم الذي أفسد تفكيره وأضله فقد توهم وتخيل ثم ظن فضلً عن معرفة نفسه وعن معرفة الحق ووقع في أمور لا يقبلها أى عقل سليم.

وما السبب في كل ذلك الضلال؟ هو شيء واحد هو أن الله سبحانه وتعالى أعطاه الملك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أى أن سبب تلك الحاجة التي تدل على مقدار ضلاله وطغيانه هو أن الله سبحانه وتعالى آتاه أى أعطاه الملك والسلطان الدنيوى وهو زائل فقوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ مجرور بحرف جر محذوف هو الباء أو اللام، أى أن الذى بعثه على ذلك الإسراف فى القول الوقوع فى هذا الضلال هو نعمة الملك التي أنعم الله بها عليه فجعلته مسرفاً فى الضلال ذلك الإسراف المردى.

وفى الكلام إشارة إلى أن هذا ما كان يسوغ له أن ينكر وأن يحاج فى إنكاره؛ لأنه يحاج فى موضوع لا يقبل الجدل والمناقشة؛ لأنه يناقش فى ربه خالقه وخالق كل شئ، فالضمير فى «ربه» يعود إلى ذلك الملك الطاغى المتجبر، ويصح أن يعود الضمير إلى إبراهيم وإنى اختار الأول؛ لأن الطاغية هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ هذا كلام نبي الله إبراهيم وخليله، كلام معترف بالربوبية عرف ربه بأوضح ما يعرف به وبأروع آثار قدرته فى هذا الوجود وبأبعدها أثرًا فى نفس العاقل المتفكر المتدبر وهو الحياة والموت لأنهما أشد الأمور أثرًا فى نفس كل إنسان ذى حس وشعور وعقل وأفاد القول صيغة الحصر إذ قال سبحانه: ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ وفى ذلك تعريف المبتدأ والخبر وتعريفهما يفيد القصر، فالمعنى أنه وحده سبحانه هو الذى يحيى ويميت ولا أحد سواه يفعل ذلك. ومعنى يحيى ينشئ الحياة ويوجدتها، ومعنى يميت يوجد تلك الحقيقة التى تفقد الجسم معنى الحياة. والتعبير بالمضارع يفيد معنى الاستمرار الذى يرى ويحس كل يوم، فالمعنى أن ربي وخالقى هو الذى يحيى الناس كل يوم كما ترى ويميت منهم كل يوم من ترى.

هذا كلام إبراهيم وهو يحوى حجة قوية واضحة من شأنها أن تثير فى النفس نزوع الاتجاه إلى الحق؛ لأنها تشير مع ذلك إلى حقيقة الحياة وهى أنها إلى فناء، فلا يصح أن يغر الشخص بها الغرور ولا يذهب به الطغيان إلى إنكار ربوبية الخالق.

﴿قَالَ أَنَا أَحْيِى وَأُمِيتُ﴾ هذا جواب الملك الذى سيطر الهوى عليه فأضله وسيطر الطاغوت على نفسه فحمل شعبه على الإذعان لطغيانه وضلاله، ومنعهم من أن يصل النور إلى قلوبهم وحاجز بينهم وبين كل دعوة إلى الحق والنور، وبذلك كان ممن يدعون إلى الظلمات كما ذكر فى الآية السابقة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

أجاب ذلك الملك بنقض الاختصاص الذى ذكره خليل الله لرب العالمين، وهو أنه وحده الذى يحيى ويميت، فقال ذلك الضال: أنا أحيى وأميت أيضاً، ومرمى قوله أنه إذا كان ربك يا إبراهيم يحيى ويميت واستحق الربوبية لذلك، فأنا أيضاً أحيى وأميت فأستحق هذه الربوبية، ويقصد بالإحياء كما يقول العلماء العفو عمن حكم عليه بالإعدام وبالإماتة وقتل من شاء قتله هذا ما قاله العلماء. ولو أن لى أن أقول كلاماً آخر لقلت إن ذلك الطاغوت يقصد بالإحياء الاستيلاء والاستنابات ونحو ذلك مما يفعله الإنسان ويتخذه سبباً عادياً من أسباب ظهور الحى بحياته، وبالإماتة القضاء على الحى بالقتل أو القطع أو الاستئصال ونحو ذلك مما يجوز أن تسند فيه أسباب الحياة إلى الإنسان وأسباب الإماتة إليه، وهذا بلا شك غير ما قصده الخليل عليه السلام؛ لأن ما قصده هو خلق الحياة وخلق الموت، وذلك ما لا يستطيعه إلا رب العالمين تعالى الله علواً كبيراً. وكان الخليل يستطيع أن يبين له تلك الحقيقة ويحرر موضع القول ولكن ذلك قد يجر إلى وراء فاختار طريقاً آخر أجدى وأردع وأقوى وأشدّ إفحاماً؛ قال له ما حكاه رب العالمين فى قوله:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ لقد ادعى الطاغية أنه شريك الله سبحانه وتعالى، والشركة تقتضى المساواة فى القدرة والسلطان والخلق والتكوين ولا تبدو تلك المساواة إلا إذا كان أحد المتساويين عنده قدرة على مقاومة إرادة الآخر وبسط سلطانه حيث بسط هو سلطانه، والله سبحانه يأتى بالشمس من المشرق، أى الجهة التى تشرق منها فعلى المدعى أن يعاند هذا النظام المسيطر الذى يدعى ربوبيته عليه، بأن يأتى بالشمس من جهة الغروب، ويعكس الفلك الدوار.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي﴾ هى فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر وتقدير القول: إذا كنت تدعى الألوهية أو الربوبية فأظهر أمارات قدرتك وسلطانك على الكون بأن تأتى بالشمس من جهة غروبها الآن بدل أن تخرج من جهة شروقها، والمعنى أن ذلك الكون قد خلق على نظام محكم وأحكم تنسيقه بنظم

قدرها منشئه وأمرة قدرتك أن تغير هذه النظم فافعل إن كنت قديرًا، فليست القدرة في أن تدعى إنشاء نظام وجد قبل أن توجد أنت وأشباهك من الطغاة، إنما القدرة تكون في تغييره فافعل هذا التغيير وما كان ذلك في قدرته لأنه ضال مضل؛ ولذا حكى الله سبحانه وتعالى حاله في قوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أى تحير واضطرب ولم يجد جوابًا ولم يستطع أن يتكلم قليلا أو كثيرا. وقد عبر عنه بقوله: ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾ للإشارة إلى أن سبب الحيرة هو كفره، إذ لو كان طالب هداية لكانت الحجة القاطعة الملزمة هادية بدل أن تكون محيرة ولكنه صمم على الكفر وأصر عليه، فكانت نفسه حائرة بين حق ظهرت بيناته وباطل قد عض عليه بالنواجذ، وكذلك شأن كل من أضله الله على علم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآية بهذه الجملة السامية وهي تدل على ثلاثة أمور:

أولها: إن الذين يعاندون الحق ظالمون دائماً: يظلمون أنفسهم لأنهم يسدون منافذ النور فلا يصل إلى قلوبهم، ويظلمون أقوامهم لأنهم يحملونهم على الضلال، ويظلمون الحق لأنهم يحاربونه.

ثانيها: إن ظلمهم يسبق كامل ضلالهم؛ ذلك لأن الشهوات تتحكم فيهم فتدفعهم إلى طلب ما ليس لهم ثم يستهوهم الشيطان بالطمع بعد المطمع، فيتجاوزون الحدود ويطغون ثم يكون الضلال الكامل الذى تطمس فيه البصيرة فتغلف القلوب عن الحق وتقسو فلا تلين.

ثالثها: إن الظلم إذا استحكم فى النفس أصبحت كل البراهين لا تجدى بل تزيده عنادًا وإصرارًا؛ ولذلك لم يكتب الله الهداية لمن استمرأ الظلم آحادا أو جماعات والله ولى المتقين.

ولقد كان احتجاج إبراهيم عليه السلام على الطاغية الذى يدعى الربوبية بأن الله هو الذى يحيى ويميت، فتجاهل الطاغية معنى الحياة والموت، وحرّف الكلم عن مواضعه فلوى خليلُ الله عنقه حتى أراه عَجْزَه وقدره الله على نحو ما ذكر سبحانه: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

إن الأمر الذى يحير العقول التى لا تربط بين بدء الحياة وانتهائها هو أمر الحياة بعد الموت، وقد ذكر سبحانه ما يزيل أسباب الحيرة أولا بأن الله سبحانه هو الذى يحيى ويميت، وأن ذلك من أوصاف الربوبية التى اختصت بها الذات العلية، وأزال الريب ثانيا ببيان ما كان منه سبحانه للذين أرادوا أن يروا بالحس الحياة بعد الموت والإعادة بعد الفناء فذكر سبحانه وتعالى قصتين تكشفان عن القدرة الإلهية فى الإعادة والإبقاء كما هى قادرة على الإنشاء الأولى: قصة القرية التى خوت على عروشها وتعجب من رآها من إعادتها وسأل متعجبا أنى يحيى هذه الله بعد موتها، والثانية: قصة إبراهيم عليه السلام وقد سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى.

أما القصة الأولى فقد قال سبحانه:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذه الآية مرتبطة بالسياق والعطف بالآية قبلها، والعطف فى المعنى واللفظ أو فى المعنى فقط، ونسق القول هكذا: ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك، أو ألم تر كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها والكاف هنا بمعنى مثل فالمعنى: أو لم تر مثل هذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها؟ ولأن القصة الأولى قصة نبي معلوم من أولى العزم من الرسل مع ملك طاغية فى زمانه لم يعبر بالكاف، أما هذه فلأن الشخص غير معلوم والمكان غير معلوم والقرية غير معلومة ذكر سبحانه الكاف فقال: ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ لأنه إذا لم يعلم الشخص ولا الزمان ولا المكان كان المقصود العبرة وبيان الحال والشأن فناسب ذلك التعبير بالكاف التى هى بمعنى مثل وإن كانت القصة لها حقيقة واقعة كما ذكر سبحانه وهو العليم الحكيم.

والقرية المدينة من القرى بمعنى الجمع؛ لأنها الجامعة لأشتات الناس وأصنافهم. ومعنى خاوية على عروشها، أى سقطت جدرانها على سقوفها؛ لأن العرش معناه السقف، والتعبير بـ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ كناية عن خرابها وذهاب عمرانها وفناء أهلها، وأنه لم تعد لهم من باقية وقد خرجوا من هذه الدنيا الفانية.

وجد ذلك الذى مر على هذه القرية العظيمة الخراب قد خيم عليها وذهب كل ما فيها ومن فيها من الأحياء وبقيت الرسوم والآثار تعلن عمن عفت عليه الديار فهاله الأمر وتذكر الفناء وما بعد هذه الدنيا، ثم انبعث إيمانه باليوم الآخر، ولكن كان بين حقيقتين ثابتتين: إيمان صادق باليوم الآخر والبعث والنشور وذلك الفناء المحسوس الذى تحللت فيه أجزاء الإنسان فقال: ﴿أَنْتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى كيف يحيى هذه القرية التى فנית وخربت بعد موتها و«أنتى» تكون بمعنى «من أين»، وتكون بمعنى «كيف»، وهى هنا بمعنى «كيف».

ويلاحظ أن التساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة فهو مؤمن بها صادق الإيمان لكنه مأسور بالحس والعيان وكأن سلطان الحس هو الذى دفعه إلى ذلك التساؤل. وفى العبارة ما يدل على ذلك فالتعبير بالإشارة «هذه» فيه إشارة إلى تلك الحال الحسية الثابتة التى استولت على حسه وهى تلك القرية الخربة. وقد قدمها على لفظ الجلالة فقال: ﴿أَنْتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لأن السبب فى التساؤل تلك الحال الحسية التى هو عليها.

وموت القرية هو موت السكان فهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال، وكذلك الحياة فليست الحياة هى حياة البناء والجدران؛ لأنه لا حياة لهما إنما الإحياء يكون لمن كانوا يسكنون البناء والجدران، سأل ذلك المار عن كيفية الإحياء وهو سر القدرة الإلهية لا يعلمه أحد من عباده ولكن يرون آثاره، ولقد أجاب سبحانه ذلك السائل عن الكيفية بالحال العملية.

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أمات الله سبحانه وتعالى ذلك السائل عن الكيفية واستمر مئتا مائة عام ثم بعثه أى أثاره بالحياة ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ أى مكثت فى هذه الحال، والقائل هاتف نفسه أو ملك ناداه أو قاله الله سبحانه وحيا إذا كان ذلك السائل نبيا، والأقرب إلى خاطرى هو أن يكون المتكلم عن الله إما ملك من السماء أو وحى أوحاه الله رب العالمين إليه. سألته كم مدة من الزمان مكثتها؟ فأجاب بإحساسه الذى أحسه وهو أنه ظن أنه كان نائما قد

استيقظ من نوم طويل ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ أى مكثت فى نومى هذا يوما ولكنه رأى الشمس لم تغب فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ هذا مظهر حسى قد تصور فيه الشخص الذى أماته الله أنه كان نائماً ثم استيقظ، وفى ذلك تصوير للإنسان بأن الموت يشبه النوم والبعث يشبه اليقظة بعد النوم، ولقد قال النبى ﷺ فى جمع قريش عندما دعاهم دعوة الحق: «والله ليموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، وإنها للجنة أبدا أو للنار أبدا»^(١).

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثَ مِائَةً عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أجابه الله سبحانه وتعالى بهاتف نفسى وجه نظره إلى ما حوله، أو بملك أرسله أو بوحي أوحى به إليه على ما بينا فى الجملة السامية السابقة. أثبت سبحانه وتعالى أنه لبث مائة عام ووجه نظره إلى آيتين تثبتان قدرة الله تعالى:

إحدهما: إنه لم يتغير الطعام والشراب بل بقى كما هو على مر السنين وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وكان الضمير للواحد مع أنهما طعام وشراب؛ لأنهما فى معناهما ومقصدتهما الحاجة منهما شىء واحد.

الآية الثانية: الحمار وكيف بلى وتحلل وتفتت ولم يبق منه شىء، وهذا يدل على مر السنين وكر الأعوام. ويتجه بعض المفسرين إلى أن الحمار كان قائما كالطعام والشراب وأنه لم يتغير، ويؤيدون اتجاههم بأن السياق يدل على ذلك لأنه معطوف على الطعام والشراب، والفعل محذوف فى المعطوف لدلالة المعطوف عليه. ويرى بعضهم أن المراد انظر إلى حمارك وقد صار عظاما بالية ثم رد إليه سبحانه وتعالى الحياة وقد اتخذوا من قوله بعد ذلك: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ قرينة على ذلك.

وعندى أن الأقرب هو التخريج الأول؛ ولذلك أمر سبحانه وتعالى بالنظر إلى الطعام والشراب وحدهما ثم أمر بالنظر إلى الحمار وحده فكان هذا يشعر بالتقابل

وهو يومئ إلى تغاير بينهما: فهذا بلى، وهذان بقيا على حالهما، وكان بقاؤهما دليلا على قدرة العلى القدير، وتغييره أمانة على مرور السنين.

وهنا بحث لغوى فى قوله تعالى: ﴿يَتَسَنَّهُ﴾ فلما أن نقول أنه من السنة كقولهم: سانهت وسانيت فمعنى ﴿لَمْ يَتَسَنَّهُ﴾ لم يتغير بمرور السنين وذلك من سنهت النخلة وتسنهت إذا أتت عليها السنون وغيرتها، وإما أن نقول إنها من أسن الماء أى تغير. وقيل أصلها «لم يتسنن» وقلبت النون هاء ولكن على معنى يتغير والأولى أولى بالقبول وأقرب فى المعنى والاشتقاق.

﴿وَلَنَجْجَعَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ والمعنى: فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه وتعالى كما رأيت ولنجعلك آية، أى معجزة معلنة قدرة الله سبحانه وتعالى للناس لكى يؤمن بالبعث والنشور من لا يؤمن ولكى يدرك عظمة الله فى الخلق والتكوين من لم يدركها وعلى ذلك فالواو فى قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْجَعَكَ﴾ للعطف على نتائج الكلام السامى الذى سبقها؛ لأن نتيجه أن تطمئن وتدرك ولنجعلك . . . إلخ.

ووجه كونه آية للناس أن الناس تناقلوه فيما بينهم وأن أحفاده يذكرون أنه مات وانتهى فإن وجدوه حيا وأعلمهم بما كان له وما أصابه من موت ثم حياة، ولا بد أن من أسرته ومن ذريته من يذكر غيبته وأنه عاد وأنه حى بعد وفاة وبعث بعد موت - كان ذلك آية البعث وعلامته الحسية ودلالته القاهرة لمن عنده قلب أولقى السمع وهو شهيد.

وبعد أن ذكر سبحانه تلك الآية الدالة على كمال قدرته وجه الأذهان إلى ما فى أصل الخلق من دلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى على الإعادة كما هو قادر على الإنشاء، وأن الإنشاء نفسه دليل القدرة على الإعادة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف] وأنه لو تنبه الإنسان لأصل خلقه لأدرك عظيم القدرة، فقال سبحانه مخاطبا ذلك الذى أحياه بعد موت:

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ أى انظر إلى العظام كيف ننشزها أى نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدتها، فالإنشاء الإنشاء للعظام

وتركيبتها. وقرئ (كيف ننشئها) أى نحييها ونوجدتها فالمعنى: التفت إلى تكوين الله سبحانه وتعالى للإنسان والحيوان كيف ينشئ العظم أولاً ويوجدته ويركبه بعضه فوق بعض، حتى إذا تكونت العظام خلق سبحانه اللحم وتكون حول العظام كأنه الكسوة تكسوها فهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون].

ولقد أنتجت تلك البينات نتيجتها الحسية فحكى الله سبحانه ذلك عنه فقال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى لما تبين له بالأدلة الحسية المادية القاطعة لكل جدل قال: «أعلم» أى استيقن وأومن وأعتقد «أن الله على كل شىء قدير». ويدخل فى ذلك العموم البعث والنشور وإنشاء الحياة وإعادتها، ولكن إذا كان ذلك المار المتحدث عنه من الأنبياء كيف يقال عنه أنه تبين بعد تلك الإعادة الحسية وأنه علم علماً مقترناً بها؟ إذ معنى ذلك أنه لم يكن عالماً بذلك قبلها ونقول فى ذلك: إنه إذا لم يكن نبياً فلا مورد للاعتراض ولا داعى للجواب، ولكن إن كان نبياً فللاعتراض مورد وللإجابة موضع فنقول: إن العلم درجات واليقين درجات فالعلم المبني على الأدلة العقلية وعلى الإذعان المطلق للحق ببيان من لا يتطرق الظن إلى قوله هو نوع من العلم القاطع الجازم وهو مهما تكن درجته من القوة والإيمان والإذعان دون العلم المبني على التجربة والحس والعيان، فذلك العلم المبني على التجربة والحس هو العلم الجديد الذى علمه ذلك النبي والذى كان نتيجة لذلك التبين الحسى الذى لم يعتمد على التفكير المجرد بل اعتمد مع ذلك على قوة الحس والتجربة فالتقى للعلم سببان: سبب مشتق من التفكير والإيمان والتصديق، وسبب آخر مشتق من التجربة والعيان.

هذه هي القصة الأولى التى تؤكد بالحس الإيمان بالحياة بعد الموت وبالبعث والنشور. أما القصة الثانية التى تؤكد هذا فهي قصة سيدنا إبراهيم خليل الله فقد قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ هذه مجاوبة بين رب العالمين وخليله إبراهيم . لقد كان إبراهيم قانتاً لله حنيفاً وكان غواصاً طالباً للمعرفة يتأمل في كل شيء ويتقصى بفكره باحثاً وراء الحقيقة طالبا لها، قال لربه الذي اتخذه له خليلاً: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ نادى ربه ذلك النداء، فيشير بأنه مقر بأنه خالقه ومربيه والقائم على أمره، وطلبه هو طلب الكيفية، فهو مقر بالأصل مدعن له خاضعٌ كل الخضوع لحكمه مؤمن بالبعث والنشور، وأن الله سبحانه هو الذي يحيى ويميت، وأنه القاهر فوق عباده، ولكنه يريد أن يعلم بالحس كما علم بالقول الحق وبالعيان كما علم بالبرهان.

قال إبراهيم ذلك، فقال له ربه مشيراً إلى أن الغاية هي الإيمان ﴿أُولَئِمُ تُوْمِنُ﴾ أى: أ تقول ذلك وتطلبه وأنت لم تؤمن؟ فإن كنت مؤمناً فإن ذلك غاية المطلوب وإن لم تكن فليس وراء ما علمت من حجة، وإن فيه الدليل القاطع والبرهان الساطع، فأجاب إبراهيم ربه: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ «بلى» أى آمنت؛ فهي نفى لما بعد الهمزة، ونفى عدم الإيمان إثبات للإيمان؛ لأن نفى النفى إثبات كما يقول العلماء، وإذا كان إبراهيم مؤمناً فلماذا طلب ما طلب؟ فقد قال مستدركا: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ والاطمئنان السكون والقرار فهل كان إبراهيم غير مطمئن وفي اضطراب حتى رأى وعاین؟ إن الاضطراب يتنافى الإيمان والشك يتنافى اليقين، وقد قرر أنه مؤمن فلا اضطراب، إنما كانت حيرة إبراهيم في الكيفية لا في أصل القضية؛ لأن إبراهيم كما قلنا كان غواصاً متأملاً يتطلع لتعرف كل شيء، فحمل نفسه بسبب ذلك عناء البحث عن الكيفية، فكان في حاجة إلى ما يذهب حيرته في هذه الكيفية، فطلب ما طلب ليطمئن عقله الخائر الذي تجاوز منطقة الإيمان بالأصل إلى محاولة معرفة كيفية الإعادة وهي فوق القدرة العقلية البشرية. ولقد قال بعض العلماء إن الاطمئنان الذي طلبه إبراهيم عليه السلام هو الاستدلال بالعيان بعد الاستدلال بالبرهان، فإن الحس يحمل الإنسان على الإذعان أكثر مما يحمل الدليل العقلي، وهذا رأى حسن في جملة ولكن ما سقناه أولاً أقوى في نظرنا وأحكم. هذا طلب إبراهيم عليه السلام، ولقد كان جواب ربه هو ما كان بقوله تعالى:

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أى إذا كنت مُصِراً على طلبك فخذ أربعة من الطير. فالفاء هنا فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر. ومعنى ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أى فضمنهن إليك، أو أملهن أو حوّلهن إليك، والضمير يعود على الطير؛ لأن كلمة الطير فى معناه جمع لما لا يعقل، وجمع ما لا يعقل يصح عود الضمير عليه بصيغة ضمير جماعة الإناث، وقد كانت عودة الضمير بتلك الصيغة دالة على معنى الجماعة وعموم ضم الطير واحدة واحدة، وإنما كانت الطير موضع تجربة لأنها لا تستأنس بالإنسان وتطير عند مجرد رؤيته، فتحويلهن إليه يسر لا يكون إلا بتأليف من الله العلى الخبير.

وأن تحويل الطير إليه لتجرى تلك التجربة الربانية، وهى أن يجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوهم يأتين إبراهيم سعيّاً؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أمر الله إبراهيم بأن يجعل أى يضع على كل جبل أى كل جزء مرتفع من الأرض جزءاً وأن يدعوهم بعد ذلك يأتينه سعيّاً.

وجمهور المفسرين يقول فى تفسير هذه الجملة السامية: أن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم خليله أن يجرى هذه التجربة، بأن يذبح تلك الطيور ويقطع أجزاءها ويضع على كل مرتفع من الأرض جزءاً من تلك الأجزاء المتقطعة، ثم يدعوها فتكون طيراً بإذن الله ويحىء إليه سعيّاً، وعلى هذا النحو يكون ذلك العمل الحسى تقريباً لمعنى الإحياء وإن لم يكن بياناً كاملاً للكيفية؛ لأن الكيفية عند الله العليم الخبير علمها، ويكون ذلك إظهاراً للإحياء بمظهر حسى وإن لم يكن فيه بيان الكيفية.

هذا نظر جمهور المفسرين، ولقد قال أبو مسلم الأصفهاني إن الآية ليس فيها ما يدل على أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد ذبح الطير وقطع أجزاءها، إنما الذى فيها أنه حولها إليه ووضع جزءاً على كل مرتفع من الأرض، وعلى هذا يكون المعنى أن إبراهيم عليه السلام طلب منه رب البرية أن يحول جمعا من الطير إليه

ويجعل على كل مرتفع من الأرض طائفة من هذا الطير ثم يدعو هذه الطوائف يأتيه سعيًا، وفي هذا توجيه لإبراهيم عليه السلام إلى أن الله سبحانه وتعالى يؤلف كل شيء ولو كان متنافرا ويجمع كل جزء ولو كان بعيدًا، كما دعوت الطير التي لا تحبب إنسانًا وتنفر منه فأجابتك بقدرة العلي الحكيم الذي يؤلف بين المتنافرات، فإن كان ثمة استغراب من أن الحياة تقتضى أن يجمع الله سبحانه وتعالى أجزاء متناثرة قد تحللت وتجزأت إلى أجزاء بل جزئيات، فهذا أنت ذا ترى تلك النفرة التي بين الإنسان والطير تزول، تدعوها فتستجيب وهي من شأنها النفور، وكذلك يؤلف الله بين الأجزاء المتناثرة، فيجعل منها ذلك الحى الذى كان من قبل ثم إن فى تلك التجربة تصويراً دقيقاً، وهو أن إعادة الله تعالى للأشياء لا تكون إلا بقوله تعالى كن فيكون، كما يقول خليل الله إبراهيم للطير وقد تفرقت: أَقْبِلِي فَتُقْبَلِ .

هذان هما التفسيران للآية، ونرى أن رأى الجمهور يتجه إلى تحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم عليه السلام وهي إحياء الموتى بالحس المعاین وإن لم تعلم الكيفية، كما جرى بالحس المعاین إمامة الرجل مائة عام ثم إحياءه، ويكون من مقتضى التناسق بين الآيتين أن تكون فى هذه الآية معجزة الإحياء بعد تقطيع الأجزاء، فالمقام كله يتجه بنا إلى الإعجاز بإحياء الميت بمراى العين، وتكون العبرة فى القصة هى أنه يريه الحقيقة واضحة جلية، ورؤيتها تغنى عن البحث فى كیفيتها وإنا نميل لهذا الرأى .

أما رأى أبى مسلم فهو مبنى على الألفاظ من غير أن يرمى بنظره قليلا إلى الآية التى سبقت ذلك من الإمامة مائة عام ثم الإحياء بعد ذلك، وهو نظر إلى أن الكيفية لا يمكن أن تعلم للإنسان، وإنما أقصى ما يعلمه هو أثر القدرة لا كیفيتها وأنه صور للإنسان الإعادة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة) [١١٧] وأنها تكون كقول إبراهيم للطير: أقبلن أيها النافرات فيقبلن .

وقد ذيل سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وكان ذلك التذليل الكريم للدلالة على ثلاثة أمور:

أولها: إن العزة لله وحده فلا يركن إليه مؤمن إلا عزاً، ولا يبعد عنه أحد إلا ذل، فمن اعتز بغير الله فهو الذليل، ومن آوى إلى فضل الله فقد آوى إلى ركن شديد. وأن مناسبة هذا للآيات السابقة كلها واضحة؛ لأن إبراهيم كان يغالب طاغية جباراً عاتياً قد استهان بالناس جميعاً كما دلت عليه الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فالله العلى القدير يدعو خليله أن يتقدم لدعوة ذلك الجبار معتزاً بالله فلا عزة إلا من الله، والله غالب على النمرود ومن هو أكبر من النمرود.

وثانيها: الإشعار بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وعزته هي عزة القادر الغالب، لا عزة الضعيف العاجز.

وثالثها: إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بحكمته وبعث الرسل يدعون إلى عبادته وحده وهو الذى قدر الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً وكل ذلك من مقتضى الحكمة الإلهية التى لا تصل العقول إلى العلم بها؛ لأنها لا تعلم من الكون إلا مظاهره وأشكاله وألوانه، ولا تعلم شيئاً عن كفيته وأسراره، إن ذلك كله عند علام الغيوب، وفوق كل ذى علم عليم.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ
 لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّْا وَلَا أَذًى لَهُمْ
 أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ﴿٢١٨﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا

أَذَى^{٢٦٣} وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ^{٢٦٣} يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا
صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^{٢٦٤}

المؤمن الحق يشعر أن الحق يتقاضاه دائماً الجهاد لأجله، والسعى في سبيل
رفعته؛ لأنه منذ أن أخرج إبليس وآدم وحواء من جنة الله، والعداوة مستحكمة بين
الحق والباطل، وإبليس يغوى الأشرار، والله سبحانه يهدي المؤمنين إلى الحق،
ويوفقهم لنصرته.

وإن الجهاد في سبيل الحق له ميادين ثلاثة:

أولها: الإقناع بالحجة والبرهان، كما قال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ:
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (١٦٥)
[النحل] وإن ذلك الجدال مع أهل الشر الذين مردت نفوسهم على النفاق والمغالبة
بالباطل ليس أمراً سهلاً يسيراً، بل هو أمر الأمور؛ لأن التقاء العقل الذي أناره نور
الحق بالعقل الذي طمس الله على بصيرته ليس من الأمور التي يستطيعها كل
العقلاء.

والميدان الثاني من ميادين الجهاد: الجهاد المسلح، بمنع اعتداء الباطل، وخضد
شوكته وفلّ حدته، وحمله على الجادة، ومنع أهله من أن يفتنوا الناس في دينهم؛
وإن ذلك أظهر ميادين الجهاد، وهو باب من أبواب الجنة.

والميدان الثالث من ميادين الجهاد: البر وإعطاء المال، وبذله مع طيبة النفس
ببذله وعطائه؛ وإذا كان المال قد سمي النفيس؛ فلأنه قطعة من نفس من يبذله، وإن
بذل المال هو الذي يقوى وحدة المؤمنين؛ لأنه من التعاون بين الفقير والغنى،

والتعاون جماع كل القوى، وفوق ذلك فإن إمداد الجند بالمال، إنما هو إمداد بذخيرة القتال، وعدة النزال، والمال فى الحروب من عصبها، كما هو عصب كل إصلاح فى الأمة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى قصص القتال بين الحق والباطل، وكيف ينتصر الحق مع الإيمان به وقلة العدد والعُدَد، وينهزم الباطل مع كثرة العدد؛ وذكر عمل المرسلين، وتبليغهم رسالات ربهم؛ وذكر من ذلك مجادلة إبراهيم خليله لطاغية من طغاة الدنيا.

وفى هذه الآية الكريمة يذكر سبحانه ميدان الجهاد الثالث، وهو ميدان الصدقة غير الممنونة ولا الممنوعة؛ ولقد روى أن هذه الآيات نزلت فى صدقة عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان فى الجهاد فى سبيل الله عند غزوة تبوك؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال: يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف، فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربى؛ فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت»^(١). وقال عثمان: يا رسول الله علىَّ جهاز من لا جهاز له. ولقد قال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبتها فى حجر رسول الله ﷺ^(٢). ولقد قال أبو سعيد الخدرى: رأيت النبى ﷺ رافعا يديه يدعو لعثمان يقول: «يارب! عثمان، رضيت عن عثمان فارض عنه»^(٣).

(١) رواه البزار عن أبى هريرة، وكذلك أخرجه عبد بن حميد، وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرى وابن مردويه، وذكره ابن إسحاق فى المغازى بغير إسناد. راجع: فتح البارى ٣٣٢/٨، ومجمع الزوائد ٣٢/٧، وكنز العمال (٣٦٣٣).

(٢) رواه الترمذى: مناقب عثمان (٣٦٣٤).

(٣) رواه أبو نعيم وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى بلفظ: «اللهم قد رضيت عن عثمان فارض عنه» قالها ثلاثا، وكذا رواه ابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها. [جامع الأحاديث - السيوطى (٤٢٢٥)].

وفى الحق إن هذه الآية تشمل صدقة عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فى معناها؛ لأنه يتحقق فى تلك الصدقة السخية كل أوصاف الصدقة التى يتقبلها رب العالمين فرضى الله عن الصحابة أجمعين.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ الحبة اسم لكل ما يزرعه ابن آدم ويكون منه قوته، وأكثر ما تكون فى البر، وسنابل جمع سنبل، وهى وزن فنعة من السبل، ويقال أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالإسبال، وقيل معناه صار فيه حب مستور كما يستر بإرسال الستر عليه.

وسبيل الله، هى سبيل النفع العام، والجهاد فى سبيل الله وإعطاء السائل والمحروم أو بعبارة عامة: الإنفاق فى سبيل كل خير، لا يقصد بالإنفاق فيه كل وجوه البر والنفع، ولكن إذا اجتمعت مع أبواب البر الأخرى، كان المقصود بها الإنفاق فى الجهاد فى سبيل الله، وهو الإنفاق على المحاربين والغزاة وإعداد العدة، كما هو فى آية الصدقات فى التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ...﴾ [٦٠] التوبة؛ ولذلك كان الغالب على هذا اللفظ أن يكون الإنفاق فى سبيل الجهاد، وكل ما يعد القوة المدافعة عن الأمة.

وقد شبه سبحانه حال الذين ينفقون فى سبيل الله بحال حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبل مائة حبة، وقد ذكر الزمخشري وغيره من المفسرين: أن التشبيه ليس بين الذين ينفقون والحبة، بل بين الصدقة نفسها والحبة؛ فالكلام فيه مضاف محذوف مقدر فى القول، وتقديره: مثل صدقة الذين ينفقون فى سبيل الله.. فقد شبه سبحانه الصدقة التى تنفق فى سبيل الله بحبة تلقى فى الأرض فتخرج عوداً مستويًا قائمًا تتعلق به سبع سنابل فى كل سنبل مائة حبة، أى أنه يتولد عن هذه الحبة التى باركها خالق الحب والنوى سبعمائة حبة، وإسناد الإنبات إليها من حيث اتصاله بها، وأن تلك الحبات هى نماء متولد عنها، وفى الحقيقة إن المنبت هو الله سبحانه وتعالى.

والمفسرون جميعاً مجمعون على أن النفقة في سبيل الله تنتج سبعمائة مثل لها؛ لأن صاحبها يكافئه الله تعالى عليها بتلك المكافأة السخية، وهو سبحانه وتعالى المعطي الوهاب، وإن ذلك وجه صحيح بلا شك، ويزكيه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فإنه في ظاهره يدل على عطاء الله بالثواب على الحسنة بعشر أمثالها، وعلى الصدقة بسبعمائة مثل؛ فلا حد لفضله وعطاءه سبحانه.

ولكن يصح مع ذلك أن نقول: إن الصدقة في سبيل الله تنتج سبعمائة مثل لها، لا من حيث الثواب الذي يناله المنفق ممن يملك الثواب فقط، بل من حيث النتائج التي تنتج عنها؛ فإن نتائج الإنفاق في سبيل الله عظيمة تعود على الأمة بسبعمائة مثل لهذه الصدقة أو تزيد، فإن الإنفاق في سبيل الحرب بإعداد العدة يدفع كيد الأعداء فتنتجو الأمة، وفي نجاتها خير كثير هو أكثر من سبعمائة ضعف من المال الذي أنفق. ومن يعطي يتيما ويدر عليه من ماله فإنه يربيه، فتكون منه قوة عاملة في الأمة، تأتي من وجوه الخير بأضعاف ما أنفقت في تربيته، ودفع شرا خطيرا، وهو أن يكون ذلك اليتيم إن لم يتعهد بالتربية الصالحة عنصر تخريب في الأمة. ومن ينشئ مستشفى، فإنما يدفع أدواء تعوق القدرة الإنسانية فلا تنتج، فإذا حمى هذه القدرة فقد قدم للجماعة خيراً كثيراً بهذا الإنتاج.

وعلى ذلك نقول: إن سبعمائة الضعف ليست فقط هي الثواب الذي يناله صاحب الصدقة، إنما هي مع ذلك النتائج الجليلة التي ترتبت على هذه الصدقة. وإنه ليزكى نظرنا هذا، إسناد الإنبات إلى الحبة، وهي التي شبهت بها الصدقة؛ لأن ذلك يدل على أن تلك الأضعاف غناء لتلك الحبة، وهي أنسب في معنى النتائج النافعة للصدقة في الأمة، لا مجرد النفع فقط بالثواب لصاحبها.

وإن ذلك القول كله مبني على أن التشبيه بين الصدقة في نتائجها وبين الحبة في ثنائها الدر الوفير؛ وأن الكلام على تقدير مضاف في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ أي نفقة الذين ينفقون، على هذا التخريج الذي قاله كل المفسرين. ولقد خطر لى أنه لا مانع من أن يكون التشبيه بين المنفقين أنفسهم من حيث كونهم عنصر

خير فى الأمة له ثمرات منتجة، وبين الحبة من حيث ذلك النماء، وعلى ذلك لا يكون ثمة حاجة إلى تقدير مضاف محذوف، بل يكون المعنى على ذلك التخريج الذى يفيد ظاهر اللفظ: إن أولئك الذين يتفوقون أموالهم فى سبيل الله بإنفاقها فى الجهاد لإنقاذ الأمة، أو لسد حاجة المعوزين ليكونوا قوة عاملة فيها ولا يكونوا عنصر تخريب، ويعملون لحفظ القوى الإنسانية من أن تبدها الأمراض، إن هؤلاء أنفسهم مثلهم فى إنتاجهم وثمرات أعمالهم كمثل حبة نمت، فكان نماؤها أن تولد عنها عدد قد استغلظ وقام على سوقه، فحمل سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة، وإن ذلك يكون كقوله تعالى فى وصف المؤمنين ونتائج أعمالهم،؛ إذ قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّارِعُ لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...﴾ [الفتح].

وعلى هذا يكون تشبيه المنفقين أنفسهم بالحبة التى تنمو فتكون مائة، هو تشبيه المؤمنين بالزرع الذى يستغلظ فيقوم على سوقه، وينبت الخير الكثير.

وإن هذا خاطر خطر لى؛ وإنه يصح أن يستقيم عليه التخريج، وحتى على فرض التقدير؛ فإن حذف المقدر يومئ إليه ويشير.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا هو التشبيه المحكم الذى ذكره رب العالمين، وتلك تخريجاته. ولقد بين سبحانه بعد ذلك أن هذا كله من فضل الله تعالى ومن رحمته، ونعمه التى أنعم بها على عباده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ولهذه الجملة السامية تخريجان:

أحدهما: أن تكون المضاعفة هى ذلك النماء، وهذا الثواب العظيم، يجعل الإنفاق ينتج عنه سبعمائة ضعف، ويجعل الحسنة الواحدة فى باب الصدقات يكون ثوابها بسبعمائة مثل، وتكون بركتها فى مال المنفق بسبعمائة مثل أيضاً؛ إن هذه المضاعفات يضاعفها الله سبحانه لمن يشاء بتوفيقه لفعل الخير، والإنفاق فى سبيل الله، وهو سبحانه وتعالى الفعال لما يريد.

وثانيهما: أن تكون المضاعفة التى يضاعفها ثوابًا أكثر من سبعمئة المثل وفوقها، ونماء أوفر منها، وعطاء أكبر.

فالله سبحانه، وهو رب كل شىء وخالق الأسباب والمسببات يستطيع أن يعطى سبعمئة وأكثر منها لمن يشاء؛ إذ يوفقه لفعل الخير بنية خالصة وقلب نقى، فيضاعف له أضعافًا كثيرة بعد السبعمئة التى نص عليها سبحانه. ومهما يكن فإن الاتجاه واحد، وهو بيان سعة عطاء الله تعالى، وسعة ثمائه، وهو الرزاق ذو القوة المتين.

وقد ذيل سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أنه سبحانه عطاؤه واسع، فالسعة وصف للعطاء، أو وصف لله سبحانه وتعالى باعتبار شمول قدرته، وسعة ما يدخل فى سلطان إرادته، فلا حد يحد هذه القدرة، ولا سلطان لغيره سبحانه يمنع شمول هذه الإرادة.

وهو سبحانه عليم بعباده، عليم بالسر والجهر، وبما يجرى على الألسنة وما تخفيه الصدور، وعليم بالأعمال، والنيات التى تنبعث عنها هذه الأعمال، وعليم بالأعمال ونتائجها، وهو سبحانه بقدرته القاهرة هو الذى يرتب المسببات على الأسباب، وينشئ بحكمته العلاقة المؤثرة بينهما، فلا يؤثر السبب فى المسبب إلا بقدرته وإرادته التى تسير على مقتضى علمه الذى شمل كل شىء.

وقد ذيل سبحانه الآية بهذين الوصفين للذات العلية، لكيلا يقع فى نفس قارئ وهم بالاستكثار أو الاستبعاد، فإنه لابعيد على قدرته سبحانه، ولا كثير أمام إرادته، وإن كل شىء عند الله بمقدار، وهو يدبر كل أمر بعلمه وحكمته، وهو العزيز الحكيم، وهو بكل شىء عليم.

﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦٢) الإنفاق فى سبيل الله، سبيل النفع العام، يثمر ثمراته من الخير العميم؛ لأن العطاء المادى ينتج نتائجه من معونة فى الجهاد، وسد للثغور، ومنع للأذى، ودفع للكرب، ولكن المنفق لا يستحق ثواب الإنفاق إلا إذا كان طيب النفس فى عطائه لا يَرْتَقِه من ولا أذى ولا رياء؛ فالصدقة

تنتج آثارها في الجماعة حتماً، مهما تكن نية صاحبها، ولكن صاحبها لا ينال أجر المنفق إلا إذا خلصت نفسه من هذه العناصر الثلاثة: المن، والأذى، والرياء؛ فإن النتائج للأعمال؛ أما الثواب فللنيات؛ كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١).

والمن: أن يعد الإنسان إحسانه على من أحسن إليه، متطاولاً به عليه، مبيئاً له: أنها فضل ساقه إليه، غير مشكور، وإن ذلك فيه اتجاه إلى طلب المثوبة من العبد، لا من الرب، فله ما اختار. ولقد قال الزمخشري في تفسيره: «صنوان مَنْ منح سائله وَمَنْ، ومن منع نائله وضمن» ولقد قال ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى»^(٢).

والأذى: أن يصدر عنه ما يؤلم من يأخذ ولو بغير من، كأن يقول له: ألا تعمل! أو يتجههم في وجهه عند العطاء، أو ينتقد بغير الحق الذين قاموا على المال الذي جمع لوجه عام. ويروى أن امرأة قالت لصحابي: دلني على رجل يخرج في سبيل الله حقاً، فإنهم إنما يخرجون يأكلون الفواكه، فإن عندي أسهماً وجعبة، فقال: «لا بارك الله في أسهمك وجعبتك فقد آذيتهم قبل أن تعطيهم!».

ولماذا كان المن والأذى مانعين للأجر؟ لأن الأجر هو جزاء من الله، فمن تصدق يتغى وجه الله فله ثوابه، ومن مَنْ أو آذى فقد قصد غير وجه الله فليس له أن يطلب ثوابه. ولقد قال في ذلك ابن جرير الطبري:

(أوجب الأجر لمن كان غير مانع ولا مؤذٍ لمن أنفق عليه في سبيل الله؛ لأن النفقة في سبيل الله مما ابتغى به وجه الله وطلب به ما عنده؛ فإذا كان معنى النفقة في سبيل الله هو ما وصفنا، فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه؛ لأنه لا يد له قبله، ولا صنعة يستحق بها عليه - إن لم يكافئه عليها - المن والأذى إذا كانت نفقة ما أنفق عليه احتساباً وابتغاء ثواب الله وطلب مرضاته، وعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه).

(١) سبق قريباً تخريجه من رواية البخاري ومسلم، وقد استفتح به البخاري صحيحه.

(٢) رواه النسائي: الزكاة - المنان بما أعطى (٢٥١٥).

وقد بين سبحانه جزاء الذين يتفنون على هذا الوجه لا يتغنون إلا رضاه سبحانه، ولا يرجون ثواباً من أحد سواه، فذكر جزاءين عظيمين:

أولهما: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى لهم جزاؤهم مكافأة لهم على أعمالهم وسماه سبحانه وتعالى أجراً، وهو المعطى الوهاب، توثيقاً للعطاء، وقال سبحانه: «لهم»، ولم يقل مثلاً: «أعطيتهم»، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى للإشارة إلى أنه كان لهم بنياتهم، واستحقاقه باحتسابهم، وليعلمهم كيف يكون العطاء من غير أجر؛ إنه سبحانه وتعالى هو الذى منحهم المال الذى أعطوا منه، وهو الذى وفقهم لأن يعطوا، وهو الذى يملكهم وما يتفنون وما يعملون، ومع ذلك يسمى ما يعطيهم أجراً قدموا مثيله من قبله مع أنه يعطيهم أضعافاً كثيرة عنه، ولكنه يعلم الناس كيف يكون البعد عن المن، وكيف العطاء غير ممنون.

الجزء الثانى الذى ذكره رب العالمين هو الأمن والاطمئنان؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد نفى سبحانه وتعالى الخوف، ولم يقل لا يخافون؛ لأن الخوف أمر نفسى، وقد يكون من غير مخوف، وتكون الخشية والخوف من شأن المؤمن شعوراً بتحمل التبعة؛ ولذا نفى سبحانه الخوف أى الأمر المخوف، أى لا ينزل بهم أمر من شأنه أن يخافوه، ولم ينف الخشية النفسية فى ذاتها؛ إذ الحال النفسية من قوة الإحساس؛ ولذا يقول الصوفية: غلب الخوف على الرجاء. أما الحزن وهو الهم الذى يصيب القلب فهو منفى فى كل صورة ولا يصح أن يكون حالاً من حالات الإيمان.

وما الخوف المنفى والحزن؟ أهما ما يكونان فى الآخرة؟ جل العلماء على ذلك، ولكن لماذا لا يراد ما هو أعم من أحوال الدنيا والآخرة؟ وإن ذلك ما تختاره؛ لأن الإنفاق فى سبيل الله يدفع خطر الأعداء من خارج الأمة، ويجمع الوحدة ويقضى على أسباب الفتن الداخلية، فيكون الأمن فى الداخل والخارج معاً، فالمتفنون فى سبيل الله لا خوف عليهم فى الدنيا، ولا يحزنون فى الدنيا أيضاً كما أنهم لا خوف عليهم فى الآخرة ولا يحزنون.

وقبل أن تنتقل إلى الآية الثالثة من آيات الإنفاق ننبه إلى بحثين لفظيين:

أولهما: أن الله سبحانه وتعالى كرر النفي فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ لتأكيد النفي، بالأى يصدر عنهم أى نوع من أنواع الأذى، فلا يكون مَنًّا، ولا شبهة مَنًّا، ولا أذى، سواء أكان أذى عن قرب أو بعد؛ حتى لقد قال بعض الصالحين: (لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه).

وثانيهما: إنه سبحانه وتعالى عطف بشم فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ فلماذا كان العطف بشم دون الفاء؟ فهل مقتضى هذا أنه يسوغ المن والأذى عند العطاء، ولا يسوغ بعده بفترة من الزمان؟ والجواب عن ذلك أن التعبير بشم أفاد النفي المطلق على عدم اتباع الإنفاق بالمن والأذى فى زمن قريب أو بعيد؛ لأن المنفق فى غالب الأحوال يكون عند إنفاقه فى حال حماسية نفسية تدفعه إلى الإنفاق، فما يفكر فى مَنٍّ ولا أذى وقته، وإن خطر له ذلك فقد يمنعه من الإعطاء، إنما يكون التفكير فى المَنِّ أو الأذى بعد ذهاب فورة الخير فى النفس، فإذا كان الله سبحانه قد صدر النفي بـ «ثم» فليحث المنفق على الاستمرار على نزعة الخير، ولا ينكص على عقبيه، فيفسد نيته بأذى يؤذى به من أجرى الخير على يديه، أو من يمن به على من أعطاه.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢١٣) فى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه منزلة قول المعروف، وكيف يذهب الأذى بخير الصدقة الفردية، وأن الحرمان فيها مع قول الخير خير من الصدقة مع الأذى بالمن أو غيره، وأن ألم الحرمان أقل من أذى القول؛ لأنه أذى يصيب النفس بالجراح، وجراح النفس ليس لها التئام، أما ألم الحرمان فيذهب الصبر، ووراء الصبر الفرج القريب، وإن الله مع الصابرين.

وقول المعروف هو الرد الجميل لطالب العطاء، وذلك بتأنيسه، وترجية الخير له، وإن هذا فى ذاته صدقة؛ ولقد قال ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة، وإن من

المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق^(١). ولقد قال بعض الحكماء: (الق صاحب الحاجة بالبشر، فإن عذمت شكره لم تعدم عذره).

وإنه ظاهر من هذا أن قول المعروف يكون لصاحب المصلحة الشخصية الذي يطلب من المنفق مباشرة. ولقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن قول المعروف يكون أيضاً عندما يكون الإنفاق في المصلحة العامة، وإنه يكون كفاءها، ومساوياً لها، وخيراً من الصدقة التي يتبعها أذى، وذلك بالتحريض على العمل، وعلى الإنتاج، وعلى الإعطاء، ويكون بالدعوة إلى كل ما فيه رفعة الأمة وتقوية عناصرها والتعاون بين آحادها، وإن ذلك بلا ريب فضله لا يقل عن الإنفاق من غير مَنْ، ويزيد عن الإنفاق مع مَنْ والأذى.

والمغفرة معناها الستر أو العفو، والمراد: إما الستر من المطلوب منه العطاء، وعفوه، وذلك بأن يستر خلة المحتاج ولا يعلن سوء حاله، ويجعلها موضع حديثه، ويعفو عنه إذا أغلظ أو جفا، أو أثقل في السؤال، وألحف في المسألة؛ وإما أن نقول إن المغفرة هي مغفرة الله سبحانه وتعالى للمسئول إذا لم يعط من غير شح ولا بخل.

والمعنى على هذا التخريج: إن قول المعروف مع مغفرة الله سبحانه وتعالى خير من الصدقة يتبعها الأذى. والوجه الأول أظهر وأبين، وهو المتفق مع سياق القول.

وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ لإثبات أن الذين يعطون إنما يقصدون وجه الله بعطائهم لينفعوا عباده، فإذا لم يقصدوا وجهه تبارك وتعالى؛ ويطلبوا رضوانه، فإنه غنى عنهم، وهو بغناه الذي يعلو فوق كل تقدير يستطيع أن يجعل الفقير غنيا يعطى، والغنى فقيراً يسأل، فالمال مال الله، وهو غاد ورائح والله سبحانه وتعالى حلِيم، وعلى الناس أن يتخلقوا بأخلاق الله تعالى، ولله المثل الأعلى، وليس كمثله شيء، فلا يصح أن يدفعهم حمقهم لأن يقولوا

(١) رواه الترمذى: البر والصلة (١٨٩٣)، وأحمد (١٤١٨٢).

للفقير ما يؤلم، أو للقائم بالمصلحة العامة التى أنفقوا فى سبيلها ما يشبط همته، وينهته من عزمته. وفى ذكر هذا الوصف الكريم فى هذا المقام إشعار بأن المن والأذى ذنب كبير يستحق العقاب، ولكن لحلم الله تعالى، ولأن رحمته سبقت عذابه أمهل ولم يهمل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا نهى صريح واضح عن المن والأذى، وقد تضمن هذا النهى الحاسم أن الصدقات يبطلها المن والأذى، فلا يكون لها أجر من الله، ولا يكون لها شكر من أسدى إليه، سواء أكان الإنفاق فى سبيل النفع العام، أم كان لبعض آحاد الأمة بسد الخلة، ودفع الحاجة؛ وقد أكد سبحانه النهى عن المن والأذى بثلاثة توكيدات:

أولها: تصدير الآية الكريمة ببدء للبعد وفى ذلك فضل مبين، وبأن النداء للذين آمنوا، وفى هذا إشعار بأن الأذى فى الصدقات ليس من صفات أهل الإيمان، إنما هو من صفات أهل الصلف والكبرياء والذين يمنون على الله وعلى الناس إن فعلوا الخير، وليست الكبرياء والاستطالة بفضل العطاء من صفات المؤمنين.

وثانيها: أنه صرح سبحانه بأن المن يبطل الصدقة، ولا يجعل لها ثواباً عند الله، ولا شكراً من الناس؛ ولذا قال ﷺ: «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر»^(١) وتلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾.

وثالثها: أنه سبحانه وتعالى جعل المنفق مع المن والأذى كالمنفق رياء الناس، والمنفق للرياء والسمعة مشرك شركاً خفياً؛ ولذا وصف سبحانه وتعالى الذى ينفق ماله رياء الناس، بأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فأفعاله كقلبه ليست أفعال المؤمنين، وقلبه ليس قلب مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وإذا كان المنفق الذى يتبع صدقته بالمن والأذى مثله، فإن إبطال الصدقات أقل ما يناله.

(١) ذكره القرطبي فى تفسيره: البقرة (٢٦٤) عن ابن سيرين رضى الله عنه.

ولماذا شدد سبحانه في النهي عن المن والأذى، وكرر ذلك في ثلاث آيات متواليات، وأكثر من التشبيه لتقبيح المن والأذى في الصدقة؟

الجواب عن ذلك: أن المن والأذى في الإنفاق ينشأ عن استطالة الغنى بفضل غناه، والمباهاة بثروته وقدرته، وإنه لا شيء يرمض نفس الفقير إلا إحساسه باستعلاء الغنى بسبب الغنى، وصغار الفقير بسبب الفقر، وإن ذلك يدفع بلا شك إلى تفكيك الروابط، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، فإن الفقراء لا يتألمون لذات الفقر إنما يتألمون من مرارته باعتزاز الغنى عليهم، وإشعارهم بذل الحاجة، وعندئذ تتمرد النفوس، وتعرض الأمم للخراب، وتذهب الوحدة الجامعة.

إن الغنى والفقر أمران لا يخلو الوجود منهما، ولا يمكن أن تخلو أمة من غنى وفقير، ما دامت القوى متفاوتة، والفرص لا تواتى الجميع بقدر واحد، والأقدار لا تسعف الجميع في زمن واحد، وما دامت تلك حقيقة مقررة، فعمل الشرائع هو تخفيف ويلات الفقر، ومنع استطالة الغنى؛ ولقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (إن الله امتحن بعض عباده بالفقر، وأمرهم بالصبر؛ وامتنح الأغنياء بالمال، وأمرهم بالعطاء).

ولقد شبه سبحانه وتعالى المن والأذى بالرياء في الصدقة كما أشرنا فقال: ﴿كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وفي هذا التشبيه إشارة إلى أن الذي ينفق ماله رياء الناس، أى لأجل الرياء والسمعة، وأن يقول الناس: إنه سخي جواد، أو لتملق ذي جاه - أسوأ حالا عند الله من ذي المن والأذى؛ لأن المشبه به أقوى دائماً من المشبه. ولقد ذكر سبحانه حال المرائي بنفخته على أنه أمر مقرر سوءه، وليس في حاجة إلى بيان؛ لأنه لا اشتباه في بطلان ما أنفق، إذ إنه ما قصد الخير حتى يبطل قصده، فالفرق بينه وبين الأول أن الأول قصد الخير واحتسبه، ولكنه أفسد عمله بما خالطه به من منٍّ وأذى؛ أما الثاني وهو المرائي فلم يقصد خيراً قط، حتى يبطله سواء؛ فشبه سبحانه حال قاصد الخير المنان في إبطال عمله، بحال من لم يقصد خيراً قط، بل الرياء والسمعة، وهو من فعل الشرك

الخفى؛ فقد قال النبي ﷺ: «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك»^(١).

ولهذا الفارق الجوهرى بين المنفق المنان، والمنفق رثاء الناس، ذكر الله عمل الأول بأنه صدقة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ ولم يصف عمل الثانى بأنه صدقة، ولا فى سبيل الله؛ ولذا قال سبحانه: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ فما الصدقة ابتغاها ولا الخير أرادها، بل الشر كل الشر ما عمله.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ هذا تشبيه جديد، وقبل أن نذكر التشبيه ووجه الشبه نذكر معنى هذه الألفاظ: صفوان، وصلد، ووابل: فالصفوان اسم جنس جمعى لصفوانة، كشجر وشجرة، وهو الحجر الأملس. وقال الأخفش: إن صفوان مفرد كحجر. والصلد معناه الأجرد النقى؛ وقد قال الكسائى فيه: إنه من صلد يصلد صلدًا، وهو ما لا ينبت شيئًا، وقد قال النقاش: الأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئًا. والوابل هو المطر الشديد، وقد وبكت السماء تبل، والأرض موبولة.

والآن نذكر المشبه به فى الآية الكريمة؛ ويبدو بادى الرأى، أن التشبيه بين الذى ينفق ماله للرياء والحجر الصفوان الأملس الذى يكون على ظاهره قليل من التراب الذى يبدو به خصبًا، ووجه الشبه هو ظاهر الخصب الذى يبدو على ظاهر الحجر، ثم انكشافه بمطر وابل، وظهور حقيقته، وهو أنه لا يمكن أن يكون منبتًا؛ فالمعنى أن حال من ينفق للرياء والظهور بمظهر البر المعطى وهو لا يقصد وجه الله تعالى ولا يبتغى رضاه بل ينفق ليرائى الناس، هى كحال حجر أملس لا ينتج شيئًا ولا ينبت نباتًا ولكن عليه ظاهر من التراب يوهم الناظر إليه أنه خصب منتج، ثم تبين حاله بمطر يزيل ما ستره ويكشف حاله، فالمرائى لا إنتاج لعمله مطلقًا كالحجر، وإن كان يبدو للناس برا فإن ذلك لا يلبث أن ينكشف، وتظهر حاله بأمر

لم يكن فى حسابانه، فثوب الرياء يشف دائماً عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

هذا الكلام يدل على أن التشبيه منعقد بين المرائى والحجر الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله؛ ولكن كثيرين يجعلون التشبيه بين المنفق المنان والحجر الصلد، ويكون المعنى على ذلك أن حال المنان فى نفقته التى يبطلها بالمن والأذى، كحال الحجر الأملس الذى عليه تراب كان يرجى أن يكون منتجاً منبتاً للزراع فيصيه وابل يزيل التراب الذى عليه، فيزول سبب إنتاجه، ومادة الخصب فيه؛ فالمن والأذى فى إبطالهما الصدقات التى من شأنها أن تأتى بالثواب ورضا رب العالمين، كالوابل الذى يزيل الصعيد الطيب الذى يخرج نباته بإذن ربه، من حيث كان من شأنه أن ينتج الثواب، فأزال ذلك بمنه وأذاه.

وإنى أرجح الأول، لأن التشبيه بلفظ المفرد، وهو يناسب الذى ينفق ماله رياء الناس؛ لأنه بلفظ المفرد، والمنفق مناً وأذى ذكر بلفظ الجمع، فالضمير فى قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أولى بأن يعود على المرائى لإفرادهما، ولأن الآيات التالية تبين حال المنفق ابتغاء مرضاة الله، وفيها تشبيه صدقتهم بالحبة التى تكون فى أرض خصبة، وإن هذه مقابلة ظاهرة بين المنفق رياء، والمنفق ابتغاء مرضاة الله، فكان الأظهر إذن أن يكون التشبيه فى هذه الآية بين الإنفاق رياء والحجر الأملس.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ جمهور المفسرين على أن هذه الجملة السامية للدلالة على أن المنان والمرائى كلاهما لا ثواب له، فالمعنى لا يقدرُونَ، أى لا ينالون شيئاً من المال الذى أرادوا بإنفاقه كسب الثواب، ولكن كيف يعبر عن نيل الثواب بالقدرة عليه، وعن الإنفاق بالكسب؟ وقد يجاب عن ذلك بأنهم إذا أنفقوا فقد صاروا قادرين على الثواب، وعلى كسبه بمقتضى ما وعد الله به عباده المتقين، فإذا منوا وآدوا فى نفقته، فقد انتفت عنهم تلك القدرة على ثواب هذا الذى أنفقوا وقد كان من شأنه أن يكون كسباً لهم.

وإني أرى أن يكون المعنى أن المنفقين الذين يتبعون ما أنفقوا منا وأذى، والذين يراءون ليس عندهم قدرة على شيء من المال الذي كسبوه، إنما القدرة من الله العلى القدير، فما كان لهم أن يمنوا ولا أن يؤذوا في سبيل ذلك الإنفاق، ولا أن يراءوا به، فالمال مال الله، وهو الذي بقدرته مكنهم منه، وسلطهم عليه، فعليهم أن يتقوا الله فيه، ويشكروا نعمة المنعم به، ولا يراءوا في إعطائهم، وإلا كانوا بالنعمة كافرين.

وعلى ذلك تكون هذه الجملة لتقوية المعنى في الإنفاق، والتحريض على الإخلاص لله في النفقة بحيث تكون خالية من المن والأذى والرياء.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ختم سبحانه وتعالى الآيات بهذه الجملة الحكيمة للإشارة إلى أن الإنفاق من غير مَنْ ولا أذى هو من خواص الإيمان، فالله سبحانه وتعالى يهدي إليه المؤمنين ولا يهدي إليه الكافرين، وللإشارة إلى أن الْمَنِّ والأذى والرياء إنما هي صفات الكافرين فيجب أن يقلع عنها أهل الإيمان، فهي صفات لا تليق بهم، ولا ينبغي أن يكونوا عليها؛ لأن فيها كفرًا للنعمة التي أنعم الله بها، والصدقة رياء وسمعة فيها شرك خفى فيجب على المؤمن أن يطهر نفسه من هذه الأهواء المردية، وليضبط نفسه إذا أعطى، فلا ينطق لسانه بالْمَنِّ، ولينق قلبه من الرياء فإنه يأكل الحسنة فيجعلها سيئة.

وفي الجملة إشارة إلى أن الله غنى عن عطاء المنان المؤذى أو المرائى، إن أعطوا لنفع عام أو لدفع أذى الكافرين، فإن الله سيتولى الكافرين، وهو لا يهديهم إلى سبيل الانتصار على المؤمنين الصادقين في إيمانهم؛ لأنهم أولياء الله الذين قال فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس].

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَعَالَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ

وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٥﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ تَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾

فى الآيات السابقة بين سبحانه الصدقات التى يشوبها الرياء فيذهب بخيرها،
وأن الرياء فى الصدقة لا يصدر عن شخص يؤمن بالله واليوم الآخر صادق
الإيمان، وأن الرياء فى الصدقة يذهب بثمرتها والقربى فيها كما يذهب المطر
الغزير يصيب أرضاً حجرية عليها قشرة رقيقة من التراب، فيذهب المطر الشديد
بها.

وفى الآية الأولى من هاتين الآيتين يبين سبحانه وتعالى الثمرة المترتبة على
الصدقة ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولتربية التقوى فى النفس وتهذيبها، وإرهاق
إحساسها بحق المجتمع على ذوى المال من المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

يشبه سبحانه وتعالى حال الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ولتشبيت
النفس على التقوى وتهذيبها وتقويتها تهذيباً ناشئاً عنها منبعثاً منها - يشبه سبحانه
وتعالى حال هؤلاء المنفقين بجنة، أى حديقة غناء كثيرة الأشجار، بربوة أى أرض
مرتفعة أصابها مطر غزير فأتت ثمراتها ضعفين أى مثلين مما ينتج أمثالها.

ولابد لبيان هذا التشبيه السامى أن نبين المشبه، والمشبه به، ووجه التشبيه،
والتوجيه الكريم من هذا التشبيه:

أما المشبه فهو قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فالمثل هو الحال والشأن، ومعنى ابتغاء مرضاة الله طلب رضاه سبحانه وتعالى الدائم المستمر، فالمرضاة مفعلة من الرضا، فهي مصدر ميمي من الرضا، وهو أقوى فى الدلالة من معنى الرضا، إذ المعنى فيها الرضا الثابت الدائم الذى لا يكون معه أى غضب من المولى العزيز الحكيم القوى القهار، فهو ينفق طالبا قويا موثقا رضا الله سبحانه وتعالى رضا دائما مستمرا.

وأما معنى «...» قد اختلفت عبارات المفسرين حولها، وإن انتهت إلى الاتفاق على مغزاها ومرماها؛ وإن أصل معنى ثبت قوى حقيقة ودعمها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [٢٧] [إبراهيم] ويقال ثبت فلان فى الأمر أى صحت عزيمته فيه وداوم عليه؛ ويقال أيضا: ثَبَّتُ فلانًا فى الأمر، أى جعلته ثابتًا فيه لا يتزعزع عنه ولا يضطرب، وقويت رأيه فيه.

والمعنى على ذلك: أن أولئك المتقين من المنافقين ينفقون طلبًا لرضا الله الدائم عليهم وتثبيتًا من أنفسهم أى تقوية لليقين والإيمان والاحتساب إلى الله تعالى، وتلك التقوية وهذا التثبيت صادر عن أنفسهم، فهم يربون أنفسهم على الإيمان واليقين، ف «مِنْ» فى قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هى «من» التى تكون بمعنى الابتداء، أى أن التثبيت مبتدئ من أنفسهم، فهم يزكونها وينقونها ويراقبونها، لكيلا يدخلها أى معنى من معانى الرياء والنفاق، أو الاتجاه إلى المَنِّ والأذى؛ وفى هذا إشارة واضحة إلى أنهم ينفقون ما ينفقون قاصدين وجه الله تعالى، وأن ذلك القصد يستمر دائمًا، فلا يجىء وقت يمتنون فيه ويؤذون؛ لأن الثبات يقتضى الاستمرار على حال واحدة، وهى حال ابتغاء رضا الله وحده، لا يرجون من غيره جزاء ولا حمدًا ولا ثناء، ولا يبتغون بغير رضا الله بديلا.

ويصح أن يكون معنى ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى يقيتًا وإيمانًا صادرًا من أنفسهم فالمعنى على هذا أن أولئك المنافقين المخلصين ينفقون طالبين رضا الله تعالى

وهم موقنون صادقو الإيمان بربهم محتسبو النية له تعالى . وفى ذلك إشارة إلى أن أولئك المراءين الذين ينفقون أموالهم رثاء الناس أو يتبعون ما ينفقون منّا أو أذى ليس إيمانهم كاملاً، ولا يقينهم مستقراً ثابتاً؛ والمعنيان متلاقيان فى الجملة، أو على الأقل متقاربان جداً. هذه مفردات المشبه ومعناه.

أما المشبه به فهو قوله تعالى: ﴿كَمْثَلِ جَنَّةٍ بَرْبَوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ والجنة البستان، وسمى البستان جنة، وهى فعلة من جن بمعنى ستر وغطى؛ لأن الأشجار تغطيها فلا ترى أرضها، وكأن الأرض مغطاة بلفائف الأشجار. والربوة المكان المرتفع قليلاً، فى خصوبة تربة، وجودة زرع، والربوات من الأراضي أخصب وأكثر إنتاجاً من المنخفضات؛ ولما كان مرتفع الأرض لا تصل إليه مجارى الأنهار عادة ذكر الله سبحانه وتعالى أن تلك الربوة قد أنعم الله عليها بوابل أى مطر غزير أصابها، وبذلك تجتمع لها أسباب الإنتاج الكثير، وهى ثلاثة: خصب تربة، وتخلل الشمس لأجزائها، إذ إنها بارتفاعها صارت الشمس تنفذ إلى الأشجار، وفى ضوء الشمس غذاء للأشجار كغذاء الماء؛ والثالث الماء النقى الغزير، يصيبها به مالك السموات والأرض يكون لها نعمة يمد زرعها بالغذاء، ولا يزيل طبقة الخصب فيه كالوابل الذى يصيب الحجر الصوّان فيتركه أملس صلباً، بل إنه يمدّها بالإنتاج لأن الخصوبة فيها ليست قشرة ظاهرة من التراب يزيلها الماء الغزير فلا تنبت بل خصوبتها فى معدنها، وليست مظهراً بل هى حقيقة وجوهر.

وإذا كانت أسباب الإنتاج الكثير قد توافرت، فإن الثمرة ستكون لا محالة بمقدار توافر هذه الأسباب؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ فالفاء للسببية أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، وآت بمعنى أعطت، والمعطى فى الحقيقة هو الله تعالى، ولكن أسند إليها العطاء لتوافر الأسباب التى خلقها المولى القدير فيها، وتضافر كل المهيئات التى هيأها المولى العلى القدير لإنتاجها.

والأكل: الثمر الذى يؤكل، وفى التعبير عن الثمر بالأكل من غير وصف سواء إشارة إلى طيب ثمرها وحسنه، واستساغة النفس له، وجودة الغذاء منه؛ لأنه

وصف بأخص ما يطلب له الثمر الجيد الطيب المستساغ وهو أن يؤكل، ومعنى «ضعفين» أى أنها آتت بضعفى ثمر غيرها من الأرض، والضعف معناه هنا المثل، وقد ذكرنا ذلك من قبل، أى أن توافر هذه الأسباب جعلها تنتج بمقدار مرتين مما ينتج غيرها. ويصح أن يكون المراد من الضعفين الكثرة المطلقة من غير تقيد باثنين كما فى قوله تعالى: ﴿ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ...﴾ [المالك].

ولكن تلك الأرض الطيبة المباركة التى شبهت بها نفس المؤمن الطيبة، ربما لا يصيبها الوبل وهو المطر الغزير فلا ينتج طيباً فى هذه الحال؛ فبين سبحانه وتعالى أنها تنتج أيضاً بمطر قليل؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يُمْسِكْهَا وَأَبْلٌ فَطَلٌ﴾ والطل أضعف المطر، وزرع الطل أضعف من زرع المطر الغزير وأقل ريعاً، ولكن يكون فى عيدانه قوة تماسك ونفع.

ولكن هل يكون المعنى فى الآية أنها تنتج ضعفين، كما أنتجت فى حال الوبل؟ بين أيدينا منهاجان:

أولهما أن نقول: إنها تنتج مثلها بما توافر فيها من علو يجعل الشمس تخلل أجزاءها فتمدها بغذاء يغنيها عن كثرة الماء، وبما فيها من خصب تتوافر فيه عناصر التغذية أكثر من غيرها، فيكون ذلك معوضاً لها عن قلة الماء، وتكون النتيجة على هذا التوجيه أن قلة الماء وكثرتها سواء، لتوافر أسباب النماء. هذا هو التوجيه الأول.

أما التوجيه الثانى فهو أن نقول: إن المعنى أنها تنتج على كل حال، فإن كان المطر غزيراً أنتجت كثيراً وإن كان المطر قليلاً فالإنتاج وإن قل طيب نافع، وإن كانت الربوة هى المقابلة فى التشبيه للنفس المؤمنة الطيبة، فيكون المعنى أن النفس السقية المؤمنة التى تبغى بإِنفاقها رضوان الله تعالى، وتثبت إيمانها وتصديقها بالإِنفاق فى سبيله، لإِنفاقها إنتاج عظيم، ونعيم مقيم، إن قل فهو فى نفعه كالثمر الذى ينتج من الربوة الخصبة التى يصيبها طل، وإن كثر فهو كتلك الربوة تؤتى ثمرتها ضعفين إن أصابها وابل؛ وعلى ذلك فالقليل والكثير ذو نفع عظيم وخير عميم.

والتوجيه الأول عندى أولى بالقبول؛ لأنه ليس فى الآية ما يدل على قلة الإنتاج، فإن قلة المطر لاتستلزم قلة الثمر، بل قد تكون كثرة الماء معسوقة عن الإنتاج لا مكثرة له وعلى ذلك يكون المعنى: أن تلك الربوة لخصبها وطيب مناخها وتخلل الشمس لأجزائها تنتج خيراً كثيراً، سواء قل الماء أم كثر، متى وجد القدر المُنبت.

هذان طرفا التشبيه: المشبه والمشبه به، وبقي علينا أن نبين وجه الشبه فى النص السامى الكريم، وذلك بتوجيه التشبيه فى جملة وسياقه؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى شبه هؤلاء المنفقين عن إيمان صادق، قاصدين بإنفاقهم وجه الله جل جلاله لا يبيغون سوى رضاه، مثلهم فى إنفاقهم الكثير والقليل كمثل جنة بربوة خصبة منتجة تنتج دائماً فى حال غزارة المطر، وفى حال قلته، فأكلها دائم، ونفعها مستمر، لا يمنعون خيرهم إن لم يشكرهم الناس، ولا يؤذون فى نفعهم أحداً من الناس، ولا يراءون الناس، فصدقتهم فى غمء، تنمو دائماً فى الناس بنفع ينالهم، كصدقة جارية مستمرة لا تنقطع؛ ثم نفعها للمنفق دائم بما يحسه من أريحية دينية واطمئنان قلب، ولذة العبودية فى الاتجاه إلى الله وحده والاستعلاء بالاستغناء عن شكر الشاكرين ومدح المادحين؛ ثم يعقب ذلك كله جزاء كريم من رب العالمين، يوم الدين؛ ولذا قرر النبى ﷺ أن الصدقة تنمو لصاحبها كما ينمو الفلوى^(١) يرييه صاحبه، فقال ﷺ: «لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيريها كما يريى أحدكم فلو، أو فضيله، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم»^(٢).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ختم سبحانه وتعالى هذه الآية بتلك الجملة السامية ليعلم الناس عظيم مراقبته سبحانه وتعالى لأحوالهم، وإطلاعه على خفايا نفوسهم، فيراقبوه سبحانه فى أفعالهم وأقوالهم، كما يراقبهم سبحانه، فتمتلئ قلوبهم عند العمل بعظمته، فيعملوا ما يعملون محسين بأنه مطلع على ما تخفى صدورهم،

(١) الفلوى هو المهر.

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد (٩٠٦٤) فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، وينحوه عنه أيضا رواه البخارى: الزكاة (١٣٢١) ومسلم (١٦٨٢).

فتسجّه القلوب - تحت تأثير هذه الرقابة المسيطرة العليمة التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة - إليه سبحانه وحده، ولا تتجه إلى سواه.

وفوق ذلك فإنّ لذلك التذييل السامى معنى آخر مناسباً مناسبة أخص للسياق الخاص بحسن القصد فى الإنفاق، وهو بيان أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم الذين أخلصت قلوبهم فى الصدقة فلم يتبغ رضا أحد غير الله تعالى، فيجازيها على إخلاصها فى النية، واحتسابها الخير لوجه الله الكريم، ويعلم من ينفق رياء أو يتبع ما ينفق بالمن والأذى فيحبط عمله.

وإن عبارات التذييل فى ذاتها تربي المهابة للذات العلية فى النفس التى تريد ما عند الله تعالى؛ فإنه قد صدرّ الجملة السامية بلفظ الجلالة الذى يدل فى ذاته على العلو والسلطان والالوهية الحق؛ ثم إن هذا القاهر فوق عباده يعلم علم من يبصر ويعاين ويرى بكل ما يعمل به الناس من خير وشر، وما يقصدون فى صدقاتهم، فإن أرادوا رضاه فقد آووا إلى ركن حصين، وإن قصدوا سواه فهم على شفا جرف هار، وسينهار بهم فى نار جهنم، فلا أموالهم بقيت لهم، ولا الثواب نالوا، بل العقوبة تستقبلهم ومقت الناس يلحقهم، والله من ورائهم محيط.

﴿أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ هذا مثل ثان يذكره سبحانه وتعالى فى بيان أولئك الذين يحبطون أعمالهم من صدقات أو صلوات أو حج وغير ذلك من أعمال البر بالرياء أو المن والأذى، أو التطاول على الناس بما يزعمون لأنفسهم من عمل خير قاموا به.

وهو يختلف عن التشبيه السابق من ناحيتين:

أولاهما: فى الشكل، فإن التشبيه الأول كان بصريح اللفظ، وقد ذكر فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه وهى الكاف فى قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾؛ أما هذا التشبيه فلم يذكر فيه المشبه ولا أداة التشبيه، وهو من النوع اليبانى الذى يسميه علماء البلاغة «استعارة تمثيلية» وهى تشبيه حال بحال لم تذكر فيه أداة التشبيه ولا المشبه، بل ذكر المشبه به فقط، وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه.

الناحية الثانية: أن التشبيه الأول فيه تشبيه من يتغنى بعمله مرضاة الله، وينقى ضميره وقلبه من كل رياء ونفاق، بالحديقة الغناء المثمرة القائمة على ربوة من الأرض خصبة منتجة؛ أما هنا فالتشبيه هو تشبيه من ينقض عمل الخير الذى يعمل به برياء يحبطه، أو من وأذى، أو مباهاة ومفاخرة ببره بين الناس، بمن كانت له حديقة فيها نخيل وأعنان، وأنهار تجري فيها مع الثمرات وقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، وتكون عوناً لهم بعد وفاته فأصابتها رياح شديدة فيها نار فاحترقت.

ولم يذكر فى هذه الآية المشبه ولا أداة التشبيه كما نوهنا، بل ذكر المشبه به فقط، فعلياً أن نتكلم فى مفردات المشبه به ومعانيها، ثم نتعرف المشبه ووجه الشبه، ومغزى هذا التشبيه السامى الكريم.

والود فى قوله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ﴾ معناه محبة الشيء مع تقيده؛ ولذلك يستعمل فى مقام التمنى. والنخيل اسم جمع النخل، والأعنان جمع عنب، وهو ثمرة الكروم، وقد جاء فى تفسير المنار فى السبب فى ذكر النخيل دون ثمرتها وهو التمر، بينما ذكر العنب وهو ثمر الكروم وقالوا فى تعليل ذلك: (إن كل شئ فى النخيل نافع للناس فى إنفاقهم: ورقه وجذوعه وأليافه وعشاكيله^(١))، فمنه يتخذون القفف والزنايل والحبال والعروش والسقوف وغير ذلك^(٢)). والإعصار ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها صاعدة إلى السماء على هيئة العمود، وقيل: الإعصار ريح تثير سحاباً ذا رعد وبرق، وسميت إعصاراً لأنها تلتف كالثوب، أو لأنها تكون سبباً فى نزول المطر، فكأنها تعصر السحاب، فتتزل ما يحمل من ماء؛ ولذا فسرت المعصرات فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ [البأ] بأنها السحاب؛ لأنها تعصر بالإعصار ذلك العصر. والنار التى تكون فى الإعصار هى البرق الذى يتسبب عن اصطدام السحاب بتحريك ذلك الإعصار، أو

(١) العشاكيل: جمع العنكال: العنق من أعناق النخل الذى يكون فيه الرطب [لسان العرب: العين - عنكل].

(٢) تفسير المنار ج ٣ ص ٦٩.

أن السحاب مع هذه القوة الشديدة التي يتحرك بها هو أيضا حامل لنار إذا أصابت شيئا أحرقتة .

هذه مفردات المشبه به ومعانيها، والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ هو للإنكار، وهو لإنكار الوقوع أى بمعنى النفس، والمعنى لا يود أحدكم أن يكون له جنة . إلخ، ومسجىء النفس على صيغة الاستفهام على ذلك النحو، لتأكيد النفس، وبيان أن الأمر فى ذاته غير معقول، بحيث لو سئل عنه أى عاقل لأجاب بنفيه؛ لأن النفس مجمع عليه من كل العقلاء .

وخلاصة القول: إنه لا يود أحد أن تكون له جنة فيها نخيل وعنب، وفيها من كل الثمرات غير النخيل والعنب - وكان النص عليهما لأنهما فاكهة العرب - وإنها مع هذه الثمرات الطيبة ذات منظر بهيج، فالأنهار تجري من تحتها فتمدها بالخصب، كما تسر الناظرين، قد احتازها وقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء من ذكور وإناث يحتاجون إلى مال من بعده يسد عوزهم، ويقيم أودهم، ومع هذا الأمل المدخر فى هذه الحديقة أصابتها ريح شديدة فيها نار فاحترقت بنارها؛ لا يود أحد ذلك أبداً، وهو شر يتوقاه ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يجنبه إياه .

هذا هو المشبه به فما هو المشبه؟ إنه يفهم من سياق القول من سابقه ولاحقه، وهو العمل الطيب المنتج الذى يكون مدخر الرجل فى حياته الآخرة، كما كانت الحديقة مدخرة لذريته فى كبره، وهم امتداد حياته وفيهم بقاءه بعد مماته، وإنه فى هذه الحياة الدنيا الفانية الرشيكة الزوال كمن أصابه الكبر وله ذرية ضعاف تحتاج إلى مدخره بعد مماته، فهو محتاج إلى مدخره من الأعمال الصالحة بعد وفاته لتكون ذخره وثروته فى الحياة الباقية بعد هذه الفانية، وإنه إذا أبطل ذلك العمل برياء يحبطه، أو من أذى أو مباهاة أو فخر، يكون كمن يرضى بأن تحترق جنته فى كبره بريح عاتية تأكل الأخضر واليابس ولا تبقى من المدخر لذريته فى القابل قليلا .

هذا هو المشبه المستبطن الذى تدل عليه الآيات السابقة واللاحقة .

ولقد روى البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ: (فيمن ترون هذه الآية: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ نزلت؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم! فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين، قال: يابن أخى قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لعمل رجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل فى المعاصى حتى أحرق عمله، وفى رواية أخرى: فإذا فنى عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشقاء).

وروى أن عمر رضى الله عنه قال: هذا مثل ضرب للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء.

وإننا إذا نظرنا إلى سياق الآيات قصرنا المشبه على من يفسد عمله بالمن والأذى والمباهاة والمفاخرة، ثم إذا نظرنا إلى هاتين الروایتين اعتبرنا المشبه هو حال الرجل يعمل الصالحات، حتى إذا دنا أجله أو كاد، عَمِلَ عملاً غير صالح، فكانت حاله كحال رجل كل ثروته حديقة غناء فيها من كل الثمرات وكل زوج بهيج، قد توافر خيرها، حتى إذا أصابه الكبر وله ذرية ضعاف تحتاج إلى ما يترك من مال، أصابت ثروته ربح عاتية فذهبت بها، فترك ذريته من غير شىء. وعلى هذا يكون المقصد والمرمى الاستمرار على عمل البر والمداومة عليه فى هذه الدنيا.

وعندى أن يجعل المشبه خاصاً فى دائرة السياق الخاص بالمن والأذى والرياء، ويكون التشبيه على هذا الوجه أن حال من يفعل الخير ويكثر منه ثم يطله بالمن أو الأذى أو الرياء، كحال رجل يملك حديقة غناء جعلها موضع أمله فى حياته، وغذاء أولاده بعد وفاته وهو فى سن الكبر، ثم وهو فى هذه الشيخوخة الفانية أصاب ثروته ربح أحرقته؛ إنه لا يود أحد أن يكون فى هذه الحال، فكذلك يجب أن ينفر فاعل الخير من تلك الموبقات التى هى كالريح العاصف الذى يهلك الزرع

والنسل، ويذهب بالثروة المثرية فى وقت هو أشد ما يكون حاجة إليه فى قابل حياته، ولذريته بعد مماته.

وإنه يرشح لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ كما يرشح له كل التشبيهات السابقة.

وإن وجه الشبه على هذا هو أن فى الحالين إبطالا لأمر جوهرى فى الحياة له نفاسة فى ذاته، وله نفع فى الحاضر والقابل، يذهب به أمر عارض مزيل لا يبقى بعده شيئاً مفيداً، فكما أن الحديقة الغناء ذات النفع فى الحاضر والقابل للحاضر ومن يخلفهم يذهب بها الإعصار الشديد المحرق، فكذلك النفاق والرياء والمن والأذى والتطاول على الناس بفعل الخير يفسد عمل الخير الذى هو ثروة معنوية لفاعله فى حاضره ومستقبله، وفيه رضوان الله وعزته؛ فهل يود مؤمن أن تكون حاله كحال من يصيب الإعصار ثروته فى كبره، فيمد يده إلى الناس شيئاً هرمًا فانيًا، ويترك أولاده كلاً على الناس من بعده؟ لا يود مؤمن ذلك فلا يصح أن يمكن الرياء من نفسه والاستطالة والمباهاة والمن والأذى من لسانه، فيكون ذلك إعصاراً شديداً يذهب بعمله.

وفى هذا التشبيه فوائد كثيرة:

أولها: الإشارة إلى أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهى متاع قليل، وعلى المؤمن أن يتتبع بكل لحظة بعمل الخير يحسبه عند ربه، كالرجل الذى يكون فى شيخوخة فانية فعليه أن يتوقع الموت دائماً كما يتوقع صاحب هذه الشيخوخة، وعليه أن يعمل الخير عمل من يخشى الفوت، وقد قرب منه الموت.

ثانيها: أن الرياء والمباهاة والاستطالة بعمل الخير تذهب به بل تحرقه، كما يحرق الإعصار الحديقة الغناء.

ثالثها: أن عمل الخير ينمو ويربو ويتج كالحديقة الغناء التى فيها من كل الثمرات والمياه تجرى من تحت أغراسها والشمس تمد ثمارها، فتؤتى أكلها بإذن ربها، فهى فى ثناء مستمر دائم.

رابعها: أن من مطالب الحياة التي يقرها الدين أن يحرص الرجل على أن يترك لأولاده إذا كانوا ذرية ضعافاً، فضلاً من المال يستعينون به في شدائد الحياة، ولا يكونون كلاً على الناس، كما قال النبي ﷺ لسعد بن مالك^(١) في مرض كان يتوقع الموت منه، وقد أراد أن يتصدق بماله كله فنهاه وأقره على التصدق بالثلث: «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس»^(٢).

هذه بعض إشارات الآية الكريمة وإنها لتشع منها معان سامية متعددة كما يشع الثمر الجيد من الغصن المثمر، تعالت كلمات الله العليم الحكيم.

ومن أجل هذه المعانى السامية المنبعثة من ذلك النص الكريم المفهومة من عباراته أو إشارته، دعا سبحانه إلى التفكير فيها وتدبرها مع غيرها، فقال عز من قائل:

﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ هذا ختام هذه الآية الكريمة، والآيات المقصودة هنا هي الآيات القرآنية، والمراد من التفكير هو التدبر والتأمل وتعرف مرامى العبارات القريبة والبعيدة، والتفكر في عواقب الأعمال ونتائجها، وفي أسبابها وغاياتها. والتشبيه في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه تشبيه الكلى العام من بيان الله سبحانه وتعالى في كل آياته، بهذه الصورة الجزئية التي رأيناها في تلك التشبيهات الرائعة وذلك السياق المحكم، وتلك المعانى الجليلة التي يتدبرها المتدبر، فتجلى له معان كريمة سامية كلما أعمل فكره وتفكر وقدر، ومثل ذلك كما يجرى في عباراتنا - ولكلام الله المثل الأعلى - أن يقول عندما يعمل عملاً جيداً يعمل به فيستحسن، فيقول: كذلك أعمل دائماً، أى كهذا العمل الذى استحسنته كل عمل. ومعنى التشبيه في الآية الكريمة على هذا يكون هكذا: كهذا البيان الجلى الرائع الذى بدا فى هذا المثل المحكم بيان الله الكلى لكل آياته فى كتابه الحكيم.

(١) هو سعد بن أبى وقاص بن مالك بن أهيب بن عبد مناف، الزهرى القرشى، كنيته أبو إسحاق، ولقبه:

فارس الإسلام، صحابى جليل، أقام بالكوفة، وتوفى بالمدينة ٥٥هـ.

(٢) رواه البخارى: الوصايا - أن يترك ورثته أغنياء (٢٥٣٧)، ومسلم: الوصية - الوصية بالثلث (٣٠٧٦).

ولعل في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ هي في الرجاء، وليس الرجاء من الله تعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، فلا يكون منه رجاء وتوقع؛ لأن ذلك شأن من لا يعلم، إنما يكون منه سبحانه وتعالى تحقق وتأكد؛ وإنما معنى الرجاء هو المستفق مع ذات البيان؛ لأن ذلك من شأنه أن يرجى معه تفكر المستفكر وتدبر المتدبر؛ ولذلك قال بعض العلماء: إن لعل هنا للتعليل، فالمعنى كان ذلك البيان لتفكروا وتدبروا.

والمعنى الإجمالي لذلك الختام الكريم لهذا المثل السامي الحكيم: يبين الله سبحانه وتعالى آياته دائماً، كذلك البيان الذي اتضح لكم في هذا المثل الرائع المحكم الذي تتسع آفاق الفكر في إدراكه، فينال كل منه بمقدار إدراكه، فبيان الله دائماً من ذلك النوع، لتفكروا وتتأملوا آيه، وتدركوا مراميها القريبة والبعيدة.

وفقنا الله سبحانه وتعالى لإدراك معاني كتابه، والعمل به، وألهمنا الصواب في فهمه؛ إنه سبحانه وتعالى الهادي إلى الحق دائماً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا

لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ

بِعَاذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ

﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ

وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

يَبْنِ سبحانه وتعالى الإنفاق الذي يعد برأ، ويؤتي ثمراته في الدنيا والآخرة، وهو الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى لا ابتغاء تسهيل مطلب من مطالب الدنيا، ولا طلباً لجاه، ولا ملقاً لدى جاه، ويشترط في ثواب الآخرة مع ذلك ألا يعقب العطاء

مَنْ أَوْ أَدَى، فَلَا يُشْعِرُ الْمَعْطَى مِنْ أَعْطَاهُ بِمَنَةِ الْعَطَاءِ، وَيَسْتَكْثِرُ عَلَيْهِ مَا أَعْطَاهُ، وَلَا يُؤْذِيهِ بِإِعْلَانِ عَطَائِهِ أَوْ تَوْجِيهِ كَلِمَاتٍ مِثْلَهُ، فَحَسْبُهُ أَنْ يَدُهُ هِيَ الدُّنْيَا، وَيَدُ الْمَعْطَى الْعُلْيَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(١) فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَجْمَعَ عَلَيْهِ بَيْنَ هَذَا الضَّعْفِ مَعَ الْمَنْ وَأَدَى الْكُشْفِ وَالْإِعْلَانِ فِي مُوَاطِنٍ لَا يَحْسُنُ الْإِعْلَانُ فِيهَا. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي نَتَكَلَّمُ فِي مَعَانِيهَا السَّامِيَةِ الْآنَ بَيَانُ الْمَالِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْعَطَاءُ، فَفِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ كَانَ بَيَانُ مَقَاصِدِ الْعَطَاءِ وَمَا يَقْتَرِبُ بِهِ وَمَا يَعْقِبُهُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانُ الْمَالِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْعَطَاءُ؛ وَأَنْ تَخِيرَ الْمَالُ وَاصْطَفَاءَهُ يَدُلُّ عَلَى مَقْدَارِ الصَّفَاءِ فِي النِّيَّةِ، فَمَنْ اخْتَارَ عِنْدَ الْعَطَاءِ أَجُودَ مَالِهِ، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى حَسَنِ الْقَصْدِ إِنْ لَمْ يَصْحَبِ الْعَطَاءُ مَنْ أَوْ أَدَى أَوْ رِيَاءً، وَإِنْ اتَّجَهَ إِلَى غَيْرِ الْجِدِّ مِنْ مَالِهِ يَعْطِيهِ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى ضَعْفِ الْعَزِيمَةِ وَشَحِّ النَّفْسِ ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر].

وَلِذَلِكَ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ عَقِبَ الْمَطَالِبَةِ بِأَنْ يَكُونَ ابْتِغَاءُ مَرْضَاةِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَسُوغُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْفَاقُ مِنَ الرَّدَى دُونَ الْجِدِّ، وَمِنْ الْخَبِيثِ دُونَ الطَّيِّبِ، فَقَالَ تَعَالَتْ كَلِمَاتُهُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾
 ابْتَدَأَ سُبْحَانَهُ بِالنِّدَاءِ بِالْبَعِيدِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُمُومِ النِّدَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ الْأَجْيَالِ مِنْ وَقْتِ الْبَعْثِ الْمَحْمُودِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ النِّدَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ لِبَيَانِ أَنْ مِنْ أَخْلَاقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ يَتَصَدَّقُوا مِنَ الطَّيِّبِ لَا مِنَ الْخَبِيثِ، وَمَا تَحْبَهُ النَّفْسُ لَا مِمَّا تَزْهَدُ فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْإِيمَانِ فِي شَيْءٍ أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ إِلَى أَخْبَثِ مَالِهِ أَوْ الْخَبِيثِ فَيَنْفِقَ مِنْهُ لَزَهَادَتِهِ فِيهِ، وَلِرَغْبَتِهِ عَنْهُ، وَعَدَمِ اتِّجَاهِهِ إِلَى الْإِنْتِفَاعِ بِهِ؛ إِذْ لَا يَكُونُ فِيهِ مَعَانَاةٌ لِعَمَلِ الْخَيْرِ، وَلَا مُصَابِرَةٌ فِي إِرَادَتِهِ، وَلَا جِهَادٌ نَفْسِيٌّ لِلْحَمَلِ عَلَى الْفِعْلِ؛ وَالْأَجْرُ عَلَى قَدْرِ كَفِّ النَّفْسِ عَنِ الْهَوَى، وَمَشَقَّةُ الْإِرَادَةِ فِي التَّغْلِبِ عَلَيْهِ.

(١) رواه البخاري: الزكاة - لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٣٣٨)، ومسلم بنحوه عن ابن عمر: الزكاة - بَيَانُ أَنَّ الْيَدَ السُّفْلَى خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ الْعُلْيَا (١٧١٥).

وما المراد بالطيب؟ للعلماء فى ذلك منهاجان: قال بعضهم: إن المراد بالطيب الحلال، أى أن الإنفاق الذى يقبله الله سبحانه وتعالى هو الإنفاق من المال الحلال الذى كسب من طريق حلال؛ فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل إلا طيباً، ولا يريد من العبد إلا خيراً، فمن كان يريد بعمله وجه الله تعالى فلا يكسب إلا حلالاً، ولا ينفق إلا من حلال. ولقد روى الإمام أحمد رضى الله عنه فى ذلك أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه. قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار؛ إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن؛ إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(١).

وعلى هذا التخريج يكون الاتجاه فى الآية هو الحث على الإنفاق من الحلال دون الحرام، ويكون بالنتيجة اللازمة الحث على طلب الحلال؛ لأنه إذا كان الكسب الحرام لا يقبل فى الصدقات، فأولى أن يكون الأكل منه إثماً يلقي فى نار جهنم، ومن يأكل منه كمن يأكلون فى بطونهم ناراً.

فيكون على هذا القول، المرمى يتجه إلى أمرين: الحث على طلب الحلال فى الإنفاق، والحث على طلب الحلال من المكاسب، دون المأثم منها.

هذا هو القول الأول فى تفسير الآية؛ وهو كلام فى ذاته صحيح تؤيده الأحاديث والمعانى الدينية المقررة الثابتة، ولكنه لا يتفق مع سياق الآية ولا موضوعها ولا معنى كلمة الطيب فى مقامها؛ ولذلك رجح أكثر العلماء التفسير الثانى لمعنى الطيب وهو أن المراد به الجيد فى نفسه؛ لأن كلمة طيب على وزن فيعل من طاب،

(١) رواه أحمد (٣٤٩٠) فى مسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وهو ما تستطيه النفس وتتجه إليه وتطلبه؛ وإن ذلك هو الأصل فى معنى طيب؛ ولذا جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني ما نصه: «أصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس» وإطلاق الطيب بمعنى الحلال عرف إسلامي، لا معنى لغوي؛ لأن الله سبحانه لا يبيح إلا ما كان طيباً فى ذاته تستسيغه النفوس السليمة المستقيمة ولا يحرم عليهم إلا ما كان خبيثاً فى ذاته تعافه النفوس السليمة، فالله سبحانه وتعالى يحل الطيبات ويحرم الخبائث، كما ورد بذلك النص القرآنى الكريم.

وإن تفسير النص بذلك، وهو أن الطيب المستطاب المحبوب للنفس هو الذى يبدو بآدى رأى من الآية الكريمة، فوق أنه الذى يتفق مع المعنى اللغوي، ولقد فسره ابن عباس بذلك؛ فقد روى عنه أنه قال: (أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصديق برذالة المال ودينه وخبيثه؛ «فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(١)).

وعلى هذا المعنى المستقيم يكون توجيه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يحث المنفقين على أن ينفقوا من الطيب النفس، ابتغاء وجه الله تعالى، ولأن البر كل البر هو فى إنفاق الإنسان مما يحب لا مما يبغض؛ ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ (٩٢) [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) [الإنسان]. ولقد نهى النبى ﷺ المؤمنين عن أن يطعموا الفقراء إلا مما يطعمون، فقال ﷺ: «لا تطعموهم مما لا تأكلون»^(٢).

إن الله سبحانه وتعالى يحاسب القلوب، فيثيبها على مقدار ما اعتزمته من خير، وإن أدل شئ على قوة العزيمة فى الإنفاق والرغبة فيه وخروجه عن طيب

(١) رواه مسلم: الزكاة - قبول الصدقة من الكسب الطيب (١٦٨٦)، والترمذى: تفسير سورة البقرة (٢٩١٥)، وأحمد (٧٩٩٨)، والدارمى: الرقاق - الكسب الطيب (٢٦٠١).

(٢) رواه أحمد فى مسنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها (٢٣٧٧٠).

نفس وقوة إيمان، أن يخرج له فيه رغبة، بل فيه شوق ومحبة؛ ولذا ورد عن النبي ﷺ أنه قال في خير الصدقات: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح ترجو الغنى وتخشى الفقر»^(١) أى أن تصدق والمال حبيب إليك غير زاهد فيه، فإنك إن صابرت نفسك، وحملتها على التصدق فى هذه الحال نلت أجرين: أجر العطاء فى ذاته، وأجر تلك المغالبة النفسية التى انتصرت فيها لله وللحق، فأطعمت وكسوت، وأنت تحب المال موفوراً كثيراً، فآثرت محبة الله على محبة المال، ورضا الله على رضا الهوى، ورضا الحق على رضا النفس، فانتصرت فى الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس والهوى.

هذا هو المعنى الذى اختاره جمهور العلماء لهذا النص الكريم، وهو المعنى القويم الذى يتفق مع سياق الآية وموضوعها، ويزكيه قوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فإن الكسب إذا ذكر مقروناً بما يلقىه سبحانه وتعالى فى الأرض ويضعه لنا من نفائس فى باطن الأرض، وزرع نضير، وغراس مثمر، إن هذا يدل حيثئذ على أن المال كله حلال، وأنه يقصد إلى طيبه أو رديئه فينفق منه، فبين أن ذلك الكسب الحلال لا يتخير فى الإنفاق منه إلا جيده، فلا تجعل حصّة الفقير إلا أجوده؛ إن المال الذى كسبته رزقاً حلالاً: قسم هو حق الفقير والمسكين واليتيم وقد تولى الله عنهم مطالبته به، وقسم هو لك ولأولادك ومن تعول، فهل يسوغ أن تجعل حق من تولى الله عنهم المطالبة أرداه وأخبثه وأرذله وأسوأه؟ تلك إذن قسمة ضيزى، وكيف تصنعها وتريد بها وجه الله، والتماس عفوه ورضاه؟! إن ذلك غير معقول فى ذاته، ووقوعه غير سائغ ولا مقبول.

ولقد قسم سبحانه موارد المال الحلال إلى قسمين: قسم بعمل من العبد؛ إذ عمل العبد فيه واضح بين، واجتهاده فيه ظاهر، وإن كان التوفيق من الله، وهو الرزاق ذو القوة المتين؛ وقسم هو بعمل العبد ولكن فيض الله هو الواضح البين، والأول هو كسب العبد بالعمل والضرب فى الأرض صانعاً أو تاجراً، أو مسهماً بماله

(١) رواه البخارى: الزكاة - فضل صدقة الصحيح الشحيح (١٣٣٠)، ومسلم (١٧١٣).

فى صناعة أو تجارة؛ والقسم الثانى، بما يخرجـه الله سبحانه وتعالى من زرع يحصد فىكون منه القوت للإنسان والحيوان أو غراس أو شجر يؤتى أكله كل حين بإذن ربه، أو بما يودعه سبحانه وتعالى باطن الأرض من معادن يكون بها عمران الأرض، وقيام المصانع، والأعمال الإنسانية التى تسجل خلافة الإنسان فى هذه الأرض ليصلح فيها ولا يفسد.

ولقد نبه سبحانه إلى القسمين بقوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ ففى هذا النص الكريم ذلك التقسيم الحكيم؛ وقد قدم سبحانه وتعالى القسم الأول، وهو الكسب الذى يكون بعمل الإنسان، سواء أكان صناعة أم كان تجارة، وسواء أكان عملاً آلياً أم كان عملاً فكرياً؛ وكان ذلك التقديم لأسباب كثيرة؛ منها بيان فضل الأكل من العمل والكسب، كما قال ﷺ: «ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده»، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده^(١)، ومنها أن العطاء من مال يجىء بمجهود وتبذل فيه الجهود يكون أعظم ثواباً؛ ومنها إعلاء قدر العمل الإنسانى لأن به إقامة العمران، وإصلاح الأرض، وتقدم هذا الوجود الإنسانى فى معيشته ووسائل رزقه.

والقسم الثانى فيه خير كثير، ولكنه كله بفضل الله تعالى لا عمل للعبد إلا إلقاء البذر، وغرس الغراس والقيام عليها، والباقى كله لله الواحد القهار.

وهنا يسأل سائل: لماذا أضاف سبحانه ما يخرج من الأرض إليه سبحانه وتعالى مع أن للعبد فيه عملاً من حرث وبذر وإصلاح ومراقبة، ثم أضيف الكسب بالتجارة والصناعة والعمل فى هذه الدنيا إلى العبد مع أنه برزق من الله، لأنه هو الذى قسم الأرزاق بين العباد، وجميع ما للعبد من مكاسب بتوفيقه ورزقه، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ [هود] فكل شىء منه وإليه، وكل كسب للعبد سواء أكان من الزرع والضرع أم كان من الصناعة أو التجارة فهو من الله، وبفضله، وبتوفيقه ورزقه وهدايته بل عطائه سبحانه؟

(١) رواء البخارى: البيوع - كسب الرجل وعمله بيده (١٩٣٠) بلفظ: «ما أكل أحد».

وإن لذلك السؤال موضعه، وأن الله سبحانه في بعض آى الذكر الحكيم يضيف الكسب إلى العبد لأنه الذى باشر العمل، وفى بعضه يضيف الرزق إلى الرب لأنه المانح، وهو سبحانه يصرف الآيات لمن يفقهونها كما قال سبحانه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [٦٥] [الأنعام] ولكل مقام ما يناسبه، ولكلامه سبحانه المثل الأعلى فلا يحاكيه كلام الإنسان مهما يعل قدره فى البيان.

ولو حاولنا أن نصل إلى سر التعبير، ما بلغناه على وجهه الكامل؛ وأقصى ما نقول هو أنه سبحانه وتعالى أضاف الكسب إلى العبد فى الأولى، وإخراج النبات والغراس إليه، لىتميز القسمان من الإنتاج، فهما قسمان متقابلان بلا شك؛ إذ الأول العنصر الواضح فيه كسب العبد، والثانى العنصر الواضح فيه عمل الرب، كما أشرنا، فلهذا التمييز بين القسمين كانت الإضافتان المختلفتان، وليحث سبحانه الناس على النوعين من العمل، وبيان أنهما أساس العمران فى هذا الوجود، فكلاهما إصلاح فى الأرض وسبيل من سبل الإنتاج فيها؛ وقد كان بعض الاقتصاديين المتقدمين يعتبر طريق الإنتاج فقط الزراعة، وما تخرجه الأرض؛ والأخرى طرق ثانوية، فالله سبحانه يرشد إلى أن كليهما طريق متميز فيه عمران الأرض والإصلاح فيها، وفوق ذلك فإن إضافة الكسب إلى العبد مع الحث على الإنفاق من طبيعته فيه إشارة إلى أن للفقير حقاً معلوماً فى كل ما يكسب من مال سواء أكان بصناعة أو تجارة أو عمل باليد أم كان بالبحث فى الأرض وإلقاء الحب ورجاء الثمار من الرب، فللفقير قدر معلوم فى كل هذا، وفى كل شئ صدقة؛ فى المال المكتسب بالجهد صدقة، وفى المال الذى يخرج من الأرض صدقة، وفى العمل نفسه صدقة؛ فعلى الطبيب أن يجعل جزءاً من عمله صدقة بأن يداوى المرضى، وعلى المدرس أن يجعل جزءاً من عمله للصدقة بالإرشاد والتوجيه، وعلى الصانع أن يجعل جزءاً من عمله صدقة كالإسهام بعمله فى بناء مسجد أو مستشفى أو نحوهما، وهكذا فى الآيات الكريمة إشارة إلى كل هذا.

وبعض المفسرين لا يقصر ما تخرجه الأرض على الزرع والشجر، والحشائش التى يتغذى منها ذات الضرع وذات الحافر، بل يتجاوز إلى ما يكون فى باطن

الأرض من معادن وفلزات، وسواء مما تقوم عليه الثروات عند بعض الأمم، ومما صار أساس العمران في عصرنا الحاضر؛ فإن أولئك المفسرين الأجلاء أدخلوا ذلك في عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ وإن ذلك صادق بلا ريب، وهو نظر مستقيم.

وقد يقول قائل: إن ذلك مودع باطن الأرض، ولم يخرج الله سبحانه وتعالى إلى ظاهرها، بل الإنسان هو الذى يخرجها، فنقول: ليس المراد بالإخراج هو هذا المظهر الحسى، بل المراد منه التكوين والإنشاء وظهور الأعراض التى تكون سبيلا لخروجه، فيشمل الإخراج ذلك كما يشمل تكوين الزرع بخروج البذرة من باطن الأرض؛ فإن كليهما يكونه الله تعالى ويظهره لعباده؛ هذا بعوده مستقيماً يراه الحس بما يحمل من ثمر وما معه من غذاء، وذاك يظهر بأعراضه التى يعرفها الخبراء، وقد يظهر للحس ويبسود للنظر، كما يرى البترول طافياً على الأرض فى بعض البلدان، يعلن ما حوته فى باطنها من عيون ثرّة^(١) تفيض به.

وإن للفقير حقاً فى كل هذا، وقد اتفق علماء الإسلام على أن يكون للفقير حق معلوم فيما يوجد فى باطن الأرض، وإن اختلفوا فى مقدار ذلك على آراء فهو على أى حال لا يخلو من إنفاق واجب فيه بقدر معلوم، أو بصدقة مثورة تقدرها الحاجة العامة.

وفى الجملة إن على كل مؤمن صدقة يقدمها من طيب ماله أيا كانت مصادره وموارده، فهو خير ساقه الله إليه يجب أن يجعل للمحتاجين قدراً فيها ليبارك الله تعالى له.

﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يقصدوا فى إنفاقهم إلى الطيب النفيس ينفقون منه،

(١) ثرّة: من ثرر: عَيَّنَ ثَرَّةً و ثَرَاةً و ثَرَاةً: غَزِيرَةَ الْمَاءِ [لسان العرب: الثاء - ثرر].

وقد فهم من ذلك الأمر ألا يقصدوا إلى الخبيث، أكد سبحانه ذلك الأمر والقصد إلى الطيب وعدم القصد إلى سواه، أكده بأمرين:

أحدهما: هو النهى عن القصد إلى الخبيث فى الإنفاق، فهو تكرار حسن أفاد توكيد الأمر بقصد الطيب، وأفاد أيضاً أن الصدقة المجزئة لصاحبها التى يثاب عليها والتى تنمو حتى تصير كالحبة التى فيها سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة، هى التى تكون من الطيب لا من الخبيث، فلا ثواب لمن ينفق يتحرى الخبيث ينفق منه.

ومعنى «لا تيمموا» لا تقصدوا إلى الخبيث، فإن التيمم معناه فى الأصل اللغوى القصد، ويقال يمت جهة كذا أو نحو كذا قصدتها، كذلك تيممت أى قصدت والمعنى: لا تتحروا أن تكون صدقتكم من الخبيث أى الردىء. وهذا يستفاد منه أن الإنفاق بالنسبة للمال الذى يؤخذ منه ثلاث مراتب: المرتبة الأولى وهى أعلاها وأزكاها عند الله، هى أن يقصد إلى الطيب فينفق منه، وهذا هو الذى يليق بالمؤمن، وقد دعا إليه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ والمرتبة الثانية: أن ينفق من ماله فيأخذ منه اعتباراً، غير قاصد إلى جيد أو ردىء، فيعطى منه من غير تحر لأحدهما، وهذه دون الأولى بلا شك، ولصاحبها قصد الخير؛ لأنه يشطر من ماله شطراً. والمرتبة الثالثة، وهى الدنيا: أن يقصد إلى الردىء لينفق منه، وهى موضع النهى، وإذا كان منهاها عنها فهى إثم وغير مقبولة عند الله، وهى تكشف عن شح النفس وفساد القلب.

هذا هو الأمر الأول الذى تأكد به طلب الإنفاق من الطيب النفيس.

أما الأمر الثانى: فهو قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أى أنتم تقصدون إلى الإنفاق من الخبيث غير الجيد رذالة المال، مع أنكم لا تأخذونه إن أعطى إليكم هبة أو شراء أو غير ذلك إلا أن تغمضوا فيه، أى تتغافلوا عن ملاحظته وتتساهلوا فى قبوله؛ وإن ذلك غير عدل إن أنفقتم المال وأعطيتموه للفقراء والمساكين تحريتم الردىء، وإن طلبتم المال وأردتم أخذه لا تأخذوا خبيثاً إلا إذا أغمضتم عن عيوبه قاصدين الإغماض، وفى ذلك تنبيه إلى أن يضع الرجل فى أعماله مقياساً

ضابطاً، وهو ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه، ولا يعطى من شيء إلا ما يحب أن يعطى إليه، وهذا قانون ضابط يحمل المرء على الاستقامة فى كل ما يفعل، وهو ما يرمى إليه الحديث الصحيح: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به»^(١) فكذلك لا تعط من المال فى إنفاقك إلا ما تقبله طيب النفس إن أخذته فى شراء أو هبة أو غيرهما.

وهنا مبحثان لفظيان:

أولهما: فى معنى الإغماض فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ﴾ فقد قال بعض العلماء: إنه من قبيل أغمض الرجل فى أمر كذا إذا تساهل فيه، فالإغماض هنا بمعنى الإغضاء؛ وهذا يتلاقى مع من يقول إن معنى الإغماض ألا يتحرى الفحص تسامحاً أو تساهلاً؛ وقيل: إن معنى الإغماض أن يأخذ زيادة فى نظير هذا الردئ، فهو يأخذه مضاعفاً، فإنه يقال لغة أغمض لى فيما بعته أى أعطى زيادة، وكان المعنى: إنكم لا تأخذون الردئ إلا متساهلين مغضين مغمضين أعينكم عن الفحص، أو تأخذونه فى نظير زيادة.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقف بعض القراء على قوله تعالى: ﴿تَتِمَّمُوا الْخَيْثَ﴾ ثم يبتدئ بقوله تعالى: ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ ويكون التخريج على هذه القراءة أن قوله تعالى: ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ فى مقام تأكيد النهى وإردافه بما هو فى معنى التوبيخ، أى لا تقصدوا إلى الخيىث مع أنكم تنفقون منه، ولا تأخذونه فى ديونكم، ففى ديون الله تعالى تتحرون الردئ وفى ديونكم تتحرون الجيد! وليس ذلك من العدل فى شيء.

(١) عن عبد الله الشكرى: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَبَرْنِي بِعَمَلٍ يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «تُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتُحِبُّ الْبَيْتَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتُحِبُّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ. خَلَّ عَنْ وَجْهِ الرُّكَّابِ». [رواه أحمد فى مسنده عن عبد الله الشكرى عن رجل] مبهم. [(١٥٣٢١)]

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ختم سبحانه وتعالى الآية بهذه الجملة السامية، وهي تتضمن التذكير بالله تعالى ذى الجلال والإكرام، وإشعارهم برقابته على أفعالهم وصنذقاتهم؛ ولذا ذكر لفظ الجلالة الذى يربى المهابة وخشيته سبحانه فى النفوس؛ لأنه المعبود وحده، المسيطر على كل ما فى الوجود وحده، وقد تضمنت الجملة وصف الله سبحانه وتعالى بوصفين كريمين مناسبين:

أولهما: وصفه بأنه سبحانه غنى، فمن يعطى الفقراء فهو يقرض غنياً يضاعف ما أقرض عند العطاء، وهو غنى فلا يقبل إلا الجيد الذى يقدم بنفس سمحة، وبقلب مطمئن ممن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وهو الحميد، أى الذى يستحق أن يحمد، ولا يحمد سواه؛ لأنه المعطى الوهاب؛ فهو الذى وهب الغنى غناه، واختبر الفقير بفقره، وكان حقاً على من أعطاه أن يحمده، والحمد أن يجود من ماله سمحاً فى جوده، قاصداً إلى الطيب من ماله يجود به، فإن خالف ذلك فقد أخطأ مرتين: مرة لأنه لم يقرض الله قرضاً حسناً، وهو الغنى المعطى، ومرة ثانية؛ لأنه أخل بواجب الحمد، فالاعتراف بالنعمة للمنعّم كان يوجب عليه أن يعطى خيراً ما فى يده، ورجاء الثواب، ورجاء دوام هذه النعمة، كان يوجب عليه مضاعفة العطاء، لا تحرى البخس منه.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ فى هذه الجملة يبين سبحانه وتعالى بواعث الشر الكامنة فى نفس الإنسان، فالشيطان يجرى فى عروقه مجرى الدم، وهو يوسوس للإنسان بالشر، فإذا تقدم لينفق فى سبيل الله، وإعلاء شأن الحق، أو سدّ حاجة المعوزين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وسوس إليه بأن ذلك سبيل نفاد المال، وأنه إذا ذهب ماله، ضاع وهانت حاله، ويوسوس له بذلك، فيحجم بعد إقدام، وإن أقدم فليعط قليلاً من المال، أو ليتخير الحشف^(١) من ماله. هذه وسوسة الشيطان، وهذا مغزى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أى يوعدهم إذا أنفقتم بالفقر، ويحذركم من الصدقة بما يوسوس بذلك فى أنفسكم؛

(١) الحشف: التمر اليابس الفاسد، والمقصود هنا ردىء المال.

وفى هذا الكلام عبر سبحانه عن التهديد بوعد، وهو المشهور فى لغة القرآن، وقد تستعمل أوعد فى الشر والخير معاً؛ وإن كل بخيل تحدّثه نفسه بخوف الفقر عند الإنفاق، وهذا الحديث هو حديث الشيطان؛ ولذا قيل: الناس من خوف الفقر فى فقر. ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى يغرى نفس المؤمن بالفحشاء، ويستمر فى إغرائها حتى تطيعه وتخضع خضوع المأمور للأمر. والفحشاء قال بعض العلماء: إن المراد بها المعاصى التى تردى النفس الإنسانية، من مثل الزنا والسرقه وشرب الخمر؛ واقتنائها بالوعد من الشيطان بالفقر، ليدفع الإنسان تلك الوسوسة عن نفسه؛ وبذلك يشير المولى الحكيم إلى أن وسوسة الشيطان للإنسان بتخويفه بالفقر هى من قبيل وسوسته بالفحشاء والمعاصى المنكرة القبيحة، وإن الممتنع عن الإنفاق فى موطنه كمن يرتكب أفحش الفواحش، وينتهك الحرمات؛ لأن امتناعه عن العطاء وقت لزومه يؤدى إلى انتهاك الحرمات، وارتكاب المعاصى؛ إذ ينقلب الفقير هادماً مخرباً، فترتكب أبلغ المحرمات إغلافاً فى الشر، وقد يكون فى ترك الإنفاق تعريض البلاد للخراب والدمار، وفى ذلك نشر للفساد، وتعريض البلاد لأن تنتهك فيها الحرمات، وترتكب فيها أشنع الموبقات، وهل بعد الذلة خير يرتجى وشر يدفع؟

هذا قول بعض العلماء فى معنى الفحشاء هنا وتوجيهه، وهو تفسير للكلمة بمعناها الشائع فى استعمال القرآن الكريم، وقد فسر الزمخشري هنا الفحشاء بالبخل الشديد؛ فإن كلمة الفاحش تطلق فى لغة العرب على البخيل الشديد البخل، ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد^(١)

فالفاحش هنا المراد به البخيل.

ويكون توجيه الكلام على هذا المعنى، أن الشيطان يوسوس فى نفس الغنى، يخوِّفه بالفقر، حتى إذا استمكن من نفسه وسيطر عليها فى هذا وجهه إلى طريق

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى: اعتام معناها اختار أحسن المال، والعقيلة أكرم المال، والفاحش البخيل، ومعنى البيت أرى الموت يختار الكرام ويختار خيار مال البخيل، فلا جدوى فى البخل.

البخل الشديد فاتجه وأطاعه كما يطيع المأمور الأمر، ويصير سَيِّقَةً في يده يسوقه حيث يشاء.

ولقد قال ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ الآية^(١).

هذه وسوسة الشيطان، وتلك خاطرة النفس الملكية، وقد ذكر سبحانه أمره في مقابل وسوسة الشيطان فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾.

صدر سبحانه القول بلفظ الجلالة للإشارة إلى أن الوعد الذي وعد به المتنفقين وعد حق، لا يمكن أن يجيء الشك في صدقه؛ لأنه وعد الله ذي الجلال والإكرام المعبود بحق، الذي لا يستحق العبادة سواء سبحانه وتعالى عن الشريك والمثيل، وإذا كان الشيطان يهدد بالفقر عند العطاء، فالمولى تعالت حكمته يعد المتفق بأمرين: أولهما المغفرة، وثانيهما الفضل، وهو الزيادة في الدنيا والآخرة.

فأما المغفرة، فلأن الصدقة التي يقصد بها وجه الله تعالى لا لأحد سواه، وليس فيها رياء ولا نفاق، ولم يعقبها مَنْ ولا أذى، تدل على نفس صافية خالصة مخلصة، متجهة إلى الله تعالى منصرفة، فإن كان منها في ماضيها ما يؤاخذ المرء عليه، فإن الله تعالى يغفر له، ويتوب عليه، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾ (١١٤) وقال ﷺ: «الصدقة تطفيئ الخطيئة»^(٢) ولأن النفس تكون صافية إذا كانت الصدقة على هذا الوجه، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ (١٠٣) [التوبة] فالصدقة التي تؤدي ابتغاء وجه الله تعالى تطهر النفس كما تطهر المال، وتوجه النفس نحو الخير، كما تنمي المال.

(١) رواه الترمذي: تفسير سورة البقرة (٢٩١٤).

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي: الإيمان (٢٥٤١) وأحمد في مسنده عن معاذ (٢١١٦).

هذه هي المغفرة التي يعد الله سبحانه وتعالى بها، وأما الفضل وهو النماء والزيادة فإن ذلك يتحقق بالصدقات؛ لأنها تحدث البركة في الرزق فيكون القليل في يد المتصدق كثيراً بتوفيق الله تعالى، ويتوجه من الله تعالى إلى السبل الناجحة، وإبعاده عما يذهب فيه المال ضياعاً، وإن الفضل يتحقق بسيادة المراء على نفسه، ومن ساد على نفسه فقد ساد على غيره، والمنفق يغالب الأهواء فيتنصر، فيشرف في نفسه، ويشرف أمام الناس؛ ثم إن الله سبحانه مخلف الرزق في الدنيا باليسير والتسهيل والرزق الوفير، وفي الآخرة بالنعيم المقيم؛ ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩) [سبأ] وقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(١) وإن ذلك مشاهد محسوس بين الناس اليوم، فإن المسك إن لم يتلف ماله تلف جسمه، فإن لم يتلف جسمه تلفت نفسه، أو شرفه، وتقطعت صلات المودة بينه وبين الناس حتى أقرب الناس إليه.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بتلك الجملة السامية تأكيداً لوعده الذي وعد به عباده المتقين المتصدقين؛ فإنه سبحانه وتعالى قد وعدهم بأن يعطيهم من فضله، فبين سبحانه وتعالى أنه واسع المغفرة، واسع الفضل، يعطي من يشاء؛ فإذا كان هو الذي أعطى الغنى من فضله ابتداءً، فهو الذي يمدد إن تصدق بفضله أيضاً، وهو مع سعة فضله ومغفرته عليم بموضع المغفرة وموضع الفضل، وهو الصادق فيما يعد، يعلم نتيجة العطاء، وأنها لا تنتج فقراً كما يوسوس الشيطان، بل يعلم الغيب، وقد أكنّ في قدره أنها تنتج مغفرة وفضلاً، فصدّقوا أيها المنفقون من يعلم الغيب، ولا تسيروا وراء وسوسة الشيطان الرجيم.

(١) البخاري: الزكاة - قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (١٣٥١)، ومسلم: الزكاة - في المنفق والمسك (١٦٧٨). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
 أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٦١﴾
 وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
 يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٧٠﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى نوازع الشر في نفس الإنسان وإلهام الله له بالخير، وأن الشيطان يعد بالفقر ويحرّض على الفحشاء والبخل، وأن الله يعد بالمغفرة والفضل؛ بعد ذلك بين أن الحكمة في أن يجب داعي الله، وأن هذه الحكمة إنما هي من الله سبحانه وتعالى وأن من نالها فقد أعطاه الله خيراً كثيراً.

وأصل الحكمة مأخوذ من حكّم بمعنى منع، وهي في الإنسانية صفة نفسية هي أساس المعرفة الصحيحة التي تصيب الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهي فيه مانعة ضابطة حاكمة للنفس مسيرة لها نحو الكمال. ولقد قال الراغب الأصفهاني في معنى الحكمة: «الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...﴾ (١٦٢) [لقمان] ونبه على جملتها بما وصفه بها». والمعاني التي أشار إليها الراغب هي في قوله تعالى: ﴿... أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٦٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٣﴾ [لقمان] إلى آخر الآيات التي تدل على معرفته للحق وإدراكه له وإيمانه به، وعمله على منهاج ما علم وإرشاده الناس إلى فعل الخير.

فالحكمة إذن في حقيقتها تتضمن معاني العلم الصائب والإيمان بالحق والإذعان له وطلبه، والعمل على وفق ما علم، وإرشاد الناس إلى المنهاج المستقيم؛

ولذا قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ (١٢٥) [النحل] وقال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها»^(١).

وقد يقول قائل: ما موضع هذه الآية من آيات الصدقات؟ فنقول: إن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن المنفق عليه أن يستولى على نفسه، وأن يدفع دواعي الشر، ويحمي قلبه منها، وأن يجيب نداء الله تعالى؛ وفي هذه الآية أن تلك هي الحكمة، فالحكمة في ضبط النفس، ومنعها من أهوائها والسيطرة عليها، وإطاعة الله تعالى.

ومن الناس من يحسب الحرص والضمن بالمال حكمة، ويدعى أن ذلك من الاقتصاد، وأن الإنفاق إسراف، فأشار سبحانه أن التصديق هو الحكمة، بذكر آية الحكمة في آيات الصدقة.

وإن الحكمة نور يقذفه الله في قلب المؤمن الذي يطلب الحق ويتجه إليه ويقصده؛ فإنه إن استولى على نفسه وطلب مرضاة الله تعالى آتاه الله نوراً به يبصر الحق، فأشرق في قلبه الإيمان به فاندفع إلى العمل الصالح؛ إذ إن الاتجاه المستقيم، بقلب مخلص سليم، يكون معه نور الحكمة، إذ يقذف الله سبحانه وتعالى به في قلبه، فيكون الفكر المستقيم الذي يصيب الحق، ويكون القلب الذي يؤمن به، ويكون العمل النافع؛ ولذا يقول بعض العلماء: إن الحكمة هي العلم النافع الذي يكون معه العمل.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ فالمعطى للحكمة هو الله، ولكنه العليم بكل شيء يضع الأمور في مواضعها، فهو لا يعطيها إلا لمن يخلص قلبه، ويسلم وجهه، وإن كان كل شيء بمشيئته سبحانه، إنه على ما يشاء قدير.

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: العلم - الاغتراب في العلم والحكمة (٧١)، ومسلم: صلاة المسافرين: - فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (١٣٥٢) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه. وفي الباب عن عبد الله بن عمر، وعند البخاري عن أبي هريرة أيضاً.

والحكمة على هذا التوجيه هي علو بالإنسان، وسمو به، إذ إنه يخلص نفسه من الأهواء المردية، ومن الشهوات الجسدية الأرضية. ومن المأثور أن الإنسان فيه طبيعتان: طبيعة أرضية منها ينفذ الشيطان، وطبيعة ملكية بها سموه، ومن جانبها تنفذ دعوة الديان، فإن غلبت عليه طبيعته الأرضية غلبت عليه شقوته وكان شرًّا من الشيطان، وإن غلبت عليه الثانية سمت إنسانيته وكان أفضل من الملك، وتلك هي الحكمة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى وما يتذكر ويعتبر بأوامر الله تعالى، ويستولى على نفسه ويحارب أهواءه حتى يقذف الله فى قلبه بنور الحكمة إلا أولو الأبواب، أى أصحاب العقول التى تصيب الحق وتدركه، وتتجه إليه غير متأشبة بلذة من لذات الجسد، أو شهوة من شهوات الدنيا المردية.

فاللب معناه العقل، ولكنه لا يستعمل فى القرآن إلا فى العقول المستقيمة المدركة التى تخلصت وسلمت من شوائب الهوى، ومعائب اللذات، فهى العقول المسيطرة التى تستخدم لطلب الحق وتوصل إليه، لا العقول المسخرة للأهواء واللذائذ تتحكم فيها وتسيرها.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بذلك الختام الحكيم، للإشارة إلى أن الله سبحانه الذى يعطى حكمته من يشاء لا يعطيها إلا للذين خلصوا قلوبهم من المفاسد والملاذِّ الأرضية، ولم يجعلوها حاكمة على قلوبهم، متحكممة فى تفكيرهم.

وللإشارة إلى أن الذين يجيبون داعى الله، ويردون داعى الشيطان هم ذوى العقول المستقيمة، فلا يتحكم الشيطان إلا فى غفوة من غفوات العقل المدرك؛ وللحث على وجوب تذكر الله دائماً، وأن على ذوى العقول أن يتجهوا بعقولهم دائماً لله ليتذكروا ويعتبروا، ويستبصروا، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، والله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء الهادى إلى سواء السبيل.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ النفقة هى العطاء العاجل فى باب من أبواب البر، فهى عطاء منجز، توجبه حاجة من يعطيه، أو حاجة الجماعة التى يعيش فيها، والضرورات الاجتماعية، أو السياسية أو العسكرية لها. أما النذر فهو التزام طاعة من الطاعات، أو عطاء فى بر. ويقول الراغب: النذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر، يقال نذرت قال تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم] وأصل مادة نذر من الخوف؛ لأن الإنسان إنما يلتزم ما يلتزمه على نفسه مما ليس بلازم عليه خوف التقصير وخوف أن تضعف الإرادة البشرية فى القيام بذلك الفعل الذى ليس واجباً فى أصله. والصيغة المشهورة للنذر أن يقول: لله على نذر أو نذرت لله كذا، فهى فى معناها تتضمن العهد الموثق لله.

ومعنى الجملة السامية: ما أنفقتُم من نفقة عاجلة وأديتموها، أو التزمتم بنفقة قابلة وعاهدتم الله على القيام بها، فإن الله تعالى سبحانه وتعالى يعلمه، فيعلم الباعث عليه أقصد ابتغاء مرضاة الله أم قصد به رضاء الناس، أو كان من الطيب الذى يقبله الله، أم تيمم الخبيث فلم يختار لله سواه، وأتبعه مناً وأذى، وجرحاً للكرامة وعزة النفس، أم كان بطيب النفس، ومن غير ذل ولا امتهان؛ ثم يعلم سبحانه أوفى الناذر بنذره على الوجه الأكمل أم نكث عهده، وأبطل ذمته؛ يعلم الله سبحانه وتعالى ذلك كله، يعلمه علم القادر القائم على كل شىء، الذى يجازى المحسن إحساناً والمسيئ إساءة؛ فقلوه تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ مع إيجازها أفادت فوائد جمة: أفادت الوعد والوعيد، أفادت التبشير بالشواب والنعيم المقيم ورضوان الله تعالى، وأفادت الإنذار بالعقاب، لمن فسد قلبه، فلم يقصد بعطائه وجه الله تعالى، ولمن نقض عهده، وأخلّ بدمته؛ ثم أفادت مع ذلك تربية المهابة فى قلب المؤمن؛ فإن المؤمن إذا ذكر أن الله تعالى يعلم عمله، أحس برقابته فى خلجات نفسه، وخصوصاً أن الجملة السامية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ صُدّرت بما يؤكدّها. وذكر العليم الحكيم بلفظ الجلالة الدال على الاستحقاق الكامل للالوهية، وانفراده سبحانه وتعالى بها، فإن ذلك كله من شأنه أن يجعل المؤمن يحس بمقام الألوهية،

ويشعر بحق العبودية، فتخلص نيته، ويخلص قلبه من كل الشوائب والأغراض الدنيوية.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه الجملة السامية التي تفيد النفي المطلق لنصرة الظالمين، ومعناها ليس للظالمين أى نصير فى الدنيا والآخرة، وهى تؤكد الوعيد فى الجملة السابقة، وتشير إلى أن الامتناع عن الإعطاء ظلم، وليس للظالم نصير؛ وأن الامتناع عن الإعطاء حقيقة هو ظلم، فهو ظلم للجماعة؛ لأنه منع صاحب الحق من حقه؛ لأن الله سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين حكم بأن للفقير فى مال الغنى حقا معلوما، ولا ظلم أفحش من أن يمنع صاحب الحق من حقه، ولأن الممتنع عن العطاء يظلم نفسه؛ لأنه يعرضها للهوان فى الدنيا، ولعذاب الله فى الآخرة، وهو يظلم نفسه وجماعته؛ إذ إن الجماعة التى يشح فيها الغنى بالعطاء لإمداد الجند المدافع، وإمداد الفقير وجعله يعيش عيشة آدمية محترمة - يتليها الله تعالى بلاء واقع ماله من دافع؛ لأن ذلك الفقير إذا جوعته كان أداة هدم للجماعة، فيكون الشَّدَاب^(١) الذين يبدلون أمن الجماعة خوفاً، ويكون المنحرفون فى تفكيرهم ومنازعهم الذين يهدمون بناء الجماعة، ويقوضون كل قائم.

ونفى الأنصار يشمل النفي فى الدنيا والآخرة كما قررنا؛ أما نفيه فى الآخرة فمعلوم ظاهر ثابت، ونفيه فى الآخرة يدركه البصير النافذ البصيرة؛ فإن البخلاء بأموالهم عن مواطن الخير مَبْغُضُونَ إلى الناس، لا يرضى عنهم أحد، ولا يناصرهم أحد بالقول أو العمل، وأحب الناس إلى الناس البازل المعطى، وأبغضهم إليهم الشحيح المانع.

والآية الكريمة تشير إلى أن الوفاء بالنذر مطلوب فى العطاء؛ فإنه اقترن بالإنفاق المطلوب الذى حث عليه القرآن الكريم فى الآيات السابقة، فكَذَلِكَ مَا اقترن به.

(١) الشَّدَاب: من الشَّدْب، محركة: قَطْعُ الشَّجَرِ، أو قِشْرُهُ، -و- الشَّىءُ: قَطْعُهُ. والتَّشْدِيبُ: الطَّرْدُ، والتَّفْرِيقُ والتَّمْزِيقُ فى المال [لسان العرب: الشين - شذب].

وإنه من الحق علينا قبل أن نتقل إلى تفسير الآية الآتية نتكلم في النذر:

إن العلماء يقسمون النذر إلى قسمين: نذر مطلق هو التزام بطاعة غير معلق على زمن، ولم يكن المقصود منه الخض على فعل أو المنع من فعل، أو الامتناع عن فعل، أو توثيق فعل، كأن يقول القائل: لله عَليّ نذر أن أعتكف في العشر الأخيرة من رمضان، أو: لله على نذر أن أتصدق على الفقراء بعشرة جنيهاً. فإن النذر في هذه الحال يجب الوفاء به ما دام طاعة باتفاق الفقهاء ويقسم الفخر الرازي في تفسيره الكبير هذا النذر إلى قسمين: مفسّر وغير مفسّر، فالمفسر أن يقول مثلاً: لله عَليّ حجّ، وهذا يلزم الوفاء به، وغير المفسّر أن يقول: لله على نذر، من غير أن يسمى النذر ويبيّنه فيلزمه فيه كفارة يمين لقوله ﷺ: «من نذر نذراً وسمى فعله ما سمى، ومن نذر نذراً ولم يسم فعله كفارة يمين»^(١).

وهذا مذهب الشافعي، ويلحق بالنذر غير المفسر في المذهب الشافعي النذر الذي يكون في معناه تحريض على فعل، أو الامتناع من فعل، كأن يقول: نذرت لله ألا أفعل كذا ثم يفعله، فإنه يجب فيه كفارة يمين؛ لأنه في معنى اليمين.

ولقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين»^(٢).

هذا إذا كان النذر التزاماً مجرداً من غير تعليق أو تقييد بمكان؛ فقد اتفق الفقهاء على وجوب الوفاء به ما دام قربة، لقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(٣). ولقوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْوَهُمْ...﴾ [الحج] فهو أمر حتمي لازم.

(١) رواه ابن ماجه في الكفارات (٢١١٨) عن عقبة بن عامر الجهني، وعنه رواه الترمذي: النذور والأيمان (١٤٤٨).

(٢) رواه أبو داود: الأيمان والنذور - من نذر نذراً لا يطيقه (٢٨٨٧) عن ابن عباس بهذا اللفظ، وفي آخره: «وَمَنْ نَذَرَ نَذْرًا أَطَاقَهُ فَلْيَفِّ بِهِ».

(٣) رواه البخاري: الأيمان والنذور - النذر في الطاعة (٦٢٠٢) عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

أما إذا علق النذر على أمر سيقع في المستقبل كأن يقول: إن شفى الله مريضى مما ألم به فلله علىّ نذر أن أتصدق بمائة جنيه مثلاً، فقد اختلف الفقهاء فيه؛ فقال الحنفية فيجب الوفاء بشروط ثلاثة: ألا يكون معصية وألا يكون واجباً، وأن يكون قرينة بحيث يكون من جنسه واجب؛ فنذر المعصية باطل كما قدمنا، وكنص الحديث الذى ذكرناه؛ ونذر الواجب لا جدوى فيه؛ لأنه واجب من تلقاء نفسه؛ أما نذر القرب التى من جنسها واجبات كالصدقات والصيام والحج فإن الوفاء به واجب، وهذا هو مذهب المالكية إلا أنه إذا كان النذر بجميع المال وجب الثلث فقط عندهم، إن لم يكن المال معيناً بالتعيين. والشافعى فى قول اعتبر النذر المعلق على الشرط كاليمين تجب به كفارة، كأن يقول: إن شربت الدخان وجب علىّ كذا صدقة، فشرب، فإنه تجب كفارة يمين.

ومذهب الإمام أحمد كما حققه العلامة ابن تيمية أن النذر المعلق على شرط إن قصد به التعليق حقيقة ك: «إن جاء رمضان فلله علىّ نذر أن أعتكف العشرة الأخيرة منه»، فهذا يجب الوفاء به، وإن كان المقصود به الحض على فعل أو الامتناع عن فعل، فإنه لا يجب الوفاء به ولكن تجب كفارة يمين؛ لأنه حلف تجب فيه الكفارة.

وقد اتفق العلماء على عدم وجوب الوفاء فى نذر المعصية، لقوله ﷺ: «من نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(١). وقال أبو حنيفة ومالك والشافعى: لا يجب شىء؛ ولكن قال أحمد: تجب كفارة يمين، للحديث الذى رواه أبو داود ونقلناه آنفاً؛ ففيه التصريح بأن نذر المعصية تجب فيه الكفارة ولأن منطق الحنابلة أن النذر الذى يكون فيه الحض على فعل أو منع فعل هو من قبيل اليمين، واليمين فى المعاصى حكمها أنه يجب الحث فيها، وتجب كفارة اليمين، لقوله ﷺ: «من حلف على شىء فرأى خيراً منه فليحث وليكفر»^(٢).

(١) انظر السابق.

(٢) روى مسلم فى صحيحه: الإيمان - نذر من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها (٣١١٣).

هذه كلمة إجمالية فى حكم النذر واختلاف أقوال الفقهاء فيه، ومن المفيد فى هذا الموضوع أن نتكلم فى أمرين:

أحدهما: فى نذر القيام بقربة فى مكان معين، كالصدقة عند البيت الحرام، أو عند المسجد الفلانى.

وثانيهما: هل النذر فى ذاته حسن فى الدين أو ليس بحسن؟ فقد كان الكلام فى وجوب الوفاء به. أما الكلام فى هذا الموضوع فهو فى أصله أ يكون من المستحسن أن يلتزم الإنسان الطاعة أم يفعلها ولا يقيد نفسه بالتزامها أولاً ثم يفعلها؟.

أما بالنسبة للأمر الأول، فقد اتفق الفقهاء على أن الالتزام بقربة فى مكان تشد الرحال إليه وله مزيد اختصاص بالفضل فى الشرع، كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبى ﷺ، يجب الوفاء به؛ فقد ورد أن النبى ﷺ نص على أنه لا تشد الرحال إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، فالنذر بالصلاة فيها أو الصدقة عندها يجب الوفاء به؛ لأن الصدقة فى ذاتها قربة، والاتجاه إلى الله فى هذه الأمكنة بالذات قربة ثانية.

وأما إذا كان المكان الذى نذرت القربة فيه ليس من الأماكن التى تشد الرحال إليها، فقد قال كثيرون من الفقهاء: تجب القربة من غير تقيد بالمكان؛ فمن نذر أن يتصدق عند مسجد الحسين أو غيره فالوفاء واجب من غير تقيد بالمكان.

وقال بعض الفقهاء: يجب الوفاء بهذا المكان الذى عينه، واستدلوا على ذلك بما روى أبو داود أن ثابت بن الضحاك قال: «نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة فأتى رسول الله ﷺ فسأله، فقال ﷺ: «أكان فيها وثن يعبد؟» قال: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» فقال: لا، فقال: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله تعالى، ولا فى قطيعة رحم، ولا فيما لا يملك ابن آدم»^(١).

(١) رواه بنحو من ذلك أبو داود: الأيمان والنذور - ما يلزم به من الوفاء بالنذر (٢٨٨١) عن ثابت بن الضحاك. وبوانة: قبل هضبة وراء ينبع، وقيل: موضع بين الشام وديار بكر، وقال البغوى: أسفل مكة دون يلملم.

وبهذا يتبين أن الوفاء بالنذر واجب ما دام غير معصية، وفي مكان لا معصية فيه، ولكن هل النذر عند الأضرحة والقبور خال من المعصية؟ إن ذلك موضع نظر، والاحتياط في النذور أن تكون لله خالصة.

أما الأمر الثاني، وهو التزام الطاعات بالنذور المطلقة أو النذور المعلقة على شرط، أهو أمر مستحب، أم الأولى خلافه وإن كان يجب الوفاء به إن التزمه؟ لقد اختلف في ذلك الفقهاء؛ فقال فريق كبير منهم: إن الأولى ألا ينذر العبادة، بل يقوم بها متى قدر عليها من غير نذر، وذلك لما روى عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج الله به من البخيل»^(١) وإن أكثر النذور في الماضي كما هي في الحاضر تكون لرجاء أمر فتعلق القربة على وجوده، أو للخوف من نتائج أمر فتعلق القربة على عدمه، وإن تعليق القربة على ذلك أمر غير مستحسن، بل هو مكروه، بل صرح بعض الأئمة بأنه حرام؛ ولقد قال ذلك القول كثيرون من فقهاء المذاهب الأربعة، بل رواه أبو داود عن بعض الصحابة.

وقال آخرون: إن النذر مستحب؛ لأنه يحمل الشخص على القيام بالقرب، فهو تقوية للعزيمة على الطاعة؛ ولقد صرح النووي في المجموع بأنه مستحب.

وعندى أن النذر غير المعلق على شرط قد يكون مستحباً لما فيه من حمل النفس على الإصرار على الطاعات، وأما المعلق على شرط، فهو الذي ينطبق عليه الحديث، وقد صرح النبي ﷺ بأنه لا يأتي بخير لمنع اعتقاد الناس ذلك، وكثيرون يتوهمون أن النذر يغير القدر، فنفي النبي ﷺ صحة اعتقادهم. والله سبحانه هو القادر على كل شيء، وله عاقبة الأمور.

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: النذر - النذر وأنه لا يرد شيئاً (٣٠٩٥٩)، والنسائي: الأيمان والنذور: النهى عن النذر (٣٧٤١) عن ابن عمر رضى الله عنه، ورواه البخارى بنحوه: النذر - إلقاء العبد النذر إلى القدر (٦١١٨).

إِنْ تَبْدُوا
 الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ
 فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٦﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ
 وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
 فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ
 وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

في الآيات السابقة حذر الله سبحانه وتعالى المنفقين من أدواء الصدقات التي تفتك بها وتذهب بخيرها، وهي أعداء الإخلاص الثلاثة: المن، والأذى، والرياء. والمن والأذى عملان حسيان قد يسهل على المؤمن اجتنابهما، أما الرياء فهو داء نفسى الاحتياط فى تجنبه يوجب تفتيش النفس فى داخليتها، ومراقبتها فى حركتها، والتنقيب عن بواعثها؛ فإن كانت تتصل بالرياء عن قرب أو بعد طهرها وزكاهها، وإن سلمت منه فقد برئت واصعدت إلى سماء التقديس؛ وإن المؤمن فى سبيل هذه المعالجة الروحية عند الإنفاق قد يتردد بين الإعلان ليكون أسوة حسنة للناس، إذ يعلن حق الله فى ماله فيعرف كل ذى مال ذلك، ولكنه يخشى أن يجد الرياء منفذاً إلى نفسه من هذه الناحية، وإن أخفاها وسترها عن الأعين، فقد يضل فى العطاء، فيعطى من لا يستحق العطاء، ولا يكون إعلان تلك الشعيرة المقدسة، شعيرة الصدقة التى تثير نخوة ذى المال، فيقتطع من ماله حق الله فيه.

ولقد بين سبحانه أن فى الإخفاء خيراً كثيراً، والجهر محمود إن نقى من كل أعراض الرياء، فقال تعالى:

﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ هذه الآية الكريمة تفيد أن الصدقات في كل أحوالها خير محض ما دام المنفق قد خلص من الرياء، وجانب المن والأذى؛ وإذا كان ثمة تفاوت فهو في حال النفس، والاحتياط للرياء، وسد مداخله؛ ولذا قال تعالى مادحاً النوعين من الصدقة: صدقة الجهر، وصدقة السر: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أى إن تظهروا صدقاتكم وتعلنوها بين الناس فنعم تلك الصدقة، أى أنها أمر محمود ممدوح يوجب الثناء والذكر الحسن؛ فقوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ هو نِعَم المدغمة فى ما، وما هى التى يقول عنها علماء اللغة إنها نكرة تامة بمعنى شىء، والمعنى نِعَم شَيْئاً يستحق المدح والثناء تلك الصدقات. وعبر فى قوله عن الإنفاق بالصدقات هنا، للإشارة إلى أن الممدوح من الإنفاق المعلن هو الصدقات التى يقصد فيها الشخص إلى إرضاء الرب، وتصدق فيها نيته، ويخلص قلبه؛ لأن كلمة (الصدقة) مأخوذة من الصدق، والصدق هنا هو صدق النية وتخليصها من كل شوائب الرياء. وإذا كانت الصدقة التى خلصت النية فيها لوجه الله تعالى هى موضع مدح وثناء ولا ذم فيها قط، فهى خير بلا شك. وذكرت خيريته بعبارات المدح والثناء دون التصريح بالخيرية، للإشارة إلى أنها ممدوحة عند الله كما هى ممدوحة عند الناس؛ إذ إن المعلن لصدقته سينال ثناء الناس، وسيحدثون بجوده؛ فبين سبحانه أن عمله ممدوح عند الناس أيضاً وبذلك ينال المتصدق المخلص فى نيته ومقصده إن أعلن، ثواب الله، وثناء الناس، وثناء الشرع.

هذه صدقة الجهر إن خلصت من الرياء؛ أما صدقة السر فقد أثنى عليها سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى إن تخفوها الصدقات التى خلصت فيها النية وتؤتوها الفقراء بأنفسكم فهو خير لكم؛ لأن البعد عن الرياء يكون أوثق؛ إذ فى السرية سد لكل ذرائع الرياء؛ ولذلك كان السر خيراً للمعطى؛ إذ فيه احتياط لنفسه من أن يدخلها داء الإنفاق، وهو الرياء؛ فإذا كان فى الجهر فائدة الثناء، ففى السر فائدة الاحتياط من الرياء؛ وذلك خير من كل ثناء. ثم

صدقة السر خير في ذاتها كصدقة الجهر، وفوق ذلك فإن صدقة السر خير للفقير؛ لأنها تسترته بستر الله، فلا يجتمع عليه ذل الفقر، وذل الأخذ، وذل الإعلان والكشف.

والتعبير في نفقة السر بقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ﴾ فيه إشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن الصدقة قسمان: قسم يعطى إلى الحكام، وهو الصدقات المفروضة التي قدرها الشارع؛ فهذه يجمعها أولو الأمر ومن ينوبون عنهم من ولاية وعمال، أو جماعات يختارونها لذلك وهذه تكون معلنة بلا ريب. والقسم الثاني يعطى الفقراء مباشرة وهو الصدقات غير المفروضة، والصدقات المفروضة غير المقدرة التي تكون على حسب حال الشخص، كمن يرى شخصاً في مخمصة وجوع، ويخشى عليه من الموت فإن الصدقة تكون فرضاً على من يعلم حاله؛ وهذه الصدقات التي تعطى الفقراء مباشرة يكون السر فيها أولى، بل أكاد أقول إنه يكون لازماً؛ لأن الإعلان أذى، وقد قرر المولى العلى القدير أن الأذى يبطل الصدقة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...﴾ [البقرة].

الأمر الثاني: الذى يفيد التعبير بقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ﴾: الإشارة إلى وجوب تحرى صفة الفقر فيمن يعطى، فلا يعطى إلا ذا حاجة، ولا يكون من الصدقات ما يعطى لغير الفقراء؛ لأنه يكون مروءة أو جوداً ولا يكون صدقة يتغنى بها ما عند الله، إذ يتغنى بها ما عند الناس؛ وإن ذلك وإن كان من نظام الدنيا ليس من الصدقة فى شيء.

الأمر الثالث: أن الإعطاء فى هذه الصدقات بوصف الفقر، لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم، ولا بر أو فاجر؛ فإذا كان غير المسلم فى حال مخمصة ولا يعلم حاله إلا مسلم فرض عليه أن يدفع عنه مخمصته؛ فإن ذلك من الرحمة المفروضة لكل إنسان؛ ولذا ورد فى صحيح البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ

قال: «فى كل كبد رطبة أجر»^(١) وفى رواية لغيرهما «فى كل كبد حرى أجر»^(٢) فهذا يدل على أن الرحمة بكل الأحياء فيها أجر، فكيف بالرحمة بالإنسان.

بعد بيان أن صدقة السر فيها خير وصدقة الجهر موضع ثناء ومدح، قال سبحانه: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يستر السيئات التى يرتكبها الشخص، ويخفيها ولا يظهرها عند الثواب والجزاء، فلا يحاسب عليها أصحابها إذا تصدقوا وأعطوا مبتغين وجه الله تعالى فى صدقاتهم. و«من» فى قوله تعالى: ﴿مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ إما أن تكون «من» السيانية، والمعنى أن الصدقات تكفر السيئات وإما أن تكون «من» الدالة على البعضية، أى أن الله سبحانه وتعالى يكفر للمتصدقين من الخطايا بمقدار ما يتصدقون من صدقات، وينفقون ابتغاء وجه الله تعالى. وعندى أن «من» بيانية؛ لأن النفس التى تفيض خيراتها وتتجه إلى الله تعالى فى صدقاتها لا تبغى إلا مرضاته، فلا تبغى رياء ولا نفاقاً، ولا جاهاً فى الدنيا، نفس برة تقية لم تحط بها خطيئاتها والنفس التى تكون على هذا النحو لا تسيطر عليها المعاصى، فيكون غفران الله تعالى لما كان منها من سيئات فى بعض الأحوال.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قال بعض العلماء: إنه بالنسبة لصدقة السر؛ ولذا قال ﷺ: «صدقة السر تطفىء غضب الرب»^(٣) وقال بعضهم: إن الصدقة بنوعها تكفر السيئات؛ وذلك أوضح من الأول؛ لأن الصدقة إن سلمت من الرياء وقدمها الشخص طائعاً مختاراً ولو بإعلان هى حسنة مقبولة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾^(١١٤) [هود] ولقد روى أن

(١) رواه البخارى: المساقاة - فضل سقى الماء (٢١٩٠)، ومسلم: السلام - فضل سقى البهائم المحترمة وإطعامها (٤١٦٢).

(٢) رواه ابن ماجه: الأدب - فضل صدقة الماء (٣٦٧٦) وأحمد (٦٧٧٨) عن عبد الله بن عمرو بنحوه.

ذات كبد: كل ما فيه روح. حرى: من شدة الحر، وهو كناية عن شدة العطش.

(٣) جامع الأحاديث والمراسيل: الجامع الصغير وزوائد - الصاد مع الدال.

النبي ﷺ قال: «الصدقة تطفىء المعصية»^(١) ولأن من الصدقات ما لا يمكن إلا أن تكون معلنة كشراء سيدنا عثمان بن عفان لبئر رومة ووقفها على المسلمين؛ فلا يمكن أن تكون تلك الصدقات المعلنة التي يتغنى فيها وجه الله غير مكفرة للسيئات، وقد أعد عثمان جيش العسرة، فهل يغض ذلك من صدقته. ولذا نرى أن تكفير الصدقات للسيئات لا يختص بصدقات السر وحدها، بل يعم الصدقات كلها.

ولقد أثار العلماء بحثاً في أيهما أفضل: صدقة السر أم صدقة الجهر؟ وقبل أن نخوض في أقوال الفقهاء في ذلك نقرر أن الصحابة أثرت عنهم صدقات الجهر، كما كان معلوماً عنهم أنهم يتصدقون ويخفون حتى لا تعلم شمالهم ما تنفق يمينهم.

وما يروى في صدقاتهم التي كانت معروفة أن عمر رضى الله عنه جاء إلى النبي ﷺ بنصف ماله، فقال النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟» قال: خلفت لهم نصف مالى: وفي هذا الوقت جاء أبو بكر بكل ماله، فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟» قال: عِدَّةُ الله وعدة رسوله. فبكى عمر وقال: بأبى أنت وأمى يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى خير قط إلا كنت سابقاً!^(٢)

وتبرعات عثمان كثيرة مشهورة معلمة بيّنة، دونتها كتب التاريخ، والسيرة المحمدية الشريفة.

وإذا كان المأثور عن الصحابة وعن النبي ﷺ صدقة العلن والسر، ففي كل خير، والآية صريحة في ذلك. ولكن بعض العلماء فضّل صدقة السر، لقول النبي ﷺ في حديث البخارى: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه،

(١) سبق قريباً بلفظ: «الصدقة تطفىء الخطيئة».

(٢) رواه ابن أبى حاتم في التفسير - ما خلفت وراءك لأهلك، وابن مردويه، وابن عساكر. عن الشعبي.

ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

وقال بعض العلماء: إن صدقة الفرض المقدّر الأحب فيها الإعلان؛ وصدقة الفرض المقدّر هي الزكاة وصدقة الفطر. والصدقة غير المقدّرة الأحب فيها السر حتى لا يؤذى الفقير. ولقد أثر عن ابن عباس أنه كان يقول: (جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً).

إنه بلا شك صدقة الفريضة المقدرة تكون علناً، وهي معلنة بحكم أن الإمام يجمعها بعماله، أو بمن ينوبهم عنه؛ وأما صدقة التطوع فإنه بلا شك واضح أن سترها أولى للبعد عن الرياء، ولعدم إيذاء الفقير؛ ولكن قد يكون في إعلانها ما يتحقق به الأسوة، ويكون كدعوة عامة للإنفاق في باب معين من أبواب غير المفروضة، فيكون في الإعلان خير يفوق خير السر، ولكن بشرط البعد عن الرياء؛ ولذلك كان السر في غير الفريضة المقدرة التي يجمعها ولي الأمر، والأمر متروك لتقدير المنفق، لأنه يتصل بقلبه أخلا من الرياء أم شابهته شوائبه؟ ولأنه يعرف حال الفقير الذي يعطيه، أو يؤذيه الإعلان أم لا يؤذيه؟ ولأنه هو الأدرى بفائدة الإعلان وفائدة السر في أمر صدقته.

هذا هو الحكم العام في الصدقات في ماضيها عندما كان الناس يقومون بمراقبة نفوسهم، وإنه بالنسبة لزماننا وقد ساد النفاق، وسيطر الرياء، وعطلت الفرائض نرى أن السر أولى حتى تهذب النفوس، وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ فقال ﷺ: «سر إلى فقير أو جهد من مقل»^(٢).

(١) روى البخاري هذا الحديث في ثلاثة مواضع، ورواه كاملاً في موضعين منهما ولفظه: الأذان - باب من جلس ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٠). كما رواه الترمذي ومالك وأحمد.

(٢) جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد (٢١٢٥٧) في مسنده.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ختم سبحانه الآية الكريمة بذلك الختام السامى؛ والمعنى فيه أن الله ذا الجلال والإكرام المعبود بحق، الذى انفرد بالالوهية خبير، أى عليم علماً دقيقاً صادقاً بما تعملون أيها المؤمنون.

فهذه الجملة السامية تشعر المؤمن برقابة الله تعالى على أعماله، وعلى بواعث هذه الأعمال وعلى القلوب التى تنبعث منها النيات والمقاصد، عليم سبحانه بكل ذلك؛ فإذا أحس العبد برقابة الله القوى القادر بهذا العلم السامى نقى قلبه من كل شوائب الرياء فى صدقاته كلها، جهرها وسرها، خافيتها وظاهرها. ثم هذه الجملة كما تربي فى نفس المؤمن المهابة من الله، والشعور بمراقبته تتضمن وعداً ووعداً؛ لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى عليمًا علماً دقيقاً بكل ما يعمل العبد من خير وشر، فإنه يكافئ العبد بما ينتج فعله، إن خيراً فالثواب والنعيم المقيم، وإن شراً فالعذاب الأليم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ كان المسلمون الأولون قلة فى أرض العرب، وكان المشركون يحيطون بهم، واليهود يجاورونهم، وكان يربطهم بالفريقين صلة قرابة، أو على الأقل صلة جوار.

فكان بعض المسلمين يمتنع عن مد يد المعونة بالمال لليهودى أو مشرك، مع شديد حاجته إليه، وكان ذلك الامتناع من قبل المعاملة بالمثل من جهة، ولأن فقراء المسلمين الأولى، ولحمل أولئك على الدخول فى الإسلام دين الوحداية والعزة؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن الصدقة واجب إذا وجد سببها، ووجدت الحاجة إلى العطاء من غير نظر إلى الموضع الذى يستحقها، فإنك تكرم إنسانيته، لا يهوديته، ولا نصرانيته ولا إشراكه.

ولقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ أنه كان يأمر بالآل يتصدق إلا على أهل الإسلام، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. وقال ابن عباس أيضاً: «كانوا (أى أصحاب رسول الله ﷺ) يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا رسول الله ﷺ فرخص لهم، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾».

وبهذين الخبرين يتبين أن هذه الآية الكريمة نزلت لبيان أن الصدقة تسوغ على غير المسلم، بل تجب إذا كان غير المسلم في حاجة شديدة، ويخشى عليه إن لم يقدم له عطاء ينقذه.

وإن هذه الآية وما يليها من آيات تبين من يستحقون الصدقات ومن يؤثرون، فصدرها سبحانه وتعالى بالإشارة إلى أنه يسوغ إعطاء غير المسلمين، بل يجب، وبذلك التصدير يتبين موضع الإسلام من احترام الإنسانية، والإخاء الإنساني العام؛ فإنه يدعو إلى التعاون والسلام العام، وما يحارب إلا لتقرير ذلك السلام؛ فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً...﴾ (البقرة) وقال تعالى: ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسِّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ (الأنفال).

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هَذَا هُمْ﴾ أى أن الواجب المفروض عليك هو التبليغ والدعوة إلى ربك بالموعظة الحسنة؛ فليس عليك أن تهدى عاصياً، ولا تدخل الإيمان في قلب كافر، فلا تمنع صدقة لأجل الكفر، ولا تمنع عطية للحمل على الإيمان ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فهو يهدى من يسير في طريق الهداية، ويفتح قلبه لنور الإيمان، فيوفقه المولى العلى القدير العليم بما تخفى الصدور إلى الحق فيدركه بعد أن يأخذ في الأسباب، ويسد عن قلبه مداخل الشيطان إليه.

وعليك أنت أيها الرسول أن تبلغ ما أنزل إليك، وأن تعامل الناس بما يليق بأخلاق أهل الإيمان، وباحترام الإنسانية وسد حاجة المعوزين، ولو كانوا من المخالفين الذين يدينون بغير دينك، وأن تعاملهم بالتى هى أحسن.

وبهذا المنهاج القويم أخذ السلف الصالح رضوان الله تبارك وتعالى عليهم مقتدين بالنبي ﷺ. وإنه يروى أنه فى المواعدة التى كانت بين النبي ﷺ والمشركين التى تمت فى صلح الحديبية أصابت قريشاً ضائقة، فأرسل النبي ﷺ إلى أبى سفيان بن حرب زعيم الشرك فى ذلك الإبان خمسمائة دينار يشتري بها قمحاً يفرج به ضائقتهم، ويسد حاجة المعوزين منهم، وهم ما زالوا مشركين^(١).

(١) رواه أبو داود: الأدب - الحذر من الناس (٤٢١٩)، وأحمد (٢١٤٥٤).

ويروى أن عمر بن الخطاب وجد شيخاً ذمياً على باب المسجد يتكفف الناس، فأجرى عليه رزقاً مستمراً من بيت المال بعد أن قال له كلمته الرحيمة: «ما أنصفناك! أخذنا منك الجزية صغيراً، وضيعناك كبيراً».

ولقد أمر النبي ﷺ المسلمين أن يعطوا فقراء غير المسلمين من صدقة الفطر فقال عليه السلام: «أغنوهم عن سؤال هذا اليوم»^(١).

وإنه إذا كانت الصدقة جائزة على غير المسلمين فأولى أن تكون جائزة على عصاة المسلمين. وقد أجمع على ذلك علماء المسلمين، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا ابن تيمية؛ فقد أفتى بعدم جواز ذلك لثلاث أسباب: تشجيعاً لعصيانهم؛ وهذا غير ما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والبخاري عن أبي هريرة فقد قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد زانية فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فوضعها في يد غنى، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غنى، قال: اللهم لك الحمد على غنى، لأتصدقن الليلة، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق فقال: اللهم لك الحمد على زانية وغنى وسارق فأنتى، فقبل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقة»^(٢).

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلْأَنْفُسِكُمْ﴾ بين سبحانه أن الصدقة تجوز لكل من يكون في حاجة إليها، سواء أكان مؤمناً أم كان كافراً، وسواء أكان براً تقياً، أم كان فاجراً عصياً، فالعطاء لإنفاذ الإنسانية أياً كان صاحبها بعد أن بين ذلك بين سبحانه أن الصدقة كيفما كانت، وأياً كان موضعها هي خير لصاحبها؛ وخيريتها ثابتة من ثلاث نواح:

(١) أخرجه الدارقطني عن أبي معشر، كما رواه ابن عدى في الكامل وأعله بأبي معشر، وراجع أيضاً جمع الجوامع (٣٦٦٧).

(٢) رواه البخاري: الزكاة - إذا تصدق على غنى وهو لا يعلم (١٣٣٢)، ومسلم واللفظ له: الزكاة - ثبوت أجر المتصدق (١٦٩٨).

الناحية الأولى: أنها تعود على نفسه بالتهذيب والتربية، وتقوية الإحساس بحق الجماعة عليها، والتأليف الروحي بينها وبين الناس؛ وهذا ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ﴾ أى أن كل شيء تنفقونه خير عائد على أنفسكم من حيث إنه يهذبها، ويقوى صلاتها الاجتماعية، ويرهف الوجدان، وفوق هذا وذاك فإن الإنفاق يدفع غوائل اجتماعية إن سلطت على الجماعة أذهبت وحدتها، وقوضت بناءها؛ فإن أولئك الفقراء إن لم يمكنوا من حقهم فى الحياة كانوا أداة تخريب وعنصر هدم، وكانوا كالشاة إذا جوعتها انتشرت ذئباً، وافترست كل ما فى طريقها؛ وإن دفع هذه الكوارث هو حماية للنفس، ودفاع عن الوجود، وهذا المعنى يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ﴾ لأنه حماية لها.

فهذه هى الناحية الأولى التى تعود بالخير على المنفق، أيا كان من يعطيه، وأيا كان مقدار العطاء قليلاً أو كثيراً؛ ولذا قال: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ فـ «من» الدالة على البعضية تنبئ عن أنه يجوز الإنفاق بالقليل والكثير، وفى كل خير يعود على النفس.

والناحية الثانية: ما أشار إليها سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ فهذه الجملة السامية تثبت الخيرية فى الصدقة، ولو كانت لعاص أو كافر؛ ذلك لأنه لا يقصد بالعطاء إرضاء العاصى أو الكافر إنما يقصد بالعطاء وجه الله تعالى ورضاه، ورضا الله سبحانه وحده غاية ترجى، وخير عظيم يطلب، ومقصد أسمى يتجه إليه المؤمن ويبتغيه طالب الهداية؛ فإن المؤمن العاقل قلبه بالإيمان يحس بروحانية إن طلب رضا الله وابتغاه، أى طلبه بشدة.

وقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ لا يدل على طلب رضا الله فقط، بل يدل مع ذلك على طلب إقبال الله تعالى عليه؛ لأن كلمة ﴿وَجْهِ اللَّهِ﴾ تدل على الرغبة فى المواجهة والاتصال بالله تعالى، وإقباله على ربه، وإقبال ربه عليه؛ وتلك منزلة

روحية سامية حسبها جزاء للصدقة، ولو كان المعطى كافراً عاصياً. ولقد قال بعض الصوفية فى معنى ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أى يطلب المتصدق وجه الباقي، أى الناحية الباقية فى الدنيا والآخرة، وهى ناحية الله تعالى؛ ولذا يقولون إن لكل شئ ولكل عمل وجهين: وجهاً يتجه إلى هذا العالم وما فيه من أناسى، وهو الوجه الفانى، والوجه الثانى هو الوجه الدائم الباقي، وهو رضا الله تعالى.

هذه هى الناحية الثانية من الخيرية فى النفقة بالنسبة للمنفق من غير نظر إلى من أنفق عليه.

أما الناحية الثالثة: فهى التى بينها قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه جزاء الصدقات، من حيث إنها تعود على المنفق مغباتها وثمراتها؛ والمعنى: أن ما تنفقون من خير فى هذه الدنيا يوفى إليكم جزاؤه فى هذه الدنيا، وفى الآخرة؛ أما فى الآخرة فبالنعيم المقيم الخالد، وهو أضعاف مضاعفة للصدقة، وجزاؤها فى الدنيا من حيث إنها تقوية للعناصر الضعيفة فى الأمة، فتنقلب إلى عناصر قوة تمدها بالخير والمعونة الصادقة، فتكون قوة عاملة منتجة تعود ثمرات أعمالها إلى الجميع ومنهم المنفقون، وإن الفقراء إن لم يعطوا كانوا أداة تخريب وهدم، والصدقة تجعلهم عنصر عمل وبناء، وخير ذلك للجميع.

وقد أشار سبحانه إلى أن ذلك الجزاء الدنيوى والأخروى هو للصدقة، وكأنه وفاء لها مولد منها؛ ولذا سماه بها، فقال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أى يعود إليكم ذات الخير، فالجزاء لأنه ثمرة لازمة كأنه هو نفس الإنفاق، والنتيجة لأنها متولدة عن الإنفاق كانت كأنها هو. ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أى لا تنقصون أى جزاء لعمل قدمتموه لا تبغون به إلا وجه الله تعالى، وهو العليم الحكيم القادر على كل شئ، وإلى الله المصير.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
 الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ
 لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
 فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
 بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

بَيَّنَّ سبحانه وتعالى في الآيات السابقة آفات الصدقات التي تذهب بخيرها بالنسبة لمعطيها من مَنْ وَأَذَى ورياء وقصد إلى الخبيث دون الطيب ينفق منه، مع أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً؛ ثم بَيَّنَّ أنه لا يصح أن يكون الكفر أو العصيان سبباً للمنع حيث يجب العطاء، لِيُحْمَلَ المشرك على الإيمان، والعاصي على الطاعة. بعد هذا بَيَّنَّ سبحانه موضع الصدقات والصفات التي تُوجب العطاء في مستحقها؛ وقد قصد سبحانه وتعالى إلى بيان موضع الأولوية فيها؛ فقال تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى أن الصدقة تكون للفقراء الذين اتصفوا بهذه الصفات، وكانوا على تلك الأحوال، وهى خمس؛ فالجار والمجرور (للفقراء) خبر لمبتدأ محذوف يفهم من مطاوى الكلام الكريم السابق كله وثناياه؛ لأن الكلام السابق كله فى الإنفاق فى سبيل الله، والصدقات المأجورة المشكورة، وما يعكر إخلاصها، ويعوق جزاءها؛ فكان المحذوف المطوى فى القول مع قيام المشير إليه هو «الصدقة»، فهو محذوف فى حكم المذكور، ولكن لماذا أثر النص القرآنى الحذف مع أن الأصل الذكر ليتم النسق الكلامى؟ الجواب عن ذلك هو، أولاً الإيجاز المعجز الذى يكون فيه قصر اللفظ مع غزارة المعنى، وثانياً هو تعليم العباد

من حيث إنه طوى لفظ الصدقة، ولم يصرح فيه بالإسناد ووضعه بجوار الفقراء؛ للإشارة إلى أن الأدب يوجب على المعطى ألا يصرح أن يعطيه بأن هذا صدقة، حتى لا يحس بمذلة الأخذ، فحذف القرآن لفظ الصدقة عند الإسناد إلى الفقراء مع وجوده فى السابق من القول، ليخفيه المعطى عند العطاء، مع احتسابه النية بإخفائه المقصد.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى للفقراء الذين يستحقون الصدقة أوصافاً أو أحوالاً خمسة:

الوصف الأول منها: ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى مُنَعُوا من الكسب الحلال الطيب الذى يطلبه صاحبه مجاهداً فى طلبه. فالإحصار هنا المنع؛ وأصله من الحصر بمعنى التضيق كما قال تعالى: ﴿وَأَحْصَرُوهُمْ...﴾ [التوبة] أى ضَيَّقُوا عليهم. والإحصار هو التشديد فى التضيق بالمنع من الحركة والسير والعمل المنتج الثمر؛ والمنع إما أن يكون لعجز مطلق بمرض أو شيخوخة أو صغر أو غير ذلك، وإما أن يكون المنع بسبب ضيق مسالك الكسب، فإن كان قادراً ولا يجد عملاً مع طلبه، أو هو مشغول عن طلب الرزق لنفسه بما هو أجدى على الجماعة وأنفع كالفدائيين الذين يتقدمون الصفوف ليفتدوا جماعتهم، ويعملوا كلمة الحق، ويخفضوا كلمة الباطل؛ فكل هذا إحصار ومنع من اكتساب الرزق.

وعبر فى الآية الكريمة بـ ﴿أَحْصِرُوا﴾ بالبناء للمجهول للإشارة إلى أن فقرهم لم يكن نتيجة امتناع عن العمل المجدى النافع، ولم يكن تخاذلاً أو كسلاً، أو تهاوناً فى طلب الرزق الحلال، إنما كان بمنع من غيرهم، أو ليس لهم فيه إرادة حرة قد آثروا فيها الكسل على العمل، وإنما كان المنع عجزاً؛ أو لأنهم بمقتضى التوزيع العادل والتنسيق الكامل فى الأعمال تحبسهم الجماعة عن طلب الرزق لينصرفوا إلى عمل آخر يجدى وينفع كالجهاد فى سبيل الله، فكانوا ممنوعين عن طلب الرزق بحكم الواقع أو التكليف ولم يكونوا ممتنعين.

وكلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ما موضعها في الوصف المذكور؟ قال بعض العلماء: إن كلمة في سبيل الله في هذا المقام فيها إشارة إلى سبب الإحصار والمنع، وهو أنهم حبسوا أنفسهم للعمل في سبيل الله، وانقطعوا عن المكاسب وطلب الرزق؛ لأنهم ربطوا أنفسهم في سبيل الله بالجهاد في سبيل إعلاء الحق، أو بالقيام بعمل عام، وقالوا إن هذه الآية نزلت في أهل الصُّفَّة، وهم طائفة من المهاجرين الفقراء انقطعوا عن أموالهم، وأقاموا: بالمدينة لا مرتزق لهم فيها، ينتظرون غزوة يسرون فيها، أو سرية يذهبون معها، فكان النبي ﷺ يأمر الصحابة ذوى اليسار باستضافتهم، فتستضيف كل أسرة واحداً أو أكثر على حسب قدرتها، ومن بقى منهم من غير استضافة بسط النبي ﷺ مائتته لهم في المسجد وأكلوا معه، وقد أقام لهم في المسجد صُفَّة، أى ظلة يأوون إليها يتقون الحر والبرد.

وعلى هذا التخرج يكون الإحصار المذكور في الآية ما يكون سببه الانصراف عن العمل بالاشتغال بعمل عام؛ فإن هذا يوجب على الجماعة التى يعملون فيها أن تجرى على العامل ما يكفيه وأهله بالمعروف؛ فإن لم تفعل الدولة ذلك، وهى التى تمثل الجماعة، تولى الآحاد والجماعات من الناس تهيئة أسباب الرزق لهم بما يكفيهم.

ولكن الأوصاف اللاحقة لهذا الوصف تومىء إلى أن الآية الكريمة يدخل في عمومها كل فقير يتعفف عن السؤال، ولا يستطيع كسب عيشه لأى سبب من الأسباب المانعة أو المعوقة من العمل للرزق؛ بل إن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، يجعل موضوع الآية الكريمة الفقراء العاجزين عن الكسب غير المتفرغين لخدمة عامة؛ لأن هؤلاء لا يتعرضون للسؤال ثم يمتنعون عنه، إنما الذى يتعرض له، ويعف عنه هو العاجز لغير ذلك السبب.

حيث أن يكون قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعم من الحال التى ذكرها أولئك المفسرون بأن يكون معناها، أى فى سبيل القيام بما يجب عليهم، سواء أكان ذلك الواجب رزقاً يطلبونه، ولكنهم يعجزون عن الحصول عليه، فهم فى سبيل هذا

الطلب فى سبيل الله، أم كان ذلك الواجب خدمة عامة حسبوا أنفسهم لها، أو القيام بأمر من الفروض الكفائية التى تخصصوا فى بعضها كطلب العلم، فإن هؤلاء على المجتمع فرادى وجماعات وعلى الدولة أن تسهل لهم الحياة، وتمكنهم من الاستمرار على طلب ما يطلبون.

والخلاصة أن الإحصار على هذا يشمل العجز المادى عن الكسب إما لمرض أو شيخوخة أو نحوهما، أو لطلب العمل مع عدم القدرة عليه، كما يشمل الذين حسبوا لتكليف عام، والقيام بفرض من فروض الكفاية.

وأما الوصف الثانى من أوصاف أولئك الفقراء الذين هم أولى الناس بالإنفاق عليهم أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾. والضرب فى الأرض إما أن نقول إنه بمعنى الذهاب فى الأرض والسفر فيها طلباً للرزق؛ إذ إن هذا المسافر يضرب الأرض برجله كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ [النساء] والمعنى على هذا أن هؤلاء لا يستطيعون السفر للتأجير وكسب الرزق.

إما أن يقال هذا، وإما أن يقال إن الضرب فى الأرض بمعنى حرثها وزرعها، فإن الحارث الزراع يضرب الأرض بفأسه ويشقها بمحراثه. والأولى فى نظرى أن تكون كلمة الضرب فى الأرض شاملة، وأن يكون النفى شاملاً، أى أن هؤلاء الفقراء لا يستطيعون العمل فى الأرض بالزراعة، أو الذهاب فيها للاحتطاب والكسب، أو السفر للتأجير، والتنقل بين الأمصار سعياً فى الرزق، لا يستطيع أولئك الفقراء شيئاً من هذا بسبب العجز المادى، أو لأنهم حسبوا لنفع عام، أو واجب كفائى على العموم، وقد تخصصوا هم لأدائه؛ ولقد قال ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذى مرة سوى»^(١).

وأما الوصف الثالث من أوصاف أولئك الفقراء الذين هم جديرون بالعطاء أنهم ﴿يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾، ومعناه أنهم متجملون لا يعرف حالهم

(١) رواه الترمذى: الزكاة - من لا تحل له الصدقة (٥٨٩)، وأبو داود: الزكاة - من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٣٩٢) وأحمد (٦٢٤٤)، وابن ماجه: الزكاة - من سأل عن ظهر غنى (١٨٢٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

من فقر مدقع إلا أهل الخبرة بالنفوس وذوو البصيرة النفاذة، والفراسة الصادقة، فهم لا يعرفون بقرهم وحاجتهم وعوزهم، بل يحسبهم الجاهل، أى يظنهم أغنياء ويقوم ذلك بحسابه وتقديره من غير أمارات ظاهرة وبيئات قائمة، فالظن فى قوله تعالى: ﴿يَحْسِبُهُمْ﴾ ظن فى حسابان صاحبه فقط؛ و«الجاهل» إما أن يكون المراد به من لا يعرف حالهم، أو المراد به من لا ينفذ إلى حقائق الأمور، بل يأخذها بمظاهرها التى تبدو بآدى النظر، وليس عنده إحساس مرهف يعاونه على إدراك حال هؤلاء الفقراء مما يحيط بهم لا من مجرد المظاهر، وهذا هو الحق، و«التعفف»: تكلف العفة إما بالمبالغة فيها، والشدة فى النزاهة، أو بمحاولة الصبر عليها وتحمل المشقة فى سبيلها، أى أن الدواعى لتركها أقوى من البواعث على الاستمسك بها، ولكنه يستعين بالصبر، فيرجع العفة بعد تكلف المشقة واحتمالها. والآية الكريمة تقبل المعنيين، فإن الفقير العاجز عن الكسب عند تحمله ما يتحمل الحر الكريم فى سبيل عفته، والمحافظة عليها مبالغ فى العفة؛ أولاً: لأن المبالغة فى العفة ليست بالقدر منها، إنما يكون بقدر ما يئذل فى سبيل المحافظة عليها، فالغنى لا يبالغ فى العفة إن امتنع عن أخذ أموال الناس، أو طلب المعونة منهم أو أكل مالهم بالباطل، أو سرقته أو اغتصابهم، ولكن العاجز عن الكسب يعد مبالغاً فى العفة إن امتنع عن طلب المعونة، وهو فى أمس الحاجة إليها . . وهذا الفقير يبالغ فى العفة ثانياً: بتحمل المشقات والتصبر عليها وفى سبيلها.

وأما الوصف الرابع فهو ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ وهو أمر متصل بهم وبمن يراهم من ذوى الحس المرهف، والبصيرة النافذة؛ ولذا كان الخطاب فى معرفة سيماهم للنبي ﷺ وهو البصير النافذ البصيرة، ولمن كان مقتدياً به من كل مؤمن قوى الوجدان، ممن قال فيه النبي ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(١). والسيما: العلامة، فما هى علامة الفقراء المتجملين الذين سترتوا حاجتهم، والتى يعرفون بها؟ قال بعض العلماء: التواضع والخشوع؛ وقال بعضهم: الرثاثة ومظاهر

(١) الترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة الحجر (٣٠٥٢).

الفقر؛ وقال بعضهم: الجوع وآثاره. والحق أن الله سبحانه وتعالى لم يبين لنا هذه العلامة التي يعرفون بها؛ ولكنه ذكر أنها تعرف لدى البصيرة؛ أى أن الشخص المدرك الفاهم يستطيع معرفتها بركة^(١) نفسه، من لمحات الوجه، ومن تعرف مصادر الشخص وموارده، وما يحاول به ستر حاله؛ فإنه مهما يحاول الفقير التجميل والصبر فإنه لابد أن تبدو حاجته لدى البصيرة الكريم الذى لا يعلن عورات الناس؛ فالعلامة إذن هى الظاهرة التى تبدو للفاحص الذى يُطَمَّان إليه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى بهذا أمرين: أحدهما ينسب للجاهل وهو الظن بأنهم من الأغنياء، إذ قال سبحانه: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ هذا ظن الجاهل بالنفوس يحسبهم لفرط تجملهم بالصبر أغنياء، والأمر الثانى أن لهم سيما ومظهراً لا يعرفه الجاهل، ويعرفه غيره بالنظر الفاحص العاطف، الكاشف الساتر.

وأما الوصف الخامس من أوصافهم أنهم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أى أنهم لا يسألون الناس، ولا يلحفون فى السؤال أو الطلب؛ ولقد قال الزمخشري فى معنى «إلحافاً»: «الإلحاف الإلحاح، وهو اللزوم، وألا يفارقه إلا بشيء يعطاه من قولهم: (لحفنى من فضل لحافه) أى أعطانى من فضل ما عنده»، وقال الراغب الأصفهاني: «أصله من اللحاف، وهو ما يتغطى به» وعلى هذا يكون معنى الإلحاف: هو الملازمة فى الطلب وملاصقة من يطلب العطاء كملاصقة اللحاف لمن يستتر به، أو الإلحاف يأخذ به الفضل الذى يعطاه.

وقد اختلف العلماء فى النفى بهذه الجملة السامية: أهو نفى للإلحاف وليس نفياً للسؤال؛ أى أنهم يسألون ولكن لا يلحفون فى السؤال؛ أم هو نفى للسؤال مطلقاً سواء أكان إلحافاً أم من غير إلحاف؟

قال بعض العلماء: إن النص الكريم يفيد بظاهرة نفى الإلحاف لا نفى أصل السؤال؛ لأن النفى منصب عليه، إذ النفى إذا كان لأمر مقيد بوصف يكون موضعه ومناطه هو القيد، لا الأصل.

(١) الزكاة والزكَّن بالتحريك التفرُّس والظن يقال زَكَّيْتُ صالحاً أى ظننته. [لسان العرب - ركن].

وقال بعض آخر: إن أولئك الفقراء لا يسألون مطلقاً لا بإلحاف ولا بغير إلحاف؛ وإنى أرى أن ذلك هو الراجح؛ لأنهم لو كانوا يسألون ما حسبهم الجاهل أغنياء من التعفف؛ ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين، ولو كانوا يسألون ما احتاج البصير ذو الوجدان إلى تعرف حالهم بالمظاهر والسمات؛ فإن طلبهم يغنى عن التعرف، إذ هم يعرفون أنفسهم بالسؤال؛ فسياق الآية يفيد أنهم لا يسألون مطلقاً؛ ولكن لماذا كان النفي متجهاً إلى الإلحاف في ظاهره، لا في أصل السؤال؟ فنقول في الجواب عن ذلك: إن النفي ذكر بهذه الصيغة، ليكون فيه إيماء إلى أن يوازيهم المعطى بغيرهم، وأن غيرهم يسأل الناس إلحافاً وهم لا يسألون؛ فالله سبحانه وتعالى نفى عنهم ما يقع من غيرهم، والنفي بهذه الصيغة فيه تعريض بالملحقين، وبه يبدو فضل المتعففين.

وفي الحقيقة إن نفى السؤال قد فهم فهما ضمناً واضح الدلالة من الأوصاف السابقة؛ أما الوصف الأخير فهو ينفي عنهم ما يقع من غيرهم وهو الإلحاف؛ ويندر أن يكون سائل غير ملحف؛ وذلك لأن السؤال حيث وقع يكون التعفف قد زال، وإذا زال التعفف وجد الطلب والرغبة في الأخذ، وعند ذلك يكون الإلحاف، حتماً.

وإنه بلا شك يجب على المعطى أن يستدئ في عطائه بأولئك المتعففين الذين لا يسألون؛ لأنهم الذين يستحقون، وهم المساكين كما قال النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، إنما المسكين المتعفف، اقرءوا إن شئتم» لا يسألون الناس إلحافاً»^(١).

وإنه إذا أعطى هذا المتعفف يجب عليه أن يستر حاله، ولا يكشف أمره؛ ليكون ذلك عوناً له على تعففه وتحمله، وكل كشف له أذى، والأذى من آفات الصدقات.

(١) رواه البخاري: التفسير - لا يسألون الناس إلحافاً (٤١٧٥)، ومسلم واللفظ له: الزكاة - المسكين الذي لا يجد غنى (١٧٢٣).

وإذا فضل شيء بعد كفاية المتعفف أعطى السائل؛ فإن مذلة السؤال توجب العطف؛ ولذا ورد «للسائل حق ولو جاء على فرس»^(١) وإن على من يعطى سائلاً أن يتعرف حاله أهو يسأل متكثرًا، وهو غنى أم هو فقير يسأل مستعينا؟ وليتهم نفسه وشحه قبل أن يتهم السائل؛ ولأن يخطئ في إعطاء غنى عن جهالة خير من أن يخطئ بمنع فقير تظنناً وتائماً؛ فإن في الأول ثواباً له بنيته، وفي الثاني إثماً عليه بتغليب شح نفسه، وتركه فقيراً يتضور جوعاً، مسوغاً ذلك بالظن الآثم والتهمة.

وإن الإثم في ترك السائلين يسألون إنما هو في عدم تنظيم الإحسان، وإغناء الفقراء عن مذلة السؤال.

ولقد تكلم العلماء في السؤال أهو سائغ من الفقير أم غير سائغ؛ فاتفقوا على أنه جائز عند الضرورة، وأنه لا يصح أن يسأل من عنده قوت يكفيه. ولقد روى الإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ قال: «المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجه»^(٢).

وإن السؤال في غير هذه الأحوال غير سائغ، وهو داخل في عموم النهي؛ ولقد قال النبي ﷺ: «لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغنى به من الناس خيراً من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه»^(٣) فالسؤال حيث القدرة على العمل غير جائز.

ولقد قال النبي ﷺ: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم» قالوا يا رسول الله: وما يغنيه؟ قال: «ما يغديه أو يعيشه»^(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال المصنف رحمه الله: الفقر المدقع: هو الذي يلصق صاحبه بالأرض. والغرم المفظع: الدين الشديد الكثير. وذو الدم الموجه: المتحمل لدية ثقيلة الأداء. اهـ. والحديث رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه (١١٨٣٠)، ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه بأطول من هذا.

(٣) رواه البخاري: الزكاة - الاستعفاف عن المسألة (١٧٢٧)، ومسلم واللفظ له: الزكاة - كراهة المسألة (١٧٢٧).

(٤) جزء من حديث رواه أحمد: مسند الشاميين (١٦٩٦٧) عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه.

وإن كل سائل وعنده ما يغنيه يعد ملحقاً، والإلحاف بكل صورة منهى عنه؛ ولذا قال ﷺ: «من استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس، وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافاً»^(١).

وفى الجملة إن السؤال ذل وأمر قبيح لا يلجأ إليه المؤمن إلا عند الضرورة، وعلى من يرى سائلاً أن يعطيه إن كان المعطى فى سعة، وإن قام فى نفسه أنه غنى لا يعطيه، ولكن عليه أن يحتاط لدينه كما يحتاط لصدقته؛ وخصوصاً فى عصرنا هذا الذى أهمل فيه حق الفقير، فلا يجرى عليه رزق دائم من الدولة، وليس للناس مروعات يغنون بها ذوى الحاجات، فكان حقاً على الناس أن يعطوا هؤلاء المحرومين، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة السامية ختمت بها الآية الكريمة، لثلاثة أمور:

أولها: تربية الشعور بمراقبة الله فى نفس المؤمن، فإنه إذا أحس أن الله سبحانه وتعالى مطلع دائماً على كل ما يعمل من خير ومن شر، أحس بمراقبته سبحانه، ودام ذكره له، وشعوره بعظمته، فيكون فى مقام العبودية الرفيع، ويعبد الله كأنه يراه، كما قال ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

ثانيها: هو الإحساس برضا الله عنه عند فعل الخير؛ إذ إن الله يراه وهو يفعل، والإحساس بمروضة الله مقام جليل، فرضوان الله أكبر من كل نعيم.

(١) أحمد: مسند الشاميين - حديث رجل من مزينة رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه قريباً من رواية البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

ثالثها: العلم بالجزاء الأخرى؛ فإن الله إذا كان يعلم الخير من الأخيار، فإنه يشبه عليه؛ لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هذا ختام آيات الإنفاق في سبيل الله، وقد ختم سبحانه هذه الآيات كما بدأها؛ بدأها بالجزاء الأوفى لمن يتصدق وينفق في سبيل الله، وختمها بالعاقبة الحسنى لمن يتحرى في الصدقات مواضعها، أي كان زمنها، وأي كان حالها، فتستوى نفقة الليل ونفقة النهار، وصدقة السر وصدقة العلن، ما دامت الصدقات قد قصد بها مرضاة الله تعالى، وسلمت من آفاتهما وهي المن والأذى والرياء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فيه بيان عموم الأزمان، فليس للصدقات وقت معلوم تقبل فيه، وآخر ترد وترفض، بل هي خير كلها، المقصود منها النفع العام، وهو متحقق فيها ليلاً ونهاراً، وغدوة وعشيا، وفي الضحى وفي الأصيل، فالعبرة بالفعل ونيته ونتيجته لا بزمانه ولا بوقته. وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فيه بيان عموم الأحوال، ما دامت الصدقة قد خلت مما يرتق صفو الإخلاص فيها، ولا يجعلها خالصة لوجه الله الكريم. ولقد قالوا إن تقديم الليل على النهار، والسر على العلانية فيه إيماء إلى أن الأولى الإخفاء والستر؛ وإن ذلك واضح؛ لأن في الإخفاء والستر احتياطاً للنفس وصوناً لها عن كل ما يؤدي إلى الرياء؛ فإن الإعلان قد يؤدي إلى الحمد والثناء، وقد يستمرئ المعطى ذلك، ويستطيعه، ثم يطلبه ويقصده، وعند ذلك يدخل الرياء، إذ يجد الثمرة في هذا الموضع فينفذ إلى النفس منها.

وهناك نوع من التعميم آخر في الآية غير عموم الزمان والحال، وهو عموم الإنفاق؛ فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ ولم يقل مثلاً يطعمون، فالإنفاق باب واسع يشمل الإطعام والكسوة، كما يشمل سداد الدين ودفع المغارم، وإعداد العدة في سبيل الله تعالى، وإمداد المحاربين، وشراء ما يخصص للنفع العام، كشراء عثمان بئر رومة؛ فكل هذا من الإنفاق، وعمم مع الإنفاق الأموال التي تنفق، فكله خير وكله له جزاؤه.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا جزاء الذين ينفقون بإخلاص غير مقيدین بزمان ولا حال ولا مكان، ولا قدر من الإنفاق، ولا نوع منه. والجملة موقعها من الإعراب أنها خبر والمبتدأ الذين ينفقون، ودخلت الفاء في الخبر، لأن الموصول في معنى الشرط فتدخل الفاء في خبره جوازاً، كما تدخل جواب الشرط.

والجزاء الذي ذكره سبحانه وتعالى ثلاثة أنواع:

أولها: الثواب يوم القيامة، وفي الدنيا، وذلك بالبركة، وبفضل التعاون الذي توجده الصدقة والإنفاق في سبيل الله؛ ثم بالنعيم المقيم يوم القيامة. وقد سمي سبحانه وتعالى ذلك أجراً، وسماه في مواضع أخرى جزاء، مع أنه المعطى والمانع، والرازق والباسط، وذلك تفضل منه وكرم، ولتتعلم من الله عدم المن في العطاء.

والثاني من الجزاء: الأمن من الخوف؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والصدقة تؤمن من الخوف في الدنيا وفي الآخرة، فهي أمن من عذاب الله يوم القيامة؛ إذ إنها تكفر السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾ [هود] وكما قال ﷺ: «الصدقة تطفي الخطيئة»^(١)، أما الأمن من الخوف في الدنيا؛ فلأن الإنفاق في مواضع الإنفاق وقاية للمجتمع من غوائل الفقر، وعوامل التخريب، فلا يحصن مال الغنى إلا الإنفاق في كل ما يعود على الفقير والمجتمع بالنفع، وإن الأمن من الخوف بالإنفاق واضح كل الوضوح في الإنفاق لإمداد القوات المجاهدة في الدفاع عن الأمة، كما هو واضح في سد حاجات الفقير، وتهئية فرص الحياة الرفيعة والعمل له.

(١) سبق قريباً.

والثالث من أنواع الجزاء: نفي الحزن، والبعد عن أسبابه. والحزن هم نفسى؛ ولذا عبر عنه بالفعل الذى يصور النفس والشخص فقال سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهم النفس يُدْفَعُ بالاعتماد على الله، وطلب رضا، واطمئنان الضمير، وبرد اليقين، وذلك كله يتحقق فى الدنيا بالصدقة، وزوال الحزن فى الآخرة بها أعظم وأكبر.

هذا والآية عامة تشمل كل من يسارع إلى الإنفاق فى وقت الحاجة إليه فى سر أو فى إعلان فى ليل أو فى نهار، غير قاصد بما أنفق إلا الخير يبتغيه، ومرضاة الله سبحانه وتعالى، لا يرائى ولا يمين ولا يؤذى، ولقد ذكر العلماء أن الآية مع عمومها وجدت روايات فى سبب نزولها.

وهذه الروايات كلها لا تمنع عمومها، وإنما تبين فضل المتفق المخلص الذى يعم إنفاقه، ويَجِىء فى وقت الحاجة إليه، و «الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه»^(١).

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الذكر والدعاء - فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٤٨٦٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

كانت الآيات الكريمات من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ...﴾ ﴿٢٧١﴾ [البقرة] إلى هذه الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ كلها في الصدقات؛ بينت مقاصدها، وبينت آفاتهما، وبينت وعاءها، وما يكون الإنفاق منه، ثم بينت مواضع الصدقات، وما ينبغي الإنفاق فيه؛ وفي هذه الآية الكريمة يبين سبحانه قبح الربا؛ وإن المناسبة بين الإنفاق في سبيل الله والربا، هي المناسبة بين الضدين؛ فإنه إذا تذكر الشخص أحد الضدين سبق إلى ذهنه ضده؛ وإن التضاد ثابت بين الإنفاق في سبيل الجماعة والربا من عدة نواح: من ناحية النفس التي ينبعث منها الربا، والنفس التي تنبعث منها الصدقة؛ فنفس الربو نفس محب لذاته يريد أن يحتاز كل شيء، ونفس المنفق في سبيل الله نفس محب للناس ألوف، يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، ومن ناحية الحقيقة، فالربا أكل لأموال الناس بالباطل، والإنفاق بذل لمال النفس في سبيل الغير ورفعة شأن الجماعة، وأكل أموال الناس نقيض لإعطاء الناس من حر ماله. ومن ناحية النتيجة فالربا يقطع التعاون بين الناس، أو يكون التعاون قائماً على الإثم والعدوان، بينما الإنفاق في

سبيل الله يقيم التعاون بين الجماعة والأحاد على أساس من الفضيلة، والبر والتقوى، ثم الربا يوجد قلق المرابى، والصدقة توجد اطمئناناً وقراراً.

فالربا والإنفاق فى سبيل الله نقيضان لا يجتمعان؛ ولذا جعلهما سبحانه وتعالى متقابلين تقابل الأضداد، فى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩) [الروم].

وقد ابتدأ سبحانه فى بيان حقيقة الربا وحكمه ببيان أثره فى نفس المرابى، ليعلم كل إنسان أن أثره شر فى نفس صاحبه، وأن أول من يناله الضرر هو المرابى نفسه، فهو بمقدار ما يكثر من مال يكثر من الهموم؛ ولذا قال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾
فهذه الجملة السامية تصوير لحال المرابى، واضطراب نفسه، وقلقه فى حياته؛ فالله سبحانه وتعالى يمثل المرابى فى قلقه المستمر وانزعاجه الدائم بحال الشخص الذى أصيب بجنون واضطراب، فهو يتخبط فى أموره وفى أحواله، وهو فى قلق مستمر. ومعنى التخبط الضرب فى غير استواء؛ ولذا قيل فى المثل: خبط عشواء. والمعنى على هذا أن الذين يأكلون الربا، ويتخذونه سبيلاً من سبل الكسب هم فى حال لا يقرون فيها ولا يطمثون، فلا يقومون ولا يتحركون إلا وهمُّ المال قد استولى على نفوسهم، والخوف عليه من الضياع مع الحرص الشديد قد أوجد قلقاً نفسياً دائماً فى عامة أحوالهم، فهم كالمتهبط بسبب ما مسه الشيطان.

وإن تشبيه حال المرابين بحال المجنون الذى مسه الشيطان فيه إشارة إلى أن الشيطان قد يمسُّ نفس الإنسان فيصيبه. وقد أنكر ذلك الزمخشري فى تفسيره، وخرج الآية الكريمة على غير المعنى الذى يفيد هذا فقال فى الكشف فى هذا التعبير الكريم: وتخط الشيطان من زعمات العرب، فورد على ما كانوا يعتقدون، والمس الجنون، ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم وأن الجنى يمسّه فيختلط عقله،

وكذلك جُنَّ الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات.

وإن هذا الكلام يفيد بفحواه أن العرب يزعمون صلة بين الجنون والجن، وأنه من مسَّ شياطين الجن، وأن القرآن ورد التعبير فيه على مثل ما كانوا يعبرون، وإن لم يكن ذلك حقيقة مقررة في الإسلام عند الزمخشري.

ولكن وردت أحاديث تفيد أن الشيطان يمس الإنسان، ويكون لمسه أثر في فكره وعقله؛ فهل نترك ظواهر هذه الأحاديث مثل قوله ﷺ فيما رواه النسائي: «اللهم إني أعوذ بك من التردى والهدم والغرق والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً»^(١).

وفي الحق إن البحوث الروحية التي يجريها العلماء الآن في أوربا أثبتت أن الشياطين من الجن تخبط نفس الإنسان أو تمسها فيكون الجنون، وأن تلك العبارات التي كانت تجري على ألسنة العرب حقائق ثابتة الآن، فلا يسوغ لنا أن نؤول القرآن الكريم بغير ظاهره، لإنكار لا دليل عليه.

وإن ظاهر الآية الكريمة يفيد أن هذا التمثيل هو لبيان حالهم في الدنيا، فهو تصوير لاضطرابهم وقلقهم وتخبطهم في حياتهم، وإن بدوا منظمين فهو تنظيم مادي، ومعه القلق النفسي، والانزعاج المستمر.

هذا هو ظاهر الآية، وبه قال بعض المفسرين، ولكن قال الزمخشري ومعه الكثيرون: إن ذلك التخبط من أكلة الربا هو يوم القيامة، فقال في الكشف: «المعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين؛ تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف، وقيل الذين يخرجون من الأحداث يوفضون إلا أكلة الربا، ينهضون

(١) رواه النسائي: الاستعاذة - الاستعاذة من التردى والهدم (٥٤٣٦) عن أبي اليسر، وأبو اليسر هو كعب بن عمرو بن عباد الأنصاري توفي ٥٥هـ. وعنه أيضاً رواه أبو داود: الصلاة - الاستعاذة (١٣٢٨)، وأحمد: مسند المكين (١٤٩٧٥).

ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم أكلوا الربا فأرياه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرّون على الإيفاض». ونرى من هذا أن الكشف يقصر تلك الحال التي صورها التمثيل على الآخرة. وإنى أرى أنه يصور حالهم في الدنيا والآخرة؛ فهم في الدنيا في قلق مستمر، وفي الآخرة تثقلهم سيئاتهم فيتخبطون، وكأنهم المصروعون.

ولا عجب في أن تكون تلك حالهم في الدنيا، فالربويون أكثر الناس تعرضاً للأزمات القلبية، كما يعرضون الجماعات للأزمات الاقتصادية؛ ولقد قرر الأطباء أن نسبة ضغط الدم، وتصلب الشرايين، والشلل والذبحة الصدرية عند الربويين أضعافها عند غيرهم، وما علمت ربويا مات إلا سبقه الشلل أو أخواته قبل أن يجيء إليه الموت ليستقبل نار جهنم؛ وذلك لأنهم ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ والله أصدق القائلين.

والربا معناه واضح يفهمه العامة وهو الزيادة في الدين في نظير الأجل، ولكن الذين يحاولون تطويع الشريعة لتكون أمة ذليلة للاقتصاد الربوي عقدوا معنى الربا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ ولذلك وجب أن نتكلم بإيجاز في معنى هذه الكلمة.

أصل الربا من «ربا» يربو بمعنى «زاد»، أو «نما»، ثم أطلقت كلمة ربا على ذلك النوع من التداين، وهو أن يزيد المدين في الدين في نظير الزيادة في الأجل، وقد صار إطلاق كلمة الربا على هذا المعنى حقيقة لغوية، أو هو عرف لغوي، وهذا هو الربا المذكور في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً...﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [٣٩] [الروم] وقوله ﷺ «ألا إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب»^(١) وهذا الربا يسمى ربا النسيئة؛ ولقد ورد في

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم: الحج - حجة النبي ﷺ (٢١٣٧)، وأبو داود في المناسك - صفة حجة النبي ﷺ (١٦٢٨)، وابن ماجه: المناسك (٣٠٦٥)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٧٧٤).

الأثر (إنما الربا النسئة)^(١) ولم يشك أحد من الفقهاء فى أن هذا محرم، فتحریمه ثابت بالنص القرآنى، والحديث النبوى، والإجماع الفقہى؛ ولقد سئل الإمام أحمد عن الربا المحرم قطعاً، فقال رضى الله عنه: أن تزيد فى الدين فى نظير الزيادة فى الأجل.

وهناك نوع سمي الربا فى الشرع الإسلامى، لا فى الحقيقة اللغوية، وهو ربا العقود، الثابت بقوله ﷺ: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، والآخذ والمعطى فيه سواء»^(٢).

وهذا النوع من الربا لم يكن معروفاً فى الجاهلية، بل هو حقيقة إسلامية وردت فى مقام النهى؛ ولذا يقسم الجصاص الربا قسمين: ربا غير اصطلاحى، وهو ربا الجاهلية عرفته اللغة، ولا مجال للريب فيه؛ وربا اصطلاحى، وهو الربا الذى جاء الإسلام بتحريمه.

ومع وضوح معنى الربا الجاهلى ذلك الوضوح، وهو الذى جاء بتحريمه القرآن الكريم، وجدنا ناساً يحاولون أن يشككوا الناس فى حقيقته، ليحلوا بذلك التشكيك ربا المصارف، وقد سلكوا للتشكيك مسلكين:

أولهما: أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً...﴾ [آل عمران] فهموا منه أو بالأحرى حاولوا أن يفهموا الناس أن الربا المحرم هو ما يكون بمضاعفة الدين، وما دون ذلك حلال، وأهملوا قوله تعالى: ﴿وَأَن تَبُيَّعَ بِكُلِّ مِثْقَلٍ ذَرَّةٍ مِّنَ الذَّهَبِ بِكَافٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [البقرة] مع أن قوله تعالى: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ حال من (الربا) وهو الزيادة، أى لا تأكلوا تلك الزيادة التى

(١) رواه البخارى: البيوع - بيع الدينار بالدينار نساء (٢٠٣٣)، ومسلم واللفظ له: المساقاة - بيع الطعام مثلاً بمثل (٢٩٩١).

(٢) رواه مسلم: المساقاة - الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً (٢٩٧١)، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. كما رواه أحمد والنسائى بمثل هذا.

تتضاعف عاما بعد عام، فالمضاعفة في الزيادة لا في أصل الدين، وفوق ذلك فالوصف جار مجرى الواقع من تكرار الزيادة حتى تصل إلى قدر الدين أو تزيد. ثم إنه من المقرر فقهاً أن النهي إذا ورد عاما ثم جاء نهى في بعض أفراد هذا العام لا يكون ثمة تعارض حتى يخصص العام، بل أقصاه أن بعض أفراد العام ورد فيه النهي مرتين، فله فضل تأكيد، وكذلك الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى...﴾ (البقرة).

المسلك الثاني من مسالك التشكيك أنهم قالوا: إن الربا المحرم هو ما قصد فيه المقرض أن يستدين للاستهلاك لا للاستغلال؛ فمن يقترض لشراء حاجات لازمة لنفسه أو أهله لا يصح أن يؤخذ منه زيادة نظير الأجل، ومن اقترض ليوسع تجارته، أو ليصلح زراعته، فهو مستغل بما اقترض، فالزيادة لا تكون ربا، بل هي مشاركة في الربح.

ذلك قولهم بأفواههم، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل. وإنه ينقض ذلك الزعم أمران:

أحدهما: عموم النص القرآني، فهو عام في كل قرض قد جر زيادة فوق رأس المال، بدليل ﴿وَإِنْ تَبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ...﴾ (البقرة).

وثانيهما: أن الذين كانوا يقرضون تجاراً، وكان ربا الجاهلية في مكة التي اشتهرت بالتجارة، وكان تجارها ينقلون بضائع الروم إلى الفرس والفرس إلى الروم، وكانت اليمن والشام فيهما الجلب والعرض، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ (١) إِيْلَافُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) [قريش] فشيوع الربا في ذلك الجو التجاري يدل على أنه كان ثمة ربا استغلال، وأن ربا الاستهلاك والاستغلال كلاهما حرام.

ولا يصح أن يسمى ربا الاستغلال مشاركة في الربح؛ لأن أصول المشاركة أن يكون ثمة شركة في المغنم والمغرم معا، لا أن تكون الشركة في المغنم دون المغرم.

هذه حقيقة الربا، وهى واضحة إلا عند الذين يتقبلون تشكيك المشككين وقد كان أهل الجاهلية يسوغون الربا مع إحساسهم الفطرى بأنه ليس أمراً حسناً، وكانوا يسوغونه بعقد المشابهة بينه وبين البيع؛ ولذا قال الله تعالى فيهم وفى الرد عليهم:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لقد عقد أولئك المشركون مقايضة بين البيع والربا، فقالوا: إن البيع يماثل الربا، فكما أن كسب البيع حلال، فكسب الربا حلال أيضاً، ولا فرق بينهما فى نظرهم الكليل، كالذين قالوا مقاتلتهم فى ظل الإسلام، لا فى حكم الجاهلية. ولكن ما الوصف الجامع فى نظرهم بين البيع والربا؟ لعلمهم نظروا إلى أن البيع قد يكون فيه بيع ما يساوى عشرة بخمسة عشر، فكان كسبه من تلك الزيادة، وهى حلال، فكذلك إعطاء مائة وأخذ عشرين ومائة حلال أيضاً؛ وإلى أن من يقترض مالا ليتجر فيه يكسب منه وكسبه حلال بالبيع والشراء، فكذلك يكون الربا بالمشاركة فى هذا الكسب؛ وإلى أن البيع بثمن مؤجل أكثر من الثمن العاجل حلال، فكذلك تأجيل الدين فى نظير زيادة يكون حلالاً، وتكون الزيادة كسباً طيباً.

ذلك قولهم، وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى قولهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فهذه الجملة السامية رد من الله سبحانه وتعالى لقولهم، وعلى ذلك جمهور المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾.

ومرمى الرد الحكيم، أن طالب الحق من عند الله يجب عليه أن يتلقى حكم الله من غير محاولة تشكيك ولا اعتراض، والله قد حرم الربا وأحل البيع، فحق على كل امرئ يؤمن بالله أن يذعن لحكم الله، من غير تملل ولا اعتراض؛ وإنه نظام الله الذى ارتضاه، ولم يرتض سبحانه سواه، وإن هذا الكلام جدير بأن يخاطب الذين يحاولون التخلص من النهى عن الربا بالتفرقة بين الاستدانة للاستهلاك، والاستدانة للاستغلال.

وإن التفرقة بين البيع والربا واضحة؛ فإن البيع موضوعه عين مغلّة أو متفع بها مع بقاء عينها، أو يجرى عليها الغلاء والرخص، فكان من المعقول أن يجرى

فيها الكسب؛ أما الدين فموضوعه نقد لا يغل بنفسه، ولا ينتفع من عينه، ولا يجرى عليه الغلاء والرخص؛ لأنه ميزان لقيم الأشياء، فلا تتغير قيمته في الأمة، وإن اختلفت قوة الشراء به، فالتفرقة بين البيع والربا ثابتة، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا الأدب في تلقى أحكامه، فلا يصح أن نقايس أمام أمر الله ونهيه، لتناقض عموم أمر الله ونهيه، وكل تفكير فيه معارضة لأوامر الله أو لنهيه فهو رد على صاحبه.

ولقد كان مقتضى القياس الظاهري أن يقاس الربا على البيع فيقال: إنما الربا مثل البيع، لا أن يقاس البيع على الربا فيقال: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ولكن جاء سياق القول على ذلك النحو؛ للإشارة إلى أن أولئك يؤمنون بالربا أشد الإيمان، حتى إنهم ليجعلونه أصلاً في التشبيه، فيشبهون البيع به، وكأن حله أصل، والبيع فرع. ولقد ذكر ابن كثير أنهم بقولهم هذا إنما يعترضون على الله في تحريمه، فافتضى ذلك أن يكون أصلاً، وكان مرادهم أن يقولوا: إن البيع يشبه الربا تماماً، فما دام الإسلام قد حكم بتحريم الربا، فكان ينبغي أن يحكم بتحريم البيع؛ ولذلك رد سبحانه وتعالى ذلك عليهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وما كان لهم أن يعترضوا على أحكام ربهم، وهو العليم بكل أمورهم، الخبير بالصالح لهم، وينبغي أن يتلقوا أوامره ونواهيه بالإذعان الكامل؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

الموعظة: اسم لما يأمر الله سبحانه وتعالى زاجراً للناس إن خالفوا، مبيناً لهم أن المصلحة في اتباعه، ضارباً لهم الأمثال على أن فيه مصلحتهم في معادهم ومعاشهم؛ والمعنى: من جاءه الأمر من الله سبحانه وتعالى أو النهي عنه فعليه اتباعه والتفكير فيه والاتعاظ به، بالبحث عن حكمته، لا أن يعترض عليه، ويجعل الشريعة تبعاً لهواه، ويخالف قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١) بأن يخضع الشريعة لأهواء الناس. وإن انتهى من جاءته موعظة

(١) سبق تخريجه. وقد صححه النووي في آخر الأربعين النووية من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ.

الله فله ما سلف من أمره، أى لا يعاقبه سبحانه على ما سلف من أمره قبل وجود الأمر والنهى فالإسلام يَجِبُ ما قبله، وقانونه لا يطبق على الماضى قبله، فما أكله المرابى من قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه وهو ملك له، وليس له أى حق ربوى بعد التحريم، وليس كذلك من أكل الربا بعد التحريم فإنه لا تَجِبُ توبة حتى يعطى المال لصاحبه؛ لأنه أكل لمال الناس بالباطل، وقد أكل بعد النص على التحريم، فإن لم يعرف له صاحب فإن عليه أن يتصدق به، ولعل الله سبحانه وتعالى يقبل توبته.

ولقد قال الله سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى أمر المرابى الذى رابى قبل التحريم إلى ربه، وهو العفو الغفور الرحيم؛ وفى هذا إشارة إلى أن ما يحرمه الشارع الإسلامى لا يكون مباحاً قبل التحريم بل يكون فى مرتبة العفو من الله سبحانه، وأمره إليه تعالت حكمته.

هذا شأن من انتهى، أما من عاد إلى المحرم بعد تحريمه، فقد بينه سبحانه بقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أى ومن عاد إلى حكم الجاهلية بعد إذ بين سبحانه حكم الإسلام فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. وفى هذا التعبير الكريم إشارات بيانية إلى عدة معان، منها:

أولاً: تأكيد العقاب النازل بهم بالتعبير بـ «أولئك» التى تدل على البعيد، فإنهم بعيدون عن رحمة الله تعالى، والتعبير بالجملة الاسمية، وفيه فضل توكيد؛ وتأكيد القول بـ «هم»؛ والتعبير بـ «أصحاب»، فإنه يدل على ملازمة العقاب.

وثانياً: أنه سبحانه قال ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ولم يقل فعقابهم، للإشارة إلى الملازمة بين الجريمة والعقاب، وإلى أن العقاب ثمرتها.

وثالثاً: الإشارة إلى أن المعاند لإرادة الله سبحانه وتعالى، والمستحل لما حرم الله تعالى إذ يحكم بالحل وقد حكم سبحانه بالتحريم كافر؛ ولذا حكم الله سبحانه بأنه خالد فى النار، ولا يخلد فى النار مؤمن.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ المحق: النقص والذهاب، ومنه محاق القمر: أى انتقاصه فى الرؤية شيئاً فشيئاً حتى لا يرى، فكأنه زال وذهب؛ والله سبحانه وتعالى يمحق الربا فى الدنيا والآخرة؛ وفى الآخرة عقاب أليم، وعذاب مقيم، وفى الدنيا ينقص ماله، كما قال ﷺ: «إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قُلٍّ»^(١) أو تمحى من المال البركة، بحيث لا يمكن الانتفاع به، إما لهم دائماً وقلق مستمر، وإما لمرض يصيبه فيكون المال الكثير مع عدم القدرة على الانتفاع به، كمن عنده طعام شهى ولكنه لا يستطيع أن يتناوله؛ لأنه يكون وبالاً عليه؛ وإما لمقت الناس له، فيفقد تعاونهم، وفى ذلك شر عليه، والربوى لا يمكن أن يخلو فى الدنيا من واحد من هذه الأمور، فكان الربا محموقاً دائماً.

هذه نتيجة الربا، أما الصدقات فإن الله يربىها وينمىها، إما بالكسب الوفير، وإما بفضل التعاون وبالهدوء والاطمئنان، ثم بالنعيم المقيم يوم القيامة؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن صدقة أحدكم لتقع فى يد الله فيربىها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله، حتى يجئ يوم القيامة، وإن اللقمة لعلى قدر أحد»^(٢).

والصدقة ليس المراد منها مجرد العطاء، بل تشمل كل نفع عام أو خاص لا يقصد به المؤمن المنفعة الشخصية التى تنبع من الهوى، وعلى ذلك يكون القرض الحسن الذى يقصد به التعاون على الاستغلال من الصدقة أيضاً، وهو من خير الصدقات أيضاً، وهو من خير الصدقات التى يربىها الله فى الدنيا والآخرة.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هذا تهديد لمن استحلوا الربا، أو ارتكبوه، وقد ذكروا فى ذلك الكلام العام للإشارة إلى أن المرايين يسترون الحق، ويعوقون عن الخير؛ إذ معنى «كفَّارٍ» من كفر بمعنى ستر وأخفى وجحد، فهى صيغة مبالغة لكافر؛

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد: مسند المكرئين - مسند عبد الله بن مسعود (٣٨٢٢). ورواه ابن ماجه: التجارات

- التعليل فى الربا (٢٢٧٠) عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً إلى النبى ﷺ.

(٢) رواه بنحو من هذا البخارى: الزكاة - الصدقة من كسب طيب (١٣٢١)، ومسلم: الزكاة - قبول الزكاة

(١٦٨٤) عن أبى هريرة وقد سبق.

ومعنى أثيم معوق مبطئ عن الخير^(١)؛ فالذين يرابون ويأكلون أموال الناس بالباطل يدخلون فى عموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ كَفَّارٍ أَثِيمٌ﴾ وقد جمع سبحانه وتعالى بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه، وهم كفار إن استحلوه؛ وهم فى الحالين آثمون معاقبون، ولكل حال مقدارها من الإثم، فليس إثم من جحد بآيات الله كإثم من نقص إيمانه بترك العمل بها، فذلك كافر، وهذا فاسق، وفرق ما بين الأمرين عظيم. ويصح أن نقول: إن الكافر هو الكفار بنعمة الله والمتماذى فى كفرانها، بأن يتخذ ما أنعم الله به عليه من نعم كالمال، فى الإيذاء لا فى النفع، فيأكل أموال الناس بالباطل بسبب ما أعطاه الله من مال، وإن ذلك توجيه حسن، وهو فى هذا المقام مناسب.

ونفى حب الله تعالى بحرمان الآثمين من رضاه؛ إذ إن محبة الله تعالى شأن من شئونه، ومن مظهره الرضا، ومن حرم من رضا الله فقد حرم خير الدنيا والآخرة، وإلى الله عاقبة الأمور.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَنذَرُ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ
اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

(١) وأثيم على وزن فعيل لأثم؛ مبالغة فى الإثم.

بَيَّنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ الْجَرَمَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ آكِلُ الرِّبَا، وَالْأَثَرُ الَّذِي يَنَالُ نَفُوسَهُمْ وَعُقُولَهُمْ مِنْ مَغْبَةِ إِثْمِهِمْ، وَالْعَذَابَ الْأَلِيمَ الَّذِي يَرْتَقِبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَزَاءَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ لَا يَأْكُلُونَ الرِّبَا، وَالَّذِينَ يَسْتَبَدِّلُونَ بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ الزَّكَاةَ يُوَدُّونَهَا، وَالْفَرَائِضَ يَقِيمُونَهَا، وَحَقَّ لِلَّهِ وَالنَّاسُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَأْتُونَ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ؛ وَبَعْدَ بَيَانِ تِلْكَ الْمُرْتَبَةِ الْعَالِيَةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، ذَكَرَ الطَّرِيقَ لِتَوْبَةِ أَكْلِ الرِّبَا، وَالْمَسْلَكَ الَّذِي يَسْلُكُونَهُ لِيَرْتَفَعُوا إِلَى مَرْتَبَةِ الطَّاهِرِينَ، وَعَاقِبَةُ السَّوِّءِ إِنْ اسْتَمَرُوا فِي غِيَّهِمْ يَعْصِمُونَ.

ابْتَدَأَ سُبْحَانَهُ بَيَانِ الْأَطْهَارِ فِي مَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الصَّنِفَ الْفَاضِلَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ صَفْوَةِ عِبَادِهِ، فَوَصَفَهُ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ، هِيَ: الْإِيمَانُ .. وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ .. وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ .. وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ.

أَمَّا الْوَصْفُ الْأَوَّلُ فَهُوَ الْإِيمَانُ، فَهُوَ نُورُ الْقَلْبِ بِهِ يَشْرُقُ وَبِهِ يَهْتَدَى، وَإِذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ تَطَهَّرَتِ النَّفْسُ مِنْ كُلِّ أَدْرَانِ الْهَوَى وَمَقَاصِدِ السَّوِّءِ. وَذَكَرَ الْقُرْآنُ الْإِيمَانَ فِي أَوَّلِ أَوْصَافِ الْأَبْرَارِ لِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: إِنْ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا اسْتَغْفَرَكَ النَّفْسَ، وَاسْتَوَلَى عَلَى الْقَلْبِ وَجَدَ الْإِخْلَاصَ لِلنَّاسِ وَطَلَبَ الْحَقَّ، فَاتَّجَهَ الْإِنْسَانُ بِكُلِّ جَوَارِحِهِ إِلَيْهِ؛ وَالْإِخْلَاصُ هُوَ النُّورُ الَّذِي يَهْتَدَى بِهِ الْإِنْسَانُ وَيُحْمِيهِ مِنْ كُلِّ حَيْرَةٍ.

وِثَانِيهَا: إِنْ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ الْوَصْفُ الثَّابِتُ لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ وَالرِّبَا نَقِيضَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ؛ فَمَا مِنْ شَخْصٍ يَأْكُلُ الرِّبَا أَوْ يَبْسِيحُهُ إِلَّا كَانَ مَنْشَأَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي إِيْمَانِهِ، وَاضْطِرَابًا فِي يَقِينِهِ؛ إِذْ يَكُونُ إِيْمَانُهُ بِالْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ إِيْمَانِهِ بِاللَّهِ.

وِثَالِثُهَا: إِنْ الْإِيمَانَ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْإِذْعَانَ لِلْحَقِّ، وَمَنْ ادَّعَى الْإِيمَانَ وَلَمْ يَذْعَنْ لِلْحَقِّ، فَقَدْ جَافَى حَقِيقَتَهُ.

مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَعَانِي صُدِّرَتْ أَوْصَافُ الَّذِينَ لَا يَأْكُلُونَ الرِّبَا بِوَصْفِ الْإِيمَانِ.

والوصف الثانى من أوصاف الذين لا يأكلون الربا: هو العمل الصالح؛ والعمل الصالح هو كل عمل فيه خير للمجتمع الذى يعيش فيه المؤمن، يتدبّر فيه بالأسرة: الأقرب فالأقرب، ثم بالجيران: الأدنى فالأدنى، ثم بالعشيرة كلها، ثم بقومه، ثم بأمتة.

وإن اقتران الإيمان دائما بالعمل الصالح يدل على أن الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابى للخير، فليس الإيمان فى الإسلام مجرد نزاهة روحية، وتعبد فى الصوامع، إنما الإيمان مظهره عمل إيجابى فيه نفع للناس؛ فالإسلام يدعو إلى العمل الإيجابى، لا مجرد التقديس السلبى.

وإذا كان العمل الصالح هو النفع العام والنفع الخاص، فإنه يفترق عن الصلاة والزكاة، من حيث إن هذه هى الفرائض الوقتية المنظمة للعلاقات بين العبد وربّه، وبين العبد والناس؛ أما العمل الصالح فهو الحال الدائمة للمؤمن التى لا تنقيد بزمان ولا مكان، ولا حال؛ فكما أن الإيمان حال دائمة، فالعمل الصالح أى النفع الدائم المستمر للإنسان هو الذى ينبغى أن يكون حالا دائمة مستمرة للمؤمن.

وذكر هذا الوصف فى مقابل أكل الربا فيه إشارة إلى التقابل بين الشر والخير، والإثم والبر؛ فإن الإثم إيذاء للناس ومن ذلك الربا، وأخلاق المؤمن العمل النافع الدائم للناس، وهو الخير وهو البر.

والوصف الثالث: إقامة الصلاة، أى الإتيان بها مقومة غير معوجة بحيث يستذكر فيها المصلّى ربّه، ولا يسهو فيها عن ذكره سبحانه، وما ذكرت الصلاة فى مقام المدح للمصلين إلا ذكرت بالإقامة؛ لأن إقامتها هى التى تهذب النفس، وتبعدها عن الفواحش والمنكرات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ [العنكبوت].

وإن ذكر الصلاة بجوار العمل الصالح فيه إشارة إلى أن الإسلام يلتقى فيه وصفان جليان: التهذيب الروحى، والنزاهة النفسية التى تكون بالصلاة والمداومة

على إقامتها، والعمل النافع المستمر وجلب الخير للناس، ففيه نزاهة الروح والنفع العام.

والوصف الرابع من أوصاف المؤمنين إيتاء الزكاة؛ والزكاة هي الفريضة الاجتماعية التي فرضها الله سبحانه وتعالى، وبها يأخذ ولي الأمر من مال الغنى ما يسد به حاجة الفقير؛ فهي قدر معلوم قدره الشارع الحكيم، بحيث يأخذه من مال الغنى قسراً أو اختياراً، وذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الجملة أولئك الذين يؤتون الزكاة طواعية واختياراً، فهم يعطونها محتسبين النية معتقدين أن الزكاة مغنم لهم ومطهرة لأموالهم، وليست مغرمًا لهم، ولا منقصة لأموالهم. وقد أشار النبي ﷺ إلى أن المسلمين بخير ما حسبوا الزكاة مغنماً، ولم يحسبوها مغرمًا، ولقد قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ... ﴾ (١٠٣) [التوبة].

وذكرت الزكاة في هذا المقام؛ لأنها مقابلة للربا كما بينا في الآية السابقة، وقد تلونا فيما سبق قول الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً لَّيْرَبُوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوِ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ ﴾ (٣٩) [الروم].

﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هذا جزاء الذين يؤمنون، ويعملون العمل الصالح في سبيل النفع، ويطهرون نفوسهم بالصلاة، ويطهرون أموالهم بالزكاة، وقد ذكر سبحانه وتعالى لهم أنواعاً ثلاثة من الجزاء.

أولها: الأجر، وهو عوض ما قاموا به من خير، واعتبر إنعامه عليهم بأضعاف ما صنعوا أجراً وعوضاً وهو المنعم المتفضل، حثاً على فعل الخير، وتعليم الناس الشكر، ومقابلة الخير بالخير.

والثاني من أنواع الجزاء: الأمن وعدم الخوف، فلا مزعج يزعج فاعل الخير، إذ إنه بالعمل للنفع العام، وتطهير النفس، وإعطاء الفقير حقه المعلوم قد وقى نفسه ووقى مجتمعه من ذرائع الفتن ونوازع الشر؛ هذا في الدنيا؛ أما في الآخرة، فالأمن من عذاب الله تعالى.

والجزء الثالث: أنهم لا يحزنون؛ وذلك لأنهم باستقامة قلوبهم، وامتلائها بالإيمان وتهذيب أرواحهم وأدائهم ما عليهم من واجب في حق أنفسهم ومجتمعهم - قد حصنوا أنفسهم من أسباب الهم والغم، فلا يأسون على ما يفوتهم، ولا يجزعون لما يصيبهم؛ لأن نفوسهم روحانية تعلو عن متنازع الأهواء التي تملأ النفس بأسباب الهم والغم.

وإن ذكر هذه الأحوال في مقام مقابل لحال الربويين الذين لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس - له مغزاه ومعناه؛ إذ فيه بيان للنعيم في مقابل الجحيم، وللراحة والاطمئنان، في مقابل الجزع والاضطراب، وكل امرئ بما كسب رهين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى طريق التوبة من الربا، والخروج من مآثمه، ويحث على هذه التوبة بإثبات أنها من مقتضيات الإيمان؛ وأول طرق التوبة لمن خوطبوا بالقرآن أول نزوله، أن يتركوا ما بقى من الربا؛ فما كسبوه قبل الخطاب بالتحريم فإنه في مرتبة العفو، أما ما يجيء من بعد ذلك ولو كان بعقد سابق فإنه حرام؛ ولذا خاطبهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وفي ذلك نهى عن أخذ ما استحق بالعقود السابقة؛ وقد تأكد النهى بثلاثة مؤكدات:

أولها: تصدير النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإن ذلك التصدير لبيان أن ترك الربا من شأن الإيمان ومقتضياته، فليس من خلق أهل الإيمان بالله ورسوله وكتابه وما اشتمل عليه من أخلاق سامية ومبادئ اجتماعية عالية، أن يأكلوا الربا وأن يتعاملوا به؛ لأنه ضد تهذيب النفس وسمو الروح؛ إذ هو شرّ مادي وكسب بغير الطريق الطبعي، ولأنه يقوض بنيان الاجتماع، ويجعل كل واحد من آحاده ينظر إلى الآخر نظر القنينة التي يقتنصها والفريسة التي يفترسها، فتقطع الأوصال، وينتشر العقد الجامع.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فهذا النص يفيد أن من مقتضيات التقوى اجتناب الربا؛ لأن التقوى معناها أن يجعل المؤمن بينه وبين الآثام وقاية، وأن يجعل بينه وبين غضب الله تعالى وقاية، وأن يجعل بينه وبين إيذاء الناس وقاية؛ والربا ضد هذا كله؛ لأنه يعرض المرء للمآثم؛ فإنه بمجرد أن يعجز المدين عن الوفاء - وذلك كثير - تتوالى المطالبة المصحوبة بالأذى والترصد المستمر حتى تصبح عيشة المدين ضنكاً، وقد يبخل نفسه تخلصاً من تلك المآثم المتوالية المستمرة.

ثالثها: أنه سبحانه جعل ترك الربا شرطاً للاستمرار على الإيمان، فقال في ختام الآية الكريمة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن كنتم مستمرين على حكم الإيمان، مدعين لأحكام الدين.

وهنا بحثان أحدهما لغوى، والآخر موضوعى:

أما البحث اللغوى فهو فى معنى كلمة «ذَرُوا» فإن معناها اتركوا. وقد قال النحويون: إن ماضى «ذروا» ومصدرها قد أماتهما العرب كالشأن فى دع ويدع، وقد قال فى ذلك الراغب الأصفهاني: «يقال فى ذلك فلان يذر الشيء أى يقذفه لقلة اعتداده به، ولم يستعمل ماضيه» وهذا الكلام يدل على أن الماضى قد مات، وعلى أن «يذر» لا تستعمل فى مطلق الترك، بل تطلق على الترك الذى يصحبه عدم اعتداد بالمتروك، فكأن معنى ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ اتركوه غير معتدين به، بل اتركوه مهملين له؛ لأنه أذى فى ذاته.

والزمخشري يقرر ذلك فى أساس البلاغة ولكنه يقرر أن المصدر هو الذى مات، وليس الماضى؛ ولذا قال فى أساس البلاغة: (ذره واحذره، والعرب أماتت المصدر منه، فيقولون: ذر تركاً، وإذا قيل لهم ذروه قالوا وذرناه).

وهذا معنى جديد أتى به الإمام الزمخشري فى معنى ذره؛ لأنه يدل على ترك الشيء مع الحذر منه، فكأن معنى ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ اتركوه غير معتدين به حذرين من أن تنالوا منه شيئاً فإنه إثم كله.

هذا هو البحث اللغوى الذى يظهر لنا بعض ما فى النص الكريم من دقة وإحكام وإشارات بينة محكمة.

أما البحث الموضوعى، فهو ﴿مَا بَقِيَ﴾ الذى أوجب الله تركه فى قوله: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ما المراد منه: أهو الجزء الباقي من الربا الواجب التنفيذ بمقتضى العقد؟ وهل الجزء الذى تسلموه من قبل مباح أو فى موضع العفو؟ قال العلماء ذلك؛ أى أن الآية خاصة بالذين كانوا يتعاملون بالربا، ولهم عقود ربوية قد قبضوا بعضها، فإن لهم ما سلف؛ أما الباقي فليس لهم أن يقبضوه، وإن كان بعقود ربوية عقدت قبل التحريم. ويزكى هذا المعنى قوله تعالى من قبل: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ولقد روى فى سبب نزول هذه الآية أنه كان بين قوم من ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم عقود ربا فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام وحرم الربا ودخلت ثقيف فى الإسلام طالبوا بنى مخزوم بالربا الذى تعاقدوا عليه من قبل، فقال أولئك؛ لا نؤدى الربا فى الإسلام بكسب الإسلام، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية^(١).

وترى من هذا أن ما أخذ قبل التحريم فأمره إلى الله تعالى، وما كان بعد التحريم لا يحل، ولو كان العقد قبله؛ ولذلك كانت الأحكام الإسلامية واجبة التطبيق على العقود التى تعقد قبل الإسلام إذا كانت مستمرة التنفيذ بعده وأحكامها تشتمل على أمر منهى عنه فى الإسلام.

هذا حكم الله، ومن امتنع عن تنفيذه فإنه يحاد الله ورسوله؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) راجع: أسباب النزول - الواحدى - سورة البقرة من الآية (٢٧٨) إلى الآية (٢٧٩). وراجع تفسير الطبرى، والدر المنثور للسيوطى ج ١ ص ٣٦٦.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أى فإن لم تفعلوا وأخذتم ما بقى من الربا فأنتم معاندون لله ولرسوله، وأنتم فى حرب معهما، ومن حارب الله فإن الله غالبه، وهو مهزوم لامحالة، وإن الله سيعاقبه على عظيم ما ارتكب. وهنا عدة كلمات فيها إشارات بيانية تبين عظيم ما يتعرض له من يعاند الله ورسوله، ويخالف أحكامه التى يقررها الله تعالى لتنظيم المجتمع الإسلامى، وتبين أيضاً عظيم عمل من يحترم أحكام الله تعالى:

أول هذه الكلمات: إن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أى لم تتركوا ما بقى من الربا؛ فعبّر عن الترك هنا بالفعل، فلم يقل: فإن لم تتركوا، بل قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ وذلك لأن الذين يتركون ما بقى من عقود عقودها، يقاومون رغباتهم ويقاومون أهواءهم وشهواتهم، فهذه المقاومة، وذلك الكف فعل نفسى جليل يحرضهم سبحانه وتعالى عليه، ويدعوهم إليه، فإن فعلوه كان لهم الثواب المقيم والرضا الكريم، وإن لم يفعلوا فقد أعلنوا الحرب على الله ورسوله.

والكلمة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى يقول للذين لا يتركون ما حرم الله من ربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ أى فاعلموا بأنكم فى حرب؛ وذلك لأن أذن هنا بمعنى علم، وفى قراءة «فأذنوا» بحرب. ويقول الزمخشري فى هذه القراءة إن معناها «فاعلموا بها غيركم» وعلى ذلك يكون أذنوا بالحرب معناها الإعلام بها، وأما أذنوا بحرب فمعناها العلم بها؛ ولكن الراغب الأصفهاني يقول: «إن الإذن بالحرب والإيذان بها بمعنى واحد».

ولماذا عبر عن معاندتهم لله وحربهم لشريعته بقوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ ولم يقل فأنتم فى حرب؟ للإشارة إلى أن الجهالة توهمهم أنهم ليسوا بخارجين عن إرادة الله تعالى إن طالبوا بأحكام العقود التى عقدها من قبل، فالله سبحانه وتعالى أعلمهم بأنهم فى أخطر مخالفة وأشد معاندة.

والكلمة الثالثة: إنه تعالى قال فى الحرب: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل فى حرب الله ورسوله، وقد بين السر فى ذلك الزمخشري فى الكشف بقوله: «كان هذا أبلغ؛ لأن المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله

ورسوله» أى أن فى هذا التعبير الكريم تهويلاً لشأن هذه الحرب من ناحيتين: ناحية التنكير، فهى حرب هائلة لم يدركوا كنهها، والناحية الثانية ناحية التصريح بإضافتها إلى الله ورسوله، فهى حرب معهما، والنتيجة فى هذا مؤكدة محتومة.

وهذه الحرب أهى مجازية، أم حقيقية؟ يبدو بادى الرأى أنها مجازية من حيث إن كل معاندة لله ولرسوله عن عمد وبسبق إصرار، فيها معاندة لأحكامه سبحانه، ومصادمة لأوامره ونواهيه، وكل مصادمة لأوامر الله تعالى ونواهيه نوع من الحرب والمحادة له سبحانه.

ولكن بعض المفسرين يقول: إن ذلك كان إيذاناً فعلاً بالحرب؛ كما حارب أبو بكر أهل الردة عندما منعوا الزكاة، وزكوا ذلك بأن النبى ﷺ عندما بلغه صنع ثقيف من مطالبتهم بربا كان ثمرة لعقود عقدوها من قبل، قد آذنتهم بحرب، وكتب إلى عتاب بن أسيد وإلى مكة من قبله يقول له: «إِنْ رَضُوا وَإِلَّا فَآذَنَهُمْ بِحَرْبٍ»^(١) أى أنه ﷺ اعتبرهم مرتدين يقاتلون باستمرارهم على أكل الربا؛ وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام عندما صالح ثقيفاً بعد حرب كان مما نص عليه فى هذا الصلح أن ما لهم من ربا على الناس، وما كان للناس عليهم من ربا موضوع.

وما أجدر بعض الذين يتكلمون فى هذا اليوم مستحلين الفوائد على أنها ليست من الربا أن يعتبروا بنى ثقيف وبنى مخروم!! فإن أولئك كانوا يأخذون من الثقفين ليتجروا، وليربوا، فوضع الله الربا الجاهلى كله، واعتبر المطالبة بما بقى حرباً لله ولرسوله... ألا فليمتنع هؤلاء عن قولهم حتى لا يخاطبوا بقول الله: ﴿فَآذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أى أن من يقع فى الربا وأراد أن يتوب إلى الله ويرجع إليه، فليعلم أنه ليس له أن يأخذ بعد تحريم الربا إلا رأس المال. وإن الاقتصار على رأس المال لا يكون فيه ظلم للدائن؛ لأنه

وصل إليه مثل ما أعطى وليس له وراء ذلك حق، ولا ظلم فيه على المدين؛ لأن أداء الحق لا ظلم فيه، وإن امتنع عن إعطاء رأس المال كان ظالماً؛ ما دام يمتنع عن قدرة؛ لأن النبي ﷺ قال: «مطل الغنى ظلم»^(١).

وفى النص الكريم إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن من يعطى الربا ليس له إلا رأس المال، وأن الزيادة أكل لمال الناس بالباطل أيا كانت هذه الزيادة قليلة كانت أو كثيرة، فلا عبرة بالمقدار مهما يكن ضئيلاً، ولا عبرة بالدين أيا كان نوعه. والتعبير عن أصل الدين برأس المال نص في أن الربا يكون إذا كان الدين قد اتخذ أصلاً للتجار والكسب؛ أى أن الدين الذى يؤخذ للاستغلال الربا فيه حرام، وبالأولى الدين الذى يؤخذ للاستهلاك واختيار ذلك اللفظ بالذات يومئ إلى أن الربا كان يتخذ سبيلاً للاستغلال. والتعبير بـ «رأس» أيضاً يحسم الخلاف؛ لأنه لو عبر بالدين فرجاً يدعى الربوى أن الدين هو الأصل والزيادة معاً.

ثانيهما: الذى يدل عليه النص الكريم: أن طريق التوبة دائماً أن ينقى التائب ماله من كل مال خبيث، فكل زيادة عليه ترد إلى أصحابها، وإلا يتصدق بها.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أى إن كان المدين غير قادر على الأداء لعسرة ملازمة له كملازمة الصاحب لصاحبه فانتظار إلى وقت يتيسر فيه، فلا يزيد عليه ليهرقه، فيعجز عن الوفاء، بل ينتظر حتى يجيء الوقت الذى يستطيع الأداء فيه.

وهنا بعض عبارات فيها إشارات بيانية جديرة بالتنبيه:

أولها: التعبير بذو عسرة فى قوله ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أى كان صاحب عسرة وضيق شديد يلازمه كملازمة الصاحب، لأن كلمة ذو تدل على المصاحبة؛

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الاستقراض - مطل الغنى ظلم (٢٢٢٥)، ومسلم: المساقاة - تحريم مطل الغنى (٢٩٢٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وفرض أن بعض المدينين ذو عسرة يدل على أن مدينين آخرين يستطيعون الوفاء، ومنهم الذين يقترضون للاستغلال.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ معناها: فالحكم أو الأمر انتظار إلى ميسرة، وهناك قراءة أخرى، وهى (فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ) أى فمستظره إلى ميسرة.

ثالثها: قوله ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فالميسرة بفتح السين وضمها كمَقْبَرَةٍ ومَقْبَرَةٍ: هى حال اليسر، فليست الميسرة هى مجرد اليسار، بل هى اليسار المستقر الثابت الذى يتمكن فيه المدين من وفاء دينه كله مقدما القوى على الضعيف، أى أن الدائن ينتظر المدين حتى يقف من عشرة العسرة ويستقيم أمره، لا أن يترقب أى مال حتى يأخذه كما يأخذ الصائد قنيصته.

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى أنه إذا ثبت العجز وتقرر، وأصبح احتمال اليسار غير قريب فتصدقوا بالدين على صاحبه وأبرئوه منه؛ فإن ذلك يكون خيراً لكم فى الدنيا والآخرة؛ أما فى الدنيا فلأنكم إذا فقدتم الأمل فى الاستيفاء فكل جهد فى سبيله ضائع، وكل تعقب فى سبيله يورث الإحزن من غير جدوى؛ ويشير الأحقاد المستمرة من غير فائدة، فيكون من الخير العفو والإبراء، والإبقاء على الأخوة، والعلاقات الاجتماعية؛ وأما فى الآخرة فالنعيم المقيم.

وهذا الجزء من النص الكريم فيه إشعار للدائنين بأنه إذا ذهب دينهم بالتوى^(١) وعجز المدين عن الوفاء فلا تذهب أنفسهم حشرات، وليعلموا أن التصديق أجدى إن كانوا يعلمون. وذكر سبحانه هذه الجملة السامية: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأن غمرة الألم لفقد الدين قد تنسيهم ما ينبغى فى مثل هذه الحال فنبههم إلى ما ينبغى ليكونوا فى حال وعى نفسى دائم، ولا ينسيهم المال الحال والمآل.

(١) التوى: الهلاك والخسارة - الوسيط.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

ترقبوا وخافوا يوماً يردكم الله سبحانه وتعالى إليه فلا تملكون من أموركم شيئاً فيه؛ فإذا ملكتم المال في الدنيا، ففي هذا اليوم لا تملكون شيئاً، وإذا ملكتم المنع والمنع اليوم ففي اليوم الآخر لا تملكون شيئاً. وفي هذا اليوم ﴿تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أى جزاء ما كسبت إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكأن ما توفاه عين ما كسبت للمماثلة بين الجزاء والعمل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى لا ينقصون شيئاً من ثواب ما عملوا، ولا يعاقبون على ما لم يعملوا.

ومت آيات الربا بهذه الآية ترغيباً وترهيباً، ترغيباً في القرض الحسن، وترهيباً من أكل الربا.

ومن الحق علينا أن نختم الكلام في هذه الآيات بكلمات ننقلها عن الأستاذ الإمام محمد عبده، لقد قال رحمه الله:

«يقول كثير من الذين تعلموا وتربوا تربية عصرية، وأخذوا الشهادات من المدارس، ومن هو أكبر من هؤلاء: إن المسلمين مُنُوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدي الأجانب، وفقدوا الثروة والقوة بسبب تحريم الربا، فإنهم لاحتياجهم للأموال يأخذونها بالربا من الأجانب، ومن كان غنيا منهم لا يعطى بالربا، فمال الفقير يذهب، ومال الغنى لا ينمو... وهذه أوهام لم تُقل عن اختبار؛ فإن المسلمين في هذه الأيام لا يُحكَّمون الدين في شيء من أعمالهم ومكاسبهم ولو حكموه في هذه المسألة ما استدانوا بالربا وجعلوا أموالهم غنائم لغيرهم، فإن سلمنا أنهم تركوا أكل الربا لأجل الدين فهل يقول المشتبهون إنهم تركوا الصناعة والتجارة والزراعة لأجل الدين».

هذه كلمة الأستاذ الإمام الذى تجنى عليه المنحرفون، وقالوا عليه ما لم يقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمْلَ لَهُ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقُوكُمْ وَأَتَّقُوا
اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

وجه المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أن الآيات كلها موضوعها المال؛ فالآيات الأولى كانت في بيان الحقوق المتعلقة بالمال، وهى الإنفاق فى سبيل الله، وإعطاء السائل والمحروم؛ وآيات الربا كانت فى الحدود المحرمة التى لا يصح لصاحب المال أن يرتفع فيها، وهى أكل أموال الناس بالباطل؛ وهذه الآية فى بيان حق صاحب المال

إن خرج من يده، وهو الاستيثاق من الوفاء، وذلك بكتابة الدين والإشهاد عليه، ويشمل الإشهاد على المعاملات المالية ذات الأثر الباقي بين المتعاملين.

وثمة مناسبة خاصة بين هذه الآية وآيات الربا؛ فإن الربا استغلال آثم غير حلال ويؤدي إلى الأكل لأموال الناس بالباطل؛ إذ إنه كسب لا يتعرض للخسارة، فهو غنم لا غرم فيه، بل لا تعرض فيه للغرم؛ وفي آية الديون إشارة إلى طريق كسب حلال؛ فإن من الديون ما يكون سلكاً وهو أن يبيع شخص لآخر شيئاً غير حاضر، ولكنه معرف بجنسه ونوعه ووصفه، ويكون التسليم مؤجلاً إلى أجل معلوم على أن يقبض البائع الثمن معجلاً فيكون البائع مدينًا بذلك المبيع المعرف بالأوصاف، فقد ثبت دينًا في الذمة؛ وإن هذا السلم باب حلال من أبواب الاستغلال، فدافع النقود يتنفع لأنه سيتنفع من فرق السعر بين العقد وبين التسليم، وفي غالب الأحوال يكون علو السعر متوقعًا، ويتنفع البائع من أخذ الثمن يستغله في أي باب من أبواب الاستغلال؛ فالدافع يتنفع مع التعرض للخسارة. وهذا هو الفرق بين الربا والسلم في المعنى.

وثمة وجه خاص للمناسبة بين هذه الآية وآخر آية الربا؛ فإن آخر آية الربا ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وقد بين سبحانه وتعالى طريق الاستيثاق من وفاء الدين وعدم جحوده، وهو كتابته والإشهاد عليه، وإن الدين المؤجل يحتاج دائماً إلى الاستيثاق من الوفاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ التداين معناه: التعامل بالدين، أي أن يستدين بعضهم من بعض على نية الجزاء. والدين يطلق على المال الثابت في الذمة الذي يكون معرفًا بالجنس والوصف والنوع، فهو يشمل اقتراض النقود، واقتراض المثليات بشكل عام، كما يشمل الدين الذي يكون مبيعاً في باب السلم؛ بل روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في سلم أهل المدينة.

ولقد يرد سؤال: لماذا صرح بقوله ﴿بِدَيْنٍ﴾ مع أن ﴿تَدَايَيْتُمْ﴾ لا يتحقق معناها إلا في الديون؟

ولقد أجيب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: بأن معنى تدايتم هو تعاملتم، والتعامل يكون بالدين وغيره، فلما ذكرت كلمة ﴿بِدَيْنٍ﴾ كانت صريحة في أن التعامل كان بالدين. وعندى أن استعمال تداين بمعنى تعامل هو توسع، وإن التفسير الخاص لها هو أن التداين معناه التعامل بالدين، لا مطلق تعامل.

والجواب الثانى: هو ما أجاب به الزمخشري في الكشف بقوله: (ذكر الدين ليرجع الضمير إليه فى قوله: (فاكتبوه) إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال). ومقتضى هذا الكلام أنه صرح بالدين لأنه موضوع القول لا مجرد التعامل به؛ وإن هذا التخريج أوجه من قول غيره إن ذكره لمجرد التأكيد، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ...﴾ (٢٨) [الأنعام].

وعبر سبحانه وتعالى بتدايتم بدل استدنتم، أو أدنتم، لأن تدايتم تعم الفريقين: الدائن والمدين؛ فكلاهما متداين: ذلك بالعطاء، وهذا بالأخذ؛ أما استدنتم فإنها تطلق على المدين فقط، والثانية تطلق على الدائن، والمطالبة بالكتابة موجهة إلى الدائن والمدين معاً، فالكتابة ليست حقاً للدائن، بل هى واجب عليه، وإن كان الذى يتولاها هو المدين.

ووصف الأجل بالمسمى، للإشارة إلى وجوب إعلام الأجل، فيذكر الشهر الفلانى، أو إلى وقت الحصاد، ونحو ذلك مما يكون معرّفًا تعريفيًا يمنع من الجهالة.

والدين يشمل دين القرض، ويشمل أثمان المبيعات إذا كانت مؤجلة، ويشمل المبيع فى السلم إذا كان الثمن معجلاً والمبيع مؤجلاً ومعرّفاً بالوصف والنوع والجنس؛ فكل هذه ديون مؤجلة إلى آجال مسماة، على خلاف فى القرض، فإن الحنفية والشافعية قالوا: إنه لا يصح أن يسمى له أجل؛ وذلك لأن القرض تبرع، والأجل شرط، والشروط لا تلزم فى عقود التبرعات، ولأن القرض عارية، ولا يتقلب مضموناً إلا باستهلاكه على رأى البعض؛ ولذلك يقول فقهاء هذين المذهبين:

عارية الدراهم والدنانير قرض. ويقول القانونيون في مثل هذا إنه عارية استهلاك، أى عارية لا ينتفع بالعين فيها إلا باستهلاكها والتصرف فيها.

وقال المالكية وأكثر الحنابلة: إنه يصح الأجل فى القرض وتجب تسميته وتعريفه، لنص هذه الآية؛ إذ هو دين داخل فى عموم الدين فى الآية الكريمة؛ ولأن القرض لا فائدة فيه للمدين إلا إذا كان مؤجلاً، فكانت المصلحة فى أن يعين الأجل ويتفق عليه بينهما دفعا للمشاحة، ومنعاً للنزاع وإن ذلك رأى هو الأظهر وهو الذى يشمل عموم النص، وهو الأقرب إلى عرف الناس، والمصلحة فيه.

والأمر بالكتابة هنا أهو للطلب الملزم الذى لا محيص للمكلف عنه، أم للإرشاد أو النذب؟ قال جمهور العلماء: إنه للنذب؛ وذلك لأن النبى ﷺ ما ألزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها؛ لأن النبى ﷺ قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(١) ولأن الله سبحانه وتعالى قال بعد ذلك: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ...﴾ [البقرة] وإن ذلك بلا ريب تسويغ لعدم الكتابة، والاعتماد على مجرد الأمانة، فإنه مع الكتابة لا ائتمان، أو لا اعتماد على الأمانة.

وقال الظاهرية: إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل كان آثماً، ذلك لأن الأصل فى الأمر أنه للوجوب، ولا يخرج عن الوجوب إلى غيره إلا بدليل من النصوص، ولم يوجد الدليل؛ ولأن طلب الكتابة تأكد بطرق عدة؛ منها النص على الكتابة فى الصغير والكبير من الديون بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ ومنها النص على أنه الأقسط والأقوم للشهادة، والأدنى للمنع من الارتياح؛ ومنها التعميم واستثناء صورة واحدة، وهى حال التجارة الدائرة بين التجار، وقصر نفى الإثم عليها دون غيرها، فإنه إذا كان نفى الإثم مقصوراً على هذه الحال فمعنى ذلك أن الإثم ثابت فى غيرها؛ وإن الائتمان لا يتنافى مع الكتابة،

(١) رواه البخارى: الصوم - قول النبى ﷺ: «لا نكتب» (١٧٨٠)، ومسلم: الصيام - وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (١٨٠٦).

بل إنه مع الكتابة الائتمان قائم؛ على أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ...﴾ [البقرة: ٢٨٣] سيق في حال السفر عند تعذر الكتابة.

هذا وإن تصدير الآية الكريمة بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشير إلى أمرين:

أحدهما: أنه ليس من مقتضى الإيمان أن تلزموا المساجد والصوامع، بل إن الإيمان أن تهذبوا نفوسكم، وترهفوا وجدانكم وتشعروا بمراقبة ربكم، لتكون دنياكم فاضلة، ويكون تعاملكم، وإدارة المال بينكم على نهج ديني فاضل، فالمال ليس طلبه ممنوعاً، بل إنه من طريقه الحلال مشروع ومطلوب.

الأمر الثاني: أن الإسلام ليست أوامره مقصورة على العبادات، بل جاء لتنظيم المعاملات، بل إن العبادات فيه طريق لإصلاح التعامل الإنساني؛ وكذلك كل الأديان السماوية، فإنه من الجهل الادعاء بأن الأديان جاءت لتنظيم العلاقة بين العبد والرب فقط، ولا تتدخل في العلاقة بين الإنسان والإنسان.

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ في النص السابق أمر بالكتابة وحث عليها، وفي هذا النص يبين الكاتب؛ فبين أن الذي يكتب شخص يجيد الكتابة، وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على علم بشروط العقود وتوثيقها، وما يكون من الشروط سائغاً في الشرع وما يكون غير سائغ؛ وقيد كتابته بأن تكون بالعدل ألا يزيد ولا ينقص في الدين الذي يكتبه، ولا يقيد أحد العاقلين بشروط شديدة، ويحل الآخر من كل القيود والشروط، بل يكون مراعيًا العدل في كتابة أصل الدين، ومراعيًا العدل في الالتزامات بين الفريقين، ثم إن العدل يتقاضى مع هذين أيضاً أن يكون الكاتب خبيراً بمعاملات الناس، وما يقع بينهم، وما يمكن تنفيذه من الشروط وما لا يمكن.

وهكذا فالكاتب الذي يتولى ميزان العدل بين العاقلين يمنعهما من الشطط، ويمنعهما من التجانف لإثم. وقد ذكر في النص السامي بوصف «كاتب» للدلالة على مهارته في الكتابة، وكونها له كالمملكة.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ هذا نهى لمن كان قادراً على الكتابة من أن يمتنع عن الكتابة، فلا يصح لمن يحسن الكتابة من حيث جودة الخط واستبانته، ومن حيث العلم بفقهاء العقود، والقدرة على تحقيق العدالة بين العاقلين فى وثيقة العقد؛ لا يصح له أن يمتنع عن الكتابة إذا دعى إليها؛ وإنه ليأثم إن تعين للكتابة ولم يوجد موثوق به فيها سواء، وامتنع عن الكتابة؛ ولقد قال الفقهاء: إن الكتابة فرض كفاية بمعنى أنه إذا امتنع كُتِبَ أهل قرية عن الكتابة أثموا، بل إنه يجب على أهل كل قرية أن يخصصوا ناساً لكتابة الوثائق فيها.

وإنه على هذا يجب أن تعمل الدولة على تهيئة ناس لتوثيق العقود وكتابتها. وإن الكتابة لطلابها من التعاون على البر والتقوى، فهى صناعة، وهى علم، وواجب على الصانع أن يُعَيَّن من لا يحسن؛ فقد قال ﷺ: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق»^(١) والامتناع عن الكتابة ككتمان العلم، وقد قال ﷺ: «من كنتم علماً يعلمه أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ فيه بحثان لغويان:

أولهما: فى التشبيه بالكاف فى قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ما المعنى الذى يفيد؟ ذكر الزمخشري أن معناه إما أن يكون تشبيها بين علم الكتابة والواجب على الكاتب، أى أنه كما أن الله علمه الكتابة ويسرّها له، وجعله أهل خبرة، عليه واجب المعاونة بالكتابة لغيره، فالتشبيه تشبيه بين نعمة الكتابة، والواجب المتعلق بها، فما من نعمة إلا تتولد عنها واجبات مساوية لها، فنعمة الكتابة يقابلها ويشابهها ويمائلها واجب معاونة غيره بها، وهو بقدرها، ويأثم عند الترك بمقدار علمه.

هذا أحد وجهى التشبيه، أما الوجه الآخر، فهو أن التماثل بين ما يكتب على القرطاس وما آتاه الله الكاتب من فقه وعلم بالعقود والالتزامات؛ والمعنى على

(١) رواه مسلم: الإيمان - كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (١١٩)، والبخارى: العتق - أى الرقاب أفضل (٢٣٣٤) غير أن روايته بلفظ: «ضايعة» بدلا من: «صانعة».

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد (١٠٠٨٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ذلك: لتكون كتابة وثيقة الدين على مقتضى العلم والفقه الذى فقه الله به الكاتب، أى تكون الكتابة على مقتضى أحكام الشرع، فلا تكون فيها شروط ليست فى كتاب الله، أو لا يسوغها الشرع، أو لا يمكن تنفيذها.

الأمر الثانى: إن قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ما متعلقه؟ أهو متعلق بـ «يكتب» الأولى، أو «فليكتب» الثانية؟ يجوز الأمران، وعلى الأول يكون المعنى: لا يمتنع أن يكتب كما علمه الله؛ ثم أكد المعنى بعد ذلك بتكرار الأمر بالكتابة، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾؛ وعلى الثانى وهو أن يتعلق بقوله ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ يكون المعنى: لا يَأْب كاتب أن يكتب؛ فهذا نهى عن الامتناع؛ ثم قال ذلك فى كيفية الكتابة ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أى لتكون على قدر علمه وفقهه، ومساوية فى روحها لنعمة العلم بها.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فى الجمل السامية السابقة بيان طلب الكتابة والكاتب، وفى هذه الجملة بيان من يتولى الإملاء؛ فقال سبحانه: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أى لِيُمْلِ على الكاتب الذى عليه الدين ويلتزم بأدائه، وذلك ليكون إملاؤه إقراراً بالدين وبال حقوق التى يجب عليه الوفاء بها.

والإملاء معناه الإملاء، وهما لغتان فى الإملاء. وقال بعض اللغويين: إن الأصل هو الإملاء، وعلى أى حال قد وردت اللغتان فى القرآن، فقد قال تعالى: ﴿اكتتبها فهي تُملى عليه بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان].

وإذا كانت تبعة الإملاء قد وضعت فى علق من عليه الحق فإن عليه عند الإملاء واجبين: تقوى الله، وعدم البخس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسَ﴾ أى لا ينقص ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ وقد وثق سبحانه الأمر بالتقوى بأن جعل التقوى من الله، وهو رب كل شئ ورب من عليه الحق، أى عليه عند الإملاء أن يراقب الله جل جلاله الواحد القهار الغالب على كل شئ المسيطر على كل شئ الذى يغلب ولا يغلب، فلا يتلاعب بالعبارات حتى لا يذهب بحق صاحب الحق؛ ثم

ليعلم أن الذى عليه أن يتقيه هو ربه الذى ذراه ورباه وغماه، ووهب له المواهب التى توجب الشكر، ولا تسوغ التلاعب بالحقوق.

وإذا كان لا يسوغ أن يتلاعب بالعبارات فلا يسوغ أن ينقص من الدين أو يزيد فى الأجل، أو يضع شروطاً فى مصلحته وليست فى مصلحة الدائن، فإن ذلك وغيره بخس لحق صاحب الحق.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ فى هذه الجملة السامية بيان الحكم إذا كان من عليه الحق لا يحسن الإملاء، وقد أظهر فى موضع الإضمار فلم يقل تعالت كلماته: (فإن كان سفيهاً) وإنما أظهر للتوضيح؛ ولأن الذى عليه الحق المبين الفاهم المتكلم القادر وهو المذكور أولاً، غير الذى عليه الحق السفيه أو الضعيف أو الذى لا يستطيع.

وقد ذكر سبحانه فى هذا النص ثلاثة لا يحسنون الإملاء، وهم:

أولاً: السفيه، وهو الجاهل بالعقود والتصرفات، أو الذى لا رأى له، أو المبذر المتلاف الذى لا يحسن تدبير أموره وإدارة أمواله؛ وكل هذه معانٍ تدور حول الجهل بالعقود، أو فساد الرأى فى التصرفات.

وثانياً: الضعيف وهو الصبى والشيخ الهرم.

ثالثاً: من لا يستطيع، وهو معقود اللسان، أو من لا خبرة له بهذه العقود.

والولى: هو النصير الموالى ذو الصلة بمن عليه الحق الذى يهمله أمره، وبهمه ألا يضيع حقه، سواء أكان النصير ولياً بالمعنى الشرعى، أو قيماً أقامه القاضى المختص، أم كان وكيلاً أقامه صاحب الشأن معبراً عن إرادته مصوراً لما يعتزم عليه.

وذكرت كلمة العدل فى هذا المقام، للإشارة إلى أن ذلك الولى عليه العدل، ويجب أن يلاحظه من ثلاث نواح: من ناحية صاحب الحق، فلا يبخسه ولا ينقصه، ومن ناحية من عليه الحق الذى يتكلم باسمه ويملى عنه، فعليه ألا يمالئ

الطرف الثانى فى أمره، ومن ناحية الشرع فلا يذكر شرطاً أو التزاماً يخالف الشرع الشريف .

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ احتاط الشارع الحكيم للديون المؤجلة، فأمر سبحانه وتعالى بكتابتها، ولم يكتف بذلك، بل أمر بالإشهاد عليها حتى لا تتعرض للضياع، ودعا المتدائنين إلى أن يطلبوا شهوداً عدولاً يشهدون عند كتابة الدين، توثيقاً للدين وتوثيقاً للكتابة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا﴾ أى اطلبوا وابحثوا وتحروا؛ فالسين والتاء للطلب. ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ أى شاهدين عدلين؛ لأن «شاهد» صيغة مبالغة من شاهد، والمبالغة فى معنى الشهادة تحرى معنى العدالة فيها، وأسباب المعاناة، وأن يكون التحمل على وجه التعيين والجزم، فالتعبير بشهيد دون شاهد إشارة إلى ضرورة العدالة وقوة الضبط وقوة الصدق والمروءة فيهما. ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ خرج به شهادة النساء من غير حضور الرجال، وشهادة غير المسلمين.

وقال بعض المفسرين: إنه خرج به أيضاً شهادة العبيد؛ لأن ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أى من أحراركم، وبنوا على ذلك بطلان شهادة العبيد من المسلمين، وهو قول الجمهور؛ وخالف فى ذلك الإمام أحمد بن حنبل وقرر أن شهادة العبيد من المسلمين، جائزة تلزم القضاء، وإنما نيل إلى ذلك رأى من بين آراء الفقهاء، فإذا كان الموالى تقبل روايتهم عن رسول الله تعالى، فكيف لاتقبل شهادتهم فى أمور الناس؟

ولأن ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ يدخل فى عمومها العبيد؛ لأن الخطاب للمؤمنين، وهم من الرجال المؤمنين، وإخراجهم يقتضى إخراجهم من الخطاب بآيها الذين آمنوا، فكيف يخرجهم مفسر من ذلك الخطاب؟

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فى هذا بيان لشهادة النساء مع الرجال، وهو أنه إذا لم يكن رجلان يشهدان، يقوم مقامهما رجل وامرأتان؛ والمعنى: فإن لم يكن الشاهدان رجلين فرجل وامرأتان يشهدان. واشترط فيهما ما هو الشرط فى كل شهادة، وهو أن يكونوا ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أى

من الذين يرتضى قولهم ويقبل، أى من العدول الذين يمارسون الشهادة ويقولون الحق، ويقيمونها على وجهها الحق، ويشهدون ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. والتعبير بقوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ﴾ أدق فى الدلالة على صدق الشهادة من العدالة؛ لأن العدل قد يكون مريضاً فى دينه وخلقه ولكنه ممن يتأثرون بالمشاهد المؤثرة، فتحونهم ذاكرتهم فى وقت الحاجة إليها، وقد يكون فى الناس ذوو مروءات يمنعهم جاههم ومقامهم فى الناس من أن يكذبوا، وإن كان منهم بعض المعاصى.

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ هذا بيان العلة فى أن المراتين تقومان مقام الرجل؛ فالمعنى كانت المراتان بدل رجل لتوقع أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى؛ فإن المرأة لقوة عاطفتها، وشدة انفعال نفسها بالحوادث، قد تتوهم ما لم تر، وهذا هو الضلال؛ فهو نسيان مع اعتقاد غير الواقع، أو ظن غير الواقع، وهذا النوع من الضلال يكثر فى النساء والأطفال؛ فالحوادث تفعل فى نفوس هؤلاء ما يجعلهم يتخيلون ما لم يقع واقعياً؛ ولهذا الضلال كان لا بد أن يكون مع المرأة أخرى بحيث يتذاكران الحق فيما بينهما، وليس من المعقول أن يتحد الضلال؛ ولذلك كان من المقررات الفقهية أن الرجال تسمع شهاداتهم على أفراد بحيث يسمع كل شاهد منفرداً من غير أن يسمعه الآخرون من الشهود؛ أما المراتان فتسمعان معاً، لتذاكرا إن كان ضلال من إحداهما أو منهما بحيث تذكر كل واحدة الأخرى بما غاب عنها متوهمة سواء.

وهنا سؤال وهو: لماذا أظهر فى موضع الإضمار، فقال سبحانه: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ ولم يقل فتذكرها الأخرى؟ والجواب عن ذلك فيما يبدو لى: أن إحداهما معناها واحدة منهما فالمعنى فيه: أن تضل واحدة منهما؛ فتذكر كل واحدة تضل الأخرى، فهما يتبادلان الخطأ ويتبادلان التذكير، فكان فى إظهار المضمر إشارة إلى هذا المعنى، وإشارة إلى أنهما معاً فيهما شهادة رجل متذكر غير ناس، إذ إن التصريح بـ ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ ثانية تصريح بأن إحداهما والأخرى شهادة لا نسيان فيها، فهى شهادة رجل متذكر.

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أى لا يأب الذين اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم واطمأنوا إليهم عن الشهادة إذا دعوا إليها، سواء أكانت الدعوة للحضور وتحمل الشهادة كالشهادة فى التوثيق بالكتابة، أم كانت الدعوة لأداء الشهادة عند الإنكار فى مجالس القضاء؛ وإن هذا يدل على أن الشهادة إذا تعين الشاهد فرض أدائها، وهذا تطبيق لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ...﴾ [البقرة] وقال بعض العلماء: إن أداء الشهادة عند الدعوة واجب، ولكن ليست إجابة الدعوة إلى تحمل الشهادة بحضور الكتابة ونحوها فرضاً.

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ أى لا تملوا من كتاب الدين إلى أجله بأن تحدوه وتبينوا أجله، سواء أكان الدين كبيراً أم كان الدين صغيراً، فلا يذهب بكم احتقار الصغر إلى إهماله وعدم كتابته؛ لأن الصغر والكبر لاحدود لهما، فقد يكون صغيراً فى نظر غنى ملئ، ويكون كبيراً خطيراً عند غيره؛ ولأن إهمال الصغير يؤدى إلى جحوده، وعندئذ تذهب الثقة، وإذا ذهبت ساد التنافر والتنازع؛ ولأن التهاون فى الصغير قد يؤدى إلى التهاون فى الكبير؛ وإن التشديد فى كتابة الصغير والكبير يدل على أن الأمر بالكتابة للوجوب كما بينا.

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ الإشارة هنا إلى كل ما ذكر من الأمر بالكتابة، والنهى عن الامتناع عنها، والأمر بالاستشهاد، والنهى عن الامتناع عن الشهادة، والأمر بكتابة الصغير والكبير؛ وإن هذه الجملة السامية فيها تعليل للتشديد فى الأوامر السابقة، وقد تعللت هذه الأوامر والوصايا بثلاثة أمور:

أولها: أنها أقسط عند الله، أى أنها أعدل فى ذاتها؛ لأنها أعدل عند الله تعالى، وكل ما يكون أعدل فى علم الله تعالى فهو الأعدل فى ذاته، وكانت الأعدل فى ذاتها؛ لأنها حماية لنفس المدين من الجحود، وحماية لحق الدائن من الضياع، فهى حماية للفريقين.

والأمر الثانى: أنها ﴿أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أى أن الكتابة والشهادة على الكتابة أشد تقويماً للشهادة والإتيان بها مقومة عادلة ثابتة لا زيف فيها ولا اضطراب؛ والمراد

بالشهادة الإثبات، أى أن الكتابة والإشهاد عليها أقوم طريق للإثبات والحكم. وقد فهم بعض العلماء من هذا أنه يجوز أن يستعين الشاهد بما كتب وقت المعاينة عند تحمل الشهادة.

والأمر الثالث: أنها ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أى الأوامر السابقة والوصايا إذا نفذت على وجهها أقرب إلى ألا يكون ريباً وتظننا فى التعامل، والريب والتظن ونحوهما يفقد الثقة، وإذا فقدت الثقة بين المتعاملين فسد التعامل، وانحلت عرى التضافر الاجتماعى، والتعاون الإسلامى، والاقتصادى.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ التجارة الحاضرة التى تدور بين التجار، هى التى يجرى فيها التقابض فى المجالس، أو التى يتأخر فيها الأداء ساعة أو بعض يوم أو نحو ذلك، ووصفت بأنها تدور؛ لأن هذا يعطى وذاك يأخذ، وقد يطلب هذا بضاعة ويدفع ثمنها مرة، ثم يعطى بضاعة أحياناً، وسميت حاضرة؛ لأن المبيع والتمن كلاهما حاضر؛ فهذا النوع من التعامل ليس هناك جناح أو إثم فى ألا يكتب؛ وإن الاستثناء على هذا يكون استثناءً منقطعاً؛ لأنه إذا كانت التجارة حاضرة بمعنى أن الثمن والمبيع كلاهما حاضر مهياً للدفع، وإن تأخر أحدهما قليلاً من الزمن لا يعد تأجيلاً، فإنه ليس ثمة دين داخل فلا أمر بالكتابة حتى يكون الاستثناء منه، ف «إلا» هنا بمعنى «لكن». وفى نفى الجناح والإثم إشارة إلى أمرين: أولهما- أن الأولى الكتابة، وثانيهما- أن غير ذلك يَأْثَمُ فيه من لا يكتب؛ فالكتابة واجبة فى غير موضع الاستثناء، لأن الامتناع عن موضع الإثم واجب.

﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذه وصية جديدة من وصايا التعامل، وهو الإشهاد على البيع. وقد قرر الظاهرية أن الإشهاد على البيع واجب بحيث لو لم يُشْهَدْ المتبايعان على البيع يَأْثَمَانِ، وإن كان البيع يقع صحيحاً؛ وذلك لأن الظاهرية قرروا أن الأمر للوجوب حتى يوجد دليل يمنع الوجوب، ولم يوجد عندهم الدليل. وقال الجمهور: إن الإشهاد فى البيع غير واجب، وإنما هذا إرشاد وتعليم مجرد؛ وذلك

لأن النبي ﷺ كان يتبايع ولا يشهد، حتى لقد جحد البائع العقد مرة فشهد له خزيمة^(١).

وعندى أن الإشهاد فى بيع الأشياء التى تبقى يجب، حتى يعلم الناس انتقال اليد فيه، وانتقال الحوزة، وليمنع الجحود.

﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ كلمة «يضر» تحتمل أن تكون للفاعل، ويحتمل أن تكون بالبناء للمجهول، والمعنى على الأول نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضررا بأحد المتعاملين، بأن يبخل الكاتب أحدهما، أو يشهد الشاهد بغير الحق؛ والمعنى على الثانى - وهو الظاهر - لا يصح أن ينزل ضرر بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان، وإضرار الأمانة يحملهم على الخيانة وفى ذلك ضياع للأمانة، وذهاب للثقة؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَأِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أى إن تفعلوا الضرر بالشاهد والكاتب، وتنزلوا الأذى بهما فإن ذلك يكون فسوقاً بكم، أى معصية وخروجاً عن جادة العدل يحل بكم، وينزل فى جماعتكم فتضيع الحقوق، وتذهب الأمانات، وتمحى الثقة فى التعامل، ولا يمكن إقامة حق وتخفيف باطل، فخير الجماعة فى حماية الذين يوثقون الحقوق من كاتبين وشاهدين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بما يربى المهابة للأوامر العلية والوصايا الإلهية؛ وقد اشتمل ذلك الختام الكريم على ثلاثة أمور:

أولها: تقوى الله، فإنها نور القلب، وهى الشعور بمراقبة الله، وفى ذلك إشارة إلى وجوب مراقبة الله عند التعامل، ونية الأداء.

ثانيها: الإشعار بأن هذا تعليم من الله اللطيف الخبير، ليحسن التعامل، ويقوم على أسس من الثقة والاطمئنان ومنع الريب.

(١) رواه النسائى: البيوع - التسهيل فى الإشهاد على البيع (٤٥٦٨)، وأبو داود فى الأقضية - إذا علم الحاكم صدق شهادة الواحد (٣١٣٠)، وأحمد: مسند الأنصار (٢٠٨٧٨)، عن عمارة بن ثابت رضى الله عنه.

ثالثها: الإشعار بإحاطة علم الله، فما يأمر به هو أمر عليم حكيم يعلم وجه المصلحة، وهو عليم بالضمائر، وهو الذى يتولى السرائر.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً ۖ فَإِنْ أَثِمَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عِاثٌ مُّثْمَرٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝١٨٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨٤﴾

فى الآية السابقة بين سبحانه وتعالى وجوب الكتابة، عند من يقول: إن الأمر للوجوب؛ أو وصى سبحانه وتعالى بالكتابة وأرشد إليها؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه حال الترخص من الكتابة، وهى الحال التى لا تكون الكتابة فيها ممكنة، إذ يكون المتدانيان على سفر، ولا يوجد كاتب؛ فإنه فى هذه الحال يترخص فى عدم الكتابة، ويعوض عن الكتابة والشهادة فى الاستيثاق بالرهن، وإن لم يكن رهن فإنه يكون الاعتماد على الأمانة المطلقة حيث تعذر الاستيثاق بالأمور المادية، وهى: الكتابة والشهادة عليها، ثم الرهان المقبوضة، فيقوم مقام هذه الأمور الأمانة والذمة.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ الرهان: جمع رهن بمعنى مرهون، فرهان ليس معناها المصدر، بل معناها العين المرهونة، وقرئ (فرهْن) (مقبوضة). وقد خرج بعضهم هذه القراءة على أن (رهْن) جمع رهان بمعنى رهن.

وخرجه بعضهم على أنه جمع رَهْن كسَقَفٍ وَسُقْفٍ، وَفَرَشٍ وَفُرْشٍ، وَحَلَقٍ وَحُلُقٍ، وهكذا. وقرئ بدل ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾: (ولم تجدوا كتابا).

والمعنى فيما يظهر: إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً يكتب، أو قرطاساً يكتب فيه، أو لم تيسر أسباب الكتابة لأى سبب من الأسباب، فإنه يقوم مقام الكتابة رهن يستوثق به فى أداء الدين، وإنه لا يقوم مقام الكتابة فقط بل يقوم أيضاً مقام الشهادة.

وهنا إشارتان بيانيتان ويجب التنبيه عليهما:

أولهما: أن الله سبحانه وتعالى يعبر عن المسافر فى حال بيان الرخصة التى ترخص له بسبب السفر بقوله تعالى: ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ وقد عبر سبحانه بذلك فى حال رخصة الإفطار، ورخصة ترك الكتابة، ورخصة التيمم عند عدم وجود الماء؛ وذلك لأن معنى ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ يتضمن معنى الركوب، أى راكبين فوق سفر؛ وذلك يشير إلى اضطراب الحال والقلق والانزعاج، فليست الحال حال استقرار، إذ من كان مركبه سفرا وانتقالا مستمرا، فهو غير مستقر ولا مطمئن. وتلك الإشارة تتناسب مع الترخيص فى الإفطار، والترخيص فى ترك الكتابة، والترخيص فى التيمم.

ثانيهما: أن فى الآية قراءتين متواترتين كما بينا؛ إحداهما: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ والأخرى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا﴾ وإذا كانت القراءتان متواترتين فكلتاهما قرآن مقروء مفهوماً بمعناها، ومجموع القراءتين يؤدى معنى تتضافران فى أدائه، وهو أنه فى حال السفر يقوم الرهن مقام الكتابة والشهادة إذا لم يوجد كاتب، أو وجد الكاتب ولم يوجد الكتاب، أو أى أداة من أدوات الكتابة.

والفقهاء فى ظل هذا النص الكريم يتكلمون فى مسائل فقهية، ويقتبسون معانيها من إشارات وعباراته؛ وإنا نوجز المسائل التى يتكلمون فيها فى ثلاث:

أولها: إن الذين يقولون: إن الأمر فى الكتابة والاستشهاد على الدين للوجوب يقول بعضهم: إن الترخيص فى الرهن بدل الكتابة والشهادة إنما يكون فى

حال السفر، وكل حال يتحقق فيها المعنى المسوغ للترخيص فى السفر، وهو عدم وجود الكاتب الذى يكتب، أو الأداة التى يكتب بها، أو القرطاس الذى يكتب عليه، ولو كان فى حضر لا فى سفر؛ لأن المعنى وهو تعذر أو تعسر وجود الكاتب أو ما يكتب به يتحقق فى هذه الحال كما يتحقق فى السفر، ولكن ذكر السفر؛ لأنه مظنة لذلك التعذر، وهو فيه كثير عند العرب لغلبة الأمية عندهم، أما فى الحضر فذلك نادر، وإن وجد فإنه يطبق عليه حكم السفر. وبعض هؤلاء الذين قالوا إن الكتابة واجبة والشهادة عليها مثلها قالوا: إن الترخيص مقيد بالسفر، ولا ترخص بغير الكتابة فى الحضر. وكأنهم بهذا يرون أن من الضرورى أن يكون فى كل قرية أو حى كاتب وأدوات كتابة، وأن على أهل هذه القرية أن يهيئوا الأسباب لذلك؛ لأنه فرض كفاية إن تركه الجميع أثموا، وإن قام به بعضهم سقط الحرج عن كلهم.

الثانية: أن الرهن يقوم مقام الشهادة والكتابة فى الاستيثاق من أداء الدين؛ ولذلك فإن المعقول أن يكون قريباً من الدين فى قيمته. وقد استنبط مالك رضى الله عنه من هذا أنه إذا اختلف الدائن والمدين فى مقدار دين موثق برهن ولم يكن للدائن بيعة تثبت مقداره فإنه لا توجّه اليمين إلى المدين، بل يُحكّم الرهن؛ فما يشهد له الرهن يكون القول قوله؛ فإن كان مثل ما يقول المدين أو أقل فالقول قول المدين، وإن كان مثل ما يقول الدائن أو أكثر فالقول قول الدائن، وقال أبو حنيفة والشافعى: إن اليمين فى كل الأحوال على المدين ما لم تكن بيعة للمدعى. وحجة مالك أن الرهن قائم مقام الشهادة والكتابة فهو شهادة وكتابة معا؛ فما يشهد به يكون الحكم على مقتضاه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ فقد أخذ بنص الآية الكريمة أبو حنيفة وأصحابه، وقرروا أن الزهن لا يتم إلا بالقبض فإن لم يكن قبض لا يتم، فإذا افترق العاقدان من غير قبض فالرهن غير صحيح. وقال مالك رضى الله عنه: إن الرهن يتم من غير القبض، ولكن القبض حكم من أحكامه، فمن حق المرتهن وهو الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم للعقد،

وليس ركنًا من أركانه، ولا شرطًا لتمامه. وقال الشافعي: إن الرهن يتم من غير حاجة إلى القبض، وإنما الرهن للاستيثاق من الوفاء بالدين، ووصف «مقبوضة» جرى مجرى العرف، وليس وصفًا له مفهوم يعطى تخلفه غير حكمه، بل يكون الرهن مقبوضًا أو يكون غير مقبوض، وأثره في حال عدم القبض أن يتعلق حق الدائن بالعين بحيث يمنع صاحب العين من التصرف فيها حتى يستوفى الدين، وأنه إذا حل الأجل من غير أن يوفى المدين فإنه تباع العين في سبيل أداء الدين. وكأنه في المذهب الشافعي كما هو في القانون المدني المصري الرهن ينقسم إلى قسمين: رهن حيازة، وهو الذي يتم فيه القبض، ويكون أكثر ما يكون في المنقول؛ ورهن تأميني، وهو الذي يستمر تحت يد المدين، ولكن يؤمن به الدين ويوثق، وهو أكثر ما يكون في العقار.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ هذا تدرج حكيم؛ الكتابة في الديون والإشهاد عليها مطلوبان، فإن تعذرت الكتابة والشهادة فإنه يترخص حيثئذ بالرهن المقبوض، ولكن إذا كان طالب الدين ليس عنده رهن يوثق به الدين، وهما في سفر ولا كاتب ولا شهيد أيمتنع القرض ويكون الخرج على المدين، وقد يكون في ضرورة للاستدانة وهو ملئ في دياره يستطيع الأداء عند عودته؟ إنه لم يبق إذن إلا الاعتماد على أمانته، وهذا هو الذي يتبين في ذلك النص الكريم؛ والمعنى: إذا أمن الدائن المدين، واعتمد على ذمته ومقدار أمانته، فليؤد الدين في ميعاده؛ لأنه أمانة في عنقه، ولأن الدائن اعتمد على حسن أدائه وعلى مقدار ما عنده من أمانة، فلا يضيع رجاء الخير فيه؛ ولأن الله سبحانه عليم بما في الصدور، فليثق الله به. وإذا كان النص الكريم قد جاء في مساق الدين وتوثيقه، فإن اللفظ عام يعم وجوب أداء الأمانات كلها سواء أكانت ديونًا في الذمة، أم كانت ودائع مقبوضة، أم كانت أمانات مرسلة حمل المؤتمن أداءها.

وفي النص الكريم عدة إشارات بيانية، تتضافر في مجموعها، وتؤكد وجوب أداء الأمانة.

أولها: فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإن التعبير بـ «أَمِنَ» بدل أعطى أو أودع، إشارة إلى الجانب الذى اعتمد عليه وهو خلق الأمانة فى صاحبه، فهو لا يرى فيه إلا جانباً مأموناً لا يتوقع منه شراً من جحود أو خيانة.

ثانيها: ذكر الظاهر بدل الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ﴾ فإن التعبير بالموصول هنا يشير إلى علة وجوب الأداء، أو إلى توثيق الأداء؛ لأنه ائتمنه، فحق عليه أن يؤدى الأمانة.

ثالثها: فى إضافة الأمانة فى قوله تعالى: ﴿أَمَانَتُهُ﴾ فإن الأمانة هى فى الواقع للدائن أو المعطى من حيث إنه مالك للدين وللوديعة ونحوها، ولكن أضيفت إلى المدين من حيث إنها عبء عليه يجب أن يؤدى، وبأدائه يزيل ما عليه من عبء فإن الأمانة عبء ثقیل لمن عرف حقها.

رابعها: قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فإذا كان صاحب الحق لم يوثق حقه بكتاب أو شهادة أو رهن، فإن التقوى هى الوثيقة الكبرى التى لا تعدلها وثيقة. وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فيه طلب للتقوى مؤكداً بالأمر، وبالتعبير بلفظ الجلالة الذى يربى ذكره المهابة فى النفس، إذ يحس القارئ بعظمة الخالق وجبروته وألوهيته، ومؤكد أيضاً بالتعبير بربه؛ إذ فيه إشارة إلى أنه خالقه وبارئه ومربيه، والمهيمن الدائم عليه.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ بين سبحانه فى النص السابق وجوب أداء الأمانة عامة، ولأن الكلام فى الديون وطرق توثيقها كانت دالة على وجوب أداء الأمانة فى الديون خاصة. وفى هذا النص الكريم يبين نوعاً من الأمانات يجب أدائها، وأداؤها أشد وجوباً، وأغلظ تكليفاً، وهو أمانة الشهادة؛ فإن العلم بصاحب الحق أمانة فى عنق العالم به يجب عليه أدائها عند طلب ذلك منه أمام القضاء أو أمام غير القضاء؛ وإن هذه الأمانة كانت أغلظ الأمانات لأنها تُتَاط بها الحقوق، وانتظام المعاملات، وقيام المجتمع على أساس من الثقة وتبادل المنافع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ وكتمان الشهادة ألا يقول ما عاين، بأن

يُمْتَنَعُ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى مَجْلِسِ الْقَضَاءِ مُطْلَقًا، أَوْ يَذْهَبُ وَيَقُولُ لَا أَعْلَمُ؛ فَإِنْ ذَلِكَ فَوْقَ أَنَّهُ كَتَمَانَ كَذِبٍ، أَوْ يَقُولُ بَعْضُ مَا يَعْلَمُ. وَالْأَدَاءُ أَنْ يَقُولَ كُلُّ مَا يَعْلَمُ حَيْثُ طَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَقُولَ، وَلَا يَتْرَكَ شَيْئًا مِمَّا يَعْلَمُهُ مُتَصِلًا بِمَوْضِعِ الشَّهَادَةِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَنْ يَكْتُمُ الشَّهَادَةَ بِالْإِثْمِ، وَأَسْنَدَ الْإِثْمَ إِلَى الْقَلْبِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وَقَدْ أَسْنَدَ الْإِثْمَ إِلَى الْقَلْبِ خَاصَّةً مَعَ أَنَّ الْإِثْمَ يَسْنَدُ إِلَى الشَّخْصِ، وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنِ الْكُلِّ بِاسْمِ الْجُزْءِ؛ لِأَنَّ لَذَلِكَ الْجُزْءَ مَزِيدَ اخْتِصَاصٍ فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ؛ لِأَنَّ الْإِثْمَ فِي كَتَمَانَ الشَّهَادَةِ عَمَلُ الْقَلْبِ لِأَعْمَلِ الْجَوَارِحِ؛ وَلِأَنَّ الْقَلْبَ أَسَاسَ كُلِّ خَيْرٍ وَكُلِّ شَرٍّ وَلَوْ كَانَ الْإِثْمُ مِنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ، فَهُوَ الْمُضْغَةُ الَّتِي إِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ الْجِسْمُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجِسْمُ كُلُّهُ. وَلَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي هَذَا الْمَعْنَى: «كَتَمَانَ الشَّهَادَةِ هُوَ أَنْ يَضْمُرَهَا، وَلَا يَتَكَلَّمَ بِهَا، فَلَمَّا كَانَ إِثْمًا مَقْتَرِنًا بِالْقَلْبِ أَسْنَدَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ إِسْنَادَ الْفِعْلِ إِلَى الْجَارِحَةِ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا أَبْلَغُ؛ أَلَا تَرَكَ إِذَا أَرَدْتَ التَّوَكِيدَ تَقُولُ: هَذَا مِمَّا أَبْصَرْتَهُ عَيْنِي، وَمِمَّا سَمِعْتَهُ أَذْنِي، وَمِمَّا عَرَفَهُ قَلْبِي؟ وَلِأَنَّ الْقَلْبَ رَئِيسَ الْأَعْضَاءِ وَالْمُضْغَةُ الَّتِي إِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ الْجِسْمُ كُلُّهُ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ الْجِسْمُ كُلُّهُ؛ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَقَدْ تَمَكَّنَ الْإِثْمُ فِي أَصْلِ نَفْسِهِ، وَمَلِكٌ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِيهِ، وَلِثَلَا يَظُنُّ أَنَّ كَتَمَانَ الشَّهَادَةِ مِنَ الْآثَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللِّسَانِ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّ الْقَلْبَ أَصْلُ مُتَعَلِّقِهِ، وَمَعْدَنُ اقْتِرَافِهِ، وَاللِّسَانُ تَرْجَمَانُ عَنْهُ؛ وَلِأَنَّ أَفْعَالَ الْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ أَفْعَالِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ، وَهِيَ لَهَا كَالْأَصُولِ الَّتِي تَشَعُّ مِنْهَا؛ أَلَا تَرَى أَنَّ أَصْلَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ الْإِيمَانَ وَالْكَفْرَ، وَهُمَا مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ؛ فَإِذَا جَعَلَ كَتَمَانَ الشَّهَادَةِ مِنْ آثَامِ الْقُلُوبِ، فَقَدْ شَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ مَعَاضِمِ الذَّنُوبِ».

وَهُنَا يَسْأَلُ سَائِلٌ: إِنْ مَا يَهْمُ بِهِ الْقَلْبُ لَا يَحَاسِبُ عَلَيْهِ الشَّخْصَ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ هُمُ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِثْمٌ فِي عَدَمِ آدَاءِ الشَّهَادَةِ، وَهِيَ لَيْسَتْ إِلَّا عَمَلًا قَلِيلًا لَا أَثَرَ لَهُ فِي الْجَوَارِحِ؟ وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ

أعمال القلب ليست معفاة من الإثم دائماً، إنما الذى يعفى من العقاب ما يجول بخاطرهم ويتمناه من غير أن يكون له أثر فى الجوارح، أما ما يعتزمه ويصمم عليه، ويتجه إليه، ولكن يفوت التمام لأمر خارج عن إرادته وليس له قبل به، كمن يعتزم قتل شخص ويذهب إليه ليفترسه، وقد عقد النية، واستحصد العزيمة، ولكن أفلت من يده، أفلا يكون ثمة إثم؟ وأحياناً تكون عزيمة القلب وحدها هى موضع المؤاخذه، وذلك إذا كان عمل القلب كف الجوارح عن العمل فى موضع يجب فيه العمل، فترك الواجبات كلها موضع مؤاخذه، ومن ذلك ترك الشهادة. وفى الشرع الإسلامى جرائم تسمى جرائم الترك، وهى الجرائم التى يكون الجزاء فيها ليس على الفعل، ولكن على ترك واجب، كمن يرى شخصاً يموت جوعاً ومعه مال ولا يسد غائلة جوعه، وكمن يرى أعمى يتردى فى بئر ويتركه قاصداً بالترك أن يموت، وهكذا؛ ومن ذلك النوع كتمان الشهادة، فهو ترك الواجب، وهو إثم وجريمة بسبب ذلك الترك.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ختمت الآية الكريمة بهذه الجملة السامية، للوعد والوعيد، ببيان علم الله ذى الجلال والإكرام المنتقم الجبار علماً دقيقاً بما يعمل به كل إنسان؛ يعلم الخير والشر، ويعلم ما تخفى الصدور، وما تكنه القلوب، وما يظهر على الجوارح، فيجازى على الإحسان إحساناً، وعلى السوء سوءاً؛ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، ومن يأكل أموال الناس بالباطل إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ويصلون سعيراً.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فى هذه الجملة السامية بيان لشمول ملك الله سبحانه وتعالى، وفى ذكر هذا الشمول بعد الآيات التى بينت أحكام الأموال ببيان مصارف البر، ومواضع التحريم، وطرق التعامل، وما يوجد الثقة - إشارة إلى معان عامة وخاصة:

أما العامة فهى بيان أن ما فى يد الإنسان عارية مُستردَّة، وأن المالك فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، فلا يغتر ذو مال بماله، ولا تذهب به النهمة إلى طلبه من غير حلال، فإن يده زائلة عنه لا محالة، وعليه أن يجمل فى الطلب، وأن يتنهر

فرصة وجود المال بين يديه ليكثر من البر وفعل الخير، فهو الباقي والدائم، وأنه سبحانه وتعالى المسيطر على كل شيء المعطى الوهاب، فهو الذى أعطى ذا المال وبسط له الرزق، وهو الذى قدر رزق الفقير، فليس لغنى أن يعتز بغناه، ولا ذى فقر أن يذل لفقره، فالعزة لله وحده، والخضوع له وحده؛ وإنه سبحانه إذا كان المالك لكل ما فى السموات والأرض، فله وحده العقاب والثواب، وليس لأحد من عباده إلا ما ينعم به عليه من نعم.

وأما الإشارة إلى المعنى الخاص، فهو أنه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية السابقة أنه عليم بكل ما يعملون؛ وإن من أسباب هذا العلم الدقيق أنه مالك لكل ما فى السموات والأرض؛ لأنه خالق ما فى السموات والأرض ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) [المالك] وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليمًا بكل ما يعمل به الناس، ومالكًا لكل ما فى السموات وما فى الأرض فإنه سبحانه وتعالى يحاسب على كل ما يفعله الإنسان سواء أكان من حركات النفس أم كان من حركات الجوارح؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَأَن تَبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ : فى هذا النص الكريم يبين سبحانه أنه يعلم السر والعلن، ما ظهر وما بطن، وأنه يعلم حركات النفس وما تصر عليه وما تعزمه من فعل، سواء أعلته أم لم تعلنه؛ وإن هذا النص كما يفيد علم الله بما ظهر وما بطن من أعمال النفوس، يفيد بصريحه أنه يحاسب الإنسان على النيات وما تكسبه القلوب، سواء أخفاه الشخص أم أظهره، فما تكسبه القلوب موضع مؤاخذه بهذا النص؛ وقد قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغَفْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾ (٢٢٥) [البقرة] ولكن قد اعترض على ذلك بقول النبى ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم يتكلموا أو يعملوا به»^(١).

(١) رواه مسلم: الإيمان - تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب (١٨١)، بهذا اللفظ، والبخارى: الإيمان والنذور - إذا حدث ناسيا فى الإيمان (٦١٧١).

ولقد ادعى بعضهم لهذا الحديث أن الآية منسوخة؛ لأن حديث النفس لا يمكن التخلص منه؛ وأنها نسخت بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ [البقرة] (٢٨٦) ولكن ذلك القول غير مقبول؛ لأنه لا تعارض بين الآيتين، حتى تتسخ إحداهما الأخرى، كما أنه لا تعارض بين الآية والحديث الشريف؛ لأن حديث النفس ليس هو ما تكسبه النفس، ويعزمه القلب، وينويه الشخص ويصر عليه؛ وإنما هو تلك الخواطر النفسية التي تعرض للإنسان فتوجهه نحو الهوى والشهوة؛ فإن سار وراءها حتى اعتزمها وأرادها وأصر عليها، ولكن عاقبه عائق عن تنفيذها، لا يكون حديث النفس، بل يكون كسب النفس، ولكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت؛ فالمرتبة الأولى وهي تلك الخواطر ليست موضع مؤاخذه، بل إن التغلب عليها، وكفها بعد مكافحتها موضع ثواب؛ لأنه جهاد النفس، وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر، كما ورد في الأثر «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(١) ويقصد به جهاد النفس؛ إنما موضع المؤاخذه الإصرار بعد الخواطر.

وعلى ذلك: نقول إن موضع التجاوز هو حديث النفس، وموضع الحساب هو الإصرار والنيات، والاتجاه القلبي إلى الأذى والانتقام وقد بينا ذلك من قبل.

﴿فَيَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ﴾ وإن هذه نتيجة الحساب، فيستر الله سبحانه وتعالى ذنوب من يشاء ويعفو عنه، وإنه ليعفو عن كثير كما ذكر سبحانه، ويعذب من يشاء جزاء ما اقترف من آثام؛ وإن مشيئة الله سبحانه وتعالى لا قيد يقيدها، ولا شيء يحدها، ولكنه سبحانه يغفر لمن سار في طريق الهداية، ولم تركس نفسه في المعاصي، ولم تحط به خطايا حتى تستغرق نفسه، وتستولى على حسه، ويغلب عليه حب الخير؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾ (١١٤) [هود]. أما من استولت عليه الشهوات، وأحاطت به

(١) كشف الخفاء ج١ ص ٥١١ (طبع مكتبة التراث الإسلامى تحقيق أحمد القراش).

الخطايا، وغلب عليه الشر والأذى، ولم يكن منه الخير إلا لماما، فإن الله محاسبه بما كان؛ لأنه لأحسنات تذهب بالسيئات؛ والله سبحانه وتعالى هو المالك للإنسان وما يصنع الإنسان، فلا قيد يقيد إرادته تبارك وتعالى.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا ختام الآية الكريمة، وهو فى بيان شمول قدرة الله تعالى وعموم إرادته سبحانه، فهو القادر على الثواب والعقاب، وهو القاهر فوق عباده، ولا سلطان فوق سلطانه، وهو الذى يلهم التوفيق لمن كتب له التوفيق، وهو الذى يترك من يقع فى غواية الشيطان، وهو الذى يسهل التوبة لمن يتوب، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب؛ فالإنسان وما يملك، وخوابره وهواجسه، وأحاسيسه، ونياته واعتزاماته؛ كل ذلك تحت سلطان القادر، وقوة القاهر.

اللهم اجعلنا من عبادك الطائعين الخاضعين، الراضين بقضائك وقدرك، إنك أنت العزيز الحكيم.

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ ۚ وَكُتِبَ لَهُ
وَرُسُلِهِ ۚ لَا نَفَرٍ بَيْنَهُمْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۚ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا
تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۚ
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

بهاتين الآيتين الكريمتين ختمت هذه السورة، وهى أطول سورة فى القرآن، وفيها لب الإسلام، ومغزاه ومرماه؛ فيها بيان أخلاق الناس، واختلاف تلقيهم للحق الذى يدعون إليه؛ فمن مؤمن يُدْعَن للحق بقلبه وجوارحه، ومن منافق يظهر الإذعان ويبطن الكفر، ومن معاند مشرك بالله يعرض عن الحق، وقد لاحت بيناته، وأضاءت الوجود آياته. ثم بينت أصل الخليفة، وبها تبين الطبائع الإنسانية والطبائع الإبلسية، والإخلاص الملائكى ثم ضرب سبحانه الأمثال وقص سبحانه قصص النبيين: موسى وإبراهيم وإسماعيل، وبنى إسرائيل، وفيهم يتمثل الإيمان أحياناً، والطبائع الإنسانية يتسلط عليها الشيطان فى أكثر الأحيان، ويتمثل الطبع الإنسانى فى قوته وضعفه. ثم ذكر سبحانه أحكاماً للجماعة فى القتال، وفى السلام، فى الأسرة وفى المجتمع، وفى التعاون بين الأحاد بالإنفاق فى سبيل الخير وإعلاء كلمة الحق والفضيلة، ثم فى الأسباب المفرقة بين الجماعات كالربا، ثم فى المعاملات الفاضلة التى تحفظ فيها الثقة المتبادلة بين آحاد الجماعات الإسلامية.

بين سبحانه وتعالى ذلك، ثم ختم السورة ببيان أمرين:

أحدهما: أن رسالة محمد ﷺ هى امتداد للرسالات السابقة كلها، وأن لب الدين واحد فى كل الرسالات الإلهية.

وثانيهما: بيان أن كل التكاليف الدينية يسر لا عسر فيها، وأنها تهذيب روحى وتعاون اجتماعى. وقد بينت الآية الأولى من الآيتين الكريمتين الأمر الأول وبينت الثانية الأمر الثانى ولنبتدئ بالكلام فيما اشتملت عليه الآية الأولى:

﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وفى هذا الجزء من الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى الأصل الأول من أصول الإيمان، وهو الإيمان بما جاء به وما نزل عليه؛ فهو ﷺ ومعه المؤمنون يؤمنون بما أنزل إليه من ربه ﷻ، الذى أنشأه ونمّاه وكمله، وخصه بالخصال التى تؤهله للرسالة، وتعدّه للنبوة: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ [١٢٤] [الأنعام].

والإيمان بما أنزل الله يشمل الإيمان بالتوحيد المطلق للذات العلية وبكل ما اشتمل عليه القرآن من غيبات، والإيمان بكل ما اشتمل عليه القرآن من تكليفات على أنها من عند الله اللطيف الخبير، سواء أكانت تتعلق بالعبادات أم كانت تتعلق بالمعاملات؛ فيؤمن النبی ومعه كل المؤمنین الصادقین بالإيمان بأن الله حرم الربا كما حرم الشرك وكما حرم الاعتداء على النفس والمال، وحرم الزنا كما حرم الخمر والخنزير وأكل الميتة؛ وأمر بالزكاة كما أمر بالصلاة، وأمر بإقامة الحدود كما أمر بالحج؛ فالإيمان بما أنزل الله إيمان بكل ما اشتمل عليه الوحي المحمدي. ومن قال إن منه ما يناسب عصر النبي ﷺ ولا يناسب عصرنا فهو لم يؤمن بما أنزل إليه من ربه، ولم يكن من المؤمنین الذين اقترن إيمانهم بإيمانه ﷺ.

ونشير هنا إلى معنى سام تفضل به الله على المؤمنین، وهو أنه قرن إيمان المؤمنین بإيمان النبي ﷺ وجمعهما في نسبة واحدة، وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنین الذين يصدقون في إيمانهم بما أنزل الله يقاربون في منزلتهم منزلة النبيين. وفي تأخيرهم في الذكر إشارة إلى تأخر التابع عن المتبوع، وإشارة إلى أن النبي ﷺ أول من يؤمن بما أوحى إليه، وأنه أقوى الناس إيماناً بوجوب طاعة الله، وأنه أول من أطاع الله؛ فكانت نبوته ﷺ تصديقاً منه وطاعة.

﴿كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ بهذا النص الكريم يبين سبحانه معنى الإيمان الجامع من حيث الاعتقاد، وذلك الإيمان يتضمن الإيمان بالله تعالى أولاً، ثم بملائكته، وهم وسائط التبليغ لمن يختارهم لرسالته من خلقه، ثم بكتبه، وهي سجل شرائعه التي تنزل من السماء، ورسله، وهم المصطفون الأخيار من البشر الذين اختيروا لتبليغ ما اشتملت عليه الكتب. فهذا تدرج قويم؛ فابتدأ بالإيمان بالله المنعم بكل شيء في هذا الوجود؛ ثم ثنى بالملائكة الأطهار وهم غيب لا يرى ولا نعرف شيئاً عنهم إلا بالإخبار منه سبحانه، وهو الذي أمرنا بالإيمان بهم، فالإيمان بهم نوع من الإيمان بالله سبحانه. وكذلك الكتب والرسول.

وقد يقال: لماذا ذكر الإيمان بهؤلاء بجوار الإيمان بالله تعالى؟ والجواب عن ذلك أن بعض المنحرفين من أهل الأديان السابقين كانوا يذكرون بغير الخير وبالعداوة بعض الملائكة كجبريل الأمين، فبين سبحانه أن الملائكة جميعا من غير استثناء يجب الإيمان بهم، والإذعان لكل ما ينزلون به من رسالات ربهم، وكذلك الكتب السابقة، والنبیون السابقون؛ فمن بنى إسرائيل من قتلوا بعض النبیین، وكفروا ببعضهم وحرصوا على قتله، فبين سبحانه وجوب الإيمان بكل الرسل من غير استثناء؛ لأنهم المبلغون للناس رسالات الله، وفوق ذلك فإن هذا الذكر المفصل يفيد اشتراك المؤمنين جميعا فى عناصر الإيمان، وأن الإسلام امتداد لسائر الأديان المنزلة؛ وهو الخطوة الأخيرة فى شرائع السماء إلى الأرض، وأن من يؤمن بالإسلام يؤمن بكل الأديان والشرائع التى أنزلت على الرسل غير محرفة ولا مبدلة؛ فهو دين الوحدة الإنسانية، كما هو دين التوحيد الإلهى. والإيمان بالله تعالى هو الإيمان بوحديته تعالى فى الذات؛ فليس لله سبحانه وتعالى مثابه له من الحوادث ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى] وبوحديته الله فى الخلق والتكوين، فهو سبحانه الخالق لكل شىء، وليس لأحد مهما يكن شركة لله سبحانه فى الخلق والتكوين؛ ووحديته العبودية؛ فلا يعبد مع الله أحدا؛ لأنه المنعم بهذا الوجود، وليس أحد يستحق معه العبادة؛ إذ لا يماثله أحد؛ تعالى الله عما يقوله المشركون علوا كبيرا.

وهنا ملاحظة لفظية يجب أن نشير إليها، وهى لفظ «كل» وعدم إضافته، إذ قال سبحانه: ﴿كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ﴾ و«كل» سواء أضيفت باللفظ أم لم تضاف، على نية الإضافة؛ فالمعنى: كل فريق من هذين الفريقين، وهما الرسول والمؤمنون وذكر كل على هذا فيه إشارة إلى مرتبة النبیین، وأنها أعلى من مرتبة المؤمنين ولو كانوا صادقين، وإن جمعهما المولى القدير فى نسبة واحدة، تعالت كلمات الله سبحانه.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ هذا التفات فى القول، وهو منهاج بلاغى، فبعد أن كان الكلام بصيغة الحكاية عن النبى ﷺ والمؤمنين، صار بصيغة المتحدثين عن أنفسهم هم، وهى أن حالهم فى هذا الإيمان أنهم لا يفرقون بين رسول ورسول،

فيؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض، وهناك قراءة أخرى، وهى: (لا يفرق بين أحد من رسله) والضمير فى الفعل «يفرق» يعود فى هذه القراءة على «كل» ولفظ «كل» مفرد، فيعود الضمير عليه مفرداً وإن كان معناه جمعاً، وقد يعود الضمير جمعاً ملاحظاً فى ذلك المعنى لا اللفظ. ومعنى هذه الجملة السامية هو تصريح بما تضمنه ما قبلها؛ لأن ما قبلها تضمن أنهم يؤمنون بكل الرسل، ومقتضى ذلك أنهم لا يفرقون فى الإيمان بهم وكونهم مبعوثين من عند الله بين رسول ورسول، وعدم التفرقة لا صلة لها بالتفضيل فى الدرجات؛ لأن ذلك من فضل الله إذ يقول: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ولأن موضوع التفرقة وعدم التفرقة هو فى الإيمان.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فى هذه الجمل السامية يبين سبحانه وتعالى خواص الإيمان التى لا تفارقه إلا إذا اعتراه نقص، وبمقدار نقصها يتخلف المؤمن عن مراتب الكمال، ودرجات الفوز.

وأول خاصة من خواص الإيمان، ومظهر من مظاهره - الاستماع لما يدعو إليه استماع متعرف طالب لحقيقته متقص لغاياته، متجرد من الأهواء والشهوات، حتى إذا عرف الحق فى الشرع سائغاً أطاعه غير متململ، وصبر على تكليفه غير متضجر؛ فمن طلب الدين مؤولاً نصوصه على غير وجهها خضوعاً لأهواء زمانه، أو خضوعاً لهواه، فهو غير مستمع ولا طائع، نعوذ بالله العزيز الكريم.

والخاصة الثانية - أن يحس المؤمن بالتقصير مهما يكن مؤدياً لواجب الطاعة، فإن ذلك الإحساس يرهف الوجدان، ويجعله على مخافة من الزلل، فيتجنب الشطط، ويلتزم الاعتدال؛ ولذلك قال فى هذه الخاصة رب النفوس ومقلب القلوب: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أى أنهم لفرط إحساسهم وخشية التقصير، لأن هذا الدين متين، يضرعون إلى الله دائماً طالبيين المغفرة، ويقولون: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أى اغفر لنا غفرانك الذى هو من مقتضى رحمتك ونعمك التى تفيض علينا دائماً، وأنت ربنا الذى خلقنا وربانا ونامنا، والعليم بأحوالنا.

وإن هذا هو مقام الخوف الذى يجب أن يُعلِّبه المؤمن؛ ولذا كان محمد ﷺ يقول: «إنى أخشاكم لله»^(١) ومقام الخوف من قوة الإيمان، والغرور من ضعف الإيمان، فلا يليق بمؤمن أن يغتر بعبادته، فإن هذا ينقصها أو دليل على نقصها، ويقول الصوفية: إن معصية أورثت ذلاً واستخذاء خيراً من طاعة أورثت عزاً وافتخاراً.

والخاصة الثالثة - التفويض إلى الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ وإن هذا مقام التفويض والإيمان بالقدر خيرهُ وشهرهُ، وهو مع ذلك يتضمن الإيمان باليوم الآخر؛ فالمؤمن الحق يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ويدعن للحق ويعمل به غير مغتر بعمله؛ بل يرجو عفو ربه وغفرانه، ثم يفوض أموره إلى ربه، عالماً بأن المآل إليه ومصيره عنده سبحانه وتعالى.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قال الزمخشري فى تفسيره: «الوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه، أى لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود. وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ [البقرة ١٨٥] لأنه كان فى إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة، وهذا الكلام يستفاد منه أن الوسع غير الطاقة، فالطاقة هى غاية المجهود وأقصاه، وما يفعله الإنسان قادراً عليه ولكن فى تعب وجهد، والوسع ما يكون فى الإمكان، ولكن تكون بعد الأداء سعة من قدرة على أداء غيره، ولكن لا يؤدى الزيادة إلا بجهد. ولا يفهم من هذا أن تكليف الوسع لا تكون فيه مشقة قط، بل إن كل تكليف هو أمر بما فيه كلفة، وهى المشقة؛ وعلى ذلك تكون التكاليفات الشرعية لها ثلاث خواص ملازمة: وهى أن فيها مشقة محتملة، وأنها تكون فى الوسع والقدرة من غير حرج ولا ضيق، وأنها تكون من غير مجهود شديد يكون

(١) روى البخارى: الإيمان - أنا أعلمكم (١٩).

أقصى الطاقة. تلك هى خواص تكليف الله تعالى لكل نفس كما تدل عليه الجملة السامية.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ هذه الجملة السامية تبين أن كل تكليف قد اقترن بجزائه، وأن كل امرئ سيجزى على الخير خيراً، وعلى الشر شراً. وما تضمنته ذلك النص الكريم هو نتيجة لما تضمنه النص السابق؛ لأن النص السابق أفاد أن ثمة تكليفاً، ولا ينتج التكليف نتائجه إلا إذا كان ثمة جزاء؛ والنص السابق أيضاً أفاد أن الله لا يكلف إلا بما يكون فى القدرة من غير إرهاق، بل بإرادة حرة ويسر لا عسر فيه. وذلك أساس للقيام بالتكليف بإرادة حرة، ومقدرة غير مرهقة؛ وذلك يوجب الجزاء العادل.

وقد اتفق العلماء على أن قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ المراد بها الحسنات التى يثيب الله عليها؛ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ المراد به السيئات التى التى يعاقب الله تعالى عليها. وقد أخذوا هذا من النص باللام فى الجملة الأولى، والنص بعلى فى الجملة الثانية؛ فإن التعبير باللام التى تفيد الملكية المفيدة فى مقابل على التى تفيد التحميل، ووضع الشئ على الشخص، يجعل الأولى مفيدة للجزاء ثواباً، والثانية مفيدة للجزاء عقاباً؛ وإذا لم يكن ذلك التقابل، فإنه يعبر باللام فى موضع الثواب والعقاب؛ فيقول سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾ [البقرة] و﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ [البقرة] إذ لا قرينة تدل على الملكية المفيدة؛ فتكون اللام لمطلق الاختصاص.

وهنا سؤال لفظى: لماذا عبر سبحانه عن هذا الخير بقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وعن الشر بـ ﴿اِكْتَسَبَتْ﴾ مع أن الكسب يكون للخير وللشر كما فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثُلُهَا...﴾ [يونس]؟ وقد أجاب عن ذلك الزمخشري بقوله: «فى الاكتساب احتمال؛ فلما كان الشر مما تشتهيه النفس، وهى منجذبة إليه وأماره به، كانت فى تحصيله أعمل وأجد؛ فجعلت لذلك مكتسبة

فيه» وهذا التعليل قد يشير إلى أن الشر الكبير الذى تعتمله النفس وتجد فيه، وتلج وتستمر عليه، هو موضع المؤاخذة، والضئيل قد يكون موضع العفو؛ أى ما تفعله النفس من خير فكله موضع ثواب، قل أو جل؛ وذلك معنى صحيح.

ولكن هناك تعليلاً آخر نراه، وهو أن التعبير باكتسب يفيد معنى الاعتمال، وهو ما يفعله الإنسان غير منساق إليه، والطبيعة الإنسانية تنحو نحو الخير، والشر ضد الفطرة وضد الوجدان والضمير، ومن يفعله يغالب فطرته ثم لا يلبث إلا قليلاً حتى يذوق شجرة الشر فينساق، وإن الإنسان ليرى ذلك فى كل من يرتكب الجرائم، فهو يبتدئ بالجريمة مغالبًا نفسه ثم تطاوعه ثم ينساق؛ فالقاتل كذلك، والسارق، والزانى؛ أول جريمة يرتكبها بتعمّل، ثم يآلف الارتكاب فيكون سهلاً؛ لذلك عبر عن الشر بالاكْتِسَاب؛ لأنه ضد الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وضد الضمير، وعبر عن الخير هنا بالكسب لأنه الفطرة.

وبعد بيان سنة الله فى التكليف وجزائه ذكر سبحانه حال المؤمن المخلص فى ضراسته، وضراسته بالتجاء إلى ربه ودعائه، وقد ذكر سبحانه ستة أدعية تفيد هذه الضراعة وتشير إلى رحمة الله تعالى وخواص شرعه الشريف.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ هذا هو الدعاء الأول، وقد ابتدأ بثناء الله سبحانه بـ «ربنا» لكمال الضراعة والشعور بالربوبية، وكمال إنعام الله تعالى، وضعف المخلوق أمام الخالق، ووفاء المنعم عليه أمام المنعم، وللإشعار بأن ما تضمنه الدعاء من النعم التى أنعم بها، وكمال الربوبية التى ربَّ الناس بها.

والمؤاخذة معناها المجازاة، وأصلها من الأخذ. وفى التعبير عن المجازاة بالمؤاخذة إشارة إلى أن ما يستحقون من عقاب هو فى نظير ما أخذوا من نعم لم يعرفوا حقها، فهم أخذوها وجحدوها، فأخذهم الله تعالى بحقها.

وقد سأل سائل: لماذا ذكر الله سبحانه عن أحوالهم هذا الدعاء مع أنه مرفوع عن أمة محمد بقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؟^(١) وقد أجاب عن ذلك الزمخشري فقال: «إنهم كانوا متقين الله حق تقاته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤخذ به فما فيهم سبب المؤاخذه إلا الخطأ والنسيان ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه». هذه إجابة قيمة، وأزيد عليها أن المتقين أرهفت ضمائرهم وقويت نفوسهم، واشتدت خشيتهم من الله، حتى لقد أحسوا من فرط حساسيتهم أنهم محاسبون على ما لا حساب عليه؛ وإن المؤمن التقى يستكثر هفواته، ويستقل حسناته، وإن النسيان والخطأ قد توهموا فيهما أن يكون سببهما الإهمال وعدم العناية، وهما كذلك أحياناً، فكان فرط إحساسهم مرجحاً لجانب المؤاخذه على جانب العفو، وجانب الخوف على جانب الرجاء، فكان الدعاء.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ الإصر: هو العبء الكبير، مأخوذ من أصر بمعنى حبس، فكانه لثقله يحبس صاحبه في مكانه فيمنعه من الحركة، وحمل عليه بمعنى وضع عليه وألقى عليه. وهذا هو الدعاء الثاني، ومعناه أن أولئك المتقين حال ضراعة لربهم بالألا يلقي عليهم آصاراً شداداً من التكاليفات تثقل عليهم حتى يعجزوا عن أدائها أو لا يؤدوها إلا في حال من الشدة، كما حمل الله جلّت قدرته وعلت حكمته على الذين من قبلهم. ولكن ما هذه الآصار، وتلك الأعباء؟ أهى أعباء من التكاليفات تتعلق بالأوامر الشرعية والنواهي، أم هي ما يبتلى به المؤمن من شدائد واختبارات كما ابتلى الذين من قبلهم في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءُ

(١) فتح الباري: الإيمان والنذور - (٦١٧١) وأُخْرِجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - كتاب الطلاق - طلاق المكره والناسي (٢٠٣٥).

وَالضَّرَاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ [البقرة] وإنى أميل إلى أن الأصار هى من هذا النوع من الابتلاء، كأنهم لرغبتهم فى نصر الله تعالى يضرعون إليه أن يمدّهم بعونه فى حمل عبء الجهاد فى سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه. ويزكى ذلك قوله تعالى فى ختام السورة ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ولكن هل معنى ذلك أنهم لا يريدون أن يختبروا كما اختبر أقوياء الإيمان ممن سبقوهم؟ وأقول فى الإجابة عن ذلك: إن طالب الحق المؤمن به يستكثر فعل الخير من غيره، ويستقل حال نفسه وفعله، وكأنهم يعترفون بفضل من سبقوهم، ويحسبون أنهم دونهم، فيطلبون عون الله تعالى، وذلك دليل قوة الإيمان، وأنهم ليسوا أقل منهم، بل يزدون بذلك الاعتراف الكريم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ الطاقة: قال فيها الراغب الأصفهاني ما نصه: «الطاقة اسم لمقدار ما يمكن الإنسان أن يفعله بمشقة؛ وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء؛ فقوله تعالى: ﴿لَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا به» فالطاقة على هذا تكون فيما يمكن فعله بأقصى القدرة. وهذا هو الدعاء الثالث وقد كررت فيه كلمة «ربنا» لكمال الضراعة ولبيان أن حالهم دائماً يتجدد فيها الشعور بالربوبية، وحق الخالق المنعم عليهم. وهذا هو الدعاء هو تدرج مترتب على الدعاء السابق. لقد ضرعوا إلى الله ألا يختبرهم ذلك الاختبار الشديد الذى ألقى على عاتق من سبقوهم أو يخشون ألا يقوموا بحقه كما قام من قبلهم ثم يضرعون الآن ألا يكلفوا إلا ما يطيقون، أى أنهم على أتم استعداد لأن يبذلوا أقصى قدرتهم، وغاية قوتهم؛ فإن الطاقة أقصى القدرة كما بينا ونقلنا. فمعنى الجملة السامية: لا تحملنا ما فوق الطاقة ونحن على استعداد بعونكم لما هو كل الطاقة. وهذه حال من الإيمان سامية. وعبر هنا بالفعل المضعف «تَحْمِلْنَا» وفى الأول من غير تضعيف؛ لأن الإصر نفسه والتعبير بعلى فيهما بيان شدة الاختبار، فلا حاجة إلى مبالغة فى صيغة الحمل؛ أما هنا فالاختبار بما هو فى الطاقة وإن كانت المشقة شديدة، فكان ثمة متسع فى المبالغة فى الصيغة.

﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ هذه هي الأدعية الثلاثة الأخيرة وكلها في باب واحد، وهو باب الإحساس بالمصير في القيام بالواجب، وهي مرتبة من الإيمان سامية؛ لأن المؤمن يفرض التقصير في نفسه ليسعى إلى الكمال، وليرجو رحمة الكبير المتعال، لا يفرض في نفسه الكمال حتى لا يدلى بغرور، ويكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً. وحال الرسول مع المتقين حال الشاعرين بالتقصير مهما يكن مقدار ما قاموا به؛ وإذا ضرعوا بهذا الدعاء؛ طالبوا بالعفو ألا يحاسبهم على ما عساه يكون منهم من هفوات، أو ما تتحدث به نفوسهم من إصرار على شر ولا نية له، وما يكون موضع الحساب يضرعون إلى ربهم أن يكون موضع غفرانه، فيستر ذنوبهم ولا يفضحهم، ثم يضرعون إلى الله بعد ذلك أن يمنَّ عليهم برحمته في الدنيا والآخرة، وإنهم لفرط إحساسهم بالتقصير لا يعتبرون الثواب جزاء، بل يعتبرونه رحمة ومنَّة وفضلاً من رب العالمين.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه هي الوثيقة الربانية، يستمسكون بها، وهي إحساسهم بأن الله مولاهم، أي معينهم وكالئهم وناصرهم وممدهم بفضله، وقد طلبوا منه النصرة الدائمة على القوم الكافرين. وإن هذا الدعاء الأخير يقوى المعنى الذي قرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾.

وإنا نضرع إلى المولى جلت قدرته أن يعفو عنا، ويغفر لنا، ويرحمنا، إنه الغفور الرحيم، والعفو القدير.

سورة آل عمران

بين يدي السورة:

هذه أولى آيات سورة آل عمران، وهي مدنية، وقد سميت بآل عمران لاشتغالها على قصتهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) [آل عمران] إلى آخر كلامه العزيز في تلك العبرة التي ساقها.

موضوعات السورة:

وإن هذه السورة الكريمة :

(١) فيها تنويه بذكر القرآن وأقسامه، وإشارة إلى محكمه والمتشابه منه، وأقسام الناس في تلقى ذلك الهدى الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٢) وفيها قصة آل عمران، وولادة مريم البتول، ويحيى النبی، وعيسى الرسول، وما اكتنف ولادتهم من آيات تدل على كمال إرادة الله تعالى في خلقه.

(٣) وفيها إشارات إلى معجزات عيسى عليه السلام، وكفر من دعاهم بعد هذه المعجزات الظاهرة القاطعة؛ وإن ذلك يدل على أن العناد يضع غشاءً على العين فلا تبصر، وعلى البصيرة فلا تدرك.

(٤) وفيها مجادلة النبي ﷺ مع النصاري واليهود، وبيان طائفة من أخلاق اليهود واعتقادهم أن الإيمان احتكار لمذهب، وتغليق القلوب عن غيره؛ إذ قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ (٧٣) إلى آخر كلامه العزيز في تلك العبرة.

(٥) وفيها بيان أن الإسلام في لُبِّه ومعناه هو دين كل الأنبياء السابقين؛ لأنه دين الله السرمدي، سبق بالدعوة إلى حقيقته النبيون، وختم الله الدعوة بخاتم النبيين محمد الأمين.

(٦) وفيها بيان فريضة الحج المحكمة وبيان الوحدة الإسلامية، وفي جمعها مع الحج في موضع واحد إشارة إلى أن الحج من وسائلها، وأعقب ذلك ببيان فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنها ركن الوحدة الإسلامية ودعامتها، والذريعة لجعل هذه الوحدة على أسس فاضلة مشتقة من هدى الدين الحكيم.

(٧) وفيها بيان واجب قادة المؤمنين من ألا يتخذوا بطانة من غير المؤمنين؛ إذ هم في حقيقة أمرهم لا يألون المؤمنين خبالا ويودون عنتهم، ثم فيها تفصيل محكم لغزوة أحد، وبيان سبب الهزيمة وأعقابها، والعبرة في هذه الغزوة التي كانت فيها هزيمة ولكن لم يكن فيها خذلان، بل كانت العبرة فيها والاعتبار بها باب الفتح المبين. وفي أثناء القصة وختامها بيان حال قتلى المؤمنين وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

(٨) وفيها إشارة إلى أعمال المنافقين في النصر والهزيمة، واتباع ضعاف الإيمان لوسوستهم، وصيانة الله لأقوياء الإيمان من أعمالهم.

(٩) ثم فيها عزاء للنبي ﷺ بذكر ما كُذِبَ به الأنبياء السابقون مع أنهم أتوا بالبينات والأدلة الحسية القاطعة إذ قال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤).

(١٠) وفيها بيان أن الله سبحانه سيبتلى المؤمنين ويختبرهم، وفي الابتلاء صقل إيمانهم.

(١١) وفيها بيان أخلاق المؤمنين وتفكرهم في خلق السموات والأرض وما بينهما، وضراعتهم إلى ربهم، واستجابة الله تعالى لهم، وجزاؤهم يوم القيامة، والمقابلة بينه وبين جزاء الكافرين الذين اغتروا بالحياة الدنيا مع أن متاعها قليل، وفيها إنصاف كريم لبعض أهل الكتاب الذين آمنوا وصدقوا ولم يسرفوا على أنفسهم بالإنكار والتكذيب مع قيام الدلائل الواضحة القاطعة.

(١٢) ثم ختم سبحانه بدعوة المؤمنين إلى مجاهدة المشركين بالتقوى وبالصبر وبإعداد العدة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

﴿الْم﴾ هذا الاسم القرآني الذي سَمِيَ به القرآن هذه السورة، وهذه حروف تقرأ في القرآن الكريم بأسمائها، وهي ألف لام ميم. والمعنى الذي تدل عليه هذه الحروف غير معلوم على وجه اليقين كما أسلفنا في سورة البقرة والله أعلم بمراده منها، ولا يستطيع عالم يعتمد على الحقائق العلمية أن يقرر المراد من هذه الحروف، والمعنى المحرر لها، وأقصى ما ذكره العلماء لها حكم يدل عليها ذكرها، ومن أحسن ذلك أن يقال: إن هذه الحروف تشير إلى أن القرآن الكريم من جنس ما يتكلم به العرب، وأنه مكون من الحروف التي يتكون منها كلامكم، ومع ذلك تعجزون عن أن تأتوا بمثل سورة منه؛ فهي إشارة إلى العجز مع الطمع في أن يحاولوا، ولن يأتوا بسورة من مثله. ومن أحسن ما يقال أيضا أن النبي الأُمِّي كان ينطق بهذه الحروف التي كان لا يعرفها إلا من يقرأ ويكتب، فاشتغال القرآن عليها مع أميته - عليه السلام - دليل على أنه من عند الله. ومن ذلك أيضا

ما قيل من أن هذه الحروف الصوتية التي اشتملت عليها بعض أوائل السور إذا أنطق بها الناطق مع ما فيها من مد طويل أو قصير، استرعى ذلك الأسماع فاتجهت إليه، وإن لم يُرد السامعون. ويروى في ذلك أن المشركين من فرط تأثير القرآن قد تفاهموا على ألا يسمعون لهذا القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (١٢١) [فصلت]. فكانوا إذا قرعت آذانهم هذه الحروف بمدّها، التفتوا مرغمين، ثم هجمت على قلوبهم من بعد ذلك الآيات البينة المحكمة، تعالت كلماته سبحانه:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾: هذه الجملة السامية تبين أصل التوحيد، وتقرر معناه، فابتدئت بلفظ الجلالة الذي يدل على كمال الألوهية، وانفردة - سبحانه - بحق العبودية، إذ إنه الإله وحده الذي أنشأ الخلق ورباه ونمّاه، ولا مالك لهذا الوجود ومن فيه وما فيه سواه. ولفظ «الله» علم على الذات العلية المتصفة بكل كمال والمنزهة عن كل نقص، والتي لا تشابه الحوادث، ولا يشبهها شيء من الحوادث: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى]. ثم صرح سبحانه وتعالى بما تضمنه لفظ الجلالة وهو الانفراد بالألوهية وحق العبودية فقال سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى لا معبود بحق إلا هو، أو لا إله فى الحقيقة والواقع إلا هو، وكل ما يدعى له الألوهية من شخص أو وثن فهو ليس إلا أسماء سمّاهم بها المشركون الضالون، وليس من حقيقة الألوهية فى شيء ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾ (١٢) [النجم] ثم بين سبحانه الأوصاف التى تبين استحقاقه وحده لحق العبودية، فقال سبحانه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أى الدائم الحياة الذى لا يفنى، ويفنى ما سواه، ولا يستمد حى حياته إلا بإرادته سبحانه، وهو القائم بنفسه، والقائم على كل شيء، والمدير لكل شيء. فهذا معنى القيوم^(١).

(١) قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى: قد فسرنا هذه الجملة السامية فى تفسير آية الكرسي فارجع إليه..

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ «الكتاب» هو القرآن الكريم، وإن أكثر السور التي تبتدئ بتلك الحروف تقترب فيها الحروف بالتنويه بذكر القرآن، وإعلاء شأنه، مما جعل المفسرين يعتبرون تلك الحروف أسماءً للسور، سماها القرآن بها، وفواصل محكمة بين سورة وأخرى من سور القرآن الكريم، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد عبر - سبحانه وتعالى - عن نزول القرآن الكريم بـ ﴿نَزَلَ﴾ للإشارة إلى أن النزول كان تدريجياً، ولم يكن دفعة واحدة، إذ إن التنزيل يدل على التدرج في النزول، وكذلك كان القرآن الكريم؛ فقد نزل منجماً ينزل في الوقائع، أو الأسئلة ليكون السبب الذي اقترن بنزوله معينا على فهمه وإدراك بعض مغايزه.

وقد ذكر تنزيل القرآن مقترنا بأمرين متصلين بهما :

أولهما: أنه حق في ذاته، ومبين للحق مشتمل عليه، وداع إليه، فقال الله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى مصاحباً له مقترناً به ملازماً له، فهو حق لأنه نزل من عند رب العالمين، واشتمل على الحق، فكل ما فيه من قصص وأخبار وشرائع وأحكام وعقائد حق لا شك فيه، وهو يدعو إلى الحق والعدل، فهو الحق الملازم للحق، الناصر للحق.

وثانى الأمرين: أنه مصدق لما بين يديه؛ أى الشرائع الإلهية التي سبقتها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهو فى لبه ومعناه مبين لكل الشرائع مصدق لصدقها؛ وهذا يدل على أن الشرائع الإلهية واحدة فى لبها ومعناها وأصولها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ [الشورى]. فالإسلام هو لب الأديان وغايتها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [آل عمران].

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هذا تصريح ببعض ما تضمنته الجملة السامية السابقة؛ إذ قد تضمنت الجملة السابقة أن القرآن يصدق الثابت النازل من عند الله

فى الشرائع السابقة، وهى تتضمن أنها كانت هداية للناس؛ وهذه الجملة تصرح بأن التوراة أنزلت هى والإنجيل من عند الله هداية للذين أنزلت لهم. وفى هذه الجملة إشارة إلى معنى آخر، وهو أن لكل أمة كتابا وهداية خاصة، وإن كانت فى معناها مشتقة من الهدى الإلهى العام، حتى إذا كانت دعوة محمد ﷺ كانت هى الهدى العام الخالد إلى يوم القيامة.

﴿التَّوْرَةُ﴾ اسم للكتاب الذى اشتمل على شريعة موسي عليه السلام، ونزل عليه من رب العالمين، وليست هى التوراة التى يتلوها اليهود اليوم؛ لأن هذه التى تسمى بهذا الاسم الآن تشمل ما نزل فى عهد موسى، وتشمل ما جاء بعد ذلك فى عهد النبيين الذين بُعثوا فى بنى إسرائيل كداود وسليمان وغيرهما، وفوق ذلك فإن القرآن الكريم أشار فى عدة مواضع إلى أن أهل الكتاب نسوا حظا مما ذكروا به، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، ثم كانت التخريبات التى حلت بأورشليم فى عهد بختنصر أولا، ثم فى عهد الرومان ثانيا سببا فى أنهم نسوا حظا مما ذكروا به، فليست التوراة المذكورة فى القرآن هى التوراة الشائعة الآن.

﴿وَالْإِنْجِيلُ﴾ كلمة يونانية^(١) معناها البشارة، والإنجيل هو الكتاب الذى نزل على عيسى، وليس هو هذه الأناجيل التى يقرؤها المسيحيون اليوم، فإن هذه مؤلفات ألّفت بعد السيد المسيح عيسى عليه السلام؛ نسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه؛ ولقد كان للمسيح عليه السلام إنجيل غير هذه الأناجيل، وهو الذى ذكره القرآن الكريم على أنه هداية للناس. ولقد قرر الأحرار من النصارى ذلك؛ فقد قال أكهارن من مؤلفى تاريخ النصرانية: «إنه كان فى ابتداء المسيحية رسالة مختصرة يجوز أن يقال إنها هى الإنجيل الأصيل، والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين لم يسمعوأ أقوال المسيح بأذانهم ولم يروا أحواله بأعينهم، وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب»^(٢).

(١) وقيل: سريانية، وقيل: أعجمية (الباب ١٩/٥-٢٠).

(٢) راجع تاريخ الأناجيل وصحة نسبتها فى كتاب «محاضرات فى النصرانية» للأستاذ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى.

وقد ذكرت ذلك الإنجيل الأناجيل المنسوبة لبعض الحواريين وهى المعروفة الآن؛ فقد جاء فى إنجيل متى ما نصه: «وكان يسوع يطوف كل الجليل، يعلم فى مجامعهم، ويكرر ببشارة الملكوت، ويشفى كل مريض وكل ضعف فى الشعب» وبشارة الملكوت هى ترجمة دقيقة لكلمة إنجيل، فإن كلمة إنجيل يونانية كما نوهنا، فقد كانت إذن بشارة أى إنجيل غير هذه الأناجيل، وهو المذكور فى القرآن، وإن لم يعلم الآن.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾: «الْفُرْقَان» هنا هو: القرآن، وكرر ذكره بعد أن ذكرت التوراة والإنجيل؛ للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله تعالى، وأنه تتميم لما سبقه، وأنه كمال هذه الشرائع كلها، وأن رسالة النبى ﷺ هى آخر لبنة فى صرح الشرائع الإلهية، وبنزولها كمل دين الله^(١). وكرر ذكره أيضاً لوصفه بالفرقان، فهو أتى بمعنى جديد لا يغنى عنه ذكر الكتاب أولاً. ووصف القرآن الكريم بالفرقان؛ لأنه فارق بين الحق والباطل، ومبين للمصادق من الكتب السابقة، ولأنه فارق بين عهدين فى الرسائل الإلهية؛ فقد كانت رسالات الرسل من قبل لأمم خاصة، ومن بعد كانت الرسالة المحمدية للناس كافة، فمن قبله كانت الرسالات لعلاج أحوال عارضة وقتية؛ أما رسالة القرآن فعلاج لأدواء الإنسانية، وتقرير الصالح لها مهما تختلف الأمصار، وتتباعد الاقطار، ولأنه ميزان الحقائق إلى يوم القيامة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ...﴾ (١٧) [الشورى].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ذكر سبحانه عقاب الذين يكفرون بآيات الله، أى معجزاته الباهرة، وآياته المتلوة القاهرة، بعد أن ذكر كتب الديانات الثلاث: اليهودية، والنصرانية، والإسلام؛

(١) يشير - رحمه الله - إلى ما ورد عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلى ومثلى الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجملته إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة». قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين وهو حديث متفق على صحته رواه البخاري: المتأب - خاتم النبيين (٣٢٧١)، ومسلم: الفضائل (٤٢٣٩).

للإشارة إلى أن الذين يكفرون بمحمد إنما يكفرون بشرائع الله المنزلة كلها؛ لأن شريعته كمالها، وبها تمامها وختامها؛ وللإشارة إلى أن اليهود والنصارى الذين لا يتبعون محمداً، إنما يكفرون بحقيقة النصرانية نفسها، واليهودية ذاتها إذ يكفرون بمحمد ﷺ؛ فليست رسالة محمد إلا الخطوة الأخيرة في الشرائع الإلهية، وهى الكمال، وقد بشرت به الكتب السابقة كلها، فالكفر به كفر بها، والإسلام سيمر بالشرع الإلهى إلى أقصى غايته؛ ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا الإيمان بما جاء به محمد كما أشار بذلك النبى ﷺ.

ومن أجل هذا كان الذين يكفرون بمحمد لهم عذاب شديد، وخصوصا إذا كانوا من اليهود والنصارى؛ لأنهم حيثئذ يكفرون بكل آيات الله تعالى.

ثم وصف سبحانه ذاته الكريمة بما يفيد أنه غالب، وأنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فقال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أى أنه سبحانه بعزته غالب على كل شىء، المسيطر على كل شىء، ليس فوقه أحد، وهو القاهر فوق عباده. وهو ذو انتقام؛ أى أنه سبحانه له انتقام شديد لا يدرك كنهه؛ ولذلك نكّر الانتقام. والانتقام إنزال النعمة والشدة فى مقابل ما يرتكبه الشخص؛ فإن كان من عادل حكيم كان عقوبة عادلة، وجزاء وفاقا؛ وكذلك يكون عقاب الله تعالى؛ فانتقام الله ليس تشفيا وشفاء غيظ كما هو الشأن من البشر، بل انتقام الله عقوبة عادلة، وقصاص رادع. وعبر بـ ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾، أى صاحب انتقام؛ للإشارة إلى أن هذا الانتقام فى قدرته سبحانه وسلطانه ينزله أنى شاء، ومتى شاء بمقتضى حكمته وإرادته وقدرته، وعلمه الذى يحيط بكل شىء؛ ولذا قال بعد ذلك:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هذه الجملة السامية تفيد تمام إحاطة الله تعالى في علمه، فهو سبحانه وتعالى يتجلى له كل شيء، ولو كان خافيا عن الناس أو من شأنه الخفاء؛ ولذلك جاء التعبير عن العلم الكامل، ببيان نفى الخفاء عليه سبحانه؛ وذلك لأن العالم المحيط قد يخفى عليه شيء، لكن علم الله غير ذلك، فهو علم لا خفاء معه في شيء مطلقا؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليمًا بكل شيء لا يخفى عليه شيء فهو يعلم القلوب وما تخفيه، وما تكنه السرائر، وما تكنه الضمائر، فهو يعلم البواعث على الكفر، وأنها ليست نقصاً في الدليل، ولكنها مآرب الدنيا، والعصية الجنسية والمذهبية، فليس الذين ينكرون ما جاء به محمد مخلصين في إنكارهم، بل هي لاجابة العناد، وجحود المستيقن. وذكر سبحانه السماء والأرض للإشارة إلى أن علمه قد وسع كل شيء؛ وسع السموات والأرض، وليس الإنسان وما تحدث به نفسه إلا شيئا صغيرا في هذا الملكوت العظيم، وذلك العالم بأرضه وسمائه. وأكد نفى الخفاء بتكرار «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فذكرها ثانيا تأكيداً لأنه لا يخفى عليه شيء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هذا بيان لسبب علم الله بعامة، وعلمه بالإنسان بخاصة؛ فإنه علم المكوّن المنشئ، الخالق المبدع، ومن ذا الذي لا يعلم ما أنشأه وكونه وأبدعه على غير مثال سبق؟! ولذا قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك]. فهذه الآية الكريمة في مقام التعليل للآية السابقة؛ إذ الأولى بينت أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي تتضمن الإشارة إلى أن ما تخفيه السرائر من بواعث على الإيمان أو الكفر، والوفاق أو العناد، يعلمه سبحانه لأنه لا يخفى عليه شيء

فى الأرض ولا فى السماء. وهذه الآية تفيد أن الله سبحانه وتعالى يعلم الإنسان لا بعد أن استوى وصار فى أحسن تقويم، بل يعلمه وهو نطفة لُقِطَتْ، ثم استقرت فى الأرحام، ويعلمه كذلك علم المكوّن المنشئ المربى الذى يتولى بقدرته تصويره حتى يصير بشراً سوياً.

والتصوير: مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه، أو من صَارَهُ إلى كذا بمعنى أماله وحوله؛ فالتصوير معناه إذن تحويل شىء من حال إلى حال مغيّراً فى شكله وهيئته بإمالاته من مشابهة شىء إلى مشابهة شىء آخر؛ وكذلك صنع الله تعالى فى النطفة؛ فإنه يحولها إلى علقه، ومن علقه إلى مضغة، ثم يجعل المضغة عظاماً، وهكذا، وتحويل الله وتصويره ليس تغييراً فى الشكل، بل هو تنمية، وتكوين، وتدرج فى هذا التكوين يستمر من وقت إيداع النطفة فى مستودعها، حتى يصير إنساناً فى أحسن تقويم، بل يستمر التكوين حتى يبلغ أشده.

والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع النطفة فى المرأة الذى فيه يتربى وينمو، ويجرى تصوير الله له وتكوينه إياه، حتى يبرز فى الوجود حياً يحس ويسمع، ثم يعلم ويتعلم؛ والله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فيه بيان لأمرين:

أحدهما: أن هذا التكوين تبع لمشئة الله وإرادته، فلم يكن وجوده كوجود المعلول من علته، وكالمسبب من سببه، إنما وجوده وتكوينه ونموه بإرادة الله تعالى ومشئته، وهو فعال لما يريد.

الأمر الثانى: بيان أن الله وحده هو الذى يجعله ذكراً أو أنثى، وجميلاً أو دميماً، وأبيض أو أسود، بل إنه سبحانه يكتبه وهو فى رحم أمه شقياً أو سعيداً، مؤمناً أو كافراً، عالماً أو جاهلاً، تعالى الله سبحانه فى علمه علواً كبيراً.

ولقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة فيها رد على بعض النصارى الذين اعتبروا المسيح عيسى ابن مريم إلهاً؛ لأنه ولد من غير أب؛ فالله سبحانه وتعالى يبين في هذه الآية أنه هو الذى صورته وكونه فى رحم أمه، كما يكون سائر الناس، وما كان الإله قابلاً للنمو من الصغر إلى الكبر، ومن النطفة إلى العلقة، فالمضغة، فالعظام، وإذا كان رب البرية قد ألقى فى رحم مريم ما هو من جنس النطفة البشرية من غير أب يودعها فإن التكوين الذى يسرى على البشر سرى عليه فكيف يكون إلهاً؟ ويزكى هذا أن الآيات من أول السورة إلى ثمانين آية كان سبب نزولها - فيما يروى فى أسباب النزول - وقد نجران ومناقشة النبى ﷺ، وسواء أصبح ذلك سبباً للنزول أم لم يصح فإن الآية فيها رد على من يدعى ألوهية المسيح.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فى هذه الجملة السامية تقرير للوحدانية وانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية وحق العبودية، بعد أن قدم ما هو دليل على هذه الوحدانية، وهو العلم الشامل لكل شىء الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وبعد أن أشار سبحانه إلى أنه المكون لكل شىء وخص الإنسان بالذكر؛ لأنه هو الذى يتمرد ويضل، وكل ما فى الوجود مسخر له كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً...﴾ (البقرة: ٢٩).

ثم ختم سبحانه وتعالى بالعزة والحكمة، لبيان كمال سلطانه فى ملكه الذى خلقه، وإثبات أنه لا سلطان لأحد معه حتى يشترك فى عبادته سبحانه وتعالى، وكيف يكون إله لا سلطان له! وليبان أن الله سبحانه يدبر هذا الكون بواسع علمه وعظيم حكمته، إنه على كل شىء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

هو

الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ
مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ

في الآيات السابقة ذكر سبحانه منزلة القرآن بين الكتب السماوية، وأنه فرقائها وميزانها، وذكر أنه سبحانه وتعالى العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو العليم بخلقه، والعليم بما ينزل عليهم من آيات بينات، والعليم بمداركهم البشرية، وطاقاتهم العقلية، يطالبهم بما يدركون ويكلفهم ما يستطيعون؛ وفي هذه الآية يبين أقسام القرآن من حيث قوة إدراكهم له، وتطلعهم لفهمه، وتباين مقاصدهم في طلب حقيقته ومعناه، وغايته وممراته؛ وفيها بيان أنه قسمان: قسم لا تدركه كل العقول، وقسم تدركه كل العقول المميزة، وأن ما يعلو على الإدراك، أصله ما أدركه كل الناس. ولذا قال سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الضمير يعود إلى الذات العلية التي وصفت في الآيات السابقة، إذ قد وصف ذاته - جلّت قدرته - بأنه الحى القائم على كل شيء، والذي به يقوم كل شيء، وبأنه منزل الكتب من السماء، وجاعل القرآن ميزانها، وأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه سبحانه الذى يعلم الإنسان منذ يكون نقطة فى بطن أمه إلى أن يصير إنساناً مستوياً كامل التكوين، وهو الذى يصوره ذلك التصوير، ويكونه ذلك التكوين، وهو العزيز الغالب المسيطر على كل شيء خلقه، ولا شيء فى الوجود إلا كان خلقه، الذى يتصرف فى هذا الكون بمقتضى حكمته وعلمه بكل شيء؛ فقلوه تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ الضمير يعود إلى المتصف بهذه الصفات . وقوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ معناه أن هذا الكتاب العظيم الشأن الذي هو ميزان الكتب السابقة وفرقانها، أنزله الله العلى القدير المتصف بهذه الصفات عليك، وقد اختارك موضع رسالته، وأداء أمانته، و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ (١٢٥) [الأنعام] وهو أعلم بشأن الكتاب وما جاء فيه، وتلقى الناس له، ومقدار إدراكهم لما فيه، وقد شاء بحكمته الواسعة أن يجعله قسمين؛ أحدهما: يدركه كل الناس، والثاني: فوق مستوى عامة الناس، ولذا قال بعد ذلك:

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (٧) أى أن القرآن من حيث بيانه وإدراك الناس له: محكم، ومتشابه؛ ولقد وجدنا القرآن الكريم وصف بأنه كله محكم فى مثل قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ...﴾ (١) [هود] أى أنها نزلت محكمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ووصفه الله سبحانه وتعالى بأنه متشابه؛ فقد قال تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ (٢٣) [الزمر] ومعنى التشابه هنا هو أنه على شاكلة واحدة من حيث قوة تأثيره، وتأخى معانيه، وإحكام نسقه، وفصاحة ألفاظه، وقوة تأثيره بألفاظه ومعانيه؛ فهو فى هذا متشابه، أى يشبه بعضه بعضاً.

وفى هذه الآية التى نتكلم فى معانيها وُصف القرآن بأن منه آيات محكمة، وأخر متشابهات؛ فلا شك أن معنى مُحْكَم هنا غير معناها فى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ...﴾ (١) ومتشابه غير معناها فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي...﴾ (٢٣) وإن ذلك يتضح من تفسير كلمة محكم ومتشابه فى أصل معناها اللغوى. وهذا ما جاء فى كتب اللغة: العرب تقول: حاكمت وحاكمت وأحكمت بمعنى رددت ومنعت، والحاكم يمنع الظالم من الظلم، وحكمة اللجام هى التى تمنع الفرس من الاضطراب. وروى إبراهيم النخعى: أَحْكَمُ الْيَتِيمِ كَمَا تُحْكِمُ وَلَدَكَ. أى امنعه عن الفساد.

وقال ابن جرير الطبري: أحكموا سفهاءكم أى امنعوهم، وبناء محكم أى وثيق يمنع من تعرض له. وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع عما لا ينبغي. وأما التشابه فهو أن يكون أحد الشيئين مشابها للآخر، بحيث يعجز الذهن عن التمييز؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ...﴾ (البقرة) [٧٠] وقال فى وصف ثمار الجنة ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ...﴾ (البقرة) [٢٥] أى متفق المنظر مختلف الطعوم، وقال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ (البقرة) [١١٨] ومنه يقال: اشتبه على الأمران، إذا لم يفرق بينهما وقال عليه الصلاة والسلام: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات». وفى رواية أخرى «مشتبهات»^(١). ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما سمي كل ما لا يهتدى الإنسان إليه بالمتشابه إطلاقاً، سواء أكان له مشابه أم لم يكن له مشابه^(٢).

وعلى هذا الأساس اللغوى، نقول: إن التشابه فى القرآن أطلق على ما لا يمكن فهمه مطلقاً، أو ما لا يمكن معرفة حقيقته على الوجه الأكمل، أو ما يدق ويختفى على العامة، ولا يستغلق على الخاصة. هذان هما الوجهان اللذان يحتملهما معنى التشابه؛ فإما أن نقول إنه ما لا يمكن معرفة حقيقته على الوجه الأكمل فى هذه الدنيا، وإما أن نقول إنه ما يمكن معرفته ولكن لبعض الخاصة الراسخين فى العلم، والمحكم هو ما يقابل المتشابه، وهو الواضح البين للعامة والخاصة الذى لا تتفاوت فى إدراكه الأنظار، وما يمكن معرفة حقيقته على الوجه الأكمل؛ وهو أم الكتاب؛ لأنه الأصل الذى يجب على كل مؤمن معرفته، والجزمُ بمعناه، والتصديق بمغزاه. فالآيات المحكمات أم الكتاب، أى أصله الذى يرجع إليه، ويحمل التشابه عليه، ويخرج بتخريج لا يناقضه إن كان ممكن الإدراك على الوجه الكامل. فالآيات المحكمات هى الحكم الذى يفصل بين التأويل الزائغ، والتأويل الصادق، فما شهدت له، فهو الصادق الذى يتفق مع أصل التنزيل، وما يخالفه فهو الزيغ فى الدين، والخروج عن جادته.

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه بالفاظه.

(٢) جاء فى هامش الأصل هذا التحقيق اللغوى منقول من التفسير الكبير للمفخر الرازى، بتصرف قليل.

والمتشابه ينتهى كما ذكرنا إلى أحد معنيين؛ إما أن نقول إنه الغيب الذى لا يستطيع الإنسان معرفته، كحقيقة الروح، وحقيقة الجن والملائكة، وما يكون يوم القيامة، وكيف يكون نعيم الجنة الحسى، وعذاب الجحيم المادى، وكيف ينشئ الله الخلق، وكيف يعيده، وكيف يتجلى سبحانه يوم الحساب، وهكذا مما غيبه الله تعالى علينا؛ لأن عقولنا مأسورة بالחס الذى نحسه، وبالمادة التى ندرکها، وعلم الغيب قد أخفاه الله سبحانه عنا؛ لأنه يعلو عن مداركنا فى هذه الدنيا، وعلينا أن نؤمن بما أخبرنا به القرآن الكريم، وما جاءت به السنة الصحيحة؛ فإن من صفات أهل الإيمان الإيمان بالغيب، إذ قال سبحانه فى أوصافهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة].

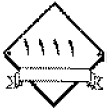
هذا هو الوجه الأول الذى يحتمله تفسير كلمة المتشابه.

أما الوجه الثانى فمعنى المتشابه أنه الذى يدق معناه إلا على طائفة خاصة من أهل العلم، كبعض العبارات القرآنية الخاصة بالكون وتكوين السماء والأرض، وبعض ما ذكر فى القرآن من أوصاف لله سبحانه وتعالى، ونحو ذلك من الحقائق التى لا يخوض فيها إلا أهل الذكر، وهى دقيقة فى معناها.

هذان هما الوجهان اللذان تحتملهما الآية الكريمة، ويدخل فى عمومهما كل الأقوال التى قيلت فى هذا المقام^(١). ونرى أن كلا الوجهين تحتملهما الآية، من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، بل يصح لنا أن نقول:

(١) جاء فى هامش الأصل: اختلف المفسرون فى المحكم والمتشابه على أقوال كثيرة:

- ١- منها أن المحكم ما اتفقت عليه الشرائع السماوية، والمتشابه ما خالف فيه الإسلام ما سبقه.
- ٢- ومنها أن المتشابه أوائل السور المبتدأة بالحروف.
- ٣- ومنها أن المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ.
- ٤- ومنها أن المحكم ما كان دليله واضحا والمتشابه ما يخفى دليله إلا على الراسخين.
- ٥- ومنها أن المحكم ما أمكن الاستدلال عليه بدليل جلى أو خفى، والمتشابه ما لا يمكن الاستدلال عليه.
- ٦- ومنها أن المحكم ما فيه بيان الحلال والحرام والمتشابه ما سواه.
- ٧- ومنها أن المتشابه ما احتمل فى تأويله عدة وجوه، والمحكم ما لا يحتمل إلا وجه واحد.
- ٨- ومنها أن المحكم والمتشابه فى القصص، فما فصل منها محكم، وما أجمل متشابه.



إن الوجهين معا مرادان، وسنختار ذلك، ونبين وجهه عندما نتكلم فى تأويل المتشابه إن شاء الله تعالى.

وإن وجود هذين القسمين فى القرآن الكريم كان سببا فى أن وجدَ الذين زاغوا وأضلهم الله على علم سبيلا لأن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلّوهم؛ وذلك بمحاولة تأويل المتشابه من غير أن يلاحظوا الموافقة بينه وبين الآيات المحكمات وهن أم الكتاب؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^٩ فى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى أن الذين يتلقون هدى القرآن قسمان، كما أن آيات القرآن قسمان، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى؛ فالقسم الأول يتلقى الهدى القرآنى مستضيئا بنوره آخذا بهديه؛ ما يعرفه يهتدى به، وما لا يعرفه يؤمن به، ويفوض فيه الأمر إلى ربه، ويقول: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^{١٠} [ص]. والقسم الثانى زاغ، فأزاغه الله عن الحق. وقد ذكر الله ذلك القسم، ويفهم القسم الأول من قوله تعالى فى حق الراسخين فى العلم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

والزيف أصل معناه فى اللغة: الميل عن الاستقامة. والتزايع التمايل، ورجل زائع: أى مائل عن الطريق المستقيم فى طلب الحق. والمعنى على هذا: أن الذين فى قلوبهم زيف، أى ميل عن طلب الحق وعدم أخذ بالمنهج المستقيم، لا يتجهون إلى المحكم يطلبون منه حكم القرآن، بل يتبعون ما تشابه من القرآن؛ لأنه بُغِيَتْهم، ويجدون فى الاشتباه ما يتفق مع اعوجاج نفوسهم، وعدم استقامة تفكيرهم، وما ينطوى عليه مقصدهم الباطل؛ فإن اعوجاج القلوب يجىء من تحكم الهوى فى

٩- وقال ابن تيمية: المحكم: ما يجب الإيمان به والعمل به، والمتشابه ما يجب الإيمان به من غير تكليف بعمل.

١٠- ومنها أن المتشابه آيات الصفات، وغيرها محكم.

١١- وقال ابن حزم الظاهري: كل القرآن محكم ما عدا الحروف التى ابتدئت بها بعض السور، وأقسام القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾^{١٢} [الشمس].

النفس، وإذا تحكم الهوى وسيطرت الشهوات المختلفة كشهوة التسلط والغلب وحب السلطان، وشهوة المال، وشهوة النساء، وشهوة المفاسد؛ فإن القلوب تركس، وتفسد، وتعوج، فلا تطلب الحق لذات الحق، بل تطلب ما يحقق شهوة النفوس، وأولئك لأنهم لا يطلبون الحق يتبعون المتشابه يتقصّونه ويتعرفون مواضع الريب، ليثيروا الشبهات حول الحق، ويشككون الناس فيه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أى طلباً لفتنة الناس عن دينهم وخدعهم، وإثارة الريب فى قلوبهم، بأوهام يثيرونها حول المتشابه الذى جاء فى القرآن، مثل أن يقولوا: ما نعيم الجنة وما جحيمها؟ و ﴿أَلَدَا كُنَّا تَرَابًا أَتِنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ [الرعد]. وكيف يخلق الله العالم؟ وهكذا يثيرون هذه الأوهام المشتقة من مألوف الحياة الفانية، ليشتككوا فى حقيقة الحياة الباقية. فابتغاء الفتنة مقصودهم الأول؛ ولذا ذكر أولاً، ثم أعقبه سبحانه بابتغاء التأويل فقال: ﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ فهم قد ابتغوا التأويل بانبعاث من الهوى والرغبة فى تضليل الناس وإثارة الشكوك حول حقائق الدين، فالرغبة فى الفتنة هى المقصد الأول، والرغبة فى التفسير أو معرفة المآل جاءت تابعة إذ لا تتحقق الفتنة إلا بها.

والتأويل فى أصل معناه اللغوى كما قال الأصفهانى فى مفرداته «من الأول أى الرجوع إلى الأصل، أى رد الشئ إلى الغاية المقصودة منه علماً أو فعلاً» فهو معرفة الغاية، إما بمعرفة المراد المقصود؛ ولذلك أطلق التأويل على التفسير ومعرفة ما يخفى من الحقائق وإرادة غير الظاهر لقربة تدل عليه؛ وإما بمعرفة المآل والنتيجة عملاً، كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف].

والتأويل الذى يبتغيه الزائغون هو معرفة المآل فى الدنيا، كأن يطلبوا إنزال العذاب الذى يهددون به، وكأن يطلبوا إحياء بعض الموتى، وقد يفسرون تفسيرات

المقصود منها تشويه الحقائق وتضليل العقول، وقد قصدوا في الأمرين الضلال. وإن الله سبحانه وتعالى قد بين بعد ذلك أن معرفة المآل عند الله تعالى وحده، ومعرفة المعنى قد يدركها الراسخون، فقال سبحانه:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ في هذا النص الكريم قراءتان: إحداهما بالوقف عند لفظ الجلالة، والابتداء بقوله تعالى في استئناف للقول: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. وهذه القراءة يستفاد منها أن معرفة التأويل والعلم به هي لله وحده، وعلى هذا يكون التأويل بمعنى معرفة مآل ما اشتمل عليه القرآن من أخبار اليوم الآخر وغيره من مغيبات عن الحس. والقراءة الثانية بالوصل من غير وقف، بعطف الراسخين في العلم على لفظ الجلالة؛ ومعنى هذا أن العلم بالتأويل عند الله، ويعرفه الراسخون في العلم من غير زيغ مع استقامة المنهاج، ووضوح الغاية، والتأويل هنا بمعنى التفسير وتعرُّف المراد علما.

وإذا كانت قراءات القرآن سنة متبعة وكل قراءة هي بذاتها قرآن متلو مبين، فمجموع القراءتين يشير إلى أن التأويل قسمان؛ أحدهما: علم بالمآل والغاية، وهذا لا يعلمه إلا الله، كما أشارت القراءة الأولى، والقسم الثاني من التأويل علم بالتفسير والمراد من الألفاظ، وهذا يعلمه الله، وقد يعرفه الراسخون في العلم، وهم في الحالين يقولون آمنا، أى صدقنا وأذعنَّا، كل من عند ربنا، فهم مفوضون مؤمنون مذعنون في حال علمهم وجهلهم، مصدقون بأن المحكم والمتشابه من عند الله. فمعنى ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أى كل واحد منهما يجب الإيمان به من غير تشكيك. وهذا هو الفرق بين الزيغ، واستقامة الفكر؛ فالمستقيم الفكر المؤمن يتقدم الإيمان على طلب التأويل، أما الآخر فيطلب التأويل ليلقى بالريب والشك.

وإن هذا المنهاج المستقيم الذى يطالب به الإسلام هو منهاج أهل العقول الراجحة المستقيمة، وهم الثابتون فى تفكيرهم وإيمانهم، الذين لا تعبت بإيمانهم الأهواء؛ لأنه إيمان عميق، وسماهم العلى الحكيم: «الراسخين» فى العلم، من الرسوخ وهو الثبات والتمكن، فالراسخ فى العلم المؤمن الثابت الإيمان المتحقق الذى لا تعرض له شبهة إلا أزالها بنور بصيرته؛ إذ الشبهة كالظلمة يبدها الضوء الساطع. وقد بين سبحانه أن أولئك هم الذين يتذكرون القرآن، ويتدبرون معانيه، ويدركون مراميها، وهم ذوو الألباب حقا وصدقا؛ ولذلك ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله:

﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ أى ما يدرك الحقائق الدينية ويعتبر بها، ويتذكر ما فى القرآن من عبر ومواعظ وهداية إلا أصحاب العقول الراجحة التى لا تخضع للهوى والشهوة. وفى التعبير عن إدراك الحقائق الدينية والمعانى القرآنية وتفويض الأمور إلى الله تعالى فيما يعلم ويجهل بقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ إشارة إلى أن المعانى الدينية فى فطرة كل إنسان، ولكن يطمسها الهوى عند بعض الناس فلا يتذكرون، وتتكشف هذه الفطرة عند الذين لم تسيطر عليهم الأهواء فيستذكرون، والله أعلم بالأنفس.

هذه آية المحكم والمتشابهة تكلمنا فى معانيها التى تفهم من ألفاظها، ولكن بعض العلماء يتكلمون فى موضوع هذه الآيات المتشابهة؛ وقبل أن نخوض فى ذكر بعض ما قالوا نقرر أن الذى يستخلص من مصادر الشريعة ومواردها أن الآيات المتشابهة لا يمكن أن يكون موضوعها حكما تكليفيا من الأحكام التى كلف عامة المسلمين أن يقوموا بها، وإنه لا يمكن أن تكون آية من آيات الأحكام التكليفية قد انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى من غير أن بينها، ولا تشابه فيها بعد أن بينتها السنة النبوية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾ [٤٤] [النحل] ولا شك أن من أول بيان ما نزل إليهم بيان الأحكام التكليفية، ولو تصور أحد أن من آيات القرآن التى تشتمل على أحكام

تكليفية لم يبينه النبي ﷺ لكان معنى ذلك أن الرسول الكريم لم يبلغ رسالة ربه، وهذا مستحيل. لذلك نقول جازمين: إنه ليس فى آيات الأحكام آية متشابهة، وإن اشبه فهمها على بعض العقول لأنه لم يطلع على موضوعه فليس ذلك لأنها متشابهة فى ذاتها، بل لاشتباه عند من لا يعلم، واشتباه من لا يعلم لا يجعل آية فى القرآن متشابهة.

وأكثر العلماء يقولون إن آيات الصفات التى توهم التشبيه هى من المتشابه كقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ﴾ [الفتح] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ...﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۚ﴾ [طه] فقالوا إن السلف يفوضون فيقولون آمنا به كل من عند ربنا، والخلف يؤولون، فيقولون: إن اليد هى القدرة، والاستواء الاستيلاء، والوجه هو الذات؛ وهكذا يعتبرون تلك الآيات من المتشابه. وقد وجد من العلماء من لم يعدوا آيات الصفات من المتشابه إنما المتشابه عند أكثرهم هو ما يكون خاصا بالغيب الذى لا نعلمه، ولم يعلمه لنا، كحقيقة الروح، وما يكون من نعيم اليوم الآخر، والعقاب والثواب فيه؛ من حيث إنه لا يعرف مآله إلا الله تعالى، وما أخبره الله تعالى إن هو إلا تقرب، ففى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهؤلاء الذين نفوا أن آيات الصفات من المتشابه، لهم ثلاثة مناهج:

المنهاج الأول: منهاج ابن حزم؛ فهو يقول إن آيات الصفات لا تشابه فيها، فهى كلها أسماء للذات العلية؛ فاليد كناية عن الذات، والوجه كذلك، والاستواء فعل للذات العلية... وهكذا، وقصر المتشابه على الحروف التى تبدأ بها السور، والأقسام التى يقسم بها الله تعالى.

والثانى: منهاج للغزالي ذكره فى بعض كتبه، وهو «إلجام العوام عن علم الكلام»، وقد ذكر فيه أن بعض هذه الألفاظ التى توهم التشبيه هى استعمال مجازى مشهور، وليس تأويلا؛ فإنه يقال: وضع الأمير يده على المدينة،

فيفهم كل عربى أن معنى ذلك أنه استولى عليها وسيطر، ويكون من هذا القبيل: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ [الفتح]. فعبارة الغزالي فى هذا الكتاب تفيد أن هذه العبارات مجاز عربى مشهور لا يحتاج إلى تأويل، ولكن يجب بعد هذا الفهم الظاهر التفويض وأن نقول: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

المنهاج الثالث: منهاج ابن تيمية، وهو يرى أن هذه الآيات ظاهرة فى معانيها، فهو يقول: إن لله يدا ولكن ليست كأيدينا، ووجهها ولكن ليس كوجوهنا وإن هذه معان حقيقية، ويقول إن ذلك هو مذهب السلف؛ وهو فى هذا تابع لطائفة من الخنابلة ادَّعوا أن ذلك منهاج الإمام أحمد. ولكن رد عليهم ابن الجوزى، وأنكر أن يكون ذلك مذهب أحمد فقال: «رأيت من أصحابنا من تكلم فى الأصول بما لا يصلح، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فأثبتوا له سبحانه صورة ووجهاً رائداً على الذات؛ وقد أخذوا بالظاهر فى الأسماء والصفات، ولا دليل لهم فى ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعانى» ثم يقول: «يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله يقول وهو تحت السياط: كيف أقول ما لم يقل! ثم قلت فى الأحاديث تحمل على ظاهرها، فظاهر اليد الجارحة، ومن قال استوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيات، وينبغى ألا يهمل ما يثبت به الأصل، وهو العقل، فإننا به عرفنا الله تعالى، وحكمنا له بالقدم» ثم يقول «لا تُدخلوا فى مذهب هذا الرجل الصالح ما ليس فيه».

رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ
لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ
النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابٌ أَلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ هذه صراحة يجب على كل مؤمن أن يتضرع بها إلى ربه . وقد قال بعض العلماء إنها من مقول الراسخين في العلم ، فهم يقولون : ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ويقولون أيضاً : ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾ وكأنهم إذ يعلنون الإيمان والإذعان يضرعون إلى الله تعالى أن يحفظه ويقيه بإبعادهم عن الزيف والاضطراب في العقيدة .

وقال بعض المفسرين : إن هذا كلام جديد ، وهو تعليم من الله تعالى للمؤمنين ليدعوا بهذا الدعاء ، والمعنى على الحالين : ربنا أى يا خالقنا والعليم بنفوسنا والقيوم على أمورنا ﴿لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾ : لا تبليتنا بابتلاء واختبار تزيف معه قلوبنا ، وتضطرب معه نفوسنا ، فتكون الإزاعة عن الطريق المستقيم والمنهاج الحق . والزيف يبتدئ دائماً بسيطرة الأهواء على النفوس ، فتضطرب فتتحيد ، فيكتب الزيف فترغ ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ...﴾ [الصف] وروى أم سلمة رضي الله عنها أن أكثر دعاء الرسول ﷺ : «يا مقلب القلوب ثبت

قلبي على دينك». فقالت له: يا رسول الله ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ فقال: «يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه معلق بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»^(١).

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ هذا بقية الدعاء والضراعة التي تجرى على السنة الراسخين في العلم، وهي من تعليم الله سبحانه وتعالى، وهذا الدعاء يتضمن طلب الرحمة، وقد تضمن الأول طلب تثبيت الإيمان، وهو أول أبواب الرحمة، والأصل لكل رحمة؛ فبعد أن علمنا الضراعة بأن لا تميل قلوبنا، وجهنا لطلب الأثر كذلك وهو الرحمة، ورحمة الله تفضل وإنعام على العبد؛ لأنه وما يملك ملك لله تعالى يتصرف فيه كما يتصرف المالك في ملكه، وليس لأحد عند رب العالمين حساب. والرحمة المطلوبة كلمة شاملة جامعة، فتجمع النصر في الدنيا والقرار والاطمئنان فيها، والنعيم في الآخرة. والتعبير بقوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ أى من عندك، وكَلْدُنْ لا تستعمل بمعنى عند إلا إذا كانت العندية في موضع خطير جليل عال. والمعنى على هذا أن الرحمة فيض من فيوض الله ينزل على عباده كما ينزل المطر من مرتفع السماء إلى الأرض. وقد ختمت الآية الكريمة بما يدل على أن هبة الرحمة شأن من شئون العلى القدير، ووصف من أوصافه، فقال سبحانه على السنة الضارعين المستهلين: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ فى هذا تأكيد رحمة الله تعالى بعدة مؤكدات، منها «إِنَّ» التي للتوكيد، ومنها تأكيد الضمير بقوله «أنت» ومنها القصر، أى لا يهب أحد سواك، وذلك بتعريف الطرفين؛ ومنها التعبير بصيغة المبالغة، وهى: الوهاب؛ وإنه سبحانه قد انفرد بالرحمة وهبة الرحمة لمن يشاء، وإن رحمته وسعت كل شيء.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ هذه هى الضراعة الثانية التى اقترنت بآية المحكم والمتشابه فى القرآن، والكلام فيها كالكلام

(١) رواه الترمذي: الدعوات (٣٤٤٤) عن شهر بن حوشب رضى الله عنه، وأحمد: مسند الانصار (٢٥٤٥٧).

فى الآفة السابقة؁ من حيث كون هذا الدعاء من مقول الراسخين فى العلم؁ أو تعليم من الله للراسخين فى العلم من المؤمنين؁ وكلاهما ينتهى إلى أن هذه الضراعة إن صدرت عن القلب تكون مانعة له من الزيغ؛ فإن الإيمان باليوم الآخر لبُ الإيمان؁ وهو يربى الإذعان؁ وفيه كل معانى التفويض؁ وبه يستعين المؤمن على محاربة داعى الهوى والشهوة. وقوله تعالى على لسان المؤمن الراسخ فى العلم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ تنبيه إلى أنه فى هذا اليوم يتبين الحق؁ ويواجه المحق والمبطل؁ ويعلن الذين يزيغون والذين يذعنون؁ ويتبين زيغ الزائغ وجزاؤه؁ وثمرات الإيمان وجزاؤه. وفى هذا تنبيه أيضا إلى أن اليوم الآخر لا ينبغى أن يكون محلَّ ريب؛ لأن الذى أخبر به هو الذى خلق الخلق؁ فهو الذى بدأهم؁ وهو الذى يعيدهم؛ ولأنه سبحانه ما خلق الخلق عبثا؁ وما ترك الأمر للباطل والمبطلين يرتعون فى الأرض ويفسدون؁ بل جعل للحق سلطانا؁ وجعل له العلو؁ فإن لم يكن فى الحال؁ فإنه سيكون لا محالة فى المآل؁ والله على كل شىء قدير.

والأساس فى العلم باليوم الآخر هو إخبار الله تعالى الذى لا يحتمل إخلافا؛ ولذلك قال سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ أى إن اليوم الآخر الذى لا ينبغى لمؤمن أن يرتاب فيه هو وعد الله الذى وعد به المتقين؁ ونذيره الذى أُنذر به الجاحدين الضالين؁ والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد. وفى هذه الجملة السامية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ إشارة إلى الجزاء الأخروى وما فيه من جزاء بعد الحساب؁ فهى تتضمن تبشيرا للمؤمنين؁ وإنذارا للعاصين الكافرين. جعلنا الله من المستقين المهتدين؁ الذين لا يزيغون فى فهم دينه؁ وتفهم قرآنه؛ والمذعنين للحق الطالبيين له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كان السبب فى كفر من كفر؁ وريع من يزيغ؁ هو اغترارهم فى هذه الحياة الدنيا بكثرة المال؁ وعزة النفر؁ وقوة العصبية؁ مما جعلهم ييغون على الناس؁ وييغون على أنفسهم؁

فتطمس مسالك النور إلى قلوبهم؛ وإنه لا شيء يُدَلَّى بالنفس فتعمى عن الإدراك أكثر من الغرور؛ ولذلك ذكر سبحانه وتعالى أن هذه الأموال وأولئك الأولاد وإن كانوا العصبية أولى القوة لن تغني عنهم شيئاً. وقد أكد القول سبحانه في موضعين في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبهذا يؤكد سبحانه وقوع الكفر منهم، ويؤكد النفي سبحانه في قوله: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ إذ نفى بـ: «لن»؛ فالخبران مؤكدان: الإثبات والنفي؛ فكفرهم وعدم نفع أعراض الدنيا مؤكدان، وكأن مجرى القول هكذا: غرتهم أمانى الدنيا بالأموال والأولاد فكفروا كفراً مؤكداً مع أنه من المؤكد أنها لن تنفعهم بأى نفع، ولن يكون فيها ما يغنى عن رحمة الله التي حرموها بسبب كفرهم المؤكد.

وهنا بعض إشارات بيانية منها قوله: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ فقد قال بعض المفسرين: إن معناها لن تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً. فتغنى معناها تدفع، والدفع المنفى هو منع العذاب، ولكن كلمة تغنى لا تدل على معنى الدفع إلا على سبيل المجاز، الذى يرشح له ويقويه قوله تعالى: ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ و«من» هنا بمعنى البدلية، والمعنى يكون على هذا: لا تكون الأموال والأولاد مغنية أى غناء ونافعة أى نفع بدل رحمة الله تعالى وقدرته وإرادته ونفعه لعباده؛ فالغاية أن الأولاد والأموال لا تجلب رحمة بدل رحمة الله تعالى ونفعه لعباده شيئاً من الغناء أو النفع.

ثم قوله فى نفي نفع الأولاد بعد نفي نفع الأموال ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ إشارة إلى أن قوة النفع بمقتضى الفطرة والعادات الجارية فى الأولاد أكثر؛ ولذا أكد النفي فيه بعد تأكيده أولاً بتكرار «لا» كأن نفي نفع الأموال أسهل قبولا من نفي نفع الأولاد، ولذا زاده توكيدا بعد توكيد؛ وإن أولئك الكافرين إذا كانوا قد حرموا نفع الأولاد والأموال، ولم يستبدلوا برحمة الله شيئاً، فلهم مع ذلك عذاب شديد؛ ولذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ الإشارة في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى أولئك الكافرين الذين غرهم غرور الأموال والأولاد فضلوا لفرط اعتزازهم بسلطان المال والعصبية، وفي الإشارة إليهم وهم موصوفون بالكفر المؤكد الذي لا سبيل إلى الشك فيه ولا الريب بيان أن السبب في العقاب الذي ينزله الله بهم هو هذا الكفر الذي دفع إليه الغرور والاعتزاز بغير الله وبغير الحق. والجملة السامية ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ دالة على عقابهم الشديد يوم القيامة. وقد أكد الخبر بثلاثة مؤكدات:

أولها: الإشارة إلى البعيد بـ ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الدالة على غلوهم في الكفر، وإيغالهم فيه، وكلما قوى السبب قوى المسبب، وكلما اشتدت الجريمة اشتد العقاب، فهي مثلة للجزاء.

وثانيها: ذكر ضمير الفصل «هم»، فهو يؤكد؛ إذ فيه تكرار لذكر الموضوع الذي يرد عليه الحكم، وكل تكرار فيه تأكيد فوق ما يدل عليه من الاختصاص.

وثالثها: التعبير عن العقوبة النارية التي تنزل بهم، بأنهم يكونون وقود النار؛ فإن الوقود هو الحطب الذي تحرق به النار، وأصله من وقدت النار تقد إذا اشتعلت، والمصدر الوقود، وبالفتح ما يكون به الانتقاد والاشتعال. والمعنى على هذا أن الكافرين يكونون وقود النار؛ أي أن النار يشتد اشتعالها فيهم حتى كأنهم هم مادتها التي بها تتقد وتشتعل. وقرئ ﴿وَقُودٌ﴾^(١)، وهذا يكون فيه مبالغة في شدة احتراقهم، أي أنهم يحترقون بالنار ويسجرون فيها حتى كأنهم الاشتعال لا مادة الاشتعال، ولا من يكوى بهذا الاشتعال.

وإن هذا العقاب هو الذي ينتظر الكفار جميعاً، وإن حال منكرو الإسلام في الإنكار والجحود والغرور بالمال والولد، والعزة بالنصر والعصبية، كحال من سبقوهم، ولذا ينزل بهم ما نزل بأولئك؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى آياته:

(١) قرأ بها مجاهد والحسن وجماعة (المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥، البحر المحيط ٢/ ٤٥، الدر المنثور ٢/ ٢١).

﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الدَّابُّ: العادة والشأن، وأصله من دأب الرجل في عمل يدأب دأبا ودعوى إذا جد فيه واجتهد، ثم أطلق الدَّابُّ على العادة والشأن؛ لأن من يدأب في عمل ويستمر عليه أمدا طويلا يصير شأنًا له، وحالا من أحواله، وعادة من عاداته؛ فهو من باب إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب. وآل فرعون، وهم نصرأؤه وأهل حوزته ومعاضدوه، قد استمروا الطغيان وألفوه حتى صار الكفر دأبا وعادة وشأنًا من شئونهم.

وقد شبه الله سبحانه وتعالى حال الكافرين الذين كفروا بمحمد ﷺ وما جاء به، بحال آل فرعون والذين سبقوا فرعون من الطغاة العتاة القساء المغرورين، وقد كان وجه الشبه في أمرين:

أولهما: أن الغرور هو الذي دفع إلى الجحود واللجاجة فيه والإصرار عليه، حتى إنهم ليردون الدليل تلو الدليل، وما تزيدهم الآيات إلا كفورا، وما تزيدهم الموعظة إلا عُتُوا في الأرض وفسادا.

وثانيهما: في الجزاء.

وهنا يرد سؤالان أولهما: لِمَ ذكر آل فرعون، ولم يذكر فرعون؟، والثاني: لماذا نص على قوم فرعون من بين الذين سبقوهم بالكفر والجحود ومعاندة النبيين؟

والجواب عن السؤال الأول: أن ذكر آل فرعون يتضمن ذكر فرعون؛ لأنه إذا كان العناد في التابع فهو في المتبوع أشد؛ وفوق ذلك فإن آل فرعون وحاشيته ونصراء هم السبب في طغيانه، وهم الذين سهلوا له سبيل الطغيان وضنوا بالموعظة في إبانها، وهم الذين حرصوه على الاستمرار في الشر والإيغال فيه، فهم اتبعوه أولا، ثم حرصوه على الطغيان ثانيا بمبالغتهم في مرضاته، واستحسان ما يفعل.

وأما الجواب عن السؤال الثاني، وهو اختصاص فرعون وآله بالذكر، فلأن فرعون كان أقوى الطغاة وأشدهم، وكان أكثرهم مالا، وأعزهم نفرا،

وأكثرهم غرورا؛ أليس هو القائل: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي...﴾ [الزخرف ٥١] أليس هو الذى ذهب به فرط غروره إلى أن يقول فى حماقة ظاهرة: ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [٣٦] أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى...﴾ [٣٧] [غافر] ولقد كان مستكبرا يصم أذانه عن سماع الحق حتى لقد قال سبحانه فيه: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ [٣٩] [القصص].

ولقد بين سبحانه وتعالى نتيجة الغرور فى آل فرعون والذين من قبلهم، وهو التكذيب بآيات الله، وقد ترتب على التكذيب نزول العقاب الشديد؛ سنة الله فى الذين كفروا ولجوا ولم يثوبوا إلى رشدهم، وينيبوا إلى ربهم، فقال سبحانه:

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا هو الدأب والعادة، وهو الغرور المردى، وهذه نتائجه التى تجمع بين المغرورين دائما، وهو التكذيب بآيات الله تعالى. وفى هذه الجملة السامية يقرر الله سبحانه ثلاث حقائق ثابتة؛ اثنتان منها تتعلقان بالكافرين المغرورين، وهما: التكذيب بآيات الله تعالى، والعقاب الذى يأخذهم سبحانه وتعالى به؛ والثالثة بيان شأن من شتو الله تعالى جلّت قدرته، وهو أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب، كما أنه سبحانه غفور رحيم، وأنه المنتقم الجبار، كما أنه اللطيف الخبير.

فأما الحقيقة الأولى فقد قال سبحانه فيها ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ والأدلة التى تثبت رسالات الرسل، وثبت وحدانية الله تعالى. وأضاف سبحانه الآيات إليه جلّت قدرته، للإشارة إلى عظم دلالتها وقوة إثباتها، وأنها آيات الخالق لتعريف خلقه، وأدلة الواحد الأحد لإثبات وحدانيته، ومع ذلك لجوا واستمروا فى غيهم يعمهون.

والحقيقة الثانية: قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يعاقبهم على هذه الذنوب بما يساويها، وبما يقابلها، وعبر عن العقاب بهذا التعبير؛ لأنه يفيد أموراً ثلاثة:

أولها: أن الأخذ يفيد الوقوع التام في سلطان الله تعالى، فهو سبحانه أخذهم كما يؤخذ الأسير، لا يستطيع من أمره فكاكا.

ثانيها: أن التعبير بالباء يفيد أمرين: المصاحبة والمقابلة؛ فهم قد أخذوا مصاحبين ومتلبسين بذنوبهم لم يقلعوا، ولم يتوبوا، بل استمروا على حالهم ملابسين لها ومقترنة بهم، كما تدل على أن العقاب مقابل للذنوب، فهو بدل بديل، وكما أنهم قدموا الذنب، فليتسلموا العقاب.

وثالثها: أن هذا التعبير فيه إشارة إلى عدل الله سبحانه وتعالى الكامل؛ فالذنب هو الذى ولد العقاب، وهو يماثله تمام المماثلة، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

والحقيقة الثالثة: قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وفى ذكر هذا الوصف للذات العلية إشارة إلى شدة العقاب لشدة الجريمة، وإشارة إلى أن العدالة الإلهية تقتضى شدة العقاب؛ لأنه لا يستوى الذين يحسنون والذين يسيئون، ولا يستوى الأخيار والأشرار؛ فإن المساواة هى الظلم فى هذه الحال. ثم فى هذا الوصف للذات العلية تعليم للناس بأن كل فعل يجب أن يكون له جزاؤه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة]. وهذا النص الكريم فوق ذلك يربى المهابة فى النفس، ويجعل كل مؤمن يغلب الخوف على الرجاء، فإن الخوف يجعل العابد يستشعر الطاعة دائما ولا يدل بالعبادة، وتغليب الرجاء يمكن للنفس الأمانة بالسوء أن تسيطر، ويجعل العابد يدل بعبادته.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَٰكِنْ سَعَتُهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ اغتر المشركون بأموالهم وأولادهم وقوتهم فى الأرض، فكفروا وعتوا عتوا كبيرا؛ فبين الله سبحانه وتعالى أنهم سيغلبون فى هذه الدنيا، وأنهم فى الآخرة سيحشرون إلى جهنم؛ ولذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يقول فيهم هذه الحقيقة فقال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ﴾.

فهذه الآية الكريمة إنذار للمشركين بأن الهزيمة ستلحقهم في الدنيا، وأن العذاب سيستقبلهم في الآخرة. وقد أمر الله سبحانه نبيه بأن يواجههم بهذا الخطاب، ولم يوجهه سبحانه وتعالى إليهم؛ لأن أولئك المغترين المفتخرين كانوا يدلّون بقوتهم على النبي ﷺ، ويعتزون بها في مخاطبته ﷺ، فكانوا يقولون له: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٥) [سبا]. وكانوا يأخذون من عزتهم في الدنيا دليلاً على عزتهم في الآخرة، فكان حالهم كحال هذا العامل الذي حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ [الكهف] وهكذا الطبيعة الإنسانية إن استغنت طغت في حاضرها، وغرما الغرور في قابلها: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ﴾ (٦) أَنْ رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ [العلق].

وإذا كانوا يجابهون النبي ﷺ بذلك فإنه يكون من المناسب أن يتولى هو الرد، وهو الذي جُرِدَ من المال والولد، ولا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالى.

وإن ذلك الاغترار كان من المشركين واليهود الذين كانوا يجاورون النبي ﷺ بالمدينة، وقد جابهوا النبي ﷺ بذلك عندما دعاهم إلى الإسلام بعد واقعة بدر التي انتصر فيها المسلمون؛ فإنه يروى أن النبي ﷺ جمعهم في سوق بنى قينقاع، وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل». فقالوا: لا يغرنك أنك لقيت أقواما أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا^(١).

وإذا كان الاغترار من الفريقين فإنه يصح أن نقول إن الخطاب للكفار جميعا الذين يغترون مثل هذا الغرور، وخصوصا أن النبي ﷺ أمر بأن يخاطب بهذا الذين كفروا، سواء أكانوا من هؤلاء أم كانوا من أولئك، وإن الكفر بالحقائق

(١) رواه أبو داود: الحراج والإمارة والقيء - كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٢٦٠٧).

الواضحة البينة التي تدركها العقول السليمة يكون سببه دائما اغترارا بأمر مادي مسيطر على النفس يجعل عليها غشاوة فلا يدرك العقل، ولا يؤمن القلب.

وهنا يرد بحث لغوى وهو: لماذا أدخل السين فى قوله تعالى: ﴿سَتَغْلِبُونَ﴾ ولم يقل تعالت كلماته: ستحشرون؟

والجواب عن ذلك: أن السين لتأكيد القول، والذي كان موضع شك عند هؤلاء هو كون النبى ﷺ سيهزمهم فى الدنيا، والحشر قد أكده سبحانه وتعالى فى كثير من آى الكتاب. وفوق ذلك فإن السين مقدرة فى تحشرون باعتبارها معطوفة على «سَتَغْلِبُونَ» والعطف على نية تكرار العامل.

ولقد أشار سبحانه إلى أن الحشر سيكون جميعا للكفار يساقون بعده إلى نار جهنم، وجهنم هى الجزء العميق فى النار؛ ولأنه بعد الحشر يكون السَّوق إلى نار جهنم وتعدت كلمة يحشرون بـ «إلى»؛ إذ قد تضمنت مع معنى التجمع معنى السَّوق والأخذ إلى نار جهنم. ثم أشار سبحانه إلى شدة العذاب بقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى أنها ليست مُقاما محمودا بالنسبة لهم، بل هى مقام مذموم منهم يصح أن يقال فيه بالنسبة لهم «بئس المهاد» فجهنم ليست موضع ذم فى ذاتها باعتبارها دار جزاء عادل، ولا يذم الجزاء العادل ولو كان قاسيا، ولكن هى موضع الدم من ينزل به لأنه سيتلقى قسوته. ومعنى المهَاد: الفراش المبسوط السهل اللين المريح، فيقال: مهد الرجل الأمر بسطه وهياه وأعدده، وعلى هذا فالتعبير فيه نوع من التهكم بهم، إذ هى لا تكون أمرا ممهدا.

قَدْ كَانَ

لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ
يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
الْأَبْصَارِ

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ هذه الآية نزلت بعد غزوة بدر، فالفتتان المشار إليهما في الآية: المسلمون، والمشركون. والمسلمون الفئة التي تقاتل في سبيل الله، أى فى سبيل إعلاء كلمته وطلبها لمرضاته، والأخرى الكافرة: المشركون. والمعنى على هذا أن الله سبحانه إذ ينذر الكافرين بأنهم سيغلبون فى الدنيا، ينذرهم بما قامت عليه البينات، وظهرت به الأمارات؛ وذلك لأن لهم آية أى أماراة ودلالة تدل على صدق ما يوجهه النبى ﷺ من أنهم سيغلبون، وتلك الآية الدالة على صدق ذلك التهديد والإنذار الشديد هى فى حال الطائفتين اللتين التقتا فى حرب قوية، إذ انتصرت الفئة التى تقاتل فى سبيل الله وهى القلة، على الفئة الكافرة وهى الكثرة، ومع أن أولئك الذين يقاتلون فى سبيل الله كانوا يعلمون أن أولئك أكثر عدداً، وأكثر عدّة.

ونريد أن نبحث هنا فى بعض الألفاظ التى لها إشارات بيانية:

فقوله تعالى عن الفئة الكافرة: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ فيه إشارة إلى بُعد ما بين الفريقين من حيث الغاية من القتال؛ ففيه إشارة إلى تقدم الأولى معنويًا، وتأخر الثانية؛ فالأولى تقاتل لا لعرض من أعراض الدنيا، ولا لغاية مادية مبتغاة، بل للحق، وفى سبيل الحق، ومرضاة للحق جل جلاله؛ والأخرى تكفر بكل هذه المعنويات فتقاتل فى الباطل وللباطل ولنصرة المادة، ولأعراض الدنيا؛ وفرق ما بين الفئتين عظيم؛ فإن كانت الأولى فقيرة فى المال قليلة فى العدد، فهى قوية بالمقصد والغاية، والثانية على نقيض ذلك تماماً، فهى كثيرة المال وكثيرة العدد، ولكنها فقيرة فى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ فيه بيان أن المؤمنين يرون المشركين ﴿مِثْلَهُمْ﴾ أى أكثر منهم مرتين، فالمثل معناه المساوى، والمثلان لأمير ضِعْفُهُ، والمعنى على هذا أن المؤمنين الذين أعطاهم الله ذخيرة من الإيمان واليقين وطلب الحق يرون أعداءهم رأى العين لا بالوهم والخيال ضعفهم، ومع ذلك لم

يجنبوا ولم يضعفوا. فالتعبير بقوله: ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ تأكيد الرؤية بأنها رؤية بصرية، لا رؤية تقديرية؛ فهم يعاينون معاينة لا لبس فيها ولا غموض أنهم ضعفهم. فالذين يعتزون بالكثرة عليهم أن يعرفوا أى الفريقين غلب، والذين يعتزون بالمادة عليهم أن يعرفوا لمن كانت النصره: أهى للمادة أم للروح والإيمان؟ فالذين رأوا خصومهم مثلهم هم المؤمنون. وهذا ترجيح ابن جرير الطبرى. وقد رجح الزمخشري أن الذين رأوا: هم المشركون، قد رأوا المؤمنين مثلهم. وإن الأول فى نظرنا أولى؛ لأن المسلمين فى غزوة بدر كانوا فعلا أقل عددا من المشركين، وأقل عدة، ولأن التعبير بقوله تعالى ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ يفيد أن رؤية هذه الكثرة كانت بصرية بالمعاينة، لا بالتقدير أو التخيل أو التوهم، ولا يمكن أن يتحقق ذلك فى رؤية المشركين للمؤمنين؛ لأنه كان يكذب، ولذلك نختر أن الرؤية كانت رؤية المؤمنين للمشركين، ولكن قد ورد اعتراضان:

أحدهما: أن المشركين فى بدر كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين تقريبا ولم يكونوا ضعفهم.

ثانيهما: أن الله سبحانه قد قال فى غزوة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا...﴾ [الأنفال].

وإن رد الاعتراض الأول سهل؛ فإن العين لا تقدر تقديرا عدديا، ولكنها تقدر تقديرا تقريبا؛ فثلاثة الأمثال قد تُرى رأى العين مثلين. وقد يقال إن المراد بكلمة مثلين ليس التثنية إنما المراد مجرد التكرار وذلك استعمال عربى، كما فى قوله: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ...﴾ [الملك]، فالمراد تكرار النظر، لا التقدير بمرتين اثنتين؛ كذلك هنا المراد التكرار العددي لا مجرد مثلين اثنين، وإن ذلك شائع، فيقال مثلا: اقرأ هذا مرتين ولا تكشف بالنظرة الأولى، والمراد التكرار.

أما الاعتراض الثانى، فقد أجاب عنه ابن كثير فى تفسيره المستمد من الأثر، بأنهم عندما أرادوا حسابهم رأوهم ضعفهم أو يزيدون، فلما ألقى فى قلوب الذين

آمنوا بالبأس والقوة، والتقوا بهم استهانوا بهم؛ ولذا روى عن ابن مسعود أنه قال في غزوة بدر: «نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً» وتلك حكمة الله العلى الخبير؛ رأوهم يزيدون عليهم أضعافاً، وذلك هو الحس الواقع، ولكن عند اللقاء صغروا فى أعينهم ليكون النصر؛ لأن المقاتل إن استكثر قوة خصمه عند اللقاء ضعف أمامه فيكون الانهزام، وإن استهان مع الحرص كان النصر؛ ولذا سئل على رضى الله عنه: كيف كنت تصرع من يبارزك؟ فقال: «كنت أكون وهو على نفسه» أى أن علياً يقدم مستعلياً بإيمانه على خصمه، وخصمه يحس بالخوف فتكون عليه قوتان ينتفع بهما على: قوة من نفسه، وقوة من نفس خصمه ولّدها الخوف.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

اشتمل ذلك النص الكريم على حقيقة مقررة، ودعوة إلى التأمل والاستبصار لأولى الأبصار، ليمتنع الناس عن الاغترار بالقوة والاعتزاز بغير الله تعالى. أما الحقيقة فهي أن الله ينصر من يشاء، فهو الذى سينصر ويخذل، وأن من يعتمد على قوته وحده من غير اعتبار بما تجرى به المقادير يخذله الله، وإن شأن الذين يغترون بالقوة المادية دائماً ويعتزون بها لا يعتمدون على الله تعالى، ولا يعملون حساباً للقدر الذى يجريه خالق الكون حسب مشيئته وتدبيره، وأنهم إذ ينسون هذا يأتيهم القدر من حيث لا يحتسبون، فينهزمون حيث يرتقبون النصر؛ وإذا كان النصر والخذلان بيد الله تعالى، فالله سبحانه ينصر من ينصره، ويخذل من يكفره، كمال قال تعالى: ﴿إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَصْرُكُمُ وَيُنَبِّئُ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد] وكما قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

وأما الدعوة إلى الاعتبار فقد ذكرها رب البرية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى إن ذلك الذى رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة التى تقاتل فى سبيل الله، غلبت الفئة الكثيرة الكافرة التى تقاتل فى سبيل الشيطان

مع كثرتها وعدتها وأموالها فيه اعتبار بأن يجعلوا منه سبيلا لإدراك المستقبل؛ فإن العبرة معناها فى اللغة وفى عرف القرآن والناس أن يؤخذ من الأمور الواقعة المحسوسة دليل على ما يمكن أن يأتى المستقبل غير المحسوس والمكشوف، فكان على هؤلاء أن يعرفوا من هذه الواقعة التى انتصر فيها الإيمان مع قلة أهله على الكفر مع كثرتهم، أن القوة المادية ليست كل شىء؛ وإن الذى يدرك ذلك هم أولو الأبصار، أى أصحاب المدارك الصحيحة التى تفهم الأمور على وجهها، فالمراد من الأبصار ليس البصر الحسى بل البصر المعنوى العقلى ولكن الذين طمست عليهم المادة لا يدركون الأمور على وجهها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وإنه لكى تخرج النفس من ربة المادة تذكر الله دائما، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]. اللهم ثبت قلوبنا على دينك والإيمان بنصرك وعدلك يارب العالمين.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴿١٤﴾ ❖ قُلْ
أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا أَمْثَلًا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّكِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ
وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

فى الآيات السابقة بين سبحانه اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وكثرتهم، وكثرة النفر الذين يعاضدونهم، وأشار إلى اغترار آل فرعون بسلطانهم، وعاقبة أمرهم؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه مصدر الغرور وأسباب الاغترار فى هذه الدنيا، وما ركز فى قلوب الناس من حب الشهوات التى يؤدى الاشتداد فى طلبها إلى الانحراف فى التفكير وإلى أن يطمس على البصيرة فلا تدرك الأمور على وجهها؛ ثم بين سبحانه منزلة ما فى هذه الدنيا من متع فانية بجوار ما فى الآخرة من نعيم دائم. وإذا كان قد بين سبحانه وتعالى أولا مآل المغترين المعترين بأعراض الدنيا، فقد بين فى هذه الآيات مآل المتقين وأوصافهم، ومقدار فهمهم لזخارف هذه الحياة وما فيها من شهوات مردية عند الانحراف فى طلبها. ولقد ابتدأ سبحانه بما ركز فى فطرة كل إنسان من حب وطلب لهذه الشهوات فى مواضعها، فقال سبحانه:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ هذه زينة الحياة الدنيا، وهذه متعتها، وهى مصدر الخير، ومصدر الشر فيها، وبها تكون الرفعة، وبها يكون السقوط، وبها تكون العزة، وبها تكون الذلة؛ والإرادة الإنسانية هى التى تجعلها فى أحد الطريقتين، فإن كانت الإرادة قوية حازمة جعلت من هذه الأمور مصدر خير وطريقا إلى الجنة، وإن تحكم الهوى وغلب الشيطان، وضعف الوجدان الدينى، كانت هذه الأمور مصدر شر وطريقا إلى النار؛ فهى طريق الجنة عند الأبرار، وطريق النار عند الأشرار، وكل امرئ وما تهوى نفسه.

وإن هذه الأمور محبة لنفس الإنسان، مجبول بفطرته على الميل إليها، والاستشراق لها وطلبها، فهي طَلِبَةُ النفس الإنسانية؛ إذ هي من طبيعتها، وهي تتقاضاها طبيعة الإنسانية، ومن يحاول أن ينزع الميل إلى هذه الأشياء الستة من نفسه، فإنما يحاول اقتلاع الخاصة الإنسانية من كونه، فالطبيعة الإنسانية قد ركز فيها حب هذه الأمور، ولا تخرج هذه الأمور من النفس الإنسانية إلا إذا بعد الإنسان عن طبعه.

ولأن هذه الأمور في الفطرة الإنسانية عبر سبحانه وتعالى بالبناء للمجهول، فقال سبحانه:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فأبهم سبحانه مَنْ زَيْنَ حب هذه الأمور للإشارة إلى أنها في الفطرة الإنسانية، نشأت في الإنسان منذ خلقه سبحانه وأنزله إلى هذه الدنيا، فهو قد كونه سبحانه ومعه تلك الطبيعة الإنسانية، وإنه ينتهي الأمر إلى أن الذي زين هذا الحب هو الله سبحانه وتعالى، وقد يؤكد ذلك قراءة مجاهد (زَيْنَ لِلنَّاسِ) ^(١) بالبناء للفاعل، ويكون الفاعل ضميراً يعود على الله سبحانه وتعالى. ومعنى ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾: أودعت فطرتهم حب هذه الشهوات، وأنهم لا يرون فيها نقصاً ولا مخالفة للكمال والشهوات المراد بها موضع الشهوات، فهي من باب ذكر المصدر وإرادة اسم المفعول؛ فهذه الأمور الستة هي المشتبهات، وليست هي الشهوات، ولكن أطلق عليها اسم الشهوات للإشارة إلى شدة محبتها والحرص عليها. ولقد قال الزمخشري في ذلك: «جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشهاة محروصاً على الاستمتاع بها» فالمراد أنهم يحبون هذه الأشياء، ويرون محبتها أمراً حسناً، ولا غضاظة فيه.

ويرى الزمخشري أن قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فيه إشارة إلى خساسة هذه الأمور، ويقول في ذلك: «والوجه أنه يقصد تخسيسها فيسميها شهوات؛ لأن الشهوة مسترذلة مذموم من اتبعها شاهد على نفسه

(١) وبها قرأ الضحاك، ينظر: المحرر الوجيز ٤٠٨/١، البحر المحيط ٤١٣/٢، الدر المنون ٣١/٢.

بالبهيمية، وقال: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ثم جاء بالتفسير ليقرر في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس فيكون أقوى لتخسيسها، وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجع طلبها على طلب ما عند الله.

ولسنا نرى رأى الزمخشري في أن هذه خسيصة في ذاتها، أو يقصد إلى تخسيسها في ذاتها، وإنما نرى أنها فطرة الله يبينها الله سبحانه وتعالى، ويشير إلى أنها مطلوبة من كل إنسان، وأن المقتصد يَجْمَلُ في الطلب ويجعله للخير، وغير المقتصد يسرف فيفحش، فيكون الشر. وزينة الله التي خلقها ليست حراما، وهى من قبيل هذه المشتبهات، فيقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ (٣١) [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ...﴾ (٢٢) [البقرة]، وقال ﷺ في الخيل: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١). وقال في الحرث وهو الزرع: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له به صدقة»^(٢). وقال ﷺ: «حب إلى من دنياكم: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»^(٣). وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته»^(٤). وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١) [الروم].

(١) متفق عليه رواه البخاري: الجهاد والسير - الخيل معقود في نواصيها الخير (٢٦٣٨)، ومسلم: الإمارة (٣٤٨٠).

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في مسند المكثرين (١٣٠٦٥)، والحديث متفق عليه فقد رواه البخاري: المزارعة - فضل الغرس (٢١٥٢)، ومسلم: المساقاة (٢٩٠٤).

(٣) رواه النسائي: عشرة النساء - حب النساء (٣٨٧٨)، أحمد: مسند المكثرين (١٨٤٥).

(٤) رواه أبو داود: الزكاة - حقوق المال (١٤١٧).

وبهذا يتبين أن هذه الأعيان ليست خسيصة في ذاتها، ولا يقصد تخسيسها، وإن كانت هي دون نعيم الآخرة ومتعها.

وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ فيه إشارة إلى أن الناس يحبون هذه الشهوات ويستحسنون هذه المحبة؛ وذلك لأن الإنسان قد يحب شيئا ولكنه في محبته له غير راض عن نفسه، كأولئك الذين يميلون إلى بعض الآفات الاجتماعية، كالخمر، والميسر؛ فإنهم مع ميلهم إليها يستتكرون حالهم، ولا يحمدون ما يفعلون، إلا إذا كانوا قد طمس الله على بصيرتهم، فعموا وضلوا، وزين لهم سوء أعمالهم فأروه حسنا، ولكن الناس جميعا مع محبتهم لهذه الأمور يستحسنون هذه المحبة، ويرضون عن أنفسهم في ميلهم إليها؛ وإن ذلك الاستحسان من عامة الناس يدل على أن محبة هذه الأمور من فطرة الإنسان ومن طبيعته؛ وإن هذا الميل لا يدل على خسة في الطبع، ولكنه يدل على أنها في الفطرة.

وإن محبة هذه الأشياء، وهي رمز للطبيعة الإنسانية ليست بدرجة واحدة، بل تختلف بمقدار قوة نزوع النفس إليها، وتختلف بمقدار ما تشبع به الحاجات والغرائز الإنسانية.

وقد يقول قائل: وكيف يكون حب الذهب والفضة فطريا، مع أنه ليس من الفطرة؟ والجواب عن ذلك: أن الذهب والفضة يشبعان الحاجات الإنسانية، فهما من الوسائل للوصول إلى النساء وغيرهن، وهما في خدمة تلك الفطرة، وأحبهما الناس لأنهما يوصلان دائما إليها، ثم صار حبهما لذاتهما، وأشبه أن يكون من الفطرة.

ولنذكر هذه الأمور الستة، وهي مرتبة مراتب بترتيب القرآن الكريم: المرتبة الأولى: النساء، وحبهن فطرى في الطبيعة الإنسانية مستكن فيها، لا يختلف فيه الناس إلا من إيفت^(١) مشاعره وفسدت طباعه، وهن زهرة هذا

(١) أي أصابتها الآفة.

الوجود الإنساني، ولقد سماهم القرآن كذلك فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (١١٣) ﴿طه﴾.

وقال تعالى في العلاقة بين الرجل والمرأة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ...﴾ (١٨٧) ﴿البقرة﴾. وإن الرجل في حب النساء قد يستهين بكل شيء. ولقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم: «ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء»^(١). وقد يقول قائل إن المرأة من المكلفين ومن الناس فلماذا ذكر حب الرجال للنساء، ولم يذكر حب النساء للرجال، وكلاهما فطري في الطبع الإنساني؟ وقد أجاب عن ذلك بعض المفسرين بأن طلب الرجل للمرأة أشد وأقوى وأحد، وكثير من الرجال من يفتنون بالنساء، وقليل من النساء من تظهر فتنتهن بالرجال، والحس يؤيد طلب الرجل للمرأة، فهو يبذل النفس والنفيس في طلبها، ولا يعرف من النساء إلا قليلا من يبذل ذلك.

والرأى عندي أن ذكر حب الرجال للنساء فيه إشارة إلى علاقة المحبة المتبادلة بين الفريقين؛ فهي إشارة إلى تلك العلاقة الفطرية من الجانبين، فذكر محبة الرجل للمرأة فيه تنبيه إلى محبة المرأة للرجل؛ وما يستفاد بالإشارة يستغنى فيه عن العبارة، واكتفى بذكر حب الرجل لأن حبه الأوضح، ولأنه الأشد، ولأنه الذي يؤدي في جملة أحواله إلى الفتنة، ولأن المرأة مجيبة في هذا الباب لا طالبة، وإن سبقت هي بالمحبة حاولت أن تخلق الطلب في نفس من تحب.

وحب النساء ليس شرا؛ لأن الله جعل المرأة رحمة للرجل، إنما يكون الشر في الإسراف في الطلب حتى يكون النساء خلب كبده، وفي طلب الحرام، وفي طلب الجمال من غير ملاحظة الدين؛ فلقد قال ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن»^(٢).

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: النكاح - ما يتقى من شؤم المرأة (٤٧٠٦)، ومسلم: الذكر والدعاء (٣٩٢٣) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه. وراجع الإكمال من الجامع الصغير، والكامل لابن عدي.

وقال ﷺ: «تنكح المرأة لمالها وحسبها وجمالها ودينها، عليك بذات الدين تربت يداك»^(١).

ولقد قال ﷺ: «من أراد أن يلقي الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر»^(٢).

المرتبة الثانية: حب البنين، وقد ذكر حب البنين بعد حب النساء؛ لأن البنين ثمرة الحب الأول؛ وفيه إشارة إلى التوجيه الإسلامي، وهو أن يكون حب النساء ذريعة إلى الإنجاب والنسل لا لذاته، كما قال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»^(٣). وهل المراد من البنين الذكور فقط؟ الظاهر ذلك، ويزكي هذا قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [الكهف] وما هو واقع بين الناس في الماضي والحاضر من أنهم يطلبون الذكر دون الأنثى، وأنهم يرون في كثرة البنين نصرة وفخارا، وفي البنت غير ذلك؛ ولكن لو أننا قلنا إن المراد الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا لكان في النص القرآني متسع؛ لأن الابن يطلق ويراد الذكر والأنثى على سبيل المجاز، وإن محبة الولد بعد ولادته أمر فطري لا فرق بين ذكر وأنثى، وإن كان الكثيرون يرغبون في الذكور دون الإناث فإن ذلك لا ينفي المحبة الفطرية لأولاده جميعا، والعرب أنفسهم كانوا يحبون بناتهم وإن كانوا لا يعتزون إلا بالبنين. وإنني أميل إلى هذا؛ فالأولاد جميعا ثمرات القلوب وقرّة الأعين؛ ولقد قال النبي ﷺ: «إنهم لثمره القلوب وقرّة الأعين، وإنهم مع ذلك لمجنبة مبخلة محزنة»^(٤).

المرتبة الثالثة: حب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. روى أن النبي

ﷺ قال: «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية»^(٥) وإن كانت الأوقية التي نعرفها هي

(١) متفق على صحته وقد رواه البخاري: النكاح - الأكفاء في الدين (٤٧٠٠)، ومسلم: الرضاع - استحباب نكاح ذات الدين (٢٦٦١).

(٢) رواه ابن ماجه: النكاح - تزويج الحرائر (١٨٥٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) فتح الباري في شرحه حديث: من استطاع منكم الباءة (٤٦٧٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه: الأدب - الوالد والإحسان إلى البنات، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٩٠٤).

(٥) رواه الدارمي: فضائل القرآن - كم يكون القنطار (٣٣٣٤) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الأوقية التي أشار إليها النبي ﷺ فالقنطار الذي نعرفه في مصر هو القنطار الذي ذكر في حديث النبي ﷺ؛ لأن القنطار (١٢٠٠) أوقية لأنه مائة رطل والرطل (١٢) أوقية. وقد قال الزجاج في أصل معنى القنطار: إنه مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه، تقول العرب: قنطرت الشيء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها، والقنطرة المعقود، فكأن القنطار شيء محكم يسع ذلك المال، أو أنه جمع قدر كبير من المال متراس الأجزاء محكم الربط. والمقنطرة معناها مضاعفة مقادير القنطار، فمعنى قناطير مقنطرة عدد كثير من القناطير متضاعف، كقولك ألوف مؤلفة، وأضعاف مضاعفة، والمراد أن كثرة المال أمر محبوب مطلوب زين للناس حبها، ومحبة المال الكثير قد أودعت قلوب الناس؛ لأنهم رأوا أنه السبيل إلى طلب ملاذ هذه الحياة، فلا يجد غايته من النساء إلا ذو مال، ولا غايته من إشباع الحاجات إلا ذو المال؛ ولقد قالت عائشة رضي الله عنها: «رأيت ذا المال مهيبا، ورأيت ذا الفقر مهينا» وقالت رضي الله عنها أيضا: «إن أحساب ذوى الدنيا بنيت على المال».

وإن محبة المال لم تكن في أول الأمر لذات المال، ولكن لأنه ذريعة لغيره من ملاذ الحياة ومطالبها، ولكن بتوالي الأزمنة نسي كثير من الناس الغاية، واتجهوا إلى الوسيلة فصارت في ذاتها غاية، وأصبح المال يطلب لأنه غاية في ذاته، كما هو الشأن في كل وسيلة تؤدي إلى أمر محبوب يؤكد المحبة وهي مؤكدة التوصيل؛ ولذلك صار المال مطلوباً، وطلبه كالأمر الفطري. ولقد قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(١).

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الرقاق - ما يتقى من فتنه المال (٥٩٥٦)، ومسلم: الزكاة - لو كان لابن آدم (١٧٣٧). وجاء بلفظ «من ذهب» في صحيح مسلم (١٧٣٨). كما رواه الترمذي وأحمد والدارمي بنحوه.

وطلب المال ليس شراً، بل قد يكون خيراً إن طلب من الطريق الحلال، وأنفق فى حلال، وأعطى منه حقه. ولقد قال عليه السلام: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى»^(١).

النوع الرابع: الخيل المسومة، ومعناها المعلمة بعلامة تجعلها مرموقة حسنة المنظر، تجتلب الأنظار. وقيل المسومة: الراعية. والخيل من مفاخر الناس، ومن أدوات القتال، وكانت عزا للعربى؛ ولقد ذكر النبى ﷺ أن فى نواصيها الخير، كما أشرنا من قبل؛ وقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيـل ثلاثة: لرجل ذكراً، ولرجل ستر، ولرجل وزر»^(٢) فهى ذكر لمن كان يقتنيها للجهاد فى سبيل الله، وستر لمن يقتنيها ويربيها ويبيع من نتائجها ما يستر به حاله ويرد غائلة الفقر، ووزر لمن يقتنيها ويفخر بها، وكمن يسابق بها فى قمار أو ما يشبه القمار. والخيـل فى أصل طلبها كانت لأنها أداة الحرب، ومن عدة القتال، ثم صارت هى مطلباً يقتنى لذاته، ويرغب فيه.

والنوع الخامس: الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، وهى تكون فى حاجات الإنسان، ويتخذ منها مركبا وزينة ومطعما؛ قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦٦﴾ [النحل].

والنوع السادس: الحرث، وهو الزرع والغراس؛ لأن الحرث معناه إثارة الأرض ووضع البذر أو الغراس فيها، فأطلق السبب وأريد المسبب. والزرع والشجر منهما يؤخذ ملبس الإنسان وطعامه وأدوات زيتته.

هذه إشارات إلى متع الحياة التى ذكرها النص القرآنى الحكيم. ويلاحظ أن القرآن الكريم اقتصر على ذكر هذه الأمور مع أن فى الحياة متعا حلالاتا غيرها،

(١) صحيح مسلم: الزهد والرقائق (٥٢٦٦) عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وأحمد: مسند العشرة المبشرين (١٣٦٤).

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم: الزكاة - إثم مانع الزكاة (١٦٤٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه، ورواه البخاري: شرب الناس والدواب من الأنهار (٢١٩٨).

فلماذا اختصها بالذكر؟ والجواب عن ذلك أنه ذكرها لأنها أوضح من غيرها، ومجمع على طلبها، ولأن فيها إشارة إلى أنواع المتع كلها؛ فذكر النساء فيه إشارة إلى متعة الصلة التي تربط بين الرجل والمرأة، سواء أكانت متعة جسدية أم كانت متعة روحية، وإشارة إلى الأسرة التي هي قوام المجتمع. وذكر البنين فيه إشارة إلى بقاء النوع الإنساني، والعزة بالقبيلة والعشيرة والجنس والأرومة. وذكر المال فيه إشارة إلى الحاجات الإنسانية والنظم الاقتصادية التي يعد المال أساسها وعصبها. وذكر الخيل المسومة فيه إشارة إلى الكفاح في نصرة الحق، والجهاد في سبيل الله، وأنه لا يحمي الجماعة إلا قوة مسلحة، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال]. وفي ذكر الأنعام والحراث إشارة إلى أصول الإنتاج الطبيعي الذي هو مادة الاقتصاد الأولى. فذكر هذه الأمور الستة يرمي إلى سائر متع الحياة؛ ولذلك اعتبرها الله سبحانه متع الحياة فقال :

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي هذه الأمور التي حبيت إلى النفوس هي متاع الحياة الدنيا، وموضع النفع والانتفاع فيها، وهي موضع الزينة ومطلب الناس الذي يستمتعون به ويرغبون فيه، ولكن عليهم في طلبها والسعي إليها واللجاجة في طلبها أن يلاحظوا ربهم؛ وأن يطلبوا ما عنده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي أن الله جل جلاله وهو المستحق للألوهية وحده عنده حسن المرجع، فإن المآب معناه المرجع، من آب يثوب بمعنى رجع.

وفي ذكر هذه الجملة السامية في هذا المقام إشارة إلى أن هذه الأمور مع أنها متع هي موضع حساب، فإن اعتدلوا في طلبها وقصدوا إليها من طريقها الحلال وأجملوا في الطلب كانت موضع ثواب، وإن طلبوها من غير حلها، ولم يعطوا حقها، فإنها تؤدي إلى العقاب. وفي هذا الذكر إشارة إلى وجوب الاعتدال في

طلبها، فما يعاقب عليه هو الإسراف والإفحاش، وأن ينسى بها ربه وحقه فيها، حتى تلهيه عن ذكر الله، وعن حق الله. وأيضاً ففيه إشارة إلى أن عند الله نعيماً آخر أعلى وأعظم، وهو ما بينه بقوله تعالى:

﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ يكلفه جل شأنه أن يوجه إليهم ذلك السؤال لينبئهم إلى عظيم شأن ما ادخره لهم سبحانه من نعيم مقيم إن أحسنوا، فلا استفهام للتنبيه؛ وقد حوى من طرق التنبيه ثلاثة: أولها: التعبير بـ ﴿أُوْنِيْكُمْ﴾؛ لأن الإنباء معناه الخبر العظيم الخطير الشأن، وثانيها: التعبير بـ ﴿ذٰلِكُمْ﴾ بالإشارة للبعد للدلالة على عظيم شأن ما سيخبرهم به، وبالتعبير بـ «كم» كأنه يدعوهم جميعاً ليستمعوا إلى ما سيخبرهم به، وثالثها: التعبير بـ «خير» الدالة على الأفضلية، وأن نعيم الجنة خير لا شر فيه قط، وأن نعيم الدنيا لا يخلو من شر.

وبعد أن كان الاستفهام الذى سيق للتنبيه كان الجواب هو :

﴿لِّلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ﴾ هذه متع الآخرة، وهى أعلى مقاماً، وأعظم مكاناً من نعيم الدنيا، وهى أربعة:

أولها: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ﴾، وفى هذه الجنات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وثانيها: الخلود، وهو نعمة وحده، فكل ما فى الدنيا عرض زائل يعروه الفناء، وما فى الآخرة دائم البقاء.

وثالثها: ﴿وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ لا دنس فيها، ولا ما يشينهن أو يوجد الريب، فلا معكر من شر أو ما يشبهه.

ورابعها: وهو أعظمها بل أعظم ما فى الوجود، وهو ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ﴾ أى رضا عظيم من خالق الخلق، ومبدع الكون ومنشئ الوجود، فالرضوان مصدر

كالرضا، ولكن يزيد عليه أنه الرضا العظيم؛ لأن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى، ولأن التنكير قصد به التفضيم والتعظيم، ولأنه إبهامه ثم بيان مصدره فيه إشارة إلى شرف هذا الرضا بإضافة لأعظم نسبة إذ هو منسوب إلى الله جل جلاله.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى أن الله سبحانه جل جلاله عليم بأحوال العباد علم من يبصر ويرى، فهو يعلم دقائق أحوالهم وخفى أمورهم، وخلجات قلوبهم. وصدر سبحانه القول بلفظ الجلالة لتربية المهابة فى القلوب، وإشعارها بعظمته. وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليماً بخفى أحوالهم، فإنه سيجزى المحسن إحساناً والمسيء عقاباً؛ فهذه الجملة السامية فيها وعد ووعد، وفيها إشعار برقابة العلى القدير، مما يجعل المؤمن التقى يشعر دائماً بأن الله يراه، وإن لم يكن هو يراه، ويتحقق قول الرسول ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ هذه أول أوصاف المؤمنين الذين استحقوا ذلك الجزاء الكريم من رب العالمين: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ وهذا الوصف يدل على أنهم دائماً متذكرون للإيمان وحالهم إنما هو تصديق للنبي فى كل ما جاء به، فلسان حالهم دائماً أنهم يقولون ﴿آمَنَّا﴾ أى أنهم يقولون إنهم يذعنون ويصدقون كل ما جاء به القرآن الكريم، وهدى النبی الأمين، ومن كان لسان حاله تذكر الإيمان والإذعان لأمر الله تعالى لا تكون منه معصية كبيرة، ولا إهمال لأوامر الله تعالى؛ لأن ارتكاب المعاصي يتنافى مع الإذعان المطلق، وتذكر الإيمان الدائم؛ إذ المعصية تكون فى غفلة القلب وعدم تذكر الإيمان؛ ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «لا يزنى الزانى وهو مؤمن»^(٢)، وإذا كان الإيمان بالله

(١) هو جزء من حديث جبريل الشهير وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم، وذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح بلفظ المصنف رحمه الله تعالى.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخارى: المظالم والغصب - النهي بغير إذن صاحبه (٢٢٩٥)، ومسلم: الإيمان - نقص الإيمان بالمعاصي ونفيه عن التلبس (٨٦).

مستوليا على شعورهم فهم دائما يغلبون الخوف على الرجاء والضراعة على الطمع، ولذا رتبوا على هذه الحالة طلبهم المغفرة وقالوا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فهم دائما يحسون بعظم أخطائهم، وذلك من قوة إيمانهم، وقوة إذعانهم؛ ولذلك يطلبون الستر والغفران، والوقاية من النار، وذلك كله من قوة الوجدان الديني، وعظم سلطان النفس اللوامة، والضمير المستيقظ، فتكبر في نظرهم هفواتهم، وتصغر حسناتهم، ويعتقدون أنه لا جزاء إلا أن يتغمدهم الله برحمته.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

هذه خمسة أوصاف للمؤمنين الصادقي الإيمان، والمذعنين حق الإذعان:

أولها: أنهم صابرون، والصبر صفة الإيمان حقا وصدقا، وقد حث عليه القرآن في أكثر من سبعين موضعا، والصبر له شعب كثيرة، منها وهي أذناها الصبر عند الشديدة، وتحملها من غير أنين ولا شكوى، وهذا هو الصبر الجميل، فإن ضج الصابر وشكا فصبره غير جميل، ومنها الصبر بضبط النفس عن الشهوات وقدها عن الأهواء المردية، وجعل العقل متحكما دائما؛ وهذه مرتبة عالية في الصبر. ومنها الصبر على تحمل النعم؛ فإن النعم تحتاج إلى صبر لكيلا يطغى الإنسان بسبب النعمة فتؤدي إلى الكفر بدل الشكر. ولقد قال تعالى:
 ﴿وَلْتَن أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مَنَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُفُورٌ ۝٩ وَلْتَن أَذْقَنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود].

والوصف الثاني: أنهم صادقون، والصدق من أكمل الصفات الإنسانية، وهو شعب أيضا فمنها الإخبار بالحق؛ ومنها أن يصدق نفسه، فلا يخدعها، ويزين لها سوء الأعمال، ويغالط قلبه وحسه؛ ومنها أن يتعرف عيوب نفسه بالحق ويتكشفها ويتعرفها ولا يسترها عن نفسه، لتكون بين يديه ماثلة دائما فيستيقظ ضميره، وهذا هو طريق التهذيب الروحي الحق.

والوصف الثالث: أنهم قانتون، والقانت هو الطائع المديم للطاعة غير متململ منها، ولا متبرم بها، ولا خارج على حدودها، فalcنوت يصور الإذعان المطلق.

والوصف الرابع: أنهم المنفقون، أى أنهم ينفقون المال فى مصارفه سواء أكانت عامة أم كانت خاصة، وقد بينا مناهج الإنفاق الدينى فيما أسلفنا.

والوصف الخامس: أنهم مستغفرون بالأسحار، والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل، وهذا الوقت وقت التهجد، وتذكر ما كان من عمل، واستقبال ما يكون من أعمال، فالاستغفار فيه باستشعار الضراعة وتذكر الله، والشعور بمراقبته، يجعل المؤمن يستقبل أعمال الحياة بقلب سليم نقى كما هو، فلا يكون فيه إلا خير، وليس الاستغفار هو ترداد كلمة أستغفر، إنما هو الشعور بالخضوع، ومراقبة الله والضراعة إليه سبحانه، وليس كذلك أكثر المستغفرين؛ ولذا قالت رابع العدوية: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير». ولقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبنى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ومن قالها بالنهار موقنا فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» (١).

شَهِدَ

اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ

(١) رواه البخارى بهذا اللفظ عن شداد بن أوس رضى الله عنه: الدعوات- أفضل الاستغفار (٥٨٣١) كما رواه الترمذى والنسائى وأحمد بنحوه.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
 اللَّهِ أَلِيسْلَهُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيَا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
 اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

بَيِّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَبَتُّلِهِمْ، وَصَدَقَ
 إِيْمَانَهُمْ، وَإِذْعَانُ نَفْسِهِمْ، وَصَبْرُهُمْ وَضَبْطُ شَهْوَاتِهِمْ؛ وَهَذَا يَبَيِّنُ حَقِيقَةَ الْإِيْمَانِ
 وَالْإِسْلَامِ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ شَرِيعَةُ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ؛ وَابْتَدَأَ سُبْحَانَهُ
 بِحَقِيقَةِ الْإِيْمَانِ فَقَالَ:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾
 الشَّهَادَةُ: الْحُضُورُ، إِمَّا بِالْبَصَرِ، وَإِمَّا بِالْبَصِيرَةِ؛ وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ...﴾ ﴿٢٨﴾ [الحج] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ [النور] ثُمَّ أَطْلَقَتِ الشَّهَادَةُ عَلَى الْإِخْبَارِ الْمُبْنَى عَلَى الْمَشَاهِدَةِ
 وَالْمَعَانِيَةِ، ثُمَّ أَطْلَقَتِ بِمَعْنَى الْعِلْمِ، وَبِمَعْنَى الْحُكْمِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَهِدَ
 شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا...﴾ ﴿٢٦﴾ [يوسف].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ﴾ لِلْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ الشَّهَادَةِ فِيهِ طَرِيقَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الشَّهَادَةَ الْإِخْبَارُ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ
 وَحْدَانِيَّتِهِ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى نَبِيِّهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِثْلَ قَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ ﴿٥٥﴾ [البقرة] وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ
 ﴿٤﴾ [الإخلاص] وَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ وَحْدَانِيَّتِهِ أَيْضًا بِالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ
 الَّتِي وَجَّهَ الْأَنْظَارَ إِلَيْهَا مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمِنْ تَسْخِيرِ

الشمس والقمر، ومن إيلاج الليل والنهار. وأخبر سبحانه عن وحدانيته بالأدلة القاطعة التي أشار إليها في كتابه العزيز، من مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء].

وإخبار الملائكة عن وحدانيته سبحانه، بعبادتهم له سبحانه وطاعتهم المستمرة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم] ونزولهم على الأنبياء بأخبار الوحانية.

وشهادة أولى العلم من الناس هي إخبارهم أيضا بما يستنبطونه من الأدلة العلمية الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه، وتصديقهم لما جاء به الرسل، ونطقهم بما آمنوا به ودعوتهم إليه؛ وهذه الشهادة مختصة بأهل العلم الذين قد أخلصوا في طلب الحقيقة؛ فقد قال تعالى عن الجاهل: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ...﴾ [الكهف].

وفي إجماع هذه الأخبار - إخبار خالق الكون، وإخبار الملائكة الأطهار، وبنی آدم الأبرار - دليل على أنه معنى مقرر لا مجال لأن يرتاب فيه عاقل.

المعنى الثانى للشهادة فى قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو العلم. والمعنى: علم الله فى علمه الأزلی، وعلم الملائكة بفطرتهم وبما أنشأهم علیه رب العالمین، وعلم أهل العلم من الناس باستنباطهم وتقصيهم لأنواع الاستدلال المختلفة أنه لا إله إلا هو. وفى جمع العلم على هذا النحو إشارة إلى أن أنواع العلم الثلاثة قد اتفقت على الوحانية. فعلم الله الأزلی، قد تلاقى مع علم الملائكة النورانی وعلم الناس الاستدلالي على أن الله واحد، فكيف يختلف الناس فيه؟! تعالى الله سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ معناه أنه هو الواحد الأحد، الذى يسيطر على العالم بالقسط والعدل والميزان، وكل شىء فى هذا الكون بمقدار، يسير على نظام محكم بقدرته سبحانه، لا يتعدى أى جزء من أجزاء ذلك الكون الطور الذى

أعده الله سبحانه له، كما قال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس] وهذا التعبير السامي ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فيه مع المعنى الذى ذكرناه إشارة إلى مقام الربوبية، وهو أنه الخالق المسيطر المسير المحكم لهذا النظام الكونى، وإشارة إلى مقام الألوهية، وهو أنه وحده المستحق للعبادة، ما دام هو وحده القائم على كل شىء وفيه إشارة إلى مقام العبودية، وهو أنه لا يعبد سواه، فلا قوة لأحد أو لشىء بجوار قدرة الله؛ فهو سبحانه الديان، والمجازى للمخلق على ما يعملون، بمقتضى قيامه على هذا الكون بالقسط، فإنه بحكم القسط لا يستوى الذين يعملون الخير، والذين يعملون الشر؛ ولهذا نقول: إن فى هذه الجملة الكريمة ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ إشارة أيضا إلى اليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب.

وكرر سبحانه تقرير الوحدانية فقال:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفى هذا التكرار إشارات إلى معان جديدة.

منها: الإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى لا يترك الناس سدى، فهو بمقتضى انفراده بالربوبية والألوهية والعبودية، قد شرع الشرائع بمقتضى حكمته، وهو يحميها بعزته وسلطانه؛ ولذا وصف سبحانه بأنه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى الذى يدير هذا الكون وأمور الناس، ويشرع لهم الشرائع ويحميها؛ لأنه العزيز الحكيم.

ثم فى هذا النص أيضا إشارة إلى كمال سلطانه وانفراده وحده بهذا السلطان.

وفيه أيضا رد على الذين يتخذون لله شفعاء يحسبون أن لهم سلطانا، وما لأحد عند رب العالمين من سلطان، فكل خلقه بالنسبة لقدرة وعلمه وإرادته سواء.

وقبل أن نترك القول فى هذه الآية الكريمة لا بد من أن نتكلم كلمة موجزة فى أولى العلم؛ فمن هم أولو العلم الذين قرن اسمهم باسم الملائكة بل بلفظ الجلالة، ووضعت شهادتهم مع شهادته سبحانه، وشهادة ملائكته الأطهار؟ هذا سؤال يتردد فى نفس كل قارئ يتلو كتاب الله العظيم. ونقول فى الإجابة عنه: إنهم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

... ﴿٢٨﴾ [فاطر] وهم الذين وصفهم الله تعالى بالتفويض والإخلاص في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران] ولذا نرى أن أول وصف من أوصافهم الإخلاص في طلب الحقيقة، والصدق في القول والعمل، فلا يقال لهم مثلاً: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿٣٠﴾ [الصف] وقد أشار سبحانه إلى وصف آخر من أوصافهم فقال: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي الذين صاحبوا العلم ولزموه، واتجهوا إلى المعاني الروحية، ولم يخلطوا بالمعاني العلمية الرغائب المادية، ولم يجعلوا العلم مطية للأهواء والمآرب المادية؛ فهاتان صفتان لازمتان أو هما خاصتان من خواص العلماء، وهما الإخلاص، والانصراف التام لطلب الحقائق العلمية بالألا يجعل العلم طريقاً للمنافع الذاتية الآثمة. ولقد قال رسول الله محمد ﷺ في العلماء الذين كانت فيهم هاتان الخاصتان: «العلماء أمناء الله على خلقه»^(١) وقال فيهم: «العلماء ورثة الأنبياء، يحبهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا»^(٢).

هؤلاء هم العلماء الذين قرنت شهادتهم بشهادة الله والملائكة، فإن لم يكونوا كذلك فإنه يخشى أن يكونوا ممن خوف أمتهم منهم في مثل ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي رجل منافق، عليم اللسان غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته»^(٣).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ في هذا النص الكريم قراءتان: قراءة بفتح همزة «أن»، وقراءة بكسر همزة «إن»^(٤) وعلى القراءة الأولى يكون سياق النص

(١) رواه ابن عساکر، والقضاعي عن أنس رضي الله عنه [كنز العمال: ج ١ ص ١٩٨١ (٢٨٦٧٥)]، وقد أورد الإمام أحمد: مسند الشاميين (١٧١٨).

(٢) راجع تلخيص السنن للمنذري، وقد أخرجه عن أبي الدرداء الترمذي: العلم - ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٠٦) وأحمد (٢٠٧٢٣) والدارمي: المقدمة (٣٤٦). سنن أبي داود: العلم - الحث على طلب العلم.

(٣) رواه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٣٧).

(٤) قرأها الكسائي بفتح همزة إن، وقرأ الباقر بالكسر. [غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار - أبو العلاء الحسن الهمداني ص ٤٤٧].

الكريم هكذا: شهد الله أنه لا إله إلا هو، شهد أن الدين عند الله الإسلام، فيكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ في موضع البديل أو عطف البيان من قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وينتهي ذلك إلى أن معنى لا إله إلا الله هو الإسلام، وأن الله يشهد بالإسلام وقد أقام الأدلة على صحته، وأنه دينه الذي ارتضاه، وشهد بذلك الملائكة الأطهار بما أخبرهم به رب العالمين، وشهد به أولو العلم بما استنبطوه، فهو دين العقل، ودين الإخلاص، ودين الله. هذا على قراءة الفتح، أما قراءة الكسر فإن الكلام يكون مستأنفا مقررًا لمعاني الآية السابقة وما اشتملت عليه من معاني الألوهية والعبودية والربوبية وعزة الله وحكمته؛ لأن دين الإسلام يقتضي الإيمان بكل هذا؛ فكأن سائلًا سأل: ما هو الدين الذي يقر هذه الحقائق؟ فقال سبحانه: إن الدين عند الله الإسلام؛ وكلمة الدين تطلق بمعنى الجزء، وبمعنى الطاعة والعبادة وبمعنى مجموعة التكليفات؛ وإنني أميل إلى المعنى الثاني، وهو أن يكون الدين هنا بمعنى الطاعة والعبادة، والمعنى على ذلك: أن الطاعة والعبادة التي يقبلها الله هي الإسلام والإسلام هو الإذعان المطلق لله سبحانه وتعالى والإخلاص لله سبحانه وتعالى، وعدم الاستكبار على الحق في أي ناحية من نواحيه؛ وعلى ذلك يكون الإسلام هنا مكونًا من عنصرين: الإخلاص لله سبحانه وتعالى، والخضوع لذات الله وحده لا لأحد سواه. وقد يؤيد هذا المعنى قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾ (١١٢) [البقرة] وعلى هذا يكون الإسلام هنا هو كمال الإيمان بالله جلّت قدرته، وتوحيده. ولقد قال النبي ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان، وعمل بالأركان» (١).

وإضافة الدين إلى الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ واعتبار الإسلام وحده دين الله، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين، فيه بيان فضل الإسلام

بالمعنى الذى ذكرناه؛ لأنه له ذلك الشرف الإضافى، وهو أن الله لا يقبل غيره، فوق أنه الحق الخالص من شوائب الشرك.

والإضافة فوق ذلك تفيد أنه الدين الذى نزل على كل النبيين، وأنه الأصل فى كل شرائع السماء؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى...﴾ (١٣) [الشورى] فهو دين الله، وقد صرح سبحانه بأنه دين أبى الخليفة الثانى نوح كما يعبر بعض القاصيين، ودين آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام. وعلى هذا فدين جميع النبيين دين واحد، وهو دين الله، وهو دين الإسلام.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وعلى هذا كانت شريعة الله واحدة، وإن اختلفت الديانات السماوية التى لم يجز فيها التحريف والتبديل، فإن ذلك لا يكون فى الأصل، بل يكون فى الفرع، ولا يكون فى الكليات، بل يكون فى الجزئيات ولكن لوحظ مع ذلك أن كثيرين من أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم، فقالت اليهود ليست النصرارى على شىء، وقالت النصرارى ليست اليهود على شىء، واختلفت كل طائفة فيما بينهم على فرق، كل واحدة تحسب أنها اقتصت بالخلاص وحدها، وتكفر الأخرى أو تشلحها من حظيرة الإيمان المقدسة؛ ثم اختلفوا مجتمعين على المسلمين، وناذوهم العداوة، وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فكانت هذه المنازعة عن بيته، ولم تكن عن جهل، بل إنهم يعرفون النبى كما يعرفون أبناءهم، ولم يؤمن بالحق كثيرون فى عصر النبى ﷺ؛ ولذا قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦) [المائدة] وقد بين سبحانه أن سبب ذلك الاختلاف هو البغى والظلم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فالسبب هو البغى فيما بينهم؛ لأنهم قد بغى بعضهم على بعض بالباطل، وتبادلوا ذلك البغى، كل يسفى على غيره، وإذا تبادل قوم الباطل ضعف فى نفوسهم الإيمان، فإن شدة الخصومة تورث

الريب، ومع الريب يكون النفاق، والمنافق لا يؤمن بشيء ولقد قال الإمام جعفر الصادق: «ياكم والخصومة في الدين، فإنها تحدث الريب وتورث النفاق» فتبادل البغى فيما بينهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ كان سببا في عدم إيمانهم بالحق، بل في عدم إيمانهم بشيء وإن كانوا يعلمونه ويفهمونه، فليس مصدر الإيمان العلم فقط، بل مصدر الإيمان علم وإخلاص في طلب الحق، وإذعان له إذا بدا نوره.

ولماذا قدم سبحانه وتعالى كلمة ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ إذ إن السياق هكذا: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم، فقدم حينئذ المستثنى على بعض المستثنى منه؟ والجواب عن ذلك: أن هذا البيان موضع التوبيخ والاستنكار؛ إذ إن ذلك الاختلاف ما كان عن تعذر العلم بالحقائق، ولكنه كان مع أن العلم بها قد جاءهم، وكان في قدرتهم أن يصلوا إلى الحق في الأمر من غير اختلاف ولا نزاع ولا إثارة للشك، وكيف يختلفون مع أن العلم قد جاءهم، وكان بين أيديهم أن يعرفوا السائغ منه، والحق أن العلم كالنور لا يتنفع فيه إلا الذين أوتوا بصرا يميزون به وينظرون، وكذلك لا بد لإدراك العلم من بصيرة نافذة، وقلب يخضع للحق؛ أما إذا كانت البصيرة غير نافذة، والقلب قد ران الله عليه، فإنه لا يدرك، وإن كسب السيئات يضع غلافا على القلب يمنعه من إدراك الحق؛ ولذا قال سبحانه وتعالى في شأن الضالين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين] فأسباب العلم لا تكفى للوصول إلى الحقائق، بل لا بد معها من قلب منير، والذين أوتوا الكتاب لم يكن أكثرهم على ذلك من الإخلاص في طلب الحقيقة والإذعان لحكمها؛ ذلك لأن الشهوات تحكم في قلوبهم واستولت على نفوسهم، فجعلتهم يبتغون الباطل، ويطلبونه طلبا شديدا؛ ولهذا جعل الاختلاف مع وجود العلم أساسه البغى فيما بينهم، إذ إنهم يبتغون بالأمر السيطرة والسلطان واحتيازا للسيطرة الدينية؛ ولذا قال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلما وتحاسدا، وتغالبا بالباطل بينهم.

وهؤلاء جاءهم العلم ولم يلزموه ولم يصاحبوه ولم يذعنوا لحكمه؛ ولذا لم يقل سبحانه «أوتوا العلم» بل قال: ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إذ قد جاءهم ولم يردوا موارده العذبة، والعلم كالمرط الغزير لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا النفوس الطيبة، فأولئك الظالمون جاءهم العلم، ولم يكونوا علماء يخشون الله، ولم يكونوا أولى العلم الذين يشهدون بوحدانية الله.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آيات الله تشمل آياته الكونية الدالة على وحدانيته، وآياته المنزلة الداعية إلى شريعته، والمبينة لها. والمعنى: من يكفر بآيات الله جاحداً غير مدعن لحكمها طامساً لداعى الفطرة فى قلبه فإن الله محاسبه ومعاقبه، والله سريع الحساب. فقله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قائم مقام الجواب المحذوف، والسياق هكذا: ومن يكفر بالله فإن الله معاقبه ومحاسبه، والله سريع الحساب، وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب، وعلى العلم الكامل للمحاسب وهو الله سبحانه وتعالى، فهو لا يحتاج إلى فحص وبحث، وتدل على قيام البينات القاطعة، إذ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم بما اقترفوا، بل تشهد عليهم قلوبهم بما جحدوا، وختم الكلام عن أهل الكتاب بهذه العبارة السامية للإشارة إلى أن اختلافهم لا محالة راجع إلى كفرهم، وأن الكفر له عقاب بعد حساب سريع مؤكد، ونتيجته عذاب أليم، وأسباب العلم حجة عليهم، وليست حجة لهم. اللهم لا تجعلنا ممن أضله الله على علم، ووفقنا للهداية، وأنطق ألسنتنا بالحق، واهدنا سواء الصراط.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٦٢﴾

ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، واختلافهم على أنبيائهم بعد أن جاءتهم البينات من ربهم؛ وفي هذه الآية يبين سبحانه حاجتهم للنبي ﷺ، وأشار إلى أنها بحاجة ليس أساسها الإذعان للحق إذا تبين، بل أساسها محاولة طمس الحق، واللجاجة بالباطل؛ وذلك لأن المجادلة قسمان: قسم يراد به طلب الحق وتمحيصه، ودراسة الأمر من كل نواحيه، وتبادل الأدلة ليستبين من بينها نور الحق، وهذا القسم محمود لا شك فيه. والقسم الثاني لا يقصد به طلب الحق، بل يقصد به الدفاع عن فكرته من غير نظر إلى كونها حقاً أو باطلاً، فهو يجادل ليغالب خصمه، لا ليهتدى إلى أقوم المناهج؛ ومن ذلك النوع الأخير مجادلة أولئك الذين اختلفوا من أهل الكتاب، ومجادلة أولئك الذين جحدوا بالآيات من المشركين الذين قال الله سبحانه وتعالى في أمثالهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾ ﴿١٤﴾ [النمل] وإذا كان جدل هؤلاء من ذلك النوع الذى لا يقصد به رفع منار الحق أو طلب الحق، فإن النبي ﷺ بأمر ربه طلب إليهم أن يخلصوا فى طلب الحقيقة كما أخلص هو؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ﴾ الحاجة: أن يتبادل المتجادلان ما يعتقد كل فريق أنه حجة بأن يقدم كل واحد حجته، ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعمه الحق الذى لا شك فيه. والمعنى: فإن حاجك أهل الكتاب، ومن لف لفهم، وسلك مثل طريقهم، فلا تسر معهم فى لجاجتهم؛ فهم لا يطلبون الحق مخلصين فى طلبه لا ييغنون بدله، ولا يريدون غيره؛ بل إنهم قد شأهت عقولهم، وتأشبت بالغرض المردى نفوسهم وكلامهم هو التمويه الكاذب ولذلك لا

تُجارهم فى هذه اللجاجة، واطلب تصفية قلوبهم من الغرض والهوى، وابدأ بنفسك فبين سلامة مقصدك ونيتك: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾. والوجه المراد به الذات؛ لأنه هو الذى تكون به المواجهة، وهو مجمع محاسن الجسم؛ فالتعبير به عن الجسم تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل. ومعنى أسلمت وجهى: أخلصت وسلمت نفسى وتفكيرى لله سبحانه وتعالى، فلا أفكر إلا فى الله، ولا أطلب الأمر إلا لله، ولا أقصد فى طلبى إلا وجه الله. ومعنى قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى قد أسلم الذين اتبعونى وارتضوا الإسلام ديناً؛ فقد أخلصوا فى طلب الحق وأسلموا وجوههم لله تعالى. وإن إسلام الوجه لله تعالى وحده فيه إشارة إلى التوحيد، وأن محمداً وأتباعه لا يعبدون إلا الله، وفوق ذلك لا يطلبون أى أمر من الأمور إلا لوجه الله تعالى؛ وتكون هذه الجملة السامية كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

وإذا كان النبى ﷺ وأتباعه قد أخلصوا لله ذلك الإخلاص فى العبادة فإن الأساس الذى تبنى عليه المجادلة بالتى هى أحسن، أن يطلب منهم النبى ﷺ أن يكونوا على مثل تلك الحال من الإخلاص فى طلب الحقيقة؛ ولذا أمر الله نبيه بأن يطلب إليهم ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ﴾.

أهل الكتاب: هم اليهود والنصارى؛ لأن أسلافهم قد أوتوا الكتاب أى أعطوه كاملاً وأخذوه كاملاً، وإن كانوا مع ذلك قد نسوا حظاً ممّا ذُكِّروا به. والأميون هم المشركون، وجاء التعبير عن المشركين بالأميين؛ لأنهم أولاً تغلب فيهم الأمية؛ إذ قليل منهم من يقرأ ويكتب، وليست لهم علوم؛ ولذا كان يقول العرب عن أنفسهم: نحن أمة أمية، ولأنهم لم يعرف لهم كتاب يرجعون إليه فى أحكام دينهم. وفوق ذلك هذا التعبير فيه توبيخ لليهود والنصارى؛ إذ إنهم بعدم تسليمهم للحق وإذعانهم له تساوا مع أولئك الذين كان يسميهم اليهود

أُمِّيْن وَلَا يَحْتَرِمُونَهُمْ، ويقولون عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ...﴾ (٧٥) [آل عمران]. ومعنى النص الكريم: قل لأهل الكتاب والمشركين: إذا كنت قد أخلصت في طلب الحق فهل أخلصتم؟

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ للحض على أن يسلموا وجوههم لله ويخلصوا في طلب الحقيقة كما أخلص الرسول وأصحابه، وكأن النبي ﷺ يوجههم إلى أن يطلبوا الحقيقة مجردين أنفسهم من كل هوى وغرض وتعصب، بدل أن يحاولوا الإلحان بالحجة والمغالبة بالقول، وأن يستمروا على اللجاجة في الجدل. وبهذا يتضمن الاستفهام معنى جليلاً وهو أن يبين لهم النبي ﷺ أن العبرة في طلب الحقائق ليس بالأدلة تصطنع، والحجج تزور، إنما العبرة بإسلام الوجه والإخلاص في طلب الحقيقة، وقد قال في ذلك الزمخشري: «وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبق من طرق الاستدلال طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها؟ لا أم لك!» ويكون الاستفهام حينئذ عند الزمخشري من قبيل التوبيخ على عدم الإخلاص.

وعندى أن الاستفهام بمعنى الحض، والمعاني على أى حال متقاربة. ولقد بين سبحانه نتيجة الإخلاص إن أخلصوا فقال:

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ والمعنى: إن أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا دينهم لله، ولم يلاحظوا في طلب الحقيقة عصبية مذهبية أو جنسية، فقد اهتدوا أى سلكوا طريق الحق، ومن سار على الدرب وصل. وقد فسرنا بعض العلماء بمعنى يهتدون، وعبر بالماضى لتحقيق الهداية تحقفاً كاملاً. وعندى أن نفس ذلك الإخلاص، وهو إسلام الوجه لله تعالى هو الهداية الحق، فمن أسلم وجهه لله تعالى مخلصاً في طلب الحق، فقد اهتدى حقاً وصدقاً؛ إذ إن ذلك الإخلاص هو روح الدين وغايته، فمن وصل إليه فإنه لا محالة سيتبع الدين الذى يوصل إليه وهو الإسلام.

هذا إن أخلصوا، وإن تولّوا أى أعرضوا عن هذا الإخلاص، وانصرفوا إلى المثارات البنيانية يشيرونها ليطفئوا نور الحق، فما من حجة تهديهم، وما من آية ترشدهم، وقد أدبت ما وجب عليك وهو التبليغ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغتهم فالمحاجة معهم لا تجدى؛ لأنهم مكابرون، والمكابر لا تزيد قوة الحجة إلا إصراراً وعناداً ولجاجة؛ فإن أعرضوا فأعرض عنهم، واتجه إلى المخلصين طلاب الحقيقة تهديهم وترشدهم، وتأخذ بيدهم إلى ما فيه صلاحهم فى الدنيا وثوابهم فى الآخرة. ثم ذيل سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾.

والمعنى أنه سبحانه وتعالى عليم علم من يبصر بالعباد، يعلم نفوسهم ما يهديها وما يريدتها، وما يصلحها وما يُجديها، وعلیم بنفوس هؤلاء المتمردة التى لا تبغى سداداً، ولا تريد رشاداً، وعلیم بمسالكهم فى الدنيا، وأعمالهم التى أركستهم فى ذلك الضلال المتكاثف، والذى يزيده إمعانهم فى الإنكار والجحود ظلاماً، وعلیم بما يصيبهم فى الآخرة. فهذا التذليل لتلك الآية الكريمة فيه عزاء للنبي عن كفرهم وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار بسوء مصيرهم.

وقبل أن نختم الكلام فى هذه الآية الكريمة نقرر أن جمع أهل الكتاب والأميين فى دعوة النبي ﷺ إشارة إلى عموم رسالته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ (٢٨) [سبأ] ولقد قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(١) وقال ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة»^(٢) ولقد قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه

(١) رواه الدارمي: السير - الغنمة لا تحل لأحد قبلنا (٢٣٥٨)، وأحمد: مسند الأنصار (٢٠٣٥٢)...

(٢) هذه الرواية تفسر قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت إلى الأحمر والأسود» يعني: «إلى الناس كافة»، وبالأول رواها مسلم في صحيحه باللفظ المشار إليه في التخريج السابق. مسلم: المساجد ومواضع الصلاة فيها (٨١٠)، النسائي: الغسل والتميم (٤٢٩)، أحمد: باقي المكثرين: (١٣٧٤٥)، الدارمي: الصلاة (١٣٥٢).

الأمة يهودى ولا نصرانى، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار» (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذه بعض أعمال أسلاف الذين كانوا يحاجون النبي ﷺ، وقد ذكرت تلك الأعمال للدلالة على أنهم لا يطلبون الحق، وإنما يلجئون فى الباطل، وقد ذهبت لجاتهم إلى درجة أن يقتلوا الداعين إلى الحق، فقتلوا بعض النبيين، وقتلوا بعض الذين يدعون إلى القسط. وقد ذكر سبحانه لهم وصفا، ثم ذكر من أعمالهم عملين يتصلان بوصفهم؛ أما الوصف فهو أنهم يكفرون بآيات الله، أى يكفرون بالحجج والبيانات المثبتة لوحداية الله، ولرسالة رسله وصدق دعواتهم، فهم لا يكفرون فقط بالله، بل يكفرون مع ذلك بالآيات الدالة المثبتة، وهذا أقصى ما يصل إليه الضالون، لا يهتدون إلى الحق، ويغلقون عقولهم فلا يمكن أن تصل إليها دعوة الحق، ويمنع الغرض مداركتهم من أن تفهم ما تشير إليه الآيات البيّنات وأمثال هؤلاء لا تجدى معهم حاجة، فهم قوم بور، كما عبر القرآن الكريم عن أمثالهم، وإنهم لكفرهم بالحق وعنادهم، وصم آذانهم عن أن تستمع إلى الداعى إليه اندفعوا فعملوا عملين وهما: قتل النبيين، وقتل الدعاة إلى القسط؛ والقسط هو الحق والميزان والاعتدال والمعقول فى كل شىء، وهؤلاء اليهود قد قتلوا بعض النبيين كيحيى بن زكريا عليهما السلام فكيف يقال إنهم قتلوا النبيين، ولم يقل بعض النبيين؟ والجواب عن ذلك أنهم استهانوا بمقام النبوة، ومقام الدعوة إلى الحق، فاعتدوا ذلك الاعتداء على بعض النبيين، ومن فعل ذلك مع البعض فقد اعتدى على مقام النبوة فكأنما قتل كل الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٣٢].

(١) رواه مسلم: الإيमान - وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (٢١٨)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٧٨٥٦).

ولماذا ذكر سبحانه وتعالى كلمة «بَغْيٍ حَقٍّ» مع أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق أبداً؟ والجواب عن ذلك أن هذا تصريح بموضع الاستنكار، فموضع الاستنكار اعتداؤهم على الحق بالاعتداء على النبيين، وللإشارة إلى أنهم بما طمس الله على بصائرهم صاروا أعداء للحق لا يآلفونه، ولا يريدونه ولا يخلصون في طلبه. وذكر سبحانه كلمة الحق بصيغة التنكير فقال «بَغْيٍ حَقٍّ» لعموم النفي، بحيث يشمل الحق الثابت، والحق المزعوم، والحق الموهوم، أى لم يكونوا معذورين بأى نوع من أنواع العذر فى هذا الاعتداء، فلم يعتقدوا أنه الحق، ولم يزعموه، ولم يتوهموه، بل فعلوا ما فعلوا وهم يعلمون أنهم على الباطل، فكان فعلهم إجراماً فى باعته، وإجراماً فى حقيقته، وأبلغ الإجماع فى موضوعه.

هذا قتل الأنبياء، وهو أفظع جرم فى هذا الوجود، وبلية ومن جنسه قتل الدعاة إلى الحق، والقسط الذى هو الميزان فى كل شىء، فإن قتل هؤلاء كقتل النبيين منشؤه صمم الآذان عن سماع الحق، وإعراض القلوب، والتملل من أهل الحق والتبرم بهم. وقد قال ﷺ: «بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، بئس القوم قوم يمشى المؤمن بينهم بالتقية»^(١)! وروى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح سأل رسول الله ﷺ: أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ فقال الرسول ﷺ: «رجل قتل نبياً، أو من أمر بمعروف ونهى عن المنكر»^(٢).

(١) ذكره القرطبي في تفسيره وقال روى عن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس» وذكره بتمامه. [تفسير القرطبي: سورة آل عمران (٢١)]. وفي كنز العمال (٥٥٨٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣٦٧٤) في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وراجع الدر المنثور - ج ٢ ص ١٣.

ولماذا قال سبحانه: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ مع أنهم حتما من الناس؟ والجواب عن ذلك أن هذا للإشارة إلى أنهم ليسوا بأنبياء بل من الناس غير المبعوثين، وفى قرنهم بالأنبياء، وإثبات أن الاعتداء عليهم قرين الاعتداء على الأنبياء إشارة إلى بيان منزلتهم، وأنهم يعملون عمل النبيين وأنهم حقيقة ورثة الأنبياء، بالقيام بحق هذا الواجب المقدس؛ فإن لم يقوموا بهذا الواجب فليس لهم من وراثة الأنبياء شيء.

وقد ذكر سبحانه عقاب هؤلاء وهو العذاب الاليم، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى أن جزاءهم فى الآخرة عذاب مؤلم ينزل بهم.

وفى هذا الجزء من الآية بحثان لفظيان:

أحدهما: دخول الفاء فى خبر الذين وهو: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ وقد دخلت الفاء لأن الجملة طلبية، والجملة الطلبية تحتاج إلى الفاء لتصلح خبرا فى كثير من الأحيان؛ ولأن الاسم الموصول فى معنى الشرط، وخبره فى معنى الجواب، وإذا كان الجواب جملة طلبية فإن الفاء تدخله.

والثانى: هو فى التعبير بقوله تعالى عن العذاب: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ مع أن البشارة لا تكون إلا فى الأخبار السارة؛ لأن البشارة والبشرى الخبر السار الذى تنبسط له بشرة الوجه؛ والجواب عن ذلك أن هذا التعبير من قبيل التهكم؛ وذلك لأن هؤلاء الضالين من بنى إسرائيل وغيرهم مع أنهم جحدوا، وفعلوا بالأنبياء ودعاة الحق ما فعلوا، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأن لهم البشرى بجنسهم لا بعملهم؛ فالله يقول له: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى أن البشرى التى يرتقبونها بسبب المحبة التى يدعونها هى عذاب أليم وليست بنعيم مقيم، وليس هذا العذاب فى الآخرة فقط، بل إنه فى الدنيا بفساد جماعتهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾:

الإشارة إلى هؤلاء الذين يحاجون بالباطل، ولا يسلمون وجوههم لله، ولا يذعنون للحق، ويقتلون الأنبياء، ويقتلون دعاة الحق؛ هؤلاء بسبب هذه الصفات

وهذه الأعمال حبطت أعمالهم، أى بطلت وأصبحت لا تنتج إلا شرا لصاحبها، كالذابة التى تأكل شر الثمار حتى يتنفخ بطنها من سوء ما تأكل، وَحَبَطُ الْأَعْمَالِ أن لا تنتج خيرا لصاحبها، وأن يكون الجزاء عليها شرا، وأن تكون نتيجتها سوءاً، فيحاسب الله الفاعلين على نياتهم التى طويت فى صدورهم وعملوا الأعمال باسم الخير، وهى للشر، وأولئك الأشرار يطل الله أعمالهم ويحبطها، فجزاؤها شر فى الآخرة بعذاب أليم، وفى الدنيا بذهاب دولتهم وسلطانهم؛ لأن الإعراض عن الحق، ومعاقبة من ينطق بكلمة الحق، وقتل الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، من شأنه أن يفسد الدولة، وإذا فسدت الجماعة ذهبت القوة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى ليس لهم أى ناصر، فالنفس المستغرق مع تأكيده بمن الزائدة، يفيد أنه لا يمكن أن يكون لمن يقتل الداعى إلى الخير ناصرٌ مطلقاً؛ لأن الناس لا يثقون به ويتقونه ولا يطمثون إليه، ولا يمكن أن يعيش امرؤ هنيئاً إلا بشقة من الناس. ولقد قال ﷺ: «خير الناس أمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم»^(١).

الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ
 اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ
 فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ
 لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

قد بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة عن ماضى اليهود من أهل الكتاب أنهم اختلفوا بغياً بينهم مع أن أسباب العلم متوافرة بين أيديهم، ولكن البغى ومجاوزة الحد إن سكنا في رءوس قوم أذهب عنهم الهداية، وتحكمت فيهم الغواية مهما تكن أسباب العلم قائمة؛ وبين سبحانه أيضاً أنهم قوم غير مخلصين في طلب الحقيقة، وأنهم لو أخلصوا لوصلوا، وأن حاجتهم للنبي ﷺ منبعثة عن الهوى والغرض. وفي هذه الآيات يبين سبحانه صورة حسية عن مناقشتهم للنبي ﷺ؛ يكون الحق محسوساً بين أيديهم ويعرضون بعد أن تتبين الحجة ناصعة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾
 هذه الآية نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم النبي ﷺ إلى الدين الحق فأعرضوا، ودعاهم ليحكم بينهم كتاب الله فأعرضوا، ولكن ما كتاب الله الذى دعاهم إليه؟ روى فى ذلك ابن جرير الطبرى روايتين:

إحداهما: أن المراد من كتاب الله التوراة، فهى فى أصلها كتاب من عند الله، وإن حرفوه وغيروه؛ ويروى فى ذلك أن النبي ﷺ دخل مدرّس اليهود، وهو بيت تدارسهم، فدعاهم إلى الله، فقال قائلهم له: على أى دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم، فقال القائل: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال الرسول الكريم ﷺ: «هَلُمَّ إِلَى التَّوْرَةِ فَهِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ» هذه هى الرواية الأولى. وإطلاق كلمة ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ على التوراة باعتبار أصلها، وباعتبار أن الجزء الذى كان التحاكم إليه فيها هو من الجزء الباقي الذى لم يدخله تحريف.

والرواية الثانية: أن كتاب الله هو القرآن؛ وذلك لأن طائفة من اليهود تحاكموا إليه ﷺ ليحكم بينهم بحكم القرآن، فلما تبين لهم الحكم وأنه على غير هواهم أعرضوا ونأوا بجانبهم عن سماع قول الحق والإنصات إليه.

وأياً ما كان الكتاب المشار إليه في الآية فالأمر دليل على أنهم لا يدعونون الحق ولا يهتدون بهدى، بل هم قوم غلبت شقتهم، وغلب هواهم على تفكيرهم وطمس الله على أبصارهم وبصائرهم، فهم لا يهتدون، ولا ترجى منهم هداية، فلا تعجب إذا لم يؤمنوا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعبير قرآني معناه لقد رأيت وتحققت وعجبت من أمر أولئك الذين أوتوا نصيباً من الكتاب كيف يدعون إلى حكم الحق فيتولون ويعرضون. والاستفهام داخل على الفعل المنفى، وهو استفهام إنكارى تعجبى، فهو نفى دخل على فعل منفى، ونفى النفى إثبات، إذ إن نفى عدم الرأى معناه ثبوت الرؤية، وسبق الكلام على ذلك النحو لتأكيد الأمر، وللتعجب، وليبين أنه ما كان يصح أن يقع، ولكنه وقع.

وقوله تعالى: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يشير إلى أمرين:

أولهما: أنهم يتعلقون باسم الكتاب ولكن لا يأخذون به؛ فالنصيب المراد به الجزء المعنوى من الكتاب، وهو أنهم تلقوا كتاب التوراة وأخذوا منه ترديده وذكره، ولم يأخذوا منه الهداية والإيمان.

وثانيهما: أنهم حرفوا هذا الكتاب وغيروه، فما عندهم هو نصيب من الكتاب أى جزء منه، وليس كل الكتاب.

وعبر هنا بقوله تعالى: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وفي الآيات السابقة قال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...﴾ [آل عمران: ١٩] وذلك لأن الكلام هنا فى الذين كانوا يعاصرون النبى ﷺ، والذين كانوا يعاصرون النبى ﷺ لم يكن عندهم قطعاً إلا حظ من الكتاب، ولم يكن عندهم كل الكتاب؛ أما فى الآيات السابقة فقد كان الكلام فى الذين عاصروا النبيين السابقين من بنى إسرائيل، وقد كان عندهم الكتاب كله، ومع

ذلك ضلوا على علم، وذلك لسيطرة الهوى على قلوبهم، وغلبته على نفوسهم، فبغوا وطمعوا، وقتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس.

دُعِيَ أولئك اليهود إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم، وقد كانت النتيجة أنهم لم يذعنوا للحق كما قررنا، بل تولوا عنه، أو تولى فريق منهم عن الحق؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أصل تولى الأمر أو الشخص الإقبال عليه، والانصراف إليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...﴾ [المائدة] أى من يتخذ منهم ولاية ونصرة، ويقبل عليهم فهو منهم. وإذا عُدِّي هذا الفعل بـ «عن» أو قُدِرت في القول كانت بمعنى الانصراف عن الأمر وعدم الإقبال عليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد]. والمعنى في هذه الآية هو من هذا القبيل، أى أنه بعد الدعوة إلى تحكيم كتاب الله تعالى ينصرفون عن الحق، ويولونه أديبارهم، بدل أن يولوه قلوبهم.

وعبر هنا بِثُمَّ التى تفيد التراخى للإشارة إلى تباين حالهم مع ما كان ينبغى منهم؛ وذلك لأنهم ليسوا أميين أو جاهلين فيعذروا، بل هم قوم أهل علم ودين، ونزلت بين أيديهم كتب السماء، فهم كانوا جديرين بأن يرضوا بحكم الكتب المقدسة، ولكنهم بدل أن يخضعوا ويذعنوا أعرضوا، واستمروا فى غيهم وعمهون، فكان هذا التفاوت بين ما كان ينبغى، وما هو كائن، سببا فى التعبير بـ ثُمَّ المفيدة للتراخى بين المعطوف والمعطوف عليه، والتباعد بينهما زمانا أو معنى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ قال بعض المفسرين: إنه تأكيد لمعنى التولى، والحق أنها أفادت معنى جديدا، إذ أفادت أمرين:

أولهما: أن حال هؤلاء الناس حال إعراض دائم عن الحق، فليس توليهم إذ دعوتهم إلى أن يحكم كتاب الله بينهم أمر عارض لحال وقتية اقتضته، بل الإعراض صفة مستمرة لفريق منهم لا تنفصل دائما عن تفكيرهم.

الأمر الثاني: أن تلك الحال المستمرة الدائمة من الإعراض هي سبب توليهم عن الحق عندما يدعون إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم.

والقرآن الكريم ينصف الحق في أخباره، كما هو الحق في ذاته؛ ولذلك لم يعمم الحكم على كل الذين أوتوا الكتاب بل قرر أن التولي كان من فريق منهم، ولم يكن من كلهم؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ في هذه الآية يبين سبحانه السبب في أنهم لا يقبلون على الخير ولا يعملون بالحق، وهو اعتقاد أنهم لن يعاقبوا عقابا أليما، ولن يعذبوا عذابا شديدا؛ وذلك لما ركز في نفوسهم من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم لا يحاسبون إلا بمقدار ما يحاسب الأب ولده المدلل، وحيييه المختار، إذا رأى مخالفة أو عنادا فإنه لا يجافيه ولا يعاقبه، ولكن يقربه ويعاتبه؛ فمعنى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾: ذلك الإعراض عن الحق، والتولي عن الداعي إليه، واللجاجة في الباطل؛ بسبب أنهم يقولون لن تمسنا النار إلا أياما معدودات. وليس المراد إحصاء الأيام، بل المراد الاستخفاف بالعقاب والاستهانة به، وعدم الالتفات إلى وعيد الله، وزعمهم الباطل أنهم ينالون ما وعد به من ثواب ونعيم مقيم من غير عمل يعملونه، ولا كسب يكسبونه، فهم بهذا قد استناموا إلى الأمانى وغرتهم الأوهام.

ولماذا كان الاستخفاف بالعقاب وعدم الاهتمام بالوعيد سببا في الإعراض عن الحق؟ الجواب عن ذلك أن الحق يصل إليه المؤمن بأحد أمور ثلاثة: إما بإشراق النفس، واستقامة القلب، وسلامة الفكر من الهوى والغرض، وذلك شأن من زكت نفوسهم وعلت قلوبهم؛ وإما شكر للنعمة، ووفاء لحق المنعم، وذلك

شأن عباد الله الأخيار؛ وإما خوف العقاب والحساب، وذلك شأن المتقين وأولئك قد حرموا الأول والثاني، فلم يبق إلا الثالث، فاستهانوا بالعقاب فكانوا قومًا بُورا. وإن المؤمن يجب أن يصون نفسه دائما بخوف العقاب، وأن يغلب الخوف على الرجاء؛ فإنه إن زاد الرجاء عن الخوف تسربت الاستهانة إلى النفس وإذا تسربت الاستهانة هانت النفس فأركست في السيئات، وارتكبت الموبقات؛ وذلك شأن كثيرين من المنتسبين للأديان، وشأن كثيرين من المسلمين في هذه الأيام. وإنه يجب على المؤمن ألا يغتر، ولا يأخذه الغرور فيستهين بعقاب. ولقد رد الله سبحانه وتعالى في غير هذه الآية على اليهود في زعمهم أنهم لا يعاقبون إلا أياما معدودة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقال غررت فلانا أى أصبت غرته ونلت منه ما أريد بسبب ذلك، والغرة: الغفلة والغفوة. ومعنى ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أصاب موضع الغرة والغفلة منهم فى دينهم ما كانوا يفترون أى يكذبونه متعمدين قاصدين.

وإن الأوهام التى ترد على النفس وتستولى على القلب تدفع إلى الضلال، وكذلك شأن هؤلاء اليهود: تعصبوا تعصبا شديدا لدينهم، وأبغضوا غيرهم بغضا شديدا، حتى إنه لا يتصور أن يهوديا أحب غير يهودى لغير مأرب من مأرب الدنيا، أو غاية من غاياتها؛ وحتى لقد حسبوا أن الديانة جنس، واندفعوا تحت تأثير ذلك التعصب إلى اعتقاد أوهام، ثم تأيد هذه الأوهام بأكاذيب افتروها، ثم تكاثفت تلك الأكاذيب جيلا بعد جيل، حتى أصابت غرة وغفلة فى عقولهم، فاعتقدوا ما لا يعتقد؛ اعتقدوا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، واعتقدوا أن الجزاء بالجنس لا بالعمل؛ وهذا ما يفيدته قوله تعالى: ﴿وَعَرَّهْمُ فِي

دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١٦٥﴾ أى ما استمروا على افتراءه جيلا بعد جيل . ولقد رد الله سبحانه وتعالى زعمهم بإثبات أن الثواب والعقاب بالعمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ؛ ولذا قال سبحانه :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كيف : يستفهم بها عن الحال ، أى ما حالهم وما شأنهم إذا جمعهم الله رب العالمين ، ليوم لا ريب فيه؟ لا شك أنهم يفاجأون بذهاب غرورهم الذى اغتروه ، وضلالهم بسبب استمرار افتراءهم الذى أحدثوه فدلّاهم فى غرورهم ؛ وإنه فى هذا اليوم الذى لا ريب فيه توفى كل نفس ما كسبت أى جزاء ما كسبت ، وهم لا يظلمون أى لا ينقصون مما فعلوه شيئا ، فسيجزون بالخير الحسنى ، وبالشر السوى .

وفى الآية الكريمة بعض البحوث اللفظية نشير إليها واحدا واحدا ؛ لأن فى بيانها توجيها إلى معانٍ دقيقة فى النص الكريم :

أول هذه الأمور : الفاء فى قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ﴾ فإنها هى ما تسمى فاء الإفصاح ، وهى التى تفصح عن شرط مقدر ، أى أنه إذا كانت العقوبة المقررة عليكم أياما معدودات فى اعتقادكم مهما ارتكبتم ، فماذا تكون حالكم إذا كانت المفاجأة التى لم تقدروها وطُمس عليكم فلم تعلموها؟ .

وثانى هذه المباحث اللفظية قوله تعالى : ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾ فإن التعبير بلفظ الجمع فيه إشارة إلى معنى المساواة التامة ، وأنه لا فضل لجنس على جنس ، وإضافة هذا الجمع إلى رب العالمين ، خالق الناس أجمعين يزكى هذه المساواة ؛ لأنه خالق الجميع ، ورب الجميع ، وجامع الجميع يوم القيامة ، فالجميع بين يديه سواء فى الأصل والتكوين وفى الربوبية والحفظ ، وفى الجمع يوم القيامة فيكونون سواء فى الحساب والعقاب والثواب ، وكل وعمله .

وثالث هذه الأمور : تنكير «يوم» فى قوله تعالى : ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإن ذلك التنكير للتهويل ، وبيان عظم شأنه وأنه يوم عبوس ، وأنه مع شدته وشدة

الحساب لا ريب في وجوده ولا شك. وذكر قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في هذا المقام لأن من اليهود طائفة تنكر البعث، فالتأكيد لأجل هذه الطائفة المنكرة الملحدة في دين الله، الخارجة على كل أديان السماء، والباقون إن اعتقدوا بعقولهم لم يذعنوا بأفعالهم.

ورابع هذه المباحث اللفظية في التعبير بقوله تعالى: ﴿وَقِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ إسناد التوفية إلى ما كسبت وعدم ذكر الجزاء، فيه إشارة إلى عدل الله اللطيف الخبير، وهو مساواة الجزاء للعمل، وكأن المثلث يُوفى عمله، لا جزاء عمله، وذلك لشدة المساواة بينهما. وقد أكد سبحانه وتعالى معنى العدالة وأن كل شيء بالقسطاس المستقيم بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي سيجزون بأعمالهم، وسينالون ما يستحقون، وكل ما يتألم بسبب ما فعلوا هو العدل عينه، ولا ظلم، فإذا ألقوا في السعير فليس في ذلك ظلم بل هو العدل. وإن سبب ضلال اليهود أنهم زين لهم سوء عملهم فأروهم حسنا.

فاللهم أرنا عيوب أنفسنا، وجنبنا الاغترار في ديننا، إنك سميع الدعاء.

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوْتِي الْمَلِكِ
مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ
فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

بين سبحانه وتعالى اعتزاز المشركين بقوتهم الدنيوية وغلبيهم وسلطانهم، وذكر أنهم في غرورهم كفرعون ذى الأوتاد، واعتزازه ببقهره لشعبه، وطغيانه في

ملكه؛ إذ يقول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف]. ثم أشار سبحانه إلى طغيان أهل الكتاب، واختلافهم على النبيين، وقتلهم بعض الأنبياء، وقتلهم الذين يأمرهم بالقسط من الناس، وما كان ذلك الإعراض عن الحق بعد أن تبين لهم إلا لأن حب السلطان والغلب قد استولى عليهم واستغرق نفوسهم، ولذلك كانوا إذا حاجهم النبي ﷺ أو حاجوه نظروا في محاجتهم إلى الأمر من وراء ذلك الغرض، وتلك الشهوة؛ وقد أمر الله سبحانه نبيه بأن يقابل هواهم بإعلان إخلاصه في طلب الحق، وإسلامه وجهه لله سبحانه! وفي هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ إشارة إلى أن الإخلاص للذات العلية، وطلب الحق إرضاء لله، لا لأحد سواه، فيه اتجاه إلى مالك الملك الذي يؤتي الملك من يشاء، فالإخلاص للحق جل جلاله، يؤدي إلى السلطان الحق من مالك الملك.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ الأمر للنبي ﷺ، ولكل قارئ للقرآن الكريم مؤمن بالله مدعٍ للحق، أن يضرع إلى الله تعالى ناطقاً بهذه الحقيقة؛ فإنها الحق في هذا الوجود، ولا يعرف مؤمن سواها؛ والمعنى في هذا الدعاء الكريم الضراعة إلى الله تعالى ونداؤه بأنه مالك السلطان المطلق في هذا الوجود، فليس فقط صاحب السلطان، بل إنه يملك ذات السلطان، يؤتيه ويعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء؛ أي يسلبه ممن يشاء ممن يكون السلطان في يده. والمملك هنا هو السلطان، وفسره بعضهم بالنبوة، وعبر عن النبوة بالملك عند هؤلاء باعتبار أن الملك الحق لازم من لوازمها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء] والظاهر أن المراد هو السلطان. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ﴾ نداء إلى الذات العلية بلفظ الجلالة، والميم المشددة في الآخر قائمة مقام حرف النداء على ما قال الخليل وسيبويه. وقال بعض الكوفيين: إن الميم المشددة هي «أم» بمعنى قصد، أي أقصدك يا مولاي بضراعتي، وأنت صاحب السلطان.

ولكن خطأ ذلك النظر الزجاج، وقرر أن معنى القصد ثابت بمجرد الالتجاء والدعاء. وقوله: ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ نداء آخر وضراعة على تقدير أداة النداء، أى يامالك الملك، فكأن فى النص دعاءين: دعاء للذات العلية بلفظ الجلالة، وقد اشتمل على كل معانى العبودية، والتتزيه والتقديس، والخضوع التام، والتسليم لله سبحانه وتعالى بكل معانى الألوهية؛ والدعاء الثانى للملك الملك، وفيه كل معانى الإحساس بالربوبية، والضعف أمام جبروت الله سبحانه وتعالى وملكوته.

وقلنا إن قوله تعالى: ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ أبلغ من صاحب الملك أو صاحب السلطان؛ لأن من يملك شأن أمة لا يملك ملكها، ولكنه يستولى على ملكها ويده فيها ليست يد ملك ولكنها يد عارية؛ أما سلطان الله تعالى ذى الملكوت فسلطان مالك متصرف فى السلطان، يعطيه من يشاء عطاء عارية، ويمنعه ممن يشاء، ويسترد عاريته ممن يشاء؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.

وهنا أمران لابد من الإشارة إليهما:

أولهما: التعبير عن إزالة الملك بقوله تعالى: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ فالتعبير بالنزع مع تكرار كلمة ملك، فيه إشارة إلى أنه يأخذه منه بعد أن استقر فيه وثبت له وظن أنه لا مزيل لسلطانه، فيأتيه الله من حيث لا يحتسب، ويأخذ ملكه أخذ عزيز مقتدر ثم إن فى النزاع إشارة إلى أن من يؤتى سلطانا يطغى فيه ويبغى ولا يسير بسنة الحق والعدل لا يتركه طائعا، بل لابد أن يُمَكِّن الله منه من ينزعه من يده، وقد يأخذه منه من كان يأمنه «وَمِنْ مَّأْمَنِهِ يُؤْتِي الْحَذِرَ». وفى كثير من الأحيان يكون السبب فى زواله هو من كان السبب فى طغيانه.

الأمر الثانى الذى تجب الإشارة إليه: أن الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته وما سَنَّ من نظم فى هذا الوجود، وما تسير عليه أعماله فى خلقه، لا يعطى الملك إلا من يستحقه، ويأخذ بالأسباب العادلة فى طلبه، ويقصد به رفعة قومه، ولا ينزعه إلا ممن يسىء ويطغى، ويفهم أن الملك متعة تشتتهى وليس تبغات

تؤدى، فينزع منه غيره، وكذلك سنة الله تعالى فى الحكم بين الناس: من لا يسوس الملك يُخلَّعه، ومن حل محله ينزل به ما نزل بسابقه إن سار سيرته.

وكلمة «الملك» ليس المراد منها ما تعارفه الناس من الحكم بمقتضى الوراثة فى أسرة، إنما المراد بالملك السلطان فى هذه الأرض، سواء أكان سلطانا بالغلب، أم كان سلطانا بالاختيار والانتخاب، أم كان سلطانا بالوراثة، وسواء أكان محدودا بجزء من الدولة، أم ناحية من نواحيها، أم كان عاما شاملا لكل أجزائها تجتمع فى يد صاحبه كل السلطات فيها، فكل هذا ملك لأنه سلطان. وقد ذكر سبحانه بعد ذكر الملك يعطيه من يشاء وينزعه عن يشاء العزة، فقال:

﴿وَتَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ العزة ليست مرادفة للسلطان، وإن كان الأصل فى كلمة عَزَّ معناها غَلَبَ؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ ۖ﴾ [ص] ولكن العزة صارت تستعمل بعد ذلك فى معنى نفسى، وهو عدم الخضوع إلا للحق، والتسامى عن الخضوع الذى ينافى المروءة والخلق الكريم، وقد يكون ذلك فى ضعيف فى بدنه مستضعف عند الناس، ما دام قد علا عن الخضوع إلا لذات الله تعالى؛ وإن صهيبا وآل ياسر، وخباب بن الأرت وغيرهم، كانوا وهم المستضعفون فى مكة الأعزاء فى أنفسهم؛ لأنهم لم يجعلوا قلوبهم مراما للأقوياء، فلا عزة إلا مع الإيمان بالله وحده، والاعتماد عليه وحده؛ ولذلك لا يكون المنافقون مهما يؤتوا من مال ونسب وسلطان إلا أذلاء. ولما قال المنافقون فى شأن المؤمنين: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...﴾ [المنافقون]. نفى سبحانه وتعالى عنهم العزة فقال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون]. وكيف يكون المنافق عزيزا وهو الذى جعل نفسه وفكره ولسانه ملكا لغيره؟ فهو قد سلب كل شئ حتى قلبه ولسانه.

ومشيئة الله تعالى فى العزة والذلة تسير على مقتضى حكمته، فهو لا يعطى العزة إلا لمن خلَّص قلبه من كل أدران الهوى والشهوة، فالشهوات مردية، ولا

يكون عزيزا بين الناس من يكون عبد شهوته؛ فإن العزة تبتدئ من النفس، فإن ضبَطَ المرء أهواءه وشهواته وسيطر عليها أعطاه العزة، فكان بين الناس عزيزا؛ ومن سيطرت عليه أهواؤه ومطامعه وشهواته كتب الله عليه الذلة، وكان الذليل وإن ظهر أنه العزيز؛ ولذا كان من حكمة السلف الصالح قولهم: «أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال».

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تسليم بأن ما يفعله الله تعالى دائما خيرا، وأن الخير كله بيده سبحانه وقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ معناه إنك وحدك الذي تملك الخير كله، ف «ال» في قوله «الخير» للاستغراق الشامل؛ فكل خير هو بيد الله سبحانه. والتعير بـ «يد» هنا إشارة إلى الملكية التامة السيرة، فهو استعارة تمثيلية، فقد قرب سبحانه - والله تعالى المثل الأعلى - لأذهاننا معنى سلطانه وكمال ملكه لكل الأمور، بحال من يكون الأمر في يده وقبضته، ولا سلطان لأحد من الناس فيما بيده، وفي قبضته. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ شمول قدرته على الأشياء كلها: ما يتخذها الناس سببا للخير عندهم، وما يتخذونه سببا للشر عندهم. وفي الجمع بين قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ و ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إشارة إلى أمرين :

أولهما: أن كل ما يفعله الله تعالى هو خير، فلا يقال إن بيده الخير والشر، فإن الشر معنى نسبي بالنسبة للعبيد، ولكن بالإضافة إلى الله تعالى فإن الله لا يفعل إلا خيرا. ولقد قال الزمخشري في هذا المقام ما نصه: «إن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه».

الأمر الثاني: إثبات أن الله تعالى خالق الأسباب، وهي الأشياء التي يستخدمها الناس للخير والشر، يحسنون فلا يقصدون إلا النفع فيكون ما مكن الله لهم في الأرض نفعاً للناس وخيراً، وسيئون فيقصدون إلى نواحي الفساد فيكون ما يفعلونه فساداً وضراً عاما. وهذا أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ فكل ما فى هذا الوجود من أشياء وأعمال ومخلوقات تحت قدرة الله، وكله خير بالنسبة له سبحانه، والشر والخير بالنسبة لمقاصد الناس، ولا انتفاعهم بما مَكَّنَّ الله تعالى فى هذه الأرض. وإنه يلاحظ دائما أن الشر نسبى للناس، ولا يصح أن يقال فى فعل الله إلا أنه خير. ولقد بين سبحانه مظاهر قدرته فى الكون المحسوس فقال سبحانه مبتدئا بآياته جل شأنه فى الليل والنهار:

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ هذا مظهر حسى لقدرة الله تعالى فى هذا الكون. تولج معناها تُدْخِلُ، أى تدخل الليل فى النهار وتدخل النهار فى الليل. وقد فسر بعض العلماء دخول الليل فى النهار بزيادة الليل حتى يصل إلى أقصى الزيادة، وفى هذا الوقت ينقص النهار حتى يصل إلى أقصى النقصان، وكذلك دخول النهار فى الليل فمعناه أن يأخذ النهار جزءا من معدل النسبة بينهما وهو تساويهما، فيدخل النهار فى الليل. وفقد فسر الزمخشري مع كثير من المفسرين دخول الليل فى النهار ودخول النهار فى الليل بالتعاقب بينهما بأن يكون الوقت نهارا ثم يصير ليلا، ويكون ليلا ثم يصير نهارا، ولكن كيف نسمى ذلك التعاقب دخولا لليل فى النهار، ودخولا للنهار فى الليل؟ والجواب عن ذلك: أن الليل لا ينقلب نهارا دفعة واحدة، بل إنه يدخل النهار فى الليل شيئا فشيئا، فيستدئ النور يدخل فى الظلمة شيئا فشيئا، يستدئ الفجر الكاذب فالصايق، فتتنفس الصبح لحظة بعد لحظة، والنور يغزو الظلمة حتى تنجس غياهبها، فيكون الضوء الساطع؛ وكذلك لا يجيء الليل دفعة واحدة، بل يستدئ الضوء يضعف من الأصيل حتى تجئ الغروب، ثم تجئ العشية، فيكون ظلام وتُمحى آية النهار.

وإن توجيه الأنظار إلى دخول الليل فى النهار، ودخول النهار فى الليل، سواء أكان بالمعنى الأول أم كان بالمعنى الثانى، فيه توجيه الأذهان إلى عظمة الكون وكمال سلطانه سبحانه وتعالى فيه، فما كان تعاقب الليل والنهار وتداخلهما إلا ظاهرة لدوران الأرض حول الشمس، وحركة الفلك الدوار المستمرة الدائبة بقدرة

الله تعالى وقيامه على كل شيء، وفي الليل تبدو الكواكب والنجوم، وتظهر آيات ذلك النظام العجيب المحكم الذي يسيره سبحانه بقدرته وحكمته.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هذا مظهر كونى حسى يدل على عظيم قدرة الله، ويبان أنه لا إرادة فى هذا الكون غير إرادته، وأنه القادر على كل شيء، يخرج الضد من ضده، وهو المبدع لكليهما، المسير لهما؛ فالله سبحانه يخرج الحى من الميت، ويجعل من هذا الحى الذى أخرجه ميتا؛ وإخراج الحى من الميت ليس هو الخلق الأول الذى ذرأ الله به الأحياء، وهو خلق آدم من طين، فإن الخلق غير الإخراج؛ إذ الخلق إبداع وإنشاء ابتداء، والله هو الخلاق العليم، ولا خالق سواه، والإخراج تحويل فيه معنى الاستخراج والتوليد؛ وإخراج الله الحى من الميت قال بعض العلماء وهم الأكثرون: إنه إخراج الجسم النامى الذى يسير فى مدارج الحياة، من الجسم الجاف الذى لا تبدو فيه حياة، كإخراج الشجرة من النواة، والعود من البذرة؛ وإخراج الميت من الحى هو أيضا إخراج النواة الصلبة من الجسم الحى النامى، وإخراج البذرة الجافة من العود الحى الرطب. وقد يعترض على ذلك بأن النواة الجافة والبذرة الصلبة فيها حياة تولدت عنها تلك الحياة المحسوسة للنبات، وكذلك النطفة التى تبدو سائلا ليس فيه حياة فيها أحياء تتوالد فتكون ذلك الحيوان المحسوس. وقد يجاب عن ذلك بأن ذلك اصطلاح علمى، وإن الحياة التى تعرفها اللغة مظهر ذلك النماء المتدرج المستمر. وفى الحق إن إخراج الحى من الميت أمر محسوس مرئى كل يوم؛ فإن تلك الشجرة أو ذلك العود النامى يتغذى من الهواء والضوء والماء والتراب، وكلها جماد لا حياة فيها، وما يتم التحول المتدرج فى الحياة إلا بتلك العناصر التى هى غذاء الحى، فهى إخراج الحى من الميت، وليس المراد من الميت من كانت به حياة ثم انتهت، إنما الظاهر من كلمة الميت هو ما لا حياة فيه؛ وإن إخراج الميت من الحى أمر واضح لا مجال للشك فيه؛ فهذا العود الأخضر يصير حطاما، وهذا الجسم الحيوانى يتحلل فيكون رميما ثم يكون ترابا.

وعلى هذا نقول إن إخراج الحى من الميت ليس فلق النوى بإخراج النبات والشجر منه فقط، بل بهذا وبتدرج الحياة، وإدخال عناصر الغذاء التى تكون الحى وأكثرها من جماد؛ ولذا قال سبحانه فى آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾ [الأنعام]

﴿وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذا مظهر رابع من مظاهر قدرة الله تعالى المحسوسة بين الناس، وهو الرزق للعباد، وكلمة الرزق تشمل إعطاء الله عبده مالا، وإعطاءهم جاها، وإعطاءهم علما، وإعطاءهم حزما ورأيا، وإعطاءهم صحة، فكل هذه أرزاق يعطيها رب العالمين. ولذا قال الراغب الأصفهاني فى مفرداته: «الرزق يقال للعطاء الجارى تارة، ذنوبيا كان أم أخرويا، وتارة للنصيب، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى منه به تارة أخرى؛ يقال أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علما؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...﴾ [المنافقون] أى أنفقوا من المال والجاه والعلم».

فالله سبحانه وهو الرزاق ذو القوة المتين، قد وزع رزقه بين عباده بالقسطاس المستقيم؛ فمنهم من أعطاه صحة وعافية، ومنهم من أعطاه مالا وحرمة من نعمة العلم، ومنهم من أعطاه جاها وسلطانا، ومنهم من أعطاه أولادا تقر بهم عينه، ومنهم من وهب له ذكرا حسنا بين الناس. ومن قصر الرزق على المال فقد ضل ضلالا بعيدا، كذلك المعترض الذى يقول:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقًا
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَبَّرَ الْعَالَمَ النَّحْرِيرَ زَنْدِيقًا

فما فى ذلك حيرة إلا فى رأس القائل، فتلك هى القسمة العادلة: حرم هذا من المال وأعطاه علما، وحرم هذا من الولد وأعطاه ذكرا بين الناس... وهكذا؛ ولو اجتمعت كلها فى واحد، لكانت الحيرة، وعلاجها التفويض المطلق لرب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿بَغِيرِ حِسَابٍ﴾ معناه أنه ليس فوقه أحد يحاسبه، تعالى الله علوا كبيرا، وأن عطاءه كثير يعلو على العد والحساب، وهو يعطى من يشاء بسنة الحكمة والعدل والفضل، وإليه مصير كل شيء، ولا ينتج عمل عامل نتيجة إلا بفضل من الله. روى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «بسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب» فى هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾
 إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُتُّدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
 يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن الملك كله بيد الله سبحانه وتعالى، وأنه هو الذى يعطى بعض عباده سلطانا، وهو الذى ينزع السلطان من أيديهم إن لم يحسنوا القيام عليه؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه أنه لا يصح للمؤمن أن يستعين بسلطان غير المؤمن على المؤمن لما يراه من قوة سلطان غير المؤمن، فإن

الملك بيد الله، قد يدل سبحانه من دولة الشرك والكفر^(١)، ويكون لله ولرسوله الكلمة العليا؛ فكأن الآيات السابقة مقدمة، وهذه الآية نتيجة؛ أى أنه إذا كان الملك لله سبحانه، وهو مالك الملك، فلا يسوغ لمؤمن أن يدخل فى سلطان غير مؤمن وولايته؛ لأنه بذلك يخرج من ولاية الله مالك الملك إلى ولاية كافر أعير الملك، والعارية مستردة لصاحبها فى أى وقت، وهو الحق سبحانه الذى لا سلطان فوق سلطانه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أولياء جمع ولى، وهو من الولاء. وأصل هذه الكلمة بينها الأصفهاني فى مفرداته، فقال: «الولاء والتوالى: أن يحصل شيان حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة، والاعتقاد. والولاية (بكسر بالواو) النصر. والولاية (بفتح) تولى الأمر. وقيل الولاية والولاية واحدة نحو الدلالة والدلالة». وعلى ذلك تكون كلمة ولى تطلق بمعنى الصديق وبمعنى النصير، وبمعنى من يتولى أمر غيره. وما المراد بها هنا؟ الظاهر أن المراد هو من يتولى أمر غيره، فمعنى ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نهى المؤمنين عن أن يدخلوا فى ولاية الكافرين وتحت سلطانتهم وفى ظلهم دون ظل المؤمنين وسلطانتهم؛ فإن على المؤمنين أن يكونوا لأنفسهم دولة وولاية تظلمهم، ولا يكون أحد منهم فى ولاية غيرهم والدليل على أن أولياء هنا معناها متولون الأمر قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن دون هنا بمعنى غير، وهذا يومئ إلى ترك ولاية المؤمنين ليكونوا فى ولاية غيرهم؛ فالمعنى إذن أنه لا يجوز لطائفة من المؤمنين أن يكونوا فى ولاية غير المؤمنين. وهنا إشارة بلاغية رائعة فى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وفى قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنه من المقررات البيانية أن اللفظ إذا

(١) يُدِينَا: من الدَوَّلَةِ. والإِدَالَةُ: الغَلَبَةُ. ودَاَلَتِ الْإِيَّامُ: دَارَتْ، والله تعالى يُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ. [القاموس المحيط - فصل الدال - الدولة].

أعيد معرفاً بـ «آل» كان الثانى هو عين الأول، فإذا قلت: خاطبت رجلاً، فأفهمت الرجل حقيقة موقفه، كان الثانى عين الأول، فتكرار المؤمنين بالتعريف بآل إشارة إلى أن الثانى هو عين الأول، وفى ذلك إشارة إلى أن المؤمنين الذين يدخلون ولاية غيرهم يتركون أنفسهم، ويتخذون من عدوهم نكايَةً لأنفسهم.

وإن النهى عن تولى المؤمنين لغير المؤمنين غير معلل هنا صراحة، وإن كان قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى أن تولى المؤمنين لغيرهم يكون نكايَةً لأنفسهم، وفى آية أخرى كان النهى معللاً تعليلاً صريحاً؛ فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...﴾ [المائدة: ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ففى هاتين الآيتين تعليل صريح للنهى عن أن يكون المؤمنون أو بعضهم فى ولاية غير المؤمنين، وأن تكون سيوفهم وكل قوتهم لغير المؤمنين. والذى يستفاد من هاتين الآيتين أن السبب فى أنه لا يجوز للمؤمنين أن يتولَّوا غير المؤمنين بأن يكونوا فى ولايتهم، يتكون من ثلاثة أمور :

أولها: أن غير المؤمنين لا يمكن أن يرعوا حقوق المؤمنين حق الرعاية، بل لا يألونهم خبالاً، وقد حققت الأيام ذلك؛ فإن المؤمنين الذين يخضعون للأمم الأوروبية كمسلمى يوغسلافياً مع قيامهم بحق إقليمهم فى نصرته لا يكادون يستمتعون بأى حق سياسى، ولا يتولون أعمالاً إدارية إلا فى صغير الأمور.

وثانيها: أن الذى يكون فى ولاية غير المسلمين تكون نصرته وقوته لغير المسلمين؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إذ تكون كل قوته وكل نشاطه الإنسانى والاجتماعى لهم، وليس للإسلام منه شىء.

وثالثها: أن المسلمين الذين يكونون فى ولاية غيرهم يفتنون فى دينهم، ولو من قبيل العدوى وعدم تنفيذ أحكام الإسلام فى الدولة، وفى ذلك فساد أى

فساد؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَقْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى إلا تمتنعوا عن الدخول فى ولاية غير المسلمين تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

هذا، ويجب التنبيه إلى أن تولى المؤمنين لغيرهم ليس معناه المحبة، فإن بر المؤمن لغير المؤمن واجب إن تحقق السبب الموجب للبر؛ فقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) [المتحنة].

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى من يدخل فى ولاية الكافرين، ويترك ولاية المؤمنين فقد قطع صلته بالله سبحانه وتعالى قطعاً تاماً؛ لأن ولاية المؤمنين هى ولاية الله تعالى؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾. وقد أولها بعض العلماء على حذف مضاف، والمعنى: فليس من ولاية الله فى شىء، وبعضهم قال: فليس من الصلة بالله فى شىء، ولكن لم حذف المقدر، وجعل النفى عن ذات الله مباشرة؟ والجواب عن ذلك هو الإشارة إلى أن من دخل فى ولاية غير المؤمنين تاركاً ولاية المؤمنين، فقد ترك ذات الله سبحانه وتعالى وكان مختاراً لقوة الكفار دون قوة العزيز الجبار، فهو يعاند الله نفسه، ويحاد الله سبحانه، والله عزيز ذو انتقام، وهو ذو القوة المتين، وهو الناصر، فإن نصر فلا خذلان، وإن خذل فلا نصر: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ...﴾ (١٦٠) [آل عمران].

هذا حكم الجماعة الإسلامية أو بعضها فى الدخول فى ولاية غير المسلمين، ولكن قد يكون بعض الأحاد فى حال ضعف، وهم مضطرون لأن يعلنوا الموالاتة لبعض الكافرين، فهل يسوغ ذلك؟ ذكر الله حكم هؤلاء فى هذا الاستثناء، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى أن براءة الله سبحانه وتعالى من الذين يوالون الكفار ثابتة قائمة إلا فى حال الخوف وخشية الضرر المؤكد لبعض المسلمين

فإنه يجوز لهؤلاء أن يظهروا لهم الولاء، وهم بذلك يتقون ضررهم المؤكد؛ ومعنى: ﴿أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى تخافوا خوفا شديدا لضرر مؤكد، فتجعلوا إظهار الولاء وقاية تتقون بها الضرر؛ وقد أكد سبحانه وتعالى الخوف بالمصدر فقال: ﴿أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى يكون الضرر ثابتا لامجال للشك فيه، وألا يتجاوز الولاء المظهر واتخاذ الوقاية المؤقتة. و«تقاة» مصدر وقى على وزن فعلة، وأصله وقية، قلبت الواو تاء كما فى تؤدة أصلها وأدة، وتهمة أصلها وهمة.

وإن هذا النص يستفاد منه أن التقية جائزة، والتقية أن يظهر المؤمن غير ما يعتقد اتقاء الأذى الذى يتلف الجسم على أن يكون نزول الأذى مؤكدا، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾ [النحل] على أن يكون ذلك مقصورا على الأحوال الأحادية لا الأحوال الجماعية، وعلى أن يجتهد الذين يكونون فى ولاية غير المؤمنين أن يخرجوا من ولايتهم وألا يبقوا مستضعفين فى الأرض؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسَعَةَ فَنُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [٩٧] إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا [٩٨] فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [٩٩] [النساء].

هذا، وإن التقية الأحادية أمر لا يعلمه إلا الله، وقد يمالئ بقلبه ولسانه رجاء رجاء كما يفعل بعض ملوك المسلمين ويدعى أنه يفعل ذلك تقية ودفعاً للضرر؛ ولذا قال سبحانه محذرا هؤلاء، ومحذرا من يوالى الكفار بشكل عام: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾:

التحذير: هو التخويف لأجل الحذر واليقظة، والعمل على منع الأمر المخوف قبل وقوعه. والتحذير لا يكون إلا حيث يتوهم الشخص الأمن، ويعتقد أنه لا مخاف، ولا ما يثير الخوف؛ وإن مقام التحذير هنا واضح بين؛ لأن أولئك الذين يوالون الكافرين يظنون أن ذلك من دواعى الأمن والاستقرار، والواقع أنهم

إن آمنوا الكفار ومالاً وهم على هذا واختاروا ولايتهم دون المؤمنين، فإنهم لا يأمنون عقاب الله، فعليهم أن يحذروه .

ومعنى ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ قال بعض العلماء فيه: إن الكلام على حذف مضاف وهو: عقاب الله أو نقمته، وعندى أنه لا حاجة إلى تقدير مضاف، بل إن التحذير من ذات الله، والتحذير من ذات الله يقتضى الخوف ووقوع الرهبة فى النفس من الذات العلية، كما يقول القائل ولله المثل الأعلى: احذر الأسد؛ فإنه لا يقدر: صولته ولا شدته، إنما يريد أن ذاته فى كل أحوالها مخوفة مرهوبة. وعبر سبحانه عن التحذير من ذاته العلية بقوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ للإشارة إلى تأكيد معنى المعاندة لله تعالى عند موالة الكافرين، فإن كلمة نفس تقال لتأكيد التعبير عن الذات، كما يقول القائل: خاصمت زيداً نفسه، وغاضبت عمرواً نفسه؛ وللإشارة إلى أن ما ينزله الله تعالى مغيب غير معلن الآن؛ إذ إن التعبير بالنفس يكون لما يخفى فى أطوائها، كما قال الله تعالى عن نبيه عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة].

وهذا التحذير من ذات الله تعالى تحذير ممن يكون عقابه أدوم بقاء، ونقمته أكثر استمراراً؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿وَالَى اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أى إليه وحده المآل وانتهاء أمر العباد، فلا يكون ثمة معقب لما يقول ويفعل، والمصير إليه حيث تذهب سطوة الكفار الذين يمالئونهم على المؤمنين ويوالونهم دون المؤمنين؛ فإن كانت للكافرين قوة ظاهرة فى الدنيا فهى حال ليست باقية، والمصير إلى الله والعاقبة للمتقين، وإن كان للكافرين عزة فى الأرض فاجرة، فالعزة الحقيقية لله ولرسوله وللمؤمنين .

﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ كان التحذير والتخويف من الله سبحانه وتعالى، وقد أمر سبحانه نبيه بأن يبين لهم مقدار علمه بخفايا نفوسهم، وعلمه بالكون وما فيه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى أن علمه سبحانه وتعالى يعم الظاهر والباطن، وإن كَوْنُ الأمر ظاهراً أو باطناً

إنما هو بالنسبة لنا، أما علم الله تعالى فإنه ليس فيه ظاهر وباطن، بل العلم كله سواء بالنسبة له سبحانه وتعالى وسبق إثبات علم الله تعالى وإحاطته الشاملة في هذا المقام، لمقام التحذير أيضاً؛ لأن الذين يوالون الكافرين يظنون في أنفسهم ضعفاً وقد يظهرون أن ما يفعلون إنما هو تقية وخوف من الكافرين، والواقع أنهم يفعلون ذلك استخذاءً وذلة، أو تملقاً للأقوياء أو مDAHنة لهم على أقوامهم، أو رجاء غرض دنيوى ينالونه، كما نرى في عصرنا الحاضر، إذ نجد ناساً يبررون كل خيانة قومية ودينية، والدخول في ولاية غير المؤمنين بالتقية وحال الضعف، وما هو إلا ضعف وازع الدين وفقد اليقين، ورجاء الدنيا الدليلة، وفرار من العزة والحياة السامية الكريمة حقاً وصدقاً؛ فأمر الله نبيه أن يبين أنه يعلم ما تخفيه الصدور، وما تختلج به القلوب، وما ينوون وما يقصدون، كما يعلم ما يدون ويعلنون، وأن الله سبحانه محاسبهم على أعمالهم بنياتهم، لا بظواهر هذه الأعمال، ولا بما تتلوى به الألسنة، وإن كانت مخالفة لما تطويه القلوب.

وجعل البيان من النبى ﷺ بعد أن وجه سبحانه وتعالى التهريب بذاته العلية؛ لأن ذلك التنويع من شأنه أن يربى المهابة، كما يقول ذو السلطان محذراً مخوفاً: أحذركم مخالفتى، ثم يتركه لصفى من أصفائه يبين له مدى سلطانه وقوته وعلمه.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فى هذا بيان شمول علم الله تعالى وشمول قدرته، فهو يعلم سرائر النفوس وظواهرها، كما يبين فى الجملة السابقة، ويعلم الكون وما يجرى فيه من نجوم سارية، وأفلاك دائرة، وشمس مشرقة، وقمر منير، والسحاب وما تحمل، والرياح المسخرات بين السماء والأرض، ويعلم كل الأحوال، وكل الأزمان، وكل اللحظات، وجميع الأوقات، وما من شئ فى هذا الوجود إلا تحت سلطان علمه، وفى متعلق إرادته، وفى شمول قدرته؛ إنه فعال لما يريد؛ فكيف يتصور من عاقل أن يترك ولاية المؤمنين وهم أوليائوه، ويدخل فى ولاية الكافرين وهم أعداؤه؟ فإن كانت

الولاية للعزة والقدرة والسلطان والعلم ، فله وحده العزة والكبرياء فى السموات والأرض . وقد ذكر سبحانه شمول القدرة بعد شمول العلم ؛ لأن القدرة الكاملة لا تكون إلا عن العلم الكامل ، فكمال القدرة من مظاهر كمال العلم . ولقد قال الزمخشري فى معنى هذا النص الكريم : « هذا بيان لقوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ لأن نفسه ، وهى ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتى ، لا يختص بمعلوم دون معلوم ، فهى متعلقة بالمعلومات كلها ، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور ، فهى قادرة على المقدرات كلها ، فكان حقها أن تحذر وتتقى ، فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب ، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب ، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله فوكل همه بما يورد ويصدر ، ونصب عليه عيوناً ، وبث من يتجسس على بواطن أموره ، لأخذ حذره وتيقظ فى أمره ، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به ، فما بال من علم أن العالم بالذات الذى يعلم السر وأخفى وهو آمن ، اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترِكَ » ولقد بين سبحانه وقت تنفيذ عقوبته المؤكدة ، وهو يوم القيامة ، فقال :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ المعنى الجملى للنص الكريم : خافوا الله واحذروه ، واخشوا حسابه وعقابه ، وارجوا ثوابه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ظاهراً ثابتاً واضحاً ، كأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخرة فيرى رأى العين ، وما عملت من شر معلوماً كذلك كأنه رثى بالحس والبصر ، وتود كل نفس أن لو يتأخر أمداً طويلاً بعيداً ، وذلك لأن ما يخافه الإنسان يتمنى أن يتأخر ويؤجل ؛ ليكون عنده أطول فسحة من الأمان . وهنا عدة مباحث لفظية تجلّى المعنى :

المبحث اللغوى الأول - متعلق ﴿ يَوْمَ تَجِدُ ﴾ : لقد ذكر العلماء ثلاثة توجيهات ؛ أولها ذكره الزمخشري أنه متعلق بـ «تود» والمعنى : تود كل نفس لو

أن بينها وبينه أمدا بعيدا أى زما طويلا وقت أن تجد كل ما عملت محضرا من خير أو سوء .

وهذا يؤدى إلى أن من عملت خيرا تود أمدا بعيدا، مع من عملت سوءا، مع أن رجاء الثواب يسوغ تمنى المسارعة لا تمنى التأجيل؛ ولهذا لا نوافق عليه .

والوجه الثانى: أنه متعلق بقوله تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ بدليل قوله تعالى مكررا التحذير، فقال: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ مرة أخرى، ولكن يرد على هذا بعد القول، ومجىء جملة مستقلة بينهما، واختلاف القائل؛ فالأول من قول الله تعالى والتحذير من الله، والثانى من قول النبى ﷺ بأمر الله ولكن قد يرد هذا الاعتراض بأن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوْهُ﴾ معترضة بين كلامين متلازمين للمسارعة بإثبات شمول علم الله تعالى وقدرته .

التوجيه الثالث: أنه متعلق بمحذوف تقديره: اذكروا، وهذا أسلمها فى نظرى .

المبحث اللغوى الثانى - قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ﴾ أهى معطوفة على ﴿مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ﴾ أم «ما» مبتدأ خبره «تود»؟ أظهر الأقوال أنها مبتدأ وجملة تود خبر، والمعنى: ما عملت: ما عملت من خير تجده محضرا، وما عملت من سوء تمنى كل نفس أن يكون بينها وبينه أمد بعيد .

المبحث الثالث - الأمد اسم للزمان كالأبد يتقاربان، لكن الأبد كما قال الأصفهاني مدة من الزمان ليس لها حد محدود، ولا يتقيد، فلا يقال: أبد كذا؛ أما الأمد فمدة لها حد مجهول، إذا لم يصف إلى غاية معينة، فإن أضيف كان محدودا بهذه الغاية. والمعنى أن النفس التى تجد عملها السيئ محضرا تود لو يتأخر أمدا بعيدا، ولكن لا تحقيق لهذا التمنى .

ولقد كرر الله سبحانه التحذير من نفسه تذكيرا، وليكون فى بال المؤمن دائما، وليبان أن ذلك التحذير من دواعى الرحمة كما هو من تربية الرهبة، فهو

قد ذكر تمهيدا لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فتذكير العباد وتحذيرهم من رحمته بهم حتى لا يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر، وختمت الآية بهذا التذييل الكريم؛ لإثبات أن عقاب المسيء وثواب المحسن من الرحمة، فليس من الرحمة في شيء أن يتساوى المحسن والمسيء، ولإثبات أن ولاء المؤمنين ومعاداة الكافرين من الرحمة بالعباد، حتى لا يعم الظلم ويتشتر الفساد. اللهم وحدّ الولاية الإسلامية، واجعل المسلمين جميعا بعضهم أولياء بعض.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

يؤمن المؤمن رغبة في الثواب، ويؤمن المؤمن خوفا من العقاب، ويؤمن المؤمن إذعانا للحق، ومحبة للرب، وإخلاصا وخلاصا من أدران الهوى، ومآثم هذه الدنيا؛ وتلك أعلى المراتب، وأشرف المناصب، وبها يعلو المؤمن.

وفي الآية السابقة حذر الله المؤمن من نفسه، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فكانت هذه الآية تدعو المؤمن إلى الطاعة ولزوم الجماعة بالترهيب، وفيها إشارة إلى الترغيب في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وفي هذه الآية يدعو إلى الطاعة لا خوف العقاب ولا رجاء الثواب، ولكن لأن الطاعة تؤدي إلى أعلى منازل السائرين، وهي المحبة: محبة الله لعبده، ومحبة العبد لربه.

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله تعالى آية المحبة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وجعل سبحانه وتعالى الخطاب منه للنبي ﷺ إليهم لبيان شرف النبوة وعلوها، ومكانة الاتصال بينها وبين الله سبحانه وتعالى؛ إذ جعل اتباع الرسول يكون من نتائجه محبة الله تعالى.

وكون النبي ﷺ هو الذى يخاطب بذلك ويقرره، وأن الله تعالى يمضى ما يقرره، علو بمقام الرسالة المحمدية، وبمقام النبوة؛ لأن فيه إشعارا بعظم محبة الله لنبيه، وأنها فوق كل محبة؛ فإذا كان من يتبعه يحبه، فهو إذن فى أعلى درجات المحبة؛ ولأن فيه بيان أقوى الاتصال؛ لأن خطابه لهم هو خطاب من الله لهم، بدليل أن المحبة من الله تجيء نتيجة لاتباعه الذى دعا إليه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فيه إيجاز معجز، وهو إيجاز حذف دل عليه المقام؛ لأن المعنى: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى، وإن اتبعتمونى يحببكم الله؛ لأن جواب فعل الأمر فى معنى الجزاء، فكان ثمة فعل شرط مقدر؛ وإن هذه الجملة السامية تدل على ثلاثة أمور:

أولها: أن أول طرق محبة الله تعالى هو اتباع الرسول ﷺ؛ لأن طاعة الرسول طاعة لله تعالى جلت قدرته، وعصيان الرسول عصيان لله تعالى، وليس من المعقول أن يحب الله تعالى ويعصيه؛ ولذلك يقول الشاعر الصوفى:

تعصى الإله وأنت تُظهر حبه هذا لعمري فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

الأمر الثانى الذى يدل عليه النص الكريم: أن الطاعة ومحبة العبد لربه يترتب عليهما حتما محبة الله سبحانه وتعالى لعبده. وأى منزلة للطاعة أسمى من أنه يتبعها حتما محبة الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث الذى يدل عليه النص القرآنى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أن من يصل إلى مرتبة المحبة التى تبتدئ بالطاعة وتنتهى بمحبة الله تعالى يغفر له الله

سبحانه وتعالى كل ما كان له من تقصير سابق وإثم قد جلته المحبة عن القلب؛ وذلك لأن السيئات أدران تعلق بالقلب، فإذا وصل إلى درجة محبة الله تعالى، بعد قيامه بحق الطاعات، انصهر قلبه بهذه المحبة، وإذا انصهر القلب بالمحبة زال عنه كل خبث ومحي كل درن، فصفاً، والله سبحانه وتعالى يغفر لمن يصل إلى هذه المرتبة. ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

وصفان كريمان للذات العلية : أولهما أنه غفور؛ أى أنه كثير الغفران لعباده؛ لأن فعول تدل على المبالغة، ووصف الله تعالى نفسه بهذا الوصف للإشارة إلى أنه يحب من عباده الطاعة، ويحب من عباده التوبة؛ فهو ليس كحكام الدنيا الذين يفرضون العقاب ولا يتمنون لرعاياهم الخلاص منه، بل يتمنون إنزال العقوبة بهم، والله سبحانه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم يقبل التوبة عن عباده، ويحب المغفرة، ولذلك وصف بالتواب؛ فالعقاب ليس لذاته، ولكن لكيلا يتساوى المسئء بالمحسن، وليحمل المسئء على الطاعة ويستمر المحسن على إحسانه.

والوصف الثانى الذى وصف به ذاته العلية: أنه رحيم. وكان من رحمته أن قبل التوبة وغفر الذنب، ومن رحمته أنه أرسل الرسل بالبينات ليقيموا القسط بين الناس، وَيَعْلَمُوا هذه الشرائع التى بها صلاح الدنيا، وبها تقوم على الخير والفضيلة؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]، وكان من رحمته أن سنَّ العقاب للمسئء المستمر على إساءته الموغل فى الفساد؛ فإن من يفسد فى الأرض يكون من الرحمة عقابه، ومن لا يرحم الناس كان من مقتضى الرحمة بالناس أن لا يرحم؛ ولذا قال النبى ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»^(١).

(١) رواه البخاري: الأدب - رحمة الولد وتقبيله (٥٥٣٨)، ومسلم: الفضائل - رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٤٢٨٢).

وقبل أن نترك الكلام فى هذه الآية الكريمة، لابد من الإشارة الواضحة إلى

أمرين :

أولهما: فى معنى الاتباع الذى يوجب المحبة، ومعنى ترتيب المحبة على الاتباع.

وثانيهما: التعريف بهذه المحبة التى يتصف بها العبد، وتترتب عليها محبة الله تعالى: أهى الطاعة أم شىء أعلى من الطاعة؟ وما محبة الله: أهى الرحمة أم أمر أعلى من الرحمة والإحسان، ولله الفضل والمنة فى كل حال.

أما بالنسبة للأمر الأول؛ فإن النص الكريم ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ يفيد الطريق والغاية، أو الدليل والنتيجة؛ أما الطريق فهو اتباع الشريعة، وأما الغاية القصوى فهى محبة العبد لربه، ومحبة الرب لعبده، أى تبادل المحبة بين الخالق والمخلوق، وكل بما يليق به، وبما يتفق مع نوع وجوده؛ فواجب الوجود وذو الكمال المطلق جل جلاله محبته تليق بذاته العلية، وجائز الوجود الحادث المخلوق محبته حال يتفق مع حدوثه، ونقص وجوده.

وقد فصل الله الاتباع الذى يوجب المحبة السامية بعض التفصيل فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

فعلامات الاتباع التى يترتب عليها أن يحبهم الله ويحبوه، أربع:

أولها: أنهم أذلة على المؤمنين، وقد قال عطاء فى هذا: إنهم للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... ﴿٦٩﴾﴾ [الفتح].

والعلامة الثانية: أنهم أعزة على الكافرين، أى لا يخضعون للكافرين ولا يحالفونهم على المؤمنين، ولا يختارون أن يدخلوا فى ولايتهم ويتركوا ولاية المؤمنين.

العلامة الثالثة: الجهاد فى سبيل الله بالنفس واللسان والمال، وذلك هو تحقيق دعوى المحبة.

والعلامة الرابعة: أنهم لا يأخذهم فى الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب أخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة^(١).

تلك هى آيات الاتباع الذى يوجب هذه المحبة، وقد وصف النبى ﷺ كمال الإيمان الذى يوجب هذه المحبة، فقال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»^(٢) وهذا الوصف هو الجامع لكل الأمارات التى لا يند عنه^(٣) شىء منها.

هذا هو القول فى الأمر الأول، وهو الاتباع الذى تترتب عليه المحبة. بقى أن نتكلم فى الأمر الثانى وهو التعريف بالمحبة التى تكون من الله للعبد، والمحبة التى تكون من العبد لله تعالى:

أما محبة الله فحال من أحوال الذات العلية لا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها وهى تليق بذاته الكريمة، وتتفق مع صفات الجلال والكمال التى يتصف بها واجب الوجود، والذى خلق بقدرته كل موجود، وهى غير الإحسان، وإن كانت من فضل الله، وغير الرحمة، وغير الرضا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلها لبعض عباده، والإحسان والرحمة يَعُمَّان كل موجود، والرضا وإن جعله جزاء أعلى للمحسنين، كما قال فى جزاء المؤمنين بعد ذكر الجنات والنعيم المقيم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) [التوبة] نجد المحبة أكثر منه. وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فكان هذا دليلا على أنهما متغايران بالنسبة لذاته العلية، كما أن المدلول اللفظى لهما متغايران، وإن كانت المحبة تتضمن الرضا لا محالة، بل إنها لا تكون إلا حيث يكون أقصى الرضا، هذه إشارة إلى محبة الله لبعض عباده الذين اصطفاهم.

(١) جاء فى هامش الأصل: راجع فى هذا الجزء الثالث من «مدارج السالكين»، ابن قيم الجوزية، ص ١٤.

(٢) البخاري: الإيمان - حلاوة الإيمان (١٥)، مسلم: الإيمان (٦٠).

(٣) أي لا يشرد. نَدَّ البعير يَنْدُ نُدُودًا إِذَا شَرَدَ. لسان العرب - باب النون - ندد.

وأما محبة العبد لربه، فقد قال الحارث المحاسبى فى تعريفها بأنها: الميل بكُلِّيته لربه، وإيثاره على نفسه وماله، ثم مرافقته له سرا وجهرا، ثم اعتقاده تقصيره فى حقه مهما يؤدُّ من واجبات وطاعات.

ومحبة العبد لربه غير طاعته المجردة لأوامره ونواهيه، وإن كانت ملازمة للاتباع المطلق للأوامر والنواهي، وفى الحقيقة إن طاعة العبد لربه لها مرتبتان: أولاهما: الطاعة رجاء الثواب وخوف العقاب، والثانية: الطاعة محبة لله تعالى ولقد قال فى هذا المعنى النبى ﷺ فى وصف بعض أصحابه «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه». ولقد قال الله تعالى فى وصف المؤمنين المتقين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء] فإن هذا النص الكريم دل على أن ثمة مقامين جليلين: مقام الطاعة رجاء الثواب وخوف العقاب، والطاعة بالتوسل إلى الله والتقرب منه، كما قال تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ وهذا مقام الطاعة محبة وازدلافا إليه سبحانه، وهذه هى الوسيلة المبتغاة، والمحبة المرتجاة، وإن المحبة تقتضى الأئس بذكر الله تعالى، فتكون النفس ممتلئة بالسرور لقرب الله، ومعرفة الله، وكمال العبودية له، والشعور بكمال ألوهيته، حتى يستغرق ذلك كل حسه، وكل نفسه وقلبه، ولا يكون موضع لتذكر سواه.

والمحبة هى غاية التصوف العالى وسمته وعنوانه؛ ولذا يقول ابن القيم فى مدارج السالكين: «المحبة سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق، وقعد من سواهم على الرسوم».

والمحبة ثلاث درجات:

أولاهما: استغراق النفس بذكر الله، فلا يرتفع إلى مقامه فى القلب ذكر شئ سواه، ويصف الهروى فى «منازل السائرین» تلك المحبة بأنها: تقطع الوسائس، وتسلى عن المصائب، وتثبت تلك الدرجة من الشعور بقوة الله، ومن اتباع السنة المحمدية، والشعور بالحاجة والفاقة إليه تعالى.

والدرجة الثانية: وهى أعلى من هذه فى درجات المحبة - هى التى يلهم فيها اللسان بذكر الله بعد امتلاء القلب، والجوارح بإثارة الحق، ويقول فيها ابن القيم: «فيها مطالعة الصفات، وشهود معانى آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة. وكل منها داع قوى إلى محبته سبحانه؛ لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وألوهيته، وعلى حكمته وبره وإحسانه، ولطفه وجوده، وكرمه وسعة رحمته، وسبوغ نعمه، فإدامة النظر فيها داع لا محالة إلى محبته»^(١).

والدرجة الثالثة: المحبة التى يكون فيها الشهود بنور القلب. وجاء فى «منازل السائرين» فى هذه المحبة (هذه المحبة هى قطب هذا الشأن، وما دونها محاب نادت عليها الألسن، وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول).

هذه إشارات موجزة إلى ما يقوله أهل التصوف فى المحبة بين العبد وربّه، وقد قبسنا منها قبسة نرجو أن تضىء فى هذا الموضوع، وإن كانت لا تدفىء.

وإن العبرة فى هذا الموضوع هى أن الشريعة لا يصح أن تنسى حتى فى أعلى مقام للمحبة، فإنها هى الدليل المرشد، والمصباح المنير لمن يريد أن يصل إلى درجة المحبة الحقيقية، وهى أعلى درجات الإيمان، وأقوى درجات الاتباع. فاتباع أحكام الشرع هو طريق المحبة عند أهل السنة الراشدين، وتنكب طريق الاتباع وادعاء الارتفاع عن التكليف هو مَخْرَف أهل الابتداع الضالين.

وإذا كان ذلك هو الحق، فإطاعة الله ورسوله هى فيصل التفرقة بين الحق والباطل وبين محبة الله ومحبة الضلال، وبين الإيمان والكفر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

الأمر للنبي ﷺ بأن يدعوهم إلى طاعة الله وطاعته، وهو معنى الاتباع فى الماضى، وتكرر الأمر بهذه الصيغة للإشارة إلى أن اتباع الرسول هو طاعة لله

وللرسول، فمن اتبع الرسول لا يطيع الرسول فقط، بل يطيع الله رب العالمين، وما كان الرسول ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، والسبب فى التكرار فى ذاته هو تأكيد المعنى الذى قررناه، وهو أن محبة العبد للرب ليس لها طريق إلا الاتباع، ولذا يقول الزمخشري فى الكشاف: «من ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبته، ويصفق بيديه مع ذكرها، ويطرب وينعر ويصفق، فلا تشك فى أنه لا يعرف ما الله، ولا يدرى ما محبة الله. وما تصفيقه وطربه ونعرتة وصعقته إلا لأنه تصور فى نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسامها الله بجهله ودعارته ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصورها».

وهنا إشارة بلاغية تتفق مع المقصد الأسمى من الآيتين الكريمتين، وهو إثبات أن محبة الله تعالى طريقها المستقيم الذى لا عوج فيه هو اتباع الرسول، وتلك الإشارة أنه سبحانه قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فقد ذكر الأمر بالإطاعة غير مكرر عند العطف، فلم يقل: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وعدم التكرار يومئ إلى أن الطاعة واحدة، وأن إطاعة الرسول إطاعة لله تعالى، كما صرح سبحانه وتعالى بذلك فى قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ۝٨٠﴾ [النساء] وإن من إعجاز القرآن الكريم أن تكون العبارات والإشارات البيانية كلها تتجه إلى مقصد النص الكريم وترشح له.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أى فإن أعرضوا عن اتباع ما تدعوهم وهو اتباعك الذى به تكون إطاعة الله ومحبته، فإنهم لا ينالون محبة الله تعالى؛ لأنهم كافرون؛ إذ تعمدوا ألا يطيعوك، وأنكروا أن اتباعك طريق محبة الله رب العالمين. ففى هذا النص الكريم دلالة على أن محبة الله لا ينالها إلا من يتبع الرسول بأبلغ ما يكون من بيان، وذلك لوجوه:

أولها: أنه سبحانه عبر بأنه لا يحبهم، وليس بعد نفى الحب إلا البغض والسخط، فالله ساخط على من لا يتبعون الرسول، وإذا كان رب العالمين ساخطا عليهم، فمن المؤكد أنه لم يعتبر حالهم حال من يحبونه ويتبعون رضاه.

وثانيها: أنه عبر عن تركهم اتباع الرسول بالتولى وهو الإعراض، وكيف يكون طالبا لمحبة الله من يعرض عن طاعة الله.

وثالثها: أنه سبحانه وتعالى عبر عنهم في حال الإعراض متعمدين منكبين بأنهم كافرون، وكيف يكون محبا لله ومحبويا من الله من يكون كافرا بأوامره، منكرا لرسالته، معاندا لرسوله! إن ذلك في القياس غريب.

اللهم وفقنا لاتباع نبيك لنترفع إلى مقام من يحبونك، ولننال سمو محبتك. فقد قال نبيك وقوله الحق: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(١).

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
وَعَالِ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ

(١) رواه مسلم: البر والصلة والآداب - إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده (٤٧٧٢)، وأحمد: باقي مسند
المكثرين (٨٩٨٤)، ورواه البخاري: التوحيد - كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة (٦٩٣١).

وَلَيْسَ الَّذِي كَرِهَ كَالَّذِينَ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا لَكَ
 وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
 حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
 زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمَرِمُ أُنَى لَكَ هَذَا
 قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

أشار سبحانه وتعالى في الآيات السابقة إلى اختلاف المشركين وقتالهم
 المؤمنين وإلى اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا
 اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...﴾ ﴿١٩﴾ [آل
 عمران]، ثم أشار سبحانه إلى محبته لعباده الذين يطيعونه ومحبتهم له، ورأفته
 سبحانه وتعالى بعباده، وسبق رحمته لغضبه وفي هذه الآيات: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
 آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بين سبحانه وتعالى وحدة
 الإنسانية التي ما كان يسوغ معها خلاف إلا ممن ضل سبيل الهداية، ووحدة النبوة
 والرسالة الإلهية، التي وحدت بها شريعته تعالى، وما كان يسوغ بعد هداية الله
 تعالى خلاف إلا إذا كان الضلال. ثم بين سبحانه من يجتنبهم ومن يضطفي
 ويحب من عباده، وكيف يحبونه هم ويخلصون لذاته العلية: بأن يسلّموا
 وجوههم له سبحانه وتعالى، ويحررون أولادهم لعبادة الله تعالى.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذا أربع قصص، كلها بصور قدرة الله
 سبحانه وتعالى وإرادته في خلقه، ولا تخلو واحدة منها من خوارق العادات.

وأولى هذه القصص: قصة مريم البتول، وكيف كانت خالصة لله تعالى مذ
 حملت بها أمها، حتى ولدت، ولزمت المحراب، وكفلها زكريا، وكيف كانت
 مرزوقة مكفولة يأتيها رزقها رغداً بغير حساب.

والقصة الثانية: قصة زكريا، وكون الله سبحانه وتعالى قد وهب له يحيى، مع أنه كان قد بلغ من الكبر عتيا، وامراته عاقر، وبذلك خرقت العادة المعروفة، وهو أن العاقر لا تلد قط، وهذا قد أنجب وقد أصابته الشيخوخة، وامراته عاقر لا تلد.

والقصة الثالثة: قصة ولادة السيد المسيح عليه السلام، وقد كان ذلك أعظم خرق للعادات، إذ ولد من غير أب، وفي ذلك تتسلسل القصص الثلاث في خوارق تستدئ بالخارق القريب من المعروف ثم بغير المعروف مطلقا، ثم بالخارق الغريب الذى لم يعرف قط لغير عيسى بعد أن انتشر بنو آدم فى الأرض.

القصة الرابعة: قصة حياة عيسى، التى اشتملت على خوارق كثيرة كانت فى ذاتها أغرب من ولادته؛ منها: إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله على يديه، وهكذا غيرها.

وقصص القرآن ليس المقصود منه مجرد السرد التاريخى، كما يسجل التاريخ وتدون قصصه، إنما قصص القرآن المقصود به أولا: العظة والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ [يوسف]، ثم ثانيا: إثبات صدق الرسول ﷺ؛ وذلك لأن هذا القصص الحق يتفق مع الصادق من كتب أهل الكتاب يجرى على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلم، ولم تعرف ملازمته لأحد من أهل الكتاب حتى يطلعه على ذلك، بل كان المنقطع فى بلد أمى ليس به علم يدرس، ولا فلسفة تبحث. ثم المقصود ثالثا: بيان وحدة الشرائع الإلهية السماوية؛ لأنها جميعها تنبعث عن مصدر واحد، وهو رب السموات والأرض وما فيهما؛ فبيان قصص النبيين السابقين وما كانوا يلقون فى الدعوة إلى التوحيد دليل على أن التوحيد هو الوحدة الجامعة بين كل الشرائع، وهو الحد الفاصل بين ما هو من السماء، وما هو من إفك أهل الأرض. وفى بيان قصص النبيين تسلية للنبي ﷺ، وتسرية عن شذائده بالاستبصار فيما لقيه غيره من عنت.

وفى قصص النبيين وكفر أقوامهم مع الآيات الحسية التى أتى بها النبيون بيان أن الكفر ليس منشؤه نقصا فى اليينات، ولكنه ينشأ من الجحود وغلبة الهوى، والإعراض عن مناهج الاستدلال الصحيح. ولعل أوضح مثل لذلك، الآيات التى أجراها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام؛ فما كانت وراءها آيات تقرر الحس، وتدل على خوارق العادات كهذه الآيات، ومع ذلك كفروا وما آمنوا، وما ازدادوا إلا طغيانا وعتوا.

هذه مقدمة نقدم بها قصة أولئك الأبرار الأطهار، ونبتدئ بما ابتدأ به القرآن الكريم من قصة مريم البتول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

معنى الاصطفاء: طلب الصفوة من كل شىء، ولذلك قالوا إن معناها اختارهم مؤثرا لهم على غيرهم، وفى التعبير بالاصطفاء إشارة إلى أن آدم ونوحا، وآل إبراهيم وآل عمران هم صفوة الناس والتعبير بعلی فى قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى معنى التفضيل على غيرهم من الناس؛ فهم صفوة الناس، وهم مفضلون على كل الناس. وآل إبراهيم هم أسرة إبراهيم بفروعهم، سواء منهم من أوا إلى مكة وكان منهم صفوة الخلق محمد ﷺ، ومن كانوا فى الأرض المقدسة وكان منهم النبيون من بعد؛ وآل عمران هم ذرية عمران، وهو أبو مريم البتول، ومن ذرية عمران السيد المسيح عليه السلام الذى خلقه رب العالمين بكلمة منه هي «كن».

وإن فى ذلك التسلسل إشارة إلى أن الخليقة لم تخل من هاد يهديها إلى الحق وإلى صراط مستقيم؛ فقد ابتدأت الهداية بأبى الإنسانية آدم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ﴿١٢٢﴾ [طه] فهو أول خليفة، وأول هاد للإنسانية بمقتضى أبوته، وبمقتضى اجتباء الله تعالى له، وقد حكم بأنه هداة، واهتدى به بنوه من بعده.

ثم جاء نوح من بعده بسنين وقرون لا يعلمها إلا علام الغيوب، وهو الأب الثاني للخليقة، فاصطفاه رب العالمين للهداية كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّاهُمَا نُوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ...﴾ (٨٤) [الأنعام].

ثم جاء من بعد ذلك بقرون لا يعلمها إلا فاطر السموات والأرض أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فكان هو وآله من أقارب كلوط وذريته التي جاءت من بعده فيها صفوة الخلق وفيهم النبوة، فكان منهم إسماعيل ومحمد في فرع، وإسحاق وبنوه في فرع آخر، وكان من هؤلاء آل عمران وهم ذرية عمران وأقاربه كزكريا ويحيى عليهما السلام، ومن تلك الدوحة النبوية عيسى عليه السلام الذي ختمت به تلك الشعبة من أولاد إبراهيم. وتسلم الرسالة الخالدة إلى يوم القيامة الفرع الثاني من أولاد إبراهيم وهم ذرية إسماعيل، فكان محمد، وبه ختمت الرسالة الإلهية في هذه الأرض. وعمران هذا هو أبو مريم كما نصت على ذلك الآية التالية، ولا حاجة لفرض أنه عمران آخر، وهو أبو موسى، فذكر اسم واحد في مقام واحد يشير إلى أن المدلول واحد، ولا حاجة إلى فرض التغاير. وكلمة الآل تشمل الأقارب من العصابات، والذرية.

ولقد بين الله سبحانه بعد ذلك تسلسل هذه الصفوة المختارة بعضها من بعض فقال: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

الذرية هم الفروع من الأولاد وأولادهم مهما نزلوا، وأصلها من مادة «ذرأ»، وقيل من «الذرو»، وقيل من «الذر»، وكل هذه الألفاظ تنتهي إلى التكوين والتفرع فرعا من بعد فرع؛ ومعنى النص الكريم أن أولئك المصطفين الأخيار بعضهم ذرية من بعض، فهم متصلو النسب بسلسلة لا تنقطع؛ فنوح من ذرية آدم، وآل إبراهيم من ذرية نوح، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم، وهكذا، فهي سلسلة متصل بعضها ببعض في النسب والهداية. ويترتب على أن بعضهم من بعض أن تشابه صفاتهم في الخير والفضيلة ما داموا جميعا مصطفىين، وما داموا جميعا من سلسلة ونسبة واحدة. وقد قال بعضهم إن معنى ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ

بَعْضُ ﴿ أَنَّهُمْ مُتَشَابِهُونَ ﴾، كقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ...﴾ [التوبة: ٦٧] فهم يشبه بعضهم بعضا، وهم ذرية واحدة لأدم. والحق أن ذلك المعنى يجيء بالالتزام من المعنى الأول فليس مغايرا له من كل الوجوه.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى كمال إحاطته، وإلى أنه إذ اصطفى هؤلاء اصطفاهم على علم كعلم من يسمع، أى أنه علم دقيق لا يخفى على الله شئ فى الأرض ولا فى السماء، وإن ذلك النص الكريم فيه تمهيد لما سيتلى من بعد، وهو قول امرأة عمران، فقد قال تعالى حاكيا عنها:

﴿إِذْ قَالَتُ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتُ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم علم من يسمع فى الوقت الذى قالت فيه امرأة عمران ذلك القول، فهو سبحانه وتعالى سمع قول امرأة عمران ذلك القول، ونَذَرَهَا ذلك النذر، وقد عقدت العزم على أن يكون ما فى بطنها خالصا لله سبحانه وتعالى؛ ومعنى النذر التزام التقرب إلى الله تعالى بأمر من جنس العبادات المفروضة؛ وقد نذرت هذه السيدة الكريمة لله، أى التزمت لله أن يكون ما فى بطنها محررا، أى خالصا لله سبحانه وتعالى وللخدمة بيته المقدس؛ فمعنى «محررا» أى مخلصا للعبادة والمناجاة، ومن أخلص للعبادة فقد صار عتيقا من كل رق فى الدنيا، فهو عتيق من رق الهوى، ومن رق الرجال، ومن رق ذوى السلطان؛ لأنه يكون خالصا لمالك الملكوت، ومن خلص له تعالى فقد عتق من كل رق فى الدنيا.

وعمران: هو أبو مريم بهذا النص، وهو عمران المذكور أولا كما ذكرنا، وفرض المغايرة بأن يكون الأول عمران أبا موسى، وأن عمران هذا هو أبو مريم، تكلف لا حاجة إليه، وليس فى النص ما يدل عليه.

قصدت امرأة عمران تلك العبادة واحتسبت هذه النية راجية ما عند ربها، وأول رجائها أن يقبل نذرها؛ ولذلك تضرعت إليه أن يقبل فقالت: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أى أضرع إليك أن تقبل نذرى، فإنك سمعت ما قلت، وما حدثت به نفسى، وما احتسبت به القربى عندك، فكان النذر بذاته عبادة، وكان الدعاء بالقبول عبادة أخرى، فإن الدعاء مخ العبادة، خصوصا فى ذلك المقام الروحانى السامى الجليل، والتقبل هو الأخذ بالأمر فى طريق القبول، حتى يتم القبول، فكأنها ما كانت تطمع فى القبول بادئ ذى بدء، بل تطمع فى أن ينظر فى الأمر نظرة رضا حتى ينال القبول، وتلك مرتبة الصديقين يستصغرون أعمالهم بجوار رضا الله. ولقد كانت إجابة الله تعالى لهذه العبادة التى طويت فى ثنايا النذر، والعبادة الأخرى التى طويت فى ثنايا ذلك الدعاء الضارع، ما حكاه بقوله تعالى من بعد لما وضعتها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

وهى فى نذرها وفى ضراعتها لقبول هذا النذر كانت تفرض أن الحمل ذكر، لأنه هو الذى يصلح لسدانة المسجد الأقصى والبيت المقدس، ولكنها عند الولادة تبين أنها أنثى، فذكرت ذلك، وأشارت فى ذكرها إلى تقديرها وفرضها؛ ولذا حكى الله عنها أنها قالت:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِيسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أى أنها قدرت الحمل ذكرا، وقدرت لذلك أن يكون فى خدمة البيت وأنها لذلك تتحسر؛ لأنه لا يستطيع المولود بعد أن تبين أنه أنثى الخدمة، فليس فى هذه الخدمة المقدسة الذكر كالأنثى، فإن الأنثى لا تستطيع ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ جملة معترضة بين كلاميها؛ وهى تشير إلى أن الله تعالى أعلم منها بما وضعت، فليس لها هذا الاعتذار لأن من تعتذر إليه، وتتحسر بين يديه أعلم منها بما وضعت؛ لأنه هو الذى خلقه وجعله أنثى، وهو أعلم بما يصلح له، وهو وحده العليم بما هيا له فى لوح القدر، فإذا كانت لا تستطيع خدمة البيت كالذكر فقد اختارها رب العالمين ليكون منها عيسى عليه السلام من

غير أب؛ ولذا قال الزمخشري في هذا: «قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ تعظيما لموضوعها . . ومعناه والله أعلم بالشئ الذى وضعت وما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهى جاهلة بذلك لا تعلم عنه شيئا». وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ إما من كلام الله فيكون فى الجملة المعترضة، ويكون المعنى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى أعطيت فى الشرف والمكانة والعبادة بل هو دونها، وهذا هو الظاهر؛ وإما أن يكون من كلامها وهو غير الظاهر؛ إذ يكون الأولى حيثئذ التعبير بقولها: وليس الأنثى كالذكر لأنها ترى الذكر أفضل.

ومع أن هذه التقيّة تتحسر على أن مولودها لم يكن ذكرا كما قدرت؛ ليكون فى خدمة بيت الله تعالى كما نوت، فقد رضيت بما وهب الله تعالى، وضرعت إليه أن يهديها ولذا قالت :

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فهى قد اختارت الاسم راضية بما أعطيت، قال الزمخشري فى الكشف: «وإن اختيار الاسم فيه تقرب إلى الله تعالى؛ لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة والخادم، فأرادت بذلك التقرب إلى الله، والطلب إليه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها، وأن يصدق فيها». ولذا طلبت إلى ربها أن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم. ومعنى الإعازة أن تكون فى ملجأ من الله تعالى يعصمها من الشيطان؛ وذلك لأن التعوذ الالتجاء. فمعنى أعوذ بالله ألبأ إليه، وأتخذ منه معاذاً؛ ومعنى أعذته بالله من الشيطان جعلت الله تعالى معاذاً له منه، وهذه الإعازة كانت دعاء من الله تعالى، فكان هذا الدعاء عبادة أخرى. وهكذا اقترنت ولادة مريم وحملها من قبل بعبادات متضافرة متوالية مستمرة، وضراعة تدل على خلاص النفس وإسلام الوجه لله تعالى.

والشيطان: ما يوسوس فى النفس، وهو يجرى من الإنسان مجرى الدم. والرجيم أى المطرود المنبوذ من رحمة الله من وقت قال له رب البرية: ﴿قَالَ

فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِتْنَةً رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ [الحجر]. وإن الله تعالى عصم بهذا الدعاء مريم وابنها من أن يمسهما الشيطان. وقد ورد في ذلك بعض الآثار.

ولقد قال الزمخشري في ذلك: يروى من الحديث «مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»^(١) فالله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتها كقوله تعالى: ﴿وَأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر] واستهلاله صارخا من مسه تخيل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لَمَّا تُؤذَنُ بِهِ الدُّنْيَا مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُؤَلَّدُ

تلك ضراعات امرأة عمران عند ولادة مريم البتول، وقد تقبل الله نذرها، وأجاب دعاءها؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ قلنا إن التقبل هو أخذ الأمر بالنظرة الراضية المستحسنة غير المستهجنة، ويكون القبول نتيجة له، وقد ضرعت أم مريم أن يؤخذ نذرها مأخذ الرضا والاستحسان من ربها، فيقبل، وقد أجاب الله دعاءها، وعلى ذلك لا يكون التقبل بمعنى القبول، ولقد قال في ذلك الراغب الأصفهاني: (إنما قال: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، ولم يقل: بتقبل حسن؛ للجمع بين الأمرين التقبل الذي هو التدرج في القبول، والقبول الذي يقتضى الرضا والإنابة).

هذا هو قبول النذر، أما إجابة الدعاء وهو ألا يمسهما الشيطان أو لا يكون له سلطان عليها؛ لأنها من عباد الله المخلصين، فقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا

(١) متفق عليه؛ رواه بهذا اللفظ البخاري: تفسير القرآن (٤١٨٤)، ومسلم: الفضائل - فضائل عيسى عليه السلام (٤٣٦٣).

نَبَاتًا حَسَنًا ﴿١٢٠٠﴾ أى أنشأها برعايته ومحبته وحَصْنَهَا، وكانت حالها كالنبات ينبت به رب العالمين فينمو يوما بعد يوم حتى يستوى على سوقه، فكذلك كان مع مريم: تولى رعايتها من المهد، وغذاها بغذاء من الروح، فبعدت عن كل شر، وغذاها ونماها جسميا، فجعل لها رزقا مستمرا يأتيها من حيث لا تحتسب، ولا يحتسب كافلها، أما التنشئة الروحية التهذيبية فقد كانت: بأن نشأت فى بيت العبادة، وإن كان الكافل لها نبيا من الأنبياء، وأما الثانى فبالرزق المستمر كما أشرنا، وقد ذكرهما الله تعالى بقوله:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾:

﴿وَكَفَّلَهَا﴾: أى ضمها إلى زكريا؛ لأن الكفالة فى أصل معناها الضم، وقد ضمها إليه لتكون فى رعايته، وكان ذلك بإرادة الله، ونتيجة اقتراع كان بينهم؛ ذلك بأن الصالحين من قومها تنازعوا فيمن يكفلها، فاقترعوا فكانت القرعة لنبي الله زكريا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا لَهُمْ آيُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [آل عمران] فكانت تلك القديسة الطاهرة فى رعاية نبي، وتربت فى مهد النبوة، لتكون هى وابنها آية للعالمين.

وأما كفالة الله تعالى لرزقها، فقد أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ المحراب هو مقدم بيت العبادة، فكانها كانت فى عكوف دائم بالمسجد منذ غرارة الصبا، بل كان ذلك وهى بالمهد، والرزق كان يجيء من حيث لا يحتسب كافلها، إما من هبات توهب لها، أو من فيوض الله تعالى عليها، وهو خالق كل شىء، فمن خلق من العدم كل هذه الموجودات قادر على أن يؤتى لهذه المصطفاة رزقا جاريا لا يعلمه إلا هو، وهو على كل شىء قدير. ومن أنكر ذلك، فقد أنكر علم الغيب، وهذا التخريج الأخير هو ما نراه حقا؛ ولذا عجب زكريا منه، فقال سبحانه حاكيا عنه:

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عجب نبي الله فقال: أَنَّى لك هذا؟ أى من أين لك هذا؟ فإن أَنَّى تكون بمعنى كيف، كما قال تعالى: ﴿فَاتُوا حَرَّتُكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ...﴾ (٢٢٣) [البقرة] وتكون بمعنى من أين، وهى هنا كذلك؛ عجب نبي الله من هذا الرزق، وما كان العجب إلا لأنه لا يعرف سببه، ولو كان يعرف أنها هبات تأتيها ما ثار عجبه، ولقد كانت إجابتها إجابة الربانيين الأبرار؛ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. أكدت أنه رزق الله، ولذلك أنت بالضمير، ثم أكدت ذلك بما يزيل العجب، فقالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى أن رزق الله كثير غير محدود بحد، ولا مقدر بقدر؛ ولذا لا يحده الحساب، ولا تجرى عليه الأعداد التى تنتهى. ويصح أن تكون هذه الجملة السامية من كلام الله تعالى لتقرير ما قالت، وبيان أن الله أجرى عليها الرزق لينمو جسمها مع نمو روحها، ويتم لها الإنبات الحسن فى الجسم والروح معا، والله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير.

هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ إِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا فَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه قصة ولادة مريم، وفى هذه الآيات يقص ولادة يحيى، وإن ولادة مريم كانت ذات صلة وثيقة بولادة يحيى عليه السلام، وإنها تتجه نحو خوارق العادات أكثر من ولادة مريم وحالها. فالقصص الأربع تتدرج فى خوارق العادات، تبتدئ بالقرب من المألوف ثم تنتهى بخوارق لم يكن للناس بها عهد من قبل.

وانتهينا فى قصة مريم البتول إلى أن نبى الله زكريا كفلها، وأنها تربت منذ صغرها فى المسجد، بيت الله المقدس، وأن الله أفاض عليها بالخير والنعم الظاهرة والباطنة، فملاً قلبها إيماناً وروحانية، وغذاها بلبان المعرفة، وبغذاء مادى طيب.

ولقد كان زكريا، ومريم تدرج فى مدارج الصبا، شيخا هرما يش من الولاد، ولكنه عندما رأى مريم وتنشئتها على الإيمان والمعرفة ومحبة من الله تعالى، ورأها ترزق بغير حساب، ورأى منها مع صغر السن نجابة وتفويضا وإيماناً راسخاً، حنَّ إلى الولد حنيناً، ورغب فى الذرية، وكان بين حالين متناقضتين: حال تلك الرغبة وعدم اليأس من رحمة الله القادر على كل شىء، وحال الكبر الذى أصابه، والشيخوخة الفانية التى هو فيها؛ ولكنه قد تحرك فيه عامل الرغبة عندما تكلم مع مريم فى المحراب يسألها عما عندها من رزق كلما دخل عليها؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى قصته.

﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وفى هذه الحال التى رأى فيها مريم تغلب فيه جانب الرجاء على جانب اليأس، ولذا قال تعالى: ﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ﴾ أى فى هذا المكان وهو المحراب الذى كان يلتقى فيه بمريم الفينة بعد الفينة، ويسألها فيه، وتكلم بلسان البر والتقوى، تحركت غريزة الأبوة فى ذلك المكان المقدس، فدعا ربه. والتعبير بدعا ربه إشارة إلى شعوره بقدرة الله تعالى على كل شىء، إذ هو ربه الذى ذراه ونماه صغيراً، حتى بلغ أشده ثم تولاه حتى بلغ من الكبر عتياً، فقد اتجه إذن فى دعائه إلى الرب القادر العليم الذى أبدع كل شىء على غير مثال سبق، قال: ﴿رَبِّ أَيُّ

خالقى الذى خلقنى، وخلق كل شىء من طين، وصدر عنه كل ما فى الوجود بإرادته العالية: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أى أعطنى أنت عطاء كريما لا سبب له إلا إرادتك، ولا باعث عليه إلا رحمتك، فلا يكون الأمر فيه جاريا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، إنما يكون على مقتضى الهبة المجردة، والعطاء الخالص الذى لا سبب له إلا إرادتك الأزلية وإلا رحمتك: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ أى من عندك؛ أى السبب يكون من عندك لا من عندى؛ لأن الأسباب عندى قد زالت، ولم يعد إلا سبب منك، وإلا معجزة تكون فيها المانع المعطى من غير أى علة أو ترتيب. والتعبير بـ ﴿لَدُنْكَ﴾ التى لا تكاد تستعمل فى القرآن إلا فى جانب الله تعالى يفيد العندية العالية السامية، لا العندية القريبة المقارنة، ولا العندية المقاربة.

ودعاء نبي الله أن يهب له ذرية طيبة، فلم يذكر الله سبحانه عنه فى هذه الآية سوى أنه يطلب ذرية طيبة، والذرية قد بينا معناها من قبل. والطيبة: هى الذرية الحسنة المرغوب فيها التى تكون ذات أثر طيب؛ لأن الطيب هو الأمر الحسن المحبوب المرغوب فيه الذى لا ينتج إلا خيرا، ويأتى بخير الثمرات وأحسن النتائج؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ [الأعراف].

وبعد أن ضرع هذه الضراعة بدأ رجاؤه فى الإجابة بقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى إنك تعلم بدعائى علم من يسمع، وإن الأمر إليك إذ علمته وسمعته؛ فإن أجبت فبرحمتك، وإن لم تحب فبحكمتك، فانت العليم الحكيم، والرحمن الرحيم. والصيغة تفيد قرب الرجاء وإمكان الإجابة.

وفى هذه السورة لم يبين سبحانه شكل الدعاء أكان جهرا أم كان خفيا، وفى سورة مريم بين حاله، وبين نوع ما يطلب من الذرية، فقال سبحانه: ﴿كَهَيْصَ ۖ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۖ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۖ وَإِنِّي

خَفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴿[مريم].

وفى هذا النص الكريم يتبين أنه مع رجائه كان يذكر شيخوخته الفانية، وكون امرأته عاقرا لا تلد، ومع ذلك تغلب عليه جانب الرجاء، فدعا ذلك الدعاء، وضرع إلى الله تعالى تلك الضراعة، وقد أجاب الله تعالى دعاءه فور طلبه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ والتعبير بـ «الفاء» يفيد أن النداء كان فى زمن قريب من الدعاء. وهنا ثلاث نقاط نريد أن نوضحها بعض التوضيح:

أولاهـا: فى النداء ونسبته إلى الملائكة، فهل خاطبه بهذا عدد منهم؟ لقد أجاب المفسرون عن ذلك بجوابين؛ أحدهما: أن الذى ناداه هو جبريل الذى ينزل بالوحى على النبیین، ولقد قال فى ذلك التفسير ابن جریر الطبرى «يقال خرج فلان على بغال البرید، وإنما ركب بغلا واحدا، وركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وكما يقال: ممن سمعت هذا؟ فيقال: من الناس، وإنما سمعه من رجل واحد، وقد قيل إن منه ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ...﴾ [آل عمران] والقاتل فيما ذكروا كان واحدا».

هذا توجيه من قال إن المراد جبريل. وفى ذكر الملائكة بالجمع إشارة إلى الجنس، أى أن الله سبحانه كان من رحمته به أن أجاب دعاءه، وسارع بتبشيره بإجابته، وكانت الإجابة بملائكته، وإن كان المبلغ واحدا.

وأما التخریج الثانى: فهو أن المراد الجمع من الملائكة؛ لأن من كمال عناية الله تعالى بعباده أن ألقى إليه بالبشرى عدد كبير من الملائكة لا واحد منهم، وهذا ما رجحه ابن جریر؛ ولذا قال: «والصواب من القول فى تأويله أن يقال إن الله جل ثناؤه. أخبر أن الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنها جماعة الملائكة دون الواحد، وجبريل واحد، فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر

من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل، ما وجد إلى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفى من الكلام والمعانى» ولا شك أن العدد فيه مبالغة بالتبشير، وكأن حال هذا النبي الكريم في يأسه من الولد لشيخوخته الفانية وكون امرأته عاقرا وعجوزا، كان يحتاج فيها إلى عدد من المبشرين ليزول من نفسه كل يأس، ويحل محله الرجاء.

النقطة الثانية: أن النداء الذى وجهته الملائكة كان وهو قائم يصلى فى المحراب، فهو فى وقت مواجهته لربه، ومناجاته لخالقه، وإنه بابتداء القول بالفاء الدالة على التعقيب من غير تراخ، وكون خطاب زكريا لمريم كان وهو فى المحراب، وأن الدعاء كان وهو فى المحراب، يتبين أن إجابة الدعاء كانت فور الدعاء، فهو قد ضرع إلى الله خالص النية، طاهر النفس والحس فأجاب الله دعاءه على سنته فى إجابة المهديين من خلقه دعاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر].

النقطة الثالثة: فى قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِحَيِّى﴾ وهنا قراءتان فى أن، إحداهما بالكسر على تضمين النداء معنى القول، أى فنادته الملائكة قائلين إن الله يشرك بيحيى، والفتح على أن الباء محذوفة والتقدير فنادته الملائكة بأن الله يشرك بيحيى، واقتران التبشير بالتسمية بيحيى للإشارة إلى أن ذلك المولود سيحيى اسمه وذكره بعد موته، وبذلك تتحقق الإجابة الكاملة للدعاء، إذ قال كما فى سورة مريم ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثِ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم].

وقد أجاب المولى القدير كل دعاء زكريا، فكان المبشر به رضىا فى خلقه ودينه؛ ولذا قال سبحانه فى وصفه:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وصفه الله سبحانه وتعالى بصفات أربع كلها بجعل من الله وتكوينه وخلقته: وأولى هذه الأوصاف:

أنه كان مصدقا بكلمة من الله، وتصديقه بكلمة من الله اختلف المفسرون فى تحرير معناها، لاختلافهم فى معنى: «كلمة»، فمنهم من اتجه إلى أن كلمة الله هو المسيح عيسى بن مريم، ما قال تعالى من بعد ذلك لمريم: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَتِهِ اسْمُ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ (٥٠) [آل عمران] ويكون المدح فى يحيى حيثئذ بأنه صدق عيسى وأذن للحق إذ تبين له، فلم يكن من المعاندين الذين يجحدون بآيات الله تعالى، ويكفرون ببيناته، وسمى عيسى «كلمة من الله» من الله؛ لأنه نشأ بكلمة منه سبحانه، ومن المفسرين من قال إن المراد من كلمة الله تعالى كتابه؛ وذلك لأنه تطلق الكلمة ويراد منها الكلام، وذلك من هذا القبيل، والظاهر عندى هو الأول؛ لأنه فى هذا المقام ذكرت كلمة الله على أنها المسيح عليه السلام، والاسم المكرر فى مقام واحد تكون فيه وحدة المقام دليلا على وحدة المسمى. وكان فى هذا التعبير إيدان بأن ولادة المسيح ستكون قريبا من ولادة يحيى وفيه إيماء إلى أن زكريا نبي الله قد أوتى علما بأن المسيح عهده قريب.

والوصف الثانى من أوصاف يحيى: أنه سيد، والسيد فيعل من السيادة، وهى الشرف والتفوق والعلو، وتبتدئ السيادة بسيادة الإنسان على نفسه بأن يملك زمامها، ويضبطها ويأخذ بعنانها، فلا تذل، ولا تتكبر ولا تجمع، ولا يزال يترقى فى معنى السيادة من ضبط النفس والعلو عن سفاسف الأمور، والاستغناء عما فى أيدي الناس حتى يفوق الناس. وإنه يروى أن أعرابيا مر بالبصرة، فسأل من سيد هذا المصر؟ ف قيل له: الحسن البصرى فقال: وبم ساه؟ قيل استغنى عما فى أيدي الناس، واحتاج الناس إلى ما فى يده، فقال: ذلك هو السيد حقا.

فكلمة السيد فى النص القرآنى الكريم تتضمن كل معانى السؤدد ومكارم الأخلاق.

والوصف الثالث: أنه حصور. وأصل الحصر معناه الحبس، والمراد أنه حبس نفسه عن الشهوات، حتى لقد روى أنه امتنع عن النساء زهادة واستغافا، واتجأها إلى الروحانية. وقيل إنه كان لا يأتى النساء عجزا، وذلك غير صحيح، والحق أنه

إن كان قد امتنع عن النساء فعن قدرة واختيار لا عن عجز؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى ساق ذلك الوصف في مقام المدح والثناء، ولا يتحقق معنى المدح والثناء إلا إذا كان فيه اختيار، ولم يكن عجزاً وجبراً. ولأن «حضور» صيغة مبالغة لحاصر، أى أنه يبالغ في منع نفسه من الشهوات .

وليس في النص ما يدل على أنه امتنع عن النساء بخاصة، بل النص يدل على أنه حبس نفسه عن الشهوات، وقدها عن أهوائها.

الوصف الرابع: أنه نبي من الصالحين، وفي هذا بشارة أخرى لزكريا بأن الله سيختار ابنه نبياً؛ فإن الأوصاف السابقة فيها إجابة لدعائه، ولكن الله سبحانه وتعالى مَنَّ عليه بأعظم مما دعا به، وأعطاه النبوة وقوله ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ إشارة إلى موطن النبوة. وموضع اختيارها، والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه وتعالى لا يختارهم إلا من الصالحين، فالله سبحانه يقيهم الانغماس في الشر قبل النبوة، ويعصمهم عن المعاصي بعدها.

استمع زكريا إلى تلك البشارة الإلهية، فاعتراه العجب، لما كان يتنازعه من عامل الرجاء وعامل اليأس، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

﴿أَنَّى﴾ هنا بمعنى «كيف»، فهو يعجب من الحال، ولا يصح أن تكون بمعنى «من أين» لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه سيعطيه الولد، فلا يليق أن يسأل من أين، إنما العجب من حال العطاء مع حاله هو وامراته؛ ولذا كانت الجملة من بعد ذلك جملة حالية صُدِّرَتْ بواو الحال، فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ كان وجه العجب من ناحيتين: الناحية الأولى: أنه شيخ فإن قد أصابه الكبر بما فيه من ضعف، والثانية أن امرأته عاقرة لا تلد، والعقر يوصف به الرجل والمرأة، فيقال رجل عاقر، وامرأة عاقر أى بينة العقر، والعقر مصدر عَقَرَ عَقْرًا ويظهر أن امرأته مع شيخوختها كانت عقيماً لا تلد، فكان العجب إذن من ثلاث نواح: شيخوختها، وعقرها. وقد عبر عن شيخوختها بقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ ولم

يقل قد بلغت الكبر وهو الظاهر، ولكنه عدل هنا للإشارة إلى أن الكبر قد أصابه بضعفه وما فيه من آلام وأسقام وضعف. ويقول في ذلك الزمخشري: (وقد بلغني الكبر كقولهم أدركته السن العالية، والمعنى أثر في الكبر فأضعفني) وعلى ذلك يكون قوله تعالى: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ يتضمن بلوغ الشيخوخة، وأنها أوجدت فيه ضعفا وعجزا، ويكون هذا في معنى قوله تعالى في سورة مريم حكاية عن زكريا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨) [مريم].

وقد أجابه سبحانه وتعالى بما يزيل عجبه، ويمنع حيرته؛ وذلك بأن بين أن الله تعالى فوق السنن الكونية وفوق الأسباب في الخلق؛ لأنه خالق الأسباب؛ فقال تعالى:

﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى مثل ذلك الذى رأته من أن يكون لك وأنت شيخ وامراتك عاقر، يفعل الله تعالى ما يشاء، أى أن الله سبحانه يفعل بمشيئته واختياره غير مقيد بالأسباب والمسببات والعادات وأحوال الناس؛ لأنه سبحانه وتعالى خالق الناس، وخالق الأسباب، وخالق مجارى العادات التى تجري بينهم. فالإجابة لا تتضمن فقط إزالة تعجب زكريا عليه السلام بل تتضمن مع ذلك تقرير قضية عامة، وهو أن الله يفعل ما يفعل باختياره وإرادته غير مقيد بأى قيد إنه سبحانه فعال لما يريد.

ولماذا كان ذلك الخارق، وما يجىء بعده؟ الجواب عن ذلك: أن هذا لأن بنى إسرائيل كانوا لا يؤمنون إلا بالجسد، إذ كانوا يفسرون كل شىء تفسيراً مادياً، وقد سادت عندهم الفلسفة المادية، وكثر بينهم القول بأن الأشياء تنشأ عن العقل الأول نشأة المسبب عن السبب أو المعلول عن علته، فكان لابد من صانع يقرع حسهم بحادث من هذا الصنف الذى تتخلف فيه فلسفتهم، فيوجد المسبب من غير سبب فيدل هذا على أن المنشئ فاعله مختار يفعل ما يريد، وهو اللطيف الخبير؛ ولذا قال سبحانه ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

ولقد أراد نبي الله زكريا أن يعلم الوقت الذي تبتدى فيه هذه البشارة أن تتحقق، وأن تقوم آية تدل على الحمل كما يقول بعض المفسرين فقال كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: في تفسير هذا النص الكريم اتجاهان:

أولهما: أن سيدنا زكريا عليه السلام طلب علامة تدل على موعد الحمل، فقال: ﴿اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أى علامة أعرف منها موعد الحمل، فقال له ربه: آيتك أى علامتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، أى لا تستطيع أن تكلم الناس إلا بالرمز والإشارة، وأن تستطيع ذكر الله، فاذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار، أى فى المساء، وفى الصباح من وقت الفجر إلى الضحى، وقد وضع هذا الاتجاه الزمخشري فقال: «آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام، وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله؛ ولذلك قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس، وهى من الآيات الباهرة. فإن قلت لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت ليخص المدة بذكر الله لا يشغل لسانه بغيرها، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذى طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية لأجل الشكر قيل له آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومتزعا منه».

هذا هو الاتجاه الأول. وأساسه أن ثمة أمرا آخر خارقا للعادة، وهو عجزه عن كلام الناس مع قدرته على الذكر.

أما الاتجاه الثانى، فأساسه غير ذلك، إذ إن معنى النص الكريم على هذا الاتجاه أن زكريا شعر بإكرام الله تعالى إكراما خصه به، وكانت آية ذلك الإكرام بين الناس أنه قد أنجب من عاقر وعجوز ولدا، وقد بلغ من الكبر عتيا، فدعا ربه أن يجعل له بين الناس آية تدل على عظيم شكره، وأن يختص من بين الناس بهذا الشكر، ليعلم الناس علامة شكره كما علموا علامة إكرامه، فقال سبحانه:

﴿أَيْنِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ بأن تحبس أنت لسانك عن حديث الناس وتجعله خاصا لله ثلاثة أيام لذكره وتسييحه طرفى النهار وزلفا من الليل، فهذه آية شكر فى نظير آية إنعام، وقد يزكى ذلك الاتجاه أنه لا دليل فى الآية على العجز عن الكلام، فما قال تعالت كلماته ألا تستطيع الكلام، بل قال: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ وإضافة عدم الكلام إليه يدل بظاهره على أنه امتنع اختيارا لا اضطرارا، وأن الأنسب بشكر النعمة أن يكون امتناعه عن كلام الناس بالكف عنه، لا بالعجز عنه، فإن الأول اختيارى يعد شكرا، والثانى غير اختيارى يعد عجزا، وإن سياق القصة فى سورة مريم أظهر فى الدلالة على الاختيار دون الإيجاب إذ يقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سِوَاهُ﴾ (١٠) **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** (١١) ﴿[مريم].

وقد كان الدعاء بطلب الولد فى المحراب وإجابته فوره كما نوهنا، وكانت المجابوة فيه أيضا، فخرج إلى الناس ينفذ طلب ربه فى أن يحبس وهو مختار لسانه عن غير ذكر الله تعالى، ويعتزم العكوف على الذكر والتسبيح ويدعو الناس إليه بالرمز والإشارة، لا بالكلام والعبارة. وإن هذا الاتجاه لا ينكر الخوارق، ولكنه ليس فى الآية ما يدل على الخارق، ويعتبر من مرشحات شكر النعمة أن يكون ترك كلام الناس اختيارا. وفوق ما تقدم فإن عطف قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. يقتضى أن يكون قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ...﴾ جملة طلبية؛ لأن الجملة الطلبية لا تعطف إلا على مثلها، وإذا كان الامتناع عن كلام الناس طلبا من الله العلى القدير، فهو اختيارى من المكلف وليس حبسا وعجزا، أما إذا كان خارقا فهو إخبار وليس بطلب.

وهنا بعض عبارات تفسيرها لفظيا:

الأولى: كلمة ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ قد جاء فى تفسير الزمخشري: «إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرك، يقال ارتمز إذا تحرك، ومنه قيل للبحر الراموز، وقرأ يحيى بن وثاب «إلا رَمْزًا» بضميتين جمع رموز كرسول ورسول؛ وقرئ «رمزًا» بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم.

والثانية: كلمتا ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾؛ فالعشى من حين نزول الشمس إلى أن تغيب، والإبكار من طلوع الشمس إلى وقت الضحى.

والثالثة: كلمتا ذكر وتسبيح؛ فإن الذكر معناه أن يستحضر الإنسان عظمة ربه، وينطق بها لسانه، والتسبيح معناه التنزيه المطلق لله سبحانه وتعالى، وقد كان طلب الذكر والتسبيح في هذا المقام مناسبا لتلك النعمة التي أسداها لعبده ونبيه زكريا عليه السلام؛ فإن سيادة المادية في بني إسرائيل وطغيانها على الروح أنستهم ذكر الله، وسيادة الفلسفة المنكرة للإرادة جعلتهم لا يتزهدون الله تعالى، فدعا ربه لأن يقوم بهذا الأمر الذي فيه استذكّار كل معاني الألوهية وانصراف بالكلية للنواحي الروحية. وفي التسبيح إدراك لله وتنزيه له عن العلية؛ ولذا اتخذ زكريا من هذا الخارق للعادة بإنجابه ولدا سبيلا لأن يدعوهم إلى التسبيح وهو التنزيه عن العلية والسببية وكل ما لا يليق بذات الله تعالى، وأن يتركوا ما هم عليه من ماديّات وفلسفة تنكر الإرادة لرب العالمين، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا.

وَإِذْ قَالَتْ

الْمَلَكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ

عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي

وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهَمُ يَكْفُلْ

مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

بين الله سبحانه الأمر الخارق للسنن التي سنّها في خروج الحى من الحى، بالنسبة لولادة يحيى من عجور عاقر، وإن الذى خرق هذه السنن هو خالق السنن، وإنما خرقها الذى خلقها ليعلم الناس أنه سبحانه خلقها بإرادته وحكمته؛

فإنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد. وبعد أن بين ذلك، وهو العليم، مهد سبحانه لخارق أعظم وأبين، ليقرع حس الناس في عصر غلب فيه التفكير المادى على التفكير الروحى؛ وذلك هو خلق عيسى بن مريم من غير أب، كما خلق من قبل آدم من غير أب ولا أم، وكان ذلك التمهيد ببيان الإرهاصات التى سبقت ولادة عيسى عليه السلام، وهو اصطفاء مريم واختيارها لتكون محل تلك الودعة التى يودعها الله رحمها من غير علاقة ذكر بأنثى، وكان الاصطفاء بالطهارة والعفة والقنوت، والركوع والخضوع لرب العالمين، ثم باختيارها النهائى للودعة الربانية؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ «الواو» هنا عاطفة، وهى تعطف هذا النص الكريم على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا...﴾ [آل عمران] فهذا عود إلى قصة مريم البتول التى ابتدأت بالنذر بها وهى حمل، ثم ببيان حال أمها عند وضعها وبعد وضعها، وما كان من رزق الله تعالى لها وكفالة نبي الله زكريا إياها، مما جعلها تنشأ تنشئة التقوى والورع، ولما شبت عن الطوق واكتملت فى تكوينها وأنوشتها خاطبتها الملائكة بذلك الخطاب ﴿قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ وتفسر كلمة الملائكة هنا بعدد منهم، لا بواحد، كما استظهرنا مع ابن جرير فى خطاب الملائكة لنبي الله تعالى زكريا عليه السلام؛ ولكن يجئى هنا البحث: من أى نوع خطاب الملائكة لمريم البتول؟ أكان بالمخاطبة كما يخاطب النبيون، أم كان بالإلهام أو الرؤيا الصادقة فى النوم؟ لم تبين الآية هنا نوع الخطاب؛ ولذا قال بعض العلماء: إن الخطاب كان بالإلهام، وإلى هذا يومئى الزمخشري رضى الله عنه، ولكنه صرح بقوله: «روى أنهم كلموها شفاهاً معجزة لزكريا، أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه السلام».

وبعض العلماء كما ترى قرر أن الخطاب كان مشافهة ولم يكن إلهاماً، ولا رؤيا صادقة فى النوم؛ وإنا نميل إلى ذلك الرأى؛ لأنه ثبت بنص القرآن الصريح

الذى لا يحتمل تأويلا أن الملك خاطبها حين ابتدأ حملها، كما جاء فى سورة مريم، إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ ۝١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم].

والروح الذى ذكر مضافا إليه سبحانه هو روح من عند الله، أرسله سبحانه ليشر مريم البتول بعيسى عليه السلام، ولم يكن الملك يحمل وديعة كما يحمل الإنسان؛ لأنه ليس بإنسان، والعلاقة الجنسية من خواص الآدمية؛ بل الوديعة التى يحملها هى بشرى، والخلق والتكوين لرب العالمين، وهو يخلق الحى من غير جرثومة حياة، كما يخلق جرثومة الحياة نفسها.

وإذا كانت الملائكة قد خاطبت مريم مشافهة فهل هى نبيه، لأن الملائكة خاطبوها؟ هكذا قال بعض العلماء.

ولكن الأكثرين على أنه لا يمكن أن تكون نبيه، وخطاب الملائكة لها لا يقتضى النبوة؛ لأن النبى من يوحى إليه بشرع، ومريم لم يوح إليها بشىء من الشرع، ولكنه كان خطابا للبشارة بواقعة معينة دالة على علو منزلتها، واصطفاء الله سبحانه وتعالى لها.

والاصطفاء افتعال من صفا؛ فمعنى اصطفى طلب الصفوة المختارة؛ والمعنى اللازم هو اختيار الله تعالى لها باعتبارها من صفوة الإنسانية البرة التقية. ولقد كان اصطفاء الله تعالى إياها مرتين بينهما طهر وتقى؛ فأما الاصطفاء الأول فحين قبولها نذرا من أمها البرة التقية، واختيارها لسدانة البيت المقدس؛ وأما الاصطفاء الثانى فهو حين اختارها لتكون أما لمن لا أب له، إذ تلد بعد أن تحمل من غير علاقة تناسلية مما يجرى بين البشر؛ وبين الاصطفاءين طهر وتقى وعفاف، وإيمان وانصراف للعبادة، وهذا هو معنى قوله تعالى عن خطاب ملائكته لمريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ وذكر فى الاصطفاء ما يدل على أنها

به مختارة دون نساء العالمين؛ لأن الاصطفاء الأول ومعه الطهر والتقى لا تختص به مريم، فكم من عابدات قانتات قوامات بالليل صوامات بالنهار؛ أما الاصطفاء الثاني وهو أن تلد من غير أب فإن ذلك قد اختصت به لم تشرکہا فيه امرأة في هذا الوجود؛ ولذا قال فيه: ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

وإن هذا التعبير يدل فوق دلالة على اختصاصها بهذا الاصطفاء، يدل على أن لها فضلاً على نساء العالمين، إذ إن التعبير ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يتضمن معنى الأفضلية عليهن، وإن لها ذلك الفضل، ولذلك قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١) وروى من طرق صحيحة: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»^(٢).

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ القنوت لزوم الطاعة والاستمرار عليها، مع استشعار الخضوع التام المطلق، والاستسلام لله وإسلام الوجه لله الكريم، فمعنى نداء الملائكة دعوتها إلى أن تستمر على ما هي عليه من خضوع لله وإسلام وجهها له سبحانه، وتفويض أمورها له. وتكرار النداء لإشعارها بقربهم منها وهم رسل ربهم إليها، وفي ذلك بيان قربها منه سبحانه وتعالى. وفي تكرار النداء إشعار بأن طلبهم الاستمرار على القنوت هو من قبيل شكر الله على هذه النعمة؛ فهذا الاصطفاء يوجب الشكر بالاستمرار على القنوت، وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدِي﴾ هذا الأمر هنا يفسر بملزمة الطاعة والعبادة؛

(١) متفق عليه رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - (٣١٧٩)، ومسلم: فضائل الصحابة - فضائل أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها (٤٤٥٩) عن أبي موسى الأشعري، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٦ ص ١٨٦، عن أنس رضي الله عنه، ورواه الترمذي: المناقب - مناقب خديجة رضي الله عنها (٣٨١٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

فالسجود الخضوع المطلق لله تعالى؛ لأن أظهر مظاهر الخضوع أن يتطامن الشخص فيضع جبهته على الأرض خضوعاً لله تعالى، وشعوراً بعظمته وجلالته، وعلوه سبحانه، وانخفاض العبد أمامه. وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فسرهما الزمخشري بأن تصلى مع المصلين، فقال: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بمعنى لتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة، أو انظمى نفسك فى جملة المصلين، وكونى معهم فى عدادهم، ولا تكونى فى عداد غيرهم، فالأمر بالركوع مع الراكعين كناية عن صلاتها مع الجماعة، وهذا فيه فائدة، وهى إثبات أن الصلاة مع الجماعة من تمام النسك والعبادة. فمریم البتول كانت ملازمة للمحارب منذ نشأتها فى كفالة زكريا عليه السلام، وهى بهذا تشبه أن تكون بعزلة عن عوجاء الحياة وما فيها، وما عند الناس حتى فى عباداتهم، فبينت لها الملائكة عن الله سبحانه أن تصلى جماعة مع الناس، فإن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد.

وعلى ذلك يكون الأمر بالسجود من قبيل الأمر العام بالانصراف للعبادة والطاعة؛ لأن فيه أظهر مظاهر إسلام الوجه لله، ويكون الأمر بالصلاة ثابتاً بقوله ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

ويصح أن نقول إن الأمر بالسجود هو أمر بالصلاة مطلقاً، إذ إنه أظهر مظاهر الصلاة، وأقواها تأثيراً فى النفس، وكان الأمر على هذا النحو بأن تديم الصلاة منفردة وفى خلواتها؛ وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمر آخر بأن تصلى مع الجماعة وألا تنقطع عنهم لفضل الصلاة فى الجماعة، وكأن فى النص تعبيراً عن طلب الصلاة بتعبيرين؛ أولهما: طلبها بعبارة «اسجدى» والثانية: طلبها مع الجماعة، بعبارة «اركعى»، والبلاغة تسوغ أن تعبر عن المعنى الواحد بعبارتين مختلفتين فى صيغتهما ومادتهما فى مقام واحد، وإن كان الأمر الأول مطلقاً، وكان الثانى مقيداً.

هذه قصة مريم فى ولادتها، ونهيئتها للآية الكبرى الدالة على أن الخالق فاعل مختار، قد قصها الله جل شأنه فى القرآن الذى جاء به أمى لا يقرأ ولا

يكتب، لم يتعلم ولم يجلس إلى معلم، ولم يختلط باليهود والنصارى، وفوق ذلك هذه القصة لم تكتب في التوراة قط، ولم يتعرض لها الإنجيل، وجاء بها القرآن الكريم. وهى صادقة كل الصدق فمن أين جاء علم هذا إلى ذلك الأُمى؟ إنه من عند الله. أشار المولى إلى هذا المعنى بقوله:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الإشارة إلى القصص الحكيم الذى شمل نذر أم مريم، وولادتها، وكفالة زكريا لها، ودعاء زكريا وإجابة الله دعاءه، ولزوم مريم للعبادة، وخطاب الملائكة؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن هذا القصص من أنباء الغيب، أى من الأخبار العظيمة الشأن التى اختص بها علم الله، وهى مغيبة عن الناس لم يدونها تاريخ، ولم يذكرها كتاب، فهى مغيبة عن علم الناس لا يعلمها أحد إلا من الله تعالى، وهى عظيمة الشأن فى مجرى التاريخ الدينى، ومجرى الفكر الإنسانى، ومجرى التاريخ بشكل عام؛ وذلك لأنها تتعلق بأية من آيات الله الكبرى فى هذا الوجود، وهى إيجاد إنسان كامل مستو من غير أب، وحمل امرأة من غير تلقيح؛ فإن هذا يفتق ذهن الإنسان المفكر لأن يدرك أن الله يخلق الأشياء بإرادته غير مقيد بسنن كونية، ولا بنظم فى الخلق والإنشاء؛ لأنه خالق كل السنن وكل النظم؛ وبذلك يرد أقوال الفلاسفة الذين زعموا أن العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن العلة من غير إرادة مبدعة مسيرة.

والأنباء جمع نبأ، والنبأ هو الخبر العظيم الشأن، فليس كل خبر يسمى نبأ، والغيب هو الأمر المغيب المستور الذى لا يعلم إلا من قبل الله تعالى. وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى موضع الصدق وهو أنه بوحي من الله تعالى؛ وهو كالنتيجة لكون الموضوع مغيبا، لم يذكر فى واقعة تاريخية ولا فى كتاب دينى من قبل، لأنه إذا كان مغيبا عن الناس جميعا فعلمه لا يكون إلا من الله تعالى. وفى قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ مع كونه من قبل كان مغيبا إشارة إلى معنى الاختصاص، وفى الاختصاص بالتعريف كل معانى التكريم الإلهى لمحمد ﷺ.

وإذا كانت حال مريم وخلوصها لعبادة الله تعالى مجهولة للناس قبل بيان القرآن، فإن القرآن صاحب الفضل فى بيان براءتها من الدنس، ومقامها فى عبادة

الله تعالى، وكفالة الله تعالى لها بنبي من أنبيائه، وتشريف الله تعالى بخطاب ملائكته لها مبشرين بالآية الكبرى والمعجزة الإلهية القاطعة، وذلك بولادة عيسى عليه السلام.

وفى ذلك إشارة إلى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو إخباره بالصادق الذى لا يوجد دليل قط على كذبه مع أن النبى ﷺ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يتعلم، والخبر لم يكن مدونا من قبل حتى يتلقاه من أحد كأولئك؛ الذين ادعوا أنه كان يقول ما يقول عن أخبار بنى اسرائيل من حداد بمكة، وقد رد الله تعالى فريتهم بقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. فلا يمكن أن يدعى لأخبار مريم؛ لأنه ما كان معلوما قبل بيان الله تعالى، ولذلك سماه غيبا.

وقد وضع سبحانه وتعالى هذا المعنى، وهو كون هذا بوحى، لا من عند محمد عليه الصلاة والسلام، بقوله:

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الأقسام جمع قلم، من قلمه بمعنى قطعه، والمراد بالأقلام القداح التى يضربون بها القرعة. والاختصام معناه فى الأصل أن يكون كل فى خصم أى جانب، والاختصام هنا هو التنافس بينهم فى كفالة مريم؛ وذلك لأنها ولدت يتيمة، وقد تيمن العباد من بنى إسرائيل بها، وكل يرجو خيرا من كفالتها، ويتخذ من هذه الكفالة قرعة وزلفى إلى الله العزيز الحكيم، العليم الخبير، فلما كان الاختصام والتنافس اتفقوا على القرعة تحكم بينهم، وقد كانت نتيجة القرعة أن آلت كفالتها إلى نبي الله زكريا عليه السلام، وهكذا كان الله تعالى يختار لها ولائها؛ فاختارها من صفوة آل عمران، واختارها مندورة للعبادة محررة لها، واختارها مكفولة بنبي، واختارها لخطاب الملائكة إياها، ثم كانت النتيجة لهذا كله أن اختارها على نساء العالمين لتكون موضع آية الكبرى فى هذا الوجود.

والمعنى الجملى للنص الكريم: وما كنت لديهم أى عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم، كل يريد لها فى كنفه ورعايته، وما كنت لديهم إذ

يحتكمون إلى القرعة، ليعرفوا بطريق التفويض للغيب أيهم يكفل مريم فتضم إليه، وقد ذكر سبحانه من قبل أن الكفالة بهذه القرعة آلت إلى زكريا عليه السلام، إذ قال من قبل: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا...﴾ (٣٧) [آل عمران].

ما كنت عندهم في هذا الوقت، وما تلقيت بالسمع من أحد، وما كنت تقرأ في كتاب، فمن أى شئ علمت هذا الغيب الذى لا يعلمه أحد؟ إنه لا بد أن يكون من عند الله تعالى، فهذه الجملة الكريمة سيقت لإثبات أن العلم كان وحيا من عند الله العليم الخبير.

وهنا بعض مباحث نشير إليها:

أولها: أن «لدى» معناها «عند»، و «لدى» هنا تشير إلى معنى ليس فى «عند»؛ ذلك أنها تشير إلى عندية بعيدة غير حاضرة ولا قريبة فى الزمن؛ فهي تشير إلى أن خبر مريم وولادتها خبر بعيد موغل فى القدم بالنسبة للإنسان، فما كانت هذه العندية متصورة، وما كان لأحد أن يعلم ما عند القوم علم من يشاهد ويعاين؛ لأن كثيرا منها كان نفسيا قلييا، وبعضه كان حسيا ماديا ولكن لم يعلم للناس.

وثانيها: أن هذه القصة ليست معلومة على هذا الوجه عند المسيحيين، ولا يسعهم تكذيبها؛ لأنها أقرب إلى العقول مما ينسبونه لمريم من أنها كانت ذات بعل، أو مخطوبة أو نحو ذلك، فما عندهم مدعاة للشك، وما ذكره القرآن مدعاة للصدق والظهر والنقاء، وهذا الذى يشرح للآية الكبرى بولادتها من غير حمل؛ فأى الخبرين أصدق قليلا؟

وثالثها: وهو أن هذه القصة بما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاحُ لَهُمْ﴾ تشير إلى بعض معانى الإعجاز فى القرآن الكريم، وهو حكاية أخبار الأولين التى لم يكن يعلمها أحد إلا رب العالمين، وهى حكاية دلائل الصدق فيها واضحة، وبيانات الحق فيها لائحة؛ وإذا كان النبى لا يعلمها عن

مشاهدة ولا عن سماع، فطريق العلم بها هو الله، وهذا يدل على أن القرآن من عند الله العزيز الحكيم، وهو سجل الشرائع السماوية الخالد إلى يوم القيامة، ولو كره الكافرون، كما قال منزله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر].

إِذْ قَالَتْ

الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾
وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

توالت في هذه القصة خوارق العادات متدرجة من القريب من المؤلف إلى البعيد الذي لا يعرفه الناس قط بمقتضى السنن الكونية المطردة؛ فقد ولدت مريم البتول بعد أن نذرت لتكون خالصة للبيت المقدس، وكان يأتيها في المحراب الرزق من حيث لا تحتسب ولا تقدر، حتى أثار ذلك عجب نبي الله زكريا، ثم كانت ولادة امرأة زكريا، وهى عجوز عاقر، وهو قد بلغ من الكبر عتيا؛ ثم كانت الحادثة الكبرى التى تدل على أن الله تعالى مبدع الكون وخالق الأسباب ينشئ الكون كما يريد، وتلك الحادثة هى ولادة عيسى من غير أب؛ وهذا هو ما اصطفى الله به مريم ابنة عمران؛ ولذا يقول سبحانه:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الكلام فى هذه الآية الكريمة متصل بما سبقها؛ فإذا هنا متعلقة بما تعلق به

إذ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران] فإذا هنا في مقام البدل أو البيان من الأولى؛ لأن هذا فيه تفصيل لمعنى الاصطفاء الذى اختصت به على نساء العالمين؛ والمعنى: اذكر إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك . . إذ كان ذلك الاصطفاء على نساء العالمين؛ بأن كانت هى التى تلقت البشارة الكبرى بأن تلد مولودا من غير أب قد أنجبه. والملائكة الذين خاطبوا مريم بذلك الخطاب يتضح من السياق أنهم الذين خاطبوها بالاصطفاء؛ فكأنهم قد بشروها بالاصطفاء على نساء العالمين، وبشروها مع ذلك بنوع الاصطفاء. وقد استظهرنا كما استظهر ابن جرير الطبرى أن الملائكة الذين بشروا بالاصطفاء كانوا عددا ولم يكونوا واحدا، فلا بد إذا أن الذين بشروا بحقيقته كانوا عددا أيضا، ولكن سورة مريم فيها بيان أن الذى أنبأها نهائيا بهبة الله تعالى لها كان ملكا تمثل فى صورة بشر قد أودعها ما يكون منه الولد من غير تلقيح جنسى؛ لأن الملك ليس له تلك الشهوة الإنسانية؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) [مريم].

وإن التوفيق بين هذا النص الكريم، والنص الذى نتكلم فى معناه سهل لا يحتاج إلى أعمال فكر؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل ملائكته إليها يبشرونها بالاصطفاء ويبشرونها بنوع الاصطفاء، ثم أرسل إليها بعد هذه البشارات المتكررة ملكا تمثل لها بشرا سويا، ليودع رحمها نهائيا تلك الهبة التى أهدها رب العالمين إليها.

ذكر سبحانه البشارة بأنها كلمة منه، وأن معنى هذه الكلمة شخص حتى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فلماذا اعتبره الكريم كلمة

منه؟ لأنه سبحانه خلقه وأبدعه بكلمة منه؛ فإذا كان سبحانه قد خلق الأحياء بطريق التناسل: الرجل يلاقح الأنثى، ويخرج الأولاد من أصلاب الآباء، فإن عيسى عليه السلام لم يخلق ذلك الخلق، بل خلقه الله تعالى خلقاً آخر؛ خلقه بكلمة منه وهى «كن» فكان، فكان جديراً بأن يعتبر كلمة، وأن تكون هذه الكلمة منسوبة إلى الله تعالى.

ويقول ابن جرير: إن الكلمة هى كلمة البشرى، تشريفاً لمريم البتول، وتكريماً لها بأن تكون البشرى بكلمة من الله، أى بخطاب من الله تعالى مرسل منه إليها. ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...﴾ [النساء: ١٧١]. وقوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هو ما تضمنته البشارة، ويكون التأويل: يبشرك ببشارة جازمة قاطعة لا احتمال لتخلفها؛ هذه البشارة هى ولد اسمه المسيح عيسى ابن مريم. وكان «اسمه المسيح» تكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: البشارة ولد اسمه المسيح عيسى بن مريم.

وقد عرّف سبحانه وتعالى ذلك المولود بثلاثة تعريفات: لقب، واسم وكنية؛ أما اللقب فهو المسيح، وأما الاسم فعيسى، وأما الكنية فهو ابن مريم، وهذه التعريفات الثلاثة، كل واحد منها يومئ إلى معنى قد تحقق فى السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ فأما الكنية فللاشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها، فليس ابناً لأى حى من الأحياء، وليس ابناً لله تعالى كما توهم أو كما لبس على نفسه كل من لا يريد أن يحكم عقله فيما لقن من عقائد باطلة، ولا تعلق لهم فى أن عيسى قيل عنه كلمة الله، فالكلمة هى البشارة، وهى مخلوقة، أو لأنه خلق بكلمة الله وهى «كن» وكلتاها لا يمكن أن تكون ابناً لله تعالى. وأما الاسم فينبئ عن البياض والصفاء المعلم الواضح؛ ولذلك يقول الأصفهاني: «عيسى اسم علم وإذا جعل عربياً أمكن أن يكون من قولهم: بعير أعيس وناقة عيساء، وهى إبل بيضاء يعترى بياضها بعض الظلمة، أى فيها اغبرار يعطى بياضها صفاء وجمالاً، فهو ينبئ عن جمال تكوينه، وجمال دعوته وصفاء رسالته.

وأما اللقب فهو ينبئ عن البركة والفضل، وهو أحسن ما قيل في ذلك؛ فقد ذكر الزمخشري أن كلمة مسيح في أصلها العبري، وهو مشيح، معناه مبارك، وهذا قد جاء في شكره لربه إذ قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ...﴾ (٣١) [مريم].

وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بأربعة أوصاف وأحوال؛ أولها: أنه وجيه في الدنيا والآخرة، والثاني: أنه من المقربين، والثالث: أنه يكلم الناس في المهد وكهلا، والرابع: أنه من الصالحين. وقد ذكرت هذه الأوصاف كلها لأمه وقت البشارة به، فكانت أجل تبشير لأم رءوم في مثل تقوى مريم البتول.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الوصفين الأولين بقوله تعالى:

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ هذان وصفان تمامًا لعيسى الرسول بعد كمال رجولته، وظهرا أتم ظهور في أداء رسالته، وأحدهما وصف ذاتي أضفاه الله تعالى على ذاته النبوية الطاهرة ليكون صاحب رسالته، وداعى هدايته، وناشر رحمته، وذلك الوصف هو الوجاهة في الدنيا، والوصف الثاني وصف إضافي، وهو أنه في موضع المقربين من الله تعالى، وهذا وصف يضمن شرفا إضافيا، فوق شرف النبوة، وشرف الرسالة الإلهية.

وكلمة «وجيه» مشتقة من الوجه؛ لأنه هو الذى يلقي به الناس، وهو مظهر كل مافى النفس مما يوجب الاحترام، ومنه اشتقت كلمة جاه، أى أن من له جاه يكون ذا وجه دال على الاحترام والشرف، فمعنى «وجيها» أى أنه ذو شرف ومكانة؛ أما مكانته يوم القيامة، فأمر مقرر ثابت، وإذا لم يكن لمثل عيسى هو وأمثاله من النبيين عليهم السلام وجاهة فوق تقديرنا، فلمن تكون وجاهة الآخرة؟

وأما وجاهة الدنيا فأمر ثابت مقرر، وأى وجاهة وشرف وأثر فى النفوس أكبر من وجاهة رجل روحانى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى، ويؤثر فى القلوب فتتنجذب له، ولم يستطع أن ينال خصومه منه شيئا، وإذا قيل إن اليهود آذوه وطردهوه فليس ذلك بمانع من وجاهته، بل إنه دليل وجاهته وأثره فى

القلوب، ولو كان خاملاً ما تحركوا لإيذائه، ومع ذلك لم ينالوا منه شيئاً، ولم يمكنهم الله من رقبته، بل نجاه من شرورهم ودسائسهم، فكيف لا يكون وجيهاً عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؟! .

فعيسى عليه السلام كان وجيهاً، ووجاهته أكمل أنواع الوجاهة، وهي الوجاهة التي تتجرد من كل سلطان إلا سلطان الحق والروح، وبهما ملك القلوب. والجاه الحق - كما قال الغزالي - هو ملك القلوب.

وأما كونه من المقربين إلى الله تعالى، فمعناه أنه مقرب إلى الله تعالى كما هو قريب من الناس، وأنه وجيه عند الله تعالى ذو مكانة قريبة منه، كما هو ذو مكانة عند الناس.

ولقد بين سبحانه وتعالى حالين هما من أحوال المسيح عليه السلام، فقال تعالى:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المهد: هو مضجع الطفل، من مهد يمهد مهذاً، بمعنى أنه مهياً مسهلاً له وهو في الرضاعة.

ومن في المهد يكون طفلاً صغيراً يحمل لا يتصور منه كلام مطلقاً، والكهل هو الرجل السوى، والأمر الخارق للعادة في هذا أن عيسى عليه السلام تكلم وهو في المهد، وكلامه وهو في المهد ليس لغو صبيان، بل هو كلام شبان مكتهلين، وقد بلغوا تمام الرجولة والاستواء العقلي، وجمعهما معاً في الكلام يدل على أن كلامه في الأول من نوع كلامه في الثاني؛ ولذا يقول الزمخشري: «ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة، وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء» وإن ما حكاه الله تعالى عن كلامه في المهد ليوضح ذلك؛ ففي سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ

يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ [مريم].

وقد ذكر سبحانه حالا ثانية من أحواله، أو وصفا من أوصافه، وهو أنه من الصالحين، وهذا رمز إلى ما يأتي به من إصلاح خلقى واجتماعى، وروحى فكري؛ إذ يزيل التزعة المادية من قلوب المؤمنين؛ فإن الصالح حقا هو الذى يصلح، فليس بصالح صلاحا كاملا من لم يرشد غيره إلى طريق الصلاح.

هذه بشارة الله بطريق ملائكته لمريم البتول، وقد بين الله تعالى أن هذه البشارة أثارت عجبها واستغرابها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾:

هذه الجملة السامية تدل على بالغ عجبها، وتومئ إلى ارتياحها الذى عبرت عنه كما فى سورة مريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾ [مريم]. صدرت إجابتها بالنداء للرب، وفيه معنى الاعتراف بالخلق والتكوين، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى، فهو تسليم بالقدرة الإلهية، وبأن خالق كل شيء لا يكبر عليه شيء، سبحانه وتعالى.

﴿أَنَّى﴾ فى قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ هى بمعنى كيف، أى كيف يكون منى ولد ولم يمسسنى بشر أى لم يكن منى ما يكون بين الرجل والمرأة مما يكون منه ولد. فالاستغراب فى الكيفية، لا فى أصل القدرة الإلهية. وكلمة ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي﴾ إما أن نعتبرها كناية عن اختلاط الرجل بالمرأة، وهذا ظاهر، وتعبير القرآن عن اتصال الرجل بالميسس مجاز مشهور معروف، حتى يكاد يكون حقيقة عرفية فى لغة القرآن الكريم؛ أو نقول: المس المراد به حقيقة، وهو أنها لم يلمسها رجل؛ لأنها متبثلة دائما منصرفة للعبادة لم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط؛ وبذلك يتفنى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس، فموضع العجب والسؤال هو أن يكون ولد من غير اتصال رجل بامرأة. ولقد أزال عجبها رب البرية بقوله تعالى:

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى كهذا الخلق الذى تجدينه فى أن يكون لك ولد من غير أن يمسك رجل وهو إبداع، يخلق الله تعالى ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه، وكلمة يخلق غير ينشئ؛ لأن الخلق إنشاء على غير مثال سبق، فالتعبير بـ «يخلق» يفيد الإبداع، وأنه منهاج فى التكوين يخالف منهاج غيره فى التكوين. وهذه الجملة السامية تفيد أموراً ثلاثة:

أولها: أن هذا النوع من التكوين، وهو إنجاب من غير أب هو فى قدرة الله تعالى؛ لأنه الخالق المبدع، وما هو غريب عليكم هو فى قدرته سبحانه؛ لأن من خلق الخلق الأول وخلق السنن الكونية وغيرها قادر على تغييرها؛ لأنه مبدعها ومنشئها.

ثانيها: أن خلق عيسى أمر من أمر الله تعالى، وعيسى ليس إلا مخلوقاً من مخلوقاته، فهو أبدعه كما أبدع غيره من المخلوقات، فليس إلها ولا ابن إله.

ثالثها: أن خلق الله تعالى بمشيئته وإرادته، وهذا فيه إشارة إلى السبب الذى من أجله خلقه الله تعالى من غير أب وهو أن المخلوقات لا تصدر عن الله صدور المعلول عن علته، ولكنها توجد بإيجاده وتنشأ بإبداعه: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾ وفى ذلك رد عملى على أهل الفلسفة المادية التى تقول إن العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن علته.

ثم أشار سبحانه إلى عظيم قدرته بقوله تعالى:

﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد

أن يوجد أمراً لا يوجد إلا بكلمة «كن» وعبر سبحانه عن الإيجاد بـ «قضى» للإشارة إلى أن إيجاده للأشياء ليس إلا من قبيل الحكم عليها بالوجود، فإذا حكم بالوجود فى أمر نفذ حكمه، وحكمه هو أن يقول كن، فيتربط على ذلك أن يكون.

وهل الأشياء حقيقة تنشأ بمجرد الإرادة الإلهية، أم أن هذا تصوير لسهولة الخلق؟ الظاهر أن هذا بيان لسهولة ذلك على خالق الخلق، وبارئ النسم؛ فهو

تمثيل لبيان قدرة الله تعالى الشاملة، وسهولة الإنشاء عليه سبحانه، ونفاذ إرادته في خلقه، ولذلك جاءت الإجابة في مثل هذا المقام بهذا المعنى في سورة مريم فقد قال تعالى في الإجابة عن استغرابها في تلك السورة : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢١ ﴾ [مريم]. فهذا التعبير الكريم صريح في أن السياق لبيان سهولة مثل هذا الخلق على خالق الخلق، ويفيد أيضا أن المقصود بيان أن الله سبحانه فعال لما يريد، وهو على كل شيء قدير. ربنا لا ترهقنا من أمرنا عسرا.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
 وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
 وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمِمَّا تَدْخِرُونَ
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
 وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٥١

في هذا القصص القرآني الصادق تستمر الآيات الكريمة متممة قصة البشارة بعيسى عليه السلام؛ بشرت به أمه قبل أن يكون في بطنها، وقد أوحى إليها أنه ستكون له تلك المنزلة في الدنيا والآخرة التي اصطفاه الله تعالى لها، وإن من سنة

الله تعالى فى كلامه المعجز أن يشتمل الكلام على الإيجاز، الذى هو من أسرار الإعجاز، ففى أثناء البشارة قبل الحمل كان بيان رسالته وما هياه الله به لأداء الرسالة، والمعجزات الكبرى التى أجراها الله سبحانه وتعالى على يديه، وماهية الرسالة التى جاء بها، ومقام رسالته من الرسائل قبلها، ثم بيان تلقى الذين أرسل إليهم هذه الرسالة مؤيدة بهذه المعجزات الباهرة القاهرة، ثم بيان النهاية التى انتهى بها، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولقد ابتدأ سبحانه ببيان علم الرسالة الذى تكون به قوة الرسول الذى يدعو قوما معاندين من أمثال اليهود والمشرىكين من الرومان، فقال:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى علم الرسالة التى أرسله بها، وهو علم بأربعة أمور: علمه بالكتاب، وعلمه بالحكمة، وعلمه بالتوراة، وعلمه بالإنجيل. أما علمه بالكتاب فقد قال بعض مفسرى السلف: إنه العلم بالخط والكتابة، وتوجيه ذلك التفسير أن عيسى بعث فى أمة اشتهرت بالعلم والمعرفة، فلا بد أن يكون فيه ما هو سبيل العلم والمعرفة وهو الكتابة، وقد كانت آيته فى إثبات رسالته فوق علم العلماء، وقدرة الناس قاطبة. وقال بعض مفسرى السلف أيضا: إن علم عيسى بالكتاب هو علمه بما نزل على النبين السابقين. وإنا نختار الأول؛ فإنه على التفسير الثانى يكون تكرار؛ لأن علم الرسائل السابقة، فى التوراة التى ذكر أنها من علمه، والتأسيس أولى من التأكيد. وأما العلم الثانى، وهو الحكمة، فهو العلم الذى يحكم صاحبه فى القول والعمل، وسياسة الناس فى القول والعمل، ولذا يقول العلماء: إن الحكمة هى العلم النافع؛ فهى العلم الذى تظهر ثمرته فى القول والعمل وهداية الناس، وقيادة نفوسهم؛ ولذلك قال الله تعالى آمرا نبيه الكريم ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [النحل] وإن هذا النوع من العلم هو ألزم العلوم لمن يقود الناس إلى الإيمان، ويدعوهم بدعاية الرحمن.

وأما العلم الثالث والرابع: فهما علم التوراة وعلم الإنجيل، والتوراة تسمى إلى علم الرسالات التي كانت قبلها، وعلم الإنجيل هو العلم برسالاته التي بعث بها في وسط تلك المادية التي استولت على بني إسرائيل، وهذا يدل على اتصال رسالته بالرسالات التي سبقتها، وكل رسول مبعوث لا تكون رسالته مقطوعة عما قبلها، بل هي موصولة بها متممة لها، وهي لبنة في صرح الرسالات الإلهية

وبعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى علم الرسالة التي هيأه الله تعالى لها، أشار إلى من أرسل إليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أي بعثه سبحانه وتعالى رسولا إلى بني إسرائيل. ومعنى الكلام: ويجعله أو يبعثه رسولا إلى بني إسرائيل. وذكر بنو إسرائيل خاصة مع أن دعوته كانت تعم كل الذين علموها من اليهود والرومان وغيرهم حتى يجيء من السماء ما ينسخها أو يكملها، وهي الرسالة العامة الخالدة، رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ والسبب في اختصاص بني إسرائيل بالذكر أنهم هم الذين خرج عيسى من بينهم، فهو منهم، وقد كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم، وانبعثت منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصهم بالذكر، فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وتوبيخ لهم؛ لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء، مع ذلك كفروا برسول مبعوث منهم، أوتى بمعجزات لا تجعل للعقل مساعدا لإنكار.

ولقد ذكر سبحانه في هذه الآيات معجزات عيسى التي أرسله الله بها لإثبات رسالته، فقال سبحانه:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا النص الكريم فيه معنى هذه الرسالة التي كان بها رسولا، أي أنه يتبين معنى أنه رسول بقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فالجملة عطف بيان لمعنى الرسالة المنطوية في الكلام. وفي الكلام التفات وانتقال من خطاب الله لمريم، إلى بيان رسالة بشارته إليها، وجاء بيان الرسالة على لسانه هو، وابتدأ بيان الرسالة ببيان إثباتها، وهو المعجزة، وكان المعجزة جزء من الرسالة؛ لأنها ركنها ودعامتها التي قامت عليها، ولأن معجزة عيسى كانت

تومئ إلى معانٍ من رسالته؛ ذلك بأنَّ عصره كان عصراً مادياً، لا يؤمن بالإرادة المختارة لله تعالى، ويؤمنون بالأسباب التي تجري في الحياة على أنها المؤثرات في إيجاد الأشياء، فكانت معجزاته عليه السلام إعلاناً لبطلان تأثير الأسباب، بدليل خرق هذه الأسباب، بإحياء الموتى؛ وقد جرت الأسباب المادية التي ترى على أن من مات لا يحيا في هذه الدنيا، وأن الأكفم الذي ولد أعمى لا يرتد بصيراً، وأن إخراج الحى من الطين مباشرة لا يكون، فجاء عيسى بكل هذا، فكان إعلاناً قوياً بأن الله فاعل مختار، وذلك جزء من رسالته.

والآية هنا هي المعجزة، وهي في أصلها العلامة، والمراد بها هنا العلامة الدالة على الرسالة، وأطلق على الجزء من القرآن آية؛ لأن كل آية في كتاب الله تعالى معجزة في ذاتها، دالة بوحديثها على رسالة النبي ﷺ.

ولقد ذكر بعد ذلك سبحانه آيات، وكانت الآيات المذكورة في هذا المقام أربعة؛ وعبر عنها بآية؛ لأن مجموعها دال على رسالته، وإن كانت كل واحدة منها تصلح حجة قائمة بذاتها؛ فذكرها بلفظ المفرد للإشارة إلى أنها جميعاً كانت آيته.

والآيات الأربع: هي أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأنه يبرئ الأكفم والأبرص، وأنه يحيى الموتى، وأنه ينشئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؛ فهذه آيات أربع.

والآيات الأربع ذكرت مضافة إلى السيد المسيح عليه السلام؛ لأنها كانت تجري على يديه، ولأنها هي التي كان يقيم بها الدليل على رسالته؛ وقد خاطب بها بنى إسرائيل، ومن استمع إليه من الرومان وغيرهم.

وأول هذه الآيات تصوير الطين ثم النفخ فيه فيكون طيراً، وقد ذكرها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾:

الخلق المراد به هنا التصوير، أى أنه صور من الطين كهيئة الطير، أى بشكله، فينفخ فيه، فكان طيرا بإذن الله تعالى، فهنا أعمال ثلاثة «اثنان منها لعيسى عليه السلام، والثالث لله تعالى جل جلاله وعظمت قدرته، أما اللذان لعيسى فهما: تصوير الطين كهيئة الطير، والنفخ فيه، وأما الثالث الذى هو من عمل الله تعالى وحده، فهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى عليه السلام؛ ولذلك قال: ﴿يَاذْنِ اللّٰهَ﴾ أى بأمره وإعلامه، والكون كله بأمره سبحانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. وهذا يدل على أنه لم يكن فى عيسى الوهية، ولا أى معنى من معانيها.

ولقد قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: إن الصيغة التى ذكرت بها هذه الآية وهو قوله: ﴿أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ تدل على استطاعته ذلك ولكنها لا تدل على الوقوع، وعندى أنها تومئ إلى الوقوع لأن ذكر الكيفية وهو أنه يتخذ من الطين صورة الطير، ثم النفخ ثم الكون طيرا يدل على الوقوع لا على مجرد الاستطاعة وفوق هذا فإن آية المائدة تدل على الوقوع بشكل أوضح من هذا؛ فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ فهذا النص الكريم دليل على الوقوع، لا على إمكان الوقوع؛ لأن الله تعالى لا يمين عليه إلا بالذى وقع فعلا.

والآية الثانية والثالثة: بينهما سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَأَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ الأكمه هو الأعمى الذى يولد أعمى، أى الذى لم يؤت حاسة الإبصار؛ أجرى الله تعالى على يد عيسى عليه السلام إبراءه. والأبرص هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة، وهو مرض لا يبرأ منه من يصاب به؛ فهذان مرضان لا يتصور بمقتضى العادة، والأسباب الجارية بين الناس أنه يمكن أن يكون منهما شفاء؛ لأن الأول يولد به الشخص ناقصا حاسة الإبصار، والثانى لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منه، فإذا كان الله قد أجرى على يدى عيسى عليه السلام الشفاء بهما فإن هذا

يقنع الماديين بأن وراء هذه الأسباب فاعلا مختارا، وليست الأسباب مؤثرة في الإيجاد، إنما المؤثر هو الله سبحانه وتعالى.

وإحياء الموتى وحده برهان قاطع على أن الأسباب العادية ليست هي المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر، وأن الأشياء لم تخلق بالعلية، إنما خلقت بالإرادة المختارة المبدعة المنشئة المكونة، وعبر بقوله: ﴿يَا ذُنِ اللَّهِ﴾ في كل هذا للإشارة إلى أن المبدع المنشئ هو الله سبحانه وتعالى، وأنه ليس ما يجرى على يدى عيسى لمعنى الألوهية فيه، إنما هو الله العلى القدير.

والآية الرابعة بينها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾:

الإنباء والتبصير: الإخبار بالخبر العظيم، إما لموضوعه، وإما لعظم شأن الإخبار نفسه، والإخبار عن شيء من غير رؤيته، إخبار عظيم فى ذات شأنه؛ ولقد كان عيسى لفرط روحانيته، ولما أكرمه الله به من إجراء الخارق للعادة على يديه تأييدا لرسالته، يخبر من بعث إليهم بما يأكلون، أى ما يأكلون، وما يدخرون فى بيوتهم، وهذا نوع من الكشف النفسى أعطاه الله لنبيه عيسى عليه السلام، وهو ليس من قبيل الإخبار عن المستقبل، وإنما هو من قبيل الإخبار عن الحاضر الواقع ممن لا يراه.

وقد كان النبى محمد ﷺ يخبر عن بعض الأمور المستقبلية، كما أعلمه الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بَضْعِ سِنِينَ﴾ وكإخباره عليه الصلاة والسلام عما يحدث لأمته فى الأزمان المستقبلية، وكإخباره عليه الصلاة والسلام عن فشو الربا فى أمته، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قيل: الناس كلهم يارسول الله؟! قال «من لم يأكله ناله غباره»^(١).

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد بن حنبل: باقى مسند المكثرين (١٠٠٠٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه، كما رواه النسائي: البيوع (٤٣٧٩)، وأبو داود: البيوع (٢٨٩٣)، وابن ماجه: التجارات (٢٢٦٩) بنحوه.

هذه المعجزات الأربع وغيرها، هي آية الله تعالى لإثبات رسالة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام؛ ولذا قال تعالى بعد ذكرها:

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن فى هذه الأمور التى أجراها الله على يد السيد المسيح عليه السلام آية، أى علامة واضحة بينة تدل على صدق رسالته، وثبتت دعوته، ويقتنع بها من يريد الاقتناع. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إيماء إلى أن الذين يقتنعون بالحجج والآيات هم الذين من شأنهم أن يذعنوا للحق، ويخضعوا له؛ فالتناس قسمان: قسم يذعن للحق ويؤمن به إن قام الدليل عليه، وأولئك هم الذين من شأنهم الإيمان والإذعان للحق؛ وقسم لا يزيده الدليل إلا عنادا واستكبارا، وأولئك هم الذين من شأنهم أن يجحدوا ولا يذعنوا للحق إذا دعوا إليه؛ ولذلك عبر بالوصف فى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان الإيمان والإذعان للحق شأننا من شئونكم، ووصفا ذاتيا لكم.

وإن هذه المعجزات الباهرة القاهرة التى خضع لها من خضع، وكفر بعدها من كفر، دليل على أن الدليل مهما يكن قويا لا يكفى للإيمان، بل لابد من اتجاه نفسى لطلب الحق من أن يتأشب بالنفس أى داع من دواعى الهوى، أو أى غرض من أغراض الدنيا؛ وأى دليل حسى أقوى فى الدلالة على الرسالة الإلهية من إحياء الموتى، وأن يصور من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله، ومع ذلك آمن من آمن، وكفر من كفر، وكان الذين عاندوا أكثر عددا من الذين أذعنوا وآمنوا، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

بعد أن أشار سبحانه إلى الآيات الكبرى التى أجراها على يدى السيد المسيح عليه السلام، أشار إلى رسالته، وهى تلخص فى أمرين: أنها مصدقة لما جاء فى التوراة مع إحلال لبعض الذى حرم على اليهود فيها، وثانيها: أنه يدعو إلى الإيمان بأن الله خالق كل شئ ومبدعه ومنشئه بإرادته المختارة؛ وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ :

وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ حال من الفعل المحذوف الذى دل عليه العطف، أى أنى جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق، وجئتكم مصدقا لما بين يدي؛ يقال الأمر بين يديه أى أنه حاضر ثابت موجود، وعيسى جاءت رسالته متممة لرسالة موسى ناسخة لبعض ما جاء فيها، كالشأن فى كل نبي بالنسبة لمن سبقه. ولقد بين عيسى عليه السلام لهم أنه جاء بالرفق والسماحة؛ ولذا أحل الله لهم على يديه بعض ما حرم عليهم بظلمهم وقسوتهم وجفوتهم ﴿فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾ [النساء] ولقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام]. ذلك لأنهم قست قلوبهم وغلظت أكبادهم، واستناموا إلى الراحة واسترخت أجسامهم، فابتلاهم الله بهذا التحريم لينشطوا ويعملوا، ويكونوا قوة عاملة، ولا يكونوا أجساما مسترخية؛ فلما جاء عيسى عليه السلام، وقد نزل بهم من البلاء ما نزل، أحل الله لهم على لسانه ما كان قد حرم. وقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ذكرت الآية، لأن جزءا من الرسالة العيسوية إثبات خلق الأشياء بالإرادة المختارة، ومعجزته كلها تنجيه نحو هذا الاتجاه، فهى فى ذاتها جزء من دعوته؛ لإثبات قدرة الله تعالى وإرادته فى الخلق والإبداع.

وبعد أن أشار سبحانه إلى ما تضمنته الرسالة العيسوية، ذكر دعوة عيسى لقومه بهذه الرسالة، فقال سبحانه حاكيا قول عيسى لهم:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كانت دعوة عيسى تنجيه إلى هذين الأمرين: تقوى الله تعالى، وأن يطيعوه بأن يتبعوه فى منهاجه الذى رسمه لهم ووجههم إليه تبليغا لرسالة ربه. أما تقوى الله تعالى فكان لابد أن تكون لباب الدعوة العيسوية؛ لأن اليهود كانوا قد أعرضوا عن الله تعالى إعراضا تاما، حتى لقد كان فريق منهم، وهم الصدوقيون لا يؤمنون باليوم الآخر، وحتى لقد حسب أكثرهم أن العقاب الذى هدد الله به هو العقاب الدنيوى، لا العقاب الأخروى؛ ومن أجل ذلك سرى

فى قلوبهم حب الدنيا والحرص عليها حرصا شديدا أيًا كانت حياتهم فيها؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...﴾ (٩٦) [البقرة].

وأما الطاعة لعيسى عليه السلام فبأن يتخذوا منه قدوة حسنة فى زهادته وروحانيته وسماحته، ليخففوا من غلظتهم وقسوتهم. واليهود إلى الآن فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الدعوة، وهى التقوى والعفة والسماحة، ولكنهم أجابوا فى الماضى داعى الحق بمحاولة قتله، وكذلك يفعلون الآن، فهم يحاولون قتل من حموهم وأووهم.

ولقد قرر عيسى - عليه السلام - أن هذه المعجزات الباهرة لا تخرجه عن أنه عبد لله تعالى مخلوق له سبحانه؛ ولذا حكى الله تعالى عنه قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى أن الله تعالى خلقتى وهو الذى يربنى ويكلؤنى ويحيينى، وهو أيضا الذى خلقكم وينمىكم ويكلؤكم ويحيىكم، وإذا كان كذلك فحق علينا أن نعبد وحده ولا نشرك به أحدا سواه، فإن العبادة تكون شكرا لهذه النعمة، وقياما بحقها، وصلاحا لأمر الناس فى هذه الدنيا. وعبادة الله وحده والاعتراف ببروبيته وألوهيته وحده هى الصراط أى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه، اللهم اهدنا إلى سواء السبيل.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ

الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ

أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَأَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ

الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾

هذا القصص الحكيم مستمر فى قصة عيسى، وقد انتقل فى الآيات السابقة من بشارة مريم بأن تكون المختارة لتكون منها الآية الكبرى وهو أن يولد منها ولد هو إنسان حى يأكل ويشرب وينمو من غير أب ينجبه، إلى ملاقة قومه له وتكذيبه؛ ولم يكن ذلك الانتقال مفاجئاً من غير تمهيد بل مهد له، فأشار فى البشارة إلى مقامه ورسالته وآيته الباهرة القاهرة؛ وبهذا علم القارئ الذى يتلو كتاب الله من السياق ورسالته والمعجزات التى تحدى بها قومه أن يأتوا بمثلها؛ وعلى ذلك لم يبين فى هذا الموضع ولادة عيسى عليه السلام، وحال مريم عند ولادته، وتكلمه فى المهد صبيًا، وبين ذلك فى سورة مريم فى قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ۖ﴾ (٢٣) فَادَّاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلًا تَحْزِنِي ۖ فَمَلَّكَ رَبُّكَ فَتَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ﴾ (٢٤) وَهَزَيْ إِلَيْكَ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۖ﴾ (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ﴾ (٢٦) فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ﴾ (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ﴾ (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ﴾ (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾ (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾ (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾ (٣٣) [مريم].

ففى سورة مريم فصل خبر ولادته، وفى هذه السورة فصل الآيات التى أثبت بها نبوته، وكان هذا مناسبا لما يجىء بعد ذلك من ملاقة قومه لدعوته إلى الله، وإقامته الآيات التى تدل على رسالته، فقال :

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ هذا النص الكريم كان معقبا للآيات الباهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكهم والأبرص، وتصوير الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله. وتعقيبه لهذه الآيات، وكون الكثرة لم يكونوا مؤمنين كما يشير النص، يدل على أن الآية مهما تكن باهرة القاهرة لا تحمل

الجاحدين الذين غلفت قلوبهم دون نور الهداية على الإيمان، والفاء هنا كأنها فاء التعقيب على الآيات الباهرة، أى أنهم فور هذه الآيات كفروا ولم يتدبروا، وأحس منهم عيسى هذا الكفر، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله . والإحساس هو العلم الذي يكون بالحواس، وإطلاقه على العلم المجرد بعد ذلك من قبيل تشبيه العلم اليقيني القاطع البدهى بالعلم المدرك بالحواس .

ولما أحس عيسى الذى أوتى هذه البيئات الكفر من قومه، وعلم ذلك علما يقينيا، اتجه إلى من يدعوهم يتعرف من أصاب الإيمان قلبه ليتخذ منهم قوة للدعوة وليكونوا صورة للمهتدين الصادقين؛ ولذلك قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى من الذين رضوا أن يكونوا أنصاري لأواجه بهم الذين يحاربون دعوتي، على أن يكون أولئك الأنصار منصرفين متجهين إلى الله تعالى لا ييغون غير رضاه، وهذا التعبير الكريم فيه إشارة إلى معان ثلاثة:

أولها: أن الأكثرين لم يكونوا مؤمنين؛ ولذلك عبر بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ فنسب الكفر إليهم، وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلة المغمورة، حتى بحث عنهم السيد المسيح عليه السلام بقوله: من أنصاري إلى الله تعالى .

المعنى الثانى: الذى يشير إليه النص الكريم: أن السيد المسيح عليه السلام أحس بأنه أصبح مقصودا بالأذى، وأن الدعوة الحق أصبحت مهاجمة من تلك الكثرة الساحقة؛ ولذلك طلب أن يكون له نصراء يجعلون للحق منعة وقوة من جهة، ويكونون مدرسة الدعاية له، والخلية التى تدرس فيها حقائقه من جهة أخرى .

المعنى الثالث: الذى يشير إليه النص: هو أن النصرة الحقيقية فى مثل هذا المقام أساسها إخلاص النية لله تعالى، والاتجاه إليه، وتفويض الأمور إليه، فإنهم إن كانوا قليلا فهم بمعونة الله كثيرون ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج] ولذلك كان فى سؤال السيد المسيح عليه السلام إضافة النصراء

إلى الله، فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وقد قال في ذلك الزمخشري: «إلى الله من صلة أنصاري مضمنا معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني كما ينصرنني، أو يتعلق بمحذوف حالا من الياء، أى من أنصاري ذاهبا إلى الله أو ملتجئا» والأوضح في نظري أن يكون المحذوف حالا من الأنصار أنفسهم أى من أنصاري حالة كونهم متجهين ملتجئين إلى الله تعالى، وفي هذا طمأنة لهم بأن نصرته هي نصره الله، وأن الذين ينصرونه يلتجئون إلى جانب الله تعالى، يعتمدون عليه، فهم إذا كانوا للحق منعة، في عزة من الله ومنعة منه، وإن دعوة الحق لا بد أن تجدد نصيرا وإن طغى الباطل واشتد؛ ولذلك أجيب عيسى عليه السلام من المخلصين من قومه:

﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ الخواريون هنا هم أنصار عيسى عليه السلام الذين أخلصوا له ولازموه، وكانوا عوناً في الدعاية إلى الحق بعد الله تعالى الذي أمدّه بنور من عنده. وأصل مادة (خَوَر) هي شدة البياض، أو الخالص من البياض، ولذلك قالوا في خالص لباب الدقيق: الخواري، وعلى النساء البيض: الخواريات، والخواريات؛ وعلى ذلك يكون تسمية صفوة الرجل وخاصته خواري؛ لأنهم أخلصوا له، ولأنهم لباب الناس بالنسبة له، وكذلك كان خواريو عيسى عليه السلام؛ فقد كانوا خاصته، والذين صفت نفوسهم، وخلصت من أدران الدنيا وأهوائها كما يخلص الثوب الأبيض الناصع البياض من كل ما يشوبه.

أجاب أولئك الخواريون عيسى عليه السلام عندما أخذ يبحث عن النصراء ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وهم بذلك بينوا اهتمامهم لأمرين:

أولهما: أنهم علموا أنه يتكلم عن الله تعالى وأنه رسول أمين؛ ولذلك اعتبروا إجابة دعوته هي من إجابة دعوة الله، وأنهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى؛ ولذا قالوا: نحن أنصار الله، ولم يقولوا نحن أنصارك.

الأمر الثاني: أنهم فهموا أن نصرته تكون بإخلاص النية لله تعالى، وتصفية نفوسهم من كل أدران الهوى، حتى تكون خالصة لله تعالى، ولذلك أردفوا قولهم هذا بما حكاه سبحانه وتعالى عنهم بقوله تعالى:

﴿أَمَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ فهذا النص الكريم يفيد مقدار إدراكهم لمعنى نصره الله تعالى ونصرة رسوله عيسى عليه السلام؛ قالوا ﴿أَمَّا بِاللَّهِ﴾ أى آمنا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأنه خلق الأشياء بإرادته المختارة، وبقدرته الفعالة، ولم توجد عنه الأشياء وجود المعلول عن العلة، والمسبب عن السبب، كما كان يدعى بعض الفلاسفة فى عصرهم، وأردفوا قولهم بما يدل على الإذعان المطلق لله تعالى، وإخلاص نياتهم وقلوبهم له سبحانه بقولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾. الشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة، فهم يطلبون من سيدنا عيسى أن يعلم علم معاينة بأنهم مسلمون أى مخلصون قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين، وصاروا بتفكيرهم وقلوبهم وجوارحهم لله تعالى، وإن ذلك فوق أنه إعلام لحقيقة نفوسهم هو إشهاد من قبلهم بما خلصت به أرواحهم.

خاطبوا بهذا الخطاب نبي الله تعالى مجيبين دعوته، ملبين نداءه، معلنين نصرته، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى ضارعين إليه قائلين:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وقد صدروا ضراعتهم إلى الله تعالى بالاعتراف الكامل بالربوبية، وفى الاعتراف بالربوبية إحساس صادق بجلال النعم، وتقديم شكر المنعم، ثم الاعتراف بالربوبية الحق يطوى فى ثناياه الاعتراف بالآلوهية الحق؛ لأن كمال الخضوع لله لا يكون إلا بالإيمان بالربوبية، ووراء هذا كله الأفراد بالعبودية، ثم بعد الضراعة بلفظ الربوبية أعلنوا الخضوع والإذعان الكامل، فقالوا: ﴿أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ أى صدّقنا تصديق إذعان وتسليم وهداية بما أنزلت. وما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام هو تكليفات؛ فالإيمان الصادق بها يقتضى العمل؛ لأن العمل يدل على كمال الإيمان، ولأن المخالفة من غفوة الإيمان، ومن قبيل ذلك قول محمد ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»^(١). وقد تأكد ذلك المعنى وهو العمل بمقتضى ما أنزل لهم بعد ذلك فى

ضراعتهم ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو عيسى عليه السلام، واتباع الرسول يكون بالعمل بهديه، والأخذ بستته.

وإذا كانوا قد ضرعوا إلى ربهم بهذا الإيمان تلك الضراعة، فقد اتجهوا مع ذلك إلى دعائه راجين بإجابته أن يقوى الله سبحانه وتعالى إيمانهم، وأن ينقلهم من الإيمان الغيبي إلى الإيمان الذي يصل إلى درجة تشبه المشاهدة؛ ولذا قالوا:

﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى إذا كنا قد امتلأت قلوبنا بربوبيتك، وألوهيتك وعبوديتك فارفعنا إلى مرتبة أعلى هى أن نكتب مع الشاهدين؛ ومن هم الشاهدون؟ يصح أن نقول إنهم الذين صفت نفوسهم وزكت مداركهم، حتى وصلوا إلى درجة العلم الذى يكون كعلم المشاهدة والرؤية، الذين قال فى أمثالهم محمد ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) فهذه مرتبة من الإيمان، والمعرفة أعلى من مجرد الإيمان. ويصح أن تسمى هذه المرتبة مرتبة الشهود أو المشاهدة التى يقول عنها الصوفية، فالؤمن يتعبد، ويصفى نفسه من أدران الدنيا، حتى يصبح كأنه يشاهد الله رب العالمين فى أعلى ملكوته، ويحس فى كل فعل يفعل أنه فى حضرته العلية كمن يعاينه.

وإن النص الكريم يدل على وجود ذلك الصنف من العباد الأصفياء الأتقياء الأبرار، وأنهم فى أعلى درجات اليقين، بدليل أن هؤلاء الأتقياء طلبوا أن يكونوا فى هذا الصنف، وحكى العلى القدير للأجيال طلبهم الذى رشحهم له فرط ضراعتهم وتقواهم، وأولئك الشاهدون هم الأنبياء والصديقون والشهداء.

أحس عيسى عليه السلام بحدة كفر الكافرين، وشدة نضالهم؛ ولذلك اتجه إلى أن يكون له دعاة مناصرون أطهار، تكون منهم مدرسة الحق، وأخذ يثتعاليمه فى تلاميذه، وينتقل فى أراضى بيت المقدس وجبالها وآكامها هاديا مرشدا باعشا الأرواح إلى الإيمان بالحق، ولكن جحدوا بالحق بعد أن ظهرت أماراته،

وقامت بيناته، ثم أخذوا يحولون بينه وبين هدايته، ودعوة الحق التى يدعو بها، ولما رأوا أن نور الحق يزداد انتشارا، قرروا أنه لابد أن يقطعوا حركته نهائيا بتدبير الشر لشخصه. ويستفاد من الإشارات القرآنية أنهم حاولوا قتله، ولا عجب فقد قتلوا يحيى بن زكريا عليه السلام الذى عاصره. ولا يستغرب على اليهود عمل فاجر، فهم فى ماضيهم كما نراهم اليوم فى حاضرهم، ولقد قال تعالى بعد أن بلغت دعوة الحق أقصاها وأعلاها ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾:

أى أن هؤلاء الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر، ورآه عيانا منهم بعد أن كَوّن فيهم مدرسة الهداية بالحواريين، وأخذوا يدبرون التدبير للقضاء عليه أو على دعوته. والمكر، كما يظهر من عبارات القرآن: هو التدبير الذى يجتهد صاحبه فى إخفائه عن من يمكر به؛ ولذا نسب المكر إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يكون عمل الله تعالى إلا خيرا، ولذا ذكر المكر موصوفا بالسوء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...﴾ [فاطر ٤٣] فدل هذا على أن مطلق المكر لا يعد سوءا، مكر الفجار لإيذاء الأبرار لا يمكن أن يكون خيرا، ومكر الله تعالى لإحباط تدبير الأشرار لا يتصور إلا أن يكون خيرا. وقد قصر بعض المفسرين المكر على التدبير السيئ، وسمى تدبير الله لإحباط تدبيرهم مكرًا من قبيل المشاكلة ورد الفعل بمثله وإن لم يكن له وصفه، كتسمية رد الاعتداء اعتداء فى مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة ١٩٤] وما هو إلا عمل عدل ولكن سُمى به للتماثل بين الفعلين فى الواقع ليتحقق الدفاع العادل.

دبر أولئك قتل عيسى عليه السلام كما قتلوا يحيى، فكانوا - لاستيلاء الفساد على قلوبهم - قد أصابهم شره لدماء الأظهار دبوا ذلك، والله يدبر حمايته، وقد تم ما أراد الله تعالى؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فسرهما بعض المفسرين بأن الله سبحانه لا يصدر عنه إلا الخير، فمكره خير مكر لأنه لا يتصور فيه شر قط. وفسر الزمخشري قوله:

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ بقوله: أقواهم مكرًا، وأنفذهم كيدا، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب؛ وذلك كلام مستمد من ذوق بياني رائع والله من وراء كل من يدبر الشر للأطهار، وهو الذى يحفظ بعلمه وقدرته الأبرار، ربنا هب لنا من أمرنا رشدا.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَرَأءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٥٥
إِنِّي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَافِرُونَ ٥٦
فَوَقَّعَ اللَّهُ فِيهِمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ٥٧
فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ٥٨
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ٥٩
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٦٠
ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٦١

هذه الآيات موصولة بالقصص السابق، والذى تدل عليه الآيات قبلها هو أن معركة قائمة بين الخير والشر؛ فعيسى عليه السلام ينادى أنصاره إلى الله تعالى، ويجيبه الحواريون بالإيمان والإخلاص والاستعداد للابتلاء فى سبيل إيمانهم ونصرتهم للسيد المسيح عليه السلام، والشر يدبر التدبير السيئ، والله من وراءهم محيط، يدبر الخير ويهدى إليه ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وفى هذه الآيات يبين سبحانه خيبة تدبيرهم ونجاته عليه السلام من شرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَرَأءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٥٥﴾

والمعنى: اذكر يا محمد للعظة والاعتبار قصص عيسى بن مريم، إذ قال الله تعالى له فى نداء رحيم منجيا له من أذى اليهود الذين كانوا ولا يزالون أعداء لكل

خير، أنصارا لكل شر: ﴿يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ كُنْ صَاحِبَ الْمَقْدِسِ﴾ والمعنى المتبادر من هذا النص الكريم أن الله تعالى توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها، وأنه رفع مكانته برفع روحه إليه سبحانه وتعالى، كما ترفع أرواح الأنبياء إليه سبحانه وتعالى، هذا ظاهر هذا النص، ولكن جاءت نصوص أخرى يفيد ظاهرها أن الله تعالى رفعه بجسده إليه سبحانه؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨) [النساء] فظاهر هذا النص أن الله تعالى رفعه إليه بجسده؛ لأنه مقابل بالقتل والصلب، ولا يصلح مقابلا لهما رفعه بالروح؛ لأنه يجوز أن يجتمع معهما، ويؤيد هذا ما ورد في صحاح السنة من أن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض فيملؤها عدلا، كما ملئت جورا وظلما؛ فقد روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص^(١) فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، ويدعون إلى المال فلا يقبله أحد»^(٢) فإن ظاهر هذا الحديث يفيد أنه ينزل بجسده من الملكوت الأعلى.

وإزاء تعارض ظواهر النصوص على ذلك النحو، كان لابد من تأويل جانب منها لتكون ثمة موافقة بينه وبين الأخرى؛ ففريق من العلماء وهم الأقل عددا، أجروا قوله تعالى في الآية الكريمة التي نتكلم في معناها على ظاهرها وأولوا ما عداها؛ ففسروا قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بمعنى مميتك ورافع منزلتك وروحك إليّ، فالله سبحانه وتعالى توفاه كما يتوفى الأنفس كلها، ورفع روحه كما يرفع أرواح النبيين إليه.

(١) جاء في الهامش: القلاص جمع قلوص وهي الناقة، ولعل المعنى أن ابن آدم يتجرد للروحانية.

(٢) متفق عليه، وقد رواه بهذا اللفظ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مسلم: الإيمان - نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبيينا (٢٢١)، وبه رواه أحمد: باقي مسند المكثرين (١٠٠١)، ورواه البخاري: البيوع - قتل الخنزير (٢٠٧٠).

وإذا كان أصحاب هذا الرأي قد فسروا الآية على ذلك الظاهر، فقد قرروا أنه لا معارضة بينها وبين الأحاديث التي تفيد النزول؛ لأنها تدل على مجرد العودة إن أخذناها بظاهرها، وليس الله سبحانه وتعالى بعاجز عن أن يرد روحه إلى جسمه، وهو الذي يُحْيِي العظام وهي رميم، وكما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف] وفضلُ عيسى عليه السلام أنه عاد إلى جسده قبل أن يعود غيره إلى جسده، هذا إذا قبلت هذه الأحاديث بظاهرها من غير تأويل، ومن غير نظر إلى سندها وكونها أخبار آحاد لا يؤخذ بها في الاعتقاد.

وأما التوفيق بين الآية الكريمة وبين قوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فإنه في نظر أصحاب ذلك النظر لا يحتاج إلى عناء في التأويل؛ لأن الإضراب الذي تضمنته «بل» إضراب عن القتل والصلب، وليس إضراباً عن الموت الطبيعي، وكونه لا يقتل ولا يصلب لا يقتضى أنه لا يموت موتاً طبيعياً، والتعبير بقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فيه إشارة إلى معنى الكرامة والإعزاز والحماية، وأنه تعالى حاميه منهم، ومانعه دونهم، وأنهم لن يتمكنوا من رقبته؛ إذ إن الذي يحميها هو خالق الكون، وخالق القدر.

هذا هو التفسير الأول للآية الكريمة، وهو الذي يجريها على ظاهرها من غير أى تأويل، ويقرر أنه إن كان لابد من تأويل فهو فيما يعارض ظاهره ظاهراً، على أن التوفيق في ذاته ممكن من غير تأويل بعيد أو قريب، إذ الظاهر أن التفسيرين في نظرهم غير متعارضين، والتوجيه الصحيح لمعانيها يجعلها متلاقية غير متنافرة وإن التأويل إنما يكون بترك ظاهر الآية الكريمة: ﴿مُتَوَفِّكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

والتفسير الثانى: يقرر أن الرفع بالجسم لا بالروح فقط، وأن عيسى حى في السماء، وأن الأرض قد خلت منه ليعود إليها فيملؤها عدلاً، بعد أن ملئت جوراً؛ وإن أصحاب هذا الرأي وهم الأكثرون ويحتاجون بلا ريب إلى تأويل هذه الآية، ولهم في التأويل طرق مختلفة، منها أن قوله ﴿مُتَوَفِّكَ﴾ ليس معناها مميتك، بل

معناها هو المعنى اللغوي الأصلي؛ إذ إن التوفى في اللغة أخذ الشيء وافيا تاما، والمراد في نظرهم أنني موفيك حياتك كلها في الدنيا على الأرض ببقائك فيها، ثم رافعك إلى السماء تستوفى حظك من الحياة هناك. ولكن يعارض هذا التأويل أن القرآن له استعمال في العبارات يخصصها، وقد خصص هذا اللفظ بالموت، كما خصصته اللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...﴾ (١١) [السجدة].

ومن التأويلات: أنهم فسروا الوفاة بمعنى النوم باعتبار أن النوم هو الموتة الأولى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ...﴾ (٦٠) [الأنعام]. والمعنى على هذا منومك نوما عميقا، ثم رافعك في أثناء هذا النوم إلى.

ومن التأويلات: ما ذكره القرطبي بقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة، والمعنى إني رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩) [طه]، والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما^(١) أى أن الوفاة ستكون، وليست سابقة على الرفع، بل هي متأخرة عنه، أى أنه عليه السلام يموت بعد أن ينزل إلى الأرض ولا شك أن هذا ضرب من التأويل، وليس ظاهر النص.

ذاتك نظران في تفسير الآية الكريمة، أولهما يعتمد على ظاهر الآية الكريمة، وعلى أنه لا تعارض بين هذا الظاهر وظواهر النصوص الأخرى، ومنهم من يقف من أحاديث نزوله إلى الأرض موقف المستفهم؛ لماذا اختص عيسى بهذا؟ ولماذا لا يكون هذا لنبينا محمد ﷺ؟ ويخشى أن يكون ذلك من دس النصارى، وكم دسوا في الإسلام؛ ولقد كان في عصر التابعين يوحنا الدمشقي في بلاط بني

أمية يؤلف الجماعات السرية التي تدس الآراء والأفكار التي من شأنها أن تفسد عقائد المسلمين.

أما النظر الثاني فاعتماده الأكبر على الأخبار التي وردت بنزول عيسى عليه السلام وأوّل من أجلها هذه الآية الكريمة، مع أن الأخبار أحاديث آحاد، وأولئك هم الأكثرون كما قلنا.

﴿وَمُطَهِّرُكُم مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التطهير معناه إزالة الأدران والخبائث، والله سبحانه وتعالى طهر المسيح عليه السلام من الآثام التي حاول أن يلصقها به وبأمة اليهود ومن جاءوا بعده ممن ادعوا اتباعه وهم لم يتبعوه، وأبدى سبحانه وتعالى للملأ من اليهود طهر أمه وعفتها ونزاهتها، كما أبدى روحانيته وسلامته مما رماه به من عادوه وأفرطوا في عداوته، وما رماء به من أحبوه وأفرطوا في محبته حتى حسبوا أنه إله أو ابن إله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. هذا تطهير الله لعيسى عليه السلام، ولقد طهره أيضا بأن لم يمكن اليهود والرومان من صلبه ومن قتله بل شبه لهم، ونجاه الله تعالى من كيدهم؛ وهكذا طهر الله عيسى من كل رجس معنوى أو حسى، ومن كل أذى حسى أو معنوى.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهنا يسأل القارئ لكتاب الله: من هم الذين اتبعوه؟ ومن هم الذين كفروا به؟ وما هذه الفوقية التي تكون للذين اتبعوه؟

ليس الذين اتبعوه هم الذين قالوا إنا نصارى أو نحن نتبع المسيح وكانوا يزعمون أنه ثالث ثلاثة أو ابن الله؛ لأنه ما قال هذا وما ادعاه، ولكنه جاء بالتوحيد، والإيمان بالله العلى القدير وحده؛ وإنما الذين اتبعوه هم الذين آمنوا به، وبأنه رسول من رب العالمين، وبأنه بشر كسائر البشر، وأن تعاليمه هي العدالة، والرحمة، والسماحة، والإخلاص في طلب الحق وعبادة الله تعالى كما أمر الله؛ ولذلك لم يجانب الحق من قال إن أتباعه هم المسلمون، لأنهم هم الذين

يؤمنون برسالته حق الإيمان من غير إفراط ولا تفريط، ومن غير أن يتجاوزوا به قدره الذى قدره الله تعالى له وسواه عليه.

والفوقية ليست هى القوة؛ فإن الأسد أقوى من الإنسان، ولكنه ليس فوقه ولا أعلى منه، بل الفوقية هى فوقية الإدراك والإيمان والإخلاص؛ وذلك لأن سبب الفوقية هو الاتباع، والمسبب من جنس السبب، فالسبب معنوى روحى، فالفوقية روحية معنوية، فليست الفوقية إذن فوقية سيف وسان، بل فوقية حجة وبرهان، . ولقد قال الزمخشري فى ذلك: «يعلونهم بالحجة، وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون؛ لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام، وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه، والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى»^(١).

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إن الفوقية التى أشرنا إليها هى فوقية الحجة القوية الثابتة عن النظر بعين الحق السائغ، والقسطاس المستقيم، وإن هذه الحجة قائمة فى الدنيا إلى يوم القيامة، حتى إذا انتهوا إلى ذلك اليوم العلوم المقطوع بأنه سيقع لا محالة، يكون الاحتكام بها إلى الحكم العادل العليم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ أى إلى رجوعكم ومآبكم، وإذا كان المرجع إلى الله والمصير إليه سبحانه وهو العليم بكل شىء، فهو الذى يحكم بينهم فيما كانوا يختلفون فيه، وحجة بعضهم فوق حجة الآخرين، فالفاء فى قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هى التى تسمى فاء الإفصاح؛ لأنها تفسح عن شرط مقدر، وقد ذكرناه فى مطوى كلامنا. ولقد بين سبحانه وتعالى بعض الحكم مفصلا فى قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ هذا هو الجزء الأول من الحكم، وهو عذاب الذين كفروا، وفى التعبير بالموصول إشارة إلى أن سبب العذاب هو كفرهم، وقد أكد سبحانه وتعالى شدة

العذاب بعدة تأكيدات، أولها: بنسبة التعذيب إليه، وهو القوى القهار الغالب على كل شيء، وفيه إشعار بعدالة العذاب عدالة مطلقة، وثانيها: بالتأكيد بالمصدر، وثالثها: بالوصف بالشدة، ورابعها: بعدم رجائه إنهاء أو إزالته؛ إذ لا يوجد لهم من ناصر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وهو نفى مؤكد مستغرق، أى ليس لهم من ناصر أى كان هذا الناصر، وأيا كانت نصرته، ولو كانت ضئيلة.

ولقد ذكر أن العذاب فى الدنيا. وفى الآخرة؛ أما عذاب الآخرة فالأمر فيه إلى الله تعالى العلى القدير، وأما عذاب الدنيا بالنسبة لمن كذبوا المسيح من اليهود فهو هذه الذلة والتفريق فى الأرض، ومهما يحاول الكافرون أمثالهم لهم من معاونة فإن حبلها مقطوع بعون الله تعالى العلى القدير ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء] وأما النصارى فإن العذاب الذى هم فيه يبدو للناظر الفاحص من اختلافهم فيما بينهم، وتفرقهم أحزابا وشيعا، وجعل بأسهم بينهم شديدا، وهذه هى الحروب بينهم مستمرة مفسية مدمرة، وأى عذاب أشد من هول الحروب التى وقعت بينهم فى الحربين العالميتين السابقتين!! فكم من دماء أهرقها أولئك الذين كفروا بالمسيح فيما بينهم، وأى ذرية أبادوها، وكم من العمران خربوه!! ولا يدرى إلا الله ما سيكشف عنه المستقبل من عذاب شديد يعده بعضهم لبعض، حتى يصيروا فى نهايتهم بورا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

هذا هو الجزء الثانى من الحكم وهو جزاء الذين آمنوا، وقد ذكر جزاءهم الحكيم العليم بأنه يوفيههم أجورهم أى جزاءهم على ما قدموا من أعمال استحقوا عليها ذلك الجزاء، وهو النعيم المقيم؛ وقد جعل ذلك الوفاء وهذا الجزاء مبنيا على أمرين، أحدهما: إيمان صادق، والثانى: عمل صالح، فهما اللذان نيط بهما الجزاء، وفى الحق إن الإيمان الصادق يتبعه العمل الصالح، وليس بمؤمن حق الإيمان من يتخلى عمله عن اعتقاده، ولم يذكر سبحانه وتعالى نعمته فى ثوابه، وهو المنعم دائما المتفضل بالثواب؛ للإشعار بأن إنعامه سبحانه منوط بعمل،

وَلْيَعْلَمَنَّ الْعَدَالَةَ أَنَّ نَرْبِطُ الْجَزَاءَ بِالْعَمَلِ . ثُمَّ ذِيلُ سُبْحَانِهِ وَتَعَالَى الْآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ لإعلان عدالته ولإثبات أن الكفر والظلم قرينان ، وأن الإيمان والعدل متلازمان ، وليبين استحقاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات لما أعطوا من ثواب ونعيم مقيم . ولقد ختم الله سبحانه وتعالى قصص عيسى بقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ ذلك القصص الذي ذكرت فيه قصة آل عمران ، وقصة مريم وولادتها وزكريا ونداءه وإجابته ، وعيسى وروحانيته وآياته الباهرة ، نتلوه ، أى نقصه عليك بعضه تلو بعض فتلوه فى بيان رائع ، وهو من الآيات البينات المثبتة لرسالتك ، فما كنت لديهم إذ حدثت هذه الوقائع الشابتة التى لا مجال للريب ولا للشك فى صدقها ، وما كنت تقرأ فى كتاب ، ولا تلقيته بيمينك ، إنما هو وحى به إليك لتثبت به رسالتك ، وتؤيد به دعوتك ، وهذا القصص مع دلالاته على نبوتك هو فى ذاته يحمل العظة والاعتبار ؛ ولذلك كان هو من ﴿ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ أى الذكر الذى يربى الحكمة فى القلوب التى تقرأ وتعى وتدرى ، إذ هو يذكر القارئ بأن الأدلة مهما تكن قوتها لا تجعل الضال يهتدى ما لم يفتح قلبه لها ، فالأدلة كالنور لا يراه إلا من له بصر يبصر به ، اللهم افتح قلوبنا لإدراك الحق والإيمان ، إنك على كل شىء قدير .

إِنَّ

مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

فى الآيات السابقة بينَ الله سبحانه وتعالى كيف كان الحمل بعيسى، وما أجراه الله تعالى على يديه من معجزات، وكيف كان عبدا من عباده الصالحين، وذكر دعوته إلى ربه، ومعاداة قومه له، وتقديم الحواريين ليكونوا أنصاره إلى الله، وكيف مكر القوم به وأحبط الله مكرهم، ثم توفاه سبحانه، ورفعته إليه، وجعل فوقية للذين اتبعوه فى هدايته، فأمنوا بوحداية الله وبرسالته، وليس منهم قطعا أولئك الذين قالوا إنا نصارى وادّعوا ألوهيته، أو أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وإنه فى هذه الآيات يبين الله سبحانه وتعالى حقيقة تكوين عيسى، ويزيل وجه الغرابة فى ولادته، وأن الله تعالى لا يتقيد بالأسباب والمسببات؛ لأنه خالق كل شىء، وهو الفاعل المختار، يخلق الأشياء بإرادته واختياره، ولا تصدر عنه المخلوقات صدور المعلول عن علته، كما يتوهم المادبيون الذين عاصروا عيسى عليه السلام، والذين يعاصروننا اليوم، وإن الله سبحانه كما خلق الإنسان الأول آدم من غير أب ولا أم، فكذلك خلق عيسى من غير أب، وهو سبحانه ذو القوة المتين. ولقد بين سبحانه هذه الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ يبين الله بهذا النص الكريم مكان خلق عيسى عليه السلام من قدرته سبحانه وتعالى، بجوار خلق آدم من تراب؛ فالله سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب، أى من غير أب ولا أم، ومن مادة ليس من شأنها أن يكون منها إنسان حى ينطق ويتكلم، وقد تعلم الأسماء والأشياء كلها؛ ومعنى النص الكريم: إن حال عيسى فى تصويره وتكوينه من غير أب بالنسبة لقدرة الله تعالى كحال آدم صوره وكونه من طين.

وفى هذا التمثيل احتجاج على النصارى الذين ألّهُوا المسيح عيسى ابن مريم لأنه خلق من غير أب، واعتبروه ابن الله والاحتجاج من وجهين:

أولهما: أنه إذا كان خلق عيسى من غير أب مسوغا فى زعمهم لأن يكون إلها أو ابن إله، فأولئى بذلك ثم أولئى آدم؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم، ولا

أحد من الناس ادعى ألوهية آدم لهذا السبب فيبطل حيثئذ ذلك الزعم الباطل لانهايار الأساس الذى قام عليه .

ثانيهما: أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قادرا على خلق إنسان حيّ من غير أب ولا أم، ومن مادة ليس من شأنها أن يتكون منها إنسان حي، فأولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب، ومن أم هى إنسان يلد ويحيا ويموت، وهى وعاء لحياة الإنسان وهو جنين؛ وإذا فلا غرابة فى خلق عيسى من غير أب، وما كان يصح أن يكون هذا دافعا لهذا الضلال المبين .

والنص الكريم فوق ما تضمنه من حجة دامغة تقطع دعوى المبطلين، هو بيان لقدرة الله تعالى العلى القدير فى خلق الأحياء وخلق الأشياء، من حيث إنها تخلق بإرادته المختارة، وأنه بهذه الإرادة يخلق الحىّ من غير الحىّ، ويخلق الحىّ على غير النظام الجارى فى مجرى العادات، وما نسميه طبائع الأشياء فى التكوين والتوالد، ولا تصدر عنه الأشياء كما يصدر المعلول عن علته، وإلا ما كان من الطين إنسان حى ناطق هو أبو الخليفة آدم عليه السلام . ولذا بين سبحانه بعد ذلك عظم إرادة الله تعالى فى خلق آدم:

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ هذا تصوير لخلق الله تعالى آدم من تراب، أراد سبحانه وتعالى أن يكون فصوّره من طين، ثم قال له لما صور له أمرا له أمرا تكوينيا «كُنْ» فكان . وهذه الجملة السامية تصور خلق الله سبحانه وتعالى للأشياء الأحياء وغير الأحياء، فليست إلا أن تتجه الإرادة إلى تكوينها، فيكون الأمر التكويني، وتكون الاستجابة التكوينية، ويكون الأمر كما أراد سبحانه . وقال سبحانه وتعالى بالنسبة لخلق آدم عليه السلام: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولم يقل كن فكان، وهو المناسب للماضى، وذلك لأن التعبير بالمضارع دائما فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت، ومن جهة أخرى فضيعة المضارع فى هذا المقام تنبئ عما كان، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله تعالى المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى وقد بين سبحانه أن هذا هو الحق الثابت المستمر، فقال:

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أى هذا الذى أخبرك الله به سبحانه من أن عيسى خلق من غير أب، وكونه كذلك، وكون خلق آدم من طين، وكون هذا التكوين العام هو بإرادة مختارة، لا قيد يقيدها، وأنها خالقة الأسباب، هذا هو الحق، والحق هو الثابت اليقيني الذى لا مجال للشك فيه. وقد أكد سبحانه وتعالى كونه الحق الذى لا مجال للريب فيه بثلاثة تأكيدات:

أولها: بتعريف كلمة الحق بآل، فإن مؤدى ذلك أن خلق الله بإرادته المختارة على النحو الذى بينه هو الحق وحده، ولا حق سواه.

ثانيها: أنه بين أن إثبات ذلك الحق هو من ربك الذى ذرأك وحفظك، وفي ذلك مايدل على صدق الإثبات صدقا لا ريب فيه.

ثالثها: أنه نهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق، فقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أى أنه لا مجال فيه للشك، أو للجدال والمراء المشير للشك. والخطاب موجه إلى النبى ﷺ مع أن النبى ﷺ لا شك عنده، وكان كذلك لإثارة الاهتمام والاتجاه إليه، وبيان أنه لا موضع فيه للجدل والامتراء، فيكون الاطمئنان إلى الحق المبين، وإذا كان هذا دعوة للنسبى إلى الابتعاد عن الامتراء فغيره أولى بأن توجه إليه الدعوة القاطعة لكل ريب.

والامتراء: هو الشك الذى يدفع إلى المراء والمجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق ولذلك قال الراغب الأصفهاني فى معنى الامتراء ما نصه: «المرية التردد فى الأمر، وهو أخص من الشك، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ... ﴾ [الحج] ﴿ ٥٥ ﴾ ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ... ﴾ [١٠٩] ﴿ [هود] ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ... ﴾ [السجدة] ﴿ ١٢ ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [فصلت] ﴿ ٥٤ ﴾ والامتراء والممارة: الحاجة فيما فيه تردد، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب».

فمؤدى كلمة الامتراء هو الحاجة فيما فيه ريب، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم أو لقارئ القرآن العظيم: فلا تكن من الذين يجادلون فى هذا

شاكين؛ فإنه ليس موضع شك من جهة، وليس موضع جدال؛ لأن الذين يجادلون فيه يجادلون في قدرة الله تعالى ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [١٢٥٢] ﴿الرعد﴾ وإذا كان النبي ﷺ منهيًا عن المجادلة في هذا الأمر لأنه لا مسوغ فيه للجدل، فماذا يكون من أمره إن حاجوه هم؟ فين سبحانه ما يكون منه إن حاجوه بقوله تعالت كلماته:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ الحاجة تبادل الحجة، سواء أكانت الحجة قوية أم كانت حجة داحضة عند ربهم، والفاء هنا فاء الإفصاح؛ إذ إنها تفصح عن شرط مقدر؛ والمعنى إذا كانت هذه حقيقة السيد المسيح عليه السلام، وهذه إرادة الله تعالى في الخلق والتكوين، فكل ما يدعى له من الألوهية باطل، ولا يؤمن به أحد، فمن حاجك إلخ: والمعنى: فمن حاجك في شأنه من حيث كونه إلها أو ابن إله أو غير ذلك من الترهات الباطلة، بعد أن علمت من شأنه ما علمت، وذلك بعلم الله الذي أعلمك إياه، ووحيه الذي أوحاه إليك، فلا تبادلهم حجة بحجة لأنهم لا يؤمنون بحقيقة ما يقولون، ولا يدعونون للحق الذي تقول، وإن كانوا يعلمونه، ولكن قل لهم: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ والمعنى ندع من عندنا من ذرية ونساء، ومن عندكم من ذرية ونساء، ومن عندنا من رجال، ومن عندكم؛ أي يتلاقى جمعنا وجمعكم، ثم نتجه نحو الحقيقة طالبيين لها، أو على الأقل يعلن كل واحد منا إيمانه بما عنده، ونبتهل إلى الله ضارعين إليه، متجهين بقلوبنا نحوه أن يجعل لعنته وطرده من رحمته على الكاذبين في دعواهم المنحرفين في اعتقادهم.

وهذا المعنى هو ظاهر الآية؛ إذ فيه الدعوة الاجتماعية من الفريقين ليكون الجمع في مقابل الجمع فيعرف الحق من المبطّل.

وهناك معنى آخر تشير إليه مرويات الصحاح من السنة، وهو أن يدعو النبي خاصته من أهل بيته، وهم نساء قرابته وذريته، ورجال أسرته؛ وقد روى البخارى وغيره أن النبي ﷺ ذهب إلى المباهلة ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلى^(١).

والمعنى على الأول يشير إلى أن المباهلة بين أهل الحق مجتمعين، وأهل الباطل مجتمعين، ثم يتجهون جميعا إلى رب العالمين؛ لأن الأمر يهم الجميع، فإما أن يدعن أحد الفريقين للآخر، وإما أنه يطرد من رحمة الله تعالى. وعلى الثانى يشير إلى أن المباهلة بين النبي وأسرته، وكبراء الفريق الآخر وأسرهم، وإلى أن الذى يؤمن بما يقول لا يمتنع عن تقديم أحب الناس إليه فى المباهلة مادام مؤمنا بأن الحق فى جانبه.

وإن النبي تقدم إلى هذه المبارزة المعنوية الاعتقادية، ولكنهم أحجموا ولم يتكلموا ورضوا أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

والابتهاال قال فيه الزمخشري: ﴿ثُمَّ نَبْتَهَلْ﴾: ثم نتباهل بأن نقول بهلة الله على الكاذب منا ومنكم، والبهلة بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله: لعنه وأبعده من رحمته، من قولك أبهله إذا أهمله. وأصل الابتهاال هذا، ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعانا.

وفى الآيات الكريمة إشارة إلى عدة معانٍ نفسية واجتماعية:

أولها: أن المجادل الممارى لا تزيده الحجة القوية اقتناعا، ولا تحمله على الإذعان، إنما يحمله على الإذعان التوجيه النفسى، بأن يدرس مقدار اقتناعه هو بما يقول، وفى الابتهاال وسط لجاجة أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه دعوة لهم إلى أن يفتشوا قلوبهم ويعرفوا مقدار إيمانهم بما يقولون، ومقدار الحق فيما يعدلون؛ ولذلك خروا صاغرين، ولم يستطيعوا جدالا.

(١) رواه الترمذى: المناقب - مناقب علي بن أبي طالب (٣٦٥٨) وأحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٥٢٢).

وثانيها: أن الدعوة بالتى هي أحسن توجب على الداعى ألا يفرط فى المجادلة، كما كان يقول الإمام مالك: بين الحق ولا تجادل فيه، فإن كل مجادلة توجب على الفريق الآخر أن يلتزم موقفه.

ثالثها: أنه يجب أن تعلم الذرية والنساء شئون الدين؛ ولذلك كانوا مشتركين فى تلك المنازلة بين الحق والباطل وهذه المعركة النفسية الفاصلة بين إيمان المؤمنين، وانحراف المنحرفين.

ورابعها: التعاون الفكرى والنفسى بين المؤمنين؛ فإن تلك المباهلة كانت بين أهل الإيمان متعاونين على دعوة الحق، وأهل الباطل مدعوين إلى التعاون عليه فيها إن كانوا مؤمنين به، فلم يحيروا جواباً.

ولقد أكد سبحانه وتعالى صدق ما أخبر به عن عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى إن هذا الذى أخبرت هو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر، ولا لتشكيك متشكك، وقد أكد سبحانه صدق القصص فى تلك الجملة السامية بأربعة مؤكدات هي: إن، فهى للتوكيد، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وضمير الفصل، والقصر الذى تضمنه تعريف الطرفين؛ إذ المعنى فيه أن ما أخبرت به فى شأن عيسى عليه السلام هو وحده الخبر الحق، ولا حق فى سواه، بل ما عندهم ترهات وأباطيل.

وإن هذا الخبر يتضمن فى ذاته أن المسيح عيسى عليه السلام ليس إلهاً ولا ابن إله، وأنه عبد الله ورسوله الأمين، وأنه من أولى العزم من الرسل، وأن الألوهية الحق هى لله تعالى وحده؛ ولذا صرح بهذا عقب تأكيد القصص الحق، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

هذا نفى بات قاطع للألوهية من غير الله تعالى، وإثبات الألوهية لله وحده، وقد أكد النفى بكلمة «من» فهى تفيد استغراق النفى استغراقاً مستمراً ثابتاً مؤكداً، وفى النفى والإثبات تأكيد لمعنى المستثنى أبلغ تأكيد، وإن هذا النفى فيه رد بالغ على النصارى الذين ادعوا ألوهية للمسيح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى المنفرد بالالوهية وحده هو العزيز الغالب الذي لا يقهر، الحكيم الذي يدبر كل شيء بكمال سلطانه وسيطرته على هذا الوجود الذي لا ينارعه السلطان فيه غيره كائنا من كان. وإن الجملة السامية فيها تأكيد لمعنى العزة والسلطان الكامل بالتعبير يان، وباللام، وبضمير الفصل، وبتعريف الطرفين.

وفى هذا الكلام رد على أولئك الذين يزعمون أن المسيح إله، ويعتقدون مع ذلك أنه غلب على أمره وصلب ولم يستطع لنفسه حولا ولا طولا، ولا حيلة يخرج بها من ذلك المأزق، ولكن هكذا يعتقدون، وبه يؤمنون.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى فإن أعرضوا ولم يبتهلوا لتكون لعنة الله على الكاذبين، وكلمة الحق هى الغالبة المسيطرة، فاعلم أنهم ليسوا طلاب حق وهداية ولكنهم دعاة باطل، وفى دعاوى الباطل يكون الفساد فى الأرض؛ لأنه لا فساد فى الأرض أكثر من فساد الاعتقاد، فإن فساد الاعتقاد، يدفع إلى فساد العمل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ليس هو جواب الشرط ولكنه ينبئ عن جواب الشرط المحذوف، إذ تقدير القول: فإن تولوا وأعرضوا فأنذرهم بسوء المغبة وسوء العقبي، فإن الله عليم بالمفسدين. وهذه الجملة السامية تتضمن فى ذاتها تهديدا شديدا، إذ إن الله تعالى إذا علم بالمفسد لا يسكت عنه، ولا يتركه يعيش فى الأرض فسادا، بل إنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، ويوم القيامة يأخذه بالنواصى والأقدام، وكذلك الشأن فى كل من يعرضون عن الحق إذا دعوا إليه.

اللهم مكن الحق من قلوبنا، واجعلنا ممن يؤمنون به، ويدعون له، وأعز الإسلام، واجعل أهله يؤمنون به، ويفتدونه، إنك أنت العزيز الحكيم.

قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
 بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
 إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَكَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

ذكر سبحانه وتعالى فيما سبق خبر مريم البتول، وخبر ابنها عيسى الذي رفعه الله مكانا عليا، ثم ذكر سبحانه وتعالى الآيات الكبرى التي أجراها على يد عيسى عليه السلام لإثبات رسالته، وتوثيق دعوته، ثم آمن به الحواريون، وكفر به الأكثرون، مما يدل على أن المعجزة لا تحمل على الإيمان حملا، ولكنها تنير السبيل أمام طالبي الحق الذين لا ييغونها عوجا؛ ثم أشار سبحانه إلى انحراف الذين جاءوا بعد عيسى وادّعوا أنهم اتبعوه، وما اتبعوه في شيء؛ فقد ادّعوا أنه إله أو ابن إله، وليس إلا عبد الله ورسوله، وقد اعتمدوا في هواهم على أنه خلق من غير أب، فأبطل سبحانه قياسهم بقياس أدق وأقوى إنتاجا، وهو أن آدم خلق من غير أب وأم فكان أولى أن يعبد، إن كان قياسهم سليما، ولكنه غير سليم.

ثم أمر سبحانه وتعالى أن يخاطب نبيه محمد ﷺ نصارى عصره بما يكشف خبيثة نفوسهم، وهى أنهم لا يؤمنون بشيء إيمانا صادقا، ولكنهم يمارون، وما أمره سبحانه به هو أن يتהל هو وهم، فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين، فلم

يدخلوا في تلك المبارزة النفسية التي يبارز فيها الحقُّ اليقينُ الثابتُ الباطلُ المترددُ المتحيرُ.

وفي هذه الآيات ينتقل سبحانه وتعالى من الخصوص إلى العموم، فيخاطب أهل الكتاب من نصارى ويهود على لسان نبيه، يدعوهم جميعاً إلى الحق الذي يتساوى عنده الجميع، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ النداء هنا لأهل الكتاب عامة، لا لطائفة خاصة منهم؛ فهو يشمل اليهود والنصارى جميعاً، لا فرق بين طائفة منهم وطائفة، وكان النداء في هذا عاماً؛ لأن العيب عام فيهم، والدواء واحد؛ فلوحدة الداء ووحدة الدواء كان النداء عاماً؛ ذلك أن عيبهم هو التعصب لما عندهم تعصبا أعماهم عن الحق عند غيرهم، فهم يظنون أنهم وحدهم أهل علم النبوة لا ينزل على غيرهم ولا يدينون به لسواهم، فهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل يتعصب لما عنده، فاليهود يقولون: ليست النصارى على شيء، والنصارى يقولون: ليست اليهود على شيء، وكلاهما يقولون: ليس غيرنا على شيء، والدواء واحد أيضاً، وهو طلب الحق لذات الحق من غير إذعان لهوى، ولا إفراط في العصبية، وحتى لا تؤدي إلى الانحراف.

وناداهم سبحانه: بـ «أهل الكتاب» مع أنهم حرفوا فيه الكلم عن مواضعه، وانحرفوا عن مبادئه، وفرقوا في أحكامه، وتفرقوا في فهمه؛ والسبب في هذا النداء هو أولاً توبيخهم على ما كان منهم؛ لأن علمهم بالكتاب كان يوجب عليهم الإذعان للحق بدل التفرق فيه، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...﴾ [الشورى] ثم هناك سبب آخر، وهو أن علمهم بالكتاب في الجملة يجعل الاحتكام إلى ما بقى منه عندهم كافياً لإذعانهم إن كانت عندهم أثارة من إيمان بالحق وطلب له مع ما هم فيه من تعصب.

ولقد أمر الله نبيه بأن يدعوهم بقوله: ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى كلمة هى مستوية بيننا وبينكم، أى فيها إنصاف لنا ولكم، وملتقى فيها معكم، وتلتقون

عندها إن طلبتموها، وكلمة سواء تطلق بمعنى العدل والنصفة، وقد قال زهير بن أبى سلمى:

أروني خطّة لا ضيّمَ فيها يُسوّى بيننا فيها السّواءُ

فالسواء هنا هو العدل، وأصل السّوى، والسّوى الاستواء، وإذا فتحت السين منها صارت سواء، ولقد قال تعالى: ﴿... مَكَانًا سَوًى ۝٥٨﴾ [طه] أى مكانا مستويا.

والمؤدى أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه أن يدعوهم إلى كلمة يستوى فيها النّبي معهم، وكان ينبغى أن يستووا بالنسبة لها معه، وتلك الكلمة، أو تلك الحقيقة المقررة الثابتة فى كل الكتب السماوية التى لا يفترق فيها كتاب عن كتاب هى ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾
فهذه الكلمة التى يستوى فيها الإسلام مع الأديان التى سبقتها هى التوحيد، والتوحيد بشمول معناه يشمل التوحيد فى العبودية، والتوحيد فى الربوبية، والتوحيد فى العبودية ألا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا ما بينه سبحانه وتعالى بقوله على لسان نبيه: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾. فلا يصح أن يشرك مع الله فى الألوهية حجر ولا بشر، فلا يقال: فلان إله، ولا ابن إله ولا عنصر ألوهية قط فى حجر.

أما التوحيد فى الربوبية، فهو ما أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى لا يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب، بأن يكون له فضل فى التكوين أو الإنشاء أو التأثير فى الخلق بأى نوع من أنواع التأثير، فإن هذا كله من عمل الرب، والله سبحانه وتعالى هو رب العالمين وحده، ولا رب سواه، فلا مؤثر فى الكون ولا فى الأشخاص، ولا فى الأشياء سواه، فلا أثر لحجر ولا لبشر كائنا من كان هذا البشر.

وهناك معنى آخر للربوبية يدخل في مضمونها، وهو أن يكون الشرع كله لله تعالى، فلا يتكلم عن الله أحد إلا نبي يوحى إليه، والجميع بعد ذلك أمام الشرع سواء، إلا أن يكون فهم متميز متفهم متعرف، ومن ادعى أنه يتكلم عن الله باسم الله من غير وحي يعتمد عليه، فقد زعمه ربا يؤخذ عنه؛ ولذلك عبر القرآن عن علماء النصارى واليهود الذين ادعوا أن قولهم دين يتبع، وتقاليد تؤثر، بأنهم قد اتخذوهم أرباباً من دون الله، فقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١] ذلك بأنهم جعلوا لهم الحق في أن يشرعوا باسم الله ما لم يشرعه الله، وأن يخالفوا ما أمر الله سبحانه وتعالى، فهم جعلوهم في مقام الرب جل جلاله، ولقد روى عندما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يارسول الله! فقال الرسول عليه السلام: «أليسوا كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذوا بقولهم؟» قال: بلى. قال النبي ﷺ: «هو ذاك»^(١).

وعن بعض التابعين أنه قال: لا أبالي أظعت مخلوقاً في معصية الخالق أو صليت لغير القبلة!! فكانت التسوية كاملة بين الأخذ في دين الله بغير ما أنزل الله، والخروج عن الإسلام الذي رمز إليه ذلك التابعي الجليل، وهو ألا يكون من أهل القبلة.

عرض النبي بأمر الله تعالى ذلك الأمر الذي يكون فيه نصفة له^(١) ولهم، وكانت الدعوة إلى أخذ دين الله من ينبوعه الصافي فيهما فائدتان: إحداهما: ألا يتزيدوا على ما أمر الله تعالى وما نهى عنه؛ والثانية: أن أولئك المجادلين هم الذين ييثون في نفوس أتباعهم التعصب الأعمى، محافظة على سلطانهم أن يزول؛ فكانوا في زعامتهم بمنزلة زعماء قريش وأشباههم من أنهم خشوا على سلطانهم من اتباع النبي الكريم ﷺ.

(١) رواه الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة التوبة (٣٠: ٢٠).

(١) النصفة: الإنصاف، وهي المعاملة بالعدل.

وإذا كان قد دعاهم إلى هذا الإنصاف وإلى ترك التعصب جانباً، وعدم الخضوع لأسبابه، فإن حال الذين يخاطبهم إحدى حالين: إما أن يخلصوا في طلب الحق، ويجيبوا داعيه، وتلك خير الخصلتين، وإما أن لا يجيبوا داعيه وتلك هي السوءى، فإن كانت الأولى فتلك هداية الله، وإن كانت الثانية فإن الله تعالى قد كتب عليهم الشقوة، ولا سبيل لأن يدخل النور قلوبهم، فإن من طلب منه الإنصاف فأعرض عنه فلا سبيل إلى هدايته، والجدل معه لا يجدى؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾:

أى فإن أعرضوا ونأوا بجانبهم عن إجابة داعى الإنصاف، والدعوة بالتي هي أحسن فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم، فإن الجدل مع من لم يجب داعى العدالة لا يزيده إلا لاجاة وعناداً؛ وإن الحقائق تتبعثر على ألسنة المتجادلين، ويتبدد رونقها، ويذهب بهاؤها، وتفقد النفس عند الجدل الإيمان بالحقائق والإذعان لها، بل أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى يقول النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين لأولئك الذين مردوا على الجدل وبعثرة الحقائق فى حومة الجدل: اشهدوا بأننا مسلمون، مدعون لطلب الحق فلا تحاولوا أن تغيرونا عما اعتقدنا وقد أنصفناكم بالدعوة إلى كلمة الحق والإنصاف، فلم توجبوا، والآن ننصفكم مرة أخرى بأن نشهدكم بأننا مخلصون فى طلب الحق مدعون له؛ ومن جانبنا؛ فإن أذعنتم مثلنا فنعماً هي، وإن لم تدعنوا فلنا ديننا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. وإن إعلان الإذعان للحق من جانب المؤمنين فيه دعوة للحق بإعلان المثل الواضح البين السامى، وهو يؤثر فى الدعوة إلى الحق أكثر من الجدل، إذ يكون فيه ذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وإن الجدل يشير غباراً يجعل الوصول إلى الحق عسيراً وسط عجاجة المتجادلين.

وإن هذه الآية الكريمة صورة سامية من الدعوة إلى الحق. ولذا كان يتخذها النبى ﷺ منهاجاً فى دعوته، فقد كانت فى الصيغة التى اختارها فى دعوة الملوك والحكام الكبراء إلى الإسلام، وهذا نص كتابه عليه الصلاة والسلام إلى هرقل ملك الروم:

«من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم؛ سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين^(١)»، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباب من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون^(٢).

ولقد كان النصارى يحتاجون بولادة عيسى، ويتخذون منها دليل ألوهيته، واليهود يحتاجون ويجادلون بما عندهم من تورا، أو بالأحرى بما بقى عندهم منها؛ ولما كان كل من الفريقين يدعى أن إبراهيم أبا الأنبياء كان على مثل دينهم، وذلك ليسينوا أن ديانتهم هي ديانة السابقين، كما هي ديانة المتأخرين؛ بين الله سبحانه أن مثل هذا الاحتجاج منهم باطل في معناه، كما هو باطل في شكله ومبناه؛ فقال سبحانه:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى أنه لا يسوغ لكم المحاجة في شأن إبراهيم من حيث إنه كان يهودياً أو كان نصرانياً ومن حيث إنكم أتبع الناس له أو أبعد الناس عنه، ومن حيث ما جاء به وحقيقة دعوته؛ فإن التوراة والإنجيل ما جاءا إلا من بعده، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة قبل أن تجيء التوراة، وكيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل قبل أن ينزل الإنجيل؟ إن هذه محاجة واضحة البطلان.

والمحاجة معناها مبادلة الحجة، فما هذه المحاجة؟ أكانت مع النبي ﷺ أم كانت فيما بينهم؟ ظواهر النصوص تفيد بمقتضى السياق أنها كانت مع النبي ﷺ، فهم يقيمون الحجة على سلامة دينهم بأنه دين إبراهيم الذى كان موضع إجلال الجميع، والذى بنى البيت الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس، والذى كان موضع تقديس العرب أجمعين.

(١) جاء في الهامش: الأريسيون هم: العمال والفلاحون، أو الدهماء بشكل عام.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: بدء الوحي(٦)، ومسلم: الجهاد والسير - كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢)، عن أبي سفيان (صخر) بن حرب رضي الله عنه.

ولكن مع هذا الظاهر روى ابن اسحاق عن ابن عباس أنه قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية (١).

وسواء أكانت المحاجة مع النبي ﷺ أم كانت فيما بينهم فإنها غير معقولة في ذاتها؛ ولذا وبخهم سبحانه وتعالى عليها بقوله تعالت كلماته:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذا النص الكريم هو نتيجة لهذا الحكم الذى يتحاجون فيه، وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا؛ إذ أن ذلك هو حكم من لا يعقل؛ ولذلك كانت الفاء التى تفيد السببية، وهو كون ما قبلها سببا لما بعدها، فتلك الحال التى هم عليها من الغرابة هى السبب فى ذلك السؤال عن أصل عقلمهم، وإدراكهم لمعناها.

والاستفهام إنكارى؛ فهو نفى لكونهم يعقلون فى هذه الأمور التى يتجادلون حولها، وذلك يؤدى إلى السؤال عن أصل وجود العقل عندهم، وإن هذا النفى هو فى ذاته توبيخ، وتنبية إلى ما أدى إليه التعصب الأعمى الذى جعلهم لا يدركون الأمور على وجهها، وينسيهم البدهيات التى لا تختلف فيها المدارك والعقول، حتى يكون أصل العقل عندهم موضع إنكار.

ولقد زكى سبحانه وتعالى ذلك التوبيخ، وهذا النفى ببيان مظهر آخر من مظاهر مخالفتهم لما يقتضيه العقل فى أمر آخر، يتصل بهذه المسألة، وهو أنهم يجادلون ويتقدمون بالحجج فى أمر ليس عندهم أصل العلم به؛ ولذا قال تعالى: ﴿هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجِجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾:

أى أنتم معشر أهل الكتاب حاججتم وبادلتم الحجة، سواء أكانت داحضة أم دامغة فى أمر عندكم أسباب العلم به، سواء أكنتم تجادلون بمقتضى هذا العلم أم

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل - أسباب النزول للسيوطي: آل عمران (٦٥).

تخالفون مقتضاه، وتلوون منطق، وتبعدون به عن الحجج، فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم؟ وبيان ذلك أن اليهود والنصارى عندما كانوا يتجادلون مع النبي ﷺ، وفيما بينهم كانوا يتجادلون في أمر أسباب العلم به قائمة حاضرة مهيأة وإن كانوا ينحرفون بها عن غاياتها، ويلوونها عن مقاصدها ومراميها تبعا لأهوائهم وشهواتهم، فكانت حاجة في أمر لهم به علم، وإن لم يسيروا على مقتضى أحكام العلم، أما جدلهم في كون إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا، أو في كون النبي ﷺ المبعوث في المستقبل يكون عربيا أو عبريا فجدل ومحااجة في أمر لا علم لهم به، وإن العاقل ينأى به عقله عن أن يجادل في أمر ليس عنده شيء من أسباب العلم به، ولكن هكذا يتردى أهل العقول عندما تنحرف نفوسهم إلى التعصب، فيتحكم الهوى في العقل.

وهنا مباحث لفظية:

أولها: أن الهاء المكررة في قوله تعالى: ﴿هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ هي هاء التثنية، وتكرارها في موضع واحد للدلالة على غرابة ما هم عليه ومجافاته لكل تفكير ولكل عقل، وكيف دلاهم التعصب في هذا الانحراف الفكري.

وثانيها: أن «هؤلاء» إشارة إلى النصارى واليهود الذين قالوا في إبراهيم ما قالوا، وقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعده، فهي تتضمن الأحوال الغريبة التي كانت منهم، وأنها أدت إلى شذوذ عقلى آخر.

ثالثها: أن الزمخشري ذكر أن بعض العلماء قال هنا إن «هؤلاء» بمعنى «الذين» وإن هذا يفيد أن الذى أدى إلى تربيهم العقلى هو أنهم يتكلمون فيما يعلمون وفيما لا يعلمون.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى ببيان علمه تعالى المؤكد، فقرر العلم المطلق له سبحانه، ونفى عنهم العلم فى هذا المقام، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم حال إبراهيم عليه السلام، ويعلم الحق فيما يحتاجون به بعلم وبغير علم، ويعلم من الذى يكون أهلا لرسالته أكون من

العرب أم يكون من العجم؟ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ (١٢٤) [الأنعام]
وهو الذى يعلم بخفايا نفوسهم، والحقد الدفين فيها، والحسد للناس على ما آتاهم
الله من فضله. وقد قرر سبحانه أنهم لا يعلمون، فقال: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهم
لا يعلمون حال إبراهيم عليه السلام ولا من هو أهل للرسالة؛ وليس من شأنهم
أن يعلموا؛ لأن أحقادهم تحول بينهم وبين أن يدركوا الذى عليه من يخالفونهم،
فإنه لا شىء كالحقد والحسد يحول بين المرء والإدراك السليم والعلم الصحيح.
اللهم وفقنا للحق، وهبنا أسباب العلم به، والإذعان له؛ فإن الهداية
منك وإليك، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادى له.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ
بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٩﴾ يَتَّأْهِلَ
الْكُتُبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١٣٠﴾
يَتَّأْهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ما يشير إلى أن كلتا الطائفتين من
اليهود والنصارى كانت تدعى أن دينها هو دين الله الخالص، وأنه دين النبيين
جميعا، وأنه دين أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأنهم ما غيروا وما بدّلوا؛
وكذلك كان يدعى المشركون؛ لأنهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وحسبوا هذا

يسوغ لهم ذلك الإدعاء؛ وقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام برىء من هذه النحل؛ لأنه نبي الوحداية، هادم الأوثان، وحاطمها، والذي تعرض للأذى بالنار لجراته الكبرى عليها وعلى عبّادها، وما نجاه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء] ولقد قال سبحانه في تقرير هذه البراءة من اليهودية والنصرانية والشرك:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وفي هذا النص القرآني الكريم نفى لوصف اليهودية والنصرانية عن خليل الله تعالى، ومرمى النص هو براءته منهم، وفي نفى الوصف على ذلك النحو تأكيد لهذه البراءة، وتثبيت لهذه النزاهة؛ إذ إن المؤدى أنه لو كانت اليهودية أو النصرانية على ما هما عليه تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام لكان متصفا بهما، وهو قد نزهه ربه عن أن يتصف بما عليه اليهود من ضلال؛ فنفى وصف اليهودية عنه عليه السلام تضمن براءته منهم، وفيه التعريض بما فيهما من ضلال لا يليق أن يلصق بنبي من أنبياء الله، والتنويه بشأن إبراهيم من أن يكون في مثل حمأة اليهود والنصارى الذين عاصروا النبي ﷺ.

وقد ذكر سبحانه على سبيل الاستدراك وصفه الحقيقي، ودينه الحق فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فقد ذكر سبحانه في وصفه الحقيقي ثلاثة أوصاف تتنافى كلها تمام التنافي مع ما عند اليهود والنصارى، وهذه الأوصاف هي أنه: حنيف، ومسلم، وما كان من المشركين.

والوصف الأول وهو حنيف معناه: الميل إلى الحق وطلبه، والاتجاه إليه، وتحرره والاستقامة في الوصول إليه؛ ولقد قال الأصفهاني في مفرداته: «الْحَنِفُ مُيْلٌ عَنِ الضَّلَالِ إِلَى الاستقامة، والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال. والحنيف هو المائل إلى ذلك، قال عز وجل: ﴿... قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا...﴾ [النحل] وقال: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وجمعه حنفاء؛ قال عز وجل:

﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ﴾ ﴿٣٠﴾ حَقَّاءَ لِلَّهِ ... ﴿٣١﴾ [الحج] . وتحنف فلان أى تحرى طريق الاستقامة» .

ووصفه عليه السلام بأنه حنيف يطلب الحق مستقيماً فى طلبه فيه بيان منافاة أخلاق اليهود والنصارى لأخلاقه وهديه، فهم لا يطلبون الحق لذات الحق، ولكن يطلبون هوى أنفسهم، فإن يكن الحق لهم يأتوا إليه مدعين، وإن يكن الحق عليهم أعرضوا عنه وذلك لمرض قلوبهم .

والوصف الثانى من أوصاف إبراهيم خليل الله أنه مسلم، والإسلام هو الإخلاص لذات الله، والمحبة والانصراف إليه سبحانه وتعالى، حتى لا يعمر القلب بغير نوره، وهذا أيضاً وصف مناف لما كان عليه اليهود والنصارى، فإلههم هواهم، ومحبتهم لأنفسهم لا لله، وإنما هى أعراض الدنيا أركست نفوسهم، وأغلقت دون نور الله قلوبهم .

والوصف الثالث: وصف سلبى، وهو أنه كان غير مشرك، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن خليله وصف الشرك بهذه الصيغة الجامعة فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يقل «وما كان مشركاً» لأنها تتضمن نفى الإشراك كله وشوائبه عن إبراهيم عليه السلام؛ فإن المشركين أصناف وألوان؛ فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يجعل لله ابناً يعبد، ومنهم من يجعل الله ثالث ثلاثة، ومنهم من يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ومنهم من يتخذون وساطة بين العبد والرب، وهكذا، فما كان إبراهيم من أى صنف من هذه الأصناف . وفى ذكر هذه الصيغة السامية فى نفى الشرك عن إبراهيم تعريض بين حالهم وما هم عليه من الشرك الظاهر، فكيف يدعون الانتساب لإبراهيم عليه السلام، وهم على ما هم من الشرك، إنما الذين يعدون أولى الناس هم من قال الله فيهم:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى إن أشد

الناس ولاية إبراهيم وأجدرهم بالاتصال به، للذين اتبعوه، وهذا النبى والذين آمنوا بهذا النبى، فهم أصناف ثلاثة قد أكد سبحانه اتصالهم بإبراهيم بثلاثة

تأكيدات؛ أولها: «إن» وثانيها: أفعل التفضيل، وثالثها: اللام فى قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.

والذين اتبعوه موصول عام يشمل الذين اتبعوا هدايته فى حياته، وأجابوا دعوته، ولم يخالفوه، والذين اتبعوه من بعد وفاته، وإنهم لكثيرون، وكان يمكن أن يكون من هؤلاء اليهود والنصارى، لو اتبعوا هديه فطلبوا الحق وأخلصوا لله فى طلبه، وتجنبوا الشرك بكل ضروبه وبكل أشكاله، وفى هذا توبيخ لهم على أنهم لم يتبعوه، وادعوا الانتماء إليه. وقد ذكر النبى ﷺ بالنص عليه بالذات على أنه أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ولم يذكره فى ضمن الذين اتبعوه؛ لأن النبى ﷺ تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم، ولأن محمدا ﷺ خاتم النبيين، ولأنه آخر دعامة فى بناء صرح الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض. وفى ذكر النبى ﷺ تمهيد لبيان أولوية الذين آمنوا به ﷺ وبسيدنا إبراهيم من اليهود والنصارى؛ لأنهم حنفاء طلبوا الحق وتحرّوه وآمنوا به واهتدوا، وأخلصوا دينهم لله تعالى، وصار الله ورسوله أحب إليهم من أنفسهم. والذين آمنوا فى الآية هم من آمنوا بمحمد ﷺ؛ ولقد قال النبى ﷺ: «لكل نبى ولاية من النبيين، وإن ولى منهم أبى وخليل ربى إبراهيم»^(١).

وولاية إبراهيم للنبى ومن اتبعهما بإحسان إلى يوم الدين أساسها الإخلاص لله تعالى وتوحيده، فهى من ولاية الله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى جل جلاله، وعظمت قدرته، وتعالى حكمته، وتسامت عظمته، هو ولى المؤمنين وناصرهم، وهم أهل محبته ورضوانه؛ وذلك لأنهم لا يطلبون إلا رضاه، ولا يبتغون إلا محبته ورضوانه؛ فهم بإخلاصهم قد نالوا ولاء الله ومحبته؛ والله سبحانه وتعالى لا يوالى إلا من يؤمن للحق ويدع له، ولا يطلب سواه.

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود (٩-٣٦٠)، والترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة آل عمران (٢٩٢١).

وفى هذه الجملة السامية إشارة إلى عدة معان عالية:

أولها: أن اتصال النبي ﷺ والذين اتبعوه، والذين اتبعوا إبراهيم بخليل الله؛ لأنهم اتصلوا بالله تعالى، والمؤمنون بعضهم لبعض ولى ونصير؛ لأنهم جميعا أولياء الله. فالمؤمنون برسالة إبراهيم والمؤمنون برسالة محمد كلهم أولياء، لأنهم جميعا أولياء الله تعالى، وفى ذلك يبين سبحانه لليهود وغيرهم الطريق الحق الذى يجعلهم أولى بإبراهيم كالنبي ومن اتبعه.

ثانيها: الإشارة إلى أن ولاية الله هى الغاية الكبرى التى يجب أن يطلبها كل مؤمن، وطريقها الإحسان فى كل شىء، وأساس الإحسان الإخلاص؛ ولذا يقول النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

ثالثها: الإشارة إلى منزلة أهل الإيمان عند الله والوعد بنصرتهم مهما يتكاثف عددهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ إن اليهود والنصارى كانوا يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا...﴾ [البقرة] فأولئك الكتابيون كانوا يشعرون أنهم فوق مستوى سائر العرب، فلما جاء النبي ﷺ بهديه فيهم ارتفع مستوى العرب فلم يذعنوا للحق الذى كان عليهم أن يؤمنوا له، بل تمردوا عليه، ولعظم المنزلة التى يعلمونها فيما جاء به محمد ﷺ كانوا يتمنون أن يضل المؤمنون، وأن يتركوا الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أى تحت طائفة من أهل الكتاب ضلالكم، فلو هنا مصدرية تدل على التمنى، أى ودت هذه الطائفة ضلالكم ولم يكن ذلك منهم أمنية يتمنونها فقط، بل كانوا يقرنون القول بالعمل، فكانوا يلقون بالظنون والشكوك والأوهام حول الدعوة المحمدية ليرتاب الذين آمنوا، وكان منهم منافقون ينبشون بين المسلمين باسم أنهم مسلمون، ويلقون بالريب والتشكيك فى النبي ﷺ وما جاء به كما

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

يفعل اليوم أخلافهم من بعدهم؛ ولقد كان منهم من يجرؤ على الدعوة إلى اليهودية، حتى إنه ليروى أن يهود المدينة دعوا حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر إلى اليهودية، ولكن ضل سعيهم، وباءوا بالخسران المبين.

وإن الذى يعلم الحق، ويحاول أن يضلل غيره يزداد ضلالا ويعمى عن طريق الهداية، حتى ينتهى الأمر به إلى أن يجهل الذى كان يعلمه، وكذلك كان هؤلاء؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى أنهم بسبب غوايتهم وعمائيتهم واستيلاء الهوى على قلوبهم أخذوا يثيرون الشك على أهل اليقين، فما أثار الشك فى أهل الحق، ولكن تأثرت نفوسهم هم بهذا الشك الذى أثاروه ليضلوا غيرهم، فضلوا، فهم حاولوا إضلال المؤمنين، فأكد الله سبحانه أنهم ما أضلوا إلا أنفسهم، وكان ضلالهم لأنفسهم من ناحيتين:

إحداهما ما ذكرناها من أن إيرادهم للشك فى الأمر الذى كانوا يعلمون الحق فيه قد أوجد فيهم هم أنفسهم حيرة بعد أن كانوا يعلمون، ومثل هذا مثل الكذوب الذى يكذب ويكرر كذبه حتى يعتقد صدقها.

الناحية الثانية: أنهم كلما لجوا فى الدعوة إلى الباطل الذى استمسكوا به بعدوا عن الإذعان للحق، فبمقدار ما كانوا يثيرون حول الحق من أكاذيب كانوا يتعدون من الإيمان والإذعان، فيزدادون ضلالا فوق ضلالهم؛ وتلك حال نفسية يقيمون فيها ولا يشعرون بها.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وجه الله سبحانه وتعالى بهذه الآية النداء إلى أهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان مبينا لهم فى صيغة استفهام إنكارى توبيخى أن دواعى الإيمان قائمة، ودواعى الكفر غير ثابتة، ولذا يستفهم عنها، إنكارا وتوبيخا، وابتدأهم بهذا النداء الكريم، إذ قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وفى هذا النداء إشارة إلى أن ما أعطوه كان يقتضى أن يسارعوا إلى

الإيمان لا أن يكفروا، ثم وجه إليهم ذلك الاستفهام الإنكارى: ﴿لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى لقد كفرتم بآيات الله وبياناته الدالة على صدق الرسالة المحمدية وعندكم علم بها، وأنتم تعلمون صدقها، فالآيات هنا هى آيات نبوة محمد ﷺ، وهى القرآن الكريم، وما اشتمل عليه، والاستفهام لإنكار هذا الواقع الذى وقع منهم وهو الكفر مع قيام دلائله. ولقد أكد سبحانه وتعالى الاستنكار بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى وأنتم تعلمون صدق الرسول علما يقينيا كعلم المشاهدة والعيان، بما أخبر به فى كتابكم، أو: وأنتم تشهدون كل يوم الدلائل الصادقة التى تثبت الرسالة المحمدية. ، ولكن اليهود والنصارى الذين عاصروا النبى ﷺ ما كانوا يكتفون بالكفر، بل كانوا يحاولون أن يلبسوا الحق بالباطل، ليفسدوا الإيمان على أهله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صدر النداء هنا بـ «أهل الكتاب» زيادة فى التوبيخ، وكل توبيخ لهم يُعد قليلا مهما يتكاثر وتترادف عباراته، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار ما وقع منهم؛ ذلك بأنهم لبسوا وخلطوا الحق بالباطل، وكتموا الحق الذى يشهد لمحمد ﷺ بالصدق وهم يعلمون به، فكان الاستفهام للتوبيخ على هذا الذى وقع منهم؛ فقد وقع منهم أمران، وثبت فيهم أمر ثالث:

أما الأمر الأول: فهو خلط الحق بالباطل، بأن حاولوا أن يزيفوا الحق، فألبسوه ثوب الباطل، وأظهروه بمظهره إمعانا منهم فى التضليل. وقد فسر الكثيرون كلمة «تلبسون» بمعنى تخلطون، وهى فى المؤدى كذلك، ولكن لابد أن يلاحظ معنى الستر واللباس فى الكلمة، ذلك بأنهم جاءوا إلى الحق المبين فألبسوه ثوب الباطل لِيُسْتَبْهَمَ؛ ولقد قال فى هذا المعنى الأصفهاني: أصل اللبس ستر الشيء، ويقال ذلك فى المعانى، يقال لبست عليه أمره، قال: ﴿وَلَلْبِئْسَ عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾ [٧١] [آل عمران].

الأمر الثاني: كتمان الحق الذي عندهم فهم يسترون الحق الذي يقدمه النبي ﷺ بلباس الباطل الذي يخترعونه، ويكتمون الذي عندهم، ويشهد بصدق النبي ﷺ، وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الكفر بالحق، يكون عند الكافر دليل الحق، ومع ذلك ينكر الدليل الذي يقدمه صاحب الحق، ويحاول أن يزيفه بالباطل. وكل ذلك وهم يعلمون الحق في ذاته، ولكنهم أضلهم الله على علم.

اللهم اكتبنا فيمن هديتهم، وامنحنا التوفيق؛ وأنقذنا من الضلال، ووفقنا لإدراك الحق، والإذعان له، والإيمان به، إنك سميع الدعاء.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
 بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
 الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ
 عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
 عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْصُصُ رَحْمَتَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن أهل الكتاب يودون أن يضل المؤمنون، ويعملون على إضلالهم، وكلما أمعنوا في هذا الطريق ازدادوا ضلالا، وما ازداد المؤمنون إلا إيمانا، وإن وجدوا في ضعف الإيمان ما يشبع نهمتهم وقتيا فإنهم سرعان ما يقوى إيمانهم بالحق، ويرتد أولئك المضلون في طغيانهم يعمهون.

وفي هذه الآيات يبين سبحانه طريق طائفة منهم في إضلال المؤمنين، وإثارة الشك في قلوب ضعاف المؤمنين، وهي أن يظهروا الإيمان والإذعان والاطمئنان

إلى الحقائق الإسلامية، ليظن فيهم الظن الحسن من لم يعرف مكرهم وكيدهم، حتى إذا اطمأن الناس إليهم أعلنوا كفرهم، بعد مظهر الإيمان ليوهموا المؤمنين أنهم كانوا مخلصين في إيمانهم طالبن الحق بهذا الإيمان، فلما تبين لهم البطلان خرجوا، فقد يخرج بهذا الخروج ضعاف الإيمان، ويلقون بذلك بين المسلمين شكاً عملياً. وقد حكى الله سبحانه وتعالى عمل هذه الطائفة الماكرة الخبيثة فقال عز من قائل:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ﴾ أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة التابعي أنه قال: «قال بعض أهل الكتاب لبعض: أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيه ما تكرهونه، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم». وأخرج ابن جرير أيضاً عن السدي أنه قال: «قالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمداً صادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا، فسألناهم فحدثونا أن محمداً كاذب، وأنتم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا، فهو أعجب إلينا من دينكم لعلهم يشكُّون، فيقولون هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؟ فأخبر الله سبحانه وتعالى رسوله بذلك وروى أنهم نفذوا قولهم عملاً» والروايات في هذا كثيرة، وكلها متلاقية في المعنى غير متنافرة.

وخلاصتها: أن أولئك المضللين الذين أكل الحسد قلوبهم دعا بعضهم أن يظهروا الإسلام ليبدوا طلاب حقيقة، فإن رجعوا استطاعوا أن يجتذبوا معهم بعض ضعفاء الإيمان.

والمراد بوجه النهار ما يقابل آخره، وهو أول النهار، وعبر عنه بالوجه؛ لأن أول النهار هو وقت إقباله، والوجه هو مظهر الإقبال، والوجه أيضاً كناية عن الظهور، وأول النهار هو وقت الظهور ووقت الوضوح، بعكس آخره.

وهل معنى الاتفاق الذى اتفقوا عليه هو أن يبدؤوا فى الضحى فيسلموا ثم يكفروا فى المساء؟ ظاهر اللفظ ذلك، ولكن يبدو للمتأمل البصير أنهم يريدون أن يسلموا حيناً من الزمان حتى تتم الثقة بهم والاطمئنان إليهم، ثم يكفروا من بعد ذلك، على ألا يستغرق إظهارهم الإسلام إلا أمداً يستطيعون فيه جلب الثقة إليهم؛ ويكون حيثئذ التعبير كله من قبيل الاستعارة التمثيلية، سيقى لتصور حالهم التى اتفقوا عليها، وهى أنهم يظهرون الإيمان ثم يكفرون بعد أمد قصير. فالاستعارة لتصوير سرعة الرجوع وإظهار الكفر، وتأكد التعاقب بين إظهار الكفر وإظهار الإسلام، كما يتعاقب ظهور آخره بعد أوله. وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم مقصدهم ومكرهم السيئ بقوله تعالت كلماته:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهذا التعبير يفيد بيان مقصدهم وهو رجاء أن يرجع بعض المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان، ولكنهم عبروا عن البعض باسم الكل، فإنه لا يمكن أن يرجعوا جميعاً، بل الذى يرجى رجوعه من المسلمين هو الضعيف غير القوى فى دينه، غير المطمئن فى يقينه، ولكن كفر هذا الفريق بعد إيمان يحدث اضطراباً فى جماعة المسلمين، فيكون التظن فيهم، وحيث جرى الشك فى الجماعة كان وراءه التفرق وفقد الثقة، وكان وراءهما الفشل الذريع، وإنهم من بعد ذلك يطمعون أن تعود الجزيرة العربية إلى الشرك بعد هذا الإيمان الذى هددهم فى كيانههم؛ وكذلك سولت لهم نفوسهم، فإن الذى يركب رأسه الشيطانُ توسوس له نفسه بالشر، ويتسع أفق تصوره حتى يتمنى الأمانى البعيدة القاصية كأنها قريبة دانية.

وإن تلك الطريقة التى سلكوها من أقوى ما تفتق عنه التدبير الإبليسى؛ فإن إظهار الكفر بعد إظهار الإيمان مع التذرع بتلييسات مضللة من شأنه أن يدخل الشك فى ضعفاء الإيمان، وقد يكون معه الجهر بما يثير الريب حتى فى أقوى الحقائق صدقاً وأجدرها باليقين؛ ولذلك كانت عقوبة الردة التى ثبتت بقوله ﷺ:

«من بدل دينه فاقتلوه»^(١). هي القتل؛ وذلك لقطع السبيل على الذين يدخلون في الإسلام ظاهراً، وهم يريدون إثارة الشك حول حقائقه، وليس في ذلك منافاة للحرية الدينية التي قررها الإسلام في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة] ولقد كان أولئك الذين أخذوا بذلك الطريق الخبيث لإفساد العقائد يظهرون في عصور الإسلام الوقت بعد الآخر، وهم الزنادقة، فهم كانوا في باطنهم كفاراً يستترون بستار الإسلام ليفسدوا الأمر على أهل الإسلام، ويشككوا الناس في عقائدهم.

وإن الفقهاء كانوا يحذرون الناس من سمومهم التي ينفثونها، وقرر جمهورهم أن كل مرتد يستتاب إلا من عرف بالزندقة، فإنه يتخذ التوبة ستاراً ليستطيع بها الكيد للإسلام وأهله، فيرد عليه كيداً في نحره، وإن ظهر منه الكفر الذي يحاول ستره يؤخذ بالنواصي والأقدام.

وإن أهل الكتاب ليلالغون في التدمير للاحتياط من أن يذهب منهم إلى المسلمين من يؤمنون بالإسلام، فهم يحاولون من جهة بث الشك في الإسلام بين أهله، ومن جهة أخرى يعملون على الاحتياط من أن يدخل أحد منهم في الإسلام، ولذلك يثيرون العصبية الدينية فيما بينهم، ويتداعون ألا يدعن أحد منهم لغير طائفته؛ ولذلك يقولون: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾:

أي لا تدعونا مصدقين مقرين بالحق إلا لمن تبع دينكم، أي لا تنطقوا بالحق الذي تعلمونه مدعين له إلا لمن تبع دينكم؛ وذلك لأنهم يعرفون محمداً كما يعرفون أبناءهم، وبين أيديهم الأدلة الصادقة الناطقة بصحة دعوته؛ فهم يعرفون ذلك ويتذكرونه فيما بينهم، ولكنهم يتناهون عن أن يقولوه لغيرهم.

(١) رواه البخاري: الجهاد والسير - لا يعذب بعذاب الله (٢٧٩٤)، والترمذي: الحدود - ما جاء في المرتد (١٣٧٨)، والنسائي: تحريم الدم - الحكم في المرتد (٣٩٩١)، وأبو داود: الحدود - سنن من ارتد (٣٧٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ فيها قراءتان، إحداهما: بهمزة واحدة، والأخرى بهمزتين إحداهما سهلة، والثانية قراءة ابن كثير^(١)، وإحدى الهمزتين على هذه القراءة تكون للاستفهام الإنكارى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ يحتمل أن تكون معترضة، ويكون قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ...﴾ متصلا بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ ويحتمل أن تكون غير معترضة، وتكون متصلة بما بعدها.

وعلى الاحتمال الأول مع قراءة الهمزة الواحدة يكون تخريج القول هكذا: ولا تصدقوا مدعين ومقرين إلا لمن تبع دينكم كراهة أن يُؤْتَىٰ أحد بمثل ما أُوتِيتُم من كتاب منزل من السماء ومنزلة دينية بين الناس، وكراهة أن يحاجوكم بسبب ذلك الإذعان وذلك الأمر من عند ربكم، وقد اعترض سبحانه وتعالى بين قولهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ أى إن هداية الله تعالى ملك له وحده يعطيها لمن يشاء، فليست حِكْراً لأحد، ولا أمراً مقصوراً على أحد، بل يعطيها من يشاء. وسبب ذلك الاعتراض هو المسارعة ببيان بطلان زعمهم من أنهم ذوو المنزلة الدينية وحدهم، وليبان أن المنزلة منشؤها الهداية، والهداية طريقها وحدها فلهم أن يتبعوها، وليبان أنهم بذلك التفاهم على الشر والتواصى على الباطل قد خرجوا عن نطاق الهداية فحقت لغيرهم. وعلى قراءة الهمزتين لا يتغير المؤدى، ويكون تقرير القول هكذا: ولا تدعوا مصدقين إلا لمن تبع دينكم، أتقرون بذلك لأن يُؤْتَىٰ أحد مثل ما أُوتِيتُم أو يحاجوكم عند ربكم.

هذا هو تخريج الآية الكريمة على احتمال أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ جملة معترضة بين متلازمين، أما تخريجها على احتمال أنها متصلة بما يليها فهو هكذا: لا تدعوا مصدقين إلا لمن تبع دينكم، بذلك ينتهى قولهم، فيرد

(١) قرأ ابن كثير المكي بهمزتين على الاستفهام، الثانية منهما مسهلة، وفرا الباقيون بهمزة واحدة على الخبر [النشر في القراءات العشر ج ١ ص ٣٦٥، ٣٦٦ - غاية الاختصار في قراءات أئمة الأمصار، ج ٢/ ٤٤٠].

الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ ثم يبين سبحانه وتعالى أن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم بأن ينزل بينهم وحى السماء كما نزل بينكم، أو يحاجوكم به عند ربكم، و «أو» هنا تكون بمعنى الواو. وعلى قراءة الاستفهام يكون المعنى: أتنكرون أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم.

ذاتك الاحتمالان؛ وإنى أميل إلى الاحتمال الأول، وأن تكون الجملة السامية ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ معترضة، وأن قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من قولهم، وذلك ليستقيم أمر الله بعد ذلك لنبيه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ فإنه لا يتضح معناه إلا إذا كان عقب قولهم، ليكون معنى جديد للأمر الثانى بعد الأمر الأول؛ إذ لو كان قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ من كلام الله تعالى المأمور به ما اتضح لنا معنى الأمر الثانى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ إلا إذا كان لتكرار هدايته وفضله، والتأسيس أولى من التأكيد.

لقد بين سبحانه بعد ذلك أن الهداية هى فضل من الله تعالى يتفضل به على من يشاء من عباده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾:

فهداية الله تعالى، والنبوة والرسالة التى تنبعث منها هداية المؤمنين الذين يذعنون للحق؛ ذلك كله فضل من الله تعالى لعباده، فليس حقا عليه لهم، بل هو منه تكرم وعطاء، والمتفضل المتكرم ليس بملزم بالعطاء لأحد، فإن كان قد جعل الرسالة حينا فى بنى إسرائيل فبفضل منه وبرحمة، وليس ذلك بملزم له، ولا بمسوغ لهم بأن يمنعوها عن غيرهم، ويستنكروا أن تكون فى قوم أميين؛ وعليهم أن يذعنوا للحق أينما كان، ومن أى جهة كان النداء به، فالله أعلم حيث يجعل رسالته؛ وليس فوق إرادة الله سبحانه وتعالى إرادة، وليس من حق طائفة من الناس أن تقول نحن أبناء الله وأحباؤه.

ثم بين سبحانه وتعالى سعة فضله وجليل حكمته، وإحاطة علمه، فقال عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن رحمة الله تعالى واسعة، وفضله عظيم، لا يكون لقبيل دون قبيل، وإن تعدد من يؤتون فضلا لا يغض من قدر الفضل عند غيرهم، فالذين يريدون أن يحتكروا الهداية، أو يحتكروا بينهم وفي أوساطهم رسالة الله إلى أهل الأرض، إنما يُضَيِّقُونَ واسعاً، ويحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من غير أن يعود عليهم من هذا الحسد شيء. ووصف سبحانه وتعالى ذاته بأنه واسع مع أن الظاهر سعة فضله؛ لبيان أن شمول فضله شأن من شئونه سبحانه، يظهر آثاره في خلقه، فما من شيء فى هذا الوجود إلا وهو بفضله سبحانه وتعالى.

وقد اقترن وصف السعة هنا بوصف العلم، للإشارة إلى أن فضله تعالى هو على مقتضى علمه، فهو يعطى من يشاء بمقتضى فضله وعلمه، فما من شيء يكون من الله تعالى لعباده إلا بميزان، وكل شيء عند ربك بمقدار؛ وإنه بمقتضى هذا يختص هذا برحمته، ويختص آخر بنوع آخر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ اختص تستعمل لازمة ومتعدية، فيقال اختصه الله بفضله، ويقال اختص بفضله الله، والله سبحانه وتعالى بمقتضى علمه وحكمته يختص برحمة معينة من رحماته خلقاً من خلقه، فقد يقول قائل إن كل من فى الوجود فى رحمة الله تعالى، ما من أحد من خلق الله تعالى إلا ناله نصيب من رحمة الله، ومنهم من يشكر، ومنهم من يكفر، فلم عبر سبحانه وتعالى بهذا الاختصاص، ولا عام أعم من رحمة الله، ولا عموم إلا فى فضل الله تعالى؟.

والجواب عن ذلك أن الرحمة التى يختص الله تعالى بعض عباده بها هى الرحمة النوعية، فيختص سبحانه هذا بالعلم، وذلك بالمال، وهذا بالجاه، وذلك

بالراحة، وهذا الفريق بالرسالة والهداية، وذلك الفريق بالغلب والسلطان؛ و«كل ميسر لما خلق له»^(١).

فإذا كان بنو إسرائيل وأشباههم قد نَفَسُوا على بنى إسماعيل^(٢) أن تكون فيهم النبوة الكبرى التى تختتم بها رسالة السماء إلى الأرض، فذلك مما اختص به سبحانه وتعالى بعض عباده بالرحمة، وليس لأحد أن يعترض على فعل الله، فإن فضله على من اختصه عظيم؛ وفضله أيضا على من لم يمنحه هذا النوع من الرحمة عظيم؛ ولذا ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله تعالى على خلقه، فالاختصاص النوعى لبعض الرحمات لا يعارضه عموم الفضل على خلقه، ولا عظمة هذا الفضل.

اللهم مُنَّ علينا بتوفيقك لنعرف فضل نعمتك، ونشكرك ولا نكفرك، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ
يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنْ
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا
خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

(١) رواه البخاري: التوحيد - قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ (٦٩٩٦)، ومسلم: القدر - كيفية

خلق آدمي في بطن أمه (٤٧٨٩).

(٢) أى ضنوا عليهم. الصحاح.

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة استهانة بعض أهل الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ بالحق وتلييسهم الحق بالباطل، وكذبهم واقتراءهم على النبين وعلى رأسهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ثم بين تعصبهم، وحرصهم على أن يظهروا بين الناس بأن الهداية في حوزتهم وحدهم، وأن الناس ما عداهم دونهم، ثم ذكر ما يتوآصون به فيما بينهم من النفاق بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره، لعلهم يفسدون بذلك عقائد المؤمنين؛ وهكذا مما يدل على فساد اعتقادهم وعدم إذعانهم للحق، وكذبهم فيما يدعون.

والكذب والخيانة توأم، كما أن الصدق والأمانة توأم، وفساد النفس يترتب عليه فساد العمل، وعدم الإذعان للحق في الاعتقاد يترتب عليه عدم الإذعان للحق في المادة، فإذا كان بعض أهل الكتاب قد كان منهم ذلك النفاق الديني، فإنهم قد بدت منهم الخيانة المادية، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً﴾ قسمان متقابلان أحدهما يبلغ الغاية من الأمانة، فيعطيهما عند طلبها مهما تكن قيمتها؛ ومهما تكن نفاستها، وعبر عن الكثرة بالقنطار من الذهب، ولم يذكر كونه من الذهب؛ لأنه مفهوم من السياق؛ لأن الدينار لا يكون إلا من الذهب، فلا بد أن يكون القنطار الذي يكون في يد الأمين من الذهب، وهذا القسم الذي يكون على هذا القدر من الأمانة هو الذي يجب داعي الحق ويؤمن به إذا دُعي إليه؛ لأن التسليم بالحق في الماديات التي تصورها الأمانة لا ينشأ إلا من ينبوع النفس التي تؤمن بالحق في المعنويات؛ بل إن هذا في الحق ينتهي إلى معنى الأمانة؛ لأن نصر الحق والإذعان له بعد قيام الدليل عليه نوع من الأمانة، إذ إن الله سبحانه أودعنا هذه القوى المدركة لنجعلها للحق وللنفع، فذو العلم عليه أن يؤدي أمانة العلم، وذو المال عليه أن يؤدي أمانة المال، ومن قام بين يديه الدليل على صدق دعوة إلى الحق لا يكابر ولا يمارى، وكانت الأمانة أن يعلن تلك الحقيقة ويناصرها ويؤيدها، ولذلك قال كثيرون من العلماء: إن الأمانة

التي حملها الله للإنسان بمقتضى الفطرة هي إدراكه لمعنى التكليفات الإنسانية والإلهية وقيامه بحققها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) [الأحزاب].

هذا هو القسم الأول، وقد قال العلماء إنهم أهل الكتاب الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ، كعبد الله بن سلام، وغيره من اليهود الذين سارعوا إلى الإسلام، وكذلك الشأن في كل كتابي علم الحق في رسالة النبي ﷺ، وأذعن له؛ لأنه يكون ممن يؤدي الأمانة.

والقسم الثاني هو الذى لا يؤدي الأمانة، وهو فى مقابل الأول؛ لأن الأول فى السماك الأعزل، وهذا فى الخضيض الأوهد. وصور الله سبحانه الفرق بينهما ذلك التصوير الحكيم البين الواضح بأن الأول لو ائتمن على قنطار من ذهب لأداه، والثانى إن ائتمن على دينار لا يؤده إلا بالملازمة الدائمة، والتتبع والإلحاف الشديد، وعبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الملازمة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى إلا إذا استمرت مطالبها له مصمما على أن يؤدي مشرفا عليه فى غدوه ورواحه. ودام معناها استمر، وقائما معناها ملازما متتبعا؛ ذلك لأن قام فى استعمال القرآن الكريم لها تكون كما قال الراغب فى مفرداته: «على أضرب، قيام بالشخص إما بتسخير أو اختيار، وقيام للشئ وهو المراجعة للشئ»، والحفظ له، وقيام هو بمعنى العزم على الشئ. . . ومن المراجعة للشئ قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ...﴾ (٨) [المائدة] وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾ (١٨) [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿أَقْمِنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾ (٣٣) [الرعد] وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ...﴾ (١٣) [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى ثابتا على طلبه.

وإن هؤلاء الذين لا يؤدون الأمانة المادية إلا بهذه المطالبة الدائمة، والملازمة المستمرة - هم الذين لا يتركون التضليل كما أشرنا، فلا يأمن أهل الحق شرهم إلا برقابة مستمرة لمنع تضليلهم، وفتنة الناس عن دينهم، ثم هم يخونون العهود، وطالما خانوا النبي ﷺ في حروبه مع المشركين، حتى اضطر لإجلالهم عن المدينة وما حولها.

وإن هؤلاء يبررون خيانتهم للأمانة المادية بقولهم كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ﴾.

أى ذلك الامتناع عن وفاء الحق، وأداء الأمانة والإذعان لبواعث الهداية الذى هو أداء الأمانة المعنوية سببه زعمهم الذى قالوه، ونطقوا به وهو أنهم ليس عليهم سبيل أى تبعة أو ملام أو عتاب فى شأن الأميين وأموالهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ﴾ فالأميون هم العرب، وسُموا أميين؛ لأنهم لم يكن عندهم علم ولا حضارة، وكانت تغلب عليهم الأمية، وهى الجهل بالكتابة والقراءة، فكان هذا الاسم لهم لغلبة الأمية عليهم؛ ومعنى سبيل حجة ملزمة؛ لأن السبيل هو الطريق، وهو يطلق بمعنى الحجة باعتبارها طريق الإلزام وتحمل التبعات، وقد قال الزمخشري فى تفسير هذه الجملة السامية ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ﴾ أى لا يتطرق علينا عتاب وذم فى شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم ما فعلنا من حبس أموالهم والإضرار بهم؛ إلا لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون لم يجعل لهم فى كتابنا حرمة، وقيل: «بايع اليهود رجالا من قريش، فلما أسلموا تفاضوهم قالوا ليس لكم علينا حق، حيث تركتم دينكم».

وإن هذه أخلاق الذين يظنون فى أنفسهم العلو المطلق، ويستخدمون ذلك الظن الباطل، لأكل أموال الناس بالحق، وليفسدوا فى الأرض وهو ما عليه أهل أوروبا؛ يقومون بالحق فى بلادهم، ويشبتون دعائمه فى عشائره لا يضيع عندهم

حق؛ فإذا تجاوز الحق أقطارهم أنكروه، ولم يدعنوا له؛ وتقولوا الأقاويل وادّعوا أنه ليس للأمم المتخلفة في الحضارة حق كحق غيرها، وأنه ليس للملوثين حق كحق غيرهم.

وإن هذا مبدأ اليهود، وهم مغرّقون فيه، فقد كانت التوراة تحرم الربا تحريماً مطلقاً، وكان النص فيه: لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته، فزادوا كلمة أخيك الإسرائيلي لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية في ذاتها.

وإن المبادئ الخلقية الفاضلة لا تعرف جنساً ولا لوناً ولا ثقافة؛ ولذا قال تعالى رداً عليهم مبيناً كذبهم.

﴿يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في هذه الجملة السامية رد عليهم بأن ما قالوه من أنه ليس عليهم في الأميين سبيل كلام لا أصل له في شرع سماوى فهو ليس ديناً، وإذا كانوا قد قالوه على الله تعالى فقد كذبوا على الله تعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في قضية عامة تدل على أن من شأنهم أن يقولوا الكذب على الله تعالى، وهم يعلمون أنه كذب فقد كذبوا فادّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكذبوا فادّعوا أن إبراهيم كان يهودياً، وكذبوا فادّعوا أنه لا نبي إلا من بنى إسرائيل، فكان الكذب على الله تعالى شأناً من شئونهم، ولذلك عبر بالمضارع، أى أن شأنهم أن يقولوا الكذب على الله، قالوه في الماضى، ويقولونه فى الحاضر، وسيقولونه فى المستقبل، وذلك شأن الذين يحتكرون لأنفسهم حق التكلم فى الدين، ويحسبون غيرهم ليس من حقهم أن يتكلموا فيه.

وإن الأمانة كانت توجب عليهم ألا يقولوا إلا الحق، ولكنهم خانوها فى الماديات، وما ذلك إلا لأنهم فقدوها فى المعنويات، فكان هذا هو أساس ذلك الضلال البعيد، ولقد روى سعيد بن جبیر أن النبى ﷺ قال فى أهل الكتاب عندما نزل قوله تعالى عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾: قال عليه الصلاة والسلام:

«كذب أعداء الله، ما من شيء في الجاهلية، إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»^(١).

ويروى أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: «إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة، والشاة، فقال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس. فقال حبر هذه الأمة: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾. إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم».

وإن الحق الثابت المقرر أن الفضائل الدينية هي حق على المؤمن لكل إنسان، ويأثم إن لم يؤدها لكل إنسان، ولذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

هذا تأكيد لبيان كذبهم على الله تعالى، وبلى هنا معناها إثبات ما نفوه؛ لأنها تحيء في القول لإثبات المنفى؛ لقد نفوا أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، فقال سبحانه بل عليكم فيهم سبيل، وأنتم معذبون بما تجرمون في شأنهم، ومثابون إن أوفيتهم لهم بعهدهم وآمتهم، وقد علل سبحانه ذلك الحكم العادل بقضية دينية عامة ثابتة، وهي قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وإن معنى هذا النص السامي أن الذي ينال محبة الله تعالى ورضاه سبحانه، لابد أن يتحقق فيه وصفان:

أولهما الوفاء بالعهد، فكل ما يلتزمه من عهود، سواء أكان موضوعها أمراً مادياً كإداء الأمانات أم كان الموضوع أمراً معنوياً كالقيام بحق من الحقوق - الوفاء به يستوجب رضا الله سبحانه، وكل غدر يكون فيه إبعاد عن رضوان الله سبحانه ومحبته.

(١) رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره وقال: حدثني ابن حميد، وراجع الدر المنثور للسيوطي ج ٢، ص ٥١.

ويدخل فى العهود ما أودعه الله سبحانه قلب كل إنسان من إدراك للحق، وفهم له وإدراك لمعنى الدليل، فإذا لم يذعن له ويعلنه لا يكون موفيا للعهد.

الوصف الثانى المستوجب لرضا الله ومحبته - هو التقوى بأن يشعر بحق الغير عليه ويؤمن به، ويجعل بينه وبين الاعتداء أيا كان نوعه وقاية.

هذان هما الوصفان اللذان يستوجبان محبة الله تعالى، وقد خلا اليهود منهما، فليسوا من محبة الله فى شىء، وإن هذين الوصفين متداخلان فالوفاء بالعهد داخل فى التقوى، ولذلك قال سبحانه فى جزاء الوصفين معا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى من أوفى بعهده واتقى فقد استحق محبة الله، لأن محبة الله تعالى لا يعطيها إلا لأهل التقوى الذين يجعلون بينهم وبين غضب الله تعالى وقاية، فيوفون بالعهد ويعطون كل ذى حق حقه، ويخشون مقت الله وعذابه، وأن الذى يسهل عدم الوفاء بالعهد أعراض الدنيا، وهى ثمن لا يساوى شيئا فى جانب عدم رضا الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾:

أى إن الذين يتركون عهد الله تعالى فى مقابل عرض من أعراض الدنيا يستبدلون ثمنًا قليلًا بأمر جليل إذ إن من يترك عهد الله الذى عاهد الناس عليه ويمين الله التى وثق بها ذلك العهد يفقد ثقة الناس، ومن فقد ثقة الناس لا يأمنونه، وتلك خسارة كبيرة، وإذا فقد المجتمع الثقة بين آحاده صار كل واحد ينظر إلى الآخر كما ينظر الوحش إلى فريسته، فيذهب الاطمئنان، فتكون الجماعة كقطيع من الذئاب.

وعهد الله تعالى يشتمل معنيين: أحدهما ما التزمه بمقتضى فطرته والتكاليف الدينية والمدارك العقلية من أداء الحقوق والواجبات ومراعاة الأمانات، والثانى ما يعطيه هو من عهود يذكر فيها اسم الله تعالى، ويوثقه بيمين الله تعالى أو لا يوثقه. وإن ترك هذه العهود له أثر فى الدنيا وفى الآخرة، أما فى الدنيا فالنبد والطرد. وأما أثره فى الآخرة، فذكر سبحانه بعضه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ

فِي الْآخِرَةِ ﴿١٢٨٥﴾ أَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَنْكَثُونَ بِالْعَهْدِ وَلَا يُحْتَرَمُونَ يَمِينِ اللَّهِ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابٍ؛ وَلَكِنْ مَغِيبَتُهُمْ حِسَابَ وَعِقَابِ، فَخَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أربعة أنواع من الجزاء تنالهم أولها: أن الله لا يكلمهم، وهذا كناية عن عدم محبته، لأن المحب مقبل على حبيبه، متحدث إليه، ومن فقد محبة الله فقد فقد معنى الوجود، وثانيها: أنه لا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يرفعهم؛ لأنهم إذا فقدوا النظر إليهم منه سبحانه فقدوا كلاءته وحمايته، فعدم النظر كناية عن أنه لا يحبيهم من العقاب، ولا ينزل بهم نعيما، والنوع الثالث: أنه لا يزكيهم، وذلك كناية عن عدم رضاه سبحانه؛ لأن من يرضى عن شخص يزكيه ويطريه ويثني عليه. والجزء الرابع الذى هو نتيجة ما سبق من بغض الله، وسخطه، ومنع حمايته هو أن لهم عذابا مؤلما:

اللهم قنا عذاب النار، وامنحنا رضاك واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمَا هُوَ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَكُمْ يَمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة كذب اليهود والنصارى الذين عاصروا النبي ﷺ والذين سبقوه، ومن جاء بعد هؤلاء وأولئك؛ كيف كانوا يكذبون في الوقائع البديهية، فيَدَّعون أن إبراهيم أبا الأنبياء كان يهوديا أو نصرانيا وكيف كان اليهود وغيرهم يدعون أن هداية الله حكر احتكروه، وهي في حرزهم لا تخرج عنهم إلى غيرهم، وقد اندفعوا إلى النفاق بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، ثم اندفعوا إلى خيانة الأمانات المادية، وأكل أموال الناس باسم أنهم الصنف الممتاز في هذه الأرض الذي يباح له كل شيء. وفي هذه الآيات التي نتكلم الآن في معانيها السامية قد أعظموا في البطلان كما يحكى رب العالمين، فكذبوا على الله تعالى، وهذا الكذب هو أصل الداء، وأبعد غايات الافتراء، كذبوا على الله فحرفوا الكتاب، وقرءوا أهواءهم على أنها من عند الله، وما هي من عند الله، وعلى أنها من الكتاب وما هي من الكتاب ولذا قال تعالى:

﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هذا من عدل القرآن الكريم في حكمه على الطوائف والجماعة، لا يعمم الحكم على الجماعة كلها، ولكن يخص بالذكر الذين ارتكبوا ابتداءً كبير الشر، وإن عم ضلالهم من بعد الطائفة كلها، ولهذا نسب التحريف ابتداء إلى طائفة منهم، وإن كان الضلال شاملا.

ولَّى اللسان معناه، فتلَّهُ عند النطق لتوجيه الكلام نحو معنى لا يقصد من ظاهر اللفظ؛ وهذا يشمل معاني كثيرة؛ فيشمل إخفاء بعض الحروف عند النطق بكلمة، فيتغير المعنى؛ كمن يقول: (السلام عليكم) فيخفي (اللام) فتصير الكلمة «السام عليكم» ويكون المعنى مناقضا للمعنى الأصلي، إذ السلام هو: الأمن، والسام هو: الموت، والأول دعاء له، والثاني دعاء عليه؛ ومن اللَّي، أن يغير لفظا بلفظ آخر، ويومئ اللفظ الثاني إلى معنى غير المقصود من الأول، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن بعض أهل الكتاب: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ

وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ... ﴿٤٦﴾
 [النساء] فكان لى اللسان أن استعملوا كلمة (راعنا) بدل كلمة (انظرنا) وكلمة
 راعنا - فى لغة السريان والعبرانيين - للسب، فهم باختيارها يشيرون إلى معنى
 السب فى هاتين اللغتين، وبذلك يطعنون فى الدين، ويسبون النبى ﷺ، ومن لى
 اللسان، أن تقرأ عبارات فى الكتاب بنغمته، وهى ليست منه. ومن اللى المعنوى،
 تحريف المعانى بتوجيهها إلى غير المراد منها.

وبهذه الأنواع الأربعة كان بعض اليهود والنصارى يلوون السنتهم بالكتاب
 أى عند قراءته و«الباء» فى قوله تعالى: ب ﴿الْكِتَابِ﴾؛ بمعنى «فى» فهم ينظرون
 إلى الصفائف التى تحوى التوراة، ويقرءون غير ما فيها بلى السنتهم إما بحذف
 حروف يغير المعنى حذفها، أو بتغيير كلماتها، أو بقراءة كلام غيرها بنغمتها
 ونجويد، أو بتحريف معانيها، ليتجهوا إلى معان ليست فيها؛ وليس شىء من هذا
 فى الكتاب الذى يوهمون سامعيه أنه منه، وليس منه، وبذلك ضلُّوا وأضلُّوا
 كثيراً، وضلُّوا عن سواء السبيل، وإن ذلك هو أصل الشر فيهم، وأصل فساد
 الاعتقاد عندهم.

والضمير فى قوله سبحانه: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وفى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ
 الْكِتَابِ﴾ يعود إلى مالووا به السنتهم؛ وتكرار الكتاب فى النفى، لبيان شدة براءة
 الكتاب المنزل على موسى وعيسى عليهما السلام مما يدعون ويفترون.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فى هذا النص السامى بيان مدى
 الخطورة فى لى السنتهم بالكتاب، وإيهام الناس أن ما يقرءون وما يقولون من
 كتاب الله حتى يحسبه الناس كذلك، فإنهم إذ يفعلون ذلك ينسبون لله تعالى ما
 لم يقله فيقولون: إن كلامهم هو من عند الله، وليس من عند الله، وذكر «هو»
 فى كلامهم يفيد إصرارهم على ما يدعون مع علمهم بأنهم يكذبون ويفترون
 وذكره فى نفى ادعائهم لتأكيد هذا النفى، وبيان أنه منصب على كلامهم، لا على
 أصل الكتاب، ويقول الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

تأكيد لقوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب، ودليل على أنهم لا يعرضون، ولا يورون، وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام كذلك؛ لفرط جرائتهم على الله تعالى، وقساوة قلوبهم، وبأسهم من الآخرة. وقد سجل سبحانه وتعالى عليهم الكذب بقوله سبحانه:

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ في هذه الجملة السامية بيان مقدار جرأتهم في الباطل، وكذبهم على الحق، فهم يكذبون على الله، وهم يعلمون أنهم كاذبون. وقد أكد سبحانه وتعالى شناعة تصرفهم وتبجحهم بأربعة مؤكدات:

أولها: أن كذبهم لم يكن تعريضا، ولا بلسان الفعال، بل كان بالقول الصريح.

وثانيها: أن المفترى عليه هو الله سبحانه وتعالى، فهم لا يفترون على بشر مثلهم، ربما لا يعلم افتراءهم عليه، بل إنهم يكذبون على علام الغيوب الذي يعلم ما تنطق به الألسنة وما تكنه القلوب، وإذا كانوا ينكرون علمه وإطلاعه، فقد كفروا بهذا الإنكار قبل أن يكفروا بهذا البهتان.

وثالثها: أنهم يعلمون الحق، وينطقون بالباطل، ويعلمون حكم الله تعالى، ويكذبون عليه، ويتقولون الأقاويل، وهم يعلمون أنها غير صادقة.

ورابعها: أنه أكد علمهم بذكر الضمير، في قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: هم بأعيانهم وأشخاصهم يعرفون كذبهم، وذلك هو الضلال البعيد.

وإن أعظم فرية افتراها بعض أهل الكتاب هي ادعاؤهم أن بعض النبيين دعوهم إلى أن يعبدوهم من دون الله تعالى، أو يتخذوهم أربابا، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى - إلى هذه الفرية العظيمة ببيان أنها غير معقولة في ذاتها، وأعظم الافتراء ما كان منافيا لطبيعة من ينسب إليه؛ ولقد قال تعالى في بطلان هذه

الفرية: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

لقد ادعى النصارى أن المسيح إله وعبدوه، وادّعوا أن ذلك من رسالته، واتخذ اليهود والنصارى الأحرار والرهبان أربابا من دون الله تعالى بمعنى أنهم لم يتصلوا في معرفة الدين بنصوص كتابهم من غير حجاب، بل اتصلوا به عن طريق تفسير الأحرار والرهبان، وأولئك حرفوا وبدلوا، وكانوا ينشرون كلامهم على أنه من دين الله، وما هو منه.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ استعمال قرآني يفيد نفى الشأن وعدم اتفاق هذا المعنى مع الحقيقة المفروضة في الرسول، وقد قالوا إن كلمة «ما كان» في هذا المقام وما يشبهه في معنى ما ينبغي. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً...﴾ (٩٢) [النساء]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ...﴾ (٣٥) [مريم]. وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ...﴾ (١٦) [النور].

والنفى في النص القرآني منصب على اجتماع الرسالة مع القول الذي يكذبون به على أنبياء الله، ومعنى النسق هذا، لا ينبغي لبشر أن يخاطبه الله تعالى ويعطيه الحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله فليس النفى بالبداهة منصبا على إتياء الله الكتاب والحكم والنبوة، بل هو منصب على المعطوف، وهو أن يكون منه - مع ما آتاه الله - ذلك الادعاء فيدعو الناس إلى عبادته.

و«الكتاب» المراد به سجل الشريعة التي جاءت، و«الحكم» قيل المراد به الحكمة، ومن ذلك قول أكثم بن صيفي: (الصمت حكم، وقليل فاعله)، وأنا أرجح أن المراد هو الشريعة المنزلة التي يحكم بها بين الناس، و«النبوة» هي الرسالة الإلهية التي حملها النبي من أنبياء الله تعالى، وتلك النعم التي أنعم الله بها على هذا النبي لا تتفق مع ما ينسب إليه، فالكتاب الذي آتاه حجة عليه والشريعة التي

جاء بها تتجافى عن هذا الادعاء، والأمانة التى تحملها برسالته عن الله تعالى تمنعه من أن ينطق بهذا البهتان الصريح؛ فإنه ليس فى كتابه ولا شريعته، ولا يتفق مع معنى رسالته، وإذا كان من المستحيل أن يدعى تلك الدعوة فإن المعقول أن تكون دعوته متفقة مع هذه الأمور، ولذا قال سبحانه فى دعوته:

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أى: ولكن يقول أولئك الذين أوتوا علم الكتاب، وعلم الشريعة، وفضل النبوة والسفارة الإلهية للناس: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ والربانيون، نسبة إلى الرب سبحانه وتعالى وقويت النسبة بزيادة الألف والنون، ومعنى هذه النسبة إلى الله تعالى يتضمن أنوارا يتخلق بها المؤمن.

أولها: ألا يعبد إلا الله وحده، فيكون بعقله وقلبه وأحاسيسه خالصا لله سبحانه وتعالى ولا يشرك فيها أحداً سواه.

وثانيها: ألا يعرف حقيقة شرع إلا عن الله، فلا يوسط فى تعرفها عبادة لهم أهواء وشهوات، يحرفون الكلم عن مواضعه إلا أن يكونوا ذوى فهم فى كتاب الله تعالى قد حرم هو منه، فيستعين بهم على فهم كتابه سبحانه لا أن يأخذ أقوالهم على أنها دين الله.

ثالثها: ألا ينفذ من الأحكام إلا أحكام الرب سبحانه وتعالى.

رابعها: أن تكون كل أعماله خالصة لوجه الله فلا يمارى ولا ينافق.

خامسها: أن يخضع للحق لذات الحق، وقد بين سبحانه -حكاية عما ينبغى أن يقوله الرسل وقد قالوه- كيف تتربى الربانية فى نفس المؤمن، فذكر أنها علم الكتاب المنزل والعكوف على دراسته، فقال: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾. أى: أن الذى يربى الربانية هو الاستمرار والدءوب على أمرين اثنين:

أولهما: دراسة الكتاب المنزل الذى بينه الرسول، فهو يدرسه مع شارحه، ويقطع كل الحجزات التى تحول بينه وبين هذه الدراسة، فلا يأخذ دين الله عن غير كتاب الله الذى بينه رسول الله تعالى.

ثانيهما: استيعاب علم الكتاب وتعليمه من البعض ليتمكن الدارسون من أن يعرفوا حقيقة كتاب الله، والاهتداء بهديه. وقُدِّم تعليم علم الكتاب على دراسته لأمرين:

أولهما: الإشارة إلى جرم أهل الكتاب الذين اتجهوا إلى تعليم الناس أهواءهم بدل أن يعلموهم كتاب الله.

وثانيهما: أن بيان الدراسة من غير تعليم وتدریس خبط عشواء. وسير في ظلماء؛ كما يحاول ملاحدة اليوم الذين يريدون أن يفهموا القرآن من غير أن يعلموا شيئا حتى علم العربية:

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ في النص القرآني^(١) قراءتان أحدهما بضم الراء، ويكون الكلام بها مستأنفا، ومتمما بيان ما لا ينبغي لرسول الله تعالى. والثانية بفتح الراء؛ بالعطف على أن يؤتیه مع ملاحظة المعطوف الأول عليها، والمعنى: أنه لا ينبغي لبشر أن يؤتیه الله الكتاب مع قوله كونوا عبادا لى من دون الله، ولا ينبغي له أيضا أن يأمرهم بأن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا بأن يعتقدوا أن الملائكة والنبيين يسيرون الكون بغير إرادة الله، وأنهم يعبدون من دون الله أو مع الله. وقد وقع فى عبادة الملائكة - الصابئة الذين كانوا يقيمون فى بلاد الكلدان، وتبعهم بعض المشركين من العرب، والذين عبدوا بعض النبيين هم النصارى فقد اتخذوا المسيح إلها يعبد، وبعض اليهود فقد اتخذت طائفة منهم عزيزا إلها وزعموه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذا استفهام إنكارى بمعنى النفى أى: أن الرسل لا يمكن أن يأمرُوا بالكفر بالله، وقد أوتوا علم الكتاب وفضل السفارة، وتنفيذ شريعة الله تعالى، ذلك لأنهم يكونون مضللين ولا يكونون هادين، وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن الناس بمقتضى فطرهم يسلمون ويخلصون وجوههم لله سبحانه وتعالى، فهذا شأن من شئونهم، وطبيعة فى فطرهم، حتى لقد قال بعض العلماء: إن معرفة الله تكون بالعقل؛ وأوجب

أبو حنيفة معرفة الله بالعقل؛ وما كان الرسل ليصرفوا الناس عن مقتضى الفطرة والعقل؛ فعبادة الله وحده فى فطرة الله التى فطر عليها الناس.

اللهم جنبنا الهوى، واهدنا إلى الرشاد.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتِيَتْكُمْ مِّنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

بين سبحانه وتعالى أحوال اليهود الذين عاصروا الرسالة المحمدية، وكيف كانوا يتعصبون لما عندهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه؛ تشددا فى التمسك بما عندهم على أن يكون على هواهم. وبين سبحانه كيف أداهم ذلك إلى الظلم، وإلى فساد الاعتقاد. بعد هذا بين سبحانه وتعالى وحدة الشرائع السماوية، وأنها يكمل بعضها بعضا. وأنها كالقصر المشيد، كل لبنة منه جزء من كيانه، وهو جماع لبناته وأركانه وأشكاله؛ وأكد سبحانه تلك الوحدة فى الرسالة الإلهية ببيان أنها ميثاق الله على الأنبياء، وأن الله سبحانه أخذه عليهم ليصدق بعضهم بعضا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

الميثاق مأخوذ من الوثاق، وهو ما يشد به الأمر، ويثبت ويؤكد؛ والميثاق الذى أخذه الله على النبيين هو ميثاق بمقتضى الهداية التى جاءوا بها، والحق الذى

يناصرونه، وهو مشتق من معنى النبوة، والرسالة الإلهية؛ فإن هذه الرسالة بمقتضى وظيفتها وعملها هي عهد موثق بين العبد المختار، والرب الذى اختاره، كمن يرسل رسولا، فإنه يكون ثمة عهد بين الرسول ومن أرسله، بأن يقوم بواجب الرسالة على الوجه الأكمل.

وإنه بمقتضى هذا العهد الموثق الذى اشتق من منصب الرسالة الأسمى، تكون الرسالة الإلهية واحدة فى مقصدها وغايتها، وهى إسعاد البشرية، وتنظيم العلاقات الإنسانية على دعائم من الأخلاق الفاضلة المنبثقة من النفس العابدة، والروح الزاهدة، التى لا تحرم طيبات ما أحل الله .

وإذا كانت الوسائل تختلف أحيانا قليلة، فالغاية واحدة، وهى الرحمة ، وإقامة الحق والقسط بين الناس .

وكل نبي متمم ما بدأ به النبي الذى سبقه، أو بالأحرى يؤكد ما جاء به ويوثقه ويقويه، حتى ختم الله أنبياءه بمحمد ﷺ، فكان خاتم النبيين، ولذلك كان حقا على كل نبي أن يصدق ويؤمن بما يجيء به النبي الذى بعده، والذى أعلمه الله تعالى به، وإذا كان حقا على النبي المبعوث أن يؤمن بمن سبقه، ومن يجيئون بعده ممن أخبره الله تعالى بمجيئهم، فإنه بلا ريب حق على الذين يتبعونه أن يصدقوا ذلك النبي الذى يجيء بعده؛ لأنهم يتبعونه فى كل ما يؤمن به؛ فحق على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذى أخذه الله على النبيين، وبمقتضى إيمان هؤلاء النبيين، وتنفيذا لهذا العهد، أن يؤمنوا بالنبي ﷺ، وإلا ما كانوا متبعين لموسى وعيسى عليهما السلام، إنما يكونون متبعين لأهوائهم وشهواتهم؛ ولذا يقول النبي ﷺ فيما رواه جابر: «لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى» (١).

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (٤ - ١٤١).

هذا هو معنى النص الكريم بالإجمال، بقى أن ننظر فى تخريج هذه المعانى السامية من الألفاظ المقدسة، فنقول: إن فى الآيتين قراءتين^(١)؛ إحداهما: القراءة بفتح «اللام» وتكون اللام فى هذه الحال هى اللام الموطئة للقسم، التى تُشعرُ بأن فى الكلام قسمًا تضمنه سابقها؛ وأن ما بعدها يتضمن الجواب؛ وتكون (ما) شرطية، ويكون معنى الكلام: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن؛ أى أنه ميثاق الله وعهده إن أناكم علم الكتاب والحكمة، وهى الشريعة الحاكمة، وجاء رسول أن تؤمنوا فالعهد الأساس بينكم معشر الرسل، وبين من أرسلكم، أنه إن جاء كتاب الرسالة، وشريعته التى هى حكمتها الحاكمة هو أن تؤمنوا بكل رسول يجرى بعدكم مصدقا لما معكم كإيمانكم بكتابكم: هذا تخريج معانى الآية على قراءة فتح «اللام».

وثانيتها القراءة بكسر (اللام) وتكون (ما) بمعنى الذى، فهو اسم موصول، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ عطف على الصلة، ويكون المعنى: أخذ الله سبحانه وتعالى الميثاق على النبيين بسبب الكتاب الذى نزل، والحكمة التى جاءوا بها، وتصديق النبى الذى جاء من بعدهم - أخذ عليهم عهدا بأن يؤمنوا به.

وقوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ جواب القسم الذى تضمنه معنى الميثاق؛ لأن الميثاق المؤكد الموثق هو فى حكم القسم المؤكد الموثق، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ عطف على لتؤمنن أى أن مقتضى العهد والميثاق على النبيين أن يؤمنوا بما جاء به الرسول الذى صدق ما معهم؛ وأن ينصروه إذا اختلف مع المشركين. ولكن قد يسأل سائل: إنهم قد مضوا، فكيف تتصور منهم النصرة؟.

إن تصور الإيمان منهم ممكن باعتبار أن الله تعالى مخبرهم بمبعثه، ولكن النصرة غير متصورة، والجواب عن ذلك: أن الكلام بالنسبة للأنبياء فرضى، وبالنسبة لاتباعهم واقعى؛ وكان المراد أن هؤلاء الأنبياء لو كانوا أحياء فى عهد

(١) قراها (لِما) بكسر اللام حمزة، وقرأ الباقون ﴿لِما﴾ بفتح اللام. غاية الاختصار - ج ٢/ ٤٥١..

الرسول الذى يجيء مصدقا لما معهم، لآمنوا به، ولا تبعوه ونصروه وآزروه؛ لأن ذلك ميثاق الله الذى ربط النبوات بعضها ببعض، فهي متلاقية عند غاية واحدة، وإذا كان النيون لا يفرض فيهم إلا ذلك فاتباعهم يجب عليهم أن يفعلوه إن كانوا متبعين لهم.

بعد أن صور الله سبحانه وتعالى ذلك العهد الموثق بمقتضى الرسالة الإلهية قال :

﴿قَالَ أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ فى الجملة السابقة بين سبحانه عهد الله على النبيين، وفى هذه الجملة يوثقه ويؤكد بأخذ إقرار منهم بهذا الميثاق، وبأخذ عهد آخر عليهم، وهو أن يتولوا هم أخذ العهد على غيرهم بأن يقوموا بعهد الله تعالى الذى عاهدهم عليه؛ أى أنه سبحانه يأمرهم بأن يأخذوا ذلك العهد على أتباعهم؛ وهذا معنى ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أى أخذتم من أتباعكم على ذلك الميثاق - أن ينفذوه وأن يتبعوه، وأن يقوموا بحقه عليهم، فثمة إذن عهدان: عهد الله على النبيين، وعهد النبيين على أتباعهم، وهذا هو الإصر الذى أخذه عليهم. فالإصر هنا هو العهد الموثق الشديد، وقد قال الراغب فى أصل اشتقاق «أصر»: «والإصر عقد الشيء وجبسه بقره يقال أصرته فهو مأصور». قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ...﴾ (١٥٧) ﴿[الأعراف] أى الأمور التى تثبطهم، وتقيدهم عن الخيرات، وعن الوصول إلى الثوابات .. و«الإصر» العهد المؤكد الذى يثبط ناقضه عن الثواب، وعن الخيرات، قال تعالى: ﴿أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

وإذا كان أتباع النبيين قد أخذ عليهم العهد بأن يؤمنوا بالرسول ويصدقوه وينصروه، فإنه فى عنق اليهود والنصارى أن يؤمنوا بمحمد وينصروه ويؤيدوه؛ لأن ذلك جزء من الرسالة التى أتوا بها.

ولقد زكى سبحانه العهد الذى أخذه النيون على أتباعهم بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أى أن الله سبحانه قد أخذ هذا الإقرار على أنبيائه، وأخذوا هم ذلك الميثاق على أتباعهم، وبعد ذلك أمرهم سبحانه بأن يشهدوا على أتباعهم بأنهم أخذوا ذلك الميثاق عليهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أى فاشهدوا أيها الأنبياء على أتباعكم بأنكم أخذتم عليهم تلك العهود بأن يؤمنوا بالرسول الذى يجىء مصدقا لما معكم، وأنهم إذا لم يفعلوا فقد خالفوا العهد والميثاق، ونقضوا عهد الله تعالى الذى أمر النبيين بأخذه عليهم، ثم أكد سبحانه وتعالى تلك الشهادة بشهادته سبحانه وتعالى، وليس كمثله شىء، وهو السميع البصير؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأى شهادة أجل وأعظم من شهادة خالق السموات والأرض ومن فيهما.

وإن هذا كله ينتهى بلا ريب إلى أن اليهود والنصارى عليهم أن يتبعوا النبى ﷺ، وأن ينصروه، وأن يؤمنوا به، وعليهم أن يعلموا أن ذلك اتباع لدينهم، وأنهم إن ناءوا الرسول، فإنما يناوئون أنبياءهم، وأنهم بمخالفتهم له قد خرجوا عن دينهم الذى ارتضوا، والذى يزعمون أنهم يناقضون النبى ﷺ لتأييده ونصرته.

وإن هذه الآية السامية تدل على وحدة الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض، فما جاء به إبراهيم وموسى وعيسى هو ما جاء به محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (١٣) [الشورى].

ولهذه الوحدة الدينية فى الرسالة الإلهية سعى الله سبحانه كل مكذب لنبى مكذبا لدين الله، ولو كان يدعى أنه يتبع ديناً ولذا سعى الخارجين فاسقين فقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أى فمن أعرض بعد ذلك عن الإيمان بمحمد وعن نصرته وتأييده، فأولئك هم الفاسقون، أى الخارجون على كل دين غير المؤمنين بأى نوع من الإيمان، فلم يؤمنوا لا بأنبيائهم ولا بمحمد، ولا بمن يدعون الإيمان بهم، وقد أكد فسقهم

بالإشارة بالبعيد، وتعريف الطرفين الذى يفيد انحصارهم فى الفسق وانحصار الفسق فيهم، وأكد أيضا بضمير الفصل الذى يفيد التخصيص.

﴿أَفْغِيرَ دِينَ اللَّهِ يَغُونَ﴾ هذه الجملة السامية فيها تصريح بوحدة الرسالة، فإن ما يجىء به الرسل جميعا واحد لا يتغير، وهو دين الله تعالى؛ ومن خالفه فقد خالف دينه سبحانه، ومن آمن ببعض الرسل، وكفر ببعض آخر، فهو يبغي غير دين الله، ويطلب سواه، ومعنى النص الكريم: أنهم إذا أعرضوا عن تصديق محمد طلبوا غير دينه سبحانه.

والاستفهام هنا للتوبيخ، واستنكار ما يفعلون، وبيان أن مؤداه أنهم يطلبون غير دين الله سبحانه وتعالى، وأنهم لا يمكن أن يكونوا مؤمنين بنبي قط، إذا أنكروا رسالة نبي من الأنبياء، وخصوصا محمدا ﷺ الذى جاء بكتاب مصدقا لمن بين يديه من الكتب.

وفى هذا الكلام إشارة إلى أن دين الله واحد لا يتجزأ، فمن كفر ببعضه، فقد كفر ب كله، وأن حقيقة هذا الدين تتجلى فى كل ما جاء به الرسل لا فى بعضه، وأنه يتلاقى كله فى مجموعه، ولا يتعارض إلا ما يكون من جزئيات عملية ضئيلة، فلا تختلف رسالات الرسل فى قواعد كلية.

وهنا مباحث لفظية. أولها: أن الفاء هنا للترتيب والتعقيب، وهى مؤخره عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما، والمعنى أنه ترتب على كفرهم بمحمد ﷺ أنه وجه إليهم ذلك الاستفهام الإنكارى توبيخا لهم على ما فعلوا وما أنكروا، وما ضللوا.

وثانيها: إسناد الدين إلى الله تعالى، ففيه إشارة إلى أن من يكفر ببعضه إنما يكفر بالله، لا بنبي من الأنبياء فقط.

وثالثها: تقديم المفعول على الفعل، أى تقديم كلمة «غير دين الله» على «يغون» ففيه تنبيه إلى موضع الاستنكار وهو أنهم أرادوا غير دين الله تعالى، فقدم المفعول لأهميته، إذ هو موضع التنبيه والتوبيخ.

ورابعها: التعبير بـ ﴿يَبْغُونَ﴾ بدل يريدون، فإنه يفيد شدة إلحافهم وإصرارهم، وفي ذلك إشارة إلى أنهم بذلك ظالمون.

وقد بين سبحانه أن ذلك الأمر الذي ابتغوه وطلبوه كان تمردا على الله، وخروجاً على طاعته، مع أنه سبحانه قد أسلم له كل من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. أى أنهم يبغون غير دين الله، ويخرجون عن طاعته؛ مع أنه قد أسلم له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً؛ وتقديماً الجار والمجرور لإفادة القصر، أى له وحده، لا لأحد سواه، خضع وأخلص كل من في السموات والأرض من عقلاء. ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أى أنهم خاضعون مستسلمون له بنوعين أحدهما: بالطاعة، والإخلاص، والإذعان، وقبول كل ما يحكم به، والتقرب منه بعبادته، وأولئك هم الأخيار.

وثانيهما: بالخضوع لقوته القاهرة، وكونه سبحانه مسير الأكوان؛ لأنه لا أحد من الخلق له أثر في تسييرها، وفيما يكسب من خير وشر، والجميع في قدرته وحفظه، وهذا الخضوع هو الخضوع كرها وقسراً، وهو سار على الأخيار والاشرار.

ثم هددهم سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُونَ﴾. أى إليه وحده المرجع والمآب، يحاسب كلا على ما صنع من خير وشر.

اللهم اغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة شدة تعصب بعض الذين أوتوا الكتاب، وأنهم غلقوا بهذا التعصب باب النور فلم تشرق قلوبهم بهداية الإيمان، ثم بين سبحانه أن صرح النبوة واحد، وأن كل نبي متمم لما جاء به سابقه مصدق له، ومبشر بالنبي الذي يجيء بعده، وأن ذلك عهد الله وميثاقه، وفي هذه الآية يشير إلى وحدة الرسالة الإلهية، وأن محمدا ﷺ مؤمن بكل رسول جاء من قبله، وأن ذلك الإيمان جزء من رسالته عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك أمره ربه بقوله تعالى:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهذا أمر من الله لنبيه بأن يبين لهم ارتباط شرائع الله، وأنها سلسلة متصلة، كل حلقة منها آخذة بالحلقة الأخرى، لتنتهي معها إلى نهاية واحدة، وهي الإخلاص، وقد ابتداء سبحانه بذكر الإيمان بالله، فقال: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ والإيمان بالله هو جماع الشرائع كلها، إذ الإيمان بالله يقتضي الإيمان بوجوده واحدا منفردا بالعبودية، ومنفردا بالتكوين والإنشاء، ويقتضي الإخلاص لذاته العلية فيطيعه فيما يأمره به، وينتهي عما ينهاه عنه، وتصديق رسله، وعدم الاستكبار على أحد منهم، وذلك هو الإيمان حقا وصدقا، والإسلام الذي هو دين النبيين أجمعين، وإذا كان الإيمان بالله يقتضي تصديق كل ما جاءت به رسل الله - ذكر سبحانه بعد ذلك الإيمان بما أنزل على النبيين، وهو عطف للمسبب على السبب وللنتيجة على المقدمة، لبيان شرف النتيجة في ذاتها، وأنها غرض مقصود لذاته، وليس فقط تابعا لغيره؛ وذلك لأن ما أنزل على الرسل فيه لبُّ الشريعة السماوية المشتركة في كل الأديان التي ذكرها الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (١٣) [الشورى].

وإن الأنبياء الذين ذكرتهم الآية هم الأنبياء الذين يدعى اليهود والنصارى أنهم يتبعونهم، وفيهم إسماعيل أبو العرب، وفي ذكرهم بيان أن اليهود والنصارى قد خرجوا عن دينهم بكفرهم بالنبي ﷺ.

والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، والمراد بما أنزل على الأسباط هو ما أنزل على ذريتهم كالذى أنزل على داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء الذين جاءوا من سلالة هؤلاء الأسباط، فكان المعنى: آمنا بما أنزل على إبراهيم ولديه إسماعيل وإسحاق وحفيده يعقوب، ثم من جاء بعد ذلك من ذرية الأسباط الذين هم أولاد يعقوب، فأنبياء بنى إسرائيل لا يخرجون عن ذلك، ثم خص اثنين من أنبياء بنى إسرائيل بالذكر، وهما موسى وعيسى، فقال: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالتَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وهنا قد يسأل سائل ما الذى أوتي موسى وعيسى والتبىون، أهو شىء آخر غير ما أنزل عليهم: ونجيب عن ذلك السؤال بأن ما ذكر بأنه أنزل على النبى ﷺ وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، هو الجزء الذى لا تختلف فيه الديانات السماوية قط، وهو لبها وخلاصتها، وأساسه التوحيد المطلق، والإيمان بفضائل الأخلاق، وغيرها مما لا يقبل النسخ والتغيير، وأما الذى أوتي موسى وعيسى والتبىون من ربهم فهو ما اختص به كل نبى من أحكام توافق زمنهم، ويصح أن نقول جوابا آخر وهو أن ما أوتي موسى وعيسى والتبىون هو معجزاتهم التى أقاموا بها الدليل على رسالة ربهم، ويصح أن يكون الجواب شاملا للأمرين معا.

وقد أورد الزمخشري، سؤالا وأجاب عنه هو وغيره، وهو أنه فى سورة البقرة، قد قال الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾ [البقرة] فلماذا عبر هنا بقوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهناك ﴿أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وقد قال الزمخشري فى السؤال وفى الجواب ما نصه: «فإن قلت لم عدى لـ «أنزل» فى هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء^(١). قلت لوجود المعنيين جميعا؛ لأن الوحى ينزل من فوق، وينتهى إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالأخرى، ومن قال إنما قيل «علينا» لقوله: «قل»، و«إلينا» لقوله: «قولوا» تفرقة بين الرسول والمؤمنين؛ لأن الرسول

(١) حرف الاستعلاء (على)، وحرف الانتهاء (إلى).

يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على طريق الانتهاء - فقد تعسف، ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ...﴾ [البقرة]، و﴿أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ﴾، وإلى قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ [آل عمران].

وإنا نميل إلى ما اعتبره الزمخشري تعسفا؛ لأن الخطاب في الأول من الله لنبيه، والوحي ينزل عليه، فكان من مقتضى الحقيقة أن يعبر بعلى، والثاني خطاب للمؤمنين، والوحي لا ينزل عليهم، ولكن ينتهى فى نزوله إليهم، وكون الله تعالى عبر فى مقام النزول على النبى بـ «إلى»، وحكى عن اليهود أنهم قالوا فى مقام النزول إلى المؤمنين بعلى، فلاسباب واضحة فى مقامها لا يخل بالتعليل فى هذا المقام.

﴿لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ هذه ثمرة الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان بكل رسله، وبكل ما أنزل على رسله، فالنبي والمؤمنون معه إذ يؤمنون بكل ما جاء به الرسل لا يفرقون بين أحد منهم، فلا يؤمنون بواحد ويكفرون بآخرين، ولا يؤمنون بجماعة ويفردون بالكفر واحدا، بل هم فى الإيمان سواء، وإذا كان بينهم تفاضل فى أشخاصهم، فأصل الإيمان برسالتهم واجب لا تفرقة فيه؛ ولكن التفضيل يكون بأمور أخرى وراء أصل التصديق والإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ...﴾ [البقرة].

ثم بين سبحانه الوصف الكامل لأهل الإيمان، وهو الإذعان لذات الله ولذات الحق، فيطلبون الحق مذعنين له مؤمنين به خاضعين، ولذا قال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى ونحن لله سبحانه وتعالى مذعنون مخلصون، لا ندعن إلا له، فلا نفكر فى الأمور تحت تأثير عرض من أعراض الدنيا، أو عصبية جنسية أو دينية، أو حب رياسة وسلطان، بل نطلب الأمر من الأمور وقد أخلصنا فى طلبه، وخلصنا أنفسنا من شوائب الدنيا وأعراضها، فالإخلاص لله والإذعان له فيه الخلاص والاستقامة نحو الحق.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الإخلاص لله سبحانه والإذعان المطلق هو لب الأديان كلها وروحها، وهو دين الله الحق، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الإسلام هنا هو الإسلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [آل عمران] فهو الإيمان بالله تعالى وحده، وإذعان العقل والنفس والقلب لله سبحانه وتعالى، فهو التوحيد، والانقياد، والإذعان، والإخلاص لذات الله، بحيث يحب الشيء لا يحبه إلا الله. وكأن المعنى: من يطلب غير الإخلاص ديناً لله تعالى فلن يقبل منه؛ لأن عدم الإخلاص لله تعالى إشراك للهوى ومآرب الدنيا في الاتجاه إليه سبحانه، وذلك نوع من الشرك الخفى، ولذا أكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أى أنه ليس من شأنه أن يقبل غير الإخلاص إذ إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصاً له مجرداً من كل هوى من أهواء الدنيا، ومن كان عنده ذلك الإخلاص الحق هو الذى قال سبحانه وتعالى فى مثله: ﴿إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت].

وإن الله تعالى إذا كان لا يقبل ذلك النوع من التدين، وهو الذى خلا من الإخلاص، فإن صاحبه يكون يوم القيامة من الخاسرين، ولذا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى أن الخسران يوم القيامة يكون شأنه، إذ خسر رضوانه تعالى، وخسر النعيم المقيم، وخسر رحمة الله، فالتقى به فى الجحيم. اللهم هب لنا الإخلاص، وأنزله بصائرنا، وامنحنا قبولك ورضاكَ يا أرحم الراحمين.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
 أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
 عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

إن لله سبحانه وتعالى سنا محكمة في خلقه، وكما أن الكون يجرى على
 قوانين ثابتة لا تقبل التخلف إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى، كذلك هناك سنن في
 النفوس لا تقبل التخلف إلا أن يشاء ربك، ومن سننه تعالى في النفوس أنه لا
 يهدي إلا من طلب الحق مخلصا في طلبه، لا يرين على بصيرته هوى يظلمها،
 ولا يعوق طريق الهداية عرض أو عصبية، وإذا كان الله يهدي الضال عن جهالة،
 فإنه لا يهدي من يضل عن بينة؛ لأنه أركس نفسه في الشر، وسد ينابيع الخير في
 قلبه، وسد مطالع النور فلا تصل إليه؛ تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله
 تبديلا. وإن أولئك اليهود أضلهم الله على علم، فهم آمنوا بالله تعالى ثم كفروا
 به، ثم شهدوا بأن الرسول حق وجاءتهم البينات المثبتة المنيرة، ثم بعد ذلك كفروا
 به، لقد كانوا يعلنون بين المشركين أنه سيجيء رسول يحطم الأصنام، ويستبشرون
 بمقدمه، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ولذا قال سبحانه وتعالى في شأنهم وشأن من يماثلهم بعد أن قص الكثير
 من قصصهم:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ
 وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ هذا استفهام للنفي واستبعاد الإيمان مع الحال التي عليها
 هؤلاء، فالمعنى أن هؤلاء مع حالهم التي هم عليها، وهى استيلاء الهوى على

قلوبهم، وسيطرة الغرض على نفوسهم، وطمس العصبية لإدراكهم - لا يمكن أن يتحقق منهم إيمان وإخلاص صادق فلا يهديهم الله، فالنفي الذي اشتمل عليه الاستفهام هو النفي مع هذه الحال؛ ولذا كانت صيغة الاستفهام بلفظ كيف التي يستفهم بها عن الحال، ويكون النفي فيها أيضا مقيدا بهذه الحال التي هم عليها.

وحالهم التي أوجبت هذا النفي مكونة من عناصر أربعة: إيمان في الابتداء، وشهادة بأن الرسول حق، وكون البيئات قد جاءتهم موضحة لهذا الحق، ثم بعد ذلك يكفرون، فلو كان حالهم حال ضلال عن غير علم لأنار الله أبصارهم، ولو كانوا مخلصين جهلوا الحقيقة وطلبوها لكانت هداية الله لهم ثابتة، ولكنهم غير ذلك، فهم قد كانوا مؤمنين، ويشهدون بالحق، وذلك عن بينة وعن أدلة يقينية ملزمة، ومع ذلك استولى عليهم التعصب بالباطل، فكان العمى الذي أرادوه، فلا هداية إلى الحق من بعد، وذلك لأن الله تعالى يهدي إلى الحق مَنْ أخلصَ وطلبه، فإن الإخلاص يقذف في القلب بالنور فيكون الإشراق الروحي، وتكون الهداية الربانية، أما من قصد إلى الباطل، ولم يخلص وعكرت بصيرته بالهوى، فإنه يكون محروما من هداية الله، حتى يغير من حاله بأن يتوب عن غيه، ويخلص وينيب.

والآية عامة لا ريب في ذلك، فهي تبين من يحرمه الله من هدايته، وهو الذي لا يذعن للحق إلا إذا كان متفقا مع غرضه، وهو من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ [النور].

ولكن المفسرين يذكرون لهذه الآية سببا للنزول، فيروى النسائي عن ابن عباس أنه قال: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد ثم ندم، فأرسل إلى قومه يطلب إليهم أن يسألوا الرسول ﷺ: هل من توبة؟ فتزلت الآية^(١). وروى عن

(١) رواه النسائي: تحريم الدم - توبة المرتد (٤٠٠)، وأحمد: مسند بني هاشم (٢١٠٨).

مجاهد أنه جاء الحارث بن سويد فأسلم عند النبي ﷺ ثم كفر فرجع إلى قومه نادماً، فأنزل الله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فحملها إليه رجل من قومه، فقال الحارث: (إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة) ثم رجع وأسلم^(١)، وروى عن الحسن البصري أنه قال: إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين رأوا نعت النبي ﷺ في كتابهم وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك وأنكروه وكفروا بعد إقرارهم.

وإن هذا هو الذي أميل إليه، فقد قال تعالى في شأن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. وإن قصص القرآن فيه بيان تعصب اليهود، ومعاملتهم للمسلمين، وتلقيهم لهداية القرآن، وتواصيهم بالنفاق والكفر.

على أنه مهما يكن سبب النزول فإن الآية تقرر حقيقة ثابتة، وهي أن النفس التي تشهد بالحق وتؤمن به ثم تكفر للهوى والعصية لا يرجى لها هداية إلا أن تزيل منها درن الغرض، وتنخلع عن العصية الجامحة بالتوبة النصوح.

وفي النص السامي بعض مباحث:

أولها: ما حقيقة الهداية الإلهية في هذا المقام؟ وإنا نقول في الإجابة غير متعرضين لما بين المعتزلة والأشاعرة من خلاف: إن الهداية هنا هي الهداية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة] والمذكورة في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى] وهي بيان الطريق الحق، والإرشاد إلى سبيل المعرفة الحقيقية؛ وإن من يكون على هذه الحال، وهي الإيمان، والشهادة بالحق ومجىء البينات السابقة - لا يحتاج إلى بيان فوق ما جاء إليه، بل يحتاج إلى عقاب صارم يجعله عبرة لكل من يكون على مثل حاله.

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: سورة آل عمران ٨٦: ٨٩.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾ على أى شىء يكون العطف فى العبارة السامية ﴿وَشَهِدُوا﴾ وقد ذكر الزمخشري موضع العطف، فقال: «فيه وجهان: أن يعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل؛ لأن معناه بعد أن آمنوا، ويجوز أن تكون الواو للحال، بإضمار قد، بمعنى كفروا وقد شهدوا بأن الرسول حق.

ولماذا لا تكون عطفا على كفروا نفسها ويكون من باب الجمع بين المتناقضات، كما تقول قتل القاتل وبكى عليه، أى أن حال هؤلاء مذبذبة متناقضة، فهم يكفرون بالرسول ويشهدون بأنه حق، والعطف بالواو لا يقتضى ترتيبا، فيصح أن يكون الكفر فى الوقوع متأخرا عن الشهادة ولكن يجىء سؤال: لماذا ذكر الكفر أولا؟ والجواب عن ذلك أن الكفر هو موضع الاستنكار، فكان تقديمه لهذا المعنى.

ثالثها: أن الله تعالى يذكر أنهم شهدوا بأن الرسول حق، وجاء الحق وصفا للرسول، ولعل الظاهر أن يكون وصفا لما جاء به وهو القرآن، ولكن وصف به؛ لأن اليهود ما كانوا ينكرون الشرائع السماوية، وما كان السبب فى كفرهم هو ما جاء به النبي ﷺ، بل كان السبب هو الحسد لشخصه وللعرب، فأشار سبحانه إلى أنهم كانوا يشهدون لشخصه، فأوصافه عندهم، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فشهادتهم منصبة على شخص الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فهم يعرفون شخصه من أوصافه فهو فى علمهم حق وكل ما جاء به هو الحق.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بهذا النص الحكيم للإشارة إلى أنهم ظالمون، فهم ظلموا أنفسهم، وظلموا الرسول! وظلموا الحقائق وطمسوا على بصائرهم، فلا يمكن أن تدخل الهداية إلى قلوبهم، وفى النص الكريم إشارة إلى أن الظلم يحدث فى نفس الظالم ظلمة شديدة لا ينفع معها ضوء. فتغلق كل الأبواب التى ينفذ منها النور إلى موضع الإدراك، إذ إن أساس الظلم هو تسلط الهوى والغرض الفاسد والحقد والحسد على النفس،

فتتحرف عن مدارك الحق ومشارك العرفان، فلا يمكن أن يكون للهداية موضع في النفس، فلا يهديه الله سبحانه، وإن الظلم بطبيعته يفسد الإدراك كله؛ لأن إدراك الحقائق يستلزم صدق النفس في طلبها، وصدق النفس في طلب الحقائق لا يمكن أن يكون مع الظلم. الذي يجعل الهوى مسيطرا، فالظلم ظلمات في النفس، وظلمات يوم القيامة.

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بعد أن شرح الله سبحانه نفس الذين سيطر الهوى عليهم بين الله جزاءهم في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إليهم في أوصافهم السابقة، فالإشارة ليست إلى أشخاصهم؛ لأنه لم يذكر أشخاصا، إنما ذكر أوصافا، فالإشارة إلى من عندهم هذه الأوصاف، وقد ذكر سبحانه في هذه الآية الكريمة الجزاء الأول لهم، وهو اللعنة المؤكدة الثابتة المجمع عليها، وهي لعنة من الله. وهي أعلاها، ولعنة من الملائكة، ولعنة من الناس أجمعين، أى أنها لعنة من الخالق والمخلوقين العقلاء سواء منهم من كانت طبيعته روحية ملكية، ومن كانت طبيعته إنسانية لها صلة بأعلاق الأرض ولها صلة بالروحانية السماوية؛ ذلك بأن الظلم أبغض الصفات الإنسانية عند الله والناس، فالله سبحانه قد كتب العدل على نفسه، ولذا روى أنه ورد في حديث قدسى: «يا عبادى إني قد حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا» (١)، والظالمون الذين سيطر الغرض والهوى على نفوسهم فلا يؤمنون بشيء، ولا يذعنون للحق إذا عارض أهواءهم الظالمة، لا يحبهم أحد، فإن من غلب عليه هواه، وأحب نفسه أبغضه الناس.

ولكن ما اللعنة التى ضربها الله على الذين اتخذوا إلههم هواهم؟ قال علماء اللغة: إن اللعن فى الأصل معناه الطرد، وإذا أسند إلى الله تعالى كان المراد الطرد من رحمته، وإنى أرى أنه قد يستعمل بمعنى غضب الله تعالى وسخطه، وهذا

(١) جزء من حديث قدسى طويل رواه مسلم: البر والصلة والآداب - تحريم الظلم (٤٦٧٤)، وأحمد: مسند الانصار (٢٠٤٥١)، عن أبى ذر رضى الله عنه.

معنى لازم للطرد الذى هو الأصل فى المعنى اللغوى؛ لأن الطرد يترتب عليه السخط والمقت والغضب؛ إذ لا يُطرد من رضى الله عنه، ولا يُطرد محبوب، وعلى ذلك تكون اللعنة هنا بمعنى سخط الله تعالى وغضبه، وسخط الملائكة وغضبهم، ولا مانع من أن يراد الطرد من رحمته إذا اجتمع مع الغضب فى مثل قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾ [النساء]. فهذه معان متلازمة مترتب بعضها على بعض، فيترتب على الغضب الطرد من الرحمة، ويترتب على الطرد من الرحمة عذاب السعير، فإنها للجنة أبدا، أو للنار أبدا، كما قال ﷺ (١).

وكون اللعنة تكون من الناس أجمعين معناه أن الفطرة الإنسانية السليمة كلها تتنكر وتلعن تلك القلوب المنحرفة التى لا تخضع لحق، ولا تؤمن للبينات، بل تتجه إلى طمس المعالم التى تنير وتهدى، فالمراد المعنى الإنسانى العام لا الإحصاء والجمع لأحاد بنى الإنسان.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ هذا تأكيد للجزاء الأول وتصريح يلازمه، فاللعنة دائمة مستمرة، وهم فيها خالدون لا ترايلهم ولا تنفصل عنهم أبدا، فهم فى سخط من الله مستمر، وسخط من الملائكة والناس دائم، وإنه يترتب على سخط الله عذابه، وإذا كان سخط الله دائما فعذابه دائم لا يقبل التخفيف، ولذا قال سبحانه: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لأن تخفيف العذاب لازم لتخفيف الغضب والسخط، وإذا انتفى الملزوم فقد انتفى اللازم.

وهذا العذاب فى الآخرة عاجل لا يقبل التأخير، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أى لا يؤجلون ولا يؤخرون لمعذرة يعتذرون بها أو ليتمكنوا من إصلاح خطيئهم، فإن الآخرة دار جزاء عما عملوا فى الدنيا.

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَيْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن يتوب ويحسن التوبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ...﴾ [الزمر] فباب التوبة مفتوح، والتوبة أحب إلى الله من العقاب، ولذلك فتح باب التوبة لهؤلاء، التي كانت حالهم ما بينا، استثنى التائبين في هذا النص الكريم، والمعنى أن اللعنة مستمرة، والعذاب لا يخفف إلا للذين تابوا من بعد إجرامهم وأصلحوا، ومعنى ذلك أن يقوموا بعمل صالح، فالتوبة الحقيقية مظهرها العمل الصالح، وهو ركن من أركانها وغايتها الجوهرية، فمن ادعى التوبة من غير عمل، فهو كاذب فيها، ومن تاب تلك التوبة النصوح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى بمقتضى اتصافه البالغ بالغفران يقبل التوبة، وبمقتضى الرحمة يجب ما كان من سيئات، اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ
أَفْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١١﴾
لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

بين الله سبحانه وتعالى حال أولئك الذين أركسوا أنفسهم فى الضلالة وقد جاءتهم البينات من ربهم، وشهدوا أن الرسول حق، بين حالهم فى الدنيا وحالهم فى الآخرة، وأن مصيرهم إلى النار، إلا إذا تابوا وعملوا عملا صالحا، فإن الله ثواب رحيم، وإن الآيات السابقة تشير إلى احتمال توبتهم بيقظة الضمير بعد

غفلته، فإن النفس قد تظلم وتشتد ظلمتها، ثم ينبثق إليها النور من إحدى النوافذ، فتكون الهداية بعد الضلال، والإيمان بالحق بعد الباطل، وذلك مشروط بالألا يمعن الشخص في طريق الضلال فيزداد كفرا وشرا، أما الذين يمعنون في الغواية، ولا يقفون فيها عند نهاية، فإنهم يستمرون في غيهم يعمهون، ولا يتوبون؛ ولذا قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾.

فهذا كما أشرنا قسم ممن كفروا بعد إيمان؛ لأن أولئك قسما أحدهما يرجى توبته، وذلك هو الذى لم يوغل في طريق الكفر والإمعان فيه، وقد أشار سبحانه بقبول توبته بقوله تعالى مستثنيا له: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا...﴾ [آل عمران] والقسم الثانى هم الذين كفروا بعد أن آمنوا، ولم يكتفوا بذلك بل لجوا فى العناد، واسترسلوا فى الغى، واستمروا فى مقاومة الحق، فإنهم كلما أوغلوا فى الباطل بُعدوا عن التوبة والرجوع، ومثلهم كمثل من يسير فى صحراء وقد ضل الطريق، فإنه كلما أوغل فيها ازداد ضلاله. وهذا القسم لا تقبل توبته؛ لأنه لا يتوب توبة نصوحا، وقد عبر سبحانه عن إيغالهم فى الشر بقوله: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ أى أن الكفر درجات، وكل إيغال فيه ازدياد؛ ذلك لأن الكفر جحود القلب مع قيام الأمارات والأدلة، وكلما اشتد العناد اشتد الجحود، واستغلظت الحجب التى تحول بين المرء والهداية، فإذا كان الحجاب عن الإيمان بالحق رقيقا أولا، فبالإمعان فى العناد يغلظ الحجاب، ويستمر فى الغلظ حتى يحكم الإغلاق، وهو الذى عبر الله عن تصاب قلوبهم به بقوله تارة: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ...﴾ [النحل] وتارة ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ...﴾ [البقرة] وقوله تعالى مرة ثالثة: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين].

وأولئك قال تعالى فيهم: ﴿لَن تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾، فنفى سبحانه وتعالى قبول توبتهم، ولنا أن نفس نفى قبول التوبة على ظاهره بمعنى أنه قد تقع منهم توبة

ولكنها ليست التوبة التي تُقبل، ونص على قبولها في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ...﴾ (٢٥) [الشورى] وعدم قبول توبتهم هذه لأنها بظاهر من القول، أو لأنها فلتات نفسية تحدث أحيانا في حال كرب أو شدة، ثم يعودون لما كانوا عليه كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَكِنَ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٦) ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُم بِيَعْقُوبَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...﴾ (٢٧) [يونس]. أو تكون التوبة في آخر رمق في الحياة كتوبة فرعون وقد أدركه الغرق، فقد حكى الله تعالى ذلك عنه إذ يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿آلَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) [يونس]. فإن هذه التوبة لا تقبل؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧) وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨) [النساء].

هذا هو الفرض الأول في تخريج الآية الكريمة، وهو عدم قبول التوبة إن وقعت، والفرض الثاني أن نقول إن النفي المؤكد منصب على عدم وقوع التوبة، بله على عدم قبولها، فالعنى لن تقبل توبتهم، لأنه لا توجد لهم توبة قد استوفت شروط القبول، ومؤدى الفرضين واحد، لأنه على تسليم وجود توبة في الفرض الأول يجب أن نقرر أنها كلها توبة، وقد أكد سبحانه النفي بكلمة (لن) التي تدل على تأكيد النفي، كما أكده ببيان استمرار ضلالهم فقال سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾:

وفي هذه الجملة السامية أكد سبحانه ضلالهم بثلاثة أمور: أولها الجملة الإسمية، وثانيها ضمير الفصل الذى يدل على تأكيد النسبة بين المسند والمسند

إليه، وثالثها القصر والتخصيص، فقد قصر عليهم الضلال كأنه لكمالهم فيه لا يوجد في غيرهم، وإن السبب في استمرار ضلالهم هو لجأهم وعنادهم، فهم كلما لجؤا في مقاومة الحق ازدادت نفوسهم بعدا عنه. وكلما بعدوا عنه أوغلوا في الضلال، والإشارة في قوله سبحانه (أولئك) هي إليهم متصفين بما اتصفوا به من كفر بعد إيمان، وازدياد ولجاجة في هذا الكفر والجحود، فتلك الصفات هي السبب في هذا الاستمرار وتأكيد الضلال، وإن هؤلاء الضالين سيموتون بلا شك وهم كفار فيندرجون تحت حكم الآية الكريمة الآتية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ إن هذه الآية تبين مآل الذين يموتون وهم كفار، أى أنهم يستمرون على كفرهم حتى يلقوا ربهم، فالواو في قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ واو الحال وهي تفيد أنهم ماتوا وهم على حال لهم مستمرة ملازمة لم تفارقهم، وهي الكفر والضلال، وإن أولئك في اليوم الآخر يلقون جزاءهم على ما قدموا من سيئات وجحود بالحق موفورا كاملا، وذلك الجزاء ذو شطرين، أحدهما سلبى والآخر إيجابى. أما السلبى فهو أن كل ما عملوا من خير وأنفقوا من مال لا يكافئون عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان] والسبب في فقد الجزاء عليه أن أساس الجزاء في الدين النية، والنية لا تكون سليمة إلا إذا كان فعل الخير قد قصد به وجه الله سبحانه وتعالى، وذلك لا يكون ممن لا يذعن لدين الله؛ لأنه لو طلب وجه الله لأجاب ندائه، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أى لن يقبل منهم أى إنفاق، ولو كان بمقدار ما يملأ الأرض من ذهب، فمهما يفعلوا من عمل، هو فى ذاته خير، فقد أفسدوه بنياتهم الآثمة، وتمردهم على الحق إذ دُعوا إليه.

والجزء الإيجابى هو العقاب الذى لا يكون منه مناص ولو بفدية مهما كبرت أو عظمت، كما قال تعالى مخاطبا المنافقين: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا

مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْأَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الحديد] وقد أشار إلى هذا العذاب بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أى لو افتدى نفسه من عذاب الآخرة بمثل الذهب الذى يملأ الأرض. والواو هنا تفيد أنه لا يقبل منه أى إنفاق يقدمه ولو كان ذلك الإنفاق قدمه ليفتدى به نفسه من عذاب الله. ثم بين سبحانه العذاب بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أى أولئك الذين ماتوا وهم كفار بسبب الكفر الذى لازموه حتى موتهم، لهم عذاب مؤلم شديد الإيلام مستمر، وليس لهم ناصر، و(من) هنا لاستغراق النفس، أى ليس لهم أى ناصر مهما يكن، فمن كانوا يتخذونهم شفعاء لا يشفعون لهم، والرسول الذين كانوا يتعلقون بهم لا يعرفونهم، ولا نجاة لهم من عذاب الله، لا بفدية يفتدونها بها أنفسهم، ولا بناصر ينصرهم من دون الله، وبذلك يكونون حطب جهنم والنار مأواهم وبس المصير، والله الأمر من قبل ومن بعد.

وهنا بحث لفظى أثاره إمام اللغة الزمخشري، وهو لماذا عبر فى الآية السابقة فى الخبر من غير فاء، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ وفى هذه الآية أتى بالفاء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَقْبَلَ﴾ إلى آخره، وقد أجاب عن ذلك بقوله: «قد أوزن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك «الفاء» أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب، كما تقول: الذى جاءنى له درهم، لم تجعل المجيء سببا فى استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم.

وإن ذلك الكلام مغزاه أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لهم أن هذا الجزاء نتيجة للعمل، وأنه مسبب عنه لأن الجزاء من جنس الفعل دائما، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وأما فى الآية الأولى فلأن عدم قبول التوبة ليس جزاء؛ إذ معناه عدم وجود توبة صالحة للقبول؛ أجرى القول مجرى الإخبار كأنه وصف ملازم لحالهم، أو هو حال أخرى من أحوالهم، وإذا كان الجزاء من جنس العمل دائما، فإن الله بعد أن بين جزاء الشر بين سبحانه جزاء الخير فقال تعالت كلماته:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ الخطاب عام، وقد صدر بتأكيد النفي المنصب على نيل البر، والمعنى لن تنالوا وصف الأبرار الأخيار حتى تنفقوا مما تحبون، وفي هذه الآية حث على الإنفاق، وعلى القيام بالأعمال التي تكون فيها مخالفة للهوى ومنازعات النفس، وقد تكلم المفسرون في معنى البر المذكور في هذه الآية، فقال بعضهم: إن المراد الاتصاف به كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ...﴾ (١٧٧) [البقرة] إلى آخره، فالمعنى لن تنالوا وصف البر الذي هو خاصة الأخيار إلا بأن تنفقوا مما تحبون، وهذا ما نختاره، وهو الأوضح مما عدها، ولكن لم يذكر على هذا جزاء الآخرة. ونقول إن ذلك حكم من الله تعالى بأن الذين يفعلون ذلك من الأبرار.

ولن ينال ذلك الوصف إلا المنفقون، وقد كنى بهذا اللفظ ﴿مما تحبون﴾ عن المال، لأن جميع الناس يحبون المال. وقيل: معناه ما تحبون من نفائس أموالكم، دون أرذلها كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ...﴾ (٢٦٧) [البقرة]. وقد روى أي عليا رضي الله عنه اشتري ثوبا فأعجبه فتصدق به وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أثر على نفسه أثره الله يوم القيامة بالجنة، ومن أحب شيئا فجعله الله، قال تعالى يوم القيامة قد كان العباد يكافئون فيما بينهم المعروف وأنا أكافئك اليوم بالجنة»^(١).

ثم اعلّموا أن الله يعلم كل ما تفعلون، ويعلم ما في نياتكم، ثم هو الذي يجازيكم على هذه الأعمال والنيات، فاختاروا لأنفسكم، إذا كنتم ترجون أحسن ما عند الله، فقدموا لأنفسكم أحسن ما عندكم، نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لما يحب ويرضى.

(١) رواه البخاري: الزكاة - الزكاة على الأقارب (١٣٦٨)، ومسلم: الزكاة - فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٦٦٤) ..

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي
 إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
 التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 ﴿١٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
 وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾

هذه الآيات الكريمة متصلة بحاجة اليهود، ومجادلتهم في ذات الشرع الإسلامي، وذات النبي ﷺ، فقد بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة عدم استقامتهم في طلب الحق، وأنهم كانوا يتواصلون فيما بينهم ألا يؤمنوا ولا يذعنوا للحق إذ جاء إليهم، وكانوا يقولون: آمَنُوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره، وقد اعترضوا على النبي ﷺ بالباطل وما اعترضوا عليه بحق قط، وما دفعهم إلى ذلك إلا تعصبهم المردى وظنهم أنهم أولياء الله وأحباؤه، وأن الناس جميعا مهما تكن منزلتهم دونهم، ولقد روى في الآثار، وكما تدل عبارة التوراة أنهم كانوا يحرمون على أنفسهم لحوم الإبل والبانها، ويظهر أنهم كانوا يُعيِّرون العرب بأن طعامهم لحم الإبل والبانها، وأن غذاءهم الجوهري هو ذلك اللبن والتمر، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى أنه حلال لهم أيضا أن يأكلوه، وأنه طعام لهم كما هو طعام عند العرب، وأنهم إذ حرموه على أنفسهم قد خالفوا الفطرة وخالفوا التوراة ثم ادَّعوا أن تحريم لحوم الإبل كان شرعة إبراهيم، ولقد رد الله عليهم ذلك بقوله :

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ ﴿حِلٌّ﴾ معناها حلال، ومعنى النص السامي أن كل الطعام قبل التوراة كان حلالا لبني إسرائيل حتى غلظت أكبادهم، واستولت عليهم الماديات،

فأراد الله سبحانه وتعالى أن يَفْطَمُوا نفوسهم عن أهوائها ليكبحوا جماح شهواتهم ولكيلا يندفعوا في الظلم والأهواء المردية؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾ [النساء].

والطعام هو ما يطعمه الإنسان ويستسيغه ويطلبه راغبا فيه، وهو في عمومه يشمل البرّ والذرة والشعير، وكل المواد النباتية والحيوانية؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلْغِيَّارَةِ...﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ...﴾ [المائدة: هـ] والمراد ذبائحهم.

وبمقتضى هذا النص السامى يكون كل طيب مطعوم مرغوب فيه حلالا ولا يحرم إلا الخبائث من الميتة والخنزير وغيرهما، وأن ذلك كان شريعة إبراهيم عليه السلام، وأنه ما كانت لحوم الإبل ولا ألبانها من المحرمات لأنها من الطيبات، وإبراهيم وذريته على هذه الشريعة الفطرية، حتى قست قلوب بنى إسرائيل ففطمها الله بذلك التحريم المؤقت.

إذن فلم يكن شيء من الإبل محرما، ولم يكن شيء من الطيبات محرما على بنى إسرائيل من قبل التوراة، إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه، وإسرائيل اسم ليعقوب بن اسحق عليهما السلام، وقد اختلف العلماء فى تخريج قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ ما المراد بإسرائيل أهو القبيل كله، وهم اليهود؛ أم المراد ذات يعقوب الذى هو أبو القبيل، وإليه ينتمى؟.

ذكر الرمخشري التخريجين، ورجح أن المراد ذات يعقوب عليه السلام، ويكون المعنى: إن كل الطعام كان حلالا لبنى إسرائيل إلا ما كان يحرمه إسرائيل على نفسه باجتهاد منه لشخصه: إما لعلاج جسمى بأن وجد أن هذا الطعام يضره ويؤذيه، وأن الابتعاد عنه ينفعه ويجديه، كما نرى من ناس يتجنبون بعض الأطعمة لأنها لا تناسب حالهم بإشارة طبيب أمين أو بتجربة شخصية، وكل امرئ طبيب نفسه. وإما لعلاج نفسى كأن يمتنع عن بعض ألوان الطعام قناعة وفطما

للنفس، وما كان يتخذ ذلك شريعة تتبع بل اتخذها علاجاً شخصياً لجسمه أو لنفسه، ولقد قال النبي ﷺ: «من الإسراف أن تأكل كل ما تشتهي».

هذا هو التخريج الأول.

أما التخريج الثاني فإن مقتضاه أن بنى إسرائيل هم الذين حرّموا بعض الأطعمة على أنفسهم كما كان العرب يحرمون على أنفسهم بعض أنواع الأطعمة، كتحريم البحيرة^(١) ونحوها مما نعه القرآن الكريم عليهم.

ولعل القبيل كان يحرم على نفسه الإبل مثلاً تقليداً ليعقوب فيما لا يجب التقليد فيه.

ولكنهم ادّعوا أن تحريمهم لبعض الأطعمة التي لم يحرمها الله تعالى عليهم كان في التوراة منسوباً لإبراهيم، ولذلك تحداهم الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو تكليف منه تعالت قدرته بأن يطلب إليهم أن يأتوا بالتوراة ليسينوا النص الذي كان به التحريم أهو يدل على أنه كان قبل التوراة أم كان بعدها؟، وأيدخل في عموم التحريم تحريم لحوم الإبل وألبانها؟ و«الفاء» في قوله: ﴿فَأْتُوا بِالتَّورَةِ﴾ هي التي تسمى فاء الإفصاح، وهي تفصح عن شرط مقدر، أي إذا كانت دعواكم تحريم الإبل في شريعة إبراهيم وقبل التوراة فأتوا بها أي أحضروها، و«الفاء» في قوله: ﴿فَاتْلُوهَا﴾ فاء العطف، أي فأحضروها، واتلوها عقب إحضارها، وتلاوتها أي قراءتها بامعان، وتبين التحدى في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والتعبير بـ «إن» للإشارة إلى عدم صدقهم؛ لأنها تدل على الشك في الشرط، وعدم ترتب الجواب عليه، أي هم ليسوا صادقين فيما يدّعون، ولذلك لا يتلون ولا يقرءون. والمؤدّي: أنكم لو جئتم بها وأمعتم في تفهمها، لكذبتكم ولائبت افتراءكم على الله سبحانه وتعالى، وإن من افتري الكذب على الله تعالى ظالم لنفسه وللناس، ولذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) البحيرة ابنة السائبة، والسائبة هي الناقة التي كانت تُسيب في الجاهلية لنذر أو نحوه. الصحاح.

﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الفاء هنا للإفصاح كسابقتهما، والمعنى إذا كنتم مصرين على قولكم فأنتم ظالمون؛ لأن من افترى على الله الكذب فهو ظالم، وافتراء الكذب معناه القصد إليه وتعمده، والقطع بالقول فيه من غير تردد، مأخوذ من قرى يقرى بمعنى قطع. وأولئك باستمرارهم على قولهم هذا قد كذبوا على الله، فادّعوا أنه حرم، وهو لم يحرم، وادّعوا أن ذلك في شريعة إبراهيم عليه السلام التي نزلت من عند الله تعالى، وليست منها في شيء.

ومن قصد إلى الكذب قاطعاً به من غير دليل ولا حجة (بل قام الدليل على نقيض ما يقول) فهو ظالم، ولذا قال تعالى:

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الإشارة إليهم محملين وصف الافتراء على الله تعالى وعلى النبيين، وهذا الوصف هو سبب الحكم بالظلم، وقد أكد الله تعالى وصف الظلم بقصر الظلم عليهم بضمير الفصل، وهم ظالمون للحقيقة إذ أخفوها وكذبوا، وظالمون لأنفسهم لأنهم يخادعون الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهم إذ يخادعون الله تعالى، يخادعون أنفسهم ويضلونها باستمرارهم على السير في طريق الغواية؛ إذ كلما أولجوا فيه بعدوا عن طريق الهداية، وظلموا بغمطهم الحق والناس، وحسدهم لهم على ما آتاهم الله من فضله.

وإن أولئك الذين يتمسحون بذكر إبراهيم لم يتبعوه، ولم يهتدوا بهديه، بل خرجوا عن منهاج الفطرة الذي هداه الله تعالى، ولذلك أمرهم الله سبحانه وتعالى باتباعه فقال تعالت كلماته:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الأمر للنبي ﷺ، فقد أمره أن يذكر لهم صدق الله تعالى فيما أخبره به من أن إبراهيم ما حرم الإبل ولا البانها، وأن بنى إسرائيل من قبل التوراة كان كل الطعام الطيب حلالاً لهم غير حرام عليهم.

وفى ذلك إشارة إلى أنهم يعاندون الله تعالى بأخبارهم الكاذبة، وأن كلامهم لا يروج عند مؤمن، لأنه إما أن يصدق الله تعالى ذا الجلال والإكرام، المنفرد بحق العبودية، والمنفرد بالآلوهية، وإما أن يصدق أخبارهم الكاذبة التى تتزى بالحق والحسد الدفين.

وإذا كانوا يتمسحون بإبراهيم فعليهم أن يتبعوه فى أخص شريعته ولبها، ولذا قال: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى اتبعوا منهاجه وشرعته وطريقته، وقد كان طريقه هو طريق الفطرة السليمة، ولذلك وصفه بقوله «حنيفاً» أى متجها إلى الحق لا ينحرف عنه إلى غيره، ولا يسلك غير سبيل المؤمنين يجيب داعى الحق إذا دعى إليه.

وإذا استمروا على طريقهم من معاندة الحق ومنازلته، وإثارة غبار الشك حوله، فإنهم بعيدون عن إبراهيم، كما بعد عنه المشركون، وقد أكد سبحانه بعد إبراهيم عن الشرك بقوله:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا نفى الإشراف عن إبراهيم عليه السلام نفيا مؤكدا وهو مؤكد بالجملة الأسمية، وبالفعل «كان»، فهو نفى للكينونة أى الوجود، فهو لم يوجد مشركا ولا يمكن أن يكون مشركا، أو يدخل فى صفوف المشركين، وفى ذلك بيان براءة إبراهيم من مشركى قريش براءته من اليهود، فليس لأحد الفريقين أن يتمسح به، وأن يذكر أنه يسير على ملته، وهو لا يخلص فى قول ولا يجعل وجهته رب العالمين.

اللهم اهدنا بهديك، وخلص قلوبنا، وأصلح أحوالنا، ووفقنا إلى الإخلاص فى القول والعمل إنك سميع الدعاء.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

٩٧

بين الله سبحانه وتعالى بطلان ما كان يحتج به أهل الكتاب في الآيات السابقة، ورد عليهم بما يرشدهم إلى الصواب لو كانوا طلاب هداية، وباحثين عن الحقيقة لا ييغونها عوجا؛ وفي هذه الآية وما يليها، يرشدهم إلى الأمر الجامع الذي يلتقون فيه مع العرب، وهو الاتصال بإبراهيم الذي يعتزون بنسبتهم إليه، وهو جد إسرائيل الذي كان منه الأسباط، وكان منه عن طريقهم من ينتمى إليهم من النبيين الذين أنشأوا بيت المقدس، وأقاموا الدولة المقدسة في الأرض المقدسة، والتي لم يحسن اليهود من بعدهم القيام عليها؛ بل عثوا فيها بالفساد، حتى مزقهم بختنصر شرَّ ممزق، وشرذ الرومان بعد ذلك بهم من خلفهم، حتى جاء المسلمون فأعادوا إلى الوادي المقدس شريعة الله المقدسة، وهي الإسلام الذي كتب له أن يعمره بها إلى يوم القيامة^(١): ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٢٦﴾ [مريم]، ولقد ذكر الله سبحانه ذلك الأمر الجامع في بيان شرف بيت الله الحرام فقال:

(١) روى الإمام أحمد (٢١٢٨٦) في مسنده عن أبي أمامة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوَّهُمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَتَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ البيت المقصود به هنا هو البيت الحرام، وهو الحرم المكي العامر إلى يوم القيامة، وقد عرفه بأنه الذي ببكة، وبكة هي مكة. وفي لغة العرب قلب الميم باء في أحوال كثيرة من غير انضباط، ولقد جاء في تفسير الزمخشري ما نصه:

(مكة وبكة لغتان فيها نحو قولهم: النيط والنميط في اسم موضع بالدهناء ونحو: من الاعتقاب أمر راتب، وراتم، وحمى مغمطة ومغبطة. وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد، وقيل اشتقاقها من بكَّه إذا زحمه؛ لازدحام الناس فيها). وقيل: بك بمعنى دك؛ وذلك لأن الله يدق عنق كل من يرومها بسوء.

وعرف البيت بأنه الذي ببكة للإشارة إلى أن مكة ذاتها هي مثابة الشريعة الباقية وهي شريعة النبيين أجمعين، وهي خالدة إلى يوم القيامة، وهي الإسلام جماع كل الشرائع السماوية؛ وهو الذي وصى الله به إبراهيم وموسى وعيسى.

وما معنى أولية البيت الحرام؟ أهى أوليته من ناحية أنه أول بيت بنى للعبادة؟ أم أنه أول بيت بنى بإطلاق.

قيل: إنه أول بيت بنى فى الأرض؛ فقل إن الملائكة بنته لأدم؛ كما ورد فى بعض الآثار؛ وليس ثمة مانع عقلى؛ إن الذى يبدو من خلال الآيات: أنه أول بيت من بيوت العبادة القائمة؛ فهو أسبق من بيت المقدس وجودا؛ وهو أجمع للديانات السماوية من بيت المقدس؛ لأن إبراهيم أبا الأنبياء أصحاب هذه الشرائع الباقية هو الذى بناه؛ بينما بنى بيت المقدس فى عهد داود وسليمان عليهما السلام^(١).

(١) عن أبي ذر رضى الله عنه قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْتَمَا أَدْرَكْتُمَا الصَّلَاةَ بَعْدَ فَصَلَةٍ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ» [رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - واتخذ الله إبراهيم خليلاً (٣١١٥)، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٨٠٨)].

فوجود مقام إبراهيم بالبית الحرام، وآثار أقدامه الشريفة دليل على مكانة هذا البيت من ملة إبراهيم عليه السلام، وأما ما يدعيه اليهود من وجود آثار هيكل سليمان تحت المسجد الأقصى، فلم يقم عليه دليل ولا بينة.

ووصفه سبحانه وتعالى بأنه مبارك؛ أى فائض الخيرات كثير الثمرات المادية والمعنوية؛ فمن بركاته المادية أنه يفد إليه الحجيج من كل فج عميق؛ ويعتَمرون فيه فى كل أيام أشهر السنة، حتى أنه لا يمر عليه يوم من غير وفود تحجى إليه، ومع هذه الوفود خيرات الأرض؛ وكان ذلك إجابة لدعاء إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقد كان فى البيت تلك البركة المادية بتلك الوفود؛ وبالثمرات التى كانت فى باطن الأرض حوله أو على مقربة منه فقد كشفت على مقربة منه فلزات الأرض وسيول الغاز، مما كان خيرا وبركة على سدنته ومن يعيشون حوله، وبذلك أجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام، وبقي على الذين يتنعمون بهذه الثمرات أن يشكروا الله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

هذه هى البركة المادية، أما البركة المعنوية فهى أنه موضع لأكبر عبادة جامعة وهى الحج، وهو مبعث محمد ﷺ، وفيه منازل وحج، وإليه يتجه الناس فى كل بقاع الأرض، وتلتقى عنده قلوب الأجناس والألوان المختلفة فى عباداتهم، ولذا وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

هذا عطف على قوله سبحانه ﴿مُبَارَكًا﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى جمع لهذا البيت الكريم حالتين خاصتين به لم تجتمعا فى بيت غيره، فهو قد اشتمل على البركة المادية والمعنوية، وحماه الله تعالى من اعتداء المعتدين، ولهذا قال: ﴿وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ أى هو بذاته مصدر هداية للعالمين أى للناس أجمعين؛ ففى وسط الشرك كانوا يلتحمون ويتقاتلون حوله، فإذا جاءوا إليه كان الرجل يلقي قاتل أخيه أو أبيه فلا يمسه بسوء لعظم حرمة البيت فى قلبه، وإن مس الشرك نفسه.

والذين أرادوه بسوء ما إن جاءوا إليه حتى ارتدوا على أدبارهم خاسئين؛ وبذلك ثبتت حرمة، وأشع نوره لغير العرب، كما امتلأت قلوب العرب بحرمة، وبعد الإسلام كان قبلة المسلمين في كل العالمين ومزارهم وموضع مؤتمرهم الأكبر، وإلى البيت الحرام يَأْرُرُ الإسلام، فكون هذا البيت العتيق مصدر هداية ثبت جاهلية وإسلاما، وهدايته في الإسلام مطلقة، وهدايته في الجاهلية نسبية:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ في هذا النص السامى بيان عظمة البيت الحرام، ومكانته والأدلة على قدمه وبركته؛ ومعنى النص الكريم:

فيه علامات واضحة تبين شرف منزلته وقدمه وطهارته، وفيض الله سبحانه وتعالى عليه بالنور وأسباب الهداية، وأنه لا بيت يدانيه في منزلته عند الله، وإن كان هذا البيت الآخر تشد إليه الرحال^(١). وقد قالوا إن قوله تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بيان لهذه الآيات البينات، ويصح أن نعتبرها وحدها بيان هذه الآيات من حيث الدلالة على قدمه، وأن بانيه إبراهيم، وأن آثار أقدامه واضحة خالدة فيه، وقد وضع هذا المعنى الزمخشري أتم توضيح فقال:

(فإن قلت كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ قلت فيه وجهان؛ أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة، لظهور شأنه وقوة دلالاته على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم عليه السلام، ومن تأثير قدمه في حجر صلد . . والثاني: اشتماله على آيات كثيرة؛ لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف السنين آية).

وهذا الكلام على اعتبار أن مقام إبراهيم هو موضع الآيات البينات ولكن الذى نراه وقد ذكره الزمخشري أيضا أن هذه الآيات البينات ليست مقام إبراهيم

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرُّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى» [متفق عليه؛ رواه البخاري: الجمعة - فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١١٥)، ومسلم واللفظ له: الحج - لا تشد الرحال (٢٤٧٥)].

وحده، ولكنها مقام إبراهيم وكونه آمن الناس ومثابتهم، وكونه المكان الذى يحج إليه المسلمون إلى اليوم، وكان العرب يحجون إليه ويقومون بكثير من المناسك، وإن خالطوها بشرك.

ولقد ذكر سبحانه الآية الثانية البينة لمقام البيت عند الله تعالى وعند العالمين

بقوله:

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أى آمنا من الأذى والقتل. وهذه آية لا شك فيها، فالعرب كانوا يحترمونه كما نوهنا، وكانت هذه نعمة أنعم الله بها عليهم، وبقيت حتى فى شركهم؛ ولذا يقول سبحانه:

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ...﴾ [٦٧] [العنكبوت]. وأنعم عليهم سبحانه بأن حماه من كل من يغير عليه معتديا. حتى إن أبرهة عندما أغار بجيشه وأفياله ليهدمه، ارتد خاسئا كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [١] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [٢] ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [٣] ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [٤] ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [٥] [الفيل].

وتلك آية من آيات الله الكبرى فى البيت.

ولقد حماه الله سبحانه وتعالى فى الإسلام، حتى إن النبي ﷺ عندما فتح مكة احترم أمنها فكان مناديه ينادى: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل البيت الحرام فهو آمن^(١) ووصف يوم الفتح بقوله: «هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»^(٢).

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ هذه آية لتعظيم الله سبحانه وتعالى شأن بيته المقدس، وحرمة الأمن إلى يوم القيامة، وذلك أنه

(١) صحيح مسلم: الجهاد والسير - فتح مكة (٣٣٣٢).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري: المغازي - أين ركز النبي ﷺ الراية (٣٩٤٤).

سبحانه فرض الحج إليه على من يستطيع، وجعله موضع المؤتمر الإسلامى الأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧) [الحج].

والحج بالمعنى الشرعى هو القصد إلى أداء المناسك ونية العبادة به، وهو فى أصل معناه اللغوى القصد المجرد إلى مكان معين، وتقرأ كلمة «حَجَّ» بفتح الحاء، وهى لغة أهل الحجاز وبها قرأ أكثر القراء، وبكسر الحاء وبها قرأ الكسائي وحفص^(١).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. بدل من «النَّاسِ»، بالفرضية العينية منصبة على من يستطيع دون غيره ولكن تصدير الكلام بإضافة الفرضية إلى الناس، ثم البدل منهم بالمستطيعين يدل على أن عامة المسلمين عليه فرضية عامة، وإن لم تكن كفرضية المستطيعين، وهذه الفرضية نفسرها بأمرين.

أولهما: بالتكليف العام الذى يدخل فى عموم فروض الكفاية، بمعنى أن عامة المؤمنين عليهم أن يسهّلوا تلك الفريضة على من يريدّها ويستطيعها، ويتغنّى بها مرضاة الله تعالى؛ فعلى ولى الأمر الذى يمثل جماعة المؤمنين أن يسهل هذه الفريضة لطلابها؛ وعلى جماعة المؤمنين أن يعملوا على إقامتها كلٌّ فى طاقته وفى حدود قدرته.

وثانيهما: ما يقرره الفقهاء من أن أصل الوجوب ثابت ما دام الشخص مكلفاً؛ ولكن وجوب الأداء هو الذى يشترط فيه الاستطاعة. فمن لا يستطيع هذا العام قد يستطيع فى قابل وهكذا.

والاستطاعة التى توجب فرضية الأداء هى الحد الأدنى من الاستطاعة، ولذلك قال النص الكريم: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

(١) «حج البيت»: قراها بكسر الحاء عاصم وحزمة والكسائي وخلف - غير أبي بكر - ويزيد. وقراها بالفتح. [غاية الاختصار - ص ٤٥١] وقوله: «وحفص» أي عن عاصم.

أى استطاع بأى سبيل للوصول إلى الحج، فليست الاستطاعة الموجبة للحج هى الاستطاعة الواسعة المعنى التى لا تكون إلا للأغنياء، ولذا فسرها الفقهاء بالقدرة البدنية، والقدرة على الزاد والراحلة أى ما يمكن أن يصل به؛ ولا بد أن يكون ذلك فاضلا عن حاجاته الأصلية وعمن يقوتهم، فإن ترك من يقوتهم بلا مال إثم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»^(١). والفرض لا يؤدى بالإثم. ومن استطاعة المرأة ألا تكون ذات أطفال صغار يخشى عليهم الضيعة إن تركت حضانتهم ولا حاضن لهم سواها، كما أن من استطاعتها أن يكون معها زوجها أو ذو رحم محرم منها.

والحج عند الأكثرين فرض على التراخى، ولكن المالكية يقررون أنه لا يسع من تجاوز الستين أن يؤخر عن قدرة، وإن كان أصل التراخى ثابتا لصريح الآثار الواردة فى ذلك، والحج فرض مرة واحدة فى العمر، والحج هو مؤتمر الإسلام الأكبر، وقد بيناه مرارا.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فى معنى هذا النص اتجاهاً؛ أحدهما: أن يكون الكلام فى تارك الحج ويكون المعنى من ترك الحج جاحداً له منكراً لفرضيته فقد كفر وأضاع مصلحة نفسه ومصلحة أمته بالإجماع فى المؤتمر الأكبر؛ والله سبحانه غنى عن العالمين أى عن الناس أجمعين. فهم محتاجون إليه، وهو غير محتاج إليهم.

والاتجاه الثانى: أن يكون الكلام متجهاً إلى اليهود الذين أنكروا فضل البيت وقدمه وبناء إبراهيم له. ويكون المعنى: ومن أنكر تلك الحقيقة الثابتة وجحدها بعد البينات فقد أركس^(٢) نفسه والله سبحانه غنى عن العالمين.

اللهم اهدنا إلى الحق ووفقنا للإيمان به.

(١) رواه بهذا اللفظ أبو دأود: الزكاة - فى صلة الرحم (١٤٤٢)، وأحمد: مسند الكثرين من الصحابة (٦٢٠٧).

(٢) أركس الشيء: رده مقلوباً. ومنه قوله تعالى: «والله أركسهم بما كسبوا» أى ردهم إلى كفرهم.

قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
 عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
 سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ مِّنۡ أُمَّنٍ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ
 بِغَفِلٍ غَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا
 فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾
 وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
 رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

في الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى شرف البيت، وأنه أول بيت بنى للعبادة، وضعه إبراهيم عليه السلام، وأن على كل مؤمن أن يحج إليه، وكان ذلك في مساق الرد على اليهود الذين أنكروا فضل البيت الحرام، وادعوا أن بيت المقدس أقدم منه عبادة، فبين سبحانه أنه أول بيت وضع للناس، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن هؤلاء اليهود كانوا يحاولون دائما تضليل المؤمنين، وما كانت مجادلتهم هذه لأنهم يتشككون، بل لأنهم لا يذعنون للحق بعد إذ عرفوه، ويريدون أن يكون الناس جميعا على طريقتهم العوجاء، وعلى ما هم عليه؛ لأنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولقد أثاروا كثيرا من الشك في مسجاداتهم لِيُوهِنُوا أمر العقيدة في قلوب المؤمنين، فلم يجدوا بين المؤمنين آذانا مصغية، ولا قلوبا مفتوحة لظلامهم، بعد أن أشرق فيها نور الحق، فإنه لا يلتقى في قلب واحد نور الله وظلمات الباطل، ولقد انتقلوا من التشكيك في العقيدة إلى إثارة الفتنة بين المؤمنين، لتعود العادات الجاهلية كما بدأت، فإنه يروى أن رجلا يهوديا قد عتا في الجاهلية، وكان شديد الضغن على المؤمنين - أراد أن يثير الفتنة بين الأوس والخزرج فأمر قتي بأن يجيء إليهم، وينشدهم بعض الأشعار التي كانوا

يقولونها فى الجاهلية متفاخرين، ففعل، فتذاكروا يوم بعث، وهو يوم حرب من أيامهم فى الجاهلية، وتكلموا فى ذلك فتنازعوا وهم الحَيَّان أن يتقاتلا، حتى جاءهم النبى ﷺ يقول لهم: «يا معشر المسلمين، الله الله، أتدعون بدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بينكم، أترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟» (١).

هذا فعل اليهود، كفروا بالحق بعد أن جاءتهم البينات، ولم يكتفوا بالكفر، بل أخذوا يصدون ويمنعون عن الحق أو الاستقرار فيه غيرهم؛ ولذا قال سبحانه:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وقد أمره سبحانه وتعالى أن يوبخهم على ما كان منهم، وأمره أن يناديهم بـ «أهل الكتاب» للمبالغة فى التوبيخ والاستنكار؛ لأن علمهم بالكتاب كان يتقاضاهم الإيمان، وأن يذعنوا للحق، فإنه لا يستوى من يعلم ومن يجهل؛ فإن كانوا مع علمهم بأخبار النبوات يكفرون، فهو دليل على فساد قلوبهم، ويقول سبحانه: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والآيات هنا هى الآيات القرآنية، والكفر بها هو عدم الإذعان لأحكامها وإنكار صدقها، ومنازعة أهل الحق فى معانيها، أو نقول: آيات الله تعالى هى الأمارات التى ساقها الله سبحانه وتعالى لإثبات الحق فى الرسالة المحمدية، فهم لا يغالهم فى الجحود والإنكار لا يكتفون بإنكار الحق، بل ينكرون الدليل الذى قام عليه، وثبت به، وهم بذلك يغلقون قلوبهم، فلا يصل إليها نور الحق، وإذا كانوا ينكرون كل دليل يصلهم بالهداية، فقد سارعوا إلى الكفر، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أى عالم علم المعاین الحاضر القائم الحاكم على ما يعملون دائما، سواء أكان العمل عمل القلب أم كان العمل عمل الجوارح.

والإنكار في الآية الكريمة منصب على كفرهم مع هذه الحال، والمعنى: يا أهل الكتاب الذين أوتوا علم النبوات لم تكفروا بالأدلة القائمة على صدق رسالته، والحال أن الله تعالى شهيد عالم معين حاكم قوام على ما تعملون من خير ومن شر، فالنص السامي يتضمن توبيخا على الكفر، وتهديدا بالعقاب الشديد على ما يعملون، لأن الله تعالى إذا كان شهيدا على ما يفعلون، وهو الحكم العدل القادر على الثواب والعقاب، فإنه بلا ريب مجازيهم على فعلهم، ومحاسبهم على مقاصدهم في أقوالهم وأفعالهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ ذكرنا أنهم لا يكتفون بكفرهم، بل ييغون في غيرهم إبعاده عن الحق، فيصدون عن سبيله، وقد كرر سبحانه بالحق الذي أنكروه، ويضع أيديهم على حالهم التي ألفوا فيها الباطل، حتى غلقوا به أبواب الحق على أنفسهم وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معناه لم تصرفون الناس عن سبيل الله تعالى وهو سبيل النور وسبيل الحق، فالصد هو الصرف والمنع، والحيلولة بين الشخص والوصول إلى الأمر؛ و«سبيل الله» هي السبيل التي وضّحها وبينها سبحانه، وهي الصراط المستقيم الذي يوصل إلى رضاه سبحانه، وإذا كان أولئك يحاولون منع الناس من الطريق الذي رسمه العلي الكريم وحد حدوده فقد عاندوا إرادة الله وحادوه، ومن يحادّ الله تعالى فإنه مغلوب لا محالة، وقد وصف سبحانه وتعالى حالهم في الصد عن سبيل الله فقال: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ترغبون العوج لها، أي تريدون أن تكون ملتوية غير واضحة ولا بيّنة في أعين المهتدين، كما التوت نفوسكم، وحالت عيونكم، فلم تدرك الحق مستقيما بعد أن قامت بيناته، أو المراد تبغونها أي تطلبونها معوجة حائلة، أي لا تتجهون في طلبها بقلب سليم، فتكون معوجة لا عوجا جكم.

وقد قال الزمخشري في معنى هذه الجملة السامية: «فإن قلت: كيف تبغونها عوجا، وهو محال؟ قلت: فيه معنيان؛ أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجا بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم

صفة رسول الله ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك. والثاني: أنكم تتبعون أنفسكم فى إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم». وهذا الكلام فى جملة قريب منه ما بيناه آنفاً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ والحال أنكم شهداء عالمون بالحق علم من يعاين ويشاهد ويحكم بأنه الحق والصواب، فهو جحود عن علم، وكفر ليس عن جهل، وإيغال فى الكفر بالصد عن سبيل الله، وبيئات الحق بين أيديكم وأماراته مُعلنة له فى أيديكم.

والاستنكار التوبيخى متجه إلى جملة حالهم، ومعنى كلامه السامى سبحانه: لِمَ تصرفون الناس عن طريق الحق، وتبغون الاعوجاج، أو توهمون الناس أن فيه عوجاً والتواء، والحال أنكم تشهدون بالحق الذى اشتمل عليه، وتعلمه علم المعاش الذى يراه ويحسه، ولقد أنذرهم سبحانه بعد ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا نفى مؤكد لإهمال الله تعالى عملهم، وغفلته عنهم وما يضمرون ويفعلون، وقد تأكد النفى بالباء الزائدة التى تفيد تأكيد النفى، وكان ذلك النفى المؤكد لبيان عاقبة أعمالهم، فإذا كان ما يفعلون فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فإنهم مجزيون به، محاسبون عليه، وهو من جنس ما صنعوا، وما صنعوا بكفرهم وصرفهم الناس عن طريق الله تعالى، وطريق الحق - إلا شراً، وإلا خساراً يعود عليهم فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا يعود بالفشل والذلة، وفى الآخرة عذاب الهون بما كانوا يكسبون.

ولقد حذر الله سبحانه المؤمنين مما يريدونه بهم. فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ كان نزول هذه الآية وما وليها من آيات بعد تلك المحاولة التى حاولها الشيخ اليهودى فى التفرقة بين الأوس والخزرج، والتى همَّ الفريقان بسببها أن يتشاجرا بالسيوف لولا أن نبى الرحمة تداركهم قبل أن يفعلوا، وأدركوا بكلمات

الرسول أنها نزغة الشيطان، فحذرهم الله تعالى هذه النزغة مرة أخرى، وأمرهم بالحدز الشديد من اليهود خشية أن يكون فعلهم محاولة لما يريد أولئك الأشرار الذين ابتلى الله بهم البرية، ومطاوعة لمقاصدهم الآثمة، وصدر الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تنبيهًا لخطر ما يدعوهم إليه، ولتحريك عناصر الإيمان في قلوبهم، فيكون منهم الحدز واليقظة، فإن الإيمان فطنة^(١)، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين^(٢)، ولأن علة الإجابة للطلب هي الإيمان، وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عبر في الشرط بـ «إن» للإشارة إلى بعد وقوع الطاعة منهم لهؤلاء مع إيمانهم، لأن «إن» الشرطية تفيد الشك في وقوع الشرط، وبالتالي ترتب الجواب عليه، بخلاف «إذا» فإنها تفيد وقوع الشرط أو تؤذن بوقوعه وترتب الجواب عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق] وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ﴾ [١] وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرَّتْ [٢] [الانفطار]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [٨] بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ [٩] [التكوير] وذكر سبحانه وتعالى الذين يحاولون إركاس المسلمين في الفتنة وتضليلهم، بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب؛ لأنهم لم يكونوا كلهم، ولأنه يرجي الإيمان من بعضهم. بدل الاستمرار على الغي والفساد؛ ووصفهم سبحانه وتعالى: بأنهم أوتوا الكتاب للإشارة إلى أن تضليلهم مقصود، وأنهم أهل معرفة، ولكنهم استخدموها للضلال والتضليل، فصاروا بهذا كالأنعام بل أضل سبيلا؛ لأن المعرفة إن لم تكن لنصرة الحق كان الجهل خيرا منها؛ لأنه أدنى إلى المعذرة.

وقد رتب سبحانه على الطاعة المفروضة التي حذر سبحانه وتعالى منها نتيجة إن وقعت، ولا تقع من مؤمن بحمد الله تعالى فقال سبحانه: ﴿يُرَدُّوكُمْ

(١) الفطنة: الفهم والحدق.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأدب - لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين (٥٦٦٨)، ومسلم: الزهد والرقائق (٥٣١٧) وجاء في فتح الباري.

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وفى هذا يعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يُؤْذُوكُمْ﴾ ولم يقل: ﴿تَرْتَدُّوْنَ﴾ والمعنى متلاق، ولكن الأول فى بيان تسلط الكفار على قلوب أهل الإيمان فى حال تلك الطاعة، فهو نوع آخر من التحذير منهم؛ لأنهم كالشياطين، فعلى كل مؤمن أن يحذرهم.

أما الارتداد فإنه يكون انبعاثا من نفس المرتد، بضلاله هو لا بتأثير من غيره.

وفى الجملة النص السامى الكريم سيق لتحذيرهم من ذلك العدو الذى اختلط بهم، وأخذ ينفث سموم الشر، وسموم التفرقة بينهم، وأنهم يعودون إلى الكفر إذا استجابوا لدعوته، ومكنوا لسمومه من أن تصل إلى قلوبهم، ولقد بين سبحانه بعد ذلك أنه ما كان يسوغ لهم أن يستمعوا إلى دعوات الأعداء، ويفتحوا الباب لتدبيرهم الخبيث، ورسول الله فيهم فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾:

الاستفهام هنا للتعجب أو للإنكار، ومعنى التعجب فيه هو أنه لا يُتَصَوَّرُ أن يكون منكم كفر، ولو تصور لكان موضعا للعجب والاستغراب؛ لأن آيات الله تتلى عليكم، ورسوله بين ظهرانيكم، ويردكم للحق إن رغتم، وتهديكم آيات الله البينة إن ضللتم، وهذا فيه ما يومئ إلى إلقاء اليأس فى قلوب اليهود من أن يصلوا إلى ما يبتغون من إيجاد الفرقة والانقسام بأمر جاهلى، وأما على اعتبار الاستفهام للإنكار فهو إما نفى للوقوع أى أنه لا يمكن أن يقع منكم الكفر، ورسول الله بينكم، وآيات الله تتلى عليكم، وإما أنه نفى للواقع، فيكون للتعجب، والمعنى كيف سوغتم لأنفسكم أن تفتحوا قلوبكم لأسباب الكفر التى ابتغها اليهود بالاستماع إلى كلماتهم المفرقة، فيكون الإنكار لما وقع باعتباره كان يؤدى إلى الكفر، فيعودون إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض، فإذا كان الإنكار للواقع يكون الإنكار للسبب الذى وقع ويؤدى إلى السبب وهو الكفر، لا أن الكفر قد وقع.

والإنكار أو التعجب أساسه الحال التي هم عليها، وهي كونهم في حضرة الرسول ﷺ وهو يتلو عليهم الآيات، فالمعنى كيف تكفرون أو يتصور منكم الكفر، أو يسوغ لكم أن تسيروا في أسبابه، وآيات الله تتلى عليكم بلسان رسول الله ﷺ لا بلسان أحد سواه، ويقول الزمخشري في توضيح هذا: (تلى عليكم على لسان رسول الله ﷺ غضة طرية، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينهكم ويعظكم ويزيح شبهكم).

والخطاب في الآية: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا عَلَيَّكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ - كما يبدو من عبارات الزمخشري وغيره - خاص بالمؤمنين في عصر النبي ﷺ، وهم الذين شاهدوا النور المحمدي وشافهوا الرسول ﷺ، وإن ساعة في حضرة النبي ﷺ تغني عن اجتهاد سنين، كما قال أبو حنيفة رضى الله عنه. ويصح أن يكون الخطاب لكل المؤمنين، وتكون الآيات تتلى على لسان القراء والعلماء من بعده، وهي ستلى إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر] وأما وجود الرسول في الأخلاف فإنه يكون بوجود سنته النبوية الشريفة، وإنه إن كان الاحتياط يكون أشد - لا يخلو من فضل ثواب إن سلم القلب واهتدى العقل وتحصنت النفس، وقد روى البخارى أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوما: «أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟» قالوا: الملائكة، فقال عليه الصلاة والسلام: «وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟!» قالوا: فنحن؟ «وكيف لا تؤمنون، وأنا بين أظهركم؟!» قالوا: فأى الناس أعجب إيمانا؟ قال: «قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها».

﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بعد أن بين سبحانه ما يحاوله اليهود وما يتمنونه وهو أن يضلوا المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران] - أخذ يبين سبحانه طريق العصمة من مكايدهم، ويغلق أبواب القلب حتى لا يتأثر بما يحاولون أن يفسدوه به، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ﴾ أصل

الاعتصام معناه الامتناع والالتجاء والاستمسك، وهو من عصم بمعنى منع، يقال عصمه الطعام أى منع عنه الجوع، وعصمته النبوة أى منعه من أن يقع فى إثم قط، ومعنى النص السامى: ومن يعتصم بالله أى يجعل الله تعالى عاصما له ومانعا، يستصح بكتابه، ويلجأ إلى كلام رسوله إذا أدلهمت الظلمات، فقد هدى إلى صراط مستقيم، أى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف، ومعنى الاعتصام بالله: الاعتصام بدين الله كما قال أكثر المفسرين، وإنى أرى الاعتصام بالله هو الاعتصام بذاته سبحانه، وإن كان الاعتصام بالذات العلية يستلزم حتما الاعتصام بدينه الحق الخالد إلى يوم القيامة، ولكنى اخترت الاعتصام بالله، وأن يكون الإسناد إلى ذاته سبحانه من غير تقدير مضاف؛ لأن الاعتصام بالله يقتضى ألا يحب أحدا إلا الله، ويقتضى أن يكون الشخص ربانيا لا ينظر إلى عصرية جاهلية، ولا لهوى ولا لعرض من أعراض الدنيا، فيلجأ إلى الله، ويحب الشيء لذات الله كما ورد فى الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا الله تعالى»^(١)، ويقتضى أن يتجه إلى الله ويتذكره عندما ينزغ فى النفس نازغ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ...﴾ (٣٦) [فصلت]، ويقتضى الاعتصام بالله أن يتوكل على الله حق توكله، فيدبر الأمور ويعتزمها ثم يفوض أمر مصايرها إليه سبحانه وتعالى، ويقتضى الاعتصام بالله أن يتعد عن مواطن الريب، ولا يتبع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧) ربنا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) [آل عمران].

ذلك بعض مظاهر الاعتصام بالذات العلية، ولذا نجد أنه لا حاجة إلى تقدير مضاف هو لفظ دين، وفوق ذلك فإن هذا التقدير لا يستقيم معه نسق القول فى

(١) سبق تخريجه.

نظري؛ لأن الصراط المستقيم هو دين الله القويم، فكيف يكون دين الله هو الذى يهدى إلى دين الله، إنما الذى يهدى إلى دين الله هو الاعتصام بذات الله العلية.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ عبر فيه بالماضى للإشارة إلى التحقق والتأكد والثبوت، أى الجواب يترتب على الشرط لا محالة، فإذا وجدت حقيقة الاعتصام بالله - وإنها لأجل حقائق هذا الوجود - فإنه يوجد لا محالة الاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الذى لا عوج فيه ولا أمت^(١).

اللهم اعصمنا من الزلل، واهدنا فيمن هديت، ووفقنا لما يرضيك يارب العالمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ؕ وَآذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ؕ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

﴿١٠٣﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة عناد بعض أهل الكتاب واستمرارهم فى غيهم، وسدهم طريق الهداية فى قلوبهم، وتحديهم للحق وأهله، ومعاندتهم للبينات الثابتة التى لا تقبل نكيرا، ثم مجاوزتهم الحد، ومحاولة صدهم المؤمنين عن الحق، ويث روح الفرقة والانقسام، لكى يعود أمر الجاهلية كما كان، ولكى يتفرقوا أوزاعا كما كانوا أولا. وفى هذه الآيات يبين للمؤمنين

(١) الأمت: المكان المرتفع، والعوج: المرتفع. الصَّحَّاح. فالطريق المستقيم هنا هو المستوي الذى لا ارتفاع فيه ولا انخفاض.

الحبل الوثيق الذى لا يضلون إذا استمسكوا به، ولا يتفرقون ما داموا آخذين بعروته الوثقى، وهو تقوى الله حق ثقافته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

صدر الكلام سبحانه بهذا الموصول الذى كانت الصلة فيه الإيمان، للإشارة إلى أن المطلوب من مقتضيات الإيمان ومن نتائجها، وهو غاية الغايات فيه، والثمرة الدانية له. وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ معناه: اتقوا الله تعالى «واجب تقواه» أى اتقوا الله تعالى بالقدر الذى يجب أن يتقى به، وهو الحق الثابت المستقر الذى ينبغى أن يستمر ولا ينقطع؛ و«تُقَاة» مصدر على وزن فعلة كتؤدة، والواو قلبت تاء على ما هو الأصل فى كلمة تقوى لأنها من الوقاية؛ وكلمة «حَقَّ» منصوبة على أنها مفعول مطلق مضاف إلى المصدر المشتق منه الفعل؛ ومثل هذا قولنا ولكلام الله المثل الأعلى: أكرم فلانا حَقَّ الإكرام، أو أدب ولدك حق التأديب، وإضافة تقاة إلى الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ تفيد علو الواجب المطلوب له سبحانه وتعالى من التقوى، فالمطلوب هو التقوى الواجبة التى تليق بذى الجلال والإكرام الواحد القهار، والمالك لكل شىء، القاهر فوق عباده، الغالب على كل أمر، ويقول الزمخشري فى تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: «حَقَّ تُقَاتِهِ» واجب تقواه وما يحق منها، وهو القيام بالمواجب، واجتناب المحارم، ونحوه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ...﴾ [التغابن] يريد بالغوا فى تقوى الله حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً.

وهذا معنى مستقيم، وتخريج قويم، ويكون المعنى فى الآيتين متلاقيا؛ إذ يكون معنى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ اتقوه بأقصى الاستطاعة فى التقوى، فبذل المستطاع منه هو عين التقوى، وهو أقصى غاياتها.

وقد زعم بعض المفسرين أن الصحابة عندما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ شكوا إلى رسول الله مشقة ذلك عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا

اسْتَطَعْتُمْ ... ﴿١٦﴾ [التغابن] واعتبروا هذه الآية ناسخة للسابقة، وفي الحق، إن دعوى النسخ باطلة، فإنه إذا صحت الرواية، فإن المناسب لمعناها أن نقول: إن القوم لقوة إحساسهم الديني لم يرفقوا بل اشتدوا على أنفسهم في العمل، فقاموا في صلاة الليل حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم، كما ورد عن سعيد بن جبير، فبين الله سبحانه وتعالى المقدار الذي كُلفوه، وهو الاستطاعة الدائمة، فهم لا يكلفون إلا المستطاع الذي لا يشق أدائه، وهذا هو المعنى الذي يتفق مع الحقائق الإسلامية والسنن المروية الثابتة، فإنه يروى أن النبي ﷺ رأى عابدا يعبد الله حتى أرهق نفسه وغارت عيناه، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، إنَّ المُنْبِتَ لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى»^(١).

وإن أفضل التقوى في الإسلام ما يدوم، وما يمكن أن يستمر الشخص عليه من غير إجهاد ومشقة، ولذا قال النبي ﷺ: «أحب الأعمال عند الله أدومها وإن قل»^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب الديمة من الأفعال»^(٣) وذلك لا يكون إلا في دائرة المستطاع، وقد جمع النبي ﷺ معنى تقوى الله حق تقاته في قوله: «حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر» ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

النهى ليس منصبا على الموت، وإنه بضم النهى إلى الاستثناء يكون المطلوب أمرا إيجابيا، وهو ما بعد أداة الاستثناء، فيكون المعنى الجملي كونوا على حال الإسلام المستمرة إلى الموت؛ إذ كل كلام مشتمل على استثناء هو في معناه تكلم بالباقي بعد أداة الاستثناء؛ فإذا قال قائل: لا تكرم إلا محمدا، فمعنى القول أكرم محمدا وحده؛ لأن معنى الاستثناء نفى وإثبات، فهو يتضمن النفي لما عدا ما بعد

(١) رواه أحمد: باقي مسند المكثرين (١٢٥٧٩).

(٢) رواه البخاري: القصد والمداومة على العمل (٥٩٨٣)، ومسلم: صلاة المسافرين وقصرها - فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١٣٠٥).

(٣) سبق تخريجه.

إلا، والإثبات لما بعد إلا، وقد يكون العكس ويكون موضع النهى هنا هو النهى عما يمنع استمرار الإسلام إلى الوفاة ولقاء الرب تعالت قدرته، وعظمت نعمته، فهو أمر لهم بأن يقصروا أنفسهم على حال الإسلام وحده إلى أن يتوفاهم الله سبحانه وتعالى.

ومعنى الإسلام هو الإخلاص لله سبحانه وتعالى وحده، والإذعان له تبارك وتعالى، وألا يستمعوا إلا إليه، وأن يصموا آذانهم عن كل دعوة تخالف ما يأمر به وما ينهى عنه؛ فذلك هو الإسلام المطلوب ممن تشرفوا بذلك النعت الكريم، وهو ما قد بيناه من قبل عند الكلام فى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ (٨٣) [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ...﴾ (١٩) [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة) وإطلاق الإسلام بمعنى الإذعان الظاهرى لا يكون فى القرآن إلا بقريئة، ويعبر عنه فى مقابل الإيمان، وبالفعل لا بالوصف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...﴾ (١٤) [الحجرات].

والخلاصة أن الله تعالى يأمر المؤمنين بأن يستمروا على إذعانهم للحق الذى يدعوهم إليه، ويمنعوا أن يدخل الانحراف إلى قلوبهم، فلا يجيئوا داعى اليهود وأشباههم الذين يريدون أن يصدوهم عن دينهم حسدا من عند أنفسهم.

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى من بعد ذلك بما يكون فيه العصمة من الزلل، والاستمرار على الحق إلى أن يلقوا ربهم، فقال تعالى:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ العصمة: المنعة، ومعنى اعتصموا اجعلوا أنفسكم فى عصمة ومنعة عن الزلل بحبل الله، ولكن ما هو حبل الله الذى أمر سبحانه بالاستمساك به، واعتبر الأخذ به عصمة من الزلل؟

والجواب عن ذلك أن «الحبل» فى أصل معناه اللغوى «السبب» الذى يوصل إلى الغاية، وله بعد هذا المعنى الأسمى اللغوى معان أخرى مشتركة، فيطلق على

الرسن^(١)، كما يطلق على العهد، كما فى قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ...﴾ (آل عمران) ويطلق على الإيمان، كما يطلق على القرآن، وقد ورد بذلك الحديث النبوى، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عَصْمَةٌ لِمَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ»^(٢)، وروى عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ فَرَسَ حَبْلَ اللَّهِ تَعَالَى فى هذه الآية بالقرآن، فقد قال: «حَبْلُ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ»^(٣) وإن ذلك هو الواضح، فحبل الله تعالى هو شريعته المحكمة الباقية إلى يوم القيامة، والمؤدى واحد، فشريعة الله سَجَلُهَا الْقُرْآنُ، فهو بيانها، وهى حبل الله، والعروة الوثقى التى يضل من فصمها أو تركها.

وقد ذكر سبحانه أن الأمر بالاعتصام لا يؤدى غايته وحقيقته إلا إذا اعتصمت الأمة جميعها، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ أى كونوا جميعا مستمسكين به؛ وذلك لأن هذا الدين كل لا يقبل التجزئة، والجماعة الإسلامية كل وطائفة واحدة، وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ يصح أن تكون حالا من الواو، ويصح أن تكون حالا من حبل الله تعالى، وعلى الأول يكون المعنى كونوا جميعا مستمسكين بحبل الله، ولا يصح أن ينفصل منكم طائفة لا تأخذ بذلك الحبل؛ لأن الشيطان ينفذ إليكم عن طريق هذه الطائفة التى شذت وعصت أمر ربها.

وعلى أن كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ حال من حبل الله، يكون المعنى خذوا بالقرآن كله، ولا تجعلوه عضينا تؤمنون ببعضه وتكفرون ببعضه، أو خذوا بشريعته كلها ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء، فإنها كل لا يقبل التجزئة.

(١) الرسن: الحبل، ورسن الفرس، إذا شدّه. من باب نصر. الصحاح.

(٢) رواه بهذا اللفظ الدارمي: فضائل القرآن - باب من قرأ القرآن (٣١٨١) هكذا موقوفا على عبد الله بن مسعود.

(٣) عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا وإنى تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله عز وجل هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة». جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه: فضائل الصحابة - فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٨).

والأمران مرادان معاً، فإن مقتضى النص أن نأخذ جميعاً بالشرعية كلها، لا نفرق بينها، ولا نتفرق في أمرها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَفْرُقُوا﴾ أى لا تتفرقوا في أنفسكم، فلا يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا تتنادوا بنداء الجاهلية، ولا تتفرقوا في دينكم، فتذهبوا في فهمه شيعا وفرقا مختلفة، فتضلوا عن سبيل الله، ولا شيء يذهب بنور الحق المبين أكثر من اختلاف الأنظار في فهمه وإدراكه، والنظر إليه بروح التعصب الذى يغفل عن الاتجاه إلى الحق في كل جوانبه، ولذلك جاء النهى عن التفرق في الدين، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...﴾ (١٥٩) [الأنعام] ولقد توقع النبي ﷺ الافتراق لأمته، وأنه سيكون سبب ضعفها، وأن عودة قوتها في عودة اجتماعها، ولذا قال النبي ﷺ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، وإن بنى إسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين، كلهم في النار إلا واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي» (١).

وإن الطريق للخروج من الافتراق هو الذهاب إلى لب الدين بإخلاص، ومن غير انحراف إلى طائفة دون أخرى، ولذا قال النبي ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راض» (٢) فإنه لا يفرق إلا الأهواء، ولا يهدى إلا الإخلاص، فإذا سيطرت الأهواء المنحرفة، سرى الضلال إلى النفس وإلى الفكر، ولذا قال ﷺ: «إنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» (٣).

(١) رواه الترمذي: الإيمان - ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٥٦٥).

(٢) رواه ابن ماجه: المقدمة - الإيمان (٦٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) جزء من حديث رواه أبو داود: السنة - شرح السنة (٣٩٨١).

وإن النهى عن التفرق توجب إطاعته الإخلاص والحذر، وطريقه الاعتبار، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

الخطاب عام لكل المؤمنين فى كل الأجيال وكل الأعصار، ويدخل فى عمومه كل الأجناس وكل الشعوب، فالدعوة إلى التذكر دعوة عامة، وهى تذكر لماضى الانقسام، ثم من بعد الاتفاق والوئام، والطريق إلى الوحدة، ولكن إذا كان التذكير عاما، فإن الاختلاف الذى أشار إليه النص الكريم كان خاصا بطائفة من المؤمنين، وهم الذين عاصروا النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار، فالأنصار أكلتهم الحرب التى قامت بين الأوس والخزرج حتى أتم الله عليهم نعمة الهداية، والعرب جميعا كانوا فى تناز وتنافر حتى كادت بعض قبائلهم تفنيها الحروب التى لا تبقى ولا تذر. ولماذا اعتبر الاختلاف السابق الخاص كأنه اختلاف عام، وخطوب به المؤمنون جميعا؟ والجواب عن ذلك أن هذا للدلالة على وحدة الأمة، فما كان من ماضيها يخاطب به حاضرها للاعتبار والاتعاظ، ولأن سبب الاختلاف فى كل نفس لا يقى منه إلا الهداية، فما وقع من الماضين يتوقع أن يقع من الحاضرين، لأن الإنسان ابن الإنسان، ولأن الخلاص طريقه واحد، فما خلاص به الماضون يخلص به الحاضرون، إن اعتزموا سلوك ما سلكه الذين من قبلهم.

والنعمة التى يذكرنا الله بها فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هى نعمة الهداية والتأليف القلبي، وهو أعظم النعم على الجماعات والأمم، وقد بينها سبحانه بقوله: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ فهذه نعمة بيّنة واضحة، وهذه النعمة ترتب عليها أثرها الجليل الخطير بفيض آخر من نعمته سبحانه أيضا ولذا قال: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فالنعمة الثانية التى كانت امتدادا للنعمة وفيضا لها هى نعمة الأخوة العامة، التى تجعل الأهواء مشتركة، والمصالح متشابهة متوحدة، يتعاون كل واحد فى الأمر الذى يحسنه لمصلحة الجميع، والآية ترمى إلى بيان أن تألف القلوب وحده نعمة والأخوة المترتبة عليه المتعاونة نعمة أخرى،

والتألف معنى نفسى، والأخوة مظهر اجتماعى عملى، ولقد شدد - سبحانه - فى التذكير بمآثم الاختلاف بعد أن أشار إلى نعمة الوفاق بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

أى كنتم - بسبب اختلافكم وضلالكم وعبادتكم للأوثان وانحراف تفكيركم - قد أوشكنتم على أن تقعوا فى النار بسبب تغلغلكم فى أسبابها وسيركم فى طريقكم حتى صرتم كأنكم على شفا حفرتها، وشفا الحفرة حرفها، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ الضمير يعود إلى الحفرة؛ لأن من يكون على شفاها يقع فيها لا محالة إلا أن يبعده مبعده عنها، فيكون منقذاً له منها، والكلام فيه استعارة تمثيلية، وخلاصتها أنه شبهت حالهم فى ترددهم فى الاختلاف والوثنية وسيرهم فى طريق النار يوم القيامة بحال من يكون على طرف حفرة من النار لا يتماسك عن الوقوع فيها، وشبهت هداية الله تعالى لهم بحال من يتولى تجنبهم التردى فى تلك الحال الخطرة الخطيرة، ولقد ذكر سبحانه وتعالى سنته فى بيان هدايته فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أى كهذا البيان الذى بيّنه الله سبحانه وتعالى لكم فى محكم القرآن، وبين لكم به سبيل هدايتكم، وبين لكم به نعمة هدايتكم ونعمة أخوتكم، يبين سبحانه وتعالى دائماً الآيات البينات سواء كانت تلك الآيات قرآنية أم كانت كونية، وذلك لتقربوا دائماً من الهداية، ولتكون بين أيديكم أسبابها، لعلكم تنالون الثمرة وهى الاهتداء الدائم، والله سبحانه وتعالى هو الهادى إلى سواء السبيل.

وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ

وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله تعالى؛ والاستمسك بالقرآن الكريم، والالتفاف حوله، وعدم التفرق والانقسام - بين سبحانه وتعالى السبيل لهذا الاعتصام، والطريق للوحدة الفاضلة، التي لا تفرق فيها، ولا اختلاف يفك عراها، ويهدم بنيانها، وذلك السبيل هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك فرضه سبحانه وتعالى بقوله تقدست كلماته:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
المعروف هو الأمر الذي تعارفته العقول ولم تختلف فيه الأفهام؛ وهو الذي يكون متفقاً مع الفطرة الإنسانية التي لا تختلف في الناس، والمنكر هو ما تضافرت العقول الإنسانية على إنكاره وقبحه، وهو مناقض للفطرة الإنسانية. وإن العقول من بدء الخليقة تضافرت على أمور أقرتها، وعلى أخرى أنكرتها، فلم تختلف العقول في مدح الصدق والعدل والحياء والعفة، ولم تختلف العقول في استنكار الظلم والكذب والفجور والاعتداء بكل ضرره، ومهما يحاول الذين يريدون حل المجتمعات الفاضلة وهدم بنيانها، من إنكار لتلك الحقائق، وادعاء أنها ليست مقومات الإنسانية، وأنها اتفاقات زمنية، وأوهام سيطرت على العقول - فلن يصلوا إلى غاياتهم، وإن ادعوا أن ما يقولونه هو طبيعة الوجود، ولذا سمو أنفسهم وجوديين، وذلك لأن كلامهم ضد طبائع النفوس، وضد السمو الإنساني عن الطبيعة الحيوانية، وضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإن الأعرابي الذي سئل: لماذا آمنت بمحمد؟ فقال: ما رأيت محمداً يقول في أمر: افعل، والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمداً يقول في أمر: لا تفعل، والعقل يقول افعل - أكبر إدراكاً من هؤلاء المتفلسفة، وأكثر اتصالاً بطبائع الوجود الإنساني منهم، وهم

فى حقيقة أمرهم وتفكيرهم أكثر اتصالا بالطباع البهيمية منهم بالطباع الإنسانية.

و (من) فى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ قيل: إنها بيانية، وقيل. إنها تبعيضية، وهى تحتملهما معا، وعلى أنها بيانية يكون المعنى أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويكون التخيـرج اللفظى لقوله تعالى تقدست كلماته: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ مثل قول القائل: ليكن منك رجل خير، أو ليكن منك رجل جهاد، أى ليكن منك رجل خير ورجل جهاد، فالمعنى الجملى للنص الكريم: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإذا كان ذلك الواجب على الأمة كلها، فهو يتفاوت بتفاوت مقدار ما أوتيـه كل واحد من العلم والقوة، فعلى أولياء الأمر أن يرتبوا أمر الدعوة الإسلامية، وبين الحقائق، ووضع النظم الزاجرة المانعة من الشر، أن يتفاهم أمره، ويشتد سبله، ويكون على العلماء واجب بيان الشرع فى دروس عامة وخاصة، وبين الحق فى كل أمر يجدّ فى شئون الناس، وبين طرق الدعوة إلى سبيل الله، ويكون على العامة كلٌّ فى محيط وجوده وبمقدار طاقته أن يرشد وأن ينصح، فمن رأى رجلا يرفث فى القول، أو يجرح كرامات الناس، أرشده ونهاه، ومن رأى رجلا يفطر فى رمضان وعظه وهواه، ومن رأى رجلا لا يصلى حثه على الصلاة، على أن يكون ذلك برقيق القول، لا بالجفوة والعنف فإن الجفوة لا تجدى بل تبعد، والمودة تجدى وتقرب، وبهذا تكون الأمة كلها تتواصى بالحق، وتتواصى بالصبر والهداية.

هذا سياق القول على أن (من) بيانية، وأما سياقه على أنها تبعيضية، فيكون المعنى: ليكن بعض منكم أمة أى طائفة تؤم وتقصـد وتكون مجابة الدعوة، إذ تدعو إلى الخير أى إلى كل ما هو نافع فى ذاته، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعلى ذلك يكون فى الآية الكريمة طلبان:

أحدهما موجه إلى الأمة كلها، وهو إعداد هذه الطائفة التي تقوم بالإرشاد العام والتوجيه الفكري والنفسي، وتزويدها بكل ما يمكنها من أداء مهمتها، والقيام بالواجب عليها على الوجه الأكمل، وثاني الواجبين هو واجب هذه الطائفة التي تكونت، والوجوب عليها أخص من الوجوب الأول، وكذلك الشأن في كل الفروض الكفائية، فيها وجوبان: وجوب خاص على من عندهم الأهلية الخاصة للواجب الكفائي، ووجوب عام على الأمة كلها، وهو تمكين هؤلاء الخاصة من القيام بواجبهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه.

وقد رجح الزمخشري أن تكون (من) تبعية، وقال في ذلك «من» للتبعية لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته، وكيف يباشره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف، وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه، وجهله في مذهب صاحبه، فنهاء عن غير منكر، وقد يغفل في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار إليه عبث، كالإنكار على الجلادين وأضرابهم).

والأمة التي تُقصد وتكون من صفوة الأمة لها عملان متميزان بنص الآية؛ أحدهما: الدعوة إلى الخير، واثنيهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما الأول فهو توجيه الأمة إلى النفع العام، فالخير هو كل أمر نافع في الدنيا أو في الآخرة، كتنظيم الاقتصاد، وترتيب العمران، وتنظيم حقوق الفقراء، وربط العلاقة بين الأغنياء والفقراء بوثائق من الدين والنصوص المحكمة التي لا تقبل التخلف، وإنشاء المساجد ودور التعلم وتوجيهها التوجيه السليم، فكل هذا دعوة إلى الخير، وبعبارة عامة شاملة الدعوة إلى الخير تشتمل على كل ما يقوم عليه بناء الاجتماع من الناحية المادية والأدبية.

أما الثاني وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمراد به نشر الفكر الإسلامي، وبيان الحقائق الدينية، وتوجيه النفوس إليها وجذبهم نحوها، ودفع كل ما ليس بإسلامي، وإقامة الحق والعدل، وهو مقام سام لا يصل إليه إلا ذوو

الهمة والتقوى من الرجال، وهو شاق إن أدى على وجهه، بحيث يرشد الحاكم والمحكوم، والقوى والضعيف، لا يخشى في الله لومة لائم، لا يجمعجم إذا كان المنكر من قوى ظالم، ويغلظ ويعنف إن كان المنكر ممن لا يخشى بطشه ولا يرجى عطاؤه، ولا يتأول لتصرفات من يخاف شره ويطمع في خيره.

فإن كان المرشد على ذلك النحو فقد سار في طريق النبيين، ولقد روى أن النبي ﷺ قال: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض، وخليفة كتابه، وخليفة رسوله»^(١) وهو بهذا الاعتبار خير الناس، ومعنى خلافته عن الله تعالى أن يكون مصلحا في الأرض غير مفسد فيها، ولذا قال تعالى عند خلق آدم للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾ [البقرة: ٣٠] فخليفة الله في الأرض تقتضى الصلاح والدعوة إليه، وذلك ما يقوم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقد سئل عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر: مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قال: «أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم وأوصلهم»^(٢). ولقد قال أبو الدرداء: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما، لا يجلب كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، ويتصرفون فلا ينصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم).

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب، تعلو كل مرتبة عن الأخرى بمقدار ما يكون فيها من مشقة وتعرض للعنت مع الجدوى والفائدة، ولذا كان أعلاه ما يوجه إلى الجائرين من الحكام والأمراء؛ ولذا قال النبي ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٣). وبذلك اعتبر النبي ﷺ هذه المرتبة جهادا،

(١) رواه الديلمي عن ثوبان. كنز العمال ج ٣ (٥٥٦٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه النسائي: البيعة - فضل من تكلم عند سلطان جائر (٤١٣٨) عن طارق بن شهاب، وابن ماجه:

الفتن - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٢) عن أبي أمامة الباهلي، وأحمد: باقي مسند المكثرين

(١٠٧١٦) عن أبي سعيد الخدري.

واعتبر من يقتل في سبيلها شهيدا، كمن يقتل في الحرب، بل اعتبره في أعلى درجات الشهداء، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك»^(١).

وإن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخصوصا للأمرء والحكام هو الذي أضاع المسلمين في الماضي، وأضاع بنى إسرائيل قبلهم، ولقد روى في ذلك أحمد والترمذي وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أن الرجل كان يلقي الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقيه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم»^(٢).

وإن القيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ولذا ذيل سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى:

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي أولئك الذين قاموا بهذا الواجب هم المفلحون، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا الواجب، ففي النص قصر، أي نفى وإثبات، فهو يثبت الفلاح لهم، وينفي الفلاح عن غيرهم ممن لم يقم بهذا الواجب المقدس، فهو مناط عزة الأمة ورفعتها وقوتها وتقدمها، ونشر العدل والحق والإيمان في ربوعها، والإشارة هنا إلى الأمة كلها سواء اعتبرنا (من)

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود: الملاحم - الأمر والنهي (٣٧٧٤). وبنحوه رواه الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة المائدة (٢٩٧٣)، وابن ماجه: الفتن - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣٩٩٦)، وأحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٥٢٩).
والأطر: الرد، وأصله العطف والنتي، لسان العرب.

بمعنى بعض، أم اعتبرناها بيانية، وإذا كانت بيانية فالأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان؛ لأن الأمة هي في جملتها الأمرة بالمعروف الناهية عن المنكر الداعية إلى الخير، وأما على أن الأمة التي تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر هي طائفة معينة من مجموع المؤمنين، فإن النتيجة من حيث الفوز والفلاح لا يعود على الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر وحدهم، بل الفائدة تعود عليهم أجمعين، إذ إن ضرر الترك يعود عليهم أجمعين، وإنه لا نجاة للأمة إلا إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوم يركبون سفينة، ووجدوا واحدا يخرق السفينة، فإن تركوه غرق وغرقوا معه، وإن أخذوا على يده نجا ونجوا معه (١).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ بعد أن بين سبحانه وجوب الاعتصام بحبل الله، وأن الاعتصام به مدعاة الوحدة والقوة والاجتماع على الحق، وبين طريقه وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أخذ سبحانه وتعالى يشير إلى نتائج التفرق ناهيا عنه محذرا منه، مبينا نتائجها في الدنيا والآخرة، وأول نتائج التفرق هي العمى عن الحق مع وضوحه وقيام البيّنات عليه، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ نهى سبحانه وتعالى بهذا عن التفرق بأبلغ تعبير، والطف إشارة، فقد كان النهي عن أن يكونوا كمن سبقوهم في التفرق، وذلك نهى مع الدليل الموجب للنهي، والغاية التي ترتبت على النهي عنه، وذلك بالإشارة إلى ما كان ممن سبقوهم؛ إذ تفرقوا أحزابا وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون، فتفرق اليهود طوائف، وتفرق النصارى طوائف مثلهم، وكل طائفة تكفر الأخرى، أو ترميها بالزيف والضلال، وقد ترتب على التفرق وتوزع أهوائهم ومنازعهم أن اختلفوا في إدراك الكتاب مع وضوحه، ومع ما جاءهم من

(١) رواه البخاري: الشهادات - القرعة في المشكلات (٢٤٨٩) عن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

البيّنات الموضحة المبينة التي قامت مثبتة للحق، وهو واحد لا يتعدد، وإن ذلك فيه بيان نتيجة التفرق، وهو الاختلاف مع وجود الحق، وهو تأكيد لمضمون النهي؛ لأنه إذا كان التفرق مؤدياً إلى استبهام الحق أمام المختلفين مع وضوحه في ذاته، فإن الافتراق في ذاته أمر قبيح، وإن هذه الصيغة فوق ذلك فيها الاعتبار بمن سبقوا، ووضع صورة واقعية لنتائج الافتراق، ولذا كان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ أكثر معاني من (ولا تتفرقوا) وهي في هذا المقام أبلغ وأبين، ولأن الآيات السابقة فيها كلام عن أحوال اليهود والنصارى، ومناقضتهم للحقائق الإسلامية، ومحاولتهم تضليل المسلمين عن الحق الصريح، فكان من المناسب أن يشار إلى حالهم، ونتائج تفرقهم، وإعراضهم عن الحق بعد إذ تبين لهم.

وقد يقول قائل: إن الاختلاف يؤدي إلى التفرق مع أن ظاهر الآية أن الافتراق هو الذي أدى إلى الاختلاف، ونقول في ذلك: إن الاختلاف الذي لا ينشأ عن التفرق ولا يؤدي إليه هو اختلاف تفكير، ولا بد أن يصل فيه المختلفون إلى الحق ولا يضلون، وأما الاختلاف الذي يؤدي إلى الافتراق، فهو بلا شك يؤدي إلى الضلال، ويترتب عنه ضلال مع وجود بينات الحق؛ إذ التفرق معناه انحياز كل جماعة إلى ناحية وفرق معين، وكذلك التفرق السابق على الاختلاف، فإنه يكون نوعاً من تحكم الهوى، أو العصبية النسبية، أو العصبية الإقليمية، فيكون كل تفكير تحت سلطان هذه العصبية، فلا تستقيم الحقائق، ولا تدركها العقول، مع قيام البيّنات.

وقد بين سبحانه نتائج هذا الضلال في الآخرة فقال سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي أولئك الذين فرقتهم الأهواء فضلوا ولم يدركوا الحق مع قيام البيّنات عليه لهم عذاب عظيم في الآخرة، وهذا التهديد الشديد مقابل للنتيجة الحسنة التي تكون ثمرة التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهي الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة]. فالافتراق نتيجته خسران في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة.

وقد بين سبحانه حالهم في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. والتعبير عن الحق بالبياض، وعن الباطل بالسواد، مجاز عربى مشهور، كوصف الحق بأنه نور، ووصف الباطل بأنه ظلام، ووصف الوجوه بالبياض مجاز عن إشراق القلوب بالمعرفة، وامتلائها بالنور؛ ووصف الوجوه بالسواد مجاز من إظلام القلوب، وانطفاء نورها، ولقد قال الزمخشري في تحقيق هذا المعنى اللغوى: (البياض من النور، والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وُسِّمَ ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وإبيضت صحيفته، وأشرقت، وسعى النور بين يديه ويمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وُسِّمَ بسواد اللون وكسوفه وكمدته، واسودت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله).

ثم بين سبحانه حال الذين اسودت وجوههم وعقابهم بقوله تعالت كلماته: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

هنا تفصيل لما أشار إليه الإجمال، وفيه بيان العقوبة وسببها، وقوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بيان لحالهم، أى أن حالهم حال من يستفهم عنها استفهام إنكار وتعجب فيقال لهم: أكفرتم وجحدتم الحق وأنكرتموه بعد إيمانكم به وإذعانكم، وهذا حقا موضع عجب، كمن يكون فى روضة من الرياض فيها النعيم، ويتركها إلى الكفر والجحيم، فهم كانوا فى روضة الإيمان، ويتفرق أهوائهم وتنازعهم وعصبيتهم انتقلوا إلى جحيم الكفر، وإذا كانوا كذلك فكفرهم كان كفرا عن علم بالحق وهم لذلك لاى عذرون، ولذا ترتب عليه العقاب فقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه كما ذقتم حلاوة الهوى، وكان ذلك العذاب بسبب استمراركم على الكفر، وموتكم عليه، ودل على الاستمرار التعبير بـ ﴿كُنْتُمْ﴾، فإن (كان) تدل على الاستمرار، وقد استمروا على حال الكفر فى أقبح صورته، وهو الكفر بعد الإيمان، وبعد هذا بين حال الذين ابيضت وجوههم فقال:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى أن الذين أشرقت نفوسهم بنور الحق، وأدركت قلوبهم معنى الإيمان، وذائق حلاوته، فى رحمة الله تعالى، ورحمة الله تعالى تسع لكل معانى النعيم المقيم، ورضوانه العظيم وهو أكبر الرحمة، ثم خصهم سبحانه بالخلود فى هذا النعيم الذى لا يُحد بحد، ولا يُرسم برسم، ولا تبلغ العقول مداه، فقال سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. أى هم فى الرحمة باقون دائمون.

ويجب التنبيه هنا إلى أمرين:

أولهما: أنه ذكر بياض الوجوه قبل، ثم ذكر حال الذين اسودت وجوههم قبل الذين ابيضت، ليختتم الآية برحمته، كما اختتم الآية السابقة ببيان من يفوز بهذه الرحمة.

الأمر الثانى: أنه سبحانه ذكر وصف الخلود فى النعيم، ولم يثبت الخلود لمقابله، وقد صرح به فى غير هذا الموضع، وذلك أيضا من باب الرحمة ورجاء التوبة.

اللهم من علينا بهدايتك، وأنعم علينا بنعمة الإيمان الدائم، وشرح صدورنا لكل ما تأمر به، واصرفنا عما نهيت عنه، فإن القلوب بيدك وأنت مقلب القلوب.

تِلْكَ آيَاتُ

اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى ما كان من اليهود في ماضيهم، وكيف أضلهم الهوى، والعصبية العنصرية، ومنعتهم من أن يصل نور الحق إلى قلوبهم، حتى إنهم ليرون النور يمشى بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمالهم، ومع ذلك يصمون آذانهم عن سماعه، ويحجبون أضواءه عن نفوسهم؛ ذكر سبحانه أنه بين ذلك في آياته ليعتبر من يعتبر، وليتنفع الحاضرون بنتائج ما وقع فيه الغابرون، فيستبصروا ويستبينوا ويتعظوا ويعتبروا، ولذا قال سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

الإشارة في الآية الكريمة إلى ما كان من آيات سابقات بينت فيها أحوال النفوس التي ضلت وعميت عن الحق، وكانت الإشارة بالبعيد لعلو منزلة هذه الآيات في بيانها للحق، وإعلانها له، وصدقها فيما حكى وأعلنت، ومعنى ﴿تَتْلُوهَا﴾: نزلها عليك متلوة مقروءة واضحة مبينة سهلة الفهم لمن يريد الحق ويتبعه، وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى متلبسة بالحق مبينة له موضحة، والحق هو الأمر الثابت الذى لا مجال للشك فيه، ولا تختلف فيه العقول السليمة، والمدارك القويمة، ولا يوجد أمر ثابت كالحق، وهو ميزان الأفكار ومقياس الأشياء، وعليه قامت السموات والأرض وما بين الناس. وإضافة التلاوة إلى الله تعالى والإظهار فى موضع الإضمار، فقد قال سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا﴾ لكى يكون التصريح باسم الله سبحانه وتعالى مربيا فى النفس المهابة والإجلال له، وهو المستحق وحده لوصف الألوهية، فلا إله سواه، ولا معبود بحق غيره، وهو ذو الجلال والإكرام، وهو المنشئ الموجد لهذا الكون وما فيه ومن فيه، وهو العلى القدير، فالتصريح باسمه الكريم يزيد البيان جلالا، ويتضمن معنى الحساب لمن يعرض عن آيات ربه، ويجعل النفس لا تسير وراء الهوى، ويتضمن معنى القدرة على إنزال العقاب والثواب بعد الحساب، وإنه إذا كان كل شئ فى هذا الوجود أوجده ربه بالحق، وأخبر عنه، فالظلم منفى عنه سبحانه وتعالى، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ هذا نفى للظلم عن الله سبحانه، والتصريح بلفظ الجلالة في موضع الإضمار هنا، كان لمثل ما ذكرنا لتربية المهابة، وليكون ذلك تأكيداً لنفى الظلم، إذ كيف يظلم الموصوف بالآلوهية، وحده، وكيف يريد الظلم مانح العالم كله الوجود؛ وقال: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ وهم العقلاء في هذا الكون؛ لأنهم هم الذين يحسون بوقوع الظلم وآلامه، ويشعرون بمتاعبه وآثامه، وأصل الظلم معناه النقص، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا...﴾ [الكهف] ثم أطلق على نقص الحقوق وهضمها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ...﴾ [النساء] ثم أطلق الظلم على وضع الأمر في غير موضعه، حتى لقد قالوا فيمن حفر الأرض، ولم تكن موضعاً للحفر إنه ظلمها، ويقال عن التراب المظلوم، وعن الأرض المظلومة، ولقد قال الراغب في معنى الظلم: (الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته ومكانه).

والظلم الذي نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه عام لا يخص نوعاً دون نوع، وهو نكرة في موضع النفي، ومن المقررات اللغوية أن النكرة في مقام النفي تعم ولا تخص، فالمعنى لا يريد الله سبحانه وتعالى ظلماً قط أى ظلم كان، فقد خلق السموات والأرض بالحق، وربطهما وما فيهما بميزان لا يتخلف إلا بإرادته سبحانه وتعالى، فليس فيهما شيء إلا في موضعه، ودبر أمور الكون والناس بدقة وإحكام، وهو العليم الحكيم اللطيف الخبير السميع البصير، وأنزل سبحانه الشرائع بالحق والميزان، فليس فيها شيء إلا وهو عدل لا ظلم فيه، وأساس الشرائع السماوية كلها العدل الذي يستطيعه الإنسان، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾ [النحل]. وبهذا نفى الله سبحانه وتعالى الظلم عن نفسه، ونفى أن يكون نظام شرعه فيه إباحة لظلم العباد فيما بينهم، ولذا قال سبحانه في حديث

قدسى: «يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»^(١).

ويلاحظ أن النص القرآنى لم ينف فقط الظلم عن الله سبحانه، بل نفى عنه إرادة الظلم، فهو أمر لا يليق بذاته، ولا يتصور وقوعه منه. وإنه سبحانه وتعالى مالك كل شىء، فهو مانح الحقوق ومعطيها ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان] ولذا قال سبحانه بعد أن نفى عن نفسه إرادة الظلم:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كل ما فى السموات من أفلاك وأجرام ونجوم وكواكب وأبراج وعوالم لا يحصيها إلا خالقها هو الله تعالى، أبدعها على غير مثال سبق، وأنشأها بإرادته، نظم مسالكها وما يربطها بحكمته، وكل ما فى الأرض من سهل وجبل، وصحراء وماء، وأقاليم مختلفة، ومزارع وأغراس تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وكل ما يحتويه باطنها من معادن سائلة، وفلزات متماسكة، وأحجار تبهر الأنظار، ملك لله تعالى أبدعه وأنشأه، وإذا كان هو المبدع المنشئ لكل ذلك، وهو الذى وضع لكل شىء نظامه المحكم، وسيره المنظم، فإنه لا يتصور منه سبحانه أن ينقص شيئا أو يحقق، أو يضع أمرا فى غير موضعه، فهو خالق النظم، وخالق الأوضاع، والمسيطر على كل شىء.

وكما أن المبدأ منه فالعود إليه سبحانه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فكل أمر ونظام مرد بقاءه وإنهائه إليه، كما كان إبداعه وإنشاؤه منه؛ وكل تصرفات الناس راجعة إليه يوم القيامة، وهم محاسبون عليها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فهو مالك الميزان والقسطاس المستقيم فى الدنيا وفى الآخرة.

(١) جزء من حديث قدسى رواه مسلم: البر والصلة والآداب - تحريم الظلم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى.

وإن الله سبحانه قد نفى عن ذاته الكريمة إرادة الظلم، وبين أنه يضع الأمور في مواضعها؛ ليصحح الأفهام التي تتوهم أن النبوة تكون في قبيل دون قبيل، وليبان أن كل شيء له ميزان ومقياس، وأن رقى الأمم ورفعتها يكون بميزان ثابت، وأن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما كان في أمة إلا وقاها الآفات الاجتماعية، وأنه لا تتركه أمة إلا تردت في مهاوى الفساد، وأدال الله من قوتها، ذلك هو الميزان الذي وضعه العلي القدير لرفعة الأمم، ولذا قال سبحانه في وصف الأمة المثلى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ والخطاب في هذه الآية للمؤمنين الذين تلقوا الوحي من النبي ﷺ والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، و«كان» في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ يصح أن تكون بمعنى وُجد، أي وجدتم خير أمة لهذه الأوصاف ما تحققت فيكم، ويصح أن تكون ناقصة، ويكون المعنى قدرتم في علم الله تعالى خير أمة إن قمتم بهذه الأمور، ويصح أن تكون بمعنى صار، أي تحولتم معشر المؤمنين الذين عاصرتهم النبي ﷺ من جاهليتكم إلى أن صرتم خير أمة أخرجت للناس بسبب الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحن نميل إلى أن تكون بمعنى وُجد أو ناقصة، والمعنى فيهما متقارب، ليشمل النص المخاطبين بتلك الحقائق في عصر النبي ﷺ ومن يجيئون بعدهم ويتبعونهم بإحسان إلى يوم القيامة.

وإن هذه الخيرية التي قدرها سبحانه لهذه الأمة منوطة بتحقيق أمرين أحدهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثاني: الإيمان المطلق بالله والإذعان له وتفويض الأمور إليه بعد الأخذ في الأسباب، واعتقاد أنه لا قوة في هذا الوجود غير قوته، ولا معبود بحق سواه، ولا خضوع لأحد كائنا من كان غيره تعالت قدرته، فليست الخيرية التي خاطب الله بها المهاجرين والأنصار والذين يتبعونهم؛ لأنهم مسلمون فقط، أو لأشخاصهم وذواتهم، بل لأنهم متصفون

بأوصاف هي علة هذه الخيرية، ومناطق تلك الرفعة الإلهية. وتلك الأوصاف هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ موقعها من الإعراب إما أن تكون جملة حالية من ضمير الخطاب، وإما أن تكون كلاما مستأنفا مفصولا، ولذا قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: «اعلم أن هذا الكلام مستأنف، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية كما تقول: زيد كريم، يطعم الناس ويكسوهم، ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه: «أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف؛ فهنا حكم بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ثم ذكر عقيبه علة هذا الحكم».

هذا، ويصح أن نقول: إن الحكم بالخيرية مبهم، وقد بينه سبحانه بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فالخيرية التي حكم سبحانه وتعالى بها هي هذه الأوصاف، وهذا ينطبق على المثل الذي ساقه الرازي، وهو، فلان كريم: يطعم ويكسو، فلان يطعم ويكسو تفسير لمعنى كرمه، وبيان له، فالاستئناف إذن ليس لأن جملة «تأمرون» علة للخيرية، بل هي بيان للخيرية، ولذلك لا ينطبق الحكم بالخيرية على من لا يتصف بهذه الصفات، فالجماعات التي تهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يكون فيها إيمان، لا يمكن أن تكون خير أمة، بل لا توصف بالخيرية قط؛ لأنه لا خير إلا في الفضائل والحق والعدل، ولا تقوم هذه الأمور إلا بالإيمان وقيام رأى عام مهذب لائم يقوم المعوج، وتزوى فيه الرذائل انزواء، إذ يقتلها نوره المشرق وشمس الحقيقة الناصعة.

وهنا قد يسأل سائل: لماذا قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؟ ولماذا اقتصر في الإيمان على الإيمان بالله، ولم يذكر الإيمان بالرسول والملائكة واليوم الآخر والحساب والعقاب وغير ذلك مما يوجبه الإيمان، ولا يعد الشخص مؤمنا إلا به؟ ويجاب عن السؤال الأول: بأن ذكر الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر مقدما لبيان أنه مطلوب لذاته، وأنه فضيلة لا تختلف فيها الأمم ولا الجماعات، فهو كالصدق والعدل والحق تتفق عليها الأفهام وبل ولا يمكن أن يتحقق ببيان جماعة من غير تحققه، وإلا كانت كالذئاب الضارية، أو كانت كالوحوش في الغابة، والإيمان سياج الجماعة وحمايتها من أن تضل، وكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي يقوم به بناء الجماعة، والإيمان هو الذي يحميها ويسدد خطاها، فذكر ما يقوم به البناء ثم ذكر ما يكون به ذلك البناء في دائرة الفضيلة والأخلاق الكريمة وهو الإيمان، وفي الحقيقة هما متلازمان، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق يتبعه إيمان الشذاذ الخارجين، والإيمان الحق بالله تعالى والإذعان لأوامره ونواهيه يتبعه حتما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذا هو الجواب عن الجزء الأول من السؤال، أما الجواب عن الجزء الثاني، وهو لماذا اقتصر على ذكر الإيمان بالله؟ فهو أن الإيمان بالله هو لب الإيمان بكل أجزائه وعناصره، فالإيمان بالله هو الإذعان المطلق لقوة غيبية تسيّر هذا الكون وتدبره، وتقوم على كلاءته وحمايته، والإيمان بقوة غيبية يقتضى الإيمان برسالتها للناس، ويقتضى الإيمان بالأرواح الطاهرة المطهرة، والإيمان بأن الله لم يخلق هذه الأشياء عبثا، وإن ذلك يقتضى الإيمان بقدرة الله على إعادة كما بدأ الخلق بالكوين، وبأن هنالك يوما آخر فيه الحساب، وإن من يؤمن بالله ولا يؤمن بهذه العناصر كلها لا يكون مؤمنا بالله حق الإيمان، ولا مدعنا لأحكامه حق الإذعان، ولذا كان أهل الكتاب الذين أعلنوا إيمانهم بالله، وأنكروا رسالة الرسول مع قيام البينات عليها غير مؤمنين، وغير مدعين للحق الذي ارتضاه الله.

ويجب التنبيه هنا إلى أمرين: أولهما: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير تغيير المنكر، وغير العمل بالفعل على منعه، فالأمر والنهي إرشاد وتوجيه ونصح وتنبيه، والتغيير يكون بالعمل المنظم والأحكام الرادعة، وذلك يتولاه الحكام، إلا إذا تقاصرت همم الحكام، فإنه يجب تغييرهم ليتولى من يقيم حدود الله، وينفذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والأمر الثانى الذى يجب التنبيه إليه: أنه ليست الخيرية مرادفة للقوة، فالخيرية هى أن يكون المجتمع فاضلا يقوم بحق العدل، وأن يكون كل شىء فيه بقسطاس مستقيم، وأن تسوده الأخلاق الكريمة والسلوك القويم، وأما القوة فالأمر فيها لسيطرة المادة والغلبة والاستعداد الحربى، وإنا نرى أقوى الأمم الآن أشدها انتهاكا لحرمت الفضيلة فى داخلها وخارجها، ومن الأمم الضعيفة ما يكون للفضيلة فيها موضع، وللأمانة فيها سلطان، وللحق فيها أنصار، ولا شك أنها أقرب إلى الخير من تلك الأمم القوية، وفى الحملة، إن القوة تستمد من المادة إذا انفصلت عن الفضيلة، والخيرية تستمد من الحق والعدل والفضائل الإنسانية، والمساواة بين بنى الإنسان من غير عصبية جنسية أو إقليمية، وهما فى عصرنا الحاضر متمايزان لسيطرة المادة على الأقوياء، وفقدانهم قوة الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد قلنا: إن الإيمان بالله يقتضى الإيمان بكل رسول إذا قامت الأدلة على رسالته؛ ولذا نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن بعض أهل الكتاب، فقال تعالت كلماته:

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ و«لو» هنا هى التى يقول عنها علماء النحو: إنها حرف امتناع لامتناع، أى امتنع الخير فيهم لأنفسهم لامتناع الإيمان الكامل، وقد ذكر نفى الإيمان عنهم مطلقا مع أنهم يقولون إنهم يؤمنون بالله، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وذلك لأنهم إذ لم يذعنوا لأحكام الله تعالى وأوامره - وقد فسروها على حسب أهوائهم ومنازعهم العصبية والجنسية، واعتقادهم أنهم شعب الله المختار - قد فقدوا الإيمان، إذ الإيمان كل^١ لا يقبل التجزئة، فليس بمؤمن بالله من يكذب رسالة الله التى جاءت بها البينات، وقامت عليها الدلائل؛ وفى نفى الإيمان نفيا مطلقا ما يومئ إلى أن الذين يجعلون هواهم مسيرا لاعتقادهم وفكرهم لا يؤمنون بحقيقة من الحقائق إلهية كانت أو إنسانية.

وقد نفى سبحانه عنهم الإيمان بأى شئ، ولذلك لم يكن ثمة حاجة بعد هذا إلى نفى القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ذلك يقتضى الإيمان بالفضائل والمعاني الإنسانية، وهم لا يؤمنون بشئ منها، وإن ذلك ليس خيرا لهم فى شئ؛ لأنهم بذلك تنحل جماعتهم، وتنفق وحدتهم، ونفى الإيمان عن أهل الكتاب ليس نفيا له عن الكل، بل هو نفى عن الأكثر؛ لذا قال سبحانه:

﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المؤمن هو المذعن للحق إذا قامت بيناته أو دلت أماراته، وهو ينشأ عن استقامة القلب، والتزام الجادة، والاتجاه دائما إلى الطريق المستقيم بإخلاص وتزاهة نفس عن الهوى، ولذلك كان غير المؤمن خارجا عن الاستقامة، ولذا يسمى فاسقا، باعتباره خرج عن منهاج الاستقامة، وترك طريق الحق، وسلك سبل الشيطان، ويسمى كافرا باعتباره جحد الحق، وستر ينابيع الإدراك فى نفسه، وناسب أن يذكر وصف الفسق بالنسبة لغير المؤمنين من أهل الكتاب؛ لأنهم خرجوا عن منهاج الكتاب المنزل، وفسقوا عن أمر ربهم وتركوه وراءهم ظهريا.

وإن منهاج القرآن هو العدالة فى الحكم دائما، ولذا لم يصفهم كلهم بالفسق وإن كان قد عمهم، بل وصف بعضهم وإن كان الأكثر، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة] ولكن من هم المؤمنون ومن هم الفاسقون؟ سنبين ذلك فى تفسير الآيات الآتية، والله سبحانه وتعالى هو وحده العليم بالصواب.

لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى
وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُولَوْكُمْ أَلَدَّ بَارَثُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ
وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْآبِدِيَاءَ بَغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة منزلة المؤمنين من غيرهم إذا أخذوا بأحكام الإسلام واهتدوا بهديه، وكونوا منهم جماعة فاضلة تؤمن بالله تعالى حق الإيمان، وتذعن لشريعته حق الإذعان، وتتواصى بينها بالحق والصبر، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وبين أن ذلك هو عصام الأمة وجامع وحدتها، والرابط بينها بأرسان^(١) من الهداية الربانية، فيستتر الشر ويختفى، ويظهر الخير وينكشف، وإن تلك المنزلة جعلها الله تعالى خير المنازل، وبين سبحانه أن أهل الكتاب الذين عادوا المسلمين، وهم يعلمون أنهم أهل الحق وأهل الإيمان لو آمنوا بما أنزل على الذين آمنوا لكان خيرا لهم، ولكن آثروا مجافاة الحق على اتباعه، وعداوة أهل الإيمان على موادتهم، ولقد بين سبحانه من بعد أن عداوتهم لا تضر المؤمنين ضررا بليغا له أثر، مادام أهل الإيمان مستمسكين بما رفع منازلهم وأعلى درجاتهم، ولذا قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾:

في هذا النص الكريم بيان أن الذين أوتوا الكتاب، ثم كفروا به وبالبيئات لما جاءتهم، لن يضرروا المؤمنين ضررا يبقى أثرا في جماعتهم، ويؤثر في قوتهم، وإن وقع منهم أذى؛ وذلك لأن الضرر قسمان: ضرر يترك أثرا في الأمة، فيضعف قوتها، ويوهن أمرها. وضرر لا أثر له: كالأذى بالقول أو الفتنة في الدين تتناول الآحاد، أو محاولة التأثير في ضعف الإيمان، أو محاولة بث روح النفاق بين الجماعة من غير أن يعم ويشيع، وقد نفى الله سبحانه وتعالى النوع الأول من الضرر نفيا مؤكدا بلفظ ﴿لَنْ﴾ فإنها تدل على تأكيد النفي باتفاق علماء اللغة، وقال الزمخشري وطائفة كبيرة من اللغويين: إنها تدل على تأييد النفي وعلى ذلك يكون الاستثناء متصلا، ولا يكون منقطعا، لأن الأذى مهما ضؤل نوع من الضرر، وإن لم يبق أثرا.

(١) جمع رسن، وهو الخبل. وقد سبق.

وإن الشرط فى نفى الضرر الذى يؤثر فى الجماعة الإسلامية أن تكون مؤمنة بالله حق الإيمان آخذة بتعاليمه مهتدية بهديه، وأن يسودها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو خاصتها، ورباط وحدتها، وإلا فإن الضرر البالغ يصيبها؛ لأنها فقدت مشخصاتها ومكوناتها.

ولقد بين سبحانه بعد ذلك حال أولئك الكفار من اليهود والنصارى مع المؤمنين الصادقى الإيمان:

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ هذه الحال التى ذكرها الله سبحانه تفصيل لبيان ما تضمنته الجملة السامية من قبل، فإنها تضمنت أن هؤلاء لا يمكن أن يصيبوا المسلمين بضرر بليغ يبقى له أثر، وإنه من تفصيل بعض ذلك أنهم ينهزمون فى قتال المسلمين، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أنهم إن قاتلوا ينهزمون، وعبر عن انهزامهم بتوليهم الأدبار، لأن من ينهزم فى ميدان القتال لا يقابل عدوه بوجهه، ولكنه يطلب النجاة بالفرار، ولسان حاله يقول: النجاء النجاء، والتعبير عن الهزيمة بتوليهم الأدبار؛ فيه إشارة إلى جنبهم، وأنهم يفرون فرارا أمام خصومهم، وكذلك كان الشأن فى قتال المسلمين الأولين للكفار اليهود والنصارى، فقد قاتل المؤمنون بنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر وغيرهم، وكانوا يفرون فرارا، وقد كتب الله على بعضهم الجلاء، وعلى بعضهم الفناء، وعلى بعضهم البقاء فى ذلة، وكذلك كان الشأن مع النصارى بالشام ومصر.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنهم مع انهزامهم فى القتال لا يمكن أن ينتصروا على المؤمنين ما دام المؤمنون على الشرط الذى ذكرناه، ولذا قال سبحانه وتعالى مخبرا: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أى أنهم لا يمكن أن ينصروا أبدا، وهذه الجملة خبرية ليس لها صلة لفظية بالجملة الشرطية، فليست معطوفة على جواب الشرط، فهى إخبار عن نفى الانتصار غير مرتبط بكونه فى قتال أو غير قتال، ولقد وضح الزمخشري فى الكشف هذا المعنى أكمل توضيح، فقال: (فإن قلت؛ هلا جزم

المعطوف في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾؟ (قلت) عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ (قلت) لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بقتالهم كتولية الأدبار، فحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر حال بنى قريظة، وبنى النضير، وبنى قينقاع، ويهود خيبر).

وكان العطف الخبرى بـ «ثم» على مضمون الجملة الشرطية كلها، وكان التراخي لتقرير عدم النصر، إذ إن عدم النصر المطلق الذى يكون بالقتال وغيره ينشأ من توالى الانهزام، إذ إن توالى الانهزام يلقى فى قلوبهم بروح اليأس فلا تكون لهم من بعد ذلك نصرة فى أية ناحية من النواحي.

ذلك خبر الله تعالى، وخبر الله تعالى صادق إلى يوم القيامة، ولكن الذى نراه منذ قرون هو انهزام المسلمين، وتوالى انتصار النصارى من أهل الكتاب، بل إن بلية البلايا أن يتصر اليهود، فهل أخلف الله وعده؟! كلا، ما أخلف الله موعدا، وإن وعد الله لحق، وخبره صادق، ولكن الذى تغير هو حال المسلمين، فقد اشترطنا لتحقيق نصر الله أن يكونوا مؤمنين بالله حق الإيمان، مدعنين لأحكامه حق الإذعان، متعاونين فيما بينهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فعندئذ يكونون أنصار الله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَرِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج]. فهل كان المسلمون على هذا الشرط عندما انهزموا؟ لقد تغيرت حالهم، فلم يذعنوا لأحكام الله تعالى، ونقص إيمانهم به، ولم يتواصوا بالحق والصبر، ولم يعودوا أشداء على الكفار رحماء بينهم، بل صار بأسهم بينهم شديدا، وأخذ يأكل بعضهم بعضا، وبذلك تغيرت حالهم فغير الله تعالى بهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مَن وَالٍ﴾ [الرعد]. ولئن عادوا إلى الإيمان

والإذعان والتعاون والتواصى بالحق ليعودن النصر، فإنه وعد الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد.

ولقد بين سبحانه حال الذين كذبوا بآيات الله تعالى، ولم يذعنوا للحق بعد خذلانهم في كل مجال:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى أحاطت بهم الذلة كما يحيط السرادق بمن فيه، وكما تحيط القبة بما فى داخلها، فهم فى نشاطهم وحركتهم فى ذلة، لا يتقلون من ذل إلا إلى ذل، و﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ معناها أينما وجدوا جماعات ووحداً، فجماعاتهم فى ذلة، وآحادهم فى جبن، ذلك بأنهم فقدوا الإيمان بالله، والاعتزاز بعزته، فاعتمدوا على عزة من الناس، ومن اعتمد على أن يستمد عزته من غير الله فهو الذليل، فأولئك الذين فقدوا الإذعان لأحكام الله تعالى قد استعانوا بغير الله فحقت عليهم كلمة الذلة.

ولقد استثنى سبحانه حالا يرتفعون فيها من الذلة فقال تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾. والحبل معناه فى أصل اللغة ما يربط بين شيئين، ويطلق على العهد، وقد فسرهُ جمهور المفسرين هنا بهذا المعنى وهو العهد، فالمعنى لا ترفع الذلة عن هؤلاء اليهود إلا بعهد من الله تعالى وعهد من الناس، وذلك العهد هو عقد الجزية الذى يربط بينهم وبين المسلمين، فهو حبل من الله تعالى يصلهم بأهل الإيمان إذ هى بأمر الله تعالى، والوفاء بها وفاء بعهد الله ورسوله، إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ...﴾ (٩١) [النحل]. والجزية أيضاً حبل يربطهم بالمؤمنين؛ إذ يكونون بهذا العهد بين المسلمين، ترعى حقوقهم وتحفظ أموالهم ودماؤهم، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وهذا تفسير حسن، وهو مشتق من قواعد الإسلام ذاتها وأحكامه المقررة الثابتة، ولكن يلاحظ أن الله سبحانه قرر فى الاستثناء أن حبل العزة هو حبل من الناس، ولم يذكر أنه حبل من المؤمنين؛ إذ يقول سبحانه: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ

مِنَ النَّاسِ ﴿١٣٦٤﴾ . ولذلك يصح أن يفسره بما هو أعم من الجزية، فإن حبل الناس أوسع من معنى الجزية، وإن ذلك يفسره بعض الوقائع التي تجرى في العصور الأخيرة، فقد كانت لهم عزة وقتية بسبب اتصالهم ببعض الناس، وتخاذل المسلمين عن الأخذ بحكم الكتاب والسنة والهدى الإسلامى، ولكنه على كل حال استثناء؛ لأن الله ضرب عليهم الذلة، وإنه ليرجى أن يعود الإسلام كما بدأ في قلوب أهله، فيتحقق وعد الله لهم، إذا تحققت أسبابه.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أصل معنى «باء» ساوى، فيقال باء فلان بدم فلان، أى: ذهب وساواه، ومن ذلك ما جاء فى بعض أقاصيص العرب على لسان المهلهل أخى كليب: «بُوْ بشع نعل كليب» أى أنه لا يساوى إلا هذا، ويطلق البواء بمعنى الإقامة، ومنه المباءة والبيئة أى شكل الإقامة، والمعنى الجملى أنهم قد صاروا فى غضب، ويعتبر هذا مباءتهم التى باءوا بها والتى هم يستحقون، وقد ضربت عليهم المسكنة، أى أحاطت بهم واستولت عليهم، والمسكنة ضعف نفسى، وصغار ينال القلب، فيستصغر الشخص نفسه، ويحس بهوانها مهما تكن لديه أسباب القوة متوافرة متضافرة، والفرق بينها وبين الذلة أن الذلة هوان تجىء أسبابه من الخارج بأن يكون بفرض من قوى، أو يكون نتيجة انهزام حربى، أما المسكنة فهى هوان ينشأ من النفس لعدم إيمانها بالحق، واتباعها للمادة، وإن توارث الذلة قرونا طويلة يورث هذه المسكنة، إن بواء اليهود والنصارى بغضب الله، وضرب المسكنة عليهم، لا استثناء فيه، بل هو أمر مستمر إلى يوم القيامة ما داموا على حالهم، ولا يغرنك ما عند النصارى وتقلبهم فى البلاد، بل انظر إليهم إن أصابت فريقا منهم هزيمة فإنهم يخرون للأذقان يكون صاغرين، مما يدل على أن المسكنة فى طبيعتهم؛ إذ عزة الحق قد فارقتهم. ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب فى استحقاق أهل الكتاب ذلك فقال تعالت كلماته:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الإشارة إلى هزيمتهم المستمرة، وأنهم لا يمكن أن يتصروا، وأن الذلة ضربت عليهم إلا بحبل

من الله وحبل من الناس، وأنهم في غضب من الله، وأن المسكنة قد ضربت عليهم إلى يوم القيامة، فالصغار ملازمهم، لا يفارقهم أبداً، لأن الصغار والإيمان بالباطل متلازمان لا يفترقان. وقد ذكر سبحانه أن السبب في كل هذا أنهم كانوا يكفرون بآيات الله أى بأمارات الحق وأدلتها التى يقيمها الله سبحانه وتعالى عليهم فى كتبه وخلقه وعلى السنة رسله، وأنهم لا يكتفون بجحود الحق بعد قيام البيّنات عليه، بل يعتدون على الداعى إليه، فيقتلون الرسل الذين ينادون به، ويجاهدون دونه، ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والحكمة فى ذكر هذا أنهم لم يكونوا فى اعتدائهم لهم أية شبهة حق، ولذا نكر كلمة حق، وقد بينا هذا من قبل، ولماذا كان ذلك الكفر، وهذا الجحود المستمكن الذى يدفع إلى قتل الداعى إلى الحق؟ ذكر سبحانه ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

أى أن الذى أورث فى قلوبهم الجحود بالحق، والتمادى فى الباطل، هو ارتكاسهم فى المعاصى، وتعودهم الاعتداء على الناس، فإن المعاصى تنكت نكتا سوداء فى القلب، فإذا استمر الشخص عليها وضعت عليه أغلفة من الظلمة تمنع أن يصل الحق إليه، فعصى القلب عن الحق وصم، ولذا قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا...﴾ (٢٥) [نوح] وقانا الله شر المعاصى، وجعل قلوبنا تشرق بنور حكمته، ووفقنا لقصد السبيل، وجنبنا جائره، إنه سميع الدعاء.

لَيْسُوا سَوَاءً

مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

هذا من إنصاف القرآن، فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم، وكذلك كان الشأن في ذكر أهل الكتاب، فيقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً...﴾ (٧٥) ﴿[آل عمران] ويقول سبحانه: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩) ﴿[الأعراف] وفي هذه الآية يذكر بالخير العظيم طائفة من هؤلاء فيقول الحكم العدل تعالت كلماته: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

أى ليسوا متساوين في هذه الأعمال وتلك الأخلاق، أو ليسوا متساوين مطلقاً، فليسوا جميعاً أشراراً. وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق طائفة كبيرة من الناس اجتمعت على الشر اجتماعاً مطلقاً، بحيث يرتضيه الجميع ويقصدونه ويريدونه ويتغونّه عامدين مريدين معتدين، بل إن منهم الضال، ومنهم المضل، ومنهم الناطق بالحق الذي لا يجد داعياً، أو يحمل على السكوت في وسط نكران الضالين، ففي وسط طغيان فرعون، وانقماع قومه في إرادته، وجد مؤمن آل فرعون، ينطق فيهم قائلاً كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) ﴿يَا قَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩) ﴿[غافر].

وبعد أن ذكر سبحانه أنهم ليسوا سواء، وقد ذكر أحوال أشرارهم، أخذ يبين أحوال أخيارهم.

﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٩) ﴿أى من أهل الكتاب الذين ذكرنا أوصاف الكثرة منهم - طائفة تؤم وتُقصّد موجودة حاضرة ليست ماضية خالية، فمعنى قائمة على هذا موجودة، وفسر الزمخشري

كلمة قائمة بمعنى مستقيمة على العدل والحق، مأخوذة من قولهم أقمت العود فقام واستقام. وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذا الجزء من الآية الكريمة وصفين اثنين: أنهم يتلون آيات الله، والثاني أنهم يسجدون، ومعنى يسجدون أى يخضعون ويتطامنون للحق ولا يجحدون، ويتجهون إلى ربهم. يرجون رضاه، ولا يستكبرون عن نداء الحق إذا دعوا، فكفى بالسجود عن الخضوع المطلق الذى يعد السجود مظهره، ويصح أن يراد به السجود الذى يقع فى صلاة المسلمين على ما سنين، وقد ذكر ذلك الوصف مصدراً بـ «هم» إذ يقول: وهم يسجدون، فلم يقل ويسجدون؛ للإشارة إلى أن الخضوع والإذعان للحق شأن من شئونه، وليس حالاً تعرض لهم، إذ إن ذكر الضمير فيه تقوية الإسناد وتوثيق لدوامه واستمراره.

وما هو الكتاب الذى يتلونه كما أشار الوصف الأول؟ إن الجواب عن هذا السؤال يستدعى بيان من هذه الطائفة التى استحققت تلك الأوصاف الجليلة التى وصفها الله تعالى بها، ونقول فى ذلك: إن العلماء قد اختلفوا فى ذلك على رأيين:

أحدهما: أنها طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالله - تعالى - وبرسوله محمد ﷺ، وأذعنوا للحق الذى جاء به ودعا إليه، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام وطائفة من اليهود الذين كانوا يقيمون مع النبي ﷺ، وهو ينطبق على النصارى وغيرهم الذين يهتدون بهدى الإسلام، ويرتضونه عن بينة دينا لهم، وقد قال النبي ﷺ فيهم وفى أمثالهم من يكونون فى قابل الأيام: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فله أجران»^(١) وعلى هذا رأى يكون تفسير قائمة بمعنى موجودة؛ لأنها قد وجدت حقيقة، وارتضت الإسلام دينا.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

الرأى الثانى : أن هذه الطائفة من أهل الكتاب ولم تعتنق الإسلام، وكانت قبله أو بعده ولم تبلغها الدعوة على وجهها، ولم تحرف التوراة أو الإنجيل أو لم تأخذ بالمحرف منهما، وقد أثر ذلك الرأى عن بعض السلف، فقد روى عن ابن عباس أنه قال فى معنى أمة قائمة: «أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتركه كما تركه الآخرون وضيعوه» وروى عن قتادة أنه كان يقول فى الآية: «ليس كل القوم هلك، لقد كان فيهم بقية».

ويكون معنى ﴿قَائِمَةٌ﴾ على هذا التفسير بمعنى مستقيمة مهتدية مؤمنة بالحق مدعنة له.

وقد اختار التفسير الثانى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما نقله عنه صاحب المنار، فيقول: (وظاهر أن هذا كالذى قبله فى أهل الكتاب حال كونهم على دينهم).

وآيات الكتاب التى يتلونها على ذلك هى البقية الصحيحة من كتبهم التى تشتمل على أدعية كلها توحيد وضراعة ونحو ذلك من أمثال بعض مزامير داوود، مثل ما جاء فى المزمور الخامس والعشرين: (إليك يارب أرفع نفسى، عليك توكلت، فلا تدعنى أخزى، لا تشمت بى أعدائى، كل منتظريك لا يخزون، ليخز الغادرون بلا سبب، طرقت يا رب عرفنى، سبلك علمنى، وربنى فى حقك وعلمنى). وأمثال هذه الأدعية والمناجاة لعلها البقية الباقية من تلك الكتب التى حرف فيها الكلم عن مواضعه.

وعندى أن الآية الكريمة فى أهل الكتاب الماضين الذين استقاموا على الحق، ولم يدركوا عصر النبى ﷺ، وذلك لأن القرآن الكريم تكلم عن ماضى أهل الكتاب وحاضرهم، فحاضرهم كان سوءاً، وذكر ما ضيهم فين أن بعضه كان سوءاً وكان منهم أمة مقتصدة، فهذه الأوصاف فى الأمة المقتصدة التى مضت، ويصح أن تطلق على المخلصين من أهل الكتاب الذين لم يبلغوا دعوة الإسلام، وكان فيهم إخلاص للحق وطلب له وإجابة لداعيه إن دعوا إليه، ويكونون داخلين بالقياس على الماضين.

وقد ذكر سبحانه أوصافهم فقال تعالت كلماته :

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا النص الكريم فيه بيان حال من أحوالهم، وهى الحال الدائمة المستمرة التى جعلتهم مستقيمين على الحق مهتدين بهديه، فإن الإيمان بالله تعالى حق الإيمان يجعل المؤمن يذعن للحق، ويخلص فى كل ما يطلب، ولا يحب الشئ إلا لله، ويكون الله تعالى سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، فلا يكون منه إلا ما يكون للحق جل جلاله، وتكون كل مشاعره وأهوائه تبعاً لأوامر الله تعالى ونواهيه. هذا هو الإيمان بالله، أما الإيمان باليوم الآخر، فإنه يعرف به حقيقة هذه الدنيا، وأنها لعب ولهو، وزينة وتفاخر، وأنه فى هذه الحياة الآخرة يلقي الله سبحانه وتعالى، وأنه إذ يلقاه يجد كل ما عمل من خير محضراً، وما عمل من شر يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، وإذا عمل حساب ذلك اللقاء ما أقدم على شر إلا مضطراً أو لما.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هذا هو العمل الذى يفيضون به على غيرهم، ويشعرون بأن عليهم حقاً بالنسبة للحق الذى أدركوه، وهو أن يتواصوا بالحق، ويتناهاوا عن الباطل، ويأْمُرُوا بالمعروف الذى تقره العقول، ولا تنكره الفطرة المستقيمة، فإن المؤمن المذعن للحق يدعو إليه، ولا يسكت على باطل ولا يرتضيه، وتلك صفة أهل الخير من أهل الكتاب، وعلى عكس ذلك أهل الشر، فإنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. ولذا قال تعالى فى أهل الشر منهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة].

﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ هذه حال من أحوالهم المستمرة، وهى أنهم فى خير مستمر، لا يجدون لحظة إلا يقومون فيها بخير، ولا تلوح لهم فرصة خير إلا يقدمون عليها.

ولقد ذكر بعض العلماء هنا وجه البلاغة في التعبير بـ «فى» دون «إلى» إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال يسارعون إلى الخيرات، ولكنه سبحانه وتعالى قال: يسارعون فى الخيرات، للإشارة إلى أن هؤلاء يسرون فى كل أعمالهم فى سبيل الخير، فهم ينتقلون من خير إلى خير، فى دائرة واحدة هى دائرة الخير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها، ولا يخرجون منها، فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير، بل إنهم ينتقلون من خير إلى خير، فكان التعبير بـ «فى» له موضعه من البيان.

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الإشارة هنا إلى الموصوفين بالصفات السابقة، من تلاوة الكتاب فى خشوع وخضوع وتعريف لمراميه ومعانيه، وإذعان لحقائقه ومغازيه، ومن خضوعهم المطلق لله سبحانه وتعالى، ومن إيمانهم حق الإيمان بالله تعالى، وتصديقهم لكل ما جاء عن الله تعالى بيناته وأدلته، ورجائهم لليوم الآخر، وخوفهم من عذابه، وترقبهم فى كل ما يعملون لحسابه، فهذه الأوصاف كلها سلكتهم فى عداد الصالحين، ولم تجعلهم فى زمرة الفاسقين الذين ذمهم الله سبحانه وتعالى: والصالحون الذين دخل هؤلاء فى جماعتهم هم الذين صلحت أحوالهم واستقامت أمورهم، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إشارة إلى أنهم بهذه المزايا، وتلك الصفات قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى: وذكر أن أكثرهم فاسقون، فهم قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف المدحيين.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فى هذا النص الكريم بيان أن الله تعالى يحتسب ما يفعلون من خير، ويشيهم عليه، و«ما» هنا شرطية، ولذا جزم الفعل بعدها، و«من» هنا تفيد العموم، أى: إن يفعلوا أى خير قليلا كان أو كثير فلن يحرموا ثوابه، وقد أكد احتسابه بـ «لن»، لأن النفى بـ «لن» يفيد التوكيد، و«كَفَرُوا» بمعنى ستر، وهى لا تتعدى إلى مفعولين، ولكن لتضمنها معنى «حرم» تعدت إلى مفعولين، ويقول فى ذلك الزمخشري: «فإن قلت: لم عدى إلى مفعولين وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول: شكر النعمة وكفرها؟

(قلت): ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل فلن يحرموه، بمعنى فلن يحرموا جزاءه» وفي حذف هذا المضاف وهو الجزاء إشارة إلى أن الجزاء ثمرة الفعل دائما، وأن عمل العامل خيرا أو شرا يتضمن كسب الجزاء إن خيرا أو شرا، وذلك بالنسبة للثواب تَفَضَّل من الله تعالى دائما.

وفي هذا النص الكريم إشارة إلى أن النية الطيبة في الخير مع سلامة العقيدة ونزاهة النفس تجعل العمل طيبا مرجو الثواب دائما، لأن الأساس دائما تقوى القلوب، ولذا قال تعالى في تذييل الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

وفي هذا التذييل الكريم إشارات إلى أمور ثلاثة:

أولها: أن تقوى القلوب هي أساس لكل خير، وهي المجنب من كل شر.

والثاني: أن التقوى إذا كانت شأنا من شئون النفس، صار الشخص لا يوصف إلا بأنه من المتقين، وصار عمل الخير كسجية له من السجايا.

والثالث: أن الله عليم بكل ما تخفيه القلوب وهو يجزى بما يعلم، اللهم وفقنا لتقواك، وأترب بصيرتنا، وطهر قلوبنا من رجس الهوى، إنك سميع الدعاء.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمُ وَمَا
ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أعمال الكافرين، أشار إلى مبعث جحودهم، وهو اغترارهم بأموالهم وأولادهم، واعتزازهم بما يملكون من

حطام الدنيا وما فيها، وقد أشار إلى هذه الأموال وأولئك الأولاد ببيان أنها لن تغني عنهم من الله شيئاً، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

يقال: أغناه عن هذا الأمر فلان أى كفاه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِي﴾ (٢٩) [الحاقة] وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ (٢٠٧) [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا...﴾ (٢٣) [يس] وهى فى كل هذا بمعنى لا يكفى عنه، وهى هنا من هذا الاستعمال، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لن تكفى عنهم بدل الله شيئاً من الغناء، فمن هنا هى التى تستعمل بمعنى بدل، والغناء يتضمن هنا أمرين: أحدهما سد الحاجة، والثانى دفع الأذى، وإن الله سبحانه وتعالى قد قرر أن هؤلاء الكفار لن تدفع عنهم أموالهم أذى، ولن تسد عنهم حاجة قط، فى وقت هم فى أشد الحاجة إلى معونة، وقرر ذلك بصيغة التأكيد، وذلك بالتعبير بـ «لن» لأن «لن» تفيد تأكيد النفي.

وإن أولئك الكفار ما كانوا يعتزون إلا بالمال والولد، فهذا قائلهم يقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (١٣٤) [الكهف]. ولقد كانوا يربطون بين المال وكل المعانى السامية، فكانوا يظنون أن كل الخير وكل الفضائل للأغنياء، وكل الرذائل للفقراء، فلا يتصور من الأغنياء إلا الخير، ولا يتصور من الفقراء إلا الشر، ولقد أخذ منهم العجب عندما أرسل الله محمداً ﷺ وهو فقير، فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢٤) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢) [الزخرف] وفى هذا بيان خطأ نظرهم، فالغنى والفقير لا يتجاوز كل منهما أنه قسمة الله تعالى للمعاش فى هذه الحياة، أما رفع الدرجات فأمر آخر ليس مرتبطاً بالمال قلة أو كثرة، ويشير إلى أن الرفعة تكون للفقراء ليسخر الأغنياء منهم، فيزداد الأولون من الله قرباً، ويزداد الآخرون من الله بعداً.

وإن الله سبحانه إذ قد حكم بذلك، وهو أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، فقد أشار إلى أن السبب في ذلك كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن سبب هذا الحكم هو الكفر. ولماذا اعتبر النص الكريم الكفر سببا لعدم غناء الأموال والأولاد، مع أن طبيعة هذا الوجود تجعلها غير مغنية مؤمنا أو كافرا؟ والجواب عن ذلك أن المؤمنين لا يعتقدون أن أموالهم وأولادهم تغنى عنهم من الله شيئا، فلم يكن ثمة حاجة للنفي بالنسبة لهم، وفوق ذلك فإن المؤمنين يتخذون من الأموال والأولاد سبيلا لرفع منار الحق وعزته، فهي تكفيهم بعض الكفاء، وإن كانت لا تغنيهم عن الله تعالى، ولأن كلمة «تغنى» في معناها دفع الأذى، والله سبحانه وتعالى منزل الأذى بالكافرين عقابا لجرائمهم ولشروعهم، وما تعرض المؤمن لهذا الأذى، فلا حاجة لهذا الدفع.

وفي ذلك النص السامى بحث لفظى، وهو تكرار النفى فى قوله تعالى: ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ ف «لا» هنا تفيد ثلاثة أمور: أولها- مزيد تأكيد للنفى الثابت بـ «لن». وثانيها- أن تكرار «لا» يفيد أنهم كانوا يعتزون بالأموال والأولاد مجتمعين ويعتزون بأحدهما منفردا، فنفى سبحانه وتعالى الغناء عنهما مجتمعين ومنفردين أيضا. وثالثها- أن المال يكون قوة فى مواضع، والولد يكون قوة فى مواضع، فتكرار النفى يستبين أنه لا قوة تدفع مقت الله وغضبه لا من المال ولا من الولد. وقد بين سبحانه تبعد ذلك عذاب الله تعالى الواقع الذى ليس له من دافع، ولا يغنى فيه المال ولا الولد، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإشارة هنا إلى الذين كفروا، ليس لهم أمام الله ولى ولا نصير، ولا عون ولا دفاع، فالله سبحانه وتعالى يحكم عليهم وهو خير الحاكمين بأنهم أصحاب النار الخالدون فيها. فمعنى المصاحبة هنا الملازمة الدائمة المستمرة، و«لعل» فى هذا التعبير إشارة إلى أنهم بعد أن كانوا يصطحبون فى الدنيا أموالهم ومفاخرين بها وأولادهم مستنصرين بهم، يصاحبون بدلهم فى الآخرة نار الله الموقدة، وعذابه الأليم، وبعد أن تركوا نعيما غير مقيم استقبلهم شقاء دائم مستمر.

وقد أكد سبحانه وتعالى الحكم العادل بعدة تأكيدات: منها التعبير بالإشارة المتضمن السلب من كل قوة كانوا يعتزون بها، ومنها ذكر مصاحبتهم للنار، ومنها بيان قصرهم على النار لا يتجاوزونها، ومنها ذكر الضمير (هم) فهو لتأكيد الحكم.

وقد يقول قائل: لماذا لا ينفعهم في الآخرة ما كانوا ينفقون من مالهم في الدنيا، وقد كان منهم جود وسخاء؟ بين الله سبحانه مغبة ذلك الإنفاق وعاقبته، فقال تعالت كلماته:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ وفى هذا التشبيه بين سبحانه أن هذا الإنفاق ليس خالصا من الضرر فى ذاته، فهو يحمل فى ذاته ما يفسده ويجعله ضارا لا نفع فيه، وشر لا يمازجه خير، فقد شبه سبحانه إنفاقهم فى هذه الحياة من حيث اشتماله على الضار، وعدم إثماره وإنتاجه، بالريح التى لا ترسل لواقع، ولا تكون نسيما عليلًا تلقى فى النفوس بالبشر والخبور، ولا تكون ريحا يحمل للزرع عوامل النماء إذ يكون فيها غذاء، بل يكون فيها ما يमित الزرع والضرع، وهى الريح التى يكون فيها صرٌّ، والصر معناه البرد الشديد المमित للنبات، ومعنى اشتمالها على الصر وصفها به أى أنها ريح صر فهى ريح قارة باردة مهلكة مغبة وليست منمية مبقية، وهنا يرد سؤال: لماذا ذكر الصر على أنه فى الريح وأنها مشتملة عليه، وهى له ظرف وهو مظروف؟ وقد أجاب الزمخشري عن ذلك بأنه ضرب من ضروب المبالغة، وبأن «صر» مصدر فى أصله فجىء به على أصله، كما تقول: ثوب فيه جمال، والكلام بمعنى جميل، وقد خرج تخريجات أخرى ليست واضحة

ونحن نرى أن التعبير بقوله تعالى: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ يشير إلى أن الرياح فيها بطبيعتها رجاء، ولكنها اشتملت على ما يذهب بخيرها، وفى ذلك وصف من أوصاف من المشبه؛ وذلك لأن الإنفاق فى ذاته قد يرجى منه النفع، ويظن فيه، ولكنه اشتمل فى ذاته ما يذهب بخيره، ولا ينبت إلا باطلا، وذلك أنه بمقاصده

التي لا يقصد بها وجه الله ولا نفع الناس، ولكن يقصد التفاخر والتباهي والتنافر، والاستطالة على الناس بفضول القول، يذهب كل خيره، فالتعبير بقوله سبحانه: ﴿فِيهَا صِرٌ﴾ فيه إيماء إلى أن الأذى والضرر الذي لا يس المشبه وهو الإنفاق لم يكن من ذاته، ولكن من قلب المنفق ونيته، وغايته من الإنفاق، وإن هذا الإنفاق - كما قلنا وكما أشار النص القرآني الكريم - يحمل في ذاته موجب رده، وقد بين سبحانه أنه ضار مؤذ في الشطر الثاني من التشبيه، إذ قال سبحانه في وصف الريح: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

الحَرْث هو الزرع، وأصل كلمة «حَرْث» فَلَح الأرض وإلقاء البذر فيها، ثم أطلقت في مجاز مشهور على ما هو نتيجة ذلك وهو الزرع، وقد أطلق على كل موضع يكون فيه إنتاج ولو لم يكن أرضاً وزرعاً، كما قال تعالى: ﴿نِسْأُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...﴾ [البقرة].

ومعنى التشبيه في جملته - كما دل على ذلك هذا النص الكريم والنص الذي سبقه - أن حال هذا الإنفاق الذي لم يقصد به وجه الله تعالى بل قصد به التفاخر وكسب الثناء وتحدث الناس بالعطاء، كمثل الريح التي تكون باردة برداً شديداً يتوقع منها الناس الخير لزرعهم، فتهلكه وتبيد خضره وتجعله حطاماً، والجامع في هذا التشبيه بين المشبه والمشبه به هو أن كليهما كان يرجى خيره، ولكن بما لا يسه من ضرر وأذى صار مؤذياً.

وفي هذا التشبيه بيان أن الضرر لاحق بهم من هذا الإنفاق؛ ولاحق بالناس، لأنهم كانوا يعينون به على الشر، إذ كانوا ينفقونه في محاربة الرسول ﷺ، وإيذاء المؤمنين؛ وهو سبب في استعلائهم واستكبارهم، ولو حرموا المال والإنفاق لكان خيراً لهم.

في النص القرآني إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب بالريح من يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصي، فقال سبحانه: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾، فإن هذا النص السامي يرمي إلى أن الله تعالى يرسل في الدنيا عقاباً

على أموال الظالمين فيهلكها، ولو اتخذوا الأسباب وما يجب اتخاذه من احتياط لحفظ الأموال، وإن ذلك التخريج لا يوجد ما يمنع من قبوله، بل الإذعان له لأن تدبير العبد واحتياطه، لا يمنع تقدير الرب وقضائه، وإن الريح كانت سببا في نصرة النبي ﷺ في غزوة الأحزاب، فإن الله تعالى أرسل على المشركين ريحا ألقت الرعب في قلوبهم مع كمال العدة والعدد، وقال تعالى في ذلك: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. ولقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ» (١).

وإذا كان ذلك ثابتا فلماذا نستبعد أن يعاقب بعض الظالمين في الدنيا بإصابة حرثهم بريح، لفساد نياتهم، ولاستخدامهم المال في غير مواضعه، وإن الذين يستبعدون ذلك هم الذين يُفَرِّطُونَ في الإيمان بالأسباب العملية، ولا يذعنون للأحكام القدرية، وإن الزرع بالذات ليس لأحد أن يدعى أنه يستطيع حمايته من الرياح والآفات، مهما يتخذ من الاحتياط، فإن للأجواء أثرها، وللآفات الوبائية حكمها، ولا سبيل إلى التوقي الكامل منها.

وإذا كان الزرع وغيره مهما يتخذ من احتياط لحفظه لا يتقى الريح والآفات، فإنه لا يصح أن يكون ذلك نتيجة للمصادفة، فإن المصادفة بالنسبة لمداركنا، أما بالنسبة لأعمال الله تعالى فإن كل شيء عنده بمقادير، ومقصود بإرادته السرمدية، وهو يكون ثوبا أو عقابا أو إملاء يملأ الله به للظالمين حتى حين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥] وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] وَيَسْجِ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

(١) رواه البخاري: الجمعة - قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا (٩٧٧)، ومسلم: الاستسقاء - في ريح الصبا وريح الدبور (٩٠٠). الصبا: ريح تهب من المشرق. والدبور: ريح تهب من المغرب.

إذن فالأمر في الريح يصيب الله بها بعض الظالمين لظلمهم حتى لا ريب فيه، ولقد أخبر الله تعالى أن الظالم يسيء إلى نفسه دائماً، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

والضمير هنا يعود إلى الذين أصيب حرثهم بسبب ظلمهم، أي أن الله تعالى ما ظلمهم بالريح تصييبهم، إنما هم الذين ظلموا أنفسهم بفساد قلوبهم ونيتهم، واعتقادهم أنهم يستطيعون التحكم في القدر، وفي هذا إشارة إلى أولئك الذين أنفقوا في الإفساد للافتخار والخيلاء والاستكبار، في أن الله ما ظلمهم بإبطال إنفاقهم، إنما هم الذين ظلموا أنفسهم بأن تجنبوا إنفاق المال في الحلال بنية الحلال، بل أنفقوه في الحرام، وما أنفقوه في حلال إلا بنية الحرام.

وجوز الزمخشري أن يعود الضمير إلى الذين ينفقون في هذه الحياة، وهو ظاهر كل الظهور. ونضرع إلى الله أن يلهمنا الإنصاف في أقوالنا وأفعالنا، وأن يرزقنا صدق القول، والإخلاص في أعمالنا له، إنه سميع الدعاء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبَالٍ
وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
وَإِذَا الْقَوْمُ قَالَوْا ءَامَنُوا إِذَا اخْلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا
بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

هذه الآية وما وليها من آيات فيها عود إلى التحذير مما يريده أهل الكتاب والمنافقون من أهل الإيمان والإخلاص، فقد قال تعالى من قبل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران] وبين وجوب الاعتصام بحبل الله تعالى وهو كتابه تعالت كلماته، وعظمت آياته، لتتم الوحدة الإسلامية، ثم ذكر من بعد ذلك بعض أحوال أهل الكتاب، وما عساه قد يكون في بعضهم من خير، وما عليه سائرهم من شر، وفي هذه الآية يحذر تحذيرا شديدا من نوع آخر، فقد كان التحذير متجها إلى الحث على اليقظة الفكرية، حتى لا يفسد أهل الكتاب على المؤمنين دينهم الذي ارتضوا، فبين أنه لا يصح الاسترسال في إرضائهم، فإنه لا يرضيهم من المؤمن إلا أن يخرج عن دينه ويطرحه وراء ظهره، وأن يسير وراء ركبهم، ولقد قال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ١١٢﴾ [البقرة]. فالتحذير هنالك للخوف على العقيدة أن يفسدها هؤلاء، أما التحذير هنا فهو للخوف من أن يفسد أولئك المنافقون من أهل الكتاب الجماعة الإسلامية، وينشروا فيها الاضطراب، وألا يكون نظام قائم ثابت الدعائم، ولذا قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ بطانة الرجل: خاصته الذين يعرفون خفايا أمره، ومكنون سره، ويستبطنون ما يخفى على غيرهم، فيعرفون موضع قوته وضعفه، ويتخذ منهم مستشاريه الذين يستشيرهم، ويستنصحهم إن احتاج إلى نصيحة، وأصل البطانة خلاف الظهارة، وتطلق على الثوب الخفى الذى يكون باطنا غير ظاهر، وقد استعير اللفظ للدلالة على الذين يختصون بالاطلاع على باطن أمر الشخص، وكأنه شبه الذين يختصون بشئون الشخص خفيها وظاهرها ببطانة الثوب التى تلاصق الجسم أو تقاربه، لقوة الاتصال فى كل منهما، ولأن كليهما يمس ذاته وشخصه: بطانة الثوب تمسه حسا، وبطانة الرجل تمسه معنى، وكما أن الأولى أدرانها تكون أمكن فى الأذى وتكون أسرع، كذلك الثانية تكون أمكن وأقوى تأثيرا وأسرع.

ومعنى النص الكريم أنه لا يجوز للمؤمنين أن يتخذوا مستشارين ونصحاء، يستبطنون أمورهم من دونهم أى من غيرهم، فمعنى «دونكم» هنا «غيركم» الذين لم يبلغوا ما أنتم فيه من قوة الإيمان والإخلاص للحق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ...﴾ (٨٢) [الأنبياء] أى غيره الأقل منه.

وصدر النداء بوصف الإيمان للإشارة إلى أن مقتضى الإيمان ألا يستعينوا بأولئك الذين كفروا بآيات الله تعالى، وجحدوا بها واستيقفتها أنفسهم، فقضية إيمانكم وكفرهم توجب ألا تأمنوهم فى خاصة أموركم، ولقد كان السلف الصالح يأخذون بذلك الهدى القرآنى، فقد كان عمر رضى الله عنه ينهى عن اتخاذ الأعوان من أهل الكتاب وغيرهم، فقد قال رضى الله عنه: (لا تستعملوا أهل الكتاب، فإنهم يستحلون الرشا، واستعينوا على أموركم ورعييتكم بالذين يخشون الله تعالى) وقيل لعمر رضى الله عنه: إن ها هنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه، ولا أخطأ بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال الإمام النافذ البصيرة: (لا آخذ بطانة من دون المؤمنين).

وقد ذكر سبحانه الأوصاف والأحوال التى توجب الامتناع عن اتخاذ بطانة منهم، فذكر لهم أحوالا ثلاثة: أولها، وهى كافية فى إبعادهم عن أسرار الدولة، وهى التى قال الله تعالى فيها: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

الخبال كالحبل: الاضطراب والفساد وهما متلازمان، فلا اضطراب إلا ومعه فساد ولا فساد إلا يترتب عليه اضطراب، فهما معنيان متقاربان ومتلازمان، ومعنى «يألو» بقصر فى بذل الخير ويبدل الأذى غير مقصر ولا متوان، بل يتتهدز الفرص، وهى تتعدى إلى مفعول واحد، وقد تعدى إلى مفعولين إذا تضمنت معنى المنع، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ (لا يقصرون فى جهد يبذلونه لضرركم، ولا يمنعونكم خبالا واضطرابا فى الأمور)، أى لا يمنعونكم باذلين الجهد فى تحقيق مقصدهم ومرادهم فسادا واضطرابا فى الأمور، ليفسدوا عليكم دينكم، ويقوضوا دعائم دولتكم، ويخضدوا شوكتكم، ويكون أمركم بوارا بالفتن التى يبثونها، والريب التى يثيرونها.

ولقد صدق الله تعالى كلماته، فمن وقت أن صارت بطانة الملوك والأمراء من أهل الكتاب، وأمور المسلمين فوضى، تختفى الفوضى السياسية عندما يكون الأمير أو الملك قويا، ولكن تكون في بث أفكار فاسدة، وآراء تحل الوحدة، وقد كان أول من اتخذ كتابا من أهل الكتاب معاوية بن أبي سفيان، وحسبك أن تعلم أنه في عهده انتشرت الإسرائيليات، والأفكار التي تشير الرّيب في الحقائق الإسلامية، وقد كان يوحنا الدمشقي كاتب عبد الملك بن مروان وأبوه الذي كان كاتبها لمعاوية يیشان الأفكار الفاسدة بين المسلمين، مثل ادعائهم عشق النبي ﷺ لزينب بنت جحش، ومثل إثارة الكلام في الطلاق الثلاث، بل الكلام في أصل الطلاق، وإثارتهم الكلام في أن الله متصف بصفة الكلام أو غير متصف، وأن القرآن قديم أو غير قديم، ومثل إثارتهم الكلام في الجبر والاختيار.

وبذلك كانوا يحلون الوحدة الفكرية، ليتسنى لهم من بعد حل القوة الإسلامية، كما ظهرت النتائج من بعد.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ هذا هو الوصف الثاني، أو الحال الثانية من أحوالهم، وهى سبب لإرادتهم البوار والفساد للمسلمين، فالأولى مظهر ونتيجة، والثانية باعث ودافع، فهم لا يودون للمسلمين السعادة والرفاهية والخير والقوة بل يودون لهم الشقاء والتعس والأذى، وليس لعامل أن يطلع خفايا أموره ويستنتج من لا يود له إلا الشر والأذى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أى ودوا عنتكم وهلاككم، وإجهادكم وإنزال المشقة بكم، التي يترتب عليها تفريق جمعكم، وذهاب قوتكم. و«ما» فى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ هى ما المصدرية التي يسميها علماء النحو الموصول الحرفي، وهى تؤول هى وما بعدها بمصدر.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ البغضاء: البغض الشديد المستمكن الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، فهى صفة ثابتة، وفرق بين البغض والبغضاء فالْبَغْضُ حال تقبل الزوال، وأما الْبَغْضَاءُ فهى كراهية يبعد

زوالها، وهى على ذلك أخص من البغض المطلق، إذ هى بغض مقيد، وهى تظهر من عباراتهم وكلماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...﴾ (٣٠) [محمد]. وليس معنى ذلك أن البغضاء لا تبدو إلا فى الأقوال، بل تظهر أيضا فى الأفعال، ولكن عند الفحص الدقيق، والورن الصحيح، وإن ما يظهر على اللسان هو طفع مما امتلأ به القلب، فهى فيض الإناء وما يسبح منه، وما فى الإناء أكثر وأغزر، وهو المادة الوفيرة التى كان منها طفع الكيل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أى ما يظنون فى صدورهم وتنطوى عليه نفوسهم أكثر مما يظهر، إذ إن ما يظهر هو الجزء الذى انبثق من الوكاء، أو هو فى الحقيقة الرشح الذى ظهر من المسام التى تخفى ما وراءها.

وهذا الوصف هو فى الحقيقة توبيخ لأولئك الذين يأتعنونهم، وحالهم فى البغضاء ظاهرة مكشوفة، غير مخفية ولا مستورة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ختم الله تعالى هذه الأحوال بهذا النص الكريم، ليدعوهم إلى التفكير فيما هم مقبلون عليه، وليدعوهم إلى الحذر وتخبر خاصتهم وبناتنتهم، وخصوصا الحكام منهم، فإن البطانة تكون خيرا إن حضت على الخير، وتكون شرا إن حرضت على الشر، والعميق النظر المدرك المتعقل فيما يفعل هو الذى يدرك الأخيار من الأشرار، ولقد قال النبى ﷺ فيما روى البخارى: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وتحضه عليه، وبنانة تأمره بالشر، وتحثه عليه، والمعصوم من عصمه الله» (١).

والآيات المراد بها تلك البينات التى ذكرها صفات وأحوالا لهؤلاء يعرفون بها، وقد بينها الله للحكام إن كانوا يدركون الأمور بعقولهم لا بشهواتهم

(١) رواه البخارى: الأحكام - بنانة الإمام وأهل مشورته: البطانة: الدخلاء (٦٦٥٩)، كما رواه النسائي: البيعة - بنانة الإمام (٤١٣١)، وأحمد: مسند المكثرين (١٠٩١٤)، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وأهوائهم، فمعنى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تدركون الأمور بعقولكم، وإن ذلك لحق، فما رأيت حاكما يتخذ خاصته من غير المؤمنين إلا إذا كان ممن غلبت عليه شهواته وأردته ودولته أهواؤه، وما رأيت حاكما مسلما يتجنب هؤلاء إلا إذا كان ممن غلب عقله هواه، وممن جنبه الله الزلل فى الحكم.

بعد هذا أخذ سبحانه يقابل بين إخلاص المؤمنين، وحقد الكافرين الذين يتخذ بعض المسلمين منهم بطانة فقال: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

الإشارة إما أن تكون لعامة المؤمنين: من يتخذون بطانة من الكافرين، ومن لا يتخذون، ويكون المعنى ها أنتم أولاء أيها المؤمنون تحبونهم وترجون لهم الهداية والتوفيق، والخير والرشاد، وتؤمنون بالكتاب كله أى بالكتاب المنزل الذى يحوى شريعة الله تعالى التى لا تتغير ولا تبدل، فالكتاب هنا جنس للكتب المنزلة كلها، وهم لا يحبونكم ولا يريدون الرشاد، واستمرار الهداية، بل يريدون إفساد أموركم.

وإما أن يكون الخطاب للذين يخطئون ويتخذون منهم خاصة وبطانة ويطلعونهم على سر الأمور، ويكون المعنى ها أنتم أيها الذين أخطأوا تحبونهم وتقربونهم وتجعلونهم خواص لكم وهم لا يحبونكم، وأنتم أكمل إيمانا وأقوى يقينا، لأنكم تؤمنون بالكتاب المنزل كله، ففى ضمن إيمانكم التصديق بالصادق عندهم، وهم ناقصو الإيمان، فكيف تثقون بهم وهم منكرون جاحدون لما عندكم؟

ثم ذكر سبحانه حالا لهم تكشف عن كراهيتهم وبغضهم ونفاقهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَيْتَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

هذا بيان لنفاقهم، ولا يمكن أن يكون فى بطانة المؤمنين إلا المنافق منهم، سواء أكان من المنافقين الذين أعلنوا الإسلام فى ظاهر أحوالهم وعامة شئونهم

وأضمرؤا غيره، أم كان من الذين لم يدخلوا فى ضمن المسلمين ظاهرا؛ إذ لا يمكن إلا أن يكون فى قلبه حظ كبير من النفاق ما دام قد قبل أن يعمل خاصة وبطانة لمؤمن؛ لأنه لا يمكن أن يصل إلى هذه المنزلة إلا إذا أبطن غير ما يظهر، إن لم يكن فى شئون الاعتقاد ففى غيرها، فمن كان شأنه كذلك يكون منافقا لا محالة.

ويصح أن يكون المراد المنافقين الذين أضمرؤا الكفر وأظهروا الإسلام، ويكون هذا واضحا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ لأنهم يعلنون الإيمان، ولكن واضح أيضا أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾. عامة تشمل المنافقين وغير المؤمنين، فكيف نذكر بعد ذلك أوصاف المنافقين فقط؟ والجواب عن ذلك أن النهى عام، وقد ذكر التعليل خاصا بالمنافقين، لأنهم الأقرب لثلا يعهد إليهم بخواص الأمور، إذ هم يعلنون الإسلام، ويطنون غيره، فهم مظنة أن يخدع الحاكم فيهم، فدعاه القرآن الكريم إلى أن يتخير بطانته، وغيرهم لسان حالهم ينفر منهم إلا إذا كان الأمير أو الحاكم ممن لا يحسنون الحكم ولا معرفة المصلحة.

وعلى النظر الأول، وهو أن يكون الكلام فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ عاما لكل الكافرين يكون معنى: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أنهم يظهرون الرضا بحكم الإسلام والاطمئنان إليه، وأنهم يريدون قوة الدولة الإسلامية وعزتها، فليس الإيمان على حقيقته، بل معناه الرضا بقبول الحكم الإسلامى.

ولا شك أن التخرىج الآخر أوضح وأبين

ومعنى ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أن الحقد يأكلهم ولا يستطيعون إظهار الألم الشديد فى حضرة المؤمنين، فيدخرون إظهاره حتى إذا خلوا أظهروه فى أقصى مظاهره، وهى عض الأنامل من الغيظ، والأنامل قيل هى أطراف الأصابع، وقيل الأصابع نفسها، والمغيظ المحنق دائما يعض الأنامل، فهذا

مظهر لأعلى درجات الغيظ، وإن لم يقع من بعض الناس بالفعل، ولذا قال الشاعر:

فأقتلُ أقواماً لثاماً أذلةً يعضون من غيظِ رؤوسِ الأباهم^(١)

فهذا التعبير كناية عن بلوغ أقصى درجات الغيظ، وفي هذا إشارة إلى أن من يكون إحساسهم نحو المؤمنين كذلك لا يصح أن يوثق بهم في مهامهم؛ لأنهم منافقون، والمنافق ليس جديراً بالثقة، ولأنهم لا يسرهم من المؤمنين إلا أن يكونوا في خيال.

وانهم ما داموا لا يريدون إلا الشر بأهل الإيمان، فإنه يجب أن يستمروا على حالهم من الغيظ، لأن الخير فيما يغیظهم، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ ابتداءً، ولكل مؤمن بالتبع له عليه الصلاة والسلام، وقوله ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ ظاهره الأمر بالموت أو الدعاء بالموت، وحقيقته الدعوة إلى استمرارهم على غيظهم ما دام غيظهم سببه نجاح الإسلام ودعوته، وعموم هدايته وصلاح شأن المسلمين، فالأمر هنا طلب استمرارهم على غيظهم، فالمعنى استمروا على غيظكم، والاستمرار على الغيظ استمرار لسببه وهو نجاح الإسلام وقوته، وصيغة الأمر هنا للتهكم عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لإفادة أن ما يبيتونه للمسلمين يعلمه الله ويحاسبهم عليه ويعذبهم، فحالهم في الدنيا شر حال، وفي الآخرة العذاب الأليم، فلهم كمد الدنيا، وعذاب الآخرة، وقد جوز الزمخشري أن تكون تلك الجملة من مقول القول المأمور به في «قل» وأن تكون من قول الله تعالى، والمؤدى واحد، وهو أن الله عليم بالسرائر والضمائر، وفيها تطيب لنفوس النبي والذين آمنوا بأن الله تعالى ناصرهم وكاشف أمر أعدائهم إذا أطاعوا أوامرهم،

(١) الأباهم: جمع الإباهم.

واجتنبوا نواهيه، ولم يجعلوا من أولئك الأعداء بطانة لهم، حتى لا يمكنوهم من دخائل أمورهم، فيكون سر المسلمين مكشوفاً، وأمر هؤلاء مستورا.

﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ هذه صورة واضحة لأنهم لا يحبون المؤمنين، ويغيظهم صلاح حال المؤمنين، وإمداد الله تعالى بالنصر لهم، والمعنى إن أنزل الله لكم نعماً ونصراً وأمرنا حسناً نافعاً في ذاته ويحسن في نظركم وينفعكم ساءهم ذلك، وأثار غيظهم وحسدكم، وإن نزلت بكم شديدة وأمر يسوء يفرحوا، وتستطار ألبابهم سروراً وجوراً، وقد عبر سبحانه وتعالى في جانب الحسنة بقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ﴾ وفي جانب السيئة بقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ للإشارة إلى تمكن الحقد والحسد في قلوبهم بحيث إن أى حسنة ولو مست ولم تغمر وتعم - تسؤهم؛ لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمن مهما ضؤل كالشان في كل الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يفرحون بالمصيبة التي تمس، فإنها لا تشفى غيظهم بل لا يفرحون إلا بالمصيبة التي تغمر وتعم وتستمر.

وإن هذا كله يدل على أنهم يكيّدون للمؤمنين ويبالغون في الكيد لهم، وإن دفع هذا الكيد يستدعى الصبر والتقوى، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾.

أى وإن تصبروا، فتضبطوا أنفسكم ولا تنساقوا في محبة من لا يستحق المحبة، وتحملوا مشاق التكاليفات، وتقاوموا العداوة بمثلها، وتردوا اعتداءهم بمثله، وتتقوا الله تعالى، وتتقوا أذاهم، فلا تتخذوا منهم بطانة - إن فعلتم ذلك لا يضركم كيدهم وتبديرهم السيئ شيئاً من الضرر مطلقاً، وإن لم تفعلوا ذلك فلم تأخذوا حذرهم منهم، وسهلتهم دخول الغفلة عليكم، ولم تضبطوا أنفسكم عن محبتهم، فإنهم يستمكنون منكم بكيدهم، ولا منجاة لكم من شرهم.

وقد قرئ قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بالضم على أن ذلك من قبيل التخلص من التقاء الساكنين بالضم، فإن الفعل مجزوم، فيفك الإدغام، ويتخلص

من التقاء الساكنين بالضم أو الفتح، وقد قرئ بالفتح، كما قرئ «لا يَضِرُّكُمْ» من ضار يضير بمعنى ضر يضر.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ذيل الله سبحانه الآية بهذا النص، ليطمئن المؤمنين ويهدد الكافرين، فالمنى: الله تعالى محيط بما يعملون إحاطة علم وإحاطة قدرة، وإحاطة العلم فيها بيان أنه لا تخفى عليه خافية من كيدهم، وإحاطة القدرة مؤداها أنه محيط كل ما يدبرون ﴿وَمَكُرُوا وَكَرَّ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران].

هذه وصايا الله تعالى للنبي ﷺ وللمؤمنين بالنسبة لسياسة أمورهم مع مخالفيهم، يحترسون منهم، ولا يفرطون في الثقة بهم، فلا يتخذوا منهم بطانة وخاصة، وإلا كان الدمار والبوار والخيال، وهكذا نحن الآن، اللهم هين لنا من أمرنا رشداً.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦١﴾
إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ
أَذِلَّةٌ فَأَقْبَرُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦٣﴾

في الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى ما بيته أعداء المسلمين من خبال وأذى ينزلونه بهم إن اتخذوا منهم بطانة يلقون إليهم بالمودة ويكشفون سرائرهم لهم، وبين أن أولئك المنافقين تسوءهم مصلحة المؤمنين، وتسرههم مساءتهم، وأنه لا

علاج إلا أن تحذروهم وتصبروا عليهم، وتتقوا الله تعالى، وتصونوا أنفسكم عن تمكينهم من الأذى، وفي هذه الآيات يشير سبحانه إلى بعض صنيعهم في شديدة للمسلمين، وكيف كانوا يثبون الشك والفوضى في نفوس المجاهدين، مما جعل بعضهم يفكر في أن يفشل ويعجز وتخور عزيمته، ولقد أشار سبحانه في ذلك إلى غزوة أحد وغزوة بدر، فقال سبحانه:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ هذه الآية وما تليها نزلت في غزوة أحد، إذ خرج النبي ﷺ في السحر من السابع من شوال في السنة الثالثة من حجرة عائشة، وأخذ يصف المؤمنين للقتال، ويقف كل فريق منهم في موقفه، وقد جعل الرماة من وراء المقاتلين، وأمرهم بأن يكونوا وراء ظهور المقاتلين ينضحون عنهم بالنبل، وقال لأمرهم: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك» وأمر الجيش كله ألا يتحرك إلا عندما يأذنه بالحركة، حتى إن أحد الأنصار استشرف للقتال وتمناه عندما رأى قريشا قد سرّحت أفراسها وإبلها في زروع المسلمين، وقال: «أترعى زروع بنى قيلة (يعنى الأنصار) ولما تضارب».

وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ومعنى غدوت: أصبحت مبكرا مسارعا إلى تنظيم جيش المؤمنين جيش الله تعالى، والغدوة والغداة أول النهار، ويذكر الغدو والغداة أول النهار، ويذكر الغدو مقابلا بالأصل أي وقت العصر وقبل المغرب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور]. وقوبلت الغداة بالعشى، ويطلق الغدو على الذهاب ويكون مقابلا للرواح، ومن ذلك قوله تعالى في الرياح: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ...﴾ [سبا] وذلك لأن الذهاب عادة يكون في البكور، وتبوي معنى تسهل وتنظم وتثبت، وأصله من البواء وهو مساواة الأجزاء في المكان، وبوأت له مكانا سويته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا...﴾ [يونس].

وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أى تسوى لهم بالتنظيم والترتيب مقاعد للقتال، فهى إذا تتضمن معنى التنظيم والتهيئة والاستعداد، ولقاء المشركين صفا واحدا، كأنهم ببيان مرصوص.

وهذا التنظيم إنما هو بيان مواقف القتال، وموضع كل فريق فى الموقف الذى يقفه، ولكن النص السامى الكريم قال: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فعبر عن المواقف بالمقاعد للإشارة إلى وجوب الثبات والسكون، حتى لا يتحركوا إلا بأمر من القائد الأعظم وهو النبى ﷺ. وقد كان الثبات سبب النصر فى غزوة أحد، والهزيمة كان سببها عدم الاستمرار فى البقاء فى مواقعهم، ذلك أن الرماة عندما رأوا المؤمنين قد انقضوا بأمر النبى ﷺ على المشركين يقتلونهم ويزيلونهم عن مواقعهم، تركوا مواقعهم وذهبوا وراء المؤمنين يغنمون ويأخذون، فانقض عليهم من ورائهم فرسان المشركين، فتفرقوا، وهذا قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِيتُمْ وِتَّارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ...﴾ (آل عمران) [ومن هنا كانت إصابة المسلمين فى موقعة أحد.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا النص السامى لبيان أنه تعالى مطلع على ما كان يجرى بين المؤمنين وبين النبى ﷺ من مشاورات، وما استقر عليه رأى كثرتهم، ثم نزوله عليه الصلاة والسلام عند رأى الكثرة، ثم عدول الكثرة إلى رأى النبى ﷺ، ثم قول النبى لهم معترضا إمضاء ما قرروا أولا، وإن كان غير رأيه الذى مال إليه، ليعلمهم أن التردد ولو للصواب المحتمل ضرره أكثر من المضى ولو فى الرأى المحتمل للخطأ، فإن صواب الحروب وخطأها، لا يتبين، وإن التردد فيها يقتل، والمضاء فيها ينصر، وبين بهذا التذليل أيضا أن الله تعالى عليم بخفايا القلوب، فهو يعلم ما تهم به قلوب المؤمنين، وما توسوس به قلوب المنافقين، وما ييثونه من روح الذعر والهلع فى نفوس المؤمنين، ويحدثهم مستجابا فى قلوب ضعفاء الإيمان، وهم الذين قال القرآن عنهم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ...﴾ (البقرة).

ولقد علم الله ما كان من المؤمنين والمنافقين من مناقشات عندما ساور المدينة المشركون في العام الثالث، وأرادوا أن يثأروا من الدماء التي أصابتهم في بدر، فقد جمع النبي ﷺ أصحابه ليستشيرهم في الأمر، أخرجون إليهم، أم يبقون حتى يجيء العدو إليهم في الديار، فقال بعض المؤمنين: (أقم يارسول الله بالمدينة، ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين). وعارض ذلك الرأي الأكثرون ممن لم يحضروا بدرا فقالوا: (اخرج بنا يارسول الله إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أننا قد جئنا عنهم). وما زال أولئك الذين لم يحضروا بدرا بالرسول حتى نزل عند رأيهم، وقد كان إلى الأول أميل.

وتركهم وعاد إلى أهله ليلبس لأمة الحرب، فتلاوم المسلمون فيما بينهم، وقال قائلهم: بشما صنعنا، نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه؟ فلما جاء إليهم الرسول قالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال الرسول ﷺ ذو العزم: «ما كان لنبي لبس لأمة أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»^(١).

وقد خرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه، وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف، وكان مع المسلمين طائفة من المنافقين، على رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول، فرأى أن يحدث الخلل في الصفوف فرجع ومعه نحو ثلاثمائة ممن على شاكلته وضعاف الإيمان، وبرز تخاذله بأنه كان يرى ألا يخرج إليهم المؤمنون وأن يبقوا بالمدينة، ومنهم من زعم أنه لا قتال، وقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ...﴾ [آل عمران].

(١) جاء في البخاري في ترجمة «باب قول الله تعالى ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾». واحمد: باقي مسند المكثرين (١٤٢٦٠).

وقد ظهرت عداوة المنافقين، وبرزت نياتهم، وتكشفت سرائرهم، حتى إن أعمى منهم قد مر النبي في بعض أصحابه بحائطه (أى بستانه) فأخذ يحثو التراب في وجوههم، ويقول وقد أخذ حفنة بيده: لو أنى أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك فابتدره القوم ليقتلوه، فقال النبي ﷺ: «لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر» وفى وسط تلك الزوبعة التى أثارها المنافقون بانشقاقهم عن الجمع وعودتهم إلى المدينة ألقوا الرعب فى قلوب بعض الضعفاء، حتى لقد هم بعض المؤمنين بالفشل، وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾.

الهمُّ هو حديث النفس واتجاهها إلى أمر معين من غير تنفيذ، فحديث النفس هو ما يأخذ طريق التنفيذ، فإذا أخذ طريق التنفيذ فهو إرادة وعزيمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ والفشل ضعف مع جبن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾ ﴿٤٦﴾ [الأنفال] ومن ذلك أيضا قوله تعالى:

﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم مانحين﴾ ومعنى النص اذكر أيها النبي الكريم أنت وأمتك أثر إفساد المنافقين إذ اتخذتم منهم بطانة، اذكر ذلك إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا، أى إذ حدثت نفسها طائفتان من المؤمنين لا من المنافقين أن تفشلا وتضعفا فى وقت الشديدة والكريهة، مع أن الله تعالى وليهما وناصرهما، ومن يكون الله معه لا يهزم إلا إذا خالف أوامر الله وأوامر نبيه وقائده الأعلى، فذكر ولاية الله تعالى فى هذا المقام لسببين:

أحدهما: أن المنافقين استطاعوا أن يؤثروا فى المؤمنين ذلك التأثير السيئ مع أن المؤمن يشعر دائما بولاية الله تعالى وعزته، وأنه سبحانه وتعالى ينصر من

ينصره، وهو القوى العزيز، وأن هذا يوجب أن يعمل الهادى والمرشد على أن يصون نفوس المؤمنين من أن يدخل إليها شياطين الإنس من المنافقين والمخادعين.

الثانى: أن ذلك فيه معنى التوبيخ لأولئك الذين تأثرت نفوسهم بأولئك المنافقين لأنه ما كان ينبغى لهم أن يستمعوا إلى دعاية المنافقين، أو أن يفتحوا لها بابا تدخل منه إلى قلوبهم، ولكن هكذا البشر تتسرب إلى نفوسهم وسوسة الشيطان من حيث لا يشعرون.

وإن الطائفتين اللتين همتا بالفشل هما بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج، وكانا جناحى العسكر يوم أحد، وقد ذكر البخارى عن جابر قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا﴾. نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا﴾.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وإذا كان الله سبحانه وتعالى ولى المؤمنين حتى من يهم أن يضعف متأثرا بحركات المنافقين، فإنه سبحانه وتعالى هو الذى يتوكل عليه المؤمنون، والمؤمن بوصف كونه مؤمنا لا يعتمد على حليف أو نصير، وإنما يعتمد على الله تعالى وحده، فإذا كان المنافقون قد خذلوا المؤمنين فى ساعة العسرة فإن الله معهم وناصرهم، ولن يخذلهم ما داموا آخذين بأوامره منتهين عن نواهيه، ولن يتمكن منهم فى هذه الحال أعداؤهم ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج].

والتوكل الحقيقى لا يستدعى ترك الأسباب، فإنه لا توكل إلا بعد الأخذ بالأسباب، إذ إن حقيقة التوكل الذى طالب الله تعالى به هو أنه يأخذ بالأسباب ويستعد، ثم يترك الأمور لله تعالى، فإنه قد يعرض للإنسان ما ليس فى حسبانته، فعليه أن يترك تلك المنطقة الغيبية لعلام الغيوب، والدليل على أن التوكل فى القرآن والسنة يستدعى اتخاذ الأسباب، أنه يجتمع مع الجهاد والمشاورة، فالله

تعالى يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ (١٥٩) ﴿آل عمران﴾.

وفى الآية التى نتكلم فى معانيها السامية جاء الأمر بالتوكل بعد أن أخذ النبى ﷺ ييؤى المؤمنين مقاعد للقتال، ويأخذ الأهبة ويستعد، وإذا كان التوكل ترك الأسباب فَلَمْ كان الأمر بالعمل والقتال وغيره من التكليفات التى تكون سببا لتتائج شرعية.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ بعد أن أشار سبحانه إلى تأثير أهل السوء مع كثرة المؤمنين - فى غزوة أحد وكيف حاولوا أن يوهنوا عزائم المؤمنين أخذ سبحانه وتعالى يبين غزوة بدر، وقد كانت وليس بين المؤمنين منافقون؛ لأن أولئك المنافقين ما دخلوا إلا بعد أن وجدوا أن كلمة الله هى العليا، فأظهروا الإسلام وأبطنوا غيره، وكان منهم يهود ومنهم مشركون، فكان المسلمون قلة، ولكن لأنه لم يكن بينهم منافقون، ولم يتخذوا بطانة من غيرهم نصرهم الله سبحانه وتعالى. والمعنى أن الله تعالى نصركم والحال أنكم كنتم قليلا وكنتم مستضعفين فى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦) ﴿[الأنفال]﴾.

وإن ذكر هذا يدل على أمرين: أحدهما: أنه لا بد من التفويض إلى الله تعالى مع أخذ الأسباب، والثانى: أن القلة مع نقاء القلوب وتلاقى العزائم يكون معها النصر؛ لأن توحيد الغرض قوة فى ذاته تكافئ قوة العناد والعدة.

وقد يقول قائل: كيف يعبر القرآن الكريم عن المسلمين بأنهم كانوا أذلة قبل بدر، والذلة أمر نفسى، وما كانوا كذلك فى أى دور من أدوارهم، فأولئك الضعفاء الذين كانوا يفتنون فى دينهم فلا يغيرون هم فى عزة نفسية أكثر من مضطهديهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (٨) ﴿[آل عمران]﴾.

[المنافقون] ويقول في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٥﴾ [المائدة] ويقول تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ٢٩﴾ [الفتح] ؟.

والجواب عن ذلك أن الذلة التي وصف بها المؤمنون قبل بدر هي مظاهرها من ضعف العدة، وقلة العدد وقلة المال، حتى إنه لم يكن معهم ظهر، وقد خرجوا للقاء المشركين في بدر، وقد قال الزمخشري في معنى كلمة أذلة: «والأذلة جمع قلة، والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة، ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال، وقلة السلاح والمال، والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان بينهم إلا فرس واحد، وقتلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان عددهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة».

فليست الذلة ذلة النفوس إنما هي ظاهر الحال وما كان فيه من ضعف.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ إذا كان النصر من عنده تعالى، وهو ولي المؤمنين، فعليهم أن يتقوه، والتقوى معناها استشعار هيئته وجبروته وعظمته وقوته، وأنه إن أراد بقوم خيرا فلا يستطيع أهل الدنيا أن يمنعوه، وإذا أراد بقوم سوءا فلا يستطيع أن يمنعه من قوة الله تعالى، فلا عزة إلا منه، ولا ذلة إلا في عصيانه، وأن التقوى على هذا المعنى توجب الشكر، ولذلك قال بعد الأمر بالتقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أى اتقوا الله تعالى وهابوه، وأقروا بأن الكبرياء له وحده في السموات والأرض، رجاء أن تشكروه بهذه التقوى، والرجاء من العبيد لا من الله تعالى، فهو الغنى الحميد، فالتقوى هي في الحقيقة شكر الله تعالى، لأنه سبحانه هو المنعم وهو المتفضل في كل ما يتعلق بالإنسان من نعم هذا الوجود، وشكره أن تعرف حق ما أسدى، وما تدل عليه النعم من جلال الله وعظمته، فاللهم وفقنا لتقواك، ليتحقق منا شكرك، إنك أنت العلى الوهاب.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
 أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ
 هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ
 ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا
 النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
 مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾

اختلف المفسرون في هذه الآيات، أمى في غزوة بدر الكبرى التى جعل الله فيها الكلمة العليا للمسلمين، والكلمة السفلى للمشركين، والتى خرجت بالمؤمنين من حال الضعف فى الأرض إلى حال القوة فيها؟ أم هى فى غزوة أحد التى اختبر الله المؤمنين إذ لم يتبعوا أمر الله تعالى الذى يتضمن الطاعة للرسول ولأولى الأمر، فبين لهم سبحانه وتعالى نتيجة المخالفة بذلك الاختبار الشديد، قال بعض المفسرين: إن الآية فى غزوة بدر الكبرى، لأن الله تعالى يقول قبل هذه الآية مباشرة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فقد ذكر النصر مجملا فى هذه الآية فيكون ما بعدها تفصيلا لمجملها، وتكون هذه الآيات الكريمة التى نتكلم فى معانيها السامية بيانا لأسباب هذا النصر، وهذا يتفق مع السياق.

وقال أكثر المفسرين: إن هذه الآيات فى غزوة أحد، فقوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [آل عمران] فى موضع البيان أو البدل من قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران].

إن الرواية تؤيد ذلك إذ روى عن كثيرين من التابعين أن إمداد الله بالملائكة كان في بدر بألف، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ [الأنفال]. وقد ذكر الضحاك في قوله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾ أن هذا كان موعداً من الله يوم أحد، عرضه الله على نبيه محمد ﷺ وقد روى أن المجاهدين قالوا لرسول الله ﷺ وهم ينظرون المشركين: أليس الله تعالى يمدنا كما أمدنا يوم بدر، فقال رسول الله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾.

ويرجح شيخ المفسرين ابن جرير أن هذه الآية في غزوة أحد.

وإنا نختار ذلك الرأي؛ لأن الآيات من بعد ذلك ستتكلم على نتائج غزوة أحد في تفصيل بيّن، وما كانت الإشارة إلى بدر إلا من قبيل التذكير بحال المجاهدين في الغزوتين، وأن حالهم في الأولى أوجب النصر، وما كان في أثناء القتال أنتجت ذلك القرح الذي أصاب المسلمين في تلك الغزوة وهي أحد: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾.

على الرأي المختار وهو أنها في غزوة أحد تكون كلمة «إذ» ظرف زمان بدل من «إذ» في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ ففي هذا النص السامى بيان حال الوهن الذي أصاب بعض المؤمنين، وفي هذه الآيات التي نتكلم في معناها، عمل الله ونبيه على علاج هذا الوهن، وهو بالبشرى التي يزفها لهم من تأييد لهم بالملائكة ينزلون إليهم. وإن ذكر عدد الملائكة هنا مناسب لعدد المشركين؛ لأن عدد المشركين كان نحو ثلاثة آلاف أو يزيدون، وعدد المسلمين كان نحو ألف؛ انخزل منهم نحو ثلثهم قبل القتال، وهم أولئك الذين اتبعوا رأس النفاق عبد الله بن أبيّ، كما أن عدد الملائكة كان مساوياً لعدد المشركين كانوا نحو ألف، وعدد المؤمنين نحو ثلاثمائة، وإن هذا مما يزكى أن الآية التي نتكلم في معانيها السامية نزلت في غزوة أحد.

وقوله تعالى على لسان نبيه: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ﴾ تومئ إلى أن حالا من الخور قد اعترت نفوس بعض المحاربين، إذ إن الاستفهام كان منصبا على (لن) التي تفيد النفي المؤكد، والمعنى: أمن المؤكد أنه لا يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وهذا فرق ما بين الاستفهام إذا دخل على «لا» والاستفهام إذا دخل على «لن» فالأول استفهام منصب على نفي غير مؤكد، والثاني استفهام منصب على نفي مؤكد، وذلك يدل على خور قد اعترى بعضهم، فكانت الحال في الابتداء عن بعض المحاربين تومئ إلى احتمال هزيمة.

ومعنى الآية الكريمة في الجملة: تذكر حالهم أيها النبي الكريم فبعضهم هم بأن يفشل، وأن قوما قد نكصوا على أعقابهم، وأثر ذلك في نفوس غيرهم، وأنت بأمر ربك وعدتهم بأن يمدهم الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، أي ينزلهم الله تعالى إلى أفئدتهم فؤادا فؤادا، ويكون منهم النصر العزيز بأمر الله تعالى، وإن هذه الحال، وهي ابتلاء الوهن على نفوس بعض المسلمين، جعلت النبي ﷺ بأمر ربه يعدهم وعدا أوفى، ويزيل احتمال عدم الكفاية من مدد الله، ويؤكد الكفاية فيقول تعالى:

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ «بلى» هنا إجابة لحاجتهم من المعونة الروحية، وفيها معنى الإضراب عن الإمداد الكثير إلى الإمداد الأكثر، والمعنى: يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة، ونرى من المقابلة بين النصين الكريمين أن النص الأول فيه استنكار للنفي المؤكد بـ «لن» من أن ثلاثة آلاف لا يكفي، وفي هذا النص تأكيد بأنه يكفيهم خمسة آلاف، ولكن الكفاية لا تتحقق في ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف إلا بشرط، وهو الصبر، والتقوى، ولذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا﴾ أي إن تسربلتم سربال الصبر، واستشعرتكم تقوى الله، وعلمتم أن النصر من عنده، فإنكم لا محالة منتصرون، وسيمدكم الله بروح منه، أولئك الملائكة الأطهار، وإن الصبر هو قوة الحروب، والصبر يتقاضى أن يضبط المجاهد نفسه فلا ينساق وراء

هوى المال، وأن يضبط نفسه فلا يفر فى لقاء، والتقوى تتقاضى التوكل بعد الأخذ فى الأسباب، والاعتماد على القوى القهار الغالب على كل شىء، فبالتقوى والصبر تفيض الروحانيات المؤيدة التى هى مدد الله من الملائكة. ومعنى ﴿وَيَأْتُواكُمْ مِّنْ قَوْرِهِمْ﴾ أى من ساعتهم، والأصل فى الفور أنه مأخوذ من فوران القدر، ونحوها، ثم استعير للسرعة، ثم صار بمعنى التعقيب وعدم التراخى، ويطلق على كل حال لا تأخير فيها ولا بطة. ومعنى ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أى مكلفين أو مرسلين.

ومعنى النص الكريم: إن تصبروا وتتقوا ويأتوا من ساعتهم وقد استعددت لهم أتم استعداد، فإن الله - تعالى - بمدكم بخمسة آلاف من الملائكة - يرسلها تأييدا لكم.

ولقد قرر بعض العلماء أن الله أمد المؤمنين فى بدر بالملائكة، ولم يمدهم بها فى أحد، وقد قال فى ذلك الطبرى: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ريكم بثلاثة آلاف من الملائكة، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم، ولا دلالة فى الآية على أنهم امتدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة الآلاف ولا على أنهم لم يمدوا بهم ولا خبر عندنا صح من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة، وغير جائز أن يقال فى ذلك إلا بخير تقوم الحجة به، غير أن فى القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال] أما فى أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا ونيل منهم ما نيل منهم.

ونحن نوافق شيخ المفسرين فى ذلك، ذلك أن شرط الإمداد كان الصبر والتقوى؛ والصبر أى ضبط النفس لم يكن من الرماة الذين أمرهم النبى ﷺ أن يحموا ظهر المؤمنين، فلا يتحركون سواء أكانت الجولة الأولى للمؤمنين أم كانت عليهم.

ولكن ما معنى الإمداد؟ وهل نزل الملائكة إلى الأرض حاملين السيوف مقاتلين في صفوف المؤمنين؟ لقد ذكر بعض الرواة أنهم نزلوا ذلك النزول، ويكون معنى الإمداد هو الإمداد الحسى الذى يرى ويسمع ولكن ليست هذه الرواية هي المشهورة وإن الحق في الموضوع أنهم لم يروا مقاتلين، ولا محاربين.

وإذن كيف كان الإمداد؟ الإمداد من مده بمعنى بسطه، ثم أطلق على الزيادة في المال والقوة، ويصح أن يطلق بمعنى الإمداد الروحى، وليس معنى الإمداد الروحى هو تقوية العزيمة فقط، بل معناه أن الله يفيض بأرواح الملائكة المطهرين، فتكون في قلوب المؤمنين تثبتهم وتقويهم، وتطهر نفوسهم، وتجعلها نحو الدين، ثم تفيض هذه الأرواح من الملائكة فتشبط المشركين وتخذلهم وتلقى الرعب في قلوبهم، فعمل الملائكة تثبت المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولذا قال تعالى في غزوة بدر الكبرى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾ (١٢) [الأنفال] وعلى ذلك نحن نميل إلى أن نزول الملائكة نزول روحى، والأرواح الطاهرة المطهرة تحل في قلوب أهل الحق، إذا وجد عندهم الاستعداد لتلقيها، والاستعداد لتلقيها يكون بالتقوى وتخليص النفس من أهوائها، وضبط المشاعر والإحساس، حتى يكون الجو الروحى الذى يمكن أن تنزل فيه تلك الأرواح التى هي نور خلقه الله تعالى، ولذلك كان الشرط في نزول الملائكة، وإمدادهم للمؤمنين، أن يصبر المؤمنون جميعا ويتقوا. ولا يكون في فريق منهم ما يجعل للهوى في قلبه سبيلا فيمنعه من ذلك التلقى الروحى. وإن ذلك هو رأى الطبرى فقد ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ قال: (قوا عزائمهم، وصححوا نياتهم، في قتال عدوهم من المشركين، وقيل كان ذلك بمعونتهم إياهم بقتال أعدائهم) ونرى بهذا أنه اعتبر من قال إنهم قاتلوا معهم قوله ضعيف، ولذا عبر عنه بقليل، وقد أنكر أبو بكر الأصب من فقهاء الحنفية قتال الملائكة، وقرر أن ذلك إن كان فهو من أعظم المعجزات ولم يذكر قط أنه معجزة، ولأن ملكا واحدا يكفى لك مدائن،

فلا تكون ثمة حاجة لعدد من الملائكة ألفا أو ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف، وإنما المراد تقوية القلوب والعزائم.

هذا، وإننا ننتهى من هذا إلى أن الملائكة وهى الأرواح المطهرة نزلت، وامتزجت بأرواح أولئك الصديقين الأطهار فى يوم بدر، وكان النصر من عند الله تعالى. وأن الأرواح الطاهرة من الملائكة قد تلبس أرواح أمثالها، ولا دليل من العقل يمنع وقد قام الدليل من النقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أى وما جعل الله تعالى ذلك الوعد الذى ساقه على لسان رسوله لكم إلا تبشيرا لكم بالنصر إن أخذتم الأهبة، وسلكتكم الجادة واستقمتم فى إطاعة القائد الحكيم، والمدبر العظيم، وقد كنتم فى حاجة إلى هذا الوعد، إذ أصاب بعضكم الوهن عندما رجع المنافقون بجموعهم وهم ثلث الجيش يقولون: «لو نعلم قتالا لاتبعناكم» حتى لقد همت طائفتان منكم أن تفشلا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ فهذا الوعد الإلهى الذى جاء على لسان النبى الأمى كان للتبشير بالفوز إن صبروا واتفقوا، ولتطمئن قلوبهم به وليذهب فرع الذين أصابهم الفرع عندما كان من المنافقين ما كان.

ولقد يقول قائل: كيف تكون البشرى مع أن النتيجة لم تكن نصرا، والبشرى يكون فيها الفوز ولا فوز هنا، والله سبحانه وتعالى لا يتخلف قوله ولا وعده؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن تلك البشارة مقرونة بشرطها من جانبهم وهى أن يتقوا ويصبروا، وما صبروا أو على الأقل ما صبر الرماة منهم لأنهم ما ضبطوا أنفسهم، بل خالفوا نهى النبى ﷺ، واتبعوا هواهم فكان ما كان، وفوق ذلك فإن البشرى قد تحققت فى أن الله تعالى ألقى فى قلوب المشركين الرعب عندما تلاوموا فيما بينهم بعد أن أصابوا من المؤمنين قرحا، وقال قائلهم: «لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكتهم وحدهم وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم» وما زالوا حتى أجمعوا الكرة على المؤمنين ولكن

الله تعالى أركسهم وخذلهم، وألقى في قلوبهم الرعب، فرضوا من الغنيمة بالإياب.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ هذا تقوية لمعنى البشرى، ورد على كل الأوهام التى ثارت، وفيها أمر لهم بالتفويض لربهم، وأنهم إن كانوا قد أصابتهم جراح لأخطاء ارتكبوها، ومخالفات للطاعة وقعوا فيها، فإن الله تعالى لم يتخل عنهم، ولا نصر إلا من عنده، لأن كل شيء بيده، وقد حرم المشركين من ثمرات ما فعلوا حتى عادوا من غير نصر نالوه، وإنه يعدكم النصر منه متى أخذتم بالأسباب، وتركتم عوامل الخذلان، وقد وصف ذاته الكريمة بأنه عزيز حكيم؛ لأن ذلك هو الذى يناسب المقام، فالله سبحانه عزيز غالب قهار لا يغلب، وهو حكيم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وقد وعد بالنصر، فالنصر آت لا ريب فيه.

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُم فَيَقْبَلُوا خَائِبِينَ﴾ فى هذا النص الكريم بيان لثمرات نصر الله تعالى، وفيه يتبين أن نصر الله لعبادة المؤمنين ينتهى إلى غايات منها: أن يقطع طرفا من الذين كفروا، وفسر العلماء ذلك بأن يقتل فريق منهم ويؤسر فريق، فإن ذلك قطع لهم، وعندى أن قطع طرف من الذين كفروا يتحقق بذلك، ويتحقق بما هو أقوى منه، وهو أن تنقص عليهم الأرض من أطرافها، ويستولى على جزء من أرضهم، حتى يتحقق قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾ [الأحزاب]. ومن غايات النصر ونتائجه أن يكبت الله تعالى الذين كفروا بسبب كفرهم، والكبت يطلق بعدة معانٍ، فيراد به الرد العنيف، ويراد به شدة الغيظ، وقيل: إن أصله الكبد، أى إصابة الكبد وتقريحه بالغيظ الشديد، ويطلق ويراد به الحزى، والمعنى أن من غايات نصر الله تعالى للمؤمنين أن يصاب الذين كفروا بالغيظ الشديد والحزى والألم النفسى، حتى يخبو صوت الكفر، ويعلو صوت الإيمان، ويصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعند الناس ينقلبون، أى يعودون خائبيين. وفى التعبير عن العودة بالانقلاب

إشارة إلى أن مقاصدهم قد انقلبت، فقد أرادوا اقتلاع الإسلام فما وهن المسلمون، وأرادوا أن يطفئوا النور فما انطفأ، فالانقلاب عودة من غير تحقق المقاصد، وفي هذا إشارة إلى أن الجراحات التي أصابت المؤمنين لم تكن نصراً للكافرين، بل قد كانت ثمرة النصر للمؤمنين، إذ قد انقلب الكفار خائبين: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا...﴾ (٢٥) [الأحزاب]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) [إبراهيم].

لَيْسَ لَكَ

مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الرِّبَا أَعْظَفًا مِّثْلَ بَعْضِهِمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

الكلام متصل بغزوة أحد وما فيها من عبر، فإنه يروى في الصحاح عن أنس: أن النبي ﷺ كسرت ربايعيته يوم أحد، وشج وجهه الكريم، حتى سال منه الدم الزكي، فقال عليه الصلاة والسلام: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم»^(١) فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

(١) ذكر ذلك البخاري في الترجمة: المغازي - باب (ليس لك من الأمر شيء)، ورواه مسلم في صحيحه: الجهاد والسير - غزوة أحد (١٧٩١). كما رواه الترمذي: تفسير القرآن (٢٩٢٨)، وابن ماجه: الفتن (٤٠١٧)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١١٥١٨).

وسواء أكان هذا هو السبب في النزول أم لم يكن، فإن الخبر صحيح في ذاته، والآية الكريمة متصلة بما قبلها، وهو اتصال تفسير وتتميم على بعض التخريجات، أو اتصال موضوع على تخريج آخر، إذ إن موضوعها متصل بغزوة أحد كالآيات قبلها، والتخريجان يظهران في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فإن بعض العلماء يعتبرها معطوفة على قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَوْ يَكْتُوبُهُمْ﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جملة معترضة؛ والمعنى على هذا: إن النصر من عند الله العزيز الحكيم يعطيه عباده المؤمنين ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكتبهم، بأن يخزيهم ويرد كيدهم في نحورهم، أو يتوب عليهم أو يعذبهم، ولكن الأمر في هذا ليس لك، إنما هو لله تعالى، لأنه يتصل بتدبيره سبحانه الكوني، وتقديره الأزلي، وليس لك إلا أن تدبر ما تستطيعه، وتقدر ما يدخل في حسابك، وتنفيذ ما تكلف بتكليفه وقد رجح هذا التخريج الزمخشري، وقال فيه: (المعنى أن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مبعوث لإبذارهم ومجاهدتهم).

هذا هو التخريج الأول في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وهناك تخريج آخر مؤداه أن الاتصال ليس اتصال عطف بين الآيتين، إنما هو اتصال موضوع فقط، وهذه الآية تكون لأمر جديد في الموضوع، وهو بيان أن هؤلاء منهم من يفلح فيتوب، ومنهم من يصصر على الكفر فيعذب، وتكون نصب (أو يتوب) على تقدير (أن) الناصبة، وتكون (أو) بمعنى (حتى) والمعنى: ليس لك من أمرهم شيء فيما يتعلق بمستقبلهم حتى يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم، أو حتى يصروا فيعذبهم فترى آية الله فيهم وصدق وعده لأنبيائه، إذ قد وعد، ووعدته حق وصدق.

وقيل إن (أو) هنا بمعنى (إلا)، والمعنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح، أو يعذبهم فيذهب غيظ المؤمنين، والمؤدى واحد سواء كانت (أو) بمعنى «حتى» أو «إلا».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ تعليل لعذابهم عند إصرارهم، فالسبب في التعذيب بعد هذا الإصرار أنهم ظالمون، لأنهم اعتدوا على المؤمنين ففتنوه عن دينهم الذي ارتضوا، واعتدوا على النبي ﷺ بإيذائه والسخرية منه، واعتدوا مرة ثالثة بقتال المؤمنين، ومحاولة اقتلاع مدينتهم الطاهرة، واعتدوا على الحقائق فموهوها وزيفوها، واعتدوا على أنفسهم فأضلوا وأفسدوها؛ اعتدوا كل هذه الأنواع من الاعتداء فكانوا ظالمين ومستحقين للعذاب، وقد أكد سبحانه وتعالى وصفهم بالظلم بـ «إِنَّ» المؤكدة للحكم، وبالجملية الاسمية، وبوصفهم بالظلم كأنه شأن من شئونهم وطبيعة في نفوسهم، إذ لم تهدم إلى الحق الحجج الدامغة، ولا الآيات البينة ولا القوة الغالبة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا تأكيد للنفي السابق في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إذ الأمر في السموات والأرض كله لله تعالى، وسلطانه تعالى على ما في السموات والأرض سلطان المنشئ والمدير والمالك والعالم بماضي ما فيها وحاضره ومستقبله، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وهو يعلم بما يجري فيه، وما سيكون من شأن له في المستقبل فهو علام الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا كان كذلك فلا سلطان لأحد سواه، وليس لأحد مهما أعلى الله تعالى منزلته، واختصه بفضله ورحمته، شيء من الأمر، وهو سبحانه وتعالى يعلم توبة التائب قبل أن يتوب، وإصراره على الذنب قبل أن يموت، وهو الذي يغفر إن شاء، ويعذب من يشاء، ولذا قال بعد ذلك للدلالة على كمال سلطانه: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

وسلطانه تعالى في هذا مطلق لا قيد يقيد، لأنه الحكم المطلق الذي لا يرد حكمه، والقادر المهيمن القاهر فوق عباده، ولقد قيد الزمخشري الغفران بالتوبة، ويقول في ذلك: (عن الحسن البصري) يغفر لمن يشاء بالتوبة ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين، ويعذب من يشاء ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين لعذابه، وعن عطاء: (يغفر لمن يتوب إليه، ويعذب من لقيه ظالماً...) ويشير إلى اختيار ذلك

الرأى الذى نقله، ويقرر أن السياق يؤدى إلى هذا، لأن هذا تفسير لقوله تعالى من قبل: أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون، إذ تكون المغفرة عند التوبة والعذاب عند البقاء على الظلم، ويرمى الذى يسوغون الغفران لغير التائبين بأنهم يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخطئون خبط عشواء!.

والأمر فى هذه القضية يرجع إلى أن المعتزلة يقررون أن الذنب لا يُغفر إلا بالتوبة، لصدق وعد الله ووعيده وقد وعد المتقين والتائبين بالشواب، وأوعد الظالمين بالعقاب، والله سبحانه وتعالى منجزٌ وعده ووعيده، وأكثر العلماء على أن الله تعالى وصف نفسه بالغفران، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (٤٨) [النساء] ولقد ذيل سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله:

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وصف سبحانه وتعالى ذاته العلية بصيغة المبالغة فى الغفران، فقال «غفور» أى كثير المغفرة يحبها ويريدها، وهو رحيم، والرحمة أوسع معنى وأشمل من مطلق التجاوز عن الذنب، بل إن الرحمة قد تعم العقاب كما تعم الثواب، فاقتران الرحمة بالغفران يدل على ثلاثة أمور.

أولها: أن الله تعالى لا يكتفى بغفران الذنوب عن العصاة التائبين، بل يشيهم على ما يفعلون من حسنات، وإن الحسنات عنده سبحانه وتعالى يذهبن السيئات.

ثانيها: أن الغفران من الرحمة، وما دام من الرحمة فلا قيد يقيده، والله أعلم بمن يكون موضع رحمته، ومكان مثوبته.

ثالثها: أن العذاب للمصر على الذنب الذى يعيث فى الأرض فساداً، ويفتن الناس عن دينهم يعد من الرحمة؛ لأن رحمة الله تعالى عامة لا خاصة، ومن الرحمة بالعامة عقاب العصاة المفسدين، وثواب الطائعين الأبرار:

بعد أن أشار سبحانه إلى أن التفرق وعدم الطاعة للرسول كان سببا للهزيمة يوم أحد، والتعاون والاتحاد كان أساس القوة والنصر والتأييد من الله تعالى يوم بدر أخذ يبين أن قوة الأمة تكون بالتعاون.

ولعل أبعد الأمور عن معنى التعاون - الربا، ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى عن الربا في هذا المقام؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾.

ولقد ذكر الففال - من علماء الشافعية - أن بين هذه الآية الناهية عن أكل الربا أضعافا مضاعفة، وغزوة أحد مناسبة ظاهرة، وذلك أن المشركين في غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا، ولعل ذلك يدعو بعض المسلمين إلى الإقدام على الربا، حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر ويتمكنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم عن ذلك.

لقد ابتدأ الله سبحانه وتعالى الآية بالنداء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لبيان أن أكل الربا ليس من شأن أهل الإيمان، وإنما هو من خواص أهل الكفر والعصيان، فإذا كان المشركون يأكلون الربا ويتقوّن به، ويكاثرون أهل الإيمان بأموالهم التي اكتسبوها من السحت فليس لأهل الحق أن يجاروهم، بل عليهم أن يحرموه على أنفسهم، ولا يأكلوا إلا حلالا طيبا.

و«الربا» معناه الزيادة، والمراد بها هنا الزيادة على الدين، وهو ربا الجاهلية، ذلك أن الرجل منهم كان يكون له على رجل منهم مال فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه، فيقول المدين: أخر عني دينك.

ولقد قال عطاء: كانت ثقيف تداين بنى المغيرة في الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون، ولقد قال زيد بن ثابت: إنما كان ربا الجاهلية في التضعيف يكون للرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول: «تقضيني أو تزيدني».

وبهذه الأخبار الصحاح تبين أمران أولهما: أن ربا الجاهلية كان أساسه الزيادة في الدين للزيادة في الأجل من غير نظر إلى سبب الدين، وأن هذا الربا

المنصوص عليه في الآية هو ربا الجاهلية، وهو الذي ذكره النبي ﷺ في خطبة الوداع، إذ قال: «ألا إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب»^(١) ويبين بهذا أن المضاعفة هي في الزيادة لا في أصل الدين، فهي التي تتضاعف سنة بعد أخرى، وذلك هو معنى اللفظ في واضح معناه؛ لأن المضاعفة في الآية موضوعها الربا، والربا ليس هو أصل الدين، إنما هو الزيادة عليه، وإن كلمة الربا مرادفة لكلمة الفائدة في لغة الاقتصاديين، فإذا قال قائل: لا تأكلوا الفائدة أضعافا مضاعفة، أف يكون المراد مضاعفة الدين أم مضاعفة الزيادة؟ وإن ضعف الشيء معناه مثله ومعنى الإضعاف إضافة أمثاله، ومعنى ضاعفها أكثر من الإضعاف سنة بعد أخرى.

وهذا النوع من الربا هو الذي يسمى في لغة الصحابة والفقهاء بالنسيئة، وهو حرام لا شك، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل إنه يكفر من يجحد تحريمه، وقال ابن عباس: لا ربا إلا ربا النسيئة.

ويقابل ربا النسيئة ربا البيوع، وهو المنصوص عليه في حديث: «البرُّ بالبرِّ مثلاً بمثل يدا بيد، والذهب بالذهب مثلاً بمثل يدا بيد، والفضة بالفضة مثلاً بمثل يدا بيد، والشعير بالشعير مثلاً بمثل يدا بيد، والتمر بالتمر مثلاً بمثل يدا بيد، والملح بالملح مثلاً بمثل يدا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى»^(٢) وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لا بد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كقمح بقمح، ولا بد من قبضها، وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جاز الزيادة، ولا بد من القبض في المجلس، والتأخير يسمى ربا النساء، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل، وما يماثل هذه الأصناف يكون لها مثل حرمتها كالأرز، والزيت ونحو ذلك، وقد اختلفوا في تعيين من يماثلها اختلافا طويلا قد دون في كتب الفقه، وأقرب الآراء في نظري هو قول حذاق المالكية: «إن علة التحريم هو الثمنية والطعم معا قبل

(١) رواه مسلم: الحج - حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، أبو داود: المناسك (١٦٢٨)، وابن ماجه (٣٠٦٥)، والدارمي (١٧٧٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم: المساقاة - الصرف وبيع الذهب بالورق (١٥٨٤)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١١٢٠٨).

الادخار؛ لأن نظام المقايضة في هذه الأموال يؤدي إلى احتكارها في يد متجيهيها، ويريد الإسلام الاتجار فيها بتوسط النقدين لكيلا يكون تغرير ولا غرر، ولذلك قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: عندي تمر وأريد رطباً، فقال عليه الصلاة والسلام: «بع التمر واشتر الرطب»^(١). ولا شك أن ذلك يمكن من ليس عنده تمر ولا رطب من أن يأكل، ولأن السعر يكون مضبوطاً، وتحريم المقايضة في الذهب والفضة إلا بالمثل لأنهما مقاييس لضبط قيم الأموال فلا يصح أن تكون موضع اتجار حتى لا يقيد التقويم.

وربا الجاهلية المنصوص عليه في الآية يحرم كل زيادة قلت أو كثرت، أي كان سبب الدين، إذ يقول سبحانه في آخر البقرة وهي آخر آيات الربا نزولاً: ﴿وَأِنْ تُبْتِمْ فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^(٢٧٩) [البقرة].

وقد ادعى بعض الذين يريدون أن يطوعوا الشريعة لتخضع للنظام الربوي اليهودي القائم - أن ربا القرآن هو ربا الديون الاستهلاكية أي الديون التي تقترضها لغرض: لياكل أو ليسكن أو ليشتري ثياباً، وذلك قول باطل.

لأن تخصيص عموم القرآن لا يكون بالتحكم في عباراته، بل يكون تخصيصه بنصوص، أو بقواعد مستمدة من نصوص الدين عامة، ولأن العرب لم تكن حياتهم عريضة؛ لأن عيشهم كان ساذجاً ولم يكن معقداً، إذ حياتهم تقوم على التمر واللبن وسكنى الأخبية، فلماذا يكون الاقتراض للاستهلاك؟! ولأن ربا الجاهلية كان حيث التجارة، فقد كان في مكة والمدينة وهما يتجران كما هو ثابت في التاريخ إذ ينقلان بضائع الروم إلى الفرس، وبضائع الفرس إلى الروم عن طريق القواقل في الصحراء، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾^(١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف^(٢) [قریش]، ولأن الدائنين الذين كانوا يرابون في الجاهلية لا يتصور منهم أن يجيئهم محتاج للمال ينفقه في حاجاته الضرورية

(١) روى الترمذي: البيوع - ما جاء في النهي عن المحاقلة والمزابنة (١١٤٦).

فيمتنع عن إعطائهم إلا بربا، فهذا العباس الذى كان يسقى الحجاج جميعا نقيع الزبيب والتمر لا يتصور منه أن يجيء إليه محتاج، فلا يعطيه إلا بفائدة، إنما يتصور أن يعطى تاجرا يتجر فى ماله ولا يحد له الكسب إلا بزيادة محدودة مستمرة لا بنسبة من الربح؛ ولأن المدينين الذين جاءت الأخبار بذكرهم لم يكونوا من الفقراء، بل كانوا من التجار، فبنو المغيرة الذين كانوا مدينين لبعض ثقيف هم تجار لا فقراء.

وبهذا يتبين أن تحريم الربا فى الإسلام لإيجاد نظام اقتصادى تمتع فيه الأزمان، وقد بينا ذلك من قبل فى عدة بحوث ومقالات، ولذا قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أى اجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وقاية، فأطيعوه فى أوامره ونواهيه، ولا تحاولوا التخلص منها بما تزعمون من أوهام لا أصل لها، فلا تأكلوا الربا، ولا تعينوا عليه، ولا تحرفوا الكلم عن مواضعه، لعلكم تفلحون، أى لترجوا أن تنالوا الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة، وهذه إشارة إلى أن تحريم الربا فيه صلاح الدنيا، وأن أولئك الذين يزعمون أن المصلحة فى إباحته فى عصرنا ويتأولون الشريعة ليخضعوها لتلك المدنية الأئمة، واهمون فى معنى المصلحة، لأن علماء الاقتصاد يقررون أن نظام الفائدة هو سبب الأزمان، وهو نظام مؤقت حتى يجدوا ما يحل محله، وعندنا نظامنا، وأكثر البلاد الخاضعة للنظام الروسى أو آخذة به حرمة، والاشتراكية الوطنية الألمانية قبل الحرب حرمة، ولم يضر مصلحتها شىء، بل حمت مصالح البلاد:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى اجعلوا بينكم وبين النار التى أعدها الله تعالى للكافرين وقاية من الطاعة، ولا تنحرفوا عن الشرع ومقاصده إلى أهواء الكافرين ومنازعهم، وقد اقترنت هذه الآية بآية تحريم الربا لتهديد المعاندين أو الذين يمارون فى الشرع ويجادلون فيه، وهذا كقوله تعالى فى آية تحريم الربا فى البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ

لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿١٧٩﴾ [البقرة]، فالذين يأكلون الربا أو يدعون إليه، أو يسهلون أمره أو يوطئون أحكام الشريعة لأحكام الكافرين يحاربون الله ورسوله.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جاء الأمر بالطاعة لله ولرسوله بعد ذلك النهى القاطع؛ لأن ما يتعلق بالأموال يتحكم فيه الأهواء، وتستولى عليه المنافع المختلفة فيكون مظنة العصيان بتأويل فاسد، أو تحريف مقصود، أو انحراف بسبب الطمع فينساب الشخص في طاعة من لا يطاع، ويترك طاعة الله والرسول، وفي ذكر طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله في قرن واحد إشارة إلى أن طاعة الرسول طاعة الله، وأن الرسول مطاع فيما يقول عن الله، ومعنى النص: أطيعوا الله والرسول رجاء أن تكونوا في رحمة لا في شقاء، وفي هذا إشارة إلى أن تحريم الربا فيه رحمة عامة شاملة، اللهم اجعلنا في طاعتك وطاعة رسolk دائما.

❖ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ
مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٨٦﴾

هذه الآيات موصولة بالآيات التي قبلها؛ إذ الآيات التي قبلها ختمت بالأمر بطاعة الله ورسوله، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفي هذه الآيات بيان معنى هذه الطاعة المطلوبة التي تؤدي إلى التراحم والتواصل والتواد، ولذلك كانت هناك رواية بالقراءة من غير وصل بالواو ﴿وَسَارِعُوا﴾^(١) بدل ﴿وَسَارِعُوا﴾. وإن رواية القراءة من غير وصل واضحة من حيث النسق في أنها تفصيل لمعنى الطاعة المطلوبة، والقراءة المشهورة التي عليها القراء السبعة فيها ما يدل على أنها لبيان معنى الطاعة بالمعاني لا بالنسق.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المسارعة هنا معناها المبادرة والاتجاه الذي لا تراخى فيه، ومعنى المسارعة إلى مغفرة الله تعالى المبادرة باتخاذ طريقها، بأن يطهر قلبه من المعاصي ونفسه من الأدران، ويتجه إليه سبحانه بقلب سليم قد رحض عنه المعاصي كما رحض الثوب من الأوساخ، ولقد فسر ذو التورين قوله تعالى ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالإخلاص، أى بادروا بالإخلاص وتنقية القلوب إلى مغفرة الله تعالى فإن ذلك هو الطريق المستقيم لطلب رضا الله تعالى، ولقد عظم سبحانه وتعالى شأن المغفرة التي ينبغى طلبها والاتجاه إليها فذكر بأنها تحبب من ربكم الذى خلقكم وغناكم ورعاكم، فهي مغفرة تعلقو بعلو مصدرها وهى الأمان والاعتصام.

ويلاحظ أن القرآن يعدى المسارعة فى الخير بـ «إلى»، والمسارعة فى الشر بـ «فى»، فيقول سبحانه: ﴿يسارعون فى الكفر﴾، ويقول هنا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾؛ لأن المسارعة فى الكفر تنقل فى برائته فهم فى قبته المظلمة التى تحيط بهم يتنقلون بالضلال فى أرجائها، وهم فى مرتبة واحدة، أما المسارعة إلى الخير، فإنها انتقال من رتبة إلى رتبة، ومن مقام صالح إلى مقام أصلح منه.

(١) قرأها بلا واو: نافع وأبو جعفر المدنيان، وابن عامر الشامي، وقد رسم هذا الحرف بغير واو قبل السين في مصاحف أهل المدينة والشام.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا عطف على مغفرة، وفيها إشارة إلى أن مغفرة الله سبحانه تُطلب وحدها؛ لأن فيها طلب رضا الله تعالى، ورضا الله تعالى أكبر غايات المتقين، ولذا قال تعالى في جزاء المتقين: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) [التوبة]. فأكابر المتقين يطلبون رضا الله لذاته لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جناته.

فالمطلب الأكبر هو المغفرة، والمطلب الذى يليه هو «جنة عرضها السموات والأرض» وهو ما يطلبه الذين دون الصديقين والشهداء، والعرض ضد الطول، وهو أقصر منه فى الغالب، والنص لبيان سعة الجنة، لأنها رحمة الله تعالى بعباده الأتقياء، ولذا عبر عن هذه السعة بأوسع ما يدركه الحس، وأوسع ما يعلمه الناس من خلقه سبحانه، وقد يقول قائل: لِمَ ذكر العرض، ولم يذكر الطول، وهو أدل على الانفراج والبسط؟ والجواب عن ذلك أن ذكر العرض أبلغ فى الدلالة، لأنه إذا كان عرضها كعرض السموات والأرض فإنه يذهب العقل فى إدراك طولها كل مذهب، ويتصور الكثير من الصور، وذلك كقول الله تعالى: ﴿بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ...﴾ (٥٤) [الرحمن] فإنه إذا كانت البطانة من الحرير الثمين فكيف يكون ما فوق البطانة مما تراه الأعين ويسر الناظرين؟ وقد يقال إن ذكر العرض ذكر للطول فإن تنسيق البيان يوجب المساواة بين طول الجنة وطول السموات والأرض، كما أن عرضها كعرضهما، ويكون ذلك من الإيجاز البليغ.

وقد فسر أبو مسلم الأصفهاني - العرض هنا - بالأشياء القيمة المعروضة للبيع التى جمعها عروض، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١)، ويكون المعنى على هذا التفسير أن الجنة فى قيمتها وعلوها وسموها ومكانتها تعادل السموات والأرض فى قيمتهما، فهى الحياة وهى النعيم المقيم الدائم: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى هيئت ووضعت للمتقين، وهم

(١) متفق عليه رواه البخاري: الرقاق - الغنى غنى النفس (٥٩٦٥)، ومسلم: الزكاة: ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الذين جعلوا بينهم وبين الشر وقاية أى جعلوا أنفسهم فى حصن فلا مدخل للشيطان إليها، ولا سارب له فى قلوبهم، وصار ذلك شأنًا من شئونهم حتى كان وصفا وحالا دائمة مستمرة لهم.

وقد أخذ بعد ذلك يبين سبحانه وتعالى الصفات التى رفعتهم إلى هذه الرتبة، والتى جعلتهم يصلون إلى هذه المنزلة فذكر خمس صفات كلها ذات صلة وثيقة ببناء مجتمع سليم قوى ثابت، وقد ذكر الصفة الأولى فقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ومعنى النص السامى أنهم ينفقون، ويتجدد إنفاقهم أنا بعد آن، ولذا عبر المضارع؛ لأن التعبير بالمضارع يفيد التجدد المستمر، والتعبير بالماضى يفيد الواقع المنقضى، ومعنى قوله تعالى: ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أنهم ينفقون فى حال مسرتهم، وحال مساءتهم، وهذا يشمل أحوالا كثيرة، فهم ينفقون فى حال الغنى والفقر واليسر والعسر، وكل حال بمقدارها، وفى حال الصحة والمرض، وفى السرور والحزن، وحال عرس أو مأتم أو حبس، والمغزى فى هذا أنه لا تشغلهم أنفسهم عن حاجة الناس إليهم أو إلى أموالهم، ولا تشغلهم همومهم الخاصة عن هموم الناس، والإنفاق منهم ليس لمناسبات تعرض وتزول، ولا لأحوال تحجى ثم تحول، بل هو لطبيعة ثابتة فيهم مستقرة غير مفترقة لا تزايلهم. وقدم الإنفاق على غيره من الصفات، لأنه وصف إيجابى وما عداه سلبى أو يتصل به، والإيجابى فى أكثر أحواله أشق من السلبى، ولأنه أدل على الإخلاص، ولأنه فى صدر الإسلام كان المجتمع أشد احتياجا إليه من غيره، إذ كان الفقر كثيرا، وكانت الحاجة إلى المال فى الجهاد أشد؛ إذ كان ذلك ابتداء دولة، ولذلك قرن الأمر بالإنفاق بالتهنى عن التعرض للتهلكة، فقال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ [البقرة].

﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ كظم الغيظ أن يمسك على ما فى نفسه، فيحملها على الصبر، ولا يظهر أثر لهذا الغيظ، ولقد قال الراغب الأصفهاني فى مفرداته: (الغيظ أشد الغضب وهو الحرارة التى يجدها

الإنسان من فوران دم قلبه). والغیظ بلا شك يدفع إلى الثورة وهي مظاهر الغضب فكظمه إبقاؤه في النفس وعدم ظهور آثاره في القول أو في الفعل، وأصل كظم من كظم السقاء إذا ملأه وسد فاه، والكظامة ما يسد به مجرى الماء، وكظم البعير إذا لم يجتر.

وإن هذا الوصف ليس فيه منع للألم الذي يحدث من الأذى، بل إنه يدعو إلى كبح جماح الغضب ومنع نفسه من الاسترسال في مجاوبة الشر بمثله، وإن هذا لا ينال إلا بشق الأنفس وقوة الإرادة: ولذلك قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١) ولقد اعتبر النبي ﷺ أقرب القربات ألا يغضب، واعتبر أن إبعاد المؤمن الغضب عن نفسه إبعاد لغضب الله تعالى عليه، فقد سأل أنس رضي الله عنه عما يبعد غضب الله تعالى، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لا تغضب»^(٢).

وإن غضب المؤمن يجب أن يكون لأجل حقوق الله، وغیظه يجب أن يكون لانتهاك حرمة الله تعالى. ولقد قال النبي ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجرا من جرعة غیظ في الله تعالى»^(٣).

هذا هو الوصف الثاني من أوصاف المتقين؛ أما الوصف الثالث فهو العفو، وهو ثمرة لكظم الغیظ، وإنه يجب أن يكون معه لأن الغیظ الشديد إذا لم يصحبه عفو فإنه يعض القلب، ويفسد النفس، وينهك القوى فلا بد أن يقترن بالكظم العفو لمصلحة الشخص ولمصلحة الناس، ولكيلا تتولد الإحـ^(٤)، وتتكاثر المحن، وليس العفو هو الستر على الجرائم العامة، فإن الجرائم العامة إذا ظهرت وجب

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأدب - الحذر من الغضب (٥٦٤٩)، ومسلم: البر والصلة والآداب - من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد: مسند المكشرين (٦٣٤٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَاذَا يُبَاعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «لَا تَغْضَبْ».

(٣) رواه ابن ماجه: الزهد - الحلم (١٤١٧٩) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٤) الإحـ: جمع إحـة، وهي الحقد، الصحاح.

العقاب لأنه تقليم لأظفارها، وقطع لآثارها فلا يصح العفو عن زان يعلن جريمته، ولا عن سارق اعتاد السرقة واستهان بالحرمات، وروّع الأمنين، كما لا يصح العفو عن فساق الألسنة، الذين يقذفون الناس، ويرمونهم بالسوء، ويعملون بذلك على إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فإن العفو في هذه الأمور استهانة بحرمات الله تعالى، إنما العفو المطلوب هو الذي يكون في أنواع الأذى الشخصى وهى التى ينطبق عليها قول الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) [فصلت]، ولقد ذكرت عائشة في وصف النبى أنه كان لا يغضب إلا أن تنتهك حرمت الله، فإذا انتهكت حرمت الله لا يقوم لغضبه شىء حتى ينتقم الله (١).

ولقد ختم سبحانه هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهى الصفة الرابعة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى بهذه الصفة لتوجيه النظر إليها، وليبان أنها أعلى منازل التقوى، وأنها تنال بها محبة الله تعالى، والإحسان معناه الإتيان والإجادة، وهو يطلق فى عبارات القرآن الكريم بإطلاقين أحدهما أن يراد به الإجادة المطلقة فى كل ما يطلب الله تعالى به عباده، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٣٠) [الكهف]، وقوله ﷺ فى إحسان العبادة: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٢). والثانى أن يكون العمل أكثر من المكافأة، فهو لا يكافئ بالعدل بل يزيد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ... ﴾ (٩٠) [النحل]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ... ﴾ (٧٧) [القصص]، والإحسان بالإطلاق الأول يتعدى بنفسه ويذكر بجواره العمل، والثانى يتعدى بـ «إلى» ويذكر بجواره المحسن إليه، وأقرب الإطلاقين فى

(١) رواه البخاري: المناقب - صفة النبي ﷺ (٣٢٦٩)، ومسلم: الفضائل - مباحثته ﷺ (٢٣٢٧).

(٢) متفق عليه وقد سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الآية الكريمة هو الثاني، فإنها تومئ إلى أن البر التقى يكظم غيظه، ويعفو عمن ظلمه بل يحسن إليه إن كان للإحسان موضع، وإن الله سبحانه وتعالى أمر أهل الفضل بالألا يذهب غيظهم بإحسانهم فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ [النور] فقد نزلت هذه الآية عندما حلف أبو بكر ألا يعطى بعض قرابته الذين خاضوا في حديث الإفك بالنسبة لعائشة زوج رسول الله وإن هذه الدرجة هي أقصى ما تصل إليه السماحة البشرية، وهي لا تكون إلا لنفس محبة للناس، ولذلك كانت المكافأة هي حب الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف المتقين الذين أعدت لهم الجنان التي عرضها كعرض السموات والأرض، والفاحشة هي المعصية الزائدة التي تكون خارجة على مقتضى الطبيعة الإنسانية الفاضلة، وقد غلبت على الزنا، وبذلك فسر بعض العلماء الفاحشة هنا، وعلى هذا الرأي يكون المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ كل ذنب غير المعصية، وقال آخرون: الفاحشة الذنب الكبير، وظلم النفس الذنب الصغير، وبعض المفسرين يقول الفاحشة ما يتعدى أذاها إلى غيره، وظلم النفس ما لا يتجاوز الأذى نفسه، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ...﴾ [النساء] وهذا كله على أن الفاحشة وظلم النفس أمران متغايران؛ وبعض العلماء على أنهما وجهان للمعصية، وأن كل معصية كبيرة فيها هذان الوجهان وتكون «أو» بمعنى «الواو»، ويكون المعنى: من يرتكب فاحشة ويظلم نفسه، ويتذكر الله عند ارتكابها فيعود إلى ربه يكون من المتقين؛ وإلى هذا تميل، والتعبير بصيغة الشرط ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ يفيد اقتران الجواب بالشرط، أى أن ذكر الله يكون عند الارتكاب ولا يكون بينهما تراخٍ يجعل الشر يفرخ في النفس، فالتوبة إلى الله تكون فور الارتكاب لا تراخى بينهما ولا يستمر في المعصية حتى تحيط به خطيئته، وهذا ما صرح الله تعالى به في

قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧) [النساء].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أى تذكروا أو امره ونواهيته وتذكروا عظمة الله تعالى وجلاله وقوته، ولذكر الله تعالى مرتبتان (إحداهما) ذكر أوامره ونواهيته وما أعدّه للمذنبين وما أعدّه للمتقين (والثانية) وهى العليا ذكر جلاله وعظمته وعلمه بما تخفى الصدور وهذه لا ينالها إلا الأبرار المقربون.

وإن ذكر الله تعالى لا بد أن يتبعه لا محالة الاستغفار والإنابة، ولذا عقبه سبحانه بقوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ﴾ فهو ثمرة ملازمة ونتيجة محتمة للذكر.

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الكلام موصول بالكلام السابق، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه بيان إجابة الاستغفار وفيه بيان أنه لا مفرج من الله إلا إليه، ولذا يقول الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ «وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وإن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وإنه لا مفرج للمذنبين إلا فضله، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو والتجاوز، وفيه تطيب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وإن الذنوب وإن جلت فإن عفوهُ أجل وكرمه أعظم». وذلك كلام مستقيم لولا أنه أوجب المغفرة حيث التوبة، والله تعالى لا يجب عليه شيء، وإن رحمة الله بعباده مع علمه بطبيعة تكوينهم الذى يتنازعه الخير والشر جعلت المغفرة قريبة، ولذا ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم» (١) وشرط الاستغفار المجاب ألا يصير المذنب على ذنبه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى لم يصروا على الفعل الذى فعلوه بأن تكون

(١) رواه مسلم: التوبة - سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (٢٧٤٩)، وأحمد: باقى مسند الكثيرين (٧٧٣٦).
عن أبى هريرة رضى الله عنه.

عندهم النية إلى العودة إليه، وقد فعلوه وهم يعلمون أمر الله تعالى فيه ونهيه، ولذلك قال العلماء: (لا توبة مع الإصرار) وإن الاستغفار مع الإصرار ذنب في ذاته وقد قال الحسن البصري: (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) وإن من الإصرار على الذنوب أن يعلن التوبة، وللناس عنده مظالم لا يردّها، فحقوق العباد لا تقبل التوبة فيها إلا بعد ردّها إلى أصحابها، وإن التائب المعترف بذنبه المستكبر له التائب عنه مقرب إلى ربه حتى إن الصوفية يقولون: (إن معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت دلاً وافتخاراً).

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾
 أى أولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات بسببها قد استحقوا برحمة الله تعالى جزاءهم وهو ثلاثة: أعلاها مغفرة من ربهم الذى خلقهم وهذه المغفرة دليل رضاه، وهو أعلى جزاء، والثانى الجنات التى تتوافر فيها أنواع النعيم، وثالثها الخلود، فهو نعيم ليس على مظنة الانتهاء، إذ إن توقع الزوال ينقص من قدره، ولذلك قال بعد ذلك سبحانه: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أى ذلك الجزاء جدير بأن يرغب فيه، ويتنافس فيه المتنافسون، ويطلبه كل عارف لحقيقته لم تلّه الدنيا بما فيها، فذلك المدح للحث على طلبه والعمل على استحقاقه وعدم التخلف عن الاتجاه إليه، اللهم اغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
 فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ
 ﴿١٧٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْوَعْدَ الْوَعْدَ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ
 ﴿١٧٨﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
 وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨١﴾

أشار سبحانه في الآيات السابقة إلى غزوة أحد وإمداد الله بالملائكة للمؤمنين في الحروب إن صبروا في اللقاء، ولم يختلفوا على قائدهم في المعركة، وجعلوا ما عند الله تعالى الغاية والمرمى، ثم ذكر من بعد ذلك سبحانه ما هو دواء القلوب، وغذاء الإيمان، وهو الطاعة والتعاون، وألا يأكل أحد حق أخيه أو ماله بالباطل، وأن المال الحلال هو قوة الحروب، والمال الحرام كمال الربا سُحِت، وطلبه من ضعف الإيمان، ويربى خور العزائم إذ إن شهوة المال، والشجاعة وحب الفداء خلال لا تجتمع في قلب رجل واحد، ثم بين سبحانه أن أعظم الذخائر هو تربية النفوس على التقوى وطلب مغفرة الله سبحانه وتعالى.

ولقد جاء بعد ذلك الكلام على أثر غزوة أحد في نفوس المؤمنين، وقد نهاهم سبحانه عن الضعف والوهن والحزن، وأمرهم أن يتخذوا من الهزيمة سبيلا للنصر، وإنها سنة الله في خلقه فعليهم أن يخضعوا لها ويقروا في ذات أنفسهم بها، ولذا قال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

«خلت» معناها مضت وثبتت وتقررت، والسنن جمع سنة، وهي تطلق بمعنى الطريق السلوك المعبد، وتطلق بمعنى المثال الذي يتبع، ولقد قيل إنها من قولهم سن الماء إذا صبه صبا متواليا فشبهت العرب به الطريقة المستقيمة المتبعة المستمرة، والمعنى أنه قد مضت وتقررت من قبلكم سنن ثابتة ونظم محكمة فيما قدره الله سبحانه وتعالى من نصر وهزيمة، وعزة وذلة، وعقاب في الدنيا وثواب فيها، فالحق يصارع الباطل، ويتنصر أحدهما على الآخر بما سنَّه سبحانه من سنة في النصر والهزيمة، من طاعة للقائد، وإحكام في التدبير، وقوة إيمان، واستعداد للفداء، وهكذا؛ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ [الرعد].

وإن من سنن الله تعالى الثابتة ألا يمكن من الظلم وأن ينتصر أهل الحق إذا عملوا على نصرته، وتضافروا على إقامته ولم ينحرفوا عن طاعته، وأن أهل الباطل قد ينتصرون إن اتحدوا واستعدوا، فينالون الظفر لتخاذل أهل الحق

وانقسامهم، أو إرادتهم عرض الدنيا، أو عدم الصبر على طاعة القائد العظيم كما كان الشأن في أحد.

وإن من سنن الله تعالى أن يجعل العاقبة للصابرين الصادقين، فإن أُملى للكافرين سنة فإنه سيأخذهم من بعد أخذ عزيز مقتدر، وينصر عليهم أهل الحق، وإنما قدر الله تعالى نصرتهم الوقتية على أهل الحق ليصقل أهل الإيمان، وليهديهم هداية عملية إلى طريق الانتصار، وليميز من بينهم ضعيف الإيمان، ويظهر نفاق أهل النفاق، وبذلك تتبين الصفوة المختارة التي يعتمد عليها، ويذهب الذين مردوا على النفاق بنفاقهم، فلا ينخدع بهم أحد، ولا يرجفون بكيدهم في الجماعة، ولقد بين سبحانه لأهل الإيمان عاقبة المكذبين تثبيتاً لقلوبهم، وتأسيدا لهم فقال جل من قائل: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

أى أنه إذا كانت سنة الله تعالى في خلقه، أو العاقبة دائما للمتقين، فسيروا في الأرض، فانظروا الحال التي قد انتهى بها الكاذبون. والتعبير بلفظ (كيف) الدال على الاستفهام يقصد به التصوير وتوضيح الحال في صورة تدعو إلى العجب وتشير الاستغراب، أى أن عاقبتهم التي انتهوا إليها من تدمير ديارهم، وتعفية آثارهم بعد أن طغوا وبغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، تشير العجب والدهشة لمن ضعف إيمانه، وتلقى بالطمأنينة والصبر والرضا لمن قوى إيمانه.

وفى هذه الآية وأمثالها من الآيات التي تدعو إلى السير في الأرض والبحث لمعرفة أحوال السابقين دعوة إلى أمرين: أحدهما- دراسة تاريخ الأمم بشكل عام، فإن التاريخ كتاب العبر، وسفر المعبر، وهو رباط الإنسانية التي يربط حاضرها بماضيها.

والأمر الثانى- دراسة أحوال الأمم من آثارها فإنها أصدق من رواية الرواة وأخبار المخبرين، فقد يكون التاريخ المكتوب أكاذيب، أما الآثار فصادقة لمن يعرف كيف يستنطقها، وإن الملوك وأشباهم يزيفون الأخبار المنقولة، وإنه ليحكى أن

أحد الملوك كلف كاتباً أن يكتب تاريخ دولته، فسأل بعض أصحاب الكاتب عما يكتب فقال: «أكاذيب الفقهاء وأباطيل أنمقها».

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الإشارة في النص السامى إلى ما تضمنته الآية السابقة من الحث على السير فى الأرض وتعرف سنن الله تعالى من آثار المكذبين الذين طغوا أولاً ثم ذلوا وأخذوا من حيث لا يحتسبون - وقد ذكر أن هذا بيان للناس أجمعين، يدركه كل من له بصر يبصر به، وفهم يفهم به، وتحقق البيان لا يقتضى تحقق أثره وهو المعرفة التى تهدى إلى الإيمان وتوجب الاعتاض، إنما تكون الهداية من البيان والاعتاض به للمتقين دون غيرهم، ولذلك جعل سبحانه البيان للناس جميعاً، والهداية والموعظة للمتقين منهم فقط؛ إذ إن الهداية بالبيان تقتضى إشراقاً روحياً، واستعداداً قلبياً، وإخلاصاً فى طلب الحقيقة، والموعظة وهى الاستفادة من العبر، تقتضى قلباً مفتوحاً لإدراك الحقائق والاتجاه إليها بقصد سليم، وذلك كله لا يتوافر إلا للمتقين الذين أخلصوا أنفسهم لله، وطلبوا الحق، وسلكوا سبيله لا يبعثونه عوجاً، ومثل البيان مثل البذر يلقي فى الأرض، فإذا أصاب صحراء قاحلة جف ولم ينتج، وإذا أصاب أرضاً خصبة أنبت نباتاً حسناً، وقد مثل النبى ﷺ العلم بالغيث وبين اختلاف الناس فى تلقيه، فقال: «مثل ما بعثنى الله كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (١).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد بين هذا البيان فيجب على المؤمنين أن يعتبروا بسنن الله تعالى وأن يعرفوا أن ما أصابهم فى أحد فبسنن الله، وعليهم أن

(١) رواه البخاري: العلم - فضل من عمل وعلم (٧٧)، ومسلم: الفضائل - بيان ما بعث الله به النبي ﷺ (٢٢٨٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وقد سبق تخريجه بالفاظه.

يأخذوا الأهبة للمعركة القابلة، ولا تأسر تفكيرهم المعركة السابقة إلا بمقدار ما فيها من عظة وعبرة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الوهن: ضعف النفس، وقد يؤدي إلى ضعف الجسم عن العمل، والحزن ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحب أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر بهم النفس، ويجعلها فى هم دائم، ومعنى النهى عن الوهن والحزن - وهما أمران نفسيان - هو النهى عن الاسترسال فى الألم مما أصابهم، والمغزى: لا تسترسلوا فى الهم والألم مما كان يوم أحد، فإن ذلك يؤدي إلى ضعفكم عن القتال، فليس النهى منصبا على أصل الوهن والحزن، ولكنه منصب على سببهما الذى هو فى قدرة المؤمن وهو الاسترسال فى الوهن والحزن.

والآية الكريمة تضمنت ذلك النهى، وتضمنت بشارة وتسلية، كما تضمنت فوق ذلك بيان سبب النصر وهو صدق الإيمان.

فأما النهى فقد بينا ما يتجه إليه، وأما البشارة والتسلية، فهى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ فهى تسلية للنبي وأصحابه من حيث إن فيها بيانا لأنهم أعلى، ومعنى العلو أنهم قد كان لهم غلب أكثر مما كان للمشركين، فقتلى المشركين يوم بدر أكثر من قتلى المؤمنين يوم أحد، والمؤمنون فى أحد ذاتها قد كانوا أعلى منزلة من الكفار؛ لأن قتلى المؤمنين فى الجنة، وقتلى المشركين فى النار؛ ولأن قتال المؤمنين فى سبيل الحق، وقتال المشركين فى سبيل الطاغوت، وأى علو للإنسان أكثر من أن يشعر بأنه يقاتل لنصرة الحق، ويغالب فى سبيله، فإن الحق فى ذاته عزة وعلو، وفوق ذلك فى النص بشارة بأن العاقبة للمتقين، وهو العلو فى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص].

وأما سبب النصر فهو صدق إيمان المؤمنين، فإن صدق الإيمان يصفى النفوس من أدرانها ويبعد عنها آثامها، ويجعل القصد هو إعلاء كلمة الحق، فيقدم

المؤمن على القتال وهو يعلم أنه يفوز بإحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر، وكلتاها غاية الطلب.

فآيات تساق لمقاصد سامية منها إلقاء البشرى، والتسليّة والتعزية، فقد بين الله سبحانه أن ما أصاب المسلمين في أحد قد أصاب المشركين مثله، وفي ذكر ذلك دعوة إلى تجديد الجهاد بقلوب مستبشرة، ونفوس مطمئنة، فقال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾.

القَرْحُ بفتح القاف: الجرح، وبضمها: الألم الذي يترتب عليه، وقال الكسائي والأخفش: اللغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره، وبهما قرئت الآية^(١)، ولقد جاء في المفردات للأصفهاني: (القرح الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من الخارج، والقرح أثرها من الداخل، كالبشرة ونحوها). فالقرح على هذا أثر الجراحات في الظاهر، وبالضم أثرها في الباطن وإذا كان القرع هنا معنويا، فيصح أن نقول: إنه بالفتح ما يعقب المعركة من ألم واضح للهزيمة، وهو بالضم الغم والحزن الذي يستولى على النفوس حتى يكون النصر من جديد، وإن الظاهر هنا أن الفتح أوضح؛ لأن الله عبر عن أثره بأنه مس فقال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ والمس إنما يتناول الظاهر فقط.

والقرح الذي أصاب المشركين هو يوم بدر، وما أصاب المسلمين هو يوم أحد، وقد قرر الزمخشري أنه يجوز أن يكون القرع الذي أصاب المشركين هو يوم أحد؛ لأن المشركين قتل منهم عدد، فكان فيهم مقتلة كما في المسلمين فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾^(٢) بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ... ﴿١٥٢﴾ [آل عمران].

(١) قرأها بضم القاف: حمزة والكسائي، وخلف وأبو بكر. وقرأ الباقون بالفتح. [غاية الاختصار لأبي العلاء

الهمداني: ج ٢ ص ٤٥٣]

(٢) تحسونهم: تقتلونهم.

ولكن الظاهر هو الأول، ليتحقق معنى قوله تعالى فى بيان سنته إذ قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

هذه هى الفائدة الأولى التى تستفاد مما أصاب المسلمين يوم أحد، وهذه الفائدة هى أن يروا سنة الله قائمة، فلا نصر يدوم، ولا هزيمة تدوم؛ لأنه لو دام النصر لكان الغرور، ومع الغرور الطغيان، ووراء ذلك الترف، وإذا أصاب الترف نفوس الشعوب ذهبت نخوتها وضوّلت قوتها كما توقع الصديق خليفة رسول الله ﷺ للعرب عندما يتوالى انتصارهم: (والله لتألمن من النوم على الصوف الأذرى (أى صوف أذريحان) كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان)^(١). والمداولة معناها تبادل النصر، وقد كان ذلك فى أول الإسلام مرة واحدة لكيلا يأخذ الترف السابقين من المؤمنين، وفسر الزمخشري مداولة الأيام بتبادل النصر وقال: (المراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة. نداولها: نصرفها بين الناس ندبل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء)، وأصل كلمة نداول من الدولة، وهو مصدر لدال يداول بمعنى انتقل من حال إلى حال، أو من يد إلى يد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَيِّ لَا يَكُونُ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...﴾ [الحشر]، أى يتداولون المال فيما بينهم، ولا يصل إلى أيدي الفقراء منه شيء.

والمعنى الجملى: فعلنا ذلك إجراء لسنة من سنن الله التى خلت من قبلكم وهى مقررة فى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ ولذا عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

هاتان فائدتان أخريان لما أصاب المسلمين يوم أحد، فأولاهما- تحقق علم الله تعالى وإظهاره المؤمنين الثابتين، والذين ينافقون، فمعنى علم الله تعالى هو تحقق ما قدره فى الأزل، فيعلمه الناس، ويعلمه الله تعالى واقعا حاضرا، ولقد

(١) حسك السعدان: نبات شوكي وهو من أفضل مرعى الإبل، وفي المثل: مرعى ولا كالسعدان. الصحاح.

ذكر الزمخشري في تفسير علم الله في هذا المقام أنه على وجهين: أحدهما أن يراد تمييز قوى الإيمان من ضعيف الإيمان فيتميز الخبيث من الطيب، ويكون هذا من قبيل التمثيل، أى فعل الله تعالى ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، والوجه الثانى - أن يكون علم الله الذى ثبت بالواقعة هو علم الجزاء أى يتحقق فيهم جزاء الله تعالى وفى الحق أن المؤدى فى الأقوال كلها واحد وهو أن يظهر صادقو الإيمان وينكشف نفاق المنافقين، ويعلن بذلك للناس علم الله تعالى المكنون.

والفائدة الأخرى فى الآية هى اتخاذ شهداء - أى وقوع الشهادة فى المؤمنين أى قتل المؤمنين الذين يشهد لهم بالجنة ويشهد لهم بالفداء، وإن هذه فائدة؛ لأن هؤلاء يكونون مثلاً علياً فى الفداء يقتدى بهم غيرهم، ويستهيئون بالموت فى سبيل إعلاء كلمة الحق، وخفض كلمة الباطل؛ ولأن هذا يجعل المجاهدين يعلمون أن الحرب مع نصر الله غير خالية من الشدائد والاستعداد لها، والإصابة فيها.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ إذا كان من هؤلاء الذين تقدموا للقتال من كانوا من أهل الحق، ومنهم من كان من أهل الدنيا، وقد علم الله تعالى الفريقين، فإنه لا شك أن الذين لم يثبتوا على القتال وقد دخلوا، والمنافقين الذين ثبطوا الذين آمنوا حتى همت طائفتان منهم أن تفشلا - ظالمون، وإذا كانوا ظالمين، فمن نتائج المعركة أن يتميزوا وأن يعلموا أنهم ليسوا من أهل الله؛ لأنهم فقدوا محبته، وفى هذا النص إشارة إلى ظلم الذين اتبعوا الغنائم، وتركوا موضع الرماية وكشفوا ظهر المؤمنين إذ إن هذا كان سبب الهزيمة، والله لا يحب الظالمين، ولا يحب أفعالهم، ولذلك قدر الهزيمة مع هذا الفعل، فعلى القائد أن يختار جنده من الصفوة دون غيرهم، وبهذا يكون ذلك النص فائدة رابعة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ هاتان فائدتان، أولاهما تمحيص الذين آمنوا، والتمحيص هو التخليص، أى تخليص المؤمنين من ذنوبهم والمنافقين، وقد جاء فى أساس البلاغة للزمخشري: «محص الشيء محصاً،

ومحصه تمحيصا خلصه من كل عيب، ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه، والمعنى على هذا أن هذا القرع الذى أصاب المؤمنين خلصهم مما كان يشوب قلوبهم من أعراض الدنيا، وخلصهم ممن كانوا يخالطونهم من ضعاف الإيمان والمتافقين، إذ تبين خبثهم، فصاروا لا يجدون لقولهم سامعا، ولا لدعوتهم إلى التردد والهزيمة مجيبا.

والفائدة الأخرى قررها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أى ينقصهم، إذ المحق معناه النقصان، ومنه المحاق لآخر الشهر؛ لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفى، والمعنى أن هذه الإصابة التى ترتب عليها تخليص المؤمنين من الشوائب يترتب عليها أن يختفى عَلم الكفر فلا يظهر، وتنقص قوتهم فلا يتصرفون من بعد؛ لأن العزائم قد تحفزت حذرة لمنازلتهم، فكانت الهزيمة سبيلا للنصر، وكان الجرح سبيلا لإعلاء كلمة الله تعالى.

هذه عبرة ساقها العزيز القدير لهزيمة المؤمنين يوم أحد، وقد نبه سبحانه إلى طريق الاستفادة من الهزيمة، بأن نخلص أنفسنا من شوائبها، ونمحص جماعتنا، فهل لنا أن نستفيد من ذلك؟! إن الله تعالى يداول بين الناس وقد دالت علينا الأزمان بما فعلنا وبما ظلمنا أنفسنا وباستخذائنا وضعفنا، وقد بدت البشائر بأن الدولة أوشكت أن تعود إلينا، اللهم أجعلنا نتفع بمواعظ القرآن، وهداية الرسول ﷺ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة].

أَمَر

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرْتُمْ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
 أُنْقِلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
 اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

هذه الآية موصولة بما قبلها؛ لأن موضوعهما واحد، إذ الكلام في أثر غزوة أحد في نفوس المؤمنين، ومداداة العزيز الحكيم لهذه النفوس بالعبر يسوقها، وسننه تعالى بينها، وآياته في الآفاق والأنفس يكشفها، وقد بين سبحانه وتعالى في الآية السابقة مداولة الله سبحانه في الأمم بالنصر والهزيمة، وأن العاقبة للمتقين، وفي هذه الآيات بين أن الجماعات تصقل بالمحن، والمجاهدين يتميزون عند وجود الشدائد، وأنه لا تخلص النفوس وتظهر إلا بالاختبار الشديد، ولذا قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ «أم» هنا إما أن تكون للإضراب، ويكون المعنى: بل حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والإضراب هنا معناه الانتقال من طريق للبيان إلى طريق آخر، ففي الأول بين العبر والسنن بطريق التقرير، وفي هذه الآية بين سنة أخرى بطريق الاستفهام الإنكارى، وفيه فضل تنبيه وفضل تقرير، والمعنى: أن سنة الله تعالى في نعيمه أنه لا يستحقه على كماله إلا من بذل المهجة في حياته، وصبر في السراء والضراء، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢١٤]. وكقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ويصح أن تكون «أم» هنا للمعادلة، أى تكون متصلة لا منقطعة، ويكون المعنى على هذا: أعلمتم أن الله تعالى سننا في خلقه وأنه يداول النصر بين الناس،

وأن الحرب لا تخلو من فرح ونكايه، أم حسبتم وظننتم أنكم تدخلون الجنة من غير أن يصيبكم الجرح، وتدموا^(١) في الحروب، ويكون منكم شهداء.
وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾.

المراد من العلم فيها المعلوم، أى ولما يستبين لكم أمركم، ويظهر لكم جهاد المجاهدين وصبر الصابرين، فالمعنى ظهور علم الله الواقع فيكم وبيانه لكم، وذلك لأن الله يعلم الأمور قبل وقوعها، فلا يتصور أن يكون غير عالم حتى تقع، بل المراد وقوع ما علمه الله تعالى وظهوره وكشفه وإعلانه مُحَسَّساً واقعاً، بعد أن كان خفياً لا يعلمه إلا علام الغيوب، وقد تكلموا فى الحكمة فى أن الله تعالى عبر فى نفى المعلوم الواقع بنفى العلم الثابت، فقال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولم يقل: ولما يقع معلوم الله، ونقول: إن حكمة ذلك هو تعليمنا بألا نحكم إلا بما يظهر ويقوم عليه الدليل المحسوس، ولا يحكم أحد بما يتوقع، فالله العليم بكل شئ يرشد إلى أنه يترك الحكم فى الأمر حتى يقع ما حكم به محسوساً ملموساً.

وقد نفى الله تعالى «العلم» بكلمة «ولما» وهى فى معنى لم، بيد أنها تمتاز عنها بأنها تنفى الأمر فى الماضى والحاضر، وتؤمى إلى وقوعه فى المستقبل، ففى الآية إيماء إلى أن المعلوم وهو المجاهدون، لم يكونوا معلومين قبل الاختبار، وكانوا بعد الاختبار، وظهرت تلك الصفة فيهم. ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾.

أى ويقع المعلوم الثانى الذى قدره الله تعالى، وهو أن يتميز الصابرون من غيرهم، فالابتلاء الشديد أظهر نوعين من الرجال: أولهما- المجاهدون الذين يجالدون ولا يفرون ولا يولون الأدبار، ولا يذهب بياسهم قوة عدوهم، وفشل فريق من إخوانهم. والفريق الثانى الذى أظهره هم الذين صبروا ولم تذهب قلوبهم شعاعاً، ولم يذهب تفكيرهم، ولم يضع رشدهم، ولم تطش أحلامهم، وقد يقول قائل: إن الجهاد يتضمن الصبر، كما قال النبى ﷺ: «إنما الصبر عند

(١) من دَمِي: إذا تلوث بالدم. الصحاح. والمقصود هنا ما أصابهم من جراحات وقتل.

الصدمة الأولى»^(١)، وإن الصبر عدة الجهاد الأولى، فلماذا خُصَّ الصابرون بالذكر، وخص الصبر بالتنويه، ونقول في الإجابة عن هذا السؤال: إن الصبر ولو أنه عدة الجهاد ينفرد بمعنى آخر غير الجلد والصبر تحت حر القتال وفي بريق السيوف، فإن الصبر يتضمن ثبات الفكرة واطمئنان القلب إلى الحقائق المقررة، وعدم طيش الأحلام، فإن الأخبار التي تثبط العزائم في الحروب إذا كانت كاذبة قد يصدقها المجاهد، ولكن شجاعته تدفعه إلى مواصلة القتال، وعدم التأثر، والصابر المطمئن النفس يمحض الأخبار في وسط الاضطراب النفسي، فإذا أشيع في ميدان القتال أن القائد قد قتل، كان الأبرار من الجند فريقين: أحدهما- المجاهدون الشجعان الذين يستمرون على القتال، ولو كان الخبر صادقا، ويندفعون في الميدان. والفريق الثاني المجاهدون الذين نالوا حظ الأولين وكان لهم مع ذلك قدرة على التأمل أصادق الخبر أم كاذب، وإذا كان صادقا حثوا غيرهم على الاستمرار وبينوا لهم أن الواجب صار أشد وأقوى وألزم، فهذا فريق الصابرين، وإن هذا النوع من الصبر هو أعلى أنواع الصبر؛ لأنه ثبات الجنان، وتحمل التبعات بأبلغ أحوالها وأشد صورها، فهو صبر في جهاد الفكر، وجهاد النفس، وتحمل عبء الجاهلين الأغرار، وتولى إرشادهم وتوجيههم.

والنص يفيد أن الطريق إلى الجنة ليس سهلا يسلكه كل إنسان، إنما هو محضوف بالمكارة والشدائد، ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا، ولذا قال النبي ﷺ: «حفت الجنة بالمكارة، وحفت النار بالشهوات»^(٢) وذلك لأن المعاصي أسبابها اندفاع الشهوات الإنسانية، وانطلاق الغرائز المنحرفة، فليس فيها جهاد بأى نوع من أنواعه، بل فيها تلذذ وانحراف، وأما الجنة فسييلها جهاد للنفس ومغالبة للهوى، ومنازلة بين الحق والباطل، وتكليفات يجب القيام

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي: صفة الجنة (٢٤٨٢)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١٢١٠١)، والدارمي: الرقاق - حُفَّت الجنة بالمكارة (٢٧٢٠) عن أنس رضي الله عنه.

بها، وكل هذه مشاق يحتاج احتمالها إلى جهد فى دائرة الطاقة، و ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (٢٨٦) [البقرة].

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن المؤمن الصادق الإيمان يعرف طريق الجنة، وأن الموت فى سبيلها هو شكر لنعمة الله تعالى فيما أنعم فى الحياة الدنيا، وفيما ينعم فى الجنات فى الحياة الآخرة، وإن الذين قاتلوا فى غزوة أحد الذين سيقت لهم هذه العبر يعلمون ذلك ويعرفونه ويؤمنون به، وينفذونه، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾.

كان المؤمنون يتمنون الموت حقا وصدقًا، وصدق الله العظيم، ذلك أنهم كانوا يتشوقون للشهادة ويريدونها ويطلبون أسبابها، وفى غزوة أحد بالذات ما كان للنبي ﷺ رأى فى الخروج من المدينة، ولكن شباب المجاهدين أرادوا اللقاء خارجها، فنزل عليه الصلاة والسلام على حكم الشورى وقادهم، وما كانوا يريدون عرضاً من أعراض الدنيا، ولا غاية لهم إلا أن ينالوا إحدى الحسينين الظفر أو الشهادة، وفى كليهما إعلاء كلمة الحق، وخفض كلمة الباطل.

ومعنى تمنى الموت: تمنى لقاء سببه وهو الحرب، وكأن الله سبحانه وتعالى ينبههم إلى أنهم بتمنيهم لقاء الأعداء فى الميدان يجب أن يفرضوا أن الموت ينالهم كما أن الحياة العليا قد ينالونها، فكان عليهم أن يتوقعوا الموت عند تمنى اللقاء، وأن يعلموا أن تمنىهم للقاء هو فى ذاته تمن للموت، وأن تمنى الموت هو سبيل النصر وطريق الظفر، فإن الشجاع هو الذى يدخل الميدان طالبا الشهادة، فإنه لا يموت إلا إذا قتل عدداً، ولقد وُصِفَ فارس الإسلام علي رضى الله عنه بأنه كان إذا تقدم إلى الميدان لا يدرى أيقع على الموت أم يقع الموت عليه، فكان يقع رضى الله عنه على الموت يصيب به أعداء الله وأعداءه.

ولقد أورد الزمخشري فى الكشف اعتراضاً خلاصته: كيف يتمنى المؤمنون الموت، وفى الموت غلبة ونصرة للأعداء فكأنهم يتمنون ذلك النصر لأعدائهم، وقد أجاب عن ذلك بأنهم يتمنون فضل الشهادة من غير نظر إلى ما يجره ذلك

على الأعداء من ظفر، ونحن نجيب جواباً آخر، وهو أن تمنى الموت هو تمنى الحرب في سبيل نصره الله، ومن دخل الحرب متمنيا الموت فإنه لا يترتب على قتله نصر للأعداء بل يترتب عليه هزيمة لهم، كما أشرنا قريباً، وقد كان السبيل الحق إلى النصر أن يدخل المجاهدون غير حريصين على حياتهم، إنما يحرصون على النصر، ولو كان يموت آحاد منهم، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان كل واحد لا يحرص على الحياة، ولكن يطلب الموت، وإن طلب الموت يؤدي إلى الحياة، كما قال الصديق: (اطلب الموت توهب لك الحياة، وفر من الشرف يتبعك الشرف)، وإن الحرص على الحياة يؤدي إلى الجبن، والجبن يؤدي إلى الهزيمة، وإن المجاهد الذي يستحق شرف هذا الاسم يتقدم مريداً عزة الحق، وقابلاً الموت، بل يتمناه ليكون شهيداً، وإذا وقع يكون أمراً قد توقعه، ومن بقى من بعد عليهم أن يجددوا العزيمة، ويعيدوا الكرة عليهم، ولذا عتب الله سبحانه وتعالى على المؤمنين إذ أصابهم الغم عندما اشتدت شديدة الحرب عليهم فأصابهم ما أصابهم بل أمرهم أن يثبوا مرة أخرى، وإذا كانوا قد تمنوا الموت، فقد وقع لبعض منهم ما تمنوا، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرُوهُ﴾.

الفاء هنا للإفصاح، فهي تفصح عن شرط مقدر دل عليه صدر الكلام، ومعناه: إذا كنتم تمنيتُم الموت فقد رأيتموه رأي العين وشاهدتموه، فوقع ما توقعتم، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُوهُ﴾ تأكيد لحال الرؤية أو تصوير لرؤيتهم؛ لأن الجملة حالية والتعبير بالمضارع يفيد التصوير، وإحضار الصورة الواقعة في الماضي كأنها واقعة في الحاضر، فيستحضرها العقل كما وقعت، وكما ظهرت في الوجود، والنظر الذي قرره سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُوهُ﴾ يتضمن النظر إلى الواقعة كلها، وكيف كان الانتصار في ابتداء الأمر عند الطاعة، ثم كيف كان الانهزام عند المخالفة إرادة عرض الدنيا من بعضهم كما قال تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ...﴾ (١٥٢) [آل عمران].

ويتضمن النظر بعد وقوع الانهزام كيف تفرقت الإرادات، وقد كانت إرادة واحدة، وكيف تضعضعت بعض الهمم، وكيف كثرت الظنون، وكيف أصابكم

الغم، ولم تفكروا فى إعادة الوثبة، ولذلك كان قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ متضمنا تأكيد الرؤية ومصورا لها، ومتضمنا مع ذلك العتب أو اللوم؛ لأن حالهم لم تكن متفقة مع ما كانوا يتوقعونه من قبل، إذ إن حالهم من بعد انتهاء الموقعة تفيد أنهم كانوا يريدون النصر رخاء سهلا من غير عقبة تحول يجب تذليلها، ومن غير شدة عنيفة يجب الصبر عليها.

ولقد حدث فى أثناء الموقعة أن راغت الأبصار، فظن بعض المجاهدين أن النبى ﷺ قتل، فاضطربت عزائمهم، واسترخت هممهم، واستضعف أقوياءهم، وقد لامهم الله تعالى على ذلك أشد اللوم، وكأنما كان الظن الذى غلبهم ليعين الله لهم حقيقة غابت عنهم، وهى أن محمدا بشر كالbشر، يموت كما يموتون، ويحيا كما يحيون، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

تقرير لحقيقة ثابتة وأمر واقع، وهو أن محمدا بشر من البشر، وأنه يموت كما يموت سائر البشر، وقد قرر هذه الحقيقة ومعها دليلها، وذلك ببيان حقيقتين كل واحدة منهما تصلح مقدمة فى دليل لإثبات أنه ميت لا محالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر].

الحقيقة الأولى أو المقدمة الأولى: أن محمدا ﷺ رسول فقط فليس أكبر من رسول، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ أى ليس له صفة تميزه على الناس إلا الرسالة، والحقيقة الثانية: أن الرسالة لا تقتضى البقاء، فقد مضى رسل من قبله وماتوا، وقد قررهما سبحانه بقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

ومن مجموع الحقيقتين يثبت أن محمدا سيموت؛ لأنه إذا كان ليس إلا رسولا، والرسول قد ماتوا، فهو سيموت لا محالة.

وإذا كان محمد سيموت لا محالة فإن رسالته لا تموت من بعده، ولا يصح أن ينقلب المؤمنون من بعده، بل عليهم أن يحملوا العبء من بعده، وقد بلغ

رسالات ربه، وأتم بيان دينه، ولذا وبخ المؤمنين على ما كان منهم يوم أحد إذ ذاع في وسطهم أن محمدا قد قتل، فقال تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أو للإفصاح عن شرط مقدر، والاستفهام للتوبيخ، والمعنى: إذا مات وقد علمتم أن موته حق لا ريب فيه، أو قتل في الميدان والقتل طريق من طرق الموت، انقلبتم على أعقابكم، أي عدتم كفارا بعد أن آمنتم، وعباد أوثان بعد أن صرتم من أهل التوحيد، وضلالا بعد أن اهتديتم، والتعبير عن ذلك بقوله تعالى: ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ تصوير سام لمن ضل بعد أن اهتدى، فهو تصوير لمن يرجع إلى الوراء وبصره إلى الأمام، وأعقابه هي التي تقوده، وهو منكس جعل رأسه في أسفل وعقبه في أعلى، وذلك أقبح منظر يكون للإنسان.

ولكن هل وقع ذلك الضلال أو كان ما يدل على احتمال وقوعه. يروى في ذلك أن عبد الله بن قمئة الحارثي أقبل يريد قتل النبي ﷺ، فتصدى له مصعب بن عمير حامل راية المؤمنين فقتله المشرك، وظن أنه الرسول فأذاع ذلك في المشركين، وانتقل الخبر إلى بعض المؤمنين، إذ قد اختلط الحابل بالنابل، فريعت قلوب بعض المسلمين وولوا مدبرين، وانطلق المنافقون يقولون: لو كان نبيا ما قتل، وثبت المؤمنون الصادقون، وقد مر أنس بن النضر، ووجد قوما خارت عزائمهم فقال لهم: يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. . اللهم أعذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. وقد مر بعض المهاجرين بأنصارى يتشحط^(١) في دمه، فقال له: أشعرت أن محمدا قد قتل، فقال: إن كان قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا على دينكم، ولقد صاح بعض المجاهدين في وسط ذلك البلاء: يامعشر المؤمنين إن كان محمد قد أصيب أفلا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به.

(١) أي يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ.

وبهذا يتبين أن المحاربين كانوا فريقين: أحدهما رعب واضطرب، والثاني ثبت وجاهد، ولقد ذكر الله حال الفريقين، ومقام كل واحد من الحق ودعوته فقال تعالت كلماته في الفريق الأول: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أى ومن ينقلب على عقبيه بعد وفاة النبي ﷺ فلن يضر دين الله تعالى فى شىء، ولأن دين الله تعالى بعد أن بلغ النبي رسالة ربه، وأكمل البيان لهذا الدين، قد ظهر وصار حقيقة ثابتة فى الوجود، فلا عبرة بمن يخرج، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾ [المائدة: ٥٤].

وفى هذا تنبيه إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن من يجاهد عليه أن يجاهد لحقيقة من الحقائق الثابتة الخالدة التى لا تفنى ولا تنتهى، ولا يقاتل لأجل الأشخاص الذين ينتهون ويفنون، فالمعانى خالدة، والأشخاص ميتون.

الثانية: أن من يفسد قلبه فيرتد بعد إيمان ويكفر بعد يقين، لا يضر دين الله بل يضر نفسه؛ لأن الضال المضل يضر نفسه قبل أن يضر غيره.

ثالثها: إخبار الله تعالى بأن هذا الدين خالد ثابت باق إلى يوم القيامة؛ لأنه سبحانه قد قرر أنه لا يضره من يخرج عنه أو يمرق عن أحكامه، أو يتركها مستهيناً، فإن للإسلام ربا يحميه، ورجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ثم بين سبحانه من بعد ذلك جزاء الصابرين الذين لم يربعوا ولم يضطربوا، فقال سبحانه: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

أى وسيجزى الله سبحانه وتعالى الذين صبروا فى هذه الشديدة وشكروا الله تعالى فى السراء والضراء، فلم يزعجهم البلاء كما لم تبطّرهم النعماء، فصفة الشكر كصفة الصبر كلتاهما تظهر فى السراء والضراء معاً، فالصبر يكون فى النعمة بالقيام بحققها، وفى الكريهة باحتمالها، من غير تملل وتضجر.

وقد يقول قائل: لماذا عبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين، والصبر هنا هو الأظهر، فنقول: إن الشكر في هذا المقام هو أعلى درجات الصبر، وذلك أنهم لم يحتملوا البلاء فقط، بل تجاوزوا حد الصبر إلى حد الشكر على هذه الشديدة، فالشكر هنا صبر وزيادة، وقليل من يكون على هذه الشاكلة، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ].

وإننا نضرب إلى الله تعالى أن يجعلنا من الصابرين في البلاء، الشاكرين في الضراء والسراء معا، إنك سميع الدعاء.

وَمَا كَانَ

لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا مُوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ
رِيتُهُنَّ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا
وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ
إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَهُمُ اللَّهُ
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

الكلام في هذه الآيات موصول بالآيات قبلها، ففي الآيات السابقة أشار سبحانه إلى اضطراب بعض المؤمنين عندما بلغهم كذبا أن النبي ﷺ قد قتل، فضعفت نفوس، ووهنت قلوب، واضطربت عقول، فبين الله سبحانه وتعالى أن محمدا رسول من البشر، وأنه يموت كما يموت سائر البشر، وأن له أجلا ملموسا، وأن الدعوة الإسلامية كاملة ما دام النبي ﷺ قد بلغها وأتم تبليغها، وبهذا

أتم ما عهد إليه، فإذا مات حمل هذه الأمانة من بعده ونقلوها إلى الأخلاف، ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أن النفوس جميعها بيد الله، وأنه سبحانه قد جعل لكل أجل كتابا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ والمعنى ما تحقق وما ثبت لنفس أن تموت إلا بإذن الله تعالى، وقد كتب لها كتابا مؤجلا، ومعنى الإذن هنا يتضمن أن الله تعالى الإرادة المطلقة في قبض النفوس وإرسالها، فهي لا تموت إلا بمشيئته، ولا تحيا إلا بإرادته، وقد عبر سبحانه وتعالى عن الإرادة بالإذن، وذلك للإشارة إلى أنه إذا كان القتل في الحروب سببا للموت، فإنه ما دام لم يجرئ الإذن الذى يعلن مشيئة الله تعالى وإرادته فإن المقاتلين مهما يكونوا أقوياء لا يمكن أن يصيبوا نفسا لم يشأ الله تعالى قتلها، فهذا النص الكريم يؤكد معنيين: أحدهما: أن الموت بالإرادة الأزلية، وبالمشيئة الإلهية، فما لم يأذن فلا موت. والثانى: أن القتال مهما يكن شديدا فلن تموت نفس لم يكتب الله تعالى لها الموت، وهناك إشارات فى الآية كثيرة: منها أن الموت لا يحتاج بالنسبة لله تعالى إلى أسباب، فليس إلا أن يأذن بقبض الروح فيكون الموت من غير أى مجهود يبذل، ومنها تحريض المؤمنين على الجهاد، وتشجيعهم على لقاء الأعداء، فإن الحذر والحرص على الحياة لا يمنعان ما قدر الله تعالى، فإذا كان قد أذن للنفوس أن تلقى ربها فلا مانع يمنعها، ولا دافع يدفع عنها أسباب المنايا، ومنها الإشارة إلى حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ وقد تربص به الأعداء، وأحاطوا به من كل جانب، وصار قريبا من نهزة المختلس، ولكن الله تعالى أحاطه بكلاءته وعنايته، ومنها بيان أن الله سبحانه وتعالى قابض نبيه ﷺ مهما يطل الأمد أو يقصر.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف معناه: كتب كتابا مؤجلا، أى له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، وهو آت لا محالة.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ وإذا كان الاجل مكتوبا، فإن ذلك لا يمنع أن العمل مكسوب، فعلى كل أن يعمل، وكل

ميسر لما خلق له، وكل يكون جزاؤه فى الدنيا والآخرة، فمن يرد ثواب الدنيا أى جزاءها والنتائج المطلوبة فيها، ويسلك السبيل القاصد الذى يوصل إلى الغاية، ويتسهى إلى النهاية، يمكنه الله تعالى من الأسباب، ويسهل له الحصول على النتائج، ومن كان يريد الآخرة ويقصد وجه الله تعالى فى كل ما يعمل، ويقصد إلى الدنيا لا لذاتها، بل على أنها مزرعة الآخرة، فإن الله تعالى يؤتيه من ثواب الآخرة ما ادخره لعباده المتقين، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ...﴾ (١٥٢) [آل عمران]. وكقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠) [الشورى].

فالنص الكريم يثبت أن الدنيا لها وسائل، والنجاح فيها له أسباب توصل إلى النتائج، والآخرة لها أسباب وذرائع، وعلى ذلك لا يكون النجاح فى شئون الدنيا دليلا على القرب من الله تعالى، ولا الفشل فيها دليلا على البعد عن الله تعالى، ذلك قول الفجار، الذين يتخذون من سطوة الكفار مع كفرهم دليلا على أنهم أقرب إلى الله من المؤمنين، ويغفلون عن قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٢) وَلَبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) [الزخرف].

وفى النص الكريم إشارات بينات، فهو يشير إلى الذين اتبعوا الغنائم وتركوا طاعة الرسول يوم أحد بأنهم أرادوا الدنيا، ولكن لم يسلكوا مسالكها، ويشير إلى الذى يقاتلون طلبا للغنائم، وأنهم لا ينالونها إلا إذا استقاموا على مناهج القتال الصحيحة، ويشير إلى فضل الذين صبروا ويصبرون فى الحرب، ويطلبون بها وجه الله تعالى لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا، ويشير إلى أن القتال يجب أن يقصد به وجه الله تعالى، لعمارة الأرض ومنع الفساد فيها، ثم يبين سبحانه أن أولئك هم الذين ينالون الثواب، ولذا قال تعالى :

﴿وَسَجَّزِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ شكر النعمة القيام بحقوقها، وأداء ما ينعم الله تعالى به من نعم في مواضعه، فإذا أعطى فشكر العطاء بإنفاقه في مواضع الإنفاق، وإذا منح القوة فشكرها أن يجعلها لنصرة الحق وخفض الباطل، وإذا أعطى نعمة الحكمة والفكر السليم، فيكون الشكر بتسخير ذلك لنفع العباد، وهدى الناس، وإرشادهم إلى طرق البحث وتذليل الأرض لهم، وأن يكون ما ينتجه للعمارة لا للخراب.

وهنا نجد النص لم يبين الجزاء، ولم يبين من الذين يتصفون بالشكر من طلاب الدنيا أو طلاب الآخرة، وقد ترك الجزاء من غير بيان ليعم الجزاء الدنيوى، والجزاء الآخروى، فمن طلبوا الدنيا واتخذوا أسبابها، ونصروا الضعيف، وخذلوا القوى، وعمرؤا الأرض ولم يفسدوها، ولم يطرحوا ما عند الله تعالى بل طلبوه، كانوا من الشاكرين. واستحقوا الجزاءين: جزاء الدنيا بأن يصلوا إلى النتائج التى قصدوها، وهى العلو فى الأرض من غير طغيان، والجزاء فى الآخرة عند تجلّى الرحمن.

ولم يبين سبحانه من هم الشاكرون؟ أهم طلاب الدنيا أم طلاب الآخرة، وذلك لأن المطلبين ليسا متضادين، بل إنهما يتلاقيان، وإنه عند التحقيق لا يعد طالب الدنيا سالكا طريقها إلا إذا طلب الآخرة فيها، وأذعن لقدرة الخالق فى طلب الحياة الدنيا، فكل شئ عنده بمقدار، فمن اعتمد على الأسباب الدنيوية وحدها من غير تفويض الله معها فإنه يعاند قدرة الله، ولا ينجح له تدبير، ولا ينتهى إلى غاية فى تفكير، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [١٨] [الأنعام]. ولذلك كان الشكر مشتركا عند طلاب الدنيا إن طلبوها على وجهها وطلاب الآخرة، وإنه عند التحقيق أيضا طلب الآخرة لا ينقطع تماما عن طلب الدنيا، فإن الزهد فى الإسلام طلب الحلال وليس إعراضا عن الدنيا، وإن من

يحتطب لقوت أهله أَعْبَدُ مَنْ يَنْقُطِعُ فِي صَوْمَعَةِ الْعِبَادَةِ، ولذلك ورد في بعض الآثار «رهبانية أمتي في الجهاد»^(١).

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾

كلمة ﴿وَكَايْنٍ﴾ بمعنى كم الخبرية الدالة على الكثرة، أى كثيرون من الأنبياء قاتل معهم ربيون كثيرون، وهناك قراءة و«كائن»^(٢)، وهى لغة جائزة فى كآين، وقد جمع بينهما الشاعر فى قوله:

كَآيْنٍ أَبَدْنَا مِنْ عَدُوٍّ بَعَرْنَا وَكَآيْنٍ أَجَرْنَا مِنْ ضَعِيفٍ وَخَائِفٍ

والربيون هم المؤمنون الصادقون الإيمان الذين يقاتلون ابتغاء ما عند الرب، فهم منسوبون للرب سبحانه وتعالى لخلوصهم له، واتجاه قلوبهم إليه وحده، وقال الزمخشري: إنها نسبة غير فيها النسب، وقد قرئ بفتح الراء وضمها وكسرهما، ولذا قال الزمخشري: «والربيون هم الربانيون، وقرئ بالحركات الثلاث، فالفتح على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب».

والمعنى كثيرون من الأنبياء قاتل معهم مؤمنون صادقوا الإيمان وكانوا يصابون، والقتال يتعاور فيه المقاتلون الجروح والدماء، فليس القتال ريحا رخاء سهلا، بل هو عاصفة وملحمة بشرية يدال بين المقاتلين فى الميدان، فكانوا بهذه الجراح راضين صابرين لم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا ويدلوا، وهذا الكلام للاعتبار بحال الماضين الذين قاتلوا من قبل مع الأنبياء، ما ضعفوا عندما أصابهم القرع، فكذلك أنتم ما كان يليق أن تضعفوا إذا أخطأتم فجرحتم يوم أحد.

(١) سبق تخريجه من رواية الإمام أحمد وغيره عن أنس رضي الله عنه.

(٢) وبها قرأ ابن كثير، وأبو جعفر المدني ولين الهمزة. [غاية الاختصار لأبي العلاء الهمداني: ج ٢

وقد فهم بعض العلماء أن المراد أن بعض الأنبياء قتل في الميدان فما وهن جيشه بقتله ولا ضعف، فما كان يسوغ لهم أن يضطربوا ذلك الاضطراب يوم أحد.

ولكننا نرى أنه ليس في الآية ما يشير إلى هذا المعنى، حتى يتعين مرادها، والحق أن العبرة في كون النبيين كانوا يقاتلون ومعهم مؤمنون صادقوا الإيمان، يصيهم جراح، وتصيب أعداءهم، وما كانت جراحهم توهنهم أو تضعفهم أو تجعلهم يستكينون ويدلون، وقد نفى الله تعالى عن أولئك الربانيين ثلاثة أوصاف لا تتفق مع الإيمان:

أولها: الوهن فقد نفاه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والوهن اضطراب نفسى، وانزعاج قلبى، فهو يتدنى في الداخل، وإذا وصل إلى الخارج كان ضعفا وتخاذلا، وإذا أنتج الضعف نتائجه كانت الاستكانة والذل، ولذلك ابتداء بنفى الوهن، وقرن نفى الوهن بكون سببه ما أصابهم في سبيل الله للإشارة إلى أن الوهن ينأى قوة الإيمان، لأن من كان يقاتل في سبيل الله عليه أن يعلم الغاية من القتال، وهى توجب تحمل كل الشدائد، والعاقبة للمتقين.

الوصف الثانى: الضعف والتخاذل الذى يوجه اليأس والاضطراب، وهذا كما قلنا نتيجة للوهن.

والوصف الثالث: الاستكانة، وهى الرضا بالذل والعيش مع الهوان، وذلك ليس شأن المؤمن.

وقد نفى سبحانه هذه الأوصاف الثلاثة مع أن واحدا يكفى نفية لغيرها، لأنها متلازمة، لبيان قبح ما يقعون فيه لو سلطوا وصفا منها على نفوسهم فاستمكن فيها.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ الله سبحانه وتعالى يشير بهذا إلى أن الذين لا يصيهم وهن بسبب اشتداد المعركة ولا ضعف ولا ذل ولا استكانة واستسلام هم الصابرون حقاً وصدقاً. والله سبحانه وتعالى يحبهم. ونقف هنا وقفة قصيرة عند معنى الصبر، واستحقاقه للمحبة لا لمطلق الجزاء، إن الصبر ليس هو احتمال الشدائد، فقط، بل هو ألا يتضعضع عند نزولها، وألا يضطرب التفكير عند اشتداد الشديدة، وأن تنفى مطامع النفس إلا ما كان منها إجابة لداعى الحق ونصرته، وأن تخلص القلوب عن شوائب الشهوات فلا تخضع لها ولا تذلل، بل تتحكم كل نفس فى أهوائها، وألا يكون أنين ولا شكوى ولا ضجيج، وهذا هو الذى سمي الصبر الجميل، والصبر على هذا المعنى هو أجل الصفات الإنسانية وأكملها؛ لأنه ضبط النفس، وكمال العقل، وسيطرة الحكمة وقوة الجنان، وهو يتضمن فى ثناياه معنى الشكر، فهو عنصر من عناصره، ومظهر من مظاهره، وكان الجزاء أعلى جزاء، وهو المحبة من الله، ومحبة الله تعالى تتضمن رضوانه، وتتضمن ثوابه، وهى مرتبة أعلى منهما، ولا ينالها إلا الصابرون.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أى أن هؤلاء الصابرين ليس لهم شأن فى ميدان القتال وفى عموم الأحوال إلا الاتجاه إلى ربهم ضارعين شاعرين بالتقصير فى جنب الله سبحانه وتعالى، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ وما ثبت وتحقق لهم من قول إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ فنفى الله تعالى عنهم كل قول إلا الاستغفار وطلب النصر، فلم تكن منهم صيحات الفزع والاضطراب، ولا صيحات الأخذ من الأسلاب والغنائم، إنما قولهم هو فى علاج نفوسهم والطب لأدوائها، وطلب النصر من ربهم على أعداء الحق الكافرين به، وتلك غاية الغايات عندهم.

ولقد كانت ضراعتهم إلى ربهم بالدعاء تتجه إلى ثلاثة أمور:

أولها: طلب غفران الذنب والإسراف، والذنب هو التقصير في حق الله تعالى، والإسراف في الأمور هو تجاوز الحد في الأمور، وأمرهم هو كل ما يتعلق بإجابة الله تعالى، فهم يستغفرون من التقصير في حق الله تعالى، وتجاوز حدود الله تعالى، وإن ذلك الدعاء مناسب للقتال لأن المقاتل إما أن يقصر فيتخاذل، وإما أن يتجاوز الحد فيقتل في غير حاجة إلى القتال، فكان هذا الدعاء في موضعه، وإن الإسراف في القتل من غير حاجة إلى القتل مؤاخذ عليه كالتقصير، فمن يقتل امرأة أو عاملاً غير مقاتل أو شيخاً هرمًا لا رأى له في القتال، أو يقتل أسيراً، أو يقتل بعد الأمان، يكون مسرفاً في أمره، فيكون مؤاخذاً، ولذلك طلبوا الاستغفار من الأمرين: التفريط والإفراط.

وإن طلبهم هذا يدل على سلامة قلوبهم، واستصغار عملهم، وذلك شأن الأتقياء، ولذا جاء في الكشاف في هذا المقام: (هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين كان هضمًا لها واستقصارًا) ولقد كان دعاء النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني»^(١).

الثاني: طلب تثبيت الأقدام بألا يهزموا ولا يفروا، بل يلاقوا الأعداء بصدورهم ولا يولوهم الأدبار، وفي تقديم الدعاء بالغفران إشارة إلى أنهم يقدمون طهارة نفوسهم وتزكية القلوب واعتبارها أساس الثبات والصبر في مواطن القتال، وجاء في الكشاف: «والدعاء بالاستغفار مقدما على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع وهو أقرب إلى الاستجابة».

(١) رواه البخاري: الدعوات - قول النبي ﷺ اللهم... (٥٩٢٠) واللفظ له، ومسلم: الدعوات - التعوذ من شر ما عمل (٢٧١٩).

الثالث: طلب النصر على الكافرين، وهو غاية القتال؛ لأن الانتصار عليهم رفع لاعتدائهم، وتمكين لأهل الإيمان في الأرض، ومنع للفتنة في الدين، وإزالة الحواجز التي تحول بين النبي ودعوته، وذلك نصر لحق الله تعالى.

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾ الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنهم بسبب ذلك الصبر والاطمئنان نالوا جزاء الدنيا وثوابها بالنصر والغنيمة وجعل كلمة الله تعالى هي العليا، ومكن لهم في الأرض، وبسبب هذا أيضا نالوا حسن ثواب الآخرة، أى نالوا النعيم المقيم، وجنات عدن، وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونالوا ما هو أعلى من ذلك وهو رضا الله تعالى ثم محبته، وهي أعلى الدرجات، ووصف ثواب الآخرة بالحسن؛ لأنه الثواب الذي لا يعكره معكر، ولا تكليف فيه، ولا مشقة تحتل في سبيله، فهو حسن بإطلاق، وأما ثواب الدنيا فحسنة إضافية إذ فيه تكليفات ومشقات، إذ الدنيا قد اختلط حلوها بمرها، وسراؤها بضرائها، وشقاؤها براحتها، ولذلك كان ثوابها غير حسن إلا حسنا إضافيا نسبيا، أما ثواب الآخرة فحسن باستمرار وإطلاق ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ذيل الله سبحانه وتعالى الآية التي تتعلق بالجزاء بأعظم جزاء وهو محبته الكريمة، وأشار إلى أن هؤلاء الربانيين قد استحقوه بسبب إحسانهم وإتقانهم لما عملوا وما جاهدوا فيه، وصبرهم في الشدائد والمكاره، وتلقيهم للأحداث بجنان ثابت وقلب رابط.

وإننا نجد أن الله تعالى وصف المؤمنين بثلاث صفات، وكل واحدة منها قد استحققت جزاء، فالوصف الأول أنهم شاكرون، فقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾؛ لأن الشكر أول أبواب الطاعة، والرغبة في الفداء؛ إذ هو الإحساس بحق المنعم فيما أنعم به.

والوصف الثاني هو الصبر؛ لأن الإيمان الذي هو أول ثمرات الشكر يقتضي ضبط النفس عن أهوائها ومنع الاضطراب في (الصدقات) والرضا بكل شديدة من

غير أنين، والصابرون يحبهم الله، والوصف الثالث الإحسان، وهو نتيجة للصبر، وهو أن تكون النفس كلها لله، تراقبه في كل عمل تعمله، وكل قول تقوله، وكأنها ترى الله، وقد قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»^(١) وبذلك يكون ممن يحبهم الله، ولقد قال النبي ﷺ عن ربه في العبد الذي يحبه: «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها»^(٢).

اللهم إنا ما عملنا عملاً نستحق به محبتك، ولكننا مع ذلك نطمع فيها، فإن أعطيتها فبفضلك، وإن منعتها فبحقك، وإنا لنضرع إليك من بعد ألا نكون ممن غضبت عليهم وسخطت أعمالهم، إنك غفور رحيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
مَا لَهُمْ يَنْزِلُ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ
مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

كانت غزوة أحد فيها العبر، وهى عركة نفسية عركت بها قلوب المؤمنين، وتميزت فيها نفوس المترددين، وقد اتخذ القرآن الكريم منها درساً لنبه المجاهدين إلى ما ينبغى أن يعلموه فى المواقع والحروب، نبههم إلى أن النجاح فى الأعمال

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري: الرقاق - التواضع (٦٠٢١).

مهما يكن . . أساسه التنسيق والتوزيع، وتخصيص كل طائفة لما تحسن، حتى تتلاقى الجهود كلها فى ثمرات مفيدة للجماعة، والجهاد عمل من الأعمال، فلا بد أن تنسق فيه الأعمال، ويكون كل لما يخصص له، فإذا خرج عما هبئ له وأُسند إليه، انتثر العقد، واضطربت الأمور، وخفت الثمرات، وذلك ما كان فى أحد، ولقد قرر الله تعالى أن يصاب المسلمون بذلك الجرح الدامى لتكثير العبر، فقد افترى من افترى فادعى أن النبى عليه الصلاة والسلام قد قتل، فاضطربت الأفهام، إذ لو كان الخبر صادقاً لأوجب على المجاهدين أن يتضافروا على حمل العبء لا أن تذهب نفوسهم شعاعاً. ولقد أصابت الهزيمة قلوبهم، وأصابهم غم شديد، فأخذ يبين الله أن القتال تتعاوره الهزيمة والنصر، وأن الهزيمة بسبب خطأ لا توجب الوهن، ولكن توجب تجنب الخطأ.

ولقد وجد ناس وقد اشتد البلاء، وأظلمت نفوس، وذهب ما فيها من أضواء الحق، فتنادى بعضهم أن يوسطوا المنافقين ليأخذوا لهم عند أبى سفيان زعيم الشرك إبان ذاك عهداً بالأمن والاستسلام، وقد بين الله سبحانه بعد ما بين من عبر أن هذه هى الخطة الذليلة، وهى المنزلة الدون، والمكان الهون، فقال عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ النداء للمؤمنين بوصف كونهم مؤمنين، وفيها بيان أنه لا يليق بهم بوصف كونهم مؤمنين أن يطيعوا الذين كفروا؛ فإن الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان، ولا يكونان فى قلب رجل واحد، ولقد أشار سبحانه إلى بعد احتمال أن يطيع المؤمنون الكافرين بالتعبير فى أداة الشرط بـ (إن) دون (إذا)؛ إذ إن: (إذا) للتحقق أى تحقق الشرط، وتحقق الجزاء، أما (إن) فإنها لا تفيد تحقق الشرط، وبالتالي لا يتحقق الجزاء. والمعنى فى هذا هو التحذير من مسايرة الكافرين بأى نوع من أنواع المسايرة؛ إذ كل مسايرة طاعة، ولا يليق بالمؤمن أن يطيع كافراً؛ لأنه يجب أن يكون فى حذر دائم، وإنه لو فرض وأطاعوهم فإنهم يرتدون على أعقابهم خاسرين.

والنداء متجه ابتداء للمؤمنين المجاهدين الذين حضروا أحدا، ووجد بينهم المنافقون ينادون بالويل والشبور وعظائم الأمور، ويرجفون في المدينة، ووجد أيضا المترددون الضعفاء الذين استجابوا أو كانوا على استعداد للاستجابة، إذ دعا بعض المنافقين بأن يتوسطوا عند أبي سفيان لينجوا بأجسامهم.

ومع أن الخطاب ابتداء لهؤلاء له وجه عام، وهو نداء المؤمنين في كل الأجيال وفي كل الأحوال بالألا يسايروا الكافرين، رجاء نصر، أو تحقق نفع، وألا يمالئوهم بأي نوع من أنواع الممالة، فإن الكافرين في كل العصور لا يريدون بالمؤمنين الإخبالا، ولا يرجون لهم إلا أن يكونوا قوما بورا، فالآية الكريمة تحذر المؤمنين تحذيرا عاما بالألا يطيعوا الكافرين، ولا يستنصروا بهم، ولا يجعلوا لهم ولاية عليهم، لأن ولايتهم غير ولاية الله، وولاية الله هي الولاية الحق، وهم موضع غضب الله تعالى دائما، والذي يتولاهم ويستنصر بهم، فإنما يتولى قوما غضب الله عليهم، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نتيجة إطاعة الكافرين في أى عصر من العصور إن كان هناك احتمال لذلك. فذكر في جواب الشرط نتيجتين، كلتاها مترتبة على الأخرى، أولاها: أشار إليها بقوله سبحانه: ﴿يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، والثانية المترتبة عليها: أشار إليها بقوله عز من قائل: ﴿فَتَقَبِّلُونَهَا خَاسِرِينَ﴾. ولتتكلم بكلمة موجزة في كل واحدة من هاتين النتيجتين المتلازمتين اللتين يقتضى وجود إحداها وجود الأخرى:

فالنتيجة الأولى، وهى ردهم على أعقابهم، معناها أن يرجعوا إلى موضع الدلة الذى كانوا فيه قبل أن يؤذن لهم بالجهاد أو يرجعوا إلى ما كانوا عليه فى غير انتظام وفى اضطراب، والمضطرب دائما لا يملك زمام نفسه، والأعقاب جمع عقب، وهو مؤخر القدم، والتعبير بـ: ﴿يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، فيه إشارات إلى أمور ثلاثة، أولها: أن هذا مطلب للكافرين، فإن أطعموهم فقد حققتم لهم

مقصدهم، وهو أن يردوكم، ولذا أسند الرد إليهم، ولم يقل ارتددتم، وثانيها: أن طاعتهم التي يترتب عليها ما ذكره سبحانه هي أقصى الهزيمة وهي الكبوة التي لا قيام بعدها، ولذلك عبر عن هذا بالرجوع على الأعقاب، فهو رجعة إلى الوراء وليس وثبة إلى الأمام، والأمر الثالث الذي يشير إليه النص هو أن زمام المؤمنين يكون نهائياً بأيدي الكافرين إذا أطاعوهم، وهذا هو ما آل إليه أمر المسلمين في العصور الأخيرة، وفي هذا تذكرة لمن يخشى.

والنتيجة الثانية هي الانقلاب خاسرين، والتعبير بالانقلاب في قوله سبحانه: ﴿فَتَقَبِّلُوا خَاسِرِينَ﴾ يفيد أن إطاعة الكافرين يكون حتماً فيها تغيير حال أهل الإيمان، ولكنه تغيير هو انقلاب، وجعل أعلى ما فيهم أسفل، فهو نكسة تصيبهم، ويعز عليهم من بعد أن يعودوا مستقيمين يضعون أغلى ما فيهم وهو الإيمان في موضعه، وإن ذلك الانقلاب تلاسه لا محالة الخسارة المؤكدة التي لا احتمال فيها؛ إذ يخسر المؤمنون إيمانهم، ويخسرون من وراء ذلك الآخرة، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١﴾ [الحج] وإن أولئك الذين يستخذون للكافرين ويسايرونهم، بل يطيعونهم ويتقلدون من العزة والكرامة إلى الذلة والمهانة ويعتقدون القوة في الكافرين فيعطونهم الولاية، ينسون الله تعالى وولايته، ولذلك قال سبحانه مطمئناً المؤمنين الصادقين الذين لا يرضون بولاية الكافرين: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

المولى هنا هو النصير، وإذا كان الله ناصره، فإنه لا محالة غالب، فهو نعم المولى ونعم النصير. والمولى لا تدل على النصرة فقط، بل تدل على كمال الصلة والمحبة والقرب، والنصرة تحيى لازمة لهذه المعاني، و«بل» هنا للإضراب وهو إضراب انتقالي؛ إذ هو انتقال من الكلام في موالة الكافرين، وما يترتب عليها من نكوص على الأعقاب، واضطراب بين الحق والباطل، واستكانة وذلة وخسران مبين، إلى الكلام فيما هو سبب العزة والرفعة والكرامة والقوة والسؤدد والنصر المؤزر الثابت، وهو موالة الله تعالى، وعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ

مَوْلَاكُمْ ﴿١١٩﴾ أى أن الله الخالق لكل ما فى الوجود، والذى بيده مقاليد كل شىء، والمسيطر القوى الجبار القاهر فوق عباده هو مولاكم، فعليكم أن تطلبوا ولايته، ومن اعتصم به فقد آوى إلى ركن ركين، وحصن حصين، وذكر هذا الأمر بصيغة الخبر للإشارة إلى أن المؤمن بمقتضى كونه مؤمناً هو فى ولاية الله تعالى فلا يخرج عنها، وولاية الله تعالى تقتضى أن يكون فى ولاية المؤمنين، لا يخرج عن جماعتهم ولا يسلك غير سبيلهم، ولا يطيع أعداءهم، أو يمالئهم، أو يسايرهم، فإن ذلك يكون محادة لله ولرسوله ومشاقة لله ولرسوله، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة] ويقول سبحانه جلت حكمته: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء].

وإذا كانت النفوس الضعيفة تجد فى الالتجاء إلى الكافرين بعض الحماية فلتعلم أن المعاذ والنصرة من عند الله؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

أى أن الله تعالى هو الذى ينصر المؤمنين، ونصره هو المؤكد المحتوم الباقي، وهو نصر مالك القوى كلها، والمسيطر على العالم بكل ما فيه ومن فيه وما تجرى به الأسباب، وما ارتبطت به شئون الناس والكون، ولذلك كان نصره خير نصر، إذ هو أدامه وأقواه، وما عند الناس من نصر فهو ظاهرى، ولا يتحقق إلا بأسباب قدرها، فهو المسيطر المريد لكل ما يقع فى الكون، ونصر الله تعالى معه العزة، ونصر الناس معه الذلة، فمن استنصر بالله عز، ومن استنصر بالناس ذل، وهذا على أن «خير» وهى من أفعال التفضيل على بابه، وقيل: إن أفعال التفضيل هنا على غير بابه، وأن المعنى أنه لا ناصر إلا الله، ولا ناصر سواه، فنصره هو النصر، ونصر غيره ليس بنصر. ثم بين سبحانه بعضاً من أسباب نصره، فقال: ﴿سَلَفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

الرعب الخوف والانتزعاج، أو امتلاء النفس بالخوف والانتزعاج، حتى تضعف الجماعة مع وجود أسباب القوة، وأصله من الملء مع الاضطراب، يقال سيل راعب، يملأ الوادى ويضطرب به، ورعبت الحوض ملأته، ومعنى إلقاء الله تعالى بث روح الخوف والفرع في قلوبهم، وإن إلقاء الله تعالى الرعب في قلوب المشركين كانت له مظاهر شتى: منها أن يضع سبحانه وتعالى فيهم الفرع، فيخافون عند النصر لهم من متابته، كما كان عقب أحد، فإن المشركين سارعوا بالعودة وبينما هم في الطريق ندموا وقال قائلهم: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى لم يبق منهم إلا الشريد ثم تركناهم ارجعوا فاستأصلوهم، ولما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، فانصرفوا لايلوون على شيء، ومن مظاهره النصر بالريح، كما كان في غزوة الأحزاب، فقد جاءت إلى المشركين ريح شديدة قذفت في قلوبهم الرعب، فعادوا ولم ينالوا شيئاً، وقال تعالى في ذلك: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

وقد روى في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لى الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس جميعاً» (١).

وقد ذكر سبحانه وتعالى السبب فى إلقاء الرعب فى قلوب أعداء أهل الإيمان فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ والسلطان هنا هو الحجة والدليل، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾ (٣٥) [غافر]، وكما قال تعالى: ﴿فَأْتَوْنَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠) [إبراهيم]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٦) [هود].

(١) سبق تخريجه، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٥).

فالمعنى أنهم أشركوا بالله أحجارا لم ينزل الله بها حجة مثبتة لصحة عبادتها، لأنه لا دليل على سلامة هذه العبادة، ولا يوجد دليل قط يؤيدها. ويصح أن يفسر السلطان هنا بمعنى القوة والتمكن، والمعنى على هذا أنهم أشركوا بعبادة الله تعالى أشياء لم ينزل أى لم يجعل فيها قوة تنفع وتضر، فهم يعبدون ما لا يملك نفعا ولا ضرا، ويشركونه فى العبادة مع الذى يملك كل شىء، وهو الذى ينفع ويضر من غير شريك.

والسببية التى أشار إليها سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ لها توجيهاً:

أحدهما: أن الله تعالى يلقى الرعب فى قلوبهم لأنهم عاندوا الله سبحانه، وحادوه، وأشركوا معه فى العبادة، ولأنهم ينشرون بهذا التفكير الفاسد الشر والفساد فى الأرض، والله تعالى لا يحب الفساد، وهو ينصر الخير على الشر، والصالح على الفساد، فالسببية هى إرادة الله تعالى التى بها قوام كل معوج وصالح كل فاسد.

وثانيهما: أن السبب فى إلقاء الرعب من حالهم هم؛ ذلك لأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، ولا تقوم عندهم حجة ولا شبه حجة على صلاحية ما يعبدون للعبادة، ويكون الوهم هو الذى سيطر، والهوى هو الذى تحكم، ومن تتحكم فيه أهواؤه وأوهامه يكون مضطرب النفس مزلزل القلب تزعجه الكوارث، ويضطرب عند نزول أى حادث، فكان الشرك وتحكمه فى النفس هو السبب فى الرعب والخوف والفرع؛ إذ هم يخافون من غير مخوف، ويفزعون فى غير مفزع.

تلك هى حال الكافرين الذين ناووا أهل الإيمان، كان سبحانه يلقى الرعب فى قلوبهم، ويثبت قلوب المؤمنين، فهل هذه سنة أهل الإيمان مع المشركين وأشباههم دائماً؟

والجواب عن ذلك: أنه شأن المؤمنين حقاً وصدقاً إذا لم يضعفوا ولم يذلوا، ولم يوالوا أعداء المؤمنين على المؤمنين، بل يأخذون الأهبة، ويغلبون الهدى على

الضلال، ويجعلون الله مولاهم، فإذا رأينا الحال قد تغيرت، فليس ذلك لتغير سنة الله في خلقه، ووعد له لأنبيائه والصديقين معهم، بل لتغير حال المؤمنين، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَهُمْ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بِنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ (١١) [الرعد] ولقد تنبأ ﷺ بما آل إليه المسلمون، وبين أن ذلك سببه الوهن الذى يتولد عن حب الدنيا، وكراهية الموت، وإنه عندما تصاب القلوب بهذه الإصابة ذكر النبى ﷺ أن الله ينزع من قلوب أعدائهم المهابة منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «وليتزعن من قلوب عدوكم المهابة منكم» (١).

فإذا كنا نرى المؤمنين قد ألقى فى قلوبهم الرعب بدل الكافرين، فليس فى هذا مخالفة لوعده الله؛ لأن بعض المسلمين فى هذه الأيام وألوا الكافرين على المؤمنين، وذللوا تحت ولايتهم واستخذوا لهم واستعدوهم على أهل الإسلام، فتزع الله المهابة من أهل الإيمان، فكان ما كان، وشرط إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ألا نطيعهم، فقد وقعنا إذن فى المنهى عنه فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) [آل عمران].

ولقد أطعناهم وواليناهم دون المؤمنين، ولم نتخذ الله مولى لنا، فخرسنا خسرانا مبينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَمَا وَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ المأوى اسم مكان من أوى يأوى وهو الذى يرجع إليه الشخص ويعود إليه، ويقيم فيه إقامة طويلة، والمثوى اسم مكان من ثوى يثوى أى أقام إقامة لا نهاية لها، والمعنى أن الكافرين إذا ألقى الله فى قلوبهم الرعب خسروا وباءوا بخسرانهم فى الدنيا، وليس لهم مأوى فى الآخرة إلا النار، وبئس هذه النار موضع إقامة دائمة لهم، وقد أظهر سبحانه وتعالى الاسم فى موضع الإضمار، فلم يقل تعالت كلماته: وبئس النار مشواهم، بل

(١) رواه أبو داود ولفظه عَنْ تَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ الْأَمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمَنْ قَلَّةٌ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غَتَاءُ كَثُتِ السَّبِيلُ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ».

قال: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ للإشارة إلى أن هذا المآل جزاء وفاقا لظلمهم فهو عقاب يستحقونه بسبب الظلم؛ إذ قد ظلموا أنفسهم فأصلوها وصدوها عن الحق وسبيله بسبب الغواية التي ارتضوها، وظلموا الحق فصدوا الناس عنه، وظلموا المؤمنين وحاولوا أن يفتنهم عن دينهم واعتدوا عليهم وعثوا في الأرض مفسدين، وخضبوها بالدماء البريئة، فكان ما لقوه من هزيمة ورعب وخسران في الدنيا بعض الجزاء، والجزاء الأوفى في الآخرة. اللهم قنا عذاب النار، اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت، وقنا شر ما قضيت. اللهم أعزنا بعزتك، اللهم قنا شر الاستخذاء والولاية لغيرك، إنك سميع الدعاء.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ إِذْ تَخْسَوْنَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ
مَّا تَحِبُّونَ مِّنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ اللَّهُ لِيَكُوْمَنَّكُمْ
مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ
غَمًّا يَغْمِرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

في الآيات السابقات إشارات إلى بعض ما كان في غزوة أحد من اضطراب القلوب، والرجفة التي أصابت الصفوف، وشيوع القالة المثبطة للعزائم الممزقة

للوحدة، وإنتاج هذه المقالة نتائجها في قلوب ضعيفة، ونفوس مريضة بالنفاق، وفي هذه الآيات وما يليها يذكر الله سبحانه وتعالى سبب الهزيمة مقترنا بنتائجها في نفوس المؤمنين الثابتين في إيمانهم، الأقوياء في عزيمتهم، الذين احتسبوا النية لله رب العالمين، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وعد الله تعالى الذين آمنوا بالنصر وعدا عاما عندما أذن لهم بالقتال، ووعدهم في أحد وعدا خاصا، فقد قال سبحانه وتعالى في الوعد العام: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصُلُواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج].

والوعد الخاص في أحد جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران].

ونرى الوعد بالنصر في الآية الأولى التي كان الوعد فيها عاما كان مقيدا بأن ينصروا الله في قتالهم، لا يريدون مأربا دنيويا ولا عرضا من أعراض الدنيا، كما ترى الوعد في أحد خاصة كان مقيدا بأن يصبروا، وقد تخلف الشرطان في أحد، فإن فريقا منهم أراد عرضا من أعراض الدنيا في أثناء المعركة، ولم يصبروا؛ إذ لم يضبطوا إرادتهم ولم تستحصد عزائمهم في طاعة القائد، فإن طاعة القائد من سبل النصر، وتحتاج إلى صبر وضبط نفس، ولذلك لم يكن في أحد ما ينافي صدق الله وعده لنبيه، وصدق النبي في وعده لهم بإذن من ربه سبحانه وتعالى.

ومعنى صدق الوعد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أن يقع الأمر في الوجود كما وعد الله تعالى وهنا (صَدَقَ) متعدية إلى مفعولين، والمعنى

قد أوقع الله سبحانه وتعالى الأمر في الوجود، كما وعدكم، بروح منه، ولكنكم أنتم الذين لم تلتزموا الجادة، ولم تكونوا ناصرين الله تعالى في المعركة كلها؛ إذ لم يكن قتالكم لله تعالى في هذه المعركة من مبتدئها إلى انتهائها، ولم تضبطوا أنفسكم، وإن وعد الله تعالى لكم بتأييد الملائكة، وهي الأرواح الطاهرة المطهرة، كان مقيدا بالصبر النفسى، ولم تصبروا أنفسكم وبين سبحانه وتعالى وقت النصر، وهو وقت ابتداء الحرب، فقال سبحانه: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ ومعنى تحسونهم أى تصيرون حسهم بإزالته، وذلك يكون بقتله، فمعنى حسه أصاب حسه، مثل كبده أصاب كبده، وفأده أصاب فؤاده، وشغفه أصاب شغاف قلبه، ولقد قال فى ذلك الأصفهاني: «حَسَسْتُ، وَحَسَيْتُ، وَأَحْسَسْتُ» يقال على وجهين: أحدهما- يقال أصبته بحسى (أى أدركته بإحساسى، ومنه شئ محسوس) والثانى- أصبت حاسته نحو كبده، وفأده، ولما كان ذلك قد يتولد عنه القتل عبر به عن القتل، فقل: (حسسته أى قتله).

والمعنى كان وعد الله صادقا كل الصدق عندما كنتم تقتلونهم بإذنه، مؤيدين منصورين، ومعنى الإذن هنا يتضمن معنى التأييد والتقوية والتثبيت، ولكنكم أنتم الذين أبعدتم أنفسكم عن نصر الله تعالى، وأشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ أى حتى إذا ضعفت نفوسكم وعجزتم عن مقاومة أهوائكم، وتنازعتم فيما بينكم أتتبع الغنائم تجمعها، أم نطيع الرسول؟ وانتهى أكثركم إلى العصيان من بعد ما أراكم الله - تعالى - ما تحبون من نصر مؤزر ثابت أو من غنائم تحبونها، ونهواها أنفسكم . وهذا يفيد أن الترتيب النفسى يتفق مع الترتيب فى الذكر؛ وذلك لأن الفشل، ومعناه العجز النفسى عن الصبر والاحتمال، ترتب عليه التنازع وعصيان الرسول، ولا بد أن نذكر هنا بعض ما روى عن ذلك فى غزوة أحد، فقد روى البخارى عن البراء بن عازب: «لما كان يوم أحد، ولقينا المشركين أجلس رسول الله ﷺ أناسا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتموهم قد

ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم» فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يشتددن في الجبل^(١) وقد رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فجعلوا (أى ناس من الرماة) يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال لهم عبد الله: امهلوا أما عهد إليكم رسول الله ﷺ ألا تبرحوا؟ فانطلقوا، فلما أتوهم صرف الله وجوهم وقتل من المسلمين سبعون رجلا^(٢).

وإن الرماة لم يذهبوا جميعا إلى الغنائم يجمعونها، بل بقى منهم عدد قليل، قيل إنهم عشرة، ولكن نسب العصيان إليهم جميعا، بل نسب إلى الجيش كله، مع أن غير الرماة كانوا الفريسة لعصيان كثرة الرماة؛ وذلك لأن ما يعم أثره ينسب إلى الجميع، باعتبار ذلك الأثر، وأنهم جميعا كان عليهم أن يتواصوا بالطاعة المطلقة للقائد الخبير، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً...﴾ (٢٥) [الأنفال] فعلى كل جماعة أن تتضافر في منع ما يضر أثره بها كلها، لا بالظالمين فقط منها، وإن إثم الآثمين في الجماعات والأمم، ينشأ من سكوت أهل الحق والعدل، ويعيش في ظل صمتهم، ولذلك ينسب العصيان إلى الجميع، ولقد بين سبحانه أن العصيان وإن نسب إلى الجميع كان فيهم من أراد الحق، وفيهم من أراد الدنيا من غير طريقها، فقال سبحانه: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

هذا تفصيل للتنازع الذي كان بين الرماة، وما كان في الجيش نفسه، وهو خطاب لجمهور الذين اتبعوا النبي ﷺ . . منكم أيها المحاربون من يريد الدنيا بإرادة الغنائم، والقصد إليها، وقد غلبته على نفسه حتى نسى الطاعة الواجبة والخطوة المرسومة، وهو إذ يطلب الدنيا في هذا المقام، إنما يطلبها بغير الأخذ في أسبابها الحقيقية التي توصل إلى الغاية فيها، ولذلك ذهب طمعهم بالغنيمة والنصر معا، ولو صبروا حتى سارت الحرب في طريقها، والخطوة إلى غاياتها، لنالوا

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى: يسرن مسرعات بشدة من الفرع.

(٢) رواه البخاري: المغازي - غزوة أحد (٣٧٣٧) عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النصر والغنيمة معا، فإنه لا غنيمة إلا بالنصر المستقر، ولا نصر إلا بالتزام خطة القائد الرشيد، ومنكم أيها المجاهدون من يريد الآخرة، وهم أنتم الذين ضبطوا أنفسهم عن الغنيمة، ولم يعصوا ما أمر به رسول الله ﷺ، ولو ذهبت الغنائم، وأنتم الذين صبرتم في فتنة الهزيمة العارضة بعد أن اضطربت القلوب وأرجف المرجفون، وتنادى الكاذبون بأن محمدا قد مات، فقد صبرتم وصابرتم، وجاهدتم ونارلتم في الشديدة، والقوى حقا من يملك نفسه عندما تضطرب النفس، ويثبت عندما تكون دواعي الهزيمة، وأولئك أرادوا الآخرة؛ لأنهم ما طلبوا غنيمة، وكان ثباتهم في وقت الفزع دليلا على امتلاء قلوبهم بالإيمان بالله واليوم الآخر.

وهنا بحث لفظي يثيره العلماء، وموضوعه (إذا) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ﴾. فقد ذكر الزمخشري وغيره أن فيها وجهين: أحدهما- أن تكون «حتى» بمعنى «إلى»، وأن تكون (إذا) لمجرد الوقت أي أن النصر كان حليفكم تقتلون فيه القتل الذريع، إلى وقت أن فشلتم وتنازعتم في الأمر.

والوجه الثاني أن تكون شرطية، وجواب الشرط محذوف، وإن كان مفهوما أنه شر لا خير فيه، وضرر لا نفع معه؛ لأن ما يكون مقدمه عجزا واضطرابا نفسيا وتنازعا في أمر، ثم عصيانا يترتب عليه عدم تنفيذ خطة القائد الحكيم - لا يكون التالى المترتب عليه خيرا قط، ولم يذكر لتذهب فيه العقول كل مذهب، وللإشارة إلى أنه شر عظيم لا يكتنه كنهه، ولا يتصورون حقيقته. وإنه كان من نتائج ذلك الضرر أنكم لم تنالوا بغيتكم من المشركين، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

أي النتيجة التي صرتم إليها غير المقصد الذى قصدتم إليه، لقد خرجتم إليهم من مدينتكم لتقتلوهم وتنالوا منهم ما نلتموه فى بدر، ولم تريدوا أن تكونوا فى المدينة يأتون إليكم، بل أردتم أن تواجهوهم فى الميدان لا فى الأزقة وبين الجدران، ولكن بسبب ذلك العصيان من بعضكم صرفكم الله عنهم، أى انصرفتم عنهم بإرادة الله تعالى، ورضيتم أن تعودوا مقهورين، وقد خرجتم لتعودوا

منصورين بتأييد الله، ولتفاوت ما بين المقصد الأصلي، والنتيجة التي انتهوا إليها بسبب هذا الخطأ الجزئي - عطف سبحانه وتعالى بـ «ثم» بدل الواو أو الفاء.

وكان التعبير بكلمة (صرفكم) بدل (هزمتكم) لأن ما حدث في أحد لم يكن هزيمة، وإن لم يكن نصراً؛ لأن الهزيمة تقتضي أن يولى المسلمون الأدبار، وأن يتحكم الأعداء، وليس ما حدث أكثر من أن القتلى في المؤمنين كانوا أكثر من القتلى في المشركين، ولم ينل المشركون بذلك مأرباً، فكان الله سبحانه وتعالى يشير لهم بأن ما حدث لا يصح أن تبتسوا له، ولا يصيبكم الحزن؛ لأنه ليس هزيمة، بل هو نوع من الصرف عن الغاية التي من أجلها خرجتم. وكان هذا لا بد منه ليمحص قلوبكم، وليختبركم بالشدائد التي تصقل نفوسكم، وتجعلها مستعدة لما يأتي به القدر، ولبيان أن الطاعة للقائد الحكيم هي أساس الظفر، والعصيان سبب للاندحار.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذا النص السامي يبين سبحانه عفو الله تعالى ليرفع من نفوسهم، ويذهب الحسرة من قلوبهم، ويحیی موات العزة التي اختفت في وسط ذلك المضطرب، ولقد أكد سبحانه وتعالى عفوّه بعدة تأكيدات أولها: بالتعبير بـ «قد»، فإنها للتحقيق، واستعمالها في أكثر آي القرآن للتحقيق، وثانيها: باللام. وثالثها: بالتعبير بالماضي. ولماذا أكد سبحانه وتعالى عفوّه بهذا التأكيد؟ لأن أولئك الأبرار الذين أخلصوا دينهم لله تعالى قد تجسم في نفوسهم خطوهم، حتى توهموا أنه غير قابل للغفران، فإن المؤمن التقى يستكثر هفوته، ويستصغر حسنته؛ لأنه يحس بحق الله تعالى عليه، ووجوب شكر النعم التي أنعم بها، وبمقدار قوة الإيمان يغلب المؤمن خوف العقاب على رجاء الثواب.

ولقد ذيل سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان فضل الله تعالى العميم على عباده المؤمنين، فكل شيء بفضل، فنصرهم في بدر بفضل منه، ونصرهم في الابتداء في أحد كان بفضل منه، وخذلانهم بفشلهم

وتنازعهم فيه فضل بتعليمهم حق الجهاد وواجبه، وعفوه عنهم هو الفضل كله، ولقد تأكد فضل الله تعالى في الآية بقوله: ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ أى صاحب فضل، والمرمى أن الفضل يلازمه، ولا ينقطع عنه سبحانه وتعالى أبداً.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ هذا بيان لبعض ما جرى للمسلمين فى أحد، بعد أن نزل الرماة إلى ميدان الغنيمة فى غير الوقت المحدود، وهو يصور جيش الحق، وقد اضطرب بسبب ذلك الغلط الذى كان يبدو صغيراً لمن وقعوا فيه، وله نتائج خطيرة، والصورة البيانية التى تستمد من النص الكريم تريننا كيف كان المقاتلون يسيرون على غير مقصد يقصدون إليه، لا إلى النجاة بأنفسهم يسعون، وقد أحيط بهم، ولا إلى العدو يقصدون، وقد أظهر أنه استعلى عليهم مؤقتاً وظنوا هم فى أنفسهم الظنون، ولا فوضى فى جند أكثر من أن يسير على غير مقصد، وجيش الإسلام وهو فى هذه الحيرة وهذا التيه كان النبى ﷺ فى آخره يدعو جنده قائلاً فيما روى عنه: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مَنْ يَكْرِفْ فَلَهُ الْجَنَّةُ»^(١).

ومعنى ﴿تُصْعِدُونَ﴾ تسيرون فى بطن الوادى؛ لأن الصعود معناه الارتفاع، والإصعاد معناه السير فى بطن الوادى؛ وقال أبو حاتم فى هذا: (أصعدت إذا أمضيت حيال وجهك، وصعدت إذا ارتقيت فى جبل أو غيره). وقال قتادة: أصعدوا يوم أحد فى الوادى. ومعنى (تلوون) تعطفون فى سيركم إلى مقصد تقصدونه. ولقد جاء فى المفردات للأصفهاني: يقال فلان لا يلوى على أحد إذا أمعن فى الهزيمة.

والمعنى: عفا الله عنكم فى الوقت الذى وقعتم فيه فى الفوضى والاضطراب، وأصبحتم تسيرون فى بطن الوادى لا تقصدون، ولا تبتغون أمراً،

(١) ذكره بهذا اللفظ فى تفسيره: الرازي، والنسفي، والبيضاوي، والألوسي، والزمخشري، ورواه ابن جرير الطبري فى تفسيره جامع البيان، عن ابن عباس بلفظ: «إِلَى عِبَادِ اللَّهِ ارْجِعُوا، إِلَى عِبَادِ اللَّهِ ارْجِعُوا! وراجع البداية والنهاية. غزوة أحد.

ولا تبعون غاية أيا كانت، بل تضربون في الأرض وتخطون خبط عشواء، ولقد ذكر النتيجة الحتمية لهذا الاضطراب، وهي الغم الشديد، فقال تعالت كلماته:

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لَّكِيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أثاب معناه أعاد

وأعقب ما ارتكبه كنتيجة غما بغم، فمعنى الثوب عودة الشيء ورجوعه إلى الأمر الذي كان مقدرًا له على أنه غايته ونتيجته، والغم أصل معناه في اللغة التغطية، ومنه غم الهلال إذا غطاه الغمام فلم ير، والغم يطلق على الألم الذي يغطي العقل والإحساس والمشاعر، والذي يكون الشخص معه في حال استسلام لا يدري ما الخلاص منه، فهو من الغمة، وقد جاء في أساس البلاغة: (وأنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد للخروج منه). والباء في قوله تعالى: ﴿بِغَمٍّ﴾ يحتمل أن تكون للسببية، ويحتمل أن تكون بمعنى (على) أو دالة على المصاحبة، وعلى الأول يكون المعنى: أعقبكم الله تعالى غما بأن فاتكم النصر، ونزلت بكم الجراح، وقتل من قتل منكم بسبب الغم الذي أنزلتموه على الرسول ﷺ بالمخالفة وعصيان أمره، وعلى الثاني يكون المعنى أعقب الله تعالى فيكم غما بعد غم أو غما مصطحبا بغم، فقد أصابكم غم فوات الغنيمة، وغم فوات النصر، وغم الإرجاف بقتل الرسول ﷺ، وغم الاضطراب.

وكان ترادف الغموم هذه كنتيجة لمخالفتكم الأولى له غاية ونتيجة مؤكدة إن اعتبرتم واتعظتم، هو: ألا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم ونصر، وما أصابكم من جراح وتقتيل، بل تستحصدون العزائم، وتتقون الخطأ من بعد. ويقول الزمخشري في تعليل ترتب عدم الحزن على ترادف الغموم: (لكيلا تحزنوا: لتمرنوا على تجمع الغموم، وتضرروا^(١) باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا مصيب من المضار)، وإن ما ذكرنا من ترتب عدم الحزن أظهر في نظرنا، والله - سبحانه - أعلم بمبراده.

(١) يقال: ضرب الكلب وأضره صاحبه أي عوده وأغراه بالصيد، ويجمع على ضواري. [لسان العرب - باب الضاد - ضرا]. والمقصود هنا أنهم يتدربون على احتمال الشدائد ومواجهة الصعاب؛ فيهيرون شجعانا تشبيها لهم بالسباع الضارية.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا النص للإشارة إلى أن ما وقع كله كان في علم الله، يعلمه علما دقيقا قد أحصى فيه كل أعمالكم قبل وقوعها، وقدر نتائجها ونهاياتها، وما يعقبه بعد ذلك من عبرة يحملكم على الطاعة المطلقة للقائد الحكيم الذي يهديكم سبيل الرشاد، وأنه لا نصر مع المعصية، ولا هزيمة مع الطاعة واحتساب النية، والله بكل شيء محيط.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْشَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

الآية الكريمة موصولة بما قبلها، فهي تبين ما أصاب القلوب التي توهمت أنها انهزمت بعد موقعة أحد، وقد بين في الآيات السابقة أنها أصابها غم كان كثيفا على النفوس، وفي هذه الآية يبين ما حدث بعد الغم، فذكر سبحانه أن قلوب المؤمنين بعد هذا الغم اعترأها الاطمئنان إلى قدر الله تعالى المقدور، وثقتهم في المستقبل تحقيقاً لوعده بنصر عبده ونبيه محمد ﷺ والاطمئنان هو سبيل التدبير المحكم، والقلق لما كان في الماضي يجعل العقل مأخوذاً بحوادثه فلا يفكر ولا

يدبر، ولا يتحفز ويتوثب للمقاتلة مرة أخرى، ولقد قال تعالى فى وصف حال المؤمنين التى أفاضها عليهم بعد الغم المتولى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ أمانة: مصدر بمعنى الأمن، وقرئ: (أمنة) بتسكين الميم، وهى مصدر بمعنى المرة من الأمن، وقد بين سبحانه نوع الأمن أو مظهره، بقوله:

﴿نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ والنعاس فتور مع استراحة من غير فزع ولا قلق وهو النوم الهادئ، ومعنى يغشى: يغطى، أى أنه يغطى الحس، ويستر الإدراك والتنبه، والمعنى أنه سبحانه وتعالى أفاض وأنزل بعد الغم الذى غمر النفوس بالآلم أما كان مظهره نعاسا اطمأنت فيه النفوس واسترخت الأعضاء واستسلمت لمقادير الله تعالى وإرادته فى خلقه ونصره دينه، مطرحين الماضى مكتفين منه بالعبرة ومتخذين منه نورا يضىء للمستقبل بخطئه وبصوابه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى النعاس مظهرا للاطمئنان قبل واقعة بدر، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَىكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال].

وفى غزوة أحد كان النعاس مظهر الاطمئنان والتسليم لله سبحانه وتعالى والثقة بالمستقبل - بعد الفزع والهلع والاضطراب.

وتلك الطائفة التى غشيها النعاس واطمأنت بعد الاضطراب، وآمنت بأن ما كان خطأ من بعضهم، وأنه عبرة لأولى الأبصار - هم المؤمنون الصادقو الإيمان الذين يريدون ما عند الله تعالى، ولا يبتغون غير رضاه، ولقد اعتبرهم القرآن وحدهم الأهل للخطاب، لأنهم هم الذين يعدون ذخيرة المستقبل، وجند الله الغالب، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً﴾. وإن أمنهم ونومهم مع أن الجراح قد أثقلتهم، والاضطراب كان قد أذهلهم، دليل على عمران قلوبهم بذكر الله وصدق وعده: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

والطائفة التي لم تكن على هذه القوة والإيمان ذكرها سبحانه على أنها خارجة على الخطاب، وكأنها ليست من المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

لأن نسق الآية يومئ إلى أنها بعيدة عن الخطاب، قال أكثر العلماء: إنها من المنافقين، أى أن هذه الطائفة ليست مؤمنة، بل كافرة تظهر الإسلام وتبطن غيره، ولكن الأوصاف التي ذكرت لها من بعد تومئ إلى أنهم من ضعاف المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بأن فى قلوبهم مرضا - فى غير هذا الموضع؛ وذلك لأن الله تعالى يصفهم بأنهم يظنون ظن الجاهلية، وهذا يفيد أنهم ليسوا من أهل الجاهلية، وهم يعتذرون لأنفسهم بالقضاء والقدر، والله سبحانه وتعالى بين أن ما نزل كان للابتلاء والتمحيص وأدخلهم فيه، وليس كذلك المنافقون، والنص يومئ إلى أنه كانت فيهم جراح، والمنافقون لم يخوضوا غمار الحرب، فلا جراح فيهم، ولا قتل، وهؤلاء كان فيهم قتل.

وفى الحق إن غزوة أحد كان فيها عدد من ضعاف الإيمان، إذ قال سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران].

وعلى ذلك نقول: إن هؤلاء كانوا من ضعاف الإيمان لا من المنافقين.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء بأنهم أهتمهم أنفسهم، وبأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، وكلمة «أهم» مأخوذ من الهم. والهم ما يهم به الإنسان، وما يحزنه، يقال: همنى الأمر بمعنى أذابنى من الحزن، ومعنى أهتمهم أنفسهم، جعلتهم لا يجعلون لهم أمرا يهتمون به سواها، فلا يهتمهم شأن الإسلام، انتصر أو انهزم، ولا شأن النبي ﷺ وصحابته، بل الذى يهتمهم وحده هو أنفسهم، أو يكون المعنى: أوقعوا أنفسهم فى الهم والحزن بعدم اطمئنانهم وعدم صبرهم وجزعهم المستمر.

وإن المرء إذا لم يكن له تفكير إلا في نفسه، ولا يهمله شيء سواها، أضفى عليها المعاذير إذا قصرت، وجعل السبب من غيرها لا منها، ومن هنا يجيء الوصف الثاني، وهو ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ والظن هنا ليس هو الاعتقاد الجازم، بل هو الوهم الملازم للضعف، المسيطر على النفس، وقوله ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ مفعول مطلق وصف لمصدر محذوف، والمعنى يظنون ويتوهمون بالله ظنا ليس هو الحق، ولا الذي يجب أن يظن بالله تعالى، وهو العدل والمعاونة الصادقة، والتأييد عند الثبات، وقد بين سبحانه وتعالى ذلك الظن غير الحق والذي لا ينبغي أن يظن بالله تعالى، بينه بطريق عطف البيان، أو البديل المبين فقال: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وشأن أهل الجاهلية أن يطرحوا عن أنفسهم التبعات، ويدعوا ألا مسئولية عليهم، وأن الأمر للمقادير وحدها إذ كانت النتيجة على غير ما ييغنون.

ولذا قال سبحانه في تفسير ظن الجاهلية: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

هذا القول هو مظهر الظن الباطل الذي ظنوه بالله سبحانه وتعالى: والاستفهام هنا استفهام إنكارى بمعنى النفي المطلق الشامل، والمعنى: ليس لنا من الأمر شيء أى شيء، فلسنا مسئولين عن الهزيمة إن انهزمنا، إنما الأمر كله لله تعالى، فأمر النصر والهزيمة بيده، وقد وعدنا بالنصر ولم نتصبر، فهم يلقون عن أنفسهم كل تبعة وكل مسئولية. وإن هذا إنكار للأسباب، وظن جاهلى؛ لأن الجاهلى إذا انتصر فرح وأشربطر، وأصابته عزة النصر غير ملتفت إلى إرادة غير إرادته، وإن أصابته كارثة حسبها من المقادير ملقيا عن نفسه كل تبعة، وقد رد سبحانه وتعالى وهمهم بأن أمر النبی بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أى أن تقدير الأمور كلها لله سبحانه وتعالى، لا أمر النصر والهزيمة، فكل شيء عنده بمقدار، ولكنه سبحانه وتعالى خلق كل شيء بحكمته ومشيئته وإرادته وحده، وهو الذى قدر الأسباب ومسبباتها، وربط بين الأفعال ونتائجها، فمن اختلفوا ولم يطيعوا

قائدهم، وأقدموا على الغنائم فى غير الوقت المعلوم فلا بد أن يحدث عن فعلهم الهزيمة والاضطراب، لأن هذا هو النظام الذى سنه رب البرية فى الارتباط بين الأسباب ومسبباتها، فكون الأمر كله لله لا ينفى عنكم التبعة، بل يؤكدها وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ جملة سامية معترضة بين متلازمين، وهو قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى من بعد ذلك: ﴿يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

ظاهر الجملة السابقة أنهم يلقون عن أنفسهم التبعة بتقرير أن أمر النصر بيد الله تعالى، وأنه قد حرّمهم منه، وفى هذه الجملة يبين الله سبحانه وتعالى أن لهم غاية يقصدون إليها من وراء هذه الجملة، وهو إثبات أن الذى كان سبب قتلهم ووقوع الهزيمة عليهم هو خروجهم إلى هذا المكان، ولو بقوا فى أماكنهم بالمدينة ما قتلوا، وكان فى ذلك إشارة إلى ما كان من خلاف عند مجيء المشركين إلى المدينة أخرج المؤمنون إليهم ليقاتلوهم فى أحد أم يبقون فى المدينة حتى يقاتلوهم فى الأزقة ومن وراء الجدران فلا يبقوا منهم أحدا، وأن الذى اختارته الكثرة هو الخروج، وأن النبى ﷺ نزل على حكمها وإن كان يرى غيره. إلى آخر ما كان فى هذه المشاورة، وعلى هذا تكون خلاصة المعنى: يخفون بقولهم هل لنا من الأمر من شيء أمرا لا يريدون إبداءه، وهو أنهم لو كان لهم رأى يطاع، وقول يُسمع ما خرجوا إلى هذا المكان وقتلوا فيه، بل بقوا فى ديارهم آمنين، ولكنه أمر الله تعالى وتقديره، وتطوى هذه الجملة الإشارة إلى أمرين: أحدهما - أنهم ما كانوا يريدون القتال، ولكنه قدر الله وأمره لهم، وهذا يذكر بقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا...﴾ (١٢٢) [آل عمران]. والأمر الثانى الذى يشير إليه النص - أنهم ما كانوا يرون الخروج من المدينة للقتال؛ بل ينتظرون حتى يجيء إليهم الأعداء، وأنه لو كان لهم شأن ما خرجوا وما قاتلوا.

وهم فى كلتا الحالين يلقون تبعة الهزيمة عن أنفسهم، ويشيرون إلى أن الخروج لم يكن رأيا حسنا، ولكنه قضاء الله وقدره جعلهم يفعلون فى هذا الخطأ.

وقد رد سبحانه وتعالى ذلك عليهم بقوله:

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى أن الله سبحانه قدر الأمور تقديرا، ولكل أجل كتاب، فأولئك الذين كتب عليهم أن يقتلوا فى الميدان، لابد أن يقتلوا، فلو كنتم فى بيوتكم، لخرجوا إلى الأماكن التى قتلوا فيها وقتلوا، ومعنى «برز» أى خرج من مكانه المستور الذى لا يظن الخروج منه، والمضاجع جمع مضجع، وهو مكان النوم، والمراد هنا مكان قتلهم الذى قتلوا فيه وصرعوا وناموا إلى يوم البعث والنشور؛ وهو المكان الذى خرجوا إليه فى أحد وماتوا فيه، وفى هذا يدعوهم رب البرية أن يستسلموا لحكمه، ويخضعوا لقدره، ويرضوا به، ويطمئنوا إليه؛ لأن الإطمئنان إلى القدر بعد أخذ الأسباب رضا بحكم الله وقبول لإرادته فى خلقه، وعدم الرضا بالقدر تمرد على الخالق، وانزعاج نفسى لا علاج له؛ وإذا كان من الناس من يعيب الرضا بالقدر فهى نزعة إلحاد فى النفس، والذين يشكون من المقادير، ويتمردون عليها لا يرضون برب المقادير حكما عدلا وهو اللطيف الخبير، السميع البصير، والرضا بالقدر يلقى فى النفس بالاطمئنان والصبر والرضا والقدرة على الاحتمال، والاستعداد للقبال وعدم الالتفات إلى الوراء، فمن لا يؤمن بالقضاء قصير النظر، ومن يؤمن به متجدد الفكر؛ نظره إلى الأمام دائما ثم قال سبحانه: ﴿وَلْيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

الواو هنا عاطفة؛ والمعطوف عليه فعل دل عليه ما طوى فى الكلام السابق، من معنى الدعوة إلى الصبر والاطمئنان والاستجابة للدعوة، لتعودوا الصبر والاطمئنان والاستجابة للدعوة، ولتعودوا تحمل الشدائد ولتعرفوا أن الحياة قد اختلط حلوها بمرها، وليتليكم.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَلْيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعاملكم معاملة المختبر لنفوسكم، فيظهر ما تنطوى عليه فيعالج هذه الأوزار التى تظهر بما يذهب

بوضرها^(١) ويوجهها نحو الخير، ومعنى يمحّص قلوبكم، يزيل ما عساه يعلق بها من أدران، ويظهرها مما يخالطها من ريب يحدث من الشدائد؛ وذلك لأن مَحْصَ وَمَحْصَ في أصل معناهما تخليص الذهب مما يختلط به من مواد غريبة عنه.

وخلاصة معنى النص الكريم: نزل بكم ما نزل لتعودوا تحمل الشدائد والمحن، وليظهر الله ما في صدوركم فيصلحها، ويخرج من قلوبكم ما يخالط الإيمان من بعض الأوهام.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو إذ يفعل ذلك يعلم بما في صدوركم، يعلم ما يخالطها وما توسوس به ويعلم مَوَاضِعَ أدوائها، وما تنطوى عليه نفوس الأبرار الأقوياء، ونفوس الضعفاء ونفوس الأشرار، وقد أكد سبحانه وتعالى علمه بخفايا النفوس، بثلاثة تأكيدات: التأكيد الأول- التعبير بالجملة الاسمية، والثاني- التعبير بوصف عليم، فهو يعلم صغائر الأمور وجليلها، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والثالث- التعبير بذات الصدور، فهذا من قبيل ما يشبه التأكيد المعنوي، فمعناه يعلم الصدور ذاتها، فلا يقتصر علمه على ما في الوعاء، بل يعلم الوعاء ذاته، ولقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة بعد ذكر بيان السبب في الذنب، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

التولى يستعمل بمعنى الإقبال وبمعنى الإدبار، فإن كان متعديا بنفسه كان بمعنى الإقبال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [المائدة]، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ [الممتحنة] وإذا كانت متعديّة بـ «عن» أو غير متعديّة أصلا كانت بمعنى الإعراض ومنه الإدبار عن الزحف والأمر في وقته، وهى هنا لذلك، والتولى الذى وقع فيه أولئك الذين ذكرهم سبحانه يوم التقى الجمعان كان فى أحد ويشمل

(١) الوَضْرُ، محرّكة: وَسَخُ الدَّسَمِ وَاللَّبَنِ، أو غُسَالَةُ السَّقَاءِ وَالْقَصْعَةِ ونحوهما، وما تَشْمُهُ من ريح تَجِدُهَا من طَعَامٍ فاسِدٍ. [القاموس المحيط - فصل الواو - وضّر]. والمقصود هنا آثار الذنوب والأوزار.

فريقين: أحدهما الذين أقبلوا على الغنيمة وتركوا مواقعهم من الرماية فأولئك بتركهم مواقعهم وإقبالهم على الغنيمة كانوا مدبرين يشبهون الفارين (والفريق الثانى) الذين فروا من القتال يوم أن اضطربت الموقعة وأصيب المؤمنون بجراح، وكانت فيهم مقتلتهم. وقد ذكر سبحانه السبب فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ومعنى استزلهم الشيطان طلب لهم الزلل وسهله لهم ببعض ما كسبوا من صفائر؛ فإن تصافر الصفائر، وطلب الدنيا من شأنه أن يسهل ارتكاب الخطايا فإن النفس تتمرّد عليها^(١) وتسير فى طريقها، ولقد قال فى ذلك الراغب الأصفهاني: استزله إذا تحرى زلته. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أى استخرجهم حتى زلوا فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصبح مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، ومعنى هذا أن الشيطان لا يفتح معاقل النفس، ويغزو مواضع الفضيلة، إلا بالصفائر التى تسهل الرذائل، فإذا فتح النفس من هذا المعقل هجم بكل أسلحته، فتحكم الهوى والشيطان واستضعفت النفس وذلت، وأحاطت بها الخطايا، وسدت عنها منافذ الهداية والنور.

والمعنى الجملى أن أولئك الذين كانوا سبب تلك الجراح أو فروا من الموقعة قد وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب أن نفوسهم لم تتجه إلى الله بكلّيتها ولهذا استزلهم الشيطان، وأمامهم الفرصة لتطهير نفوسهم، وقد أعلن سبحانه العفو عنهم فقال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وقد أكد سبحانه عفوه بأربعة تأكيدات أولها: باللام فهى تنبئ عن القسم، والثانى: قد، فإنها تفيد تأكيد تحقق القول، والثالث: وصف الله تعالى بالمغفرة فإنه يؤكد أن العفو شأن فى شئونه سبحانه، والرابع: الوصف بالحلم فإنه سبحانه لا يسارع بالعقاب: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ...﴾ (٤٥) [فاطر].

(١) المروءة على الشيء: المرون عليه. الصَّحَّاح. ومنه قوله تعالى فى سورة التوبة (١٠١): ﴿مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ أى مرنوا عليه وأقاموا فلم يتوبوا.

وقد أكد سبحانه أمر العفو، لتذهب عن نفوسهم حيرتها، ولتنخلع من الماضي ولتستقبل الحاضر والمستقبل بقلب جرىء ثابت، ولتشعر بعون الله وتوفيقه وتأنيده وتسديده.

ربنا اعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

يَتَأَيَّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لِّوَكَاؤُنَا عِنْدَنَا مَالٌ ثَوَالِفٌ
قَتَلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُمِيتُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

ما زالت النصوص القرآنية الكريمة تذكر العبر في هزيمة أحد، وكان هذه الهزيمة التي لم تكن فاصلة، بل رجع فيها المنتصرون لم يلوا على شيء - فيها دروس فائدتها أكبر من فائدة النصر، وفيها كشف لأحوال نفسية، ومعرفتها ذريعة إلى الاستمرار على القتال والانتصار فيه، وفي هذه الآيات بين الله سبحانه وتعالى الفرق بين النفس المؤمنة إذا فقدت أحبائها أو أصفياءها في جهاد أو ما يشبهه، والنفس الكفارة إذا أصيبت بمثل هذه الإصابة، وفي هذه الآيات أيضا يبين سبحانه أن النظر إلى الماضي المؤلم من غير الاقتصار على الاعتبار يؤدي إلى الحسرة والحزن الدائم، فالنفس الدبرية التي تلاحقها دائما بآلام الماضي لا تسعد في ذاتها، ولا تنأب لعمل يحتاج إلى تضافر الهمم وتحفز العزائم، فإن تفرغ القلب بآلام

الماضى كفرًا بالله، وعدم تفويض إليه سبحانه، وعدم إيمان بالمستقبل الذى يكون يوم القيامة، ويكون الأمر فيه كله لله تعالى، وإن هذه الروح الدبرية هى روح الكافرين، وقد نهى الله سبحانه عن أن يكونوا مثلهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ...﴾.

الخطاب واضح بأنه للمؤمنين الصادق الإيمان، وهو نهى عن التشبه بالذين كفروا، فى حالهم التى يبينها سبحانه وتعالى، وفى التعبير بالذين كفروا إشارة إلى أن الجزع للحاضر أو الماضى، والالتفات إلى الماضى، والنظر إلى وجوب تغييره، وقد سجل فى الوجود، وأصبح لا سبيل إلى تغييره؛ لأن ما وقع لا يكون - كل هذا من شأن الكافرين الذين يأسرهم ما يقع، ويتخذون «لو» التى هى سبيل الشيطان دائما وسواسا لنفوسهم، يكررون ما كان يجب، وقد وقع ما وجب، والبصير الذى آتاه الله نعمة الهداية والتوفيق لا يفكر إلا فيما يجب فى المستقبل على ضوء ما وقع فى الماضى وصيغة النهى التى عبر بها سبحانه: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تفيد تباعد ما بين المقامين: مقام الإيمان، ومنزل الكفران، وأنه لا يصح بالمؤمن أن ينزل إلى المرتبة الدون، بعد أن علا بالإيمان إلى مقام الأعلين الأبرار، وفى هذا تقبيح المنهى عنه بأبلغ تعبير، وأرق تصوير؛ إذ حسب الذين أهتمهم أنفسهم، وقالوا عن إخوانهم فى حال يأس مستول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا...﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أن يكونوا فى هذا كالذين كفروا؛ إذ يوسوس إليهم الجزع بأن يقولوا مثل هذه المقالة - حتى يستعد المؤمنون عنها، ويجانبوها كل المجانبة، والأمر نهى عن المماثلة فيما حكاه سبحانه يقول: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

ضربوا فى الأرض معناها سافروا وأبعدوا فى السفر، ولم يكن سفرا قاصدا، بل كان سفرهم فيه مشقة وجهد، وتعرض فيه المسافر للأذى. وغزى: جمع غاز، كراعى ورُكَّع، وصائم وصوم، ونائم ونوم، وشاهد وشهد، وغائب وغيب، واللام فى قوله تعالى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ إما أن تكون دالة على موضع

الخطاب، ويكون المعنى أن هؤلاء الذين كفروا لفرط جزعهم على الذين فقدوهم يقولون لإخوانهم الأحياء: لو كانوا مقيمين معنا، وملازمين بيوتهم، ولم يضربوا في الأرض ولم يغزوا فيها ما ماتوا وما قتلوا؛ فالأحياء يتبادلون الكلام في شأن الذين قتلوا أو ماتوا.

ويقول الزمخشري: إن اللام هنا ليست دالة على الخطاب، إنما هي للتعليل، والمعنى: يقول أولئك الذين نجوا لأجل ما فقدوه من إخوانهم، تحسرا وأسفا عليهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا.

وهذا القول ينبعث من قلوب غير مؤمنة يسيطر عليها غم حاضر وهم غابر، وهو يدل على ضيق العقول، ومصادمة لكل معقول تحت تأثير الهوى الجامح المسيطر، فإنهم ما داموا قد خرجوا مختارين، فليس لكلمة «لو» مقام بعد ذلك في اعتبارهم، ثم إن هذا الكلام يضعف العزيمة، ويفتح القلوب للخور، فالمأسور بهزيمة الماضي لا يتنصر في المستقبل، وفوق هذا فإن ذلك القول يدل على عدم تفويض الأمور لله سبحانه، فهو مسير كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، وعلى المؤمن أن يعمل ويجد، ويترك تقدير الأمور لرب العالمين، وما حاول إنسان أن يضبط شئون المستقبل كما يجب إلا أصابه الله سبحانه وتعالى بما يخالف تقديره، ويبطل تدبيره، وهذا القول لا يصدر أيضا إلا عن قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يرجون ما عند الله سبحانه وتعالى، ولذلك ذكر سبحانه أنه من خواص الذين كفروا بالله واليوم الآخر، وإن تلك الحال اليائسة القاتلة شأن من شئون الذين يلحدون في الله دائما، وهي عقاب ذنوبهم، ولذا قال سبحانه: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

اللام هنا هي التي تسمى لام العاقبة، وهي تدل على المآل، ولا تدل على التعليل الباعث، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾ [٨] القصص فإنه ما كان الباعث على الالتقاط هو أن يكون لهم عدوا وحزنا، بل كانت النتيجة هي العداوة.

ويصح أن تكون اللام للتعليل، ويكون المعنى: أن الله سبحانه وتعالى خلق الكفار على هذه الأخلاق اليائسة، أو قدر لهم هذه الأحوال المؤسفة ليلقى الحسرة في قلوبهم، والغم في نفوسهم، والضلال بهذه الأقوال في عقولهم.

والحسرة هي الهم المعسى الكاشف للنفس الذي يلقي بالحزن المستمر فيها، وقد قال الأصمعي في هذه المادة: «الحاسر من لا درع له، والحاسر المعيا لانكشاف قواه، ويقال للمعيا حاسر ومحسور، أما الحاسر فتصور أنه قد حسر بنفسه قواه، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، وقوله عز وجل: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك] يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور، وقال تعالى: ﴿فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء]، والحسرة الغم على ما فاتته، والندم عليه، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، وانحسرت قواه من فرط غم، وأدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَأَنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة]. ومن هذا يتبين أن معنى الحسرة يتضمن هما وحزنا وإعياء، وتكشفا للآلام يلقي تشاؤما وارتياحا وانزعاجا مستمرا.

والكلام السابق على أساس أن الحسرة نتيجة لقولهم واعتقادهم الفاسد، ذلك أنها تلقى في قلوبهم ضعفا وألما، فالسبب في الحسرة على هذا التوجيه من أنفسهم التي ركبها الله سبحانه وتعالى ذلك التركيب، ويصح أن تكون الحسرة نتيجة للنهي، وتكون اللام للتعليل، ولا تصلح أن تكون للنتيجة والمآل، ويكون المعنى على هذا: يأبها المؤمنون لا تكونوا كالذين كفروا إذ يشغلهم الماضي ولا يفكرون في الحاضر، بل اتخذوا من الماضي عبرة، وفوضوا الأمور إلى الله تعالى ليجعل الله لكم بهذا قوة، ويكون ذلك حسرة في قلوب الكافرين؛ إذ يرونكم مستبشرين بنعمة من الله وفضل دائما، فلا تألمون لمن تفقدون، ولا تتخاذلون بمن يقتلون من صفوفكم، بل تأخذون الأهبة، وتتقدمون طالبيين الشهادة أو النصر المؤزر، وذلك هو سبب الحسرة.

﴿وَاللَّهُ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في هذه الجملة السامية ترشيح وتقوية لمعنى النهى السابق، وتأكيد لضلal الكفار ومن يحاكونهم فى انشغال أنفسهم بمن ماتوا، وظنهم أن الخروج هو الذى كان سببا فى قتل من قتلوا، كما قال الكافرون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قَتَلُوا﴾، ففى هذه الجملة يبين سبحانه أن الأرواح كلها بيد الله تعالى يقبضها إن شاء، ويرسلها إن أراد، فهو سبحانه لا يتقيد بخروج للقتال، فالقعود لا يضمن الحياة، والخروج لا يكون معه التلف، بل ربما كانت فيه النجاة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ...﴾ (النساء) وإنه إذا كانت الحياة والموت بيد الله وحده قد جعل لكل أجل كتابا ومن جاء أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وأن الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب ومسبباتها، وهو الذى يربط بينهما برباط السببية لحكمة يراها، والأسباب لا تلزمه سبحانه، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله سبحانه فى أفعاله كلها بالإحياء والإماتة يتصرف تصرف العليم الخبير، ولذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى أن الله تعالى عليم علم من يرى ويصير بأعمالكم التى تعملونها، يعلم البواعث والنتائج ويعلم الحقائق والوقائع، فلا تذهب أنفسكم حشرات على الماضى، واستعدوا، وقد بين سبحانه أن الله غافر ما كان منكم من خطأ فى ماضيكم، ومجازيكم بخير مما ينال هؤلاء، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

اشتمل الكلام على قسم وجملة شرطية واقعة، فالله سبحانه وتعالى يقسم وهو العزيز الحكيم بأن من يموت أو يقتل فى سبيل الله طالبا رضاه محتسبا لثبته فى جهاده يناله جزاءان عظيمان: أحدهما- أن يغفر الله تعالى ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وتلك نعمة عظيمة، لا يشعر بها إلا من يشعر بتقصيره ويحاول رضا مولاه، ويغلب الخوف على الرجاء، ويستصغر حسناته بجوار ما يرتكب من هفوات، وتلك مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين، وذلك ما يتضمنه الوعد

بالمغفرة من رضوان الله تعالى، فإن الله تعالى لا يغفر إلا لمن يرضى عنه، ويذهب عنه سخطه سبحانه وتعالى، ففي الوعد بالمغفرة نعمة الغفران، ونعمة الرضوان، وهو أكبر.

الأمر الثاني- الرحمة من الله تعالى، ورحمة الله تعالى تتضمن الثواب، والنعيم المقيم يوم القيامة، وذكر رحمة الله تعالى في هذا المقام لكيلا تذهب نفوس المؤمنين حسرة على ما ماتوا منهم، فإنهم ليسوا في شقاء بل هم في نعيم، ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران). [

وهنا بحوث ثلاثة حول هذا النص الكريم:

أولها: أنه سبحانه وتعالى صرح بأن مغفرته ورحمته خير مما يجمع المشركون من أموال وعقار وكل أغراض الدنيا، ويقول ابن عباس فيما روى عنه من تفسير: (خير من طلائع الأرض ذبّة حمراء) أى خير من ملء الأرض ذهب أحمر، و«خير» أفعل تفضيل، وهو هنا ليس على بابه فإن الخيرية في مغفرة الله تعالى، ولا خيرية فيما يكتزون، فإنها تكوى بها جباههم وجنوبهم، أو تقول أفعل التفضيل على بابه، ويكون المراد من الخير مطلق النفع، ولا شك أن رحمة الله ومغفرته أنفع لأنهما أبقى.

ثانيها: أنه ذكر أن الموت قد يكون في سبيل الله وذلك إذا كان المؤمن يعيش طول حياته مخلصا لله وللحق وللمعرفة والهداية يحب الشيء لا يحبه إلا لله تعالى، وكان الله ورسوله أحب إليه من نفسه، فإن من يكون كذلك يعيش لله وفي سبيل الله ويموت في سبيل الله.

ثالثها: أنه قدم (قُتِلْتُمْ) في هذا المقام لأنه المناسب؛ لأن الكلام الكريم في أعقاب مقتلة أصابت المسلمين وأصابهم هم بسببها فناسب تقديم (قُتِلْتُمْ) على (متم) وإن الخطاب هنا للمؤمنين الذين جاهدوا، وهو مبين لجرائهم وقال سبحانه: ﴿وَلَقِنْ مَتِّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِّإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الخطاب الأول للتبشير بالنسبة للمجاهدين كما أشرنا والخطاب هنا يعم المجاهدين وغيرهم، ولذا قدم فيه (تم) على (قتلتم)، وبين أن الجميع سيلقون ربهم، وأنهم سيحشرون إليه، أى سيجمعون جميعاً يوم الحشر مسوقين إليه سبحانه وتعالى، والتعبير بالحشر إشارة إلى أن الجميع يجتمعون لا يفلت منهم أحد؛ فالمنافقون والمشركون والمؤمنون الذين قتلوا والذين نجوا مجموعون عند ربهم، وسيلقاهم، وسيحاسب كل امرئ بما كسب، للمجاهدين مقامهم، ولغيرهم مهواهم الذى هووا إليه، ففى هذا إنذار وتبشير وتذكير بقاء الله العلى الكبير، اللهم هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الغفور الرحيم.

فِي مَارْحَمَةٍ مِّنْ

اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ
بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

بين سبحانه حال المؤمنين قبيل المعركة فى غزوة أحد، وبعدها، وفى أثنائها وما أصابهم من غم، ثم بين سبحانه دواء أسقامهم، ودعاهم إلى استئناف الجهاد، وإن يكونوا قد مسهم قرح، فقد مس القوم قرح مثله، وقد بين سبحانه أسباب الهزيمة ليتوقعوها، فإن الغلط الذى يعلم الصواب خير، وليس بشرّ، ولقد بين بعد ذلك سبحانه حال النبى ﷺ فى القيادة الحكيمة، وما اتبعه وما تحلى به، وأمره سبحانه وتعالى بالاستمرار عليها، فبين سبحانه أن القيادة الحكيمة تكون مع العزيمة رحيمة، ومع استقبال الأحداث بقوة تكون خالية من الفظاظة والقسوة، وتلتزم الصفح عن الخطأ ليعتزموا الصواب، والاستغفار من الذنب لتجدد التوبة،

ولذا قال تعالى في حال النبي ﷺ، وما انبعث منه في موقفه يوم أحد، فقال تعالت كلماته: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

«الباء» هنا باء السببية، و«ما» زائدة في الإعراب، ولكنها في المعنى لتقوية معنى الرحمة، والمعنى: بسبب رحمة أى رحمة عظيمة فياضها المولى العلى القدير كنت ليّنا معهم فى كل أحوالك، وكنت ليّنا لهم بعد الأخطاء التى وقعوا فيها، والكارثة التى نتجت عن مخالفتك، فما لُتُّهم، ولاعَفَّتَهُمْ بل سَكَتَ حيث رأيت ما أصابهم من غم استغرقهم، وحزن استولى عليهم، ولقد شكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ذلك اللين؛ إذ لم يؤاخذهم، ولم يفرط فى القول معهم؛ لأن اللوم على الماضى يُسِسِ النفس من غير جدوى، وهو رجعة إلى الوراء، والقائد الحكيم يتجه إلى الأمام، ولا يلتفت إلى ورائه إلا بمقدار ما ينير له السبيل أمامه، وبمقدار ما يجنبه خطأ وقع فيه، وبمقدار ما يحفز همة من معه، ويشحذ عزميتهم، وإن المبالغة فى اللوم على ما وقع فى الماضى يلقي باليأس، وفى اليأس الهزيمة، واليأس والقنوط إسراف على النفس بالهموم، ولا نجاح لمن فى هم دائم، وحزن واصب، فكان لين النبي ﷺ معهم فى هذه الآلام التى أصابتهم كالبلسم الشافى لأسقامهم، والقائد الماهر الحكيم يجب أن يجمع إلى العزيمة القوية الموجهة إلى العمل البشر ولين العريكة، وتسهيل الخروج من أوضاع الخطأ، حتى لا يعتسهم ولا يبهظهم^(١)، وحسبهم ما أصابهم، وإن الشدة فى مثل هذه الأحوال والغلظة فى القول والعمل تنفر ولا تجمع، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وهذا النص الكريم يثبت أن النبي ﷺ ليس فظا ولا غليظا ولا قاسيا؛ لأن (لو) تدل على نفى الجواب لنفى الشرط، والمعنى أنك لست فظا ولا غليظا

(١) بهظّه الحِمْل: أثقله وعجز عنه، فهو مبهوط، وأمر باهظ: أي شاق. الصحاح - بهظ.

القلب، وهذا هو الذى يتفق مع صفات النبوة والقيادة الحكيمة الرشيدة الهادية الموجهة إلى أمثل الطرق الجامعة للقلوب، لأنك لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك. والفظاظة خشونة المظهر، والعشرة السيئة، وسوء القول، وتجهُّم الوجه؛ وغلظ القلب قسوته، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن نبيه الغلظة فى المظهر والباطن، فالغلظة فى المظهر هى الفظاظة، والغلظة فى الباطن قسوة القلب وكلا الوضعين من شأنه أن ينفر، ولقد قال الله تعالى فى وصف نبيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وكان النبى ﷺ باشا لطيف المعشر متسامحا رحيمًا لا يقسو ولا يعنت أحدا ولا يغضب ولا يسب، وما ضرب أحدا بيده قط، وكان سهلا فى معاملاته متسامحا، وكان طلق الوجه دائما، رآه أعرابى، فاسترعاه بشاشته وطلق محياه فقال له: أأنت الذى تقول عنه قريش إنه كذاب؟ والله ما هذا الوجه بوجه كذاب! وأسلم إذ دعاه النبى ﷺ.

ولقد وصف عبد الله بن عمرو بن العاص النبى ﷺ، فقال: (إنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى السيئة بمثلها، ولكن يعفو ويصفح)^(١). وكان عليه الصلاة والسلام لا يثير غيظه شئ، ويدارى الناس إلا أن يكون فى المداراة حق مضيع، ولقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أمرنى بمداواة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض»^(٢).

وإذا كانت الغلظة منفرة فالعفو جامع، ولذلك أمر الله تعالى نبيه الكريم بما يترتب على الرفق والبشاشة، وهو العفو فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

(١) رواه بنحوه البخارى: تفسير القرآن - «إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» (٤٤٦١)، والدارمي: المقدمة - صفة النسي ﷺ (٦)، وأحمد مسند المكشرين (٦٣٣٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه.

(٢) جمع الجوامع (٤٧١٣)، والسلسلة الضعيفة للألبانى (٨١٠)، والفتح الكبير ج ١، ص ٢٦٩، وكنز العمال جزء ١، ص ٥١٠.

الفاء هنا تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على اتصافك بالعفو والرحمة والبشاشة، والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب أن تكون عفواً، ولذا أمره سبحانه بالعفو عن المخالفة التى وقعوا فيها، وترتب عليها ما ترتب من هزيمة وفوات فرصة، وإن العفو فى هذه الحال ليس للرحمة فقط، بل هو للمصلحة أيضاً؛ لأنه يشحذ العزائم، إذ هو يقلل من العثرة، ويرفع من الكبوة، وعندئذ تستقيم القلوب نحو الحق، كما قامت الأجسام بعد الوقوع.

وأمره سبحانه بأن يستغفر لهم، بأن يطلب من الله أن يغفر لهم ما أساءوا، وأن يغفر هو لهم هذا الخطأ، وإن فى استغفاره الله تعالى لهم، وإعلانه ذلك الاستغفار بينهم تأكيداً لعفوه، وتشجيعاً، وضراعة إليه سبحانه أن يجعل حاضرهم وقابلهم خيراً من ماضيهم الذى أخطأوا فيه.

وقد أمر نبيه بأمر ثالث، وهو أن يشاورهم، وإن المشاورة من بعد ما كان منهم دليل على عفو النبى ﷺ بعد عفو الله تعالى وغفرانه؛ لأن مما أخطأوا فيه فى الماضى أن النبى ﷺ شاورهم فى أمر الخروج إلى لقاء المشركين فى أحد، وأنه كان يميل إلى البقاء حتى يدخلوا المدينة، وشبابهم كان يريد الخروج، فنزل عليه الصلاة والسلام عند رأيهم، ثم كان ما كان منهم من أن طائفتين همتا بأن تفشلا، ثم ما كان من خروج الرماة عن مواقعهم، ولو بقوا فى المدينة ما وقع هذا، ولكن الله سبحانه مع ذلك أمره بمشاورتهم للإعلان عن سماحته المطلقة، ولأن المشاورة إن أخطأت فيها النتيجة مرة، فصوابها كثير.

والشورى أصل من أصول الحكم فى الإسلام، قد التزمها النبى ﷺ فى كل أمر كان يمس أمور المسلمين العامة فقد استشار فى غزوة بدر قبل وقوعها، واستشار فى الأسارى غيباً ووقعها، واستشار فى أحد، واستشار فى غزوة الأحزاب، وكان من نتائج الشورى حفر الخندق والتحصن وراءه، واستشار فى القتال يوم الحديسية، والتزم أبو بكر ومن بعده عمر الشورى، وما اضطرب جبل الأمور من بعد إلا عندما منعت أمر الشورى.

والأمر الذى وجه للنبي ﷺ فى الشورى قال بعضهم إنه أمر إلزام، وقال آخرون إنه بالنسبة للنبي ﷺ ليس أمر إلزام، بل طلب استحباب، ولكن الأكثرين على أنه أمر إلزام، بدليل التزام النبي ﷺ للمشاورة فى كل أمر يمس مصلحة المسلمين فى السلم أو فى الحرب، ولم يكن تبليغا لرسالة ربه؛ وإن أفعال النبي ﷺ تعليم لنا.

ومن المتفق عليه أن الشورى لازمة بالنسبة لغير النبي ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾ (٣٨) [الشورى] أى الأمر الجامع للمسلمين يكون بالشورى وتبادل الآراء، والتعاون والإخلاص فى القول، ولذا يقول النبي ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١). والنصيحة لعامة المؤمنين هى بالشورى التى تُبْدَى فيها الآراء لله وحده، لا لشيء سواه، ولا لطلب الجاه عند الناس. ولقد قال البخارى: «وكان الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمراء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها»^(٢).

ومع اتفاق الفقهاء على أن الشورى أصل من أصول الحكم فى الإسلام لم نجد نصا قرآنيا وضع منهاجا لها، ولم نجد النبي ﷺ وضع أسسها وطرائقها، نعم إنه كان يستشير من معه من أهل المدينة، وكذلك كان يفعل الشيخان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فلماذا لم يبين ذلك فى كتاب ولا سنة؟ والجواب عن ذلك أن مناهج الشورى تختلف باختلاف الجماعات وباختلاف الأحوال، وباختلاف الموضوعات ولا يوجد نظام ضابط لكل ذلك، بل ترك سن النظام للناس، ولا بد أن يتحقق معنى الشورى فى النظام على أن يكون أهل الشورى من ذوى العلم والخبرة، وفى أمور الحروب يستشار أهل الحرب، وفى أمور القانون يستشار الفقهاء

(١) رواه مسلم: الإيمان - الدين النصيحة (٥٥)، وذكره البخارى فى الترجمة: الإيمان - الدين النصيحة، كما رواه النسائي: البيعة - النصيحة للإمام (٤١٢٦)، والترمذي: البر والصلة - ما جاء فى النصيحة (١٨٤٩) عن تميم الداري رضى الله عنه.

(٢) من كلام البخارى فى ترجمة باب: الاعتصام بالكتاب والسنة - (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ).

والمشروعون، وفي أمور العمران يستشار أهل الهندسة، ولذلك تتألف اللجان في المجالس النيابية من أهل الخبرة في كل أمر من أمور العامة.

وفي الجملة فإن الشورى مطلب كالعدل، يجب تحقيقه من أقرب الوسائل إليه توصيلاً، ولقد جاء في تفسير القرطبي ما نصه:

«والشورى بركة، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار»^(١) وروى سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ: «ما شقى قط عبد بمشورة، وما سعد باستغناء رأى»^(٢).

وإنه يجب أن نعلم حقيقتين ثابتتين:

أولاهما: أن الشورى إحساس نفسى من الحاكم يدفعه إلى طلب أمثل الطرق للحكم وتحقيق العدالة والمصلحة، فإن لم يكن فى الحاكم ذلك الخلق، فإنه لا يتنفع بأى نظام للشورى مهما يكن، وإذا لم يكن المستشار يحس بأن إبداء القول فى الشورى واجب عليه وليس مجرد حق له فإنه لا يمكن أن يكون من رجال الشورى.

ثانيهما: أنه لا يعادى الشورى من الحكام إلا أحد اثنين إما رجل قد أصابه داء الغرور، فظن أن قوله الحق الذى لا يخالطه باطل، وإما رجل يخاف من اطلاع الناس حتى لا يظهر شئ من أموره.

والمشاورة لها وقت معلوم، وهو وقت الدراسة والفحص، فإذا تمت المشاورة وجب الأخذ بالعزيمة فى الأمر والإقدام على العمل؛ ولذا قال سبحانه بعد الأمر بالشورى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

(١) جاء في مجمع الزوائد: ج ٨ ص ١٨١ (٧٥٣١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد». رواه الطبراني في الأوسط والصغير من طريق عبد السلام بن عبد القدوس، وكلاهما ضعيف جداً.

(٢) القضاعي في مستند الشهاب: ج ٢، ص ٦ (٧٧٣) عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شقى عبد قط بمشورة، وما سعد باستغناء برأى، يقول الله تعالى: «وشاورهم فى الأمر» وقال تعالى «وأمرهم شورى بينهم».

العزيمة عقد النية على إتمام الأمر بعد الاستشارة، والنبى ﷺ اشترط لتحقيق العزم سبق الاستشارة فاعتبر الشورى ركنا من أركان العزم، فقد سئل ﷺ عن العزم، فقال: «مشاورة أهل الراى ثم اتباعهم»^(١). وفى النص القرآنى الكريم، والحديث النبوى الشريف إشارة إلى أنه بعد تعرف كل وجوه الراى يكون الاعتزام ثم يكون العمل، ولا يصح أن تكون مشاورة أخرى بعد الدراسة العميقة السابقة إلا إذا جد أمر لم يكن فى الحسبان ولم يكن فى تقدير الذين استشيروا أولا فإنه يعاد النظر إليهم، وفى غير هذه الصورة تكون العودة إلى الاستشارة ترددا يدعو إلى الهزيمة والاضطراب، ولا يصح أن يكون التعصب لراى إذا لم يؤخذ به باعثا على إعادة النظر، فإن ذلك استبداد من أصحاب هذا الراى، وفوضى فى الشورى؛ لأن ما يعتزم من آراء بعد الشورى هو راى الجميع، ويجب أن يفنى معه كل راى معارض وإن النبى ﷺ مع أنه فى غزوة أحد كان يرى البقاء فى المدينة حتى يجيء إليها المشركون فيضيعوا فى طرقها وأزقتها، وتكون الدور حصونا يرمون منها ولكن الكثرة رأت غيره، فنزل على رأبها، وأمضى الأمر، ولما وجدت حركة تدعو إلى رأيه وتكونت له كثرة، قال الرسول الحازم الرشيد: «لا ينبغى لنبى يلبس لأُمتَه أن يضعها، حتى يحكم الله»^(٢) واللأمة: الدرع أو السلاح.

ولقد أمر سبحانه وتعالى بالتوكل بعد المشاورة وأخذ الأهبة، وأن يكون التوكل مصاحبا للعزيمة والإقدام على العمل، وإن ذلك يستفاد منه أن التوكل على الله تعالى حق التوكل لا بد أن يقترن بالعمل، وأن يسبقه دراسة للموضوع من كل نواحيه، وإن التوكل بعد ذلك أمر لا بد منه؛ لأن العلم بالحق الأمثل من المناهج والأعمال عند علام الغيوب، فمهما يكن علم الإنسان فهو ناقص، فالتوكل عليه سبحانه فيه معنى الشعور بالنقص الإنسانى مهما يظهر كماله، ولأن

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٢) سبق تخريجه قريبا .

الله تعالى خالق الأسباب والمسببات، وهو القادر على تغييرها، أو جعل الأمور على غير ما توجه أسبابها، فالتوكل عليه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله تعالى وقدرته الشاملة الكاملة على كل ما خلق، وإن عدم التفويض مع العمل غرور من الإنسان، واستعلاء بغير سبب، وإنه مهما يدبر الإنسان فقد يخطئه التنفيذ كما كان في غزوة أحد.

ويجب أن نقرر هنا حقيقتين: «إحدهما» أن قدرة الله تعالى واضحة في نتائج الأفعال، فعليه المعتمد. ألم تر إلى رجلين يذران بذرا، ويلقيانه في قطع متجاورات من الأرض، ويأتى الله لأحدهما بأبرك الثمرات، والآخر تأكل الآفات زرعه وكلاهما احتاط وأخذ بالأسباب. «والثانية» أن الاتكال على الله تعالى ذكر لله، فتطمئن القلوب ويذهب الخوف والجزع ويكون الإقدام.

ولهذه المعاني النفسية العالية في التوكل الحق صرح بحب المتوكلين المولى العلى القدير فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وأى منزلة أعلى في الوجود من هذه المحبة التى تتضمن الرضا، ورضوان الله أكبر من كل شيء، فكيف تكون محبته، والمتوكل على الله حق توكله قد تسامى بنفسه عن أعلام الأرض، ودرج بنفسه فى مدارج الروحانية؛ لأنه اعتبر إرادته وعزيمته وتدبيره وعمله ليست بشئ بجوار قدرة الله.

وقد أكد سبحانه وتعالى طلب التفويض والتوكل بعد التدبير وأخذ الأبهة بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

أى أنه إذا أراد الله تعالى أن ينصركم، واستحققتكم نصره فإنه لا يوجد قوم من شأنهم أن يغلبوكم، والتعبير باسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يفيد أنه لا يوجد من عنده القوة ومن شأنه أن يغلبكم؛ لأنه إن كان قويا فى نفسه فالله معكم وهو القاهر فوق عباده، وهو الحفيظ عليهم، وخلق

الإنسان ضعيفا مهما تكن قوته، وإن استحقاق نصر الله يكون بأخذ الأهبة ومبادلة الرأي، وتعرف أسباب النصر، ثم التوكل على الله تعالى، وتفويض الأمور إليه. وإن النبي ﷺ بعد أن أعد الأهبة أخذ يدعو الله تعالى بالنصر، ويكرر هذه العبارة: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»^(١).

وإنه إذا فقد المؤمن نصر الله فلا ناصر له من غيره، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَأَن يَخْذَلَكَم فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ﴾.

أى إن يكتب الله سبحانه وتعالى لكم الخذلان، ويحرمكم من معونته وتأنيده، فلا أحد ينصركم من بعده أى ممن هو دونه أو من بعد خذلانه، لأنه لا أحد عنده قدرة تقف أمام قدرة الله تعالى، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، وقد جاء النفى على صيغة الاستفهام ليوجه أنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة الله تعالى الخذلان، فإنهم سيبحثون عن قوى لا تكون قوته إلى بقاء، ولن يجدوه، فعندئذ يحكمون بأن الله وحده الكبير المتعال، ولا ناصر سواه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أى عليه وحده لا على شىء سواه، وأفاد ذلك تقديم ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ أى أن المؤمنين لا يتوكلون إلا على الله سبحانه وتعالى فالإتكال عليه وحده، والإيمان متلازمان لا ينفصلان، فغير المؤمن يعتمد على الأشخاص الفانين، أما المؤمن فلا يعتمد على أحد سوى الله تعالى، والاتكال على الله من مقتضيات الإيمان بالله وحده؛ لأنه جزء من الوحدانية، فالذين يعتمدون على غير الله من العباد يصيبهم نوع من الشرك الخفى؛ لأنهم يفرطون فى تقدير العباد، بل قد تفرط منهم عبارات

(١) وذلك يوم بدر، وقد رواه مسلم بنحوه في حديث طويل: الجهاد والسير (١٧٦٣)، والترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة الأنفال (٣٠٠٦) عن عمر بن الخطاب عن ابن عباس رضى الله عنهم. كما رواه: مسند العشرة (٢٠٣).

التقديس، وقد كان بعض الذين لا دين لهم يعبرون عن بعض الملوك بالذات العالية، وذلك شرك بلا ريب، وأهل الإيمان الصادق لا يعتمدون إلا على الله بعد أخذ الأسباب؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بالله: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة].

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ
اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١١٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾
لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١٤﴾

الكلام في غزوة أحد وما فيها من عبر وما بينه الله سبحانه وتعالى من أحكام لمناسبة ما كان فيها، وفي هذه الآيات يبين ما يجب من مراعاة الأمانة بالنسبة للغنائم في الحروب، ذلك أن الرماة الذين خالفوا أمر النبي ﷺ قد خالفوه لأنهم خشوا أن ينفرد المقاتلون بالغنيمة دونهم؛ إذ ظنوا أن من يستولى على شيء فهو له، وهم بموقفهم موقف الحراسة لظهور المقاتلين سيحرمون إن لم يقاتلوا، فبينت هذه الآيات بالإشارة أنه لا قسمة قبل انتهاء المعركة، وأن الغنيمة لا يختص بها فريق دون فريق، وأن الغنيمة نتيجة النصر، والنصر ثمرة تعاون الجميع، فحق أن تقسم الثمرة على الجميع، ولقد روى أن النبي ﷺ قال للرماة: «أظنتم أنا نغل ولا نقسم لكم»^(١).

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي ومقاتل.

وإن الله سبحانه وتعالى يسن الأحكام العامة للمناسبات الخاصة، ليكون السبب موضحاً للحكم، وإن كان الحكم عاماً، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ابتدأ سبحانه بنفى وصف الغلول وهو الخيانة فى الغنائم عن النبى ﷺ، وذلك لبيان أن التسوية فى القسمة مطلوبة من الجميع لا فرق فى ذلك بين قائد وقائد، ولو كان أحد يسوغ له ألا يسوى فى القسمة لما كان رسول رب العالمين، ولكنه أول من ينفى عنه هذا الوصف، ولأن الرماة تعجلوا خشية ألا يأخذوا، فبين الله لهم أن عدم تسويتهم فى الغنيمة غلول، وما كان الغلول من شأن النبى ﷺ، وبيان أن عدم توزيع الغنيمة بالعدل خيانة، فلا يستكبر قائد عن أن يوصف بها إذا وقع منه عدم التسوية.

ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ ما ساغ وما صح لنبي أن يخون، فالنفي هنا نفى للشأن، أى ليس من شأن النبى أن يخون، والتشكير هنا للتعظيم، فليس من شأن أى نبي يتكلم عن الله تعالى أن يخون، وإذا كان التشكير للتعظيم لأنه تنكير فى مقام النفى، فمؤدى الكلام أن النبوة والغلول نقيضان لا يجتمعان، فما كان لأحد أن يظن أن النبى سوف لا يقسم بالسوية، وإذا وقع ذلك الظن فهو من الظن الإثم: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ...﴾ [الحجرات].

وأصل الغلول من الغلل، وهو دخول الماء فى وسط الشجر كما جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني، وسميت الخيانة فى الغنيمة غلولا؛ لأنها تدخل الملك من غير حله وفى خفاء، كجريان الماء بين الأشجار فى خفاء، ويقال تغلغل فى الشيء دخل فيه واختفى، ويطلق الغل بكسر الغين على الحقد لأنه يكون دفيئا متغلغلا فى كيان النفس الإنسانية ويفسدها.

وإن المعنى الذى يجرى عليه جمهور المفسرين بأن المراد بالغلول المنفى عن الرسول وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هو الغلول المادى فى شئون المادة، ولم تتعرض الآية الكريمة للغلول المعنوى وهو كتمان ما أنزل الله

تعالى وعدم بيانه؛ ولكن قال بعض العلماء: إن الغلول المنفى عن الأنبياء هو كتمان ما أنزل الله تعالى وعدم بيانه؛ لأن الغلول المادى غير متصور الوقوع، ولكن السياق لا يؤيد هذا المعنى؛ لأن السياق كله فيما قبله وما بعده يدل على أنه فى الحرب وما يتعلق بها من غنائم أغرت الرماة وأخرجتهم من محارستهم^(١)؛ ولما يجىء بعد ذلك من تعميم الحكم لكل من يغل غير الأنبياء من حيث إنه يأتى بما غل يوم القيامة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

والمعنى أن من يخون فى الغنائم أو غيرها بأن يكون ذا سلطان على مال، فيخص نفسه منه بما شاء يأتى يوم القيامة مأخوذاً بإثم ما غل يوم القيامة، صغيراً كان أو كبيراً، حقيراً كان أو خطيراً، فالمراد على هذا التفسير من قوله سبحانه: ﴿بِمَا غَلَّ﴾ وزره؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٣) [الزلزلة] فما يراه الإنسان يوم القيامة هو عمله المبرور وعمله الموزور، وأما موضوع العمل فلا وجود له إذ هو يرى الوزر أو يرى البر. وظاهر كلام المفسرين أنه يرى ذات الشيء الذى غله، لظاهر قول النبى ﷺ فيما رواه الشيخان: «لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبتة بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول له: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبتة فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك..»^(٤) فإن ظاهر هذا الحديث أن موضوع الغلول يجىء بذاته يوم القيامة، ومثل ذلك ما روى عن النبى ﷺ من الغلول فى جمع الصدقات، فقد روى أن رجلاً اسمه ابن اللببية جمع الصدقات، ثم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلى، فوقف النبى ﷺ خطيباً، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال العامل نبعثه، فيجىء، فيقول هذا لكم، وهذا

(١) جمع محرم، اسم مكان من «حرم»، والجمع محارس، أي: أماكن الحرام.

(٢) رواه البخاري بنحوه: الجهاد والسير - الغلول وقول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ (٢٨٤٤).

ورواه مسلم: ك الإمامة - غلظ تحريم الغلول (١٨٣١).

أهدى لى، ألا جلس فى بيت أمه أو أبيه فينظر أيهدى له أم لا، لا يأتى أحد منكم بشيء إلا جاء به يوم القيامة، إن كان بعيرا فله رغاء، أو بقرة فلها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتى إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت^(١).

والذى نراه أن هذه الأحاديث إنما هى تصوير لما يكون يوم القيامة من أن وزره يكون قائما بين يديه، وصُور ما وقع وموضوع أوزاره تكون قائمة فى كتابه كأنها حاضرة بأعيانها، هذا هو الذى تدل عليه الألفاظ، ولا نقول إن حضور ذات الأشياء مستحيل على الله، فإن الله على كل شيء قدير، ولكن نقول: إن ذلك هو ما يؤدى إليه الذوق البيانى العربى، وإن ذلك يومئ إلى دقة الحساب، وقيام الموازين بالقسط، ثم بين سبحانه نتيجة هذا الحساب، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وبعد الحساب العسير لهؤلاء الذين يأكلون الأموال بالباطل، ويغفلون فى الغنائم؛ ويغفلون فى أموال الدولة - يوفون جزاء ما كسبوا من غير ظلم، وفى النص الكريم عدة إشارات بيانية، الأولى: التعبير بـ (ثم) وهى تفيد التراخى بين إحضار الأعمال بأوزارها ثم يتولى جزاءها؛ فإن هذا التراخى يفيد طول الحساب، وطول الحساب عذاب فى ذات نفسه، وهو فى الوقت ذاته يدل على دقته إذ تقام الموازين بالقسط. والثانية: التعبير بـ (توفى) فإن فيه إشارة إلى أنه لا ينقص شيء مما عملت إن خيرا وإن شرا، إلا أن يتغمده الله برحمته فيعفو عن بعض السيئات وهو العفو الغفور، والثالثة: أنه عبر سبحانه وتعالى عن المساواة بين العمل والجزاء بقوله سبحانه ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ فإن هذا التعبير يفيد بظاهره أن الوفاء يكون بالعمل ذاته، ولكن المعنى: جزاء ما كسبت ولكنه سبحانه عبر بهذا التعبير للدلالة على

(١) متفق عليه؛ وقد رواه بالفاظ متقاربة البخاري: الأحكام - هدايا العمال (٦٦٣٩)، ومسلم: الإمارة (١٨٣٢)، كما رواه أبو داود: الحراج والإمارة والفيء (٢٥٥٧)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٤٩٢)، والدارمي: الزكاة (١٦٠٩). تيعر، من اليعار وهو صوت الشاة. والعفرة: بياض غير ناصع مشرب بحمرة أو سمة.

كمال المساواة بين العمل وجزائه، حتى كأن الجزء هو العمل ذاته، الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تأكيد للمساواة وفيه أيضا نفى للظلم نفيا مؤكدا بالتعبير بالجملة الإسمية، إذ المعنى أنهم ليس من شأنهم أن يظلموا؛ لأن الله تعالى خالقهم والله تعالى لا يظلم مطلقا؛ لأنه لا يليق بكماله تعالى، ولأنه كتب العدل على نفسه، كما ورد في الحديث القدسي^(١).

وإن التسوية بين الجزاء والعمل هي القانون العادل الذي سنه رب العالمين، فلا تستوى الحسنة ولا السيئة، ولا يستوى الخير والشر ولذا قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

هذا هو القانون السامي الذي وضعه سبحانه، وهو التساوى بين العمل وجزائه، وأنهم لا يتساوون في ذات أنفسهم، وفي الجزاء إذا اختلفت أعمالهم، ويفيد النص أن الجزاء يتحدد إذا اتحد العمل، ويختلف إذا اختلف العمل، وفي النص الكريم عدة إشارات بيانية:

الأولى: أنه ساق الكلام مساق الاستفهام الإنكارى الذى يفيد النفى أى إنكار الوقوع، وهذا يفيد أن ذلك القانون بدهى لا تختلف فيه العقول، بحيث لو سئل كل واحد من الناس عن ذلك لأجاب بأنه لا يستوى من اتبع رضوان الله، مع من يبوء بغضب الله.

والثانية: أن الله سبحانه وتعالى سمى الأمناء الذين لا يغفلون ولا يخونون فى أى شىء، وخصوصا فى الغنائم: يتبعون رضوان الله تعالى، وذلك لأنهم يخرجون مجاهدين فى سبيل الحق ورفع كلمة الله وقد قدموا أنفسهم لمرضاته، وكانوا ممن شروا أنفسهم لله، ومن المؤمنين الذين اشترى الله سبحانه وتعالى أنفسهم، وفى ذلك رضوان الله تعالى، وهو أعظم جزاء فى الدنيا والآخرة.

(١) إشارة إلى الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه: البر والصلة - تحريم الظلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا» الحديث.

والثالثة: أنه عبر عن الذين يغلون ويخونون بأنهم ييؤون أى يعودون على أنفسهم بسخط الله تعالى، والسخط ليس هو الغضب المجرد، بل هو الغضب الذى يصحبه أو يترتب عليه العقاب، وفرق بين عمليْن: أحدهما يجلب أبلغ الرضا، وثانيهما يجلب أبلغ الغضب وأشد العقاب، وإن ذكر هذه المقابلة ليعرف الذين يغلون بالغنائم أنهم لا يكسبون لأن ما يخسرونه أضعاف ما يكسبون من عرض لا بقاء له، والعبرة بفاضل ما بين الكسبين، أما الذين قد اختاروا الأمانة سيلا، فإنهم لا يخسرون شيئا؛ لأن مال الخيانة لا يعد كسبا، بل هو سحت لا كسب فيه، ومع أنهم لا يخسرون شيئا، وكسبهم عظيم لا حد له، وهو رضوان الله تعالى.

والرابعة: أنه سبحانه عبر عن اتباع أوامر الله ونواهيه باتباع رضوانه، لأن الطاعة المخلصة تؤدى إلى رضوانه سبحانه وتعالى، فطلب رضا الله فى طاعته.

ولقد عقب سبحانه ذكر سخطه بذكر عقابه؛ لأن السخط والعقاب متلازمان، كما أشرنا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى أن عودتهم بغضب الله الشديد يتبعه حتما ذلك المصير يوم القيامة، وهو أن يكون المستقر الذى يستقرون فيه وينتهون إليه، هو جهنم، وهى الهاوية التى يهون إليها فى النار، جزاء هاوية الخيانة التى أصابتهم فى الدنيا، وبئس ذلك المصير الذى صاروا إليه، وكان لهم نهاية، وإن لم يريدوه لهم غاية.

وإن نتيجة عدم التساوى بين من يتبع رضوان الله تعالى ويطلبه بإقامة الطاعات على وجهها الأكمل، ومن يختارون الشر سيلا - هى أن يكون الناس درجات بحسب مقدار طلب الرضوان، ومقدار اتباع السخط، ولذا قال سبحانه:

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ الدرجة هى الرتبة والمنزلة، ومنها الدرج بمعنى السلم؛ لأنه يُعلى عليه رتبة بعد رتبة، وأكثر ما تكون كلمة الدرجة فى القرآن بمعنى المنزلة الرفيعة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمُ

فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ... ﴿٣٢﴾ [الزخرف] وأما المنزلة غير الرفيعة فيعبر سبحانه بالدركة؛ ولذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿١٤٥﴾ [النساء] ولقد قال الراغب الأصفهاني في المفردات «الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود، والدرك اعتبارا بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنة، ودركات النار».

والضمير في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ يعود على الفريقين الذين اتبعوا رضوان الله تعالى، والذين اتبعوا سخطه سبحانه، وإطلاق «درجات» على الفريقين وفيهم الأشرار من قبيل التغليب، وهو تغليب له مغزاه؛ إذ هو تغليب الخير على الشر، وتغليب رضا الله على سخطه، وتغليب الأبرار على الفجار، وإن الآية الكريمة تشير إلى معنى جليل، وهو تفاوت درجات الأبرار، وتفاوت درجات الأشرار، فالذين يسرون في الخط الذي رسمه الله تعالى لطاعته متفاوتون في مقدار ما يقطعونه من ذلك الطريق النوراني الذي ينتهي بطاعته سبحانه وهم بذلك درجات عند الله تعالى بمقدار اتباعهم ما فيه رضوانه، وهو الأوامر والنواهي، والآخرين متفاوتون في مقدار انهوائهم في الشر بمقدار ما يخالفون أمر الله ونواهيه، وإن تلك الدرجات المتفاوتة هي نتيجة العمل، ولذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِصِرِّ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يعلم عمل كل إنسان علم من يراه ويبصره، فلا يغيب عنه سبحانه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، وإنه سبحانه سيجزى كل نفس بما كسبت، على مقتضى علمه الكامل، وإن هذه الدرجات التي يضع الناس فيها هي بمقتضى علمه سبحانه.

وإن النبي ﷺ قد خولفت أوامره في غزوة أحد، فنزل بالمؤمنين فيها ما نزل، ولقد ناسب أن يبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين نعمته عليهم في إرسال الرسول الأمين، ويشير إلى الهداية التي اشتملت عليها رسالته، وأن أتباعه اتباع رضوان الله، ومخالفته اتباع لسخط الله، فقال سبحانه:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لقد من الله تعالى، ونعمه على المؤمنين كثيرة، باختيار رسول الله محمد ﷺ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلقد كان حكيما أمينا فيهم من قبل الرسالة، وكان رفيقا بهم لا يعتهم بعد الرسالة، لأن لهم، ولم يكن فظا غليظا بهم، وفي هذا النص السامى يبين أن ذات رسالته نعمة، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ﴾، أنعم وأعطى ووهب، وأكد عظيم المنّة والعطاء باللام، ولقد كانت منته في بعث الرسول من أنفسهم، ومعنى ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يصح تخريجها تخريجين:

الأول: أن يكون من نفس العرب، ومن قومهم، ويكون كلمة المؤمنين خاصة بمؤمنى العرب.

والثانى: أن يكون من أنفسهم، أى أنه بشر مثل سائر البشر آتاه الحكم والنبوة، وكان رسول رب العالمين ليرسم لهم طريق الهداية ويكون لهم أسوة حسنة؛ إذ لا يمكن أن يكون أسوة حسنة لهم إلا إذا كان من جنسهم، وكان بشرا مثلهم، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، وما يأتيه من خير يكون جنسه فى طاقة البشر، وإن كان مقام النبى ﷺ فيه أعلى وأزكى وأوفر خيرا، وقد بين سبحانه وجه النعم فى هذا البعث المحمدى فقال:

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ التلاوة القراءة المتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض، أى يعقبه فى نظام محكم دقيق، والتلاوة فى أكثر أحوالها لا تكون إلا فى آيات مقروءة، والآيات تطلق على الآيات الكونية باعتبارها أمانة وشاهدا على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وتطلق على الآيات المتلوة باعتبار أن كل آية من كتاب الله تعالى دليل على أنه من عند الله، وظاهر السياق أن الآيات التى تتلى هنا هى الآيات القرآنية، والمعنى فى ذلك أن الله سبحانه يلقى على نبيه القرآن الكريم فيتلو عليهم متحديا العرب أن يأتوا بمثله، وقيل: إن المراد بالآيات . . الكونية، ومعنى تلاوتها تلاوة القرآن المشتغل على أنبائها، وعلى توجيه الأنظار إليها، وإن الظاهر هو الأول، ولا يخلو الرأى الثانى من تكلف.

وإنه من أعظم من الله أن يخاطب المؤمنون بكتاب يتلى عليهم من السماء، وأن يوجه إليهم الخطاب مباشرة من الله تعالى.

والتزكية هي العمل الثاني من عمل النبي ﷺ، وهي تطهير نفوس المؤمنين من أدران الجاهلية، وتنميتهم وتقويتهم، فالرسالة المحمدية كأن آثارها في المؤمنين تتجه إلى ثلاث نواح: تهذيب نفوسهم آحادا، والربط بين قلوبهم جماعات، والعمل على رفع شأنهم والتمكين لهم في الأرض بأسباب القوة، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص]. والكلمة «وَيُزَكِّيهِمْ» تشمل على كل هذه المعاني التي ترفع من شأن أهل الإيمان.

وتعليم الكتاب هو تعليمهم ما اشتمل عليه من أحكامه ببيان ما عساه يكون فيه من نصوص تعلقو على مداركهم، وتفصيل المجمل فيه، وتطبيقه عليهم، فتعليم علم الكتاب غير تلاوته إذ تلاوته قراءته مرتلا مفهوما، وتعليمه بيان أحكامه، فقد أمر بالصلاة، والنبي ﷺ علمها، وأمر بالحج، والنبي ﷺ علمه، وهكذا، وقيل: إن تعليم الكتاب هو تعليم المؤمنين الكتابة ونقلهم من الأمية إلى العلم، فتعليم العلم في ذاته غاية من غايات الإسلام، ولذا كانت أولى آيات القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ٣ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ [العلق].

وتعليم الحكمة، فسره الشافعي بأنه تعليم السنن العملية، ويصح أن تفسر الحكمة بما هو أعم من ذلك وأشمل، فتشمل العلم بأسرار الكون، وأسرار النفوس، والسلوك القويم الذي يسدّد الخطأ في الدنيا، ويرضى الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي إن حال الناس، وخصوصا العرب، أنهم كانوا من قبل بعث النبي ﷺ في ضلال واضح بين، تنفر منه العقول المستقيمة وتأباه الأذواق السليمة، ألم يكن العرب في عمياء من أمورهم

متنابذين متدابرين يثدون بناتهم؟ وألم تكن فارس في اضطراب ونزاع وانحلال؟ وألم يكن الرومان ومن أخضعوهم في طغيان واضطراب عقائد؟ كل ذلك كان وقت أن بزغ فجر الإسلام، اللهم أتم علينا نعمة الهداية والتوفيق.

أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا
 قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾
 وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ
 يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ
 فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ
 الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

الكلام إلى الآن موصول في غزوة أحد وأعقابها، وفي هذه الآيات يبين سبحانه أنه ما كان يليق بالترددين الذين أصاب اليأس قلوبهم، أن يعجبوا لماذا كانت الهزيمة، وإنه لا يصح أن تأخذهم روح الانهزام إلى هذا الحد؛ لأنهم إذا كانوا قد أصيبوا في هذه الواقعة بقتلى فقد أصيب أعداؤهم بضعف ما أصيبوا، ولأنه لا عجب في أن يهزموا لأنهم خالفوا قائدهم، والله سبحانه وتعالى قدر لهم تلك الهزيمة لكي يعتبروا، ويحسنوا التدبير، ويحسنوا الطاعة، ويحترموا حق القيادة الحكيمة الرشيدة، ولكي يتخذوا من الهزيمة علاجاً للأخطاء التي سببتها وتوقيا في المستقبل لها، ولكي ييث في نفوس أهل الإيمان أن الحرب ليست نصراً

مستمرا، ولكن العاقبة فى النهاية لأهل الحق والعدل والرشاد، وهناك فائدة للهزيمة أنها تبين الصادق الإيمان من المنافق الذى لا يؤمن بشيء، ففى المحنة يتميز الخبيث من الطيب، وإذا كان النصر فى بدر قد فتح باب النفاق، فدخل فى الإسلام من لم يؤمنوا به، وأعلنوا الاعتقاد من يبتغون خلافه، ويخفون ما لا يبدون، فإن الهزيمة فى أحد قد كشفت النفاق والمنافقين، بل إن غزوة أحد من أول أمرها قد كشفت النفاق، فقد أخذ المنافقون يشبطون، حتى همت طائفتان أن تفشلا والله وكِهُمَا، فلما كانت النتيجة أخذوا ييثون الأوهام الفاسدة، ليضععوا عزائم المؤمنين، ويشككوا ضعفاءهم فى اعتمادهم على الله، فغزوة أحد قد كشفت النفاق فى أولها وفى آخرها، وحسبها ذلك فائدة.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ المصيبة أصلها فى اللغة الرمية التى تصيب الهدف، ولا تخطئه، ثم أطلقت على النائية التى تنزل، ولا تكاد تستعمل فى القرآن فى معنى الخير، وأما الفعل «أصاب» فيستعمل فى الخير والشر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ...﴾ [النساء] وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ...﴾ [التوبة] والمثل هو المساوى، والمثلان هما ضعف المساوى، والمعنى: أولمَّا أصابتكم مصيبة قد أنزلتم بالأعداء ضعفها أصابكم الشك والتردد وقلتم أنى هذا؟ وقد أصابوا من المشركين ضعف ما أصاب المشركون منهم، فقد قتلوا منهم مقتلة فى بدر، قتلوا نحو سبعين، وأسروا مثلهم، وقتلوا منهم مقتلة فى أول الحرب فى أحد، والاستفهام هنا إنكارى للتوبيخ، وموضع التوبيخ هو قولهم: «أنى هذا»؛ لأن ذلك يدل على التردد والشك أو تسربه إلى قلوبهم، ومعنى «أنى هذا»: من أين هذا، أى من أين جاءت هذه الهزيمة، وهذا لا يقوله إلا ضعاف الإيمان؛ لأن المؤمنين الصادقين يدركون خطأهم، ويعرفون تقصيرهم، ويغلبون إسناد عيبهم إليهم على إسناد العيب إلى غيرهم، فكأن حل النسق البيانى الرائع هو هكذا: أقلتم من أين هذه الهزيمة لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها، بالمقتلة

العظيمة فيهم في بدر، والمقتلة العظيمة في أول الغزوة في أحد، ويصح أن يقال: إن الذين قالوا من أقوياء الإيمان؛ لأنهم يستعجلون نصر الله تعالى لإعزاز دينه، وَيَخْشَوْنَ أن يكون الله تعالى تخلى عن نصرتهم لعيوب فيهم، وقد أمر الله تعالى أن يجيبهم، ويزيل تعجبهم، فقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

أى أن سبب المصيبة منكم أنتم، وقد أكد أنه منهم بإبراز الضمير في الإجابة^(١)، وبالإتيان بالظرف وهو عند، وبالتعبير بـ «أنفسكم» التي تدل على التوكيد، وكان سبب الهزيمة منهم لأنهم لم ينتظروا في المدينة حتى يجيء إليهم الأعداء ويقضوا عليهم، فالنبي ﷺ خرج من المدينة نزولا على حكم الشورى، وعلى رأيهم، فعليهم أن يتحملوا تبعته، وهم فوق ذلك هموا بأن يفشلوا، ولأنهم عندما رتب النبي ﷺ جيشه ترتيبا حكيما، وأخذ المقاتلون ينفذون الخطة بإحكام، والرماة يحمون ظهورهم، حتى أخذوا يحسبونهم بإذنه، وقتلوا من المشركين مقتلة عظيمة، وفروا أمامهم، ترك الرماة أماكنهم، فكان الاضطراب في جيش الحق، وفوق ذلك فإن الشك قد أصاب القلوب الواهنة، حتى أخذ يضرب بعضهم رقاب بعض، وضعف صوت الهادي الرشيد، وانطلق المنافقون يعلنون قتل النبي ﷺ، فبسبب ذلك كله كانت الهزيمة.

بيد أن هذه الهزيمة كانت إرادة الله سبحانه وتعالى ليمحص المؤمنين، وليبين لهم بالعمل أن طاعة القائد الرشيد سبب النصر، وأن قدرة الله تعالى فوق كل شيء، فهو قادر على كل شيء، كان يستطيع أن ينصركم في هذا المضطرب، وقد فعل فإنه صرف المشركين عن أن يعودوا إلى المدينة وقد أثختكم الجراح وأثقلكم الاضطراب، ولكن الله خوفهم فَرَضُوا من الغنيمة بالإياب، ولذا قال سبحانه مؤكدا قدرته:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا رد على ضعفاء الإيمان الذين يقولون كيف نهزم والله معنا، فبين سبحانه أن قدرته فوق كل شيء، وأنه سبحانه أراد

(١) أي الضمير «هو» في قوله تعالى: ﴿هو من عند أنفسكم﴾.

لكم تلك النتيجة وحماكم من أن تؤثر في مجرى تاريخكم فصرفهم ذلك الصرف، حتى كأنهم المهزومون وأنتم المنصورون، وقد أكد سبحانه قدرته بلفظ «إِنَّ»، وبذكر لفظ الجلالة الذى يربى المهابة من الخلاق العليم فى قلب المؤمن، وبعموم قدرته سبحانه على كل شىء وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، وقد بين سبحانه عموم إرادته وقدرته فقال:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أى إن ما أصابكم يوم التقى الجمعان فى أحد وكلاهما قد أصر على أن يكون الموقف حاسما لمصلحته، قد كان بإذن الله تعالى، أى بإرادته الأزلية، وتقديره الحكيم، وقضائه المحكم، فما كان بغير إرادته: بل كان على مقتضى حكمته، ذلك أن الله سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بتائجها، فمن سلك طريق النصر يتتصر إن خلصت نيته، واستقامت إرادته، وتوكل على الله تعالى، ولا ييغى إلا وجهه سبحانه، وإن طريق النصر أوله انصراف عن المادة لأنها تضعف العزيمة، ثم تنظيم محكم ووضع لكل شخص فى موضعه الذى يحكم القيام به، ثم طاعة وإصرار وعزيمة على امتثال الخطة المثلى، ثم ثبات جنان وتصرف فى الشديدة، ولم تكونوا كذلك فى هذه المعركة الطاحنة التى اختبرتم فيها اختبارا شديدا، وهو سبيل النصر إن انتفعتم به، فقد شابت نفوس بعضكم المادة وهمت طائفتان أن تفشلا فلم تكن النية المحتسبة. وخالفتم القائد الرشيد، وأفسدتم النظام المحكم، وذهب الهلع بنفوس أكثركم إذ اشتدت الشديدة وقوى البلاء.

وهنا بحثان لفظيان: أحدهما: أن الله تعالى عبر فى غزوة أحد عن الموقعة بقوله: ﴿التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ وفى ذلك إشارة إلى قوة التجمع فى الفريقين، وذلك يدل على أن كل فريق مُصر على القتال، مُريد للنصر فيه، فهزيمة بدر جمعت المشركين فى أحد وجعلت لهم عزيمة مريدة ماضية، وإيمان المؤمنين جعل فى أقويائهم رغبة فى النصر أو الاستشهاد.

والثاني: أنه سبحانه وتعالى عبر عن إرادته الأزلية بالإذن؛ لأن الإذن هو الإعلان، وقد علمت تلك الإرادة بهذا الأمر الذي وقع، وقد كانت تلك المصيبة التي نزلت لها فوائد؛ أولها: ضرورة الاستمسك بأسباب النصر، وطلبه بأسبابه، وقد أشرنا إلى ذلك، وثانيها وثالثها: ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.

أى ليعلم الله سبحانه وتعالى وقوع ما قدره فى علمه الأزلى، فيعلم المؤمنين الثابتين الأقوياء الذين لا ييغون مادة، بل ييغون إعلاء كلمة الله تعالى، وجعلها هى العليا، وكلمة الشرك هى السفلى، وليعلم وقوع ما قدره فى علمه الأزلى وهو ظهور المنافقين فى هذه الشدة، ولتقريب المعانى نقول: إن الله تعالى يعلم ما يقع فى المستقبل علما أزليا كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...﴾ (٣٤) [لقمان] فإذا وقع ما قدره علمه سبحانه واقعا، وما يتغير بذلك علم الله تعالى، بل الذى يتغير هو المعلوم من أنه سيقع إلى أنه واقع، وعلم الله واحد.

ويصح أن يقال: إن معنى علم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة وما يشبهها من آيات هو ظهور ما قدره سبحانه وتعالى بحيث يعلمه الناس، وهو من قبل فى علم الله المكنون، ولوحه المحفوظ.

ومرمى النص الكريم أن تلك الشدة التى نزلت تميز بها الصادقون من أهل الإيمان من المنافقين الذين كانوا يبتشون روح الهزيمة فى أوساط المؤمنين كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾ (١٧٩) [آل عمران] لقد دخل المنافقون صفوف المؤمنين بعد غزوة بدر، فكان لا بد أن يُمَيِّزُوا ويُعَرِّفُوا ليتوقى المؤمنون شرهم، ولا يكون ذلك إلا بتجربة تعرك فيها النفوس، وتلك التجربة كانت فى غزوة أحد، فعلم أمر أهل النفاق من بعدها، حتى صاروا يعرفون بسيماهم وأقوالهم وأفعالهم، وقد عبر الله سبحانه

عن المنافقين بقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ لبيان أن النفاق حدث جديد، قد وجد في صفوف المؤمنين، ولم يكن قبل بدر الكبرى، فالقوة في بدر قد أوجدته، والتجربة القاسية في أحد قد كشفتها.

ولقد قال سبحانه وتعالى في مظاهر المنافقين، وأوصافهم، وأحوالهم، وإعراضهم عن الجماعة في الشدة:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾

هذه الجملة السامية فيها بيان حال أولئك المنافقين، وعدم مجاوبتهم نفسيا مع المؤمنين، وقد أشار سبحانه بهذا إلى أنهم كانوا معوقين^(١) في ابتداء القتال، قيل لهم من النبي ﷺ ومن الذين يعاشرونهم ويجاورونهم، ومن أهلهم وعشيرتهم: تعالوا، أى تساموا بأنفسكم وارتفعوا لتقاتلوا في سبيل الله تعالى مجاهدين مبتغيين مرضاته بالدفاع عن الحق، فإن لم تسم نفوسكم إلى حد القتال طلبا لمرضاة الله، فلتقاتلوا دفاعا عن الوطن والعشيرة، فالمعنى: قاتلوا لرضا الله، أو ادفعوا عن أنفسكم عار الذل وعار سيطرة قريش عليكم إن لم تقاتلوا، وقيل إن معنى ادفعوا أن يكثر سواد المسلمين، فيلقى ذلك الرعب في قلوب الأعداء فيعرفوهم بهذا الكثير، وعن سهل بن سعد الساعدي وقد كف بصره قال: لو أمكنني لبعث دارى ولحقت بثغر من ثغور المسلمين، فكنت بينهم وبين عدوهم، قيل: كيف وقد كف بصرك؟ قال: لقوله تعالى: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ وعبر بالمجهول في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ للإشارة إلى كثرة القائلين ف قيل لهم من النبي، ومن الأصحاب، ومن أهلهم وعشيرتهم المؤمنين، ولكنهم امتنعوا لامتلاء قلوبهم بالنفاق. ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

(١) أي مبطلين، قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب].

ظاهر المعنى أنهم يوهمون دعائهم للخروج معهم أنهم لا يعتقدون أن قتالا يقع، وأن الأمر ينتهى بغير قتال، ولكن الزمخشري فسر بغير هذا الظاهر، فقرر أن المعنى أننا لو نعلم أنكم تخرجون لقتال رتبت أسبابه وأخذ فيه بالاحتياط، ولكنه زلل، وإلقاء بالتهلكة، وكان خيرا أن تبقوا بالمدينة، حتى يجىء العدو إليكم، وكأنهم بهذا يرجحون الرأى الأول، وهو البقاء فى المدينة، ولو بقوا فى المدينة لوجدوا السبيل لبث الفتنة بطرق أخرى، فهم لا ييغون إلا الفتنة، وذلك لأنهم خرجوا معهم، ولكنهم قبل أن يصلوا إلى أحد رجعوا فرجع كبيرهم عبد الله بن أبى بن سلول فى ثلاثمائة ممن على شاكلته ليخذلوا المؤمنين.

﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾
تضمن ذلك النص حكما على أعمال المنافقين، وبياناً لحقيقتهم، فأما الحكم فهو أنهم فى هذا اليوم المشهود الجليل الذى ميزهم وعرف بهم - كانوا أقرب إلى الكفر من الإيمان، وأما الوصف فهو أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم مغررين مظهرين الإيمان، وكاتميين الكفر، ويذكرون لبث روح الهزيمة بين المؤمنين أمورا يعرفون كذبها، وينشرون أراجيف يعلمون بطلانها.

والحكم الذى حكم الله به عليهم، وهو أنهم فى هذا اليوم، أقرب للكفر منهم للإيمان، ظهرت بوادره فقد كانوا يتمنون نصر المشركين ويعملون لبث روح الهزيمة فى صفوف المسلمين، فهم بلا شك كانوا أقرب للكافرين منهم للمؤمنين بإرادة نصر الأولين، وهزيمة الآخرين، مع أنهم عشراؤهم وخلطائهم، ومنهم من تربطه ببعض المؤمنين قرابة قريبة فمنهم من كان أبا لبعض المؤمنين أو أخا، ولكن نفاقهم جعلهم ينسون تلك الوشائج من القربى، فكانوا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل. فالمراد بـ «الكفر» أهله، وكما فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) [العلق]، ويصح أن يقال: إن المراد من قربهم إلى الكفر هو بالنسبة لأقوالهم وأفعالهم، فأفعالهم وأقوالهم فى يوم أحد كانت تدل بظواهرها على قربهم إلى الكفر وبعدهم عن الإيمان، وإن كانت لا تدل على كل حقيقتهم؛ وذلك لأن تلك

الحوادث قد كشفتهم، وبيّنت قربهم من الكفر؛ إذ حرصهم على ألا يظهروا بحقيقتهم جعلهم لا يعلنون كل أمرهم، ولكن الجزء الذي ظهر، وإن لم يكن الكل، دل على حقيقة النفاق الذي يسكن قلوبهم، وكان مظهرهم به أقرب إلى الكفر، وأما الوصف الذي وصفهم الله سبحانه وتعالى به وهو أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فتلك طبيعة النفاق دائما فهو ستر للباطن، وإعلان ما يناقضه، وقد أظهروا أنهم يريدون مصلحة المسلمين، وهم يريدون خذلانهم وأظهروا أنهم يقولون الحق عندما كانوا يشبّطون المؤمنين، وهم لا ينطقون بالحق، ولا يريدونه.

ثم ختم الله سبحانه النص الكريم بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أى أنهم يخادعون المؤمنين، ويبدون ما لا يخفون، ويحسبون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فالله سبحانه وتعالى عليم بالسرائر وما يبيتونه للمؤمنين، وقد كشف الله تعالى بعض شئونهم، ليحترس المؤمنون منهم، ولكيلا ينخدعوا بهم، ولكي يتجنبوهم في الشدائد حتى لا يحدث لهم بسببهم محنة، وإن أولئك قد كتموا الرغبة الشديدة في الكيد للنبي وأصحابه، وأنهم كلما ثار حقدهم على النبي ﷺ ازداد كيدهم، وما كان يثير حقدهم إلا نصر يؤيد الله تعالى به نبيه، وقد كتموا موالاتهم لأعداء الإسلام من اليهود وغيرهم، وإن أولئك المنافقين لا يكتفون بتخديلمهم والمعركة قد ابتدأت، بل يظهرون الشماتة بعد أن وقعت، لكي يشبّطوا المؤمنين عما يكون من قتال من بعد، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، فقال:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ في هذا النص قولهم بعد انتهاء الحرب، وقد قالوه ليعثوا الريب في جماهير المؤمنين، وليعلنوا تخلي الله عن نصرتهم، والمعنى: هؤلاء قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم لو أطاعنا المؤمنون ما قتلوا، فقد دعوناهم إلى العودة إلى المدينة والامتناع عن الخروج ولكنهم خالفونا، فانتهوا إلى القتل، فالتقاوا كان بين المنافقين أنفسهم، أو نقول: إن

إخوانهم هم ذوو رحمهم وعشائره من المؤمنين الذين استشهدوا في أحد، والمعنى على هذا أن الذي قالوه لأجل أو في شأن إخوانهم، فاللام للتعليل وبيان الباعث على القول، فهم لا يتألمون لإخوانهم وذوي رحمهم، ولكن يلقون باللوم عليهم.

وخلاصة القول: إنهم فرحون بأنهم لم يقتلوا لأنهم لم يخرجوا، ولا ثمن لمن خرجوا وقتلوا، شامتون فيهم، وهم بهذا يقررون أن موتهم سببه الخروج للقتال، وقد رد الله سبحانه وتعالى ذلك عليهم ببيان أن الموت مكتوب على الإنسان، وتقدر أسبابه، فقد يكون قتال ولا موت، وقد يكون موت من غير قتال، فقال سبحانه: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الفاء هنا هي التي تسمى فاء الإفصاح وهي تفصح عن شرط مقدر، والمعنى: إذا كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بامتناعكم عن الذهاب إلى الميدان وقعودكم في الديار، فادرءوا أي ادفعوا عن أنفسكم الموت المكتوب الذي لا تفرون منه أبداً وهذا كقوله تعالى: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ...﴾ (النساء) والمرمى في هذا النص أنهم يعتقدون أنهم نجوا من الموت بقعودهم، فهل يعتقدون أنهم نجوا منه نهائياً؟ إنه ملاحقهم، ومادام ملاحقهم وهو حقيقة مقررة يثبتها الحس المستمر، فلماذا تفرون من القتال؟ والتعليق في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لإفادة كذب حسهم، وكذب قولهم في زعمهم إن القعود سبب للنجاة، فإن الله سبحانه وتعالى يذكر لهم أنهم إن كانوا صادقين في أن القعود سبب للنجاة فليدفعوا عن أنفسهم الموت؛ لأن الموت لا يدفعه قعود ولا يستعجله خروج، ولتوضيح هذا الذي نقصده نقول: إن كلام هؤلاء المنافقين ككلام الكافرين الذي حكاه الله تعالى آنفاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ...﴾ (آل عمران).

وإن هؤلاء قد زعموا أن القعود دافع للموت مانع من نزوله، فإن كان في إمكانهم بقعود أو نحوه أن يدفعوه فليدفعوه إذا جاء إن كانوا صادقين في هذا الزعم الذي زعموه، والمؤدى أن الموت إذا جاء الأجل ليس له من دفاع، فلا ينجى منه القعود، ولا ينزله الخروج، فَرَعَمَهُمْ بأنهم كانوا ينجون لو لم يخرجوا زعم باطل، وإن كانوا صادقين فليدفعوه إذا نزل .

اللهم اجعل لنا في الموت عبرة، واجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقاك يارب العالمين .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦١﴾ فَرِحِينَ
بِمَاءِ اتَّخَذَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٢﴾
﴿١٦٣﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٤﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٥﴾

ما زالت النصوص الكريمة في ذكر أعقاب غزوة أحد التي كانت أبلى درس إسلامي للغزاة خاصة، وللمؤمنين عامة، وقد كانت المسبار^(١) الذي سبرت به النفوس، وتكشفت به قلوب المؤمنين، وأظهرت قلوب المنافقين، ولقد كانت عباراتهم فيها شماتة بأهل الإيمان، وقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ما ناله أهل الشهادة باستشهادهم، وما هم عليه من روح وريحان، وما يستقبلونه من جنات النعيم، وقد بين في هذه الآيات الكريمة ما أعدّه الله سبحانه للمؤمنين

(١) سبر الجرح: نظر ما غوره، والمسبار ما يسبر به الجرح. الصراح. والمعنى هنا الكشف عن أغوار النفوس.

المجاهدين الذين استجابوا لله ورسوله من بعد ما أصابهم القرع، من أجر لا يضيع، وعمل صالح يرى، وقول طيب هدوا إليه يسمع، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِنُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾.

وفى هذا النص الكريم رد على شماتة المنافقين، وتحريض للمؤمنين، وتقرير لحقيقة إسلامية ثابتة، وهى أن الاستشهاد فى سبيل الله تعالى ليس فناء، بل هو بقاء، وأن الموت ليس إنهاء للحياة، ولكنه امتداد لها بصورة أكمل وأبقى، أو بعبارة أخرى هو انتقال من دور الحياة المادية إلى دور الحياة الروحية حتى تكون القيامة، وتحجزى كل نفس بما كسبت، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

نهى الله سبحانه وتعالى نبيه الأمين عن أن يظن أى ظن بأن الذين قتلوا فى سبيل الله تعالى أموات بل هم أحياء، والتأكيد هنا تأكيد للنهى، أى أن الله تعالى ينهى نبيه نهيا مؤكدا عن أن يظن ذلك الظن، ف «نون التأكيد» ليست لتأكيد الظن المنهى عنه، بل هى لتأكيد النهى، كما يقال: لا تفعلن كذا، فليست النون لتأكيد الفعل، بل هى لتأكيد النهى، ولا شك أن نهى النبى ﷺ نهى لغيره، وغيره أولى بهذا النهى منه وأجدر؛ لأن الناس منهم من ظنوا بالله الظنون، وقد أصابتهم حسرة شديدة، وبعضهم أصابتهم خيبة آمال، ومنهم من كان فى ألم شديد للذين قتلوا منهم، وقد وجه النهى للنبى ﷺ ابتداء ليكون انتهاء النبى ﷺ أسوة حسنة لهم، والنبى أقرب البشر إلى الله سبحانه، فنهيه فيه تأكيد النهى لغيره.

والذين قتلوا فى سبيل الله تعالى هم الذين قتلوا فى سبيل الحق والدعوة إليه، سواء أكان ذلك فى ميدان القتال، أم كان فى ميدان الدعوة إلى الله تعالى وإلى صراط مستقيم، وكل داع لله إذا قتل فى سبيله أو مات فى طلبه فهو قد قتل فى سبيل الله تعالى، ولقد قال النبى ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(١) فمن قتل فى هذه السبيل فقد قتل فى سبيل الله تعالى.

(١) سبق تخريجه.

وقد يقول قائل: كل ميت فهو حي بروحه؛ لأن الله تعالى قد بين في محكم آياته أن الموت ليس فناء، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ (١٨٥) [آل عمران]. وقد بين النبي ﷺ بمخاطبته يوم بدر قتلى المشركين أن أرواحهم تسمع الكلام^(١)، فلماذا إذن اختص الذين قتلوا في سبيل الله تعالى بأنهم أحياء؟.

والجواب أحد أمور ثلاثة:

(أولها) أن هذا النص الكريم رد على شماتة الذين شتموا من اليهود، وتطبيب لقلوب الذين فقدوا أحبهم من المؤمنين، وتشجيع للذين يحملون السيوف على عواتقهم لجعل كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الشرك هي السفلى.

(ثانيها) أن النص الكريم تذكير بحقيقة مقررة ثابتة وهي أن الموت ليس فناء، في وقت قد غامت فيه على النفوس غيمة من الألم المرير، وقد كان أقرب المتوفين ذكرا في هذا الوقت هم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله تعالى.

(ثالثها) أن الله تعالى قد ذكر لأولئك الشهداء حياة ليست كحياة غيرهم، بل هي حياة فيها تكريم واستبشار ورزق كريم، ونعيم وسعادة ورضا بما كان منهم، وأنهم قد نالوا جزاء كريما بمجرد الاستشهاد، وأن هذه الحياة السعيدة لا يصح أن يطلق عليها اسم الموت، وإن كان يصح إطلاقها على غيرهم.

وما هذه الحياة التي ينالونها بعد الاستشهاد وما كيفها؟ وإن كنا لا نشعر بها ولا نراها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤) [البقرة]؟. والجواب عن ذلك أنه قد وردت أحاديث كثيرة في هذا الباب تدل على حياة كريمة لهؤلاء الشهداء، فقد روى مسلم عن مسروق: إنا سألنا عبد الله بن عباس عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: إنا قد سألنا رسول الله ﷺ

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: الإمارة - بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (١٨٨٧)، وقد سبق تخريجه.

فقال: «أرواحهم فى جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم اطلاعه، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أى شئ نشتهى، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم سؤال تركوا»^(١).

وهذا الحديث يدل على حياة كريمة، وهى حياة روحية لا جسدية، وأقصى ما يدل عليه التجسيد هو أنها تكون فى طيور خضر، وأن هذه الآية تشير إلى الجزء الأوفى الذى يستقبلهم فى الحياة الآخرة، وإلى أن الأرواح بعد الموت إما فى شقاء، وإما فى نعيم، وأن حياة أولئك الشهداء الأطهار فى أحسن نعيم، وأكملة، ولذا قال سبحانه: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

فى هذا النص الكريم ما يثبت أن حياتهم فى هذه الفترة التى تكون بين الاستشهاد والحساب والثواب حياة كريمة سعيدة هنيئة؛ لأن فيه التصريح بأنهم عند ربهم الذى خلق الكون وخلقهم، والذى جاهدوا فى سبيله، وقتلوا وقتلوا، وإذا كانوا عنده فهم عند من يكرمهم ومن يجازيهم جزاء عاجلاً، حتى يكون الجزء الأوفى والنعيم المقيم، عندما تتصل أرواحهم الطاهرة بأجسامهم التى يعيدها الله سبحانه وتعالى إليهم فى سعادة وحبور.

والرزق الذى يرزقهم الله تعالى رزق معنوى من سعادة وهناء، وطيب مشوى تشعر به أرواحهم ويرون مقدمات جزائهم، ولا نقول إنه فى هذه الفترة مادى؛ لأن الحياة فى هذه الحال حياة أرواح قد انفصلت عن أجسادها، والرزق حيثئذ يكون معنويًا، وإن هذا معنى تقريبي؛ لأن كل الأحاديث النبوية الواردة فى هذه الفترة تشير إلى أن الحياة روحية، ومن ذلك قوله ﷺ فيما رواه الإمام مالك

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: الإمامة - بيان أرواح الشهداء فى الجنة (١٨٨٧)، وقد سبق تخريجه.

رضى الله عنه: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم مبعثه»^(١).

ولقد قال النبي ﷺ مخاطباً صحابته من أهل بدر وأحد: «لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوى إلى فناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا ينكلوا في الحرب»^(٢).

وإن هذا الحديث وإن ذكر طعاماً مادياً يتناوله الطير الخضر التي حلت فيها الأرواح هو يدل على أن الحياة روحية، إذ الأرواح ليست في أجسادها.

وقد بين الله سبحانه وتعالى حالهم فقال سبحانه: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أى أنهم في هذه الحياة التي يحيونها يشعرون بسعادة عظيمة؛ لأنهم يرون ثمرات أعمالهم من الجهاد في سبيل الله، ويشعرون برضا الله سبحانه وتعالى، وأنهم في تكريم، وقد آتاهم الله تعالى نعمة الطاعة ونعمة الجهاد، وأشعرهم بالسعادة المطلقة في حياتهم الروحية، ورحابه الكريم. وأن الملائكة أولئك الأرواح الطاهرة تحفهم بالتكريم والترحيب، ويروى في ذلك البخاري أن جابراً قال: لما قتل أبي جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى، والنبي ﷺ يقول: «لا تبك، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»^(٣) فأرواح الشهداء في تكريم من الملائكة الأطهار، والله

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ: الجنائز - حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٥٠٤).

(٢) رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد: مسند بني هاشم (٢٢٦٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما رواه أبو داود بنحوه: الجهاد - فضل الشهادة (٢١٥٨).

(٣) رواه البخاري: الجنائز - الدخول إلى الميت (١١٦٧)، ومسلم: فضائل الصحابة - فضائل عبد الله بن عمرو ابن حرام (٢٤٧١).

سبحانه وتعالى يتغمدها برضاه وتقريبها حتى إن النبي ﷺ ليذكر أن الله تعالى يخاطبها كفاحاً، أى مواجهة، وأى تكريم أعلى من ذلك وأسمى؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإن أرواح الشهداء الأبرار لترضى بجهد الذين أعقبوهم فى الميدان فلم يخلوه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الاستبشار: طلب البشرى، والبشرى هى الأمر الذى يدخل السرور فى النفس، لأمر كان يتوقع منه مرهوباً أو محبوباً فتجىء البشرى بالمحبوب دون المرهوب، وفى بيان استبشار أولئك الشهداء الأبرار تخريجان: أحدهما- أن يكون المراد طلبهم البشرى بأن الذين لم يلحقوا بهم فى الاستشهاد وخلفوهم فى الميدان، لا خوف عليهم من أن يستمكن العدو منهم ولا يتصر عليهم، ولا هم فى حزن أو غم بسبب أنهم لم ينالوا ما يرغبون من نصرة كلمة الحق، ورفع كلمة الدين، فهم على اطلاع بما يجرى للمؤمنين، ويريدون أن تحيى إليهم البشرى بالانتصار الباهر، والفوز الظاهر الذى يذهب معه الخوف ويكون بدله الأمن، ولا يكون حزن من هزيمة، أو غم من قرح يصيبهم وتكون كلمة يستبشرون معناها يطلبون البشرى.

التخريج الثانى: أن يكون معنى الاستبشار طلب البشرى ونيلها، فالاستجابة معناها طلب الإجابة ونيلها، والمعنى أنهم فى سرور وجور مما آتاهم الله تعالى من فضله، ولأنهم جاءتهم البشرى بأن الذين لم يلحقوا بهم فى الاستشهاد لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بل يقبلون على الجهاد طالبيين الاستشهاد من غير خوف، ولا رهبة، ولا حزن، بل تلقياً لأسباب المنون بإيمان قوى؛ لأنها إما الشهادة فى عزة وكرامة، وإما الانتصار وإعلاء كلمة الله تعالى.

ولقد بين سبحانه وتعالى استبشارهم بحسن الجزاء فقال سبحانه: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه الجملة بيان للاستبشار السابق، والتخريج فى معنى كلمة الاستبشار الذى ذكرناه فى النص السابق يجرى فيها.

والمعنى أن هؤلاء الشهداء يطلبون البشرى بنعمة من الله تعالى، وهى نعمة جزيلة كريمة فاضلة لأنها صادرة عن مانح النعم لهذا الوجود كله ومسديها لكل حى، والنعمة هنا هى نعمة الانتصار، والفضل هو ما يسبغه الله تعالى على أهل الحق من عزة، وطلب له شاعرين بأن الموت فى سبيل الله هو عين البقاء، والحياة فى باطل هى عين الفناء، فالاستبشار من هؤلاء الأبطال استبشار بالعزة لدينهم وللحق الذى افتدوه بأجسامهم وخفقت من بعد ذلك أرواحهم، فهم يستبشرون بنعمة النصر وفضل العزة للذين جاءوا من بعدهم، فنعمتهم هم وفضل الله عليهم فى نصره الإسلام بعدهم، وكون الله تعالى لا يضيع أجر المؤمنين، بأن يعطيهم النصر والعزة والكرامة جزاء جهادهم، وليس الاستبشار هنا بما ينالونه هم، بل بما ينال الإسلام والمؤمنين من بعدهم، والدليل على ذلك أن الاستبشار هنا بيان للاستبشار الذى سبقه، والاستبشار الذى سبقه كان لأن الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأيضاً فإن المؤمنين الذين لا يضيع جزاؤهم فى الدنيا بالنصر، ولا فى الآخرة بالنعيم المقيم، بينوا بأنهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

أصل استجابوا: طلبوا الإجابة، والمعنى هنا أنهم عاجلوا أنفسهم وطلبوا إجابة داعى الله إلى النصر، فأجابوا، فالاستجابة لأن السين والتاء للطلب تدل على أنهم راضوا أنفسهم على إجابة الله تعالى، ونالوا ذلك الشرف العظيم؛ إذ أجابوا داعى الله ورسوله من بعد ما أصابهم ذلك الجرح ولم ينهه من قوتهم، بل استرسلوا فى قوة وصبر وعزيمة، واستثارهم الجرح ولم يضعفهم، وأنهم أجابوا الداعى فور الواقعة، فإنه يروى فى ذلك أنه لما رجع المشركون قالوا: (لا محمداً

قتلتم، ولا الكواعب أردفتم^(١)، بثما صنعتهم، ارجعوا). فسمع رسول الله بذلك فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد، ولكن خذل الله المشركين، وقوى المؤمنين، فرجع المشركون من حيث جاءوا، ويروى أن النبي ﷺ عندما ندب المؤمنين أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو، وأذن مؤذنه «ألا يخرجن معنا إلا من حضر أحدا^(٢)»، فخرجوا فهؤلاء هم الذين استجابوا لله والرسول، لأنه لم تأخذ الهزيمة من نفوسهم، وإن أصيبوا بكلوم في أجسامهم، وقد قال سبحانه وتعالى في جزائهم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ اختص سبحانه وتعالى من أولئك الذين جاهدوا ولم يستشهدوا بعد بأن لهم أجرا عظيما، وهنا يلاحظ ثلاثة أمور:

(أولها) أن الله لم يذكر الأجر لهم جميعا، لأنهم كانوا أحياء، والحي قد يغير ويبدل، فكان لابد من التقييد بالإحسان والتقوى، أى يستمر على ما هو عليه.

(وثانيها) أن الإحسان هنا غير التقوى؛ إذ الإحسان هو إجابة الخطة، واتباع المنهج المستقيم في القتال، وذلك لابد منه في الانتصار، والطاعة المطلقة للقائد من إحكام الخطة.

(ثالثها) أن التقوى - وهى وقاية النفس من الغرض والهوى والاتجاه إلى الله بإخلاص وقلب سليم خال من الشوائب - أساس الأجر العظيم، والله سبحانه وتعالى بكل شىء عليم.

(١) أخرجه النسائي: السنن الكبرى ج٦، ص٢٧٦ (١٠٩٧٩). وفي مجمع الزوائد: ج٦، ص١٧٦ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز، وهو ثقة. وذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (باب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾.

(٢) السيوطي: الدر المنثور ج٢ ص١٠٢، وعزاه لابن جرير عن عكرمة.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
 فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
 فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سَوَاءٌ وَأَتَّبَعُوا
 رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
 يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنَّا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
 وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ
 شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

الكلام متصل بالكلام فى أعقاب أحد، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابتهم الجراح، ولم تمنعهم هذه الجراح من أن يجيبوا داعى الله، ويستعدوا، ويتقدموا؛ ويتغلبوا على روح التردد والهزيمة التى كان ييئسها المنافقون، وترشح لها الجراح، وإن أبا سفيان قد هم أن يرجع إلى المدينة، فخرجوا للقاءه، ولكن ثبطه الله، فعادوا، ولقد كان أولئك الذين استجابوا لداعى الجهاد، وهم فى تلك الحال، لهم موقف آخر جليل ذو شأن فى الجهاد، وأثر فى الإسلام، ولقد ذكر الله ذلك الموقف بقوله تعالت كلماته: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ الموصول فيها بدل من الموصول فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ استجابوا لله والرسول﴾ فهم طائفة واحدة لم تعدد، ولكن تعدد عملهم، فهم فى الأول لم تثقلهم الجراح عن أن يجيبوا الرسول ﷺ، وهم فى الثانى لم ترهبهم أقوال الناس .. المتضافرة عن أن يتقدموا للقتال، وقد

تكاثرت أسباب الرهبة، وأخبار الاستعداد، فهذا موقف آخر، وإن كان الذين نالوا الفضلين طائفة واحدة، وذلك الموقف هو أن أبا سفيان ومن معه لما رجعوا لا يلوون على شيء، قال للنبي ﷺ: موعدكم بدر القابل فقبل النبي ذلك التهديد، وكان ذلك في شوال من السنة الثالثة، وكان تجار قريش يقدمون إلى بدر في ذي القعدة، ويسمون ذلك بدرا الصغرى، فاستعد النبي ﷺ للقائهم بعد نحو شهر من أحد، وخرج أبو سفيان في أهل مكة ولكن ألقى الله الرعب في قلوبهم، فبدا له أن يرجع، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمرا، فقال: يا نعيم إني أوعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر، وإن هذا عام جذب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جرأة فالحق بالمدينة فنبطهم ولك عندي عشرة من الإبل، ويروى أن الذين دسهم أبو سفيان ليبتثوا الهزيمة في قلوبهم هم ركب عبد القيس، ويظهر أنه تكرر ذلك الدس من أبي سفيان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ أى تضافرت الأخبار من هؤلاء الناس الذين اندفعوا يثبطون، ويقولون إن الناس - أى مشركى مكة - قد جمعوا لكم، وكانوا يقولون فى أخبارهم المشبوبة الملقية بالرعب لمن لا يعتمد على الله تعالى وقد وجدوا المؤمنين يتجهزون للمعركة: (ما هذا برأى، أتوكم فى دياركم وقراركم، فلم يفلت منكم أحد إلا شريدا، أفتريدون أن تخرجوا، وقد جمعوا لكم عند الموسم؟ فو الله لا يفلت منكم أحد) فقال ﷺ: «والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد»^(١) فخرج فى سبعين راكبا، وقيل ألف راكب.

وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ قد حذف فيه المفعول، فلم يقل جمعوا جيشا، وذلك ليذهب الخيال كل مذهب فى مقدار ما جمعوا من

(١) رواه ابن جرير الطبري فى التفسير بلفظ: وإن رسول الله نذب الناس لينطلقوا معه، ويتبعوا ما كانوا متبعين، وقال: «إِنَّمَا يَرْتَحِلُونَ الْآنَ فَيَأْتُونَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى مِثْلِهَا حَتَّىٰ عَامَ مُقَبِّلٍ» فجاء الشيطان فخوف أوليائه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم. فأبى عليه الناس يتبعوه، فقال: «إِنِّي ذَاهِبٌ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْنِي أَحَدٌ لَأُحْضِضَ النَّاسَ».

أسلحة، ومقدار من جمعوا من الرجال وأموالهم، فيكون ذلك أشد تخويفا، ولكن لم يثبط ذلك من عزيمة المسلمين وإرادتهم القتال، وقد حكى سبحانه حال المؤمنين بقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

أولئك المشيطون الدساسون قالوا ما قالوا، وقالوا: اخشوهم، أى قَدَّرُوا أنهم سينزلون بكم الأذى الشديد والقتل الذريع إن خرجتم، فهو إفزاع عن المستقبل، والفرق بين الخوف والخشية أن الخوف يكون من أمر حاضر، والخشية من أمر متوقع، وهى إن كانت فى الحاضر تكون خشية من قوى لما يكون منه فى القابل.

وكان أثر ذلك الدس المرهب أمرين:

أحدهما: زيادة الإيمان، والثانى التفويض إلى الله تعالى.

فأما زيادة الإيمان هنا فمعناها قوة اليقين وعدم تضعُّع الثقة فى الله تعالى.

والأمر الثانى الذى كان أثرا لذلك الكلام المدسوس المشيط أنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ومعنى حسبنا أى كافينا، أى إذا كانوا هم يستنصرون بقواتهم يحشدونها، وعددهم يستكثرون به، ويعدون ذلك كفايتهم، فنحن كفايتنا من الله تعالى، وقد وعدنا بالنصر، وهو نعم النصير المعاون، فالوكيل هنا معناه النصير الكفيل المعاون، والوكيل الذى يستعان به فى الدنيا إنما يكون لفضل قوته أو خبرته أو حكمته، فكيف يكون والمستعان هو الله سبحانه وتعالى، وهو نعم المولى ونعم النصير، فالوكيل هنا هو القادر الذى توكل إليه الأمور.

ويتكلم العلماء حول قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ فيقولون هل الإيمان يزيد وينقص؟ لقد قال بعض العلماء إنه لا يزيد ولا ينقص لأنه اعتقاد وإذعان، وتلك حقيقة ثابتة إما أن توجد كاملة وإما ألا توجد، ويكون معنى الزيادة على هذا رأى ليست زيادة أصل الإيمان، إنما زيادة الثقة بنصر الله تعالى وعونه، وذلك من ثمرات الإيمان، لا من أصله، وهو شعبة منه، وليس جوهره.

وقال آخرون وهم الأكثرون: إن الإيمان يزيد وينقص، وقد قال الزمخشري في تصوير ذلك الرأي من هذه الآية: لما أخلصوا النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأن خروجهم على أثر التشبيط - إلى العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل، فيقول: قم بنا نزدد إيماناً، وعنه: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح».

ولقد قالوا: إن قوة الإيمان بإشراقه في القلب، وشدة ذلك الإشراق، وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. عن النبي ﷺ: «إن الإيمان ليبذو لَمْطَةً بيضاء في القلب، وكلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة»^(١). أى كثر الصفاء وأشرق البياض، وكان العمل الصالح.

والإيمان هو اليقين الجازم القاطع واليقين وهو من حيث أثره في النفس ثلاث مراتب:

أولها: علم اليقين، وهي أن تتوافر الأدلة والاطمئنان حتى يكون اليقين الجازم القاطع الذي لا يكون معه شك ولا ريب، ولا إنكار أو جحود، بل تسليم وإذعان من غير ممارسة.

وثانيها: عين اليقين، وهو أن تكون أعماله كلها وفق ذلك الاعتقاد الجازم، فيكون اليقين قد رؤى عياناً في الجوارح والأعمال.

والثالثة، وهي المرتبة العليا: حقيقة اليقين، وهي أن يصل إلى درجة تشبه المشاهدة أو تكون من جنسها وهي التي قال فيها النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢) وهذه مرتبة المشاهدة ولقد وصل إليها الأبرار من أصحاب النبي ﷺ مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولقد قال علي كرم الله

(١) ذكره القرطبي في التفسير: آل عمران (١٧٣)، وأحسبه موقوفاً على علي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وجهه: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا) لأنه رضى الله عنه وصل إلى مرتبة المشاهدة. وفي الجملة فإننا نرى أن الإيمان يزيد وينقص والله سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بعد أن خرج أولئك الأبرار الأطهار، وقد استعدوا إلى اللقاء عادوا من بدر إذ لم يجدوا^(١)، فمعنى انقلبوا عادوا. والانقلاب في العودة تصوير للحال الحسية عند العودة؛ لأنهم بعد أن كانوا مستقبلين بدرا استدبروها وبعد أن استدبروا استقبلوها، وهذا التعبير يدل على أنهم عادوا كما خرجوا لم يقتلوا ولم يقاتلوا، ولكن صحبهم في هذه العودة أمور أربعة: أولها- نعمة الله عليه إذ خذل أعداءهم وثبطهم وألقى الرعب في قلوبهم وأحسوا بأنهم وحدهم لا قبل لهم بمحمد ﷺ والذين آمنوا معه، ولذلك لما عادوا إلى القتال ومحاولة ضرب المدينة ضربة قاصمة جمعوا العرب بشتى قبائلهم في غزوة الأحزاب في العام الثاني، وثانيها- الفضل من الله، وقد فسر كثيرون الفضل بأنه فضل مالي؛ لأن المسلمين لما لم يجدوا قتالا التجبروا في بدر، ويروى أن عيرا كبيرة مرت ببدر في هذا الموسم من سوقها فاشترها النبي ﷺ فربح مالا، وقسمه بين أصحابه وذلك الربح هو الفضل، وقد روى البيهقي ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما^(٢) ولا مانع من أن نعتبر ذلك الفضل معنويا، وهو فضل الجهاد والنية المحتسبة وقد باعوا أنفسهم لله تعالى، ولعل الأولى أن نقول: إن الفضل يشمل النوعين الربح المالى، والشرف المعنوى، وكلاهما قد نالوه.

وثالث الأمور- أنهم عادوا سالمين، وهذا معنى: ﴿لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾ أى لم تنزل بهم جراح، بل إنه حتى الأمر الذى يسوءهم لم يمسسهم بل قد عادوا

(١) أي لم يجدوا قتالا.

(٢) رواه البيهقي عن ابن عباس - في قول الله ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل: أن عيرا مرت في أيام الموسم فاشترها رسول الله ﷺ فربح فيها مالا فقسمه بين أصحابه.

فرحين مستبشرين، ورابع الأمور- أنهم اتبعوا رضوان الله، أى اتبعوا أمر الله تعالى، وساروا فى الطريق الذى يكون فيه رضوانه تبارك وتعالى، ورضوان الله أعظم ما يناله المؤمن، وحسبه أن يكون فى عمل فيه رضوان الله الذى هو أكبر النعم لينال حظى الدنيا والآخرة، وإن هذه النعم التى نالوها هى من فضل الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بذلك النص السامى وهى تصف المولى العلى الكريم بأنه صاحب فضل عظيم لا تكتنه حقيقته، ولا يحده الحصر، وقد بدا فيما أسبغه الله تعالى من نعم على الناس أجمعين، وما أنقذه عباده المؤمنين من شر الكافرين، وما وفقهم له من طلب رضوانه وما نصرهم به من نصر مؤزر، والتذكير فى الفضل ووصفه لإفادة كثرة وقوة أثره.

ومن أفضّل نعم الله أنه ثبت قلوب المؤمنين، فلم يفرعوا عندما دست الأخبار لإفراغهم وترويعهم، فلم يروعوا لأن الله حاميمهم وهم اعتمدوا عليه وهو وليهم؛ والترويع من الأوهام إنما يكون لأولياء الشيطان، ولذلك قال سبحانه موازنا بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشيطان:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ﴾ الخطاب فى الآية للمؤمنين الأقوياء أى إن الإرهاب والإفراع يكون من أولياء الشيطان^(١)، وهو يخوف أوليائه ونصراءه بهذا التخويف وذلك الإفراع، لأن أولئك لا يهتمهم إلا الحياة الدنيا، ودائرة سلطان الشيطان فى أن يحملهم على ألا يؤمنوا بالحياة الأخرى، ومادامت الدنيا همهم اللازم، فإنه لا يهتمهم إلا الفوز الحاضر، ومن هنا يجد الشيطان موضع ثقته ووسوسته، فأولياء الشيطان إذا كانوا قد خوّفوا المؤمنين بالكثرة والعدد والهزيمة القريبة، فذلك هو منطقهم ومنطق الشيطان، أما المؤمنون فهم أولياء الله ولا يعتمدون إلا عليه، ولهم إحدى الحسينين إما النصر العاجل

(١) قال القرطبي: «قال ابن عباس وغيره: المعنى يخوفكم أوليائه؛ أي بأوليائه.

ومعه الجزاء، وإما الاستشهاد والثواب المقيم، ورضوان الله أكبر، وهو ثابت في الحالين، ولذلك لا يفزعهم مثل هذا التهديد الذي حملته رسل أبي سفيان، ويكون المعنى على هذا، إن تخويف الشيطان المبني على الإفزع والإرهاب إنما يكون أثره في أوليائه من الكافرين والمنافقين، ولا يمكن أن يكون له أثر في قلوب المؤمنين، والإشارة في قولها تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ هي للعمل الذي قام به أولئك الذين دسوا القول المفزع المنيب في النبي ﷺ والذين آمنوا معه، وجعل المسند إليه من قبيل ذكر السبب وإرادة المسبب، فالمعنى: إنما ذلكم القول المدسوس هو الشيطان أى عمله وتدييره، ولا يمكن أن يكون إلا في أوليائه، والله ولى الذين آمنوا، والشيطان على هذا هو إبليس اللعين الذى أضلهم ويخوفهم، هم ومن هم على شاكلتهم من المنافقين.

ولقد أكد الله سبحانه ولايته لهم، ونصرته لهم فقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى فلا تخافوا تهديدهم الذى هو تديير الشيطان، فإنه إذا كنتم أولياء الله، ولا يهتمكم إلا رضاه، ولستم أولياء الشيطان، ولا أثر له في قلوبكم، فلا يصح لكم أن تخافوا أولياء الشيطان، ولا تدييره، والله معكم، ولذلك لا تخافوا سواء ما دام الإيمان شأنكم ووصفكم، فضعوا في نفوسكم ولاية الله ونصرته وتقواه، وضعوا أيضا في نفوسكم خشية عقابه ورجاء رضاه، فإن فعلتم خفتم الله وأرضيتموه، واتبعتم طريق السداد، وكنتم في أمن من الشيطان وأوليائه.

والخوف أمر نفسى لا قدرة للإنسان على منعه، فكيف يكون النهى عنه؟ والجواب عن ذلك أن النهى عن الخوف نهى عن أسبابه، ودعوة إلى رياضة النفس على الصبر؛ وذلك لأن سبب الخوف والجبن حب الدنيا وكرهية الموت، وعدم عمران القلب بذكر الله وعدم الإحساس بولاية الله تعالى، وضعف الثقة بالنفس وبالله، فالله سبحانه وتعالى إذ نهى المؤمنين عن الخوف من الشيطان فمعناه النهى عن أسباب الخوف والأخذ في أسباب القوة، بالتقوى وذكر الله تعالى، والاتكال

عليه تعالى بعد الأخذ في الأسباب، والإيمان بأن الله تعالى ناصر دينه، وناصر من استمسك به وأخذ بعروته ولم يتركها قط.

والمقابلة بين النهي عن الخوف من أولياء الشيطان، والأمر بالخوف منه سبحانه، فيها بيان علاج النفس إذا ضعفت وخافت من الشيطان وأوليائه، فذفع الخوف من أولياء الشيطان يكون بالخوف من الله تعالى، فمن خاف الله تعالى حق الخوف منه لا يخاف أحدا من العباد إذا عاندوا وحادوا الله ودينه، لا يخاف أهل الضلال من يخاف الله سبحانه وتعالى (١).

ولقد كان المشركون بعنادهم المستمر ومقاتلتهم النبي ﷺ وأصحابه بعد فتنتهم يوغلون في الكفر، والنبي ﷺ تذهب نفسه عليهم حسرات، فهو لا يخاف منهم، ولكن يشفق، ويتمنى أن يجيئوه مؤمنين، بدل أن يأخذهم مقتولين، ولقد نهاه سبحانه عن الحزن عليهم فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنُيَضِّرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾:

والمعنى لا يحزنك ولا تكن في نفسك حسرة على الذين يسارعون في الكفر أى يوغلون فيه ويتقلون من درجة إلى درجة فينتقلون من الضلال والجحود إلى التضليل ومن التضليل إلى الفتنة ثم القتال، ثم التدبير الخبيث والمكر السيئ، ولقد فسر الزمخشري كلمة ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بمعنى الوقوع فيه سريعا من غير تريث وتدبر وتفكير، والأول عندى أوضح؛ لأن الكلام ليس في الذين وقعوا فيه من جديد، وإنما هو في الذين مردوا عليه وأوغلوا فيه واستمروا عليه، والنهي عن الحزن نهى عن الاسترسال فيه، ونهى عن أسبابه، وهو الظن بغلبة الضلال على اليقين والكفر والإيمان، ولقد طمأن الله تعالى نبيه تأكيداً للنهي، ونفيا لمبرراته، فقال سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ لَنُيَضِّرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى إنهم مهما يتمادى شرهم وطغيانهم وفتنتهم الناس عن دينهم، فلن يضرروا الله شيئا من الضرر ولو صغيرا. فلن ينقص كفرهم

(١) أي فهما ضدان، والضدان لا يجتمعان.

من سلطان الله، ولن يزيد إيمانكم من سلطان الله تعالى، فالله غالب قاهر فوق عباده، فعظمة الله لا يُنقصها كفر، وقد رُكِي سبحانه النهى عن الحزن بأمر آخر وهو بيان أن الله أراد لهؤلاء ما هم عليه، وإن كان باختيارهم، ولذا قال سبحانه:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى أنه لا يصح أن تحزن لمسارعتهم فى الكفر وانحدارهم فى مهاويه؛ لأن الله سبحانه هو الذى لم يجعل لهم حظا فى الآخرة، فما عصوا الله تعالى غالبين لإرادته، بل عصوا بإرادتهم وإرادته سبحانه، وإن كان لا يرضى لعباده الكفر، وفرق ما بين الرضا والإرادة، فالله سبحانه وتعالى لم يرد أن يجعل لهم حظا فى الآخرة، ولكنه لا يحب الكفر ولا يرضاه.

فالمعنى أن كفرهم ليس مراغمة لله - سبحانه - حتى تحزن وإنما هو بإرادته لأنه أراد ألا يكون لهم حظ من الخير فى الآخرة ولهم بدل الحظ من الخير عذاب عظيم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، لتهديدهم بما يستقبلهم فوق الحزى العظيم فى الدنيا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزِيدُوا إِثْمًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا

أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ

عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

النص الكريم فى بيان معاملة الله تعالى للذين تركوا الحق، ويتبعون الضلال، ويُحَادُّونَ الله ورسوله سرا وإعلانا، وقد بين سبحانه فى الآية أنه لا يصح أن تكون مسارعة الكفار فى الكفر وتنقلهم من حال إلى حال فيه سببا فى حزنك، وإلقاء الغم فى قلبك، لأنهم لا يضررون إلا أنفسهم ولن يضررك شيئا ما دام الله سبحانه معك، ولن يتخلى عنك، وفى هذه الآيات يبين معاملة الله تعالى لهؤلاء الكافرين، واختباره سبحانه للمؤمنين، وأنه سبحانه وتعالى قد قدر كل ذلك فى علمه المكنون الذى لا يطلع عليه أحد، وقد قال سبحانه فى أوصاف الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذه الآية تبين حال الذين عاندوا الرسول، ولم يخلصوا فى طلب الحق، وهؤلاء أقبلوا على الكفر راغبين فيه طالبين له، حتى إنهم ليجعلون الإيمان الذى أودعه الله تعالى النفوس فى تكوينها، وجعله موضع النور فى كيانها - ثمنا يقدم فى نظير الكفر الذى يأخذونه، وفى هذا دلالة على أمرين:

أولهما: أن الكافرين طمس على قلوبهم فاستبدلوا بفطرة الإيمان التى فطر الله الناس عليها كفرا قامت الدلائل على بطلانه فكان هذا دليلا على تمكن الضلال، وكل ما يقع منهم بعد ذلك من شر يجب أن يكون متوقعا، فيهون أمره، ويضعف فى النفس أثره.

ثانيهما: أن الإيمان فى ملك كل إنسان، وهو الأصل الذى يجب أن يهتدى إليه عندما تلوح ظواهره وبيئاته فإن الله تعالى قد ألهم كل نفس فجورها وتقواها، والبيئات الشاهدة الواضحة المؤيدة الهادية تجعل الإيمان فى قبضة يد طالب الحق، فإذا فتح قلبه للكفر، فقد باع أغلى شيء فى الوجود، وهو الإيمان، بأحق شيء فى الوجود وهو الكفر، والكلام بعد ذلك فيه استعارة تمثيلية، وهى تصوير الكافر الذى يترك بينات الله وآياته، وإنها لكثيرة، ويختار الضلال مع قيام الأدلة على بطلانه، بمن يكون فى يده أجود بضاعة، ويبيعها بأرخص الأثمان، بل بشيء لا

يفيد قط، وفيه إشارة إلى أن الكافرين يعلمون أن ما هم عليه هو الباطل، ولكنه العناد والطغيان، وقد ذكر ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾ (١٤) [النمل].

وقد بين سبحانه أن هؤلاء الذين اتجروا بإيمانهم وجعلوه سلعة تباع - مغبة فعلهم عليهم وحدهم دون سائر الناس، ولن يضرؤا المؤمنين إلا أذى والعاقبة للمتقين، ولذا قال سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى ليس فى طولهم ولا فى طاقتهم أن يضرؤا دين الله تعالى ولا رسول الله ﷺ، ولا المؤمنين بالله تعالى شيئاً من الضرر الذى تكون عاقبته انتصارهم إلى النهاية، فإن الله تعالى ناصر دينه خاذل أعداء الحق، فإضافة إرادة الضرر إلى الله تعالى على حذف مضاف، أى وتقديره دين الله أو رسوله أو المؤمنين بالله، وفى حذف المضاف إشارة إلى أن ما يفعله المشركون ويوجهونه إلى المؤمنين إنما يوجهونه إلى الله تعالى رب العالمين، وذلك إعلاء للدين وللرسول وللمؤمنين.

وإذا كان أولئك لا يضرؤن الله فهم لا يضرؤن إلا أنفسهم، وبين سبحانه الضرر الذى يلحقهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى عذاب مؤلم شديد الإيلام لهم فى الدنيا وفى الآخرة، فالآلمهم فى الدنيا هزائم تتلوها هزائم، وخزى وسقوط لهم عن علياء طاغوتهم إلى الدرك الأسفل، وفعل هنا بمعنى فاعل، ك﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (١٧) [البقرة] بمعنى مبدع.

ولقد يسأل سائل: لماذا يتمتع هؤلاء بالسلطان، ولماذا يتصرفون أحيانا؟ فبين سبحانه أن ذلك إملاء لهم، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ﴾.

قد يرد على الخاطر: إذا كان أمر الله هو الغالب فلم يترك هؤلاء فى هذا النعيم؟ فقال سبحانه ذلك النص الكريم.

الإملاء: الإمهال والتخلى بين العامل والعمل ليلغ مداه، من قولهم: أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء، ويطلق الإملاء على طول العمر، وهو من أملى بمعنى أعطاه ملاوة أو مهلة من الزمان. جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: «الإملاء: الإمداد، ومنه قيل للمدة الطويلة ملاوة من الدهر، وملى من الدهر».

وهنا في النص الكريم قراءتان إحداهما بالياء أي: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ﴾ ويكون النهي عن الظن متجها للذين كفروا، والمعنى على هذا لا يجلب بخواطر أولئك الكافرين أن إملاءنا لهم بإعطائهم نعيما في الدنيا، وإرخاء العنان لهم، وتمتعهم وعدم القضاء عليهم دفعة واحدة - فيه خير لهم، ويكون مفعولا يحسب قد سد مسدهما «أن» المصدرية و«ما» بعدها فإن ذلك كثير في القرآن وكثير من كلام العرب، كقولك عن شخص: لا يحسب أنه عالم.

وعلى القراءة الثانية^(١)، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ يكون الخطاب بالنهي متجها إلى النبي ﷺ، ويكون المفعول الأول هو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، و﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ بدل من الذين كفروا، وسد مسد المفعول الثاني، ويصح أن يكون هو المفعول الثاني، ويكون المعنى على هذا: لا تظن يا محمد ولا يظن أحد من أمتك الذين كفروا قد أملى لهم لخير يأتيهم، ويكون توجيه الظن إلى الذين كفروا له فائدة؛ لأن الظن قد سبق إلى المؤمنين من أشخاصهم، وما أوتوا من مال وقوة وعزة نفر، وبقاءهم على هذا أمدا طويلا.

وقد صرح سبحانه من بعد ذلك بنتيجة الإملاء فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

(١) أي: (ولا تحسبن) قراها بالتاء خطايا: حمزة، وقرأ الباقون بالياء فيها، وكذلك في الآية (١٨٠) التي بعدها من نفس السورة. غاية الاختصار ج ٢ ص ٤٥٦.

والمعنى أننا لا نملئ للذين كفروا إلا لنتيجة واحدة مقررة ثابتة، وهى أن يزدادوا إثماً، وينالهم عذاب مهين مذل لهم فى الدنيا والآخرة، فإنهم إن كانوا قد نالوا فى هذا الإملاء نعيماً وعزاً، فإنهم بعد ذلك سينالهم العذاب الأليم المهين الذى لا يكون لهم قبل بدفعه.

و«اللام» هنا لبيان العاقبة لا للتعليل والغاية وذلك كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾ [القصص]، وذلك بيان للنتيجة؛ لأن نتيجة الالتقاط كانت كذلك، وإن كان الباعث فى الحقيقة هو أن يتخذوه لهم ولياً وموضع سرور، وبهذا تكون الآية مبينة لغاية عملهم، وأن النتيجة شر لهم لا محالة.

وقد يقول قائل: إن من الكافرين من تكون زيادة الإملاء له سبباً فى زيادة خير يقوم به وإن كان كافراً، وإن من هؤلاء الكافرين من يؤمن ويحسن إيمانه، فكان حقا أن الإملاء أنتج خيراً إذ مكنهم من الإيمان.

ونقول فى الإجابة عن الأول إن زيادة الإثم، لا تمنع وجود فعل خير، وهم يزداد إثمهم باستمرارهم على الكفر ومشاقة الله ورسوله على أن ما يفعلون من خير يحبطه جحودهم وإنكارهم ومعاندتهم لله سبحانه إذ تنقصهم عند فعل الخير النية الطيبة.

وعن الثانى نقول: إن زيادة الإثم مشروطة باستمرارهم على الكفر؛ لأن الإملاء ينقطع بإيمانهم، وإن الإملاء إنما هو لأجل مشاقة الله ورسوله وإعلان الكفر ومحادة الحق، وبإيمانهم تنتهى هذه المشاقة فيزول سبب الإملاء، وإن زيادة الإثم إنما هى منوطة بوصف الكفر، فبانتهاؤه تزول الزيادة، بل يغفر الله سبحانه وتعالى ما سبق كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...﴾ [الأنفال].

وقد وصف عذاب هؤلاء بأنه مهين ليتعزى المؤمنون عما يرون من عزة هؤلاء وسلطانهم ببيان أنهم سيكونون من بعد فى أشد الذلة؛ لأن عذاب الله سبحانه سيرهم الهوان الحقيقى الدائم الذى لا رفعة معه .

وقد بين سبحانه أن تلك الشدائد التى تنزل بالمؤمنين هى خير لهم ليتبين الطيب من الخبيث، ولذا قال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ .

كانت هذه الشديدة التى نزلت بالمسلمين فى غزوة أحد سببا فى أن عرف المؤمنون الصادقون من المنافقين وضعاف الإيمان، وقد بين سبحانه أن شأن الله تعالى فى عباده أن يختبرهم، ويصهر جماعتهم بالشدائد لينفصل عنهم الخبيث، كما انفصل الخبيث عن الذهب بصره، و«يذر»: معناها يترك، وقوله: ﴿ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾، من اليسر، وعدم التعرض للشدائد، ومعنى ﴿ يَمِيزُ ﴾ يفصل، وقرئ (يُمِيزُ)^(١) أى يحدد ويبين، والطيب هو الصادق الإيمان، والخبيث هو المنافق ومن يثق به من ضعف الإيمان، ومعنى النص الكريم: ما كان من شأن الله تعالى وسنته فى عباده، ومعاملته لأهل الإيمان والصدق أن يتركهم فى حال من اليسر الذى لا صعوبة معه، فإن ذلك يجعلهم مختلطين لا يميز يميز من دخل فى الإيمان وأشرب قلبه حبه، ومن دخل فى الإسلام ولم يذق حلاوته، ومن أضمر الكفر وأظهر الإيمان، وما كان الله تعالى ليركهم غير متميزين حتى يبين الخبيث من الطيب، وتنفصل الأقسام، وتتميز كل جماعة بحقيقتها. وهذا على أن قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ من نصر مستمر، لا مشقة فيه ولا ابتلاء، وعلى أن قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ بمعنى مختلطين غير متميزين يكون السياق واضحا، وقد بينه الزمخشري بقوله: (لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكليف الصعبة التى لا يصبر عليها إلا الخُلص الذين امتحن الله قلوبهم كبذل الأرواح فى الجهاد، وإنفاق الأموال فى سبيل الله، فيكون عيارا

(١) أى بتشديد الياء؛ وبها قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. المرجع السابق.

على عقائدكم، وشاهدا بضمائرکم، حتى يعلم بعضكم ما فى قلب بعض من طريق الاستدلال ، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها فإن ذلك مما استأثر به علم الله).

وإن أولئك المنافقين الذين يتخذون من الهزيمة دليلا على عدم صدق الرسول لكاذبون؛ لأن الله لا يطلع على غيبه أحداً، وما كان لكم معشر المؤمنين أن تعلموا حقيقة المنافقين وضعاف الإيمان فإن ذلك من الغيب.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الغيب ضد المشاهد ، وهو ما غيب عنا مما لا نعلمه بطريق الحس ولا تصل عقولنا المجردة إلى معرفته، كالعالم بما يكون فى المستقبل، وحقيقة الملائكة وذواتهم، وغير ذلك مما غيب الله عنا علمه، و«اجتبي» معناها اختار واصطفى، والمعنى: من شأن الله تعالى أن لا يطلع عباده المؤمنين على الغيب من الأمور، حتى يعرفوا ما يكون لهم فى الغد، بل إنه يغيب المستقبل عنهم ليجدوا ويجهدوا، ويعلموا، وسيرى الله عملهم ورسوله والمؤمنون، ومع ذلك يصطفى من رسله من يطلعهم على بعض الغيب، كما كان يطلع رسوله أحيانا على بعض ما يدبر له كاطلاعه على مادبره اليهود لاغتياله، وكاطلاعه على من حملت رسالة إلى قريش تخبرهم بسر غزوته لهم، وكما كاشفته بالوحى لجبريل الأمين، وهكذا من شئون الغيب، ويستفاد من هذا أن الله سبحانه وتعالى قد اختص بعلم الغيب، كما فقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ [٥٩] [الأنعام] وأن الأنبياء قد يصطفى الله منهم من يعطيه علم بعض المغيبات، فما يعطيهم يعلمونه، وإنه لنزر قليل لا يعد شيئا ولقد قال سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ...﴾ [٤١] [هود]، وقال تعالى عن النبى ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ...﴾ [١٨٨] [الأعراف].

﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أى إذا علمتم أن الله تعالى لا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يتعين أن تؤمنوا بالله

حق الإيمان بأن تعرفوه متصفا بصفات الكمال منزها عن المشابهة للحوادث، ليس كمثله شيء، وأن تؤمنوا برسله فتعرفوا حقيقة رسائلهم وأن تؤمنوا بالله حق الإيمان، وبالرسل وما جاءوا به وتتقوا الله وتجعلوا وقاية لأنفسكم بالطاعات تقومون بها وتؤدونها على وجهها فلكم أجر عظيم.

وَلَا

يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ
لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٨٠﴾
لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

بين الله سبحانه وتعالى العبر في غزوة أحد وما كان فيها، وقد أشار سبحانه في آخر بيان العبر إلى ما عليه أهل الكفر من نعيم دنيوى، وتمكين من أسباب الحياة، وأشار سبحانه وتعالى بالشدائد، مع رؤية نعيم الكافرين، ليميز الله سبحانه وتعالى الخبيث من الطيب، وأشار سبحانه إلى أن هذا الإملاء للكافرين ليس خيرا لهم، بل إن عقباة ستكون شرا لهم؛ لأنهم بهذا العطاء سيستمرثون الشر، ويوغلون فيه إغالا، ووراء ذلك العذاب الآليم، والخزى فى الدنيا والآخرة، وفى هذه الآيات يصرح سبحانه بما يكون منهم فى النعمة التى اختبرهم سبحانه وتعالى بها؛ إذ إنهم لا يجعلونها سبيلا للخير، بل يحبسونها على أنفسهم حبسا، فتكون شرا لا خيرا فيه لأحد، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾.

البخل هو الحرص الشديد فيما يملك الإنسان من مال أو علم أو أى ضرب من ضروب القدرة التى يستطيع أن يعين بها غيره، وعلى ذلك يشمل البخل كل شئ، سواء أكان موضوعه المال، أم لم يكن موضوعه المال، وقد فسر بعض العلماء البخل فى هذه الآية بكتمان العلم، ذلك أن اليهود كتموا أوصاف النبى ﷺ وتبشير التوراة به، وضنوا بها فلم يعلنوها ليضلوا، أو ليمنعوا الهداية.

وقد فسر الأكثرون البخل بمعناه الظاهر المتبادر، وهو البخل فى المال، ويتفق هذا مع سياق الكلام، إذ إن الله سبحانه وتعالى قد حكى عن هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، أن منهم من يقول إن الله فقير ونحن أغنياء، ولأن الله سبحانه وتعالى ذكر بعد بيان بخلهم أن الله سبحانه وتعالى له ميراث السموات والأرض، والتعبير بكلمة ميراث يومئى إلى أن موضوع البخل هو المال.

والنهي عن الظن وأن البخل المالى فيه خير فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ يدل على النفى المؤكد، فالمعنى لا يصح لهم أن يظنوا بأى حال من الأحوال أن ذلك البخل فيه خير لهم، بل فيه شر لهم، وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن سبب البخل نسيان أصل المال، إذ أن البخيل يحسب أن ما يأتى إليه من مال إنما هو بجهوده وكسبه فقط، وليس فضلا من الله، وينسى أن الله سبحانه وتعالى هو المعطى المانع، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب، وأن الرجلين يسعيان ويتخذان الأسباب، فتأتى جائحة لهذا تأكل الأخضر واليابس، وينجو مال ذلك، والله على كل شئ قدير، وبكل شئ عليم، ولذا بين الله سبحانه أن المال الذى يجيء إليهم إنما هو بفضل من الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال: ﴿يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فهو يبين لهم أن المال مال الله تعالى، وأن الله تعالى يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ﴾ تأكيد لمعنى البخل المفهوم من قوله تعالى ﴿يَبْخُلُونَ﴾، ونرى أن الضمير ضمير الفصل لتأكيد نفي الظن فى الخيرية.

وقد بين سبحانه أنه شر لهم، فقال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ شَرُّ لَّهُمْ﴾ وفي إعادة الضمير، وذكر الجملة الاسمية تأكيد لمعنى الشر فى البخل، والبخل شر فى الدنيا وفى الآخرة؛ وذلك لأنه يدفع إلى الحقد فى الدنيا، والحقد فى الآحاد يؤدى إلى النزاع المستمر، وتقطع العلاقات الأدبية، وهو فى الجماعات يؤدى إلى الخراب والدمار. ولقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(١).

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التطويق إما من الطاقة، والمعنى سيكلفون أقصى ما يطيقون ليخسروا المال الذى بخلوا به يوم القيامة، ولكنهم لا يملكون فى هذا اليوم من أمرهم شيئاً، فلا يستجيبون لنداء، ولا لكلام، لأنهم لا يستطيعون، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٢) [القلم].

وقد يكون وهو الأرجح من الطوق، والمعنى أنه سيكون ما بخلوا به طوقاً فى أعناقهم، وغلا فيها يشعرهم بما كان منهم فى الدنيا، وهو طوق مؤلم، مثله النبى ﷺ بشعبان، فقد روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً»^(٣) أقرع له ريبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمته^(٤) يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٥).

(١) رواه مسلم: البر والصلة والآداب - تحريم الظلم (٤٦٧٥) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) قال الإمام رحمه الله: الشجاع: هو الشعبان الذكر الذى يقوم على ذنبه ويؤثب السراجل والفارس. والأقرع هو الذى يكون أملس الجلد كثير السم، والزيبتان علامتان سوداوان فوق عينيه، وهما تكونان لأخيث الحيات.

(٣) اللهزمتان بكسر اللام والزاي: شدقاه.

(٤) رواه البخارى: الزكاة - إثم مانع الزكاة (١٣١٥). كما رواه النسائي: الزكاة - مانع زكاة ماله (٢٤٣٦)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٧٣٠٧) كلهم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

والنص القرآني والحديث النبوي استعارة تمثيلية لإحاطة البخل بصاحبه يوم القيامة، وإنها إحاطة إيلاام، وفيها بيان أن السعادة الوقتية للاكتناز والبخل في الدنيا ستكون يوم القيامة بؤسا شديدا، وشقوة وإيلاما.

بهذا النص الكريم تبين قبح البخل، ويتبين مقام الإنفاق في سبيل الله ولكن ما حد البخل؟ وما حد السرف؟ وبهذين الحدين يتبين الإنفاق الحلال والقصد.

لقد قرر العلماء أن الإنفاق في سبيل الله تعالى لا إسراف فيه قط، ولو كان بكل المال وأنه يروى أن عمر بن الخطاب تبرع في إحدى الغزوات بنصف ماله، وأن أبا بكر الصديق تبرع بكل ماله، فسأله النبي ﷺ قائلا: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال صديق هذه الأمة: «الله ورسوله»^(١) وقد كان ذو النورين عثمان بن عفان يجهز الجيش كله أحيانا، كما فعل في ساعة العسرة، ولم يعد ذلك إسرافا.

وقد اتفقوا أيضا على أن الامتناع عن الإنفاق في سبيل الله تعالى في عسرة الدولة، ومداهمة الأعداء لها، بخل بل هو أقبح البخل وأشدّه، ولذلك أجاز الفقهاء فرض ضرائب إذا داهمت الأمة الإسلامية الأعداء وامتنع الأغنياء عن الإنفاق، وهذا النوع من البخل هو المقصود بهذا النص الكريم.

وقد اتفقوا أيضا على أن كل درهم ينفق في معصية هو إسراف، والخلاصة أن الحد ما بين الإسراف والبخل هو الإنفاق في غير ما أمر الله تعالى، ولذلك يقول ابن عباس: إنفاق ألف في سبيل الله لا يكون إسرافا، وإنفاق درهم في معصية يكون إسرافا.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا النص الكريم يفيد أربعة معان تؤكد وجوب الإنفاق في سبيل الخير، والجهاد في سبيل الله تعالى:

(١) رواه الترمذي وقالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ: كتاب المناقب - في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٠٨). كما رواه أبو داود في الزكاة - في الرخصة في ذلك (١٤٢٩)، والدارمي: الرجل يتصدق بجميع ما عنده (١٦٠١)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى).

المعنى الأول - أن المال كله لله تعالى، فهو الذى أعطى كما عبر سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وأن مآل المال إليه سبحانه وتعالى فى ضمن ما يثول إليه كل شىء فى هذا الوجود، بلا استثناء مطلقاً، ومن يبخل لورثة يرثونه، فليعلم أن الميراث كله لله تعالى، وأنه سيعطيهم إن أراد سبحانه، وإن لم يرد لهم عطاء فسيفقونه إسرافاً وبداراً.

والمعنى الثانى - هو بيان سلطان الله تعالى على كل ما فى الوجود، فهو ملكه، وهو الذى يثول إليه، وفى ذلك بيان كمال سلطانه، وتأكيد لمعنى أنه المعطى الوهاب، والقوى الرزاق المتين، ولذلك لم يعبر عن الميراث بأنه ميراث الأموال التى نعرفها، بل ميراث كل ما حوته السماء وما حوته الأرض.

والمعنى الثالث - أن العطاء الذى يعطيه الله تعالى بعض عباده، ويختصهم به يوجب عليهم تكليفات مالية فيه، فإذا كان سبحانه وتعالى قد ابتلى الفقراء بالفقر، فقد ابتلى الأغنياء بالمال، وأوجب عليهم أن يعطوا، وهم محاسبون على مالهم، ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) [الحشر]، وقد فهم هذا من ذكر علم الله تعالى الدقيق العظيم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والمعنى الرابع - أن الجزاء سيكون شاملاً كاملاً؛ لأن علم الله دقيق لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة].

ولذلك عبر سبحانه عن علمه بأعمالنا بأنه خبير، والخبرة هى العلم الدقيق الشامل.

ولقد كان الشح فى موضع الإنفاق يسرى إلى المسلمين من اليهود الذين كانوا يجاورونهم، ولذلك ذكر بعض شنائع اليهود لِيَنْفَرُ المسلمون منهم، ولا يقلدوهم فى خساستهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

لقد كان اليهود يحرضون المؤمنين على الشح وعدم الإنفاق فى سبيل الله تعالى بطرق شتى، وكانوا يحاولون أن ينالوا من إيمان أهل الإيمان، فلما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ (١١) [الحديد] أخذوا يتكلمون على القرآن، وعلى دعوة الرسول ﷺ، ويصفون الله سبحانه بما لا يليق، وذلك ليؤهّنوا قلوب المؤمنين، ويشككهم فى دينهم، أو ليعثوا فيهم روح الشح. ويروى فى ذلك عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ (١١) جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا محمد ربك فقير يسأل عباده القرض^(١)، ويظهر أن ذلك قد تكرر منهم، وتجروا به على ذات الله سبحانه، أو اتجهوا إلى تكذيب ما فى القرآن بالتهجم على ما اشتمل عليه فى هذا المقام، ولقد بين سبحانه أنه عليم بقولهم علم من يسمع القول، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾ وفى هذا التعبير بيان أن الله تعالى مطلع عليهم، ومراقب لهم مراقبة من يستمع إليهم، وفى ذلك من التهديد ما فيه، إذ إنه إشعار بأن ذا الجلال القوى القهار القادر على كل شيء والذى يملك الوجود ومن فيه وما فيه، مستمع لما يقال فى شأنه، وما يتجرءون به عليه، كما يقول القائل لمن يجده يتجرأ على عظيم: إنه يسمع قولك ويعلم به، فارتقب عواقب ما تفعل، واستشعر الهيبة والمخافة والخشية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٠) [النحل] وقد عقب سبحانه ذلك بنتائج تلك المراقبة، وصرح بالتهديد الشديد فى قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

فى هذا الكلام تهديد شديد لهم، وذلك لأن المعنى: سثبت عليهم فى سجل الله تعالى قولهم هذا وتجروهم عليه سبحانه، وليس المراد مجرد الكتابة، بل المراد نتيجتها وهو الحساب عليها، والجزاء من العذاب الأليم، والتعبير بالكتابة كناية عن العلم المستتر الثابت الذى تترتب عليه نتائجه وثمراته، ولما تضمنته الكتابة

(١) رواه ابن أبى حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس بسند حسن، وذكره الواحدى فى أسباب النزول.

من معنى العقاب الرادع الذى لا مناص منه عبر بالمضارع فقال سبحانه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ والتعبير بـ ﴿مَا قَالُوا﴾ فيه إشارة إلى ما فيه من تجرؤ على الله تعالى، وتهجم على مقامه الأعلى سبحانه.

وقد قرن سبحانه ذلك القول الجرى بعمل جرىء من أسلافهم، وقد ارتضوه، فكان من الحق أن ينسب إليهم، وهو ما عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وذلك لإثبات جرأتهم فى الشر، واستهانتهم بالحقائق الدينية، وشرهم إلى الفساد، وقد أثبت الله سبحانه وتعالى بذلك فساد فعلهم بهذا القتل الشنيع، وفساد قولهم بذلك القول الفاسد الجرىء على الله سبحانه وتعالى.

وهنا تثار ثلاثة أمور نتكلم فيها بإيجاز:

أولها: فى قرن هاتين الجريمتين، وقد أشرنا إلى أنهما من نوع واحد، وهو التجرؤ على الله سبحانه وتعالى، فالقديمة تجرؤ على رسالة الله، والثانية تجرؤ على ذات الله، وبذلك يكونون قد عتوا عتوا كبيرا، وضلوا ضلالا بعيدا.

ثانيها: أن نسبة القتل إلى الحاضرين صحيحة لأنهم رضوا به، وإن لم يكونوا قد باشره، ومن رضى بجريمة فقد فعلها، وقد قال النبى ﷺ: «إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأكرها من غاب عنها، ومن غاب عنها فريضها كان كمن شهدها»^(١).

وثالثها: أنه وصف قتلهم للنبيين بأنه بغير حق - مع أن هذا النوع من الإجرام لا يمكن أن يكون بحق أبدا، وذلك للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعظم شرهم، وأنهم لا يبالون أكان فعلهم فى موضعه أم فى غير موضعه.

وقد قلنا إن هذه الكتابة هى للعقاب، وقد قال سبحانه بعد ذلك مصرحا بالعقاب: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

(١) رواه أبو داود: الملاحم - الأمر والنهي (٣٧٨٢) عن العُرس بن عميرة الكندي.

الذوق هو الإحساس، وهو هنا الإحساس بالألم، والتأصل في الذوق أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه، وهو هنا للألم، فالتعبير فيه تهكم عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٤] [الأنشاق]، والحريق النار الملتهبة، وهذا الكلام فيه إيجاز حذف، إذ أن السياق تضمن حذف كلمات دل فيها ما ظهر على ما طوى، إذا المعنى سنكتب ما قالوا وما فعلوا ونلقيهم في جهنم وبئس المصير، ونخاطبهم وهم يَصْلُونَ نارها بقولنا: ذوقوا عذاب تلك النار الملتهبة وآلامها، وذلك مثواهم، وقد صرح سبحانه بالسبب في ذلك العذاب الأليم، وإن كان ما مضى دالا عليه فقال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

أى ذلك العذاب الشديد الأليم بسبب ما قدمت أيديكم وما تكلمتم به، والتعبير بـ ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ﴾، وتخصيص الأيدي بالذكر؛ للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته، ولأن أكثر الشر يكون ببطش اليد، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به، والاتصال بذاته.

وإذا كان ذلك العذاب لأجل هذا العمل، فهو لا ظلم فيه، وفوق ذلك فإنه لو أهمل حسابهم لكان الله ظلما لعباده بتسوية المحسن بالمسيء، فكان العذاب لينفى عن ذات الله تعالى الظلم، وأبلغه وأقصاه بأن يتساوى المحسن والمسيء، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة تلك التسمية، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٢٨] [ص]. ربنا إنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
 اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ
 تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَابِلِينَتِ
 وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾
 فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَ وَيَابِلِينَتِ
 وَالزُّبَيْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
 وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ
 عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

الكلام مستمر في وصف اليهود وأخلاقهم واستيلاء المادة عليهم، وغلظ قلوبهم وقسوتها، حتى لقد بلغ بهم الجحود أن يقولوا عن الله تعالى وقد سمعوا من الرسول ﷺ - أن من يتصدق يقرض الله قرضا حسنا - إن الله فقير ونحن أغنياء، وفي هذه الآيات يبين أن من نتائج جحودهم أن يطلبوا معجزة غير المعجزة التي جاء بها النبي ﷺ، فيطلبون دليلا غير الدليل الذي قام حجة عليهم، ولقد سألوا موسى من قبل أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة، ومع أنه قد جاء على يد موسى عليه السلام من المعجزات الحسية العدد الكثير كانوا يطلبون غيرها؛ لأنهم معاندون والمعاند لا يزيده الدليل اليقين إلا عنادا وكفرا وجحودا. لقد سألوا النبي معجزة، وكذبوا فيها فقال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

تذكر كتب التفسير أن من معجزات بعض الرسل الذين جاءوا من قبل أن يقدم القربان، وهو الصدقة من النعم، فتكون أمانة قبوله أن تنزل نار من السماء

بيضاء تأكله، وقد ادعى اليهود أن ذلك عهد من الله عهد إليهم، وهو ادعاء باطل، فهذا الأمر إذا كان معجزة لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول، وآيات الله تعالى لإثبات رسالات الرسل متعددة النواحي، مختلفة المناهج، لكل أمة منهاج من الإعجاز يناسبها، وكون هذا كان حجة من الحجج الدالة على الرسالة وصدق الرسول في زمن - لا يقتضى أن يكون حجة في كل الأزمان.

ولا شك أن ذلك النوع من الإعجاز قد وقع، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّقْتُمْ﴾، والذي قالوه هو أن يأتيهم بقرآن تأكله النار.

ولتسيم الكلام في النص لا بد أن نتعرض لتفسيرات لفظية لبعض الكلمات، ومن هذه الكلمات كلمة (نؤمن لرسول)، وكلمة (قربان)، وكلمة (يأتينا)، وكلمة (تأكله).

ومعنى ﴿نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ﴾: أى ندعن لما يدعو إليه ونخضع؛ إذ المطلوب منهم هو الإذعان للحق والخضوع له والتسليم به، لا التصديق المجرد الذى يصوره مجرد إيمان، فالفرق بين الإيمان بالرسول والإيمان له أن الأول يتضمن معنى التصديق، وإن لم يكن معه إذعان والتسليم والخضوع لما يدعو إليه.

ومعنى ﴿يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أن الرسول هو الذى يأتى بالقربان من النعم وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى من النعم، ويقدمه هو، تنزل النار البيضاء من السماء فتأكله، فليسوا هم الذين يقدمون القربان الذى تأكله النار، بل الذى يفعل ذلك هو الرسول إعجازاً، وليبان أنه رسول، ولا يقال حيثئذ إنه إذا كان كل قربان تأكله النار لا تكون ثمة فائدة يستفيدها الفقراء من القربان، بل هذه حال خاصة يأتياها النبى من الأنبياء، ويقوم بها فتكون تلك الأمانة التى على التأيد من السماء، كانهلاك العصا حية، وانجاس الماء من الحجر، وانفلاق البحر اثنا عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين سألوا النبي ﷺ قوم يتعتنون والمتعت لا يُلتَفَتُ إلى مطالبه، وقد ذكر سبحانه الرد مع الدليل على تعنتهم، فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟﴾.

الخطاب للنبي ﷺ و«البيّنات» المراد منها الحجة المبيّنة المثبتة لرسالة الرسل، و«بالذي قُلْتُمْ»، والمعنى بموضوع القول الذي قُلْتُمُوهُ، وهو الإتيان بقربان تأكله عليه نار بيضاء من السماء فتأكله، وقد يطلق القول ويراد منه موضوع القول، كأن يقول قائل: قلت لك إن الأمر سيكون على وجه كذا، وقد كان ما قلت، أى قد كان معنى القول الذي قلت وتحقق موضوعه.

والمعنى: إن عليك يا محمد أن تقول فى محاجتهم وليبان تعنتهم قد جاءكم رسل بالبيّنات من قبل، وتحقق من الأنبياء ما تطلبون، وهو أنهم أتوا بقربان تأكله النار، فلم تؤمنوا ولم تصدقوا، وقد دل على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إذ إن القتل لا يكون إلا أثرا من آثار التكذيب العنيد، والجحود الشديد، فيكون نسق القول الكريم هكذا: لقد كذبتهم وأبلغتهم فى الكذب بادعائكم أن إيمانكم مرتبط بالقربان تأكله النار، فقد جاءكم هذا ولم تؤمنوا، بل كذبتهم وأعنتهم حتى بلغ بكم الأمر والاستهانة بالداعى أن قتلتموه، ولو كنتم صادقين فى ادعائكم ارتباط الإيمان بالإتيان بقربان تأكله النار فَلِمَ كان القتل؟ فالصدق المنفى هو صدق الارتباط بين الإيمان وتلك الحجة التى يطلبونها، والاستفهام إنكارى ينفى أن يكون ثمة مبرر للقتل على أى وجه كان المبرر، وينفى أيضا صدقهم.

وسياق الخطاب الموجه للنبي ﷺ هو لبيان تعنتهم، وأنهم لا يطلبون حجة لنقص الدليل، بل يتعتنون، وأنهم فعلوا مع من أتوا لهم بهذا الدليل أشد مما فعلوا معك وهنا أمر يجب التنبيه إليه، وهو أن القتل والتكذيب مع هذه الحجة كان من أسلافهم، والخطاب للذين حضروا عصر النبي ﷺ، ومن يجيء بعده ممن على

شاكلتهم، ولقد وجهت إليهم جريمة الماضين منهم؛ لأن وصف التعنت الذى أدى إلى ما كان من الأسلاف قائم فى الأخلاف، ولأنهم راضون عن أعمالهم، فكان حقاً أن يخاطبوا بجريمتهم؛ ولأنهم تكلموا عن الماضين منهم بأنهم منهم فقالوا: إن الله عهد إلينا، مع أن الأمر كان فى هؤلاء الماضين لا فيهم، لذلك كان عليهم أن يتحملوا وصف الإجرام الذى وقع من الماضين حتى يتخلصوا من تلك الأمة الخاسرة، ويدخلوا فى أمة الإيمان وأهل الإذعان.

ولقد بين الله لنبه أن هؤلاء جنس قائم بذاته تعود التكذيب، فلا تبتس بما كانوا يفعلون، ولذا قال سبحانه:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾
 البيّنات هى الآيات المسيّنة للحق، الموضحة له، وهى الأدلة التى يتحدى بها النبى من الأنبياء قومه ليثبت لهم رسالته، والزبر جمع زبور، وهو الصحيفة أو الكتاب أو هو جَمْعُ جَمْعٍ لَزُبُرٍ، وهو الأمر الشديد، وخص الزبور بالكتاب المنزل على داود عليه السلام وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ﴾ [الإسراء] وقرئ ﴿زَبُورًا﴾ بضم الزاى^(١) كقولهم فى جمع ظريف ظروف، أو يكون جمع زبر وزبر مصدر سمي به كالكتاب، ثم جمع على زبر كما جمع كتاب على كتب، وقيل بل الزبور كل كتاب صعب الوقوف عليه من الكتب الإلهية، وقال بعضهم: الزبور اسم للكتاب المقصور على الحكم العقلية دون الأحكام الشرعية، والكتاب اسم لما يتضمن الأحكام الشرعية.

وخلاصة القول أن الله تعالى يخفف عن نبيه ﷺ تكذيب أولئك الضالين الجاحدين فيبين أن الأنبياء قبله قد جاءوا بالمعجزات القاطعة المثبتة للرسالة، ومعهم الأوامر الإلهية المشددة الزاجرة، ومعهم الكتاب المبين التى اشتمل على ما فيه مصلحة الدنيا والآخرة، ومع ذلك كفروا بآيات ربهم، وأنكروا الرسالة مع قيام

(١) وهى قراءة حمزة وخلف، وقرأ الباقون بفتح الزاى. غاية الاختصار ج ٢ ص ٤٦٨.

الأدلة التي لا مجال لإنكارها، ومع أن ما يدعو إليه معقول في ذاته، وفيه مصلحتهم في الدنيا والآخرة، وإذا كانت الطاعة في الدنيا غير ثابتة، فإن الله سبحانه وتعالى جعل الآخرة دار الطاعة والقرار، ودار الجزاء والثواب والعقاب، وما الحياة الدنيا إلا سبيل لما يكون يوم القيامة، ولذا قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ذكر سبحانه وتعالى هذه الكلية الثابتة لبيان الجمع الحاشد يوم القيامة الذي يتقدم فيه كل امرئ بما قدم من عمل، إن خيرا فجزاؤه خير، وإن شرا فجزاؤه شر، وهنا إشارات بيانية رائعة ككل إشارات القرآن؛ وذلك لأنه عبر عن إقبال الموت بذوقه، للإشارة إلى أنه عند ذوق الموت سيكون المذاق إما مرا حنظلا يومئ إلى ما يتبعه من عقاب، وإما أن يكون المذاق حلوا هنيئا، فيكون إيماء إلى ما يكون يوم القيامة من نعيم مقيم، والتعبير عن حلول الأجل في الدنيا بذوق الموت فيه استعارة بتشبيه الموت عند إقباله الرهيب أو الرغبة بالأمر الذي يذاق فيؤلم، أو يذاق فيسعد.

وهنا إشارة بيانية أخرى رائعة هي أنه أسند ذوق الموت إلى النفس، ولم يستند إلى الشخص؛ لأن النفس روح، والشخص جزءان جسم ونفس، وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم، فهي التي تذوق الموت، كما ذاق الحياة الدنيا، فإسناد الذوق إليها لأنها باقية، وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال، فبعد أن كانت في غلاف من جسم من الطين، قد تجردت أبدا منه حتى تلتقى به يوم البعث والنشور.

وبعد أن تذوق النفس طعم تلك النقلة من متاع الدنيا الزائل إلى الآخرة، يكون الجزاء من نعيم أو جحيم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

والأجر هو العطاء خيرا أو شرا، والقيامة هي قيام الساعة لرب العالمين، وتقويم أعمالهم من خير وشر بالميزان الدقيق، والحساب الذي لا يترك صغيرة ولا

كبيرة إلا أحصاها. فيوم القيامة هو الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين، وتقوم أعمالهم من بين أيديهم وتنطق بها جوارحهم، وتقوم تلك الأعمال بقيمتها الحقيقية، ويذهب الزيف ولا يكون إلا الحق الخالص، ومعنى توفية الأجور إعطاؤها كاملة لا نقص فيها، وإذا قلنا إن الأجر هو العطاء فإن مجازاة المسئء بقدر إساءته هو العطاء العدل.

والخطاب هنا للأشخاص لا للنفوس وحدها، فذوق الموت للنفوس، ولكن الجزء للأشخاص إذ تلتقى الجسوم بالنفوس، ولذلك خاطب الأشخاص فقال سبحانه: ﴿وَأِنَّمَا تَوْفُونُ أَجُورَكُمْ﴾.

وإن السياق الذى ذكرنا عليه أكثر المفسرين وهو أن توفية الأجر تشمل الثواب والعقاب، ولكن أرى أن روح الآية وما اقترن بها من بعد يدل على أن الجزء هنا هو العطاء الصرف بنعيم يوم القيامة لمن يستحقونه، فالخطاب للمؤمنين تعزية للنبي ﷺ والمؤمنين عند تكذيب المكذبين، ولذا قال سبحانه إن أول عطاء هو البعد عن النار، فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

الزحزحة عن النار الإبعاد عنها، والتنحية عنها، وهو تكرار الزح بمعنى الإبعاد، والمعنى أن من أبعد عن النار بعد تكرار التنحية عنها فقد فاز فوزا مطلقا، والنص يشير إلى أن أعمال الإنسان ترديه ولا تنجيه، وأنه لكى يبعد عن النار ويتجنبها يكون كالمحتاج لمجهود، وتكرر الزح والتنحية كشئ ثابت ملازم لها، لا يبعد عنها إلا بمجهود، وذلك تصوير دقيق لعفو الله ورحمته وغفرانه، وأن المرء لا يبعد عن النار إلا بعد تكرار الرحمة والمغفرة، وأن البعد عن النار ثم دخول الجنة هو أكبر الفوز، وهذا كله على أساس أن الزحزحة والتنحية فى الآخرة التى هى دار الجزاء، ويصح أن يكون المعنى فى الدنيا، بالأخذ فى أسباب التوقى من النار، ودخول الجنة، ويكون السياق هكذا: من غالب شهواته وجاهد أهواءه وإنها لصعبة المراس تحتاج إلى صبر وضبط، فإنما يزحزح نفسه عن النار بتوقى أسبابها، ويدخل نفسه الجنة، واتخاذ الوسائل الموصلة إليها، فالزحزحة هى جهاد الأهواء التى هى أسباب النار، وليس ذلك التفسير ببعيد، وإن كان الأول أوضح وأبين.

ولقد بين سبحانه أن سبب العذاب هو الغرور في الدنيا، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

في هذا النص الكريم قصر الحياة الدنيا على حال واحدة، وهي أنها متاع يستمتع به الإنسان ويغريه حتى ينسيه متاع الآخرة، إن استولى عليه واستغرق حسه ونفسه، والمعنى ليست هذه الحياة القريبة منا التي نشاهدها ونراها، وهي في ذاتها الخلد الأدنى للحياة، إلا متاعا يستمتع به المغتر بها الذي يظن أنها كل شيء، وأما من يؤمن بأنها قنطرة الآخرة، فإنها تكون جهاد النفس، والسيطرة على الأهواء، ولقد قال الزمخشري في تفسير متاع الدنيا: «شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام^(١)، ويغريه حتى يشتره، ثم يبين له فسادته ورداءته، والمدلس هو الشيطان الغرور، وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على طلب الآخرة».

اللهم لا تغرنا بهذه الدنيا، ووفقنا لأن نطلب ما عندك، وامنحنا يا ذا الجلال والإكرام رضوانك، فهو أعلى ما يبتغيه المؤمن؛ إذ رضوانك أكبر من كل ما في الوجود يارب الوجود.

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَأِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٥٣٧﴾
وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْفُرُونَهُ، فَتَبَدُّوه وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مَتْنًا
قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٥٣٨﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
بِمَفَارَقَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥٣٩﴾

(١) من السوم في المبايعه، تقول منه (ساومه سواما)، و(استام) علياً و(تساومنا). الصحاح.

لقد بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن محنة أحد كانت فيها العبر، وكانت تحيضا لقلوب المؤمنين وصقلا لنفوسهم، وبين الله سبحانه وتعالى في تلك الآيات أيضا أنه سبحانه لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يتبين الخبيث من الطيب، وقوى الإيمان من ضعيفه، وذكر سبحانه ما كان يلقى به المشركون واليهود من أقوال جارحة، وبعضها يمس ذات الله تعالى، كقولهم - لعنهم الله - إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ.

ولقد ذكر سبحانه من بعد ذلك أن المستقبل سيكون من جنس الماضي، وأنه سينزل بالمؤمنين ضروب من البلاء كالتى نزلت أو أقوى، وأن واجب التبليغ والإيمان يتقاضاهم أن يتحملوا ذلك بصبر وتقوى واحتياط، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

ففى هذا النص السامى إخبار لهم بأن البلاء الذى ذاقوا بعضه مستمر، وهو خير لهم، وذلك ليستعدوا لتلقيه من غير فزع ولا جزع، فإن الشدة المتوقعة يسهل احتمالها، أما الشدة التى تقع من غير توقع، فإنه يصعب احتمالها، وقد ذكر سبحانه وتعالى مواضع الابتلاء، وكلها عزيز يحرص عليه، وهذه المواضع هى المال والنفس، والدين.

والمال والنفس قال فيهما سبحانه وتعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾، وقد أكد سبحانه وقوع الابتلاء بالقسم، واللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة، وقد أكد بهذه التأكيدات ليكون الوقوع مستيقنا، وليستعدوا بالصبر والمجاهدة، والاعتماد على الله تعالى؛ والابتلاء فى المال بإنفاقه فى سبيل الله تعالى، وتبديده بغارات الأعداء، وبالتكليفات الكثيرة المتعلقة به، وقد ابتدأ به لأنه أدنى الدرجات، فالترتيب فى الابتلاء متدرج يتبدى من الأدنى، وهو المال، والاختبار فيه شديد قاس، والاحتمال يحتاج إلى صبر وعزم، وقد يكون الاختبار فى المال بالجوائح تنزل به، فكل هذا اختبار بالمال، وإنه ليسمى نفيسا؛ لأنه قرين

النفس، وإن كان دونها، وهى أعلى منه، والمعنى: ليست أحوال المؤمن رخاء دائما، بل فيها شدة وبلاء يقتضى الصبر، وفيها نعمة وإحسان يقتضى الشكر.

والابتلاء فى الأنفس يكون بالخوف من مساورة^(١) الأعداء، وتربصهم دائما، وبالجوع، وبهلاك النفوس فى الحروب، وبالشدائد فيها، والابتلاء فى المال والأنفس قد ذكره سبحانه وتعالى بهذه الآية، وفى كثير من الآيات.

والدرجة العليا من الابتلاء هى ما يخص الدين، وقد خصها سبحانه وتعالى بالذكر المؤكد، فقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ والأذى الذى كانوا يسمعون هو الافتراء على الله تعالى، والتهكم على القرآن، والسخرية من الشرع الإسلامى، من مثل قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ...﴾ [آل عمران] ومثل قول المشركين: ﴿أَنْطَعُمْ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ...﴾ [يس]، وهكذا مما يمس الحقائق الدينية، وقد جعله الله سبحانه وتعالى فى المرتبة العليا من الابتلاء؛ لأن المؤمن يسهل عليه التأذى فى ماله ونفسه، ولا يسهل عليه الأذى فى دينه، وإنه يحتمل كل شئ فى سبيل الدين، فإذا اتخذت الحقائق الدينية ذاتها هزوا ولعبا فإن ذلك فوق الاحتمال، ولذلك لم يحتمل أبو بكر الصديق كلام (فناصر) عندما تهجم على ذات الله فضربه وشج رأسه^(٢)، مع ما اشتهر به الصديق من رقة وعطف، حتى شبهه النبى ﷺ باللبن السائل للينه وسهولته.

وفى النص الكريم إشارات بيانية نبينها، فإن فى بيانها ذكرا لمرامى النص الكريم:

أولها: أنه عبر عن المخالفين الذين كفروا بالنبى ﷺ بما يشير بأنهم قسمان: قسم أوتى علم الكتاب الذى نزل على بعض الأنبياء من قبل النبى ﷺ، والقسم

(١) المساورة من معانيها الموائبة والمقاتلة، وسورة الغضب: وثوبه. الصحاح - لسان العرب (سور). فالمعنى هنا مهاجمة الأعداء.

(٢) سبق قريبا تخريج هذه الرواية.

الثاني المشركون الذين لا يؤمنون بكتاب، ولا يهتدون بهدى، وقد جمع القرآن القسمين فى أمر واحد، وهو معادة النبي ﷺ.

وقد دفعتهم المعادة إلى الجحود، وما كانت المعادة لشخصه، بل كانت لما جاء به، وما يدعو إليه، وفى الجمع بين العالم بالكتاب والجاهل به إشارة إلى أنه عند وجود المعاندة يستوى العالم والجاهل، فإن الجاهل يَعْمَهُ فى عمياء جهالته، والعالم يطمس الله تعالى على قلبه، فيكون هو والجاهل سواء.

والثانى : الإشارة إلى أنه إذا كان سبب معاندة المشركين جهلا فسبب معاندة الكتابيين هو الحسد، إذ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ذلك أنهم بمقتضى كونهم أوتوا الكتاب من قبل ظنوا ذلك اختصاصا اختصوا به، وأنهم أولى أن تكون الرسالة فيهم دون غيرهم، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ [الأنعام] وبذلك سكن قلبهم الحقد والحسد، وحيث كان الحسد كانت العداوة وكان العمى عن إدراك الحقائق.

الثالث : التعبير عن نزول الأذى بسماعه، وقال سبحانه: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ والأذى يُسمع هو كلام، وعبر عنه بالأذى لأنه يؤدى إلى أذى، وموضوعه أذى، وهو فى ذاته أذى، فكان الأذى فى ذات القول، ولذلك كان مفعولا للسمع، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه أذى كثير، وذلك ليبين لهم ما يوجب استعدادهم لسماعه، من أذى ليس بقليل فى مقداره، ولا فى نوعه، ولا فى موضوعه، فالكثرة ليس المراد منها المقدار فقط، بل الكثرة تشمل المقدار والنوع، والطريقة والموضوع.

وقد بين سبحانه وتعالى العلاج فى هذا البلاء: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

الصبر ضبط النفس وحبسها عن الجزع، وحبسها على العمل واتخاذ الأهبة، وحبسها أيضا مع أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ... ﴿٢٨﴾ [الكهف] فالصبر يتضمن ضبط النفس عن الجزع، وقوة الاحتمال، والتضافر مع الجماعة، وقد وصف النبي ﷺ صبر الأنصار فيما روى عنه من أنه قال فيهم: «يقلون عند الطمع، ويكثرون عند الفرع»^(١).

﴿تَتَّقُوا﴾ معناها أن تتخذوا الوقاية بطلب رضا الله تعالى، ورجاء ما عنده، وأن تستعدوا، وتدفعوا الاعتداء بالحق وتعملوا على الخروج من المحنة، فليس شأن المؤمن استسلاما للمصائب تنزل به، بل شأنه صبر من غير جزع، وعمل من غير طمع، وجد وجهاد ودفع للشر.

وقد بين سبحانه أن التقوى والصبر هما من الأمور التي أمر الله تعالى بها لأنها تؤدي إلى النجاح، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى إن ذلك مما يعقد الأمور ويربطها ويوثقها ويؤكدها، ويجعلها قوية منتجة مثمرة، فالصبر والتقوى بهما النجاح فى الأمور.

وقد بين سبحانه أن أهل الكتاب فيما يصنعون قد خالفوا ما أخذ عليهم من موثيق، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

الميثاق هو العهد الموثق المؤكد، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى على الذين أوتوا الكتاب العهد المؤكد الذى لا يقبل تأويلا ولا احتمالا أن يبشروا علم الكتاب ويعلموه، ولا يقصروا العلم به على طائفة من الناس خاصة، والضمير فى ﴿لَتُبَيِّنَهُ﴾ يعود إلى الميثاق، ويكون المراد من العهد الذى وثقه الله تعالى هو تعاليمه وشرعه ونوره، وعلى ذلك يكون ثمة احتمالان فى عود الضمير، أحدهما أن يعود إلى الكتاب، والثانى أن يعود إلى الميثاق نفسه، والأظهر أنه يعود إلى الكتاب، والالتفات من الغائب إلى الخطاب؛ إذ إنه كان متحدثا عنهم، ثم فسر

(١) جزء من حديث رواه العسكري في الامثال كما جاء في جامع الأحاديث والبراهيل ١٣٤٩٢ - ج ١٩، ص ٣٧.

الميثاق بالخطاب، لتأكيد أخذ الميثاق بإعلان أنهم ما كانوا غائبين عند أخذه، بل كانوا حاضرين مخاطبين، فالعهد قد أخذ عليهم بالسنتهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿لَتَبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ﴾ وهنا يسأل سائل: لماذا أكد قوله تعالى: ﴿لَتَبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ﴾ بعدة تأكيدات، بالقسم وبلامه، وبنون التوكيد الثقيلة، ولم يؤكد (ولا تكتُمونه)؟ وذلك لأن طلب البيان مشدد ومؤكد، وبذلك يتأكد عدم الكتمان بتأكد طلب البيان، ولو أن أدوات التوكيد لحقت «ولا تكتُمونه» لأوهم الأسلوب أن المنفى هو الكتمان المؤكد المبالغ، أما غيره فلا ينفى، فلو قيل: «ولا تكتُمته» لأوهم الأسلوب أن المراد النهى عن المبالغة فى الكتمان، فغير المبالغة فى موضع الإباحة، وذلك غير معقول، ومع هذا العهد الموثق لم يبينوا؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

النبد الطرح، والتعبير بوراء ظهورهم كناية عن أنهم لن يعودوا إلى ما نبذوه، والكلام تصوير لعملهم فى عدم الوفاء بعهد الله الذى أخذه عليهم، إذ إنهم أهملوه، ولم يفكروا فى العودة، وأهملوه إهمال استخفاف واستهانة، كما ينبذ الشيء الحقير.

والضمير فى «نبذوه» على هذا يعود إلى الميثاق، باعتبار أنه هو موضع الحديث ابتداء، ويصح أن يعود إلى الكتاب؛ لأن الميثاق هو الشرائع والأحكام والكتاب وعآؤها، فنبذ الكتاب نبذ للعهد، فهم لم يكتفوا بالامتناع عن البيان لغيرهم، بل أضافوا إليه إهمال الكتاب إهمالا مطلقا.

وإن هذا النبذ للكتاب وتعاليمه، وللميثاق المؤكد وإعلانه - سببه الهوى الدنيوى، وحب السلطان والغلب، والاستطالة على الناس بما عندهم، والإدلال عليهم بالعلم من غير أن يعملوا به، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى تركوا كتاب الله تعالى والعمل به وبشرائعه، وإعلانه، فى نظير ثمن تافه قليل، وكل ثمن للإعراض عن كتاب الله تعالى والعمل به هو قليل مهما يكبر فى نظر التاركين، ولذا قال سبحانه: ﴿فَبَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أى أنه مذموم قبيح ما يطلبون من أعراض الدنيا فى نظير إهمال الشريعة والعهد الموثق.

وإن هذا الكلام يدل على وجوب إعلان الحقائق الدينية والدعوة إليها، ومجابهة مخالفيها بإثم المخالفة، ومن أحسن ما قرأت في ذلك ما قاله الزمخشري في التعليق على هذا: (كفى به دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس، وألا يكتسبوا منه شيئاً لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة، وتطبيب لنفوسهم، واستجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية، أو لبخل بالعلم وغيره من أن ينسب إلى غيرهم، وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار»^(١)).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ هذا وصف آخر لليهود في ماضيهم، وفي حاضرهم، فهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ويفرحون بما أتوا، وتلك طبيعة الضال دائماً، فالضال يفرح بكل ما يعمل، ويزين له سوء عمله فيراه حسناً، ويحب أن يحمد بما لم يفعل، فيدعى لنفسه من المحاسن ما شاء، وينكر محاسن غيره.

والنهي موجه للنبي ﷺ، وهو نهى مؤكد عن حسابان الخير فيهم فالتأكيد في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ هو تأكيد للنهي، وليس بتوكيد للظن، فليس النهي منصبا على الظن المؤكد، وغيره لا يكون منهيًا عنه، بل التوكيد هو لأصل النهي، أي ينهى الله سبحانه وتعالى نبيه نهياً مؤكداً عن أن يظن فيهم خيراً، أو يصيبهم خير، و«تحسب» لها مفعولان أصلهما مبتدأ وخبر، والمفعول الأول هو (الذين يفرحون بما أتوا) إلى آخره، والمفعول الثاني محذوف دل عليه ما بعده، وتقدير الكلام هكذا: ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا موفقين أو مهتدين، أو صالحين، وحذف للدلالة ما بعده عليه، وليذهب العقل كل مذهب فيما يتناسب مع الوصف الذي وصفهم سبحانه به، وهو أنهم يزينون أعمالهم، ويرغبون في المدح الكاذب، فإن ذلك هو الضلال البعيد، وليرتب السامع عليه ما شاء من عدم الهداية وعدم التوفيق، والبعد عن الخير والنفع، فكل ذلك وغيره يتضمنه الكلام المحذوف.

(١) رواه ابن ماجه: المقدمة (٢٦١) عن أبي سعيد الخدري. كما رواه أحمد: مسند المكثرين (٨٢-١٠٠) عن أبي هريرة.

وقد صرح سبحانه بهلاكهم، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أى إذا كانوا بهذا الوصف الذى وُصفُوا به، وهو الضلال المبين فلا تَحْسَبْنَهُمْ بمقازة أى بمنجاة من العذاب، والتعبير عن النجاة من العذاب الأليم بقوله تعالى: ﴿بِمَقَازَةٍ﴾ الإشارة إلى أن أقصى ما يكون لهم من فوز أن ينجوا من العذاب الأليم أى المؤلم، ولكنهم لن ينجوا منه أبداً، ولذا أكد النهى بالخبر، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى عذاب مؤلم أشد الإيلام، أو بكل ما يتصور العقل من إيلام، ولذلك جاءت كلمة أليم نكرة، فذكر سبحانه عذابهم الأليم بالسلب والإيجاب، فنفى أولاً أنهم بمنجاة منه وأخبر ثانياً بأنهم واقعون فيه.

وهنا بيان لطرق الشيطان إلى النفس. إنه يجعل الشخص يحمد كل ما يأتيه أى يصدر عنه، ويجعل نفسه هى مقياس الخير والشر، ويحبب إليه الثناء بغير الحق، وذلك هو الغرور، وهو الضلال، وهو الضعف النفسى، والفرح بما لم يفعل، وإن الثناء الكاذب ضار بمن يكون موضع الثناء، وضار بالمجتمع ولذلك قال ﷺ: «إذا رأيتم المداحين فاحشوا فى وجوههم التراب»^(١)، وقال ﷺ: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»^(٢). اللهم اكفنا شر النفاق، وامنعنا من الغرور، وثبت قلوبنا وألسنتنا وأقلامنا على قول الحق، إنك سميع الدعاء.

(١) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه: الزهد والرقائق - النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط (٥٣٢٣).

كما رواه الترمذى: الزهد (٢٣١٦)، وأبو داود: الأدب - كراهية التمداح (٤١٧٠)، وابن ماجه: الأدب - المدح (٣٧٣٢).

(٢) رواه البخارى: أحاديث الأنبياء - قول الله تعالى: ﴿واذكر فى الكتاب مريم﴾ (٣١٨٩)، وأحمد مسند العشرة المبشرين - أول مسند عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١٤٩)، والدارمي: الرقاق - لا تطرونى (٢٦٦٥).

وَلِلَّهِ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا
وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا
عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

أنذر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة وبشر، وأرشد وزجر، وبين غرور
الذين كفروا بزخارف الدنيا، والتمكين لهم فيها مما دلاهم بغرور، وجعلوا
يعتقدون أن السلطان فيها دليل السلطان في الآخرة. وفي هذه الآية الكريمة يبين
سلطانه سبحانه، وهو الذي وعد وأوعد، وهدد وحرص، ولذلك قال سبحانه
وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أى لله وحده سبحانه ملك السموات والأرض بما فيهما ومن فيهما، وتقديم
لفظ الجلالة لإفادة الاختصاص والانفراد، وفي ذلك إشارة إلى أنه وحده
المتصرف، وهو الذى يعطى ويمنع ويحاسب ويعاقب، وقد أعطى من أعطى فى
الدنيا ليتمتعوا حتى حين، وأبقى ما أبقي فى الآخرة ليجزى الصابرين، وينال

عهده المتقون، وإن عطاءه لحكمة، ومنعه لحكمة، وفيه إشارة إلى كمال قدرته، وأنه إن أوعد بالعقاب، ووعد بالثواب فهو القدير على تنفيذ ما وعد وأوعد.

وبعد أن بين سبحانه ملكه للسموات والأرض أشار إلى ما فيهما من عبر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وقد قال فخر الدين الرازي في علاقة هذه الآيات بما قبلها: «اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما أطل الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآيات».

وفي الحق، إن هذه الآيات تدعو إلى التدبر والتفكر في هذا الكون العظيم، وصانعه الحكيم، ومبدعه ومنشئه من العدم، والآيات: الأمارات الواضحة الدالة على قدرة الصانع وسلطانه وكمال حكمته، واختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما، مع تخالف مظاهرها، فهذا نور ساطع، وذلك ظلام حالك، وفي النهار الشمس التي تمد الأرض بحرارتها وأشعتها، وبها يحيا النبات ويحيا الإنسان، وفي الليل النجوم الزاهرة، والقمر الباهر، وأولو الألباب هم أهل العقول المدركة التي تنفذ إلى لب الأشياء، ولا تكتفى بظواهرها، وما أحسن ما قاله الزمخشري في وصف أولى الألباب: «الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عن عجائب الفطرة، وفي النصائح الصغار: «املاً عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدرها متدبراً في حكمة مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر» وليس كل أولى الألباب يفهمون الآيات، بل لابد من قلب خاشع، وعقل متفكر، ولذلك ذكر لأولى الألباب أوصافاً أخرى لهم: أولها - نوه إليه سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

ذكر الله تعالى استحضر عظمته والإحساس بجلاله، واستشعار النفس بنعمه، وقد يدخل هذا في معنى قول النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) فذكر الله يتضمن كل معاني العبودية والإحساس بالآلوهية والنعم التي أسبغها على خلقه ظاهرة وباطنة، وذكر الله لب كل عبادة، وغاية كل نسك، لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت] وقد وصف الله تعالى أولى الألباب الذاكرين بأنهم يذكرون الله تعالى في كل أحوالهم، فهم يذكرونه قائمين، وقاعدين، وهم على جنوبهم، فقوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى أن الذكر يكون في عامة أحوال الإنسان في الحياة، وظن بعض المفسرين أن المراد بالذكر الصلاة لما روى أن النبي ﷺ قال لعمران بن الحصين: «صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٢) والحق أن الذكر أعم من الصلاة، وأن الصلاة الحقيقية التي تثمر ثمراتها ضرب من ضروبه، وكل العبادات من مسالكه، وقوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ مصدران وضعوا موضع الوصف وموقعهما في الإعراب أنهما حالان.

وذكر الله تعالى على هذا النحو من أكمل العبادات، ولو ذكر المؤمن ربه في عامة أحواله لساد المجتمع الإنساني كله الوثام، وما كثر الخصام، وما امتشق الناس الحسام، بل ما تنازع اثنان، وفوق ذلك من يذكر الله يعلو عن آلام الحياة واضطرابها وما ينزعج له الناس ويتحIRON فيه، ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا هو الوصف الثاني بعد أوصاف أولى الألباب الذين يدركون آيات الله الدالة على جلاله وعظمته في خلقه، والتفكر: ترداد الفكرة في النفس لتصل إلى أقصى ما تؤدي إليه، وقد جاء في

(١) سبق تخرجه.

(٢) رواه البخاري: الجمعة - إذا لم يطق قاعدا (١٠٥٠)، والترمذي: الصلاة: ما جاء في صلاة القاعد (٣٣٩)، وأبو داود: الصلاة - صلاة القاعد (٨١٥)، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢١٣).

مفردات الأصفهاني: «الفكرة قوة مطرقة للعلم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روى: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله، إذ كان الله منزها عن أن يوصف بصورة...»^(١) قال بعض الأدباء: (الفكر مقلوب عن الفرق، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها).

والتفكر في السموات والأرض له ثلاث درجات بعضها أعلى من بعض، أدناها أن ننظر إلى السماء وما فيها من نجوم وكواكب وشمس وقمر وأبراج، وما فيها من نظام بديع محكم، وهذه هي النظرة العامة التي تكون لذوى الألباب وغيرهم؛ لأن هذه النظرة أساس الحس وإشراق المحسوس.

والمرتبة الثانية التفكر في خلقها وأسرار وجودها ونواميسها وقوانينها، وهذا ما يفكر فيه علماء الكونيات الذين يعرفون ما اشتمل عليه الكون من قوى وما أودعها الخالق من أجرام وقوانين لسيورها.

المرتبة الثالثة وهي أعلاها، وهي النظرة التي تتجه إلى الخالق من وراء المخلوق، فيتدبر الكون وما فيه ليدرك عظمة المبدع، فيتعرف من جمال الصنعة جلال الصانع، وهذا النوع هو المذكور في هذه الآية وهو أعلى مراتب العبادة، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عبادة كالتفكر»^(٢) وقد كان بعض الصحابة يقول: «إن ضياء الإيمان التفكر».

وإن هذا النوع الأخير من التفكر يجعل القلب يخضع واللسان يخشع فينطق مستشعرا عظمة الله قائلا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

(١) جاء في الفتح الكبير (٥٤٣٠) ج ٢، ص ٣١٠: تَفَكَّرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى كُرْسِيِّهِ سَبْعَةَ آلَافِ نُورٍ وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ (أبو الشيخ في العظمة) عن ابن عباس. وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله): جاء في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد - من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس: «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله؛ فإن بين السموات والأرض سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك» موقوف وسنده جيد.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب ج ٢، ص ٣٩: (٨٣٨).

تلك الضراعة التي بدت على الألسنة هي أولى ثمرات التفكير، لقد وصلوا بتفكيرهم إلى إدراك ربهم فقالوا (ربنا) ونادوه سبحانه بذلك النداء الخاضع الضارع الشاكر لنعمائه، وقد وصلوا بتفكيرهم وتدبرهم إلى أن هذا الكون لا يمكن أن يخلق باطلا، أى لا يكون لغير غاية، ولا لغير حكمة، فمعنى البطلان هنا العبث وعدم الغاية وإنهم ليعلمون أن ذلك مستحيل على الله تعالى، ولذا أردفوا هذا بقولهم: (سبحانك)، أى تنزهت ذاتك وتقدس، وبذلك ارتفعوا إلى مقام التقديس وهو كمال العبودية والألوهية، ثم اعترتهم وقد وصلوا إلى هذا النوع من العلم خشية العلماء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨) [فاطر]، ولذلك غلب عليهم الخوف من عذاب الله تعالى فقالوا مرتين على تفكيرهم ما أدى إليه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فهذه ضراعة إلى الله تعالى أن يقيهم عذاب النار، والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين: أولهما- أن يوفقهم لتجنب ما لا يرضيه، والثانى- أن يغفر لهم ما أفرطوا فى جنبه سبحانه وتعالى.

وقد كان ترتيب الخوف على التفكير له موضعه لأن نهاية التفكير هو الخوف؛ إذ ينتهى إلى أعلى درجات الشعور بالمهابة لله تعالى، وهو يجعل المؤمن يستصغر حسناته، ويستكثر سيئاته، وإن الصوفية الحق يبالغون فى التفكير، حتى إنهم يفضلونه على صلوات النفل فهو من أفضل مقامات العبودية.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ هذا فى مقام التعليل لضراعتهم بالوقاية من النار، وهو تعظيم لأمر العقاب يوم القيامة، وفيه فوق ذلك شعور بالعدالة إذا وقع العقاب، إذ إنه يكون من ظلم المرتكب، وفيه أيضا بيان أن العقاب إن أَرَادَهُ اللهُ فلا مناص منه، ولا منجاة بنصر ناصر، أو شفاعة شفيع، وأعظم العقاب ما فيه من الخزى أمام الله واهب الوجود، ومولى النعم وذو الجلال والإكرام، والخزى فى أصل معناه الوقوع فى بلية، وقد يطلق على الوقوع فى البلايا المعنوية بأن يكون قد ارتكب أمرا يتعير به أمام الناس

ولا مناص لرد اعتباره، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ﴾ يتضمن هذه المعانى، فقد أوقعهم سبحانه فى بلية لا يستطيعون التخلص منها، وهم فى عار معنوى لأنهم نالوا سخط الله تعالى، وذلك بظلمهم، وقد أكدوا استحقاق المجرمين، وعدم خلاصهم منه بقولهم ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أى أن المذنبين ظالمون فهم معاقبون بحق ولا ناصر لهم، و(من) دالة على استغراق النفى، أى لا ناصر لهم أيا كان، وفى ذلك إشارة إلى انفراد الله تعالى بالسلطان.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا﴾ إذا كان ذكر الله يربى القلب، والتفكر يهديه، وهما معا يرفعان المؤمن إلى مرتبة الخوف من الله، فإن التذكر لله والتفكر فى خلقه يفتح أيضا القلب للتصديق والإذعان للحقائق الدينية، ولذلك كان من ثمرات التفكير إجابة نداء الحق، والإيمان بالله ورسوله والغيب، ولذلك كان شأن أولئك المتذكرين المتفكرين فى خلقه أنهم بمجرد أن سمعوا نداء الإيمان أجابوا . . وهنا بحوث لفظية:

أولها: أن أولئك سمعوا نداء المنادى، ولكن أسند السمع إلى الشخص لكمال الانتباه إليه، ولأن شخص المنادى له أثر فى حسن الاستماع لأنه رسول من عند الله، فما اقتنعوا بالحق لذات الحق فقط، بل لأن الداعى صادق أمين.

ثانيها: أنه أطلق المنادى، ثم ذكر بعد ذلك أنه ينادى بالإيمان وذلك لما فيه من إيهام بعده بيان، فيكون البيان أكثر ثباتا، ولأن الإطلاق أعطى المنادى تفخيما وتكبيرا، ولأن النداء إلى الحق اعتبر كالعنوان له.

وثالثها: أن الإيمان ذكر مطلقا على أنه إيمان بالرب، وذلك للدلالة على الإذعان المطلق لله وللحق والهدى . . اللهم هبنا إيمانا بالحق وإذعانا له، وقد أجابوا نداء الإيمان فقالوا (فآمنا).

وسماع النداء لا يلزم أن يكون من شخص المنادى، بل يعم السماع من شخصه وتتبع رسالته من بعده.

﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ كان التفكير والتذكر لله سببا في قوة إحساسهم بهفواتهم ونسيانهم حسناتهم وتواضعهم أمام ربهم خاضعين خاشعين، ولذلك طلبوا ثلاثة أمور: أولها: الغفران إحساسا بتقصيرهم وفضل ربهم. وثانيها: تكفير السيئات، أى الأمور التى تسىء فى ذاتها، والفرق بين الذنب والسيئة، أن السيئة عصيان فيه إساءة، والذنب فيه تقصير وتبطؤ عن الخير والغفران، والتكفير كلاهما ستر، ولكن الأول يتضمن معنى عدم العقاب، والثانى يتضمن ذهاب أثر الإساءة. والمطلب الثالث الذى طلبوه هو أن الله يتوفاهم مع الأبرار، أى يميتهم مع الأبرار بأن يسلكوا طريق الاستقامة فى الدنيا حتى يخرجوا منها مع المستقيمين الأبرار الأخيار.

﴿رَبَّنَا وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لقد ترقوا فى الطلب، فانتقلوا من طلب الغفران إلى طلب الثواب، فمعنى النص الكريم: أعطنا يوم القيامة ما وعدتنا به على السنة رسلك الأكرمين، وقد أخروا ذلك لشعورهم بهفواتهم أكثر من شعورهم بحسناتهم التى يستحقون عليها الثواب، وقوله: ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾ على حذف مضاف أى السنة رسلك، وقالوا على رسلك، ولم يقولوا على رسولك للإشارة إلى أن ثواب المطيع وعقوبة العاصى مما جاء به كل الرسل، ولتأكيد طلب إعطاء الثواب، ومع بلوغهم مرتبة الرجاء كان يغلب عليهم الخوف، ولذلك أردفوا الرجاء بقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وختموا ضراعتهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. وقد أكدوا رجاءهم فى أن يوفوا أجرهم وتغفر لهم ذنوبهم.

هذا ونبيه إلى أمرين:

أولهما: أنهم كرروا فى ضراعتهم كلمة (ربنا) وذلك لأن تفكيرهم وذكرهم أداهم إلى الاعتراف بكمال الربوبية.

ثانيهما: أن النبى ﷺ تلا هذه الآيات، ثم قال: «اللهم اجعل فى قلبى نورا، وفى سمعى نورا، وفى بصرى نورا، وعن يمينى نورا، وعن شمالى نورا،

ومن بين يدي نورا، ومن خلفي نورا، ومن فوقی نورا، ومن تحتي نورا، وأعظم لي نورا يوم القيامة»^(١).

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلْزَمَ الْكُفُورَ مِنْ دِينِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَعْرِتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(١) روى مسلم: صلاة المسافرين - الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١٢٨٠). كما رواه أبو داود: الصلاة - صلاة الليل (١١٤٨)، وأحمد: مسند بني هاشم (٣٣٦٠).

هذه إجابة الدعاء المتكرر الذى ابتهلوا به لربهم، وقد تكررت ضراعتهم لله تعالى بتكرار كلمة (ربنا)، إذ قد تكررت خمس مرات، وقد قال الحسن البصرى: (ما زالوا يقولون ربنا حتى استجاب لهم) وقال الإمام جعفر الصادق: (من حزه أمر، فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، قيل: وكيف كان ذلك؟ قال: اقرءوا إن شئتم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١٩٤) [آل عمران] والمراد من قول حفيد الرسول ﷺ أن نذكر (ربنا) ضارعين خاضعين خاشعين، مدركين معنى الربوبية والألوهية، ومدعين لأحكامه.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْشِيَ﴾ الفاء للترتيب، فالاستجابة معقبة لهذا الدعاء الضارع، والاستجابة معناها هنا الإجابة، وأصل معنى الاستجابة التحرى والتهيؤ للجواب، وإذا كان معناها هنا الإجابة، فالمودى أنها إجابة مهياة معدة لهم قد محصوا قبلها، وإجابة الله لهم دليل على استحقاقهم لرحمته، وقد أجابهم سبحانه إجابة تدل على كمال عدله، فقد قال سبحانه: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ﴾ فإذا كان سيجزيهم الجزاء الأوفى فلا أنهم عملوا خيرا، وسبحان الله الشاكر العليم، هم يطلبون الجنة منحة من الله، لأنهم لا يعتقدون أن عملهم يدخلهم الجنة استصغارا لأعمالهم بجوار نعمة رب العالمين عليهم، والله الكريم المنان يبين لهم أن ما ينالون من خير من عملهم، وأن الله إذا لم يثبهم لكان مضيعا لعمل الخير الذى قاموا به، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ففي الآية الكريمة إشارة إلى عدله ورحمته، وبيان القانون الأمثل للعدل، وهو أن يكون الجزاء من جنس العمل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة].

وبين سبحانه تعميم الجزء لكل عامل بذكر النوعين اللذين خلقهما الله تعالى في هذا الوجود، فقال: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى﴾ فلا فرق في الجزء بين الذكر والأنثى. ويروى أن السيدة أم سلمة رضى الله عنها قالت: يا رسول الله ألا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾ (١).

وفى التعبير باللفظ السامى (ربهم) إشارة إلى أن الذى يجزيهم هو خالقهم ومربيهم والمنعم عليهم، وفيه مشاكلة بين لفظ الدعاء والإجابة، ومعنى قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى أن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، فأنتم جنس واحد يتمم بعضه بعضا، فلا تُحرَمَ الأنثى جزء ولا يحابى الذكر دونها، فهذا النص السامى فيه تعليل لمعنى التسوية فى الجزء بين الذكر والأنثى. وبعض العلماء فسر قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أنها لعموم أجناس الناس، أى أنكم جميعا أيها الناس بعضكم من بعض لا فرق بين عربى وأعجمى، ولا أسود ولا أبيض، فالجزء من جنس العمل أيا كان العامل ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ...﴾ [الحجرات] وهذا النص الكريم يشير إلى عدة معان سامية:

أولها: أن المرأة ليست شيطانة ولا نجسا، بل لها كل ما للرجل وإن كان له درجة فى الدنيا لتنظيم الحياة.

وثانيها: أن العمل له جزاؤه من غير نظر إلى قبيلة العامل أو لونه.

ثالثها: أن استجابة الله ثابتة من وقت عمل العامل.

وقد بين سبحانه الأعمال التى استحققت الإجابة من هؤلاء الأبرار، فقال: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

فى هذا النص تعداد للأعمال الصالحات التى قام بها هؤلاء المؤمنون الأولون، واستحقوا بها نعيم الجنة، وتوقوا بها عذاب النار، وهى أمور ثلاثة: أخذ بعضها بحجز بعض، ومتلاقية فى معناها ومغزاها.

أول هذه الأمور أنهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم فهم هجروا مغانيهم التى تربوا فيها غير راغبين ولا محبين للخروج، بل ملجئين مضطرين، ولذلك روى أن النبى ﷺ قال مخاطباً مكة عندما خرج منها: «إنك أحب أرض الله إلى، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت»^(١) ويروى أن ورقة بن نوفل قال للنبى ﷺ: ليتنى أكون جذعا إذ يخرجك قومك. فقال له عليه الصلاة والسلام: «أو مخرجى هم» قال: ما أوتى أحد بمثل ما أوتيت إلا عودى^(٢) والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...﴾ (٣٠) [الأنفال] فكان الإخراج سبب الهجرة.

ولقد جاء فى التفسير الكبير للفخر الرازى أن كلمة هاجروا يراد بها الهجرة اختياراً، والإخراج هو الإخراج اضطراراً، وإنى أقول: إن هذه التفرقة لم تكن فى عصر النبى ﷺ، وربما تكون من بعد ذلك، فمن الناس من يخرج من ديار الشرك أو الكفر مختاراً ليكون قوة لأهل الإسلام، ومنهم من يخرج اضطهاداً وإيذاء، كما فعل كفار اليوم باللاجئين المسلمين.

والأمر الثانى الذى استحقوا به الجزاء الأوفى هو أنهم تحملوا الأذى فى سبيل الله تعالى، فهم أودوا فى مكة قبل الهجرة، واستمر الإيذاء بعدها، وكل ذلك فى سبيل الله، وفى سبيل الحق وإعلائه، وجعل كلمته هى العليا، وكلمة الباطل هى السفلى، وإن هذا يزكى الخير فيهم، فإنهم ما أخرجوا من ديارهم، وهجروا أحباءهم وذويهم إلا فى سبيل الله تعالى.

(١) رواه الترمذى: المتأقب - فضل مكة (٣٨٦٠). ورواه أحمد: أول مسند الكوفيين (١٧٩٦٦)، والدارمى: السير - إخراج النبى ﷺ (٢٣٩٨)، كما رواه ابن مساجه عن ابن عمر رضى الله عنه: المناسك - فضل مكة (٣٠٩٩).

(٢) متفق عليه، رواه فى حديث طويل البخارى: بدء الوحي (٣)، ومسلم: الإيمان - بدء الوحي (٢٣١) عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وأرضاها.

والأمر الثالث: أنهم قاتلوا في سبيل الله تعالى فجاهدوا الأعداء واستشهدوا في هذا القتال، فلهم فضلان: فضل القتال والتقدم، وفضل الاستمرار فيه والشهادة في سبيل الحق، وقد بين سبحانه وتعالى الجزاء بقوله تعالت كلماته: ﴿وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

السيئات هي ما تسوء، ومعنى تكفيرها المبالغة في سترها، حتى تعتبر نسيا منسيا، وهذا أولى الجزاء، والثاني: إدخالهم الجنة، وقد صورها بأقرب صور نراها للنعيم في الدنيا، وهي الجنة التي تجري الأنهار من تحتها. هذا، وإن نعيم الجنة حسي، وهو فوق ما نراه في الدنيا، وإن كان تصويره لا يكون إلا بما نراه، فإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي تقديم تكفير السيئات على إدخال الجنة ما يسميه العلماء التخلية قبل التحلية، أي تطهيرهم عما كان منهم من سيئات، ثم تحليتهم بأعظم نعيم يكون في الآخرة.

وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك الجزاء بـ «اللام» الدالة على القسم، و«بنون التوكيد» الثقيلة، وتوكيد معنى الكلام كله بالمصدر ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ إذ هو مصدر لما تضمنه معنى ﴿لَا تُكْفِرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ومعناه: لأثيبهم ثوابا، وقد أكد ذلك الثواب بأنه من عند الله تعالى ذى الجلال والإكرام، وإذا كان من عند الله فهو يتضمن رضوانه، ورضوانه سبحانه وتعالى أكبر، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) [التوبة].

والثواب أصله من رجوع الشيء إلى حالته، فكان الجزاء على العمل رجوع بالعمل إلى الحال التي يكون عليها أو يستحقها، وقد قال الراغب في ذلك: «والثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، فيسمى الجزاء تصورا أنه هو هو (أي أن الجزاء هو ذات العمل) ألا ترى كيف جعل الله الجزاء نفس العمل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة] ولم يقل جزاء، والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير، وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

وقد ختم سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ لبيان اختصاصه سبحانه بالثواب الحسن كأن كل جزاء للأعمال في الدنيا لا يعد حسنا بجوار ما أعده الله تعالى للمحسنين من عباده وما في الدنيا من ثمرات الأعمال لا يعد شيئا، وهذا تمهيد لقوله سبحانه: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ﴾.

في الآيات السابقة إشارات إلى سطوة المشركين؛ إذ آذوا المؤمنين، وأخرجوهم من ديارهم، وقتلوهم وقتلوا منهم، وقد بين سبحانه أنه سيجزي المؤمنين على صبرهم وهجرتهم، وجهادهم، ولكن قد يعرض للمخاطر: لماذا يكون هؤلاء المشركون في هذه القوة وتلك النعمة الدنيوية؟ فجاء النهي الكريم ليمنع من توسوس له نفسه من أن يغتر بما عليه هؤلاء المشركون من قوة وسطوة ومتاع دنيوى، والنهي موجه للنبي ﷺ، ومعناه: لا يصح أن تُغر بما عليه المشركون من قوة ومال، وهو نهى لكل المؤمنين، وفيه إشارة إلى أن هذه الحال من شأنها أن تغر وتخدع من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فكان النهى لهذا، وليس من مقتضى النهى أن يكون قد وقع من النبي ﷺ غرور، فالنهي عن أمر من شأنه أن يقع في النفوس ليس دليلا على وقوعه، ولذلك روى أن قتادة قال: والله ما غرروا نبي الله ﷺ، حتى قبضه الله إليه. ولقد قال الزمخشري في توجيه النهى للنبي ﷺ: «فيه وجهان؛ أحدهما: مدرة^(١) القوم ومتقدمهم خاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا، فكأنه قال لا يغرنكم. والثاني: أن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم، فأكد ما كان عليه وثبت ما كان على التزامه كقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) [هود]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) [القصص]، ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) [القلم]، ومعنى غره أصاب غرته، والغرة غفلة في اليقظة.

والتقلب التصرف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (٢١٩) [الشعراء]، ومعنى تقلب هؤلاء الأعداء في البلاد تصرفهم فيها حاكمين

(١) مدرة القوم (بالدال): أي المقدم فيهم.

مسيطين أقوياء ينتقلون أحراراً من بلد إلى بلد، وجملة معنى النص الكريم: لا يصح أن يُخدع أحد بما عليه أولئك الناس من قوة وسطوة وتصريف في شئون البلاد، فإن هذا إلى أمد قصير، وهو متاع قليل، ولذا قال سبحانه: ﴿قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

المتاع الشيء الذى يجعل الانتفاع به ولا يبقى طويلاً، من ذلك قوله، تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥) [آل عمران]، وهى هنا خبر لمبتدأ محذوف دل عليه الكلام الذى قبله، والمعنى أن تقلبهم وتصرفهم فى البلاد متاع قليل، فهو انتفاع عاجل ومقداره قليل، ثم تعقبه بعد ذلك حسرات، ولذلك ذكر ما يعقبه فقال: ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ العطف بـ «ثم» ليس للدلالة على التراخى الزمنى فقط، بل للدلالة على تفاوت ما بين حالهم فى الدنيا، وما يكونون عليه فى الآخرة، والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الشخص ليستقر فيه ويطمئن، فكان استقرارهم هو جهنم، وهى اسم لنيران يوم القيامة، والمهاد هو المكان المهدد والفراش اللين، ويكون التعبير عن مآلهم بالمهاد من قبيل التهكم. ويصح أن يقال إنهم هم الذين مهدوه لأنفسهم، ويكون المعنى بشئ الذى مهدوا به لأنفسهم، أى أنهم بأعمالهم فى الدنيا قد مهدوا لأنفسهم فراشاً من اللظى والجحيم وبئس هذا المهاد.

وفى هذا تعزية للمؤمنين أبلغ تعزية، وقد روى الترمذى أن رسول الله قال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبه فى اليم، فلينظر بما يرجع» (١).

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الاستدراك هنا بـ «لكن» للمقابلة بين المتقين الأبرار والمشركين الفجار بالنسبة للمال، فالكفار مآلهم جهنم ومتاعهم دنيوى قليل، والمتقون لربهم المدركون لمعنى الربوبية الشاكرون لنعمته مآلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وليست مدتها

(١) الترمذى: الزهد - باب منه (٢٢٤٥)، ورواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٥١-١). وأحمد: مسند الشاميين (١٧٣٢٢)، عن مستورد بن شداد بن عمرو.

قليلة، بل لهم فيها الخلود، فالنعم كثير والزمن طويل، بينما الآخرون نعيمهم ضئيل قصير، وعذابهم دائم كثير.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ «التَّوَلَّ» ما يعد للضيف لإكرامه والحفاوة به، ونصب (نزلا) على التمييز كما تقول كان لك هذا هبة، أى من نوع الهبة، وفى هذا بيان لمقدار عناية الرحمن الرحيم بهم، وإدخالهم مدخل صدق، وإنزالهم منزلا مباركا، وقد بين العطاء الروحى بعد العطاء المادى، فقال سبحانه: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، وقد حاول بعض المفسرين أن يقول إن الأبرار مرتبة أعلى من مرتبة المتقين، سيرا على قاعدة (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، ويكون تفسير النص السامى على نظرهم، ومعناه أن ثمة للأبرار منزلة روحية، وتكريما رضوانيا هو خير من المذكور، ومع هذا لا مانع من أن نقول إن الذين اتقوا هم الأبرار، والمعنى إن الله أعد لهم شيئا خيرا من التزل، وهو الرضوان والنعيم الروحى مع النعيم المادى.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ بين سبحانه ما كان من أهل الكتاب، وما كانوا ينزلونه بالمؤمنين، وما يسمعونهم من أذى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا...﴾ (آل عمران).

وفى هذا النص الكريم يبين الله سبحانه باب الرحمة المفتوح لهم، فذكر سبحانه مؤكدا القول بـ «إن» وبـ «اللام» الدالة على القسم اهتداء فريق منهم، وذلك أن هؤلاء المهتدين قد تحلوا بخلال خمس: أولها أنهم يؤمنون أقوى الإيمان وأخلصه، والإيمان يزيل العناد والغطرسة فيطلبون الحق لذات الحق. والثانية أنهم يؤمنون بما أنزل على النبى ﷺ بأن يعلموا أنه آخر لبنة فى صرح النبوة، وأنه لو كان موسى حيا لآمن بمحمد. والثالثة أن يؤمنوا بحقيقة ما أنزل إليهم، ويعرفوا أن الرؤساء حرفوا الكلم عن مواضعه، وأن يعرفوا أن ما أنزل إليهم أو إلى أسلافهم

هو ما جاء به محمد مخبراً عنه . والرابعة الخشوع ، وهو الخوف من الله تعالى مع الضراعة إليه وطلب رضاه دون سواه . والخامسة ألا يؤثر شيئا على آيات الله تعالى هي أماراته البينات ، وقد ذكرت هذه في آخر الآية بقوله سبحانه : ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أى لا يتركون آيات الله المبينة لشرعه ودينه فى نظير ثمن هو عرض من أعراض الدنيا فهو قليل مهما يكن كثيرا فى نظر الضالين ، وهذه الأمور الخمسة يترتب بعضها على بعض ، فيترتب على الإيمان الصادق بالله الإيمان بمحمد والإيمان بما نزل على النبيين الصادقين ، ويترتب على هذا كله الخشوع ، وأولى ثمرات الخشوع ألا يتركوا آيات الله تعالى لأى عرض من أعراض الدنيا ، هؤلاء ينالون جزاءهم ، ولذا قال سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى أولئك المتصفون بهذه الصفات التى تدل على الخلوص لله لهم جزاؤهم عند ربهم ، وإنه عاجل لهم فى الآخرة ، كما أن العذاب لمن لم يؤمنوا عاجل ، ولذلك قال سبحانه مؤكدا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كانت سورة آل عمران مبينة لآلوان الجهاد الذى يقوم به المؤمنون ، ففيها جهاد بالحق والبرهان ، وجهاد بالقتال وتحمل مرارة الهزيمة ، ولذلك ختمها سبحانه بهذا النداء السامى الذى يجب أن يكون شعار كل مؤمن ، وابتدأ النداء بآيها الذين آمنوا ، لإشعارهم بأن ما يطلب منهم هو من ثمرات الإيمان ومن مقضياته ، وقد أمر بأمور أربعة : الصبر ، والمصابرة ، والمرابطة ، والتقوى . والصبر : معناه ضبط النفس عن أهوائها ، وتحمل المكارة راضيا غير ساخط ، والقيام بالطاعات على وجهها ، وتجنب المعاصى ، وتحمل آثار الهزيمة ، والعمل على النهوض بعد الكربة ، وتحمل أذى الأعداء وسخريتهم ، فالصبر معنى نفسى فى الصابر يجعله يعلو على الحوادث والنوازل ، ويستولى على نفسه ، ويحملها على ما تحب وتكره ، والصبر كما يكون فى الفقر يكون فى الغنى ، وصبر الغنى بقمع شهواته ، وعدم البطر ، وعدم الفرح المسرف الفاخر المستعلى .

والمصابرة هي المغالبة بالصبر، وهي تكون في الجهاد مع الأعداء في الملحمة، أو في المجادلة، أو في أي مغالبة على أي لون كانت، والمرابطة هي القيام على الثغور الإسلامية لحمايتها من الأعداء، فهي استعداد ودفاع وحماية للديار الإسلامية، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما عليها»^(١)، وكان كبار الزهاد يرابطون نصف السنة، ويطلبون قوتهم بالعمل في النصف الآخر: والتقوى هي لب كل عمل صالح، وهي النية المحتسبة للخير، فالمرابطة والمصابرة إن لم تكن منبعثة من التقوى لإرضاء الله تعالى فإنه لا خير فيها، وإن هذه الأمور الأربعة هي التي يرجى بها الفلاح، أي الفوز في الدنيا والآخرة، ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي رجاء أن يكتب لكم الفوز بالنصر في الدنيا والجزء في الآخرة. اللهم اكتبنا برحمتك في عبادك الفائزين برضاك.

(١) جزء من حديث رواه البخاري: الجهاد والسير - فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٦٧٨) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. كما رواه الترمذي بلفظ (وما فيها): فضائل الجهاد - ما جاء في الرابطة (١٥٨٧)، ورواه أحمد: باقي مسند الأنصار - حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه (٢١٨٠٢).



تمهيد

قبل أن نتجه إلى التفسير التحليلي لآيات هذه السورة، لابد من تمهيد موجز يعطى القارئ صورة لما اشتملت عليه .

لقد اتفق الرواة على أن هذه السورة مدنية، أى نزلت بعد الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأن ما اشتملت عليه يدل على أنها نزلت بعد أن كان للإسلام دولة تنظم علاقاتها غيرها، وبعد أن منَّ الله تعالى على الذين استضعفوا فى الأرض وجعلهم أئمة يهدون بأمر الله تعالى فيها .

وقد روى أن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت . أولهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) [النساء] والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) [النساء] والثالثة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨) [النساء] والرابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) [النساء] والخامسة: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٣١) [النساء] والسادسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٦) [النساء] والسابعة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤) [النساء] والثامنة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) [النساء] .

وإن صحت هذه الرواية عن ابن عباس^(١) فإنها تدل على أنه اتجه إلى عدل الله ورحمته بعباده، وفتح باب التوبة والمغفرة. وإلا فإن القرآن كله بكل سورة وآياته خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت.

وسورة النساء هي سورة الإنسانية، ففيها عَيَّن القرآن الكريم العلاقات الإنسانية التي تربط الناس بعضهم ببعض، وما ينبغي أن تنهجه المجتمعات الفاضلة في جعل العلاقة الإنسانية الأصلية تسير في مجراها الطبيعي الذي رسمه رب العالمين بمقتضى الفطرة، وفيها ما حده الله - تعالى - لعلاج الانحراف الذي ينحرف به ذوو الأهواء من الآحاد والجماعات .

ابتدئت السورة الكريمة ببيان الارتباط الإنساني الجامع الذي تلتقى عنده البشرية جميعها، فقال - سبحانه - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ [النساء] وإذا كان الناس جميعا يتنهون إلى أصل واحد فإنه لا بد من التساوى، ولا بد من التراحم لهذه الرحم الواصلة، ثم إن أول مظاهر التراحم هو الأخذ بيد الضعفاء، وأوضح الضعفاء مظهرا أولئك اليتامى الذين لا عائل يعولهم، وإن اليتيم المقهور هو الذى يتولد فيه الانحراف، ومن الانحراف تكون العداوة، ويكون الشر المستطير، ولذلك ابتدئت السورة بعد إثبات الوحدة الجامعة بعلاج اليتيم لتكون الجماعات فى طريق المودة.

واليتيم لا يحتاج فقط إلى الغذاء والكساء بل يحتاج إلى المودة والإصلاح فى نفسه وماله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء].

وفى سبيل بيان حقوق اليتامى يبين - سبحانه - نظام التوزيع المالى للأسرة عندما يموت واحد منها ، فيبين الميراث وأنه حد لله تعالى للحقوق المالية لمن يخلفون المتوفى فى ماله، وأن الانحراف عنه عصيان لله تعالى .

(١) رواها ابن جرير الطبرى فى تفسيره، وروى الحساكم بإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن ابن عباس أنه قال: سلونى عن سورة النساء؟ فإنى قرأت القرآن وأنا صغير .

وبعد ذلك أخذ يبين الله سبحانه وتعالى تكوين الأسرة الإسلامية، وأساس التكوين هو العلاقة بين الرجل والمرأة، أو بتعبير القرآن السامى العلاقة بين النفس وزوجها، فنفى أن تكون العلاقة بينهما كالعلاقة بين أنثى الحيوان والذكر، بل العلاقة بينهما أسمى وأعلا، ولذلك أشار إلى عقوبة من ينزل إلى مرتبة الحيوان فقال: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾ [النساء].

وبين أن باب التوبة مفتوح لمن يقع فى هذه الخطيئة الحيوانية، ثم أخذ يرسم - سبحانه وتعالى - الطريق السليم للعلاقة بين الرجل والمرأة، وهو الزواج، وحرّم ما كان عليه أهل الجاهلية من وراثة النساء وسمى ذلك مقثا، ثم أخذ يبين سبحانه شرائط العقد الصحيح، والنساء اللاتى يحرم فى الزواج، ثم نفى سبحانه أن يكون اتخاذ الأخدان سبيلا من سبل تكوين الأسرة ومن اتخاذ الأخدان ما يسمى بالمتعة وهو اتخاذ المرأة لأمد محدود فى نظير أجر معلوم.

وبعد أن بين سبحانه العماد الذى تقوم عليه الأسرة، وهو الزوجان، أخذ يبين علاقة الإنسان بغيره من الناحية المالية فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ [النساء].

ولقد كانت العلاقة بين الرجل والمرأة موضع نظر الماضين كما هى الآن موضع النظر والقول، فوضع الله سبحانه وتعالى الحدود التى تبين حقوق كليهما، فبين الله سبحانه وتعالى أن لكل منهما نصيبه من الكسب، ﴿... لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٢﴾ [النساء]. وبين مع ذلك أن للرجال فضل الرياسة والقوامة، وأن ذلك يظهر فيما للرجل على امرأته من ولاية التأديب، وقد ذكر سبحانه ضروب التأديب التى يملكها الرجل على زوجته، وكلها من غير قسوة ولا شذوذ ولا طغيان، ثم بين سبحانه العلاج إذا أصابت الأسرة آفة الشقاق، فقال سبحانه

وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥) [النساء].

وبعد أن بين سبحانه ماهو قوام الأسرة وعمادها - وقد أشار إلى العلاقات المالية بين الناس، وأن أساسها التراضي - أخذ سبحانه وتعالى يبين لنا العلاقة بين العبد وربّه، والعلاقة بين العبد والناس بغير التجارة، فأما العلاقة بين العبد وربّه فهي العبادة لله وحده، لا يشرك به أحداً، وأما العلاقة بينه وبين الناس فهي الإحسان، وأول من يجب له الإحسان الوالدان، ثم الإحسان إلى ذوى القربى واليتامى أيان كانوا؛ لأنهم إن أهملوا تربت بينهم وبين المجتمع روح العداوة، ثم الإحسان إلى الجار المجاور، والجار القريب لك، ومن تصاحبه فى طريق أو عمل، والإحسان إلى ابن السبيل والضعفاء جميعاً، والتضامن والتواضع، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ (٣٦) [النساء].

وبين سبحانه التلازم بين الاختيال والفسخ والبخل، وبين عاقبة كليهما، وذكر أن من المختالين البخلاء من ينفقون أموالهم رثاء الناس، وأن هذه العيوب النفسية هى من وسوسة الشيطان، وبين سبحانه وتعالى عقاب هؤلاء فى الدنيا والآخرة وكيف يحضرون يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٤٢) [النساء].

وقد بين سبحانه وتعالى الأساس الذى تقوم عليه العلاقة الإنسانية، وهو الضمير، والضمير لا يتربى إلا بالصلاة، ولذلك أخذ يشير إلى أحكامها، مشيراً إلى تحريم أم الخبائث وهى الخمر، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا...﴾ (٤٣) [النساء].

ثم بين سبحانه حال أولئك الذين ماتت ضمائرهم مع ما أوتوه من علم الكتاب، وهم اليهود، فقد اتخذوا منه ذريعة للسلطان والسيطرة، وبذلك عملوا على إضلال غيرهم، وإفساد عقائد من كانوا يجاورونهم، وبين في هذا محاولتهم إيذاء النبي والتهكم عليه في دعوته، وفي أثناء بيان رسالته، وربط سبحانه وتعالى حاضرههم بماضيهم، وأشركهم سبحانه مع المشركين في قرن، وقد بين سبحانه أن الباعث على هذا الضلال والتضليل هو إرادتهم الملك والحسد، ولذا قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ [النساء] وبين سبحانه من بعد ذلك عاقبة الذين يكفرون بآياته سواء أكانوا ممن أوتوا الكتاب من قبل أم كانوا من المشركين. وقابل هذه العاقبة بما أفاضه الله - تعالى - من نعيم أخرى على المؤمنين.

وقد بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك أساس الحكم الإسلامى، فذكر أنه العدل والأمانة، وأن أمثل طريق لتحرى العدل والأمانة هو إطاعة الله ورسوله، وأن الحاكم عليه أن يرد كل تنازع إلى حكم الكتاب والسنة، وأن التحاكم إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله تحاكم إلى الطاغوت، وأن المنافق هو الذى يرتضى حكم الطاغوت بدل حكم الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النساء] وقد بين أن أمانة الإيمان هو تحكيم الكتاب والسنة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء].

وإن الحق يجب أن ينصر، وإن المؤمن لا يصح أن يستسلم للاعتداء، وإذا كان العدل وأداء الأمانة وإطاعة الله ورسوله أساس الحكم الإسلامى، فإن العدل مع المخالفين هو أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وإن القتال إذا كان العدل يستوجهه يكون أمرا لازما، فإذا اعتدى على الإسلام وأهله وجب القتال، ووجب أخذ الأهبة، وكان الحذر من الأعداء بقتالهم: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [النساء].

وإن الخروج للقتال هو العلاقة المميزة بين أقوى الإيمان وضعفاء الإيمان ومنهم المنافقون، فهؤلاء وأولئك يقولون: ﴿... لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ...﴾ [النساء].

وشأن الضعاف أن يزيلوا عن أنفسهم مظنة التقصير، وينسبوا ما يصيبهم من سيئة لغيرهم، وينكروا فضل ذوى الفضل: ﴿... وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء].

وإن أولئك يخالفون الرسول، فالله سبحانه أكد لهم أن من يطع الرسول فقد أطاع الله، وأن ذلك كله من هجرهم لأوامر القرآن، وعدم تدبرهم لإعجازه ومراميه، وأن عليهم أن يردوا ما يستغلق عليهم فهمه إلى سنة الرسول وإلى العلماء منهم.

وإن أولئك المنافقين معوّقون، ولذا أمر الله نبيه ألا يلتفت إليهم: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء].

وقد بين سبحانه أن المعاملة بالمثل هي أساس الإسلام، وأن الجزاء مجانس للعمل دائماً، والله سبحانه وتعالى سيجمع الناس جميعاً يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغي أن يعامل به المنافقون الذين هم كالداء الوبيل في جسم الأمة، فبين الله سبحانه وتعالى أن يعاملوا باحتراس ولا يتخذوا نصراء ولا أولياء، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يخلصوا في دين الله تعالى، وإذا

خرجوا من دياركم أيها المؤمنون فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا. إلا إذا لجأوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو قوم ليس بينكم وبينهم حرب ولا يريدون أن يحاربوكم، فإن قاعدة الإسلام احترام المواثيق، وأن من سالم أهله لا يرفع عليه سيف، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿... فَإِنْ اعْتَزَلُواكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُواكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ٩٠﴾ [النساء].

وإذا كان العدل هو أساس الحكم الإسلامى، وأساس العلاقات الإسلامية، فإن من الواجب أخذ الجانى بجريمته، ولذلك اتجه إلى بيان ما ينبغى لحماية النفس فى الداخل بعد أن بين طريق حمايتها فى الخارج، وهذا بالقتال، وكانت الحماية فى الداخل بالعقوبات المقررة الثابتة فى الإسلام، فذكر عقوبة القتل الخطأ من المؤمنين أو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، ثم ذكر عقوبة القتل العمد الأخرية لأنه ذكر القصاص فى سورة البقرة، وقال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ [البقرة].

وبهذا بين الله سبحانه احترام الإسلام لحق الحياة، ولذلك لا يُطْلَدُم^(١) فى الإسلام، وهو لا يحترم حق الحياة للمسلمين فقط، بل يحترمها للناس كافة إلا فى حال الاعتداء، ولذلك أمر بالاحتباس فى الحرب من أن يقتل غير مقاتل، أو يحارب غير محارب، وأمر المؤمنين عند القتال والخروج إليه ألا يقتلوا من يلقى السلام، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٩٤﴾ [النساء].

وإن العدل لا تقوم أركانه فى الأرض إلا بأمرين: أحدهما: استعداد أهل الحق لدفع شر الأعداء للحق، وإن للمجاهد فضلا على من لم يجاهد، ولذا قال

(١) أى: لا يُهْدَر.

سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً...﴾ [النساء].

الأمر الثاني: ألا يرضى مؤمن بالبقاء في ذلة تحت سلطان عدو الله وعدو الحق، بل عليه أن يهاجر من أرض الذلة، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا...﴾ [النساء].

وقد بين سبحانه وتعالى وجوب الهجرة على القادر عليها، وفضلها.

وإن الجهاد فريضة محكمة، والصلاة ذكر الله، ولذلك لا تسقط فريضة الصلاة في الجهاد، بل هي واجبة، ولها نظام خاص يلتقى فيها الجهاد مع أداء الصلاة جماعة بإمام واحد، فيبتدئ الإمام مع فريق والآخر يحرس الجماعة المجاهدة من الغارة، حتى إذا كان نصف الصلاة ذهب الذي ابتداء معه للحراسة، وجاء الذي لم يبتدئ، وأتم الإمام صلاته معه، ثم يكمل كل ما فاتته. وله فضل الجماعة.

وإن الصلاة قد اتخذت منها قوة معنوية، ولذلك أمرهم بالشبات بعد الصلاة، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

وإن النبي ﷺ في جهاده إنما يجاهد للحق، وهو الحكم العدل، ثم بين سبحانه وتعالى العدو الداخلي وهو النفاق والمنافقون، وكيف كان ﷺ لا يكشفهم ولا يظهرهم، فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء]. يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا [النساء]. وبين سبحانه عدله الكامل، ورحمته الشاملة، أما عدله فبجعله الجزاء موافقا للعمل ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ...﴾ [النساء].

وأما الرحمة فبفتحه باب التوبة وباب المغفرة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. وإن الفضل والرحمة والعدالة فيما أنزل سبحانه: ﴿... وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقد بين سبحانه أن الاستخفاء بالأقوال والأفعال عن الرسول أكثره لا خير فيه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. فالنفاق استخفاؤه ضلال، والإيمان استخفاؤه إصلاح، ونفع، ثم بين أن الموالات بين المنافقين والمشركين مشاقة لله ورسوله، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ولقد بين الله سبحانه وتعالى دعوة الله تعالى ودعوة الشيطان. فدعوة الله تعالى إلى تحكيم العقل، ودعوة الشيطان إلى الضلال والغواية، فالشيطان يدعو إلى تقطيع آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، وبين عاقبة المتبعين لله ولرسوله، وعاقبة المتبعين لأهوائهم، وكيف يرجون الخير ولا يعملون إلا الشر، وهي أماني كاذبة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]. وقد أشار سبحانه إلى أحسن الأديان، وهو الاتجاه إلى الله وحده وإحسان العمل، واتباع النبيين.

وإن الإسلام هو القسط، وقد اتجه سبحانه إلى إصلاح الأسرة بمنع الظلم عن المرأة، فإن شكت من زوجها نشوزا عاجلته هي بالإصلاح، فإن لم تجد استعانت بمن يصلحه من أقارب، وإن لم يجد إصلاحا ﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مَنِ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. وإن تقوى الله في كل الأعمال هي المطلوبة، وهي التي تصلح النفوس. ولذلك صرحت الآيات الكريمة بأنها أمر الله الدائم إلى يوم القيامة، أمر به من سبقوا ومن لحقوا.

وبعد هذا بين سبحانه وتعالى أمره الخالد، وهو العدالة المطلقة التي لا تعرف ولياً ولا عدوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ...﴾ (١٣٥) [النساء]. وأمر بعد ذلك سبحانه بالإيمان بالله ورسوله، وبهذا يشير إلى أن العدالة قرين الإيمان.

وبعد هذا البيان الرائع الذى يصور حقيقة الإيمان وعماده أخذ يصور حقيقة النفاق والمنافقين تصويراً قرآنياً، وإن أدق صورة بيانية للنفاق والمنافقين قوله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٢) [النساء].

والله سبحانه برحمته التى وسعت كل شىء يفتح باب التوبة حتى للمنافقين ثم يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧) [النساء].

أدبنا سبحانه وتعالى أدباً عالياً، وهو منع الجهر بالسوء؛ لأن الجهر به دعوة إليه، ولكن رخص للمظلوم أن يتكلم فى ظلمه بالحق ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) [النساء]، وقد بين سبحانه بعد ذلك أحوال اليهود، فقد فرقوا بين الرسل، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقد بين تعنت الماضين، مع أنهم أوتوا تسع آيات بينات، ومع ذلك طلبوا أن يروا الله جهرة، ثم اتخذوا العجل إلهاً من بعد ما جاءتهم البينات، ورفع الجبل فوقهم وأخذت عليهم العهود الموثقة، وأمروا ألا يعدوا فى السبت، ومع كل هذا خالفوا، فطبعت قلوبهم على القسوة، وعقولهم على الإنكار، والبيئات تجدى طالب الهداية فقط ولم يطلبوها، وقد استمروا على افترائهم فافتروا على مريم البتول، وادعوا أنهم قتلوا المسيح ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ...﴾ (١٥٧) [النساء]. وبهذا الظلم وتلك القسوة والجشع المادى حرم الله عليهم طيبات أحلت



لهم؛ ليفطم نفوسهم - وليسوا جميعا سواء؛ ولذلك ذكر الله تعالى الراسخين في العلم منهم ومقامهم من الحق والإيمان بهم.

ولقد بين سبحانه وحدة الرسالة الإلهية، فما أوحى إلى النبي هو ما أوحى إلى الأنبياء قبله، وإن الله يشهد والملائكة يشهدون بصدق ما جاء به، وإن الكافرين صدوا عن سبيله وضلوا وطريقهم إلى جهنم. ثم بين سبحانه ضلال أهل الكتاب، فقد غالوا في أنبيائهم، فقال النصارى: الله ثالث ثلاثة! وذلك ليس الحق ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾ (١٧٢) [النساء].

ثم بين سبحانه وتعالى أن القرآن حجته فيه، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٩) [النساء].

وقد ختم سبحانه وتعالى السورة بما ابتدأ به، وهو أمر بعض أحكام الأسرة، لبيان أن الأسرة هي حمى المجتمع وموضع صيانه، فقال سبحانه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦) [النساء].

هذه إشارة موجزة إلى ما اشتملت عليه السورة التي تعلق بالإنسانية إلى أعلى مراتبها، قدمناها بين يدي تفسيرها ليكون التفسير تفصيلا لهذه الإشارات، والله تعالى هو الذى يمدنا بعونه وتوفيقه. إنه هو الحكيم العليم.

معاني السورة الكريمة

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
 زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
 بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ
 وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
 كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

قلنا في الاستعراض الذي ذكرناه لسورة النساء: إنها سورة المجتمع الإنساني، وتنظيم العلاقات بين الآحاد والجماعات والدول، فهي تنظم الأسرة، والمجتمع الصغير، والمجتمع في الأمة الإسلامية، وحالها في الدفاع عن نفسها، ودفع عناصر الفساد فيها، وتنقيتها من كل بواعث السوء، وعلاقتها بغيرها من القوا السلم، ومن نابذوها العداوة.

ولذلك كان ابتداؤها بهذا النص السامي الشامل في معناه، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

يذكر بعض المفسرين أن النداء بـ «يا أيها الناس» يخاطب به أهل مكة، والنداء بـ «يا أيها الذين آمنوا» يخاطب به المؤمنين، وأخذوا ذلك من أن أكثر الآيات التي ابتدئت بـ «يا أيها الناس» نزلت بمكة، وأكثر الآيات التي ابتدأت بـ «يا أيها الذين آمنوا» نزلت بالمدينة، ولا شك في أن «يا أيها الذين آمنوا» خاصة في ندائها بأهل الإيمان؛ لأن صلة الموصول تعين ذلك. أما «يا أيها الناس» فتخصيصها بأهل مكة تخصيص بغير مخصص، إنما تسرى على عمومها، وهو عموم الخطاب لمن يعقلون، وذلك اللفظ وما هو مضمون النداء عام شامل لجميع

الناس، فكلمة «الناس» تشمل كل بنى الإنسان، وما فى مضمون النداء من إنذار وتبشير وبيان للحقائق الوجودية والكونية، والأدلة والبراهين أمور عامة لا تختص بقبيل دون قبيل، ولا بقوم دون قوم. وفى النص الكريم الذى نتكلم فيه يتضمن النداء حقيقة عامة نفسية تجمع بنى الإنسان مهما تختلف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، فهو يثبت أن الأصل هو «نفس واحدة» كلهم يرجعون إليها، ويتصلون بها، وهذا النص يشبه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [الحجرات].

يبد أن النص الذى تحدث عنه يثبت أن الذكر والأنثى من طبيعة واحدة، ويثبت فى مضمونه الصلة الرحيمة التى تربط الناس جميعا، وما ينبى عليها من تعاطف وتواد وتراحم، والنص الآخر يبين وجوب التعارف الذى هو الطريق للتراحم والتواد، فهنا بيان الغاية، وهنالك بيان طريقها.

نادى الله سبحانه وتعالى الإنسانية، ذلك النداء الخالد ونبههم سبحانه وتعالى إلى الوحدة فى أمرين:

أولهما: وحدة الربوبية، فإن ربكم واحد، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّ﴾ الذى هو رب الجميع، رب الأبيض والأسود والعربى والأعجمى، والعالم والجاهل، فصلة الجميع به واحدة، وهى صلة الربوبية، وإن هذه الصلة توجب أن يشعر الجميع بأنه لا فضل لجنس على جنس، ولا للون على لون إلا بمقدار الاتصال الروحى بخالق الخلق، وذلك بالتقوى، فهذه الصلة مقوية للأمر بالتقوى، وأنها مناط التفضيل، وهى سبيل قوة الصلة الرابطة.

والثانى: وحدة التكوين والإنسان، فالكل ينتهى إلى نفس واحدة هى الجنس العام الجامع، مهما يعلُ ابن آدم أو ينخفض فالى هذه النفس ينتمى، وبهذه الأخوة العامة يرتبط.

والأمر بالتقوى فى هذا المقام لبيان الصلة التى تربط الإنسان بالرب الذى أنعم بهذا الوجود على كل من فى هذا الوجود، وكان ذلك الأمر ممهدا لأمر آخر،

وهو أن يلاحظ كل إنسان تلك الأخوة الرابطة في كل عمل يعمل، وكل غاية يتغياها ويريدها، وما أجود ما قاله الزمخشري في هذا المقام، فقد قال جار الله رضى الله عنه: «أراد بالتقوى تقوى خاصة، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله، فقليل اتقوا ربكم الذى وصل بينكم، حيث جعلكم صنوانا مفرغة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه، وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة».

والنفس الواحدة هى آدم أبو الأناسى فى هذا الوجود، والمعنى على هذا الكلام يتطابق مع قول النبى ﷺ «كلكم لآدم وآدم من تراب»^(١) وهذا نظر الأكثرين من المتقدمين، وهو الذى يتلاقى مع قوله بعد ذلك: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

وقد ذكر الرازى فى مثل هذا المقام أنه قد يراد بنفس واحدة أن البشر جميعا متجانسون متحدون فى المنشأ ونفوسهم متشابهة متلاقية، فهم جميعا يتتهون إلى نوع من النفوس واحد، وقد ذكر هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾ (١٨٩) [الأعراف] فقد نقل عن القفال فى تأويل هذه الآية أنه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل، والمراد خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه فى الإنسانية، وارتضى أن يكون هذا أحد التأويلات.

وعلى هذا الكلام يكون المعنى: إن الله تعالى خلق نفسا واحدة تلتقى عندها كل الأنفس متشابهة متشاكلة، وإن ذلك يقتضى التشابك فى كل بنى الإنسان، ومع التساوى فى الخلق يكون التساوى فى الحقوق والواجبات.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الزوج القرين المجانس أو المقابل غير المجانس، وقد قال فى ذلك الأصفهانى: «يقال لكل واحد من القرينين

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٠٥٥)، والترمذى (٤١٢٧) وحسنه، وأبو داود بنحوه (٥١١١) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

من الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفى غيرها زوج، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج. قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٣٩) [القيامة] قال: وزوجك الجنة^(١)، وزوجة لغة رديئة، وجمعها زوجات. قال الشاعر: «فشكا بناتى شجوهن وزوجتى».

وإن كثيراً من المفسرين على أن المراد من الزوج حواء، وقد خلقت من آدم، وقد أخذوا من ظواهر آثار وردت عن الصحابة، وعن تفسير بعض التابعين، ومن ظاهر قوله ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج»^(٢).

وإن كثيرين من المفسرين قالوا إن المراد من جنسها أى من طبيعتها، ومن خواصها، وذلك مثل قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (٢١) [الروم]. ومثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً...﴾ (٧٢) [النحل]. وقوله تعالى: ﴿فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى].

وإذا كانت الزوج من جنس النفس العامة فإنه يسكن إليها ويطمئن عندها كما ذكر فى آيات أخرى غير الآية التى هى موضوع كلامنا.

وقد كانت نتيجة ذلك الازدواج النفسى والجسدى، أن كان البشر، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾. والبت معناه النشر والتفريق، ومن ذلك

(١) أى فى قوله تعالى فى سورة البقرة (٣٥): ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

(٢) أصح ما ورد فى هذا الحديث ما جاء فى الصحيحين؛ رواه مسلم: الرضاع - الوصية بالنساء (١٤٦٨)، ولفظه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضُلْعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عَوْجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسَرُهَا طَلَاقُهَا»، ورواه البخاري: النكاح - المداواة مع النساء (٥١٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَزَرَّابِي مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية] وإن هذا يدل على أن البشر الذين تفرقوا في هذا الوجود رجالاً وإناثاً، وانشعبوا قبائل متفرقة في أقصى الأرض وأدناها، كلهم ينتمون إلى هذه النفس الواحدة بلا فرق بينهم في أصل الانتماء، وفوق هذا يدل الكلام على أن طبيعة المرأة من طبيعة الرجل، وأنها ليست من جنس مردول يجرى الشيطان في عروقه ولا يجرى في عروق الرجل، وأنها لعنة الله في الأرض كما تجرى عبارات بعض المتكلمين في المسائل الدينية من غير المسلمين، وإن الآيات المتضاربة التي تدل على أن الزوج من نفس الزوج فيها إشارة إلى وجوب التجانس النفسى بين الزوجين، وأن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وكل رجل يكون كنصف دائرة يسبح في الوجود حتى يلتقى بنصف الدائرة الذى يساوى قطره فيكون الالتئام وتكون الحياة الزوجية الهنيئة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ تساءلون أصلها تتساءلون فأدغمت التاء في السين، وقرئ تساءلون بطرح إحدى التاءين، ومعناها يوثق بعضكم مطالبه من أخيه ومسألته له بالله تعالى أى يسأل بعضكم مزكياً مسألته بذكر الله تعالى، وبذكر الأرحام الرابطة بينكم، ووشائج القرى.

والأمر بالتقوى تكرر لتربية المهابة فى النفس، ولتوكيد الطلب، ولأن مقام التقوى فى الثانى غير مقام التقوى فى الأول، فمقام التقوى فى الأول هو مقام التقوى التى تتجلى فى شكر الرب على ما أنعم، وقيام الواجب نحو الخلق للصلة الجامعة الوثيقة، فهى تقوى الربوبية والإنعام، ومقام التقوى فى الثانى تقوى الألوهية، ولذلك ذكر لفظ الجلالة الدالة على كل معانى الألوهية، فهى تقوى العابد الخائف الراجى رحمته، والأولى تقوى الشاكر المحس بجلال الإنعام.

والأرحام قرئت بفتح الميم^(١)، ويكون المعنى اتقوا الله واتقوا الأرحام، ومعنى اتقاء الأرحام ألا يقطعوها، بأن يجعلوا لها وقاية من المودة الواصلة،

(١) قرأها بالجر حمزة، وقرأ الباقون بالنصب. [غاية الاختصار ج ٢، ص ٤٥٩].

والأرحام هنا هي كل الصلات الإنسانية التي وصل بها بين الخلق بخلقهم من نفس واحدة، وبالأولى تدخل الأرحام الخاصة، والقرباب القريبة.

ويصح أن يكون المعنى اتقوا الله الذي تتساءلون به وبالأرحام، وتكون الواو واو المعية، وتتلافى هذه مع قراءة الكسر^(١)، وقراءة الكسر قد تتعارض مع قواعد النحاة الذين قد يقولون إن العطف لا يكون على ضمير موصول مجرور، ولكن قراءات القرآن المتواترة فوق قواعد النحاة، وهي أصدق في الفصحى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ هذا ختام للآية الكريمة فيه حث على المبالغة في التقوى ورعاية الرحم، والصلوات الإنسانية التي تربط بين الناس بعضهم للوحدة الإنسانية الشاملة، وكان الحث على التقوى لإشعارهم جميعا بقوة رقابة الله سبحانه وتعالى. وقد ذكر العلى التقدير رقبته مؤكدة بأوثق تأكيد، فأكدتها بـ «إِنَّ» وبتكرار لفظ الجلالة الذى يربى فى نفس المؤمن كل معانى العبودية، وبالتعبير بـ «كان» الدالة على الدوام والاستمرار، وبذكر الفوقية فى قوله تعالى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وهى دالة على معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر، وأخيرا بصفة المبالغة إذ قال: ﴿رَقِيبًا﴾ وإن الله يؤكد صلة الأرحام بهذا وباقتنائها به فى الذكر وباقتنائها به عند السؤال باسم الله تعالى، ويقول الزمخشري: «وقد أذن عز وجل إذ قرن الأرحام باسمه - أن صلتها منه بمكان كما قال تعالى: ﴿... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ (٢٣) [الإسراء] وعن الحسين: إذا سألك بالله فأعطه، وإذا سألك بالرحم فأعطه».

﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطِّيبِ﴾ أوجب سبحانه وتعالى الرحمة العامة فى الآية السابقة وأخصها ما كان فى الأسرة الواحدة، وقد ابتدأ فى هذا بأحق الناس بالرحمة العاطفة، والمودة الواصلة، وهم الذين نزلوا إلى هذا الوجود من غير حام غير الله تعالى يحميهم، ولا قلب يحنو عليهم حنو الوالد الشفيق، وأولئك هم اليتامى، واليتيم معناه: (الانفراد) واليتيم هو الصغير الذى مات أبوه، وقد حث الله تعالى على إكرام اليتامى فى آيات كثيرة، وأحاديث نبوية

(١) هى قراءة حمزة كما سبق بيانه.

مستفيضة قد تضافرت كلها على وجوب إكرامه ومنع قهره وإذلاله، ذلك أن اليتيم يحتاج إلى إصلاح وعطف ومحبة تعوضه عما فقد من رعاية، وإن العواطف الإنسانية تنمو في الطفل وهو صغير بالمجاوبة النفسية بينه وبين من يحيطون به. فإذا انقطعت تلك العاطفة في الصغر نفر ونظر إلى الجماعة كلها نظرة العدو إلى عدوه، فيكون من هؤلاء الذين فقدوا عطف الأبوة ولم يكن ما يعوضها - الشذاذ وقطاع الطرق، وبعبارة عامة من ليس عندهم ضمائر، ولا نفوس لوامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ فيه أمر واضح بالرعاية من ناحية المال، فلا يمنعون حقهم المالى، والأمر بالإيتاء أمر لعموم الجماعة الإسلامية بأن تتضافر في تمكين اليتيم من أن يصل إليه ماله، فلا يأكله الورثة ويضيِّعون حقه، وعلى ذلك يكون معنى الإيتاء تخصيص نصيب لليتامى كاملاً غير منقوص، فتحفظ لهم حصتهم في أبيهم أو في مورثهم، ويحفظ لهم نصيبهم في كل غلة لأموالهم، ويكون وصف اليتامى على حقيقته؛ لأن ذلك وهم صغار، وفسر بعض العلماء الإيتاء بالإعطاء لهم إذا بلغوا رشدهم، ويكون التعبير عنهم باليتامى باعتبار ما كان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ﴾ معناه: لا تجعلوا لهم خبيث المال بدل الطيب، ويكون الطيب معناه الجيد، والخبيث معناه الردى، فعلى هذا يكون المعنى الجملى: لا تجعلوا ردىء المال لهم بدل الجيد، فإذا كانت التركة شاء فلا تجعلوا لهم الهزيلة، ولكم السميثة، وإذا كانت نقداً فلا تجعلوا لهم الزيوف، وتجعلوا لأنفسكم الجيد، ومعنى التبدل، جعل شيء بدل شيء أى يجعلون الردىء بدل الجيد، والباء فى مادة التبدل يجوز أن تدخل على المترك، ويجوز أن تدخل على المأخوذ، وهى هنا على المترك، لأنه يترك عنهم الجيد، ويؤخذ لهم الردىء وفسر بعضهم الخبيث بالحرام، والطيب بالحلal، ويكون المعنى: لا تجعلوا الحرام عليكم بدلا عن الحلal، أى لا تأخذوا الحرام من مالهم وتركوا الحلal الطيب من أموالكم، وبهذا فسر الزمخشري.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ الكلام السابق كان فى تخصيص أنصبة لهم غير منقوصة، وتخير هذه الأنصبة من الطيب دون الخبيث، وهنا الكلام فى خلط أموالهم بأموال الأوصياء، ومعنى النص الكريم: لا تضموا أموالهم إلى أموالكم آكلين لها. والآية صريحة فى النهى عن خلط مال القاصر بمال الموصى عليه قاصدا أكله؛ لأن الأكل فى ذاته حرام، وهى أيضا تتضمن النهى عن خلط مال القاصر، ولو لم يقصد أكله؛ لأنه قد يؤدى إلى ضياعه وعدم تمييزه، إذ يخشى أن يموت من غير أن يعرف مال اليتيم من ماله، فيؤدى الأمر إلى أكله، وإن لم يكن مقصودا، ولذا يقول الفقهاء: إذا مات الموصى على اليتيم مجهلا مال اليتيم اعتبر مستهلكا له.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ الضمير يعود إلى النهى عن أكل مال اليتيم بأى طريق كان الأكل، ومعنى «حوبا كبيرا»: إثما كبيرا، فالحوب معناه الإثم، وفلان يتحوب أى يتأثم، والحبوب النفس المرتكبة للإثم، وإن الإثم فى هذا كان كبيرا؛ لأنه اعتداء على ضعيف، والاعتداء على الضعيف أكبر الإثم، ولأنه خيانة للأمانة، ولأنه تضييع لنفس بشرية وهى نفس اليتيم؛ لأنه إذا كان يؤكل ماله فمم يأكل؟ ولأن ذلك ينشئ اليتيم على النفرة من المجتمع، وفى ذلك شر مستطير، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٩) [النساء].

وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا
مَآطِبَ لَكُمْ مِنَ الْيَسَاءِ مَتْنِي وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا
الْيَسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَبْنِ أَمْرِيكَ ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَمًا وَآرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾

بين الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة حق اليتيم من العطف والرعاية ومضار إهماله وعدم إصلاحه والعمل على إزاله، وفي هذه الآيات يبين حق النساء، والأمر فيهن يتلاقى مع أمر اليتيم؛ لأنهن ضعاف^(١)، فهن في حاجة إلى رعاية وإصلاح وعطف، ومعاملة عادلة لا شطط فيها ولا جور، ولذا قال تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...﴾ [المائدة: ٣].

معنى الإقساط العدل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أى تقيموا العدل بيسر ليصل إليهم من غير مجهود، فمن النقص في العدل ألا يصل العدل إلى صاحبه إلا بمشقة وجهد.

ومعنى «خفتهم»: ظننتهم، ومعنى «ما طاب لكم»: ما حل. وقد تفسر بمعنى ما تستحسنونه من النساء لدين وخلق ونسب وجمال أو لواحد من هذا، و«ما» هنا فى موضع العاقل، وعبر بـ «ما»، وهى فى أضل وضعها لغير العاقل، إما لأنه أريد الصفات؛ لأن طاب تدل على أن الوصف أساس الاختيار، وإما لأن جماعة الإناث تعامل فى نسق القول معاملة غير العاقلين كما قرر الزمخشري، وإما لأنه عند التعميم يستعمل (ما) فى موضع (من)، و (من) فى موضع (ما) كقوله تعالى: ﴿... فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ...﴾ [النور: ٤٥] وذلك هو الذى نختاره. والنكاح هنا معناه العقد، وكلمة النكاح فى القرآن الكريم لم تستعمل إلا فى موضع العقد، لا الوطء.

وهنا شرط وجواب، والشرط هو ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ والجواب هو ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، وقد تكلم

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول على المنبر: «أَحْرَجُ مَالِ الضَّعِيفِينَ: الْيَتِيمَ وَالْمَرْأَةَ». رواه الحاكم فى المستدرک (٧٢٤٥): ج ٤، ص ١٤٣، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

العلماء فى العلاقة بين الشرط وجزائه، وتساءلوا ما العلاقة بين الإقساط فى اليتامى، والزواج مشنى وثلاث ورباع، إلى آخر النص الكريم؟ وقد أجيب عن ذلك بعدة إجابات:

أولها: أن الرجل تكون فى ولايته يتيمة، فيخشى ألا يتزوجها خشية ظلمها، أو يخشى أن يطلبها من وليها فيكون منه الظلم لضعفها وعدم وجود حام لها، فقال الله تعالى ما معناه إن رغبت فى الزواج من اليتيمات، وخشيت من تحقيق هذه الرغبة ألا تعدلوا فى اليتامى فلا تحققوا هذه الرغبة، وانكحوا ما طاب لكم من النساء مشنى وثلاث ورباع، وتكون إباحة التعدد وتقييده قد جاءت عرضاً، لا بالقصد الأسمى فى البيان، وقد روى المفسرون ذلك عن عائشة رضى الله عنها.

وثانيها: أن المعنى: إن خفت ألا تقسطوا فى اليتامى فخافوا أيضاً ألا تقسطوا فى النساء بتزوج أكثر من أربع، أو فى دائرة الأربع ولا تعدلوا، أى أنه إذا كان قد تحقق منكم هذا الخوف بالنسبة لليتامى فخافوا بالنسبة للنساء، فلا تتزوجوا أكثر من أربع، وعلى هذا التخريج يكون النص قد سيق لتقدير التعدد لا لإباحته، وقد قال هذا بعض التابعين.

وثالثها: وقد ذكره الزمخشري، وهو أن يكون المعنى: إن خفت ألا تقسطوا فى اليتامى فخافوا الزنا أيضاً، وإذا خفت الزنا فانكحوا ما طاب لكم من النساء مشنى وثلاث ورباع، والربط بين الزنا وظلم اليتامى أن كليهما فيه إضعاف للنسل، فالزنا إضعاف له بإخراج مولود ليس له ولى أصلاً، واليتم فقد الولي، فكلاهما فاقد للنصير، ومن حماية الإنسان من الزنا أن ينكح ما طاب له مشنى وثلاث ورباع، ويكون فى هذا التخريج بيان التعدد المباح، وإشارة إلى بعض حكمته.

ورابعها: وهو ما اختاره ابن جرير الطبرى، أن المعنى إن خفت ألا تقسطوا فى اليتامى، فخافوا أيضاً ألا تقسطوا فى النساء إذا تخلفت العدالة عند التعدد فلا تعددوا، وإذا تخلفت العدالة فى الواحدة فمما ملكت أيما نكم، فالآية سيق للعدالة فى التعدد وعدم التعدد، وهو قريب من الثانى، فإن كليهما لمنع ظلم

الفساد، بيد أن الثانى تخريجه على أساس تقييد العدد، أما هذا فسياقه المطالبة بالعدالة، وهما متلاقيان فى الجملة.

وعلى كليهما يكون التعدد والعدالة قد سيق الكلام لهما، ولم يكن عرضا، وإننا نختار ذلك، وسياق القول يدل عليه، وذلك أن الكلام فى اليتامى قد اختلط بالكلام فى النساء، وذلك لأن كليهما ضعيف، وقد كانت حقوق المرأة ضائعة مأكولة كما كانت حقوق اليتيم ضائعة مأكولة، والمرأة فى عهد نزول القرآن كانت أسيرة فى بيت أبيها وبيت زوجها فأوصى الله برعايتها كما أوصى برعاية اليتيم، ولذلك قيد التعدد بالعدل، وقيد بالقدرة على الإنفاق كما سنبين، وذلك لكيلا يقع ظلم على المرأة.

ولفظ «مثنى» معدول به عن اثنين، اثنين، وثلاث معدول به عن ثلاث ثلاث، ورباع معدول به عن أربع أربع، ومعنى جاء الجند مثنى أى جاءوا اثنين اثنين، وجاءوا ثلاث أى ثلاثة ثلاثة، ورباع أى أربعة أربعة، ومعنى الآية على هذا أن لجماعة العاقلين أن يتزوجوا معددين جامعين اثنين أو جامعين ثلاثا، أو جامعين أربعاً، والخطاب فى قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا﴾ لجماعة المسلمين، أى كونوا أيها المسلمون معددين اثنين أو ثلاثا إلى آخره.

والعطف على نية تكرار العامل، أى انكحوا جامعين اثنين أو انكحوا جامعين ثلاثا أو انكحوا جامعين أربعاً، وبهذا النص يستفاد أن الإباحة مقصورة على أربع، وقد ثبت فى السنة أن بعض الذين أسلموا كان معهم فى عصمتهم أكثر من أربع فأمرهم النبى ﷺ أن يقتصروا على أربع، ويطلقوا الزائد عنهم^(١).

وقد قيد التعدد بقيدين أحدهما القدرة على العدالة، والثانى القدرة على الإنفاق، ولذلك قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

(١) عن سالم، عن أبيه قال: أسلم غيلان بن سلمة الثقفى وعنده عشر نسوة فأمره النبى ﷺ أن يأخذ منهن أربعاً. رواه الحاكم فى المستدرک (٢٨٢٩) ج ٢، ص ٢٠٩.

العدالة شرط في كل زواج ولو كان ذا زوجة واحدة، فمن كان غير قادر على العدالة أو على الإنفاق لا يحل له أن يتزوج، والزواج مطلوب من القادر على العدالة والإنفاق، ولذا قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (أي تكاليف الزواج من نفقة وغيرها) فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١) أى إنه قاطع شهواته بالسيطرة عليها، وإذا كانت العدالة مطلوبة في الزواج الواحد، فهي ألزم في تعدد الزوجات، ومعناها يتسع، فتكون العدالة مع كل واحدة بحيث لا يظلمها في ذاتها، ويجب عليه أن يساويها مع غيرها، والعدل المطلوب هو العدل الظاهر بالتسوية بينهما في المطعم والملبس والسكن والبيت، فلا يبيت عند واحدة أكثر من غيرها إلا بإذنها، أما العدل الباطن بمعنى التسوية في المحبة القلبية، فهي غير ممكنة وغير مطلوبة، وقد جاء في أحكام القرآن للجصاص: «أمر الله تعالى بالاعتصام على واحدة إذا خاف الجور ومجانبة العدل. إنها إباحة لاثنتين إذا شاء، وللثلاث إن شاء، وللأربع إن شاء، فإن خاف ألا يعدل اقتصر من الأربع على الثلاث، فإن خاف ألا يعدل اقتصر على اثنتين، فإن خاف ألا يعدل اقتصر على واحدة... والعدل المطلوب هو العدل الظاهر، وهو القَسَم بين الزوجين، والمساواة في الإنفاق، والمساواة في المعاملة الظاهرة، وليس هو العدل في المحبة الباطنة فإن ذلك لا يستطيعه أحد، ولا يكلف الله إلا ما يكون في الوسع، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وكان النبي ﷺ لا يسوى بين أزواجه في المحبة القلبية؛ ولذلك كان يقول عند قَسَمه بين أزواجه: «اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(٢).

وقد وفق العلماء بين هذه الآية التي تطالب بالعدل، وبين الآية التي تنفي إمكانه، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا

(١) رواه البخاري: النكاح- من لم يستطع الباءة فليصم (٥٠٦٦).

(٢) روى أبو داود: النكاح- القسم بين الزوجات (٢١٣٤) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلْمِزْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ» قَالَ أَبُو دَاوُدَ: يَعْنِي الْقَلْبَ.

تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعْلَقَةِ ... ﴿١٢٩﴾ [النساء] فقالوا إن العدل المطلوب هو العدل الظاهر والمساواة فى المعاملة والعدل المنفى المساواة فى المحبة القلبية .

وإنه واضح أنه إذا لم يستطع العدل الظاهرى وجب الاقتصار على واحدة ، وإن لم يستطع العدل معها اكتفى بالدخول بملك اليمين ، أى بالدخول بالجارية التى يملكها ، وقد زال الرق ، فزالت معه تلك الرخصة ، فمن لم يستطع العدالة مع زوجه عليه أن يروض نفسه بالصوم ، أو يروض نفسه على العدالة .

وقد قيد التعدد بقيد ثان ، وهو القدرة على الإنفاق على النسوة اللاتى يتزوجهن ، وعلى من سيرزقهم الله منهن ، وقد أشار القرآن إلى وجوب مراعاة ذلك ، فقد قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أى إن هذا التقيد بهذا العدد المحدود ، مع قيد العدالة ، ومنها القدرة على الإنفاق ، أقرب إلى ألا تعولوا ، وعال يعول معناها مال ، ومنه عال الميزان أى مال ، وفسرها بعض العلماء بمعنى ذلك أدنى ألا تجوروا ، وروى ذلك التفسير عن عائشة - رضى الله عنها ، ولكن فسرهما الإمام الشافعى بألا يكثر عيالكم ، وهذا التفسير يؤدى إلى معنى جديد ، لم يفهم مما سبق ، وقد رجح ذلك الزمخشري بقوله : «والذى يحكى عن الشافعى أنه فسر أَلَّا تَعُولُوا : أَلَّا تَكْثُرَ عِيَالُكُمْ فوجهه أن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم ، كقولهم مانهم يمونهم إذا أنفق عليهم ، لأن من كثر عياله لسزمه أن يعولهم ، وفى ذلك ما يصعب المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب ، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورعوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد ، وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعُولوا ، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : «لا تظن بكلمة خرجت من فم أخيك سوءاً وأنت تجد له محملاً» ، وكفى بكتابنا «شافى العى ، من كلام الشافعى» شاهداً بأنه أعلى كعباً ، وأطول باعاً فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب ، فسلك الشافعى فى هذه الكلمة طريق الكنايات .

ومع أن التعدد مقيد بالعدالة والقدرة على الإنفاق، وهي تدخل في العدالة، لا يعتبر العقد فاسدا إذا لم يتوافر هذان الشرطان ولم يحدث أن قاضيا أو حاكما اشترط لصحة العقد أو نفاذه ذلك الشرط، والإجماع على أنه لا أثر لفقد الشرطين في العقد، وكل كلام غير ذلك هو بدعة لم تكن عند السلف، وإنما لم يفسد العقد لأن الفساد يكون بأسباب واقعة، لا بأسباب متوقعة، والعدالة والإنفاق أمران مقدران في المستقبل، فقد يتوب من الظلم، وربما يجعل الله من عسره يسرا، ولأن الظلم أمر نفسي، والفساد والبطلان لا يكونان لأمر نفسية خفية لا يجري عليها الإثبات. وإذا سوغ بعض الناس للقاضي ألا يأذن إلا إذا تأكدت العدالة والقدرة على الإنفاق، فقد جعل للقاضي ما لا سبيل إلى التأكد منه، ثم إن العدالة والقدرة على الإنفاق لازمان في الزواج^(١) لزومهما في الزواج الثاني والثالث، فلماذا يسوغان ذلك للقاضي عند التعدد فقط؟! إن ذلك معاندة لشرع الله تعالى الذي أباح التعدد.

والتعدد لا بد منه عند استحكام الشهوات؛ لأنه إن لم يعدد اتجه إلى الحرام، والحلال على أية صورة خير من الحرام، واتخاذ الحلائل خير من اتخاذ الحلائل، والتعدد قد يكون علاجا اجتماعيا، عندما تأكل الحرب شباب أمة من الأمم ويكون عدد النساء الصالحات للزواج أكثر من الشباب بأضعاف مضاعفة، ولا سبيل لإكثار النسل إلا بالتعدد، وهو في هذه الحال منع للمرأة من الابتذال ووقوعها في البغاء، وإن التعدد في هذه الحال خير للمرأة بلا ريب، فليس التعدد شرا على المرأة في مجموع عددها، وقد تكون الزوجة في حال تستوجب أن يتزوج الزوج بأخرى لمرضها أو يطلقها، والخير لها حينئذ في بقاء الزوجية. ذلك شرع الله. وقد منع الأوروبيون التعدد الشرعي، ففتح الناس باب التعدد الحرام، وفسدت الأسرة هنالك وانحلت، والأسرة الإسلامية ما زالت أقوى الأسر استمساكا، ولا تزال كذلك ما استمرت مستمسكة بدينها، معرضة عن الدعوات التي تريد إبعادها عنه.

(١) أي في الزواج الأول، وبعبارة أخرى: في الزواج بواحدة.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ هذا الكلام فى بيان العدالة مع النساء فى المعاملة، فلا يصح أن يستهان بحقوقهن التى ينشئها الزواج، وأولها المهر، فالصدقة هنا هى المهر، وسمى صدقة لأن تقديمه يدل على صدق النية، والإخلاص فى طلب الزوجة، فمن أخلص فى طلب يد امرأة قدم لها ما يليق بمثلها تكريماً لمعنى الزوجية، وتشريفاً لتلك العلاقة، وقال تعالى: ﴿نِحْلَةً﴾ ومعناها عطاء بطيب نفس، وهى «فِعْلَةٌ» من نَحَلَهُ ينحله بمعنى أعطاه هبة صادق النية، وفسرها بعض العلماء بمعنى فريضة واجبة، وقد فسرها بذلك أبو عبيدة، وقال الزجاج فى آتوهن صدقاتهن نحلة (تدينا) أى أن الدين أوجب ذلك، والخطاب لجماعة المؤمنين يوجب أداء المهور صادقى النية طيبى النفوس متدينين بهذا العطاء.

﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ الحياة الزوجية لا تقوم فقط على التكليف الواجب، بل تقوم على المودة الرابطة والتسامح، وقد يجهد الرجل المهر كله، فيقتضى حسن العشرة أن تترك بعض مهرها طيبة النفس، وليست المهور كسائر الديون، إنما هو دين فيه معنى الهدية، ولذلك فتح الشارع الباب لمثل هذه المعانى. ولذلك قال تعالى: ﴿...وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة] ومعنى طابت نفسها رضيت من غير تورط، ولا تغرير ولا ضغط ولا إرهاق، وطيبة النفس بالعطاء أرق من الرضا به؛ لأن الرضا قد يتصور مع التورط أما طيبة النفس فلا تتصور إلا بالسماح، بل من غير طلب بالتصريح أو بالإشارة، ومعنى هنيئاً، أى لا ألم فى أخذه، ومعنى مريئاً حسن العاقبة، وأكل المال أخذه، فلا يراد بالأكل هنا حقيقته، بل يراد الأخذ الذى يؤدى إليه.

وقد كان يحدث أن بعض الناس يرهقون زوجاتهم ليركوا بعض المهر أو كله، فكان الفقهاء حريصين على أن تنوافر الحرية كاملة فى العطاء، ولذا كتب عمر -رضى الله عنه- إلى بعض قضاته: «إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيا

امراً أعطت ثم أرادت أن ترجع فلها ذلك». وروى أن رجلاً أبرأته امرأته من مهرها، ثم طلقها فرجعت^(١) فاحتكما إلى عبد الملك بن مروان فحكم لها، وقال شريح في مثل هذه الحال: لو طابت نفسها ما رجعت، وكان الأوزاعي لا يجيز هبة المهر إلا بعد أن تنجب منه، أو تمضي سنة على زفافها - والنص يشير إلى أنه يحسن ألا تترك له كل المهر، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ ومن للتبعيض أى عن بعضه، ويظهر أن هذا لتأكيد طيب نفسها، ويجوز الإبراء منه كله.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ السفهاء جمع سفيه، والسفه اضطراب فى الرأى والفكر، وأصله من اضطراب المحسوسات. ويقول الراغب الأصفهاني فى مفرداته: «السفه صفة فى البدن، ومنه قيل زمان سفيه كثير الاضطراب، وثوب سفيه ردىء النسيج، واستعمل السفه فى صفة النفس لنقصان العقل فى الأمور الدنيوية».

والسفهاء هنا هم الذين لا يحسنون تدبير الأموال إما لصغر سنهم، وإما لنقص عقولهم، وإما لسوء تدبيرهم وتبذيرهم، والقيام هنا هو الولاية المالية والسلطان، وعبر عن الولاية بالقيام، لأن القيام هو العماد والسناد فى اللغة، والولاية المالية المقصود منها أن تكون عمادا وسندا للقاصر المولى عليه، وعلى هذا التفسير يكون معنى السفهاء شاملا لكل العاجزين عن تدبير المال أيا كان سبب العجز. ويكون معنى النص الكريم: لا تعطوا المال للذين لا يحسنون القيام عليه لصغر أو نقص عقل، أو فساد رأى ثابت، والمراد مال هؤلاء، ولكن أضيف المال إلى الأولياء ليحثهم على حفظه وصيانتة كأنه مالهم، وقد يكون الخطاب لجميع الأمة بالدعوة إلى المحافظة على أموال العاجزين؛ لأنه من حال الأمة المتضافرة المتعاونة المتكافلة، ورجح الزمخشري أنه خطاب للأولياء، وقال فى ذلك: «والخطاب للأولياء وأضاف الأموال إليهم؛ لأنها من جنس ما يقيم به الناس

(١) أى رجعت فيما أبرأت من مهرها.

معاشهم، كما قال: ﴿...وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ (٢٩) [النساء] والدليل على أنه خطاب للأولياء في أموال اليتامى قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ وإنه على أن الخطاب لمجموع الأمة المتكافلة يكون من التكافل رزق اليتامى وعدم قهرهم.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ معنى الرزق الإنفاق المستمر المنظم على الشخص في طعامه وكسوته، فالكسوة بل المسكن داخلان في أرزقهم وإنما خص الكسوة بالذكر؛ لأنها كثيرا ما تهمل، وللحث على المبالغة في تكريمهم، ومن مظاهر التكريم الكسوة الحسنة، وقال أرزقوهم فيها واكسوهم، ولم يقل أرزقوهم منها للإشارة إلى أن الرزق لا يقتطع منها، بل يتجر فيها ويعمل فيها ليكون الرزق فيها من الكسب لا من أصلها، ولهذا قال النبي ﷺ: «اتَّجَرُوا فِي مَالِ الْيَتِيمِ حَتَّى لَا تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ»^(١) وقد قال الزمخشري في تفسير أرزقوهم فيها: «اجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال» وقد أمر الله تعالى بالآل يرهق المحجور عليه، ولا يستدلوا ولا يقهروا؛ ولذا قال: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أى قولا غير منكر وغير مسترذل، وغير قاهر وغير مضعف لنفوسهم، ولا مذل لهم، وذلك لكيلا يذهب الحجر بعزة نفوسهم، وليشعروا أنه في مصلحتهم، ولكيلا تضعف شخصيتهم، ويمردوا مع الذلة صغارا؛ فيعادوا الناس كبارا، والله هو الولي وهو نعم المولى ونعم النصير.

(١) روى الترمذي: الزكاة - زكاة مال اليتيم (٦٤١) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَجَرَّ فِيهِ وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ».

وَابْتَلُوا

الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ
غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾
لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

قلنا إن الآيات الكريمات من أول السورة في بيان العلاقات الإنسانية، وقد نظم سبحانه وتعالى العلاقات بين بنى الإنسان، وعنى ببيان حقوق الضعفاء، وهم اليتامى والنساء، فقد كانت المرأة في الماضى مظنة أن تؤكل حقوقها وتهضم، واليتيم مقهور إلا إذا منَّ الله تعالى بكالى من البشر يحوطه بعنايته، وفى هذه الآيات التالية يبين سبحانه معاملة اليتيم حتى يبلغ، وحقه فى الميراث، وكيف تجب حياطته والعناية به وبماله، ولا يدفع إليه ماله إلا إذا رشد.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ الابتلاء معناه اختبار حال اليتيم من حيث قدرته على التصرف في ماله، ويُمَرَّن على ذلك قبيل البلوغ، حتى لا يجيء وقت إلا وقد صار في قدرة على إدارتها، وقد قال القرطبي في بيان اختبارها: «لا بأس أن يدفع إليه شيئاً من ماله يبيح له التصرف فيه، فإن نماه وحسن النظر فيه فقد وقع الاختبار، ووجب على الوصي تسليم جميع ماله إليه (أى بعد بلوغه) وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك المال عنده...» وقال جماعة من الفقهاء: الصغير لا يخلو أن يكون غلاماً أو جارية، فإن كان غلاماً ردَّ النظر إليه في نفقة الدار شهراً، وأعطاه شيئاً نَزراً ليتصرف فيه، ليعرف كيف تدبيره وتصرفه، وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه، فإذا رآه متوخيًا سلم إليه ماله عند البلوغ وأشهد عليه، وإن كان جارية رد عليها ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه في الاستغزال والاستقصاء على الغزالات في دفع القطن وأجرته، واستيفاء الغزل وجودته، فإن رآها رشيدة سلم إليها مالها وأشهد عليها وإلا بقيا تحت الحجر.

وإن نهاية اليتيم ببلوغ النكاح، أى بوجود المظاهر التى تدل على الرجولة فى الغلام، والذى تدل على مبلغ بلوغ النساء فى الفتاة، وإن أقصى مدة البلوغ ذلك المبلغ اختلف الفقهاء فيها، فالجمهور على أن البلوغ بالسن وهو أقصى غاية: لظهور أمارات النكاح ببلوغ خمس عشرة، وأبو حنيفة على أنه سبع عشرة بالنسبة للفتاة وثمانى عشرة سنة بالنسبة للصبي... وقوله تعالى: ﴿بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ كناية واضحة عن ظهور أمارات الرجولة الكاملة، وأمارات الأنوثة؛ لأن الاستعداد للزواج هو كذلك، و«حتى» هنا للغاية، وهى داخلة على الجملة، فهى تبين نهاية الصغر، والجملة التى دخلت عليها ظرفية فى معنى الشرط.

ولا يدفع المال بمجرد البلوغ، بل لا بد من الرشد، ولذلك قال تعالى:

﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ آنس معناها أبصر، ولذلك قال تعالى: ﴿... آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾

... ﴿٢٩﴾ [القصص] وقيل آنس معناها أحس، وعندى أن معنى الإحساس ثابت فى آنس، فهو ليس رؤية فقط، بل هو رؤية، اتصل بها إحساسه ووجدانه، ومعنى الرشد الصلاح فى العقل والخلق والمال، ونكّر الرشد، فقال ﴿رُشْدًا﴾ للإشارة إلى أنه لا يطلب من الصغير أن يؤتى الرشد الكامل بمجرد البلوغ بل إنه يكتفى بنوع من استئناس الرشد وتوقع الخير منه، ولا يطلب منه الكمال وإلا ما أعطى صغير يبلغ ماله قط؛ لأن الرشد الكامل لا يكون إلا بالممارسة المستمرة.

ومعنى هذا الكلام أنه لا بد من فترة بعد البلوغ يستأنس فيها الرشد، بعد الاختبار فى الصغر، إلا إذا كان الاختبار فى الصغر أثبت رشدًا، وإذا بلغ غير رشيد ولم يؤنس منه رشد استمر تحت الولاية عند جمهور الفقهاء مهما تبلغ سنه، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا...﴾ [النساء] وقال أبو حنيفة: لا يدفع إليه ماله حتى يبلغ الخامسة والعشرين، فإذا بلغها عاقلا، ولو غير رشيد فليس لأحد عليه سبيل، وعلى هذا رأى إبراهيم النخعي.

وقد نهى الله الأوصياء عن أن يأكلوا مال اليتامى، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أى لا تأكلوا فى مدة وصايتكم أموال اليتامى مسرفين فى الأكل، أو مبادرين بالأخذ خشية أن يكبروا، فالإسراف والبدار مصدران وقعا فى موقع الحال، وهما فى معنى الوصف، وليس المراد أن لهم أن يأكلوا غير مسرفين ولا مبادرين، بل إن ذلك بيان لأشنع الأحوال التى يقع فيها الأوصياء، وهى أن يأكلوا أموال اليتامى بإسراف مبادرين إلى الأكل خشية أن يكبروا فتؤخذ منهم تلك الأموال وتثول إلى أصحابها.

وقد بين سبحانه جواز الأكل من مال اليتيم عند الضرورة فقال:

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قسمت الآية الأوصياء إلى قسمين: غنى يقوم برعاية اليتيم من غير أجر حسبة لله تعالى، وقال عنه: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ ومعناها ليعف نفسه، وقال الزمخشري: إن الاستعفاف أبلغ

من العفاف؛ لأنه تحرى العفاف وبلوغ أقصى غاياته، ومعنى ذلك أنه لا يأخذ شيئاً؛ لأن طلب أى شىء من غير حاجة طمع فى مال اليتيم، يتنافى مع العفاف الذى ينبغى أن يتحلى به الأوصياء.

والقسم الثانى: فقير أذنه الله تعالى بأن يأكل من مال الصغير بالمعروف أى بالقدر الذى لا يستنكر، فلا يسرف فى الأخذ، وقد قال رجل للنبي ﷺ: إني فقير ليس لى شىء ولى يتييم، فقال له: «كل من مال يتييمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل»^(١) أى جامع مدخر تتجاوز الحاجة، وقد روى أن عمر بن الخطاب شبه الوالى على المسلمين بالوصى على اليتيم، قال: (ألا إني أنزلت نفسى من مال الله منزلة الولى من مال اليتيم إن استغنيت استعفت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت).

ونرى من هذا أن الآية تشير إلى أنه لا تفرض أجره للغنى قط، أما الفقير فيأكل بالمعروف، ولا يكون ذلك أجره لأنه ممنوع من التأثل والادخار؛ وذلك لأن اليتيم رعايته فرض كفاية على المسلمين ليخرج أليفا مألوفاً، ولا يخرج منابذا الجماعة، شراً عليها.

وجمهور الفقهاء قد قرروا جواز فرض أجره حتى للغنى خشية أن يحجم الناس عن ولاية أمر اليتيم، والله سبحانه يتولاه برعايته، ويحفظه بكلاءته.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ هذا بيان ما يجب القيام به عند انتهاء الوصاية عليه، وهو أن يدفع إليه ماله كاملاً، وللاحتياط من الخصومات والمنازعات يُشهد على دفعه المال، والشهادة فى هذه الحال حجة لازمة ملزمة للمحجور عليه الذى انتهت الوصاية عليه، فهذا إرشاد

(١) رواه أحمد: الوصايا: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٧٢٦) ولفظه: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: لَيْسَ لِي مَالٌ وَلِي يَتِيمٌ. فَقَالَ: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَذِّرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ مَالًا، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِي مَالَكَ - أَوْ قَالَ تَقْدِي - مَالَكَ - بِمَالِهِ»، والنسائي: الوصايا - ما للوصى من مال اليتيم (٣٦٠٨).

عظيم من الله سبحانه وتعالى لمنع المشاحة والإبراء الوصى، ولكى يكون اليتيم على بينة من أمره، والكلام يتضمن تقديم حساب عن التصرفات التى تصرفها فى مال القاصر، وقد كان على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وصيا على يتامى، فلما أعطى إليهم أموالهم حاسبهم وحاسبوه، وكان فى ضمن الحساب زكوات أموالهم؛ إذ كان يدفعها من هذه الأموال.

وإنه فى هذا الحساب يكتفى أبو حنيفة يمينه إذا كان هناك خلاف فى شأنها؛ لأنه أمين لم تعرف خيانتة، إذ لو عرفت لعزل، والأمين يصدق باليمين إذا خولف، والمالكية والشافعية والحنابلة لا يقبل الحساب عندهم إلا بالإقرار من القاصر، أو البينة الكاملة، وهى رجلان أو رجل وامرأتان، وإن حساب الناس قد يغادر الكثير، والأمر فى ذلك إلى الضمير الدينى، والقلب المخلص، ولذلك كان وراء حساب الناس حساب الله الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ والحسب هو المحاسب المراقب المشاهد الدقيق الحساب الذى لا يترك شيئاً، وكفى أن يكون هذا الحساب، وكأن المعنى: حاسبوا أنفسكم فقدّموا الحساب عن مال اليتيم صادقاً؛ فإنكم إن أفلتم من حساب الدنيا فلن تفلتوا أبداً من حساب الله المحيط الدقيق، وإن استطعتم الإخفاء والكتمان والتحایل على الناس، فلن تستطيعوا ذلك عند الله تعالى.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ هذه قاعدة عامة لأصل التوريث فى الإسلام، وهى قاعدة أن الرجال لا يختصون بالميراث، بل للنساء معهم حظ مقسوم، ونصيب مفروض، سواء أكان قليلاً أم كان كثيراً، وهذا إبطال لما كان يقع فى الجاهلية من حرمان النساء من الميراث وقصره على الرجال. وذكر فى هذا الموضع عند الكلام فى شئون اليتامى؛ لأن الظلم عليهم كما يقع فى أموالهم الثابتة، قد يقع فى أموالهم التى تتول إليهم من مورثيهم، فهذا النص أفاد دفع الظلم عن ضعيفين هما المرأة واليتيم، أفاد دفع الظلم عن المرأة بالنص، وأفاد دفع الظلم عن اليتيم بالإشارة، وسيصرح القرآن

الكريم بذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ...﴾ [النساء: ٦]. ولقد روى ابن عباس أنه قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابنا صغيرا، فجاء ابنا عمه - وهما عصبته - فأخذوا ميراثه كله، فأتت امرأته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكرت ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ (١).

وقد ذكر سبحانه الحق مرتين، فذكره أولا للرجال فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ ثم ذكره ثانيا للنساء فقال: ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ وذلك ليؤكد حقهم، وليبين أنه حق مستقل عن حق الرجل، ثبت لها استقلالاً بالقرابة، كما ثبت له استقلالاً بالقرابة، حتى لا يتوهم أحد أن حقها تابع لحقه بأى نوع من أنواع التبعية، ثم أكد سبحانه الحق بقوله:

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ هذا تأكيد لحق النساء فى التركة، وقد أكده مرتين - أولاها - أنه يجب فى كل تركة قليلة أو كثيرة فليس حقها تسامحا يعطى، ولكنه حق ثابت، لا يُقَدَّم حق للرجل، ويؤخر حق المرأة، بل يشبتان معا فى القليل والكثير، ولا تسامح فى القليل - ثانيهما قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وهى منصوبة على الاختصاص، والاختصاص يفيد العناية أى قدرا عنه الله تعالى وقصده ﴿مَّفْرُوضًا﴾ أى مقطوعا لا سبيل إلى الهوادة فيه، والاكتفاء ببعضه نورا يسيرا، أو مقدارا كبيرا، فلا بد من إعطائه كاملا غير منقوص.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ هذا النص الكريم ورد فى الأقارب الذين لا ميراث لهم كما قال أكثر المفسرين، ولكن القارئ للنص يرى أنه أوسع شمولاً؛ لأنه يشمل المساكين واليتامى بإطلاق، وإن لم يكونوا أولى قربى، والمساكين هم الفقراء الذين أسكتهم الحاجة

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور ج ٢، ص ٤٣٧ وقال: أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كان

أهل الجاهلية لا يورثون البنات، ولا الصغار الذكور حتى يدركوا.

وأذلتهم، وليس المراد من حضورهم أن يكونوا مشاهدين للقسمة؛ لأن قسمة الأموال لا تكون عادة في حضرة هؤلاء الضعفاء، وإنما المراد العلم بهم من مُقَسَّمِي التركة علم حضور ومعاينة، ومعنى الرزق إعطاؤهم مالا ينفقون منه، ويسدون منه حاجاتهم بحيث لا يكونون أثرياء. والأمر في قوله تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾. قال بعض التابعين: إنه للندب، فعلى الورثة أن يَرْضَحُوا^(١) مقدارا من المال ندبا، وحجة هؤلاء في أن الطلب للندب أنه غير مقدر، والفرض الذي يكون لازما من المال لا بد أن يكون مقدرا، وقد كان الصحابة يفعلون ذلك، حتى إنه يروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه، وأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- على قيد الحياة، فلم يدع في الدار أحدا إلا أعطاه.

وقال بعض التابعين: إن ذلك واجب، وهو للقرابة الفقيرة واليتامى والمساكين في التركات، فهو ثابت كشبوت حق الورثة، لا يزيد أحدهما على الآخر، وعدم التقدير فيه ليس إجمالا، بل ترك الأمر فيه إلى الورثة، وإلى القاضى الذى يقوم على تنفيذ التركات، وقد ادعى بعض التابعين نسخ الوجوب فى الآية فرد قوله سعيد بن جبير، فقال: «إن ناسا يقولون نسخت، والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس».

وإن الذين قرروا أن الأمر للوجوب قصرُوا العطاء على (النقود) وما يشبهها كالقمح ونحوه دون العقار، وقد روى أن الحسن والنخعي قالا: [أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات واليتامى والمساكين من العين (أى الذهب والفضة). فإذا قسم الذهب والفضة وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق - قالوا لهم قولا معروفا].

وقد قرر من الفقهاء وجوب العطاء - الظاهرية، فقالوا يجب إعطاء هؤلاء من التركة مقدارا يتناسب مع حال الورثة وحال هؤلاء ومقدار التركة، ويقدره القضاء.

(١) رَضَحَ لَهُ مِنْ مَالِهِ يَرْضَحُ رَضْحًا: أعطاه. الرَضْحُ: العطية القليلة. [لسان العرب - رضخ].

والقول المعروف مطلوب: وهو القول الذى لا يخدش الكرامة، وليس فيه منة العطاء، وقد قال فيه الزمخشري: (وأن يلفظوا لهم القول، ويقولوا خذوا برك الله عليكم، ويعتذروا إليهم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يستكثروه ولا يمنوا عليهم).

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ واضح أن هذا النص وارد فى اليتامى، ويحتمل أن يكون المراد الحث على إعطاء اليتامى غير الوارثين مقدارا يعين على إصلاحهم، ويكون تخصيصهم بالذكر للحث على إكرام اليتيم، وذلك سنن القرآن الكريم دائما، ويحتمل وهو الراجح أن يكون الكلام فى شأن نصيب اليتامى فى التركات، ويكون المخاطبون غير المخاطبين فيما مضى أو هم، ولكن لعمل آخر وهو المحافظة على حق اليتيم فى الميراث فلا يضيع، وقد حث سبحانه على المحافظة على حق اليتيم بأبلغ تعبير، فقال ما معناه: على الذين يتحكمون فى مال اليتيم فَيُطْفِقُونَهُ أو تكون عندهم هذه النية أن يخافوا على أنفسهم، ويخشوا أن يكون لهم من بعدهم ذرية ضعاف أى أولاد لا حول لهم ولا طول، ويكونوا يتامى كهؤلاء الذين يتحكمون فيهم، وإذا كانوا كذلك، فليتقوا الله فى مال اليتيم ولا ينقصوه ولا يضيعوا له حقا؛ فإن القصاص سيكون فى أولادهم، وقد جعل الله تعالى من شعورهم بالحنان على ذرياتهم باعثا لهم على الحنان على أيتامهم، وخير الناس من يجعل من شعوره بالمحافظة على العزيز عنده شعورا مثله لمن يكونون فى مثل أمره.

وقد فسر بعضهم القول السديد هنا بما يقارن القول المعروف، ونحن نرى أن القول السديد هو القول المسدد نحو الحق المصيب للهدف، وذلك بأن يقول القول لا تطيبيا لليتامى فقط، بل يقوله للمحافظة على حقوقهم، فإن رأى من المقتسمين رغبة فى نقصهم سد القول وقال الحق ومنع الظلم حتى لا يؤكل نصيب اليتيم فى التركة، أو يضيع حقه فى أى تصرف من التصرفات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ إن اليتامى مظنة أن يبخسوا في الميراث، فأكل مالهم هنا ظلما هو ببخسهم حظهم في الميراث، أو أكل الأوصياء أموالهم والأخذ من مال اليتيم سماء الله تعالى أكلا لما فيه من معنى الأخذ وأن يقصد به تنمية ماله كما ينمي جسمه بالأكل، ولكنها تنمية آئمة مآلها البوار «ومن نبت لحمه من حرام فالنار أولى به»^(١) وقال سبحانه ﴿ظُلْمًا﴾ لكمال التشنيع على الأكل، إذ هم يظلمون ضعيفا لا يقوى على الانتصاف منهم، وقد ذكر سبحانه إثم ذلك الأكل بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ وهذا تصوير لضرر الأكل عليهم؛ لأنه يكون أكلهم كمن يأكل النار ويضعها في بطنه أى يملأ بطنه بها فهو فى ألم دائم حتى يهلك، وكذلك دائما من يأكلون أموال اليتامى لا يأكلون أكلا هنيئا ولا مريئا، بل هم فى وسواس دائم حتى يقضى الله عليهم، وقد رأينا بيوتا خربت لأنها أكلت مال اليتيم. وهذا عقابهم فى حاضرهم، أما العقاب الذى ينتظرهم فى الآخرة فقال: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أى ستوقد بهم نار شديدة الأوار، يستمرون فى بلاء شديد منها. اللهم ارزقنا رزقا حسنا، وجنبنا ما حرمت، وأقنعنا بالحلال الطيب، إنك سميع الدعاء.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ

فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ

(١) جاء فى كشف الخفا (١٩٧٣): «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به». رواه البيهقى وأبو نعيم عن أبى بكر، قال المناوى: وسنده ضعيف، والمشهور على الألسنة: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به».

فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾
﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ
لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا
تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
وَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ
رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا
أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

قد بين الله سبحانه وتعالى الواجب بالنسبة لليتامى ورعاية حقوقهم، فى الأموال التى يرثونها، والأموال التى تثول إليهم. كما بين سبحانه حق الفقراء والمساكين وذوى القرباة الذين لا ميراث لهم عند تقسيم التركات. وفى هذه الآية يبين حقوق أكثر الوارثين، وهى تقسيم الله سبحانه وتعالى.

إن الميراث قد تولَّى القرآن بيان أكثر أحكامه، ولم يُفصِّل أحكاماً كما فصل أحكام الميراث، وقد قال ﷺ: «العلم ثلاثة: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»^(١). وقد عده نصف العلم، وهذا العدد دليل على مقدار وجوب العناية به، فقد قال ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإنه نصف العلم، وهو أول شيء ينسى، وأول شيء ينتزع من أمتي»^(٢).

والميراث هو وصية الله تعالى بتوزيع التركات على مستحقيها؛ فإنه إذا كان للعبد وصايا فى أمواله من بعد وفاته، فالميراث هو وصيته سبحانه وتعالى ووصية الله تعالى أولى بالإيجاب وأحق بالتنفيذ. ولكى تكون وصية الله تعالى لها مكانتها فإنه قد جعل لها الثلثين، ولو وصية صاحب المال الثلث، ولذلك قال ﷺ: «إن الله تعالى قد تصدق عليكم فى آخر أعماركم بثلث أموالكم فضعه حيث شئتم». وقد أراد بعض الصحابة أن يوصى بماله كله، فمنعه النبى ﷺ، ثم أراد أن يوصى بالثلث فأجازه، وقال: «والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»، أو كما قال النبى ﷺ.

وفى هذه الآيات كما قلنا بيان حقوق طائفة من الوارثين، وهم الأولاد والآباء، والأزواج وأولاد الأم، وقد مزج بين الآباء والأولاد فى الحقوق؛ لأن الأولاد لا يحجبون الآباء أى لا يمنعونهم من الميراث، ولذلك يعدون طبقة واحدة، وقد قال تعالى فى ذلك:

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ». [رواه أبو داود: الفرائض - ما جاء فى تعليم

الفرائض (٢٨٨٥)، وابن ماجه: المقدمة - اجتناب الرأى والقياس (٥٤)] وفى إسناده مقال.

(٢) رواه ابن ماجه: الفرائض - الحث على تعليم الفرائض (٢٧١٩).

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ هذا النص الكريم يبين ميراث الأولاد، وقد ذكر لهم ثلاث أحوال: الحال الأولى إذا كانوا ذكورا وإناثا فإن الميراث بينهم يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، والحظ هنا النصيب، والتعبير بالحظ إشارة إلى أن عطاء الأنثى، ولو كان نصف عطاء الرجل، قدر كبير لها فيه حظ، أى عطاء فيه كرم وسخاء؛ لأن التكاليفات المالية عليها دون التكاليفات المالية على الرجل بقدر كبير يعد أكثر من النصف.

الحال الثانية: أن الأولاد إن كن نساء فقط، يكون نصيبهن الثلثين، والنص الكريم يقول: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ يفيد بيان نصيب الأكثر من اثنتين، ولم يبين الاثنتين، ولكن يفهم من آية أخرى أن نصيب الثنتين هو الثلثان أيضا؛ لأن الله تعالى قال فى توريث الإخوة والأخوات:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ...﴾ [النساء].

ففى الأخوات نص على أن نصيب الأختين الثلثان، وبالأولى يكون نصيب البنتين الثلثين؛ لأن البنتين أقوى قرابة وأكثر اتصالا، وأجدر بالرعاية، فإذا كانت الأختان تأخذان الثلثين فأولى أن تأخذ البنتان الثلثين، فما حذف فى آية البنات وجد ما يدل عليه فى آية الأخوات. وكذلك حذف فى آية الأخوات نصيب الأكثر من أختين، وصرح به فى آية البنات، ففهم بطريق الأولى أن الأكثر من أختين تأخذان الثلثين؛ لأنه إذا كان الأكثر من بنتين يأخذ الثلثين فقط، فأولى أن يأخذ الأكثر من أختين الثلثين. والمعنى أنه حذف من آية البنات ما يفهم بالأولى من آية الأخوات، وحذف من آية الأخوات ما يفهم بالأولى من آية البنات، وذلك بلاغة الإيجاز، وهو من سر الإعجاز.

الحال الثالثة: أن يترك الشخص بنتاً واحدة، وهى فى هذه الحال تستحق النصف بصريح الآية: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

هذا توريث الأولاد، ويلاحظ ما يأتى:

أولاً: أن نصيب الأولاد إذا كانوا ذكورا وإناثا يكون بعد أن يأخذ الأبوان والأجداد والجدات وأحد الزوجين أنصبتهم. فإذا كان للمتوفى أب وزوجة وأبناء وبنات، فإن القسمة للذكر مثل حظ الأنثيين تكون بعد أخذ الأب والزوجة نصيبهما.

ثانياً: أن الأولاد يطلقون على كل فروع الشخص من صلبه، أى أبنائه وأبناء أبنائه، وبنات أبنائه. أما بنات بناته، فإنهن لا يكن من أولاده. وقد خالف فى ذلك الشيعة فلم يفرقوا فى نسبة الأولاد بين من يكون من أولاد الظهور ومن يكون من أولاد البطون، أى لا يفرقون بين من تتوسط بينه وبين المتوفى أنثى ومن لا تتوسط.

ثالثاً: أن أبناء الشخص وبناته يقدمون على أبناء أبنائه وبنات ابنه، أى أن الطبقة الأولى تمنع من يليها.

رابعاً: إن بنات الابن يأخذن حكم البنات تماماً إذا لم يكن للشخص أولاد قط، لا ذكور ولا إناث، بل إن جمهور الفقهاء يجعل لبنات الابن السدس، وإذا كان للمتوفى بنت واحدة تأخذ النصف، وذلك لحديث ابن مسعود الذى سئل فيه عن رجل توفى عن بنته وبنت ابن ابنه وأخته... فأعطى البنت النصف، وبنت الابن السدس، والأخت الباقي، وقال: ذلك قضاء رسول الله ﷺ^(١).

(١) روى البخاري: الفرائض - ميراث ابنة الابن (٦٧٣٦) عن هُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى عَنْ بِنْتِ وَابْنَةِ ابْنٍ وَأَخْتٍ فَقَالَ لِلْبِنْتِ النِّصْفُ وَلِلْأَخْتِ النِّصْفُ، وَأَتَى ابْنَ مَسْعُودٍ فَسَيَّابَعْنِي فُسِّلَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَخْبَرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْضَى فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ: «لِلْأَبْنَةِ النِّصْفُ، وَلِابْنَةِ ابْنِ السُّدُسِ تَكْمِلَةُ الثَّلَاثِينَ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأَخْتِ فَاتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرَنَا بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْحَبْرُ فِيكُمْ».

﴿وَلَا يَوْنِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ هذا ميراث الأبوين، وقد ذكر القرآن الكريم حالا يشترك فيها الأب والأم، وهى أن يأخذ كل واحد منهما السدس إذا كان للمتوفى ولد. والمراد من الولد الفرع الذى لا يتوسط بينه وبين المتوفى أنثى، وذلك عند الجمهور، وعند الشيعة الإمامية: كل من يتصل إلى الميت من الفروع بطريق الإناث أو الذكور فهو ولد.

والأب قد يأخذ مع السدس باقى التركة إذا كان للمتوفى فروع من الإناث فقط، فإنه عند الجمهور يأخذ السدس مع الباقي، والباقي ثبت بقول النبى ﷺ: «ما بقى بعد أصحاب الفروض فلأقرب رجل ذكر»^(١) فهذا الحديث يأخذ الباقي، وبمنص الآية يأخذ السدس.

وحالا ثانية ذكرها للأم صراحة، وللأب ضمنا، فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ فإن هذا النص يفيد أمرين: أحدهما - أن الميراث للأبوين إن لم يكن أولاد، وثانيهما - أنه يكون للأم الثلث، وما دام الميراث منحصرا فى الأبوين؛ فإنه يكون للثلاث والباقي للأب.

وإذا كان معهما زوج أو زوجة، فهل الآية تفيد الحكم؟ ونقول إنها لا تفيده صراحة، بل تفيده ضمنا، وذلك أنها قررت أنه فى حال انحصار الإرث فى الأبوين يكون نصيب الأم الثلث، ونصيب الأب الثلثين فهذه الآية قد حددت النسبة، أى أن نصيب الأم يكون على النصف من نصيب الأب، وبتطبيق ذلك على حال وجود أحد الزوجين، فإن أحدهما يأخذ فرضه وتأخذ الأم ثلث الباقي، ويأخذ الأب ثلثيه، وهذا رأى ابن مسعود وزيد، وعلى، على أرجح الروايتين عنه، وعمر وعثمان، وهو الذى اختاره الأئمة الأربعة وأكثر فقهاء الأمصار.

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوَّلَى رَجُلٍ ذَكَرَ» [رواه البخاري: الفرائض - ميراث الرجل من أبيه وامه (٦٧٣٢)، ومسلم: الفرائض - الحقوا الفرائض (١٦١٥)].

وهناك رأيان آخران: أحدهما - أنها تأخذ ثلث التركة كلها، وقد أخذ هذا القول من صريح الآية، وهو يؤدي إلى ألا يكون نصيب الأم على النصف من نصيب الأب، بل يؤدي إلى أن الأب يأخذ أقل من الأم، كأن يكون زوج وأم وأب، فإن الزوج يأخذ النصف والأم تأخذ الثلث، والأب يأخذ الباقي وهو السدس، أى أن الأب يأخذ نصف نصيب الأم، وهذا الرأي رأى الإمامية، وفيه شذوذ كما ترى، وقد نسب إلى ابن عباس، وقيل إنه روى عن علي ومعاذ بن جبل. والثاني - أنها تأخذ ثلث الكل في حال ما إذا كانت زوجة وأب وأم، وتأخذ ثلث الباقي إذا كانت المسألة فيها زوج بدل الزوجة، وذلك لكي لا يأخذ الأب أقل من الأم. واسلم الآراء أولها، وهو أوضحها وأعدلها.

وحالا ثالثة بالنسبة للأم أنها تأخذ السدس إذا كان هناك إخوة أو أخوات زادوا على واحد، فإنها تأخذ السدس، وهذه الحال خاصة بالأم؛ لأن الأب لا يؤثر في نصيبه على الإخوة والأخوات، بل إنهم لا يرثون معه.

هذا ميراث الأولاد والأبوين، وقد بين - سبحانه وتعالى - حكمة ذلك وأكد تقسيمه بقوله سبحانه:

﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يبين الله أن هذه قسمته، ولا يصح أن تحكموا أهواءكم في أموالكم بعد وفاتكم، فإنكم لا تدرُونَ أيهم أقرب لكم نفعاً، أبائكم أو أبناءكم؛ لأنه عند حكم الهوى يفقد العقل تقديره وميزانه فلا يدري أين يكون النفع، وقد صدر الآية بذكر الآباء والأبناء لقوة قرابتهم واتحاد اتصالهم، ومع ذلك لا يعلمون النافع منهم. وقد أكد الله معنى هذا التقسيم بتأكيدين: أحدهما - قوله سبحانه ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى فرض الله ذلك فريضة وقدره تقديراً فلا يجوز خلافه، لأنه تقدير الله وقسمته، وليس لأحد أن يخالف قسمة الله جلّت قدرته - التأكيد الثانى: قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. فإن الله تعالى ذيل النص الكريم بهذه الآية تأكيداً للنفع فى هذا التقسيم؛ لأن الله هو الذى قَسَمَ تلك القسمة العادلة، وهو

كان دائما عليما حكيما، يعلم كل شيء ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، وهو يدبر الأمر على مقتضى هذا العلم، وبحكمته سبحانه، وهو العزيز الحكيم.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ هذا بيان أحوال ميراث الزوج، فإنه يكون له النصف إن لم يكن للمتوفاة ولد، والمراد من الولد أولاد الظهور أى الفروع الذين لا يتوسط بينهم وبين المتوفاة أنثى، خلافا للشيعة، وإن كان للمتوفاة ولد فإن الزوج يكون له الربع.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ وهذا بيان ميراث الزوجة تأخذ الربع إذا لم يكن للمتوفى ولد، وقد بينا معنى الولد، وتأخذ الثمن إن كان للمتوفى ولد. ونرى من هذا أن الزوجة على النصف فى التقدير من الزوج، وهو قاعدة عامة فى قسمة الميراث بالنسبة للرجل والمرأة، ولم يستثن إلا الإخوة لأم.

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ هذا النص فى ميراث الإخوة والأخوات لأم، وقد عبر عنهم بالكلالة، والكلالة هم القرابة من غير الأصول والفروع، وقد قيل إن الكلالة مشتقة من الإكليل، وهو الذى يحيط بالرأس من جوانبه، وقرابة الكلالة وهى غير الأصول والفروع تحيط بالشخص من جوانبه، وليست فى أصله ولا فرعه، ومعنى ﴿يُورَثُ كَلَالَةً﴾ أى يورث من غير أصوله أو فروعه، وعلى ذلك يكون ميراث المذكورين فى الآية شرطه ألا يكون أصول ولا فروع. والميراث بالكلالة ذكر فى موضعين: أحدهما هذا الموضع، والثانى قوله تعالى فى آخر هذه السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرَأَةٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ...﴾ [النساء].

وقد أجمع الصحابة على أن المراد من الإخوة والأخوات هنا الإخوة لأم والأخوات لأم، كما أجمعوا على أن المراد بالإخوة في آخر السورة الأشقاء ثم لأب. وقد سئل النبي ﷺ عن الكلالة في هذه الآية فذكر أنها أولاد الأم، وبهذا يتبين أن هذا النص الكريم فيه أحوال ميراث الإخوة والأخوات لأم، وقد ذكر لهم حالين: إحداهما - أن يأخذ الواحد أو الواحدة السدس، والثانية أن يأخذ الأكثر من واحدة أو واحد الثلث يشتركون فيه بالسوية بلا فرق بين الذكر والأنثى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ والشركة الأصل فيها التسوية حتى يذكر النص الدال على التفاوت، ولم يوجد في النص ما يدل على التفاوت. وهناك حال فهمت من التعبير بالكلالة، وهي أن هؤلاء لا يرثون إلا إذا لم يكن فروع ولا أصول.

هذا، ومرتبة الورثة في التقسيم بعد سداد الديون، وبعد تنفيذ الوصايا، فالتركة لا تقسم إلا بعد سداد الديون، ولا تميز أنصبة كل وارث إلا بعد تنفيذ الوصايا التي لا تتجاوز الثلث. فنصيب الورثة دائما لا يكون إلا في الباقي بعد الوصايا، ولذا قال سبحانه في كل قسمة إنها بعد تنفيذ الوصية والدين، فقال بعد ميراث الأبوين والأولاد: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾، وقال بعد ميراث الزوج: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾ وقال بعد ميراث الزوجة: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

وهنا أمران تجب الإشارة إليهما:

أولهما: أنه كرر في كل حال حق الدائنين والموصى لهم، تبرئة لذمة المتوفى وتأكيذا لحقهم. وهو دليل على أن حق الدائنين والوصايا هو حق للميت نفسه، فهو أولى من غيره. وقدم الوصايا في الذكر، مع أنها مؤخرة عن الدين في السداد، وذلك للتشديد في تنفيذها؛ لأنها مظنة الإهمال أو مظنة الإخفاء، فكان من الأسلوب الحكيم العناية بتنفيذها، وكان من العناية بتقديمها في الذكر.

الأمر الثانى: أنه ذكر عند ميراث أولاد الأم التحريض على الأداء، فقال تعالى: ﴿غَيْرُ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فكان التحريض مرتين، مرة بمنع المضارة، ومرة أخرى بتأكيد أن هذه وصية الله، فمن خالفها فقد تمرد على وصية الله العليم الخليم الذى يعلم كل شىء وإن لم ينزل العقاب فور الجريمة. وكان ذلك فى أولاد الأم؛ لأن حقوقهم مظنة الضياع والإهمال، ولا يزال الناس إلى الآن يكادون يهملون نصيب أولاد الأم، وإذا ذكروا به، كان ذلك بمنزلة التذكير بأمر غريب، فكان التأكيد لهذا.

وقد كانت أحكام المواريث مظنة التلاعب فى الماضى، ولا تزال حقوق النساء فيها موضع التلاعب إلى اليوم، ولذلك أكد الله سبحانه حق الميراث بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى أن الميراث حدٌ رسمه الله تعالى، فمن أطاع الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما. وإن ذكر الجنات فى هذا المقام له موضعه؛ لأن هذا الذى يترك التوزيع لله تعالى، ويتغلب على هوى نفسه فيمن يحب أو يكره يجزيه الله تعالى جنات تجرى من تحتها الأنهار، وهذا الجزاء هو الفوز العظيم؛ لأن فيه النجاة وفيه النعيم، فمن فعله فقد نال الحسنين، فإذا كان قد تغلب على منازع الدنيا، فقد نال نعيم الآخرة، ومن ينظر إلى مآل ماله عليه أن ينظر قبل كل شىء إلى مآل شخصه.

﴿وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ هذا جزاء من يخالف حكم الله وخصوصا فى الميراث، فهو عاص لله سبحانه، وقد تعدى ما رسمه الله من حدود فى ماله. وإن جزاءه أن يدخل النار ويخلد فيها، وله عذاب مهين أبلغ إهانة فى الآخرة، فهو قد باع آخرته بدنيا غيره، وإذا كان أراد السعادة الدنيوية لغيره بهذا المال فقد نال الشقاء الأخرى بعمله، وإذا كان قد أراد إعزاز بعض من يحب فقد أهان نفسه، والله هو الذى يبين الحق، ويهتدى إلى الرشd، كما قال تعالى: ﴿يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضْلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاَسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِنَّ اَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَاِنْ شَهِدُوا فَاَمْسِكُوهُنَّ فِي
الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ اَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا
وَأَصْلَحَا فَاَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

ابتدئت سورة النساء ببيان العلاقة الإنسانية التي تربط الناس بعضهم ببعض،
وتثبت أن الناس جميعاً أمة واحدة بحكم الخلق والتكوين، وكان ذلك هو الذى
ينبغى، ولكنهم اختلفوا من بعد. ويعد الإشارة إلى هذا المعنى الإنسانى الجامع،
بين - سبحانه - حق الضعفاء على المجموع، ثم أخذ يبين سبحانه حقهم فى
الأسرة، ووجوب رعايتهم.

وفى هذه الآيات التى نتلوها، يتجه النص الكريم إلى إقامة دعائم الأسرة،
التي هى خلية التكوين الإنسانى، وخلية البناء الاجتماعى، والمهد الذى يتربى فيه.

النوع تربية يكون بها الإلف والاتلاف مع المجتمع الذى ينشأ فيه . وقد ابتدأ بإبعاد ما من شأنه إفساد بناء الأسرة، وهو الفاحشة، فإن مثل من يبنى الأسرة كمثل من يبنى قصرا مشيدا، ينقى أولا مواد البناء من العناصر التى لا تجعله قويا متماسكا، أو تكون مواد تنقض بناءه، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ﴾ فحش معناها زاد، وأطلق على الزيادة التى لا تسر، وأطلق على القبيح من الأفعال؛ لأنه انحرف عن الفطرة. وقد جاء فى مفردات الراغب: «الفُحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [٩٠]. ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ [٣٠] [الأحزاب] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [١٩] [النور] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ [٣٣] [الأعراف] ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ [١٩] [النساء] كناية عن الزنا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ [١٥].

فالفاحشة هنا هى الزنا، والله سبحانه وتعالى يعبر عن هذه المعانى التى لا تألفها النفس الكريمة بعبارات تسترها، فتكون الكناية بدل التصريح، وذلك من تأديب الله لنا فى التعبير.

وقد ذكر سبحانه وتعالى علاج النساء اللاتى وقعن فى ذلك الأمر المنكر، وقد سماه بهذا الاسم كما سماه بأنه «إِدَّة»^(١)، فكان علاجهن بأمرين أحدهما - يختص بهن، والثانى - يشتركن مع الرجال فيه، فأما الذى يختص بهن فهو إمساكنهن فى البيوت، وليس الإمساك معناه الحبس والتضييق المجرد، بل الإمساك

(١) أى سمى الله تعالى الأمر المنكر بالفاحشة، كم سماه (أى الأمر المنكر بالإد) قال الرازى فى تفسيره سورة النساء (١٥): «قوله: ﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ أى يفعلنها يقال: أتيت أمرا قبيحا، أى فعلته قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٧) وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِدًّا﴾ (مريم: ٨٩). وفى لسان العرب (إدد) هو العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية.

معناه الحفظ والصيانة والرعاية، ويتضمن ذلك معنى الإرشاد والتوجيه والوعظ، ولذا قال الراغب: إمساك الشيء التعلق به وحفظه، قال تعالى: ﴿فَأِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ...﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ...﴾ [الحج: ٦٥] أى يحفظها. فمعنى الإمساك فى البيوت الحفظ فيها والرعاية والتهذيب بعطف؛ وذلك لأن المرأة تزل إذا فقدت التهذيب، وحرمت من الصيانة فتتطلق غير مقيدة. إذا لم يكن لها هاد مرشد وإذا كان ذلك سبب الزلزل، فعلاج الانحراف بالإمساك فى البيوت مع الحفظ والرعاية. ويستمر الإمساك حتى الوفاة، أو حتى الزواج، كما قال: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، أى طريقا واضحا لمنع الزلل والابتعاد عنه، وذلك بتحصيلن أنفسها بالزواج.

والرمى بالزنا أفحش ما ترمى به المرأة والرجل، وكثيرات من النساء يَكُنَّ فريسة لشائعات كاذبة، ولذلك شدد الله تعالى فى إثبات الزنا أبلغ ما يكون التشديد، فقرر أن يكون بشهادة أربعة من الرجال بحيث لا تقبل فى ذلك شهادة النساء، وقرر أن تكون الشهادة بالمعينة لا بالسماع، ولذا قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أى إن ذكروا أنهم عاينوا وشهدوا ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾؛ ولحماية الشارع لعرض المرأة من أن يكون مضغة فى الأفواه - قرر عقوبة شديدة لمن يرمى النساء والرجال من غير أن يكون أربعة يشهدون، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

هذا هو العلاج الوقائى الذى خص القرآن به المرأة، حتى لا تستمر فى غيها، وذلك هو طريق الإثبات، أما العلاج الذى يشمل الرجل والمرأة، فهو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾.

هذا حكم الذكر والأُنثى إذا أتيا تلك الفاحشة، وهى الأمر الإِدُّ، وهى المنكر الذى تنكره العقول. والعلاج فى هذه الحال ليس علاجا نفسيا لهما فقط، بل هو

زجر اجتماعي ليرتدع غيرهما، وهذا العلاج هو العقوبة الشديدة المؤذية في البدن وفي النفس، وكانت هذه علاجا نفسيا؛ لأن النفس المنحرفة لا تقوم إلا بشدة كالعود المعوج لا يقوم إلا بعمل شديد ليس بسهل، ولكن يلاحظ ألا ينكسر العود، وألا تنكسر النفس وتهون، ولذا كان العلاج بالإمساك والحفظ والرعاية.

ولقد ذكرت العقوبة هنا مجملة غير واضحة المقدار، بل كانت مجرد الإيذاء، وذكرت بعد ذلك مفصلة بينة المقدار في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٤) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ [النور].

ففي هذا النص عقوبتان مؤدبتان: إحداهما الجلد، والثانية منع الزواج من الزاني والزانية، وذلك ليحملهما على التوبة. وقد يقول قائل: إن الله تعالى ذكر علاجا تهذيبيا للمرأة، وهو الإمساك والرعاية في البيت، ولم يذكر علاجا تهذيبيا للرجل. نقول إنه ذكر له علاج تهذيبى، وهو منع الزواج منه كالمرأة، وذكر علاج له في السنة وهو التغريب سنة^(١)؛ لأن التغريب سنة يبعده عن الجوارح الذى عاش فيه ألما وأعلن فيه إثمه، وإنه فى ذلك سيكون تحت رقابة الحاكم ورعايته، فهذا التغريب يقابل الإمساك فى البيوت. ولم يعاقب الرجل بالحبس؛ لأن الرجل مطلوب منه الكدح والعمل لنفقته ونفقة من يعوله، فكان التهذيب مدة معلومة أنسب له، والإمساك فى البيوت أليق بالمرأة.

وإذا تكررت الجريمة تكرر العقاب، إلى أن تكون التوبة والإقلاع عن ذلك المنكر، ولذا قال تعالى:

(١) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ فِيمَنْ زَنَى وَكَمْ يُخَصَّنَ بِجَلْدِ مِائَةٍ وَتَغْرِيبٍ عَامٍ. [رواه البخاري: الشهادات - شهادة القاذف والسارق والزاني (٢٦٤٩)].

﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ عالج الإسلام نفس المذنب ليتوب، ودعا إلى التوبة دعوة صريحة بفتح باب المغفرة. وفي هذه الجريمة التي تعد من أكبر الكبائر، كما أنه قد عالج نفس المذنب، بالإمسك في البيوت للحفاظ والرعاية والصيانة، وبالتغريب بالنسبة للرجل ليسترد كرامته التي هانت بالجريمة والعقوبة المعلنة، وبمنع الزواج من الزاني والزانية حتى تكون التوبة. فإذا تم العلاج، وشفى المذنب من الداء، وكانت التوبة الصحيحة، وكان من الواجب الإعراض عنهما وعدم تذكيرهما بالجريمة، فالإعراض هنا ليس معناه الصدود والاستنكار بل معناه ألا يذكرهما بجريمتهم، وأن يعاملا معاملة الأطهار الأبرار، وأن يكون لهما كل تقدير واعتبار، فإن الإصرار على وصف الجريمة يجعل النفس تهون، وإذا هانت سهل عليها الهوان، وأغراها الشيطان بالمعاودة. ويروى أن النبي ﷺ عاقب شاربا للخمر بعقوبة الشرب، وبعد تمامها قال له بعض الحاضرين: «أخزأك الله»، فقال النبي ﷺ: «لا تعينوا عليه الشيطان»^(١)؛ لأن الخزي يشعر النفس بالصغار، ومع الصغار يسهل الإجرام. وقد ذكر سبحانه وتعالى مع التوبة الإصلاح، فقال: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾، والإصلاح هو إصلاح النفس، وإصلاح العمل، وذلك دليل التوبة الصادقة، وقد قرن الله تعالى التوبة دائما بالعمل الصالح، مما يدل على أن العمل دليل الإقلاع؛ لأن النفس إذا انحرفت، وأحاطت بها الخطيئة، لا يكون الخروج من دائرتها بالقول فقط، بل بالقول والنية والعمل وإن الله تعالى حيثئذ يقبل التوبة، ولذا ذيل الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أى أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده دائما. وقد أكد ذلك بـ «إن»، وبـ «كان» التي تدل على الدوام، وبصيغة المبالغة «توابا»، وأشار سبحانه

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنِي النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ قَالَ: «اضْرِبُوهُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمَنَّ الضَّارِبُ بِيَدِهِ وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ قَالَ ﷺ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا لَا تَعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ». [رواه البخاري: الحدود - الضرب بالجريد والنعال (٦٧٧٧)، كما رواه أبو داود وأحمد].

إلى أن ذلك من رحمته التي وسعت كل شيء، ولقد سبقت رحمته عذابه، وإن الله تعالى ليفرح بتوبة العبد أكثر من فرح العبد بإقلاعه عن ذنبه.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ التوبة هي الرجوع إلى الله تعالى وإلى أوامر دينه بعد الانحراف عنها، ويعرف الأصفهاني التوبة في الشرع بأنها ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعادة، وتدارك ما يمكنه تداركه من الأعمال بالإعادة، والتوبة على هذا النحو أعلى درجات الاعتذار، وذلك أن الاعتذار على أنواع ثلاثة، أحدها: وهو أدناها إنكار الوقوع، وهذا لا يتأتى بالنسبة للعلام الخبير الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض، وثانيها: تبرير الفعل، وذلك أيضا لا يمكن أن يكون أمام الله تعالى، وثالثها: وهو أعلاها الاعتراف بالوقوع وبأنه لا مبرر له، وأنه يرجو الصفح والغفران، وأنه مقلع عما ارتكب، وذلك هو التوبة.

والتوبة إذا كانت قريبة من وقوع الذنب فقد وعدنا الله تعالى، ووعدده الصديق الحق، بأن الله تعالى يقبلها. وتفضل الله سبحانه وتعالى تأكيدا للوعد، وحثا على التوبة، فعبر سبحانه بأن الغفران حق عليه، ولذا عبر سبحانه بلفظ «على» فقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى أن قبول التوبة حق على الله تعالى، وذلك أبلغ درجات الصفح والغفران، سبحانه إنك التواب الرحيم، غفار للذنوب.

وعبر سبحانه وتعالى بـ «إنما» الدالة على الحصر، أى لا يكون قبول التوبة حقا على الله تعالى إلا بتحقيق شروط ثلاثة: أولها: أن يكون ذنبه ليس كثيرا ولم يُحِطْ بنفسه وقلبه، ولذلك قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ أى يقع منهم ما يسهى من غير أن تُركس نفسه في السيئات وتحيط بها. وثانيها: أن يكون الفعل ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أى أنه وقع في حال غفوة الضمير والضعف النفسى، ومن غير إدراك للعواقب، ولا قصد للنتائج، وقد قال السلف: إن كل ذنب على هذا النحو يكون

بجهالة. وثالثها: أنهم ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، بحيث لا يترسل في الشر استرسالاً، ويستمره ويكرره ويستمر عليه، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ فَذُنُوبُهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) [آل عمران].

وذلك لأن من يفعل الذنب على ذلك النحو لا يستغرق قلبه، وقد ورد في الأثر «إن المذنب إذا أذنب نكثت نكته سوداء في قلبه، ثم تتوالى النكث السوداء حتى يربد قلبه»، ومن يعمل السوء بجهالة ثم يتوب من قريب ليس كذلك، وقد أكد الله قبول التوبة فقال: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أى هؤلاء الذين ارتكبوا عن جهالة بعض الذنوب، ولم تريد قلوبهم بتكرار الذنوب وتعددتها واستمرارها والاستمرار عليها، يتوب الله عليهم أى يقبل توبتهم، ويأخذ بأيديهم إلى الهداية ويطهر نفوسهم من أرجاس الذنوب، وهذا ما تضمنه النص السامى ﴿يَتُوبُ اللَّهُ﴾ أى يسبغ التوبة عليهم، وهى تتضمن معنى الاهتداء والاتجاه إليه سبحانه، وإسباغ التوبة عليهم هو إلقاء الطهر عليهم فتطهر نفوسهم، وقد بين سبحانه أن ذلك مقتضى علمه وحكمته، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى أن الله تعالى يعلم النفوس وحركاتها وخلجاتها وسكناتها وميولها وانحرافاتهما، ويعلم ما يطهرها، وما يركسها، وما يهديها وما يغويها، وهو بحكمته يعالج أدواءها. وقبول التوبة أبلغ علاج، والصفح فى أكثر أحواله دواء للأسقام التى تعرض للنفوس، ولم تستقر فيها استقراراً.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ بعد أن بين سبحانه الذين أخذ العهد أن يقبل توبتهم، وهم الذين قد كانت حالهم ما ذكره سبحانه، بين حال الذين لا تقبل توبتهم، فقال تعالى كلماته: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ هنا نفى لوقوع التوبة؛ لأن حقيقة التوبة كما بينا تقتضى أن يكون العبد فى فسحة من الوقت تمكنه من معاودة الخير، فمن يقول عند حضور الموت: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ ليس بتائب. وإذا لم تتحقق منه التوبة فإنه لا يستحق من الله تعالى القبول؛ إذ لا موضوع له.

ومن هم أولئك الذين لا توجد منهم التوبة، حتى لا يتصور قبولها؟ ذكر الله فريقين: فريق العصاة من المسلمين، وفريق الذين يموتون وهم كفار، أما فريق العصاة من المسلمين فقد ذكر لهم وصفين أو أمرين: أحدهما - أنهم يعملون السيئات، أى تعدد أنواع سوء، وتكثر وتشيع فى النفوس، حتى يَرَبِّدَ القلب بها وَيَسْوَدَّ، وهم الذين قال الله تعالى فى أمثالهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة] فالفرق بين هؤلاء ومن سبقوا أن الأولين ارتكبوا فى غفوة من الضمير، ولم يمت. وأما هؤلاء فقد مات وجدانهم الدينى، كأولئك الذين نراهم سادرين فى الفساد وقد استهانوا بكل المحرمات الدينية والتكليفات الربانية. والوصف الثانى أنهم لا ينطقون بالتوبة فى وقت الاختيار، بل ينطقون بها فى وقت الاضطرار؛ ولذا قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾.

أى أنهم يستمرون فى غيهم يعمهون، لا يستيقظ لهم ضمير، ولا يقلعون عن معصية، حتى إذا أُرِفَت الآرفة، وحضر الموت، ولم يكن مناص من أخذهم، قال قائلهم: إني تبْتُ الآن، ولم يقل سبحانه عن حالهم إنهم تابوا، بل حكى قول أحد: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ مما يدل على أنهم لم تقع منه توبة قط، وقوله لا يعد توبة فى حقيقته، وإن سماه هو توبة.

وقد ذكر سبحانه من عصاة المسلمين فريقين:

أحدهما: الفريق الذى يتوب من قريب وقد ارتكب سوء بجهالة، وقد وعد سبحانه بأنه يقبل التوبة منه، وتفضل سبحانه فجعل القبول حقا عليه، وهو فوق عبادته.

والفريق الثانى: أولئك الذين استمروا فى غيهم حتى أدرَكهم الموت. وبقي ثالث لم يذكره سبحانه، وهو الذى لم يتب من قريب، ولكنه تاب قبل أن يحضره الموت، فما شأن هذا الفريق الثالث؟ قال مفسرو السلف إنه يعدُّ قد تاب من قريب، وإن تأخر فى الزمان بالنسبة لأجله، ما دام قد تاب قبل أن يحضره

الموت، وكان في فسحة من الوقت، وقد رووا في ذلك آثارا عن النبي ﷺ، منها ما روى عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه»^(١). فمقياس القرب هو ألا تكون التوبة وقت حضور الموت، ووقته علمه بأنها ذنت، أما إذا كانت التوبة وهو صحيح يرجو الحياة، فإنها مقبولة، وأجل الإنسان كله قريب. وقد بين سبحانه بعد ذلك الذين لا تقبل توبتهم من غير المسلمين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ .

أى أن الله تعالى لا يعتبر توبة الكفار عن ذنوبهم توبة لأنهم لم يؤمنوا، فأساس الطاعات الإيمان. وإن تابوا قبل أن يموتوا وهم في فسحة من الوقت، فإن توبتهم غير مقبولة، وإنما تكون مقبولة إذا آمنوا ولم تكن من قبيل قول فرعون عند الغرق: ﴿... آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس].

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى أولئك الذين لم يتوبوا، هيأنا لهم عذابا مؤلما وجيعا، وهذا يشمل عصاة المؤمنين، والذين ماتوا وهم كفار، غير أن الكفار خالدون في النار، وأما عصاة المؤمنين فبمقدار ذنوبهم.. اللهم نجنا من عذاب النار واقبل توبتنا، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ...﴾ [غافر].

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ عَامًا تَبَّ عَلَيْهِ وَمَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ تَبَّ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ: يَوْمًا حَتَّى قَالَ: سَاعَةً حَتَّى قَالَ: فَوَاقًا. قَالَ: قَالَ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ مُشْرِكًا أَسْلَمَ؟ قَالَ: إِنَّمَا أَحَدْتُكُمْ كَمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ. لرواه أحمد: مسند المكثرين (٦٨٨١) [I].

يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾
وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
بُهْتِنًا وَإِنَّمَا مَثَرُ نَارٍ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى
بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾

الكلام في الأسرة، وإن حماية الأسرة تكون بحماية ضعفائها، ومن لا يستطيع الذود عن نفسه، ولذلك تكلم القرآن الكريم في شأن اليتامى، ثم في شأن النساء. وقد تكلم سبحانه في الميراث وتقسيمه العادل، وفي هذه الآيات التالية يشير سبحانه إلى نوع من الميراث ظالم، كان من عادات بعض أهل الجاهلية، لم يكن موضوع الميراث فيه مالا، ولا حقا يقبل التوريث، بل كان موضوع الميراث في زعمهم حق امرأة المتوفى في نفسها، فقد زعموا أن من يموت زوجها، لا تكون مالكة لأمر نفسها بموته بل يكون أمر زوجها بيد أوليائه الذين يرثون ماله، فإنهم يرثون مع ماله الولاية على وجهه، فلا تتزوج إلا بإذنهم أو تزويجهم، ولذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

صدر النص السامى بالنداء للذين آمنوا، للإشارة إلى أن ذلك لا يتفق مع الإيمان، بل إنه من مظالم الجاهلية. وإذا كان مثله يصدر عن أهل الشرك، فإنه لا يسوغ مع الإيمان، ولا يليق أن يصدر عن المؤمنين؛ لأن حقوق الأشخاص لا تورث، وليست المرأة ولا حق زوجها متاعا يقبل التورث.

ولقد روى الزهري أنه كان من عادات أهل الجاهلية أنه إذا مات الرجل يُلقَى ابنه من غيرها أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها، ولم يُعْطَها شيئاً، وإن شاء عضلها من الزواج، أى منعها منعاً مشدداً لتفتدى نفسها بما ورثته من الميت أو تموت فيرثها!!

ومغزى هذه الرواية أنهم يجدون لهم حقاً فى إمساكها ومنعها من الزواج، بما كان قد دفع لها زوجها من صداق، وبما كان له عليها من حق الإمساك. ونهى القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾، ومعنى النص الكريم على هذا أنه لا يصح أن يرث أولياء الميت حق تزويج نساء المتوفين كرها عنهن من غير توكيل، فليس الميراث هو ميراث ذات المرأة كزوجة، بحيث يملك زوجها بغير عقد، بل المراد حق تزويجها من نفسه أو من غيره، من غير أن تكون لها إرادة حرة فى الزواج.

وبعض العلماء فهم أن المراد من الميراث هو ميراث الزوجية نفسها، بحيث تكون المرأة زوجاً من غير عقد، كما فهم آخرون أن المراد لا يحل أن ترثوا أموالهن. ولكن الظاهر من مجموع الروايات، أن المراد بالميراث هو ميراث حق التزويج، وميراث ما أعطيت من صداق. وقد عبر الله سبحانه وتعالى - ولكلامه المثل الأعلى - عن النهى عن هذا العمل بقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ بدل لا ترثوا للإشارة إلى أنه أمر غير مستحسن فى ذاته، فهو فى ذاته غير حلال وغير لائق، فلا يحتاج فى نفى الحل إلى نهى ينشئ التحريم، بل إن الفطرة السليمة تدرك عدم

حله، وقد كان الجاهليون فى ضلال مسبين وظلم شديد، إذ كانوا يفعلونه، ولذلك استنكره كثيرون منهم، وكان العمل من بعضهم، لا من كلهم.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ العضل هنا معناه التضييق والتشديد لمنع الزواج، أو الظلم الشديد من الأزواج، وقد قال الراغب فى معنى العضل: «العضلة كل لحم صلب فى عصب الرجل، ورجل عضلٌ مكتنز اللحم، وعَضَلَتْهُ شِدَّتُهُ بالعَضَل نحو عصبته، وتَجَوَّزَ به فى كل معنى شديد» قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ والمراد هنا التضييق الشديد، والخطاب هنا إما أن يكون لأولياء الميت، وتكون ﴿لَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ معطوفة على ﴿أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾ وتكون (لا) لتأكيد النفى، والمعنى على هذا: لا يحل لكم أن تَرِثُوا النساء كرها، ولا تعضلوهن وتمنعوهن من الزواج لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن، أى لتضيقوا عليهن حتى يتركن حقهن فى المهر الذى أخذنه، أو بقى لهن، ومعنى ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ تضيعون حقوقهن، إذ يقال ذهب بالأمر أو بالحق: أضاعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿.. ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة].

هذا احتمال فى النص الكريم، وهناك احتمال آخر فى توجيه الخطاب، وهو أن يكون ذلك نهياً مستأنفاً، محمولاً فى النسق على نفى الحل السابق، ويكون الخطاب للأزواج، فيكون المعنى على هذا: لا يحل لكم أن تَرِثُوا النساء كرها، فتزوجوهن أو تزوجوهن بغير رضاهن، وكذلك لا تعضلوهن بأن تضيقوا عليهن وتظلموهن وترهقوهن وهن زوجات، لتكرهوهن على طلب التفريق فى نظير أن تأخذوا بعض ما آتيتموهن. وإذا كان التضييق لأخذ بعض المهر منها عنه، فأولى أن يكون فى موضع النهى التضييق عليهن لأخذ المهر كله.

وإننا نختار أن يكون الخطاب موجهاً للأزواج، ويكون النص السامى قد اشتمل على بيان التحريم فى موضعين: أولهما - إكراه المرأة على زواج لا تريده، وذلك بدعوى حقهم فى ميراث حق تزويجها. والثانى - النهى عن إكراه المرأة

على طلب التفريق حتى يضيع عليها بعض حقها فى المهر، وبالأولى إكراهها حتى يضيع حقها كله، والمؤدى فى الأمرين هو حماية المرأة من أن يتحكم فيها أولياء زوجها ببطشهم، أو يتحكم فيها الزوج بسلطان الغلب والزوجية.

ولكن قد تكون المرأة ظالمة لزوجها، فهل يحل أخذ شيء من مهرها لأنها أفسدت الحياة الزوجية؟ قد بين النص الكريم أنه يحل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾.

الاستثناء هنا منقطع، معناه لكن إن يأتين بفاحشة مبينة يحل أخذ المهر الذى أوتينه أو بعضه، ومؤدى هذا الكلام تحريم وتحليل، أما التحريم فهو ما بين فى الكلام السابق، وهو أنه لا يصح أن يعضل امرأته ظالما لها كارها، ويريد طلاقها ويفعل ذلك ليكرهها على طلب الطلاق فى نظير ما أعطى كله أو بعضه . وأما التحليل فهو إباحة أن يطلقها فى نظير بعض ما قدم لها أو كله، إذا كانت ظالمة له مفسدة للحياة الزوجية. والفاحشة المبينة هى الفاحشة الواضحة المعلنة التى تعلن نفسها، وتكشف أمرها؛ لأن المُبَيَّن يكون بيَّنا دائما، فعبر عن البَيِّن بلفظ المُبَيَّن مبالغة فى وضوحه وبيانه وإعلانه. وما هى الفاحشة؟ قال بعض العلماء هى الزنا، والمعنى أنه يباح فى هذه الحال، استرداد المهر كله، ولو بغير رضاها، وقد قال الإمام مالك ذلك. والتعبير عن الزنا بلفظ الفاحشة تعبير يجرى فى القرآن كثيرا، وأصل الفحش الأمر السيئ الذى يزيد عن كل معقول مقبول، فالعقول تمجده فى كل صوره ولا شيء أكثر من الزنا فى ذلك.

وقال بعضهم: الفاحشة هى النشور وإفساد الحياة الزوجية بكل طرق العناد والمشاكسة والمباغضة. وقال آخرون: البذاءة والفحش فى القول والعمل والمكارهة بالعبارات والفعل. وفى الحق إن الفاحشة البينة الواضحة تشمل كل هذا، وهى فى كل صورها إفساد المرأة للحياة الزوجية، وقد اتفق العلماء على أنه فى هذه الحال يحل للزوج أن يأخذ كل ما أعطى أو بعضه.

وهذا هو موضوع قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا...﴾ (٢٢٩) [البقرة].

هذا، وإن الرجل هو الراعى، وهو المسئول عن هذه الرعية، ولذلك خاطب الله تعالى الأزواج بقوله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى الأزواج بالعشرة الحسنة، بالمعروف، وإن العشرة هي المخالطة والممازجة بحيث تلتقى النفسان، ومن طبيعتها أن تكون في ألفة لا في نفرة، وقد أطلقت العشرة على المعاملة، والمراد بالمعروف أن يعامل الرجال أزواجهم معاملة تليق بأمثالهن من غير أن يكون منهم ما يستنكر عقلا أو شرعا، أو عادة، فهو يؤنسها ولا ينفرها، ويقربها ولا يبعدها، وكان الأمر بالعشرة الحسنة بعد الإشارة إلى ما قد يكون منهن من نشوز وبذاءة وفحش في القول، لبيان أنه لا يسوغ لرجل أن يفترق لمجرد ظهور النشوز منها، بل يعالجها بالرفق، وإزالة أسباب النفرة إن أمكن. وإن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعاشرون أزواجهم على أكمل ما تكون العشرة، ويقربونهن بكل وسائل التقريب، حتى إن ابن عباس كان يقول: إنى أتزين لامرأتى كما تترين لى. وقد يكون سبب النفرة من الرجل نفسه، وإنه ليروى في ذلك أن امرأة ذهبت إلى الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه تطلب الفراق من زوجها، فرأى عمر الزوج، وإذا هو أشعث أغبر خلق الثياب مستطيل الشعر، فأدرك بشاقب نظره أن النفرة من هذه الحال، فأجلها وأرسله إلى المغتسل فاغتسل، وألبسه ثيابا حسنة، وأزال شعته، ثم ناداها، فسألها: أمصرة على ما تطلب؟ فلما رأت زوجها على حاله الجديدة عدلت عن طلب الطلاق.

وإن معاملة المرأة بالحسنى دليل على كمال الرجولة والخلق، ولذا قال النبي

ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»^(١).

(١) رواه ابن ماجه: النكاح - حسن معاشره النساء (١٩٧٧).

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا يصح للرجل أن يسترسل فى كراهيته إن عرضت له أسباب الكراهية، بل يتعرف المحاسن، ولا يقتصر على النظر إلى المساوئ، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

إن العشرة الحسنة مطلوبة ولو فى حال كراهية الزوج لزوجته، فإنه لو أظهر الكره لكانت المباغضة، ولاسترسل فى غواية تضله، فيصر على الكراهية، وقد كان فى الإمكان أن يرى فيها المسرة بدل المضرة، وأسباب المحبة بدل البغض.

وإن النص الكريم يشير إلى معنى سليم، ويدعو إلى إدراك معان مختلفة كثيرة: أولها - أن ينظر إلى الحياة الزوجية من جميع نواحيها، لا من ناحية واحدة منها، وهى البغض والحب، فينظر إلى مصلحة أولاده، وإلى نظام بيته، وإلى محاسنها بدل أن ينظر إلى مساوئها. وثانيها - أن يفكر فى من يعقبها: أهى خير منها أم لا؟ وثالثها - أن ينظر فى شأن العلاقة بعين العقل والمصلحة المشتركة لا بعين الهوى المسيطر الجامح. ورابعها - وهو أعظمها أن ينظر إلى المسألة بالقلب الدينى، وأن يتذكر فى وقت الكراهية العشرة الحلوة السابقة، ولذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، والخير الكثير يتكشف للرجل فى الأمر المكروه بإحدى حالين: إما بالنظر الشاقب الذى يتغلب فيه العقل على الهوى، وإما بعد فوات الوقت، فيعرف الخير الذى فاته بفعله، فلا يمكن التدارك، ويكون الندم المرير، ولات حين مندم.

وإن هذا النص يشير إلى معنى جليل عام لا يخص الحياة الزوجية وحدها، وهو ألا يبت فى الأمور تحت تأثير الكراهة، فإنها عارض وجدانى قد يزول، وقد يكون فى المكروه الخير الكثير الذى غاب عنه فى وقت إدراكه، فيفوته النفع العظيم تحت تأثير الكراهية التى قد يبعث عليها أمر حسى عارض. وفى الحديث الصحيح: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ سَخَطَ مِنْهَا خَلَقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(١) والفرَكُ

(١) رواه مسلم: الرضاع - الوصية بالنساء (١٤٦٩)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٨١٦٣) عن أبى

هريرة رضى الله عنه.

البغض الكلّي الذى تنسى فيه كل المحاسن. وروى مكحول عن ابن عمر أنه كان يقول: «إن الرجل ليستخير الله تعالى فَيُخَارَ له، فيسخط على ربه عز وجل، فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة، فإذا هو قد خير له».

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ بين سبحانه فى النصوص الكريمة السابقة حال أخذ الرجل بعض ما آتاه إذا أتت المرأة بفاحشة بينة واضحة تعلن نفسها، وذكر سبحانه علاج الرجل لنفسه إذا أحس بكراهية، لكى يتجنب الطلاق الذى قال فيه النبى ﷺ: «ما أحلّ الله شيئا أبغضه كالطلاق»^(١)، فإذا استرسل فى الكراهية، واختار أبغض الحلال، فإنه لا يصح أن يسترد منها أى مقدار أعطاها إياه ولو كان قنطارا من فضة أو ذهب، فالتفريق هنا بمجرد إرادته لا بسبب من جانبها، ولذا قال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ وعبر فى التعليق بـ «إن» وهى لا تكون لوقوع الفعل مؤكدا، لينبه إلى أن الإرادة قد تكون غير سليمة، وغير مبنية على أسباب قوية، والاستبدال طلب البديل، بأن يطلق واحدة ويتزوج أخرى. وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ لبيان أنه لا يُسترد شيء مهما يكن كبيرا؛ إذ القنطار أقصى ما يتصور من مهور. والقنطار أصله من قَنْطَرْتُ الشيء إذا رفعته، ومنه القنطرة؛ لأنها بناء مرتفع مشيد، وقد قال الشاعر:

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبِّهَا لَتُكْتَفَنَ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ^(٢)

وخلاصة المعنى أنه لا يصح أن يأخذ شيئا مادام التفريق بإرادته وبسبب من جانبه، ولم يكن لها فيه أى عمل، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿... وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ...﴾ (٢٢٩) [البقرة] فإن الآية التى نتكلم فيها كان الطلاق بسبب من جانبه وهو إرادته

(١) عَنْ مُحَارِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ شَيْئًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّلَاقِ». رواه أبو داود: الطلاق - كراهية الطلاق (٢١٧٧).

(٢) البيت قاله طرفه بن العبد البكرى فى معلقته وهو تشبيه للناقاة. والقرمد والقرمدة: الأجر.

الاستبدال، وأما الآية الأخرى، فإنها عندما تريد المرأة ذاتها التفريق غير معضولة ولا مبخوسة أى حق من حقوق الزوجية المفروضة على الزوج.

وقد ويخ سبحانه وتعالى على الأخذ عند إرادة الاستبدال بنصين كريمين:
أولهما قوله تعالى:

﴿أَتَاخِذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ هذا توبيخ واستنكار للأخذ، والبهتان هو الكذب غير المعقول الذى يتحير فيه العقل، ويطلق على كل أمر يتحير العقل فى إدراك سببه، أو لا يعرف مبررا لوقوعه، كمن يعتدى على الناس من غير عداوة سابقة ولا نفع مجلوب، ولا غرض مقصود. والإثم الذنب العظيم، والمبين الواضح الذين يعلن نفسه ووضوحه، ويكشف عن مقدار الأذى فيه. وقد قال العلماء: إن البهتان والإثم مصدران قصد بهما الوصف، أى أتأخذونه باهتين فاعلين فعلا تتحير العقول فى سببه، آثمين بفعله إثمًا واضحًا معلن الوضوح مستنكر الوقوع، ويصح أن يكون المصدران مفعولين لأجله، ويكون ذلك توبيخًا أشد، ويكون المعنى عليه: أتأخذونه لأجل البهتان والإثم المبين؟ ويكون فى التعليل توبيخ أشد، وهذا هو الذى نراه.

هذا، هو النص الأول الموبخ، والنص الثانى هو قوله تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَأْخِذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الإفضاء معناه الخلوص، أى يخلص كل واحد للآخر، وفسر بأنه الخلوة بين الرجل وزوجه ليس معهما أحد؛ لأن الفضاء هو الذى يكون بينهما. والاستنكار هنا للحال الواقعة، فالأول كان استنكارا لذات الأخذ، وهنا الاستنكار لما أحاط بالأخذ من أحوال. والمؤدى أن الأخذ عند إرادة الاستبدال أمر مستنكر فى ذاته، ثم هو مستنكر لأجل الأحوال التى كانت بين الزوجين. وقد ذكر سبحانه وتعالى سببين للاستنكار: أحدهما - الإفضاء وخلوص زوج لنفس صاحبه حتى صارا كأنهما نفس واحدة. وثانيهما - الميثاق الغليظ أى الشديد القوى الثابت الذى هو عهد ثقيل لا يصح منه التخلص. وذلك الميثاق، هو الارتباط بين الزوجين أمدًا

صارت فيه نفس كل واحد قطعة من الآخر، وهو أمر الله تعالى إذ يقول: ﴿... فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ...﴾ [البقرة]، وليس الأخذ من التسريح بإحسان، وهو المودة التي تظل بين الزوجين في مدة الحياة الزوجية التي صورها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم].

هذا، وقبل أن نختم الكلام في هذه الآيات نقرر أمرين:

أحدهما - أن الرجل في افتراقه عن زوجته لا يحل له دينا أن يأخذ منها شيئا إذا كان النشوز من جانبه، ولا يحل أن يأخذ أكثر مما أعطى إذا كان النشوز من جانبها، وما أخذ في غير ذلك يكون كسبا خبيثا، وقد اتفق على ذلك العلماء.

ثانيهما - أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ تدل على أنه ليس للمهر حد أعلى، وقد استدلت بذلك امرأة أمام أمير المؤمنين عمر عندما قال: (ألا لا تغالوا في صدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ؛ ما أمهر قط امرأة من بناته ولا نسائه فوق اثنتي عشرة أوقية). وجعل رضى الله عنه ذلك حدا أعلى، فقالت امرأة: (يعطينا الله وتحرمنا)، وتلت الآية، فقال الإمام العادل: (أخطأ عمر وأصاب امرأة)، ولكن عمر كان ينظر بنور الله وروح الإسلام، فإن أخطأ في الحد بمقدار، فإنه لم يخطئ في منع المغالاة في المهور، ولله عاقبة الأمور.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ
النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ
الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ
الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ
مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

كانت الآيات السابقة فى بيان تحريم ظلم المرأة فى حال الزوجية وظلمها بعد وفاة زوجها، وظلمها عند إرادة الافتراق عنها. وفى هذه الآيات يبين الله سبحانه من يحل من النساء الزواج بهن، ومن لا يحل، وإذا كانت الآيات السابقة لدعم الأسرة بمنع الظلم؛ لأن العدل به قوام الأسرة وقوتها، ومنع الظلم تقوية سلبية، فالآيات التى تبين المحرمات من النساء تبين أسباب قوة الأسرة من ناحية المودة التى تربط بين الزوجين برباط الرحمة والمحبة، وتجعل الزواج مثمرا ثمراته الطيبة من العلاقة الزوجية التى لا تُرَفِّقُهَا علاقة أخرى. وقد ابتدأ سبحانه ببيان تحريم زوجة

الآباء إذا افترقوا عنها، فكما أن الرجل لا يحل له أن يرث حق تزويج زوجته أصله كذلك لا يحل له أن يتزوجها. وقد ابتدأ بهذا النوع من التحريم لتناسبه مع منع ميراث حق التزويج للنساء. ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

كان فاشيا بين العرب في الجاهلية أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا مات عنها أبوه، وكان ذلك يؤدي إلى منعها من حرية الاختيار في الزواج، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك في الماضي من الآيات الكريمات، وهنا يمنع تزوج الولد ممن كانت زوجة أبيه، بل ممن كانت زوجة آبائه على وجه العموم؛ وذلك لأن كلمة «آبَاؤُكُمْ» تشمل كل الأصول من الرجال أى تشمل الأجداد جميعا سواء كانوا من جهة أبيه أم كانوا من جهة أمه، وذلك من قبيل الإطلاق المجازي.

والنكاح هو عقد الزواج، وهو لا يستعمل في القرآن إلا على الزواج، وقد يطلق على المباشرة نفسها، ولكنه لم يطلق في القرآن إلا على العقد، ولذلك قال الشافعي وكثيرون من الفقهاء، إن النكاح حقيقة في العقد، وإذا أريد به المباشرة كان ذلك مجازا من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب، وذلك أنه لا يكون إلا في المباشرة الحلال، والحنفية قالوا إنه حقيقة في المباشرة مجاز في العقد. والذي يتفق مع تعبير القرآن هو رأى الشافعي.

ولما كان ذلك النوع من الزواج كثيرا في الجاهلية، وربما وقع فيه بعض المؤمنين في الجاهلية قبل الإسلام، أشار سبحانه إلى أن ما كان في الجاهلية هو موضع عفو لا يعاقب الله تعالى عليه، ولذا قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أى أنكم لا تؤاخذون على ما قد مضى منكم في الجاهلية، والاستثناء هنا منقطع، و«إلا» بمعنى «لكن»، والمعنى: لكن ما قد سلف لا تؤاخذون عليه، والله يعفو عنكم، وهو ينتهى بهذا التحريم، فمن كان متزوجا ممن كانت امرأة أبيه، فإنها حرام عليه من وقت نزول ذلك النص الكريم، وعفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام.

والتحريم له حكمته . فإنه يتنافى فيما للأباء من وقار، وما يجب لهم من حسن صحبة، ولأن امرأة الأب لا تحتشم على الابن، فلو كانت تحل له بعد الفراق لتطلعت النفس إليها، وقد ترغب فيه، فتفارق الأب أو تغاضبه طمعا في ابنه، ولا إساءة إلى الأب أبلغ من هذا، فكان المنع لأجل الرحم والمودة في القربى، وحسن الصحبة . والعقد ذاته سبب التحريم، فإذا عقد الأب أو الجد فإنها تكون حراما على الأبناء والأحفاد، ولو لم يدخل بها؛ لأن ذلك ما يقتضيه الإحسان إلى الوالدين .

وفى النص إشارة إلى أنه لا عقوبات من غير نص محرم، وهؤلاء كانوا يرتكبون ما يرتكبون مستحلين له، فلما جاء النص القاطع المحرم كان العقاب، ولا عقاب قبل النص المحرم .

وإن ذلك النوع من النكاح سيئ في ذاته، لا يقدم عليه كريم، ولذا قال سبحانه وتعالى فيه :

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ هذه أوصاف ثلاثة وصف الله بها ذلك النوع من العقود: أولها أنه فاحشة، أى أمر زائد فى القبح شرعا وخلقا، والفحش هو الأمر الزائد زيادة قبيحة، فهو زيادة قبيحة على موجب الفطرة المستقيمة . والوصف الثانى أنه مقت، وهو مصدر وصف به أى أنه ممقوت من ذوى المروءات لا يقبلونه ولا يرضونه . والثالث أنه أسوأ سبيل لطلب الولد؛ إذ يكون ابنه أخا لأخيه من أبيه وبنته أختا لأخيه أو لأخته من أبيه، وذلك نوع من المجوسية، فهو لذلك كان سيلا سيئا .

وقد قال الزمخشري فى هذا النص: «كانوا ينكحون رواهم (أى تنكح المرأة ربيها)، وناس منهم كانوا يمقتونه من ذوى مروءاتهم ويسمونهم نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له المقتى، ومن ثم قيل ﴿وَمَقْتًا﴾، كأنه قيل إنه فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح، قبيح ممقوت فى المروءة، ولا مزيد على ما يجمع القبحين» .

بعد ذلك بين سبحانه وتعالى المحرمات من الأقارب فقال تعالى :

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ هذا النص الكريم لبيان تحريم أربع طوائف من القرابة، فمعنى حرمت عليكم أمهاتكم، أى حرم عليكم نكاح أمهاتكم.

والطوائف الأربع أولاهن: الأمهات والجديات؛ لأن الأمهات يراد بهن الأصول، إذ الأم تطلق على الأصل، كما قال تعالى: ﴿... وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد] ويصح أن يراد من الأمهات الصُّلبيات، ولكن يثبت تحريم الجديات بطريق الأولى، لأنه إذا كانت العمة والحالة حراما، فأولى أن تكون الجدة حراما، لأن الأم هى طريق الوصول فى القرابة إلى هؤلاء، وقد أجمع المسلمون على تحريم الجديات.

والطائفة الثانية: الفروع من النساء، وذلك ثبت بقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ بالعطف على ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾، وقد ثبت تحريم البنات بالنص، وبقية الفروع من النساء ثبت تحريمهن بالأولى؛ لأن النص يحرم بنت الأخ وبنت الأخت، وإذا كانت بنت الأخ والأخت، حراما، فأولى بالتحريم بنت البنت وبنت الابن؛ لأن البنت أقرب من الأخت.

والابن أقرب من الأخ، فأولادهما أولى بالتحريم، وقد انعقد الإجماع على تحريم الفروع من النساء مهما تكن طبقتهن.

والطائفة الثالثة: فروع الأبوين، وهن الأخوات، وبنات الإخوة والأخوات، وثبت تحريمهن بقوله تعالى: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾، وذلك يشمل الأخوات شقيقات أو لأب أو لأم، كما يشمل فروع الإخوة والأخوات جميعا؛ لأن كلمة (بنات الإخوة والأخوات) تشمل كل الفروع على سبيل المجاز، ولأن التحريم يثبت بالأولى، لأن عمة الجد حرام بالنص فأولى بالتحريم بنت ابن الأخ، وبنت بنت الأخ أو الأخت؛ لأنهن أقرب، وقد انعقد الإجماع على تحريمهن.

والطائفة الرابعة: العمات والخالات، وقد ثبت التحريم بقوله تعالى: ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ بالعطف على الأمهات من حيث التحريم، والعمات والخالات، يشملن عمات الأب والأم وخالات الأب والأم، وعمات الجد والجدة، وخالات الجد والجدة؛ لأن هؤلاء يطلق عليهن عرفاً اسم العمّة والخالة، واللغة لا تمنع ذلك، وقد انعقد الإجماع على ذلك. والنص على تحريم العمّة والخالة والاقتصار على ذلك يدل على أنه لا يكون تحريماً لبنت العم وبنت الخال والخالة، أي كانت طبقة العمومة والخثولة، فبنت عم الأب حلال، وبنت خال الجد حلال أيضاً.

وإن هؤلاء المحرمات قد ثبت تحريمهن في الشرائع السماوية كلها؛ لأن تحريمهن مشتق من الفطرة، وفي الزواج بهن إيجاد نسل غير قوى، لأن التجارب العلمية أثبتت أن التلاقح بين سلائل مختلفة الأرومة ينتج نسلاً قوياً، والتلاقح بين حيوانات متحدة الأرومة ينتج نسلاً ضعيفاً، وعلى ذلك يكون التزاوج بين القرابة القريبة منتجاً نسلاً ضعيفاً. ولقد ضعف آل السائب؛ لأنهم كانوا لا يتزاوجون إلا فيما بينهم، فقال لهم الإمام عمر: (قد أضويتم يا آل السائب فانكحوا النوايج).

وإن الزواج من القرابة القريبة يفسد علاقة القرابة والعواطف الشريفة التي تربط بينهم، فعلاقة الأمومة والبنوة والأخوة والعمومة والخثولة يفسدها الزواج بما يكون بين الزوجين من مباسطات أو منافرات أحياناً، والحياة الزوجية على القبض والبسط، والرضا والسخط، والمداعبة والهجر أحياناً، وكل ذلك يفسد القرابة.

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ﴾ الأم الرضاعية هي التي أرضعته، والأخت الرضاعية هي التي أرضعتها أمه، أو رضعت من طئر رضع هو منها، أو بعبارة عامة التقيا على ثدى واحدة، ولا يشترط أن تكون الرضاعة من لبنه أو لبنها، بل إن كل من ترضع ولدا تحرم عليه بناتها جميعاً صغيرة أو كبيرة. وقد قرر جمهور الفقهاء أنه يعتبر من الأخوات الرضاعيات كل من رضعت من امرأة أبيه إذا كان اللبن الذي رضعته كان أبوه هو السبب فيه. وهذه العلاقة

الرضاعية نشأت من قبل أبيه لا من قبل أمه، فمن رضعت من لبن أخيه لأبيه أو أخته لأبيه تعد أختا رضاعية له.

والأمهات الرضاعيات يشملن الأم التي أرضعته وجداته اللائي كانت العلاقة بينه وبينهن رضاعية، في أى طبقة من الطبقات، سواء أكن جدات رضاعيات له من جهة أبيه أم من جهة أمه.

وإنه يلاحظ أنه لا يحرم بالرضاعة الأمهات والأخوات فقط، بل البنات والعمات والحالات، وبنات الأخ والأخت، وإن نزلت درجاتهن فى القرابة. وقد فهم كثيرون من المفسرين تحريم هذا كله من الآية الكريمة؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى لما سمى الموضع أما، وابنة الموضع أختا، فقد نبه بذلك إلى أنه أجرى الرضاعة مجرى النسب، ففهم بفحوى الخطاب باقى المحرمات رضاعا اللائي يعتبرن نظيرا للقريبات، وإنه قد نص على تحريم الأخت رضاعا، وليست الأخت أقرب من بنت البنت الرضاعية، فتحرم عليه بالأولى، ولقد جاءت السنة موضحة ذلك المعنى، فقد روى أنه لما طُلبَ إليه عليه الصلاة والسلام أن يتزوج ابنة عمه حمزة قال: «لا تحل لى، إنها ابنة أخى من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»^(١). وروى أن عائشة كانت قد رضعت من امرأة أبى القُعيس، فجاء أخوه أفلح يستأذن عليها، فقالت: أرضعتنى امرأة أخيه، فلا آذن له، حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال: «ائذنى له فإنه عمك تربت يداك»^(٢)، وذلك لأنها لما رضعت من امرأة أخيه على ولد أخيه اعتبر أبا رضاعيا لها، فيكون هو عمها.

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: الرضاع - تحريم ابنة الأخ من الرضاعة (١٤٧٧) عن سعيد بن أبى عروبة، وبتحواه رواه البخاري: الشهادات - الشهادة على الأنساب (٢٦٤٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ بَعْدَ مَا نَزَلَ الْحِجَابُ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا آذَنُ لَهُ حَتَّى اسْتَأْذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّ أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعْتَنِي =

والرضاعة المحرمة عند مالك وأبي حنيفة هي كل مقدار قل أو كثر، وعند الشافعي وأحمد لا يحرم إلا خمس رضعات مشبعات ليتمكن أن يكون الولد جزءا ممن أرضعته؛ إذ يكون قد أخذ منها غذاء يوم كامل. ولا بد أن تكون الرضاعة في الصغر، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الرضاعة من المجاعة»^(١) وذلك يكون في الستين الأوليين من حياة المولود، ولذا قال سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال أبو حنيفة: إن الرضاعة المحرمة هي ما تكون في الثلاثين شهرا التي أعقبت الولادة.

والحكمة من التحريم بالرضاعة أن المولود يتكون جسمه من جسم التي أرضعته فيكون جزءا منها، كما هو جزء من أمه، التي حملته، وإذا كانت هذه غذته بدمها في بطنها، فتلك غذته بلبنها في حجرها، وربما تكون مدة الإقامة في حجرها أطول كثيرا من مدة الحمل، فكان لا بد أن يثبت لهذه الأم الرضاعية ما يثبت للأم النسبية من حرمة وكرامة، وإن تكريم المرضعات بذلك التحريم الذي يكون للأمهات الحقيقيات يشجع النساء على الرضاعة، فلا يضيع الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم، وفي هذا التحريم فوق ذلك تنبيه إلى أن يتخير الآباء من يرضعون أولادهم؛ لأنهم إذا علموا أن أولادهم ستكون أجزاؤهم ممن يرضعونهم تخيروهم من ذوات الأجسام القوية، والدماء النقية التي لا يدينسها مرض يتقل بالوراثة، ولقد كان العرب والسلف الصالح يتخيرون مراضع أولادهم لهذه المعاني.

﴿وَأُمّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾
هذه النصوص تعرضت للمحرمات بسبب المصاهرة، وهي تتم ما ابتدأه سبحانه

= امرأة أبي الفُحَيس، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن الرجل ليس هو أرضعتني ولكن أرضعتني امرأته. قال ﷺ: «انذني له فإنه عمك تربت يمينك». [رواه البخاري واللفظ له: النسب - قول النبي ﷺ: تربت يمينك (٦١٥٦)، ومسلم مختصرا (١٤٤٥)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٩٥) كتاب الشهادات - باب الشهادة على الإنساب والرضاع المستفيض، ومسلم: إنما الرضاعة من المجاعة (٣٥٦١). من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها.

بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ التي تعرضنا للذكر أحكامها في ابتداء القول في المحرمات، وهذه النصوص شملت ثلاث طوائف.

أولاهما: ﴿أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وأمهات من كانت زوجة للشخص يَكُنَّ حراما سواء أكن أمهات صليبات أم جدات، فيشمل النص كل الجدات، لما ذكرنا من أن كلمة الأمهات تشمل الجدات، ولإجماع الفقهاء على ذلك، ولبيان النبي ﷺ. وأما من عقد عليها وافترق تحرم عليه، سواء أدخل بها أم لم يدخل؛ لأن الأم توحش صدر ابنتها إذا تزوجت من مطلقها، ولأن الأم لا يليق بها أن تتطلع إلى الزواج ممن كان زوج ابنتها، ولو لم يدخل بها، فإن ذلك مخل بكرامة الأمومة وشرفها وحنانها، وهو سبيل لقطع رحمها، وشيوع ذلك يؤدي إلى الفساد. والطائفة الثانية بينها الله تعالى بقوله: ﴿وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

والريبة هي ابنة الزوجة لأن الزوج في أكثر الأحوال يرثها أي يربها ويعطف عليها، وهي في غالب الأحوال تكون في حجره، أي في بيته وتحت رعايته، فقلوه تعالى: ﴿اللَّائِي فِي حُجُورِكُم﴾ كناية عن الرعاية والحياطة والعطف، وغيرها من أنواع البر التي يحوط بها أولاد زوجته من غيره إن كان رجلا عطوفا كريما، وهذا الوصف جار مجرى العادة، والتعبير فيه مجازي لبيان قبح من يتزوج بنات امرأته، وقد اشترط للتحريم أن يكون قد دخل بزوجه التي افترق عنها، وأراد أن يتزوج ابنتها، ولذلك صرح سبحانه وتعالى بالحل، إن لم يكن قد دخل بالأم وافترق عنها وأراد الزواج بالبنت، إذ قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم في أن تعقدوا عليهن، وإن المعاني التي من أجلها حرم الزواج بالأم عند العقد على البنت ليست قوية في حال التزوج بالبنت بعد الافتراق عن الأم، فالأم لها من الحنان والعطف والشفقة ما يجعلها تغفر لابنتها تزوجها ممن كان زوجها إذا لم يكن دخول، ولأن البنت ليس

فيها من الكرامة والاحترام والشرف ما للأمم الرعوم العظوف، لذلك اشترط في التحريم الدخول بها.

والحكمة في التحريم واضحة؛ لأنه لو كانت الإباحة، فيباح للرجل أن يطلق الأم المدخول بها ويتزوج ابنتها، ويطلق البنت ويتزوجها، لأدى ذلك إلى تقطيع الأرحام بين الأم والبنت، ولأدى إلى التضيق في الأسرة، فلا يباح للرجل أن يضم إليه أولاد امرأته، ولا يباح له أن يعطف على بناتها، ويؤويهن عنده إن كن في حاجة إلى إيواء، خشية أن يؤدي ذلك إلى الرغبة في الزواج بواحدة منهن.

والطائفة الثالثة بين سبحانه وتعالى تحريمها بقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ والحلائل جمع حليلة وهي الزوجة التي تحل، والأبناء يشملون الأولاد من الطبقة الأولى والطبقات الأخرى، وقد انعقد الإجماع على ذلك، فمن كانت زوجة ابنه أو ابن ابنه أو ابن بنته لا تحل له لأنها كانت حليلة لأحد هؤلاء، والتحريم ثابت سواء أدخل بها فرعه أم لم يدخل، وقوله تعالى ﴿مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ - معناها من ظهوركم، وكان في ذكر كلمة (أبنائكم) ما قد يغنى عن ذكر ﴿أَصْلَابِكُمْ﴾، ولكنها ذكرت ليخرج الذين يُتَبَنَوْنَ، فقد كان العرب يعتبرون المتبني ولدا له كل حقوق الأولاد، ويحرمون على أنفسهم الزواج من أزواج المتبينين، وقد سماهم القرآن أدعياء، ولذلك قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ادعواهم لأبنائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله عفورا رحيمًا ﴿[الأحزاب] ومن أجل إباحة الزواج بمن كانت زوجة المتبني أمر الله نبيه بأن يتزوج امرأة زيد بعد أن يطلقها لأنه كان متبني للنبي ﷺ في الجاهلية، ولذا قال سبحانه عند الأمر بزواجها: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

حَرَجَ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٢٧﴾ [الأحزاب].

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ هذا نوع جديد من التحريم المؤقت، وهو ألا يجمع الرجل بين امرأة وأختها في عصمته، فلا يصح أن يتزوج أخت زوجته، وهي في عصمته، أو يكون قد افترق عنها وعدتها لم تنته، فإن ذلك حرام؛ لأنه يؤدي إلى قطع الرحم بينهما، ومثل الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها وابنة أخيها وابنة أختها، وقد ثبت تحريم الجمع بين هؤلاء لقول النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، ولا المرأة على ابنة أخيها، ولا ابنة أختها»، وزاد في بعض الروايات: «إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»^(١)، وقد انعقد إجماع من يعتد بإجماعهم على ذلك. وقد قال بعض المفسرين: إن تحريم الجمع بين هؤلاء يثبت من نص القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾؛ ذلك لأن التحريم لخشية إيحاش قلب الأختين بالعداوة، ويكون بينهما ما بين الضرائر من مبادلة الأذى، وإن ذلك أظهر في الجمع بين المرأة وخالتها أو عمتها، فأولى أن يكون التحريم في الجمع بينهما، ولأن العمة والخالة بمنزلة الأم.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يظهر أن هذا كان يقع من العرب في الجاهلية، ومنهم بعض الذين آمنوا، ولذلك بين الله سبحانه أن ذلك موضع

(١) رواه أصحاب السنن، وما اتفق عليه البخاري: النكاح (٥١٠٨)، ومسلم: النكاح - تحريم الجمع بين المرأة (٢٤٠٨) إلى قوله: «ولا على خالتها»، ورواه أبو داود (٢٠٦٥) وأحمد (٩٣٦٩) وغيرهما: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا الْعَمَةُ عَلَى بِنْتِ أَخِيهَا وَلَا الْمَرْأَةُ عَلَى خَالَتِهَا وَلَا الْخَالَةُ عَلَى بِنْتِ أُخْتِهَا وَلَا تُنْكَحُ الْكُبْرَى عَلَى الصَّغْرَى وَلَا الصَّغْرَى عَلَى الْكُبْرَى». وأما هذه الزيادة وهو قوله: «فَإِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ». فمن رواية الطبراني عن ابن عباس رضى الله عنهما، وروى أبو داود في مراسيله عن عيسى بن طلحة: قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على قرابتها مخافة القطيعة. [راجع مرقاة المفاتيح-ج ٣ ص ٩٣٩، نصب الراية للزيلعي: فصل في بيان المحرمات-الحديث الرابع].

عفو الله تعالى، ولذا قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ والاستثناء هنا منقطع، و(إلا) بمعنى (لكن) والمعنى: لكن ما قد سلف منكم في جاهليتكم قبل ذلك التحريم موضع عفو الله تعالى؛ وذلك لأن الله تعالى غفور رحيم، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ في موضع التعليل لعفو الله في هذا الاستثناء المنقطع، والمعنى أن الله يعفو، لأنه سبحانه وتعالى كان وما زال غفاراً للذنوب رحيمًا بعباده، ومن رحمته بعباده ألا يعذبهم من غير نذير، وألا يؤاخذهم على ما اكتسبوا إلا بعد بيان واضح، وإن كان العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها، والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا

قوله تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ بالضم معطوف على أمهاتكم في آية التحريم السابقة التي صدرت بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، فهذه الآيات تنمّة لبيان المحرمات. ثم بعد ذلك بيّنت المحلات من النساء بعبارة جامعة، ثم بعبارة مفصلة لحل الإماء. وأُحْصِنُ متلاقية في المعنى مع كلمة الحصن، وهو المكان المحكم الذي يُتقى به أذى العدو، فمعنى أُحْصِنَ المرأة جعلها في حصن الفضيلة، وقد جاء في مفردات الأصفهاني: (يقال حصان للعفيفة، ولذات حرمة، وقال

تعالى: ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا...﴾ (١٢) [التحريم]. وقال تعالى: ﴿وَقَدْ آذَىٰ أَحْصَنٌ...﴾ (٢٥) [النساء] أى تزوجن، و«أُحْصِنَ» زُوجُن، والحَصَانُ فى الجملة المحصنة إما بعفتها أو بتزوجها أو بمانع من شرفها وحريتها).

وبهذا يتبين أن المرأة المحصنة هى التى صانت نفسها وتحصنت بحصن الفضيلة والبعد عن الفحشاء، وإحصانها بزواجها، أو بعفافها المجرد، أو بحريتها وشرفها، ولذلك تطلق كلمة المحصنات، ويراد بها أحيانا العفيفات، وتطلق بمعنى الحرائر، وفى هذه الآيات استعملت كلمة المحصنات بالمعنى الثلاثة، فقوله ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ المراد المتزوجات، وقوله تعالى ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٢٥) [النساء] المراد الحرائر، وقوله ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ﴾ (٢٥) [النساء] المراد العفيفات، وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ المراد بهن الحرائر.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ المحصنات هنا المتزوجات اللاتى يكنّ فى عصمة أزواجهن، ويدخل فى عموم المحصنات المعتدات، فزوجة الغير ومعتدته لا تجوز، وتحريمهن ثابت بمقتضى الفطرة والطبيعة الإنسانية، وسنة الله تعالى فى الخلق والتكوين، ولكن استثنى من ذلك الدخول بغير الزوجات المملوكات، فإنه يجوز الدخول بهن، والاستثناء هنا منقطع بمعنى لكن، لأن الكلام فى العقد لا فى الدخول، إذ إن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ كل هذا فى تحريم العقد، لا فى تحريم الدخول فقط، فالاستثناء بعد ذلك فى الدخول بملك اليمين، لا يكون على منهاج الاستثناء المتصل، وقد قرر العلماء أن السبايا اللاتى يدخلن فى الرق لا يلتفت إلى زواجهن السابق، بل تصير ملكا يحل للمالك أن يدخل بها بمقتضى الملك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (١٠) [المتحنة] وهذا متفق عليه، وهو مما ينطبق عليه النص الكريم، فقط ينتظر حتى تستبرئ رحمها من الحمل.

وهناك صورة أخرى قد اختلف فيها الفقهاء، وهى الأمة التى تكون مملوكة ثم عَقِدَ عَقْدَ زواجها، وبعد ذلك باعها مالکها: أيلزم المشتري الجديد بهذا الزواج، قال بعض العلماء إنه يفرق بينهما بعد هذا الشراء؛ لأن الذى عقد هو وليها الأول، ولا يلزم بعقده الثانى، وقال بعض الفقهاء: يلزم الثانى؛ لأن الزواج سابق على الشراء، فيكون قد اشتراها ملتزما بما كان من قبل. ويظهر أنه من المتفق عليه أن مالکها إذا زوجها فهو ملزم بهذا الزواج لا يبطل بإبطاله، لأنه التزم به، فلا ينقض أمرا تم من جهته. ومن المقررات الفقهية أن من سعى فى نقض ما تم من جهته فسعيه مردود عليه.

ويتبين من هذا أن الاستثناء الخاص بالدخول بملك اليمين مقصور على حال السبى بالاتفاق، وقد قيل إن الآية نزلت فى ذلك، وادعى بعض الفقهاء أنها تشمل حال المشتراة التى سبق زواجها.

﴿كَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ جاء هذا النص بعد بيان المحرمات من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ وكان سياقه لتأكيد التحريم وتوثيقه، و«كتاب الله»، لها فى الإعراب تخريجان، كل واحد منهما يشير إلى معنى مستقيم: أولهما - أن يكون (كتاب) مصدر كتب، والمعنى: كتب الله تعالى التحريم كتابا مفروضا بأحكامه عليكم، فليس لكم أن تتخلوا عنه. وثانيهما - أن يكون المراد القرآن، والمعنى: ألزموا كتاب الله الذى هو حجة عليكم إلى يوم القيامة، وهو الذى بين شريعة تحريم المحرمات فأطيعوه.

فكلا التخريجين يؤدى إلى توثيق التحريم وتوكيده بنسبته إلى الله تعالى، إما باعتباره كُتِبَ وفَرَضَ هو، وإما لأنه نص عليه فى كتابه الخالد الباقي إلى يوم القيامة، ولم يترك بيانه لرسول أو نبي.

﴿وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ فى الآيات السابقة بيان المحرمات، وفى هذا النص الكريم يشير بلفظ عام إلى الحلال من النساء، فـ (ما) هنا المراد بها النساء، وقالوا تكون لما لا يعقل و (من) تكون لمن يعقل؛ وهى هنا لمن يعقل، لأن العموم

يعبر عنه بها. وفي الحق أن المستقرب لاستعمال القرآن يتبين له أن (مَا) و(مَنْ) يتبادلان من يعقل وما لا يعقل، فمن استعمال (مَا) لمن يعقل هذا النص، ومن استعمال (مَنْ) لما لا يعقل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ﴾ [النور]، ولذلك أرى أنه لا ضرورة لتعيين إحداهما للعقلاء والأخرى لغير العقلاء، ثم التمثل^(١) من بعد ذلك، فكتاب الله تعالى هو حجته الفصحى، وليس من حجة تقاربه.

وكلمة (وراء) المراد بها غير هؤلاء، وهى فى أصل استعمالها للخلف، وكأن المعنى أن المحرمات مقدمات إلى الأمام، والمحلات خلفهن، وفى ذلك إشارة إلى أن التحريم كان للتكريم والتشريف، وملاحظة المودة، فليس التحريم إيذاء، ولكنه تكريم. وقد قيل إن الآيات السابقة لم تشمل كل المحرمات، فالجمع بين المرأة وخالتها أو عمتها، حرام، ولم ينص عليه فى المحرمات، فكأن الجمع جائز بينهما، ولقد فهم هذا بعض الذين لا يأخذون بالسنة المشهورة، وقد أوجب عن ذلك بإجابتين:

الأولى: أن هذا النص جاء بصدد بيان المحلات بذواتهن، بخلاف التحريم لعارض الجمع فقد بيته السنة، فإن الحالة وحدها حلال^(٢)، وبنت الأخت وحدها، وكذلك بنت الأخ والعمة، كل واحدة حلال بذاتها، إنما التحريم هو فى الجمع، والنص بين المحلات لذواتهن، وهذه الإجابة بينها الشافعى فى الرسالة.

الثانية: أن التحريم ثابت فى الجمع بالنص السابق؛ لأن النص السابق قال الله فيه سبحانه فحرم الجمع بين الأختين بالنص، وثبت تحريم الجمع بين الحالة وبنت أختها والعمة وبنت أخيها بالأولى؛ لأن الحالة صنو الأم، وكذلك العمة،

(١) تمحل للأمر: احتال له [القاموس - محل].

(٢) أى خالة المرأة وحدها حلال، وهكذا عمتها.

فإذا كان الجمع بين الأختين حراما، فأولى بالتحريم الجمع بين البنت ومن هي بمنزلة أمها، وقد انعقد الإجماع على ذلك.

﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ هذا بيان ضرورة المهر لشرف المحل، ولإعزاز المرأة وتكريمها، ولتستعين به فيما تتأهل به للزواج، ومعنى النص الكريم أن الإحلال يقتضى أن تبتغوا، أى أن تطلبوا الزواج أشد الطلب، وأن ترغبوا فيه أشد الرغبة، متقدمين فى ذلك بأموالكم، فإن المال يكون دليل الرغبة.

ثم أشار سبحانه إلى فرق ما بين الزواج والفاحشة، فقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أى ابتغوا الزواج واطلبوه حالة أنكم تحصنون به أنفسكم، ونطفكم، وتحفظون به أولادكم، فمعنى الإحصان هنا الإعفاف، وما يتضمنه من حفظ النطف والولد. وجعل فى مقابل الذين يحصنون أنفسهم ونطفهم الذين يسافحون، والسفاح من سفح الماء أو الدم أساله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا...﴾ (١٤٥)، [الأنعام]، والزانى يسفح النطفة ويلقيها ويسيلها على تراب الرذيلة. فالسفاح على هذا إلقاء للنطفة الإنسانية، وهى الجوهر المادى للإنسان، والزواج تحصين لهذه النطفة، ووضع لها فى حرثها الذى أعده الله تعالى لها.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَلَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ قَرْيُضَةً﴾ الاستمتاع الاستيلاء على ما فيه متعة وخير ومتاع، وقد كان الرجل فى الجاهلية يتزوج المرأة، ويستمتع بها، ثم يتركها خالية الوفاض^(١)، فذكر الله تعالى ضرورة إعطاء المهور التى فرضت وقدرت وقت العقد، وقد سماها الله تعالى هنا أجرا، والأجر هو الجزاء على ما قدم الإنسان من عمل، وقد يطلق على معنى العطاء، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين)؛ لأن اقتران كلمة الأجر بعدم المَنَّ يرشح لأن يكون المراد بها العطاء، إذ هو الذى يجرى فيه المَنَّ والأذى، وعلى أى حال فإن الظاهر فى كلمة الأجر هنا هو الجزاء، وقد يقال: لماذا عبر هنا بالأجر، وفى

(١) أصل الوِفاض الجلدة التى توضع تحت الرحى [لسان العرب - وفص]. فخلوها إذن كناية عن الفقر.

أصل فرضية المهر بما يفيد أنه عطاء، فقد قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] والجواب عن ذلك أن الآيات التي بينت أصل الوجوب تبين القصد من الشرعية، وهو كونه هدية واجبة لبيان شرف العلاقة بين الرجل والمرأة، وللمعاني التي شرع من أجلها المهر، أما الآيات التي سمّت أجراً^(١) فهي لبيان الأداء بعد أن تأخر عن ميقساته، فلتأكيد الأداء سمي أجراً، وأصبح المؤدّي غير جدير بأن يسمى معطياً أو ناحلاً أو مانحاً.

وهذا النص قد تعلق به بعض المفسرين الذين لم يفهموا معنى العلاقات المحرمة بين الرجل والمرأة، فادعوا أنه يبيح المتعة، وهي عقد بين الرجل والمرأة يستمتع بها مدة معلومة في نظير مهر معلوم، أو في نظير أجر معلومة، ولو تخلّفت المرأة في بعض المدة ولم تسلم نفسها نقص من مهرها، أو بالأحرى من أجرتها والنص بعيد عن هذا المعنى الفاسد بُعداً من قالوه عن الهداية؛ لأن الكلام كله في عقد الزواج، فسابقه ولاحقه في عقد الزواج، والمتعة حتى على كلامهم لا تسمى عقد نكاح أبداً، وقد تعلقوا مع هذا بعبارات رواها مسلم عن النبي ﷺ أنه أباح المتعة في غزوات ثم نسخها، وبأن عبد الله بن عباس كان يبيحها في الغزوات^(٢)، وهذا الاستدلال باطل؛ لأن النبي ﷺ نسخها، فكان عليهم عند تعلقهم برواية مسلم أن يأخذوا بها جملة أو يتركوها، وجملتها تؤدي إلى النسخ لا إلى البقاء، وإذا قالوا: إنا نتفق معكم على الإباحة ونخالفكم في النسخ فنأخذ المجمع عليه ونترك غيره، قلنا لهم: إن النصوص التي أثبتت الإباحة هي التي أثبتت النسخ، وما اتفقنا معكم على الإباحة، لأننا نقرر نسخ الإباحة، على أننا نقول إن ترك النبي ﷺ المتعة لهم قبل الأمر الجازم بالمنع ليس من قبيل الإباحة، بل هو من قبيل الترك حتى تستأنس القلوب بالإيمان، وتترك عادات الجاهلية،

(١) أي سمّت المهر أجراً.

(٢) عن الربيع بن سبرة الجهمي عن أبيه أن رسول الله ﷺ نهى عن المتعة وقال: «ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة ومن كان أعطى شيئاً فلا يأخذه». [رواه مسلم: النكاح - نكاح المتعة وبيان أنه أباح ثم نسخ (١٤٠٦)].

وقد كان شائعا بينهم اتخاذ الأخدان، وهو ما نسميه اتخاذ الخلائل، وهذه هي مستعتهم، فنهى القرآن الكريم والنبي ﷺ عنها^(١). وإن الترك مدة لا يسمى إباحة، إنما يسمى عفوا، حتى تخرج النفوس من جاهليتها، والذين يستبيحونها باقون على الجاهلية الأولى. ومثل ذلك الخمر، فما أيسحت، ولكن تركت عفوا حتى جاء النص القاطع بالتحريم، وابن عباس رضى الله عنه قد رجع عن فتواه، بعد أن قال له إمام الهدى على كرم الله وجهه: «إنك امرؤ تائه، لقد نسخها النبي ﷺ، والله لا أوتى بمستمعين إلا رجعتهما»^(٢).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾
الجنوح معناه الميل، والجناح الإثم، والفريضة المهر المقدر، والتراضى من بعده إما على زيادته، وإما على نقصه، والمعنى لا ميل إلى الإثم فى الأمر الذى تتراضون عليه من بعد المهر الذى سميتموه وفرضتموه على أنفسكم، وعليكم أن تلتزموا بما التزمت من بعد العقد، قليلا كان أو كثيرا، مع ملاحظة أن المرأة إذا تركت بعض مهرها من بعد الفريضة فيجب أن يكون ذلك بطيب نفسها، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ أَنْفُسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء] فلا بد من طيب النفس، وقد ذكرنا ذلك من قبل.

(١) عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ مَتْعَةِ النِّسَاءِ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْرٍ. قَالَ أَبُو عِيسَى: حَدِيثٌ عَلَى حَدِيثٍ حَسَنٍ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ شَيْءٌ مِنَ الرُّخْصَةِ فِي الْمَتْعَةِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ حَيْثُ أَخْبَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. [الترمذى: النكاح - ما جاء فى تحريم نكاح المتعة (١١٢١)].

بل قد روى الترمذى (١١٢٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّمَا كَانَتْ الْمَتْعَةُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، كَانَ الرَّجُلُ يَقْدُمُ الْبَلَدَةَ لَيْسَ لَهُ بِهَا مَعْرِفَةٌ فَيَسْرُوجُ الْمَرْأَةَ بِقَدَرِ مَا يَرَى أَنَّهُ يَقِيمُ فَتَحْفَظُ لَهُ مَتَاعَهُ وَتُصْلِحُ لَهُ شَيْئَهُ حَتَّى إِذَا تَزَلَّتْ الْآيَةُ: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَكُلُّ فَرْجٍ سِوَى هَذَيْنِ فَهُوَ حَرَامٌ.

(٢) رواه البيهقى فى الكبرى (١٤٣٦٢) ج ١٠، ص ٤٧٩، كما رواه الطبرانى فى الأوسط عن محمد ابن الحنفية ورجاله رجال الصحيح. راجع مجمع الزوائد (١٩٣٧).

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى آيات المحرمات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لبيان أن ما شرعه هو مقتضى علمه الذى أحاط بكل شيء، ومقتضى حكمته التى تضع كل شيء فى موضعه، وهى مقتضى جلاله تبارك وتعالى، ومقتضى ألوهيته، ولذا صدر الكلام بلفظ الجلالة. وقد أكد الله وصفه سبحانه بالعلم والحكمة بـ «إن»، ولفظ الجلالة، وبـ «كان» الدالة على الدوام والاستمرار، فعلى أن نعلم حكمة الله تعالى فيما شرع، وفيما أمر ونهى، فهو أعلم بمصلحتنا منا، ولنخضع لما أمر، ولا نحاول أن نخلع الريقة^(١)، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ
 الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ
 فَنِيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ
 بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
 أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
 مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
 اللَّهَ لَعَنَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

(١) الرِّيقُ، بالكسر: حَبْلٌ فِيهِ عِدَّةُ عُرَى، يُشَدُّ بِهِ الْبَهْمُ، كُلُّ عُرْوَةٍ: رَيْقَةٌ، بالكسر والفتح. القاموس المحيط - ريق.

«وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» المحصنات الحرائر، والفتيات الإماء، فإن الإسلام لا يعبر عن العبد إذا أضيف إلى مولاه بالعبد، بل يعبر عنه بالفتى، وهذا من أدب الإسلام وتكريم الإنسان، ولذا ورد في الحديث الصحيح: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل فتاى وفتاتى»^(١). كما نهى النبى العبد عن أن يقول: سيدى وسيدتى، بل يقول: مولائى ومولاتى. والطول: القدرة والسعة فى المال والجسم، ومعنى ملك اليمين، أن تكون فى ملكه، وعبر باليمين لإفادة السلطان، فإن يمين الرجل مظهر قوته، وبها يكون الصفق فى البياعات، فأضيف الملك إليها لأنها سببه. والآية بمضمونها أفادت أنه لا يحل الزواج من الإماء إلا إذا لم يكن فى طوله أن يتزوج حرة. وقد اختلف الفقهاء فى حدود الطول والقدرة، فقال أبو حنيفة: الطول أن يكون متزوجاً حرة، فمن كان عنده حرة لا يجوز أن يتزوج أمة، وإن عقد كان عقده باطلاً. وقال مالك: الطول السعة والقدرة على المهر والنفقة، فمن عجز عن مهر الحرة ونفقتها وهو قادر على الزواج من أمة فإنه يجوز له زواج الأمة، ولو كانت عنده حرة. وقال الشافعى، وهو قول عند مالك: إنه يجوز له زواج الأمة بشرطين، أحدهما: عدم القدرة على زواج الحرة، والثانى: أن يخشى العنت أى المشقة الشديدة إن لم يتزوجها. وفسر بعض العلماء عدم الطول بأن يتعلق بها وتهواها نفسه، بحيث يخشى على نفسه أن يقع معها فى زنا إن لم يتزوجها.

واشترط الشافعى ومالك وأحمد لإباحة زواج الأمة أن تكون مؤمنة كنص الآية، وأبو حنيفة أباح الزواج من الأمة الكتابية إن لم يكن عنده حرة. وشدد الإسلام فى إباحة الزواج من الإماء لحمل المالكين على عتقهن، فمن رغب فى أمة فليشتريها، وليعتقها ثم يتزوجها؛ ولأن الولد يتبع أمه فى الرق، فلمنع كثرة الرقيق

(١) متفق عليه، رواه البخارى: العتق - كراهية التطاول على العبيد (٢٥٥٢)، ومسلم: الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه يحدث عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم أطعم ربك وصّى ربك اسقى ربك وليقل سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاى وفتاتى وغلامي».

قيد الزواج من الإماء بحيث لا يدخل بهن إلا أولياؤهن فيكون الولد حرا، ويعتق أمه، كما هو مدون في الفقه، أو تعتق ثم يكون الزواج منها.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ هذه جملة معترضة بين إباحة نكاح الفتيات المؤمنات، وصورة العقد عليهن. وهذه الجملة السامية فيها فائدتان: أولاهما: التفتيش النفسى عن القلب، وما تخفيه الصدور بحيث يكون الشخص دائم التفتيش عن عيوبه؛ لأن الله تعالى أعلم بإيماننا منا، وهو سيحاسبنا على ما يعلم، وأفعل التفضيل فى قوله تعالى: «أعلم» على بابه، فهو أعلم منا بأنفسنا، أو نقول إنه للعلم المطلق الذى لا يصل علم مهما يكن إلى مقداره، فيكون أفعل التفضيل على غير بابه. والفائدة الثانية: بيان أن الناس جميعا من دم واحد وأنه لا يصح أن يستعلى حر على عبد، ولا حرة على أمة، فإن بعضنا من بعض، فقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أى أنكم جميعا تضمكم إنسانية واحدة، وكل له حقوقها وعليه واجباتها. فالعبيد من الأحرار؛ لأنهم من أصل حر، والأحرار قد يكونون من العبيد، والله سبحانه وتعالى فوق الجميع بالعدل، فلا يظلم بعضكم بعضا.

﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ النكاح العقد ولا يستعمل فى القرآن إلا بهذا المعنى، والمعنى: فاعقدوا عليهن عقد الزواج بإذن أهلهن، وأهلهن فى هذا المقام هم المالكون لهن. وعبر عن المالكين بالأهل حملا للناس على الأدب فى التعبير، ولأنه يجب أن تكون العلاقة بين العبد ومالكة علاقة أهل لا علاقة رق، ولذا يجب عليه أن يعطيه كل حقوق قرابته من مأكّل ومسكن وملبس، ولذا قال النبى ﷺ: «إخوانكم خولكم» (أى مكنكم الله من رقابهم) قد ملككم الله إياهم، ولو شاء للملكهم إياكم، أطعموهم مما تطعمون، واكسوهم مما نكسون»^(١). وأمر

(١) رواه بلفظ مقارب البخاري: الإيمان (٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١) عن أبى ذر رضى الله عنه، كما رواه غيرهما من أصحاب السنن، وليس فى هذه الرواية عندهم ذكر الملك.

سبحانه وتعالى بإعطاء المهور، وشدد في ذلك، وقال ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى بالقدر الذى لا يستنكره العرف، فلا يتخذ من كونها أمة سبيلا لغمط حقها، وتصغير شأنها. وبين أن إعطاء الأجر يكون للأمة نفسها، وهذا يدل على أنها تملكه وهو حقها، وهى تحتاج إليه فى إعداد نفسها للزواج، وبذلك يثبت أن العبيد أهل للملكية، وقد أثبتت الملكية للعبيد والإماء - الظاهرية، وذلك ظاهر القرآن الكريم، كما تدل الآية الكريمة، إذ فرقت الآية بين العقد والمهر، فالعقد يتولاه المولى، والمهر تعطاه هى.

وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ حال من قوله: ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، وهنا وصف بالإحصان، أى العفة، الزوجات دون الأزواج، وذلك لأن الزوجات من الإماء، وهن مظنة الانزلاق؛ إذ الرق والضعف وفقدان الحرية يكون معها الهوان، وحيث كان الهوان كانت الرذيلة قريبة؛ لأنه لا شيء كالهوان يفتح السبيل للشيطان، ولذلك طالبهن الله تعالى وقد كرمهن بالزواج أن يُحَصِّنَ أنفسهن به، وأن يياعدن السفاح، ولهذا المعنى كانت الجريمة من الإماء أقل شأنًا من الجريمة من الحرائر، وكانت العقوبة عليهن أقل. ومعنى اتخاذ الأخدان اتخاذ الخليل الملازم من غير زواج، ولو باتفاق على مهر ونفقة، فالخدن هو الخليل، وهذه هى المتعة التى حرمها القرآن والنبي ﷺ.

﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ معنى الإحصان هنا الزواج، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾ إذا تزوجن. وجاء الشرط بـ «إذا» الدالة على تحقق الشرط، لوقوع ذلك الإحصان وللتغيب فيه، والفاحشة هنا الزنا، والعذاب هو الحد، والمحصنات هنا الحرائر، وعبر سبحانه فى جانب شرط الفاحشة بـ «إن» فى قوله ﴿فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾، و«إن» تدل على الشك فى وقوع الشرط؛ لأن الفاحشة غير متوقعة وهى أمر متفور منه غير متصور أن يكون مرغوبا فيه، وخصوصا من زوجة حرة أو غير حرة.

ومرمى النص الكريم أن الأمة إذا ارتكبت الفحشاء تكون عقوبتها نصف عقوبة الحرة؛ لأن الجريمة تهون بهوان مرتكبها وتعلو بعلو مرتكبها. وإذا علَّتْ

الجريمة علت معها العقوبة، وإذا نقصت نقصت معها العقوبة، وهذا دليل على عدل الشريعة، وعلو الأحكام الإسلامية عن القانون الرومانى وغيره من قوانين أهل الدنيا، ففى القانون الرومانى كان العبد إذا زنا بحرة قتل، وإذا زنا الشريف حكم عليه بغرامة، فكان هذا ظلماً، ولكن الإسلام قال إن عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر، فإذا زنا الحر الشريف جلد مائة أو رجم، وإذا زنا العبد عوقب بخمسين جلدة^(١).

وإن الزواج من الإمام هو عند خشية العنت والمشقة، ولذلك قال سبحانه:

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ العنت المشقة الشديدة التى يخشى منها التلف أو الوقوع فى الزنا، والإشارة فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ للزواج من الإمام المنوه عنه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ (وخشى) معناها خاف من أمر متوقع هو قريب من الواقع، فالرق بين الخوف والخشية أن الخشية تكون من أمر متوقع قريب الوقوع أو واقع بالفعل، فكان زواج الإمام لا يباح إلا للضرورة أو للحاجة الشديدة، ومع ذلك فالصبر أولى، ولذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فتحملوا مشقة الحرمان أولى من زواج الإمام؛ لأن الولد يكون رقيقاً، وفى ذلك تكثير للرق، ولأنه لا يمكنه أن يقوم على تربيته وشئونه، ولأنها لا يتكون منها مع بقائها على رفقها بيت زوجية صالحة؛ إذ ستكون مطالبة بخدمة وليها، فالحياة

(١) قال الآلوسى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ أى فإن فعلن فاحشة وهى الزنا وثبت ذلك. ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ أى فثابت عليهن شرعا ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى الحرائر الأبكار ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أى الحد الذى هو جلد مائة، فنصفه خمسون ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف. وقال ابن كثير: وقوله: ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذى يمكن تنصيفه وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم. وقال الثعالى: و﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ فى هذه الآية: الحرائر؛ إذ هى الصفة المشروطة فى الحد الكامل، والرَّجْمُ لا يتنصف، فلم يرد فى الآية بإجماع.

وكاستباحتهم الجمع بين المرأة وأختها. وفي هذا النص الكريم يبين سبحانه أن ما قرره هو الهداية، وهو سنة الفطرة، وهو شريعة النبيين أجمعين. ثم يبين سبحانه بالإشارة والعبارة أن تحصين الفروج مطلب ديني سام، وأن الإحصان حماية لمعنى الإنسانية وترفع عن الحيوانية. وفي هذا النص يبين سبحانه أن الذين يدعون إلى اتباع الأهواء والشهوات لا يريدون بأهل الإيمان الخير، ولكن يريدون أن تتحكم الأهواء والشهوات، وتسيطر وتدفع إلى العبث والحيوانية. وقد قال سبحانه:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ معنى هذا النص الكريم أن الله تعالى يريد، بما شرع من أحكام، وما ذكر من محرمات، أن يبين ما فيه خيركم، وما فيه صلاح مجتمعكم، وما يعلو بكم من دركة الحيوان إلى سمو الإنسان، وما يحمل العلاقة بين الرجل والأنثى علاقة معنوية روحية، ولا تكون مادية حيوانية فقط، وما يحفظ النوع الإنساني متدرجا في سبيل الرقى، والسمو الروحي. ويريد سبحانه أن يبين سنن الذين من قبلكم، أى الطريقة المثلى التى كانت تسير عليها المجتمعات الفاضلة قبلكم، وما جاء به النبيون، وهدى إليه المرسلون، فيبين أن هذا هو سنن الذين من قبلكم وهو سنة الفطرة. ولم يصرح بأن ذلك هو ما جاء به النبيون، وإن كان ذلك مفهوما، بل صرح بأن هذا هو سنن الذين من قبلكم للإشارة إلى أنه أمر مشتق من الفطرة الإنسانية. وأن من يخالفه إنما يشذ عن مقتضى الفطرة وحكم العقل، وسنة الإنسانية. فبعض الملوك أو الأمم الذين استباحوا المحرمات كانوا فى حكم الأجيال الإنسانية من الشذاذ؛ لأنهم خرجوا عن سنة الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وفى النص القرآنى الكريم مباحث لغوية لا بد من الإشارة إليها لتقريب المعنى السامى:

أولها - معنى اللام فى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ﴾، فإن له تخريجات مختلفة، منها أن المعنى: يريد الله تعالى ذكر ما ذكر من محرمات ويقصد إليه ليعين لكم، فاللام على هذا تكون للتعليل، و«أن» مضمرة بعدها - ومنها أن اللام

زائدة، وأن النصب بـ «أن» المحذوفة، وزيدت اللام لبيان أحكام إرادة الله سبحانه وتعالى في بيان ما يبين توثيق هذا البيان، وهذا ما اختاره الزمخشري في الكشف - ومنها أن اللام هي الناصبة للفعل، وأنها بمعنى أن. فإن اللام قد تقوم مقام أن، وذلك إذا كان الفعل قبلها يدل على الإرادة أو الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾ [٨] ﴿[الصف] وفي معناه في نصف آخر: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾ [٣٢] ﴿[التوبة] وفي الأول ذكرت اللام بدل «أن». وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٧٦] ﴿[الأنعام] وفي معنى قريب منه: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ...﴾ [٦٦] ﴿[غافر] وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ...﴾ [١٥] ﴿[الشورى]، وهذا التخريج الأخير هو عند الكوفيين، والأولان عن البصريين، ونسب ثانيهما لسيبويه. وإن مفعول «يبين» محذوف، وقد دل عليه السياق، والمعنى يبين لكم ما فيه مصلحتكم، وتكوين جماعتكم الفاضلة العفيفة النزهة الطيبة.

وثانيها - قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ، نرى أن «هذى» قد تعدت بنفسها هنا، ولم تعد بـ «إلى» ولا باللام، وإن ذلك جائز، فالفعل «هذى» يتعدى بنفسه كما في هذا النص، وباللام كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا...﴾ [٤٣] ﴿[الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [٩] ﴿[الإسراء]، ويتعدى بـ «إلى» كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٠١] ﴿[آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٨٧] ﴿[الأنعام] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ...﴾ [٣٥] ﴿[يونس]. وفي الواقع أن اختيار القرآن الكريم للتعبيرات المختلفة من حيث إنه يعبر أحيانا بالتعددية بـ «إلى»، وأخرى باللام، وثالثة بنفسها، يكون لمعان اقتضاها المقام. ويصح أن يقال إنها تعدت هنا بنفسها لتضمنها معنى البيان وقبول الفطرة السليمة لهذا البيان، فمعنى يهديكم سنن الذين من قبلكم: بينها لكم بيانا مشفوعا بالقبول منكم لأنه الفطرة.

وثالثها: معنى سنن الذين من قبلكم: السنة هي الطريقة، وفى أكثر استعمالها تكون للطريقة المثلى الهادية إلى الحق، وسنن الذين من قبلكم قيل هى شرائع النبيين، والذي نراه هو أن السنن هى طرائق الذين سبقوكم من الأمم التى سارت على الفطرة، فحرمت هذه المحرمات بوصايا الأنبياء السابقين، وأحكام العقل المستقيم والطبع السليم.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قرن سبحانه وتعالى التوبة بعد هذا البيان لسبيين:

أحدهما - أن يبين أن الله تعالى فاتح باب التوبة دائما، فمن تاب من الذنوب صغيرة أو كبيرة، فإن الله يتوب عليه، ويغفر له ما تقدم من ذنبه إذا كانت توبته نصوحا.

وثانيهما - أن الآيات السابقة تتضمن تحريما لأمر كان أهل الجاهلية يستباحونها، فقد كانوا يستباحون نكاح زوجات الآباء، ويستباحون الجمع بين المحارم، ويستباحون اتخاذ الأخدان، وهو ما يسمى اتخاذ الخلائل فى عصرنا، وكانوا يثبتون بذلك النسب، فبين الله حرمة هذا كله، ولا تزال تطلع على طائفة من الناس يعيشون عيشة أهل الجاهلية فى اتخاذ الأخدان، ويستباحونها، وقد ذكر سبحانه وتعالى لهذا أن الله بين الحلال والحرام، وعلى المرتكب لأى محرم أن يقلع، وإن الله تعالى يتوب عليه، والتعبير عن قبول التوبة فى كل المواضع ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فى التعدى بـ «على»؛ للإشارة إلى ما يتضمنه معنى قبول التوبة من ستر للذنوب، ومنع لكشفها، فهى غطاء على المعاصى يمنعها من الظهور، حتى يذهب تأثيرها فى النفس، وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ للإشارة إلى أن الله ذا الجلال والإكرام والإنعام المستحق وحده للعبودية مطلق على كل ما يعمل الإنسان من خير وشر، وهو يعلم الذنوب التى يقع فيها العباد، وهو الذى يغفرها عند التوبة، وإنه سبحانه وتعالى حكيم يضع الأمور فى مواضعها، فيغفر ويقبل التوبة من عباده إذا أخلصوا النية، واعتزموا الخير وأقلعوا عن الشر. وقد بين سبحانه محبته للتوبة فقال:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا النص يفيد إرادة الله سبحانه وتعالى قبول توبة عباده، وستر ذنوبهم وغفرانها، وذلك إذا أقلعوا عن هذه الذنوب، وتابوا إلى الله توبة نصوحاً؛ لأن الله تعالى يريد التوبة من عباده عما أسلفوا من ذنوب، وقد بين لهم طريق الحق، والوصول إليه، وأن الماضي من الذنوب لا يعوق عن الاتجاه إلى الله ولا يكون سبباً للقنوط من رحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر] وعلى ذلك تكون إرادة الله تعالى للتوبة عليهم متضمنة بيان الهداية لهم، ووجوب سلوك طريق الفطرة المستقيمة، وتسهيل الرجوع إليه سبحانه لتطهر نفوسهم وتصغى إلى الحق أفئدتهم، وغفران الذنب إن أحسنوا التوبة وأخلصوا النية، واعتزموا السير في طريق الحق، وإنه في الوقت الذي يريد الله للناس الهداية والتوبة - يوجد - من إخوان إبليس من يحرضون على الغواية، ولذا قال سبحانه:

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ هذه إشارة إلى كمال المباعدة بين دعوة الحق التي يدعو إليها الله سبحانه وتعالى، وبين سبلها، ودعوة أولياء الشيطان، فإن دعوة الله تعالى هي دعوة إلى الفطرة السليمة التي لم تنحرف، ولم تخرج عن النجد السوى، ليس فيها تحريم للطيبات وتمتع الحياة وليس فيها انطلاق إلى الأهواء والشهوات والخروج عن سنن الفطرة المستقيمة.

وأما دعوة أولياء الشيطان، فهي دعوة إلى الانحراف، والميل إلى جانب الشهوة ميلاً عظيماً، ينحرف به عن سبيل الإنسانية المهيبة. وهذا الكلام يدل على أن الناس في كل عصر يوجد فيهم داعيتان: أحدهما إلى الحق والاعتدال، وأولئك يدعون بدعاية الرحمن، وهداية الأديان لا تحرم ما أحل الله من طيبات، ولكن بقدر لا اعتداء فيه ولا انحراف، وآخرون هم داعية الشيطان، وهؤلاء يكونون بأعمالهم وأقوالهم وأشعارهم في الماضي وصحفهم في الحاضر داعين إلى الانحراف، وعبر عن هؤلاء سبحانه بقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أى

أنهم، بسبب استغراق الشهوات لنفوسهم وصوريتها قائدا لهم يتبعونه، قد أصبحوا يريدون أن يكون الناس على شاكلتهم من الانحراف. وقد بين سبحانه إرادتهم للمهتدين فقال: ﴿أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾، والميل أصله الانحراف من الوسط إلى جانب من الجوانب، ولما كان الاعتدال فيه العدل أطلق الميل على الجور والاعتداء، وهؤلاء لا يكتفون بمجرد الميل يريدون الناس عليه، بل يريدون أن يميلوا ميلا عظيما، أى يريدون أن ينحرفوا انحرافا مطلقا فيبتعدوا عن الاعتدال إلى أقصى الانحراف.

سبحانك ربى، ما أصدق بيانك وأحكم قرآنك! إننا نجد الآن كما كان فى الماضى الذين يتبعون الشهوات ويريدون من أهل الحق أن يميلوا ميلا عظيما، فهؤلاء الآن يدعون إلى مجونهم، مرة باسم الوجودية، وأخرى باسم التحرر، وثالثة باسم الحرية، وقد كتبوا فى ذلك كتباً، ونشروا قصصا مثيرة يدعون إلى أن يميل الناس كل الميل، واسترسلوا فى ذلك استرسالا بكل وسائل الدعاية، فمن خيالة ترى المناظر المثيرة، ومناظر فى الطرقات تعرض على الفسق والمجون، ومن استباحة علنية لكل ما يخالف الدين والخلق لتحقيق إرادتهم، ولكن إرادة الله تعالى غالبية بعونه سبحانه.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ يريد الله تعالى بهذه الأحكام التى ليست فيها شدة تنوء بها القوى الإنسانية، وليس فيها حرمان من الطباع البشرية، كما أنها لا تفتح باب الشهوات والعبث والمجون، يريد سبحانه أن يخفف عنكم، فلا يكون فيكم الحرمان من متع الحياة، ولا يكون فيكم الانطلاق الذى يحل جماعتكم، ويسلط عليكم الأهواء والشهوات، فتزدريكم، وتذهب ريحكم، فشرع الله تعالى إباحة الطيبات، ومن حرمها فقد خالف أمر ربه إذ قال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ [المائدة ٨٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ [الأعراف ٣٢] وقال ﷺ: «كلوا

واشربوا والبسوا من غير سرف ولا مخيلة^(١)، وليس فى الإسلام رهبانية، ولا انقطاع عن النساء، ولكن ليس فيه إباحة مطلقة، وكان ذلك التخفيف فى التكليف ليسهل على الإنسان الاحتمال، وقد قال تعالى:

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أى خلق الله تعالى الإنسان والضعف ملازم له، وليس الضعف المذكور هو الضعف البدنى فقط، بل يشمل الضعف النفسى، فالتكليفات يلاحظ فيها ذلك الضعف، ولذلك كانت كل التكليفات يسهل تعويد النفس عليها، ولا يصعب احتمالها والمداومة عليها، وقد حث الإسلام على السهل من الأعمال التى تمكن المداومة عليها، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(٢)، ولضعف الإنسان أبيض له من الشهوات ما لا يجعله عبدا لشهوته، بل يكون سيذا عليها، وإن أبرز مظاهر الضعف الإنسانى يكون أمام النساء، ولذا أبيض له مثنى وثلاث ورباع، من غير بغى ولا ظلم، ولقد قال سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من بنى آدم قط إلا آتاهم من قبل النساء، فقد أتى على ثمانون سنة، وذهبت إحدى عيني، وأنا أعشو بالأخرى، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء^(٣)! وقانا الله تعالى شر ضعف نفوسنا، وقوى عزائمنا وهدانا إلى الحق، والله سبحانه وتعالى يتولانا برحمته.

(١) ذكره البخارى تعليقا، وسبق تخريجه من رواية النسائى وابن ماجه وأحمد عن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

(٢) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَعَلِّمُوا أَنْ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ». رواه البخارى: الرقاق - القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤).

(٣) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» [رواه البخارى: النكاح - ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٦٩)، ومسلم: الذكر والدعاء - أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٠)].

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا
وِظْلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَايِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ
وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

فى الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى الأسس التى يقوم عليها بناء الأسرة، وكيف يختار كل واحد من الزوجين صاحبه، وبين الآفات التى قد تعتري الأسرة فى ابتداء تكونها، وبين أن دعائم الأسرة التى يقيمها عليها هى من الفطرة، وهى سنن الذين كانوا قبل الإسلام. وبعد هذا انتقل إلى العلاقات الاجتماعية العامة، وذلك تدرج من الخاص إلى العام، فالعلاقات فى الأسرة خاصة والعلاقات بالمعاملات المالية علاقة عامة، ولذا قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أكل المال معناه أخذه، وأطلق الأكل وأريد به الأخذ للإشارة إلى الأصل فى وظيفة المال الإنسانية وهو أن يكون وسيلة لمتع الحياة التى أخصها الأكل، وإذا تحول المال من كونه وسيلة لنيل المطاعم إلى أن يقصد لذاته ليكون متعة مطلوبة كالأكل، فعندئذ يكون الشح

والحرص والتنازع على طلبه بحل أو بغير حل، وهذا شأن من يأخذون الباطل يستمتعون به كما يستمتع الأكل بالطعام. وعبر بأموالكم للإشارة إلى أن مال آحاد الأمة مال الأمة موزعا بين آحاديها بتوزيع الله تعالى الذي قسم الأرزاق، وأن المال كله في حماية المجتمع، ولو كان مملوكا ملكا خاصا. وذكر كلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ للإشارة إلى أن التبادل بين الآحاد يكون على أساس من الحق، ولا يكون بالباطل، والباطل هو الطرق المحرمة لجمع المال كالربا والرشوة والسرقة والغصب والنصب والتزوير والغش والتدليس والاحتكار الآثم، وغير هذا من الأساليب التي لا تبيحها شريعة ولا يبيحها قانون.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ الاستثناء هنا منقطع، والمعنى لكن يباح لكم أخذ المال بالتجارة الناشئة عن تراض، فلا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس أخيه^(١)، كما ورد في بعض الآثار عن النبي ﷺ. وقد يسأل سائل: لماذا جاء هذا بعد النهي عن أكل مال الناس بالباطل؟ والجواب عن ذلك أن بعض ما يستباح مما حرمه الله يشبه بالتجارة، فالذين يأكلون الربا يشبهون الزيادة بالكسب الذي يجيء من البيع والشراء، ولذلك حكى الله سبحانه عن المشركين أنهم قالوا: ﴿... إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ...﴾ [البقرة: ٢٧٥] ورد الله قولهم: ﴿... وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ...﴾ [البقرة: ٢٧٥] وبهذا بين الله سبحانه وتعالى حل التجارة حتى لا يتوهم أحد أن مكاسب التجارة من أكل أموال الناس بالباطل، فإنها مال حلال ما دام أساسها التراضي وطيب النفس.

والتراضي أساس العقود عامة وأساس المبادلات المالية خاصة، فلا بيع من غير تراض ولا شراء ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة ما لم يتحقق الرضا. وقد وسع الفقهاء الباب للرضا، فأباحوا للعاقد أن يفسخ العقد إذا خفيت العيوب ولم تظهر؛ لأن الرضا لم يكن على أساس سليم، وأباحوا للعاقد

(١) «إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ» جزء من حديث رواه أحمد (١٧٢: ٢٠)؛ أول مسند البصريين عن عم أبي حرة الرقاشي.

أن يشترط لنفسه حق الفسخ، ومن الفقهاء من أباح له الفسخ طول مدة مجلس العقد، ولو أعلن الرضا، وذلك كله للاحتياط، ولكي يكون الرضا على أساس من العلم الصحيح والجزم القاطع، والبتّ القائم على بينة ومعرفة.

وهل التراضي أساس حر للتعاقد من غير قيد يقيده إلا التحريم؛ بمعنى أن كل ما يشترط ويتعاقد عليه المتعاقدون يكون حلالا ملزما للعاقدين ولو لم يرد به نص خاص؟. للفقهاء في ذلك منهاجان مختلفان أحدهما: أن التراضي أساس للإلزام والالتزام ولو لم يرد نص لكل عقد وشرط مادام لا نص يمنع، فكل ما يشترطه العاقدان ويتراضيان عليه يكون لازما لا يصح نقضه، إذا لم يكن نص يحرمه، ولقد قال في ذلك عمر - رضى الله عنه -: مقاطع الحقوق عند الشروط. وأكثر الحنابلة وبعض المالكية على ذلك المنهاج. والمنهاج الثاني: أنه لا يلزم من الشروط والعقود إلا ما جاء الدليل على وجوب احترامه، وهذا منهاج الشافعية والحنفية فعندهم لا يلزم الشرط إلا إذا قام الدليل على وجوب الوفاء به.

والتجارة باب من أبواب الكسب الطيب وفيها فائدة للناس، وهي تنقل ما فيه الحاجة الإنسانية من مكان إلى مكان، وبهذا النقل تتغير قيمة الأشياء، وزيادة القيمة بهذا النقل تقارب زيادة الأشياء بالزراع، وزيادة قيم الأشياء بالتحويل الصناعي، فإن الحديد مثلا إذا تحول إلى آلة زادت قيمته بما زادت الصناعة فيه، فكذلك بنقل البضائع من مكان إلى مكان تزيد القيمة بهذا النقل.

وإن علماء المسلمين كانوا يرحبون بالتجارة التي تنقل البضائع من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم، ولا يرحبون بالتجارة في البلد الواحد؛ لأن هذا ليس فيه طلب للأرزاق، ولأنه قد يؤدي إلى الاحتكار، وقد جاء في القرطبي: «والبياعات التي تحصل بها الأغراض نوعان: تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر، وهذا تربص واحتكار، قد رغب عنه أولو الأقدار، وزهد فيه ذوو الأخطار.

والثاني: تقلب المال بالأسفار، ونقله إلى الأمصار، وهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة»^(١).

وإن النبي ﷺ قد حث على الاتجار بالنقل من بلد إلى بلد، ومنع الاحتكار وما يؤدي إليه، فقال النبي ﷺ: «المحتكر خاطئ والجالب مرزوق»^(٢).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ جاء هذا بعد النهي عن أكل أموال الناس بالباطل؛ لأن المال عند الناس بمنزلة النفس أو قريب منها، وقد اختلف العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فقال بعضهم: معناه لا يقتل أحدكم نفسه، فإن ذلك إثم، ومن قتل نفسه فقد اعتدى على نفس حرم الله قتلها، وهذا تأويل غير متفق مع السياق، وإن كان ظاهر اللفظ ربما يفيد، وقال بعضهم: إن المعنى ولا يقتل بعضهم بعضاً؛ فإن قتل واحد منكم للآخر قتل لأنفسكم، وتحريض على الدماء بينكم، وقتل نفس كقتل الناس جميعاً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة ٣٢] وإن السياق على هذا يكون فيه ترقُّ في النهي عن الاعتداء، ابتداءً بمنع الاعتداء على المال، ثم بمنع الاعتداء على النفس، فهو انتقال من الكبيرة إلى أكبر منها. وقال بعضهم إن المعنى لا تقتلوا أنفسكم بأكل بعضكم أموال بعض، وبارتكاب المعاصي، فإن ذلك مفرق لجماعتكم مفسد لأمركم مذهب لوحدتكم، وبذلك تقتل الأمم والجماعات، وقد ارتضى هذا ابن بشير فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى بارتكاب محارم الله تعالى ومعاصيه، وأكل أموالكم بينكم. وإن هذا هو الذى نرتضيه، وهو يتضمن فى ثناياه النهى عن القتل بكل ضروبه لأنه داخل فى محارم الله.

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن: تفسير سورة النساء (٢٩). الجزء ٥، ص ٣١.

(٢) روى مسلم فى صحيحه: المساقاة - تحريم الاحتكار فى الأقوات (١٦٠٥) أنه كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يُحَدِّثُ أَنَّ مَعْمَرًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ». ومعنى الاحتكار: إمساك السلعة وعدم بيعها حتى يرتفع ثمنها.

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ للإشارة إلى أن الله نهى عن هذه المحرمات وأباح هذه المباحات من التجارة بكل أنواعها رحمة بكم، فكل شرع الله رحمة، وكل شرع صادر عن رحمة الله التي هي شأن من شئونه^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ الإشارة هنا إلى الأمرين: أكل أموال الناس بالباطل وما يتضمنه من معاصي وطرق للشر مختلفة، والثاني ما يترتب عليه من قتل نخوة الأمة وتفرق أمرها، وذهاب وحدتها وتمكن أعدائها منها. والنص تهديد شديد، والعدوان في أصل اللغة معناه مجاوزة الحد المشروع قصداً، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهما متلاقيان في المعنى، والجمع بينهما كان ليشمل العذاب كل أحوال الارتكاب، وليخرج ما كان غير مقصود، فمن الظلم ما لا يكون مقصوداً لمن يتلف مال غيره غير قاصد، فإنه ظالم ويعوض ما تلف، ولكن لا يكون له ذلك العذاب الشديد.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وإن إنزال ذلك العذاب الشديد ليس أمراً على الله عسيراً، ولكنه على الله تعالى يسير سهل، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فكل ما في الكون ما غاب منه وما ظهر هو في قبضة يده، وإن بيان يسر هذا العذاب فيه تهديد أشد، وفيه بيان لقوة الله تعالى وعظمته في العقاب وفي الثواب معا.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بعد أن أُنذر سبحانه وتعالى ذلك الإنذار الشديد فتح باب التوبة حتى لا يئس العباد من رحمته، ولا

(١) قال ابن جرير الطبري - ج ٥، ص ٢٠: «فإنه يعني أن الله تبارك وتعالى لم يزل رحيماً بخلقه، ومن رحمته بكم كف بعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنون، بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظر أكل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاء وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتم وأهلك بعضكم بعضاً قتلاً وسلباً وغصباً» اهـ.

يقنطوا من العودة إليه سبحانه فقال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا﴾، والاجتناب معناه البعد، حتى تكون المعاصي في جانب وهو في جانب، ولا يتلاقيا قط، ومعنى التكفير ستر السيئات أو إبعادها وإمالة أذاها عن النفس، فإن التوبة الصادقة النصوح كالماء الطهور تظهر النفس. وفي النص إشارة إلى أن المعاصي قسمان كبائر وصغائر، وسمى الصغائر هنا سيئات لأنها تسوء صاحبها وتؤلمه وتسوء في ذاتها، ولا تتعدى في كثير من الأحيان، وسماها في آية أخرى اللّم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ...﴾ [النجم: ٣٢] أى ما يلم به الإنسان من غير إصرار عليه، ولا استمرار فيه، ومن هذين الوصفين نستطيع أن نعرف صغائر الذنوب بأنها ما تسوء في ذاتها من غير تعد ويرتكبها الشخص من غير إصرار، فإن الإساءة تتعدى وتفحش، وإن كان ثمة إصرار فليست صغيرة.

وبتعريف الصغائر نستهدى إلى تعرف الكبائر، وقد روى في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يارسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات»^(١)، ولا شك أن هذا الحديث لا يدل على الإحصاء للكبائر، فقد ذكر في أحاديث أخرى أن منها عقوق الوالدين، وشرب الخمر، وقد جاء في حديث آخر أن من أكبر الكبائر الزنا، وأفحشه ما كان بحليلة الجار^(٢). وقد قيل لابن عباس: الكبائر سبع، فقال رضى

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الوصايا - قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ (٢٧٦٧)، ومسلم: الإيمان - بيان الكبائر وأكبرها. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

(٢) يؤيده ما رواه البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَرَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ». رواه البخاري: تفسير القرآن.

الله عنه: هي إلى سبعمائة أقرب. لأنه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

وإننا إذا تتبعنا الكبائر التي ذكرها النبي ﷺ من غير إحصاء، نرى أنها قد اتسمت بسمتين - إحداهما: أنها تهدم أمرا ضروريا من ضروريات المجتمع، فالزنا يهدم الأسرة، والقذف يهدمها ويشيع الفاحشة، وشرب الخمر يفسد العقل وهو ضروري للمجتمع، والسحر يفسد العلاقات الإنسانية، وعقوق الوالدين ينقض بناء الأسرة من قواعده، وهكذا - والسمة الثانية: أن الاعتقاد عليها يميت الضمير، ويجعل النفس تمرن على الشر.

ولذلك نقول: إن الكبائر هي المفسدات التي تهدم بناء المجتمع الفاضل، والمعاصي التي يصر عليها الشخص ومن شأنها أن تفسده أو تفسد غيره، ولو كانت في ذاتها هينة؛ لأن استمراء النفس للمعصية الصغيرة يسهل الكبيرة^(١).

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وعد الله الذين يباعدون الكبائر عن نفوسهم بأن يكفر عنهم سيئاتهم، وإنه ليس بعد زوال السيئات إلا الثواب، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾. «المَدْخَل» اسم مكان من «أَدْخَلَ»، وعبر بالإدخال للإشارة إلى أن ذلك تفضل من الله ورحمة، إذ لم يملكوا الأسباب والمفاتيح إلا بتفضل منه ورحمة، ووصف المكان بالكرم للإشارة إلى أمرين: أحدهما: أنه مكان طيب، ينعم المقيم فيه، ويستطيب الإقامة، والثاني: أن من يحل فيه يكرمه الله تعالى، ويفيض عليه برضوانه، فهو مكان كريم في ذاته، ولا يدخله إلا كريم مكرم يفيض الله تعالى عليه بكرمه وممته.

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَهْلِكَنَّهُ» وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةَ فَحَضَرَ صَنِيعَ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجْجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا.

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ التمنى تصور ما لا حقيقة له وطلب ما لم تتخذ الأسباب لتحقيقه، ويتضمن معنى الطمع فيما فى يد الغير، والحسد له، وإن ذلك يؤدى إلى شقاء النفس وفساد الخلق والدين، وإن الله تعالى فضل بعض الناس بالعقل والذكاء، وبعضهم بالجاء، وبعضهم بالقدرة على إدارة شئون الدولة، وبعضهم بفضل من المال. والفضل معناه الزيادة لا ترتيب الدرجات، فقد يكون المفضل أعلى درجة عند الله ممن زاد عليه. ومعنى النص الكريم: لا تمنوا ولا تطمعوا وتطلعوا إلى ما زاد الله به بعضكم على بعض فى المال أو الجاه أو العمل أو الجهاد، فإن ذلك يجعلكم فى اضطراب ولبال مستمر وقلق دائم يزعجكم ويزعج المجتمع بكم، وما كانت الانقلابات الاجتماعية والفتن المخربة إلا بسبب تطلع كل إنسان لما أعطاه الله غيره من فضل ليس عنده، فذو المال يحسد ذا العقل والتدبير، والفقير يحسد ذا المال، وهكذا يكون كل إنسان فى انزعاج بسبب تمنيه وتطلعه لما لا يستطيع.

وإن الله سبحانه وتعالى قد سهل عمل الخير لكل إنسان، وله من نتائج عمله الجزاء على قدر العمل، وإن التكليف على قدر الطاقة وعلى مقتضى التكوين الإلهى للأشخاص والأنواع، ولذلك قال سبحانه:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ إن للرجال حظاً مما اكتسبوا من أعمال قاموا بها من جهاد فى سبيله، وإدارة لشئون المسلمين، وفصل فى الخصومات، وقيام بالتكليفات العامة، وللرجال حظ من الأموال بمقدار ما يكلفون من أعمال اجتماعية، وللنساء نصيب وأجر مما اكتسبن، فلهن جزاء على آلام الحمل وآلام الوضع، وآلام التربية والسهر على الطفل والرعاية لشئونه، والصبر على هذه الرعاية، ولهن الجزاء الأوفى على القيام على مملكة البيت التى هى راعيها، ولهن من المال فى الميراث بمقدار ما يكلفن من تكليفات اجتماعية، فليرض كل من الرجال والنساء بحظهم الذى يتفق مع تكوينهم وكل له جزاؤه فى الواجبات العامة لكلا الصنفين، والواجبات الخاصة بأحدهما، ولا يتم أحد ما ليس له.

﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى لا تمنوا ولا تتطلعوا إلى ما لم تتخذوا الأسباب له، واتجهوا إلى الله تعالى علام الغيوب الرزاق ذى القوة المتين، واسأله ما يتفضل به عليكم، وما يزيدكم به من حظوظ الدنيا والآخرة، فإنكم عندئذ تطمثون وتستقر نفوسكم، ويبعد عنكم القلق والانزعاج، والله سبحانه هو المعطى الوهاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إن الله تعالى ذو الفضل العظيم وهو يعطى من فضله بمقدار علمه وبمقدار تكوينه للأشياء وتقديره لما يصلح، وإنه سبحانه وزع الأرزاق والمواهب بمقتضى علمه، فجعل من الناس الغنى والفقير؛ إذ لو كان الناس سواء فى الغنى والفقير ما كان من يعمل بيده ويزرع الأرض، ويقيم العمران وينمى الزرع والحراث، ولو كان الناس جميعا ذوى مواهب عالية ما وجد من ينفذ ما يفكر فيه أولئك العلماء، ولو كان الناس جميعا ساسة ما وجد من يسوسونه، ولكان الاختلاف ولا يكون الناس أمة واحدة، وإن الناس كهرم قاعدته أوسعها ساحة، ثم يعلو حتى يضيق أعلاه، والقاعدة هى أساس البناء، وإن ذلك التنظيم هو مقتضى العلم ومقتضى النظر، اللهم إليك الأمر والنهى والتقدير، قد فوضنا كل أمورنا إليك، وإنك نعم المولى ونعم النصير.

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُمْ
نَصِيحَتُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۚ
الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالزَّكَاةُ
قَنْبَرَةٌ حَافِظَةٌ لِّلْغَيْبِ ۚ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّيْلِ تَحَافُونَ

نُشْزِرُهُنَّ فَعَظُمَوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ
وَأُضْزِرُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٢٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ
يُرِيدُ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
خَبِيرًا ﴿٢٥﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه وتعالى أنه جعل لكل من الذكور والإناث حظه مما اكتسب، رجالا ونساء، فليس لأحد أن يتمنى ما فضل به غيره عليه، وإلا عبث الشيطان بعقله وقلبه، فالأمانى الكاذبة مطايا الشيطان دائما.

وفى هذا النص الكريم يبين أنه جعل كذلك حظوظ الميراث بما قدر سبحانه وتعالى، وقد جعله فى الأولياء النصراء الذين كان يستنصر بهم فى حياته، ويأمن بهم من الاعتداء والجور، ففى ظلهم وقربهم كان كسبه، فيكون لهم بعد وفاته ما قدره العليم بكل شىء. وقد قدر سبحانه الميراث بنوع القرابة وقربها، لا بأحاديها كالشأن فى كل الشرائع والقوانين، تقدر أحكامها بالأنواع لا بالآحاد، ولذا قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

المولى هو النصير والصديق والقريب، ويقول الأصفهاني فى مفرداته: «الولاء والتوالى أن يحصل شيان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد»، وأقرب المعانى هنا أن يكون الموالى هم الذين يخلفون الشخص فى ماله وشخصه، فتكون حياتهم امتدادا لحياته، وهم الوارثون. والمعنى كما يبدو من النص الكريم: ولكل أحد ممن يترك هذه الحياة

الدنيا إلى الحياة العليا جعلنا خلفاء له فى ماله من أقرب الناس له، وأكثرهم نصرة، ويكون لكل من هؤلاء الأولياء حظ من ماله يأخذه، وهؤلاء هم أبناؤه وأقاربه والذين عقدت أيمانكم. وفى النص الكريم بعض مباحث لفظية ومعنوية.

فالنص يشير أولا إلى أن الذين يخلفون الآباء والأقربين والذين عقدت الأيمان هم النصراء والأقارب الأدنى؛ لأنهم شاركوه فى الجهد بنصرتهم وقربتهم، ولأن بقاء شخصه يكون ببقائهم، والنص يشير ثانيا إلى أن المال الذى يتركه موزع بين هؤلاء لا يستبد به قريب دون قريب، إذا تحدث درجة القرابة وقوتها؛ لأن الميراث يتبع الاقربىة، فهو للأقرب فالأقرب. ويشير ثالثا إلى سبب الميراث، وهو القرابة ويدخل فيها الزوجية هنا؛ لأن الزواج يوجد ارتباطا نفسيا يكون كالقرابة، بل يكون أقوى من بعضها، فتصير المرأة بضعة من الرجل. والسبب الثانى هو عقد اليمين، ويقال عَقَدْتُ الأيمان لكل عقد قوى موثق، والأيمان هنا هى الأيدى جمع يمين، وهى اليد اليمنى؛ لأن العقد الموثق يضع فيه يده فى يد الآخر عند عقده، ولذلك يقال للبيعات الصفقات؛ لأن كل عاقد يصفق بيمينه على يمين الآخر. ومن هم ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتُ أَيْمَانُكُمْ﴾ كما جاء فى النص؟. لقد نسب إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده أنه قال: إن المراد الأزواج؛ لأن سبب الميراث هو عقد الزواج والقرابة، والأكثرون بل الجميع من المتقدمين على أن المراد عقد الولاء، وهو أن يعقد الشخص مع رجل أقوى منه نصيرا على أن تكون له نصرتة، وأن يرثه إذا لم يكن له وارث، فالأقوى ينصر الأضعف، ويرثه إذا مات، وقد كان ذلك واقعا. وقال بعض الفقهاء: إنه نسخ الميراث به، كما نسخ الميراث بالإخاء، وقال الحنفية ومعهم بعض الفقهاء: إنه ما زال باقيا لم ينسخ، وهذا ما نميل إليه، ونحن بهذا نخالف ما نسب إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده، ونخالف من ادعوا النسخ، ووجهتنا فى الأول أن القرآن الكريم لم يعبر عن أحد الزوجين بمن عقدت أيمانكم؛ لأن الحياة الزوجية ليست العلاقة فيها مجرد تعاقد بين الرجل والمرأة، بل هى بعد استقرارها تكون ازدواجا نفسيا، فتكون هى قطعة

منه ويكون هو قطعة منها. وتكون بينهما لُحمة أقوى من لُحمة النسب، إذا أعقبا أولادا يتكونون من أجزائهما، فirian فيهم شخصيهما قد اندمجا، فكانا ذلك الحى الذى هو خَلْبُ الكبد. وأما وجهتنا فى عدم نسخ الميراث بالولاء، فهى أنه لا يوجد دليل ناسخ، وما وجد من السنة هو ظنى أولا، والظنى لا ينسخ القطعى، وقد ورد فى نسخ الإخاء، وقد حلت القرابة محل الإخاء، والميراث بالولاء لا يتعارض مع الميراث بالقرابة؛ لأنه يكون إذا لم يكن الشخص أحد من الأقارب قط، وبذلك لا يكون للولاء قوة القرابة، ولكن تكون له قوة الوصية التى تتأخر عن القرابة والزوجية، وإن أقصى ما يدل عليه عقد الولاء أن يقدم على بيت المال، وهو مؤخر عن الوصايا الصريحة إذا كانت لا تزيد على الثلث، وبذلك تكون النصرة الخاصة مقدمة على النصرة العامة؛ إذ عَقْدُ الولاء سبب للنصرة الخاصة والأمة هى النصير العام، وإن بيت المال يأخذ المال الضائع، وما دام قد جعل المال لواحد من بعده فإنه لا يعد ضائعا.

﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ إذا كان توزيع التركات يجعل الله تعالى وتقديره، فيجب أن يؤتى كل واحد حظه منه؛ إذ هو نصيب لم يكن بمنحة من أحد، ولكن بعبية من الله تعالى، فليس لأحد أن يمنع ذا حق حقه، إذا كان ذلك الحق قد قرره مالك الملك، فلا يجوز للذكور أن يحرموا الإناث من نصيبهم فإن ذلك يكون ظلما مبينا، ولا يجوز للقوى من الوارثين أن يُطَقَّفَ من نصيب الآخرين، كما أنه لا يجوز لحاكم أن يغير ميراث الله تعالى، ولا أن يمنع، فكل من ملك مالا أو حقا فلورثته، كما قال النبي ﷺ: «من ترك مالا أو حقا فلورثته»^(١). وقد أكد الله سبحانه وتعالى أمره بمنع الظلم فى الميراث بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أى أن الله تعالى ذا الجلال والإكرام

(١) رواه البخاري: الاستقراض وأداء الديون - الصلاة على من ترك دينا (٢٣٩٨)، ومسلم: الجمعة - تخفيف الصلاة والخطة (٨٦٧)، وغيرهما ولفظه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَلِئَنَّا».

يشاهد كل شيء، ويشهد عليه، فيعرف الظالم الذى يأخذه ومآله معرفة المشاهد المعاین، فمن أراد إخفاء مال، أو أكل الحق من صاحبه، فليعلم أن الله تعالى سيأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ يقال قام على الشيء وهو قائم عليه وقوام عليه، إذا كان يرعاه ويحفظه ويتولاه بعنايته والمحافظة عليه، وليست القوامه مطلق الرياسة، بل إن الرياسة تسمى قوامه إذا كان الرئيس يقوم على رعاية المراءوس والمحافظة على حقوقه وواجباته، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فإن المعنى أن الرجال يقومون على شئون النساء بالحفظ والرعاية والكلاء والحماية، فيقوم الآباء على رعاية بناتهم والمحافظة على أنفسهن وأخلاقهن ودينهن، والأزواج يقومون على شئون زوجاتهم بالحفظ والرعاية والحماية والصيانة، ومن هنا تجيء الرياسة، بل إنى أقرر أن قيام الرجل على شئون الزوجة ليس فيه رياسة، إنما فيه حماية ورعاية وهو من قبيل توزيع التكليفات، فإذا كان للرجل رياسة عامة، فللمرأة أيضا رياسة نوعية، ولذا قال النبى ﷺ: «الرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها»^(١).

وقد ذكر سبحانه وتعالى سبب تكليف الرجل هذه الرعاية دون المرأة، فبين سببين: أولهما: قال فيه ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، والتفضيل هو الزيادة فى القوة الجسمية والمعرفة، واختصاص الرجال بالرسالة الإلهية، والولايات الكبرى، وقد تبع هذا تكليفات كثيرة على الرجل، منها الجهاد ودفع الأعداء، وما عرف التاريخ أن امرأة قادت الحروب، ومهما يكن من عمل للمرأة فى الحروب فهو من قبيل الأعمال الثانوية، لا الأعمال الأصلية، والتفضيل هو تفضيل الجنس

(١) عن عبد الله بن عمر يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». (رواه البخارى: الجمعة - الجمعة فى القرى والمدن (٨٩٣)، ومسلم بنحوه: الإمارة (١٨٢٩)).

على الجنس، لا تفضيل آحاد، فمن النساء من هى أقوى من الرجال عقلاً، ومعرفة، بل قوة جسم فى بعض الأحيان، وقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ولم يقل: بما فضلهم الله عليهن أولاً للإشارة إلى البعضية المشتركة، وأن الرجال من النساء والنساء من الرجال، فاللحمة الواصلة واحدة، وللإشارة إلى أن ذلك التفضيل لصالح الجميع، وكلُّ يؤدى عمله الذى خلقه الله سبحانه وتعالى له.

والسبب الثانى فى القوامه والرعاية والحفظ والصيانة هو ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، وذلك لأن تكليف الرجل بالإنفاق، وجعله حقا للمرأة عليه، يجعله مكلفاً أيضاً أن يرعاها ويصونها؛ إذ إن ذلك التكليف استوجب أن يكون عمل المرأة داخل المنزل، وعمل الرجل خارجه؟ فهى عاكفة على شئون الأطفال وإعداد البيت ليكون جنة الحياة، وهو مكلف رعاية الجنة وحمايتها وصيانتها.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ إن رعاية الرجل للمرأة والعمل على صيانتها وحفظها تختلف باختلاف المرأة، والمرأة المتزوجة نوعان: إحداهما الصالحة، والثانية من ليست كذلك، وهنا يبين هذا النوع. ومعنى الصالحة النافعة المستقيمة فى خلقها ودينها، فهى صالحة فى نفسها وزوجيتها، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بوصفين ظاهرين يميزانها، ويكشفان عن صلاحها، فى نفسها ودينها: أحدهما أنها قانته. وقانته معناها مطيعة عن طيب نفس، واطمئنان قلب، لا عن قسر وإكراه، وهى مطيعة لله تعالى فى كل مظاهرها، ومن طاعة الله تعالى طاعة زوجها فى غير معصية. ولم يبين فى اللفظ من تطيعه للإشارة إلى أن من طبيعتها الطاعة لصاحب الطاعة. وصاحبها هو الله، وهو مصدر الطاعات كلها. والوصف الثانى أنها حافظة للرجل فى غيبه، وقد عبر الله سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أى يحفظن الأمور المغيبة المستترة، فلا يفشين ما يكون بينهن وأزواجهن، ولا يكتمن ما خلق الله فى

أرحامهن، ولا يعتدين عليه، ولا يضعن في الوديعة التي أودعها الله إليهن ما لا يجوز أن يكون فيها، وقوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (ما) إما مصدرية وإما موصولة، والمعنى على أنها مصدرية: حافظات للغيب بحفظه تعالى، أى بالصورة التي حفظ الله بها ذلك الأمر وجعله غيباً مكنوناً. وعلى أنها موصولة: حافظات للأمور الغيبية المستورة بالأمر الذي حفظها الله تعالى في تكوينه وشرعه. والخلاصة على التخريجين أن المرأة الفاضلة الصالحة مع طاعتها لزوجها تحفظ غيبه وستره وعرضه، وقد جاء الوصفان في قول النبي ﷺ: «خير النساء من إذا نظر إليها سرتة، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»^(١).

هذا هو القسم الأول من النساء المتزوجات، والقسم الثاني ما بينه بقوله:

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ﴾

ذلك القسم هو غير الطائع وغير الصالح بلا ريب، والنشوز خروج الزوجة عما توجه به الحياة الزوجية من طاعة الزوجة لزوجها، وقيامها على شئون بيتها، وأصل النشوز مأخوذ من النشز بمعنى الارتفاع في وسط الأرض السهلة المنبسطة ويكون شاذاً فيها، فيكون نشوز المرأة ترفعا أو إعراضا عن الحياة الزوجية الطيبة وشذوذاً فيها، وقال سبحانه، ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ ولم يقل «ينشزن» للإشارة إلى أمرين: أولهما علاج الداء قبل أن يستفحل، وذلك بأن يكون العلاج عند وقوع بوادر النشوز وظهور أماراته، حتى لا يصل إلى أقصى درجاته، وهو أن تهجر الزوج، وتخرج من منزله؛ لأن ذلك العلاج يكون وهى في ظل العُش الزوجي لم تغادره - والأمر الثاني استكثار وقوع النشوز بالفعل، وهو أن تترك البيت على من فيه وما فيه، وكأنه لا يتصور أن تقع زوجة في ذلك، ولو لم تسم في لغة الشرع زوجة صالحة. وقد ذكر الله لهذا النوع من النساء ثلاثة أنواع من العلاج:

(١) مسند الطيالسي عن أبي هريرة رضى الله عنهما، وروى أبو داود: الزكاة - في حقوق المال (١٦٦٤) عن ابن عباس مرفوعاً.

أولها - ما ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ «الفاء» هنا واقعة في خبر الموصول؛ لأنه في معنى الشرط فدخلت الفاء في خبره الطلبي، كما تدخل في جزاء الشرط إذا كان طلباً. والوعظ القول الذي يؤثر في النفس ويوجهها إلى الخير، وقد قال الخليل بن أحمد: «الوعظ هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب» فالوعظ توجيهه إلى الخير بذكر نتائج الشر، وهو مراتب أعلاها التوبخ، وهو أيضاً مراتب. ولكل امرأة من النساء ما يليق بمثلها، فذات الإحساس الرقيق إذا كان منها ما لا يستحسنه، يقال مثلاً: أفعلت هذا؟ كأنه ينكر أن يكون حدث منها، أو يقول: ما تصورت أن يكون هذا من مثلك. ثم يذكرها بشرف أسرتها، ثم يذكرها بحق الله تعالى، ثم يوبخها، ومنه اللوم، وهو في كل هذا لا يقسو ولا يعنف.

والثاني - الهجر في المضجع، والمضجع في المجاز هو المسكن كله، والهجر المطلوب هو الهجر الجميل، وهو الهجر من غير جفوة. والهجر مراتب: أدناها أن يكون الهجر في موضع النوم، وهو المضجع الحقيقي، والآخر مجازي بأن يدير لها ظهره ولا ينام، فإن علا نام في منام آخر، فإن علا ترك حجرة النوم إلى حجرة أخرى من غير مجافاة ولا مخاصمة، ولكل حال نوعها من النساء ونوع من أمارات الشوز وعلاماته التي تكشف عن توقعه إن ترك حبلها على غاربها.

الثالث - من دواء الشوز، الضرب، وهو أقصاها، ولا يلجأ إليه إلا عند فشل الدواءين السابقين. وقد ثبت أن الضرب المباح يكون عندما تبلغ الحياة الزوجية درجة يخشى عليها من الشوز والافتراق، وقد قيدته السنة بقيدتين. أحدهما: أن يكون غير مبرح، وأن يكون غير مشين بألا يضرب الوجه، فقد صرح بذلك السنة^(١)، وسئل ابن عباس عن الضرب غير المبرح، فقال: هو

(١) عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقَشِيرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدَنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَتْ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَبَتْ - أَوْ اكْتَسَبَتْ - وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ وَلَا تُقَيِّحَ وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ» رواه أبو داود: النكاح - حق المرأة على زوجها (٢١٤٢)، وابن ماجه: النكاح - حق المرأة على الزوج (١٨٥٠)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٥٠٩).

الضرب بالسواك أو مثله. وهذا هو الضرب المباح، فهو رمز لاستحقاق الضرب، وليس بضرب. وقد نص في مذهب مالك على أن الزوج إذا ظلم زوجته وشكته إلى القاضي، وعظه، فإن تكررت الشكوى حكم لها بالنفقة ولم يحكم له بالطاعة زمنًا، فإن شكته بعد ذلك عزره بالضرب ليستقيم، وهذه عقوبات ثلاث تقابل عقاب الزوج لزوجته، ولكنها أشد وأعنف، فالضرب لا يكون غير مبرح.

﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ البغى الطلب الشديد، ومعنى النص الكريم: فإن أطاعت الزوجات فلا تطلبوا طريقًا من طرق العقاب أيا كان باغين عليهن به ظالمين، والمغزى أن كل عقاب مع الطاعة ظلم وبغى لا يقصد ولا يطلب، بل يقصد الزوج إلى استئناء مودتها بالرحمة والعطف والتقريب والتحب بكل أساليبه. وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾، للإشارة إلى قوته القاهرة، وأنه إذا استعلى الرجل على امرأته فالله العلى الكبير فوقه، وهو مؤاخذه وأخذه بعذاب اليم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هذه حال ثالثة للحياة الزوجية، وهى حال خوف الشقاق، وهى غير حال خوف النشوز؛ لأن خوف النشوز يكون والزوجة فى بيت زوجها له نوع سلطان عليها، وهناك مودة بينهما، فتكون تلك المودة من سبل العلاج، ولذلك كان من العلاج الهجر الجميل، إذ لا يصلح عقابًا إلا عند قيام المحبة، أما الشقاق فإنه يكون عندما تنشعب المودة، ويكون كل واحد من الزوجين فى شق، وهذه حال لا يتولى إصلاحها الزوج؛ لأن القلوب تنافر ودها، ولهذا كان العلاج لا بد أن يكون من طريق آخر، وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾، والبعث معناه الإثارة، وهو هنا الإثارة مع التخير؛ لأنه ليس كل إنسان يصلح طبيبًا معالجا للنفوس المتنافرة، والحكم من له حق الحكم والفصل، وعمل الحكم يتجه إلى أحد أمرين: أحدهما الإصلاح بينهما ورد النفوس الشاردة إلى مستقر الحياة الزوجية، وإن ذلك يقتضى

أن يكون عند الزوجين نية إزالة الخلاف أو على الأقل لا يمانعان فيه، ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أى إذا كان كلا الزوجين مع وجود النفرة يرغب فى إزالتها. فإن الله موفق بينهما، بأن يجعل كل قلب يلتقى مع الآخر، والتوفيق يقتضى أن يفتح كل واحد جزءا من قلبه ليدخل فيه أو يلتحم معه القلب الثانى.

والأمر الثانى التفريق بينهما، وقد كان الخلاف بين الفقهاء فى جوازه، فقال أبو حنيفة والشافعى؛ لا يجوز ذلك إلا بتوكيل من الزوج، لأن النص بين أن عملهما فى الإصلاح، فإن عجزا عنه فقد انتهت مهمتهما، ولأن الطلاق حق الزوج وحده، ولا يتولاه غيره إلا بالنيابة عنه، وقال مالك وأحمد: لهما التفريق إن عجزا عن الإصلاح؛ لأن الله تعالى سماهما حكمين، والحكم هو الذى يحسم الخلاف، فإن عجزا عن الإصلاح حسما الخلاف بالتفريق، ولأن عليا - رضى الله عنه - عندما بُعثَ حكمان لحسم الخلاف بين عقيل بن أبى طالب وامراته قال: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما. وعلى أحق من فسر القرآن. وبعث الحكمين يكون بأمر القاضى، والبعث يكون عند خوف الشقاق؛ لأن الشقاق يكون بالانفصال التام، والخوف قبله. وقد ذيل الله الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أى أنه متصف بصفة العلم الدقيق المحيط الذى يعلم أحوال النفوس وطرق علاجها، ويعلم ما يقوم به الناس، ويعلم ما تخفى الصدور، وعنده الجزاء والعقاب وهو على كل شىء قدير.

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ

وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَاءَ آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

فى الآيات السابقة من أول السورة وردت أحكام الأسرة، وواجبات الأقوياء فيها بالنسبة لضعفائها، والدعائم التى تقوم عليها، والحقوق المتبادلة بين آحادها، وأشير إلى الآفات التى قد تعروها، ثم بينت عناصر تكوينها سليمة، وأشير إلى المعاملات المالية بينها من غير تفضيل، ثم بين علاج ما يكون بين الزوجين من أسباب النزاع التى قد تهدد المودة الواصلة بينهما بالقطع، وفى هذه الآيات ذكر سبحانه الأسس التى تقوم عليها المعاملات العامة والخاصة، وذكر وجوب الإحسان إلى كل من يتصل بالشخص بقربة أو جوار، ثم بين حال الذين يقطعون العلاقات بين الناس، وبين سبحانه وتعالى أن أساس التعامل الفاضل هو عبادة الله تعالى وحده، من غير إشراك، وأن أساس التعامل الفاسد هو أن يريد الشخص بعبادته غرضاً من أغراض الدنيا من غير اتجاه إليه سبحانه، ومراعاة حق الناس عليه.

ولذا قال سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا أول الخط الذى يسير فيه الفاضل فى علاقته بالله وبالناس، وهو أول الخط المستقيم، والعبادة معناها خلوص النفس لله تعالى، والاتجاه إليه وحده، والإخلاص فى كل ما يعمل

لله تعالى، وهى بهذا المعنى تشمل العبادات من صلاة وحج وصوم، وصدقات. والصلاة لب العبادة، وهى ذات صور مختلفة فى الديانات، ولكنها فى صميمها لا تكون صلاة إلا إذا تحققت فيها الضراعة التامة، والاتجاه إلى الله وحده، وعدم الانشغال عنه سبحانه بأى عرض من أعراض الدنيا. وهذه هى العبادات المفروضة، وبعدها يكون الاتجاه إلى الله تعالى فى كل مقصد وعمل، ولا يحس بالالتجاء إلا له، فالدعاء له وحده، لا يشرك معه أحدا فى دعائه، ولذلك ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ العبادة»^(١). ويلي هذه المرتبة فى سمو العبادة ألا يفعل الأعمال إلا لله، ولا يحب إلا فى الله ولا يبغض إلا فى الله.

وهذه المرتبة يصورها قول النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله»^(٢).

هذه هى العبادة، أو إشارات إلى أنواعها ومراتبها. وإن الأخذ بها يجعل كل الأعمال فى دائرة الفضيلة، وينير البصيرة، وإن نقيض العبادة الخالصة لله تعالى الشرك، وهو منهى عنه. وكما أن العبادة مراتب فالشرك مراتب أيضا، أعلاها الشرك الأعظم، وهو اعتقاد شريك لله تعالى فى ألوهيته واستحقاقه للعبودية، وهو الذى ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (١١٦) [النساء] ويليهِ أن يعتقد أن أحدا ينفع ويضر من دون الله، والاتجاء إلى غير الله والخضوع لغير الله وبغير ما أمر الله تعالى. والمرتبة الثالثة الإشراك فى القُرْبَات، بأن يصلى مرائيا، أو يزكى مباهيا، أو يصوم متعاليا، ولا يقصد وجه الله بصومه، وقد قال ﷺ: «من صلى يرأى فقد أشرك، ومن صام يرأى فقد أشرك، ومن تصدق يرأى فقد أشرك»^(٣)، ويسمى هذا النوع الشرك الخفى. وقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أتخوف

(١) رواه الترمذى: الدعوات عن أنس بن مالك رضى الله عنه. وقد سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه من رواية أحمد عن شداد بن أوس بن ثابت.

أمتي: الإشراف بالله، أما إنني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية^(١).

وإن النهي عن الشرك يشمل الإشراف بالله في أي شيء أو أي حال، ولذا قال تعالى ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، أي شيء وعلى أي نحو كان، سواء أكان شركاً ظاهراً أم كان شركاً خفياً. وإن الإشراف في كل صورة يضعف الضمير، والإيمان بالله يقوى الضمير، وإن أول مظاهر قوة الضمير التي توجد لها عبادة الله وحده، البر بالناس، ولذا عقب طلب البر والإحسان بالنهي عن الإشراف فقال تعالى:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ وقد قرن الله سبحانه وتعالى النهي عن الإشراف بالإحسان إلى الوالدين، ومن وليهما، وقد جاء في آيات أخرى ذكر الإحسان بالوالدين فقط بعد النهي عن الإشراف، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء] لأن أحق من يستحق الإرضاء بعد الله الوالدان، ولا يستحق غيرهما بعد الله الشكر، ولذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ...﴾ (١٤) [لقمان] وقال عليه الصلاة والسلام: «رضاء الرب من رضا الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين»^(٢)، والإحسان إلى الوالدين بالصحبة الكريمة، وسد حاجتهما، والقول الحسن، وعدم التملل من حياتهما إن بلغا الكبر، وتعباً تعب الشيخوخة، وصارت حياتهما عبثاً على أولادهما، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَلْفَنُ عِنْدَكَ الْكَبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) [الإسراء].

والإحسان إلى ذي القربى من هذا الصنف، فعلى القريب أن يحسن بقربه، بسد حاجته، ويكرم صحبته، ويصله ولو قاطعه، ولذا قال النبي ﷺ: «ليس

(١) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه: الزهد - الرياء والسمعة (٤٢٠٥) عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) رواه البزار عن عبد الله بن عمرو. الترغيب والترهيب ٣/٢٢١.

الواصل بالمكافئ إنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة»^(١)، ويكون في عونه دائما في دفع الملمات، والمواساة في الشدائد.

والإحسان باليتيم، يكون بإيوائه، والعطف الذى يقوم مقام عطف أبيه، وسد حاجاته، والاختلاط به بالرحمة، فيجعله مع أولاده مختلطا بهم، مؤتسبا معهم، ويسوى بينهم وبينه، لكى ينشأ أليفا مألوفاً مع المجتمع الذى يعيش فيه، وقد ورد فى الأثر: «إن خير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم، وشر بيت من بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم»^(٢)، وإن قهر اليتيم وإذلاله ينشئه نافرا شاذاً، فيكون عدواً للجماعة لا يألفها، ويكون منه الإجرام، والإيذاء، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى].

والمساكين هم الفقراء والذين لا طاقة لهم على عمل، لمرض مزمن أو شيخوخة فانية، أو آفة فى جسمهم تجعلهم غير قادرين، أو تعطل لا يجدون معه عملاً يعملون، والإحسان بهم سد حاجاتهم، وكفالة الراحة لهم.

وبعد أن بين سبحانه الإحسان اللازم المطلوب الذى لا مناص عنه، وهو دفع الآفات الاجتماعية، اتجه إلى الإحسان إلى المجتمع القريب، والإحسان فى المعاملة بشكل عام، فقال:

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ هو الجار الذى يتصل بالإنسان بصلة الرحم والقربة، وهذا له مع حق الجوار حق الرحم، فقد ثبت له الإحسان من ناحيتين:

(١) رواه البخارى: الأدب - ليس الواصل بالمكافئ (٥٩٩١)، والترمذى: البر والصلة - ما جاء فى صلة الرحم (١٩٠٨)، وأبو داود: الزكاة - فى صلة الرحم (١٦٩٧)، وأحمد: مسند الأكثرين (٦٤٨٨).

(٢) سبق تخريجه، وقد أخرجه ابن ماجه فى الأدب - حق اليتيم (٣٦٧٩) مرفوعاً بلفظ: «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد، وأبو نعيم فى الحلية. عن أبى هريرة رضى الله عنه.

إحداهما: من ناحية القرابة، فهو داخل في ذى القربى، والثانية: الجوار، وقد يقول قائل: لماذا أمر بالإحسان به في الجوار مع أنه مذكور في القرابة؟ والجواب عن ذلك أن الجوار قد يوجد احتكاكا، تكون معه الشحنة، فللحرص على بقاء المودة الواصلة، نبه - سبحانه - إلى أن الجوار يوثق بالإحسان ولا يباعده، فهو يجعله أوجب وألزم.

﴿وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾ هو الجار الذى يكون مسكنه أو متجره، أو مزرعته بجنبك، والإحسان إليه بالأى يكون منه أذى له بأى نوع من أنواع الأذى، فلا يزعجه فى أمنه، ولا يمنع الماء عنه، ولا يرسل إليه الماء غير الصالح، ويلقى عليه مزابيل بيته. ثم من الإحسان به مواساته فى شدائده، ومعاونته فى حاجاته، وأن يحفظ سره، ولا يكشف عورته، ولا يعلن منه ما يخفى على الناس. ومن الإحسان إليه أن يهدى إليه ما يعجز عن شرائه لأولاده من حلوى وفاكهة ونحو ذلك. وإن الإحسان إلى الجار هو الأمر الذى يدعو إليه التآلف الإسلامى فى المجتمعات الصغيرة، وقد أكثر النبي ﷺ من الحث على الإحسان بالجار^(١).

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجُنْبِ﴾ هو صاحب الذى يكون بجنبك فى عمل أو سفر، أو طريق، أو مركب، وقد قال جار الله الزمخشري فى ذلك:

«الصاحب بالجنب هو الذى صحبتك بأن حصل بجنبك إما رفيقا فى سفر، وإما شريكا فى تعلم علم أو حرفة، وإما قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد، أو غير ذلك من أدنى صحبة التآمت بينك وبينه. فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان» وإن من الإحسان إلى الصاحب الذى يكون بجنبك، ألا تؤذيه بمنظر كربه أو ريح كريهة، وأن تحافظ على الحياء فى مجلسك،

(١) من ذلك ما رواه البخارى: الأدب - الوصية بالجار (٦٠٤١)، ومسلم: البر والصلة - الوصية بالجار (٢٦٢٤) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا زَالَ يُوصِيَنِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ».

فلا تجعل نعلك يحف بثيابه أو بحيث يؤذيه، وأن تعاونه إن كان محتاجا إلى معاونتك.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المنقطع عن أهله ولا مال له، فكأن الطريق تبناه، والإحسان إليه ببيواته وإطعامه وتسهيل الحياة له حتى يعود إلى أهله. وقد أوجب الإسلام إعداد مأوى لهؤلاء من بيت مال الزكاة، وإمدادهم بالطعام والكساء حتى يثوبوا إلى أهلهم.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هم العبيد والإماء الذين ملكت رقابهم في الحروب العادلة، فهم في سيطرة المالك لهم، وكان رقابهم في يمينه يسيرها كما شاء. والإحسان إليهم يكون من مالهم بالإطعام والكساء والمأوى، وعدم إيذاهم بأي نوع من أنواع الأذى، فلا يضربون، ولا يلطمون، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه»^(١).

وفي سبيل الإحسان بهم نهى النبي عن أن يقول المالك عبدى وأمتى، فقال: «لا يقل أحدكم عبدى وأمتى، بل ليقل فتاى وفتاتى»^(٢)، ونهى عن ضربهم: «من لطم عبده فكفارته عتقه»^(٣)، وقال بعض الحنابلة: إنه بمجرد اللطم يكون عتيقا.

(١) عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَأَيْتُ رَجُلًا فَعَبَّرْتُهُ بِأَمِّهِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعْبَرْتَهُ بِأَمِّهِ! إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ؛ إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ». [رواه البخاري: الإيمان - المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، ومسلم بنحوه: الإيمان (١٦٦١)].

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: الإيمان - صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٧) وقامه: عَنْ رِأْدَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ دَعَا بِغُلَامٍ لَهُ فَرَأَى بَطْنَهُ أَثَرًا فَقَالَ لَهُ: أَوْجَعْتِكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَأَنْتَ عَتِيقٌ. قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ: مَا لِي فِيهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا يَزِنُ هَذَا؟ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ فَإِنْ كَفَّارَتُهُ أَنْ يَعْتِقَهُ» وَفِي حَدِيثٍ وَكِيعٍ: «مَنْ لَطَمَ عَبْدَهُ... وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَدَّ. كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: الْأَدَب (٥١٦٨)، وأحمد: مسند المكثرين (٤٧٦٩).

وهنا بحث لفظي في الكلمة السامية: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فقد قالوا: إن «أحسن» تتعدى بنفسها وذلك بالنسبة للأعمال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [٣٠] [الكهف] وقول النبي ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يحسنه»^(١) وقول علي رضي الله عنه: (الناس أبناء ما يحسنون). ويتعدى بالباء، ويألى وباللام، وتكون بمعنى الإنعام والإكرام. وقالوا: إنها في تعديها بالباء تكون بمعنى الإكرام مع الاتصال والمودة والقرب ممن أحسن إليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ المختال هو ذو الخيلاء أى الكبر؛ وذلك لأن المتكبر يتخيل لنفسه من الصفات والسجايا والأفعال ما ليس فيه، فيستعلى على الناس، والفخور هو الذى يكتر من ذكر مزاياه ويبالغ فيها، ويحب أن يحمد بما لم يفعل. وإن هذين الوصفين يتلازمان، فحيث كان الكبر كان الفخر الكاذب، والله تعالى لا يحب هؤلاء؛ لأنهم يستتكفون عن الاتصال بالناس، ويغمطون حقوق الناس، ولا يقومون بحق النعمة التى أنعم الله بها عليهم، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «الكبر بطر النعمة وغمط الناس»^(٢).

وكان ذكر ذلك النص الكريم بعد طلب الإحسان للإشارة إلى أن المتصف بهاتين الصفتين لا يمكن أن يكون محسناً لأحد - هو إثناء بصفاته وبأفعاله، وهو مصدر الشر والتفرق فى الجماعات، وقد بين الله سبحانه وتعالى حقيقتهم بأوصافهم، وذكرها سبحانه وتعالى صفة صفة، فقال:

(١) فى مجمع الزوائد (٦٤٦): وفيه: مُصْعَب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة. والحديث رواه البيهقي وابن عساكر بلفظ مقارب

(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَتَعَلُّهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». آرواه مسلم: الإيمان - تحريم الكبر وبيانه (٩١)، والترمذي: البر والصلة (١٩٩٩)، ورواه أحمد فى مسند المكثرين (٣٧٩٧) بنحوه.

﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإن من صفة هؤلاء المختالين أنهم بخلاء، ويحرضون الناس على البخل، ويكتمون ما أعطاهم الله من فضله. والبخل أن يضمن الشخص في مواضع الخير، فليس البخل مرادفا للاستمسك بالمال؛ إذ إن الإنفاق في الشر والضنّ على الخير يسمى بخلا في لسان الشرع والعقل، كما أن الإنفاق في سبيل البر مهما يكن لا يكون إسرافاً، فتبرع أبى بكر بكل ماله في الحرب لا يسمى إسرافاً، ومثل ذلك تبرع عمر رضى الله عنه بالشطر من ماله، وكذلك تبرع عثمان بالأموال الضخمة للمسلمين، ولهذا روى عن عبد الله بن عباس: «درهم في الشر إسراف وألف في الخير ليس بإسراف» فلا غرابة إذن إذا وجدنا المختالين، ينفقون الألف في المظاهر والاستعلاء، ومع ذلك وصفهم الله تعالى بالبخل، ولا تناقض بين وصفهم بالبخل، وكونهم مثل الذين ينفقون رثاء الناس؛ لأن كلا الوصفين ينبع من نفس واحدة، وهى الشح فى الخير.

ودأب هؤلاء أن يبخلوا وأن يحرضوا على طريقهم الذى سلكوه، ويسخروا ممن يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة؛ لأنهم فى طبيعتهم لا يحسون إلا بأنفسهم، ولا يؤمنون بحق الغير عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، المراد بها كتمان المال فى موضع البر، فهم أشحة على الخير يحسبونه مغبياً لمالهم، فيكتمون ما أعطاهم الله من مال بفضله، وعلى هذا سار بعض المفسرين، وحجته أن الكلام فى المال، فالكتمان فيه.

وقال آخرون: إن المراد كتمان العلم الذى أوتوه بفضل الله عليهم، وإرسال رسل كثيرين فيهم، ويكون النص فى اليهود لأنهم يتصفون بكل هذا، ويرشح لذلك قوله تعالى فى ختام الآية: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وأرى أن يفسر الكتمان تفسيراً عاماً يشمل العلم والمال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ معناه: وهيانا للجاحدين لرسالة محمد ﷺ ولوحدانية الله تعالى عذابا يهينهم ويذلهم، فإذا كانوا قد استكبروا وطفخوا واستعلوا واختالوا في الدنيا، وهى متاع قليل، فالذل الدائم والهوان المستمر لهم فى الآخرة.

وتعقيب هذا النص السامى للأوصاف السابقة يشير إلى أن تلك الأوصاف أوصاف الكافرين الجاحدين بنعيم الله، لا أوصاف المؤمنين المقربين بأنعمه، وقد وصف سبحانه أمثال هؤلاء بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الرثاء مصدر رأى يرأى يرأى مراعاة، ورياء، ورثاء، وهو أن يعمل العمل، أو ينفق المال يظهر للناس أنه يقصد الخير، وهو يقصد بذلك الظهور أمام الناس والشهرة بالخير، وهو من صنف مماثل للبخلاء أو هو منهم؛ لأنه ينفق لنفسه لا لغيره، فكان أولئك المختالين الفخورين صنفان: صنف لا ينفق على الناس قط، ولا يعين بأى نوع من العون فى طريق البر، وصنف يعطى فى سبيل النفع، ولكن لا يقصد وجه الله تعالى، بل يقصد ما عند الناس، من رجاء مَحْمَدَة، أو تفاخر، أو استعلاء، أو طلب جاه لدى ذى جاه، كأولئك الذين ينفقون النفقات العظيمة، ويتصدقون بالصدقات الكبيرة، تملقا لذوى الجاه، أو رجاء لما عندهم، وإن هذا النوع يكون إنفاقه إلى بوار عليه، ولا ثواب عليه، ولو كان من أهل الإسلام.

وقد قال عليه الصلاة والسلام فى المرائين الذين ينفقون رياء: «يقول صاحب المال يوم القيامة لربه: ما تركت من شىء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فى سبيلك، فيقول الله تعالى: كذبت إنما أردت أن يقال جواد، فقد قيل»^(١).

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الإمارة - من قاتل للرياء (١٩٠٥)، والترمذى فى الزهد - ما جاء فى الرياء والسمعة (٢٣٨٢)، والنسائى: الجهاد - من قاتل ليقال فلان جري (٣١٣٧) وأحمد: باقى مسند المكثرين (٨٠٧٨). عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وقد ذكر سبحانه بجوار الإنفاق رياءً عدم الإيمان، فقال في أوصافهم: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهذا وصف يعم الذين يراءون، ويشمل الكافرين، وهو حقيقى فى الكافرين الذين لا يذعنون للحق، فيؤمنون بالله واليوم الآخر، ودائم معهم بدوام كفرهم، وبالنسبة للمرائين من أهل القبلة ثابت لهم وقت رثائهم؛ لأن من يتصدق راجيا ما عند العباد من جاه أو ملق أو استعلاء، لا يؤمن بحق الله عليه وقت تبرعه، ولا يؤمن بأن وجه الله هو الذى يقصد، ولا ينظر إلا إلى متاع الدنيا، ولا يؤمن فى عمله هذا باليوم الآخر، ولو كان يؤمن بالله فى عمله هذا لقصد وجهه الكريم، وما يكون من ثواب مضاعف على فعله، وإن هذا كله من عمل الشيطان.

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ الشيطان هنا كل ما يحرض على الشر من وسوسة نفس، وصاحب مفسد، ومن تسلط على عباد الله تعالى لإغوائهم، وفى النص القرآنى إيجاز بالحذف معجز، إذ المعنى: وقد دفع هؤلاء إلى الرياء فى إنفاقهم وإلى البخل والكتمان قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، والقرين هو صاحب الملازم الذى يخلط بنفسك بنفسه، ويقرنها بها حتى تصيرا كأنهما شئ واحد، ومعنى قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ من يكن الشيطان صاحبا ملازما له قد اختلط به ومازج نفسه، فما أسوأه من قرين محرض على الشر يدفع إليه بصحبته، وملازمته وإغوائه، والعدوى التى تسرى إليه. وفى النص إشارة إلى أن قرناء السوء يفسدون الأخلاق؛ لأن عدوى الأخلاق تصل بالمجاورة كما تصل عدوى الأمراض.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ هذا النص توبيخ للذين يؤثرون رضا الناس على رضا الله، فلا يبتغون ما عنده، ويبتغون ما عند الناس، فيراءون ويمنعون الخير لذات الخير. والمعنى: ماذا يكون عليهم من مغبة أو تبعة أو ضرر، لو أنهم آمنوا بالله حق الإيمان وباليوم الآخر الذى يكون فيه الجزاء الحقيقى، ولم يأخذهم زخرف الحياة الدنيا فلا يرعوا سواها؟ إنه لا ضرر

بلا شك في الاتجاه إلى الله، وإنفاق بعض رزقه الذي أعطاه إياهم؛ إذ لا يتفقون إلا بعض ما أعطى، ومع عدم الضرر هناك نفع عظيم جليل، وهو رضا الله، وثواب يوم القيامة، وصلاح حالهم صلاحاً حقيقياً في الدنيا. وبمقارنة ذلك بما عليه حالهم من رياء أو بخل أو كتمان، يتبين أنهم اختاروا الصفقة الخاسرة؛ لأن في انفاقهم لأجل الرياء أو بخلهم، إغضاباً لله، وتعرضاً لعقابه وإفساداً لمجتمعهم، وما ينالون من نفع ضئيل بجوار ما ينالهم من ضرر خطير. ولم يذكر سبحانه وتعالى ما ينالون من نفع في دنياهم؛ لأنه لا يعد في حقيقة الأمر نفعاً، فضررهم مؤكد، ولا نفع، وإذا اتجهوا إلى الله فالنفع ثابت ولا ضرر.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ هذه إشارة إلى الضرر الذي ينالهم، وهو عقاب الله تعالى لهم، وهو عليم بأحوالهم يعلم سرهم وما يخفى من شئونهم، وإنه سيجازيهم بعملهم، فالعقاب لاحق بهم لا محالة، وقانا الله تعالى شر نفوسنا، وجعلنا لله لا لأحد سواء.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ

أَجْرًا عَظِيماً ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

فى الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى وجوب أفراد الله تعالى بالعبادة، سواء أكانت هذه العبادة فى التكليفات التى خصصت للعبادة ذاتها، أم كانت من المعاملات بين الناس التى لابد من نية القربة فيها. فالإنفاق لابد أن يخلص لله تعالى، كالصلاة لابد أن تكون خالصة لله. فالنية فى الأقوال والأفعال أساس الجزء من عقاب وثواب.

وفى هذه الآية الكريمة بين الجزء الأوفى من خير أو شر، وأن الشر لا يجازى إلا بمثله، وأن الحسنة تكون بأضعافها، ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المِثْقَال - معناه المقدار الذى له ثقل يحتمل أن يوزن، والذرة الغبار الذى لا يرى فى أكثر الأحوال، والمعنى اللفظى أن الله لا ينقص عاملاً حقاً وزن ذرة، وهى لا تعلق الميزان ولا تخفضه، إلا أن يكون ميزاناً دقيقاً جداً، وهذا النوع من الموازين لا يوجد فى الدنيا، ولكن يوجد فى الآخرة، فعندئذ تكون الموازين القسط التى لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا قومتها.

ومعنى النص فى مرماه أن الله سبحانه وتعالى، لا ينقص أحداً من ثواب عمله أى مقدار ولو ضئول، فهذا الكلام فيه استعارة مؤداها أنه لا ينقص عمل عامل، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) [الزلزلة]. وإن النص عام يشمل المؤمن وغير المؤمن فى ظاهره، ولذا تكلم العلماء فى أعمال الخير التى تقع من الكافر إذا قصد بها وجه الله تعالى مع كفره وضلاله، وقال الأكثرون إن الله لا يغفر الشرك، ويعطى الكافر ثواب الخير فى الدنيا، أما المسلم فيؤتى ثواب الخير فى الدنيا والآخرة، واستندوا فى ذلك إلى ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها فى الدنيا، ويجزى بها فى الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا، حتى إذا أفضى بها إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»^(١).

(١) رواه مسلم: صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وإن ذلك نظر حسن يفسره ما نراه للكافرين من نعم مادية فى الدنيا تجرى عليهم، فلعلها ثمرة لما عملوا من بعض الخيرات فى التعاون الإنسانى، وثمره لاتخاذهم أسباب الرزق على وجه كامل.

ويميل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى أن الكافر إن عمل خيرا يقصد به وجه الله أو سبيل الخير المجردة، لا يضيعة الله تعالى عليه يوم القيامة، ولكن ينقص به من سيئاته، غير الكفر والإشراك فإن هذين لا يكفرهما شيء. ويؤيد نظره هذا بأن الآثار قد وردت بأنه يخفف عن أبى طالب لكفالاته النبى ﷺ، وحمايته له^(١)، وقد كان فى ذلك حماية للدولة الإسلامية.

وقد روى أيضا أنه يخفف عن أبى لهب لعنته ثوبية حين بشرت بمولد النبى ﷺ^(٢)، وأبو لهب هذا هو الذى قال الله تعالى فيه وفى امرأته: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى قوله ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ فى جديها حبل من مسد [المسد]. فحسنت الكفار تكفر السيئات التى دون الشرك والكفر، على هذا النظر، فالكفر لا يغفر، ويذهب من السيئات الأخرى بمقدار الحسنات، ونحن لا نرى فى ذلك خروجا عن حكم الإسلام، وهو معقول فى ذاته يتفق مع عموم النصوص، وإن كنا نميل إلى الأول.

(١) قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمَّكَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحْطُوكَ وَيَغْتَضِبُ لَكَ؟ قَالَ: «هُوَ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَكَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» [رواه البخاري: المناقب - قصة أبى طالب (٣٨٨٣)، ومسلم: الإيمان - شفاعة النبى ﷺ لأبى طالب (٢٠٩)]. والضحضاح من النار: موضع لا عمق له يبلغ كعبه تغلى منه دماغه، كما فسره الروايات الأخرى فى صحيح البخاري.

(٢) قَالَ عُرْوَةُ: وَثُوبِيَّةٌ مَوْلَاةٌ لِأَبِي لَهَبٍ كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أَرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حَيَّةٍ، قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ؟ قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلَقْ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سَقِيتُ فِي هَذِهِ بَعْتَاقَتِي ثُوبِيَّةَ. رواه البخاري: النكاح «وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم» (٥١٥١). وشر حية: على أسوأ حالة من الهم والحزن.

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وإن الله سبحانه وتعالى عفوٌ غفورٌ رحيمٌ بعباده، لا يكفي بمنع الظلم عمن يحسن، بل إنه يضاعف الأجر لمن يحسن، و«تَكَ» أصلها «تكن» حذفت النون و«كان» هنا ناقصة، والمعنى: وإن تكن الفعل حسنة تكون مضاعفة، ومعنى يضاعفها أى يكون بدلها أمثالا كثيرة لها. وقد قيل: إن الفرق بين المضاعفة والتضعيف أن المضاعفة تكون بأضعاف كثيرة، والتضعيف يكون بضعفين اثنين، والمؤدى أن الحسنة تكون بأمثال كثيرة لها كقوله تعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام] فالله سبحانه وتعالى لا ينقص من عمل الخير شيئا بل يضاعفه فى الآخرة، وإن الله سبحانه وتعالى فوق هذا الجزاء المضاعف أضعافا كثيرة يزيد المحسن من عطائه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى أن الله تعالى يعطى عطاءً كثيرا، غير ملاحظ فيه المثلية والمضاعفة، بل إنه سبحانه فوق مضاعفة الحسنة بأمثالها، يعطى عطاءً سمحا غير مقيد بالمضاعفة، بل إنه يكون سمحا، وكرما من الله تعالى. وسمى ذلك العطاء أجرا، وهو فى الحقيقة ليس فى مقابل عمل؛ لأن مقابلة العمل كانت بالأمثال السابقة؛ لأن الأجر قد يطلق على مطلق العطاء، وإن لم يكن له مقابل، وتفضل الله تعالى فى كرمه فسماه أجرا، وإن لم يكن له نظير، فهو أجر غير ممنون.

وقد عظم الله سبحانه وتعالى ذلك العطاء غير الممنون بوصفين.

أحدهما: أنه عظيم فى ذاته ذو جلال وشأن، فهو رضوان الله تعالى، ونعيم مقيم، وجنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والثانى: أنه عطاء من لدن الله تعالى، فهو قد نال شرفا إضافيا بأنه من الله

تعالى.

وكانت عظمة العطاء على ذلك الوجه ليقدم المؤمن على العمل الصالح .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن كل ما يكون يوم القيامة من حساب، أدلته ثابتة من نطق الجوارح بما صنعت، ومن شهادة الأنبياء بالتبليغ والبيان، فالجرائم معها دليل وقوعها، والقانون الذى نظم العقاب وجرمها قائم بشهادة الذين أعلنوه وبينوه، ولذا قال تعالى :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ الاستفهام هنا للتنبيه، وبيان ما سيكون يوم القيامة من حساب يتبعه عقاب عادل، أو ثواب يتبعه جزاء سابع وعطاء غير ممنون. والمعنى تنبهوا أيها هؤلاء الذين يجحدون الأدلة القائمة، والرسالات الثابتة، وتصوروا حالكم، وأعمالكم تنطق بها ألسنتكم وجوارحكم، ومعكم النبيون يشهدون عليكم بالتبليغ والبيان، وأنه لم يكن لكم حجة فى كفر، ولا معذرة فى جحود. والشاهد هو الشاهد الناطق بالحق، المتحرى المستقصى الذى لا يترك حقاً لم يبينه. ومعنى قوله تعالى :

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أنه يؤتى لكل أمة من الأمم بشهيد منها هو نبيها الذى بعث فيها ودعاها إلى الحق، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فكل نبي يشهد على قومه بالتبليغ والبيان. وما من أمة إلا كان لها نذير، فقد قال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [٢٤] ﴿فَاطْرَأْ﴾، وقال تعالى : ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [١٥] [الإسراء].

وقد اختلف فى الإشارة فى قوله تعالى : ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، فقال بعض المفسرين: إن الإشارة فى هؤلاء إلى النبيين السابقين، فالنبي ﷺ باعتباره خاتم النبيين، وأن رسالته خالدة إلى يوم القيامة، ولتكريم الله تعالى، يكون شاهداً على كل النبيين السابقين، والشهادة عليهم بمعنى أداء الشهادة بأنهم بلغوا، وكانت التعذية بعلى للإشارة إلى معنى المحافظة على أصول الشرائع السابقة لاشتغال القرآن الكريم عليها، ونشرها خالصة سائغة واضحة بينة للأجيال .

هذا هو القول الأول - والقول الثانى أن المشار إليهم فى النص الكريم هم أمة محمد ﷺ، وهى أكثر الأمم عدداً؛ لأن محمداً ﷺ أكثر الأنبياء تابعا؛ إذ دينه لم يحرف ولم يبدل، فقد حفظت أصوله فى القرآن الكريم، وهو نور الله تعالى الباقي إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر] وإن الكثيرين على الأول؛ لأن النبى ﷺ له شهادتان إحداهما شهادته للرسالات السابقة بالصدق والبيان، وقد اطلع على هذه الشهادة المسلمون ببيان القرآن، والثانية شهادته على أمته، وقد جمع الشهادتين قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة] وإن تلك منزلة عالية للنبى ﷺ والمؤمنين به إيمانا صادقا الذين يذعنون للحق دائما، وكان النبى ﷺ يستعظم أمر هذه الشهادة، فقد روى أحمد فى مسنده، والبخارى فى صحيحه، والترمذى والنسائى فى سننهما، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: اقرأ على»، قلت: يارسول الله، اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «نعم أحب أن أسمع من غيرى»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، فقال: «أمسك»، وفى رواية: «حسبك الآن»، فإذا عيناه تذرفان^(١). وكان رسول الله ﷺ لفرط إيمانه بالله تعالى تخوف يوم الحساب والعقاب، واستعظم تلك الشهادة التى وضعت فى عنقه، وهى أعظم أمانة، فسالت عبرات عينيه ﷺ^(٢).

(١) متفق عليه، وهذا اللفظ فى صحيح البخارى: تفسير القرآن - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ (٥٤٨٢)، فضائل القرآن - قول المقرئ للقارئ: حسبك (٥٠٥٠)، ورواه مسلم: صلاة المسافرين - فضل استماع القرآن (٨٠٠). عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) وفى البحر المحيط ج ٣، ص ٦٤٢: وبكاؤه - والله أعلم - هو إشفاق على أمته ورحمة لهم من هول ذلك اليوم. وقال الألوسى ج ٥، ص ٣٣: «فإذا كان هذا الشاهد تفيض عيناه لهول هذه المقالة وعظم تلك الحالة، فماذا لعمري يصنع المشهود عليه؟! وكأنه بالقيامة وقد أناخت لديه...».

وفى الدر المنثور ج ٢، ٥٤٠: وأخرج ابن أبى حاتم والبخارى فى معجمه والطبرانى بسند حسن =

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ يومئذ - هي ظرف مضاف إلى الظرف، ودخله التنوين على غير ما يقرره قياس النحويين، لبيان عظم ذلك الزمان الثانى وهوله، وأضيف الظرف إلى الظرف لتأكيد وجود ذلك الزمان، فهو يوم مؤكد الوقوع وهو على الكافرين عسير، ولشدته يحب ويتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول محمداً ﷺ أو عصوا أى رسول بعث إليهم - وتكون اللام للاستغراق - أن يكونوا تراباً كالأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا]، وهذا معنى تسويته بالأرض. ويصح أن يكون المعنى أن يدفنوا ويعودوا إلى القبور، وتسوى بهم الأرض كما كانوا من قبل. ويصح أن يكون المراد ألا يبعثوا وأن يستمروا مقبورين، والأرض مسواة عليهم. والباء فى قوله تعالى «بهم» على التخريجات السابقة التى تنتهى إلى معنى واحد، للملاصقة، أى يستمرون ملاصقين للأرض على أنهم جزء منها أو فى داخلها.

وإن هذا التمنى الذى تدل عليه «لو» سببه عصيانهم وكفرهم بالأنبياء، وشهادة النبين عليهم بالتبليغ وشهادة جوارحهم عليهم بالارتكاب، وقد قال سبحانه من بعد ذلك:

= عن محمد بن فضالة الأنصاري - وكان ممن صحب النبى ﷺ - أن رسول الله ﷺ أتاهم فى نبي ظفر ومعه ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وناس من أصحابه، فأمر قارئاً فقرأ فاتى على هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى حتى اضطرب لحياه وجنباه، وقال: «يا رب هذا شهدت على من أنا بين ظهريه فكيف بمن لم أراه؟».

فائدة: فى بكاء النبى ﷺ من زاد المعاد ج ١، ص ١٣٤: وأما بكأؤه، فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملأ، ويسمع لصدره أزيز. وكان بكأؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أى لا يكتُمون يوم القيامة حديثًا من أحاديث أنفسهم، فكل ما يجول بخاطرهم تنطق به ألسنتهم وجوارحهم، وإذا كذبت الألسنة صدقت الجوارح. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ عطف على ﴿يُودُّ﴾ فى النص السابق، والمعنى أنهم يودون لو تُسَوَّى بهم الأرض، ولا يكتُمون مع ذلك حديثًا، أى حال التمنى هذه ربما كانت تسوغ لهم الكذب، ولكنهم مع ذلك لا يتمكنون منه، وإن كذبت الألسنة شهدت سائر الأعضاء. وقيل إن الواو فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ للحال، والمعنى على هذا: أنهم يودون لو تسَوَّى بهم الأرض، والحال أنهم مع ذلك لا يكتُمون حديثًا من أحوالهم فى الدنيا. والمؤدى على التخييجين واحد، فلا مناص من ثبوت جرائمهم. وشهادة الأنبياء بالتبليغ. اللهم إنا نضرع إليك أن تجنبنا الزلل، وأن تغفر لنا خطايانا، وأن تغمرنا برحمتك يوم المطلع والحساب والعقاب، كما غمرتنا بها فى الدنيا، فإنك الغفور الرحيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَايِبِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

أمر الله سبحانه وتعالى فيما سبق من قول حكيم بعبادته وحده، وألا يشرك العبد به شيئًا، ثم أمر بعد ذلك بحسن المعاملة، بالأقربين، ثم بالناس أجمعين،

وبالأخذ بيد الضعيف، وبإخلاص النية له سبحانه في القول والعمل، وأن الرياء ينافي الاتجاه إلى الله وحده. وفي هذه الآية الكريمة بين طريق المعاملة الكريمة، وتربية الإخلاص له سبحانه وتعالى، وهى الصلاة، وقد ذكرها بذكر ما يجب من مقدماتها، وهو تطهير الجسم والقلب، فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾

يذكر المفسرون فى معنى لا تقربوا الصلاة تأويلين: أحدهما: أن المعنى لا تقوموا بها، أو لا تغشوها واجتنبوها وأنتم سكارى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾. والثانى: أن معنى قرب الصلاة قرب مواضعها، أى لا تقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى، وإذا كان النهى عن قرب الموضع قائما، فهو بلا ريب متضمن النهى عن الفعل نفسه، فهذا التأويل يزيد المعنى فيه عن الأول بالنهى عن دخول السكران المسجد حتى يستفيق، وفى ذلك احترام للمسجد وتكريم لبيوت أذن الله تعالى أن يرفع ذكره فيها.

والنهى هنا نهى عن الصلاة فى حال السكر؛ لأن ذلك يتنافى مع الخشوع والقصد وإخلاص النية فى كل جزء من أجزائها لله تعالى. وقد حُدَّ النهى بنهاية معينة، وهى الاستفاقة وفهم ما يقول، ولذا قال سبحانه: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أى حتى تقصدوا قصدا حقيقيا بنية خالصة، عالمين موقفكم من الله تعالى، وعالمين بما يشير إليه لفظ التكبير، ولفظ التسبيح، ومعانى الفاتحة التى هى دعاء القرآن وضراعة المؤمن لربه، ومعانى الآيات التى تتلى فى الصلاة، فهذا هو ما يقال فى الصلاة. فليس العلم الذى هو الغاية التى ينتهى عندها هو مجرد الإدراك والفهم، وذهاب غيبوبة السكر، بل العلم هو هذا اليقين والإدراك العالى الذى به تقام الصلاة، ويكون حسن إقامتها.

وقد يقال: كيف يخاطب السكران بهذا النهى؟ والجواب عن ذلك أنه خطاب له وهو فى وعيه بحيث يعمل على تجنب السكر فى وقت الصلاة، ولا

قُرْبَ وقتها، فكان النهى يتضمن الأمر بتجنب الشرب فى أوقات الصلاة وما قبلها، بحيث يتحرى ألا يجرى وقت الصلاة إلا وهو مدرك إدراكا تاما. وإنه يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ فإن هذا التعبير يفيد النهى عن القرب من الصلاة وهم بهذه الحال، فهو يفيد النهى عن السكر قبلها، حتى يكون صاحيا وقتها.

وإنه يترتب على هذا مراعاة أن يكون السكر فى غير أوقات الصلاة، وأن يتأكد أن وقت الصلاة لا يدركه إلا وهو يعلم ما يقول، فلا يسكر الشخص قط فى أثناء النهار؛ لأنه لا يمكن أن يضمن الصحو فى وقت الصلاة، إذا شرب مسكرا فى أثناء اليوم. ولا يتمكن من السكر إلا بعد العشاء، وإنه يجب أن يعلم أن الصحابة الذين كان يقع منهم الشرب أحيانا قبل التحريم الشافى، منهم من كان يتهجد فى الليل، وإذا تردد بين الشرب والتهجد أثر صلاة الليل.

وإن ذلك كله قبل التحريم القاطع المنهى لحال العفو عن الشرب، وقد قالوا: إن ذلك قبيل كان من التدرج حتى يألّفوا اجتناب الخمر، ويستأنسوا بتحريمها تحريما قاطعا.

﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ والجنب هو من أتى النساء ولم يغتسل، وتكون المرأة أيضا جنبا، وهو يستعمل وصفا، وأصله مصدر، ولذلك يطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، ولفظ جنب هنا المراد به الجمع، وهو عطف على الحال، وهو: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾.

والمعنى: النهى عن قرب الصلاة جنبا، كالنهي عن قرب الصلاة (وهم سكارى). وإذا كان النهى فى الأول مؤداه الأمر بتجنب السكر وقت الصلاة. فكذا الأمر هنا مؤداه تجنب ما يكون سببا للجنابة وقت الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ﴾، قال بعضهم: إنه المسافر، لأن المسافر يعبر الطريق ولا يتوقف بل يسير. وقد استبعد الأستاذ الشيخ محمد عبده أن يعبر عن المسافر بـ «غابر سبيل» بل التعبير القرآنى الشائع هو كلمة «على سفر». وقالوا

إن تفسير عابر السبيل بالمسافر هو على منهاج من يفسر ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ بقربها هي. وأما من قال إن المراد من قرب الصلاة قرب موضعها، المتضمن النهي عنها، فإنه يكون معنى عابر السبيل الذي يمر من المسجد لحاجة، فإن الجنب محرم عليه دخول المسجد إلا أن يكون عابر طريق فيه لحاجة، ولا يمكنه الوصول إلى حاجته إلا إذا مر من المسجد. وقد مر أن النهي عن قرب مكان الصلاة وهو جنب نهى ضمنى عن الصلاة ذاتها، ولذا أشرنا باختياره، ولقد روى أن عائشة رضى الله عنها قالت: «جاء رسول الله ﷺ ووجوه بيوت أصحابه شارعة فى المسجد، فقال: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد»^(١)، فقبل توجيه البيوت كان بعض الذين بيوتهم تجاور المسجد لا ينفذون إلى الطريق إلا منه، وبعض فقراء الصحابة كانوا يقيمون فى المسجد، ولهذا استثنى عابر السبيل منه لحاجته، لكيلا يكون على المؤمن حرج.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ بيان لغاية المنع بالنسبة للجنب، فكما أن المنع بالنسبة لمن هو فى حال سكر هو أن يعلم ما يقول، فكذلك النهي لمن هو فى حال جنابة نهايته هو الاغتسال. والاغتسال تعميم الجسم كله بالماء، وإن الاغتسال بعد الجنابة طهارة حسية، ونفسية، وتعويض بدنى، وإنعاش للأعصاب بعد أن أنهكت أو أجهدت. وإن الطهارة النفسية بالاغتسال لما فى الاغتسال والاستعداد به للصلاة من تذكّر لله تعالى وقت أن استحكمت الشهوة وتحكمت ونفذت، فتخلص نفسه من المادية التى كانت فيها وسيطرت عليها، وإذا تذكّر الله طلب الولد والنسل والذرية الطيبة من زوجه الطاهرة. وأما الإنعاش للأعصاب، والتعويض البدنى، فإن هذين الأمرين يؤيدهما الحس والتجربة، ولا ينكرهما الطب.

وإن بعض الناس يكون مريضا يشق عليه استعمال الماء، أو يكون على سفر يشق عليه الحصول على الماء، ولذلك شرع له التيمم، وهو طهارة روحية فقط، إذا عجز عن الطهارة الحسية بالماء، ولذا قال سبحانه :

(١) رواه أبو داود (٢٣٢)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٤٣٥٦)، وفى صحيح ابن خزيمة (١٣٢٧)، وفى مسند اسحاق بن راهويه (١٧٨٠) عن عائشة رضى الله عنها.

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ هذا النص اشتمل على الأعذار التي تسوغ التيمم، وأول هذه الأعذار المرض، وهو الذي يضر معه استعمال الماء، أو يزيده الماء، أو يبطئ بركه، فإن الله يرخص لهذا المريض أن يتيمم بدل أن يتوضأ، أو يغتسل إذا كان الموجب لاستعمال الماء هو الجنابة. وثاني هذه الأعذار السفر، والسفر عادة يقل فيه الماء، فإذا لم يجده أصلاً، أو كان ما معه من ماء يقيه ليتقى به العطش في مجاهل الأرض، فإنه يكون له أن يتيمم بدل الوضوء والغتسال، كل في موضعه وعند تحقق سببه. والثالث عدم وجود الماء في الحضر من غير سفر، فإنه يسوغ التيمم. ومثل حال المرض ما إذا كان الماء بارداً شديداً، ولا يوجد معه ما يدفع به الماء، ليتقى ضرره، فإنه يسوغ التيمم، وقد أقر النبي ﷺ ذلك، فقد كان عمرو بن العاص على سفر في غزوة، فأصابهم ما أوجب الغتسال، وكان البرد شديداً، والماء شديد البرد، فتيمم خشية من استعمال الماء الشديد البرودة، وأبلغ ذلك للنبي فأقره^(١) وإنه إذا كان المرض يجيز التيمم فتوقعه المؤكد أو الذي يغلب على الظن يبيح التيمم أيضاً.

وبين سبحانه بالإشارة أسباب الوضوء أو التيمم فقال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، والغائط من الغيط، الأصل في معناه ما انخفض من الأرض، والجمع غيطان وأغواط، ولما كان ما يلفظ من باطن الإنسان عن طريقه

(١) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَاشْفَقْتُ أَنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَعْنَى مِنَ الْاِغْتِسَالِ وَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَمْ يَقُلُ شَيْئًا. [رواه أبو داود: الطهارة - إذا خاف الجنب البرد أتيمم، وأحمد: مسند الشاميين (١٧٣٥٦)] وذكره البخاري تعليقا: كتاب التيمم، فقال: بَابُ إِذَا خَافَ الْجُنُبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمَرَضَ أَوْ الْمَوْتَ أَوْ خَافَ الْعَطَشَ تَيَمَّمَ، وَيُذَكَّرُ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ أَجْنَبٌ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَتَيَمَّمَ وَتَلَا: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَفِّ.

الطبيعي يكون في غوط الأرض عند الكثيرين من أهل البادية أطلق عليه ذلك الاسم، من قبيل إطلاق اسم المكان على ما يحل فيه، وهذا مجاز عربي اشتهر حتى صار حقيقة عرفية، والمجاز إذا اشتهر صار كالحقيقة لا يبحث له عن أصل، ولا عن علاقة، فصار يطلق ولو كان ذلك الملفوظ لا يلقي في غوط الأرض أو منخفضها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ﴾، في قراءة: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(١) كناية عن الدخول بهن، فهو لا يعبر عن هذا المعنى إلا بهذه الكناية الظاهرة، ومثله المس يعبر به عن الدخول، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة]، ففي هذه العبارات السامية وأمثالها، يكون المس المراد به الدخول. وقد جوز الشافعي الجمع بين الحقيقة والمجاز، فلم يمنع أن يراد باللمس معناه الحقيقي وهو مس بشرة الجسم، ومعناه المجازي أو الكنائي، وهو الدخول بالمرأة، ولذا نقض الوضوء عنده بمطلق لمس امرأة ليست ذات رحم محرم ما دامت قد بلغت البلوغ الطبيعي.

و (أو) في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ قال بعض العلماء إنها بمعنى الواو، والمعنى على ذلك: وإن كنتم مرضى، أو على سفر، وجاء أحد منكم من الغائط، أو جامعتم النساء، فتيمنوا صعيدا طيبا. والأولى أن تكون على معناها، ويكون الكلام على تقدير محذوف دل عليه ما بعده، وتأويل القول هكذا: وإن كنتم مرضى أو على سفر، وأصابكم جنابة، أو ما ينقض الوضوء، فتيمنوا. أو أصابكم ما ينقض الوضوء أو ما يحدث جنابة فلم تجدوا ماء فتيمنوا. ويكون في الكلام تقسيم حسن أوله التيمم لأجل المرض أو السفر وشح الماء،

(١) قرأها ﴿لمستم﴾ بغير ألف: حمزة والكسائي وخلف، والمفضل عن عاصم، وقرأ الباقون ﴿لامستم﴾. غاية الاختصار - ج ٢، ص ٤٦٤. تحقيق د. أشرف محمد فؤاد طلعت. التوعية الإسلامية.

والثاني التيمم في حال الإقامة إذا لم يوجد الماء، ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ متصلاً بحال السلامة والإقامة، وهو معقول؛ إذ المرض يسوغ التيمم، ولو كان ماء، والمسافر قد يجد الماء ولكن يحتاج إليه للشرب، والإقامة التي لا يكون فيها الماء، ويكون فقده هو المبرر وحده.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ التيمم معناه في اللغة القصد، وأطلق شرعاً على القصد إلى التراب لمسح الوجه واليدين به، ولذا قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أى اقصدوا تراباً على ظاهر الأرض طاهراً. فالصعيد هو سطح الأرض، والتيمم من التراب الثابت فيه، ومعنى الطيب الطاهر، فمادة التيمم تراب طاهر، والتيمم عبادة يتقدم بها إلى الصلاة، والأمر فيها تعبدى، لا يبحث عن علته، ولكن الطاعة فيه تدل على قوة الإيمان، وهو كيفما كان رمز لخلوص القلب وصفاء النفس بالاتجاه إلى الله تعالى. وينقض التيمم ما ينقض الوضوء، كما ينقضه وجود الماء والقدرة على استعماله قبل انتهاء وقت الصلاة أو قبل أدائها به، فإجماع العلماء أن على من وجد الماء أو قدر على استعماله قبل أداء الصلاة - نقض تيممه ووجب عليه الوضوء.

وقد بين سبحانه وتعالى أركان التيمم فقال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أى امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب. وقد انفقوا على ضرورة مسح الوجه كله كالوضوء، والأكثرى على أن مسح اليدين إلى المرفقين، وهو المنصوص عليه في القرآن بالنسبة للوضوء، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة] والأكثرى بالنسبة للتيمم على أنه من ضربتين: إحداها للوجه، والأخرى لليدين، ومسح اليدين يكون ظهراً وبطناً، ليعم المسح أجزاءهما.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بهذا النص الكريم لبيان أن الله تعالى متصف بالعفو، فلا يختار لعباده إلا السهل اليسير الذى يسهل عليهم أدائه من غير مشقة مرهقة، ويعفو عن التقصير فى الواجبات الأصلية

للأعذار، ويفتح باب الرخص، ويجب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه، ويجعل كل ما هو شاق مرهق في مرتبة العفو دائماً، وهو الغفار كثير المغفرة لمن يتوب إليه، وقد أكد سبحانه هذين الوصفين بثلاثة أمور: أولاً: (إن) فهي من أقوى ألفاظ التوكيد، و (كان) فهي تدل على استمرار عفوهِ ومغفرته سبحانه، وبالجملة الإسمية فلها فضل توكيد في المعنى الذي اشتملت عليه. اللهم اعف عنا واغفر لنا وارحمنا وأنت أرحم الراحمين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَابِ يَشْتَرونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِلِسَانِهِمْ
وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

في الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى وجوب الإخلاص لله سبحانه وتعالى فيما يؤدي العبد من فرائض، وما يقوم به من صدقات، وأشار إلى أن الرياء يمحق فعل الخير، ويقرب العبد من الشرك، بل إن الرياء في العبادات هو الشرك الخفي، ثم بين سبحانه وتعالى مقام أهل الإيمان ممن سبقوهم، ومقام صاحب الرسالة في الشهادة على كل من سبقوه، فرسالته هي الحق، وأنه لا يصح لمؤمن أن يستمع لما يكذب به الضالون من أهل الكتاب، وقال سبحانه في ذلك:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعبير قرآنى قد تكرر فى كثير من آى القرآن الكريم، وأصل الصيغة للاستفهام، وهو موجه إلى عدم الرؤية، والاستفهام إنكارى لنفى وقوع ما دخل عليه، فإذا قال القائل: أفعل فلان كذا. !؟ يستنكر نسبة الفعل إليه، فمعناه نفى الفعل مع توبيخ من نسب إليه ذلك، أو تنبيه السامع إلى النفى؛ لأن معناه حيثئذ: ما وقع من فلان هذا الفعل، وما كان يُعقل أن يقع منه. والاستفهام هنا متجه إلى أمر منفى، ويقول العلماء إن نفى النفى إثبات، فيكون معنى النص: قد رأيت ونظرت ببصيرتك وبصرك إلى عمل الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، وفى هذا التعبير تنبيه إلى تأكد العلم بحال هؤلاء الذين تراهم من أهل الكتاب، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم أوتوا نصيبا أى مقدارا من الكتاب ولم يؤتوا الكتاب كله؛ لأنهم نسوا حظًا مما ذكروا به، ولأن الأحداث التى توالى عليهم من غارات التتار ومظالم الرومان، قد جعلت أجزاء من كتبهم تقطع سلسلة سندها، ويذهب عنهم علمها، وهم فوق ذلك لم يعملوا بأحكام ما وصل إليهم، فهم قد وصل إليهم بعض الكتاب، وحرفوا ذلك الذى وصل إليهم، وأولّوه على غير معناه، وأهملوا العمل بأكثره، فهم لم يؤتوا علما وتفسيرا وعملا إلا أقله!

وموضع التنبيه والغرابة ليس هو وصفهم، وإن كان فى ذاته أمرا أعجبا، إنما موضعه أنهم يستغنون الضلالة ويطلبونها ولو دفعوا فيها أغلى الأثمان، وهو الهدى، ولا يطلبونها لأنفسهم، بل يريدون أن يكون غيرهم مثلهم فى ضلالهم، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أى تبعدوا عن الطريق المستقيم الذى هو صراط الله تعالى الذى قال فيه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام].

وهنا يرد بحثان لغويان: أحدهما أنه ذكر هنا المطلوب وهو الضلالة، ولم يذكر المتروك كما فى بعض الآيات الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة] والجواب عن ذلك أن ذكر المطلوب وهو الضلالة من غير ذكر

المتروك وهو الهدى، أو ذكر المبيع من غير ذكر الثمن، فيه ما يدل على أنهم يطلبون الضلالة في ذاتها، فالبعد عن الحق مطلب لهم وغاية، لأنهم مَرَدُّوا على الباطل لا يستمرئون غيره ولا يبتغون سواه!! ويدل على هذا أن هناك قراءة بالياء^(١) في (أن تضلوا) وتكون الآية على هذه القراءة: (ويريدون أن يضلوا) أى أنهم يبتغون الباطل ويريدونه ولا يقعون فيه عن جهل وعماية، بل عن قصد وإرادة، وذلك شر ما تبتلى به النفس.

البحث اللغوى الثانى: أن «ال» فى السبيل للعهد، لا للاستغراق، والسبيل الحق معروف بين لا عوج فيه، وهو وحده الموصل إلى الحق؛ لأنه الطريق المستقيم، ولأنه صراط العزيز الحميد.

وإن هؤلاء هم أعداء أهل الإيمان حقا وصدقا؛ لأنهم يبتغون الضلالة لأنفسهم، ويبتغون الضلالة لغيرهم من المؤمنين، ولقد قال سبحانه مقررًا عداوتهم:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ فى هذا النص السادس تحذير للمؤمنين من هؤلاء الذين أوتوا حظًا من الكتاب، وهم يطلبون الضلالة ويبتغونها لأنفسهم وللمؤمنين، لأنهم يحسدونهم، ولأنهم يريدون لهم الخذلان والضلال وأن يكونوا قوما بورا،! وقد أشار بالنص الكريم إلى أنهم أعداء المؤمنين، وإن كانوا يخفون ما لا يريدون، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أى أن الله جلّت قدرته أعلم منكم بأعدائكم، لأنكم تعلمون ما يبدو من أفعالهم وما يظهر على ألسنتهم، والله سبحانه وتعالى يعلم ما تخفى الصدور، وقد قال تعالى فى آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ

(١) ليست فى العشر المتواترة.

مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ [آل عمران].

ومع أن هؤلاء أعداؤكم فلا تخافوهم ولكن احذروهم، ولا تتخذوا منهم أولياء توالونهم، بأن تتخذوا ولايتهم ولاية لكم بأن تنضووا تحتها، ولا تستنصروا بهم لأنهم يريدون لكم الخذلان لا النصر، ومن اعتز بغير الله ذل، ومن استنصر بعده خذل، وقال سبحانه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ويكفي المؤمن في الاعتزاز أن يكون الله وليه، لا ينضوى إلا تحت لواء أهل دينه، ولا يدخل في ولاية غير ولايتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة]. وكما أنه يكفي المؤمن أن يكون الله وليه، فإنه يكفيه أيضا أن يكون الله تعالى ناصره: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران].

وهنا بحثان لغويان: أولهما: أن النحويين يقررون أن الباء في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ زائدة في الإعراب، ولكن ليست زائدة في المعنى؛ إذ هي تشير إلى تضمن الاكتفاء بولاية الله وعونه ونصرته، وكان المعنى: اكتفوا بولاية الله ونصرته، وكفاكم الله الولاية والنصرة والمعونة.

والبحث الثاني: تكرار كلمة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ وذلك لإلقاء الاطمئنان في قلوب المؤمنين، فإن التكرار فيه توكيد، وفيه الإشعار بعظمة الله جل جلاله الذي يتولى ولايتهم ونصرتهم.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ هذه طائفة من أعمال اليهود في استماعهم لدعوة النبي إلى الحق، وإلى صراط الله المستقيم، وقد ذكر سبحانه أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه، فقلوه تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ﴾ فيه مبتدأ محذوف يقدر بفريق، والتحريف معناه الإمالة وجعل الكلام محتملا غير معناه.

جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: تحريف الكلام أن جعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين. قال عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ومن بعد مواضعه: ﴿... وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

وهذا الفريق ليس تحريفه هو التحريف العام الذى وقع من اليهود فى تأويل كتبهم وإهمال كثير منها، وإخفاثهم التبشير بالنبي ﷺ، إنما تحريفهم هو حمل كلام النبي ﷺ على غير وجهه، وجعله يحتمل ما لا يراد به، كما سنبين، هذا الفريق هو الذى قال الله تعالى فيه: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

فهذا الفريق لا يكتفى بما فعله أسلافه وما يتحمل وزره الذين يعلمون الكتاب المنزل من قبل ويكتمونه، بل إنه يجعل كلام النبي ﷺ منحرفا فى أذهانهم الملتوية عن حقيقة معناه، ويتكلمون عليه، ويحملونه بأغراضهم الفاسدة ما لا يحتمل من المعانى، ولا يكتفون بذلك التحريف، بل يجمعون معه النطق بالعصيان عند السماع، وقد قال الله سبحانه عن تلقيهم لأحكام الشرع التى يبينها النبي ﷺ:

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ وإن حال هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، كما حرف أسلافهم كتبهم، إنهم إذا سمعوا ما أنزل على الرسول لا يستمعون ليتبعوا الحق إن ظهرت بيناته، بل يستمعون على نية الرد، والاستمرار فى العناد، وسد كل أبواب الهداية لكيلا تصل إلى قلوبهم، فإذا سمعوا الرسول يدعو إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، جمعوا فى أنفسهم^(١) أو غمزوا به فيما بينهم قائلين: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أى سمعنا قولك ووعيناه، وعصينا ما تدعونا إليه، وإن كان الحق الذى لا مَرِيَّةَ فيه، ولا توجد نفس أوغلت فى

(١) والجَمْعَةُ: أن لا يُسَيَّنَ كلامه من غير عِيٍّ، وفى التهذيب: ألا تُبَيَّنَ كلامك من عِيٍّ.

العناد بأكثر من ذلك!! وإنهم يردفون ذلك القول العاصي الذى يرددونه فيما بينهم بكلام من جنسه فيقولون: ﴿وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وقولهم ﴿وَأَسْمَعْ﴾ المراد به اسمع صدى دعوتك لنا وردنا عليها، وقد ذكر الزمخشري أن كلمة ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ تحتل ثلاثة وجوه: أولها: أن يكون المعنى الدعاء على النبی الكريم بأن يصاب بالصمم فلا يسمع، أو لا يسمع خيرا قط. والوجه الثانى: أن يكون المعنى غير مُسْمَعٍ كلامك فلا يجاب ولا يقبل. والوجه الثالث: ما ذكره بقوله رضى الله عنه: «ويجوز أن يكون غير مسمع مفعول اسمع أى اسمع كلاما غير مسمع إياك؛ لأن أذنك لا تعيه نبوا عنه»، وإنا نختار ما عليه أكثر المفسرين، وهو أن يكون مرادهم لعنهم الله الدعوة عليه، عليه الصلاة والسلام بعدم السماع، وذلك هو الذى يتفق مع ما عرف عنهم من حقد وحسد للناس على ما آتاهم الله من فضل، وما أودعت نفوسهم من بغض للناس وكره لهم، لحسانهم أنهم المستحقون للتكريم والرفعة وحدهم بزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، زادهم الله خزيا في الدنيا، وعذابا في الآخرة، وزاد الله محمدا ﷺ وشريعته رفعة وتكريما وإعازا. وإن هؤلاء لعنهم الله يلوون ألسنتهم طعنا في الدين، ولذلك حكى الله عنهم ذلك فقال:

﴿وَرَاعِنَا لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ بدل أن يعبروا في خطابهم بقولهم: «انظرونا» نظرة رعاية ومحبة طالبين منه الإقبال عليهم، وإن كان ذلك موجودا، يقولون ﴿وَرَاعِنَا﴾ يفتلون بها ألسنتهم ويحولونها عن المعنى الظاهر لها إلى معنى غير قويم ولا مستقيم، وهو رمى النبي ﷺ بالرعونة والسفه، ويطعنون بذلك في الدين الذى يدعو إليه، والحق الذى ينفذه. وقد جاء في مفردات الراغب في تفسير قولهم: ﴿وَرَاعِنَا﴾: «قال الله تعالى: ﴿... لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...﴾ (البقرة)»، ﴿وَرَاعِنَا لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ كان ذلك قولاً للنبي ﷺ على سبيل التهكم يقصدون رميه بالرعونة، ويوهمون أنهم يقولون: (راعنا) أى (احفظنا) فهم ينطقون بالكلمة على أن النون من بنية الكلمة، وليس ضمير المتكلمين، وذلك لى اللسان وفتله، والطعن في الدين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ هذا بيان لما كان ينبغي، والمعنى: لو ثبت لهم أنهم قالوا سمعنا الحق واتبعناه، وكلام الرسول وأطعناه، ولو قالوا للرسول اسمع إجابتنا دعوة الحق، وانظر إلينا نظرة إقبال وعطف ورعاية من غير أن يلوموا ألسنتهم، ويحرفوا القول عن موضعه، وما يدل عليه بظاهره، لكان ذلك خيرا لهم؛ إذ يفتح باب الهداية في قلوبهم ولا يطمس عليها، ولا يكون ذلك الخزي والذل في الدنيا، أدامه الله تعالى عليهم وبدلهم من أمنهم خوفا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا، ولكان ذلك خيرا لهم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أى كان هذا هو الأمر القويم الذى يجب أن يسلكه العقلاء طلاب الهداية. وأفعل التفضيل ليس على بابه، ومعناه أن يكونوا بلغوا من الاستقامة أقصاه، ولكنهم ضلوا ضلالا بعيدا، ولذلك قال سبحانه:

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ استدراك مما كان ينبغي لهم، أى أنهم لم يفعلوا ما ينبغي؛ لأن الله تعالى لعنهم بأن طردهم من رحمته، فبعدوا عن الهداية بسبب إصرارهم على الكفر، وهم بذلك دخلوا فى الكفر بإرادتهم، وأوغلوا فيه حتى صار الكفر بالنبوات ديدنهم، فغلقت أبواب الحق عليهم وطمس الله على بصائرهم، فلم تر الحق ولم تدعن له، فلا يؤمنون، أى ليس الإيمان من شأنهم بعد أن كان منهم ما كان، ولكن الله تعالى بعدله وحكمته لا ينفى الإيمان عنهم نفيا مطلقا، بل يقرر أن منهم من يؤمن، ولكنه عدد قليل، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى إلا عددا قليلا لا يدخل فى عموم اللعنة التى كتبها الله تعالى عليهم فى جملتهم، وهذا كقوله فى آية: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة] - هدايا الله تعالى إلى الحق.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
 مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
 عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا



يقرن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم طلب التوبة والإيمان بحال
 المذنبين ولو كانوا قد أسرفوا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
 أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ﴿٤٧﴾
 [الزمر]، فباب الإيمان والتوبة مفتوح للعصاة والكافرين، وإن يَسْتَهْوَ يَغْفِرُ لَهُمْ مَا
 قَدْ سَلَفَ. وإن أولئك اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، ولا يزالون على
 عهدهم، قد أسرفوا في عصيانهم، ولجوا حتى لقد كان قائلهم يقول إذا سمع
 دعوة الحق: ﴿... سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا...﴾ ﴿٤٦﴾ [النساء] ويلوون ألسنتهم استهزاءً
 عند سماع الهدى النبوي!! ولا لُجاجة في الكفر أكثر من الاستهزاء بالداعي إلى
 الإيمان! ومع هذه الحال فيهم وجه الله سبحانه وتعالى الدعوة إلى الإيمان منذراً
 لمن لا يجيب، ومرغبا من يجد باب الهداية مفتوحاً في قلبه، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ النداء لأهل
 الكتاب كما ترى، والتعبير بالموصول للإشارة إلى أن إعطاء علم الكتاب لهم كان
 يوجب أن يؤمنوا، لا أن يعرضوا ويعاندوا ويلجوا في العناد. وفي النص الكريم
 تحريض على الإيمان بثلاثة أمور:

أولها: أنهم أوتوا علم الكتاب وعلم النبوات، وأنهم يعلمون الوحي الإلهي، والكتاب الذي نزل على نبيهم، والأنبياء قبله، وإن ذلك كله يوجب المسارعة إلى تلبية داعي الحق إذا دعوا، وألا تأخذهم العصية الدينية، كما تأخذ أهل الشرك العصية الجاهلية.

وثانيها: أن هذا الإيمان هو التصديق بما نزل الله تعالى على نبيه، والله هو الذي أنزل على نبيكم أو أنبيائكم شرائعه، وهو الذي نزل الشريعة التي تدعوكم إلى الإيمان، ووحدة المنزل توجب الإيمان بكل ما أنزل، وإلا كنتم تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض.

وثالثها: أن هذا الذي يدعوكم رب العالمين إلى الإيمان به، هو يصدق ما معكم من الحق؛ لأن البشارة برسوله عندكم، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا، ولأن الفضائل الدينية والاجتماعية قد اتفقت فيما يدعو إليه النبي مع ما دعا إليه أنبياءكم من قبل، فالوحدة الدينية قائمة بوحدة المنزل، وبوحدة الحق الذي يدعوكم إليه رب العالمين.

وقد يقول قائل: في الآيات السابقة، ذكر سبحانه في غير هذا المقام أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به، وفي هذه الآية يناديهم بأنهم «أوتوا الكتاب»؟ ونقول في الإجابة عن ذلك: إن نسيانهم حظا مما ذكروا به، وتركهم نصيبا منه، لا يمنع الحكم بأنهم أوتوا الكتاب؛ لأنه نزل على أنبيائهم السابقين كاملا غير منقوص، فهم أعطوه ثم نقصوه، والخطاب لهم على أساس ما أوتوه، لا ما حرفوه، ولعله كان من أحبارهم من يعلم علم الكتاب كله، بل إن ذلك يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) [البقرة].

وقد يكون معنى الكتاب هنا جنسه، وهو يشمل ما بقى عندهم معلنا معرفا، وإن كان ناقصا محرفا.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ هذا إنذار بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا، وقد جاء فى مفردات الأصفهاني فى معنى الطمس ما نصه: (الطمس إزالة الأثر بالمحو، قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [٨] ﴿المرسلات﴾، ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ...﴾ [٨٨] ﴿يونس﴾ أى أزل صورتها، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ...﴾ [٦٦] ﴿يس﴾ أى أزلنا ضوءها وصورتها كما يطمس الأثر. وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾، منهم من قال عنى ذلك فى الدنيا، وهو أن يصير على وجوههم الشعر، فتصير صورهم كصور القردة والكلاب، ومنهم من قال ذلك هو فى الآخرة إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [١٠] ﴿الانشقاق﴾، وهو أن تصير عيونهم فى قفاهم. وقيل معناه يردهم عن الهداية إلى الضلال، كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ [٢٣] ﴿الحجاثية: ٢٣﴾. وقيل عنى بالوجوه الأعيان والرؤساء، ومعناه لجعل رؤساءهم أذنانا وذلك أعظم البوار).

هذا هو التفسير اللغوى لمعنى الطمس، وقد حاول الأصفهاني تخريج الآية التى نتكلم فى معناها على ما ارتأى من وجوه، فصرنا حيارى فى أيها نختار، لو اقتصرنا على ما قال، وقبل أن نبين ما نراه معنى للنص الكريم نبين معنى الأدبار وردّها: الأدبار جمع مفردة «دبر»، هو الخلف، أو ما اشتملت عليه أجزاء الجسم الخلفية، والارتداد على الأدبار يكون فى القتال يوم الزحف يجعل الوجوه فى موضع الأدبار فرارا أو جبنا، بمعنى أنه كان يجب أن يستقبل المقاتلين بوجهه فينقلب إلى جهة دبره. وقد يكون الارتداد على الأدبار معنويا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [٢٥] ﴿محمد﴾.

وإن الذى يبدو لنا من ظاهر النص أنه يراد به سحقهم فى القتال، وحملهم على أن يولوا الأدبار، فتكون وجوههم غير بادية بصورها، بعد أن كانوا مقبلين بها، فأزالها السيف والخوف، وجعل صورتها مختفية، وأقفيتهم هى البادية الواضحة، فكان صورة الوجوه قد زالت وحلت محلها صورة الأدبار.

وعلى ذلك يكون المعنى أنكم استرسلتم فى غيكم وضلالكم، ومع ذلك نطالبكم بالهداية والإيمان قبل أن ينزل الله سبحانه وتعالى غضبه عليكم فى الدنيا إذ تماديتم، وذلك بتسليط المؤمنين بالحق عليكم، فيذيقونكم بأس القتال فتفرون، وتختفى وجوهكم، وترد إلى مواضع الأدبار، فلا ترى إلا أديباركم. وإذا لم يكتب الله سحقكم وحملكم على تولى الأدبار، فإنكم ستلعنون كما لعن أصحاب السبت، وتطردون من رحمته، ويكتب عليكم الدل إلى يوم القيامة.

﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ اللعن الطرد من الرحمة وإنزال العذاب، وقد كان فى شريعة بنى إسرائيل ألا يعملوا فى يوم السبت ليستريحوا وينصرفوا للعبادة، والتعاون الاجتماعى، ولكن رغبته فى المال وشهرهم إليه كان يحمل بعضهم على العمل، فإنه كانت قرية كبيرة تطل على البحر، قد اختبرها الله تعالى، فكانت فى يوم السبت تأتيهم الحيتان ظاهرة فى هذا اليوم الذى ينقطعون فيه عن العمل، ولا تأتيهم فى اليوم الذى يعملون فيه، ليحملهم الله تعالى على الطاعة للأوامر الإلهية، وليدركوا سر الله فى خلق الكون، وأنه فعال لما يريد، وهذا قوله تعالى: ﴿وَاسْتَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] فآله سبحانه عاقب الذين اعتدوا فى السبت بأن سلط عليهم نزوات أهوائهم وشهواتهم، وبها ضربت عليهم الذلة، ولعنهم الله تعالى، فكذلك هؤلاء الذين عاندوا وكفروا. وذلك أمر قدره الله عليهم فهم ملعونون فى كل الأجيال

والأزمان، ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أى قد ثبت وتقرر أن أمر الله تعالى فيما يخبر به، مقدر واقع لا محالة، فلا مناص منه، فهؤلاء الذين عاندوا النبي ﷺ لهم أحد العذابين: إما سحقهم بالقتال الذى يولون فيه الأدبار، وإما ضرب الذلة عليهم ولعنهم من الناس أجمعين. وإن ذلك محقق بعون الله، وقد قال الزمخشري فى هذا المقام: قد حصل اللعن، فهم ملعونون بكل لسان! والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِبَشَرٍ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ (٦٠) [المائدة].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ اشتملت الآية السابقة على دعوة أهل الكتاب، وأنه إن يتنهدوا يغفر لهم ما قد سلف، وعلى إنذار شديد فى الدنيا بإجلالهم وقتلهم، أو لعنهم من الناس أجمعين، وفى هذا النص الكريم فتح لباب المغفرة التى كتبها الله على نفسه لعباده؛ لأنه كتب على نفسه الرحمة، ومعنى النص: إن الله تعالى ليس من شأنه أن يغفر لمن يشرك به فى العبادة أو فى الربوبية؛ لأن الشرك انحراف شديد لا يقبل الغفران، إلا أن يعود إلى التوحيد المطلق بعد الإشراف. والإشراك نوعان: إشراك فى الإنشاء والتكوين أو العبادة؛ كأولئك الذين يعتقدون أن الكواكب لها دخل فى الإنشاء، كأولئك الذين يعبدون غير الله، وإن كانوا يعتقدون أن الله تعالى وحده هو الذى خلق وأنشأ وكون، ويعبدون الأوثان لأنها فى زعمهم تقربهم إلى الله زلفى. والنوع الثانى من الإشراك أن يتركوا كتب الله تعالى، ويعرضوا عنها، ويتخذوا دينهم من الأحبار، ولو غيروا فيه وبدلوا، زاعمين أنهم لا يتكلمون إلا عن الله تعالى، وإن كان الكتاب يخالف قولهم، ومن هؤلاء من أشار الله تعالى إليهم بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١) [التوبة].

فهذا نوع من الإشراك لا يقل خطراً عن الشرك في العبادة؛ لأن الله وحده هو الذى أنشأ الكون، وهو وحده الذى يشرع لعباده، ويبين لهم أوامره ونواهيه، وليس لأحد أن يتكلم عنه إلا أن يكون رسولا منه إلى العالمين، فمن اتخذ غير الرسول طريقا لمعرفة شرع الله من غير كتاب الرسول وكلامه فقد أشرك بالله.

وقد ذكر سبحانه أنه لا يغفر ذلك، وأكد عدم الغفران لهذه الحال بـ (إِنَّ) التى تفيد التوكيد، فلا يرجو مشرك غفرانا، أيا كان نوع الشرك، إلا أن يقلع عنه، فإن الله تعالى غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا.

وقد ذكر سبحانه أنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، وما دون الشرك يكون من مرتكب الكبيرة أو الصغيرة من أمة محمد ﷺ، ومن آمن بالأنبياء السابقين قبل أن تنسخ شريعتهم بالشريعة المحمدية، فإن هؤلاء قد وعد سبحانه وتعالى فضلا منه ومنة على عباده أن يغفر لهم ما يشاء لمن يشاء من عباده. ذلك أن من يرتكب الكبيرة إن تاب عنها غفرها الله تعالى، وإن لم يتب ولم تحط الخطايا بنفسه، وله حسنات، فإن الحسنات يذهبن السيئات. وفى ميزان الله تعالى العادل يوم القيامة توزن الحسنات والسيئات، فمن ثقلت كفة حسناته فأولئك هم المفلحون.

ومشيئة الله تعالى هى مشيئة الحكيم الخبير، الذى يضع كل أمر فى موضعه، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ الافتراء هنا معناه الكذب الشديد الذى يؤدى إلى الفساد. جاء فى مفردات الراغب: الفرى قطع الجلد للخز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما، وفى الإفساد أكثر، وكذلك استعمل فى القرآن فى الكذب والشرك والظلم نحو: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ فمعنى ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ فقد كذب كذبا فيه ظلم وفيه إفساد وضلال، وكان ذلك كله إثما عظيما.

فالشرك يتضمن الكذب على الله تعالى بادعاء شريك له تعالى، ويتضمن ظلماً؛ لأنه اعتداء على المستحق للعبادة وحده، وهو فساد في النفوس. و(افترى) هنا يتضمن قولاً كذباً، وفعلاً ظالماً، يتضمن أعظم ذنب في الوجود؛ لأنه اعتداء على رب العالمين. وقد يقول قائل إن الافتراء أكثر ما يكون باللسان، فكيف يقال «فقد افترى إثماً عظيماً»؟ والجواب عن ذلك أن الافتراء بالنسبة للشرك لما تضمنه من أفعال، اعتبر في ذاته ارتكاباً لأعظم ذنب في الوجود. اللهم جنبنا الشرك ما ظهر منه وما خفى، واجعلنا من عبادك المخلصين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ
وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُتُولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

كانت الآيات السابقة تدعو أهل الكتاب إلى الإيمان، وتذكرهم بعاقبة الكفر، وهى الذل فى الدنيا والخزى فى الآخرة، واللعن من الرحمن، والهوان. وبين سبحانه وتعالى لهم ولغيرهم أن باب التوبة والمغفرة مفتوح لكل من يذعن لرسالة الله تعالى، ولا يكفر بها، وذلك لكيلا يسرفوا على أنفسهم، ويوغلوا فى معاصيهم. وفى هذه الآيات يبين سببا من أسباب ضلال اليهود ومن على شاكلتهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

﴿الْمُتَرَفِّ﴾، هذا تعبير قرأتى فيه استفهام دخل على النفى، وهو استفهام إنكارى يتضمن معنى النفى، فهو نفى داخل نفى. ومؤدى الكلام: قد نظرت إلى الذين يزكون أنفسهم متعجبا من حالهم مستغربا أمرهم. ورأى هنا معناه نظر، ولذلك تعدت بـ «إلى». وتركبة النفس تطلق بمعنى تطهيرها وإبعادها عن دنس المعصية، وقد تطلق على الفعل المحمود. والمراد هنا أنهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة، وليسوا بمستحققيها، وقد يدعون أنهم يطهرون أنفسهم، ويبعدونها عن الدنس فى نظرهم، وليسوا كذلك. وأصل التزكية كما ترى من زكاء النفس جاء فى مفردات الراغب: (زكاء النفس طهارتها، يصير الإنسان بحيث يستحق فى الدنيا الأوصاف المحمودة، وفى الآخرة الأجر والثوبة، وهو بأن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك ينسب تارة إلى العبد لكونه مكتسبا لذلك، نحو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس] وتارة ينسب إليه تعالى لكونه فاعلا لذلك فى الحقيقة نحو ﴿بَلِ اللّٰهُ يَزَكِّيْ مَنْ يَّشَاءُ﴾.

وتركبة اليهود والنصارى لأنفسهم تحمل أمرين: أولهما: أنهم يصفون أنفسهم بالطهارة والتقوى، وتحرى ما يربى التقوى فى النفس، ويستطيّلون على الناس بذلك. والأمر الثانى: أن يدعوا أنهم بأعمالهم واتخاذهم ما هم عليه مذهبا يطهر النفس، أى يدعون أنهم يسلكون سبيل الهداية وتطهير النفس. والأمر الأول هو الذى عليه جمهور المفسرين، وهو أوضح ويتفق مع المأثور من أسباب النزول، فقد تضافرت المرويات عن التابعين على أنهم كانوا يدعون أنهم المغفور لهم دائما. وقال الضحاك والسدّى إنهم كانوا يقولون: (لا ذنوب لنا، وما فعلناه نهارا غفر لنا ليلا. وما فعلناه ليلا غفر لنا نهارا، ونحن كالأطفال). وقد رد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿بَلِ اللّٰهُ يَزَكِّيْ مَنْ يَّشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيْلًا﴾.

على تفسير تركبتهم أنفسهم بمعنى أنهم يدعون أنهم بأفعالهم يطهرونها، يكون المعنى أن الله تعالى رد عليهم ادعاءهم أن ما هم عليه تطهير لأنفسهم. فبين أن الله تعالى هو الذى يطهر النفوس ويزكيها؛ لأنه هو الذى يبين طريق الهداية،

وقد بين، فما أنتم عليه ضلال فى ضلال . وعلى الاحتمال الراجح، وهو أنهم يصفون أنفسهم بالأوصاف الحميدة، وأنهم أهل المغفرة، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى...﴾ (١١٦) [البقرة]، وقولهم: ﴿... نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ (١٨) [المائدة] على هذا الاحتمال يكون المعنى أن الله تعالى هو وحده الذى يصف أفعال عباده بالخير أو الشر؛ لأنه وحده الذى رسم طريق الخير وطريق الشر. وإن تزكيتة سبحانه تقتضى رحمته وغفرانه، وأن يجزى الجزاء الأوفى. فليصفوا أنفسهم بما شاءوا، وليمنوا أنفسهم الأمانى بأنهم لا ذنوب لهم، أو أنها تمحى فور ارتكابها، فكل ذلك من مزاعمهم، والله وحده هو الذى يصف الأفعال المحمودة والأفعال المذمومة، ويعطى عليها الثواب أو العقاب، ولذلك قال سبحانه من بعد ذلك ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَانًا﴾، أى لا ينقصون أى قدر مهما ضلّ ولو كان بقدر الفتيل، وهو الخيط الذى يكون فى شق نواة التمر، وقيل القشرة التى تكون حول النواة ويطلق على ما يفتل من خيوط دقيقة، والمعنى: لا ينقصون أى قدر من أعمالهم، ولو كان كأصغر الأشياء التى لا يلتفت إليها، ولا يتجه النظر نحوها، ولكن الله تعالى عليم بكل شىء وكل شىء فى كتاب ﴿... لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا...﴾ (٤٩) [الكهف] ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة].

﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ انظر أيها الرسول أنت ومن معك كيف تطوع لهم نفوسهم أن يدعوا أنهم بأعمالهم القبيحة، وتكذيبهم للرسول، يزكون أنفسهم ويظهرونها، وأنهم بذلك ممدوحون أمام الله تعالى، وأنهم محبوبون منه، وأنه يغفر لهم كل ما يفعلون! انظر إلى هذه الحال وتعجب! وإنهم بهذا يكذبون على الله تعالى قاطعين فى هذا الكذب فيحسبون أنهم مقبولون عند الله محبوبون، وهم يعاندون رسوله، ويبالغون ويكيدون له، فهم يفترون الكذب على الله ورسوله والمؤمنين.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أى كفاهم هذا العمل أن يكون إثما بينا واضحا. والإثم والآثام الأفعال المبطنة عن الخيرات التى يثاب عليها، وهؤلاء قد ارتكبوا بتزكيتهم أنفسهم بغير الحق الأمر البين الذى يبطئهم عن فعل الخيرات ويوقعهم فى السوء؛ ذلك أن هؤلاء ضلوا وحسبوا ضلالهم هو الخير، ومن كان شأنه كذلك فإنه لا يتجه إلى الخير؛ لأن الذين يرتكبون الشر ثلاث مراتب: أدناها أنه يقع فيه عن جهل وسفه وحمق، وهذا قريب التوبة والرجوع إلى الحق، وهو من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ... ﴿١٧﴾﴾ [النساء]. والثانية: أن يرتكب السيئات ويوغل فيها، ولكنه يعلم أنها سيئات لا يمدح فاعلها، بل يذم، وأنها لا تستحق التزكية، بل تستحق اللوم، وهذا ترجى توبته وعودته إلى الله. والثالثة: أن يزيّن له سوء أعماله، فيفعل الشر، ويفخر به، وهذا يكون فى مرتبة تبطئه أو تبعده إبعادا كلياً عن الاتجاه إلى الحق وطلبه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ قد رأيت أيها النبى الأمين متعجبا مستغربا حال الذين أوتوا حظا من الكتاب، وعلموا بعض علم الرسالات الإلهية، يؤمنون بأردأ العقائد والأخلاق، وبالطغيان والظلم والاندفاع نحو الشر. فالجبت هنا هو الردىء من الأفكار، أصله الجبس قلبت السين تاء، وهو الردىء من الأشياء، فهؤلاء يؤمنون بأردأ الأوهام، ويؤمنون مع ذلك بالطغيان والسيطرة الظالمة، ولذلك يخنعون لكل ذى سلطان، ويضعون ظهورهم لكل راكب، ويطفغون على كل عادل لا يُذل ولا يؤذى!! وعبر هنا بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، وفى مقام آخر خاطبهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ... ﴿١٧﴾﴾ [النساء]، وذلك لأنهم أنزلت عليهم كتب الرسالة الأولى لنبيهم، فبمقتضاها يدعوهم إلى الإيمان، ولذا عبر بالكتاب كله لا ببعضه، فهم فى هذا المقام يخاطبون بمقتضى الكتاب الذى نزل على رسولهم. أما هنا فيذكر حقيقة أمرهم، وهو أنهم نسوا حظا مما ذكروا به.

ومن جهة أخرى فإن نيلهم أقل قدر من علم الكتاب يتنافى مع إيمانهم بآتفه الأوهام، وإيمانهم بالظلم والطغيان، واعتبارهما سبيلا للعيش فى الحياة، فهم ظالمون يرضون بالظلم يقع عليهم، ويتنافى علم الكتاب مع ممالاتهم لعبدة الأوثان على أهل التوحيد، فيقولون فى المشركين هؤلاء أهذى طريقا من المؤمنين، وهذا قول الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ والذين كفروا هنا هم المشركون، أى أنهم يقولون لأجل إرضاء الذين كفروا وأشركوا وعبدوا الأوثان: هؤلاء فى شركهم وعبادتهم غير الله تعالى أرشد طريقا، وسبيلهم هو سبيل الهداية، أما سبيل الذين آمنوا بالله وحده، ولم يشركوا به غيره، وأذعنوا لأحكام الله تعالى فى أوامره ونواهيه، فليس هو سبيل الرشاد.

ويروى أن اليهود عندما بلغ بهم حسدهم للنبي ﷺ أقصى مداه، ذهب فريق منهم إلى أهل مكة يحالفونهم على النبي ﷺ، فقال لهم المشركون: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكرهم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهذى سبيلا أم محمد؟ فقال المتحدث باسم اليهود: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك، وقال: ما دينكم؟ قالوا: نحن ولادة البيت ونسقى الحجيح، ونقرى الضيف ونفك العانى، قال: أنتم أهذى سبيلا.

هذا شأن أولئك اليهود العجب، وهم قد أوتوا بعض علم الكتاب، يدفعهم الهوى والتعصب وفساد النفس إلى أن يجعلوا عبدة الأوثان أهذى من عبدة الديان!

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أولئك الذين غلب عليهم الهوى، ودفعهم تعصبهم الأعمى إلى أن يحالفوا أولياء الشيطان على أولياء الرحمن ويمالئهم فى القول والعمل، فيسجدوا لأصنامهم، ويزكوا أفعالهم،

ويقولوا إن طريقهم هو طريق الهداية، وطريق أهل التوحيد لا هداية فيه! بسبب هذا لعنهم الله تعالى بأن طردهم من رحمته، فكتب عليهم بغض الناس في الدنيا، والذل والمقت فيها، وعذاب الله تعالى في الآخرة. والإشارة في قوله تعالى «أولئك» إشارة إليهم موصوفين بالصفات التي وصفهم الله بها من نفاق، وخداع، وكذب، وتعصب وسيطرة الهوى على نفوسهم، وضياع الحقوق بينهم، وهذه الصفات هي سبب الطرد من رحمة الله تعالى. وإذا كانوا مطرودين من رحمة الله قد كتب الله تعالى غضبه عليهم، فلن ينصرهم أحد من أهل الأرض ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] فإذا كانوا قد ذهبوا إلى أهل مكة يستنصرون بهم فلن ينصروهم، ولن يثقوا بهم، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أى فلن تجد للملعون الذى طرده الله تعالى من رحمته نصيرا ينصره من الناس، و«لن» هنا لتأكيد النفي، ويقول الزمخشري (إن لن تفيد تأكيد النفي أبداً)، أى أنهم لم ينصرهم الله ولن يجدوا أبداً نصيرا من الناس تستمر نصرته، وإذا استطاعوا أن يستنصروا بأمثالهم فى هذه الأيام، فإن الخذلان وراءهم إن شاء الله تعالى، وهم أشد مقتا عند الله وعند الناس فى هذه الأيام كما كانوا فى كل ماضيهم، والله المنتقم الجبار. وقد أخبر الله تعالى نبيه بأنهم إذا كان لهم أحيانا نصيب من الملك غير مستقر ولا دائم، فسيكون ظلما كبيرا ولا يرضى الله لعباده أن يستمر فيهم ظلم.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ (أم) هنا تفيد الانتقال فى القول من التعجب من حالهم فى مملأة المشركين إلى بيان حالهم العجيب إذا أوتوا أى حظ من السلطان والحكم؛ والمعنى: أثبت أنهم إذا كان لهم حظ من الملك والسلطان ولو كان ضئيلا يحكمون بالعدل، ويقومون بالقسطاس المستقيم؟ والاستفهام لنفى الوقوع، وهو نفى لوقوع العدل منهم إذا أعطوا أى حظ من الحكم؛ ذلك لأن المناق لا يمكن أن يكون عادلا؛ لأن العدل والالتواء نقيضان لا يجتمعان، ولأنهم أهل هوى، ولا عدل مع سيطرة الهوى، ولأنهم غلبت عليهم عصبية دينية جامحة، وكل حكم

يصدر من التعصب لا يكون عدلا بالنسبة لمن تعصب عليه . ولذا قال سبحانه فيهم إذا حكموا:

﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ النقيير العلامة السوداء الصغيرة التي تكون في ظهر النواة، وهي الثقبية التي تنبت منها النخلة، ويضرب به المثل في الشيء الصغير البالغ أقصى حدود الصغر . والمعنى: إذا تولى هؤلاء نصيبا من الملك والسلطان، فإنهم لا يعطون الناس أى قدر من حقوقهم عليهم، ولو كان ضئيلا بالغا أقصى حدود الضالة؛ ذلك لأن العادل يكون حكمه لمصلحة المحكومين، لا لمصلحته . وهؤلاء لا ينظرون إلا إلى منافعهم الذاتية . ولأن العادل يحس بأنه من الناس له ما لهم وعليه ما عليهم، وهؤلاء يظنون أنهم صنف فى الخليقة ممتاز، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، والناس جميعاً دونهم . ولأنهم يبغضون الناس جميعاً؛ لأنهم يظنون أنهم سلبوهم حقوقهم، بمقتضى ما لهم من امتياز بمقتضى التكوين . فهم بهذه الأهواء الواهمة عادوا الناس وأبغضوهم، ويحسبون أنفسهم فى حرب مستمرة من البشر! أنقذ الله أهل الإسلام من شرهم، وأردأهم هم ومن يعاونونهم على الغى والظلم والفساد، وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ.

أَمْ

يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا
 ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝٤٤
 فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
 ۝٤٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا تَضِجَتْ
 جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْ لَهُمْ جُلُودًا أُخْرَاهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

الآية موصولة بما قبلها، فالحديث في اليهود الذين ذهب بهم حقدهم على النبي ﷺ والمؤمنين، أن يقولوا وهم أهل كتاب نزل عليهم من السماء وإن حرقوه، إن المشركين أهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم من المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر والملائكة والنبیین من بعده. وفي هذه الآية يبين سبب انحرافهم، وجزاء الضالين يوم القيامة، ثم جزاء المهتدين. والسبب الباعث على ضلالهم أنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولذا قال سبحانه:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الحسد هو الألم الشديد لما يصيب الناس من خير، وتمنى زواله، ثم العمل على زواله، فهو يتدنى بألم شديد يحز بالنفس الحاسدة، ثم يصحبه تمنى الزوال، ثم يكون بعد ذلك بخس المحسود حظه وحقه، والنيل منه! والفرق بينه وبين الغبطة أن الغبطة السرور بما ينال الغير من خير، وذلك وصف أهل الإيمان، ولذلك قال النبي ﷺ: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد»^(١)! والحسد يذيب النفس ويذهب بفضائلها، ولقد قال الحسن البصري: «ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد»! وإن من يحسد إنما يعادى الله ويعادى نعمه؛ لأنه كلما أتى الله أحدا نعمة نقمها على صاحبها، فكأنما يعادى الله الذى أعطاها، ويعادىها، ولقد قال عبد الله بن مسعود: (لا تعادوا نعم الله!

(١) المؤمن يغبط والمنافق يحسد. من كلام الفضيل بن عياض كما في كشف الخفا للعجلوني (٢٦٩٤).

وفي سير أعلام النبلاء (ج ٥، ص ٤٨٣): «وعن الفضيل قال: المؤمن يَغِطُ ولا يحسد، الغبطة من الإيمان، والحسد من النفاق.

قيل له: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله).

والناس هنا فى النص الكريم، قيل العرب، وعندى أنهم النبى ﷺ وأصحابه، إن أريد التخصيص، وإن كان التعميم فهى على عمومها. وأولئك اليهود قد أسكن الله تعالى قلوبهم حسدا على الناس، فهم إذا حسدوا النبى والمؤمنين، فلأنهم ناس آتاهم الله تعالى جزءا من فضله، فإن فضله عظيم، ف«من» هنا للبعضية، أو نقول إنها بيانية، فقد كان الإيتاء صادرا عن فضله ومجرد تكرمه. وفى هذا إشارة إلى أن الذين يحسدون من يتكرم عليه الله، فإنما يعاندون الله تعالى. وسبب هذا الحسد الدائم فيهم أنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم اختصوا بالنبوة دون غيرهم من الناس، وقد بين الله سبحانه أن ذلك وهم، فقال تعالت كلماته:

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أى إذا كنتم تحسدون الناس لما توهمتم أن النبوة فيكم، وأنكم أهل الوحي دون غيركم، فقد كذبتكم على أنفسكم، فإن الله تعالى قد أعطى آل إبراهيم، أى قرابته القريبة من ذريته من إسماعيل وإسحق الكتاب، أى بعث فيهم النبيين بالكتب من غير تفرقة. والحكمة، أى العلم النافع الذى يصحبه عمل نافع وإصلاح بين الناس، وأعطاهم مع علم النبوة ومع نشر أحكامها ملكا عظيما، أى سلطانا وبسطة فى الأرض فلستم مختصين بالنبوة، ولستم مختصين بإبراهيم، فله قرابة غيركم كانوا فى العرب، ولم يكن تلقى الناس لذلك الهدى ولهذا السلطان واحدا:

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أى فمن قرابة إبراهيم وذريته وأوليائه الذين جاءوا، من آمن بما جاء به من هدى، وسار على مقتضاه، وانتفع به انتفاعا كليا، أو نهل من موارده العذبة، أو أخذ بقدر ما تقوى عليه نفسه، وهو فى ضمن المهديين، ومنهم من أعرض عنه، وإن ذلك المعرض له جزاؤه، وهو جهنم التى تلتهب نارها، وتستعر، فلم يكن من آل إبراهيم وذريته

مقتضيا أن يصدقوا بالرسائل الإلهية التي نزلت بين ربوعهم وفي أوساطهم، فمن العرب وهم من آل إبراهيم من أشرك بالله وعبد الأوثان، مع أن النبي ﷺ، وهو من آل إبراهيم بعث فيهم رحمة للعالمين، وأنتم معشر اليهود كفرتم وكذبتم الرسل من آل إبراهيم وقتلتم بعضهم، ولم ينفعكم أنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم، فلا عبرة بالأنساب، إنما العبرة بالاستجابة للحق، والإيمان به والإذعان لحقائقه.

وهنا بحثان لفظيان: أحدهما - أن (صَدَّ) تستعمل لازمة متعدية، وإذا كانت لازمة فمصدرها الصدود ومعناه الإعراض، وإن كانت متعدية فمصدرها الصد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ...﴾ [العنكبوت] والنص هنا معناه الإعراض عن الهداية التي جاءت إليهم، فهو من اللازم.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا﴾ لم يذكر فيها من كانت جهنم كفاية لهم، وهو مفهوم من فحوى الكلام، والمعنى كفاهم أن تكون جهنم بسعيرها ولهيها مصيرا لهم.

وإن هذا مصير كل كافر سواء أكان من اليهود أم كان من غيرهم، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ الصلّى معناه إيقاد النار، وصلّى وقع في النار، وأصليناهم نارا: ابتليناهم وعذبناهم بنار، فالتمييز هنا فيه تأكيد لمعنى العذاب بالنار والإيقاع فيها، وإن هذا العذاب الشديد الذي يستقبلهم يوم القيامة يستحقه الكافرون بسبب كفرهم، من غير تفرقة بين ذرية إسحاق وإسماعيل وغيرهم، ولذلك عبر بالموصول؛ إذ التعبير بالموصول يشعر بأن الصلة سبب الحكم، فهؤلاء حكم عليهم بالعذاب؛ لأنهم كفروا، ومتى تحقق السبب تحقق الحكم بلا فرق بين قبيل وقبيل، وأن عذاب الكفار دائم، وآلامه مستمرة، وقد أكد وجود العذاب بقوله سبحانه: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ فسوف هنا كما قال سيويه

للتهديد، فهي لتأكيد العذاب المقبل ولو بتراخ، وتراخى العذاب مع تأكيده يجعل النفس فى فزع حتى يقع.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فعذاب هؤلاء الكفار دائم لا مناص لهم من الاستمرار فيه. فكلما أصاب العذاب موضع الإحساس من الجسم أعاد الله تعالى ذلك الإحساس إليه، وذلك أن موضع الإحساس فى الجسم هو الطبقة التى تلاصق اللحم من الجلد، فإذا فسدت هذه الطبقة ذهب الإحساس بالألم، ولقد عبر الله تعالى عن موت الإحساس ثم إعادته بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، فشبه سبحانه وتعالى حالهم فى تعذيبهم بالنار بحال قطع من اللحم تلقى فى النار، فإذا تهدأت الجلود من شدة النار حتى صارت لا تحس بدّل الله تعالى هذه الجلود بأخرى، فيكون العذاب وآلامه فى استمرار دائم! ولا موضع إذن لاعتراض الذين يقولون: كيف يعذب جلد لم يعص لجريمة جلد قد عصي؛ لأن الجسم المعذب واحد، ولكن الكلام تصويرى لبيان استمرار الإحساس بآلام العذاب، فلا ينقلبون كقطعة فحم، بل يستمر الإحساس بالألم الدائم، وهذا يتلاقى مع ما روى عن الفضيل فى تفسير هذا النص: «يجعل النضج غير نضيج» أى يجعل الجلد مع إصابة موضع الإحساس منه بما يميته لا يموت، بل يستمر! ومن العلماء من قال: إن الجلد لا يتغير ذاته بل يتغير وصفه، فيخلق فيه هذا الإحساس بعد أن يبلى موضع الإحساس بالنار.

والغاية أن يذوقوا العذاب، أى أن يستمروا فى ذوقه والإحساس به، وقد شبه الإحساس بالذوق، للإشارة إلى عظيم الألم، لأنهم يحسون به كمن يحس بذوق المرير من الطعام أو بمن يذوق النار ليأكلها، واللسان أشد أعضاء الجسم حساسية، فإذا كان العذاب يذاق، فهذا دليل على شدة الإحساس، وحيث اشتد الإحساس كان الألم، وحيث مات الإحساس فلا ألم، وليس لجرح بميت إيلا! وقد ختم الله تعالى الآية بما يبين عظم سلطان الله:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ هذا تذييل بلاغى يؤكد التهديد الذى اشتمل عليه، فإن منزل العذاب قوى غالب، هو المسيطر على كل شيء، ولا يسيطر سواه، وليس فوقه أحد، ولا ناصر لأحد من أمره، وهو حكيم يضع الأمور فى مواضعها، فلا يعذب محسنا ولا يثيب كافرا وإن كان يعفو عن كثير من دون الكفر.

وقد أكد سبحانه عزته وحكمته بـ «إن»، وبـ «كان» التى تدل على الاستمرار، وإن من مقتضى حكمته أن يثيب الأبرار كما يعاقب الكفار.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وفى مقابل العذاب الذى نزل بالكافرين كان الثواب للمؤمنين. وإذا كان الكفر هو السبب فى العقاب، فإن الإيمان والعمل الصالح هو سبب الثواب، وقد عبر سبحانه وتعالى بالموصول للإشارة إلى أن العلة التى أثبتت الثواب الذى يتفضل الله تعالى به على عباده المؤمنين، هو الإيمان والعمل الصالح، ولا شك أن الإيمان هو الأساس فى الجزاء، والعمل الصالح ثمرته، ولا إيمان من غير عمل صالح إلا أن يكون غير مثمر لأعظم ثمراته. ولقد قرر سبحانه وتعالى فى وعده أنه سيدخل هؤلاء المؤمنين العاملين جنات تكمل فيها أسباب النعيم، فالأنهار تجري من تحت أشجارها، وهى ليست نعيما وقتيا، بل هى نعيم خالد، وقد أكد الخلود بالتأيد، فكأن الخلود ثابت ثبوتا مؤكدا لا شبهة فيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ويلاحظ هنا أنه فى التعبير عن المستقبل عبر بقوله (سندخلهم) أتى بالسين دون سوف، وكلاهما يفيد تأكيد القول فى المستقبل، واختيار السين هنا يؤيد سيويه فيما قاله من أن سوف قد تكون للتهديد، ويظهر على هذا أن السين عكسها.

وأن كل ما يتصور من نعيم الدنيا يوجد مثله على صورة أعظم وأكمل، ومن أكمل متع الحياة الدنيا الحياة الزوجية:

﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من أعظم نعم الدنيا الزواج، فهو ظل المرأة، ومأوى الرجل، ومستقر حياته، ومطمأنها ونعيمها، فيه مكاشفة النفس، وفيه الازدواج الروحي والمادى، وفيه المعاونة الإنسانية على أعلى صورها، وإن نعيم الجنة أكمل من نعيم الدنيا، فيه ما فيها من نعيم، ولكن على صورة أعلى وأكمل، والفرق بينهما كبير شاسع، يجتمعان فى الاسم ويختلفان فى الحقيقة. ولذلك كان فى الجنة أزواج، فللنساء أزواج وللرجال أزواج مثلهم، وأزواج الجنة مطهرون من الرجس المادى والرجس المعنوى، فلا حيض، ولا نفاس، ولا أخلاق ذميمة؛ لأنه لا يدخل الجنة وفيه خلق ناقص، من أخلاق أهل الدنيا. وقد تكلم الناس فى نوع العلاقة بين الزوجين فى الجنة، ولكن القرآن لم يفصل ذلك الجزء، فتركه على ما تركه الله تعالى:

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ الظل هو ما يحجب الشمس وحرارتها، ويقال ظل الليل وظل الجنة، وقد قال الأصفهاني أنه يعبر عن الظل بالعز والمنعة، وقد قال فى ذلك: «يعبر بالظل عن العز والمنعة وعن الرفاهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ...﴾ (٤١) [المرسلات] أى فى عزة ومتاع. قال تعالى: ﴿... أَكُلُوهَا دَائِمًا وَظِلَّهَا...﴾ (٣٥) [الرعد] ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ...﴾ (٥٦) [يس].

وعلى ذلك نقول إن هذا النص السامى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾، إما أن يراد به الظل الحسى، ومعنى ظليل أنه عميق ساتر لا يتخلله أى شىء مما يؤذى، ويقول الزمخشري فى تعريف الظل الظليل: (هو ما كان فينا لا جذب فيه، ودائما لا تنسخه شمس، وسجسجا لا حر فيه ولا برد، وليس ذلك إلا ظل الجنة) ويصح أن يراد بالظل المنعة والعزة، ويكون المعنى ندخلهم فى عزة ومنعة ورحمة ورعاية كريمة من الله تعالى. اللهم ارزقنا نعمة رضاك ووفقنا للعمل الصالح.

إِنْ

اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

ضاع اليهود بأمرين: أولهما أنهم كانوا لا يؤدون الأمانات، كما قال تعالى في أكثرهم: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِينِ سَبِيلٌ ...﴾ [آل عمران]. الأمر الثاني الذى أضاع بنى إسرائيل فى الماضى، أنهم لا يقيمون العدل إذا حكموا كما قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء]، فبالظلم ذهب ملكهم فى الماضى، وسيذهب فى الحاضر إن شاء الله تعالى. وإذا كانت الخيانة قد أفسدت أمرهم، والظلم قد أذهب سلطانهم، فعلى المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم على دعائم الأمانة والعدالة؛ ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ هذا أمر عام للمؤمنين جميعا، لا يختص به راع دون الرعية، ولا قوى دون ضعيف، ولا غنى دون فقير.

وقد أسند الأمر إلى الله تعالى بقوله تعالت كلماته مؤكدا أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، وذلك لتأكيد الأداء فضل تأكيد بهذا التصريح، وذلك أن الأمر من قبل الله سبحانه مضافا إليه أمر مؤكد، كما يقال لتأكيد الأمر للعبد بالطاعة: سيدك

يأمر بكذا، ولله المثل الأعلى فى أوامره ونواهيه، وذلك فوق التأكيد بـ «إن» فى صدر النص الكريم.

والأمانة مصدر بمعنى المفعول، فالمراد بالأمانة ما يؤتمن الإنسان عليه، وقد جمعها سبحانه بقوله تعالى ﴿الْأَمَانَاتِ﴾ لتشمل كل ما يؤتمن الإنسان عليه من علم، ومال، وودائع، وأسرار، وغير ذلك مما يقع فى دائرة الائتمان وتبغى المحافظة عليه. ومعنى أدائها إلى أهلها توصيلها إلى ذويها كما هى، من غير بخس ولا تطفيف. فالعالم يؤدى أمانة العلم من غير تزيد عليها، ولا تحريف لها؛ لأن التزيد طمس لمعالم العلم، والتحريف تبديل للحق. فمن أوتى علما بالقرآن لا يؤوله لهوى فى نفسه، بل يقدمه للناس من غير تحريف للكلم عن مواضعه. والحكم أمانة فى أعناق الحكام، عليهم أن يؤدوا الأمانة فيه بإقامة العدل، وتوخى المصلحة، وتجنب الفساد، سواء أكان فسادا معنويا، أم كان فسادا ماديا، والأول أعلى أنواع الفساد، والثانى أدناها. ومن أمانة الحكم ألا يشقوا على الرعية، وألا يفسدوا ضمائرهم، ولا يزعجوهم بالتظن والتتبع ما داموا مؤمنين مذعنين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ...﴾ [الحجرات]. وإذا كانت رعاية الأمانات وأداؤها واجبا مفروضا على الأمة كلها، حاكمها ومحكومها، وأنها متفاوتة المراتب، فإن الحاكم قد اختص بواجب آخر هو العدل، وهو من نوع الأمانة التى اختص بها، ولذا قال سبحانه بعد الأمر بأداء الأمانات:

﴿وَإِذَا حُكِّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ قال بعض العلماء: إن الخطاب فى هذا النص موجه إلى الذين يحكمون، وهم الحكام من ولاية وقضاة وغيرهم ممن يلون الحاكم، ولا مانع عندنا من أن يكون الخطاب موجها للأمة كلها؛ لأن الأمة العزيزة غير الذليلة التى تتولى أمور نفسها من غير تحكم من ملك أو طاغ قاهر، هى محكومة ومُحكَّمة، فهى التى تختار حاكمها، وهى فى هذا محكَّمة،

مطلوب منها العدل، فلا تختار لهوى، أو لعطاء، أو لمصلحة شخصية أيا كان نوعها. وهى محكمة فى حاكمها فلا تقول فيه إلا حقا، ولا تطالبه إلا بما هو حق لا جور فيه، ولا تشتط فى نقده، ولا تسكت عن نصيحته. فإن النبى ﷺ يقول: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

والعدل معناه فى أصل اللغة المشيل، وأطلق فى مقام الحكم بمعنى أن يكون الحكم مساويا لما يستوجه، فإذا ارتكب شخص جرما كان الحكم النازل مساويا للجرم المرتكب، وإذا كان الحكم بدين وجب أن يكون مساويا لما أخذ من غير زيادة، وهكذا. وإن العدل أنواع مختلفة، وله وسائل متباينة، وإذا كان مطلوبا فى ذاته فوسائله يجب أن تتحقق فيها العدالة أيضا، وأخص أنواع العدالة عدالة القاضى فى حكمه، وهى تتطلب أموراً أربعة: أولها: معرفة حكم الشرع والقانون فيما يقضى فيه. ثانيها: معرفة موضوع القضية معرفة متقصة لأطرافها مستوعب لكل أجزائها. وثالثها: أن يبعد الهوى من نفسه، وأن ينظر دائما نظرا غير متحيز. ورابعها: أن يسوى بين الخصمين فى كل شئ، وقد جاء فى تفسير فخر الدين الرازى عن الشافعى ما يأتى: «قال الشافعى - رضى الله عنه -: ينبغى للقاضى أن يسوى بين الخصمين فى خمسة أشياء: فى الدخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم عليهما. . ولا ينبغى أن يلحن واحدا منهما حجته، ولا شاهدا شهادته؛ لأن ذلك يضر بأحد الخصمين. ولا يلحن المدعى الدعوى والاستخلاف، ولا يلحن المدعى عليه الإنكار والإقرار، ولا يلحن الشهود أن يشهدوا أو لا يشهدوا.

وعدالة الحاكم الأكبر تقتضى الرفق بالرعية، وألا يعمل إلا ما فيه مصلحة، وأن يمنع الرشوة، وألا يولى أحدا ممن دونه لهوى أو غرض! فلا يوسد الحكم لمن

(١) سبق تخريجه من رواية مسلم وغيره عن تميم الدارى، وذكره البخارى فى ترجمة الباب.

دونه إلا لمن هو أهل له، ولقد قال النبي ﷺ: «إذا وُسِّدَ الأمرُ لغير أهله فانتظروا الساعة»^(١).

والأمانة واجبة سواء أكان من اتتمنك عادلا أم كان جائرا، فالنبي ﷺ يقول: «أدِّ الأمانة لمن اتتمنك ولا تخن من خانك»^(٢). ومن المقررات في الفقه الإسلامي أن الظالم لا يُظلم.

والعدل مطلوب في ذاته، يستوى في ذلك المسلم وغير المسلم، فقد قال تعالى ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ...﴾ [المائدة].

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ الوعظ معناه التذكير بالخير والتحذير من الشر، بما يرق له القلب، ويخضع له الوجدان. و(ما) هنا إما نكرة بمعنى شيء، أو موصول، والمعنى واحد، وإن اختلف التخريج النحوي. ومؤدى النص أن الله جلت حكمته وهو العليم بكل شيء يأمركم بالأمانة والعدالة ولِئَنَّمَا هما شيئا خطيرا جليلا ذا أثر عظيم، في حياتكم العامة والخاصة، يذكركم به ويدعوكم إليه، فأداء الأمانات وإقامة العدالة، بهما تقوم الأمم، وعليهما تبنى دعائم العزة والكرامة الإنسانية، فهما ممدوحان دائما، ولا ينتج عنهما إلا خير، ولا ينتج عن تركهما إلا شر.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: يَتِمُّ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَّرَهُ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ. حَتَّى إِذَا قَضَىٰ حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيُّنَ أَرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِصَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». رواه البخاري: العلم - من سئل علما وهو مشغول بحديثه فاتم (٥٩)، ورواه أحمد: باقى مسند المكرين (٨٥١٢) بلفظ: «إذا توسد». ومعنى وُسِّدَ: أُسِّدَ.

(٢) رواه الترمذى: البيوع - النهى للمسلم أن يدفع إلى الذمى الخمر (١٢٦٤). ورواه أبو داود: البيوع - فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣٥٣٥).

وإن الله تعالى إذ يأمركم بذلك الخير العميم نفعه يراقبكم في تنفيذه، وإنه لن يترككم ولن يخليكم من العقاب إن لم تقوموا به، ولذلك ذيل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، أى إن الله تعالى يعلم أحوالكم علم من يسمع، فهو يسمع خطرات نفوسكم وحركات قلوبكم، وعلم من يبصر، فهو يرى أعمالكم. هو إذن يسمع كلمة الحق نطق بها القاضى، وكلمة الرعية يختارون بها راعيهم، بالأمانة والصدق والإخلاص، ويرى عمل الوالى إذا عدل، فيجزيه بالحسن، وعمله إذا ظلم أو شق على رعيته أو أرهقها من أمرها عسرا، فيأخذه سبحانه بظلمه إن ظلم. ويرى سبحانه الأمة وهى تقصر فى حقوقها، ولا ترعى واجب الأمانة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنع الظالم من ظلمه، فيفسد أمرها، ويتحقق فيها قول النبى الأمين: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَى الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرَّنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا أَوْ لِيُضْرِبَنَّ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١)!!.

وإذ كان العدل، وجبت الطاعة لولى الأمر مقرونة بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله؛ لأنها مشتقة من طاعتهما، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

طاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، فإطاعة الرسول إطاعة لله، وإطاعة الله إطاعة للرسول أو تقتضيها، فقد قال الله تعالى: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ...﴾ ﴿٧﴾ [الحشر].

وأولو الأمر هم الذين بيدهم الحل والعقد وبيدهم مقاليد الأمة التى يقومون على رعاية مصالحها وشئونها وإرشادها وتوجيهها. وقد قال بعض الحكماء إنهم الفقهاء والذين يستطيعون استنباط الأحكام، ولكن الأكثرين على أن ولاية الأمر هم الحكماء وأهل الحل والعقد.

(١) سبق تخريجه من رواية أبى داود: الفتن والملاحم، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

ونلاحظ هنا أمرين:

أحدهما - أن القرآن الكريم يصرح بأن ولاية الأمر الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا من المؤمنين، ولذلك يقول سبحانه «منكم»، فلا طاعة مطلقا لمن يغلبون على شئون المسلمين عن ليسوا من أهل الإيمان، فأولئك المنحرفون من بعض أهل الهوى الذين يزعمون أنهم مسلمون، ويزعمون أن الإنجليز أيام حكمهم كانوا من ولاية الأمور الذين يوجب النص طاعتهم - قد ضلوا ضلالا بعيدا، وهم بهذا وبغيره خارجون عن حكم الإسلام.

ثانيهما - أن الله قرن طاعة أولى الأمر بطاعة الله ورسوله، فوجب أن تكون طاعتهم من جنس طاعة الله تعالى ورسوله، بأن تكون في سبيل العدل، ولا تخرج عن حدوده. وإنه باقتران هذه الآية بالآية السابقة يستبين أن ولاية الأمر الذين تجب طاعتهم هم العادلون؛ لأن الأولى أوجبت العدل، والثانية أمرت بالطاعة، فلو كانوا غير عدول لكانت الطاعة مسaire لهم على الظلم. وقد نهينا عنه. ولقد قال الزمخشري في هذا المقام ما نصه:

«المراد بأولى الأمر منكم أمراء الحق، لأن أمراء الجور - الله ورسوله بريئان منهم - فلا يُعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثارة العدل، واختيار الحق، والأمر بهما، والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين. وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم.

وعن أبي حازم أن سلمة بن عبد الملك قال: ألتسمُ أمرتم بطاعتنا في قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: أليس قد نُزِعَتْ عنكم إذا خالفتكم الحق بقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. وعن النبي ﷺ أنه قال:

«من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى»^(١).

ولكى تكون طاعة أولياء الأمر فى سبيل الحق والعدل، ومقتربة بطاعة الله ورسوله، وجب الرجوع عند الاختلاف إلى الكتاب والسنة، ولذا قال سبحانه:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ لقد ثبت بإجماع العلماء الذى لا عماراة فيه أن طاعة أولياء الأمر إنما تكون
فيما فيه طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله الأمين كما نوهنا، وأنه ليس لولى الأمر
طاعة فى معصية، لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»^(٢)، ولقوله
ﷺ: «إنما الطاعة فى المعروف»^(٣)، والمعصية منكر لا طاعة فيه، ولقوله عليه
الصلاة والسلام: «على المرء المسلم السمع والطاعة، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا
طاعة»^(٤)، ولما قررنا من أن طاعة أولى الأمر مقرونة بطاعة الله ورسوله، وأنه

(١) رواه البخارى: الأحكام - قول الله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾
(٧١٣٧)، ومسلم: الإمارة - وجوب طاعة الأمراء فى المعصية وتحريمها فى المعصية (١٨٣٥) عن
أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه القضاعى فى مسند الشهاب ج ٢، ص ٥٥ (٨٧٣) عن عمران بن حصين رضى الله عنه،
والبغوى فى شرح السنة عن الثواس بن سميان، كما فى مشكاة المصابيح ج ٤، ص ٢٣٨. كما
رواه أحمد فى مسنده وعن الحكم بن عمرو الغفارى وعمران بن حصين (٢٠١٣٠)، وعن على
رضى الله عنه (١٠٩٨)، ولفظه عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». وهو عند البخارى بسنده عن على.

(٣) متفق عليه. وراجع التخرىج السابق.

(٤) متفق عليه رواه البخارى: الأحكام - السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٧١٤٤)،
ومسلم: الإمارة - وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية (١٨٣٩) ولفظه عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ
ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أَمَرَ
بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ» ولفظ البخارى عن نافع عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أى ابن عمر
حيث الرواية عن نافع) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ
مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ».

ليس من المعقول أن يفهم من الآية أن ولي الأمر يطاع حيث يعصى الله ورسوله، وهما مقترنتان، وولي الأمر منّا حقاً وصدقاً لا يخالف الله ورسوله، وإلا كان متغلباً طاغياً.

وإذا كانت طاعة ولي الأمر لا تكون إلا في دائرة الكتاب والسنة، فلا بد أن يكونا هما المرجع في الوفاق والخلاف معاً، فإن اتفق أهل الحل والعقد على أمر مشتق من كتاب الله وسنة رسوله، وغير خارج عنهما ولا عن أصولهما المقررة، فهو الحجة الواضحة، كما كان يفعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد كانا يعرضان الأمر الذي لا يعرفان له حكماً من كتاب ولا سنة على الصحابة، وأحياناً على كل أهل المدينة، فما يثبت أنه ورد فيه قرآن أو سنة خضع الجميع له، وإلا فإنهم ينظرون مجتهدين فيما يكون من جنس ما يأمر به الكتاب أو السنة، فإن اتفقوا عليه نفذوه. وإذا كان اختلاف، فإنه لا حكم في الاختلاف إلا الكتاب والسنة أيضاً، وهذا موضع قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ﴾ وليس التنازع هو المحاربة، إنما التنازع هو الاختلاف في طلب الحق في الأمر، وقد جاء في تفسير معنى التنازع في مفردات الراغب: «نزع الشيء جذبه.. والتنازع والمنازعة المجاذبة، ويعبر بهما عن المخالفة والمجادلة». وكأن كل واحد من المختلفين يجذب من الآخر الحجة لدليله، ويجعل الحق في جانبه بجذب الحجة على مخالفه، ومن هذا قول النبي ﷺ: «مالي أنازع القرآن»^(١)! وذلك أن بعض المأمومين جهر

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ مِنْ صَلَاةٍ جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ فَقَالَ ﷺ: «هَلْ قَرَأَ مَعِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ آتِئًا؟» فَقَالَ رَجُلٌ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِنِّي أَقُولُ مَالِي أَنْازِعُ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَأَنْتَهَى النَّاسُ عَنِ الْقِرَاءَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلَوَاتِ بِالْقِرَاءَةِ حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. (رواه الترمذي: الصلاة-ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام (٣١٢)، والنسائي: الافتتاح - ترك القراءة خلف الإمام فيما جهر به (٩١٩)، وأبو داود: الصلاة - من كره القراءة بفاتحة الكتاب إذا جهر الإمام (٨٢٦)، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها - إذا قرأ الإمام فانصتوا (٨٤٩)، وأحمد: مسند المكثرين (٧٢٢٨).

خلفه، فتنازعه القراءة فشغله، فنهى - عليه الصلاة والسلام - عن الجهر بالقراءة خلفه في الصلاة.

ويجب بهذا النص عند التنازع الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله، وذلك بالتماس ما يكون من الأحكام متفقاً مع المقاصد والغايات التي جاء بها الكتاب والسنة، وإن لعلماء الإسلام في ذلك منهاجين: أحدهما: أن يبحث في الأصلين عن حكم منصوص عليه يشبه في سبب الحكم الحادثة التي لا يجدون فيها نصاً، وهذا يسمى القياس الفقهي، وهو ما تسير عليه الكثرة الكبرى من الفقهاء. والمنهاج الثاني. أن ينظر إلى المقاصد العامة للشريعة، وهي مصالح الناس، الثابت الأخذ بها من مجموع النصوص لا من نص بعينه، فإذا كان في الأمر المتنازع فيه مصلحة ملائمة لمقاصد الشارع، من غير مخالفة أى نص، أخذ بها، وهذا المنهاج أخذ به الإمام مالك، وأحمد، وزيد.

ولكن يرد هنا سؤالان: من الذين يجرى بينهم التنازع؟ ومن الذين يتولون رد الأمر إلى الكتاب والسنة؟.

والجواب عن السؤال الأول: أن الذين يجرى بينهم الخلاف هم أهل الحل والعقد، وذلك يقتضى أن تكون هناك جماعة مصطفاة مختارة تتولى سن النظم ووضع القوانين المشتقة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وهم رجال الشورى الذين ترتضيهم الأمة.

والجواب عن السؤال الثاني - أن الذين يردون الأمر المختلف فيه، يجب أن يكونوا على علم بالكتاب والسنة ومقاصد الشريعة وغاياتها، وهم علماء الإسلام المتفقهون في أحكامه. ولذلك يجب أن يكون في أهل الحل والعقد، أو بجوارهم يعملون معهم، رجال من فقهاء الإسلام المخلصين المؤمنين بحقائقه، الذين لا يغلب عليهم الهوى، ولا يخضعون لهوى الحكام، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه.

وإن الله تعالى يقرر - تعالت كلماته - أن ذلك وهو الرد إلى الكتاب شأن أهل الإيمان بالله حقاً وصدقاً، والذين لا تغلبهم الدنيا ومتعها العاجلة، ولذلك يقول ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى إن كنتم تدعون للحق الذى شرعه الله تعالى لكم وتصدقون وتؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وعقاب، ولم تستول عليكم الدنيا بأهوائها وشهواتها، فإنكم بلا ريب سترجعون إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ذلك أن المؤمن حقاً ومصدقاً بالله واليوم الآخر لا تستهويه شهوات الدنيا، فيظنها مصالح، بل يذعن لحكم الله دائماً، ولا يكون كأولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ [النور]. وإن اتباع القرآن والسنة فى الحكم فيه الخير وحسن المآب، ولذا قال سبحانه:

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ إن ذلك الرجوع إلى الكتاب والسنة، فى الفرقان والافتراق، خير لكم فى الدنيا؛ لأن فيه مصلحتكم الحقيقية، وفيه بعد عن الهوى، وفيه خضوع لله تعالى. وأحسن تأويلاً أى مآلاً ونهاية، وفهماً لأمور هذه الحياة، فإن شئون الحياة معقدة، تختلط فيها الشهوات بالمصالح، فلا يمكن فهمها على حقيقتها إذا تشابكت إلا بالرجوع إلى شرع الله، ففيه الفهم الصحيح، وفيه الغاية السامية، وفيه المآل الذى لا شر فيه. فاللهم وفق أمتك للأخذ بشريعك واجعلنا من الذين لا يحرفون الكلم عن مواضعه، إنك سميع الدعاء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

دعت الآياتان السابقتان المؤمنين إلى أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن يحكموا بالعدل. وقد ذكرت الآية الثانية أن طاعة الله ورسوله واجبة، وأن طاعة أولى الأمر لازمة ما استقاموا على الحق من غير عوج، وأن ذلك سبيل الحق والعدل، واستقرارهما. وفي هذه الآيات يبين سبحانه وتعالى حال بعض أهل الكتاب الذين يتركون الأحكام المقررة في الشرائع السماوية، ويستبدلون بها الظلم وحكم الطغيان، ولذا قال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا التعبير قرأتى، وهو استفهام سيق للتعجب والإنكار، فيه التعجب وتوبيخ الذين وقع منهم هذا الفعل. وأداة الاستفهام دخلت على النفى، ونفى النفى إثبات. والمعنى: قد رأيت الأمر العجب المستنكر الذى وقع من أولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والزعم يكون فيمن يقول قولاً لا يوجد ما يدل على صدقه، والمعنى: قد رأيت حال أولئك الذين يدعون كذباً أنهم يعتقدون وَيُذْعِنُونَ للذى أنزل إليك من شريعة عادلة وحكمة بين الناس بالعدل، وأنهم يؤمنون بالكتب المنزلة وما اشتملت عليها، ومع ذلك يتركون الحق الواضح البين الذى لا شبهة فيه، الذى اشتملت عليه شريعتك وما قبلها، ويتحاكمون إلى الطاغوت، وهو الطغيان الكثير، ولعل المراد به هنا الحكم الذى لا يبنى على الحق، ولا يقوم على أساسه، وليس له نظام وقانون مقرر ثابت، يعرف فيه كل واحد من الخصمين ما له من حقوق وما عليه من التزامات.

وواضح من النص الكريم أن هؤلاء متصفون بصفيتين:

أولاهما - أنهم يدعون الإيمان وليسوا بمؤمنين، إذ قال سبحانه: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾.

وثانيتهما - أنهم فى الأصل من أهل الكتاب الذين يدعون أنهم آمنوا بما أنزل على موسى والأنبياء قبله. وبهذا النص الكريم يتعين أن يكون أولئك من المنافقين من اليهود الذين كانوا يظهرون الإيمان، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، أو من الضعفاء الذين ليس عندهم من قوة الإيمان ما يحملهم على الخضوع لأحكام الله تعالى.

وإن المفسرين قد تكلموا فى سبب نزول هذه الآيات، ورووا فى ذلك روايات مختلفة، وأقربها إلى معنى الآية أن منافقا اختلف مع يهودى، فأراد اليهودى أن يكون الحكم هو النبى لما يعرف عنه من عدالة وامتناع عن رشوة، ولأنه يحكم بقانون ثابت لا عوج فيه ولا انحراف، وأراد المنافق أن يتحاكما إلى غير النبى - قيل إلى كاهن، وقيل إلى أحد كبار اليهود - وكلا الحكمين لا يمكن

أن يكون بالنسبة للنبي ﷺ إلا ظالماً، حكمه فيه طغيان كثير؛ لأنه لا يعتمد على قانون منظم للحقوق والالتزامات.

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وإذا كان الله تعالى قد أمرهم أن يكفروا بحكم الهوى والغرض والظلم وبحكم الأوهام والكهنة، واختاروا هم الاحتكام إلى طاغية من طغاتهم، أو كاهن من الكهان، فقد كان ذلك بوسوسة الشيطان المضل في نفوسهم، وهو لا يريد لهم إلا العدول عن الخط المستقيم. فالضلال هو العدول عن الخط المستقيم، سواء أكان ذلك في المعنويات أم كان في السير الحسى. ومن عدل عن الطريق المستقيم واستمر في غيره، فهو كمن بعد عن الطريق السوى، وسار في متاهات، كلما أمعن بعد. وهؤلاء قد ابتدأوا بالنفاق، فكلما وسوس لهم شيطانهم بالباطل أبعدهم عن الحق وعن طريقه. فمعنى يضلهم ضلالاً بعيداً يبعدهم عن الحق الذى ابتدأوا باجتنابه، فصاروا كمن يوغلون في متاهات من الأرض، كلما أوغلوا زادوا بعداً عن الطريق المستقيم.

وإن هذا النص يومئ إلى أنه لا يتفق مع الإيمان الصادق أن يتحاكم المؤمن إلى غير النظام الذى يقرره القرآن والسنة. ويومئ النص أيضاً إلى أن كل تحاكم لغير شريعة الله تعالى وما تقرره من أحكام، هو تحاكم إلى طغيان كبير لا يقوم الحكم فيه إلا على الهوى. ألم تر كل النظم التى تحكم بغير القرآن لا تعاقب الزانى، ولا تعتبر فعله جريمة إلا إذا كان فيه اعتداء على الزوجية أو اغتصاب، أو زنى بقاصرة! وأى طغيان وهوى أعظم من ذلك جرماً؟!

ويومئ النص كذلك إلى أن من يرفض حكم القرآن يخضع لحكم الشيطان، ويضل به ضلالاً، كلما سار فيه بعد عن الحق المبين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ إذا قيل لهؤلاء الذين ضعف إيمانهم فلم يذعنوا للحق، ولم يخضعوا لحكم الله: تعالوا وأقبلوا على الخضوع لله تعالى ولحكمه - رأيت الذين اتسموا بالنفاق منهم يعرضون عنك إعراضاً شديداً؛ وذلك لأنهم لمرض النفاق فى قلوبهم

ينفرون من العدل والحق نفورهم من الإيمان الصريح الذى لا دَخَلَ فيه^(١)، ومن الطريق المستقيم الخالى من العوج.

وفى الآية الكريمة إشارتان بيانيتان:

إحدهما- التعبير بقوله تعالى: ﴿إِلَى مَا أُنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ فإن هذا يبين لهم أنهم يتركون الحكم المنزل من السماء من عند الله إلى حكم الأرض وأهواء أهلها، ويبين لهم أن الرجوع فى الحكم إلى الرسول هو رجوع إلى حكم الله الذى ينطق به رسوله الأمين، وأن امتناعهم عن ذلك إنكار للرسالات الإلهية مع أنهم من أهل الكتاب، الذين يعتزون على العرب بأنهم يؤمنون بشرائع السماء وغيرهم أميون!! ثم يبين ذلك أن الخضوع لحكم الرسول خضوع لحكم الله تعالى وما أنزله الله، فالمعترض على حكم الرسول معترض على الله سبحانه وتعالى.

الثانية- فى قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ فإنه يشير إلى أن الذين يعرضون عن حكم الله تعالى وينفرون منه هم المنافقون الذين يسرون ما لا يظهرون ويخفون ما لا يبدون، فالإعراض عن حكم الله تعالى سمة من سمات النفاق أو بالأحرى أوضحها وأبينها.

والنص يشير مع هذا إلى أن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت فريقان: فريق ضعيف الإيمان، وفريق منافق، وأن المنافقين من بينهم شديدا وفريقا والإعراض. اللهم إلا أن يقال إن ذلك إظهار فى موضع الإضمار، أى أن الذين يزعمون أنهم آمنوا بالله وبالرسول، الذين يرتضون حكم الطاغوت هم منافقون، وهم بسبب نفاقهم يعرضون عن حكم الله إعراضا شديدا، فهم طائفة واحدة!

(١) و الدَّخَلَ: ما داخل الإنسان من فساد فى عقل أو جسم، وقد دَخَلَ دَخْلًا و دُخِلَ دَخْلًا، فهو مَدْخُول أى فى عقله دَخَلَ. وفى حديث قتادة بن النعمان: وكنت أرى إسلامه مَدْخُولًا، الدَّخَلَ، بالتحريك: العيب والغش والفساد، يعنى أن إيمانه كان فيه نِفَاق.

وأظهر وصفهم ليعلم أنه علة إعراضهم، وهذا ما نرتضيه، ويتفق مع قوله تعالى من قبل ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ إذا كان أولئك المنافقون يصدون ذلك الصدود، ويعرضون هذا الإعراض، فليتنظروا إلى حالهم عندما تصيبهم مصيبة بسبب تركهم التحاكم إلى القانون العادل والحاكم العادل، كيف تكون حالهم عندما تنزل بهم مصيبة الظلم وعدم الخضوع لقانون عادل يرد الحق إلى نصابه! وذلك أن الذي يترك القانون الذي لا يخضع لهوى، والقاضى الذى لا يخضع لغرض، ولا ينحرف عن الحق لأى غرض من أغراض الدنيا - تنزل به مصيبته لا محالة، وهى الاضطراب، وعدم الاطمئنان إلى حكم حاكم! والجماعة التى تترك الحكم المستقيم إلى الحكم المعوج الذى يستمد من الطغيان والظلم، لا بد أن تنزل بها مصيبة التفرق والانقسام، وعدم التواصل بالحق. فالقرآن يشير للمنافقين بهذه النتيجة، بل ينبئهم فيقول لهم: كيف تكون حالكم إذ تصيبكم مصيبة التظالم، وأكل بعضكم مال بعض، ونفرة الرسول منكم، وظهور أمركم وانكشاف حالكم، وذلك بما قدمته أيديكم من ترك للحق وعدم خضوع له! والتعبير «بما قدمت أيديكم» يبين ما سبق من أمرهم، وإن لم يكن باليد؛ لأن اليد مظهر العمل، فهى كناية عن عمل الإنسان، وإن كان باللسان أو القلب.

ثم إنهم بعد أن تصيبهم مصيبة الباطل وانكشاف أمرهم، ونفرتك منهم - جاءوك يعتذرون إليك ويوثقون اعتذارهم بالحلف بالله تعالى قائلين: ما أردنا بالمخاصمة لغيرك إلا إحسان المعاملة والتوفيق بين الخصوم.

والمعنى الجلى للنص السامى: كيف تكون حالهم إذا نزلت بهم النازلة التى تترتب على تركهم حكم الله إلى حكم الطغيان، ثم جاءوا إليك معتردين عما سبق منهم، قائلين حالفين بالله أنهم ما قصدوا الإعراض، بل أرادوا التوفيق، والمعاملة الحسنة!!.

والتعبير بـ «ثم» فى هذا المقام، يشير إلى التباين بين حالهم فى الإعراض والصدود، وإقبالهم بالاعتذار والحلف والازدلاف.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾. أولئك النافرون عن حكم الله إلى حكم الطغيان والهوى والشيطان، وهم يزعمون أنهم من أهل الإيمان يعلم الله تعالى ما يستكن فى قلوبهم، وما يدفعهم إلى أعمالهم وخروجهم عن حكم الحق إلى حكم الهوى. والإبهام فى قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ للإشارة إلى خفائه إذ يخفونه ويبدون غيره، وإلى أنه شىء كثير من الفساد والانحراف النفسى يحكمون إخفاءه، وإلى تنوعه من رغبة فى الكيد والأذى، والتفريق بين المؤمنين، وممالة المشركين، وغير ذلك.

وإذا كان الله يعلم ما فى نفوسهم علماً دقيقاً، لا يغيب عنه شىء؛ لأنه وحده العليم بذات الصدور الذى لا يخفى عليه شىء فى السماء والأرض، فإنه سبحانه وتعالى مجازيهم فى الآخرة بأعمالهم ودوافعها المكنونة فى قلوبهم، إن استمروا على حالهم ولكن عليك أنت أيها الرسول أن تبلغهم الحق، وتدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أى: إذا كانوا كذلك من السوء فأعرض عنهم. وفى هذا النص بيان لطرق علاج المنحرفين فى نفوسهم إذا كانوا صالحين للعلاج، وهذه الطرق ثلاث مراحل متداخلة:

أولاهـا - الإعراض عنهم بالآ يقبل عليهم ليشعروا باستنكاره لأعمالهم، وأنه غير راض عنهم، وذلك فى غير جفوة؛ لأنه إن كانت الجفوة كان العناد، فلا يمكن أن يصل إلى المرحلة الثانية. وهذه المرحلة الأولى هى التى عبر عنها سبحانه بقوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

الثانية - الوعظ، وهو الزجر مع التخويف بسوء العاقبة والمآل ونتائج أعمالهم، فإن ذلك قد يدفعهم إلى التفكير، ومع التفكير فى العاقبة يفتح باب الهداية وسلوك الطريق المستقيم.

الثالثة - الاتجاه إلى جذبهم بقول بليغ يصل إلى قلوبهم، بأن يبين لهم العاقبة الحسنى في العمل بالحق، والخضوع لحكم القرآن المشتمل على شريعة الرحمن. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أنه يبلغ إلى كنه ما فى قلوبهم، فيصل إلى أعماقها ويوجههم توجيهًا حسنًا إلى ما فيه صلاح فى الدنيا والآخرة، وذلك بأن يورد النبى ﷺ القول على طريقة تجعلهم يقبلون قوله ولا ينفرون، فيقربهم ويدنيههم، ويأتيهم من قبل ما يألون إن كان حقًا.

وإن القول البليغ الذى يصل إلى كنه القلوب، يجب أن تتحقق فيه ثلاثة أوصاف: أولها، أن يكون المطلوب حقًا، والثانى، أن يكون اللفظ مستقيمًا، والمعنى سليمًا، فلا يصل إلى الحق إلا بالحق، والثالث، أن يكون القول منبعثًا من النفس، بحيث يؤمن القائل بصواب ما يقول، فإنه لا يؤثر إلا المتأثر.

هذه طرق الدعوة إلى الحق، هدايا الله إلى الطيب من القول وهدانا إلى صراط الحميد.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْتَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

ما قبل هذا النص الكريم كان فى وجوب إطاعة الله تعالى ورسوله، ووجوب إطاعة أولى الأمر الذين ينفذون حكم الله تعالى ويقومون على رعاية

شرعه، ويرجعون إليه في وفاقهم وفي اختلافهم. وكان فيما سبق أيضا بيان أن من يتركون حكم الله ورسوله، إنما يتحاكمون عند تركه إلى الظلم والطغيان؛ لأن ما جاء به الشرع هو الحق الذي لا شك فيه، وماذا بعد الحق إلا الضلال، وماذا بعد ترك حكم الله إلا حكم الطغيان!!

وفي الآيات التالية يبين سبحانه أن الالتجاء إلى حكم الله تعالى، عندما يكون الخلاف، هو من الإيمان، فمن ترك حكم الله إلى غيره عامدا مستهينا بحكم الله، أو منكر عدالته وصلاحيته، لا يعد مؤمنا ولا يعد آخذا بحكم الرسالة، ولذا قال سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومعنى النص السامي: لا نرسل أى رسول فى أى أمة، إلا كان من شأنه أن يطاع، وهذه الطاعة اللازمة على من أرسل إليهم هى بإذن الله بطاعته، فإله تعالى هو الذى بأمر بطاعته، ومن عصاه فإنما يعصى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ [النساء]. وفى الأثر الصحيح: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى»^(١) أى أن من يعصى الأمير المعين من قبل الرسول، أو الذى عين على مقتضى أحكام شريعته، فقد عصى الله، فليس كل أمير يعد أميرا للرسول.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ يدل على أبلغ عموم وأبلغ استغراق، إذ تأكد الاستغراق بالتنكير وبحرف (من) وبالنفى والإثبات، وإن هذا يدل على أن الطاعة هى مقتضى الرسالة، فأساس الإيمان بالرسالة الإيمان بأن ما يبلغ إنما يبلغ عن الله تعالى، ولقد أيد سبحانه وتعالى هذا المعنى وهو التبليغ عن الله تعالى بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فكل أمر يأمر به هو من الله تعالى، وكل ما

(١) سبق تخريجه قريبا.

ينهى عنه هو من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

ويجرنا الكلام في هذا إلى الكلام في اجتهاد النبي ﷺ: هل طاعته واجبة فيه بإذن من الله، وبعبارة أخرى: أهو لا يخطئ فتجب الطاعة، ويكون ما ينتهي إليه في الاجتهاد هو كالموحي به؟ والجواب عن ذلك أنه يجوز الخطأ على النبي ﷺ في الاجتهاد في بيان بعض الأحكام، ويجوز الخطأ عليه في القضاء إذا لبس الخصوم. والخطأ الأول قد وقع فقد اجتهد مع أصحابه في معاملة الأسرى، وخطأهم الله في اجتهادهم في ذلك الموضع^(١). وقد فرض عليه الصلاة والسلام جواز الخطأ في القضاء، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من البعض الآخر، فمن قضيت له بحق أخيه، فإنما أقطع له قطعة من النار»^(٢). ولكن الخطأ في الأحكام لا يمكن أن يقره الله تعالى عليه، بل يبينه، لسلامة النقل عن الله تعالى، وليكون كل ما يأمر به النبي ﷺ حقاً، ولتحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»^(٣). وكذلك لا يجتهد النبي ﷺ في قضائه

(١) أو ما إمامنا إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧). قال القرطبي: هذه الآية نزلت يوم بدر، عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ. والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطّ عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب؛ فالتويخ والعتاب إنما كان متوجهاً بسبب من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: الشهادات - من أقام البيعة بعد اليمين (٢٦٨٠)، ومسلم: الأقضية - الحكم الظاهر واللعن بالحجة (١٧١٣).

(٣) رواه ابن ماجه: المقدمة - اتباع سنة الرسول ﷺ (١) ولفظه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاتَّقُوا». وهو في الصحيحين؛ (١٣٣٧) البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الفضائل: ولفظه عند البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

ويكون باطلا؛ لأنه يكون ظلماً، ولا يقع منه عليه الصلاة والسلام، وقوله السابق في هذا من قبيل فرض التقصير في نفسه، كما فرض التقصير في كثير من أمره تنزهها عن الغرور، وتوجيهها لنا. ولعل قوله عليه الصلاة والسلام لتعليم الناس قول الحق في مجلس القضاء، وليبين لهم أن إثم خطأ القاضي يقع عليهم، والقضاء لا يبرر الباطل ولا يغمط الحق، فإن أخطأ لا يحل ديناً لمن كان الخطأ لمصلحته أن يأكل مال أخيه، أو يغمط حقه.

ولقد ذهبت الجراة ببعض الذين يتكلمون في الفقه إلى أن ما يكون باجتهاد من النبي ﷺ لا يكون حجة. كأن النبي يمكن أن يقر على الخطأ في اجتهاده! وذلك كلام باطل لا يكون إلا من مستهين بمقام النبوة، وتبليغ الرسالة! ولقد قال بعض المالكية وقولهم الحق: إن كل من لم يرض بحكم النبي ﷺ وطعن فيه ورده، فهي ردة يستتاب فاعلها. فأولى بهؤلاء أن يصمتوا ولا يتكلموا، فكلامهم تلبيس وأوهام لا تصدر عن عالم في الدين يفهم حقائقه، ويدرك معانيه!

طاعة الرسول إذن واجبة في كل ما يأمر به على أنه دين واجب الأخذ به، وكل من يعاند الرسول في حكمه يكون ظالماً لنفسه؛ لأنه تمرد على أمر ربه، ولأنه اختار الباطل بدل الحق، ويجب عليه التوبة والاستغفار. ولذا قال تعالى في أولئك الذين يتمرّدون على أحكام الرسول وقضائه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: لو ثبت أن أولئك الذين تحاكموا إلى الطغيان والظلم، من اليهود أو المنافقين، وظلموا أنفسهم بخروجهم عن جادة الحق ووردهم الحق الثابت، جاءوا إليك تائبين راجعين، فطلبوا غفران الله تعالى، وطلبت لهم ذلك، لعلموا علم اليقين أن الله كثير القبول للتوبة، رحيم بعباده، يفتح باب المغفرة ليدخلوه آمنين مطمئنين إليه، وما سلكوه من طريق الضلال يغفر لهم سلوكه؛ لأن الله تعالى يحب قبول التوبة ويحب المغفرة. وإن مثلهم كمثّل الناقة

الشاردة التي يراها صاحبها، يضع لها أسباب التقريب، فإذا عادت إليه فرح بعودتها، بيد أن أحدا من عباد الله لا ينفعه!.

وهنا إشارات بيانية يجب التنبيه إليها:

أولها- أن الله تعالى سمى الذين تحاكموا إلى غير الشرع ظالمين لأنفسهم، يستوى في ذلك من حكم له ومن حكم عليه؛ لأن تحكيم الطاغى الظالم هو بث للظلم ونشر له، وإذا شاع الظلم وكثر شاع معه الفساد والاضطراب، ومن فعل ما يؤدي إلى ذلك هو ظالم لنفسه، وظالم لجماعته التي يعيش فيها.

وثانيتهما- أن الله تعالى قرن الاستغفار من الرسول بالاستغفار له، ليشير بهذا إلى أن الرسول ﷺ لا يقول من عند نفسه، بل يقول عن الله تعالى، ولتكريم مقام الرسالة ومقام الحاكم العادل، فإن الإعراض عنه استهانة به، والاستهانة بالحاكم العادل تؤدي إلى الفوضى وعدم استقرار الأحكام.

والثالثة- أن قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الرُّسُولُ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، ويقول الزمخشري في ذلك «لم يقل: (واستغفرت لهم) وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيما لشأن رسول الله ﷺ، وتعظيما لاستغفاره. وتنبيها على أن شفاعته من اسمه رسول من الله بمكان». فالالتفات كما نرى للتنبيه إلى مكانة الرسالة، وتفخيمها، ولبيان أن شفاعته الرسول بمقتضى كونه رسولا، لها مقامها من الله تعالى، وفوق ذلك أن الالتفات يؤدي إلى أن يكون الاستغفار للرسول بوصف أنه رسول، فالباعث على وجوب الاستغفار له هو أنه يبلغ رسالة الله، فترك حكمه استهانة بحكم الله، وهو رسول الله، ورسول الله له حق الكرامة الكاملة.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

﴿شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ معناها تنازعوا فيما بينهم، واختلط الحق بالباطل، وتشابكت الأمور كما تشابكت غصون الأشجار، وإن التحاكم يكون في مثل هذه الأمور التي

تشابك فيها عناصر الحق والباطل، ويلتبس بعضها ببعض، ولا يعرف الحق الصريح الواضح من بينها، ويميزه الحاكم العادل الفاحص، الذي ينظر إلى الأمور بعمق، وتدبر، وقوة فراسة، وعزيمة على الحق، وطلبه بإخلاص لا هوى.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أيها النبي الكريم، لا يؤمنون، ولا يعدون في عداد المؤمنين، حتى يحكموك فيما يكون بينهم من خلاف، فإن من أول مظاهر الإيمان والإذعان للحق الرضا بتحكيم الشرع في الخلاف.

وهنا ثلاثة بحوث لفظية:

أولها: (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ ونقول إنها فاء الإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، ومعنى الكلام: إذا كانت طاعة الرسول واجبة بحكم أنه رسول من عند الله، فإنهم لا يؤمنون برسالته حتى يرتضوا التحاكم إليه.

ثانيها: (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ قال الزمخشري إنها زائدة لتقوية الكلام، فيكون النص كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر] وقد قال الطبري إن «لَا» ليست زائدة، وإنما هي رد على ما تقدم ذكره من تحاكمهم إلى الطاغوت وتركهم حكم الشرع، وقد قال في ذلك: «قوله (فَلَا) رد على ما تقدم ذكره، تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ثم استأنف القسم بقوله ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾».

ثالثها: أن الله سبحانه وتعالى أقسم بذاته العلية، ولكنه أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ فقال: ﴿وَرَبِّكَ﴾ أيها النبي، تكريما لذات النبي ﷺ، وإعلاءً لشأنه، وجواب القسم هو قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومن هذا النص السامى يتبين أن أول مظهر من مظاهر الإيمان الرضا بحكم الشرع، ولكن الرضا وحده ليس كافيا بل لا بد من أمرين آخرين، وهما أن يكون الرضا عن طيب نفس من غير حرج ولا ضيق، وثانيهما التسليم والخضوع لحكم الشرع. وقد قال سبحانه وتعالى في ذلك:

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ الحرج الضيق والتلملل من الحكم أو الشك في صحته، والمعنى: أن من مظاهر الإيمان أن يقبلوا التحاكم إلى النبي ﷺ ابتداء، وإذا صدر الحكم لا يشكون في صحته، ولا يضيقون ويترمون به، بل يتقبلونه بقبول حسن؛ لأن قبول الأحكام على أنها من عند الله ينهى الخصومات، ويلقى بالسلام بعدها؛ لأنهم تحاكموا إلى ذي الجلال والإكرام. وقد تكلم العلماء في العطف بـ «ثُمَّ» بدل الفاء أو الواو، فقال إن «ثُمَّ» تدل على التراخي، وكأن الله يغفر لهم الإثم الذي يصيبهم عند صدمة الحكم لهم بالنطق به، ولكن عليهم أن يروضوا أنفسهم على القبول والإذعان، من غير ضيق ولا تلمل، لكي يكون الحكم حاسما للخلاف قاطعا للنزاع.

﴿وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا﴾ هذا هو الوصف الثالث لأهل الإيمان بالنسبة لأحكام الشرع الشريف. والتسليم معناه الانقياد والإذعان التام في المظهر والحس. وإذا كان الوصف الثاني لبيان الخضوع النفسي، فهذا الوصف الثالث لبيان الخضوع الحسي الظاهر. وقد أكد سبحانه وتعالى التسليم بالمصدر فقال «تَسْلِيمًا» للإشارة إلى وجوب الإذعان المطلق من غير أن يثيروا أى شبهة حول الحكم، ولا أن يماروا فيه مرأً ظاهراً، فإن المرء قد يثير نزاعاً جديداً، والقضاء يجب أن يكون حاسماً قاطعاً.

وأصل التسليم هو تقديم النفس، وجعلها خالصة لمن يسلم إليه. يقال: سلمَ لأمر الله وأسلم له. إذا جعل نفسه خالصة لله تعالى، ثم أطلق التسليم على الانقياد الظاهري، وعدم الممارسة فيما يقرره الشرع من حقوق وواجبات.

ويجب التنبيه إلى أن التحاكم إلى النبي بعد وفاته هو التحاكم إلى كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ، فيجب أن يعلم كل من يُسمى نفسه مسلماً أن الله تعالى يقرر أنه لا يؤمن من لا يتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، ثم لا يجد ضيقاً في حكم الشرع، بل يرضى به، وينقاد له انقياداً ظاهراً وباطناً. وإذا كان ذلك ما يقره الشرع، فليعلم المسلمون اليوم مكانهم من الإيمان، وقد ارتضوا حكم القوانين

الأوروبية بدل كتاب الله وسنة رسوله، وإذا دعوا إلى حكم الله ضاقت صدورهم حرجاً، وتعلموا ولم يسلموا، بل يناوئون ويعاندون؛ إذ هم يؤمنون بما عند الأوروبيين أكثر من إيمانهم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ لَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْتُهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

الآيات السابقة بينت أحوال المنافقين وصفات الإيمان، وأن مظهر قوة الإيمان إطاعة الله ورسوله، والرجوع إلى الكتاب والسنة عند الاختلاف، وتحكيمهما في كل أمور الحياة التي تحتاج إلى حكم وفصل. وأقسم الله بذاته العلية التي خلقت كل ما في الوجود، وقامت عليه بالحفظ، ألا يكون الإيمان الكامل إلا لمن يُحكم الله ورسوله في كل الخصومات، ويدعن للحكم من غير تملل، ولا تردد. وفي هذه الآيات يبين أن الذين يذعنون لأمر الله ونهيه، حتى في النفس وترك الأهل، قليلون، وليسوا كثيرين، وهم الذين تقوم عليهم قوة الأمة، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ معنى قتل النفس تعريضها للتلف من غير أمل في النجاة، ويكون في ذلك إعلاء للحق، ونصر للفضيلة ورفع شأنها، كهذا الذي ينطق بكلمة الحق أمام سلطان جائر ويتأكد أنه سيقته إن قالها! ولذلك قال النبي ﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله»^(١)! ومن هذا أيضا أن يحمل على النطق بالكفر، فيمتنع فيقتل! نعم إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل]، فرخص له بالنطق بكلمة الكفر، ولكن الأفضل ألا يقول، وهو مثوب إذا أصر ولم يقل، ففي هذه الأحوال يكون التعرض للقتل فضيلة مشكورة؛ لأنه إعلان للناس بأن للحق أنصارا يفتدونهم بأنفسهم، وفي ذلك تحريض على تأييده وهو دعوة صارخة له.

ومعنى الخروج من الديار: الهجرة من البلد منصرفين للجهاد في سبيل الله تعالى، وذلك إذا لم يكونوا مستضعفين في الأرض، محكومين بغير المسلمين.

ومعنى النص الكريم: لو ثبت أننا فرضنا عليهم أن يعرضوا أنفسهم للتلف من غير أمل في النجاة، أو يخرجوا من موضع استقرارهم وأمنهم في ديارهم، إلى حيث المشقة الشديدة والعمل الكادح، ما استجاب لهذه الفريضة إلا عدد قليل من الناس، وهذا يشير إلى أمرين:

أولهما: أن التكاليف الشرعية لا تكون إلا فيما يطاق من غير مشقة مجهدة، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ [البقرة]، والتعبير بـ (لو) يدل على أن التكليف لا يقع على هذا؛ لأن (لو) كما يقول العلماء تدل على امتناع الشرط لامتناع الجواب، فالله تعالى لو يكلف ذلك التكليف لثقل التكليف إلا على عدد قليل منهم.

الثاني: أن في كل طائفة عددا يقوم بذلك الأمر الشاق، فهؤلاء المؤمنون الأولون قد صبروا على أذى المشركين في مكة من غير وهن ولا ضعف، ومنهم

من مات تحت حرّ العذاب الشاق، ثم هاجروا وخرجوا من ديارهم، وهؤلاء أصحاب الأخدود الذين آذوا المؤمنين، فصبّروا، وهم يلقون فى النيران وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ النّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ [البروج].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا﴾ وإذا كان الله سبحانه لا يكلف ما يشق أداءه، ولا يمكن احتماله، إلا لعدد من الأقوياء جعلوا منار الهدى أمام الناس فى كل العصور، فإنه سبحانه يكلف الناس ما فيه خيرهم وتثبيتهم على الحق.

ومعنى النص السامى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: لو ثبت أنهم فعلوا ما يكلفونه من تكليفات محتملة بينت لهم فيها نتائجها وثمراتها، لكان فيها الخير لهم فى الدنيا والآخرة، ففى الآخرة يكون الثواب العظيم والنعيم المقيم، وفى الدنيا يكون العدل والفضيلة، والمصلحة الحقيقية، وهذه الأمور هى خير الدنيا. فالشرع الإسلامى بنى على هذه الأمور الثلاثة: الأول الفضيلة الملهذه للنفس، الموجهة إلى توثيق العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، والعبد وربّه، والسعى نحو الكمال الإنسانى، والمنزلة الرفيعة. والثانى العدالة التى هى الميزان فى العلائق الإنسانية التى يتنظم بها معاشهم ومعادهم، والثالث المصلحة الحقيقية، فما من مصلحة حقيقية ليست هوى ملحا ولا شهوة جامحة - إلا دعا إليها الإسلام، وما من حكم جاء به التكليف الإلهى إلا طويت فيه المصلحة، وكانت نتيجة وثمرة للأخذ به.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَشَدُّ تَنبِيئًا﴾ أى يكون فى الأخذ بالتكليف الذى يطاق تثبيت على الحق، هو أشد تثبيت وأقواه. وكان فى التكليف الذى يطاق تثبيت للحق، لأنه يمكن الاستمرار عليه، والاستمرار على فعل ما هو حق يشته ويقرب الغاية منه، ولذلك كان النبى ﷺ يدعو إلى المداومة على الخير ولو كان

قليلا، وقد قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(١). وإن الاستمرار على طاعة الله يؤدي إلى مثلها، وإن الاستمرار على السهل يجعل المكلف قادرا على الصعب، ثم على الأصعب، وهكذا حتى يصل إلى أعلى درجات التكليف مشقة، فيكون بعد هذه الخطوات أمرا مستطاعا. وإذا وصل إلى ذلك يكون الأجر العظيم، لذا قال سبحانه:

﴿وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وإنما قام المكلفون بما كلفوا، وأدوا حق الله تعالى، وقد زاد ثباتهم على الحق، ونالوا الخير، فإن لهم مع ذلك جزاء عظيما، لا حدود لعظمته. وقد تأكدت عظمة الجزاء بأمر ثلاثة: أولها - تنكيره، فهذا التنكير يشير إلى أنه غير محدود بحدود، فهي عظمة أقصى ما يصل إليه الخيال. ثانيها - أنه قال إن ذلك من لدن الله تعالى، وهذا شرف إضافي لهذا الجزاء، وهو جزاء يعلو على كل جزاء من الناس، ثم إنه جزاء يستهان في سبيله كل أذى. وثالثها - الوصف بالعظمة، والذي وصفه بذلك هو الحكيم الخبير، والخالق العظيم.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ الصراط هو الطريق، والمستقيم هو الذي يوصل إلى غايته أو هدفه، ويقول علماء الهندسة: إن الخط المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين، فالصراط المستقيم هو أقرب طريق يوصل إلى الحق، والهداية هنا هي التوفيق لأقرب طريق موصل إلى الله تعالى. ومعنى النص الكريم: من أجاب داعي الحق، وقام بالأوامر والنواهي على وجهها الأكمل، وفقه الله تعالى إلى طريقه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ويصل بذلك إلى القرب من الله تعالى، فإن الذي يتقرب إلى الله تعالى بالطاعات يصل إلى إدراك نوراني لحقائق العبودية. ولقد قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: (يصلون بسلوكه جناب القدس، ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم

يعلم»^(١)، وإنه قد ورد أن العبد يتقرب إلى الله تعالى بنوافل الطاعات حتى يصير الله تعالى بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به).

وإن الأساس في الارتفاع إلى هذه المقامات العليا هو طاعة الله وطاعة رسوله، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة فضل الطاعة وجزاءها، وهو أجر عظيم، وهداية إلى الطريق الذي يوصل إلى القدسية ومرتبة المشاهدة لله تعالى، وعظمته التي ذكرها النبي ﷺ في قوله: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢) وفي هذه الآية الكريمة يذكر لهم جزاء آخر، وهو كرم الصحبة في الدنيا والآخرة، فهم إذ يسرون في الصراط المستقيم الموصل إلى الله يكونون في قافلة الأطهار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما أحسنها رفقة طاهرة كريمة طيبة!!

والإشارة في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى أولئك السابقين الذين أعطاهم الله سبحانه الأجر العظيم، وهداهم للوصول إلى مرتبة السُّمُو، ومشاهدة المعاني القدسية، وكرر ذكر الطاعة فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لأن هذه الطاعة هي الأساس في هذه الأجزاء المجزية، الرافعة السامية الهادية، وفي تكرارها تحريض عليها، ودعوة إليها.

وقد ذكر سبحانه أن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين قد أنعم عليهم، وإن ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه، ففيهم جميعا نعم ثلاث قد اختصوا

(١) أبو نعيم في (الحلية) من حديث أنس بهذا اللفظ. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعا: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا فَعَمِلَ بِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعَلِّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ». وفي كتاب (رواية الكبار عن الصغار) لأبى يعقوب البغدادي عن سفيان: «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَفَقَّ لِمَا لَا يَعْلَمُ». الدرر المنتشرة ج ١، ص ٧٩٣ برقم (٤٢٢).

(٢) سبق تخريجه.

بها: أولاهما - نعمة الهداية والتوفيق، وتلك هي الأساس. والثانية - نعمة إدراك معاني الربوبية والعبودية، فهم يحسون بعظمة الخالق المنشئ، كما يحسون بعظمة المعبود، ويذوقون طعم الخضوع لله الواحد الأحد الذي ليس بوالد ولا ولد. والثالثة - نعمة العمل الصالح. وتلك النعم هي معاني الإنسانية العالية التي تسمو عن كل مظاهر الحيوانية، وما بقى منها فإنه تقوى به هذه المعاني العالية، وتلك النعم السامية.

ومن هم أولئك الرفقاء الأطهار؟ إنهم مراتب ودرجات، وهم أربعة:

أولهم: النبيون، وهم الذين أنبأهم الله، واختارهم ليخبروا عنه سبحانه، ويبلغوا الناس شرعه ويفسروه، وإن من يبلغ في محبتهم وطاعتهم يكون معهم، لأن النبي ﷺ يقول: «المرء مع من أحب»^(١).

وقد روى ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبيرة أنه قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال: يا رسول الله، شيء فكرت فيه! فقال الرسول: «ما هو؟ قال: نحن نغزو إليك ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك! فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية. وروى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: «إنك لأحب إليّ من نفسي، وأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإنى لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى أتى، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى عرفت أنك إن دخلت الجنة رفعت مع النبيين فخشيت ألا أراك. فنزلت الآية الكريمة»^(٢).

والذي يعيننا في هذا أن من يحب الله ورسوله يكون مع حبيب الله محمد ﷺ وغيره من الأنبياء الأطهار.

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأدب - علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨)، ومسلم: البر والصلة - المرء مع من أحب (٢٦٤١). عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدی وهو ثقة. عن عائشة رضى الله عنها. مجمع الزوائد (١/٧٣٩).

والفريق الثاني من قافلة الأبرار، الصديقون، ومرتبهم تلى مرتبة النبيين، والصديقون جمع صديق، وقد فسر العلماء الصديق بأنه الصادق الذي لا يكذب، وقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: الصديق من كثر منه الصدق، وقيل: يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده، وحقق صدقه بعمله. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ [مريم] وقال: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ... ٧٥﴾ [المائدة] وقال: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

وإن هذه المعاني متلازمة، فمن صدق في قوله لا يكذب قط؛ إذ يصير الصدق عادة نفسية له، فلا يتأتى منه الكذب، ولقد قال النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(١).

وإن الصدق في القول إذا صار عادة نفسية زكت النفس وطهرت، واستقام الفكر والعمل، وصار يدرك الحق لذات الحق، ويتجه إلى طلبه من غير التواء، فيدركه من غير طلب حجة ولا برهان؛ لأن أمارات الحق تلوح له، ويدركها بنور قلبه. وكذلك كان صديق هذه الأمة أبو بكر رضي الله عنه، وقد روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له نظرة، غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم»^(٢).

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ (ابن مسعود) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا». [رواه مسلم: البر والصلة والآداب - قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧)، كما رواه البخاري بلفظ مقارب: الأدب - قول

الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦٠٩٤)].

(٢) رواه الديلمي عن ابن مسعود. كما في كنز العمال (٣٢٦١٢).

وإن زكاء النفس بمداومة الصدق يؤدي إلى سلامة الاعتقاد، وصحة العمل، وإلى المداومة على تعرف عيوبها، فيكون الصدوق سليم النظر في كل شيء لم يلبس بباطل، وبذلك يكون الصديق لا يتأتى منه الكذب، ويسلم قلبه كما سلم لسانه، ويصح اعتقاده كما يصلح عمله.

والفريق الثالث من قافلة البر، هم الشهداء، وهم الذين شهدوا الحق وعلموه علما كعلم المعاينة والمشاهدة، فهؤلاء يشهدون بالحق، ويعلنونه ويدعون إليه، فهم الذين قال الله تعالى في أمثالهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة]، فهم حضور الحق والشاهدون به والداعون إليه، وإن من أولئك بلا ريب الذين يقتلون في الجهاد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمة الحق، قاصدين وجه الله بقتالهم؛ لأنهم شهدوا الحق وأعلنوه، وضربوا الأمثال على افتدائه بأنفسهم، وشهد الله تعالى لهم بالجنة.

والفريق الرابع الصالحون، وهم من صلحت نفوسهم وأعمالهم، فهم صالحون في الباطن والظاهر.

هذه القافلة المكونة من هذه الطوائف الأربع، هم أهل الإيمان حقا وصدقا، وهم رفقاء الخير، ورفقتهم أحسن النعم، ولذا قال سبحانه:

﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ الرفيق هو صاحب الذي يلازمك في عمل أو سفر، وسمى رفيقا لأنك ترتفق به وتستعين، ويعاون كل منكما صاحبه، ويأتنس به في العمل والسفر والملازمة بشكل عام. والرفيق هنا ذكر مفردا واستعمل في معنى الجمع، فالمعنى: وحسن أولئك رفقاء! وإنما أفرد لأن الحسن في ذات الرفقة، ولأن المصاحبة إفرادية، فكل واحد يصاحب الأحاد والجمع، فهم جميعا في معنى رفيق واحد، لتشاكل النفوس وتوافقها. وقال الزمخشري: إن (حَسُنَ) في معنى فعل التعجب، فالمعنى: ما أحسن وأطيب رفقة هؤلاء! ولذلك كانت نعمة أنعم الله بها على عباده المخلصين. وهي من فضله.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ الإشارة إلى كل ما ذكر من جزاء على طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ، من أجر عظيم، وهداية إلى الصراط المستقيم، ورفقته مع الأخيار الأبرار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هذا كله فضل من الله تعالى العلى الكبير، وعطاء منه، ورحمة يرحم بها المتقين، وهو العليم بكل ما يعملون من خير، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع البصير. فقله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ فيه بيان أنه يعلم سبحانه من يستحق فضله وعطاءه ومن لا يستحق، وفيه إشارة إلى أن الطاعة هى طاعة العالم بكل شيء، فالطاعة فيها مصلحة للعباد؛ وكون الجزاء بفضل الله فيه إشارة إلى أن العمل وحده لا يستوجب العطاء، إنما هو من فضل الله تعالى. ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «لَنْ يُنْجَى أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته. سدودا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة (أى من قيام الليل) والقصد القصد تبلغوا»^(١). اللهم اختم لنا بخير ما نعمل، ونحنا بفضل رحمتك من سوء أعمالنا، إنك ذو الفضل العظيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَإِنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطُنَّ
فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ

(١) رواه البخارى: الرقاق - القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣)، ومسلم بنحوه: صفة القيامة والجنة والنار - لن يدخل أحد الجنة بعمله (٢٨١٦). عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فَوَزًّا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

فى الآيات السابغات بين الله سبحانه وتعالى دعائم الحكومة الإسلامية
الوثيقة الأركان، فذكر لها ثلاثة أوصاف:

أولها - أن تسودها الأمانة فى القول والعمل والمال، فلا تقوم حكومة قوينة
إلا إذا كانت الأمانة هى السائدة بين الحكام والسائدة بين الشعب، والسائدة فى
العلاقات بين الشعب والحكومة. فإذا لم تكن الأمانة فسد أمر الحاكم والمحكوم،
وضاعت الأمة.

وثانيها - العدل، فهو ميزان الجماعة وميزان الحكم. ولقد كان العدل شعار
الإسلام وسيماء ومعناه، فإذا كان لكل دين سمة واضحة فيه، فسمة الإسلام
العدل من العدو والولى على سواء. ولا تقوم أمة إذا لم يقم بينها العدل، واحترام
الحقوق التى قررها الله تعالى، ومنحها لعباده.

وثالثها - الرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، واتخاذهما
الحكم المرضى للحكومة دائما، لا يأخذ أحد منهما ما يحب ويدع ما لا
يحب.

وإنه يجب أن يكون للأمانة مجلس للحل والعقد يستشير به الحاكم ويشير
عليه، فإن اختلف أهل الحل والعقد، احتكموا إلى كتاب الله تعالى، يشير إلى
ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿٥٩﴾ [النساء].

وفى الآيات السابقة أكد الأمر بطاعة الله تعالى، وبين أن أعلى الدرجات أن يطيع المؤمن الله ورسوله، ولو أمره بأن يتقدم لإعلان الحق والنطق به، وهو يعلم أنه سيقتل.

وإذا تكونت الأمة ذلك التكوين العادل الأمين، تقدمت للدفاع عن نفسها، ولذلك جاء بعده أخذ الأهبة للقتال، فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ يا أيها الذين أذعنوا للحق، واستجابوا لله ولرسوله، خذوا الأهبة بالحذر واتقاء أذى الأعداء، وكونوا متأهبين للقاء دائما، ولا يكن أخذ الحذر والاحتراس بالقعود فى الديار، بل بالنفرة والاستعداد لمواجهة الأعداء فى الميدان. فعلى المؤمنين أن ينفروا للحرب، جماعة بعد جماعة، تمر بالثغور التى تواجه الأعداء، أو تلاقى من تستطيع لقاءهم. أو إذا تكاثف العدو فى مكان، وأصبحت لا تكفيه جماعة الجند العامل، فلينفجر الجند كله، وليتقدم للميدان بكله^(١)، وهذا معنى النص الكريم بالإجمال ولنتجه إلى تحليل بعض العبارات من ناحية اللفظ والمعنى.

وأولى هذه العبارات قوله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، فقد قال الزمخشري: «إن الحِذْرَ والحِذْرَ معناهما واحد، ويقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترس. ومعنى خذوا حذرکم، أى خذوا ما فيه الاحتياط لكم، ودفع كل مخوف عنكم»، وقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: «أن من أخذ الحذر تعرف حال البلاد الإسلامية، وتعرف حال بلاد الأعداء، أو من يتوقع منهم الاعتداء، وتعرف بلاد المعاهدين وغيرهم، بحيث إذا اضطروا إلى الحرب كانوا عالمين بمواطن قوتها وأماكن ضعفها». وذكر رضى الله عنه «أنه يدخل فى الاستعداد وأخذ الحذر، واتقاء كل مخوف معرفة الأسلحة واستعمالها فإذا كان ذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجر الأثقال، فإنه يجب تحصيل ذلك». ولقد قال الإمام هذا فى أول هذا القرن الذى يعيش فيه، وهو ألزم فى هذا العصر الذى

(١) الكلكل: الصدر من كل شىء. لسان العرب.

كشف ابن الأرض فيه الفضاء، وصارت الحرب لا تكون بشجاعة الشجعان، بل تكون بالأدوات وغيرها. . ولقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد يوم حرب اليمامة: «حاربهم بمثل ما يحاربونك به!» فعلينا أن نعد العدة بمثل ما يعدون، وقد ابتكروا ما يخرب الديار، فعلينا أن نعمل بهذا الابتكار، فإن الشر لا يدفع إلا بمثله. والله من ورائهم محيط.

والثانية فى قوله تعالى: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾، فمعنى انفروا: اخرجوا إلى ميدان القتال أو الحراسة. وقالوا: إن نفر ينفر معناه انزعج وخرج إلى عمل من الأعمال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة]، ومصدره النفر أو النفار أو النفير، والأخير قد يطلق بمعنى الجماعة النافرة. وقالوا إِنَّ نَفَرًا يَنْفَرُ - معناها انزعج عن الشيء، ومنه النفور من الأمور ونفور الدابة. (وثُبَات) جمع ثُبَّة، وهى فى الأصل ثُبِيَّة، حذفت الياء، ووزنها فعة. ويقال: ثببت الجيش، جعلته ثبة ثبة، أى جعلته جماعة متفرقة، كل واحدة لها مقصد خاص، وعمل تقوم به، اقتضاه توزيع القوى.

والنفير جماعة جماعة، هو الحال الدائمة المستمرة، فيجب أن تكون حراسة مستمرة للحدود والثغور، وهى المراقبة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران].

وأما النفير العام فلأنما يكون عند قيام الحرب التى لا تكفى فيها كتيبة، أو كتيبتان، أو كالتعبير التاريخى فى الإسلام: سرية أو سريتان أو أكثر، بل لا بد من الجيش المحارب كله والأمة من ورائه تؤيده وتؤازره.

ولكن ما المراد من النفير جميعا؟ أهو الجيش المحارب كله، أم نفير الأمة كلها؟ لا شك أنه إذا لم تغن السرية وجب أن يتقدم الجيش كله، وتقدم الجيش كله هو فى معنى نفير الأمة كلها؛ لأن الأمة عليها أن تكون الجيش المقاتل، تؤازره وتؤيده بالمال والقول والعمل، وتكون من وراء ظهره تدفعه إلى العمل وتحميه من

كل خيانة. فإن تكوين جيش مسلح كاف فرض كفاية على كل المسلمين، تأثم الأمة كلها إذا تركت تكوينه. ثم إذا دخل العدو الديار صار الواجب أن ينفر كل قادر من الأمة، وإلا كانت كلها مقصورة، ويكون الخروج فرض عين، وحين ذلك تنفر الأمة كلها حقيقة لا حكما.

إن هذا واجب المخلصين في الأمة، وفي كل أمة معوقون يقولون: هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا! ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

وإن ممن يعيشون معكم ويساكنونكم ويرتبطون معكم برحم واصله، ويعلمون اسم الإيمان لمن يتأقلون عند الدعوة إلى القتال، فيطئون ولا يخرجون، يبطئون غيرهم ويشبطونهم. وهؤلاء لا ينظرون إليكم نظرة المحب الذي يودكم، بل يترقبون الأمر معكم، فإن أصابتكم هزيمة وقتية، أو استشهد عدد منكم، لا يتألمون، بل يفرحون، ويعتبرون قعودهم نعمة أنعم الله بها عليهم، ويحمدون الله تعالى إذ لم يكونوا حاضرين هذه الحرب!! فمعنى ﴿شَهِيدًا﴾ حاضرا الحرب، يقاتل فيقتل أو يُقتل.

ومن هم هؤلاء؟ أهم المنافقون، أم ضعاف الإيمان؟ قال أكثر مفسري الرواية: إنهم منافقون، وذلك شأنهم. والتعبير بـ «منكم» يحتاج إلى توفيق بين هذا وقوله تعالى في شأن المنافقين: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة]، والتوفيق أن يقال هنا إن المراد بقوله منكم، أى من أهلكم وعشيرتكم وتربطكم بهم رحم؛ فكل منافق كان في قرابته من هو صادق الإيمان، مجاهد في الله حق جهاده. ويزكى هذا قوله تعالى في الآية الآتية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾.

وبعض المفسرين رأى أن المراد ضعاف الإيمان، ومن ليست عندهم عزيمة الجهاد، وذلك موجود في كل جماعة، ففي كل جماعة المؤمن القوى في نفسه ودينه، ومنهم الضعيف في نفسه وهيمته ودينه.

والحق أنه يصح أن يشمل التعبير الطائفتين: المنافقين وضعاف الأنفس والإيمان، فكلا الفريقين لا يهमे إلا نفسه، ولا يندمج إحساسه في إحساس أهل الإيمان، فهو متربص منتظر، فإن وجد هزيمة لا يآلم، بل يسر لأنها لم تصبه؛ إذ لا يعتبر آلام جماعته إيلا ما لنفسه، وإن وجد نصرا تألم؛ لأنه لم يكن من الغائمين الذين اشتركوا في المعركة، ونالوا الفوز فيها؛ ولذا قال سبحانه وتعالى في شأن هؤلاء في حال النصر:

﴿وَلَمَّا أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ولئن نلتهم نصرا وغنما بفضل الله تعالى، لا يفكرون في سروركم ولا يحمدون الله على نصركم، ولكن يفكرون في أمانيتهم، ويتمنون أن لو كانوا معكم ليفوزوا الفوز العظيم الذي نلتموه، وهو فوز النصر وفوز الغنيمة، فوز الاطمئنان وأداء الواجب، يفكرون فيما ينالهم من خير يرجونه، أو آلام يتجنبونها، ولا ينظرون إلى آلامكم وسروركم، كأن لم يكن بينكم وبينهم أية مودة، ولو كانت ضئيلة!! فتتكبر المودة لبيان تصغيرها، وهذا شأن الأثر الذي يحب نفسه فقط، ولا يفكر في الجماعة التي يعيش فيها.

وهنا ثلاثة بحوث لفظية ومعنوية:

أولها: التعبير عن هذه الجماعة، المناققة أو ضعيفة الإيمان، بالمفرد اتباعا للفظ (مَنْ) الذي يجوز عود الضمير عليه مفردا. وفي هذا التعبير إشارة إلى معنى الانفراد في الإحساس الذي اختصوا به، ولم يشاركوا أحدا في إحساسهم بالآلم أو السرور.

وثانيها: التعبير بقوله: ﴿أَصَابَكُمْ فَضْلٌ﴾ فإن التعبير بإصابة الخير مع أنهم نالوه، للإشارة إلى أن ذلك إرادة الله تعالى، فإن أصابكم ما يؤلمكم فيإرادته، وإن نلتهم من خير فيإرادته وبفضلته.

وثالثها: إن قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ جملة معترضة بين القول ومقوله، للإشارة إلى فقدهم الإحساس الاجتماعي فقدا تاما، الذي

يجعل مودة أيا كان مقدارها بين المتعاشرين أو المتجاورين أو المتجانسين! لقد فقدوا هذا فقدا تاما، وهذا شأن كل من يفصل عن جماعته بالإحساس والأنانية الخسيسة!!

وفى قوله تعالى: ﴿فَوْرًا عَظِيمًا﴾ إشارة إلى استعظام الخير الذى ينال المؤمن، شأن الحسود غير المحب.

وإن هؤلاء الذين يعيشون مع جماعة المؤمنين، ولا يحسون بإحساسهم، لا يخرجون إلى قتال، وإنما يخرج للقتال أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم، ويقدمونها لله تعالى رجاء ما عنده، فهؤلاء هم القوة، وهم العماد فى الحروب والشدائد، ولذا قال سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ إذا كان المخذلون يترصبون بالمجاهدين، فإنه يجب أن يكون الجهاد للمخلصين، وأن يعدوا عنهم المعوقين، فإنهم لا يزيدونهم إلا خبالا واضطرابا! فليتقدم للقتال الذين لا ينظرون إلى مغنم يتغون، ولا مال يريدونه، إنما يبيعون الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها، ويطلبون ثمنا هو الآخرة وما فيها من جنات وعيون، ونعيمها ثابت دائم، ومعها رضوان الله تعالى. وسبيل الله التى يجب القتال فيها هى سبيل الحق، وإعلاء دينه، وجعل كلمة الله هى العليا.

و «يَشْرُونَ» هنا معناها يبيعون أنفسهم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة ٢٠٧] وقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف ٢٠] أى باعوه. وإن الذى يبيع نفسه لله، ليفتدى الحق وأهله، له جزاؤه وأجره العظيم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ومن يتقدم للقتال في سبيل الحق، طالبا رضاه سبحانه، فإن قتل واستشهد في سبيله سبحانه، أو غلب وانتصر بتأييد الله تعالى، ونال السلطان من الله بالغلب، فهو في كلتا حاله سينال جزاء عظيما. و«سوف» هنا لتأكيد نيل الجزاء في المستقبل، وأكثر استعمالاتها في القرآن هي لتأكيد الوقوع في القابل، ولذا لا تدخل على النفي. وقد وصف الجزاء بالعظم للدلالة على مقداره، ونكر للدلالة على أنه لا يحده تعيين، ولا يبينه تعريف، مهما يكن دقيقا.

وإنما ينال ذلك الجزاء من خرج مجاهدا في سبيل الحق، لا يبتغي غير رضاء الله، ولا يبغي علوا في الأرض ولا تفاخرا. ولقد قال ﷺ: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يَخْرُجُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصَدِيقًا بِرَسُولِي، فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١).

اللهم هب أمتك روح الجهاد في سبيل الحق، وهبنا رحمة من عندك، إنك أنت الوهاب.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

(١) رواه مسلم: الإمامة - فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦)، والبخاري بلفظ: «تكفل الله»: فرض الخمس - أحلت لي الغنائم (٢١٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الآيات، وما يليها من آيات كريمات، للحض على الجهاد فى سبيل الله وقد ابتدأ بدعوة المؤمنين لأخذ الأهبة، والنَّفَرَةَ للجهاد فى سبيل الله وإعلاء الحق، والحفاظ على جماعتهم، وحماية أنفسهم، وأخذ الحذر لكيلا ينقض عليهم أعداؤهم.

وإنه فى سبيل الاستعداد أن يعدوا عن حسابهم أولئك الذين يثبطون عن القتال ولا يحتسبوا فى عدادهم إلا أولئك الذين باعوا أنفسهم لله، وباعوا متع الحياة الدنيا، لينالوا نعيم الآخرة.

وفى هذه الآيات يحض على القتال بتذكيرهم بشرف ما يجاهدون من أجله، وهو رضا الله، وإعلاء كلمة الحق، ويذكرهم بإخوانهم الذين يرهقون بالظلم، ويعيشون مستضعفين أذلاء، لا يجدون وليا يلى أمرهم، ولا نصيرا ينصرهم ويستقذهم مما هم فيه من بلاء، ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾
أى شىء ثبت لكم، حتى صرتم فى حال لا تقاتلون فيها فى طريق الله طريق الحق الصحيح، والدين الذى لا شك فيه، والهداية التى فيها خير الإنسانية فى الدنيا، وحسن المآل فى الآخرة، ولا تقاتلون فى سبيل أولئك الذين استضعفوا لعدم وجود من ينصرهم، فضعفوا، وهانوا على أولئك الظالمين، وإن لم يهونوا عند الله سبحانه وتعالى، وعندكم أنتم أهل الحق والإيمان.

وأولئك المستضعفون الذين أراد المشركون إضعافهم وإذلالهم، منهم الرجال الذين سلبوا كل حول وقوة، وصاروا أذلاء، ومنهم النساء اللاتى لا قدرة لهن بحكم الأنوثة ومنهم الذرية الضعاف.

وهنا بحوث نحوية وبلاغية، لا بد من الإشارة إليها.

أولها: موضع ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من الإعراب، وقد قيل: إن (ما) دخلت على فعل محذوف يتضمن الكلام معناه ويقتضى تقديره، ويكون

المؤدى ما يثبت لكم حال كونكم لا تقاتلون فى سبيل الله، فقوله سبحانه: ﴿لَا تَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استفهام إنكارى، وموضع الاستنكار أنهم لا يقاتلون فى سبيل الله مع توافر دواعى القتال من الإيمان وحماية من تجب حمايتهم بحكم الشرف، والكرامة الإنسانية.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ فإنهم قالوا إن القتال لاستنقاذهم قتال فى سبيل الله، فلماذا ذكر بعد القتال فى سبيل الله، وهو يشملهم؟ وقد أجابوا عن ذلك بأن هذا من قبيل عطف الخاص على العام؛ لأن للخاص مزيد عناية بيانية. ومنهم من قال إن قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ﴾ منصوب على الاختصاص، والمعنى: لا تقاتلون فى سبيل الله وخصوصا المستضعفين إلخ. ومهما يكن من التخريج النحوى، فإن المؤدى أن النص على هؤلاء للتحريض على القتال، بحكم الشرف والمروءة، بعد التحريض عليه بحكم الدين والقربى إلى الله سبحانه وتعالى، ذلك أن العربى الكريم المعدن، وإن لم يكن مؤمنا، يرى من المروءة والشرف والتجدة ألا يعتدى على ضعيف، لا قوة له، وأن من الواجب عليه أن ينصره، وأن يغيثه.

ثالثها: أن النص على النساء والولدان الصغار فيه تحريض أقوى تحريض؛ لأن هؤلاء يعيرون إذا تركوهم فى أيدي الأعداء. وذكر الأولاد بالذات، وهم لم يجنوا أى جنابة، فيه حث بذاته على القتال، فإذا كان المشركون قد أفحشوا فى الاعتداء، فليس للمسلمين أن يخذلوا هؤلاء الضعفاء.

وإن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والذرية ليسوا مستسلمين للظلم، ولكنهم يريدون دفعه، ويتجهون إلى الله تعالى أن يخرجهم منه، إذ يقولون كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ لا يجدون لهم قوة إلا الدعاء والضراعة إلى الله سبحانه وتعالى يطلبون معونته وإمدادهم، فيقولون مقررين بأن الله وحده حق الربوبية، وبأنه هو

الذى يحوطهم ويكلؤهم، وأنه وحده الذى يملك أمرهم: أخرجنا من هذه المدينة الكبيرة، وهى مكة، التى يظلمنا أهلها، والظلم شأن من شئونهم، ويضرعون إليه سبحانه أن يجعل لهم ولها ينتمون إليه، وولاية قوية يشعرون تحت سلطانها بالعزة والكرامة، ويتعدون عن ولاية الكافرين الظالمة العاتية الباغية، وأن يجعل لهم من ينصرهم، ويخرجهم من نير أهل الكفر، فها هنا ثلاثة مطالب متلاحقة لهم توجهوا بها إلى ربهم:

أولها: الإخراج من نير الظلم، وحكم الظالمين.

وثانيها: أن يكونوا تابعين لولاية دولة الله، وهى الدولة الإسلامية، فلا يخرجون مشردين لا دولة تحميهم، ولا ديار تؤويهم.

وثالثها: أن يكون لهم من الله نصير دائم ينصرهم، فلا يتمكن الأعداء منهم.

وهنا بحوث بلاغية:

أولها - أن المراد من القرية مكة، وقد وصف أهلها بأنهم ظالمون، ولم توصف هى بأنها ظالمة، كما وصف غيرها من القرى مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [٥٨] [القصص] وذلك تكريم لمكة، إذ هى حرم الله الآمن، ولم يمكن أن يوصف حرم الله الآمن بالظلم، ولو على سبيل المجاز والتقدير. وقد قال ناصر الدين السكندرى فى كتابه «الاتصاف» فى هذه الآية ما نصه: (ووقفت على نكتة فى هذه الآية حسنة، وهى أن كل قرية ذكرت فى الكتاب العزيز، فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [١١٢] [النحل] إلى قوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنعَمَ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [٥٨] [القصص]، وأما هذه القرية فى سورة النساء، فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة، لأن المراد بها مكة، فوُفِّرَتْ عن نسبة الظلم إليها، تشريفا لها، شرفها الله تعالى).

ثانيها - أن النص يفيد أنهم يحسون بأن النصرة لا تكون إلا من الله، وأن الولاية لا تكون إلا منه فهم بذلك معتززون مطمئنون، ولو كانوا مستضعفين لا حول لهم ولا طول؛ لأن من التجأ إلى الله تعالى عزيز، ولو كان في أرض الدل.

ثالثها - في التعبير ﴿لَدُنْكَ﴾ وهي بمعنى (عند)، ولا تكاد تستعمل في القرآن إلا مضافة إلى لفظ الجلالة، وعلى أى حال هي تفتقر عن عند بأن (عند) تستعمل للعلو، والانخفاض في العندية، كما تستعمل في التساوى، فيقال فلان عند فلان إذا كانا متساويين في الرتبة أو أحدهما دون الآخر، أما (لَدُنْكَ) فإنها لا تستعمل إلا إذا كان المضاف إليه عالياً، والمضاف دونه، فهذا التعبير يشير إلى أن أولئك الضعفاء قد لجأوا إلى الجانب الأعلى الذى لا يدانيه علو في الأرض ولا في السماء، وإذا كانوا قد لجأوا إلى الله، فإن الله ناصرهم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾
سبيل الله تعالى هي سبيل الحق الثابت الذى لا يكون فيه العدل، ولا يكون بغى ولا فحشاء ولا أذى، وفيه قيام المصالح ودفع المفسد. والطاغوت هو فعُلوْتُ من طغى، وهو مجاوزة الحد، والبغى الشديد، وترك الخير، وفعل الشر، والسعى فى الأرض بالفساد.

وهنا مقابلة بين قتال أهل الإيمان، وقتال أهل الكفر - بالغاية منهما - فغاية المؤمنين نصرة الحق ودفع الفساد، وغاية الكافرين نشر الظلم والفساد فى الأرض، ولو ترك الظالمون من غير أن يقاومهم أهل الحق، لعم الفساد، وذهب الخير، وهدم الحق، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْجَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وإن السبب في أن يجاهد المؤمنون في سبيل الله، وهى سبيل الحق ورفع الإنسانية، والمحافظة على كرامة الإنسان، هو إيمانهم، فالإيمان يدفع إلى أسمى الغايات والدفاع عنها، وذلك السمو هو سبيل الله تعالى، والكافرون لعدم إيمانهم بالمثل العليا الإنسانية يقاتلون في سبيل الطغيان والسيطرة الظالمة على الأرض.

وإن هذه ظاهرة ثابتة، فالقتال في ظل الدين، والتمسك بمثله العليا، رفعة للإنسانية، ومنع الفساد، ومنع لتحكم الرذيلة في الفضيلة. والماضى ينبئ عن ذلك، فقتال النبی والصحابه من بعده كان فيه حد من طغيان الملوك، وظلم الظالمين، ونشر للواء العدل، ومنع للفتنة في الدين، وتحكم الإنسان في أخيه الإنسان. وقد وصف الله المؤمنين إذا انتصروا، فقال سبحانه وتعالى في أحوالهم: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج، ٤١]، أى أنهم إذا انتصروا رفعوا لواء العدل، وأقاموا مجتمعا فاضلا على أساس من الفضيلة ودفع الرذيلة.

وأما الذين لا يدعون للحق، ولا يؤمنون به، ولا يقيمون للفضيلة وزنا، فإن قتالهم في سبيل الغلب، والسلطان الغاشم، والتحكم والسيطرة، وإن الماضى والحاضر يشهدان بصدق ذلك، وإن العيان ليؤيد هذه الشهادة الصادقة. ألم تر إلى أولئك الذين يتحكمون الآن في مصائر العالم، لا يفكرون إلا في الغلب على قطعة من الأرض يستولون عليها، أو يسيطون نفوذهم فيها، وما ذلك إلا طغيان المتحكمين المسيطرين في بلادهم! وانظر نظرة عميقة إلى أولئك الذين وضعوا أيديهم على أدوات الحرب المخربة، التى إن ألقى لا تبقى ولا تذر، وتآكل الأخضر واليابس، فإنهم يتغالبون على النفوذ، ولو استشيرت أممهم فردا فردا، لاستنكروا ما هم مقدمون عليه أو يكادون! فالحروب التى يثيرها الكافرون في هذا الزمان لا يدفعها إلا طغيان أفراد معدودين، يتحكمون في الشعوب ومصايرها، بطريقة أقسى مما كان يتحكم الملوك من قبل!

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إذا كان الكافرون يقاتلون في سبيل الطغيان، والظلم والسيطرة والفتنة في الدين، وإكراه الناس، حتى لا يستمروا على إيمانهم، فإن على المؤمنين أن يقاتلوهم؛ لأنهم نصراء الشيطان، أو الذين دخلوا في ولايته. ومعنى النص السامى: قاتلوا أيها المؤمنون الذين ارتضيتهم سبيل الله طريقا، ونصرة الحق منهاجا، الكافرين الذين اتخذوا الشيطان لهم وليا يوالونه، ونصيرا لهم ينصرهم في زعمهم؛ وذلك لأنكم تعملون الحق، وتدفعون الأذى، وتمنعون الشر والفتنة في الدين، وتحاربون الفساد. ولا تخافوا من هؤلاء الذين يوالون الشيطان، ويزعمون أنه ينصرهم، فإنهم يتبعون تدبير الشيطان لهم، أى يتبعون وساوس أنفسهم، وأهواءها التى يتحكم فيها الشيطان ويسيرها. وتدبير الشيطان مهما يكن، لا يكون قويا يتصر به أهل الكفر والفساد على أهل الحق. وضعف ذلك الكيد والتدبير الذى يديره الكافرون وإبليس معهم، سببه أنهم تسيطر عليهم الأهواء، والأهواء تفسد الفكر وتفسد الأعمال، وتوجد الشحناء. وأهل الحق لو اتخذوا كل أسباب القوة، واعتزموا أمورهم ودبروا تدبيرهم، وقد جانبوا الهوى والشهوات، هم غالبون لا محالة، وما يغلب أهل الباطل إلا لعدم اتخاذ أهل الإيمان الأسباب.

وسمى الله سبحانه تدبير الكافرين مع شيطانهم ﴿كَيْدًا﴾، لأنهم لا يقصدون بالتدبير رفع حق أو خفض باطل، بل الكيد والأذى لأهل الحق.

اللهم اهد المؤمنين إلى أسباب القوة، وأخذ الأهبة، وإعداد العدة للجهاد فى سبيلك، سبيل الحق والكرامة والسمو والعلو.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
 مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
 كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا
 قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
 تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
 حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا
 هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
 يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

الآيات السابقة في الحزب على القتال، وبيان أن القتال دفاع عن العجزة،
 والنساء، والأطفال، الذين لا يجدون حيلة للخروج من الهوان والاستكانة
 للظالمين، ولا يجدون سبيلا لأن يخرجوا من ديار الذل أو يدفعوا عن أنفسهم
 أو ضاربه وآلامه، ففي القتال دفاع عن هؤلاء، وإخراج لهم. ولكن المسلمين لم
 يكونوا سواء في تلقى شدايد القتال: فمنهم من يتقدم للميدان لا يهمه أن يقع
 على الموت أو يقع عليه، كعلى بن أبي طالب، وغيره من صناديد المؤمنين، ومنهم
 من يخشاه ويخافه، وهذا الصنف في كل جماعة، ولقد قال الله تعالى فيه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ تكاثرت
 جمع المؤمنين نسيبا في مكة، وخرجوا مهاجرين، ليقموا دولة الفضيلة في
 المدينة، وسكنها النبي ﷺ واستقر بها، وأخذ يعقد العقود، وينسق العلاقات بين
 المقيمين بها وحولها، حتى يكون الاطمئنان. ولقد أراد المؤمنون أن يتقدموا لقتال

المشركين، حتى إن النسائي يروى أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا في ذل!! يريدون أن يأمرهم بقتال المشركين. وسواء أكان الطلب وهم بمكة، أم كان وهم بالمدينة، قبل أن يتقدم النبي ﷺ لدفع أذى المشركين بالسيف بعد أن استمادوا وطغوا في الأرض، وأكثروا فيها الفساد. فإن النبي بحكم الله أمرهم بأن يكفوا عن القتال وقتا ينظم فيه الأمر بتقوية أرواحهم، وتوجيهها إلى الله تعالى لتخلص لله وحده، وذلك بإقامة الصلاة، فإن الصلاة فيها تخلص النفس من أدران المآثم، والاتجاه بها إلى الله وحده، وهي إذا أديت على وجهها تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما أمرهم أن يتجهوا في هذه الفترة أيضا إلى تقوية أنفسهم، والربط بين أحادهم بصلات المودة والتعاون، وإزالة ضعف الضعفاء، وذلك بإعطاء الفقراء الزكوات التي كانت مفروضة في أول الإسلام. وإن تقوية الضعفاء سبيل قوة الدولة، كما قال ﷺ: «ابغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»^(١). . . حتى إذا استقام أمر الجماعة الإسلامية كتب الله تعالى القتال الذي طلبه من قبل أقوياء الإيمان، ولم يعارضه غيرهم، فكان الطلب من الجميع، كتبه الله تعالى دفاعا عن أهل الإيمان الذين يستدلهم المشركون، ومنعا للفتنة في الدين، وإعلاء لكلمة الحق، ولكي يتقدم للإيمان كل مرید للحق طالب له، غير خائف من صولة الشرك. ولما كتب القتال كان الصادقون الأقوياء آخذين الأهبة، ومستعدين للإقدام، وكان الضعفاء في وجل، ولذا قال سبحانه:

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ الخشية الخوف الشديد مع مهابة الضعيف لمن يخافه، وهذا الفريق الذي خاف القتال مع الهيبة من الأعداء هو من الضعفاء الذين لا يعلنون بإيمانهم. والتعبير بقوله تعالى في أوصاف هذه الخشية: ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾، فيه بعض إشارات بيانية.

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذي وأبي داود والنسائي.

أولاهـا - أنه عبر عن الأعداء بقوله ﴿النَّاسُ﴾، وهو توبيخ أبلغ توبيخ، ذلك لأنهم أناس مثلهم، وليسوا فى الفضل مثلهم، وفوق ذلك مع أنهم أناس مثلهم، يجعلون خشيتهم فى مقابل خشية الله تعالى ذى الجلال والإكرام القاهر فوق عباده.

الثانية - التعبير بلفظ الجلالة فيه إشارة إلى بيان خورهم وفساد تفكيرهم؛ إذ يجعلون خشية الله - جل جلاله -، فى مقابل الخشية من الناس، والله تعالى إذا كان معهم وقاموا بحق الجهاد، فلن يخذلوا أبدا.

الثالثة - فى التريـد بين أن تكون خشيتهم من الله بمقدار خشيتهم من الناس، أو أكثر، فيه بيان لحال ضعفهم، واستمكان الضعف، وهو ترقُّ فى التوضيح، إذ إنه من المقرر أن المؤمن لا يليق به أن يخاف الناس، كما يخاف الله، فكيف إذا كان يخاف الناس أكثر من الله؟! ولا شك أن فريقا من أولئك الضعفاء أو المنافقين كان على هذه الحال.

وأولئك الجبناء لا يكتفون بالخوف والفرع، بل يصل بهم الأمر إلى درجة أن يعترضوا على فرضية القتال.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ قد قالوا لفزعهم: ربنا الذى خلقنا ونمأنا وربانا، لآى شىء كتبت علينا القتال وفرضته وألزمنا به، وهو أمر مخوف مرهوب؟! فمن فرط ذهولهم وجبنهم ينسون العزة والكرامة، وأنهما مطلبان لا يتالان إلا بالحرب والجهاد؛ وينسون إذلال الكافرين للمؤمنين، والفتنة فى الدين، ويسألون عن أسباب القتال! نعم إن القتال أمر تكرهه النفوس، ولكن إن كان دفعا للذل يصير واجبا، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة].

فيصير القتال أمرا مستمرا لشرف الغاية التى تدعو إليه.

وإذا ذكر أولئك الضعفاء بالباعث على شرعية القتال لا يذهب فزعهم، بل يقولون وجلين هلعين: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، أى: هلا أخرتنا فى إجابة

داعى القتال إلى زمن مؤجل قريب؟ فهم بعد أن يعود إليهم رشدهم يطلبون أن يُؤخروا هم، لا أن تؤخر الفرضية! لقد كان كلامهم الأول فى شأن الفرضية، ولما أدركوا سوء قولهم، كان كلامهم عن مطالبتهم بتأخير ذهابهم إلى القتال، وذلك ما يدل عليه تعبير الله عنهم بقوله: ﴿لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا﴾، فهذا الفريق الضعيف الإيمان يريد أن يذهب المجاهدون الأبرار، ويقعدوا هم مع القاعدين!! وقد قال فى ذلك القرطبي: (معاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابى كريم، يعلم أن الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين، سامعين طائعين، يريدون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام فى الدار العاجلة، على ما هو معروف من سيرتهم، اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ فى الإيمان قدمه، ولا انشرح بالإسلام جنانه، فإن أهل الإيمان متفاضلون؛ فمنهم الكامل، ومنهم الناقص، وهو الذى تنفر نفسه عما يؤمر به، فيما تلحقه فيه المشقة، وتدركه الشدة).

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ إن الحرص على الدنيا والتعلق بها، يدفع إلى الرغبة فى البقاء على أية صورة كان البقاء، سواء أكان البقاء فى عزة أم كان فى ذلة. فمطامع المال ومتاع الدنيا تجعل النفس ترضى بالحياة بكل صورها، وقديما قال العرب: (اذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال). فكان لابد لتربية روح الجهاد من تعريف المسلم بقيمة هذه الحياة، ووزنها بالنسبة لما بعدها، ولذلك أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء الذين كانت خشيتهم للناس كخشية الله أو أشد، واضطربوا عندما أمروا بالقتال: إن كل منافع الدنيا ولذاتها قليلة، مهما كبرت فى نظركم، فكثيرها قليل إذا كانت فى ذلة، ولا يبقى الانتفاع إذا تحكم فيكم الأعداء، وهى فانية لا تبقى، وكل ما يكون مآله الزوال ضئيل مهما تكاثر فى العدد، وإذا وزن متاع الدنيا بمتاع الآخرة الباقى الخالد الدائم، فإنه لا يكون شيئا مذكورا!! ولذا جاء قول النبى بأمر الله تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ والآخرة بما فيها من متاع دائم خير من الدنيا بكل حذافيرها؛ لأنه لا نزاع

فيها، ولا شر يتحكم ولا مغالبة، بل اطمئنان وهدوء، وسرور مستمر، لمن ينالون جنتها ويبيعههم الله تعالى عن جحيمها، وهى مع ذلك أكلها دائم، ونعيم مقيم، ورضوان من الله أكبر، وإن أعمال الخير فى الدنيا، والجهاد فى سبيل الحق، هى السبيل لنيل ما فى الآخرة من خير وجنات تجري من تحتها الأنهار، ومن عمل عملا صالحا نال جزاءه موفورا، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَظْلَمُونَ فَنِيْلًا﴾ الفتيل: هو الخيط الدقيق الذى يكون فى شق نواة التمر، وهو يضرب مثلا للقلّة والتفاهة. والمعنى: إنه إذا كانت الآخرة خيرا من الدنيا وأبقى من متاعها، فإن طريق الآخرة هو الجهاد فى سبيل الله، والقيام بطاعته، وإنكم ستنالون الجزاء الأوفى، ولا ينقص من أحد منكم أى قدر من جزائه، ولو كان قدرا ضئيلا لا تأبهون له فى دنياكم، فإذا كان حرصكم هو الذى جعلكم تخشون القتال، وترجئونه، فإنه يجب أن يكون حرصكم كبيرا على ما هو أغلى وأعظم، وما هو مؤكد لا احتمال فيه، ولقد كان حرصهم وخوفهم من القتال؛ لأنهم يريدون الحياة ويخافون الموت، فبين لهم سبحانه أن الموت آت لا محالة، وأنه لاحق بهم أينما يكونوا:

﴿أَيُّمَّا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ البروج جمع برج، وهو يطلق على الحصن المنيع، ويطلق على القصر العالى الذى لا يصل إليه أحد، ويبنى للملوك والكبراء لكيلا تصل إليهم الرعايا. مشيدة: أحكم بناؤها، وارتفعت، أو بنيت بالشيد، وهو الملاط القوى الذى تربط به اللبنة بعضها ببعض. ولقد قال طرفة بن العبد:

كانها برج رومى تكنفها بانٍ بشيد وآجرٍ وأحجار

ومعنى النص: إن كنتم تريدون بقعودكم عن الجهاد وطلب إرجائه أن ترجئوا الموت أو تطيلوا الحياة، فقد أخطأتم، فإنه حيثما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم فى أقوى الحصون، وأمنها، وأحكمها بناء.

وفى التعبير بكلمة «يدرككم» إشارة إلى أن الموت كأنه يطلب الإنسان ويتبعه حيثما كان، وفى أى وقت كان، فهو طالب لا بد أن يدرك ولا بد أن يصل؛ لأنه حقيقة محتومة فإن فررتم منه فإنه ملاقيكم، فلا تفروا منه واطلبوا الحق ولو أدى إليه، وما أحسن ما قاله زهير بن أبى سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلته وإن يرق أسباب السماء بسلم

وإن هؤلاء الذين ضعفت نفوسهم قد يدفعهم اضطرابهم إلى أن تسيطر عليهم الأوهام، فمنهم من يقول كلاما يثير الظنون ويسكت عنه الباقيون منهم فكانهم قالوه، ولذا حكى - سبحانه - القول عن هذا الفريق فقال:

﴿وَأَنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى إن تصيبهم حال حسنة تحسن عندهم، من رخاء أو خصب أو ظفر أو غنيمة أو سعة فى الرزق، يقولوا: هذه الحال من عند الله تعالى، فإن كان النصر قالوا: من عند الله. وإن يصيبهم أمر يسيئهم، كالهزيمة، قالوا: ذلك من محمد، كأنهم ينسبونه إلى سوء تديره - عليه الصلاة والسلام -، أو يتشاءمون به، ويهبطون بذلك هبوطا شديدا! فالحسنة ما يحسن عندهم، والسيئة ما يسوؤهم. وذلك التفكير الذين يفكرونه ناشئ من ضعفهم النفسى، وضعفهم الإيمانى، وسوء ظنهم بالنبي ﷺ، وذلك شأن أهل النفاق ومن يستمعون إليهم من ضعفاء أهل الإسلام:

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أى إذا كنتم تنظرون إلى ما قدره الله تعالى فى علمه المكنون، وما يوفق إليه عباده، وما يمدهم به من عون، فإن كل شئ من عند الله، فالشدة والرخاء من عند الله، والغنيمة والهزيمة بتقدير الله عند اتخاذ الأسباب، فلا ينصر الله متخاذلا، ولا يخذل من يريد ما عند الله، ويتجه إلى الجهاد مستعدا بقلبه وعدته وتنظيمه، وبهذا يرد عليهم ما توهموه، أو قالوه.

وقد بين سبحانه أن كلام هؤلاء كلام من لا يفقه الأمور على وجهها، ولا يدرك معاني الأقوال والأفعال. ولذا قال سبحانه: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ والمعنى: أن الأمر ثبت لهؤلاء الذين لم يدركوا الأمور حتى كادوا لا يدركون إدراكا حقيقيا أى حديث يتحدثون به، أو أى حديث يلقي إليهم، فلا يعلمون أن الله هو القابض الباسط القادر على كل شيء! وإنهم لو فهموا ما يتلى عليهم من كتاب الله والحكمة لاهتدوا، وهذا الاستفهام توبيخ لهم وبيان لوصفهم الحقيقي، وهو أنهم لا يكادون يفهمون معنى ما يسمعون وما يقولون! اللهم اهدنا إلى الطيب من القول، واهدنا إلى الصراط الحميد.

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ
سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾
مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ
عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٨١﴾

هذه الآيات تنمى للمعاني التى اشتملت عليها الآيات السابقة، فإن هؤلاء المنافقين وضعاف الإيمان، كانوا يُحمّلون النبى ﷺ تبعة الهزيمة إن كانت! وإن كان ما يحسن فى نظرهم قالوا: هذا بفضل الله، ونسوا أن كل شيء بتقدير الله سبحانه وتعالى وتوفيقه، فقد قدر النصر والفوز، كما قدر الضرر والأذى، وكل من عند الله سبحانه وتعالى. وقد حسب أولئك المنافقون والضعفاء أن البعد عن

القتال يُنجيهم من الموت، فبين الله سبحانه أنه لا نجاة من الموت، وأنه حيثما كان الشخص فالمت مدركه ولاحقه.

وفى هذه الآيات يبين سبحانه أن ما يصيبك من أمر يحسن عندك، فإنه بفضل الله تعالى؛ إذ وفقك إلى سببه، وجعل السبب متبها بالنتيجة وما أصابك من أمر يسوؤك فبسببك وعمل منك، وأن الرسول لا يحمل أوزارك، وأن طاعته واجبة في المنشط والمكر، وأن الذين يظهرعون الطاعة بالسستهم أمامه، ويبيتون العصيان من ورائه، الله بهم عليم، ولذا قال سبحانه:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ في هذا النص الكريم تخريجان: أحدهما - أن هذا من كلام الله تعالى، والخطاب للنبي ﷺ، وهو من بعد ذلك خطاب لكل مكلف مطالب بالعمل بالشرع الشريف. والمراد بالحسنة ما يكون فيه ما يسر وما يحسن في نظر الإنسان، والسيئة ما يسوء في نظر الإنسان. والمعنى على هذا التخريج: ما أصابكم من أمور حسنة فبتوفيق الله تعالى لكم، وجعل النتائج مترتبة على أعمالكم التي اتخذتم فيها الأسباب، ولم تتقاصروا عن الاتجاه فيها إلى أسباب الظفر. وما يصيبكم مما يسوؤكم وينزل بكم من غم، فلتجنبكم الأسباب الموصلة إلى الغاية، ومخالفتكم أوامر الله ورؤسائكم، كما كان الشأن في أحد، فما كان الأمر الذي ساء إلا من المحاربين الذين أمروا فخالقوا، وما كان النصر في بدر إلا من الله، وإطاعتهم الأوامر.

والتوفيق بين النص الكريم، وقوله من قبل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (٧٨) [النساء]، هو أن النص الأول كان موضوعه الكلام في تقدير الله، فهم إن انتصر المؤمنون لا ينسبون للنبي ﷺ أى فضل، بل يجردونه من الفضل، ويقولون هو من عند الله!! وما قصدوا التفويض والإيمان بالقدر، بل قصدوا الغض من مقام النبوة!! وإن كان ما يسوء نسبوه إلى النبي إيداءً وتمرداً، فالله قال لهم: كل ذلك بتقدير الله وإرادته. أما هذا النص: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾، فموضوعه اتخاذ الأسباب، ومعناه أن من أخذ الأسباب وتوكل على الله، فالله تعالى يعطيه النتائج، ومن لا

يتخذ الأسباب أو يخالف المنهاج السليم الموصل إلى الثمرة، أو لا يتوكل على الله تعالى ولا يفوض إليه، فإنه سيناله ما يسوؤه، وبسبب منه؛ فالأول لبيان القدر، والثاني لبيان العمل.

وهذا هو التخريج الأول، والتخريج الثاني أن يكون: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، من حكاية قول المنافقين والضعفاء في إيمانهم؛ لأن آخر الآية السابقة: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، ثم ذكر سبحانه حديثهم الذي لم يفقهوه، وهو قولهم: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ إلخ، ويكون الخطاب للنبي ﷺ، فهم يقولون له: ليس لك من فضل في النصر الذي تناله، فإن ما أصابك من ظفر فمن الله، وما أصابك من هزيمة فمن نفسك! وقد ذكر هذا التخريج القرطبي، وقال: «والمعنى: فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا، حتى يقولوا: ما أصابك الله من حسنة فمن الله!». .

ويكون ذلك الكلام على هذا التخريج ترديدا لقولهم: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، ويكون في الأول الحديث عن أنفسهم، وفي الثاني الحديث عن النبي ﷺ، ففي الأول معنى التطير والتشاؤم، وفي الثاني تجريد النبي ﷺ من كل فضل! .

وهم في الأمرين خارجون عن الطاعة متمردون، وقد ردَّ الله تعالى كلامهم بقوله سبحانه:

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وإنا أيها النبي قد شرفناك برسالتنا، فأرسلناك رسولا فقط، لا تتكفل بالأوراق، ولا تهب النصر، ولا تمسك مقاليد الكون، ولست تملك من أمر نفسك شيئا، إنما أنت مكلف بالتبليغ فقط، فإن بلغت فما عليك شيء، وإن اتخذت الأسباب في الحروب للظفر، وتوكلت على الله، فإن الله مانحك النصر، ومعطيك الغلب، وإن خالف من معك ما سنتت لهم من منهاج للظفر، فإن الهزيمة واقعة بهم، ولست مسئولا عما يصيبهم

القدر به من أمر يسرهم، ولا أمر يسوؤهم. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ يذكر سبحانه كلمة ﴿رَسُولًا﴾ تأكيداً لوصف النبي ﷺ بالرسالة، وليبين أن عمل الرسول ليس هو التحكم في القدر، إنما عمله التبليغ فقط، فإذا بلغ فما عليه من شيء.

وإذا كانوا قد اتهموك وقالوا ما قالوا، فكفاك شهادة الله لك بأنك بلغت وجهدت، وأن ما يرمونك به باطل، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

وإن تصرف أولئك المنافقين والضعفاء فيه إخلال بواجب الطاعة، وإن الرسالة التي حمل عبثها محمد ﷺ توجب عليهم طاعته من غير تمرد، بل مع الإذعان والخضوع لما يطلبه باسم الله، وأن يعلموا أن طاعته فيها طاعة الله، فإن تردوا عليه أو تشاءموا به، فليعلموا أن ذلك تمرد على الله، ولذا قال سبحانه:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ إن هؤلاء كانوا يتقصون فضل النبي بنسبة الظفر إلى الله والهزيمة إلى النبي، وقد بين الله تعالى أنه رسوله، فإن تنقصتموه فإنما تنقصون من أرسله، وإن تمردتم عليه فإنما تمردون على من أرسله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ﴾. فيما يأمر به، وينهى عنه، وفي دعوته إلى الجهاد، فإنما يطيع الله تعالى؛ لأنه إنما يتكلم عن الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم] ولقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله»، فقال الذين يشككون في الإسلام من المنافقين: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل. لقد قارف الشرك، وهو ينهى أن يعبد غير الله! ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى، فنزلت هذه الآية: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ﴾^(١) وعندى أن الآية لا تحتاج إلى سبب نزول في بيانها لأنها واضحة بينة، يشهد لمعناها سابقها ولاحقها، وإن الحديث في ذاته صحيح المعنى، وروى مسلم مثله عن أبي هريرة، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «من

(١) ذكره جماعة من مفسري السلف منهم القرطبي والرازي وأبو السعود والآلوسي والبيضاوي والسمرقندي عن قتادة (من التابعين).

أطاعنى فقد أطاع الله، ومن يعصنى فقد عصى الله، ومن يطع أميرى فقد أطاعنى، ومن يعص أميرى فقد عصانى^(١)، ومن نال فضل طاعة الله ورسوله، فقد نال حظ الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن ذلك فعليه تبعه عمله.

والرسول ﷺ قد أدى واجبه فى التبليغ، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ومن عصى أمرك ولم يطعك، وأعرض عن الحق الذى أمرك الله تعالى بتبليغه، فإنه وحده الذى يتحمل تبعه إعراضه عن دين الله، ولا تبعه عليك، إنما عليك التبليغ فقط، وعلى الله تعالى حسابهم يوم الحساب، فلا تكلف نفسك ما لست مكلفه، فما أرسلك الله تعالى إلا مبشرا ونذيرا، وليس عليك أن تحمل الناس على الإيمان، ثم ما أنت مكلف بالمحافظة عليهم ومراقبتهم وتبعتهم حتى يكونوا مهتدين: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ [٥٦] [القصص]، وما أنت بمهيمن عليهم حتى تحاسبهم على الإيمان، إنما الحساب عند الله...

وإن هؤلاء المنافقين يظهرون الطاعة، ويبطنون المخالفة، ولذا قال سبحانه:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ إنما يقول المسلمون جميعا: أمرنا معك طاعة وخضوع لما تطلب، فليس لنا إلا أن نطيعك، ولا يجوز أن نخالفك؛ لأن طاعتك هى طاعة الله، فأنت فينا المطاع دائما، وقد قصرنا أحوالنا على طاعتك.

هذا قول المسلمين عامة، ولكن المؤمنين يقولون ويدعونون ظاهرا وباطنا، وسرا وإعلانا، والمنافقون يقولون ذلك بظاهر من القول، وهم ينون المخالفة ويصرون عليها ولا يتركونها، وهم الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾، أى فإذا خرجوا من عندك بارزين ظاهرين غير مستخفين، أخذوا يتدبرون فيما بينهم الأمر الذى يكون مخالفا للطاعة!

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

والتعبير عن الخروج بالبروز للإشارة إلى تفاوت ما بين أحوالهم! وتضارب مظهرهم مع خبيثتهم. ويقول الزمخشري في المعنى اللغوي للتبیت: (والتبیت إما من البیتوتة؛ لأنه قضاء الأمر وتدييره بالليل، ويقال: «هذا أمرٌ بَيتٌ ليل»). وإما من أبيات الشعر؛ لأن الشاعر يدبرها، ويسويها)، وعندى أن هذا المعنى غريب، ولكن الأولى هو الأول مضافاً إليه معنى التزوير والتحسين، لأن (بَيت) تتضمن معنى التزوير والتمويه. والمعنى على أى حال أن هذه الطائفة، بعد خروجها من عندك، تدبر أمر مخالفتك، وتحسن هذه المخالفة وتزينها لنفسها فى خفاء، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ولذا قال:

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ واللّه سبحانه وتعالى يعلم ما يبيتون، فلم يكن خافياً قبل أن يقع، ولم يزد به علماً بعد الوقوع، فهو يعلم ما كان وما يكون إلى يوم الدين. وفى هذه الجملة تهديد لهم وتطمين للنبي ﷺ، فإن الله تعالى يبين أن تببيتهم وإخفاء نياتهم لا يخفى على الله، بل إن علمه به علم ما يكتب وما يسجل عليهم، ليكون مرئياً لهم فى صحائف أعمالهم يوم القيامة، وليعلم نبيه بتدييرهم السيئ ونيتهم، ليتقى شرهم، ويحفظه من أذاهم، فإنه هو ناصرهم وكافله. وإذا كان الله تعالى يكتب عليهم ما يخفونه، فليس للنبي أن يأبه لهم والله حافظه وكالته، ولذلك أمره ألا يلتفت إليهم، ولا يأخذهم هم في شأنهم، وليعتمد على الله، وليكل إليه أموره، ولا يكل أموره إلى غيره، وإن توكل على الله حق التوكل، حفظه، وكفاه شرهم، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

والمعنى: يكفيك أن الله تعالى هو الموكل بأمرك، وهو حافظك وكالك وحاميك، ومن كان الله تعالى وكيله والموكل بأموره، فلن يضيع أبداً.

اللهم هيئ للمسلمين أسباب العزة، ووفقهم للعمل الصالح، واجعلهم يكلون مآل أمورهم إليك، إنك نعم المولى ونعم النصير.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقِنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَرِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسَا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كُفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُجِّمُ بِحِجَّةٍ فَحِيوًا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

في الآيات السابقة بين الله تعالى لنيه ﷺ أحوال المنافقين، وما هم عليه من لؤم الطبع والمكر والخداع، ثم أمره ﷺ بالإعراض عنهم، فهم لن يضروه شيئا مهما كان لؤمهم وخداعهم، وما عليه إلا أن يتوكل على الله، فهو حسبه، وسيكفيه شرهم، ولن يبلغوا منه شيئا.

وفى هذه الآيات لا يزال الكلام عن المنافقين متصلا، فالله سبحانه وتعالى يعيب عليهم حالهم فى عدم تدبر القرآن الكريم والتفكر فى معانيه؛ لأن التدبر فى القرآن يجعلهم يفكرون فى عاقبة أمرهم، ويستيقظون من سباتهم الذى يملك عليهم نفوسهم، ويتجسد أمام بصائرهم ما سوف ينالهم من جزاء يوم القيامة.

وهم لو تدبروا القرآن لرأوا فيه العجب العجاب، ولتبين لهم أن هذا الكتاب منزل من الله رب العالمين، وأن محمدا عبد الله ورسوله.

فالقرآن الكريم يحمل بين جنباته دلائل صدقه، وبراهين أنه من لدن حكيم حميد، إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه تناقضا فى القضايا، واختلافا فى الألفاظ، وتضاربا فى المعانى، ولضربت الآيات بعضها بعضا؛ لأن الإنسان من البشر إذا تكلم بكلام كثير، لا بد أن يوجد فى كلامه اختلاف، لاختلاف مزاجه بين الحين والحين، ولما يعتوره من الصحة والمرض، ولاختلاف مواقفه فى الزمان والمكان، فيظهر ذلك كله فى صورة تناقض فى اللفظ أو الوصف، أو فى المعانى، أو الصدق والكذب إلى غير ذلك من صور الاختلاف.

ولكن القرآن الكريم بين أيديهم، فليتدبروه حق التدبر، فلن يجدوا فيه اختلافا فى وصف، ولا ردا فى معنى، ولا تناقضا فى قضاياها، ولا كذبا فيما يخبر به من أمور الغيب، ولكنهم بإعراضهم عن التدبر، يظنون كالأنعام بل هم أضل، قد أغلقوا قلوبهم عن الهدى، وأصموا آذانهم عن صوت البشير النذير، فما لهم لا يعقلون، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد] فهم لا يفقهون.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عجبا لأمر هؤلاء المنافقين، إنهم يسارعون فى الفتنة، ويتحينون الفرص ليزرعوا الشكوك والظنون فى صدور المؤمنين، ويشيعون الأخبار على غير حقيقتها، فإذا سمعوا خبرا عن أمن المسلمين أو انتصارهم، أو عن الخوف عليهم

والإشفاق من تحركاتهم، أسرع هؤلاء المنافقون لإذاعة الشائعات، وأظهروها وتحدثوا بها قبل أن يقفوا على حقيقتها، وقد يكون فى ذلك ضرر بالإسلام والمسلمين، ولكنهم لا يبالون، بل ربما كان ذلك هو ما يبتغون.

وقال بعض المفسرين إن ضعاف المسلمين كانوا يفعلون ذلك أيضا، فقد كان بعضهم يفشى أمر النبى ﷺ، دون إذن فى ذلك، ويحسبون أنهم لا يخطئون فيما يفعلون، ويسئون ويحسبون أنهم يحسنون.

وسواء أكان ذلك من المنافقين أم من ضعاف المسلمين فهو خطأ لا يجوز أن يحدث؛ لذلك يحىء الأمر من الله تعالى بالألا يسرع المسلم فى الحديث بأخبار لم يتحقق منها، ولم يتبين له صدقها من كذبها، ولم يميز من أمرها بين النفع والضرر، بل يجب على هؤلاء وأولئك أن يردوا الأمر إلى النبى ﷺ، ويتظروا حتى يكون عليه الصلاة والسلام، هو الذى يتحدث به ويكشف عن صدقه، ويبين نفعه للمسلمين أو ضرره، وهذا الحكم ماضٍ فى كل زمان ومكان، فإذا كان النبى ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، فإنه قد ورث العلم لطائفة من أمته هم أولو العلم وأولو الأمر، وأهل الفقه فى الدين، فيجب على المسلمين أن يردوا مثل هذه الأمور إليهم؛ لأنهم إذا ردوا الأمر إليهم «لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ» أى يستخرجون معناه، ويبينون فحواه، فإذا الأمر معلوم، والحق واضح لا شبهة فيه، ولا غموض.

والاستنباط هو استخراج الماء من البئر، فشبهت الأفكار التى تدور فى خلد الإنسان بالماء الذى فى البئر، والعلماء يستخرجون هذه الأفكار ويكشفون عن معناها، فيعلمون ما ينبغى أن يقال وما يجب أن يستر ويكتفى بين الناس.

وفى تلك الجملة دليل على جواز اجتهاد العلماء فى الأمور الفقهية عن طريق القياس، والحكم بما يبينه ذلك القياس، ما لم يكن هناك نص من القرآن أو السنة، وما لم يكن هناك إجماع.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لقد أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، وبين طريق الحق من الباطل، والهدى من الضلالة، والرشاد من الغواية، وهذا فضل من الله ورحمة، ولولا هدايتكم للعمل بما جاء به الرسل، وأنزلت به الكتب، لاتبعتم الشيطان، ولبقيتم على الكفر سائرين في طريق الضلال، إلا قليلا منكم كانوا هم المهتدين، أو لاتبعتم الشيطان في غالب أعمالكم، وكان اتباعكم للرسول وللكتاب اتباعا قليلا، ولغلبت سيئاتكم حسناتكم، وفي ذلك ما فيه من الخسران، والعياذ بالله تعالى.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حتى ولو تركوك وحدك منفردا لا أحد معك، فإن معية الله خير وأبقى، فهو الذى أمرك بالقتال، وهو الذى تكفل بنصرك ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر].

في الآية أمر من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، ألا يترك جهاد العدو، حتى ولو كان وحده، لأن الله ضمن له النصر، وهناك من يقولون أن الخطاب للأمة كلها، إذ قال ابن عطية في تفسيره: «هذا ظاهر اللفظ، إلا أنه لم يَجِئْ في خبر قط أن القتال قد فرض عليه وحده دون الأمة مدة ما، فالمعنى، والله أعلم، أنه خطاب له في اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه، أى أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك، هذا الخطاب موجه إليه، وكل إنسان ليس مكلفا إلا عن نفسه، فإن تقدم نفسك للجهاد فإن الله هو ناصرك، وليس الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف من الجند، فالنصر أولا وأخيرا من عند الله.

وقيل إن النبي ﷺ دعا الناس إلى الخروج للقاء المشركين في معركة بدر الصغرى، وكان أبو سفيان قد واعد الرسول على أن يتلاقوا فيها، فكره بعض الناس أن يخرجوا، فنزلت الآية، وخرج النبي ﷺ وليس معه إلا سبعون، ولو لم يخرج معه أحد لخرج وحده، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول له: يا محمد، إنك لا تكلف إلا نفسك وحدها، فاخرج ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ ليس عليك بالنسبة لهم إلا التحريض، وأمرهم دون تعنيف ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

وقد كان، فكف الله بأس الذين كفروا، وهم قريش، الذين تواعدوا مع النبي على اللقاء، فقد غير أبو سفيان رأيه، وخشى عاقبة المعركة، فقال لقومه: إن هذا عام مجذب، لن تقدرُوا فيه على لقاء محمد وأصحابه، فانتظروا عاما مخصبا، كما تعودتم، لتلاقوا فيه محمدا ومن معه، ووقتها سيكون بأسكم شديدا، وتنكيلكم بمحمد وأصحابه شديدا، ألم يعلموا أن العزة لله جميعا ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ من كل أعدائكم. ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٢﴾ [البروج] فهو أعظم سلطانا، وأقدر على ما يريد.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا﴾ أصل الشفاعة والشفعة ونحوها، من الشفع، وهو الزوج في العدد، ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا، فالشفاعة إذن هي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك، للوصول إلى مصلحة ترغبانها، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، وإيصال المنفعة إلى المشفوع له، والشفاعة الحسنة هي ما تكون في البر والطاعة، والشفاعة السيئة هي ما تكون في المعاصي، فمن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر، ومن سعى في غير طاعة، فقد أثم واستوجب العقاب.

يقول الزمخشري في «حقائق التنزيل»: الشفاعة الحسنة هي التي روعى بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، وابتغى بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز، وليست في حد من حدود الله ولا في حق من الحقوق، ولكل منها نصيب من الأجر، بقدر ما فيه من طاعة أو معصية.

وقد حث النبي ﷺ على الشفاعة لقضاء الحوائج، والتعاون على البر والتقوى، إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان نبيه ما أحب»^(١).

(١) متفق عليه؛ رواه مسلم: البر والصلة والآداب - استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٢٦٢٧)، والبخارى بلفظ مقارب: الزكاة - التحريض على الصدقة والشفاعة فيها (١٤٣٢) عن أبي موسى الأشعري عن أبيه، وأبوه هو عبد الله بن قيس بن سلا بن حضار. رضى الله عنهما.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ المقيت هو الحافظ المقتدر، الذى يعطى كل إنسان قوته وقوته، فهو يجازى كل إنسان بقدر ما حفظ له من عمل، وهو يُقِيت الجائع، ويعين من استعان به، فالرزق الذى هو القوت من عنده، والعافية التى هى القوة بسلطانه وبأمره، وكل شيء عنده بمقدار.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ التحية هى السلام، وأصل التحية الدعاء بالحياة، والتحيات لله هى السلام من الآفات، وإنما يقال «التحيات لله» بصيغة الجمع، ولم يقل «التحية» بصيغة الأفراد، لأنه كان فى الأرض ملوك تؤدى لهم تحيات مختلفات، فيقال لبعضهم: «آييت اللعن»، ويقال لبعضهم: «اسلم وانعم» فقليل لنا نحن المسلمين، قولوا: «التحيات لله» أى كل الألفاظ التى تدل على تحيات الملوك وتؤدى معانيها، هى الله.

والعلاقة بين هذه الآية وما قبلها أن الله تعالى يقول، إذا خرجتم للجهاد، كما سبق الأمر، فحياكم إنسان بتحية الإسلام، فلا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا، بل ردوا جواب السلام، فإن الأحكام تجري عليهم، وقد أجمع الفقهاء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغَّب فيها، ورده فريضة، لقوله تعالى ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾، فقد قال المفسرون عن ذلك، إن هذه الصفة «الحسب» حسنت هنا، لأن معنى الآية فى أن يزيد الإنسان أو ينقص، أو يوقى قدر ما يجىء به، والله سبحانه وتعالى يجازى الإنسان بقدر ما فعله، حتى فى لفظ التحية والسلام.

روى النسائي عن عمران بن حصين قال: كنا عند النبى ﷺ، فجاء رجل فسلم فقال: السلام عليكم، فرد عليه رسول الله ﷺ، وقال: «عشر» ثم جلس، ثم جاء آخر فسلم، فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه رسول الله ﷺ،

وقال «عشرون». ثم جلس. وجاء آخر فقال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فرد عليه رسول الله ﷺ، وقال: «ثلاثون»^(١).

وهذا الخبر يعطى تفسيراً بأن من قال لأخيه المسلم «السلام عليكم» كتب له عشر حسنات، فإن قال: «السلام عليكم ورحمة الله» كتبت له عشرون حسنة، فإن قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» كتبت له ثلاثون حسنة، وكذلك من رد التحية له مثل ذلك الأجر.

وللتحية وردها آداب يجب أن يتعلمها المسلم، ويتخذها منهجاً وسلوكاً، فمنها أن يسلم الراكب على الماشي، والقائم على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، وفي المسألة مسائل فقهية متشعبة، على المسلم أن يتعرف عليها من مظانها، ولا يغفل عنها؛ لأن التحية وإفشاء السلام من الأسباب التي تصل القلوب بعضها ببعض، فتألف الأرواح، وتتحاب النفوس، تصديقاً لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»^(٢).

ثم عليكم أن تذكروا في كل شئونكم أنه جل ذكره:

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» وقد نزلت هذه الآية في شأن هؤلاء المكذبين الذين يشكون في البعث والحساب، فأقسم الله تعالى لهم بنفسه، والدليل على ذلك القسم هو وجود اللام المتصلة بكلمة ليجمعنكم، ثم نون التوكيد المشددة بعدها، يقول النحاة أن اللام

(١) رواه الترمذي: الاستئذان والآداب - ما ذكر في فضل السلام (٢٦٨٩)، وأبو داود: الأدب -

كيف رد السلام (٥١٩٥)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٤٤٦)، والدارمي: السلام - فضل

التسليم ورده (٢٦٤٠). عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم: الإيمان - بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (٥٤)، والترمذي: الاستئذان والآداب

- ما جاء في إفشاء السلام (٢٦٨٨)، وأبو داود: الأدب - في إفشاء السلام (٥١٩٣)، وابن

ماجه: المقدمة - في الإيمان (٦٨). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

واقعة فى جواب قسم، والتقدير، والله أعلم، أن الله يقسم ليجمعنكم، فهو قسم، يلقيه إلينا رب العزة، بأنه سيجمع الناس وهم أموات تحت الأرض، فكل من يموت سيجمع إلى من سبقوه تحت التراب، وسيظل جمعهم هذا إلى يوم القيامة ثم يبعثون.

وفى رأى آخر أن حرف الجر «إلى» صلة فى الكلام، معناه: ليجمعنكم يوم القيامة، وسميت القيامة قيامة؛ لأن الناس يقومون فى هذا اليوم لله رب العالمين. قال جل شأنه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، استفهام تقريرى، هل هناك من هو أصدق من الله؟ فيكون الجواب تقريراً للحقيقة التى لا يشك فيها مؤمن: لا، لا أحد أصدق من الله، فهو سبحانه، يخاطبنا بما كان، وما سيكون، وكل ما جاء من عنده صدق لا ريب فيه، فهو جل شأنه لا يجوز عليه الكذب، لأن الكذب إخبار عن الشئ بغير ما هو عليه، والكاذب لا يكذب إلا أنه فى حاجة للكذب، لكى يستفيد منفعة، أو يدفع مضرة، والله سبحانه وتعالى حكيم غنى لا يجوز عليه الاحتياج، فهو عالم بكل معلوم، منزه عن الكذب، كما هو منزّه عن سائر النقائص والقبائح. سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ

فِثْتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَذُوالْوَلَو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتْلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَتِّلُوكُمْ وَالْقَوَاءِ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلِّ مَارَدُوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

كان المنافقون في الحروب عنصر فتنة مستمرة، وكانوا في السلم مثيري النزاع والخصام، فهم في الحرب إن رأوا ضعفا استغلوه، وإن لم يجدوا ضعفا ظاهرا أثاروه، ولم يكن النفاق في داخل المدينة فقط، بل كان يمتد كلما قوى المؤمنون في البلاد. ففي أول إقامة الدولة الإسلامية بالمدينة، وانتصار المؤمنين في بدر،

ظهر النفاق فيها خوفا من قوة المؤمنين، وأخذ ينفث سمومه فى قوتهم! وكلما عم سلطان الدولة الإسلامية واتسع، ظهر منافقون، فظهر فى الأعراب نفاق كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧] وظهر نفاق بين مشركى مكة، فكان ناس إذا أرادوا تجارة، وأرادوا أن يامنوا غارات المؤمنين فى الطريق عليهم، أعلنوا أنهم يصدقون بما جاء به محمد، وناقلوه بين الركب وبين الناس، فكان المؤمنون يختلفون فى شأنهم، فمنهم من يراهم مؤمنين لا يقاتلون ولا يغار عليهم، ومنهم من يراهم كفارا منافقين يريدون أن ينجوا بأموالهم، فنزل قوله تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ إذا كان المنافقون على ما ترون، من أنهم ينطقون باللسان خشية القوة، وابتغاء الفتنة، ولا يريدون إلا دفع الأذى عن أنفسهم، وإنزاله بكم، فما الذى يسوغ لكم أن تختلفوا فى شأنهم فتتين أى طائفتين، إحداهما ترجو الخير فيهم، والثانية ترى الشر يستحكم فى قلوبهم، ويبدو فى لحن أقوالهم؟ وأنتم ترون أيها المختلفون ضلالهم، ووقوعهم فى الفساد، وأنهم لا يبدو من أعمالهم ما يدل على إيمانهم، بل هم يعملون بالكفر، وينطقون بالإسلام.

والإركاس معناه قلب الشئ على رأسه، ورد مقدمه إلى مؤخره. جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني: «الركس قلب الشئ على رأسه، ورد أوله إلى آخره، يقال أركسته فركس وارتكس فى أمره».

والمعنى على هذا أن الله سبحانه وتعالى أوقعهم فى الضلال فقلب مداركهم، ورد الأول على الآخر فى تفكيرهم، بحيث صاروا لا يستطيعون ترتيب المقدمات الفكرية ونتائجها، وذلك بما كسبوا من الإيغال فى الشر بعد ابتغائه وطلبه، فلما صاروا فيه خطوة امتد بهم السير خطوات حتى أوغلوا فيه، وأصبحوا لا يستطيعون الحكم فى قول.

ومن هم أولئك المنافقون الذين أركسهم الله تعالى ذلك الإركاس؟ قيل: هم منافقو المدينة، أتباع عبد الله بن أبيّ، ومن معه. وقيل: قوم أقاموا بالمدينة مؤمنين، ثم خرجوا منها منحرفين في اعتقادهم، وأظهروا أن جوها لم يطب لهم! وقيل، كما روى عن ابن عباس: إنهم قوم آمنوا بمكة، وقالوا إن ظهر محمد ﷺ فقد عرفنا، وإن ظهر قومنا، فهو أحب إلينا.

وعندى أن المنافقين هنا تشمل من اتصفوا بذلك، وتخص الأعراب ومن على شاكلتهم من الذين كانوا يسلمون في قبائلهم، ويعلنون ذلك من غير أن يهاجروا إلى المدينة مناصرين للمؤمنين، ولم يكن من أعمالهم ما يدل على انتمائهم للدولة الإسلامية، وإعلان ولايتها عليهم. والحقيقة أن هؤلاء كانوا يتذرعون بكلمة الإسلام، لكيلا يحكم السيف الإسلامى فيهم. ولذلك ذكرت الآية أن الأمانة القاطعة الدالة على إيمانهم هي أن يهاجروا.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أيها المؤمنون المختلفون أتريدون أن تحملوا على الإيمان من أضله الله، أى من كتب عليه الضلالة، بسبب أنه سار فى طريقها، وانحرف عن جادة الحق وسبيل المؤمنين، فإن من يسير فى طريق لا بد أن ينتهى إلى نهايته، ما دام لم يرجع ولم يعد. ومن يضل الله، أى من يكتب عليه فى لوحه المحفوظ، وقدره المحتوم، أن يكون ضالا، فلن يجد أحد سبيلا إلى هدايته؛ لأن قَدَرَ الله تعالى لا يتغير، وقضائه لا يتبدل، وحكمه لا يتخلف، فمن حاول هداية المنافقين الذين حكم عليهم بالضلال، فكأنما يحارب قدر الله سبحانه وتعالى.

وإن المؤمنين يحاولون هداية المنافقين، أو الحكم لهم بالإيمان، بينما المنافقون يودون للمؤمنين عكس ذلك.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ وإن هؤلاء الذين تتمنون هدايتهم أو تحكمون بها عليهم، أو ترجونها لهم، يتمنون أن تكفروا كما كفروا، بحيث تكونون أنتم وهم على سواء؛ ومن تكون هذه حاله لا يعد مسلما، ولا

يحكم عليه بأن نور الإسلام دخل قلبه، فهو لا يريد أن تجتمعوا معه على هدى، بل يريد أن تكونوا معه على ضلالة! فإذا كانوا يريدون الاتصال بكم اتصال مودة، فعلى أساس الكفر لا على أساس الإيمان، وإذا كانوا كذلك، فلا يصح أن تتخذوا منهم أنصاراً، أو ترتبطوا معهم بمودة أو صلة، ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الولي يطلق بمعنى المناصر، ويطلق بمعنى المحب الودود، والنهي منصب على الاثنين، فإنه لا يصح للمؤمنين أن يتخذوا أولياء من هؤلاء المنافقين، الذين يظهرون الإسلام وهم مقيمون في ديار الأعداء يناصرونهم، وقوتهم لهم على المسلمين، فكيف يكونون مع هذه الحال نصراء أهل الإيمان!! وإذا كان لا يصح أن يتخذوا منهم نصراء، فإنه لا يصح أن يقال إنهم متممون للدولة الإسلامية، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، ولا يجوز لهذا أن يضموا إليها.

وإنه لا يصح أن يربط بعض المؤمنين معهم مودة؛ لأنهم يبقائهم في ظل الكفر، وقوتهم له، يكونون في ضمن من يحادون الله ورسوله، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وإن أمر القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، فلا يصح أن تحكموا عليهم بالإيمان حتى تظهر أماراته، وتبدو معالته. وإن مظهره الحقيقي في هذا النوع من الناس هو أن ينضموا إلى جماعة المؤمنين بالهجرة إليهم، لتكون قوتهم للمؤمنين لا عليهم، ولذا قيد سبحانه وتعالى ترك ولايتهم بغاية، وهي الهجرة، فقال: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأن يخرجوا في سبيل الله تعالى مجاهدين مع المؤمنين ومناصرين ومؤيدين لهم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى فإن أعرضوا عن الهجرة، وهى واجبة، فلا تعتبروا إسلامهم؛ لأنهم لا يزالون قوة عليكم، وخذوهم من نواصيهم بالأسر، والترصد لتساجرهم

وأموالهم، حتى لا يتخذوا من ذلك ذريعة لتقوية أقوامهم، واقتلوهم حيث وجدتموهم؛ لأنهم أعداء بمعاونتهم أعداء المؤمنين. وإذا كانوا يستطيعون الخروج بمتاجرتهم وغيرها، فإنهم يستطيعون الهجرة إليكم ليكونوا قوة لكم، والهجرة واجبة، وإذا كانوا معكم في حال قتال كمن يتمون إليهم، فلا تقبلوهم في ولايتكم، ولا توادوهم، ولا تتخذوا منهم نصراء؛ لأن النصير هو الذي يعاونك ويكون معك على أعدائك، وليس هؤلاء منهم، فقله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، يدل على النهي عن أمور ثلاثة: أولها - ألا يعتبروهم منهم بالولاية والانتماء، لأنهم لم يعملوا على الانضمام لجماعة المؤمنين. وثانيها - ألا يوادوهم، لأنهم يحادونهم إذ يحادون الله ورسوله، وهم بهذا من حزب الشيطان، لا من حزب الله تعالى وثالثها ألا يتخذوا منهم نصراء، لأنهم سيخادعون، ومن كانت هذه حالهم لا يؤمنون، فنصرهم خذلان، والاستعانة بهم استعانة بغير أهل الإيمان.

وإن السياق يدل على أن المنافقين الذين تتحدث عنهم الآية - وإن كان اللفظ عاما - هم من الذين يظهرون الإسلام في قبائلهم، ولا يخرجون إلى المسلمين ليكونوا معهم، فإن زمان إنشاء الدولة الإسلامية يحتاج إلى التجمع، ليكون المؤمنون قوة واحدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ [الصف].

والخلاصة أن أولئك المنافقين يعاملون معاملة الذين يتمون إلى دولة أخرى، فإذا كانت دولتهم تقاتل المؤمنين قوتلوا وقتلوا، وإن كانت دولتهم تسالم المؤمنين بميثاق، فلا يقاتلون احتراماً للعهد والميثاق، ولذا قال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ الاستثناء هنا منفصل بمعنى «لكن»، وهو من الأمر بالأخذ بالنواصي، والقتل حيثما وجدوا. والمعنى: لكن لا تأخذوا ولا تقتلوا أحداً من هؤلاء الذين يصلون بالانتماء أو الرعية إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد موثق، لا يصح النكث فيه، ولا الخروج على أحكامه، أو

التمرد على مقتضاء، فهؤلاء يعاملون كالدولة التي يتمنون إليها، والأقوام الذين يصلون أمورهم بهم، ولا يصح أن يقتلوا أو يؤسروا؛ لأن قتلهم أو أسرهم نقض للعهد الذي وثق وأكد، والله تعالى يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ويقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

وإن قوله تعالى: ﴿يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، يدخل في مضمونه طائفتان:

أولاهما - طائفة تكون رعية لدولة بينكم وبينهم عهد وميثاق، فإنه لا يشترط لنجاتهم أن يخرجوا إليكم مهاجرين، فإنهم آمنون بمقتضى العهد والميثاق، فإن أعلنوا الإسلام، لا يستراب في أمرهم.

والثانية - من يتصلون بعهد أو ميثاق أو ولاء ممن كان بينكم وبينهم عهد، فإن لهم حكم من يكونون رعية لمعاهدكم. وإن هذا الصنف يصح أن ينطبق على من لا يظهرون الإسلام ولكن يعلنون السلام.

وهناك صنف لا ينتمى لقوم ذوى عهد، ولكنه لا يقاتل قومه لعذر عنده، ويخرج إلى المؤمنين مخلصا لله الدين أو ملقيا بالسلام، وهم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم:

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ هذا فريق آخر ممن يعلنون الإسلام في وسط أقوامهم أو لا يعلنونه ولا يقاتلون مع المؤمنين، وهؤلاء يتمنون إلى قوم يقاتلون المؤمنين، وهم في حال حرب، فهؤلاء يعلنون إسلامهم ويجيئون إلى المسلمين معلنين الإسلام، ولكنهم يكونون في ضيق وحر، فلا يستطيعون قتال أقوامهم، خشية على ذرياتهم أو ذوى أرحامهم أو أموالهم، ويريدون أن يتذرعوا بالامتناع عن قتال قومهم، فإنه يقبل منهم الاعتزال. ومعنى ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ ضاقت. وقد قال الراغب: (الحصر التضييق). قال الله عز وجل: ﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَحْصَرَوْهُمْ﴾ أى ضيقوا عليهم، وقال

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أى ضاقت).

ويظهر أن مادة (حصر) تكون من باب نصر ومن باب فرح، وإذا كانت من باب نصر تكون دالة على التضيق على الغير تضيقا حسيا، وإن كانت من باب فرح تكون لازمة ودالة على ضيق النفس. والمعنى على هذا أن هؤلاء ضاقت نفوسهم، وصاروا فى حرج لا يستطيعون قتال المسلمين، ولا يستطيعون قتال أقوامهم، فهؤلاء مسالمون، لأن الله كفى المؤمنين أمرهم، ولأنهم لا يعدون منافقين، ولقد حرص الله سبحانه المؤمنين على مسالتهم رغبة فى السلام، فقال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أى أنه من رحمة الله بكم أن قلل أعداءكم، وأضعف شأن الذين يقاتلونكم، بأن يخرج من بين صفوفهم من يسالمونكم، وإن الله ناصركم فى هذا بأمرين: بتقوية جمعكم، وإضعاف شأن عدوكم، ولو شاء سبحانه أن يكونوا جميعا عليكم ولا يخرج منهم من يسالمكم، وجعل أولئك الذين يمدون يد السلام مسلطين عليكم بالقتل والقتال، لكان ذلك، وليس فى مصلحتكم، فاختراروا ما أمركم الله به، وهو مسالة أولئك الذين يسالمونكم، وقد خرجوا من بين أقوامهم.

ولقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى فاقبلوا من هؤلاء المسالة، إن اعتزلوا قتالكم، ولم يكونوا مع أعدائكم عليكم، ولم يريدوا أيضا أن يكونوا معكم على أقوامهم، وألقوا إليكم السلام غير معاندين، ولا مخالفين، فاقبلوا ذلك منهم، ولا تحاربوهم؛ لأنهم لا يقاتلونكم ولا يؤلبون عليكم، ولا يعتدون، والله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]، وما داموا لا يقاتلون لا يحل قتالهم، وإلا كنا معتدين. والقتال فى الإسلام شرع

لدفع الاعتداء، فإذا كانوا كذلك فما جعل الله لكم فى شرعه وأحكامه سبيلا لقتالهم.

وفى النص الكريم إشارتان لفظيتان: أولاهما - قوله سبحانه: ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، إذ التعبير بـ «عليهم» يوصى إلى أن قتالهم اعتداء عليهم، وما جعل الله لكم حق الاعتداء، فالمعنى: ما جعل الله سبحانه لكم سبيلا للاعتداء بـ «عليهم». الثانية - التعبير بلفظ السلم بدل السلام للإشارة إلى معنى التسليم، لا مجرد الأمن والسلام؛ لأن السلم يفيد معنى التسليم، فهم القوا إليكم الأمن وتسليم القيادة لكم.

وهناك صنف آخر غير هؤلاء المسلمين، وهم قوم يخادعون، لا يكفون عن القتال، وقد قال سبحانه فيهم:

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ هذا صنف أخير يتجه إلى أن يأمن قومه، فلا يقاتلهم، ويأمن المؤمنون حتى لا يقتلوه، ولكنه لا يمد يد الأمان، ولا يسلم القياد، وهؤلاء إذا دعوا إلى القتال، ولم يعترضوا منفردين لأذى المؤمنين، استجابوا للقتال فى صفوف المشركين، فهم يظهرون الأمان، أو يظهرون الإسلام، ليأمنوا جانب المؤمنين، فإن لاحت لهم فرصة الانضمام لأعداء الله قاتلوا معهم، وهذا مرمى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾، أى كلما ردوا إلى قومهم مفتونين بعصيتهم وكفرهم، قلبت نفوسهم أقبح قلب، فأركسوا فى فتنة الكفر والعصية، وهؤلاء أوجب الإسلام قتالهم إذا لم يعتزلوا أقوامهم ويكفوا أيديهم عن قتال المسلمين، ولذا قال سبحانه:

﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. أى إن لم يعتزلوا قتالكم، ويمتنعوا عن حربكم، ويلقوا إليكم بالأمان مع تسليم أنفسهم متقادين، ويكفوا أيديهم عن القتال، فقد حل دمهم، ورالت عصمتهم، فخذوهم بالنواصى أسرى،

واقتلوهم حيث وجدتموهم؛ فمعنى ﴿تَقْتُلُوهُمْ﴾ وجدتموهم. وعبر عن الامتناع عن القتال بقوله ﴿وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ﴾؛ لأن اليد هي الأداة الأولى للقتال؛ وإن الله بهذا قد جعل للمسلمين سلطاناً أى سيطرة تمكنهم من قتالهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أى أولئك بأوصافهم من العذر، وقتالهم للمؤمنين، وفستهم، جعل الله لكم عليهم سلطاناً مسوِّغاً لقتالهم، واضحاً بيناً لاشك فيه، فقاتلوهم من غير استراية ولا شك ولا تلكؤ. اللهم أعز الإسلام وانصرنا على القوم الكافرين.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى
أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ
مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾

كان الكلام فى الآيات السابقة فى المنافقين الذين يعملون على نقض بناء الدولة الإسلامية، ويعملون على إلقاء الريب فى قلوب أهل الإيمان، وفى وجوب قتل الكافرين الذين يتقضون العهد والميثاق، والذين يظهرون الإيمان بين قبائلهم، ولا يعملون عملاً للإسلام، فإنهم منافقون يريدون أن يتخذوا من مظهر الإيمان

وقاية لهم، إن اشتدت الشديدة على أقوامهم! وإنه لا يحمى دم هؤلاء في القتال إلا إذا كانوا قد ألقوا السلام، واعتزلوا القتال مع أقوامهم، أو كانوا يصلون إلى قوم قد ارتبط المسلمون معهم بميثاق عدم اعتداء. وإن التفرقة بين هذه العناصر قد يقع معها الخطأ، ولذا ذكر القرآن الكريم الخطأ في هذه الأحوال الثلاث: وهي قتل المؤمن الخطأ لمؤمن قائم مع المؤمنين، وقتل الخطأ لمؤمن من قوم أعداء، وقتل الخطأ من قوم لهم ميثاق، حتى إذا وقع الخطأ كان الحكم بينا، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ «ما كان» النفي هنا ليس لنفي الوقوع، أى نفي أن يقع قتل خطأ، وإلا ما وقع ذلك أبدا، لكنه يقع، بل النفي بمعنى عدم الجواز والنهي عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [٥٢] [الأحزاب]. ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [٣٦] [الأحزاب]، والمعنى على ذلك ما ساغ ولا جاز ولا أبيع أن يقتل مؤمن مؤمنا قط، فإن ذلك أمر محرم تحريما قاطعا، لكن إن كان خطأ، فإن ذلك قد يكون معذرة يعتذر بها؛ لأن الله تعالى رفع عن أمة محمد إثم الخطأ، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١)، وليس على المؤمن إثم القتل إن قتل خطأ، وإن كان يجب الاحتراز من الخطأ. وإن التقصير لا يخلو من مؤاخذه، ولذلك قال الزيلعي من فقهاء الحنفية: «وبهذا النوع من القتل (أى الخطأ) لا يأتى إثم القتل، وإنما يأتى إثم ترك التحرز، والمبالغة فى التثبت؛ لأن الأفعال المباحة لا تجوز مباشرتها إلا بشرط ألا تؤذى أحدا، فإذا آذى أحدا فقد تحقق ترك التحرز».

والقتل الخطأ يتصور فى ثلاث صور: أولاها - أن يرمى هدفا، فيصيب إنسانا معصوم الدم، بأن تنحرف الرمية.

(١) رواه بهذا اللفظ الطبرانى عن ثوبان رضى الله عنه، كما فى الفتح الكبير ج ٢، ص ١٢١، برقم (٦٦١٩)، والجامع للسيوطى ج ٤، ص ٤٠١ برقم (١٢٥٦).

والثانية - أن يقصد هدفا معينا، على أنه حيوان مفترس مثلا، فيستبين أنه إنسان معصوم الدم. والثالثة - أن يقتل إنسانا على أنه من الأعداء، فيستبين أنه معصوم الدم، تحت هذه الصور صور كثيرة: منها أن يقتل من قال: لا إله إلا الله، زاعما أنه قالها تحت حد السيف، وغير ذلك من أخطاء القتال.

وقد ذكر الزمخشري في سبب نزول هذه الآية أنه «روى أن عياش بن أبي ربيعة، وكان أخا أبي جهل لأمه، أسلم وهاجر خوفا من قومه إلى المدينة، وذلك قبل هجرة الرسول ﷺ، فأقسمت أمه ألا تأكل ولا تشرب، ولا يؤويها سقف حتى يرجع، فخرج أبو جهل ومعه الحارث بن زيد، فقال أبو جهل: أليس محمد يحثك على صلة الرحم، انصرف وبرّ أمك وأنت على دينك! حتى نزل وذبح معهما، وقدا به على أمه، فلما أبعدا عن المدينة كتفاه، وجلده كل واحد مائة جلدة، فقال عياش للحارث: هذا أخي، فمن أنت يا حارث، لله على إن وجدتك خاليا أن أقتلك، وقدا به على أمه، فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد، ففعل، ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحارث، وهاجر، فلقى عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه، وأنحى عليه وقتله، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ، فقال: قتلت، ولم أشعر بإسلامه، فتزلت الآية».

وسواء أصح هذا سببا للنزول أم لم يصح، فإن الآية عامة تعم كل قتل خطأ. والقتل الخطأ يوجب كفارة، ويوجب دية تسلم إلى أهله، أى أنه يجب تعويض أهل الإيمان، إن أمكن، ويجب تعويض أسرة القتيل. وتعويض أهل الإيمان يكون بإعتاق رقبة مؤمنة، وتعويض أسرة القتيل. إن كانت غير متمتية لقوم عدو للمؤمنين يكون بالدية. وقد ذكرت أحوال ثلاثة للدية، تجب في حالين، ولا تجب في حال أخرى: أما الحالان اللتان تجب فيهما، فهما إذا كان القتل حدث على رجل مؤمن يعيش بين المؤمنين، والثانية إذا كان المقتول من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق عدم اعتداء، وقد ذكر سبحانه الحال الأولى في قوله تعالت كلماته:

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾

التحرير جعله حراً طليقاً لوجه الله تعالى، بعد أن كان عبداً رقيقاً، والتعبير عن العتق بالتحرير، للإشارة إلى أن الحرية مقصد من مقاصد الشارع الإسلامي، وأن العقوبة ليس المقصود بها إيذاء القاتل، إنما المقصود بها نفع العبد، وكذلك كل عقوبة تكون بعقوبة لا يقصد بها الإيلام، إنما يقصد بها تحرير الرقاب، وقد أخطأ بعض الفقهاء فأشار على ملك من ملوك المسلمين قد جامع في رمضان بأن يصوم شهرين متتابعين، مع أن النص يقرر أن الصيام إنما هو بالنسبة لمن لا يملك رقاباً، وكان خطؤه من ناحيتين: إحداهما - أنه أعمل الرأي في موضع النص، وذلك لا يجوز، والثانية أنه لم يفهم مقصود الشارع ابتداءً، وهو نفع العبد بالإعتاق.

وعبر عن نفس الحر بكلمة الرقبة، للإشارة إلى أن الرق غل معنوى في الرقاب، وأن المؤمن الصادق لا يجوز له أن يَغُلَّ رقاب العباد، إلا لضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، ولذلك عبر سبحانه وتعالى عن العتق بفك الرقبة في آية أخرى، فقال سبحانه وجلت كلماته: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكَ رَقَبَةٌ (١٣) [البلد].

والدية التي قدرها النبي ﷺ هي مائة من الإبل لمن يملك إبلاً، وألف دينار من الذهب لمن لا يملك إبلاً، وعشرة آلاف درهم لمن يملك فضة، وقيل اثنا عشر ألف درهم: وقال الشافعي: إن الدية في الأصل مائة من الإبل، ومن لا يجد مائة من الإبل تكون عليه قيمتها من الذهب أو الفضة، بالغة ما بلغت، قليلة كانت أو كبيرة.

وإن الدية تسلم إلى ورثة المقتول، وقد كان رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: لا تسلم الدية إلا إلى عصبته، فلا يسلم جزء منها لزوجته مع أنها وارثة، فيروى أنه قضى بدية المقتول، فجاءت امرأته تطلب ميراثها، فقال: لا أعلم لك شيئاً إنما الدية للعصبة، فقام الضحاك بن سفيان الكلابي وقال: «كتب

إلى رسول الله ﷺ يأمرنى أن أورث امرأة أشيم الضبابى من عقل (أى دية) زوجها أشيم فورثها عمر بعد أن علم بقضاء النبي ﷺ فى هذا، وما كان له أن يخالفه^(١).

والدية عند الأكثرين تجب على عصبة القاتل، ليكون ذلك دليلا على تضافر الأسرة كلها، وإذا كان فقيرا وأسرته فقيرة، فإن دية المقتول تكون على بيت مال المسلمين؛ لأنه وارث من لا وارث له، فيجب عليه ما كان يجب على الوارث؛ ولأنه لا يطل دم فى الإسلام، ولأنه إذا كانت الأسرة الصغرى قد عجزت عن دفع الدية، فإنها تجب على أسرته الكبرى، وهى الأمة. وهنا بحثان لفظيان:

أولهما: التعبير عن أداء الدية بقوله: ﴿مُسْلَمَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾. فإن هذا التعبير يرمى إلى وجوب حسن الأداء، بالأى يكلفوا أسرة المقتول شطط التقاضى والمطالبة، فيجمعوا عليها ألم الفقد، ومضاضة الشكوى والتظلم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة].

والبحث الثانى: قوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾، أى إلا أن يتبرع أهل القتيل، وفى التعبير بكلمة «يصدقوا» إشارة إلى أن ذلك أمر مرغوب فيه محجب، وأنه صدقة لها ثوابها، إذا كان أولياء القتائل وعصبته يرهقون بأدائها، أو كان العطاء من بيت المال فيتركونها صدقة لجماعة المسلمين، وإن ذلك يكون إذا كانوا هم فى ثروة لا يحتاجون معها إلى هذه الدية، وفى الجملة يكون لها كل أحكام الصدقة، ولا صدقة إلا عن ظهر غنى.

بقى أن نبين الحكمة فى هذه العقوبة: لماذا كانت العقوبة أولا؟ ولماذا كانت بهذا الشكل؟! أما عن شرعية العقوبة، فحكمتها واضحة وهى تربية الناس على

(١) رواه الترمذى وصححه: الديات - فى المرأة هل تراث من دية زوجها (١٤١٥)، وأبو داود: الفرائض (٢٩٢٧)، وابن ماجه: الديات (٢٦٤٢)، وأحمد: مسند المكيين - مسند الضحاك بن سفيان رضى الله عنه (١٥٣١٨) عن سعيد بن المسيب والضحاك بن سفيان الكلابى رضى الله عنهما.

الاحتراز وصيانة الأنفس، وحسبك مثلاً في عصرنا أننا نرى استهانة سائقي السيارات بالأنفس لنقص العقوبة على جريمة القتل الخطأ، فكان التقصير في تحرزهم واضحاً، ولأن من المقررات الشرعية ألا يذهب دم في الأرض الإسلامية هدراً، وقد قال في ذلك الزيلعي من فقهاء الحنفية: الضمان في الخطأ بضرورة صون الدم من الإهدار، ولولا ذلك لتخاطأ كثير من الناس، وأدى إلى التفاني، ولأن النفس محترمة، فلا تسقط بعذر التخاطؤ، فيجب المال صيانة لها من الإهدار.

وأما السبب في كون العقوبة على هذا النحو، فقد أشرنا من قبل إلى أنه قد اعتدى على الجماعة بتقصيره في التحرز، فوجب عليه أن يعرض الجماعة الإسلامية عما فقدت، واعتدى على الأسرة فثكلت عائلها أو وليها، فكان لا بد من تعويضهما، فأما تعويض الجماعة فباعتناق رقبة مؤمنة؛ لأن تحرير العبد كأنه إحياء له، إذ الحرية هي الحياة، ولأنه أفقد الجماعة عنصراً عاملاً فيها، فكان لا بد من تعويضها بعنصر عامل لها، والعبد عمله لسيده، أما الحر فعمله لجماعته، واعتدائه على الأسرة كان تعويضها عنه ذلك المال المدفوع.

هذه حال الاعتداء بالخطأ على المؤمن في دولة الإيمان. أما إذا كان المؤمن ينتمي إلى الأعداء فإن الدية لا تدفع. قال تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مَسْلُومَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾

أى أنه إذا كان ينتمي إلى الأعداء، فإن الدية لا تدفع. لأن أموال الأعداء وأرواحهم غير مصونة، ولأن إرسال الدية إلى قومه تقوية لهم على المؤمنين، فلا تعوض أسرة القتيل، ولكن تعوض الجماعة الإسلامية بالحرية التي تمنح لواحد منها تعويضاً عما فقدت.

والحال الثالثة: إذا كان المقتول من قوم بينهم وبين المؤمنين عهد وميثاق،

وفى هذا تدفع الدية إلى أهله، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مَسْلُومَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، والذين لهم ميثاق فريقان: فريق

يعيش بين المؤمنين، وفريق يعيش فى دولة أخرى بينها وبين المسلمين عهد، فأما الفريق الأول فهم الذين لهم ذمة رسول الله ﷺ وعهده، وهذا أقوى عهد موثق ومؤكد، وبمقتضى حكم الإسلام لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويسمون ذميين. ولقد قال النبى ﷺ: «من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته»^(١)! ولقد كان الراشدون رضى الله عنهم يعنون بأمرهم، ويقيمون العدالة فيهم. وأما الفريق الثانى فإنهم أقوام لهم دولة قائمة، وبينهم وبين المسلمين عهد موثق بعدم الاعتداء وإقامة السلم فيما بينهم وبين المسلمين، وقد يكون بينهم وبين المسلمين حلف على التناصر إذا حصل اعتداء.

وهنا إشارة بيانية تؤكد حرص الشرع على دفع الدية لأهل المقتول ولو كانوا غير مسلمين، وهى تقديم الدية على الكفارة؛ لأنها نفيت فى حال القاتل الذى ينتمى إلى الأعداء، فكان لابد من توكيدها حتى لا يتردد القاتل فى دفعها إلى غير المسلمين، إن كان بينهم وبين المسلمين ميثاق بمنع الاعتداء.

وقد قال بعض العلماء. إن الدية ذكرت منكرة ولم تذكر معرفة، فلم يقل تعالت كلماته: الدية تسلم لأهله؛ وهى قد ذكرت منكرة فى الحالين اللتين وجبت فيهما، واستنبط من هذا أنها لو ذكرت معرفة لكان تقدير النبى ﷺ بيانا لمعناها فى القرآن، وما جاز تقديرها بغير تقديره، ولا الاتفاق على غيرها.

ونحن نؤيد هذا الاستنباط بشرط ألا يكون تفاوت فى تقدير الدية من حيث الجنس أو اللون، أو القوة والضعف، أو العلم والجهل، أو التحضر والتبدى، فإن هذا شأن الجاهلية، ولا يقره الإسلام، ولا يصح أن يترك الأمر ليستغل القوى ضعف الضعيف.

وهنا يجب أن نذكر فرعين: أحدهما - إذا قتل المؤمن ذميا أو معاهدا غير مسلم، فهل تجب الدية والكفارة؟ والجواب عن ذلك أن الدية واجبة الأداء باتفاق

(١) رواه الخطيب عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا كما فى الفتح الكبير: ج ٦، ص ٤٨١ برقم (٢٠٠٣٨).

العلماء، أما الكفارة فهي موضع نظر، وأميل إلى وجوبها؛ لأن التحرز عن دم الذمي أو المعاهد كالتحرز من دم المسلم، لأنه معصوم الدم كالمؤمن على سواء، وموجبات الأمن لأهل الدولة الواحدة ثابتة، ولأن الكفارة عبادة، وعق أهل الإيمان أمر مرغوب فيه.

الفرع الثاني: إذا قتل الذمي ذمياً، فإن الدية بلا ريب واجبة؛ لأنها تعويض لأسرة القتيل، ولأنها في معنى القصاص من القاتل قتلاً خطأ، وأما الكفارة فإنها عبادة، فلا تجب على غير المسلم، وخصوصاً أن فيها صوم شهرين متتابعين، والصوم عبادة إسلامية، والأمر فيه بين العبد وربه، والصوم يكون حيث لا توجد الرقبة.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي فمن لم يجد رقبة مؤمنة يعتقها، فالواجب في الكفارة، حيث تجب، صيام شهرين متصلين في أيامهما، لا يفرق بينها فطر، بحيث لو أفطر يوماً فيها استأنف من جديد ابتداء الشهرين، إلا أن يكون إفطار اليوم لعذر كمرض أو سفر مضطر إليه، وخالف في ذلك أبو حنيفة والشافعي، وقررا وجوب الاستئناف من جديد، ولو كان الإفطار لعذر قاهر. والآية تصرح بأن سبب الكفارة هو التوبة والرجوع إلى الله تعالى من تقصير في التقدير. وقد يقال: إذا لم يكن إثم فمن أي شيء تكون التوبة، مع أنه باتفاق العلماء لا إثم في الخطأ؟ ونقول: إن إثم القتل لا يتحقق عند الخطأ كما نقلنا من قبل، ولكن التقصير قد يكون ثابتاً، والتوبة إنما هي من هذا التقصير، والحمل على الاحتياط والتحرز في المستقبل، والكفارة مذكور مستمر بالتقصير حتى لا يتكرر من بعد.

وقد ذيل الله تعالى النص الكريم بذكر اتصافه بأنه عليم بكل شيء، عليم بالنفوس وحركاتها ومداهها، وعليم بما يقع من الأعمال، ويجول في النفوس والخواطر، وهو المدبر لكل شيء بحكمته، والذي يشرع الأحكام على مقتضى المصلحة الإنسانية العالية.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٧٩﴾

في الآية السابقة بين - سبحانه وتعالى - حكم القتل الخطأ، وفصل القول فيه تفصيلاً؛ فذكر الحكم إذا كان المقتول من قوم أعداء للمؤمنين، والحكم إذا كان من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق، والحكم إذا كان المقتول من المؤمنين الذين يتممون إلى الدولة الإسلامية. وفي هاتين الآيتين يبين سبحانه أمرين: أولهما - حكم قتل المؤمن متعمداً، وثانيهما - وجوب تجنب الخطأ عند الجهاد، فإن الجهاد والضرب في الأرض مظنة قتل غير المقاتل، أو غير المعتدى، وفي حال قتل غير المعتدى يكون القتل عمداً، ولكن على أساس وصف من الأوصاف المسوغة للقتال، فوجب الاحتراز منه. ولأن فيه نوعاً من القصد والتعمد، جاء بعد حكم القتل المتعمد، الذي بينه سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ تبيين تلك الجملة السامية عظم الجرم في القتل المتعمد المقصود، سواء أكان بألة من شأنها أن تقتل كالرصاصة أو السيف أو السكين، أم كان بألة ليس من شأنها أن تقتل، ولكن قصد بها القتل، وكان الضرب في مقتل، فإن القتل في كلتا الحالتين مقصود متعمد، يعلم الله تعمده وقصده. والفرقة بين ما يكون بألة تقتل، وأخرى لا تقتل، هي تفرقة في الأحكام الدنيوية. والآية هنا تبين الحكم الأخروي، وهو الدخول في جهنم. أما الحكم الدنيوي، وهو القصاص الذي ثبت بآية القصاص، وقال فيه سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة]، فهو الذي فرق فيه بعض الفقهاء بين القتل الذي يكون بألة من شأنها أن تقتل، والقتل بألة لا

تقتل، ومع ذلك لم يفرق في الحكم مالك إمام دار الهجرة بين الأمرين، مادام قد ثبت العدوان والقصد إلى القتل.

وإن الجزاء الأخرى صارم قاطع، فهو جهنم والمكث فيها على الدوام، إن كان قد استباح ذلك، ولم يؤمن بحرسته، ولم يتب عن جريمته؛ ولا نجد قاتلا يقتل غيره إلا وهو مستحل لدمه مستباح له! أفلا يستحق بهذا أن يخلد في النار ما لم يتب ويقدم رقبته، أو يعفو عنه أولياء المقتول؟ والمعتزلة الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ويخلد في النار، يستدلون بهذه الآية. ونحن نقول: إن خلوده في النار ليس لمجرد الفعل، بل لاستباحة القتل، وإنكاره التحريم. ولا يوجد قاتل عند ارتكابه تلك الجريمة التي تعد أكبر جريمة في الوجود، لا يستباح فعله، فكانت العقوبة على الاستباحة، والنبي ﷺ يقول فيما يروى عنه: «لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل امرئ مسلم بغير حق»^(١).

﴿وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ هاتان عقوبتان معنويتان، وثالثة مادية، أما المعنويتان فهما الطرد من رحمته الذي عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله «ولعنه»، وأى عقوبة أعظم من الطرد من رحمة الله تعالى، ونفحاته القدسية، ووادي رحمته المشرق المنير؟ والعقوبة المعنوية الثانية هي غضب الله تعالى، وغضب الله من أشد عقابه، كما أن رضوانه أعظم ثوابه، وكيف لا يغضب رب العالمين من يهدم ما بناه سبحانه في خلق الإنسان الذي سواء وعدله في أحسن تقويم؟!.

وأما العقوبة المادية، فقد أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، وهذه إشارة إلى عظم الجريمة؛ لأن العقوبة العظيمة لا تكون إلا لجرم عظيم، وأى جرم أعظم من هدم بناء الإنسان الذي سجد له الملائكة، ولعن من

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذي: الديات - ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥) عن عبد الله بن

عمرو رضى الله عنه مرفوعا وموقوفا وقال: والموقوف أصح من المرفوع، كما رواه النسائي:

تحريم الدم - تعظيم الدم (٣٩٨٧) مرفوعا.

أجله إبليس وطرده من رحمة الله؟ حتى لقد قال بعض العلماء: إن من قتل قتلاً عمداً لا تقبل له توبة، ونحن نخالف في ذلك ونقول: تقبل التوبة بحقها، وهي أن يقدم رقبته جزاء جريمته، أو يعفو ولي الدم.

وأما العذاب العظيم، فهو ما قرره سبحانه وتعالى في الدنيا من قصاص، وفي الآخرة من نيران شديدة، وقد يقال: أليس هذا تكراراً لقوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾؟ ونقول، لا تكرار؛ لأن هذا الجزاء في مقابل جزاء من قتل خطأ وفي هذا الجزء الأخير بين سبحانه أن هذا الجزاء معد بالفعل يوم القيامة، فبين سبحانه وتعالى العقوبة وتنفيذها، وأنها لا هودة فيها، ولا تسامح بالنسبة لمرتكبها.

وإن القتل الخطأ الذي بين القرآن الكريم أحكامه في الآيات السابقة، قد يكون سببه أن يقتل مُحَرَّمُ الدم، على أساس أنه مباح الدم، كمن يلقي طائفة من الناس في بادية يحسبهم من الأعداء الذين يباح دمهم، لاعتدائهم على المسلمين، فيقتل منهم أحداً، فيكون الخطأ: ولذا نبه سبحانه إلى توقّي المجازفة في القتل، فلا يسارع المؤمن إليه؛ لأن الأصل في الدماء أنها محرمة، ولا تباح إلا عند الاعتداء؛ ولذا قال سبحانه بعد الآية السابقة:

يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٤﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أحكام القتل الخطأ، نبه سبحانه إلى توقي المجازفة في القتل، فلا يسارع المؤمن إليه، لأن الأصل في الدماء أنها محرمة، ولا تباح إلا عند الاعتداء. ولذا قال جلّ جلاله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الضرب في الأرض معناه السير فيها، والضرب في سبيل الله معناه السير مجاهداً في سبيله تعالى، وكل جهاد في الإسلام لا يعتبر جهاداً إلا إذا كان في سبيل الله تعالى، أى لإعلاء كلمة الحق والدين، ورد المعتدين. فسبيل الله هو سبيل الحق، وكل دعوة إلى الخير هي سبيل الله تعالى ومعنى «تَبَيَّنُوا»: تثبتوا، وهناك قراءة نصها: «تَثَبَّتُوا»^(١).

ومعنى النص الكريم: يا أيها الذين أذعنوا للحق وصدقوا به، وخرجوا مجاهدين في سبيل الله، إذا سرتهم في جهادكم، فتعرفوا من يحاربكم ومن يعاديكم، ولا تضعوا السيف في موضع البرء والسقم، فى المقاتل وغير المقاتل، فى المحارب وغير المحارب، ولا تتعجلوا بالقتل عند الشك فى أن من تقتلونه عدو أو ولى، أو عند احتمال ألا يكون عدواً؛ فإن الأصل فى الدماء التحريم، وكل شك يمنع القتل؛ إذ القتل إنما هو لدفع الاعتداء، فلا يقتل إنسان إلا عند تأكيد الاعتداء منه، أو نيته عنده، ومن لم يثبت، فقد خالف أمر الله واعتدى.

وروى فى سبب نزول هذه الآية روايات مختلفة، كلها يتلاقى عند معنى واحد، وهو أن المجاهدين أطهار قتلوا رجلاً نطق بالشهادتين: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، بعد أن استمكن المسلمون من رقبتة، أو قال للمجاهدين: السلام عليكم، فقتلوه، وقد جاء فى (أحكام القرآن) للقرطبي: فى سنن ابن ماجة عن عمران بن حصين، قال: بعث رسول الله ﷺ من المسلمين إلى المشركين بعثاً، فقاتلهم قتالاً شديداً، فمنحوهم أكتافهم، فحمل رجل على رجل من المشركين، فلما غشيه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، إني مسلم، فطعنه فقتله،

(١) وبها قرأ حمزة والكسائي، وخلف، وقرأ الباقون «فتبينوا». غاية الاختصار، ج ٢، ص ٤٦٦.

فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هلكت! قال: «وما الذى صنعت، مرة أو مرتين؟» فأخبره بالذى صنع، فقال رسول الله ﷺ: «فهلأ شققت عن بطنه، فعلمت ما فى قلبه... فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه»^(١)!

ويروى مثل ذلك بالنسبة لأسامة بن زيد، فقد قتل رجلا نطق بالشهادتين، فلامه النبي ﷺ، فقال أسامة: لقد قالها تحت حرّ السيف! فقال النبي ﷺ: «هلأ شققت عن قلبه»^(٢)!

ولعل وقائع قد وقعت من هذا الصنف، والقتال شديد، وقد حمى الوطيس، فجاء الأمر الكريم بالثبوت.

وليس النطق بالشهادتين فقط هو الذى يحقن الدم، بل إعلان السلام وحده كاف لمنع القتل، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ السلام معناه الأمن، وقد أطلق على اللفظ الذى يدل عليه، وهو تحية الإسلام: «السلام عليكم». وأطلق على استسلام العبد لربه. و«ألقى السلام»، معناه: قاله، أو قدمه. والنص الكريم جاء للنهي عن قتل من ألقى السلام وقدمه بالاستسلام، سواء أكان مؤمنا، أم غير

(١) سنن ابن ماجه: الفتن - الكف عمن قال لا إله إلا الله (٣٩٣٠) عن عمرا بن حصين رضى الله عنه.

(٢) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَحْنَا الْحَرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَذْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَطَعَنَتْهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَّلَتْهُ؟» قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي أَسَلَمْتُ يَوْمَئِذٍ. قَالَ: فَقَالَ سَعْدُ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبَطْنَيْنِ - يَعْنِي أُسَامَةَ - قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ «وَقَاتِلُوهُمْ» حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَقَالَ سَعْدُ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةً. [رواه مسلم: الإيمان - تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٦)، وينحوه البخاري: الديات (٦٨٧٢)، كما رواه أبو داود: الجهاد - على ما يقاثل المشركون (٢٦٤٣)، وأحمد: مسند الانصار - حديث أسامة بن زيد (٢١٢٩٥)].

مؤمن، وسواء أنطق بالشهادتين مع ذلك، أم لم ينطق. والنهي عن القتل بالنهي عن رد الكلام الذي قاله معلنا السلام، ورد الفعل الذي يدل على الاستسلام؛ فمعنى النص الكريم لا تردوا إلقاء السلام وفعله الذي يدل عليه، قائلين: لست مؤمنا، أى لست مصدقا للشهادتين إن نطقت بها، أو لست من صفوف المؤمنين حتى يحرم على أنفسنا قتلك. فمعنى ﴿لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ على هذا يشمل أمرين: أحدهما إنكار الإيمان إذا ادعاه، والثاني أن يقال له مع استسلامه، وإن لم يعلن إسلامه: نقتلك لأنك لست من قومنا، أو من صفوفنا! وبذلك ينهى الإسلام عن القتل ما دام قد منع الاعتداء. ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينهى عن قتل من أعلن الاستسلام ولو بالإشارة، فقد أرسل إلى قائد جيشه، الذي كان يقاتل في فارس، ينهى عن أن يقتل أحد أشار بالاستسلام، ويحذر من يقتله بأنه سيقتله به؛ لأنه اعتدى، والإسلام ينهى عن الاعتداء، ولو في القتال، ولذا قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة].

وإن الذين يقتلون من يطلب الأمان مستسلما، أو من يعلن الإسلام مسلما، يخرج قتالهم عن معنى الجهاد في سبيل الله تعالى إلى معنى آخر يجافيه، وهو أن يبتغوا عرض الدنيا بالمال يطلبونه، أو بإعلان قوتهم، وليس ذلك مقصد الإسلام من القتال، إنما مقصده إعلاء كلمة الله تعالى، وبيان كلمة الحق، ولذلك قال سبحانه:

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ [الأنفال: 141]
والرغبة الملحة. وعرض الدنيا، جميع متاعها، وسمى متاع الدنيا عَرَضًا؛ لأنه مهما يكن زائل غير ثابت، فهو عارض لا يدوم، ومنه قول على - رضي الله عنه: «الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر»^(١)! ومنه ما روى في صحيح

(١) عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبها الناس إنما الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل، يحق فيها الحق ويظلم الباطل». رواه البيهقي ج ٤، ص ٤٦٥ (٥٨٣٧)، كما رواه الطبراني في الكبير.

مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١) وقد أخذ بعض العلماء الشعراء هذا المعنى، وضمنه بيتين من الشعر فقال:

تقنع بما يكفيك واستعمل الرضا فإنك لا تدري أتصبح أم تمسى
فليس الغنى عن كثرة المال إنما يكون الغنى والفقر من قبل النفس

ومعنى النهى فى النص السابق مع هذا النص الكريم: لا تنكروا السلام والأمن على من يلقيه إليكم، مبتغين متاع الدنيا؛ لأنكم خرجتم بذلك عن الجهاد فى سبيل الله تعالى إلى طلب المال والدنيا، وما لأجل ذلك كان القتال، بل قاتلوا فى سبيل الله بالحق، واطلبوا الله بفعالكم، واطلبوا ما عنده سبحانه، فإنه إذا كان ذلك كانت المغانم الحلال، وإنها لكثيرة، ولذا قال سبحانه بعد ذلك النهى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ والمغانم جمع مغنم، وهو ما يصل إلى الإنسان من طريق حلال، ويطلق فى القتال على ما يأخذه المحاربون من أعدائهم، غالبين لهم بهذا الأخذ، فهو يطلق على ما يؤخذ فى أثناء القتال، أو فى أعقابها، قبل أن تنتهى الحرب، ويتم الصلح أو الغلب النهائى. وهذا وعد من الله تعالى بكثرة المغانم، ولكن وعد الله مشروط بالصدق فى القتال، وطلب ما عنده سبحانه.

وقد أكد سبحانه وتعالى النهى عن قتل من أعلن الإسلام أو الاستسلام بقوله سبحانه:

﴿كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ بهذه الحال التى ترونها فى المشركين الآن، من جحود بالحق وكفر به، كنتم من قبل، حتى هداكم الله تعالى، وإذا كنتم كذلك، فتبينوا حال الذين تقاتلونهم، عسى أن يكونوا قد هدى الله بعضهم كما هداكم، وأن يكون قد منَّ عليهم كما منَّ عليكم، فلا تستكثروا على مشرك أن يؤمن، ولو كان ذلك فى حومة الوغى، فنور الهداية مفتوح فى كل

(١) متفق عليه؛ رواه مسلم: الزكاة - ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١)، والبخاري: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

مكان لا يغلق باب دونه، والله يهدي من يشاء يإذنه. وفوق ذلك، فإنه كان يتصور منكم من قبل فى الوقت الذى كنتم فيه كافرين أن تعتدوا على المؤمنين، وتضطركم حال القتال، إلى أن تستسلموا طالبيين الرحمة، فارحموا من وقع فى مثل هذه الحال.

وقد كرر الأمر بالتبين؛ لأنه فى الأول كان عاما يستدعى التثبت قبل القتال، وفى أثناؤه وبعده، فلا يهاجمون إلا من يتأكدون منه الاعتداء، والأمر هنا يتضمن تبين حالهم فى الماضى، وحال الكافرين فى الحاضر، كما يتضمن التثبت عند الاستسلام، وعند إعلان الإسلام. فالتبين لمعرفة الحال قبل القتال وبعده وفى أثناؤه يتضمن الموازنة، ويتضمن التبين عند القتال وبعده فقط فبينهما أمر مشترك، وكلاهما ينفرد بتبين خاص. وفوق ذلك، فإن التبين هنا اقترن بتذكير وإنذار إذا لم يكن، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى أَنَّ الله تعالى متصف بالعلم الدقيق، الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فالخبرة هى العلم الدقيق بالأشياء. وقد اقترن ذلك الوصف بأعمال المؤمنين المخاطبين بذلك الخطاب لبيان مراقبة الله تعالى الدائمة لأعمالهم، دقيقتها وجليلها، ولأحوال نفوسهم ما ظهر منها وما بطن، وأنه لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض. وقدم سبحانه وتعالى لفظ «بما تعملون» على الوصف العام، ليراقبوا أنفسهم، فقد علموا أن الله تعالى يراقبهم، وأنهم إذا لم يراقبوه فى تصرفاتهم مع خلقه فهو تعالى يراقبهم. اللهم إنا نضرع إليك ألا تمكنتنا من ظلم أحد من عبادك، إنك على كل شىء قدير.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ
 الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
 وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

فى الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الجهاد، وتخللت هذه الدعوة آيات فى وجوب الحذر من المنافقين، وفى بعض العلاقات الدولية، وأحكام الخطأ إذا كان المقتول معصوم الدم، ثم جاء فى السياق قتل المؤمن عمداً، وعظم الجرم فيه، وإنزال العقاب الشديد بمن يرتكب ذلك الجرم. وكان هذا بمثابة التمهيد لوجوب الاحتراس من قتل المؤمن إذا استعرت الحرب واشتد أوارها، فكان على المؤمنين إذا ضربوا فى الأرض ألا يضعوا السيف فى موضع البرء والسقم. وفى هذه الآيات الكريمات يبين سبحانه وجوب الخروج للجهاد إن وجدت دواعيه، وأن الأجر العظيم للذين يخرجون مجاهدين، وأنه لا يصح أن يقعد مؤمن عن الجهاد، وهو قادر عليه، فقال تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ الجهاد مصدر جاهد مجاهدة وجهادا، وهو بذل أقصى الجهد فى مقابلة من يبذلون أقصى الجهد للاعتداء، فهو مبادلة لارتكاب المشاق، وهو فى سبيل الله لا يكون إلا لنصرة الحق وتأيينه والدفاع عنه، وأكثر ما يطلق فى لغة القرآن والحديث وعرف أهل الإسلام، يكون على القتال فى سبيل الدين. والجهاد أعم من القتال، وأخص منه، فبينهما عموم وخصوص من وجه كما يقول المناطقة، فهما يجتمعان فى القتال للدفاع عن الحق. والقتال قد يكون فى البغى

على الحق، ولا يكون الجهاد بمقتضى العرف الإسلامى إلا ردا للاعتداء. والجهاد لا يكون بالقتال وحده، بل يكون ببذل المال فى تأييد الحق، وبالبيان فى الدعوة إليه، ولذلك يقول النبى ﷺ: «جاهدوا المشركين بأنفسكم، وأموالكم، وألسنتكم»^(١). ومعنى النص الكريم: لا يستوى الذين قعدوا عن الجهاد لإعلاء كلمة الحق، ولم يخرجوا مناصرين له بأنفسهم وأموالهم، مع الذين قعدوا عن ذلك، من غير ضرر ملازم لهم، كمرض مزمن أو عمى أو شلل أو عرج، أو الذين لا يجدون ما ينفقون منه فى إعداد العدة، ولا يوجد من يقدم لهم السيف والزاد والراحلة. وقد بين الله سبحانه وتعالى أولى الضرر فى آية أخرى، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَذْمِلَهُمْ قُلْتُ لَا أُجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنَهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة].

ونجد فى هذا النص الكريم أن الإخلاص مع الاستعداد وعدم القدرة على التنفيذ، قد يغنى عن الجهاد، أو على الأقل يسقط المؤاخذه، ولذا قال تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى أخلصوا، وبذلوا فى سبيل الله أقصى ما يستطيعون بذله.

ونجد فى النص الكريم إشارة إلى أن الجهاد بالمال جهاد، وإلى أن القعود نوعان: أولهما. قعود مادى حسى، بمعنى ألا يخرج من الدار والعدو متأهب لمنازلة أهل الإسلام، أو غزوهم فى عقر دارهم، وما غزى قوم فى عقر دارهم، إلا ذلوا، كما قال فارس الإسلام على - رضى الله عنه -، والثانى. قعود عن

(١) رواه أبو داود: الجهاد - كراهية ترك الغزو (٢٥٠٤)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (١١٨٣٧)، والدارمى: الجهاد - جهاد المشركين باللسان واليد، كما رواه النسائى: الجهاد - وجوب الجهاد (٣٠٩٦) ولفظه عند النسائى: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» كلهم عن أنس ابن مالك رضى الله عنه.

البذل والإنفاق في سبيل الحرب، وهذا يعود عن الجهاد بالمال، وهو لا يقل خطراً عن القعود والعدو قد أخذ الأهبة، ولذلك عَدَّ القرآن الكريم البخل في هذه الحال مؤدياً إلى التهلكة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥) [البقرة].

ولا شك أن أكمل الجهاد ما كان بالمال والنفس، كما هو الشأن في جهاد كثير من الصحابة، كأبي بكر وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من كبار الصحابة الذين كان لهم مال بذلوه، وكان لهم بلاء في ميدان القتال، فقاتلوا في سبيل الله بأنفسهم.

والآية تشير إلى وجوب إعداد الشباب في الأمة للجهاد، بأن يتربوا منذ طفولتهم على أساليب الحرب والتزال، فإنه لا يسوغ استنفار طائفة إن حملت السلاح لا تستطيع الضرب، ولذلك وردت الآثار بتعليم الشباب الرماية، والدربة على القتال، ويعد ذلك ضرورياً من ضروريات التعليم الديني. وإذا كان الإسلام قد منع العكوف في الصوامع للعبادة وحدها، فقد أمر الأمة كلها بالجهاد في سبيله، أو الاستعداد له، وقد قال النبي ﷺ: «رَهْبَانِيَّةٌ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وإذا كانت المساواة بين القاعد والمجاهد غير سائغة في حكم العقل والشرع، فالفضل في الدرجة للمجاهدين؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ وإذا كان التساوى بين المجاهدين والقاعدين من غير ضرر يمنعهم غير مستساغ، فإن الله تعالى فضّل المجاهدين بالمال والنفس على القاعدين ذوى الضرر، وجعلهم في درجة أعلى من القاعدين لعذر، والمراد بالدرجة أن يكون لهم فضل أعظم، ومكانتهم عند الله أكرم من ذوى الأعذار؛ وذلك لأن جهاد

هؤلاء عملى إيجابى، وموقف ذوى الأضرار سلبى، وهم يعرضون أنفسهم للتلف، وأولئك لم يتعرضوا له، ويقدمون النفس من المال، وأولئك لم يقدموه، ومع ذلك فإن الله تعالى وعد كلا من الفريقين الحسنى، أى العاقبة الحسنة، حيث لا يكون ثمة عقاب يوم القيامة، بل يكون النعيم المقيم لهما معا. والله تعالى يشب المرء بمقدار نيته، وقد قال النبى - عليه الصلاة والسلام -: «إن بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سرتهم مسيرا إلا كانوا معكم، أولئك قوم حبسهم العذر»^(١)، وقد كان النبى يقيم عبدالله ابن أم مكتوم على المدينة، وهو أعمى، لكى يتنفع بكل القوى، وليكون لذوى الأعذار فضل العمل.

وإن تفضيل الدرجة على القاعدين ذوى الضرر لكى يسير القادر ولو نسيبا، فلا يقعد لضرر وهمى، أو عذر غير قهرى، فكثير من الناس يتوهمون أعذارا، حيث لا عذر.

هذا فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين ذوى الضرر، وقد رحم الله الضعفاء، فجعل لهم الحسنى كالمجاهدين، وإن كانوا دونهم فضلا، أما الذين قعدوا من غير عذر، فقد بين سبحانه فضل المجاهدين عليهم بأنه درجات، فقال سبحانه: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

كان التفضيل الأول بالدرجة الواحدة، وذلك النص فى تفضيل الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير ضرر. فالمجاهدون بأموالهم وأنفسهم مفضلون عليهم بأجر عظيم، وأنسى يكون من قعد بين أهله آمنا فى سريره، كمن ارتكب المشقة وترك الأهل والولد!

(١) رواه البخارى: المغازى - نزول النبى ﷺ الحجر (٤٤٢٣)، وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، كما رواه مسلم وغيره عن جابر رضى الله عنه بلفظ مقارب، ولفظ مسلم: الإمارة - ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر (١٩١١) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرَجَالًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبْسَهُمُ الْمَرَضُ» وَفِي رَوَايَةٍ: «إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ».

ونجد النص الكريم لم يذكر الذين قعدوا مجذمة صريحة، وفي هذا إشارة إلى أن الغزو والخروج للجهاد فرض كفاية، وليس فرض عين، وذلك إذا لم يكن المسلمون في حاجة إلى كل القادرين. ومهما يكن، فالخارجون للجهاد لهم الفضل الأعظم. وقد بين سبحانه عظيم الأجر بأنه يرفع المجاهد درجات عند الله تعالى، فقال سبحانه مينا ذلك:

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا بيان للأجر العظيم الذي يعلو به المجاهد بنفسه وماله عن القاعد كسلا أو تراخيا، أو لأنه سبقه غيره إلى الجهاد. وهذا الأجر مكون من عناصر ثلاثة:

أولها: أن الله تعالى يرفعه درجات، ويقربه إليه سبحانه منازل يوم القيامة، فيكون في مرتبة الصديقين والأنبياء والصالحين؛ إذ إن الشهداء الذين أخلصوا النية في جهادهم، والمجاهدين الذين تعرضوا لشرف الاستشهاد لهم المنازل العليا، والمقامات الكبرى. ونُكرت الدرجات لبيان أنها لا يحدها الحصر، ولا يعينها المقدار، بل هي شرف عظيم لا يناله إلا المقربون الأبرار.

ثانيها: أن الله تعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وأى حسنات أعظم من تقديم النفس والنفيس.

ثالثها: الرحمة تنزل بالمجاهد، فإنه يكون مغمورا برحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة: ففي الدنيا براحة الضمير وأداء الواجب، والإحساس بأنه كان سببا للرحمة بالمؤمنين؛ إذ وقاهم شر العدو، ومنعه من أن يتحكم فيهم، ودفع عنهم الفتنة في دينهم، وجعل الدين خالصا لوجهه الكريم، ومنع الفساد في الأرض. وفي الآخرة بالشواب العظيم.

وقد ختم الله تعالى النص بأن الغفران والرحمة وصفان دائمان لذاته العلية، لا ينفصلان عنها، وفي ذلك دعوة لكل من يكسل عن الجهاد لأن يعمل، وللعاصي ليتوب، فإن باب المغفرة مفتوح قد فتحه الغفور، وباب الرحمة متسع قد وسَّعه الرحيم. اللهم اكتبنا في عبادك التائبين، واغفر لنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
 قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ
 جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
 وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
 فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه خروج المؤمنين مجاهدين، وما يجب أن
 يكون عليه المجاهد من حذر، فلا يثق بخائن أو منافق، ولا يضع سيفه على من
 يلقي إليه السلام، وذكر أن الخروج للجهاد واجب، وأن القعود لا يجوز إلا عند
 عدم الحاجة أو المصلحة. والقعود قسمان: قعود عن الجهاد، وقعود عن الهجرة.
 وإذا كان القعود الأول فيه ملامة إن لم يكن لمصلحة، فالقعود الثانى فيه ذلة، وفيه
 إثم الرضا بالذلة، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي
 الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ معنى توفاهم الملائكة: تتوفاهم
 فهو فعل ماضٍ أريد به المستقبل لتأكيد وقوعه، كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا
 تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل] والمعنى: أن الذين تتوفاهم
 الملائكة الذين نيط بهم قبض الأرواح، قد توفوا فى حال ظلمهم لأنفسهم، بسبب
 رضاهم بالذل والهوان، باستمرار إقامتهم فى أرض لم يستطيعوا إقامة دينهم فيها،
 أو لم ينضموا إلى أهل الإسلام ليكثر بهم المسلمون، ويعظم جهادهم. وقد روى
 البخارى أنها نزلت فى ناس من المسلمين لم يهاجروا، فكانوا مع المشركين يكثر

بهم سوادهم، وكانوا يخرجونهم معهم فى القتال، فيصيبهم المسلمون بسهامهم أو سيوفهم.

ومهما يكن سبب النزول، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فإن كل مؤمن يعيش فى أرض يستذل فيها، أو لا يستطيع إقامة حق دينه فيها، أو يعامل بغير الأحكام الإسلامية يكون من الواجب عليه أن يهاجر إلى الأرض التى يكثُر فيها سواد المسلمين. وقد فهم هذا المعنى العام «الزمخشري»، فقد قال فى ذلك: (وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، لبعض الأسباب، والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله تعالى، وأدوم على العبادة، حقت عليه الهجرة. وعن النبى ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبراً من الأرض، استوجب الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم، ونبيه محمد»^(١)، وقد ذكر الزمخشري أنه فعل ذلك ﷺ إذ جاور بيت الله الحرام، وقال جاز الله الزمخشري داعياً ربه: (اللهم إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى، فاجعلها سبباً فى خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك، والمبتغى من رحمتك، وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك بجوارك فى دار كرامتك يا واسع المغفرة)^(٢).

هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالإقامة فى دار لا تحكم بالإسلام، ولا يكون فيها قوة لأهل الحق - تسألهم الملائكة يوم القيامة، فيقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾، ويقول الزمخشري إن المعنى: فى أى شئ كنتم من أمر دينكم؟ والسؤال للتوبيخ، ومؤداه إنكم لم تكونوا مستطيعين إقامة شئون دينكم، فكيف ترضون بذلك؟ وعندى أن معنى النص: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾؟ فى أى حال كنتم؟ أكنتم فى عزة أم فى ذلة؟ وكيف ترضون لأنفسكم الهوان، ولدينكم الدنية؟. والاستفهام للتوبيخ أيضاً كما قرر الزمخشري.

(١) أخرجه الثعلبى من طريق الحسن مرسلًا، وقد ذكر ذلك الآلوسى ج ٥، ص ١٢٥.

(٢) ذكره الزمخشري ج ١ ص ٥٥٦ من الكشف.

وقد أجابوا عن ذلك بما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، ومعنى مستضعفين أنهم أريد ضعفهم وإذلالهم وعدم تمكينهم من إقامة الحق؛ لأن السنين والتواء تدلان على طلب الضعف لهم من غيرهم، فهم يعتذرون بأن أعداء الدين أو المسيطرين عليهم أرادوا بهم هذا الضعف، وألزمهم إياه، فلم يستطيعوا عنه حولا! وهذا اعتذار غير سليم، لأنهم كانوا في ذات أنفسهم ضعفاء، إذ رضوا بالذل والهوان، ولذلك قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ والاستفهام هنا إنكارى أيضا، ومعناه: لقد كانت أرض الله تعالى واسعة، فلماذا لم تهاجروا إلى تلك الأرض الواسعة، حيث العزة، وحيث الجهاد، وحيث يكثر سواد المسلمين، ويعتز أهل الإيمان، ويكون المؤمنون بعضهم لبعض، ويكونون في الجهاد كالبنيان المرصوص المتماسك، كما قال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»^(١).

وإن هذا النص الكريم يدل على أن المؤمن محاسب إذا رضى بالذل والدعة والعيش الناعم في غير أرض الإسلام، وأنه خير له أن يعيش في ظل الإسلام وفي خشن العيش مع العزة، من أن يعيش في نعيم مع الذلة، ولذا قال تعالى في عقاب هؤلاء المنقطعين عن الإسلام:

﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أى إن هؤلاء الذين رضوا بالذل وظلموا أنفسهم، أو رضوا بأن يكونوا في قوة أعداء الإسلام، ولم يكونوا مع المسلمين، مدعّين أن الضعف هو الذى أقعدهم - إذا كانوا قد ارتضوا الإقامة في مكان الهوان في الدنيا، فإن مأواهم الذى يأوون إليه فى الآخرة هو جهنم، وهى مصيرهم الذى يصيرون إليه، ونهايتهم التى ينتهون إليها، وما أسوأ جهنم مآلا ونهاية ومأوى لمن يسبغون فى طريقها، فأولئك جمعوا على أنفسهم هوان الدنيا وعذاب الآخرة!

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الصلاة - تشبيك الأصابع (٤٨١)، ومسلم: البر والصلة والآداب - تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٥). عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

وإن هذا النص يوجب على المؤمن أن يعيش عزيزا كريما، تكون قوته للمؤمنين، وعليه أن يجاهد في ذلك، وإن لم يفعل فقد جنى على نفسه مرتين: إحداهما بهوان الدنيا، والثانية بعذاب الآخرة.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ هذا استثناء من المصير الذي سيثول إليه هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، وهؤلاء هم ضعفاء حقا، فقد استضعفهم الأعداء وأرهبوهم، ولم تكن عندهم قوة تمكنهم من الإفلات من بقائهم في أرضهم وخروجهم إلى أرض الإسلام. وهؤلاء ثلاثة أصناف:

أولهم: ضعفاء الرجال من الشيوخ الفانين، والمرضى وذوى العاهات، ونحوهم، ومن هؤلاء من كان لا يرضى بالذلة ولو فنى بالطريق! ويروى أنه لما نزلت هذه الآية بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلمي مكة، فقال ضمرة بن جندب لبنيه: احملوني، فإني لست من المستضعفين، وإنى لأهتدى إلى الطريق، والله لا أبيت ليلة بمكة! فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة، وكان شيخا كبيرا، فمات في الطريق!

والصنف الثاني: النساء اللاتي لا يستطعن الخروج، إما لثقلهن بالأولاد، وإما لخشية أمن الطريق، وإما لعدم وجود زوج يصحبها، ولا ذى رحم محرم يكون معها في الطريق.

والصنف الأخير: الولدان، وقد قال بعض المفسرين: إنهم العبيد ونحوهم، وذلك القول ليس بشيء، والأصح أنهم الصبيان، ويقول الزمخشري: إنهم الذين تجاوزوا الحلم قريبا. ويصح أن يكون المراد هؤلاء والأولاد الذين يتبعون آباءهم، أو الذين ليس لهم آباء يتبعونهم، وهم بهذا الضعف غير مسئولين، واستثناؤهم لعدم تكليفهم أو لأنهم لا قوة لهم على تفسير الزمخشري؛ إذ إن ضعف الصبا لا يزال بهم، إذا كانوا قد بلغوا الحلم، ولم يدخلوا في دور الرجولة.

وقد ذكر سبحانه الوصف الذى استوجب استثناءهم، فقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، والحيلة المراد بها التحول من حالهم التى هم عليها إلى غيرها أى لا يستطيعون تحولا ولا انتقالا لعجزهم المطلق بمرض أو زمانة أو شيخوخة، أو يستطيعون التحول، ولكن لا يهتدون إلى الطريق الموصل كالصبيان القريبى العهد بالبلوغ، بحيث لو خرجوا هلكوا.

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إن هؤلاء الذين استضعفوا حقا وصدقا بسبب ضعفهم، عسى أن يعفو الله عنهم، أى يرجى أن يكونوا محل عفو الله تعالى، فلا يؤاخذهم بمرضهم بالبقاء فى أرض الذل، فالفاء هنا هى فاء السببية، أى أن السبب فى أنهم محل عفو الله، ورجاء العفو لهم، هو ضعفهم. وهنا بحثان تشير إليهما الآية الكريمة:

أولهما - أن الهجرة هى الأمر المفروض الذى لا مناص منه إلا عند العذر الشديد، وإن الأعذار يقدرها أصحابها. ومع وجودها يرجى لهم العفو، ويرجونه، ويقول الزمخشري: إن هذا يدل على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه، حتى إن المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول: عسى الله أن يعفو عني. وهذا كله معناه أن الأصل هو الهجرة.

ثانيهما - أن الأمور التى يرخص بها فى مقابل واجب مفروض، لا تكون مباحة فى ذاتها، بل تكون فى مرتبة العفو؛ لأن المباح يكون مطلوبا على وجه التخيير، وهذه لا طلب فيها، بل رخص بها فى الترك، والأصل وجوب الهجرة.

وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بأنه كثير العفو عن عباده فى الرخص التى يرخص لهم بها، كثير المغفرة لمن تاب وأناب، والله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً^٤
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^٥﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا^٦﴾

فى الآيات السابقة كان بيان حال الذين رضوا بالذل والهوان والضيق، وأنهم
مؤاخذون لذلك، إلا إذا كانوا عاجزين عن الانتقال. وفى هذه الآيات يرغب
سبحانه فى الهجرة عند الضيق كما ألزم بها عند الذل، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ يقال: أرغمه،
إذا أوقعه فى الرغام، وهو تراب الأرض، ورغم أنفه إذا نزل إلى التراب، وذلك
كناية عن الذل بعد الكبرياء. وأرغم أنفه، إذا أنزل به. ورأغمه، إذا حاول كل
واحد منهما أن يرغم الآخر. والمراعِم مكان المراغمة، وقد أطلق على مواضع
طلب المعيشة، والطريق فى الأرض، وذلك إذا كان يصل إليه بعد مشقة، أو جهد
غير معتاد، وهذا هو الذى يقال فى معنى النص الكريم. فالمعنى على هذا: ومن
يهاجر ويترك دار إقامته فى سبيل الله تعالى طالبا ما عنده يجد طرائق كثيرة فى
الحياة، وإن كان لا ينالها إلا ببعض المشقة، فإنها قطرة للراحة، وكذلك ينال سعة
فى رزقه وحياته ودينه، فلا يضيق فى دينه عليه، ولا يعيش فى ذلة وهوان، أو
مقترا عليه فى الرزق.

والآية تحث على الهجرة إذا توافرت أسبابها، وتشير إلى أن المهاجر، إن ترك
محل العيش الرتيب، فإنه سيجد فى النهاية مذاهب مختلفة للرزق، وسعة فى
الحياة، وعدم ضيق، فهو معوض بلا ريب.

وتكون الهجرة في سبيل الله تعالى: إذا كانت للفرار من الفتنة في الدين، أو لدفع الذل وطلب العزة، أو للخروج من أرض ليست تحت ولاية الإسلام إلى أرض فيها ولاية الإسلام، أو من أرض فيها ظلم سائد واقع على الأبدان أو المال ولو كانت من ولاية الإسلام، أو كانت الهجرة لتكثير سواد المسلمين في إقليم قل فيه عددهم، وهى الانتقال من أرض إسلامية مزدحمة بالسكان قد اكتظت بأهلها إلى أرض إسلامية خالية من السكان، فإنها تكون مظنة أن يأخذها أعداء المسلمين، فتكون قوة لهم على المسلمين. ففى كل هذه الأحوال تكون الهجرة فى سبيل الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ المهاجر فى سبيل الله تعالى ينتقل من حمى الناس إلى حمى الله تعالى، فهو مهاجر منتقل إلى جانب الله تعالى ورسوله، فإذا كان يترك بيته وأهله وعشيرته، وجيرانه الذين عاش بينهم وعاشرهم، فهو يتركهم إلى جانب أعظم، ورحاب أوسع، وهو جانب الله تعالى ورسوله ورحابهما. وإن المهاجر إلى الله تعالى فى سبيل تحقيق مقصد من مقاصد دينه التى نوهنا عنها سابقا ينال إحدى الحسينين: إما الظفر بالسعة والعزة، والمال، وإما الظفر بالأجر العظيم، وذلك إذا أدركه الموت، وهو فى الطريق الى الله.

وهذا قد قال فيه سبحانه: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، أى فقد حق له الأجر العظيم عند الله تعالى. وقد تفضل سبحانه، فاعتبر ذلك الأجر حقا عليه - سبحانه، ولذا عبر بـ «على» فى قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ ووقع هنا معناه ثبت وتقرر، وكأنه صار وثيقة على الله تعالى وذلك كله تأكيد لتحقيق الأجر بهذه الهجرة.

وإن ذلك الأجر غفران لما مضى من ذنبه، ورحمة به بالنعيم المقيم فى الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى أن الوصف الدائم الثابت لله تعالى فى الأزل أنه كثير المغفرة، ومن شأنه الرحمة بعباده، فبمقتضى

رحمته فتح باب الهجرة وحثَّ عليه، وبمقتضى رحمته مَكَّن للمهاجر من السعة والعمل في الأرض، وبمقتضى رحمته اعتبر نية الهجرة إذا صاحبها العمل كافية للثواب والأجر العظيم.

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وبذلَّهم من بعد خَوْفِهِم أماناً، ومن بعد ضعفهم قوة، واهدهم للعمل بكتابك وسنة نبيك، إنك سميع الدعاء.

وبعد أن ذكر أن الهجرة فيها عزة، وأن المهاجر يجد سعة من الرزق، يذكر سبحانه ما سهله تعالى للمهاجر أو المسافر من عبادة تيسيرا له، وتشجيعا على السفر، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ الضرب في الأرض هنا هو السفر، وأطلق الضرب في الأرض على السفر؛ لأن المسافر يضرب برجله وبراحلته وبمتوكئه على الأرض في حركة مستمرة جزءا من النهار، فكان التعبير عن الضرب في الأرض بالسفر في موضعه، وهو مجاز واضح في علاقته.

ونجد التعبير في هذا النص الكريم يختلف عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الآية السابقة في أمرين: أحدهما: أنه في الآية السابقة عبر عن السفر بالهجرة: والهجرة تقتضي الانتقال على غير عودة، وعلى نية الإقامة في مكان آخر يتخذه موطناً ومستقراً ومقاماً دائماً له، وفي هذا النص عبر عن السفر بالضرب في الأرض، أي أنه سفر على نية العودة غالباً، ولا يريد به اتخاذ مكان آخر موطناً له.

والثاني: أن الآية الأولى تنص على الهجرة في سبيل الله تعالى، والخروج من أرض الدل إلى أرض العزة، حيث يمكن أن تكون بالهجرة نصرة للمسلمين، يعد في سبيل الله؛ أما في هذه الآية، فإن السفر عام يشمل ما يكون في سبيل إقامة الدين، وما يكون في طلب الرزق، وزيارة ذوى الأرحام، وغير ذلك مما يعد قرينة أو أمراً مباحاً.

والنص الكريم يبيح قصر الصلاة، ووردت السنة بأن الصلوات التي عدد ركعاتها أربع يقصر إلى اثنين، وهى صلاة الظهر والعصر والعشاء، والنص الكريم قد اقترن القصر فيه بشرط مخافة العدو أن يفتن المؤمنين فى سفرهم، بأن يكون المؤمنون غير آمنين من أن يدهمهم عدو فى سفرهم، فهم يقصرون الصلاة، حتى يكونوا فى حال استعداد مستمر، ولا تشغلهم الصلاة عن الحذر منه. وقد قوى هذا بأن الآية الكريمة التى أعقبت هذه الآية كانت خاصة بصلاة الخوف التى تكون فى الميدان، فبمقتضى ظاهر النص يكون القصر عند الخوف من العدو، وأن القصر مع صلاة الخوف يكون عند لقاء العدو.

ومعنى الفتنة هنا هو إنزال الأذى بالمؤمنين، بأن يجعلهم فى حال شدة، وينزل بهم كارثة بمدهمهم وقتلهم أو الانقضاض عليهم، وهم ليسوا فى حال استعداد للقتال.

وبهذا يكون قد ثبت بالنص القرآنى قصر الصلاة، فى حال خوف الفتنة من الذين كفروا، وصاروا فى عداوة مستمرة للمؤمنين بسبب كفرهم. ولكن ثبت بالسنة القصر فى الصلوات التى عدد ركعاتها أربع فى حال سفر، ولو لم يكن السفر فى موضع مخوف، وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة عن النبى ﷺ، والتى أجمع الصحابة عليها^(١). ويصح أن نقول أن قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لم يكن إلا فى بيان القصر فى حال خوف الفتنة من الذين كفروا؛ لأن السياق كله كان فى الجهاد، ولكن يمنع ذلك الفرض أن النص جاء فى مطلق سفر، لا لأجل الجهاد.

(١) من ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه: صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٦)، عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمِيَّةٍ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» فَقَدْ آمَنَ النَّاسُ فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صِدْقَهُ».

ومهما يكن فقد ثبت النص القرآني في القصر في حال خوف الانقضاء من العدو، وبالسنة القصر في عموم أحوال السفر. ولما كان ذلك هو موضع النص، ذُيِّل النص الكريم بما يدل على وجوب الحذر دائما من الأعداء الكافرين، فقال:

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا النص لتأكيد الحذر من الكفار دائما؛ لأن عداوتهم مستمكة في قلوبهم، وقد أكد سبحانه وتعالى هذه العداوة بمؤكدات أربعة: أولها - «إِنَّ» الدالة على التوكيد، مع وصف الذين كفروا بالكفر، وجعله شأنا لهم، ومن كان جمود الحقائق شأنه لا يؤمن على شيء. وثانيها - التعبير بـ «كَانَ» الدالة على الدوام والاستمرار. وثالثها - وصف الكافرين بالعداوة؛ لأن العدو يطلب لعدوه دائما الشر، ويزداد مواقفه غفلة لينقض عليه، فلا تنتظر منه رحمة أو حلم، أو نسيان للحقد. ورابعها - وصف العداوة بأنها ظاهرة بينة لا خفاء فيها، فالمغرور من يأمن عواقبه.

وقد تكلم العلماء في السفر المسوغ لقصر الصلاة: ما مقداره؟ وما حكم القصر؟ أهو واجب أم سنة؟ ونوع السفر الذي يجوز فيه القصر؟.

أما بالنسبة لمسافة السفر التي يجوز فيها القصر، فالفقهاء اختلفوا فيها على أقوال ثلاثة:

أولها - قول أهل الظاهر أن القصر يكون في كل ما يسمى سفرا، سواء أكان قصيرا أم كان طويلا؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ مقدار محدود يمنع القصر فيما عداه، فبقيت كلمة السفر على إطلاقها، من غير تقييد بمدة معلومة ولا مسافة محدودة.

وثانيها - قول الحنفية، أن السفر الذي يُسَوَّغُ القصر مسيرة ثلاثة أيام بلياليها، بالسير المعتاد، وهو سير الإبل، مع أخذ الراحة الواجبة في السفر، فلا يسير المدة كلها، بل يسير في الزمن الذي يعتاد فيه السفر؛ وذلك لأن عرف العرب أن الرجل كان لا يعتبر مسافرا إلا إذا تجاوز موطنه بسير نحو ثلاثة أيام.

وثالثها - قول أكثر الأئمة أنه يوم وليلة، وقيل يوم فقط؛ وذلك لأن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي رحم محرم منها»^(١)، وروى الحديث مرة يوما وليلة^(٢)، وروى ثلاثة أيام^(٣)، ففيه الأوجه الثلاثة. والتوفيق أن كل رواية كانت إجابة لحال خاص، فستل عليه الصلاة والسلام عن يوم، وعن يوم ليلة، وعن ثلاثة.

وبالنسبة لكون القصر واجبا أو مخيرا فيه، فالمذهب الشافعي أنه مخير فيه، وروى أنه سنة، ومن اختار القصر صلى قصرا بالنية، ومن اختار التمام صلى تماما بالنية، ويكون الفرض في حقه بعد أن ينوى التمام أربعا. وبقية الأئمة تقريبا على أن القصر واجب، وما يصلى فوق القصر يكون نافلة، وحجتهم ما تواتر عن الصحابة من أنهم يقصرون كلما كان سفر، وقدره يوم للإمام عثمان إذ لم يقصر عندما حج، وقال أصحاب هذا الرأي أن الفرض شرع اثنين، ثم بقى فى السفر كذلك ثم زيد فى الحضر. وحجة الرأي الأول قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ونفى الإثم يقتضى التخيير. وقد أجاب عن ذلك الزمخشري بأن ذلك للتيسير والتسهيل. وفى الحق أن كلمة «لا جناح» استعملت فى السعى بين الصفا والمروة، ومع ذلك كان السعى بينهما واجبا، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وبالنسبة لنوع السفر الذى تقصر فيه الصلاة، فقد أجمع الفقهاء على أن السفر للجهد أو الحج أو العمرة أو صلة الرحم أو القيام بواجب، يجوز القصر أو يوجبه. والأكثرون على أن السفر للتجارة والأعمال المباحة يكون فيه القصر.

(١) رواه مسلم: الحج - سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) من ذلك ما رواه البخارى: الجمعة - فى كم يقصر الصلاة (١٠٨٨).

(٣) من ذلك ما رواه البخارى: الجمعة - فى كم يقصر الصلاة (١٠٨٧)، ومسلم: الحج - سفر المرأة (١٣٣٨).

وروى عن مالك أنه قال: إن خرج للصيد، لا لمعاشه، أو لمشاهدة بلد مستترها ومتلذذا، لم يقصر. وجمهور العلماء على أنه لا يقصر للصلاة من سافر في معصية، وروى عن أبي حنيفة والأوزاعي، أنه يقصر؛ لأنه يتحقق فيها معنى السفر، وقد كان القصر في مطلق سفر، وروى مثل ذلك عن مالك - رضى الله عنه.

وقفنا الله تعالى لإقامة الصلاة عمود الدين، وفيها برد المتقين.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٣﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى وجوب الهجرة على المؤمن للجهاد فى سبيل الله تعالى، ولطلب الرزق، إن ضاقت أرضه التى نشأ فيها، ثم

ذكر سبحانه وتعالى ما سهّل به على المسافر من قصر الصلاة. وفي هذا النص الكريم بين سبحانه حال الصلاة إذا كان المسافر في حال جهاد، وهو ما يسمى في عرف الفقهاء بصلاة الخوف، أي الصلاة التي تكون في حال الخوف من العدو، بأن يكونوا في حال حرب معه. فالمراد بالخوف هو الحذر من مباغطة العدو. ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ هذا النص الكريم فيه بيان الصلاة حال القتال، بأن يجمع المؤمنون بين الصلاة التي بها تطهير القلوب من كل الأدناس والأرجاس وبين الاستعداد للقاء العدو، والحذر منه.

ومعنى النص السامي: إذا كنت أيها الرسول في المؤمنين، فأردت إقامة الصلاة على وجهها في هذا المقام، فلتقم طائفة منهم معك، بأن تستدئ بالصلاة معها، على أن يكون معها السلاح، وهي في حال الصلاة، حتى يكونوا على أهبة القتال دائما. وحمل السلاح في الصلاة لا يبطئها، ولا يؤثر في حال الخشوع، وخصوصا إذا كان حمل السلاح لإعلاء كلمة الله تعالى وخفض الباطل، فهو عبادة من أعظم العبادات، فكان النبي ﷺ يقسم المؤمنين المجاهدين صفين، صفا يتدئ بالصلاة معه، فإذا سجدوا للصلاة وقد ألقوا وجوههم على الأرض، لا يرون شيئا ولا يستحضرون إلا عظمة الله تعالى، فإن الصف الثاني يكون من وراء هؤلاء، يدفع عنهم أذى الكفار، والاعتداء على أهل الحق والايمان، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾، أي فليكن الصف الآخر، أو الطائفة الأخرى من ورائكم، حامية لظهوركم، مانعة نزول الأذى بكم، ومن بعد ذلك تجيء الطائفة الحارسة، وتكون من بعد ذلك في محل المصلية، وتذهب الأخرى حارسة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

أى إذا صلت الطائفة الأولى، والنبي ﷺ لم يُنه صلاته، جاءت الأخرى فصلى بها النبي ﷺ، وقد أمر الله بأن تكون معها أسلحتها، وشدد فى الأمر بأن أمرها مع ذلك بأخذ الحذر والاحتراس، وقدم الأمر بأخذ الحذر على أخذ الأسلحة؛ لأن أخذ الأسلحة من الحذر، ولأن الحذر عند انتقال الصفوف واجب، خشية أن يباغتهم العدو، وهم يغيرون صفوفهم؛ لأن هذا يشبه التغيير فى الخطط وقت القتال، وهو لا يخلو من خطورة يجب معها الحذر، ولأن الطائفة الأولى عند سجودها، عسى أن يتنبه العدو لحالها فيطمع، وخصوصا إذا رأى الصفوف تتغير، وتتحرك فى داخل الجيش نفسه.

اتفق الفقهاء على أن صلاة الخوف تقتضى أن يصلى النبي ﷺ بطائفة، ثم يصلى بالأخرى التى تكون أمام العدو ابتداءً، وتحل الأولى محلها، ولكن اختلفوا بعد ذلك فى كيفية صلاة الخوف تبعاً لما فهموا من اختلاف الروايات فى صلاة النبي ﷺ، وها هى ذى الروايات ومن اختاروها:

الرواية الأولى - رواية عبد الله بن مسعود التى أخرجها أبو داود والدارقطنى، وخلاصتها أن الصلاة فى هذه الحال ركعتان إن كانت رباعية، ويقسم النبي المجاهدان إلى صفين: أحدهما يصلى به ركعة، ثم يقوم، حتى تجيء الطائفة الأخرى فيصلّى بها الركعة الثانية، حيث تكون الأولى فى مواجهة العدو، ثم يسلم، وتأتى الأولى فتتم صلاتها بغير قراءة، لأنها كما يعبر الحنفية لاحقة، أى كأنها وراء الإمام حكماً طول الصلاة، ولا قراءة وراء الإمام، فإذا أتمت جاءت الثانية فصلت بقراءة، لأنها تكون مسبقة، إذ تكون كمن أدرك آخر صلاة الإمام وفاته ركعة، فتكون القراءة واجبة. وبهذه الرواية أخذ أبو حنيفة وأصحابه.

الرواية الثانية - هى ما رواه الإمام مالك فى موطنه، أن صلاة الخوف أن يصلى الإمام بالطائفة الأولى ركعة ولا يسلم، وتتم هى الصلاة وحدها، فإذا أتمتها جاءت الأخرى، فصلّى الإمام معها الركعة الأخرى وسلم، وهم يتمون الركعة، وبذلك تقل الحركات عن الرواية الأولى. وبهذه الرواية أخذ الإمام مالك؛ وروى

أن الإمام لا يسلم إلا بعد أن تنتهى الثانية من صلاتها، وبهذا أخذ الشافعى رضى الله عنه، واختاره أحمد، وإن كان يجوز غيره، كما سنبين موقفه من هذه الروايات.

الرواية الثالثة - أن الرسول صلى بالطائفة ركعة، وبها تتم صلاتها، ثم قام حتى تحىء الثانية، فصلى بها الركعة الثانية، وسلم، وبها تتم صلاتها فتكون صلاة الخوف على هذه الرواية ركعة واحدة بالنسبة للمأموم، وركعتين للإمام، وبهذا أخذ بعض الفقهاء.

الرواية الرابعة - أن النبى ﷺ صلى ركعتين بالأولى ولم يسلم، وذهبت، وجاءت الثانية فصلى بها اثنتين آخرين، ثم سلم معها. وفى رواية أنه سلم بينهما، فلم مع الأولى، وسلم مع الثانية. وقد اختار بعض الفقهاء هذه الرواية الأخيرة.

ولقد قال الإمام أحمد بن حنبل، وهو عالم السنة الأول فى عصره: «لا أعلم أنه روى فى صلاة الخوف إلا حديث ثابت، وهى كلها صحاح ثابتة، فعلى أى حديث صلى منها المصلى صلاة الخوف أجزاء، إن شاء الله».

وإن كل هذه الروايات تتفق مع النص الكريم، واختلاف الرواية الصحيحة يدل على أن النبى ﷺ صلاها بكل هذه الوجوه المختلفة، لبيان أنها جائزة بكل وجه من هذه الوجوه.

وبعض العلماء قالوا: إن صلاة الخوف خاصة بما إذا كان النبى ﷺ مع المجاهدين، أى أنها خاصة بعصر النبى ﷺ، وبشرط أن يكون هو قائد الجند، وحجتهم فى ذلك أن الخطاب خاص بالنبى ﷺ، إذ يقول: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، فالكيفية مقيدة بشرط، وهو إقامته فيهم، وليست كل التكليفات التى يوجه فيها الخطاب للنبى ﷺ، على أن يكون موجهها لكل الأمة، مشروطا فيها هذا الشرط، فالتكليف مقيد بالشرط، وليس بمطلق، وليس أحد بعده يقوم فى الفضل مقامه عليه الصلاة والسلام. وقال الجمهور: أمرنا باتباعه،

والتأسي به فى كثير من الأحاديث وآيات القرآن الكريم . وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»^(١)، وإن كثيرا من المطالب التكليفية يكون الخطاب فيها للنبي ﷺ، ثم لأمته، وإن الصحابة جميعا فهموا عموم الرخصة فى صلاة الخوف، فعَدَّوْها إلى كل إمام فى الجيش، وهو أعلم بمقاصد الإسلام؛ لأنهم تلقوا علمهم عن النبي ﷺ، وأن الإمام القائم بالجهاد هو خليفة النبي ﷺ على أمته، ولأن المعنى فى صلاة الخوف لا يتحقق فقط مع النبي ﷺ، بل يتحقق مع كل أمير جهاد، ولأن صلاة الخوف هى من نوع الحذر، والجمع بين المضي فى القتال، والمضي فى الصلاة التى هى عماد الدين، والحذر مطلوب دائما، وقد بين الله سبحانه فقال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾.

هذا، ولا بد من التنبيه لأمرين: أحدهما - صلاة المغرب، فقد كانت الصلاة التى تكلم فيها الفقهاء هى الصلاة الثنائية بالأصالة، وهى الفجر، أو الثنائية بالقصر، وهى صلاة الظهر والعصر، والعشاء. وأما المغرب فقد روى عن النبي فيها روايتان: إحداهما أنه صلى بالطائفة الأولى ثلاثا، وبالثنائية مثلها، وبهذه الرواية أخذ الحسن البصرى. والرواية الثانية أنه صلى بالطائفة الأولى ركعتين، وبالثنائية واحدة، وهذا قول أبى حنيفة ومالك. وروى أن الشافعى قال: يصلى بالأولى واحدة، وبالثنائية اثنتين.

الأمر الثانى - أنه لا يلزم الاتجاه إلى القبلة إذا خيف أن يأخذ العدو المؤمنين على غرة، وذلك فى حال الالتحام الشديد، وإذا خيف فوات الوقت يصلى متى أمكن له أن يصلى، وبذلك قال مالك، والثورى، والأوزاعى، والشافعى، وقال غيرهم: يصلون بالإيماء، ولا يتركون الوقت.

والسبب فى شرعية صلاة الخوف هو الحذر، والخوف من المباغتة، ولذا كرر الله الأمر بأخذ الأسلحة والحذر، وبين ما يوده الكفار فقال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

(١) جزء من حديث سبق تخريجه من رواية البخارى وغيره عن مالك بن الحويرث.

فى هذا النص الكريم إشارة إلى السبب فى صلاة الخوف، وهو ترقب العدو لحال المسلمين، عساهم يجدون منفذا ينفذون منه إلى صفوفهم، أو ثغرة يدخلون منها، أو غفلة ينتهزونها، فكان الحذر أن تسد عليهم كل المنافذ التى ينفذون منها لتحقيق مآربهم، فلا يصح للمسلمين أن يغفلوا بالعبادة عن الجهاد، ولا يتركوا العبادة.

ومعنى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تمنى الذين كفروا، وهم أعداؤكم الذين نصبوا راية العداوة لكم، أن تأخذكم الغفلة عن أسلحتكم التى بها شوكتكم وقوتكم، وعن أمتعتكم التى فيها زادكم وبها تستمرون على القتال من غير أن يصيبكم جوع أو عرى. وأنهم يريدون هذه الغفلة ليميلوا بقوتهم وكللهم عليكم، فيكونوا ثقلًا الوطأة، ويضربونكم الضربة القاصمة الفاصلة، فيما يتوهمون ويزعمون! وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾، أى يثقلون الوطأة عليكم ويضربونكم الضربة المستأصلة فى زعمهم ووهمهم!!

وفى هذه النصوص كلها نجد الأمر المتكرر بوجوب أخذ الأهبة دائماً، وحمل السلاح باستمرار. ولكن قد يتعسر حمل السلاح، وهنا يرخص فى عدم حمله، مع أخذ الحذر، بحيث يكون فى مكان قريب، كى يعمل عند أول صيحة، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لا إثم عليكم فى أن تضعوا أسلحتكم فى أغصانها، إذا كان فى الميدان مطرٌ شديدٌ يعوق استعمالها ولقاء الأعداء، فإنها إن لم توضع تعرضت للصدأ، ووراء ذلك تلفها، والاحتياط لسلامتها فى الميدان واجب، وكذلك من يكون به مرض يغمد سلاحه حتى يستطيع استعماله، فإن تركه من غير استعمال يفسده، فلا يصلح عند وجوبه، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ الخطاب للجميع، ويراد به البعض من وجه؛ لأنه يبعد أن يكون جميع الجيش مريضاً، فالله تعالى يرخص للمريض فى أن يدع القتال حتى يشفى، فليس على المريض

خرج، وهو خطاب للجميع من جهة أخرى؛ إذ على الجماعة أن توفر للمريض راحته، فتغنيه عن حمل السلاح وهو مريض، وتحمل هي عنه العبء.

ومع أنه لا إثم في وضع السلاح عند المطر المعوق الذي يعد أذى، ولا يعد غيثاً، والترخيص للمريض في غمد سلاحه، فلا بد من الحذر، فيترقبون من العدو دائماً انتهازه للفرصة، ومن ذلك أن يتقلدوا السيوف^(١)، ولو أنها في أغمدتها، ووضع الرقباء، وبث العيون على العدو ليعرفوا حاله، فعسى أنه يحاول الهجوم من ثغرة أو طريق سهلة عليه، وإن ذلك لأن الله تعالى يريد أن تعلو كلمة الإيمان في الدنيا، وتنخفض كلمة الكفر، ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أى إن الله أعد للجاحدين به وبالحق عذاباً مذللاً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الآخرة بالعذاب الشديد الذى لا نجاة منه، وفى الدنيا بالغلب عليهم، وإذهاب صولتهم، ودولتهم، وذلك يكون بأخذ الأهبة والحذر، والاعتماد على الله تعالى، وقد أكد سبحانه العذاب المهين الذى ينزل بهم في الآخرة بثلاثة مؤكدات: بحرف (إن)، وبأن الله تعالى هو الذى ينزله، وما أَرَادَهُ اللهُ تعالى لابد واقع، وبالتعبير بكلمة (أَعَدَّ)، فإنها تفيد أنه هبئ لهم فعلاً، وهو يستقبلهم، وهم صائرون إليه لا محالة.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أى إذا أدبتم الصلاة على حال الخوف، فإن العبادة لم تنته، بل إن معناها قائم مطلوب منكم، وهو أن تذكروا الله تعالى فى كل أحوالكم، قائمين فى الميادين، أو غادين ورائحين ﷺ أو قاعدين مستريحين، أو نائمين على جنوبكم، فإن ذكر الله تعالى هو العبادة المستمرة التى بها تطمئن القلوب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

(١) أو ما فى معناها من عدة الحرب.

وإن التعبير عن صلاة الخوف بقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْكُمْ﴾ في مقابل قوله تعالى عند الاطمئنان: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ فيه إشارة إلى أنها بدل عن الصلاة الكاملة تؤدي معناها، وإن لم تكن مثلها في الصورة الظاهرة.

﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ أى إذا ذهب الخوف، وعادت القضب إلى أجفانها^(١)، ورجعتم إلى مساكنكم، فأقيموا الصلاة أى أدوها كاملة، مستقبلين القبلة، موصولة من غير فاصل بين أجزائها. والكمال هنا كمال الصورة، وإلا فالعنى يتحقق فى صلاة الخوف بمقدار لا يقل عن كماله فى الإقامة، إذ إنها عبادة فى عبادة، هى عبادة الصلاة فى عبادة الجهاد، وهو أشق عبادة، ولا شاغل قد يشغل المصلّى عن صلاته إلا هذه العبادة العالية، وفى الإقامة قد تشغله بعض أعراض الدنيا. وقد بين سبحانه مكان الصلاة فى الإسلام، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾، أى الصلاة مكتوبة على المؤمنين مؤقتة بأوقاتها، وهذا تأكيد لفرضيتها، وقد أكدت الفرضية بأربعة مؤكدات: أولها «إن» التى للتوكيد. وثانيها «كانت» التى تدل على الدوام والاستمرار فى الماضى والمستقبل، وثالثها. التعبير عن فرضية الصلاة بأنها (كتاب) فهو تعبير عن الوصف بالمصدر، وفيه فضل توكيد، ورابعها. التعبير بقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن ذلك يفيد الإلزام والحتمية. اللهم وفقنا لإقامة الصلاة، وإقامة الحق، والعمل على إعلاء شأن الإسلام، إنك سميع الدعاء.

(١) أى السيوف إلى أعمادها. وسيفٌ قاضٍ وقضيبٌ: قطاع (مقاييس اللغة)، وأجفان السيوف وجفونها أعمادها، واحدها جَفَنٌ. (لسان العرب).

وَلَا تَهِنُوا
 فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
 تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
 النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾
 وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾

فى الآيات السابقة كان بيان ما يتبعه المؤمنون من الصلاة عند الخوف، ولقاء العدو، ومن قبل ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى ما ينبغى أن يتبعه المؤمنون المغلوبون على أمرهم فى دولة غير إسلامية من الهجرة. فالآيات كلها فى وجوب الجهاد، وما حول الجهاد، وذلك أكد سبحانه طلبه بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ قال بعض العلماء: إن ذلك الأمر المرشد بعد غزوة أحد، ورويت فى ذلك روايات إن صحت لم تعين أن يكون هذا النص فى موضعها، ولكن الذى يتفق مع السياق، إن هذا النص بعد صلاة الخوف يدل على وجوب الاستمرار فى القتال من غير وهن ولا ضعف، وجوب الاستمرار فى طلب مواطن الضعف فى الأعداء، ليكون الغلب لكلمة الحق وكلمة الله سبحانه وتعالى، فالسياق على هذا يكون: إنكم إذا أدبتم الصلاة، فاتجهوا من بعدها، وقد تسلحتم بذكر الله، إلى القتال.

ومعنى النص الكريم: لا يصيبكم وهن، أى ضعف فى هممكم وعزيمتكم، فى ابتغاء العدو وطلبه، وتحريّ موضع ضعفه والنيل منه، ولا تقعد بكم آلام الحرب عن متابعتة، واللاحاق به، فإن تكونوا قد أصابتكم جراح فقد أصابته، ولذا قال سبحانه:

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مرمى النص الكريم أنه لا يصح أن تكون الجراح، وويلات الحرب والآلام مثبطة لكم عن الاستمرار في طلب المعتدين وملاقاتهم؛ لأنه إن أصابكم من الجراح والآلام ما أصابهم، فهم يجرحون ويألمون من غير رجاء في الآخرة، ولم يوعدوا بالنصر المؤزر الباقي في الدنيا، ولا بالنعيم في الآخرة، فهم يألمون في غير أمل مرجو، وأنتم إن ألتتم، فلرجاء النصر ولرجاء النعيم، فأنتم أحق بالصبر، وأولى بأن تطلبوهم، ولا تهنوا وتضعفوا في طلبهم.

ويسوق الزمخشري النص الكريم مساقا فيه شبه لوم للمؤمنين، فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾: (أى ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصا بكم، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم، يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه، ويتشجعون، فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة).

ونحن نرى أن النص فيه تحريض على الصبر، ولا لوم فيه ولا شبه لوم، فما كان عند المشركين صبر كصبر المؤمنين، حتى يوازئوا بهم ويحرّضوا على مثل ما هم عليه.

وفى جعل رجاء المؤمنين من الله، فى قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾، إشعار للمؤمنين بأنهم فى جانب الله تعالى، وأن رجاءهم عنده، وهو يجيب رجاء المؤمن ودعائه، ويؤيده بنصره: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران]، وليس للمشركين من يرجون إلا أن يكون أصناما لا تضر ولا تنفع!

وإذا كان الرجاء من الله، فهو رجاء من العلیم بكل شىء، الحكيم الذى يضع الأمور فى مواضعها، وينصر من ينصره بحكمته، ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى ثبت وتقرر أن العلم والحكمة من أسماء الله تعالى الحسنی،

جلت قدرته، وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليماً حكيماً، فإنه يعلم جهاد المؤمنين للحق، واعتداد المشركين بالباطل، وبمقتضى حكمته، لا يستوى الصالح والمفسد، والمحق والمبطل، ولا يستوى عنده الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالؤمنون إذ يرجون ما عنده، ويطلبون رضاه، يجدون العليم الحكيم: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ... ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي... ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

وإن العليم الحكيم هو الذي أنزل القرآن مشتملاً على شريعته، ليكون القسطاس المستقيم، والحكم العدل، ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ يذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذی والحاكم وغيرهما عن قتادة بن النعمان، قال: كان أهل بيت منا، يقال لهم بنو أبيرق، ثلاثة: بشر وبشير ومبشر، وكان بشير منافقاً، وقد كان طعام وسلاح لعمى رفاعه، كان قد ابتاعه فسرق منه، فقال: يابن أخي، قد عُدِي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا (أى غرفتنا) وذهب بطعامنا وسلاحنا، فتحسسنا وسألنا، فقبل لنا: إن بنى أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نراهم إلا على بعض طعامكم... ويسترسل قتادة في القصة، فيذكر أن بنى أبيرق اتهموا رجلاً له صلاح وإسلام، وهو لبید بن سهل، فغضب وهدد بالسيف... فذهب قتادة إلى النبي ﷺ، فقال: «سأنظر في ذلك»، فلما سمع بنو أبيرق، أتوا رجلاً يقال له أسيد بن عروة، فكلّموه في ذلك، فاجتمع بأناس، فقالوا: يارسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا، أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، ويقول قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فقال: «عمدت إلى أهل بيت إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينة!». فرجعت فأخبرت عمى، فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾، وقد كشف أمر بشير فلحق بالمشركين مرتداً! (١).

(١) رواه الترمذی: تفسير القرآن - ومن سورة النساء (٣٦-٣) عن قتادة بن النعمان.

وسواء أضح ذلك الخبر سببا للنزول أم لم يصح، فإن الآية لها صفة العموم، وتفسر بعمومها، لا بخصوص سببها، ومعنى النص الكريم على ذلك: إن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم المكتوب المسجل ليحكم النبي ﷺ بما توجهه نصوصه، وبما يريه الله تعالى وينير قلبه لإدراك الحق.

وهنا ثلاث إشارات بيانية:

الأولى - أن الله تعالى عبر عن القرآن بـ «الكتاب» للإشارة إلى أنه مكتوب مسجل مدون، باق إلى يوم القيامة.

الثانية - كلمة «بالحق»، والباء تدل على الملازمة والاتصال والمعية، فهو مع الحق، وبالحق، وناطق بالحق، ومشتمل عليه، ولا شيء في هذا الكتاب إلا ما هو حق، ولا يخالفه إلا ما هو باطل.

الثالثة - قوله تعالى ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، فإنها مقابلة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وهذه المقابلة تقتضى أن تكون كلمة ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ لها معنى خاص، وهو النظر بنور الله تعالى فى الأقضية التى يقضى فيها، فالقاضى لى يكون قضاؤه عدلا لابد من أمرين: أحدهما - قانون عادل هو الحق من كل نواحيه، وهو هنا الكتاب الكريم، الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه - والثانى - أن يكون فحصه للقضية ببصيرة نيرة نافذة، وقلب مشرق مدرك، وهذا يكون بنور الله، وهو للنبي ما عبر عنه بقوله تعالى: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

ولكن نور الحق لا يكون إلا إذا نظر القاضى فيما يعرض عليه نظرة غير متحيزة، ولا منحرفة، وهذا هو ما نهى الله عنه نبيه، والنهى لعموم أمته، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ تبادر إلى النبي ﷺ فى القصة السابقة أن من فيه صلاح وإسلام يكون على الحق، فانهاز فكره ككل البشر، فالله سبحانه وتعالى نبهه، تعليماً لأمته، ولكل قاض من بعده، إلى أنه لا يجوز أن ينحاز فكره إلى أحد الخصمين، فعسى أن يكون هو الخائن، وغيره هو البرىء، ولا بد أن يسمع البيّنات، ويجعلها هى الحاكمة. والخصيم بمعنى المخاصم، كالجلس بمعنى

المجالس، والمعنى على هذا: ولا تكن أيها الرسول الأمين مخصصاً لأجل الخائنين، بأن تجعل فكرك ينحاز إليهم قبل سماع البيئات الهادية المرشدة إلى الحق. وسُمي هؤلاء خائنون؛ لأنهم في علم الله كانوا كذلك، وهو يخبر النبي ﷺ بخيانتهم، والله تعالى خير شاهد.

وهذا إرشاد لكل قاض أن ينظر إلى المتخاصمين نظراً غير متحيز، لكي يستمع إلى البيئات منصفاً مقدرًا، ويجعل الأدلة توجهه إلى الحق، ولا يوجهها. وإن على كل قاض أن يستغفر الله دائماً في أقضيته؛ لأنه لا يدري: لعله أصاب الباطل! والعصمة لله تعالى وحده، ولأنبيائه، ولذا قال سبحانه:

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ الأمر في ظاهره للنبي ﷺ، وهو في عمومته لكل أمته، ولكل قاض يفصل بين الناس. وطلب الاستغفار دائم يوجهه الله تعالى إلى النبي، وإلى كل مؤمن تقى، لأن الاستغفار إنابة، وعبادة، وهي مطلوبة. وإذا كانت القصة قد ذكرت أن النبي ﷺ تبادر إلى ذهنه براءة خائن، فإن هذا ليس بذنب، ولكنه يوجب الاستغفار من الرسول، فإن علو مقامه يجعل مثل هذه التي لا تعتبر ذنباً من الناس، موجبة للاستغفار، على حد قول العلماء: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وفوق ذلك فإن طلب الاستغفار، مع ما فيه من القنوت والطاعة، حث لكل قاض يفصل بين الناس على الاستغفار في كل قضية، وقد بين سبحانه أن هذا الاستغفار الضارح يقبله الله تعالى؛ لأنه سبحانه قد ثبت واستقر له أن المغفرة بأقصى درجاتها، والرحمة بأوسع معانيها، صفتان له سبحانه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

وقد أكد سبحانه أوصافه تعالى بهاتين الصفتين بأربعة مؤكدات: أولها - (إن) التي تفيد التوكيد، وثانيها - (كان) التي تفيد الاستمرار، وثالثها - صيغة المبالغة في غفور ورحيم، ورابعها - الجملة الاسمية.

اللهم لا تجعلنا في جانب الخائنين والعصاة، واجعلنا مع الأبرار الأتقياء.

وَلَا تُجَادِلْ

عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ
خَوَانًا أَشِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَتُوءًا جَدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

الكلام مستمر فى نهى المؤمنين عن أن يدافعوا عن رجل يظهر غير ما يبطن،
أو يرتكب أمرا، ويحمل غيره وزره، فهو يرتكب الشر مرتين، ويتحمل إثمين:
إثم الارتكاب وإثم رمى الأبرياء، والتدليس ولبس الحق بالباطل، وكان النهى
موجها إلى النبى ﷺ، ليبين وجوب الاحتراس على كل مؤمن، حتى لا يقع فى
الدفاع عن الأثمين الخاطئين؛ لأنه إذا كان النبى ﷺ، وهو الذى ينزل عليه
الوحي، إن اعتمد على نظره، قد يلبس الأمر عليه، فالاحتراس عن هذا أولى
بكل مؤمن وأجدر، وقد قال سبحانه:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الجدال هنا الدفاع وإقامة الدليل
لمصلحة الخائنين، وذلك للاسترسال فى حسن الظن بالمظهر، وترك ما يختفى ولا
يستبين، فإن ذلك إن جاز فى السياسة لا يجوز فى القضاء، وإن جاز فى حقوق
الله تعالى لا يجوز فى حقوق العباد، ليعطى كل ذى حق حقه، ولكيلا تذهب
الأموال والأنفس والدماء هدرا، فلا بد لإظهارها من تكشف المستور، وإظهار
المخبوء.

والجدال فى أصل معناه اللغوى مشتق من الجدل بمعنى الفتل، أى تقوية الحجة، ويكون المجادل كمن يقتل الحبل ويقويه. وقيل إنه مأخوذ من الجدالة، والجدالة هى الأرض، فكل واحد من الخصمين يكون كالمصارع يريد أن يلقى صاحبه على الأرض. وإطلاق الجدالة على الأرض منه قولهم: تركته مُجدلاً، أى مطروحا على الأرض.

والاختيان، الذى هو مصدر ﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾، يُعَرِّفُه الأصفهاني فى مفرداته بأنه: «تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة»؛ وتحرك الشهوة لتحرى الخيانة قصدٌ إليها وتعمدٌ لها، وعمل على إحكامها. والخيانة والنفاق باب واحد، موضعهما من النفس واحد.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: الذين يقصدون خيانة أنفسهم، ويتحرونها، ويحكمون إخفاء المستور من جرائمهم. وأضيفت الخيانة للنفس؛ لأن الذين يصنعون ذلك إنما يحدثون فى الأمة ذعرا عاما، يعود ضرره على الجماعة، ويعود عليهم أنفسهم، إذ يعيشون فى جماعة قد فسد أمرها، وارتابت فى شئونها، وضلَّ عن الناس معرفة الحق، وغاب عنهم لبُّه!! وكذلك لأن تلك الخيانة مغبتها على أنفسهم شديدة أمام الله تعالى، وسيحاسبهم عليها من لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، ولأن هؤلاء الخائنين الذين يتحرون الخيانة، إنما يحلون فطرهم السليمة عن الفطرة التى فطرهم الله عليها، فيصيب الفساد نفوسهم، وتنحل كل العُرأ فيها، وبذلك تضطرب، وتكون فى بلبال مستمر:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ إذا كان الخائنون الذين تحروا الخيانة وقصدوها، وانحرفوا بفطرهم عن أصلها، ينالون العذاب فى الدنيا بالحكم عليهم، وإعراض أهل الفضل عن معاونتهم، فإنهم لا ينالون حب الله تعالى، والمعنى الظاهر للنص: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ هو أن الله تعالى العلى الحكيم، الذى لا تُرجى محبة سواه، لا يحب من كانت الخيانة وصفا

من أوصافه، وشأننا من شئونه، وخلقنا من أخلاقه، ومن صار الإثم عادة له، حتى صار يوصف بأنه خَوَّانٌ، وأثيم. فكلمة خَوَّان صيغة مبالغة معناها أن الخيانة صارت وصفا ملازما له، وكلمة أثيم صيغة مبالغة من إثم، تفيد أن الإثم صار وصفا ملازما!. وأن محبة الله تعالى شأن من شئونه سبحانه تليق بذاته الكريمة، وهى تتضمن معنى الرضوان، وتستلزم فيض رحمته ومنح غفرانه، فمن فقد محبة الله تعالى، فقد حرم من الرضوان، وحرم من رحمة الله تعالى التى تكون للتوابين، وحرم غفرانه؛ لأنه لا يكون إلا لمن أحاطت به خطيئته، حتى لا ينتقل إلا من إثم إلى إثم!!.

وقد أكد سبحانه نفى محبته لهؤلاء الذين أُرْكِسَتْ نفوسهم فى الخيانة، ودُنِسَ الإثم نفوسهم، حتى أصبحوا لا يعيشون إلا فى آثام، بالجملة الاسمية المصدرة بحرف «إن» الدال على التوكيد.

وهنا إشارة معنوية: وهى أنه تعالى وصف الذين حرموا محبته بأنهم خَوَّانُونَ أَثِيمُونَ؛ وذلك له معناه لأن اختيان النفس، وتعودها الخيانة يجرها إلى آثام كثيرة، فمن خان يسرق ويكذب، ويأكل أموال الناس بالباطل، ولا يتخرج عن إثم، فكان الخيانة جاذبة معها كل الآثام!.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ إن أولئك الخَوَّانِينَ الْأَثِيمِينَ لا تنالهم محبة الله تعالى، ولا رحمته ولا مغفرته، ومن شأنهم أن يكونوا بعداء عن الناس غير ملتقين بهم، فهم دائما يستخفون من الناس ليدبروا ما يدبرون، ولأنهم فى جفوة مستمرة، ولا يحبون الناس ولا يألفونهم، ولا يحبون لقاءهم، وإذا لقوهم أظهروا غير ما يكتُمون، وأبدوا غير ما يخفون!. فالخائن لمجتمعه وأمتة يتسم بسمة تجمع عيوباً ثلاثة: هذه السمة هى الاستخفاء، وهذه العيوب هى الجفوة التى تحمله على ألا يظهر، وكتمانه أمره حتى لا يكشف، وتدبيره السوء فى استخفائه! والباعث على ذلك كله الأنانية الظلمة، والآثرة القاطعة!.

وإنهم إذ يستخفون من الناس لا يشعرون برقابة الله على أعمالهم؛ لأن ذلك الشعور ينبعث من ضمير حى قوى موجه للنفس، والوجدان الدينى القوى لا يكون فى قلب جاف قاس، قد ترك الناس ولم يالفهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾، فهو مطلع عليهم، وإن كانوا لا يشعرون، وعليم بأمرهم، وإن كانوا يستخفون من الناس، ويتعدون عنهم.

والاستخفاء المبالغة فى طلب الخفاء، والابتعاد، وذلك ليتسنى لهم تدبير ما يريدون، والله سبحانه معهم إذ يدبرون السوء، لذا قال سبحانه تعالت كلماته وجلت قدرته:

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾
هؤلاء الذين يستخفون من الناس مجافين لهم، ولا يشعرون برقابة الله تعالى عليهم، والله مطلع على أقوالهم وأعمالهم، اطلاع من يصاحبهم فى غدوهم ورواحهم، وهو معهم عندما يدبرون الأعمال فى خفية من الناس والأقوال التى لا يرضى الله عنها. فالتبيت تدبير الأمر فى البيات، أى الليل، وأطلق على كل ما يدبر بعيدا عن الناس، ويقول الزمخشري فى معنى النص الكريم: «يدبرون ويزورون - وأصله أن يكون بالليل - ما لا يرضى من القول...» فإن قلت: كيف سمى التدبير قولا، وإنما هو معنى فى النفس؟ قلت: لما حدث بذلك نفسه سمى قولا على المجاز.

فالتبيت معناه التدبير فى الخفاء مطلقا، سواء أكان تدبير قول يسترون به عملهم، ويزينون به مظهرهم، أم ترتيب عمل يخفونه، ويقومون به، فإن أعمال المنافقين جميعها تدبر بالليل، وتنفذ بالليل، حتى تظهر آثارها فى الجماعة، ولكن الله سبحانه وتعالى ذكر القول فقط، فقال: «ما لا يرضى من القول»، فلماذا ذكر القول وحده؟ لقد وجه الزمخشري سؤالا قريبا من هذا، وأجاب عنه، ونحن نقول: إنه ذكر القول وحده مقترنا بعدم رضا الله تعالى؛ لأن أقصى ما يتستر به المنافق قول مزخرف يضل، ولذلك بين النبي ﷺ أن عليم اللسان منافق القلب هو

أخوف من يخافه على أمته^(١)، فعناية المنافق بالقول الذى يستر به عمله هى الجزء الأكبر من تدبيره، وإن عمل الليل سهل، ولكن إخفاءه بزخرف القول صعب عند ظهور آثاره. وفوق ذلك فإن القول إذا كان لا رضى، فالعمل أبعد عن الرضا.

وقد عبر سبحانه عن فعلهم وقولهم بأنه لا يرضاه، للإشارة إلى مقتته لهم، وحسابهم عليه. وإذا كان الله تعالى عليما بما لا يرضى من القول علم من يصاحبهم عند التدبير والتبیت، فهو بعملهم عليم أيضا، وهو أيضا لا يرضى عنه، ولذا قال سبحانه:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ فإذا كان الله تعالى مصاحبهم فى قولهم الذى لا يرضيه، فهو محيط دائم بكل عملهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يغيب عنه شىء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة منه. والتعبير عن علم الله تعالى لأعمالهم بالإحاطة، فيه إشارة إلى أمور ثلاثة: أولها- أن علمه كامل لا ينقصه شىء، فهو علم إحاطة واستغراق. وثانيها- أن الله معاقب بقدر ما ارتكبوا. وثالثها- أن الله واضع أعمالهم فى دائرة، فلا يمكن أن يصل إلى أهل الحق أذاهم؛ لأن الله محيط بهم وبما يعملون:

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يستطيع أهل النفاق بحلو قولهم، وقدرتهم على تزوير الكلام وتحسينه، أن يجدوا لهم أنصارا من أهل الحق، يخدعون بمظهرهم، ولطف مداخلهم، فيظنون بهم الخير، ويندفعون للدفاع عنهم، والله سبحانه وتعالى يبين أن هذا الدفاع إن أجدى فى الدنيا لهم، فهو جداء يؤدى إلى إيغالهم فى الشر والفجور، وإذا كان ينجيهم من عذاب الدنيا، فلن ينجيهم من عذاب الآخرة، إذ لا يكون العقاب إلا من علام الغيوب الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، والجدال عنهم فى الدنيا أمام البشر، أما الجدال عنهم فى الآخرة، فهو أمام الله تعالى العليم

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلَيْهِمُ اللَّسَانُ». رواه أحمد: مسند العشرة - أول مسند عمر بن الخطاب رض الله عنه (١٤٤، ٢١٣).

الحكيم، والشهود في يوم القيامة عليهم كثيرة متعددة، فإنه تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم بما كانوا يفعلون.

وهنا أربع إشارات بيانية:

أولها - التنبيه إلى مجادلة المؤمنين عن المنافقين، ووقوعها في الماضي، وتوقعها في القابل، وذلك للإشارة إلى حسن ظن المؤمنين بالناس. وقد قرر سبحانه التنبيه إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ﴾، فتكررت هاء التنبيه، وذكر اسم الإشارة الذي هو تنبيه ثالث، وذلك التنبيه إلى الواقع والمتوقع للتنبيه إلى الاحتراس، ومراقبة أنفسهم عندما يفرطون في الثقة بمن ليس بها جديرا.

ثانيها - التعبير بالماضي في قوله تعالى ﴿جَادَلْتُمْ﴾ مع أن النهي منصب على المستقبل، لبيان تحقق وقوع المجادلة عن المنافقين مع توقع وقوعها، إذ النهي لا يكون إلا عن أمر محتمل الوقوع في المستقبل، والصيغة تتضمن اللوم على الواقع، والنهي عما يمكن أن يقع.

ثالثها - الإشارة إلى أن المجادلة في الحياة الدنيا، إنما سببها الجهل بالقلوب، وعدم تحرى ما تنطوى عليه، وأن حالهم ستنجلي يوم القيامة، فإذا كانوا يخدعون أهل الدنيا، فالله سبحانه كاشفهم وخادعهم يوم القيامة.

رابعها - أن الله سبحانه وتعالى نبّه إلى أن المجادلة عنهم نوع من المحاماة عن الرذيلة، والدفاع عنها، ولذا قال سبحانه:

﴿أَمْ مِّنْ يَّكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ومعنى النص الكريم: إذا كانوا يحامون عنهم، ويجادلون عنهم في الدنيا، فيسلقون ربهم يوم القيامة غير راض عنهم ولا محب لهم، فلا يُرحمون في ذلك اليوم، ولا يُغفر لهم؛ لأنهم لم يتوبوا، واستغرقت نفوسهم الخطيئة، ولا منجاة لهم من العذاب، ولا مخاصم عنهم أمام الله!! اللهم ارحم أمتك من نفاق المنافقين واجعلنا من عبادك المخلصين.

وَمَنْ يَعْمَلْ

سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ، لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه أحوال المنافقين والذين يختانون أنفسهم، وأشار إلى الذين يرتكبون الشر، ويرمون به غيرهم، وما يجب أن يكون عليه القاضى المنصف الذى يرد الحقوق إلى أصحابها، وتكون عنده المقاسم الحقيقية للحق والباطل، وكل ذلك فى الأحكام الدنيوية. وفى هذا النص يبين الله سبحانه مراتب العصاة أمام الله تعالى فذكر ثلاث مراتب: المرتبة الأولى مرتبة التوابين، والثانية مرتبة الذين لا تعدى آثامهم أنفسهم أو لا يرمون بها غيرهم، والثالثة، وهى التى تنال أشد الجزاء الأخرى بعد الخزى الدنىوى، هى التى ترتكب الشر وترمى به غيرها. وقد بين الله سبحانه المرتبة الأولى بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ السوء

هو الأمر الذى يحدث غما وألما، سواء أكان لفاعله، أم كان لغير فاعله، ولكن بمقابلته بقوله تعالى:

﴿أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ لا بد من أن تفسر الكلمتان بمعنيين متغايرين، وقد تكلم فى ذلك المفسرون، وأحسن ما رأينا هو ما قاله الزمخشري من أن السوء هو ما يكون فيه أذى للغير، كالقذف والشتم والسب، ونحو ذلك، وأما ما يكون فيه ظلم للنفس، فهو ما لا يكون فيه أذى مباشر للغير ابتداء، كالفاحشة، وشرب الخمر، وترك الصلاة والصوم والحج، وغير ذلك من المعاصي التى لا تتجاوز غير صاحبها مباشرة وابتداء، وإن كانت فى مآلها تتعدى إذا تفشت الأمة وكثرت فيها.

ولا بد أن نذكر بإجمال عبارات فى بعض الإشارات البيانية القرآنية:

الأولى - عن التعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ فإن هذا التعبير يشير إلى أن نفسه لم تركس فى الشر، ولم يستغرقها، بل إنه عمل عارض، ولذا كان التعبير ﴿يَعْمَلُ﴾، وهذا فى مقابل قوله فى الطبقة الثانية: ﴿يَكْسِبُ﴾، فإن الكسب كما تبين يشير إلى تدنس النفس، وارتكاسها فى الشر، أما العمل ففى ظاهر الأمر إنه لا يتجاوز الجوارح؛ ولذا كانت التوبة قريبة، وكان الاستغفار غير بعيد.

الثانية - أن التعبير عن المعاصي الشخصية التى لا تتعدى صاحبها ابتداء بظلم النفس، فيه معان واضحة، فهى تفيد أن كل ما نهى الله عنه فلمصلحة العبد، فإن تجاوز حدود ما نهى الله عنه فقد وقع فى ضرر مؤكد. وفيه تنبيه إلى أن المعاصي، سواء أكانت إيجابية كشرب الخمر، أم سلبية كترك الصلاة والصوم، مغبة وقوعها تكون على العبد ابتداء، ثم تكون على غيره من بعد.

وفى الحق أن كل ما نهى الله عنه، وما أمر به فهو لمصلحة الجماعة، ومخالفة أمر الله فيه ظلم للنفس وإساءة للمجتمع، بيد أن بعضه يكون أثره مباشرا، إما على الغير كالقتل والاعتداء بكل أنواعه، أو يكون أثره المباشر على شخص المرتكب، ثم يتعدى إلى المجتمع من وراء ذلك، حتى أن مَنْ ظَلَمَ النفس عده الله تعالى اعتداء على حقه تعالى، كالزنا وشرب الخمر، وكونه ظلما للنفس لا يمنع أنه اعتداء على حق الله تعالى وذلك للمآل والآثار، لا بالمباشرة.

الثالثة - أن التعبير بـ «ثم» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ﴾ - للإشارة إلى تفاوت ما بين المعصية والاستغفار، فالتراخي الذي دلت عليه كلمة «ثم» تفاوت معنوي، وليس بتراخ زمني لأن من يعمل السوء أو يظلم نفسه من غير أن يحيط بالنفس، توبته قريبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٧٠﴾ [النساء].

والاستغفار هو طلب المغفرة، وذلك يقتضى الإقلاع عن الذنب، والندم على ما كان منه، والالتجاء إلى الله تعالى فالاستغفار هو التوبة النصوح، ومن مقتضيات هذه التوبة أن يرد الحقوق إلى أصحابها، ويطلب العفو عن أساء إليه؛ لأن حقوق العباد لا تتحقق فيها التوبة إلا إذا ردت إلى أصحابها، أو كان العفو منهم.

وقوله تعالى: ﴿يَجِدِ اللَّهُ عَفْوَاً رَحِيماً﴾، يفيد استجابة طلب الغفران إن تحققت شرائطه، ولم يصب النفس بدنس، فالمعنى إن استغفر وتاب وأناب استحق المغفرة، لأنه يعلم وصف الله تعالى لذاته العلية بأنه المتصف بصفة الغفران والرحمة، وكان من رحمته أن يقبل توبة التائب، ويعاقب العاصي المصر.

ثم ذكر سبحانه المرتبة الثانية في المعاصي بقوله:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ الكسب معناه طلب ما يرغبه الإنسان، ويطلق الكسب على ما يناله الإنسان من أمور الدنيا، وما تناله النفس من حظوظها أو ما تراه حظا لها، وقد ورد الكسب في القرآن بمعنى طلب الرزق، وورد بمعنى فعل الخير، وورد بمعنى فعل الإثم. ولاحظنا في تعبيرات القرآن عن كسب الآثام أنها تقرر بما تدل على استمرار النفس للشر، وتأثرها به، فقد قال تعالى: ﴿... أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ... ٧٠﴾ [الأنعام] أى تمنع من الخير بسبب ما كسبته من ذنوب، وقال تعالى: ﴿... أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ... ٧٠﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿... إِنَّ الَّذِينَ

يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ [الأنعام]، وغير ذلك. ولذلك يصح أن نفس كسب الإثم بأن يتحراه وتَدْرَنَ به نفسه، حتى يصير كسبا رديئا لها؛ وذلك أن الشر إذا ارتكبه الإنسان خط في النفس خطأ، فإذا تكرّر ذلك كثرت الخطوط السوداء، حتى يَرَبْدَ القلب، وبذلك يكون قد كسب الإثم، وهو الذنب المبطئ عن الله تعالى.

ومن وصل الشر في نفسه إلى هذا الحد، فإن ذلك الذي اكتسبه لا يعود بالشر ابتداء إلا على نفسه، لأنه أفسد فطرتها، وحولها عن طريق الانتفاع بها إلى أركاسها في الشر. وخسارة الشرير في نفسه أكثر من خسارة الناس فيه، ولأنه يصير من الشُّذَّاب الذين تلفظهم الجماعات الإنسانية، ولأن عذاب الله يستقبله، ولذا قال سبحانه مهديا بأنه عالم بما يرتكب، ولو أخفاه، حكيم، يضع لكل امرئ ما يستحق، فلا يتساوى عنده المسىء مع المحسن وهو وحده المتصف بأعلى درجات العلم والحكمة.

ويلاحظ في الفرق بين التعبير في الآية السابقة وهذه الآية أمران:

أولهما - أنه عبر في الأولى عن مرتكب الشر بـ «يعمل» وقد بينا ما فهمناه من ذلك، وفي هذه الآية عبر بـ «يكسب»، للإشارة التي تدنس النفس بالشر، واسوداد القلب به، حتى أريد، وأصبح لا نور فيه.

ثانيهما - أنه لم يعبر عن الشر الذي وقع في الأولى بالاثم، بل عبر بالسوء أو الظلم للنفس، وهنا عبر بالإثم المبطئ المبعد عن الله تعالى؛ لأن الشخص في الحال السابقة قريب من الخير بالتوبة القريبة، أما هنا فحاله حال من تبطؤ توبته.

وقد قال سبحانه في المرتبة الكبرى من الشر:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ الخطأ هو العدول عن الجهة، وقد قال في تفسيره الأصفهاني في مفرداته: (الخطأ العدول عن الجهة، وذلك أضرب: أحدها - أن يريد غير ما تحسن إرادته، وهو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، يقال خطئ

يَخْطَا خِطْئًا، وَخِطْأَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿... إِنْ قَتَلْتُمْ كَذِبًا كَبِيرًا ۖ﴾ [الإسراء] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿... وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ۖ﴾ [يوسف]. والثاني - أن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد، فيقال: أخطأ، إخطأ، فهو مخطئ، وهذا قد أصاب في الإرادة، وأخطأ في الفعل، وهذا هو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»^(١)، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «من اجتهد فأخطأ فله أجره»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿... وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ... ۖ﴾ [النساء] والثالث - أن يريد ما لا يحسن فعله، فيقع خلافه، فهذا يخطئ في الإرادة ومصيب في الفعل).

ومنها يتبين أن الخطأ الكامل ما يكون انحرافا في الإرادة، بأن يريد ما لا تصح إرادته، ويأثم بهذه الإرادة، ومن ذلك كلمة «خطيئة» فإنها تستعمل في كثير من آي القرآن فيمن يرتكب الشر، منحرف النفس، حتى أنه يصدر عنه من غير تكلف، ولا معاناة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ... ۖ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى أيضا: ﴿... وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۖ﴾ [يوسف]، وكانت الخطيئة هي الذنب العظيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَطِئَةِ ۖ﴾ [الحاقة].

وعلى ضوء هذه المعاني نقول: إن الخطيئة هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ هي الذنب العظيم، الذي تمرست به النفس، حتى صار وصفا من أوصافها، يصدر عنها من غير قصد، بل هو انحراف النفس التي أحاطت بها ظلمات الشر، والإثم هو الذنب المبطل عن الاتجاه إلى الله بالاستغفار.

(١) سبق تخريجه.

(٢) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ». [البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة - أجر

الحاكم إذا اجتهد (٧٣٥٢)، ومسلم: الأفضية - أجر الحاكم (١٧١٦)].

وإن جريمة هؤلاء جريمتان: إحداهما ارتكاب الشر والإيغال فيه، والثانية أنهم يرمون البراء به، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَرَمُ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وإن هذه الجريمة تتضمن هي الأخرى في ثنائها جريمتين: إحداهما - البهتان، وهو الكذب الذى لا يتصور عند أهل الخير وقوعه، والثانية - إثم واضح، وهو إلقاء التبعة على الغير، إذ إنه كذب حير البرى وأذهله.

وإن هؤلاء، مع هذه الذنوب التى يرتكبونها، منافقون يظهرون غير ما يطنون، وهم شر الجماعة الذين يسعون بالفساد فى الأرض، وأن السعاية التى يرتكبونها بنفاقهم توجب قطعهم عن الأمة، ولقد أوجب بعض الفقهاء عقابهم.

وإن هؤلاء يفسدون الحكام على شعوبهم، ويسعون فى الأرض فسادا بجرمهم، وإن الله يحذر نبيه من أمثالهم، وهو قدوة حسنة لكل الحكام.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ الضمير فى قوله تعالى: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعود على ما يفهم ضمنا من حال هؤلاء الذين أركست نفوسهم فى الخطايا، حتى أصبحوا يقدمون عليها من غير قصد خاص إليها، كأن ذلك حال من أحوالهم، فهم منافقون يبتغون الفتنة فى الدين آمنوا، وأول فتنة وأقوى فتنة هى التى تحيى فى الحكام، فتبعد ما بينهم وبين الأخيار من الأمة، ويتقرب بها الأشرار الذين يرتكبون الشر، ويرمون به الأبرياء. ومعنى النص الكريم: إن أولئك المنافقين العصاة جريثون على رمى الأبرياء وتضليل الحكام. ولولا أن الله تعالى منَّ عليك بفضل العميم، ورحمته الواسعة، لهمت طائفة منهم أن يجعلوك فى ضلال بالنسبة لمن تحكمهم وتهديهم، فهم لم يهيموا بذلك؛ لأنهم يعلمون فضل الله تعالى عليه بالوحي الذى يبين له الحق، ورحمته الواسعة التى يمنُّ بها عليه وعلى قومه، فلا يكون منهم ما يعتهم، كما قال تعالى فى وصف نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿... عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٨).

[التوبة]. وإن هؤلاء إذا حاولوا هذه المحاولة أو لم يحاولوها، واستمروا في غيهم يعمهون، فإنهم باستمرارهم في هذه الغواية يسبغون إلى أقصى المدى في الشر، فيبعدون عن الهداية، ولذلك لا يُضِلُّون إلا أنفسهم، فإن النبي ﷺ لن يضل أبداً، وإنهم لا يضرّونه بأى قدر من الضرر، ولا بأى نوع منه؛ لأن الله حافظه، وحافظ من اتبعوه إلى يوم القيامة. وقد بين الله حصانه نبيه، إذ قال:

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ هداية كاملة بالرسالة، بينها الله سبحانه وتعالى بأن الكتاب أنزل عليه مبينا به الشريعة الحق التي لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو يحكم بقانون القرآن، وعلمه الرسالة، وأنزل عليه الحكمة، وهى الفهم الصحيح، وفقه الوقائع، والمسائل: فلا يقضى إلا بالحق. وقد فسر الإمام الشافعى الحكمة بالسنة، وإن هذا التفسير له موضعه من الحق، فالله تعالى أنزل عليه الوحي بالسنة، فما كان ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وإنه يعلم القرآن، وبالحكمة التي أنزلها على قلبه، قد أثار الله بصيرته، فعلمه علما كثيرا لم يكن يعلمه، وكان فضله بهذه الرسالة، وبهذا القرآن، وبهذه الحكمة، وبهذا العلم النوراني الذي علمه إياه، عظيما لا حدود لعظمته.

وإن هؤلاء الذين يَسْعَوْنَ في الأرض فسادا، كانوا يحاولون أن يضلوا النبي، لولا كتاب الله الذي أنزل عليه، وحكمته التي أوحى بها إليه، وما علمه من علم، وأن أمثالهم في كل زمان، وهم أجراً على الحكام؛ إذ لا هداية من السماء تنزل على الحاكمين، فلا حواجز تحجزهم عن السعاية بالشر، فعلى الحكام أن يأخذوا حذرهم منهم، ولا يجعلوا منهم ألسنة تحكى حال غيرهم، بل عليهم أن يقطعوها، والله من ورائهم محيط.

❖ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
 أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ
 ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٤ وَمَن
 يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
 سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
 مَصِيرًا ١١٥

في آخر الآيات السابقة، أشار سبحانه إلى أن هناك طائفة تدبر التدابير للإخلال والإضرار، وأن الله تعالى مبطل مكرهم وتدبيرهم الشر، وفي هذا النص الكريم يشير إلى أن الشر لا يدبر إلا في خفاء، ولا يكون في إعلان، وأن الناس يعلنون خبرهم ويخفون شرهم. والإسرار بمقتضى الطبيعة البشرية لا يكون إلا فيما يخشى إعلانه، ويتقى اطلاع الناس عليه، ولكن مع ذلك قد يكون من الخير الإسرار في بعض الأمور، ولذا قال تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ يقول الأصفهاني في مفرداته في بيان النجوى: إن أصل هذه المادة الانفصال عن الشيء، والنجوة والنجاة المكان المرتفع، والنجوى عنده اسم مصدر للمناجاة، وهي المسارة، وهي عنده أن تخلو بإنسان وتخطبه كأنك تسر إليه شيئاً، ولا خير في كثير من هذه المناجاة، إلا أن تكون أمراً بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس. فالأمر الأول من التناجى المحمود هو الأمر بالصدقة، والصدقة هي التبرع والتطوع بفعل الخير، من إنفاق مال، أو مساعدة ضعيف، أو إنظار مدين معسر، أو ترك الدين والعفو عنه، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ٢٨٠﴾ [البقرة].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما تأكله العافية فهو صدقة»^(١)، أى ما يقدمه الإنسان من قوة بدنية فهو صدقة، فمعونة الضعيف على حمل ما يحمل صدقة، وبهذا التفسير العام لكلمة الصدقة نقول: كل ما يقدم من معونة إنسانية بالبدن أو المال، عطاء أو تركا، وكل ما يتسامح فيه الإنسان: تأليفا لقلب محب، يكون صدقة، بل إن بعض العلماء جعلها تعم كل أبواب الخير، ومن ذلك قوله النبي ﷺ: «كل معروف صدقة»^(٢).

والأمر الثانى من التناجى المحمود: الأمر بالمعروف فى لغة القرآن الكريم معناها ما يقره العقل ولا يستكره، ويقوى الروابط الاجتماعية، ويقيمها على دعائم من الفضيلة ورعاية الحقوق والواجبات، فالمعروف لفظ يعم كل أعمال البر، وخصوصا الاجتماعية منها: وإن المعروف مقابل المنكر. من حيث معناه، ومن حيث حكمه. فالمنكر هو كل ما يضر الإنسان والمجتمع، وهو منهى عنه، والمعروف كل ما يصلح الإنسان والمجتمع، وهو مأمور به مطلوب. فالتناجى لتدبير خطة إصلاحية، ومبادئ اجتماعية، وقيام بحق الله تعالى فى إقامة مجتمع فاضل، هو من أفضل الفضائل. وإن المعروف يجب القيام به حيثما لاحت فرصته، وقد قال فى ذلك الماوردى فى كتابه القيم «أدب الدنيا والدين»: «ينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف

(١) هذا الحديث رواه أحمد: باقى مسند المكشرين - مسند جابر بن عبد الله (١٤٢٢٦)، والدارمى: البيوع - من أحيا أرضا ميتة فهي له (٢٦٠٧). عن جابر رضى الله عنه.

وتأتى رواية مسلم: المساقاة (١٥٥٢) عن جابر بن عبد الله - أيضا لتزيد الأمر قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سَرَقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّجُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزُوهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ». قلت: فليس المقصود هنا بالعافية القوة البدنية، كما سيأتى بعد. ولا عطر بعد عروس.

(٢) رواه البخارى: الأدب - كل معروف صدقة (٦٠٢١) عن جابر رضى الله عنه، ومسلم: الزكاة - بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٥) عن حذيفة رضى الله عنه.

أن يجعله حذار فواته، ويبادر خفية عجزه، وليعلم أنه من فرص زمانه، وغنائم إمكانه».

والأمر الثالث الذى يصح التناجى فيه: أمر الإصلاح بين الناس، سواء كانوا جماعات وأما، أم كانوا آحادا وأفرادا. والإصلاح بين الناس فريضة اجتماعية تجب على أولى العزم من الرجال، وهى ضريبة ذى الجاه والمنزلة، فإذا كان بين اثنين خصام وأزاله، فقد قرب الله بين قلبين، وإن القضاء والفصل فى الخصومات يورث فى القلوب إحنا، بينما الصلح بينهم يبقى المودة. ولقد قال فى ذلك الإمام عمر - رضى الله عنه - فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى «رد الخصوم حتى يصطلحوا، فإن القضاء يورث بينهم الضغائن»، ولقد قال النبى ﷺ: «من أصلح بين اثنين أعطاه الله تعالى بكل كلمة عتق رقبة»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام لأبى أيوب الأنصارى: «ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين أناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا»^(٢).

والإصلاح بين الجماعات المتناحرة أوفر خيرا من إصلاح الآحاد، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلَوْا فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات].

فكرر سبحانه الأمر بالإصلاح قبل القتال وبعده، وفى أثناءه.

وإن الذى أذهب النخوة من المسلمين قتال كبرائهم، وعدم وجود من يصلح ذات البين بينهم، حتى ترمى بعضهم فى أحضان أعدائه وأعداء الله، وإثم ذلك على من لم يسع بالصلح، ورأب الكلم.

(١) ذكره مع ما يليه القرطبى فى التفسير ج ٥، ص ٣٨٢. عن أنس بن مالك. وذكر القرطبى أخبارا أخرى ثم قال: ذكر هذه الأخبار أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفى فى كتاب اللؤلؤيات له، وجدته بخط المصنف فى وريقة ولم ينبه على موضعها رضى الله عنه.

(٢) المرجع السابق.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ العبادات في الإسلام ليست مقصورة على الصلاة والصوم والحج، بل إن كل عمل فيه خير إذا قصد به إرضاء الله سبحانه وتعالى يكون عبادة، ولذلك يقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) وإن محبة أى شيء لله تعالى عبادة، ولذلك يقول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»^(٢).

ومن أجل هذا كان من يفعل الخير بالتناجى والتعاون على إصلاح الجماعة، بإفشاء البر والإصلاح بين الناس، وإقامة المعروف، وإبعاد المنكر - من يفعل ذلك طالبا مرضاة الله تعالى ولا يبغي سواه، فإن الله تعالى سيؤتيه جزاء عظيما بالغا أقصى درجات العظمة. وسوف هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل.

وعلى الناس من بعد أن يطلبوا مرضاة الله بقوة إيمان فى كل ما يتجهون إليه من إصلاح شئون الجماعة، فلا بركة فى عمل، مهما يكن صالحا فى ذاته، إلا إذا طلب به إرضاء الله، فالقوانين والنظم التعاونية والاشتراكية إذا لم يقصد بها وجه الله لا بركة فيها. فعلينا أن نتجه إلى الله فى كل ما نعمل:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ إن الكثير الذى يتناجى به الآثمون هو فى أكثر أحواله يكون منشؤه أنهم لا يندمجون بإحساسهم مع المؤمنين، فهم فى جانب بإحساسهم وشعورهم، والرسول والمؤمنون فى جانب آخر، وهم فى الجانب الذى اختاروه يجعلون السلطان عليهم لجماعة أخرى، كأولئك المنافقين الذين كانوا يجعلون نصرهم فى أمرهم لليهود أو للمشركين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾، والشقاق أو المشاقة، وهو أن يكون فى شق، والآخرون فى شق، أى يكون فى جانب بإحساسه وولائه، والرسول والمؤمنون فى جانب آخر بإيمانهم وولائهم لله تعالى، وذلك كله بعد أن يتبين له الحق وقامت أدلة الهداية.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية عمر بن الخطابضى الله عنهما.

(٢) سبق تخريج ما فى معناها من حديث صحيح.

ومن يفعل ذلك فإنه يكون قد خرج من ولاية المؤمنين ونصرتهم إلى ولاية من يتولونه ونصرتهم، أى أنهم يكونون قد انضموا إلى أعداء الله تعالى!

وقد قال الإمام الطبرى فى تفسير هذا النص: «ومن يباين الرسول من بعد ما تبين له أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويتبع طريقا غير طريق أهل التصديق، ويسلك منهاجا غير منهاجهم، وذلك هو الكفر بالله؛ لأن الكفر بالله ورسوله غير سبيل المؤمنين وغير منهاجه. ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾: يجعل ناصره ما استنصره، واستعان به»، ونرى من هذا أنه يجعل الشاقيين كافرين، وذلك حق، ولكننا نخصصهم بالمنافقين من الكفار؛ لأنهم الذين كانوا مع إظهارهم الإسلام يكونون فى شق، والمؤمنون والرسول معهم فى جانب الحق، وقد ذكر سبحانه العقوبة المترتبة على ذلك فقال:

﴿وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أصل الصلّى إيقاد النار، وصلّى بالنار بلى بها، وصلّى النار دخل فيها، وأصله فيها أدخله فيها، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ﴾ أدخلناه جهنم يشوى فيها كما تشوى الشاة، وأنها باقية، وهو يخلد فيها لا يخرج منها يوم القيامة أبدا. كذا قال تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أى أنها مصيره الدائم الباقي ولا مصير له سواه؛ لأنه كافر معاند للحق بعد أن تبينت له كل الأدلة المثبتة، وما أشد ذلك المصير سوءا وقبحا، وهو جزاء لما كانوا يعملون.

وقبل أن نختم الكلام فى ذلك النص نقول: إن بعض علماء أصول الفقه قالوا إن هذه الآية دليل على أن الإجماع حجة وينسبون ذلك الاستدلال إلى الشافعى، ولم نجد فيما كتبه الإمام الجليل ما يدل على أنه استشهد بها فى بيان حجة الإجماع، ولا نجد روح الآية ومعناها يدل على ذلك لأنها كانت فى قوم منافقين كافرين، شاقوا الرسول والمؤمنين. وقد رد الغزالى فى كتاب «المستصفى» القول بأنها دليل على حجة الإجماع، وكان كلامه حقا، والله سبحانه وتعالى أعلم. اللهم لا تجعل ولايتنا لغيرك واجعل ولايتنا لك ولرسولك وللمؤمنين.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا
 ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسًا وَإِنْ يَدْعُونَ
 إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخِذَنَّ
 مِنْ عِبَادِي نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

كانت الآية السابقة على هذه النصوص مبينة مصير أولئك الذين يكونون في شق، والنبى وأصحابه فى شق آخر، يوالون أعداء المسلمين، ويناصرونهم، ويتخذون النصرة منهم، لا يرجون خيرا إلا منهم، ولا يقدمون الولاء لغيرهم، وفى هذا النص الكريم يفتح الله تعالى باب التوبة والغفران لهم، حتى لا يسرفوا على أنفسهم، ويقتطوا من رحمة الله تعالى، وقد نهى سبحانه وتعالى عن ذلك فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

وفى نص الآية التى تتصدى للكلام فى معناها، يبين سبحانه أن كل ذنب قابل للغفران عند التوبة إلا أن يكون مشركا مصرا على الشرك:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر الشرك به، والمراد بالشرك أن يعبد مع الله تعالى غيره، فالشرك فى ذاته غير قابل للغفران؛ لأنه إلغاء لمعنى الوحدانية التى هى سمة الإسلام، وروح العبادة ومعناها. وإنه يدخل فى الإشراك بالله إنكار رسالة الرسل، بعد قيام الأدلة القطعية، لأن ذلك تحكيم للهوى، وإبطال للغاية من الوحدانية؛ إذ هى طريق العبادة الصحيحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

فإذا كانت العبادة الصحيحة هي ثمرة الخلق والتكوين والخضوع المطلق لسلطان الله تعالى، فإن العبادة في القول والعمل ومعرفة الكون لا تكون إلا برسالة الله تعالى وحده إلى الإنسان، فمن كفر بهذه الرسالة فقد ألغى معنى الوحدانية.

والله تعالى لا يغفر الشرك، وكان تعبيره سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ﴾ للإشارة إلى أنه لا يغفر ذات الشرك، ولكن يغفر للمشرك إذا خلعه وتاب عنه، ودخل فيما يدعو إليه الرسل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (٣٨) [الأنفال].

ولذلك أضيف نفسى الغفران إلى الشرك لا إلى من تلبس به، فإن الغفران يلحقه إذا خلعه.

وما دون الشرك وإنكار الرسالة من العاصي، يكون تحت غفران الله سبحانه وتعالى، ويتعلق بمشيئته، ومشيتته سبحانه قد أشار إلى بعض ما تتعلق به من أعمال العباد، ومنها التوبة، فإن التوبة النصوح تخلع المؤمن من ذل المعصية إلى عزة القبول، ومنها كثرة الحسنات وقلة السيئات، فإن الله تعالى يقول: ﴿... إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾ (١١٤) [هود]. فمن رجحت كفة الحسنات في ميزانه يوم القيامة، قد وعدنا رب العالمين بأنه يغفر له، ومشيتة الله تعالى لا حدود لها، ولكن منها ما بينه.

وقد قالوا في سبب نزول هذه الآية: إنه جاء شيخ من العرب إلى النبي ﷺ، فقال: إني شيخ منكم في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله منذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه وليا، ولم أوقع المعاصي جرأة على الله تعالى ولا مكابرة له، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله هربا، وإني لنادم مستغفر، فما ترى حالي عند الله؟ فتزلت هذه الآية^(١).

(١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما، كما في تفسير الألوسى، وذكره القرطبي في التفسير ج ٥، ص ٣٨٥ عن الضحاك.

وفيهما ما يدل على أن الله يغفر للتائبين المستغفرين الخارجين من نطاق المعصية إلى سعة الفضيلة، وإن ذلك لا يمنع غفران الله تعالى لمن كانت له معاصي وطاعات، والمعاصي لم تغلب عليه ولم تفسد نفسه، بل استمر قلبه مضيئاً بنور الإيمان والحق.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ قد يسأل سائل: إذا كانت التوبة تجب ما قبلها، والإيمان يجب ما قبله، فإذا انخلع الشرك، وحلت محله عقيدة الوحداية، وغفر الله ما تقدم من الشرك، كما ورد النص الذي تلوناه، فلماذا يفرق بين الشرك وغيره من المعاصي؟ والجواب عن ذلك أن الشرك إذا سكن النفس واستقر فيها، كان الخروج منه صعباً وعسيراً، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

والضلال هو السير في غير الطريق الموصل، فالضال في بادية يسير في غير طريق النجاة، وكلما بعد عن الطريق المستقيم أو غل في الضلال، والمشرك الذي تدرنت نفسه بالشرك قد ضل عن طريق النجاة، وكلما استمر في سيره كان مستمراً في الضلال، فمن يشرك بالله غيره، فَيَدْعَى أن له شريكاً في الخلق والتكوين، أو في الوجود مما يماثله ذاتاً أو صفات، أو يدعى أنه يستحق العبادة معه، فقد سار في طريق الشر سيراً بعيداً، ومن ضل سيجد كلما سار أبواباً من الشر، فمن كان في بحبوحة الإيمان قريب الرجوع، وتكون له حسنات بجوار السيئات، فيكون باب الغفران مفتوحاً، أما من أشرك بالله، فقد كان في معاص مستمرة، وليس له من الحسنات ما يرجح كفة الميزان؛ لأن الشرك يقتل الحسنات قتلاً، فلا تقبل فيه طاعة.

والشرك هنا هو نقيض الوحداية، وهناك شرك خفي، وهو أنه يرائي في عبادته، كما قال النبي ﷺ: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك»^(١).

(١) رواه أحمد عن شداد بن أوس، وقد سبق تخريجه.

ولا نرى أن هذا النوع من الشرك داخل في موضوع الشرك الذى ينفى عنه الغفران؛ لأن هذا النوع يقتل ما فى العبادة من خير، وقد يكون للمرائى خير آخر، كالبر بأسرته. والعطف على الجيران. والتعاون الاجتماعى الخالص.

وقد بين سبحانه صوراً من ضلال المشركين، وهى:

(١) عبادة من لا يتصور عبادته عاقل مدرك. إدراكاً خالياً من التأثير بالباطل.

(٢) ومنها خضوعهم المطلق للشيطان.

(٣) ومنها توهم التقرب بما لا يتصور عقلاً أنه مقرب، كتقطيع آذان الإبل والبقر والغنم وتغيير خلق الله تعالى فيها، ولذلك قال تعالى:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ «إن» هنا هى النافية، والدعاء هنا العبادة، والالتجاء لإنقاذه من الهلاك أو المرض أو الكوارث بشكل عام. والمعنى: لا يتسجهون فى عبادتهم وضراعتهم بعد الله سبحانه ذى الجلال والإكرام إلا إلى إناث قد استبدلوهن بعبادة الله. فهم قد تركوا عبادة القوى القادر القاهر الذى هو فوق كل شىء، إلى عبادة العاجز الذى لا يستطيع حماية نفسه ورفع الضر عنه! فالعبارة تفيد بمرماها أنهم تركوا عبادة من يحميهم ويكلؤهم إلى من لا يستطيع حماية نفسه.

ولكن لماذا عبر عن الأوثان التى كانوا يعبدونها بالإناث؟

قد ذكر العلماء لذلك ثلاثة تعليقات مختلفة: أولها - أن العرب كانت عندهم أوثان تسمى بأسماء إناث، كالكالات والعزى ومناة؛ وعن الحسن البصرى، أنه لم يكن حى من أحياء العرب إلا ولهم صنم يسمونه: أنثى بنى فلان، وثانيها - أنهم كانوا يقولون عن أصنامهم: بنات الله، تعالى الله عما يقولون. وثالثها - ما قرره الأصفهاني من أن المراد جماداتهم التى كانوا يعبدونها، فقال: «لما كانت معبوداتهم من جملة الجمادات التى هى منفعة، لا فاعلة، سماها الله تعالى

أنتى، وبكثهم بها، ونبههم على جهلهم واعتقاداتهم فيها، مع أنها آلهة لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، بل لا تفعل فعلا بوجه من الوجوه».

وخلاصة هذه التعليقات أن الله تعالى يبين ضلال الشرك بأن العابد فيه لا يعبد إلا ما هو كالإناث، يحتاج إلى من يحميه ولا يحمى أحدا، ويترك عبادة الله تعالى القهار القادر على كل شيء. الذى لا يوجد ذو قوة فى هذا الوجود إلا كان يستمد قوته منه سبحانه.

وإن الذى يدفعهم إلى ذلك هو وسوسة الشيطان الذى كان سلطانه عليهم كسلطان المعبود الذى يعبد! ولذلك يقول تعالى:

﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ «المريد» على وزن فاعيل من الفعل (مرد)، وهذا الفعل يطلق بعدة إطلاقات، منها أن (مرد)، معناها مَرَنَ على الشر، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ [التوبة]، ومنها أنه من يخرج على الطاعة، ومن ذلك (مارد، ومتمرد)، ويطلق على من ظهر شره، وتجرد من الخير، ومن هذا (شجرة مرداء) إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها. وإن الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ويدفعها إلى الشر، فيه كل هذه الأوصاف، فهو قد تعود الشر، وهو قد عتا، وهو قد خرج على الطاعة لله تعالى، وهو قد تجرد من كل خير، فيكون المعنى على هذا: إنهم يدعون، أى يعبدون، فى الواقع شيطانا قد عتا، وتجرد من الخير، وتعود الشر، فلا يكون منه إلا شر، وإذا كان هؤلاء يلجأون إليه فى دعائهم، وكأنهم يعبدونه، إذ يعبدون الأوثان التى زينها لهم، فهم فى أبعد الضلال، ويسلكون طرقا من الشر متعددة! وقد ذكر سبحانه ما يفعله الشيطان بعقول هؤلاء، فقال تعالى:

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى طرده من رحمته، وأخرجه من جنته، كما عتا وتمرد وخرج عن طاعته، فلم يسجد لآدم، وقد أمره الله تعالى بالسجود له، فلما طرده الله من ظلال جناته بسبب عصيانه بالنسبة لآدم، وجعل عمله فى هذا الوجود مصادمة الخير، وجذب

ذرية آدم إلى الشر قال مؤكدا بلسان المقال والفعال: لا تأخذن من عبادك الذين خلقتهم من ذرية آدم نصيبا مفروضا، أى مقدارا معيناً قليلاً كان أو كثيراً. أى أنه سيستهوى طائفة من عباد الله، وسيسيطر على نفوسهم، ويجعلهم فى طاعته، بدل أن يكونوا فى طاعة الله سبحانه وتعالى. ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده: إن النصيب المفروض هو ما للشيطان فى نفس كل واحد من الاستعداد للشر، الذى هو أحد النجدين فى قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البقرة]، وفى الحق أن هذا ليس من اتخاذ الشيطان، إنما هو خلق الشخص، والشيطان يأخذ من يأخذه من العباد من طريق السيطرة على جانب الشر.

اللهم جنبنا وسوسة الشيطان وتزيينه، واجعلنا معك، ومع القرآن، ومع الرسول، ومع المؤمنين.

وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا أُضِلَّتْهُمْ
وَلَا مُرْتَبَتْهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ إِذَا بَكَ الْأَنْعَمِ وَلَا مُرْتَبَتْهُمْ
فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة ما عاهد الشيطان عليه نفسه الشريرة، من أنه سيتخذ نصيباً مفروضاً مقدراً من بنى آدم عباد الله سبحانه، بين الله سبحانه إضلاله لهم، وطريق هذا الإضلال، وهو أن يُمنّيهم بالأمانى الكاذبة، فيهموا في أحلام لا أصل لها، ويجعلهم بها في أوهام، فيقطعون آذان الأنعام من غير مبرر معقول، ويغيرون خلق الله من غير مبرر، ويحسبون ذلك عبادة يُتقرب بها، ولكنهم بها يتخذون الشيطان ولياً فيغريهم ويخدعهم، ويكونون في ضلال، ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا ضَلِيلَهُمْ وَلَا مَنِيعَهُمْ﴾ يؤكد الشيطان كما ذكر الله أنه سيضل عباده، ويبيدهم عن الحق، ليسيروا في الباطل إلى أقصى مداه، ويتجنبوا الحق في كل مسالكه. وإنه قد بين سبحانه طريق الشيطان في الإضلال، كما ذكرها على لسانه فقال: ﴿وَلَا مَنِيعَهُمْ﴾؛ أى لأجعلهم يتمنون الأمانى. والمعنى أن الشيطان في إضلاله للعباد يخلق في صدورهم أمانى يتمنونها ويطمعون في تحقيقها، فتستولى على نفوسهم، وينفذ إليهم من طريق المطامع، بأن يودع قى أنفسهم أوهاماً يظنونها تحققها، فكلما تمنوا ألقى الشيطان فى أمنيته أوهاماً معها، فيصيرون خاضعين له على الدوام، والمؤمن يصون نفسه من الأمانى، فلا يخضع للشيطان ابتداء. وقد قال تعالى فى صور الأوهام التى يضعها الشيطان فى نفوسهم، فيكون كالآمر لهم:

﴿وَلَا أَمْرُهُمْ فَلْيَتَّبِعَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ والبتك معناه القطع، وقد اختص بقطع أعضاء الجسم أو الشعر، والمراد بالقطع هنا ما كانوا يفعلونه، إذ كانوا يقطعون آذان الأنعام، أو يشقونها شقاً واسعاً، ويتركون الحمل عليها، ويفعلون ذلك كأنه أمر تكليفى مطلوب منهم تقرباً للأوثان، وما كان ذلك الأمر إلا من الشيطان الذى زين لهم ذلك فاتبعوه، فهو كالآمر لهم الذى يجعل ما ليس بعبادة أصلاً عبادة، وإن ذلك تشويه لما خلق الله سبحانه وتعالى. يروى فى ذلك أن أبا الأحوص من الصحابة أتى النبى ﷺ، وكان رث الهيئة فقال له النبى ﷺ: «هل لك من مال»

قال: نعم؟ فقال النبي ﷺ: «فلإذا آتاك الله مالا، فليُرَ عليك أثره»^(١)، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانها، فتعتمد إلى موسى فتشق آذانها، وتقول: هذه بُحْرُ (أى جمع بحيرة) وتشق جلودها، وتقول: هذه صرْمُ (جمع صريمة)؟ قال: أجل. قال: «كل ما آتاك الله حلٌّ، وموسى الله أحد من موساك، وساعد الله أشد من ساعدك»^(٢).

﴿وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أى أنه يزين لهم الشر، فيغيرون خلق الله تعالى بتشويه الأجسام بالخصاء، وفقء الأعين، والوشم، وتغيير الفطرة بتحويلها إلى أوهام.

ولقد قال النبي ﷺ عن ربه: «إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإن الشياطين أتهم فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا، وأمرتهم أن يغيروا خلقى»^(٣). فتغيير الخلق يشمل التغيير المادى والمعنوى، وكان كل ذلك خضوعا لأوامر الشيطان. فكانوا بهذا أولياءه.

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ومن يوالى الشيطان فيطيعه مع أنه متمرد عن الحق، داع إلى الشر، ويترك الحق وأمر الله، فإنه بهذا يخسر خسرانا واضحا يخسر الحق فلا يتبعه، ويرتكب الشر، ويترك المعقول إلى المردول، ويمسح فطرة الله تعالى، وتنحرف نفسه، ويلتوى تفكيره، وتشوه إنسانيته، وذلك خزى فى الدنيا ووراء عذاب فى الآخرة. وأى خسارة أعظم من هذه الخسارة وأوضح منها.

(١) رواه: السائي: الزينة (٥٢٢٣) وأحمد: مسند الشاميين - حديث أبى الأحوص عن أبيه (١٦٧٨٠).

(٢) تنمة الرواية السابقة كما فى مسند أحمد: مسند المكين - حديث مالك بن نضلة عن أبيه (١٥٤٥٧).

(٣) جزء من حديث طويل رواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - الصفات التى يعرف بها فى الدنيا (٢٨٦٥).

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ صور الله سبحانه وتعالى حال إغراء الشيطان بأنه عمل عمليين، لا يكون فيهما أى نفع عاجل أو آجل، فهو أولا يسرف فى وعدهم بمتع لا حد لها، بأن يصور لهم أن فيما يفعلون من شر متعا كثيرة، ونفعا كبيرا، وليس لذلك أى أثر. وثانيهما - أنه يجعل النفس تتمنى ما لا يعقل ويكون بعيد الوقوع. ومن وراء تلك الأمانى تنفذ إلى النفس الأوهام فتسيطر عليها. وما كان ذلك الوعد، وإثارة الأمنيات إلا الغرور والخيبة فى ذاتها.

﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أولئك الذين يعطون ولايتهم للشيطان، ويخسرون فطرتهم السليمة، ونفوسهم المستقيمة، وعقولهم المدركة، تحت سلطان الأمانى الكاذبة والأوهام الخادعة، لا يكون لهم مأوى يوم القيامة غير جهنم. ولا يجدون ملجأ دونها يلجأون إليه، فلا مفر منها ولا مهرب، وذلك جزاء إضرارهم لفطرتهم وانحرافهم عن الجادة، ويرميهم بغرور الشيطان، وإن ذلك يتبعه الأذى لبنى الإنسان، وتركهم عبادة الديان، والإعراض عن الحق، إذا جاءهم به رسل الله تعالى، وأنهم لا معدل لهم عنها ولا مهرب، وهذا معنى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أى معدلا ومهربا، من حاص يحيص عدل وهرب.

ولقد بين الله تعالى فى مقابل ذلك جزاء المتقين. فإنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ إذا كان الشيطان يعد أولياءه بالأمانى الكاذبة، ويدفعهم إلى أوهام لا أصل لها، فالله تعالى قد وعد المؤمنين وعدا حقا، وإذا كان المشركون قد رأوا مآلهم جهنم لا يجدون عنها معدلا، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات جزاؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وأولئك يستحقون هذا، أولا - بإيمانهم الصادق، وانفكاكهم عن حبال الشيطان، وبعدهم عن غروره وخديعته، وثانيا - بأعمالهم الطيبة الصالحة المبنية على أسباب

معقولة لا على أهواء مردولة، فهي تفيد أنفسهم ومجتمعهم، ويؤدون بها حق ربهم.

وإن ذلك الجزاء اتصف بأمور ثلاثة:

أولها - أنه نعيم مادي فهو جنات وحدائق فيها كل ما تشتهي الأنفس.

وثانيها - أن فيها نعيما معنويا تلذ به الأعين، وتشرح له الصدور، وهو أن الأنهار تجري من تحت قصور، فترىهم منظرا بهيجا يسر الناظرين إليه.

وثالثها - أنها خالدة لا تنقطع ولا تزول، ولا يعرض لها تغيير ولا تبديل. وهناك ما هو أغلى من كل هذا، وهو رضوان الله تعالى.

وإذا كان الشيطان قد غر أولياءه فقد صدق الله تعالى أولياءه، فقال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ وعد الله تعالى وعدا، وحقه حقا، فهو وعيد ثابت لا يقبل تغييرا ولا تبديلا، إذ هو وعد ثابت صادق لأنه وعد الله تعالى، ولا يوجد أصدق قولا من الله تعالى، فلاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ للنفي، والمعنى لا يوجد في هذا مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قولا، فقليل معناها قول مؤكد لا ريب، وصدق وعد الله تعالى، لأنه من ذى الجلال والإكرام المهيمن على كل شيء، فلا يتصور أن يكون من قوله سبحانه غير الحق والصدق، وفوق ذلك هو وحده القادر على تنفيذ ما وعد به.

وهذا في مقابل تغريب الشيطان بالأوهام والوعود الكاذبة؛ لأنه عاجز عجزا مطلقا، والله تعالى هو القادر قدرة مطلقة، اللهم اجعلنا ممن يصدق فيهم وعدك ولا يصدق فيهم وعيدك، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٨٦﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٨٧﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُحِيطًا ﴿١٨٩﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى أن الشيطان يلقى بالأمانى الباطلة فى نفوس الذين يوسوس لهم بالشّر، فيجعلهم يتمنون الخير فى غير موضعه، ويقومون بأعمال يرجون بها نفعاً ولا نفع فيها، فليس الخير عندهم بعمل صالح يقومون به، ولكنهم يتمنون المثوبة فيما لا مثوبة فيه، ويرجون الخير من غير أن يتخذوا أسبابه، وفى هذه الآيات يبين سبحانه وتعالى أن الأمور ليست بالتمنى، ولكن بالعمل، ومن يعمل سوءاً يجز به، ومن يعمل صالحاً ينل جزاءه، فقال سبحانه:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ إن الله أوعد المفسدين بالشّر، ووعد الصالحين بالثواب العظيم والنعيم المقيم، ولكن الأمانى تتحكم فى النفوس، فتتمنى ما لم تعمل له، وتسير وراء ما تتمنى من غير أن يربطوا بين العمل والجزاء، والسبب والمسبب، فنبه سبحانه إلى ذلك.

الأماني جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان، ويرغب فيه، ويحبه، ولو لم يتخذ له أسبابه، والضمير^(١) في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ يعود على ما وعد به من عذاب وثواب، والمعنى ليس ما ينزل بكم جزاء لما تعملون بالأماني تتمنونها، ولكن لمن الخطاب في قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾؟ أهو للمشركين أم لعامة المسلمين؟ في ذلك توجيهان: أحدهما - أن الخطاب للمسلمين، والمعنى على هذا: ليس الأمر بما تتمنون أنتم معشر المسلمين وأهل الكتاب، إنما بما تعملون، فمن يعمل عملاً لسوء نفسه أو غيره يجز به في الدنيا والآخرة، ولا يجد له غير الله نصيراً ينصره، أو ولياً يعاضده أو يواليه في شره بل الجميع يبرأ منه، ويزكى ذلك الوجه ما يروى عن قتادة، لقد قال: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضى على الكتب التي كانت قبله، فنزلت الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾.

وقد يكون في هذا الوجه نظر؛ لأنه يضع أهل الكتاب في موضع المؤمنين في الاحتجاج، مع أن كلام أهل الإيمان هو الحق الذي لا شك فيه، وفيه الإيمان بالكتب السابقة، مع الكتاب الكريم.

والوجه الثاني أن يكون الخطاب لمشركى العرب. ويكون في الكلام التفات فبعد أنه كان يتكلم عنهم بضمير الغائب^(٢)، التفت وخاطبهم بضمير الخطاب تنبيها لهم وبيانا للحق، وبيان أن العمل هو الذي يقدم صاحبه ويؤخره، ويزكى هذا الوجه ما روى عن مجاهد شيخ مفسرى التابعين فقد قال: «قالت العرب: لن نبعث، ولن نعذب، وقال اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيتهم»، فكانت هذه الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ رداً على هذه الأوهام.

(١) المقصود بالضمير، أى المستتر وهو اسم ليس.

(٢) أى فيما سبق من الآيات البيّنات قبل هذه الآية الكريمة.

وقد رجح ذلك الوجه ابن جرير الطبري، وقال في ترجيحه: «وأولى التأويلين بالصواب ما قاله مجاهد؛ لأن المسلمين لم يجر لأمانيتهم ذكر فيما مضى من الآي قبل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ وإنما جرى ذكر أمانى نصيب الشيطان المفروض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَنِيهِمْ وَلَا مَنِهِمْ فَلْيَتَكَنَّ أَذَانُ الْأَنْعَامِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ فإلحاق معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ بما جرى ذكره قبل، أحق وأولى من ادعاء تأويل لا دلالة عليه من التنزيل ولا أثر عن الرسول ﷺ، ولا إجماع من أهل التأويل.

وإنما نختار ما اختاره ابن جرير، لما ساقه من دليل.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. ما هو الجزاء؟ أهو الدنيوى أم الآخروى؟ قال بعض العلماء إنه الجزاء الدنيوى، ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام - فيما رواه عطاء - لأبى بكر: يا أبا بكر! إنك تمرض، وإنك تحزن، وإنك يصيبك أذى، فذاك بذاك^(١)، وكان هذا تفسيراً للنص.

وقال آخرون: إن المراد الجزاء الآخروى، وهو المناسب للنص، وللآيات السابقة، والجزاء القرآنى دائماً جزاء أخروى، والحق هو القول الأخير، أن الجزاء هو الآخروى، والدنيوى إن كانت حكمة الله تعالى فى جزاء دنيوى كالتشريد والذلة، والهزيمة فى الحروب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى أن الشيطان الذى كان يوسوس لهم يختفى سلطانه ولا يكون له ولاء لهم، لا يوادهم ولا يحبهم، ولا يناصرهم، كما قال تعالى عنه وعنهم يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ

(١) عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي رُهَيْبٍ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا بَكْرٍ! أَلَسْتَ تَمْرَضُ أَلَسْتَ تَحْزَنُ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ السَّلَاطَةُ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ ذَاكَ بِذَاكَ». [رواه أحمد فى مسند العشرة: مسند أبى بكر (٧٠)]. وروى مسلم فى صحيحه: البر والصلة والآداب - ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٤).

سُلْطَانُ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم].

هذا جزاء أهل الشر، أما جزاء أهل الخير فقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾

وهنا يذكر سبحانه وتعالى جزاء الذين يعملون عملاً صالحاً، فيعيّنه، ولا يتركه مجملاً، فقد ذكر في الآية السابقة، جزاء الشر به ولم يبيّنه، ولكنه ذكر أنه على قدر العمل من غير أن يبين صنف الجزاء. والعبرة في ذلك هو المساواة بين الجزاء والعمل، وأنه بهذا لا يظلم لأن الجزاء على قدر العمل، فالجريمة والعقاب متساويان.

وهنا ملاحظتان، إحداهما أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أى أنه يعمل بعض الصالحات؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل كل الصالحات، بل يستطيع أن يعمل بعضها؛ لأن طاقته النفسية والبدنية لا تمكنه من عمل كل الخير، وكلّ يعمل على قدر طاقته من غير تقصير، والله تعالى يغفر القصور، وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان يطلب من العبادة ما يطيق من غير شقّة ولذلك لم يطالب النبي ﷺ بأقصى الغاية من العبادة، بل قال: «سدّدوا وقاربوا»^(١).

والملاحظة الثانية: أنه ذكر الأنثى في قوله تعالى:

﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ و(من) هنا بيانية، فهي بيان لمن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ والأحكام الشرعية كلها تشمل النساء والرجال، إلا ما يقوم الدليل فيه على أن أحد الصنفين مختص بحكم؛ لأنه يكون ملائماً لطبيعته، وإن ذكر الإناث

(١) جزء من حديث متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فى الأحكام العامة فيه إشعار بكمال الإنسانية فى المرأة، وأن لها حقوقاً، وعليها واجبات اقتضاها التكليف فما من عبادة إلا طولبت بها المرأة كما طولب بها الرجل، وإن كان للرجل اختصاص فى بعض العبادات كالجهاد، وسبب ذلك الرجولة ذاتها. والإعفاء من واجب شاق لا يعد حرماناً، وفى الحق إن المرأة تقوم بواجبات شاقة تنفرد بها أيضاً، كالحمل والولادة، والقيام على شئون الأولاد فى المهد.

وقد اشترط لاستحقاق الأعمال الصالحة أن يكون من يعملها متصفاً بالإيمان، فإن الجزاء من الله تعالى ويجب أن يكون العمل قد قصد به وجهه وحده. فالثواب ليس على مجرد العمل، بل على النية فيه، وقصد الخير، وذلك لا يكون إلا إذا قصد به وجه الله تعالى.

وقد أكد سبحانه وتعالى الجزاء بقوله:

﴿وَلَا يَظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾ أى لا ينقصون من عملهم الصالح شيئاً، ولو كان شيئاً صغيراً بقدر النفير، وهو العلامة التى تكون فى ظهر النواة، فتظهر كثقب صغير، وتسمى نُقْرَةً كأنها حصلت بمنقار طائر صغير، ويضرب العرب بها المثل فى القِلَّةِ.

وإن مثل هذا الجزاء لا يستحقه العبد إلا بفضل من الله تعالى بدليل أنه يقبل بعض الصالحات ويدخل الجنة عليها، ولا ينقص شيئاً فهو يفيض بالثواب، ولا ينقص من عمل الخير.

وقد تساءل الزمخشري لماذا ذكر عدم الظلم ولم يذكره فى عمل السوء؟ وأجاب عن ذلك بأن عدم الظلم ملاحظ هناك بذكره هنا. وفى الحق إن عدم الظلم ملاحظ هناك من النص ذاته، فقد ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى قال:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وهذا فيه النص على أن الجزاء بقدر العمل، ومؤدى هذا ألا يظلم، وكان الجزاء عمل الغير أكثر منه من أن ينقصوا، أما فى

عمل الشر، فالجزاء لا زيادة فيه، والإيمان الصادق الذي لا تسيطر عليه الأمانى والأحلام هو الاتجاه إلى الله تعالى، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ والاستفهام هنا بمعنى النفي، فالمعنى لا أحد أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، والنفي هنا هو نفي الحسن، ولكن المراد هو الحق، والمعنى لا أحد يؤمن بحق إلا من أسلم وجهه لله. ولكن التعبير بأحسن يفيد بأن هذا هو الحق وهو الأمر الحسن في ذاته، الذي لا تستحسن العقول السليمة سواه، وتستقبح غيره.

ومعنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه، وجعلها كلها لله تعالى، لا يحب إلا له، ولا يبغض إلا له، ولا يطلب جاء غيره. والتعبير ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ معناه أسلم ذاته، فالوجه يعبر عنه بالذات؛ لأن به المواجهة، ولأنه أوضح أجزاء الجسم. وإن هذا الدين الخالص لوجهه تعالى لا يستقيم بمجرد النية، بل لا بد أن يقترب مع ذلك بإحسان العمل وإتقانه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فالدين الحق الخالص يقتضى أمرين لا محالة: أحدهما إخلاص القلب والنية لله تعالى، بحيث لا يكون عامرا إلا بذكر الله تعالى، والثاني: إتقان العمل الصالح وإجادته، فلا عمل يكون صالحا من غير إيمان، ولا إخلاص يكون من غير إحسان العبادة والعمل الصالح.

وقد ذكر سبحانه أن الإخلاص والعمل هو دين النبيين أجمعين، ولذلك قال: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى أن هذه الملة هى الدين والمنهج، أى كان فى إخلاصه وإتقانه للعمل متبعا منهجا إبراهيم، وإبراهيم أبو الأنبياء، فمنهاجه هو منهج كل الرسل، واتباع ملته اتباع لكل الرسل. وكان حنيفا أى مائلا إلى الحق متجها إليه دائما، منذ كان غلاما إلى أن بعثه الله تعالى نبيا مرسلًا، وقد قال لأبيه وقومه كما حكى القرآن الكريم: ﴿... إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِنَّمَا أُطِيعْتُ أَمْرًا ۚ إِنَّكَ تَافِكٌ بِأَمْرِي ۚ فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ۚ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۚ﴾ [الزخرف].

وفى الجملة من أخلص لله وعمل وأحسن، فهو متبع دين النبيين جميعاً، وإن اتباع دين محمد هو اتباع الأديان السماوية كلها لأنه إيمان بكل الرسل.

وقد كرم الله سبحانه وتعالى إبراهيم لإخلاصه وتوجهه إلى الله تعالى بقلب سليم، وإحسانه فى العمل، بأن جعله خليله، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أى اصطفاه من بين خلقه، فأعطاه ذلك الاسم الجليل، وذلك الوصف الكريم. ومعنى الخليل الحبيب الذى يلجأ إلى حبيبه، فهو من الخلّة وهى المحبة، أو من الخلّة بمعنى الحاجة^(١). والحقيقة أن إبراهيم عليه السلام كان فيه الأمران معا فهو من جانبه كان يحب لله، ويغض لله ولا يطلب شيئاً إلا لله. وكان مع ذلك لا يعتمد فى حاجة إلا على الله سبحانه وتعالى وهو يقول فى بيان حاجته إلى ربه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ﴾ (٨٠) ﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١) ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢) ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) [الشعراء].

هذا ما كان من جانب إبراهيم. أما ما كان من جانب الله، فإنه قد أفاض عليه بنعمه ظاهرها وباطنها، وجعل من ذريته النبيين، وحماه من أعدائه، وقربه إليه، وصار من عباده المخلصين، ثم منحه وضعا لم يمنحه غيره، وهو أنه خليله.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ وبعد أن أشار سبحانه إلى أن الله تعالى منفذ عقابه وثوابه، وإلى أن الدين الحق هو إخلاص الذات. والقلب والنفس لله تعالى، بين سبحانه وتعالى أن ما فى السموات والأرض كله له. فمن أخلص لله تعالى، فقد أخلص للقوى القادر القاهر الذى لا يخرج عن سلطانه شىء فى الملكوت. وإن هذا لدليل على أنه وحده المستحق للعبادة، وإسلام الوجه والطاعة له سبحانه وتعالى.

(١) الأولى خلّة (بالضم)، والثانية وهى الحاجة والفقر - بالفتح.

وإنه سبحانه يحيط بكل شيء في هذا الوجود إحاطة قدرة وتصرف، فهو وحده المتصرف في السموات والأرض وما بينهما، وإحاطة علم فهو يعلم كل ما في الكون وما في النفوس، فلا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض إنه وحده الخالق والمكون والمصرف والسميع البصير. اللهم املأ قلوبنا بذكرك، فبذكرك تطمئن القلوب.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُولَدْنَ لَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوُلَدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

تعرضت سورة النساء لأحكام الأسرة في أولها، وبينت أحكام الموارث، والعلاقات المحرمة للزواج، ثم أشار سبحانه إلى حق الرجل وحق المرأة في الأسرة، وتعرضت من بعد ذلك للعلاقات الاجتماعية بين الناس، وبينت أن أساسها إقامة العدالة، وتنفيذ أحكام الله تعالى ثم ذكرت أدواء الجماعات، وأساسها الاعتداء من الخارج بالحروب ومن الداخل بالنفاق، وما يتبعه من فساد خلقى، وانحلال نفسى، وتعرضت من بعد ذلك لسبب الاعتداء والشرك والنفاق وهو تحكم الشيطان في النفوس.

ومن بعد ذلك عاد إلى بيان العلاقة بين الزوجين وفقه علاجها، وعلاقة آحاد الأسرة، والطب لأدواء الضعف بينهم. وفي خلط أحكام الأسرة والعلاقات فيها، والعلاقات الاجتماعية والإنسانية العامة إشارة إلى قيام المجتمع على الأسرة وأن صلاحها صلاح له، وأنه من الأخلاق الاجتماعية الفاسدة نجى آفات الأسرة،

ومن قوة العلاقات الأسرية تحيىء قوة المجتمع المتماسكة، فرعاية ضعفاء الأسرة توجد قوة للأمة تشترك فى حماية زمارها، ومن إهمالها، تكون عناصر مقوضة لبنائها، والآيات التى نتكلم فى معانيها مينة علاج الضعفاء والعناية بهم، فقد قال تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ الاستفتاء معناه طلب الفتيا أو الفتوى، ومعنى الفتوى حل ما يشكل من الأمور، وإن العرب قد وقعوا فى إشكال بالنسبة للمرأة، فقد كانوا فى الجاهلية لا يفرضون لها حقوقاً، لا تأخذ من ميراث، ولا يكون لها أى حق قبل زوجها، بل كان عليها تبعات، من غير أن تلاحظ من جانبها واجبات، فجاء الإسلام وأعطاهما فى مقابل واجباتها حقوقاً، فقال تعالى: ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة].

فكانوا فى كل تصرفهم بالنسبة للمرأة تعترتهم حيرة، أينفدون دينهم وحكمهم الجاهلى أم أن للإسلام فى كل أمر من هذه الأمور حكماً تجب رعايته ويجب اتباعه فكثرت الأسئلة، وتعددت موضوعاتها، فمنهم من يسأل عن الميراث، ومنهم من يسأل عن الصداق. ومنهم من يسأل عن المعاملة، وجاءت الروايات فرادى ببعض الأسئلة، وكلها ينتهى إلى مجموعها، وهو حيرتهم فى أمر المرأة وقد أجاب سبحانه هذا الاستفتاء بقوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أى يفتيكم الله تعالى مينا أمرهن وما يجب لهن، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قال كثير من المفسرين إن «ما» هنا فى موضع الرفع بالعطف على لفظ الجلالة، والمعنى يفتيكم الله ويعلمكم أحكام النساء وحقوقهن، كما يعلمكم ما يتلى عليكم فى كتاب الله من أحكام اليتامى من النساء اللاتى كتب لهن فى كتاب الله من ميراث وحقت رعايتهن والقسط معهن عند الزواج، وإلا فليتزوج من غيرهن.

وقد قرر سبحانه وتعالى هنا وجوب العدل مع اليتيمة عند الرغبة في الزواج، وصرح بما أشار إليه قوله: ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى﴾ على ما فهمه بعض المفسرين من أن المراد إن خفتن ألا تقسطوا في النساء اليتامى فتزوجوهن من غير أن تعطوهن حقهن من ميراث أو صداق، وقد قال سبحانه في ذلك: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ والمعنى لا تؤتونهن ما كتب الله لهن من حقوق، وترغبون أن تنكحوهن.

وهناك نجد قوله تعالى: ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ مصدرا^(١) قد دخل عليه حرف جر محذوف، وهو إما (في)، وإما (عن) وعلى أن المحذوف: لا تعطونهن ما كتب الله لهن من حقوق وترغبون في نكاحهن لأنفسكم، فلا تعطوهن ميراثا ولا صداقا، وعلى أن المحذوف «عن» يكون المعنى لا تعطونهن ميراثهم، وتمنعونهن من النكاح، وترغبون عنه لكي يبقى المال تحت أيديكم.

ويظهر أن الذين كانوا يقدمون على شأن يتامى النساء فريقان، فريق يأكل مالها ولا يعطيها صداقها، ويرغب في نكاحها لجمالها، وفريق يستبد بمالها، ويرغب عن زواجها من نفسه أو من غيره حرصا على مالها، والآية تشمل الفريقين وتندد بالطائفتين، ولقد روى أن عمر بن الخطاب كان إذا جاءه ولي اليتيمة، فإن كانت حسنة غنية قال عمر: زوّجها غيرك والتمس لها من هو خير منك، وإذا كانت بها دمامة، ولا مال لها، قال له: تزوّجها، فأنت أحق بها، وقد قال على بن أبي طالب لولي يتيمة: تزوّجها إن كنت خيرا لها، فإن كان غيرك خيرا لها فألحقها بالخير.

ولم تكن رعاية الله تعالى في أحكامه خاصة بيتامى النساء، بل إنها تعم المستضعفين وسائر اليتامى، ولذا قال سبحانه: ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ وصيتان بنوع واحد من الضعفاء في الأسر وهم اليتامى، بيد أن إحداهما مؤداها إعطاؤهم حقهم من المال. والثانية القيام على رعايتهم، وحفظهم من الضياع، وواضح أن الثانية عامة تشمل اليتيم الذي ترك له أبوه مالا، أو نال مالا من أية ناحية من النواحي، والأولى تكون لذوى المال.

(١) أى مصدرا مؤولا، وهو المنسبك من (أن) و (الفعل المضارع).

وبالنسبة لهذه الوصية القرآنية الإلهية نقول: إن العرب كان من عاداتهم ألا يرث إلا من يستطيع حمل السلاح ويغزو ويغنم ويستنصر به، ولذلك ما كانوا يورثون النساء، ولا الصغار الضعاف؛ لأنهم لا يقومون بذلك: والله سبحانه وتعالى وزع الميراث توزيعاً عادلاً لم يفرق بين قوى وضعيف بل كانت رعايته للضعيف أشد، ولذلك أعطى الذرية أكثر مما أعطى الأبوين؛ لأن الذرية الضعاف أحوج إلى المال، وهو لهم أزم، ولذلك قال تعالى في وصيته: ﴿وَالْمُسْتَغْفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ﴾ أى الذيهن هم فى حال يستضعفهم غيرهم ولا يعطيهم حقوقهم، وهم ضعفاء فى ذات أنفسهم، أى أنه لا بد أن يعطوا ميراثهم كاملاً غير منقوص، وعبر عن هؤلاء بقوله سبحانه: ﴿مِنَ الْوُلْدَانِ﴾ ولم يعبر عنهم بـيتامى، مع أنهم يتامى، للإشارة إلى ما يربطهم بالمتوفى، وهو كونهم أولاده، وهذا قدر يشتركون فيه مع الكبار، فالسبب فى الميراث هو الولاء، وهم جميعاً يشتركون فيه، وإذا اشتركوا فى السبب وجب أن يشتركوا فى المسبب وهو الميراث، ولا فرق فى ذلك بين كبير وصغير.

والوصية الأخرى، وهى القيام على شئون اليتيم برعايته وكفالته، وإصلاح حاله، وتعهده بالعطف والمحبة والإكرام، وقد تكرر فى القرآن الكريم الأمر برعاية اليتيم، وتكرر فى قول النبى ﷺ الأمر برعايته والتوصية به، ففى القرآن الكريم نجد كثيراً من ذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى].

وفى السنة مثل قوله ﷺ «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا...» وضم أصبعيه^(١) الكريمتين - عليه الصلاة والسلام - وقوله - عليه الصلاة والسلام -: «خير بيت من بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم، وشر بيت من بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم»^(٢).

(١) رواه البخارى: الأدب - فضل من يعول يتيماً (٦٠٠٥)، والترمذى كتاب البر والصلة - ماجاء فى رحمة اليتيم وكفالته (١٩١٨)، وأبو داود: الأدب - فىمن ضم اليتيم (٥١٥٠)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٣١٣) عن سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

ونجد النص الكريم يقول: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ .

وهذا التعبير فيه ثلاث إشارات بيانية:

أولها - التعبير بالقيام، فإن مؤداه أن ينهض الولي على القاصر بعناية واهتمام لرعاية حاله، وكون الخطاب للجميع لا لخصوص الأوصياء يدل على الوجوب على الأمة بشأن يتاماها، أو رعايتهم فرض كفاية فهو على الأمة مجتمعة .

ثانيها - التعبير باللام في قوله تعالى «لليتامى» أى أن يكون القيام والنهوض لمصلحة اليتامى الحقيقية، من حيث التربية والتهديب، والمحبة من غير تدليل مضعف لقوة النفس والعزيمة والإرادة القوية .

ثالثها - أن يكون ملاحظا في ذلك القسط والعدل، بألا ينقص من ماله شيء ولا يترك هملا إذا لم يكن له مال، فإذا كانت العدالة المالية توجب ألا ينقص من ماله، فالعدالة الاجتماعية توجب أن تسد خلته وضعفه .

وكانت عناية الإسلام باليتامى؛ لأنهم قوة للأمة إن صلحوا، وقوة مدمرة في الأمة إن لم يصلحوا، إذ إنهم لو قُهرُوا ينشأون وبينهم وبين الناس عداوات مستمرة، ونفور يدفعهم إلى أن يكونوا مدمرين في الجماعة وعنصر تخريب، فإن أكثر الخارجين على الجماعة تبتدئ عقدهم النفسية في طفولتهم بالجفوة معهم، وحرمانهم من المودة والرحمة. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ .

أى خير تفعلونه، ويكون نافعا لجماعتكم، مصلحا بينكم، فإن الله سبحانه وتعالى يكون عليما به علما دقيقا، لا تخفى عنه فيه خافية، وفي ذكر هذا النص الكريم بعد الوصايا السابقة إشارة إلى أن هذه الوصايا تنفيذها خير محض، ونفعها لا شك فيه ولا ريب، نفعه لمن يفعله لأن عاقبته حسنى له، وخير للجماعة لأنه يقدم للمجتمع عناصر قوية بانية، وخير للضعفاء فى أنفسهم، وهو خير عند الله يحاسب به الجزاء الأوفى عنده .

وإن فعل الخير يعلمه من يستطيع الجزاء علما محيطا دقيقا، فإذا علمه جازى به خير الجزاء، وقد أكد سبحانه علمه الذى يرتب عليه خير الجزاء بثلاثة مؤكدات: أولها- التعبير بإن، وثانيها- نسبة العلم إلى الله جل جلاله، فهو علم يليق بذاته، وبقدرته وإرادته. وثالثها- صيغة المبالغة بوصفه بـ «عليم» ثم بلفظ الكينونة وهو كان، فإنه يقتضى استمرار العلم ودوامه، فعلى الذين يقومون على شئون اليتامى أن يعلموا أنهم فى رقابة مستمرة من الله تعالى ذى الجلال والإكرام ويعلمون أنه مجاز على مقدار ما يعلم.

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا بَيْنَهُمَا كُلاًَّ مِّنْ سَعَتِهِ ؕ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

وبعد هذه الوصايا فى إعطاء الضعفاء من اليتامى حقوقهم والإنصاف لهم ذكر سبحانه وصاياه فى علاج ما يكون بين الزوجين، فقال:

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الخوف توقع الإنسان مكروها يقع به، وقد فسر الطبرى النشوز بقوله: «يعنى استعلاء بنفسه عنها إلى غيرها أثرة عليها وارتفاعا بها عنها، وإما لكرهه

منه بعض أشياء بها أو لدمامتها وإما سنّها وكبرها، أو غير ذلك من أمورها، والإعراض ألا يؤنسها، وأن يصرف عنها وجهه. وقد قال بعض العلماء: إن الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز تباعد، والإعراض انصراف الوجه وعدم الأُنس بها مع القرب منها.

وإن المرأة إذا لا حظت ذلك من زوجها لا تقابل النشوز بمثله ولا الإعراض بالصد، فإن ذلك يوسع الهوة بينهما ويفك الأسرة، وينتهي الأمر إلى شقاق لا لقاء بعده، وإن العلاج في هذه الحالة نفسى يختلف باختلاف قوة النفرة، فإذا كانت لم تستحكم ويمكن أن يتوليا علاجها كان عليهما ديناً أن يوليا العلاج، وإذا كان مع النفور خصام كان لا بد من تدخل الغير، لإصلاح ذات البين، وإذا استحكمت النفرة، ولا سبيل للإصلاح فالافتراق، فهذه ثلاثة أنواع. وقد ذكر سبحانه وتعالى علاج المرتبة الأولى، فقال:

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ ففي هذه المرتبة يكون الواجب الدينى على المرأة والرجل أن يعملوا بأنفسهما على إصلاح ما بينهما، فتستطامن المرأة للعاصفة ويقرب الرجل امرأته إليه، ويترك شماسه^(١) وإعراضه، ويتطامن لأهله، ويعلم قول النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»^(٢)، وإن التطامن من الرجل لزوجته لتكون العشرة على مودة ورحمة هو عين العزة، فالكريم لا يذل أهله والذليل هو الذى يهين أهله، وقد لوحظ فى التعبير أمور ثلاثة.

أولها- أنه عبر عن طلب الصلح بقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ وذلك ترفق فى الإيجاب، فعبر عنه بنفى الإثم لكيلا يتوهم أحدهما أن فى التساهل عن بعض حقه إثماً. والصلح يقتضى أن يتسامح أحد الفريقين فى

(١) الشَّماس: العداوة الظاهرة والعناد. [لسان العرب - شمس].

(٢) سبق تخريجه.

جزء من حقه؛ لينال خيرا أكثر مما تسامح فيه، فإذا تركت المرأة بعض حقها لتدوم العشرة بالمعروف فذلك لا إثم فيه. بل فيه الخير.

ثانيها- أنه أكد الصلح بقوله «صلحا» للإشارة إلى أن الصلح فى هذا المقام لا يكون صلحا ظاهرا، بل يكون نفسيا، بحيث تتلاقى القلوب وتصفو النفوس، ويحل الوثام محل الخصام، فليس الصلح فى هذه الحال إنهاء لمشكلة فقط، بل هو تلاقى القلوب على المودة والرحمة.

ثالثها- أن الله تعالى أكد الصلح بقوله تعالى أولا «والصلح خير» أى أنه فى ذاته خير يعم الطرفين؛ مَنْ تسامح يناله من الخير بمقدار ما تسامح أو بأضعاف ما تسامح، فهو قد أعطى ليأخذ وتساهل لتلزم ولتدوم نعمة الزوجية.

وأكد سبحانه الصلح بدعوة الزوجين ألا يشح أحدهما بالعتاء لرفيقه، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ والشح هو البخل، وهو هنا التشاح النفسى بأن يلتزم كل واحد من الزوجين موقفه متمسكا بحقوقه الشكلىة، ومعنى قوله تعالى ﴿وَأَحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أن الشح جعل حاضرا لا يغيب عنها ولا تنفك عنه كأنها مطبوعة عليه، وعلى المتصالحين اللذين يريدان التصافى أن يلاحظا هذا ويعالجاه، فهو الداء، وإذا عرف سهل الدواء، وما دام الصلح كاملا يجب اجتثاث الشح الحاضر، ليكون الصفاء الدائم.

وأكد سبحانه وتعالى طلب الصلح ثالثا بقوله تعالى: ﴿وَأِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فى هذا النص الكريم علاج لشح النفس إذا حضر، ولوقوف كل فى الجانب الذى يحفظ به حقوقه، ولا يتحرك، فإن العلاج لهذه الحال هو الإحسان، فليكن محسنا بدل أن يكون مُلحفا، فإذا كان الإحسان ذهب التشاح، والعلاقات فى الأسرة لا تبنى على الظاهر، بل تبنى على القلوب، والقلوب لا يطهرها إلا تقوى الله فى المعاملة؛ إذ إن المعاملة الطيبة، والإحسان وزيادة العطف وتقوى الله هى البلمس الشافى من الشح النفسى الذى يعتري ما يكون بين الزوجين.

وإن الله تعالى قد وعد بالثواب العظيم لمن يحسن ويلاحظ تقوى الله تعالى في المعاملة من الزوجين؛ لأن الله تعالى يعلم علماً دقيقاً لا يغادر شيئاً، وهو علم مستمر دائم يليق بجلاله سبحانه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وإذا كان عليهما علماً دقيقاً بما يعملون، فإنه هو الذي يجازى بمقتضى علمه، فإذا تسامح أحد الزوجين، فإنه مثاب في الآخرة، فإذا كان قد تسامح في بعض حقه الديني، فإنه سيضاعف له الجزاء في الآخرة.

وإنه في الحياة الزوجية تحقيق العدالة الكاملة غير ممكن، ولذا وجب التسامح، فقال تعالى:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ إن الله سبحانه وتعالى نفى استطاعة العدالة بين النساء نفياً مؤكداً، لأن حرف (لن) لتأكيد النفي، فالعدالة بمعنى تنفيذ كل الحقوق المقررة والواجبات النفسية أمر غير ممكن مهما يكن حرص الإنسان على العدالة.

وقد فرض العلماء أن هذه العدالة غير الممكنة لا تكون إلا إذا كان الرجل ذا زوجين فأكثر، وذلك ظاهر؛ لأن العدالة النفسية بالمساواة في الإقبال القلبي والمحبة. أمر غير ممكن؛ لأن الناس بحكم الخلقة لا يملكون نزعات نفوسهم وميول قلوبهم، ولقد كان النبي ﷺ يقسم بين زوجاته في كل ما هو ظاهر كالمليت والكسوة والنفقة، وكل ما يتعلق بصورة الحياة الزوجية، ولكنه وهو أكمل البشر لم يستطع العدالة النفسية، ولذلك كان يقول ﷺ: «اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(١).

وقد ادعى بعض الكتاب في أول هذا القرن العشرين الميلادي وتبعه غيره، أنه بضم آية ﴿... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...﴾ [النساء] إلى هذه الآية التي نتكلم في معناها يكون منع تعدد الزوجات، وما هكذا تفهم النصوص في

(١) رواه أبو داود: النكاح - في القسم بين النساء (٢١٣٤) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا.

القوانين فضلا عن نصوص القرآن فإن البدهاة تتجه إلى التوفيق، والتوفيق يبدو بادئ النظر، وهو أن هذه الآية موضوعها نفسى، والآية التى فى صدر السورة موضوعها العدالة الظاهرة، وقد وضَّح هذا المعنى النبى ﷺ فى الحديث الذى رويناه، وهو عجزه عليه الصلاة والسلام عن العدالة النفسية، وعلى فرض أن التوفيق غير ممكن إن سايرنا تلك المدارك المحدودة، فإن المتأخر ينسخ المتقدم. والمتأخر هو هذه الآية التى تتكلم فى معناها، وهى تطالب بالعدالة المطلقة، بل طالبت بالممكن فقال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَمْلُوءَةِ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا﴾.

المعلقة هى التى تهمل نفسيا ومعنويا وجبا ومودة، فلا هى ذات زوج تنال الحقوق الزوجية أو بعضها، ولا هى خالصة الأزواج، ترجو أن يوفقها الله تعالى وهذا تشبيه بالشئ المعلق بشئ من الأشياء؛ لأنه لا يكون قد استقر على الأرض، ولا ما علق عليه تحمله، أو يستطيع تحمله.

وإنه لأجل الوصول إلى هذا الحل الذى لا يكون فيه شطط يجب التدخل لإصلاح ذات البين، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَأِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا﴾ وهذه هى المرتبة الثانية من الشقاق التى يتعذر فيها على الزوجين أن يقوموا بعلاجها، ولذا يستمد العلاج من المتصلين بهما وهو المنصوص عليه فى قوله تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا...﴾ [النساء: ٣٥] وعند التدخل للإصلاح يجب أن تكون تقوى الله هى التى تحكم الحكمين ولذا قرن الإصلاح بالتقوى، فإن كان إصلاح القلوب مع تقواها، فإن الله سبحانه وتعالى يغفر ما عساه يكون من تجاوز للحد قبل ذلك، ولذا ختم سبحانه وتعالى هذا الجزء من العلاج بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى أن غفرانه البالغ ورحمته الواسعة المستمرة المؤكدة يفيضان على المصلحين المتقين؛ فإن لم يجد هذا كانت المرتبة الأخيرة، وهى الفراق، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أى إنه إذ لم يستطيعا إصلاح ما بينهما، ولم يصلح غيرهما ذلك الإصلاح لم يبق إلا أن يتفرقا، وهذا ما تقتضيه الفطرة، ولذلك أسند التفرق إليهما معا، لا إلى أحدهما؛ لأن التفرق بالطلاق نتيجة تفرق القلوب، وإنه إذا كانت هذه الحال أغنى الله كل واحد عن الآخر من سعة الرحمة التى يرحم بها عباده، ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ وكان الله تعالى ولا يزال واسع الرحمة فكلمة «واسعا» على تقدير مضاف، وهو الرحمة، وكان ولا يزال حكيما، يشرع بعباده بمقتضى حكمته ما هو أصلح لهم، ولو كانت النفوس تنزعج له أو تبغضه، وإن المرأة الفاضلة الكريمة إذا أعرض زوجها أو استعلى عليها ولم يمكن إصلاح ستجد من المجتمع من يقدر فضلها، ويبدلها من الناشز عدلا من الرجل، اللهم أصلح أمورنا، وابسط المودة بيننا، إنك سميع الدعاء.

وَلِلَّهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِّن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَن اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ
اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين، وما يجب من علاج لأدواء النفوس فيها، ووجوب العدالة الممكنة بها، وما يجب عند تعذر العدالة الحقيقية، وأنه إذا تعصى الداء، وتعذر العلاج كان الفراق آخر الدواء، وفى هذه الحال يكون كلاهما فى سعة من رحمة الله الواسعة، وفى هذه الآيات يشير سبحانه إلى سعة ملكه، وأن كل شىء فى ملكه وتحت سلطانه، فهو الذى يغنى كلا، وهو القادر على كل شىء، وأنه بعد بيان عظم قدرته وسلطانه يبين وجوب العدالة بين الناس فى علاقاتهم بعضهم ببعض، كما يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ...﴾ (١١٣٥) [النساء] وقد توسطت هذه الآيات الدالة على عظم سلطان الله تعالى بين الأمر بالعدل فى داخل الأسرة، وهى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع، وبين الأمر بالعدالة فى المجتمع الأكبر، وكان ذلك التوسط لتربية المهابة من الله فى قلب المؤمن، فيتجه إلى العدل الذى هو ميزان العلاقات الإنسانية كلها.

وقد جاء فى تفسير الطبرى وجه آخر للمناسبة قال فيه ما نصه: «وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله: ﴿وَأَن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ تنبيها منه لخلقها على موضع الرهبة عند فراق أحدهم وزوجه، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه وزوجه، وتذكيرا منه أنه هو الذى له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء فغير متعذر عليه أن يغنيه وكل ذى فاقة وحاجة ويؤنس كل ذى وحشة».

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى لله وحده ما فى السموات والأرض من مطر ينزل، وأرض تنتج، وشمس تمد الكون بالدفع والحرارة والضوء، وقمر منير، ونجوم تزين السماء الدنيا، وهو سبحانه وتعالى يملك ذلك كله ملك اختصاص وسلطان وقدرة وإنشاء، فهو الذى أبدعه على غير مثال سبق، وهو رب الدين فى السماء والأرض، وهو الذى يوزع الأرزاق بمقتضى حكمته، وهو القاهر فوق عباده، يقيم العدل ويغنى كلا من سعته بما يشاء، وأنه لم يترك

الناس هملاً، بل أنزل عليهم الكتب السماوية تدعو إلى التفكير في ملكه، وخلقه، وتوجه إلى عبادته سبحانه وتعالى وحده وتقواه وحده، ولذا قال:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ الخطاب في

هذا النص لأمة محمد ﷺ، والكتاب المراد به جنس الكتاب، لا واحده، أى الذين أوتوا علم النبوة من قبلكم برسول أرسلوا إليهم، وكتب سجلت أوامر الله تعالى ونواهيه، وخطاب من الوحي الإلهي نزل إليهم، وقد دعاهم سبحانه وتعالى كما دعاكم إلى أن تتقوا الله تعالى في كل أعمالكم، بحيث تترى مهابته في قلوبكم، فتذكرونه في كل تصرفاتكم، فإن وسوست نفوسكم بظلم ذكركم فامتنعتم، وإن همت بفساد ذكركم فاعتصمتن، وإن أصابكم جزع ذكركم فاطمأنتن، وإن أصابكم فاقة ذكركم فصبرتن، وإن أصابكم بأساء ذكركم فارتضيتن، وإن أصابكم نعماء ذكركم فشكرتن، فالأمر بالتقوى أمر جامع لكل معاني الإيمان والتقوى.

ولذا أكد سبحانه الأمر بالتقوى بأربعة مؤكدات.

أولها - التأكيد باللام وقد، فـ (قد) وحدها مؤكدة، واللام تتضمن معنى القسم فهي مؤكد آخر، وهذا ما تضمنه قوله تعالى «ولقد» في صدر الكلام.

ثانيها - التعبير بقوله - جل جلاله - «وَصَّيْنَا». فإن التوصية تكون طلباً مشدداً لا يقتصر على زمان الأمر، بل يتعاقب الطلب بتعاقب الأزمان والدهور، ولا يقتصر على زمان دون زمان، وهذا يفيد أن الأمر بالتقوى قانون محكم، لا يعتريه فسخ ولا تغيير مهما تختلف العصور؛ لأنه لب الأديان.

ثالثها - ذكر كتب النبيين السابقين مع خطاب أمة خاتم النبيين محمد ﷺ، فإن ذلك الذكر يفيد أن التقوى شريعة السماء.

رابعها - التعبير بـ «أن» في قوله تعالى جلت قدرته ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنها هي «أن» المفسرة، أى أنه سبحانه وتعالى يفسر وصيته الخالدة الباقية بأنها شيء واحد، وهو الأمر بالتقوى، ومن المقرر في علم البيان العربي أن الإبهام ثم البيان

يؤكد المعنى فى النفس أفضل تأكيد، وقد قال الزمخشري إن لفظ «أن» يحتمل أن تكون أن فيه مصدرية، والمعنى: وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم بتقوى الله سبحانه وتعالى. والتعبير بالمصدر المؤول المنسبك من «أن» وما يليها فيه تأكيد لمعنى المصدرية؛ إذ فيه تصوير واضح للفعل والقيام به، وإن قوله تعالى و ﴿إِيَّاكُمْ﴾ هو من قبيل عطف الضمير على الاسم الظاهر، فيكون فى موضع النصب، ولذلك انفصل الضمير.

وقد أكد سبحانه وتعالى وصيته الخالدة ببيان نتيجة مخالفتها، وأنها لمنفعة العبادة، فقال سبحانه:

﴿وَأَن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وإن الأمر بالتقوى فيه خيركم، إذ فيه سلامة اعتقادكم، واطمئنان قلوبكم؛ وصلاح جموعكم، ومنع الفساد فى الأرض، وإن جحدتم أوامر الله تعالى، ولم تعبدوه وحده، وتخشوه حق الخشية، فستفسد أموركم أنتم، ولن يضر الله منكم شئ؛ لأنه مالككم، ومالك كل ما فى السموات والأرض، وهو بهذا الملك الظاهر والسلطان القاهر، يستغنى عن تقواكم، وهو المستحق للحمد الدائم، والمحمود فى ذاته وشرائعه وأوامره ونواهيه وفى إنشائه وإبداعه، فلا يضيره كفر الكافر، ولا ينقص من سلطانه فجور الفاجر؛ لأن الجميع فى قبضة يده وتحت سلطانه.

ولقد قال ابن جرير الطبرى فى معنى هذه الآية الكريمة: «وإن تجحدوا وصيته إياكم فتخالفوها فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض. يقول فإنكم لا تضرون بخلافكم وصيته غير أنفسكم، ولا تعدون فى كفركم هذا أن تكونوا أمثال اليهود والنصارى فى نزول عقوبته بكم، وحلول غضبه عليكم، كما حل بهم، إذ بدلوا عهده، ونقضوا ميثاقه، فغير بهم ما كانوا فيه من خفض العيش، وأمن السرب، وجعل منهم القردة والخنازير، وذلك أن له ملك جميع ما حوته السموات والأرض، لا يمتنع عليه شئ أراد تجميعه. . من إعزاز من أراد إعزازه، وإذلال من أراد إذلاله».



ويُرى من هذا التخرّيج أنه يرى أن الخطاب باحتمال الكفر موجه إلى الأمة المحمدية، ويكون قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ كلام مستأنف يبين نتائج مخالفة الأمر بالتقوى المؤكد، والذي جاءت به شرائع السماء كلها، وهذا هو الظاهر.

وقد قرر بعض العلماء أنه يجوز أن يكون في ضمن الوصية المؤكدة، ويكون المعنى: ووصينا أولى الكتاب وإياكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض. وإننا نرى أن الأول أظهر، وقد سار عليه ابن جرير، ووضح المعنى على أساسه... وقد أكد سبحانه عظيم سلطانه، وحاجتهم إليه وغناه - جل ثناؤه - عنهم، فقال تعالت كلماته:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ الوكيل هو من يتولى الأمر ويحفظه ويرعاه، والمعنى: كفى أن يكون الله تعالى حافظا للإنسان يتولاه، ويكلؤه ويق يه، فإذا كان الله تعالى غنيا عن عباده فعباده فقراء إليه، كما قال سبحانه: ﴿... وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ...﴾ ﴿٢٨﴾ [محمد] فعلى المؤمن أن يتقى الله تعالى، وأن يعلم أنه مالك أمره، وهو الذى يتوكل عليه، وأن الله سبحانه يحب المتوكلين لأنهم يحسون بقدرته، وعظم سلطانه، فكل متوكل عليه سبحانه يحس بعظم سلطان ربه، وضآلة سلطانه وقدره وذلك إيمان صادق، إذا قام بما يستطيع، وما تمكنه قدرته المحدودة، ويترك بعد ذلك الأمر لربه، وهنا أمر يجب أن نشير إليه، وهو تكرار قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فقد ذكر ذلك القول السامى ثلاث مرات، فلماذا كان ذلك التكرار؟ إنه بلا شك بهذا التكرار يتأكد المعنى الذى يشتمل عليه القول، ولكن هذا التوكيد للمعنى جاء فى كل مرة مبينا معنى خاصا، فالذكر الأول كان لتربية الإحساس بعدله، وعظم سلطانه وسعة رحمته، وأنه تسع رحمته كل الناس، فينصف المظلوم، ويسقط الرزق لذى الفاقة، فلا يضيق أحد الزوجين بالفراق، بل الله سبحانه يكلؤه، ويسعه برحمته، وذكر ذلك القول فى

المرّة الثانية لبيان استغنائه عن خلقه، وأن تقواهم لمصلحة أنفسهم ولخيرهم، وليس له بها حاجة بل هو الغنى المحمود دائماً. وذكر هذا الكلام في المرّة الثالثة لبيان حاجة الناس إليه، وأنهم فقراء إليه في مقابل غناه عنهم، تعالى الله علواً كبيراً.

وبعد هذا بين سبحانه قدرته القاهرة، وأنه هو الذى أنشأ الناس، وطالبهم بالعبادة، وأن من أنشأ يستطيع الإفناء، ويستطيع التبديل والتغيير فى خلقه، فيستبدل بالناس ناساً، وبالأقوام أقواماً، ولذلك قال سبحانه:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ والمعنى الجملى للنص السامى: إن يشأ الله تعالى أيها الناس إفناءكم ويأت بآخرين، فإنه سبحانه وتعالى يفعل؛ لأنه على ذلك قادر قدرة مطلقة لا يحدها حد. وهى العامة الشاملة لكل شىء، وهنا نجد جواب الشرط قد حذف ودل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ وحذفه مع ما يدل عليه يجعل الذهن يتجه إلى تعرف مدى عظمته وقدرته، وحذف مفعول المشيئة فى قوله ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ قد دل عليه جواب الشرط فى قوله: ﴿يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾.

ومن هم الناس الذين خوطبوا بذلك الخطاب؟. يحتمل هذا وجهين: أحدهما، أن يكون الخطاب للناس فى أمة محمد، ومن كانوا قبلهم، ويكون الكلام تابعا لمقول المقدر عند من قدره فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ ويكون أيضا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ له هذه التبعية. ويكون الكلام كله فى خطاب السابقين واللاحقين. وقد قلنا إن ذلك غير الظاهر.

والوجه الثانى أن يكون الخطاب فى أمة محمد ﷺ، وهو بهذا يشمل المؤمنين والمشركين. ويكون للمشركين بشكل خاص. وإن اختلاف التوجيه على هذا النحو يترتب عليه الاختلاف فى جواب الشرط، وهو من الذين يذهبهم الله تعالى، ويأتى بآخرين، وله القدرة التامة على تنفيذ ما يقول تعالى؟ فعلى الوجه الأول يكون المعنى: إن يشأ سبحانه أن يذهب بهذا العالم الإنسانى، ويأتى بعالم

آخر يعبد به فإنه الفاعل المختار المريد، ويكون القصد بيان قدرة الله تعالى الشاملة، وإثبات أن كفر الكافر ليس بعيدا عن تقديره، وإيمان المؤمن كذلك، فهو الذى خلق الإنسان صالحا لأن يسلك طريق الشر وطريق الخير، وأن ذلك بإرادته، ولو أراد غيره لكان ما أراد لأنه هو الذى يقول للشيء كن فيكون، وهو الذى خلق الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) [فاطر].

وعلى التوجيه الثانى - وهو أن يكون الخطاب للمشركين الكافرين بالرسالة المحمدية والمسلمين الذين يكونون على طرف الإسلام - يكون المعنى إن استمررتم على الشرك أو كان منكم الكفر بعد الإيمان، فإن الله تعالى بمقتضى سنته فى الفطرة الإنسانية يفتيكهم بإذهاب قوتكم وسيطرة الفساد عليكم، ويجىء من بعدكم من ينصر الحق، ويكون النص كقوله تعالى: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٣٨) [محمد] وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (٥٤) [المائدة: ٥٤] وقد ذيل الله سبحانه النص الكريم ببيان قدرته الكاملة على ذلك التغيير، فقال تعالى:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى قدير على ذلك التغيير والتبديل الذى تستغربونه وتستبعدونه، وقد قدم الجار والمجرور وهو قوله ﴿عَلَىٰ ذَلِكَ﴾ لموضع الاهتمام وهو التغيير والتبديل، الذى يستبعدونه لفرط إحساس المشركين بقوتهم، وغرورهم بدولتهم، واستضعافهم لشأن المؤمنين الصادقين.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الثواب ما يعود على الإنسان من أى عمل يعمل، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ثم أطلق الثواب فى القرآن على الجزاء، وذلك فى مقابل العقاب الذى هو جزاء الشر، والمراد هنا على هذا الأساس نعيم الدنيا، والنتائج الطيبة لأعمال الدنيا. ومعنى النص السامى من يكون من شأنه وطوية نفسه أن يطلب نعيم الدنيا وما فيها من خير، فإن الله

تعالى يعطيه ما يطلب إن اتجه إلى طلبها عن طريق الحق والدين، فإن الله تعالى ذا السلطان الكامل في الدنيا والآخرة هو وحده عنده نعيمهما معا، فمن أراد الدنيا عن طريق الخير والحق، فإنه سينال ذلك بتوفيق الله تعالى وتمكينه.

وهذا الكلام يطوى فى ثناياه معانى ثلاثة:

أولها - أن الاستجابة لما يطلبه الله سبحانه وتعالى تؤدي إلى خير الدنيا من عزة ورفعة وقوة وسلطان فى الأرض، وتعاون على إصلاحها ومنع فسادها، وتواصل وتراحم، من غير تقاطع ولا تدابر.

ثانيها - أن من يطلب الدنيا من غير طلب الآخرة ولا يستجيب لداعى الله، يكون قد طلب الأخس وترك الأخطر منهما، ولا يكون طالبا لها على وجه الحق، ويكون محاسبا على كل ما نال من مغنم فى هذه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا...﴾ [١٤٥] ﴿آل عمران: ١٤٥﴾

ثالثها - أن النص الكريم يفيد قدرة الله، وكمال سلطانه، وعدله فى الثواب والعقاب، وأنه يعلم الخير ويجزى عليه والشر ويعاقب صاحبه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٨] [الزلزلة] ولذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى عالم علما دائما أزليا علم من يسمع ما يجهر به ويسر، ومن يطلع على حركات النفوس، وخلجات القلوب، وما يجيش فى الصدور، وعالم علم من يبصر أدق الأعمال وأخفاها من خير أو شر، وإنه مجازى كل إنسان على مقتضى هذا العلم الذى لا تخفى عليه خافية.

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٢٠] [البقرة]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا
أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ
تَلَّوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

فى الآيات السابقة أمر الله بالعدل، ولو كان فى مصلحة الكافرين، وأمر بالعدل بين الأزواج، وإنه أساس قيام الأسرة، وإن كان العدل فى الأسرة أمراً شاقاً؛ لأنه يتصل بالنفوس، لا بالأموال المادية. إذ العدل فى الحقوق الظاهرة يكون سهلاً ليس صعباً، أما المساواة فى الأمور النفسية فمن الأمور التى تشق على النفوس. ثم بين سبحانه وتعالى سلطانه الكامل، ورقابته على الأعمال ما ظهر منها وما بطن، وتستوى فى ذلك أعمال الجوارح، وأعمال القلوب وخلجات النفوس، وفى هذه الآية يبين أن العدل خاصة أهل الإيمان، وقد أمر الله به المؤمنين، لأنه مقتضى الإيمان، وهذا العدل يعم العدو والولى على السواء. ولذلك قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ النداء «يأيها» للتنبيه، وقد اختير اللفظ الدال على النداء للبعد لتعظيم التنبيه إلى الأمر الخطير الذى يدعوهم إليه، وهو العدالة التى بها ميزان السماء والأرض، والتى هى دعامة الإسلام الأولى، وسمته ومظهره، ومعنى «قَوَّامِينَ» أن تقوموا على القسط وهو العدل وترعوه حق رعايته، فقوَّام صيغة مبالغة من قام بالأمر، وقام عليه وتعهد، وهو أبلغ من كونوا عدولاً؛ لأن القوَّام بالعدل تكون فيه خصال ثلاث:

أولاهـا: أن يعدل فى ذات نفسه، فلا يظلم أحداً.

والثانية: أن تكون العدالة شأناً ملازماً له لا يفترق عنه، لتكون كالسجية من سجايه، والملكة من الملكات.

وثالثها: أن يرمى العدل في غيره، فلا يعدل فقط في القضية التي تعرض عليه ليقضى فيها، بل يعمل على منع الظلم حيث كان، وأيا كان، فليس قوَّامًا بالقسط من يرى مظلوما يُظلم، أو ضعيفا يهضم، ولا يمنع الاستمرار في ظلمه، ولو لم يكن قاضيا يحكم بين الناس، وهذا تطبيق لقول النبي ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»^(١).

وقد أمر الله تعالى بالعدل بهذه الصيغة فقال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ فلم يقل تعالت كلماته «اعدلوا»، أو «قوموا بالقسط».. بل قال سبحانه: ﴿كُونُوا﴾ وهذا التعبير يقتضى أمرين:

أحدهما - أن يروضوا أنفسهم على العدالة، ويربوها ويعلموها لشباب هذه الأمة، وَيَفْطَمُوا النفوس عن شهواتها، فإنه لا يذهب بالعدل إلا الشهوة، فليربوا أنفسهم على السيطرة عليها، وجعلها أمة ذلولا، لتكون النفس عادلة دائما.

وثانيهما - أن ينصبوا أنفسهم لنشر لواء العدل، فلا يتركوا ظلما يرتع، ولا مظلوما يخضع، سواء أكان الظالم فردا أو جماعة، أم كان أمة، فأمة العدل يجب أن تكون قوَّامة بالعدل.

وإن القوامة على العدل توجب عدالة الإنسان في نفسه، وأهله، وولده، وصحبه، وكل من يتصل به، وتوجب منع الظلم أنى يكون، وتوجب العدل في الولاية والقضاء، والصلح بين الناس.

وهناك أمر هو سبيل الحق، وطريق معرفته، وهو الشهادة، إذ هي السبيل للعدل في القضاء والولاية والصلح، وهي سبيل إحقاق الحق، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿شُهِدَاءَ لِلَّهِ﴾.

ومعنى الشهادة لله تعالى، أن يقول الحق طلباً لرضا الحق جلّ جلاله، لا يلتفت إلى رضا المخلوق، أيّاً كان ذلك المخلوق، فإن تحرى رضا المخلوق قد يذهب بالحق، ويضعف سلطانه، وإن الشاهد إذا لاحظ جانب الله في شهادته قال الحق من غير تلثم ولا اضطراب، وأفاض الله تعالى عليه نورا، فلا يضل في شهادته، ولا يخطئ ناحية من نواحي الحق.

وقد فهم بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿شَهِدَاءَ لِلَّهِ﴾ حال من الذين آمنوا، والمعنى على هذا كونوا قائمين بالحق حال كونكم شهداء به لله تعالى، وعلى هذا التفسير تكون القوامة على الحق مقصورة على الشهادة غير عامة.

وقد ضَعَفَ أكثر المفسرين. وجمهورهم على أن قوله تعالى «شهداء لله» خبر بعد خبر، أي أن هناك أمرين طلبهما المولى جلّ شأنه:

أولهما: القوامة بالقسط، وهذا عام للشهادة وغيره.

وثانيهما: أنه خصّ الشهادة بالذكر، لأنها السبيل للحق، والشهادة لأجل رضا الله تعالى هي السبيل لكل عدل وكل حق.

والشهادة لله تعالى توجب ألا يحايى قريب لقربته، ولا يحايى غنى لغناه، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ والمعنى اجعلوا الشهادة لله تعالى فلا تنطقوا إلا بالحق، ولو أدى ذلك إلى أن تكون العقوبة ألماً ينزل بالوالدين والأقربين، فالمحابة على حساب الغير ظلم، وصلة الرحم لا تبرر الظلم، وليس من الإحسان إلى الوالدين أن تفرهما على الظلم، وترضى لهما أن يأكلا الحقوق، كما أنه لا يصح أن تكون الرحمة بالأقارب الأقربين طريقاً للظلم، فإن هذه لا تكون رحمة حقيقية، ولكنها شفقة جنونية، فالأولى حملهم على الحق، وذلك بأداء الشهادة لله، وبالحق.

وقد يسأل سائل: ما معنى الشهادة على النفس، وقد أجاب عن ذلك المفسرون بأن الشهادة على النفس هي الإقرار عليها بما ارتكبت، وقد قال

الزمخشري أن يشهد بما يؤدي إلى وبالها، بأن يشهد على سلطان ظالم فيؤديه، وقد قال في ذلك - رضى الله عنه -: «ويجوز أن يكون المعنى وإن كانت الشهادة وبالا على أنفسكم أو على آبائكم وأقاربكم، وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره».

وإنه بهذا الذى قرره جار الله الزمخشري ننتهى إلى أن الشهادة على الوالدين والأقربين تكون بإلزامهم بحقوق عليهم مباشرة، وتكون بالنسبة للأفئس بالإقرار بإلزامها، وتكون بالشهادة فى الأمور التى ربما تؤدى إلى الإضرار بهم كشهادتهم فى أمر عام قد يؤدى إلى حرمانهم من المزايا التى يطلبونها، كمن يشهد بمجرى ماء لشخص تؤدى إلى حرمانهم من بعض ما ييغون، وقد تكون بالشهادة على أصحاب السطوة الذين يؤذون من يشهد عليهم . . . وهكذا.

وإنه قد قال قتادة فى معنى هذه الآية: «أقم الشهادة يا بن آدم، ولو على نفسك أو الوالدين، أو الأقربين، أو على ذى قرابتك، وأشراف قومك، وإنما الشهادة لله، وليست للناس، وإن الله تعالى رضى بالعدل لنفسه، والإقسط والعدل ميزان الله فى الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق . . . وبالعادل يصلح الناس».

وقد يكون سبب الانحراف فى العدل أو الشهادة أن تكون الخصومة بين غنى وفقير، فقال سبحانه:

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى لا يصح أن يكون اختلاف المتخاصمين أو المتعاملين، أو المشتركين غنى وفقرا سببا فى اجتناب العدالة، فلا يمنع الغنى حقا لغناه، ولا يعطى أحد غير حقه لفقره، كما لا يصح أن يحابى الغنى أو يعفى من العقاب لجاه ماله، ويعاقب الفقير بعقوبة أشد لفقره، فالفقر والغنى بأمر الله تعالى، ولذا قال: ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى فالله سبحانه وتعالى هو الأولى والأجدر بحساب الغنى والفقير، وهو الذى رتب الحقوق والواجبات، وقسم الأموال بحكمته، ونظمها بإرادته، وهو الأعلم بمصالح العباد، وهو الذى

يتولى النظر لكليهما بعين رحمته، ويفيض هدايته، روى ابن جرير عن السدي أنه قال: نزلت في النبي ﷺ، إذ اختصم إليه رجلان، غني وفقير، وكان ضلعه مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

وإن الذي يستفاد من هذه الرواية مع أصل النص الكريم أن الغني أو الفقر لا يصح أن يكونا سببا في التفاوت في الحكم؛ لأن الله هو الذي نظم الكون بما فيه ومن فيه، فهو الذي أراد للفقير الفقر مع الأسباب، وأراد للغني الغنى مع الأسباب الظاهرة لدينا، والمصلحة الإنسانية هو سبحانه وحده قدرها، فهو أولى بأن يكون الغني له لأنه هو الذي منحه، وأن يكون الفقير له لأنه هو الذي منعه، فابتلى الأول بالمال، وابتلى الثاني بالحرمان.

هذا حكم الله، وقد رأينا ناسا يحاربون الغني، ورأينا مع الأسف قضاة يمنعون بعض الحقوق، ويمنحون باسم الغني والفقر. فهذا «محمد» خير البشر عندما علم الله - الذي يعلم السر وأخفى - أنه يضلع مع الفقير بقلبه، ذكره بأن الله أولى بالغني والفقير، وأنه مقسم الأرزاق، فكيف يسوغ لأحد من البشر أن يظلم غنيا لماله!! أو يحاييه لذلك.

وقال الزمخشري: «- فإن قلت - لم ثنى الضمير في ﴿أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ وكان حقه أن يوحد، لأن قوله: إن يكن غنيا أو فقيرا في معنى إن يكن أحد هذين - قلت: قد رجع الضمير إلى ما دلَّ عليه قوله: إن يكن غنيا أو فقيرا إلى المذكور، فلذلك ثنى ولم يفرد، وهو جنس الغني وجنس الفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنس الغني والفقير، أي بالأغنياء والفقراء... وفي هذا التخريج الذي ذكره الزمخشري إشارة إلى أن الغني والفقر أمران ثابتان في هذا الوجوب، لا يمكن أن تخلو منهما الجماعة الإنسانية، لأن ذلك تنظيم الله تعالى، وإرادته الخالدة، وهو الذي يتفق مع الطبيعة الإنسانية؛ لأن القدر متفاوتة والأعمال مختلفة، ونتائج الأعمال كثمرات الزرع والشجر، تختلف باختلاف ما يزرع وما يغرس، وإن

اتحدت الأعمال فقدر الله تعالى سيرَّ الوجود، هذان زارعان يزرعان فى قطع من الأرض متجاورات يذران بذرا واحدا، وتسقى أراضيها من ماء واحد، ومع هذا فذلك يأتى بزرع طيب، والآخر يأتى بردى، أو هذا يبيع بسعر جيد، وذاك يتأخر شهرا أو يتقدم شهرا فيبيع بسعر دون الأول، فمن ظن أنه يستطيع إزالة ما بين الغنى والفقر، فإنه يظن أنه يستطيع مغالبة القدر.

وإن الميل فى الشهادة أو فى الحكم عن الحق سببه هو اتباع للهوى، ولذا نهى الله تعالى عن اتباع الهوى فقال:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ «الفاء» هنا هى التى تسمى فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، كأنه يقول إن اتجهتم إلى الحق تطلبونه، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ﴾، بل اتبعوا داعى العقل وحكم الشرع، والهوى هو الخضوع للشهوات، وعدم الخضوع لحكم العقل، وما يوجبه الشرع، ومن اتباع الهوى الخضوع للنزعات الوقتية، والظاهر، وعدم البحث عن ذات الحقائق، فمن الخضوع للهوى أن تمنع الغنى حقا لمجرد أنه غنى، وتحابى الفقير لمجرد أنه فقير، فهذا من قبيل الخضوع لمجرد الإحساس من غير تفكير وبحث عن الحقائق، فإن الغنى لا يحل ظلمه، والفقير لا يقر على ظلم.

ومعنى النص الكريم: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ﴾ وتجنبوه لكى تعدلوا، وتتجهوا إلى الحق من غير تعويق من العواطف أو الأحاسيس التى تلقى وهما لا حقيقة، فقلوه تعالى: ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فى مقام بيان الغاية لعدم اتباع الهوى، فهو تعليل للنهى، ولا حاجة فيه إلى تقدير، ومؤدى الكلام على ذلك نهيتهم عن اتباع الهوى لتعدلوا.

والكثيرون من المخرَّجين على تقدير محذوف، والمعنى على ذلك لا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق إن اتبعتم الهوى، فإن الهوى من القاضى أو الشاهد يذهب بالحق ويضيعه، وإن هذا التخريج فيه تقديران:

أولهما: كلمة مخافة.

وثانيهما: تقدير أن تعدلوا عن الحق.

والأظهر، والأكثر اتفاقاً مع السياق والنسق البياني هو التخريج الأول، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

﴿وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرِضُوا فإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءة الجمهور في هذا النص الكريم بواوين «وإن تلووا» وقرأ حمزة وبعض الكوفيين بواو واحدة، «وإن تَلُّوا أَوْ تُعْرِضُوا»^(١).

ومعنى النص على القراءة الأولى وإن تلووا في الحكم أو في الشهادة بأن تحكموا بغير الحق، أو تشهدوا بغير الحق، أو تحرفوه، أو توجهوا الكلام إلى غير وجهته في الشهادة بأن تظهروا في الكلام معنى، وتُعرِّضوا بغيره قاصدين له لكيلا تكون الشهادة على وجهها، فإن كل هذا لئى للكلام، إذ لئى الكلام تحريفه وتوجيهه إلى غير وجهته السليمة، وذلك يشمل قول الباطل والحكم به، وتلوية مقاصد القول وإبهامه، والإعراض معناه الامتناع المطلق عن الشهادة أو الحكم، وجواب الشرط هو التهديد الشديد بالعذاب الأليم، تضمنه قوله سبحانه: ﴿فإنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أى أن علم الله المستمر الذى يعلم به دقائق الأشياء والنفوس وخفاياها قائم على أعمالكم وقلوبكم، وظواهركم وبواطنكم فاحذروه. اللهم اجعلنا من القوامين بالقسط، الشهداء بالحق، الذين لا يتبعون الهوى، ولكن يعدلون في أنفسهم وذوئهم وأهليهم، وما ولّوا.

(١) قرأها بواو واحدة حمزة وابن عامر، وقرأ الباقون بواوين. [غاية الاختصار (٧٨٨) جزء ٢،

يَأَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَوَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ
 عَلَى رَسُولِهِ ءَوَالِكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَوَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
 ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا
 ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
 سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾

فى الآيات السابقة كان الأمر بالعدالة فى خاصة الأسرة، وانتهى الكلام إلى الأمر العام بالعدالة مع العدو ومع الولى، ومع الغنى ومع الفقير. ومع الأقربين من ذوى القرابة، ومع الغرباء، وبذلك أثبت الكتاب الكريم أن العدالة خاصة الإسلام، ولازمة من لوازمه، ولا تتحقق معانى الإسلام إلا مع العدالة، وإنها قرينة الإيمان، لا تفترق عنه، ولا تنفصل، ولذلك قرن الأمر بالعدالة بالأمر بآركان الإيمان كلها، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَوَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَوَالِكِتَابِ
 الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ هذه الآية تدل على وحدة الرسالة النبوية إلى الخليقة، إذ إن لبها هو الإيمان بالله ورسله وملائكته والكتب التى أنزلت على رسله، وأن المتأخرين يجب عليهم أن يؤمنوا بما جاء به السابقون لهم؛ لأن الرسالة الإلهية سلسلة متصلة الحلقات، كل حلقة منها تالية لسابقتها، وكما قال النبى ﷺ: «إن

صرح النبوة واحد^(١)، الرسالة المحمدية آخر جزء لذلك الصرح الشامخ، وبها تمامه وكماله.

ومعنى النص السامى: يا أيها الذين أذعنوا للحق وطلبوه، وصدقوا به اجعلوا إيمانكم مستقرا وثابتا بالله جلّ جلاله، وبرسوله الذى جاء بشيرا ونذيرا وبالكتاب الذى نزلّه منجما مقسطا، وهو القرآن، وبالكتاب الذى أنزل من قبل. والمراد جنس الكتب السابقة، لا واحد منها.

ونرى أن النص الكريم فيه أجزاء الإيمان التى يلزم بعضها بعضا، ولا ينفصل واحد منها عن باقيها، فهى كلّ لا يقبل التجزئة، ولا يمكن أن يتحقق معناه إلا باتصاله بعضه ببعض.

وأول عناصر الإيمان هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى. وذلك باعتقاد أنه واحد أحد فرد صمد، فوق كل شيء وليس فوقه شيء، ليس كمثله شيء، منفرد وحده بالالوهية، فهو الواحد فى ذاته وصفاته، وهو الواحد فى خلقه وتدبيره، فهو خالق كل شيء؛ وهو القادر على كل شيء، وهو القاهر فوق عباده، وهو الواحد فى استحقاقه للعبادة، فلا يعبدُ بحق سواه.

هذه إشارات إلى معنى الإيمان بالله الرحمن الرحيم ذى الجلال والإكرام. وإن الإيمان بالله تعالى على ذلك النحو يقتضى الإيمان بأن رحمته توجب ألا يترك الناس هملا يضلون، ولا يهتدون، ولا يقومون بحق الطاعة، بل لا بد من بشير ونذير، ومن يكون رحمة للعالمين، فلا بد من الرسل يرسلهم، وكان حقا على الذين يدركون رسولا أن يؤمنوا به، فكان حقا على الذين أدركوا محمدا أن

(١) فى معناه ما رواه البخارى: المناقب - خاتم النبیین (٣٥٣٥)، ومسلم: الفضائل - ذكر كونه ﷺ خاتم النبیین (٢٢٨٦) وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْوِفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَا وَضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».

يؤمنوا به، ويكون المراد من رسوله هنا محمداً ﷺ، وذلك واضح من الأفراد ومن تكرار كلمة الرسول مقترنة بالكتاب الذى يُنزل تنزيلاً.

والكتاب الذى نُزل على رسوله هو القرآن الكريم، وقد ذكر التعبير عن نزوله بـ ﴿نُزِّلَ﴾ للإشارة إلى نزوله منجماً، وأنه لم ينزل جملة واحدة، وأنه كان لا يزال ينزل وقت هذا الخطاب القدسى، ومعنى الإيمان بالكتاب الإيمان بأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه من عند الله العلى الحكيم، وأنه كلامه سبحانه وتعالى. وأن كل ما فيه من أخبار صادق، وما فيه من أحكام واجبة الطاعة. وأنه حجة الله الخالدة، وأنه جبل الله - تعالى - الممدود إلى يوم القيامة، وأنه محفوظ بحفظه، لا يعثره تغيير ولا تبديل؛ لأن الله تعالى قد وعد بحفظه، وهو صادق، وأنه ما حاربه جبار إلا قصم الله تعالى ظهره.

والكتاب الذى أنزل من قبل هو كتب النبيين السابقين التى أنزلها الله - تعالى - عليهم، ومعنى الإيمان بها التصديق برسالات الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى، وذكر فيها كتبهم، وذكر بجوارها أنها أنزلت، لأنها قد مضت وانقطع نزولها.

وعبر عنها بالفرد دون الجمع، للإشارة إلى تصديق معناها الجامع لها، وهو أنها رسالات الله تعالى إلى أهل الأرض، وهو معنى لا يتغير، بل يشير إلى الوحدة.

وقد يقول قائل ما معنى أمر أهل الإيمان بالإيمان؛ ألا يكون فى هذا تحصيل حاصل، وأمر بما هو كائن؟ لقد أجاب المفسرون عن ذلك بأن المراد بالأمر فى قوله «آمِنُوا» اثبتوا على إيمانكم واستمروا عليه، ولا تتحولوا عنه، فالأمر أمر بالثبات والدوام.

ويصح أن نقول مع ما قاله المفسرون إن الحال التى عليها المؤمنون حال إذعان وتسليم وتصديق، والأمر بالإيمان مع هذه الحال التى هم عليها واستنارت قلوبهم بها بيان لأجزاء الإيمان، وأركانها وأصوله ومعانيه المتلازمة، فلا يفرقون بين

أجزائه، ولا يفرقون بين أحد من رسله سبحانه، وفى هذا الأمر بيان اتصال المسلمين بالديانات السابقة، وبيان أن الإسلام لا يهدم الأديان قبله. ولكنه يتممها. وأنه الخطوة الأخيرة فى الوحي الإلهى، وأن من يكفر به وقد أدركه يكفر بغيره، وإن ادعى اعتناقه، ومن يصدق من غير إيمان بالكتب السابقة لا يكون صادقا.

ونبه هنا إلى أمر لفظى، قد أشرنا إليه، وهو أن الله تعالى عبر عن القرآن بقوله «نزل» وعن غيره بـ «أنزل»، لأن القرآن قد نزل منجما^(١)، وكان لا يزال ينزل وغيره قد تم نزوله، وفى ذلك إشارة إلى طريقة نزول القرآن وأنه أمر أرادته الله تعالى لمصلحة العباد، وتسهيل هدايتهم به، وتسهيل حفظ النبى ﷺ ومن معه له، ولأنس النبى ﷺ باستمرار الوحي ينزل عليه.

وبعد أن بين سبحانه حقيقة الإيمان، ذكر ما يؤدى إليه الكفر فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أى من يجحد بالله، فلا يؤمن بوحدانيته ولا بقدرته المبدعة الخالقة ولا بحق الإذعان له، والعبودية له سبحانه وحده، ومن ينكر الملائكة، والكتب المنزل، والرسول المرسل واليوم الآخر، الذى ينتهى إليه أمر العباد، من يجحد ذلك الجحود، فقد حاد عن السبيل، وانحرف عن الجادة، ويعد فى التيه بعدا كبيرا، لا يمكن معه أن يعود إلى الطريق المستقيم؛ لأنه أوغل فى الشر إيغالا شديدا، وهنا نجد عناصر خمسة يجب الإيمان بها، وهى الإيمان بالله جل جلاله، والإيمان بالملائكة وهم عباده المطهرون الغائبون عنا حسنا، القريبون منا ومنهم من ينزل بوحي الله تعالى على رسله، ومن ينزل بالكتب؛ ولذلك قرن بالكفر بهم الفكر بالكتب التى ينزلها تعالى على خلقه مسجلة أحكامه وشرائعه وأوامره ونواهيه، واقرن الكفر بالرسول بالكفر بالكتب؛ لأن الرسل هم الذين يبلغونها، ويبينونها، ويدعون إليها،

(١) أى مفرقا بحسب الحوادث.

فالكُتاب، ينطق بالحق ببيان الرسول ﷺ، ثم إنه يُتبع الكفر بكل ما سبق الكفر باليوم الآخر، والكفر باليوم الآخر هو طريق الضلال البعيد، الذى لا يستطيع التائه الضالّ إذا سار فيه أن يعود إلى الحق، إذ كلما أصر على الكفر باليوم الآخر ضلّ فى فهم معنى الحياة، وبذلك ينزل إلى مرتبة الحيوان الذى لا يعرف أنه موجود لغاية، وأن له نهاية هى ابتداء حياة أفضل وأبقى، ومن ظن ألا حياة إلا هذه الحياة الفانية، فهو يلهو ويلعب، ويعيث ويفسد، ولا يتنقل من ضلال إلا إلى ضلال، لايهتدى بهدى، ولا يسترشد بإرشاد.

وإن قوة الإيمان وعظمة الإذعان تكون فى الإيمان بالغيب؛ لأن المؤمن يخرج من أسر الحسّ إلى انطلاق الروحانية، فيعلو فيها مدارج، ويسلك سبلا فجاجا.

وإن قوة الإيمان يقين ثابت مستمر، فلا هداية لمن يكون مزعزع العقيدة، مضطرب النفس يعرض له عارض فيرى نور الإيمان، ثم تعرض ظلمة فينطمس، ويستمر حائرًا بائسًا، ولذا قال سبحانه فى أصحاب هذه الحال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا﴾ قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى: إن هذه الآية واردة فى أهل الكتاب، فقال فى ذلك: «عنى بذلك أهل الكتاب الذين أقروا بحكم التوراة، ثم أقر من أقر منهم بيسى والإنجيل، ثم كذب به بخلافه إياه، ثم كذب بمحمد ﷺ، فازداد بتكذيبه كفرا على كفره..»

ومؤدّى هذا الكلام أن هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بالتوراة، ثم عبدوا العجل وحرفوا التوراة، ثم آمنوا بالإنجيل ثم حرفوه وكفروا بيسى وبالله، إذ جعلوا المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ونرى أن نص القرآن يفيد أن الذين يخبر عنهم - سبحانه طائفة واحدة آمنت ثم كفرت، ثم آمنت ثم كفرت، ثم ازدادت كفرا.. وما قاله ابن جرير يؤدى إلى أن يكون الكلام فى طائفتين: إحداهما اليهود والأخرى النصارى، ولذلك نرى

ترجيح قول الذين قالوا إن هذا النص فى مرضى القلوب والمنافقين الذين اضطربت عقائدهم، فهم يؤمنون أول النهار، ويكفرون آخره، فيعتريهم قبح الإيمان، فيهتدون حيناً فيؤمنون، ثم تعتريهم ظلمة نفوسهم فيكفرون، ثم لا يزالون يترددون حتى تنطفئ قسبات النور من قلوبهم، وبذلك يزدادون كفراً، وذلك وصف دقيق للمتتردين الخائرين، يتدثون بحيرة مضطربة بين النور والظلمة، ثم يوغلون فى الظلام إيغالا.

وإن أولئك الذين يترددون ذلك التردد، ثم يتتهون إلى تلك النهاية الموعلة فى الكفر لا تنالهم المغفرة، ولذا قال سبحانه:

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ هذا نفى مؤكد للغفران والهداية معاً، فالله لا يغفر لهم، ولا يهديهم سبيلاً مستقيماً، بل هم فى حيرة مستمرة، واللام فى قوله: ﴿لِيَغْفِرْ﴾، و ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾ هى اللام التى يسميها النحويون لام الجحود أى النفى المؤكد، وهى تكون بعد الفعل المشتق من الكون، ككان ويكون، ولتقريب معناها نضرب مثلاً من عبارات الناس، فيقول بعض الناس: لم أكن لأكرمك أى لم أوجد لأكرمك، أى ليس من شأنى وحالى المستمرة استمرار وجودى أن أكرمك، ويكون معنى النص السامى على هذا ذكر ما يؤدى إليه الكفر.

وبعد أن بين سبحانه حقيقة الإيمان لم يكن من حكمته وعلمه وكمال تدييره أن يغفر لهؤلاء، ولا أن يهديهم السبيل، والسبب فى ذلك أنه لا تتصور منهم التوبة والرجوع إلى الحق، والإنابة إلى الله، حتى تكون منهم التوبة النصوح التى تجب ما قبلها من الذنوب، إذ أن التوبة تكون لمن يقع فى الذنب عن جهالة، ثم يتوب قبل أن يوغل فى الشر ويفقد معه كل عناصر، وكذلك لا يهديهم سبيلاً؛ لأن الهداية تكون لمن لم يظلم قلبه، ولمن أراد الهداية، وهؤلاء لا يريدونها.

فنفى الغفران، ونفى الهداية، بسبب أنهم أركسوا فى الشر، وأحاطت بهم خطيئاتهم، ولقد قال فى ذلك الزمخشري - رضى الله عنه -: «والمعنى أن الذين

تكرر منهم الارتداد، وعهد منهم ازدياد الكفر، والإصرار عليه يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت، يرضاه الله؛ لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب ضربت بالكفر، ومرنت على الردة، حيث كان الإيمان أهون شيء عندهم، وأدونه حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى.

اللهم هبنا إيماناً ثابتاً وقلوباً مخلصه نقية من أخلاط الريب، إنك سميع الدعاء.

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

كانت الآيات السابقة، في بيان الإيمان الحق الصادق، وأنه يشمل الإيمان بالرسول وكتبهم، والإيمان برسالة محمد ﷺ وكتبه، وكل ذلك في ظل الإيمان بالله تعالى باعث الرسل ومنزل الكتب من عنده، وخالق كل شيء، ومبدع الكون. ثم كانت الآية التي وليت ذلك في ذكر حال هؤلاء المترددين الحائرين الذين لا يستقرون على حال، وهم قسمان: قسم ضعيف الإيمان مضطرب الاعتقاد، وهؤلاء قد يؤمنون ثم يرتدون لغير غاية. والقسم الثاني يعلن الإيمان ويبطن الكفر، ويتردد مظهره بين الإيمان والكفر؛ إذ إنه مهما يطو اعتقاده في نفسه لا بد أن يظهر على لسانه، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد].

وهذه الآيات في شأن المنافقين: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. المنافقون هم الذين خلصوا للنفاق، وأصبح الإيمان لا موضع له في قلوبهم، وهم المنافقون في الاعتقاد بالرسالة المحمدية؛ وذلك لأن النفاق قسمان: نفاق خالص، وهؤلاء كفار في ذات الرسالة المحمدية، وهؤلاء كفار كما قال تعالى في الآيات اللاحقة. والقسم الثاني نفاق ليس خالصا، وهو لا يتصل بالعقيدة، بل يتصل بالأخلاق، وهو الذي جاء ذكره في الحديث «آية المنافق أربع: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإذا خاصم فجر»^(١)، وبعض الروايات ليس فيها الخصلة الرابعة^(٢). وهذا النوع هو الكثير الشائع في عصرنا.

والتعبير بقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ فيه نوع مجاز؛ لأن البشارة لا تكون غالبا إلا في الخبر السار، ويقول في ذلك الأصفهاني في مفرداته: «وبشرته أخبرته بشار

(١) روى البخاري: الإيمان - علامة النفاق (٣٤)، ومسلم: الإيمان - بيان خصال النفاق (٥٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَوْثِمَ خَانَ» [رواه البخاري: الأدب].

بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر. . ويقال للخبر السار البشارة والبشرى، قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (٦٤) ﴿يونس﴾.

وقالوا إن التعبير بالبشرى في هذا المقام، وهو إنذار المنافقين بالعذاب الأليم فيه نوع تهكم بهم؛ لأن المنافق فيه طمع وهو يريد النفع الدنيوى، أو المادى، فيقال لهم ما تنتظرونه من أمر مبشركم ويرضى مطامعكم هو عذاب شديد. مؤلم أشد الإيلام، فهو ثمرة نفاقكم، فما غرستم من غرس هو شر محض، فلا يتج إلا شرا.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه بعض أحوال المنافقين، وموقع ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾ إما أنها بدل أو عطف بيان من المنافقين المذكورين فى الأولى، وإما أنها فى موضع النصب على الاختصاص، ويكون المعنى على هذا: أحص الذين يتخذون...

وعندى أن البدل أولى؛ لأن تلك الأحوال تعمهم، ولا تخص فريقا منهم دون فريق.

وما معنى اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين - نقول إن الذى يقرب معنى الآية الكريمة أن نقول إنهم يلتمسون النصرة والعزة والكرامة من الكافرين، ويجعلون انتماءهم إليهم لا إلى الدولة الإسلامية، ويتخذون هذا الولاء ضد المؤمنين، أى أنهم يجعلون الولاء فى الأمر الذى يكون فيه خلاف بينهم وبين المؤمنين، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أى مخالفين ومعاندين ومباعدين ولواء المسلمين، ومتجهين إلى ولواء الكافرين، ومؤدى هذا أنهم يتركون ولواء المؤمنين، للوصف اللازم لهم وهو الإيمان، ويتخذون ولواء الكافرين للوصف المميز لهم وهو الكفر، وهم بهذا يحاربون الله ورسوله، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (٢٢) ﴿المجادلة﴾.

وإن الذين تكون أوصافهم هكذا هم كافرون.

والولاء قسمان: ولاء نصره وانتماء، وهذا منهي عنه من المؤمنين إلا بالضرورة، وولاء مودة ومحبة، وهذا غير منهي عنه بالنسبة لغير المسلمين إلا إذا كانوا قد حاربوا الله ورسوله وخرجوا محاربين له منابذين.

وقد استنكر سبحانه وتعالى أن يكون لهؤلاء المنافقين ما يبرر هذا الولاء، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿أَيَّتُؤُونَ عَنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ إن هؤلاء المنافقين تفضل أفهامهم، ويطمس على مداركهم، ويفسد تفكيرهم؛ لأنهم مردوا على الابتعاد عن الحقائق والحكم على الزمان بحالهم الوقتية، ولا تنفذ عقولهم إلى ما وراء ظاهر الأمور، فهم يطلبون العزة من غيره.

والاستفهام هنا لإنكار الواقع، أي للتوبيخ على أمر وقع منهم، وهو أنهم يطلبون العزة ويريدونها إرادة شديدة راغبين فيها من الكافرين الذين لا يملكون أن يعزوا غيرهم لأنهم يعاندون الله تعالى، ولا عزة لمن يجحد ويعاند الله العزيز الحكيم. وقد أكد الله تعالى ذلك المعنى بقوله تعالت كلماته:

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أى أنه لا عزة إلا ما يكون من عند الله تعالى، ولمن يطيع أوامره، ويستتفى عن نواهيه، وقد أكد الله تعالى أن العزة له وحده بعدة مؤكدات منها التوكيد بـ «إِنَّ»، ومنها ذكر لفظ الجلالة، ومنها ذكر عمومها بكلمة ﴿جَمِيعًا﴾.

إن العزة لله وحده، فليس بعزيز من يعانده؛ إذ ليست العزة غطرسة وكبرياء، ولكنها معنى نفسى يسكن فى القلب فيحس باستعلاء على مظاهر الحياة، واستجابة لمعانيتها وأولئك الذين يريدون العزة من غيرهم يبنونها على أوهام، وعلى مطامع مادية، وليست هذه العزة، إن كل استعلاء يبنى على أمر مادي، أو جاه خارجي، أو مطمع دنيوى، إنما هو وهم سرعان ما يزول، وتذل النفوس التى لا

تتمسك بالحق، فالحق فيه العزة، وهو الذى يكون من عند الله، فلا عزة إلا من الله، والذل حيث لا يريد وجه الله.

وإن أولئك المنافقين لفرط كفرهم وإيغالهم فى البعد عن الله يشاركون الذين يثيرون السخرية عند تلاوة القرآن، ولذا قال سبحانه :

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا﴾ إن المنافقين يوالون الكفار ويجعلون الولاية لهم، ويجلسون معهم مستهزئين ساخرين معاندين الله تعالى مع أنه سبحانه وتعالى نزل فى كتابه المحكم أنكم إذا سمعتم أيها المخاطبون بالحقائق الإسلامية الذين يتحدثون ساخرين بالقرآن، فلا تقعدوا بل اتركوا مجلسهم وأعرضوا عنهم حتى يخوضوا أى يتكلموا فى حديث غيره، والذى نزل فى القرآن ونهى عن الجلوس مع الذين يستهزئون بما جاء به هو فى سورة الأنعام المكية التى نزلت قبل سورة النساء المدنية، وهو قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام].

والخطاب فى قوله تعالى : «عليكم» لعامة الذين يتلون القرآن الكريم من مؤمنين صادقين، ومنافقين، ومؤدى الكلام أنه من المنهى عنه أن يجلس المسلم مع مشير السخرية على أى القرآن، والمشركون يفعلون ذلك، ومع ذلك لا يكتفى المنافقون بهذا، بل إنهم يولونهم أمورهم، ويجعلون عزتهم منهم، ويكون ضمير الغيبة عائدا على الكافرين.

وبعض العلماء قال إن الخطاب للمنافقين وهو لا يخرج عن المعنى السابق.

وأرى أن الخطاب كله للمؤمنين، وفيه تحذير للمؤمنين من أن يجالسوا المنافقين إذا استهزؤوا بآيات الله تعالى، وسخروا من الأحكام الإسلامية؛ لأن سماع الشر شر؛ ولأن سماع الاستهانة بالقرآن قد تؤدى إلى الاستهانة من السامع، فأول الشر سماع الشر، وإن أولئك المنافقين يبدو فى مجالسهم كلمات الكفر وكلمات الاستهزاء.

وعلى ذلك يكون ضمير الخطاب للمؤمنين وضمير الغيبة للمنافقين والكافرين .
وقد بين سبحانه أن القعود مع الأشرار، وسماع كلمات الكفر والاستهزاء،
يجعل المؤمن كالكافر والمنافق، ولذا قال سبحانه:

﴿إِنكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ أى إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين
وهم يعلنون الكفر بآيات الله تعالى وجحودها تكونون مثلهم فى الاستهانة بكتاب
الله تعالى ورسالة الرسول الأمين، والاستهانة بالأحكام الإسلامية، وقد رأينا ذلك
عيانا، فإن أولئك الذين يجالسون الفرنجة ويقرءون ما يكتبون عن الإسلام،
ويثيرون السخرية على أحكامه تسرى إليهم العدوى، ولقد سمعنا بعض هؤلاء ممن
يتسمى باسم إسلامى، وهو من أسرة إسلامية، يتهمك على قوله تعالى: ﴿لِلذِّكْرِ
مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ [النساء] فلعنه الله تعالى، ولعنة الله على كل من لا
يؤمن بسلامة هذه القضية، ولعنة الله على كل من ينكر ميراث القرآن أو يهون من
شأنه.

وإن الآية يستفاد منها فوائد: أولها أن الاستهزاء بالحقائق القرآنية لا يقدم
عليه مؤمن. وثانيها أن الاستماع إلى الكفر بها والاستهزاء يجعل السامع
كالمتكلم؛ لأن السكوت لا يخلو من رضا ولو كان جزئيا، ثالثها أن الشر يسرى
من القائل إلى السامع كما يسرى السم فى الجسد، وكما يعجز الشيطان فى
النفس.

وقد أكد سبحانه النهى عن مجالسة المنافقين بقوله تعالت كلماته:

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أى أنه إذا كان المنافقون
يطلبون العزة من الكافرين، ويطلبون الولاء والنصرة منهم ويحاولون بذلك أن
يجتمعوا على النبى ﷺ، فإن الله سبحانه وتعالى جامعهم فى الذل والهوان، لا
فى العز والاستمكان، إنه جامعهم فى جهنم جميعا بلا استثناء قط؛ لأنهم تحدوا
الله ورسوله، ولأنهم جحدوا بآيات الله تعالى وسخروا منها، ولأن كلمة الكفر
تجمعهم وتفرقهم فى النوع لا فى الأصل. فإن الكفار قسمان: قسم أعلن الكفر

والمناواة وأولئك أقوياء الكفار، وقسم كفر وغش وخدع، فادعى الإسلام، وكلاهما في جهنم وإن كان المنافق في الدرك الأسفل منها.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ التبرص الانتظار، فيقال تبرص بمعنى انتظر، ويقال تبرص به إذا انتظره مراقبا له، ففي قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة] يراد التبرص مع مراقبة النفس، وملاحظة حال الحيض وغيرها.

وهؤلاء المنافقون عند اشتداد الشديدة، وقيام الحرب يتظنون مراقبين المؤمنين وغيرهم، فإن كان النصر الفاتح الفاصل بين قوة الشرك وقوة أهل الإيمان بنصر الله تعالى وتأيده قالوا: نحن معكم لنا حظ في الغنيمة ولا بد أن يسهم لنا سهم فيها، وإن كان للكافرين نصيب من النصر قالوا: ألم نحطكم بحمايتنا ورعايتنا ونمنع المؤمنين من أن ينتصروا عليكم، أى أن انتصاركم كان بفضل حياطتنا ورعايتنا، فهم لطمعهم مترددون بين الفريقين كالشاة العائرة بين غنمين، يذهبون إلى حيث المطمع العاجل، إذا احتدم القتال بين الفريقين، أما إذا كان السلم فقلوبهم وولائهم للكافرين دائما لأنهم منهم.

وفي النص القرآني بعض بحوث لفظية تقرب معنى النص الكريم:

أولها - أنه سبحانه وتعالى عبر عن النصر في جانب المؤمنين بأنه فتح؛ لأن الفتح فصل بين الحق والباطل، ولأنه من وراء نصر المؤمنين فتح الطريق لكي يدرك الناس الإسلام، ويدخل فيه من أراد، ولأن النصر للمؤمنين دائم، وقد عبر سبحانه عن الفتح أنه يجيء من الله وفي ذلك معنى الدوام؛ لأن الذى يجيء به هو الله القائم على كل شيء فهو باق ما بقيت الأسباب التى تتخذ للنصر.

ثانيها - أن الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ معناه أننا كنا معكم مؤكداً ذلك بالاستفهام، وهو الذى يسمى الاستفهام التقريرى وهو فى أصله للنفى، وهو داخل على النفى، وهو: لم نكن معكم، فهو نفى لهذه القضية، ونفى النفى إثبات، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ﴾.

ثالثها - أنه عبر عن انتصار الكافرين في الموقعة بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ فلم يقل أن انتصارهم فتح، ولكنه قدر من النصر قل أو كثير، ولا يمكن أن يكون فتحاً؛ لأنه لا ينصر الباطل نصراً دائماً، ولا يكون للكافرين نصيب من النصر إلا في غفلة من المسلمين كما في أحد، ويدوم بمقدار الغفلة، فإن كانت اليقظة كان فتح الله للمؤمنين.

رابعها - أن كلمة استحوذ معناها أحطنا بحاذيكم أى جانبيكم وهذا كناية عن الإحاطة بهم للحماية والمنع.

﴿قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وإذا كانت تلك حال المنافقين، في الدنيا وحال الكافرين فيها، فإن مآلهم إلى الله تعالى يوم القيامة، وهو الذي سيحكم بالحق وحده، ولا يستوى الذين يؤمنون والذين يكفرون، ومهما يكن من استنصار المنافقين بالكافرين، وتماثل الفريقين على المؤمنين، فالله سبحانه ولى المؤمنين سيقطع ما بين الفريقين، وسيكون المؤمنون في النعيم، وأولياء الشيطان في الجحيم.

وإنه في الدنيا والآخرة لن يجعل الله تعالى للكافرين بوصف أنهم كافرون سبيلاً أى سبيل للسيطرة على المؤمنين بوصف أنهم مؤمنون، وإذا كنا نرى غلبة من أهل الكفر على الذين يتسمون باسم الإسلام الآن؛ فلأنهم تخلوا عن أوامر الله تعالى للمؤمنين، وخذلوا الحق، فما كانت الغلبة من كافر على مؤمن بل كانت من كافر على مسلم تخلى عن واجب الإيمان، اللهم ارفع كلمة الحق والإيمان، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، إنك سميع الدعاء.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى
 الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
 قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ
 وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لِنَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ
 أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾

الكلام فى المنافقين، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة علاقتهم
 بالمؤمنين، فذكر أنهم يتربصون بهم الدوائر، ويريدون أن ينالوا من الغنائم من غير
 أن يعملوا، وقلوبهم مع الكافرين.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وصفا لأهل النفاق، وهو أنهم يظنون أن أعمالهم
 مستورة، وأن الناس عنهم غافلون بل إنه ليصل بهم فرط غرورهم إلى أن يظنوا أن
 الله تعالى لا يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويعاملوا الناس على أساس هذه
 الخديعة، ولذا قال سبحانه فيهم:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ الخدع أو الخداع أن يحاول المخادع
 حمل الغير على تغيير اعتقاده فيه، بحيث يعتقد فيه الخير، وليس أهلا لهذا
 الاعتقاد، فيوهمه أن أمره على ما يحب، وهو على ما يكره، أو أن يظهر من
 الأفعال ما يخفى أمره، ويستر حقيقته، بغية تضليل من يعامله، وقوله تعالى:
 ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ صيغة تدل على مفاعلة من الجانبين، والخداع دائما فى ذاته
 مفاعلة من الجانبين: خادع ومخدوع، فهو معاملة آثمة إذا لم يكن فيه خير،
 وخداع أهل الخير شر دائما.

وهنا نجد النص فيه عمل أهل النفاق، وهو أنهم يخادعون الله، وعمل الله تعالت قدرته عليهم، وهو أنه خادعهم، وقد تكلم العلماء فى معنى مخادعتهم لله تعالى، وكلامهم ينتهى إلى تخريجين.

أحدهما - أن معنى مخادعتهم لله تعالى أنهم يعاملون الله تعالى كأنهم يخادعون؛ إذ يظنون أنه يخفى عليه أمرهم فيعلنون غير ما يظنون، ويظنون أن الله تعالى لا يعلم ما فى قلوبهم، وخفايا نفوسهم؛ وذلك لأن المخادع يتوهم أن من يخادعه لا يعلم أمره، فهؤلاء لفرط جحودهم، وكفرهم بالله وجهلهم لذاته وصفاته يتوهمون أن أمورهم خافية عليه، وأنهم معه كأمرهم مع الناس، إذ يخفون ما لا يبدون.

والثانى - أن معنى مخادعتهم لله أنهم يخادعون النبى والمؤمنين؛ إذ هم أولياء الله تعالى، ومن يخادعهم كأنما يخادع الله سبحانه وتعالى، وقد وضع هذا التخرىج الراغب الأصفهاني، فقال: «الخداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يديه على خلاف ما يخفيه. قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أى يخادعون رسوله وأوليائه، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث إن معاملة الرسول كمعاملته، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح].

وجعل ذلك خداعاً له تفضيلاً لفعلمهم وتنبيهها على عظم الرسول وعظم أوليائه، وقول أهل اللغة إن هذا على حذف مضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله فى الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين: أحدهما فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة، وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون الله، والثانى التنبيه على عظم المقصود بالخداع، وأن معاملته كمعاملة الله تعالى.

ومرمى هذا الكلام هو بيان منزلة الرسول وأوليائه الله، وأن خداعهم خداع لله وهو أمر فظيع، وأن الأصل هو أن الكلام على حذف مضاف وهو الرسول والمؤمنون، وكأن نسق الكلام: يخادعون رسول الله، فحذفت كلمة الرسول،

وأقيم المضاف إليه وهو الله تعالى مقام المضاف تفضيلاً لعملهم، وإعلاءً لقدر الرسول والمؤمنين.

وفي الحق إن التخريجين يمكن الجمع بينهما، فهم يعاملون الله تعالى معاملة من يظنون أنهم يخادعون لعدم إيمانهم بالله، وهم يخادعون أولياءه ومن هذا الطريق أيضاً يخادعون الله تعالى.

ومعنى خدع الله تعالى لهم أنهم مقابل ذلك الخداع الذي يصنعونه يجزون بجزائه، وهو ثمرة له، فمعنى خدع الله تعالى مجازاتهم على نفاقهم، ومحاولتهم خداع الرسول ومن معه.

ويصح أن يقال إن معنى خدع الله تعالى أن يرد عليهم كيدهم في الدنيا، فيأتيهم سوء العاقبة في الدنيا من حيث كانوا يظنون أنهم واصلون إلى مقاصدهم؛ إذ يحسبون بنفاقهم أنهم واصلون إلى غاياتهم، فيأتيهم الله تعالى من حيث لم يحتسبوا، ويظنون أنهم مجهولون، والله تعالى كاشفهم.

وهنا إشارة بيانية دقيقة، وهي أنه سبحانه وتعالى عبر عن خداعهم بصيغة تدل على المشاركة والمغالبة، وأنهم قد ينجحون وربما لا ينجحون، أما خداع الله تعالى لهم، فلم يعبر عنه بصيغة المشاركة بل عبر سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ للدلالة على الغلب، وأن الله تعالى لا محالة كاشف أمرهم ومزيل مغبة خداعهم، ومحاسبهم لا محالة على ما يرتكبون.

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ﴾ هذه حال من أحوال المنافقين تدل على مقدار نفاقهم وتظهره، وهي أيضاً من قبيل الخداع لله ولرسوله، وللمؤمنين وذلك في الصلاة، ففي المظهر الحسى لها يقومون كسالى متثاقلين، لا نشاط يحركهم ولا إيمان يبعثهم، وهذا مظهر يريدون به إظهار الإيمان، وهو يكشف عن خبيثة أنفسهم، ولذلك جعل النبي هذا النوع من الصلاة شيمة النفاق، فقد قال ﷺ ذمما الذي صلى على هذا النحو: «تلك صلاة المنافقين، تلك صلاة

المنافقين، تلك صلاة المنافقين، يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان، قام (فنقر أربعاً) لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(١).

والحقيقة النفسية في هذه الصلاة أنهم يتوهمون بها أنهم يخدعون غيرهم، إذ إنهم يصلون هذه الصلاة ليراءوا بها، والرياء أن يقوم الشخص بالعمل الجميل في مظهره لا لاتباع أمر الله والقيام بحق الغير عليه ونفع الناس به، بل ليخدع به الناس ويظهر بالخير ابتغاء رضا الناس. والرياء نوع من الشرك، فقد قال ﷺ: «من صلى يرأى فقد أشرك ومن تصدق يرأى فقد أشرك»^(٢).

وإن هذا النوع من الخداع مكشوف كما رأيت، فهم لا يقصدون وجه الله بصلاتهم، ولكن يقصدون ستر نفاقهم وتغطية أمرهم، ولذلك قال الله تعالى فيهم:

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي أنهم لا يجرى ذكر الله تعالى في قلوبهم إلا ذكراً قليلاً، أو إلا وقتاً قليلاً لا يلبث أن يطفئه النفاق وإذا قامت في قلوبهم شعلة من الإيمان بالله لا تلبث أن تخبو لغلبة أهوائهم؛ وذلك لأن هؤلاء المنافقين يعرفون الله تعالى، ويدركون معاني الإيمان، ولكن غلبت عليهم شقوتهم، فكفروا به إذ عرفوه، ومن كانت هذه حاله يعتريه أحياناً تذكّر لله تعالى وعظمته،

(١) رواه مسلم بلفظ مقارب بلفظ المفرد (تلك صلاة المنافق) بغير تكرار، كما رواه الشرمذى، والنسائي، ورواه أبو داود، وأحمد، ومالك بنحو من الرواية المذكورة في التفسير. أما ما رواه مسلم: المساجد ومواضع الصلاة - استحباب التكبير للعصر (٦٢٢) عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ حِينَ انْتَصَرَفَ مِنَ الظُّهْرِ وَدَارَةٌ بِجَنْبِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ: أَصَلَيْتُمُ الْعَصْرَ؟ فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّمَا انْتَصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنَ الظُّهْرِ، قَالَ: فَصَلُّوا الْعَصْرَ، فَقَسَمْنَا فَصَلَّيْنَا، فَلَمَّا انْتَصَرَفْنَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ قَامَ فَفَقَّرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».

(٢) سبق تخريجه من رواية أحمد عن شداد بن أوس.

ولكنه تذكر لا يكون معه إيمان مشمر، ولا تصديق مدعن، فلا خير فيه، ولا ثواب عليه، ولا يمدحون بذلك القدر من الذكر، الذى لا يجدى. وقوله تعالى:

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو حال لهم ذكرها يفيد أنهم قد طمس على قلوبهم حتى إذا جاءهم بريق من النور أطفأوه، ولا يبقونه. وهؤلاء المنافقون أمرهم عجب هم أحيانا يدعون أنهم من دولة أهل الإيمان وفى ولايتهم إن وجدوا للمؤمنين غلبا، وينتمون إلى دولة الكفر إن كان للكفر نصيب من نصر أو غلب أهل الحق على أهل الإيمان، ولذا قال سبحانه:

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ الذبذبة الاضطراب، ومن ذلك قول النابغة فى مدح النعمان:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً
تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ

أى يضطرب ولا يصل إليها، كذلك هؤلاء المنافقون فى اضطراب دائم مستمر، ويترددون: أخرجون من الكفر إلى الإيمان، أم يبقون على ما هم عليه من كفران، ثم أهم يجعلون أنفسهم مع محمد وأوليائه، أم مع الذين يحاربونه أعدائه، وقد أشرنا من قبل إلى ما رواه مسلم من قول النبى ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه أخرى»^(١).

وهنا أمر لفظى، وهو قوله تعالى: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الإشارة فى الظاهر إلى المذكور آنفا، فى طى الكلام، وهو الكفر والإيمان، أو الاستنصار بأهل الإيمان والاستنصار بأعدائهم، فهم مترددون بين هذين الأمرين وهما المذكوران فى مضمون الكلام، فالإشارة إلى المذكور، وهو يتضمن أمرين متعارضين هما الالتجاء لأهل الإيمان أو البقاء مع أهل الشيطان. والتعبير بكلمة (بين) الدال على المكان الذى يكون بين أمرين مؤداه أنهم يكونون فى مكان متوسط بين الأمرين،

(١) سبق تخريجه.

وهذا التوسط معنوى، من حيث إنهم يدركون الحق ويعرفونه، ولكن لا يدخلون فى وسط أهله، ولا يعرفون الله تعالى حق معرفته.

ويصح أن تكون الإشارة إلى الولاء، فهم مترددون فيه، فإما أن يستنصروا بالمؤمنين ويوالوهم، وإما أن يستنصروا بالمشركين، فهم فى هذا الاستنصار مترددون حاثرون، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وإنه لا سبيل إلى هداية هؤلاء الحاثرين، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ لقد كان النبى ﷺ يتمنى الهداية لكل الذين يدعوهم، حتى الذين ينافقون منهم، فبين الله تعالى أن ذلك غير ممكن إلا أن يريد الله، لقد كان النبى ﷺ يستغفر للمنافقين، فبين الله تعالى أن الله لا يغفر لهم، فقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة]

وبهذا الحكم الثابت لن تكون لهم هداية لم يرُدها الله تعالى.

ومعنى النص: ومن يكتب الله تعالى عليه الضلال فى سجله المحفوظ يتردى فى مهاوى الرذيلة، حتى يركس فيها، ويتكاثر الشر فى قلبه، ويزيد بالخطايا فلن يفتح باب الهداية له، ولن يشرق عليه نور الإيمان، وبذلك لن تجد سبيلا لهدايته. وإن ما يكتبه الله تعالى إنما هو علمه المكنون الذى لا يتخلف أبدا، وهو لا يمنع إرادة الشر من مرتكبه، وإرادة الخير من فاعله، ونسبة الإضلال إلى الله تعالى هى من قبيل المجاز من حيث إنه تركه فى غيه ولم يسد عليه طريق الشر؛ لأنه استمرأ الرذيلة، وسار فى طريق الضلال إلى النهاية، فكان ضلاله بعيدا، والله تعالى يهدى من أراد لنفسه الخير، وسلك سبيل الرشاد، فإن الله تعالى يوصله الى طريق النجاة.

وان السبب في ضلال المنافقين الذي لا هداية معه هو اتخاذهم الكافرين أولياء، ولذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. النداء للمؤمنين بالبعد ليكون التنبيه قويا، ونادى بالموصول للإشارة إلى أن الإيمان يقتضى ألا يكون ولاء المؤمن لغير المؤمنين، ومعنى النص: يأبىها الذين آمنوا وحسن إيمانهم بالله، لا تتخذوا الكافرين بالله الذين لم يخلصوا له نصراء لكم تدخلون في ولايتهم وتكونون تابعين لهم وتتركون المؤمنين، فإن ذلك لا يتفق مع الإيمان، فالمراد بالولاية هنا النصرة والانتماء إلى جماعة الكافرين، وإن الولاء يطلق بمعنى المحبة، وبهذا المعنى جاء النهى عنه، وهو التبعية والنصرة، وإن هذا الأخير منهى عنه بالاتفاق، ولا يجوز من المؤمن إلا اتقاء الأذى إن تيقن الإيذاء، أما المحبة فغير منهى عنها إلا أن يكون الكافر قد انتقل إلى المحادة والعداوة، ولا يقتصر على مجرد الكفر، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة].

وقوله تعالى: ﴿دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى أنهم يتركون المؤمنين لينضموا إلى ولاية الكافرين، وذلك لا يسوغ من مسلم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

الاستفهام للإنكار والتوبيخ إن وقع هذا منهم، وهو يتضمن التهديد لهم بتسليط مقت الله عليهم إن فعلوا فهو استفهام إنكارا للوقوع، أى لا يقع منهم، ولا يصح أن يقع، ويتضمن التحذير والإنذار، والمعنى: إنكم إن فعلتم ذلك فقد جعلتم لله حجة فى عقابكم، وتسليط ذنوبكم عليكم وتخليه عن نصركم فإن نصر الله لا يكون إلا لمن يطلب النصرة من الله وحده، ولن ينصر الله من يستنصر بغير الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد].

وإذا كان الاستنصار بغير المؤمنين يترتب عليه هذا فهل تريدون أيها المؤمنون أن تجعلوا لله تعالى سبيلا بينا واضحا يخذلكم بسببه بعد النصر، ويعاقبكم عليه بعد الإيمان، ويذهب شوكتكم؟ لا يسوغ ذلك منكم، فاحذروه، اللهم اجعل ولائنا لك، ولا تجعل نصرتنا من غيرك.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَٰمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

الحديث في أقوال المنافقين، وشتونهم وعاقبة أمرهم لا يزال مستمرا، وهذا النص القرآني يبين مآل المنافقين يوم القيامة، فهم في خزي دائم في الدنيا، وعذاب شديد مقسم في الآخرة، وجزاؤهم هو أشد جزاء؛ لأن كفرهم أشد كفر، لأنه كفر بالله، وكذب على رسول الله، وافتراء على المؤمنين، واستغلال لإخلاص المخلصين، ومن المشركين من يصدق في القول كما رأينا من أبي سفيان عندما سأله هرقل عن النبي ﷺ وأحواله، وليس من المنافقين من يصدق في قول، أو يخلص في عمل أيا كان، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ جاء في مفردات الراغب الأصفهاني ما نصه: الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتبارا للصعود والدرك اعتبارا بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنة، ودركات النار، ولتصور الحدور في النار سميت هاوية وقال

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ والدرك أقصى بر البحر، وسميت مراتب النزول دركات لأنها متداركة متتابعة . .

وإن جهنم طبقات بعضها أسفل من بعض، وإن أسفلها أقساها عذاباً؛ لأنها تتكاثف عليها ما فوقها من طبقات؛ ولأن أعمق النيران أشدها توهجاً، وأكثرها لهيباً.

والمعنى: إن المنافقين الذين مردوا على النفاق واستمروا، صار وصفهم يماثلون الكافرين، ويخلطون المؤمنين، ينالهم عذاب يوم القيامة على أشده، وأشدّه هو أعماق جهنم، وهى الهاوية التى تهوى بهم أعمالهم فيها، وإن هذا النص الكريم يفيد أن جهنم طبقات ومنازل، وأن العقاب فيها مرتب على طبقاتهم، وهى كلها عذاب اليم، وقد وصفها القرآن الكريم بأوصاف كلها تنبئ عن الشدة فى العذاب، فذكرت باسم «جهنم»، وهو ينبئ عن التردى فى النار، ووصفت بأنها «لظى»، وبأنها «الحطمة»، ثم «السعير»، ثم «سقر»، ثم «الجحيم»، ثم «الهاوية»، وقال بعض العلماء إنها مرتبة فى مقدار شدتها بهذا الترتيب، والله أعلم بما يكون يوم القيامة.

ولماذا كان المنافقون فى الدرك الأسفل فى الهاوية من العذاب؟ قد أجاب عن ذلك العلماء بأن المنافق أوغل فى فساد النفس من أى مشرك كافر، وقد جعل الله تعالى لآل فرعون الذين ماثوّه وعاونوه فى طغيانه أشد العذاب، فقال سبحانه: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٦﴾ [غافر].

وأولئك فى كفرهم ونفاقهم أكثر إيذاء من أى كافر سواهم، ذلك أنهم جمعوا بين الكفر، والفسق والتضليل والتغريب والكذب، وتعرّف أسرار المؤمنين وكشفها، وإظهار عورات المسلمين فى الحروب، وإفساد لجماعة المؤمنين بإشاعة قول السوء بين المؤمنين، واستغلال ضعف الضعفاء منهم، وتوهين أمر المؤمنين بسبب ذلك الاستغلال، كل هذه جرائم متتابعة تدل على أن نفوسهم قد فسدت، وقلوبهم قد شغرت^(١) من كل خير، والكافر الجاحد أقرب إلى الهداية من هؤلاء، فكان عقابهم أشد؛ لأن جرائمهم أشد.

(١) أى خلت.

ولكن من هو المنافق الذى يستحق أشد العقاب، ويكون فى أعظم النيران يوم القيامة؟ نقول فى الجواب عن ذلك إنه المنافق الخالص الذى لم يكن فيه خصلة أو أكثر من خصلة فقط، ولكن هو الذى كفر بالله وبالرسالة المحمدية، وأغلق باب الإيمان فى قلبه، ولم يكتف بذلك بل أظهر الإسلام ليفسد بين المسلمين ويتعرف أسرارهم.

ذلك أن النفاق درجات هذا أعلاها، وهو أشد الكفر، ودونه بعد ذلك مراتب تكون بين المسلمين، ولا تخرج المسلم عن إسلامه، وإن كانت تجعل إيمانه ضعيفا، ومن ذلك عمالة الحكام، والسكوت عن كلمة الحق مع النطق بالباطل ملقا، وخداعا. وقيل لابن عمر - رضى الله عنهما -: «ندخل على السلطان، وتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه، فقال - رضى الله عنه -: (كنا نعهده من النفاق).

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف ما يفيد أن المنافقين فريقان، فريق خلص للنفاق، وهذا منكوس القلب والنفس والفكر؛ وقسم فيه خصلة من النفاق، وهذا يتنازعه الخير والشر، ولنضىء القرطاس بنور الرسالة، فقد قال - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه الإمام أحمد: «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأى المدين غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(١).

وإننا لهذا نقول إن النفاق فى داخل الإسلام مراتب، وأعلاها أولئك الذين يتملقون الحكام، ويتحدرون إلى درجة وضعهم فى مقام النبيين ومنهم من يذهب به فرط نفاقه، فيفضل بعض عملهم على عمل النبيين، وهؤلاء نتردد فى الحكم بأنهم

(١) أجرد: ليس فيه غش ولا خداع. أغلف: عليه غشاء من سماع الحق وقبوله. مصفح: ذو وجهين اجتمع فيه نفاق وإيمان. والحديث رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه (١٠٧٤٥).

مسلمون، وقريب منهم الذين يتأولون النصوص من غير حجة فى التأويل ويعبثون بظواهرها القاطعة لهوى الحكام.

هذا عقاب المنافقين فى إيمانهم فى الآخرة، ولهم عقاب فى الدنيا والآخرة، ذكره سبحانه بقوله تعالى:

﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ نفى الله تعالى عنهم نفيا مؤكدا، أن يكون لهم نصراء، وجعل الخطاب موجها للنبي ﷺ، وهو الذى ذاق آثار نفاقهم، وذاق المؤمنون معه مرارة ذلك النفاق؛ لأن فى ذلك تشييتا للمؤمنين، حتى لا يتزلزل أحد منهم بعمل المنافقين الذى مردوا عليه، ولم يتراجعوا عنه، ولأنهم أرادوا بالنفاق الاستئصال بغير دولة الحق، لنفور دولة الباطل على النبي ﷺ، فذكر الله تعالى لنيه أنه لن يجدهم منصورين عليه أبدا لأنهم لا ناصر لهم.

وإن هؤلاء لن يكون لهم نصير يوم القيامة؛ لأنه لله وحده، ولن يجدوا نصيرا يخلص فى النصرة لهم فى الدنيا؛ لأن النفاق يسلب الثقة عنهم، فلا ينصرهم أحد ممن يستنصرون بهم، بل إنهم يستخدمون شرهم، ولا يعطونهم خيرا، وما وجدنا منافقا فى الماضى أو الحاضر يخون قومه، وينال نصرة صحيحة ممن ينافق لأجلهم، فتلك سنة الله تعالى فى المنافقين: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

إن الله سبحانه وتعالى ذكر المنافقين بما يدل على أنهم أركسوا فى الشر، وطغى على قلوبهم، وأغلق باب الهداية عليهم، حتى أن رجوع المشرك عن شركه أقرب من رجوع المنافق عن نفاقه، فغلاف القلوب قد ينكشف ولكنه سبحانه مقلب القلوب، فقد تكون من المنافق توبة، ولذلك فتح الله سبحانه وتعالى بابها بقوله سبحانه فى هذا الاستثناء:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ الاستثناء هنا منقطع؛ لأن الذى يتوب التوبة النصوح لا يمكن أن يعد فى صفوف المنافقين الذين يستحقون الدرك الأسفل من النار؛ ولذا نقول إن المعنى هو: لكن الذين تابوا من النفاق وخرجوا من صفوفه يكونون مع المؤمنين، وإن أولئك الذين يخرجون من أوكار

النفاق، قد ذكر الله تعالى لهم أوصافاً أربعة هي التي تخرجهم من زمرة المنافقين إلى جماعة المؤمنين.

أول هذه الأوصاف: التوبة، وهي التوبة النصوح، وأركانها ثلاثة- أولها إدراك لقيح العمل ثم الندم على ما كان منه ثم الإقلاع وأن يعزم على ألا يعود إليه من بعد أبداً، فإذا تحققت هذه الأركان فإن الله يفتح قلب العبد لنور الهدى، ويأخذ بيده إلى سلوك طريق الحق المستقيم.

والوصف الثاني: أن يكون التطهير القلبي له مظهر عملي ليقوى، وذلك بالإصلاح، بأن يتجهوا في ذات أنفسهم إلى الأعمال الصالحة التي هي مظهر الإذعان والتوبة، فكل ما يكون في النفس من درن النفاق يطهرها منها بالاستمرار على العمل الصالح ويدوم عليه، فليست التوبة، كلاماً باللسان، ولكنها طهارة للوجدان، ومع إصلاح النفس وتقوية عزيمتها يتجه إلى الإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها، فلا يفسد بين الناس، ولا يغري بالعداوة بينهم، ولا يخذل أهل الحق، وينصر أهل الباطل، فالإصلاح المطلوب يتضمن عناصر ثلاثة، تطهير النفس من أدناس النفاق كلها، فيخرجها منها كما يخرج الذهب الخالص مما اختلط به، والعنصر الثاني العمل الصالح يقوم به لذات نفسه وللناس، والثالث أن يكون بين الناس عنصر إصلاح وتوفيق، لا عنصر إغراء وتوهين للجماعة.

والوصف الثالث: الذي يلتحق به بأهل الإيمان الاعتصام بالله، والاعتصام به سبحانه هو التمسك بأوامره ونواهيه والالتجاء إلى كتابه وسنة رسوله، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ﴾ [آل عمران]

والاعتصام بالله يقتضى ألا يجد المؤمن ملجأ إلا في جماعة المؤمنين، فلا يستنصر بغيرهم، ولا يجعل ولاءه لمن دونهم، فذلك شر بلایا للنفاق.

الوصف الرابع: الإخلاص في دين الله، بأن يجعل كل قلبه لله تعالى، ولا يجعل في قلبه مكاناً لغير الله تعالى، وأن يجعلوا طلبهم الدين لأجل الله تعالى لا لدنيا يصيونها، ولا لهدف غير الإيمان يستهدفونه، فيطلبون الحق لوجهه، وينفذون كل

أوامر الدين لله، ويتحقق قول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»^(١).

إذا تحققت هذه الأحوال دخلوا في الجماعة المؤمنة، ولذا قال سبحانه:

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فأولئك الذين اتصفوا بهذه الأوصاف بسببها يخرجون من صفوف المنافقين إلى صفوف المؤمنين، فالإشارة في قوله تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ للسابقين، وهم قد عرفوا بأوصافهم، فكانت الإشارة إليهم موصوفين بها، وكانت هذه الأوصاف هي السبب في ارتفاعهم من دركة النفاق السفلى إلى درجة أهل الإيمان العليا، وذكر الله سبحانه وتعالى هذه المعية للمؤمنين لشرف الصحبة مع الأخيار الأبرار، بعد طلبهم النصرة من الأشرار الكفار، فهذا دليل على الرفعة في الصحبة بعد الانخفاض فيها، كما ارتفعوا عند الله، والإشارة بالبعيد للدلالة على رفعة منزلتهم بالتوبة، وفي كل ذلك تحريض عليها وترغيب فيها فإن الله تعالى يحب توبة عبده، وهو الغفور الرحيم، العزيز الكريم.

وإنهم إذا كانوا مع المؤمنين، فإن لهم جزاءهم وقد وعد الله المؤمنين جزاء عظيمًا، ولذا قال سبحانه:

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأجر هو الجزاء، وهنا إشارتان ببيانين:

إحداهما - أن التعبير بـ «سوف» لم يكن استعماله في القرآن، وهو أحكم الكلام للدلالة على مجرد التسويف الزماني، بل هي لتأكيد الوقوع في الأمر المستقبل، وكان المعنى أنه من المؤكد أنه سينزل المؤمنون بمقام الرضا والجنات في قابل أمرهم كما ظفروا بالرضا والنصر، والتأييد في عاجلهم.

ثانيهما - تنكير الأجر إذ قال «أجرا عظيما»، فنكر الأجر ووصفه بالعظم، والتنكير هنا للتعظيم، فكأنه قد أكد عظم هذا الأجر مرتين مرة بما تضمنه معنى التنكير، ومرة أخرى بالتصريح بوصف العظم، وإن جزاء الله لعظيم أي عظم.

(١) سبق تخريج ما في معناه من حديث.

ولقد ذكر الله تعالى، أنه سبحانه يحب توبة عبده وجزاءه، ولا يرضى لعباده الكفر وعقابه، ولذا قال سبحانه:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ الاستفهام هنا للنفي، والمعنى ما الذى يفعله الله تعالى راضيا به مجبا له بعذابكم وآلامكم إن شكرتم نعمته، وأديتم حق الأداء فأمتتم به، ومن الإيمان به تصديق رسله وإجابتهم وإطاعتهم؟! أى أنه سبحانه لا يفعل بكم شيئا من العذاب ولا الإيلام فى الآخرة إن كان منكم الشكر والإيمان، بل إنه سبحانه وتعالى مجازيكم شاكرا لكم توبتكم بعد الكفر، وطاعتكم بعد العصيان، ولذا قال سبحانه:

﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أى أنه من صفات الله تعالى، وشأنه الدائم أنه مثيب الطائع، عليم بموضع طاعته، وما تخفى الصدور، فالآية ذيلت بما يدل على الثواب والنعيم لأهل الإيمان، ومن ينضم إليهم من التائبين، وفى الآية الكريمة ثلاث إشارات بيانية:

الأولى - التعبير بالاستفهام للإشارة إلى أن الله تعالى رتب الجزاء على العمل، وأنه يجب على عباده أن يعرفوا ذلك ويدركوه، وأنه ليس من المعقول مع حكمته تعالى، وكريم وعده ألا يعطى عاملا عملا طيبا جزاء عمله.

الثانية - تقديم الشكر على الإيمان، فى قوله تعالى: ﴿ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ ﴾.

ذلك أن الرجل الذى يتجه إلى الخير تكون نفسه مدركة للنعم التى أنعم الله بها على عباده، شاكرا لأنعمه، قادرا لها حق قدرها، فيكون ذلك سبيلا لطلب الحقيقة فيكون الإيمان، فالشكر يؤدي إلى الإيمان، والإيمان يؤدي إلى أعظم الشكر.

الثالثة - أن الله تعالت عظمته سمى ثواب الطائعين شكرا منه، وذلك إجلال للطاعة، وتشريف للمطيع، ومنة وفضل منه سبحانه فوق منته وفضله، وأن هذا تعليم لنا لشكر للمحسن فضل الله، اللهم اهدنا إلى أن نشكر لك فى ضرائنا وسرائنا، إنك نعم المولى ونعم النصير.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ
 اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ١٤٨ **﴿إِنْ يُبَدِّوْا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ
 سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾** ١٤٩

فى الآيات السابقة كشف الله سبحانه وتعالى عن أوصاف المنافقين، وبين ظواهر أحوالهم، ومجموع أمورهم، وما يرتكبون من سيئات واضحة معلمة، وما يخفون فى صدورهم من أحقاد مكنونة، وبين مآل أمرهم إن استمروا فى غيهم يعمهون، وبين سبحانه وتعالى أن باب التوبة مفتوح، وأن الله تعالى لا يغلق باب الرحمة بالتوبة على أحد من عباده، ولو كانوا منافقين، فإن الله تعالى يحب التوابين، والتوبة عنده سبحانه تحب ما قبلها من سيئات مهما تكن.

وفى هذا النص الكريم بين أن الجهر بالسوء من القول لا يكون إلا فى أحوال تقتضى ذلك، وقد وجد مقتضاه فى أهل النفاق، فليحترز المؤمن من الاسترسال فى الجهر بالسوء إلا عند أشد الحاجة إليه، ولذا قال سبحانه:

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ السوء هو ما يسوء الناس من أقوال وأفعال، سواء كانت الإساءة عامة أو خاصة، وسواء أكانت الإساءة إلى الإنسان أم إلى الفضيلة، فكل ما يمس المجتمع، ويترتب عليه شر وأذى، فهو من السوء، والمحبة شأن من شئون الله تعالى، لا تتشابه مع محبتنا، ولا مع ما يجرى بيننا من حب وبغض؛ لأن ذات الله تعالى منفردة بصفاته، لا تشابه ذات المخلوقين فى شئ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١١ [الشورى].

والمحبة أكثر من الرضا، والرضا أكثر من الإرادة، فهذه كلها صفات للذات العلية مرتبة فى القوة، فالإرادة تتعلق بالخلق والتكوين، فما أَرَادَهُ الله تعالى يقع، وما لا يريد لا يمكن أن يقع، فلا يمكن أن يقع من أفعال الإنسان ما لا يريد رب العالمين، ولا يمكن أن يفعل الإنسان شيئاً لا يريد العليم الخبير الذى لا تخفى عليه الأنفس، وما تكن الصدور.

أما الرضا فمعناه بالنسبة للذات العلية أن يكون العمل أو القول محل قبوله سبحانه وتعالى والمجازاة عليه، ولذلك يتصور أن يفعل العباد ما يغضبون الله به سبحانه وتعالى، وقد جاء في القرآن الكريم عبارات سامية صريحة بأن الله تعالى يغضب على عباده لأفعال فعلوها، وأن الله تعالى لا يرضى عن بعض أفعال عباده، فلا يرضى من عباده الكفر، والرضا لا يكون إلا لأعمال المتقين وهو أعلى أنواع الثواب الذي يشيب الله تعالى به عباده، ولذلك قال سبحانه بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) [التوبة].

والمحبة مرتبة فوق الرضا، أو هي أبلغ الرضا، وقد وعد الله تعالى أهل الإيمان الحق الصادق بأنهم ينالون محبته، وهي أقصى درجات الرضا.

ومع أن المحبة من الناحية الإيجابية أقصى درجات الرضا، هي من الناحية السلبية، تكون في مرتبة الغضب، فمعنى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾. أن الله تعالى يبغض الجهر بالكلام الذي هو سوء في ذاته، ويسئ الناس، ويؤذي الفضيلة، فإن ذلك إعلان سيئ الأعمال، وقبيح الأقوال.

والجهر معناه النطق به في إعلان لا خفاء فيه؛ ونشر هذا الكلام بين الناس، وإذاعته بين ربوعهم.

والمعنى الإجمالي للنص السامي أن الله تعالى يبغض الجهر بالأمر السيئ أو الأفعال السيئة. وكل إعلان للمنافق والفاجر من الجهر بالأمر السيئ هو من قبيل الجهر بالسوء من القول، فـ «مَن» هنا بيانية وهي بيان لنوع السوء بأنه من القول، وذلك يشمل كل إعلان للأعمال القبيحة، والتراعى بها، فيشمل القذف والسباب وإعلان المعاصي والجرائم، وتفصيل القول فيها من غير حاجة إلى بيانها، ولا إقامة حق في إعلانها، فإن ذلك كله من سوء القول وفاحشه.

وإن الإسلام في سبيل تكوين رأى عام مهذب نهى عن إعلان الآثام والمفاسد الشخصية، ولقد قال النبي ﷺ: «أيها الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات،

فاستتر فهو في ستر الله، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد^(١) ويقول ﷺ: «إن من أبعد الناس عن الله منازل يوم القيامة المجاهرين، قيل: ومن هم يارسول الله؟ قال: ذلك الذي يعمل عملا بالليل قد ستره الله عليه، فيصبح يقول: فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله^(٢)».

وإن الجهر بالسوء يسهله، فتزداد الجرائم ويسهل ارتكابها لمن هو على استعداد لها، وكثيرا ما نرى الشبان يرتكبون جريمة معينة قد أخذوها من قصة أذيعت، أو نشرت، أو تردد ذكرها، فإن ذكر الشر يستهوي الشباب، خصوصا إذا قدم في عرض منسق يحجب الاستماع إليه، فإنه يسرى في النفوس سريان الطعام المسموم في الأجسام. وفوق ذلك فإن كثرة ذكر السوء والفجور يزيل استنكاره في النفس، ويذهب بروعة الحق، وإن ذكر السوء لأهل السوء يثير عدوانهم ويجعلهم يتبجحون في ارتكابه، ويباعد بينهم وبين الاستجابة لداعى الهدى، ذلك أن الناس إذا استتروا في شرهم، وظنوا أن الناس لا يعلمونه كان كتمانهم سهلا لقتله في نفوسهم، فإن أعلن وفقدوا حياءهم استمروا الشر وأعلنوه، وكل إعلان منهم تغليق لباب الهداية في قلوبهم بيد أن الشر أحيانا يجب إعلانه لدفعه، إذا كان ثمة فريسة لهذا الشر، وتعد بالظلم، فإنه يجب دفعه، ولذلك ذكر سبحانه بعد أن قرر القاعدة العامة، وهي أنه لا يجب الجهر بالسوء استثناء حال الظلم فقال:

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ الاستثناء هنا عند بعض العلماء استثناء

منقطع، ف «إلا» هنا معناها لكن، والمعنى: لكن من ظلم له أن يجهر بالسوء لدفع

(١) موطأ مالك - الحدود فيمن اعترف على نفسه بالزنا (١٥٦٢) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ رَجُلًا اعْتَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزَّانَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَوْطٍ، فَأَتَى بِسَوْطٍ مَكْسُورٍ فَقَالَ: «فَوْقَ هَذَا» فَأَتَى بِسَوْطٍ جَدِيدٍ لَمْ تَقْطَعْ ثَمَرَتُهُ فَقَالَ: «دُونَ هَذَا» فَأَتَى بِسَوْطٍ قَدْ رُكِبَ بِهِ وَلَانٌ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجُلِدَ ثُمَّ قَالَ: «إِيهَا النَّاسُ قَدْ أَنْ لَكُمْ أَنْ تَنْتَهَوْا عَنْ حُدُودِ اللَّهِ، مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَادُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَرِ بِسِتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نَقِمَ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ».

ظلمه، وحدود الجهر هو مقدار دفع الظلم، فإن أمكن دفعه بغير الجهر لا يجهر، وإن لم يمكن دفعه إلا بالجهر - جهر حتى يصل إلى حقه.

وقال بعض العلماء إن الاستثناء متصل، وتأويل الكلام أن الله تعالى لا يحب الجهر بالسوء إلا جهر من ظلم فإنه ليس بخارج عن محبة الله تعالى لأن دفع الظلم واجب ولازم، ولقد قال رسول الله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن بقلوب بعضكم بعضا، ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

فدفع الظلم واجب، وإذا كان الجهر سبيله فهو واجب؛ لأن ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، ولكن ما مدى الاستثناء الذي يسوغ الله سبحانه وتعالى به للمظلوم أن يجهر بالسوء، وأن يعلنه؟ نقول بالإجمال إن مداه هو منع الظالم من الاستمرار في ظلمه وحمله على الانتهاء عن غيّه، وإن ذلك يشمل الأحوال الآتية:

الأولى - أن يجهر الخصم بما ارتكب خصمه من مآثم في حقه أمام القاضي، فإن الجهر في هذه الحال لا يبغضه الله تعالى؛ لأنه إقامة حق، ودفع باطل، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۚ﴾ [الشورى]

ولقد قال رسول الله ﷺ: «لئى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته»^(١) والمراد أن يغلظ له فى القول، ولا يقول القاضى قولاً لينا إذا ثبت مظهره فى أداء الدين».

الثانية - إذا كان الحاكم ظالماً، فإنه يجب توجيه اللوم الشديد إليه بالنقد من غير إسفاف، ولكن لا يقول الناقد إلا حقاً، ويستر نقده، حتى يرفعوى هذا من غيّه وذلك إذا لم تُجد فيه الموعظة الحسنة، فإن كانت مجدية لا يصح الاتجاه إلى الجهر بمظالمه. ولقد قال النبي ﷺ: «أفضل المجاهدين رجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر

(١) ذكره البخارى تعليقا: الاستقراض وأداء الديون - لصاحب الحق مقال، ورواه الترمذى: البيوع - مغل الغنى ظلم (٤٦٨٩)، وأبو داود: القضية - فى الحبس فى الدين وغيره (٣٦٢٨)، وابن ماجه: الأحكام - الحبس فى الدين والملازمة (٢٤٢٧)، وأحمد: مسند الشاميين (١٧٤٨٦) عن السويد ابن الشريد الثقفي.

فقتله»^(١)، وإن ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن نقد الفساد هو من قبيل الإنكار بالقول، وهو المرتبة الثانية من الإنكار، فقد قال ﷺ: «من رأى منك منكم فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

الثالثة - الدعوة على الظالم، فإن هذه الدعوة يصح أن تكون جهرا. ومن ذلك دعوة النبي ﷺ على العرب الذين ناووه، فقد قال - عليه الصلاة والسلام - في دعائه: «اللهم اشد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»^(٣). وخص - عليه الصلاة والسلام - أسماء بالدعاء عليهم، وقد أثر عن السلف الصالح الدعاء على من ظلمهم، وكان يوصى الحسن البصري المظلوم بأن يقول في ظلمه: «اللهم أعني عليه، اللهم استخرج حقي منه، اللهم حل بينه وبين ما يريد من ظلمي».

الرابعة - أن يذكر المظلوم الظالم الذي ظلمه بالسوء في مجالسه من غير كذب ولا بهتان، وقد روى عن بعض السلف أنهم ترخصوا في ذلك، وأجازوا لمن شتم أن يرد الشتم بمثله، ولكن إن افترى عليه لا يفترى لأن الكذب حرام لا يسوغه شيء، فلا تجوز المعاملة بالمثل فيه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: لا بأس لمن ظلم أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوء من القول. ولقد روى أن علي بن أبي طالب قال: (ادفعوا الحجر من حيث جاء، فإنه لا يدفع الشر إلا شر مثله).

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم: الإيمان - بيان كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإيمان (٤٩)، وابن ماجه: الفتن - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٣)، وأحمد: باقى مسند المكشورين - مسند أبى سعيد الخدرى (١١٠٦٨)، والنسائى: الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذى: الفتن (٢١٧٢)، وأبو داود: الصلاة (١١٤٠).

(٣) متفق عليه؛ رواه البخارى: الأذان - يهوى بالتكبير (٨٠٤)، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة - استحباب القنوت فى جميع الصلاة إذا نزلت نازلة (٦٧٥). عن أبى هريرة رضى الله عنه. والحديث أطرافه فى البخارى تسعة وفى بعضها زيادة على بعض. فراجع ههناك إن شئت.

هذه أحوال تُسوِّغُ النطق بالسوء دفعا لظلم أهل السوء، وكذلك الجدل في الحق، لا مانع من ذكر ما انغمس فيه أهل الباطل ولا يعد هذا جهرا بالسوء، بل هو كشف للسوء، وإن الأحوال التي يكون فيها دفع الظلم لا تعد على التحقيق جهرا بالسوء لمجرد الجهر، بل هي كشف للظالم، وإنهاء للظلم، ولذلك رجح بعض العلماء أن يكون الاستثناء منقطعا.

ومهما يكن من أمر الجهر بالسوء، فإن الله تعالى عليم بالبواعث، سميع لما يجر به الجاهر، وما يحدث به نفسه، ولذلك ذيل سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أى أنه تعالى متصف بوصف السمع الكامل، والعلم المحيط الشامل، فهو سميع لما يجر به الإنسان، وما تحدث به نفسه، وما هو مطوى من خلجات وجدانه، وعلیم بالبواعث التي تبعثه على المنطق، ومجازيه بقوله وعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو عليم بكل أعمال الجوارح، وما يرتكبه العباد من خير وشر علما محيطا يليق بذاته العلية.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ بعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما لا يحبه من الجهر بالسوء وأشار إلى الترخيص بالنطق به لدفع الظلم أو للقضاء على منكر من الأفعال أو زور من الأقوال، بين سبحانه وتعالى ما يحبه من الخير الإيجابي والخير السلبي ويكون بالعمو، فمعنى قوله تعالى ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ أن الله سبحانه وتعالى يحب الخير في كل صورة، والخير هو عمل البر، والنفع الإنساني العام، فإن عملتوه فإنكم تعملون ما يحبه الله، فإن تبدوه وتظهروه وتعلنوه، أو تخفوه وتكتموه، فهو مقبول مجزئ عليه في كلتا حالیه، فإن أظهرتموه للدعوة إليه، فإلى الخير تدعون، وأن أخفيتموه اتقاء لله ومنع للرياء. سترنا على ما تعطون فنعما تفعلون.

هذا فعل الخير الإيجابي، وفعل الخير السلبي هو العفو عن الإساءة، والصفح الجميل عن الناس، فإن ذلك مما يحبه تعالى. ولقد روى أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نقص مال من صدقة، وما زاد عبد بعفو إلا عزاء، ومن تواضع لله رفعه

الله^(١) وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ موقعها من المعنى أنها تعليل لكلام مطوى تدل عليه إذ المؤدى: وما تفعلوا من خير وتبدوه أو تخفوه أو تعفوا عمن يسيء إليكم، فإنكم تقرّبون إلى الله تعالى، ويحبكم الله لأنه سبحانه عفوٌ دائماً وقديرٌ على أخذ المسيء بإساءته، فتخلقوا بصفات الله تعالى، وله سبحانه المثل الأعلى.

وهنا ملاحظات ثلاث:

الأولى: أن الآية الكريمة تفيد أن إبداء الخير محبوب، فهل يدخل في هذا الرياء؟ ونقول في ذلك إن الفعل النافع إذا قصد به الرياء لا يكون خيراً، بل يكون شركاً، فلا يدخل تحت عنوان إبداء الخير؛ لأن النبي ﷺ يقول: «من صلى يرأى فقد أشرك، ومن صام يرأى فقد أشرك، ومن تصدق يرأى فقد أشرك»^(٢) فهذا فعل خارج عن نطاق الخير، فلا يلتفت إليه، إذ لا يدخل في عمومه.

الثانية: أن العفو عن الأمر السيئ إنما يكون في حال ما إذا كانت الإساءة تمس شخص من يعفو، وهو بهذا بذل حقاً خالصاً له؛ أما إذا كان الأمر السيئ يتعلق بنظام في الإسلام، فلا يصح أن يترك، بل لا بد أن يقاوم، ولا يقال لتاركه إنه عفا، بل يقال عنه إنه قصر وترك الواجب.

الثالثة: أن الإسلام دعا إلى الصفح الجميل، فقال الله لنبيه: ﴿... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر] وهو الصفح من غير منّ. ولله تعالى ولرسوله المنّ والفضل.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» رواه مسلم: البر والصلة - استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذي: البر والصلة (٢٠٢٩)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٨٧٨٢)، ومالك:

الجامع (١٨٨٥)، والدارمي: الزكاة (١٦٧٦) عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

والآية جمعت مكارم الأخلاق، وقد قال في معناها فخر الدين الرازي: «اعلم أن معاهد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلُق مع الخلق، والذي يتعلق بالخلق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم. وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير، وأعمال البر». اهـ.

اللهم اهدنا لنفع الناس، وجنبنا ضرهم، واعف عنا فيما كان منا، واغفر لنا وارحمنا إنك غفور رحيم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُوا نُوْمنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ
حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٥٢

ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال المنافقين، وما كانوا يصنعون مع المؤمنين، وذكر سبحانه وتعالى ما تكنه نفوسهم وما هم عليه من تردد وتذبذب، ومع ذلك فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لهم إن أرادوا أن يسلكوا المنهاج القويم المستقيم. ثم ذكر سبحانه وتعالى أن الجهر بالسوء إلا ممن ظلم لا يجوز، وأن إيذاء الخير خير، وإخفاءه خير وأن الله تعالى مجاز به. وجاءت هاتان الآيتان بين ذكر المنافقين، ثم ذكر الكافرين

من أهل الكتاب، وكثيرين من المنافقين منهم لبيان أن الجهر بالسوء لغير مصلحة لا يجوز، فإعلان سوء المنافقين كان ممن يظلمون ويتعدى إليهم شرهم، وفي هذه الآيات يبين الله تعالى حال بعض الكافرين وأسباب كفرهم، ومآلهم، وأحوال أهل الإيمان ونتائج إيمانهم فيقول سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ

الكفر هو الجحود بالحق، والإيمان هو الإذعان له، والسير على مقتضاه، ومن يؤمن بحقيقتين متلازمتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى لابد أن يكون إيمانه بالحقيقتين معا، فمن كفر بإحداهما، لا يعد مؤمنا بهما لأنه لا يمكن فصل الواحدة عن الثانية، إذ اللازم يقتضى أن يوجد معا، أو ينتفيا معا. ومن المقررات أن الإيمان بالرسالة الإلهية والإيمان بالله حقيقتان متلازمتان، فلا يمكن أن يتحقق الإيمان بالله من غير الإيمان برسله، ولا يمكن أن يتحقق الإيمان بالرسالة الإلهية إلا على وجه الكمال بأن يدعن لكل رسالة تحيى من الله تعالى.

فمن آمن ببعض النبيين وكفر ببعض آخر قامت الأدلة على نبوته لا يعد مؤمنا برسالة الله تعالى ولا يعد مؤمنا بالله تعالى؛ إذ إنه فصل الجزء الذى لا يتحقق إلا فى كل، وفصل الإيمان برسالة الله عن الله تعالى.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية صفتين لهم، ونتيجتين باطلتين: أما الوصفان فهما الكفر بالله ورسله، ومحاولتهم أن يفرقوا بين الله ورسله.

والكفر بالله تعالى هو هنا جحود رسالته الإلهية التى يبعث بها إلى خلقه؛ لأن جحود رسالة الرسل أو بعضهم مع قيام الدليل عليها جحود بالله الذى بعث بهذه الرسالة؛ لأن إنكار الرسالة الإلهية لنبي من الأنبياء عصيان لله وجحود به، وكفر بأصل الرسالات ومرسلها، إذ إن الإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بأنه لم يخلق الناس سدى، والإيمان بعقابه وثوابه وحسابه والإيمان بأنه يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فمن أنكر رسالة رسول من الرسل فقد كفر بالله وكفر برسله؛ لأن الكفر برسول ينسحب عليه بقية الرسل، إذ إن ما ثبت من تكذيب لرسول، فقد كذب الباقيين، فمن كفر بموسى فقد كفر بمحمد وإبراهيم وعيسى، وغيرهم من الرسل.

والوصف الثانى إرادتهم أن يفرقوا بين الله والرسل، بأن يعلنوا إيمانهم بالله خالق السموات والأرض، والإنكار لبعض الرسل، فإن ذلك تفريق بين الله ورسله، إذ إن علاقة الرسل بخالق السموات والأرض واحدة، ومن كفر ببعض الرسل، فإنه يفرق بين الله وأولئك الرسل الذين كفر بهم، فاليهود يفرقون بين الله ورسله، لأنهم لا يؤمنون بعيسى ابن مريم، ومحمد بن عبد الله، وهم بذلك يفرقون، وقد فسر بعضهم إرادتهم التفرقة بين الله ورسله أنهم يؤمنون بالله تعالى، وينكرون الرسالة الإلهية، وهو تفسير يحتمله النص، ولكنه بعيد لأن السياق يأباه.

وأما التيجتان الباطلتان فهما قولهم نؤمن ببعض ونكفر ببعض، واتخاذهم بذلك سبيلا بين الإنكار المطلق، والإيمان الكامل، وإن ذلك القول متلازم مع الكفر بالله وبرسله إذ إن الإيمان بالله تعالى حق الإيمان، والتصديق بالرسالة الإلهية حق التصديق يستلزم، كما نوهنا الإيمان بكل الرسل؛ لأنهم جميعاً أتوا بغاية واحدة، وهى إصلاح الخليقة فى ناحية رسالة كل رسول، وحثها على الجادة المستقيمة والإنذار والتبشير، ولا يصح لهذا أن يقال نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض لأن الكفر ببعض كفر بالكل، إذ هو جحود للغاية من الرسالة، وجحود بذات الرسالة.

وأما إرادتهم اتخاذ سبيل أى طريق وسط بين الإيمان الكامل بكل الرسل، والكفر الكامل بكل الرسل، فمؤداه أن يكونوا فى حال بين الإيمان والكفر. ولا شك أن هذه الحال ليست إيماناً بالله ورسله وليس بعد الإيمان إلا الكفر، فهم داخلون فى سلك الكافرين، سواء أكانوا مؤمنين ببعض أم كافرين بالكل، ولذلك حكم الله تعالى بهذا الحكم الحاسم الفاصل ما بين الكفر والإيمان بقوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ التعبير بالإشارة للإفادة إلى أن هؤلاء الذين قالوا ذلك القول، وجحدوا ذلك الجحود بسبب هذه الأقوال وتلك الأحوال كافرون كفرا لا مجال للشك فيه، وقد أكد - سبحانه وتعالى الحكم عليهم بالكفر بثلاثة مؤثرات:

أولها - الإتيان بكلمة «هم» الدالة على تأكيد الحكم، وقصرهم على الكفر وإثبات أنهم لا يخرجون عن دائرة الكفار يسارعون فيها ولا ينتقلون منها.

ثانيها - تعريف الطرفين وهم أولئك الجاحدون بالإشارة، والحكم بأنهم الكافرون أكد القول، وأفاد من قبيل المبالغة في تأكيد الوصف بالكفر، كأن الكفر مقصور عليهم لا يخرج عنهم، وهم بذلك أوغل في الكفر من الذين لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا رسالة؛ إذ هم يسلّمون بالأصل ويعرفونه، ويكفرون مع ذلك به، ولا يطبقونه.

ثالثها - التعبير بكلمة ﴿حَقًّا﴾، أى أن كفرهم ثابت قد ثبت وحق حقا، وقد قال الزمخشري في تخريج هذه الكلمة «أى هم الكاملون في الكفر، وحقا تأكيد لمضمون الجملة كقولك هو عبد الله حقا أى حق ذلك حقا وهو كونهم كافرين، أو صفة لمصدر الكافرين، أى هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لا شك فيه».

ولماذا كان ذلك التوكيد؟ والجواب عن ذلك أن التوكيد يكون حيث مظنة التردد في عقول الذين قالوا ذلك القول، فقد حسبوا بقولهم وإرادتهم أنهم يرضونه بذلك فبين الله سبحانه أنه لا وسط بين الإيمان الكامل والكفر فى شيء، وخصوصا أن جحود هؤلاء ببعض الرسل انبعث من حقد دفين، وتفريقهم بين الأجناس، حتى فى مقام الرسالة، وقد قال تعالى: ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۖ﴾ [الأنعام].

وإنهم بهذا الكفر يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ إذ إنها كانت فى اليهود وأشباههم الذين رفضوا محمدا، لأنه عربى، وليس بعبرى، وحيث كان التردد فى عقل وجب تأكيد الحق، ليزول التردد، ويتبع التابع عن بينة و يقين؛ وقد ذكر الله تعالى عقاب هؤلاء، وأمثالهم فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

والمعنى هيأنا للكافرين الذين يندرجون فى جمعهم عذابا مهينا يذيقهم الهوان والذل، كفاء استكبارهم فى الدنيا، واعتزازهم بالباطل فيها، ويصح أن يقال إن كلمة (الكافرين) لا تعم كل الكفار، ولكنها تخص الذين ذكروا فى الآية السابقة؛ لأن اللفظ إذا أعيد معرّفا كان المراد به المذكور أولا، ويكون تخصيصهم بالذكر، لبيان نتيجة ما ارتكبوا وما فرقوا به بين رسله سبحانه.

وهنا بحث لفظى فى لفظ «أعتدنا»، وهو تعبير قرأى اختص القرآن به؛ لأن اعتد من العتاد، والتخريج اللفظى هيأنا لهم عتادا هو عذاب جهنم. وقد قال فى ذلك

الأصفهاني في مفرداته: «العتاد ادخار الشيء قبل الحاجة إليه كالإعداد». وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ قيل هو أفعلنا. وقيل أصله من أعددنا فأبدل من إحدى الدالين تاء.

وخلاصة المعنى أن هؤلاء الكافرين ادخر لهم عذابا مذلا جزاء استكبارهم.

هذا شأن الذين كفروا بالله ورسله، وفرقوا بينهم، وما يدخر لهم، ويقابلهم المؤمنون حقا وصدقا، وقال فيهم سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين حقا وصدقا بوصفين: الوصف الأول الإيمان بالله تعالى ورسله أجمعين، لا فرق بين رسول ورسول، إذ الجميع يؤدون رسالات ربهم ويبلغونها، والثاني أنهم لم يفرقوا في الإيمان بين رسول ورسول، بل إن الجميع في موضع من نفوسهم، والإيمان من قلوبهم. ذلك أنه حق على المؤمن أن يؤمن بكل رسول أرسله الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة].

فإذا كان محمد خاتم النبيين فرسالته متممة للرسالات، وهو آخر لبنة في صرح النبوة الإلهية.

وإذا كان المؤمنون حقا وصدقا هم الذين يذعنون لما أمر الله، ويصدقون برسالاته، ويستجيبون لدعوة رسول الله وهم يناقضون الذين فرقوا بين رسله، فجزاؤهم لذلك مختلف، ولذا قال سبحانه في هذا الجزاء:

﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الإشارة هنا إلى الذين آمنوا الموصوفين بالصفات السابقة وتكرار ذكرهم بالإشارة للتوكيد بأن الإذعان الكامل من غير استعلاء، ووجود، وحقد، وعدم التفرقة بين الأنبياء وهو وحده الذي جعل لهم ذلك الجزاء، والأجر هنا هو الجزاء، وهى رحمة الله تعالى عليهم إذ جعل ذلك

الثواب المقيم، والنعيم الدائم، جزاء العمل، وهو أكبر من العمل، بل إن الأعمال ذاتها قد يكون فيها هفوات تستوجب الحساب ويتبعه العقاب، ولكن الله تعالى قرر في كتابه الكريم: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١١٤) ﴿هود:﴾

ولذلك ذُلت بقوله الآية تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ للدلالة على أن ذلك الثواب هو من فضل الله وسعة رحمته، وإن ذلك لأنه متصف بالغفران الدائم والرحمة الدائمة.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى الجزاء والثواب بالتعبير بسوف الدالة على تأكيد الفعل في الزمن المستقبل. اللهم اغفر لنا وارحمنا فأنت خير الراحمين.

يَسْأَلُكَ

أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا
مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أحوال بعض أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض النبيين وكفروا ببعض، واعتبروا بهذا كافرين بالله تعالى؛ لأن من كفر برسول، فقد كفر بالرسالة الإلهية، ومن كفر برسالة الله تعالى؛ فقد كفر به، ثم بين سبحانه وتعالى حقيقة الإيمان واصفا الذين آمنوا بالله ورسوله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله موازنا بذلك بين الإيمان والكفر في الحقيقة وفي النتيجة، وأن الكافرين أعد الله لهم عذابا أليما، وأن المؤمنين لهم أجرهم نعيم مقيم، وغفران ورحمة، ورضوان من الله

أكبر، وفي الآيات التالية يبين الله تعالى لجاجة اليهود في كفرهم وإعنات الرسول المبعوث لهم، ولغيرهم، وهو خاتم النبيين محمد ﷺ، ومن هذه اللجاجة ما قاله الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أهل الكتاب هنا هم اليهود، بدليل ما جاء في السياق بعد ذلك من آيات، وكقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٧] وإن هؤلاء اليهود متعنتون، لا يسألون النبي دليلاً لكون الدليل الذي قدمه، وهو القرآن الكريم غير ملزم، ولكن يتعنتون، فيطلبون إعناتاً، ولجاجة في العناد والكفر، وقد طلبوا دليلاً قريباً، وهو أن ينزل عليهم كتاباً من السماء.

وقد اختلف أهل التأويل من السلف الصالح، فقال بعضهم إنهم سألوا أن ينزل على النبي كتاب شامل مكتوب كما نزلت التوراة مكتوبة جملة واحدة، وقال آخرون إنهم طلبوا أن ينزل كتاب خالص في قرطاس يدعوهم إلى الإيمان بمحمد ليكون حجة الله تعالى عليهم، وقال آخرون من السلف إنهم طلبوا أن ينزل ذلك الكتاب الداعي إلى الاستجابة إلى النبي ﷺ إلى بعض كبرائهم.

والحق كما قال ابن جرير الطبري إنهم طلبوا كل هذا، فقد طلبوا أن ينزل القرآن مكتوباً جملة واحدة كالنوراة وذلك ليشككوا في حقيقته، وفريق آخر منهم طلب أن ينزل من السماء كتاب خاص يقرءونه داعياً لهم بالإذعان. وفريق ثالث طلب كتاباً ينزل على بعضهم، فالمطالب الثلاثة وجدت، ولو أجيئوا إلى ما طلبوا ما ضمنا إيمانهم؛ ولأن التعنت لا يقلعه شيء، وقد قام الدليل القاطع المثبت، وهو القرآن المعجز، ولقد قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ [الأنعام]

فالمتمتع لا يقنعه دليل مطلقا، وإن ماضى هؤلاء الكافرين ينبيء عن حاضريهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ إن الذين سألوا موسى من بنى إسرائيل هم الذين التقى بهم، وأخرجهم من استعباد فرعون إلى حيث الحرية والعزة.

وسياق النص القرآني يفيد أنه منسوب إلى اليهود والذين عاصروا النبي ﷺ، فكيف ينسب إلى الخلف ما قاله السلف؟ والجواب عن ذلك أنه سبحانه ينسب القول إلى جنسهم، لا إلى آحادهم، ولا إلى طوائف منهم، وإذا نسب القول إلى الجنس جاز أن يخاطب به الحاضرون وخصوصا أن التشابه في الجمود والتعننت قائم بين السلف والخلف، فهم يحملون مثل ما وقع من أسلافهم، وإن كان الأول أشد إعناتا؛ لأنه أكبر، ولما أفاض الله به عليهم من نعم على يد موسى عليه السلام - ولكن دأبهم الجمود، فحاضريهم كماضى أسلافهم، لا يهمهم قوة الدليل، إنما يهمهم إعنات الرسول، واتخاذ فعلات للإنكار بعد أن ثبتت على يد موسى - عليه السلام - البينات الحسية وتكاثرت، حتى وصلت إلى تسع آيات بينات، ومع ذلك طلبوا طلبا غريبا، فلم يطلبوا أن يجيئهم كتاب كما طلبوا منك، بل طلبوا أن يروا الله سبحانه وتعالى جهرة، أى بالعين، وأن يكون أمامهم معانيها، ويطلب إليهم أن يصدقوا موسى، وهو سؤال لا تتصور إجابته في الدنيا، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرى في الدنيا، وقد روى في ذلك أن النبي ﷺ سئل هل رأى ربه؟ فقال «إنه نور فأنى أراه»^(١) وقد عاقبهم الله سبحانه وتعالى على ذلك عقابا شديدا، ذكره بقوله سبحانه:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ الصاعقة - فسرها بعض العلماء بأنها النار التي تنزل، وهى التي يقرر علماء الكون أنها تنشأ من احتكاك سحابة موجبة بأخرى سالبة، فيتكون من احتكاكهما ذلك اللهب، وأنها أصابت هؤلاء فَبُهِتُوا لها، فغشيهم من

(١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟» قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» لرواه مسلم: الإيمان - نور أنى أراه (١٧٨)، والترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة النجم (٣٢٨٢)، وأحمد: مسند الأنصار - حديث أبي ذر رضى الله عنه (٢٠٨٨٤).

الذهول ما غشيهم حتى صاروا كالموتى من عظم الإغماء الذى أصابهم، وذلك لا يعارض قوله تعالى فى أول سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ [البقرة]

وقال بعضهم: الصاعقة ما يصيب الإنسان من حال يترتب عليها موته أو إغماؤه إلى درجة الموت، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ٦٨﴾ [الزمر]

وقد قال الراغب الأصفهاني فى مفرداته. «إن الصاعقة على ثلاثة أوجه: أولها الموت كقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ٦٨﴾ [الزمر] وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾.

والثانى: العذاب، كقوله تعالى: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ١٣﴾ [فصلت].

والثالث: أن الصاعقة هى الصوت الشديد من الجو ثم يكون منه نار، وينتهى بأن الصاعقة هى فى الأصل بهذا المعنى، ثم تكون منه الآثار فهو سبب الموت، أو يكون إنذارا».

ولذلك نرجح التوجيه الأول الذى ذكرناه وهو تفسيرها بالنار التى تجلجل بصوت رهيب مفزع، قد يترتب عليه الموت، وهو فى ذاته عذاب شديد، وقد يسأل سائل: إن الصاعقة لها سبب طبيعى، وهو احتكاك سالب بموجب، فكيف يكون عقابا أو إنذارا، أو معجزة؟ ونقول إن الأسباب الطبيعية لا تمنع الإرادة الإلهية، فالله سبحانه وتعالى سير الأكوان، وهى تحت قدرته وإرادته، فهو الذى يُسَيِّرُ السحاب، والرياح، فإذا أراد جلّت قدرته إنزال عذاب أو إنذار قوم أرسل الرياح المسخرات بأمره، فكانت منها الصاعقة أو الرعد، أو المطر الغزير الذى يكون غيثا ولا يكون غيثا، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بأنه ينزل بالاقوام من الآفات بمقدار جرمهم وذلك لا يمنع تحقق الأسباب الطبيعية فمفسر الكون هو خالقه، ومسبب الأسباب، وكل شئ عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وقد قال تعالى فى أهل مصر عندما أيدوا فرعون فى طغيانه:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف]

ومع هذه البيئات اتخذ السابقون من بنى إسرائيل العجل معبودا، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ هذا النص الكريم فيه بيان إيمانهم فى الكفر والجحود، فهم بعد ما جاءتهم البيئات أى الحجج المينة للحق، المثبتة له الدامغة، وبعد أن أنقذهم الله سبحانه وتعالى من جيروت فرعون وطغيانه، واستعباده لهم، وبعد أن رأوا من الآيات ما رأوا، اتخذوا شكل العجل الذى صور من ذهب معبودا لهم، وإطلاق العجل على هذا التمثال الجامد لهم، من قبيل إطلاق اسم الشئ على شبهه فى الصورة والهيكل، فهو ليس عجلا حقيقة، ولكنه صورة، وإن اتخذ العجل بقية من بقايا الوثنية التى كانت تستولى على قلوبهم، ففى مصر كانت عبادة البقر، وفى مصر كانت عبادة نوع من الأوثان فاستمكنت الوثنية من قلوبهم حتى نسوا عقولهم وتفكيرهم، وما آتاهم الله تعالى من عزة، وما قام عليهم من برهان، ولذلك ذكر الله تعالى عنهم أنهم قالوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فقد قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف].

ولقد نهوا إلى ضلالهم فى عبادة هيكل العجل، فتنبها، وتابوا، وأقلعوا عن عبادته، فعفا الله تعالى عنهم؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان بعد الكفر يذهب بآثار الكفر. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال]

ولقد كان ذلك التمرد المتوالى مع ما آتى الله نبيه موسى من حجج باهرة قاهرة،

ولذا قال سبحانه:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ السلطان هو القدرة وهو السلطة وقد أعطى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام القوة التي تدفع الباطل، وتزيل رواء المضلل فأعطاه المعجزات الباهرات البينة الواضحة، التي تبين الحق، وأعطاه القوة التي غلب بها فرعون طاغية الدنيا في عصره، ولهذا ألقاه في اليم وخرج بنى إسرائيل، وأعطاه القوة التي بها أخضع أولئك المتمردين من بنى إسرائيل على الحق، الذين تعودوا العصيان، وأعطاه القوة فأنزل عليه التوراة، وهي وحدها سلطان مبین؛ لأنها بيان الحق، والحق في ذاته قوة، والتوراة هي ميثاق الله تعالى، وفوق ذلك أخذ الله تعالى ميثاقا بمقتضى الفطرة، وميثاقا على الطاعة، كما في التوراة وقد قال تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ هؤلاء اليهود في ماضيهم، لا يتجهون إلى الحق اتجاه المؤمن المذعن، ولكن يحملون عليه حمل الملجأ، فلا تتصوروا أيها المؤمنون بمحمد ﷺ ورسالته أنهم يستجيبون له؛ لأن ذلك لم يكن من طبعهم فهم في ماضيهم لم ينفذوا التوراة ولم يذعنوا ويأخذوا على أنفسهم ميثاقا بتنفيذ أحكامها إلا بعد أن هددوا تهديدا حسيا بأن العذاب واقع بهم لا محالة حسا ونظرا، فقد رفع الله تعالى فوقهم الطور، ليقدموا عهدا بالطاعة. فمعنى قوله تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ أى بسبب الميثاق الذى يحملون عليه حملا، وهو ميثاقهم الذى كان يجب تقديمه طوعا واختيارا، فالميثاق أخذ بعد الرفع، وإلى هذا يومئ قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف].

فالميثاق هو أحكام التوراة، وحملهم على الخضوع المطلق لله تعالى، وطاعته فيما يأمرهم به من غير تمرد ولا عصيان، وقد صرح سبحانه بأنه أمرهم بما فيه خضوع وتعبدى، لكن يتعودوا الطاعة، فذكر سبحانه وتعالى أمرين هما:

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ ادخلوا باب المدينة مطأطيء رؤوسكم بهيئة الساجدين أمانة الخضوع حسا، وهو دليل على الخضوع معنى بالإذعان لأوامر الله تعالى، وفى الآية تصريح بالطاعة المطلقة الذى يتضمنه الأمر

بالدخول سجدا مطأطئي الرؤوس فقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ...﴾ [البقرة].

ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا، وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة أى خاضعين قد ذهب عنا الكبرياء.

والمدينة أو القرية قيل هى بيت المقدس، وقيل غيرها، وقد أبهمها الله، ولم يوجد من السنة الصحيحة ما يبينها، فلترك أمرها، ولا ينقص ذلك الهدف القرآنى من سياق هذه القصة، وهى أنهم أمروا بالطاعة المطلقة.

والأمر الثانى الذى أمروا - ذكره الله تعالى بقوله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أى لا تتجاوزوا الحدود التى أمركم بالتزامها يوم السبت، وهى ألا تصطادوا الحيتان فى ذلك اليوم، وتكرر قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا﴾ لبيان تأكيد الأمر ونسبته إليه سبحانه وتعالى: وقد اختبرهم سبحانه وتعالى اختبارا، فقد كانت الحيتان تأتيتهم يوم السبت واضحا، وتختفى فى غيره، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أخذ الله سبحانه وتعالى عهدا موثقا كامل التوثيق شديدا فى قوته وفى موضوعه وأضاف سبحانه وتعالى الأخذ إلى ذاته العلية تقوية له، وتأكيدا، فإن ذا الجلال والإكرام العليم الخبير هو الذى أخذه، وهو الذى يتولى أمرهم إن نكثوا فى أيمانهم، وأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وغلظ الميثاق كما أشرنا فى قوة توثيقه، فقد أخذه بعد أن رفع الجبل عليهم كأنه ظلة، وأمرهم بالطاعة المطلقة، وشدته فى موضوعه، فقد كلفهم تكليفات شديدة، لإفراطهم فى الفساد، فكان السبيل لفظم نفوسهم عن الشهوات، وتربيتها على الضبط والعمل الصالح أن ينص على تحريم أمور كثيرة، ذلك أن النفس التقية تمتنع من ذاتها كثيرا من غير أوامر أو تكليف. أما النفوس المنحرفة، فتحتاج إلى النص على تحريم

الكثير مما يفعلون من غير أن ينالهم تهذيب شخصى من الضمير والوجدان وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام].

اللهم ارحمنا، وقنا شر الشهوات وطغيانها، إنك بكل شيء عليم.

فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ
بِهَتْنَا عَظِيمًا ۝١٥٦

كانت الآيات السابقة فى بيان غلظ قلوب اليهود، وعنادهم وامتناعهم عن قبول الحق، وأن حاضِر اليهود فى عصر النبى ﷺ كماضِيهم مع موسى - عليه السلام - يتعتون فى طلب الدليل، ولا يهتدون إلى الحق إذا قامت عليهم البينات، حتى إنهم ليطالبون من موسى - عليه السلام - أن يريهم الله جهرة عيانا، وقد أنزل بهم من الشدائد ما يدفعهم إلى الخضوع، فنزلت بهم الصاعقة وارتفع الجبل عليهم، وقد خضعوا ولا يكادون، وأخذ عليهم الميثاق، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوه، وفى هذا النص الكريم يبين سبحانه وتعالى ما ارتكبوا من مظالم، وعواقب ذلك عليهم، ولذا قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الظلم الذى وقع منهم، فذكر مظالم كثيرة لهم، فهم نقضوا الميثاق، وكفروا بالحجج والبيانات وقتلوا الأنبياء، ونسبوا سبب الكفر إلى غيرهم، وكذبوا على مريم البتول، وادعوا أنهم قتلوا المسيح، وصدوا عن سبيل الله، وأكلوا الربا وقد نهوا عنه... إلى آخر ما كفروا به.

هؤلاء هم بنو إسرائيل، دائماً ينقضون المواثيق والعهود، ولا يراعون إلا ولا ذمة، ويكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء، ويظلمون أنفسهم، فيشدد الله عليهم الأحكام، فيحرم عليهم الطيبات التي كانت مباحة لهم، وقد حقت عليهم اللعنة بخطيئاتهم التي اكتسبوها، وقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى هى أوعية للعلوم مملوءة مغلفة، فلسنا فى حاجة إلى علم غير الذى عندنا، ولن نقبل شيئاً مما تدعونا إليه يا محمد، ورغم العلم الذى وعيناه واستوعبناه فإن قلوبنا غُلْف، عليها أغطية تجعلنا لا نفقه ما تقول، فأرح نفسك، وأرحنا معك، فلن نستمع إليك ولن يصل إلى قلوبنا شيء مما تدعو إليه.

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والحق، أن الله سبحانه وتعالى، لما رأى أنهم لا يهتدون، ولا يعطون التفاتا للدعوة، ويدبرون حجة الرسل، ويدفعون براهينهم بباطل من عندهم نجزاهم على كفرهم هذا بأن طبع على قلوبهم، وختم عليها، فهم لذلك لا يهتدون سيلاً، ولا يؤمنون إلا قليلاً.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ لقد كفروا بالمسيح من قبل، وأتوا ببهتان عظيم، فاتهموا مريم العذراء البتول، بأن لها علاقة بيوسف النجار، ويوسف هذا كان أحد الصالحين من بنى إسرائيل، وقد خطب مريم، ورغب فى أن يتزوجها، وعندما ولدت المسيح عليه السلام، صدَّقها، ووثق ببراءتها وطهرها، وبقي معها يرعاها هى وابنها، ولكن اليهود كفروا ورموا مريم ويوسف ببهتان عظيم، ونحن المسلمين نؤمن بطهارة مريم، ونؤمن بعيسى نبيا ورسولا، فويل بعد ذلك للمكذبين.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هذه إحدى جرائمهم الكبرى، ولكن هل قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم يعد جريمة؛ والجواب عن ذلك أن ما يدل عليه بطريق التضمن هو جريمة، والقول ذاته جريمة؛ وذلك لأن القول يدل على أنهم أرادوا قتله، واتخذوا كل السبل لذلك، فسدوا عليه عند الرومان، وكذبوا عليه وافتروا، وحاولوا أن يسلموه ليصلب، وسلموه في زعمهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه بإلقاء الشبه على أحد الذين دبروا القتل، وكل هذه جرائم، ومن المقرر فقها وقانونا أن من شرع في ارتكاب جريمة واتخذ كل الأسباب وفعل فعلها، ولكن لم تتم بأمر ليس في إرادته يعد مجرماً، وظالماً يستحق العقاب فكان القول مبنياً على إجرام، ثم القول ذاته إجرام؛ لأنه تهجم بالكذب على مقام الرسول المبعوث لهم، ثم هم قالوا هذا القول، وقد قامت البيّنات على صدق رسالته وعلى أنه لم يمّت، وقوله ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ أهي من مقول اليهود أم هي من وصف الله تعالى لمن قالوا فيه؟ يجوز الأمران، وعلى الأول يكون كلامهم فيه نوع من السخرية بالرسالة والرسول كأنهم يقولون إن الله تعالى لم يحمه منهم، وعلى الثاني يكون المعنى أنهم قالوا فيه ما قالوا، وأرادوا به ما أرادوا، وقد قامت الأدلة على أنه رسول الله، وسينزل بهم العقاب على ما فعلوا وأرادوا وقالوا:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (١٥٧)

﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ فما ذهبت روحه - عليه السلام - بقتل أنزلوه ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ وما كان صَلِبَ لأنه لم يكن قَتْلٌ، ولكن شبه الأمر عليهم، فظنوا المقتول المصلوب هو المسيح، وما كان هو، بل كان المصلوب المقتول غيره، فخیل إليهم أنه قتل وصلب، وما كان كذلك. وقد يسأل سائل: لماذا ذكر نفى الصلب بعد نفى القتل مع أن نفى القتل يقتضى ألا يكون صَلِبٌ؛ لأن الصلب لا يكون إلا لمقتول؟ والجواب عن ذلك أن هذا تأكيد فى النفى، ولأن النصارى واليهود يدعون أنه صَلِب، فلا بد من النص على نفى الصلب، ليكون ردا على هذه الدعوى، ولو اقتصر على نفى القتل ما كان التصريح برد الدعوى، ورد الدعاوى لا يكتفى فيه ما تضمن عن التصريح، ولو نفى الصلب فقط ما اقتضى نفى القتل، فكان النسق البليغ مقتضيا نفيهما معا.

وقد نسب القتل المنفى إليهم مع أن التاريخ والأنجيل تثبت أن القتل المنفى والصلب كان من حاكم الرومان، ولكن بتحريض اليهود؛ وذلك لأنهم هم الذين ألحوا فى طلب القتل حتى إن الرومانى يلقى عليهم تبعة قتله، والمحرّض قاتل، والشاهد الكاذب قاتل، وكل متسبب يعد قاتلا، وهؤلاء قاموا بكل ذلك، فقد دبّروا شهادات الزور، وحرّضوا وتسببوا فكانوا بهذا قاتلين كفعل الجبناء، ولكن الله تعالى أنقذه منهم ومن الرومان معا.

والتشبيه لهم بأن خلق الله تعالى شبهه على أحد الذين خانوه، ودبروا القتل، وقد جاء ذلك فى إنجيل برنابا الذى عثر عليه فى خزانة أحد البابوات فى آخر القرن الخامس عشر، فقد جاء فى هذا الإنجيل الذى لا يوجد ما يدل على أنه ليس فى قوة أناجيلهم: (إن يهوذا الأسخريوطى الذى كان عينا على السيد المسيح عليه السلام قد ألقى الله تعالى عليه، شكل السيد المسيح فقبض عليه على أنه هو، فقد قال برنابا فى هذا: (الحق أقول: إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع، كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع معتقدين أن يسوع كان نبيا كاذبا، وإنما الآيات التى فعلها

بصناعة السحر؛ لأن يسوع قال إنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم، لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم) ثم يبين أن يسوع رفع إلى السماء، ولما علم أن بعض المتبعين ضلوا طلب إلى الله تعالى أن ينزله إلى الأرض فتزل بعد ثلاثة أيام؛ ويقول برنابا: (ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات وقام قائلاً: اتحسبونني أنا؟! والله كافر بالله؛ لأن الله وهبني أن أعيش حتى قبيل انقضاء العالم، كما قد قلت لكم. الحق أقول لكم أنني لم أمت، بل يهوذا الخائن، احذروا لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ولكن كونوا شهودي في كل إسرائيل وفي العالم كله، لكل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها»^(١).

ومن هذا يتبين معنى أنه خيّل لهم أنهم قتلوه، وما قتلوه، وأنهم قد اعتراهم الشك من بعد ذلك في أمره، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ ولقد اختلف اليهود والمسيحيون في شأن السيد المسيح، فمنهم من أنكر أنه نبي، ومنهم من زعم أن فيه عنصراً إلهياً مع العنصر الإنساني، ومنهم من زعم أنه ابن الله تعالى وأن النبوة ليست نبوة ألوهية، إنما هي نبوة ثقة ومحبة ورحمة، ومنهم من قال إن الذي ولدته مريم هو العنصر الإنساني، وفاض عليه من بعد العنصر الإلهي، ومنهم من قال إن مريم ولدت العنصرين، ومنهم من قال إن كلام عيسى وإرادته هي من العنصر الإنساني، ومنهم من قال إن الإرادة وليدة العنصرين. وهكذا كان الاختلاف، وكل كون طائفة وحزبا، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم].

ولا يزالون يختلفون حول حقيقة المسيح وصلبه، ومع أن اليهود هم الذين سعوا بلا ريب لقتله، ولكن ردهم الله تعالى على أعقابهم خاسرين، وأبطل الله مكرهم وكيدهم، مع هذا نجد الآن المجمع المسكوني المسيحي قام باقتراح قسيس

(١) كتاب محاضرات في النصرانية للإمام أبو زهرة.

ألماني يدرس تبرئة اليهود من دم المسيح، وأيد ذلك الزعم كبير أساقفة إنجلترا وهم بذلك يضربون بنصوص أناجيلهم عرض الحائط، وإن هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ فهم في ريب دائم، ولا يؤمنون بشيء مما يقولون ويزعمون، وما هم يتبعون الا الظن، فيظنون ويتوهمون، ثم يحكمون بالظن والوهم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أكد الله سبحانه وتعالى نفى قتل السيد المسيح الذي حاوله اليهود، فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

وهنا تأويلان لكلمة ﴿يَقِينًا﴾ - التأويل الأول: أنها وصف لمحذوف، والمعنى وما قتلوه قتلا قد استيقنوا به وتأكدوه، وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذي اعتراه. التأويل الثاني: أنها تأكيد للنفي، والمعنى وما قتلوه حقا وصدقا، فاليقين منصب على النفي، أى أن نفى كونه قتل أمر مستيقن مؤكد، وليس ظنا كظنكم، ولا وهما كوهمكم.

وقوله تعالى ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إضراب بياني فيه رد لزعمهم القتل، والمعنى بل إنه لم يقتل، وأن الله رفعه إليه، وظاهر القول أن الرفع كان بجسده وروحه، لا بروحه فقط، وبهذا جاء التفسير المأثور، وعليه أكثر المفسرين، وأيدته السنة، وإن كانت أخبار آحاد، وقد فسر بعض العلماء الرفع بأنه رفع الروح، وأخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ۖ﴾ [آل عمران]. فبمقتضى النسق الظاهر يكون الرفع عقب الوفاة. وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وفيه وصف الله تعالى الدائم بأنه العزيز الرفيع الجنب الذي لا يلجأ إليه أحد إلا أعزه، وأعلى قدره، وحماه، كما فعل مع ابن مريم وغيره من أنبيائه عليهم السلام، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾
«إن» هنا النافية، والمعنى ما من أحد من أهل الكتاب اليهود أو النصارى، أو عبارة أدق الذين يسمون أنفسهم نصارى أو مسيحيين إلا ليؤمنن به حق الإيمان، ويخضعون حق الخضوع قبل موته - عليه السلام -، فالضمير فى موته يعود إلى المسيح - عليه السلام -، وهذا يسير على أن عيسى سيعود، ويحكم بشريعة النبى ﷺ، ويؤمن به أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهناك تخرىج آخر، وهو أن الضمير فى (موته) يعود إلى أحد المطوية فى الكلام ومقدرة، والمعنى ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عند موت أى كتابى؛ لأنه عند حشجة الموت يتنبه الشخص لما أنكر وجحد، فيؤمن، كما كانت حال فرعون إذ قال عندما أدركه الغرق: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل. وإن عيسى - عليه السلام - سيكون شهيدا بالحق يوم الحق يشهد على اليهود بما كفروا به، ويشهد على الذين يقولون إنهم نصارى، وأنهم كفروا به فادعوا أنه إله أو ابن الله، وأن كلامهم فى هذا باطل، وأنه عبد الله ورسوله.

وهنا نريد أن نشير الى موقف الإسلام، ومن يقولون إنهم نصارى - من المسيح عليه السلام: هم يقولون أنه قتل وصلب ليظهر الخليقة من ذنب أبيهم آدم، وأن الله اختار ابنه ليكون فداء، وأما الإسلام فإنه يقول أن الله نجاه، ورفع إلى المنازل العليا.

ولا نريد أن نقول إنهم يرمون الله تعالى بالجهل إذ سكت أزمانا طويلة - حتى بدا له أن يجعل ابنه فداء، ولا نريد أن نقول إن العنصر الإلهى كيف حل فى مريم البتول، ولا نريد أن نقول إن الله عفا عن آدم، وإن لم يعف فإن العقاب يكون عليه ولا يكون على غيره، لا نريد أن نقول إن هذا كله مخالف لكل معقول، ولكن نقول كيف يتصور أن يكون الفداء للخليقة بإنزال ابنه إلى الأرض ليقبله بعض ذرية آدم الذى عصى؟! إن المعقول أن يكونوا قد أضافوا إلى قولهم جريمة أخرى هى قتل ابن الله بل إنها جريمة أشد وأنكى، وإذا قيل لهم ذلك

القول قالوا إن الدين له منطق غير منطق العقل . ولكن عيسى ابن مريم ، الحق فيه ما قاله القرآن ولكنهم يمترون . ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ١ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ٢ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ٣ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ٤ ۝ ﴾ [الإخلاص]

فَظَلَمَ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا
حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
كَثِيرًا ۝ ١٦٠ ۝ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ١٦١ ۝ لَكِنِ
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ١٦٢ ۝

فى قلوبهم قسوة، وفى نفوسهم جفوة، وعقولهم غُلف لا تنفتح للحق، ولا تدعن له، ظهرت آياته وقامت بيناته، أتتهم آيات الحق والمعجزات فكذبوا بها وطلبوا غيرها، وقالوا أرنا الله جهرة، ورأوا الجبل يعلو عليهم، فقبلوا ميثاق الإيمان، ثم نقضوه، وقتلوا بعض الأنبياء لغلظ قلوبهم، وانطماسها، وغفلتها عن الحق، ورموا مريم البتول ببهتان وكذب، ومحاولتهم قتل عيسى ابن مريم رسول الله، وافتخارهم لقتله وما قتلوه، فهذه مظالم تتلوها مظالم، ولا بد من تربية نفوسهم على الحق، وتهذيبها لتدعن له، والنفس الشرهة الشرسة لا يهذبها إلا الحرمان أبدا، عسى أن تنقشع عنها غياهب المادة فترى، ولذا قال سبحانه:

﴿ فَظَلَمَ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ الظلم هنا خاص بالكفر الذى ذكرته الآيات سابقا، كفروا بمواثيق الله، ولم يدعوا للحق، إذعانا

ظاهرا إلا بعد تهديد غليظ، ثم نقضوا ما عاهدوا الله تعالى عليه وقتلوا الأنبياء وكذبوا على الأبرياء.

فالظلم إذن هو هذا الكفر الذى أوغلوا فيه إغالا. ولا شك أن ما جاء بعد ذلك ظلم بين، فالصد عن سبيل الله ظلم، وأخذهم الربا ظلم، وأكلهم أموال الناس بالباطل ظلم، وكل واحدة من هذه الجرائم التى أركسوا فيها ظلم وذنب، ولذلك صح أن تذكر كل واحدة منها منفردة، وإن كانت تدخل فى عموم كلمة ظلم. ولكن عند اجتماعها مع هذه الجرائم تخصص كل كلمة بما ذكر أولا أنهم ارتكبوه، ودل على غلظ أكبادهم وقسوة قلوبهم، وكفرهم الصريح وهو أشد أنواع الظلم، وإن الشرك لظلم عظيم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى العقوبة بقوله تعالى:

﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ هذا هو حكم الله تعالى الذى قرره تهذبا وتأديبا لهم، وفطما لنفوسهم عن الشهوات، ولقلوبهم التى استغرقتها المادة، والنفوس إذا فطمت تهذب، وقد تذهب قسوتها. حرم الله سبحانه وتعالى أمورا كانت حلالا لهم، وهى بتكوينها من الطيبات التى أحلها الله تعالى، وليست من الخبائث التى يحرمها الله تعالى، فهى فى أصل تكوينها طيبات من شأنها الحل، ولكن حرم بعضها عليهم تهذبا وتربية لكى تذهب عن قلوبهم بعض القسوة، وبعض الأنانية التى استولت عليها، والتنكير فى قوله تعالى: «طيبات» فيه إشارة إلى أنه لم تحرم كل الطيبات، بل بعض منها، وقد بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام].

وإنه يلاحظ أن هذه المحرمات من الطيبات من شأن الإكثار منها أن يوجد شحما فى الجسم واسترخاء، وحيث كان الجسم كذلك تضعف الهمة، وحيث ضعفت الهمة، كانت محبة المادة، والكسب الرخيص، وطلب من غير الله، وقد

كانوا كذلك، وقد كانوا لا همة لهم إلا في الكسب الرخيص ولا همة لهم في دفع اعتداء، فقد كانوا يقولون لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة]، وهمتهم الكبرى في الإيذاء لخمول قلوبهم بقدر خمول أجسامهم.

وكان في فطمهم عن الشحوم، وما يزيد البدن ترهلا، تهديبا لنفوسهم، وتقوية لأبدانهم، وفتح باب الهممة العليا لهم.

ومن المظالم التي ارتكبوها صدهم أنفسهم عن طريق الحق، وصدهم غيرهم ومنع غير اليهود من أن يدخلوا في ديانة موسى، ولذا قال سبحانه: ﴿وَبِصْذِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أى صدا كثيرا في ذاته أو صدا للناس كثيرين.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بقية الأسباب التي أوجبت ذلك التحريم فقال:

﴿وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ كان الظلم الأول موضعه القلب والاعتقاد، وما ينبعث من أفعال شاذة فيها اعتداء على رسل الله تعالى وأنبيائه، فالاعتداء فيها كان على جنب الله تعالى والفساد كان في القلوب، وفي الأعمال التي تتعلق بها. أما الظلم هنا فهو واقع على العباد.

ذلك أن ضعف همتهم في الكسب، وعدم الاتجاه إلى العمل المثمر المنتج جعلهم يتجهون إلى الكسب الفاسد غير المنتج وذلك بالربا، وأكل مال الناس بالباطل، فأما الربا، وهو الزيادة في نظير الزيادة في الأجل فهو كسب الخيث، وغير منطقي، لأنه كسب بالنقد، والنقد لا يلد النقد كما قال أرسطو، وهو كسب بالانتظار فالزمن هو العامل فيه، والكسب بالانتظار عمل الكسالى الجبناء؛ لأنه يجيئهم من غير عمل، ومن غير تعرض للخسارة وهو في الغالب نوع من البطالة، ويؤدى إلى القمار والمراهنات، ولذلك تقترن هذه الآفات الاجتماعية بالتعامل بالربا، وتكون في أكثر أحوالها ممن يتعاملون به، حيث لا مخاطرة كالتى تكون في التجارة أو الزراعة. ويندر أن تجد يهوديا في أى بلد من البلاد يشتغل

بالزراعة، ولكنهم يتخذون لأنفسهم صفة الوسطاء التي لا تحتاج إلى همة، ولا تحتاج إلى شجاعة.

وحيث كانت المعاملات اليهودية كان معها أكل أموال الناس بغير الحق الذي فيه أخذ وعطاء، ونفع وانتفاع، بل تكون معاملاتهم قائمة على الاحتكار، والرشوة كيفما كانت تسميتها، وكيفما كانت صفتها، والمخادعات والاحتيال، والنصب الماهر المستور، وغير ذلك من التعامل الذي لا شرف فيه.

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم بقوله:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى بسبب هذه المظالم فى الدنيا لا يكتفى بحرمانهم الجزئى فيها، بل لابد للكافرين من عقاب شديد مؤلم فى الآخرة، وقد ذكر وصف الإيلام فى العذاب، للإشارة إلى أنهم إن كانوا يتمتعون فى الدنيا كما تتمتع الأنعام، ويرتعون كما ترتع، فذلك إلى أمد قصير.

إن أولئك الماديين الذين فسدت ضمائرهم وضعفت عقائدهم، وأصبحوا لا يؤمنون إلا بالدنيا، ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب وما نحن بمبعوثين. . يكون منهم دائما الاستهانة بحقوق غيرهم وينشرون اللهو والعبث والمجون، وتكون الدنيا متعتهم وتكون هذه المتعة غايتهم، ومطلبهم، فلا يذكرون أن وراء هذه المتعة آلاما، ووراءها عذاب أليم، فليذكروا ذلك، وإن ربك لبالمرصاد.

وليسوا جميعا على هذا النحو، ولذلك قال فى العقاب للكافرين منهم، فكل طائفة فيهم الخير والشر، واليهود مع ما كانوا عليه فى الماضى كان منهم المؤمنون، وإن كانوا قليلا، ولذا قال سبحانه:

﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

الراسخون فى العلم هم الذين أدركوا حقائقه وصدقوها، وأذعنوا لها، وثبتت فى قلوبهم ثباتا لا يكون معه ريب يزعزه أو شبهة تفسده، أو هوى يعيث به، وقد

قال الراغب فى مفرداته فى معنى الرسوخ: «رسوخ الشيء ثباته ثباتا متمكنا، ورسخ الغدير نصب ماؤه، ورسخ تحت الأرض، والراسخ فى العلم المتحقق فيه الذى لا يعرضه شبهة، فالراسخون فى العلم هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾.

وإن الله سبحانه وتعالى الحكم العدل تكون أحكامه على مقتضى عدله، فهؤلاء اليهود، وإن كثر جحودهم فيهم العلماء المحققون الراسخون، وإن كانوا مختلفين فى لجة من جحود اليهود، هؤلاء الراسخون فى العلم الدينى، والعلم برسائله، وسائر رسائل النبیین هم والمؤمنون سواء، فهم يعتقدون كل ما يعتقده المؤمنون من صدق رسالة النبى محمد ﷺ، وصدق سائر الرسالات الإلهية.

وهؤلاء قد ضموا إلى صفوف المؤمنين، بل إنهم صاروا منهم، وإنما ذكروا كأنهم صنف قائم، باعتبار أنهم من اليهود، ولم يكونوا كالمُنحرفين البارزين، وهؤلاء اليهود لم يكفروا بموسى كما لم يكفر سائر المؤمنين بموسى، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى أنهم يؤمنون بالرسالة المحمدية وكتابها ورسالات الرسل السابقة وكتبها، فأولئك الراسخون فى العلم من بنى إسرائيل هم والمؤمنون لم يخرجوا على موسى، بل آمنوا به أوثق إيمان؛ لأنهم آمنوا بالرسالات كلها.

وقد يقول قائل: إن الله تعالى ذم اليهود عموماً، ثم خصَّ الراسخين بالثناء، فلم كان التعميم ثم التخصيص؟ والجواب عن ذلك أن أولئك الراسخين لم يكونوا هم الظاهرين منهم، بل كان الشر هو الطافح على سطحهم، فكان من أجل وصفهم عموماً بالشر؛ لأن الجماعة توصف بالشر إذا اختفى الخير فيها، ثم كان الظاهر هو الشر، وكان من إنصاف الله تعالى أن ذكر أولئك العلماء المغمورين فى وسط جماعة الأشرار، وبين حقيقتهم، وانضمامهم إلى جماعة المؤمنين.

هذه حقيقة المؤمنين ومن معهم من الراسخين فى العلم من أهل الكتاب، ثم بين من بعد أعمالهم، وإيمانهم بالغيب، فقال:

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ذكر فى هذا النص الكريم أعظم أعمال الخير التى يقوم بها المؤمن الصادق فى إيمانه، وهى قسمان: عبادة هى تطهير النفس وتهذيبها، وهى الصلاة، فإن إقامة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتهذب الضمير. والصلاة عمود الدين، ولب اليقين، وتهذيب الوجدان، وتجعل المؤمن يألف ويؤلف، وتصرفه إلى الخير، ولذلك ذكرت على سبيل التخصيص ونصبت حيث الظاهر، لتقدير فعل يدل على الاختصاص، والمعنى أخص الصلاة بالذكر؛ لأنها ذكر الله تعالى الأكبر، وبذكر الله تطمئن القلوب، وتصفو النفوس وتهذب الضمائر.

والقسم الثانى: عبادة هى معونة اجتماعية للمؤمنين، فهى عطاء بنية العبادة، وهى تومئ إلى التعاون بين المؤمنين، بحيث يعين القوى الضعيف، والغنى الفقير، وكل امرئ فى حاجة أخيه وعونه كما قال عليه الصلاة والسلام: «الله فى عون العبد، مادام العبد فى عون أخيه»^(١)، وكل امرئ مهما يكن يحتاج إلى غيره فى ناحية، ويمد الغير بالحاجة من ناحية أخرى.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك لب اليقين، ونور الايمان وما يكون الرسوخ فى العلم والعقيدة؛ فقال سبحانه:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فالايمان بالله جل جلاله، وإدراك معنى صفاته، والإذعان له، واعتقاد أنه فوق كل الوجود وما فيه وأنه القاهر فوق عباده،

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الذكر والدعاء - فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (٢٦٩٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه، والترمذى: الحدود - ما جاء فى الستر على المسلم (١٤٢٥)، وأبو داود: الأدب - فى المعونة للمسلم (٤٩٤٦)، وابن ماجه: المقدمة - فضل العلم (٢٢٥)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٧٣٧٩)، وابن ماجه: القراءات - ما جاء فى نزول القرآن على سبعة أحرف (٢٩٤٥).

ذلك الإيمان بضعف كل شيء، وأنه لا قادر حق القدرة سواه - هو الذى يترى به القلب فيؤمن، والجوارح فتدعن، والنفوس فتصفو.

والإيمان باليوم الآخر هو إيمان بالغيب، وهو أخص عناصر الإيمان، وهو الذى يجعل المؤمن يعرف حقيقة الدنيا، ويصبر على سرائها وضرائها، ولا تذهب نفسه حسرات عند الحرمان، ولا يطغى ويغتر عندما يعطيه، ويعلم أنه مجزى بالصبر، محاسب على ما أنعم الله تعالى به عليه.

وقد بين سبحانه من بعد ذلك جزاء هؤلاء المؤمنين، فقال تعالت كلماته:

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى أولئك الذين نالوا هذه الخصال كلها، فآمنوا بكل الأنبياء وتهذب ضمائرهم بالصلاة، وتعاونوا فيما بينهم بالزكاة، وآمنوا بالله تعالى حق الإيمان، وصدقوا البعث والنشور، وصبروا فى السراء والضراء، هؤلاء المتصفون بتلك الصفات يستحقون بسببها جزاء عظيمًا.

وقد أكد ذلك الجزاء بثلاثة مؤكدات:

أولها - «السين» فى قوله ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾؛ لأنها لتأكيد الوقوع فى المستقبل.

وثانيها - إسناد العطاء إلى الله تعالى القادر على كل شيء، وهو لا يخلف الميعاد.

ثالثها - تنكير الأجر، ووصفه بالعظمة، فهو أجر عظيم لا يجرى فى خيال البشر، ويعلمه خالق البشر.

اللهم اجعلنا ممن تغفر لهم، فينالون رضاك يا رب العالمين.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
 وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ﴾ **١٦٣** **﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
 مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
 تَكْلِيمًا ۖ﴾** **١٦٤** **﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
 لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 ۖ﴾** **١٦٥** **﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلُهُ بِعِلْمِهِ
 وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ﴾** **١٦٦**

الآيات السابقة بينت أحوال القلوب إذا أظلمت، والنفوس إذا انحرفت
 وعصت أمر ربها، وجعل حال بنى إسرائيل فى ماضيهم وحاضرهم مثلاً واضحاً
 بيناً، فقد مالت قلوبهم عن الحق بعد أن جاءتهم البينات، وما من آية أتتهم
 لتزيدهم إيماناً إلا ازدادوا بها كفراناً، وما تركوا جريمة إلا ارتكبوها باسم أنهم
 أبناء الله تعالى وأحباؤه، ومع ذلك الزعم يقتلون أنبياء الله ويعصون الآخرين من
 رسله، وهم يعاملون محمداً ﷺ بما عاملوا به من سبقه من الأنبياء، غدروا بعد
 أن عاهدتهم ووفى لهم، وحاولوا قتله غدراً، واشتركوا مع أعدائه لقهره، ولكن
 الله تعالى منعه منهم، ومكنه من رقابهم.

وبعد أن ذكر سبحانه ما يدل على شدة جحودهم، أشار سبحانه إلى أنه لا
 يلتفت إليهم، وأنه ليس بدعا من الرسل، بل هو كمال السلسلة من النبوة التى

اختارها الله تعالى من البشر، لتكون حجة الله تعالى إلى يوم القيامة: فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾.

هذا النص مربوط فى المعنى بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ...﴾ [النساء].

وقد قالوا غير ذلك فى آية أخرى فأنكروا الرسالة الإلهية جملة من بعد موسى، وقالوا: ﴿... مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الأنعام] مبالغة فى إنكار رسالة النبى ﷺ، ففى هذه الآيات وما إليها بيان بوحي الله تعالى إلى النبى ﷺ وأنه مثل بقية الرسل، فما كان بدعا من الرسل، بل هو فى تلقى رسالة الله كسائر الرسل. ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ والوحي فى الأصل الإعلام الخفى، والإشارة والإيماء، والإلهام، وغير ذلك من المعانى التى تدل على أنه إعلام خاص، لا يكون بطريق الإعلام الظاهر، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى] فالوحي على هذا نوع من خطاب الله تعالى لرسله ويقابله الكلام من وراء حجاب، وإرسال ملك من الملائكة بالخطاب.

والوحي هنا يعم الأنواع الثلاثة من كلام الله تعالى لرسله، كما يدل السياق على ذلك.

والكلام سيق لبيان المشابهة والمشاكلة بين وحي الله تعالى لنبية الكريم الذى هو آخر لبنة فى صرح النبوة والرسائل الإلهية، وبين الوحي للرسل السابقين، وقد أكد سبحانه وتعالى المشابهة بنسبة الإيحاء إليه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وبـ «إن» المؤكدة، فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى بذكر نوح - عليه السلام -، لأنه الأب الثانى للخلقة، ولأنه أول نبى معروف فى القرآن بعد أبى البشر، ولأن فى ذكره معنى

التهديد للذين يجحدون ويحاربون الرسالة الإلهية: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ [نوح]

فذكره تذكير بتهديده، واستجابة الله تعالى لدعائه. وقد ذكر سبحانه وتعالى نبين من بعده في الزمان الطويل الذي كان بينه وبين إبراهيم أبى الأنبياء من بعده، ثم قال سبحانه وتعالى من بعد:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ وقد ذكر سبحانه وتعالى كلمة «وَأَوْحَيْنَا» لتأكيد الإيحاء، وللإشارة إلى وجود فترة زمنية طويلة بين نوح عليه السلام وإبراهيم، فإن التكرار في الذكر إيحاء إلى التباعد في الزمن؛ ولأن هنا مفارقة بين الأنبياء الذين جاءوا بعد نوح، والمذكورين، لأن أولئك جميعاً من ذرية إبراهيم وإن تفاوتت مراتبهم، واختلفت أماكنهم.

وإن القارئ يلاحظ أمرين:

أولهما - أن كل نبي من هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في هذا النص الكريم يختص بصفة؛ فإبراهيم أبو الأنبياء، وإسماعيل أبو العرب، وإسحق أبو أنبياء بنى إسرائيل ومثله يعقوب، وقد اختص بالصبر على فراق ولده، وحببيه، والأسباط، وهم أولاد يعقوب - عليه السلام - جمع سبط، وهو ولد الولد - مثل للغيرة البشرية تعترى الشباب في فورته وحدثه، ثم يثوب إلى رشده بعد أن يكتمل عقله، وتكتمل نفسه، وقد أوحى الله تعالى إليهم، وبلغوا مرتبة الأصفياء المهديين، ولعل الوحي إليهم كان من قبيل الإلهام، لأنه لم يكن لهم رسالات بشرائع خاصة، وعيسى عليه السلام كان روحانياً في حياته كلها، ولد من غير أب، وعاش طول حياته يدعو إلى الروح، والخروج من سلطان المادة، فله بين الأنبياء خواصه، وهو من البشر الذين خلقهم الله تعالى آية للعالمين، وأيوب عليه السلام له صفة الصبر على المرض الأليم، وقد قال تعالى فيه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ

رَبِّهِ أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء]. ويونس عليه السلام إذ تخلى عنه الصبر فهذه ربه في الدنيا، ثم صار من المخلصين وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يُونسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَكُنَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْغَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات].

وقد ختم سبحانه ذلك الفريق من النبيين بذكر داود فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ أى كما أعطينا داود كتابا خاصا هو الزبور، والقراءة المشهورة بفتح الزاى، وقراءة حمزة بضمها أى «زبورا»^(١)، وعلى الأول يكون معنى زبورا بمعنى الزبور أى المكتوب، وعلى الضم يكون جمعا لزبر بكسر الزاى، والزبر هو الشيء المكتوب، وعلى أى القراءتين فالمعنى أعطيناه كتابا مكتوبا يقرأ ويرتل.

ويظهر أن كتاب الزبور لم يكن فيه بيان للأحكام؛ لأن التوراة كانت شرائعها هى النظام المتبع، بل هو حكمٌ ومَوَاعِظُ، وقد قال فيه القرطبي: «الزبور كتاب داود، وكان مائة وخمسين سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، وإنما هى حكم ومواعظ».

ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى داود صفتين تبدوان بين الناس متعارضتين، إحداهما - أنه كان رجل حرب وجلاد، ورجل حكم وفصل بين الناس. والثانية - أنه كان طيب النفس متواضعا متظامنا، فكان لا يأكل إلا من عمل يده، ولذلك كان مثالا للنبوة التى تحكم وترشد وتتواضع وتقود الجيوش، وهو الذى كان تحت يده كل خزائن ملكه، ويعف عن أن يمد يده إليه، ويأكل من عمل يده، كما قال النبي ﷺ فى بيان حاله: «إن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»^(٢) فهو

(١) قرأها بالضم حمزة وخلف وقرأ الباقون بالفتح. غاية الاختصار برقم (٧٩٥).

(٢) رواه البخارى: البيوع - كسب الرجل وعمله بيده (٢٠٧٣)، وأحمد: باقى مسند المكثرين

(٢٧٣٧٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

النبي الملك القائد الذى أدخل نفسه فى زمرة العمال؛ إذ كان لا يأكل إلا من عمل يده .

﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ هذا بيان إجمالى يقرر أن الله تعالى أرسل رسلا كثيرة، قد قص بعضهم على النبي ﷺ، والآخر لم يقصه، والقص تتبع الأثر يقال قصصت أثره، ثم أطلق على الأخبار المتتابعة، ونرى هنا أن (قَصَّ) متعدية، مفعولها المذكور من أخبارهم، والمعنى على هذا فى النص تتبعنا آثارهم وأخبارهم التى يكون فى ذكرها عبرة لأولى الألباب، وليكون ضرب الأمثال للنبي ﷺ فى صبرهم، وإيذاء أقوامهم لهم، وإن الرسل الذين قصهم الله تعالى على نبيه من قبل كان فى السور المكية، فإنها مملوءة بأخبارهم وفيه ذكرى النبوات الأولى السابقة على نبوة النبي ﷺ. وإن أكثر هؤلاء الذين قص الله تعالى أخبارهم ممن كانوا فى البلاد العربية أو يجاورونها، أو كانت له صلة بالنبي ﷺ فى نسب، أو كان الذين يدعون اتباعهم يجادلون النبي ﷺ، ويمارون فى دعوته.

وليست النبوة مقصورة فى هؤلاء، إنما هناك نبوات ورسالات أخرى كانت فى الأمم البعيدة مثل الصين والهند، وغيرها من الأراضى التى سكنها أقوام كثيرون، وليس لنا إلا أن نفرض أن رسلا بعثوا إلى هؤلاء الأقوام؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣٦] ﴿القيامة﴾ ولا شك أن تركهم من غير نبي مبعوث ترك لهم سدى، وذلك ما نفى الله تعالى فى استنكار أن يقع، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [٢٤] ﴿فاطر﴾.

ولذلك قال تعالى فى هذا النص الكريم الذى نتكلم فى معناه ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ ونصبت «رسلا» على الاشتغال أى نصبت بفعل قد تضمن معناه الفعل الذى ولى المنصوب، والمعنى قصصنا رسلا من قبل: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ ويكون الابتداء بذكر الرسل والاهتمام بهم لأنهم المقصودون، وأخبارهم وقصصهم جاء تبعا لهم وختم الله النص بقوله تعالى:

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ هذا تخصيص لموسى عليه السلام بالذكر، ولم يذكر في ضمن من ذكروا من السابقين؛ وذلك لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة التى كانت شريعة لمن جاء بعده، ولأن اليهود الذين جحدوا بآيات الله كانوا يدَّعون الأخذ بشريعته، ولأنه نزل به اختبار شديد بسبب بنى إسرائيل الذين كانوا محل رسالته، وأخيرا لأنه اختص من بين المذكورين بأن الله تعالى كلمه، وقد جاء الصريح بأنه كلمه فى هذا النص، وفى غيره ومن ذلك قوله تعالى فى أول سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَنَاثَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾ [طه].

وإن هذا يدل على أن الله تعالى متصف بصفة الكلام، والمعتزلة من الفرق الإسلامية ينكرون نسبة صفة الكلام لله تعالى، ويذهب فرط غلو بعضهم إلى أن يفسروا قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ بأنه كَلَّمَ من الكَلَم لا من الكلام، أى أن الله تعالى اختبر موسى - عليه السلام - اختبارات شديدة كانت كالكلام والجروح وتلك مغالاة فى تفسير القرآن الكريم بالمذهبية، وقد أنكره الزمخشري - وهو منهم - وسماه من بدع التفاسير. والحق أن كَلَّمَ من الكلام، وقد أكد تكليم الله تعالى لموسى بالمصدر، والظاهر من الكلام إذا أكد، كان غير قابل للمجاز ولا للتأويل، وأنه يجب تفسير القرآن بظواهره، وخصوصا الظواهر المؤكدة ولا تطفئ الآراء المذهبية على المعانى القرآنية، فالقرآن منبع الحق، ونور المتقين.

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فى هذا النص الكريم بيان لعمل الرسل، والحكمة من بعثهم، وقد أرسل هؤلاء مبشرين الحق داعين إليه، يبشرون الطائعين بحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، وينذرون العاصين بسوء العقبى، وإن اتاهم نفع فى الدنيا، فالعذاب الأليم يستقبلهم فى الآخرة.

وكان بعث الرسل لكى يكون الذين يعصون على علم بما يستقبلهم والذين يطيعون على بينة بأوامر ربهم ويكون الذين يعذبون ليس لهم عذر من جهل،

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾. أى لكى يسقط كل اعتذار للعصاة فى عصيانهم بعد البيان الحكيم والإرشاد المبين فمن ضل فعن بينة، والله سبحانه برحمته وفضله ومنه يسمى ذلك حجة عليه. ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ [الأنبياء].

وقد قال المعتزلة: إن لله دائما الحجة على خلقه بالعقل الذى أودعه خالقهم، وهو هاد مرشد، ولكن إرسال الرسل رحمة من الله تعالى، ولذا قال الزمخشري فى تفسير النص: الرسل منبهون من الغفلة ويأثثون على النظر كما يرى علماء أهل العدل والتوحيد (أى المعتزلة) مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف، وتعليم الشرائع فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميمًا لإلزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبها لما وجب الانتباه له.

والحق أن الناس لا يهتدون فى جملتهم إلى الشرائع الصحيحة، بل هم بعدها مراتب منهم من يهتدون بمجرد بيان الحق، ومنهم من لا يقنعون إلا بالبرهان الملزم، ومنهم من لا يطيعون الا بالتهديد ومنهم عصاة جاثرون باثرون.

وقد ختم سبحانه الآية بقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى أنه القادر الغالب على كل شئ وهو الحكيم، الذى يدبر الأمر بحكمته وعزته.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ جحد أهل الكتاب وكفروا برسالة النبى ﷺ وطلبوا اليه أن يأتى بشهادة من عند الله، وعينوا الشهادة بأن تكون كتابا كما قال تعالى ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾ [١٥٣] [النساء] فرد سبحانه وتعالى عليهم بقوله تعالى ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ فالاستدراك هنا عن مستدرك من كلامهم وجحودهم، فالمعنى إذا كانوا لا يقرون بالحق، ويدعون له، فالله تعالى شاهد بالحق وأى بينة أجل من بيان الله تعالى تلزم المنكرين أنى يكونون، والشهادة هى قول الحق المبني على اليقين القاطع، وشهادة الله أقوى وثيقة فى هذا الوجود،

وكانت شهادته بالإعجاز فى القرآن المحكم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد أنزله الله تعالى بعلمه، وإرادته وحكمته، فهو حجة النبى ﷺ وشهادة الله تعالى بالصدق. وشهادة الملائكة تبع لشهادة الله تعالى، وشهادتهم تكون يوم القيامة، يوم الحساب والعقاب، فشهادة الله تعالى للنبي وعليهم، وشهادة الملائكة عليهم يوم الحساب والعقاب.

وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى أنه لا عبرة بإنكار المنكرين بعد شهادة الله تعالى، ففيها عزة الحق وخفض الباطل، ولم تذكر هنا شهادة الملائكة لأنها تبع لشهادة الله تعالى، وفى ذكر المتبوع غناء عن التابع، والله سبحانه وتعالى على كل شىء شهيد.

إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا
 ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
 لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

فى الآيات السابقة كان الكلام فى أحوال اليهود، وسائر الكافرين، وبين سبحانه كيف كانت تأتيتهم المعجزات القاهرة، والبيئات الباهرة، ومع ذلك يستمرون فى إنكارهم، ويلجئون فى عنادهم، ويطلبون آيات أخرى، والمآل الكفران، حتى إن بعضهم فى الماضى ليسألون موسى أن يريهم الله جهرة، وبعضهم فى عصر نزول آية يطلب آية أخرى، والنبى يتحداهم بالقرآن أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ولو مفتراة، وهو يجادلهم بالتى هى أحسن. وقد بين سبحانه أنه تعالى أرسل الرسل ليقيم الحجة، ويختار من عباده للرسالة من يشاء،

وإنكارهم لا يجديهم ولا يهديهم، ولا ينجيهم، بل إن العقاب يوم القيامة يترقبهم، وإنهم بقدر لجاجتهم في الإنكار يبتعدون عن طريق الهداية، وأوغلوا في طريق الغواية، حتى يصلوا في طريق جهنم إلى نهايته، وأنهم لخالدون فيها، وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ «صدَّ» يستعمل متعديا، ومصدره «الصد»، وقد تستعمل كلمة «صدَّ» لازما، ويكون مصدرها الصدود، وقد جاء في مفردات الأصفهاني معنى الصد: «الصد والصدود قد يكونان انصرافا عن الشيء، وامتناعا، نحو ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء]، وقد يكون صدا ومنعا نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل] ونحو: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد] وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص]».

والصد هنا في هذا النص الكريم بمعنى التعدى، فمعنى النص السامى، إن الذين جحدوا بالحق إذ جاءهم ولا يكتفون بانصرافهم عن الإذعان والإيمان، بل يصدون غيرهم، ويمنعونهم من الحق بإثارة الشبهات، وإيقاد الفتن بين المؤمنين، يوغلون في الضلال، ويسيروا في طريقه سيرا بعيدا..

ويتضمن ذلك المعنى أمورا:

أولها - أن الكفر بطبيعته انصراف عن الحق وصدود عن طريقه، ولذلك فسرنا كلمة ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بمعنى منع غيرهم من سلوك الأقوم والهادى إلى الحق الذى لا ريب فيه، وإن الذى يصد غيره قد ابتدأ بصد نفسه، فالضلل لغيره هو فى ذات نفسه ضال، فإن الإضلال من ثمرات الضلال، ولا يفضل الناس إلا ضال، وقد ضل مرتين إحداهما بإنكاره للحق، والثانية بمحاولته إضلال غيره.

وثانيها - أن الضلال البعد عن الطريق المستقيم فمن ضل فقد بعد عن الحق، ومن أضل غيره فقد بعد عن الحق بمقدار أوسع، وهكذا كلما سار فى التضليل،

وفتنة المهتدين، وإيذائهم وإثارة الشبهات بينهم فهو يسير موعلا في البعد عن الطريق المستقيم، وهذا معنى قوله قد ضلوا ضلالاً بعيداً.

ثالثها - أن قوله تعالى ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فيه استعارة تمثيلية؛ لأن فيه تشبيه حال الذين يمعنون في الغي والفساد وإنكار الحقائق عندما يلحفون في الإنكار، وإثارة الشبه بحال الذين يسيرون في بلاء، وقد ضلوا الطريق، وساروا على غير هدى، فكلما ساروا بعدوا عن الجادة، وكان سيرهم ضلالاً بعيداً لا يهتدون من بعد، إذ لا يجدون من يهديهم إلى سواء الصراط.

الأمر الرابع - أن النفس البشرية قد هداها الله تعالى النجدين طريق الحق، وطريق الباطل، وألهمها فجورها وتقواها، فإذا انجبت إلى الخير سارت فيه، وكلما كثرت خيراتها زاد فضلها، وإذا انحرفت عن الطريق السوى، أو سارت فيه، فإذا نهت من قريب عادت إلى السفرة والحق، وأمامها الأمارات والعلامات المبينة المرشدة، وإذا لم تتب من قريب، سارت في الشر، وبمقدار سيرها تأخذ أمارات الحق تختفي أمامها، حتى تنطمس فلا ترى. ولذلك لا يكون ثمة أمل في العودة إلى الجادة، لأنه قد اختفت في النفس أمارات الحق، وانطفأ نوره ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ الظلم هنا ظلم النفس وظلم الغير، وأولئك الذين كفروا ولجوا في كفرهم، واسترسلوا في جحودهم قد ظلموا أنفسهم بأن أبعدوها عن طريق الهداية وطمسوا نور الحق فيها وارتكبوا من المآثم ما تردوا به في مهاوى الرذيلة. وظلموا غيرهم بأن أثاروا الشبهات ليضلّوهم، وأوقعوا بهم الأذى ليفتنوهم، والوصفان لطائفة واحدة من الناس، فهم اتصفوا بالجحود المطلق، والظلم، وهى الطائفة الموصوفة بالأوصاف السابقة، فالأوصاف الأولى كانت الكفر، والصد عن طريق الحق، والأوصاف الثانية هى الكفر والظلم، فالكفر مشترك، والاختلاف فى الصد، والظلم، وهما متلاقيان، لأن الإعراض عن الحق ظلم للنفس ومنع الغير من الحق ظلم له، كما

أن الأذى والفتنة فى الدين ظلم لا ريب فيه؛ لأنه تضيق على حرية الاعتقاد، وإكراه فى الدين ولا ظلم أبلغ من سلب الحرية الدينية، وإرهاق المؤمن فى إيمانه.

وإن الذين يوغلون فى الجحود والظلم لا ترجى لهم توبة، وإذا كانت توبتهم لا ترتجى، فالغفران لهم لا يرجى؛ لأن الغفران نتيجة التوبة من الجاحدين الظالمين، وما كانت التوبة للذين يعملون السيئات، وتستغرق نفوسهم، ولا يتجهون إلى الله قط، ولذلك قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾ اللام فى قوله تعالى: ﴿لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾ هى التى تسمى فى اصطلاح النحويين لام الجحود، أى لام النفى المطلق، أى النفى الذى يكون ناشئاً عن طبيعة موضوعة، وعلى ذلك يكون المعنى لم يكن من حكمة الله تعالى، وتديره الحكيم أن يغفر لهم؛ لأن حالهم تنفى الغفران إذ تنفى سببه، وهو الإقلاع عن الكفر والظلم، والندم على ما وقع منهم، وإذا كان ذلك لا يتحقق، فالنفى المؤكد، والجحود المطلق لاستحقاق المغفرة مؤكّد، إذ لا يقابل جحودهم بالله إلا جحود الغفران لهم، وإن الهداية إلى الحق تبتدئ بالاتجاه السليم إلى طلبه، والسير فى طريقه المستقيم، وأولئك الذين أوغلوا فى الشر وساروا فى طريقه، أو غابوا فى صحرائه وبعّدوا عن الجادة لا يمكن أن يهديهم الله تعالى إلى الطريق المستقيم، لأنهم بعدوا عنه بعداً شديداً، ولا يمكن أن يسمعوا نداء الحق؛ لأنه لا يصل إليهم صوته، وقد اختفت من قلوبهم أماراته، فهداية الله تعالى إنما تكون لمن لم يبعد عن طريق الخير، ولا تكون إلا إذا اتجهت النفوس إلى طلبه، ولم تحط بها الخطايا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١).

[الرعد].

والآية الكريمة تتضمن بيان حقائق:

الأولى - أن الظلم وإرهاق النفس بالإكراه أشد الموبقات التى توبق أعمال العبيد، وترهقهم، وإن ظلم العباد لا يغفره الله تعالى إلا إذا عفا الذين وقع الظلم عليهم، ولذلك ذكر امتناع الغفران مقروناً بالظلم، ومسبباً له، وثمره مترتبة عليه.

والثانية - أن هداية الله تعالى تكون للنفس الصالحة لقبولها، فهي استجابة من الله تعالى لمن يطلبها، ولا يطلبها من أركس في الشر إركاساً، فمن طلب الهداية نالها، ومن تنكب سبيلها سلب الله تعالى عنه هدايته.

الثالثة - أن التوبة أساس الغفران، والتوبة ندم على الذنب، وإقلاع عنه، واعتزام على عدم العودة.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ الاستثناء هنا من ختام الآية السابقة، أي أن الله تعالى لا يوصلهم إلى طريق إلا طريق جهنم، ويكون معنى الهداية التوصيل، وليس التوصيل إلى جهنم فيه نوع من الهداية، بل هو التردى في الهاوية، وكان التعبير عن الهداية من قبيل المشكلة اللفظية، وفيه نوع من التهكم في مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) [الانشقاق].

وفى الكلام تنبيه إلى أن أعمالهم تنتهى بهم لا محالة إلى جهنم، وعذابها الشديد، فإذا كانوا ممن يظنون أنفسهم في سعادة في الدنيا، فسيجدون الألم الشديد، ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥) [الحجر].

وقد ذكر سبحانه أنهم خالدون في جهنم أبداً، فأكد سبحانه العذاب بأنه عذاب خالد دائم، فوصفهم بأنهم خالدون على وجه التأييد، وقد وصفهم بالخلود الدائم في العذاب ولم يصف العذاب، للإشارة إلى أنهم متلبسون به ولتصوير الآلام التي تنزل بهم، وأنهم لإخلاص لهم منها، بل هي ملازمة لهم ملازمة الوصف للموصوف.

وقد قال الأصفهاني في معنى الخلود: الخلود هو تبرى الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ التغيير والفساد فيه تصفه العرب بالخلود. . ويقال خلد يخلد خلوداً قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩) [الشعراء].

والخلد اسم للجزء الذى يتبقى من الإنسان على حالته . . وأصل المخلد الذى يبقى مدة طويلة . . والخلود فى الجنة بقاء الأشياء على الحالة التى عليها من غير اعتراض الفساد عليها . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ .

والأبد قال فيه الراغب : «مدة الزمان الممتد الذى لا يتجزأ، وأبد يأبد بقى أبداً، ويعبر به عما يبقى مدة طويلة»، وإن تفسير الخلود على ما ذكره الراغب يقتضى بقاء الناس يوم القيامة بأبدانهم من غير أن يعتربها فساد ولا فناء ولا تحلل أجزاء، فأهل الجنة يبقون بقاء تمتع ونعيم وأهل النار تبقى أجسامهم فى شقاء وعذاب أليم، لا تبليها النار ولا يفنيها العذاب، ولا يذهب بالحساسية فيها توالى الاكتواء، ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء]. والأبدية معناها الدوام، كما دل على ذلك مجموع النصوص القرآنية، وإن تأكيد الخلود بالأبدية يدل على بقاء العذاب والنعيم .

ذُيِّلَ الله سبحانه وتعالى الآيات بهذا ليبين لهم أن الله تعالى غالب على كل شىء، وأن عذابهم أمر يسير عليه، لإبطال زعمهم فى أنهم لا يقدر عليهم أحد، ذلك أن كل طاغية من طغاة الدنيا سبب طغيانه واسترساله فى شره ظنه أن لن يقدر عليه أحد، مع أن الله تعالى هو القاهر فوق عباده، اللهم أبعد عن خلقك طغيان الطاغين، وغرور المغترين، وأرزق المؤمنين الأمن والاطمئنان .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا

عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
 اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ
 وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

كان كل الكلام السابق فى شأن الذين لجؤا فى الإنكار من اليهود حتى لقد
 سألوا أن يأتى لهم النبى ﷺ بكتاب من السماء يقرءونه، وكان حاضرهم فى عصر
 النبى ﷺ كماضيههم، وفى هذه الآيات بيان منزلة الرسول محمد ﷺ، وأنه
 يخاطب الناس جميعا برسائله، ويدعوهم إلى شريعته، وإشارة إلى طائفة أخرى
 من أهل الكتاب غالوا فى تقدير رسولهم، وهم النصارى، فإذا كان اليهود قد لجؤا
 فى الإنكار والجحود بالنسبة لرسولهم الذى أنقذهم من فرعون وطغيانه، الذى كان
 يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم. فالنصارى قد غالوا فى تقدير رسولهم حتى
 جعلوه إلها، وجعلوا الآلهة ثلاثة استرسالا فى المغالاة فى تقدير المسيح عيسى -
 عليه السلام -، وهو برىء مما يقولون.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الخطاب للناس أجمعين:
 أهل الشرك وأهل الكتاب، والعرب والعجم، والأبيض والأسود، والقريب
 الدانى، والبعيد القاصى، فهى رسالة عامة، لا تختص بجنس، ولا لون، ولا
 إقليم، فإذا كان موسى يخاطب بنى إسرائيل، فمحمد ﷺ يخاطب الناس
 أجمعين.

وذكر الرسول معرفا بالألف واللام لمعنى كمال الرسالة فيه، فهى للتعيين
 بالكمال المطلق، أى أنه رسول الأجيال اللاحقة، ولا رسالة من بعده، فالتعريف

هنا للكمال المطلق في الرسالة، وكان كمالها في عمومها، وفي كمال الشريعة التي جاءت بها، وصلاحياتها لكل الأزمان والأقطار والأمصار، ورسالتها فوق ذلك فيها الأحكام الخالدة من كل الرسائل السابقة، فمن آمن به فقد آمن بالرسالات كلها، ومن كفر برسول من السابقين، فقد كفر برسالته، فرسالته هي جماع الرسائل، وهي أوسطها وأشملها وأمثلها.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى فضل رسالته وكمالها وعمومها بثلاثة أمور:

أولها - في قوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ أى بعث هذا الرسول الأمين الكامل في معنى الرسالة وأدائها. قد جاءكم أيها الناس جميعا، فهي رسالة جاءت لصالحكم جميعا، أى لصالح البشرية كلها، لا لجزء من أجزائها.

ثانيها - التعبير بقوله تعالى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى مقرونة بالحق مصاحبة له، متلبسة به، فهي حق ثابت مستقر موافق لفطرة البشر أجمعين، لا يأتيه باطل قط، وما كان حقا ملائما لفطرة البشر لا بد أن يكون عاما، شاملا لا يختص بمكان، ولا بزمان، ولا بعصر من العصور.

ثالثها - قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى أن رسالة محمد ﷺ جاءت من ربكم الذى خلقكم، وقام على أموركم الذى يعلم ما فيه نفعكم، وما فيه خيركم، ولا يرضى لعباده إلا النفع لعمومهم.

ولذلك كان الإيمان بهذه الرسالة والإذعان لها أمرا واجبا لمصلحة الناس أجمعين، فقال سبحانه:

﴿فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، وتقدير الكلام: إذا كان ذلك الرسول هو الكامل في رسالته التي جاءت بالحق تلازمه ويلازمها، وفيها مصلحة لكم لأنها من عند ربكم، فأمنوا خيرا لكم، أى فاذعنوا للحق وصدقوه، واعملوا به خيرا لكم. وهنا أمران لفظيان فيهما توضيح المعنى وكشف لبعض أسرار البلاغة القرآنية.

أولهما - فى قوله «فآمنوا» فلم يقل آمنوا به، بل أطلق الإيمان للإشارة إلى أن الإخلاص وحده، وهو الإذعان للحق، وعدم التمرد عليه لسبق الإلحاد والإنكار- هو الذى يفتح القلوب للحق، وتصديق ما أنزله الله تعالى على رسوله الأمين ﷺ.

ثانيهما - قوله تعالى: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ ونصبت كلمة «خيرا» وصفا لمحذوف تقديره آمنوا إيماننا هو خير لكم، أو مفعولا لمحذوف وتقديره آمنوا قاصدين خيرا لكم، ويصح أن تكون خيرا لكان المحذوفة فى فعل شرط وجوابه، والمعنى إن تؤمنوا يكن خيرا لكم، وذلك مثل (كل امرئ مجزى بعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر).

ومهما يكن فإن النص الكريم يبين أن الإيمان فيه الخير المطلق؛ لأنه الحق، ولأنه من عند رب العالمين.

هذا فضل الايمان وما فيه من خير، وأما الكفر، فإنه الضرر كله للعباد، ولا يرضى سبحانه وتعالى الكفر لأنه لا يرضى ما يضرهم، وأما هو سبحانه فإنه لا يضره شيء من كفرهم لأنه المالك لكل شيء، مالك لكل السموات من أفلاك ونجوم ومدارات، وما تحوى من كائنات، وما فى الأرض مما هو على ظاهرها وما فى باطنها، فهو المالك والسلطان القاهر، فلا يضره كفر العباد، وإن كان لا يرضاه، ويرضى إيمانهم، وإن كان لا ينفعه، وهذا تقريب لمعنى قوله تعالى:

﴿وَأَن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذا ختام النص الكريم فيه وصف الله الدائم بالعلم المحيط الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء وبالحكمة وحسن التدبير والإبداع فى ملكوت السموات والأرض، إذ يسير الكون بنظام محكم التقدير والتدبير، وينواميس وأسرار كونية لا يعلمها إلا العليم الخبير الذى خلق كل شيء فقدره وأحسن تقديره، وأنه كان من مقتضى علمه ألا يخفى ضلال الضالين، ولا هداية المهتدين، وكان من مقتضى حكمته، أن يجزى بالكفر عذابا، وبالإيمان نعيما، وأن يجعل من عباده الشكور المهتدى، ومنهم من ضل وغوى.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ نهي في هذا النص الكريم عن الغلو في الدين، والغلو هو تجاوز الحد سلباً أو إيجاباً، وقد تجاوز إليهم الحد في شأن عيسى - عليه السلام -، فأنكروا رسالته لعنة الله عليهم، واتهموا أمه البتول، وغالى فيه النصارى، حتى أخرجوه من مرتبة البشرية مع أن البشرية واضحة فيه، وفي ولادته، وفي حياته، وفي كونه لحماً ودماً يحيا ويموت، ويأكل ويشرب، كما يأكل سائر البشر، وإذا كان الغلو في شأن عيسى وقع من اليهود، ومن النصارى، فإنه يصح أن يكون الخطاب موجهاً إلى الفريقين، باعتبار أن الغلو وقع مستمراً، فيكون النهي عن الاستمرار، ولكن سياق القول يدل على أن أهل الكتاب المخاطبين في هذه الآية هم النصارى لأنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا﴾ إلى آخره، فالسياق في خطاب النصارى ومغلاة اليهود بشأن عيسى قد سبق بيانها آنفاً.

ولقد أردف الله سبحانه النهي عن المغلاة بتجاوز الحق، وبالأمر بالحق، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

أى لا تقولوا يا معشر النصارى على الله إلا الحق الثابت القائم على الدليل المقنع، لا على الوهم البعيد، وفي هذا النص السامى إشارات إلى معان، فإن أقوالهم التى قالوها غير الحق هى افتراء وكذب على الله تعالى، وكذلك عدى القول فقال على الله؛ لأن القول يتضمن معنى الافتراء، وفوق ذلك إنها لا تعتمد على الحق الثابت، وتناقض الدليل الواضح، والبرهان القاطع قائم فى أن عيسى ولد، والإله لا يولد، وعيسى كان يأكل ويشرب، والإله ليس كذلك، وقد زعموا أنهم قتلوه، والإله لا يُقتل، وزعموا أنه قتل افتداء للخليقة عن عصيان آدم لله تعالى، وليس من المعقول فى أى منطق أن يفتدى الله الخليقة عن عصيان أبيها بتمكينهم من قتل ابنه فى زعمهم، فإن ذلك القتل جريمة أشد وأشنع، وإذا كانت الأولى تحتاج إلى فداء، فالثانية لا يغنى عنها فداء، ولكن هكذا سوغ الوهم لهم.

وإذا كان ما قالوا باطلا، لا يمت إلى الحق بسبب، فالحق هو ما قرره الله تعالى في قوله تعالت كلماته.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾
صدر الكلام بأداة القصر، وهي «إنما» ومعنى القول ليس المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول الله أرسله لهداية الحق، وهو قد نشأ بكلمته، ونفخ بروح منه في مريم، فكان من بعد بشرا سويا، وهو في إيجاده آية قدرة الله تعالى على الخلق من غير تقييد بالأسباب التي تجري بين الناس، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات بديع السموات والأرض وليس له ولد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾ [الإخلاص].

ولا بد أن نتعرض بقليل من البيان لثلاث عبارات: الأولى - التعبير بـ «الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» والثانية «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ» والثالثة «وَرُوحٌ مِنْهُ» فقد تعلقنا بالأوهام بالعبارتين الأخيرتين، فوجب بيانهما، مع أن في الأولى إزالة لأوهامهم.

أما العبارة الأولى، وهي «الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» فإن الله تعالى قد ذكر أنه المسيح، وأنه عيسى، وأنه ابن مريم، فأما الأول فهو الاسم الذي يذكر به في القرآن، وذكر بسجواره عيسى للإشارة إلى أنه شخص ككل الأشخاص فيه إشارة إلى بشريته، والتصريح بالبشرية في قوله تعالى «ابن مريم» فهو مولود خرج من رحم أنثى، كما يخرج الأولاد من أمهاتهم، وإذا كان لم يخرج من صلب أب، فإنه قد خرج من رحم أم، وحسبنا ذلك دليلا على البشرية المطلقة، وفي ذكر الأم من غير ذكر أب دليل على أنه لا ينتسب إلى أب قط، فليس ابن يوسف النجار، وليس ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

والعبارة الثانية، وهي «كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ» فإن الكلمة هنا قد تكون مجملة، ولكنها ذكرت في آيات مبينة، ذكرت في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، فقد قال تعالى في شأن خلق عيسى عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ [مريم].

هذا ما جاء في سورة مريم، وقد جاء في سورة آل عمران: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٧﴾ [آل عمران]

وقال في شأن خلق عيسى من غير أب: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ [آل عمران].

وبهذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى خلقه بكلمة منه، وهو «كن»، كما خلق آدم، وكان عيسى بهذا كلمة الله لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر يبذر في رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، وللأسباب التي تجري بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده، وكلمته «كن» وبذلك سُمِّيَ كلمة الله. وتعلق النصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته، وما كانت الكلمة من الله إلها يعبد، فضلا عن أنه سُمي بذلك؛ لأنه فعلا نشأ بكلمة، لا ببنى من الرجل يبنى، بل كلمته التكوين ألقاها (أى أوصلها) إلى مريم فكان التكوين لعيسى.

والعبارة الثالثة ﴿وَرُوحٌ﴾ وهذه أيضا من العبارات التي تعلقت بها أوهامهم، إذ قد فتحوا باب الوهم فيها حتى غشى عقولهم، فحجبها، فظنوا أن هذه الكلمة تدل على معنى الألوهية في عيسى.

وإن تتبع هذا اللفظ في القرآن يدل على أنه يراد به أحيانا الروح التي ينشئها الله تعالى في الأبدان، وينفخ بها فيها، وتكون بمعنى الملك جبريل عليه السلام، وتكون بمعنى رحمة، وليس في ذلك ما يدل على الربوبية أو الألوهية فيمن تقال فيه أو يسمى باسمه، وقد قيل المعنيان الأولان في شأن عيسى وشأن أمه، فقد قال

فى شأن أمه مريم البتول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ۖ﴾ [الأنبياء] وهو جبريل - عليه السلام -، وقد ذكرنا من قبل قوله تعالى: ﴿... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ﴾ [مريم].

وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى أنه سبحانه أنشأه بروح مرسل منه، وهو «جبريل الأمين»، وقد يقال أنه نشأ بروح منه سبحانه، أى أنه أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان، ولقد قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ﴾ ثم جعل نسله من سُلَالةٍ مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ [السجدة] والاول أولى.

وعلى ذلك يكون معنى قوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى أنه نشأ بنفخ الله تعالى الروح فيه من غير توسط سلاله بشرية، ونطفة تتشكل إنسانا، وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل وقد تمثّل لها بشرا سويا.

ولكن قد يسأل سائل لماذا سماه الله تعالى روحا، ونقول فى الإجابة عن ذلك أن عيسى سمى روحا باعتباره نشأ من الروح مباشرة، ولأنه غلبت عليه الروحانية، وإن كان بشرا كسائر البشر، يأكل ويشرب، ويمشى فى الأسواق، ولهذا المعنى سمى روحا، (ومن) هنا للابتداء أى أن الروح مرسل من عند الله تعالى، ونافخ بإذنه.

وبهذا الكلام يزول الوهم الذى سلطه الله على عقول الذين غالوا فى المسيح - عليه السلام - غلوا بعيدها، فنخلوه ما ليس له. وما ليس من شأنه، وجعلوه إلهاء، وابن إله، ومنهم من جعل أمه مريم إلهاء، إلى آخر ما توهموا.

ولقد لج الوهم ببعضهم فظن أن فى القرآن الكريم ما يدل على ما توهموا، فقد قالوا إن فى القرآن ما يدل على أن عيسى - عليه السلام - مؤيد بروح القدس، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ﴾ [البقرة].

ونقول فى إزالة هذا الوهم إن روح القدس الذى ذكر فى القرآن عدة مرات فى مقام التأييد لعيسى هو جبريل - عليه السلام -، وقد ذكر بالنسبة لمحمد ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل].

وإذن لا لبس ولا التباس، ويجب أن تفسر بذلك روح القدس التى جاءت فى الأناجيل بالنسبة لعيسى، فقد جاء فى إنجيل متى: «ولما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، وجدت حبلى من الروح القدس» وبالتفسير المعقول المتفق مع نص القرآن يكون الحبل بنفخ من روح القدس جبريل، وقد جاء فى الإنجيل ما يدل على أن روح القدس هو جبريل - عليه السلام -: «وهذا الرجل كان باراً تقياً ينتظر نفسه إسرائيل والروح القدس»، وجاء فى الإصحاح الثانى من إنجيل متى آية ٢٦ (وكان قد أوحى إليه بالروح القدس).

وإذا كان الحق فى عيسى - عليه السلام - أنه رسول الله، وأنه تعالى خلقه من غير طريق الأسباب المعتادة، إذ خلقه بكلمة، وأنه روح جاءت من قبل الله إذ نفخ جبريل الروح فى مريم فكان منها الحبل، وأنه غلبته روحانية، إذا كان كذلك، فيجب الإيمان بالحق، وإزالة الأوهام، وكذا قال سبحانه:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أى إذا كانت تلك حقيقة المسيح، وليس بابن إله، فآمِنُوا بالله وحده لا شريك له فى العبادة، ولا فى السلطان، وليس معه ثان ولا ثالث، وليس بوالد ولا ولد، وآمنُوا بالرسالة الإلهية، وآمنُوا بالرسول الذين سبقوا عيسى والرسول الذى جاء من بعده، ولا تكفروا بأحد منهم ولا تغالوا فتقولوا ثلاثة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾.

وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ بدل قوله «ولا تؤمن بثلاثة أو لا تصدقوا بثلاثة، أو لا ترعموا ثلاثة»؛ لأن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سألتهم عن معناه قالوا مرة الأب والابن وروح القدس أى أنهم ثلاثة متفرقون،

ومرة يقولون ثلاثة أقانيم، والذات واحدة، فإن أردت تفسيراً لمعنى الثالث، قالوا كلاماً لا يمكن أن تقبله العقول المستقيمة.

وإن الدارس لتاريخ النصرانية من غير تحيز لهذه الأوهام أو متحيز عليها يرى أنها في ابتدائها ديانة توحيد خالص، وأنه ما كانت ألوهية المسيح عندهم رائجة، ولا يعتنقها الأكثرون، بل كان الأكثرون على أن الله إله واحد ليس له ولد ولا والد، واستمر الحال كذلك إلى أن أراد قسطنطين أن يدخل في المسيحية، وقد كان وثنياً، ولكنه أراد أن يدخلها بعد أن يحرفها، فعقد مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥ ميلادية، وقد ادعى أن انعقاده للرد على أريوس الذي أنكر ألوهية المسيح، فكان المجتمعون أكثر من تسعمائة، وقد كانت الكثرة منكراً ألوهية المسيح، والذين قالوا ألوهية المسيح ٣١٨ فاكتمى بهم وأعلنوا الألوهية، وعلى رأسهم أسقف الإسكندرية، ودخل قسطنطين في المسيحية من بعد قرارهم، وقد استنكر أكثر المسيحيين ما قرره مجمع نيقية، ولذلك انعقد فوراً مجمع (صور) ورفض دعوى ألوهية المسيح بالإجماع، ولكن استخدمت القوة والإرهاب لتشتيت المجتمعين، وأخذت القوة تعلن الألوهية، وتخفي الوحدةانية.

ولم يكن إلى ذلك الوقت أحد يقول إن روح القدس إله، حتى دعا أسقف الإسكندرية إلى عقد المجتمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١، فقرر ألوهية روح القدس.

وبذلك قالوا ثلاثة، وتوالى العصور، وإخفات صوت المخالفين، وتقدير التثليث وتثبيتته سيطرت الأوهام، واستقر الأمر على ثلاثة.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن أن يقولوا ثلاثة، وأكد سبحانه وتعالى النهى بقوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ وفي التعبير بـ «انتهوا» دليل على أنهم لم يعتنقوا ما يدعون اعتقاداً جازماً، بل إنهم إن فكروا غيروا، فكان الأمر بالانتهاء، وقال انتهوا خيراً لكم، أى انتهوا يكن الانتهاء خيراً لكم؛ لأنكم تخرجون من حيرة الأوهام إلى تفكير العقول، وتدركون الحق، وتدعون له، وتكونون مؤمنين

بالمسيح حقاً وصدقاً، والاطمئنان إلى حكم العقل خير من حيرة الوهم والشك، وفي انتهائهم رضا الله والجزاء في الآخرة.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى أن المعبود بحق ليس إلا واحداً، وهو الله تعالى ذو الجلال والإكرام، ووحدانيته تكون فى الذات والصفات والعبودية، فليست ذاته الكريمة كذات المخلوقات، وهو وحده سبحانه الجدير بالعبودية والألوهية فلا معبود سواه، وهو وحده الخالق للكون، وقد تنزه سبحانه عن أن يكون له ولد؛ لأن هذه صفات المخلوقين، وذاته تعالى واحدة ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لأن كون أحد ولده يقضى الاتصال بالمخلوقين ويكون مثلهم، وهو الخالق لهم ولكل شيء، فكيف يكون المخلوق ولداً. وكيف يكون البشر متولداً من الله تعالى الخالق له المنشئ الكون المربى، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كل ما فى السموات من بروج ونجوم وكواكب، وما فى الأرض من أحياء على ظهرها، ومعادن وفلزات وكنوز فى باطنها، وما فى البحار من أحياء، ومن جواهر ولآلى، هو ملك لله تعالى، فعيسى ابن مريم وأمه وغيرهما مملوكان لله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٩٣] ﴿[مریم]. والله سبحانه هو المدبر للكون الذى وكل إليه أمره، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى أن الله تعالى هو الذى قد وكل إليه أمر الكون، وتدبيره ظاهره وباطنه، وما ظهر منه للناس، وما خفى عليهم، وكفى بالله وكيلاً ليستقيم الأمر فيه، وليسير على سنن مستقيم لا اضطراب فيه ولا اختلاف. اللهم أنت بديع السموات والأرض لا تؤمن إلا بك، ولا نعبد إلا إياك، ولا نرجو الخير إلا منك، اللهم إنك أنت مانح النعم ومجريها، ولا يرجى سواك.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ
 الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
 وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
 إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ
 اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
 يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٧﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة مغالاة النصارى في تقدير السيد المسيح - عليه السلام -، وأنهم رفعوه إلى مرتبة الألوهية، وقالوا بالسنتهم إن الله ثالث ثلاثة من غير أن يحددوا معنى الألوهية في الاثنين اللذين زادوهما في أقوالهم، ومن غير أن يميزوا علاقة الثلاثة بعضهم ببعض، إلا أن يقولوا المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ودفعهم إلى ما يقولون أن عيسى ولد من غير أب، وأنه كان إنسانا روحانيا، فزعموا أنه ليس كغيره من رسل الله تعالى، واستنكفوا أن تكون علاقته بالله تعالى (الخالق لكل شيء) كعلاقة سائر العباد من حيث إنه مخلوق لرب العالمين، وفي هذه الآية يبين سبحانه أن علاقة المسيح - عليه السلام - بربه علاقة عبد بخالقه، وأنه لن يترفع عن هذه العلاقة، ولذا قال سبحانه.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ومعنى النص الكريم: لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولن ينزل من مرتبته أن يكون من عبيد الله تعالى، فإن ذلك وضع للأمور في مواضعها، إذ هو مخلوق لله تعالى. روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ فقال عليه السلام: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى (عليه السلام) فقال النبي ﷺ: وأي شيء أقول؟

قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله. فقال لأمير القوم: «إنه ليس بعار أن يكون عبدا لله، قالوا: بلى»^(١).

وهنا بحثان لفظيان نريد أن نلم بهما بعض الإمام.

أولهما - التعبير بـ «لن» فإن هذا التعبير النافي فيه تأكيد للنفي، وفيه بيان استمراره وفيه فوق ذلك إشارة إلى أن المنفى هو الأمر الذي لا يتصور العقل غيره، فلا يتصور العقل أن يترفع المسيح عن أن يكون عبدا لله، لأنه هو الذي خلقه، وهو الذي سواه، وهو الذي جعل له كل الصفات التي امتاز بها على غيره من الناس في عهده، إن الكمال للإنسان في أن يحس بعبوديته لله تعالى وحده، فذلك ليس عارا كما ذكر الرسول ﷺ؛ لأن شكر المنعم هو كمال الإنسان، والمنعم بنعمة الوجود، ومجرى النعم هو الله سبحانه وتعالى، فالعبودية له سبحانه شكر وهي كمال الصلة بين الله تعالى وخلقه.

وثانيهما - أصل معنى يستنكف، أنها في مغزاها لن يأنف أو يترفع، ولكن في أصل اللغة لها أصول ثلاثة.

أولها - أنها مشتقة من التنزيه، فالفعل الثلاثي لها (نكف)، دخله السين والتاء فيقال نكفت من الشيء واستنكفت منه، وأنكفته أى نزهته عما يستنكف منه، وروى في الحديث أن النبي ﷺ سئل عن معنى سبحانه الله فقال - عليه السلام - «إنكاف الله عن كل سوء»^(٢) بمعنى تنزيهه عن كل سوء، ويكون معنى «لن يستنكف»: لن يتنزه عن أن يكون عبدا لله، فالعبودية ليس للبشر أن يتنزهوا عنها، بل عليهم أن يخضعوا لها.

ثانيها - أنها مأخوذة من نكفت الدمع إذا نحيت به بأصبعك عن خدك ستر

(١) ذكره هكذا بلفظ «روى»: الزمخشري، والنسفي، والرازي، والآلوسي، والبيضاوي، سببا لنزول الآية الكريمة.

(٢) النهاية في غريب الحديث (نكف).

لظهر البكاء، ومنه الحديث: «ما ينكف العرق عن جبينه»^(١) أى ما ينقطع، ومنه الحديث: «جاء بجيش لا ينكف آخره»^(٢). ومعنى (لن يستنكف) أى لن ينقطع أن يكون المسيح عبدا لله. وقد اختار ذلك الزجاج، وارتضاه الزمخشري فى الكشف.

ثالثها - أنها مأخوذة من النكف وهو العيب، ويكون المعنى «لن يعاب المسيح أن يكون عبدا لله» وكلها معان متلاقية.

وعطف سبحانه على المسيح - عليه السلام - الملائكة فقال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى لا يستنكف المسيح عن أن يكون عبدا لله، ولا يستنكف أيضا الملائكة المقربون إليه سبحانه كجبريل وإسرافيل وميكائيل، وحملة العرش فإن هؤلاء على روحانياتهم الكاملة، ومع أن الله تعالى خلقهم من غير أب ولا أم لا يترفعون، أن يكونوا عبيدا لله تعالى؛ لأن الله تعالى خلقهم وهم المدركون لجلاله وكماله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم].

ولقد أخذ الزمخشري من هذا النص أن الملائكة المقربين أعلى درجة من الأنبياء وقال فى ذلك: ولا من هو أعلى قدرا وأعظم خطرا وهم الكروبيون الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم، فإن قلت من أين دل قوله تعالى ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ على أن المعنى ولا من فوقه، قلت من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك، وذلك أن الكلام سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم فى رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم لن يرفع المسيح عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة، كأنه قيل لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح! ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة، ومثاله قول القائل:

وما مثله ممن يجاود حاتم ولا البحر ذو الأمواج يلتج ذاخره

ولا شبهة في أن مقصده بالبحر ذى الأمواج ما هو فوق حاتم في الجود، ومن كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ [البقرة] حتى يعترف بالفرق المبين.

وينتهى من هذا إلى أن الملائكة المقربين أفضل من عيسى - عليه السلام -، وعيسى من أولى العزم من الرسل، فالملائكة أفضل من النبيين.

وقد خالفه في ذلك كثير من العلماء، وردوا عليه بردود لا تسقط مقدمة الدليل وهو كون النص يفيد الترقى من المفضول إلى الأفضل، فالمسيح مفضول، والملائكة المقربون أفضل، ولكنها تبطل النتيجة في ذاتها، وهى كون الملائكة أفضل؛ ذلك لأن الحديث فى الملائكة المقربين، فكيف تكون النتيجة أوسع وتعم الملائكة أجمعين، المقربين ومن دونهم؟.

وعندى أن الترقى قائم، ولكن فى المعنى الذى سيق له الكلام، ذلك أن النصارى غلوا غلوا كبيرا فى المسيح؛ لأنه ولد من غير أب، ولأنه جرت على يديه معجزات كثيرة، ولأنه روحانى المعانى، فبين الله سبحانه وتعالى أنه مع كل هذا لن يستنكف أن يكون عبدا لله، ولا يستنكف من هو أعلى منه فى هذه المعانى وهم الملائكة الذين خلقوا من غير أب ولا أم، وأجرى على أيديهم ما هو أشد وأعظم من معجزات، ومنهم من كان الروح الذى نفخ فى مريم، وهم أرواح طاهرة مطهرة، فكان الترقى فى هذه المعانى، وهم فيها يفضلون عيسى وغيره، وبذلك تكون الآيات بعيدة عن الأفضلية المطلقة، فلا تدل على أفضلية الملائكة على الرسل فى المنزلة عند الله تعالى ورضوانه، وتكون الآية بعيدة عن موطن الخلاف، والترقى دائما يكون فى المعانى التى سيق لها الكلام دون غيرها، وليس المتأخر أعلى فى ذاته من المتقدم وأفضل، ولكنه أعلى فى الفعل الذى كان فيه كقول القائل لا تضرب حرا ولا عبدا، فالتدرج هنا فى النهى عن الضرب، لأنه إذا كان ضرب العبد غير جائز فإن ضرب الحر من باب أولى غير جائز.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ

﴿١٧٤﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ
﴿١٧٥﴾ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا

بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة جحود المشركين وأهل الكتاب للرسالة المحمدية، وبين بطلان قولهم، والإفك فيما يزعمون من تدين، وأن المسيح - عليه السلام - كان موضع المغالاة، فاليهود غالوا في إنكار رسالته، وزعموا أنهم قتلوه وما قتلوه وما صلبوه، وما مكنتهم الله تعالى من أن يقتلوه، كما قتلوا نبين من قبله، وغالى فيه النصارى فادعوا له الألوهية، بعد أن بين سبحانه وتعالى ذلك أخذ يبين المنهاج المستقيم، والدين الحق الذى لا يأتيه الباطل، وليس فيه غلو فى أمر من الأمور، بل فيه النور والحجة والبرهان، ولذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ الخطاب عام لأهل العقول من الناس أجمعين كافرهم وملحدهم، ومشرِكهم ويهودهم ونصاراهم والمؤمنين بالله ورسوله، وما أنزل على رسوله الأمين محمد ﷺ.

والبرهان الذى جاء رب العالمين الناس به هو النبى ﷺ، وقيل إنه القرآن، وقيل إنه القرآن والنبى ﷺ، وقد ذكر الزمخشري الأقوال الثلاثة على أنها محتملة، ويصح أن يكون آخرها أجمعها وهو أولى بالاعتبار لهذا، وتوجيه القول على أن النبى ﷺ هو البرهان، أن شخصه الكريم من يوم مولده إلى أن قبضه الله تعالى إليه برهان صدق الرسالة التى كان يدعو إليها، ويهتدى الناس بها، ذلك أنه نشأ يتيمًا من أبيه وأمه ومع ذلك لم يتدلَّ إلى ما يتدلى إليه إيتامى، فلم يقع منه

ما يتهافت فيه الذين حرموا عطف الأب وحنان الأم، ولم يتجه إلى ما يتجه إليه الغلمان في حياته الأولى، بل كان الجدد يغلبه، حتى لقد قال فيه جده وهو لم يبلغ الثامنة من عمره: (إن ولدي هذا سيكون له شأن)، لما رآه من مخايل الذكاء والجدة، والعزوف صغيراً عن المعائب، ولما بلغ سن الشباب بدا فيه الكمال وظهر واضحاً في كل حياته، فلم يكذب قط، ولم يخن قط، ولم يقع منه ما يقع من الشباب من مجون، ولم يشرب خمراً أبداً مع شيوخها في الجاهلية، والتفاخر بها، ولم يلعب الميسر مع الانغمار فيه، ولم يرتكب ما يخل بالمرءة، ولم يسجد لصنم، بل تاجر، ولم يكن إلا أميناً في تجارته كما كان أميناً في عامة شئونه، حتى لقد لقب في العرب بلقب الأمين، فكان إذا ذكر هذا اللفظ لا يطلق إلا إليه، كما يحمل الكل، ويحمى الضعيف، ويعين على نوائب الدهر، كما وصفته زوجته أم المؤمنين خديجة، ولما بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، كان أوضح ما يوصف به الخلق العظيم، والعطف الكريم، والجزم في الدعوة إلى الحق من غير ولاء، ولا كسل، إذا سالم كان الوفي في عهده، وإذا حارب كان العدل في حربه، وإذا خاصم كان الشريف في خصومته، وإذا تكلم كان العف في قوله، وإذا عامل كان السمع في معاملته، وإذا خطب كان كلامه فصل الخطاب، أوتي جوامع الكلم، كلامه حكم، وعمله سلم، وشرعه صلاح للناس في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الرسول ﷺ له ذلك السمو، فشخصه برهان الصدق، ودليل الحق، وكثيراً ما كان يراه الرائي، فيسمع قوله، فيحكم بصدقه من غير أن يطلب دليلاً من غير شخصه الكريم. رآه أعرابي فاسترعاه منظره الكريم، فقال: من أنت؟ قال الرسول الكريم: أنا محمد. فقال الأعرابي الذي يتكلم بما يسمع: «أنت الذي تقول فيك قریش أنك كذاب، لا، ليس هذا الوجه وجه كذاب»^(١). ثم آمن به بعد أن علم ما يدعو إليه.

(١) نقل الألوسى هذه الرواية عن الفتوحات المكية باب (١٧٢، ٢٧٧). روى نحو هذا عن عبد الله بن سلام في مصنف ابن أبي شيبة، ومسنند الشهاب للقضاعي.

هذا تخريج قول الذين قالوا إن البرهان هو النبي ﷺ، وهم كثيرون من التابعين.

وأما قول الذين قالوا إن البرهان هو القرآن الكريم، فهو واضح لأن القرآن هو معجزة النبي ﷺ الدالة على صدق رسالته، ولكن الذى يقتضى توضيحه هو قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ فإنه واضح أن المراد منها القرآن؛ لأنه المنزل من رب العالمين، وهو النور الواضح الهادى إلى الرشاد، ويجاب عن ذلك بأن القرآن الكريم فيه المزايا الثلاث، فهو الحجة القائمة، والمعجزة الدائمة، وهو تنزيل من رب العالمين، وهو نور يهدى للتي هي أقوم، وإن النور المبين فى القرآن، ما اشتمل عليه من أحكام شرعية خالدة تنير السبيل وتوضحه لمن يسلك سبيل المؤمنين، فهي نافعة فى الدين مسينة الحق، ومن اتبع أحكام القرآن هدى، ومن خالفها هوى.

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾. أنزلنا إليكم مواعظ وقصصا وأحكاما شرعية هي كالنور فى هدايته وإرشاده وبيانه للأشياء فهي مبينة للطريق المستقيم، والنهج القويم، والحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

ولا يتغير المعنى إذا قلنا إن البرهان هو النبي ﷺ، فإنه حيثئذ يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾. بأنه القرآن، والمعنى والمؤدى فيهما، لا يختلف.

وهنا مباحث لفظية لا بد من الإشارة إليها بعبارات موجزة موضحة.

أولها - التعبير بقوله تعالى: ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾. فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾ فيه تقوية لمعنى البرهان؛ لأن ذلك الدليل إذا كان قد جاء من عند علام الغيوب الذى خلق السموات والأرض وما فيهما، لا بد أن يكون برهانا صادقا مقنعا لطالب الحق، مفحما لأهل الباطل الجاحدين، وقد زكى معنى التأكيد التعبير

بقدر وبالجملة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ أى أنه أتاكم كالأمر المحسوس المؤكد الذى يرى ويحس، فهو قائم بين أيديكم وحجة عليكم.

ثانيها - إسناد الإنزال إلى الذات العلية ذات الجلال والإكرام في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ فأسند إليه تعالى للإشارة إلى أنه تعالى المرجع وكما أن المآب إليه.

ثالثها - وصف الشرائع والقصص والمواعظ التى نزل بها القرآن بأنها نور مبين واضح، أى أنه لا يخفى إلا على من أنفت حواسه، وفستت مشاعره، وأصيب بعمى البصيرة، وكان عليه غشاوة، لا يرى معها النور الواضح المبين.

وإن الناس الذين خوطبوا بذلك الخطاب الإلهي قسمان، فريق آمن واهتدى، وانتفع بالنور الذى جاء الرسول به، وفريق ضل وغوى، ولم ينتفع بالنور الذى حمل مصباحه المزهري محمد ﷺ، وقد بين سبحانه وتعالى الفريق الذى اهتدى فقال تعالت كلماته:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى وصفين للذين اهتدوا وزادهم هدى. أول هذين الوصفين أنهم آمنوا بالله تعالى، وثانى هذين الوصفين أنهم اعتصموا به، فلا يلجأون إلا إليه، ولنتكلم فى كل من هذين الوصفين، ومقامهما من اتباع الحق، والاهتداء بهديه.

أما الإيمان بالله فمعناه الإيمان بعظمته وجلاله، والإحساس بأنه فوق كل شيء، وهو القاهر فوق عباده والإذعان له، والمحبة لذاته الكريمة واجبة على الإنسان، وأن يذكره دائما كأنه يراه، كما فى الحديث، «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»^(١)، والإيمان بالله تعالى يقتضى اعتقاد الوحدانية، وأنه لا منشئ للكون سواه، ولا يعبد بحق غيره، ويقتضى أن يجب الوجود؛ لأن الله تعالى خالق الوجود، ويقتضى ألا يحب شيئا إلا ابتغاء مرضاة الله، كما قال النبى

﴿١﴾: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا الله»^(١) فالإيمان بالله تعالى يقتضى الإخلاص المطلق لذاته العلية، وإذا وجد ذلك الإخلاص اتجه اتجاها مستقيما، وإذا اتجه ذلك الاتجاه أشرق عليه بنور الحكمة، وطلب الحق لذات الحق، وتجرد من تدرن النفس بالهوى، والشهوة، وبذلك يكون للحق، ولا يكون منه إلا الحق، لأنه أخلص للحق جل جلاله.

وأما الاعتصام بالله تعالى، فإن معناه ألا يجد لنفسه عاصما من الناس إلا هو، ولا ملجأ يلجأ إليه إلا هو، ولا معاذ له إلا رب العالمين، وبهذا يعلو عن طاعة المستكبرين، ويتجافى عن الخضوع لذوى السلطان إلا بالحق، فلا يذل ولا يخضع، ولا يجبن، ولا ينافق، ولا يكذب، ولا يكون فيه إلا السلوك الفاضل، ولا يكون إلا المجتمع الفاضل المؤمن بالله، وبالحق لا يخشى فى الله لومة لائم، ولا يدهن فى كلامه، ولا أفعاله، ولا يخاف إلا الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى يخضع لكل شىء، تبارك وتعالى بيده الملك وهو على كل شىء قدير.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى جزاء هؤلاء، فقال تعالت كلماته:

﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هذا جزاء الذين آمنوا بالله واعتصموا به، وهو جزاء مكون من ثلاثة أجزاء: رحمة وفضل، وهداية إلى الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمت.

ولكن ما هى الرحمة، وما هو الفضل، وما هى الهداية، ثم أهذا الجزاء فى الدنيا أم هو فى الآخرة؟ أم هو فيهما معا؟ لم يبين النص الكريم مكان ذلك الجزاء المؤكد، وعندى أن هذا الجزاء فى الدنيا والآخرة.

وعلى هذا يكون معنى الرحمة فى الدنيا أن يكونوا فى سعادة واطمئنان وهدوء بال؛ لأنهم فوضوا أمورهم للعلى الأعلى الذى ليس كمثله شىء، وهو العلى الحكيم، وركنوا أنفسهم إلى الملجأ الأعصم، والركن الأمكن، فاطمأنوا

(١) سبق تخريج ما فى معناه.

بالله تعالى، وبذكره، وبامتلاء قلوبهم به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد]، ولا شك أن شقاء الناس في الدنيا سببه انحرافهم عن الجادة وانشغالهم بأمور توجد بلبالا مستمرا، واضطرابا دائما، من خصومات، وأحقاد، وحسد، ولجاجات، ومن شأن المؤمن أن يعلو عن سفاسف هذه الأمور، فيكون في راحة واطمئنان بال، وكل آفة بالجسم تهون بجوار الاطمئنان بالله، وكل نعيم مادي دنيوى يذهب به القلق وعدم الاطمئنان.

هذه رحمة الدنيا، أما رحمة الآخرة، فهي النعيم المقيم، وجنات عدن خالدين فيها أبدا.

هذه الرحمة بنوعيها، ومعانيها، أما الفضل، فأصل معناه الزيادة، وهو يطلق على الزيادة في الإحسان، والزيادة في العطاء، والزيادة في المنزلة.

والفضل في الدنيا هو علو المنزلة والسلطان العادل والتمكين لهم إذا كانوا على جادة الإيمان لم يجانبوها، كما قال تعالى كلماته: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص]

يؤمنون بالله تعالى ويعتصمون به، وينصرونه وينصرهم، ويمكن لهم في الأرض، ويمن عليهم بالعزة، وإذا وجدت الذين يحملون شعار أهل الإيمان في ذلة ومغلوبين على أمرهم بعد أن قامت دولة الحق، فاعلم أن ذلك لأنهم جانبوا طريق الإيمان، وضعف إيمانهم بالله، والأخذ بأوامره. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد].

هذا هو الفضل في الدنيا، وأما الفضل في الآخرة، فهو رضوان الله تعالى، والرفعة في الدرجات، والقرب منه سبحانه، وذلك هو الفضل العظيم.

والجزء الثالث هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو في الدنيا السبيل إلى الآخرة؛ وذلك لأن الإيمان بالله تعالى حق الإيمان يضيء في القلب، فيعرفه السبيل القويم، الذي يوصل إليه تعالى، فمن آمن بالله فقد اهتدى إليه، ومن

اعتصم به وبأوامره واجتنب نواهيه، فقد سلك طريقه، ومن سلك طريق الحق في الدنيا، كان في الآخرة أهدي، ومن ضل طريق الحق في الدنيا وغوى، فهو في الآخرة في الهاوية.

وفي الآية بعض مباحث لفظية تؤدي إلى توضيح معاني النص الكريم.
أولها - أن السين في قوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ للتأكيد، والسين وسوف في القرآن يدلان على تأكيد الوقوع في المستقبل.

ثانيها - الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾، يعود على لفظ الجلالة، ذلك أن الهداية إلى الله تعالى هي ثمرة الإيمان به، وطريق النجاة، وبها يهتدي المؤمنون إلى أقوم سبيل، وصراط الله تعالى طريقه الذي يوصل إلى الغاية.

ثالثها - إعراب «صراطا مستقيما» لقد قال بعض العلماء إنها مفعول ثان ليهدي، وآخرون قالوا إنها مفعول لفعل محذوف، وتقدير الكلام هكذا ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ ويعرفهم طريقا يوصل إلى أعلى الغايات، وكان قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ اشتمل على جزعين ساميين - أولهما - الهداية إلى الله وهو نعمة في ذاته، لأنه معرفة الله تعالى حق معرفته.

وثانيهما - معرفة الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الحق، وتلك نعمة أخرى تفضل بها مانح النعم ومجريها رب العالمين.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُاهَا لَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ
وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

ابتدأت سورة النساء ببيان أحكام للأسرة، وختمت كما بدأت ببيان أحكام للأسرة، بدت ببيان أحكام الزواج، وإباحة تعدد الزوجات فى الحدود التى رسمها الله تعالى لعباده ثم فصل القول فى الموارث ثم فصل القول فى من يصح الزواج منهم، ثم كان من بعد ذلك الكلام فى علاقات آحاد الأمة، ثم فى علاقات الناس بعضهم على بعض، وكأنما كان الانتقال من الأسرة التى هى النواة الأولى للبناء الاجتماعى إلى المجتمع الصغير فى حقوق الجوار وما يتصل به، ثم إلى المجتمع الكبير فى الأمة وعلاج الآفات الاجتماعية فيه، وعلى رأسها النفاق والمنافقون.

ثم انتقلت إلى علاج العلاقات الإنسانية العامة، وضرورة الحرب إن اعتدت الرذيلة على الفضيلة؛ لأن فضيلة الإسلام إيجابية عاملة لا سلبية خاملة، وتكلمت عن فساد الأمم والجماعات، وسببه التعصب للباطل، وسيطرة الأوهام والغلو فى الأحكام مبينة قصة الذين اجتروا على الحق وأصله وأهله من اليهود، والذين غلوا غلوا خرج بهم عن كل معقول ومقبول، وهم النصارى الذين غلوا فى دينهم، ورفعوا المسيح إلى مرتبة الألوهية، وزعمهم أنه ابن الله.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. وكان ختام السورة ببعض أحكام الميراث تذكيراً بأمرين:

أولهما - أن الأسرة هى الخلية الأولى التى يتربى فيها النزاع الاجتماعى بكل ضروبه، وكل شعبه وأنه لا يوجد مجتمع صالح إلا بأسر صالحة، وفساد الأسرة فيه فساد المجتمع.

ثانيهما - أن أحكام الأسرة مستمدة من الله تعالى من غير توسط أحد كبيراً كان أو صغيراً، وأن مخالفة أحكام الله تعالى ضلال ليس بعده ضلال، ولذا ختمت السورة بأن بيان الله تعالى لمنع الضلال، كما ستلو من الآية الكريمة إن شاء الله تعالى.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ رويت روايات كثيرة فى الاستفتاء الذى وقع من الصحابة، رضى الله عنهم، ويظهر أن السؤال فى ميراث الإخوة

والإخوات قد كثر، ولذلك تعددت الروايات، وتعدد أشخاص المستفتين. وأوضح الروايات ما رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد عن جابر بن عبد الله قال: «دخل على رسول الله ﷺ، وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صب على، فقلت: إنه لا يرثنى إلا كلاله فنزلت آية الفرائض»^(١) وقد فصل القول النسائي والبيهقى فى سننهما فقد ذكرا عن جابر قال اشتكيت فدخل النبى ﷺ على فقلت: يا رسول الله أوصى لأخواتى بالثلث؟ قال: «أحسن». قلت: بالشطر؟ قال: «أحسن». ثم خرج ودخل على فقال: «لا أراك تموت فى مرضك هذا، إن الله أنزل وبين ما لأخواتك، وهو الثلثان»^(٢)، فكان جابر يقول: «نزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فى». وتسمى هذه الآية آية الصَّيْف؛ لأنها نزلت فى الصيف، وسماها النبى ﷺ آية الصيف، ولقد قال عمر رضى الله عنه: «إنى والله لا أدع شيئا أهم إلى من أمر الكلاله، وقد سألت رسول الله ﷺ، فما أغلظ لى فى شيء ما أغلظ لى فيها، حتى طعن بأصبعه فى جنبى أو فى صدرى، ثم قال: «يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التى أنزلت فى آخر سورة النساء»^(٣).

والاستفتاء طلب الفتيا، أو الإفتاء، والإفتاء الإجابة السريعة التى تكون جديدة بالنسبة للسائل الطالب لها، وأصل الفتيا من الفتاء والفتى والفتاة الطرى الشباب المقبل على الجديده فيها، وأطلق على العبد فتى، وعلى الأمة فتاة لسرعة استجابتها لحاجة مولاها.

والكلاله كما جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني وغيره من المعاجم وكتب التفسير والفقه اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة. . وروى أن النبى ﷺ سئل

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: المرمى وضوء العائد للمريض (٥٦٧٦) وأطرافه سبعة كلها بلفظ مقارب، ومسلم: الفرائض (١٦١٦) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو داود: الفرائض - من كان له ولد وليس له أخوات (٢٨٨٧)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (١٣٨٨٦).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم: المساجد ومواضع الصلاة.

عنها فقال: «من مات وليس له ولد ولا والد»^(١) فجعلها عليه الصلاة والسلام اسما للمتوفى الذى يرثه غير ولده ووالده، وهى تطلق بهذا المعنى، وتطلق على الوارث غير الوالد والولد، وقد ورد اسم الكلالة فى الميراث مرتين فى سورة النساء، أولاهما - فى آيات الموارث، وهى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ [النساء]

وقد فسر النبى ﷺ الكلالة هنالك بأولاد الأم، وانعقد الإجماع على ذلك، وأما الكلالة هنا ففسرت بأولاد الأب الأشقاء أو لأب أى العصباء وانعقد الإجماع على أن الميراث يكون للأشقاء، فإن لم يكن أشقاء فإنه يكون للإخوة لأب، على ذلك انعقد إجماع المسلمين ترجيحاً لقوة قرابة الأبوين على الأب الواحد.

وقد بين الله ميراث الكلالة من العصبية بقوله تعالى:

﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ الأخـت هنا هى الأخت الشقيقة أو الأخت لأب، فإنها ترث النصف إذا لم يكن للمتوفى ولد، والولد يشمل الذكر والأنثى، فالأخت الشقيقة أو لأب لا تأخذ النصف إذا كان ثمة ولد ذكر أو أنثى، وكذلك الأخت لأب، وإن كانوا عند عدم وجود الولد الذكر أو الأنثى إخوة ذكورا وإناثا، فإن الميراث يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين وإن كانت عدة من الأخوات الشقيقات أو لأب إذا لم يكن أشقاء فإنهن يأخذن الثلثين، لقوله تعالى:

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه قال: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ فَوَرَّثَتْهُ كَلَالَةً» فَضَحَّ مِنْهُ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قَوْلِهِ. (عبد بن حميد). جامع الأحاديث (ج ١٢، ص ١٩٢). وفى كنز العمال (ج ١، ص ٣٠٢) من مسند أبى بكر الصديق: إذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد فورثته كلاله.

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ قد أشرنا إلى تقسيم الميراث إذا كان مع الأخوات الشقيقات أو لأب إذا لم يكن أشقاء أخ شقيق أو لأب، وأما إذا تعددت الأخوات من غير أخ يكن عصبية ويقاسمهن للذكر مثل حظ الأنثيين، فإنهن يأخذن الثلثين، لا يزدن عليه مهما يكن عددهن.

وقد يقال إن النص الكريم جاء في حال ما إذا كانتا اثنتين، ولم يبين حال الأكثر من ثنتين، ونقول أن ذلك فهم من دلالة النص أو قياس الأولى في ميراث البنيتين، فإنه جاء النص في ميراث البنيتين في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء]

فذكر في هذا النص السامي أنهم إن كن فوق اثنتين يأخذن الثلثين، وهن أقرب إلى المتوفى من الأخوات فبالأولى الأخوات إذا كن أكثر من اثنتين لا يأخذن أكثر من الثلثين؛ لأنهن لسن أقوى قرابة من البنات، فحذف من هنا ما بان بالمفهوم من الآيات الأولى، وكذلك حذف من الآية الأولى ما يفهم بدلالة النص من هذه الآية، فإن آية البنات قد نص فيها على ميراث الأكثر من ثلثين ولم ينص فيها على ميراث الشين؛ وذلك لأنه إذا كان الأخوات اثنتين أخذن الثلثين، فبالأولى البنات لأنهن أقرب من الأخوات نزلت في آية الأخوات ما يفهم من آية البنات، وترك من آية البنات ما يفهم من آية الأخوات وذلك من الإعجاز.

وقد بين النص القرآني حال ميراث الإخوة والأخوات الشقيقات أو لأب إذا لم يكن لهن ولد ذكرا كان أو أنثى، ولم يبين حال ما إذا كان ثمة ولد، فبقى على الأصل وهو لا يستحق شيئا في حال ما إذا كان الولد ذكرا؛ لأنه لم يرد أثر عن النبي ﷺ يورث الإخوة أو الأخوات عند وجود الولد الذكر، وفوق ذلك فإن

الولد الذكر يكون عصبه بنفسه، وهو أقرب رجل ذكر، فيكون مقدما على غيره بمقتضى النص النبوي، أما إذا كان الولد أنثى، فقد ورد الأثر عن النبي ﷺ بأنه ورث البنتين الثلثين وأعطى الأخ الباقي^(١)، وروى ابن مسعود أنه أفتى فى مسألة كان فيها بنت وبنت ابن، وأخت فأعطى البنت النصف وبنت الابن السدس تكملة للثلثين، وأعطى الأخت الباقي تعصيبا، وذكر أن ذلك قضاء رسول الله ﷺ، وكان أبو موسى الأشعري قد رد على البنت وبنت الابن، فلما ذكر ابن مسعود له عدل عن رأيه، وقال: لا تسألونى وهذا الخبر بينكم^(٢) وروى أن ابن عباس - رضى الله عنهما - يرى أن تعطى البنت وبنت الابن نصيبهما، ثم يرد الباقي عليهما بنسبة نصيبهما.

والشيعة لا يرثون الإخوة والأخوات مطلقا عند وجود الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا، لعموم النص القرآنى الذى يثبت أن ميراث الإخوة والأخوات هو بمقتضى الكلالة، والكلالة تقضى ألا يكون هناك والد ولا ولد، فإذا كان هناك ولد كانت الحال كما لو كان هناك والد، والإخوة والأخوات لا يرثون عند وجود الوالد، فكذا لا يرثون مطلقا عند وجود الولد. ولم يصح عندهم حديث ابن مسعود، وإذا فرض وكان رواته ثقات فإنهم لا يعارضون النص القرآنى الذى اشترط ألا يكون ولد، واشترط ثانيا أن يكون ميراث الإخوة والأخوات ميراث كلالة، ولا يرثون إذا كان ثمة ولد.

(١) روى الترمذى: الفرائض (٢٠٩٢)، وأبو داود: (٢٨٩١)؛ وابن ماجه: (٢٧٢٠) والدارقطنى عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت: يا رسول الله، إن سعدا هلك وترك بنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد، وإنما تنكح النساء على أموالهن؛ فلم يجبهما فى مجلسها ذلك. ثم جاءته فقالت: يا رسول الله، ابتأ سعد؟ فقال رسول الله ﷺ: «ادع لى أخاه» فجاء فقال (له): «ادفع لى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقي». وفى رواية الترمذى وغيره: فنزلت آية الموارث. قال: هذا حديث صحيح.

(٢) سبق تخريجه.

وفتقر الشيعة الاثني عشرية عن جمهور الفقهاء بالنسبة لميراث الإخوة والأخوات في أصليين يتفرع عنهما الكثير من المسائل، الأصل الأول أن البنت حيث وجدت ولو منفردة عن الابن استحققت الميراث كله إن لم يكن زوج ولا أم ولا أب كما ينفرد الابن بذلك، ولا تستحق الإخوات والأخوة شيئا، وكذلك لا يستحق بنات الابن شيئا، سيرا على قاعدتهم من أن البنت كالابن تستحق الميراث كله إذا انفردت، تأخذ النصف فرضا، والباقي ردا، وتحجب أولاد الأب فروع، فإنها تأخذ الباقي ردا.

الأصل الثاني - أن الأخت الشقيقة إذا استحققت النصف، فإن الأخت لأب، والأخ لأب لا يستحقان معا شيئا. بل تأخذ النصف فرضا، والباقي ردا، وتحجب أولاد الأب والجمهور على أن الأخت الشقيقة تأخذ النصف فرضا، والأخت لأب تأخذ السدس تكملة للثلثين إذا لم يكن أخ شقيق أو لأب، وإذا كانت أخت شقيقة أو أخوات، وليس معهن أخ شقيق، وكان هناك أخ لأب، فإن الباقي يكون للأخ لأب هو وأخته التي لأب للذكر مثل حظ الأنثيين وإذا كان أخ شقيق يحجب الأخوة والأخوات لأب.

هذا ما اقتضى التفسير أن نذكره، وهناك فروع كثيرة تركناها لكتب الفقه في السنة والشيعة.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضْلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا النص الكريم يبين أن الله سبحانه وتعالى هو الذي تولى شرح بيان أحكام الميراث، وحسب الميراث فضلا أن يكون تأكيده وتوثيقه ببيان الله تعالى.

وقد ذكر النص الكريم لماذا تولى القرآن الكريم بيانه فقال سبحانه «أن تضلوا» أى خشية أن تذهبوا إلى طرق ضالة بأمور ثلاثة - إما بإهمال الميراث جملة بالأ تعطلوا أحدا من الورثة شيئا، كما حاول أن يفعل الشيوعيون فأضعفوا الأسرة، وأضعفوا النشاط الإنساني، والإقبال الاختياري على العمل، وتركوا ذرية ضعافا لا يجدون ما يقيم أودهم، وإذا كانت الدولة ترعاهم في بعض الأحيان، فعلى نقص بين واضح.

وإما يجعل الحرية للمورث يوصي بماله لمن يشاء من غير قيد، وفي ذلك ضلال أى ضلال، إذ يترك ورثته ضياعا، ويعطى المال غيرهم.

وإما بحرمان من يشاء وإعطاء من يشاء، وفي ذلك إثارة للبغضاء والعداوة بينهم.

وقد قرر العلماء في كل بقاع العالم أن أعدل نظام للميراث هو نظام القرآن الكريم، ولكن وجد من بيننا من يحاربه، بل وجد من يزعمون أنهم مفسرون للقرآن من يدعى نسخه، وصدق رسول الله تعالى إذ يقول: «إن الفرائض أول علم ينسى»^(١) وقد ذيل الله تعالى الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن شرعه أحكم شرع، لأنه شرع من يعلم كل شيء، من يعلم الماضي والقابل، والعدل على أتم وجوهه، والمصلحة المستقرة الثابتة التي لا تعبت بها الأهواء ثم هو عليم بمن يخالفه ويعصيه، ومن يطيعه ويرضى حكمه.

وتجب الإشارة هنا إلى أمر بياني يقتضى تمام التفسير ذكره هو أن الله تعالى يقول ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهنا لم يبين في السؤال موضع الاستفتاء، ولكن الإجابة بيته فاستبان، ويلاحظ أنهم سألوا النبي ولكن الله تولى الإجابة هو، فقال ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ونجد في مثل هذا المقام يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة].

ولم يسند الأمر إلى ذاته العلية كما أسنده هنا فما السر؟ السر في ذلك هو تأكيد أن شرع الميراث منسوب للذات العلية، وهو الذى يتولى الشرح، وإذا كان النبي ﷺ يتولى الشرح عنه فى كثير، فهنا قد تولى هو توثيقا للحكم وتأكيدا له وتربية للمهابة. ويلاحظ أن أحكام الميراث كلها أسندها العلى الحكيم، العليم الخبير لنفسه، فابتدأ آياتها فى أول السورة بقوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء] وختمها بأن الميراث كله وصية الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿... وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [١٢] تلك حدودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [١٣] وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ [١٤] [النساء].



تقديم

هذه سورة المائدة جاءت بعد سورة النساء، وسميت سورة المائدة لأنها اشتملت في آخرها على طلب الخواريين من عيسى ابن مريم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء، واستجاب عيسى عليه السلام لما طلبوا فطلب من الله تعالى قائلاً كما أخبر القرآن الكريم عنه: ﴿... اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١٤)

وقد نزلت بعد فتح مكة، وهي سورة مدنية، وإن قال الأكثرون: إن آية: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٣) إنها نزلت والنبي ﷺ واقف بعرفات، في حجة الوداع؛ لأنها نزلت على أي حال بعد الهجرة.

وهي من آخر القرآن نزولاً، وقد اشتملت على أحكام شرعية كثيرة، وابتدأها يدل على ما فيها، فقد ابتدأت بوجوب الالتزام بالتكليفات التي كلف الله عبده إياها، وما يعقده العبد مع الناس، ثم أردفت ذلك ببيان الحلال من الذبائح، والحرام منها، مع الإشارة إلى تحريم الصيد في الحرم من المحرمين، واحترام الشعائر في الحج.

ثم أشارت من بعد ذلك إلى تمام الشرع الإسلامي، وكماله، وتكلمت أسورة الكريمة من بعد ذلك في العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب من الناحية الشخصية، وإباحة ذبائحهم، وحل نسائهم.

وبعد أن بينت هذه المباحات من الطيبات، أخذت تتجه إلى غذاء الروح بعد غذاء الجسم، وهو الصلاة، وما يجب أن يتقدمها، وأن العبادات لا يريد الله تعالى منها بعباده الضيق والحرج، ولكن الطهارة النفسية.

﴿... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ...﴾ (٦)

وإن الطهارة في الصلاة لها غاية اجتماعية عالية، وهي حسن التعامل، وإقامة العدالة؛ ولذلك أمر من بعد هذا بإقامة العدالة مع العدو، ومع الولي على سواء، ثم ذكّر المؤمنين بأن العدالة هي التي تحمي المجتمعات، وأن الله تعالى حماهم عندما هم قوم أن يسيطروا أيديهم بإيذائهم، ثم ذكّرهم ببني إسرائيل أنهم عندما نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم بإقامة العدل لعنهم الله تعالى، وجعل قلوبهم قاسية قد غلقت عن الحق، وأغلقت على تحكّم الهوى، فأخذوا يحرقون الكتب ويحذفون منها ما لا تهوى الأنفس، وكذلك فعل النصارى حتى ادّعوا الألوهية للمسيح عيسى ابن مريم، فكفروا، واسترسلوا حتى ادّعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه، ثم وجه الله تعالى الخطاب من بعد للذين عاصروا النبي ﷺ يدعوههم إلى الحق، ويقيم الحجة عليهم بهذه الدعوة القائمة.

وإن الذل يفسد القلوب، ويذهب النخوة، وكذلك كان الأمر بالنسبة لليهود، فقد ذكرت السورة الكريمة أنهم بعد أن ضربت عليهم الذلة في مصر أراد موسى -عليه السلام- بأمر ربه أن يجعل منهم قوما ذوى بأس، فأراد أن يقودهم ليدخلوا الأرض المقدسة، ولكنهم آثروا الاستنامة، فأخذوا يتيهون في الأرض أربعين سنة.

وإن النفس البشرية إذا دخلها الحسد فسدت، وصارت العداوة بدل المودة في موضع كان يجب أن تسوده المحبة، وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة خبر ابني آدم إذ قتل أحدهما الآخر؛ لأنه قبل قربائه، ولما أخذه الندم بعد فوات وقت العمل

حار في مواراة جثة أخيه، حتى تعلّمها من غراب أخذ يبحث في الأرض ليواري جثة غراب مثله.

وإذا كان الحسد حتى في العبادات يؤدي إلى القتل؛ فلذلك شرعت عقوبة القصاص، كما ذكر النص القرآني في هذه السورة الجامعة.

وإذا كان الحقد البشري في الجماعات هو الذي يؤدي إلى أشد الجرائم فتكا بها، فقد ذكر سبحانه عقوبات شديدة تناسب الجرائم العنيفة الشديدة، فذكر سبحانه عقوبة الذين يحاربون النظام، وينقضون على الشرع ويزعجون الأمنين، ويقطعون الطريق على السابلة^(١)، وقد ذكر سبحانه وتعالى - بعد ذكر عقوبة قطع الطريق المغلظة بطبيعتها - ذكر سبحانه أن طلب الحق والجهاد في سبيله، وتثبيت النظام الإسلامي ووضعه في نصابه، هو الوسيلة الكبرى للتقرب إلى الله تعالى.

وذكر من بعد عقوبة الذين يهددون الأمن بقوة قاهرة ظاهرة، وحكم الذين يهددون الأمن في خفية، ويزعجون الناس في مآمنهم، فذكر عقوبة السرقة، وهي قطع اليد.

وبعد بيان هذه العقوبات الزاجرة للجرائم المنبئة، والتي يسوق إليها الحقد والحسد أخذ يبين سبحانه حال أهل الكتاب من اليهود، وما فسدت به قلوبهم من حقد أثر في قولهم واعتقادهم، وأوجد النفاق في قلوبهم، وجعل أعمالهم إثما مستمرا، وأنهم لم ينفذوا أحكام التوراة في جرائمهم، وأرادوا أن يفروا منها إلى أحكام الإسلام زاعمين أنها تخفف عنهم، وقد بين سبحانه أحكام التوراة التي نزلت على موسى، ووجوب أن يخضعوا لها، كما يجب أن يخضع أهل الإنجيل لما جاء في الإنجيل، ومنها التبشير بمحمد ﷺ، وأشار سبحانه وتعالى إلى أن لكل أمة جعل - سبحانه - شرعة ومنهاجا مؤقتا، حتى جاءت شريعة محمد ﷺ.

وإنه بعد نزول القرآن لا حكم إلا له؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا

(١) السابلة: أبناء الطريق المختلفة في الطرقات. الصحاح. سبل.

فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾
أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

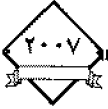
وإن الحق الذي سكن قلوب الذين يخالفونكم من أهل الكتاب لا يسوغ لكم أن تتخذوا منهم نصراء، فإن بعضهم نصراء لبعضهم، وإن الذي يرضى أن يكونوا أولياء عليه يكون منهم، وإن من يفعل ذلك يكون مرتدا عن دينه خاذلا له، ومن يرتد عن دينه لا يخسر الله تعالى به شيئا، بل سيخلفه في الإسلام قوم يحبهم الله ويحبونه، بعد أن زال فساد المنافقين المرتدين.

وَبَيَّنَ سبحانه وتعالى أن الولاية لله وحده وأن اليهود يتخذون الإسلام هزوا ولعبا، وأنهم يسارعون في الإثم والعدوان مستنقلين في دركاتهما، وأن الذي أفسدهم أنهم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل، وقد أمر الله نبيه في وسط ذلك الغبار الذي يثيرونه أن يبلغ ما أنزل إليه، وقد بَيَّنَّ سبحانه بعد ذلك أنه من يخلص لله يدخل الجنة؛ لأنه لا محالة سيدرك ما جاء به محمد ويؤمن به، ولقد بين سبحانه كفر الذين ألَّهوا المسيح، وقالوا: إن الله -تعالى- ثالث ثلاثة، وَبَيَّنَّ أنه يجب أن يرجعوا إلى الله تعالى، ولكنهم غلوا في دينهم، فغلا النصارى في شأن المسيح فقدسوه وألَّهوه، وغلا اليهود في الطعن فيه، وهموا بقتله، وأدَّعوا أنهم قتلوه.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك مراتب أعداء المؤمنين، فذكر أنه في المرتبة الأولى في العداوة اليهود والمشركون، والنصارى أقرب مودة من غيرهم، وذكر سبحانه حال النصارى في عهد النبي ﷺ، وقد كانوا يسارعون إلى الإيمان إذا سمعوا الحق كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

بعد هذا البيان المعجز، الذي ابتدأ بذكر آثار الحسد والحق في ابني آدم إذ قربا قربانا، ثم ما أدى إليه الحق من كفر وطغيان، وطمس للحقائق، ومعاودة



لأوامر الله تعالى، وفساد للنفس، بعد هذا أخذ يبين سبحانه إباحة الطيبات، وأنه لا يصح تحريمها على النفس، وأن من يحرمها على نفسه يمين فليحنث وَلْيَكْفُرْ، وتكفير اليمين عتق رقبه أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، فمن لم يجد شيئا من هذا فليصم ثلاثة أيام.

وإذا كان الله تعالى أباح الطيبات، فقد حرم الخبائث، وأول الخبائث الخمر والميسر، وإن الخمر أم الخبائث، وأم الجرائم، وإنه ليس على المؤمنين إثم فيما يتناولون من طيبات إنما الإثم فيما يتناولون من خبائث.

وقد بين سبحانه أن من الطيبات ما يحرم في بعض الأوقات، لا لذاته، بل للمكان الذي يكون فيه، والحال التي يكون فيها، فحرم الصيد في البيت الحرام للمحرمين، وأن المنع مقصور على صيد البر، ولا يشمل صيد البحر؛ وإن ذلك لمكانة البيت، ولمكانة الإحرام، وقد ذكر سبحانه وتعالى مقام البيت ومكانته.

وأن الخبيث من الأشياء ومن الأشخاص لا يستوى مع الطيب، وندد سبحانه بالذين يحرمون بعض الطيبات على أنفسهم لأوهام توهموها، وأفكار جاهلية اعتنقوها.

وأن الذي يقوم بالواجب ويبين الخير ويدعو إليه لا يكون مسئولا عما يضل من بعد.

وفي وسط أحكام الحلال والحرام أخذت السورة تبين سببا من أسباب الملكية، وهو الوصية في السفر، وطريق إثباتها.

بعد ذلك أخذ يبين الضلال الذي وقع فيه الذين ادَّعوا المسيحية وهو ألوهية المسيح، مع ذكر معجزاته عليه السلام، ومنها أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأنه أخرج الموتى بإذن الله تعالى، وأنه نزلت عليه المائدة من السماء.

ومع هذه المعجزات الباهرة كفر به من كفر، وشهد الحواريون بأنه رسول من عند الله، وغالى غيرهم فزعموا أنه وأمه إلهان، ومنهم من زاد غيرهما.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه سيخاطب عيسى يوم القيامة عن هذا الذي افتروه على المسيح، ونذكر هذه المجابوة بالنص.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١١٦﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١٧﴾ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢٠﴾

هذه نظرات كلية في سورة المائدة، ولننظر في ذكر معانيها.

يَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةٌ
الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يُبْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٢٠﴾

هذه أول آية من السورة، وهى تأمر المؤمنين بأن يوفوا بالعهود التى أخذت عليهم بمقتضى الإيمان، وهى الطاعة لله تعالى ولرسوله، والقيام بالتكليفات الشرعية، فالعقد هو كل ما يلتزمه المؤمنون، سواء أكان فى الأحكام التكليفية أم من العهود التى يلتزم بها العباد، وبذلك تشمل ما يعقده الإنسان مع غيره من عقود واجبة الوفاء، وما يتبادلان فيه الالتزام، كالبيع والإجارة، وغيرهما، وتشمل ما يلتزمه المؤمن من صدقات، وما يلزمه الوفاء به بحكم الإيمان، فإن الإيمان ميثاق يلتزم فيه العبد بالطاعة، فإذا عصى فقد نقض ذلك الميثاق، وذلك كما كان

يفعل اليهود من نقض للمواثيق المؤكدة، وإن الأصل اللغوي لمعنى كلمة عقد أنه ربط لطرفي شيء، ومنه العقدة، وقد أطلق على الربط بين كلامين كالعقود القائمة، وأطلقه القرآن كما في هذا النص على كل الأحكام الواجبة الطاعة لها؛ لأنها تشمل معنى الربط؛ لأن المؤمن بمقتضى إيمانه قد عاهد الله تعالى على طاعته، والأخذ بكل ما يأمر به، وبكل ما ينهى عنه، وقد جمع الراغب الأصفهاني معنى كلمة عقد فقال: «العقد: الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل، وعقد البناء، ثم يستعار للمعاني فيقال نحو عقد البيع والعهد وغيرهما، يقال: عاقدته، وعقدته، وتعاقدنا، وعقدت يمينه...».

والعقد على هذا: كل ارتباط يرتبط به المؤمن بموجب النقل أو بموجب العقل، وهو ما يدركه بالديهة وأدنى نظر، سواء أكان بينه وبين نفسه بمقتضى إيمانه وخلقه وإنسانيته، أم كان بينه وبين غيره، وكل هذا واجب الوفاء بحكم الله تعالى، فأوامر الله تعالى ونواهيهِ واجبة الوفاء، وعقود الإنسان مع غيره واجبة الوفاء إلا أن يكون فيها مخالفة لأمر الله تعالى ونهيه، فكل اتفاق على خلاف ذلك رد على صاحبه، ولا وفاء فيه، لقول النبي ﷺ: «المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً»^(١) ولقوله ﷺ: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، ولو كان مائة شرط»^(٢) ولأن تنفيذ العقود التي تتضمن خلاف ما جاء عليه الشرع يكون تنفيذها نقضاً لعهد المؤمن الذي يجب تنفيذه، وهو طاعة

(١) ذكره البخاري تعليقا: الإجارة - أجر السمسرة بلفظ: «المسلمون عند شروطهم» وأخرجه الترمذي: الأحكام - في الصلح (١٣٥٢) عن عمرو بن عوف المزني أن رسول الله ﷺ قال: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما، والمسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرم حلالا أو أحل حراما» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ذكره البخاري تعليقا: باب المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله، ورواه ابن مساجه: الأحكام - باب المكاتب (٢٥٢١) عن عائشة زوج النبي ﷺ، كما رواه أحمد بلفظ مقارب: مسند الأنصار - باقي المسند السابق (٢٥٢٥٨) عن عائشة رضي الله عنها.

الله تعالى ورسوله، وعهد الله تعالى أولى بالوفاء؛ ولأن عقود الناس تستمد قوة الوفاء من أمر الله، فلا يصح أن تكون على خلافه.

فالعقد: معناه فى اللغة العربية ضم طرف إلى طرف، وربطهما ربطاً محكماً. يقال: عقد الرجل طرفى الحبل أو الحبلين إذا ربط أحدهما بالآخر، وضده الحل أى فك هذا الربط، وسمى الإيجاب والقبول عقداً لأنهما يضمنان إرادتى المتعاقدين، ويربطان أحدهما بالآخر.

والعقد معناه فى استعمال القرآن الارتباط، والعقود والعهود والمواثيق والمعاهدات والمحالقات والتعهدات والاتفاقات والالتزامات كلها فى استعمال القرآن والاصطلاح الشرعى ألفاظ متقاربة المعنى المراد بها الارتباطات، سواء أكانت ارتباطات بين أفراد أو حكومات أو جماعات، وسواء أكانت ارتباطات على عمل أو على كف عن عمل. والفروق التى يقررها علماء القانون الدولى لهذه الألفاظ لا تعرف فى الاصطلاح الشرعى.

والإيفاء بالعقد معناه تنفيذ ما يقتضيه والقيام بما يوجبه وإفيا تاماً غير منقوص، والإيفاء بالعقد والوفاء به والتوفية به ألفاظ مترادفة معناها واحد.

والمعنى بالإجمال: يا أيها المؤمنون نفذوا ارتباطاتكم، وقوموا بما تعاقدتم على القيام به وإفيا تاماً. وقد ذكر سبحانه العقود التى أمر بالإيفاء بها بصيغة العموم ولم يخصصها بنوع لتشمل كل ارتباط يرتبط به المؤمن، سواء أكان ارتباطه مع ربه أم ارتباطه مع نفسه أم ارتباطه مع فرد آخر، وسواء أكان ارتباط جماعتهم أو حكومتهم على عمل، أو كف عن عمل؛ ولهذا قال المحققون من المفسرين: العقود التى أمر الله المؤمنين أن يوفوا بها تشمل أربعة أنواع:

الأول: العقود التى عقدها المؤمن مع ربه بسبب إيمانه. فكل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد التزم لله بأن يطيعه بامثال أوامره واجتناب نواهيه، وإحلال ما أحله وتحريم ما حرمه. فهذا عقد بين المؤمن وربّه. وسبب الالتزام فيه إيمانه. وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ

عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٧﴾ ، وبقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقِضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الرعد]

الثاني: العقود التي عقدها المؤمن مع نفسه بسبب حلفه على أن يفعل فعلاً أو يكف عن فعل، أو نذره أن يفعل فعلاً أو يكف عن فعل؛ فكل من حلف على فعل أو كف عن فعل أو نذر فعلاً أو كفا عن فعل فقد التزم أن يبر بيمينه، وأن يوفى بنذره. وسبب الالتزام بيمينه أو نذره. وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله: ﴿... وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ ... ﴿٢٩﴾ [الحج].

الثالث: العقود التي يعقدها الأفراد بعضهم مع بعض من بيع وإجارة ورهن وشركة ومضاربة وزواج ونحوها؛ فكل من ارتبط مع غيره بعقد فعليته أن ينفذ موجب هذا العقد ولا يخل بشيء مما يقتضيه، وسبب الالتزام عقده بإرادته واختياره.

الرابع: العقود التي تعقدها الحكومة الإسلامية مع غيرها من الحكومات في السلم والحرب، فإذا تعاقدت دولة إسلامية مع أية دولة على أحكام عسكرية أو مدنية، دفاعية أو هجومية، إيجابية أو سلبية، فعلى الحكومة أن توفى بعقودها، وتنفذ التزاماتها.

فالله سبحانه أمر المؤمنين بأن يوفوا بكل الارتباطات التي يرتبطون بها أفراداً أو جماعات أو حكومات، مع ربهم، أو مع أنفسهم، أو مع أبناء نوعهم.

قال الإمام أبو بكر الرازي المعروف بالخصاص المتوفى سنة (٣٧٠هـ) في كتابه في تفسير آيات الأحكام: العقد ما يعقده العاقد مع نفسه على أمر يفعله هو، أو ما يعقده مع غيره، ويسمى اليمين على المستقبل عقداً؛ لأن الخالف قد ألزم نفسه الوفاء بما حلف عليه من فعل أو ترك. وكذلك العهد والأمان، لأن معطيه قد ألزم نفسه الوفاء به. وكذلك كل شرط شرطه الإنسان على نفسه في شيء يفعله في المستقبل فهو عقد. وكذلك النذر وإيجاب القرب وما جرى مجرى

ذلك. وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ على كل ذلك، وعلى إلزام الوفاء بالعهود والذمم التي نعقدها لأهل الحرب وأهل الذمة والخوارج وغيرهم من سائر الناس؛ وعلى إلزام الوفاء بالنذور والإيمان. ثم قال: ومتى اختلفنا في جواز عقد من العقود أو فسادها أو في صحة نذر ولزومه صح الاحتجاج على جوازه ولزومه بعموم قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

وإذا تعارض الإيفاء بعقد من هذه الأنواع الأربعة مع الإيفاء بعقد آخر منها، وجب على المؤمن أن يوفى بعقده مع ربه، ولا يجب عليه أن يوفى بعقده مع نفسه أو مع غيره إذا كان إيفاءه بعقد منهما يخل بإيفائه بعقد ربه. فإذا حلف على ما فيه مخالفة أمر ربه فليحنت في يمينه وليوف عقده مع ربه ولا يوف بما حلف عليه؛ ولهذا ورد في الحديث «من حلف على شيء ورأى غيره خيرا منه فليأت الذي هو خير منه وَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ»^(١). وإذا عقد عقدا أو شرط شرطا يقضى بتحليل محرم أو تحريم حلال أو التزام بباطل شرعا فعليه أن يوفى بعقده مع ربه ولا يوفى بما يخالفه من عقود وشروط؛ ولهذا ورد في الحديث: «المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا»^(٢).

وقد خاطب الله المخاطبين في أمرهم بالإيفاء بالعقود بوصف الإيمان ليشير إلى أن الإيفاء بالعقود مما يقتضيه الإيمان، وفي هذا حث على امتثال الأمر والإيفاء بالعقد. وهذا الذي أشار إليه القرآن صرح به رسول الله ﷺ في سنته إذ عدَّ الوفاء بالعهود من شعائر الإيمان وآيات المؤمن، ففي الحديث: «آية المؤمن ثلاث: إذا حدث صدق، وإذا أؤتمن أدَّى، وإذا وعد وفى»^(٣) وكما ذكرهم بإيمانهم في بدء هذه السورة إذ أمرهم بالإيفاء بالعقود جملة، ذكرهم بإيمانهم في

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

أمرهم بكل عقد فصله فيها. ففي تفصيل ما حرمه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ...﴾ (٢).

وفي تفصيل التطهر لأداء الصلاة وهي عماد الدين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ...﴾ (٦).

وفي تفصيل عماد الدنيا وهو الشهادة بالقسط في إقامة حقوق الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ...﴾ (٨).

فالمقصود بهذا إشعار المؤمنين بأن إيفاءهم بالعقود جملة وتفصيلا هو من مقتضى الإيمان، وأن نكث العهود والإخلال بما تقتضيه العقود لا يتفق والإيمان. فالؤمن حقا يوفى بالتزاماته لربه ولنفسه ولغيره. ومن هنا نفهم معنى الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» (١).

وإن من أوائل الأحكام الشرعية ما أحله الله تعالى، وما أحله سبحانه قيده بقيود، ولذا قال تعالى:

﴿... أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ...﴾ (١) ابتداء الحكم ببيان الحلال من الأطعمة، لسببين: أولهما - أن العرب كانوا يحرمون في الجاهلية على أنفسهم بعض الحيوان لأوهام ورثوها، لم يأت بها دين، ولم يتصورها عقل، وليس للتحريم سبب يدركه أهل العقول. ثانيهما - أن النص جاء للإباحة مع القيد، فهي حلال بشرط ألا تكون مما يتلى تحريمه، وسيبينه الله تعالى من بعد، والتحريم سببه أحد أمرين: أولهما - ذاتي في ذات الحيوان كالحنزير والميتة، وما يشبه الميتة من التي تردت في منخفض من الأرض فنفتت، أو نطحت فهلكت، والثاني - عرضي بحال معينة كتحرим الصيد، فالنص لإباحة مقيدة مع ذكر القيد بالإشارة إليه ثم بيانه.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

والبهيمة: اسم لكل حيوان أعجم، لإبهامه من جهة نقص النطق، وعدم تمييزه.

والنعم في أصل الإطلاق العربى يكون على الإبل والبقر والغنم، واشتقاقها من النعمة؛ لأنها من نعمه سبحانه وتعالى التى أنعم الله بها، كما قال تعالى:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل].

ويصح أن يكون مثل الإبل والبقر والغنم كل حيوان أو طير يتغذى من النبات، ولم يرد نص بتحريمه فيدخل الطيب وحمار الوحش وغيرهما من آكلات الأعشاب، كما يدخل الطير غير سباعه، وغيرها.

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِمَ الْأَنْعَامِ﴾ البهيمة فى اللغة العربية: هى كل ذات أربع من الدواب. والأنعام هى الإبل والبقر والغنم ذكورها وإناثها، وقد بينها الله سبحانه فى سورة الأنعام بأنها ثمانية أزواج: من الضأن اثنين (الكبش والنعجة) ومن المعز اثنين (الجذى والعنز) ومن الإبل اثنين (الجمال والناقة) ومن البقر اثنين (الثور أو الفحل والبقرة أو الجاموسة). فهذه هى الأنعام فى لسان القرآن.

ولما أمر الله المؤمنين بأن يوفوا بالعقود أخذ يفصل لهم العقود التى أمرهم أن يوفوا بها، وبدأ بأولها وأحقها بالإفاء وهى عقودهم مع ربهم بمقتضى إيمانهم، وبدأ من هذه العقود ببيان ما أباح لهم أكله والانتفاع به من الحيوان، وما حرمه؛ لأن هذا الأكل والانتفاع أكثر ما يعرض للإنسان، وأكثر ما يحتاج إلى معرفة حكمه، ولأن أهل الجاهلية كانوا قد جاروا وظلموا فى حكمهم فى الأنعام، وبنوا تحريمهم لما حرموه منها، وتحليلهم ما أحلوه منها على نزعات وثنية، وأوهام لا يصح أن يبنى عليها تحريم ولا تحليل؛ فجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم. وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء، بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه، وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم

على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء. وجعلوا من الأنعام بحيرة وسائبة ووصيلة وحاميا. . وهكذا ساروا في تحريم الأنعام وإحلالها على ما تقتضيه وثبتهم، لا على ما تقتضيه مصلحتهم. فالله سبحانه بدأ عقوده مع المؤمنين ببيان أنه أباح لهم الأنعام كلها إلا ما يتلو عليهم تحريمه منها. فهو سبحانه بدأ ببيان ما فيه قضاء على وثنيات الجاهلية، وبما فيه إشعار المؤمنين بكمال النعمة عليهم، إذ أباح لهم الأنعام كلها والانتفاع بها بكل وجوه الانتفاع، ولم يقيد هذه الإباحة بما كانت تقيده به أهل الجاهلية من قيود وشروط لا تقوم على أساس من المصلحة، وإنما تقوم على أوهام وأباطيل لا يصح أن يبنى عليها تحريم ما رزق الله به عباده من الطيبات، بل قيدها باستثناء ما فيه ضرر بصحة الإنسان أو دينه. وعلى النفع والإضرار يبنى التحليل والتحريم. ومن هذا نفهم الحكمة في أن الله سبحانه قال: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ ولم يقل أحلت لكم الأنعام؛ لأنه أراد سبحانه التنبيه إلى أن الأنعام أحلت بوصف أنها بهيمة؛ وكل الأنعام ذكورها وإناثها متحقق فيها هذا الوصف، فكل الأنعام حلال لكم. وإضافة لفظ بهيمة للأنعام لتأكيد عموم الأنعام التي أحلت، وللإشارة إلى أن التفريق بين بعض الأنعام وبعضها - مع أنها كلها بهيمة - ظلم وحظر لما لا مبرر لحظره. وفي سورة الحج: ﴿... وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ...﴾ [الحج]

﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ هذان استثناءان من العموم الذي دلت عليه ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ لأن معناها أحلت الأنعام كلها لكم جميعا. استثنى سبحانه من الأنعام التي أحلت الأنعام التي يتلو على المؤمنين آيات تحريمها في قوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ...﴾ [المائدة] وفي قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...﴾ [المائدة] وفي قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ...﴾ [الأنعام].

• واستثنى سبحانه ممن أحلت لهم بهيمة الأنعام المحرمين بالحج أو العمرة أو بالحج والعمرة، والموجودين بأرض الحرم سواء أكانوا محرمين أم غير محرمين بقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

والإحرام بأحد النسكين أو بهما معا معناه في الشرع نية النسكين أو أحدهما نية مقرونة بشعار من شعائر الحج كالتلبية أو سوق الهدى. فمن أحرم أى نوى أحد النسكين واتخذ شعاره لا يحل له ما دام محرما أن يصطاد الأنعام ولا غيرها من حيوان البر، سواء أكان الصيد من أرض الحل أم من أرض الحرم. ولا يحل له الأكل والانتفاع بما اصطاده وهو محرم. وأما صيد البحر والأكل منه فهو حلال للمحرم؛ قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا...﴾ (٩٦).

فالمحرم لا يحل له صيد البر؛ سواء أكان فى أرض الحل أم فى أرض الحرم. وأرض الحرم لا يحل الصيد فيها للمحرم وغير المحرم.

فمعنى ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أى محرمون، أو فى أرض الحرم، أى وأنتم فى حرمة الإحرام أو حرمة الأرض الحرام. ولله الحكمة البالغة فى هذين الاستثناءين؛ فإنه استثنى مما أحل ما يتلو على المؤمنين من المحرمات دفعا للضرر عن دينهم وأجسامهم. وسيتبين فى تفصيل المحرمات أن تحريم كل محرم منها إنما هو لدفع أذى دينى أو بدنى. واستثنى ممن أحل لهم فريقين: المحرمين بأحد النسكين؛ لأنه أراد أن يكون إحرام المحرم شعار السلام والأمان، وتجنب العدوان حتى على الحيوان؛ ومتى عرف المحرم أنه لا يحل له الصيد تجرد من أسلحته وآلاته وانصرف عن التفكير فى إزعاج آمن أو مطاردة ضعيف، والموجود بأرض الحرم مطلقا؛ لأنه أراد أن تكون أرض الحرم أسنا حتى للصيد ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا...﴾ (٦٧) [العنكبوت].

وقد استثنى سبحانه وتعالى من التحليل ما يتلى من بعد ذلك، وهو ما اشتمل عليه قوله تعالى من بعد: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا

أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَنَقَةُ وَالْمُوقَوَّذَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّمْتُمْ
وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴿٢﴾ ... ﴿٣﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ المعنى: إن الله يحكم الحكم الذى يريد، لا الحكم الذى تهواه النفوس، أو الحكم الذى توارثه الخلف عن السلف. فهو سبحانه إذا حكم بإيجاب الإيفاء بالعقود، وحكم بإحلال بهيمة الأنعام، وحكم باستثناء بعض الأنعام مما أحله، وحكم باستثناء الفريقين ممن أحل لهم، إنما يصدر فى حكمه عن إرادته. وستته فى إرادته بينها سبحانه بقوله: ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ ﴿١٨٥﴾ [البقرة]

وبقوله: ﴿... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ...﴾ ﴿٢١﴾ فأحكامه التى ذكرها مصدرها إرادته، وهو ما يريد العسر ولا الحرج بحكمه، لا فى تحريره المحرمات، ولا إحلاله المباحات، وإيجابه الواجبات، وكل ما أمر به أو نهى عنه أو شرعه.

ونرى أن «يحكم» تعدت من غير الباء فلم يقل تعالت كلماته: «إن الله يحكم بما يريد» بل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وذلك لتضمن الحكم معنى حد الحدود، والمنع عن الموبقات، فكان التعدى بغير الباء.

وقد جاء فى تفسير القرطبي: أن «هذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام، فإنها تضمنت خمسة أحكام: الأول: الأمر بالوفاء بالعقود، والثانى: تحليل بهيمة الأنعام، الثالث: استثناء ما يتلى بعد ذلك، الرابع: استثناء حال الإحرام فيما يصاد، الخامس: ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم. وحكى النقاش: أن أصحاب الكندى قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياما كثيرة، ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطبق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت، فإذا هو قد كلف بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته — فى سطرين،



ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا إلا فى أجلاء^(١) اللهم انفعنا بكتابك، واهدنا بهديه،
واملاً قلبنا بنوره وعلمه إنك أنت العليم الحكيم.

ومن قرأ سورة الأنعام المكية ووقف على ما كان عليه أهل الجاهلية من
تحريم وتحليل بناء على الأهواء والشهوات والتقاليد الوثنية، يفهم الحكمة البالغة
فيما ختمت به هذه الآية من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أى لا يحكم
الحكم الذى تقتضيه الأهواء؛ وإنما يحكم الحكم الذى تقتضيه الحكمة والعدالة
والمصلحة فى الدين والدنيا؛ وهذا يوجب على المؤمن أن يتقبل أحكام الله
بالإذعان والتسليم؛ لأن مصدرها إرادة الحكم العدل اللطيف الخبير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءِمِينَ الْبَيْتِ
الْحَرَامِ يَنْتَغُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

فى الآية السابقة أشار سبحانه وتعالى إلى ما أحل من طيبات، وأشار إلى
مكان البيت الحرام وحرمة، وأنه لا يحل صيده والإحرام قائم، وأن الله تعالى
يحكم بما يريد، وهذا حكمه وأمره، وما على المؤمن إلا الطاعة فيما أمر به، وفى
هذه الآية يبين سبحانه وتعالى ما يجب، وقد بين الحرمات التى تجب صيانتها ومن
تتعلق بهم، وقد ذكر أموراً لا يصح إحلالها، وهى شعائر الله تعالى، والشهر

(١) أجلاء أى مجلدات.

الحرام والهدى والقلائد، والذين يقصدون البيت. وقد ابتدأ بأولها، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ...﴾

النداء لأهل الإيمان الصادقين في إيمانهم الذين يعملون بما يأمر، ويتنهون عما ينهى، وتصدير الكلام بهذا النداء لبيان ما كان محرماً في الحج وما يدعو الإسلام إلى الاستجابة إليه من مقتضيات، والإحلال معناه أن يخالف أمر الله تعالى فما يكون حراماً منها في الحج يفعلُه ويستحلُه، وما يكون مأموراً به لا يستجيب له، وشعائر الله تعالى في هذا المقام المراد بها مناسك الحج، وما حرّمه فيه من ثياب في أثناء الإحرام، وما أمر به من أمور فيه من السعى بين الصفا والمروة والطواف بالبيت الحرام، والوقوف بعرفة، ورمى الجمار وسائر الأفعال، فإن هذه كلها شعائر لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وكما قال تعالى في بعض هذه المناسك: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ١٥٨].

وسميت أعمال الحج شعائر، وهي جمع شعيرة، كما سميت مشاعر جمع مشعر، وهي أمور معلمة محسوسة مرئية، تدل على اتجاه القلوب إليه سبحانه وتعالى، فكان الإحرام مقترناً بمظهر حسي وهو ألا يلبس مخيطاً، وأن يجهر بالتلبية، وكان الطواف وهو عمل حسي يدل على الاتجاه إلى ضيافة الرحمن، والإقامة بجوار بيته العتيق - أول بيت وضع - وفي ذلك اتصال دائم بين الرسالة الإلهية؛ إذ إن الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فكان الطواف به رمز الوحدة في الرسالة الإلهية، وأن آخرها متصل بأولها، وأنها سلسلة متصلة الحلقات تُتم كل واحدة جزءاً حتى أوفت على الغاية برسالة نبينا محمد ﷺ.

وكذلك السعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة في المشهد الإسلامي الأكبر، ورمى الجمار، كما فعل إبراهيم عليه السلام من قبل، وذلك مظهر للتطهر التام، والخروج من وسوسة الشيطان، ورميه والإعراض عنه.

والأمر الثاني الذي لا يحل، ونُهي المسلمون عن إحلاله، هو الشهر الحرام، والمراد النهي عن القتال فيه، والشهر مفرد أريد به الجمع، وذلك أنه أشهر أربعة كما قال تعالى في سورة براءة:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة].

وهذه الأشهر لا يحل القتال فيها، فلا يبدأ المسلمون القتال فيها، ولكن يدافعون إن اعتدى عليهم فيها، ولهم أن يطلبوا الهدنة إن جاءت في أثناء القتال فيها، فإن كان الذين يقاتلونهم لا يؤمنون بها استمر القتال، إذ لا مناص منه، وقد ادعى كثيرون أن منع القتال في هذه الأشهر نسخ، ولا نجد دليلاً يدل على النسخ، بل الأدلة تدل على دوام التحريم بل الأدلة متضافرة على استمرار تحريمها؛ لأن ذلك جاء في سورة المائدة، وهي من أواخر القرآن نزولاً، ولأن النبي ﷺ ذكر التحريم في خطبة الوداع ولعل الذين ادعوا النسخ أخذوه من الحروب الإسلامية، والواقع أن المسلمين كانوا مضطرين للاستمرار.

والأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة، والمُحَرَّم، ورجب - الذي بين جمادى وشعبان - والأشهر الثلاثة الأولى فيها الحج والذهاب إليه والعودة منه، ورجب فيه العمرة، والتحريم ليكون الطريق آمناً في مدة الحج.

﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ الهدى جمع هَذْيَةٍ، وهو ما يُهْدَى، ويراد به هنا ما يهدى إلى البيت الحرام ليذبح في الحج، وإحلاله المنهى عنه ذبحه في غير موضع الحج، كما قال تعالى:

﴿... وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ...﴾ [البقرة] كما أن من إحلاله اغتصابه أو منعه من أن يصل إلى البيت الحرام، والقلائد جمع قلادة، وهي ما تُقَلَّد به الهدى، ومن الفقهاء من خصها بالبدن (الإبل والبقر) فلا يقلد سواها، والنهي عن إحلال القلائد قد اختلف المفسرون في معناه، وأحسن ما

قيل هو ما قرره الزمخشري وهو: أن النهى عن إحلال القلائد هو النهى عن إحلال الهدى الذى حمل القلادة، وكان ذكرها بعد ذكر الهدى عامة من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وكان المعنى لا تحلوا الهدى، ولا تحلوا القلائد بشكل خاص، وذلك لأن إحلال الهدى الذى أشعر وأعلم بالقلادة يكون أشد نهياً، إذ إنه اعتداء على ما أعلن بالحس أنه خصص للبيت الحرام، ولم يكتف بالنية وحدها، فما خصص بالنية قد يخفى، وما خصص بالحس لا يخفى، وذكر الزمخشري وجهها آخر، وهو أن النهى عن إحلال ذات القلائد، وإذا كانت القلائد لا يحل الاعتداء عليها فأولى بذلك الحيوان الذى يحمل شعارها، ومهما يكن من التخريجين فالنهي ثابت عن إحلال الهدى وشعاره.

وإن سوق الهدى وذبحه من مناسك الحج وفيه توسعة على سكان البيت الحرام، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٢٧﴾ [إبراهيم].

ولكن هل يغنى عن الهدى وذبحه فى منى ما يُقَسِّمُ به من نقود؟ لقد أجمع الفقهاء على أنه لا تغنى قيمته عنه، ما دام يستطيع الرجل أن يهدى. وقد جعل الله تعالى الصيام بدل الهدى لمن لا يجد، فقال تعالى:

﴿... فَإِذَا أَمُنْتُمْ مِنْ تَمَتَّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ... ١٩٦﴾ [البقرة].

ولقد ثارت مناقشات حول استبدال الذبح بقسيمة الهدى، لأن الناس لا يأكلون كل ما يذبح فيتلف، ووراء ذلك فشو الأوبئة ونحوها، وهذا فوق ما تنشره الدماء من أدواء.

ونقول فى الجواب عن ذلك: إن هذا من ضيق عقل الإنسان، لا من شريعة الديان، والقرآن أمر بالذبح، ولم يقل أحد من الصحابة أو من جاء بعدهم: إن قيمة الهدى تغنى عنه، وكان يجب أن يفكر المفكرون فى الانتفاع باللحم والدم من

غير أن يتعرضا للفساد والإفساد، وذلك بادخار اللحم، بالتثليج أو نحوه ليمد سكان الحرم الشريف باللحم أكثر العام. لا في موسم الحج وحده، وأن تقام المدايح لدبغ الجلود، فتكون مصدر ثروة، والدم يصنع منه أحسن الأواني، والنار تطهره، ولكن العقول تتسع في كل شئون الحياة، فإذا جاءت إلى أوامر الإسلام ضاقت، وذلك من ضعف الإيمان.

﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتَّغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ المراد الذين يقصدون البيت الحرام لأداء الحج، وقد قال بعض العلماء: إن هؤلاء الذين ينهى عن إحلالهم (بمعنى منعهم) هم من كانوا من المشركين يقصدون البيت الحرام يبتغون التجارة ورضا الله تعالى بزعمهم، وقد نسخ هذا بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿... إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...﴾ (٢٨) [التوبة].

ولكن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا، وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «المائدة من آخر القرآن نزولا، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها» وقال الحسن البصري: ليس فيها منسوخ. وعلى ذلك نقول: إن آمين البيت (أى القاصدين له حجا) هم من المؤمنين، ومعنى إحلال هؤلاء منعهم من الحج لحرب أو نزاع أو بغى، بل يجب أن يكون مفتوحا للجميع، وإذا كان الله تعالى قد جعله آمنا فقد فتحه لكل المؤمنين يقصدونه، وليس لأحد أن يمنعهم، فلا يحل لأحد أن يمنع أو يصعب على الناس دخول البيت الحرام.

وقد بين سبحانه مقصد هؤلاء الذين يؤمّون البيت، وهو أنهم يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا، وفسر بعض العلماء الفضل بأنه التجارة، أى أنهم يبتغون من رضوان الله تعالى غرضا من أغراض الدنيا، وهو التجارة، وقد يكون فى التجارة جلب أرزاق لسكان الحرم، فالتجارة غير ممنوعة، ولكن القصد الأسمى هو رضوان الله تبارك وتعالى، فهو العبادة التى يكون لها القصد الأول فى البيت.

وفسر آخرون الفضل بالثواب، فالذين يقصدون البيت حاجين أو معتمرين يطلبون الثواب من الله تعالى، وهو النعيم المقيم، ويطلبون ما هو أكبر منه وهو رضوان الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يُسِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (٢١) [التوبة].

وهذا هو الذى نختاره، فإن المقام مقام طلب الثواب، لا مقام طلب المال، ولكل مقام ما يناسبه.

وإن الآية تومئ إلى مناسك الحج والقيام بها، وقد ذكرت الآية السابقة أنه لا يحل الصيد مع الإحرام، وهذه الآية بينت ما يجب على المؤمن من القيام بشعائر الحج، وفتح أبواب مكة لمن يريدتها من المؤمنين، وذكرت الآية الكريمة متى يباح الصيد، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾.

معنى الإحلال الخروج من الإحرام بالحج أو العمرة أو هما معا بأن يلبس الملابس كاملة، ويقص شعره وأظافره وغير ذلك مما كان يحرمه عليه الذى هو فيه من الحج مع لبس لباسه، والقيام بمظاهر النسك، والاتجاه إلى الله تعالى، والشعور بأنه فى ضيافته عند بيته الحرام.

وإذا تحلل ذلك التحلل أبيع له ما حرمه الإحرام عليه، ومن ذلك الصيد، والأمر بالإحلال هنا ليس للطلب، فليس الصيد بمطلوب، ولكنه مباح، وقد جاءت صيغة الأمر بعد النهى، فكانت للإباحة، وهى كذلك فى كل صيغة «افعل» بعد النهى غالباً، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾ (١٠) [الجمعة].

وذلك بعد أن نهى عن البيع عند النداء للصلاة من يوم الجمعة فى قوله تعالت كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩) [الجمعة].



وقد روى فى ذلك قول النبى ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، إلا فزوروها»^(١).

والخلاصة أن هذا النص الكريم فيه إباحة الصيد بعد الخروج من الإحرام بعد أن كان محرماً فى أثناء الإحرام.

ولقد ساد الإسلام أرض العرب بعد أن كانت حجة الوداع، ولكن قد بقيت بعض الإحن فى النفوس، ونفس المؤمن يجب أن تكون طهوراً لا يعيش فيها الحقد، ولا حب الانتقام؛ ولذا نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أن يدفعهم البغض السابق لقوم لأنهم صدوهم عن المسجد الحرام، أن يمنعوهم كما منعوهم، فإن ذلك يكون اعتداء من أهل الإيمان؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ يجرمنكم معناها يحملنكم؛ لأن «جرَمَ» فى هذا المقام وما يشبهه معناها حمل حملاً قاطعاً، يقال جرمنى كذا على بغضه، أى حملنى عليه حملاً قاطعاً، ومن ذلك قول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أى حملت فزارة على أن تغضب.

والشنان: البغض الشديد، يقال شَتَّ الرجل أشناً شناناً وشناً أبغضه، والمعنى. لا يحملنكم البغض الشديد لقوم بسبب أنهم صدوكم، أى منعوكم من دخول المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بأن تصدوهم، فالجاهلية والشرك يبرران ذلك الصد، والإسلام لا يبرره، لأنه اعتداء على البيت الحرام، واعتداء على شعائر الله سبحانه وتعالى.

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الجناز - استئذان النبى ﷺ ربه (٩٧٧)، ولفظه عَنْ أَبِي بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، فَإِنَّهَا تَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَتَذَكُرُ الْآخِرَةَ».

وقد يقال: إن الاعتداء كان وهم في الجاهلية، وقد أسلموا، فكيف يتصور أن يعاملهم المؤمنون بما كان منهم في الجاهلية مع أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله؟ والجواب عن ذلك أن جرح النفس قد يستمر أثره، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أن يكون منهم ما يكون مجاوبة لما كان من آلام نالتهم بسبب صد المشركين لهم في الجاهلية، وخصوصا أن في بيان ذلك بيانا لأن كل صد عن المسجد الحرام اعتداء على شعائر الله، سواء كان ذلك قبل الإسلام أم كان سببه هوى النفس والشیطان، ومشاحة بين المسلمين أنفسهم كما حدث في عصور سابقة، وكما يحدث الآن مهما تكن الأسباب.

وهنا قراءتان لا بد من ذكرهما، - أولهما، قراءة ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بفتح الهمزة، وهذه تشير إلى أن الصد كان في الماضي، والاعتداء مجارمة لما كان في الماضي، والقراءة الثانية (إِنْ صَدُّوكُمْ) بكسر الهمزة^(١)، ومؤداها أنه إذا كان في المستقبل من يصدكم عن المسجد الحرام، فلا تعاملوه بالمثل وتصدوه؛ لأن ذلك اعتداء.

والنص الكريم يدل على أن كل اعتداء حرام سواء أكان بالصد عن المسجد، أو كان بغيره فما حرم الصد إلا لأنه شعبة من الاعتداء.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ إن الاعتداء والتعاون على البر والتقوى ضدان، وعندما يُذَكَّر أمر يَرُدُّ على الخاطر ضده؛ ولذا أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى بعد النهي عن الاعتداء. والبر: التوسع في فعل الخير للناس والطاعة لله تعالى وتطهير النفس من أدرانها، وهذا إذا لم تذكر التقوى؛ فإذا ذكرت التقوى معه، كما في هذا النص الكريم، كان البر هو الطاعة الظاهرة ونفع الناس، وإسداء المعروف لهم، وكانت التقوى تصفية النفس وتطهيرها وإخلاصها لله تعالى، وقد قال في ذلك أبو الحسن الماوردي: «ندب الله

(١) (إن صدوكم) بكسر الهمزة، بها قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وقرأ الباقون بفتح الهمزة. [غاية

الاختصار- سورة المائدة (٧٩٧). ج ٢، ص ٤٦٩].

تعالى إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته، وعمت نعمته» والإثم: أصله اللغوى الأفعال المبطئة عن الخير المانعة له، ثم أطلق على كل ما يفسد النفس ويفسد العمل، ويكون فيه العصيان، ومجافاة الخير، وقرب الشر، وإن الإثم إذا لم يتعد إلى غيره كان على نفسه، وإن تعدى على غيره كان عدواناً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ [النساء].

وقد نهى سبحانه عن التعاون على الإثم والعدوان، فنهى عن الإثم الذى تكون مغيبته على صاحبه أو تفسد قلبه، وعن العدوان على غيره.

والتعاون: معناه تبادل المعونة، ويكون فى الخير بمد يد المعونة فى الشدائد، وكل وجود بما عنده لأخيه، فالعالم بعلمه، والشجاع القوى بدفاعه عن الضعيف، وأن يكون المؤمنون يدا على من سواهم، ومنع الظالم من ظلمه، وإرشاد الضال، ومنع الآثام. وهذا تعاون أفرادى عام، وله أشكال كثيرة، والتعاون الجماعى بتعاون الأسرة، وتعاون الحى، وتعاون الأمة، وتعاون الجماعة الإنسانية، وكل ذلك حث عليه الإسلام، ومن التعاون تأليف جماعات له، والنبي ﷺ أوجد أعظم تعاون جماعى وذلك بالإخاء فى الإسلام.

وقد ذيل الله سبحانه النص الكريم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وهذا إنذار لمن يتعاونون على الإثم والعدوان وترهيب لغيرهم (وقد أكد الله -تعالى- هذا المعنى بثلاث مؤكدات «إِنَّ» الدالة على التوكيد)، وبذكر لفظ الجلالة، والوصف بالشدّة. اللهم قنا غضبك، وامنحنا رضاك، إنك أنت الغفور الرحيم.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ
 بِهِ، وَالْمَنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
 السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
 بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ
 فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ
 عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي
 مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٧﴾

فى الآية السابقة بين سبحانه تحريم الصيد فى وقت معين ومكان معين،
 وحال معينة، وهذا فى البيت الحرام وفى الأشهر الحرم المخصصة للحج، كما قال
 تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي
 الْحَجِّ ... ﴾ (١٩٧) [البقرة].

وفى هذه الآية بين سبحانه وتعالى المحرمات من الحيوان الذى كان فى أصله
 حلالا، ولكن كان التحريم فيه سببه مقترنا بهلاكه، مما يهلك بموت من غير ذبح،
 وكذلك بعض أجزائه، وبين تحريم حيوانات أخرى وبعض الأفعال التى تقترب
 بالذبح عند الذين أباحوا الميسر لأنفسهم، ولذلك قال تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ هذه الآية تبين تحريم أربعة
 أنواع، هى الميتة وما هو فى حكمها مما يقتل ودمه لا يخرج منه، والثانى الدم،
 والثالث لحم الخنزير، والرابع ما أهلك لغير الله به وما ذبح على النصب، وحرم مع
 هذا فعلا يقترب بالذبح، وهو الاستقسام بالأزلام، أى قسم اللحم بطريق الأزلام،
 وهى الإقداح التى تستعمل فى الميسر، أو كانت تستعمل عند العرب.

الميتة: الحيوان الذى يموت، وكلمة «الميتة» وصف والموصوف هو الجثة، فإن كل جثة لا تجرى فيها الحياة تكون ميتة، والمراد من الميتة هنا ما يموت من غير فعل فاعل، والميتة غالبا تكون مستقذرة فى ذاتها تعافها النفس وينفر منها الطبع، وهى رجس قدر، يكون فيه تعفن، أو على الأقل يسارع إليه التعفن، وهى فوق أنها خبث يكون فى الغالب سببه مرضاً قد اعترى جسمه، وقد يكون بجراثيمه تبقى بعد الموت أمدا غير قصير، ولأن الميتة يكون دمها فيها وقد فسد؛ ولذلك كله حرمت، فهى قذارة وفيها ضرر كبير.

والدم الذى جاء النص الكريم بتحريمه هو الدم المسفوح، الذى نص عليه فى قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...﴾ [الأنعام: ١٤٥] والمراد بالمسفوح: الذى يسفح ويراق من الحيوان، وإن غلظ وتماسك من بعد ذلك، فالدم الذى يكون جامدا بأصل خلقته وتكوينه كالكبد والطحال يكون حلالا، كما ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ حَلَالَانِ: وِدْمَانِ حَلَالَانِ الْكَبِدُ وَالطَّحَالُ، وَالسَّمَكُ وَالْجُرَادُ»^(١).

وكان تحريم الدم لأنه ضار، إذ إنه يعسر هضمه، وسريع التعفن، ويحمل كثيرا من جراثيم الأمراض، ولا يمكن تنقيته من هذه الجراثيم كاللبن إذ يغلى. وإن دم الحيوان السليم قد ينقل إلى الإنسان محفوظا مصونا من غير أن يتعرض للهواء فيزيده قوة أو يعرضه عما فقده، ولكنه لا يمكن أن يكون غذاء يتناول بالفم، ويمر على الجهاز الهضمى، إذ إنه لا يكون قابلا للتمثيل فى الجسم فوق ما يسرى إليه من جراثيم تفسده وأن النفس الفطرية تعافه.

(١) رواه ابن ماجه: الأطعمة - الكبد والطحال (٣٣١٤)، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٥٦٩٠) عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحَوْتُ وَالْجُرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ».

ولحم الخنزير: حرام لأنه مستقذر، تعافه الفطرة كالميتة والدم، إذ إنه يلازم القاذورات ويتغذى منها، ولهذا المعنى حرمت البهائم الجلالة التي تأكل الجلة وتتغذى بها، فقد روى عن ابن عمر أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل الجلالة والبانها»^(١) وهذا النهي للكرهية عند بعض الأئمة، وللتحريم عند الآخرين، وقالوا: لا تؤكل حتى تحبس، وكان ابن عمر يحبس الدجاجة ثلاثاً، ولا يرى بأكملها بعد ذلك بأساً.

وإن المقصد من ذلك ألا يأكل المؤمن إلا طيباً لا خبث فيه.

وإن كون لحم الخنزير ضاراً فهو أمر قد قرره الطب، فلهذه يولد كثيراً من الديدان، كالودودة الوحيدة والشعرة الحلزونية التي تجيء إليه من أكل الجرذان الميتة، وإنه عسر الهضم لا تكاد النفس تستسيغه، والجهاز الهضمي لا يهضمه، وإن الذين يستطيعونه قد فسدت أذواقهم، والعادة هي التي سهلت استساغته، وكثير من المستقذرات تسهل العادة تناولها، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه رجس، وقد صدق فيه الوصف، فهو ضار ضرراً بليغاً، ومستقذر استقذاراً شديداً مهما يقل فيه الذين فسدت أذواقهم.

﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ الإهلال: هو رفع الصوت، وأصله رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم أطلق على رفع الصوت لأمر يدعو إلى رفعه، ومنه أهل فلان بالحج إذا رفع صوته بالتلبية والدعاء في كل مكان يناسب ذلك، وعند البيت الحرام، والإهلال لغير الله عند الذبح أن يذبحوا باسم صنم من الأصنام، وإن ذلك فيه عبادة لغير الله تعالى، فنهى عن أكل ما يذبح لذلك منعاً لهذا العمل الذي هو شرك بالله تعالى، وكان النهي عن الأكل لأنه ذريعة إلى المنع المطلق.

والتحريم في هذا ليس لذات الحيوان، بل لما صحبه من عمل فيه شرك بالله تعالى، وفسوق عن أمره سبحانه وتعالى.

(١) رواه الترمذي: الأطعمة - في أكل لحوم الجلالة والبانها (١٨٢٤)، وأبو داود: الأطعمة (٣٧٨٥)،

وابن ماجه: الذبائح - النهي عن لحوم الجلالة (٣١٨٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ولذلك كان تحريم الميتة والدم والخنزير؛ لأنها رجس، وهذا حرم لأنه فسق وإشراك، وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...﴾ [الأنعام].

وإن الذبيحة إنما تحرم إذا كان قد ذكر غير اسم الله تعالى عليها، وإنها حلال إذا ذكر اسم الله تعالى عليها، ولكن إذا لم يذكر اسم الله تعالى عليها، ولم يذكر غيره، وكان الذابح مسلماً، وكان الذبح فى مكان لا يبدو أن فيه تقرباً لغير الله تعالى أتكون الذبيحة حراماً أم لا تكون؟.

قال بعض الفقهاء: لا تحل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ...﴾ [الأنعام] فإذا لم يذكر اسم الله، فذلك من مواضع النهى.

وقال آخرون: إن موضع التحريم هو فيما أهل لغير الله به، والآخر على أصل الحل، ويدل على ذلك القصر فى التحريم فى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾ [الأنعام]. وبقصر النهى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ...﴾ [الأنعام] على حال ما إذا ذكر غيره وما كان قبل النهى وبعده يزكى تفسيره بذلك، وسنبين ذلك عند الكلام فى هذه الآية إن شاء الله تعالى.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾.

المنخنقة: هى التى تموت بخنق إما باختناقها من وثاقها، أو يخنقها غيرها ويتركها حتى تموت.

والموقوذة: هى التى وقذت بحجر، أو تضرب بعصا حتى تموت من غير تذكية شرعية، فالوقذ الرمى، والضرب الشديد. وما يرمى بالسهم، فيموت أيعد موقوذاً أم لا يعد؟ روى أن النبى ﷺ قال: «إذا رميت بالمعراض (السهم الذى قد يصيب بعرضه لا بحدته) فخنق فكله وإن أصابه بعرضه فلا تأكله، فإنه

وقيد^(١) ومؤدى الحديث أن السهم إن اخترق الجسم وأسال الدم يؤكل المضروب وإلا فإنه لا يؤكل، فالعبرة إذن بإسالة الدم، فإن أساله أكله، وإلا فلا يؤكل.

والمرتدية: هى التى تموت بسبب سقوطها من مكان مرتفع فى مكان منخفض، كالتى تسقط من جبل فى هاوية، أو تسقط فى بئر فتموت.

والنطيحة: هى الحيوان الذى يموت من نطح أو اصطدام، فهى فعيلة بمعنى مفعولة، كذبيحة بمعنى مذبوحة، وقد كان العرب يأكلون كل هذه الأصناف الأربعة، فجاء الإسلام وحرّمها، والحقيقة أنها من نوع الميتة؛ لأنها تموت ودمها محبوس فيها لم يخرج منها، ويصح أن تدخل فى عموم الميتة؛ ولذلك جاء الاقتصار على ذكر الميتة فى قوله تعالى:

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ...﴾ [١٤٥] [الأنعام] وهى بلا شك داخلة فى عموم كلمة الميتة.

وما أكل السبع: المراد به ما افترسه ذو ناب وأظفار من سباع الحيوان كالأسد والنمر والذئب والثعلب والضبع، وغيرها من الحيوان، فما افترسه حتى مات يكون حراما سواء أكل منه أم لم يأكل، وذلك لأنه افترسه ليأكله، فأطلق اسم السبب وأريد المسبب، ولإطلاق السبب هنا معنى، ذلك أنه افترسه ليأكله، فيخرج بذلك الكلب المعلم الذى أطلق ليصطاد لصاحبه وسمى عند إطلاقه، فهو يفترس لا ليأكل، بل لمن أطلقه، وقالوا: إنه إذا افترسه ليأكله هو بأن أكل أكثره فإنه لا يحل الباقي لمن أطلقه.

وقد استثنى من المحرمات السابقة حال التذكية الشرعية، وهى الذبح أو ما يشبهه مما يريق الدم، ويصفيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أى أن المنتخفة والموقودة والمرتدية والنطيحة وما افترسه السبع إذا أدرك وهو حى، وذكى التذكية

(١) رواه البخاري: الذبائح والصيد - صيد المعراض (٥٤٧٦). والوقيذ والموقود: ما يقتل بغير أداة حادة. راجع أطرافه في البخاري ومسلم، من رواية عدى بن حاتم رضى الله عنه.

الشرعية وأريق دمه، فإنه يكون حلالا . . بسبب هذه التذكية، فهو وما ذُكي ابتداء وهو قوى قادر - على سواء^(١)؛ لأن التذكية الشرعية وهو حي هي سبب الحل، وقد تحقق في الحاليين.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ النصب: اسم مفرد لحجر كان ينصب فيعبد، وتصب عليه دماء الذبائح، ويُشرح اللحم ويوضع عليه، وكانوا يفعلون ذلك تقربا إليها، أو ليتقربوا عن طريقها، فنهى الله تعالى عن أكل ما يذبح على هذه الحجارة قطعاً لدابر الوثنية والأفعال التي تؤدي إليها، وتحريم هذا هو من قبيل تحريم ما أهل لغير الله تعالى، فالمعنى فيهما واحد، والتحريم ليس لذات الشيء المذبوح، ولكن لما اقترن بالذبح من آثام وفسوق عن أمر الله تعالى.

والفعل الذي حرمه الإسلام من غير أن يتعرض لتحريم اللحم هو ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ فقد وصفه سبحانه وتعالى بأنه فسق، والأزلام جمع زلم، وهو القدح من أقداح الميسر، وهي عشرة أقداح، منها ثلاثة غفل ليس فيها ما يدل على مقدار يؤخذ، وسبعة فيها مقادير تبين مقاديرها، فإذا عقر الجزور^(٢)، قسم على مقدار ما يشتمل عليه من أجزاء ثم ضربت الأقداح، فمن يخرج له منها قدح يأخذ بمقدار ما يشتمل عليه، وبذلك يطلب كل واحد نصيبه من الجزور بهذا القمار، وقد وصف الله تعالى ذلك الفعل بأنه فسق، أى خروج على المبادئ الإسلامية، والتحريم منصب على الفعل، وليس منصبا على اللحم، وعلى ذلك إذا كانت الذبيحة قد ذكيت بالطريقة الإسلامية، وذكر اسم الله تعالى عليها، فإنها تكون حلالا، والتقسيم بهذه الطريقة يكون حراما.

(١) وهو قوى قادر: أي الحيوان قبل أن يصيبه ما أصابه، ما دام ذكي التذكية الشرعية قبل موته.

(٢) الجزور: البعير. ذكرا كان أو أنثى. الصالح (جزر).

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ اليوم المعروف بالآل التي هي للحضور، هو يوم عرفة؛ ذلك أن الآية كلها نزلت في يوم عرفة، وفيها بيان المحرمات، وقد ذكر سبحانه وتعالى عقب بيان هذه المحرمات بيانا قاطعا بين حياة جاهلية فيها أخباث، وحياة إسلامية نظيفة نزيهة ببيان قوة الإسلام، وعلوه في الأرض، وإذلال الشرك، وذهاب سطوته في أرض العرب، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أنهم يئسوا من القضاء عليه، وتغيير حقائقه، وسيطرة الشرك على المؤمنين، وقد قال النبي ﷺ في حجة الوداع يوم عرفة، وهو يعرض الحقائق الإسلامية، ويشهد الله تعالى على تبليغها: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه»^(١) ويأس الشيطان هو يأس أوليائه من المشركين من أن يتغلبوا على ذلك الدين المكين الثابت، وإذا كان المشركون قد يئسوا من السيطرة، ووهنت قواهم، فإنه لا تجوز مسايرتهم في أي أمر من الأمور؛ ولذا قال سبحانه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ والخشية: خوف يشوبه تعظيم لما يخشى منه، والمعنى لا تجعلوا للكافرين مكانا للهيبة أو الخوف أو التعظيم، فقد ضعفوا واستكانوا، وإنما الخشية كلها لله الذي نصركم وأنتم أذلة، وأعزكم وقد كنتم مستضعفين في الأرض، وخشية الله توجب طاعته، والأخذ بكتابه وسنة نبيه، وأن تباعدوا بينكم وبين ما كان في الجاهلية، وما عليه عادات الجاهليين، وأن تأخذوا بمبادئ الإسلام وحده، وأنه قد كمل الدين بيانا وعزة وسلطانا؛ ولذا قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هذه الآية آخر آيات القرآن الكريم نزولا، وقد نزلت في عرفة في حجة

(١) روى الترمذي: الفتن - دماؤكم وأمواكم (٢١٥٩) عن عمرو بن الأحوص قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ لِلنَّاسِ: «أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيَسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلَادِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَخْتَفِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَيَرْضَى بِهِ» قَالَ أَبُو عِيْسَى: وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ وَأَبِي عَبَّاسٍ وَجَابِرٍ وَحُذَيْمِ بْنِ عَمْرٍو السَّعْدِيِّ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه ابن ماجه: المناسك - الخطبة يوم النحر (٣٠٥٥) عن عمرو بن الأحوص بنحوه.



الوداع، وقد مكث رسول الله ﷺ بعد هذه الآية واحدا وثمانين يوما ثم قبضة الله تعالى إليه، وفي هذا النص الكريم ذكر حقائق ثلاثا وهى: إكمال الدين، وإتمام النعمة، والرضا بالإسلام دينا.

ومعنى أكملت دينكم: أكملت بيان ما أمركم به وما أنهاكم عنه، وبينت ما يحل لكم وما يحرم عليكم، وأكملت الكتاب الذى تضمن شرعى، والذى هو حجتى عليكم، والحجة لكم فى أمر دينكم، وأوضحت فيه الأدلة التى ترشدكم إلى تعرف ما تكون فيه حاجتكم، وما تعرفون منه بالاستنباط والتفكير مما تحتاجون إلى معرفته من أمر دينكم، وخلاصة القول: إن إكمال الدين هو إكمال بيانه.

ومعنى إتمام النعمة: هو إتمام النصر، وإتمام السلطان، وذلك بفتح مكة، والسلطان فى العرب، وإزالة دولة الأوثان، وجعل الكلمة العليا هى كلمة التوحيد.

ومعنى ورضيت لكم الإسلام دينا: رضيت الاستسلام لأوامرى والانقياد لما شرعت لكم من أحكام، وما يجب عليكم التزامه من فرائض ومعالم وحدود «دينا»: أى أمرا تدبنون به وتطيعونه ولا تخرجون عنه، وهذا ما قرره ابن جرير، ويصح أن نقول: إن المعنى رضيت لكم التسليم بكل ما اشتمل عليه القرآن وما دعا إليه النبى ﷺ دينا تطيعوننى بمقتضاه، والمعنيان متقاربان، وإن اختلف التعبير، وعبر هنا بكلمة (رضيت) مع أن الأمر هنا أمر إيجاب وتكليف، وذلك للإشارة إلى أن المؤمن الذى يبلغ درجة المحبة لله تعالى يطيعه؛ لأن فيه مرضاته من غير نظر إلى التكليف الذى يتضمن الثواب والعقاب.

وقد جاء فى تفسير ابن جرير الطبرى: «فإن قال قائل: أو ما كان الله تعالى راضيا بالإسلام لعباده إلا يوم أنزل هذه الآية؟ قيل لم يزل الله راضيا لخلق الإسلام دينا، ولكنه جل شأنه لم يزل يصرف نبيه محمدا ﷺ وأصحابه فى درجات الإسلام ومراتبه، درجة بعد درجة، ومرتبة بعد مرتبة، وحالا بعد حال، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجات مراتبه، ثم قال حين أنزل هذه

الآية: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ بالصفة التي بها اليوم، والحال التي أنتم عليها منه اليوم ديناً، فالزموه ولا تفارقوه، أى هذا الرضا كان ذكره أنسب عند الكمال. وإن كان مصاحباً للشرع فى مواضع نزوله.

وقد يسأل سائل لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى قوله تعالت كلماته: ﴿الْيَوْمَ يَفْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فى وسط آية محرمات الأطعمة، ومجملاتها كما سيجىء، ونقول إن ذلك تنبيه إلى يوم نزول هذه الآيات، باعتبارها آخر القرآن نزولاً، فكان التنبيه إلى اليوم وهو يوم عرفات؛ لأنه ذكرى الكمال، وذكره فى جملة معترضة أدعى إلى التنبيه والتذكير.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التحريمات السابقة كلها فى حال الاختيار، أما فى حال الاضطرار، بأن يكون الشخص مضطراً للأكل ليدفع عن نفسه الموت جوعاً، فإنه فى هذه الحال يجوز الأكل. والمخمصة: المجاعة التى تورث ضمور البطن، وقد فسر النبى ﷺ حال الضرورة التى تبيح بعض هذه المحرمات بأن يجىء الصبوح والغبوق، ولا يجد ما يأكله، أى يجىء اليوم كله، ولا يجد طعاماً يأكله^(١)، وشرط رفع الإثم عن تناول المحرم للضرورة ألا يتجاوز حد الضرورة؛ لذلك قال تعالى ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾ أى مائل إليه راغب فيه يتجاوز حد الضرورة، وهذا يتلاقى مع قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿... فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ...﴾ [البقرة].

ومعنى النص الكريم: فمن اضطر إلى تناول المحرم، وهو فى حال جوع شديد وهو غير طالب لهذا المحرم، ولا يتجاوز حد الضرورة، فإن الله تعالى يرفع عنه الإثم؛ لأن الله تعالى غفور رحيم، فهو رحيم بعباده؛ ولذا جعل الضرورة مسوغاً للمحذور، وهو غفور يغفر الذنوب ويفتح باب التوبة لعباده.

اللهم ارحمنا واغفر لنا، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا.

(١) سبق تخريج ما فى معناه من حديث.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ
 مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
 عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
 ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ
 لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
 مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
 مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِآلَايِنِ فَقَدْ حَاطَ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

كانت الآية السابقة في بيان المحرمات، وبعضها كانت العرب تستبيحه،
 فالخنزير كان مستباحا عند العرب، وكذلك أنواع الحيوان الذي لا يذكي تذكية
 تهرق دمه، وتنقى اللحم والعظم من أوضاره، فكان ذلك التحريم دافعا لأن يتأثم
 بعض المسلمين، ويسألوا عن المحلل من الأطعمة واللحوم، بعد ذكر المحرم، وقد
 سألوا عن ذلك، كما يدل النص الكريم ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾.

يتضمن السؤال معنى القول، كأن تأويل الكلام هكذا: يسألونك قائلين:
 ماذا أحل لنا؟ وكان التفاتا من الحاضر إلى الغائب للتنبيه ولتوجيه الذهن؛ ولأن
 في السياق حكاية عنهم، كما يقال: أقسم فلان ليفعلن كذا، فتضمن الحكاية جعل
 للحدث بضمير الغائب موصعا؛ ولو كان الحديث بضمير الحاضر لكان له موضع
 أيضا، ولكن نسق القرآن أبلغ وأقوم، وأدعى للتنبيه والالتفات، وقوله تعالى:
 ﴿مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ يصح أن نعتبر ماذا كلها اسم استفهام مبتدأ خبره جملة أحل
 لهم، وقد اختار ذلك الزمخشري في الكشف، فقال: «و«ماذا» مبتدأ، و«أحل
 لهم» خبره، كقولك أى شيء أحل لهم» وموضوع السؤال هو ما أحل لهم من

مطاعم؛ لأن الآية السابقة كانت في محرمات المطاعم، فكان السؤال عما أحل منها بعد أن بين ما حرم منها من خبائث، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن طريق التحليل هو التذكية الشرعية؛ ولذا كان الجواب في المطاعم الحلال، وبعض طرق التذكية، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَحَلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يتولى الجواب؛ لأن النبي ﷺ هو المبلغ للرسالة، وهو المبين لهم والمرشد، وهو المرجع، ومما يتفق مع مقام الرسالة أن يكون هو المجيب، ولكن إذا كان اتجاه الناس إلى ربهم والضراعة تكون الإجابة منه سبحانه من غير توسط أحد؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...﴾ [البقرة] أمر الله تعالى أن يجيب هو سؤالهم الخاص بالحلال والحرام؛ لأنه يتعلق ببيان رسالته التي بعث بها، وعمله الذي يتولاه، وهو بيان الشرع للناس، والطيبات التي أحلت - هي غير المحرمات التي حرمت، وما تستطيبه النفوس، ولا تستقذره وتعافه، وبعض الفقهاء ومنهم المالكية فسروا الطيبات بالحلال الذي لم يحرم في نص من كتاب أو سنة، من غير نظر إلى أن الناس يستطيبونه أو لا يستطيبونه، وبعض آخر من الفقهاء ومنهم الإمام الشافعي قالوا: إن الطيب هو الذي تستطيبه النفوس ولا تستقذره، ولم يثبت تحريمه بنص، وعلى ذلك لا يحل ما نص على تحريمه؛ لأنه خبيث قذر جاء النص بتحريمه؛ ولا يحل أيضا المستقذر الذي تعافه النفوس، كالخنافس وشبهها من هوام الأرض، ومثلها كل حيوان أو طعام يثبت ضرره بالإنسان طيبا أو يستقذره طبعيا؛ لأن هذا الدين دين الفطرة، فما تعافه النفوس المستقيمة لا يكون حلالا، وعندى أن هذا هو المعنى المستقيم.

وقد بين سبحانه فيما أحل صيد الكلب ونحوه من الفهود والطيور؛ لأن ذلك كان من مواضع سؤالهم، فقال:



﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وبعض المفسرين قال: إن فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وهو كلمة «صيد»، والمعنى أحل لكم الطييات، وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح . . . وبعض العلماء لا يقدر محذوفاً، بل يجعل الخبر هو الجملة طلبية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ويكون قوله تعالى: ﴿مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ حالاً بعد حال، وصاحب الحال، ضمير الخطاب فى قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ حال كونكم ﴿مُكَلِّينَ﴾ معلمين، وتقدير الكلام يكون هكذا. . . وأحل لكم ما أمسكن لكم من صيد الجوارح؛ وذلك لأن الخبر محل الفائدة، ودخلت الفاء الخبر؛ لأن الجملة طلبية، ولأن ما موصولة، والفاء تدخل فى خبر الموصول، مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾... ﴿[الأنعام] لتضمن الموصول أحيانا معنى الشرط.

والتكليب تعليم الكلاب - وما يشبهها - الصيد، فهو اسم فاعل اشتق من الكلب، أو أخذ من الكلب باعتبار أن الكلب طبع ألوف أقرب الحيوان إلى تعلم الصيد، وقد قال تعالى ما يفيد تعليم كل حيوان له مثل خواص الكلب فى الطاعة والمهارة، والاستعداد للتعليم، فقال تعالى: ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ وهذا يعم كل حيوان يمكن أن يعلم الصيد، والجراح معناه الكاسب، أى الحيوانات التى من شأنها أن تكسب صيدا كما يكسب الإنسان، أو معناه: الذى يخدش الجسم بالجروح، فإن ذلك لا يستغنى عنه الصيد، إذ إنه لا يمكنه أن يسيطر على الحيوان غالباً إلا إذا جرحه بأنياه، وهذا هو الذى نختاره .

وقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ﴾ حال على اعتبار أن من مبتدأ، خبره ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، وهى حال بعد حال كما أشرنا، وذلك الذى اخترناه، وعلى تقدير محذوف، والمعنى: صيد ما علمتم من الجوارح، تكون جملة تعلمونهن مما علمكم مستأنفة.

ومعنى هذه الجملة السامية: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أى أنكم تعلمونهن مما علمكم الله تعالى بإلهامكم تعليمهن والانتفاع بهن فى الصيد، ومن للتبعيض، أى تعلمونهن جزءا مما أودعه الله عقولكم، أى تعلمونهن وسائل التحايل، والسبل المختلفة للاصطياد، وقد أودع الله غرائزهم القابلية للتعلم، وما أودعها إلا لتنتفعوا بها فى التعليم. وقد اتفق العلماء على أن الصيد بالكلاب يجوز، ويحل ما تمسكه، وقال الجمهور: إن مثل الكلاب كل حيوان يصنع صنيع الكلب. وكل طير كذلك؛ لأن قوله تعالى ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ يعم كل حيوان يصنع صنيع الكلب، وكان التعبير بمكبلين؛ لأن الكلاب أكثر الحيوانات استعمالا لذلك، كما أشرنا من قبل، وقال بعض الفقهاء: إنه لا يحل إلا صيد الكلاب، والأول أظهر وأوضح.

وقد استنبط الإمام مالك من هذا النص أن الكلاب طاهرة، وليست نجسة، وقال: كيف يحل صيدها وينجس لحمها؟ ورد بهذه الآية الخبر الوارد عن النبى ﷺ الذى جاء فيه «إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا أولاها» بالتراب الطاهر^(١) والجمهور على أن حل صيده لا يستوجب طهارته.

والأمر فى قوله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للإباحة، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، أى أمسكنه محبوسا عليكم، ولأجلكم، وقد روى عن النبى ﷺ: «إذا أرسلت كلبك المعلم فاذكر اسم الله، وإن أمسك عليك وأدركته حيا فاذبحه، وإن أدركته قد قتل، ولم يأكل منه، فكله»^(٢)، فإن أخذ الكلب ذكاة.

(١) رواه النسائى: المياه - تعقير الإناء بالشراب (٣٣٧) وينحوه رواه البخارى: الوضوء (١٦٧)

ومسلم: الطهارة (٤١٨) كما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد بالفاظ مقاربة.

(٢) عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَادْكُرْهُ حَيًّا فَادْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكَتْهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، وَإِنْ وَجَدْتَ مَعَ كَلْبِكَ كَلْبًا غَيْرَهُ وَقَدْ قَتَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّهُمَا قَتَلَهُ، وَإِنْ رَمَيْتَ سَهْمَكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ غَابَ عَنْكَ يَوْمًا فَلَمْ تَجِدْ فِيهِ إِلَّا أَثَرَ سَهْمِكَ فَكُلْ إِنْ شِئْتَ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ غَرِيثًا فِي الْمَاءِ فَلَا تَأْكُلْ». رواه مسلم - الصيد والذبائح - الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩).

وعلى هذا قال الشافعى وأحمد: إذا أكل منه الكلب لا يحل؛ لأنه لم يمسك على من أرسله، إنما أمسكه على نفسه، وقال الإمام مالك: ما دام قد عاد به ولو مأكولا منه، فقد أمسكه على صاحبه، وقد روى ذلك عن بعض الصحابة، كعبد الله بن عمر، وسعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة، وسلمان الفارسى، وقد وردت أحاديث تفيد أنه يأكل منه صاحبه، وإن أكل الكلب منه.

والحنفية فصلوا تفصيلا حسنا فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ فقالوا: إن عاد بأكثره فقد أمسك على صاحبه، وإن عاد بأقله، فقد أمسك على نفسه، وبذلك يقع النهى عن الأكل الذى ورد عن النبى ﷺ فكان تفصيلهم تفسيرا لقوله تعالى: ﴿أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

والأحاديث الواردة فى الباب تشترط كلها أن يذكر اسم الله تعالى عند الإرسال ليقوم الصيد مقام الذبح، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

ثبت من الأحاديث - وقد روينا بعضها - أن ذكر اسم الله تعالى يكون عند الإرسال، لا عند الأكل، وإن التسمية عند الإرسال تقوم مقام التسمية عند الذبح، وإن الإرسال مع التسمية على من أرسله يكون كالتذكية الشرعية إلا إذا أدرك حيا، فإنه لا بد من التذكية؛ لأن قيام التسمية والإرسال مقام التذكية لتعذرهما، إذا جىء به حيا فإن التذكية ممكنة فلا يغنى عنها ما يقوم مقامها، عند عدم إمكانها، والواو فى العطف لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا، وذكرت آخرها لأنها من تقوى الله تعالى، فكان اقترانها بالأمر العام بالتقوى من التنسيق البيانى الحكيم، وهو الذى يتناسب مع الذكر الحكيم.

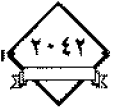
واختلف العلماء فى التسمية عند الإرسال كاختلافهم فى وجوب التسمية عند الذبح، فقال الظاهرية: إنها واجبة حملا للأمر هنا على الوجوب، ولقوله تعالى فى مقام آخر: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ...﴾ (١٦١) [الأنعام] وقال الشافعى: إنها مستحبة هنا، وقريب من ذلك قال الحنفية: إلا أن يكون الترك

عمدا، وقال المالكية: إنها إن تركت عمدا لا تؤكل؛ لأنه لا يبين أن الصيد للمرسل إلا إذا قصد ذلك، وتركها عمدا، ينافي القصد، وإن تركت سهوا فإنها تؤكل، لأن الحيوان المخصص للصيد يكون إرساله المقصود منه الأكل ولا يقصد سواه، إلا أن يقصد اللعب أو اللهو، وعندئذ يكون الترك عمدا لا نسيانا.

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بالأمر بالتقوى والتذكير بالحساب، وذلك لتذكير الناس عند الطعام بأن يكونوا في ظل تقوى الله تعالى بألا يسرفوا في الطعام فيفسدوا أجسامهم، وألا يتعدوا القدر المطلوب، أو لا يأكلوا حق الغير، وما يكون محرما، لتعلق حق الناس؛ ولذلك يقول الله تعالى بعد الأمر بالأكل: ﴿... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٤٧].

﴿الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ الظاهر أن هذه الآية وما قبلها من آيات، من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ﴾ نزلت في يوم واحد؛ ولذلك كان قوله ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ﴾ إلى آخره.. هو ذات اليوم في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَنْسَأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾ فهو يوم واحد؛ لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كان المقصود واحدا، وهذا الكلام السامى كله نزل يوم عرفة، وهو تسجيل لأحكام باقية إلى يوم القيامة، والطيبات هي ما ذكر في الآية السابقة، وهي الحلال غير المستقذر طبعاً وفطرة، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل أيضاً، والجمهور قد اتفقوا على أن الطعام هو الحيوان الحلال لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ...﴾ [٩٦]، ولقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران]، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا...﴾ [الأنعام].



وقد قال بعض الشيعة: إن المراد من الطعام هنا هو البُر، وغيره من الحبوب، والأطعمة غير الذبائح، أما الذبائح فلا تحل خشية ألا يذكروا اسم الله تعالى عليها، وفي الغالب يذكرون غيره.

والجمهور على حل ذبائح أهل الكتاب إذا أهرق الدم، وقد اتفق الجمهور على حل هذه الذبائح، والخلاف عندهم فيما عدا الذبائح التي ثبت حلها بالنص، وأما غير الذبائح فهو قسمان: القسم الأول: ما لا عمل لهم فيه كالفاكهة والبر، وهو حلال بالاتفاق، والقسم الثاني: ما لهم فيه عمل وهو قسمان أيضا: أحدهما: ما يحتمل دخول النجاسات فيه كاستخراج الزيوت من النباتات أو الحيوانات، وهذا قد اختلف فيه الفقهاء، فمنهم من منعه لاحتمال النجاسة ومن هؤلاء ابن عباس؛ لأن احتمال النجاسة ثابت، وهو يمنع الحل، وقد تبع هذا الرأي بعض المالكية، ومن هؤلاء الطرطوشي، وقد صنف في تحريم جبن النصارى، ويجرى مجرى الجبن الزيت، وعلى هذا الرأي يجري مجراها السمن الهولاندى وما شابهه. ولكن الجمهور على جواز ذلك ما دام لم يثبت أنه اختلط بهذا النوع من الطعام نجاسة.

والمحرم ما ثبت أنه قد دخله نجاسة، بأن دخله أجزاء من الخمر أو الميتة أو الخنزير، أو غير ذلك من المحرمات.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾
الإحصان يطلق على أربعة معان: الإسلام، ولا موضع له هنا؛ لأن الكلام في غير المسلمات، والثاني، التزوج، ولا موضع له هنا أيضا، لأن المتزوجة لا تحل مسلمة أو كتابية، والثالث، العفة، والرابع، الحرية، وهذان المعنيان لهما موضع القول، فبعض الفقهاء قرر أن المراد بالمحصنات من أهل الكتاب العفيفات، ويكون الوصف للترغيب في طلب العفة، والعمل على الانتقاء والاختيار، وعلى هذا

الرأى يصح الزواج من الكتابيات، سواء أكن حرائر أم كن إماء، ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ تزوج مارية القبطية، وهى أمة^(١).

وبعض الفقهاء ومنهم الشافعية قالوا: إن المراد بالمحصنات من أهل الكتاب الحرائر، فلا يحل من نساء أهل الكتاب إلا الحرائر، وقد ذكر هذا بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ...﴾ [النساء]

فقيد زواج الإماء هنا بأن يكنَّ من المؤمنات، كذلك قيد زواج الكتابيات هنا بأن يكنَّ من الحرائر.

والشيعة يمنعون زواج الكتابيات، على اعتبار أنهم يشركن فى عبادتهن، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ...﴾ [البقرة] ولكن إجماع غير الشيعة قد انعقد على إباحة الزواج من الكتابيات.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وجوب المهور لهن، فقال تعالى: ﴿... إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ...﴾ [النساء]

أى إذا آتيتموهن مهورهن، وسمى المهر هنا أجراً، لتأكيد وجوبه، وقد قال تعالى من قبل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ...﴾ [النساء] أى عطاء، فذكر الأجر فى هذا المقام لكيلا يكون ثمة استهانة بأى حق من حقوقهن، كما أكد العمل على عفتهن بقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أى طالبين بهذا الزواج الإعفاف، والصون لأنفسكم وأنفسهن، وحماية عرضكم وعرضهن، فمعنى الإحصان هنا العفة، بأن يجعل نفسه فى حصن من الزنى، ويجعلها فى حصن

(١) عن ابن عباس قال: لما ولدت مارية القبطية إبراهيم ابن النبى ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أعفها ولدها». رواء الدارقطني (٤١٤٨) ج ٤، ص ١٣٢. قال ابن هشام: وأما إبراهيم فمن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية من كورة أنصنا.

مثله، والسفاح الزنى، والمسافح كالمسافحة الذى يرتكب الفحشاء مع أى امرأة يلقاها، فيقضى معها الفحشاء. واتخاذ الخدن، أى اتخاذ الخليفة، وأن يختص بامرأة وتختص به من غير عقد نكاح مدة أو من غير مدة، وهذه هى المتعة بعينها التى تبيحها بعض الطوائف، وهى بقية من بقايا الجاهلية، والمعنى طالبين حصن الزواج غير طالبين الزنى العلنى أو السرى والله محيط بكل شىء.

وزواج الكتابيات قد يغرى بالانحراف عن الدين كما نرى فى عصرنا؛ ولذا كان عمر ينهى عنه كبار الصحابة كطلحة بن عبيد الله؛ ولذا حذر سبحانه من الكفر بعد هذه الإباحة فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أصل الحبط: هو تلف الدابة من كثرة ما تناول من طعام لا يناسبها، والإيمان هنا الشرائع والأحكام، والكفر بها الاستهانة بها وعدم الأخذ بما تدعو إليه، والمعنى: ومن ينحرف عن دينه، ولا يؤمن ويدعن لأحكام الإسلام فقد تلف ما كان يعمل به من خير؛ وذهب، وهو فى الآخرة من الخاسرين، ولم يقل سبحانه فى هذا المقام - ومن يكفر بالله - بل قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ للإشارة إلى أن الإغراء بإفساد الدين من جهة النساء يتبدى بالأعمال، ثم ينتهى إلى العقيدة، وهو سبحانه الذى يقى النفوس من الزلل، ويحفظها من الشر، اللهم احفظ قلوبنا فلا تزيع، ونفوسنا فلا تنحرف، وعقولنا فلا تضل، إنك سميع الدعاء.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ

أَوَلَمْ تَسْتُمِ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

كانت الآيات السابقة؛ في بيان ما يحل وما يحرم من الأطعمة، ومن يحل من النساء، وذلك يتعلق بغذاء الأجسام وتبعتها، وإن هذه الآية الكريمة لبيان غذاء الروح، وهو الصلاة، ففي الأوليات غذاء الأبدان، وفي هذه غذاء النفوس، وفوق ذلك إن هذه الآية بيان للوضوء والاعتسال، وما يقوم مقامهما، وهذان يكونان من نتائج الغذاء والزواج، فكان التلازم بينهما ثابتاً؛ لأن نواقض الوضوء والجنابة إنما تكون من نتائج الطعام في هذه الدنيا، ومن نتائج متعة الزواج بما يكون بين الزوجين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ النداء للمؤمنين، والمنادى به الاستعداد للصلاة، بأخذ وسيلتها، وهو الوضوء والاعتسال إن كان ما يوجبها. وكان النداء بوصف الإيمان للإشارة إلى أن الصلاة ركن الإسلام الركين، حتى إن بعض الخنابلة قرر أن من تركها عامداً، ودأوم على تركها لا يكون مسلماً، وأجمع المسلمون على أن من أنكر فرضية الصلوات الخمس بركعاتها يكون كافراً، ولا يدخل في زمرة المسلمين. كشأن من ينكر أمراً من الدين بالضرورة.

وقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ في ظاهرة أن القيام إلى الصلاة سابق على الوضوء على أن الوضوء سابق على الصلاة، وقد أجاب عن ذلك الزمخشري في الكشف بجوابين:

أولهما - أن المراد من القيام إرادة القيام، وعلل التعبير عن إرادة الفعل، بكلمة تدل على الفعل بأن ذلك من قبيل المجاز؛ لأن إرادة الفعل سبب الفعل، وقد يطلق المسبب ويراد السبب، كمن يقول إن فلان أسكرني أى سقاني السكر، وفوق ذلك إن الفعل يوجد بالقدرة عليه، وإرادته له. وقصده إليه وميله له وخلوص دواعيه، وإن هذا كله يسوغ أنه يعبر عن الإرادة مع القدرة والقصد بذات الفعل، كقوله تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء].

والجواب الثانى - أن قوله تعالى: ﴿قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ معناه: تهيأتم لها واستعددتهم، يقال: قام للأمر إذا تهيأ له وأخذ الأهبة للاستعداد له، والدخول فيه، ويرشح لهذا المعنى فى نظرنا التعدية بـ «إلى»؛ إذ مؤاده استعددتهم وتهيأتم متجهين للصلاة، وذلك لا يكون بأدائها، إنما يكون بأخذ الأهبة لها، والسير إليها. وإن هذا النص الكريم: ﴿قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، وما اشتمل عليه من عبارات يفيد أمرين بظاهره:

أولهما: أن الوضوء، وهو يشتمل على الأركان الأربعة وغسل الوجه واليدين ومسح الرأس، وغسل الرجلين لا بد فيه من القصد إليه وإرادته، وعلى ذلك تكون نية الوضوء بالقصد إليه لأجل الصلاة، باعتبار أن قصده لأجل الصلاة، لا للنظافة ونحوها - لا بد منها لتحقيق الوضوء لأنه للتهيئة لأجل الصلاة.

وقد قال مالك والشافعى؛ وأحمد والليث بن سعد؛ وإسحق بن راهويه، وأئمة آل البيت: إن النية ركن من أركان الوضوء ومعناها القصد إلى الصلاة بالوضوء طالبا رضا الله تعالى، وقد فسرهما البيضاوى بقوله: «النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع أو دفع ضرر حالا أو مآلا، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضا الله تعالى، وامتنال حكمه».

وعلى ذلك تكون النية المطلوبة في الوضوء عند الذين قرروها - المقصد إلى الوضوء مبتغين رضا الله تعالى، ويستدلون على فرضيتها في الوضوء بأن الوضوء عمل من أعمال القربات، والنبي ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن النية في الوضوء ليست بفرض، لأن الوضوء ليس عبادة مقصودة، ولكنه وسيلة للعبادة، والنية شرط في العبادة نفسها باعتبارها المقصد، وليست فرضاً في الوسيلة، بل الوسيلة تتحقق بمجرد تحقق الغسل للأعضاء المذكورة والمسح للرأس، فمن حصل منه هذا، ولو لم يقصد العمل لأجل الصلاة يتحقق الوضوء، ويستدلون على أن الوضوء وسيلة للعبادة بظاهر الآية، إذا كان النص الكريم: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» فهو شرع سبيلاً لعبادة ووسيلة، وليس غاية.

والأمر الثاني الذي يفيد ظاهراً النص «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ»: وهو أن الوضوء واجب عند التهيؤ والقيام لكل صلاة، فالوضوء واجب لكل صلاة، وبذلك قال الظاهرية، فقالوا: إن الصلاة واجبة لكل مفروضة، وأخذوا في ذلك بظاهر النص الكريم، ولكن الثابت في السنة غير ذلك، فقد روى عن النبي ﷺ أنه كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح مسح على خفيه فصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه: «صنعت شيئاً لم تكن تصنعه» فقال ﷺ: «عمدا فعلته»^(٢). ومعنى ذلك أنه ﷺ فعله عمداً في هذه الجموع الحاشدة ليبين أنه ليس بفرض أن يتوضأ لكل صلاة. فدل هذا على أن

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي: الطهارة - يصلي الصلوات كلها بوضوء واحد (٦١)، والنسائي: الطهارة - الوضوء لكل صلاة (١٣٣)، عن بريدة بن الحصيب، كما رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه بلفظ: «عمداً صنعه».

الوضوء لكل صلاة ليس بمطلوب على جهة الفرضية، وقد ادعى بعض الناس أن الوضوء لكل صلاة كان فرضاً ثم نسخ وإن هذا الكلام منقوض؛ لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، ولأن أحاديث الأحاد لا تنسخ القرآن، ولأن الآية ليست قاطعة في وجوب الوضوء لأجل كل صلاة.

والذى نراه أن الآية في الذين قام بهم موجب الوضوء من إحداث ما ينقض الوضوء السابق، والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَن كُنتُمْ مُرَضًى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ فدل هذا بصريح اللفظ على أن موجب التيمم هو إحداث الحدث الموجب للوضوء، إذا لم يكن الماء، فيقوم التراب مقام الماء، وهذا يدل على أنه لا يكون الوضوء واجبا للصلاة إلا إذا حدث نقض للوضوء السابق، والآية بيان واحد يتمم بعضه بعضاً.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ ولنذكر هذه الأركان ركناً ركناً وقبل ذلك نذكر أمرين:

أولهما: أنه في قوله ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فيها قراءتان إحداهما بفتح اللام على حذف فعل، والمعنى: امسحوا برؤوسكم واغسلوا أرجلكم، والثانية - قراءتها بكسر اللام عطفاً على قوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾^(١) والمعنى: هو الغسل لا المسح، بحمل القراءة الثانية على القراءة الأولى، ويكون السبب في عطفها على الرؤوس، للإشارة إلى وجوب عدم الإسراف؛ لأن الرجلين مظنة الإسراف في الماء، فعطف وجوب الغسل فيها على وجوب المسح لمنع الإسراف، بحيث يكون الغسل ليس بعيداً بعداً تاماً عن المسح.

(١) ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قرأها بالفتح: ابن عامر، ونافع والكسائي، ويعقوب وحفص، وأبو زيد عن الفضل عن عاصم، والأعشى إلا النقيض، وقرأ الباقون بالجر. غاية الاختصار - سورة المائدة - (٧٩٩).

والغسل إسالة الماء على العضو، وإمراره عليه، والمسح إمرار اليد المبللة بالماء عليه.

والأمر الثاني: الترتيب بين هذه الأركان بحيث يُغسل الوجه أولاً ثم اليدين ثانياً، ثم من بعدها مسح الرأس، ثم غسل الرجلين، وقد قال الجمهور بوجوب ذلك؛ لأنها ذكرت مرتبة في القرآن، وعمل النبي ﷺ كان على ذلك الترتيب دائماً، والنبي هو مفسر القرآن، ولو كان الترتيب غير لازم لخالفه النبي ﷺ ولو مرة واحدة.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: الترتيب ليس بفرض؛ لأن الآية كان العطف فيها بالواو، والواو لا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً.

ومما يتصل بهذه أيتبدأ في غسل الأيدي والرجلين باليمين وجوباً، أم أن ذلك سنة؟ الجمهور الأعظم على أن التيامن سنة وليس بفرض، ومذهب الشيعة وجوب التيامن في الطهارة.

والموالاة في الوضوء، قد ذهب الأوزاعي ومالك وأحمد إلى وجوبه، وذهب الشافعي وأبو حنيفة إلى سنيته، وعندى أن الموالاتة هي الأمر المعقول، وأنه إذا قطع المتوضئ وضوءه بعمل أجنبي، وجب استنائه مبتدئاً بأوله.

ولنذكر كل ركن، ونبدأ بالأول وهو غسل الوجه، وهو معروف، ولكن الفقهاء يذكرون له تعريفاً، وحداً، فحده من أعلى تسطيح الجبهة إلى أسفل اللحين طولاً، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً.

وموضع النظر عند الفقهاء هو في وجوب غسل الوجه أوجب غسل الظاهر والباطن فيه، وبعبارة أوضح أيدخل في الغسل المضمضة والاستنشاق، أم أنهما ستان زائدتان؟ قال أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو ثور وابن المنذر، وبعض فقهاء الشيعة إن المضمضة والاستنشاق من غسل الوجه، والجمهور على أنه لا يدخل في غسل الوجه إلا ظاهره، وقول أحمد ومن معه.

واليدان ينتهيان إلى المرفقين، والمرفقان: ملتقى عظم العضد بعظم الذراع، وهل يدخل المرفقان في الوضوء فيجب غسلهما. قال ابن جرير الطبري وبعض الفقهاء: إن غسل المرفقين ليس بفرض ولكنه سنة؛ لأن الغاية في قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ تحتل أن يدخل المرفقان في الوجوب، وتحتل ألا يدخل، ولا وجوب مع الاحتمال، ولكن الاحتياط في الغسل؛ ولذا كان سنة. وقال بعض الفقهاء: إنهما داخلان في وجوب الغسل، وبني ذلك على أن ﴿إِلَى﴾ بمعنى مع، وعلى ما قرره سيويه مع بعض علماء اللغة من أن ما بعد «إلى» إذا كان من نوع ما قبلها دخل في الحد، وإلا لا يدخل، وعلى ذلك يكون المرفقان داخلين؛ ولأن النبي ﷺ لازم في وضوئه غسل المرفقين، ولم يعرف أنه غسل اليدين من غير المرفقين؛ ولأن جعل ما قبل المرفقين حداً، لا يكون أمانة واضحة، والأمارات يجب أن تكون معلمة مادية واضحة.

والكعبان هما الجزءان البارزان في أعلى القدم، والخلاف في دخولهما هو كالحلاف في دخول المرفقين، والحجة واحدة.

والمسح يكون في الرأس، لقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد اتفقوا على أن مسح الرأس كله مطلوب، ولكن على أنه سنة عند الجمهور، وعند مالك مطلوب على وجه الفرضية.

والشافعي قال: إن المطلوب مسح بعض الرأس؛ لأن الباء للبعضية، وقال الثوري والأوزاعي والليث: يجزئ بعض الرأس ويمسح المقدم، وعلى هذا أحمد والناصر والباقر والصادق من أئمة آل البيت، وقال أبو حنيفة: يمسح ربع الرأس مستدلاً بما روى من أن النبي ﷺ أتى كناسة قوم فبال وتوضاً ومسح في وضوئه على ناصيته^(١)، والناصية تساوى ربع الرأس.

(١) عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْتَهَى إِلَيَّ سُبَّاطَةٌ قَوْمٌ قَبَالَ قَائِمًا فَتَنَحَّيْتُ فَقَالَ: «إِذْهُ فَدَنَوْتُ حَتَّى قُمْتُ عِنْدَ عَقَبَيْهِ فَنَوَّضًا فَمَسَحَ عَلَى خَفَيْهِ» رواه مسلم: الطهارة - الرخصة في ذلك (١٣)، كما رواه البخاري: الوضوء - البول قائما وقاعدا (٢٢٤) بغير زيادة «فمسح على خفيه». والسباطة: موضع رمي التراب والأوساخ. وقد رواه أصحاب السنن بمثل رواية مسلم.

وبعد بيان الوضوء بين سبحانه الاغتسال وموجبة فقال تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

كلمة جنب: وصف للرجل والمرأة، والجمع والمفرد، فيقال: رجل جنب وامرأة جنب ونساء جنب، وهو لفظ مشتق من الجنابة وهي ما يكون بسبب الاتصال بين الرجل والمرأة، وسمى ذلك جنابة لأنه يجنبهما الصلاة، ولما يكون من معنى التقارب بينهما بحيث يكون أحدهما بجنب الآخر، وفي حكم الجنابة بهذا المعنى الحيض والنفاس، ومعنى النص الكريم: أنه لا بد من التطهر من الجنابة عند القيام للصلاة والاستعداد لها، والتطهر: هو الاغتسال وهو العناية بصب الماء على كل جزء يمكن أن يصل إليه، فالمضمضة والاستنشاق لا بد منهما في الوضوء، وتوصيل المياه إلى منابت الشعر بالنسبة للرجال لازم باتفاق الفقهاء، أما بالنسبة للنساء فقد قال بعضهم ومنهم الحنفية قالوا: إنه إذا كان للمرأة صفائر لا تحل عند النساء دفعا للحرَج، ولكن تحل عند الرجال^(١)، وعلى أى حال لا بد من صب الماء صبا، ولا يكتفى بالمسح.

والتعبير بكلمة «فاطهروا» فيها إشارة إلى وجوب العناية في تعميم الماء وإشارة إلى أن النجاسة المعنوية عمت كل أجزاء الجسم، فوجب أن تكون الطهارة عامة لكل أجزاء الجسم.

وإن غسل الجسم عند توافر سببه، وهو التماس أو الحيض أو النفاس - فيه إنعاش للجسم وتعويض بعد الإنهاك الشديد، فوق ما فيه من نظافة، واستمرار لها باستمرار موجبها.

وبعد أن بين سبحانه وجوب الوضوء والتطهر بالماء ذكر ما يحل محل الماء إن لم يوجد أو تعذر استعماله، فقال تعالت كلماته:

(١) روى مسلم: الحيض - حكم صفائر المغتسلة (٣٣٠) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي امْرَأَةٌ أَشَدُّ ضَعْفَ رَأْسِي فَأَنْقَضُهُ لَغُسْلِ الْجَنَابَةِ؟ قَالَ: «لَا. إِنَّمَا يَكْفِيكَ أَنْ تَحْنِي عَلَى رَأْسِكَ ثَلَاثَ حَيَّاتٍ ثُمَّ تَفِيضِينَ عَلَيْكَ الْمَاءَ فَتَطْهَرِينَ».

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ ذكر في هذا النص أموراً أربعة اثنان من الرخص المسقطة لاستعمال الماء، واثنان من الأسباب الموجبة لاستعمال الماء مع عدم وجوده من غير مرض أو سفر، أما الأمران المرخصان لعدم استعمال الماء، فهما المرض الذي يضره الماء كالأمراض الجلدية، أو يمنع من الوصول إليه أو استعماله، كبعض الأمراض التي توجب عدم الحركة أو تمنعها، فهاتان رخصتان تسوغان استعمال التراب بدل الماء، والسفر رخصة لذلك، لأنه مظنة عدم وجود الماء، أو لأنه إذا وجد فلحاجة بدنية أخرى غير الوضوء، وهي تقدم عليه لأنها تدفع الموت عطشاً أو احتمالاً، والله غفور رحيم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى قاعدة لتسوية التيمم، وهي ما إذا حدث المسبب الموجب ولم يوجد الماء، فقال:

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ واللفظان الكريمان كنايةان عن أمور يستهجن ذكرها في بليغ الكلام، فمعنى جاء أحد منكم من الغائط كناية عن كل نواقض الوضوء التي تخرج من السبيلين، والغائط: هو الأرض التي يذهب إليها الرجل ليقضى حاجته. ومعنى لامستم النساء: كناية عما يكون بين المرء وزوجته مما يوجب الاغتسال، وهي كناية قرآنية علم الله سبحانه وتعالى الناس منها حسن التعبير وعدم الرفث في القول. وهنا إشارتان بيانيتان: إحداهما: في التعبير بـ «أو» في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم﴾ بدل الواو، إذ إن «أو» فيها معنى الإضراب والانتقال من الخاص إلى العام، وكأنه قيل إذا كنتم في مرض أو سفر لا يمكن معهما استعمال الماء بيسر وسهولة أو بشكل عام حدث ما يوجب الوضوء أو الاغتسال، فلم تجدوا ماء فتييمموا إلى آخره - الثانية: أن قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ بلفظ المفرد إشارة إلى وجوب الذهاب إلى قضاء الحاجة فرادى، والعودة فرادى للاستتار.

﴿فَتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ التيمم: القصد، والصعيد: التراب الذى يكون على ظاهر الأرض أو نحوها، والطيب: الذى لا نجاسة فيه، والتيمم لا بد فيه من النية باتفاق الفقهاء، وله ركنان: أحدهما: مسح الوجه، والثانى: مسح اليدين إلى الرسغين أو إلى المرفقين على الخلاف فى ذلك، ويكون التيمم بضربة واحدة، وقيل بضربتين، وقد ذكرنا ذلك فى مثل هذه الآية فى سورة النساء، وبينما ما يتعلق بمعانى التيمم فى هذه الآية.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذا الكلام يفيد النفى المؤكد بأنه ليس فى الدين حرج، أى ضيق ومشقة، وقد تأكد النفى بنفى الإرادة، وهى نقيض نفى الوقوع، ويحذف موضوع الإرادة، وهذا يقتضى عمومه والمعنى لا يريد الله سبحانه أى أمر فيه مشقة أو ضيق لكيلا يترتب عليه أن يكون عليكم حرج وضيق فى الدين، وتأكد النفى باللام فى قوله: ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ﴾ فهى التى تسمى لام الجحود أى النفى المؤكد، والمعنى: ما كان من أمر الله تعالى فى عباده أن يجعل الدين عليهم فيه مشقة مجهدة أو ضيق وحرج؛ ولذا شرع التيمم بدل الوضوء، وغير ذلك مما ييسر العبادات ويسهلها، كما قال تعالى: ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...﴾ [البقرة] ولكن يريد الله لكم طهارة الجسم من الأرجاس، وليرحس عنه الأوساخ، وطهارة النفس وتركيتها بالإخلاص لله تعالى، وليتم نعمته عليكم بالتيسير والتسهيل والمداومة على الطاعات، والتأليف بالعبادات بين جماعتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى يعدكم ذلك الإعداد الطاهر التزه فى الجسم والروح لتكون حالكم حال من يرجى منه شكر النعمة، والاستمرار على طاعة الله وتنفيذ أوامره.. اللهم اجعلنا من عبادك الشاكرين.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ
 بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
 شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى
 أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
 اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى ما به غذاء الأبدان، وهو كل طيب لا خبث فيه، ثم أشار إلى ما فيه غذاء الأرواح وطهارة الأبدان، وهو الصلاة والوضوء لها، والاعتسال عند الإقدام عليها، فذكر الأطعمة الحلال، وذكر ما به بقاء الجنس البشرى، وهو الزواج، ثم الوضوء وأركانه، والاعتسال والتيمم، وبعد أن ذكر ذلك الغذاء الفردي من جسم وروح ذكر الثمرة الطيبة لذلك، وهى بناء مجتمع إنسانى سليم، أساسه الثقة والعدالة، وابتدأ سبحانه وتعالى بذكر نعم الله، ثم بذكر العدالة التى هى قوام هذا الوجود الإنسانى، فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾
 الخطاب فى هذه الآية للذين آمنوا، فهو امتداد للسياق الذى كان يتعلق بالصلاة، وما قبله من بيان الحلال والحرام كان يتعلق بالذين آمنوا، فالآية الكريمة سائرة على هذا النسق البيانى الرائع، والأمر فى الآية لطلب تذكّر أمرين جليلين، وهما نعمة الله تعالى التى أنعمها على المؤمنين، وهى آلاء جليلة عظيمة، وتشمل نوعين من النعم، عامة وخاصة، فالعامة تعم الناس جميعا مشركهم ومؤمنهم، وهى نعمة الوجود، وتسخير الكون بكل ما فيه لبنى الإنسان، والخاصة ما أسداه الله تعالى إلى المؤمنين، إذ هداهم وإذ كانوا قليلا فكثّرهم، وكانوا متفرقين

فجمعهم، وكانوا أذلاء فأعزهم، وكانوا فقراء فأغناهم، وكانوا مستضعفين في الأرض، فمكّن لهم فيها بمنه سبحانه وفضله، كما قال تعالى: ﴿... فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ...﴾ (١٠٣) ﴿آل عمران﴾.

والأمر الثاني الذي ذكرهم الله تعالى به هو الميثاق الذي عقده مع الله تعالى، والميثاق في اللغة: هو العقد الموثق المؤكد بيمين الله تعالى، وقد كان العهد من جانبهم يوجب عليهم السمع والطاعة فيما يأمرهم به الله تعالى، وفيما ينهاهم عنه، فالعهد فيه التزام من جانبهم، وهو السمع والطاعة، ووعد من جانب الله تعالى بأن يوليهم نعمه، ويهبهم النصر من لدنه، وهو العزيز الحكيم، وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك العهد، بقوله: ﴿الَّذِي وَاتَّفَقُكُمْ بِهِ﴾ أى الذى عقده سبحانه وتعالى معكم، وتبادل معكم توثيقه وتأكيد؛ إذ إن واثق تقتضى المبادلة، فالله تعالى ذو الجلال والإكرام هو الذى تولى ذلك الميثاق.

والمفسرون يتكلمون فى الميثاق ما هو؟ قيل: هو الميثاق الذى أخذ بمقتضى الفطرة، ولكن ذلك الميثاق لا يخص المؤمنين، بل يعم البشر، وقيل: إنه الميثاق الذى كان بين النبى ﷺ وأهل يثرب فى العقبة^(١)، ولكن هذا يخص الأنصار، ولا يعم المؤمنين، والحق أنه الميثاق الذى كان التوابع فيه على أساس التزام المؤمنين بالسمع والطاعة، كما عين النص الكريم موضوعه إذ قال سبحانه: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى فى الوقت الذى التزمتم فيه بالسمع والطاعة، وقد اختار ذلك ابن جرير (وهو قول ابن عباس) وقال فى اختياره: «وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل

(١) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه وكان شهيداً بذراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصاة من أصحابه: «يا أيها الذين آمنوا لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم سره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك. رواه البخاري: الإيمان - علامة الإيمان (١٨)، ومسلم: الحدود (١٧٠٩).

ذلك قول ابن عباس وهو أن معناه: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله تعالى عليكم التي أنعمها بهدايته للإسلام، وميثاقه الذي واثقكم به، يعنى وعهده الذى عاهدكم به، حين بايعتم رسوله محمدا ﷺ على السمع والطاعة له فى المنشط والمكره، والعسر واليسر إذ قلتم: سمعنا ما قلت لنا، وأخذت علينا من المواثيق، وأطعناك فيما أمرتنا به، ونهيتنا عنه»... إلخ.

وكان التذكير بهذين الأمرين ليقوم المؤمنون بحقوقهما، فيما يتعلق بمعاملة الغير، وفى علاقتهم بالناس من حيث إقامة العدالة لذات الله تعالى لا يريدون إلا وجهه الكريم، وليكون القسط والميزان أساس أعمالهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بنعمه عليهم وميثاقه الذى واثقهم عليه، على أساس السمع والطاعة، طلب إليهم أمرا آخر هو أساس الاستجابة للميثاق، وهو تقوى الله تعالى بأن يستشعروا دائما عظمتهم، ويتخذوا وقاية لأنفسهم من معصية الله تعالى، فإن التقوى هى أساس الطاعة، وهى لب الاستجابة لما جاء فى ميثاق الله تعالى، وهو أعلى ميثاق فى الوجود، لا ميثاق يدانيه إلا إذا كان مشتقا منه، بأن يكون أساسه السمع والطاعة لله فى المنشط والمكره، وفى العسر واليسر، وإن التقوى لله موضعها القلوب، وهى التى تحرك الجوارح، فلا طاعة إلا إذا انبعثت من القلب عن طواعية ورضا واطمئنان؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وتكرار ذكر الله تعالى لإشعار المؤمنين برقابته، وإلى أنه فوقهم ومطلع عليهم، ومراقبتهم بجلاله وعظمتهم سبحانه وتعالى، والله تعالى عليم علما لا يدرك كنهه بكل شئ بما تخفيه وما تكنه الأفئدة. وذات الصدور هى: الأمور الملازمة للصدور التى تخفيها ولا تظهرها، فهى بالنسبة للصدور كالصاحب بالنسبة لصاحبه يلازمه ولا يبعد عنه، ولا ينكشف. فهى من ناحية أنها لا تخرج من الصدر تعد مصاحبته، ويعبر عنها بذات الصدر، كما يقال: فلان ذو مال. أى ملازم له.

وذكر إحاطة علم الله تعالى في هذا فيه إشارة إلى وجوب تطهير القلوب من الدنس، وتنظيفها من الشر، حتى لا تربد به وتطمس، وفيه تنبيه إلى أنه من يريد السمع والطاعة عليه أن يتجه إلى قلبه، ويشعر بأن الله عليم به، مطلع عليه، لا تخفى عليه خافية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ معنى النص الكريم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْخُضُوعِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْإِيمَانُ عُنْوَانَهُمُ الَّذِي يَعْرِفُونَ بِهِ، وَشَرَفَهُمُ الَّذِينَ يَتَشَرَّفُونَ بِهِ، كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ، أَيْ اجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ وَإِحْسَاسَكُمْ وَمَشَاعِرَكُمْ مَطْبُوعَةً عَلَى أَنْ تَقُومَ لِلَّهِ وَلِأَجْلِ مَحَبَّتِهِ سَبْحَانَهُ وَطَلَبَ رِضَاهُ، لَا لِهَوَى النَّفْسِ وَمَنَازِعِ الشَّهَوَاتِ، وَكُونُوا شَاهِدِينَ بِالْحَقِّ، لَا تَطْلُبُونَ سِوَاهُ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْجَلِيُّ الْقَرِيبُ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّصُّ الْكَرِيمُ، وَهُوَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تَتَسَّعَ عِبَارَتُنَا لِمَعْنَاهُ.

وهنا ملاحظات بيانية يجب اعتبارها والإشارة إلى كمال الحكمة في عمومها:

الأولى: ﴿كُونُوا﴾ فهو أمر بالكينونة بأن يجعلوا القيام لله تعالى، والاعتبار به، والأخذ بهديه جزءاً من كيانه، وذلك بأن يستمروا على الطاعة ويديموا عليها، فإن الدوام على الفعل والاستمرار عليه يجعل النفس تنطبع به، ويكون جزءاً منها، فالأمر بـ «كُونُوا» يتضمن الاستمرار والدوام، وأحب الأعمال إلى الله تعالى ما أمكن الاستمرار عليه، ليكون عادة للنفس بمنزلة الطبيعة، فالعادة طبع ثان، ولقد قال النبي ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(١).

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ فإن قوام معناها: من يبالغ بالقيام بالشيء وإتقانه والإتيان به على الوجه الأكمل، وكونه لله تعالى معناه أن تكون تلك المبالغة في الفعل لأجل الله تعالى، لا شيء سواه، وهذا يتضمن «أمرين»

(١) سبق تخريجه.

أحدهما: أن يعمل الشخص على إتقان ما يعمل والمبالغة، فإن كان عبادة أنى بها على أكمل وجوها، فالصلاة تكون كاملة، وكذلك الصوم . . إلخ. وهذا يشمل ما يعمل به الإنسان فى الحياة، سواء أكان عبادة أم كان أمرا من أمور الدنيا، وقد ورد أن النبى ﷺ قال: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» (١).
وثانيهما: أن يكون ذلك لله، بأن يكون أصل العمل لله، وأن يكون إتقانه لله تعالى، فيتجه فى كل الأعمال إلى الله تعالى، فالعامل فى المصنع يعمل لله إن قصد بذلك نفع عباده، والتاجر كذلك، وإذا قصد بأعماله وجه الله، وما فيها من خير للعموم كان فى عبادة مستمرة، وليست العبادة مقصورة على الصلاة والصوم والحج، بل كل عبادة إذا قصد بها وجه الله تعالى، ولقد قال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله» (٢).

الثالثة: فى قوله تعالى ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ فإن شهداء تدل على الحضور، وعلى الإثبات وأداء الشهادة، وعلى الحكم وهى فى النص الكريم تشمل كل هذا، فالمعنى: لا يحكمون إلا بالقسط أى العدل، ولا يشهدون إلا بالعدل ولا يشهدون الزور، ولا يحضرون، إلا مايكون قسطا وعدلا، وما يكون قسطا مستقيما لا تحيف فيه ولا انحراف، والمؤدى أن يكون حضورهم فى القسط، ونطقهم بالقسط، وحكمهم بالقسط، وعملهم بالقسط، فلا يكون إلا للخير، وفى سبيل الخير دائما.

وعبر بالقسط، لأنه شامل للخير كله، ولأن العدل ميزان الخير، ولذا قال من بعد: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

الجرم فى أصل معناه اللغوى: القطع، فيقال جرم الثمار أى قطعها، ثم أطلق على الكسب، وغلب على الكسب الآثم، ومنه أجرم بمعنى ارتكب إثما، لأنه كسبه، وقد يتضمن معنى الحمل مع اشتماله على معنى الكسب الآثم، وهذا هو القريب من المعنى هنا، فمعنى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ﴾ لا يحملنكم حملا آثما

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريج ما فى معناه من حديث صحيح.

شأن قوم ألا تعدلوا، والشأن: البغض الشديد مصدر شأنه بمعنى أبغضه، والمعنى لا يحملنكم البغض الشديد لقوم على ألا تعدلوا معهم، بل أعطوهم حقوقهم، ومكنوهم مما يستحقون، وفي صدر هذه السورة يقول سبحانه: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا...﴾ [المائدة] والمعنى هناك: أنه لا يصح أن يحمل البغض بسبب الصد عن المسجد الحرام على الاعتداء، ففيها أمر بعدم الاعتداء - أما هنا، فإن فيها أمرا بالعدالة حتى مع الأعداء، فالعدالة نظام هذا الوجود الإنساني، وبجمع الآيتين، يكون المعنى المقرب لمراد الله سبحانه أنه لا يصح أن يكون البغض الشديد حاملا على الاعتداء، ولا أن يكون البغض الشديد حاملا على منع الحقوق، بل يعطى كل ذي حق حقه، ولو كان عدوا مبينا، فالحق ليس منحة من شخص لشخص يسلبه إن أبغض، ويعطيه إن أحب، بل إن التكمين منه واجب مقدس أمر الله سبحانه وتعالى به، وحث عليه، وقد روى في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»^(١). ولا يتنظم الوجود الإنساني بغير العدل، وقد روى الطبراني عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «إذا ظلم أهل الدمة كانت الدولة دولة العدو»^(٢) ومعنى هذا الحديث: أنه لا يصح أن يظلم غير المسلم الذي يعيش مع المسلمين، والدولة إذا ظلمت رعاياها من غير المسلمين لا تكون دولة الإسلام بل تكون دولة الأعداء.

وازنوا بين حكم الإسلام وحكم الأقوياء في هذا الزمان الذين يستبيحون كل شيء من غير حريجة من أخلاق أو دين.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الضمير في قوله «هو» يعود إلى العدل الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا﴾ وقوله تعالى من قبل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ

(١) جزء من حديث قدسي طويل سبق تخريجه من رواية مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ظَلَمَ أَهْلُ الدِّمَةِ كَانَتْ الدَّوْلَةُ دَوْلَةَ الْعَدُوِّ، وَإِذَا كَثُرَ الزُّنَا كَثُرَ السَّبَا، وَإِذَا كَثُرَ اللُّوْطِيَّةُ رَفَعَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَدَهُ عَنِ الْخَلْقِ فَلَا يُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكُوا». رواه الطبراني.

أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿١﴾ والمعنى: اعدلوا، فالعدل أقرب للتقوى، وفي النص انتقال من النهي إلى الأمر، ففي النص الأول نهى عن أن يحملهم البغض على عدم العدل، وفي هذا النص أمر بالعدل، ولا شك أن النص الأول يتضمن الأمر بالعدل؛ لأن النهي عن الشيء أمر بنقيضه، فالنهي عن الظلم أمر بالعدل، فكان ثمة تكرار مؤكد، وكان مع التكرار فائدة وهي طلب معالجة النفس، ومحاولة ترويضها على العدل، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فيه أمر بعلاج النفس، وحملها على البقاء في دائرة الاعتدال، وتقوية للإرادة، حتى لا يستولى عليها الغضب، فتجمع وفي الجموح سير وراء شيطان الغضب، ووراء ذلك منع الحقوق، والظلم. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فيه بيان قرب العدالة من التقوى، مع أن العدل من صميم التقوى، فلماذا عبر بالقرب من العدالة مع أن العدالة في ذاتها تقوى مؤكدة، وخصوصا في حال المغالبة النفسية والبغض الشديد؟ والجواب عن ذلك أن قلب المؤمن في معاملته مع غير المؤمن قد تعثر به حال يرى فيه أن من التقوى ألا يعطيه حقه؛ لأنه في ميدان القتال يستبيح ماله ويستبيح دمه، فيظن حال السلم كحال الحرب، ويظن ذلك قريبا من التقوى، فبين له القرآن الكريم أن القرب من التقوى أن يحسن معاملته، وأن يعطى كل ذي حق حقه، فذلك دفعا للخاطر بمثلله، أو بما يقرب إليه المعنى في التعبير، ولأن كمال التقوى بعيد المنال، وأنها إذا كانت مطلوبة، فإن الله يعفو عن كمالها، ويكتفى منا بقربها؛ ولذلك قال ﷺ: «لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه، ولكن سددوا وقاربوا»^(١) فالله جل جلاله غفور رحيم يطلب منا المقاربة بعد أن نسدد ونقارب ولقد طلب سبحانه منا أن نسدد، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أمرنا الله تعالى بالتقوى في كل الأمور في ذات أنفسنا بأن نراقب الله في كل عمل نعمله، فلا نعمل إلا طيبا، ولا نقول إلا طيبا، ولا نأكل إلا طيبا، ونخشى الله حق خشيته، ونقوم بعبادته

(١) سبق تخريجه، وهو صحيح رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مسددين مقاربين، ونتقى الله فيما بيننا، ونكون عباد الله إخوانا، ويكون التعاون الحكم بيننا، ونتقى الله تعالى في مخالفتنا، فلا يكون منا عليهم اعتداء ولا ظلم، بل تقريب وائتلاف، وإن كان منهم اعتداء دفعناه من غير أن نتجاوز حد الدفع.

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الأمر بالتقوى، بما يدل على علم الله تعالى بكل أعمالنا، حتى خلجات صدورنا، وما يحوك في قلوبنا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. أى أن الله جل جلاله عليم علما دقيقا، فالخبرة: هى العلم الدقيق الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، عليم، هذا النوع من العلم بكل ما نعمل، وما ظهر منه وما بطن، وهو يجازينا بما نعمل، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ومن ينوى الخير، فهو محتسب له، ومن ينوى الشر، ويعدل عنه اختيارا لا يحتسب عليه إثم.. اللهم وفقنا لتقواك، واهدنا لما يرضيك، وقربنا ولا تباعدنا إنك عليم حكيم.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ

اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ

فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

بين الله سبحانه وتعالى غذاء الأبدان بطيب الأطعمة، وغذاء الأرواح بالصلاة، فذكر مقوماتها، ثم ذكر سبحانه وتعالى، التكاليفات الشرعية التى هى

بناء الجماعات الإنسانية، وأنها ميثاق الله تعالى واثق به عباده، فوعدهم بالثواب عليه، وتعهّدوا موثّقين العهد بالسمع والطاعة، والاستجابة لما كلفوا القيام به، ثم بين سبحانه وتعالى أن أساس العلاقات الإنسانية العامة العدالة، وليس الحب والبغض: فإنهما يسيران أحياناً وراء الهوى، والهوى فساد، والعدالة صلاح، وهى التقوى، وما يقرب إليها ويدنى منها، وفى الآية الآتية وما يليها بين سبحانه جزاء المهتدين، وعقاب الكافرين، وهو الوعد الذى وعد به عباده، ويبين سبحانه أنه لا يصح أن تؤدى قوة أهل الإيمان إلى ترك العدل، وذكرهم سبحانه بحالهم أيام كانوا مستضعفين فى الأرض، وهم المشركون أن يسيطوا أيديهم بالأذى فكفها سبحانه وتعالى عنهم، فقال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا هو الوعد الذى وعد الله تعالى به عباده المؤمنين، وهو الذى واثقكم به من جانبه، جل جلاله، فى نظير السمع والطاعة والاستجابة لما أمر الله تعالى به ونهى عنه.

وإن ذلك الوعد إنما يستحقه الذين قاموا بما ألزمهم به الميثاق، وهو الإيمان والطاعة، إذ قالوا سمعنا وأطعنا، وقد عبر الله تعالى عن السمع والاستجابة للسمع والإنصات للأدلة والإذعان لها بالإيمان، فالإيمان: هو العماد الذى يقوم عليه الميثاق الذى التزمه المؤمنون، والطاعة لأوامر الله تعالى ونواهيه هى التى عبر الله تعالى عنها بقوله تعالى:

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وما من مقام ذكر فيه المؤمنون بالمدح إلا اقترن به قيامهم بالعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح ثمرته، ومثل الإيمان من غير عمل صالح يقدمه المؤمن كمثّل شجرة جرداء لا تثمر ثمراً ولا تظل مستظلاً، والأكثر من العلماء على أن الإيمان ناقص إذا لم يصحبه عمل؛ لأن الإيمان يزيد وينقص عند كثيرين ويزيد ولا ينقص عند آخرين، وعند هؤلاء يكون الإيمان من غير عمل إيماناً غير كامل.

والعمل الصالح الذى هو الطاعة، والذى هو استجابة لأوامر الله تعالى ونواهيه هو العمل الذى يكون فيه نفع للناس، ودفع للفساد فى الأرض، وليس فيه ما يسوء أهل الخير، وقد جاء فى كتاب غريب القرآن للأصفهاني: «الصلاح ضد الفساد، وهما مختصان فى أكثر الاستعمال بالأفعال، وقبول فى القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة قال تعالى: ﴿... خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ...﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿... وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ...﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فى مواضع كثيرة... وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد إصلاحه، وتارة بالحكم له بالصلاح...».

وإذا كان عمل الصالحات هو استجابة المؤمن لأمر الله ونهيه، أو تنفيذ لقول المؤمنين: «سمعنا وأطعنا» فمؤدى ذلك أن الله تعالى لا يكلف عباده إلا ما فيه صلاح أمورهم ورفع الفساد عنهم، فما من أمر كلف الله تعالى عباده أن يقوموا به إلا كان فيه صلاح لهم ومنفعة، وما من أمر نهاهم عنه إلا كان فيه مفسدة، وعلى مقدار ما فى الشيء من نفع تكون قوة المطالبة به، وعلى مقدار ما فيه من شر يكون مقدار النهى عنه، وبذلك يتبين أن الشرع الإسلامى كله جاء لخير العباد وصلاحهم، والرحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] وعلى ذلك لا يصح لمؤمن بالله واليوم الآخر، أن يقول: إن نصوص القرآن أو السنة جاءت بأحكام فيها مضرّة؛ فإن ذلك أقصى العناد، وغاية ما يريده أهل الفساد، وما يبتغيه الذين يريدون أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما وعد به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. فهذا النص الكريم هو بيان للوعد الذى وعد الله تعالى به عباده المؤمنين، فذكر الوعد بهما فى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ثم ذكر البيان، وفى ذكر البيان بعد الإبهام فضل تمكين للإعلام،

وتثبتت للمعرفة، والوعد الذى وعد الله تعالى به يتكون من أمرين عظيمين: أحدهما مغفرة عظيمة، والثانى أجر عظيم، أما المغفرة فمعناها: ستر الذنوب وإخفاءها، وإخفاء الذنوب من الله تعالى معناه ألا يقيم لها وزنا ويعفو عنها ويكفر السيئات ولا يجازى عليها، وأما إخفاؤها فى الدنيا، فذلك لأن العمل الصالح يلقى فى النفس نورا فيذهب أعتامها؛ إذ إن المرء إذا ارتكب سيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا استمرت السيئات ولم يكن ثمة عمل صالح، تكاثرت النكت السوداء حتى يبرد القلب ويسود، وإن كان العمل الصالح أشرق النور فاخفت السيئات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ [هود].

ونكرت كلمة «مغفرة» للدلالة على عظمتها، وأنها مغفرة عظيمة لا تحيط بها المدارك البشرية.

هذا هو الأمر الأول، أما الأمر الثانى: فهو الأجر العظيم، وهو الثواب، وسماه الله تعالى أجرا، أى أنه استحقاق على عمل صالح، وذلك كان من الله تكروما وفضلا، فكل شئ بفضل الله تعالى، وهو ذو الفضل العظيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بعد أن ذكر سبحانه جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكر سبحانه الذين كفروا وكذبوا بآيات الله تعالى، وهذا النص الكريم يشتمل على وصف الذين لم يؤمنوا، وجزائهم.

وإن أولئك الذين لم يؤمنوا يتصفون بوصفين: أولهما: الكفر، وثانيهما: تكذيب آيات الله تعالى القائمة حجة على رسالة الرسول الذى أرسل إليهم، وقد ذكر الكفر سابقا على تكذيب الآيات مع أن الظاهر أن الكفر نتيجة لهذا التكذيب؛ وذلك لأن الكفر هنا معناه: جحود القلب، وطمس معالم الإدراك فقلوبهم غلف، قد غطيت عنها الحقائق، وغاب عنها الفهم الصحيح، والإنكار يكون مرتكزا فى النفس، فلا تدعن ولا تصدق، وإذا كانت النفوس على هذا النحو، فإنه يكون التكذيب لكل ما تدل عليه الآيات الحسية، والمعجزات القطعية؛ لأن

القلب قد شاه وفسد، فلا يرى الحقائق ويكذب بها، كما أن العين إذا شاهدت وعشيت أصبحت لا ترى النور المبصر، وإن عمَّ صاحبها، وإن التكذيب بالمعجزات أكبر ما يكون عن فساد في الإدراك، إذ يكون لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، وكان التكذيب جرماً عظيماً؛ لأنه تكذيب بآيات الله تعالى التي كانت للدلالة على الرسالة، والإذعان للحق، فلم يفعلوا، وكان الجزاء ما عبر عنه سبحانه بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أى أولئك الذين كان منهم الكفر والجحود ثم التكذيب للآيات، وقد جاءت معلمة واضحة بسبب ذلك كانوا الملازمين للجحيم، أى النار المتأججة الشديدة اللهب التى تشوى الأجسام والوجوه شياً، فمعنى أصحاب الجحيم: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه الذى لا يفترق عنه، وكلاهما جدير بصاحبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) هذا متصل بالأمر بالعدالة مع الأعداء كالعدل مع الأولياء، ففى هذا النص أمر بالتذكير بحال ضعفهم عندما كانوا يلتمسون العدالة، ليعتبروا بماضيهم، ويتخذوا منه عبرة لحاضرهم، فيتذكروا حال الضعف فى حال القوة، ليعلموا نعمة الله تعالى عليهم، ولكى يعدلوا مع غيرهم كما كانوا يلتمسون العدل إذ كانوا مظلومين يتخطفهم الناس، وينزل بهم البأس.

فالآية تدعو إلى التذكير بنعمة الله ليشكروها، ولكيلا يشتطوا مع غيرهم، وبسط اليد معناه بالقوة والأخذ والسيطرة والصولة، وقد قال تعالى: ﴿... وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ ...﴾ (المتحنة) فالبسط هنا بسط للصولة والقوة، والسيطرة، ومعنى النص الكريم: يا أيها الذين أذعنوا للحق واستمسكوا به، واستجابوا لأمر ربهم تذكروا نعمة الله التى أنعمها عليكم إذ هم قوم أن يمتدوا بيد الأذى ويسطوها، فكفها عنكم وبذلكم من بعد الضعف قوة،

ومن بعد الدلة عزة، ومن بعد أن كتتم تُظَلَمُونَ، وتُرامُونَ بالسوء، صرتم يطلب الإنصاف منكم.

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه هو سبحانه الذي رد الأذى وتدبير الشر، فقال مكررا كلمة الأيدي ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه هو الذي قضى على موضع قوة أعدائهم، ومناطق شدتهم، وهى الأيدي التى يكون بها البطش والصولة.

ولقد تكلم مفسرو الأثر وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية، وخصصوا، واللفظ عام، فقالوا: إن يد البطش والغدر كان قد هم بها ناس للاعتداء على شخص النبي ﷺ، والاعتداء عليه اعتداء على المسلمين، وكف الاعتداء عنه نعمة على كل المسلمين، وقالوا فى ذلك روايات مختلفة تنتهى إلى خبرين:

أولهما: أنه روى من حديث جابر وغيره أن رجلا من بنى محارب قام على رأس رسول الله ﷺ فى وقت الراحة ومعه السيف، وقال للرسول من يمنعك؟ قال الرسول ﷺ: «الله» فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك منى»، فقال الرجل: كن خير آخذ. قال الرسول ﷺ: «تشهد أن لا إله الا الله، وأنى رسول الله» قال: «أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع من يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء إلى قومه، وقال: جئكم من عند خير الناس»^(١).

ثانيهما: أن النبي ﷺ ذهب إلى بنى النضير ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير، يطلبون منهم الإعانة على دية رجلين قتلا، وكان للنبي ﷺ عقد مع بنى النضير عهدا على ألا يحاربوه، وأن يعينوه على الديات، فلما طالبهم بحكم هذا العهد أظهروا القبول، وأخفوا الغدر، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسالنا حاجة اجلس حتى نطعمك، ونعطيك الذى سألنا،

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد باقى مسند المكثرين - باقى المسند السابق (١٤٧٦)، ورواه البخاري: الجهاد والسير - من علق سيفه (٢٩١٠)، ومسلم: الفضائل - توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له (٨٤٣) عن جابر رضي الله عنه بنحوه.

فجلس بجانب جدار لهم، وقال لهم حُيَّ بن أخطب: لا ترونه أقرب منه الآن؛ اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، فهموا أن يطرحوا عليه صخرة، وقد أعلم النبي ﷺ بنية الغدر، إذ أعلمه جبريل، فانصرف قبل أن ينفذوا ما دبروا^(١).

هاتان روايتان في أسباب النزول، ويكون القوم هم الذين دبروا قتل النبي ﷺ فرادى وجماعات، ويكون كف أيديهم نعمة عظيمة على أهل الإيمان.

والذى نراه هو تذكير المؤمنين بما همَّ به الأقسام من الاعتداء على النبي ﷺ في هاتين الواقعتين، ومن قبلهما بتدبير قتله يوم الهجرة النبوية، ومن الاعتداء على المؤمنين في غزوة أحد، ومن تضافر العرب في الجزيرة العربية على الذهاب إلى المدينة قسبة الإسلام، واقتلاعها في غزوة الأحزاب، وقد كف الله سبحانه وتعالى في كل هذا تلك الأيدي المبسوطة بالشر، فلا تخصيص في النص، بل يترك على عمومه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد التذكير بهذه النعمة التي جعلت للمؤمنين كيانا مستقلا عزيزا كريما يتتصف من الظالمين، ولا يظلم أحدا أمر الله سبحانه وتعالى بالتقوى، وتقوى الله تعالى هي: الشعور بعظمته، والإحساس بجلاله، وامتلاء القلب به، واطمئنانه إليه، ورجاء ثوابه، وخشية عذابه، وعبادته كأنه يراه كما ورد في الأثر: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

هذه كلمات تقرب معنى تقوى الله تعالى، وهي تتضمن ذكر النعمة، وتتضمن شكرها، وهي في الشكر نص، ولا يكون الشكر من غير تذكّر.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي هذا طلب الله تعالى من عباده المؤمنين أن يتوكلوا عليه،

(١) سبق تخريجه بهذا اللفظ.

(٢) سبق تخريجه.

ولا يتوكلوا على سواه، وقد صيغ الطلب في صيغة الخبر، للإشارة إلى أنه حال ملازمة للمؤمنين لا يفصلون عنها؛ لأن من تقوى القلوب ألا يعتمدوا إلا على علام الغيوب، فالتوكل على الله وحده في السراء والضراء، في الشدة وفي الضعف من لب عبادته سبحانه وتعالى.

والتوكل على الله ليس هو التواكل وترك العمل، بل هو الأخذ في الأسباب، ثم الاعتماد في الوصول إلى النتائج على الله تعالى وحده، فإن الأسباب لا تتج وحدها، ولكن لا بد من فضل الله تعالى بالتوفيق، ولطف التقدير.

وفي الجملة الكريمة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارات بيانية واضحة منها ذكر لفظ الجلالة، فإنه يشير إلى عظمة من يعتمد عليه إذ يعتمد على منشاء الوجود ومسيره ومبدعه، وفيها لفظ ﴿عَلَى﴾ فإنه يشير إلى علو من يعتمد على الله وسموه، وعدم ذلته لمخلوق، ومنها تقديم الجار وما بعده، فإنه يشير إلى الاقتصار في التوكل على الله، فلا يتوكل على غيره؛ لأن ذلك لا يخلو من شرك؛ ولأن التوكل من العبادة، والعبادة لله وحده، ومنها لفظ الفاء التي ربطت الكلام، ولا تخلو من معنى السببية، فإنها تدل على أن من ثمرات التقوى التوكل على الله تعالى.

هذا ونكرر أن التوكل على الله تعالى حق التوكل يوجب العمل ﴿... رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة].

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي

إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ

إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ

وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾

فى الآيات السابقة بَيَّنَّ سبحانه طيبات ما أحل الله تعالى، وهى تصور متعة
الجسد التى تكون حلالا، سواء أكانت طعاما يؤكل أم كانت تتعلق بما يكون بين
الرجل والمرأة، ثم بَيَّنَّ طهارة الأجساد والقلوب، بالصلاة وما يتقدمها من وضوء
وتيمم، وذلك لتكون متعة الجسد فى دائرة الطهارة والسمو، فيتهدب الفرد وينمو،
ويقوى، وبذلك يكون قوة فى بناء المجتمع الإنسانى الذى يبتدئ بمجتمع الأمة أو
القوم من غير تعصب ظالم، ولا انحراف لغير غاية فاضلة، وبين سبحانه وتعالى
أن العدالة هى نظام العلاقات الإنسانية، وهى التى تنسقها، وكل تنسيق لا يبنى
عليها هو معول هدام، ينقض القائم، ويفسد الصالح، والعدالة الحقيقية لا تفرق
بين عدو مشنوء مبغض، وولى محبوب مقرب، وذكر المؤمنين من بعد ذلك
بأوقات ضعفهم، حتى لا يشتطوا فى أوقات قوتهم، ومن بعد ذلك وثق الله
سبحانه وتعالى هذه المبادئ الإنسانية العالية التى هى شريعة النبيين أجمعين، وإن
يخالفوها ينقض بنيانهم، وتذهب وحدتهم أوزاعا؛ ولهذا ذكر أخذ الميثاق بها على
بنى إسرائيل وكيف نقضوه، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ الميثاق: أصله
من وثق، وهى تدل على معانٍ فيها الاطمئنان، فيقال: وثقت به، أى اطمأنت
إليه، ومنها الشد، وربط شيئين، ومنه قوله تعالى: ﴿... فَشَدُّوا الرِّبَاقَ ...﴾ [محمد] ومنها ربط الكلامين ربطا موثقا، ومنه هذه الكلمة السامية ميثاق

الله تعالى، وهى تتضمن معنى التشديد فى العهد؛ لأنه مأخوذ مع الله سبحانه وتعالى، وأى عهد أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرب؟ ويتضمن ميثاق الله تعالى معنى الاطمئنان، والثقة؛ لأن الاعتماد فيه على الله سبحانه وتعالى، وهو المعاذ الذى يعاذ به، ويلجأ إليه سبحانه وتعالى.

وميثاق الله تعالى الذى أخذه على بنى إسرائيل هو التكاليفات التى كلفهم إياها، من صلاة وزكاة، وطاعة للرسول فى المنشط والمكروه، والسلم والحرب، يروى فى ذلك عن ابن إسحاق قال: «أمر موسى أن يسير بينى إسرائيل إلى الأرض المقدسة وقال: إنى كتبته لكم دارا وقرارا ومنزلا، فأخرج إليها وجاهد من فيها من العدو، فإنى ناصركم عليهم، وخذ من قومك اثنى عشر نقيبا، من كل سبط نقيبا يكون على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به، وقل لهم: إن الله يقول: إنى معكم لئن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمتمت برسلى...».

فالميثاق كما تدل الروايات يتضمن التكاليفات كلها، وأخصها الجهاد، وموضوعه بينه الله تعالى بالنص فى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أن الله سبحانه وتعالى اختار منهم اثنى عشر رئيسا على حسب بطونهم، ليقوموا الميثاق، أو ليستلقوا العهد، فالبعث أصل معناه: الإثارة ثم أطلق على الإثارة التى يتبعها فحص، ثم اختيار، والنقباء جمع نقيب، وأصل النقب: الخرق فى الجدار ونحوه، ويقال: نقب عليهم صار نقيبا لهم، أى رئيسا مختارا بما يشبه الانتخاب الطبيعى، أى أن رياسته بمقتضى التكوين الفطرى فهو رئيس، وإن لم يعين بسلطان، ويقول ابن جرير فى تفسير معنى النقيب: «النقيب فى كلام العرب كالعريف على القوم غير أنه فوق العريف، يقال منه نقب على بنى فلان فهو ينقب نقبا، فإذا أريد أنه لم يكن نقيبا فصار نقيبا، قيل قد نقب نقابة».

ويفسر بعض العلماء النقيب بمعنى الأمين، وإن هذا التزامى لتفسير النقيب على النحو السابق؛ لأنه لا يكون له المنزلة السابقة إلا إذا كان آمينا له سابقات فى

المكارم والمعارف والصدق والأمانة؛ إذ إن هذه الصفات هي أسس السيادة على الناس، والسيادة بغير ذلك تكون نوعاً من العلو والجبروت، ولا تكون نقابة سامية.

ومؤدى القول أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق بالطاعة، والإذعان بما أمرهم به، وبأنه كان فى سبط من أسباطهم الاثنى عشر نقيب له عليهم فضل النقابة والشرف يدعوهم إلى تنفيذ ميثاق الله تعالى، والقيام على عهده، وكان ذلك لأن بنى إسرائيل توالى عليهم القرون، وهم فى حكم فرعون وقهره، وقد استمر العذاب والهوان، وانحلت إرادتهم وعزائمهم، وأصبحوا لا يؤمنون بفضيلة ولا عقيدة، فكان لا بد من مذكّر مستمر من بينهم، ومحرض دائم منهم، ومثل من بينهم تكون عياناً مستمسكة بالخلق والدين، حتى تسربى إرادتهم، وتقوى عزائمهم، ألم تر أنهم مع إنقاذ الله تعالى لهم على يد موسى عليه السلام، وفلق البحر لهم حتى صار كل فرق كالطود العظيم، ومع توالى البيئات الشاهدة المثبتة للرسالة والوحدانية قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فالحس قد استولى عليهم، والمادية قد استغرقتهم؛ لذلك كان مع ميثاق الله تعالى الذى واثقهم به النقباء الذين كانوا فيهم مع الرسول موسى عليه السلام، وأخيه هارون الذى شد أزره فى رسالته. وفى النص الكريم إشارتان بيانيتان:

إحدهما: أن الله تعالى نسب الميثاق إليه جل جلاله بلفظ الجلالة لزيادة توثيقه، ولعظيم توكيده، ثم التفت بنسبته بعث النقباء إليه من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم العظيم؛ لبيان عظم مقام النقباء، فإستناد بعثهم إليه سبحانه هو الذى بينهم وهو الذى كونهم.

والإشارة الثانية يتضمنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وهنا كان الالتفات إلى لفظ الحاضر مرة ثانية، وذكر معية الله تعالى تفيد أمرين، أولهما: أن الله تعالى يعلم حالهم من طاعة أو عصيان علم المصاحب لهم، فإنه لا يخفى عليه أمرهم، وإنه محاسبهم على تنفيذ العهد والميثاق، وإنه سبحانه وتعالى يجرى

بالحسنة الحسنی وبالسیئة السوءی. والأمر الثانی: أنه إذا كان جهاد، فالله تعالى معهم مؤيدهم بنصره، إن اعتزموا ونصروه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ذكر القول ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك فضل تأكيد بالمعية والمصاحبة، والمراقبة والمناصرة؛ لأن الله تعالى هو الذى أخبر بذلك عن نفسه.

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هذا بيان الميثاق الذى واثقهم الله تعالى به، وقد ذكره سبحانه وتعالى مؤكدا بالقسم فضل تأكيد؛ إذ إن التأكيد بالقسم تبعه لغة التأكيد باللام، والتأكيد بالنون التى تدخل هى واللام فى الجواب، وهو هنا قوله تعالى: ﴿لَا تُكْفِرُوا بَعْدَ بَيْعِكُمُ الْبَيْعَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

وقد فهم بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ داخل فى مقول القول فى قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فيكون ذلك خير تأكيد للعهد بالنسبة لله تعالى، وهو جواب القسم، وعندى أن هذا النص استئناف بيانى فيه بيان موضوع الميثاق، فهو عهد بين العبد وربّه، كان الالتزام على بنى إسرائيل، هو ما اشتمل عليه النص الكريم، وما وعد الله تعالى هو ما جاء فى قوله سبحانه: ﴿لَا تُكْفِرُوا بَعْدَ بَيْعِكُمُ الْبَيْعَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

والالتزام الذى أوجبه ميثاق الله تعالى عليه يتصل بتهذيب النفوس، والتعاون الاجتماعى، والجهاد والإيمان، وقد ذكره سبحانه وتعالى فى خمسة أركان:

أولها: ما قاله سبحانه فى صدر العهد: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ فالصلاة هى الركن الأول من الميثاق الربانى الإلهى، وابتدئ بذكرها؛ لأنها طهارة النفوس، وتركية القلوب، وبها تربية الضمير الذى يكون جماعة مؤتلفة، وإقامتها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتربى فى النفس روح الخير، والإحساس بعظمة الله تعالى، ولا يمكن أن يكون الوفاء بالميثاق الإلهى من غير إقامة الصلاة؛ فإنها ركن كل دين

وروح التدين الصحيح وقوامه، وعبر بإقامتها دون أدائها، فقد قال: ﴿لَنْ أَقْمَتُمْ الصَّلَاةَ﴾؛ لأن الصلاة التي تأتي بشمراتها هي الصلاة الكاملة، التي يأتي بها صاحبها مقومة غير ملتوية يتجه فيها بالنية إلى الله تعالى، ويخلص فيها، لا التي تكون رياء الناس، أو تؤدي على وجه العادة، لا على وجه العبادة.

الركن الثاني: من أركان ميثاق الله تعالى على بني إسرائيل، وهو ميثاقه على خلقه عامة لا على بني إسرائيل، هو إيتاء الزكاة، وإذا كانت الصلاة تربية القلوب وتهذيب الوجدان ليندمج المؤمن في جماعته، فالزكاة فريضة تعاونية لسد خلة الضعفاء، ولإيجاد تعاون بين الغنى والفقير، فلا يكون الغنى مملوء الجيب، والبطن، والفقير فارغ الجيب، أخمص البطن، فهي التعاون الكامل، وهذا يدل على أن الزكاة ليست في الإسلام فقط، بل هي في كل الأديان السماوية، وهي جزء من الميثاق الديني في كل الرسالات السماوية، فليس لأهل دين سماوي أن يفر منها باسم أنها ليست في دينه، وإذا كانت النظم تختلف أحيانا في بعض الشرائع عنها في الآخر، فالأصل ثابت وهو مشترك في الجميع، ولعل الصلاة أيضا قد تختلف أشكالها، ولكن لبها ثابت في الجميع، وليس لأهل دين أن يغير في أمر الله تعالى.

الركن الثالث: ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَمْتُمْ بِرُسُلِي﴾ والإيمان بالرسول معناه: الإذعان والتصديق، فمن ميثاق الله تعالى على بني إسرائيل وغيرهم الإيمان برسول الله تعالى بتصديقهم، والإذعان لما يدعون إليه فلا يقبلون لبعضهم البعض، ويرفضون الآخرين، فيؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض؛ لأن رسالة الله واحدة، ورسول الله تعالى جاءوا جميعا بشرع واحد في أصله، وإن اختلف في بعض فروعه، وقد أضاف سبحانه وتعالى الرسل إليه، فقال: ﴿وَأَمْتُمْ بِرُسُلِي﴾ لتأكيد معنى رسالة هؤلاء الرسل، وللإشارة إلى أن عدم الإذعان لهم، والتصديق بهم تمرد على الله تعالى، وتكذيب، فمن يطعهم فقد أطاع الله تعالى، ومن يعصهم فقد عصاه سبحانه، فإضافة الرسل إليه سبحانه وتعالى لتعظيم شأن رسالاتهم، وبيان آثار طاعتهم ومغبة عصيانهم.

وقد يقال: إن الإيمان بالرسول مقدم على طلب إقامة الصلاة، وطلب إيتاء الزكاة، فلماذا أخرج في الذكر عنه؟ وإن الجواب عن ذلك: أن الميثاق مفروض أنه بعد الإذعان لرسالة موسى عليه السلام، فكان أخذه ثمرة من ثمرات تلك الرسالة، فهناك إيمان ضمنى مقدر في ثنايا القول، وإن لم يكن مذكورا، وإن الإيمان بالرسول المذكور من بعد هو الإيمان بالرسول الذين يجيئون من بعد موسى، كعيسى ومحمد صلى الله تعالى عليهما وسلم، حتى لا يحسبوا أن الرسالة مقصورة على موسى، وأنهم لا يؤمنون إلا بها، وأن يقولوا: أن غيرهم ليسوا على شيء فإن فعلوا يكونوا بذلك قد نقضوا الميثاق الذي واثقهم الله تعالى.

والركن الرابع من أركان ذلك الميثاق القدسي: عبر الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أى قويتموهم ونصرتموهم، فذلك فتح باب الجهاد الواجب لنصرة الرسل، ونصرة الحق دائما، فالتعزيز هو النصر، ويطلق على العقاب المانع من الضرر، ويقول صاحب المفردات: إنها من باب واحد، فيقول فى ذلك: التعزيز النصرة مع التعظيم قال تعالى: ﴿... وَتَعَزَّزُوهُ ...﴾ [الفتح] ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾، والتعزيز ضرب دون الحد، وذلك يرجع للأول، فإن ذلك تأديب، والتأديب نصرة، لكن الأول نصرة بقمع ما يضره بالدفاع عنه، والثانى نصرة بقمعه عما يضره، فمن قمعته، فقد نصرته، وعلى هذا الوجه قال ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قال قائل: أنصره مظلوما، فكيف أنصره ظالما؟ فقال ﷺ: «كفه عن الظلم» (١).

والخلاصة، أن التعزيز فى الآية النصرة مع التوقيف والتعظيم، وعدم التهجم عليهم أو الاستهزاء بهم أو السخرية منهم.

(١) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْصُرُ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ» رواه البخاري: الإكراه - يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه (٦٩٥٢)، وأحمد: مسند أنس (١١٥٣٨) كما رواه بلفظ: «نكفه عن الظلم» الترمذي: الفتن (٢٢٥٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

والركن الخامس: هو ما عبر عنه الله بقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والمراد من إقراض الله تعالى في هذا المقام هو الإنفاق في سبيل الله تعالى عندما تحتاج نصرة الحق إلى جهاد في سبيله، وإعطاء الضعفاء الذين هم عيال الله تعالى في هذه الأرض، فمن أعطاهم ابتغاء مرضاة الله تعالى فقد أعطى الله سبحانه وتعالى، ومن إقراض الله تعالى قرضا حسنا القيام بما طالب به من طاعات، بأداء ما عليه من واجب؛ لأن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاته سبحانه فكأنما أقرض الله قرضا حسنا، والله سبحانه سيضاعفه في الأداء له أضعافا كثيرة.

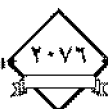
وهنا نجد إشارات بيانية تستوجب ذكرها إجمالا من غير تعرض لتفصيل:

الأولى: أن الله سبحانه وتعالى سمى القيام بالواجبات، والإنفاق في سبيله، وإعطاء المحتاجين - إقراضا له تعالى، وهو الغني، والناس هم الفقراء، وكانت تلك التسمية تحريضا على هذه الخيرات، وتشريفا لمقام القائم؛ وإعازا لعمله، وكانت التسمية فوق ذلك تأكيدا للجزاء؛ لأن المقرض لا غني في الوجود سواه، فهو وحده القادر على الجزاء، وأتى تأكيدا للجزاء على الحسنة بأقوى من هذا، وقد صرح سبحانه وتعالى بمضاعفة الأداء في آية أخرى، فقال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة].

الثانية: أن «قرضا» في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ المراد بها العطاء؛ أى الشيء الذى قدمه العبد، وإن كان فى إعرابه يصح أن يكون مفعولا مطلقا، ونرى أنه مفعول به^(١).

الثالثة: أن الله تعالى وصف القرض بأنه حسن، والحسن فى كل شيء يناسبه، ففى الوجوه تتناسبها، وإشراقها، وفى الأشياء تناسقها وتآلفها، وفى الأعمال خلاصها من شوائب الرياء والنفاق، وهو فى القرض الاتجاه به إلى الله

(١) ويكون مفعولا به على معنى (عطاء) كما بين الإمام رحمه الله تعالى.



تعالى وطلب مرضاته، والشعور بالشكر له سبحانه، فهو المنعم وهو المعطى، وهو صاحب الفضل العظيم.

وقد بين سبحانه بعد ذلك ما وعد به، فقال تعالت كلماته:

﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دُخْلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذا

جواب القسم الذى أقسم به رب العالمين، منشىء هذا الوجود، وهو يتضمن ما وعد الله به بنى إسرائيل إذا قاموا بما يوجبه الميثاق عليهم، وهو يتضمن أمرين أحدهما: غفران ما ارتكبوا من سيئات، وثانيهما: جزاء ما فعلوا من خيرات، وقد عبر سبحانه وتعالى عن الغفران بقوله: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى لأسترن ما قدموه من أعمال هى سيئة فى ذاتها، وهى سيئة لهم، ولجتماعهم، ومعنى تكفيرها سترها، فلا تفضح بالعذاب؛ إذ العذاب كشف لها، وإعلام بها، والغفران ستر وعطاء، وقد أكد سبحانه الغفران بلام القسم والنون المؤكدة توكيدا شديدا.

وعبر سبحانه وتعالى عن الجزاء بقوله: ﴿وَلَا دُخْلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وأكد العطاء بمثل ما أكد الغفران، وقد قدم سبحانه الغفران على الثواب؛ لأن الغفران تطهير، والتطهير مقدم على غيره، أو كما يقول العلماء: «التخلى مقدمة على التحلية».

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى أنه من يجحد بآياته ونعمه وآلائه وبيناته بعد ذلك الميثاق الغليظ الذى أخذ عليهم، والوعد الأكيد الذى وعدهم الله به فقد بعد عن السبيل المستوية المعبدة المسلوكة، وسار فى متاهات الضلال التى لا هداية بعدها، فمعنى سواء السبيل الطريق المستوية التى توصل، ومعنى ضلالها البعد، وهذا إنذار لله تعالى بعد الميثاق بأنه هو الطريق السوى، فمن حاد عنه، فقد ضل وغوى، وقد كانوا كذلك.

اللهم اهدنا، ووفقنا لاتباع سبيلك السوى، إنك الهادى والنصير.

فِيمَا
نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ
فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل الميثاق أن يقوموا بالتكليفات التي كلفهم إياها، وألزمهم بمقتضى هذا الميثاق أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأن يقوموا بالخير الذى رغبهم فيه سبحانه بأن سماه إقراضا له، وهو المنعم بكل شىء الغنى الحميد، ووعدهم سبحانه بأن من يقوم بحق الميثاق يستر سبحانه وتعالى سيئاته، ويدخله جنات النعيم الدائم الذى لا يحول ولا يزول، وأوعدهم بأن من يكفر بالميثاق ينال جزاء الضالين، وأشار لهم بأن الميثاق هو الطريق المستقيم، وأن الخروج عن منهجه هو الضلال المبين، ولكن ذكر بعد ذلك أنهم اختاروا الضلالة على الهدى ونقضوا الميثاق، وضلوا وبعثوا عن طريق الحق، فطردوا من نعمة الإيمان، واستولى الشيطان على قلوبهم؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَبِمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أى بسبب نقضهم الميثاق الذى أخذ عليهم، والتزاموا بأحكامه طردهم الله تعالى من رحمته، وذلك

لضلالهم عن طريق الهداية؛ لأن من ترك طريق الله الذى سنه، فقد ضل، وبهذا الضلال المبين طردوا من طريق الرحمة، وهو الطريق المستقيم الذى يوصل إلى جنات النعيم، فمعنى لعناهم: طردناهم، والطرد هنا هو السير فى متاهات الضلال، وفى ذلك تشبيه لحال من يسلك سبيل الضلال بعد أن فُتِحَ له باب الهداية، وأرشد إلى الطريق المستقيم بحال من يكون فى مكان آمن مستقر فيه، قد مكن له فى الإقامة ومهد له، ثم طُرد منه مذموماً مدحوراً مبغوضاً مكروهاً.

وإنهم إذا ساروا فى طريق الغواية، وتركوا منهاج الهداية تفسد مداركهم، فيطمس على عقولهم، وتجمد قلوبهم فلا تلين لحق، ولا يدخل إليها نور؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أى جعلنا قلوبهم غليظة صلبة كالحجارة، منزوعة منها الرأفة والرحمة؛ وذلك لأنهم لما مردوا على العصيان والمخالفة صلبت قلوبهم، فأصبحت لا تنفتح لإدراك حق، كما قال فى شأن هؤلاء اليهود عندما أخذوا فى طريق العصيان: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة].

والقراءة المشهورة عند البصريين هى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وهناك قراءة أخرى وهى مشهورة عند الكوفيين، وهى: (وجعلنا قلوبهم قَسِيَةً)^(١) وقد خرجها بعض المفسرين على معنى القراءة السابقة، بيد أن فيها مبالغة؛ لأنها على وزن فعيلة فهى تدل على تمكن صفة القسوة فيهم، وذكر ابن جرير الطبرى لهذه القراءة وجهاً آخر، وقال: «إنما القسسية فى هذا الموضع القلوب التى لم يخلص إيمانها، ولكن يخالط إيمانها كفر، كالدراهم القسسية، وهى التى يخالط فضتها غش من نحاس أو رصاص» ثم قال رضى الله عنه: «وأولى التأويلين فى ذلك بالصواب،

(١) قرأها بغير ألف: حمزة والكسائي، وجيلة عن المفضل عن عاصم. وقرأ الباقون بالالف. غاية

تأويل من تأول فعيلة من القسوة، كما قيل نفس زكية وزاكية، وامرأة شاهدة وشهيدة؛ لأن الله تعالى جل شأنه وصف القوم بنقضهم ميثاقهم وكفرهم به ولم يصفهم بأى شئ من الإيمان، حتى تكون قلوبهم موصوفة بإيمان يخالطه كفر، كالدرهم القسية التى يخالط فضتها غش» والحق عندى أن كلتا القراءتين قرآن، وما دامت متواترة فالجمع بينهما ضرورى، والجمع بجعل إحداهما تأتى بمعنى ليس فى الأولى يكون أولى وتكون كلتاها متممة للأخرى، وبالجمع يكون المعنى: وجعلنا قلوبهم قاسية؛ لأنه اختلط فيها الزيف بأصل الإيمان، فعندهم إيمان بالله من غير إذعان لأحكامه، ولا تصديق لرسله، ولا قيام بالتكليفات، والزيف أكثر من الأصل، والنحاس أكثر من الفضة، فصلبت.

وإن قسوة القلب وفساده يترتبان على الانحراف عن الطريق السوى الذى عبر عنه بالطرد؛ لأن من ضل الطريق كلما سار فى الضلال تاه عن الحق وغاب عنه؛ ولأن القلب كلما أركس فى الشر أربد وأظلم، وصارت غشاوة من الباطل تغطيه فلا يدرك، وتحجره فلا يلين.

وهنا بحث لفظى، وهو فى قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّثَاقَهُمْ﴾ فإن الفاء هنا تسمى بفاء الإفصاح، وهى تفصح عن شرط مقدر تقديره: فإذا ضلوا ونقضوا الميثاق، فبسبب ذلك يُطردون من طريق الرحمة ومنهاج الاستقامة، و «ما» زيدت فى الإعراب لتأكيد معنى السببية بين نقض الميثاق والضلال.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أى يحيلون بالكلام عن الموضع الذى نزل فيه ولأجله، والمعنى المقصود منه إلى طرف بعيد عن لبه، وعن معناه، فالحرف للشئ طرفه الذى يبعد عن قلبه وعن قطبه الذى يدور حوله، والتحريف كما جاء فى عبارات المفسرين قسمان، قسم يغيرون به معانى الكتاب، فيستجهون بها إلى أمور ربما يحتملها الكلام، ولكن لا يحتملها إلا على بعد من موضوعها، كبعد طرف الشئ عن قطبه، وقسم آخر يغير ذات الكلام بزيادة ألفاظ فيه تذهب بأصل المعنى، أو بحذف ألفاظ يذهب بالمقصد من القول، وقد كان من اليهود القسمان،

فهم غيروا معانى الكتاب الذى أنزل وأبعدوه عن معانيه التى قصدت من سَوْفِهِ، وأريدت من شرعه، وهم غيروا وبدلوا فى عباراته حتى تذهب تكاليف الكتاب وتطمس معالم أحكامه، ومن ذلك مثلاً أنه جاء فى كتبهم تحريم الربا بمثل هذا الكلام (أخاك لا تقرض بالربا) فزادوا كلمة الإسرائيلى: (أخاك الإسرائيلى لا تقرض بالربا) وبذلك تغير المعنى تغيراً جوهرياً، والكلم: المراد بها الكلام، فهو اسم جمع يدل على الجمع بحذف التاء، كشجر وشجرة، وقمر وقمرة.

وجاء قوله تعالى: ﴿يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ثمرة لقسوة القلوب والطرود بالضلال؛ وذلك لأنهم لما ضلوا وفسدت قلوبهم واختلط فيها الزيف بالجواهر حتى غلب الزيف، ماتت ضمائرهم، وصاروا كذايين يكذبون على الله تعالى، وعلى الناس، فيغيرون معانى التنزيل، ويزيدون فيه ويتقصون على حسب هواهم وشهواتهم، وارتكبوا بهتاناً عظيماً.

ومع التحريف الذى قصدوه، وشوهوا به التوراة التى نزلت على رسولهم قال الله تعالى عنهم: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ والنسيان معناه الترك، أو الغفلة عنه. وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني ما نصه: «النسيان ترك الإنسان ما استودع إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد، حتى ينحذف عن القلب ذكره» وهذا يستفاد منه أن النسيان ترك عن غفلة أو ترك عن قصد، وقد يكون النسيان سببه أمر خارج عن إرادة الناس، كأن يخفى عدو قاهر ما عند الشخص فيتركه مكرهاً.

وقد كان عند اليهود - قبحهم الله - الأنواع الثلاثة، فهم قد أصابتهم الغفلة عن كتابهم بسبب فساد قلوبهم، وهم قد تركوا بعضه، وجعلوه مهجوراً؛ لأنه لا يتفق مع أهوائهم، وقد نزل بهم من الشدائد ما ضيع كتبهم، ولم يبق منها إلا القليل، كما فعل ذلك باختصار معهم، حتى إذا عاد جمعهم لم يبق من كتبهم إلا متناثر، لا يكون مجموعاً متناسقاً.

وهنا لفظان نقف عند المعانى التى يشيران إليها: أولهما: معنى «حظ» فنقول: الحظ هو النصيب الكبير الذى يعد محظوظا من يأخذه، وهذا يدل على أن الجزء الذى نسى هو جوهر الدين ولبه، وحسبك أن تعلم أن التوراة التى بأيدينا ليس فيها ذكر لليوم الآخر، وما يكون فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم، وثانى اللفظين: هو «مما ذكروا به» فإن ذلك يشمل تعاليم موسى وتعاليم الأنبياء من قبله، وكل هذا نسوا الحظ الأكبر منه.

﴿وَلَا تَرَالُ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ الجماعات الإنسانية تتوارث عادات وأخلاقا، حتى تصير كأنها طبائع وجبلة، فالكلام فى بنى إسرائيل الذين سبقوا عصر النبوة، ولكن الذين عاصروا النبى ﷺ يحملون الصفات التى كان أسلافهم عليها؛ ولذلك اعتبروا منهم أو مثلهم، فخاطب الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه ﷺ يرى فى الحاضرين صورة السابقين، ويرى فيهم طائفة منهم، وإن تباعدت الأزمان، وإذا تخالفت الشخوص لا تتخالف الصفات؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَرَالُ تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أى أن صفاتهم مستمرة وهم بذلك مستمرين، فلا تزال تطلع على طائفة خائنة منهم خيانة أسلافهم، فيهم قسوتهم، وفيهم ضلالهم، وفيهم انحرافهم. و﴿خَائِنَةٍ﴾: وصف لمحذوف تقديره بقية خائنة، أو طائفة خائنة، أو نفوس خائنة منهم، وفسر بعض المفسرين خائنة بمعنى خيانة، والمعنى على ذلك لا تزال تطلع على خيانة، والمؤدى واحد؛ لأن الاطلاع على فرقة أو بقية خائنة اطلاع على الخيانة، والاطلاع على الخيانة اطلاع على قوم متصفين بها، وفى الكلام إشارة إلى أن هؤلاء اليهود فى ماضيهم قد خانوا الله تعالى، وخانوا أنفسهم بنقضهم الميثاق الذى أخذ موثقا مؤكدا عليهم، فلا تعجب إذا كانوا قد خانوا العهد معك، ونقضوا الحلف الذى حالفوك عليه، على أن أمنك أمنهم، وأمنهم أمنك، وأن تكون العلاقة بينك وبينهم حسن الجوار، والمودة الحسنة.



ولما كان اليهود منهم أمة مقتصدة، وأن كثيرا منهم ساء ما يعملون، استثنى أهل الخير من أن يكونوا خائنين، كسائرهم، فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ولقد أجمع المفسرون على أن هذا القليل منهم: اليهود الذين دخلوا في الإسلام، وآمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به، ويصح أن نعد منهم عددا قليلا محدودا من اليهود قد خالفوا سائرهم عندما كانوا يهيمون بنكث العهد مع النبي ﷺ، فهؤلاء، وإن لم يسلموا يصح أن يستثنوا من الذين يخونون وينكثون العهد، ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يأخذ الناس بالعفو والصفح الجميل، ولذا قال تعالى:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ العفو معناه في مثل هذه: عدم مقابلة الإساءة بمثلها، والتجافى عنها، وترك المؤاخذه عليها، والصفح معناه: ترك المؤاخذه، وترك اللوم والشريب، بل ترك العتاب عليها؛ ولذلك قالوا: إن الصفح أعلى رتبة من العفو، وقال في ذلك الراغب الأصفهاني في مفرداته: وهو - أى الصفح - أبلغ من العفو؛ ولذلك قال تعالى: ﴿... فَاغْفُوا وَاصْفَحُوا ...﴾ [البقرة] وقد يعفو الإنسان ولا يصفح ولكن لا يمكن أن يتحقق صفح من غير عفو، إذ العفو ترك المقابلة بالمثل ظاهرا، وقد يكون في النفس شيء، أما الصفح فإنه يتناول السماحة النفسية، واعتبار الإيذاء كأن لم يكن، في المظهر والقلب.

والإحسان يطلق على الإتيان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾ [الكهف] ويطلق على الإنعام على الغير، ومن ذلك قول القائل: «أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم» والإحسان في هذه الآية يشمل المعنيين، والإحسان فوق العدل؛ لأن العدل مع غيرك إعطاؤه الحق الذي له، والإحسان إعطاؤه الحق وزيادة، ومعنى النص الكريم: إذا كانوا على هذه الصفة التي ذكرناها فلا تعاملهم بمثل أخلاقهم، بل عاملهم بأخلاق النبوة التي تدعو إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، فاعف عنهم ولا تؤاخذهم بذنوبهم، فلا تعاملهم بالمثل إلا دفاعا عن الحوزة واصفح والصفح الجميل، ولا تجعل في قلبك غلا ولا

ضعنا، حتى يخلص قلبك من كل ما يعكره، لتصفو الدعوة، وإن الله تعالى يحب الذين يتقنون أعمالهم بسلوك سبيل الدعوة الصحيحة، وأخذ الناس بالرفق، ومعاملتهم بالتي هي أحسن، والإنعام عليهم بالعفو، وخلوص النفس من كل الشوائب بالصفح الجميل.

ولكن من هم الذين يستحقون ذلك العفو والصفح، أو بعبارة أخرى من الذين أمر النبي ﷺ بالعفو عنهم والصفح الجميل لهم. قال بعض المفسرين: هم العدد القليل الذين استثناهم الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

وإنا نرى أن ذلك، ولو أنه مستقيم مع سياق اللفظ هو غير مستقيم في سياق المعاني؛ لأن هؤلاء لم يسيئوا ولم يكونوا خائنين، حتى يكون للعفو والصفح موضع.

وقال بعض المفسرين: إن الذين أمر النبي ﷺ بالعفو عنهم هم اليهود جميعا، ولكن نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [التوبة: ٢٩] وهؤلاء منهم، ولكن يرد عليه بأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن الجمع.

وقال آخرون: إن المراد اليهود ولا نسخ؛ لأن العفو والصفح كان بمساكتهم وبقبول الجزية منهم مع معاشرتهم للمسلمين على أن يكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وفي ذلك النظر وجاهة.

والذي نراه أن الأمر بالعفو والصفح عام لليهود، لكي يؤدي النبي ﷺ واجب الدعوة، وكذلك الشأن في كل داع إلى دعوة؛ لأنه إذا كانت النفس يشوبها الغضب والألم والإحزن ويبدو ذلك في اللسان، فإنه لا تستقيم الدعوة، ولا تقوم الحجة على من يدعوهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ [النحل: ١٢٥] ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ولا يمكن أن يكون ذلك قد

نسخ؛ لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا؛ ولأن التوفيق غير متعذر، ولأن الأمر بالعفو والصفح لا ينافي القتال، لأنه إذا اعتدت طائفة وجب فلّ شوكتها، وقد اعتدت قينقاع وخانت الحلف، ولا يمكن اتئمانها في وقت قتال، فوجب إجلاؤها، وكذلك بنو النضير، واستحقت قريظة ما نزل بها، وما كان ذلك إلا دفاعا عن النفس، وتأمينا لما وراء الظهر، وفي غير هذه الأحوال الاستثنائية يكون العفو والصفح واجبا ليؤدى النبي ﷺ واجب التبليغ، ولا يعمل الأمر بالعفو عند موجب القتال للدفاع؛ إذ إن ذلك يكون إلقاء بالنفس إلى التهلكة، ويطبق الأمر بهذا الشكل في عصرنا، فاليهود الذين يخربون في ديارنا تُكفّ أيديهم ويُخرجون منها، وغيرهم نعاملهم بالخلق الحسن إلا أن يظاهروا الأشرار فيهم، وقليل من لم يظاهروهم.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ في الآيات السابقة بين الله الميثاق الذي أخذ على بنى إسرائيل، ونقضوه، ونسوا حظا مما ذكروا به، وفي هذا النص الكريم يذكر سبحانه وتعالى الميثاق الذي أخذ على قوم عيسى عليه السلام، وهو يشمل ما جاء به ذلك النبي الكريم، والرسول الأمين ﷺ من بيان وحدانية الله تعالى، وأنه ليس بوالد ولا ولد، وأنه ليس له صاحبة، ومن إحياء للتوراة الحقيقية ووصاياها وتكليفاتها، وقد صدّق الصادق منها.

ولكن النصارى نسوا حظا مما ذكروا، أى نسوا قدرا كبيرا هو لب الديانة المسيحية، وهو التوحيد، وكثير من وصايا عيسى عليه السلام، وما دعاهم إليه من تسامح وحب للسلام.

وسبب نسيان حظ أى نصيب كبير مما ذكروا به هو اضطهاد النصارى اضطهادا شديدا في عهد الرومان، حتى ضاعت كتبهم، ولم يعرف شيء منها إلا قليل غير سليم بعد مائتي سنة من ترك المسيح هذه الدنيا، ثم ظهرت هذه الأناجيل التى يتدارسونها، ولا يزالون يغيرون ويبدلون فيها على حسب الطباعات

المختلفة، بعد أن دخل قسطنطين إمبراطور الرومان فيها، وغير وبدل في مجمع نيقية الذي انعقد في سنة ٣٢٥ ميلادية، وقد ذهب لب الديانة وهو التوحيد.

وهنا نكتة بيانية أساسها بيان السبب في أن الله تعالى عبر عنهم بقوله تعالت كلماته: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ ولم يقل النصارى للإشارة إلى أن ادعاءهم النصرانية التي هي الدين الذي دعا إليه المسيح عليه السلام قول يقولونه بأفواههم ولا يتبعونه بقلوبهم؛ إذ هجروا لب تعاليم المسيح، وهو الوحدانية.

﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ «الفاء» هنا للسببية أي أنهم بسبب نسيان كتبهم، وذهاب مصدر دينهم اختلط الباطل بالحق فيما يعتقدون فتفرقوا شيعا، وكانت بينهم العداوة، فمن قائل إن المسيح إله وهو ابن الله، ومنهم من قال إنها بنوة نعمة، ومنهم القائلون بالحق وهم الذين أنكروا ألوهيته كأريوس وأتباعه، ثم الذين قالوا بالألوهية اختلفوا أولدت مريم اللاهوت من الناسوت، أم ولدت الإنسان فقط، ثم اختلفوا في الإرادة التي تكون من المسيح أكون منهما أو من أحدهما، وكل فرقة تكفر الأخرى وتعاديها وتضطهدها وترميها بالكفر، حتى إن الملكانيين كانوا يذيقون يعقوبيين سوء العذاب، ولم ينقذهم من أيديهم إلا الحكم الإسلامي العادل الرشيد، وكانت العداوة في العصور الأخيرة بين الكاثوليك والإنجيليين، وأريقَت فيها الدماء، وإن تلك العداوة ستستمر إلى يوم القيامة. وهنا بحث بياني وهو التعبير بأعربنا، فإن الإغراء من الغراء وهو ما يلصق به، والمعنى كان الالتصاق والارتباط الذي يربطهم عداوة ظاهرة بالجلد أو المحاربة، وبالكراهية المستكنة بالنفس وهي البغضاء، أي البغض الشديد الذي يسكن القلب، ولا علاج له، وقد بين الله سبحانه وتعالى عاقبتهم بقوله:

﴿وَسَوْفَ يَنْبِتُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي أنهم يستمرون في ريبهم يترددون، وفي عداواتهم يلجون، حتى يوم القيامة، وفي هذا يخبرهم الله تعالى الخبر العظيم بنتيجة ما كانوا يعملون ويصنعون من غير تفكير ولا تدبر، وسوف

هنا لتأكيد الخبر، وبيان أنه وإن تأخر آت لا محالة.. اللهم ألهمنا قول الحق والنطق به، وقنا شر أهل العداوة والبغضاء من عبيدك، إنك سميع الدعاء.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
 قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا
 كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ
 كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
 مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
 سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
 النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

﴿١٦﴾

بَيَّنَّ اللَّهُ سبحانه وتعالى الميثاق الذي أخذه على بنى إسرائيل، وقد وثقه بشهادته سبحانه وتعالى، وبعث اثني عشر نقيبا عليهم يمثلون أسباطهم، ومع ذلك نقضوه، فطردهم الله من رحمته، فقتل قلوبهم إذ مردت على العصيان، وأطفأت النور الذي جاء إليهم من الله تعالى، فحرفوا الكلم عن مواضعه، وأهملوا العمل بالباقي وجعلوا شرع الله تعالى نسيا منسيا، وامتلات نفوسهم بالخيانة، وابتلى الله تعالى محمدا ﷺ بذريتهم التي ورثت عنهم أخلاقهم ومروقهم عن الحق، مروق السهم من الرمية، ثم كان من الذين نسبوا أنفسهم للنصرانية بعض ما كان من اليهود، فنسوا حظا من الكتاب الذي جاء به عيسى عليه السلام إليهم، وأطفأوا نور الحق الذي جاء به في قلوبهم، وتفرقوا فيما

بينهم، وأغریت بسبب هذا التفريق العداوة والبغضاء بينهم، بعد هذا بين لهذين الفريقين وغيرهما الطريقة المثلى، والصراط المستقيم فقال سبحانه:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾
الخطاب لليهود والنصارى الذين نسوا فى الماضى حظا مما ذكروا به وحرفوا فى الماضى الكلم عن مواضعه، والذين طردوا أسلافهم من طريق الحق لنقضهم الميثاق، وقست قلوب الماضين منهم. . وقد انتقل البيان القرآنى من الكلام عن ماضيهم إلى مخاطبة الحاضرين الذين يجرى فى أوساطهم ما كان يجرى فى أوساط الذين تقدموهم، فالالتفات من الكلام عن الغائب إلى مخاطبة الحاضر؛ لأن البيان للحاضرين والتكليف للقائم للقائمين، وإن كان يجرى فى أوساطهم ما كان يجرى فى أوساط ماضيهم، ولكن لا بد من أنه يجهر بالحق فى أوساطهم، فهم مخاطبون بما جاء به محمد ﷺ.

وقد أفرد الكتاب، والنصارى واليهود لهم كتب وأسفار لا كتاب واحد، وكان الأفراد لأحد أمرين أو لهما معا - أول الأمرين - أن الكتاب يطلق ويراد به الجمع، لأن (أل) هنا للجنس، كما يقال: السوق، أو: أهل العلم، ويراد العلوم. وثانى الأمرين: أن العرب كانوا قسمين: أميين لا يقرءون، أو ليست الكتابه رائجه عندهم، وأهل كتابه وعلم بالكتاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لا يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران] فالأميون هنا العرب الذين لم تكن الكتابة والقراءة كثيرة عندهم.

وعلى ذلك تكون كلمة «أهل الكتاب» ليست مقابلة فقط للمشركين وعبدة الأوثان، بل هى مقابلة للأميين.

وأهل الكتاب الذين صاحبهم الكتاب وكانوا له كالأهل الذين يرتبطون فيه. وفى نداء اليهود والنصارى فائدتان:

إحداهما: ما يمتازون به عن المشركين بالعلم، وأنهم ليسوا أميين، بل هم مدركون عمّن دونهم.

والفائدة الثانية: تفرّيعهم ولومهم بأنهم مع أنهم معروفون بعلمهم بالكتابة ومصاحبتهم لهم قد أخفوا كثيرا.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ فيه ما يومئ بأنهم مختصون بالخطاب، مع أن النبي ﷺ بُعث للناس أجمعين عربهم وعجمهم، وأسودهم وأبيضهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ (٢٨) [سبا] ولكن كان الإيماء بالاختصاص لما يتضمنه البيان الذي من بعد ذلك، من أنه يبين كثيرا مما كانوا يخفون، فكان هذا نوع اختصاص لهم، وإن كان القرآن قد جاء لعامة المكلفين لا فرق بين كتابي وأمي، ولا بين من كانت له ديانة سماوية ومن لم يكن له بلاغ من قبل، وكان التعبير بقوله تعالت كلماته بـ ﴿جَاءَكُمْ﴾ بدل «بُعث لكم» للإشارة إلى أنه يحاضرهم ويخاطبهم ومعهم جاء إليهم يروونه ويراهم، وإضافة رسول إلى الله تعالى في قوله سبحانه ﴿رَسُولُنَا﴾ فيه إشارة واضحة إلى أن البيان من الله سبحانه وتعالى، وكأن المعنى، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى: قد جاءكم يحاضرکم ويخاطبکم رسولنا الذي ينطق باسمنا، ويتحدث عنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون..

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ هذا النص الكريم صريح في أنهم كانوا يخفون أمورا من علم الكتاب الذي نزل على موسى، وما جاء به عيسى عليهما السلام، وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) [البقرة].

وهنا نتساءل ما الذي أخفوه وبينه القرآن، والجواب عن ذلك: هو كل ما جاء في القرآن من تكليفات دينية تتصل بالفطرة الإنسانية، ولا تختص بقوم دون قوم، مثل الصدق، وحسن المعاملة للناس، وإعطاء الناس حقوقهم لا فرق بين

جاهل وعالم، وأمى وغير أمى، وقوم وقوم وجنس وجنس، وتحريم الربا وأكله من القريب والبعيد، والقصاص العادل والعقوبات الزاجرة، وقد قال بعض العلماء: إن الذى أخفوه هو عقوبة الرجم، ويروى ذلك ابن جرير الطبرى فيقول بسنده: إن نبي الله تعالى أتاه اليهود يسألونه عن الرجم، واجتمعوا فى بيت قال: أيكم أعلمكم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا فقال: أنت أعلمهم، قال: سل عما شئت، قال: أنت أعلمهم قال: إنهم يزعمون ذلك، فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى، والذى رفع الطور، وناشده بالمواثيق التى أخذت عليهم حتى أخذه أفكلاً^(١)، فقال: إن نساءنا نساء حسان، فكثر فينا القتل فاخترنا فجلدنا مائة.

وقد يكون هذا مما أخفوه، ولكن لا يمكن أن يكون كل الذى أخفوه، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾ ولا يمكن أن يكون الشيء الواحد كثيرا، بل إن الكثرة تقتضى التعدد، وأنهم أخفوا كثيرا، فقد أخفوا البشرى بالنبي ﷺ، وحرفوا القول لكيلا تُعلم للناس، وأخفوا العلم بما يكون بعد الموت من بعث ونشور، والحساب والثواب والعقاب والجنة، والنار وما فيها من عذاب أليم، حتى إنك تقرأ التوراة التى بأيدينا، فلا تجد ذكرا للحياة الآخرة، وما يكون من جزاء على ما عمل المرء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأخفوا تحريم أكل الربا من كل إنسان، وحرفوه وقصروا المنع على أكل الربا من الإسرائيلى، وأخفوا محاولتهم عبادة الأوثان عقب إخراجهم مستنقذين من فرعون، وهكذا فقد أخفوا كثيرا، وبين الله تعالى فى القرآن الكريم كثيرا مما يتصل بلب الرسالة الإلهية.

هذا بعض مما أخفوا، وهذا بعض مما بين الرسول الكريم ﷺ وأنه سبحانه بين الجوهر الذى أخفوه وهو كثير؛ لأنه لب الرسالة الإلهية.

ولقد قال تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى يترك كثيرا ما كنتم تخفون من غير بيان إذا لم يكن فى تركه إهمال لحقيقة دينية، ويكون فيه افتضاح لأمركم كادعائكم أن لوطا عليه السلام زنى بابنتيه، وكادعائكم أن داود أحب امرأة قائد

(١) الأفكل: بورن الأرنب: الرعدة.

فأرسله إلى الميدان ليخلو له وجه زوجته، وغيره مما اشتملت عليه توراتكم التي ألفتموها، وفيها الحق والباطل، وفي التعبير بكلمة «العفو» إشارة إلى أن هذا الترك يتضمن معنى الصفح والغفران إن أحستهم في حاضرهم؛ لأنه ترك لأمر في ذكره مضرة وتحقير لكم.

وقال الحسن البصري: إن معنى ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى لا يؤاخذكم عليه، ولا يعاقبكم لأجله إن أحستهم في حاضرهم، وإن النسق البياني يقتضى أن يكون موضع الترك مقابلاً لموضع البيان، والمقابلة تقتضى أن يكون الترك الكثير كاليان الكثير، وكل ذلك داخل فى عموم ما كانوا يخفونه ولا يبينونه، وذلك هو الظاهر المتفق مع السياق، وغيره ليس متفقاً مع السياق.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ هذه الجملة بيان للجملة السابقة؛ ولذلك كان الفصل بينهما لكمال الاتحاد، إذ الثانية فى معنى الأولى مع وصف جديد فيه بيان الحقيقة؛ لأنه إذا كان مجيء الرسول فيه بيان المختفى، وكشف المستور، فهو نور، وبعثه نور، وقد سجل ذلك النور فى كتاب مبين، أى واضح فى ذاته مبين للشرع الشريف، ولما أخفاه أهل الكتاب وطمسوه من معانى الوحداية الخالصة، ومن الشرائع المحكمة، وفى هذا النص تأكيد لمعنى الرسالة عن الله تعالى التى ثبتت بقوله تعالى ﴿رَسُولُنَا﴾ وفى هذا النص تصريح بأن ما يجيء به الرسول من نور كاشف هاد، وكتاب مسجل للشرعة هو من الله تعالى، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

وللمفسرين فى بيان معنى ﴿نُورٌ﴾ و﴿كِتَابٌ﴾ كلام أساسه أن النور يجب أن يكون غير الكتاب؛ لأن العطف بينهما يقتضى التغاير بين حقيقتهما، إما من حيث الذات، أو من حيث الوصف، أو النتيجة، فإن الشئ الواحد قد يكون له وصفان متغايران، وبمقتضى هذا التغاير يكون العطف.

وقد خَرَجَ بعض المفسرين العطف على أساس التغاير في الذات، ففسروا النور بالرسول الكريم ﷺ فهو نور الأنوار، كما عبر الألوسي^(١)، والكتاب بأنه القرآن الكريم، فهو سجل الإسلام لا يغادر شيئاً منه إلا بيّنه، إما بالتفصيل، أو بالإجمال الذي بيّنه السنة.

وفسر آخرون النور بأنه القرآن الكريم، كما فسر الكتاب المبين به على أساس المغايرة من حيث الأثر والبيان، فالقرآن نور؛ لأن فيه بيان الحق الذي لا تنكره العقول، والشرع الجامع الذي أتت به كل الرسائل، وهو من ناحية أخرى الشيء المكتوب المسجل الباقي إلى يوم القيامة لا يعتريه تغيير ولا تبديل، فالمغايرة في العطف مغايرة وصف وأثر لا مغايرة ذات، إذ القرآن المبين نور، وكتاب مكتوب مسجل باق إلى يوم القيامة. وقد اختار هذا الوجه الزمخشري ولم يذكر غيره.

والذي نراه في تفسير النص السامي، هو أن هذا فيه بيان لعمل الرسول ﷺ، وهو أنه أتى بعلم كاشف هو نور، فرسالة محمد ﷺ نور في ذاتها، وأتى بكتاب معجز دال على رسالته، ومشمتمل على شريعته، وهو حجته إلى يوم القيامة.

وقد بين سبحانه وتعالى الغاية الكبرى من رسالته إلى أهل الأرض، ومن النور الذي جاء به الرسول والكتاب الذي أنزله، فقال:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ هذه هي الثمرات التي ترجى من الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض، وكونها نوراً يهتدى به السارى، وفيه شريعة قائمة في كتاب محفوظ إلى يوم القيامة، وهذه الثمرات ثلاث أولها: هداية إلى الحق، وإخراج من الظلمات إلى النور، ويهتدى به الله سبحانه إلى صراط مستقيم لا عوج ولا أمت.

(١) قال الألوسي في تفسيره (ج ٦، ص ٩٦) «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ» عظيم وهو نور الأنوار والنبى المختار ﷺ.

أما الأولى - فقد عبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله تعالت كلماته: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ والضمير في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ يعود إلى مجموع ما ذكر، أو يعود إلى القرآن وحده، والظاهر ذلك؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وفي عود الضمير إلى القرآن تضمنين لكل ما ذكر؛ لأن القرآن هو وعاء الشريعة، وحجة النبي ﷺ القائمة إلى يوم القيامة، وهو مصباح النور المحمدي الذي لا ظلام فيه، وقد ذكر سبحانه من يهتدي بالقرآن، وموضع الهداية، فليس كل إنسان أهلاً لهداية القرآن والانتفاع به، فإن من يهتدي لا بد أن يكون فيه عقل يدرك لم تظله غشاوة رانت عليه، وبصيرة نافذة، وقلب قد استقام لطلب الحكمة، وقد ذكر سبحانه أن الذي يهتدي بالحق والنور الكاشف من اتباع رضوانه، واتباع رضوان الله تعالى: طلبه ذلك الرضوان، ومعنى طلب ذلك الرضوان: أن يكون قلبه مخلصاً لطلب الحق، لم يرنق قلبه بغرض باطل أو أهواء مردية، أو انحراف في طلب عن الغاية، بل يتجه اتجاهاً مستقيماً إلى الحق لا يبغي سواه، ولا يطلب إلا رضوان الله تبارك وتعالى، فإن الإخلاص يجعل العقل يشرق، والقلب يمتلئ بالحكمة.

وأما ما يهتدي إليه فهو سبل السلامة، والصفاء وعدم وجود البغضاء، فالسلام هو: السلامة من كل أدران الحقد والحسد، والسلامة من كل ما يؤدي إلى البغضاء والعداوة، وسبلها هو: الأعمال الصالحة، فيعمل للدنيا بأخلاق مستقيمة، ونفس لا يخالطها فساد، ولا تستولى عليه الشهوات، فيكون مع الناس في أمن وسلام، وفي الآخرة يكون في دار السلام، كما قال تعالى في شأن المتقين المهتدين: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ [١٢٧] ﴿[الأنعام] وكما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [٤٤]﴾ [الأحزاب].

وأما الثانية - فقد عبر عنها تعالى بقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ ومرجع الضمير هنا هو مرجع الضمير في الجملة السامية السابقة، فالقرآن والنور والهداية المحمدية كل هذا يخرج الناس من ظلمات الباطل إلى النور

الواضح بإذن الله تعالى وبعلمه وتقديره، فالإذن هنا معناه العلم والإرادة، أى أن ذلك الإخراج من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى بعلمه تعالى وإرادته، وإرادته لا تكون إلا على مقتضى حكمته فى خلقه، وهو العزيز الحكيم، اللطيف الخبير، السميع البصير، تعالت أسماؤه الحسنى.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الضلال بالجمع والنور بالإنفراد؛ وذلك لأن طرق الشيطان مختلفة، وكل طريق منها ظلمة فى ذاته، فالشرك ظلمة، والبغضاء ظلمة، والمعصية ظلمة، وأكل مال الناس بالباطل ظلمة، ووأد البنات ظلمة، واسوداد الوجه بالكآبة عند ولادة المرأة ظلمة، والظلم ظلمات قد تعددت فنونه، وتباينت أقسامه والنور والقرآن والهدى المحمدى هو الذى يكشف هذه الظلمات، وينير الطريق للخروج، بإذن الله تعالى وعلمه وإرادته يخرجهم النور من هذه الظلمات المتكاثفة.

وأما الثالث- فقد قال تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمعنى أن الله تعالى يهدى طالب إلى طريق مستقيم لا التواء فيه، والهداية فى الحقيقة من الله تعالى، فهو الذى يهدى ويرشد، والمهتدى هو من يطلب الحق إرضاءً لله تعالى، ونسبت الهداية إلى القرآن؛ لأنه الذى اشتمل على ما فيه الهداية من أحكام، وفضائل، وبيان لمعنى الرسالة الإلهية؛ ولأنه هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، والطريق المستقيم هو دين الله تعالى القيم، دين التوحيد، دين الإسلام والتسليم والتفويض لله تعالى بعد القيام بالعمل، وهو دين الخير فى الدنيا والآخرة، فمن اتبعه فقد رشد، ومن تركه فقد ضل، وهو وإن تعددت أنواع العمل طريق واحد موصل للغاية من أقرب اتجاه، وهو طريق الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام] (١). اللهم اهدنا صراطك المستقيم.

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ بَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. رواه ابن ماجه: المقدمة - اتباع سنة رسول الله ﷺ (١١).

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
 ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ
 أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَفِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾
 وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ
 فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن
 يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن اليهود حرفوا الكلم بتبديل
 عبارات التوراة، وتحريف معانيها وتفسيرها بغير ما يراد منها، ثم بإخفائهم كثيرا مما
 اشتملت عليه من أحكام تكليفية، ثم تحللهم من أحكام الباقي، وأن النصارى
 مثلهم نسوا حظا مما ذكروا به، بل أهملوا لب الدين، وحقيقة التوحيد فيه،
 وتفرقوا فرقا مختلفة وأغريت بينهم العداوة والبغضاء، فكان في الماضي التذبيح
 بين الملكانية واليعقوبية، وكان من بعد ذلك ما كان بين غيرهم، حتى تركوا الدين
 من حياتهم، ولم يبق منه عندهم إلا ما يعاند الوحداية، ويضطهدون به أولياءها
 وأنصارها، وقد جاء الإسلام منذ تبليغ النبي ﷺ به، يبين كثيرا مما أخفوا،
 وحقيقة الرسالة التي تنزل من الله تعالى لخلقه، والتي هي لب اليهودية الأولى،
 ونصرانية المسيح عليه السلام، وفي هذه الآيات المتلوة يبين سبحانه لب ما غيروا
 فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لقد اتفق النصارى على أن يسوع عندهم فيه عنصر إلهى، وفى عصور الإسلام الأولى كان النسطوريون منهم يقولون: إن المسيح ليس ابن الله تعالى فى الألوهية، ولكنها بنوة النعمة، وقد ذهبت هذه الفرقة فى عبر التاريخ، أو تكاد، فلا تكاد تسمع ذلك الصوت الآن إلا عند بعض الموحدين الذين ظهروا فى طائفة البروتستانت، ولكنهم عدد نادر، لا يعترف بهم على أنهم نصارى.

وإذا كان الأمر المعروف عندهم أن يسوع ابن الله، وفيه عنصر آلهى، فقد قالوا: إن الألوهية قد حلت فيه، ولازم ذلك القول أن يكون هو الله، أو هو إله يعبد، ومهما يكن فقد قالوا باتحاد عنصر الألوهية فيه، وقد قال فى ذلك البيضاوى: «هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرح به أحد منهم، ولكنهم لما زعموا أن فيه لاهوتا، وقالوا لا إله إلا واحد، لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم» وذلك بلا ريب ينتهى إلى القول بأنهم يعتقدون أن المسيح هو الله، وإن لم يصرحوا بذلك، فهو لازم قولهم باتحاد عنصر الألوهية فيه مع الله.

وإن ذلك الكلام تخريج على أن النصارى مذهب واحد فى اعتقاد الألوهية، وأنه ابن الله، وبذلك يكون قوله تعالى فى هذه السورة سورة المائدة:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ (٧٣) متلاقيا مع هذا النص الكريم، فهنا صرح بل لازم قولهم، وهنالك صريح بذات قولهم.

والحقيقة أن النصارى اليوم - وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون - يصرحون بأن الأقانيم ثلاثة، وأنها شئ واحد، ويتجهون إلى أن المسيح هو الله، والله هو المسيح، والله هو روح القدس، فقد قال الدكتور «بوست» فى تاريخ الكتاب المقدس: «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الآب يتسمى الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الغداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال

على السواء، أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم، كما هي في العهد الجديد».

ومن هذا الكلام يتبين أن النصارى يصرحون بأن الابن هو الله، ولا يكون الكلام بطريق اللازم لقولهم، بل بطريق الصريح منه، فهم يصرحون بأن الله هو الابن، كما أن الله هو الأب، كما أن الله هو روح القدس.

وذكر الله سبحانه وتعالى الإخبار عن المسيح بأنه الله؛ لأن فيه إشارة واضحة إلى بطلان العقيدة، لأن المسيح وُلِدَ، ورثى يتحدث مع الناس، وأكل وشرب، وقتل وصلب في زعمهم! فكيف يكون هو الله تعالى؟!.

والحقيقة أن فكرة ألوهية المسيح عليه السلام ما سادت الفكر النصراني إلا في عهد قسطنطين، وقبل ذلك كان الأكثرون موحدين، ولكن وجد بجوارهم من بقايا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة من زعم أن القوى المسيطرة على الوجود ثلاثة، ولننقل لك ما قاله ابن البطريق المسيحي في كتابه «تاريخ البطارقة» قال في مجمع نيقية الذى أعلن ألوهية المسيح ما نصه:

«كتب الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطارقة والأساقفة، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون ألفاً من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان. . فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون «المريميين». . ومنهم من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية. . ومنهم من كان يقول لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت في أذننها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهى مقالة إيلان وأشياعه. . ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت، كواحد منا فى جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وأنه مصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة؛ ولذلك سمي ابن الله، ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة

أسماء، ولا يسمونه الكلمة، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وأشباعه، ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهى مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون رئيس الخواريين، وأنكروا بطرس، ومنهم من كان يقول بالوهية المسيح، وهى مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً.

وذكر فكرة أرتوس، وكانت شائعة، وهى إنكار ألوهية المسيح، والإيمان بالوحدانية، واختار قسطنطين من (٢٠٤٨) الثمانية والأربعين والألفين عدد (٣١٨) الذين قالوا بالوهية المسيح، وبذلك ساد هذا القول بسلطان قسطنطين.

وإن ذلك القول بلا ريب باطل، فالله سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو الذى يحيى ويميت، وقد أمر الله نبيه بالرد عليهم بأمر محسوس.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يرد عليهم ادعاءهم، بإثبات القدرة لله تعالى، فإن صفة الله الذى يعبد لأجلها أساسها القدرة على الإنشاء وعلى الإفناء من غير قيد يقيدها ولا مانع يمنعها، فإذا كان المسيح لا يملك أن يدفع عن نفسه الإعدام، فهو أولى بالألا يستطيع الإنشاء ولا الإفناء.

والمعنى: قل لهؤلاء الذين يدعون الألوهية للمسيح: من يملك من دون الله أمراً يستطيع أن يمنعه سبحانه بأى قدر من قدرته تعالى إن اتجهت إرادته العالية إلى إهلاك المسيح وأمه، وفى الجملة السامية إشارات بيانية:

منها- فى قوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لأن (يملك) معناه يتضمن معنى يمنع، أى من يمنع من قدرة الله وأمره شيئاً، وتذكير كلمة «شيئاً» للتصغير، أى قدراً ولو كان ضئيلاً.

ومنها - أن التعبير بـ «يملك» يستفاد منها أن قدرة الله تعالى قدرة من يملك، وليست قدرة مستعارة أو مأخوذة من غيره.



ومنها - أن ذكر الإهلاك في هذا المقام فيه دلالة مادية في زعمهم على بطلان ما يدعون؛ لأنهم زعموا أن عيسى أهلكه الرومان بتحريض وشهادة الزور من اليهود لعنهم الله، فكيف يكون إلها، وهو لا يملك حماية نفسه، مع أن وصف الإله يوجب أن تكون قدرته على الإهلاك والإبقاء ثابتة.

ومنها - أنه ذكر المسيح مضافا إلى أمه، على أنه متولد منها، فكيف يكون من الفانى الإله الباقي، وهو ابن الله في زعمهم، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وإن الذى يستمسكون به بالباطل فى هذا الزعم الباطل أنه خلق من غير أب، وقد رد سبحانه وتعالى زعمهم فى قضية عامة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

هذه الجملة السامية مع إبطالها لزعمهم فى مقام الحال من الجملة السابقة، فهى مؤيدة لمعنى القدرة على الإبقاء والإهلاك والإحياء، ورادة على زعمهم أن عيسى خلق من غير أب، فيكون ابنا لله، تعالى الله عند ذلك. والمعنى أن لله سبحانه وتعالى الملكية التامة للتصرف فى السموات بطبقاتها المختلفة، والنجوم ومداراتها وما بين السماء والأرض من فضاء تجرى فيه السحب بأمره، ويظهر فيه الطير، ويسبح فيه، ثم ما يصنعه الإنسان من طائرات تقطع أجواء الفضاء، كل ذلك مملوك ملكية تامة لله تعالى، ولا توجد ملكية تامة فى شىء من الأشياء إلا لله سبحانه وتعالى، فكل مالك من الناس ملكيته نسبية، وليست تامة أو مطلقة، بل هى مقيدة.

وإرادته سبحانه وتعالى مطلقة فى خلق الأشياء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾. وهذه الجملة فى مقام الثمرة والنتيجة لما قبلها من قدرة مطلقة لا حد لها، ومن ملكية مطلقة لا قيد يقيدها، فهو يخلق ما يشاء ويريد، فيخلق ذكرا أو أنثى فهو يجعل لهذا ذكرا، ولهذا إناثا، ويجعل من يشاء عقيما، ولا قيد يقيد إرادته، فى طريقة الخلق والتكوين، فيخلق الناس من أب وأم، ويخلق آدم من غير أب ولا أم، ويخلق عيسى من أم، ومن غير أب. . . وهكذا.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو قادر على كل شيء فى هذا الوجود، يفعل به ما شاء، يفنيه ويبقيه على ما يشاء، وقد وجد كل شيء بالقدرة والإرادة، لا بالعلية والسببية، فلا يقال: إن الأب سبب للابن، فإن وجد له من غير أب فالله سبحانه أبوه، لا يقال ذلك؛ لأن الله تعالى لا يتقيد بالأسباب، فهو خالق الأسباب وخالق المسببات وخالق نواميس الكون، وكل ما فيه، وهو القاهر فوق عباده، فهو خالق عيسى وليس أباه، وإن النصارى واليهود مع أنهم يخطئون فى جنب الله، ولا ينزهونه كمال التنزيه، ولا يطيعونه يزعمون أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

اليهود يعلنون للناس أنهم شعب الله المختار، والنصارى يعلنون أنهم هداة هذا الوجود، وأنه لا سلامة إلا فى دينهم على الوضع الذى وضعوه، وعلى الزعم الذى زعموه، وبذلك يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وعلى هذا يكون المراد بالبنوة بنوة مزية الاتصال بالله أكثر من اتصال غيرهم به، وأن الاتصال اتصال إيمان به وإدراك له، وأنهم اختصوا بنعمة المحبة، فالبنوة بنوة الاتصال والمحبة، ويكون عطف أحباء من قبيل عطف التفسير المشير إلى معنى البنوة.

وهناك احتمال آخر، وهو أن تكون البنوة هى البنوة التى زعمها اليهود لعزير إذ قالوا: عزير ابن الله، وهم أتباعه وشيعته، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وهم أتباعه، فهم أبناء الله بهذا الاتباع، وقد قال الزمخشري فى توضيح هذا الاحتمال: «أبناء الله أى أشياع ابنى الله عزير والمسيح، كما قيل لأشيعابى خبيب، وهو عبدالله بن الزبير، وكما يقول رهط مسيلمة: نحن أنبياء الله، ويقول أقرباء الملك وذوو حشمه نحن الملوك؛ ولذلك قال مؤمن آل فرعون: ﴿... لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر].»

وفى الحق أن كلا من اليهود والنصارى ادعوا أن لهم صلة خاصة بالله، وأنهم دعاة الحق، وأنهم وحدهم أحباب الله، وأهل الاتصال به؛ ولهذا رجح الأول.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ الفاء هنا فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كنتم كما زعمتم أجباء الله تعالى وأبناءه فلم يعذبكم إن ارتكبتم ذنوبا تؤثمنكم؟ فأنتم كسائر الناس تذنوبون، ولو كنتم متصلين بالله أكثر من غيركم ما أذنبتم، ولو أذنبتم ما عذبتم، وفي كتبكم التي بأيديكم أنكم تعذبون على ما تفترون من آثام. وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم، إذ قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾ (٨٠) [البقرة] وإن النصارى يقولون بأنه سيُدين الناس يوم القيامة، ويجازى المحسن على ما أحسن، والمسيء على ما أساء.

وقد رد الله سبحانه أصل الادعاء بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى أن صلة الله تعالى بكم هى صلته بخلقه، وأنتم بعض منهم، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فهو يغفر لمن يشاء، واقتضت حكمته الغفران له لتوبته ولصغر ما ارتكب، ووازن حسناته بسيئاته، وأن الحسنات يذهبن السيئات، ويعذب من يشاء بمقتضى حكمته؛ لأن الخطيئة أحاطت به، ولم يقلع عما ارتكب وأساء، والله عليم حكيم، وغفور رحيم.

﴿وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ هذه الجملة من تتمه الرد عليهم، ويحتمل أن تكون من كلام النبي ﷺ الذى أمر أن يقوله، ويحتمل أنها من كلام الله تعالى تأكيداً لحكمته تعالى وكمال سلطانه، وقد تأكد الرد بقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى أنه سبحانه وحده هو الذى تصير إليه أمورهم يوم القيامة، وهو الذى يعلن حيثنذ محبته لمن استحق محبته بالطاعة والتقوى، ويكون مآله إلى الجنة والنعيم المقيم، ولن تكون للذين غيروا وبدلوا فى دينه وأشركوا به - تلك المحبة التى ادعوها، ولا ذلك النعيم الذى وعد به، وسيكون العذاب لمن عصى أمر ربه، وغالى فى تقديس عباد الله تعالى وأشرك به، والله هو الذى يتولى الفريقين بعدله وحكمته..

اللهم اجعلنا من أهل محبتك ورضوانك وإذا لم نستحق، فاجعلنا من أهل غفرانك .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ
رُسُولُنَا يَبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا
مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

بينت الآيات السابقات حال أهل الديانتين السابقتين على الإسلام، والذين يذكرون أنهم يتبعون رسولين من أولى العزم من الرسل، وهما عيسى وموسى عليهما السلام، وكيف نسوا حظا مما ذكروا به، وكيف أخفوا كثيرا مما ذكروا به، وكيف انحرفوا عن أصل التوحيد الذي هو لب الدين ودعوة كل النبيين الذين بعثوا من رب العالمين، ثم ادعوا مع ذلك التغيير والتبديل والانحراف أنهم الأقربون إلى الله تعالى، وقد رد الله تعالى عليهم قولهم، فبين سبحانه أنهم بشر من خلق، وأنه لا فضل لهم على أحد إلا بالاستجابة لأمر الله تعالى، وفي هذه الآية التالية يبين سبحانه مقام الرسالة المحمدية وأنها جاءت في إبانها، وفي وقت الحاجة إليها، فقال عز من قائل :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ الفترة هي الزمن بين زمنين متغايرين في الحوادث، ويكون فيها سكون عما يكون في هذين الزمنين، وقد قال الراغب الأصفهاني في معنى الفترة: «الفتور سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة قال تعالى :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى سكون خالٍ عن مجيء رسول الله ﷺ وقوله تعالى ﴿... لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء]،

أى لا يسكنون عن نشاطهم فى العبادة، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «لكل عمل شِرةٌ، ولكل شِرة فترة، فمن فتر إلى سنتى فقد نجا، وإلا فقد هلك»^(١) فقوله عليه الصلاة والسلام: «ولكل شِرة فترة» إشارة إلى ما قيل: للباطل جولة ثم يضمحل، وللحق دولة لا تذلل ولا تقل، وقوله: من فتر إلى سنتى أى سكن إليها، والطرف الفاتر فيه ضعف مستحسن.

ويستفاد من ذلك الكلام القيم أن الفترة سكون بين عملين بارزين، فهى سكون بين زمنى عمل، ولا شك أن عدم وجود رسالة فى زمن بين رسالة مضت، ورسالة آتية، وهو سكون نسبى فى الزمن بينهما، وإن كان العمل واجبا بالشرعية السابقة، حتى تنسخها الشريعة اللاحقة، ويكون التكليف منها.

وهنا مباحث لفظية تشير إلى نواحي البيان العالى فى النص الكريم:

المبحث الأول- فى التعبير بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ بدل أن يقال «جاء إليكم» لأن التعدية بغير «إلى» فيها معنى الملاحقة والملازمة، وأنه لا مناص من اتباعه، ففرق بين أن يقال جاء إليه، وأن يقال جاءه، لأن الثانية تضمن الملازمة، وأنهم لا يستطيعون الخروج عما جاء به إلا إذا أذنوا.

الثانى- وإضافة كلمة الرسول إلى الذات العلية فى قوله تعالت كلماته: ﴿رَسُولُنَا﴾ إشارة إلى معنى قدسية هذه الرسالة ومكانتها، وأنها ممن لا تسوغ مخالفته، ولا الخروج عن طاعته.

الثالث- ابتداء الخطاب بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تنبيه لهم بأن مصاحبتهم للكتاب، وكونهم أهل معرفة يوجبان عليهم الطاعة، والاستجابة، لأنهم عرفوا رسالة الله تعالى إلى خلقه، وأنه ما خلقهم عبثا، ولا يتركهم هملا، وأنهم إن

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ» رواه أحمد: مسند المكشورين.

خالفوا ما جاءهم به الرسول يكون اللوم لهم أشد، إذ يكون عصيانهم عن بيعة ومعرفة .

الرابع - فى قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ﴾ فالفعل «يبين» قدّر له بعض العلماء مفعولا وتقديره: يبين لكم الأحكام، والتكليفات، والأوامر الخالدة، وبعض العلماء لا يقدر له مفعولا، على أساس أنه منزل منزلة اللازم، وعلى هذا يكون المعنى: جاء رسولنا بالبيان الكافى المشرق الكاشف للظلمة التى وقعت فيها، وبذلك يشمل كل التكليفات، وكل ما تشتمل عليه رسالة محمد ﷺ، وذلك البيان كان بالقرآن الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وقد روى عن قتادة أنه قال فى هذا المعنى: «قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ» وهو محمد ﷺ، جاء بالفرقان الذى فرق الله به بين الحق والباطل، فيه بيان الله تعالى، ونوره وهداه، وعصمة لمن أخذ به.

الخامس - فى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ﴾ يقول الزمخشري: إن الجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿جَاءَكُمْ﴾ أى جاءكم على فترة من الرسل، وعندى أن المتعلق يكون بأقرب فعل، وهو «يبين»، والمعنى يبين لكم على فترة من الرسل، أى بعد فترة لم يكن فيها بيان، وقد جاء الرسول الكريم بهذا البيان، ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾

ويفسر كثيرون من المفسرين أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فِتْرَةٍ﴾ معناه حين فترة، وعندى أن تفسيرها بظرف آخر، وهو «عند»، يكون أدق؛ لأن الرسالة كانت نهاية الفترة، فهى كانت عندهم فى نهايتها، ولم تكن فى حينها ووقتها، والتعبير بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فِتْرَةٍ﴾ فيه معنى فوقية الرسالة على الفترة، وعلوها عليها كعلو البيان على الجهل، والنور على الظلمة، وفيه لوم؛ لأنه يشير إلى أنه لا يسوغ لهم أن يجحدوا رسالة محمد ﷺ، لأنهم ينزلون من الأعلى إلى الأدنى.

﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ المقصود الواضح من هذا النص هو بيان أن حكمة مجيء الرسول هو قطع العذر على من يحتج بالجهل، وعدم معرفة



وأمر الله تعالى ونواهيته، فالمعنى على هذا هو أن رسولنا قد جاءكم بين لكم الطريق المستقيم وطريق الحق القويم لكيلا تقولوا: ما جاءنا من بشير يبشر بالخير عند الطاعة، وينذرنا بالعذاب عند المعصية، بل إن الله تعالى قطع العذر عليهم وأبلغ الحجة، فلا عذر لجاهل، ولا اعتذار لمتجاهل.

وهذا التعبير: أن تقولوا ما جاءنا من بشير... مثله قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء] كثير في القرآن الكريم، وفيه يكون التعليل مقتضيا تقدير محذوف، فإن قولهم بنفى البشير لا يمكن أن يكون علة لإرسال الرسول إلا بتقدير محذوف ويقدره الكوفيون بتقدير لا النافية محذوفة، فيكون المعنى جاءكم رسولنا يبين لكم لئلا تقولوا: ما جاءنا من بشير، أو كيلا تقولوا: ما جاءنا من بشير، وقد اختار الطبري ذلك التقدير، ويقدره البصريون بمصدر محذوف مناسب، ككراهة أن تقولوا أو اتقاء أن تقولوا، والمعنى على ذلك، جاءكم رسولنا يبين لكم كراهة أن تقولوا، أو اتقاء أن تقولوا، وقد اختار هذا التقدير الزمخشري.

والحق عندي: أن الآية الكريمة واضحة، ومدلولها بين، لا إبهام فيه، والمراد منها جلي، وهو قطع العذر عليهم وإغا هذه التقديرات تخريجات نحوية لتستقيم قواعد النحو، لا ليستبين معنى الآية، فهي بيّنة واضحة.

والبشير: المبشر الذي يدعو إلى الحق، ويبين الثمرات الحسنة لمن تبعه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يبين أن المصالح تتحقق فيما يدعو إليه، وأن العزة الحقيقية تكون لمن اتبعه، والحياة الكريمة الفاضلة تكون لمن أخذ به، وفي الآخرة يبين جزاء الإحسان من جنات تجري من تحتها الأنهار، ونعيم مقيم لا يبلى، والنذير هو الذي يبين العواقب السيئة لمن يخالف الحق، إذ يكون في اضطراب لا اطمئنان معه، وانزعاج لا أمن معه، ويعيش في آثام مبطئة، وأوزار مثقلة، وفي الآخرة يكون العذاب الأليم، والمقت والسخط من الله تعالى.

و«من» في قوله تعالى: ﴿مَنْ بَشِيرٌ﴾ لتأكيد النفي، والتنكير في بشير ونذير للتصغير لا للتكبير، وإنما كان للتصغير لأن النفي بعمومه شامل، والمعنى: ما جاءنا أى بشير ولو صغيرا، ولا نذير ولو كان ضئيلا، فقد حرمنا من الهداية وما حرموا منها.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ الفاء هنا تفصح عن كلام مقدر قبلها، قد يكون شرطا، وقد يكون غير شرط، والمعنى لا عذر لكم، وقد قطع السبيل عليكم، فقد جاءكم الرسول الذى أرسلناه مبشرا بالحق وغايته وثمرته فى الدنيا والآخرة، ومنذرا من يرتكبون المعاصى بالهوان وسوء العقبى، والاضطراب فى الدنيا، والعذاب الأليم، فعليكم أن تطيعوا، ولا تحسبوا أن الخير أمانى تتمنى، من غير عمل يعمل.

لقد روى فى السنة عن ابن عباس أنه قال: «دعا رسول الله ﷺ يهود، فرغبهم وحذرهم فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عباد، وعقبة بن وهب: «يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله لتعلمن - أنه رسول الله ﷺ لقد كنتم تذكرونه قبل بعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال وهب بن يهوذا: إنا ما قلنا لكم هذا وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده. فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية».

وسواء أصح هذا سببا للنزول أم لم يصح، فإن الآية قد سقت لقيام الحجة عليهم فيما ينكرون، وأنهم مأخوذون بما يدعون إليه، فإن قاموا بحق الإسلام، واستجابوا للرسول ﷺ فقد نجوا، وإلا فقد هلكوا، والتنكير هنا للتعظيم فى شأن الرسول ﷺ، ولتعظيم بشارته وإنذاره، والمعنى قد جاءكم بشير ونذير هو أعلى المبشرين المندرين، لأنه خاتم النبيين؛ ولأنه آخر لبنة فى صرح النبوة، ولأن تبشيره وإنذاره قائمان إلى يوم القيامة، فلا نبوة بعده، ولا وحى ينزل على أحد من بعده فرسالته خالدة باقية، وبشير ونذير وصفان، وقد عطف ثانيهما على الآخر لتغايرهما فى المعنى والمؤدى وإن كانا وصفين لشخص واحد، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [البقرة] وكان التعدد لمعنى آخر؛ لأن التبشير عمل غير الإنذار، وكلاهما وظيفة النبوة، فكان العطف بالواو لهذا المعنى، فليسا وصفين ذاتيين ولكنهما وظيفتان متغايرتان للرسالة.

وإن هذا الخطاب لأهل الكتاب وبخاصة اليهود مع ما فيه من بيان الحقائق، وضع الاعتذار فيه تهديد، وفيه إشارة لسلطان الله تعالى؛ ولهذا ختم الآية الكريمة بهذا النص الكريم: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

كان هذا ختام الآية الكريمة، وفيه إشارة إلى أمور ثلاثة:

أولها - أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يختار الرسل، ويختار معجزاتهم، وعلى ذلك لا يصح لأحد أن يدعى أنه رسول، ولا يأتى أحد من بعده إلا إذا أخبر هو عن إرادته العلية، كما هو الشأن بالنسبة لمحمد ﷺ أما موسى عليه السلام، فلم تكن رسالته خاتمة الرسائل، ولو كان حيا ما وسعه إلا اتباع محمد.

ثانيها - أن تغير المعجزات فى دائرة قدرة الله تعالى، فهو خالفها، وهو الذى يختارها بحكمته بما يناسب كل رسول، وليس لمن كانت الرسالة موجهة إليهم أن يختاروا على الله تعالى، فهو المرید المختار، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثالثها - أن الله تعالى هو وحده القادر على تنفيذ ما أمر به رسوله من تبشير وإنذار، فهو المعطى، وهو المعاقب، وهو المانع وهو المانع، وسيكون العقاب الشديد نازلا بهم إن عصوا، وليس بأمانيتهم ولا أمانى أهل الكتاب.

اللهم اغفر لنا ونجنا من عقابك، ولا تحرمنا من رحمتك وعفوك إنك أنت العفو الغفور.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا
وَأَتَّخَذَكُمْ مَالًا يُؤْتِي أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ يَنْقُومِ أَذْخُلُوا
الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ
فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ
وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾

فى الآيات السابقة بين الله تعالى لـجاجة أهل الكتاب فى عنادهم وطغيانهم، ونقضهم العهد الذى وثقت عليهم، ولَعَنَ الله تعالى لهم وطردهم من رحمته، ومكان العز لهم، وأشار إلى أن محمدا ﷺ لا يزال يرى طائفة من أخلاف الحاضرين تسير على خطة السابقين من خيانة، وتظهر بما اتسموا به من قسوة جعلت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وذكر سبحانه للنبي ﷺ ما كان منهم لنبي الله موسى عليه السلام الذى أجرى الله تعالى على يده إنقاذهم من فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، ويسومهم سوء العذاب، ولقد قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى فى معنى هذا:

«وهذا من تعريف الله لنبيه محمد ﷺ بتمادى هؤلاء اليهود فى الغى، وبعدهم عن الحق، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم، وبطء إنابتهم إلى الرشاد مع كثرة نعم الله عندهم، وتتابع أياديه وآلائه عليهم، مسليا بذلك نبيه محمدا ﷺ، عما يحل به من علاجهم، وينزل به من مقاساتهم فى ذات الله تعالى، يقول الله تعالى له ﷺ: لا تأس على ما أصابك منهم، فإن الذهاب عن الله تعالى والبعء عن الحق من عاداتهم وعادات أسلافهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذا النص وما يليه فيه عزاء للنبي ﷺ ليصبر على ما يصيبه من المشركين وأهل الكتاب عامة، ومن اليهود خاصة، ففيها بيان لما أصاب موسى عليه السلام، وهو من أولى العزم من الرسل، في سبيل الدعوة، مع ما أجراه الله تعالى على يديه من نعم وآلاء، ومع ذلك جنبوا عندما دعاهم إلى الحق، وكان منهم أعداء له، فمهما ينزل بالنبي من الكفار عامة واليهود خاصة يجب أن يصبر عليه، صبر المتوقع له، الذي ينتظره، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف].

ومعنى النص الكريم: اذكر يا محمد حال موسى مع قومه، بعد أن رأوا الآيات المحسوسة، وبعد أن نزل عليهم من النعم والآلاء، وحال قومه معه. لقد دعاهم إلى الجهاد بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ابتداءً بالنداء بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ تذكيراً لهم بما يربطهم من رابطة الدم والقرابة التي تجعلهم منهم، يهمهم ما يهمهم، ويسعده ما يسعدهم ويعزه ما يعزهم، فوق أنه رسول الله تعالى إليهم، وهو بهذا يقربهم إليه، ليقرب إلى نفوسهم، والتذكير كان بنعمة الله تعالى عليهم التي توجب عليهم الطاعة، وقد ذكر سبحانه وتعالى نعمًا ثلاثًا بقوله تعالى:

﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ نعم ثلاث بينات واضحات، فالنعمة الأولى أنه سبحانه جعل فيهم أنبياء، أى أنه سبحانه بعث فيهم أنبياء منهم يسهّدونهم ويرشدون، وكانوا كمصاييح فى ديجور الظلام، ونورا فى عمياء الضلالة، ولا منة أجل من الهداية والسير فى طريق الحق، ولا نعمة أشد من نعمة الضلالة والسير فى طريق الفساد.

والشكر فى قوله تعالى: ﴿أَنْبِيَاءَ﴾ للكثرة، اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء كثيرين، ويكون ما اختصوا به هو كثرة الأنبياء قبل موسى وبعده، ولا يقال: إن الأنبياء كانت فيهم وحدهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر] ويقول سبحانه: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ

رَسُولًا ﴿١٥﴾ [الإسراء] والنعمة الثانية عبر سبحانه عنها بقوله تعالت كلماته: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

ويلاحظ أنه في النعمة الأولى قرر سبحانه وتعالى أنه جعل فيهم أنبياء، أي جعل بعضا منهم أنبياء، أما النعمة الثانية، فقد قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي لم يجعل الملك في بعضهم، بل جعلهم جميعا ملوكا، ولقد أول ذلك بعض العلماء بأن المراد جعل فيهم زعماء منهم مسيطرين على أمورهم، موجّهين لشئونهم، كما طلبوا ذلك من بعد، فقد قال الله تعالى عنهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة].

والمراد أن يبعث عليهم كئيبا يتبعونه في القتال، ويظهر أن ذلك كان منهم من بعد موسى ومن قبله، والقائد إذا كان من الشعب أو من الجماعة كانوا جميعا ملوكا ومسيطين على أمورهم؛ لأنه ينفذ إرادتهم، ويسير مع إحساسهم، ويعمل لمصلحتهم ما ظهر منها وما بطن.

وقد يفسر الملك بأنه خروجهم في عهد موسى من ربة العبودية التي فرضها عليهم فرعون، فقد صارت لهم إرادة حرة، وتوجيه لعامة أمورهم، واختيارهم لحكامهم، وبذلك صاروا ملوكا، وفوق ذلك قد أوتوا رغد العيش وصاروا أحرارا في بيوتهم، بعد أن كان فرعون يذبح أبناءهم، ويستحيى نساءهم، وفي الآثار أن الرجل إذا كان له مايكفيه وأهله بالمعروف كان ملكا. سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم، قال ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء،

فقال إن لى خادما، قال: فأنت من الملوك، وقد روى أن النبی ﷺ قال: «من كان له بيت وخادم فهو ملك»^(١) قد آتى الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل الحرية، ومنع ذلهم، ومنحهم رغد العيش، وبذلك جعلهم ملوكا بموسى عليه السلام.

النعمة الثالثة - هى النعم التى أفاضها الله تعالى عليهم وقد عبر سبحانه وتعالى عنها بقوله تعالى حاكيا ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

والعالمون: جمع أريد به العقلاء من أهل هذه الأرض، ويفترق عن مفردة بأن المفرد يطلق على كل من هو على ظهر الأرض أو فى باطنها من جماد ونبات، وحيوان وإنسان، بل إنه يشمل الأرض، والسموات قاصيها ودانيها؛ ولذلك يقول العلماء: إن المفرد هنا أعم من الجمع؛ لأن الجمع لا يشمل إلا العقلاء، بينما المفرد يشمل كل شىء، والمفرد هو العالم.

وقد قال العلماء: إن المراد هو العالمون فى زمانهم، أما من جاء بعدهم، فقد أعطاهم الله تعالى ما هو أكثر وأبعد أثرا، وذكر الزمخشري هذه النعم، فقال: ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر، وإغراق العدو، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ويصح أن يضاف إلى ذلك إنقاذهم من أذى فرعون.

وهذه نعم منها ما أخذها غيرهم ومنها ما اختصوا بها كفلق البحر اثنى عشر فرقا كالطود العظيم، وإنزال المن والسلوى، فهذه قد اختصوا بها دون العالمين، وإن لم يكن أكبر مما أعطاه غيرهم من نصر مؤزر.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ كان تكرار النداء من موسى عليه السلام لعظم التنبيه، وخطر ما يدعوهم إليه، وعظم شأنه، وكان تكرار كلمة «يا قوم» للإشارة إلى أن فيما يطلبه منهم عزهم جميعا ورفع أقدارهم، وقد قيلت أقوال كثيرة فى الأرض المقدسة، وقد اتفقوا على أن معنى

(١) رواه ابن جرير الطبري فى تفسيره (ج ٦، ص ١٠٨) عن زيد بن أسلم.



التقديس البركة والنماء، فهي مباركة، ولكن ما هي هذه الأرض التي عناها موسى عليه السلام بطلبه، وأصح الأقوال وأولاها هو ما قاله ابن جرير الطبري إذ قال: «وأولى الأقوال عندي بالصواب أن يقال هي الأرض المقدسة، كما قال نبي الله تعالى موسى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض لا تدرك حقيقته إلا بالخبر، ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به، غير أنها لن تخرج من أن تكون الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر، أي أنها تشمل سيناء والشامات كلها بما فيها فلسطين والأردن ولبنان».

ولا شك أن هذا الكلام جدير بالأخذ؛ لأن هذه الأرض المقدسة طُلب منهم أن يدخلوها بعد أن اجتازوا البحر الأحمر، وعبروه إلى سيناء، وسمى بعضها الوادي المقدس، كما قال تعالى مخاطباً موسى: ﴿... إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه] وقد خصصها الأكثرون بأرض إيلياء بيت المقدس وما حوله.

وقد قرر الله سبحانه أنه كتب لهم أن يدخلوا بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وهنا نجد المفعول غير مذكور، إلا أن المحذوف قد وجد ما يدل عليه، والمعنى كتب لكم أن تدخلوها، أي قدر لكم أن تدخلوها، وفرض عليكم دخولها لإنقاذكم من الأهوال التي نزلت بكم في أرض مصر من فرعون وأعدائه، وقد تعدى فعل كتب باللام، ولم يتعد بعلی للإشارة إلى أن ما فرضه عليهم إنما هو لأجلهم، ولحفظهم، وللإشارة إلى أنه واقع لمنع ضياعهم.

ولا يصح أن يقدر المفعول ضميراً، كما نهج بعض المفسرين، فيكون تقدير القول «كتبها لكم»، لأن مؤدى ذلك أن تكون لهم دائماً، مع أن النص الكريم لا يقتضيه ولا يصرح به، إذ الذي يصرح به أنه سبحانه قدر لهم أن يدخلوها، لا أن يكون قد كتبها وسجلها لهم.

وقد تمسك شذآب اليهود بأن الله تعالى قد كتب لهم أرض الميعاد، وأن ذلك مذكور في الكتب المقدسة عندهم، والحقيقة أن الله تعالى كتب عليهم أن يدخلوا بعد أن خرجوا مصر ليجدوا فيها مأوى لهم، وإنما الأرض لله يرثها عباده الصالحون، وليسوا منهم.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ توقع موسى عليه السلام أن يتخاذلوا إذ يدعوهم إلى العزة والنصر، فنبههم إلى ما يؤدي إليه التخاذل عن الدخول، وهذا التعبير «ارتد على دبره»، كتعبير «نكص على عقبيه»، وكتعبير «ولوا الأدبار» استعارة تمثيلية فيها تشبيه حال من يرجع عن الجهاد بعد أن توافرت أسبابه بحال من يتراجع سائرا بظهره إلى الوراء بدل أن يسير بمقدمه إلى الأمام، وهذا التعبير يصور قبح التخاذل حسا ومعنى.

ولقد كان رجوع بنى إسرائيل - إذا لم يعملوا على دخول الأرض المقدسة - أن يعودوا إلى حكم فرعون، ويخسروا ما كسبوا من عزة وكرامة وحرية ويذهب عنهم، فإن البقاء على العزة يحتاج إلى مشقة الحصول عليها، ولئن ارتدوا عن العزة بعد نيلها، فإنهم الخاسرون، إذ لا يرضى بالعذاب الهون إلا الآخسرون.

وإن بنى إسرائيل كانوا قد ضعفت همتهم، وماتت عزائمهم؛ ولذلك أجابوا دعوة العزة بقولهم:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودُكُم بِأَلْسِنَةٍ حَرْشَةٍ لَّا تَخَافُهَا﴾ صح ما توقعه موسى عليه السلام منهم، وما نهاهم عنه؛ إذ إن روح التردد والهزيمة قد ملك قلوبهم، واستولى على نفوسهم، فقرروا له أنهم لن يدخلوا؛ لأن فيها قوما جبارين، والجبار فى اللغة يطلق على الطويل القوى، والمتكبر، والعاتى، وهو مأخوذ من نخلة جبارة إذا كانت طويلة لا ينال ثمرها، وقد جاء فى لسان العرب (الجبار من النخيل، وهو الطويل الذى فات يد المتناول، ويقال جبار إذا كان طويلا عظيما قويا تشبيها بالجبار من النخل) وجاء فى مفردات الراغب أن الجبار من جبر، وهو الإصلاح بقهر وقوة.

ويكون على هذا معنى جبارين أنهم قوم غلاظ شداد عندهم قدرة على القهر، وقد قيل فى الأخبار أنهم بنو عناق الذين يسكنون أمامهم فى أدنى الأرض المقدسة إليهم، وهم أولو قوة، وأولو بأس شديد ولعلمهم الذين قال تعالى فيهم:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝﴾ [الإسراء].

امتنع بنو إسرائيل عن القتال وأكدوا المنع بثلاثة تأكيدات:

أولها - فى ندائهم بقولهم يا موسى فإن ذلك النداء فيه نوع من التذليل والاستغاثة، ليسكت عنهم.

ثانيها - وصفهم لخصومهم بأنهم جبارون أى أقوياء قاهرون، وأول الوهن الذى يعترى النفوس أن يشعر المجاهد بضعفه أمام خصمه.

ثالثها - أنهم أكدوا النفى بقولهم «لن ندخلها» فهذا التعبير بـ «لن» فيه تأكيد للنفى، وجعل غاية النفى أن يخرج هؤلاء منها، وهم أقوياء فمن يخرجهم، فكأن هذا نفى مؤبد. وهم لا يريدون قتالا، ولذلك قالوا من بعد ذلك النفى ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

وهذا يدل على أنهم لا يريدون قتالا، بل لا يريدون دخولا؛ لأن احتمال خروجهم بعيد؛ ولذلك كان التعبير بأن الشرطية التى تفيد الشك فى الخروج، والتعبير بالوصف فى قولهم: ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ يدل على إرادة الدخول من غير عمل يعملونه، ومن غير معاناة ومجاهدة.. اللهم هب المسلمين العزة والقوة وأبعد عنهم الوهن الذى هو داء الضعفاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ لَنَا نَدَّ خُلْهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَآذْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ



الكلام موصول في شأن بنى إسرائيل عندما طلب إليهم موسى -عليه السلام- أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله عليهم أن يدخلوها، فقد أجابوا راهبين خائفين بأن فيهم قوما أشداء عمالقة، وأنهم لن يدخلوها ما دام هؤلاء، وهم يتكلمون على الله تعالى في إخراجهم، كأن الله تعالى يخرجهم من غير عمل يعملونه وذلك لأن خنوعهم لحكم فرعون أمات فيهم روح الهمة والنخوة والمغالبة، ولأنهم أحرص الناس على الحياة، أى حياة كانت، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...﴾ [البقرة] ومع هذا التخاذل في جماعتهم كان فيهم من يريد أن يتقدم، ولكنهم نادرون، وليسوا كثيرين؛ ولذلك قال الله فيهم:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا﴾ هذان رجلان من بنى إسرائيل أعطيا نعمة الصبر وقوة الإيمان، قد خالفا الذين قالوا: لن ندخلها حتى يخرجوا، وقد ذكر المفسرون اسم الرجلين، كما جاء في التوراة، والآية لا تحتاج في فهمها إلى اسميهما، ولكن تحتاج إلى معرفة أوصافهما، ومؤدى قولهما، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى لهما وصفين: أحدهما - أنهم من الذين يخافون، وثانيهما - أن الله أنعم عليهما.

أما الأول - فقد قال تعالى فيه أنهم «يخافون» ولم يذكر الأمر المخوف، ولذلك كان للعلماء فى تقدير المفعول تخريبان: أحدهما - أن يقدر المحذوف فى الذكر هو الله سبحانه وتعالى، والمعنى يخافون الله ويتقونه، ويرجحون تقواه، والخوف من عصيانه على الخوف من أعدائه، ولو كان ذوى بطش شديد، أو جبارين فى الأرض، فكل قوة مهما عظمت تصغر بجوار قوة الله تعالى. والتخريج الثانى - أن يكون المعنى يخافون الأعداء ويقدرّون قوتهم، ولكن أنعم الله تعالى عليهم بطاعة الله تعالى.

وذكر الزمخشري وجها آخر، وقد تبعه فيه الكثيرون، وهو أن المراد من الذين يخافون هم بعض الجبارين، والاسم الموصول موضوعه الجابرة، والضمير محذوف يعود إلى بنى إسرائيل، ويكون المعنى على ذلك أن رجلين من الجبارين الذين يخافهم بنو إسرائيل ويرهبونهم، قالوا ادخلوا عليهم، ويكون على هذا التفسير معنى أنعم الله عليهما أنه أنعم عليهما بنعمة الإيمان.

وقد رجح ذلك الزمخشري بأمرين: أولهما - أن هناك قراءة بضم السيء «يُخَافُونَ»^(١) وهذا يتعين أن يكون المراد اثنين من الجبارين، وإحدى القراءتين تكون مفسرة للأخرى، والثانى - (أنعم الله عليهما) فإن الظاهر منها فى هذا المقام هو نعمة الإيمان، وذلك لمن يكونون غير مؤمنين وقد صاروا مؤمنين، ولكن ذلك الأمر غير مؤكد؛ لأنها ليست مقحمة على التفسير الأول، بل لها معناها، وهو أن الله أنعم على الرجلين اللذين قالوا الحق من بنى إسرائيل بنعمة الصبر، وقوة العزيمة والهمة، فوق نعمة الطاعة وتجنب المعصية.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾. هذه مقالة الرجلين اللذين أنعم الله تعالى عليهما فيما حكى الله تعالى عنهما، أراد ذانكم الرجلان أن يزيلا خوف بنى إسرائيل من أهل هذه الأرض إذ إنهم أجسام ليس فيها قلوب قوية،

(١) ليست فى العشر المتواترة.



وقد ذكر ابن جرير الطبري ما يصور أنه مقاتلتهم، فقال: «قالوا لجماعة بنى إسرائيل: إن الأرض مررنا بها وجسناها صالحة رضيها ربنا فوهبها لنا، وإنها لم تكن تفيض لبنا وعسلا، ولكن افعلوا واحدة، ولا تعصوا الله ولا تخشوا الشعب الذين بها، فإنهم جنباء مدفوعون في أيدينا، إن حاربناهم ذهب منكم، وإن الله معنا فلا تخشوهم».

ويظهر أن هذه العبارات مصدرها إسرائيلي؛ لأنها تتقارب مع نصوص التوراة التي بأيديهم، ومهما تكن صحة النسبة في هذه الأقوال، فإن الآية الكريمة لها مدلولها بعباراتها التي حكاها سبحانه وتعالى عنهم، فإن معنى قوله تعالى:

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أى فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ادخلوا مفاجئين لهم فاتحين عليهم الباب، فإنهم عندئذ يصيبهم الذعر، وتأخذهم الفجاءة، ويتحIRON، فتأخذهم السيوف، وتكونون أنتم الغالبين، وفي العبارة ما يفيد تأكيد الغلب؛ لأنه عبر عن الغلب بالجملة الاسمية، وإن التي تؤكد القول.

ولا شك أن غزو قوم في دارهم فجاءة يؤدي إلى هزيمتهم، ولقد قال في ذلك بطل الحروب على بن أبى طالب: «ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا».

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قوة النصر تعتمد على أمرين: أولهما - عمل حاسم وعزم أكيد، وثانيهما - تأييد من عند الله، وتوكل عليه وتفويض إليه، وقد بين الرجلان كما حكى سبحانه عنهما العمل الحاسم، وهو الدخول المفاجئ، والثاني هو التوكل على الله تعالى وحده حق التوكل، وألا يعتمد على أحد سواه، وألا يرجى النصر إلا منه، ولذلك قدم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ أى على الله وحده توكلوا أى هو وحده النصير: ﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران]. وإن التوكل الحق لا يكون إلا من قلب مدع مؤمن بالله مخلص له، مجيب لما يأمر وينهى؛ ولذلك قرن التوكل بقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وفى ذلك إشارة إلى أن مقتضى الإيمان أن يعملوا ويحيوا، وأن يدعوا وساوس الخوف، وأن يشعروا بأن الله معهم، وهو فوق كل جبار، وفى ذلك حث على العمل الحاسم، والعزيمة الثابتة.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نُدْخِلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ بعد تلك العبارات القوية المثيرة للهمم والعزائم التى نادى بها من الصفوف رجال منهم أو من أعدائهم، أنعم الله عليهم أجابوا بإجابتهم الأولى، وهى أنهم لن يدخلوا فيها، حتى يخرجوا منها، ولكنهم زادوا على الإجابة الأولى تأكيداً، وتهجماً على مقام الله سبحانه وتعالى. أما التأكيد فهو إضافة كلمة «أبداً»، وإذا كانت كلمة «لن» فيها معنى تأكيد النفى فكلمة «أبداً» فيها معنى تأييد النفى ما داموا على قيد الحياة.

﴿... فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) وهذه الكلمة فيها استهانه بأمر الطاعة، واستخفاف بمقام الألوهية والرسالة، وخروج عن معانى الإيمان السليم؛ لأن الله تعالى لا يعمل أعمال البشر ويقاتل، ولكن ينصر ويخلق والقتال من أعمال العباد، كما يقول رجل لآخر: يأمرك الأمير بالذهاب بالجند والقتال، فيجيبه: قاتل أنت والأمير، ففى ذلك استهزاء بالأمير، وخروج عليه، وفى كل ذلك استخذاء من قوم جناء؛ ولذلك ختموا كلامهم بالقعود عن القتال والثبات فى أماكنهم: ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، وإن هذا الوصف الذى وصفوا به أنفسهم يدل على الخسة؛ لأن القعود غير البروز، والقاعد مخذل، والمجاهد عامل والقعود فى وقت وجوب النشاط هذا للعمل الصالح هو وصف ذم، كما قال وصفا لأمثالهم: ﴿... وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) [التوبة]. وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً...﴾ (٩٥) [النساء]

ويقول الخطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(١)

فهم قد وصفوا أنفسهم بأقبح ما توصف الجماعات الطامحة:

ولقد أحس موسى القوى الأمين بالعبء الذى ألقى على هذه الجماعة وتخاذلها عن حملة، فتقدم إلى ربه بالمعذرة يرجو بها المغفرة، فقال ما حكاها الله تعالى عنه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ ابتداء موسى عليه السلام قوله بالاتجاه إلى ربه الذى خلقه ورباه وكون جسمه ونفسه، وذلك بالضراعة إليه، وبيان أنه أعلم بحاله، وأنه فى طاعته لا يخرج عنها، ثم قرر المعذرة، وهو أنه لا يملك من أمرهم شيئا، وإنما الأمر كله إلى الله تعالى، وأنه لا يستطيع أن يجعل من ضعف نفوسهم قوة، ولا من استخذائهم عزة، ولا من تقاعدهم همة، ولا يملك إلا نفسه وأخاه، فهو لا يضمن إلا إياهما، وهما وحدهما لا يملكان الدخول إلى هذه الأرض، والمراد بأخيه سيدنا هارون عليه السلام، وقد أكدت المعذرة بـ «إِنَّ» وبالقصر، وعبر عن هارون بأخيه للإشارة إلى قوة إحساسه بأنه معه فى طاعة ربه وعدم عصيانه فيما أمر^(٢).

وإذا كانت تلك حاله، فهى مفترقة عن حال الذين معه؛ ولذلك الافتراق عنهم ما حكاها الله تعالى: ﴿فَأَفَرُّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

(١) فى البيت أمران يراد منهما التوبيخ، أو التحضيض. ومعنى الطاعم الكاسي: من كفى طعامه وكساءه، فاكفى ولم يسع للمكارم.

(٢) عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنَ الْمَقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا لِأَنَّهُ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَدَلَ بِهِ؛ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: «اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا» وَلَكِنَّا نَقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ»، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهَهُ وَسَرَّهُ، يَعْنِي قَوْلَهُ.

رواه البخاري: المغازي (٣٩٥٢).

الفرق معناه الفصل بين شيئين أو شخصين فصلا حسيا أو معنويا، كما قال تعالى: ﴿... لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...﴾ (البقرة).

والمراد هنا والله أعلم؛ اجعل بيننا وبينهم فارقا في الحكم وهو العدل بيننا وبين هؤلاء الفاسقين؛ لأننا لا نرضى بما يفعلون، ولسنا معهم في الإحساس وهذا التخاذل، فلسنا منهم في هذا، وليسوا منا في شيء وافصل بيننا وبينهم في الآخرة، كما فصلت في الحكم بيننا وبينهم في الدنيا، والمؤدى من قول سيدنا موسى هذا هو أنه يبرئ نفسه منهم، ومن عملهم وخذلانهم، والفاسق هو الخارج المنفصل بالحس أو المعنى، والمعنى: افرق بيننا وبين هؤلاء الذين خرجوا عن الطاعة، وعن مناط العزة، ورضوا بالذلة والهوان.

ولا شك أن هذه الجملة تدل على ألم موسى، واستنكاره لما هم عليه، فقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

القول هنا هو قول الله تعالى، كما يدل على ذلك الحكم الذى حكم به، فإنه لله تعالى وحده، وكما يدل عليه من بعد ذلك قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ هى فاء الإفصاح، أى التى تفصح عن شرط مقدر، والمعنى: أنهم إذا كانت حالهم كذلك من الخور، وضعف العزيمة، والخوف من أعدائهم فإنهم لا يدخلون الآن لضعف بأسهم وشكيمتهم، فإنها محرمة عليهم تحريما واقعا، لا تحريما حكما تكليفيا يتيهون فى الأرض، أى يكونون فى الأرض تائهين متحيرين يضطرب عيشهم وحياتهم، ولا يستقر مقامهم، بل يعيشون فرادى هائمين على وجوههم، حتى يتربى البأس فى قلوبهم.

هذا خلاصة معنى النص الكريم، وهو يدل على أن الله تعالى بسنته التى سنّها سبحانه وتعالى فى الكون لا يمكنهم من أن يدخلوها إلا إذا غيروا، وبدلوا حالهم من بعد الضعف قوة، ومن بعد الخور عزيمة: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ



حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١١﴾ [الرعد]

إن بنى إسرائيل من بعد أن بعث الله تعالى إليهم من أنفسهم سيدنا موسى عليه السلام كانت كل انتصاراتهم على فرعون بأمور خارقة للعادة، وحياتهم كلها لا تخلو من خارق، فقد أنقذوا بالبحر ينفلق اثني عشر فرقا، وشربوا الماء بالعصا يضرب بها الحجر فينبثق منه اثنتا عشرة عينا لكل إنسان مشربهم، ويشكون الجوع، فيجىء إليهم المن والسلوى. وبذلك استرخت نفوسهم، والله سبحانه وتعالى لم يجعل - فيما سنه في الكون - الأمم تعيش من غير كفاح، وطلب للعزة بجهد وعمل. فكلفهم سبحانه أن يدخلوا الأرض المقدسة، وهو يعلم حالهم، وبماذا يجيئون، وكان لا بد أن يربيههم على الكفاح بعد الاسترخاء، وعلى طلب العزة بأنفسهم بعد الاستخذاء، فكان لا بد من البلاء بتركهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، ويعيشون في الأخيبة ويتنقلون طلبا للماء والكلأ، ويحيون حياة خشة.

ولقد قرر ابن خلدون في مقدمته إن الأمم كلما تحضرت استرخت منها العزائم حتى يغزوها من يعيشون في شطف العيش ويسيطرون عليهم، حتى يصيبهم الرفه، ويفكها في نعيمه، فيصيبهم ما أصاب من سبقوهم.

كان التيه الذي عاش فيه بنو إسرائيل أربعين سنة لتربى فيهم قوة البأس والعزيمة، ويستهيئوا بالصعاب، فيذللوها ويتغلبوا عليها: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ هذا تطمين لموسى عليه السلام، وبيان استجابة معذرتهم، وإزالة لما علق بنفسه من هم بسبب فعل قومه، وعصيانهم لأمر ربهم، ومعنى أسى حزن حزنا عميقا، يحدثهما وغما، ومن ذلك قول امرئ القيس:

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

اللهم هب لأمة الإسلام القوة والعزة والمنعة، وطلب إعزاز الإسلام بالجهاد بالنفس والمال، وألا يرهبوا عدو الإسلام، ويطيعوا قول الله تعالى ويستمعوا إليه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ
لِنَقْتُلَنَّكَ مَا آتَاكَ بِإِسْطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ أَبَايَ مِمَّا وُاعَدَكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

هذا النص القرآني فيه تعليل لما كان من اليهود من قبله من بسط أيديهم بالأذى للنبي ﷺ ونقضهم المواثيق، وقتلهم للنبيين، وادعائهم الكاذب الفضل على الناس، فإن علة ذلك هو الحسد الكمين في نفوسهم والحسد قديم في الخليقة قدم الإنسان فيها، فهذا أحد ولدي آدم يحسد أخاه، حتى في العبادة التي تقتضي تنقية النفوس وتقوى القلوب، وذلك دليل على كمون الحسد في بعض النفوس مما لا علاج له إلا الصبر على الذين تصيهم هذه الآفة، كما صبر الأخ الذي قتله أخوه، فإذا كان في النصوص بيان لآفة الحسد، ففيها أيضا بيان لحلية الصبر والصفح والرضا بما يقدره رب العالمين من أذى المؤذنين، والإخلاص لله تعالى. وكل هذا فيه عزاء للنبي ﷺ يدعو إلى الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل].

وكما أن في النص تعليلا لما سبقه ففيه تمهيد لما يلحقه، فإنه سيجيء بعد ذلك عقوبات رادعة للذين يعيشون في الأرض فسادا، ويخرجون، ويقتلون الأنفس البريئة، ويزعجون الأمنين بالسرقا والاختطاف، ففي هذا النص بين قسوة المعتدى ليتبين استحقاقه هو وأمثاله من عقاب ردعا وزجرا، ونكالا يمنع غيرهم من العبث؛ ولذلك كانت الآية التي أعقبت هذا النص فيها بيان لسببته في شرعية

العقاب الرابع، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٢٧] ﴿ابنا آدم، يقول المؤرخون وبعض المفسرين فيهما، كما جاء في التوراة: هما هابيل التقى، وقابيل الباغي، ويقول أكثر المفسرين: إنهما ولدا آدم من صلبه، ولكن الحسن من التابعين قال: إنهما من بني إسرائيل، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله تعالى من بعد: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ . . إلخ.

ولا يهمن أن نعرف من هما، ولكن الذى يهمن أن نعرف أن ما يومئ إليه النص من حقائق، والقصاص صادق وواقع، ولكن نترك ما تركه القرآن ولا نهيم فى إسرائيليات صادقة أو كاذبة، والنص القرآنى واضح فى مقصده من غير حاجة إلى ما يوضحه من خارجه، ويقول سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾. ومعناه اذكر خبر ابنى آدم ذكرنا متتابعاً منسقاً يشبه الكلام العظيم المثلو، وأصل التلاوة القراءة المتتابعة الواضحة فى مخارج حروفها، والمصورة للمعانى فى وقوفها، والمؤدى: أخبرهم بخبر الابنين بعناية، وأخبرهم بهذا الخبر الصادق خبراً قد لبسه الحق، وصار حليته، ومظهره وحقيقته، والنبا هو الخبر العظيم ذو الشأن الذى يستدعى دراسة وعناية، ولا شك أن خبر ابنى آدم (خبر له شأنه) بما فيه من قتل الأخ لأخيه من غير جريمة ارتكبت، ولا شر وقع، ولا اعتداء، بل بسبب العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، فما كان سبب الاعتداء إلا ذلك؛ ولذا ذكر سبحانه وقت الجريمة، وهو سببها، وباعثها، مما يدل على أن القلب الخبيث لا يدفعه فعل الخير المقبول إلا إلى الأذى الممقوت، فقال:

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أى اذكرهما ذكرنا حقاً صادقاً فى الوقت الذى قربا فيه قرباناً، وكانت نتيجة القربان تقبلاً حسناً من

أحدهما وعدم تقبل من الآخر، فكان من وراء ذلك الاعتداء الشنيع من الذى لم يقبل قربانه، والقربان العبادة التى يتقرب بها إلى الله تعالى، وهى تطلق فى أكثر أحوال العبادة على الذبائح التى يتقرب إلى الله تعالى بذبحها، كذبح الهدى فى مكة.

والتقبل معناه القبول بقوة من القابل سبحانه، فهو قبول ورضا وترحيب، وقد ذكر اللفظ فى الإثبات لمعنى القصد الطيب والنية الحسنة من الابن الصالح، وذكر اللفظ فى النفى بقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخِرِ﴾. للمقابلة بين النفى والإثبات؛ لأن قربان ذلك الآثم لم يقبل أصلا، فنفى منصب على أصل القبول، لا على وصفه.

وكان عدم قبوله لسوء نيته، ولنقص تقواه؛ ولأنه قصد الخبيث من ماله وأراد به التقرب؛ ولأنه قصد المباهاة والفخر، ولم يقصد وجه الله، ولأن قلبه متأشب بالآثام كما تبين من سوء فعله وخبثه، وعدم رحمته من بعد ذلك، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن أحدهما لم يتقبل قربانه، ولم يبين سبحانه كيف عرف أنه لم يقبل، ولقد ذكر العلماء كلاما فى هذا، فقل إن القربان تنزل عليه نار فتأكله، والآخر لا تنزل عليه نار، وقد علم القبول بهذه الأمانة، وقال آخرون: إن ذلك كان بوحي أوحى إلى نبي هذا الزمان، وعندى أن ذلك كان برؤيا صادقة أو بحال المتصدق فى نفسه، وقد علم من حاله أن تصدقه غير مقبول، وقد يكون بإخبار نبي الزمان إن كانا غير ولدى آدم الصليبين^(١).

وكانت نتيجة ذلك أن كان بين الأخوين تلك المجاوبات الكلامية ثم الجريمة الكبرى التى هى أعظم ما ظهر من جرائم فى الوجود الإنسانى، ولندكر المجاوبة بين التقى المؤمن العادل السمح، والفاجر الباغى الظالم الحاسد، قال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. تلك كلمة الظالم الآثم الذى خلا قلبه من كل شعور بالحق، فلم

(١) روى البخاري ومسلم عن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».



يشعر بالعدالة فى ذاتها، ولم يشعر بالرحم الواصلة بينهما ولم يشعر بحق الحياة التى خلقها الله تعالى وأودعها كل نفس ولم يشعر بحرمة الدم، وبأن القتل أعظم جريمة فى هذا الوجود الإنسانى، وقد أكد عزمته الآثمة، وإصراره عليها من غير خور ولا ضعف؛ ولذلك أكدهما أولا بالقسم المطوى فى القول، والذى تدل عليه اللام، وهى مؤكدة أيضا بنون التوكيد الثقيلة، وكانت المجابهة الآثمة لأخيه بذلك الخطاب المواجه، ولم يستر نيته، فكان التبجح السافر الذى أدى إليه الفجر فى القول، والإجرام فى العمل، والكسب الآثم.

وإن هذا يدل على تصميمه على القتل، وهذا النص الموجز يبين روح الإجرام فى المجرمين الذين يريدون السوء بالأخيار فى المجتمع، وكلما زاد خير الأخيار، أوغل المجرمون فى الشر والإيذاء، حتى أنهم ليستمرئون الشر، كما يستطيب الأخيار حب الخير، وإن هؤلاء آفة الجماعة الإنسانية، ومن تظهر مآثمهم منهم تحق عليه كلمة العقاب زجرا وردعا، وتهذيبا للمجتمع وتطهيرا له، فالذين يذهب بهم فرط رأفتهم إلى الاعتذار لهم آثمون فى حق جماعتهم، راضون بأن يعيش الشر فى قلوب الآثمين.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ تلك أول كلمة نطق بها التقى البر فى مجاوبة اعتداء أخيه، أو الجهر بنية الاعتداء، وهى فى ذاتها اعتداء، فقد قال كلمات أربعة، كل واحدة منها تنبئ عن إيمان مكين عميق، وتلك هى الأولى، وهذه الكلمة تفيد السبب فى القبول، وترشد أخاه إلى تطهير قلبه، وإلى الاتجاه إلى ربه، وإلى الاستشعار بخشيته، وفى تلك الكلمات الطيبة معان كريمة.

فهى أولا تفيد قصر القبول بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾ على المتقين، والقصر نفى وإثبات، أى أن التقوى هى سبب القبول، فإن وجدت كان القبول، وإن لم توجد انتفى القبول، وتفيد ثانيا أن عدم القبول إنما يكون من نفس المتصدق، لا من أمر خارجى فالجزاء على قدر النية، فالتقوى دائما من القلوب.

وتفيد ثالثا توجيه أخيه الفاسد إلى الإقلاع عن ذنبه بموضع الداء في قلبه، وأن عليه أن يُطَبَّ له، والتقوى التي اعتبرت سببا للجزاء الطيب، تتضمن خشية الله تعالى، وامتلاء القلب بطلب رضاه، وتتضمن اتقاء الذنوب والآثام، وتتضمن احترام حق الإنسان على أخيه الإنسان، فهي كلمة جامعة لكل معاني الفضيلة الدينية والخلقية والاجتماعية.

﴿لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لَتَقُتِلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ تلك هي الكلمة الثانية، وبسط اليد مذهبها بالاعتداء، ونرى في هذا النص قسما ينبئ عن الطيبة والخلق السمع في مقابل قسم ينبئ عن الشر ونية الأذى والتصميم عليه، وهذا يصور ما بين الأخيار والأشرار من تضاد، فهو يؤكد هنا سلامة القلب وسلامة العمل، أقسم الأول على القتل، وأقسم الثاني على عدم الرد^(١)، وقد أكد نفية بهذا القسم، وبالتعبير بالجملة الاسمية في جوابي القسم؛ لأن جواب القسم:

﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ وقد أكد النفي بأمور ثلاثة: أولها - التعبير بالوصف، فهو ينفي عن نفسه وصف بسط اليد لأجل الاعتداء؛ لأن ذلك ليس من شأنه ولا من رغباته، والثاني - التعبير (باليد) للإشارة إلى أن ما بينهما من رابطة الرحم الموصولة عنده تمنعه من أن يمد إليه يده بالأذى، والمؤكد الثالث - التعبير ﴿لَأَقْتُلَكَ﴾ فيه أن هذه الجريمة تنفر منها الطبائع السليمة، ولا ترضى بها العقول المستقيمة، وخصوصا إذا كان يريد قتله.

وقد أقسم الأول على الفعل فقال ﴿لَأَقْتُلَكَ﴾ وردد كلامه في نية الاعتداء بالفعل أيضا؛ لأن موضوع القول هو ذلك الفعل الذي كان ثمرة للنية الخبيثة من فاعله، أما النفي الذي كان من الشاب الطيب، فقد كان عن نفى الوصف، أي أنه لا يقع منه ذلك الفعل، ولا يمكن أن يقع.

(١) وهو القسم المفهوم من اللام الموطئة له في ﴿لَأَقْتُلَكَ﴾، و﴿لَنْ بَسَطَ﴾ أي: أقسم لأقتلك. أقسم لن.

ويشير الفقهاء بحثاً في هذا الموضوع، وهو حول ما قرروه من أن الدفاع عن النفس عند محاولة الجاني للقتل أمر مشروع لا يتجافى مع التقوى، ويقرر الحنفية أن الشخص إذا تأكد أنه مقتول إذا لم يدفع عن نفسه ولو بالقتل، يكون الدفاع واجباً حفظاً لنفسه، ويكتفى الأكثرون من الفقهاء بالقول بأن الدفاع يكون مشروعاً، ولا يكون لازماً، وسواء أكان هذا أم ذاك، فإنه ليس من التقوى أن يقف المجنى عليه مكتوف اليد لا يدافع.

وقد أجاب جمهور الفقهاء بأن التقوى في هذا المقام اختيارية، أى أنه يختار أى الطريقين. فإما أن يدفع الشر وإما أن يكون عبد الله المظلوم، ولا يكون عبد الله الظالم، وليس في كليهما ما ينافى التقوى، أما الحنفية الذين قالوا: إن الدفاع عن النفس واجب، فقد قالوا: إن السكوت واعتباره من التقوى كان شرعاً من قبلنا، أما شرعنا فهو واضح في قوله تعالى: ﴿... فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة] ونقول: إن موقف ولدى آدم خارج عن موضوع الخلاف؛ لأن موضوع الخلاف هو في دفع الصائل الذى يجىء ليقتل، فإنه يجب دفعه، حتى لا يستشري شره، أما هنا فأخ يهدد أخاه بالقتل، ولو أنه هدده بمثل ما هدده به لدخلا في ملحمة، ولا يدرى أيهما الغالب، ويكون هذا داخلاً في معنى قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول، فقال ﷺ: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١) على أن في الصبر أجراً وقد قال تعالى: ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل] فهذه القضية خارجة تاماً عن موضوع الخلاف، وخصوصاً أن الأمر بين أخوين، لا بين صائل يضرب بالسيف ابتداء من غير فرصة للموازنة والتفكير.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه هي الكلمة الثالثة، وهى تنبئ عن الباعث الذى جعله يقف ذلك الموقف السلبي ويتخلى حتى عن الدفاع عن نفسه، والباعث

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الإيمان.

عليه هو خوف الله تعالى، وفي ذلك إشعار لأخيه الذي يهيم بقتله بأن يقف موقفه ويخاف الله تعالى الذي يقبل الطاعات ويرد المعاصي، وهو عليم بكل ما في الصدور، وهو شهيد على حركات الجوارح والأعضاء والقلوب، لا يخفى عليه شيء في الأرض، وفي النص الكريم إشارات بيانية، يحسن التنبيه إليها:

الأولى - تأكيد خوف الله بذكر (إنَّ) المؤكدة للقول.

الثانية - ذكر الله تعالى جل جلاله بلفظ الجلالة، للإشعار بأنه هو وحده، صاحب السلطان على نفسه، ولا سلطان سواه فلا يدفعه غضب أو حب انتقام إلى مخالفة أمره.

الثالثة - وصف الله جل جلاله بأنه رب العالمين، أى منشئ الكون ومن فيه، وهو يتعهدهم بالنماء والتغذية والتربية، فقتل النفس التي حرم الله تعالى قتلها هدم لما بناه الله تعالى، وتخريب في الأرض، ونشر للفساد.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩) تبوء هنا معناها: ترجع ويلازمك الإثم ملازمة من يقيم في مكان ويبوء إليه، وهنا نتكلم عن معنى «إثمى وإثمك» روى عن ابن عباس أن المعنى إثمى أى إثم قتلى، فهى تشبه إضافة الفعل إلى المفعول، أى الإثم الذى ترتكبه فى شأنى بقتلك إياى، وإثمك الأصلى الذى عوق صدقتك عن أن تقبل، فترتكب إثمين، وتضيف إلى ذنبك الأصلى ذنباً آخر، فلا تكون قد خلعت نفسك من المعاصى، بل أركست نفسك فيها، وزدتها.

وهذا الذى نختاره وهو معنى مستقيم، وروى عن الحسن أن المعنى أن يحمل يوم القيامة ما عسى أن يكون التقى قد ارتكبه من إثم، فوق آثامه الأصلية.

والزمخشري يقول فى تفسير هذه الآية: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾.

أن تحتمل إثم قتلى لك لو قتلتك وإثم قتلك لى ثم يقول (المراد بمثل إثمى) وروى ذلك عن مجاهد، وإنى أرى فى هذا تكلفاً، والواضح هو ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه .

وهنا قد يسأل سائل أكان من التقوى أن يريد أن يتحمل غيره الأوزار، ونقول: إن ذلك بيان للنتيجة لامتناعه عن مقاومة أخيه، فهو إذ أراد الامتناع عن بسط يد الأذى لأخيه فكأنه أراد النتيجة المحتومة لذلك، وهى أن يبوء بإثم نفسه وإثمه، فإن إرادة السبب كأنها إرادة للمسبب .

وقد ختم كلامه السمع بتبصير أخيه بالنتيجة النهائية، وهى أن يكون من أصحاب النار الملازمين لها الذين لا يخرجون منها يوم القيامة، ثم يبصره بأن ذلك جزاء الظالمين، وأنه فى فعلته التى يهيم بفعلها، يكون ظالماً داخلاً فى زمرة الظالمين . . اللهم جنبنا الظلم وأهله، وإنك نعم المولى ونعم النصير .

فَطَوَّعَتْ

لَهُ نَفْسُهُ، قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُؤَارَى

سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَيِّلَتْنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا

الْغُرَابِ فَأُورَى سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

الآيات المتلوة استمرار فى بيان قصة ابنى آدم التى ضربها الله تعالى مثلاً للشر كيف يستحكم فى النفس ويتنصر على نوازع الخير والمحبة فيها، وإن فيها مغالبة بين الخير والشر بين أخوين، وكان الشر معتدياً، والخير مسالماً وكان الخير فى قلب الشرير ينازع الشر، حتى انتصر الشر فى قلبه، وقد كان أخوه الخير يرجو

أن تثور في قلب أخيه الشرير نوازح الرحمة والمودة والأخوة الواصلة، ولا تقطعها جفوة الحسد العارضة، وقد قال ﷺ: «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً، فخذوا من خيرهما ودعوا الشر»^(١).

ولقد تمت جريمة الأخ الآثم، ولكن بعد مجاوبات نفسية انتهت بانتصار الشر، ولذلك قال تعالى:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ هذا النص الكريم يدل على أمرين: أحدهما - أن قابيل الذي قتل أخاه، ولو أنه أكد عزمته على الاعتداء بقوله: «لاقتلنك» كانت نفسه يتردد فيها عاملان: الأول عامل الود والرحم الواصلة، والثاني عامل الحسد والضغن، وثانيهما - أن أخاه فيما ساقه من قول كان يريد أن ينمي في نفسه روح المودة والأخوة لتنتصر على الأخرى؛ ولذلك ما تحرك لمقاومته، بل تحرك لمراجعته ليشوب إلى نفسه.

ومعنى كلمة «طوَّعت» قال فيها مفسرو السلف معاني تدل على أن هناك مقاومة في داخل شعوره قبل أن يقع في الجريمة، وقد فسر مجاهد «طوَّعت» شجعت، وفسرها بعض التابعين بسهَّلت ووسَّعت، وبعضهم بزيَّنت وحسنت؛ وكلها يشير إلى أنه كانت هناك معركة في داخل نفسه بين الخير والشر، بين الإقدام على الجريمة، والإحجام عنها، حتى انتصرت، وقرأ الحسن بدل «طوَّعت» «طاوَّعت» وهذه الصيغة تدل على المشاركة، وهو يدل على معنى المقاومة؛ وقد صور السيد رشيد رضا في تفسير المنار معنى المغالبة في النفس تصويراً حسناً فقال:

«إن هذه الكلمة (طوَّعت) تدل على تكرار في حمل الفطرة على طاعة الحسد، الداعي إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصعب، فهي تمثل لمن يفهمها

(١) روى ابن جرير عن الحسن مُرسلاً، وعن بكر بن عبد الله مُرسلاً قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ لَكُمْ ابْنِي آدَمَ مَثَلًا، فَخُذُوا خَيْرَهُمَا وَدَعُوا شَرَّهُمَا» أورده السيوطي في الجامع ج ٢، ص ٢٥٨ (٥٣٧٩).

ولد آدم الذي زين له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام يفكر في كل كلمة من أخيه الحكيم، فيجد في كل منها صارفاً له عن الجريمة، ويدعم ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة، فيكر الحسد من نفسه الأمانة بالسوء على كل صارف من صوارف نفسه اللوامة، فلا يزالان يتنازعان، ويتجاذبان حتى يغلب الحسد ويجذبه إلى طاعته.

وإن في النص الكريم إشارة إلى هذه المعاني من حيث التردد، فقد عبر عن المقتول بقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾. والمعنى: أن الأخوة، والاطمئنان إلى القرابة كانا يعارضان دواعي القتل، وعبر عن الجريمة بقوله فقتله، مما يدل على أن التطويع للحسد بعد المغالبة ترتب عليه أقوى شر في هذا الوجود، وهو إزهاق النفس التي حرم الله قتلها من غير جريمة إلا أن يكون قبول الله لقربانه جريمة عند الحاسدين.

والنص القرآني مع كل ما سبق فيه إشارة إلى شناعة الجرم في ذاته من حيث الباعث عليه ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول، ومن حيث ذات الفعل، فإنه أكبر جريمة إنسانية في هذا الوجود، ولكل هذه المعاني أشار القرآن الكريم بأوجه تعبير، وأدق الألفاظ، وهو سر الإعجاز، وفيه بلاغة الإيجاز مع الوضوح، وإشعاع المعاني بالنور من ثنايا الألفاظ.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى فصار من الخاسرين بعد تلك الجريمة الكبيرة التي تحيط بها الشناعة من كل أطرافها، والتعبير بأصبح هياً لها المقام في الكلام؛ لأن «أصبح» تدل على أنه كان مدركا لما ارتكب عندما أشرق نور الصباح، كأنه وقت الحيرة أو إرادة الارتكاب في ظلمة من عقله وقلبه، وفي ديجور من الظلام يشبه ظلام الليل، حتى كان الصبح المنير الذي أراه الأمور على وجهها، وأدرك في ذلك الضوء الذي جاء عند الصباح مقدار الإثم فيما فعل.

والخسران الذي لحقه هو خسران القلب المؤمن إذا أريد بالمعاصي، وطمع عليه الشر، حتى غلبه، وأركس في مهاوى الشر بسبب ضغن نفسه، وامتلأ قلبه

بالحسد، وأحس بأنه خسر أخاه الطيب الطاهر العفيف، وأحس بغضب الله تعالى، وذلك هو الخسران المبين، وهكذا صار ممن غلبت عليه شقوته، وامتلات نفسه بالحسرة على سوء ما فعل.

وهنا إشارة بيانية، وهى فى التعبير بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فإن مؤداه أنه صار فى زمرة الخاسرين الذين كسبوا السيئات وأركست نفوسهم فى مهاوى الخسران، وأصبحوا، ولا منجاة لهم، ولا بقاء؛ لأنهم نزلوا إلى قاع الهاوية، بارتكاب أعظم الجرائم بإصرار وتصميم.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾ هذا الكلام يتضمن معانى سبقته، ولم يذكرها القرآن الكريم، لأنها تفهم من المعنى والسياق من غير حاجة إلى الذكر، ولا يدرك المعنى ولا يستقيم إلا بتقديرها، وذلك أن القاتل بعد أن ارتكب الجريمة، وأحس بالخسارة الشديدة التى نالته، لم يرد أن يترك أخاه تنهشه السباع، أو تنقره جوارح الطيور، ولا أن يترك جسمه ملقى، وألهم بالفطرة أنه لا بد من مداراة جسمه، وستره، وإبعاده عن الأنظار، لأنه بعد موته صار جسمه كله سوءة يسوء النظر إليها، ولا تألف الطباع السليمة رؤيته، فالمراد بالسوءة الجسم كله بعد موته؛ لأنه يسوء النظر، وخصوصا بعد أن تتحول حاله ويتعفن، وقد استيقظت الأخوة فى نفسه، بعد أن خبت أمدًا ارتكب فيه جريمته.

اتجه الأخ القاتل لمواراة جثة أخيه أى سترها، وقد أراد الله تعالى أن يعلمه ذلك، فبعث غرابا، ومعنى بعثه أنه أفهمه أن يفعل ذلك، وقد رأى ذلك الغراب الملهم غرابا آخر ميتا، وأراد أن يستره عن الأنظار، فأخذ يبحث فى أرض أى يثيرها ويحفرها برجليه، حتى أوجد حفرة تسع الغراب الميت، فوضعه فيها، فكان هذا إعلاما للقاتل بالطريق التى يوارى بها جثة أخيه.

وقد فهم بعض المفسرين من الآية أنه لم يكن ثمرة غراب قد مات، أو قتله صاحبه، ولكنه رأى الغراب يبحث فى الأرض عن شئ من الأشياء ليدفنه؛ لأن

من عادة الغربان حفر الأرض لدفن الأشياء، فلما رأى قاتل أخيه الغراب يحفر الأرض اهتدى إلى حفر الحفرة التي ألقى فيها جثة أخيه القاتل .

والكثيرون من المفسرين على أن غرابين تناقرا فمات أحدهما، فدفنه الآخر بحفر حفرة فى الأرض .

والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث فى الأرض، حتى حفر حفرة، دفن فيها شيئا أو طيرا ميتا، ولم تتعرض لكون المدفون طيرا أو غير طير، ولا لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، والآية الكريمة بينة واضحة المقصد من غير فرض واحد من هذه الفروض بعينه، وما دامت الأخبار التى لا مناص من قبولها لصدقها غير موجودة فليس لنا أن نفرض واحدا من هذه الفروض بعينه، والفرض الواحد الذى يقتضيه بيان الغرض والمغزى هو أن نفرض أن الغراب أخذ يحفر فى الأرض، حتى أتم حفرة وضع فيها شيئا، فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه .

وأصل كلمة «يبحث» معناها كشف أو دق الأرض أو حفرها، وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني: «البحث» الكشف والطلب فيقال بحثت عن الأمر، وبحثت كذا، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارَىٰ﴾ .

وقيل بحثت الناقة الأرض بأرجلها فى السير إذا شددت الوطاء تشبيها بذلك .

والمعنى: أن الغراب أخذ يدق بمنقاره مثيرا للأرض، حتى حفر حفرة فيها، ثم دفن ما شاء أن يدفنه، وأنه دأب فى ذلك وقتا طويلا بدليل التعبير بقوله ﴿يَبْحَثُ﴾ بالمضارع بدل الماضى، لأن فى التعبير بالمضارع إشارة إلى حال استمرت لا إلى واقعة وقعت فقط، فالتعبير بالمضارع عن أمر مضى لبيان أن الفعل مكث وقتا وكان مجال استمرار .

وفى كل هذه الأمور التى كانت بعد قتل أخيه ما يشير العبرة، وإذا كان الغراب قد أراه كيف يوارى سوء أخيه، فإن ضميره قد استيقظ، وأصبح لا يستطيع كيف يوارى سوء فعله التى فتحت باب القتل والقتال إلى يوم القيامة؛ ولذلك صرح القرآن بأنه اعتراه الندم، ولكن فى غير مندم؛ لأن الجريمة قد وقعت، ولا منجاة منها؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارَى سُوَّةَ أَخِي﴾.

أخذ القاتل تعتريه الحسرة بعد الفعل التى فعلها، واكتسب بها ذلك الجرم الشديد البليغ الأثر فى هذا الوجود، وقد كانت حسرته للفعل الذى ارتكبه، للعجز الذى لحقه، ولصغر نفسه أمام الطائر، وهو الذى أبى واستكبر؛ لأن الله قبل قربان أخيه، ولم يقبل قربانه، وطمع على أخيه وتجرى.

والويلة والويل البلية والفضيحة، والألف فى قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾، هى مقلوب ياء المتكلم، مثل الألف فى قوله تعالى: ﴿... يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ ...﴾ [يوسف]. والمعنى يا «يا وليتى» أى يا فضيحتى وبليتى أقبلى فهذا وقتك، لأننى قد نزلت بى أسبابك، وهذا النداء يستعمل للتحسر وإظهار الألم النفسى، وإن هذه البلية والفضيحة اللتين نزلتا به، ويتحسر منهما، ويناديهما، وهما بين جنبيه انبعثا من قلبه، ومن فعلته التى فعلها، ومن جهله وغبائه، وعدم التفاته إلى ما يجب عليه بالنسبة لجثمان أخيه الذى كان سببا فى جعله جثة هامدة، بعد أن كان لسانا نقيًا وقلبا نقيًا، وأخا مباركا. وقد صور جهله بهذا الاستفهام التقريرى الذى يصور جهله، وغفلته وحسرتة، وقد حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارَى سُوَّةَ أَخِي﴾.

والمعنى: أنه يقرر عجزه عن أن يكون مثل هذا الغراب، ولكنه قال ذلك بصيغة الاستفهام للتقرير والتثبيت وللحسرة على ما وقع منه، وللأسى والألم، ولذلك عبر باللفظ «أخى» الذى كان يوجب المودة والمحبة بدل الحسد، وما أدى إليه من قتله، وشطر لحمه، وهو جزء أبيه، فقال سوء أخى، وحسرتة ليست



للعجز، عن مواراتها التراب وغفلته، ولكن لذلك ولأصل الجريمة بالذات، ولذلك كان التعبير بأخى، وإن هذه أولى درجات الندم، إذ إن أولى الدرجات فيه أن يحس بعظم الجريمة التي ارتكبها، وأثر الإثم الذي فعله، فقد فعل ما فعل بعد ترديد الفكرة مرتين، ولكنه ما إن فعل حتى رأى أثر الجريمة مجسما، وبذلك كانت الحسرة، ثم كان الندم؛ ولذلك قال سبحانه بعد ذلك:

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ بعد أن رأى جثة أخيه بين يديه، وغفل عن أن يوارئها، وأحس البلية التي وقع فيها من رؤية جثمان أخيه الطيب ملقى، وهو عرضة لسباع البهائم وسباع الطير تنهشه - أدرك مقدار الشر الذي ارتكبه، ومن المقررات العلمية أن أول إحساس بهول الجريمة أن يرى المجرم الفريسة التي افترسها، سواء أكان ذا قريبي أم لم يكن ذا قريبي، فما بالك إذا كان المقتول لم يرتكب إثما، بل فعل برا، ولم يكن منه شر وأذى، بل كان منه عظة وإرشاد.

وإن ذوى الخبرة من رجال التحقيق يستخدمون رؤية المقتول سبيلا لاعتراف القتاتل، فإنه بمجرد رؤيته تضطرب أعصابه، ويتخلى عنه ثباته وإصراره على الإنكار، وإن لم يصرح بالاعتراف، فإن قرائن الارتكاب تتكون من اضطراب ظاهر، ومن سرعة نبض، ومن اصفرار وجه، وذلك سبيل لأخذ الاعتراف الصريح، لأن صوت الفطرة المستنكر يستيقظ ويتحرك، ويظهر فى حركات الجوارح، وخلجات اللسان، واضطراب الأعصاب، وسرعة النبض، ولذلك كانت الندامة التي اعترت أول حاسد وأول قاتل، وقد صار من النادمين، أى أنه دخل فى زمرة النادمين، بعد أن كان فى زمرة المترددين الحاقدين الحاسدين الباغين.

وإن هذا الندم لا يعد غافرا للذنوب، وإن كان أول طريق للتوبة هو الندم على الفعل الذى وقع، كما قال النبى ﷺ: «التوبة ندم»^(١) كما روى الإمام أحمد والإمام البخارى رضى الله عنهما، وإنما كان ذلك الندم ليس من التوبة لأنه

(١) «الندم توبة»، رواه أحمد: مسند الكثيرين - مسند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (٣٥٨٨)، وابن ماجه: الزهد- ذكر التوبة (٤٢٥٢).

استجابة لصوت الفطرة، والتوبة المقبولة تكون ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتكون في غير الاعتداء على العباد.

وبعد، فإن سبب هذه الجريمة الكبرى التي فتحت باب القتل والقتال هو الحسد، والحقد، وهما يأكلان القلوب، ويشعلانها بالشر، كما تشعل النار الحطب، وإن ذلك الحسد كان في العبادة وقبولها، وذكر الله تعالى هذا النوع من الحسد ليبين أن الحسد كيفما كان الباعث عليه شر يؤدي إلى أقبح الشرور والآثام، وإذا كانت أول جريمة في البشرية سببها الحسد، فإن ذلك تنبيه إلى أن الباعث على أكثر جرائم هذا الوجود الإنساني هو الحسد المقيت، فالكفر بالنبيين، وخصوصا نبينا محمدا ﷺ كان سببه الحسد، وأكثر الجرائم بين الآحاد سببها الحسد، والحسد دائما يكون على فضل في المحسود، وعجز في الحاسد، وقى الله العاملين شر الحاسدين.

مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ
نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٢٢﴾

يتنازع النفس الإنسانية نزوعان: نزوع الخير ونزوع الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ [الشمس]. وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٠﴾ [البلد] أى: أودع الله تعالى نفسه العلم بالخير والاتجاه إليه، وأودعها الشر والاتجاه إليه، فمن غلبت عليه نزعة الشر كان من الأشرار، ومن غلبت عليه نزعة الخير كان من الأخيار الأبرار، وكل ميسر لما خلق له، وما

يتجه إليه، وقد أودعه الله سبحانه وتعالى مع ذلك عقلا به يميز الخير من الشر، والطيب من الخبيث، ويعتبر بماضيه وحاضره، وحاضر غيره وقابله. ولا بد من زواج اجتماعية تنبه الضال، حتى لا يستمر في ضلاله، وتوضح له بالعيان عقى الشر، وثمره الخير.

وهذان أخوان أحدهما غلب عليه الخير، حتى أنه لم يبسط يده ليقتل أخاه، مع أنه رأى بوادى الشر، والثانى غلبه الشر، حتى أنه ليستعديه الحسد على أخيه، فيقتله، ولقد ذكر الله تعالى فى سابق الآيات ما كان من ابنى آدم، ويذكر هنا ما سنه من نظم ليرى فيها النازعون إلى الشر ما يردعهم، فقال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى من جراء هذه الجناية التى ارتكبها أحد ابنى آدم، ودلالتها على تغلغل الشر فى نفوس بعض الناس، واستعدادهم لأن تكون منهم الجريمة فى كل وقت وحين، كان لابد من رادع زاجر مانع، وهو العقاب - ف «أجل» هنا معناها جناية، وقد فسرهما كذلك اللغويون فى معاجمهم، فذكر ذلك ابن منظور فى لسان العرب، وذكره الأصفهانى فى مفرداته، فقال: والأجل الجناية التى يخاف منها أجلا، فكل أجل جناية، وليس كل جناية أجلا، يقال فعلت كذا من أجله، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾، أى من جراء ذلك، وقد فسر الأجل بالجناية أكثر المفسرين، وقد حقق الطبرى الأصل اللغوى واستشهد بقول الشاعر:

وأهل ضباء صالح بينهم قد احتربوا فى عاجل أنا أجله^(١)

يعنى بقوله: أنا أجله أى أنا الجار عليهم ذلك والجانى.

وقد أشار الأصفهانى إلى معنى جدير بالنظر وترديده، وهو أن الأجل هو الجناية التى يخاف منها أجلا، أى تكون لها عواقب وخيمة على الأشخاص، أو على الجماعات، أى الجناية التى لا تنتهى مغبتها بوقت وقوعها، بل يكون لها آثار

(١) قد استعمل الشاعر التورية فعبر بـ (أجله) فى مقابل (عاجل)، وأراد المعنى البعيد.

مؤجلة بعدها، إن لم تعالج تلك الآثار. وكذلك كانت جريمة أحد ابني آدم، فإنها جناية قد فتحت باب القتل والقتال إلى يوم القيامة، وهي جناية دلت على مكنون النفس البشرية الذي استتر فيها من غلبة الحق والحسد على بعض النفوس، حتى طغت على كل عناصر الخير فيها، فهي جناية آجلها وخيم كحاضرها، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»^(١).

و(من) هنا للسببية، أى سبب هذه الجناية كان ما شرعه الله تعالى من شريعة القصاص الخالدة الباقية لدفع الشر إلى يوم القيامة، وعبر عن السببية بـ «من»، لبيان الابتداء فى الحكم، فمع كون من أجل ذلك دالة على السببية وتشير إلى ابتداء الحكم، وأنه مقترن بما وقع من جريمة كان لها أجل هو شر إن لم تقمع النفوس وتردع الأهواء المتغلبة الطاغية.

وهنا معانٍ بيانية تجب الإشارة إليها:

أولها - فى الكلمة السامية «كتبنا»، فانها تدل على تقرير العقاب، وتسجيله حتى لا يقبل المحو، فإن الواجب الذى يكتب يكون مسجلاً على القراطيس، ويبقى أثر الكتابة باقياً غير قابل للنسيان، وفيها إضافة الفرضية والكتابة إلى الله تعالت قدرته، وجل جلاله، وتقديست ذاته، وفى ذلك إشارة إلى عظمة المكتوب المفروض، وهو شريعة القصاص فهى شريعة عظيمة تمد المجتمع بحياة هادئة مطمئنة، إذ تحميه من أوضاره أن تتغلغل فى كيانه ومن شراره من أن يتحكموا فى خياره.

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ (أبي ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». متفق عليه؛ رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (٣٣٣٦)، ومسلم: القسامة والمحاربن والديات والقتل - بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧).

ثانيها - أن الله تعالى خص بنى إسرائيل بالذكر مع أن القصاص شريعة عامة لم يخل منها دين من الأديان السماوية بل لم تخل منه شريعة وضعية على انحراف في تطبيقه، أو إهمال في العدالة فيه، والنفوس التي انحرفت عنه في الأيام الأخيرة قد غلب عليها هواها، فغلبت عليها شقوتها، وعرضت الجماعات فيها لأعظم المخاطر من عدوان الأشرار. فلماذا خص الله تعالى بنى إسرائيل بالذكر مع أنه مفروض قبلهم، ومفروض بعدهم، والجواب عن ذلك نتلمسه، ولا نجد نصا يدل عليه، ونقول في ذلك والله أعلم بمراده: إن التوراة فيما بقى منها هى الكتاب الذى اقترن هو والإنجيل بالقرآن زمنيا، فالقرآن جاء مهيمنا عليها، ومصدقا للصادق منهما، فذكر بنى إسرائيل دليل على أنه مفروض علينا بحكم الاقتران الزمنى، ويحكم أن هذا المبدأ الخالد قرره القرآن، وجدده فى مثل قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ...﴾ [المائدة]

وفوق ذلك ما يزال هذا المبدأ باقيا فى التوراة ولم يندثر فيها، مع أنهم حرفوا ما حرفوا، والأنبياء الذين سبقوا يعقوب، وليست كتبهم قائمة فى أيدى الناس فى عصر التنزيل، كما بقيت التوراة مع تحريفهم فيها الكلم عن مواضعه - وكانت شريعة القصاص باقية بعد هذا التحريف.

ثم إن بنى إسرائيل قد كتبت عليهم شريعة القصاص كما كتبت على غيرهم من قبلهم ومن بعدهم، ومع ذلك هم أشد الناس إسرافا فى قتل الأبرياء والأطهار، وما أشبههم فى قتلهم أنبياءهم ودعاة الحق بقايل الذى قتل أخاه هابيل، فهو قتله لما ظهر فيه من خير، وهم قد قتلوا أنبياءهم، لأنهم دعوهم إلى الخير.

ثالثا - أن الله تعالى عندما بين شريعة القصاص، قد ذكر الباعث عليها، وحكمتها، وما يؤدى إليه تنفيذها، واكتفى ببيان ذلك مكثفيا بما فصلته شرائع النبيين فيها، وما أتت به من بينات؛ ولذلك قال تعالى:

﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا هو ما كتبه الله تعالى، وهو أن من قتل نفسا بغير حق شرعى مبيح لها، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، وقد بين القرآن الكريم متى يكون القتل بغير حق مشيرا بإيجازه المعجز إلى القتل بحق، فبين أن القتل بغير حق، هو ألا يكون فى نظير نفس، فالقتل قصاصا لا يكون إلا بالحق ولكن بعد أن يقرر القضاء أنه يجب القصاص، أو يمكن ولى الدم من القصاص، وكذلك القتل لمنع الفساد فى الأرض، كقتل الذين يعتدون على الجماعات المؤمنة، ويرهقونهم فى تدينهم، أو من يرتدون ليفسدوا عقائد المؤمنين، أو الزنادقة الذين يفسدون العقائد، أو أهل الدعارة والفساد من أهل الحرابة الذين يخرجون على الجماعات ويحاربون النظم التى قررها الشرع الشريف، وهكذا، فإذا كان القتل لغير هذين الأمرين، فهو قتل بغير حق، ومن فعل ذلك فكأنما قتل الناس جميعا.

ولقد تكلم العلماء فى معنى هذا التشبيه، وكيف يكون قتل الواحد بغير حق مشابها لقتل الناس أجمعين، قال بعض العلماء: إن المراد نفس الإمام العادل؛ وذلك لأن قتل الإمام العادل الاعتداء فيه ليس على شخصه وحده، ولكن على كل من يسعدون بحكمه ويظلمهم عدله، فمن قتله فكأنه قتلهم، إذ يصير أمرهم بورا من بعده، وتضطرب أحوالهم، وذلك قتل للجماعة؛ لأن تفريق الجماعة وحل رباطها هو موت لها، ومع سلامة ذلك التفكير، فإن قصر القتل المفسد على قتل الإمام لا دليل عليه؛ ولذلك كان الأولى التعميم بدل التخصيص والإطلاق بدل التقييد، إذ لا دليل من مخصص أو مقيد، فالأولى هو تفسيرها بالعموم، ويبقى مع ذلك التشبيه سليما، لا شبهة فيه، ووجه الشبه الذى جعل قتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعا يكون من نواح:

الأولى - أن من قتل نفسا فقد استباح حق الحياة المصون المحترم الذى حماه الإسلام، ومن استباحه فى نفس واحدة فقد استباحه فى نفوس الناس جميعا،

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير، فقال في تفسيره للقرآن العظيم: من قتل نفسا واحدة بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعا... وعن أبي هريرة قال: (دخلت على عثمان يوم الدار، فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعا، وإياي معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعا، فانصرف مأذونا لك مأجورا، غير مأزور، قال فانصرفت ولم أقاتل). وروى عن سعيد بن جبير أنه قال: من استحل دم امرئ فكأنما استحل دم الناس جميعا، ومن حرم دم امرئ، فكأنما حرم دماء الناس جميعا.

الثانية - أن وزر من قتل نفسا واحدة، كوزر من قتل ألفا.

الثالثة - أن عقاب قتل نفس كعقاب قتل الأنفس، وهو في الدنيا بالقصاص العادل، وفي الآخرة بعذاب جهنم، كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء ٩٣] وإذا كان قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعا، فأحيائها كإحياء الناس جميعا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. في هذا النص السامي نتكلم عن أمرين: أولهما - معنى إحياء النفس، وثانيهما - معنى تشبيه من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا. أما الجزء الأول وهو معنى الإحياء، فقد ذكر العلماء له معاني كثيرة، منها أن إحياءها بمعنى تحرير قتلها على نفسه، والامتناع عن انتهاك حرمتها، ولكن ذلك أقرب إلى المعنى السلبي، اللهم إلا أنه يقال: إنه كب نفسه عن ذلك الفعل الأثيم عندما تساوره قوة الشر دافعة خاملة له، فإن الكف حيثئذ ليس عملا سلبيا، بل هو عمل إيجابي، ومنها أن معناها: من أنقذ إنسانا كان مشرفا على الهلاك في حرق أو غرق، أو مصاولة إنسان أو حيوان، فإن ذلك إحياء له، ولكن مع سلامة هذين المعنيين لا يمكن أن يكون تشبيه من يفعل ذلك سلبا أو إيجابا بإحياء الناس جميعا واضحا،

لأنه إحياء لفرد، اللهم إلا أن يقال إن مجرد حماية حق الحياة أو احترامه في فرد هو احترام أو حماية له في الناس أجمعين .

ولقد قال بعض المفسرين: إن المراد بإحياء النفس حماية نفس الإمام، ومعاونته على دفع شرور البغاة، والخارجين عليه، وإن ذلك سير على أن قتل النفس الذي يكون قتلا للجميع هو قتل الإمام، وقد بينا أنه غير الأولى .

والحق الذي نراه أن المراد بإحياء النفس، هو بالتمكين من القصاص؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ (١٧٩) [البقرة] .

فإحياء النفس المقتولة بالقصاص لها من اعتدى وقتلها، وقد وجدنا آلوسى ذكر ذلك الرأى فقال:

«وقيل المراد، ومن أعان على استيفاء القصاص فكأنما... إلخ»^(١).

وبهذا يتبين بوضوح الأمر الثانى، وهو أن من أحيا نفسا قد قتلت بالتمكين من القصاص لها فقد أحيا نفوس الناس جميعا، بأن يوجد الردع العام عن القتل والاعتداء، فتحيا النفوس، وينقمع الأشرار، وهذا ما أشار إليه ما تلونا من قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ (١٧٩) [البقرة] .

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى أن الله تعالى أرسل الرسل لبنى إسرائيل يبينون لهم الحقائق التى يقوم عليها بناء المجتمع السليم الذى تحمى فيه الدماء والأعراض، والفضيلة الإنسانية، والتى تشتمل على ما كتبه الله تعالى من أجل اعتداء أحد ابنى آدم على أخيه من غير ظلم وقع منه ولا باعث على ما ارتكب إلا الحسد والحقد .

(١) قال آلوسى (ج ٦، ص ١١٧): «﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أى تسبب لبقاء نفس واحدة موصوفة بعدم ما ذكر من القتل والفساد إما ينهي قاتلها عن قتلها . أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وقيل: المراد ومن أعان على استيفاء القصاص فكأنما إلخ». اهـ أي: فكأنما أحيا الناس جميعا .

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل بالبينات، وهى الشرائع البينة الواضحة التى تحمل فى نفسها دليل صلاحها، وتوضح غاياتها ومراميها، ومعها الدليل القاطع المثبت لصحة الرسالة من معجزات باهرة، وخوارق صارخة، وقد أكد سبحانه بعث هؤلاء الرسل وسلامة ما يدعون إليه بمؤكدات ثلاثة:

أولها - باللام وقد، إذ قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾. وقد مؤكدة للخبر، واللام مؤكدة لما بعدها.

ثانيها - بالتعبير بأن الرسل جاءتهم، أى لاصقوهم وصاروا قريبين منهم يخاطبونهم ويحاجونهم ويبينون لهم، ولا يدعون أمرا فيه التباس إلا أزالوا لبسه، ومنعوا الاشتباه عليهم.

وثالثها - أنه سبحانه أضاف الإرسال إلى ذاته العليا، وفى ذلك بيان قدسية الرسالة، وفوق ذلك هى فى ذاتها فيها حقائق واضحات منيرة للحق فى ذاتها، فلها بذلك شرفان: شرف ذاتى من حقائقها، وشرف إضافى من منزلها.

ولكن الآيات والنذر إنما تغنى من يذعنون للحق ويؤمنون، والبينات مهما تكن نيرة لا يدرك نورها إلا ذو البصيرة المستنيرة، وليس بنو إسرائيل من هذا الصنف؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ كان العطف بـ «ثم» للإشارة إلى بعد ما بين البينات الواضحات التى جاءت بها الرسل، ونتيجتها فى قلوبهم، فهى فى ذاتها أمر بين ولكن نتيجتها لم تكن كحقيقتها طيبة مشمرة فى قلوبهم، بل كانت كالبذر الطيب يلقى فى أرض سبخة لينبت قليلا، ويخرج حبطا^(١) فى أكثرها، ولم يحكم سبحانه على اليهود جميعهم بأنهم كانوا جميعا مفسدين، بل حكم على كثير منهم ذلك الحكم، كما قال تعالى: ﴿... مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة].

(١) الأرض السبخة: أى ذات ملح ونزّ (البور). والحبط: أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها. الصحاح.

وقد وصف سبحانه وتعالى كثيرا منهم بأنهم مسرفون، أى مفسدون، لأنهم قتلوا المخلصين، وعصوا أوامر الله، وعاثوا فى الأرض فسادا، ونشروا الشر فى العالم، حتى إنك لا تجد فسادا إلا إذا كانوا مصدره، فهم الذين نشروا الربا والمجون والعبث والخمور، وكل ما هو شر فى الأرض، والإسراف: هو الفساد مأخوذ من السُرْفَة، وهى: الدودة التى تأكل الشجر، والإسراف حتى فيما أصله خير يقلبه إلى شر وفساد، وقد أكد الله تعالى إسراف اليهود فى الشر بـ «إِنَّ» وباللام فى قوله: «المسرفون»، وبالجملة الاسمية.. وقى الله المسلمين شرهم، والبسهم لباس الذل والخوف إلى يوم القيامة، وهدانا جميعا للخير، إنه الهادى إلى قصد السبيل.

إِنَّمَا

جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

يبين الله سبحانه وتعالى عقب اعتداء أحد ابني آدم على أخيه، أنه سبحانه وتعالى بسبب ما استكن فى النفوس من نوازع الشر والخير، وأن بعض النفوس يغلب الشر عليها، فتغلب عليها الشقوة وأنها لا بد لها من زاجر يزجرها، وراعى يردعها، فتقرر القصاص الذى تكون فيه حياة الجماعة، والأمن من شرور أهل

الفساد الذين غلب عليهم الشر، وبين سبحانه أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، وأن من أحيائها فكأنما أحيانا جميعا، وأن صور الفساد الذي يبيح الدم صونا للجماعة، وحفظا للحياة الهادئة المطمئنة - كثيرة، ولكن أبلغها في الفساد، وأبعدها في الشر مدى هو الانتقاص على الجماعة بارتكاب جرائم القتل والعدوان، من غير تأويل، والسرقه، والاتفاق الجنائي على ذلك؛ ولذلك ابتداء بهذا سبحانه فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هذا النص الكريم يبين جريمة كبيرة هي جماع لعدة جرائم، وهي جريمة الذين يحاربون النظام القائم ويخرجون جماعات ذات قوة وشكيمة ويرتكبون جرائم القتل والنهب والسرقه، لا في خفية بل في إعلان، معتصمين بقوة مانعة لهم، وقد اتفقوا جميعا على ارتكاب القتل والسرقه وتهديد الأمن.

وجريمة هؤلاء أقوى من جريمة القتل المجرد؛ لأن جريمة القتل المجرد، ليست في ذاتها تهديدا للأمن، وإن كان إهمال عقوبتها يؤدي إلى تهديد الأمن، أما هذه فإنها تهديد مباشر للأمن، فالأولى اعتداء ابتداء على الأفراد، أما هذه، فهي اعتداء ابتداء على الجماعة، لأنها ترصد السابله في الطريق، فتقطع عليهم السبيل.

وقبل أن نخوض في بيان هذه الجرائم، وكلام الفقهاء، وأهل الخبرة في معناها، ونذكر عقوبتها في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ نتكلم في معاني الألفاظ، ونتكلم على ثلاث عبارات..

أولها - في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ﴾ فقد كان التعبير بـ «إنما»، وهي من أوائل أدوات القصر والتخصيص، وذكر هذه الكلمات في مقام بيان العقاب الذي سارع بيانه سبحانه هو لتأكيد العقاب، ولبيان أنه عقاب لا هواده فيه، وأنه لا يحل محل ذلك العقاب غيره من دية أو مال، ولا يدخله عفو، لأنه حد من حدود الله تعالى، بل هو أعظم الحدود، لأن جريمته أشد الجرائم خطرا، إذ هي

مقوضة لبنيان الجماعة، وهادمة للأمن، وكان معنى التخصيص واضحاً، إذ هي عقوبة ليس لها بديل من سواها، أى لا جزاء للجريمة ولا كفاء لها إلا ذلك العقاب.

العبارة الثانية - هي قوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. ومعناها:

يحاربون شرع الله ورسوله بالانتفاض على أحكامه، ومقاومة الحكام الذين يقومون على حفظ الأمن، ويقاومون الجرائم، ويكون المؤدى أن الله سبحانه وتعالى ليعتبر كل من يهدد أمن الجماعة، ويعتدى عليها بالقتل والسرقة والنهب، ويمنع السابلة محارباً لله تعالى ولرسوله، لأنه يشيع الجرائم، ويناصب أحكام الشرع ومن يقومون على تنفيذه وأنهم يقومون بكل الجرائم مجتمعين متفقين، فيكون لهم صولة تعطيتهم وصف المحاربين، وكان التعبير بمحاربة الله ورسوله من نوع المجاز؛ لأن الذى يقوم بالسلب والنهب وقتل السابلة يؤدى عمله إلى نقض النظام والاطمئنان، فهو إن لم يقصد بفعله المحاربة هو يؤدى إليها، أو يقال إن ذات الفعل محاربة، فلا يكون مجازاً، لقول النبى ﷺ: «من حارب مسلماً على ماله فهو معاد لأولياء الله تعالى محارب لله».

والعبارة الثالثة - ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾. السعى: هو الحركة السريعة

المستمرة، وقوله تعالى: ﴿فَسَاداً﴾. هو من قبيل التمييز، أى أن سعيهم لأجل الفساد لا لأجل الخير، وفى ذلك الكلام إبهام بعده بيان، فيكون فيه تأكيد فى البيان، فذكر السعى مبهماً ثم بين بأنه من نوع الفساد، لا من نوع الخير. وإن أولئك الذين يحاربون النظام، وعقوبتهم التى ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾. إلى آخر الآية الكريمة - هم الذين يعبر عنهم فى الفقه بقطاع الطريق، ويسمى فعلهم قطع الطريق، ويسمى الخرابه، وَيَعْنُونَ له بذلك فى الفقه الإسلامى، والعقوبة المذكورة فى النص الكريم خاصة بهم.

وقد التبس - على بعض من لا دراية له بأحكام العقوبات فى الفقة الإسلامى - هؤلاء بالبغية، والتبس على بعض آخر أمر هؤلاء بأمر الخوارج، والواقع أن الذين ينقضون النظام أقسام ثلاثة متمايضة متغايرة، فالبغية: هم الخارجون ذوو القوة والمنعة الذين يخرجون على الإمام العادل بتأويل، أى بوجه مسوغ لهم الخروج، كأولئك البغية الذين خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه، والذين وصفهم النبى ﷺ بقوله لعمار بن ياسر رضى الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»^(١) وهذه تقاتل حتى تسلم، كما قال تعالى: ﴿... فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَأْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات].

وهؤلاء البغية لا يستبيحون من الأموال والدماء إلا معسكر السلطان، إذ هم لا يحاربون غيره، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

والخوارج: هم الذين خرجوا على الإمام العادل بتأويل، ولكنهم لا يستبيحون معسكر السلطان فقط، بل يعتبرون مخالفينهم فى رأى كافرين، بل يعتبرونهم مشركين، وهؤلاء يعاملون معاملة البغية، يقاتلون حتى يفيئوا فإذا كانت الفئنة فالإصلاح والقسط، ورد القضب إلى أجفانها.

وقطاع الطريق، أو أهل الحرابة: وهؤلاء مجرمون يخرجون لارتكاب جرائم السلب والنهب والقتل، وسائر الموبقات، بلا تأويل يتأولونه، ولا تفسير يفسرون، بل يرتكبون ما يرتكبون إثما وعدوانا مقصودا، ولا يقصدون إلا العدوان، كالعصابات الإجرامية التى نراها معتصمة فى بعض الجبال أو الكهوف، وكالعصابات التى تزعج الأمنين بقوة إرهابية.

فهى إذن أقسام متمايضة متغايرة، وما لأحد من بعد أن يخلط، فيجعل حكم واحدة لأخرى، ولا وصف واحدة لأخرى.

(١) رواه مسلم: الفتى وأشرط الساعة - لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٢٩١٦) عن أم سلمة رضى الله عنها، وأحمد: مسند الأنصار - حديث أم سلمة زوج النبى (٢٣/٢٦٠).

إن النص الكريم ينطبق كل الانطباق على الذين يخرجون بقوة، ويقطعون على السابلة الطريق وتكون لديهم القدرة على المنع، ولا يكون للمعتدى عليه من يحميه من خطرهم ما داموا قد تعرضوا فى طريقه، فهم حيثئذ يعدون قطاع طريق، ويعد عملهم حراية، ولكن اختلف الفقهاء من بعد ذلك فى أمور أربعة من حيث انطباق النص القرآنى... هذه الأمور الأربعة، هى: الأول- المكان الذين يعدون باتخاذهم مقاما لهم قطاع طريق، والثانى - فى طريقة إجرامهم، والثالث - فى عددهم وقوتهم، والرابع - فى الجرائم التى اتفقوا على ارتكابها، أو اعتزموا ارتكابها، أهى القتل والسلب فقط أم تشمل كل المعاصى كالزنى، وشرب الخمر، وتناول ما يشبهها وغير ذلك.

أولاً- المكان الذى يتخذ قطاع الطريق، فإنه يجب أن يكون فى داخل الدولة الإسلامية لأنهم من رعاياها، ولأن قطع الطريق على جماعة المسلمين من غير المسلمين هو الحرب الحقيقية، وليس هو الحراية التى تتلاقى معها فى الاشتقاق؛ وتختلف عنها فى حقيقتها، فإن الحرب قد اختصت بمداغة الأعداء من خارجها، أما هذه فقد اختصت بمحاربة الفساد فى داخلها، والحراية بهذا المعنى: الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة، ولو بالقتل على وجه يمنع المرور، ويقطع الطريق سواء أكان القطع بسلاح أم بغيره مثل العصا والحجر والخشب ونحوها، لأن قطع الطريق يكون بكل ذلك.

واختلف الفقهاء فى المكان الذى يتحقق به هذا أيمن أن يكون فى داخل المدينة أو القرية أم لا يتصور إلا فى خارج الأمصار كالصحارى والجبال، والبرارى من المزارع الشاسعة، لقد قال أبو حنيفة: إن قطع الطريق لا يتصور فى داخل المصر، إذ يمكن الإغاثة عند الاستغاثة، ويد السلطان مبسطة فى داخل الأمصار والقرى.

ومالك والظاهرية لا يشترطون لقطع الطريق مكانا معيناً، فحيث تتحقق إخافة المارة فهى حراية لا فرق بين أن يكون ذلك فى الفيافى والقفار، أو فى

القرى والأمصار، فحيث لا يأمن السابلة الطريق، ولا يجدون من يسعفهم بدفع الشر عنهم فإن الحراة تتحقق.

وهناك رأى ثالث، وهو أن الأمصار والقرى تصلح مكانا لقطاع الطريق ليلا، ولا يصلح نهارا إلا الصحارى والحق الذى نراه متفقا مع مرمى النص الكريم وغايته أنه حيث تحقق الوصف، وهو محاربة الله ورسوله بمحاربة الأمنين وحيث كانت القوة، وحيث كان سلطان الشر، فإن الحراة تتحقق، وأتينا نراها عيانا بيانا فى مدن أمريكا وأوربا فالعصابات المخربة التى تحارب الأمن هنالك، وتغير على الأمنين تتخذ أوكارها فى وسط الأمصار، وإن خفيت عن الأنظار.

وننتقل بعد ذلك إلى الأمر الثانى: وهو عددهم ونوعهم، وإنا نقول: إن الذى عليه كثرة الفقهاء أن العبرة فى الأمر هو فى قوة الإخافة لا فى مقدار عدد المنفذين، ولا فى نوعهم أهم ذكور أم إناث، فلو أن واحدا استقر فى كهف، ومعه سلاح مدمر، وكل من يمر من الضعفاء، أو من لا حول لهم ولا سلاح استلب ماله أو نفسه فإنه يعد قاطع طريق، ولو أن جمعا فيهم ذكور وإناث تعاونوا على الإثم والعدوان وقطعوا الطريق على الأمنين وقاموا بالاستلاب غير مراعين حرمة مال، ولا عصمة دم، فإنهم قطاع طريق محاربون.

ثالثا- طريقة الإجرام أ تكون بالمجاهرة والعصيان أم تكون ولو بالاختفاء، قال جمهور الفقهاء: إنه لا بد من المجاهرة بالعصيان، والظهور علنا، حتى يتحقق معنى الحراة، وحتى يتحقق معنى التسليم، وقال مالك: إنه تصح المحاربة بالاختفاء، كالانفاق على القتل غيلة، والاستيلاء على الأموال بالهجوم على مكائنها خفية كالعصابات التى نسمع عنها، ويراهم شبابتنا على شاشة الخيالة (السينما)، والإذاعة المرئية (التلفزيون)، وقد حرر القرطبى فى تفسيره رأى الإمام مالك، فقال: «والذى نخشاه أن الحراة عامة فى المصر والقفر، وإن كان بعضها أفحش من بعض، ولكن اسم الحراة يتناولها، ومعناها موجود فيها، ولو خرج بعضا فى المصر يقتل بالسيف، ويؤخذ فيه بأشد ذلك، لا بأيسره، فإنه سلب

غيلة، وقتل الغيلة أقبح من قتل المجاهرة، ولذلك دخل العفو في فعل المجاهرة، ولم يدخل في قتل الغيلة».

وإن الذى غيل إليه هو مذهب مالك بلا ريب، لأن معنى المحاربة، وهو إزعاج الأمنين ثابت فى الاختفاء، بل هو أمكن، كما هو ثابت فى المجاهرة، بل أشد وأحكم.

رابعاً- بالنسبة لجرائم المحاربة أهى مقصورة على الاعتداء على الأموال والأنفس؟ قال جمهور الفقهاء ذلك، وقال مالك رضى الله عنه، كل اتفاق على ارتكاب المعاصى يعد من قبيل الحاربة، فالاتفاق على الزنى أو فتح بيوت له يعد من الحاربة، ويستحق عقابها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقبل أن نترك الكلام فى الجريمة لا بد من الإشارة إلى أمرين: أولهما - أنه لا بد فى اعتبار هذا الفعل جريمة أن يكون القائمون به مكلفين تكليفاً شرعياً بأن يكونوا بالغين عقلاء، لأن الفعل لا يوصف بأنه جريمة أو معصية إلا إذا كان الفاعل مكلفاً تكليفاً شرعياً، فإذا قام بالعمل صغار لا يعدون قطاع طريق، وإذا كانوا مميزين، فإنهم يؤدبون، أو يعزرون على أن يكون تعزيرهم تأديباً، ولا يكون عقاباً على ما هو مقرر فى باب التعزير، وإذا كانوا مجانين، فإنهم يحجزون فى المصاح أو نحوها، ولا يعزرون، لأن عقابهم يكون تعذيباً، إذ لا تبعه يتحملونها، ولا يصلحون للتأديب لفقد عقولهم.

ثانيهما - أيعدون محاربين، ولو لم يرتكبوا جريمة من جرائم قطع الطريق، فلم يسرقوا، ولم يقتلوا، ولكن اتخذوا مكاناً قصياً لكى يرتكبوا الجرائم مستفيين على الفعل، وقصدوا الفعل، ولم يفعلوا، إما لأنهم لما يبدأوا، وإما لأن الأحوال لم تواتهم.

وبذلك يكون مجرد الاتفاق والأهبة للتنفيذ يعد جريمة فى ذاته؟ الظاهر من أقوال الفقهاء ذلك، وسيتبين، وبذلك يكون الاتفاق الجنائى فى الشريعة له مكانه من العقاب.

سبحانه :

﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾
هذه عقوبات أربع قد ذكرت كلها معطوفة بأو التي تفيد التخيير في الجملة،
ولنتكلم في كل واحد منها بتفسير معناه اللغوي: التقتيل هو القتل، ولكنه ذكر
بصيغة التضعيف، وهي تدل على الشدة في القتل، وذلك بعدم التجاوز عن الذين
ارتكبوا ما يوجبه، وتفيد التكرار، أى أنه يقتل من يرتكبونها مهما يكن عددهم،
فمن استحق القتل قتل ولو كانوا مائة قد قتلوا واحدا، ولأن التضعيف يفيد
الاستمرار في التقتيل ما داموا قد استمروا في الجريمة، فكلما كان منهم قتل
قتلوا، ولإثبات أنه لا يقتل المقتول فقط، بل يقتل هو ومن يعاونه، ومن اتفق معه
على جريمة من غير تفرقة بين مباشر، ومحرض وراض قد اتفق معهم على
جريمة الخروج، و«التصليب» الصلب على مكان مرتفع يرى بعد القتل، وصيغة
التضعيف تفيد التشديد في العقوبة، وإثبات أنه لا هواده فيها، ولا مناص منها،
وتكرارها، واستمرارها، ويصلب الشخص ثلاثة أيام عبرة وردعا، وتقطع الأيدي
والأرجل من خلاف معناه أن لا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد،
بل تكونان من جانبيين مختلفين، فإذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى،
فمعنى من خلاف، أى من جانب خلاف الجانب الآخر، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾.
قال بعض الفقهاء: المراد نفيهم من الأرض التي اتفقوا فيها على
الإجرام إلى أرض أخرى، ليتفرقوا، ولا يجتمعوا على ذلك الشر الذي ارتكبوه أو
هموا بارتكابه، وفسر الإمام أبو حنيفة النفى بالحبس؛ لأن فيه إبعادا وتفريقا، وهو
أمنع لتجمعهم، وأوغل في تفرقهم.

ذلك هو عقاب الدنيا، أما عقاب الآخرة، فهو العذاب العظيم؛ ولذلك قال
تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أى أن ذلك العقاب الرادع الزاجر فيه كسر شوكتهم، وإذلالهم وقهرهم، وهو بذلك خزى لهم، إذ إنه كشف جريمتهم، وأذلهم وأخزاهم، وجعلهم عبرة لغيرهم، وأى خزى أشد من أن يُروا مقطوعين من خلاف، أو يراهم الناس مصلوبين، أو يحبسوا، أو يبعدوا فى أقاصى الأرض فهو خزى نالهم، وفيه عبرة لغيرهم.

هذا هو عقاب الدنيا، أما عقاب الآخرة، فهو عذاب عظيم، شديد، عظيم فى شدته جزاء ما اقترفوا وإن ذلك العقاب ثابت لهم ما استمروا على غيهم، فإن تابوا فهي تَجِبُ ما قبلها؛ ولذا قال سبحانه:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى أن العقاب لمن استمروا فى جريمتهم، حتى غلبوا، واستمكن الحاكم من جمعهم، وصاروا فى قبضة يده، ولكن من تاب قبل ذلك فإن العفو يشملهم والرحمة تعمهم من الله الغفور الرحيم.

انتهينا من الكلام فى عقوبات الذين نصبوا أنفسهم لمحاربة الأمن فى الدولة والخروج على النظام من غير تأويل يتأولونه، ولا غاية دينية يحققونها، بل خرجوا قاصدين الإجرام لأجل الإجرام، ومحاربة الأمنين وإزعاجهم، وبيننا من الذين ينطبق عليهم وصف الحراية، واختلاف الفقهاء فى ظل معانى الآية الكريمة، وفسرنا الآيتين تفسيراً لفظياً، ولكن لم نتكلم فى معنى التخيير فى قوله تعالى: ﴿أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يُصَلِّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾، ولم نتكلم فى حقيقة التوبة ومعناها فى هذه الآية الكريمة، كما لم نتكلم عن آثارها، وعن نوع العقوبة أهى حد من حدود، أم هى قصاص، وما أثر ذلك بالنسبة للتوبة وفى الحكم، ولا يتم جلاء ما اشتملت عليه الآيتان الكريمتان من أحكام إلا بالتعرض لهذه الأمور فى إيجاز من غير إطناب.

ونبتدئ بالتخيير الذى دلت عليه «أو» فى النص الكريم، أيقصد به التنوع بتنوع العقوبة على حسب الجرائم، فإذا قُتلوا قُتلوا، وإذا سرقوا قطعت أيديهم

وأرجلهم من خلاف، وإذا سرقوا وقتلوا قتلوا وصلبوا، وإذا تجمعوا وانفقوا على ارتكاب الجرائم من غير أن يرتكبوا بالفعل كان النفي من الأرض، أم تقصد حقيقة التخيير بأن يكون الإمام مخيرا غير مقيد بنوع في حال، وبنوع آخر في حال أخرى يرتكبون فيها جريمة معينة، بل ترك الأمر لتقديره، وهو ينظر إلى مقدار الترويع بما يتناسب مع قوة الجناة من غير نظر إلى نوع ما ارتكبوا من جرائم، ولا إلى مقداره إنما ينظر إلى مقدار الزجر والردع.

ولقد قال بالقول الأول، وهو أن «أو» لتنويع العقوبات بتنوع الجرائم بعض الصحابة والتابعين وجمهور الفقهاء، وقال بالقول الثانى بعض التابعين، ومالك والظاهرية.

لقد روى عن ابن عباس أنه قال: (إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصلبوا، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا نفوا من الأرض، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا نفوا من الأرض) وبهذا القول أخذ الشافعى وأحمد وأبو حنيفة، وبذلك تكون العقوبات أربعة أقسام، مقسمة على أقسام الارتكاب، والحجة لهذا رأى الآثار المروية عن الصحابة، والفقهاء في الموضوع أن هذه العقوبات لجرائم مختلفة المراتب، فيجب أن تكون تابعة لقوة الجريمة، وليس من المعقول أن جريمة الاتفاق والإرهاب تتساوى مع الإرهاب والقتل بالفعل، أو الإرهاب والقتل والسلب، أو الإرهاب والسلب بالفعل، فالعدالة توجب ذلك التنويع وعلى ذلك يكون التخيير المأخوذ من كلمة «أو» هو لتنويع العقاب وليس لمطلق التخيير، وإلا كان مؤدى التخيير أنه يجوز للإمام أن يكتفى بنفى الجناة إذا قتلوا أو سرقوا، وأن ذلك باطل بالإجماع؛ لأن السرقة توجب القطع، فكيف بالسرقة الكبرى التى يكون فيها ذلك التجمع الآثم، وإذا كان التخيير لا يمكن أن يفسر بالتخيير المطلق لهذا المعنى، فإنه يجب أن يفسر بالتنويع، لأن تفسيره بغيره يؤدى إلى ذلك الوجه الباطل، وما يؤدى إلى الباطل باطل، وإن التخيير المطلق فى العقوبات إذا كان السبب الموجب للعقاب واحدا،

ككفارة اليمين، فإن السبب هو الحنث وهو واحد، وكان التخيير فى الكفارة بين العتق، وإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، أما إذا اختلف السبب، فإنه لا بد أن يكون التخيير للتنوع، والعقوبات هنا قد اختلفت أسبابها، فإن منها القتل، ومنها السرقة، ومنها الجمع بينها، ومنها مجرد الإرهاب والإزعاج، ولا يمكن أن تكون العقوبة واحدة لكل من هذه الجرائم، فلا بد من أن تختلف باختلاف أسبابها، وتكون لذلك «أو» لترتيب العقوبات تبعاً للجرائم، ويذكر الكاسانى أنه روى خبر عن النبى ﷺ فى هذا، فقد قالوا: أنه لما قطع أبو بريدة الأسلمى بأصحابه الطريق على أناس جاءوا يريدون الإسلام، فقد قال ﷺ: «إن من قُتل قُتل، ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، ومن قتل وأخذ المال صلب، ومن جاء مسلماً هدم الإسلام ما كان قبله من الشرك»^(١). ويكون هذا النص النبوى معينا أن «أو» ليست لمجرد التخيير ولكن للتنوع، وقد وردت الصيغة التى تدل بظاهرها على التخيير، فقد قال تعالى: ﴿... قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۖ﴾ [الكهف].

ولا شك أن اللفظ، وإن كان ظاهره تخيير ذى القرنين بين أى الأمرين يختار، ولكن لا يمكن أن يكون له الحق فى أى الأمرين من غير مرجح لأحدهما فى الاعتبار، ومنطق العدل الذى أوجبه الله على ذى القرنين والحكام العادلين أن يعذب من أبى وفسق عن أمر ربه ليرتدع غيره ويتزجر، وأن يتخذ الأمر الحسن والرفق مع من استقام أو ترجى استقامته.

وعلى ذلك لا تكون «أو» محضة للتخيير، ولكنها تحتل التخيير والتنوع، وقد ورد النص النبوى والآثار الصحاح عن الصحابة الذين تلقوا علم النبوة عن

(١) روى ابن جرير الطبري (ج ٦، ص ١٣٢) عن ابن عباس، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال: إذا حارب فقتل، فعليه القتل إذا ظهر عليه قبل توبته. وإذا حارب وأخذ المال وقتل، فعليه الصلب إن ظهر عليه قبل توبته. وإذا حارب وأخذ ولم يقتل، فعليه قطع اليد والرجل من خلاف إن ظهر عليه قبل توبته. وإذا حارب وأخاف السبيل، فإنما عليه النسي.

الرسول ﷺ بما يفيد أنها للتنوع في العقوبات تبعا لقوة ما ارتكبوا، لا لمجرد التخيير للإمام^(١).

وهذا هو الرأي الأول الذى يقوم على أن التخيير هنا ليس مطلقا، ولكنه منوع تبعا لقوة الجريمة، أما الرأي الثانى فهو يقرر أن «أو» للتخيير المطلق، وأن الإمام له الحق فى اختيار أى عقوبة من هذه العقوبات، فلما أن يقتلهم لمجرد إزعاجهم للآمنين، ليجتث من أول الأمر شأفتهم، كما أن له أن يقتل السارقين، وأن يصلبهم ولو لم يقتلوا، والتخيير هنا فيه إجازة مطلقة لولى الأمر ليعالج الجريمة، بما يراه أقرب إلى المصلحة وإقامة الأمن على أسس سليمة.

ووجهة ذلك رأى أن «أو» الأصل فيها أنها للتخيير، ولا يعدل عن الأصل إلا لما يوجب العدول، ولم يوجد ما يوجب العدول، وما ورد منسوبا للنبي ﷺ، ومن أقوال الصحابة فهو علاج لأحوال وقعت، والتخيير لا يمنع ولى الأمر من أن يختار التنوع، فإن اختاره فهو من حقه، ويدخل فى باب الإذن المطلق بالتخيير، فإذا اختار أن يقتل من قتل ويصلب من قتل وصلب، ويقطع فقط من سرق فهو من حقه، وليس عمل النبي ﷺ إلا من هذا القبيل إن صح ما نسب إليه^(٢)، وهذا التنوع ليس ملزما بأصل النص، ولكن قد تلزم به المصلحة، إن رأى أن ذلك هو طريق الردع.

(١) انظر السابق.

(٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَدِمَ أَنَسٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ فَاجْتَوَا (أي أصابهم داء البطن) الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِلِقَاحٍ وَأَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَأَنْطَلَقُوا، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ، وَاسْتَأْفَوْا النَّعَمَ، فَجَاءَ الْخَبَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ جِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسَمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَأُلْفُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلَا يَسْقُونَ. قَالَ أَبُو قِلَابَةَ (الراوي عن أنس): فَهَؤُلَاءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. [رواه البخاري فى ثلاثة عشر موضعا أولها: الوضوء - أبوال إبل (٢٣٣)، ومسلم: القسامة والمحاربن والقصاص (١٦٧١)] كما رواه أصحاب السنن وغيرهم وله طرق.

وإنه على هذا رأى جمع من التابعين منهم عطاء وسعيد بن المسيب ومجاهد، والحسن البصرى والنخعى، وأبو الزناد، وهو مذهب الإمام مالك والظاهرية كما قلنا.

وإن الفقه فى التفرقة بين الرايين أن رأى الأول يحد جرائم معينة ويعتبرها موضوع قطع بفعلها أو بالشروع فيها، وهى القتل والسرقة، وأن الجرائم لا تخلو عن ذلك؛ ولذلك كانت العقوبات مترددة بين القطع والقتل، وأنه قد يكون ثمة تغليظ إذا ارتكبت الجريمة معاً، وإن كان الشروع بالتجمع واتخاذ الأسباب، فإن العقوبة تكون بمنع الجريمة من الوقوع باتخاذ أسباب الوقاية بالنفى من الأرض بالتغريب أو زجه فى غيايات السجون؛ ولذلك كان التنويع، وكان تخريج «أو» على ذلك الأساس، ليكون التكافؤ بين الجريمة والعقوبة، وإن لم تكن جريمة كانت الوقاية.

أما رأى الثانى - فهو يتجه إلى أن عقوبة الحرابة لذات الحرابة والسعى فى الأرض بالفساد، ومنع الناس من السير والاستمتاع بأموالهم، وحرىاتهم الشخصية، وظاهر هذا رأى أنه لا ينظر إلا إلى ذات الحرابة التى هى التخويف والإرهاب، ولا ينظر إلى الجرائم التى ارتكبوها فعلاً؛ ولذلك يعمم الجرائم ولا يقصرها على القتل والسرقة كالرأى الأول، ويرى أن العقوبات فى جملتها هى لعلاج ذلك الشر، وحسم مادته، والقضاء على التفكير لمن يهم بمحاكاة من وقعوا فيه؛ ولذلك يجب إطلاق يد ولى الأمر، واعتبار تلك العقوبات فى يده كالدواء بين يدى الطبيب يختار من أصنافه ما يراه أنفع فى علاج الآفة التى أصابت الجسم الاجتماعى.

وإننا نرى رأى الأول بالنسبة لتنويع العقاب، ونرى رأى الثانى بالنسبة لتعميم الجرائم التى تفسد المجتمع الإسلامى، فإذا كانت عصابة تعمل لجمع الرجال على النساء، وتخطف النساء لذلك الغرض، أو كانت عصابة لتجميع المواد المخدرة المحرم ديناً وقانوناً تناولها فإنهم يكونون كقطاع الطريق، ويدخلون فى باب الحرابة.

ونتكلم من بعد ذلك عن عقوبة الحرابة، أهى من قبيل الحدود أم من قبيل القصاص؟ لقد نص الفقهاء بالإجماع على أنها من قبيل الحدود، فهي حد من حدود الله تعالى، وليست قصاصاً؛ ولذلك لا يصح العفو عنهم، وأنهم لا بد مأخوذون من تلك العقوبات التي قررها القرآن الكريم، فإن إقامة الحدود من العبادات بالنسبة لولى الأمر، ولا يصح أن يتخلى عن العبادة بأى صورة من الصور، ولأنهم قد وصفهم الله تعالى بأنهم يحاربون الله ورسوله، ووصفهم سبحانه بأنهم يسعون فى الأرض فساداً، وهم بذلك يعتدون أبلىع اعتداء على الجماعة المؤمنة، وكل ما يكون اعتداء على الجماعة يكون اعتداء على حق الله تعالى، والحدود عقوبات لأجل حق الله تعالى؛ ولأن هذه العقوبات حد تجب إقامته على ولى الأمر كان قابلاً للتوبة؛ ولذلك قرر الله تعالى فيه قبول التوبة، فقال تعالت كلماته: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد تكلمنا فى معنى هذه الآية الكريمة، وبقي أن نتكلم فى أمرين: أحدهما - كيف تكون التوبة قبل القدرة عليهم، وثانيهما - عن آثار هذه التوبة.

أما عن الأمر الأول، وهو حقيقة التوبة فى هذا المقام. فنقول إن التوبة العامة تقتضى ثلاثة أمور: اثنان منها نفسيان، والآخر مادى، والنفسيان أن يعترف بالذنب ويندم عليه، وأن يعتزم ألا يعود إليه من بعد توبته. وأما الأمر المادى، فهو الإقلاع عنه بالفعل.

ويتطبيق هذا على توبة قطاع الطريق لا يتعرض الفقهاء للناحية النفسية بل إن ذلك أمره إلى الله تعالى، ولكن يتجهون إلى الأمر المادى الذى يدل ظاهره على المعنى الباطنى، وإن هذا الأمر المادى يتحقق بأمرين، أو بأحدهما أولهما - بأن يؤمنَّ الناس قطاع الطريق، ويتركوا المكان الذى يباشرون فيه جريمتهم، وثانيهما - أن يقدموا الطاعة لولى الأمر، وهنا يجيء نظر الفقهاء أيكثفون بالأمر الثانى وهو تقديم الطاعة أم لا بد من الأمرين معاً؟ اختلف الفقهاء فى ذلك ففريق

قال: تحقق أحد الأمرين كاف، وهو تقديم الطاعة، أو ترك السلاح ومغادرة المكان إنما لا بد من إفادة دالة على إنهاء قطع الطريق. وفريق قال: لا بد من إلقاء السلاح وتأمين الناس وتقديم الطاعة.

ومهما يكن من أمر الاختلاف، فقد كان الاتفاق على أنه لا بد من إنهاء قطع الطريق بالفعل، وتأمين الناس، وإلقاء السلاح.

وأما الأمر الثانى المتضمن لآثار التوبة فقد قد فرض الفقهاء حالين للتوبة قبل القدرة عليهم:

إحدهما - أن تكون التوبة قبل أن يرتكبوا أى جريمة غير مجرد الخرابه، فلم يقتلوا، ولم يسرقوا، ولم يزنوا، بل أنابوا إلى الحق قبل أن تسلط عليهم سيوفه. وهؤلاء لا عقوبة عليهم، لأن الخرابه قد عدلوا عنها، وهم فى فسحة غير مضطرين إذا كانت قبل القدرة عليهم، ولم يتعلق بهم حق لآدمى، وحق الله تعالى موضع عفوه ورحمته؛ ولذلك قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فهذا النص الكريم يقرر أن الله تعالى قد عفا عنهم، ولأن الخرابه من غير تنفيذ الجرائم أو واحدة منها يعد شروعا، أو نية للسيئة قد هموا بها، وقد عدلوا مختارين عنها بغير قوة غالبية منعتهم.

والحال الثانية - أن يكونوا قد ارتكبوا جرائم لها حدود، ولها قصاص كأن يكونوا قد قتلوا، أو سرقوا، أو زنوا على مقتضى مذهب مالك الذى أدخل فى الخرابه الاتفاق على ارتكاب أى معصية من غير قصر على القتل والسرقة، فإذا كان شىء من هذه المآثم ثم تابوا قبل القدرة عليهم، فهل يسقط حق القصاص، وهل تسقط الحدود؟

قال جمهور الفقهاء: إن ما ارتكبوه من الجرائم التى تثبت حق القصاص لا يسقط؛ لأن القصاص من الحقوق التى يغلب فيها حق العبد، وحقوق العباد لا تسقط إلا أن يعفو صاحبها. وفى هذه الحال تنتقل العقوبة من حد إلى قصاص، ولا بد من أن تستوفى شروط القصاص؛ بأن يطالب ولى الدم، وله أن يعفو، وله

أن يقتصر، وفي حال العفو تجب الدية أو ما يتفقان عليه من المال عملاً بقوله تعالى: ﴿... فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ...﴾ [البقرة: ١٧٨] وأثر التوبة قبل القدرة في هذه الجريمة أنها كانت قبلها حدا لا يقبل السقوط، وبعدها صارت قصاصاً يقبل العفو من صاحبه، وإذا ارتكبوا ما يكون في أصله جريمة حد، كالسرقة، والزنى عند مالك، وتناول المخدرات والمسكرات واتخاذ أوكار في الكهوف والصحارى لنشرها وسلب أموال الناس في سبيلها، فإنه لا حد عند من يدخلها في الحرابة.

وإن ذلك يحتاج إلى بعض البيان.

فنقول: إن الفقهاء اتفقوا على أن السرقة تدخل في الحرابة فإذا سرقوا ثم تابوا، فإن الحد يسقط، ولكن يجب رد المال إلى صاحبه؛ لأن الحد يقبل السقوط بالتوبة، ولأن الله تعالى قد وعد بغفران ما ارتكبوا إذا تابوا فحق وعد الله وأما حق العبد فإنه لم يدخل في الوعد ابتداءً، ولأن الحرابة وهي الجريمة الكبرى قد غفرت، فيغفر ما في أطوائها من حدود هي في ذاتها دونها.

وأما الحدود الأخرى من حدود المسكرات والمخدرات والقذف والزنى إذا ارتكبوها في أثناء حرابتهم، فهل تسقط؟ لقد قال الإمام مالك: الذي جعلها تدخل في ضمن أعمال المحاربين، ويعاقبون من أجلها، ويعدون محاربين، ولو قصروا عملهم على ارتكابها، كالعصابات التي تتجر في أعراض النساء، وتسمى في لغة العصر. (الاتجار في الرقيق الأبيض)، قال مالك فيها: إن التوبة تجبها، لأنها داخلية في الحرابة وهي حقوق الله تعالى، وقد وعد سبحانه بغفرانها إذا ارتكبوها وتابوا قبل القدرة عليهم، وهي حقه، وهو سبحانه غفور رحيم.

وقال الشافعية: لا تسقط؛ لأنها غير داخلية في الحرابة، والتوبة هنا تكون توبة خاصة بها، ولا تكون توبة الحرابة شاملة لها، فإن تابوا عنها توبة خاصة - والأصغر يدخل في الأكبر - بها قبلت ما عدا القذف، وقال أبو حنيفة: لا تقبل عنها توبة ولو خاصة، وقال الحنابلة: تدخل التوبة عنها في ضمن التوبة عن الحرابة، لأنها أصغر منها.

هذه أحكام قطاع الطريق الذين سماهم القرآن الكريم محاربين لله ولرسوله، وسمى الفقهاء عملهم حراية، وقد تكون العقوبة شديدة في مظهرها، ولكن لو وزنت بالجرائم، ونظر فيها إلى الأثر لكانت منطقية وضرورية، وسل الذين تنفطر قلوبهم شفقة على المجرمين، كم ترتكب العصابات في أمريكا من جرائم قتل، وجرائم سرقات، وإفساد للضمان، وإشاعة للرشوة وتهديد للأمن حتى تقف الحكومات مكتوفة أمامهم، سلهم ليوافقوا بين العقوبة العادلة، والجريمة الظالمة، سلهم إن كانوا يدركون وينطقون والله هو العزيز الحكيم، وشرعه هو العدل الرحيم.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

اتَّقُوا اللَّهَ وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَ
لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَدُوهُ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا ثَقِيلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾
يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

في الآيات السابقة بين سبحانه ما أوغر به الحسد أحد ابني آدم، حتى قتل أخاه، إذ قربا قربانا، فقبل من أحدهما فحسده أخوه، فقتله بعد أن كانت منازعة نفسية انتهت بأن طوعت نفسه له قتل أخيه فقتله، وبهذا صور القرآن أصل الجرائم البشرية والبواعث عليها، وهو الحسد الذي يربى الضغن في النفوس وحب الاستعلاء بأي طريق الذي يسهل الظلم للقريب والبعيد من غير أى حريجة مانعة، ومن غير نفس لومة واظة، ولقد أشار من بعد ذلك إلى جرائم الأحاد، وجرائم



الجماعات، وبين أنه إذا لم يكن وازع النفوس كافياً، فلا بد من ردع بعقوبات زاجرة فيها إيلاء للأئمين، ونكال يجعل غيرهم يفكر فيما يترقبه من عقاب إن حدثته نفسه بالآثام، فإنه لم يكن له من نفسه واعظ، كان له من العقاب أعظم رادع.

ثم بين سبحانه الطريق لمحاربة الآثام في النفس قبل أن يظهر الشر ويطنح على الألسنة والجوارح، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ النداء موجه للمؤمنين بوصف أنهم مؤمنون؛ لأن مقتضى الإيمان أن يربوا أنفسهم على الخير، ويتزعموا منها نوازع الشر، وقد ذكر سبحانه وتعالى الطريق لتربية النفس وتغليب جانب الخير فيها على جانب الشر، وجانب الصلاح على جانب الفساد، وتلك الطريق المثلى مكونة من نقط ثلاث يتكون منها الخط المستقيم الموصل للغاية الفضلى، وهذه النقط الثلاث هي التقوى، وابتغاء الوسيلة، والجهد في سبيله، والغاية الحسنى هي الفلاح في الدنيا والآخرة، ولنشر بكلمة موجزة إلى معاني التربية في كل نقطة من هذه النقط.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: اجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وقاية، بحيث تكون نفوسكم في حصن لا يدخل إليها الشر وهي فيه، وهذا الحصن هو التقوى التي تملأ القلب بذكر الله تعالى، فلا تحس النفس إلا به سبحانه مسيطراً على كل ما في هذا الوجود، وتحس به رقيباً لا تخفى عليه خافية من خلجاتها، يعلم ما يخفى كل إنسان وما يعلن، وما يسر به وما يجهر، فيتجه إليه سبحانه وتعالى كأنه يرى ربه في كل عمل يعمل، فإن لم يكن يراه سبحانه فإنه يراه، كما قال النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

(١) سبق تخريجه.

ولا شك أن النفس إذا امتلأت بالتقوى ذلك الامتلاء، جانبها الهوى والحقد والحسد، وحب الاستعلاء الباطل، وصار صاحبها ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى في أوصاف أهل الإيمان: ﴿... لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا...﴾ [القصص].

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ هذه هي النقطة الثانية من الخط المستقيم الذي لا عوج فيه، فالنقطة الأولى ملء القلب بذكر الله تعالى وخشيته، وجعلها دائما في إحساس براقبته، وإنه يترتب على إدراك هذا الجزء من الخط المستقيم الوصول إلى النقطة الثانية، وهي طلب ما يتوسل به إليه لنيل رضاه وإدراك حق طاعته، فالوسيلة: هي ما يتوسل بها إلى رضا الله تعالى، وهي طاعته راغبا فيها محبا لها قاصدا إليها، وزكى لذلك طلبها بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا﴾ أى اطلبوا رضاه وطاعته سبحانه طلب من يحبه ويغنيه لثواب، وتلك أعلى الدرجات، ومن دون ذلك له فضل كبير ما دام قد طلب رضا الله تعالى.

فالوسيلة على هذا هي الطاعة برغبة، ولقد قال في ذلك الأصفهاني:

«الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة لتضمنها لمعنى الرغبة قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾. وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، والواصل: الراغب إلى الله، وعلى هذا التفسير اللغوي القرآني يكون معنى الوسيلة: الطاعة والتقرب إلى الله تعالى وطلب مرضاته. وقد جاءت بهذا المعنى في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ...﴾ [الإسراء]. وعلى ذلك تكون النقطة الثانية من صراط الحق وخط الإيمان المستقيم هي الطاعة وطلب رضا الله تعالى وحده.

وهنا مسألة لفظية نشير إليها، وهي تقديم الجار والمجرور في قوله جل جلاله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.



وإن التقديم هنا للقصر، والتخصيص، والمعنى اطلبوا برغبة وشدة إلى الله وحده الوسيلة إليه والتقرب، فلا تطيعوا سواه إلا في ظل طاعته، ولا تتقربوا إلى غيره إلا في ظل طلب رضاه، فإنه لا تقرب لسواه، ولا محبة إلا لأجله، كما قال النبي ﷺ: «حتى يحب الشيء لا يحبه إلا الله»^(١) فالحب لله والبغض لله هما أقوى دعائم الإيمان، وأن المؤمن يتوسل إلى الله تعالى بالقربات التي شرعها، حتى يكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويمتلئ قلبه ونفسه بنوره، فيكون ربانياً.

وإنه قد جاء في العبارات الإسلامية معنى للوسيلة على أنها درجة من أعلى الدرجات في الجنة، بل أعلاها، وهذا المعنى متلاق مع أصل المعنى، وهو التقرب إلى الله والتوسل إليه وحده بالطاعات، ولقد كان من الدعاء الذي يردد في الأذان ما رواه البخاري: فقد روى عن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت شفاعتي له يوم القيامة»^(٢). وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله تعالى عليه عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبده من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الوسيلة حلت له الشفاعة»^(٣).

(١) سبق تخريج ما في معناه من حديث.

(٢) رواه البخاري: الأذان - الدعاء عند النداء (٦١٤)، وبلغظ: «إلا حلت»: الأذان - الدعاء عند الأذان (٦٨٠) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم: الصلاة - استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (٣٨٤)، والترمذي: المناقب - في فضل النبي ﷺ (٣٦١٤)، والنسائي: الأذان - الصلاة على النبي ﷺ (٦٧٨)، وأبو داود: الصلاة - إذا سمع ما يقول المؤذن (٥٢٣)، وأحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن عمرو (٦٥٣٢).

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ هذه هي النقطة الثالثة من الخط المستقيم، وهو الصراط القويم، وهو الجهاد في سبيل الله تعالى، وسبيل الله هو الطريق المستقيم الذي ينتهي إلى الغاية العليا من شرائع النبوة، وهو السبيل الذي يكون فيه صلاح الإنسان، ودفع الفساد في هذه الأرض، وإقامة مجتمع فاضل بين العالمين، يسعى في ظله التقى البر، ويستمتع فيه الفاجر من غير عدوان ولا فساد، والجهاد: معناه بذل أقصى الجهد في تحقيق تلك الغاية الإنسانية العليا، وهي الإصلاح في الأرض، ودفع الفساد عنها، وإقامة الحق، وخفض الباطل، وسيادة الفضيلة ودفع الرذيلة.

والجهاد ذو شعب، الأولى جهاد النفس، ومغالبة الأهواء والشهوات، ومقاومة نزعات الشيطان، ومراقبة النفس، وسماء النبي ﷺ الجهاد الأكبر، والشعبة الثانية من شعب الجهاد، العمل على تكوين رأى عام فاضل يحث على الخير، ويقاوم الشر، ويمنع الظلم، ويقيم العدل ويحمل الظالمين على الجادة المستقيمة، ويصح أن يسمى ذلك جهادا داخليا؛ لأنه حماية للأمة من الآفات الاجتماعية، ووقاية لها من الشر الذي يقع فيها، فهو جهاد لحماية المجتمع من أحاده كما أن الشعبة الأولى حماية للفرد من آفات نفسه.

والشعبة الثالثة من شعب الجهاد العمل على حماية المجتمع من الظلم الخارجي، ونشر لواء المحبة والمودة بين الشعوب، وجعل العدل يسود العلاقات الدولية، ومدافعة الظالمين، وذلك النوع من الجهاد ذو ثلاث شعب، أولاها - نصر الحق بين العالم بالدعوة إليه باللسان والقلم، ومقاومة الشر من أن يستشرى بالدعاية للحق والعدل ودفع الظلم، والثانية - مد الضعفاء بأسباب الحياة ومعاونتهم، والثالثة - مقاومة الظلم بالحرب العادلة دفعا للظالمين، كما قال تعالى: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١).

ولقد قال النبي ﷺ: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأستكم وأموالكم»^(١).

وإن نقطة الجهاد هي آخر الخط المستقيم، وهي نهايته، وفيها غايته، وهي تحقيق مجتمع فاضل، والثمرة المرجوة من هذا هو الفوز والفلاح؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾.

إن تلك هي الثمرة المرجوة لهذه النقط الثلاث التي تكون ذلك الخط المستقيم المنير، وهو سبيل الله تعالى سبيل الفوز والنجاح، وأطلق، فلم يقيد بفلاح الدنيا، ولا بفلاح الآخرة؛ ولذلك كان شاملا، فإن الإنسانية إذا تهذبت نفوس الآحاد فيها، فاتخذت وقاية تمنعها من سخط الله تعالى، وإذا اتجهت إلى طلب رضاه والعمل في طاعته سبحانه، وصارت لا تعمل إلا لله تعالى وابتغاء مرضاته، وجاهدت لإعلاء كلمة الحق في شتى نواحيه، وترابطت برباط المودة والمحبة والعدل والفضيلة - إذا كانت الإنسانية كذلك علا ابن الأرض في هذه الأرض، وعم الصلاح واندفع الفساد، وتحققت خلافة الإنسان فيها.

والرجاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ من الناس لا من الله، أى أن المؤمنين إذا اتقوا الله وطلبوا مرضاته وجاهدوا في سبيله، كانت حالهم حال من يرجو الفوز، بل إن عليهم أن يرجوه، لأنهم ساروا في طريقه، وأنه يتميز رجاء المؤمنين حيثئذ عن خيبة الكافرين الذين لم يسيروا في ذلك الخط المستقيم؛ ولذا ذكر سبحانه حالهم في مقابل حال المؤمنين، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ في هذا النص الكريم يبين سبحانه المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فالمؤمنون يفوزون في الدنيا بنعيم الاطمئنان، والإحساس بالرضوان من الله تعالى، ونصره سبحانه، وتأنيده، وفوز الآخرة بالنعيم المقيم، أما الكافرون فإنهم إن نالوا ظاهرا من الحياة الدنيا، يستقبلهم في الآخرة عذاب مقيم دائم مستمر وإنه لو وزنت الدنيا بحذافيرها، وكل ما فيها بعذاب يوم القيامة، ما ساوت شيئا في جانبه وإنهم لو ملكوا الدنيا بما فيها، وأرادوا أن يقدموه فداء لأنفسهم من عذاب القيامة، ما قبل منهم ذلك، بل يرد عليهم ما يقدمون.

وإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر كفر الكافرين مؤكداً بـ «إِنَّ»، وذكر الوصول للإشارة إلى أن الكفر الثابت المؤكد الذى لم يقترن بالتوبة والانخلاع منه بإيمان يجب الكفر هو سبب لعذاب وهول يوم القيامة صوره الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَا مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ والافتداء تخليص النفس، والعمل على الحفاظ عليها بما لا أى نفيس يبذل فى سبيل ذلك الخلاص، والمعنى الجملى: لو ثبت أن الذين كفروا يقدمون كل ما فى الأرض تخليصاً لأنفسهم ومثله معه فى قيمته وكمه ما قبله الله تعالى منهم؛ لأن الجزء الذى ادخره الله تعالى لهم من عذاب اليم يتكافأ مع ما فى الدنيا مضافاً إليه مثله، وهم لو ملكوا كل ذلك لقبولوا أن يقدموه، فكيف وهم لا يملكون إلا قدراً ضئيلاً لا يساوى ذرة صغيرة فى هذه الدنيا، والله لا يتقبل ذلك الفداء مهما يكن قدره؛ لأنه قرر العذاب المؤلم المؤكد، وقد أكد نفى القبول بقوله تعالى: ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ أى ما قبل منهم بأى قدر ولو كان ضئيلاً، وكان من تأكيد النفى بصيغة التقبل، والمراد هنا من التقبل تكلف القبول، أى أنه لا يمكن القبول، ولو بطريق المحاولة والمعاناة.

وقد أكد سبحانه وتعالى العذاب بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى أن الذين يملكونه فى الآخرة بدلاً فى مقابل ما كانوا يملكون فى الدنيا عذاب مؤلم مستمر لا يزول ولا يفارقهم، وهم يريدون أن يخرجوا منه، وهو ملازمهم لا يفارقهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾.

صور الله سبحانه وتعالى حالهم بهذا النص الكريم، وهو أنهم اجتمع لهم العذاب الشديد المؤلم، والرغبة فى الخروج منه، ولكنه أمر لازم غير قابل للانفصال عنهم، فهم يريدون راغبين ملحقين أن يخرجوا من النار وعذابها الشديد، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلوداً غيرها، وهم يريدون

الخروج منها ولو بالموت والفناء، ولكنهم ليسوا بخارجين منها، وقد عبر سبحانه وتعالى عن رغبتهم بالفعل، فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ﴾.

أى أنهم يريدون أن يقع الخروج على أى صورة كان، فهم يطلبون الخروج من العذاب، ولو كان بعده الموت، وقد نفى الله تعالى الخروج بنفى الوصف، لا بنفى الفعل فقال: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ أى أنه ليس من شأنهم أن يخرجوا، ولا يصح أن تثبت لهم وصف الخروج، لأن العذاب هو الجزاء الحق الوفاق لما ارتكبوا، فلا يسوغ أن يقع الخروج منه أبداً، وقد أكد سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

هذا النص الكريم يفيد دوام ذلك العقاب من غير زمن محدود، بل هو دائم ملارم ثابت، وهنا نصان كريمان متقابلان: أولهما - قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قد وصف فيه العذاب صراحة بأنه مؤلم، وجاء الثبات من صيغة اللفظ بورن فعيل، ثانيهما - هذا النص وقد وصف بالإقامة والاستمرار والدوام صراحة، وفهم الإيلام من التعبير بكلمة «عذاب».

ولا شك أن العذاب المؤلم الدائم هو الجزاء لمن فرط فى أمر دنياء، وجعلها رجسا وفسوقا، فقد اشترى هذه الحياة الفانية، بالحياة الباقية، فكان حقا أن يجعل الله تعالى جزاءه أن يحرمه من كل ما فى الحياة الآخرة من الخير، ويذيقه وبال أمره جزاء وفاقا لما قدمت يدها، واجترح من سيئات. . اللهم اكتب التوبة لنا، ولا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا، واغفر لنا وارحمنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا

أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنْ أَلَلهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ أَللهُ يَتُوبُ

عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

بين الله سبحانه وتعالى مقدار الإثم في الاعتداء على أنفس الأحاد، وذكر سبحانه وتعالى أن من قتل نفساً، فقد اعتدى على حق الحياة عند كل الناس، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. ومن أحيائها بالقصاص لها، فكأنما أحيأ الناس جميعاً؛ لأنه يمكن للناس من حياة رافهة هادئة، فيها أمن وفيها استقرار واطمئنان، كما قال سبحانه في آية أخرى، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ (البقرة) ثم ذكر سبحانه وتعالى، الجريمة الكبرى في الاعتداء على الجماعة وخرق حرمت النظام، والانتقاص على الحكام الذين يقيمون الحق والعدل والشرع، وارتكاب القتل والسرقة والاعتداء على الأموال والأنفس والأعراض، وانتهاك الحرمات من غير أى حريجة دينية، وبين أنهم ينالون أقسى العقاب، لأنهم يرتكبون أفحش الجرائم وأفجرها.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن العقوبات لا تكفى وحدها لإيجاد مجتمع فاضل، بل لا بد من تهذيب الأرواح بالتقوى وطلب الوسائل الفاضلة، والغايات العالية، وأن يعرفوا أن عقاب الدنيا يهون بجوار عقاب الآخرة، وقد بين بعد ذلك العقوبة المقررة للاعتداء على الأموال، بعد أن ذكر عقوبة الاعتداء على الأنفس منفردة، ثم اجتماع الجرائم بالاعتداء على الأنفس والمال، والخروج على النظام.

وقد توسطت بين هذين النوعين من العقوبة آية الأمر بالتقوى وتذكر الآخرة وما فيها، لأن في ذلك بيانا بأن الصلاح الأول للمجتمع هو اجتثاث الجريمة من



النفس بزرع التقوى، ولأن القرآن ليس كتاب قانون تسرد فيه العقوبات سرداً، بل هو كتاب هداية وتهذيب وإرشاد وتوجيه إلى الطريق المستقيم، تذكر فيه العقوبة على أنها علاج للجريمة في المجتمع، ثم يذكر مع العقوبة المادية العلاج النفسى والروحى، وهو أجدى وأقوى وأبعد أثراً، وقد ذكر سبحانه وتعالى عقوبة المال فى أغلظ جرائمه وهو السرقة، فقال تعالى :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ الواو هنا فى معنى الواو العاطفة، إذ هى عطفت حكماً مقررًا لازماً، وهو قطع أيدي السارقين، على جزاء المحاربين، وكان ما بينهما من طلب المؤمنين بالتقوى وطلب القربى إلى الله تعالى فى معنى الجملة المعارضة بين معطوف ومعطوف عليه، ولها معناها السامى، وهو بيان العلاج النفسى التهذيبى بجوار العلاج المادى الجزائى .

والمعنى فرض عليكم، فيما فرض، حكم السارق والسارقة، كما فرض عليكم من قبل حكم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك الحكم بقوله تعالت كلماته: ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ . والفاء هنا للربط بين الكلام، وهى فى معنى بيان السببية الرابطة بين الجريمة والعقوبة، فهى تبين أن سبب قطع الأيدي هو السرقة وكونهم قد اتصفوا بها، وكان ثمة تجانس بين الجريمة والعقوبة فاليد التى امتدت بالأخذ سرقة هى التى تصير موضعاً للعقاب، وهو القطع .

وقد بين سبحانه وتعالى الباعث على ذلك العقاب، كما ذكر السبب، فالسبب المباشر هو السرقة، والحكمة أو الوصف المناسب هو ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ أى أن ذلك العقاب هو كفاء لما كسبا من فعل شئ له آثار سيئة، وإن ذلك العقاب نكال أى زجر من الله تعالى لمنع هذه الجريمة وتقييد الأيدي، حتى لا ترتكبها .

وظاهر الأمر أن قطع اليد لا يمكن أن يكون كفاء لليد المقطوعة، ولكن عند النظر الدقيق يتبين أن المقابلة ليست بين ذات المقدار المسروق، وبين اليد

المقطوعة، إنما المقابلة بين الأثر الذى يكون للفعل الذى يفعله السارق وبين العقاب، فإن السرقة فى حى أو قرية تفزع أهل القرية أجمعين، فيندفعون إلى جلب الحراس ووضع المغالق وإحكام الأبواب، فوق ما يكون بين الناس من اضطراب؛ إذ يفقدون الأمن والاطمئنان، وتستيقظ أعين الحكام، ويزداد عدد القائمين على الأمن، فالمقابلة ليست بين ذات الفعل والعقاب، بل المقابلة بين أثر الفعل، وما يعقبه من انزعاج، وليست العقوبة مقصودة فقط لذلك الجزء، بل هى مقصودة لما يعقبها من خوف الفاسدين، وفزع المجرمين، فيقل الإقدام عليها، بل لا يكون، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾. فالعقاب عادل فى ذاته؛ لأنه مناسب لأثر الجريمة، وإصلاح لأنه يؤدى إلى ذهاب الجريمة أو تقليلها.

ونريد أن نقف للكلام فى أمرين فى معنى نكال، وفى السرقة التى تعد جريمة توجب قطع اليد.

ونقول: إن معنى كلمة نكال الزجر والمنع، فهو منع للغير من الارتكاب، وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني فى أصل معنى كلمة نكال واشتقاقها: يقال نكل عن الشيء ضعف عنه وعجز، ونكلته قيده، والنكل قيد الدابة. وحديدة اللجام لكونهما مانعين، والجمع الأنكال، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [١٢]. ونكلت به إذا فعلت ما ينكل به غيره (أى يمنع غيره من أن يفعل فعله) قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا...﴾ [البقرة]. وقال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾.

وقال ﷺ: «إن الله يحب النكل على النكل أى الرجل القوى على الرجل القوى» (١).

(١) جاء فى النهاية فى غريب الحديث جزء ٤، ص ١٧٦ (نكل) «إن الله يُحِبُّ النَّكْلَ عَلَى النَّكْلِ»، قيل: وما ذاك؟ قال: «الرجُلُ القَوِيُّ المُجَرَّبُ المَيِّدُ المَعِيدُ، على الفرس القويَّ المُجَرَّبُ» النَّكْلُ بالتحريك: من التَّنْكِيلِ، وهو المنع والتَّنجِيَةُ عما يريد.



وإن هذا التحليل اللغوى يفيد أن معنى قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾. أن هذا العقاب فيه جزاء للجريمة وكفاء لها، وقد أشرنا إلى معنى ذلك، ويفيد أن هذا العقاب منع من الارتكاب، فإنه ينكل بالجانى، لكيلا يقع فى الفعل غيره، أى لكى يكون ذلك التنكيل سببا فى أن ينكل الغير عن الفعل.

والآن نتكلم عن معنى السرقة التى توجب قطع اليد، وهنا ننتقل من المعنى اللغوى للكلمة، إلى المعنى الشرعى المستمد من أقوال النبى ﷺ ومن المأثور عن صحابته، ومما فهمه السلف من فقهاء الأمجاد، رضى الله تبارك وتعالى عنهم.

لقد اتفق علماء الشريعة على أن السرقة أخذ المال على سبيل الاستخفاء، وهذا معنى فقهى يلتقى مع المعنى اللغوى، ولكن الفقهاء زادوا قيда فى هذا المعنى، وهو أن يكون الأخذ من حرز مثله، أى يكون المال محرزا مصونا محفوظا معنيا بحفظه العناية التى تليق، وقد قال الفقهاء رضى الله عنهم: إن الأخذ على سبيل الاستخفاء هو ركن السرقة، وكون الأخذ لمال محزر محفوظ حفظا يليق بمثله شرط لاستحقاق العقوبة المحدودة التى ذكرها الشارع الحكيم.

وإذا كانت السرقة لا يتحقق ذكرها إلا إذا كان الأخذ على سبيل الاستخفاء، فإنه لا يكون المغتصب سارقا، ولا يكون المختلس سارقا، وقد فرقوا بين المختلس والسارق فقالوا: إن السارق يكون مختفيا غير معلوم للمسروق منه، أما المختلس فإنه لا يكون مختفيا، بل يكون ظاهرا ولكن يأخذ فى غفلة من صاحب المال، والجمهور على أن الاختلاس لا يعد من السرقة فلا تقطع فيه اليد، ولقد خالف الجمهور إياس بن معاوية القاضى، وأوجب القطع على اعتبار أن فيه نوع استخفاء، وإن كان فى العمل، ولم يكن فى الشخص، وأن لذلك رأى وجهته من ناحية العمل، ومن ناحية المعنى.

ولقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل: أنه عد من السرقات جحود العواري^(١) والودائع؛ لأنه ثبت أن المخزومية التي قطع النبي ﷺ يدها، كانت تجحد ما تستعيره من الناس^(٢).

وإن ذلك غير الرواية الراجحة عن الإمام، بل إن الرواية الراجحة مع الجمهور، والحق هو أنها لا تعتبر سرقة وإلا اعتبر جحود الحقوق سرقة موجبة للقطع؛ لأنه لا فرق بين جحود العواري والودائع، وجحود الديون وسائر الحقوق المالية. وإن الفارق بين السرقة وجحود العواري كبير، فإن السرقة أخذ، وهذه منع للحقوق، والفرق بين المنع والأخذ كبير، وهذه أخذت بتمكين من المالك، والسرقة أخذ بغير تمكين من المالك.

هذا هو أصل معنى السرقة في ذاته، وهذا القدر قد اتفق عليه العلماء في الجملة، وقد اختلف العلماء من بعد في الشروط الواجبة للحد، ولنذكر بعض هذا الاختلاف:

* فقد اشترط أكثر أهل العلم لتحقيق السرقة الموجبة للقطع أن يأخذ المسروق ويخرج به من مكان حرزه، ومقتضى تحقق السرقة مع هذا الشرط، أن يدخل ويأخذ مستخفياً، ويخرج من المكان الذي فيه المال إلى خارجه فإن ضبط قبل أن يخرج به لا يقام عليه الحد. وقد خالف في اشتراط الخروج بالشئ من حرز - إبراهيم النخعي التابعي، وفقهاء أهل الظاهر.

* وقد اشترط الحنفية وبعض الفقهاء أن يكون الدخول إلى مكان الحرز بغير إذن صاحبه، فلو كان بإذنه وسرق لا تقطع يده، فالضيف إذا سرق من مضيفه لا تقطع يده؛ لأنه دخل بإذنه، فلم يحدث هتك حمى الحرز وكان هؤلاء يشترطون

(١) العواري: جمع عارية، وفي القاموس المحيط (عور): والعَارِيَّةُ، مُشَدَّدَةٌ وَقَدْ تُخَفَّفُ، وَالْعَارَةُ: مَا تَدَاوَلَوْهُ بَيْنَهُمْ. الجمع: عَوَارِيٌّ، مُشَدَّدَةٌ وَمُخَفَّفَةٌ.

(٢) عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَمْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ اسْتَعَارَتْ حُلِيًّا عَلَى لِسَانِ أَنَاسٍ فَجَحَدَتْهَا فَأَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقُطِعَتْ. رواه النسائي: قطع السارق - ما يكون حرزاً وما لا يكون (٤٨٩٢).



مع الشرطين السابقين أن يتحقق معنى هتك حمى الحرز، وهو موضع الأمانة التي تنتهك حرماناتها.

* ويظهر أن الكثيرين من الفقهاء يشترطون مع ذلك أن يكون المكان المسروق منه في وسط الأحياء العامرة في المدائن أو القرى، ليتحقق معنى الحرز والمحافظة، وكذلك قرروا أن البيوت التي تكون في البساتين أو الطرق أو الصحراء وليست في العمران إذا لم يكن بها أحد وسرقت مع اتخاذ المغاليق، وضبط الأبواب، لا يكون ثمة قطع يد؛ لأن من ترك متاعه في مكان خال من الناس والعمران لا يعد حافظاً له، وإن أغلق بابه وأحكم الإغلاق.

بيننا في هذا معنى السرقة الموجبة للقطع من حيث ذات الفعل، وبقي أن نتكلم في محل السرقة، وهو المال المسروق، فليس كل مال يؤخذ ولو كان محرزا ومحفوظا، وبين الناس، يعد أخذه موجبا للقطع، وقد قالوا: إن المسروق يجب أن يكون مالا مقوما، لا شبهة فيه، ولا قصور في ماليته بأن يكون مما يتموله الناس، ويعدونه لأغراضهم المختلفة، ويتنافسون في طلبه، وعلى ذلك لا يصح أن يكون المال من توافه الأموال كالتراب والطين وما يشبههما مهما تبلغ قيمته.

ولا بد أن يكون المال المسروق مملوكا لمن سرق منه ملكية قطعية لا شبهة فيها، فلا قطع في أخذ مال مباح، ولا في المال الذي كان أصله مباحا، وامتلك بالإحراز كالماء والصيد^(١).

وهناك نوعان من المال قرر الفقهاء أنه لا يقطع من أخذهما استخفاء من حرز مثلهما:

(١) روى الترمذي: الحدود - ما جاء في درء الحدود (١٣٢٤) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ادْرَأُوا الْهُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الْإِمَامَ أَنْ يَخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ». وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

أولهما - أموال بيت المال، فقد قرر الأكثرون أنه لو أخذ مسلم من بيت المال لا يقطع، ولترك الكلمة لابن جرير في هذا الموضوع فهو يقول: «لا قطع على من سرق من بيت المال إذا كان مسلماً، ويروى ذلك عن عمر وعلى رضى الله عنهما، وبه قال الشعبي والنخعي وأصحاب الرأي، وقال مالك وحمام يقطع بظاهر الكتاب (أى النص وهو ﴿وَالسَّارِقُ﴾ وَالسَّارِقَةُ)﴾ ولنا ما روى ابن ماجه بإسناده أن عبداً من رقيق الخمس (أى الخمس المخصص لبيت المال من الغنائم) سرق من الخمس، فدفع إلى النبي ﷺ فلم يقطعه، وقال: «مال الله سرق بعضه بعضاً»^(١)، ولأن له فى المال حقاً، فيكون شبهة تمنع وجوب القطع، كما لو سرق من مال له فيه شركة. ونرى أن الذين أقاموا الحد طبقوا النص باعتبار أن السرقة قد تحققت، فوجب تحقيق العقاب، وأن هذا المال مال الله ومال الله تعالى أوجب أن تراعى حرمة، ولأن إهمال الحد فيه معنى إباحته، وذلك لا يجوز.

والذين لم يقيموا الحد، وهم الأكثر عدداً بنوه على أساس أن لكل مسلم حقاً فيه، فهو مال الجماعة كلها، وإذا كان كذلك فلأخذ حق أو شبهة حق، والحدود تسقط بالشبهات.

وإن رأى الذى يوجب الحد أخرى بالقبول، حتى لا تكون أموال الأمة نهياً للناس ينالونها من غير أى حريجة دينية، ويحسبون أنهم يأخذون حقاً لهم، وإن لم يكن مقسوماً، فالأولى بالحماية مال الله حتى لا تمتد إليه الأيدي الآثمة، ولعل النبي ﷺ لم يقيم الحد على الرقيق الذى كان غنيمة إذ أخذ منها؛ لأن الحرز لم يكن ثابتاً بالنسبة له، وللفرق بالرقيق الذى لم يكن على علم بالشرع وما يجب عليه، ولأن حماية مال الدولة أوجب رعايته، لأن ما سرقه من حيث القيمة دون ما ينقص من قيمته بقطع يده، وفوق ذلك نتلف جزءاً من بيت المال بإتلاف جزء

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدًا مِنْ رَقِيقِ الْخُمْسِ سَرَقَ مِنَ الْخُمْسِ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَقْطَعْهُ، وَقَالَ: «مَالُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَرَقَ بَعْضُهُ بَعْضًا». رواه ابن ماجه: الحدود - العبد يسرق (٢٥٩٠). والخمس أى خمس الغنائم المفروض لله ورسوله.

آخر، فيكون الإتلاف مضاعفا، وليس هذا متفقاً مع ما عرف عن النبي ﷺ من حكمة، ولعل قوله ﷺ: «مال الله سرق بعضه بعضاً»^(١) يشير إلى هذا المعنى إشارة واضحة.

ويجب التنبيه هنا إلى أنه إذا لم يقم الحد عند من لا يقيمونه تجب عقوبة شديدة، وإن لم تكن قطع اليد، ولتكن الجلد أو الحبس، أو النفي من الأرض، أو ما يراه ولي الأمر عقاباً رادعاً، ونكالا مانعاً.

ثاني الفرعين من المال الذي لا يكون فيه قطع - كل مال يكون للسارق نوع شركة فيه أو يكون بين السارق والمسروق منه صلة تجعل لكل واحد منهما حقاً في مال الآخر، وذلك يشمل ما يأتي:

(أ) سرقة أحد الأصول من الفروع، فإنه لا قطع فيها، لأن للأب أو للأم أو الأصول نوع شركة في مال الفرع، كما قال ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»^(٢) وكما ورد عنه: «الولد كسب أبيه»^(٣) وكل أصل أب أو أم.

(ب) إذا سرق أحد الزوجين من الآخر لا قطع؛ لأن ثمة شركة أدبية بين الزوجين توجد ما يشبه الشركة المالية؛ ولأن مال أحد الزوجين غير محرز بالنسبة للآخر، وفي هذا الموضع خلاف كثير، ذلك القول في عمومه أرجحها وأقواها.

(ج) لا يقطع الفروع إذا سرقوا من مال أصولهم لمعنى الشركة الذي بيناه فهو من الجانبين، وقانون التساوى في المعاملة يوجب ألا يقطع الفرع إن سرق من الأصل، كما لا يقطع الأصل إن سرق من الفرع.

(١) السابق.

(٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَالًا وَوَلَدًا وَإِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِي. فَقَالَ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ» رواه ابن ماجه: التجارات - ما للرجل من مال ولده (٢٢٩١).

(٣) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَكَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ». رواه الترمذي: البيوع - الحث على الكسب (٤٤٤٩).

(د) سرقة الأرحام المحارم بعضهم من بعض فإنها عند الأكثرين من الفقهاء فيها شركة أوجبتها القرابة، وجعلت المحرمة مقياسا بهذه القرابة التي توجد الشركة المالية من بعض نواحيها.

وهكذا نجد الحد يضيق تطبيقه إذا كان للسارق نوع حق في المال المسروق، ولو كان ضعيفا، وأنه كلما اتسع نطاق الموانع لإقامة الحد ضاق تطبيقه، وإننا لو أردنا أن نقيم حد السرقة في حال أجمع الفقهاء على وجوب إقامته فيها لوجدنا العدد يضؤل ويضيق النطاق، حتى إننا نجد أنه في كل عشرة آلاف حالة سرقة لا تقطع يد واحدة، وإنها كافية للردع والزجر في ألوف الألوف، وقد ثبت أن ما دونها لا يزجر مثلها، ولو في هذا النطاق الضيق، والله عزيز حكيم يضع العقاب في موضع الداء، فيحسمه القليل، ولا يحتاج فيه إلى الكثير، إنه خبير بما يعملون.

وإن الفقهاء الذين قرروا أن السرقة لا بد أن تكون من حرز، وأن يخرج بها السارق من الحرز، وألا يكون قد دخل ذلك بإذن أهله بأن يكون متسهما للحرمت، قد قرروا كما رأيت إعفاء السارقين من العقاب إذا كانت الأموال لهم شبه حق فيها، وذلك كأموال بيت المال عند الأكثرين وأموال الآباء والأبناء، وأموال الأقارب بعضهم مع بعض والزوجة مع زوجها.

كذلك قرروا أن بعض الأموال لا يجرى فيها قطع اليد، كأموال التي تكون مباحة، ونالها بالاستيلاء مالكمها، فقد قال الأكثرون: إنه لا قطع فيها، وأجمعوا على أن مال المحوز إذا سرق لا قطع فيه، وذلك لأن الشركة الطبيعية لا تزال قائمة ولو بطريق الشبهة ما دام المالك هو المستولى.

ولقد قال بعض الفقهاء: إنه لا قطع في الأموال غير القابلة للادخار أي التي يتسارع إليها الفساد، كاللحم والفاكهة الرطبة واللبن والخضر غير القابلة للادخار؛ وهكذا، فقد قال أبو حنيفة ومالك والثوري: لا قطع في هذه الأموال، والشافعي وأحمد ومن تبعهم أجازوا القطع في هذه الأمور.

وهكذا يجرى الخلاف فى بعض الشروط وفى بعض أنواع الأموال، وقد اتفقوا على أن سرقة ما يحرم تناوله أو استعماله لا توجب قطع اليد، فسرقة الخمر أو الخنزير، ولو كان يملكها غير مسلم لا توجب القطع باتفاق علماء المسلمين، وسرقة أدوات اللهو والمجون وما لا يتخذ فى حلال خالص لا توجب القطع.

وإنك إذا تلمست الصور التى اتفق الفقهاء على وجوب القطع فيها بالنسبة للشروط الواجبة للاستيفاء فى الفعل، وفى الأموال تجد تلك الصور نادرة، لا تقع فى كل خمسمائة سرقة واحدة متفق على وجوب القطع فيها، ويزيد ندرة الصورة المتفق عليها اختلاف الفقهاء فى نصاب السرقة.

وقد اتفق الفقهاء فى الجملة على أن اليد لا تقطع إلا إذا بلغ المسروق قدرا من المال، فقد اتفق الرواة على أن النبي ﷺ قطع يد السارق فيما قيمته مجنّ، (وهو ما يتقى به المقاتل ضربات العدو) فقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قطع فى ثمن مجنّ وقد قدرته رضى الله عنها بربع دينار^(١).

واختلف العلماء من بعدها فى قيمته، والأكثرون على أن قيمته ربع دينار، فأقل مقدار تقطع فيه يد السارق ما قيمته ربع دينار، ولكن الحنفية قدروا النصاب بعشرة دراهم، كما روى عن ابن مسعود: أنه لا قطع فى أقل من دينار أو عشرة دراهم، ولأنه قد اختلف فى تقدير المجنّ، فقليل قيمته أربعة دراهم، وقيل قيمته ربع دينار، وقيل قيمته دينار، والاحتياط يوجب الأخذ بالأكثر وتقدير أم المؤمنين عائشة اجتهاد منها يعارضه اجتهاد عبدالله بن مسعود، فيؤخذ به؛ لأنه أكثر احتياطا.

(١) عن عائشة أن يد السارق لم تقطع على عهد النبي ﷺ إلا فى ثمن مجنّ حقة أو ترس. [متفق عليه؛ رواه البخاري: الحدود - والسارق والسارقة (٦٧٩٢)، ومسلم: الحدود - حد السرقة ونصابها (١٦٨٥)].

وعن عائشة قال النبي ﷺ: «تقطع اليد فى ربع دينار فصاعداً». [متفق عليه؛ رواه البخاري: الحدود - السابق (٦٩٨٩)، ومسلم: السابق (١٦٨٤)].

هذا وهناك ملاحظة لفظية يجب اعتبارها، والوقوف عندها وقد وقف بعض الباحثين عندها، وهو أن الله سبحانه وتعالى عبر عن الذى يستحق القطع بقوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا».

فقد قرر بعض الباحثين أن كلمة «السارق»، و«السارقة» وصفان وليسا فعلين، والوصف لا يتحقق فى الشخص إلا بالتكرار، فلا يقال لمن ظهر منه الجود مرة أنه جواد، ولا لمن وقع منه الكذب مرة ولم يتكرر كذاب، ولا للفاسق الذى لا يقول الحق، والمنافق الذى يخفى ما لا يبريه إذا صدق مرة أنه صادق أو صدوق، إنما تقال هذه الأوصاف لمن يتكرر منه فعلها، حتى تكون اسما له وعنوانا يعرف به.

وبتطبيق هذا القول على من تقع منه السرقة لا يكون مستحقا للقطع إلا من تكررت منه السرقة، وعلى حد تعبير القانونيين يكون ذلك العقاب للسارق العائد.

ويذكرى هؤلاء الباحثون نظرهم - أولا - بأنه ثبت فى أخبار المخزومية التى سرق وأمر النبى ﷺ بقطع يدها^(١) أنها كانت معتادة السرقة، لأنها كانت معروفة بأنها لا ترد الودائع التى تودعها، ولا العوارى التى تستعيرها، فكان الأمر بالقطع من النبى ﷺ واقعا على امرأة قد اعتادت الاعتداء على الأموال بجحود الودائع والعوارى والسرقات.

وثانيا - أنه روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه . . لما أراد قطع يد شاب سرق قالت له أمه: اعف عنه يا أمير المؤمنين، فإن هذه أول مرة، فقال عمر

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتَهُمُ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يَكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مِنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعُ مُحَمَّدٌ يَدَهَا». [متفق عليه؛ رواه البخاري: الحدود - كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٧٨٨)، ومسلم: الحدود.

لها: (إن الله أرحم من أن يكشف ستر عبده لأول مرة) ويظهر أن الإمام عمر رضى الله عنه يرى أن القبض على السارق متلبسا ووجود شهود يشهدون يدل على التكرار.

وثالثا - بأن كثيرين من الفقهاء اعتبر توبة السارق قبل إقامة الحد عليه تسقط الحد، فلا يقام عليه، ولا تكون التوبة عند التكرار، بل يكون موضعها عند الارتكاب الأول، ولنتكلم فى موضوع التوبة فقد قال تعالى:

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كان قطع اليد هو العقوبة الرادعة، فإن التوبة تجبها وتقطعها فى الدنيا والآخرة، أو فى الآخرة فقط، فمن أقلع عن الذنب وأحس بالندم على ما ارتكبه، واعتزم على ألا يعود إليه، فإن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته، وعبر سبحانه وتعالى عن قبوله توبته بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾. أى أنه جلت قدرته، وتعالى عظمته يقابل عمله القلبي فى التوبة، والعمل الخارجى بالإصلاح ومنع الإفساد، بعمل من جانبه سبحانه وهو أنه يتوب عليه، أى يعينه على التوبة ويقبلها، فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يتضمن ثلاثة معان - أولها - المعاونة على التوبة إذا أخلص العبد، وخلص العمل له سبحانه، وأصلح فى الأرض بعد الإفساد فيها. وثانيهما - قبول التوبة، وثالثها - تطين التائب بتأكيد القبول.

وذكر سبحانه أن التوبة الخالصة لا بد أن تقترن بالإصلاح؛ لأن الإذعان القلبي لا يكون كاملا وناميا إلا إذا اقترن به العمل الصالح؛ لأنه يزيه ويسقيه.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ إشارة إلى أن السرقة خاصة وارتكاب الذنوب عامة ظلم كبير، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾. فيه إشارة إلى أن السرقة إفساد فى الأرض والأمانة إصلاح أى إصلاح.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات رحمته، وأنه سبحانه من صفاته الثابتة الغفران فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. أى أن الله يتوب على عبده إذا أذنب؛

لأن من صفاته أنه غفور كثير الغفران يتجاوز عن السيئات، ويكافئ على الحسنات؛ لأن ذلك مقتضى رحمته، وهو الرحيم الدائم الرحمة، وقد أكد سبحانه ذلك فضل تأكيد بـ «إن»، وبإعادة لفظ الجلالة.

وقد أشرنا من قبل إلى أن كثيرين من الفقهاء يقولون: إن التوبة تسقط الحد، وكانت هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ من شواهد ذلك.

والقول الجلى فى هذا أن التوبة قبل الترافع إلى السلطان إذا صاحبها رد المسروق إلى مالكة تمنع إقامة الحد بالاتفاق، ولكن الخلاف القائم بين الفقهاء فى التوبة إذا كانت بعد الترافع وإثبات السرقة، فقد قال أبو حنيفة ومالك: إن التوبة لا تسقط الحد؛ لأن الأمر بالقطع عام يشمل التائب وغير التائب، والتوبة المنصوص عليها فى هذه الآية هى ما يكون بعد إقامة الحد وقطع اليد، فقد قال النبى ﷺ: «إذا قطعت يد السارق فتاب سبقت يده إلى الجنة، وإن لم يتب سبقت يده إلى النار» وفوق ذلك فإن التوبة فى السرقة كالتوبة فى الزنى لا تسقط (الحد)^(١)، ولقد أقام النبى ﷺ حد الزنى، وقال فى امرأة أقام عليها الحد: «لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لو سعتهم»^(٢). وفوق هذا وذاك الحد كفارة للذنوب فى الدنيا والكفارات تجب مع التوبة.

(١) عن مُحَمَّد بن الْمُكَنَدِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ سَارِقًا، ثُمَّ أَمَرَهُ فَحْصَمَ، ثُمَّ قَالَ: تَبَّ إِلَى اللَّهِ، قَالَ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ السَّارِقَ إِذَا قُطِعَت يَدُهُ وَقَعَتْ فِي النَّارِ، فَإِنْ عَادَ تَبِعَهَا، وَإِنْ تَابَ اشْتَلَاهَا - يَعْنِي: اسْتَرْجَعَهَا -». [الجامع للسيوطي ج ٢١، ص ٤٣١ (٢٠٠١)].

(٢) عَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حَبْلَى مِنَ الزَّنى فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلَيْهَا فَقَالَ: «أَحْسِنِ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعْتَ قَائِنِي بِهَا»، فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَشَكَتَ عَلَيْهَا نَيْبَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرَجَمَتْ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تَصَلَّى عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى». [رواه =

وقال أكثر الشافعية والحنابلة: التوبة تمنع إقامة الحد وأقاموا على ذلك الأدلة الآتية:

أ - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾. وهذا النص مقترن بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾. فكان مخصصا للعموم في الأمر بالقطع، وإلا ما اقترن به.

ب - أن الله تعالى اعتبر التوبة مانعة من إقامة حد الحراة^(١)، والحراة فيها جرائم سرقة وقتل وسرقاتها كبيرة، فكيف تقبل التوبة في السرقات الكبرى، ولا تقبل في الصغرى.

ج - ما ورد في الآثار الصحاح مما يثبت أن التوبة تجب ما قبلها، وقد قال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

د - أن التوبة السريعة تدل على أن النفس لم تدنس بالرجس، وقد قال تعالى في تحقيق هذا المعنى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ...﴾ (١٧) [النساء].

والذي نراه في هذا الموضوع أننا نأخذ برأى الإمامين أبي حنيفة ومالك في الذين يعدون عائدين، فإن هؤلاء لا تقبل منهم توبة. ولا تأخذ العدالة فيهم رافة، أما الذين لم يكونوا عائدين، فإن التوبة تعفيهم من العقاب إقالة لعثرتهم، ونأخذ في أمرهم برأى أكثر الشافعية والحنابلة.

وإذا كان لنا أن نطالب بإقامة حدود الله، وهو واجب علينا، فإننا إذا طالبنا بإقامة حد السرقة نطالب به في الحدود الآتية:

= مسلم: الحدود - من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٦)، كما رواه الترمذي: الحدود (١٤٣٥)، والنسائي: الجنائز (١٩٥٧)، وأبو دود: الحدود (٤٤٤٠)، وابن ماجه: الحدود (٢٥٥٥)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٣٦٠)، والدارمي: الحدود (٢٣٢٥).

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة المائدة (٣٤): ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقد سبقت.

أولها - أن يقام الحد على السراق العائدين ليكونوا عبرة للمعتبرين .

الثانى - ألا يقام الحد إلا فى الحال التى اتفق الأئمة على إقامتها فيه، فلا يقام الحد، وبعض الأئمة لا يرى إقامته .

الثالث - ألا توجد أى شبهة فى الإثبات أو فى غيره، والله سبحانه بكل شىء عليم، ولقد قال سبحانه :

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بعد أن بين سبحانه وتعالى العقاب الذى ينزل بالمفسدين فى الأرض محاربين أحكام الله تعالى والنظام الذى يقرره الإسلام، وبين أن باب التوبة مفتوح، لمن يريد الإصلاح، ويقطع عن الإفساد - ذكر سبحانه وتعالى أن تلك هى أحكام العليم الحكيم، صاحب السلطان القاهر الذى هو فوق كل سلطان، وأن كل ذى سلطان مهما يكن اتساعه وسطوته، فهو فى ملك الله تعالى، وأن ما يكون من عقاب أو غفران فهو من واسع حكمته، ومن شمول رحمته؛ ولذلك قال سبحانه مبينا سلطانه مخاطبا كل أهل للخطاب، أو مخاطبا النبى ﷺ ابتداء، ومخاطبا غيره اتباعا، وهذا ما نرجحه؛ ولذلك أردف هذا النص الكريم بقوله تعالى: ﴿... لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ ...﴾ (٤١) [المائدة] كما ستكلم فى الآيات الآتية بمعونته تعالى ومشيتته .

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ . هذا التعبير السامى من قبيل الاستفهام الإنكارى الذى يؤكد ما فى مضمونه ويبعده عن كل احتمال، ويقال إنه للسفى، فهو نفى للجهل، ونفى الجهل تأكيد للعلم، والمعنى أبحت الأدلة، ودرست الكون وما فيه، والخلائق ومبدعها فعلمت أن أحدا له ملك السموات والأرض غير الله، وإذا كان بحثك وتنقيبك واستدلالك قد أدى بك إلى نفى العلم بأحد له ملك فى السموات والأرض غيره فالدليل نفسه هو الذى يؤكد علمك بأنه وحده صاحب السلطان المطلق فى السموات والأرض .

وإذا كان سبحانه وتعالى هو صاحب الملك المطلق، والحكم الذى لا معقب له فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، فهو وحده المنفرد ببيان العقاب الرادع، والتجاوز السمع حسب ما يرى بحكمته؛ ولذلك قال سبحانه :



﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وإذا كان سبحانه وتعالى هو صاحب السلطان المطلق، فإنه لا يسأل عما يفعل وليس وراء ما يأمر به معقب من أحد، فهو يعذب من يشاء عقاباً رادعاً في الدنيا، ليمنع غيره من أن يقع في الشر، كما وقع هو، ويغفر لمن يسلك طريق التوبة، والأمر في كل ذلك إلى مشيئته هو وحده، وهو العليم الخبير اللطيف بعباده، الذي لا يكون معه إلا ما فيه خيرهم، وإن علا على إدراكهم، وعسر على فهمهم، فمشيئته مطلقة تعلقو حكمة ما يفعل - على عقولنا ومداركنا.

ولقد كانت مشيئة الله تعالى مقترنة بقدرته، ولذلك قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه قادر على كل شيء، فكل ما في هذا الوجود خاضع لإرادته وقدرته وسلطانه، لا يخرج عنه شيء، ولا يعجز عن شيء؛ اللهم أظننا برحمتك وعفوك وغفرانك، إنك على كل شيء قدير.

يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ

لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
 قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
 هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ
 آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِمُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ
 يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا
 وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي
 الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

بعد بين الله سبحانه وتعالى حسد أحد ابني آدم لأخيه وكيف أدى الحسد والحقد إلى أن يقتل الأخ أخاه، بين سبحانه وتعالى ما هو نتيجة للحقد، من قتل النفوس، وقيام المجرمين بالشر فرادى وجماعات، وآثار هذه الجرائم في المجتمع، وبين أشد أنواع جرائم الفتك والاعتداء في الجماعة وهي الخرابة، ثم ذكر السرقة، وهي في معنى الخرابة؛ لأنها سطو على الأمن، وإزعاج للناس، وجعلهم في اضطراب مستمر وبلبال دائم، وهمّ مقيم، وذكر عقوبتها الزاجرة، وآثارها الملقية بالأمن والاستقرار في النفوس.

وبعد هذا البيان من آثار الحقد، والحسد في الجرائم الحسية ونشرها، ذكر سبحانه أثر الحقد والحسد في الجرائم المعنوية والاعتقادية، وهي التي يجمعها جحود الحق حسداً وحقداً واستكباراً، كحسد أحد ابني آدم على أخيه إذ حقد واستكبر، وذكر حقد اليهود والمنافقين على النبي ﷺ وحسدهم له ولقومه على ما آتاهم الله من فضله، فأرسل في العرب رسولا يدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وقد كان سياق قصة ابني آدم مبينا استمكان الحقد والحسد في نفوس الأشرار، وإذا علم ذلك النبي ﷺ فلا ينبغي له أن يحزن على ما يصيبه نتيجة للحقد والحسد؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنًا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ النداء إلى النبي ﷺ والنداء له عليه السلام بـ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ - التي تدل على نداء البعيد مع أنه من الله قريب وهو له مجيب؛ لبيان الشأن العظيم لما يدعوه إليه ويناديه لأجله، وللموضوع الذي ينبهه إليه، وهو حال الذين يخاطبهم وتدبير الدعوة على مقتضى حالهم، وتوقع ما يقع منهم.

وقد قال فخر الدين الرازي: إن نداء الله تعالى له عليه السلام يكون بـ «يا أيها النبي» ما عدا موضعين: أحدهما - هذا الموضع، والثاني - في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. وقال إن النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ﴾ فيه زيادة تشريف للنبي ﷺ؛ لأن الرسالة أخص من النبوة، والحق أن النداء بالنبوة

وبالرسالة كلاهما فيه تشريف للنبي ﷺ بدرجة واحدة، لأن في كليهما بيان صلته بالله تعالى بها، ولكننا نرى أن النداء بـ «يا أيها الرسول» ونهيه، ويبلغ رسالته التي شرفه الله تعالى بها ولكننا نرى أن النداء «يا أيها الرسول» يناسب ما يطلبه الله تعالى منه، وهو تبليغ الرسالة؛ إذ يقتضى أن يلقى الأخيار والأشرار، وأن يتوقع من الأشرار ما قد يثير النفس فإن لج به الألم ذهبت نفسه حسرات، ولا يتفق ذلك مع العزيمة الواجبة لأداء الرسالة.

وقد كان النهى منصبا لا على ذات الحزن، بل قال سبحانه: ﴿لَا يَحْزُنْكَ﴾ أى لا تجعلهم يدخلون الحزن على نفسك باستعظام ما يفعلون، وبذلك يندفع الاعتراض القائل أن الحزن ألم نفسى يدخل على النفس إجبارا من غير استئذان، والنهى عنه ليس نهيا عن أمر للنفس فيه اختيار، بل هو نهى عن أمر للإرادة فيه سلطان بالصبر وضبط النفس، وتوقع الأمور قبل وقوعها فمن توقع الثابتات قبل وقوعها يخف وقعها، ويسهل احتمالها، وأولئك الذين يسارعون فى الكفر يتوقع منهم الشر فلا يحزن الرسول عند وقوعه، فمعنى النهى فى قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنْكَ﴾ يتضمن أمرين:

أولهما - قبل وقوع شر أولئك المنافقين يتوقعه، فلا يحزن إذا وقع، وثانيهما - ألا يبقى أى أثر من ألم لوقوع الشر، والمعنى الضمنى لهذا النص: لا تعباً بما يصنع هؤلاء مما من شأنه أن يحزن، فلا ينبغي أن تحزن.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ معناه: الذين يتنقلون بحركات سريعة فى دركات الكفر فينحدرون من دركة إلى دركة ويوغلون فيه إغالا من غير مواناة ولا تدبر ولا تفكر، وهذا سر التعدية بـ «فى» دون «إلى»؛ لأن التعدية بـ «إلى» تفيد الدخول فيه بعد أن لم يكن، أما التعدية بـ «فى» فإنها لا تفيد الدخول بعد أن لم يكن، بل تفيد الانتقال فى مداخله من حال إلى أسوأ منها فى سرعة من غير تفكير.

وهذا يزكى معنى النهى عن أن يكون منهم ما يحزن النبي ﷺ؛ لأنه لا يتوقع من الكفار الذين مردوا على النفاق إلا الإيغال فيه، والازدياد فى الشر.

وقد بين سبحانه نوع هؤلاء الناس، فقال تعالت كلماته: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾. ﴿مِنَ﴾ هنا بيانية، فهى تدل على أن ما بعدها بيان للذين يسارعون فى الكفر متنقلين فى دركاته موغلين فى الجحود، وقد كان أول وصف يدل على جحودهم الشديد، وإمعانهم فى الضلال والتضليل هو أنهم يقولون: «آمنّا» بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وقوله تعالى بأفواههم متعلق بقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾.

وقدم قوله تعالى ﴿آمَنَّا﴾ على قوله تعالى ﴿بِأَفْوَهِهِمْ﴾ للإشارة إلى مسارعتهم بقول الإيمان وإعلانه وذكره، إمعانا فى التضليل والنفاق، ولأن قول الله تعالى ﴿بِأَفْوَهِهِمْ﴾، ولو أنه متعلق بكلمة ﴿قَالُوا﴾ فيه حكم على ادعائهم الإيمان والحكم يتأخر دائما عن واقعة الحكم، فالواقعة قولهم ﴿آمَنَّا﴾، والحكم من الله تعالى بأنه إيمان بالأفواه، لا بالقلوب فهو إعلان عن الإذعان، ولقد أكد سبحانه وتعالى ذلك الحكم بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى لم تدعن للحق وتسلم به وتخضع له قلوبهم، وليس المعنى لم تصدق قلوبهم؛ لأن الإيمان ليس هو المعرفة المجردة، بل إنه إذعان وخضوع لما تقتضيه المعرفة ويقينها، فإن من أولئك يهودا كانوا يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم، ولكن معرفتهم هذه صحتها تمرد على الحقائق، وعبث، وسير فى الجحود، فلا يمكن أن يتحقق الإيمان منهم، وإن كانت لديهم المعرفة بالحقائق، إذ لم يذعنوا لها، والتعبير بالأفواه بدل الألسنة - إشارة إلى تزيين كلامهم فقط حتى صار الفم كله يشترك فى ادعاء الإيمان لا طرف اللسان فقط.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ هى داخله فى البيان الذى دلت عليه «من» الأولى، وعلى ذلك يكون هؤلاء داخلين فى الذين يسارعون فى الكفر، فإنهم فريقان، فريق المنافقين، وفريق اليهود الذين



تميزوا بهذا الاسم، وإن اشتركوا معهم فى معنى النفاق، ويكون قوله تعالى ﴿مِنْ﴾ بعد ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ وصفا للفريقين معا، لأنه يجمعهم المسارعة فى الكفر، هذا أحد مخرجين للآية الكريمة، وهو يتفق مع إحدى القراءتين^(١)، وهى التى لا يكون فيها الوقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ بل تكون القراءة متصلة. والقراءة الثانية أن يكون الوقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ ويكون قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾. استثناء لفريق آخر، ويكون قوله تعالى ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾، وصفا لليهود، ويكون المعنى أن الذين يعاندون النبى ﷺ فريقان: أحدهما - منافق يعلن الإيمان، ويبطن الكفر وسبب جحودهم أنهم مردوا على النفاق، وضعفت نفوسهم، وانحل موضع اليقين فى قلوبهم لسماع الباطل من القول، والزور من الدعاوى، حتى اختلط عندهم الحق بالباطل، وفقدوا التمييز بينهما بسوء ما يصنعون، وكلا الفريقين يلتقى عند مصب الجحود والتكران، والمسارعة فى الكفر، وإن كان قوله تعالى: ﴿يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾. غير متجه إلى اليهود من حيث النسق البياني على القراءة الثانية فإنه من حيث التضمن والواقع ينطبق عليهم وصف المسارعة على الكفر، والتنقل فى دركاته.

وفى الحق، إن القراءتين^(٢) مقصودتان من حيث المعنى، والقراءة الأولى معناها مقصود بالنص، والقراءة الثانية (كذلك) وكلتاها قرآن يتلى ويفهم، ويراد معنى، كلاً ومنفرداً.

وقوله تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾. هو وصف للفريقين على إحدى القراءتين، أو على مجموع القراءتين، وسماع صيغة مبالغة من سامع، أى من صفاتهم التى صارت فيهم خصلة من خصالهم أنهم كثيرو سماع الكذب، قد استمرأته قلوبهم وأسماعهم، يجدون لذادة فى الاستماع، ويصل إلى قلوبهم

(١) غير بالقراءة، وأراد الوقف (فى أثناء القراءة).

(٢) أى الوقفين. والقراءات المتواترة توقيفية من عند الله تعالى.

فيفسد موضع التفكير والتدبر، كأولئك الذين يلقون بأسماعهم فى الخرافات، فيقبلونها كأنها حقائق ثابتة لا مجال للريب فيها عندهم، فهم بهذا ضالون، وتكون اللام فى قوله تعالى: ﴿لِلْكَذِبِ﴾، للتعدية، أو لتقوية التعدية، وأن السماع منصب على الكذب، وقال بعض اللغويين: إن اللام للتعليل أى سماعون لأجل أن يكذبوا، وأحسب أن التخريج الأول أقرب إلى القبول؛ لأن ذلك وصف لهم، فهو غير مغلل، وهو يدل على فساد قلوبهم من داخلها، لا من أمر خارج فقط، وقد بين سبحانه الذين يستمعون إليهم، والذين يغذون قلوبهم المملوءة بالصيد والدم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أى أنهم يكثرون سماع الباطل ويكثرون من سماع قوم آخرين لم يأتوك لهم تأثير فيهم، فاجتمع فيهم فساد الباطن الذى جعلهم لا يستمرثون إلا سماع الشر، ووجود من يستغلون فيهم ذلك الضعف القلبى، فيعملون على استهوائهم إلى الباطل، والتعبير بـ «قوم آخرين»، فيه إشارة إلى أن أولئك الذين يستمعون إليهم بعيدون عن سلطان الدعوة الإسلامية، إذا كان البعد حسيا، أو بعيدون عن قبول قوله إذا كان البعد معنويا، وكلاهما يشملهما القول.

وفى الجملة: إن فى هذا تسلية للنبي ﷺ من حيث إن الذين يسارعون الكفر من المنافقين واليهود إذا كانوا يتنقلون فى دركات الجحود، ولا يستمعون إليك، فلأنهم يجيئون إليك وقلوبهم مملوءة بالباطل، والإيمان الصافى يحتاج إلى آنية صافية من كدرة الهوى، وأخبث الشر، وإذا كان فيها شئ من ذلك فأشراق الإيمان قد يذهب به إذا لم يكن ثمة تغذية له من كلام الآخرين، واستمراء الباطل.

وقد وصف الله الذين يمرقون عن الحق مروق السهم من الرمية ويدعون إليه بقوله تعالت كلماته: ﴿يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ الكلم اسم جنسى لكمة، فهو معناه كلام، والتحريف أصله من

الحرف، وهو طرف الشيء، ومعناه إمالة الكلام عن معناه، وإخراجه عن أطرافه وحدوده، والتحريف يكون على ضروب شتى فيكون بتغيير الألفاظ والزيادة فيها والنقص منها، وذلك تحريف فى اللفظ والمعنى، وإما أن يكون التحريف بتفسير الكلام بغير ما تدل عليه الألفاظ، وتوجيه المعانى إلى غير مقاصدها، ويكون التحريف بإدخال احتمالات فى الألفاظ، وهى غير قابلة لها، وقد قال الأصفهانى فى هذا المعنى: «وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن على الوجهين» وقد خرج على هذا المعنى النص الكريم الذى نتكلم فى معناه.

واليهود حرفوا التوراة بكل أنواع التحريفات، فزادوا فيها كلمات ليغيروا المراد فيها، ففى تحريم الربا زادوا كلمة «أحاك الإسرائيلى» ليجعلوه محرما بين الإسرائيليين فقط. وحذفوا منها عبارات، وأتوا بقصص مكذوبة كقصص ابنتى لوط، وحملوا ما بقى من عبارات من غير زيادة فيها أو نقص على غير معانيها، أو جعلوها محتملة لغيرها، ورجحوا غير الظاهر على الظاهر، وحذفوا منها ما كان فيه التبشير بمحمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ﴾. أى من بعد استقرار مواضعه، وبيان حلالها وحرامها، وفى آيات كثيرة كان التعبير القرآنى، يحرفون الكلم عن مواضعه، أى يصرفونه عن مواضعه بزيادة أو نقص، والتعبير هنا هو قوله تعالت كلماته: ﴿مَنْ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ﴾. أى من بعد استقرار أحكامه وهو مناسب للمقام هنا؛ لأن الموضوع، كما تدل الآيات التالية مسوقة لتغييرهم فى الأحكام، ومحاولتهم العبث بها.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ما كان يقوله القوم الآخرون الذين يسمعون لهم؛ فهم يعطونهم معلومات محرفة باطلة عن التوراة وما فيها، ويقولون للسامعين لهم: إن أوتيتم هذا فخذوه، أى إن آتاكم النبى ﷺ بمثل هذا الذى هم عليهم فإن لهم أن يقبلوه، وأن هذا كقول الله تعالى فيهم حاكيا عنهم قوله:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ
وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢) وَلَا تَوَمَّنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ
اللَّهِ ... ﴿٧٣﴾ [آل عمران] وإن هذه الحال هي أبلغ الضلال الذي ينال
العقول، وهو الفتنة التي تعتربها؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿وَمَن يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. الفتنة هنا هي: الضلال
واستهواء النفوس إليه، وذلك أن الفتنة تطلق بمعنى الاختبار الشديد، والوقوع في
البلايا والشدائد والنوازل، وأن هؤلاء قد اختبرت نفوسهم بما سلط عليهم من
باطل ودعوات إليه، وسقطوا في الاستجابة لهذا الشر، فكانت هذه هي الفتنة التي
وقعوا فيها باختيارهم، واستهوتهم الأهواء المردية، ووقعت بهم البلايا الشديدة،
وقد أراد الله تعالى أن يقعوا فيها باختيارهم، فالضلال باختيارهم وسلوكهم
سبيله، وتجانفهم عن طريق الحق، والله تعالى أراد لهم ما اختاروا.

وقد بين الله تعالى أن النبي ﷺ لا يملك أن يزيل عنهم ذلك الضلال لأن
من يرد الله فتنته وضلاله بكتابة ذلك عليه، وتسجيله في لوحه المحفوظ، فلن
يملك أحد دون الله شيئاً في ذلك، فلا يستطيع تغييره، وأنت يا نبي الله لا
تستطيع التغيير فلا تحزن لضلالهم، ولا تهتم لما يقعون فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ...﴾ (٥٦) [القصص]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ
أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾.

إن هؤلاء الذين أركست نفوسهم في الشر والضلال، حتى صار النفاق
دأبهم، وتحريف القول بعد استقرار مواضعه طريقهم، واستمراؤهم للكذب
يستمعون إليه وصفحهم - أولئك المتصفون بهذه الصفات لم يرد الله تعالى أن يطهر
قلوبهم، ذلك أن قلوبهم اكتسبت سيئات تراكمت وتكاثفت، حتى أربدت،
وخالطها الشر وأصبح ملاصقاً لها كأنه جزء من كيانه، والله سبحانه يأخذ بيد
من يرتكب الشر عن جهالة، أما من اكتسبت نفسه الخطايا وأحاطت به، فإنه
سبحانه وتعالى يتركه، لينال جزاء ما كسبت يداه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هؤلاء هم الذين فتنوا في دنياهم بوقوعهم مختارين في بلائهم، فأولئك المنافقون والذين هادوا لهم - بسبب ما وصفوا - خزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة، يبلغ من الإيلام والأذى ما لا يدرك كنهه ولا يعرف حقيقته إلا رب العالمين، وما أعطانا من علم في كتابه الحكيم، وعلى لسان رسوله الأمين.

وأما الخزي في الدنيا، فهو الذل الدائم المقيم مهما يكن من مظاهر القوة، ذلك أن النفاق وحده ضعف في النفس واضطراب في العقل، وكشف لحاله مهما يكن عنده من قدرة على الإخفاء والتستر، فإن ثوب النفاق شفاف دائما، وذلك فوق ما يتسم به من جبن وخور إن لم يكن معلوما لكل الناس فإنه يكون معلوما بينه وبين نفسه، وهم يحسبون أنهم يستهزئون بالناس، والناس يعلمونهم، والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون.

واليهود لا يعيشون إلا في كنف غيرهم من الناس أو على خداع الناس، وحسبهم ذلك خزيا وعارا.

وقانا الله تعالى شر هذا الخزي، ووقى المسلمين من شر النفاق والمنافقين، وحمى الأمة الإسلامية منه، وهو العليم بذات الصدور.

سَمِعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ
فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ
يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ
التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

الكلام مستمر فى بيان أوصاف الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، والذين غلبت عليهم الشقوة والضلالة، حتى صاروا لا يخضعون إلا لأهواء قوم لم يشرق فى قلوبهم نور الإيمان، ولم تطمئن قلوبهم ببرد اليقين للإذعان للحقيقة بعد أن يعرفوها.

وقد انتقلت الآيات من التعميم إلى التخصيص، فخصت اليهود بوصف آخر غير أنهم سماعون للكذب بأنهم أكالون للسحت.

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ﴾ هذا وصف للذين يسارعون فى الكفر عامة وفى اليهود خاصة، وهم مروا على سماع الباطل واستمروا به وأضافوا إلى ذلك وصفا من بابيه، وهو أنهم يستمرئون المال الخبيث الذى ينبت من باطل، وإذا كانت آذانهم تستمرئ باطل القول وزوره، فأفواههم وذمهم تستمرئ أكل أموال الناس بالباطل، والسحت كما يفهم من مصادر اللغة وآثار التابعين والصحابة، كل كسب يكون بطريق آثم، ومن ذلك الرشوة والربا، وأخذ الأجور فى الشفاعات، وقد سئل عبدالله بن مسعود عن السحت، فقال: الرجل يطلب الحاجة للرجل فيقضيها فيهدى إليه هدية فيقبلها^(١)، وإذا كانت الهدية فى مقابل قضاء الحاجات سحتا، فماذا يكون كسب الجاه والمال والمناصب، وما تدر عليه من مال بطريق النفاق والفتاوى الباطلة فى الدين، ولقد قال النبى ﷺ: «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به»^(٢).

وذكر الطبرى الأصل اللغوى لكلمة سحت، فقال: «وأصل السحت^(٣) كَلْبُ الجوع، يقال: فلان مسحوت المعدة، إذا كان أكولا، لا يلقى أبدا إلا جائعا،

(١) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقبلَهَا، فَقَدْ أَتَى بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا» [رواه أبو داود: البيوع - الهدية لقضاء الحاجة (٣٥٤١)، وأحمد: باقى مستند الأنصار (٢١٧٤٨)]. أوردته لغلبة الغفلة عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كما فى جامع البيان ج ٦، ص ١٤٠.

وإنما قيل للرشوة السحت تشبيهاً بذلك، كأن بالمسترشى من الشره إلى أخذ ما يعطاه من ذلك - مثل الذى بالمسحوت - المعدة من الشره إلى الطعام، يقال منه: سحته، وأسحته لغتان محكيتان عن العرب... ومنه قوله تعالى: ﴿... فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ...﴾ [طه]. وتقول العرب للحالق: «اسحت الشعر، أى استأصله».

ونرى أن ابن جرير ذكر الرشوة فقط هنا، وإن كان السحت يشمل أكل مال الناس بالباطل، ولو كان هدية فى نظير مسعى حميد كما ذكرنا عن ابن مسعود، وقد روى عن مسروق التابعى أنه شفع لرجل فى حاجة، فأهدى إليه جارية فغضب غضباً شديداً، وقال: لو علمت أنك تفعل هذا ما كلمت فى حاجتك، ولا أكلم فيما بقى من حاجتك، سمعت ابن مسعود يقول: «من شفع شفاعه ليرد بها حقاً، ويرفع بها ظلماً فأهدى له فقبل فهو سحت».

وإن هذا الكلام المروى يبدو منه أمران: أحدهما أن كل أكل لمال الغير بالباطل يعد سحتاً سواء أكان برضاه أم كان بغير رضاه. وثانيهما - أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان كانوا لفرط إيمانهم بالحق ووجوب نصرته يرون أن نصره الحق ودفع الباطل يجب أن تكون لله، وأنه لا يصح أخذ أجر فى نظيرها، ولو كان هدية تعطى فى مسمحة ومحبة، حتى لا يرتق قول الحق بغرض من أغراض الدنيا، وحتى لا يستغل الجاه، ولكى تعلق معنويات الأمور، ولا تسيطر مادياتها.

وإن اليهود قد اشتهروا بالسحت، وخصوصاً فى الحكم، وقد أرادوا من النبى ﷺ أن يحكم بينهم بشرعته رجاء أن يكون فى حكمه ما هو أخف من حكم ما عندهم، لا طاعة لحكمه، وخصوصاً للحق عنده؛ ولذا قال سبحانه:

﴿... فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يومئ هذا النص الكريم إلى أنهم سيتحاكمون إليه، وقد تحاكموا إليه بالفعل لا طلباً للحق والعدل، ولكن رجاء التخفيف عن أرادوا التخفيف عنه، وروى فى موضوع التحاكم الذى ذهبوا إلى النبى ﷺ ليحكم فيه عدة روايات تنتهى إلى خبرين:

أولهما - أنهم كانوا يقيمون حد الزنى، إلى أن زنى منهم شاب ذو شرف، فقال بعضهم لبعض؛ لا يدعكم قومه ترجمونه، ولكن اجلدوه، فجلدوه، وحملوه على إكاف حمار؛ (برذعة) وجعلوا وجهه قبل ذنب الحمار، ثم زنى بعد ذلك وَصِيْعٌ ليس له شرف وليس له من يحامى عليه، فقالوا: ارجموه، ثم وجد من بينهم من استنكر تلك التفرقة، فقالوا: كيف لم ترجموا الذى قبله، ولكن اصنعوا بهذا مثل ما صنعتم بسابقه، ثم قالوا: سلوه لعلكم تجدون عنده رخصة.

وكأنهم استنقلوا إقامة الحد، وأرادوا أن يترخصوا، ويقبلوا حكم النبى ﷺ فبين لهم النبى ﷺ أنه حكم توراتهم يجب أن ينفذ، وأنه لا يصح الفرار من هذا الحكم، وإن ذل الأمم يكون إذا غيرت الأحكام فيها لأجل الأقوياء، وبدلت على حسب الأهواء.

ثانيها - أن اليهود ما كانوا يعدلون فيما بينهم، ولا تتكافأ دماؤهم فى نظرهم، فكانت قريظة إذا قتلت قتيلا من بنى النضير كانت تجب الدية كاملة فى حال وجوب الدية، وإذا قتلت النضير من قريظة كانت نصف الدية لشرف فى الأولى ونقص فى الثانية، ويروى أنهم كانوا إذا قتل رجل من بنى النضير قرظيا لا يقتل به ووجبت الدية، وإذا كان المقتول نضيريا قتل به، فكانت فى عصر النبى ﷺ وهو بينهم دماء، فتحاكموا، فحكم بالتسوية، لأن ذلك هو العدل، وهو حكم التوراة.

وقد خير الله تعالى نبيه فى أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، ولماذا كان ذلك التخيير، وإقامة العدل واجبة، وقد مكن من إقامته بتحكيمهم؟ والحقيقة أن النبى ﷺ كان مخيرا ذلك التخيير، ليتعرف أمرهم، فإن كانوا يريدون الحق ويطلبونه ويدعون له استجاب للأمر وحكم، وإن كان يعلم أنهم جاءوا مغرضين فى قلوبهم مرض، لا ينفذون إلا ما يتفق مع أهوائهم وليسوا خاضعين لسلطانه - ينفذ فيهم الحق الذى يراه، أما الذين يكونون تحت سلطانه وينفذ الحق فيهم، فإنه لا تخيير بل يقضى بينهم، وكذلك الأمر من بعده ﷺ، ولذلك قرر الفقهاء أن

الذمين فى المعاملات المالية والزواج الاجتماعية خاضعون للأحكام الشرعية، ولا يجيز الحاكم فى الحكم بينهم بشرع الله تعالى؛ لأن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما رعايا الدول الأخرى الذين يقيمون فى ديارهم ويربطهم بالمسلمين الجوار وميثاق عدم الاعتداء، كما كان الشأن فى يهود المدينة فى أول أمرهم، قبل أن تظهر خيانتهم، ويضطر النبى ﷺ إلى إجلائهم.

وهنا ملاحظة لفظية، وهى فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾. لماذا كان التعبير بـ «إن» الدالة على الشك ولم يكن التعبير بـ «إذا» الدالة على التحقيق، مع أنهم جاءوا إليه فعلاً؟ والجواب عن ذلك أن الشك كان بالنسبة لحالهم، فهم كانوا مترددين فى التحاكم إلى النبى ﷺ، وهم بعد الحكم لم ينفذوا، فحالهم حال شك ابتداء وحال شك انتهاء، وعدم إذعان فى الحالىين؛ لأن فى قلوبهم، كما قال تعالى فى أشباههم: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ...﴾ [النور].

ولقد زعم بعض العلماء أن الحكم الشرعى كان هو التخيير عند تحاكم غير المسلمين ثم نسخ، وصار الحكم لازماً، والحق أن التخيير لا يزال قائماً بالنسبة لغير المسلمين الذين يطلبون حكم الإسلام من الحاكم المسلم لينفذوه فى ديارهم، والتخيير ليتعرف الحاكم حالهم، فيحكم حتماً إن كانوا طلاب حق، وله أن يرفض إن كان فى قلوبهم مرض، ولا ضرر من الإعراض؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَرَّضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئًا﴾.

وإنه فى حال الإعراض يصاب أولئك الذين يريدون الحكم لهواهم لا للحق فى ذاته - بخيبة أمل قد تحرك فيهم عناصر الضغينة والمقاومة، وإشاعة قالة السوء عن النبى ﷺ فبين الله سبحانه وتعالى فى ذكره الحكيم أنه لا تضره هذه الأفعال، وقد نفى سبحانه وتعالى الضرر نفياً مؤكداً بـ «لن»؛ لبيان أنهم لا طاقة عندهم فى أن يضرروه، وكان نفى الضرر فى هذا المقام له مغزاه؛ لأن احتكامهم إليه ﷺ فيه نوع من المسألة والإذعان فى الظاهر لما جاء به النبى ﷺ، وهو إعلان للتصديق،

فإذا أعرض، فقد يكون ثمة احتمال الضرر الذى ينال الدعوة الإسلامية، وشدة لجاجتهم فى الباطل، فنفى الله سبحانه وتعالى ذلك الضرر؛ لأن الإعراض يكون حيث يدرك النبى عليه الصلاة والسلام أنه لا مجال لأن ينفذوا ما يحكم به، وأنهم يريدون أن يطوعوا أحكامه لأهوائهم، أو يتأولوها بغير المقصود منها، فيكون أكرم للدعوة، وأكرم لمقامه عليه الصلاة والسلام أن يذرهم فى غيهم يعمهون، والله سبحانه وتعالى غالب على أمرهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ القِسط هو: النصيب بالعدل الذى لا وكس فيه ولا شطط، وتوصف به الأعمال الطيبة، فقد قال تعالى: ﴿... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ...﴾ ﴿٤﴾ [يونس]. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ...﴾ ﴿٩﴾ [الرحمن].

والقِسطُ أخذ نصيب غيره، والإقساط إعطاء غيره نصيبه غير منقوص؛ ولذلك قال العلماء: إن القاسط هو الظالم، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ﴿١٥﴾ [الجن]. والمقسط هو العادل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. والمعنى الجملى للنص الكريم: إن اخترت أن تحكم بينهم لرجاء أن ينفذوا الحكم ويذعنوا له، فلا تتبع أهواءهم واحكم بالعدل والقسطاس المستقيم، وذلك العدل بين الله تعالى حكمه، وشرع لزومه فى كتبه المقدسة فإذا كان هناك زنى فالقسط أن يحكم بالحد، لا فرق بين شريف وضعيف، وقادر وغير قادر، بل الجميع أمام الحق على سواء، فالقسط هو إعطاء كل ذى حق حقه، وتنفيذ حدود الله تعالى بالمساواة، فلا يعفى منها شريف دون ضعيف، فإن فى هذا هلاك الأمم، وذل الشعوب.

وقد ذيل النص الكريم بقضية عامة شاملة، وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. وفى ذلك تركية للعدل وتأکید لطلبه، فقد أكد الكلام بالجملة الاسمية، وبـ «إن» المؤكدة، وبتصدير الكلام بلفظ الجلالة، وبيان أن محبة الله تعالى لا تكون إلا للعادلين المقسطين الذين لا يجورون، وكان التعبير بـ «إن» فى

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ﴾. وهى تفيد الشك فى اختياره عليه الصلاة والسلام الحكم بينهم لأنهم ليسوا طلاب حق وإنصاف بل يريدون الحكم كما يهودون، والدليل على أن اليهود ليسوا طلاب حق أن التوراة التى بأيديهم فيها الحكم صريح فى الموضوع الذى تحاكموا فيه.

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الاستفهام هنا للتعجب واستنكار حالهم، أى أن حالهم حال مستنكرة. عندهم النص الصريح فى القضية التى يتحاكمون فيها، ومع ذلك يلتمسون الحكم فى غير ما عندهم رجاء أن يكون على ما يهودون ويبتغون، وإن كان غير ما يؤمنون فهم ممن اتخذ إلهه هواه، ومن يريدون أن يتبع الحق أهواءهم، لا أن تكون أهواؤهم تابعة للحق تسير فى مداره، ولا تخرج عن إطاره، والتعجب والاستنكار يتجهان إلى أمرين:

أولهما- أنهم يتحاكمون إلى النبى ﷺ مع أن الحكم عندهم فى التوراة صريح لا مجال للريب، فلماذا يعدلون عن تنفيذ ما عندهم إلى طلب شئ عند النبى عليه الصلاة والسلام، إلا أن يكونوا مؤمنين بصدق ما جاء به، وذلك لم يكن منهم.

والأمر التالى- الذى هو موضوع الاستنكار والعجب أنهم يطلبون من النبى عليه الصلاة والسلام، ثم يعرضون من بعد بيانه لهم. فهم متناقضون فى جملة أحوالهم يطلبون الحكم ممن لا يؤمنون بدعوته، مع أن الحكم صريح فيما يؤمنون ثم يعرضون عن الحكم الذى يتلاءم مع ما عندهم.

ويلاحظ أن القرآن الكريم يقرر أن التوراة فيها حكم الله فى المسألة التى يختصمون إلى النبى عليه الصلاة والسلام فى أمرها، فهى تصديق للتوراة فى تلك الجزئية، وهى إقامة حد الزنى دون غيرها، فليس لأحد أن يحتج بأن القرآن يقر أحكام التوراة التى كانت بأيدي اليهود فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام والتى بأيديهم فى هذه الأيام، فإن تصديق ما بأيديهم فى جزئية من الجزئيات لا يقتضى

تصديقها فى كل ما جاء بها مما فى أيديهم، فقد نسوا حظا مما ذكروا به، وحرفوا الكلم عن مواضعه ولا شك أن التحريف لم يتناول الجميع، بل لا تزال فيها أثارة مما نزل على موسى.

ومن المباحث اللفظية فى النص الكريم التعبير بـ «ثم»، ويقول تعالى «من بعد ذلك»، فى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

فإن التعبير بـ «ثم»، والبعدية والإشارة للبعد للتفاوت النفسى المنطقى الكبير والتراخى المعنوى بعد الاحتكام إلى النبى عليه الصلاة والسلام والإعراض عن قوله بعد أن بين حكم التوراة فيما يحتكمون، ولكن المنافق المبطل فى مفارقات مستمرة بينه وبين الحق، والمنطق السليم، والعقل المستقيم.

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فى هذا النص الكريم نفى لصفة الإيمان المطلق عن اليهود وأشباههم ممن يجعلون الحق تبعا لأهوائهم، والله سبحانه وتعالى ينفى صفة الإيمان بأى عقيدة أو مذهب؛ لأن الإيمان يقتضى طلب الحق وإدراكه والإذعان له وهذه ليست صفات هؤلاء، فهم لا يطلبون حكم الحق بل يطلبون حكم الهوى، وأركسوا فى الأهواء فلا يدركون، وبعدوا عن المنهاج المستقيم فلا يدعون، فهم لا يؤمنون بالتوراة وإلا أذعنوا لحكمها، ولا يؤمنون بما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام لأنهم جحدوا قوله وناوءوه، وناصبوه العدا فهم لا يؤمنون بشيء. والإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إليهم بأوصافهم كلها من أنهم لا تستمرئ أسماهم إلا الكذب، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويتميلون بالحق، ويفرقون فى الحكم بين القوى والضعيف ومن كان هذا شأنهم لا يمكن أن يدخل شيء من الإيمان قلوبهم. . اللهم احفظ الناس من شرهم، وهبنا الإيمان الصادق والإذعان للحق.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ
وَأَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

ذكر سبحانه في الآيات السابقة ما عليه اليهود من أنهم كانوا سماعين للكذب، وأنهم يأكلون السحت، وأنهم لا يتبعون الحق في أحكامهم، بل يجعلون الحكم تبعاً لأهوائهم يفرقون في الأحكام بين الشريف والضعيف، والغنى والفقر، والقوى المستعلى، والضعيف المستخذى، وأنهم جاءوا إلى النبي ﷺ في بعض قضاياهم راجين أن يكون عنده ما يرضى أهواءهم، فكشف الله سبحانه وتعالى خبيثة نفوسهم، وبين أن الحكم عندهم ثابت فيها، وأن الإسلام لم ينسخه، وقضى عليه الصلاة والسلام به أو أشار عليهم باتباع ما عندهم في هذه المسألة إن كانوا طلاب حق، ثم بين سبحانه أن التوراة التي بأيديهم لا يزال بها ذلك لم يغيروه.

وقد بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك مقام التوراة في الأحكام التي قررتها لليهود، وتعلموا بها، وخرجوا عليها، وكان ذلك من أسباب ضياعهم، وقساوة قلوبهم. فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

في هذا النص الكريم بيان لشرف التوراة قبل أن يحرفوها ومكانها من الحق، فبين سبحانه شرفها الذاتي، وشرفها الإضافي، بين أنها منزلة من عند الله

تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ هو سبحانه وتعالى المنزل لها، وأكد ذلك الشرف بـ ﴿إِنَّا﴾، وبإضافة ذلك التنزيل إليه تعالت كلماته، وتقدست كتبه.

وبين سبحانه وتعالى شرفها الذاتى بما اشتملت عليه من هداية ونور، والهداية أو الهدى ما اشتملت عليه من بيان الأحكام فى المعاملات والزواج الاجتماعية وما يرشد إلى التطبيقات العملية، وأما النور فهو ما تشتمل عليه من مواعظ مبصرة، وأخلاق منيرة للحق، مقومة للسلوك مكونة للرأى العام الفاضل، وعبادات مطهرة للنفوس منيرة للقلوب، وبذلك تكون الهداية ما يتعلق بمعاملات الناس وتنظيم الجماعة والنور ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والمواعظ، وسائر ما يتصل بالتوجيه النفسى وتطهير القلوب.

وقد فسرت الكلمتان بغير ذلك، فقد فسر الزمخشري كلمة «الهدى» بأنه: يهدى إلى الحق والعدل، و«النور» بما فيه بيان ما استُهِمَ من الأحكام، والمؤدى على التفسيرين هو الرد على اليهود، وبيان وجه العجب فى قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ﴾ بأنهم لو كانوا طلاب حق فالتوراة عندهم فيها الهداية إلى العدل وهى كاملة فى بيانه وتوضيحه، لا تحتاج إلى مبين، ولا إلى موضح.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن التوراة التى فيها هذه الأوصاف من أنها منزلة من عند الله، وأنها هدى ونور - إنما هى التوراة التى لم يحرقوها، ولم يزيّدوا عليها أو ينقصوا منها، فإنها دخلت فيها الزيادة والنقص عندما ضُربت أورشليم^(١) بأيدي التتار والرومان، وحرقوها، فلا يحتج بهذا الكلام للتوراة التى بأيدي اليهود وغيرهم فى هذه الأيام، فقد نسوا حظا مما ذكروا به، وزادوا ما لم ينزل من عند الله.

﴿يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ التوراة الصادقة التى أنزلت من الله تعالى لم تكن شرائعها معطلة بل كانت ثابتة معمولا بها، والذين

(١) أورشليم: بيت المقدس بالعبرانية.

كانوا يعملون هم النبيون الذين جاءوا من بعد موسى، فقد كانت التوراة الشريعة التي ينفذون أحكامها، ولم يكن عندهم ما ينسخ شريعة التوراة أو يبدل أحكامها أو بعض هذه الأحكام، ولقد وصفهم الله تعالى بأنهم: ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أى أخلصوا لله ولتنفيذ أحكامه، وأذعنوا للحق، ولا يحاولون أن يجدوا منه مناصا بتأويل، أو بإرادة تخفيف لشريف، وتشديد على ضعيف، وفى ذلك تعريض بما كان من اليهود من جعلهم للضعيف حكما صارما، وللشريف تهاونا ظالما، فإن خلق النبيين الإخلاص وهو الإسلام والانقياد وتنفيذ حكم الله تعالى بقلب سليم، فذكر وصف الإسلام للنبيين، لبيان ما أوتوا من شرف الإذعان، وللإشارة إلى أن تنفيذ الأحكام من غير عوج ولا التواء هو خلق كل النبيين، ويقول بعض العلماء: إن ذلك تشريف لمعنى الإسلام إذ هو خلق الفضلاء، وخلق النبيين الصديقين، ويقول الإمام ناصر الدين بن المنير الإسكندري فى ذلك: «إن الصفة قد تذكر للعظم فى نفسها، ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويها بقدر موصوفها، فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها... فكذلك والله أعلم جرى وصف الأنبياء فى هذه الآية بالإسلام تنويها به، ولقد أحسن الناظم فى مدحه عليه الصلاة والسلام، إذ قال:

فلئن مدحت محمدا بقصيدتى فلقد مدحت قصيدتى بمحمد

فيقرر ذلك العالم الجليل أن وصف النبيين بالإسلام تنويه بشأنه، وإعلاء لقدره؛ إذ إن النبيين هم المصطفون الأخيار، فالصفات تعلو بهم، وهم قد علوا باختيار الله تعالى لهم.

وحكم هؤلاء الأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى بالتوراة التي نزلت عليهم كان لليهود، فكانت فاصلا بينهم مقيمة الحق فيهم، فما بال اليهود يتمللون من حكمها، ويخرجون عن سمتها، ويطبقونها على الضعفاء، ويعفون من أحكامها الزاجرة الأقوياء، إنما أهلكهم ذلك الجور، وهم لا يعيشون إلا فى أزمان الجور، وحيث كان العدل أذلّتهم أخلاقهم، وأركستهم أهواؤهم.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ وهذا النص يبين أن التوراة ما كان يطبق أحكامها النبيون فقط، حتى لا يقال لسنا كالنبيين، وإن تطبيقها مقصور عليهم، ولكن الذين يطبقونها من غير النبيين يتصفون بصفتين: الإخلاص، والاتصال الروحي بالله، حتى يكون سمعهم الذى يسمعون به، وبصرهم الذى يبصرون به، والصفة الثانية: العلم الدقيق العميق، والإحاطة الكاملة بعلم الكتاب، بحيث لا يكونون ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض وهؤلاء هم الربانيون والأحبار.

والربانيون هم المنسوبون إلى الرب، وقد قال فى تفسير هذا اللفظ الأصفهاني فى مفرداته: «والرباني قيل منسوب إلى الربان، لفظ إعلان من فعل بينى، نحو عطشان، وسكران، قلما بينى من فعل، وقد جاء نعتان، وقيل هو منسوب إلى الرب الذى هو المصدر وهو الذى يرب العلم كالحكيم، وقيل منسوب إليه، ومعناه رب نفسه بالعلم، وهما متلازمان؛ لأن من رب نفسه بالعلم فقد رب العلم، ومن رب العلم فقد رب نفسه، وقيل هو منسوب إلى الرب أى الله تعالى، فالرباني كقولهم إلهي، وزيادة النون كزيادته فى قولهم لحيانى وجسمانى، قال على - رضى الله عنه - : «أنا ربانى هذه الأمة».

وخلاصة ذلك الكلام: أن كلمة ربانى إما منسوبة إلى الرب بمعنى تربية النفس وتهذيبها، وجعلها خاضعة لله تعالى ولتقتضى العلم والتهذيب، فهو قد صفى نفسه من أدران الهوى، وإما منسوبة إلى الرب الخالق المبدع المتصرف، أى أن الشخص قد جعل نفسه خالصا لله تعالى كإلهي، أى أنه عابد عبادة جعلت لكل شىء فى نفسه لله تعالى، والمعنيان وإن اختلفا فى التصريف والاشتقاق متلاقيان فى المؤدى؛ إذ المؤدى أن الربانيين هم الذين صفوا نفوسهم، حتى كانت لله تعالى خالصة لا تزيفها الأهواء ولا الشهوات، فالحق ملء قلوبهم، ولا يشغلها غيره^(١)، والأحبار هم العلماء جمع خبر، أو خبر، وهما لغتان، وهو مأخوذ من

(١) أى لا يشغل قلوبهم غير الحق.

معنى التزيين والتحسين؛ لأن الخبر هو الأثر الحسن ذو الرونق، ويكون المعنى: الذين يجمعون العلم ويدرسونه ويزينونه بالقول الحسن والتطبيق الجيد، أو هو مأخوذ من الخبر مادة الكتابة لعنايتهم بتدوين علمهم وعرضه للناس، وإبقائه أثرا خالدا من بعدهم، والمفسرون على أن الربانيين والأخبار نوعان قد طبقوا حكم التوراة فالأولون صفت نفوسهم وربوها بالعلم والعبادة، والآخرون جمعوا العلم ورتبوه وعرضوه، وعلى هذا التفسير الذى يجعلهم نوعين متغايرين، نوجه القول فيه بأن الذين قاموا على التوراة صنفان: أحدهما - جمع علمها واستخرج ينابيعها، وأحاط بها، وآخرون طبقوها فى الأفضية، أى أن الفقهاء وهم الأخبار قدموا خلاصة ما علموا نقيًا محبرًا تحبيرًا جيدًا، والآخرون وهم الربانيون طبقوه مجردين أنفسهم من كل شهوة وهوى، فالضعيف عندهم قوى، حتى يأخذوا الحق له والقوى منهم ضعيف حتى يأخذوا الحق منه، كما يفعل الربانيون من أمة محمد أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم رضى الله عنهم، وقدم الربانيون على الأخبار؛ لأنهم الذين يطبقون العلم على العمل، والمقام فى الآية هو مقام التطبيق، فالعمل الواضح هو عمل الربانيين؛ لأنهم الذين يحكمون بحكم التوراة، وقد خص الله تعالى الفريقين بقوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾.

«الباء» هنا متعلقة بـ «يحكم»، أى أن النبيين والربانيين والأخبار يحكمون بما فى التوراة لأنهم حملوا أمانة حفظ كتاب الله، بحيث لا يضيعونه، ولا يهملون أحكامه، وقد يقال إنها متعلقة بالربانيين والأخبار، على معنى أنهم أوتوا هاتين المنزلتين منزلة الربانية والعلم بسبب أنهم حملوا أمانة الكتابة وقاموا، و«استحفظوا» بالبناء للمجهول فيه بيان أنهم بمقتضى ما منحوا من صفات عهد إليهم أمر المحافظة على كتاب الله المنزل على نبيه، والمراد بكتاب الله هنا التوراة، وعبر عنها بكتاب الله تعالى للإشارة إلى منزلتها إبان نزولها قبل تحريفها، وإلى شرف من يقومون بحفظها، وإلى مكان التكليفات والأحكام التى اشتملت عليها، والاستحفاظ هو الحفظ المطلوب؛ إذ إن السين والتاء للطلب، والمعنى: أن الربانيين

والأخبار حفظوا كتاب الله تعالى بإلهامهم طلب الحق والعلم وتوجيههم نحو الخير، وكان حفظهم مؤكداً؛ لأنه استجابة لطلب الله تعالى الخبير، وحفظ الكتاب بعلم ما اشتمل عليه، ومنعه من الضياع والتحريف، وتنفيذ الأحكام التي يأمر بها، وطاعته فيما ينهى.

وكان أولئك الربانيون والأخبار شهداء، أى رقباء يحافظون على نصوصه كاملة، ويشهدون بصدق ما نزل من عند الله، ويردون المحرف، وكانوا أيضاً رقباء على تنفيذه، بحيث ينفذ من غير عوج.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الخشية هى الخوف مع تعظيم المخشى ومحبة، فليست مرادفة لمعنى الخوف؛ لأن الخوف أعم من أن يكون من مرهوب معظم محبوب، أو مرهوب مبغض ذميم، أو فيه مهانة لا عظمة فيه؛ ولذلك عبر عن الأخبار بالنسبة لله تعالى بالخشية دون الخوف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ...﴾ [٢٨] ﴿فاطر﴾. وقوله تعالى: ﴿... وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ...﴾ [١١] ﴿يس﴾. وقال سبحانه: ﴿... وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [٢١] ﴿الرعد﴾.

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونَ﴾ هى للإفصاح، والمعنى: إذا كان الكتاب قائماً وثابتاً، ونفذه السلف والخلف إلى ما بعد عصر النبيين، فلا تخشوا الناس، والتعبير عن خوف الناس وملاصمتهم بالخشية من قبيل المشاكلة اللفظية، فى مقابل قوله تعالى: ﴿وَآخِشُونَ﴾. أى أن الله تعالى هو وحده الجدير بأن يخشى، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ...﴾ [٣٩] ﴿الأحزاب﴾.

والخطاب موجه إلى اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وعلمائهم، وفى الكلام يكون التفات إذ انتقل الكلام من أخبار الأخبار منهم إلى خطابهم، والمعنى: لا تخافوا ملازمة الناس ولكن اخشوا الله تعالى وحده، فلا تمثلوا الأقوياء وتركوا إليهم، بل اجعلوهم جميعاً سواء مع غيرهم من الضعفاء كما كان يفعل النبيون

والربانيون، الذين اقتفوا أثر النبيين ويكون معنى «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا». لا تستبدلوا بأحكام آياتي، فتركوها هاجرين لها معرضين عنها، فى نظير رشوة أو ممالأة، فإن ما يكون ثمننا لترك الآيات قليل مهما يكن مقداره، ومهما يكن اعتباره، فأيات الله تعالى أغلى ما فى الوجود؛ لأنها هدايته.

ولكن الخطاب «لا تخشوا»، و«اخشوا» ربما يكون أعلى من أن يكون لليهود الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام فقد وصفهم الله تعالى بأنهم سماعون للكذب أكالون للسحت؛ ولذلك أحيلُ إلى ما روى عن الحسن البصرى من أن الخطاب للمؤمنين، فهم الجديرون بخشية الله تعالى، وهم الجديرون برفعة هذا الخطاب، وربما كان ما روى عن ابن مسعود من أن الخطاب عام للناس أجمعين هو الأسلم، وهو ما تدل عبارة صاحب الكشاف.

«وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» الإشارة فى قوله تعالى: «فَأُولَئِكَ» للذين لا يحكمون بما أنزل الله، فهى إشارة تفيد أن النتيجة سببها الفعل، وهو تجنب حكم الله تعالى، وقد أكد سبحانه الحكم بالكفر عليهم بهذه الإشارة وبالجمله الاسمية، وبالفاصل (هم)؛ وبالقصير إذ هم مقصرون على الكفر، والكفر مقصور عليهم قصرا إضافيا، بمعنى أنهم بلغوا فى الكفر أقصاه، حتى لا يعد كفر غيرهم بجوار كفرهم شيئا مذكورا.

وهل يعد كل من يحكم بغير حكم الله تعالى الذى أنزله على رسله كافرا؟ يظهر لى أن الذى يحكم بغير حكم الله مستهينا به مستنكرا له، وقد يبلغ به الاستنكار درجة التهكم عليه يعد كافرا؛ لأن ذلك جحود وإنكار أو استهزاء بآيات الله إن كان يعلم أنها من عند الله تعالى، ويستنكر مؤداها، ومن جحد أحكام القرآن فقد كفر، وقد قال فى ذلك عبدالله بن عباس: «من جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق» وبذلك يكون هذا النص واردا فيمن حكم بغير حكم الله تعالى منكرا. اللهم املا قلوب قومنا بالإيمان حتى يآلفوا حكم الله، ويرتضوا كتابه حكما بينهم، ولا يجدوا حرجا فى حكمه، إنك خير الحاكمين.

وَكُنْبَنَا عَلَيْهِمْ
 فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
 بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
 قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن
 لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

هذا وصل لما ابتدأه الله سبحانه وتعالى من بيان مكانة التوراة التي أنزلت على موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، إذ قد بين سبحانه وتعالى أن التوراة فيها هدى ونور، وأنها قد طبقت أزمانا، وأن الذين طبقوها أنبياء موحى إليهم، وفقهاء استخلصوا أحكامها، وأرشدوا الناس إلى معانيها مؤمنين بها، ونفذها ربانيون يحكمون بالحق مبتغين مرضاة الله تعالى، ولا ييغون عن الحق حولا.

وفى هذه الآيات يبين الله تعالى من شريعة القصاص، فقد قال تعالت كلماته: ﴿وَكُنْبَنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾.

ومعنى النص الكريم أننا فرضنا وقررنا حكما مكتوبا خالدا غير قابل للمحو فى أى عصر من العصور أن النفس مقابلة بالنفس تؤخذ بها، وتكون بدلا، النفس مأخوذة بالنفس، أو أن النفس عنها، فالباء هنا للمقابلة، كمقابلة بين الثمن والبيع، فكما أن المقابلة تكون فى البيوع تكون فى النفوس إذا اعتدت، وتصير نفس الجانى كأنها شىء من الأشياء وهو الذى أهانها.

وقوله تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ يبين أن النفس بعمومها من غير تخصيص مقابلة بالنفس بعمومها من غير تخصيص، فالعبرة بالتساوى فى الإنسانية، وفى النفس الآدمية، فلا تفاضل بين نفس غنى وفقير، ولا نفس أمير وخفير، فالنفس بالنفس إن كان اعتداء، ونفس المرأة كنفس الرجل على سواء، ولا التفات لقول



الشذاذ الذين قالوا: إن نفس المرأة دون نفس الرجل، وبمثل قول هؤلاء الشذاذ كان يقول بعض الطوائف من اليهود، كما أخبر ابن عباس رضى الله عنه، وكان ذلك النص الكريم للرد عليهم، وبيان الحق الذى جاءت به التوراة التى أنزلت على موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وإن نفس الحر كنفس العبد بمقتضى ظاهر هذا النص الكريم، لأن كليهما يشترك فى وصف الآدمية، وبذلك جاء الحديث النبوى الكريم: «من جوع عبده جوعناه، ومن قتله قتلناه»^(١) فإن هذا الحديث صريح فى المساواة بين نفس الحر ونفس العبد، ولو كان القاتل له مالكة الذى يملكه.

وإن هذا غير رأى جمهور الفقهاء إذ إنهم ينظرون إلى مالية العبد، ولا ينظرون إلى آدميته، وأما الذين قرروا أن السيد يقتل فى نظير العبد، وأن العبيد يقتص لهم من الأحرار بمقدار ما أجرموا، فإنهم نظروا إلى آدميته والمساواة فى النفس الإنسانية من غير نظر إلى كونه مملوكا أو مالكا، ومن غير نظر إلى كونه رقيقا أو حرا.

ولنا أن نقرر أن المساواة فى الدماء بين الأحرار والعبيد هى الأمر الذى يتناسب مع مقاصد الإسلام إذ إن مصادر الإسلام وموارده تقرر منع ظلم العباد الذين كتب عليهم الرق، ولا شك أن أبلغ الظلم أن يقتلوا، والنبي عليه الصلاة والسلام فى أحاديث كثيرة أوصى بالرحمة بهم، ولا شك أنه من الرحمة بهم احترام نفوسهم، وصيانة دمائهم، وأن الرق أمر عارض بالنسبة للعبيد، ولا يصح أن يكون الأمر العارض مزيلا للمعنى الإنسانى الأصيل، بل هو ثابت فيهم لا يزول.

والنصوص العامة المتضافرة مثبتة وجوب القصاص فى الأنفس من غير تفرقة بين نفس حر ونفس عبد، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي

(١) سبق تخريجه.

الْأَبَاب ... ﴿١٧٦﴾ [البقرة]. ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ...﴾ ﴿١٧٨﴾ [البقرة].

والمقابلات التي جاءت في الآية من بعد، إنما هي لبيان اتحاد الأنفس ولنفي ما كان عليه أهل الجاهلية من تفرقة بين النفوس. بدليل تضافر الفقهاء على قتل الأنثى بالرجل، والرجل بالأنثى خلافا لبعض الشذاذ.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم»^(١). ومن التكافؤ في الدماء أن يقتل الحر بالعبد المسلم. وقال عليه الصلاة والسلام: «دماؤكم وأموالكم حرام عليكم»^(٢). ولم يفرق بين عبد وحر، ولو كان الحر لا يقتل بالعبد، يكون ذلك في معنى إباحة دماء بعض المسلمين، وفوق ذلك ما ورد بالنص على أن المالك يقتل إذا قتل مملوكه الذي رويناه من قبل، والذي قرر أن العبد إذا قتله مولاه قتل به.

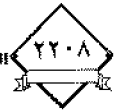
وقد استدلل جمهور الفقهاء بما روى من أن علي بن أبي طالب قال: «إن رجلا قتل عبده عمدا متعمدا فجلبده النبي ﷺ مائة ونفاه عاما ومحا سهمه من المسلمين»^(٣)، وما روى من أن عمر - رضي الله عنه - قال: لو لم أسمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يقاد المملوك من مولاه، ولا الوالد من ولده»^(٤)، لأقذته منك يخاطب من قتل عبده.

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري: العلم - رب مبلغ (٦٧)، ومسلم: القسامة والمحاررين - تغليظ تحريم الدماء والأموال والأعراض (١٦٧٩).

(٣) عَنْ عَلِيٍّ وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ عَبْدَهُ عَمْدًا مُتَعَمِّدًا فَجَلَّدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِائَةً وَنَفَاهُ سَنَةً وَمَحَا سَهْمَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. رواه ابن ماجه: الديات - هل يقتل الحر بالعبد (٢٦٦٤). والسهم النصيب من الغنيمة.

(٤) روى أحمد: مسند العشرة (٩٩) عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: حَذَفَ رَجُلٌ ابْنًا لَهُ بِسَيْفٍ فَقَتَلَهُ، فَرُفِعَ إِلَى عُمَرَ فَقَالَ: لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يُقَادُ الْوَالِدُ مِنْ وَلَدِهِ لَقَتَلْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَبْرَحَ».



وما روى من أن أبا بكر وعمر قالاً: من قتل عبده جلد مائة، وحرّم من سهم المسلمين. هذا ما استدلل به جمهور الفقهاء، ونرى أنه لا يقف أمام عموم النص، وأمام النص الخاص الذى رويناه، وفوق ذلك هو وارد فى قتل المالك المملوك، وقد عارضه النص الصريح.

ولهذا نرى الأخذ بالمبدأ الإسلامى العام الذى يقرر حقوق العبيد على مواليتهم ويحدد حقوق الموالى، وليس منها إباحة دمايتهم.

﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ هذا النص فيه القصاص بين الأطراف، فالعين تفقاً بالعين، أى أنها فى مقابل العين أيضاً، فـ «الباء» هنا باء المقابلة التى تدل على أن شيئاً فى مقابل شيء، وهى تدخل على المتروك، فالنفس المجنى عليها تؤخذ بها النفس الجانية، والعين المجنى عليها تؤخذ بها عين الجانى، وكذلك أنف الجانى تؤخذ بالجدع فى نظير أنف المجنى عليه، وكذلك أذن الجانى تصلم^(١) فى نظير أذن المجنى عليه، وكذلك سنه بسنه، ومثل هذه فى الحكم اليد باليد والرجل بالرجل، والإصبع بالإصبع، وهكذا كل طرف من الأطراف يمكن أن يجرى فيه القصاص، فالقصاص ليس مقصوراً على ما اشتمل عليه النص من العين والأنف والأذن والسن، بل يشمل هذا وغيره مما يمكن أن يتحقق فيه معنى القصاص، وقد أيدت ذلك النصوص القرآنية، فالله تعالى يقول: ﴿... فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ...﴾ [البقرة: ١٩٤].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وهنا يجرى القول فى تساوى الأعضاء بالنسبة للأشخاص، فأشخاص النساء كالرجال، والأحرار كالعبيد على النحو الذى بينا من حيث قاعدة المساواة المطلقة

(١) أى تقطع أذنه، والصِّلَم الاستئصال، والأصلم: مقطوع الأذن، وهى صلما، والجمع: صلَّم. [الوسيط - صلَّم].

فى الإنسانية المعتدى عليها، وقد خالفنا بذلك النظر جمهور الفقهاء بالنسبة للمساواة بين الأحرار والعبيد، ووافقنا جمهورهم فى المساواة بين الذكر والأنثى، وقررنا أن الذين خالفوا فى ذلك من الشذاذ، كالأطائفة التى قالت ذلك من بنى إسرائيل، بل جاء النص الكريم الذى تنصدى الآن للكلام فى معناه يرد الحق إلى نصابه، ويبين أصل الحكم فى التوراة التى نزلت على موسى .

وجمهور الفقهاء على أن من يجرى القصاص فيه فى النفس يجرى القصاص فى الأطراف بالنسبة له، فأطراف المرأة كأطراف الرجل على سواء بينهما فإذا فُقد عين امرأة تفقد عينه، وإذا كسر ثنية امرأة تكسر ثنيته .

وقد خالف فقهاء الحنفية جمهور الفقهاء، فلم يقرروا المساواة بين أطراف الرجل وأطراف المرأة، وبنوا ذلك على قياس عندهم قرروا فيه، أنه يلاحظ فى الأطراف المنافع، ولا شك عندهم فى منافع الأطراف عند النساء دون منافع الأطراف عند الرجال .

وفى الحق أن رأى الحنفية بنوه على قياس فى معان ارتأوها، فقالوا: إن العبرة فى الأطراف بمنافعها، ومنافع أطراف المرأة دون منافع أطراف الرجل، وإن رأى لا يقف أمام عموم النصوص والنصوص العامة لا تخصص بالقياس، على أن القياس فى ذاته غير سليم؛ لأن من المنافع المؤكدة ألا يكون الجسم شائهاً، والتشويه أضر بالمرأة من الرجل .

وقبل أن نترك الكلام فى القصاص فى النفس والأطراف لا بد أن نشير إلى أمور ثلاثة :

أولها - أن جمهور الفقهاء قرروا أن الجماعة تقتل بالواحد، وقد يقول قائل: إن ذلك لا يتفق مع معنى القصاص الذى أساسه التساوى، فلا تساوى بين الواحد والجماعة، وبذلك قال بعض الفقهاء، والحق ما عليه الجمهور؛ لأن كل واحد من الجماعة قد اشترك فى القتل، فيسمى قاتلاً، وقد أزهق نفساً فتؤخذ بها نفسه،

ولأنه اعتدى على حق الحياة، فكان الجزاء أن تؤخذ حياته، ولأن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، وقد قال سبحانه: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (٣٢) [المائدة].

وإن القصاص شرع للزجر العام، ولحفظ الدماء، ولو أغنى الشركاء في القتل من القصاص لكان من السهل على من يريد قتل إنسان أن يشرك معه غيره، فلا يكون قصاص من أحدهما؛ ولذلك شدد عمر وغيره من الصحابة في ضرورة قتل الجماعة بالواحد، وقد روى أن رجلاً قتله جماعة بصنعاء، فاقترض عمر - رضى الله عنه - منهم، وقال - رضى الله عنه - «لو تمالأ أهل صنعاء عليه لقتلتهم به».

ثانيها - أن المساواة في الأطراف من حيث السلامة لازمة للقصاص، فلا تقطع السليمة في مقابل المعبية، ولكن لا يشترط التساوى من حيث القصر والطول، ولا من حيث الضعف والقوة، ما دام كلتا الجارحتين سليمة. وحيث يتعذر التساوى لا يكون القصاص بل تكون الدية، ويجب مع ذلك التعزير شفاء لغيط المجنى عليه.

ثالثها - أن بعض الدين لا يدركون الأمور على وجهها يقولون: إن القصاص في الأطراف يكثر المشوهين، ويقلل المنافع، ويضعف إنتاج الأمة، والجواب عن ذلك أن القصاص في الأطراف من شأنه أن يقلل التشويه ويكثر النفع؛ لأنه إذا علم المعتدى أنه سيقطع طرفه إن قطع طرف غيره، وأنه ستفقأ عينه إذا فقأ عين غيره، فإنه سيكف عن الاعتداء، وبذلك تصان الجوارح جميعاً، فلا يكون إيذاء، وبذلك يقلل عدد المشوهين ولا يكثر، ويكثر النفع ولا يقل.

﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ والجروح غير قطع الأطراف المتميزة التي يجرى فيها التماثل، مثل الشجاج بكل مراتبها، ومثل الجروح في أجزاء الجسم، وفصل بعضها عن بعض، والقصاص المقاصة، أى العقوبة بما يساوى الجريمة وما أنزلت

من أذى، والمعنى هنا أن الجروح ذات قصاص أى يجرى فيها القصاص بالمساواة بين الجريمة وعقوبتها على أن تكون من جنسها وفى الموضع الذى كان فيه الجرح، فإن تعذر التساوى فإنه تكون دية الجريمة ويعبر الفقهاء عن العويض بالأرض.

والتعزير مع هذا ثابت شفاء لغيظ المجنى عليه، ومنعاً لإهدار الدماء بالثارات، وتبادل الأذى.

والقصاص يجرى فى الجروح إذا أمكنت المساواة على ما أسلفنا، ومهما يكن فالقصاص متى أمكن، ولو بالتقارب أولى، فإن المساواة من كل الوجوه غير ممكنة، فإن الأجسام متفاوتة، وآثار الجروح فيها متفاوتة، والأذى فيها غير ثابت المقدار حتى يقاس بالأشبار.

ولا شك أن القصاص الممكن، والتعزير مع الأرض^(١) إن لم يكن هو أقرب إلى العدالة، وإلى حقن الدماء، واحترام الأنفس والمحافظة على الكرامة الإنسانية والمساواة هو الأردع للجنة، فإن من يعرف أنه ستشج رأسه إذا شج رأس غيره لا يقدم على الأذى، بل يتردد، وأنه كلما كانت العقوبة من جنس الجريمة كان ذلك مع عدالته أشد زجراً وتأثيراً، وإنه من يوم أن تغيرت العقوبة عن الجريمة استهين بالأنفس والأطراف، وأهدرت الدماء.

وهناك أمر اختلف فيه الفقهاء: أيجرى القصاص فى الضرب، كما يجرى فى الجروح؟ الظاهر ذلك من روح الشريعة وما تومئ إليه نصوصها وهو ما كان يسير عليه السلف الصالح رضى الله عنهم، وقد قاله بعض الحنابلة والظاهرية،

(١) الأرض: ما يؤخذ عوضاً عن كسر أو جرح. روى البخاري: الصلح - الصلح فى الدية (٢٧٠٣) عن أنس أن الربيعَ وهى ابنة النضر كسرت ثنية جارية وطلبوا العفو فأبوا فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص فقال أنس بن النضر: أنكسر ثنية الربيع يا رسول الله لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيها، فقال: «يا أنس كتأب الله القصاص» فرضي القوم وعفوا، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» زاد الفزاري عن حميد عن أنس: فرضي القوم وقبلوا الأرض.

ولكنّ الكثيرين من الفقهاء لا يلزمون بالقصاص في الضرب واللطم، بل يجرون فيه التعزير، وقد يكون بالتوبيخ. أو بالحبس أو بالضرب، وحجتهم أن الضرب واللطم لا يمكن أن يجرى فيه القصاص، بل المماثلة متعذرة، وحيث تعذرت قام التعزير مقامه في العقاب، والتعزير يكون على حسب تقدير القاضي المفوض إليه أمره.

وإننا نختار القصاص؛ لأنه الأقرب إلى العدالة، ولأنه يشفي غيظ المجنى عليه، ولأنه هو الذي دعا إليه السلف الصالح وكانوا يسيرون على أساسه، وقد أيد ذلك النظر ابن القيم فقال رضى الله عنه:

«إن ضمان النفوس والأموال مبناه على العدل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا...﴾ [الشورى]، وقال سبحانه ﴿...فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة]، وقال عز من قائل: ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل]، فأمر بالمماثلة في العقوبة والقصاص، فيجب اعتبارها بحسب الإمكان، والأمثل هو المأمور به، فهذا الملطوم المضروب قد اعتدى عليه، فالواجب أن يفعل بالمعتدى كما فعل به، فإن لم يمكن كل الواجب كان ما هو الأقرب والأمثل، وسقط ما عجز عنه العبد من المساواة من كل وجه، ولا ريب بأن لطمة بلطمة وضربة بضربة في محلها بالآلة التي لطمه بها، أو بمثلها، أقرب إلى المماثلة المأمور بها حساً وشرعاً من تعزيره بغير جنس اعتدائه وقدره وصفته، وهذا هدى رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومحض القياس» ثم يقول:

«فهذه سنة رسول الله ﷺ، وهذا إجماع الصحابة، وهذا ظاهر القرآن، وهذا محض القياس فعارض المانعون هذا كله بشيء واحد، وقالوا: اللطمة والضربة لا يمكن فيها المماثلة، والقصاص لا يكون إلا مع المماثلة، ونظر الصحابة أكمل وأصح، وأتبع للقياس، كما هو أتبع للكتاب والسنة، فإن المماثلة من كل الوجوه متعذرة، فلم يبق إلا أحد أمرين: قصاص قريب إلى المماثلة، أو

تعزير بعيد عنها، والأول أولى؛ لأن التعزير لا يعتبر فيه جنس الجناية ولا قدرها، بل يعزر بالسوط أو العصا، وقد يكون من لكمة أو ضربة بيده، فأين حرارة السوط ويبسه إلى لين اليد، وقد يزيد وينقص، وفي العقوبة بجنس ما فعله تحرراً للمماثلة بحسب الإمكان، وهذا أقرب إلى العدل الذي أمر الله تعالى به وأنزل به الكتاب والميزان، فإنه قصاص بمثل ما نزل بذلك العضو في مثل المحل الذي ضرب به بقدره، أو يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، وذلك عفو لا يدخل تحت التكليف.

سقنا هذا الكلام مع طوله لأن فيه توضيحاً للنظرة الإسلامية السليمة في المساواة والتماثل بين الجريمة والعقوبة، وإن ترك تلك السنة إلى التعزير أدى إلى التفاوت بين الناس في العقاب، وذلك ما لا يقره الكتاب ولا السنة ولا يؤيده قياس، بل يؤيده أعراف فاسدة، وأخذ ظالم بنظام الطبقات المفرق.

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ الكفارة ستر الذنوب، بالأا يحاسب عليها بين يدى الله تعالى، بل يغفرها الله تعالى له ويسترها فلا يظهرها، بل تكون عند الله تعالى من التائبين المتبينين إليه سبحانه، تقدرت ذاته، وتعالى صفاته.

وهذا النص يفتح باب التسامح من المجنى عليه، وهذا يدل على أن العقوبة لم يقصد بها الانتقام المجرد، بل قصد الزجر، وإشعار الجانى بأن سوط العقاب مسلط عليه؛ ولذلك دعا القرآن الكريم إلى العفو إن كان له موضعه، فقال تعالى: ﴿... فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ...﴾ (١٧٨) [البقرة].

فكان فى هذا النص تحريض على العفو بذكر الأخوة الرابطة، وكان النبى ﷺ كلما حكم بالقصاص دعا إلى العفو، ولكن بعد أن يعطى لولى الدم أو المجنى عليه زمام الأمر وتمكينه من القصاص ليشفى غيظه، ويردع الجانى بجعل حياته أو جسمه رهن إشارته.

وفى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ الضمير يعود إلى القصاص، والمعنى من تصدق بهذا القصاص على الجانى، فإنه صدقة كسائر الصدقات، والصدقة كما



قال عليه الصلاة والسلام «تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار»^(١) وإذا كان العفو صدقة فهو كفارة ساترة للذنوب مذهبة للعقاب، ويرجى معها الثواب، وقد قال تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ (١١٤) [هود].

ومذهب الإسلام في إلزامه القضاء بالحكم بالقصاص وفتح باب العفو - توسط بين ما جاء في التوراة من القصاص، وما جاء في المسيحية من عفو، فكان المسلمون أمة وسطا.

ويلاحظ أن العفو أو التصديق بالقصاص يسقط حق المجنى عليه، ولكن لا يسقط حق المجتمع من ضرورة العمل على منع ارتكاب الجرائم، فلولى الأمر أن يحكم بتعزيره إذا عفا ولى الدم، والتعزير عقوبة غير مقدرة يراها ولى الأمر رادعة.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه العبارة، وفيها إشارة إلى أن هذا القصاص حكم الله تعالى الذى لا يتغير ولا يتبدل؛ ولذلك كان فى شريعة موسى عليه السلام، وفى شريعة النبيين من بعده، وجعلها القرآن الكريم شريعته، وفيه إشارة إلى أن العدالة التى أوجبها المساواة بين الجريمة وعقوبتها من غير هوادة من أخذ المجرم بجريمته إذا أصر عليها ولى الدم أو المجنى عليه - هى حكم الله تعالى الخالد الباقي المنزل على رسله.

ونجد النص هنا يحكم بأن من لم يحكم بما أنزل الله تعالى يكون ظالما، وفى الآية السابقة نص على أنه كافر، والسبب الذى يظهر لنا فى ذلك أن الآية الأولى كانت تذكر ما اشتملت عليه التوراة من هداية ونور، فكان الذين لا ينفذون أحكامها مع ما هى عليه منكرين لتلك الأوصاف العالية التى اشتملت عليها من غير تبديل، فكانوا بذلك كافرين، أما هذه الآية فإنها تشتمل على أحكام عملية، فعدم الأخذ بها يتضمن ظلما؛ لأنها عدل فى ذاتها، ومشتقة من قانون الفطرة

(١) سبق تخريجه.

الإنسانية . . وفق الله تعالى المسلمين للعمل بشريعته، والأخذ بكتاب الله وسنة رسوله فبهما عزوا، وبهما يعتزون إن شاء الله تعالى .

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ
أَهْلَ الْأَنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى ما يتعلق بالتوراة من وجوب التزام أحكامها، وتنفيذها، وأنه قد نفذت تلك الأحكام على يد النبيين، وطبقوها على أكمل وجوه التطبيق، وجاء من بعدهم العلماء الذين فقهوا معانيها ودونوا فقهها، والقضاة الذين خلصوا أنفسهم من أدران الهوى، وسلطان الشهوات، حتى صاروا ربانيين يقومون على الحق والقسط، ويشهدون الله على ما يفعلون، فهم شهداء الله تعالى، لا يخضعون لغيره، ولا يريدون إلا رضاه، ولا يبتغون غير سبيله سيلا .

وفى هذا النص الكريم يذكر سبحانه أن عيسى - عليه السلام - جاء من بعدهم يصدق ما بين يديه من التوراة، وأتى معه بالإنجيل وفيه أحكام مقررة للتوراة، أو ناسخة أو مبينة، وأن على أهل الإنجيل الذين نزل عليهم وخطبوا به أن يطبقوه، حتى تأتى الأحكام الخالدة المقررة الثابتة إلى يوم القيامة التى نزلت بها شريعة القرآن كما استدل على ذلك النصوص القرآنية التالية .

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى أرسلنا من بعد الذين حكموا بالتوراة من النبيين كداود وسليمان ومن قبلهما ومن بعدهما

- يعيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - مقتنيا آثارهم مصدقا لما بين يديه من التوراة. . . وهنا بحوث لفظية تبيين من ذكرها معانى النص الكريم:

أولها - فى معنى «قفينا»، فقد قال علماء اللغة ومفسرو البيان: إن «قفى» معناه عقب، ويقال قفّيته بكذا أى أتبعته به، وهنا نجد المفعول محذوفا، فلم يكن النص قفيناهم يعيسى ابن مريم، وحذف لأن كلمة ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ تدل على المحذوف، إذ إن المحذوف هو النبيون السابقون الذى يحكمون بالتوراة، وكلمة «على آثارهم» تدل على أنهم هم الذين اقتفيت آثارهم.

وذكر كلمة «على آثارهم» تدل على أن عيسى - عليه السلام - لم يكن بدعا من الرسل، بل سبقه آخرون سلك مسلكهم فى إقامة التوراة وما بقى منها غير منسوخ بحكم ما جاء فى الإنجيل، وآثار أولئك النبيين هى الحكم الخالص لله الذى اتبعوه فى تنفيذ أحكام التوراة، فأثارهم معنوية وليست مادية.

وقال علماء الاشتقاق فى اللغة: إن كلمة قفى مأخوذة من القفا، وهو مؤخر الرقبة، يقال: قفا أثره إذا جاء من ورائه واتبعه فى سيره حسا، ثم صار يطلق على السير وراءه معنى، كالشأن فى كثير من الألفاظ التى تدل على معان حسية، فإنها تنتقل من بعد إلى مدلولات معنوية.

ثانى الأمور البيانية - هو فى ذكر عيسى فى القرآن مقرونا بكلمة «ابن مريم»؛ لأن ذلك يتضمن ولادته الحسية منها، وأنه قد تكون جسمه من جسمها كسائر كل المولودين من أمهاتهم، وفى ذلك إشارة إلى أنه محدث ككل المحدثات، وأنه كان من بعد أن لم يكن، وأنه لا نسب له إلا من جهة أمه البتول عليها وعليه السلام، فليس له أب، وليس ابن الله تعالى، بل هو ابنها وحدها، ولا نسب له إلا إليها.

ثالثها - قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. وتصديق سيدنا عيسى للتوراة، لأنها كتاب فى أصلها منزل من عند الله تعالى، فيعيسى عليه

السلام يصدق أصل نزولها، وينفذ أحكامها إلا ما جاء نسخه في الإنجيل منها، ولو سائرنا الواقع عند النصارى في هذه الأيام لكان لذكر كلمة التصديق في هذا المقام معنى أعمق من مجرد التصديق بأصل النزول، بل بالتنفيذ، لأن الإنجيل ليس فيه أحكام عملية كثيرة، فأحكام الأسرة كلها مأخوذة عند النصارى من التوراة، وليس ثمة نص قاطع في الأناجيل التى بين أيدينا يغاير ما جاء فى التوراة من أحكام تتعلق بالأسرة، ولا بأحكام العقوبات من حدود وقصاص، ولقد رويت عبارات عندهم منسوبة للمسيح - عليه السلام - تدل على العمل بأحكام التوراة، مثل قوله عليه السلام: «ما جئت لأنقض الناموس» وهو التوراة، ولعل التعبير بآثارهم يدل من بعد أو قرب على معنى هذا التصديق العملى، فضلا عن التصديق الاعتقادى والقولى.

وكلمة «بين يديه» تعبير قرآنى، للدلالة، على أن التوراة كانت حاضرة قائمة وقت مجيء عيسى - عليه السلام - وعلمها عنده، وهو علم خال من التحريف والتبديل، أوحى الله تعالى به إليه، ولفظ بين يديه فى دلالاته على الأمر المهياً القائم من الاستعارات الرائعة، ومضمونها أن الأمر معلوم علما يقينا لعيسى ابن مريم عليه السلام كعلم المحسوس يكون موضوعا بين يديه.

ومن الفروق الدقيقة أن الله تعالى عبر عن مجيء عيسى بالإنجيل بقوله تعالت كلماته: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾. وعندما أخبر عن مجيء محمد ﷺ بالقرآن قال تعالت كلماته: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ [المائدة: ٤٨]. فهو ليس منفذا، ولكن هو مسيطر وحاكم على ما سبق من كتب.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عقب السيد المسيح - عليه السلام - الأنبياء الذين نفذوا أحكام التوراة، وطبقوها تطبيقا دقيقا من غير هوادة، ولا ظلم، ولا شطط مع الضعفاء، ومحابة للأقوياء، وقد أعطاه الله تعالى قوة فى رسالته، فأعطاه كتابا هو الإنجيل، وهو البشارة برحمة الله



تعالى، والبشارة بمجىء نبي الرحمة محمد ﷺ والتعبير بـ «آتيناه الإنجيل» فيه إشارة إلى تقوية ما جاء به، وإشارة إلى أنه ليس كل ما فى التوراة نافذا وإن كان جله نافذا، وخصوصا ما يتعلق منه بتنظيم المجتمع فى كل درجاته من الأسرة الصغرى إلى الأسرة الكبرى، وهى الإنسانية فى أقاليم الأرض، فالإنجيل قد جاء بشريعة متممة لما جاء فى التوراة من غير نقض لها.

وقد وصف الله سبحانه الإنجيل بأوصاف ثلاثة، وبين أنه مشتمل على أمرين، وجملة ما ذكر القرآن الكريم - تعالت كلمات الله - أن فيه خواص خمسا؛ وهى أن فيه هدى، وأن فيه نورا، وأنه مصدق للتوراة، وأنه هو ذاته هدى، وأنه موعظة للمتقين.

ولنتكلم بكلمات موجزات فى معانى كل خاصة من هذه الخواص، لستين المغايرة بينها، ولتتميز كل خاصة عن أخواتها وإن كانت متقاربة فى معانيها، ومتلاقية فى غايتها:

والخاصة الأولى - أن فيه هدى؛ أى أنه اشتمل على الهدى، وهو الدلالة الحق على تنزيه الله تعالى ووحدانيته، وأنه المستحق للعبادة وحده، وأنه ليس بوالد ولا ولد، وأن عيسى هو ابن مريم وحدها، ونسبه إليها، وليس له لله تعالى نسبة إلا أنه خلقه بكلمة كن فيكون، فهو بهذا المعنى كلمة الله تعالى، وقد ألقاها إلى مريم، وروح القدس وهو جبريل الذى بلغها، وفيه بيان أن عيسى - عليه السلام - رسول الله تعالى وقد خلت من قبله الرسل.

وهذه الهداية تقرير للحقيقة الثابتة من مبدأ الوجود؛ لأنها تدل على صفات مشئى هذا الوجود.

أما الخاصة الثانية - فهى أنه مشتمل على نور مرشد موجه هاد، فإذا كانت الخاصة الأولى مقررة لأمر ثابت قد وقع، فالخاصة الثانية مثبتة لأمر آخر يتعلق بالمستقبل، وهو أنه يضىء وينير لتمييز الحق من الباطل، وبين ما جاءت به رسالة

المسيح من دعوة البشر إلى الخير وإلى صراط مستقيم فالإنجيل بإضافة هذه الخاصة إلى سابقتها يكون مشتملا على أمرين: أولهما - تقرير للحقيقة الثابتة الخالدة، وهى وحدانية الله تعالى فى الإنشاء والتكوين، والذات والعبادة. وثانيهما - أنه مرشد إلى مكارم الأخلاق ومثير العقول لإدراك المستقبل، ويدخل فى ذلك بشارته بالنبي ﷺ وهو «البارقليط» كما جاء فى نسخة متى، وكما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾ ﴿٦﴾ [الصف].

والخاصة الثالثة - وهى وصف لذات الإنجيل، وقد ذكرها سبحانه بقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. أى أن الإنجيل قد كان بذاته مصدقا للتوراة من حيث صدق نسبتها إلى الله تعالى قبل تحريفها، وقبل أن ينسوا حظا منها. ولا تكرار فى وصف التصديق؛ لأن ما ذكر أولا كان وصفا لعيسى - عليه السلام - إذ قال سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾. وأما ما ذكر هنا فهو وصف للإنجيل نفسه، وكان التصديق من جانب عيسى - عليه السلام - للتوراة جاء من ناحيتين، من عيسى، ومن الإنجيل ذاته، وتلاقى التصديقين يفيد إقرار أكثر أحكام التوراة الاجتماعية والقانونية، ويفيد أن رسالة الرسل متصلة موصولة، حتى يختمها محمد رسول الله ﷺ، فهو خاتم النبيين، وآخر لبنة فى صرح الرسالات الإلهية.

والخاصة الرابعة - وهى من صفاته الذاتية أنه هو ذاته هدى، وسبب وصفه بهذا الوصف بعد ذكر أنه قد اشتمل على هدى ونور هو استمرار الهدى له، وللإشارة إلى أنه منزل من عند الله تعالى، وهو بهذا الوصف يكون فيه دلالة ذاتية على الحق، ولأنه بشارة بنى يرسل من بعد عيسى اسمه أحمد، وكان الهدى فى هذا المقام وصفا ذاتيا؛ لأنه مأخوذ من اسمه؛ إذ إن الإنجيل معناه البشارة، ولعله سمي إنجيلا؛ لأنه الكتاب المنزل الذى كان فيه البشارة المباشرة بمحمد ﷺ بعبارة إن لم تكن صريحة فهى واضحة كالصريحة.

والخاصة الخامسة - أنه «موعظة للمتقين» والموعظة هي التذكير بما يرق له القلب، وتصفو به النفس ويستقيم به العمل، فقد قال الخليل بن أحمد في تفسير الوعظ: (هو التذكير بما يرق له القلب) والإنجيل كان كذلك؛ لأنه توجيه بني إسرائيل ومن كان على شاكلتهم من الماديين الذين أركستهم المادة واستولت على قلوبهم - إلى الحياة الروحية، والتهذيب النفسى، وجعل الروح هى المسيطرة من غير ترك لحظوظ الدنيا المباحة التى لا تستغرق النفس.

ومن أجل ذلك وصف بأنه موعظة، ولكن لا يستفيد منه إلا الذين امتلأت نفوسهم بالخوف ورجاء ما عند الله، وهم طالبو الحق المهتدون، لأنهم هم الذين يستفيدون من العلم الذى يلتقى، فالنفوس أقسام ثلاثة: قسم يطلب الحق، ويثمر فيه بيانه، وقسم يجمد على ما عنده، ويكون صليدا لا ينفذ العلم إلى قلبه، إذ تحول بينه وبينه غشاوة من الباطل فهو أغلف، وقسم متردد حائر، تسيره الأجواء التى تحكمه وتسيطر عليه، ولا شك أن الذى يستفيد من المواعظ هو طالبها المتقبل لها، الذى تشيع نفسه منها، وأولئك هم المتقون، وأما القسم الثالث، فإنه ترجى له الهداية رجاء غير محقق، وإن مثل العلم النافع لمثل الغيث لا ينتفع منه إلا الأرض الطيبة التى تخرج نباتها بإذن ربها، والعلم لا ينتفع به إلا القلوب الطاهرة التى لم ترنقها أغراض الدنيا وأهواؤها.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾. فى هذا النص الكريم قراءات نذكر منها قراءتين فى قوله: «وليحكم» : أولاها - قراءة حمزة بكسر اللام وفتح الميم^(١)، وتكون اللام للتعليل، ويكون فى مقام العطف على ما سبق، لأنه فى معنى التعليل، ويكون المعنى على هذه القراءة: (وآتيناه عيسى ابن مريم الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل فيه)، وأهل الإنجيل هم من عاصروا المسيح عليه السلام، ومن

(١) قرأها بكسر اللام وفتح الميم حمزة، وقرأ الباقون بإسكان اللام والميم. غاية الاختصار - أبو العلاء الهمذاني العطار ج ٢.

جاءوا بعدهم حتى بعث محمد ﷺ، إذ يجب العمل بشريعته حتى يجيء ما ينسخها، فالعمل واجب بشريعة الإنجيل من أهل الإنجيل، فلما جاءت شريعة محمد عليه الصلاة والسلام صاروا أهل شريعة محمد ﷺ.

والقراءة الثانية بسكون اللام، وسكون الميم على أن اللام للأمر^(١)، وسياق الكلام على هذا يوجب تقدير محذوف، وهو (قلنا) مثلا ليكون متقابلا مع أهل التوراة الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ...﴾ [٤٥] [المائدة]. فالمعنى: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل. وعلى هذا التقدير يكون العمل بالإنجيل سابقا على نزول القرآن.

وإذا لم تقدر كلمة قلنا، فإن الكلام لا يدل على بقاء شريعة الإنجيل للنصارى؛ وذلك لأنه بعد بعث محمد ﷺ صاروا هم أهل القرآن؛ لأنهم هم الذين يخاطبون برسالته، ومعهم غيرهم من الخليقة، فكل الذين يدركون نبيا هم أهل رسالته التي يخاطبون بها، لا فرق بين قريب دان، وبعيد قاص، وأيضا فإن شريعة محمد ﷺ قد نسخت ما يخالفها مما سبقها، إذ شريعة القرآن هي المهيمنة على ما عداها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾. وهذه الهيمنة توجب العمل بما أقره من الكتب السابقة، وبطلان العمل بما نسخه منها. الإنجيل الذي له تلك الأوصاف السابقة هو الذي لم يجز فيه التحريف، وهو خاص بالحكم فيما قبل البعث المحمدي.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في هذا النص الكريم الحكم على من لم يحكم بما أنزل الله تعالى بالفسق، أى الخروج عن جادة الحق، والسنن المستقيم والخلق الكريم، وكان الحكم بالفسق هنا مناسبا لمواعظ الإنجيل الذي نزل على عيسى وهدايته؛ لأن تعريف القرآن الكريم له فيه إشارة إلى ما اشتمل من أخلاق روحانية قويمه، وهداية سليمة، والمناسب لمن لم يحكم به أن

يكون فاسقا خارجا شاذا تاركا لمعانى الإنسانية الروحانية العالية، وهنا بحث لفظي يتكون من عناصر ثلاثة .

أولها - أن التعبير بـ «مَنْ» يدل على الجمع هنا بدليل قوله تعالى : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ؛ لأن أولئك إشارة إلى الجمع، وهم ضمير الجمع، وكأن التعبير بالوصول للدلالة على أن الحكم الفردي كالحكم الجماعي، فكل من تتحقق فيه الصلة، وهو ألا يحكم بما أنزل الله تعالى - يكون فاسقا آحادا أو جماعات .

ثانيها - أن المراد بالحكم يشمل حكم القضاء وحكم العمل، فمن لم يعمل بما جاء في الإنجيل، وهو من أهله فقد فسق عن أمر ربه .

ثالثها - أن النص يفيد أن علة استحقاقه لوصف الفسق هو أنه لا يحكم بما أنزل الله تعالى .

والحكم بالفسق شرطه ألا يكون ثمة جحود لما أمر الله وإلا كان كفرا . .
اللهم ثبتنا على قول الحق والعمل به، واكتبنا في عبادك الصالحين .

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمُهِيمًا

عَلَيْهِ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَإِنِّي نَسِيتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾



هذا تتميم لما ذكره سبحانه وتعالى من كتب، وبيان تعاقب الرسل المعروفين ذوى الشرائع التى سنت الأحكام وعبدت المناهج، فقد ذكر سبحانه وتعالى أنه أنزل التوراة وشرع ما فيها من أحكام، وأن على أهل التوراة أن يحكموا بها، ثم أعقب الإنجيل التوراة، وأتى بأحكام يجب تنفيذها، وأكد ما اشتملت عليه التوراة مما لم يجئ نسخ بها، وأتم الله سبحانه وتعالى البيان بذكر رسالة محمد ﷺ، وبه تمت الرسالة الإلهية، وكملت شرائع الله تعالى، وقد قال تعالت كلماته:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فى هذا النص السامى، نجد بعض إشارات بيانية تشير إلى مكانة القرآن بين الكتب السماوية، وتبدو هذه الإشارات فى ثلاث نواح:

الناحية الأولى - أنه سبحانه لم يقل وقفينا على آثارهم بمحمد أو نحو ذلك، بل بين سبحانه أنه أنزل الكتاب، وفى ذلك إشارة إلى معنى استقلاله، وأنه لم يكن فيه تبعية لغيره من الكتب، بل هو مستقل بالمكانة منفرد بها من غير تبعية أيا كان نوعها، وأيا كان مقدارها، وذكر الكتاب دون ذكر النبى ﷺ صراحة للإشارة إلى مكانة الشريعة الإسلامية وكتابها الكريم الباقي والخالد إلى يوم القيامة، وهو معجزة النبى ﷺ، وإذا ذكرها سبحانه فى مقام الإكبار والتفخيم يكون بياناً لمكانة الرسالة المحمدية، وبيان أن حجتها أقوى الحجج، وأشدّها تثبتاً، وأبقاها فى هذا الوجود، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الكتاب من غير تعريف سوى ذلك، و(أل) كما قال علماء اللغة للعهد، وفى ذلك إشارة إلى كماله، أى أنه «الكتاب» الذى هو جدير باسم الكتاب، بحيث إذا أطلق اسم الكتاب لا ينصرف إلا إليه؛ لأنه الفرد الكامل من بين الكتب فى هذا الوجود.

وقد زاده الله تعالى شرفاً فنسب الإنزال إليه سبحانه، وفى ذلك تأكيد لمنزلة العلية السامية.

الناحية الثانية - من الإشارات البيانية المبينة لمكان القرآن - هو بيان أنه سجل الرسائل السابقة، والشاهد بصدقها فهو مصدق لكل الكتب السابقة،

المنزلة قبل تحريفها، وفيه دلائل نبوة الأنبياء السابقين، ومعجزاتهم، والكتاب الآخر في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾. هو جنس الكتب السماوية السابقة، ف (آل) فيه للجنس، أى أنه في القرآن الكريم الدلائل المثبتة لصدق ما يصح أن يسمى كتابا سماويا من الكتب السابقة بما فيها الإنجيل والتوراة والزيور، ويصح أن يكون (آل) للعهد أيضا، وهو العهد الذكري، إذ ذكر من قبل كتابان من الكتب السماوية وهما التوراة والإنجيل، وعبر عنهما بالكتاب باعتبار الجنس، ولأن كليهما متمم للآخر، فهما في معنى كتاب واحد.

والناحية الثالثة مما يدل على مكانة القرآن - هو أنه يهيمن على الكتب السابقة، فقد قال تعالى في مقامه بالنسبة لغيره من كتب السماء: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾. والمعنى أنه حاكم بصحة ما فيه، وشاهد بصدقه، ومقرر لمعانيه الباقية التي لم يعترها نسخ، وفوق ذلك يتبين الصحيح الذي نزل، ويشير إلى المحذوف الذي حذفه الأخلاف، إذ نسوا حظا مما ذكرروا به، وهناك قراءة بفتح الميم، ذكرها الزمخشري في الكشاف^(١)، ويكون المعنى أنه (مهيمَن) عليه أى مراقب محفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]. وقد وضع الزمخشري المعنى على هذه القراءة بقوله رضى الله تعالى عنه: «أى هُوَ مَنْ عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ...﴾ [٤٢]». والذي هيمن عليه الله عز وجل أو الحفاظ في كل بلد، لو حُرِّفَ حَرْفٌ منه أو حركة أو سكون لتنبه له كل أحد، ولاشأزوا رادين ومنكرين».

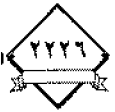
أى أن الله تعالى هيمن عليه وحفظه إلى يوم الدين، والحفاظ للقرآن جيلا بعد جيل هم بتوفيق الله تعالى شاهدون مانعون لكل تغيير وتبديل؛ لأنهم يحفظونه في صدورهم، ولا يتركونه للقرطاس الذي قد يرد عليه المحو والإثبات والتغيير والتبديل، وبذلك اختص القرآن بالصيانة من بين الكتب السماوية، وهو

(١) وهذه القراءة ليست في العشر المتواترة.

قد حفظه بنصه وقرأته، وطريق تلاوته، فالله سبحانه وتعالى هو الذى رثله ترتيباً، بتعليم النبى ﷺ ذلك كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣٢) [الفرقان].

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الفاء هنا للإفصاح؛ لأنها تومئ إلى شرط مقدر، والمعنى على هذا: إذا كان الكتاب قد أنزل إليك من لدن الله العلى القدير عالم غيب السموات والأرض، وأنه يهيمن على الكتب السابقة ومحفوظ بحفظ الله تعالى إلى يوم الدين؛ فاحكم بين اليهود والنصارى ومن يعاصرونك من الناس بهذا الذى جاء به، لأنه نزل لتحكم به أنت ومن يتولى الحكم من بعدك، ولم يقل سبحانه وتعالى لتحكم به، بل ترك الضمير، وعبر بالموصول للإشارة إلى أن السبب الموجب للحكم أنه منزل من عند الله، إذ إن الموصول إذا كان فى ضمن حكم تكون الصلة هى علة الحكم، والسبب فيه، وعلى ذلك يكون حكم القرآن وهو حكم الله تعالى الذى لا يختلف باختلاف العصور، ولا يتغير بتغير الأوقات؛ لأنه شريعة الله الذى هو بكل شىء عليم، يعلم الناس وما يصلح لهم فى ماضيهم وقابلهم، وهذا يفيد أن اليهود الذين عاصروا النبى ﷺ ومن جاءوا بعدهم مخاطبون بشريعة القرآن، وأنه نسخ ما قبله من الشرائع، إلا ما جاء النص بوجود العمل به كالقصاص، أو ما لم يثبت أنه نسخ، والمعول فى الحالين هو القرآن وما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، ولقد روى أنه عليه السلام ذكر أن موسى لو كان حياً ما وسعه إلا الإيمان به عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الضمير فى قوله تعالى: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعود إلى اليهود الذين تحاكموا إلى النبى ﷺ، وأرادوا أن يحكموا بما لم ينزل من عند الله، مع أن الحكم عندهم فى التوراة التى بأيديهم منصوص عليه، ولم ينسخه القرآن الكريم، وكان مما بقى وهو القصاص العادل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيه إشارات بيانية نتكلم فيها، وذكرها فيه بيان معنى النص الكريم.

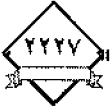


أولاهما - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. أكثر العلماء قالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. متضمن معنى لا تنحرف، بدليل أنه تعدى بعن في قوله تعالى: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. والمعنى في الجملة لا تتبع أهواءهم منحرفا عما جاءك من الحق، وهو ما نزل به القرآن الكريم؛ ولذلك نرى أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. لا تضمن فيها، بل قوله تعالى: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. يتعلق بحال محذوفة، والمرمى من هذه الجملة السامية أن الخروج عما أنزل الله تعالى باتساع أهوائهم الفاسدة المردية فيه انحراف عن الحق، وخروج عن الجادة المستقيمة، وبعد عن الإنصاف في ذاته، وكذلك الشأن فيمن يعدل عن حكم الله تعالى اتباعا لأهواء الناس، وإرضاء للشهوات والرغبات المنحرفة.

الإشارة البيانية الثانية - في قوله تعالى: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. فيه إشارة إلى أن الذي يتلى بأمثال هؤلاء اليهود ومن سار على طريقهم في هذه الأرض يكون بين أمرين؛ إما أن يطيع الهوى والشهوة وفيهما الفساد، وإما أن يطيع ما جاء من عند الله، وفيه العدل والهدى والرشاد، وأى الطريقين أهدى للوصول إلى الصلاح الذي لا فساد يعكره.

الإشارة الثالثة - فيها بيان أن ما يحكم به النبي ﷺ هو الحق والعدل في ذاته، وبذلك يكون حكم النبي - عليه الصلاة والسلام - قد تأيد بأمرين: أحدهما - أنه الحق في ذاته الذي لا مزية في أنه العدل والأمر الثابت الذي لا تجوز مخالفته في ذاته، ثانيهما - أنه جاء من عند الله الذي لا يعزب عن علمه مشقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو بكل شيء عليم.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الخطاب لليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم من الذين أوتوا كتابا نزل بشريعة من عند الله تعالى، ويكون في الكلام التفات، فقد كان الخطاب للنبي ﷺ والمتحدث عنهم أولئك الذين اتبعوا وحرّفوا الكلم عن مواضعه، والمعنى على هذا لكل نبي من الأنبياء السابقين شرعة يسير نحوها، ويتجه إليها، ومنهاج واضح بين يسير في طريقه، ولا يلتوى عنه، ولا



يخرج منه، فإن ما عداه متاهات لا يلتفت إليها، والذين يعاصرونه هم الذين يخاطبون بشرعته، ويسرون في منهاجه، فالذين نزل فيهم القرآن مخاطبون بما جاء في القرآن، وشرعته ومنهاجه لهم؛ لأن شرعة الأنبياء السابقين ومنهاجهم قد انتهيا بمبعث محمد ﷺ وبقي من شرائعهم ما يقره القرآن، وما جاء النص بإقراره.

وتفسير الشرعة قد اتفق الفقهاء على أن المراد بها الشريعة، وهى ما جاء من أحكام تكليفية يجب العمل بها أمرا ونهيا وندبا وإباحة، والمنهاج على هذا هو الطريق الواضح لتنفيذها، وبيان مجملها، وتفصيل أحكامها الجزئية؛ ولذلك روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الشرعة هى النصوص التى تجىء فى أصل الكتاب المنزل، والمنهاج هو ما يسيته النبى الذى أنزل عليه الكتاب، وفصل به الأحكام الجزئية^(١).

هذا كله على أساس أن ضمير الخطاب قد وجه إلى اليهود والنصارى ممن كان لهم كتاب منزل، وقد يرد على هذا أن الرسالة الإلهية واحدة، فكيف يجىء فيها الاختلاف، وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...﴾ (١٣) [الشورى].

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إن الوحدة الجامعة بين الرسالات الإلهية هو ما يتعلق بالعقيدة من إيمان بالوحدانية ونفى للوثنية، وإيمان باليوم الآخر، وما يجرى فيه من حساب وعقاب، ونعيم وجنات تجرى من تحتها الأنهار، وجحيم وسعير إلى آخر ما ورد فى الغيبات. أما الشرعة التى يجىء فيها الاختلاف فهو الأوامر والنواهي، وبعبارة عامة فهى التكاليفات من حلال وحرام، فقد يشدد الله تعالى على بعض الأقوام لغلظ قلوبهم، ويخفف على آخرين، كما قال تعالى:

(١) ذكر البخاري تعليقا: الإيمان (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ بَنَى الْإِسْلَامَ عَلَى خَمْسٍ). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «شَرْعَةٌ وَمِنْهَاجًا» سَبِيلًا وَسُنَّةً.



﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والمنهاج يختلف، فمن الأنبياء من دعا دعوته، وكان فريسة لاعتداء أعدائه من غير أن يقاوم بالسيف، ومنهم من شرع له أن يدفع الاعتداء بالسيف، وهكذا...

هذا الكلام كله على أساس أن الخطاب موجه إلى أهل الكتاب الذين سبقوا بكتاب أنزل عليهم، ونسخته شريعة القرآن، وقد جاء بعض المفسرين فقر أن الخطاب لأمة محمد ﷺ، أى للمسلمين فى حاضر أمرهم وقابله، وقد ذكر هذا الرأى ابن كثير فى تفسيره، فقد قال: «وقيل المخاطب بهذه الآية هذه الأمة، ومعناه لكل - جعلنا القرآن - منكم أيتها الأمة شرعة ومنهاجا، أى هو لكم كلكم تقتنون به» ومؤدى هذا الكلام جعلنا القرآن شرعة ومنهاجا لكل منكم، أى واحد منكم، فليس المضاف إليه المحذوف من بعد كل الأمم بل الأحاد، أى أن كل واحد من أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - مخاطب بتكليفات الشريعة، وتنفيذ منهاجها المستقيم، الذى لا عوج فيه ولا أمت.

والعلماء على التخريج الأول وهو ظاهر اللفظ ولا يخرج المعنى عن ظاهر اللفظ الذى يتبادر ويتجه إلى غيره إلا لعب بيانى فى الظاهر، ومعاذ الله تعالى أن يكون ذلك فى كلام الله جل وعز.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فعل المشيئة محذوف دل عليه ما بعده، وهو جواب لو، والمعنى لو شاء سبحانه أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم كذلك، والمعنى على هذا لو شاء تعالى أن يجعل الإنسانية كلها أمة واحدة، يصلحها شرع واحد، وتتفق بالتكليفات الموجهة، لانفاق الإنسانية الموحدة، لفعل سبحانه وتعالى، ولكنه سبحانه وتعالى عاملكم معاملة المختبر لكم بما آتاكم من مواهب مختلفة، وفيما ينزل عليكم من خيرات السماء، وفيما تجود

الأرض من زروع وثمرات، وفي اختلاف الأجواء، والإرادات الإنسانية ليتم التكليف، ويكون الاختبار.

وبيان ذلك أن الناس يختلفون أما وعناصر، وقد توزعتهم أقاليم الأرض، فقوم تعالج قلوبهم الغليظة بما يفظمها عن شهواتها، ويجعلها في جادة الاعتدال، وأخرى تعالج بالتخفيف ليحيى موات النفوس فيها، وثالثة تعالج ببعض الحرمان، ورابعة بالاعتدال، وهكذا كانت الشرائع السابقة علاجا لأهواء النفوس التي تعامل معاملة المختبرة بتنازع الإرادات وسيطرة الأجواء، ومنازع الأهواء، ومضطرب الأحوال، فمن سلك الجادة وصل إلى الحق، ومن خالف كان له جزاء مخالفته، ولما جاءت رسالة محمد ﷺ ومعها القرآن كان العقل البشري في طريق الكمال، وكانت بكلياتها صالحة لكل زمان، وكان الابتلاء قائما في منازعة الهوى، ومغالبة النفس الأمارة بالسوء، والتي ألهمت فجورها وتقواها.

وإن الابتلاء في الماضي والحاضر بالتخالف في الطباع، وتخالف جزئيات الشرائع، وبعد رسالة محمد ﷺ كالتخالف في الإرادات والمنازع، وفي كل هذا الابتلاء، والنجاح في هذا الامتحان الفطري هو بسط الخيرات؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

إذا كان الله سبحانه وتعالى يعامل الناس في الماضي والحاضر معاملة الذين يختبرهم وهو العليم بحالهم، ومآل أمورهم، وهم يشعرون بكمال اختيارهم، وأنهم يختارون، ويتخيرون، فإن عليهم أن يحسنوا الاختيار ويسرعوا إلى الخير.

واستبقوا في أصل معناها: التسابق، ولكن لتضمنه السبق والابتدار تعدى من غير إلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبِقَا الْبَابَ...﴾ [يوسف: ٢٥]. أى حاول كل واحد منهما الابتدار والوصول إلى الباب قبل الآخر، ومرمى النص أنه ليس لليهود أن يقولوا: نتبع شرعنا، بل عليهم أن يتغوا الخير، ويسرعوا إليه، وهو في ذاته معلوم ببداية العقول تدركه من غير عوج، وفوق ذلك فإن الدليل قد قام بما لا يقبل الشك على رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - وهي الخير كله،

فليتركوا اللجاجة فى هذا الأمر، وقد كانوا يتناولون على المشركين بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى إليه وحده جل جلاله، وعظم ملكه مرجع الناس أجمعين من أهل الملل والنحل قبل القرآن والذين استمروا بعده فهم جميعا سيلقون الله تعالى يوم لا ملك إلا ملكه، ولا سلطان إلا سلطانه ويخبرهم بالخبر العظيم الشأن، والنبأ الخطير الذى كانوا يتساءلون عنه فى الدنيا، فيعلمهم بالصدق، وفى ضمن هذا الصدق جزاء ما عملوا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فهو إنباء القول والعمل، حيث تجزى كل نفس ما كسبت، ففى هذا النص إنذار لمن بغى وعصى، وتبشير لمن أطاع وعدل واتقى، اللهم أحسن إلينا ووفقنا فى أعمالنا، واغفر لنا ذنوبنا، واجعل نتيجة الابتلاء خيرا لنا برحمتك وعفوك إنك أنت الغفور الرحيم العفو الكريم .

وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا
أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ
بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه الأحكام فى الكتب السماوية وأن اتباعها واجب لمن أرسلت إليهم، وقد أشار إلى أحكام خالدة، ومنها شريعة القصاص؛ لأنها شريعة العدل والمساواة، إذ فيها أن العقوبة كفاء الجريمة وأن العقوبة من جنس الجريمة، فمن أجرم فإن فعله يطوى فى ثناياه استحقاقه للعقوبة على ما ارتكب، وله المثلث فيما ارتكب .

ثم ذكر سبحانه أن التوراة لأهل التوراة، وأن الإنجيل لأهل الإنجيل، ولكل شرعة ومنهاج، أما القرآن فهو المهيمن على الجميع، ويجب أن يسود حكمه الجميع بلا استثناء ولو كان لكل شريعة ومنهاج، وقد أمر بالحكم به بين اليهود، وبين جميع الناس، لا فرق بين يهود وغيره، ولا بين أبيض وأسود، ولقد كرر سبحانه وتعالى الأمر بالحكم بالكتاب، فقال تعالت كلماته:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وكان تكرار الأمر بالحكم لتأكيد في مقام يستدعي التأكيد، لأنه جاء في الكلام ما ربما يوهم أن لكل قوم شريعة خاصة بهم، وأن حكم القرآن وما نزل على النبي ﷺ ليس له صفة العموم فكان ذكر الأمر بالحكم مرة أخرى نفياً لهذا الوهم، وتأكيداً لمعنى عموم شريعة القرآن، وأن منهاج القرآن الكريم هو منهاجهم وأنهم قوم محمد - عليه الصلاة والسلام - وأن شريعة موسى وعيسى قد انتهت بنزول القرآن، يبقى منها ما يبقى ويشتمل عليه، ويبين ما انتهى حكمه بنزول القرآن الحكيم، وأنه لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبع النبي ﷺ (١).

وهنا بحث لفظي فيه تقريب لمعنى النص الكريم، ذلك هو بيان المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم﴾ فلذلك عدة تخريجات كلها تتلاقى في تأكيد الأمر بالحكم بما أنزل الله تعالى.

أول هذه التخريجات أن تكون «وَأَنِ احْكُم» معطوفة على الكتاب، وتفسير الكلام على هذا التخريج أن يكون المعنى فيه وأنزلنا إليك الكتاب، وقولنا أن احكم - أى أنزلنا الكتاب، وقد اقترن به الأمر بأن تحكم بين الناس به، وبما أنزلناه عليك من وحى أوحى به إليك.

ثاني هذه التخريجات أن تكون «أَنْ» مصدرية، وقد جوز الزمخشري دخول «أَنْ» على أى فعل، ويكون المعنى: وأنزلنا إليك مع الكتاب والحكم بما أنزل الله تعالى، فما كان كتاباً معطلاً لمجرد التلاوة، بل كان شرعاً معلوماً متبعاً مأموراً

باتباعه، وكان دخول «أن» المصدرية على الفعل الأمر، للدلالة مع المصدرية على الطلب وتأكيد معناه، وهى معطوفة على: «بالحق».

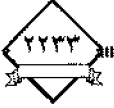
ثالث هذه التخريجات هو أن تكون «أن» هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن اسمها محذوف، أى الحال والشأن أن تحكم به بينهم، وتكون معطوفة على الكتاب، و«أنزلناه» بمعنى أعلمناك، لأن العلم هو الغاية.

وقد كان النهى عن اتباع أهوائهم فيه إشارة إلى أن الحكم إما أن يكون بما أنزل الله تعالى وأعلمه بحكمته وهدايته، وإما أن يكون اتباعا لأهواء الناس ورغباتهم، وذلك لأن القوانين البشرية تتبع الأعراف الاجتماعية للناس، وما تواطئوا عليه وما ارتضوه لذات أنفسهم، وقد يكون ظلما طبقيًا، وقد يكون هضما لحقوق ذوى الحقوق التى اكتسبوها بما ينمى ثروة الجماعة ويزيد خيراتها، وشرع الله تعالى مخالف لحكم الهوى والشهوة وهو الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال.

﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ هذا أمر موجه للنبي ﷺ وهو موجه إلى الأمة الإسلامية، ولعل توجيه الخطاب للنبي ﷺ وهو المعصوم الذى يوحى إليه، ليكون تحذيرا لغيره؛ إذ غيره أولى أن يغره الغرور، وتفسته الفتن، من شهوات مسيطرة، وأهواء متحكمة، وبذلك يكون الخطاب لجميع المخاطبين بالقرآن الكريم فى كل العصور، ومختلف الدهور؛ لأنه إذا كان النبى عليه السلام يجب أن يحذر من أن يفتن فلا ينفذ أحكام الإسلام فى الحكم بين الناس، فغيره الحذر عليه أوجب، وأشد إلزاما.

والفتنة هنا معناها وقوع البلاء والشدة بعدم الحكم بما أنزل الله، ولقد قال فى معنى هذا النص وما يشبهه الأصفهاني فى مفرداته: «وقال تعالى: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ﴾ أى يوقعونك فى بلية وشدة فى صرفهم إياك عما أوحى إليك».

فالفتنة المراد بها هنا النتيجة المترتبة عن ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنه ليسبق تلك النتيجة إغراء من جانب الذين يتبعون أهواءهم، ويحاولون أن يكون



الحق تبعاً لما يهتدون، لا أن يكون هواهم تبعاً للحق، وكان إغراؤهم من الفتنة لأنه يؤدي إلى وقوع الشدائد، ولأن الإغراء، كيفما كانت صورته فيه اختبار للنفس، فالهداية البالغة أقصى الحكمة ترد الإغراء كيفما كانت صورته، وضعفاء النفوس أو العقول يفترون، فيقعون في البلية والشدّة، وفي التفسير المأثور، أن بعض أحبار اليهود، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمد، إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونؤمن ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأُنزل ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

وإننا نرى في عصرنا بعضاً من هذا الصنف، فلا تزال تطلع على طائفة منهم يقولون: إن التشدد في الأخذ بأحكام القرآن وما جاء به محمد - عليه السلام - ينفر الناس من الإسلام، ويبعدهم منه، وإنا لنسمع كلام هؤلاء وليسوا من غير المسلمين بل المسلمون تتلوى بذلك ألسنتهم، فمنهم من ينفر من تحريم الإسلام للربا، لأنه ضد الاقتصاد، ومنهم من يمنع إقامة حدود الله، ويقولون: إن ذلك يتنافى مع الحضارة، وينفر الناس من الإسلام... يرددون ذلك في مجالسهم، ويقولونه وهم على الأرائك متكئون، ويغمزون في القول لمن يتشدد، وجاراهم مع الأسى بعض من يتكلمون باسم العلم الإسلامي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد حذر الله تعالى النبي ﷺ، وبالأولى المؤمنين من أن يفتنوا عن بعض ما أنزل الله تعالى، وتشديد التحذير من الفتنة في البعض، يتضمن التحذير من الفتنة في كل ما أنزل الله تعالى، إذ الفتنة في الكل أشد إيجاباً للتحذير من الفتنة في البعض، هذا وإن الفتنة في بعض ما أنزل الله تعالى تؤدي إلى الفتنة في كل ما أنزل الله سبحانه؛ لأن ما أنزل الله سبحانه وتعالى وأوجب الأخذ به مرتبط بالأجزاء متماسك، فإذا حلت عروة منه انحلت سائرته، كالبنيان المرصوص، وإذا تهدم جزء منه تداعت لبناته وانهار البنيان، وصار أجزاء مثورة لا تربطها رابطة.

وإن الوقائع بين أيدينا مُعلِّمةٌ شاهدة، فمن يوم أن ترك المسلمون أمورهم لحكام يعصون، ولم يلتفتوا إلى ما يدعوهم إليه ما أنزل الله تعالى على نبيهم ﷺ ذهب حكم الإسلام، وتداعت أركانه، وصار المسلمون مستضعفين في الأرض، ودينهم يدعوهم إلى أن يكونوا ذوى بأس شديد، أشداء على غيرهم رحماء بينهم.

ومن أجل ذلك جاء التحذير من الفتنة في البعض لكيلا يستسهل ويستصغر، فيجىء الأكبر، وهو حل عرا الإسلام عروة، عروة، وقد حذر الله سبحانه من عاقبة الذين يعرضون عن أن يحكموا بما أنزل على نبيه، فقال تعالت كلماته:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ظاهر السياق أن الضمير في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ إلى آخره يعود على اليهود، ومن لف لفهم ممن يسرون في الحكم على هواهم، وعاصروا النبي ﷺ، وعندى أن الضمير يعم كل من يخاطبهم القرآن، وهم أمة محمد ﷺ في كل الأجيال، وفي كل الأزمان، وإن كان اليهود وغيرهم ممن عاصروا النبي ﷺ داخلين في حكم عموم الأمة ابتداء، والمعنى فإن أعرضوا عن تنفيذ حكم الله تعالى، فإنه سينزل بهم من الشدائد ما يتناسب مع جعل شرائع الله تعالى معطلة لا يقام العدل الذى تتضمنه، بل يكون حكم الهوى، وحسب ذلك فساداً^(١).

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُذَكَّوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَنَّا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَانِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسَّيْنِ وَشَدَّةِ الْمِثْوَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْسَعُوا رِكَاءَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يَمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بِبَعْضِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَمْتَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ». رواه ابن ماجه: الفتن - العقوبات (٤٠١٩).

وهنا يتكلم العلماء فى بعض الذنوب التى سببت ما أصابهم الله تعالى، وما هى هذه الإصابة التى يصيبهم الله تعالى، وقد ذكروا وجهين، وأرى وجها ثالثا.

الوجه الأول - ما ذكره الزمخشري: أن هذه الذنوب التى هى بعض ذنوبهم، إهمالهم لحكم الله تعالى، واختيارهم حكما جاهليا يخضع للهوى، لا للعدل، والإصابة التى يصيبهم بها هى هذا الذنب الذى ارتكبه، وما يترتب عليه من ظلم يقع، وشر لا يدفع، لتنفيذ حكم الله مع أنه طاعة وهو العدل، والعدل إذا ساد عاشت الجماعة كلها فى أمن وسلام، ورحمة واطمئنان، وعدم تنفيذ حكم الله هو الظلم والاضطراب والفساد.

الوجه الثانى - هو ما رده أكثر المفسرين من أن الذنوب التى ارتكبوا بعضها يعاقبهم الله تعالى عليها بالشدائد تنزل بهم، ومن أعظم هذه البلايا أن يعم الفساد، وتصير أمورهم فوضى، لا ميزان يضبطها ولا قسط يقيمها، وتكون الجماعة متدبرة متنازعة.

الوجه الثالث الذى اختاره، أن عدم تنفيذ العدل أو عدم الخضوع لأحكام الشرع هو فى الواقع ثمرة لمفاسق تسبقه، فالنفس تتردى فى مهاوى الرذائل، وتحيط بها الخطايا، ويتحكم فيها الهوى، وتصير أمة للذات والشهوات فتتمرد عن حكم الله تعالى، ويكون ذلك نتيجة لإصابتهم بذلك الذنب الكبير الخطير، وهو الإعراض عن حكم الله، وهو ذاته إصابة وكارثة، لأنه العدل والقسطاس، وأى جماعة تعرض عن العدل والقسطاس مآلها الخراب والدمار، وذهاب القوة، وإصابتها بالذلة، فلا عزة إلا عزة الحق، ولا ذلة إلا فى الظلم.

وإننا رأينا هذه الحقيقة ثابتة، فأولئك الذين يتمردون على حكم القرآن والسنة قد مست نفوسهم معاص جعلتهم يستبيحون المحرمات من زنى وشرب للخمر، وإدمان فى الربا، أو بناء الاقتصاد عليه، وهذه الذنوب هى التى منعتهم من إطاعة حكم الله، وإن الله يصيبهم بنتائج ذلك وهو الخراب الناشئ من

الظلم، والفساد الذى يعم وأولئك كثيرون، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

هذا النص فيه عزاء للنبي ﷺ من تمرد الناس على حكم العدل وحكم الحق، وعزاء لكل داع للخير من بعده، لكيلا يئس داع؛ لأنه يحسب أن الخير يسير بمنطق مستقيم فى النفوس، كما هو فى ذات نفسه، فالله سبحانه وتعالى ينه دعاة الخير إلى أنهم لا يتوقعون الاستجابة من الأكثرين، كما قال تعالى لنبية: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [الأنعام]. ولأن دعوة الخير لا تجد الاستجابة يسر، وكانت جهادا، وكانت تعباً، وعلى الداعى ألا تذهب نفسه حسرات إذا لم يجد الأكثرين يجيبونه، وليعلم أن دعوة الحق لها صدى يسمع فى الأجيال وإن كانت لا تسمع فى زمان صاحبها.

والفسق معناه فى الأصل خروج اللب عن قشرته التى تحميه من الفساد، وأطلق على الخروج عن الحق والتمرد عليه؛ لأن الحق هو الذى يحمى النفوس، ويكلؤها من عن الرذيلة وفسادها، ومؤدى الكلام أن الذين ينفضون رءوسهم عن سماع الحق ودعوته، وعن الخضوع لحكمه ليسوا عددا قليلا ولكنهم كثير، وقد أكد سبحانه وتعالى كثرتهم بـ «إن»، وبـ «اللام» فى خبرها، والله سبحانه هو الهادى إلى سواء السبيل، وقد استنكر سبحانه فعل الفاسقين، ولو كانوا كثرة كاثرة، فقال تعالى كلماته: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

هذا استفهام إنكارى توبيخى، أى أنه إنكار للواقع الذى يقع من الفاسقين عن أمر ربهم، وعن الحكم الذى يحكم به الله تعالى، والفاء هنا هى التى تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا يخرجون فهم ييغون حكم الجاهلية، وقدمت الهمزة على الفاء؛ لأن الاستفهام له الصدارة فى الذكر دائما، ولو كان استفهاما إنكاريا لاستنكار الواقع، وسوق الكلام بشكل الاستفهام الإنكارى فيه تأكيد لمعنى ابتغائهم حكم الجاهلية، ثم تأكيد آخران، لارتضائهم الحكم الجاهلى: أولهما - تقديم

المفعول على الفعل، وفى ذلك إشارة إلى أنهم بإعراضهم عن حكم القرآن لا يستغنون ولا يريدون إلا الحكم الجاهلى، أى أنه لا يخضع الشخص إلا لأحد نوعين من الحكم حكم القرآن، والثانى حكم الجاهلية - وقد يقال: بينهما ثالث، وهو حكم العقل والقسطاس، ونقول: إن من بينى حكم العقل والقسطاس لا يمكن أن يتولى عن حكم القرآن، إنما يتولى عن حكم القرآن من يريد حكم الهوى والشهوة، وحكم العقل وحكم الشهوة نقيضان لا يجتمعان.

والتأكيد الثانى لارتضاءهم حكم الجاهلية - هو التعبير عن رضاهم عنه بقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَ﴾؛ لأن البغى هو الطلب بشدة تؤدى إلى الظلم.

وإنه لا وسط بين حكم الجاهلية وحكم القرآن؛ لأن حكم القرآن هو العدل وهو النظام، وهو المساواة فى الحقوق والواجبات، لا يعفى من حكمه شريف، ولا حاكم، وليس فيه من ذاته مصونة لا تُمس، بل الجميع أمام الله تعالى على سواء، وأما حكم غير القرآن ففيه التفاوت بالطبقات، وفيه السيطرة التى لا يسوغها منطق ولا عدل، ولا نظام، وفيه أكل أموال الناس بالباطل، كالربا، وسائر أنواع السحت، وقد قال بعض التابعين: من حكم بغير الله فهو حكم الجاهلية.

وقد جاء فى التفسير الأثرى لابن كثير المحدث والمؤرخ ما نصه:

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، كما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذى وضع لهم «الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية، والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله....»



وما أشبه «الياسق» الذى وضعه جنكيزخان بـ «قانون نابليون» وما جاء بعده من قوانيننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى القدير .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الاستفهام هنا إنكارى فيه إنكار للوقوع ، أى أنه بمعنى النفى المؤكد، كأنه استفهام عن أن يكون ثمة من هو أحسن حكما من الله، فأجيب بالنفى المؤكد الذى لا يتصور فيه أن يكون من هو أحسن حكما، والمعنى لا أحد أحسن حكما من الله لقوم يوقنون، وهنا يرد سؤال هو لقد ذكر أنه لا أحد أحسن حكما من الله لقوم يوقنون، مع أنه سبحانه أحسن حكما لمن يوقنون ومن لا يوقنون، إذ هو العدل والمصلحة. وبها يتتفع البر والفاجر، والسليم والسقيم، فهو الخير الوارف الظلال، فلماذا القيد بقوله تعالت كلماته: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟. والجواب عن ذلك يتكون من جزئين: أولهما - أن أولئك هم الذين ينتفعون به، فكان الأحسن لهم والأقوم، أما غيرهم فهم قوم بور، وهم فى غيهم يعمهون.

﴿يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ دَارِ الْحَيَاةِ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ﴾
 ﴿وَلَا يَجْعَلُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾
 ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾
 ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمْرُكُم حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ﴾

فى الآيات السابغات ذكر سبحانه وتعالى كتب اليهود الأولى، وكتب النصرى الأولى التى لم يعرها تغيير وتبديل، وبين أن القرآن هو الحاكم المهيمن على ما جاء قبله من الكتب، وأنه الحاكم عليها، وأنه المتبع ولا شريعة من الله سواه، بعد أن نزل على محمد ﷺ، وأن الذين يتبعون غيره خارجون عن مبدئه، ويبغون حكم الجاهلية، إذ فارق ما بين حكم الجاهلية وحكم العدل هو الحكم بالهوى، وإذا كان ما مضى من آى كريمة قد تعرض لعلاقات الكتب فكان من المناسب أن يبين القرآن الكريم علاقة الجماعة الإسلامية بغيرها من الجماعات اليهودية والنصرانية، فجاء قوله تعالى ناهيا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الأولياء جمع ولى، والولى يطلق بمعنى الودود المحب، أو الصديق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت]. ويطلق بمعنى النصير الحافظ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ [البقرة].

وهو فى هذا النص الكريم يجمع بين النصرة والمحبة، والتوفيق والهداية، ويطلق الولى بمعنى من يتولى الأمر، ومن يكون صاحب الولاية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [المائدة]. وما المراد من اتخاذ الأولياء المنهى عنه فى هذه الآية؛ يفسره الزمخشري بأنه الاستنصار والمودة والمحبة، ونفسره بأن يجعلوا ولايتهم لغيرهم فى الانتماء، والنصرة، ويقبلوا أن يكونوا هم أهل ولايتهم التى يتمون إليها، وينضون تحت لوائها، فهى مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران].

وهذا الرأى يؤيده ما جاء فى سبب النزول، وتذكره كتب التفسير وهو أن بعض الأنصار كان يتولى بعض اليهود لما كان يرى فيهم من عدد كثير، وما عندهم

من سلاح. فتبرأ منهم لما نهى عن أن يكون عليه أو له أولياء غير المؤمنين. واستمر على ولايتهم بعض المنافقين، فدل هذا على أن المراد بالولاية هنا الاستنصار بهم، والاندماج في ولايتهم، ولو سرا.

وهنا يرد سؤال أيجوز لنا أن نتخذ منهم بطانة ومعاونين؟ والجواب عن ذلك أنه لا يجوز، وقد ورد بذلك النص القرآني، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَالُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨) [آل عمران]

ولقد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ينهاى عن أن يستخدم غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، ويروى فى ذلك أن أبا موسى الأشعرى كان له كاتب نصرانى، فأرسل إليه أمير المؤمنين عمر ينهاه عن ذلك، وجاء فى آخر كتابه: (لا تقرُّ بهم إذ أقصاهم الله) فرد عليه أبو موسى يقول له: (لا قوام للبصرة إلا به). فكتب إليه عمر مرة أخرى كلمة موجزة: (مات النصرانى والسلام) وقد فسر الزمخشري تلك الكلمة الموجزة بقوله: (يعنى أنه قد مات، فما كنت تكون صانعا حيثئذ فاصنعه الساعة، واستغن عنه بغيره).

والسؤال الثانى الذى يرد؛ أيجوز للمسلم أن تكون بينه وبين غير المسلم مودة؟ أم يجب التباعد عنه ما أمكن؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إنه قد ورد فى هذا نصان يبدو أنهما بادى الرأى متعارضان، أولهما - قوله عليه الصلاة وأتم التسليم: «لا تراءى ناراهما»^(١) أى لا تجمعهما نار يستدفئان بها أو يستضيئان بضوئها، أى لا يجتمعان على مودة واصله. والثانى - قوله تعالى: ﴿لَا يَنهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة]

(١) عَنْ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً إِلَى قَوْمٍ مِّنْ خَثْعَمَ فَاسْتَعْصَمُوا بِالسُّجُودِ فَقَتَلُوا، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا لَا تَرَأَى نَارَاهُمَا». [رواه النسائي: القسامة - القود بغير حديدة (٤٧٨)، وأبو داود: الجهاد - النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)].

والتوفيق بين النصين أن الأول جاء في الذين يشاقون الإسلام، ويتآمرون عليه، والثاني بصريحه جاء في الذين لم يأتروا بالإسلام وأهله.

ونقول في ذلك: إن غير المسلمين أقسام ثلاثة:

القسم الأول - يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم، ولا يعملون لحساب غيرهم، وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وتصح مواداتهم، كنص الآية الكريمة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

والقسم الثاني - الذين يقاتلون المسلمين، ويدبرون لهم المكائد، وهؤلاء لا تجوز مواداتهم، وقد قال سبحانه في ذلك: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُولَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [المتحنة].

القسم الثالث - طائفة لم تعلن المجاهرة بالعداوة، ولكنهم في قلوبهم يتمنون في ذات أنفسهم خذلان المسلمين، ونصرة غيرهم، فظاهروهم مع المسلمين، وقلوبهم مع أعدائهم وهؤلاء نعاملهم بما عامل به النبي ﷺ المنافقين، نسالهم، ولا نكشف خبيثة نفوسهم، ولكن نأخذ حذرنا منهم.

ومهما تكن أحوال المخالفين فإنه لا تجوز الاستعانة بهم في خاصة شئون الدولة الإسلامية حتى لا يكون منهم بطانة لا تألونا خبالا، وقد علل سبحانه النهى عن توليهم بقوله تعالت كلماته: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

أى أن السبب في منع المؤمنين من أن يستنصروا بهم أو يجعلوا منهم أولياء عليهم أو لهم، أنهم لا يوالون المسلمين في ذات أنفسهم بل تكون نصرتهم فيما



بينهم، فالنصارى أولياء ونصراء لإخوانهم النصارى، واليهود أولياء ونصراء لليهود، فكل طائفة تنحاز ولايتها إلى أهل دينها، فالنصارى منحازون في الولاية إلى النصارى واليهود منحازون إلى اليهود.

ويصح أن نفس النص بأنهم يوالى بعضهم بعضا أى اليهود يوالون النصارى ضد المسلمين، فكلتا الطائفتين تتولى الأخرى.

ويظهر لى أن الآية تدل على المعنيين، فالنصارى يوالى بعضهم بعضا واليهود كذلك، وهما دائما إلب على المسلمين كما نرى فى عصرنا الحاضر، فالعالم المسيحى كله يؤيد اليهود فى اغتصابهم أرض الإسلام ووضعها تحت أيدى اليهود ومع أنهم يدعون عدم التعصب، يتعصبون ضد المسلمين ويؤيدون قيام دولة على أساس الدين.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إن من يجعل نصرته منهم ويخضع بالولاية لهم فهو منهم. روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أن النص يفيد التشبيه أى أنه مثلهم فى معاداة الإسلام وأهله .

ولكن كثيرين من المفسرين يعتبرونهم منهم حقيقة، ولا تشبيه فى القول ولا تمثيل، فيقولون: إن من اتخذ منهم نصراء وحلفاء وأولياء دون أهل الإسلام، فإنه منهم فى التحزب على الله تعالى، وعلى رسوله والمؤمنين وأن الله تعالى ورسوله منهم بريثان، ويقول فى تقرير هذا المعنى ابن جرير: «ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه، وما هو عليه راض، وإذا رضى دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه».

وإن ذلك التولى بلا ريب ظلم للنفس. وظلم للمسلمين، ومن أركست نفسه فى هذه الضلالة حتى صار لا يطبق تركها، فقد استضعف نفسه، وظلمها، ثم ظلم المؤمنين، وبعد عن هداية أهل الإيمان، وارتضى حكم الطاغوت ولذلك

ذِيلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النَّصُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَتْ كَلِمَاتُهُ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وهذا النص بعمومه يشير إلى أن أعداء الإسلام ظالمون مهما يكن تعدادهم، وأن من يواليهم هو من القوم الظالمين، ولا تدخل الهداية قلبه؛ لأنه مرد على النفاق، ولأنه استضعفت نفسه والمسلمين، ولأنه لم يعمر الإيمان قلبه فكان قلبه ظلمات متكاثفة لا يدخل من خلالها نور، ولا حق مبين، وقد صور سبحانه من يواليهم، فقال:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾
بعد أن أشار سبحانه إلى أن الذين يجعلون نصرتهم من قبل المخالفين، وولايتهم لهم، ويقبلون أن يكونوا لهم تبعاً - أخذ يبين أنه من بين الصفوف الإسلامية من يتمنون إليهم بقلوبهم، وهم بين المسلمين بمظاهرهم سواء أكانت هذه الظاهرة لها صلة بالخضوع الظاهري والحقيقي كضعاف المسلمين، أم كانوا لا يخضعون لمبادئ الإسلام بأي نوع من الخضوع كالمنافقين الذين لا يذعنون إذعانا ضعيفا أو غير ضعيف بل يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

وهنا نقف أمام العبارات السامية ونحاول أن نذكر بعض ما تشير إليه من بيان، ونتعرض في ذلك لأمر بيانية:

أولها - قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ .

الفاء تفصح عن شرط مقدر، مؤداه أنه إذا كان الذين يتولونهم منهم، فإنك واجدٌ من بين صفوف المسلمين من في قلوبهم مرض يسارعون فيهم . . . إلى آخره. والتعبير بقوله تعالى: ﴿فَتَرَى﴾. تصوير للحال الواقعة من أولئك الضعفاء في إيمانهم، والمنافقين في قلوبهم - بأنها كالمرئية الظاهرة التي لا تخفى على ذي البصيرة المدركة، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، وتنبيه للحال الواقعة ليعالجها بهداية الله تعالى، وما أتى به الرسول ﷺ من حكمة، وليحتاط عليه الصلاة والسلام منهم، وليهيمن على توجيه قلوب الضعفاء، وتربية من يصلح منهم للتربية على

الإيمان، ممن لم يرشدوا ولم تمس بشاشة الإسلام نفوسهم، ولم تشرب قلوبهم حبه.

ثانيها - التعبير بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾. وفي التعبير السامى، إشارة إلى أن الذين يعطون لهم حق الولاية والنصرة دون المؤمنين، سبب هذا الأمر منهم هو أن فى قلوبهم مرضاً، ومرض القلوب يكون إما من خور العزيمة، وعدم الإحساس بالقوة الدافعة لأن يتصرفوا مما يقع عليهم من أذى، وإما من النفاق.

والمسارعة. المبادرة، وتعدى الفعل هنا بـ «فى» مع أن المبادرة تتعدى بـ «إلى»، والحكمة فى ذلك الإشارة إلى أنهم لا يدخلون ابتداءً فيهم، بل إنهم فيهم بقلوبهم من قبل، فالمسارعة انتقال من حال إلى حال فى صفوفهم أى أنهم منغمرون فيهم دائماً، ولا يخرجون عن دائرتهم.

ثالثها - أنهم فى مسارعتهم وبقائهم على الولاء لهم والانتصار بهم يقولون بأفواههم: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾. الدائرة ما يصيب الجماعات من شذائد ونوازل بسبب أعدائهم، ويقول الواحدى فى أصل معناها: الدائرة من دوائر الدهر كالدولة، وهى التى تدور من قوم إلى قوم، والدائرة هى التى تُخشى كالهزيمة والحوادث، ومقتضى كلام الواحدى أن الدائرة كالدولة، إذ تتداول بين الناس، كما قال تعالى: ﴿... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...﴾ (١٤٠) [آل عمران]. والدائرة تدور بين الناس والجماعات، بيد أن الدولة تتداول بالقوة والسلطان والعزة، والدائرة تدور بالهزيمة والجائحات، فهى تدور بين الناس من جماعة إلى جماعة، ومن يخشى الدائرة من الجزع والهلع يتوقع الأذى والشر، ولقد قال الشاعر فى معنى الدائرة:

ترد عنك القدر المقدورا ودائرات الدهر أن تدورا

وإن أولئك المتصفين بهذه الصفات من مرضى القلوب لا يشقون بنصر الله، أو على الأقل حالهم ليست حال المطمئن إلى نصر الله، لخور نفوسهم، وضعف

إيمانهم، أو امتلاء قلوبهم بالنفاق، وإن إنهاء هذه الحال يكون بالنصر المؤزر، ولذا يقول سبحانه في توقع النصر المؤزر، والفتح المبين: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾. الفتح يطلق بمعنى التوسعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦]. ويطلق بمعنى الفصل بين الحق والباطل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ٨٩]. ويطلق بمعنى الظفر والنصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

والفتح هنا يراد به المعاني الثلاثة، فهو السعة بعد الضيق، والفصل بين حق صادق، وباطل طاغ، والنصر والظفر.

ومعنى الرجاء من الله تعالى الوعد القاطع؛ لأنه من القادر على كل شيء الذي لا يصعب عليه شيء، والتعبير بالرجاء لتعليم المؤمنين ألا ييأسوا من رحمة الله ونصر المؤمنين؛ لأنه وليهم وناصرهم، فالله تعالى يعد المؤمنين، وهو الذي لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، فالله سبحانه وتعالى ينسب المؤمنين إلى رجاء النصر والسعة والفصل بينهم وبين أعدائهم وذلك كله من الله تعالى.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ والأمر الذي يجيء من عند الله هو خضد شوكة غير المؤمنين، حتى يرجى نصره، ولا يخشى من الدوائر أو تزول دولتهم.

ومعنى النص الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين بالفتح القريب الذي يرجوه المؤمنون، وأنه سبحانه وتعالى سينجز وعده الذي وعد به عباده الصالحين، وعندئذ تكون العزة لله ولرسوله والمؤمنين، ويكون الندم والحسرة على ضعفاء الإيمان، ولذا قال سبحانه:

﴿فَيُصِيبُكُمْ عَلَى مَا أَسْرَأْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ وعند الفتح، أو الأمر الذي يزيل سلطان من يستنصر بهم مرضى القلوب يفرح المؤمنون بنصر الله، ويصبح الذين أسروا في أنفسهم خذلان المؤمنين، ورجاء ما عند غيرهم نادمين على ما

أسروه، وخيب الله ظنهم فيهم، إذ رجوا ما عند الناس، ولم يرجوا ما عند الله، ورضوا بنصرة الطاغوت، وتركوا نصره الله تعالى، وهنا نتكلم فى أمرين:

أولهما - معنى الندم على ما أسروه، أن الندم فى هذه هو الظن الفاسد الذى وقعوا فيه، وخيبة الأمل فيما يرجونه، فليس ندمهم كندم التائب الذى يرجع إلى الله، وإنما ندمهم كندم المغيظ المحقق الذى كان يتوقع - أمرا فتبين له غيره.

الأمر الثانى - أن الله عبر عن ندمهم بالوصف لا بالفعل للإشارة إلى أن هذا الندم حال دائمة مستمرة تتضمن الحسرة والغىظ، والألم المستمر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ ذكرنا ما حكاه الله عن المنافقين وضعفاء الإيمان، وفى مقابلة قول الأولين مرضى القلوب الذين استولى عليهم اليأس من رحمة الله تعالى، كان ما قاله أهل الإيمان قبل النصر وبعده، فقبله كان الرجاء يغمرهم، وبعده كان الفرح يملؤهم، وينددون بحال مرضى القلوب، ويستنكرون فعلهم فقد حكى سبحانه استنكار حالهم بقوله:

﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أى هذه حال أولئك الذين أقسموا بالله بأقصى طاقة ما عندهم من إيمان، أنهم لمعكم، أى أن هؤلاء مرضى القلوب أعلنوا مقسمين بأقصى الإيمان، بأن يكونوا مع المؤمنين والرسول فى ولايتهم ونصرتهم، ومعاونتهم، وقد أكدوا ذلك بعدة تأكيدات بأقصى الطاقة فى القسم وتوثيق الكلام، وأكدوه بـ «إن» وبـ «اللام» المؤكدة، ومع هذه التوكيدات ما كانوا صادقين، بل كانوا خادعين، لأنفسهم وللمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة]. ولا يمكن أن ينجح من يكون هذا شأنه، ولذا قال سبحانه:

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ تحتل أن تكون هذه مما حكاه الله تعالى عن المؤمنين، ونميل إلى أنها من كلام الله تعالى، وهو حكم الله تعالى عليهم بشمرة ما كان من فساد قلوبهم، وهو إن ما يتوهمونه وما يعملون على

أساسه، ومن امتناعهم عن أن يكون ولاؤهم للمؤمنين وموالاته غيرهم دونهم - مآله الفشل والحبوط، وأن الله هو العزيز الذى ينصر من ينصره، ويعز من يعتز به، ومن يعتز بغيره يذل ويهون، وبذلك أصبحوا خاسرين، ولقد قال الزمخشري: إن الجملة فى معنى التعجب، أى ما أعجب حبوط أعمالهم وما أعجب أن أصبحوا خاسرين، وهذا الكلام على أساس أن الجملة محكية عن المؤمنين، ونمىل أنها حكم الله تعالى وهو العلى الحكيم، اللهم أعزنا بعزة الإسلام، وامنع عن قلوبنا الولاء لأهل الكفر والطغيان.

يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

٥٤

فى الآيات السابقة نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن أن يتخذوا من اليهود والنصارى نصراء يستنصرون بهم، ويعطونهم حق الولاية عليهم، فيجعلون الولاء لهم، وهم أعداء الإيمان وأعداء المؤمنين، وإن أظهروا الولاء لدولة الإيمان فهم فى قلوبهم لا يألونهم خبالا، وإن ذلك موضوعه علاقة دولة الإسلام بغيرها من الدول التى تعادىها، ولا يدخل فى هذا الذميون الذين يعيشون فى ظل الإسلام والمسلمين إلا إذا مالتوا الأعداء، فإنهم يكونون قد نقضوا العهد الذى عاهدوا المسلمين عليه.

وفى هذه الآيات، يومئ سبحانه وتعالى كلماته، إلى أن الذين يوالون دولة معادية للإسلام وأهله يسировون فى طريق الردة؛ لأنهم تركوا ولاية الله



والرسول والمؤمنين، وولايتهم هي الحق، وهم حزب الله، وحزب الله تعالى هم الغالبون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ﴾ الارتداد معناه الرجوع من غير هداية وإرشاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ...﴾ (٢٥) [محمد]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ...﴾ (٢٧) [البقرة].

فالارتداد في الآية الكريمة التي نتكلم في معانيها السامية معناه الخروج عن الدين، ويسمى ذلك ردة؛ لأنه انصراف عن الحق بعد أن اهتدى، ورجوع إلى الظلام بعد أن خرج إلى النور، وهو كمن يرتد على أدباره غير مبصر الطريق الضال الذي يسلكه لأنه لا يواجهه.

وفي النص إشارة إلى أمرين - أولهما - أن فيه إيماء إلى أن العرب فيهم من سيرتد بعد إيمان، وذلك قد كان، فإنه بعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتدت قبائل عربية ولم تبق مساجد تقام فيها الصلوات إلا مسجد المدينة ومكة وعبد القيس، وقد تصدى لهم الصديق، وأصحاب رسول الله ﷺ، حتى أزالوا شوكة الردة، وخيرهم الصديق بين سلم مخزية أو حرب مجلية، فاخترأوا السلم لتوالى هزائمهم الأولى، وكان منهم من اشترك في الفتوح الإسلامية التي كانت من بعدها كلمة الله هي العليا في المشرق والمغرب، وفتح الله معها قلوب الناس، فدخلوا في الإسلام أفواجا، أفواجا.

وإن الآية الكريمة تومئ ثانياً إلى أن تولى الكفار أعداء الإسلام واتخاذ النصرة منهم على المؤمنين، وجعل الولاية لهم دون المؤمنين طريق إلى الارتداد؛ لأن من يعتز بغير عزة الله تعالى ينقص من إيمانه بمقدار موالاته لأعداء الله تعالى، واستمراره في الموالاة وإعطاء الولاية، ولقد قال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (٢٢) [المجادلة].

وهنا يسأل سائل عن أمرين: أولهما - ما الموالاة التي تجر إلى الارتداد؟
 وثانيهما - ما حقيقة الردة؟ ونقول في الإجابة عن السؤال الأول - إن الموالاة التي
 تفضي إلى الارتداد مراتب أعلاها أن يستنصر بهم على أهل الإيمان، كما كان
 يفعل بعض الملوك في الماضي، وكما فعل بعض الوزراء الذين مالوا التتار على
 المؤمنين، حتى تمكنوا من أهل بغداد وغيرها من المدائن الإسلامية تقتيلا وتذبيحا،
 وهذه المرتبة أحسب أنها في ذاتها ردة، وليست ذريعة إليها فقط.

المرتبة المتوسطة - أن يوالى بهم في أوطانهم، ويستنصر بهم ويجعل ولايته لهم
 من غير معاونة لهم على أهل الإيمان، ولا تمكين لهم من رقاب المؤمنين، وتكون
 هذه للمستضعفين في أرضهم، وهؤلاء قد يفيض بهم الاستضعاف إلى أن يكونوا
 منهم، وبذلك يسببون في طريق الخروج عن الدين.

المرتبة الأخيرة - أن نقدر تعاليمهم، ونحول مجتمعنا الإسلامي بما يشبه
 مجتمعهم، حتى يكون ما عندهم أمرا غير قابل للمناقشة، وما عندنا ولو كان من
 هدى الإسلام يكون قابلا للنقض، بل للاستهانة ووضعه دبر الآذان مما نراه من
 بعض المثقفين الآن في الديار الإسلامية، الذين لا يتبعون أعداء المسلمين
 ويقلدونهم في الصناعات والعلوم الكونية، بل يقلدونهم في أهوائهم وشهواتهم
 ومجونهم، ومعايبهم، ويحسبون ذلك تقدما، وما هو إلا ارتداد إلى الحيوانية
 البهيمية، والأدهى من ذلك أن يعتبروا قوانينهم محكمة لا يأتيها الباطل من بين
 يديها ولا من خلفها، ويجعلوا شرع الله هملا مطويا في زوايا النسيان.

والجواب عن السؤال الثاني وهو تعرف حقيقة الردة، أن الردة مراتب
 أيضا.

أعلاها - إنكار ما جاء في كتاب الله تعالى، وإنكار الوحدانية والرسالة،
 وإنكار كل أمر علم من الدين بالضرورة ككون الصلوات خمسا، وكفرضية الزكاة
 والحج إلى آخر ما يُعدُّ إطار الإسلام؛ من يخرج عنه قد خرج عن الإسلام، ومن
 ذلك أحكام الزواج والطلاق.

ووسطها - إهمال الأحكام القرآنية، واستبدال غيرها بها، وزعم صلاحية غيرها، وعدم صلاحية الأحكام القرآنية، ومن ذلك قول الذين يقولون: إن أحكام القرآن خاصة بزمان نزوله دون غيره، وإن للناس أن يبدلوا فيها ما شاء لهم التبديل.

وأدناها - تقليد غير المسلمين فيما عندهم من شر، وجعل القرآن وآدابه، والسنة وما اشتملت عليه أمرا مهجورا.

وإن المرتبة الاولى تبيح قتل معتقياها، والأخريان يحبس أصحابهما، ويمنعوا من الجهر بنحلهم، وذلك لولى الأمر، وإن ذا النورين الإمام عثمان - رضى الله عنه - قال: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»^(١) وإن الله وعد.

وإن وعده لصدق أنه إذا ارتد عن الإسلام من يرتد، فيكون من بعدهم من يعتز الإسلام بهم، ويرفعون شأنه، ولذا قال تعالت كلماته: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

هؤلاء هم الذين وعد الله بأنهم سيزيدون عدد المؤمنين، إذا خرج من صفوفهم المنافقون، والذين يوالون أعداء الله، وإن (سوف) هنا لتأكيد وقوع الأمر فى المستقبل، والتعبير - بـ ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ فيه إشارة إلى أمرين: أحدهما - أن الله سبحانه الذى خلقكم، وهو ولى المؤمنين هو الذى يأتى بهؤلاء الأقوام الذين يحبهم ويحبونه... وثانيهما - أنهم يكونون قوما متحدة مشاعرهم وأحاسيسهم، قد كانت قوميتهم نصره الله ورسوله بنصرة الدين الحكم، ولذا عبر عن هؤلاء بأنهم قوم، أى عنصر قوى متآزر وحدته مكونة من الإيمان، ولا يكونون تابعين لغير دين الله تعالى.

وقد وصف الله تعالى أولئك الذين يأتى بهم فى المكان الذى أخلاه المرتدون بأربع صفات هى من نعم الله تعالى عليهم، أولها - أن الله تعالى يحبهم وهم

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية: ج ٢، ص ٩٤.

يحبونه، وإن محبة الله تعالى للمؤمنين أعلى ما يصل إليه أهل الإيمان من نعمه، ومحبة المؤمنين لله أعلى درجات الطاعة والإيمان.

ومحبة الله تعالى لعباده التي تليق بذاته الكريمة المنزهة عن مشابهة الحوادث، هي أعلى درجات الرضا، فهي ليست الجزاء على النعيم وحده، ولا الغفران وحده، ولكنها مع الرضوان أكبر من ذلك، وقد قال تعالى في جزاء المؤمنين الخالصين لله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وعندى أن مكافأة الله تعالى لعباده بفضل منه ثلاث مراتب: المرتبة الأولى - الغفران والنعيم المقيم، والمرتبة الثانية - رضاه سبحانه وتعالى، والمرتبة الثالثة - وهي أعلى درجات المحبة، وهي الرضوان الكامل، ومحبة الله حال تليق بذاته العلية.

هذه محبة الله تعالى، ومحبة العباد له سبحانه - الإحساس بتجاه النفس إلى الله تعالى، والشعور بأنه ملء نفسه وقلبه، وأنه لا يدخل في قلبه شيء غير عظمة الله تعالى وجلاله، فلا يحس بأن في الوجود غيره، وأن تلك المحبة ثمرتها القربة الدانية الطاعة المطلقة لله ولرسوله، فلا يكون محبا من يعصى حبيبه، ولذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالمحبة لله وطاعته، والقيام بالتكليفات الشرعية أمران متلازمان، فالطاعة لازمة للمحبة، وليس بصحيح ما يجرى على ألسنة بعض مدعى التصوف، من أن المحبة لله إذا وصلت إلى أعلى درجاتها، سقط التكليف بالأعمال الظاهرة، بل إن المحبة البالغة تزيد الطاعة تهيئة، وأحب خلق الله تعالى لله، وأكثرهم محبة له سبحانه هو محمد رسول الله ﷺ، وما قصر في تكليفه قط، ولا يتصور منه ذلك، وقد طالبه الله تعالى بأكثر مما طالب به غيره، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الْمُزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ [المزمل].

الصفتان الثانية والثالثة - هما اللتان ذكرهما سبحانه وتعالى بقوله تعالت

كلماته:

﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والمعنى السامى لهذين الوصفين الكريمين أنهم أرقاء على المؤمنين فى معاملتهم يخفضون جناحهم، كما قال تعالى فى رفق الولد للأبوين: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ...﴾ ﴿٢٤﴾ [الإسراء]. فهى ذلة حانية لأن خفض جناح الأخ لأخيه غير المتحكم فيه هى من قبيل التألف العاطفى، لا من قبيل الخنوع الذميم.

ومعنى قوله السامى: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أنهم ينظرون إليهم نظرة العزيز الغالب لا نظرة الذليل الخانع، فهم لا يتملقونهم، ولا يترضونهم فى غير مرضاة الله، و (عز) فى أصل معناها غلب، كما قال تعالى: ﴿... وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ﴿٢٣﴾ [ص]. أى غلبنى فى الخطاب، وسيطر على الخصومة.

وهنا يرد سؤال لماذا تعدت كلمة أذلة على المؤمنين بـ «على» دون اللام، وقد أجاب الزمخشري فى الكشاف عن ذلك بقوله: «فيه وجهان: أحدهما - أن يضمن الذل معنى الخنو والعطف، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع - والثانى - أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنتهم، ونحوه قوله عز وجل: ﴿... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...﴾ ﴿٢٩﴾ [الفتح].

وخلاصة القول، أن هؤلاء المؤمنين يعاملون إخوانهم برفق ومحبة وبشاشة وعطف، ويعاملون أعداء الإسلام بغلظة وخصوصا فى الميدان، كما قال سبحانه: ﴿... جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...﴾ ﴿٧٣﴾ [التوبة]. وقد جاء فى

الآثار في صفة الرسول ﷺ إنه «الضحوك القتال»^(١) فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

الصفة الرابعة بينها سبحانه وتعالى بقوله: «يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

المجاهدة المغالبة وبذل الجهد، وهو أقصى الطاقة، في سبيل الله أي: في سبيل رفعة كلمة الحق ونصر دينه وإعلاء شأنه، وكل مجاهدة في إعلاء حق وخفض باطل هي في سبيل الله؛ لأن طريق الله تعالى هي طريق الحق إيا كان موضعه، وأيا كان باعته؛ لأن شرع الله تعالى يدعو إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.

وإن الجهاد تنوع ضروبه، وتختلف أساليبه، فقد يكون بالسيف لإعلاء كلمة الله، ورد الأعداء عن أهل الإيمان، وقد يكون ببذل المال لنصر الدين والحق، وإعلاء كلمة أهل الإيمان، وقد يكون باللسان ببيان الحقائق الإسلامية، وتأليب الناس على المشركين، ولقد قال - عليه السلام - «جاهدوا المشركين بأنفسكم وألستكم وأموالكم»^(٢).

وإن الجهاد في الحق يوجب على المجاهد ألا يخشى غير الله، ولذلك وصف الله سبحانه أولئك المجاهدين بأنهم: «وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ». أي لا يخافون لوما قط من أي لائم كائنا من كان، واللومة هي المرة من اللوم، وكان التعبير باللومة دون اللوم للمبالغة في نفى الخوف لأنها منكرة، ومن تصدر عنه منكر، أي لا يخافون أي لومة سواء أكانت شديدة أو كانت رقيقة، ومن أي لائم سواء أكان كبيرا أم كان صغيرا، وسواء أكان ينفع ويضر أم كان لا خير فيه، هذا ما ذكره المفسرون، ونلتمس وجها آخر للتعبير، باللومة، وهو أن التعبير بفعل المرة يفيد وقوع اللوم، لا مجرد توقعه، أي أن هؤلاء لا يخافون اللوم الواقع، بل

(١) ذكره ابن كثير في التفسير: ج ٣، ص ١٢٣، وقال في ج ٤، ص ٢٠٨.

(٢) سبق تخريجه.

يتحملونه مع ما فيه من ابتلاء واختبار قد يكون شديداً، وقد حبيب الله تعالى لعباده الجهاد في سبيل رفع الحق، فقد جاء على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام: «أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر»^(١) وقال عليه السلام: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل ولا يبعد من رزق أن يقول بحق»^(٢). وقال عليه السلام: «لا يحقرن أحدكم نفسه، بأن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه»^(٣).

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الإشارة في هذا النص السامي، إما أن تكون لكل ما سبق من إيمان صادق، ومحبة من الله ورضوان منه، ومحبة من العبد ومعها الطاعة المطلقة لله ولرسوله، وتعاطف وتراحم بينهم، وشدة على أعدائهم وجهاد في سبيله، وإما أن تكون لأقرب مذكور، وهو الجهاد في سبيل الله، واطراح لوم اللائمين وعدم الالتفات إليهم، وإنه على الاحتمالين ذلك من فضل الله تعالى، الذي يصطفى من عباده من يكون أهلاً لذلك، ويعمل بإرادته ليصل إلى هذه، وكانت هذه الصفات من فضل الله تعالى؛ لأن الإخلاص لله تعالى، والفناء في محبته نعمة لا يدركها إلا من يذوق حلاوتها، والتألف بين المؤمنين والتعاطف والبر فضل كبير تعزز به الأمم، والوقوف أمام الأعداء، والجهاد في سبيله، والرضا به، والعمل فيه فوز عظيم لأنه حماية للحوزة، ومنع للذلة.

وقد ذيل سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) رواه النسائي: البيعة - فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر (٤٢٠٩)، وأحمد: أول مسند الشاميين - حديث طارق بن شهاب (١٨٣٤٩).

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا رَأَاهُ أَوْ شَهِدَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْرُبُ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يَبْأَعِدُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ أَوْ يُذَكِّرَ بَعْظِيمٌ». رواه أحمد: باقي مسند المكثرين - مسند وأبي سعيد الخدري (١١٠٨٢).

(٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالًا ثُمَّ لَا يَقُولُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: وَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى». رواه أحمد: باقي مسند المكثرين - مسند أبي سعيد الخدري (١٠٨٦٢).

أى والله سبحانه وتعالى جل جلاله واسع الفضل والجود والرحمة، وجود
بفضله على من يشاء من عباده، وهو عليم بمواضع الفضل ومن يستحقه ومن لا
يستحقه، وأطلق الوصف لله تعالت ذاته المقدسة للإشارة إلى السعة فى كل شىء،
فهو يوسع فى الرزق لمن يشاء، ويسر من يشاء للجهاد بنفسه أو بلسانه أو بماله،
وهو يسع الناس جميعا برحمته، اللهم اجعلنا فى سعة رحمتك.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَخْذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِنْ آمَنَّا
بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

الكلام السامى موصول فى بيان نهى المؤمنين عن أن يتخذوا نصراء من
اليهود والنصارى وسائر الكفار، وفى هذا النص الكريم يبين سبحانه أن هؤلاء

اليهود والنصارى لا تصح موالاتهم لا للأسباب السابقة من أنهم يوالى بعضهم بعضاً ولا يوالونكم، ومن أنه لا يوالِيهم إلا من يكون فى قلبه مرض، ومن أن موالاتهم تؤدى إلى استحسان ما عندهم، وإن ذلك يؤدى إلى الارتداد، ولا من أن موالاتهم مناقضة لولاية الله ورسوله والمؤمنين، وهم الأولياء حقاً وصدقاً، لا تصح موالاتهم لهذه الأسباب فقط، بل لها ولأمر واقع منهم، مستمر فيهم، وهو الاستهزاء بدينكم، واللعب به، والعبث المستمر، ومن يوالِيهم وهم على هذه الحال، فقد تخلى عن دينه وإيمانه، ولقد قال تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الولى هنا النصير الموالى، وولى الأمر الكالىء الحامى، والأنيس الذى يرجى فى الشدائد، ويرجع إليه فى الكروب، والملجأ والمعاذ.

وقد قصرت الولاية على هؤلاء بأداة القصر «إنما»، والمعنى أن الله تعالى ورسوله والمؤمنين الصادقين فى إيمانهم الذين لم يعترهم زيغ ولا ضعف، ولا استخذاء واستكانة للذل، واستسلام للأعداء، ولا ولى للمؤمن غير هؤلاء، فلا يصح للمؤمن أن يطلب بأى صورة النصرة من غيرهم؛ لأن قلوبهم مهما يكونوا مطوية على ضغن شديد، وحقد مستمكن، وهم لا يريدون بالإسلام وأهله إلا الهوان، بل الفناء.

وفى هذا النص عبرة للمعتبرين الذين يرقمون فى أحضان أعداء الإسلام، ويوالونهم، وهم الذين يؤذون المسلمين، ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهرون على إخراجهم، والنبي عليه السلام يقول: «المسلم أخو المسلم لا يحرقه، ولا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله»^(١).

﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ هذه أوصاف المؤمنين الجديرين بأن يكونوا مع الله ورسوله فى ولاية المؤمنين، وقد ذكرت لهم أوصافاً

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، واللفظ لمسلم.

ثلاثة: كل واحد منها يومىء إلى معنى اجتماعى يدخل فى تكوين الجماعة الربانية التى لا تعمل إلا لله، ولا تقوم إلا له، الوصف الأول إقامة الصلاة، أى أدائها مقومة كاملة لا اعوجاج فيها، لتؤدى غايتها وهى تربية الوجدان الاجتماعى الذى يكون معه الإيثار، والسيطرة على الأهواء المردية المخزية، وهى الصلاة التى قال الله تبارك وتعالى فيها: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...﴾ (٤٥) [العنكبوت].

والوصف الثانى أنهم يؤتون الزكاة، أى يعطونها سمحة بها نفوسهم، راضية بعطائها قلوبهم يحسبون أن عطاءها مغنم لا مغرم، وذلك هو التعاون المادى المنبعث من القلب. وإذا كانت الصلاة مبعث التألف الروحى، فالزكاة مظهر التعاون المادى الخالص.

والوصف الثالث ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

لقد قال كثير من المفسرين: إن هذه الجملة حالية من قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾. أى أن إعطاء الزكاة يكون فى حال الركوع، ويقولون: إن سبب ذكر ذلك أن إمام الهدى عليا أعطى صدقة وهو راکع، ولا نرى ذلك؛ لأن ذلك قطع للصلاة وانصراف عنها، ولا يكون ذلك من على كرم الله وجهه، وثانيا - أن اللفظ، ومؤدى ذلك أنه يكون محمودا من المؤمنين أن يؤدوا زكواتهم وهم يركعون ركوع الصلاة.

والذى نراه أن الركوع هنا ليس هو ركوع الصلاة المفروضة، إنما هو الخضوع المطلق لله تعالى فى كل أعمالهم، فى مصانعهم، ومتاجرهم ومزارعهم، وسياستهم، بحيث يكون كل شىء لله تعالى؛ ويتحقق فيهم قول النبى عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله»^(١). سبحانه فى الغدوات والروحوات.

(١) سبق تخريج ما فى معناه من حديث صحيح.

جاء فى مفردات الأصفهاني ما نصه: والركوع يطلق بمعنى الخضوع لله.

«الركوع: الانحناء، فتارة فى الهيئة المخصوصة فى الصلاة، كما هى، وتارة فى التواضع والتذلل، وإما فى غيرها». والله أعلم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الحزب معناه: الجمع المتضافر المتآزر القوى الذى يمانع ويقاوم، سواء أكان فى الخير أم كان فى الشر، وحزب الله تعالى حزب الخير، ولا خير أعلى مما يجتمع عليه.

ومعنى النص الكريم: من يجعل نصرته من الله ورسوله وولاءه لهما، وأمره إليهما، فإنه سيكون حزب الله المتضافر على الخير، وسيكون هو الغالب إن شاء الله، وهنا إشارتان ببيانيتان تنوه عنهما:

إحداهما - أن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. يومئ إلى مقدر محذوف من القول بين فى المعنى، وهو أن الذى يتولى الله ورسوله يكون من حزب الله القوى المتضافر على الخير، وإن حزب الله وجماعته هم الغالبون.

الثانية - أنه فى قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾. لم يذكر اسم الرسول ﷺ، وفى ذلك إشارة إلى أن الرسول لا يعمل إلا بأمر من الله، فيكتفى هنا بذكر الله؛ لأنه المسيطر الغالب القاهر فوق عباده، اللهم اجعل ولايتنا لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، اللهم اجعلنا من حزب الله دون غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ النداء للمؤمنين بالوصف الذى ميزوا به، واختصوا به دون الناس، وهو مناط رفعتهم وجامع وحدتهم، وإذا كان الدين هو الجامع لهم فالذين يسخرون منه، ويستهزئون به يصيبونهم فى صميم ما عليه يجتمعون، وبه يعملون، وفى سبيله قدموا، ويقدمون الفداء، والمعنى: يا أيها الذين اتصفوا بالإيمان، لا تتخذوا نصراء وأحباباً أولئك الذين يسخرون من دينكم بجعله لعبة يلعبون بها، ومسلّة يتسلون فى عبثهم بها، ويستهزئون به مستخفين، فهذا النص تحريض على عدم الانتماء إليهم

بذكر ما هو سر اجتماعهم، وفيه إشارة جلية إلى أنهم لا يمكن أن يكونوا نصراء يريدون العزة لهم؛ لأن ما به عزتكم واجتماعكم يتخذونه سخرية يلهون به ويعيثون.

وهنا مباحث لفظية في بيانها تقريب لمعنى النص السامى.

أول هذه المباحث - التفرقة بين الهزاء واللعب؛ فهما فى النص الكريم معطوف أحدهما على الآخر، وبمقتضى هذا العطف هما متغايران، وإن كانا ينتهيان إلى معنى واحد، وهو السخرية بالاستهزاء، والعبث، فهم يسخرون من الدين، ويسخرون من أهله، ويستهزئون بأهله، ويتعابثون به ويلعبون بحقائقه.

والهزاء معناه المزح فى خفة، أو المزح فى مقام الجدل للسخرية بموضوعه، والعبث به، وقد يكون بالقيام بظاهر بعض الأعمال، وهو يخفى نقيضها، كما قال سبحانه وتعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة].

وعلى هذا يكون معنى الاستهزاء أو الهزاء شتملا على معانى الاستخفاف والتهكم، والمزح العائب.

واللعب أصل معناه من لعب الطفل، ويقال عن الطفل لعب بفتح العين إذا سال لعبه، ومعناه - على العموم - العمل الذى لا يقصد به نفع، ولا طلب ثمرة، بل يقصد به مجرد إزجاء الفراغ، والتسلية.

والمعنى الجملى للفظين: أنهم يسخرون من الدين باتخاذهم موضع استهزاء ومزح، وموضع لعب وعبث لا يقصدون نحوه بشئ إلا بما يقصد به اللالعب للعبته وهذا أبعد ما تكون عليه الاستهانة، فهل يجوز لمؤمن أن يقبل موالاة هؤلاء، وهو لا يزال على صفة الإيمان.

وقد وصف عملهم بأنهم اتخذوا الدين هزوا، أى جعلوه هزوا ولعبا، أى جعلوه مستهزئا يمزحون به ولعبة يلعبون بها، وقد قدر بعض العلماء محذوفاً، وهو أن يكون موضع استهزاء ولعب.

المبحث الثانى من المباحث اللفظية - قوله تعالى :

﴿مَنْ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرُ أَوْلِيَاءُ﴾ و ﴿مَنْ﴾ هنا بيانية فيها بيسان لأولئك الذين يستهزئون ويلعبون بدين الله دين الحق، وهم اليهود والنصارى، وعبر عنهم بـ «أوتوا الكتاب»؛ لأن أصل شرعهم ينتمى إلى كتاب منزل، وإن حرفوا فيه الكلم عن مواضعه وغيروا وبدلوا ونسوا حظا مما ذكروا به، وهم كفار، وليس كفر أعظم من كفر، إلا أن تكون بقية علم عندهم، وهى لا تجعل لهم مقاما أدنى فى الكفر، ولو كانت تجعل فى الإمكان التلاقى فى بعض المعلومات الدينية التى لم يعثوا بها.

وقد تكلم العلماء فقال الأكثرون: إن الكفار هم المشركون، وأطلق عليهم الكفار دون إطلاقه على أهل الكتاب، وقد علله بعضهم بأن كفرهم أشد، وعندى أنهم جميعا كفار، لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ [البينة]. وليس كفرهم أعظم من كفر أهل الكتاب؛ لأن كفرهم عن جهل، وكفر المشركين عن علم، ولا يمكن أن يكون الجهل عنصرا مشددا، والعلم عنصرا مخففا، ولكن ذكروا بوصف الكفار؛ لأنه لا وصف لهم غيره، إذ لم يؤتوا بكتاب.

على أننا نرى أن عطف الكفار على أهل الكتاب من باب عطف العام على الخاص، فكلمة كفار تشمل كل كافر بمحمد ﷺ، على أنه خص أهل الكتاب بالذكر، لأنه الموضوع من الأصل فى عدم موالاته المؤمنين لليهود والنصارى، ثم عمم الحكم على الجميع ممن كفروا بمحمد ﷺ.

المبحث الثالث - فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وكان الأمر بالتقوى فى هذا المقام؛ للإشارة إلى أن ذلك هو الحصن الحصين الذى يغنى عن طلب الأولياء؛ لأن معنى التقوى اتخاذ الله سبحانه وتعالى وقاية دون شر الأشرار إذ إن النصرة لا تكون إلا منه، وهو المعاذ، والملاجئ والناصر والولى، ولأن اجتلاء النفس بتقوى الله تعالى وخشيته تجعل كل قوى مهما تكن

سطوته لا يصل إلى إضعاف قلب المؤمن، ولأن اتخاذ غير الله تعالى وليا ينافي تقوى الله، واستشعار عظمتة وجبروته سبحانه.

وقد بين سبحانه أن ذلك وصف أهل الإيمان، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وقد أخذ سبحانه يبين بعض أوقات استهزائهم، قال سبحانه:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ هذا تصوير لبعض مواضع استهزائهم، ولعبهم بالدين، وقد صور الله حالهم في أمر واقع، وهو عند النداء للصلاة، أى نداء المسلمين بالصلاة، وهو الأذان، وليس مجرد النداء، وكان موضع استهزائهم الصلاة، والدعوة إليها بالأذان، فالضمير في قوله تعالى: ﴿تُخَذُّوهَا هُزُوءًا﴾ يعود إلى الصلاة ومقدمة الصلاة وهو الدعوة إليها، وقد روى أنهم اتخذوها هزوا ولعبا، فمنهم من كان يتخذ النداء أداة استخفاف بمحاكاة صوت المؤذن، واللعب بتقليده تهكما وتعاشا، ومنهم من اتخذ شكل الصلاة الإسلامية موضع تعابث وسخرية واستهزاء.

فقد روى الإمام أحمد - رضى الله تعالى عنه - فى مسنده أن عبدالله بن محيريز وكان يتيما فى حجر أبى محذورة، وقد كان أبو محذورة من مؤذنى رسول الله ﷺ وقد سأله ابن محيريز عن تأذنيه لرسول الله ﷺ فقال: سمعنا صوت المؤذن، ونحن متنكبون، فصرخنا نحكية، ونستهزئ به فسمع رسول الله ﷺ فقال: «أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع، فأشار القوم كلهم إلىّ، وصدقوا، فأرسلهم، وحبسنى إليه، وقال: «قم فأذن» ثم علمه الرسول عليه السلام الأذان وقال له: «بارك الله فيك، وبارك عليه» فهذه الله تعالى، وصار مؤذن رسول الله ﷺ بمكة، وهكذا ابتداء كافرين مستهزئين بالأذان ساخرين منه، وانتهى مؤمنا صادقا مؤذنا لرسول الله ﷺ (١).

(١) رواه النسائي: الأذان - كيف الأذان (٦٣٢)، وابن ماجه: الأذان والسنة فيه - الترجيع فى الأذان

(٧٠٨)، وأحمد: مسند المكين - أحاديث أبى محذورة المؤذن رضى الله عنه (١٤٩٥٥).

وروى أن اليهود كانوا إذا قامت الصلاة صلوا مع المسلمين استهزاء ونفاقاً، ومنهم من كان يقول للرسول عندما يرى الركوع والسجود: يا محمد لقد ابتدعت شيئاً لم يسمع فيما مضى، فإن كنت نبياً فلم خالفت فيما أحدثت جميع الأنبياء، وكانوا مع ذلك يتضحكون ويتخذون من شكل الصلاة الإسلامية موضوعاً لسخرياتهم وعبتهم، ولقد علل الله تعالى ذلك بقوله سبحانه:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الإشارة هنا إلى ما كان منهم من استهزاء وسخرية واتخاذ الأعمال الإسلامية لعبة يتلاعبون بها، والمعنى: أن هذا الذي كان منهم سببه أن أحلامهم قد سفهت، وصاروا لا يدركون الأمور على وجهها فلا يفكرون في الأمور تفكير العقلاء الذين يتدبرون بعقولهم، وقد قام لديهم البرهان العقلى القاطع، والدليل الساطع على أن ما جاء به محمد لا يقبل الإنكار لمن يفكر بعقله، ويتدبر في مبادئ الأمور وعواقبها.

ولماذا كان اليهود وبعض النصارى على هذه الشاكلة يتصرفون تصرف من لا عقل عنده، إذ يطمسون الحقائق، ويسخرون مما لا سخرية فيه؟ الجواب عن ذلك أنه قد طمس على قلوبهم، والحق قد ران على مداركهم، فأصبحوا لا يدركون ما يوجبه العقل السليم، والفكر المستقيم، ولا شيء يذهب بلب اليب وإدراك العقل السليم أكثر من الحق، ذلك بأن تمنى الشر، وحسد غيره على ما فى يده من نعمة، وما آتاه الله تعالى من خير يلقي حجاباً على عقله فلا يدرك، وعلى قلبه فلا يؤمن ولذا قال سبحانه من بعده:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ نقم منه معناه عاب عليه أمراً، وأنكره، ومنه الانتقام بمعنى العقاب، وذلك لأن العقاب لا يقع إلا من أمر ينكره المعاقب ويعيبه، فيتبعه العقاب، فهو نتيجة الاستنكار لمن يقدر على العقاب، ويرى فيه حكمة توجبه.

والاستفهام هنا استفهام إنكارى لنفى الواقع، فهو توبيخ مؤكد بالاستفهام، والمعنى أن الله تعالى يأمر نبيه الأمين أن يسألهم موبخاً منكراً عليهم أنهم لا

يعيبون عليه إلا أنه والمؤمنين معه آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان، وأن أكثرهم فاسقون، وهنا بعض مباحث لفظية نذكرها لتقريب معنى النص السامى الكريم.

المبحث الأول - كيف يعيبون الإيمان مع أنهم كافرون، وإنما يحسد على الإيمان من يدركه، ويعرف مزاياه ويحقد على المؤمن؛ لأنه حرم منه، والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب يعرفون الرسالة والرسول، ومنهم موحدون يدركون معاني التوحيد، وهم يحسدون المؤمنين على ذلك، وخصوصا اليهود والمنافقين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة].

فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب يستنكرون على المؤمنين إيمانهم، والباعث على ذلك أمران: أحدهما - حسد مستكن في قلوبهم، وهم يرون أن النبوة نعمة كانوا يرجونها فيهم، فكانت في غيرهم، وأن الإيمان نعمة وخير، وهم يحسدون الناس دائما على ما آتاهم من فضله، وقد قتلهم الحسد، وأفسد مداركهم.

الأمر الثاني الذى بعثهم على النعمة على أهل الإيمان أنهم يرونهم فى قوة نامية، وهم فى خسة هاوية، وهم كفار منزعجون، وأولئك مؤمنون مطمئنون.

المبحث الثانى - إن فى النص الكريم حصرا لسبب النعمة على المسلمين، ولذلك كان الاستثناء فى قوله تعالت كلماته: ﴿هَلْ تَقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾.

المبحث الثالث - أن إيمان المؤمنين شامل للرسالات الإلهية كلها، فهم يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله، واليهود كانوا يأخذون على المؤمنين أنهم يؤمنون بكل الأنبياء، ومنهم من قتلوهم، ومنهم من حاولوا قتله، ولم يستطيعوا أن ينالوا منه، وقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن

بعض زعماء اليهود ذهبوا إلى النبي ﷺ يسألونه عما يؤمن به فقال - عليه الصلاة والسلام - أومن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى - عليه السلام - جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بمن آمن به.

المبحث الرابع - أن الله تعالى قال: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾. ولم يقل سبحانه وأنتم فاسقون؛ إنصافاً للذين يقتصدون منهم، وقد قال تعالى: ﴿... مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٦٦]. وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١٦٣] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٦٤] وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]

وإن الأكثرين منهم فاسقون، بل إنه يكون منهم ما هو شر من الفسق في ذاته، فيقعون مع الفسق في أشد مظاهر الخسة، ولذا قال سبحانه فيهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن ينبههم إلى عظيم شرهم، والاستفهام هنا للتنبيه، الخطير في ذاته، والتنبيه به ذكره مؤكداً.

والإشارة عند الأكثرين إلى ما نقمه اليهود على النبي ﷺ والمؤمنين معه من أنهم يؤمنون بالرسالات الإلهية كلها لا فرق بين رسول ورسول، ولو كانوا هم قد قتلوه أو حاولوا قتله، والمثوبة في أصل معناها الجزاء الثابت على العمل، سواء أكان شراً أم كان خيراً، ولكن شاع استعمالها في الخير، وهي في لغة القرآن لا تكون إلا في الخير كالثواب فإنه مقابل العقاب.

وهنا يرد سؤالان: أولهما - كيف يكون الإيمان شراً، ويوجد ما هو أعظم شراً منه؟ وكيف يعبر عن جزاء الشر بالمشوبة؟. والجواب عن السؤالين: إن في التعبير عن ثمرات شرهم بالمشوبة من التهكم بهم، والازدراء بتفكيرهم، وإن التعبير

عن الإيمان، وهو خير، بالشر من قبيل المشكلة لتفكيرهم، كأنه قيل إذا كنتم تنقمون على رسول الله ﷺ وإيمانه وتحسبونه شرا لا خير فيه فشر منه عاقبة ومآلا ما أنتم عليه من لعن وطرده من رحمة الله، ومن وقوع في غضبه ومن مسخكم قردة وخنازير.

وقيل: إن الإشارة إلى فسقهم، ومؤدى الكلام على هذا أن هناك ما هو شر من فسقهم وجحودهم، وهو ثمرة فعلهم، وتلك الثمرة هي اللعن والطرده من رحمته، ومسخهم قردة وخنازير، وكأن قوله: ﴿أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فيها حكم بالفسق الدائم المستمر في اليهود الذي يتوارثونه جيلا بعد جيل، حتى صار ذلك كالجبله فيهم والغرائز الموروثة، وقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ بيان لثمرة فسقهم. ولكن الظاهر هو الأول؛ لأن المقابلة واضحة في هذا النص الأخير، إذ فيه مقابلة ما عليه أهل الإيمان بما آل إليه أمرهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى كلماته:

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ المقابلة هنا بين من آمنوا بالله ورسوله، وبين من أنزل بهم سبحانه ما أنزل، وقد ذكرهم مقرونين بما أنزله سبحانه، ومعنى من لعنه الله، أنه طردهم من رحمته، رحمة الإيمان وإدراك الحق والقرار والاطمئنان في الدنيا، وضرب الذلة عليهم إلا بحبل من الناس، وإن استقروا زمانا فإلى طرد مستمر، هكذا كان ماضيهم، وهكذا يكون حاضريهم إن شاء الله تعالى، وإنهم في الآخرة في السعير يدوم عليهم عذابها.

والأمر الثاني - الذي ينزله تعالى بهم هو غضبه عليهم، وسيعاملون في الدنيا والآخرة على مقتضى حكمته في غضبه وعدم رضاه.

والأمر الثالث - أن الله سبحانه وتعالى جعل منهم القردة والخنازير، وقد سار المفسرون على الأخذ بظاهر اللفظ، وقالوا: إن الله تعالى مسخهم قردة

وخنازير حقيقة، بل أفرط بعضهم فزعم أن القردة والخنازير خلفوا نسلاً لهم، ولكن الحقيقة أن القردة والخنازير كانت قبلهم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ مبالغة في المشابهة بينهم، حتى كأنهم الأصل في هذين النوعين من الأحياء.

ومع أن المفسرين قد أخذوا بظاهر الألفاظ من غير تأويل، قد روى عن مجاهد الذي تلقى التفسير عن ترجمان القرآن ابن عباس أن المراد بمسخهم قردة وخنازير مسخ قلوبهم، فصاروا في نزواتهم، واستيلاء الشهوات على نفوسهم وعيبتهم بكل مقدرات القيم الخلقية كالقردة، كما صاروا في قذارات نفوسهم، وتطلبهم للقذر من المكاسب كالخنازير إذا يطلبون القذارات يأكلونها، وتنمو أجسامهم عليها.

وقد قال ابن كثير في تفسيره ما نصه عن مجاهد: «فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، فقال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هم مثل ضربه الله تعالى: ﴿... كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...﴾ [الجمعة]. وهذا سند جيد عن مجاهد وهو قول غريب (الجزء الأول من تفسير ابن كثير ص ١٠٥ طبع التجارية).

وعندى أنه لا غرابة، وإن كان الأكثرون يستغربونه، وإنه قد وردت أحاديث قد تفيد هذا، فقد روى عن ابن مسعود أنه قال: «سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أمى من نسل اليهود؟ فقال ﷺ: «إن الله لم يلعن قوما قط فمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان فلما غضب الله تعالى على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم»^(١).

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود (٣٧٣٩).

وإنه قد يستفاد من الحديث أن المثلية فى النفوس لا فى الأجساد، وهذا هو الذى نميل إليه، واللفظ يحتمله ولذا نختاره.

والأمر الثالث الذى منى الله تعالى به اليهود أنهم عبدوا الطاغوت، والطاغوت فعلت من الطغيان وهم يعبدون الطغيان دائماً، فهم يعبدون الحاكم الطاغى، ويكونون أدواته، وهم يعبدون المال الطاغى المأخوذ من غير حله، وهم يعبدون الهوى ويتخذون هواهم إلهاً يعبدونه.

وقد سجل الله سبحانه وتعالى الحكم مؤكداً فقال سبحانه:

﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى أولئك المتصفون بالفسق الذى أنزل الله تعالى عليهم سخطه، وقرر طردهم من رحمته، ومسح قلوبهم حتى صارت قلوبهم كقلوب القردة والخنازير، وعبدوا الطغيان، ولم يؤمنوا بالحق، هؤلاء شر مكاناً، أى مكانهم فى الدنيا شر مكان إذ يأكلون من المحرمات، كما تأكل الخنازير من القاذورات، وهم فى ذلة، ولو أوتوا قوة وسلطاناً بسبب اتصالهم بأشرار الأرض، فهم فى ذلك بالتبعية، وهم أبعد عن الطريق السوى المستقيم، فهم فى ضلال مستمر، وإن سكنوا واطمأنوا أياماً فسيذيقهم الله تعالى وبال أمرهم، ويحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا

وَقَدْ خَلَوْا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ^{٦١} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ

﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ^{٦٢} فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ

السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ

وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

ذكر سبحانه وتعالى في الآية السابقة بعض صفات اليهود، وضعف من يواليهم، ويركن إليهم، إذ يركن إلى الذين ظلموا فتمسهم النار، وذكر طبائعهم الحيوانية التي تشبه الخنازير في شراحتها، والقروذ في نزواتها، بين بعض ما يترتب على هذه الدخيلة من مظاهر في أعمالهم، وأولها النفاق في أقوالهم، وأكلهم سحت المال في معاملاتهم، ومسارعتهم إلى كل معصية وعدوان، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، وقد كان ذلك يتكرر منهم استهزاء وسخرية أو نفاقاً، ومخادعة أو الأمران معاً، كان ذلك يتكرر منهم، ولم يكن مرة أو اثنتين، بل كان يتكرر من غير عدد، ولذلك قال سبحانه في أحوالهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧) [البقرة]. وقال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥) [البقرة].

وكان الخطاب للنبي والمؤمنين ليذكرهم بصفات المنافقين واليهود، وليؤكد لهم أنهم لا يصلحون أن يكونوا أولياء لكم؛ لأن الولي النصير أو المحب يجب أن يفتح قلبه لك، ويخلص لك الود، ويمحض لك المحبة، واليهودي ومحبته للناس نقيضان لا يجتمعان، فلا تتخذوا منهم معشر المؤمنين أولياء؛ لأنه لا ولاء لمنافق، ولا محبة من حقود حاسد، وقد كان ذلك تصويراً لحالهم، في نفاقهم يقولون بأقوالهم ما ليس في قلوبهم، وقد صور ذلك سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾. أي أنهم كانوا على ما هم عليه عندما دخلوا وعندما خرجوا دخلوا كافرين، وقد قال النحويون: تكون للتكثير أو للتقليل عندما تدخل على المضارع، وتكون للتقريب أو التحقيق عندما تدخل على الماضي،

ورأى أن أكثر استعمال القرآن الكريم لها للتحقيق، لا للتقليل ولا للتكثير، ولذلك يقول سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) [الأحزاب]. ويقول تعالت كلماته: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ...﴾ (٣٣) [الأنعام]. وواضح أن ﴿قَدْ﴾ في الماضي للتحقيق في قوله تعالى حكاية عن قول سيدنا المسيح يوم القيامة: ﴿... قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ...﴾ (١١٦) [المائدة].

ألا ترى أن قد دخلت على علم الله تعالى وهو مؤكدا إذا حصل موضوعه. و ﴿قَدْ﴾ هنا قال المفسرون للتقريب، أى أنها قربت الماضى من الحال القائمة، والجملة الماضوية لا تكون حالا إلا إذا جاء معها قد، ليكون معنى التقريب قائما، وهو تقريب الحال القائمة من الماضى المستقر، والمعنى أنهم دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين.

وأرى أن ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق، وتأکید المعنى، والباء للمصاحبة، والمعنى دخلوا مصاحبين لكفرهم المؤكد وخرجوا مصاحبين للكفر المؤكد، وقد تأكدت حالهم الأولى بالتعبير بقدر، وتأكدت حالهم وهى الخروج بالكفر بقدر وبهم، فكان تأكيد مصاحبتهم للكفر وهم خارجون أقوى من تأكيدها وهم داخلون، وهذا للإشارة إلى أنهم ما دخلوا بقلب سليم، بل دخلوا مخادعين منافقين، ودخولهم على هذه النية المحتسبة عليهم تزيدهم كفرا ونفاقا، لأنهم كلما لاح دليل زادهم عتوا، وزادهم كفرا على كفرهم، والتعبير بـ (هم) الدالة على القصر فيه إشارة إلى أنهم مقصرون فى خروجهم على الكفر ليس لهم حال سواء، وذلك فضل تأكيد.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ صدر الله سبحانه وتعالى النص الكريم بلفظ الجلالة لتربية المهابة، ولبيان أنه الناصر والولى الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض، ولا فى السماء، وأن تدبيره فوق كل تدبير، وعلمه فوق كل علم،



وأفعل التفضيل ليس على بابيه، لأنه لا يوجد من يكون علمه من جنس علمه، حتى يكون علم أكبر وأعظم، بل المراد - والله سبحانه وتعالى العليم - أن الله تعالى يعلم ما يخفون علما لا يدانيه علم، وليس فوقه علم، وهو أعلى ما يتصور من علم، فعبر بأفعل التفضيل تقريبا لا تحقيقا.

والتعبير بقوله تعالت كلماته: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾. بالجمع بين الماضي والمستقبل يفيد أنه يعلم بما كتموه في الماضي، وما يكتُمونه في الحاضر والقابل، فهو سبحانه يعلم ماضى أمرهم، وحاضره، ومغيبه، ولفظة كانوا على هذا المعنى تفيد العلم المستمر.

بعد ذلك بين الله سبحانه أخلاقهم بعد أن بين معاملتهم لأهل الإيمان فقال تعالت كلماته: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

في هذا النص توجيه النبي ﷺ إلى ما عليه كثير من اليهود من مفاستى ومفاجر وعدوان، وقد كانت عبارات التنبيه موجهة واضحة وموضوعها بين يرى بالعين أو بما يشبه العين لوضوحه، فأنت ترى الكثيرين منهم يخوضون فى الشر خوضا، لا يرعون، ولا يجتنبون سوءا بل يقدمون على كل حرب وشر.

وحكم الله تعالى عدل دائم، وينبه سبحانه إلى العدل فى الأحكام، فهو سبحانه لم ينه النبى - عليه السلام - إلى أنهم جميعا فيهم الشر مستحكم، بل فى الكثير، لا فى الكل ولا فى القليل، ومعنى المسارعة فى الإثم والعدوان المعاجلة وعدم التردد، فهم لا يترددون فى ارتكاب الإثم والعدوان، وربما يترددون كل التردد فى الخير ونفع الناس لذات النفع، والتعدي بفى تشير إلى أنهم مغمورون فى الآثام يتسقلون فيها مسارعين من حال إلى شر منه، فهم يرتعون فيها دائما.

وقد تكلم العلماء فى معنى الإثم والعدوان، فقال بعضهم: الإثم هو الكذب، والعدوان هو تعدى حدود الله تعالى، والاعتداء على محارمه.

ولكن ابن جرير الطبري فسر الإثم بالمعاصي، والعدوان بالتعدي، أو ما يتجه نحو ذلك.

والذي نراه أن الإثم كما هو الأصل اللغوي له في الجملة هو ما يبطئ عن الخير، والكذب إثم لأنه يبطئ عن فعل الخير، فالإثم هو ما عند اليهود من تباطؤ عن الخير، وعصيان للأوامر التي يكون في أداؤها نفع الناس، والنص يبين أن هؤلاء يعملون أعمالا من شأنها أن تبطئ عن فعل الخير، ويعوقونه، وهم مع ذلك يعتدون على غيرهم، فهم محرومون من الخير سلبا وإيجابا لا يفعلونه ويفعلون نقيضه، والله تعالى من ورائهم محيط.

وإنهم لفساد نفوسهم، واستيلاء الشر على قلوبهم فسدت مداركهم، حتى أنهم يحسبون أن ما يفعلونه من آثام وعدوان هو خيرا، وهو فساد في الأرض عظيم، ولذلك عبر سبحانه عن عملهم السوء في عجلة وتسرع من غير مواناة بالمسارعة مع أن أكثر استعمال المسارعة في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣) [آل عمران]. وكما قال تعالى: ﴿... وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ...﴾ (١١٤) [آل عمران].

وقوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ...﴾ (٥٦) [المؤمنون]. وذلك لأنهم يحسبونه خيرا فعبّر عنه باللفظ الذي يدل على الخير، إذ إنهم لفساد قلوبهم يأثمون ويؤذون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأوضح اعتداءاتهم على الناس أكلهم أموالهم بالباطل، ولذلك قال سبحانه عاطفا على سوء عملهم: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

السحت: ما يتأصل من قشور الأشياء، وسحته معناه استأصله، والسحت والإسحات الاستئصال، كما قال تعالى: ﴿... فَيُسْحَتُكُم بِعَذَابٍ ...﴾ (٦١) [طه]. وقد أطلق السحت على كل محظور؛ لأنه يتأصل أخذه كل علاقة اجتماعية تربط الناس بعضهم ببعض وتفسد أمورهم، كالربا، والرشوة، وأخذ الأموال بالغش والتزوير والنصب، والاحتكار الآثم الذي قال فيه النبي ﷺ: «المحتكر خاطيء» أي آثم.



وإن اليهود لانقطاعهم عن الاتصال الأدبي بالناس، والتألم لآلامهم، كانوا يعتبرون الناس وأموالهم نهبا مقسوما لهم دون غيرهم، فكانوا يأكلون أموال الناس؛ لأن من عداهم أميون، وهم المختارون، فكانوا يقولون: ما علينا في الأميين.

وإن اليهود بسبب بغضهم الشديد الذي توارثوه جيلا بعد جيل، قد انفصلوا عن الناس بقلوبهم، وقد عاشوا مضطهدين في وسط النصارى أذاقوهم الويل والذل أكؤسا، فكوّنوا الجماعات السرية ليفتكوا بالوحدات الاجتماعية، وليفسدوا العلائق بينها، وما من دعوة مخربة إلا كان اليهود دعامتها، وأخذوا يكتنزون الأموال بالطرق المحرمة، فهم الذين نشروا الربا في الأرض، وهو من أخبث أنواع السحت واتخذوا الرشوة سبيلا لبسط سلطانهم في الأرض، واتخذوا الاحتكار ذريعة لتجويع الناس، والناس جميعا في نظرهم أعداؤهم، واتخذوا نصب والاحتيال والغش والخديعة ذريعة لكل أموال الناس بالباطل، وإن تظاهروا بفضيلة مالية، لكى يكتسبوا من هذا المظهر، وبذلك أفسدوا الضمائر وهتكوا حمى الفضائل، وأزالوا أو حاولوا أن يزيلوا كل المقومات الخلقية، ليفسدوا المجتمعات، ويزيلوا كل القيم، وإن الذلة تلاحقهم إن شاء الله تعالى، وقد حكم سبحانه على أعمالهم بقوله تعالت كلماته: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ذلك حكم صارم قاطع يذم أعمالهم، والله سبحانه وتعالى حكم ذلك الحكم القاطع على أعمالهم باستحقاقها للمذمة؛ لأنها مخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه، وهى شر فى ذاتها، وهى مقوضة لكل مقوم للأخلاق والفضائل والعلاقات الإنسانية.

والحكم على ما كان منهم وما هم مستمرون فيه من عمل، ولذلك عبر بالماضى والحاضر، فذكر كان بلفظ الماضى، و (يعلمون) بلفظ المضارع الدال على الحال والمستقبل، ومؤدى ذلك الجمع، أى أن ذلك كان منهم فى الماضى وهو مذموم، واستمروا عليه فى الحاضر والمستقبل، وذلك أشد شرا، وأوغل فسادا.

وقد أكد سبحانه ذلك الحكم بالقسم، وباللام الموطئة للقسم، وبكلمة بش الدالة على شدة الذم.

والله سبحانه وتعالى يتولى الناس، ويدفع عنهم شرهم، ويرد عنهم كيدهم، وإنهم منذ أخرجوا من مصر مستنقذين على يد كليم الله تعالى موسى - عليه السلام - ونفوسهم في الشر، يبدو منهم وتتوالى مقاومة الناس لهم، ولذلك قد تولد معه إحساس بالكمال دون الناس، حتى توهموا أنهم الشعب المختار في هذه الأرض، ولكي يفرضوا سلطانهم لم يجدوا سيلا إلا المال، فأكلوه سحتا، وأنفقوه سحتا وتوارثوا ذلك خلفا عن سلف، حتى إن المستقرئ لتاريخ الأمم لا يجد جماعة من الناس تشابه حاضرها بماضيها، تشابه حاضر اليهود بماضيهم، حتى إن القرآن الكريم كان يخاطب الحاضرين منهم بأعمال الماضين؛ لأنهم مثلهم تماما وعلى شاكلتهم، وهم غير قابلين للتغير.

وما عندهم من بقية من التوراة كتابهم، لا يغير طباعهم، فلا يتكون عندهم رأى عام إلا من تعاليم السابقين، وعلماءهم يجارونهم، ولا يبينون لهم، فكان رأيهم العام فاسدا لشيوع الفساد فيه، وعدم وجود من يرشدهم إلى الصواب، ولذا قال تعالى:

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمُ﴾ الربانيون هنا هم العلماء الذين يحاولون أن يكون علمهم لله، ويتصلون بربهم حتى ينسبوا إليه ولا يكون لهم وصف إلا نسبتهم إليه سبحانه، يزعمون ذلك في أقوالهم ويظهرونه في أعمالهم، والأحبار هم الفقهاء أو العلماء الذين يفسرون أحكام الكتاب، ويعرفون الناس بشئون دينهم، وقد يكون من يجمع بين الوصفين، ولكن لكل وصف جانب من العمل.

و ﴿لَوْلَا﴾ هنا للحض على الفعل في المستقبل، والتوبيخ في الماضي على عدم فعله، وهو هنا للتوبيخ على تقصيرهم في الماضي وتخاذلهم عن أدائه، وإلا ما كان ذم حالهم، واستنكار أمرهم، والمعنى: هلا كان من هؤلاء الذين كان

يتبعهم اليهود ويستمعون إليهم، ويستجيبون لهم من يرشدهم إلى الحق ليتبعوه وينهاهم عن الظلم ليجتنبوه، وقد اتخذوا أولئك الأحبار والربانين وسطاء بينهم وبين الله ليتعرفوا حكمه عن طريقهم، ولكنهم لم يفعلوا.

ولقد كان الموضع الذى كان ينبغى أن ينهوا عنه هو قولهم الإثم وأكلهم السحت، فالنهي الواجب منصب على أمرين: أحدهما - قول الإثم، أى القول المبطل المانع من الخير، والثانى - أكل السحت، والأمران جماع الرذائل - فإن الذى يدفع إلى الشر قول ذميم يحرض على الفساد ويدفع إليه، ويجرئ الناس عليه، ويتضمن ذلك ارتكاب الشهوات، بكل أجزائها، لأن أول الشر استحسانه، واستحسانه يكون غالباً بالقول المشجع عليه والدافع له، ثم استمروا من بعد ذلك بقوله يزينه ويزكيه، ويكون من بعد ذلك ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً.

والأمر الثانى - طمع لما فى أيدي الناس وحسد على ما آتاهم الله من فضله، ووراء ذلك أكل لمال الناس بالباطل، وشره لما فى أيديهم، واتخاذ المال ذريعة لإفساد ذات البين بينهم، والتحريض على الشر، والتحكم المردول.

ولعل ذكر نهى الأحبار للعامة عن السحت تعريض بهم؛ لأنهم كانوا لا يتعففون عن الرشا بكل أنواعها، كما أن ذكر النهى عن قول الإثم تعريض آخر بأحوالهم، فإن من قول الزور تحريف الكلم عن مواضعه، والنطق بالزور فى الشرع، وكان يقع منهم، ولذلك ذم سبحانه صنيعهم، وهو لا يخلو من فساد حكمهم وتغيير حكم الشرع لهوى الأقوياء منهم، فقال تعالت كلماته: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. ذم الله تعالى صنيعهم، وهو عملهم الشر بدقة وإحكام، لا بمقتضى الغرائز الحيوانية من غير تفكير، وفى الماضى، وما هم عليه فى الحاضر، وما يكون منهم فى المستقبل.

وهنا يتكلم المفسرون فى التفرقة بين ذم أعمال اليهود عامة من دهماء وغيرهم بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وذم أعمال الربانيين والأحبار بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وخلاصة هذه التفرقة: أن العمل يكون عادة بانبعاث شهوة من طمع في مال، أو لذة جسد، أما الصنيع، فإنه يكون بمهارة وتدبير وتعرف للغايات والنتائج ولو كانت آثمة، وأن الصنيع يكون بالعمل وغيره، ومن أحسن من قال في التفرقة فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، فقد قال موضحاً ما ذكره الزمخشري وغيره، والمعنى أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعامتهم عن المعاصي، وذلك يدل أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه؛ لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظ واحد، بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى؛ لأنه تعالى قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت: لبس ما كانوا يعملون، وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر: لبس ما كانوا يصنعون، والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقراً راسخاً متمكناً فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ، وذنب التاركين للنهي ذنباً راسخاً، والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته، وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية كان مثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء فما زال.

وإن هؤلاء الربانيين والأخبار لم يكن ما أخذ عليهم هو السكوت عن النهي فقط، بل إنهم رتعوا فيما رتع فيه غيرهم، وبذلك ضلوا، وكانوا سبباً في فساد الجمع كله، ولعنهم وطردهم كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كانوا لا يتأهون عن منكرو فعلوه لبس ما كانوا يفعلون ﴿٧٩﴾ [المائدة].

ولقد قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ إنها أصعب آية في كتاب؛ لأنها تبين إثم الذين يقصرون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما عصام الأمر، ومانعا الإثم، وبهما صلاح الجماعة الإنسانية، روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي وهم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من عنده».

وروى يحيى بن معمر أن الإمام على بن أبي طالب خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تهادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فأمروا بالمعروف انهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا».

وإن ما توقعه إمام الهدى على - كرم الله وجهه - قد وقع، فإن الذين يتخذون من المؤمنين مكان الأحبار باسم الإسلام، قد سكتوا عن النهي عن قول الإثم، بل منهم من أيد المنكر، بعد أن ارتضاه ومنهم من مالا في دينه، يحسب أن قول الحق قد يقطع رزقا، أو يضيع أملا، وبذلك وقعت معاص من غير استنكار، وترك الواجب في استهتار، ولا منادى بالحق، اللهم وفقنا لقول الحق واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا
بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنَ
فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

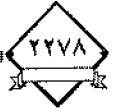
بين الله سبحانه وتعالى أحوال اليهود ومعاملتهم للمؤمنين، وهى تدل على مقدار حقدهم على أهل الإيمان وتعصبهم ضدهم، ونفاقهم فى ذات أنفسهم ومعاملتهم للمؤمنين بالخداع، واستهزائهم بالحقائق الإسلامية، واتخاذهم الدين هزوا ولعبا.

وفى هذه الآية يبين سبحانه حالهم فى جنب الله تعالى، وأنهم إن أعطوا أشروا وبطروا النعمة، وإن منعوا كفروا، وقالوا قالة لا تليق بذات الله تعالى، وإن هذا ليس هو الطريق الأمثل لمن أوتوا الكتاب وبلغوا رسالات النبیین، ولذا قال سبحانه:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أصل الغل: توسط الشيء وتدرعه، والغل ما يفيد به الشخص ويجعل الأطراف وسطه، وقيل للبخیل هو مغلول الیدین، ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن اليهود أنهم قالوا يد الله مغلولة، وهى تحتمل عدة معان متلاقية فى مؤادها، وإن اختلفت فيما يقرر سبب قولهم لعنهم الله، فقد قيل: إنهم لما علموا أن كل شيء مقدر بقدر، وأنه سبحانه وتعالى قضى كل شيء فقدرة تقدیرا تهجموا بهذا القول غیر الکریم، فقالوا: إن يد الله مغلولة، أى فى حکم المقيدة، وقيل: إنهم كانوا يرون المؤمنین الصادق إيمانهم فى غیر ثروة، وهم يعتمدون على الله، فقالوا مقالتهم، وقيل: إنهم بسبب كفرهم وإيذائهم للمؤمنين وتغير الأحوال قتر عليهم فى الرزق، فلم ينسبوا ذلك إلى أسباب واقعة، بل قالوا مقالتهم فى شأن ربهم.

والذى نراه أن اليهود فى هلع دائم وطمع، وحسبوا أن الفقر لا ينالهم أبدا، فإن أعطوا خيرا نسبوه لأنفسهم وحيلتهم وعلمهم، وإن لم يعطوا اتهموا ربهم، وذلك غیر شأن المذعنين لله المؤمنین به الذين يعلمون أنه يعطى ويمنع، ويعز ويذل بحكمة وتقدير.

ولفظ: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مجاز عن البخل، وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية إذ شبهت حال من قبضت يده عن العطاء، فلا يعطى بحال من غلت يده،



وربطت على وسطه، فلا يستطيع تحريكها، وعبر باليد؛ لأنها هي التي يكون بها العطاء، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩) [الإسراء].

وليس المراد باليد الجارحة، بل الكناية عن المنع والإعطاء، وقد قال في ذلك الزمخشري: (غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود) ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾. ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى يستعمله في قليل لا يعطى بيده عطاء قط، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يده وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلًا لقالوا: ما أبسط يده بالنوال؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين، وقد استعملوه حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد فُسرَت اليد المنسوبة لله تعالى بالمعنى المجازي المناسب في كل آية في القرآن الكريم على ما اختاره الغزالي وغيره، حتى أنه قال في قوله تعالى: ﴿... يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾ (١٠) [الفتح]. بالسلطان والقوة، كما يقال وضع الأمير يده على المدينة، ولو كان مقطوع اليدين، والكلام في هذه المسألة مشهور في كتب علم الكلام.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ هذه الجملة معناها الدعاء عليهم، وهذا تعليم من الله لنا بأن ندعو على من فسدت قلوبهم، وذهب بهم الطمع والجشع إلى نسيان ما يجب لذات الله العلية، وما ينبغي، فقالوا كلمتهم التي قالوها، وهي تدل على استهانة بالحقائق وذات الله سبحانه، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فعلمنا الله أن ندعو عليهم بغل اليد، وبالطرد وهو دعاء مستجاب ما داموا على هذا الحال من الأثرة المردية التي تنسيهم حقائق التدين والإيمان.

والدعاء عليهم بغل الأيدي معناه الدعاء عليهم بالشح المرير الذي يجعلهم مبغضين للناس، منحرفين عن طريقهم مطرودين من المجتمع، ويصح أن يفسر

قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾. بالدعاء عليهم بالغل الفعلى بأيديهم بأن يمنعوا عن العمل الحر، ويعيشوا أسارى أو كالأسارى فى ذل، ويكون التعبير من قبيل الجناس بالمشاكلة اللفظية، وإنا نميل إلى هذا، ويرشح له التعبير بأيديهم؛ لأن العرف اللغوى جرى على أن التعبير بالأيدى يفيد البطش، والتعبير بالأيدى يفيد النعمة، فيقال لفلان الأيدى على فلان، ولا يقال له الأيدى عليه، والمعنى على هذا الدعاء عليهم أن تغل أيديهم الباطشة فلا يقووا على غيرهم بل يكونون أسارى أو كالأسارى، وما يتلون من قوة ظاهرة أحياناً، فليست منهم، وهى إلى حين، وما كان ذلك إلا من فساد غيرهم.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هذا رد عليهم، ويسط اليد هنا مجاز عن الجود والفيض والإنعام من الله تعالى على خلقه، وعبر هنا بالمتنى، فقال سبحانه ﴿يَدَاهُ﴾، للإشارة إلى كثرة الفيض والإنعام، والعطاء العميم كأنه يعطى بيدين لا بيد واحدة، ولكن إذا كانوا لم يدركوا فيض نعمته، فإنهم لم يدركوا معنى حكمته فإن الله تعالى ييسط يديه بالعطاء على الطريقة التى يراها، وبالحكمة التى يريدها، ولذا قال تعالى: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

وهذه الجملة السامية تدل على أمرين: أحدهما - عموم عطائه. وثانيهما - أن شكل العطاء يختلف، فأحياناً يكون لبعض الناس عميماً ليختبرهم بكثرة العطاء، وليحاسبوا عليه وتكون النعمة الكثيرة ابتلاء، وأحياناً يعطى حيناً ويمنع حيناً ليزوقوا النعمة بعد فقدها، ويختبر صبرهم وإيمانهم، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ [الأنبياء].

والمؤمن الصادق الإيمان يصبر فى الإعطاء والحرمان، والكافر يطغى بالعطاء بالعطاء ويكفر فى الحرمان، ولقد قال تعالى فى وصف النفس البشرية: ﴿وَلَّيْنُ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝٩ وَلَّيْنُ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لَقَوْلُنْ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود].

ولقد بين سبحانه وتعالى بعد أخلاق اليهود، ومن يشاكلهم من أهل الكتاب، فقال:

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ في هذا النص الكريم بين سبحانه وتعالى عدم رجاء الإيمان من أكثر اليهود، ذلك أن اليهود ليسوا طلاب حق، فيهدتوا إن بدت معاملة، وظهر نوره، بل هم قوم أكل الحقد قلوبهم، واستولى الحسد على نفوسهم، فهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فإذا جاءهم النور ممن يحسدونهم لا يزيدهم ذلك إلا بغيا وظلما وكفرا.

وقد أكد سبحانه وتعالى فساد قلوبهم بالقسم المطوى باللام الموطئة له، وبنون التوكيد الثقيلة لكي ينتفى الرجاء في إيمانهم، وليعاملهم النبي ﷺ ومن بعده من المؤمنين على أساس مكنون نفوسهم، وخبايا أحاسيسهم، والطغيان: الظلم الذي يتجاوز كل حد معقول، والذي يبعث عليه الشره وفساد النفس، وزيادة الطغيان، وسببه أن ما أنزل إلى النبي جاء على غير ما يريدون، وأنهم حاسدون، وزيادة بالكفر بالإصرار عليه، وزيادة مقدار ما يكفرون به من آيات، وبالعناد واللجاجة التي استولت عليهم.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعنى فى جمعهم؛ لأن البين هو الفاصل الذى يكون بين شيئين، ويطلق البين ويراد به ما يلقي أمام الشخص، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ...﴾ [١٧] ﴿[الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...﴾ [١] ﴿[الحجرات]. وقوله تعالى: ﴿... فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ...﴾ [١٢] ﴿[المجادلة].

والعداوة هي البغضاء المعلنة التي يناوئ فيها المبغض من يبغضه جهارا، والبغضاء هي الكراهية المستكنة والمعلنة، وعندى أنهما معنيان مختلفان، فالعداوة المناوأة الظاهرة، والمقاومة المعلنة، والبغضاء هي الكراهية التي تكون فى القلب،

فهما معنيان متغايران، وإن كانا متلازمين أحياناً، فلا عداوة من غير بغضاء، ولكن قد يفترقان فتوجد البغضاء من غير إعلانها، أى من المناوأة والمقاومة.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعود على اليهود؛ لأن الحديث عنهم، ولا يدخل فيه النصارى، وقد فهم بعض المفسرين أنه يعود على اليهود والنصارى، والعداوة بين الفريقين مستحكمة إلا عند الذين تحللوا من نصرانيتهم وكادوا يكونون يهوداً فى أعمالهم.

والواضح أن الضمير يعود على اليهود وحدهم، وقد ألقى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء فقد افترقوا على أكثر من سبعين فرقة، كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فمنهم الجبرية والقدرية، والمشبهة ومنهم من ينكر البعث، ومنهم الربانيون والقراءون، وبينهم العداوة مستحكمة، وهم ينكرون أن يكون اليهود من غير بنى إسرائيل، حتى إنهم لا يعترفون بيهودية من يدخل فى دين موسى من غيرهم، فيعادون السامرة الذين لم يكونوا من أصل إسرائيلى.

ويصح أن نفسر قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. بأن تستقبلهم بين أيديهم العداوة والبغضاء كالبيين فى قوله: ﴿... مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ...﴾ [٩] [يس]. وفى قوله تعالى: ﴿... لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [١٠] [الحجرات].

والمعنى على هذا ألقينا بين أيديهم عداوة وبغضاء تكون منهم للناس، ومن الناس لهم ذلك بأن ما فى نفوسهم من حسد لجوج، ومادية شرسة، وأثره حاقدة. جعلتهم فى عداوة مستمرة مع الناس، وجعلتهم مبغضين إليهم دائماً، فهم مكروهون من الناس كارهون لهم يعادونهم ويبغضونهم ولا تجد فى قلب أحد محبة لهم، ولو كانوا يناصرونهم أحياناً؛ لأن نصرنتهم لأنفسهم ليكونوا آلة ينفذون بها مآربهم، والله سبحانه وتعالى من ورائهم محيط.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ إن هؤلاء اليهود لحسدهم المستمر للناس، ولكراهيتهم لهم يثيرون الحروب بين الناس، فهم يثيرونها على غيرهم إذا

كانت فيهم قوة، أو أحسوا أن فيهم قوة، أو اتخذوا ذريعة للإيذاء، وإذا لم يكن فيهم قوة ولم يحسوها، كان عملهم إيقاظ الأحقاد بين الشعوب، وإثارة العداوات التي تعقبها الحروب، هذا شأنهم الدائم المستمر يدفعهم إلى إثارة أسباب الحروب.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

يجرى على ما كان عليه العرب من أنهم كانوا إذا أرادوا حرباً بالإغارة على غيرهم إما انتقاماً أو اعتداءً أوقدوا نارا يسمونها نار الحرب، ومهما يكن ما عند العرب من عبارات في هذا، فإن التعبير مجاز، إذ عبر عن إثارة الحروب بإيقاد ناراها، باعتبار أن الحروب في ذاتها وبما تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة. وإن اليهود يوقظون الأحقاد ويشيرون الفتنة، ويوقدون نيران الحروب، والله من ورائهم محيط وإنما يطفئ ما يوقدون ويحبط ما يدبرون.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وإنهم إذ يشيرون الفتنة، ويشعلون الحروب، لا يقصدون إلا السعى في الأرض فساداً فكلما مكن لهم في الأرض أفسدوا ولم يصلحوا، وإذا علوا أفسدوا ولم يصلحوا، حتى إذا طغوا وبغوا أرسل الله عليهم شدائد جزاء لفسادهم، ولقد قال تعالى في بيان ما قرره كتابهم وهو التوراة والقرآن بشأنهم: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ١ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ ٢ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ٣ ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ ٤ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ ٥ [الإسراء].

وهذا النص الكريم يفيد أولاً - أنهم دأبوا على الفساد من بعد موسى ومن جاء من النبيين كداود وسليمان، وأن نتيجة هذا الفساد كانت وبالا عليهم، فجاء

بختنصر، وأزال سلطانهم ثم جاء من بعده الرومان فأزالوا سلطانهم، وجعلوهم أذلاء في الأرض.

وتدل ثانيا - على أن الرسول ﷺ اجتثهم من بلاد العرب^(١)، وتدل ثالثا - على أنهم سيدخلون المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، وتدل رابعا - على أنهم سيفسدون فيه كشأنهم، إذ يتبرون ما علوا تتيبرا، وتدل خامسا - على رجاء رحمة الله تعالى بعباده المسلمين إذا عادوا إلى التقوى فيعود سبحانه وتعالى عليهم بالنصر، لأن اليهود دائما مفسدون. وقد ختم الله سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فالله تعالى لا يحبهم كما يزعمون ويتوهمون إذ يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب من يعمر الأرض، ولا يفسدها، وأولئك تجار الحروب يفسدون ولا يصلحون، ألم تر أنهم يمنعون كل صلح بين الناس ليتمكنوا من الكسب في صناعة أدوات الحرب، وليستعيدوا مهمتهم في إفساد ما بين الناس.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ كان الحديث من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]. في شأن أهل الكتاب ومن يتخذهم أولياء دون اليهود، ثم ذكر سبحانه وتعالى أحوال اليهود الذين كان بعض أهل الكتاب والمسلمين يوالِيهم فعلا ويستنصر بهم، وبينت أحوالهم لكي يتعد المؤمنون عنهم، وفي هذا النص الكريم يبين سبحانه أن باب الإيمان مفتوح غير مغلق، فمن دخله كفر عن نفسه سيئاته، فكفرها الله عنه، ومعناه: لو أن أهل الكتاب آمنوا بالله وحده، وصدقوا رسوله الذي بعث رحمة

(١) قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدْعَ إِلَّا مُسْلِمًا» رواه مسلم: الجهاد والسير - إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب (١٧٦٧).

للعالمين، وجعلوا بينهم وبين الباطل وقاية وخافوا عقاب الله تعالى ورجوا ثوابه، وتوقعوا حسابه، وامتلات قلوبهم بخشية الله تعالى، لو فعلوا ذلك لكفر تعالى عنهم سيئاتهم أى لسترها، ولرفعها عنهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ولأن الله غفور رحيم يقبل التوبة من عباده، وأنه لا تذهب السيئات عنهم فقط، بل إنه سبحانه يشيهم فى الآخرة، فيدخلهم جنات النعيم، فيدخلهم يوم القيامة الجنات التى تكون محل النعيم، وهذا جزاؤهم فى الآخرة. أما الدنيا فقد قال فيه سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾

الضمير يعود إلى أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وقد عبر عنهم فى الاسم الظاهر بأهل الكتاب للإشارة إلى أن لهم فضل علم يهديهم إلى الحق إن أخلصوا، وطلبوه صفوا غير مكدر بشيء من الأهواء والأحقاد وحسد الناس على ما آتاهم الله تعالى من فضله لو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل بإدراك ما فيهما من غير عوج فى التفكير وتنفيذ ما اشتملا عليه من أوامر ونواه، ولم يحرفوا فيهما الكلم عن مواضعه، وأقاموا ما أنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الكريم لو فعلوا ذلك وقاموا بما خوطبوا به حق القيام لآتاهم الرزق من كل ناحية من السماء ومن الأرض، وقيل المراد برزق السماء ما يفيض من غيث وما فى الأرض هو الزرع والشمار مما تخرجه الأرض، وما يستنبط من معادن وفلزات.

وإن خير الأقوال أن يقال: إن المراد أن بسطه بالرزق يأتيهم من كل ما يحيط بهم، ويعمهم الخير، كما يعبر عن شدة العذاب بأنه يأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ...﴾ ﴿٦٥﴾ [الأنعام]

وفى النص الكريم بضع إشارات:

أولها - التعبير عن القرآن بـ «ما أنزل إليكم من ربكم» ففيه إشارة إلى أنهم مخاطبون به، وأنه منزل إليهم مع غيرهم، وليسوا خارجين عن التكليف الذى دعا إليه.

الإشارة الثانية - أن ما جاء فى التوراة والإنجيل حقا هو من عند الله تعالى، وأن القرآن مصدق لما جاء قبله.

الإشارة الثالثة - أن إقامة الشرع تأتي بالرزق الرغيد لمن أخذ بالأسباب واعتمد على الله تعالى حق الاعتماد، ويجب أن يعلم أن الرزق الحسن لا يتنافى مع مجهود الابتلاء.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وإن هذا النص الكريم يشير إلى أنه لا يخلو جنس من خير فهؤلاء الكتابيون الذي كان فيهم اليهود لا يخلون من خير قد يدفعهم إلى الهداية وسلوك الحق المستقيم، فهؤلاء الكتابيون منهم أمة مقتصدة، والأمة: الجماعة من الناس الذين يجمعهم دين أو فكر أو مكان أو جنس أو نحو ذلك، ويقول الخليل بن أحمد: وكل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أمة، والاقتصاد من القصد، وهو استقامة الطريق، فالإقتصاد طلب الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الهداية والحق، والمعنى على هذا: منهم جماعة مستقيمة الإدراك تدرك الحق وتدعن إليه، وهى قليلة فيهم، وليست كثيرة، وإن هؤلاء لاستقامة طريقهم وحسن إدراكهم يصلون إلى الحق، ويؤمنون ويتقنون، وبجوار هؤلاء كثير منهم تسوء أعمالهم، ويكون من حالهم ما يشير العجب من عظم ما فيها من سوء، فإن كلمة ساء تدل على التعجب من كثرة سوئهم، اللهم اهدنا إلى الحق واجعلنا من أهل القصد والإيمان.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ
مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه تعالى مواقف اليهود من رسالة محمد ﷺ وامتناع أهل الكتاب عن الإيمان بما جاء به تعصب من عندهم، وإن اختلفوا فى معاملتهم، فمنهم من نافق وكذب وغدر، وألب عليه الجموع، وحرص المشركين وحالفهم، ومنهم من اقتصد فى المخالفة، وبعض هؤلاء أحسن المعاملة مع الاختلاف ولم يمالئ عليه الأعداء والمشركون من وراء هؤلاء وأولئك يحاربون، ويحاولون أن ينتهزوا الفرص للانقضاض على المسلمين، فكان البلاء شديدا، حروب وفتن يريدون إثارتها، وخبال يقصدون إليه، ولذلك أمر الله نبيه بأن يمضى فى تبليغ الرسالة غير ملتفت لما يدبرون إلا بمقدار إحباطه، مطرحا عداوتهم وبغضاءهم، فالله تعالى عاصمه منهم، ولذا قال تعالت كلماته:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. النداء للنبي ﷺ بوصف الرسالة لتشريفه بهذا الوصف الكريم، ولأنه مصطفى لها: ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...﴾ (١٢٤) [الأنعام].

وللتمهيد لما يأمره به من التبليغ، وأن يصدع بأمر الله لا يراقب أحدا، ولا يخاف من عدو؛ لأنه يبلغ ما أنزل الله تعالى إليه، وقد زكى سبحانه وتعالى الأمر بالتبليغ ووثقه بقوله: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

بما أنه منزل إليك من الله تعالى، فأنت الأولى بالتبليغ دون غيرك، والمسئول عن إعلام الناس بما أنزل الله تعالى، وإنك إذ تبلغ الرسالة فى حماية الله تعالى وكلاءته، ولذلك قال تعالت كلماته: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾.

أى الذى خلقك ونمأك وقام على رعايتك وهو الذى يحميك، ويدفع عنك السوء والشر، ويبلغك مبلغ الحق من نشر الرسالة ليؤمن من يؤمن عن بينة، ويكفر من يكفر عن بينة: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء].

وقوله: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

(ما) فيه دالة على العموم، وهى بهذا العموم تدل على معنى (جميع)، أى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، أى لا تخف شيئاً ولا تكتم شيئاً.

ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى بعثنى برسالاته فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس يكذبوننى، واليهود والنصارى وقريش يخوفوننى، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. زال الخوف»^(١).

فالرسول ﷺ بلغ الشريعة كلها غير منقوصة، وما كتم شيئاً، ولقد قالت أم المؤمنين عائشة - رضى الله تعالى عنها - وعن أبيها: من قال: إن محمداً كتم شيئاً من رسالة الله تعالى فقد أعظم الفرية^(٢)، ولقد قال عليه السلام: «تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله تعالى، وستى»^(٣).

ولو كان قد ترك شيئاً لمن بعده، لكان قد ترك تبليغ الرسالة، ولكن ذلك محال لقوله تعالى: ﴿وَأِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

أى إن لم تبلغ كل ما أنزل عليك فما بلغت الرسالة؛ ذلك لأن ترك بعض الرسالة ترك لها، فمن كلف تبليغ كتاب لواحد، فأسقط منه أسطراً لا يعد قد بلغ الكتاب، ومن يؤمر بتبليغ كلام فيحذف بعضه لا يعد قد بلغ الرسالة؛ لأن الرسالة فيما هو عند الناس كل لا يقبل التجزئة، فكيف تقبل رسالة الله تعالى إلى خلقه، تجزئة فينقل بعضها، ويكتم بعضها، وقد عبر عن هذا المعنى الزمخشري فى

(١) روى الحميدي (٨٨٨) ج ٢، ص ٣٩٠ عن عمه أبي الأحوص عوف ابن مالك الجشمي عن أبيه. وفي مسند اسحاق بن راهوية (٤٣٩) عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أرسلني برسالة فضقت بها ذرعاً، وعلمت أن الناس مكذبي فأوعدني أن أبلغها أو يعذبني».

(٢) متفق عليه؛ رواه مسلم: الإيمان - معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ...﴾ (١٧٧)، والبخاري بنحوه: تفسير القرآن - ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ...﴾ (٤٦١٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٣٢٤) والبيهقي (٢٠٧٨٠)، والدارقطني (٤٥١١) عن أبي هريرة رضى الله عنه.

الكشاف، فقال: «ذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كأن لم يؤمن بأكملها؛ لإدلاء كل منها بما يدل عليه غيرها، وكونها كذلك فى حكم شيء واحد، والشيء الواحد لا يكون مبلغا، وغير مبلغ، مؤمنا به، وغير مؤمن به» أى أن تبليغ بعض الرسالة وترك بعضها معناه ترك وجوب الإيمان به فترة بعد وفاة الرسول، وذلك غير معقول فى ذاته، وغير مقبول فى هذا الشرع الشريف؛ لأن الله تعالى عندما تأذن بموت رسوله قال تعالت كلماته: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة].

وإنه يجب التنبيه إلى أمور ثلاثة:

أولها - أن النبى ﷺ ما انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى أتم الرسالة بيانا، وقد يقول قائل إن الشريعة منها ما هو ثابت بالنص، وهذا بلا ريب قد تم بيانه قبل وفاة النبى ﷺ، وقسم قد ثبت بغير النصوص، فكيف يكون قد تم بيانه،؟! والجواب عن ذلك أن تبليغ الشريعة كان ببيانها، وليس معنى البيان أن يبين حكم كل جزئى من الجزئيات، بل معنى البيان أن تبين الأحكام الكلية والجزئية التى يحتاج بيانها إلى نص، والجزئيات التى لا تبين يكون من الكليات ما يدل عليها بوجود العلة أو الغاية التى يثبت أن الشارع الحكيم أرادها، ولذلك يقول الإمام الشافعى فى الرسالة الأصولية: البيان إما نص قائم، وإما حمل على نص قائم، ولا شك أن كل حكم لا نص عليه يثبت الحكم فيه بالحمل على نص قائم، سواء أكان الحمل بطريق القياس، أى بإثبات الحكم غير المنصوص عليه فى موضعه بالقياس على الحكم المنصوص عليه، فى موضع يشبهه، ووجه الشبه العلة المؤثرة فى الحكم، أم كان الحمل بطريق وجود المصالح ودفع المضار المتفق مع مقاصد الشرع، وغايات أحكامه، وذلك موضع اجتهاد الفقهاء.

الأمر الثانى - أنه يجب التنبيه إلى أن الذين يأخذون ببعض أحكام الشريعة مؤمنين بها، ويطرحون الآخر وراءهم ظهريا يحسبون أن ما اطرحوه ليس من

الشرع ينكرون تبليغ النبي - عليه الصلاة والسلام - للرسالة كاملة، وذلك انحراف يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله.

الأمر الثالث - في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فكيف يكون الشرط والجزاء في معنى واحد؛ لأن الشرط ظاهر معناه أنك إن لم تقم بالتبليغ كاملاً صادعاً بالحق، فما بلغت الرسالة أى أنك إن لم تبلغ فما بلغت، وجزاء الشرط يجب أن يكون معنى مترتباً على الشرط، وذلك يقتضى المغايرة بينهما، فلا يمكن أن يكونا شيئاً، وظاهر النص أنهما شيء واحد.

وقد أجيب عن ذلك بجوابين:

الجواب الأول - أن المعنى أنك إن لم تقم بأداء الرسالة كلها بأن تركت بعضها، فإنك تكون كمن ترك الرسالة كلها، وقد اعترض على ذلك الفخر الرازى بأن ترك بعض الرسالة لا يمكن أن يكون كترك كلها، والجزم فى ترك بعضها ليس كالجزم فى تركها كلها، وإنى أرى أن اعتراض الإمام فخر الدين الرازى غير وارد، لأن ترك جزء من الرسالة من غير تبليغ يكون تركاً للرسالة ذاتها، ولذا عبر فى الجزاء بقوله تعالت كلماته: ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أى إن لم تفعل بتبليغها كاملة فما أدبت واجب التبليغ، وجزم الجزء كجزم الكل إذا كان يتعلق بالاعتقاد فمن أنكر بعض ما يجب الإيمان به يكون كمن ينكر كله إذ يكون ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

الجواب الثانى - أن يكون الكلام من قبيل بيان أن الشرط ذاته يكفى أن يكون فيه كمال التخلّى عن التبليغ، والمعنى على هذا أنك لم تقم بالتبليغ فحسبك أنك تخليت عما يجب عليك أن تفعله، وهو عملك كرسول - وإن التبليغ يقتضى جهوداً وبلاء، وتعرضاً للأذى، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك، وبين أنه فى حماية الله تعالى، وكفالاته، ولذا قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ العصم: الإمساك،

ويتضمن الإمساك الحماية، ومنع الأذى، وجاء فى مفردات الأصفهاني: عصمة

الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ثم بالنصرة، وبتثبيت أقدامهم، ثم بإزالة السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

ومعنى العصمة من الناس على هذا ألا يُمكنوا منه - عليه السلام - ومن دعوته، ومن نفسه، فأوهمهم لا تعلق بنفسه ونفاقهم لا يؤثر في دعوته، وخلافهم وعنادهم لا يمنعان الحق من أن يصل إلى قلوب أهل الهداية والإيمان، ولجأجتهم في الكفر لا تشنيه عما يدعو إليه، ويستمسك به، وما يشار عليه من حروب لا تهزمه ما دام هو ومن معه آخذين في الأسباب ناصرين لله وللحق.

وليس معنى عصمة الله تعالى أن يكون الوصول إلى الحق هينا لنا سهلا، بل إنه لا بد من الجهاد، ولا بد من نزول البلاء بل بتوالي الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة).

فالعصمة هي عصمة النفس والجسم من القتل، والدعوة من أن يعوق طريقها ويقضى عليها، وإن كان الأذى البدنى يقع كشج رأسه وكسر ثيابه، وغير ذلك مما كان يفعله المشركون واليهود معه عليه السلام.

والناس لا يختصون بالمشركون واليهود، بل المراد السلامة مع الجهاد، من كل ما يكون من الناس عامة إذ لا دليل على التخصيص، وكان ممن آذوا النبي عليه السلام كسرى فارس، وما كان من هؤلاء ولا هؤلاء وقد عصمه تعالى منه.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ والهداية التى ينفىها هذا النص الكريم هى الوصول إلى الحق، لأن الجحود قد ران على قلوبهم بما كسبوا من شر، وما اجترحوا من سيئات، وما لجت به نفوسهم من عناد، وهم لا يصلون إلى النيل من الحق وتعويق الدعوة،

وعبر عن الكافرين بالقوم للإشارة إلى أنهم مهما تعددت أجناسهم وتباينت عناصرهم يلتقون عند غاية واحدة، وهى معاندتك والكفر بما جئت به، فهم بذلك التآلف فى الإنكار صاروا كأنهم قوم متحدون.

وإذا كان الكفر قد جمعهم فإنه لا يفرق بينهم كون بعضهم كتابيا، وبعضهم أميين، فلا فضل للكتابين على الوثنيين فى الكفر، ولا شرف بكونهم أهل كتاب ما داموا لم يؤمنوا به ولم يقيموه، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ كان أهل الكتاب فى البلاد العربية يستعلون على من فيها من أهل الوثنية، لأن عندهم علما من السماء، بأنه سيكون منهم نبي ينصرهم ويؤيدهم، ولأنهم يتبعون نبيا من الأنبياء، وأنه كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، إذ قال تعالت كلماته: ﴿... وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وكانوا يسمون العرب أميين توهينا لشأنهم، وليبان شرفهم بالعلم عليهم، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم أنهم لا يمكن أن يكونوا أعلى شأنا من الوثنيين إلا إذا اتبعوا الكتب التى جاءت لأنبيائهم، والكتاب الذى يخاطبون به وهو القرآن؛ لأن شرفهم وفخارهم بهذا العلم، فلا بد أن يقيموه، ويعطوه حقه، وإلا فهو حجة عليهم، وليس حجة لهم، وهو موضع مؤاخذه، وليس سببا للمفاخرة.

وأمر الله تعالى نبيه بأن يتولى هو خطابهم؛ لأن الجدل والمعاندة كانت منهم له، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا﴾ إنكم معشر أهل الكتاب لستم على شيء مما يعلمو به الإنسان من علم أو دين أو خلق أو فضل، حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل عليكم من ربكم، وهو القرآن؛ لأنكم تعتزون بعلم الكتاب فلا شيء لكم من الاعتزاز والفضل إلا إذا أقمتم ما تعتزون به، فلتنفذوا ما جاء فى التوراة والإنجيل والقرآن، وبذلك تحققوا السبب، فيتحقق المسبب، وهنا إشارتان بيانيتان..

إحدهما - التعبير بقوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ بالتعبير بـ «على» بدل «الباء»، وذلك أن حالتهم كانت حال استعلاء على غيرهم فكان المناسب أن يعبر بحرف الاستعلاء وهو «على»؛ لنفى ذلك الاستعلاء، والتعدي بالباء تفيد أن النفى منصب على ذواتهم، وإنما النفى منصب على استعلائهم.

الثانية - التعبير عن القرآن بما أنزل إليكم من ربكم، فلم يقل حتى تقيموا التوراة والإنجيل والقرآن - كان فيه تصريح بأنهم مخاطبون به، وأنهم ممن أنزل لأجلهم، وإلى ذلك يشير قوله - عليه الصلاة والسلام - «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يؤمن بما جئت به»^(١).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قد تكلمنا فى معنى هذا النص الكريم، وما فيه من تأكيد، وذكرنا أن القرآن المنصف لا يحكم على الجميع بالشر، وفيهم أخیار، ولذلك كان حكمه على الكثرة لا على القلة، وإن طغيانهم هو ظلمهم للحقائق، وإفراطهم فيما يطغون به على أهل الإيمان، وأشرنا إلى علة ذلك وهى حقدهم، وحسدهم، وأن النعمة تجىء إلى المحسود، فتزيد الحاسد حقدا وضغنا.

ولكن لِمَ كرر القول هنا وقد ذكر آنفا؟ والجواب عن ذلك أن كلام اليهود الذى حكاه الله تعالى عنهم كان فى جنب الله مما يدل على إيغالهم فى الكفر والإنكار، وأنهم حاقدون على النبى ﷺ فلا يزيدهم ما أنزل عليه إلا طغيانا وكفرا، أما هنا فقد جاءت عقب الأمر الجازم بوجوب التبليغ وتعميمه - بالنسبة للموضوع، وبالنسبة للأشخاص فيسبى سبحانه لنبيه - عليه السلام - أنه مع التبليغ لا يرجو الإيمان: ﴿... إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾ [الشورى]. ولذلك قال سبحانه بعد ذلك:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الأسى: الحزن، وحقيقته اتباع الفائت بالغم والألم، والمعنى لا تأس على إصرار الكافرين على كفرهم، ونزول اللعنة والعذاب

بهم، لا تتأسف لذلك، لأنك قد بلغت، ولأنه يجب أن تتوقع منهم الكفر والجحود؛ لأن كثيرا منهم لا يزيدهم ما أنزل إليك إلا طغيانا وكفرا، ولأن تبعة الخطيئة عليهم دون غيرهم، ولأن الإيمان والهداية كما يريد الله، لا كما تريد أنت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) [القصص].

اللهم اهدنا للإيمان، واهد المسلمين للإيمان، فلا عزة لهم إلا به، وإنك أنت العزيز الحكيم.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾
وَحَسِبُوا أَنَّ أَتَّكُونَ فِتْنَةً فَغَمُّوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

في الآيات السابقة أشار سبحانه إلى استعلاء اليهود والنصارى لأنهم أهل كتاب جاء إليهم الرسل بالتعليم والتوجيه فبين سبحانه وتعالى أن الاستعلاء بالإذعان، واتباع ما جاء إليهم والإيمان به، وفي هذه الآية يبين سبحانه وتعالى أن الناس جميعا في النجاة سواء، لا فرق بين يهودي ونصراني، وعبد للكواكب، فالإيمان يجب ما قبله، ويسوى بين المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَى فِي هَذَا بَيْنَ سَبْحَانِهِ أَنْ

أُساس النجاة وذريعة الثواب، ومنع العقاب الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح واستشعار خشية الله واتقاء عذابه، وإطاعة ما أمر، والانتهاز عما نهى عنه وزجر. ولا ينظر في ذلك إلى سابق ما كانوا يستدينون، ولا إلى ما كانوا ينتحلون من نحل؛ فكما أنه لا تفرقة أمام الله تعالى بالجنسية لا تفرقة أيضا بالنحلة والملة إذا كانوا يتسهون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، ولذلك أكد سبحانه وتعالى أن الذين آمنوا بما جاء به محمد، والذين هادوا أي اليهود، والصابثين والنصارى، من كان منهم يؤمن بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا، لا خوف عليهم من عقاب ولا مؤاخذه عليهم فيما فرط من ذنوب إذ الإيمان يجب ما قبله، ويمحو ما سبقه مما ارتكبوا، فهذا النص الكريم كما يفيد التسوية بين النحل السابقة إن استقاموا على الجادة، والتسقا عند منجاة الإيمان يفتح أيضا باب الرجاء، ويقرب التوبة. وهنا أصناف أربعة هم الذين آمنوا، واليهود، والصابثون، والنصارى.

فالذين آمنوا هم الذين أذعنوا للحق، وآمنوا بما جاء به محمد ﷺ وصدقوه، وأطاعوه، واليهود هم بنو إسرائيل الذين هم شر البرية بأعمالهم إن إقلعوا عنها، فباب الرحمة مفتوح يدخله كل عباد الله تعالى.

والصابثون أو الصابئة طائفة ظهرت في بلاد المشرق، وقد قيل فيها: إنهم يعبدون الكواكب، وبعضهم قال: إنهم يقدسونها من غير عبادة، ولا يخرجهم ذلك عن الشرك؛ لأن تقديس ما لا سبب لتقديسه نوع من العبادة، وإن لم تكن بالصلاة.

وقد حدث أن ادعوا الدخول في النصرانية في عهد المأمون، فإنه التقى بهم في إحدى الغزوات، فسألهم من أي أهل الذمة أنتم؟ فقالوا: صابئة، فقال: لا بد أن تدخلوا في دين من الأديان السماوية أو أخرجكم من ديار الإسلام؛ لأنه لا عقد ذمة إلا مع أهل دين سماوي، (وذلك أحد الآراء الفقهية وأشهرها) فاختار الأكثرون منهم أن يستحلوا اسم النصرانية، ومنهم من بقى على عبادة الكواكب،

وإن أظهروا غير ما يعتقدون، ومنهم من خلط بين النصرانية، وما بقى لهم من بقايا تقديس الكواكب، وهم أكنم الناس لعقائدهم، ولا تزال بقية باقية منهم فى تخوم العراق، ولا يستطيع أحد أن يجزم بحقيقة اعتقادهم.

والنصارى، وهم طوائف مختلفة، تجمعهم ألوهية المسيح، والتثليث، ومتفرقون فيما وراء ذلك ما بين كاثوليك أو ملكانية، وأرثوذكس أقباط، وطوائف غربية، ونساطرة ومارون، وغيرهم.

والنص الكريم كما تلونا هو هكذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّثُونَ وَالنَّصَارَى﴾ ونرى أن «الصابثون» مرفوعة، وظاهر السياق أن تكون بالنصب، فتكون والصابثين وهذه قراءة ابن كثير، وقراءة الآخرين بالرفع، ولذلك تكلم المفسرون فى هذه القراءة التى يقرأ بها الاكثرون. وقد خاضوا فى ذلك لأجل التخريج النحوى، وليس لأحد أن يخطئ القراءة من الناحية اللغوية، إلا أن يكون كجهلة بعض المستشرقين الذين يحسبون أن قواعد النحو حاكمة على القرآن، وذلك من فساد النظر؛ لأن القرآن فوق النحو، إذ النحو يستقى منه، وهو لا يخضع لما يقرره النحويون، بل هم الذين يخضعون له، وأن القرآن قد ورد بذلك فهو قد دل على أن العطف على اسم إن بالرفع جائز، ولو كان الخبر متأخرا، ولا يحتاج إلى شاهد سواه، وأنه هو الشاهد الأول على سلامة التعبير من الوجهة العربية، ومع ذلك قد جاءت شواهد من كلام العرب بوجوب رفع المعطوف على اسم (إن) قبل وجود الخبر، فقد قال ضائب بن الحارث:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيارٌ بها لغريب

وترى أن العطف بالرفع على اسم إن جاء قبل الخبر، وهو مذهب بعض النحويين، ويرجح القرآن الكريم إذ جاء فيه ذلك، وهو خير شاهد.

وقد أخذ النحويون يخرجونه على مقتضى قواعدهم، المانعة عند الذين يمنعون، فقال بعض المخرجين: إن الخبر ليس هو خبر الصابثين، إنما الصابثون مبتدأ خبره محذوف تقديره كذلك، وقال غيرهم: إن أسم (إن) أصلها مبتدأ



دخلت عليه إن، فروعى معنى الابتداء فيه فرفع على هذا المعنى، وكل هذه تخريجات، النص فوقها، ولا عبرة بها لأنها لا تحكم على القرآن، بل إن العطف بالرفع جائز، وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بعد ذلك خبر للجميع.

ومهما يكن من تخريجات أكثر النحويين وتجويز غيرها فإن القرآن أبلغ كلام فى الوجود لا بد أن يكون فى عدوله عن النصب الذى هو ظاهر السياق إلى الرفع معنى قائم بذاته. فما هو ذلك المعنى؟ قالوا: إن الصابئين أشد إيغالا فى الكفر من اليهود والنصارى، فكان لا بد من تنبيه خاص بهم؛ ليكون ذلك تأكيدا لمعنى قبول التوبة والغفران؛ لأنهم إذا كانوا يغفر لهم وهم على هذه الحال من عبادة الكواكب، وعدم وجود كتاب، وكتمانهم اعتقاداتهم، فأولى ثم أولى أن يغفر لمن دونهم من ذلك الجحود، وهم اليهود والنصارى، ولأن الصابئين يشير بيان الغفران لهم إلى قبول توبة المشركين إذا آمنوا بعد شرك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٨] ﴿الأنفال﴾.

وقد بين سبحانه خبر إن وهو جزاء الإيمان بعد كفر، فقال سبحانه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

هذا هو الخبر، وفيه جزاء الإيمان وما تطلبه حقيقته، فذكر سبحانه أمورا ثلاثة هى الإيمان بالله تعالى وذلك يتضمن الإيمان بوحديته، وأسمائه الحسنى، وأنه الخالق وحده، والمهيمن على الوجود وحده، وأنه الأزلى الذى ليس له ابتداء، والباقى الذى لا يعرفه الفناء، وأنه لا يشبه أحدا من خلقه، وليس كالأشياء، لا يُحس، ولا يحتويه مكان، وهو منزّه عما تتصف به الحوادث إلى آخر كل ما يقتضيه التنزيه، وليس بوالد ولا ولد، وليس له كفوا أحد، والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالبعث والنشور، والحساب والعقاب والثواب، وإنها جنة أبدا، أو نار أبدا، وأن الإنسان مجزى بعمله، وإن خيرا فخير أو شرا فشر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٨] [النزلة].

وذكر النص القرآني، أمراً ثالثاً، وهو العمل الصالح الذي يلقي الله تعالى وهو قائم به، مستمر على، وهذا وإن لم يكن ركنًا من أركان الإيمان، ولكنه شرط لما جاء بعد ذلك من عدم الخوف والحزن، فإن المرتكب لا يمكن أن يكون في أمن من غضب الله، بل يكون حزينًا على ما ارتكب، وإن قوى الإيمان إن عمل يكون عنده برد اليقين، والمؤمن الصادق يغلب الخوف على الرجاء، ولو كان طاهراً مطهراً، فكيف لو كان مرتكباً.

وقد يقول قائل: لماذا لم يذكر الإيمان برسالة النبي ﷺ مع أنه ركن من أركان الإيمان، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تعالى هي لب الإيمان!.

والجواب عن ذلك: أن الإيمان بالرسالة المحمدية التي قامت عليها الأدلة من المعجزات الباهرة ثمرة الإيمان بالله ولازمة له، فلا يمكن أن يكون مؤمناً بالله من يكذب رسوله الذي قامت الشواهد والأمارات على صدق رسالته، والإيمان بالله يقتضي الإيمان بصدق كل ما جاء في كتابه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهكذا فإن الإيمان بالله تعالى يقتضي الإيمان بالرسالة والرسول والإيمان بما جاءت به الكتب المنزلة.

وجزاء هذا الإيمان الصادق والعمل الصالح ألا يكون المؤمن في خوف من قابل حياته في الآخرة، فلا يخاف عذاب يوم القيامة؛ لأن الإيمان هو الحصن الذي يلوذ به الخائفون، ولا يحزن على ما كان منه في كفره، وإنه في الجنة لا هم، ولا حزن ولا عذاب.

وقد تكلم العلماء في أمرين لا بد أن نتكلم فيهما:

أولهما - أن الله تعالى ابتداء طوائف الذين يغفر لهم أن آمنوا بالمؤمنين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وجاء الخبر من بعد: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فكيف ينطبق هذا الخبر على الذين آمنوا، وهم قد سبق إيمانهم، فلا يحتاج إلى



تجديد، ولو كان الخبر مقصوراً على الذين هادوا والصابئين والنصارى لكان له موضعه ظاهراً، لأنهم غير مؤمنين.

وقد أجاب العلماء عن ذلك بجوابين: أحدهما - أن الذين آمنوا قد يراد بهم الذين أعلنوا الدخول في الإسلام وإن لم تدعن قلوبهم، ولكن هذا الجواب لا نرتضيه لأن المنافقين ومن لم يدعوا للحقائق الإسلامية لا يسمون مؤمنين، اقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (الحجرات).

الجواب الثاني - أن معنى آمن بالنسبة لهم استمرار الإيمان، وبالنسبة لغيرهم إنشاؤه، ونرى في هذا الجواب نوعاً من دلالة اللفظ على معنيين متقاربين في موضع واحد، إذ يراد الإذعان، والاستمرار عليه، وإنى أرى أن الخبر ليس للحكم بقبول الإيمان فقط، بل إنه خبر في معنى الشرط والجزاء فيه إثبات أن الإيمان مناط النجاة والثواب، وذلك ينطبق على المؤمنين ومن يدخلون في الإيمان.

الأمر الثاني - هو دخول الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وقد قيل في ذلك: إن الموصول في (من آمن) في معنى الشرط، والفاء تدخل في خبر الموصول كما تدخل في جواب الشرط.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ فتح الله تعالى باب القبول على اليهود والنصارى والصابئين، وقد أخذ سبحانه يبين كيف فتح الباب لهم من قبل ولكن غلقوه على أنفسهم، وقد ذكر سبحانه في هذا النص أمرين: أولهما - أنه تعالى أخذ عليهم الميثاق، والثاني - أنه أرسل رسلاً ليسهل تنفيذ هذا الميثاق.

والميثاق عقد موثق مشدد فيه، كما يشد الوثاق، وهو مؤكد بيمين الله تعالى، والله تعالى قد أخذ هذا الميثاق على بنى إسرائيل بأن يقوموا بالتكليفات التي يكلفهم إياها، ولم يذكر هنا موضوع الميثاق، وقد ذكره في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، فترك هنا بيانه حملاً عليها، ومن نصوص ميثاق الله تعالى على بنى إسرائيل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وقد أكد الله سبحانه في الآية الكريمة التي نتكلم في معانيها (أخذ)، باللام وبـ «قد»، وبإضافة الأخذ إليه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾.

ومع أخذ الميثاق المؤكد، لم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم الرسل من عنده ليؤكدوا الميثاق، ويبينوه ويعاونوهم على تنفيذه، وقد جاءت كلمة ﴿رَسُولًا﴾ بالتكثير، وهو هنا للتكثير، أى أرسلنا إليهم رسلاً كثيرة، ولم تكن نتيجة الميثاق وإرسال الرسل محمودة لهم، بل كانت منهم نكراً، ولذا قال سبحانه:

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لقد كان الحكم الذى ارتضوا حكومته هواهم وشهواتهم، فما يوافق هواهم اتبعوه، وما لا يوافق هواهم ردوه، فاتخذوا بذلك إلههم هواهم وضلوا عن علم، ووقعوا فى الشر، فلم يجعلوا العقل والميزان هو الحكم الذى يقبلون ما يقبله، ويردون ما يردّه، وإنه ترتب على تحكيم الهوى وسيطرته عليهم أن كذبوا فريقاً واكتفوا بالكذب، وأن قتلوا فريقاً.

وهنا بعض مباحث لفظية تبين منها معنى النص الكريم:

أولها - عدم وجود جواب الشرط، وهو «كلما»، فقال الزمخشري: قام مقامه فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، أو هو فى الحقيقة جواب الشرط، لأن المعنى كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً وفريقاً قتلوه، وبعضهم قال: إن الجواب محذوف تقديره، و«استكبرتم»، وأخذه من قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة].

وإن الأوضح هو ما قرره الزمخشري؛ لأن قوله ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ تصلح جواباً، فلا حاجة إلى تقدير، وأما الآية الأخرى فقد جاءت الفاء فى قوله:

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فكانت الجملة غير صالحة لأن تكون جواب شرط، فكان لا بد من التصريح بجواب الشرط.

المبحث الثانى - أن الله سبحانه وتعالى قسمهم فريقين فريقا كذّبوه، وفريقا قتلوه، ولا شك أنه مع القتل التكذيب، ويكون المعنى على هذا أن هناك فريقا اكتفوا بتكذيب الرسول، وفريقا آخر ذهب بهم اللجاجة فى العناد وعداوة الهادين إلى أن يقتلوه.

والمبحث الثالث - التعبير عن التكذيب بالفعل الماضى فقال: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾. وعن القتل بالمضارع: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾. وقد علل ذلك الزمخشري بأن المضارع يدل على استحضار الجريمة البشعة التى ارتكبوها، وهى أن يقتلوا هاديهم ومرشدهم، وهناك تعليل آخر، وهو أنهم على استعداد لأن يقتلوا خاتم الهداة محمدا ﷺ، وقد هموا ولم ينالوا.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ الفتنة أصل معناها إدخال الذهب النار لتظهر جودته، وأطلقت الفتن فى لغة القرآن على الشدائد التى تنزل ليختبر قلب المؤمن، فإن صبر ظهر إيمانه قويا شديدا، وإن خار ووهن كان من ضعفاء الإيمان ولقد قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت].

واليهود لما أنعم الله تعالى به عليهم إذ أخرجهم من قسوة فرعون، ونجاههم بفلق البحر، حتى مروا، وغلقه على فرعون وقومه، حتى غرقوا، وهم ينظرون وأعطاهم من بعد ذلك المن والسلوى وغير ذلك ما أجزله تعالى عليهم من خير، حسبوا أن الإيمان جلب لا سلب فيه، وهناة لا يرتفعها تعب، ولذلك حسبوا ألا تكون فتنة تنزل بهم، ولكن الله أنزل عليهم هزائم تلوها هزائم واختبرهم بقحط ينزل بهم، حتى يصقل إيمانهم، وكان ذلك الحسبان منهم لانغمار نفوسهم بالشهوات، لأنها تعمى وتعمى، وترين على البصر بغشاوة فلا يرى، وتضع على الأذان وقرا فلا تسمع.

ولذلك رتب الله تعالى على حسابهم ألا فتنة تنزل أن عموا عن إدراك الحق، فلم يصلوا إليه، وأن صموا عن سماع الهادى فلم ينصتوا إليه، وبذلك سدت عليهم منافذ الإدراك، فلا عقل يدركون به إذ غشيت الشهوات حتى أعمته وجعلت عليه غشاوة ولا وعى يستمعون به إلى صوت الهداية.

وقد نزلت بهم شدائد صقلت نفوسهم كالشدائد التى أنزلها التتار بهم، فاستيقظت مداركهم وسمعت الحق آذانهم، وجاء الأنبياء أمثال داود وسليمان فأنقذوهم، ولكن ما إن أحسوا ببجوح النعمة حتى استولت عليهم الشهوات فعموا وصموا ولكن كانت بقية صالحة، وهنا مباحث لفظية نذكرها؛ لأنها تقرب إلينا معنى النص الكريم.

الأول - أن قوله تعالى: ﴿أَلَا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ بنصب النون فى تكون، وقرئ بضمها^(١)، والقراءة الأولى على أساس أن «حسب» بمعنى الظن الغالب، والثانية على أساس أن «حسب» بمعنى علم، والقراءتان متواترتان، وهما بتتهيان إلى أنهم ظنوا، ثم لغلبة الشهوات وسيطرتها تحول الظن إلى يقين أو كاليقين.

الثانى - أن معنى: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ فيه تشبيه حالهم فى غلف قلوبهم واستيلاء الشهوات عليهم وعدم إدراكهم الحق بأنفسهم وعدم استماعهم للداعية بحال الأعمى الذى لا يبصر، ولا يستمع إلى من يدعوه ليسيير فى الطريق القويم.

الثالث - أن المفسرين أرادوا أن يفسروا متى كانت التوبة التى يسترشدون فيها ثم الصمم الذى يلى الرشد وقالوا فى ذلك أقوالا كثيرة، وعندى أن توبتهم بشديدة تنزل بهم، يخرجهم الله منها، ثم عودتهم إلى ما كانوا عليه متكررا.

(١) ﴿أَلَا تَكُونُ﴾ (بالرفع). قراءة أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، والمفضل، ولكن قرأ عاصم والباقون بالنصب. غاية الاختصار - برقم (٨١٢).

الرابع - أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ فيه معنى التراخي المعنوي لبعدهما بين التوبة والعمى والصمم. وكثير منهم بدل من الضمير؛ وفي هذا إشارة إلى تأصل الصمم والعمى حتى صاروا أهلاً لأن يحكم على الجميع بسببهم ولكن عدل الله أخرج المهديين منهم.

بهذا ختمت الآية، وهي تدل على أن الله جل جلاله عليم بما كان منهم علم من يبصر، وهو مجازيهم بأعمالهم، وهو فوقهم، وهو بكل شيء محيط.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي إِسْرَءِيلَ لَعِبْدُوا
 اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾
 لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا مِنْ
 إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
 إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾
 مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
 الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ
 أَنْظِرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي
 يُؤَفِّكُونَ ﴿٧٥﴾

بين سبحانه ضلال اليهود وما كان ضلال فكر، بل ضلال قلب، ذلك لأنهم عرفوا الحق، ولكن حقد قلوبهم وحسد نفوسهم منعهم من الإذعان للحق الذى تبين لهم، وأدركوه، وطمس الله عليهم فجعل قلوبهم غلغا لا ينفذ الحق إليها، وبعد ذلك ذكر ضلال النصارى، وكان ضلالهم ضلال العقل الذى انحرفوا به تحت تأثير وثنية قديمة، أو فلسفة واهمة سيطرت فى زمانهم. فكان الضلال ضلال فكر انحرف فاعتنقوا غير المعقول، وآمنوا بما هو مستحيل، ولا عجب فى ذلك إذ استهوت العقول أفكار منحرفة شردتهم عن الجادة المستقيمة، وقد أخذ سبحانه يصور كفرهم فقال تعالت كلماته:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى كفر الذين قالوا إن الله - تعالى الله عما يقولون - هو المسيح ابن مريم، ويظهر أنه كان من هؤلاء الذين انحرفت عقولهم من زعم أن الله تعالى حل فى جسم فكان هو المسيح، مع أنهم يقرون أن مريم ولدته، وأن منهم وهم الأكثرون من يقولون: إنه ابن الله قد حلت فيه الألوهية، وهم بهذا الاعتبار قد قالوا: إن الله هو المسيح باعتبار أن الألوهية حلت فيه، وأنه الإله أو ابن الإله.

وحقيقة - هذه النصرانية التى انحرفت عن أصل الديانة - المسيحية التى جاء بها المسيح، أنه بعد أن ترك المسيح هذه الدنيا تعرض المسيحيون لاضطهادات شديدة استمرت نحو ثلاثة قرون كانوا فيها يفرون بدينهم ويختفون وتحرق كتبهم، حتى صار أصل العقيدة معرضا لمنازع مختلفة، ولكن التوحيد هو السائد الغالب، وما أن رفع الاضطهاد عنهم، حتى تعرضوا لفتنة أشد من الأذى البدنى، فتعرضوا لأذى فى العقيدة ذاتها، وهو أشد وأنكى، إذ أدخلت الوثنية فى النصرانية بتأثير قسطنطين ملك الرومان، ولترك الكلمة لابن البطريق النصرانى يتكلم عن الأهواء التى دخلت فى عقول المسيحية، فقد قال عن «مجمع نيقية» الذى أعلن ألوهية المسيح، والذى انعقد لمنع دعاية الوحدانية التى حملها أسقف اسمه أريوس، ويتبعه فى فكرته أكثر المسيحيين قال ذلك النصرانى:

(بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان فجمع البطارقة والأساقفة، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون ألفاً من الأساقفة مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البربرانية، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، وهي مقالة سابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول لم تحمل به مريم تسعة أشهر وإنما مر في بطنها، كما يمر الماء في الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة إيليان وأشياعه. ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمجد والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله، ويقولون إن الله جوهر قديم وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهي مقالة بولس الشمشاطى بطريك أنطاكية وأشياعه، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تنزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وقد زعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس. ومنهم من كان يقول بالوهية المسيح، وهي مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً).

هذه هي الأهواء والآراء التي كانت تذكر في الجماعات المسيحية وظهرت عندما زال الاضطهاد، وحل محله الأمن، ولم يذكر ما كان يقرره أريوس الذى انعقد المجمع لإنهاء دعوته، والحق أن دعوة أريوس كانت هي البقاء على الوحدةانية، فقد قرر كتاب تاريخ الأمة القبطية أن دعوة أريوس كانت متشعبة وكانت عامة وكان السائد عند الكثيرين إنكار الوهية المسيح، فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأى، وكان للرأى الأصيل رأى أريوس مشايعون في فلسطين ومقدونية والقسطنطينية.

ولكن أريدَ تحويل المسيحية من التوحيد إلى الوثنية قبل أن يدخل فيها قسطنطين فانتقل للرأى الذى يتفق معها وهو ألوهية المسيح، فأعلن موافقته على

رأى ٣١٨ (ثمانية عشر وثلاثمائة) من جمع عددهم ثمانية وأربعون ألفان، واضطهد من عداهم، وقامت منازعات بين الوجدانية والوثنية، حتى اختفت أصوات الوجدانية في الأوساط النصرانية.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ في هذا النص الكريم بيان لحقيقة الدعوة التي دعا إليها عيسى - عليه السلام - ونفى نفيا مطلقا ادعاءاتهم الألوهية له فقد كانت دعوته التي كان موطنها بنى إسرائيل، وانبثق نورها، من أوساطهم إلى غيرهم من الناس، هي إلى التوحيد في العبادة إذ لا ألوهية سواه، وزكى التوحيد بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. فإن هذا النص يمنع الألوهية من نواح ثلاث: الناحية الأولى - إثبات أن الله هو ربه الذي خلقه وغماه، وأنشأه كما أنشأ غيره، والناحية الثانية - التسوية بينه وبين غيره من الخلق في التكوين والإنشاء والتربية، فهو في هذا لا يفترق عن أحد من البشر، والناحية الثالثة أنه لا يمكن أن يكون فيه عنصر الألوهية؛ لأن الله تعالى ربه وغماه، كما كان بالنسبة لغيره، وليس مما يسوغ للإله أن يأكل ويشرب وينمو كسائر البشر. فذاته العلية منزهة عن الأحداث، ولا يليق بها الاحتياج.

وفي النص الكريم إشارة إلى جريمة من جرائم بنى إسرائيل، وهي أنهم كذبوا المسيح عليه السلام - وناوءوه كما ناوءوا محمدا، إذ كفروا بالمسيح مع أنه رسول إليهم، وهموا بقتله، وادعى النصارى أنهم قتلوه، وإن هذه الدعوة التي نادى بها المسيح بين ظهرائهم وفي قوم لم تجد أرضا خصبه في أوساطهم، وحرصوا على المسيح عليه السلام واستمر الاضطهاد للنصارى، حتى غيرت وبدلت لهم في ذلك يد فعالة، وعليهم من وزرها قسط كبير.

وقد حذر المسيح من الشرك، فقال ناهيا محذرا:

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

ظاهر السياق أنه من كلام السيد المسيح - عليه السلام - لبنى إسرائيل الذين كانوا أول من وجه إليهم دعوته، ويصح أن يكون ذلك الكلام مستقلا عن كلام السيد

المسيح، وأنه تقرير لمقام الوحدانية في العبادة، وأنه لا عبادة من غير وحدانية، وأن الشرك ينفي العبادة، بل تكون ضلالاً والإشراك بالله يتناول ثلاث شعب. إشراك في الذات، فيجعل ذات الله تعالى كذات الحوادث، وإشراك في الخلق، فيحسب المشرك أن لغير الله تعالى أثراً في الخلق والتكوين، وإشراك في العبادة.

والنصارى قد أشركوا في هذه النواحي كلها فحسبوا أن الله تعالى ليس منزهاً حتى يتصف بصفات الحوادث، زعموا أن الله تعالى يكون له ولد، كما يكون لغيره ولد، وأن هذا الولد شاركه في الخلق والتكوين وأنه يعبد معه، بل لا تكاد تجد ذكراً لعبادة الله تعالى من غير إشراك غيره... ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان].

وجزاء ذلك الشرك أن الله تعالى يحرم به الجنة، بمنعه منها فلا يدخلها، وهذه عقوبة سلبية، فالحرمان عقاب ومنع النعيم عقاب، وهناك عقوبة إيجابية، وهى دخول النار، وإذا كانت الجنة محرمة فمكان إيوائه النار يدخلها ويخلد فيها أبداً، وإنها للجنة أبداً، وللنار أبداً.

ولا يمكن أن ينجيهم من العذاب أحد، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾. أى أنه ليس لظالم من الظالمين نصير قط فالتعبير بقوله: ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾. أى أنه لا نصير قط لا من كبير يخاف، ولا من صغير يرجى.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فى الآية السابقة ذكر الله كفر من قالوا إن الله هو المسيح أو ما يؤدى إليه من القول بأن المسيح ابن الله، وفى هذه الآية يذكر كلاماً آخر للمسيحيين، وهو قولهم إن الله ثالث ثلاثة، ويبدو من ظاهر الكلام أن عند النصارى طائفتين إحداهما تقول إن المسيح هو الله، أو ابن الله، فيكون إلهاً بهذا الاعتبار، والواقع أن النصارى تقرر عندهم التثليث من قبل نزول القرآن، وبعث النبي ﷺ، ومن ذلك التاريخ تميز به عقيدة النصارى، وشعارهم الصليب رمزا إلى صلب المسيح فى زعمهم الذى فنده القرآن الكريم على أن التثليث عندهم لم يجرئ دفعة واحدة، فقد تقررت ألوهية المسيح على أنه

ابن الله فى زعمهم فى مؤتمر نيقية الذى ذكرناه والذى انعقد فى سنة ٣٢٥، وبعد ذلك بنحو ست وخمسين فى مجمع القسطنطينية تقررآ ألوهية روح القدس، وفرض ذلك الرأى بقوة السلطان كما فرض الرأى الأول الخاص بألوهية المسيح بقوة السلطان، وكان المسيحيون يجتمعون لردّه.

ويلاحظ فى مجمع القسطنطينية أمران أحدهما - أن الذين حضروا ذلك المجمع ١٥٠ من رجال دينهم، وما كان هذا ليمثل النصارى أجمعين، ولكن فرض رأى أولئك الذين سموهم أساقفة على النصارى جميعاً، وأسكت كل صوت يخالفه، ولقد كان ذلك المجمع كسابقه مفاجأة لعامة النصارى؛ لأنه ليس بإله عندهم وقد أعلن ذلك مقدونيوس وكانت مقالته ليست هى الشائعة بين النصارى، حتى جاء ذلك المجمع القسطنطينى فأتم التثليث.

ثانيهما - أن الذى دعا إلى عقده بطريق الإسكندرية، كما أنه هو الذى كان رئيس مجمع نيقية وإن لم تكن له الرئاسة فى المجمع الأخير، وأن الذى دعا إلى تقرير ألوهية روح القدس هو هذا البطريق، وقال كما نقل كتاب تاريخ البطارقة لابن البطريق:

(ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا إن روح الله مخلوق، فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حى، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به).

وأن هذه السلسلة التى ساقها تنقض لبناتها إذا قلنا روح القدس ليست روح الله، ولكنها جبريل الأمين الذى خلقه، وبذلك تنقطع حلقات السلسلة، حلقة حلقة.

وروح القدس فى زعمهم هى الروح العامة التى تنشر الحياة بين الأحياء، وما يسترعى النظر، أن الذى قاد فكرة ألوهية المسيح وروح القدس هو بطريق الإسكندرية التى كانت تسودها فى ذلك الإبان الأفلاطونية الحديثة التى كانت خلاصتها، أن الإله الأكبر هو العقل الأول، وقد نشأ عنه العقل الثانى، نشوء

المعلول عن علته، أى أن وجودها متصل، وعرفوا روح القدس بالتعريف النصرانى الذى ذكرناه، وبذلك تلتقى نصرانية النصارى مع فلسفة الإسكندراية الواهمة وقائد الدعوة لألوهية المسيح وألوهية روح القدس هو هو بطريق الإسكندرية، فليعرف النصارى زمان ابتعادهم عن اتباع المسيح - عليه السلام - وسببه والمصدر الذى انحرفوا إليه ومن أوردتهم مورده غير العذب .

هناك إذن عند النصارى تثليث، وأن الله تعالى ثالث ثلاثة، وأن الله تعالى قد حكم بأنهم كافرون، فقد قال سبحانه مؤكدا القول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾. فمن الخطأ الفاحش ما يقال إن الله تعالى عبر عن النصارى واليهود بأنهم أهل كتاب، فليسوا كفارا. فقد أكد سبحانه وتعالى كفرهم أولا بتكفيرهم لأنهم زعموا أن المسيح هو الله، ويقررون أن الله ثالث ثلاثة، وأكد كفرهم فى الحالتين باللام ويقد، فكيف يسوغ المؤمن أن يقول إنهم غير كافرين .

والنصان الكريمان واران على موضوع واحد، وهو النصارى، فالنص الأول وهو: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ موضوع هو ذات موضوع النص الآخر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وكل آية من الآيتين تبين ناحية من نواحي اعتقادهم، واكتفى فى الآية الأولى بزعمهم فى المسيح عليه السلام، لبيان مقدار افتراءهم عليه ومناقضهم لمن يتسبون إليه، وأنهم لا يصح أن يسموا مسيحيين، لأنه برىء منهم، وذكرت الثانية لبيان حقيقة اعتقادهم .
﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ .

بعد أن بين سبحانه وتعالى كفر من يقول بالتثليث بين سبحانه وتعالى العقيدة الصحيحة، فقال سبحانه ذلك النص الحكيم، ومواده نفى الألوهية نفيا مطلقا عن غير إله واحد، والصيغة تفيد استحالة أن يكون الإله، غير واحد، لأنه لا ينتظم الكون والسماء والأرض، ومن فيهما كما جاء فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء]

وكما أن فى النص تقريراً لعقيدة التوحيد المستقيمة، فيه أيضاً توبيخ موجه إليهم على مخالفتهم المعقول، ومجانبتهم ما يقره أهل العقول، ولذلك حذرهم سبحانه عن أن يسيروا فى طريق الغى وأن يعودوا إلى الحق، فقال سبحانه:

﴿وَأَن لَّمْ يَتَّبِعُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا تحذير من الله سبحانه لهم عن أن يستمروا فى هذا القول الكاذب على الله تعالى، وعلى رسوله المسيح - عليه الصلاة والسلام - ومعنى الانتهاء يتضمن أمرين: أن يعدلوا عن ذلك القول وألا يعتقدوه ولا يؤمنوا به، ولم يكتف بالانتهاء عن العقيدة، ولكن الله سبحانه ذكر انتهاء عن القول للإشارة إلى أن هذا كلام يقولونه، ولا يمكن أن يكون عقيدة يعتنقونها، لأنه كلام لا يتفق مع العقل، وقد كذبهم عيسى - عليه السلام - بما قرره فى دعوته، وبين أن الشرك ظلم عظيم، وأن من يشرك بالله مأواه جهنم، وحرم الله تعالى عليه الجنة.

والخلاصة: أن هذا الادعاء قول يرددونه معاً فيلحدون به وهو باطل، إذ كيف يولد ويكون إلهاً، وقد هددهم بالعذاب الشديد يمسهم، وهنا إشارات بيانية:

الأولى - التعبير «يمسهم» إذ المراد أنه يصيب جلدهم، وهو موضع الإحساس فيهم، أى أن العذاب المؤلم مستمر؛ إذ يمس جلدهم، ويصيب موضع الإحساس فيهم.

الثانية - أن من هنا بيانية أى يمسهم ذلك العذاب ما داموا مصرين على قولهم وكذبهم، وقال: ﴿الَّذِينَ﴾. وعبر بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هى سبب الحكم.

الثالثة - أن الله سبحانه وتعالى أكد العذاب الشديد ينزل بهم بالقسم المطوى الذى دلت عليه اللام، والنون المؤكدة، وتنكير عذاب، ووصفه بالألم الشديد؛ لأن التنكير هنا للتعظيم والتكثير.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعد أن حذرهم سبحانه من الاستمرار على قولهم الإفك، وإدعائهم على المسيح - عليه السلام - رغبتهم في الإيمان بعد التهيب من العذاب الأليم، وأن كتاب الله سبحانه وتعالى يجمع بين الترغيب والتهيب، ليؤمنوا خوفاً من عذاب الله تعالى أو طمعا في ثوابه، أو لهما معا، سيق الكلام لهذا، وليبين أن باب المغفرة مفتوح لمن استغفر، وطلب الغفران.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ الاستفهام للدلالة على أمور ثلاثة: أولها - توبيخهم على ما كان منهم وأنه يستحق التوبة والاستغفار، وثانيها - فيه تعجب من بقائهم على حالهم من الإفك والإصرار عليه من أنه لا يقبله عقل، ولا يذعن له مصدق، بل لا يتصوره متصور. ويدل ثالثا على تحريضهم على التوبة، أي الرجوع إلى الله تعالى، وما تقره العقول، ولا تنبؤ عنه الأفهام، وعلى طلب الغفران عما سلف منهم من قول، وإن باب الغفران مفتوح، ولذلك ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. والله جل جلاله المعبود، ولا معبود بحق سواه يغفر الذنوب لمن تاب ورجع إليه وهو رحيم بعباده لا يرضيه أن يشقوا، وأن رحمته سبقت عذابه وأنه سبحانه ليفرح بتوبة عبده أكثر من فرح العبد بقبولها؛ لأن الله تعالى يريد بعبده الإصلاح والإصلاح، ولا يريد له الفساد والإفساد، وإذا تاب العبد انقلب من الفساد إلى الإصلاح.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ في هذا النص الكريم (تسجيل) لحقيقة عيسى ابن مريم وأمه، وأن ما اختصا به لا يمكن أن يجعلهما إلهين من دون الله كما قالت البربرانية وغيرها من فرق النصراني، وكما حكى الله تعالى عنهم وعن عيسى عليه السلام في قوله تعالى له: ﴿... أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [المائدة].

وأن النص الكريم الذي نحن بصدد ذكر معانيه، فيه بيان أن عيسى وأمه ليس فيهما ما يجعلهما مختصين بصفات ليست في غيرهما فعيسى عليه السلام

ليس إلا رسولا وقد خلت أى مضت من قبله الرسل فأبراهيم كان رسولا، ومن قبله كان نوح رسولا، وهؤلاء مضوا، ولم يدع الألوهية لهم أحد كما نحلتموها يا معشر النصارى للمسيح - عليه السلام - وإذا كان له معجزة خارقة للعادة بإحياء الموتى، فأولئك كانت لهم معجزات لا تقل عنها تأثيرا، ولا تقل عنها فى ذاتها. وقد قال الزمخشري فى ذلك وتبعه من بعده: (ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله تعالى كما جاءوا بأمثالها أن أبرأ الله الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى على يده، فقد أحيا سبحانه وتعالى العصا وجعلها حية تسعى وخلق بها البحر وشق على يد موسى، وإن خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى).

ونزيد على ما قاله الزمخشري أن معجزة كل نبي بما يناسب عصره، فعصر سيدنا عيسى كان عصرا يؤمن بالأسباب المادية، وكان فى عهده الفلاسفة الطبيعيون، الذين لا يؤمنون بغير الأسباب التى يرونها، فكانت معجزات عيسى عليه السلام خرقا حسيا صارخا لهذه الأسباب، فولادته كانت بغير السبب المعروف، إذ كان من غير أب، وما كانوا يحسبون أن الأكمه الذى ولد أعمى يبصر، وما كانوا يعلمون أن البرص يشفى منه، فشفاه الله تعالى على يديه، وما كانوا يرون الحياة ترد بعد الوفاة، فأحيها الله تعالى على يديه، كما أجاب لإبراهيم عندما دعا ربه قائلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخَذْنَا مِنْهُ طَيْرًا فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

جاء عيسى - عليه السلام - فكانت حياته وآياته كلها داعية لبطلان ذلك الاعتقاد بأنه لا شيء إلا الأسباب والمسيبات. ولكنهم تمكنوا من اتباعه من بعده بثلاثة قرون، فأخرجوهم من اتباعه، وأعادوهم إلى الأسباب والمسيبات، وأخرجوه من البشر، وزعموا أنه إله.



وأمه لا تخرج عن أنها مخلصة صادقة تابعة للنبيين من قبله وله عليه السلام، والصديق هو الذى لا يقول إلا صدقا، ولا يكذب، ويصدق الحق ويدعو إليه، ويستمر عليه، فالصديق هو الصادق فى قوله وعمله والمصدق للحق المذعن له إذا جاءه، وقال الأصفهاني فى مفرداته: (الصديقون هم قوم دون الأنبياء فى الفضيلة) فهم المرتبة الأولى بعد الأنبياء.

ويلاحظ أنه عند ذكر عيسى فى القرآن يذكر أنه «المسيح ابن مريم» تأكيدا لبشريته، لأنه يرى بالحس مولودا بعد أن لم يكن، وأن ولادته من مريم البتول فكيف يتركون المحسوس إلى أوهام، وحياتهما تدل على البشرية، ولذا قال سبحانه:

﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ذكر الله تعالى هنا بيان خواصهما الأدمية الحيوانية بعد بيان منزلتهما عند الله تعالى، إذ إن الأول رسول، والثانية صديقة، ولا تتجاوز منزلتهما عند الله تعالى ذلك، وهما فى الحياة المادية كسائر الأحياء من الأناسى يأكلان الطعام ويعملان على ذلك، وهما لهذا محتاجان إلى غيرهما، والإله لا يحتاج لغيره، ويقول الزمخشري فى ذلك: (إن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام، وما يتبعه من الهضم، والنقص - لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من البشر!!) ولكنهم مع كل هذا تركوا الأعراض التى تدل على الأدمية وأماراتها، ولذلك قال تعالى: ﴿نَظَرُ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾. أى انظر يا محمد إلى الأدلة على آدميته التى هى قائمة، وكيف بينهاها، وصرفنا لهم القول الذى يدل على الحقيقة، ولكنهم ماديون يؤمنون بالمادة وأسبابها، ولذلك انصرفوا عن الحق وعن الإيمان، وخضعوا لأوهام، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. وقد عبر بـ «ثم»، للدلالة على بعد بين ما تدل عليه الآيات وحالهم، ثم على بُعد ما يقولون عن الحق، إذ يرون بالحس إنسانا يولد، ثم يفرضونه إلها بزعمهم؛ والإفك الصرف عن الحق، يقال:

أفكه يأفكه إذا صرفه عن الأمر أو الحق، ولذلك يقال للكذب إفك؛ لأنه صرف عن الحقيقة، والمعنى الجملى انظر كيف ينصرفون عن الحق لأوهام لا يعقلونها مع قيام الأدلة الحسية على بعضها، ولكن ذرهم فى غيهم يعمهون. اللهم لا تصرفنا عن الحق بأوهامنا، إنك سميع الدعاء.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾
وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَا اتَّخَذُوا هُمُ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ

الكلام موصول بما قبله؛ لأن أولئك النصارى يعبدون عيسى - عليه السلام - ومنهم من يعبد معه أمه، ويقولون هما إلهان من دون الله، ومنهم من يعبد ثلاثة ويجعل الله تبارك وتعالى ثالثهم، تعالى الله سبحانه وتعالى عن ذلك الوهم الباطل، والكذب الفاحش، وقد بين سبحانه وتعالى أن عيسى - عليه السلام - وأمه الصديقة بشر كسائر البشر، يحتاجون إلى غيرهم، وهما آدميان يأكلان، ويفعلان كل ما هو من مقتضيات الإنسانية ومظاهرها.

وقد بين مع ذلك كيف يعبدون مع هذه الحال، فقال لنبيه، قل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، والتعجب مما وقع منهم، وإنكار الواقع، توبيخ على سوء الفعل، وسوء التقدير، فهم يعبدون بشرا أو حجرا ويتركون عبادة الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ للعموم، وهى بهذا العموم تشتمل على ما يعبد من حجر وغيره، ولعدم اقتصاره على عيسى وأمه ذكر بلفظ (ما) الدال على العموم، لا بلفظ (من) الدال على العقلاء.

ومعنى لا يملك ضرا ولا نفعاً: أنه لا يملك المرض والسقم، ولا البلاء ولا الشدائد، كما لا يملك النفع بدفع الضر، ولا جلب الخير، ولا إنزال الغيث، ولا إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته، ولا غير ذلك مما ينفع الوجود كله.

وهنا لا بد أن نتعرض لأمرين: أولهما - كيف يقال إنهم يعبدون من دون الله مع أن المشركين يقولون: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ [الزمر].

والنصارى يعبدون ثلاثة أو اثنين على اختلاف طوائفهم ولم يتركوا عبادة الله ونقول: أن من يشرك العبادة مع الله تعالى لا يقال إنه عبد الله؛ لأن عبادة الله تعالى تقتضى أن تخلص العبادة له سبحانه، وألا يعبد سواه بأن يفرد بالعبادة وحده إذ لا يستحق العبادة معه أحد، ويقال حينئذ إنه عبد ما دون الله تعالى، إذ كانت عبادته ضد عبادة الله تعالى.

ثانيهما - أنه قد يقول بعض الجاهلين إن من الناس من يضر ومن ينفع، ونقول: إنه نفع جزئي، وضرر جزئي، ولا يكون إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى عليك، لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم ينفعوك، وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أى أنهم يتركون عبادة الله تعالى وحده وهو العالم بكل شيء الذى لا يغيب عن علمه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو العالم علم من يسمع ويرى، وهو بهذا العلم المحيط الدقيق الذى أحاط بكل الوجود يكون هو وحده الذى يضرهم وينفعهم، يتركونه ليعبدوا ما لا ينفع ولا يضر، ولكنه ضلال العقول.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الغلو: تجاوز الحد، وهو فى الدين التعصب له، والتشدد فيه، وتجاوز الحد فى أداء ما يطلب كالأنهماك فى العبادة كما كان يفعل بعض المتشددى فى دينهم الذين نهاهم النبى ﷺ، وقد ورد فى الأثر: «لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه، ولكن سدودا وقاربوا»^(١) وكما نهى النبى - عليه الصلاة والسلام - قوما عكفوا على العبادة، وتركوا نساءهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما بال أقوام تركوا النساء وقاموا الليل وصاموا النهار وإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر ولم أنقطع عن النساء»^(٢).

وإن هذا النوع من الغلو، وإن كان غير محمود ولا مستحسن فى الإسلام، لا يمكننا أن نعهده غير حق فى أصله، لأن أساسه حق، وإن غالوا فيه وربما يقول كثيرون إنه غير الحق.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد: باقى مسند المكثرين باقى المسند السابق (١٣١٢٢). ورواه البخارى بنحوه: النكاح - الترغيب فى النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: النكاح - استحباب النكاح لمن تأقت إليه نفسه (١٤٠١).

ونعود إلى النص الكريم. أمر الله تعالى نبيه أن ينادى أهل الكتاب، ويخاطبهم بقوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، والمعنى لا تتجاوزوا الحد، وتشددوا في دينكم غلوا غير الحق، فكلمة غير الحق وصف لمحذوف، والوصف كاشف لأن الغلو دائما غير الحق عندهم، لأنه مجاوزة للحد، وكل مجاوزة للحد لا يمكن أن تكون حقا، وقد قال الزمخشري أن من الغلو ما هو حق، كالغلو في التنزيه، ومنها ما هو غير حق كالغلو الذي وقع فيه النصارى من الإفراط في تقديس عيسى وأمه، يصح أن يكون (غير الحق) منصوبا على أنه حال من الدين نفسه أى لا تغلوا وتشددوا في التمسك بدينكم، وتمنعوا أنفسكم عن أن يدخلها النور حال أن دينكم هو غير الحق.

وفى الجملة النص لمنع تشدد النصارى واليهود في التمسك بدينهم غير الحق، والامتناع عن قبول الهداية التي جاءت إليهم، وهم في هذا التشدد يتبعون الأهواء، ولا يتبعون الحق، وهم مقلدون لمن ضلوا وأضلوا.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(١) الهوى معناه الميل إلى ما فيه شهوة ولذة، وخير الناس من كان هواه ولذته فى طاعة الله تعالى، ولقد قال النبي ﷺ فيما روى فى الصحاح: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»^(٢) ولكن كلمة الهوى لا تكاد تستعمل فى القرآن إلا فى مقام الذم فى الاتباع، جاء فى تفسير فخر الدين الرازى ما نصه: قال الشعبى: ما ذكر الله تعالى لفظ الهوى فى القرآن إلا ذمه قال تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [٢٦] ﴿... وَأَتَّبِعْ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [١٦] ﴿... [طه] وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [٣] ﴿النجم] أفرأيت من اتخذ إلهه هواه...﴾ [الجن] وقال أبو عبيدة: لم نجد الهوى إلا فى موضع الشر، لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال يريد الخير ويحبه.. وقيل سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوى بصاحبه فى النار، وأنشد فى ذم الهوى:

(١) سبق تخريجه.

إن الهوى لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

جملة القول فى ذلك أن الهوى يطلق ويراد به تجنب حكم العقل، والاتجاه إلى حكم الشهوة والإحساس من غير نظر إلى منطق العقل وما يدعو إليه الدليل، وسواء السبيل: وسط الطريق، والمراد أنهم ضلوا عن الحق، وهو دائما بين الإفراط والتفريط، فهم ضلوا عن القصد والحق والاعتدال.

ولنتكلم فى معنى النص الكريم، أن الله تعالى فى علمه وحكمته ينهى أهل الكتاب عن الاستمرار فى الاتباع لقوم قد ثبت ضلالهم قديما، وكانوا من قبل فى ضلال بعيد، وهم عبدة الأوثان، ومن كان على شاكلتهم ممن اخترعوا آلهة على هواهم لا على منطق استقاموا عليه، ولا على نور من السماء اهتدوا بهديه، وقد سلكوا مسلكهم، فأدخلوا الوثنية فى دينهم واتبعوا فلسفة ضالة مضلة.

وهؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم، وضلوا بسبب ذلك أضلوا خلقا كثيرا، حتى شاع بينهم الانحراف عن الطريق، فكانت وثنية اليونان والرومان والفلاسفة هى التى أضلت خلقا كثيرا، فالضلال الأول هو ضلال الوثنية من قبل وهى التى أضلت النصارى، والإضلال هو سيطرة ذلك على من سيطروا عليهم، والضلال الأخير هو عدم خضوعهم لحكم النبى ﷺ وتركهم سبيل المؤمنين الذى كان فيه القصد والاعتدال فتأثرهم بأهواء من ضلوا من قبل وأضلوا جعلهم يأخذون طريق الضلال الأخير، وهو عدم الأخذ بهداية الرسول ﷺ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أى لعن الله تعالى الذين كفروا من بنى إسرائيل بأن طردهم من رحمته، وجعلهم مظهرا للحسد والبغض فى هذه الأرض، وكأن الحق على غيرهم من الناس فى جبلتهم الأولين، وقد مسخوا أنفسهم، وشوهوا أخلاقهم فلعنهم الله تعالى، وهنا مسائل لا بد من الإشارة إليها:

الأولى - لماذا بنى (لُعِنَ) الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل؟ والجواب عن ذلك أن الفاعل معلوم، وهو الله تعالى؛ لأن داود وعيسى نبيان يتكلمان عن الله

تعالى، فما ينطقان عن الهوى، وهما لا يملكان الطرد من رحمة الله تعالى، وأن في البناء للمجهول فوق ذلك إشعاراً بأن اللعن يستحقونه من سوء أعمالهم، ثم إن البناء للمجهول فيه إشارة إلى عموم اللاعنين مع الله سبحانه وتعالى؛ إذ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا.

الثانية - أن اللعنة منصبة على الذين كفروا، وليست على عمومهم، وذلك من إنصاف الله في أحكامه، وإن كان الذين آمنوا بنسبتهم للذين كفروا عددا قليلا، كما قال تعالى: ﴿... مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ٦٦﴾ [المائدة]. وأنه واضح أن من أسباب لعنتهم كفرهم مع عصيانهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة من أسباب الحكم.

والثالثة - أن الله تعالى ذكر أن اللعن جاءهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، وهما نبيان جاءا بعد موسى - عليه السلام - وأحدهما كان نبيا مجاهدا محاربا، قادهم إلى موطن الظفر، ومع ذلك لعنهم الله على لسانه، والثاني كان رسولا مسالما ومع ذلك لعنهم بأمر الله تعالى، فهم ملعونون في الحرب والسلام على سواء.

ولقد جاء في بعض كتب التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن أهل إيليا عندما كان اليهود بها ودنسوها، لما اعتدوا يوم السبت، قال داود عليه السلام: اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء، ومثل المنطقة على الحقوين، ولما طلبوا المائدة، وقال الله تعالى: ﴿... إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ... ١١٥﴾ [المائدة]. قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كذب بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين.

وإن الذى يبدو لنا أن هذا بيان لما نزل بهم من لعن مستمر جاء هذا اللعن على لسان داود ومن جاء بعد حتى كان عيسى، فكان لعن الكافرين عاما، يستوى في ذلك من كان يجاهد بالسيف، والحرب، ومن كان يجاهد بالسلم، فلعنهم الله إلا أن يتوبوا.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا بيان لسبب اللعن والطرء من رحمة الله تعالى يوم القيامة، فلم يكن لعنهم لذواتهم، وإنما لأعمالهم وإيذائهم، فجملة أعمال أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب عصيان الله سبحانه وتعالى، أمرهم بعبادة الله وحده، فكان منهم إشراك، وأمرهم بالإيمان باليوم الآخر فكان منهم من أنكره، وأمرهم بإطاعة النبيين ففريقا كذبوا، وفريقا يقتلون، وأمرهم بالآل اعتدوا يوم السبت فاعتدوا، وأمرهم بالآل يأكلوا الربا فأكلوه، وهكذا كانت أعمالهم نكرا وعصيانا، وكان أشد عصيانهم أن اعتدوا على خلق الله تعالى، فكانوا حاقدين على كل مخلوق سواهم، وبالغوا في إعنات الناس أن اشتدوا بمعونة غيرهم، وبالغوا في الإفساد وإيقاد الفتنة إن ضعفوا عن المقاومة الظاهرة.

والعصيان لله وأخصه الاعتداء هو سبب الطرد من رحمة الله، وعموم العصيان يدخل فيه كل سبب الطرد واللعن فلا يوجد سبب غيرهما.

وقد عبر عن العصيان بالماضي للإشارة إلى قرار العصيان في طبائعهم ونفوسهم، وثباته فيها، وعبر عن الاعتداء بالمضارع؛ لأنه مستمر قائم، وبذلك كان الجمع بين الماضي والمضارع للدلالة على الثبات والقرار والاستمرار، ونسب العصيان إليهم جميعا، والاعتداء إليهم جميعا، لأنه كان من بعضهم، وأقره سائرهم أو سكت عنه باقيهم، فكان منهم وقوعا ورضا، ولذا قال سبحانه:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هذا النص فيه معنى

التفسير للآية السابقة، لأنه يبين عموم العصيان والاعتداء فيهم، لأن الاعتداء في الكثير يقع من بعضهم، فكيف ينسب إلى كلهم، وفي هذا النص إشارة إلى أن سبب فساد الأمم في عمومها هو السكوت على المنكر فيها، والمنكر هو الأمر القبيح في ذاته وينهى الشارع عنه، والتناهي يطلق بإطلاقين، وهو الانتهاء عن الفعل الآثم، ومعنى النص على هذا: أنهم يعصون الله تعالى ما أمرهم ويصرون عليه، ويستمررون على فعلهم، فلا يتوبون ولا يرجعون، ولكن ليس هذا هو الظاهر المشهور.

والإطلاق الثاني لمعنى التناهى أن ينهى بعضهم بعضا إذا وقع المنكر فيهم وهو الظاهر، والتناهى عن المنكر يشتمل على ثلاثة معان كلها داخل فيه :

أولها - أن يوجد فيهم ناه عن الشر يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، سواء أكان الناهى عددا كبيرا، أم كان عددا قليلا، فليست الكثرة مطلوبة، إنما المراد الوقوع منه.

ثانيها - أن يمنع الفعل قبل وقوعه أو يقلله بدفع الكثير منه.

ثالثها - أن يستنكره؛ لأن السكوت عنه رضا، وبذلك يدفع الاعتراض الذى أورده بعض المفسرين وهو كيف يتصور النهى عن الفعل بعده، فنقول: إن النهى عن المنكر بعد وقوعه إنما هو استنكاره، لأنه يمنع الفعل فى المستقبل.

وقد نسب الفعل إليهم أجمعين إذ وقع من بعضهم، وسكت عنه سائرهم ولذا قال سبحانه: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وقد أكد سبحانه وتعالى نسبة الفعل إليهم باللام والقسم المطوى، وذمهم ذما مؤكدا، فالفعل بئس يدل على الذم، والذم كان منصبا على الفعل رجاء إيمانهم، وقد روى ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «من رضى عمل قوم فهو منهم، ومن كثر سواد قوم فهو منهم»^(١).

والآية تدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قوام الأمم، ولا صلاح لهم إلا إذا قاموا بحقه، فالأمر تصالح بالأمر بالمعروف، وتفسد بتركه، ولذلك اعتبره القرآن خاصة الأمة الإسلامية، وبه خيرها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ (١١٠) [آل عمران].

(١) رواه الديلمي عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه. جامع الأحاديث (٢٢٩٦٩) ج ٧،

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(١). ويقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه»^(٢). ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بأن ضياع المسلمين عندما يختفى فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد روى أنس بن مالك، أن بعض صحابة رسول الله ﷺ سألوه قائلين يارسول الله: متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال ﷺ: «إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم». قالوا: يارسول الله، وما ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال ﷺ: «إذا كان الملك فى صغاركم، والفاحشة فى كباركم، والعلم فى رذالككم»^(٣).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو عصام الأمة وهو مكون الرأى العام الفاضل، ويقال: إن الأمة كلها تعصى إذا ظهر العصيان، ولم تستنكره.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا عمل من أعمال اليهود تذهب بهم بغضاؤهم، وحقدهم على المؤمنين إلى أن ينضم كثيرون منهم للمشركين، فالمراد بالذين كفروا أولئك الذين كفروا بالوحدانية، وبلغوا غاية الكفر وأقصاء، وذلك يدل عليه التاريخ، فقد ذهب قوم من اليهود، وألبوا على النبي ﷺ المشركين، ووالوهم، والتولى الموادة والمناصرة والانضمام إليهم، وفى كل حرب دخلها النبي ﷺ كان اليهود مع عهودهم الموثقة مع المؤمنين يوالون المشركين زاعمين أنهم فاتحو المدينة، فبنو النضير خانوا العهد وبنو قريظة وبنو قينقاع كذلك.

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار - حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه (٢٢٧٩٠).

(٢) رواه أحمد: مسند الشاميين - حديث عدي بن عميرة الكندي (١٧٢٦٧).

(٣) تفسير معنى قول النبي ﷺ: «وَالْعِلْمُ فِي رَذَالِكُمْ» إِذَا كَانَ الْعِلْمُ فِي الْفَسَاقِ.

والحديث رواه ابن ماجه: الفتن - قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (٤٠١٥)، وينحوه رواه

أحمد: باقى مسند المكثرين (١٢٥٣١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وفسر بعض العلماء الذين كفروا بالجبابة من الملوك الكافرين، فهم يتولون كل ذى قوة، ولو كان جبارا عاتيا، وينسب ذلك الراى إلى محمد الباقر بن على زين العابدين، وفيه غرابة، وإن كان معناه سليما:

﴿لَيْسَ مَا قَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾
 (بش) كما ذكرنا تدل على الذم، و(ما قدمت) أيديهم هو ما قدموه من عصيان وعدم التناهى عن المنكر، والاعتداء وتولى المشركين والجبابة، وقد أكد سبحانه وتعالى الذم بالقسم واللام، والتعبير بما قدمت أنفسهم يشمل الفعل والقول، والحقد والحسد والمظهر فى هذا الذم ينالهم أمران خطيران، أحدهما - سخط الله تعالى وحسب ذلك شرا فى مآلهم، وأنهم مخلدون فى العذاب، وقد أكد سبحانه عذابهم بكلمة - هم - وتقديم (فى العذاب)، وتخليده، وقد بين سبحانه أن ولاية المشركين والجبابة أمر مذموم لأنه ضد الخير، فقال:

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾
 إن أولئك اليهود يحسبون أنهم يؤمنون بالله، وأن لهم أنبياء جاءوا إليهم، وكتبوا خطوبوا بها، فبين الله سبحانه وتعالى أنهم لو كانوا يؤمنون بالله حق الإيمان وأنه واحد أحد فرد صمد، وأن له رسالة بعثها، وأن لهم نبيا خاطبهم عن الله تعالى ما تركوا ولاية الموحدين، واختاروا ولاية المشركين الذين لا يوحدون الله ولا يؤمنون بنبوة نبي مرسل، ولا بكتاب منزل ولكنهم حاقدون حاسدون متمردون على الحق إشباعا لأهوائهم، ولذلك ختم الآية بقوله:

﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾
 استدراك فيه بيان لحالهم، وسبب تركهم موالة المؤمنين، فذكر أن كثيرا منهم خارجون متمردون على الحق بسبب ما فى قلوبهم من حقد وحسد، ونرى إنصاف القرآن بينا واضحا إذ لم يرمهم جميعا بالفسوق عن أمره، وقد أكد فسوق الاكثرين بوصفهم بالفسق، وكأنه وصف مستمر لهم، وليس حالا عارضا، اللهم اهدنا فيمن هديت، واشف قلوبنا من الغل والحسد.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بِأَن مِّنْهُمْ
قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

كان ما تقدم من آيات من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ [المائدة: ٥١] في شأن المؤمنين في
معاملتهم لأهل الكتاب، وقد ذكر أحوالهم مع المؤمنين، وخص اليهود بالذكر؛
لأن عداوتهم لأهل الإيمان كانت مستحكمة، وإيذاءهم للمؤمنين كان مستمرا،
ولقد كان القرآن الكريم منصفا للحقيقة كشأنه دائما - عندما فرق بين النصارى من
جانب واليهود والمشركين من جانب، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ
عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾.

فى هذا النص الكرىم يؤكّد سبّحانه وتعالى بالقسم وبنون التوكىد - أن أشدّ الناس عداوة للمؤمنىن اليهود والذىن أشركوا، والخطاب للنبى ﷺ وإذا كان الخطاب له - علىه الصلاة والسلام: فإن كلمة: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾. فىها معنى توكىد العداوة، لأن النبى - علىه السلام - يجدها محسوسة واضع فى المعاملات التى تقع بىنه وبنى اليهود، وبنى وبين المشركىن، وما كان من النصارى معه، وىكون من شدة العداوة، وقرب المودة هو ما كان من معاصرى النبى ﷺ من اليهود والذىن أشركوا، والذىن قالوا إنا نصارى.

وىصح أن ىكون الخطاب لكل أهل القرآن الذىن ىقرءونه وىخطبون بأحكامه وآياته، من الذىن آمنوا، وىلاحظ هنا عدة أمور:

أولها - أنه سبّحانه ذكر اليهود قبل الذىن أشركوا؛ لأن عداوة اليهود منشؤها الحقّد والحسد اللذان قد ىرسخان فى النفس اليهودىة، وهما دائما فىها ما دام اليهود على هذه الحال التى أركسوا أنفسم فىها، وقد عبر عنهم بالوصف، ولم ىقل الذىن هادوا للإشارة إلى أن العداوة حال دائمة مستمرة مستحكمة، حتى أن النبى ﷺ ىقول: «ما خلا ىهودى بمسلم إلا هم بقتله»^(١) ومع أن اليهود أقرب فى الاعتقاد من النصارى؛ تجد النصارى فى الماضى كانوا أقرب، والقرب فى الاعتقاد سببه الشائع بىنهم هو الوحدانىة، أما النصارى فإن الشائع بىنهم هو التثلث ولكن العداوة لا تتبع القرب أو البعد فى الاعتقاد، بل تتبع مقدار الحسد والبغض، وفوق ذلك، فإنه من المقررات فى علم الآراء والمعتقدات أنه كلما تقاربت العقىدتان تنازعتا، وكان التناحر أشد، لطمع كل طائفة فى أن تأخذ الأخرى إليها، وقد عبر

(١) رواه ابن النجار عن أبى هريرة رضى الله عنه. جامع الأحادیث (١٩١٦٤) ج ٦، ص ٣٣٧. وفى كثر العمال - متفرقات الأحادیث (١١٢٥٩) ج ١، ص ٧٦١: ما خلا ىهودى بمسلم قط إلا حدث نفسه بقتله. وفى كشف الحفا (٢٢١٠): - ما خلا ىهودىان بمسلم إلا هما بقتله. رواه الثعلبى وابن مردويه وابن حبان فى الضعفاء عن أبى هريرة مرفوعا. وفى رواية ابن حبان: «ىهودى» و«هم»، بالإفراد.

سبحانه عن المشركين بـ «الذين أشركوا»؛ للإشارة إلى أن الشرك قريب الزوال منهم، وهو السبب، أما اليهود فالسبب هو الحقد وليس قريب الزوال، إذ استكنّ في قلوبهم أن كل مخالف لهم في دينهم عدو لهم يحقدون عليه، ولأنهم كانوا يريدون أن تكون النبوة دائما فيهم لا تخرج عنهم.

الأمر الثاني - أن العداوة مقابلة بالمودة، فالأمر ليس خلافا في الاعتقاد، بل هو المودة أو العداوة فليس لقرب الاعتقاد أو بعده أثر في العداوة، وعلى هذا كان اليهود أشد عداوة من النصارى، والنص يومئ إلى أنهم أكثر عداوة من الذين أشركوا بتقديم اليهود، لأن المودة لم تقطع من كل الوجوه بين النبی عليه السلام والمشركين من قريش، بل إن ما كان يفرقه الاعتقاد يقابله مودة الرحم، وإن كانت حروب.

الأمر الثالث - لماذا عبر عن النصارى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. وقد أجاب عن ذلك بعض المفسرين بأنه تشريف للنصارى، لأن عيسى - عليه السلام - عندما قال: ﴿... مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ...﴾ [١٤] [الصف]. فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. تذكير بهذا الموقف الكريم في مقابل قول اليهود عندما دعاهم موسى إلى دخول الأرض المقدسة فقد قالوا: ﴿... فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [٢٤] [المائدة]. هذا كلام بعض المفسرين ولكن يلاحظ أن الذين قالوا نحن أنصار الله هم الحواريون، والذين كانت بينهم مودة المسلمين ليسوا هم أن أولئك هم الحواريون الذين سلمت عقيدتهم، أما الذين يتحدث عنهم فهم كانوا من أهل التثليث ثم تاب الله تعالى عليهم، ولقد ذكرهم بهذا العنوان: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. في مقام الذم، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ...﴾ [١٤] [المائدة].

ولأجل هذا لا نقول إن التعبير بقالوا إنا النصارى فيه تشريف، إنما هو بيان أن هؤلاء يقولون أنهم نصارى، ولكنهم ليسوا نصارى عيسى - عليه السلام - وإن كانوا من بعد ذلك قد اهتمدوا.



الأمـر الرابع - من هم اليهود الذين هم أشد عداوة، ومن هم النصارى الذين كانوا أقرب مودة؟ قال بعض المفسرين: إن المراد منهم الذين عاصروا النبى ﷺ وقد كانوا كذلك حقاً، ولكن قال ابن جرير: إن الوصف عام، فاختار أن هذا الكلام ينطبق على كل أقوام كانوا بهذه المثابة.

وعندى أن النصارى ليسوا النصارى فى عهد النبى ﷺ فقط، بل كل من ينطبق عليهم وصف المودة فى كل عصر، ومن لا ينطبق عليهم، فهم إلى اليهودية أقرب، وإليها أدنى، وقد قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. فى هذا الكلام بيان السبب، فى قرب المودة الذى كان بين المؤمنين والنصارى فى عهد النبى ﷺ أن توافرت الأسباب، ولم يكن القسس والرهبان دعاة عدا و بغضاء؛ والقسيس هو عالم النصارى بأحكام دينهم، والمتفحص أحوالهم، والمرشد لهم، وأصله من «قَسَّ» بمعنى تتبع، فالقسيس لا يترك الإرشاد، والرهبان جمع راهب كركبان جمع راكب، وتطلق كلمة رهبان على المفرد، كما تطلق على الجمع، وهو الرجل الزاهد المتبتل المنصرف للعبادة فى زعمهم، وهو يقوم بعمل القسيس فى العبادة، بيد أنه يفرد عنه بالانصراف الكلى عن الدنيا ويتخصص للعبادة والإرشاد والتوجيه.

ولا شك أن حال القسيسين والرهبان فى عصر النبى ﷺ كانوا كذلك، وكانوا القائدين للاهتداء بهدى الإسلام، فقد أخذوا بالكثيرين من نصارى الجزيرة العربية، واتبعوا الإسلام، واستمعوا إلى دعوة النبى عليه السلام، وأن هذا النص ينطبق على كل قسيس يدعو بدعاية الحق، ويكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وفى ذلك الكلام تعريض باليهود الذين تركهم أحبارهم وعلمائهم فى غيهم يعمهون، فكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولم ينههم الربانيون والأحبار عما ارتكبوا من جرائم، وما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد.

وهناك مع ما كان القسيسون والرهبان عليه وصف آخر هو السبب في إيمان الكثيرين منهم في الجزيرة العربية، ثم الشام ومصر من بعد ذلك، وهو أنهم: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وقد جعل ذلك سببا قائما بذاته، وأكد سبحانه وتعالى سببته بـ «أن» وبالجملة الإسمية، وعبر سبحانه في خبر الجملة الإسمية بالفعل المضارع لتصوير حالهم في عدم الاستكبار، وأن الاستكبار هو داء اليهود الدوى، وهو داء المشركين فاليهود يحسبون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم من صنف فوق الناس، وأن الجميع دونهم، فذهب بهم غلواؤهم إلى الكفر والضلال، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، والمشركون ما كفروا بما جاء به النبي ﷺ، إلا أنهم رأوا العبيد والفقراء والضعفاء هم الذين يتبعونه، فذهب بهم اعتزازهم بالباطل ألا يتبعوه، وقالوا مقالة قوم نوح له: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ ...﴾ (٢٧) [هود]. ونصارى الجزيرة العربية ومن شاكلهم جانيوا الكبر، فقربوا من الحق، وقد بين سبحانه حالهم في اتباع الحق.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ الرسول هو محمد ﷺ، ما أنزل إليه هو القرآن، وأنهم لإيمانهم بالحق، وإخلاص قلوبهم، واطمئنان نفوسهم إلى الحق وقد طلبوه بمجرد أن سمعوا القرآن فتحت نفوسهم له وكأنهم كانوا يطلبونه، وأولئك طائفة من نصارى الشرق منهم من كان يؤمن بأن عيسى رسول الله وأن الإنجيل بشرٌ بمحمد ﷺ فلما سمعوا القرآن وسمعوا محمداً، وعندهم صفاته فاضت الدموع من عيونهم فرحا به، إذ قد استشرفوا له فوجدوه فكان بردا وسلاما، وقد يكون مع المشاركة من النصارى طائفة من المثليين وهو الظاهر، كانوا يحسون أنهم في ضلال، وظلام متكاثف من الأوهام، فلما رأوا النور تمشوا إليه.

ومعنى قوله: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أن الدمع يتزل من عيونهم فائضا عما تمتلئ به بسبب الحق الذى عرفوه، ومقتضى الكلام أنهم كانوا في حيرة حتى وجدوه، وأثلجت نفوسهم به، وقد قال الزمخشري في

توجيه الكلام من الناحية البلاغية: «معناه تمتلئ عيونهم من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره، حتى يطلع ما فيه من جوانبه فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها أى تسيل من الدمع من أجل البكاء». هذا كلام الزمخشري في التحرير البلاغى لمعنى تفيض أعينهم، وعندى أن الكلام مبالغة فى تأثرهم بدعوة النبى ﷺ واستقامة قلوبهم وعقولهم نحو الحق، وسرورهم به، ومن السرور ما يكون مظهره انبثاق الدموع من العين.

وقد أكد الكلام بأنه لم يعبر عنه بالإخبار، بل عبر عنه بالرؤية المبصرة التى هى أقوى أسباب العلم الحسى، وصور حالهم فى التعبير بالمضارع، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

معناه أن سبب البكاء هو ما عرفوه من الحق، وهذا يدل على أمرين: أولهما: أنه تحقق لديهم ما وجدوه من أوصاف النبى ﷺ. ثانيهما: أنهم كانوا لنفاذ بصائرهم، وعظم مداركهم يحسون بأنهم كانوا فى ضلال، فعرفوا الطريق، وكانوا فى ظلام فاستناروا وكانوا فى حيرة فاطمأنوا.

وإن هذا ينطبق على كل نصرانى طالب للحق، لم يطمس الله على بصيرته.

وبعد أن بين سبحانه حالهم المثرية ذكر قولهم بعد اعتدائهم فقال تعالت كلماته:

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ حكى الله سبحانه وتعالى قولهم وقد اتجهوا فيه إلى الله تعالى معترفين بربوبيته وحده، وأنه على كل شىء قدير، ومقرين بالإيمان الصادق المنبعث من قلوبهم، وطلبوا من الله تعالى أن يكتبهم من الذين شهدوا بالحق، وشهدوا برسالة النبى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ [البقرة].

وكما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾ [الحج].

وهؤلاء الذين آمنوا لا يجدون غربة في أن يؤمنوا إنما الغربة في ألا يؤمنوا، ولذلك حكى الله عنهم قولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ [المائدة].

الاستفهام هنا إنكارى فيه معنى التعجب، وهو إنكار للوقوع، فهو بمعنى نفى أن يحدث منهم عدم الإيمان لأن موجب الإيمان قد وجد، وهو الإيمان لله تعالى جل جلاله، والحق الذى جاء إليهم وخوطفوا به، ولا يوجد أى مانع يمنعهم من الإيمان، فالسبب قد تحقق ولا مانع، والاستفهام بمعنى النفى، وهو داخل على نفى، ونفى النفى إثبات، فمعناه إصرار على الإيمان، وقوله تعالى: لا تؤمن بالله، حال مما دخل عليه النفى، وصاحب الحال هو: «نا».

والكلام يومئ إلى أنه كان هناك اعتراض، وكان كلامهم للرد على هذا الاعتراض، والتاريخ يثبت أنه كان اعتراض على من آمنوا من هؤلاء النصارى، والمنطق النفسى للجماعات فى قديمها وحديثها أن تستنكر من يغير دينه إلى دين الحق الذى ارتأه، وهؤلاء من الذى قال تعالى فيهم: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ...﴾ ﴿١٩٩﴾ [آل عمران]. وقال فيهم سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴿٥٣﴾ [القصص]، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴿٥٥﴾ [القصص].

وإن إيمانهم هذا وإذعانهم للحق في وسط إنكارهم لم يجعلهم يجزمون بالجزاء في الآخرة، بل كانوا حقاً كصادقى الإيمان يطمعون لا في الجزاء وحده بل يطمعون في أن يكونوا مع أهل الإيمان الذين يجمعهم الصلاح في الأعمال، ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلْنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾. فهم لقوة إيمانهم يستصغرون ما غمّلوا، ويطمعون في أن يدخلهم ربهم الذى خلقهم وأنماهم، وكفلهم برحمته وعنايته أن يدخلوا في ضمن الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم، وهم قوم الله وحزبه، وهم الصالحون المصلحون، والمؤمن المخلص يستقل عمله بجوار أنعم الله تعالى عليه، فهو لا يستكثر بتقواه، ولا يمتن بعبادته، وليس حالهم كحال الذين يمتنون على الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات] (١٧)

ولقد كان ما أعدّه الله تعالى أكثر مما طمعوا، وإذ أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ولذا قال تعالى: ﴿فَتَأْتِيهِمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فى هذا النص الكريم إجابتهم إلى ما طلبوا، وهو إجابة الله العزيز الكريم، وهو أكبر مما طلبوا، لقد كانوا يطمعون أن يكونوا من القوم الصالحين وأن يكتبوا مع الشاهدين، فأجابهم بالجزاء الأوفى وهو ما أعد الله تعالى لعباده المتقين، كانوا يطمعون ويرجون، فسمى سبحانه ما أعطاهم جزاء وفاقاً، وكانوا يطلبون أن يكونوا مع الصالحين، فسماهم الله تعالى محسنين، أى مجيدين متقين مخلصين.

فكان الجواب هو جواب الحكيم الكريم الذى يقول تعالت كلماته: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن]. والثواب الرجوع بالشئ إلى حالته الأولى، وكان ثواب العمل من قبيل الرجوع إلى أصل العمل، أى أن ما ينالهم من جنات النعيم، أى من المقام الذى ينعمون، وإنما عاد إليهم من أعمالهم،

وذلك كرم من الله تعالى إذ جعل جزاءهم من العمل ذاته، وهو ذو الفضل العظيم، وذلك هو الجزاء لمن يحسن.

وجعل سبحانه وتعالى الثواب على القول؛ لأنه يدل على الإخلاص، وعلى الإيمان الصادق، والعمل الطيب، فالجزاء على هذا كله الذى دل عليه القول الطيب.

هذا جزاء أولئك الذين آمنوا وصدقوا الله تعالى، أما جزاء الذين كفروا وجحدوا فهو ما ذكر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ذكر سبحانه وتعالى جزاء الذين استمروا على كفرهم فى مقابل جزاء الذين آمنوا وطمعوا فى رحمة الله تعالى، وأدركوا الحق فأذعنوا له، وكان جزاء الكافرين أنهم صاروا أصحاب الجحيم، أى الملازمين لها الذين لا يفارقونها، والجحيم هى النار المتأججة التى لا تطفى، وقد استحق ذلك العقاب بسببين:

أولهما - كفرهم وجحودهم بالحقائق الثابتة التى جاءتهم والتى تدركها العقول السليمة، فهم قد استحقوه بكفرهم بها مع أن النفس السليمة تدعن لها من غير تردد، لأنها هى التى تتفق مع العقل والفطرة المستقيمة.

الثانى - أنهم كذبوا بآيات الله تعالى أى الأدلة والمعجزات التى ساقها رب العالمين لتأييد النبى المرسل الذى أرسل إليهم، فهم لم يؤمنوا بهذه المعجزات، ولم يصدقوها.

فكانوا حائرين باثرين، إذ لم يدركوا الحق فى ذاته وهو متفق مع العقل المستقيم، ولم يتقبلوا الأدلة القاطعة التى سبقت إليهم للدلالة على الحق الذى لم يدركوه.

وهذان السببان هما اللذان من أجلهما كان العقاب، ولذلك عبر بالموصول الذى يدل على أن الصلة هى سبب الحكم، وعبر بالإشارة، وهى تدل على أن المشار إليه هو سبب الحكم.

وكلمة الذين كفروا تشمل من كانوا من أهل الكتاب ومن كانوا من غيرهم لأن السبب في ذلك الجزاء الاليم يتحقق في النوعين: إذ كلاهما كفر بالحق لما جاءه، وكلاهما كذب آيات الله تعالى التى ساقها للدلالة على رسالة الرسول، وحيث تحقق السبب تحقق المسبب لا محالة، وهو العذاب الاليم الدائم.

هدانا الله إلى الحق، وإلى صراط الله العزيز الحميد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِالْغُفْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَرْتُمْ، إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

اعتبر القرآن الذين قالوا إنا نصارى أقرب مودة للذين آمنوا، وزاد أن السبب في ذلك أن فيهم قسيسين ورهبانا، وذكر في نص آخر أن فيهم رافة ورهبانية ابتدعوها، والرهبانية تقتضى التقشف والحرمان من أكثر طيبات الحياة، والإسلام لم يأت بهذا، بل جاء شريعة وسطا بين المادية الشرسة العنيفة، والروحانية

المتخلصة من حاجات الجسم تخلصا، بل الإسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث، ولم يقرر أن تعذيب الجسم من القربات، وقرر أن المشقات تحتل إذا كان من الممكن الاستمرار عليها، ولذلك جاء النص الكريم بإباحة الطيبات بعد الإشارة إلى الرهبانية فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ النداء موجه للذين آمنوا بوصف أنهم مؤمنون، أى أنه ليس من الإيمان أن تحرموا الطيبات التى أحلها الله تعالى من لحم طرى، وسمك شهى، وشراب سائغ، وزوجات هن زهرات هذا الوجود، فالطيبات هى المشتبهات الحلال، التى تستطيرها النفس ولا تمجها، فإنها بناء الجسم ومصدر قوته على الجهاد، وتطلق الطيبات على ما كان طريق كسبها حلالا لا خبث فيه، وكلمة (ما أحل الله لكم) إشارة إلى أن الله تعالى أحلها، فتحريمها معاندة لله، ويدخل فاعل ذلك ضمن من يشملهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ...﴾ [النحل].

ومعنى تحريمها أن يأخذوا على أنفسهم ميثاقا ألا يتناولوها، فليس التحريم فى معنى الترك المجرد، فقد يتركها؛ لأنه لا يستسيغها، أو يتركها لمرض، أو يتركها عفوا من غير سبب، أما تركها بعهد يعهده وميثاق يأخذ نفسه به فهذا هو التحريم.

وروى فى سبب نزول هذه الآية حديث نبوى شريف نذكره مع طوله نسبيا لأنه يبين معنى هذه الشريعة السمحة.

روى أن رسول الله ﷺ جلس يوما فذكر الناس ووصف القيامة، فرق الناس، وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة - رضى الله تعالى عنهم أجمعين - فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى، وهم على - أكرم الله وجهه -، وأبو بكر - رضى الله عنه - وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة وعبد الله بن عمر والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى، ومعقل بن مقرن،

وصاحب البيت واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك، ولا يقربوا النساء والطيب ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، وسيحوا في الأرض، وهمَّ بعضهم أن يجبَ مذاكيره، فبلغ رسول الله ﷺ فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه، فقال لامرأته أم حكيم: أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه، فكرهت أن تنكر، إذ سألتها، وكرهت أن تبدى على زوجها، فقالت: يا رسول الله إن كان قد بلغك عثمان فقد صدقتك، وانصرف رسول الله ﷺ فلما دخل عثمان أخبرته بذلك، فأتى رسول الله ﷺ هو وأصحابه فقال عليه الصلاة والسلام أنبئت أنكم اتفقتُم على كذا وكذا!!!! قال: نعم يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير، فقال رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وأكل اللحم والدسم، وآتى النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» ثم جمع الناس وخطبهم فقال: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إنني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع، وأن سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد، عابدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجوا واعتمرُوا وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع»^(١) وإن هذا الحديث يدل على أمرين:

أحدهما - أن التشدد في الدين يعجز صاحبه عن الاستمرار عليه، ولو كان الناس جميعاً رهباناً، يزهدون فماذا يكون المآل أتبقي الدنيا أم تنتهي إلى الانقراض.

الثاني - أن هذا الدين هو دين الحياة لا يقطع العابد عن الحياة، ولكن يجعله يعيش عاملاً فيها غير منقطع عنها، وأن التفاضل بين المؤمنين باستقامة النفس،

(١) رواه أبو داود: الحسد (٤٩٠٤) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وسلامة العبادة، وكثرة النفع للناس، كما قال عليه السلام: «خير الناس أنفعهم للناس»^(١) ولقد قال فى هذا المعنى الحسن البصرى واعظ العراق: إن الله تعالى أدب عباده فأحسن أديهم قال الله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ...﴾ [٧] [الطلاق].

ما عاب الله قوما وسع عليهم الدنيا، فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه، وإن شرط إباحة الحلال، ومنع تحريمه ألا يكون ثمة اعتداء، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والاعتداء له شعبتان إحداهما - تكون بالإسراف فى البذخ، والتعالى والتفاخر فإن ذلك يؤدى إلى استيلاء الشهوات على نفسه، وذلك يؤدى إلى الضلال إذ يكون عبد شهوته، وتنمى إرداته، ولذلك قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف] وقد قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا فى غير سرف ومخيلة»^(٢).

والشعبة الثانية - أن ينحرف فيعتدى على حقوق الناس ويتناول المحرم، ويتجاوز ما شرعه الله تعالى إلى ما لم يشرعه.

وإن هذا النص كان سلبيا بمنع أن يحرّموا على أنفسهم، والنص الثانى إيجابى.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ الأمر هنا للإباحة، وقال بعضهم: إنه للندب، وبعض يرى أنه واجب على المؤمن ألا يترك أمرا أباحه الله تعالى تركا مطلقا، ولا يكن قد حرم ذلك على نفسه، والتحريم

(١) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير فى من لا يالّف، وخير الناس أنفعهم للناس» [رواه القضاعى فى مسند الشهاب (١٢٩) ج ١، ص ١٠٨].

(٢) سبق تخريجه.

منهى عنه بقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. والرأى عندى أن يكون الأمر للإباحة المستحسنة؛ لأن النبى - عليه الصلاة والسلام - يقول: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(١) وقد زكى سبحانه وتعالى الطلب الإباحى أو الندبى بأمور أربعة:

أولها - أنه جعله مما رزقه الله سبحانه وتعالى؛ وأن الله لا يرزق إلا ما يكون فى تناوله خيراً، ولقد كان بعض التابعين يحرم على نفسه السفالودج، فرد الحسن ذلك بأن الله تعالى رزقه إذ قال رضى الله تبارك وتعالى عنه: «لعاب النحل بلباب البر مع سمن البقر هل يعييه مسلم».

الأمر الثانى - أن الله وصفه بأن يكون حلالاً قد أحله الله تعالى ولم يحرمه، فإن إحلال الله تعالى نوع من ضيافته سبحانه وتعالى على رزقه، وأنى يسوغ لمؤمن أن يرفض ضيافة الله سبحانه وتعالى، فإذا رزقك الله ثوباً حسناً وأباحه لك؛ لأنه كسب طيب لا خبث فيه، فاعلم أنه هدية الله تعالى أهداها إليك فإن اخترت خشن الثياب بدلاً منه فقد رفضت هدية الله تعالى، وقد روى أن النبى ﷺ نهى عن الكبر، وذكر أنه لا يدخل الجنة متكبر، فقال بعض الصحابة: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فهل هذا من التكبر، فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٢).

الأمر الثالث - أن الله تعالى وصف الرزق بأن يكون طيباً، والطيب يشمل وصفين أحدهما - أن يكون طريق كسبه طيباً، لا خبث فيه، فقد يكون الشيء فى

(١) رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند أبى هريرة (٨٠٥٤)، كما رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص: الأدب - ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى نعمته على عبده (٢٨١٩).

(٢) رواه مسلم: تحريم الكبر وبيان (٩١) عن ابن مسعود رضى الله عنه. ويطر الحق: دفعه وإنكاره. والغمط: الاحتقار والتعالي.

ذاته لم يحرمه الله تعالى، ولم يمنع استعماله، ولكن طريق الحصول عليه كان خبيثاً، فالمال الذى اشتراه به كان كسبه خبيثاً، كأن يكون من ربا أو سحت أو نحو ذلك من أسباب الكسب الخبيث، والوصف الثانى - الذى تشمله كلمة الطيب أن يكون مرغوباً فيه، فإن كان طعاماً يكون بحيث لا تعافه نفس المتناول، فإن كان كذلك لا يطلب منه أكله؛ لأن ما تأكله وأنت تشتهيهِ فقد أكلته، وماتأكله وأنت لا تشتهيهِ فقد أكلك.

الأمر الرابع - هو أمره سبحانه وتعالى بتقوى الله تعالى، وقد زكى طلب التقوى بارتباطه بالإيمان بالله تعالى إذ قال تعالى كلماته: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. وجه التزكية ذكر لفظ الجلالة الذى يربى المهابة بالقلوب، وبيان أن الإيمان يقتضى التقوى، وأكد الإيمان بالله بالجملة الاسمية.

والتقوى أن يلاحظ الشخص حق الله تعالى وحق الناس فيما يتناوله من طيبات، وألا يدفعه ذلك إلى الغرور والتعالى، والتفاخر والاستطالة على الناس، وألا يدفعه طلب الحلال إلى نسيان الحمد والشكر، فى كل ما يتناوله، ويناله، وأن يقوم بحق الله تعالى، وحق الناس، وأن ينعم بالنعمة، ويصبر إذا أزالها، ويكون من المتقين الصابرين المذكورين فى قوله تعالى: ﴿وَلَنُؤْذِقَنَّ الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَرْعَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ عَصِيٌّ﴾ وَلَنُؤْذِقَنَّ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَةٍ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ [هود].

فالنعم تحتاج إلى صبر، وإعطائها حقها من الشكر، والنقم تحتاج إلى

صبر.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ كان الذين يحرمون على أنفسهم ما أحله الله تعالى يتخذون الأيمان ذريعة لذلك، فيحلفون ألا يأكلوا أو ألا يأتوا النساء، أو أن يقوموا الليل ويحرموا أنفسهم من متعة النوم وهكذا، فبين الله تعالى فى هذه الآية تحلة هذه الأيمان، وأنه يجب

عليهم، أو يسوغ لهم الحنث في هذه الأيمان، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من حلف على شيء فرأى خيراً منه فليحنث وليكفر»^(١).

اللغو هو من لغا العصفور وهو صوته، أطلق على كلام من لا يعتد به ولا يلتفت إليه، كما قال تعالى في أوصاف المؤمنين: ﴿... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۚ﴾ [الفرقان] ﴿٧٦﴾... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان].

ولغو اليمين الذي لا مؤاخذه عليه بنص القرآن قال بعض الفقهاء ومنهم الشافعي: أنه ما لا يقصد به الحلف، بل يجيء في مجرى الكلام، مثل لا والله بلى والله، وروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها، ويزكى ذلك التفسير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾ [البقرة] ﴿٢٢٥﴾.

والذي يقابل ما كسبت القلوب هو ما لا تكسبه القلوب، وقال الحنفية: هو أن يحلف على شيء مضى على أنه كما قال ثم يتبين أنه غيره، فعلى حسب اعتقاده لا يكون عليه شيء، وهذا التفسير مأثور عن مجاهد رضى الله عنه، وعلى ذلك تكون المعقدة مقابلة للغو.

وظاهر الآية الكريمة أن معقدة الإيمان هي الحلف على الامتناع عن فعل في المستقبل أو الإصرار على فعل؛ لأن ذلك هو الذي يسير مع السياق من التحريم على النفس، وأصلها من العقد، وهو في الحسيات جمع أطراف الشيء، وفي المعنويات جمع أطراف الكلام، وصيغة التفعيل تدل على توثيق الكلام وتأكيده وقرئ بالتخفيف^(٢)، وهى فى معنى التضعيف.

والذى يظهر لنا وسط اختلاف الفقهاء فى التفسير أن اللغو ما لا يقصد به اليمين، وما لا تكسبه القلوب، ولا يؤثّق به الكلام بالامتناع، عن الفعل، أو

(١) سبق تخريجه.

(٢) ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ بالتخفيف، قرأ بها عاصم (غير حفص والمفضل)، وحمزة، والكسائي، وخلف. وقرأ ابن ذكوان بالالف ﴿عاقدتكم﴾. وقرأ الباقون بالتشديد. غاية الاختصار - برقم (٨١٣).

توكيد إيقاع الفعل فى المستقبل، لا مؤاخذه عليه، إنما المؤاخذه على ما تكسبه القلوب إذا حثت فى يمينه فعدل عما اعتزم، كمن يعدل عن تحریم ما أحل الله، ولذا قال سبحانه:

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ الكفارة من الكفر وهو الستر، فالكفارة ستر الخطيئة وستر الخطيئة عند الله تعالى إزالة أثر الاعتداء، والضمير يعود على الحث المقدر فى القول، فكفارته أى كفارة خبثه، ولا مانع من أن يعود على الحالف إذا حث، ويظهر لنا ذلك؛ لأن التكفير يكون عن الشخص، ولا يكون على اليمين، ولا على الحث فيه إلا على اعتبار أنه محو لسيئة الحالف فى الحث، وعدم البر بيمينه.

وقد خير الحالف إذا حث بين أمور ثلاثة يختار إحداها، وهو سيختار الأيسر عليه اقتداء بالنبي ﷺ إذ قالت عائشة فى أخلاق النبي ﷺ: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»^(١) فالواجب هو واجب مميز بين ثلاثة وليس واحداً منهم بأولى من الباقين إلا أن يكون أيسرهما عليه، فإن كان من تجار الأقمشة كانت الثياب أيسر عليه.

والأمر الأول المميز فيه الطعام، وقد عبر سبحانه بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، فما المراد بالأوسط، وما نوع الواجب أهو الإطعام بالفعل؟ أم يشمل التملك الذى يكون به الإطعام، وهل العدد مقصود لذاته، أى لا بد أن يكون المطعمون عشرة لا يتقصون؟.

أما كلمة أوسط، ففيها رأيان: أحدهما - رأى كثيرين من المتقدمين.

أن المراد أمثل ما يطعمون به أهليهم، لأن الأوسط فى كثير من الاستعمالات هو الأمثل، قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم].

(١) متفق عليه؛ رواه مسلم: الفضائل - مباحثته ﷺ للأثم واختياره (٣٣٢٧)، والبخاري بنحوه وفيه زيادة: الحدود - إقامة الحدود (٦٧٨٦).

أى قال أمثلهم فكرا ونظرا، ويزكى هذا أن إطعام عشرة مساكين يقابل بالكسوة وعتق الرقبة، ولا يتصور المقاربة إلا إذا كان أمثل الطعام لديهم، ومؤدى ذلك التصوير أن يكون أولئك الفقراء فى ضيافة من حنث فى يمينه، يستضيفهم؛ لأن رب البيت يقدم لضيفة أمثل ما يستطيعه من طعام.

وقال آخرون: إن الأوسط هو المتوسط الذى يعد المتوسط فى طعامه، فليس هو أقل ما يأكله أهله ولا أكثر بل يكون بين ذلك قواما، وقد اختار هذا رأى ابن جرير، والأكثر من الفقهاء.

وإن الإطعام يكون بالتمكين من ذلك، وهو الأصل، وخصوصا عند من يفسر الأمثل بالأوسط، وفى هذه الحال يقدم لهم وجبتين من الطعام ليستطيعوا الاعتماد عليها طول اليوم، وإذا لم يكن الإطعام متيسرا، ملكهم من أنواع القوت ما يقابل ذلك؛ والأكثر على أنه يقدم نصف صاع من بر، واختلافهم فى مقدار الصاع، لا فى أصل التقدير.

والأكثر من الفقهاء على أنه لا بد من إطعام عشرة، وقال الحنفية: إذا أطعم واحدا عشر مرات يغنى عن إطعام العشر؛ لأن القصد إمداد الفقراء بحاجات تغنيهم، وليست العبرة بمغايرة الأشخاص ولا بالعدد فى ذاته، والكسوة يلاحظ فيها أن تكون سابعة فى الجملة، ولقد قال مالك وأحمد: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه رجلا كان أو امرأة كل بحسبه.

وعندى أنه يترك تقدير الكسوة إلى ما يليق بالمعطى مع ملاحظة أن يكون سابغا.

والرقبة أيشترط فيها أن تكون مؤمنة؟ لقد ورد عتق الرقبة موصوفا بأن تكون مؤمنة فى كفارة القتل خطأ، فالأكثر من الفقهاء جعلوه وصفا فى كل تكليف بعتق الرقبة؛ لأنه قد اتحد الموضوع، واتحد الموضوع يكفى فى حمل المطلق على المقيد، ولأن المعنى فيه تحرير رقاب المؤمنين، ولأن الصدقات تكون للمؤمنين، وقال الحنفية: لا يحمل المطلق على المقيد إلا إذا اتحد الموضوع والسبب، وعتق

الرقاب في ذاته قربة إلى الله تعالى، والرأى عندي أنه لا يعتق غير مؤمنة إذا كان يملك مؤمنة.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ الفاء هنا تفصح عن شرط مقدر، والمعنى إذا لم يكن عنده ويريد أن يحنث ولم يجد فصيامه ثلاثة أيام، وثلاثة الأيام يصومها تطهيرا لنفسه، ولتقوى إرادته، وتشد عزيمته، فالصوم طهرة للنفس، ويزكى العزيمة الصادقة والتجرد الروحي، ولكن أيشترط أن تكون الأيام الثلاثة متتابعة، قال كثيرون: لا يشترط أن تكون متتابعة؛ لأن النص لم يشترط ذلك، ولأن التيسير يتحقق بعدم شرط التتابع، والنبي عليه السلام، يقول «يسروا ولا تعسروا»^(١)، وقال أبو حنيفة رضى الله عنه: إن التتابع شرط؛ وذلك لأنه لا يمكن تحقق أنها ثلاثة أيام إلا متتابعة، ولا يتصور أن يكون قد كفر عن يمينه إذا كان يصوم في كل عام يوما، ولأن ذلك رأى كثير من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود. ونحن نختار ذلك الرأى، وقبل أن ننتهى من الكفارة لا بد من أن نتعرض لأمرين:

أولهما - أيسبق الحنث الكفارة ولا كفارة إلا بعد الحنث أم تجوز الكفارة قبل الحنث؟ قال الأكثرون بالأول لأن السبب هو الحنث، وما دام لم يتحقق فإنه لا كفارة، وقال آخرون: يجوز أن تسبق الكفارة عند نية الحنث، وتقوم النية مقام الحنث بالفعل.

ثانيهما - إذا حلف على شيء فرأى خيرا منها يجب عليه أن يحنث قال الظاهرية ذلك لقول النبي ﷺ «من حلف على يمين فرأى خيرا منه فليحنث وليكفر»^(٢) وقال غيرهم: لا يجب، ونحن نرى أن يوازن بين مقدار الضرر الذى سترتب على الاستمرار، والخير الذى يجلبه الحنث، فإن رجح الثانى وجب الحنث.

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: العلم - ما كان النبي ﷺ يتخولهم (٦٩)، ومسلم بلفظ: «وسكنوا

ولا تنفروا»: الجهاد والسير - الأمر بالتيسير وترك التفسير (١٧٣٤).

(٢) سبق تخريجه.

﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك الذى تقدم هو سائر أيمانكم أى ماحى إثمها شرعه الله تعالى لكم رجاء أن تشكروه إذ خفف عليكم وسهل لكم فعل الخير إذا امتنعتم عنه ووثقتموه بيمين، فسهل لكم سبيل الخروج بكفارة سهلة ميسرة، فقلوه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ متصل بقوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، فسهل لكم الحث بذلك التفكير السهل.

وحفظ الأيمان يتحقق بالآى أكثر منها، ولا يكون مهينا ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم] وألا يمتنع عن الخير بالحلف، فلا يجعل الله تعالى عرضة ليمينه، وأن يصون يمينه فلا يحلف إلا لإرادة الخير، والله هو المستعان.

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

بين سبحانه أنه لا يصح تحريم الحلال، وطالب بتناوله، وأنه ليس من الإسلام تعذيب الجسم في سبيل تطهير الروح، بل إن الروح القوى لا يكون إلا في الجسم السليم الذي يستوفى حاجة الحياة الطيبة التي لا إثم فيها، وإن المحللات لا تخصى عددا، والمحرمات من الأطعمة تخصى، وهى محصورة.

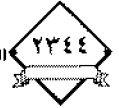
والمحرمات تكون لأحد أمرين إما لخبث فى ذاتها، كالخمر والخنزير والميتة، وإما لاقترانها بما يمس العقيدة، مما يدعو إلى الإشراك، ومن الأشياء ما تكون محرمة لأن الفعل الذى قارنها كان محرما، كالذى يكسب بالميسر، فيحرم سدا للذريعة، وقد ذكر سبحانه بعض المحرمات من الصنفين، فقال تعالت كلماته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الخمر بمعنى المصدر هو الستر، ولذلك يقال لما يستر به الرأس عند النساء خمار، والخمر بمعنى الاسم ما يخمر العقل ويستره، ويمتنعه من التقدير الصحيح، والفقهاء اختلفوا فى تعريف الخمر الذى جاء فى القرآن تحريمها بالنص، فقال بعضهم: إنها ما يتحقق فيها المعنى اللغوى الأصيل، فهى تكون لكل مسكر يخمر العقل ويستره، وبعض الفقهاء قال: إنها اسم المسكر المتخذ من ماء العنب والتمر لما روى عن النبى ﷺ «الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب»^(١) وقال بعض الفقهاء إنها لا تكون للمطبوخ، بل تكون للنبيء.

وقال الحنفية: إن الخمر المذكور تحريمها بالنص فى القرآن الكريم هى النبيء من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، فهذه هى الخمر الذى جاء بتحريمها النص القرآنى.

وما جاء من الأشربة المحرمة، فقد ثبت تحريمها بالقياس؛ لأنها تشترك مع الخمر المحرمة بالنص فى علة التحريم، وهى الإسكار فيحرمت لإسكارها لا لورود النص بها.

(١) رواه مسلم: الأشربة، والترمذى: الأشربة - ما جاء فى الجبوب التي يتخذ منها الخمر (١٨٧٥).
كما رواه النسائي، وأبو داود، وابن ماجه وأحمد.



هذه هي الخمر الواردة في القرآن وكلام الناس فيها، والميسر هو القمار، وهو يشمل كل كسب بطريق الحظ المبني على المصادفة من كل الوجوه، وهو يكون للعب على المال: فالنرد على مال للكسب قمار، والشطرنج على المال قمار، وهكذا، وتحريم الميسر لذات الفعل، فالفعل في ذاته حرام، والكسب عن طريقه حرام؛ لأنه سحت، وأكل مال الناس بالباطل.

والأنصاب تطلق عند عرب الجاهلية بإطلاقين: أحدهما - نصب من الحجارة كانت تعبد، أو تقدس.

والإطلاق الثاني: حجارة مقدسة كانت تخصص للذبح تقرباً للأصنام.

والأزلام جمع زلم، وهي السهام التي كانوا يتقاسمون بها الجزور أو البقرة إذا ذبحت، فسهم عليه واحد، وسهم اثنان وهكذا إلى عشرة، وقد حرم القرآن القسمة بذلك لأنها من الميسر.

وقد جمعت هذه الأمور كلها مع تحريم الخمر؛ لأنها متجهة جميعها إلى الخبائث، فالخمر ومعها الميسر كانا مقترنين في التحريم؛ لأنهما عادة كانا مقترنين في الواقع، فيندر أن يلعب الميسر من لا يشرب الخمر، وشارب الخمر المدمن عليها يمتد به الإثم، حتى يتناول الميسر أيضاً.

والأزلام كانت تتخذ لقسمة الذبائح بالميسر، فيسحب الشخص الزلم، ويكون له من اللحم بمقدار ما يعلمه السهم، فإن كان واحداً أخذه، وإن أكثر أخذه بمقدار ما يعلمه.

والنصب جمعت مع هذه؛ لأنها أصنام وهي الأصل فساد في العقيدة، أو لأنها مقدسة لا تؤكل الذبيحة إلا إذا ذبحت عليها، فكان جمعها مع الخمر والميسر لصلتها بالميسر، ولأنها نوع من تحريم ما أحل الله تعالى لغير سبب معقول لا من الشرع ولا من العقل، فهي ذات صلة وثيقة بالآية التي قبلها.

وكان جمع هذه الأشياء مع ما سبق لأن لها مصدراً من الطبع واحداً، وحكما من الشرع واحداً، وهو أنها رجس، ومن عمل الشيطان، والرجس كل ما استقذر،

وهو يطلق أولا على الأشياء القذرة التى تعافها ولا تستطيعها النفس أو أن عواقبها وبيئة، وتطلق بالإطلاق الثانى على الأعمال السيئة التى لا يقبلها العقلاء، ولا مبرر لها عند أهل البصر والإدراك، والخمر مستقذرة فى ذاتها لأن النفس لا تستطيعها شرابا، ولولا العادة ما تعودها الناس لعدم مساغها، ونتيجتها مستقذرة لأنها تفقد الشخص الإدراك، يكون قذر العمل، يأتى بما لا يستحسنه العقلاء، وهى مستقذرة؛ لأنها ضارة بالجسم أبلغ الضرر وأشدّه، فهى تفسد الكبد، وتضلّ العقل، ولقد حرّمها بعض الجاهلين على نفسه، ولما قدمت له قال: (لا أتناول ضلالى بنفسى) وهى تشير النزوات والشهوات، ويروى أن أعرابية جاءت إلى مكة، فأسقيت الخمر، فلما ثملت قالت: أنساؤكم يشربن الخمر، فلما قيل لها: نعم. قالت: إن نساءكم لزوان.

والخمر أم الخبائث؛ لأنها تسهل كل الخبائث، فما من شر يريد أن يقدم عليه الشخص، ويتردد فى ارتكابه إلا سهلته الخمر، فهى تميمت النفس اللوامة، أو على الأقل تضعف صوتها، وتخدر الوجدان، وهو الإحساس بما فى العمل الذى يعمل من خطر، ومن أجل ذلك كله حرمت.

ولا يقال إنها حرمت للإسكار فقط، حتى لا يزعم ناس أنها حلال له؛ لأنه لم يسكر، فذلك قول باطل أولا - لأن النص قاطع فى التحريم، وكل اجتهاد مع النص اجتهاد فاسد، وثانيا - لأن كون الشيء مسكرا لا ينظر فيه إلى الجزئيات بل النظر فيه إلى شأنه، ولا تخرم القاعدة الكلية بشذوذ جزئى. وثالثا - لأنها تميمت الضمير والوجدان أو تخفت الصوت اللائم، وتذهب بالحياء وهو عصام الأخلاق والمجتمع السليم.

والميسر مستقذر؛ لأنه يؤدى إلى الشحناء وأكل أموال الناس بالباطل، واتخاذ الأنصاب مستقذر لأنه لا يتفق مع العقل ولا يدعو إليه الفكر المستقيم، وهو من ضلال العقول وفساد النفوس، والأرلام لون من ألوان الميسر، وشكل من أشكاله، وهو قذر بكل صورته، وبكل أشكاله.

وإذا كان ذلك كله رجسا، فلماذا يتناوله العقلاء؟ فأجيب بأنه من عمل الشيطان الذى يحسن القبيح، ويقبح الحسن.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الضمير فى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يعود على كلمة رجس، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر، وتقدير الكلام هكذا: إذا كان تناول هذه الأشياء، رجسا ومن عمل الشيطان، فاجتنبوه لتنالوا الفوز والفلاح أو لترجوا الفوز والفلاح، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى لترجو الفوز والفلاح، فلا فوز لقوم يضلون عقولهم بأنفسهم، ويفرون من واجباتهم بالخمر يشربونها، وبالموبيقات يتسلون بها ويأضلال عقولهم وضياع تفكيرهم.

و«اجتنبوه» معناها اجعلوه فى جانب وأنتم فى جانب، وهو أقوى من «لا تشربوها» فى الدلالة على التحريم؛ لأن «اجتنبوها» لا تدل فقط على تحريم الشرب، بل تدل على تحريم الشرب مع جعلها فى جانب، وابتعاد، وهى تتضمن النهى عن الشرب، ومجالسة الشاربين، لأن مجالسة الشاربين لا يتحقق فيها الأمر بالاجتناب، بل إن الاجتناب يتضمن النهى من المرور على الحانات أو غشيانها.

وقد زكى التحريم للخمر والميسر بأمرين باقترانهما باتخاذ الأنصاب والأزلام، ووصف الجميع بالقذارة الحسية المعنوية، وثانى الأمرين ببيان بعض الآثار من إلقاء العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

البغضاء: البغض الشديد، وهو يقطع الصلات، ويشير الأحقاد، ويجعل الناس قلوبهم شتى، وإذا أعلنت البغضاء كانت العداوة المستحكمة، والمناذرة والشحناء، فالعداوة أخص من البغضاء، لأنها بغضاء معلنة متناذرة، أما البغضاء المجردة فتكون مستكنة لا تظهر، وإن كانت آثارها عنيفة مثيرة للنفور مربية للأحقاد والأضغان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ فيه قصر، أى قصر إرادة الشيطان فى الخمر والميسر على إثارة العداوة والبغضاء وإلقائهما فى الأنفس، والعلاقات الاجتماعية بين الناس بعضهم مع بعض، وهذا يفيد أمرين: أولهما - أن الخمر والميسر لا يدفع إليهما عقل مدرك مدبر، ولكن يدفع إليهما شهوة نفسية جامحة هى من تحريكات النفس الأمارة بالسوء.

وثانيهما - أنه يترتب عليهما الفرقة المادية بين الناس بالعداوة التى تقام بينهم، وبالبغضاء التى تولد فيهم الإحن المستمرة.

وليست العداوة والبغضاء هما فقط عمل الشيطان، بل له عمل آخر أشد وهو أنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وفى الواقع أن كلا الأمرين متلازمان، فحيث كان الصد أى الإبعاد عن ذكر الله وعن الصلاة، كان إلقاء العداوة والبغضاء فى القلوب؛ لأنه إذا وجد الإعراض عن ذكر الله وعن الصلاة كانت الأنانية، ولا شئ يقطع ما بين الناس، ويشير العداوة والبغضاء أكثر من الأثرة ومجانبة الإيثار.

فالخمر والميسر تناولهما يؤدى إلى أمرين أولهما - العداوة والبغضاء، وثانيهما - الصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، أما أداؤها إلى العداوة؛ فلأن الخمر إذا شربت غاب العقل الظاهر، وظهر العقل الباطن، وكشف السكران كل مستور، وبين كل ما فى الأنفس، وانطلقت الألسنة، بما لا يصح الكشف عنه، وقد يبادله الآخر مثل قوله فتكون الشحنة، وتكشف الأستار، وينبش القبور من الأمور، ووراءه تولد الإحن ونزول المحن، وإن الرجل ليكون كائناً لنفسه لا يتكلم، فإذا سكر انطلق لسانه بكل شئ، وقد يفترى على الحرائر، ويكشف ما فى السرائر، وتنزل بالجماعة المحن.

وأما الميسر فإنه يولد حقد القلوب، وإحساس كل بأن الآخر له متريص ومتحفز، ولأمواله طالب متوثب، وهذه الأمور بارزة للعيان غير محتاجة إلى بيان.



وأما صدهما عن ذكر الله تعالى فلأن الخمر تميمت النفس اللوامة، وتخدر الوجدان، وتربط الإنسان بأعلاق الأرض وتكون النفس الأمارة بالسوء، وتوجد في النفس انشراحاً وهمياً، وسروراً كاذباً، تجعله في لهو، واللهو وذكر الله نقيضان لا يجتمعان، وكل لهو باطل إلا ما يكون تمهيداً للاستجابة لأمر الله تعالى ونهيه؛ وما يصد عن ذكر الله تعالى يصد عن الصلاة؛ لأنها ذكر لله تعالى، واستحضار لعظمته تعالت قدرته.

والميسر لا يشغل عن الله وعن الصلاة فقط، بل يشغله عن أهله وعن أولاده، وعن عمله الذي يكتسب منه، بل عن ثيابه التي يكسو نفسه بها فهو غمرة طاغية لا يتقذه منها إلا إطاعته أمر الله تعالى ونهيه.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، مؤاده إذا كنتم قد علمتم ما في الخمر والميسر من مضار وصوارف عن الله تعالى. وما يؤديان إليه من شحناء وبغضاء، وما يفسدان به الجماعات أفأنتم بعد ذلك منتهون عنهما تاركون لهما أم أنكم ما زلتم في غيكم تعمهون، سادرين عن أمر الله تعالى، فالاستفهام هنا للإنكار، ومؤاده: انتهوا عما أنتم فيه، ولقد أجاب الكثيرون من أصحاب رسول الله: انتهينا.

وفي التعبير بالانتهاء والأمر به إشارة إلى تمهيدات سابقة للتحريم، فقد استنكرها القرآن الكريم من أول نزوله، فلم يعتبرها رزقاً حسناً، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً...﴾ (٢٧) [النحل]. فجعل السكر وهو الخمر مقابلاً للرزق الحسن، ثم جاء التحريم غير الحاسم في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...﴾ (٢٩) [البقرة].

والنتيجة تنتهي إلى التحريم لأن ما كثر ضرره وقل نفعه يكون حراماً، ثم حرمت في أثناء النهار وطرفاً من الليل، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ (٤٣) [النساء].

وهكذا كان الإشعار بالتحريم، ولكن لم يكن انتهاء حتى جاء التحريم الحاسم الخالى من كل ظن، فكان لابد من الانتهاء.

وجاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه نزل تحريم الخمر، وهى من خمسة: العنب والتمر والعسل الخنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل»^(١) وترى الرسول عدد خمسة ثم عمم: وهى ما خامر العقل.

هكذا أمر الله وهكذا أمر رسوله، قد قال تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ الواو هنا قال بعض المفسرين: إنها عاطفة على قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾. ويكون قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾ فى مقام التعليل للنهى، وقوله (فهل أنتم متتهون) فى مقام تأكيد النهى أو تأكيد معناه، ويكون الكلام كله فى مساق واحد، ويكون قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فى مقام تأكيد المنهيات السابقة وغيرها، وكان ذلك كله لمقام تأثر العرب بالخمر، وتعلقهم السابق بها، فافترن بها الأمر بالإطاعة، وتحميلهم التبعة، والأكثر من لم يذكروا أن الواو عاطفة، ومفهوم كلامهم أنها استثنائية، والمؤدى واحد؛ لأن فى ذكرها عقب تحريم الخمر بالأمر العام بالطاعة تأكيداً للنهى وتوثيقاً له.

وأمر سبحانه بإطاعة الله، ثم أمر بإطاعة الرسول مع أن إطاعتهما واحدة. لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ [٨٠] [النساء]. ولأن النبى يتكلم عن الله سبحانه وتعالى، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [٤] [النجم]. وكرر سبحانه الأمر بالطاعة لتأكيد الدعوة إلى الطاعة، وتشريف الرسول، وتأكيد رسالته بذكر طاعته بجوار طاعة الله تعالى:

(١) رواه البخاري: تفسير القرآن - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾، ومسلم: التفسير - فى نزول تحريم الخمر (٣٠٣٢).

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ نبههم الله سبحانه وتعالى إلى وجوب طاعة الله وطاعة رسوله، وأن يحذروا غضب الله تعالى وعذابه، واقتران الحذر بوجوب الطاعة فيه تنبيه إلى ضرورة اجتناب الخمر التي تصد عن ذكر الله تعالى، وتميت الضمير، وتخفت صوت الوجدان، وتسهل الاندفاع وتمنع الحذر.

وفى هذا النص الكريم تأكيد لمعنى التحذير السابق، وتنبيه إلى سوء العاقبة، والمعنى: إن أعرضتم عن الطاعة، وتجنبتم الحذر، ووقعتم فى المحذور، وغفلتم عن المأمور به فقد وقعتم فى الخطيئة، وستحاسبون عليها حسابا عسيرا، واعلموا أنه على رسولنا البلاغ الواضح المبين للحقائق والواجبات، فقلوه تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ مبنى عن جواب شرط مقدر ينبئ عن تحملهم وحدهم لتبعة إجرامهم ومعاندتهم لربهم مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [٩٧] [البقرة]. أى فإنه عدو لله؛ لأنه نزل على قلبك بإذن الله، فالرسول مبين للحق، وليس مستولا عن إيمان من يبين لهم، كقوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [٧] [الرعد]. وكقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [٢١] لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ [٢٢] [الغاشية]. وفى إضافة الرسول إليه فى قوله: ﴿عَلَى رَسُولِنَا﴾. تشريف للرسول وتوكيد لإقراره سبحانه، وبيان أن الرسول ما ينطق إلا عنه، وأن عصيانه عصيان لله تعالى، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا﴾. تنبيه بصيغة الأمر، ليتعظوا ويتحملوا تبعة أعمالهم، ويكونوا فى حذر مستمر، والله الهادى.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ كان بعض المؤمنين يحرمون على أنفسهم بعض المباحات، ويحسبون أن ذلك من الورع والتقوى، وقد بين النبي ﷺ خطأهم، ونزل القرآن الكريم بتحريم ذلك عليهم، وجاء فى مطوى الكلام تحريم الخبائث لا تحريم الطيبات، وفى هذا النص الكريم بيان أنه لا إثم فى تناول المباحات؛ لأن العبرة بالإيمان وتقوى القلوب،

فالخبر في الإيمان وفي القلب لا في ترك المباحات، وهذا يشير إلى أن الآيات حكمها عام، وهو كذلك، وإن كان لها سبب فالعبرة بعموم اللفظ.

والأكثرون من المفسرين على أن سبب نزولها أنه لما نزل تحريم الخمر المشدد فيه، والتحذير منها، وقد كانت من قبل في مرتبة العفو، وقد كان هناك من المؤمنين من يشربها، حتى كان منهم من استشهد في الجهاد، وفي بطنه خمر فتساءل بعض المؤمنين عمن شربها ومات، وعمن كان يشربها من الأحياء، كما تساءل بعض الذين كانوا يصلون إلى بيت المقدس عن صلاتهم قبل تغيير القبلة إلى الكعبة، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. كما نزل هنالك قوله تعالى: ﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة]. وقد وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا جناح عليهم في شربهم في الماضي بأنهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكلمة: «طعموا» معناها ذاقوا، وهي تطلق على المشروب، والمأكول، كما قال تعالى في شأن النهر الذي حرم القائد شربه: ﴿... وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ...﴾ [البقرة] وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد نفي الإثم قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ففهم بعض الناس أن ذلك شرط لنفي الإثم، أي لا إثم بالشرب مع التقوى وعمل الصالحات، ونقول في الجواب عن ذلك:

أولاً - إن المراد بتقوى الله تعالى امتلاء القلب بخشيته، وقد ذكر سبحانه وتعالى في أوصاف الخمر والميسر أنهما يلقيان بالعداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى فإذا كان الإثم قد رفع عن تناول لأنه كان قبل التحريم، فهل يرفع الإثم عن العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة؟ إنه لا تقوى مع تناول.

وثانياً - إن في هذا الشرط تحريضا على الإيمان وتقوى الله تعالى، والامتلاء

وكرر الله تعالى التقوى، فقال تعالت كلماته: ﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَآمَنُوا﴾. لبيان أنه يجب استمرارهم على التقوى، وحث غيرهم عليها، وكان التعبير بـ «ثم» لتأكيد معنى الاستمرار على التراخي، وهناك معنى يفيد التكرار، وهو تأكيد أن الماضي مهما يكن لا يؤثر في الحاضر، إذا كان الحاضر نقيا، وقد تأكد هذا بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ العطف بـ «ثم» هنا هو أيضا لتأكيد معنى الاستمرار مع الزمن، والتقوى كما قلنا هي امتلاء القلب بالخشية، وهذا للحث عليها، ولتشريف الذين يستمرون عليها، والإحسان إن اعتبرناه متعديا يكون مؤاده الإحسان إلى غيرهم بالمعونة، وفعل الخير وإسدائه، والوجود بالمال وغيره، ويصح أن يكون لازما والمراد الإحسان في ذات أنفسهم، كما قال النبي عليه السلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) وهذا أعلى مراتب التقوى وهو ما نراه، والله جل جلاله يحب المحسنين لأنهم قريبون منه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِبَلْوَاتِكُمُ اللَّهُ بَشَىٰ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ
 أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ
 ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ
 وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِّنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ
 يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ
 مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّذَوْقِ وَبَالَ أَمْرِ ۚ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
 سَلَفَ ۚ وَمَن عَادَ فَيَنْقُصْهُ اللَّهُ مِنْهُ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم، وهو المعروف باسم حديث جبريل الشهير.

أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعَالِكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

ذكر سبحانه وتعالى أشياء محرمة لذاتها لأنها مستقذرة، خبيثة في ذاتها، وفي نتائجها، وهناك محرمات لمكانها وحال تناول لها، وليست في ذاتها حراما، ومن ذلك المحرمات في الحج أو في الإحرام بشكل عام، سواء أكان للحج أم كان للعمرة أم كان لهما - ويعد أن أشار إلى بعض المحرمات لخبثها، ولذاتها وهي الخمر، ذكر سبحانه وتعالى المحرمات لمكانها وحال تناول لها، فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلْوَنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ البيت الحرام في واد غير ذي زرع كما قال إبراهيم - عليه السلام - فيما حكاه الله تعالى عنه إذ قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]

وكان على المسلمين أن يعملوا على توفير الطعام لهم، حتى تتحقق إجابة ذلك الدعاء، إذ فرض الله سبحانه وتعالى الحج إلى ذلك البيت المطهر، ففرض الحج إليه كما قال تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ...﴾ [آل عمران].

فكان الناس يذهبون إليه من كل فج عميق، وإذا كان من مقاصد الحج التوسعة على المقيمين في هذا البيت، لا يصح أن يكون وجودهم سببا للتضييق عليهم ولو كان الصيد مباحا، وهم يسكنون البادية، ومن موردتهم الصيد، ولو فتح باب الإباحة للمحرمين لكان من المتصور أن يستنفذوا كل عام أكثر الصيد

الذى يكون حول مكة، فيجيئوا بالحرمين بدل التوسعة، وبالضيقة عليهم بدل الترفيه، فكان لا بد من منع المحرمين من قتل الصيد، حتى لا يكون أهل مكة فى ضيق، فوق ضيق المكان، وبعده عن الزرع والثمار.

النداء فى النص القرآنى الكريم للذين آمنوا؛ لأنه من مقتضيات الإيمان ذلك الخطاب، ولم يكن تحريم الصيد للمحرمين لهذا فقط، بل لاختبار النفس المؤمنة، ولتعويدها الصبر، ولتربية العزيمة؛ إن العزيمة تتربى فى صغار الأمور، كما تتربى فى كبارها، وإن كبارها تحتاج إلى قوة جسمية، وإرادة نفسية، أما الأمور الهينة اللينة، فإنها تحتاج إلى عزيمة روحية، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة]. وأنه يكفى المنع من شىء ليطلبه الممنوع منه، وفى الأمثال: كل ممنوع متبوع، وجاء فى ذريعة الأصفهاني أنه ورد فى بعض الآثار أن الناس لو منعوا من البعر لفتوه، وقالوا ما حرم علينا إلا لشىء فيه.

والكلام فى قوله تعالى: ﴿لَيْلُونَكُمْ﴾. اللام هى التى تدل على القسم، والنون هى المؤكدة، والمعنى لنعاملنكم معاملة المختبر، الكاشف لحقيقة نفوسكم، وعزائمها، وإراداتكم وتصميمكم، وصبركم النفسى، وكان ذلك الاختبار النفسى الكاشف لعزائمكم فى أمر صغير فى واقعه، كبير فى معناه، فموضوع الاختبار عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته:

﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وهذا الموضوع للاختبار يتسم بأمور ثلاثة: أولها - أنه شىء قليل لأن التذكير هنا للتقليل، كما يدل عليه ما بعده، والثانى - أنه بعض الصيد، والثالث - أنه قريب منكم يغرى النفس، ويحرضها على فعل المنهى عنه؛ إذ إن أيديكم تستطيع تناوله إذ كان قريبا صغيرا، وتستطيع رماحكم أن تناله إذا كان كبيرا أو بعيدا بعدا نسبيا. وإن الاختبار الذى يجعل النفس فى مشقة هو فى هذا القرب، فالاختبار ليس فى أمر يشق على الأجسام كالجهاد إذ يحتاج إلى قوة جسم، ومهارة، وفن عقلى، ولكن الاختبار فى أمر

هين لين، ولكن فيه مشقة على النفس، وجهاد النفس عن شوقها وعن شهوتها لا يقل عن جهاد الجسم المرن، والعقل المدرب الماهر، ولعل ذلك جهاد أكبر.

وإن الذى ينجح فى ذلك البلاء يكون ممن يخاف الله تعالى فى غيبه عنه، وفى مشهده له، بل إنه يحس دائما بمقام المشاهدة^(١)، فلا يحس بأنه غيب عن الله تعالى قط، ولذلك قال تعالى كلماته: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾. أى ليظهر الله تعالى فيمن يخافه بالغيب، ولكن ما الغيب وما حال من يخافه، قال بعض المفسرين: إن المراد غيب يوم القيامة، أى أن من يحرم الصيد وأشباهه على نفسه، ويعقد عزمته على ذلك يظهر إيمانه بالآخرة وهى مغيبة عنه، ويخافها لأن نفسه تكون من النفوس الصابرة المتباعدة عن أهواء الدنيا، فلا تغمرها شهواتها، فتتفد طيبة إلى الآخرة، وقال بعض المفسرين: إن المراد غيب الله تعالى أى أن من تكون له تلك العزيمة القوية فيكون ممن يراقب الله تعالى دائما، فيعبد الله كأنه يراه، فالله فى قلبه دائما يخافه ويتقيه، ولا مانع من الجمع بين المعنيين.

﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الاعتداء تجاوز الحد ومخالفة أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿... وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ...﴾ [الطلاق].

ومعنى النص الكريم: ومن تجاوز ما أمر الله تعالى بعد إعلامه بأنه اختبار من الله لتربية نفسه وتهذيبها وإشعار بمخافة الله تعالى، وهو غائب بأن يمتلئ قلبه بالإيمان به، وبطبع الله كأنه يراه، من اعتدى بعد هذا فهو يعاند الله تعالى ويكابره، ومن يكون قلبه ممتلئا بالمكابرة والمعاندة، فإن الإيمان لا يسكن قلبه، ويكون له عذاب أليم.

(١) مقام المشاهدة: «أن تعبد الله كأنك تراه»، ومقام المراقبة: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وكلاهما إحسان كما فى حديث جبريل الشهير. والمداومة على الثانى توصل إلى المقام الأول لمن وفقه الله تعالى.

وقد يقول قائل: إن الله تعالى ذكر جزاء من قتل الصيد متعمدا فقال تعالى على ما ستتلون إن شاء الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وذلك ليس عذابا أليما، ويجاب عن ذلك: بأن ذلك ليس مجرد جزاء للذنب الذي ارتكبه كله، ولكنه جزاء دنيوى يعود به على الذين فى بيت الله، أما الجزاء الآخرى، فإن الله مستقبله به يوم القيامة، وفوق ذلك أن ما ذكره تعالى فى جزاء القتل للصيد، إنما هو جزاء الفعل والعذاب الاليم جزاء المكابرة والمعاندة التى تدل على نقص الإيمان، بل تدل على عدم الاستسلام لله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ الخطاب للمؤمنين بوصف الإيمان، فالإيمان يقتضى ألا يقتلوا الصيد وهم محرمون، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ معناه وأنتم محرمون، فكلمة حرم جمع لحرام، وحرام قد تكون وصفا للمحرم، فيقال: رجل حرام، وامرأة حرام إذا نوت الحج واتخذت شعاره، وجمع حرام حرم، والمحرم أو الحرام هو الذى يؤدى الحج أو العمرة، واتخذ شعارهما، إذ يصبح ما كان حلالا له بإطلاق، مقيدا فى إحلاله، ويكون عليه مشاعر يجب أداؤها.

والنهى منصب على قتل الصيد، فما هو الصيد المحرم، وهو بلا ريب صيد البر، كما خصصت ذلك الآية من بعد، فقد قال تعالى من بعد ذلك:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فمن هذا النص يتبين أن التحريم مخصوص بصيد البر، ويخرج منه صيد البحر، وذلك لأن البحر بعيد عن الحرم، والمحرم قد يحرم فى منطقة قد تكون فيها بحار، فتحريم صيد البحر يكون إجهادا وحرجا وضيقا من غير فائدة تعود على المقيمين حول البيت الحرام.

والنهى منصب على الصيد نفسه لا على قتله؛ لأن التحريم يتجه إلى محاولة صيد الحيوان، لا إلى قتله فقط، وقد دل على ذلك قوله تعالى من قبله: ﴿... غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ...﴾ [المائدة].

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

وأجيب عن ذلك بأن الغاية هو القتل للأكل غالباً، فعبر عن السبب وأريد المسبب، والقتل منهى عنه بالذات.

ولكن ما هو الصيد المحرم أيقع على كل حيوان برى، فيحرم صيده من غير قيد يقيد؟ لقد ورد عن النبي ﷺ أنه استثنى من تحريم الصيد الفواسق، فقال - عليه السلام - فيما رواه الصحيحان «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح، الغراب والحدأة والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»^(١) وهذه رواية مالك عن نافع عن ابن عمر، ورواية عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة، والعقرب والفأرة والكلب العقور...»^(٢).

وقد اتفق الفقهاء على أن قتل هذه غير ممنوع.

وقد جرى الخلاف فيما وراء ذلك، وكان أساس الخلاف هو أن النص معلن واختلفوا في تعليقه، ففريق قال: ليست ثمة علة إلا الأذى، وعلى ذلك يكون محرماً صيد ما عدا هؤلاء، إلا إذا كان مؤذياً بالفعل فيحرم الوحش إلا إذا كان قد ساور المحرم، وقال بعض الفقهاء: إن كل حيوان لا يؤكل ومن شأنه مساورة الإنسان لا يذاته كالنمر والأسد وغيرهما يباح صيده، واختلفت الروايات والأقوال في المذاهب فقليل: لا يباح صيد أى حيوان إلا ما جاء النص بإباحته، وما يساور الإنسان فعلاً ليؤذيه، وقيل: يباح ما من شأنه المساورة، وقيل: إنه يباح صيد كل ما لا يؤكل، وهو قول الشافعى، وإنا نميل إلى هذا القول؛ لأن التحريم معلن، وليس تعبدياً خالصاً، والحكمة واضحة، وهى منع التضيق على أهل الحرمين الشريفين؛ ولأن الصيد فى غالب أحواله لا يتجه إلا إلى ما يؤكل فيندر من

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مالك: المتناكس - ما يقتل المحرم في إحرامه (٧٩٨) عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَيُرْوَى عَنْ عَائِشَةَ كَمَا صَرَحَتْ بِذَلِكَ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يصطاد ثعلبا أو ضبعا، ولأن القياس يثبت على الغراب والحدأة فهي حيوان لا يؤكل، وهذا هو الذى نراه معقولا، وهل يباح لحم ما يصطاد للمحرم إذا اصطاده غير محرم؟ لقد اختلف الفقهاء فى ذلك، وأساس الاختلاف، الاختلاف فى ذات الممنوع، أهو الأكل أم الصيد؟.

قال كثيرون من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس: إنه يحرم على كل حال؛ لأن الصيد ذريعة إلى الأكل، وليس تحريم الصيد لذاته، ولكن لكيلا يكون أهل مكة فى ضيق.

وقال آخرون: يحل ما دام لم يتول الاصطياد، وقد قال ذلك على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وجمع من الفقهاء.

القول الثالث: أنه إذا صيد لأجل المحرم كضيافته ونحوه فإنه يحرم، لا يكون كاصطياده.

والقول الرابع: أنه إذا لم يعاون المحرم فى الصيد، ولو بالإشارة فهو حلال.

وهذا الذى نميل إليه؛ لأنه إذا كان قد عاون فى الاصطياد، ولو بالرأى فقد اصطاد، وإذا لم يكن شئ من ذلك، فهو حلال، وإلا امتنعت الضيافات، وكان الناس فى حرج وضيق السبيل إلى تبادل المودة، وهى مطلوبة فى الإسلام.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ المتعمد أن يكون عالما بالتحريم أو أن يكون من شأنه العلم بالتحريم؛ إذ يكون مقيما فى دار الإسلام، وأن يكون قد قصد القتل ولم يقصد سواء وإلا فلا، كأن يساوره سبع يريد قتله، فيضربه، فيصيد صيدا، أو يرى عن بعد سباعا مفترسا ثم يرى شبحا يظنه هو فيتبين أنه غيره، فلا يعد فى هذه الحال متعمدا الصيد ويكون فعله خطأ.

وعلى ذلك يكون ما عدا من اشتملت عليه هذه القيود خطأ، ويكون الخطأ قسمين: خطأ فى الفعل ألا يريد الصيد فيقع الصيد كالصورة السابقة، أو خطأ

فى القصد بأن يكون القصد ذاته غير سليم إذ يصبوب سهمه على شبح فتيين أنه صيد.

وعلى ذلك يكون الجزاء لأجل التعمد، ولا جزاء فى الخطأ.

ولكن الفقهاء اتفقوا على أن محظورات الصوم خطؤها كعمدها يوجب الفداء فكيف يعتبر الخطأ؟ ولقد أجاب عن ذلك ابن جرير، بأن جزاء الصيد ثبت بالكتاب، وجزاء الخطأ ثبت بالسنة، وقد أخرج الشافعى وغيره عن عمرو بن دينار أنه قال: رأيت الناس جميعا يغرمون فى الخطأ، وبعض الفقهاء قال: إن جزاء العمد ثبت بالنص وجزاء الخطأ ثبت بالقياس أى أنه ثبت قياس الخطأ على العمد.

وعندى أن النص الظاهر فى أن الجزاء مقيد بأن يكون القتل عمدا، وكل جزاء فى حال الخطأ البحث فيه يكون إهمالا لقيد العمدية، ولذلك تقيد العمدية، بما يشمل الخطأ فى القصد وغيره، فالعمدية القصد إلى الصيد ولو كان ناسيا لأنه محرم، أو جاهلا أنه محرم، وبذلك يكون سريان النص مع ما ورد من آثار فإن الأثر الوارد عن النبى ﷺ كان فيه الصائد ناسيا إحرامه، فقد روى أنهم وهم فى الحج عن غير (حمار وحشى) فحمل عليه أبو اليسر، فطعنه برمح فقتله، فقبل له قتله وأنت محرم، فأتى الرسول ﷺ فسأله عن ذلك فنزلت الآية^(١)، وعلى ذلك اعتبر أبو اليسر قاتلا عمدا، وقد كان ناسيا أنه محرم، وذلك لمجرد أنه قصد القتل من غير نظر إلى أى ناحية نفسية أخرى، وبذلك يكون التوفيق بين الكتاب والسنة، وإنهما لموافقان، فالناسى يعد عامدا، وقاصد غير الصيد يكون مخطئا.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن الجزاء يكون بالمماثلة بين الصيد، وحيوان يقاربه فى الحجم من النعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وهكذا فسر بعض الفقهاء المماثلة، وقصرها على ذلك أكثر الفقهاء، وهو ظاهر النصوص؛ لأن الله تعالى

(١) ذكره الألوسى فى التفسير: ج ٧، ص ٢٣.

قرر أنه يحكم بالمائلة ذوا عدل من المؤمنين، ولأنه قرر احتمال العجز عن المثل، فجعل بدله كفارة إطعام مساكين، فإن لم يجد يكون عدل ذلك صياما، ولأنه قرر أنه إذا وجده يرسله هديا إلى الكعبة.

وقال أبو حنيفة: إن المثل يكون بالقيمة، ولا شك أن ذلك القول قد يشكل ظاهرا مع ما ورد من نصوص إلا أن يقوم الصيد، ويشتري بالقيمة هديا، فقد جرى بمثل ما قتل من النعم، والخلاصة أن القيمة تكون تعويضا يخير فيه بين أن يشتري هديا أو طعاما، فإن لم يستطع فالصوم.

وقد بين سبحانه طريق معرفة الجزاء ومآله وأنواعه فقال سبحانه:

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ الهدى اسم لما يذبح في الحج مهدي إلى فداء مكة، والنص صريح في أن الهدى يبلغ إلى الكعبة، وكونه يكون هديا يصل إلى الكعبة يشير إلى حكمة منع الصيد في البيت الحرام، وهو أن الحجيج الكثيرين إذا أبيح لهم الصيد قطعوه عن أهل مكة، وجعلوهم في ضيق وحر.

وذوو العدل من المسلمين هم أهل الشهادة ذوو الخبرة الدقيقة في تقدير الحيوان، بحيث يكونون ممن يصفقون في أسواق النعم، أو من أهل المعرفة بها الذين يعلمون الأسعار بملاحظة مكانها وزمانها.

وهذان الحكمان يعينان المائلة، سواء أكانت المائلة بتوسط القيمة، أو كانت بالمائلة في الهيئة والحجم ونحو ذلك، وذلك لأن الحنفية يقررون أنه في القيميات، أى التى لا تتعلق وحداتها - تكون المائلة بتعرف القيمة، ولا سبيل غير ذلك، فلا يمكن أن يكون الحيوان ممثلا للحيوان إلا بتعرف قيمتهما.

وإذا قدرت القيمة اشترى بها هديا، وبلغ الكعبة، وذبح هنالك تعويضا، وإذا تعذر شراء الهدى، أو تعذر الوصول إلى الكعبة تصدق به على المساكين، بحيث يكون لكل مسكين نصف صاع من بر، أو صاع من الذرة أو الشعير أو

قيمة ذلك، فإن تعذر على المعتدى شيء من هذا لفقره كان عليه أن يصوم يوما لكل إطعام المساكين، ولا شك أن التخيير هنا ليس على حقيقته، إنما هو ترتيب مراتب على حسب القدرة على كل رتبة، فالأصل بلا ريب شراء هدى، وذبحه عند الكعبة، فإن تعذر ذلك كان الطعام، فإن تعذر كان الصيام، وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ أى ما يساويه من الصيام على أساس أن يكون لطعام المساكين وجبتين - صوم يوم، وقدرت الوجبتان بنصف صاع من بُر أو قيمته، أو صاع من غيره أو قيمته.

هذا هو الظاهر عند الحنفية، وروى عنهم أنهم قالوا بالتخيير إذا عرفت القيمة بين الذبح عند الكعبة، وبين إطعام المساكين، وبين الصوم، وعندى أن الترتيب حسب القدرة أوضح، وذلك هو رأى أحمد وزفر.

والمذاهب الأخرى تتلاقى فى الجملة مع المذهب الحنفى بيد أنها تعتبر المماثلة فى الأوصاف، وعندى أن المذهب الحنفى أوضح وأسهل تطبيقاً، وأدق فى تعرف المثل، وقد اضطروا إليه عند استبدال الطعام بالذبح، إذ لا يعرف مقدار الطعام إلا بمعرفة القيمة.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ الوبال: العاقبة السيئة، ومعنى ليزوق أى ليدرك عاقبة الأمر الذى وقع فيه إدراك من يحسه ويزوقه؛ وذلك لأنه عمل على حرمان ناس من أن يذوقوا طعاماً شهياً، كانوا ينالونه، فعليه أن يغرم نفسه مثله من طعام يذوقه فى نظير ما حرّمهم منه، فالعقاب من جنس الاعتداء: ﴿... فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة: ١٩٤]. وأن ما كان منهم من قبل، فإنه موضع عفو، لا يحاسب الله تعالى عليه فى الدنيا ولا فى الآخرة، فمعنى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أى أنه سبحانه لا يطالب بتعويضه منهم؛ لأنه سلف ومضى منهم قبل التحريم، ولا يطبق القانون إلا على ما يجىء بعده، ولذلك قرر مؤكداً، أن العقاب يكون لما يقع بعده وللعائدين، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.



أى من عاد بعد تحريم الله للصيد فإن الله تعالى ينتقم، ونرى أن «الفاء» وقعت فى جواب الشرط فى غير ما سوغ فيه دخول الفاء، وأوّلوا لذلك وقدروا محذوفاً بجعل الجملة اسمية، وبعضهم جعل «من» اسماً موصولاً، والفاء تدخل فى خبر الموصول، والحق أن القرآن فوق قواعد النحويين، وقد ورد دخول الفاء فى شرط من؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾ [طه].

وقواعد النحويين غالبية تلزم الناس، ولا تلزم القرآن. والعود هو تكرار قتل الصيد، وذلك يدل على الاستهانة بأمر الله ونهيه، فيستحق صاحبه النعمة، ونقمة الله تعالى أشد النقم، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أى والله تعالى غالب فوق العباد، لا يترك الأشرار يرتعون، فهو ذو انتقام كما أنه الرحيم، بل إن انتقامه من رحمته؛ لأن الرأفة بالأشرار ليست من الرحمة، ولذلك قال بعض العلماء: إن القاصد إلى الصيد معاندا لا تقبل منه الكفارة، ويكون عذابه يوم القيامة لاستهانتة بأمر الله ونهيه.

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فى هذا النص الكريم نجد الله تعالى بين فيه ما حرم، وما حلل للمحرم، فأحل صيد البحر وطعام صيد البحر الذى يجوز أكله، وحرم عليهم صيد البر ما داموا محرمين مستمرين على الإحرام، فالحلل فى كل الأوقات والأماكن، والحرام فى حال معينة محدودة فهو ذكر لنعمة الله تعالى وفيه إشارة إلى حكمته فيما حرم، وأباح سبحانه أن يصطاد الصائد من البحر، وأن يطعم منه، فأبيح الفعل والأكل لكم، والمتاع الانتفاع، ومعنى السيارة: المسافرون السائرون الذين لا يستقرون فى مكان معلوم، فلکم أن تأكلوا لحماً طرياً من البحار لأنكم عابرو السبيل، والحرام فيما يتعلق بالبر حال الإحرام لكيلا تضيقوا على سكان من حول البيت الحرام. . وختم الله تعالى الآية بالأمر بالتقوى والتذكير بالاجتماع أمام الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. وفى هذا تذكير بتقوى الله، حتى يعلموا أن الدنيا مهما يكن متاعها لها نهاية، وأن الإنسان محاسب على ما يتناول يوم

الحشر، أى يوم الجمع من غير تفرقة، والله وحده، هو العالم القادر المنتقم الجبار
الرءوف الرحيم.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ
قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ^{٩٧} ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْأَبْلَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُ لَكُمْ أَلْتَبَابٌ
لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٠٠﴾

كانت الآيات السابقة تقرر منع الصيد، وتؤكد المنع، وذكرنا أن ذلك ليس
تعبدية فقط، بل فيه حكمة ومعنى ذلك أن الذين حول الكعبة يسكنون واديا غير
ذى زرع عند بيت الله المحرم، وكانت دعوة إبراهيم - عليه السلام - أن يجعل
أفئدة من الناس تهوى إليهم، وقد استجاب الله تعالى دعاءه، ولكى يتحقق لهم
الرخاء منع الصيد عن أولئك الذين جاءوا إليهم حاجين أو معتمرين، حتى لا
تستنفذ كثرتهم ما حول مكة من صيد يمدهم باللحم طول العام، وفى هذا النص
الكريم الذى نتكلم الآن فى معناه إشارة بينة إلى هذا المعنى، فقد قال تعالت
كلماته:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾

نتقدم قبل الكلام فى معنى النص إلى بعض نواح لفظية تمهد للكلام فى المعنى:

أولها - أن ﴿جَعَلَ﴾ إما أن نفسرها بمعنى خلق أو شرع الأحكام أو بمعنى
صير، وعلى الأولين تكون متعدية إلى مفعول واحد، ويكون المعنى على هذا خلق

الله تعالى الكعبة، وهى البيت الحرام وشرع لها تلك الأحكام التى تصونها وتصون شجرها وحيوانها لتكون قواما للناس فى معاشهم ومعادهم، ويكون فيها نهوض لمقاصدهم وغاياتهم، وتروية لمستاجرهم، وليرزقوا بين الناس، وعلى أن ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صير يكون قوله تعالى: ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ مفعولا ثانيا، ويكون المعنى صير الله تعالى الكعبة بيتا محرما، لتكون قياما للناس.

الثانى - من النواحي اللفظية هو فى كلمة «الناس» أيراد بهم العرب الذين يعيشون حول الكعبة، ويتحقق بذلك الاستجابة لدعوة إبراهيم، أم يراد بهم الناس عامة الذين من شأنهم أن يحجوا إلى ذلك البيت؟ ويكون المعنى على الثانى، جعل الله الكعبة لها تلك المكانة لتكون قياما لكل الناس الذين يفدون إليها وهم المسلمون عامة؛ إذ يتعارفون فيها، ويتبادلون المودة الإسلامية الرابطة، ويوثقون الصلات الإنسانية والدينية والخلقية، يتراحمون فيما بينهم، ويحسنون بالتجرد الروحى، والضيافة الربانية، وفى ذلك كله قيام لهم، وليس القيام هو القوام المادى فقط، بل المادى والروحى والخلقى.

الثالث - فى قوله تعالى: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقُلُودَ﴾. الشهر الحرام قيل ذو الحجة، ونرجح أن المراد أربعة الأشهر الحرم، والهدى ما يساق، وأخصها ذات القلائد، وهو ما يوضع عليها من شعارات من قلادة من بعض الأشجار تدل على أنها للبيت الحرام كما قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ [الحج: ٣٦].

ويكون معنى القلائد على هذا ذوات القلائد ويذكر بعض العلماء أن معنى القلائد هى ذات القلائد التى قرر الشارع أن توضع إشعارا لها بأنها للحج، وفى ذلك تكريم للبيت، وإعلاء، وإشعار لمكانته القدسية وذلك عائد على الناس عامة وعلى أهل مكة خاصة، وسيقت هذه الكلمات: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقُلُودَ﴾ لبيان أنها قيام للناس.

وعلى ذلك تكون نعم الله تعالى بالبيت الحرام أربع:

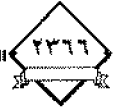
أولها - البيت ذاته، وما منح من قدسية، وكان الناس يحسون بالأمن، حيث يتخطف الناس في كل مكان، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت] وفي ذلك الوقت الذي لم يكن بالبلاد العربية حكومة تفرض سلطانها في أى مكان، قد ألقى الله تعالى في قلوب العرب بمهابة البيت حتى كان الرجل يلقي قاتل أخيه أو قاتل أبيه فلا يمسه بسوء، وحرم على المحرم الصيد، حتى يتوافر الخير طول العام لأهلها.

الثانية - الشهر الحرام، والمعنى فيه هو الجنس على رأى كثيرين، وهو ما نخشاه إذ كان الناس يتقاتلون فإذا جاء ذلك الشهر امتنعوا عن القتال، فتعود القضب إلى أجفانها وتهدا النفوس بعد ثورتها، وتقر بعد اضطرابها، والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان، فيتمكن الناس من زيارة البيت الحرام آمنين مطمئنين حتى يتحللوا.

الثالثة - نعمة الهدى يساق إلى الكعبة من حيث الحجيج يحرمون، وقد يكون ذلك من أماكن بعيدة، فخير الأرض يصل إليهم موفورا، وخيرهم لا تمتد إليه يد مجرم.

الرابعة - نعمة القلائد. وقد جاء في تفسير فخر الدين الرازى فى بيان وجه النعمة فيها: (والوجه فى كونها نعمة أن من قصد البيت فى الشهر الحرام لم يتعرض له أحد، ومن قصده فى غير الشهر الحرام، ومعه هدى وقد قلده، وقلد نفسه من لحاء شجرة الحرم لم يتعرض له أحد، حتى أن الواحد من العرب يلقي الهدى مقلدا، أو يموت جوعا فلا يتعرض له البتة).

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الإشارة للقيام، جعل الله تعالى ما شرعه للكعبة والحج من محرمات وشعائر، ومن تحريم الصيد، ومن الهدى جعل كل هذا لتعلموا أن الله تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض... وهنا توجد عدة أمور تثير النظر.



أولها - لماذا كانت تلك الشرائع المتعلقة سبيلا لمعرفة علم الله لما فى السموات وما فى الأرض؟.

وثانيها - عند عطف الأرض على السموات كرر ما فى المعطوف والمعطوف عليه.

وثالثها - لماذا قرن علم الله تعالى بما فى السموات والأرض بعلمه تعالى بكل شىء، ولماذا تكون أحكام الحج والكعبة سبيلا لمعرفة علم الله تعالى العام المحيط بكل شىء.

والجواب عن هذه الأمور هو أن ما شرعه الله تعالى لمكة وما حولها وما فيها دليل على أن الله تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض؛ لأن مكة فى أرض جذبة لا ماء فيها ولا شجر، وأنها جبال لا ثمرة فيها، وأنه لا خير يرجى من طبعها، كما قال إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾ [٢٧] [إبراهيم]. فالسما لا تجود عليها بغيتها منتظما والأرض لا تجود عليها بإخراج إنزالها من معادن وفلزات سائلة وغير سائلة، فجعل الله سبحانه وتعالى الحج إليها. وحرم على المحرمين ما حرم من صيد ليقى لهم ما عندهم من وفر فى الحيوان المتأبد، ولتحمل من الأراضى الخصبة والغنية والتي فيها الثروات إلى تلك الأرض الجذبة؛ فينقل سبحانه من الفيض إلى الغيض ليعم الخير، وكانت بمكة كعبة للمسلمين، لأنها أرض لا ترام من غاصب، ولا تراد من ظالم، ثم هى فى وسط الأرض حتى قال علماء الأرضين: إن بيت الله تعالى الحرام فى وسط أرض الله الواسعة، فهى نقطة الارتكاز فى قطرها.

وقد يقال إن أرض العرب فيها البترول وفيها الزرع، ونقول إن ذلك بعيد عنها بمئات الأميال، بل ربما تجاوزت الحسبة الألف، فبينها وبين البترول البداء الجرداء، فكان المتفهم لذلك التشريع لا بد أن يؤمن بعلم الله بما فى الأرض والسما.

والجواب عن السؤال الثاني، هو أن تكرار (ما في) في قوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إشارة إلى دقة العلم، وأنه لا يغادر صغير ولا كبيرة إلا أحصاها، وتقديم السموات على الأرض؛ لأن السموات فيها مصدر الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات].

والجواب عن السؤال الثالث، في كل جزء من شرع الله تعالى فيما شرعه يدل على أنه صادر عن العليم الخبير، فشريعة الله تعالى في الميراث تدل على أنه من عند الله تعالى العليم، وشريعته في تكريم البيت الحرام وما حرم فيه من صيد البر، وما أبيح من صيد البحر وطعامه وتحريمه القتال في الشهر الحرام، وإيجابه سوق الهدى وغير ذلك من شعائر الحج، ومباحاته ومحظوراته دليل على علم الله تعالى العزيز الحكيم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كان النهي عن قتل الصيد وهم حرم سهلاً على نفوس الأتقياء شديداً على نفوس الأشقياء الذين يسرون وراء أهوائهم، وكل أمر ممنوع متبوع، وقد ابتلاهم الله تعالى بالصيد تناله أيديهم ورماحهم، وهم قرييون منه وهو قريب منهم فكان لا بد من شكائم قوية تحكم النفس وتمنعها من الانطلاق وراء إشباع الرغبات، وهى على مقربة منها، والإرادة الحازمة المسيطرة على هوى النفس صبر قوى وضبط للنفس، وقد نبه سبحانه إلى العقاب الشديد للمخالف، كما نبه إلى رجاء الرحمة والغفران لكي يكون الصبر على رجاء الله سبحانه وتعالى وخوفه، فيخشى عقابه، ويرجو رحمته وثوابه، فالؤمن في خوف، وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لتعادلا»^(١). فهذا النص لتقوية إرادة المؤمن، والآية فيها عبارات تنبئ عن التشديد، فيما اشتملت، فابتدأت بالأمر الحازم ﴿اعْلَمُوا﴾ وفى ذلك تنبيه شديد وإيقاظ للضمير، ليكون ما ينبه إليه من بعد، أوثق في القلب وأشد تثبيتاً، ثم أكد الخبر بـ «أن» في بيان في ذكر الله تعالى وصفه بشدة العقاب، وصفه بالغفران

(١) جاء في الدرر المنتشرة (٣٧٤) ج ١، ص ٦٨٠.

والرحمة، ثم تكرر ذكر لفظ الجلالة لتربية المهابة في النفس، وتوكيد شدة عقابه سبحانه، وتوكيد غفرانه ورحمته.

والغفران ستر الذنوب، والرحمة الثواب، وأن ذلك عدل الله تعالى فلا يستوى من يحسن ومن يسيء، وبعد أن نبه الناس إلى الخير والسداد على السنة الرسل، قال سبحانه:

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ في هذا النص السامى ترشيح وتقوية لمعنى الإنذار والتبشير في النص السابق، وفي هذا النص ما يفيد بالمعنى الضمنى أن الرسول عليه التبليغ، وأنه لا تبعة عليه بعد التبليغ، وأن المكلفين بعد تبليغه تكون تبعة الشر على الذين بلغوا، وجزاء الخير لهم، وأن الحساب بعد ذلك لله تعالى، وإنه لمحاسبهم على الشر إن فعلوه، ومجازيهم على الخير إن أدوه، ويقبل توبة العصاة إن تابوا وذلك بغفرانه ورحمته، وأن ذلك الجزاء على الخير خيرا وعلى الشر شرا يكون من عليم خبير، لا تخفى عليه خافية، فهو يعلم ما تخفيه السرائر وتكتمه، ويعلم ما يظهر على الجوارح وتعلنه، فهو يعلم السر وأخفى، يعلم ما يبدونه وما يكتُمونه، والخير له جزاؤه والشر له عقابه.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يذكر لهم أن الخير والشر لا يستويان، وأن الخبيث والطيب لا يتساويان، فلا يمكن أن يكون معاملة أهل الخبيث كمعاملة أهل الطيب، وأمر الله تعالى نبيه أن يقول ذلك، ويبينه للناس على أنه جزء من رسالته يبينه للناس ويعرفهم به أو يذكرهم إياه وهو ما ترتضيه الفطر السليمة وتدركه العقول المستقيمة، وهو بيان لطبائع هذا الوجود.

والخبيث هو الأمر المستقذر، إما لأنه فى ذاته قدر تعافه النفوس والطبائع السليمة، وإما لأن سبب الحصول عليه خبيث، فجاءه الخبيث من سببه، إذ انسحب السبب على المسبب فلوثه، وإما لأنه مغل بالمروءة، فالمستقذر هو

الخبِيث، وهو حسى، وأدبى، والطيب ما يكون حسنا فى ذاته وفى طريق كسبه، وترضاه النفوس المستقيمة والعقول المدركة، وتأتى الشرائع بإباحته.

وإذا كانت تلك هى القاعدة الإنسانية العالية، والعادلة، فإنه لا بد من عقاب المسىء، وثواب المحسن، ولكن الباطل له لاجحة وفيه كثرة؛ لأنه مجاوية للذائد الشهوات، وما يستلذ يكثر، وما يطاوع الهوى يزيد، وما يكون فيه صبر وضبط نفس يقل، وإن كان طيبا، ومهما يكثر الشر لن يتساوى مع الخير، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾. أى ولو أثار نفسك وعجبك واسترعى نظرك كون الخبيث كثيرا، إن الشر مهما يكثر لا يمكن أن يستحسن شرعا أو ترضى به الأخلاق، ولا يمكن أن ينقلب بالكثرة مساويا للخير بل إنه كلما كثر، وجبت مقاومته، بشدة وبمقدار كثرته، تكون شدة المقاومة، وذلك فرق ما بين شريعة الله تعالى وقوانين العباد، فإن قوانين العباد، تستمد قوتها من الكثرة، وعرف الناس، ولو كان فاسدا، أما شريعة الله، فهى للخير المحض، وإذا كثر الشر لا تتبعه، بل تقاومه، ولا ترضى به، لأنها جاءت لشر الخير، ولا يمكن أن ترضى، وإلا ما كانت رسالات الرسل، ولا جهاد الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين، ولذلك أمر سبحانه بمقاومة الشر مهما كثر، فقال تعالت كلماته:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ قال الله تعالى فى الآية السابقة: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾. وأن هذه الجملة السامية تصلح الكبرى لقياس طويت صغراه، وهى مفهومة من قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. إذ الكلام يكون هكذا ولكلام الله تعالى المثل الأعلى الذى لا يصل إلى مثله البشر. لا مساواة بين الخير والشر، والله يعاقب على الشر، ويثيب على الخير، والنتيجة لهاتين المقدمتين، أن الأشرار سيعاقبون، والأخبار سيثابون لا محالة، ولازم هذه النتيجة أن يحذر الناس فيرجوا ثواب الله ويخافوا عقابه، وذلك الحذر يكون بتقوى الله تعالى بامتلاء القلب بخشيته، والعمل على اتقاء عذابه؛ ولذا قال:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى إذا كان كل امرئ مجزياً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فاملأوا قلوبكم بتقوى الله وخشيته وملاحظة أنه يعلم ما تبدون وما تكتمون، فاعبدوه كأنكم ترونه، فإن لم تكونوا ترونه، فاعلموا أنه يراكم، وهو يعلم سركم وجهركم، فإن خشية الله تعالى فى أعمالكم على هذا النحو يُرجى منها الفلاح والفوز؛ لأنها سبب لذلك، فالرجاء فى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ من العبيد، لا من الله؛ لأنه سبحانه يرجى ولا يرجو إنه بكل شيء عليم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا
عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
الْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ
سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُم ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فى الآيات السابقة بين الله تبارك وتعالى أنه لا يصح أن نحرم ما أحل، وإذا حرمناه بأيمان أقسمنا بها - بين سبحانه وتعالى تحلة أيماننا. ثم أشار من بعد إلى ما حرمه، وهو ما يكون مستقذراً فى ذاته، أو يكون تحريمه مؤقتاً بزمان ومكان، وليس تحريمه على التأييد، ولكن العرب كانوا يحرمون على أنفسهم حلالاً من الطيبات بأوهام يتوهمونها من غير تنزيل جاء بتحريمها، وليس فى ذاتها ما يستقذر، وجنسها يحللونه ولا يحرمونه، ثم كان من المؤمنين من يسأل عن هذه الأمور فبين سبحانه أنه لا أمر ولا نهى إلا ما جاء به القرآن، وأنه لا يجوز أن يتقدموا بأسئلتهم حتى يبينه القرآن فكل حكم يكون فى وقته المعلوم لتستأنس فيه القلوب بأحكام الشرع جزءاً جزءاً حتى يتمة الله تعالى قبل أن يقبض رسوله إليه ولذلك قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ كان المسلمون الأولون كثيرى السؤال للنبي ﷺ عن أحكام ، يسألونه عن أمور يشددون بها على أنفسهم ، ويسألونه عن أمور تتجافى عن مبادئ الإسلام ، ولكن لم يثن وقت تحريمها - لأن الإسلام شريعة عامة خالدة ، وقد ابتدأ مخاطبا العرب بهذه الأحكام ، ومنها من لم يكن عندهم أنس بتحريمها فاحتاجوا إلى التدرج ، حتى يشربوا روح الإسلام ، فينزل عليهم التحريم ، وقد استأنست قلوبهم ببعض معالى الإسلام ، ولقد كان منهم مخلصون يطلبون الحق فى الأمور ، ولا يلتفتون إلى مبادئ التدرج فى الشرع ، ومنهم غير مخلصين يريدون الإعانات ، ومنهم بين أولئك وهؤلاء من يظهرون بالسنتهم التفقه والذين طلبوا التشديد . وقد سكت النبى ﷺ ليطلب الناس ما يتيسر لهم ، وما يمكن أن يكون أقواهم قادرا على أشده ، ويروى أنه عندما فرض الحج فى القرآن الكريم إذ قال تعالى : ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ...﴾ [آل عمران] . وقال عليه الصلاة والسلام : «إن الله كتب الحج فحجوا» فسأله عندئذ أعرابى قائلا «أكل عام يارسول الله» فقال عليه السلام : «ويحك ، ماذا يؤمنك أن أقول نعم ، ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم ، ألا إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج ، والله لو أنى أحللت لكم جميع ما فى الأرض ، وحرمت عليكم منها موضع خف لوقعتم»^(١) .

كانت هذه الأسئلة تقع من المسلمين الأولين ، والذي نراه خاصا بالآية التى نتكلم فى معناها الأسمى ما كان يجرى على الألسنة من أسئلة خاصة بأمر الشرع الذى لم ينزل فيه إباحة ولا تحريم كالخمر التى حرمت تحريما قاطعا بعد أن أشرب المؤمنون حب الإسلام ، ونبذوا عادات الجاهلية التى لا تتفق مع مبادئه ، ونحسب أن هذه هى موضوع الآية الكريمة .

(١) مسند الشاميين (٩٦٥) ج ٢ ، ص ٨١ عن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه . ورواه الطبراني فى الكبير وإسناده حسن جيد .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ والمعنى على هذا السياق لا تسألوا عن أحكام أمور لم يجئ حكمها المبثوث في الإسلام، وشرع الله تعالى فيما كتب في علم الله العلي الحكيم أنها محرمة، ولو أبدى سبحانه هذا التحريم لهم لساءهم ذلك البيان لعدم الفهم، ولأنهم لا يزالون متأثرين ببعض أحكام الجاهلية، كالخمر، فإن الشرع الإسلامي كرهها، ولو سئل عنها، فإنه لا يمكن أن يصرح بإباحتها، ولا يمكن إلا أن يكون بتحريمها، والتحريم القاطع قبل خلع الريقة الجاهلية تماما يسوء بعض النفوس، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ ولو أنهم تركوا السؤال حتى نزل القرآن بالحكم في ميقاته الذي وقته الله تعالى ما كان في الحكم مفاجأة تسوء؛ لأنه يكون بعد إشراب القلوب بأخلاق الإسلام، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ والمعنى الظاهر من هذا أن القرآن عندما ينزل بها تحريما ومنعا أو إجازة وإباحة تكون النفس المؤمنة قد استعدت لتلقيها كما تهيأ الأرض الخصبة للزراعة فيجىء البذر والماء في إبانهما فتنبت نباتا حسنا بإذن ربها، وإن نزلت في القرآن كان السؤال في وقته وفي موضعها استفساراتها، ويكون بيان النبي ﷺ تفسيرا، وعبر في حرف الشرط بـ «إن» للإشارة بقلة السؤال؛ لأن البيان يكون كاملا من كلامه تعالى ومن سنة النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ الضمير في عنها قال أكثر المفسرين: إنه عائد على الأسئلة التي تضمنها قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا﴾. ولكن ذلك التضمين ليس بواضح، والأولى عندي أن نقول: إن الضمير يعود على الأشياء نفسها؛ لأن الضمير في «عنها» يعود إلى الأشياء، وبمقتضى النسق البياني لن يعود الضمير إلى شيء، ولذلك العفو عن الأشياء مغزاه الشرعي؛ لأن الناس قد يتساءلون عن هذه المحرمات قبل تحريمها، فيتساءلون عن الخمر قبل تحريمها، ويتساءلون عن تحريم زواج المؤمنة بالكافر قبل التحريم، وعن التبنّي قبل التحريم، وعن زواج امرأة

الأب قبل التحريم، وقد أجيب عن كل هذا، عفا الله عما سلف، فالمعنى عفا الله عن هذه الأشياء قبل التحريم، وبهذا يتحقق معنى العفو، وهو رتبة بين المباح والمطلوب، وأن الأشياء التي كان مسكوتا عنها أمدا طال أو قصر في الإسلام ثم حرمت بعد ذلك لا يمكن أن تكون مباحة؛ لأنه لا تنطبق عليها حقيقة المباح؛ إذ إن حقيقة المباح أنه يكون متساوي الضرر والنفع بالنسبة للمتناول؛ ويرجع أحدهما التناول؛ أو الحاجات الشخصية؛ ولا يقال عن شئ حرمه الشارع تحريما قاطعا لا شبهة فيه إنه متساوي النفع والضرر؛ وما دام لم يوجد ما يثبت طلب الكف عنه، فإنه يكون في فترة السكوت مع كونه ضارا قد عفا الله تعالى عنه.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ هذا ختام ذلك النص، ختم بهذين الوصفين للذات الكريمة للإشارة إلى أن جعل هذه الأشياء القبيحة في ذاتها كالخمر والتبني وزواج امرأة الأب في موضع العفو، ما دام لم ينزل شرع بتحريمها لا يكون إلا من غفور يغفر الذنوب، ولا يحاسب إلا أن يكون نذير يمنع وينذر بالعقاب، كما قال سبحانه: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء].

وكان وصفه سبحانه وتعالى بالحلم، وهو فيما يتعلق بالعباد الثاني وأخذ الأمور بالتؤدة والروية، وبالنسبة لله تعالى علم الحكيم الذي يقدر لكل وقت ما يقتضيه، وللناس ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، فهو يؤخر التحريم، حتى تستأنس القلوب ويستمكن الإيمان، وهو لا يأخذ بالهواة ما يتعلق بأصل الإيمان كالتوحيد وترك الشرك، بل يتدى به من غير موانة، ويقول لنبية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝١٤﴾ [الحجر]؛ لأنه لب الدين، ليس فيه هواة، ولا لأحد فيه إرادة.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ هذا قصص للعبارة ساقه لأولئك الذين كانوا يتعرفون أحكام الأشياء قبل ميقاتها ويتلهفون على معرفة حكم الله في أمور كانوا يريدون بيان الحكم فيها، وكان موجب ذلك السؤال والتلهف على معرفة الحكم أن يستجيبوا لداعى الله تعالى بالأمر والنهي، ولكنهم بعد أن

جاء الحكم المقرر الثابت تركوه هاجرين له، بل منكرين وجاحدين، فليست العبرة بتسجل المعرفة إنما الاعتبار للإيمان به، وأخذ الأنفس بتنفيذه، والمبادرة بالاستجابة.

والضمير في قوله تعالى ﴿سَأَلَهَا﴾ يعود إلى الأشياء على تقدير السؤال عن حكمها، وسأل تتعدى بنفسها، كما تتعدى بـ «عن»، وقد كان سؤالهم قبل الميقات الذي عينه الله تعالى، ثم لما حان الميعاد جاء التحريم، مع أنهم كانوا يسألون قبل الميقات جحدوه وكفروا به، وفي الكلام مقدر محذوف دل عليه السياق، وهو أنهم سألوا في غير الموعد، ثم نزل الحكم في الموعد، فأصبحوا كافرين، وفي الكلام بعض إشارات بيانية، يتقاضانا البحث ذكرها.

الأولى - حذف إنزال التحريم، وحذفه لأنه ليس العبرة فيه، إنما العبرة في أنهم سألوا ولجوا في السؤال ثم لما جاء التحريم كفروا.

الثانية - التعبير بـ «ثم» الدالة على التراخي؛ لأنه يدل على التباعد المعنوي بين اللجاجة في السؤال ثم الجحود والكفر بعد ذلك كأنهم كانوا يريدون حكماً على هواهم، فلما جاء بما لا يهون كفروا.

الثالثة - التعبير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. فكلما أصبحوا تدل على أنهم كانوا مؤمنين، والتحريم حولهم من الإيمان إلى أشد الجحود، إذ صاروا كافرين، أي أن الكفر صار وصفاً لهم، ولم يكن حالاً عارضة لهم والله الهادي إلى سواء السبيل.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
 شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ
 لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
 فِيمَنْبِئِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

كان العرب يحرمون على أنفسهم أنواعا من النعم، ويحسبون ذلك دينا يتبع، ويتقرب به إلى منشىء الخلق من غير دليل، ولكنه وهمٌ سيطر عليهم، واستمكن في قبائل مختلفة منهم، فبين الله تعالى كلماته أن هذا ليس من شرع الله في شيء ولا سبب له إلا وهم مسيطر، ونسبوه إلى الله تعالى افتراء عليه، ولأنهم لا يعقلون ما ينبغي في التحريم والتحليل لأن التحليل لذات الشيء، وقد خلقها الله تعالى طيبة، وكان كسبها طيبا، والتحريم، إما لأذى في ذات الشيء، أو أن فيه أذى لغيره كتحریم الصيد في ميقات الحج.

وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ معنى «جعل» هنا أنشأ وشرع، والمعنى ما أنشأ الله تعالى شرعا في التحريم في شيء من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، أى هذه الأشياء ما شرع الله تعالى أحكاما خاصة بنعم متصفة بهذه الأوصاف، بل هى وسائر النعم سواء، والفرقة بينها وبين غيرها من وهم كان عندهم، لا من حقيقة ثابتة تدركها العقول، ويظهر أن العرب كانوا متفقين في الجملة على تحريم هذه الأنواع فلا يأكلونها أو لا يأكلها العامة منهم؛ إذ تنذر للكهنة، وذلك على اختلاف القبائل في أماكن بلاد العرب، ومع اتفاقهم على أصل التحريم بالنسبة لهذه الأشياء، قد اختلفت الروايات في حقيقتها، واختلف اللغويون باختلاف الروايات في حقيقة معناها. ويظهر أنه ليس اختلاف رواية أو اختلاف روايات متعارضة، إنما هو اختلاف قبائل العرب، وليس لنا أن نحصى

الروايات عدا ونراجع بينها، فنحن نميل إلى تصديقها جميعا، على أنها اختلاف بين القبائل، والمهم فى القضية أنهم يحرمون بأوهامهم، ويفرقون بين النعم بأخيلة وأوهام من غير أى أصل دينى ثابت.

ولنكتف فى تقريب هذه الأصناف برواية واحدة، وبلغوى واحد، وهو الراغب الأصفهاني، فالبحيرة عنده هى الناقة الى تلد عشرة أبطن فتبحر أذنفا أى تشق، وتترك ويسيونها فلا تركب ولا يحمل عليها، وقد قال تعالى فى ذلك:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنفا، فيسيونها، فلا تركب ولا يحمل عليها، والسائبة عندهم هى التى تسبب فى الرعى فلا ترد عن حوض، ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن، وواضح أن الفرق بينها وبين البحيرة فى المزايا أن ركوبها والحمل عليها لا يمنع، بينما يمنع فى البحيرة.

والوصيلة هى: الشاة التى تلد توءمين ذكرا أو أنثى، قالوا وصلت أخاها، فلا يذبحونه من أجلها كما لا يذبحونه، والحام هو كما قيل الفحل إذا ضرب عشرة أبطن يقال حمى ظهره، فلا يركب.

هذه تعريفات موجزة من بين الروايات المختلفة ذكرنا هذه الرواية لنقرب معناها، وكان تقديسها أو تكريمها لمعنى الولاد فيها، وأن بعضهم كان ينذرنا نذرا لألهتهم، وبعضهم كان يبيحها للكبراء دون الضعفاء ويحسبون ذلك دينا، وما هو إلا افتراء على الدين، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أصل الفرى معناه: القطع، والافتراء فى القرآن الكذب القاطع، فمعنى افتروا على الله الكذب، قالوا كذبا مقطوعا بأنه كذب، وما ذكر الافتراء إلا مقترنا بالكذب للإشارة إلى أنه كذب مقطوع بأنه كذب، ومعنى النص الكريم: أن الله تعالى لم ينشئ فى شرعه شيئا من البحيرة والوصيلة، ولكن الذين كفروا بسبب كفرهم وضلالهم قد قالوا بهتانا فحرموا على أنفسهم ما أحل الله، ونسبوا التحريم بهتانا

إلى الله تعالى، وما دفعهم إلى ذلك إلا أوهام مسيطرة على أكثرهم فلا يعملون عقولهم، ولا يفكرون في أمورهم تفكير العقلاء، بل أوهامهم هي المتحكمة فيهم، ولذا ختم سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ومع هذا الضلال المبين لا يستجيبون لداعى المرشد الهادى الذى يدعوهم إلى ما أنزل الله، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ما كان بالنسبة للحلال والأطعمة صورة مما هم عليه من الأوهام، وهى وإن لم تكن فى ذاتها أمورا كبيرة تدل على عقل جامد لا ينفذ إليه الحق السائغ الذى تستقيم عنده العقول، وترتاح إليه، فإن صغائر الأمور تدل على النفوس التى تتردى فى كبارها، وأولئك لجمود تفكيرهم وطمس بصائرهم إذا قيل لهم تعالوا، أى تساموا واعلوا بتفكيرهم لتدركوا ما أنزل الله تعالى من قرآن يتلى، وما بين به النبى ﷺ من نيرات واضحات، إذا قيل لهم أعرضوا بجانبهم، تولوا وقالوا حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا، وتلك حجة كل ضال مقلد لمن سبقوه وترك كل هداية مرشدة، والامتناع عن الإصغاء إلى الحق.

ولم يذكر الفاعل فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ وذلك لكثرة الدعاة وتكرار الدعوة، فالله يدعوهم إلى الحق، والنبى ﷺ يدعوهم، والمؤمنون بأقوالهم ولسان حالهم يدعونهم، والدعوة لهم مكررة ليست واحدة حتى يذكر قائلها، ويندد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله:

﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ والمعنى أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا، ويقلدونهم، ويتبعونهم، ويغلقون باب الهداية عليهم ولو كان آبائهم لا يعلمون شيئا من الدين، ولا من الحلال والحرام، ولا يهتدون إذا بين لهم الطريق، أى ولو كانوا حائرين باثرين لا يدركون الحق فى ذاته ولا يهتدون إليه إذا أرشدوا وبين لهم.

ولقد كان النبي ﷺ شديد الرغبة في هدايتهم، حتى خاطبه ربه بقوله:
﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) ﴿[الشعراء].

وكان كذلك المؤمنون، فبين الله أنهم غير مسئولين عن إيمانهم بعد أن يرشدوهم، فقال تعالى كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

كان المؤمنون يعجبون من حال الكفار كيف يتبعون آباءهم على غير بينة وكيف يستمرون في غيهم، ومنهم ذوو قرى، فكانوا يرشدونهم، ويجزعون لإصرارهم، فبين الله تعالى في هذا النص الكريم أنهم بعد البيان ليس عليهم إثمهم، بل عليهم أن يلزموا بعد التوجيه أنفسهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. احفظوا أنفسكم وصونوها عن الاتباع من غير تفكير، فلا تقلدوا آباءكم من غير بينة، واهتدوا بهدى الله، ولا يضركم ضلال من ضل واستمر على غيه بعد أن أرشد إلى وجه الحق، ولكن لم يدخل قلبه بل استمر على ضلاله القديم؛ فهذا النص الكريم يفيد أمرين: أولهما - أن يحفظوا أنفسهم، ويقوها شر التقليد المردى، ويعملوا على أن تبقى الهداية منيرة سبيلهم عامرة قلوبهم بها. وثانيهما - أنه لا يضرهم ضلال الضالين، ما داموا قد تجنبوا طريق الغواية هم، وأرشدوهم إلى الحق.

ولعل ظاهر الآية يوهم أنه لا يضر ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مادام لا يضر المؤمن ضلال من ضل، وقد ظهر ذلك الفهم الخطأ في عهد صديق هذه الأمة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقال: إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وتضعونها في غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب»^(١) والآية ليس فيها دليل ناه عن الأمر

(١) رواه بنحوه أحمد: مسند العشرة - مسند أبي بكر رضي الله عنه (١). ورواه بلفظ مقارب جدا:

ابن ماجه: الفتن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

بالمعروف والنهي عن المنكر، والآيات الأمرة بهما، والأحاديث الواردة فيهما لا تزال قائمة ولا ينسخها وهم يسبق إلى ذوى الأوهام من غير نص يدل عليه، ولقد سئل النبي ﷺ عن مقام هذه الآية بالنسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال عليه الصلاة والسلام: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شرا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم»^(١) وروى عن بعض التابعين أنه قال: كنت فى حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله تعالى قال فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. فأقبلوا على بلسان واحد، وإنى لأصغرهم سنا، وقالوا: أتتزع آية من القرآن لا تعرفها، ولا تدري ما تأوليها؟! فتمنيت أنى لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم، قالوا: إنك غلام حديث السن، وإنك نزع آية ولا تدري ما هى، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شرا مطاعا وهوى متبعا، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك لا يضركم من ضل إذا اهتديت.

وخلاصة المروى عن آثار رسول الله ﷺ والذين اتبعوههم بإحسان أن الآية لا تمنع القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل القيام به واجب محكم وإنه لا يتم الاهتداء المنصوص عليه فى الآية إلا بالقيام بهذا الواجب الخطير، وإنه لا يترك إلا بحقه، وذلك إذا كان النداء بالحق يورث الفتن عندما يكون الهوى مطاعا والشر متبعا ولا يستطيع منادى الحق، أن يجد مصيخا^(٢) وقوله يزيد حدة الخلاف، ولا يكون سماع لذوى الكيس والرشد، ولقد قال عبدالله بن المبارك: إن هذه الآية أؤكد فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الخطاب لجماعة

(١) رواه الترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة المائدة (٣٠٨٥) وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. كما رواه أبو دود: الملاحم - الأمر والنهي (٤٣٤١)، وابن ماجه: الفتن (٤٠١٤)، وفيه زيادة: «ورأيت أمرا لا يدان لك به» أى لا قدرة لك به.

(٢) مصيخا: مستمعا. القاموس - صيخ.

المؤمنين، ومؤداهما حفظوا أنفسهم معشر جماعة المؤمنين، ولا يهتمكم ضلال غيركم من الأمم، ولا يجعلكم تغيرون أموركم إلى فساد، ولا شك أن من حفظ جماعة المؤمنين القيام بذلك الواجب العظيم.

وفى الحق إن القيام بهذا الواجب هو خاصة الأمة الإسلامية كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران]. ولا يصح أن يتخلى عنه، وليس فى مصادر الشريعة ولا فى مواردها ما يسوغ التخلى، وأن ترك القول فى أيام الفتن الطحياء^(١) التى يكون القول مؤديا إلى زيادة فى الفتن والاتهام، فلا يجدى قول، ولا يهدى فكر إلى الرشاد، فيكون السكوت أولى من الكلام، حتى تهدأ عجاجة الفتنة، وتعود القلوب إلى جنوبها، ويوجد السميع، ولكن فى هذه الحال يكون الإنكار القلبى، وإرشاد القابلين للإرشاد، فى غير ضجيج ولا عجيج والله سبحانه وتعالى راد الحق إلى نصابه، والقضب إلى أجفانها، وهو بكل شىء عليم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدُوا
بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ١٢١ فَإِنْ عُرِضَ

(١) من الطيح وهو الهلاك كما فى «العين»: وطَوَّحْتُ به: حَمَلْتُ على رُكُوبٍ مَفَارِةٍ يُخَافُ هَلَاكَهُ فيها. قال أبو النجْم: يَطُوحُ الهادي به تطويحًا.

أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ
 اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ
 مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ
 أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ
 أَيْمَنِهِمْ فَاسْتَقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه وتعالى أحكام الطيبات وأنه لا يجوز
 تحريمها، وأن المشركين يحرمون على أنفسهم ما أحل الله تعالى، ويدعون أن
 تحريم ذلك دين متبع، وقد بين سبحانه وتعالى بطلان ذلك، وبين سبحانه وتعالى
 أن على المؤمنين أن يحفظوا أنفسهم، ويلتزموا الهدى، وألا ينحرفوا عن الحق،
 وفى هذه الآيات المقبلة بيان طريق من طرق الإثبات وهو الإثبات بالشهادة،
 والجملة السابقة كانت لبيان الحق فى عامة صوره وأحواله، وهذه الآيات فى صورة
 منه وهى أدق الصور، وهى التى تكون بعد الوفاة، لقد قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
 عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال فخر الدين الرازى فى الربط بين هذه الآية وما قبلها: «اعلم أنه
 تعالى لما أمر بحفظ النفس فى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أمر بحفظ المال فى
 قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾»، وموضوع هذه الآية أدق
 الموضوعات فى باب الإثبات، وقد قرر علماء القانون الوضعى دقة الإثبات فى
 موضوعها، وهو الوصية التى تكون فى سفر، ويموت صاحبها فى هذا السفر،
 وإنهم قد تساهلوا فى طرق الإثبات فيها تحققاً من صحة الوصية والأموال ومآلها،
 حتى لقد قال بعض القانونيين: إنه تثبت الوصية بالكتابة على الرمل لمن حضرته
 الوفاة، وهو نائم على ذلك الرمل؛ وذلك لأن الإثبات فى هذه الحال التى مات
 فيها صاحب الوصية من غير أن يتمكن من أن يكتب وصيته صعب.



ولهذا شدد الإسلام فى ضرورة كتابة الوصية، والشخص قوى معافى، حتى لا يدركه الموت قبل أن يتمكن، حتى أن عبدالله بن عمر ليقول: (لا يحل لمؤمن إلا أن يبيت ووصيته مكتوبة قد وضعها تحت وسادته).

الخطاب فى قوله تعالى للمؤمنين بقوله تعالت كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه من مقتضيات الإيمان العناية بالوصية، ونقلها وتنفيذها بالعدل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ...﴾ (البقرة: ١٨٧).

والشهادة على الوصية نصابها اثنان ذوا عدل منكم والعدالة هى الصدق فى القول والأمانة على المال والقيام بأوامر الدين، والانتهاى عن منهياته، بحيث لا يجاهر بمعصية، ولا يرتكب منكرا إلا اللثم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّثَمَ...﴾ (النجم: ٣٢) [الذم] والقيام على الوصية يكون بتنفيذها كاملة موفورة، والمحافظة على الأموال، ونقل إرادة صاحب تلك الأموال.

وإنه لا يتوافر العدل فى كل الأحوال فى الوصية، فإنه قد يكون الموت فى سفر، ولا يتوافر العدل من المؤمنين، فقد يكون المصاحب للمتوفى من غير المؤمنين، أو من غير العدول، ففى هذه الحال يتساهل وتقبل شهادة غير المسلمين، ولذا قال سبحانه:

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ما المراد بهذا المغاير؟ وذلك يستدعى بلا ريب تفسير (منكم) فقد قال بعض العلماء: إن منكم معناها من قبيلتكم، أو من أقاربكم، ويكون من غيركم معناه من غير قبيلكم أو من غير ذوى قرابتكم، والجميع فى دائرة أهل الإيمان، ويتمسك هذا الفريق بأنه لا تقبل شهادة غير المؤمن، فلا يمكن أن يكون المراد من غيركم الكافرين؛ لأن الكافر لا تقبل شهادته على المؤمن عندهم.

وقد قال آخرون: إن المراد بقوله تعالى ﴿مِنْكُمْ﴾ هو أن يكون الخطاب للمؤمنين؛ لأن النداء في الذين آمنوا لا في قبيل منهم، إذ النداء لهم قاطبة لا لفريق منهم، ولذلك يكون الاثنان اللذان من غيرهم من غير المؤمنين، ومقتضى هذا التخريج أن تقبل شهادة غير المسلمين في هذه الحال، وقد أجازها جمع من التابعين منهم سعيد بن المسيب وابن سيرين، ويحيى بن يعمر، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وقتادة، وشريح القاضي، وهذا رواية عن أحمد بن حنبل، وقد قرروا أن شهادة غير المسلم على المسلم تقبل في حال السفر، وعلى أن تكون الشهادة في وصية كما نص القرآن الكريم، وذلك لمقام الضرورة، ولئلا ضياع الحقوق ما أمكن ولأن ذلك يشبه التحري، ويكون المراد من العدالة الاشتهار بالصدق والأمانة، ومنهم من يكون كذلك، وإن أصاب الضلال اعتقاده، وثانياً لأن قبول شهادتهم استثناء فيقتصر على موضع الوصية، فيقتصر على مورد النص، وهي تقييد الحال بحال السفر، وتقييد الموضوع بأن يكون في الوصية.

وهنا إشارات غير لفظية:

الأولى - قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. المراد به إذا سافرتهم؛ لأن المسافر يضرب في الأرض، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

الثانية - قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾. أي نزل بكم، وسماه سبحانه وتعالى مصيبة؛ لأنه بطبيعته يؤلم أو يصحبه أو يقارنه أو يسبقه آلام نفسية، ولأنه حق ليس بمحبوب وخصوصاً لمن يموتون حتف أنفسهم، ولا يموتون استشهاداً في سبيل الله تعالى، ورجاء لقائه، ولأنهم يفدون بموتهم جماعة المؤمنين؛ فالثمن الذي أخذه أغلى من الموت الذي قدموه.

الثالثة - أنه عندما ذكر سبحانه الاثنين من غير المؤمنين لم يذكر العدالة ولكن المفروض أن يكونا صادقين اشتها بالأمانة، ولكن لم تذكر العدالة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير المؤمن عدلاً مطلقاً، بل تكون مقيدة.

هذا، ويلاحظ أن الأئمة الثلاثة مالكا والشافعي وأبا حنيفة وأصحابه لا يقبلون شهادة غير المسلم على المسلم مطلقا في سفر أو حضر، في وصية أو غير وصية، ويظهر أنهم يسيرون على التخييع الأول.

وقد بين سبحانه طريق أداء الشهادة، فقال: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرَبْتُمْ﴾ الضمير في قوله تعالى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يعود على الشاهدين ذوى العدل من المسلمين أو من غيرهما، والحبس الإمساك لأداء الشهادة اللازمة حتى تؤدي، والصلاة كما يفسر التابعون الذين تلقوا تفسير أصحاب رسول الله ﷺ يراد بها صلاة العصر؛ إذ يكون وقت استجمام النفس، واستحضار عظمة الله تعالى، وطيب الجو، والفقهاء يعتبرون من السنة سماع الشهادة بعد صلاة العصر، حيث تكون النفوس قارة مطمئنة، وإذا كانا غير مسلمين، فإنهما يسمعان بعد صلاتهم.

وهذا حكم عام، ويلاحظ أن شهود الوصية لهم صفتان: إحداهما - صفة الشاهد العدل المخبر عن الواقع الناطق بالصدق فيه الذى يشهد على مثل الشمس عيانا، الصفة الثانية - أنهما وصيان للميت أمينان على ماله، يحافظان عليه، حتى يصل إلى أهله، ويسلم إليهم موفورا غير منقوص، ولذلك كان حقا عليهما أمانة الله تعالى، ولذلك كان أى ريب فيهما يؤدي إلى ضياع المال وحق المتوفى، وحق ذويه، ولذلك شرع القسم إن كانت ريبة أى ريبة كانت، ولو كانت نفسية ليس لها مظاهر مادية، ولذا قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرَبْتُمْ﴾ وهذا النص الكريم يفيد أن الحبس بعد الصلاة والقسم على صدق القول لا يكون إلا حال الارتياب، وبهذا يرد قول الذين يقولون: إن الشهود لا يستقسمون، أولا - لأن هؤلاء ليسوا شهودا من كل الوجوه، لأن لهم صفة أنهم أوصياء، والأوصياء يحلفون إن كان ثمة ريبة في تصرفهم، وثانيا - لأن الحال حال استثنائية فيجب ما أمكن الاحتياط، والحلف عند الارتياب، فلا بد من توثيق القول بالوثائق، لئى يكون الاطمئنان بدل الشك والارتياب، وبين سبحانه تميما للاستيثاق صيغة اليمين، فقال:

﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾

الشراء يطلق بمعنى البيع، والمعنى لا نبيع يمين الله تعالى الذى أقسمنا به، ولا عهدنا الذى عاهدناه بهذه اليمين بأى ثمن كائنا ما كان وبأى قدر كان، فالضمير يعود على القسم بالله المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أى ولو كان الذى يستفيد من شهادتنا ذا قرابة قريبة، فكلمة قري لا تطلق إلا على القرابة القريبة التى تحمل غير الأتقياء على الكذب فى الشهادة، ومن موضوع القسم، والتغليظ فيه عدم كتمان الشهادة، وكتمانها هنا يشمل ثلاث صور من الكتمان: أولاها- أن يخفى بعض الحق، وثانيها- أن يخفى بعض الموصى به فلا يذكره كله، والصورة الثالثة- لمن لا ينقل كلاما للموصى يحرر إرادته. ومن مؤكدات القسم أن يقولوا مع قولهم فى القسم «لا نكتم»: ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

وذلك بأن يقرؤا على أنفسهم بالإثم إن حادوا أو كذبوا فى يمين الله، أو قالوا غير الحق الذى كانوا أوصياء عليه، وقد أكدوا الإثم على أنفسهم فى إيمانهم بمؤكدات أربعة: أولها- التعبير بالجملة الاسمية، ثانيها- التوكيد بـ «إنّا»- ثالثها- اعتبار الحكم على أنفسهم بالإثم نتيجة منطقية لأعمالهم، وإلخفافهم الحق، ورابعها- أن يخرجوا من زمرة الأبرار الأطهار ويدخلوا فى زمرة الآثمين الأشرار، وأ الأمر بالنسبة للذى غيب فى التراب، وهو لا ينطق بما يريد، ويبين ما عليه حاله وماله يوجب الاحتياط فيهما قبل الشهادة، والتحرى على أمره بعد وفاته، فعسى أن يكون حق قد ضاع شىء، وقد تبين سبحانه حال العثور عليه، فقال:

﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَأَنَّ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ

الْأُولَيَانَ﴾ عثر الرجل يعثر عثرا إذا وقع على أمر لم يكن معلوما من قبله، ولم يقع عليه غيره ممن يهملهم، ويقال: عثرت فلانا على أمر أطلعت عليه، وكل من اطلع على أمر كان خفيا يقال: قد عثر عليه، والعثور على الشىء يكون فى الغالب العلم الذى لم يكن له مقدمات عنده، بل ربما يكون الإطلاع عليه بالمصادفة.



والأمر فى هذه الحال الذى يموت فيها المورث يكون محل جهل إذ يموت فى سفر، ولا طريق للعلم إلا عن طريق هذين الشاهدين اللذين لهما مع الشهادة صفة الوصية، والعثور يكون بمثل الاطلاع على شىء من ماله عندهما لم يكن قد جرى ذكره على لسانهما، ومعروف عند ورثته أنه كان يملكه، أو يظهر عليهما يسار مفاجئ ويتبين من قرائن الأحوال أنه كان من ماله، أو يظهر من كتب أرسلها المتوفى قبيل وفاته تدل على ما كان يملكه عند الوفاة، ولم يذكر فى شهادتهما وهكذا يكون العثور على شىء لم يكونوا يعلمونه.

ومعنى قوله تعالى استحقا إثما - أى أنهما خانا فى الأمانة، فلم يقوما بحق الوصاية، وكذبا فى الشهادة فلم يصدقا، وحلفا يميننا غموسا تغمس صاحبها فى النار، فاستحقا قهما للإثم بسبب ذلك الكذب وتلك الخيانة، والحلف الكذب، وقوله تعالى: ﴿اِسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ تتضمن كل هذه المعانى وغيرها، والإثم هو هذه المعانى كلها، والعثور على ما يتضمن ضياع حقوق الورثة، وذهاب أموالهم، وما قالوه فيه بخس لما يستحقون، وضياع لما يملكون، إذ قوله تعالى حين الوصية أى حين إخبار المتوفى بأمواله وإيصائهم بالمحافظة عليها، وتوزيعها بين مستحقيها وإذا كانت جناية هؤلاء على المستحقين للتركة، فالقول قول المستحقين يدلون به، ولذا قال سبحانه: ﴿فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾. أى فشاهدان آخران يقومان فى إحقاق الحق، وإظهار الحقيقة، وبيان ما خفى من إرادة المتوفى وأمواله وما له من حقوق وعليه من واجبات مقام الأولين، وهذا التعبير من اللطف التعابير بعد ظهور الإثم، إذ إنه ينبئ عن التعاون بين هؤلاء الأئمين، والأبرياء فى إظهار الحق، إذ إن المجنى عليهم يقومان مقام من جنوا.

وقد بين سبحانه من الذين يختار منهم الآخران اللذان يقومان، فقال سبحانه: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ﴾ فى هذا النص السامى بيان من يختار منهم، وكيف يختاران، والضمير فى قوله تعالى ﴿اِسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ يعود على الإثم المذكور فى من استحقا إثما، وهو الفاعل؟ والمعنى أن الذى يكون منهم الآخران

الذين استحق الإثم عليهم أى حقت آثاره ومغبتة عليهم وهم الورثة، وهذا على قراءة الفعل بالبناء للمعلوم، ومعناها - كما رأيت - الذين حقت عليهم مغبة الإثم ونتائجه، وهم المستحقون للمال بعد وفاة المتوفى بوصية المورث أو بوصية الله تعالى بالميراث، وهناك قراءة بالبناء للمجهول^(١)، ومعناها الذى استحق عليهم أى أخذ منهم بمقتضى الشهادة الباطلة، والمؤدى فى القراءتين واحد.

ذكر النص أنهما الأوليان بالنطق بالحق لأجل الورثة، إما لأنهم أقرب الورثة أو لأنهما أرشدهم، أو ألحق بمحبتهم.

ومعنى النص الكريم على هذا أن اللذين شهدا المتوفى عند وفاته هما أولى الناس بذكر الحقيقة، وإن كان ترتيبا يحبسان بعد الصلاة ويستقسمان قسما موثقا، فإن ظهر ما يدعو إلى تكذيب شهادتهما فى كليهما أو فى بعضها، كان للمستحقين للتركة حق الشهادة ويختار أولاها بالتحدث عن المتوفى، وهذا معنى (أوليان)، وهى خبر لمبتدأ محذوف، وتدل على طريقة الاختيار، وإن هؤلاء لأن المال يثول إليهم لا يقبل قولهم إلا بيمين لأنهم بمنزلة المدعى عليه بكلام الأوصياء الذين يكذبونهم، ولذا قال سبحانه:

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، وتقديره إذا كنا يتقدمان لإحقاق الحق فلا بد أن يقسما بالله، وهنا إيجاز معجز، إذ يقسمان بالله تعالى على الختل^(٢) فى الأمانة وعلى ما يريان أنه الحق، ثم يقسمان مع ذلك على أمرين أولهما - أن شهادتهما أحق بالقبول من شهادة الآخرين لصدقها، ولظهور الخيانة فى قولهم، ولأنه فقدت قوتها لعدم الأمانة، وثانيهما - أن يقسما على أنهما ما اعتديا، بأخذ

(١) قرأها بالفتح «استحق» حفص، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم (غير النكار، وجبله)، وقرأ

الباقون بالضم، أي: «استحق». أفدته من غاية الاختصار - برقم (٨١٧).

(٢) فيقسمان على (عدم) الختل. والختل: الخديعة. من: خَتَلَهُ يَخْتُلُهُ وَخَتْلًا وَخَتْلَانًا: خَدَعَهُ.

كما فى القاموس: ختل.

ما ليس بحقهما، وكان التعبير بنفى الاعتداء؛ لأنهما مطالبان، والمطالب يخشى اعتداؤه؛ لأن كذبه يتضمن اليمين الغموس، ويتضمن الأخذ بغير حق، فيكون اعتداء، ولقد أكد الله سبحانه وتعالى عليهم عدم الاعتداء بأن يقولوا: ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وذلك فيه تأكيد لعدم الاعتداء، وبيان أن شهادتهما أحق من شهادة الأولين، إذ لو لم يكونوا صادقين لكانوا ظالمين، وقد أكدوا ظلمهم بأربعة مؤكيدات: أولها - الجملة الإسمية، وثانيها - بأن المؤكدة، وثالثها - بإثبات أن الحكم بالظلم له مقدماته فيكون منطقياً، ورابعها - دخولهم فى زمرة الظالمين، وخروجهم من طائفة الأبرار الأخيار.

وإن ذلك كله تقريب للحق، وبعد عن الباطل، ولا يمكن أن يكون الحق مؤكداً من كل الوجوه، بل لا بد من التقريب دون التحديد، ولذلك قال سبحانه:

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾

الإشارة فى ذلك إلى النظام كله الذى نظمہ القرآن الكريم، والنسق الحكيم من الشهادة التى يقوم بها الوصيان تكون ابتداء من أهل التقوى، ويعتمد على تقواهم وعدالتهم، فإن أسكبا بعد الصلاة، وأخذت عليهما الأيمان المغلظة ويتعرف الأمر من ورائهما، ولا يترك من غير تحريات كاشفة، فإن عثر على أن الشهادة فيها إثم أو غير حق استشهد غيرهما من الذين ينقص حقهم بشهادتهما، واختير أولى الناس من المستحقين بالقول، ذلك النظام كله أقرب إلى أن يؤدى الشاهد الشهادة على وجهها، إما لأنه يريد الحق لذات الحق، أو لأنه يخاف أن الأيمان الشاهدة الجارية على لسان غيره بعد يمينه تعلن كذبه على الأشهاد، وخيائته بين الجمع والآحاد، فمعنى ترد أى تترك أيمانهم، وتطرح ويعاد القول إلى غيرهم بعد تكذيبهم.

والنص يومئى إلى أنه إذا عثر على كذب بعد شهادة الأقربين ترد الشهادة على من يليهم حتى لا يضيع حق قط.

ولقد يروى الرواة قصة فى هذا الموضوع ويذكرونها على أنها سبب النزول، وإننا نذكرها؛ لأنها موضحة للوقائع، جاء فى تفسير ابن كثير «عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾. قال: برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بدار، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام (أى إسلامهما) فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بدیل بن مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله، قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدى، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إلى أهله ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه، فقلنا ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها، فوثبوا عليه، فأمرهم النبى ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل المدينة فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾. إلى قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ فقام عمرو بن العاص، ورجل آخر منهم فحلفا، نزعنا الخمسمائة من عدى بن بدار^(١) وهكذا... وقد ختم الله تعالى بيان ذلك الحكم الشرعى بقوله تعالت كلماته:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا لِلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ختم الله تعالى بيان ذلك الحكم الشرعى الدقيق بأمرين، وذكر أمر كلى، أما الأمر الأول فهو الأمر بالتقوى بأن يملأوا قلوبهم بخشية الله تعالى ومهابته، واتقاء عصيانه، وجعل وقاية بينهم وبين عذابه، وذلك أمر لازم لكل مؤمن، وخصوصا لمن يودعون أسرار الناس، الذين لا يستطيعون دفع الكذب والباطل عنهم.

(١) رواه البخاري: الوصايا - باب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ﴾ (٢٧٨٠)، ورواه مطولا،

الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة المائدة (٣٠٥٩) عن ابن عباس عن تميم الدارى.

والأمر الثانى - هو ما قرره بقوله سبحانه: ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أى اسمعوا قول الحق وعوه، واعملوا به ولا تيسؤوا، ولا يأخذكم السأم عن أن تسمعوا كل قول حتى تصلوا إلى الحق الذى تبتغونه.

وأما الأمر الكلى فهو أن الله سبحانه وتعالى لا يهدى القوم الفاسقين، ومعنى عدم هدايتهم أنهم بسبب ما اكتسبوا من سيئات الفسق، وما أحاطت به خطيئاتهم أصبح الحق لا يدخل إلى قلوبهم، فلا يهتدون لأن الفسق صار شأنًا من شئونهم، ولا يمكن أن تلتقى الهداية مع الفسق فى قلب من فسق عن أمر ربه. اللهم جنبنا الباطل وأهله، إنك سميع مجيب.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوْا لَا عِلْمَ
لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ
الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ
جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ (١١٠)

الكلام من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ
أَوْلِيَاءَ...﴾ (٥٥) [المائدة]. كان فى أهل الكتاب، ومعاندة اليهود، وتحريف

النصارى عقيدة المسيح عليه السلام، ثم بين سبحانه علاقة المسلمين بالمشركون واليهود، ومن جاورهم من النصارى، وبين أن الأخيرين كانت علاقتهم بالمسلمين مودة، وذكر الرهبان عندهم، وبين بهذه المناسبة إباحة القرآن للطيبات، وأشار إلى تحريمه للخبائث فى ذاتها بتحريم الخمر، ثم أشار إلى ما حرم من مكان معلوم ووقت معلوم ثم ذكر مكانة الكعبة، وما حرمه المشركون على أنفسهم من غير حجة ولا سلطان مبين، ثم تكلم عن شهادة أوصياء الميت إذا مات غريبا وكان المناسب بعد ذلك أن يتكلم عن حال الناس بعد أن يجمعوا يوم القيامة، ومقالة الرسل لمن بعثوا إليهم، وأخصهم عيسى - عليه السلام - الذى ادعيت أولوهيته، فقال تعالت كلماته:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوْا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قال كثيرون من المفسرين، وعلى رأسهم إمام البلاغة الزمخشري: إن هذه الآية غير مقطوعة عن سابقتها من ناحية السياق اللغوى؛ لأن ﴿يَوْمَ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا﴾: أى اتقوا الله تعالى واسمعوا الحق وأنصتوا إليه يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل، ويسألهم عن إجابة أقوامهم لدعواتهم الحق، ويصح أن تكون متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. والمعنى، والله سبحانه وتعالى لا يهدى القوم الفاسقين إلى ما فيه نعيم يوم القيامة، يوم يجمع الله الرسل ويسألهم؛ لأن اليوم ليس بيوم تكليف ولكنه يوم جزاء، ويكون الفسق شاملا للكفر؛ لأن الكافر فاسق عن أمر ربه.

وبعض المفسرين، قطع الآية عما قبلها واعتبرها إنذارا مبتدءا، وقالوا إن قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾. متعلق بمحذوف مقدر هو - اذكر - لاهل الكتاب يوم يجمع الله الرسل.... فى هذا اليوم المشهود يقول الله تعالى مخاطبا رسله الأكرمين بالتجلى عليهم:

﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾. والمعنى أى إجابة أجبتموها؟ وذكر بالبناء للمفعول، ولم يذكر أقوامهم، فلم يقل ولله المثل الأعلى أى إجابة أجاب أقوامكم، تحقيرا



لأولئك الأقوام، إذ جهلوا مع أسباب العلم، وكفروا مع قيام ذرائع الإيمان، ولأن الصلة بينهم وبين رسلهم قد قطعت يوم القيامة، فلا ينالون شرف الاتصال بهم، إذ الاتصال كان للهداية وقد حرموها.

وكانت إجابة الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أى إنك أنت وحدك العالم علما ليس فوقه علم؛ لأن التعبير بصيغة المبالغة:

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أى لكل ما يغيب عن الناس أجمعين، وما يغيب عنهم.

ولكن لماذا نفوا عن أنفسهم العلم، مع أن عندهم بعض العلم؟ وقد أجيب عن ذلك بأنهم علموا أن المقصود استنكار حال من بعثوا إليهم وتوبيخهم، فساروا على مقتضى السياق، وقالوا: لا علم لنا فى هذا بل أنت الأعلم، وقيل فى الجواب عن هذا: إنهم كانوا فى حال ذهول، فنفوا عن أنفسهم العلم فى حال ذهولهم، وقيل فى الجواب أيضا: إنهم استحققوا علمهم بجوار علم الله تعالى، وقيل: إن علمهم كان بمن عاصروهم لا بمن جاء بعدهم، وقد جاء فى الكشف فى توضيح الجواب الأول ما لا يغنى عنه التلخيص، فقال - أى الزمخشري - رضى الله عنه:

(فإن قلت: كيف يقولون لا علم لنا، وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت: يعلمون أن الغرض من السؤال توبيخ أعدائهم، فيكون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجابتهم إظهارا للتشكى، واللجأ إلى ربهم فى الانتقام منهم وذلك أعظم على الكفرة، وأفت فى أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم فى أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله تعالى وتشكى أنبيائه عليهم، ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان وخاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان، واطلع على كنهها، وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينها، ويقول: ما فعل بك هذا الخارجى، وهو عالم بما فعل به يريد توبيخه وتبكيته، فيقول له: أنت أعلم بما فعل بى، تفويضا للأمر إلى علم سلطانه، واتكالا عليه، وإظهارا للشكاية، وتعظيما لما حل منه، وقيل: من هول ذلك اليوم يفرعون ويذهلون عن الجواب،

ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أنفسهم، وقيل معناه: ساقط مع علمك ومغمور؛ لأنك علام الغيوب، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي فيها إجابة الأمم لرسلمهم، وقيل: لا علم لنا ما كان منهم بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة، وكيف يخفى عليهم أمرهم، وقد رأوهم سود الوجوه موبخين).

ولقد كان الذين أرسل إليهم منهم من حرّف الدعوة، وجحد بعضها، ومنهم من آمن، ولكن الذين حرفوا من المسيحيين لم يحرفوا الدعوة فقط، بل تكلموا في شخص المسيح عليه السلام، وأخرجوه من البشرية في زعمهم وافترؤا له الألوهية، ولذلك خصه الله تعالى بذكر ما يكون له يوم القيامة، وما أجرى من معجزات على يديه:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ «إذ» هنا بدل من يوم يجمع الله الرسل، أى اتقوا الله واسمعوا يوم الجمع، ووقت أن يخاطب عيسى - عليه السلام - بهذا الخطاب، وعيسى - عليه السلام - بعث فى قوم لا يؤمنون إلا بالمادة، وبالأسباب الظاهرة، ويستندون كل أمر فى هذا الوجود إلى سبب يعلمونه، لا يؤمنون بالروحانيات، ويكفرون بما لا يعلمون بالأسباب، فجاء عيسى - عليه السلام - روحانياً ظاهر الروحانية، وجاء من غير أب ليكون شخصه خرقاً للأسباب، ولتكون مظاهر حياته دافعة للمادة، يخاطب الله عيسى - عليه السلام - بقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾. وفى هذا النداء إشارة إلى أنه ابن مريم لا ابن أحد سواها فقد ولد من غير أب، والإله أو ابن الإله لا يمكن أن يكون متولداً، ولا يمكن أن يكون محدثاً ومخلوقاً، فهذا النداء فى ذاته مع بيان حقيقة سيدنا المسيح عليه السلام رد عليهم وعلى افترائهم فى وقت لا يستطيعون فيه تمويه الباطل وتزيينه بقول الزور والبهتان الآثم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى عيسى - عليه السلام - في ذلك اليوم المحشود، وما كان التذكير إلا للمبطلين الذين افتروا عليه، وهو سرد لنعم الله تعالى على عيسى وأمه، وأنه مخلوق من فضل الله، وما أعطى من خواص بفضل من الله تعالى، وهو مانحها ومعطيها، وما دام هو المانح، وهو المعطى، فلا فضل لعيسى على أحد إلا بفضل من أعطى، ولا يمكن أن يكون له ولدا أو قرينا.

وابتداً سبحانه بتذكير نعمته عليه وعلى أمه، ونعمته على والدته مشهورة في القرآن قد ذكرها سبحانه وتعالى في سورة آل عمران فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذْ قَالَتُ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧ [آل عمران: ٣٣ - ٣٧] إِلَىٰ أَنْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران].

كانت السيدة مريم - على هذا النسق المتلو - مصطفاة من قوم مصطفىين أخيار أطهار وكفلها نبي، وخاطبتها الملائكة حتى قال الأكثرون إن فيها نبوة ولا يعلم أن أنثى كانت من الأنبياء غيرها.

ونعمة الله تعالى على سيدنا عيسى ذكرها الله تعالى بقوله تعالى:

﴿إِذْ أَيْدِيكُ بَرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ نعمتان ذاتيتان

كانتا مع شخص المسيح - عليه السلام - وليس فيهما أمر كسبي، بل فيهما خلق روحاني، أما الأولى، وهى التأييد بروح القدس فلها تخريجان أو هما معا، أولهما - أن الله تعالى أيده بطبيعة روحانية مطهرة فى وقت سادت فيه المادية

وسيطرت، فخلق الله تعالى فيه تلك الطبيعة الروحانية، فمعنى قوله روح القدس روح الطهارة والنزاهة والكمال الذى اتسم به، وأى نعمة أجل من هذه النعمة، والتخريج الثانى أن معنى أيدناه بروح القدس أيدناه بجبريل عليه السلام، فقد عبر فى القرآن بروح القدس وأريد به جبريل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ...﴾ [النحل].

وعندى أن الأمرين يجوز جمعهما، وكلاهما صادق فعيسى عليه السلام كان روحانيا مطهرا، وكان مملوءا بالروح المطهرة، وأيده جبريل هو وأمه، كما قال تعالى، فى تبشيرها بالمسيح عليه السلام وولادته: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٤﴾ وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ٢٦﴾ فَآتَتْ بِهِ فَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣﴾ [مريم].

هذه نعمة التأيد، وهناك نعمة أخرى هى فى ذاتها نعمة، ولذا ذكرت منفصلة مقرونة بكلمة «إذ» أى اذكر - وهى أنه تكلم فى المهد، أى تكلم وهو مولود، فالهد مكان تربية الطفل عقب ولادته، وذلك تأييد لبراءة مريم البتول



وذكر كلامه وهو كهل، عندما استوى رجلا مكتملا، للإشارة إلى أن كلامه وهو في المهد يشبه كلامه وهو رجل مكتمل، وتلك حكمة الله تعالى، وبيان أن الأسباب لا تتقيد بها إرادة الله تعالى.

﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ كان ما سبق هداية ربانية صرفة، وتأيدا لصدق أمه وبرائها، وإرهاصا بنبوته، وهو منحة ليس لكسب العبد فيه إرادة، وهذه النعمة الأخيرة التي جاء بها ذلك النص الحكيم هي نعمة للعبد فيها كسب، وللإرادة البشرية فيها مكان فوق أنها جميعا لله تعالى، ولذلك أضاف سبحانه التعليم إليه، فالتعليم منه سبحانه، والتعلم من عيسى عليه السلام، والكتاب، يفسره بعض العلماء بالكتابة، فلم يكن عيسى عليه السلام أميا، بل كان قارئا لأن معجزاته الكبرى لم يكن كتابا منزلا من عند الله يتحدى به البشر أن يأتوا بمثله، ولأنه لم يكن في قوم أميين، بل كان في قوم فيهم علم الكتابة وفيهم الدراسة والبحث ولهم فلسفة.

وفسر الكتاب بعض العلماء بما سبقه من كتب النبيين كزبور داود وما جاء عن أخبار سليمان وإبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب والأسباط. ويصح أن يراد الأمران، وهو ما نختاره، فالله سبحانه وتعالى قد ألهمه تعلم الكتابة وقرأ بها كتب النبيين وأخبار من سبقوه.

والحكمة هي في العرف الأدبي العام العلوم النافعة، والكلام المحكم الدقيق العميق الذي يكشف للناس عن أسرار هذا الوجود، ونفوس الناس، ويوجهها إلى الخير، ويدخل في الحكمة على هذا كل التعليمات المرشدة الهادية إلى مكارم الأخلاق، وقد كان سيدنا عيسى - عليه السلام - نبيا حكيما مرشدا أميننا.

وعلم الله تعالى رسوله الأمين التوراة التي نزلت على موسى والإنجيل الذي نزل عليه صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ولماذا ذكر سبحانه وتعالى التوراة مع أنها قد تكون داخلة في ضمن الكتاب الذي علمه أولا، ونقول في الجواب عن ذلك، بأن التوراة تحتل الدخول في الكتب المذكورة أولا، وتحتل أن يقصد

بالكتاب الثقافة العامة الدينية وما كان شائعا من أفكار مدونة فى عصره، وبذلك لا تشتمل التوراة، وتحتمل اشتمال كلمة الكتاب الذى يراد به الجنس على التوراة، ويكون تخصيصها بالذكر مقترنة بالإنجيل، للإشارة إلى أنهما متلازمان وأن الإنجيل الذى جاء به عيسى - عليه السلام - متمم للتوراة التى جاء بها موسى عليه السلام، وأنه منفذ لأحكامها إلا ما جاء به الإنجيل ناسخا لها.

بعد هذا التعليم الذى علمه لعيسى - عليه السلام - أخذ سبحانه وتعالى يذكر بعض معجزاته، وهى كبراهها، فقال:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ كل معجزاته - عليه السلام - كانت من جنس طبيعته التى فطره الله تعالى عليها، لقد كانت ولادته خارقة للعادة؛ إذ خلقه الله سبحانه وتعالى من غير أب يلقي النطفة فى رحم، بل ولد من أم من غير أب، لبيان أن الله تعالى لا تحكمه الأسباب التى تجرى فى مجرى العادات، إنما هو سبحانه خالق الأسباب والمسببات فعال لما يريد، لا تخضع إرادته لسلطان سبحانه وتعالى، فمعجزات عيسى كلها بيان لأن الله تعالى فوق قاعدة السببية التى كانت مسيطرة فى ذلك العصر المادى الذى كان لا يذعن إلا للأسباب والمسببات المادية.

وهذه المعجزة باهرة قاطعة فى أن الخالق لهذا الكون لا تحكمه الأسباب، إذ إن الناس يجدون أسباب الخلق هو التوالد بأن تحمل الأنثى من ذكر، وتلد، ثم يكون الحى من بعد ذلك، فيكون من خرق الأسباب أن يكون الحى بإجراء الحياة على يد مخلوق لله تعالى، فقد أذن لعيسى - عليه السلام - أن يصور من الطين كهية الطير، فمعنى «خلق» هنا هو تصويره جسدا من الطين، وجعله على شكل طائر، ثم نفخ فيه بإذنه سبحانه، فيكون طيرا بإذن الله تعالى.

وذكرت كلمة (بإذنى) عند تصوير شكل الطير، وعندما صار طيرا؛ للإشارة إلى أن كل ذلك من عند الله، وأنه الخالق وليس عيسى هو الخالق، ولكنه سبحانه وتعالى أجرى الخلق على يديه.

﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ الأكمه هو المولود أعمى، ويقال لمن طمست عينه بفقء أو نحوه: كمهت عيناه، والبرص داء إلى الآن لم يوجد له دواء بشفيه وقد يوجد دواء يجعله أسهل احتمالا مع بقاءه.

وقد كان سيدنا عيسى يرى الأكمه بإذن الله تعالى فيجعله مبصرا، وذلك يشبه إيجاد الحياة في غير الحى؛ لأن إيجاد البصر في غير المبصر، والمولود غير مبصر، وغير قابل للإبصار بحكم الأسباب الطبيعية يعد إنشاء وإيجادا، ويقاربه علاج البرص، لأنه بدوامه يشبه الذى يكون جبلة، وإذا كانوا لا يعرفون سببا للشفاء فالله تعالى خالق الأسباب أجرى الشفاء على يدي عيسى عليه السلام، لأنه سبحانه فعال لما يريد، وكان معجزة لعيسى عليه السلام.

وهناك معجزة رابعة، وهى إحياء الموتى، وقد ذكرت هذه المعجزة فى سورة آل عمران على لسان عيسى - عليه السلام - بما حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ (٤٩) [آل عمران]. والمذكور هنا هو قوله تعالى:

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ والنصان يتلاقيان فى المؤدى، وإن اختلفا فى اللفظ، فالأول يفيد أن سيدنا عيسى عليه السلام قد أجرى الله تعالى على يديه إحياء الموتى إذا لم يكن قد دفن، وذلك ما يدل عليه النص الأول، والثانى يدل على أنه قد أجرى الله تعالى على يديه إحياء الموتى بعد دفنها ووضعها فى قبورها، فقد كان عليه السلام يجرى الله تعالى على يديه إخراجها من القبور أى أنها تحيا فى قبرها، وتخرج إلى الوجود فى حياة.

وإحياء الموتى بعد الدفن أو قبل الدفن غير تصوير الطين طيرا ثم النفخ؛ لأن هذا إيجاد للحياة فى جماد، والثانى إعادة للحياة وقد ذكرت كلمة (بإذنى) فى كل هذا، لبيان أن العمل ليس لعيسى، وإن جرى على يديه، إنما هو لله سبحانه وتعالى خالق كل شىء.

وقد كان موجب هذه البينات الباهرة القاهرة أن يؤمنوا، ولكن بنى إسرائيل فيهم عناد وطفغان فكفر كثيرون، وهموا بأذى عيسى - عليه السلام - فكانت نعمة

الله تعالى عليه أن يكفهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

لا تزيد الحجة المتعنت إلا طغيانا وكفرا، وكلما قويت الحجة تحركت في نفسه عوامل الحسد والحقد، فأوجدت ضغنا فيطمس الله تعالى على بصيرته، فلا يدرك.

جاءهم عيسى - عليه السلام - بالبينات أى الحجج المبينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فناووه العداوة؛ لأنه كانت لهم الرياسة الدينية، وهذه الحجج إن اتبعوا ما توجهه حسبوا أن الرياسة تذهب منهم، فقاوموها، ولا يمكن أن يقاوم صاحب الحق إلا بالباطل، ولا يمكن أن يقاوم صاحب الحجة والبرهان الساطع إلا بالباطل، لذلك قاوموا بطرق ثلاثة كلها شر، حاربوه بتأليب الناس ودعوة أتباعهم إلى الإعراض عنه، وحاربوه ثانيا بالأذى ينزلونه به، والتحريض عليه، والائتمار به، ولكن دعوته كانت تنفذ إلى القلوب من غير حجاب، وذلك لأن الله كف عنه أذاهم، ولما يتسوا منه خلصوا إلى الطريق القاتل، وهو الدس عند ذوى السلطان، وكانت نعمة من الله تعالى عليه أعظم وأوضح، فقد نجاه الله تعالى من أيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ [النساء: ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٨]. بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ... [النساء: ١٥٨].

كف الله تعالى الأذى عن سيدنا عيسى - عليه الصلاة والسلام - وقد كفروا مع ظهور هذه الآيات الباهرة التى فيها البرهان القاطع الذى لا يقبل جدلا، أشار الله تعالى إلى ما اتخذوه من تعلات بقوله تعالت كلماته: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أى إذا كانت هذه البينات ظاهرة، فهى لا ترفع اللجاجة من الذين كفروا وجحدوا؛ لأن الذين يكفرون بالحق عندما يجيئهم يسارعون بالكفر، ثم يحاولون أن يوجدوا ما يبرر كفرهم، كشأن كل من يحكم بالباطل يسارع إليه؛ لأنه غاية

مراده له، ثم يتلمس التعلات لكفره، أو بعبارة أخرى يحكمون بالباطل، ثم يحاولون سماع الشهادات الباطلة التي تؤيد ذلك الباطل، لقد قالوا إن كل ما فعله عيسى - عليه السلام - من تصوير الطير والنفخ فيه بالحياة، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى - ما هو إلا سحر مبين، أى بين واضح مع أنه أمور واقعة محسوسة، وليست تمويهات باطلا خادعا، ولا تخيلا غير واقع، مما يدل على أن المبطل اللجوج لا يقنعه دليل مهما يكن، اللهم اجعلنا مع الحق، وللحق.

وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي
وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ
خَيْرُ الرَّاغِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ والوحي معناه الإلهام ويكون على أقسام: وحى بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام. ووحى بمعنى الإلهام كما فى هذه الآية؛ أى ألهمتهم وقذفت فى قلوبهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ (٧) [القصص]، ووحى بمعنى الإعلام فى اليقظة والنام. قال أبو عبيدة: أوحيت بمعنى أمرت، ﴿وَإِلَىٰ﴾ صلة؛ يقال: وحى وأوحى بمعنى؛ قال الله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (٥) [الزلزلة].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ما تقدم من الأعراب ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ﴿أَنْ يُنْزَلَ﴾ يستطيع بمعنى يطيع؛ كما قالوا: استجاب بمعنى أجاب، وكذلك استطاع بمعنى أطاع. وقيل المعنى: هل يقدر ربك، وكان هذا السؤال فى ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل؛ ولهذا قال عيسى فى الجواب عن غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى لا تشكو فى قدرة الله تعالى.

وهذا فيه نظر؛ لأن الخواريين خلصان الأنبياء ودخلواهم وأنصارهم كما قال: «من أنصارى إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله». ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز ما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أمهم؛ فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى؟ إلا أنه يجوز أنه يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط^(١)، وقيل: إن القوم لم يشكوا فى استطاعة البارى سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتى وقد علمت أنه يستطيع؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل ييجينى إلى ذلك أم لا؟ وقد

(١) عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلَّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سَنَةً مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رواه الترمذي: الفتن - ما جاء: لتركن سنن (٢١٨٠).

كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معaine كذلك؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿... رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ...﴾ (٢٤٠٢) [البقرة] على ما تقدم، وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعaine التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعaine لا يدخله شيء من ذلك؛ ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم: ﴿... وَلَكِنْ لِّطْمَئِنُّ قُلُوبِي ...﴾ (٢٤٠٢) [البقرة].

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى اتقوا مغاضبه وكثرة السؤال؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات؛ إذ كان الله عز وجل إنما يفعل الأصلح لعباده. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى. قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ نصب بـ «أن». وقوله: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عطف كله، يبنوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه. وفى قولهم: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وجهان: أحدهما - أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علة، إذ كانوا زمنى أو علميانا، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون. فخرج يوماً إلى موضع فوقعوا فى مفازة، ولم يكن معهم نفقة فجاجعوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء، فقال عيسى لشمعون: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له: قل له: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ الآية. الثانى - ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ لنال بركتها لا حاجة دعتهم إليها، وقولهم: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها - تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيا. الثانى - تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لدعوتنا. الثالث - تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا؛ وقيل: أى تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا﴾ بأنك رسول الله. ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالوحدانية، ولك

بالرسالة والنبوة. وقيل: ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ اللهم أصلها يا الله، والميمان في «اللهم» بدل من «يا»، ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان، ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة الخُوان الذي عليه الطعام؛ لا تكون المائدة حتى يكون عليها طعام، فإن لم يكن قيل: خوان، وهى فاعلة من مَادَ عبده إذا أطعمه وأعطاه؛ فالمائدة تمد ما عليها أى تعطى، وقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾، ﴿تَكُونُ﴾ نعت لمائدة وليس بجواب.

﴿عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أى لأول أمتنا وآخرها؛ فقيل: إن المائدة نزلت عليهم يوم الأحد غدوة وعشية؛ فلذلك جعلوا الأحد عيدا. والعيد واحد الأعياد؛ وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها فى الواحد، ويقال: للفرق بينه وبين أعواد الخشب، وقد عَيَّدُوا أى شهدوا العيد؛ وقيل: أصله من عاد يعود أى رجع فهو عود بالواو، فقلبت ياء لأنكسار ما قبلها، مثل الميزان والميقات والميعاد؛ فقيل ليوم الفطر والأضحى: عيدا لأنهما يعودان كل سنة. وقيل: سُمى عيدا للعود فى المَرَح والفرَح، فهو يوم سرور الخلق كلهم؛ وقيل: سُمى عيدا لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته؛ ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم فمَنهم من يضيف ومنهم من يضاف، ومنهم من يَرْحَمُ ومنهم من يُرَحَمُ. وقيل: سُمى بذلك لأنه يوم شريف تشبيها بالعيد: وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه، فيقال: إبل عيدية؛ قال:

* عَيْدِيَّةٌ أَرْهَنْتَ فِيهَا الدنانير *

وقرأ زيد بن ثابت ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ على الجمع. قال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما يأكل (منها) أولهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعدته الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها مُسَخِّو قِرْدَةٍ وخنازير. قال ابن

عمر: إن أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور - وهو الحق - نزولها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾. وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضَرْبٌ مِّثْلٍ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِحُلُقِهِ فَنَهَاهُمْ مِنْ مُسْئَلَةِ الْآيَاتِ لَأَنْبِيَائِهِ. وقيل: وعدهم بالإجابة فلما قال لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ - الآية. واستغفروا الله وقالوا: لا نريد هذا؛ وهذا القول والذي قبله خطأ، والصواب أنها نزلت. قال ابن عباس: إن عيسى بن مريم قال لبنى إسرائيل: «صوموا ثلاثين يوماً ثم سَلُوا الله ما شئتم يُعْطِيَكُمْ» فصاموا ثلاثين يوماً وقالوا: يا عيسى لو عملنا لأحد فقضينا عملنا لأطعمنا، وإنا صمنا وجُعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم.

وعن ابن عباس وأبى عبد الرحمن السُّلَمِيُّ كان طعام المائدة خبزاً وسمكاً. وخرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي أَبْوَابِ التَّفْسِيرِ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَتِ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خَبِزًا وَلَحْمًا وَأَمْرًا أَلَا يَخُونُوا وَلَا يَدْخِرُوا لَغْدٍ فَخَانُوا وَادْخَرُوا وَرَفَعُوا لَلْغْدِ فَمُسِخُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ»^(١).

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا

قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

الكلام إلى الآن في محاسبة الناس يوم القيامة ومجاوبتهم بشأن عيسى ابن مريم من حيث إنهم نحلوه ما ليس فيه، وادعوا ما لم يقله، فادعوا عليه الألوهية هو وأمه فكانت المجاورة حول هذه الفرية التي افتروها، وذلك الوهم الذي توهموه وادعوه على المسيح عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ العطف هنا على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ...﴾ [المائدة: ١٧٩]. فإن هذا كله صورة للمجاوبة التي تكون يوم القيامة بين الرسل، وأقوامهم، ومن بعثوا إليهم بشكل عام، وخص عيسى - عليه السلام - في هذا المقام بالمجاوبة؛ لأنه كان أكثر الرسل افتراء على شخصه النبوى الكريم، إذ ادعوا عليه الألوهية، وكان نداؤه بذكر: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ للإشارة إلى الولادة الطبيعية التي تنفى أن يكون إلها أو ابن إله، أو فيه عنصر الألوهية بأى وضع من الأوضاع؛ لأن الألوهية والبشرية نقيضان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون البشر فيه ألوهية، ولا الإله فيه بشرية، ومعنى (اتخذونى)، اجعلونى، والتعبير باتخذونى أو اجعلونى يدل على أنه ليس له حقيقة، بل هو فى ذاته اتخاذ بما لا أصل له.

والاستفهام للتقرير، أى ليقر عيسى - عليه السلام - بخلافه، ذكر الحقيقة فى ذلك اليوم الذى لا تجزى نفس عن نفس شيئا، والذى يتقرر الجزاء وليس وقت العمل، فيه تويخ لهم، وتكبير لذنوبهم، وبيان لافتراءهم، وعظمه وهو من قبيل إحضار أعمالهم وأقوالهم، وبذلك يرد الاعتراض الذى يورده العلماء إذ يقال كيف يسأل الله تعالى عيسى وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لم يقل شيئا من هذا، ولا



يمكن أن يدعى لنفسه ما ادعوه له؟ فالسؤال ليقر فى المشهد العظيم بكذبهم وافترائهم على الله سبحانه وتعالى، وفى ذلك أبلغ توبيخ، وتجسيم لذنبهم وأوهامهم، وافترائهم على الله سبحانه وتعالى. والذين قالوا: إن عيسى وأمه إلهان هم البربرانية من طوائف النصارى، ولم يستنكره غيرهم، فكأنهم أقروه، والذين لم يقروه، قالوا: إن الله ثالث ثلاثة الآب والابن وروح القدس.

والذين قالوا: إن عيسى وأمه آلهان من دون الله لم ينفوا ألوهية الله إذ لم يعرف عنهم أنهم نفوها، حتى يقال عنهم: إنهم قالوا: إن عيسى ابن مريم وأمه إلهان من دون الله أى غيره، والجواب عن ذلك أن من لم يؤمن بوحدانية الله تعالى بل أشرك غيره معه لا يقال: إنه آمن بالله، واعترف بألوهية الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده، أو نفس ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى خلاف الله فكأنهم قالوا: إن هناك اثنين مع الله تعالى. . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وقد بين الله تعالى إجابة عيسى - عليه السلام - بقوله:

﴿قَالَ سُبْحَانِكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ سبحانه معناها تنزيها لك عن هذا القول وتقديسا، وهى منصوبة على أنها مصدر لفعل محذوف، وتصدير سيدنا عيسى فى ذلك اليوم المشهود - كلامه بذلك للدلالة على أنه أمر لا يليق فى ذاته، فلا يمكن أن يصدر عن عاقل يعى ما يقول ويدركه، ففيه نفى مطلق للشرك وبيان للنزاهة والتقديس، وأنه هو الذى يسبح له وحده ثم بعد هذا التنزيه المطلق الذى كان نفيا مطلقا، أخذ ينفى عن نفسه هذا الكلام المحال، فنفى عنه بأنه ليس من شأنه أن يقول مثل هذا القول، بل ذكر استحالة أن يصدر عنه، وقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. وفى هذا تأكيد للنفى من وجوه ثلاثة:

أولها - أنه نفى أن يكون شأنه ذلك القول، فلا يمكن أن يصدر عنه، فهو لم ينف القول فقط، بل نفى احتمال أن يقول، ونفى احتمال القول أقوى فى الدلالة من نفى المقولة.

ثانيها - أن كلامه يدل على أن ذلك غير معقول في ذاته، فكيف يقول.
 ثالثها - أنه أثبت أنه مستحيل قوله لأنه ليس بحق. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.
 هذه الجملة تأكيد لنفى ما سئل عنه، وهو أنه قال: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

إذ إنه لو كان قد حصل لعلمه الله تعالى، وما دام لم يعلمه، فهو لم يقع، ولا يمكن أن يقع؛ لأن الله لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذا النص فوق دلالة على عدم الوقوع بأبلغ تعبير إثبات شمول علم الله تعالى، وإنه بكل شيء محيط، وقد زكى هذا المعنى الجليل بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾. ففي هذا النص إثبات قصور علم الإنسان بجوار علم الله تعالى، وإثبات أن علم الله تعالى شامل لمطويات القلوب، وعلم الإنسان مقصور على ما يظهر من الجوارح فالله يعلم ما يخفى في الصدور، والإنسان لا يعلم إلا ما هو ظاهر محسوس، أو ما يكشف عنه الظاهر المحسوس، فلا يعلم ما الخفى إلا ما يظهره الجلى، والنص يدل على نفى الألوهية من جهة ثالثة؛ لأن علم الله شامل لكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلم عيسى من النوع القاصر الذى لا يحيط إلا بالمحسوس أو ما ينبئ عنه المحسوس، فهو نفى للألوهية من طريق العلم، ثم هو موازنة من جهة ثانية بين نفس الإنسان المكشوفة لحالقه، وذات الله تعالى التى لا يعلم البشر عنها إلا وحدانيتها، وما يعلمه للإنسان منها.

وقد أكد عيسى علم الله تعالى المحيط الذى يعلو عن الصفات البشر بقوله:
 ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أى إنك يا صاحب الجلالة تقدرت أسماؤك تعلم الأمور المغيبة عن حسنا، والمكنونة فى المستقبل علما دقيقا لا يخفى منه شيء عليك، ولذلك عبر بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة، وعلى الدقة وعلى الإحاطة



التامة الكاملة وأنه سبحانه وتعالى يعلم ما بطن كعلمه بما ظهر، فإن ما ظهر وما بطن هو بالنسبة لنا نحن بنى الإنسان، وأما بالنسبة لله تعالى فإن الجميع مكشوف غير مستور.

وقد أكد علم الله تعالى للغيب بأربعة مؤكدات: أولها - ب «إِنَّ» المؤكدة.

ثانيها - بالضمير المؤكد فى قوله تعالى: ﴿أَنْتَ﴾.

وثالثها - بصيغة المبالغة التى تعد مبالغة بالنسبة للعبيد، ولكنها حقيقة فوق ما نتصور بالنسبة لله تعالى العليم الحكيم، وإن هذا أقصى ما تتسع له لغتنا القاصرة عن التعبير عن الحقائق الإلهية.

رابعها - جمع الغيوب، فلم يفرد الغيب، بل قال الغيوب بكل أنواعها ما وقع فى الماضى، وما يقع فى المستقبل وما يتعلق بالكائنات كلها الروحانى منها والمادى، والكل خلقه سبحانه، من طيور فى الهواء، وأسماك فى الماء، وملأكة، وجن، وإنس، وهكذا كل ما هو غيب فى ذاته، أو بالنسبة للبشر، أو لطوائف منهم.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾. هذا الكلام السامى فى تأكيد القول الأول، وهو إثبات تنزيه الله تعالى، وأنه ما دعا إلا إلى الوحداية، ولقد كان كل هذا فى مقام التوبيخ وإثبات الحجة عليهم، وعقابهم على كفرهم، وافترائهم على الله تعالى ربهم، وعلى عيسى ابن مريم رسوله سبحانه إليهم.

والجملة السامية السابقة فيها إثبات استحالة أن يكون قد قال «اتخذونى وأمى آلهين»، فهى تفى بالدليل، وهى هذه الجملة السامية فيها نفى، وإثبات. فيها نفى القول الذى نسبوه بهتنا إليه، وفيه إثبات ما قاله، ولم يقل سواه، ولذلك كان فيه قصر بالنفى والإثبات، فهو يذكر أنه دعا إلى التوحيد المطلق، وفيه إثبات أنه لا يمكن أن يدعو إلا إلى التوحيد المطلق، وذلك لثلاثة أمور:

أولها - أنه هو الذى أمر ربه، ولم يؤمر بغيره، وهو رسول من عند الله، ولا يمكن أن يكون الرسول قد أدى الرسالة على وجهها إلا إذا بلغ ما أمر به دون سواء، ولذا قال عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾. ما أمرتنى أن أقوله وأبلغه، وإلا أكن غير مؤد للرسالة.

ثانيها - أنه لم يكتف ببيان أنه أدى ما أمر به إجمالاً، بل ذكر حقيقة ما دعا مفسراً غير مجمل، إذ قال: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾. فإن هى المفسرة، فهو يفسر ما أمر به وهو بين لا إبهام فيه.

وثالثها - أنه أقام الدليل على استحقاقه وحده للعبادة سبحانه: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. أى أنه هو المستحق للعبادة لأنه هو وحده الذى خلقنى، فأنا مخلوق، فكيف أكون إلهاً، وهو الذى خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره؟! وفى هذا التعبير أثبت وحدانية الخلق والتكوين وحدانية الذات، كما أثبت تصريح اللفظ وحدانية العبادة.

وقد أكد عليه السلام أنه بلغهم تلك الحقائق، فقال كما حكى عنه ربه: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾. أى كنت مشاهداً لهم رقيباً عليهم تعلم ما حاولوه من الزيف والتحريف مدة بقائى فيهم، فما تركت تنبيههم إلى التوحيد فى العبادة والذات والصفات والتكوين مدة إقامتى بينهم، ولما تركت الدنيا كنت أنت الرقيب.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فى النص الكريم السابق ذكر - عليه السلام - شهادته عليهم وهو حى، قائم برسالته مؤد لها على وجهها، وفى هذا النص يذكر انتهاء مهمته بوفاته، ويفوض أمرهم إلى ربهم فى الطف تعبير وأدق إشارة.

والفاء للتفصيل كما تدل على الحالية والبعد به، والمعنى عند حد وفاتى ومن قبلها، ومن بعد كنت أنت وحدك الرقيب عليهم العالم بحالهم وأنت على كل شىء عالم بحالهم تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وفقنا الله لما يحب ويرضى.

١١٨
 وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ
 يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 ١١٩
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝
 ١٢٠
 لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

الكلام العظيم موصول في حديث السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يوم يجمع الله تعالى الرسل يوم القيامة .

ولقد كان من المجاوبة بين الله تعالى ، وبين السيد المسيح - عليه السلام - في شأن الأوهام التي توهمها من يدعون النسبة إليه ، وذكرت هذه الأوهام كأنها واقعة في زمن المسيح - عليه السلام - وهي قد وقعت من بعده ولم يحضرها ، ثم المجاوبة تكون من بعد ذلك ، إذ إنها تكون يوم القيامة يوم يجمع الله تعالى الرسل ، ويسألهم عما كان من شأن إجابات أقوامهم ، واختص سبحانه وتعالى بالذكر عيسى لما ذكرنا من أنه أشد الأنبياء افتراء عليه إذ ادعوا أنه ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة ، وذكرت أخبار يوم القيامة - كأنها حاضرة لتحضر بين يدي النصارى الذين ادعوا ما ادعوا بالصيغة الإنكارية التي تكون من المسيح عليه السلام - يوم ، ليتبينوا أن المسيح - عليه السلام - برىء منهم ، ومما يتكلمون به حول ذاته النبوية البشرية .

وخلاصة تلك المجاوبة :

أن العلى القدير سأل سؤال العالم بالجواب ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ، وكان الجواب بالنفى ؛ لأن الله تعالى يعلم أنه لم يقع وما

كان لهم أن يعتقدوا في السيد المسيح - عليه السلام - أو أمه ألوهية؛ لأنهما كانا يأكلان الطعام، ويمشيان في الأسواق، وذلك شأن البشرية، لا شأن من يكون إلها.

وقد تضمن الجواب تأكيد النفي بأنه ليس من شأنه، ولا يحق له؛ لأنه بشر مخلوق لله سبحانه وتعالى، فالبشرية لا تتخلى عنه، وأنه لا يمكن أن يكون إلها، يشارك الله تعالى في خلقه، فالله خالقه، ولا يمكن أن يكون المخلوق كالخالق، ولأن الله تعالى هو الذي يربه بعد خلقه، وهو الذي علمه الحكمة، وهو الذي جعله يتكلم كما يتكلم الراشدون في المهد، فكان كلامه في المهد ككلامه وهو كهل، أي رشيد قد اكتملت رجولته، واستوى خلقه، وهذا يدل على أن السيد المسيح - عليه السلام - عاش إلى أن بلغ سن الكهولة، فقد بلغ أشده، وبلغ أربعين، وإن كانت كتب النصارى الحاضرين تومئ إلى أنه لم يصل إلى الأربعين.

وقد ذكر سيدنا عيسى - عليه السلام - أنهم في رقابة الله تعالى من بعده، يعلم حالهم، ومآل أمرهم وانحرافهم عن الجادة التي أرشدهم إليها الله تعالى على لسان نبيه الأمين عيسى - عليه السلام.

وأنه هو تعالى الذي شاهد أعمالهم، وأنه محاسبهم بها مجازيهم عليها، والامر في شأنهم إليه، وأمورهم مفوضة إليه، وهو العزيز الحكيم، والغفور الرحيم، فإن شاء أخذهم بذنوبهم كاملة، وإن شاء عفا عن بعضها، وإن شاء تغمدهم برحمته وغفرانه إن تابوا، وآمنوا بالله وحده وآمنوا بمحمد ﷺ، ولذلك قال تعالى حكاية عن بقية كلام عيسى في ذلك المشهد العظيم. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وإنما نجد في هذا النص الذي يذكر الحال يوم القيامة ينبئ عن رافة المسيح عليه السلام، ورفقه، ورغبته في ألا يكون الناس في عذاب إلا أن تكون تلك إرادة الله تعالى، فالنص تفويض لله تعالى، وهو يشبه في هذا طلب إبراهيم أبي

الأنبياء عليهم السلام الغفران لأبيه كما حكى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٨٦﴾ [الشعراء].

فالمسيح - عليه السلام - يحكى الله تعالى عنه فى ذلك اليوم المشهود قوله: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أى إن تعاقبهم العقاب الشديد فهم عبادك تملكهم، ولا حق لهم عندك، وهم قد أذنبوا، فبحكمتك وعزتك كان عقابهم، وإن تغفر لهم وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فإن ذلك جائز منك، وهو صفح الغالب القاهر، الذى يضع الأمور فى مواضعها وأفعاله فى دائرة الحكمة والتدبير المصون عن العبث.

وهنا قال العلماء: كيف يسوغ أن يطلب عيسى - عليه السلام - فى المشهد العظيم الغفران للكفار الذين أشركوا بالله تعالى، فجعلوا عيسى وأمه إلهين وقالوا إن الله ثالث ثلاثة، وقالوا إن المسيح ابن الله؟ وقد أجابوا عن ذلك بإجابات مختلفة أدقها ما قيل من أن الغفران للكفار جائز عقلا، وليس مستحيلا، ولقد كان طلب عيسى عليه السلام؛ الغفران لهم من قبيل طلب إبراهيم - عليه السلام - الغفران لأبيه، فهو ناتج من فرط الشفقة، والرأفة، على أن عيسى - عليه السلام - ما طلب الغفران، بل فوض الأمر لرب العالمين تعالت حكمته، وإذا كان ما يناقش فى هذا المقام فهو أنه فرض جوار الغفران، ونحن نرى أن ذلك الفرض يتفق مع النسق التاريخى الذى وقع، وذلك بأن نفرض أن المسيحيين الذين أشركوا منهم من كان على ضلاله القديم بعد أن بلغته الدعوة المحمدية، ومنهم من استمر على غيه بعد أن تبلغه الدعوة المحمدية إلى التوحيد، وتبين حقيقة الدعوة المسيحية كما جاء بها الإسلام، وهؤلاء الأخيرون لا مساغ لفرض الغفران لهم شرعا؛ لأنهم أشركوا الأولون فقد كانوا على فترة من الرسل وكانوا على جهالة عمياء لا تسمح لهم أن يعرفوا حقيقة دعوة المسيح عليه الصلاة والسلام، وذلك أنه قد نزل بهم بعد المسيح - عليه السلام - من الاضطهادات والشدائد والكوارث ما جعلهم يستخفون بدينهم، ويفرون بها، ولا شوكة لهم، وقد قارنت هذه الشدائد المسيحية

فى نشأتها من بعده وفى تكونها وليدا وفى تدرجها، واستمرت هذه الشدائد نحوا من ثلاثة قرون، نزل فيها أشد ما ينزله الإنسان بأخيه الإنسان حتى أنه كان يتخذ منهم مشاعل تسير فى موكب الإمبراطور الرومانى نيرون، إذ تطلّى أجسامهم بالقار، وتشعل فيها النيران، ويسار بهم فى موكبه.

ولم يكشف عنهم البلاء إلا بعد أن اختفت المصادر الحقيقية لدينهم، وادعى التثليث تدريجيا، وما كان عندهم من علم يعلمونه ويحاسبون به، وهؤلاء أحسب أن فرض عيسى غفران الله تعالى كان فرضا سليما يتفق مع عزة الله تعالى وحكمته، وشمول علمه.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بعد أن ذكر سبحانه من مغييات الأمور اليوم الذى يجمع الله الرسل وأقوامهم، وتكون المجاورة بين عيسى وربه، وهو الحق الذى بعث به، وفيها بيان مقامه ممن افتروا عليه الكذب، وضلوا فى افتراءهم وإذا كان ذلك فيه إشارة إلى العذاب الذى يستقبل أولئك المقتربين على الرسول والذين جاءتهم المعجزة الباهرة التى لا يمارى فيها إلا من ران على قلبه. بين سبحانه جزاء الذين يذعنون للحق، وسماهم سبحانه الصادقين وأن الذى ينفعهم هو صدقهم، والصدق شعبة مما طلبه الحق، ولكنه سبحانه جعله شعار المؤمنين، وذلك لأن الصدق هو وصفه الإيمان الذى يلازمه، ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ سئل: «أىكون المؤمن جبانا؟ فأجاب عليه السلام: يكون المؤمن جبانا. وسئل أىكون بخيلا؟ فأجاب عليه السلام: يكون بخيلا، وسئل أىكون كذابا؟ فقال: لا يكون المؤمن كذابا»^(١). فالكذب والإيمان نقيضان لا يجتمعان، والإيمان يلازمه الصدق، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩) [التوبة]. والصدق يلازمه الإخلاص، ويكون معه القرب من الله تعالى، ولقد

(١) رواه مالك: الموطأ - وحدثني مالك أنه بلغه أن عبد الله (١٨٦٢).

قال عليه الصلاة والسلام: «إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(١).

وإن الصدق ذو شعب ثلاث، أقربها الصدق في القول، فلا ينطق إلا بالحق، ولا ينطق إلا بما يجول بصدرة، ولا يمارى ولا يدهن، ولا يرفث في قول، والثانية صدق النفس فلا يغش نفسه، ولا يخدعها، بل يحاول أن يطلع على عيوبها ويعالج هذه العيوب، ولا يخدع نفسه ليكذب عليها، والثالثة، صدق الإنصاف، فلا يغمط غيره، ولا يحقد ولا يحسد، ولا يظن، وينصف أعداءه من نفسه.

ومن كانت هذه حاله ينفعه صدقه؛ لأنه صدق القول والنفس والعمل، له جزاؤه في الجنة جنات تجري من تحتها الأنهار، وفي ذلك النعيم خالد خلوداً أبدياً لانهائية له، وفوق هذا الجزء المادى الحسى، هناك جزاء معنوى وهو رضوان من الله، وهو أكبر من كل جزاء، ولذلك رضى الله عن الصادقين فهم مقربون إليه زلفى، وهم لا يرضون بربهم بديلاً ولا شريكاً في عبادة أو قربى، أو استعانة أو استجابة، فالله ملء قلوبهم يعبدونه كأنهم يرونه.

وإن ذلك هو الفوز العظيم الذى لا فوز يماثله أو يقاربه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فى هذا النص الكريم بيان للحق الذى لا مجال للريب فيه، وبيان لسلطان الله تعالى على كل ما فى السموات وما فى الأرض، وأنه ذو سلطان فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وهو القادر على كل شئ يريد، لا يعجزه شئ فى السماء ولا فى الأرض، وفى الكلام إشارات بيانية نذكرها.

الأولى - إثبات أن الله وحده هو الجدير بالألوهية، والمستحق للعبادة، لأنه ذو السلطان الكامل المالك لكل شئ.

(١) رواه مسلم: البر والصلة - قبح الكذب وحسن الصدق (٢٦٠٧)، والبخاري: الأدب - ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (٦٠٩٤).

الثانية - أن تقديم لفظ الجلالة يفيد وحدة سلطانه وملكه وقدرته أى أنه وحده المالك لكل شىء .

الثالثة - ذكر السموات والأرض، والتصريح بما فيهن للإشارة إلى أن كل شىء فيهن مخلوق له سبحانه، وليس فوقه أحد فلا يقال: إن أحدا له سلطان بجوار سلطانه وإن المعجزات التى تجرى على أيدي بعض النبيين من خلقه هو الذى خلقه على يديه وليس النبي خالقها .

الرابعة - إثبات أنه قادر على كل شىء لا يتقيد بالأسباب والمسببات، لأنه على كل شىء قدير، وهو خالق الأسباب .

الخامسة - تقديم الجار والمجرور يفيد كمال قدرة الله تعالى على الأشياء إنه حميد مجيد، سميع بصير عزيز حكيم .



تعريف:

سورة الأنعام قالوا إنها نزلت بعد سورة الحجر، وإن عدد آياتها خمس وستون ومائة آية كلها نزل بمكة ما عدا عدة آيات قالوا: إنها نزلت بالمدينة هي الآيات ٢٠ و٢٢ و٩١ و٩٢ و١١٤ و١٤١ و١٥١ و١٥٢ و١٥٣ - وهي آيات نزلت في بيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام من التكاليف العملية، وهي لهذا كانت أنسب بالمدينة؛ ذلك لأن ما يتعلق بالعقيدة قد اختص بمكة؛ إذ كان فيه بيان الوحداية في الذات وفي الصفات والخلق والإنشاء والعبادة والألوهية، وأنه لا إله إلا هو، وبيان رسالة الله وأخبار الرسل السابقين، وما جاءوا به، وما نزل بأمرهم، وما جاء من أحكام بمكة كان أكثره على السنة الأنبياء السابقين وما كانوا يدعون إليه أقوامهم، فدعوة شعيب - عليه السلام - إلى الإيفاء بالكيل والميزان، ونهيهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وغير ذلك. أما القرآن المدني، فقد نزلت به الأحكام التكليفية العملية؛ لأنه قد كونت دولة للإسلام، فكان لا بد من نظم تقيمها، وأحكام تنظم علاقات آحادها، وقد ابتدأت العبادات بالصلاة المفروضة في مكة لمناسبتها للألوهية، ومعاني العبودية، ثم أكملت في المدينة ليتكون رأى عام فاضل، ومجتمع متضافر متعاون.

ابتدأت السورة ببيان استحقاق الله تعالى وحده للحمد؛ لأنه خالق السموات والأرض وحده، وجاعل الظلمات والنور، وبيان أن أصل خلق الإنسان من طين، وبيان كمال سلطان الله تعالى في خلقه، وعلمه بالسر وما يخفى، وبيان آيات الله تعالى في كونه، وتلقى الجاحدين، وما كانوا يكذبون به الحق، إذ يجيئونهم ويستعززون به لإعراضهم عن الآيات البينات المثبتة الموضحة الكاشفة.

وإن كان المشركون لم يؤمنوا لإعراضهم عن البيّنات، فقد أنذرهم سبحانه بعاقبة أمرهم، ببيان عاقبة من سبقوهم بعد جحودهم، وأشار سبحانه وتعالى إلى طموس مداركهم، وجحود نفوسهم، وعدم تلقيهم للنور والهداية، وأنه لا يجدى معهم توجيه، ولا دليل حتى أنهم لو نزل إليهم من السماء كتاب فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الجاحدون: إن هذا إلا سحر مبين، كما قال الجاحدون برسالة عيسى - عليه السلام - عند إحيائه الموتى، وإبرائه الأكمة والأبرص، ونزول المائدة، قالوا: إن هذا إلا سحر مبين.

وأن الجاحدين شأنهم الاستهزاء بالحق إذ جاءهم، وأن على النبى أن يتأسى فى استهزائهم به بما كانوا يفعلون مع الأنبياء السابقين، وبين سبحانه وتعالى سوء عاقبتهم.

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك طائفة من ضلال تفكيرهم باستهزائهم عند ذكر خالق السموات والأرض، ويتولى - عليه الصلاة والسلام - الإجابة مبينا أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأن من رحمته أن يجمع الناس يوم القيامة، بين ثواب المحسن وعقاب المسىء ثم بين سبحانه وتعالى ملكه لكل شىء وسلطانه الذى فوق كل شىء، وإذا كان الله مالك كل شىء وفاطر السموات والأرض - لا يمكن أن يتخذ الرسول وليا نصيرا غيره سبحانه، وأن يكون أول من يسلم وألا يكون من المشركين، وأن يخاف عذابه إن عصى، ولا فوز إلا لمن يصرف عنه عذاب يوم القيامة.

وإذا كان سبحانه يملك كل شىء، فهو كاشف الضر إن مس الإنسان، وهو القادر على النفع، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، وإذا كان المشركون يستمرون على عنادهم فالله هو الشاهد الحكيم بين الرسول وبينهم، وشهادته أكبر شهادة، وأن هذا القرآن أوحى به إلى الرسول لينذر به المشركين ومن يبلغه دعوة النبى ﷺ، وإن كنتم أيها المشركون تشهدون أن مع الله آلهة أخرى فالنبى ﷺ لا يمكن أن يوافق على هذه الشهادة، بل لا بد أن يكذبها.

وأن أهل الكتاب الذين أوتوا علما بالرسالات يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك لا يؤمنون لأنهم غيروا دينهم أو كتموه، ولا أحد في هذا الوجود أكثر ظلما ممن افترى على الله الكذب، أو كذب بالدلائل القائمة الثابتة الدالة على الحق، ولا يمكن أن يفلح ظالم بكتمان الحق أو إظهار الشرك.

وقد بين سبحانه حال المشركين يوم القيامة، وأنهم لهول يوم القيامة ينكرون أنهم كانوا مشركين.

ومن هؤلاء المشركين من يكون على قلوبهم مثل الأكنة عند الآيات البينات، ولا يؤمنون بأى آية، وإذا جاءوا يجادلون قالوا عن الآيات: إن هى إلا أساطير الأولين، وهم يتتعدون عن الحق، وينهون غيرهم عن اتباعه، وهم فى الحالين هالكون بما يفعلون.

ثم يصور سبحانه حالهم فى الآخرة فيقرر أنها مفارقة لحالهم فى الدنيا؛ إذ يبدو لهم ما كانوا يخفون، وهم بذلك قد خسروا خسارانا مبينا وجاءتهم الساعة بغتة من حيث لا يحتسبون، وأن الدار الآخرة هى دار البقاء، والحياة، وكانوا يتوهمون أنه لا حياة بعد الدنيا، والدنيا بجوارها لهو ولعب، وذكر سبحانه عزاء النبى ﷺ بالرسول قبله إذ جحدوا، ثم لا مناص من أن يبلغ النبى ﷺ وألا يكبر عليه إعراضهم مهما تكن حالهم.

وليعلم أن الذين يستجيبون لدعوته الذين يسمعون ويتعظون هم الأحياء حقاً، والآخرى موتى وسيبعثهم الله، ويعاقبهم، وهم الذين لا يسمعون، ويطلبون آيات أخرى غير التى أعرضوا عنها، وقد ذكرهم سبحانه بأن الأحياء جميعاً من الحيوان والطيور أمم، والكتاب المحفوظ يحوى كل شىء.

وبين سبحانه أن الذين يعرضون عن الآيات صم لا يستمعون إليها، وبكم لا ينطقون بالحق، ويعيشون فى ظلمات لا يبصرون، ولقد ذكرهم سبحانه بنذاتهم لله تعالى فى حال شدتهم أو موتهم أو قيامهم أيدعون غير الله، وبين سبحانه أنه

يختبر الأمم بالضرر يصيب أجسامهم، وبالبؤس يصيب نفوسهم، ولقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فظنوه حسناً، وأنهم كما نسوا ما ذكروا به اختبروا بالنعمة، ثم أخذوا بغتة، وهم لا يشعرون، وقطع دابرهم بسبب ظلمهم، وذكرهم سبحانه بأنه إذا أخذ سمعهم وبصرهم لا يدركون، وذكر أنه يصرف لهم الآيات، ويوجههم إلى الحقائق الثابتة عساهم يفقهون الأمور على وجهها. وقد بين سبحانه عمل الرسل وهو التبشير للمتقين والإنذار للمكذبين، وأن محمداً ﷺ لا يقول لهم: عندي خزائن الله أصرفها كما أشاء، ولا يقول لهم: إنه يعلم الغيب، ولا يقول لهم: إنه ملك، بل إنه يتبع ما يوحى إليه، والناس مختلفون بعد ذلك في تلقى نور الوحي، وجزاؤهم على حسب حالهم فلا يستوى المحسن والمسيء كما لا يستوى الأعمى والبصير.

وإن الإنذار يكون أثره في قلوب الذين يخافون يوم القيامة وما يكون فيه من هول.

وإنه يجب أن يكرم أهل الإيمان، ولا يطردوا لفقرهم أو ضعفهم، فإنه من فتنه الناس بعضهم ببعض أن يوفق للحق الضعفاء، ويكذب الأقوياء ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، ويجب على النبي ﷺ أن يرحب بالمؤمنين ويبين الحق لهم، وأن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة، وهي العدالة وجزاء الحسن بالحسن، والعفو عن السيئ الذي ارتكب بجهالة، وأمر الله نبيه أن يتخذ من نفسه قدوة حسنة، فيقول: إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دونه وألا أتبع أهواءكم، وأنه على بينة من ربه، وأنه ليس بيده العذاب الذي يستعجلونه، ولو كان عندي لقضى الأمر الذي بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين.

وإن الغيب كله عند الله تعالى، فعنده سبحانه مفاتيحه لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، ويعلم ما نكسب بالنهار ويتوفانا بالليل، ويستمر الإنسان بين الليل والنهار، حتى يقضى أجل مسمى، ثم يكون المرجع إلى الله تعالى. وأنه سبحانه فوق هذا العلم المحيط، له القوة الكاملة، فهو القاهر فوق



عباده، وهو الذى يحفظ عباده، والمرجع إليه سبحانه، وهو المنجى من كل سوء، وهو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو ينزل بكم ما هو أشد، فيجعلكم شيعة ويذيق بعضكم بأس بعض، وأن قومك قد كذبوك وما تدعو إليه وهو الحق، ولكل خبر عظيم مستقر يستقر عنده، ولست عليهم بوكيل مسئول عما يسيئون به. وإنك واجد منهم لاجابة فى الإنكار، فذكر، ولا تقعد معهم إذ يخوضون فى آياتنا، وما عليك ولا على من معك من المتقين من حسابهم من شىء، فذرهم؛ لأنهم اتخذوا دينهم هزوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا، ولكن ذكرهم فقط حتى لا يستقطوا فى الشر إلى أقصى درجاته، وينالوا من بعد ذلك عذاب الجحيم، وقل لهم: أندعوا من دون الله ما لا يضرنا ولا ينفعنا، ونرد على أعقابنا بعد ذلك إذ هدانا الله كالذى أصابته حيرة باستهواء الشياطين له فى الأرض، فيدفعه الشيطان إلى التردى، ويدعوه أصحابه إلى الهدى، وهو حائر، وأن الهدى هدى الله، وأمرنا أن نسلم لرب العالمين وأن نقيم الصلاة، وأن نؤمن بالله وهو الذى خلق السموات والأرض ويوم يقول: كن، فيكون، وقوله الحق، وله الملك يوم القيامة، وهو الحكيم الخبير، عالم الغيب والشهادة.

ولقد بين سبحانه وتعالى قصة الخليل إبراهيم أبى الأنبياء وأخبار ذريته، وفى هذه القصة بين سبحانه كيف يكون إدراك العقل لله سبحانه ووحدانيته، مستمدا ذلك من الفطرة السليمة- رأى الخليل بفطرته أن الأصنام لا يمكن أن تكون آلهة، وخاطب أباه بذلك، واعتبره ضلالا، ثم اتجه إلى تعرف الإله الأوحد، ظنه فى كوكب، ولكنه أفل فزال، والإله لا يزول، ثم ظنه القمر إذ رآه بازغا، ولكنه أفل أيضا، واعتبر نفسه تسير فى ضلالة، وأنه إن لم يهده ربه الذى يؤمن بوجوده ليكون من الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي؛ لأنها أكبر، فلما أفلت أدرك أن الله تعالى لا يكون أمرا محسوسا، فقرر البراءة من الشرك واتجه إلى الخالق الذى تدل آثاره على وجوده، ومخالفته لمخلوقاته، فقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

[الأنعام] وأخذ بعد هذه الهداية يحاجُّ قومه ويحاجُّونه ويذكر لهم أن أوثانهم لا تضر ولا تنفع، فليسوا موضع خوف منه، وهم الجديرون بأن يخافوا؛ لأنهم يشركون بالله ما لم ينزل به حجة تدل على صحة الإيمان بهم، ثم قال: ﴿... فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ [الأنعام]. لا شك أن أحق الفريقين بالأمن الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، وتلك حجة الله تعالى الذي أجزاها على لسان إبراهيم - عليه السلام - وأجزاها من بعده على السنة الأنبياء من بعده، وعلى نوح من قبله. وقد ذكر سبحانه وتعالى الأنبياء من ذريته، وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وكان من أقوامهم من آمن، ومنهم من كفر، فإن يكفر المشركون من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ فغيرهم مؤمن؛ وهم يقاومون الشرك. وقد بين سبحانه وتعالى العبرة في قصصهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾ [الأنعام].

وقد بين سبحانه وتعالى بعد قصة إبراهيم أن الذين يشركون ما قدروا الله حق قدره، وقد نفوا رسالة الله تعالى، فسأل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، وقد كان يعرف أن لليهود كتابا، وقد بين أن اليهود يخفون بعضه وهو كثير ويظهرون بعضه، ولا يصح أن يقتدوا بآبائهم؛ لأنهم علموا ما لم يعلموا من قبل، ولم يعلمه آباؤهم.

وذكر سبحانه بعد ذلك منزلة القرآن، وهو أنه كتاب مستمر بهدايته واتباعه، وأنه نزل على محمد الذي علمتموه أمينا عدلا لا يكذب، ولا أحد أظلم ولا أكذب ممن يدعى أنه أوحى إليه، ولم يوح إليه بشيء... ومن قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله من المشركين وأشباههم، وصور سبحانه وتعالى حال الظالمين، وهم في غمرات الموت باسطي أيديهم بالمنجاة، ويقال لهم: اليوم أخرجوا أنفسكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون، وأنهم سيذهبون إلى الله مجردين عن الأتباع والنُصراء، وتركوا ما مكنوا فيه من أموال وبنين وأولياء وراء ظهورهم، وكانوا كما خلقهم أول مرة، وليس معهم الشركاء الذين

زعموا أنهم يشفعون لهم: ﴿... لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَرْعُمُونَ﴾ [الأنعام].

بعد هذه الأدلة الساطعة، والقصص المذكور، والتوجيه المنبه، بين سبحانه أنه وحده المنشئ على غير مثال سبق، فهو الذى يخلق الحب فيكون منه النبات، ويفلق النوى فيكون منه الشجر، وهو يبدع الحياة فى هذا النبات الجامد، ويخرج ذلك البذر الجامد من الأغصان الرطية، وهو الذى يخرج الإصباح من الظلام، ويجعل الليل سكنا واطمئنانا بعد كدح النهار، وهو الذى يجعل الشمس والقمر بحسبان، وكل ذلك بتقديره، وهو العزيز العليم، وهو الذى زين السماء بالنجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البحر، وذلك ليكون أمانة وجوده ووحدانيته لقوم يعملون عقولهم، ولا تسلط عليهم أوهامهم، وبعد أن بين ذلك التوجيه العام فى خلقه؛ اتجه إلى بيان خلق الإنسان فأنشأ بنى الإنسان من نفس واحدة، واستقر فى هذا الوجود، وأودع الأرحام ودائعها، وتلك آيات لمن يؤمن، وينفذ ببصيرته إلى حقائق الأمور، وبين من بعد ذلك، الثمرات التى تكون من التقاء السماء بمائها بالأرض فيكون أطيب الثمار، وأطيب الزرع، وما فيه من عجائب، وبين تنوع الخلق، فأشار سبحانه إلى النخيل والأعناب والزيتون والرمان، والمتشابه، وغير المتشابه، وما يكون من ثمرات، وفى كل ذلك لمن يؤمن بالحق ويدعن للحقائق.

ومع كل هذه الآيات البينات التى يدركها من يعقل، ويصل إلى الحقائق فيها من يفقه، ويدعن لها من يؤمن بالحق ولا يمارى فيه - مع كل هذه الآيات وجد من جعلوا له شركاء من الجن وهو الذى خلقهم، ومن يحسمقون، فيدعون أن لله بنات وبنين سبحانه وتعالى عما يصفون. إنه سبحانه خلق السموات والأرض كيف يكون له ولد ذكر أو أنثى وليست له صاحبة، وإذا كان الله تعالى خالق كل شئ فهو وحده المستحق للعبادة وحده، وهو سبحانه المنمى لكل شئ بعد خلقه.

وقد بين بعد ذلك بعض صفاته، فهو لا تدركه الأبصار؛ لأنه غير محسوس، وهو يدرك الأبصار، وهو العالم علما دقيقا لكل شيء، وأن كل ما سبق؛ فيه ما يبصركم بالحق، والتبعة عليكم بعده، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ، وإن هذا كله تصريح في القول المعجز، ليؤمنوا وليقولوا: درست على ربك. ومن بعد ذلك أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يتبع ما يوحى إليه، وأن يعرض عن المشركين، والله تعالى هو الذى كتب عليهم الكفر، وما كان النبي ﷺ حافظا يمنع عنهم الكفر، ولا حاميا يدافع عنهم.

ولقد علم الله المؤمنين الحكمة بأن ينظروا إلى مآلات أقوالهم ولو كانت حقا، فلا يسبوا آلهة المشركين حتى يندفعوا فيسبوا الله تعالى ظالمين جاهلين، ثم هم معاندون، يقسمون أنهم إن جاءتهم معجزة غير القرآن يؤمنوا، فردهم سبحانه بأنه يختار من الآيات ما يكون مناسبا وله الحكمة، والله سبحانه هو مقلب القلوب، فليتركوا في ضلالهم وعمائيتهم بعد البيان المرشد الحكيم.

وأن هؤلاء كتب الله تعالى عليهم الشقوة إلا أن يرحمهم فيتركوا ما هم فيه من ضلالة، فلا تجدى فيهم الآيات إلا أن يشاء الله تعالى، فلو أنزل الله تعالى عليهم الملائكة، وكلمهم الموتى معلنين بعثهم، وجمع عليهم كل شيء يكون فى المستقبل ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، والله سبحانه وتعالى قد اختبر الأنبياء فجعل لهم من شياطين الإنس والجن أعداء يزخرف بعضهم لبعض القول ويغرونهم، ولو شاء الله تعالى ما فعلوه، فذرهم وما يفترون، وأنه لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالغيب والآخرة، بل لا يفهمون إلا ما بين أيديهم، وبذلك يقتفون الآثام التى يقتفونها لأنهم يقولون إن هذه الحياة الدنيا هى وحدها الحياة. وأنه لا يمكن أن يكون للمؤمن حكم غير الله؛ لأنه هو الذى أنزل الكتاب مبينا فيه كل شيء وأهل الكتاب يعرفون ذلك، ولا يصح أن يكون ذلك موضع شك، وأنه ببيان القرآن تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، وهو السميع العليم، ولا يجوز التقليد للآباء والبيئات، فإنه إن يطع النبي من فى مكة أو بلاد العرب يفضل عن

سبيل الله؛ لأن سبيل الله تعالى هي الحق والعقل، وهم يتبعون الظن ويخربون، وربك أعلم بمن يضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين.

وإن من شركهم أن يذبحوا الذبائح باسم الأصنام فتهى الله تعالى المؤمنين عن أن يأكلوا مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، بل إنهم يأكلون ما ذكر اسم الله تعالى عليه، ولا يصح أن يوجد ما يمنعهم إلا من يكون في حال اضطرار، والله أعلم بالمعتدين، وعلى المؤمنين أن يذروا ظاهر الإثم وباطنه، وألا يأكلوا مما لم يذكر عليه اسم الله تعالى، ولا شك أن المشركين سيجادلون في تحريم هذا وإحلال غيره، وعلى المؤمنين ألا يطيعوهم، وإلا كانوا مشركين مثلهم، وإنه لا يتساوى الميت مع الحي، وكذلك لا يتساوى الضال الذي هو كالميت مع المؤمن الذي يحيا حياة طيبة وله نور يمشى به في الظلمات، ولكن زين لهم سوء أعمالهم. وإنه ليس بغريب أن يناوئ محمدا ﷺ أكابر من قريش، فإن كل قرية يكون فيها أكابر مجرميها، يمحرون فيها ويسيطرون عليها، والعاقبة عليهم وما يشعرون، وهم يحسدون رسل الله تعالى فيطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي رسل الله، وذلك شرط لإيمانهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وسيصيبهم صغار بسبب إجرامهم وعذاب شديد بسبب كفرهم ومكرهم السيء لخفض كلمة الله تعالى. ومن يرد الله تعالى الخير له يشرح صدره للإيمان، ومن يرد غير ذلك منه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء من شدة ضيق صدره وتوالي أنفاسه، وبذلك يكون عليه الرجس وعلى الذين لا يؤمنون، وهذا صراط الله تعالى مستقيما قد فصلنا الآيات وبينناها لقوم يذكرون.

ولقد بين سبحانه وتعالى اختصاص المؤمنين، فذكر أن لهم دار الأمن والاطمئنان والسلام عند ربهم الذي خلقهم وهو وليهم، وذلك جزاء عملهم، وإن الله تعالى يوم يجمعهم جميعا يناديهم يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس، وأولياؤهم من الإنس يقولون قد استمتع بعضنا ببعض، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، فذكر سبحانه أن النار هي المثلوى الذي ينتهون إليه، وكذلك يمكن بعض

الظالمين من بعض بسبب ما كانوا يكسبونه، ثم فى هذا الجمع الجامع ينادى رب البرية ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ...﴾ (١٢٠) [الأنعام] ويذكرهم بمن بعث إليهم من رسل يذكرهم لهم آياته سبحانه، وينذرونهم لقاء يومهم هذا، فيشهدون على أنفسهم، ولكن غرتهم الدنيا وزخرفها، وأطغاهم أن الله تعالى لا يهلك القرى بسبب ظلمها، وأهلها غافلون. ولكل درجات بسبب أعمالهم، والله لا يترك عمل عامل، وهو الغنى ذو الرحمة إن شاء يذهبهم، ويستخلف من بعدهم قوما غيرهم، وما وعد به سبحانه آت لا محالة لأنه لا يعجزه أحد، وأمر الله نبيه أن يدعو قومه إلى أن يعملوا ما فيه رفعة مكانتهم واجعل نفسك قدوة لهم فى العمل، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار.

وذكر سبحانه وهما من أوهامهم إذ جعلوا لله تعالى مما خلق من الإبل والبقر والغنم نصيبا وجزءا لما يزعمون آلهة، فما يجعلونه للشركاء يكون لهم، وما يكون لله لا يصل إليه، ويصل إلى شركائهم، وساء ما يحكمون به فى هذه القضية وغيرها.

ومنهم من كان قد زين لهم الشيطان قتل أولادهم بوهم للآلهة التى يزعمون، فأردوهم، ولبسوا عليهم دينهم ولو شاء ربك ما فعلوه وهو افتراء فذرهم أيها الرسول بعد أن بينت، وحرمت على أنفسهم بأوهامهم، فجعلوا بعض الأنعام للأكل والحرث وأنعام لا يطعمها كل الناس، وأنعام ممنوعة، وأنعام حرم ركوبها، وأنعام يأكلونها من غير ذكر اسم الله، وكل ذلك افتراء سيجزيهم الله تعالى عليه، وقالوا: ما فى بطون هذه الأنعام للذكور منا، ويحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء وسيجزيهم الله تعالى على ذلك، إنه حكيم عليم.

وكانوا يقتلون أولادهم سفها بغير علم، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

ولقد بين سبحانه أنه أباح الطيبات وهو الذى خلقها وأنشأها للناس، فذكر أنه أنشأ جنات معروشات كالأعنان وغير معروشات كالبرتقال وغيره، والنخل والزرع مختلفا أكله من قمح وشعير وفول وبقول والزيتون والرمان متشابهة آحاده وأنواعه وغير متشابه، وخلق ليؤكل، كلوا من ثمره، وآتوا ما عليه من زكوات يوم حصاده ولا تسرفوا فى الأخذ حتى لا تطفوا إن الله لا يحب المسرفين، وبعد أن بين النعم فيما تخرجه الأرض بين نعمه، فمن الأنعام حمولة تحملكم من أرض إلى أرض أنتم وأمتعتكم وتتخذون من جلودها وأشعارها وأوبارها فرشاً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فى طعامها وتحريم بعضها، وتحليل بعضها، فسبب التحريم ليس متحققاً فيها، فهى ثمانية أزواج؛ من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، فما سبب التحريم الذى تبتدعونه فى بعضها فهل فى الذكورة، فتحرموا كل الذكور؟ أم فى الأنوثة فتحرموا كل الإناث؟ أم فيهما فتحرم كلها؟ وأنتم تحرمون بعض الذكور دون بعض، فلا مبرر للتحريم، والتحريم ظلم وافتراء، ومن أظلم ممن افترى على الله لِيُضِلَّ الناس بغير علم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين، ثم أمر رسوله بأن يبين المحرمات من الأنعام وهى: الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وكل هذا رجس قذر، وما أهل لغير الله وهو فسق، وذلك كله حرام على المختار فمن اضطر غير متعدياً، ولا متجاوز حد الضرورة فإن الله غفور رحيم، ثم بين سبحانه ما حرمه على اليهود لغلظ قلوبهم، فذكر أنه حرم عليهم كل ذى ظفر من البهائم، وحرم من البهائم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط من الشحوم بالعظم، وكان تهذيباً لنفوسهم الشرهة، وجزاء لبغيهم.

وذكر سبحانه أن المشركين يكلون شركهم إلى تقدير ربهم، أى يأثمون، ولا يحملون أنفسهم إثمهم، وكذلك كل الفاسقين حتى يروا بأس الله تعالى يوم القيامة- وهل عندهم علم سوغ أن يحملوا غيرهم إثم فعلهم، فيحرموا ما حرموا؛ إن يتبعون إلا الظن الكاذب والوهم، والله عنده الحجة البالغة، وهاتوا

شهداء يشهدون أنه حرم ما حرموه على أنفسهم، فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كانوا بأدلة الله يكذبون، ولا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون، ويجعلون معه شركاء.

وبعد أن ذكر سبحانه ما حرموه على أنفسهم، وبطلان ادعائهم أمر رسوله أن يبين لهم ما حرم عليهم وهم فيه واقعون وهو ﴿... أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾ [الأنعام].

وقد بين سبحانه بعد ذلك أن هذا هو صراطه المستقيم، عليهم أن يتبعوه، ولا يتبعوا السبل، فتفرق بهم عن سبيله، فغيرها ماثرات الشيطان، وطرائقه، وتلك وصيته رجاء أن تتقوه فاتبعوها؛ وبين سبحانه أن هذه المحرمات جاءت في شريعته ﷺ وفي كتابه، وقد سجلت في القرآن، فكانت شرعا لله، فاتبعوها واتقوا الله لعلكم ترحمون، ولا تعرضوا عنها بأن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين هم اليهود والنصارى من قبلنا ونحن غافلون عن دراستهم، أو تعرضوا قائلين لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فما هو ذا أنزل عليكم من ربكم فيه بينة وهدى ورحمة، وإنكم من بعد تظلمون بتكذيبكم بآيات الإعجاز فيه، وتصدفون عنها، وجزاؤكم على ذلك الظلم سوء العذاب.

هذه حجج قاطعة فإذا كنتم تعرضون عنها، فهل تنتظرون أن تأتيكم الملائكة أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك القاصمة لظهوركم، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿... لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ [الأنعام].

وإن الذين فرقوا دينهم من اليهود والنصارى وكانوا شيعا لست منهم في شيء، إنما أمرهم إلى ثم أثبتهم، بما كانوا يفعلون، ثم بين سبحانه الجزاء فجزاء الحسنة عشرة أمثالها، وجزاء السيئة مثلها، وطالبه ﷺ أن يكون قدوة فأمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَغْيِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ... (١٦٤)﴾ [الأنعام]. وبين أن كل نفس وما تفعل، فلا تزر وازرة وز أخرى، ولا تكسب كل نفس إلا عليها، وإلى الله مرجع الجميع، فسينبئهم بما كانوا فيه يختلفون.

وبين سبحانه منزلة الإنسان في هذا الوجود، فقال تعالت كلماته: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ نَوْمًا
 وَالنُّورَ نَهَارًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
 تَمُوتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
 وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ
 آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
 لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
 يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
 نُمْكِنْ لَهُمْ لَكَرُومًا وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
 تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
 آخَرِينَ ﴿٦﴾

كان ختام السورة السابقة إثبات سلطان الله تعالى الكامل، وقدرته الشاملة،
 وأنه لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، إذ قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٢٠). وفي هذه الآية
 يبين سبحانه السبب في كمال سلطانه، والمظهر الأعظم لكمال قدرته، وهو خلق

السموات والأرض وخلق الإنسان، فإن هذا من أسباب السلطان الكامل على السموات والأرض ومن فيهن، وهو مظهر كامل لكمال قدرته سبحانه وتعالى، وهذا قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

الحمد معناه اللغوي: الثناء على المحمود بالفعل الاختياري الذي يقوم به، فلا يحمد على فعل كان بالجيلة والتسخير، إنما الحمد يكون ثناء على فعل اختياري، الحمد بمعنى الثناء مراتب، أدناه الثناء على العباد في أعمالهم الاختيارية. واستعماله في القرآن في الثناء على العباد قليل إلا إذا كان في التنديد بطلبهم للحمد مثل قوله تعالى: ﴿... وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ...﴾ [آل عمران]. وأعلى من هذا مرتبة الثناء على الله تعالى بما هو أهله، وذكر صفاته، والإحساس بجلال نعمه، ولهج لسان العبد بهذه النعم.

المرتبة العليا شكر هذه النعم والخضوع المطلق له سبحانه، والقيام بحق عبادته، وإفراده بالعبودية، وإن ذلك هو المطلوب من العباد، وهو أعلى الشكر، وقد قال سبحانه: ﴿... لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ...﴾ [ي]. [إبراهيم] والشكر امتلاء القلب بذكر الله تعالى وذكر نعمه، وشكرها، وهو الذي طالب به القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿... اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ ...﴾ [البقرة] و«آل» هنا للاستغراق، والمعنى أن المستحق لكل أنواع الحمد ومراتبها هو الله تعالى، فهو المستحق للعبادة، وهي أعلى درجات الحمد، وهو الجدير بكل حمد، دون غيره، وإذا كان ثمة حمد للعباد فهو إن كان على خير أسدوه كان حمد الله تعالى لتوفيقهم وعونهم، وإن كان الدافع على الثناء غير الخير، فهو ليس بحمد، وإنما هو كذب وافتراء على الحق وتعاون على الشر. وقد ذكر سبحانه أسباب ذلك الحمد الذي بلغ أعلى درجاته، فقال تعالت كلماته:

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ هذا وصف لله سبحانه وتعالى يثبت كمال حق العبودية له وحده، وأنه لا يستحق الحمد الكامل سواء، ولقد يقول الصوفية: إن العبودية لله تعالى ثلاث مراتب: أولاها- أن يعبدوه لذاته، والثانية- أن يعبدوه لصفة من صفاته كصفة الخلق والتكوين، والثالثة- أن يعبدوه لتكامل نفوسهم، ويحسوا بفضل الطاعة، وهذا النص يفيد أن حمد الله تعالى؛ لأنه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والحق أن المراتب الثلاث لا تباعد بينها، فمن يعبد الله لذاته، فإن ذاته تعرف بصفاته، ومن يرى شرفه في عبادة الله وحده، فهو يتسامى.

والقول الجملى- أن الذكر لخلق السموات والأرض لبيان سلطان الله تعالى وقدرته واستحقاقه وحده الألوهية؛ بدليل قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وهنا بعض المباحث اللفظية التى نتعرض لها؛ لأنه يكون تقريرا لمعانى الإعجاز فى النص:

المبحث الأول- التعبير فى خلق السموات والأرض بـ «خَلَقَ»، وفى الظلمات والنور بـ «جَعَلَ»، فنقول: الخلق معناه الإنشاء الابتدائى هنا، والجعل يتضمن معنى تكوين شىء من شىء أو شيئين، وقد يتضمن الخلق ذلك المعنى بقرينة؛ وهنا المتبادر من المعنى أن الله تعالى أنشأ السموات والأرض إنشاء، وجعل منها الظلمات والنور، فمن اختفاء الشمس عن الأرض يكون ظلام الليل، ومن بزوغ الشمس على الأرض يكون النور، وذلك كله بجعل الله تعالى، وبأصل التكوين والتقدير من العزيز العليم.

المبحث الثانى- لماذا جمع «الظلمات» وأفرد «النور»؟ والجواب عن ذلك: أن النور واحد، من نتائج الكشف والظهور، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته، أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها. . فهناك ظلمة الليل، وهناك ظلمة المحابس،

وهناك ظلمة القبور، وهناك ظلمة الغمام، وهى تتغير حقائقها بتغير أسبابها، ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوى، وهى أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها، فهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الأهواء والشهوات وطمس القلوب، والنور واحد، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) [الأنعام] فالنور فى هذا واحد.

المبحث الثالث- لماذا أفردت الأرض وجمعت السموات مع أنه قد وردت نصوص تعتبر الأرض سبعة كالسموات؟ والجواب عن ذلك: أنه فى كثير من المواضع تفرد وتجمع السماء فى مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠) [الأنبياء] وإنما تعدد السموات لعظمتها، ولإحاطتها بالأرض، ولما فيها من الآيات البارزة، ولتزيينها بالنجوم، ولأنه لم يعلم أن الله تعالى قد عصى فيها، ولأن طبقاتها متميزة ينفصل بعضها عن بعض، والأرض طبقاتها متصلة.

المبحث الرابع- ما الذى كان العطف عليه فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ولماذا عطف بـ «ثم»؟ أما الجواب عن الجزء الأول فهو أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهو وحده يستحق الحمد، ثم مع ذلك يجعل الذين كفروا بسبب ضلالهم مثلاً يعدلونه به، وهو أصنامهم، أو ما يزعمون من آلهة، والتعبير بـ «ثم» للبعد بين الحقيقتين، فالحقيقة الأولى التى توجب توحيد الله تعالى وحده، والثانية- ما يقع من هؤلاء الكافرين على غير بينة ولا إدراك، ولقد قرر الله تعالى الحقيقة الثابتة، فقال عز من قائل:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

بعد أن ذكر جلّت قدرته خلقه لهذا الكون وما فيه، وسلطانه على السموات والأرض ومن فيهن، بين سبحانه خلق الإنسان الذى يؤمن ويكفر، ويأثم ويفسق، ويهتدى لأمر ربه، ،والذى حارت البرية فيه، كما قال أبو العلاء المعرى:

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

ذكر أن الله تعالى خلقه، أى أنشأه من طين فلا يصح أن يستكبر، ويستغلظ على الهداية، وليذكر أصله، فأصله من طين، ولا يزال رب البرية يربه وينميه من الطين، فغذاؤه نبات أو حيوان يرجع إلى الطين، وفى ذكر هذا الأصل إشارة إلى أمرين جليلين: أولهما- عظمة الخالق وإبداعه الذى يجعل من صلصال من حماً مستون ذلك الإنسان الحى المتفكر المستدبر الذى يختار الشر فيغوى، ويختار الخير فيهتدى، والإشارة إلى تذكير الإنسان إلى أصل خلقه، لكيلا يستكبر ولا يغتر ولا يستعلى، وإذا كان أصله من الطين، فليس عجباً أن يعود كما بدأ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف] ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ... (٥٥)﴾ [طه] .

وإن الله سبحانه وتعالى، قد خلق الإنسان من الطين، أى خلق أصله من طين، ثم توالد وتناسل من بعد ذلك، وعمر الأرض ما شاء أن يعمرها حتى كان منهم من نسى أصله الطينى، وقد قدر سبحانه لكل إنسان أجلاً، ولبنى الإنسان جميعاً- أجلاً- أما الأول- فقد أشار إليه سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أى عمراً تكون له نهاية فى هذه الدنيا، وعقبى هنالك فى الآخرة، وكان العطف بـ «ثم» للإشارة إلى الأطوار التى يمر فيها الإنسان، والأطوار التى يمر بها الجنين، وللتفاوت بين الحقيقة التى نراها ونحسها والغيب الذى لا نعرفه، مما قدره الله تعالى إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... (٢٤)﴾ [لقمان] .

هذا هو أجل العمر، وقال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وما هذا الأجل المسمى عنده، ولا يعلم به أحد الآن يصح أن يكون الأمد الذى يكون بين الوفاة، وبعث من فى القبور، ويصح أن يكون ما قدر للإنسان فى هذه الأرض من وجود، والأمران متلاقيان، فالزمن الذى يكون بين وفاة كل واحد، والبعث

من القبور، والحساب والثواب أو العقاب، ثم الذى تنتهى به الدنيا، وهو مغيب؛ لأن الساعة علمها عند الله قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف].

ووصف هذا الأجل الثانى بأنه مسمى عنده يفيد اختصاص علمه سبحانه وتعالى بذلك، كما أشارت الآيات التى تلونها، وقدم ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على قوله تعالى: ﴿عِنْدَهُ﴾؛ لأن الأجل المسمى هو المبتدأ، وما بعده خبر، والمبتدأ مقدم حقيقة، ولأن الأجل هو المتحدث عنه باعتبار أن موضعه لا يعلمه إلا الله تعالى، وسوغ الابتداء بالنكرة؛ لأنها موصوفة، والموصوف المنكر يصح أن يكون مبتدأ لأنه معرف بنوع من التعريف، وتأخير ﴿عِنْدَهُ﴾ ليس فقط؛ لأن الأجل هو المبتدأ - بل لأن ﴿عِنْدَهُ﴾ متعلقة بكون التسمية عنده فالعندية ليست لذات الخبر، إنما هى للوقت المسمى الذى اختص الله تعالى به، فكان الأنسب أن يكون المسمى مقترنا بالعندية التى هى متعلقة.

وإذا كانت الآجال ترى مقدرة، فكل حى ينتهى بالموت لا محالة، فكان الأجل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى لا ريب فيه أيضاً، ولكن بعض الناس فى ريب وشك؛ لأنهم مربوطون بالمحسوس؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أى أنه مع ما ترون، وتعلمون من أن الإنسان يموت كما ترون، وأنه من طين، مع ذلك تمترون، أى تشكون وتجادلون فى شككم، والأدلة قائمة، وكان العطف بـ «ثم» لتباعد ما بين الحقائق الثابتة وأسبابها، والامتراء هو التردد الذى ينتهى إلى محاجة ومجادلة، وقد ينتهى إلى شك، ثم إلى إنكار، وكان الخطاب لكل المخاطبين بالقرآن مؤكداً بـ «أنتم»، للإشارة إلى أن النفس البشرية حسية، وهى تأخذ أحكامها على الغائب الخفى من المحسوس الجلى. فكان الخطاب للجميع

ليخلعوا من نفوسهم عوامل التردد، ويتجهوا إلى تصديق العليم الحكيم القادر على كل شيء.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

بعد أن أشار سبحانه وتعالى أنه الخالق لكل شيء أشار سبحانه إلى البعث وذكر من قبل ذلك أنه الخالق ذو السلطان المطلق في هذا الوجود يسيطر عليه بجلاله، وألوهيته، واستحقاقه للألوهية وحده، وهو العالم فيه بكل شيء، فلفظ الجلالة يتضمن معنى الألوهية الحق، ومعنى الوجدانية والعلم والقدرة والإرادة، والسلطان الكامل الذي لا يدانيه سلطان، فمعنى قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتضمن خضوع كل من فيهن له سبحانه، وسيطرته الكاملة وقدرته وعلمه، واستحقاقه للعبودية، والألوهية وحده.

والضمير في قوله: ﴿وَهُوَ﴾ يعود على المستحق للحمد الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والذي خلق الإنسان من طين، وإنه بذلك يكون مستحقا للحمد، ويكون هو المسيطر في الكون الذي أنشأه وفي الإنسان الذي صوره من طين، وسخر له ما في السماء والأرض.

وقد ذكر وصفان جليان فيهما تذكير وتبشير وإنذار.

أولهما- أنه يعلم ﴿سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فإنه يعلم ما تظهره الجوارح وما تخفيه السرائر، يعلم ما يجرى على الإنسان وما تخفى الصدور، فإن حاسب على ما يفعلون، فحسابه حساب اللطيف الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أنى يكون، وهو مجاز على ذلك إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو من بعد الغفور الرحيم.

الوصف الثاني- أنه يعلم ما يكسبون من خير أو شر، ولكل ذلك حسابه من هنا إلى يوم القيامة.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

قد وصف الله الذين كفروا بأنهم بعد قيام الدلائل التي تدركها الفطرة السليمة على وحدانية الله تعالى يجعلون عديلا لله في وحدانيته، ويشركون فيه، ومع أن الآيات الفطرية تدل أن خلق الإنسان إلى فناء في الدنيا ثم إلى بقاء، وإنها للجنة أبدا، أو للنار أبدا وقد بين من بعد أن الذين طمست فطرتهم فلم تدرك الحق لذات الحق لا تجدى معهم البراهين مهما قويت، ولا الآيات مهما بينت، فينبأ أنهم معرضون كمن يرى ضوء الشمس فيضع غشاوة لكيلا يراها، ومن يسمع الحق فيضع أكمة على أذنه، وما تأتيتهم أية حجة إلا أعرضوا عنها، وهنا بعض المباحث اللفظية التي تقرب معنى الآية الكريمة:

الأول- أن (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ﴾ لعموم النفي ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. واستغراقه، أي لا توجد أي آية.

الثاني- التعبير بقوله تعالى: ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه (من) تبعية، والمعنى فيه ما يأتيه آية (من) بعض آيات ربهم الذي خلقهم وذراهم من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، وهو الذي يكلؤهم ويرعاهم - إلا كانوا عنها معرضين.

المبحث الثالث- أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فيه إثبات أن الإعراض عن الحق دأبهم وصفة ثابتة فيهم لا يتخلون عنها، ودل على ذلك النفي والإثبات، ثم التعبير بـ «كانوا» الدالة على الدوام والاستمرار، ثم التعبير بالوصف والمعنى الجملي: لا تأتيتهم معجزة قاطعة في الإثبات من عند خالقهم إلا تلقوها معرضين عن مغزاها، تاركين مؤداها.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إذا كانوا لا تأتيتهم آية بينة مثبتة الرسالة إلا استقبلوها بإعراض كأنه عادة لهم، وشأن من شئونهم، فلا بد أن يكذبوا بالحق الذي جاء به النبي ﷺ وهو ما اشتملت عليه الرسالة المحمدية، فهم قوم بور؛ لأن الناس أقسام ثلاثة: قسم يهتدى إلى الحق

عندما يدعى إليه؛ لأنه يدرك ببصيرته، إذ هي مشرقة مخلصة تستجيب للفترة؛ لأن الحق في فطرتها، وفي ثناياها. وقسم يقبل الحق، ويستمع إلى آياته ودلائله ويهتدى به. وقسم على قلبه غشاوة يعرض عن الحق، وعن أدلته، وهؤلاء لا علاج لهم إلا بالسيف يقاتلون به، أو بالعذاب الشديد ينزل بهم في الآخرة.

وأنهم لم يكتفوا بتكذيب الحق إذ جاءهم على لسان الرسول ﷺ، وبما اشتمل عليه القرآن الكريم من حقائق ثابتة بل تجاوزوا إنكار الحق إلى الاستهزاء بأهله، والسخرية بمعتقديه؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإن هذا النص الكريم يشير إلى إخبار بالاستهزاء مطوى قد أغنى عن ذكره ما بعده في ثنايا القول الحكيم، وإن هذا تهديد بأنه سينزل بهم عذاب شديد هو نتيجة وثمره لاستهزائهم، وكأنه لخصمته نبأ عن القرآن الذي كان به هذا الاستهزاء، وفي الكلام إشارات بيانية تؤكد أنهم مخاطبون بالرسالة ومعاقبون على الإعراض.

الأولى- في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وأنه نزل بساحتهم وصار قريبا منهم ففى هذا تنبيه على أنهم المخاطبون بحجيتهم، وأنه بينهم مستمر دائم لا يتوانى عن تذكيرهم مهما فروا، حتى يكون ضلالهم عن بينة، ومن بعد فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها.

الثانية- تأكيد ما ينزل بهم نتيجة لسخريتهم بـ «اللام» وبـ «سوف»، وبأنه يأتيهم فينزل بساحتهم، وذلك تأكيد لوقوعه.

الثالثة- التعبير عن العذاب بأنه أنباء ما كانوا به يستهزئون، والنبأ هو الخبر العظيم، وقد وضح ذلك الزمخشري في الكشف فقال: فسوف تأتيهم أنباء الشيء الذى كانوا به يستهزئون، وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى سيعلمون بأى شيء استهزءوا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.



وقد بين سبحانه لهم العبرة بما نزل بمن سبقوا، ومن مجاورتهم ديارهم، فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾.

القرن: الجماعة المقترنة التي تعيش في زمن واحد، والاستفهام داخل على فعل محذوف دل عليه سابق الكلام ولاحقه، والمعنى المقرب: أيعرضون ذلك الإعراض عن المعجزات التي تبين لهم الحق، ويستهزئون ذلك الاستهزاء لأهل الحق، ولم يروا بأن ينظروا نظرة تدبر وتفكر العدد الكثير من القرون الذين أهلكناهم من قبل، وكانوا أشد قوة، وأكد منهم، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع فهو للتوبيخ؛ لأنهم فعلاً أعرضوا واستهزأوا ولم يتدبروا ويتبصروا، والآية الكريمة تنبههم إلى وجوب التبصر والتدبر، وتذكرهم بما يستقبلهم إن استمروا على غيهم، وهى فوق ذلك دليل على كمال قدرته على تنفيذ إنذاره، وقد ذكر الله تعالى لأولئك الأقوام الذين أهلكهم الله تعالى فى سبيل بيان العبرة:

أولاً- بأنهم مكّنوا فى الأرض بما لم يمكن للمشركين الذين عاصروا محمداً ﷺ فقال تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ﴾ أى جعلنا لهم مكاناً فى الأرض لم نمكن لكم مثله، أى لم نمكنه لكم، وذلك كناية عن سعة السلطان، وقيام الصنائع، وكثرة العمران، وثبات حكمهم، واستقرار أمرهم، فأنتم معشر المشركين لم يكن لكم شئ من ذلك، وأنى يكون مكانكم بجوار مكان فرعون، وأنى يكون سعة عمرانكم بجوار سبأ فى مسكنهم الذى كان فيه جنات عن يمين وشمال.

وثانياً- أن الله جعل لهم العيش رغداً، ورغد العيش كان غيشاً من السماء فأرسل عليهم السماء مدراراً، والمراد من السماء هنا جهة العلو؛ ولذا أفردت فقال تعالت كلماته: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أى أرسلنا عليهم السحب تنزل دارة الماء، ويصح أن نقول: إنه أرسل ما فى السماء من السحب، أو اعتبرت السحب

المطرة فإنها سماء باعتبارها في وجهة العلو، وفي التعبير بـ «أرسل» بدل «أنزل» إشارة إلى معنى الغوث والإمداد المستمر الدائم، والعرب لم يكن مطرهم كثيرا، بل كان غيثا، يجيء القينة بعد القينة.

وثالثها- بالأنهار تجري من تحتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ في التعبير بـ (جعل) معنى التحويل، أى حولنا أمطار السماء إلى أنهار تجري من تحتهم أى تحت سلطانهم يسيرون مجاريها كما يريدون، فكان الماء عندهم غدقا ولم يكن ذلك عند العرب، فبأى شيء يفترون ويستعلون، وماذا صنع سبحانه بهؤلاء؟ قال:

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

الفاء هنا للتفصيل، والبيان بعد الإجمال، لقد أشار سبحانه إلى ما نزل بهم، وهنا يبين سبحانه أنه أهلكهم بسبب ذنوبهم، والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران:

أحدهما- أن الذنوب ذاتها تهلك أمتا، إذ تشيع فيهم الترف والغرور والفساد في الأرض، وبذلك تنحل وتضمحل، وتذهب قوتها.

المظهر الثاني- إهلاك الله تعالى الأمم عقابا على أوزارها، وإن الأمم إذا هلكت بسبب فسادها، جاء جيل يصلح أمرها، ويزيل أسباب الفساد، ويجدد المتخرب، وهو الجيل الذي ينشئه الله على آثار المفسدين، وهو غير الجيل السابق؛ ولذلك كان التذكير وكان الوصف بـ (آخرين).

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا
يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتُمْ بِرُسُلِكُمْ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ
كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ



كانت الآيات السابقة تبين إغراض الذين كفروا عن آيات الله تعالى، وهي المعجزات التي يأتي بها الأنبياء لإثبات أن رسالاتهم من عند الله سبحانه وتعالى، وأن المشركين يعرضون عن القرآن الكريم، ويطالبون بآيات أخرى ويحسبون أن المسوغ لكفرهم نقص فيها، لا نقص فيهم بعدم الإذعان للحق، وأن الناس قسمان: قسم يذعن للحق إذا قامت بيناته، وهذا يكفيه ما اختاره الله سبحانه وتعالى دليلاً على رسالة من بعثه الله تعالى؛ لأنهم طلاب حق يتعرفون دليله، ويذعنون إليه.

والقسم الثاني - استولت عليهم أهواؤهم وشهواتهم، وسدت مسالك النور في قلوبهم، فهم في لهو وإغراض، وهؤلاء لا تزيدهم قوة الدليل إلا إصراراً، وهؤلاء لا يذعنون للحق مهما تكن قوة الدليل، وهم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .

أى إن هؤلاء لا ينقصهم الدليل، ولكن ينقصهم التوجه، وأخذ أمر الدين بعناية وتفكير واتجاه سليم لطلبه، فإن الاتجاه المخلص يجعل النفس تشرق، وتمتلئ بالحكمة، فيقنعها الدليل، وهؤلاء المغرضون ينقصهم ذلك الاتجاه المستقيم، الذى يملؤهم بالنور، ويشرق فى قلوبهم طلب الحكمة والنزوع إليها، وعلى ذلك لا تجدى فيهم الآيات مهما تكن قوة الدليل وحسبته.

وفى النص القرآنى مقامات بيانية تقرب معناها السامى، وإن كان بينا فى ذاته.

الأول- ﴿لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ (لو) هنا حرف امتناع لامتناع، أى أن الله سبحانه يمتنع عن أن يفعل ذلك؛ لأنه عبث لا يليق أن يصدر عن ذاته العلية؛ إذ لا ثمرة له، فلن يؤمنوا مهما تكن قوة الدليل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) [الحجر]. فالكلام القرآنى فى مضمونه هنا يحكم بأن الهداية السامية لا تفتح لها قلوبهم المعرضة المتحيرة المركسة فى الضلالة.

وقوى سبحانه وتعالى امتناع هدايتهم، إذا جاءتهم آية بأن لو نزل عليهم مكتوب من السماء محفوظ فى قِرطاس متضمن معنى رسالة الله تعالى، ولمسوه بأيديهم للدلالة على العلم الحسى الذى لا ريب فيه ولا شك - لا يؤمنون، فتأكدت لديهم رسالة الله تعالى بأمر ثلاثة بهذا المكتوب الذى وضع فى غلافه، ويلمسه بالحس، ويكون اللمس بكل الأيدى والجوارح.

المقام الثانى- أنهم لا يقابلون ذلك بالتصديق والإقبال والإذعان، بل يتحللون الأعذار لكفرهم، ولا يجدون مساعا إلا ادعاء السحر يلجأون إليه، مع أن السحر تخيل وتسكير للإبصار، وهذا فيه لمس بالأيدى، فلم يقتصر على الرؤية حتى يقولوا: إنما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون، ومع ذلك يبهتون الحق، ويجابهون الواقع ويقولون مؤكدين: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الثالث- أن الله تعالى حكم سبحانه بعدله وإنصافه بأن ذلك قول الذين كفروا منهم، ففى ذلك إشارة إلى أمرين:

الأول- الإشارة إلى أن الذين يقولون هم الذين كفروا، وأن هناك فى مقابلهم مؤمنين يذعنون للحق، ويصدقون الآيات.

الثانى- أن السبب هو الكفر والجحود والإعراض، فلا يؤمنون بأية مهما تكن قوتها فى الدلالة، لإعراض القلوب وعدم اتجاهها إلى الحق، بل إنها مظلمة معتمة لا يدخل إليها النور مهما يكن وضاء.

الرابع- أنهم لفرط جحودهم وإغلاق قلوبهم يؤكدون أنه سحر مع اللمس بالأيدى، وقد أكدوا حكمهم الباطل أولاً- بالنفى والإثبات، أى أنه مقصور على أنه سحر، ثانياً- بالإشارة إليه، وذكروا أنه بين واضح.

ثالثاً- والمعنى الجملى أنه لا تجدى فيهم معجزة ولا دليل، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾.

﴿لَوْلَا﴾ هنا للتخصيص، أى أنها فى ظاهرها لحضهم النبى ﷺ على طلب الملك، وجاء بالسبب للمجهول؛ ليكون الطلب لمن أرسل الرسول، وأنهم يعلقون الإجابة على إنزال الملك، والحقيقة أنهم يتعنتون، والنص القرآنى يفيد أنه وجد منهم من طلب ذلك فعلاً، وأسند القول إلى المشركين؛ لأن التعنت فى الصورة الشاملة لهم فما يصدر عن بعضهم تعنتاً، إنما يصدر فى المعنى عن جمعهم؛ لأن الباعث واحد.

ويروى محمد بن إسحاق فيقول: (دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فقال زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبد بن عبد يغوث، وأبى بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس؛ ويرى معك).

فما طلبوا أن ينزل عليه ملك لا يرونه، لأنه كان ينزل عليه جبريل الأمين على قلبه ليكون من المنذرين؛ إنما كان مطلبهم أن يكون مع النبي ﷺ ويخاطبهم بالشهادة له بالتأييد والنصرة فيما يدعو إليه.

وقد رد عليهم خالق الكون بردين يبينان سذاجة تفكيرهم -أولاً- وعتهم ومعاندتهم للحق - ثانياً.

الأول- يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ والمعنى القريب إلينا، أننا نحن الله العلى القدير القاهر فوق عباده لو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر أى لانتهى أمر الدعوة، وألزمتهم نتيجتها فى الدنيا، ولعوقبوا على تكذيبهم عاجلاً، ولا يكون العقاب أجلاً فى الآخرة، بل يكون فى هذه الحياة وترون أثر تكذيبهم، ولا (تنظرون) أى لا تمهلون إلى اليوم الآخر، ولا ينطبق عليكم قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُعْتَوْنَ ۝١٤﴾ [الأعراف] ففضاء الأمر إنهاء أمر الدعوة بالهلاك، ولكن دعوة محمد جهاد مستمر، لا ينتهى أمرها بإهلاك المعاندين، كما تحققت دعوة نوح فى قومه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح] إنما دعوة محمد ﷺ جهاد بالحق، ومغالبة للباطل، حتى يدفع الباطل بالحق فيدمغه فإذا هو زاهق، وهى صورة باقية واضحة فى الجهاد إلى يوم القيامة؛ لأنها شريعة دائمة لدفع الناس بعضهم لبعض، ولولا ذلك لفسدت الأرض، وإذا كانت شريعته هى خاتمة الشرائع تكون للبقاء، فإنها لا تنتهى بمجرد معاندتها فى ابتداء أمرها.

وإن الله سبحانه وتعالى قد أهلك ولم يُنظر كما فعل مع قوم عاد وقوم لوط، وقوم شعيب؛ لأن الله تعالى لم يقدر أن يكون منهم مجاهدون مغالبون للباطل إلى يوم القيامة، فجعلهم عبرة للمعتبرين.

الأمر الثانى- الذى رد به طلبهم المتعنت كان بقوله:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾.

إذا كان الرسول يكون معه ملك، فإن المغزى أنهم يريدون أن يكون الرسول ملكا- ولو جعل الله بدل الرسول البشري رسولا من الملائكة، لكان الأمر الطبيعي لكي يختلط بهم، ويخاطبهم، ويوجههم أن يجعله سبحانه وتعالى رجلا يكون له مظاهر البشر، ويندمج فيهم ويدعوهم، وحيث لا تكون جدوى في اختياره ملكا بدل أن يكون رجلا؛ لأنه سيختلط عليهم، ويقولون كيف يكون رجل هو الذي يدعو، وما يعترضون به على النبي محمد ﷺ هو عين ما يعترضون على ذلك الملك الذي لا يكون في مظهره إلا رجلا كمحمد ﷺ، فمعنى قوله: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلَبْسُونَ﴾ خلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ إذ يقولون إذا رآوا الملك في صورة رجل هذا رجل، وليس بملك ونحن نطلب ملكا، وعلى ذلك يكون الدليل على أنه ملك هو القرآن المعجز الذي يتحدى به كما يتحدى به النبي ﷺ فلا جدوى، ولقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء].

ونرى أن الرد الأول فيه بيان سنة الله تعالى في هداية خلقه، وأن الشريعة التي يريد الله تعالى لها البقاء لا تنقضي بالإفناء لمن تلقوها وينقضي الأمر، والرد الثاني يثبت أن طلبهم لا نتيجة له، وأنهم ليسوا طلاب حق، بل متعتون مستهزئون، لا يريدون الحق أو الدليل عليه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

في هذا النص الكريم تسلية للنبي ﷺ، فيما كان فيه من بلاء وابتلاء، لقد ابتلى من المشركين بالإنكار والمعاندة، وطلب آيات، ولا يقصدون إلا المهاترة، وقد سبق إنكارهم كل دليل يساق إليهم، ساق لهم القرآن دليلا، وتحداهم أن يأتوا بسورة منه، فطلبوا آيات أخرى، وجاءهم بدليل حسي يدل على أنه مبعوث من رب العالمين، وهو الإسراء والمعراج فاتخذوه سبيلا للإنكار، ولم يتخذوا منه حجة للإثبات، وابتلاه ﷺ باستهزائهم والسخرية منه، واتخاذهم القرآن مهجورا. فبين

سبحانه أن ذلك شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين في سبيله فهم ينالهم الاستهزاء وتواليهم أسباب الإيذاء، فلا ينتظر أن يجيب الأقوام بمجرد دعوتهم، بل ينالهم والمؤمنين أسباب الإيذاء المتوالي، والاستهزاء المستمر، وكذلك الشأن في كل دعوة جديدة، فليس محمد رسول الله ﷺ بدعا من الرسل فيما يلقاه، فكلهم استهزئ بدعوته.

وقد أكد سبحانه الاستهزاء بهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أكده سبحانه بـ «قد» وبـ «اللام».

وإن الله لا يترك الظالمين يعيشون في الأرض فساداً ويؤذون أهل الإيمان؛ ولذلك لا بد أن ينزل بهم عقاب هذه السخرية في الدنيا والآخرة؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

(الفاء) هنا فاء السببية، أى بسبب هذا الاستهزاء نزل ما نزل من عذاب بأمر الله وبأيدي المؤمنين، وقال الراغب الأصفهاني: إن (حاق) مأخوذة من (حق) قلبت فيها إحدى القافين حرفاً لنا كالتظن تقلب إحدى النونات ياء، فيقال (التظنى) وهذا المعنى يشير إلى أن ما يحيق بهم من نتائج السخرية هو حق عليهم يؤخذون به.

والأكثرون من علماء اللغة: على أن حاق بمعنى أحاط، ولا تكون إلا في الشر، والمعنى أحاط بهم الأثر المؤلم لهم لسخريتهم. وهنا إشارتان بيانيتان:

أولاهما- أن الله ذكر أنه يحيق بالذين سخروا ولم يقل بالسافرين للإشارة إلى أن ما يصابون به من العذاب إنما هو بسبب سخريتهم؛ لأن التعبير بالموصل يفيد أن الصلة هي علة الحكم، وللإشارة إلى أن العذاب نتيجة السخرية.

ثانيتهما- أنه تعالى قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وإنما الذى حاق هو العذاب لا ذات السخرية، ويقول العلماء: إن ذلك مجاز

علاقته السببية، فهو عبر بالسبب وأراد المسبب، وإن ذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفصل عنها، فحيث كانت كان عذابها لا محالة.

والعذاب الذى ينزله الله تعالى بالساخرين قسمان: عذاب بهلاك أو بآفات سماوية، كما أرسل على فرعون وقومه الجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات، والآخر بأن يمن على أولئك الذين يُسخر منهم بالقوة والنصر والتأييد، على كل من المستهزئين الساخرين، كما كان الأمر بالنسبة للمشركين الذين كفروا برسالة محمد ﷺ.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يذكرهم بحال من سبقوهم، وأن يروا آثارهم حساً، ثم يتدبروا فيها فكراً، ليعرفوا أين ذهب هؤلاء، فيستفيدوا من ذلك ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى- أن يعرفوا أن هذه الحياة التى يعيشون فيها ليس لها دوام، بل إن لها انتهاء، وأنها لا تبقى فيها باقية.

والفائدة الثانية- أن أولئك الأقوام قد مكن لهم فى الأرض بما لم يمكن لهم، وما منعهم ملكهم الواسع، وقوتهم الظاهرة من أن يؤخذوا كما يؤخذ أضعف الضعفاء، وأن النهاية واحدة لا فرق فيها، فالدنيا عرض زائل.

الفائدة الثالثة- أن الله عذبهم بالإهلاك فى الدنيا بسبب طغيانهم؛ لأن الله تعالى لم يرد أن يجعل منهم حماة لشريعة خالدة، فسيجدون فى سيرهم أرض ثمود، وأرض عاد وما فيهما من بنيان قُوض عليهم، وأرض قوم لوط، وقد جعل الله تعالى عاليها سافلها، فإذا كانوا يطلبون من النبى ﷺ أن يستعجل لهم العذاب مستهزئين، فما هى ذى المثلات، والعبر، فليعتبروا، وإلا فهم قوم بور، لا يتعظون ولا يعتبرون.

وفى النص بحوث لفظية:

أولها- أن الله أمر نبيه أن يخاطبهم هو؛ لأنهم يستهزئون به ﷺ فكانت المجاورة منه لهم، وطلب السير، من قبيل الطلب المندوب، أو اللزم، والنظر كذلك من قبيل الطلب، والمراد النظر بالرؤية والإبصار ثم بالتدبر والتفكير، فليس إبصارا مجردا، ولكنه إبصار وتفكير، ولو كان إبصارا مجردا لكان مقيدا بالغاية منه وهو التفكير والتدبر.

ثانيها- الحكمة فى العطف بـ «ثم» بدل (الفاء)، والمقام مقام (الفاء) كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾ [النمل] فإن السياق هنالك يجعل النظر مسببا عن السير، ومتربتا عليه، أما هنا فالسير مطلوب فى ذاته، ويحىء النظر المطلوب أيضا كآئه غير مقصود من السير، وكأنه أمر بدهى هو نتيجة للسير، ولم يربط بالسببية بينهما فكان التعبير بـ «ثم» المفيدة للتراخى، وهذا تصريح الله تعالى فى آياته: ﴿... كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾ [الأعراف].

ثالثها- معنى «كيف» هنا «حال»، أى انظر حال عاقبة المكذبين بعد موتهم أين البطش الذى كانوا يبطشونه والجبروت الذى كانوا يطفون به، وأين المال والبنون وما كانوا يغترون به؟

وذكر الله تعالى ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، ولم يقل تعالت كلماته عاقبة المستهزئين؛ لأن التكذيب هو الأصل الذى ترتب عليه الاستهزاء وذكر السبب يتضمن ذكر المسبب.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن ينبههم إلى خلق السموات والأرض ومن فيهن، والمجاوبة بينهم وبين النبی ﷺ فيمن خلقهم، ومن يملك من فيهن ومن له السلطان، وقد نقلهم من أمر حسى يستطيعون أن يروه، ويعتبروا به إلى أمر فكري هو ثمرة للتفكير فى الإنسانية

كلها، والاستفهام يتضمن معنيين: أولهما- التنبيه إلى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ومن فيهن من أقوياء وضعفاء، ومن إنس وجن، ومن ملائكة أطهار لا يعصون الله تعالى ويفعلون ما يؤمرون، ومن أخيار في الأرض وأشرار، فالجميع في قبضة يده سبحانه وتعالى، ولا أحد فوق سلطانه، والمعنى الثانى- تبكيته، وبيان أنهم ومن هم أقوى منهم في قبضة يده سبحانه.

ونحيل إلى أن الاستفهام للتنبيه، فإنه من أمثل الطرق لتقرير الحقائق، السؤال ثم الإجابة؛ ولذلك كانت الإجابة بأمر الله تعالى نبيه أن يقول: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ فكانت هذه الإجابة تقريراً للحقيقة الثابتة التى يدركها العقل السليم، وهى مما يوجب الإيمان، وتقرره الفطرة وبداهة العقول.

وقد ذكر عدله ثم ذكر رحمته من بعد، وأشار إلى أن العدل والرحمة متلازمان، فقال سبحانه:

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ كُفُّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

ومعنى كتب الله تعالى على نفسه أنه أوجب تفضلاً وتكرماً من غير إلزام من أحد ألزمه الرحمة بعباده، فهو الذى يمدهم بنعمه محسنهم ومسيئهم، وخيرهم وشريرهم، وهو الذى يكلؤهم بالليل والنهار، ولقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى»^(١) ولهذه الرحمة لم يسارع بإنزال الهلاك على العصاة ممن بعث إليهم محمداً ﷺ، عسى أن يخرج من ذرية المشركين من يعبد الله سبحانه وتعالى، ويخلص فى إيمانه.

ومن مظاهر رحمته أن يعاقب المسيء، ويثيب المحسن، فإن ذلك هو العدل وفيه رحمة، فحيث كان العدل كانت الرحمة، فهل يستوى الذين يعملون والذين

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد: مسند المكثرين - مسند أبى هريرة (٧٤٧٦)، ورواه البخارى: التوحيد - وكان عرشه على الماء (٧٤٢٢) بلفظ مقارب من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

لا يعملون، وهل تستوى الظلمات والنور، وهل يستوى الأخيار والأشرار. إن عقاب العاصي رحمة بالعموم، وإن لم يكن رحمة بذات العاصي فهو لا يستحق الرحمة؛ ولذا قال النبي ﷺ: «من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»^(١) ولقد ذكر سبحانه أن من مقتضى رحمته أن يجمع الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، يجازى فيه المحسن بإحسان، ويعاقب فيه المسيء؛ فقال تعالت كلماته: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهذه الجملة استثنائية لبيان نوع من العدل، وهو أن يثاب المحسن، ويعاقب المسيء، ويحاسب كل على ما قدم من عمل في هذه الدنيا، إذ هو رحمة بالخلق، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن القصاص فيه رحمة كبيرة، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ (١٧٩) ﴿[البقرة] والقصاص بكل ضروريه فيه حياة ورحمة.

وهنا بعض إشارات بيانية:

الأولى - أن الله أكد جمع الناس يوم القيامة، وذلك بـ «اللام» الدالة على قسم مطوى في القول، وبنون التوكيد الثقيلة.

والثانية - تعدية الجمع بـ «إلى» دون «في»؛ للإشارة إلى أن الجمع نهايته تكون يوم القيامة، فهم يحشرون في القبور، والجمع مستمر في ذلك.

الثالثة - إثبات أن ذلك اليوم لا شك فيه عند أهل الدراية والمعرفة ومن يشك فيه فهو ليس ذا إدراك سليم، وإذا كان بعض الناس يشك فيه، فليس ذلك إلا من سقم الإدراك، وفساد الفطرة، وينبغي ألا يشك فيه مدرك، فالبدية تقول إن الله تعالى لم يخلق الكون عبثاً، ولم يخلق الإنسان عبثاً، بل خلقه ليفنى ثم ليبقى من بعد ذلك، ومن خلق في الابتداء قادر على الإعادة في الانتهاء، وبين سبحانه بعد ذلك الحال الواقعة للذين يكفرون بالله وبالرسالة وباليوم الآخر، وأن شرهم متكاثف يردف بعضه بعضاً.

(١) متفق عليه رواه البخاري في كتاب: «الأدب»: رحمة الولد وتقبيله (٥٥٣٨)، ومسلم في كتاب «الفضائل» رحمته ﷺ بالصبيان والعيال (٤٢٨٢).

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

عبر عن الكفار بالرسالة المحمدية، والوحدانية واليوم الآخر بالذين خسروا أنفسهم، وجعل الكفر نتيجة للخسران، فالخسران يتبدى، والكفر نهايته، أو هما متلازمان، فالخسران سابق ولاحق لأنه يترتب على الكفر خسران متضافر.

والخسران الذى يسبق الكفر، وهو خسران الفطرة، فلا يكفر بالدليل القاطع إلا من يخسر فطرته وخسران الإدراك السليم؛ لأنه لا يكفر بوجود الله إلا من ينسى أن كل أثر له مؤثر، وكل موجود له موجد، وخسروا عقولهم إذ سيطرت الأوهام عليهم، فأشركوا مع الله أحجاراً تحطم، وأوثاناً تصنع، ونجوماً تأفل، وخسروا نفوسهم فصارت معوجة، وخسروا قلوبهم فصارت مظلمة، وإذا كانت كل مداركهم قد سدت فهم لا يؤمنون؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلب مخلص، وعقل مدرك، وإذعان للحق إذا بدت معالمه، وظهرت أماراته، وإنهم بعد الكفر يزيدون خسراناً، إذ كل إنكار للحق خسران فى ذاته؛ لأنه نزول عن مرتبة الإنسانية السامية.

وقد قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعبر بالمضارع للإشارة إلى أنهم لا يكون الإيمان شأنًا من شئونهم، ذلك لأن من امتلأت نفسه بالأوهام وصارت عشا لها، وضلت عقولهم لا يمكن أن تدعن لشيء، بل هى دائماً مضطربة حائرة تنتقل من ضلال إلى ضلال، ومن متاهة إلى مثلها، كمن يضل فى بيضاء كلما أوغل زاد ضلالاً ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً...﴾ (٨) [آل عمران].

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْبَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ
 وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
 رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ مَيْدٍ فَقَدْ
 رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ
 فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة سلطانه في خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وإحاطة علمه سبحانه ومعرفته للسر والجهر، وتلقى المشركين لبيان تلك الحقائق مع الإعجاز الدال على صدق الأخبار النبوية بالكذب والاستهزاء، والإعراض عن البيّنات من الآيات، وطلبهم آيات أخرى، وبين سبحانه أنه ما دام الإعراض، وما دام الجحود مستوليا على نفوسهم، فلن تجدى معهم آية؛ لأن ما سيق إليهم كاف، ولأنهم يكذبون حسهم ما دام إنكارهم سابقا لتلقيهم، وقد ضرب لهم سبحانه الأمثال بما وقع للسابقين، ونبههم سبحانه إلى ملكيته لكل ما في السموات والأرض، وفي الآيات التي نتكلم في معناها بيان لسلطانه وعلمه الكامل بكل ما فيها، وما ينبغي أن يكون أثرا لعلمه سبحانه وتعالى بذلك، فقال تعالى:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(سكن) هنا من السكون بمعنى الاستقرار، والمعنى ولله سبحانه وتعالى كل ما استقر وأقام فى السموات وفى الأرض من حيوان وجماد ونبات وجماد وبحار وجبال ووهاد ومعادن ولآلى، والتعبير بـ «ما» فى قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ للدلالة على العموم.

وقد يراد السكون الذى هو ضد الحركة، لأنه لا سكون إلا معه حركة، إذ إن السكون معنى نسبي لا يتحقق إلا إذا كان معه حركة، وإذا كان الله تعالى، يعلم السكون لكل ما فى السموات والأرض فهو سبحانه يعلم الحركة والسكون، وأنه لا مانع من أن يراد المعنيان معاً، إذ يعلم سبحانه كل ما استقر فى السموات والأرض، ويعلم حركاتهما وسكناتهما.

ويعلم ذلك فى الليل والنهار، ويملك كل ذلك، فالنص الكريم يدل على ملكية الله تعالى لكل ما فى السموات والأرض عامة، بلا استثناء ويعلم ما فى كل الأماكن، وفى عموم الأزمان، بلا استثناء ليل ولا نهار.

وهو مع هذه الملكية الكاملة يديرها بعلم كامل، ويهيمن عليها بقدرة قاهرة، وإرادة مهيمنة، وعلم دقيق لذلك قال سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يسمع ديب النمل من غير أذن، ويعلم كل ما كان أو سيكون من غير مشابهة فى سمعه وعلمه للمخلوقات ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى]، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وفى هذا النص الكريم إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يملك الناس وما حولهم لا يخرجون عن قدرته، وهو المهيمن عليهم، إن شاء خسف بمن يخالفه، وأهلكهم، ولم يجعل من الكافرين دياراً، وأنه عليم بما يكون من الطائعين، فيجزئهم ويهديهم، وما يكون من العصاة، فيعاقبهم ويرديهم، وفيه إنذار للمشركين.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

إذا كان الله سبحانه وتعالى وهو الذى يملك كل من فى السموات والأرض من إنس وجن وملائكة وغير ذلك، وهو المسيطر عليها ليلا ونهارا، وهو الذى فطر السموات والأرض، وأنشأهما على غير مثال، فإن الله سبحانه هو الحق والنصير، وهو المعبود، وإن أولئك المشركين يريدونك أن تعدل عن اتخاذ الله تعالى وليا ونصيرا، ومعاضدا، ومؤيدا، وأن تتخذ أحجارا لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، ولذلك أمر الله تعالى نبيه أن يخاطبهم مستنكرا ما هم فيه من اتخاذهم غير الله أولياء، وجاعلا الاستنكار منه ﷺ، والاستنكار بالنسبة لرسول الله ﷺ استنكارا للوقوع فهو بمعنى النفى عنه ﷺ، أى لا يمكن أن يقع منه ﷺ، وبالنسبة لهم استنكار لما يقع منهم فهو توبيخ، والاستنكار لأعمالهم واقع ضمنا، فى استنكار النبی ﷺ على نفسه أن يقع منه ذلك، والنبی ﷺ ينفى وقوعه منه، ويوبخ من عملوا ذلك.

والمعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين أشركوا بالله غيره فى العبادة وادعوا أن الأوثان تقربهم إلى الله تعالى زلفى - أنا لا أتخذ غير الله وليا، وقدم فى الاستفهام كلمة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ لأن ذلك موضع الشناعة عليهم فى الاستنكار؛ إذ إنه موضع الغرابة أن يكون غير الله متخذا وليا، فكان ذات الاتخاذ غريبا فى ذاته، والإشراك فى ذاته ترك لعبادة الله وعدم اتخاذ وحده وليا ونصيرا؛ لأن الولاية الحق هى لله وحده، فاتخاذ أى ولى معه ترك لولاية الله تعالى، والولى يطلق بمعنى النصير، وبمعنى المعبود، وبمعنى الصديق الحميم، وهو هنا بمعنى النصير المعبود، فلا يُسْتَنْصَرُ إلا الله، ولا يُعْبَدُ سواه، وقد ذكر سبحانه على لسان نبيه الكريم عمليين له سبحانه يوجب أن ينفرد وحده بالعبادة:

أحدهما - ما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى منشئهما على غير مثال سبق، ابتداء حيث لم تكونا من قبل، وقد قال مجاهد التابعى تلميذ ابن عباس: (سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول: كنت لا أدري ما

فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان إلى في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها -أى ابتداء- بشقها).

ونقول: إنه ليس بمعقول أن يكون ابن عباس جاهلا بالمعنى المفهوم من السياق، ولكن لعله كان لا يعلم أصلها في اللغة، وكيف كانوا يستعملونها؛ حتى التقى بالأعرابيين، فوضح لديه أصل الاستعمال.

وفطر السموات والأرض يوجب أن تكون الولاية لله وحده؛ لأنه الخالق لهذا الوجود والذين يشركونهم معه، لا يملكن لأنفسهن ضرا ولا نفعا، فكيف تتصور ولاية لهن بجوار ولاية الله الخالق المنشئ.

الأمر الثاني - أن الله لا يحتاج، وغيره يحتاج، فهو يُطْعَم كل من في هذا الوجود، ويمده بأسباب الحياة والنماء ولا يطعمه أحد، وهذا على قراءة ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بالبناء للمجهول، وهناك قراءة بالبناء للمعلوم، والمعنى فيها أنه يطعم من يشاء بالرزق الموفور، ولا يطعم من يشاء بالتقتير عليه في الرزق.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

كما أمر الله تعالى نبيه بأن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا، وهو الذى أبدع ذلك الوجود، وكل ما فيه يحتاج إليه، وهو لا يحتاج إلى أحد، وكفى عن هذا الاحتياج بإطعام غيره إذ أشد الحاجة تكون إلى الطعام، بعد هذا أمر الله تعالى نبيه بأن يقول إنه أمر أن يكون أول من أسلم، وفي ذلك بيان أن الإسلام مطلوب من الجميع وأن النبي ﷺ أول من يؤمر بالإذعان لله تعالى والخضوع له، وفي بيان أمر النبي ﷺ بذلك مع أنه بالبداهة أول من خوطب بالإسلام، وأمر بما اشتمل عليه، كان أمر النبي ﷺ بذلك؛ ليكون أسوة حسنة لهم، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (٢١) [الأحزاب]. ولأن الاقتداء بدعوة حسية، ولأن في الإنسان نزوعا إلى التقليد، واتباع المهتدين، والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ تعبير بالحال الواقعة من النبي ﷺ، بأن يكون في

حال أول من ينشئ الإسلام ويدعن لله سبحانه وتعالى، وكأنه يقول لهم: أنا منكم، وأمرت أن أكون أول من يخترق الحجزات لأدعن لله الواحد الأحد الفرد الصمد، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى أنه كما أمر أن يكون أول المذعنين لأوامر الله تعالى المخلصين له، نهى أن يكون من المشركين، بأن يكون فى صفوف المشركين الذين يجعلون مع الله تعالى غيره معبودا، وأن أخرج من صفوف المشركين وإن كانوا قومى وعشيرتى، وفيهم الأقربون، وهنا نشير ثلاثة أمور تقرب بها معنى النص الكريم:

أولها- كيف تعطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، إذ إن الأولى أمرت، والثانية- ولا تكونن من المشركين؟ وقد أجاب عن ذلك العلماء بإجابات مختلفة، والذي نراه أن الجملة الأولى ظاهرها إخبارية، ولكن لتضمنها معنى الأمر كانت فى معنى الجملة الطليية الإنشائية، فإن نسق الكلام هكذا (كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين).

الثانى- لماذا كان النهى عن الشرك بعد الأمر بأن يكون أول مذن لمطالب الإيمان بالواحدانية، والجواب عن ذلك أن النهى هو عن أن يكون من المشركين بأن يتبرأ منهم، ومن إشراكهم، ويخرج من صفوفهم، ولو كانوا قومه وعشيرته القربى، وإذا خرج من صفوف أهل الكفر كان فى حزب الله، وحزب الله تعالى هم المفلحون.

الثالث- لماذا كان الالتفات من الإخبار الظاهر فى قوله تعالى: ﴿أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ إلى الخطاب فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؟ والجواب عن ذلك أن الخطاب فيه توكيد معنى النهى عن الشرك، وكلتا الجملتين للخطاب كما خرجنا فى الأمر الأول، والله تعالى هو وحده الذى يملك الأمر والنهى.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

هذا أمر ثالث من الله سبحانه وتعالى لنبية الأمين ﷺ أن يبين حالا من أحواله ﷺ، يكون فيها تنبيه لهم، وتحذير من أن يبقوا على الشرك، ويستمروا على عصيان الله تعالى، فيأمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ فذكر هذه الحال من النبي ﷺ تنبيه لهم إلى أنهم في مقام من يخاف عذاب يوم عظيم .

ففي هذا النص إنذار لهم بأن عذاب يوم عظيم ينتظرهم، وأنه يجب أن يخافوه، ويتقوه، بأن يقلعوا عما هم فيه من الوقوع في أسبابه، وهو العصيان، وأكبر العصيان الشرك، وأنذروا بأدق تعبير، وأنصف تصوير، وأبلغ بيان إذ جعلت حال النبي ﷺ من الخوف من عذاب الله إن عصى منبهة إلى الاقتداء، والتفتيش عما هم فيه من معصية .

وفي الموضع كلام في عصيان الأنبياء أيتصور وقوعه؟ ونقول إن الأنبياء معصومون عن العصيان، ولكن الخوف من العصيان يعترتهم؛ لأنهم لفرط إحساسهم بعظمة الله وإيمانهم بحسابه وعقابه وثوابه، ورقابتهم النفسية لله يكونون دائما في خوف ووجل، لا لتوقع العصيان، ولكن رهبة من الديان .

ولأن العصيان الجلى غير متوقع عبر بـ (إن) التى لا تدل على الوقوع، فقال ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وهنا فوق التعبير بـ (إن) التعبير بـ (ربى) فإنه يستبعد عصيان الرب الخالق المنمى الكالى، الذى هو فوق كل شىء .

واليوم العظيم هو يوم القيامة، وكان عظيما، بما فيه من أمور، من تجلى الله سبحانه وتعالى، وحسابه وعقابه، والتذكير للتعظيم، فهو ذو عظمة متكررة، ولعظمة ذلك اليوم وعذابه قال تعالى :

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

الضمير الذى يعتبر نائب فاعل يعود على عذاب يوم القيامة العظيم، وهناك قراءة بالبناء للفاعل^(١)، ويكون المفعول محذوفاً، والضمير يعود إلى ربى أو إلى الله المذكور تعالى فى قوله: «أَغْيَرَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا». إلى آخره، ويكون المعنى على هذه القراءة من يصرف الله تعالى عنه هذا العذاب العظيم فى ذلك اليوم فقد رحمته، وعلى أى حال فالضمير فى قوله تعالى: «فَقَدْ رَحِمَهُ» يعود على الله، ولهذا اختار ابن جرير الطبرى قراءة البناء للفاعل، إذ يكون الصارف الدافع للعذاب هو الرحيم، فالنسق يكون واضحاً.

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من إضافة الوقت إلى الوقت أى ذلك فى يوم ذلك الوقت وهو يوم القيامة، وكان ذلك رحمة من الله لأن العذاب يكون عظيماً، وذهاب العذاب ودفعه رحمة، ومع ذلك فهناك الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، والنعيم المقيم، فالرحمة إيجابية وسلبية، فالسلبية دفع العذاب، والإيجابية الهداية؛ فإنها فى ذاتها رحمة، ثم ما يعقبها من جزاء. ثم ما هو فوق ذلك وهو رضوان الله تعالى.

وذلك كله من الرحمة المتنوعة المتعددة وهو الفوز المبين الواضح الذى لا يمارى فيه إلا جهول.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

المس يطلق على ما ينزل بالإنسان من ضر، مثل قوله تعالى: ﴿... قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...﴾ (٢٤) [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿... مُسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ...﴾ (٢٤) [البقرة] ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ

(١) ﴿مَنْ يُصْرِفْ﴾ بفتح الياء، وكسر الراء: قراءة عاصم - غير حفص - وحمزة، والكسائى، وخلف، ويعقوب. [غاية الاختصار ج ٢، برقم (٨٣٣)].

الضُرُّ ... ﴿٢٦﴾ [يونس] والضر هو الأمر المؤلم الذى ينزل بالمرء من ضيق فى الرزق، أو مرض فى الجسم، أو هزيمة فى حرب أو نحو ذلك، فإذا مسَّك أيها النبى ﷺ ضر من هذا النوع الذى تتأثر به فى دعوتك، فلا يكشف عنك هذا الضر -لتستمر فى تبليغ رسالته- إلا الله تعالى، بعد أن تتخذ الأسباب، وظاهر هذا الكلام أن الخطاب يكون للنبي ﷺ ويكون لتقويته فى تبليغ دعوته، وتأكيد ولايته، واستعانت به سبحانه وتعالى وحده.

ويصح أن يكون الخطاب لكل مؤمن قارئ للقرآن، أو لكل من هو أهل للخطاب، وفيه بيان أن الناس جميعا فى سلطان الله، فما يصيبهم من نفع فبتقديره، وما يصيبهم من ضر فبتقديره وإرادته، وهو الكاشف لهذا الضر إن أراد ذلك كله مع الأخذ بالأسباب؛ لأن الأسباب لا تعمل وحدها، إنما لا بد معها من إرادة الله تعالى والتوكل عليه؛ ولذلك كان الله تعالى يأمر بالتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب؛ لأنها وحدها لا تعمل إلا مع التفويض، كما أن النوم والتوكل لا يجديان، والتوكل فى هذه الحال تواكل وليس اعتمادا على الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ فَهَوْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه المقابلة بين الخير والضر، وأن الأول يكشفه الله، والثانى بقدرة الله تعالى، والتعبير بالمس فى الأمرين من قبيل التشاكل اللفظى، والكل تحت سلطان الله تعالى وقدرته، والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من هو أهل للخطاب الذى يتلو القرآن الكريم، أو يستطيع تلاوته، وكشف الضر: إزالته، ومس الخير: نفعه، ولماذا عبر عن الضر بأن الله كاشفه، وعن مس النفع بقدرة الله تعالى؟ ونقول فى الإجابة: إن من نزل به ضر يكون إحساسه بزواله، فعبر عن زواله بكشف الله تعالى، وأما النفع فإنه يكون صاحبه فى حال تستوجب الحمد والثناء وطلب البقاء فيناسبه إثبات قدرة الله تعالى.

وإن كشف الضر والنفع كله بقدرة الله تعالى، ولقد قال النبي ﷺ: «لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت» (١) وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ (٢) [فاطر].
﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

معانى هذه الآية الكريمة جامعة لكل سلطان الله على عباده فى السماء والأرض، فهو الغالب على كل شىء لا إرادة لأحد مع إرادته، وإرادته، فوق كل إرادة، فهو المسيطر سيطرة كاملة على عباده، والفوقية المذكورة فى النص الكريم هى فوقية سلطان لا فوقية مكان، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فلا جبار له إرادة عند سلطانه سبحانه، ولقد قال ابن كثير فى معنى النص جملة رائعة، فقد قال: (يقول تعالى: إنه مالك الضر والنفع، وإنه المتصرف فى خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه وهو القاهر فوق عباده، أى هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شىء ودانت له الخلائق).

وإنه بهذا السلطان القاهر يدبر كل شىء بحكمته، وعلمه الدقيق المحيط، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فبحكمته الظاهرة وبعلمه المحيط وقدرته القاهرة يسير الكون وما فيه ومن فيه إنه على ما يشاء قدير.

قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِمَّا

(١) جزء من حديث مستفق عليه؛ رواه البخارى: القدر - لا مانع لما أعطى الله (٦٦١٥)، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٣).

تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ
 أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
 ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَاءُكُمْ
 الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ
 رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢٤﴾

فى الآيات السابقة بين الله تعالى أنه خالق السموات والأرض، وفاطرها
 على غير مثال سابق، وكيف خالف المشركون الفطرة الإنسانية، والعقل المستقيم،
 وأشركوا بأحجار فى عبادة الله لا تنفع ولا تضر، وبين سلطانه تعالى، ثم ذكرهم
 سبحانه بنوازل تنزل بهم، فهو الذى يكشف الضر إن نزل، وهو الذى يسوق الخير
 بفضل قدرته ومنتته. وفى هذه الآيات يذكرهم سبحانه بإشراكهم مع قيام المعجزة
 القاطعة بأنه سبحانه وتعالى هو الله وحده، فالآيات السابقة كانت فى الآيات
 الكونية المثبتة للوحدانية، والآيات اللاحقة تثبت الوحدانية بالدلائل السمعية المثبتة
 للوحدانية والتى ثبت صدقها بالمعجزة القاطعة، وهى القرآن الكريم؛ ولذا قال
 تعالى:

﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

فرض النص الكريم أن خصومة بين محمد ﷺ، وهو الداعى إلى
 الوحدانية، والمشركين الذين يرتعون فى الوثنية، وأن هذه الخصومة تحتاج إلى
 شاهد يشهد، وأنه لابد من شاهد يفصل، وحاكم يحكم ويقضى، فأمر الله تعالى

نبيه في بيان رائع حكيم، أن يسأل المشركين عن أى شيء في هذا الوجود أكبر وأعظم وأقوى وأزكى شهادة بحيث تقبل شهادته ولا ترد، وكان الكلام في صيغة الاستفهام تنبيها إلى جلال الشاهد، وتنبيها إلى سلامة دعوى محمد ﷺ ليدركوا حقه وضلالهم، ثم نبههم إلى الإجابة السليمة للسؤال التنبيهي التي لا تقبل مرء ولا جدلا، وهو أن أكبر شهادة هي شهادة الله سبحانه وتعالى، الذي خلق الكون وهو الذي يحوط كل ما فيه بالحياطة الكاملة، والتهديب والتربية، فقال تعالت كلماته: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ في هذه الخصومة التي فرضتموها، هي خصومة الباطل اللجلج مع الحق الأبلج، وقد تكلم الزمخشري في بيان لفظى بلاغى، فذكر أن في النص الكريم توجيهين:

أحدهما- أن الإجابة تنتهى عند قوله: ﴿اللَّهُ﴾ وأن ما بعد ذلك تقرير للشهادة، ف ﴿شَهِيدٌ﴾ يكون جملة جديدة؛ لأنه خبر لمبتدأ محذوف، ويكون المعنى على هذا التخريج قل الله ذو الجلال والإكرام، والعزة وصاحب الإنعام في هذا الوجود، وهو كاف، وهو أكبر شهادة، ولا شهادة بعد شهادته، وهو يشهد بالحق وبالوحدانية، يشهد بما جاء في القرآن بعد أن شهد بما خلق وأنشأ، ثم بين أنه هو شهيد في هذه الخصومة.

والتخريج الثانى- أن الإجابة تكون في نهايتها عند ﴿شَهِيدٌ﴾، فالمعنى قل إن الله تعالى شهيد، ف ﴿شَهِيدٌ﴾ تكون خبرا للفظ الجلالة ابتداء، وكلاهما توجيه ليؤكد معنى الشهادة في النص القرآنى.

ولماذا كانت شهادة الله تعالى أكبر شهادة؟ لأنها التي تتفق مع العقل، ولأنه المنشئ، ولأنه الباقي وكل شيء هالك إلا وجهه.

وما الدليل على شهادة الله تعالى؟ نقول: هي بيناته، وهي التي ينطق به بها القرآن الذي قام الدليل على أنه من عند الله تعالى العزيز الحكيم؛ ولذلك جاء ذكر القرآن الناطق بالحق، فقال تعالى:

﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

هذا النص فيه المعجزة التي تدل على صدق الرسول ﷺ، وهو يشتمل على شهادة الله القولية بأنه واحد أحد ليس بوالد ولا ولد، وأنه القادر على كل شيء وأنه القاهر فوق عباده، وهو أمر حسي يتلى عليهم ليلا نهارا، ويقرأ عليهم جهارا، وكان معجزا ببلاغته، وما فيه من علم، وما فيه من قصص صادق، وما فيه من شرائع منظمة للعلاقات بين الناس في أسرهم ومعاملاتهم، واجتماعهم، وعلاقات الإنسانية بعضها ببعض، ولقد قال ﷺ في إثبات أنه المعجزة التي تحدى بها الناس أن يأتوا بمثلها فعجزوا عجزا مبينا: «ما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحى به إليّ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(١).

ولماذا كانت معجزة النبي ﷺ قرآنا يتلى، وتولى سبحانه حفظه من التحريف والتبديل إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر].

والجواب عن ذلك أن معجزات الأنبياء السابقين كانت تقع ولا يعلم بها على اليقين إلا الذين عاينوها وشاهدوها، والذين من بعدهم لا يعلمونها إلا بالخبر الذي لا شك فيه. أما شريعة محمد ﷺ فإنها باقية خالدة إلى يوم الدين فلا بد أن تكون معجزاتها قائمة حاملة معنى الإعجاز والتحدى ما دامت الشريعة قائمة خالدة، فلا بد أن يكون القرآن الكريم حجتها خالدا بخلودها.

والنص القرآني الذي نتكلم فيه اشتمل على أمور ثلاثة:

أولها- بيان أنه المعجزة المثبتة لصدق النبي ﷺ وقد ذكر ذلك بالإشارة، إذ قال: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وقد ثبت بالتحدى عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضى الله عنه.

ثانيها- أنه مشتمل على الإنذار للمشركين والمخالفين والعصاة إن استمروا على غيهم، ولم يستجيبوا لنداء ربهم، ودعوة نبيهم إلى الوحدة والفضيلة، وتكون مجتمع سليم نقي.

ثالثها- أن النص يتضمن أن القرآن حجة وإنذار لكل من بلغه سواء خاطبه النبي ﷺ أم بلغه، وقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿لَا نُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أى أن من بلغ القرآن فهو مخاطب به، سواء أكان من العرب أم كان من العجم، وكأنه خاطبه النبي ﷺ، ولقد روى أنه ﷺ قال: «بلغوا عن الله تعالى، فمن بلغته آية من كتاب الله تعالى فقد بلغه أمر الله»^(١)، وروى عن جمع من التابعين أنهم كانوا يقولون: (من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ).

وإن هذا النص يستفاد منه أمران:

أولهما- أن من لم يبلغه القرآن ولا يعلم عنه شيئا، فإنه لا يعتبر قد بلغته الدعوة الإسلامية، وإثم على الذين تقاصروا عن تبليغها وبيانها.

ثانيهما- أنه لا معذرة لمن يعرف القرآن، فى الكفر بالحقائق الإسلامية.

ولكن كيف التبليغ بالقرآن، والعجمة سائدة فى هذا الوجود سواء أكانت إنجليزية أو فرنسية أو غيرهما؟

والجواب عن ذلك أنه يجب فى سبيل الدعوة إلى الإسلام؛ التى هى فرض كفاية على المسلمين؛ يأثم المسلمون جميعا إن لم يكن دعاة إلى الإسلام- يجب عليهم أن تفسر طائفة مخلصه مؤمنة فاهمة القرآن تفسيرا موجزا تبين معانيه، ويترجم ذلك التفسير إلى كل لغة أعجمية.

﴿أَتُنْكُمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾.

(١) رواه ابن جرير عن قتادة مرقوعا. وهو مرسل. [جامع البيان ج ٧، ص ١٠٣]، وأخرج البخارى (٣٣٨٦) عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»، وَمَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.

شهادة الله التى فصل بها فى القضية، ونطق بها القرآن الكريم؛ ولذا أحيل بيانها إلى القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وفى هذا النص السامى يقابل بينها وبين شهادتهم وما يتبعه النبى - عليه الصلاة والسلام - أتبع الله تعالى العلى الحكيم أم يتبع أهواءهم؟! معاذ الله أن يتبع الهوى بل إنه يتبع الهدى . والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، فهم وقع منهم ذلك، وتأكد وقوعه ولم ينكروه؛ ولذلك كان تأكيد وقوعهم بأن قال تعالت كلماته: ﴿أَنْتُمْ﴾ فهو إنكار لهذا الأمر الواقع منهم وقسوعا مؤكدا، وإنكار الواقع توبيخ، فلا استفهام هنا يتضمن معنى تقرير ما وقع منهم وتوبيخهم عليه، وعبر بتشهدون للإشارة إلى قوة الضلال فى نفوسهم إذ إنهم مع ضلال الفكرة الوثنية يعتقدونها أشد الاعتقاد؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بالعلم اليقنى، فهم يؤمنون بـ (تشهدون) بالشرك أى بأن مع الله آلهة أخرى، وتسمية الأوثان التى يشركون بها مع الله تعالى آلهة؛ لأن ذلك فى زعمهم، فليست آلهة ولا يمكن أن تكون آلهة، إذ هى أوثان أو أشياء أو أشخاص لا يكون منها نفع ولا ضرر، وليست مفيدة فى ذاتها، وهم يعبدونها، فهى بزعمهم آلهة.

ووصفت بـ ﴿أُخْرَى﴾ مع أنها جمع، وكان الظاهر أن توصف (بأخر) ليوصف الجمع بالجمع، ولكن لأنها مشتركة فى وصف جامع وهو أنها أحجار فهى فى المعنى شئ واحد؛ لذا وصفت، فهى فى المعنى واحد، وكذا وصفت بما يوصف به الواحد لا بما يوصف به العدد، والوصف بـ (أخرى) فيه إشارة إلى بطلان عبادتها.

وإنه من المبالغة فى التوبيخ والتنديد أن يأمر الله تعالى نبيه بألا يشهد بما يشهدون، بل يشهد بشهادة الحق، فيقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾.

وفى أمر الله تعالى له بالقول مع التنديد لهم والتوبيخ لهم ما يدعو إلى الاقتداء والتأسى به ﷺ وهو العاقل الصادق الأمين المعروف بذلك بينهم جاهلية وإسلاما، وإن ذهب اللجاجة ببعضهم إلى إنكار المعروف بلسانه لا بقلبه.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

هذا تقرير وتأكيد لمعنى الجملة السابقة وهى لا أشهد وتحتمل أن تكون داخلية فى مقول القول، ويكون مقول القول لا أشهد وإنما هو إله واحد، ويحتمل أن تكون جملة مبتدأة، والفصل فى الأول يكون لأنها بيان لما قبلها، وفى الثانية يكون لابتداء الكلام، وإن كان فى المعنى فيه تقرير لما سبقه.

والضمير (هو) يعود على الله تعالى، وهذا النص السامى تضمن أمرين: أولهما- وحدة الله تعالى، وقد نص عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا يفيد قصر الألوهية على الله تعالى فلا يعبد سواه سبحانه، ويفيد مع ذلك أنه لا يتصور أن يكون المعبود بحق غير واحد؛ لأن المنشئ المكون المدبر واحد، ولا يتصور بمقتضى النظر إلا أن يكون المعبود واحدا.

الأمر الثانى- التصريح ببراءة النبى ﷺ مما يعبدون من أوثان يشركون بها مع الله تعالى: ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. فى هذا النص تنديد شديد بعبادة الأوثان؛ لأن الرجل العاقل يتبرأ منها، ولا يليق أن يعبدها، وقد أكد براءته بـ(إن)، وبالوصف (بريء) وبأن ذلك انتحال منهم، وليس ألوهية فى شيء.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

الذين آتاهم الله سبحانه وتعالى الكتاب هم اليهود والنصارى أوتوا التوراة والإنجيل، وهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين يعرفون محمدا ﷺ ورسالته، وبعثه وصفته ومهجره، ويؤمنون بالله تعالى ويوحّدونه، ولا يشركون، يعرفون هذه الحقائق كما يعرفون أبناءهم الذين هم من أصلابهم فهو عندهم بمرتبة اليقين، وقد وردت الآثار بذلك.

ويروى فى ذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: ما نرى أحدا يصدقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فرعموا أنه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنك رسول الله، وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما

أنه قال: جاء النحال بن زيد وقردم بن كعب فقالوا: يا محمدا! ما نعلم مع الله إلها غيرَه، فقال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله تعالى، بهذا بعثت وإلى ذلك أدعو» (١).

فهذا النص الكريم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ شهادة ثابتة بعد شهادة الله تعالى التي حكاها النبي ﷺ عنه جل جلاله، وبعد شهادته ﷺ، وهى شهادة النبيين السالفين أجمعين.

والضمير فى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ على من يعود؟ قال الأكثرون من المفسرين: إنه يعود إلى النبي ﷺ، ويؤيد ذلك سبب النزول المذكور أولا، وهو المروى عن النبي ﷺ عن طريق الكلبي، وهو يؤيد الوحداية ويؤكد الشهادة بها من قبل تأييد النبي ﷺ فى صدق رسالته.

وجوز ابن جرير الطبرى عودة الضمير على الله تعالى، ويؤيده أنه أقرب ظاهر مذكور فى الآية، كما يؤيده رواية ابن عباس فى شهادة أهل الكتاب الذين شهدوا بالتوحيد، وهو ظاهر، وإن كان لا يظفر بالكثرة التى يظفر بها رأى الأول.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ختم الله تعالى النص ببيان خسارتهم لأنفسهم، وإركاسهم أنفسهم فى الفساد، ويترتب فقد الإيمان، وعلى هذه الخسارة الفادحة التى فقدوا بها أنفسهم كأناس لهم إدراك وفهم فى ربط للمسببات المنطقية باسمها، وإن المشركين كانوا يؤيدون نحلتهم بشكائر معتنقيها، فذكر لهم القرآن الكريم أن الله تعالى يشهد ببطلان كلامهم وقام الدليل على صدق شهادة الله -تعالى- بالكتاب الموحى به، والذي قام الدليل على صدقه بالتحدى به، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، وشهادة النبي ﷺ وقد علموا أنه الصادق الأمين وإن لجَّ قادتهم فى الخصومة حتى فجروا

(١) رواه ابن جرير الطبرى، فى جامع البيان : ج٧، ص١٠٤.

فيها، وشهدت الكتب السابقة والذين يعتنقون ما فيها، فلماذا يكذبون ويشركون فمماذا بعد الحق إلا الضلال، وأى خسارة نفسية أكثر من الفجر فى الخصومة، واللجاجة فى البهتان حتى أصبحوا لا يتصور الإيمان منهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

الاستفهام هنا إنكارى للنفى وفيه توبيخ للمشركين، هو حكم على أمر واقع، ومعنى القول: لا أحد أظلم من الذى قصد إلى الفرية على الله تعالى، أو كذب الحجج القائمة، أو كذب ما جاء فى القرآن الكريم من آيات بينات، ومعنى النص أن المشركين كذبوا على الله تعالى بكل عقائدهم، وبذلك بلغوا أقصى درجات الظلم الذى لا يوجد أعلى منه، إذ بلغوا أقصى غايات الكذب الذى يبهت العقلاء والأمناء الصادقين، وقد قال الزمخشري فى بيان كذبهم على الله تعالى: (جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله تعالى بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، والله أمرنا بها، وقالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعائنا عند الله، ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحرا ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ).

هذه بعض أكاذيبهم على الله تعالى التى بلغوا بها أقصى درجات الكذب، وبها استحقوا أن يكونوا هم، ومن يشابهونهم أكثر الناس افتراء، وأظلم الناس فى هذا الافتراء، وخلاصتها أنهم كذبوا على الله تعالى بأن ادعوا عليه سبحانه ما لم يكن، وكانوا فى ذلك مرتكبين لأعظم بهتان، وكذبوا بآياته، والآيات قسمان: آيات هى المعجزات، ومنها التى تحدى بها الأنبياء، والآيات الكونية، وقد كذبوا الاثنين، وكفروا بآيات الله تعالى فى آيات الكون الدالة على إبداع خلقه، وأنه سبحانه هو الخالق وحده، وهناك الآيات القرآنية قد كذبوا بها فلم يؤمنوا.

ولا يمكن أن يفوزوا وهم على هذا الظلم؛ ولذلك ختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فالظلم وخصوصا ظلم الكذب يفسد النفس، ويفسد العقل ويفسد العمل.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

الكلام هنا متصل بما قبله، ذلك أن ختام الآية السابقة هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك يومئذ إلى أن الله لا يوفقهم للخير في الدين؛ لأنهم خسروا أنفسهم ولم يؤمنوا، ولأنهم أظلم الناس بافترائهم على الله، وتكذيبهم لآيات الله، ويوم يحشرهم أى يجمع الناس جميعا لا يُستثنى منهم أحد، يكون الخسران المبين، والعذاب الاليم، والحرمان من النعيم.

وفى الآية الكريمة قراءتان ذكرهما الزمخشري، أولاهما- قراءة حفص بالنون فى (نحشر) و(نقول)^(١)، ومعناها ظاهر بين لا يحتاج إلى تخريج أو تأويل، وثانيهما- بالياء فى (يحشرهم) وفى (يقول)، ويكون الضمير فى الأمرين يعود إلى الله تعالى، وهو مذكور عن قرب فى الآية السابقة.

والحشر مؤكد بكلمة ﴿جَمِيعًا﴾، وهذا التأكيد يمنع احتمال التخصيص، ويكون الضمير يعود على الناس أجمعين، وأن الذين يعاقبون ويحاسبون هم الذين أشركوا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والعطف بـ «ثم» كان لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين خاصة، والذين اختصوا بالخطاب فيه؛ لأنه لا شركاء يزعمونهم آلهة مع الله إلا عند الذين أشركوا، فهناك أمور تقع يوم القيامة قبل هذا الخطاب وكان تقدير القول هكذا: يوم نحشر يكون الحساب، وتحضر كل نفس ما كسبت، ويكون لكل امرئ كتابه، ويحصى عمله من خير وشر، ثم نقول للذين أشركوا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الشركاء هم

(١) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾. ثم يقول ﴿بالياء فيهما [الأنعام (٢٢)] وهى قراءة يعقوب، وقرأ بها عنه روح ورويس غاية الاختصار.

الآلهة التي زعموها آلهة مع الله تعالى، بإضافة الشركاء إليهم لأذى ملابسة، أى لمجرد العلاقة النفسية والفكرية التي نحلتها عقولهم السقيمة فى إدراكها لهم، وهل كانوا غائبين عنهم، حتى يبحث عن مكانهم، لعل ذلك يكون، ولعل حالهم من أنهم لا قوة لهم، وليس لهم الشفاعة المقربة، ولا النصرة القادرة، يعتبرون كأنهم شىء معدوم يسألون عنه، وما كان سلطانهم إلا بزعمهم الفاسد فى الدنيا، وقد رأوا الحقائق عياناً، وكشفت الأمور لهم، فغاب عنهم سلطان تلك الآلهة المزعومة.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتْنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

أصل معنى الفتنة، إدخال المعدن النار ليزول عنه الخبث الذى يعلق به، وأخص المعادن الذهب، ففتنته إدخاله فى النار لتعلم جودته، ثم أطلقت على الاختبار والعذاب والبلاء، والمصيبة والكفر والإثم والألم والضلال.

وفى النص الكريم قراءتان: إحداهما - ضم تاء (فتنتهم)^(١)، والمراد من الفتنة الاختبار الشديد بهول ما رأوا، والمعنى على هذه القراءة وهى قراءة حفص: وكان من أثر الاختبار والهول الشديد الذى رآه يوم الحشر والحساب، أن نسوا ما كانوا عليه من شرك، وقالوا مقسمين: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أى أنهم أقسموا بالله غير صادقين فى الحقيقة، ونادوا الله بـ (ربنا) معترفين بربوبيته وحده، ويكون ذلك من فرط الهول والشدة وعظمة ما رأوا من صدق الحقائق، حتى كذبوا أنفسهم.

والقراءة الثانية بفتح التاء وبالباء فى يكن^(٢). ويعتبر اسم (يكن) هو (أن قالوا)، وقد رجح هذه القراءة ابن جرير الطبرى، وقال فى معناها: (ثم لم يكن

(١) قرأ ﴿فتنتهم﴾ بالرفع - ابن كثير وابن عامر، وحفص والمفضل كلاهما عن عاصم، وقرأ الباقر بنصب التاء.

(٢) ﴿ثم لم يكن﴾ بالياء - قراءة حمزة والكسائى، ويعقوب، وخلف، والمفضل عن عاصم، وقرأ الباقر بالتاء.

قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارا مما سلف منهم من الشرك بالله إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فوضعت الفتنة موضع القول لمعرفة السامعين معنى الكلام. وإنما الفتنة الاختبار والابتلاء، ولكن لما كان الجواب من القوم غير واقع هنالك إلا عند الاختبار وضعت الفتنة التي هي الاختبار موضع الخبر عن جوابهم واعتذارهم).

وخلاصة المعنى الذى يقرره ابن جرير أن الفتنة الاختبار، وأنها بهذا المعنى هى السبب للقول، والقول هو المسبب ويكون التخريج هكذا لم يكن القول المتسبب عن الفتنة إلا أن قالوا إنا كنا مشركين، فعبر عن المسبب بالسبب لبيان شدة الهول وما يترتب عليه.

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

النظر هنا ليس هو نظر البصر، ولكنه نظر القلب والتأمل والتفكير والاعتبار، والنظر القلبى إنما هو إلى حالهم وما كانوا عليه من فزع واضطراب بسبب يوم القيامة الذى تزلزل فيه: ﴿... وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢٤﴾ [الحج] فهذا التصوير لحالهم بعد رؤيتهم هول يوم القيامة، إذ قالوا غير ما كان منهم كاذبين اعتذارا عما كان أو إنكارا، أو نسيانا للهول الذى هم فيه إذ ساروا سكارى لا يعون، وهذا هو الذى نختاره فكذبهم بإخبارهم غير الواقع كان غفلة وذهولا؛ ولذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى غاب عن ذاكرتهم فنسبوا ما كانوا يفترونه من قول فيشركون مع الله غيره فى العبادة، ف (ما) اسم موصول بمعنى (الذى)، وما أنساهم إلا الهول حتى أخبروا بغير ما وقع منهم، اللهم نجنا من كرب يوم القيامة وما فيه.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ

لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا أَلَيْسَ لَنَا نَارُذُ وَلَا نَكْذِبُ بِثَايِتٍ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَاهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

الكلام موصول في المشركين الذين تقوم لديهم الدلائل القاطعة على

وحدانية الله تعالى، وسلطانه تعالى عليهم في الدنيا، وإثبات رسالة النبي ﷺ بالمعجزة التي تحدى العرب فيها أن يأتوا بمثلها، وبيان ظلمهم، ثم بين سبحانه بعض حالهم يوم القيامة، وكيف يغيب عنهم ما كانوا يفترونه، وفي هذه الآيات يبين حالهم عند تلقى الدعوة المحمدية.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

الأكِنَّة جمع كنان، وهو الغطاء، والمعنى أنه لا يصل الحق إلى قلوبهم لوجود ذلك الغطاء الحاجز المانع من أن يصل نوره إلى قلوبهم، بل إنه لا يصل إلى مسمعهم، فقد جعل الله تعالى في آذانهم وقرا، والوقر، بفتح الواو ثقل السمع، وهذا النص كناية عن كمال الإعراض، فهم لا يصل إليهم القرآن،

وقد تفاهموا فيما بينهم على الإعراض ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ﴾ [فصلت]. وإذا وصل إلى سمعهم فهناك غشاوة على قلوبهم تمنعهم من أن يشرق فيها نوره، وعلى ذلك لا يكون لاستماعهم جدوى وفائدة، وهنا يسأل سائل، إذا كان منع الهداية من الله تعالى بالغشاوة على قلوبهم والختم عليها، وبالوقر في آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر، وطلب للهداية فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حسابا عسيرا بالعذاب الأليم، والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى يسير الأمور وفق حكمته العليا، فمن يسلك سبيل الهداية يرشده، وينير طريقه، ويثيبه، ومن يقصد إلى الغواية، ويسير في طريقه تحيئه النذر تباعا إنذارا بعد إنذار، فإن أيقظت النذر ضميره وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر، ومن لم تجد فيه النذر المتابعة ولم توقظ له ضميرا، ولم تبصره من عمى، فقد وضع الله تعالى على قلبه غشاوة، وفي آذانه وقرا.

وقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ المصدر المكون من (أن) وما بعدها مضاف إلى مصدر محذوف يقدر على ما يناسب المقام من وضع غلاف يمنع النور، ووقر يمنع السمع، فيكون التقدير كراهة أن يفقهوه أو لمباعدة أن يفقهوه، ومعنى يفقهونه أن يدركوه إدراكا عميقا، ينفذون فيه إلى لبابه، وغاياته، فليس المراد مجرد الفهم والمعرفة، بل المعرفة النافذة التي تصل إلى اللب وتستولي على القلب.

وإن سبب ذلك كله هو الإعراض المطلق الذي سيطر على كبرائهم، وسبق الكفر إلى قلوبهم ومعارفهم، ومع هذا الإعراض، وبسببه يحكمون من غير أن يفقهوا فيقول ما حكاه الله عنهم.

﴿وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

والكافر بالحق المعرض عن الأدلة يسبق كفره إيمانه، فالكفر سابق على الثبوت والاستدلال، فهو متجه إلى الإنكار ابتداء؛ ولذلك وصف الله تعالى الذين

مردوا على الجحود والإنكار، وقال فيهم: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ والآية الدليل المعجز على رسالة الرسول، فالآية كما يقول العلماء لعموم النفي، أى أنهم لا يؤمنون بأى رسالة يرونها مهما تكن قوتها ظاهرة، ومهما تكن دلالتها قاهرة؛ لأن العناد والجحود يقهر كل حجة ويمنع سلطانها على القلب؛ إذا ختم عليه، حتى لا ينفذ النور إليه، فإذا كفروا بالقرآن فذلك شأن الذين طبع الله على قلوبهم، وجعل فى آذانهم وقرا، وعلى قلوبهم أكنة، وعلى أبصارهم غشاوة؛ ولذلك قالوا فى معجزة النبى ﷺ إذا جادلوا كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ويلاحظ هنا أن الله تعالى يقول: ﴿إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فيه إشارة إلى أنهم كانوا بعداء عن النبى ﷺ من قبل ثم جاءوه، ولم يكن مجيئهم إذعانا لحق، ولا طلبا لحقيقة، ولكن كان تحديا للرسول ومبالغة فى الإنكار، واستهانة بالقرآن الحكيم وهو الآية الكبرى؛ ولذا قال الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير، والأساطير جمع أسطورة أو أسطورة، والمعنى ما هذا إلا أخبار الأقدمين. وهنا إشارتان:

أولاهما- أنهم ما جاءوا يطلبون الحق، ولكن جاءوا يجادلون، تقال للتسلية. ومنها ما يكون غير صادق، والجدل فى أكثر أحواله تمويه، وليس طلب حق.

والثانية- أن الذين كفروا يقولون ما هى إلا أساطير الأولين بسبب كفرهم فكفرهم سابق لرفضهم المعجزة.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

إن المشركين لا يكتفون بالإعراض عن الحجج الثابتة والبيئات الفاطعة، ولا يكتفون بالافتراء على الآيات تتلى عليهم، والاستهانة وقولهم إن هى إلا أساطير الأولين، لا يكتفون بذلك، بل يتعدى شرهم إلى غيرهم فهم ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ والقرآن الكريم هو آيات بينات، فهم لا يهتدون، ويمنعون الهداية عن غيرهم ينهونهم، ويثيرون السخرية عليهم إن اتبعوا الهدى واستقاموا على

الطريقة المثلى، ويتأون عن النبى، أى يتعدون عن النبى ﷺ، ويتجافون مجلسه، فهم يقومون بأعمال ثلاثة كلها انحراف عن الصراط المستقيم واتباع للغواية: أولها- الإعراض عن آيات الله تعالى وتكذيب النبى ﷺ، وثانيها- أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، فهم ضالون مضلون، والثالث- أنهم لكى يباعدوا بينهم وبين الحق، ولا يجعلون سبيلا لقلوبهم يجتهدون فى ألا يلتقوا بالنبى ﷺ، فيتجافوا عن مجالسه لكيلا يكون منه منفذ للحق إلى قلوبهم، ففيهم غواية ولجاجة.

وفى هذا التفسير يكون الضمير فى (عنه) فى الحالين يرجع إلى النبى ﷺ وما جاء به.

وبعض المفسرين التابعين لبعض التابعين جعل الضمير فى ينهون فى الحالين يعود إلى عشيرة النبى ﷺ وأعمامه وكانوا عشرة، فهم للعصبية التى كانت قائمة يذبون عن النبى ﷺ وينهون المشركين عن أن ينالوه، وفى الوقت يتأون عن إجابته، ولعل أوضح مثل لذلك أبو طالب، فقد كان يمنع النبى ﷺ من أذاهم، ويمتنع عن اتباعه مع أنه فى قرارة نفسه كان يظنه على حق، ولقد روى عنه شعر فى ذلك، فقد روى أنه قال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصح	ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لا محالة إنه	من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة	لوجدتنى سمحا بذاك مينا

وإن الأول هو المقبول المعقول؛ لأن القرآن لا ينزل فى حكم الأحاد إلا إذا كان يؤدى إلى عموم، والأول أظهر وهو عام فيؤخذ به.

وإنهم فى إصرارهم وعنادهم ولجاجتهم فى كفرهم ونهى الناس عن اتباع، بل فتنهم - يسرون فى طريق الفساد والضلال ولا يهلكون أحدا إلا أنفسهم؛ لأن

الدعوة إلى الحق ماضية، فإن عوقها معوق فإلى حين؛ إذ الضالون لا يشعرون أنهم يسировن في طريق الهاوية، ولو شعروا بها لتجنبوا، وكذلك أهل الضلال دائما.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذكر الله تعالى حال المشركين في الدنيا في لجاجتهم في الكفر، بإعراضهم عن الآيات البينات، وجحودهم للنبوة، ونهيهم غيرهم عن اتباعه ومجافاتهم له، وكان لابد من المقابلة بين هذه الحالة المنحرفة المتجافية عن الهداية، وحالهم يوم القيامة إذ يعرضون على النار، ويقفون عليها، فذكر سبحانه مخاطبا النبي: إنك أيها النبي لو اطلعت عليهم ورأيت حالهم إذ وقفوا على النار واطلعوا عليها ورأوها تستقبلهم بلهيبها وسعيرها - لرأيت هولا عظيما يدفعهم لأن يتمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ولا يكذبوا بآيات خالقهم ومنشئهم وكائهم وحامهم ويكونوا من المؤمنين، وفي الآية الكريمة إشارات بيانية، بذكرها تقرب ما في الآية من بلاغة رائعة:

الأولى - التعبير بـ (إذ) التي تدل على الماضي بدل (إذا) التي تدل على المستقبل، وذلك لتأكيد الوقوع، وليستبين المستقبل حاضرا قائما، ويتصور على أساس أنه موجود لا على أنه سيوجد.

الثانية - أنه عبر بـ (على) بدل (في) للإشارة إلى أن مجرد الاطلاع عليها، والعلم بها بالعيان يلقي في النفس بهولها وشدتها، فما بالك بالوقوع فيها.

الثالثة - أن (لو) شرطية والجواب محذوف وتقديره - لو رأيتم في هول وفزع وشدة فتمنوا أن يعودوا ويصلحوا.

الرابعة - أن التمني كان بالنداء لصيغته وهي (ليت) كأنه يقول: (يا ليت) أقبلي فهذا وقتك الذي نستغيث بك فيه؛ إذ لا نملك إلا التمني فهو أدواتنا الوحيدة، وإن كانت أداة العاجزين.

الخامسة- أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَذِّبْ بَيَّاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه قراءتان- إحداهما- بنصب الباء والنون على أنها جواب التمنى بإضمار محذوفه، والثانية- بضمها على تقدير محذوف^(١)، وتقدير الكلام هكذا: ليتنا نرد ونحن لا نكذب، ونكون أول المؤمنين، ويكون فيها فضل توكيد بذكر وعدهم بعدم التكذيب، وبأن يكونوا من المؤمنين.

السادسة- توكيد إيمانهم بأنهم يخرجون من صف أهل الشرك والكفر إلى صف المؤمنين الصادقين.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(بل) هنا للإضراب، والرد على ما يتمنونه، والغاية التي يريدونها، والمعنى أن أولئك لا يتمنون الذي يتمنونه لأجل الهداية، بل ذلك لهول ما يرون والفرع لما يستقبلهم، ولأنه بدا لهم الأمر الذي كانوا يخفونه، ويصح أن يكون الإضراب هنا للانتقال من مقام تمنيهم إلى مقام آخر، وهو بيان أنهم لو عادوا في الدنيا وخلق فيهم الشهوات والأهواء وعبث بهم، واستولت عليهم لعادوا لما نهوا عنه.

وما الذي بدا لهم وكانوا يخفونه من قبل؟ اختلف المفسرون على آراء كلها محتملة، وهي تنتهي إلى رأيين:

أولهما- ما كانوا يخفونه في طوايا نفوسهم وأعمالهم في الدنيا قد بدا عيانا لهم، وأحسوا فيه بقبح ما فعلوا، فبدا لهم ما كانوا يخفون من مفسد، وبدا أن كفرهم ليس لنقص في الاستدلال، ولكن لعناد، ولإعراض بدا لهم ما كانوا عليه من عنجهية جاهلية، وأنها جوفاء في الآخرة، وأنها التي دفعتهم إلى الكفر، وليس نقص الدليل، وبدا لهم أن إعراضهم عن الآيات لم يكن لنقصها، ولكن لنقص في نفوسهم وإذعانهم.

(١) ﴿وَلَا تُكَذِّبْ.. وَنَكُونُ﴾ بالنصب فيهما - قراءة حمزة ويعقوب وحفص.

التأويل الثانى - أن الذى بدا لهم هو عذاب الآخرة، وهولها، وشدايدها، وقد كانوا ينكرونها، فظهر ما كانوا يجحدون، ولكن كيف يكون ذلك قد أخفوه، وهل الإنكار المعلن إخفاء؟ والجواب عن ذلك أن الفطرة الإنسانية توجب التصديق إذا قام الدليل، وأن المعاندة حيث قام الدليل إخفاء لما يقتضيه. وقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾ (١٤) [النمل]. فجحدوهم كان إخفاء لموجبات الإيمان، وأن شهوة السلطان والعصبية، وغلبة الدنيا والفساد عليهم جعل الحق يختفى عليهم، ويخفونه هم بالمعاندة والمكابرة، والمماراة، فلما كانت الآخرة، وكانت القيامة بأحوالها بدا ما كان مختفيا، وأخفت الأهواء والمعابث، وظهرت الحقائق وأحسب أن المعنيين مستقيمان، ولا مانع من جمعهما، فالنص يعمهما.

ولقد ادعوا فى تمنياتهم أنهم يعودون ليكونوا فى ضمن المؤمنين، ولا يكذبوا بآيات ربهم الذى خلقهم وكونهم وحماهم، فبين سبحانه أنهم لو ردوا إلى الدنيا بزخارفها وعصبياتها، وأهوائهم وشهواتهم، وحب الغلب لعادوا لما نهوا عنه من الإعراض عن الآيات، والمكابرات فى المعجزات، والاستهانة بالإيمان والمؤمنين، ووقعوا فى كل المخابث التى كانت منهم، وذلك لأن السبب فى الجحود هو سيطرة الهوى والشهوة والعصبية الجاهلية، فإن عادوا إلى الدنيا بمتعتها البراقة فسيستولى عليهم بريقها، ويكون منهم ما كان أولا.

ولقد أكد الله سبحانه كذبهم فى أمنياتهم ونتائج تمنياتهم فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والكذب هنا خاص بما يمكن أن يقع منهم، وما أرادوا فى تمنيتهم الأمانى، فتمنياتهم كاذبة لا يمكن أن تحقق، ولو عادوا لكان منهم ما وقع أولا؛ إذ إنهم يعودون بما كانوا يحملون من ركائز فى نفوسهم، فالتكذيب لما يكون منهم فى المستقبل، وقد أكد سبحانه تكذيبهم بـ «أن» وبالجملة الإسمية، وباللام المؤكدة.

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .

الحياة التى تسمى حياة فى نظرهم ولا شىء سواها حياة الدنيا، هذه الجملة تفيد ثلاث فوائد:

أولها- نفى وجود أى حياة غير الحياة التى يعيشونها، ولو كانت هذه الحياة هى الدنيا وليست العالية القويمة .

الثانية- أنهم ينسبون الحياة إليهم لاستمتاعهم فيها وما فيها من لهو ينغمسون فيه، وعبث يعبثونه .

الثالثة- إنكارهم صراحة لبعثهم وتأكيد النفى بالباء، وبالجملة الاسمية .

لقد قالوا ذلك القول فى الدنيا بلا ريب، ولكن كلمة (قالوا) فى هذا النص؛ أهى معطوفة على كلمة (لعادوا)، وقولهم هذا يكون على فرض عودتهم، وهذا هو الظاهر، ويكون قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى عودتهم إلى ما كانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا؛ إذ هى تكذيب ادعاء أنهم لا يكذبون بآيات ربنا، ويكونون من المؤمنين .

ويصح أن تكون (وقالوا) كلام سيق مستأنفا للمقابلة بين حالهم التى يرونها فى الآخرة؛ إذ يرون الهول عيانا، وقد ينكرون البعث، ويؤكدون الإنكار له، وها هم أولاء يرونه، ويتمنون ما يتمنون .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا﴾ .

ولو ترى إذ وقفوا على النار كانت فى بيان ما يستقبلهم من عذاب مادى رهيب يقرع إحساسهم قرعا شديدا مزعجا، وفى هذا الموضع، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هى بيان عقاب معنوى توبيخى، وبيان كذبهم فى الدنيا وكفرهم بآيات ربهم، ولو ترى يا محمد أو لو ترى يا قارئ القرآن إذ وقفوا أى حبسوا مطلعين على تجلى ربهم، وسلطانه وكمال عزته البارزة لهم التى حاولوا إخفاءها فى

أنفسهم فى الدنيا، وإن لم تكن خفية فى ذاتها، لقد تجلّى عليهم ربهم بسؤال المستنكر لحالهم فى الدنيا، وبحجتهم فى قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى هذا البعث الذى تعينونه وتشهدون أهواله ثابتا بالحق، فقلوه (بالحق) متعلق بمحذوف، وأو نقول إن (الباء) زائدة، ويكون المعنى أليس هذا البعث هو الحق الذى لا ريب فيه، وتكون (الباء) لتأكيد معنى الإنكار الذى هو بمعنى النفى، وقد دخل على نفى، ونفى النفى إثبات، ولقد كانت إجابتهم مصدقين؛ لأن الواقع يحملهم على التصديق والإذعان لما يدعوا إليه رب العالمين بقولهم كما حكى ربهم؛ (بلى) وبلى لنفى ما يكون بعد الاستفهام، أى لنفى (ليس هذا بالحق)، نفى ما تضمنته ليس النافية هو تصديق أنه الحق، وإذا كان ذلك ثابتا بحكم قولهم وعيانهم، فلا بد أن يتجلّى الله تعالى عليه بذكر ما يستحقون، فقال تعالت كلماته: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى فانغمسوا فى العذاب ذائقين لآلامه محسين بها، فالذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بعد الانغماس فيه، والأمر هنا أمر تكوينى يحكى الواقع الحق، وقد يكون مع ذلك أمر قولى لا اختيار لهم فيه، بل إنه مجاب بالاضطرار، و(الباء) هنا للسببية أى بسبب كفرهم بالبعث، وإنكارهم له، و(الفاء) فى قوله: (فذوقوا) فاء الإفصاح، أى إذا كنتم تفترون أنه الحق فذوقوا عذابه بما أنكرتم. اللهم هبنا الإيمان بالغيب وامنحنا اليقين.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَرْزُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٢٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا
وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٢٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبُرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطِيعَتْ أَنْ تَبْلُغِي
نَفَقَاتِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾

الكلام موصول في الكفر باليوم الآخر وأثره النفسى والاعتقادي، وما يترتب
على الكفر باليوم الآخر جحود النبوات، ولقد ابتدأ سبحانه بما يتصل بما قبله،
فقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

بين الله سبحانه وتعالى في هذا النص أن الذين يكذبون باليوم الآخر
تصيبهم خسارة، وخسرانهم أولا لأنهم يفقدون العزاء الروحي الذي يصيب كل
إنسان مما يعاني في الحياة، فلو كانت الحياة الدنيا لا حياة بعدها يكون الشقاء
النفسى المقيم لكل من يصيبه ألم فيها، أو يقع في نفسه أنه في شقاء لأنها فيها
السعادة في رعمه، ولأنه يفقد معاني الإنسانية؛ إذ يكون كالحيوان الذي يأكل
ليعيش، ويعيش ليأكل فيفقد كل المعنويات العالية، ولأنه ثالثا، يرتع في الشهوات
الموبقة، ولأنه رابعا يكون في تناحر مستمر، إذ لا يخشى الله ولا يرهب عقابه،
وأخيرا يخسر بتلقى العذاب الذي يقع عليه يوم تقوم القيامة، وعبر عن قيام القيامة
واليوم الآخر بلقاء الله تعالى تشريفا لذلك اليوم، ولأنه له الولاية الحق في ذلك،
فلا ولاية ولو ظاهرية لغيره ولا ملك لغيره ولو كان ظاهريا، وفيه ترغيب في
الإيمان باللقاء، وترهيب من تكذيبه، وإنهم إذ يكذبون يستمرون في ضلالهم
حتى تجيئهم الساعة بغتة أو فجأة من غير أن يكونوا على أهبة لها، وهنا يرد للنظر
أمور.

أولها- ما معنى (حتى تأتئهم الساعة)، أى ما مقام (حتى) أهى للغاية أم للتفريع؟ وإذا كان للغاية فمن أين الابتداء؟ يقول الزمخشري: إنها متعلقة بـ(يكذبون) أى أنهم يستمرون فى تكذيبهم وغلوائهم حتى تحىء إليهم الساعة وهم فى غيهم يعمهون.

ثانيها- ما المراد بالساعة؟ واضح أنها القيامة فذلك تعبير قرآنى عنها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...﴾ (٢٤) [لقمان].

وسميت القيامة ساعة؛ لأنها تحمل أشد الأهوال، ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة، حياة فانية وأخرى باقية، حياة عمل، وحياة جزاء.

الثالثة- الساعة تحىء من غير علم بوقتها للجميع فكيف تكون بغتة للذين كذبوا بقاء الله دون غيرهم، والجواب عن ذلك أن الذين آمنوا بقاء الله تعالى يتوقعونها، وإن لم يعلموا وقتها، أما الذين كذبوا فهم يكفرون بها فيفاجأون بها، وإن الذين آمنوا يرجون لقاء ربهم، ويرجون رحمته، وأما الذين كفروا بقاء الله تعالى فلا رجاء عندهم.

أولئك الذين تحيئهم القيامة ولقاء ربهم بغتة ويرون العذاب، تصيبهم حسرة، أى غم شديد، وقد قال الأصفهاني فى تفسير الحسرة ما نصه: (الحسرة الغم على ما قاله والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه، وانحسرت قواه إذا انحسرت قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه).

والتفريط هو الإهمال وعدم العناية والغفلة عما يجب للأمر.

والضمير فى قوله تعالى ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الحياة عند بعض العلماء ولكن ليس لها مذكور سابق إلا أن يكون ما ذكره من قبل، وقولهم: ﴿... إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩) [الأنعام]، والحق فى نظرى أنه يعود إلى

الساعة وتفریطهم فيها هو عدم التفاتهم لها، وغفلتهم عن ذكرها، فكانوا يعملون غير مرتقبين لها، بل غافلين عنها.

ونادوا الحسرة مضافة إليهم قائلين ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾؛ لبيان أنهم فى حال غم وحزن، ويتادون حسرتهم التى تلازمهم كأن هذا وقتها ولا وقت ألزم وأنسب لها من هذا الوقت.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

الوزر الحمل الثقيل، وسمى به الإثم والذنب؛ لأنه أثقل الأحمال النفسية التى تنوء به القوة، والجملة استعارة تمثيلية لما يثقلون به يوم القيامة من أثقال الآثام، فقد شبهت حال من يحمل الآثام الثقالة الكثيرة بحال من يحمل الأحمال الثقالة على ظهره وينوء بها؛ لأن كليهما ثقل، الآثام لوباءتها وعذابها، وقد رشح سبحانه للمشبه به فى قوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فإن هذا بيان لسوء ما يحملون، وقد ابتدأ بـ ﴿أَلَا﴾ الدالة على التنبيه، ثم التعجب من شدة ما يحملون، وساء وأساء: تستعمل للتعجب، فمعنى ﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ما أسوأ ما يزررون وما يحملون لسوء عاقبته، وما وراءه من عذاب.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَقُونُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فى هذا النص تكون المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة، أو الحياة العاجلة والحياة الآجلة، أو بالأحرى بين من يطلب الحياة الدنيا من غير نظر إلى ما وراءها من حياة أخرى، ومن يطلب الحياة الآخرة، وأيهما أمثل؛ ولذلك كان حصر الحياة الدنيا فى أنها لهو ولعب، فإن هناك حصرا بالنفى والإثبات، فهى مقصورة على اللهو واللعب، وذلك لمن يطلبها من غير نظر إلى ما وراءها من حياة أخرى، فإنه حيث لا ينظر إلا إلى لذائذها وشهواتها، ولا تكون حيث لا يلهو ولعبا، واللهو واللعب هما الاشتغال بما لا يجدى فى ذاته، ولكن قد يخلفون فى حقيقتهم مع قريبهما فى المعنى، فاللعب العمل الذى لا مقصد منه إلا تزجية الفراغ وقضاء الوقت، وقد يكون عبثا، واللهو طلب ما يلهى عن الجد من الأمور من ملاذ

وأهواء وشهوات، والفرق بينهما غير محدود، بل هما متقاربان يستعمل أحدهما في موضع الآخر، ومهما يكن فإن الاشتغال بكل واحد منهما لغير غاية مجدية مذمة لا تجوز من عاقل، وإذا قصد بأحدها الاسترواح حتى يقوى على الجلد من غير سأم ولا إملال فربما لا يكون قبيحا.

وإن قصر الحياة على السلهو واللعب إنما هو لمن أهمل ما وراءها، أما من عنى بما وراءها وقام بالجد من الأمور، فإنها الطريق إلى الآخرة، وهى طريق الذين يتقون.

وكانت المقابلة للدلالة على موضوع القصر؛ فإن الذين يتقون هم من الذين يعيشون فى الدنيا، ولكن لم تكن لهم كل شىء، بل ما نظروا إليها إلا ليطلبوا الآخرة بها والله على كل شىء قدير.

وقوله: ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

فى هذه مقابلة بين الذين يطلبون الدنيا لذاتها، والذين يطلبون بها الآخرة؛ إذ الأولون تكون عندهم لعبا ولهوا، والآخرون تكون عندهم جدا، يطلبون ما فى الدنيا لغاية وراءها، ولا يطلبونها لذاتها، وهذه المقابلة فهمت بالصراحة فى الكلام بشأن الأولى، وهو الخسران، وفهمت بذات المقابلة فى الثانية، وهناك مقابلة أخرى، وهو أن عاقبة الآخرين خير، وهذه فهمت بصراحة فى الثانية، وبالمقابلة ذاتها فى الأولى وهو الخسران أيضا، وقد أكد الله تعالى الخيرية لأهل التقوى فأكد باللام المؤكدة، ثم خاطب الله تعالى الناس فقال تعالت كلماته: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للحث على التفكير والتدبر، والمقابلة بين اللذات العاجلة السريعة الفانية، واللذات الآجلة الدائمة الباقية.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق وتأكيد العلم، وقد حاول بعض العلماء أن يجعلها للتكثير، ولكن التحقيق جاء من موضوعها لا من ذاتها، وإنى أقول إنى لا أعلم أنها جاءت فى القرآن داخلة على المضارع إلا بمعنى التأكيد، وكتاب الله تعالى فوق ما يقرره علماء النحو واللغة.

وإن النبى ﷺ كان يحزنه أن القوم لا يؤمنون، ويفترون الكذب عليه، ولقد نهاه الله تعالى عن أن يلج الحزن فى نفسه لعدم إيمانهم، فقال تعالى: ﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ...﴾ (٨) ﴿فَاطْر﴾ وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [الشعراء]. ولقد كان يحزن النبى ﷺ كفرهم، وما يقولون فى هذا الكفر من رميهم له بالكذب والافتراء، وأنه ساحر، وأنه مجنون، وأن كتاب الله تعالى أساطير الأولين، ولقد ذكر الله تعالى أنهم لا يكذبون النبى ﷺ، و(الفاء) هنا تكشف عن محذوف يفيد السببية، تقديره مثلاً فلا تحزن لأنهم لا يكذبونك، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ لِّلَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، والجحود نفى ما فى القلب ثبوته، وإثبات ما فى القلب نفى أى عدم الإذعان للحق، وقد قامت أدلته، وكثير من العرب كانوا يعتقدون صدق محمد ﷺ، ولكنهم يمارون فى الحق، ولا يذعنون، ويجادلون فى آياته، وقد روى أن طاغوت الشرك أبا جهل عوتب فى أنه صافح النبى ﷺ مرة فقبل له فى ذلك فقال: إنى لأعلم أنه النبى، ولكن متى كنا لبنى مناف تبعاً؟!

وهذا على أساس أن الجحود فى الآية منصب على نبوة النبى ﷺ إذ يعرفون صدقه، ولكن لا يذعنون له، فيكونون جاحدين، وهناك تخريج بيانى آخر، وهو أن الجحود منصب على آيات الله تعالى وليس تكذيباً، فهو تعزية للنبى ﷺ من جهة أنهم لا يكذبونه، ولكن يقرّون فى ذات أنفسهم، ولكن يجحدون بشهادة ربهم على صدقه، فهم أشد وبالا.

وهنا إظهار فى مقام إضمار إذ إنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ لِّلَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولم يقل (ولكنهم) وذلك لبيان سبب الجحود وهو الظلم

المستقر فى نفوسهم، وفيه فوق ذلك تسجيل الظلم عليهم، وهم بذلك مستحقون للعقاب.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾.

هذا تنبيه للنبي ﷺ وحث على الصبر، والانتظار لما وعد من النصر المؤزر، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه ليس أول المكذبين، بل سبق إلى ذلك الرسل الصادقون الداعون، ولقد أكد الله سبحانه وتعالى الخبر بـ (اللام) وبـ (قد) لتأكيد التسلية، ولتأكيد طلب الصبر، وتأكيد الوعد بالنصر، ولم يكن التكذيب للرسل سبباً للحزن، بل كان طريقه شحذ العزيمة بالصبر، وتحمل الأذى، وبتقرب النصر، والعمل عليه، فمع العزيمة المعززة بالصبر النصر، وليس مع اليأس قوة، فالصبر كان نتيجة التكذيب؛ ولذا كان العطف بالفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب، وقوله ﴿كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ للبناء للمجهول وهو مع (ما) يكون المصدر المؤول منهما- فما للموصول الحرفى أى المصدرية، والمراد الصبر على تكذيبهم وإيذائهم، ودل على أن موضع الصبر هو تكذيبهم وإيذاؤهم، وكانوا صابرين حتى أتاهم نصر الله تعالى وأنه مع الصبر الأجبر، ولقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة]. فالنصر إن شاء الله آت لا محالة، وهو العزيز الحكيم القادر العليم.

﴿وَلَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

كلمات الله تعالى هى كلمات النصر الذى وعد الله تعالى به نبيه ﷺ ووعد به المرسلين، من قبله، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧١] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [١٧٢] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [١٧٣] [الصفات]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة].

ومعنى تبديل كلمات الله تعالى أن يتخلف وعد الله، فلا يكون النصر المبين ما دامت الأسباب بأمر الله وتوفيقه مهياً، وإنه وعد الله تعالى من كلمات الله لا

تبدل فيها ولا تغيير ما دام الإيمان يملأ القلوب، والصبر يؤيد النفوس ويأخذون بالأسباب، فإن تغيرت النفوس فليس ثمة موضوع لوعد الله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۝﴾ [الرعد].

وفسر بعض العلماء كلمات الله تعالى بما هو أعم من النصر، وهو شرائعه، وآياته وتوحيده، وصفاته، ونصره أى أنه إذا كان النبي ﷺ يشفق على رسالته أن يعرفوها تغيير بسبب تكذيبهم وإيذائهم فلا مبدل لكلمات الله تعالى، ونحن لهذا غميل.

ولقد أكد سبحانه العظة والتسليية في أنباء المرسلين، فقال تعالى كلماته: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولقد جاءك فيما قص عليك من قصص النبيين وأخبارهم وأنبيائهم ما فيه العظة الكاملة، وفيه المثالات لأقوامهم والنصر لهم، وكما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ... ۝﴾ [يوسف].

﴿وَأِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ﴾.

بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة من أول السورة أنهم متعنتون طلبوا أن يكون مع الرسول ملك، وبين الله سبحانه في ذلك أنهم معرضون عن الآيات، وأن الكفر قد سبق إلى قلوبهم، فانسدت عليهم كل مسالك الإيمان، فلا يشرق فيهم نور اليقين، ولو نزل عليهم قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وأنهم معرضون عن الحق، وإن الآية التي نزلت عليك كافية لإيمانهم إن أرادوا إرشادا، وابتغوه، ولم يبتغوا غيره.

وإن النبي ﷺ كان حريصا على إيمانهم، وكان يكبر عليه إعراضهم عن الدعوة الحق التي يدعو إليها، والحجة الدامغة التي يثبت بها صحة دعوته، وكأنه

يود إيمانهم حتى ولو كان يتحقق بآيات أخرى، فالله سبحانه وتعالى يبين له أنه لا جدوى في آية جديدة؛ لأنهم سيعرضون عنها لا محالة، ويكون المعنى: إن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أى مسلكا عميقا في جوفها، أو سلما أى مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بآية فلن يجدى ذلك؛ لأنهم لا يريدون حجة لنقص الحجة التى بين أيديهم، ولكن يريدون العنت ولو جاءتهم آية ما آمنوا، فالنص الكريم لبيان أنه لا سبيل لإيمانهم إلا أن يجمعهم الله على الإيمان، ويقذف بالحكمة فى قلوبهم، والله تعالى لم يكتب ذلك، إنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

إن النبى ﷺ كان حريصا على أن يؤمن كل الذين يدعوهم إلى دعوته، ويظن أن الحجة وحدها كافية لاستجابتهم، فبين سبحانه وتعالى أن حكمته اقتضت أن يكون فى الوجود أشرار وأخيار من الناس، حتى يستل الأختيار بالأشرار، وأن سته فى خلقه اقتضت أن يكون فى الخلق إبليس يوسوس فى صدور الناس ويكون الكفاح بينهم، وأن يبلوهم بالشر والخير فتنة. ولو شاء سبحانه أن يكونوا جميعا مهديين لجمعهم على الهدى والتقوى، ولكنه لم يشأ، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) [يونس].

وما دامت إرادة الله تعالى لا بد أن يكون فى عباده أخيار يصدقون ويؤمنون، ومعرضون جاحدون، فادع إلى سبيل الله وانتظر أن يكون المناوئ والمجيب، ولا تكونن من الجاهلين بحكمة الله تعالى، وليس الجهل بأمر شرعى حتى لا يكون محلا للنهى، إنما هو تنبيه إلى أمر تكوينى، كان التنبيه للنبى ﷺ مؤكدا، وهو تنبيه لغيره بالأولى.

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ٣٦ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٧ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُعْرَى إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ ٣٨ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومُوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٣٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرُ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٤٠ بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ ٤١

الكلام فى شأن المشركين وعرض الآيات عليهم، وطلبهم آيات أخرى، وهم معرضون عن كل الآيات بقلوبهم لأنها فى أكنة، ولا يسمعون الحق لأن آذانهم فيها وقر لانصرافها، وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك وذكر وجوب اليأس من المشركين الذين يعرضون عن آيات الله مدعين أن ما سيق لهم لا يكفى لإقناعهم، فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ .

الاستجابة هنا هى الإجابة بعد التفكير والإمعان وتقدير الأمر، فهى إجابة محكمة دقيقة، وهذا ما تدل عليه (السين)، فهى إجابة بعد استقراء الدليل على

وجوبها، وقد حصر سبحانه وتعالى الاستجابة بأنها لا تكون إلا للذين يسمعون ولا يعرضون، وينفذون إلى لباب ما يستمعون إليه، ولا يناون عنه، وفي الكلام تشبيه الذين يعرضون عن الدين ولا يستمعون سماع وعى وإدراك وتفهم بحال الصم الذين لا يسمعون؛ لأن السمع لا قيمة له إذا لم يصل بصاحبه إلى التفهم والهداية.

وقد قال تعالى من بعد ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَعْثُبُهُمُ اللَّهُ﴾، وقيل: إن الموتى هم موتى الأحياء الذين لا يدركون الحق، ومعنى بعثهم إيمانهم وهدايتهم، أى أن الله تعالى قادر على هداية موتى التفكير الذين لا يستجيبن، وقيل المراد بالموتى الكفرة الأموات، ومعنى البعث ليس الإيمان، إنما المراد أنه سبحانه وتعالى سيبعثهم ثم يحاسبهم على كفرهم، والرأى عندى أن تكون كلمة الموتى على حقيقتها والبعث على حقيقته، ويكون نسق النص الكريم هكذا: إنما يستجيب للحق ويدعن له الذين لا يعرضون عن الآيات، ثم بين بعد ذلك حال الذين لا يجيبون بإثبات قدرة الله بأن الله تعالى سيبعثهم مع الموتى، ثم يكون الحساب والعقاب ويرون ما لم يؤمنوا به، ويستمعون إلى ما أعرضوا عنه وكفروا، ولذا قال سبحانه من بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ أى ثم إليه وحده يعودون راجعين ليجازيهم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يستوى المحسن والمسيء.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَنْزِلَ آيَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فقد دأبوا على الإنكار، لأنهم دأبوا على الإعراض ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤] ... وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ... [الأنعام: ٢٥]، ولكنهم مع ذلك الإعراض يدعون أن إنكارهم لنقص الدليل، وليس للعت ومجرد الجحود. ولقد كرروا القول فى ذلك، وما أرادوا معجزة مطلقة بل معجزة حسية تلفت أنظارهم وقد ذكر القرآن الكريم بعض ما طلبوا، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠) أو

تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كَسَفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) ﴿ [الإسراء] .

قالوا بصيغة الطلب الذى يشبه التمنى والتحريض فعبر به (لولا) الدالة على التحريض والتمنى، وكأنهم يتمنون الإيمان بتمنى الآية وهم فى ذلك منحرفون عن الغاية، وقالوا لولا أنزل عليه، أى على النبي ﷺ وذلك التنزيل آت من قبل ربه وعبروا بالمجهول وبربه وهما يفيدان أن الطلب ليس منه، ولكنه من ربه، فإذا كان رسولا من عنده، فليجب ذلك الطلب الذى تمنناه، ونكون من بعده مؤمنين. وقد رد الله سبحانه وتعالى بأمرين:

أولهما- أنه سبحانه قادر عليه فهو المالك للسموات والأرض ومن فيها، وهو القادر على أن ينزل عليهم تلك الآية، فلن يعجزه شئ فى الأرض، ولكن الآيات التى تكون مع النبيين لإثبات رسالتهم تكون على مقتضى حكمته، وتكون مناسبة لشريعتهم فتكون خالدة بخلودها.

الأمر الثانى- الذى أجابهم سبحانه وتعالى هو أن أكثرهم لا يعلمون، وهذا يفيد أنه سبحانه وتعالى مع قدرته على ما يطلبون لن يجيبهم، لأنهم لا يعلمون أنهم لا يؤمنون، ولو جاءهم بالآيات؛ لأنهم سبقوا إلى الإنكار والجحود. فيكفرون بهذه الآية كما كفروا بالقرآن، ولأن القرآن حجة فى ذاته وهو أقوى حجة تناسب شريعة محمد ﷺ؛ لأن الآيات المادية وقائع حسية تنتهى بانتهاء زمنها، ولا يعرفها إلا الذين يرونها، أما القرآن فهو باق خالد معجز فى كل الأعصار والدهور فناسب شريعة خالدة باقية إلى يوم القيامة.

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ ﴾ .

ذكر فى الآية السابقة بيان قدرة الله تعالى على أن ينزل أى آية يريدونها، ولكنه لا ينزلها؛ لأنهم لا يعلمون ولا يفهمون ما يناسبهم، والله تعالى لا يسير

وراء أهوائهم، وفي هذه يؤكد قدرته وعلمه، وسعة إحاطته بالأحياء جميعاً، وقد قال الزمخشري في ذلك: (الغرض من ذكر ذلك سعة الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدييره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان).

ومؤدى هذا الكلام إثبات أن علم الله تعالى الواسع كان من مقتضاه ألا يجيب ما طلبوا؛ لأنهم لا يعلمون المآل، وهو يعلمه، كما يعلم كل حيوان من دابة تدب، وطائر يطير، ويعرف ما يحتاج إليه وما لا يحتاجه، لقد بين الله سبحانه وتعالى عظم خلق الحيوان، وأنها جماعات وطوائف مخصوصة، كل طائفة تكون جنساً قائماً، وقد فسرها الأصفهاني بقوله: (قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أى كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالشرنقة، ومدخرة كالنمل، ومعتمد على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التى يخصص بها كل نوع. والنص فيه تعميم للأنواع كلها لأن اجتماع (ما)، و(من) يدل على الاستغراق للجماعات والأحاد معاً، فهي فى علم الله تعالى جماعات وأجناس وطبائع مختلفة مثلكم- وقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ لإفادة التعميم فى أن علمه تعالى يشمل الطائر فى الجو، كما يشمل الدابة التى تدب فى الأرض، والطائر الذى يطير، فذكر الذى يطير بجناحيه يدل على علم الله تعالى على ما فى الأرض من دواب تدب، وأسماك ولائى تسبح، وما فى الجو من طيور تطير، وكل هذه أجناس ذات طبائع مختلفة، وذكر الجناحين فى الطير لتوجيه الأنظار إلى الإبداع فى الصنع مع جمال التكوين والقدرة.

وفى ذلك بيان لقدرة الله تعالى، وبيان لأن الإنسان لا يصح أن يعلم ويستكبر فأمثاله من الأحياء عدد كثير، وليس عدداً قليلاً.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

ما تركنا شيئاً لم يحص في الكتاب أى فى المكتوب المسجل بعلم الله وهو اللوح المحفوظ، فالكتاب هو اللوح المحفوظ، وقد ذكر ذلك صراحة فى آية أخرى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود]. أى مفصّل ذاكراً لأسماؤها وأعدادها وأنواعها. وهذا أوضح تفسير لمعنى ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال بعض المفسرين: الكتاب هو القرآن ومعنى التفريط أنه لم يغادر شيئاً من الأحكام إلا بينه. وأسرف آخرون فقالوا: إن القرآن ما ترك علم شيء قط من الشرائع أو غيرها من الأشياء والأحياء.

والأبين هو ما ذكرناه أولاً - لأنه المتفق مع النصوص الأخرى، وثانياً لأنه المناسب لذكر الأحياء. ولقد ذكر الله تعالى من بعد ذلك أن كل الأحياء يحشرون إلى ربهم، فقال تعالت كلماته: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أى يجمعون إلى ربهم الذى خلقهم من عدم، والتعبير بـ «ثم» للإشارة إلى أنهم أعداد لا تحصى فى علمنا، وجمعهم ليس يسيراً فى ذاته، وإن كان بالنسبة لله تعالى أمراً ميسراً، وفيه أيضاً بيان لبعد الموت عن البعث والقيامة، وإشارة لاستغراقهم جميعاً.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

هذا النص السامى يبين أن الذين لم يسارعوا إلى الحق استجابة لعناصر الانحراف والجحود فى نفوسهم، واتباعاً للهوى لا يهتدون؛ لأنهم سدوا على أنفسهم مسارب النور إلى الحق، وقد شبه سبحانه وتعالى حالهم بحال الصم والبكم الذين يسيرون فى الظلمات، فإنهم لا يبصرون طريقاً للهداية يسيرون فيه؛ إذ إنهم فى ظلمات حالكة متكاثفة فلا يبصرون، ولو كان بصرهم سليماً، فهؤلاء لا يجذبهم دليل ولا يهديهم برهان، ولا يمكن أن يستجيبوا لمن يهديهم، لأنهم بكم لا ينطقون، ولا يمكنهم أن يستجيبوا لداعى الهداية، لأنهم لا يسمعون إذ هم

صم وبكم، فالكلام فيه استعارة تمثيلية إذ شبهت حال الجاحدين الذين يعرضون عن كل آية بحال الصم البكم الذين يعيشون فى الظلام من حيث لا نور يهديهم، ولا سبيل لأن يهتدوا.

وقد بين سبحانه وتعالى أن ذلك بعلم الله تعالى وإرادته، وأنه لا تخرج حركة عن حركة إلا بإذنه فهدايته المهتدين بمشيئته، وضلال الضالين بمشيئته، فلا يخرج شئ فى الوجود من غير مشيئته، ومعنى ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ أى من يشأ الله تعالى له أن يكون فى ضلال يضلله بأن يجعله يسير فى طريق غوايته، فيعرض عن الآيات ويصاب بستار يحول بينه وبين الحق من ذات نفسه لا من أمر خارج عنه، بل باختياره الغواية فيتركه الله يسير فى طريقه الذى رسمه لنفسه، ومن يشأ الله تعالى له الهداية يسير فى طريق مستقيم يوصله إلى الحق والهداية.

وهنا أمر نشير إليه، هو أن الهداية والضلال ليسا إجباريين لا اختيار للعبد فيهما، كما يقول الجهمية ومن يسرون فى طريقهم، وليسا للعبد من كل الوجوه، كما يقول المعتزلة، ومن يسرون فى فجهم، وإنما الأمر أن للعبد اختياراً فى الطريق الذى يسيره، والله تعالى يوفقه فيه، فإن كان خيراً خطأ فيه إلى الغاية، وإن كان شراً سار حتى الهاوية.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ استعمال قرأتى أراد العلماء أن يخرجوه على مقتضى قواعدهم النحوية، من حيث الإعراب، وكيف يكون وضع الحروف، وكلمة أَرَأَيْتَ فى القرآن والاستعمال العربى تستعمل للتنبيه والتحريض على الرؤية والنظر، فهو استفهام للتنبيه مؤداه أَرَأَيْتَ كذا فإن لم تكن رأيته فانظره، فهو تنبيه، وحث على الإمعان فيه والتأمل، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ فيه جمع بين خطابين أحدهما مفرد، وظاهره أنه خطاب للنبي ﷺ وهو التاء، وهو فاعل الرؤية أو على حد قول النحويين التاء فاعل، والثانى - خطابهم بالكاف، والظاهر الذى يبدو بآدى

الرأى أن الخطاب لهم بالقصد؛ ولذلك جاء بعده ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ﴾، وكان خطاب النبي ﷺ لتنبيه ﷺ إلى خطابهم وإجابتهم، ويكون المؤدى بيان ضعفهم أمام الحوادث، والمسلمات وصغارهم واستغاثتهم بالله وحده، وأنهم لا يدعون سواه، وتنبيه النبي ﷺ إلى ذلك.

هذا ما يبدو لنا من معنى هذا الاستفهام البليغ الذى هو من آيات الإعجاز، ولا حاجة فيه إلى أن نقول: إن الكاف حرف أو اسم، ولا أن نقول الخطاب بأيهما أبلتاء وحدها أم بالكاف وحدها. والحق أنه بهما معاً فالتاء للنبي ﷺ، والكاف للمشركين، وفى التاء تنبيه إلى ما يكون منهم من إجابة.

والخطاب موجه إليهم للإجابة عن سؤال معين إن أتاكم عذاب الله الدنيوى من زلزال مدمر أو خسف يجعل على الأرض سافلها، أو عاصف شديد، أو فاجأتكم الساعة أى القيامة ﴿أَغْيَرُ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ أى أتدعون غير الله من أحجار تجتلبونها أو نار توقدونها وتعبدونها، أو شمس تقدسونها؟ لا أحد غير الله سبحانه، إذن فلم تعبدون غير الله؟! وهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً، وعلق سبحانه وتعالى الإجابة على الصدق لكى يكون الجواب لا ثمويه فيه بل يكون صادراً عن حقيقة واقعة لا عن أوهام يتوهمونها، ويحسبونها، بل عن عقل مدرك صادق خالص من الأوهام والأهواء والأخيلة الفاسدة. ولقد أكد سبحانه الإجابة السليمة بقوله تعالى:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

انتهى الكلام السامى بقوله تعالى: ﴿أَغْيَرُ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى تتحرون الحق وتدركونه. وقد أجاب سبحانه وتعالى عنهم بالإضراب عن تفكير أوهامهم وهو أنهم لا يدعون سواى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ قيل للإضراب الانتقالى عن تفكيرهم وأوهامهم، وتقديم المفعول على الفعل والفصل بقوله: ﴿إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ للقصر، أى لا تدعون إلا إياه، إذاً لا تفكرون فى غيره،

وذلك دليل على أن المشركين مهما يضلوا يتجه تفكيرهم فى الشدائد إلى القوة الخفية الخالقة فى هذا الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى خالق الكون ومسيره، فهو مجيب المضطر إذا دعاه، وأن الله يكشف أى يزيل الضر، وكأن الشدة غطاء غامر محيط، وإزالته كشفه، ففى هذا التعبير استعارة فيها تشبيه حال إزالة الشر، بحال كشف غطاء غامر مؤلم، بجامع إزالة الضر فى كل، وإظهار السلامة، والفاء هنا لترتيب الفعل على الدعاء وسرعة الإجابة.

وإن الله تعالى يكشف الضر إذا لم يكن فى ذلك مفسدة وكان فيه خير، وكانت الرحمة تفرضه، كما قال تعالى: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...﴾ (٥٤) [الأنعام]؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أن يتفضل عليكم بهذا الكشف، ويرحمكم ولم يكن فى هذا مضرة، ولا إغراء بالفساد، ولا إيذاء لغيره، فعمله تعالى فى دائرة الحكمة والنفع، وإن لم يكن فى ذلك إلزام، فإنه سبحانه وتعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٢) [الأنبياء].

وظاهر أن كشف الشدة إنما يكون فى شدائد الدنيا، وهى التى تتعلق بها المشيئة إن شاء أنزلها وأبقاها لحكمة، وإن شاء أزالها وأنظرهم؛ كما كان يفعل مع قريش، أما ما يجىء بعد الساعة من حساب وعقاب المشركين فإن الله لا يكشفه عن المشركين، إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (٤٨) [النساء]. فلا يمكن بمقتضى وعيده سبحانه أن تكون عقوبة الشرك يوم القيامة موضع كشف أو إزالة.

وقوله تعالى: ﴿فَيُكْشَفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ الكلام متعلق فيه بالمشيئة، وأريد به السبب، ذلك أن السياق يستفاد منه أن الكشف عن الدعاء، والحقيقة أن الكشف عن الضر الذى سبب الدعاء والله سبحانه وتعالى كاشفه، ومزيل ضرهم.

وإنهم فى هذا الحال يتركون أحجارهم؛ لأنهم فى هذه الحال تستيقظ مداركهم، فلا يلتفتون إلى أوثانهم إذ يرونها لا تنفع ولا تضر، بل ربما يكون

البلاء حاطماً لها، ومنكساً، فيتركونها أو أن شدة الهول تجعلهم ينسون ما علق بأوهامهم عنها ولا يكون أمامهم إلا الحقائق الثابتة.

ويكون هذا النسيان سبباً للترك وعدم الالتفات؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَنَسَوْنَ مَا تَشْرِكُونَ﴾ أى تغيب عن ذاكرتكم فتركونها لأنها لا حول لها ولا قوة، ولا يذكرون إلا خالق الكون، ورب الوجود كله، وهو الحى القيوم، ولكن نسيانهم قد يستمر، وقد يذكرونها بعد الشدة.

ويجب أن نذكر هنا أن المشركين من قريش لم تكن قد ذهبت بهم اللجاجة فى المادة إلى ألا يؤمنوا بالروح، فهم مع إشراكهم بالله تعالى كانوا يحسون بمقتضى الفطرة أن هناك قوة روحية تسير الأمور الكونية؛ قال تعالى: ﴿وَلَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [العنكبوت]، اللهم ألهمنا شكرك ولا تنسنا ذكرك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَاسِ وَأَلْضَأَ لَعْلَهُمْ نَضْرَعُونَ

﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَضْرَعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ

حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

الكلام فى أحوال المشركين مع النبى ﷺ ومجابهتهم له وسوق العبر لهم، وفى هذا النص الكريم بيان أحوال النبيين مع أقوامهم، وأحوال الأمم فى الضراء والبأساء، ومقدار انتفاعهم بها والعبرة فى ذلك؛ ولذلك قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

فى هذا النص بيان لعلاج الله تعالى للأسقام النفسية للأمم التى تتعصى على الهداية، وعلى الاستقامة على الحق إذا دعوا إليه، فليس الناس جميعاً طلاب حق يتبعونه إذا هدوا إليه، ولا يستمعون إلى الحجة إذا سقت إليهم، بل يعاندون ويكابرون، فهؤلاء يحتاجون إلى علاج دنيوى، وذلك بالشدائد تنزل بهم؛ لأن الجحود والمبالغة فى الإنكار سببهما الاغترار بالدنيا وما فيها من متع، ولا علاج لغرور الجدة إلا بالحرمات منها ليدوقوا طعم المر بعد أن ذاقوا رطب العيش، ولا علاج لغرور الصحة إلا بالمرض حيناً، ولا لعلاج للقوة إلا بالضعف. وعسى أن يكون هذا بصورة المختلفة باختلاف الداء مؤدياً إلى شفاء النفس، والاتجاه بها إلى الهداية، وقد عالج الله تعالى حالهم بأمرين: أخذهم بالبأساء، وهى البؤس الشديد، والبؤس هو الفقر وضيق العيش حتى يكون ضنكاً، وذلك يكون للأمم بالآزمات تجتاحها، ويجفاف النبات، وبالجوائح المبيدة وغيرها مما يصاب به اقتصاد الأمم، والثانى الضراء بالمرض تصاب به الأجسام وبالأوباء المرضية تنفثى بين الجماعات.

ولقد فعل الله تعالى ذلك بفرعون وقومه عندما أصابه هو وهم الغرور وطغوا فى البلاد. وقد قال تعالى فى ذلك بعد أن سخرها بكل آية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ ۝ وَالضَّفَادَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝﴾ (١٣٢) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَنِ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَىٰ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۝﴾ (١٣٣) فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝﴾ [الأعراف].

(١) قال المؤلف - رحمه الله -: القمل: حشرة تأكل الزرع تشبه دودة القطن، ولعلها هى.

وإن الآلام علاج النفوس المغرورة بزخارف الدنيا، ومتاعها إن كانت صالحة للعلاج، وقد يستعصى الداء ويصعب العلاج، وإن الله تعالى عالج الأمم بالآلام عساهم يخضعون، ويتعد الغرور عن نفوسهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى لعلهم يخضعون ويتطامنون وتذهب كبريائهم إذ يحسون بضعفهم وإنه حيث كان الإحساس بالضعف قربت النفس من الإيمان فالإيمان إذعان وخضوع، ومن جنسهما التضرع والتطامن والبعد عن الغرور، وعن الاستكبار على الحق، والرجاء هنا يفيد المقاربة بين إصابة الكاذبين بالبأساء والضراء. والخضوع للحق. فالمراد من الرجاء لازمه، وهو القرب من الحق، والإذعان له.

﴿قُلُوبًا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

البأس هنا الشدة. وهى أكثر ما تكون فى شدة الحرب. ولأواء القتال، ويطلق على شدة الفقر والبؤس فى العيش، و(لولا) هنا للنفى مع تمنى الوجود فهى لنفى تضرعهم مع تمنى أن يكونوا قد تضرعوا، والتمنى هنا معناه ينبغي، كأن المعنى هكذا لم يتضرعوا وكان ينبغي أن يكون البأس الشديد مؤديا إلى ضراعتهم؛ لأنه يشعرهم بضعفهم أمام قدرة الله تعالى الغالب القاهر فوق كل شىء. لكن الإحساس بالضعف الذى دل عليه نزول البأس عليهم - ولا قبل لهم - وجد مانعان يمتنعان أثره. فإذا كان قد وجد سبب الضراعة فقد وجد المانع منها. والمانع منها أمران:

أحدهما- قسوة القلوب. وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وكان ذلك الاستدراك للإشارة إلى أن الضراعة وقسوة القلوب لا يجتمعان ولو نزلت الشدائد، وإن ضرعوا فإلى أمد محدود، ثم تعود إليهم أحوالهم.

والسبب فى أن القسوة والضراعة نقيضان لا يجتمعان أن القسوة غلظ فى النفوس والطباع وإن بعض النفوس لتقسو حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة، وإن

من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله.

والضراعة رقة في القلب ورأفة في النفس، وإحساس بآلام الغير وآلام النفس فلا يكون القاسى ضارعا ولو كان جباناً، إذ الضراعة علو مع رأفة ورحمة وطمأنينة والقسوة غلظة، وقد يكون الجبان غليظاً، بل في أكثر الأحوال هو كذلك.

الأمر الثاني الذى يمنع الضراعة- تزيين الشيطان العمل للنفس. وقد عبر سبحانه عنه بقوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إن الشيطان قد يراد به هنا النفس الأمارة بالسوء التى تزين السوء فتجعله كالحسن وما هو بحسن، وإن هذا التزيين النفسى لعمل السوء للنفس لا يجعل الآثم يحس بإثم ما ارتكب. والضراعة توجب الإحساس بذلك الإثم، حتى يستجه إلى ربه تائباً توبة نصوحاً، ومن أول درجات هذه التوبة أن يحس بإثم ما فعل. ثم يندم عليه. ثم يعتزم ألا يفعل، ولا يمكنه أن يكون ذلك ممن زين له سوء عمله فيراه حسناً وما هو بحسن.

وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ناحية بيانية رائعة ذلك أن عبر بزين لهم الشيطان سوء ما يعملون. . ولم يقل حسن لهم الشيطان. كما يجرى على الألسنة فلان يحسن القبيح؛ لأن القبيح لا ينقلب حسناً، والسيئ لا ينقلب، ولكن السيئ أو القبيح بتمويهات وتزيينات يظن معها أنه حسن. وما هو إلا تمويه باطل، وإنهم إن لم يهذبوا بالشدائد اختبروا بالنعم، فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ .

الفاء لتفصيل ما كان منهم وبيان ما ترتب من عواقب قريبة وأخرى بعيدة، فإنهم إذا لم يتضرعوا بسبب قسوة قلوبهم وأنهم زينت لهم أعمالهم - كان لذلك

عواقب. وكانوا بتلك القسوة وتزيين السوء ناسين لما ذكروا به. فقد ذكروا بالبأساء والضراء وبسبب قسوة قلوبهم تركوا ما ذكروا به والنسيان هنا ليس هو مجرد الترك، إنما هو نسيان آثار الضراء والبأساء، فإن الضراء والبأساء لكى تنتجا آثارهما الحقيقية من المضراعة يجب أن تترك آثاراً فى القلوب تكون مذكرة بانتظام دائم لهما ولكن القسوة والغرور، والعجب والاستكبار محت تلك الآثار المذكرة فكان النسيان، وعاد الاغترار والاستكبار.

والله تعالى فى هذه الحال التى أصابهم فيها النسيان يقول: ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى أن الرزق وأسباب القوة والاعترار والاستكبار تأتيتهم وتسهل لهم، فكانوا فى سعة فى كل شىء، وقوله هذا: ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيه استعارة تمثيلية لمعنى تسهيل كل شىء حتى يكونوا فى بحبوحة وسعادة مادية وعدم خوف، واطمئنان إلى المستقبل، أو نقول إن النص القرآنى كناية عن هذا المعنى؛ لأن من يفتح له باب كل شىء، يكون لا محالة فى سعة مادية واطمئنان مادي.

وهذا المعنى فيه اختبار للنفس غير المؤمنة بالنعمة بعد أن اختبرها بالنعمة. كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُم بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف]، وإن هذا الذى ذكره النص القرآنى بالنعمة بعد النعمة هو اختبار شديد؛ ولذا روى عقبه بن عامر أن النبى ﷺ قال: «إذا رأى الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بِغَتَّةٍ فَإِذَا هُمْ مَبْلُؤُونَ﴾».

وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله تعالى بقاء أو ناء رزقهم فتح باب القصد والعفاف، وإذا أراد بقاءهم اقتطاعاً فتح باب الخيانة».

وإن هذا الفتح والرزق الواسع إلى حين ليزوقوا النعمة ثم الحرمان منها فجأة؛ ولذا قال سبحانه:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

إنهم إذ يكونون في فرح مما أعطاهم الله تعالى أخذهم الله تعالى بالحرمان أو أصابهم بالموت المفاجئ أو الخراب الجائح في وقت لم يتوقعوه، بل كانوا يتوقعون المزيد من النعم ويحسبون أنها حق مكتسب لا يمحي ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، أى فى غم وكمد وحزن ويأس وحيرة بعد الفرحة.

وهنا تعبيران جليлан جديران بالالتفاف.

أولهما - أنه عبر عن إعطاء الله النعمة بما أوتوا - أى بالبناء للمجهول؛ لأنهم يحسبون أن ذلك بعلمهم وقدرتهم وحدهم. كما جاء على لسان واحد من أمثالهم وهو قارون ﴿... إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَّلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾ [القصص].

الثانى - أن الله أضاف الأخذ إلى ذاته العلية إذ قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ لأنهم لا ينكرون ذلك وينسبونه إلى ربهم.

﴿فَقَطَّعَ دَايِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الفاء هنا للتفريع على ما قبلها، و﴿دَايِرُ الْقَوْمِ﴾ أى آخر، . والدابر هو الآخر وإذا قطع الدابر، فإن معنى ذلك أن القطع سرى من الأول حتى وصل إلى الدابر، وإطلاق الدابر بمعنى الآخر جاء فى كلام العرب، ومن ذلك قول بعضهم: «إن من الناس من لا يأتى الصلاة إلا دابرا» أى آخر الوقت والدابر تجيء بمعنى الأصل. والمؤدى واحد فى النص الكريم، أى قطع الذين ظلموا عن آخرهم، وذلك بسبب

ظلمهم، وظلمهم كان لأنهم أشركوا بالله تعالى: ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢) [القمان]، ومن كان يشرك برب العباد لابد أن يظلم العباد، فمن الذى يتقوه من بعده. وظلموا أنفسهم؛ لأنه سبقت العظاات والمعاملات ولم يعتبروا فاستحقوا ما نزل بهم.

وقد ختم الله تعالى النص بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعلمنا الحمد لله عند زوال الظالمين، فهلاك الظلمة والطغاة نعمة تستوجب الحمد والثناء، ويقول فى ذلك الزمخشري: «﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيدان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم وأجزل القيم».

ونظير هذا النص الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ... ﴿٥٩﴾ [النمل]، ووصفه سبحانه بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيدان بأن القضاء على الذين ظلموا بعد أن اختبروا بالبأساء والضراء، ثم بالسراء والنعماء هو من تقدير الربوبية، وتديره سبحانه رب العالمين.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
ثُمَّ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

فى الآيات السابقة بين الله تعالى ما عامل به الأمم السابقة بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات، فاخترهم سبحانه وتعالى بالبأساء تنزل بهم، والضراء تمس أحياءهم، رجاء أن يعرفوا ضعفهم بجوار قدرة ربهم، وأن ترى الشدائد نفوسهم، فمن لم يتجه إلى الله، ويكفر بعد كشف الضراء عنهم، ويقسو قلبه وينسى ما ذكر به من شدائد، يختبره بالنعمة، يفرحون بها، ويلذون حلاوتها، ثم ينزل بهم الحرمان ويأخذهم بغتة بالشدائد ويكون ذلك أقسى من الأول إذ يتحIRON ويقطع دابرهم، وفى هذه يبين لهم سبحانه نعمة الله عليهم فى الخلق والتكوين، ويذكرهم باتجاههم إليه إن أخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم أفلا يدركون، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾.

فى الآيات السابقة - كما قلنا - كان ذكر ما ينزل حولهم ثم يصيبهم، فالدمار ينزل حولهم ثم يصيبهم، وهنا ذكر ما ينزل بحواسهم وكيانهم قائم لم ينقص، ففى هذا النص بيان قدرة الله تعالى فى أنفسهم وفى أجزائهم وحواسهم، وامتلاكه لهذه المداخل التى تكون إدراكهم وهى السمع والبصر والفؤاد؛ كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٢١] ومعنى أخذ الله سمعهم وأبصارهم والختم على أفئدتهم، أن يصبحوا لا يسمعون حقيقة ولا يبصرون حقيقة، ولا يفقهون فيسلبهم سبحانه الفهم والإدراك، وواضح أن أخذ السمع والبصر يكون بعدم السماع والإبصار؛ لأن هاتين الحاستين تسمعان وتريان، وأخذهما فقد عملهما - ولكن الأفئدة شئ يخفى لا يؤخذ بل هو باق، ولكن يغشى عليه، فليس الجنون ذهاب العقل، وإنما الجنون ستر العقل فلا يدرك الأمور على وجهها، ولذلك عبر عن فقد الإدراك بالجنونة؛ لأن العقل يُستر ولا يذهب كما يذهب السمع والبصر؛

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَحَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أى وضع غشاوة على قلوبهم، فتصبح كالشئ المختوم لا ينفذ إليه شئ من الإدراك، وذلك بلا ريب هو أعلى دقة فى التعبير تليق بمقام القرآن الكريم فى البيان الذى لا يصل إليه أحد من البشر، والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الاستفهام فيه للتنبيه، كأنه سبحانه وتعالى كلماته يقول أرايتم. أى إن لم تكونوا قد رأيتم ذلك فُروه وعوه، وأدركوا ما وراء ما يدل عليه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ الاستفهام فيه لإنكار الوقوع الثابت بالدليل الذى لا مجال لإنكاره، والضمير فى (به) يعود إلى المأخوذ، وهو السمع والبصر والفؤاد، وقام الأخذ والختم مقامه من قبيل قيام السبب مقام المسبب، و(يأتيتكم) معناه برده عليكم، وعبر سبحانه بـ (يأتى) للإشارة إلى أنه يكون كالجديد، والنص يشير إلى أنهم وحواسهم فى يد الله سبحانه وتعالى، ويشير إلى أمر آخر، وهو أنه تعالى قادر على إعادة السمع والبصر والإدراك، وهى أجزاء جسمكم المدركة المصرفة، أفلا يكون قادرا على إعادتكم فى البعث كما بدأكم أول مرة، إنكم ترون من يذهب سمعه كأن فى أذنيه وقرا ثم يسمع، ومن يذهب بصره ثم يبصر بعمل الله، ومن يصاب بجنة ثم يفيق، وكل ذلك من الله تعالى، إن ذلك محسوس، فلماذا لا يقيسون عليها عودة الأجسام بعد بلاها كما بدأكم تعودون.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ لبيان حال المشركين، وأنهم لا تؤثر الحجة فيهم مهما تكن واضحة نيرة ملزمة، والتصريف: التغيير، وهو يكون فى ذات الآيات يتعدها من آية كونية إلى آية قرآنية، فالتعدد صورها، فتعدد فى صور الآيات الكونية من عواصف عاتية إلى مطر صاخب إلى خسف للديار، ومن آيات قرآنية زاجرة للأمثال مبينة للمثالات، إلى تذكير بقدرة الله تعالى فيما تحيط بهم، وتذكير بأنفسهم، ومع هذا التصريف المتتابع، والآيات الواضحة المتنوعة تجدهم صادقين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ أى

يعرضون، ولا يجيبون من الصدوف بمعنى الإعراض، وأصل الصدوف الميل عن الجانب؛ لأن أصله الصَّدَف بمعنى الجانب، فمن يصدف يميل عن هذا الجانب أو يجعله حاجزاً دون الإيمان، وقد عبر في العطف بـ «ثم» للدلالة على التراخي المعنوي بين الآيات وتتابعها والإعراض، وقد أكد سبحانه وتعالى الإعراض منهم بضمير الفصل؛ لأن وقوعه غريب في ذاته بعد تلك الآيات البينات.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿قُلْ﴾، وللنبي ﷺ وللْمُشْرِكِينَ في قوله : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وقد ذكرنا تخريج هذا اللفظ على ما يقوله النحويون واللغويون في البحث السابق، فارجع إليه، ﴿بَغْتَةً﴾ أى مفاجأة، و﴿جَهْرَةً﴾ أى جهاراً، وقد ذكرت الجهرة فى مقابل البغته؛ لأن البغته بمقتضى المعتادة تكون فى خفية ولا إعلان فيها من قبل، أو على الأقل تجيء من غير ترقب ولا انتظار، فهى خافية على من نزلت عليهم؛ ولذلك قابلتها جهرة، ولقد فسر الزمخشري احتمال بغته أن تكون بمعنى ليلاً، و جهرة بمعنى نهاراً، وهو معنى مقارب؛ لأن المفاجأة تكون بالليل، والعننية تكون بالنهار عادة.

وعذاب الله تعالى يجيء من غير ترقب. كحال الذين قالوا ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال سبحانه : ﴿... بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف].

وقوله تعالى : ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، أى لا يهلك إلا القوم الذين تجمعوا على الظلم، وتحزبوا وتضافروا عليه، وتعاونوا على إثمه. وهنا مباحث لفظية موضحة :

أولها- لماذا كان النفي بالاستفهام؟ الجواب عن ذلك للتنبيه، كأنه كان سؤال وكانت إجابة، وذلك تأكيد للنفي فضل تأكيد.

ثانيها- أن سبب الهلاك هو الظلم، فقد ظلموا بسبب الشرك، وظلموا بعدم الطاعة، وظلموا أنفسهم بضلالها، والظلم وخيم العاقبة.

ثالثها- أن الكلام فيه حصر الهلاك في الظالمين مع أن الفتنة تعم ولا تخص، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ...﴾ (٢٥) [الأنفال]. ونقول في الجواب عن ذلك: إن الله لا يهلك الظالمين إلا إذا ساد الظلم، فبعضهم وقع منهم الظلم فعلا، والآخر سكتوا عنه فكانوا ظالمين بسكوتهم، وقد قال تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) [المائدة] ولقد ورد في الأثر: إن الله لا يعذب العامة بظلم الخاصة، إلا إذا رأوا المنكر وسكتوا عنه. أو كما قال رسول الله ﷺ (١).

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

التبشير هو الإخبار بالبشرى، وهى الخبر السار، والإنذار هو الإخبار بالسوء فى المستقبل تحذيرا وإعدارا، فالتبشير وعد بما يلقى فى النفس السرور والاطمئنان، والإنذار وعيد بالعذاب، والجزاء المماثل للإثم، وقصر الله تعالى المرسلين على الإنذار والتبشير؛ لأنه ليس عليهم أن يحملوا الناس على الهداية إن لم يهتدوا، ولا يتحملوا وزر العصاة إن عصوا أمر ربهم، إنما الثواب لمن أطاع، والعذاب لمن عصاه، وذكر سبحانه وتعالى ذلك بالنص؛ لأن النبى ﷺ كادت نفسه تذهب عليهم حسرات حتى يؤمنوا، وقال تعالى له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) [الشعراء] فالله سبحانه بين له أنه لا يهدى من أحب، وأنه ليس عليه هدايتهم وأن رسالته غايتها الإنذار والتبشير كسائر المرسلين، وأنه بعد تبليغ الرسالة يكون الخير لهم، والتبعية عليهم.

(١) عن عدي، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَاتِهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ». رواه أحمد: مسند الشاميين - حديث عدي بن عميرة الكندى رضى الله عنه (١٧٢٦٧).

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى فمن أذعن للحق، وآمن بما جئت به، وجعل هواه تبعاً لما تدعو إليه فله الجزاء الأوفى، ودعم الإذعان الحق بالعمل الصالح، فالإيمان من غير عمل أجوف أجرد لا يتج بذاته، ومن آمن وعمل صالحاً فإنه لا يحزن على ما فاتته فى الماضى، بل يطمئن بذكر الله، ولا يخاف من المستقبل لأنه يرجو ما عند الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

أولئك هم المقابلون للذين أذعنوا للحق وعملوا عملاً صالحاً، وهؤلاء كذبوا بآيات الله، ويراد بالتكذيب للآيات الإعراض عن الأدلة القاطعة المثبتة لوحداية الله تعالى من كونيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة، وآيات قرآنية بينة واضحة باهرة، فلم يكن تكذيبهم للنبي ﷺ فقط، بل كان تكذيبهم للأدلة الواضحة التى تشبه الحس المرئى والبارز المحسوس، وهذه الآيات هى التى ساقها الله لهم، وهو خالق الكون ومدبره، وقال فى عقوبتهم: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى يصيبهم العذاب بسبب فسقهم، أى خروجهم عن الحق، وإنكارهم لما يوجب العقل الإيمان به، وأردفوا كذلك بفعل الموبقات، فإذا كان المؤمنون قد أذعنوا للحق، وركوه بالعمل الصالح، فأولئك أنكروا الحق، ودعموا الإنكار بارتكاب الموبقات والزور من الأعمال، وعبر سبحانه عن إصابة العذاب وإدخالهم جهنم بـ «يمسهم»؛ لأن موضع الإحساس بالألم هو الجلد، فمسه بالعذاب هو الإيلام الشديد، اللهم قنا عذاب النار...

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ

عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا
إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾
وكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾

فى الآيات السابقة كان بيان الله سبحانه وتعالى للآيات الكبرى تتابع عليهم آية بعد آية، وهم معرضون، والله تعالى يذكرهم بسلطانه فى الأرض وفى السماء وفى أنفسهم، وبين أن من يشركونهم مع الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يدفعون عنهم شيئا لو أخذ الله تعالى سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم، ولا يملكون أن يدفعوا العذاب إذا أتاهم بغتة أو جهرة، ولم يبين علاقتهم بالمؤمنين وكلامهم فى النبى ﷺ وحواريه، وفى هذه الآيات يتكلم فى ذلك، فيقول الله تعالى:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

كان المشركون يستكثرون أن يكون محمدا نبيا مرسلا، ولم يكن من الأغنياء العظماء فى أموالهم، بل كان بيتما فقيرا، فقد قالوا: ﴿... لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) [الزخرف] وحسبوا أن النبى يجب أن يكون

مُحَدَّثًا عَنِ الْغَيْبِ، وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَأَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف]. وقد كانوا يقولون إنهم يريدون ملكًا رسولًا. وقد أخبر تعالى عنهم: ﴿... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ... (٧)﴾ [الفرقان].

وقد تولى الله سبحانه وتعالى ردهم في هذه الآيات، وأمره بأن يقول لهم: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أمره الله تعالى بأن يحدد مضمون الرسالة، ولا يتوهموا أن الرسالة تقتضى أن يكون الرسول مالكًا للأموال والخزائن، ولا أن يكون عليما بالغيب، وأن الرسول لم يدع شيئًا من ذلك، وإن الرسول ليست له خاصة إلا أنه يبشر وينذر، وأنه يوحى إليه من رب العالمين، وأنه مع من يدعوهم يتبع ما يوحى إليه من ربه.

إن الرسالة الإلهية يضعها الله تعالى في عباده المصطفين الأخيار من البشر، ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (١٢٤)﴾ [الأنعام] وإن محمدًا ﷺ ما تطاول بفضل مال ولا ثروة، ولا غنى، ولكنه كان فقيرًا بين الفقراء قريبًا منهم متدانيًا إليهم يخفق قلبه معهم، ويحس بآلامهم، وكان من البشر، ليخاطب البشر، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]. وإن التفرقة ليست بالغنى والفقر، وإنما التفرقة بالهداية والضلال، والعلم والجهل؛ ولذا قال سبحانه في التفرقة بين من استبصر وأدرك ولو فقيرًا، وبين من ضل وغوى، ولو كان غنيا.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن ينبههم إلى أنه لا يستوى العالم والجاهل والمهدي والضال، والرشيد والسفيه، وكان أمر الله تعالى بذلك لنبيه، وتكرار الأمر بأن يقول لهم ما يقول؛ لفضل التنبيه، ولتقوية الإيمان بأنه يتكلم عن ربه، ولأنه الذى يتولى محاجاتهم، والاستفهام هنا لنفى الوقوع مع التنبيه إلى هذا، والمراد من

الأعمى غير المدرك للحقيقة وغير المهتدى، ومن طمس الله تعالى على بصيرته فأصبح الحق لا يصل إليه، والمبصر من أدرك كل هذا، ففى الكلام تشبيه الضلال بالعمى، وإدراك الحق والإذعان له والاهتداء بالبصر؛ لأنه يعيش فى نور البصيرة، والأول يعيش فى ظلام الجهل والضلال.

وقدم العمى فى الذكر على البصر؛ لأن المشركين يدعون أنهم مع ضلالهم وجهلهم، وبعدهم أعلى من أتباع النبى ﷺ من المؤمنين، وذلك لكثرة أموالهم، وقلة أموال المؤمنين، فبين سبحانه أنهم لا يمكن أن يساوهم فضلا أن يعلموا عليهم؛ لأن الأعمى ولو غنيا، لا يساوى المبصر ولو فقيرا، وكان عليهم بدل أن يفضلوا أنفسهم على المؤمنين لفقرهم أن يتفكروا ويتدبروا فى أسباب الفقر والغنى، وأسباب الفضل وأسباب العلو، وأن يتعرفوا الهدى والضلال، وأن يتدبروا فى حاضر أمرهم وقبله، وأن يعتبروا بالعظات والأمثال التى تساق إليهم، وأن يكشفوا عن أنفسهم غمة الاغترار والإعراض عن الحق، وألا يكونوا فى غيهم يعمهون؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الفاء هنا موضعها قبل الاستفهام، ولكن الاستفهام له الصدارة فقدم عليها عن تأخير فى نسق الكلام، والمعنى أنه كان يترتب على عدم المساواة بين الأعمى البصير أن يتدبروا ويتفكروا، والاستفهام للتحريض على التفكير.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الكلام السابق فى المشركين، وإعراضهم عن الآيات وختم الله تعالى على قلوبهم مع توالى الآيات والنذر عليهم وإعراضهم، وقد يتوهم متوهم أن الإنذار لا جدوى منه، ولكن ليس الناس جميعا كذلك، بل فيهم من تؤثر فيه الموعظة ويجدى فيه الإنذار، والحق أن الناس قسمان: قسم تعثره الرهبة من الغيب، ويخاف الحشر إن ذكر به، فلم يكن فيه اغترار يقسو به قلبه، ويصرفه عن المنذرات والاستماع إلى داعى الحق، وصنف غلبت عليه شقوته لا تجدى فيه موعظة، ولا

يرهب الغيب وما فيه؛ لأنه يَعْمَهُ في غيه، وهم في غفلتهم ساهون، وهؤلاء لا يجدى فيهم النذير، وهم الذين ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وأبصارهم غشاوة، وقد ذكر الزمخشري أن الذين يخافون أن يحشروا منهم المسلمون الذين يؤمنون بالبعث والنشور، ولكن تتقاصر أعمالهم، فيجديهم النذير، ومنهم أهل الكتاب الذين لم يفسدهم الغرور، ومنهم بعض المشركين الذين لم يطمس على قلوبهم، بل لا يزال في قلوبهم نافذة ينفذ منها الندم، فإن علموا بالحشر خافوه فآمَنُوا، ومن المشركين من يؤمنون بالحشر، ولكن يظنون أن الشركاء الذين يبتدعونهم يشفعون لهم، فإذا أعلموا الحق فيه اتبعوه، وما ذكرناه في تقسيمنا يعم هذه الأنواع وغيرها.

والضمير في به يعود إلى ما أوحى إلى النبي ﷺ وهو القرآن الكريم، وقد ذكرنا ضروب الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، ويلاحظ بعض أمور:

أولها- أن الإنذار للجميع فلا يختص الذين يخافون دون غيرهم، ولكن الذين ينتفعون به هم الذين يخافون الحشر، وما وراءه من حساب وعقاب.

ثانيها- أن العنصر المميز بين أهل الخير وغيرهم هو الخوف والخشية من الله فأولئك يكون فيهم رافة، ومع الرافة يتفتح القلب للهداية، ويدخله النور، ومع الغلظة يكون الظلام، وكأن الغلظة حجارة قوية تجعل ما وراءها في ظلام دامس.

ثالثها- أن الغرور باعتقاد شفيع يشفع أو ولى يناصر من دون الله تعالى يسدُّ مسالك النور والهداية، فلا بد أن يكون كل الإحساس لله سبحانه وتعالى.

رابعها- أن الإنذار في هذه الحال يجعل للتقوى مكانا، فيكون الرجاء فيها، وهو من العبد لا من الرب، ولذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

جاء النهي من الله تعالى ألا يطرد أهل التقى ولو كانوا عبيداً أو فقراء، فإن هؤلاء يقوم بهم عمود الدين، وإذا كانت الضلالة لا تساوى الهداية، والعمى لا

يستوى مع البصر، فإنه لا يصح أنه يطرد الفقراء لرجاء إجابة الأغنياء، ولا يطرد الضعفاء لرجاء إجابة الأقوياء، يروى عن ابن مسعود أنه مر الملاء من قريش بالنبي ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ فلعلك إن طردتهم أن نتبعك.

وروى عن خباب بن الأرت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزارى فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب في أناس من الضعفاء من المؤمنين؛ فلما رأوهم حوله أتوه، فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

هذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية، والنص يرمي إلى هذا المعنى، فقد قال تعالى، كما ستتلوا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾.

نهى الله النبي عن أن يطرد هؤلاء الضعفاء، وإن كان النبي ﷺ يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للدخول في الإسلام لينال بقوتهم قوة، ولكن الله تعالى بين أن القوة في الإيمان، لا في غطرسة المتغترسين وإن أولئك وإن كانوا ضعفاء فقراء فإنهم أقوياء بعزة الإيمان وبعزة الحق ولا تفرقة بين أتباع الأنبياء بالطبقية، إنما التفرقة بقوة الإيمان والتقوى كما قال تعالى: ﴿... إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾ [الحجرات: ١٣]. وإن الرفعة بين أتباع الأنبياء بالإيمان والعبادة.

وقد ذكر الذين نهى النبي ﷺ عن طردهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي، ومعنى يدعون يعبدون مخلصين؛ لأن العبادة دعاء، والدعاء: التضرع الخالص، وهو مخ العبادة، وهو لبها، ولذلك عبر عن العبادة بالدعاء - وبالغداة

والعشى: المراد فى الصباح والمساء، أى أنهم فى عامة أوقاتهم ذكروا الله تعالى ربهم الذى خلقهم وكلاهم وحماهم، يريدون وجه الله، لا يقصدون عرضاً من أعراض الدنيا، وينصرفون إليه تعالى لا يريدون إلا ذاته الكريمة ولا يقصدون سواه، فكيف يطرد هؤلاء لأجل ناس لا يعرفون إلا عرض الدنيا وإن الله تعالى قد أمر النبى ﷺ بأن يكون مع هؤلاء، فإنهم قوة، والإيمان يملأ النفس قوة؛ لأنها قوة الصبر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٧٨) [الكهف].

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

جاء هذا النص الكريم بعد قوله تعالت كلماته: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى يقصدون بعبادتهم ذاته العلية ولا يقصدون شيئاً سواها، مهما يكن، وإن الله تعالى يتولى حسابهم بالجزاء، وما يعود عليك من حسابهم شيء ولا يعود عليهم من حسابك شيء فهم عباد مجزيون بأعمالهم، كما أنك يا محمد مجزى بعملك، فليس لك أن تطردهم، وهذا التعبير ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يشبه ما نقل عن نوح -عليه السلام- فى قول الله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) [الشعراء].

ويؤدى التعبير على هذا أن هؤلاء آمنوا بربهم وحسابهم عند ربهم، وما على من حسابهم من شيء، كما لا يحاسبون على عملى، فكل له عمله، فكيف أطردهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى فإن طردتهم استجابة لغيرهم وأنت لا تتحمل مغبة أعمالهم، ولا ما هم فيه كنت من الظالمين؛ إذ لا وزر كان منهم يستوجب الطرد إلا مسارعتهم للإيمان بما جئت وتلكؤ غيرهم، إن ذلك لظلم عظيم إن كان، ولا يمكن أن يكون من محمد ﷺ.

وهناك تخريج آخر، لقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بأن المعنى ما عليك شيء من حساب رزقهم إن كانوا فقراء وما من حسابك في الفقر والغنى عليهم من شيء، أى إنك أنت هاد ومرشد، داع إلى من يقرب منك ومن يجيب، وسواء أكان فقيراً أم كان غنياً، فكيف ترد فقيراً مهدياً لفقره وتقرّب غنياً غير مهدي لغناه فإن تطردهم من بعد فإنك تكون من الظالمين، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك.

إن الضعفاء أول من يتبع الأنبياء؛ لأنهم غير مشغولين بالمال والبنين وزخارف الحياة، وضجاتها، ولجاجة القوة وخصوصاً ما يكون منها على غير أساس من الأخلاق، فنفسهم تكون أقرب إلى الفطرة والاستقامة؛ ولذلك كان غالب الذين اتبعوا النبي ﷺ من الضعفاء والعبيد، وكل الذين يحسون بآلام الحياة الدنيا، ورجاء حياة أخرى، ولقد سأل هرقل ملك الرومان أبا سفيان ابن حرب الذى كان قائد الشرك إبان ذاك عمن يتبع النبي ﷺ أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: فكذلك أتباع الرسل^(١).

وإن هذا بلا ريب اختبار لنفوس الأقوياء فقلوه: (فتنا) معناها اختبرنا، وكان فتنة لهم من ناحيتين: الناحية الأولى أن جاههم مع كبريائهم سيكون حاجزاً لا يسهل دخول الإيمان فى قلوبهم. الثانية سيجدون أن الذين يسبقونهم إلى الإسلام هم الضعفاء، فيكون ذلك صعوبة نفسية أخرى لا تسهل دخول الحق إلى قلوبهم، ويقول قائلهم الضال: ﴿... لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ...﴾ [الأحقاف] ومن يجتاز هاتين الصعوبتين من الأقوياء يكون إيمانه أرسخ من الجبال كأبى بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وحزمة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب،

(١) راجع هذا الحديث، فى صحيح البخارى: بدء الوحى - باب بدء الوحى (٧)، ومسلم: الجهاد والسير - كتاب النبى ﷺ إلى هرقل ملك الروم (١٧٧٣) فيما رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن أبى سفيان رضى الله عنه. وهو حديث طويل.

وعبدالرحمن بن عوف، وغيرهم من الأقوياء ذوى الواجهة فى الجاهلية والوجهاء عند الله والناس فى الإسلام.

والكاف فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا﴾ للتشبيه، وقد شبهت الصورة الكلية لاختبار الله تعالى لخلقه، أو على الحقيقة معاملته معاملة المختبر لهم شبهت تلك الصورة بهذه الحالة القائمة، التى آمن فيها الضعفاء وسبقوا بها الأقوياء، وصار لهم فضل سبق، والتشبيه للتقريب والتوضيح، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ للعاقبة أى: وما كانت هى الباعث على الاختبار، ولكن كانت عاقبة ونتيجة الاختبار.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

يثبت الله سبحانه وتعالى هذا النص بثلاثة أمور:

أولها- أن الفضل ليس بالغنى، ولا بالجاء ولا بالقوة فى الدنيا، ولكن بمقدار شكر الله تعالى على ما أنعم، والإنسان فى الوجود محفوف بنعم الله تعالى تحوط به من يوم خروجه إلى الحياة إلى وقت مفارقتها، وواجب عليه الشكر لها فشكر النعم واجب بمقتضى العقل والنقل، وبمقدار شكر النعمة يكون الفضل.

ثانيها- أن أولئك الذين يسارعون إلى الإيمان بوحداية الديان، هم أصحاب الفضل؛ لأنهم هم الذين يسارعون إلى الشكر، ودعوة الله وعبادته، والإذعان له.

ثالثها- أن الله هو وحده العالم بمن يستحق الفضل وبمن يشكره وهو المستحق للفضل منه، وأفعّل التفضيل على غير بابيه، والمراد أنه سبحانه يعلم الشاكرين علماً ليس فوقه علم، فهو وحده العليم، السميع البصير.

وَإِذَا

جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ
 رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا
 بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾
 وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾
 قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِجُ
 أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذْ أَوْمَأْنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
 قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا
 تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ
 الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ
 الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

السلام والسلامة بمعنى واحد. ومعنى «سلام عليكم» سلمكم الله في دينكم وأنفسكم؛ نزلت في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرتي أن أبدأهم بالسلام» فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ. وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أى أبلغهم منا السلام؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى. وفي صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصُهَيْبٍ وبلال ونفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها؛ قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبي

ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخواناه أغضبتكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أخى^(١)؛ فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه فى معنى الآية. ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن فى ذلك غضب الله، أى حللو عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه. وقال ابن عباس: نزلت الآية فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى - رضى الله عنهم - وقال الفضيل بن عياض: جاء قوم من المسلمين إلى النبى ﷺ فقالوا: إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية. وروى عن أنس بن مالك مثله سواء.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أى أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعد الحق، فخطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئا فقد أوجبه على نفسه. وقيل: كتب ذلك فى اللوح المحفوظ ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أى خطيئة من غير قصد. قال مجاهد: لا يعلم حلالا من حرام ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل. وقيل: من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قرأ بفتح «أَنَّ» من «فأنه» ابن عامر وعاصم، وكذلك ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ﴾. وقرأ الباقون بالكسر فيهما^(٢)؛ فمن كسر فعلى الاستئناف، والجملة مفسرة للترجمة؛ و«إِنَّ» إذا دخلت على الجمل كُسِرَتْ وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكُسِرَتْ لذلك. ومن فتحهما فالأولى فى موضع نصب على البدل من الرحمة، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيها «كتب» كأنه قال: كتب ربكم على نفسه أنه من عمل؛ وأما «فأنه غفور» بالفتح ففيه وجهان؛ أحدهما - أن يكون فى موضع رفع بالابتداء والخبر مضمرا، كأنه قال: فله أنه غفور رحيم؛ لأن ما بعد الفاء مبتدأ، أى فله غفران الله. الوجه الثانى -

(١) رواه مسلم: فضائل الصحابة - من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضى الله عنهم (٤-٢٥)، وأحمد: أول مسند البصريين - حديث عائذ بن عمرو رضى الله عنه (١١٧-٢٠).

(٢) «أنه». فأنه بفتحهما (أى بفتح الهمزة فى الموضعين): ابن عامر، وعامر ويعقوب. ووافقهم نافع وأبو جعفر فى الأول، وقرأ الباقون بالكسر فيهما.



أن يضمن مبتدأ تكون «أن» وما عملت فيه خبره؛ تقديره: فأمره غفران الله له، وهذا اختيار سيويه، ولم يُجزِ الأول، وأجازه أبو حاتم. وقيل: إن «كتب» عمل فيها؛ أى كتب ربكم أنه غفور رحيم. وروى عن على بن صالح وابن هرمز كسر الأولى على الاستئناف، وفتح الثانية على أن تكون مبتدأة أو خبر مبتدأ أو معمولة لـ «كتب» على ما تقدم. ومن فتح الأولى - وهو نافع - جعلها بدلا من الرحمة، واستأنف الثانية لأنها بعد الفاء، وهى قراءة بيّنة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ التفصيل التبيين الذى تظهر به المعانى؛ والمعنى: وكما فصلنا لك فى هذه السورة دلائلنا ومحتاجتنا مع المشركين كذلك نُفَصِّلُ لكم الآيات فى كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا فى كل حق ينكره أهل الباطل.

وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ نأتى بها شيئا بعد شيء، ولا ننزلها جملة متصلة، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقال: هذه اللام تتعلق بالفعل؛ فأين الفعل الذى تتعلق به؟ فقال الكوفيون: هو مقدر؛ أى وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين؛ قال النحاس: وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه، والتقدير: وكذلك نفصل الآيات فصلناها. وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى؛ أى ليظهر الحق وليستبين، قرئ بالياء والتاء^(١). «سبيل» برفع اللام ونصبها، وقراءة التاء خطاب للنبي ﷺ، أى ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين. فإن قيل: فقد كان النبي ﷺ يستبينها؟ فالجواب عند الزجاج - أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمة؛ فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجرمين. فإن قيل: فلم لم يذكر سبيل المؤمنين؟ ففى هذا جوابان؛ أحدهما - أن يكون مثل قوله: ﴿... سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ...﴾ (٨١) [النحل] المعنى؛ وتقيكم البرد ثم حُذِفَ؛ وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف. والجواب الآخر - أن يقال: استبان الشيء واستبنته؛ وإذا بان

(١) (وليستبين) بالياء: عاصم (غير حفص)، وحزمة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون بالتاء.

سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين. والسبيل يذكر ويؤنث؛ فتميم تذكره، وأهل الحجاز تؤنثه؛ وفي التنزيل ﴿... وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ...﴾ (٤٦) [الأعراف]. مذكر ﴿... لَمْ تَصْدُورْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (٩٩) [آل عمران] مؤنث؛ وكذلك قرئ ﴿وَلَتَسْتَبِينَ﴾ بالياء والتاء؛ فالتاء خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

قيل: «تدعون» بمعنى تعبدون. وقيل: تدعونهم فى مهمات أموركم على جهة العبادة؛ أراد بذلك الأصنام. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أى قد ضللت إن اتبعت أهواءهم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أى على طريق رشد وهدى.

وقرئ «ضَلَلْتُ» بفتح اللام وكسرهما وهما لغتان. قال أبو عمر بن العلاء: ضَلَلْتُ بكسر اللام لغة غميم، وهى قراءة يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف، والأولى هى الأصح والأفصح؛ لأنها لغة أهل الحجاز، وهى قراءة الجمهور. وقال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي...﴾ (٥٠) [سبأ] فهذه لغة نجد، وهى الفصيحة، وأهل العالية يقولون: ضَلَلْتُ بالكسر أَضِلُّ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقِصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أى دلالة وبقين وحجة وبرهان، لا على هوى؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أى بالبينة لأنها فى معنى البيان؛ كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ...﴾ (٨) [النساء]. وقيل يعود على الرب، أى كذبتهم بربى لأنه جرى ذكره. وقيل: بالعذاب. وقيل: بالقرآن. وفى معنى هذه الآية التى قبلها ما أنشده مصعب بن عبد الله بن الزبير لنفسه، وكان شاعرا محسنا رضى الله عنه:

أَقْعُدْ بَعْدَ مَا رَجَفْتُ عِظَامِي وَكَانَ الْمَوْتُ أَقْرَبُ مَا يَلِينِي
أُجَادِلُ كُلَّ مُتَعَرِّضٍ خَصِيمٍ وَأَجْعَلُ دِينَهُ غَرَضًا لِدِينِي
فَأَتْرُكُ مَا عَلِمْتُ لِرَأْيِ غَيْرِي وَلَيْسَ الرَّأْيُ كَالْعِلْمِ الْيَقِينِ
وَمَا أَنَا وَالْخَصُومَةُ وَهِيَ شَيْءٌ يُصَرِّفُ فِي الشَّمَالِ وَفِي الْيَمِينِ
وَقَدْ سَنَنْتُ لَنَا سُنْنَ قِوَامٍ يَلْحَنُ بِكُلِّ فَجٍّ أَوْ وَجِينِ^(١)
وَكَانَ الْحَقُّ لَيْسَ بِهِ خِفَاءٌ أَغْرَ كَغُرَّةِ الْقَلْقِ الْمَبِينِ
وَمَا عَوْضٌ لَنَا مِنْهَا جُجْهَمٍ بِمِنْهَا جِ ابْنِ آمَنَةِ الْأَمِينِ
فَأَمَّا مَا عَلِمْتُ فَقَدْ كَفَانِي وَأَمَّا مَا جَهِلْتُ فَجَنَّبُونِي

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أى العذاب؛ فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ...﴾ (٩٢) [الإسراء]، ﴿... اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ ...﴾ (٣٢) [الأنفال]، وقيل: ما عندي من الآيات التى تقتربونها. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ أى ما الحكم إلا لله فى تأخير العذاب وتعجيله. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله. ﴿يَقْضِ الْحَقُّ﴾ أى يقص القصص الحق؛ وبه استدل من منع المجاز فى القرآن، وهى قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس؛ قال ابن عباس: قال الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ...﴾ (٣) [يوسف]. والباقون ﴿يَقْضِى الْحَقُّ﴾ بالضاد المعجمة، وكذلك قرأ على - رضى الله عنه - وأبو عبد الرحمن السُّلَمِى وسعيد بن المسيَّب، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء^(٢)، ولا ينبغى الوقف عليه، وهو من القضاء؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والفصل لا يكون إلا

(١) الوجين: شط الوادى.

(٢) قال الفخر الرازى «يقض» بغير ياء لأنها سقطت لالتقاء الساكنين، كما كتبوا «سندع الزبانية» «فما تغن النذر».

قضاء دون قَصَص، وَيُقَوَّى ذلك قوله قبله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ويقوى ذلك أيضا قراءة ابن مسعود (إن الحكم إلا لله يقضى الحق) فدخل الباء يؤكد معنى القضاء. قال النحاس: هذا لا يلزم؛ لأن معنى «يقضى» يأتى ويصنع فالمعنى: يأتى الحق، ويجوز أن يكون المعنى: يقضى القضاء الحق. قال مكى: وقراءة الصاد أحب إلى؛ لاتفاق الحرمين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت فى قراءة ابن مسعود، قال النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيرا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أى من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضى الأمر إلى آخره. والاستعجال: تعجيل طلب الشئ قبل وقته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أى بالمشركين ويوقت عقوبتهم.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفْظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَكِيمِينَ ﴿٦٢﴾

فى الآيات السابقة ذكر الله تعالى أمرا نبيه أن الله على بينة و يقين من أمر ربه، وذكر أن المشركين يستعجلون ما ينذرهم الله تعالى، ويذكر الله تعالى ما نزل بغيرهم، والنبي يترك الأمر لحكم الله يفصل بينه وبينهم، والفصل الحق يقتضى علما واسعا، وتنفيذه يقتضى قهرا غالبا، وسيطرة كاملة، فذكر سبحانه اختصاصه بالعلم الكامل، والقدرة القاهرة، والسيطرة الكاملة؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

المفاتيح جمع مفّتح، وهو المفتاح فيقال مفتاح ومفتاح بمعنى واحد، وقيل من بعض النحويين: إن مفاتيح جمع مفتاح، إذ يجوز نحويا حذف الياء، كما يقال فى محاريب جمع محارب، محارب بحذف الياء، وهناك قراءة، (وعنده مفاتيح الغيب) والمعنى واحد فى القراءتين، وقال بعض المفسرين: إن المراد خزائن الغيب أى الأسرار المكنونة فى علم الله تعالى.

والأكثرون على المفاتيح هى جمع مفتاح، وهو ما يتوصل به إلى ما يكون بداخل الشيء، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ لا يتوصل إلى غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول، فإنه يعطيه غيبا بما اختزنه فى علمه المكنون إن أراد بمقدار يقدر حسب المصلحة والحكمة كما أعطى عيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهما.

والغيب ما غيب واستتر، والكلام فيه استعارة تمثيلية تشبه بحال علم الله بالغيب واستتاره عن الناس -إلا من أراده- بحال من يكون معه مفاتيح خزانة لا يصل إلى ما فيها سواه، وقد تأكد علم الله تعالى بالغيب وحده، وأنه لا يعلم أحد إلا من جانبه، بأمرين: أولهما- التقديم، فقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ﴾ بتقديم

الظرف للقصر، الأمر الثانى - بالقصر الصريح، بنفى العلم عن غيره وإثباته له وحده إذ قال سبحانه: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ثم بين دقة علمه بالمغيب وعمومه، فقال تعالت كلماته: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى أنه سبحانه يعلم ما فى البر من حيوان يدب، وطائر يطير، وكهرباء، وفضاء، وحرارة ونظم كونية رتبها سبحانه وسخرها لابن الأرض، حتى وصل إلى جوف الفضاء وارتقى إلى الكواكب والنجوم، كما علمهن على ظهر الأرض؛ ولذلك عبر سبحانه وتعالى بالبر، ولم يعبر بالأرض، ليشمل التعبير الأرض، وما فوقها، وما بينها وبين السماء من فروج، ويعلم سبحانه أحياء البر، وكيف يكونون، لأنه خالقهم، وذلك تقدير العزيز العليم.

ويعلم ما فى البحار من أسماك وجواهر ولآلىء، والجاريات المنشآت فى البحر، وفى البحر عالم، ولسير البحار نظم، ولاستعمالها قوانين نظمها بإرادته الحكيمة رب العالمين، وخالق السماء والماء، وكلها مسخر للإنسان، يستعملها فى العمارة والبناء، وفى التخريب والفساد، وكل ذلك بتمكين الله تعالى: ﴿... لِيَلْوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾ [٢] [الملك].

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

هذا نوع تفصيل بعد إجمال، وقد اختير ما يكون ظاهره تحت أنظار الناس، وأسراره فى علم الله تعالى العليم الخبير اللطيف البصير، وقد ابتدأ بالأوراق التى تسقط، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ (ومن) هنا الدالة على عموم العلم، وعلم الله ليس كعلمنا الظاهر المبني على البصر، إنما علمه هو العلم بأصل تكوينها، وسير نموها، فهو يعلم الأشجار التى علقت بها كيف غرست، وكيف كونت، وكيف نمت جذورها وتفرعت فروعها وتهدلت أغصانها، وكيف تكونت أوراقها، وأندت بالحياة حتى اخضرت وازدهرت، ثم كيف جفت وسقطت فذلك بعض علم الله تعالى، وهو علم بغيها، ولا يعلم ذلك العلم سواه؛ لأنه

هو الذى برأها، ونماها وربّها، وفى الجملة هو الكامل العلم بالغروس والأشجار، ثم ذكر من بعد ذلك علمه الكامل بالزروع، فقال: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أى يعلم حال الحبة التى تلقى فى جوف الأرض، وهو ظلماتها، وعبر عن داخل الأرض بظلمات وهو ظلمة واحدة؛ لأنه ظلمة متكاثفة متكاثرة بسبب جهل الإنسان ما يجرى فى باطنها من أسباب لا يدركها الإنسان إلا بعد أن تظهر، فهو لا يعرف كيف يتتفع من الماء، وكيف تمد بالغذاء من أرض صالحة، وسماد مخصب، وكيف تتنوع فى نموها، وهى تسير السير الفطرى الذى سنه الله سبحانه وتعالى، أى أكد أن الله وحده هو الذى يعرف كيف يتكون من الحبة نبات يستوى على سوقه وكيف يشتد ويغلظ سوقه ليعجب الزراع.

فالنص الكريم جمع فيه تكوين الأشجار والغروس، وتكوين الزروع والحب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ... (٩٥)﴾ [الأنعام] وبعد أن بين سبحانه علمه بإنشاء الغروس والزروع بين سبحانه وتعالى علمه الكامل بثمرات الغروس والنباتات فى ضمن علمه الكامل بالرطب واليابس، فقال تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وتفسير العلماء للرطب يتجه إلى اتجاهين: أولهما- تفسير الرطب واليابس بما يناسب الورق والحبة، وهو ما يكون ثمرًا. للأشجار رطبًا أو جافًا من عموم الثمار كاللوز والتفاح، والقصب، وغير ذلك، وفيه توجيه للنعمة التى أنعم الله بها على عباده فوق إحاطة علمه، وقدرته فى التكوين والإبداع.

وبعض المفسرين يرى أن الرطب واليابس فى كل الوجود، فهو يعلم اللين والجامد فى كل شيء، فهو يعلم ما فى باطن الأرض من فلزات ومعادن كريمة، ومعادن سائلة، وما يكون فى باطن الأرض من أحجار نباتية وغير نباتية وسائلة وجامدة.

وإنى أرى ذلك رأى وأختاره ليكون ذلك تقريبًا لأكبر قدر من النعم التى أنعم الله تعالى بها على عباده.

ويقول سبحانه مؤكداً تمام العلم الذى لا يغيب عنه شيء: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أى أنه ثابت لا تغيير فيه ولا تبديل فهو عالم بكل شيء علماً ثابتاً كالملفوظ البين المسجل فى كتاب واضح، لا يخفى منه خافية، وعلى ذلك فكونه فى كتابه مبين موضح، وواضح هو فى ذاته كناية عن الثبات والاستقرار لمعنى المعلم المؤكد، وقال بعض المفسرين: إن ذلك الكتاب هو اللوح المحفوظ المشتمل على علم الله تعالى المكنون فى الغيب.

وبعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى تمام علمه بالأشياء أشار إلى قدرته سبحانه وتعالى، وعلمه بالإنسان، وما يكون منه، فالله يعلم بما يسر، وما يظهر، فهو سبحانه يعلم ما ظهر وما بطن، ويعلم السر وأخفى؛ ولذا قال تعالى من بعد:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

الضمير يعود على الله تعالى ذى الجلال، وهو سبحانه الذى يتوفاكم بالليل، والمراد إنا متكم، ولم يعبر بتسكنوا فى الليل وهو يتضمن معنى النوم؛ لأن السياق لبيان قدرة الله تعالى، وسلطانه عليهم، وكونهم فى قبضة يده، وأنه يحصى عليهم أعمالهم، فكان التعبير بالوفاة عنه أنسب، والنوم يعتبر من قبيل الوفاة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... (٤٢)﴾ [الزمر]. فالموت الأكبر هو قضاء النحب، والموت الأصغر هو النوم، ولقد شبه النبى ﷺ عند إنذار عشيرته بأمر ربه: «والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لجنّة أبدا، أو لنار أبدا»^(١).

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ الجرح هو إصابة الأعضاء والأجسام بما يدميها، ويطلق على الكسب، والمراد هنا الكسب خبيثاً أو طيباً، وسميت سباع

(١) رواه ابن عساكر ج ٢، وذكره القرطبي بلفظ «كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون» ج ٨ ص ٥٧٠.

البهائم جوارح؛ لأنها تجرح، وتكسب قوتها بجراحاتها، وسميت الأعضاء العاملة في جسم الإنسان جوارح؛ لأنها هي التي تكسب، وهي التي تجرح، والمراد - والله تعالى أعلم - أن الله تعالى يعلم ما جرح الناس بالنهار، فيعلم خفايا نياتهم في أعمالهم، ويعلم ما يكسبون من خير وشر، ويعلم ما يخفون وما يبدون، وفي ذلك إنذار وتبشير فهو إنذار لمن يكتسبون الشر، وتبشير لمن يكسبون الخير، وأحسب أن استعمال ﴿جَرَحْتُمْ﴾ الذوق البياني يجعلها أقرب إلى استعمال الشر، ولكن الأولى هو التعميم، والله سبحانه وتعالى أعلم بالمراد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى النهار، ويكون الكلام متصلاً بالتوفي بالليل، فالسياق يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم في النهار بعد الليل؛ ولذلك قال الشوكاني في تفسيره: إن الضمير يعود إلى الليل، لابتداء النهار والمؤدى واحد، وإن كان ثمة اختلاف في توجيه السياق والإعراب، وكان التعبير بـ «ثم» لتفاوت ما بين مظهر الليل ومظهر النهار، والتفاوت ما بين أعمال النهار وأعمال الليل.

إن تداول الليل والنهار مستمر، فليل يعقبه نهار، ونهار يعقبه ليل لنهاية واحدة، وهو قضاء أجل مسمى عند الله تعالى، وإن كان لا يعلمه إلا الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾. إنه بعد أن يقضى الأجل المسمى، يكون المرجع إلى الله وحده، فلا سلطان لغيره، ولا يرجع إلى أحد سواه، ودل على هذا القصر تقديم الجار والمجرور، فإنه دل على القصر، والتعبير بـ «ثم»؛ لأن هناك تفاوتاً زمنياً، بمقتضى الأجل المسمى الذي يطول ويقصر، ولتفاوت ما بين ما يكون في الحياة الدنيا من لهو وعيب وتفاخر، وتقوى أحيانا، ثم قال

سبحانه: ﴿ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والتعبير بـ «ثم» أيضا لتفاوت ما بين الحياتين، ولتبيين الإخبار بالعمل العظيم، وإخبار الله تعالى بما كانوا يعملون يتضمن أمرين: أولهما- أن العمل يكون مبينا لهم كأنه حاضر أمامهم يشاهد ويصير، لا يخفى منه شيء صغيرا أو كبيرا. وثانيهما- الجزاء عليه وسمى جزاء عمل العامل عملا له؛ لأن الجزاء عادل مساوٍ لاستحقاقه كأنه هو، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

وبعد أن بين سبحانه بكل شيء، وبكل إنسان، وأن لكل جزاءه على قدر عمله. بين قدرته القاهرة، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

هذه تبين قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه على كل شيء، فهو سبحانه وتعالى قد قهر له كل شيء وذل، ولا يخرج عن سلطانه أحد؛ وكل شيء في سلطانه وفي إرادته لا يقع شيء في الكون، ولا يخرج دون أمره، وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ كناية عن علو إرادته ولا إرادة لمخلوق فوق إرادته، أو يقال إنها استعارة تمثيلية فيها تصوير علو الله تعالى على كل شيء في الوجود سلطانا وتذليلا بمن يكون فوق كل شيء حسا، وفي الحقيقة ذلك مجاز مشهور لا يحتاج إلى تقدير تشبيه أو نحوه، كقولنا: الأمير فوق رؤسائه، أو فوق رعيته، وقد انحرف انحرافا كبيرا الذين قالوا: إن ثمة فوقية حسية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وإنه من قهره وسلطانه، وكونه فوق الكل أرسل على الناس حفظة، والتعبير بـ (أرسل) لتناسق الكلام إذ إن الذي يسيطر على كل شيء وفوق كل شيء يناسبه فيمن يسخره من خلقه على خلقه أن يكون بـ (أرسل)، و(حفظة) جمع حافظ. مثل كتبة جمع كاتب، وسفرة جمع سافر، وهؤلاء الحفظة يحفظون العباد، ويحوظونهم، ويكتبون ما يكون منهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ولقد ذكر سبحانه هذا المعنى فى عدة آيات: من كتابه، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ﴾ [الانفطار] وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ...﴾ [الرعد]. وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۖ﴾ [١٧] مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۖ﴾ [١٨] [ق].

وإن هذه الرقابة والمحافظة لأولئك تستمر، حتى الوفاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ «حتى» هنا للغاية، والمعنى تستمر هذه الحال حتى يجرى أحدهم الموت، وعبر بالماضى لتحقيق المجيء مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ...﴾ [النحل] أو تكون حتى تفرعية أى إن تلك الرقابة لأجل الحساب كما يدل الكلام، وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أى ملك الموت ومن معه، وهنا يلاحظ أن ذكر مجيء الموت قدم على ذكر الوفاة، والمراد من مجيء الموت تقدير نهاية الأجل؛ ولذلك عبر بـ ﴿أَحَدَكُمْ﴾ ولم يقل، حتى إذا ماتوا؛ والوفاة قد جاءت بعد الإحصاء الدقيق من الحفظ؛ ولذلك قال من بعد ذلك: ﴿وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾ أى لا يهملون، ولا يتركون شيئاً مما فعل، بل كل ما عمل مهياً له يجده حاضراً بعد وفاته.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

وإنه بعد أن يموتوا يردون إلى الله تعالى معروضة أعمالهم محصاة إحصاء دقيقاً يردون إلى الله تعالى مولاهاهم الحق، وفى هذا النص بضعة مباحث نشير إليها ففيها تقريب لمعنى النص الكريم.

أولها- التعبير بـ «ثم»، والتراخى هنا لبيان مكانة الحساب والرد على الله تعالى؛ لأن الالتقاء بحساب الله أمر ذو خطر عظيم لما كانوا يفعلون غير متوقعين بعد ذلك من وقائع تزلزل قلوب الفاسقين، وتطمئن لها قلوب المؤمنين.

وثانيها- أنه عبر عن الرد للحساب بالرد لله تعالى ذى الجلال، وذلك يشير إلى خطورة الأمر، ودقة الموقف، وجلال الحساب.

وثالثها- أن الله تعالى عبّر عن ذاته الكريمة؛ أنه مولاهم الحق، أى ذو الولاية الحق، فلا ولاية لمن اتخذوهم أولياء، بل إنهم ينسونهم، وينكرونها، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ...﴾ (٤٤) ﴿[الكهف] و[الحق] يصح أن نقول إنها وصف لمولاهم، أى هو الولي الحق الذى لا يصدق على غيره أنه ولى قط، أو نقول إنها بالحق الثابت وبالعدل الذى لا يظلم ربك فيه أحدا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾، «ألا» فيه للتنبيه وتقديمه له على الحكم للإشارة إلى أنه وجد له الحكم، ولا حكم لأحد سواه فليترقبوا جزاء ما عملوا، والحساب قائم ومؤكد؛ ولذا قال من بعد: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أى أنه لا يوجد حاسب فى سرعة حسابه وهذا يؤكد الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (٤٨) [النساء]. ويثبت أن حساب الله سريع؛ لأن الله يعلم كل شىء قبل أن يقدموا عليه إن الله بكل شىء عليم.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مَنْ

ظَلَمْتَ الْبِرَّ وَالْبَحْرَ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحْنَا مِنْ هَذِهِ

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ

ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا

مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم

بِأَسْ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى عموم علمه، ما خفى منه وما ظهر، وما جدّ وما يجد، حتى إن الورقة تسقط يعلمها، والحبة تنبت فتكون فى علمه بكونها وحالتها، يعلم الرطب واليابس من الثمرات، وهو الذى نظم الوجود بمقتضى هذا العلم المحيط، هو الذى يعلم الوفاة بالليل، والصحو بعد، وما يكسب بالنهار من خير نافع، وشر ضار، وأنه المسيطر على كل شىء، وأن المرجع والمآب إليه، وعنده الحساب السريع، والحكم العادل.

وفى هذه الآيات، يبين نعم الله تعالى عليهم، إن ادلهمت بهم كارثة يضرعون إليه، وبين أنه إذ كان هو وحده الملجأ عند الكارثة تكرّثهم فهو القادر على أن ينزل بهم البأساء والضراء، ومع هذه النعم السالفة، ومظاهر القدرة الباهرة يكذبون بالحق إذ جاءهم، وأنباء الرسالة ثابتة مستقرة لا تتخلف، وأنه إذا كان الناس فيهم أظهار وأشرار، فعلى الأظهار ألا يخوضوا فى فتن الأشرار، وقد ابتدأ سبحانه بقوله:

﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

كان المشركون يعرفون الله سبحانه وتعالى، ولكن لا يؤمنون به، ولا يخصونه بالعبادة بل يشركون معه الأوثان، ويقولون: ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وكذلك أكثر الوثنيين، يعرفون أن قوة خفية تسير الوجود، ولكنهم يعبدون أشياء حسية يحسبون أن روح الألوهية تحل فيها، وهم فى غيهم يعمهون.

فلا عجب، إذا كان المشركون عندما تشتد بهم الشديدة لا يتجهون إلا إلى خالق الكون ومنشئه ومسيره والقيوم عليه سبحانه وتعالى، ولقد أمر الله تعالى الرسول الكريم أن يوجه أنظارهم إلى أنه لا يذكر فى الشديدة إلا الله سبحانه وتعالى، وأنهم يذكرونه حيث تكون الكريهة، وحيث يكون الخطر، فأمره بأن يوجه إليهم الاستفهام ليقروا بهذه الحقيقة: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والاستفهام إنكارى تقريرى بمعنى لا أحد ينجيكم من ظلمات البر والبحر، وأنتم

تقرون بذلك إذ تدعونه تضرعا وخفية، فلا تلجأون لغيره ولا تجدون منجاة إلا من عنده، والظلمة هنا الشدة، فهي مجاز، شبهت فيه الشدة والكرب بالظلمة؛ لأن النفس فيها تتحير، وتشده فتبلس، فتكون كأنها لا ترى ولا تعرف وجه الخروج؛ ولذلك يقال لليوم الشديد الذي يملؤه الكرب: يوم مظلم، ويقولون: نهار ذو كواكب، أى أنه لشدته يكون كأنه ليل ترى فيه الكواكب، وفي شدائد البر والبحر تكون غمة حقيقية، فقد يكون غيم شديد، لا رؤية فيه، أو ربح عاصف وإعصار، وقد يكون الخسف الذى يلقى فى ظلمات الأرض، وقد يكون اصطخاب الأمواج بالأذى، وهكذا فتجتمع ظلمة الشدة، والظلمة الحقيقية وقد تكون الشدة حيرة، يضلون فيها الطريق فتبتلعهم الصحراء، أو تكون إذا ركبوا البحر، فضلت فيه المحجة^(١)، أو ألقتهم الريح لا يهتدون ولا يجدون المنجاة، فكل هذه ظلمات متكاثفة.

وإن حالهم أنهم لا يلجأون إلا إليه ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أى أنكم فى حال الشدة، تتجهون إليه سبحانه وتعالى بقلوبكم ونفوسكم، ولا تجدون ملجأ منه إلا إليه، ويظهر ذلك الالتجاء القلبى ضراعة وتذلا يجرى على ألسنتكم ولا تجدون سبيلا للامتناع عن الجهر بالضراعة والتذلل لله تعالى، وتسليم الوجه له، فالتضرع دعاء الله تعالى مستسلمين له جهرا، والخفية خنوع النفس، واتجاهها قلبيا إليه سبحانه، وقد صور الله تعالى ضراعتهم، بقوله: ﴿لَئِنْ أُنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

هذا قسم يقسمونه، ويؤكدون به ما هم عليه من الالتجاء إلى الله؛ ولذلك كان التوكيد بالنون الثقيلة وباللام، وموقع هذه الجملة مما قبلها أنها تفسير للضراعة التى جهروا بها أو هى تفسير بمعنى (تدعون) فهم يدعون الله تعالى، بمعنى أنهم فى سريرة أنفسهم وضراعة قولهم، يقسمون بأن الله تعالى إن أنجاهم من هذه الكروب الكارية، والشدائد الشديدة، ليشكرونا حق شكره، وشكر الله تعالى

(١) المَحَجَّةُ: الطريق.

بالعبادة، وتخصيصه بها؛ لأنهم إن أشركوا معه غيره في العبادة لا يعدون عابدين؛ إذ إنه حيث أفرد بالالتجاء، لا يتصور إلا أن يفرد سبحانه وتعالى بالعبادة.

ويصح أن يكون قوله تعالى عنهم: ﴿لَئِنْ أُنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ مقولا لقول محذوف تقديره قائلين لئن أنجيتنا من هذه.

ومع أنهم وعدوا بالشكر أى إخلاص العبادة لله تعالى، فهل وفوا بذلك؟ إنهم لم يفوا؛ إذ إنها حال إذعان فى الشدة، فإذا نجوا عاد إليهم جحودهم، وغرتهم أنفسهم وأمانيتهم.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يبين لهم أن الله تعالى مستجيب لضراعتهم عند تضرعهم، والتجائهم إليه خفية، ووعدهم بأن يخلصوا عبادتهم لله ويشكروه على نعمائه المتضافرة المتكاثرة التى نعيش فى ظلها دائما، وإن كان تعالت حكمته يعلم أنهم غير موفين لعهدهم وأنهم ناكثون فى أيمانهم، كما حكى سبحانه وتعالى عن طبيعة الإنسانية المنحرفة، إذ قال تعالت كلماته: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ...﴾ (١٢) [يونس].

وإن الله تعالى بين أنه لا ينجيهم مما يعرض لهم من شدائد من خارجهم، وما لا قبل لهم به وحسب، بل ينجيهم من ذلك، وينجيهم من الكرب التى تعترى نفوسهم من ضراء تنزل بهم، أو مرض يحل بأجسامهم، ومن كل شئ يكرهم ويلقى غمة النفس عليهم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾. ولقد فسر الأصفهاني فى مفرداته الكرب فقال: الكرب الغم الشديد ﴿... فَتَجِيئُهُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) [الأنبياء] والكربة كالغمة. وأصل ذلك من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر، فالغم يشير النفس إثارة، ويصح أن يكون ذلك من كربت

الشمس، أى دنت للمغيب، ويستفاد من هذا أن الكرب غمة شديدة تصيب الإنسان من أمر نفسى يثير النفس، ويجعلها فى قلق وحيرة واضطراب نفسى، ويقيم عليها، كمرض عزيز أو موته، أو ضرر أو فقد مال أو خسارة فى تجارة، فالله تعالى هو المنجى منه، وبهذا تبين أن الله تعالى هو الذى ينجى خلقه من كل شىء، فهو القائم على كل شىء، ومع هذا الخير العميم، ومع استجابة الله تعالى لضراعتهم، والتجائهم إليه، وإنجائهم لهم بالفعل بعد أقسموا إن نجاهم يشكرونها أى يعبدونه وحده؛ لأنه الذى أنجاهم، وخلصهم مما هم فيه، مع هذا بمجرد أن يعودوا إلى الاطمئنان والاستقرار يشركون، ويحثون فى أيانهم، ويعودون إلى ما كانوا عليه، بل إنهم يستمرون فى غيهم يعمهون، وإنه كما قال بعض المفسرين: الأصل فى السياق أن تكون حالهم حال من لا يشرك، فكان مقتضى الضراعة أن ينفى الله شركهم بعد قسمهم على الشكر والعبادة، ولكن عاد إليهم جحودهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أى أن إذعانهم العارض لم يكن ساكناً فى نفوسهم، بل هو أمر عارض، بسبب يزول بزواله، ولم يكن إذعان الذين خلصوا بنفوسهم، ويلاحظ بعد إشارات بيانية:

أولها- التعبير بـ «ثم» ففيه إشارة إلى التفاوت الكبير بين حال ضراعتهم، وحال كفرهم، أو بعبارة أدق استمرار حالهم.

الثانية- أنه سبحانه عبر بالجملة الاسمية، وذلك تأكيد لشركهم الذى كان نقيض شكرهم الذى وعدوا به ونكثوا فى وعدهم.

الثالثة- أنه عبر بالفعل المضارع الذى يصور حالهم ويدل على استمرارهم.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى كمال سلطانه فى النعم يمنحها ليرغبوا فى الإيمان والإذعان، ذكر سبحانه قوته فى القهر والعذاب.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾.

بعد بيان قدرته على كشف الكروب بين سبحانه وتعالى قدرته على إنزال الشدائد؛ جزاءً لهم بما كسبت أيديهم، فهو كاشف الضر، وهو منزل العذاب، كل يسير على مقتضى حكمته، وعلى ما يصلح به الإنسان، ويستقيم عليه أمر العالم كما قدر رب العالمين: ﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ [الرعد].

وقبل أن نتكلم فى معنى القدرة القاهرة، نذكر كلمة فى ناحية بيانية، وهو لماذا أمر الله تعالى نبيه فى التنبيه إلى ضعفهم، وقدرته سبحانه وتعالى، وصدر الكلام بكلمة ﴿قُلْ﴾ فى بيان ضعفهم، واستجابته لضراعتهم، واستعلائه بقدرته عليهم؟ ونقول فى الإجابة عن ذلك فيما يبدو: إن تصدير الكلام بـ «قل» فيه تنبيه؛ فضل تنبيه، وفيه بيان مقام النبى ﷺ أنه هو الصلة بينهم وبين ربهم، وأنه المبعوث إليهم من قبله، وأنه هو الذى يخاطبهم عنه سبحانه فى كشف الضر عنهم، ورفع الغمة إن نزلت بهم، وهو منذرهم بالعذاب الشديد.

والخطاب هنا لمن؟ أهو للمشركين فقط الذين وعدوا بالشكر ثم أشركوا؟ أم هو خطاب للناس أجمعين؟ ظاهر السياق هو الأول لأنه الخطاب، ولكن موضوع الخطاب يعم، ولا يخص المشركين، ولأن مفسرى السلف والآثار الواردة عن الرسول ﷺ تومىء إلى أن المؤمنين يدخلون فى عموم الخطاب، وإنا نميل إلى هذا العموم.

والنص الكريم يفيد عموم العقاب؛ لأن العذاب الذى ينزل من فوق يعم الجميع، كذلك العذاب الذى يجىء من تحت الأرجل يجىء عاماً لا خاصاً، فإذا كانت صواعق، أو إعصار شديد وصواعق، أو سيل عارم كل هذا يعم ولا يخص، وكذلك الحسف الذى تمور به الأرض مورا، والزلازل المدمرة، والبراكين الحارقة كل هذا يعم ولا يخص ينزل بالمؤمنين مع الكافرين، وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الأمور بعبارتين جديرتين بالنظر فيهما:

أولاهما- التعبير بـ ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾. فإن البعث معناه الإثارة، وعبر يبعث للإشارة إلى أن الله تعالى هو الذى يثير عليهم ذلك العذاب وعبر بـ (يبعث) بدل ينزل عليهم، لأن البعث والإثارة تعنى أن النزول يكون من علي، ولأن البعث والإثارة فيهما معنى الإيجاد لما ليس بوجود.

ثانيتهما- التعبير عن ذلك بكلمة ﴿عَذَابًا﴾ ففيها الإشارة إلى أنه فى معنى الجزاء على ببيان واقع، أو أن الذين نزل بهم أكثرهم يستحقون، وهو على أية حال أمر مقصود، وقد أشار الله تعالى فى آيات أخرى إلى أن الكوارث قد تكون عقابا على ذنوب سلفت، أو طغيان استحکم كقوله تعالى فيمن ينفقون من غير إيمان: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾ [آل عمران]. ومثل قوله فيما نزل بقارون وداره فى حال طغيانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصاص]. إلى أن قال سبحانه عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١)﴾ [القصاص].

فدلت هذه النصوص على أن الله تعالى ينزل عذابا كونيا، لغرور أو طغيان أو فسق عن أمر ربهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنواعا ثلاثة من العذاب الذى يبعثه:

الأول والثانى أن يبعث عذابا من فوق أو من تحت، ﴿أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

ومعنى العذاب الذى ينزل من فوق، أطلقه الكثيرون من العلماء على ما ينزل من السماء؛ يبعث وإثارة من الله من صواعق وإعصار وريح فيها صرٌّ، وحاصب من السماء، وحجارة من سجيل تجعلهم كعصف مأكول، وغير ذلك مما ينزل الله من علٍ، والعذاب الذى يكون من تحت الأرجل مما يكون من الأرض التى يفترشونها من خسف فى الأرض وميد فيها، وبراكين وزلازل، وغير ذلك من آفات الأرض التى تقرض الزرع.

وعبر عما يجىء من الأرض بقوله تعالى: ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ وذلك للإشارة إلى قربهِ الشديد منهم، وإلى أنه يكون فى مقام استقرارهم، فىكون ميد الأرض من تحت أقدامهم حيث هم مستقرون فيها، وللإشارة إلى أنهم أول من يصابون بهذا العذاب، ولا منجاة منه، إلا أن يكون لله تعالى فى مسجاتهم إرادة.

وروى عن ابن عباس أنه فسر العذاب من فوقهم بفوقية معنوية، وهم الأئمة المفسدون، والحاكمون العابثون، ومن هم تحت أرجلهم بالرعاع الأقربين يهرفون بما لا يعرفون ويتبعون كل ناعق يدعو إلى هواه ويقفون على ما يريد^(١)، فعلى هذا النظر تكون الفوقية والتحتية ليست حسية، وإن لذلك الكلام وجهاً من الحقيقة، فإن أشد ما تصاب به الأمم أن تتحكم فيهم أئمة الفساد، وأن يجدوا تابعا من الذين لا يعرفون كيف يرادون، أعلى الخير أم على الشر، وعلى ورد الماء العذب الذى يسقى النفوس، أم على منافع الأوباء الخلقية والاجتماعية، فإن ذلك يفنى الأمم فى وحدتها واجتماعها، وإن تخريب السماء وتخريب الأرض يسرع تعويضه، وإقامة بديل له، أما تخريب النفوس وإشاعة الرذيلة فلكى تخرج الأمة

(١) روى ابن جرير الطبرى فى جامع البيان - ج ٧، ص ١٤١، أن ابن عباس كان يقول فى هذه: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ فَأَمَّا الْعَذَابُ مِّنْ فَوْقِكُمْ: فائمة السوء. وأما العذاب من تحت أرجلكم: فخدم السوء.

منه لا بد من تبديل الأ أقوام وتغيير واستبدال نفوس بنفوس، وذلك يحتاج إلى زمن طويل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ (١١) [الرعد] .

وإنى أرى أن العذاب الذى ينزل من فوق، والذى يجىء من تحت الأرجل، كلا الأمرين يشمل الحسى، ويشمل المعنوى بولاية السوء، وتحكم السفلة ومن لا يفقهون، ويتبعون كل ناعق، ولا يميزون بين الخبيث وغيره، لا على أن ذلك من الجمع بين الحقيقة والمجاز، بل على أن ذلك تفسير لكلمة العذاب، بما يعم ولا يخص حسيا أو معنويا .

والنوع الثالث من العذاب الذى تصاب به الأمم، وهو الداء العضال الذى أصاب أهل الإسلام، هو التفرق والتباين ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ .

هذا عذاب للأمم، يحل وحدتها، ويثر جمعها، وهو أشد أنواع العذاب، عندما يتفاقم، ويكون الهوى المتبع، والشح المطاع وإعجاب كل امرئ وكل جماعة بنفسها وطريقتها ﴿... كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣) [المؤمنون] فعندئذ تنفك العراء، وتنحل الأواصر، ويقوم المنكر، ويذهب المعروف، ولا سماع لصوت الحق .

و(يلبسكم) المذكورة فى الآية من لبس بفتح الباء يلبس، وهى تتضمن معانى ثلاثة: أولها- الستر، فالخقائق تستر عمن يلبس عليه، فلا يراها، وثانيها- الخلط، فيختلط الحق بالباطل، والذين يقعون فى هذا اللبس (يلبسون الحق بالباطل) فلا يكون وضوح يفرق بين الحق والباطل، وثالثها- وجود غشاوة على القلوب تحجب عنها بسبب التعصب لما يعتقد، فيزين له سوء عمله، فيراه حسنا، ويرين على قلبه فلا يدرك .

وقوله تعالى: ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ شِيعَ هنا حال، أى يخلطكم حال تشيع جماعتكم، فتكون كل جماعة شيعية قائمة بذاتها منفصلة عن سواها- وأصل كلمة شيعية من شيعت النار بالخطب: قويتها، فالشيعية من يتقوى بها فى حدة وحرارة، ويتشرون عنها منادين بها، وقد تستعمل فى معنى التجمع للخير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٢] وقوله ﴿... هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ...﴾ [١٥] [القصاص] ولكن كثيراً ما تكون فى التشيع لغير الحق، وما يكون فيه تعصب شديد فتكون كأنها وقود يقوى النيران؛ نيران الحقد والحسد والبغضاء.

ومعنى الجملة السامية ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ أنه سبحانه يخلطكم، وتلبس الأمور، ولا تميزون بين الخبيث والطيب، وتكونون قوما بورا، وذلك الضلال يصحبه انقسامكم شيعة متفرقين توقد بينكم نيران البغضاء والعداوة، وتفترقون فيما بينكم، فلا تكونون أمة واحدة تجمعها وحدة جامعة، ولكن تكون طرائق متفرقة، وأخلاطا غير متجانسة ولا متمازجة.

ولا تكون العلاقة فيها مودة واصلة ورحمة عاطفة، بل تكون العداوة المستحكمة، كل شيعية تتربص بالأخرى الدوائر فى غير هودة، ولا نفوس قارة، بل فى نفوس فاترة، وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أى تكون العلاقة أن يذوق كل جماعة شدة الجماعة الأخرى، أى يكون بأسهم بينهم شديدا، فقوتهم تكون على أنفسهم، ولا تكون على غيرهم، وعبر سبحانه عن البغضاء والعداوة بأن يذيق بعضهم بأس بعض، وذلك تصوير بيانى يشبه الإصابة بالأس بذوقه واستطعامه للإشارة إلى أنهم يستطعمون العداوة بينهم، ويستطيبن البأس الشديد الذى يحكمهم كمن يستطيب طعاما شهيا، وذلك ينبئ عن فساد أمرهم، واضطراب حالهم، وقلب طباعهم، حتى إنهم يستمرثون العداوة كأنها طعام مرىء.

إن كل بلاء يهون إلا بلاء التشيع، وقد ابتلى الله تعالى به أهل الإيمان، روت الصحاح بآثار متضافرة أن أمة محمد ﷺ ستبتلى بهذا البلاء^(١). روى ابن جرير أن النبي ﷺ قال: «إن الله زوى لى الأرض، حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتى سيبلى ما زوى لى منها، وإنى أعطيت الكتزبن الأحمر والأبيض، وإنى سألت ربى ألا يهلك قومى بسنة عامة (أى بأزمة وجوع) وألا يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد: إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدوا من سواهم فيهلكوهم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، وبعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبى بعضا» فقال النبي ﷺ: «إنى أخاف على أمتى الأئمة الضالين، فإذا وضع السيف فى أمتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»^(٢). اللهم إن هذه دلائل، قد رأيناها، وأضلنا الضالون من الأئمة، حتى صار بعضنا يأكل بعضا، اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، وأجرنا من شر ذنوبنا، وعواقب أعمالنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

يأمر الله تعالى نبيه بأن ينظر فى تصريف الله تعالى آياته البينات، وهو توجيه لما فى القرآن الكريم من توجيه حكيم، وإعجاز يتحدى به الإنسانية كلها، فالسورة كلها تصريف فى التوجيه، وفى كل بيان جده، ألم تره نبه إلى علمه المحيط الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فهو يعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين، وهو الذى يتوفى الأنفس حين موتها، والتى لم تمت فى منامها، وهو

(١) من ذلك ما روى الترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة الأنعام (٣٠٦٦) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فى هذه الآية: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يَأْتْ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ» قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. كما رواه أحمد فى مسند العشرة (١٤٦٩).

(٢) ورواه مسلم: الفتن وأشرط الساعة - هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩) بلفظ مقارب.

الذى يرد إليه الأمر كله، ثم بين أنه وحده الذى يلجأ إليه المشركون، إذا اشتدت الشديدة، وحلت الكريهة، وهو القادر على أن ينزل إليهم البلاء، ويذيقهم كئوس الاختبار.

هذا تصرف فى القول المحكم الصادق ليدركوا الأمور على وجوها بعد أن يوجهوا إليها، رجاء أن يفقهوا ويدركوا، فالرجاء هنا فى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ هو فى حالهم إذا كانوا يعتبرون، وفيما هو من شأن ذلك التصريف فى القول الحكيم، ويفقهون معناها يدركون لب الحقائق، وتنفذ بصائرهم إليها، والله سبحانه هو الحكيم الخبير العليم.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿٦٩﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أنه سبحانه وتعالى هو الذى يلجأ إليه عند الشدة، وأنهم يلجئون إليه ويدعونه تضرعا وخفية فى ظلمات البر والبحر، وأنه هو وحده المنجى، ولا منجى سواه، وأنه سبحانه منزل الشدائد، وهم بعد زوال الغمة بدل أن يوفوا بعهودهم ويشكروا نعمة الله باختصاصه بالعبادة، كما اختص بالإنقاذ والابتلاء - يشركون غيره ممن لا يضر ولا ينفع، وفى هذه يقرر موقفهم من الحق، وخوضهم فى أمره بالباطل مما يدل على أن

سبب ضلالهم أنهم لا ينظرون في قضية العبادة نظرة جادة تتكافأ مع مقدار الجلال في الحقائق الدينية والمعاني الإلهية؛ ولذلك لا تنفذ بصائرهم، ولا تهتدى قلوبهم، بل هم في غى دائم حتى يسترشدوا فيرشدوا ويطلبوا الحق فيهتدوا.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

مع هذا التصريف في بيان الآيات، بذكر النعمة التي يلجأون إلى طلبها دون سواه، وبيان القدرة الكاملة الشاملة، وبيان أنه الذي ينزل الابتلاء، والعذاب الدنيوي ليقبسوا عليه من بعد العذاب الآخروي، كذبت قريش قوم النبي ﷺ وتكذيبها مع قيام البينات الصادقة، ومع حالهم من الاستسلام، وطلب النجاة منه عند الشدة، يدل على إدراك ناقص أولا- لأن مناقضة الشخص لحاله أو لبعض أحواله دليل على غفلته عن إدراك الحقائق كاملة، وعن نسيان الوقائع، ويدل أيضا على جحود مستحکم ومقاومة للحق مع قيام الأدلة، وشهادة الآيات، ويدل على تغلغل التقليد في نفوسهم، حتى إنه يضع على أعينهم غشاوة، وإن كان البصر قائما، فلهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها.

وقال بعض المفسرين: إن قوم النبي ﷺ هم أمته الذين بعث فيهم لا فرق بين عربى وأعجمى، ولا أبيض وأسود، ولا شرقى ولا غربى، فأولئك قومه ﷺ.

ونحن نميل إلى ما عليه الجمهور من المفسرين؛ لأن الأمة أعم من القوم، في أصل الدلالة اللغوية، وإنما ذكر الله تعالى قوم النبي ﷺ من قريش؛ لأن النبي ﷺ كان حفيا بأن يؤمنوا حريصا على إيمانهم، حتى إنه عندما كان الأذى يشتى ضروبه، قال: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، وقال: «وإنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله»^(١)، وللإشارة إلى عموم الدعوة إلى هذه الدعوة، وإنه

(١) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ قَادِمُوهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». متفق عليه؛ البخارى: أحاديث الأنبياء - حديث الغار (٣٤٧٧)، ومسلم: الجهاد والسير - غزوة أحد (١٧٩٢).

إن وجد من يرد دعوته من قومه، ويشددون في بلائه، فسيجد المستجيب من غيرهم، وإن الهداية قد تكون من خارج قومه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ (٥٦) [القصص].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فيه إشارة إلى أنهم لا دليل عندهم ولا موجب، لأنه الحق الثابت الذي قام الدليل عليه، وشهدت له البيّنات، وقام من أنفسهم دليل صدقه، فالواو ما يسمى في عرف النحويين واو الحال، أى أنى يكذبون ذلك التكذيب، والحال أنه حق ثابت، وذلك لشدة العناد؛ إذ إن الدليل قائم، والقربى بينك وبينهم ثابتة ومع ذلك جحدوا بها، وإن استيقنتها أنفسهم، ولست مسئولاً عن كفرهم، وقد بينت وبلغت، وما عليك إلا البلاغ.

وإذا كان قومك يكذبون بالحق، وقد ظهرت دلائله، وبرقت بوارقه، فقل لهم إنك إذ بلغت، وبينت، لست مسئولاً عنهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُل لِّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وأمره ﷺ من قبل الله تعالى لتأكيد أن عليهم وحدهم تبعة تكذيبهم، وأن النبی ﷺ مهما تكن صلته بهم من قرابة ورحم موصولة من جانبه، لا يتحمل تبعة ما يفعلون، بل كل امرئ بما كسب رهين، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما على الرسول إلا البلاغ، والوكيل هنا المتكفل بأمرهم، الموكل إليه شئونهم الذى شملت كفالاته عليكم، فليس بذى رقابة ومسئولية عنهم، وقد قال الراغب فى معنى وكيل: وكيل فعيل بمعنى مفعول قال تعالى: ﴿... وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨) [النساء] أى اكتف به أن يتولى أمرك، ويتوكل لك، وعلى هذا: ﴿... حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) [آل عمران]. ﴿... وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٧) [الأنعام] أى بموكل عليهم، وحافظ لهم، كقوله تعالى: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (٢٢) [الأنعام] وعلى هذا قوله تعالى: ﴿قُل لِّسْتُ

= وأما قوله ﷺ «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم...» فهو فى حديث الأخشين، وهو متفق عليه رواه البخارى: بدء الخلق - ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلم: الجهاد والسير - ما لقى النبى ﷺ (١٧٩٥).

عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠﴾ أى لست بموكل بكم حافظ عليكم لأحملكم على الجادة، بل على التبليغ فقط، وأنتم مسئولون عما تكذبون وتقترفون؛ ولذا حملهم سبحانه التبعة، وأنه واقع بهم ما أنذرهم، وأن إخبارهم بما يكون فى اليوم الآخر واقع لا محالة:

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

النبا هو الخبر العظيم الذى يكون ذا فائدة، وله واقع مصدق يفيد علما يقينيا، أو علما ظنيا، ولذلك يقال عن الأخبار المتواترة أنها أنباء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ...﴾ (٤٩) [هود] ومستقر هى مصدر مسمى بمعنى استقر، أو اسم زمان بمعنى زمان يستقر.

ومعنى الاستقرار مأخوذ من القرار بمعنى الثبوت والتحقق والوجود، فالمؤدى اللفظى للنص الكريم لكل خبر عظيم، بالإنذار أو التبشير؛ زمان يكون فيه، ويتحقق مضمونه، والمؤدى العام؛ أن أولئك الذين كذبوا بالحق لما جاءهم، قد جاءتهم الأنباء بالندر، وجاءت المؤمنين الأنباء بما سيجدون من نعيم مقيم، وجنات عدن خالدين فيها، وإنه نبا فى الدنيا، أو فى الحاضر، وتحققه ومستقره فى القابل، وستجدون حقيقته ثابتة معلومة علم اليقين بالمشاهدة المحسوسة، وكذلك قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى من المؤكد، أنكم ستعلمونه علم اليقين والاستقرار والوجود.

وقد يرد سؤال؛ أليس فى ذكر القرآن الكريم وإنذار النبى ﷺ ما فيه العلم اليقيني أو ما من شأنه تكوين العلم اليقيني؛ فلا علم أعلى منه، كما قال تعالى بعد هذه البيئات: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ...﴾ (٤٩) [النمل]؟ والجواب عن ذلك أن العلم الذى قامت أسبابه بإنذار الله تعالى الصادق صدقا لا يرتاب فيه عاقل هو علم الإخبار، أما العلم الذى يكون عند نزول العذاب، فهو علم المعاينة والمشاهدة، والنزول بهم، حيث لا مجال للمراء، ولا للمباهة والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أهى من قول النبى - عليه الصلاة والسلام - المأمور به فى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ظاهر السياق أنها من مقول

النبي - عليه الصلاة والسلام - الذى أمر به، ويكون إجراء الإنذار على لسان النبي ﷺ فيه فضل من التشديد بسبب المواجهة والمخاطبة، وفوق ذلك له صلة بنفى أنه ليس وكلاء عليهم، فوضت أمورهم إليه، إنما التبعة عليهم وحدهم، ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ﴾. كلام من الله تعالى، ويكون حكما منه تعالى بما سيجرى عليهم وكله من الله وإليه يعود.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

كان المشركون الذين خاطبهم النبي ﷺ بالدعوة إلى الوحدانية. بعد أن أُنذر وبشر، وصدع بأمر ربه؛ يتخاطبون فيما بينهم، لا يظلمهم طلب الحق، ولا تدفعهم إرادة الحقيقة، وإنما يسود حديثهم اللجاجة فى الجحود، ومعاندهم للنبي ﷺ واستهزائهم بضعاف المؤمنين، وتدبيرهم أساليب تعذيبهم، فحالهم ليست حال من يستمعون إلى الحق؛ إذ دعوة الذين يلجئون فى الخصومة والمعاندة تزيدهم تشديدا فى موقفهم، وصم آذانهم؛ ولذلك لا يكون من الخير تذكيرهم فى هذه الحال الجاحدة لأنها تزيدهم إصرارا وجفاء وبعدا وعنادا.

والخوض أصل معناه فى اللغة المرور فى الماء، والشروع، والانغمار فى موجاته، ثم استعمل فى الانغمار فى الأحاديث والأقوال باعتبارها تغطى الفكر، وتسيطر عليه كما يغطى الماء الخائض فيه. جاء فى تفسير الشوكانى ما نصه: (الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح للخطاب، والخوض أصله فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء التى هى مجاهل تشبيها لغمرات الماء، فاستعير من المحسوس إلى المعقول، وقيل هو مأخوذ من الخلط وكل شئ خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل وخلطه، والمعنى إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا بالكذب والرد، والاستهزاء فدعهم، ولا تقعد معهم لسماع هذا المنكر العظيم، حتى يخوضوا فى حديث مغاير).

وإن جلوس النبي ﷺ مع هؤلاء لا يتصور أن يكون لمجرد المسامرة، ولكن لأجل رسالته. والدعوة فى هذا الخوض المعاند، لا تجدى كما ذكرنا، وإن الأمر

بالأعراض عنهم فى حال العناد أمر للنبي ﷺ ولخاصته المؤمنين، وعامتهم، فعلى المؤمنين ألا يغشوا مجالس المبتدعة فى أثناء تقرير ابتداعهم، وإعلان انحرافهم، فإنه لا جدوى فى إرشادهم وهم فى هذه الحال، وأن المؤمنين معرضون بكثرة الجدل معهم لأن تسرى إليهم عدوى تفكيرهم، فإن الأفكار الفاسدة تعدى كما تعدى الأجسام المريضة الفاسدة، وقد شكوا بعض الحنابلة أنهم لكثرة مجادلتهم مع الزنادقة سرت إليهم بعض طرق تفكيرهم.

﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

إن النبي ﷺ كان حريصا على دعوة المشركين، فبين الله تعالى كما ذكر آنفا أنهم إذا خاضوا فى الآيات التى هى دلائل الرسالة، واستهزءوا بها وألحوا فى جحودها، ولجوا فى استمساكهم بما هم عليه لا يزيدهم ذكر الحق إلا الحاجة وعنادا وطغيانا إذ كلما جاءتهم آية ودلائل أخرى زادتهم كفرا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة]. فنكران الحق لا يزيد الظالمين إلا خسارا، ويدفعهم إلى اللجاجة.

ولذلك كان النهى فى الآية السابقة، ولكن دعاء الحق فى قلوبهم ميل إلى ذكره، وهداية الناس إليه، فقد يدفعهم ذلك إلى أن يعاودوا الدعوة إليه وذكره عند الخائضين منكبين مستهزئين؛ ولذلك كان النص الكريم مكررا النهى فى حال النسيان بسبب الرغبة فى الدعوة إلى الهداية وقوله: ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ هى «إن» الشرطية مؤكدة بـ «ما» ويصحب التأكيد بما التأكيد بالنون الثقيلة لغة وبيانا فى (ينسينك)، وهذا من مواضع وجوب التأكيد، والمعنى إن أنساك الشيطان، نسيانا مؤكدا فقعدت معهم، فلا تقعد بعد التذكر معهم؛ لأنهم ظالمون، ولأجل بيان بعض مرامى النص نتكلم فى النواحي الآتية:

الأولى - أن التأكيد إنما هو في النسيان، وأن السبب هو الشيطان، وإذا كان الشيطان هو السبب في الوسوسة التي أدت إلى ذلك النسيان فإنه يجب التوقى منه ومحاربته، وعدم الأخذ بما يدعو إليه، والتوبة والإقلاع عما دعا، ولكن هل الشيطان بمعنى إبليس يسيطر على نفس النبي ﷺ فينسيه ما يجب عليه، وإن الذي نعلمه، وهو مقرر أن إبليس نزع من قلبه علقته، فهو لا يؤثر في نفس النبي ﷺ ولكن الطبيعة الإنسانية هي التي تعثر الإنسان فينسى، فكيف ينسب نسيان النبي إلى الشيطان؟ وقد أجيب عن ذلك بأن المراد بالخطاب في هذا المقام من يخاطب من الأمة، فليس للنبي ﷺ ولكن اللفظ للنبي ﷺ فلا بد أن يدخل فيه ابتداء بمقتضى السياق، وإن كان الأمر يعم كل داع، والجواب الذى نرتضيه أن الشيطان ليس هو إبليس هنا، إنما هو ما يعتري النفس الإنسانية، من غفوات، أو سهو وهو جائز على النبي ﷺ فى غير بيان الأحكام، والتبليغ عن الله تعالى، فإن النسيان فى هذا يتنافى مع مقام الرسالة من الله تعالت قدرته، وسمت حكمته. وعبر عن النسيان بنسبته إلى الشيطان للإشارة إلى وجوب توقّيه.

الثانية - أن النهى جاء بعد التذكّر، فلا نهى فى حال النسيان لأنه رفع عن الأمة الخطأ والنسيان وما استكروها عليه، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا بِعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ عبر سبحانه وتعالى عن الذكر بالذكرى، ومعنى الذكرى كثرة الذكر، والتحرى له، والحرص عليه، وذلك فيه إيماء إلى وجوب التحرز من النسيان ما أمكن، حتى لا يزداد الداعى تعباً، ويزداد المدعو حاجة، فلا دعوة إلى الحق مع الإعراض عنه واللجاجة فى الإعراض.

الثالثة - أن النص الكريم منع من القعود مع القوم الظالمين. أى تجمعوا وتحزبوا، وهم مستمرّون فى ظلمهم بكفرهم، وإصرارهم عليه، ولجأجتهم، واستهزأجتهم، ففى النص وصف لهم بالظلم، وأنه السبب فى عدم القعود معهم.

وإن دعاة الباطل يتخذون لهم أوكارا، لا يجالسهم فيها إلا من هم على شاكلتهم، فيجب الابتعاد عنهم.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الباعث لأهل التقوى على الجلوس والاستماع إلى الظالمين، وهم يخوضون في الآيات اللينات الثابتة الدالة على صدق محمد ﷺ منكرين، جاحدين مستهزئين، لاجئين في عنادهم هو رغبتهم الملحفة في الهداية فأشارت الآية الكريمة أنه لا رجاء فيهم، ولا غضاضة على أهل التقوى في ذلك؛ لأنهم ما عليهم إلا التذكير، وما عليهم من تبعات أعمالهم شيء إنما تبعات أعمالهم عليهم.

وهذا النص الكريم الذى تتكلم فى معناه يبين أن الذين يتقون الله تعالى حق تقاته، ويجعلون بينهم وبين غضبه سبحانه وتعالى وقاية ليس عليهم تبعة عن أعمال الذين يخوضون فى آيات الله تعالى، فالمراد من حسابهم أى أعمالهم المحسوبة عليهم، فهو من إطلاق المصدر على اسم المفعول باعتبار أن العمل هو السبب فى الحساب، وهو من إطلاق اسم المسبب، وإرادة السبب، والمعنى ما دتم قد أدبتم واجب الإرشاد والتذكير، فما عليكم من تبعة أعمالهم من شيء. ولقد قال فى معنى ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأصفهاني ما نصه: وقوله تعالى: ﴿... مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ...﴾ (٥٢) [الأنعام] فنجد قوله تعالى: ﴿... عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾ (١٠٥) [المائدة] أى أن المعنى ما دام أهل التقوى قد أدوا، فلا حساب عليهم، ولا ينالهم أذى من حسابهم، وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ «من» هنا للدلالة على عموم النفي واستغراقه، أو تأكيد استغراقه، أى ما عليكم أى قدر -ولو ضؤل- من تبعات أعمالهم ما دتم قد ذكرتموهم العاقبة لما هم عليه، فالواجب عليكم التذكير، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَكِنْ ذَكَّرُوا لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾

هذا النص الكريم يبين ما على النبي والمتقين من بعد إلا التذكير الثابت الدائم المستمر، وفي أوقات يرجى فيها الإنصات والالتفات، والعناية بما يلقي عليهم، وذلك التذكير لرجاء أن يكونوا في حال من يتوقع إيمانهم، والتذكير بذاته موجب للإيمان إذا زالت الموانع، وأشد الموانع أن يسبق الجحود، وأن تغلف القلوب، فالرجاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ليس من الله تعالى، ولكن لتصوير حالهم إذا استقامت قلوبهم، وخلصت من الشر والجحود نفوسهم، وهو أنه يرجى إيمانهم، ولكنهم أحلوا محل الرجاء الجحود، والإصرار على الكفر، والعناد.. وقانا الله شر ذلك، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا

دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ رَبَّهُمْ
أَنْ يُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ
الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ
كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ
يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ اثْنًا قُلْ إِنِّي هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ

وَأْمُرْنَا لِلنُّسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَاتَّقُواْ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ
فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

بين الله سبحانه وتعالى قدرته القاهرة، وأنه الملجأ في الكرب، ومع ذلك كانوا يخوضون، ويعبثون، والله يأمر نبيه بأن يعرض عنهم ولكنهم يستمرون في استهزائهم بالمتقين إذ كانوا ضعفاء فيسخرون منهم، وبذلك اتخذوا دينهم الذي كان يجب عليهم أن يعتنقوه لعبا، وذلك من غرورهم بالحياة، وظنهم أن الحياة الدنيا هي الباقية، أو لا حياة بعدها؛ ولذا قال تعالى بعد أن أمر نبيه بالإعراض عن مجالسهم قال أمرا له:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

«ذَرْ» بمعنى اترك، وقال علماء النحو: إن «ذَرْ» و«دَعْ» لا ماضى لهما، ولكن لهما مضارع وأمر، ولكن وجدنا في أساس البلاغة للزمخشري أن ماضيها حتى يستعمل، فقد جاء فيه إذا قيل للقوم: ذروا هذا، قالوا: وذرناه.

والمعنى أعرض عن الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، والدين المضاف إليهم هو عبادة الأوثان التي عبدوها كأنهم اتخذوها لعبا ولهوا، واللعب هو الفعل الذي ليس مقصد يقره أهل العقل، واللهو ما يتلهى به، ويشغل به عن الأمر الجاد المنتج الثمر، الذي يكون له غرض مقصود مطلوب، فهؤلاء في اتخاذهم الأوثان التي يصنعونها ولا تنفع ولا تضر آلهة تعبد كأنهم يلعبون إذ يعملون عملا لا يقره أهل



العقل والإدراك، ويلهون لأنه عبث يعبثون به، ولا غاية له عند أهل الفكر والمنطق؛ ولا على أن يفسر الدين بما هم عليه من عبادة الأوثان.

ويرد على ذلك التفسير أن هذا ليس جديرا بأن يسمى دينا، ولو كان مضافا إليهم.

ورأى بعض المفسرين أن المراد من دينهم الإسلام؛ لأنه الدين الذي جاء إليهم، وهم مخاطبون به، ومكلفون أن يتبعوه، فهو دينهم الذي جاء به رسول منهم، وهو الذي ارتضاه لهم أن يكون دينا، وقد اتخذوا ذلك الدين لعبا ولهوا، إذ لم يفهموا ما هم عليه، ومعنى اتخذه لعبا ولهوا أنهم سخروا بمن اتبعه، وتهكموا على أهله، وأخذوا يخوضون فيه لعبا في مجالسهم، ولهوا عن الحق، يزكى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾ (٦٨) [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١٤٠) [النساء].

وإن هذا اللعب وذلك اللهو وتعايشتهم بالمؤمنين سببه هو غرورهم بالحياة الدنيا، وفهمهم لها أنها غاية الوجود ونهايته؛ ولذلك قال تعالى عاطفا على قوله تعالى: ﴿تَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. أى خدعتهم هذه الحياة، وما اتخذوه فيها من مباحج غير ملتفتين للحياة الآخرة، ولا مؤمنين بها، ولا بالبعث والنشور، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (٣٢) [الأنعام].

خدعوا بالحياة الدنيا، فكان منهم ما كان من العبث بالحقائق الدينية والسخرية بأهلها؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه - وإن ذلك فيه معنى التهديد لهم - بأن يتركهم فى غيهم حتى يفاجئوا بمآلهم، ولكن مع ذلك أمر الله تعالى نبيه

رحمة بهم، أن يذكرهم دائما رحمة لمن يهتدى، ويطلب الحق، ويشغل به نفسه، فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

الضمير في «به» قال أكثر المفسرين: أنه يعود على القرآن، والقرآن في حضور كل ذهن فكأنه مذكور يعود الضمير عليه، وأميل إلى أن الضمير الذي يعود إلى الدين الذي هم مكلفون أن يأخذوا به، ويتبعوا هديه، وإن الله تعالى مع أمره نبيه أن يتركهم فلا يلتفت إلى هزلهم وعبثهم واستهزائهم بالمؤمنين، أمره بأن يستمر في تذكيرهم بالدين تبليغا لرسالته التي أنزلت عليه، ولا يأخذنه الأذى الذي ينزلونه به وبمن معه، فذلك هو ما يصيب دعاة الحق، ولكن يجب مع الإعراض عن لعبهم ولهوهم أن يستمر في دعوته ومثله معهم كمثّل الربى الكامل الذي لا يهمه عبث تلاميذه، يعرض عنه، ولكن يستمر في هدايته لهم.

وذكر بالدين كراهة أن تبسل نفس بما كسبت، والابتسالة: معناه في اللغة الإسلام إلى الهلاك، وأن تؤخذ بسوء ما اختارت.

والمعنى الجلى لا تشغل نفسك بلهوهم وعبثهم، ولا يمنعك ذلك من أن تستمر في تذكيرهم، حتى لا يسلموا إلى الهلاك ويمنعوا من الخير، ويكون نصيبهم جهنم وبئس المصير، وإنك منذر، ولكل قوم هاد.

وإنه في هذه الحال لا منجاة لهم منها، فلا ينقذهم منها ولى يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم، إذ هي الهلاك الدائم والعذاب المستمر؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ وإذا أسلموا إلى الهلاك في جهنم لا يكون لهم من غير الله ولى يناصرهم أو يواليهم بمقتضى القرابة أو العصبية التي كانوا يتنادون بها، أو شفيع يشفع، ويترضى عنهم، وإن يقدموا ما يستطيعون من فداء لا يقبل منهم فلا ولاية ولا شفاعة ولا فدية من عذاب أليم، فالعدل: هو الفداء الذي يعادل ما ارتكبوا، ويخرجون به من النار والعذاب، ومعنى ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ﴾، وإن تقدم فداء؛ يكون عدلا، لا يؤخذ منهم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى من غيره، والتعبير بقوله «من دون» إشارة إلى أنه مهما يكن فى نظرهم فهو دون الله، والله هو العلى المسيطر على كل شىء.

وقد بين بعد ذلك هذا العقاب الذى لا مناص منه، ولا منجاة ولا خلاص، فقال تعالت قدرته: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

والإشارة إلى الذين يخوضون فى آيات الله تعالى، الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وكانوا يسخرون من الذين آمنوا وهم يذكرون بالدين الذى بعث به رسوله إليهم، وقد كانوا بفعلهم هذا ﴿أُبْسِلُوا﴾ أى أسلموا أنفسهم للهلاك والبوار، وأتوا إلى النار، ذلك بما كسبوا من عبث وكفر، وعتو، واستهانة، وعبر سبحانه بقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ للإشارة إلى أنهم قد فعلوا ذلك يريدون الكسب، فكان ذلك العذاب، فهم اشتروا العذاب والضلالة بالهدى، وهذا العذاب شديد يحيط بكل أجسامهم، النار فى بطونهم وفى جلودهم، لهم شراب من حميم أى ماء يغلى يدخل بطونهم، فيمزق أمعاءهم، وهو نار فى جوفهم، ونار تكوى جلودهم ﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ...﴾ (٥٦) [النساء]. ولهم بذلك عذاب أليم وذلك العذاب بما كانوا يكفرون أى بسبب كفرهم المستمر الذى كان يتجدد، فكانوا يحدثون كل وقت من مظاهر ما أوجب استحقاقهم لهذا الألم؛ فمرة يسخرون من النبى ﷺ ومن معه، ومرة يؤذون المستضعفين من المؤمنين، ومرة يقطعون عنهم الميرة^(١)، ويقاطعونهم وأهلهم، ومرة يؤذون النبى ﷺ، وأخرى يخوضون فى آيات الله تعالى، ويتخذون الدين الذى بعث به رسول منهم لعبا ولهوا، فهو كفر مستمر متعدد الوجوه أساسه الجحود، والآيات قائمة.

(١) الميرة، بالكسر: جلبُ الطَّعام. القاموس المحيط (مير).

وإن ذلك كله الأصل فيه ضلال استهواهم، وهو عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع، قد صنعوها بأيديهم ثم عبدوها بقلوبهم؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه بأن يقول مصورا ضلالهم، وفساد تفكيرهم في أن يعود محمد وأصحابه إلى عقيدتهم، فيقول: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

ذلك أن قريشا بذلوا ما بذلوا في سبيل حمل محمد ﷺ على أن يرجع عن دعوته، عرضوا عليه المال، وعرضوا عليه الإمرة عليهم، وعرضوا عليه كل ما يظنون أنه يرغبه في العود إليهم، كما يتصورون، ليرتاحوا في ذات أنفسهم حاسبين أن ما يدعوهم إليه يضرهم في عصبيتهم وجاهليتهم، وأنه يمنعهم عما كان عليه آبائهم.

فالله أمر نبيه أن يستنكر ما يدعونه إليه، ويبين في استنكاره بطلان ما يعتقدون، وأنه انحدار في الإنسانية، وذلك من الجدل الحكيم، والدعوة إلى الإسلام في رفق وتواضع، فيقول: ﴿أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ أى لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا يملك من أمره شيئا، ولا يملك موتا ولا حياة، وإن هذا إهمال لحكم العقل، نترك عبادة ما يضر وينفع، وهو مالك كل شيء وهو القاهر فوق عباده، وهو الذى نلجأ إليه فى شدائد البحر والبر، كيف نترك عبادته إلى ما تدعونا إليه من أوثان لا تنفع ولا تضر، وإن الله تعالى قد هدانا إليه سبحانه، وإن ما تدعونا إليه نكسة بعد تقدم، ورجعة بعد الهداية؛ ولذلك قال تعالى فيما أمر به نبيه: ﴿وَتُرَدُّ عَلَيَّ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أى أترد إلى الضلال بعد الهدى، وإلى الباطل بعد الحق، وإلى الظلمات بعد النور، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله وأن ترد على أعقابنا. العقب ما وراء القدم، أى أترجع مدبرين على أعقابنا، منكسين بعد أن أبان الله الحق واهتدينا بهديه، وامتلأت قلوبنا بوحدايته في العبادة، فلا نعبد سواه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْدَعُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ وقد فسر الرمخشري (ندعو) بنَعِدُ، وهو حسن، ويصح أن يفسر (ندعو) بكل دعاء بالعبادة وبالاستغاثة، وبالاستعانة فى النصر، وغير ذلك مما يدعون به أصنامهم. وقدم نفى النفع على نفى الضرر؛ لأن نفى النفع أجلب للترك، إذ إن من يدعو إنما يدعو لنفعه لا للضرر ولذا قدم عليه.

والاستفهام هذا إنكارى بمعنى النفى، أى لا ندعو ما لا ينفعنا ولا يضرنا، وهو نفى فيه معنى التوبيخ لمن يدعو ما لا ينفعه ولا يضره.

وقد صور الله تعالى حالهم فى دعوتهم إلى الباطل من اهتدى، ومن تنزل عليه أسباب الهداية كحال الشياطين التى تستهوى الضال بدعوتهم إلى ما لا هداية فيه؛ بجوار أن له أصحابا يدعونه إلى الطريق اللاحب^(١)، والسير فيما فيه النجاة فقال تعالى: ﴿كَأَلَدَىٰ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ امْتَنَّا﴾.

استهواه أى طلب هواه واستولى عليه بوجهه كيف شاء، كالذين يصنعون ذلك بالنوم، والاستيلاء على الحس، والشياطين هم الذين يضلون، ومن ذلك الأوهام التى تعترى من يسير فى صحراء قفراء يتلمس المرشد فى مهامه الأرض^(٢)، فيسمعه الوهم نداء يسير به فى طريق الضلال، وسماهم الله تعالى شياطين تستهوى الأنفس، فيسيرون وراء هذه الأوهام والضلال كما قال المفسرون، وفى الوقت نفسه له أصحاب يدعونه إلى الطريق المستقيم، وهو حيران متردد بين دعوة الأوهام والدعوة الحق، فهو تشبيه حال المؤمن الذى يرى الأوهام ويرى الهادى.

(١) لَحَبٌ: اللَّحْبُ: الطريق الواضح، واللاحب مثله. ويقال أيضاً: لَحَبٌ، إذا مرَّ مرَّاً مستقيماً. الصحاح للجوهري (لح).

(٢) الْمَهْمَةُ: المفارقة البعيدة الأطراف، والجمع المهام. الصحاح للجوهري.

وهذا تصوير من الله تعالى لحال من يترك الحق إلى أوهام، ويكون حيران أى مترددا بين الضلال والهدى، وبين النور والظلمة.

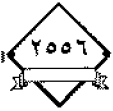
وقد أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم بعد هذا التشبيه البين المبين: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى إن هدى الله تعالى هو وحده الهدى أى لا هدى غيره، وقد بين سبحانه أن الهدى هو حق الله وحده، بالعبارة الدالة على القصر، وهى تعريف الطرفين، وضمير الفصل، الذى يدل على أنه لا هداية غير هداية الله، ومن عُدِمَ هذه الهداية فهو فى ضلال مبين.

ولقد قال تعالى فيما ترتب على أن الهداية من الله وحده: ﴿وَأَمْرُنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى أمرنا من الله تعالى الهادى إلى سواء السبيل بألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، وأن نكفر بالجبت والطاغوت، وأن نطيع الله تعالى الذى أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث، وأن نكون ربانيين وذلك لنسلم، اللام لام العاقبة أو لام كى للتعليل، ونسلم أى نخلص، ونكون لله تعالى حده، وقد أسلمنا وجهنا لله مخلصين له سبحانه.

وهنا كان البناء للمجهول لأن الأمر معلوم، وهو فى صدورنا وأطواء نفوسنا، ولم تذكر المأمورات، ولكن ذكرت نهايتها وغايتها، وهو أن نسلم لرب العالمين الذى خلقنا وربانا، ويقوم على عامة أمورنا وخاصتها، وهو الحى القيوم.

ويلاحظ أن الله تعالى أمر نبيه أن يقول أندعو ما لا ينفعنا ولا يضربنا، وكل ما كان من بعده بصيغة المتكلم ومعه غيره، وذلك لأن النبى ﷺ كما أمره ربه، كان يتكلم ومعه المؤمنون المخلصون الذين لاقوا الشدائد فى مكة حتى هاجر منهم إلى الحبشة من هاجر، وقد آذاهم المشركون يريدون ردهم على أعقابهم بعد إذ هداهم الله.

فالله تعالى أمر نبيه بأن يقول هذا القول عنه وعنهم، ليلقى اليأس فى قلوب المشركين من أن يعود أحد إلى الشرك بعد الوحداية، وإلى الكفر بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان.



وقد قال من بعد أن ذكرنا ما قرره النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

حكى النبي ﷺ أمر الله تعالى بالصيغة التي أمره الله تعالى بها، فقال: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهذا عطف على معنى (لنسلم)، أى أمرنا سبحانه بأن نسلم لله رب العالمين، وأمرنا أن نقيم الصلاة، وكان الأمر بإقامة الصلاة بصيغة قول الله تعالى، لا قول النبي ﷺ لمكانة الصلاة في الدين، فإنه لا دين من غير صلاة، فهي عموده، وهي لبه، وهي مظهره ودلالته، والوحدانية أظهر ما تكون في الصلاة فهي عبادة الله وحده لا يشرك به شيئاً فيها، إلا أن يرائي، فهذه ليست صلاة.

وطلب الله تعالى من المؤمن إقامة الصلاة بأن يأتي بها مقومة كاملة في أركانها الظاهرة، ومعانيها من خشوع وخضوع، يتحقق فيها قوله تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ...﴾ (٤٥) [العنكبوت].

وأورد سبحانه وتعالى إقامة الصلاة بالأمر بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى اجعلوا بينكم وبين الله تعالى وقاية بينكم وبين غضبه بإطاعته حق الطاعة فيما يأمر وينهى، وأن يملأ نفسه بتقواه دائماً، فيذكره في سره وعلايته، ويملاً قلبه بخشيته، ويحس بأنه يراه دائماً، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، يحس بأنه مع الله دائماً، وبذلك يتربى فيه معنى الربوبية.

وذكر تعالى ما يربى التقوى في النفس، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى وآمنوا بأنكم إليه تحشرون وهذا التعبير السامي يتضمن ثلاث حقائق يجب الإيمان بها:

الحقيقة الأولى - البعث وأن الناس يجتمعون بين يديه سبحانه وتعالى، وأن الإيمان بالبعث هو سر الإيمان وهو علو النفس الإنسانية إلى المرتبة السامية فلا يكون آكلاً شارباً فقط يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٧) [المؤمنون] بل يعلو بإنسانيته يفعل الخير، ويرجو الجزاء.

الحقيقة الثانية- أن الملك لله وحده، وأنه في هذا اليوم هو الحكم وحده، فهو مالك يوم الدين، وقد دل النص السامى على ذلك بقوله: ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بتقديم «إليه» على الفعل أى إليه وحده تحشرون، فالمصير إليه سبحانه.

الحقيقة الثالثة- الحساب والعقاب والثواب فهو نهاية الحشر فتجزى كل نفس ما كسبت.

وقد ذكر سبحانه ما يدل على البعث والنشور بكمال قدرته فقال تعالت حكيمته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى خلق سبحانه وتعالى السموات والأرض وما فيهما، بالأمر الثابت وهو الحق، أى خلقه قائما على الحق والحكمة، وأنه قدر وجود هذا الكون بحكيمته، وما خلقه ليفنى ويتتهى، بل خلقه ليبقى، ويستمر، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. بل إنكم راجعون وستبقون إما فى نعيم مقيم وإما فى عذاب خالد وقال القرطبي: معنى بالحق، أى بكلمة الحق، وهى كن، وما ذكرناه أوضح.

ثم بين سبحانه وتعالى أن بعثهم ليس شيئا عسيرا ولا بعيدا ولا غريبا، بل إن البعث يكون بكلمة هى الحق فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. أى هذا القول الثابت الذى هو حق فى ذاته، وهو كن فيكون أى أنه بقوله تعالى: كن، فإنه يكون كل شئ قد حضر فيجمع ما بعث من القبور، ويخرج الناس أشناتا، مهما يكونوا وأينما يكونوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾ [الإسراء] فيوم يقول كن فيكون يكون البعث الكامل.

وقد قال سبحانه وتعالى إن قوله هذا هو الحق الذى لا ريب فيه، وإنه آت لا محالة؛ ولذا قال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ وهو مبتدأ خبره ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أى

الظرف الذى تعلق بالخبر، ووصف سبحانه وتعالى ذلك بالحق لما أحاطه من إنكار وجحود، واستغراب وعجب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ... (٥)﴾ [الرعد]، وأن الله تعالى يذكر حال ذلك اليوم الذى يقول سبحانه وتعالى قوله الحق ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يكون الملك الثابت الدائم الذى لا يشاركه فيه أحد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ والصور كما يقول القرطبي - قرن من نور ينفخ فيه بقدرة الله تعالى فيكون الجمع مما بعث فى القبور من بعده الحساب والعقاب أو الثواب كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون].

وقد وصف الله تعالى ذاته الكريمة بما يدل على أنه يعلم كل ما يفعله الذين يبعثون، فقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى يعلم ما غيب، وما يشهد ويحضر، أى يعلم ما تسرون وما تعلنون، ويكافئ الناس على ما عملوا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر وكل امرئ بما كسب رهين.

وإن ذلك كله على مقتضى حكمته وعلمه الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض؛ ولذا ختم سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

إيمان إبراهيم بعد تفكير وتأملاته في الكون

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي
 أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ
 مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
 فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكِبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ
 لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا
 رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
 الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا
 أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
 إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

كان الكلام في الآيات السابقة في الأصنام، وأنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً، حتى تملك من أمر غيرها، ممن يدعونها واقعين تحت أوهام تضافرت وتكاثر عليها السنون حتى صارت كأنها حقائق في زعمهم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى كيف أنكرها أبو العرب الذي يعتزون بنسبهم إليه، وأنه عدها ضلالاً مبيناً، وخاطب بذلك أباه مستنكراً، ورؤية الحقائق بارزة من لسان شخص يكون أشد أثراً، وأبقى فكراً وأبعث على الاعتبار.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَأْتَنِي أَنْتَ أَخَذَ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾.

«إذ» ظرف للزمان، والمعنى اذكر لهم ما كان في الماضي من موقف أبيهم إبراهيم -عليه السلام- من الأصنام، إذ قال لأبيه الذي كان يحبه، ويؤثره، مستنكرا ما كان منه من عبادة: أنتخذ أصناما آلهة؟، وهو استفهام إنكارى للتوبيخ، ولم يمنعه مقام الأب من أن يوبخه على عظيم ما يرتكب مستنكرا فعله: أنتخذ أصناما مصنوعة صنعتها أنت وأمثالك أنتخذها آلهة تعبد، أى أنتخذ من صناعتك آلهة معبودة، إن ذلك ضلالا مبينا تصنعه الأوهام فى العقول حتى تجعل غير المعقول اعتقادا، ولذا قال لأبيه الذى كان يحبه: ﴿إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ إني أراك مع قومك ﴿فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أى بين واضح، والتعبير باسم الفاعل (مبين) للمبالغة فى وضوح الضلال أى الضلال مبين لنفسه موضح لها، إذ كيف تصنع بيدك حجرا، ثم تعبد، هذا إجمال كلامه لأبيه، ولقد فصل الله سبحانه وتعالى مقالته لأبيه، فى آية أخرى، فقال تعالى حكاية للمجاوبة التى كانت بينهما: ﴿... إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بى حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨)﴾ [مريم].

اعتزل قومه وأباه، وكان فى بلد يعبد أهله النجوم، ولهم علم بها فانصرف إلى تعرف حال النجوم التى يقدسونها، ويجاريهم فى تقديسها، حتى تبين له ولهم أنها غير جديرة بالتقديس والربوبية؛ لأنها متغيرة وتآفل وتختفى ثم تظهر، وذلك ليس شأن الإله الخالق المنشئ المبدع.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كهذا الإلهام الذى ألهمه إبراهيم صغيرا من إنكاره الأصنام، نرى إبراهيم سر الوجود نريه (ملكوت): أى ملك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى ملك الله تعالى، وأنسب أنها للمبالغة فى سر الملك، وهو دلالة على الخالق المنشئ ليعلم ويعرف، ويحكم بالحق، وقال تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، الواو للعطف على فعل مفهوم من مضمون الكلام السابق، إذ تقدير القول نرى إبراهيم سر الملك فى السموات والأرض، وما يدل عليه ليعرف الله تعالى، وليكون من الموقنين الذين يعرفون الحق، ويجزمون به من دليله، ومن المعاينة التى تكشف عما غيب، لتعرف الغيب من مظاهر الحس.

قد أخذ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو بعد لم يبلغ أشده كما تدل على ذلك الأخبار الصحاح يتعرف الإله على ما يجرى عليه علمهم، وما يقدسون، لقد كانوا يقدسون الكواكب أو يعبدونها ويسمون أصنامهم بأسمائها، أخذ يتتبع النجوم والكواكب، يتعرف خواصها فى ظهورها، وخفائها، وذلك فى الليل، لأنه وقت ظهورها، إذ ضوء الشمس يخفيها، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ مسابرة لهم فى تفكيرهم واعتقادهم، أى على حسب ما تدعون وما تعبدون، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ واختفى، وجده قد تغير من حال ظهور إلى حال اختفاء، وليس ذلك شأن الرب القائم على كل شئ؛ ولذا أثبت لهم لأول وهلة أن هذا لا يمكن أن يكون ربا وقال مسينا بغض هذه الحال، وأنه لا يعبد ما يكون على هذه الشاكلة، ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، وإذا كنت لا أحبها فلننى لا أعبدها؛ لأن العبادة محبة، وإذا فقدت المحبة فلا عبادة.

واتجه إلى كوكب آخر وهو القمر، فقال الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أى باديا فى أوله- ﴿قَالَ﴾ مسابرا لهم ومتجها فى الظاهر اتجاههم أو ظانا: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ تبين أنه لا يصلح إلها، وأراهم رأى العين أنه لا يصلح إلها ﴿قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

ولقد قال المفسرون أو الكثير منهم: إنه ما قال في واحدة هذا ربى مؤمنا بذلك أو ظنا له، وإنما قاله مسaire لهم فى اتجاههم ليبين من وراء ذلك بطلان ما يعتقدون على أساس أن تساير مجادللك فيما يعتقد، ثم تبين نتيجة قوله، وأنه ينتهى إلى غير الحق فتأخذه معك إلى الحق برضا واختيار، أو بقطع وإفحام.

وقال بعض آخر من المفسرين: إنه يتلمس الإله الذى يعبد بحق، بفطرته المستقيمة المدركة التى أدرك بها أنه لا يمكن أن يكون ما يجرى عليه الأقول إلها، فهو عندما قال: هذا ربى على النجم وقد كان يظنه ربا، فلما أفل عدل عن وصفه بالربوبية.

وهذا ما نراه؛ لأنه يتفق بعد ذلك مع قوله عندما رأى بزوغ القمر وأفوله إنه علم أنه ضال إن اعتمد على تفكيره من غير أن تلمسه نعمة الهداية من الله الذى علم مظاهر ألوهيته، وتلمسها فيما يعتقد قوم أبيه فى الكواكب والنجوم، والشمس والقمر، وقال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أقسم أنه أصبح فى حاجة إلى هداية من ربه يهتدى بها فى هذا الديجور، فاللام لام القسم، واللام الأخيرة فى جوابه، وأكد أنه يكون من الضالين الذين لا سبيل عندهم إلى الهداية إلى الحق فى الألوهية، إن لم يهده ربه الذى لا يعرفه، ويريد أن يعرفه.

وإن هذا الكلام يدل على أنه يعلم أن له ربا هو الذى أنشأه ورباه، ويقوم على حفظه وصيانته، ولكن ما هو؟ لقد تلمسه فى كوكب ساطع من الكواكب فى دُجَّة الليل البهيم كأهل بلده، فلم يجد، وتلمسه فى القمر فلم يجده، فاتجه طالبا الهداية إليه، وإن كان لم يعرفه فى النجوم.

ثم عاوده طلب المعرفة فى الشمس الساطعة التى هى ضياء الوجود، وتمده بالدفع والحرارة ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تتبع الكواكب متدرجا إلى القمر، ثم تدرج إلى الشمس التى تمد الوجود كله بالنور فى النهار، والدفع فى الليل والنهار، وتمد الأحياء من

حيوان ونبات، وأشجار بعناصر الحياة، اتجه إليها، فلم يجد فيها معنى الإله الذي لا يتغير ولا يتبدل؛ ولذا رفض شرك أولئك الذين يعبدون الكواكب، ويظنونها قادرة على كل شيء، وابتدأ من أصغرها إلى أكبرها، وقال عليه السلام: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ لا أعبد، ولا أشركه مع القادر سبحانه.

انتهت نظرات إبراهيم الناشئ. وسياق المؤرخين يدل على أنه في ذلك الإبان كان ناشئاً، ولم يكن قد بلغ أشده - اتجه إلى رفض عبادة النجوم، والأصنام التي تسمت بأسمائها، واتجه إلى خالق الكون وما فيه، ومن فيه، وأنه قد آمن بأن له موجدا لا محالة، وبطل أن يكون كوكبا أو نجما، أو قمرا أو شمسا، فلم يبق إلا أن يكون موجودا واجب الوجود، وليس واحدا مما رأى.

ولذا اتجه إليه وحده، لا على أنه قد عرف ذاته، ولكن عرف وجوده وكفاه ذلك معرفة؛ ولذا قال الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إني وجهت نفسي، وعبر عن ذلك بوجهه؛ لأن الوجه هو الذي يواجه به، ويتجه به إلى ما يتجه، ولأنه مظهر الخضوع والطاعة وبه يكون السجود، فكان الوجه له مظهر يجعله صالحا لأن يعبر به عن الجسم كله.

اتجه إلى الخالق لأنه عرفه مما خلق، والأثر يدل على المؤثر، و(فطر) معناها أنشأه وأوجده على غير مثال سبق، وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تدرك بذاتها من فطرها؛ ولذا قال تعالى في دين الحق: ﴿... فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [الروم].

وإن بعض العلماء كالظاهرية يرون أن إدراك الله تعالى يدهى يدرك بالبداهة، لا بالبرهان ذلك أن إبراهيم - عليه السلام - أدرك الله تعالى بفطرته بعد أن أبعد عنها ضلال الوثنية، ولأن أوهام الوثنية غشاء صفيق يحول بين الفطرة وإدراكها السليم.

وقد صنع الشاب إبراهيم - عليه السلام - صنيع المدرك الفاهم، فأخذ يزيل هذه الأوهام بعقله الصافي النافذ إلى الحقائق؛ أزالها عن نفسه، وأزالها عن غيره، ولكن آمن، وغيره لم يزلها من عقله الذى لصقت به، فلما زالت الأوهام اتجه فورها إلى ربه الذى أنشأ هذا الوجود، واستدل من هذا الوجود الممكن إلى وجود الله تعالى الكامل الموجود الأول والآخر والظاهر والباطن، والقادر على كل شيء سبحانه.

وقد وصف نبي الله إبراهيم بقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أى متجها ناحية الحق وحده دون غيره، فهو الحق وإن لم أره وهو الكمال وإن لم أحسه بالجراحة فقد أدركته بعقلي وقلبي، وهو ملء نفسى.

وقد ختم بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفى أن يكون من المشركين، فذكر ضمير المتكلم فى موضع النفى، وقد نفى أن يكون فى عداد المشركين الذين أشركوا النجوم مع الله أو الأصنام التى تسمت بأسمائها، وبذلك انخلع من الشرك وأهله، وصار حجة للمؤمنين على الكافرين.

بين العقل والأوهام

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ

أَتُمَكِّنُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ
وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى
قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

انتهى إبراهيم بعد أن تعرف الكواكب وأحوالها، وأن واحدا منها لا يمكن أن يكون الذي يعبد، وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر اتجه إلى خالق الكون، واعتزل الشرك، وقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...﴾ (٤٨) [مريم]. وبعد هذا أخذوا يحاجونه في أمر أصنامهم وقوتها وهددوه بأنه سيصيبه منها ضرر، وهو يقول لهم: إن كانت تكيد وتضر، فكيدوني ولا تنظروني.

والمحاجة التي أقاموها بينهم وبينه كانت محاجة بين اثنتين أحدهما اعتمد على الهداية والعقل، والثاني اعتمد على الخرافة والوهم، ولقد قال تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ والمحاجة أن تكون مناظرة، ويقدم كل واحد من المتناظرين حجته ويدلى ببرهانه، وقد عجب إبراهيم -عليه الصلاة السلام- أن يحاجوه في الله تعالى منكبين له، وقال: ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾. والاستفهام إنكارى لأنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، فهو يوبخهم ويؤيِّسهم من نتيجة المحاجة فيقول ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ أى أنه لا مطمع لكم فى أن أعود إلى عبادة الأصنام وقد هدانى الله تعالى ووفقنى لأن أدرك أنه وحده المعبود بحق، ولا معبود سواه.

وتدل الآية الكريمة على أن أوهامهم زينت لهم أن أصنامهم قادرة على إنزال الأذى فخوفوه من الأذى، وقد ذكر سبحانه وتعالى محاجتهم لإبراهيم -عليه السلام- فى مواضع من كتابه العزيز، فقد قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء].

وجاء فى محاجتهم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء].

هذه عبارات من المحاجة التى أثبت بها أنه سبحانه وتعالى هداه، ولا يصح أن يتوهموا أنه يعود إليهم بعد أن هداه الله وقد هددوه بأن تصيبه آلهتهم بأذى رجاء أن يخاف ويسكت عن أصنامهم وفحطمها، وجعلها جذاذاً إلا كبيرها. ولكنه قد اعتصم بالله تعالى، وهو يرى أنها لا تضر ولا تنفع، وهكذا نجد العقل والهدى فى صدام مع الوهم والضلال؛ ولذا قال لهم فى إدراك عقلى مستقيم:

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أى إننى لم يستول على الوهم كاستيلائه عليكم، فأخاف مما تشركون عبادته مع الله تعالى، فأنا أعلم أنها لا تضر ولا تنفع، وهى أحجار صماء، تنقل من مكان إلى مكان فكيف أخاف منها، كيف أخاف من حجر لا يسمع ولا يبصر، تصنعونها بأيديكم وتعبدون بها بأوهامكم.

وقد كان إبراهيم حريصاً فى إجابته، ويخشى أن يصيبه قدر، فيتوهمون أن ذلك من سر آلهتهم، فقطع عليهم - عليه السلام - أسباب ذلك، وقال مطمئناً إلى قضاء الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ هذا استثناء يدل على أمرين:

أولهما - تفويضه لله تعالى فى كل أموره، وأنه راض بما يقدره الله تعالى له، يتقبل ما يأتى به، وأنه وحده الذى يفعل ما يشاء.

ثانيهما - الرد عليهم فى أن أصنامهم تستطيع أن تفعل شيئاً، إنما الأمر كله لله وحده، هو الذى يصيب بالضرر إن شاء وهو الذى ينزل الخير من سحائب رضوانه إن شاء.

وأنه قادر على ذلك، وهو القادر وحده، وهو العليم بكل شىء يضع الأمور فى مواضعها، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وكل شىء على مقتضى علمه بما كان، وما سيكون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وهو تمييز محول، ومعناه: وسع علم ربي كل شىء، وفى تأخير التمييز إيهام مؤقت للتشويق، وبذلك يثبت فى النفوس علم الله تعالى فضل ثبوت.

وذكره لله تعالى بوصف «ربي» للدلالة على أنه يستشعر معنى الربوبية دائماً، فهو الذى رباه، وهو الذى يحميه ويحفظه من كل ضرر وسوء، إلا أن يكون ذلك من حكمة أرادها، وهو العليم الخبير.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للإفصاح، والمعنى إذا كان الأمر كله بيد الله تعالى وأن أحجاركم لا تنفع ولا تضر، أفلا

تذكرون الأمور، وتعرفونها على وجهها، والاستفهام هنا للتحريض على التذكر، ولقد كان حالهم مع إبراهيم، كحال قوم هود مع نبيهم فقالوا له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾ إِنَّ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ... (٥٦)﴾ [هود].

إن حال هؤلاء الذين ساروا وراء الأوهام عجب، يخوفون نبي الله تعالى من أن يصيبه سوء من أحجارهم التي لا تضر ولا تنفع كما هو مشاهد بالحس ومدرك بالعقل، ومع ذلك لا يخافون أن ينزل بهم مقت من الله تعالى الذي يملك الوجود كله، آلهتهم، وغيرها.

ولذا قال تعالى على لسان إبراهيم - عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

الاستفهام هنا للتعجب من المفارقة التي كانت منهم، وهى مفارقة عجيبة يخوفون إبراهيم من أن تصيبه آلهتهم بسوء، ومع ذلك لا يخافون هم من إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا، والعجب من ناحيتين:

أولاهما- أن أصنامهم لا تملك نفعا ولا ضرا، والله تعالى يملك كل شيء يملك النفع والضرر، والإنقاذ من أسباب الضرر.

وثانيتهما- أنهم يخوفون إبراهيم - عليه السلام - ولا سبب للتخويف ولا يخافون، وقد توافر سبب الخوف، وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قالوا: السلطان هو الحجة، وقد ورد السلطان بمعنى الحجة فى آيات من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ... (٢٣)﴾ [النجم].

و﴿مَّا﴾ دالة على الأصنام التي صنعوها، و﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ لاستغراق النفي، أى ما لم ينزل به سلطانا أى سلطان كان، والتعبير عن الحجة هنا بالسلطان، إشارة أولا إلى أنه لا دليل يسوغ عبادتها، وثانيا أنها: لا قوة لها، ولا سلطان لها، حتى تصيب بسوء أو بنعمة، إنما هي أوهامكم التي جعلت لها تلك الصفة.

وقد رتب الله تعالى على هذه الحال أن قال تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. الفاء هنا فاء الإفصاح الذي يفصح عن هذا الشرط المقدر، أى إذا كنتم تلجأون إلى من لا يضر ولا ينفع، وتحسبون أنه يمس من لا يعتقد به، وإبراهيم يلجأ إلى الله تعالى الذي يملك كل شيء، فأى الفريقين أحق بأن يكون فى أمن لا خوف أهو الذى يلجأ إلى الله القادر على كل شيء أم الذى يلجأ فى عبادته إلى أصنام لا تضر ولا تنفع؟ وعلق سبحانه وتعالى الحكم على العلم؛ لأنه لا حكم من غير علم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى إن كنتم تدركون الأمور على وجهها، ولا تسيطر عليكم الأوهام التي تضل ولا تهدى، وقال فى أداة التعليق التي تفيد الشك فى العلم، لا اليقين فيه، وإنه لا ريب الحكم واضح بين، وهم الذين يعبدون الله وحده، ولا يلجأون إلا إليه فى خوفهم.

ولذا قال تعالى فى بيان الفريق الآمن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. إذ الأمن من الخزي فى الدنيا، ومن عذاب الله تعالى فى الآخرة، يكون لفريق الإيمان، وهم الذين يؤمنون بالله تعالى ولا يخلطون إيمانهم بأى ظلم، ولا يعبدون مع الله غيره، ولا يقدمون أى شيء إلا بأمره، و«لبس» هنا معناها خلط.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ هنا فسرہ النبى ﷺ بالشرك، روى أنه لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه، فقال ﷺ: ليس الذى

تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) ﴿١﴾.

وكان الشرك ظلماً، لأنه تجاوز الحد المعقول، إذا كان الظلم تجاوز الحد، فالشرك أشد الأمور تجاوزاً للحد، وقد فسر الزمخشري الظلم بالمعصية سيرا على مذهب من أن مرتكب الكبيرة غير مؤمن، وقد نرى تفسيره من غير أن ننتهي إلى نهايته؛ لأن العصاة وإن كانوا يدخلون في أهل القبلة ليسوا في أمن من العذاب إنما يعذبون بمقدار ذنوبهم إلا أن يتغمدهم الله تعالى برحمته.

وقال بعض المفسرين: إن الظلم الذي يعد شركاً ما يلبسون به إيمانهم وهو الذي يقرره عباد الأوثان من أنهم يؤمنون بأن الله خالق السموات والأرض ولكنهم يجعلون الأوثان مع الله لأنهم يقربونهم إلى الله زلفى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) [الزمر] وإن هذا التفسير ينتهي إلى أن الشرك هو الظلم، ولكنه يبين لنا لماذا عبر الله تعالى بقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أى بشرك، فإنه يكون هذا التعبير رداً على المشركين الذين يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فإنهم يكونون مشركين في عبادتهم، ولو كانوا معتقدين أن الله وحده هو الذى خلق السموات والأرض، وأنه وحده الذى ينجى من ظلمات البر والبحر، وأنه وحده الذى يكشف الضر، وأنه وحده الذى يلجأ إليه، وإنهم مع هذا الاعتقاد مشركون أوثانهم مع الله تعالى في العبادة، ومناط الشرك هو الإشراك في العبادة، وخلوص النفس في العبادة لله وحده هو الوحدانية الحق، وقد قرر الله تعالى أن الأمن لهؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالإيمان الذى لم يخالطه ظلم أو شرك،

(١) متفق عليه رواه البخارى. ورواه أحمد. وفي آخره زيادة: «إنما هو الشرك». مسند المكثرين -

مسند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (٣٥٧٨).

بسبب هذين الوصفين كان لهم الأمن من أن يصيبهم في الدنيا سوء، وإن كان يصيبهم نصب وتعب في الحياة الدنيا، وينالون الأمن المطلق في الحياة الآخرة والتعيم المقيم فيها، ورضوان الله تعالى، وأى أمن أعلى من هذا؟
ووصفهم الله تعالى بوصف فيه راحة النفس واطمئنان البال وهو نعمة الهداية فإنها وحدها نعمة لا يحس بها إلا المهتدون.

انتهت محاجة إبراهيم لقومه الذين كانوا يعبدون الأوثان والكواكب والنجوم، وقد كانت محاجة بين حكم العقل، وحكم الأصنام، وانتهت المحاجة ببيان أن الأمن والهداية في جانب الحق، ولقد قال سبحانه وتعالى إن حجة إبراهيم هي حجة العقل، وهي الجديرة بأن تنسب إلى الله، ونسبها الله سبحانه وتعالى إليه. فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ هي الإشارة للبعيد، وهي تبتدئ من وقت أن جنَّ الليل فرأى كوكبا فظنه ربه، ثم لما أفل نفر منه، وأنكر أن يكون ربا، ولما رأى القمر بازغا ظن هذا ربه، فلما أفل أحس أنه ضال إذ يتبع النجوم والكواكب في أفلاكها ثم رأى الشمس، فبهره ضياؤها وحجمها، فظنها ربه فلما أفلت علم أن ربه ليس كوكبا، ولا نجما مهما يعظم حجمه، وأن ربه هو خالق الشمس والنجوم، والوجود كله، ثم من بعد ذلك حابه قومه فأفلج عليهم، الإشارة إلى كل هذا فكانت للبعيد، ولعظم الفكر وقوة الاستدلال مع البعد كانت الإشارة للبعيد، وأضاف الله سبحانه وتعالى الحجة إلى ذاته العلية إعلاء لمكانتها، ولصدقها، وتشريفا لمن أجراها على لسانه وقلبه، وقوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهَا﴾ أى أعطيناها له بإلهام الفطرة السليمة، والعقل الحنيف الذى لا يميل إلا للحق، ولا يتجه إلا إليه، وكانت هذه حجة قوية، أفلج^(١) بها على قومه، وقامت حجة

(١) من الفلج: الظفر، والفوز. كما في القاموس.

عليهم فيما يفعلون ويتوهمون، ويزعمون ثم يعتقدون الباطل الذي ليس فيه حق، ولا شبهة حق، إنما البهتان العظيم، والظلم العظيم للحقائق.

وإن الله تعالى اختار إبراهيم أبا الأنبياء لتقوم به الحجة؛ لأنه لم يخلق الناس في الفكر والعلم على سواء فمنهم الهادي المرشد، الذي اختاره الله تعالى ليكون رسول الحق إلى الناس، ورسوله إليهم، ومنهم الضال الذي يطلب الهداية ومنهم من أركس في الشر، وختم الله على بصيرته وسمعه وبصره، فلا يدرك حقاً، ولا يستمع لداعى الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نُّشَاءٍ﴾ الدرجات المراتب العالية في الهداية والتوفيق، وعبر سبحانه وتعالى بالمضارع «نرفع» لتجدد الرفعة المستمرة، فالوجود الإنساني يستمر الخير فيه بوجود الهداة المرشدين، والمستمعين الأخيار الذين يستمعون فيقولون سمعنا وأطعنا، ويجوار هؤلاء أولئك الذين يستمعون طيب القول، فيقولون سمعنا وعصينا، وبذلك يتفاعل الخير والشر في هذه الحياة، وسبق لبيان العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾ [البقرة].

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. إن الله الذي رباك وقام على نفسك وعلى عقلك، وهدى الأنفس فجورها وتقواها، وعلمك ما لم تكن تعلم، عليم بكل شيء، حكيم يضع كل شيء بميزان، وله فيما يشاء ويختار الحكم والعبر البالغات، تبارك الله رب العالمين.

أبو الأنبياء

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
 هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
 وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
 وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا أَفَضَّلْنَا عَلَى
 الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
 وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
 بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
 فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

بعد أن بين الله تعالى هداية إبراهيم -عليه السلام- والتفكير المستقيم الذي
 هداه إلى ربه، وأن الله رفعه بذلك الإدراك المستقيم، ليكون هاديا مرشدا، ذكر
 الله سبحانه وتعالى ذريته من النبيين الهداة المهديين من بنى إسرائيل، ومن
 العرب، وأشار سبحانه إلى من سبقه من النبيين، فذكر نوحا، وهو من قبله.

لم يستطع إبراهيم المقام في قومه بعد أن بلغ ما بلغ من الإدراك، وبعد أن
 اتسعت الهوة بينه وبينهم عندما جعل أصنامهم جذاذا وألقوه في النار، كما قال
 تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ

الْتَّمَائِلِ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ
وآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ
﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتَّبِرْ بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا
إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ
أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَلَكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ
﴿٧٠﴾ ﴿[الأنبياء].

رأى إبراهيم ذلك، وأنه لا مقام له بينهم، ولا قبل له بتحويلهم، فهاجر
واعترلهم، وأخذ يطوف في الآفاق فذهب إلى بلاد الشام، وإلى مصر، وأخذ
رسول التوحيد يثبت التوحيد في كل ركن، ولا يصاحبه إلا امرأته ومعه ابن أخيه
لوط عليهما السلام.

عوضه الله تعالى عن هذا الانفراد في هذا التطواف أن وهب له إسحاق
ويعقوب، ومن جاء من ذريتهما، وأن جعل من ذريته إسماعيل ويونس ولوطا.

وإذا كان قد عاش مفردا داعيا إلى الله تعالى بين الوثنيين في الأرض فقد
عوضه عن هذا الانفراد بأن جعل في ذريته النبوة والحكمة، وقد قال تعالى فور
اعتزاله لقومه، وهجرته عنهم: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم]. وإن هذه المهمة لم تكن فور
اعتزالهم، بل بعد أن جاهد داعيا إلى الوحداية في وسط المدينة حينما كان في



بلاد المشرق وبعد أن بلغ الكبر، فقد قال تعالى حكاية عنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) [إبراهيم].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى فيمن وهبهم له من الأنبياء خمسة عشر نبيا، وذكر نوحا من قبله؛ لأنه أبو الخليقة بعد آدم -عليه السلام- فهو الأب الثاني.

ولقد ذكر الله تعالى طائفة من أنبياء الله تعالى من ذرية إبراهيم بلغ عددها كما ذكرنا خمسة عشر نبيا، كان لكل منهم مزية خصه الله تعالى بها، وذكر رسالة نوح من قبل.

وإن الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم في هذه الآيات من ذرية إبراهيم أولا: إسحاق ويعقوب، لأن إسحاق أول أنبياء بنى إسرائيل، وهو الأب الأول لهم، ويعقوب الذى يسمى إسرائيل، وينسبون إليه، وجاء الرسل والأنبياء من بعده، وقال تعالى عنهما ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أى أعطى الله تعالى كل واحد منهما هداية قائمة بذاتها؛ لأن كل واحد كان نبيا مبعوثا، وتلك مكربة لإبراهيم أن جعل ابنه وحفيده نبين كل له هداية وبعثة.

بعد ذلك ذكر الله تعالى ذريته من غير ترتيب زمنى، ولا ترتيب فى المكانة، وتلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، ومن غير تفرقة بين أولى العزم من الرسل، وغيرهم، بل ذكرهم القرآن فيما يبدو مجموعات ظاهرة تجمع كل مجموعة منها صفة بارزة فيها.

المجموعة الأولى- بعد ذكر نوح وإسحاق ويعقوب الذين كان لكل واحد منهم هداية بعثه الله تعالى بها، وإن تلاقت الهدايات كلها؛ لأنها من الله تعالى موحد الشرائع، وهم: داود وسليمان، وأيوب ويوسف، وموسى وهارون وهذه المجموعة تمتاز بالصبر، وهو واضح فى حياة كل نبي منهم، فداود وسليمان كانا خليفتين فى الأرض، ولهما ملك شرقى وغربى، والملك العادل يحتاج إلى صبر حكيم بالامتناع عن الظلم، وهو شهوة الملوك وداؤهم، وإن الصبر على نعمة

يحتاج إلى أفق أوسع من الصبر في الشديدة، فتحرى الأحكام، وتعرف أسبابها وغاياتها يحتاج إلى عقل أريب^(١) مدرك ونفس هادية مؤمنة.

وكان داود وسليمان، من رجال الحرب الذين لقوا بأسها وشدتها، والصبر في البأس أمر واضح بين، وأيوب -عليه السلام- صبر على الضراء إذ نادى ربه رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، وقد ضرب به المثل في الصبر على الضراء لكل من يصيبه ضر، حتى لقد قالوا فى أعلى درجات الصبر، إنه صبر أيوب، فقد صبر من غير أنين ولا شكوى، مع الرحمة والمحبة لمن عاشره فى ضرائه.

ويوسف -عليه السلام- كان عبدا صابرا، صبر على كيد إخوته، وإظهارهم البغض والعداوة، ثم صبر على نعمة السلطان بعد ذلك، فاجتمع له نوعان من الصبر، صبر على البأساء والشديدة حتى إنه ليسترق، وصبر عن هوى الشيطان وكف لشهوة النفس، وإنه رأى برهان ربه فى أدق المواقف انفعالا نفسيا، وتعرض لمهاوى الشهوات، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ... (٢٤)﴾ [يوسف]. وصبر على السجن مع الإحساس بالبراءة، وصبر على كيد النساء مع الكتمان من غير إفحاش، ولا تفحش، ابتلاه الله بترغيب النساء، فتقبل السجن عن أن يكون تحت إغرائهن: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٢٣)﴾ [يوسف].

وهكذا نجد المغالبة بين الإغراء الجارف، والصبر والعزيمة، وضبط النفس من الشاب القوى الجميل، ولقد هيا الله تعالى من بعد ذلك لهذا الشاب القوى أن يجلس على عرش مصر، فيكون الصبر على العدل، وتنظيم سياسة الاقتصاد، ومداغة أهواء الناس، مع الصبر على البعد عن الأقارب، وعن أبيه الصابر الشفيق

(١) الأريب: العاقل. وَرَجُلٌ أَرِيبٌ مَنْ قَوْمِ أَرْيَاءَ. لسان العرب.

الرفيق، ثم يكون بعد ذلك الصبر الكريم عن حب الانتقام، والعفو الذى تطيب به النفوس، فيقول لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَحْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٦) [يوسف].

وموسى وهارون، وكانا من عباد الله الصابرين، صبرا على أذى فرعون لقومهما، كان يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم، وصبر موسى كليم الله الذى عاش فى بيت فرعون عدو قومه، فصبر على مجابهة أهله، حتى اجتذب بصبره وتحمله من آمن من آل فرعون، وكان على رأسهم امرأته الطيبة الطاهرة.

وصبر كليم الله تعالى على بنى إسرائيل بعد أن خرج من أرض فرعون، صبر على فساد قلوبهم، فكان يعالجه بصبر المؤمن التقي الهادئ، وصبر على كفرهم، وعاولد دعوتهم إلى الإيمان، وصبر عندما اتخذوا العجل إلها، وصبر عليهم وهم يقولون اجعل لنا إلها، كما لهم آلهة.

دعاهم إلى القتال ليدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله تعالى أن يدخلوها، فقالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.

ثم كان القتال بهؤلاء المستخذين الضعفاء فى أنفسهم، الأقوياء فى أبدانهم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، وإنسى أحسب أن صبره عليهم، كان كصبر أيوب، وإن اختلف الشكلا، والنوعان، ولكن كليهما صبر.

وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى كهذا الجزاء من الهدى لنجزي المحسنين، وحيث كان الإتقان والإحسان كان الصبر.

والمجموعة الثانية- تمتاز بالروحانية والزهادة فى الدنيا إلا ما يكون للحلال الصرف وهم زكريا ويحيى وعيسى، وإلياس، فزكريا هو الذى كان قائما على المسجد الأقصى، وهو الذى ربه مريم البتول ﴿... وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...﴾ (٣٧) [آل عمران].

ويحيى ابنه الذى كان إجابة دعوة أبيه زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً، فأجاب الله نداءه ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران].

وعيسى كانت ولادته معجزة، وكانت حياته كلها معجزة، وقد أتى بالنباتات، كان ينفخ فى الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله، وينادى الموتى فيخرجون من قبورهم بإذن الله، ويرى الأكمه والأبرص بإذن الله، وينبثهم بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم، وإلياس كان قليل الطلب للحياة وملاذها كإخوانه من أولئك ذوى الأرواح الطاهرة، وإنه حيث كانت المادة كان النزاع فى الأرض، وحيث غلبت الروحية كان الصلاح فى الأرض، وكان منع الفساد؛ ولذلك قال تعالى عقب ذكر هذه المجموعة الطاهرة التى امتلأ قلبها بنور الله والروح الزاهدة.

وقد وصفهم الله تعالى بوصف الصلاح الكامل، لأنه ذهبت عنهم كل أدراة المادية الداعية إلى النزاع فى الأرض ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، أى كل واحد من هؤلاء من الصالحين الداخلين فى جماعتهم وهم وجهاء فى الدنيا والآخرة.

المجموعة الثالثة- هى ذرية إبراهيم من العرب، وهم إسماعيل بنى الكعبة مع أبيه، وابنه البكر، والذبيح الذى فداه الله تعالى بذبح عظيم، وقد قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، واليسع ويونس، ولوط وكان ابن أخيه، فكان من ذريته بهذا الاعتبار.

وكان من صلب إسماعيل محمد ﷺ، وبهذا كان لهم فضل فوق كل فضل سبقه؛ لأنه اجتمع فى محمد ﷺ الصبر والإقدام فى موطن الإقدام، والروحانية بما لا يقل عن روحانية عيسى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى أن كل واحد من هؤلاء كان له فضل على العالمين بفضل الله تعالى، والله ذو فضل عظيم.

وهناك مجموعة رابعة من الأنبياء لم يذكرهم الله تعالى من ذرية إبراهيم، ولكنهم من ذوى قرابتهم، أو من جنس الأنبياء، وإن لم يكن لهم من قرابة إلا أخوة الأنبياء، فقد قال تعالى فيهم: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾. أى جعلنا أنبياء أخلصوا وجوههم لله من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم كإدريس -عليه السلام- وشعيب وهود، وصالح، وغيرهم، وقد اجتبتناهم أى اصطفيناهم، واخترناهم للرسالة الإلهية، وهديناهم إلى صراط مستقيم من الحق لا اعوجاج فيه، ولا التواء، والصراط الطريق كما ذكرنا من قبل، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ... (١٥٣)﴾ [الأنعام] والصراط المستقيم هو صراط الحق جل جلاله، ومن سار فيه لا يضل ولا يغوى.

وإن ما عليه أولئك النبيون من صبر فى النعماء والضراء، والقوة والضعف، والشدة والرخاء، ومن سيطرة للروح على الجسد، وجعله خادما لمطالب الحياة، والعزة التى لا ذلة فيها، والتواضع الذى لا ضعة فيه، هذه هى الهداية تؤخذ من أخلاق النبوة، هذا هدى الله تعالى؛ ولذا قال تعالى بعد قصص الأنبياء السابقين: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

الإشارة هنا للتقيد، وهو ما ذكر من إحسان الأنبياء وروحانيتهم، وما فعلوا من خير هو هدى الله تعالى المنسوب إليه؛ المطلوب من العباد من اتباع النبيين، يختار الله من عباده من يهديه، إذا سار فى طريق الخير، واتبع سواء السبيل فإنه إن اتجه إلى الله هداه الله، وإن اتجه إلى الشيطان، أكسبه الله تعالى فضلا، وفى نفسه أسباب الهداية، ولكنه طمسها بإغواء الشيطان.

وقد قال تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالجميع عبيد لله تعالى يهدى إلى الحق من كتب الله له الهداية على النحو الذى بيناه وإن هؤلاء، وصلوا إلى ما وصلوا بالوحدانية ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. «لو» كما يقول النحويون: حرف امتناع لامتناع، أى امتناع الجواب لامتناع الشرط، أى لو أشركوا، وهو ممتنع عليهم لاختيار الله، لحبطت أعمالهم وهو أيضا ممتنع لامتناع الشرط،

وحبوط الأعمال بطلانها حتى كأنها لم تكن أى يذهب ما فى الأعمال من الخير
ولسلبت منهم الهداية، فالشرك يمحو كل خير، ويذهب بكل عمل نافع، وما
يفعله المشركون من خير يكفرونه.

والشرط هنا مع امتناعه وامتناع الجواب للتحريض على الوحداية، وترك
الشرك تركاً تاماً، وبيان أنه يحبط كل عمل يظن فيه الخير، ألا ترى أنه يحبط
عمل الأنبياء، وهداهم، فكيف لا يحبط عمل من دونهم، فالنص تقييح للشرك
أياً كانت صورته، وحث لهم على فعل الخير، وحمايته بالوحداية.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى ما آتى به النبيين من فضل، فقال تعالى:
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾. الإشارة إلى الأنبياء الذين ذكر الله
تعالى بعضهم بأسمائهم، ورتب جموعهم من حيث الغالب على أوصافهم،
و(آتاهم) معناها أعطاهم.

والكتاب هو الكتاب المنزل، والمراد جنس الكتاب، وليس كتاباً معيناً كالقرآن
أو التوراة، ومعنى أوتوه أنهم أوتوا علمه، وعلموه، ونشروه وتوارثوا ما اشتمل
عليه، فيشمل الذين أوتوه من - نزل عليهم، ومن جاءوا داعين إلى ما فيه،
والتكليفات التى اشتمل عليها، كبعض الأنبياء الذين لم ينزل عليهم كتاب، ولكن
بينوا الكتاب الذى جاءوا لبيانه، كأيوب ويوسف، وسليمان، ويشمل الذين أوتوا
- من عملوا به وأقاموا دعائمه من أتباع النبيين المخلصين الذين لم يغيروا ولم
يدلوا ولم يحرفوا، ولم يبدوا قراطيس بيدونها، ويخفون كثيراً منها.

والحكم، وهو الفصل بين الحق والباطل والظلم والعدل، والصالح
والفاسد، ويدبرون الأمور على الهدى، والشرع.

والنبوّة، وهى الإنباء عن الله بخطاب منه سبحانه، وما كان خطابه سبحانه
إلا أن يكلم من وراء حجاب، أو يوحى إليه أو يرسل رسولا. وقد أفرد الله
سبحانه وتعالى النبوة بالذكر مع أن ما مضى يتضمنها، وذلك لشرفها باتصالها

بالله تعالى وللتصريح بالأنبياء الذين لم ينزل عليهم كتاب، ولبيان مكان العلم الذى أوتوه واتبعوه، وأنه عن الله العلى الحكيم، وليرتب الحكم على الكفر بها إذ كان من العرب من كفر بالنبوة، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

الإشارة إلى هؤلاء الذين أنكروا النبوة، وكان من المشركين من قريش وغيرهم من كانوا يجابهون النبى ﷺ بإنكار أصل النبوات، وأن تكون مع النبى رسالة فى قرطاس من الله سبحانه وتعالى أو يكون معه ملك، كما سيذكر الله تعالى من بعد ذلك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...﴾ [الأنعام، ٩١]، وسيجىء الكلام فى هذه الآية قريباً إن شاء الله تعالى.

كان المشركون ينكرون أصل النبوة، فالإشارة فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ هو الإشارة إلى قوم النبى ﷺ الذين أنكروا نبوته، وحاربوا رسالته، وأذوه هو والمستضعفين من المؤمنين، وصابرهم حتى كانت الهجرة وهذه السورة مكية، فتعينت الإشارة إلى من ناووا الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ شرط جوابه: ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ومعنى وكَلْنَا، عهدنا إلى قوم من بعد كفركم يحفظونها، ويصونونها، وينقلونها للأخلاف من بعدهم جيلاً بعد جيل، فيقال: وكلت فلاناً بهذا الأمر أى عهدت به إليه يقوم عليه، ويحافظ.

وهؤلاء الأقوام الذين وكل الله بهم أمر النبوة المحمدية، ليسوا كافرين بها، بل يؤمنون ويصدقون، وقدم الجار والمجرور وهو (بها) على (كافرين)، للاهتمام، والتنبيه.

وإن هذا النص، فيه تبشير للنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين بأن عهد الظلم والإيذاء سيأتى بعده عهد النصر والقوة، وفيه تبشير للنبي ﷺ بأن هذا سيتشر

بين الناس، وستخالف فيه الأقوام، ولن يكون مقصورا على العرب، بل يتجاوزهم إلى الفرس والرومان والشام ومصر، وسيعتقه الأبيض والأسود، وكل من له في الدعوة إليه فضل عظيم.

وأكد الله سبحانه وتعالى ذلك بـ (قد)، وأكد إيمان أولئك الذين سينصرونها بأنهم ليسوا بها بكافرين فنفي عنهم الكفر نفيا مؤكدا مستغرقا شاملا.

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ قُلْ لَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾
 وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ
 قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
 تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا
 أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾
 وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى الأنبياء من ذرية إبراهيم ومن قبله، وما اختص به بعضهم من الصبر وشكر النعمة، والعدالة في القوة، وبعضهم من الزهد، والروحانية، وبعضهم من الصدق في القول والوعد، بين الله تعالى أن أولئك الأنبياء نالوا هدى الله، وصبروا على أقوامهم، وأنه حق على محمد خاتم النبيين أن يقتدى بهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

الإشارة إلى ما كانوا عليه من صفات الصبر والشكر والزهد والصدق والتوحيد، ومجادة المنكر، والصبر على أذى المعاندين، فالإشارة إلى أشخاص المتصفين بهذه الصفات العليا، وهى أساس هداية الله، وأسند سبحانه وتعالى الهدى إليه تشريفاً لمعناها، وبيان أنه اختارها، واختيار الله تعالى يوجب اتباعها، والسير فى طريقها؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَقْدَهُ﴾ الهاء هى هاء السكت تكون عند الوقف على المحذوف حرف العلة منه بالجزم تعويضاً لذلك المحذوف، وينطق عند الوقف، وقال بعضهم لا ينطق بها إذا لم يقف، ولكن الحق أنه ينطق بها فى الأحوال كلها؛ لأنها مكتوبة فى المصحف الإمام، ولا يوجد فى هذا المصحف ما لا ينطق به.

والاقتداء الموافقة فى سلوك الطريق الذى سلكوه، والهدى الذى اتبعوه، والمنهج الذى نهجوه، و(الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنه إذا كان ذلك الهدى من الله فإنه يجب اتباعه، والاقتداء بهم فيه وتقديم (بهدهم) على (اقتده) للاختصاص، ومؤداه الاقتداء بهذا الهدى دون غيره، إذ إن الهدى هدى الله فلا هداية إلا هدى الله.

(هدهم) كما أشرنا التوحيد، وألا تشركوا بالله شيئاً، وما جاءوا به من شرائع أبدية لا تتغير بتغير الأزمان، وبما اتصفوا به من صفات الصبر، والشكر والروحانية، والزهد، والصدق والأخلاق الكريمة، وإن الاقتداء يوجب الدعوة إلى هذا الهدى.

وإن هذا الكلام السامى يفيد أن الأنبياء الذين تختلف مراتبهم، وخواصهم، وصفاتهم كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ (٢٥٣) [البقرة]. قد أمر النبى ﷺ بالاقتداء بهم جميعاً فى صفاتهم كلها مجتمعة، فهو يكون بهذا الاقتداء جامعاً لكل ما عندهم منهم؛ لأنه خاتم الأنبياء، ولأنه مخاطب للأجيال كلها، وأرسل للناس كافة بشيراً ونذيراً، فكان هو وشرعته صالحين لكل

الآجيال؛ لأنه وشرعه جمعا كل ما عند الأنبياء السابقين من صفات فاضلة ومراتب من التكليفات عالية.

وإذا كان ذلك مقام رسالته، فقد أوجب الله سبحانه وتعالى الدعوة إليها: لأنها الكمال البشرى، وأنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا؛ ولذا قال تعالى مخاطبا نبيه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لا أريد منكم أى أجر من مال أو جاه أو سلطان لقد ظنوا بادئ رأيهم أنه يريد مالا فعرضوا عليه مالهم، أو يريد السلطان فيسودوه عليهم، فبين الله لنبيه أن يقول لهم إن شيئا من أعراض الدنيا لا يريدوها، ولكن يريد الإصلاح والتذكير بالله واليوم الآخر ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

إن المقصود من إنزال الله تعالى القرآن على نبيه الكريم ليس مالا يأخذ، ولا سلطانا يفرضه، ولا سيادة يطلبها وإنما جاء للذكرى والموعظة والهداية للعالمين أى للعقلاء أجمعين، فهو ذكرى لهم بما فيه صلاحهم، وقيام أمرهم، ونشر العدالة، وذكرى لهم باليوم الآخر، وما فيه من حساب وعقاب، وذكرى ربهم بأن يكونوا دائما ذاكرين، أى تذكر دائم لله تعالى، وفى ذكر الله طب للقلوب من أدوائها.

وإن ذكر هؤلاء الأنبياء ونسبتهم إلى إبراهيم - عليه السلام - تذكير لعرب مكة ومن حولها بالنبوة الأولى نبوة نوح أولا، ونبوة إبراهيم أبيهم الذى ينتسبون إليه ثانيا، وتعليمهم أن الله يرسل أنبياء ورسلا، ولا يصح أن يكفروا بإرسال الله تعالى، والعرب وقت بعث النبي ﷺ كان كلامهم ينبئ عن أنهم لا يؤمنون برسالة ولا رسول، وجابهوا النبي ﷺ منكرين أصل الرسالة مستغربين لها، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ...﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الأنعام]، [الإسراء].

وأنكر اليهود أن يكون محمد رسولاً راعمين أن الرسالة فيهم.

ولذلك نزل قوله تعالى رداً على كل من أنكر أن يرسل الله بشراً رسولاً، وعلى من أنكر أن تكون الرسالة في غير بنى إسرائيل؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

قَدْرُهُ أَنْ تَعْرِفَ مقدارَه بكيِّلٍ أو وزنٍ أو قياسٍ، ولما صارت تطلق على العقلاء كانت بمعنى تقدير المعاني، والمعنى هنا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ ما علموه حق العلم، وما عظموه حق التعظيم، إذا اعتقدوا أن الله لا يبعث بشراً رسولاً؛ لأن ما خلق هذا الوجود الإنساني عبثاً، بل بعثه ليتحمل الأمانة التي حملها بمقتضى فطرته، وليكون خليفة في الأرض وما كان ليعشه، ويتركها من غير بشير ونذير، يرشده إلى الحق، وينذره لكيلا يقع في الآثام، فكان من مقتضى الحكمة الإلهية أن تكون الرسالة الإلهية ليهدي الرسول ويرشد، وينذر، ويجنب الإثم والشر ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء].

أنكر المشركون الرسالة الإلهية، وأنكر اليهود أن تكون في العرب، فرد الله تعالى كلامهم بالحجة الباهرة وأمر النبي ﷺ بأن يورد الحجة على لسان رسوله ﷺ، وكذلك كل أمر يرد الله به على باطل المعاندين يأمر رسوله أن يتولى هو الرد عليهم، بما أوحى الله تعالى به، وهذا ما يلاحظه المتبع لكتاب الله تعالى بترك الرد على باطلهم للنبي ﷺ بأمره وبيانه.

قال الله تعالى آمراً نبيه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾. أى بينا واضحاً كالنور في تكليفاته ومعانيه، ليكون مصدر الهدى للناس، يعلمون التكليفات والعقائد السليمة منه، ويرشدهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، إن أطاعوه، وأخذوا بما فيه، واهتدوا بهديه.

ولقد قال سبحانه بعد ذلك: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تَبْدُونَهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾. والقراءة المشهورة بالناء في (تجعلونه)، و(تخفون)^(١)، وهناك قراءة صحيحة متواترة، بالياء في الاثنتين.

وقد اختلف في هذه الآية أنزلت بمكة، وهو الأصح، أو نزلت بالمدينة، والخطاب فيها ابتداء لليهود الذين غيروا وبدلوا ونسوا حظا مما ذكروا به، والقراطيس هي الصحف من التوراة المكتوبة أبدوا بعضها، وأخفوا أخرى، وعلى بـ «من» أن الآية مكية، تكون قراءة الآية سائرة على مقتضاه، فيكون الاحتجاج بنزول الآية نقضا لعموم نفيهم إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء فقد نفوا مؤكدين بمن أى بأى شيء، والنفي العام ينقض بإثبات أى جزء من المنفى، والجزء الذى ذكره القرآن هو نزول التوراة، وقد كانوا يعرفونها، وإن لم يقرأوها، ويتسامعون بينهم بها، وإن لم يتداولوها؛ لأنهم قوم أميون، وكانوا يلتقون باليهود، ويعرفون أنهم أهل كتاب دونهم؛ وذلك لأن أهل مكة كانوا تجارا يذهبون إلى اليمن وإلى الشام فى متاجرهم فيمكن الاحتجاج عليهم بما عند اليهود إذ يعلمونهم، والمعنى أنه ثبت أن اليهود نزل عليهم كتاب هو فى أصله نور وهدى، وذلك ينقض قولكم ما أنزل الله على بشر من شيء، وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى التوراة بالإكبار؛ لأنه كتاب من عند الله تعالى، ذكر سبحانه وتعالى ما فعله اليهود فيها مزقوها، وجعلوها قراطيس أبدوا بعضها، وأخفوا كثيرا، وليست الكثرة بمقدار ما أخفوا، ولكن بقيمته، وكان فيما أخفوا البشرى بمحمد ﷺ الذى ينكرون؛ وإن الرسالة التى أنكرتم أصلها، وألزمتم بها - فيها خيركم، وفيها رفعكم من مرتبة الأمية إلى العلم، وفهم الحقائق الدينية؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ وعلى أن الآية مكية مع قراءة الناء، يكون على أنه بعد إثبات نزول التوراة الذى ينقض نفيهم يكون هناك التفات من الحديث عن الغائب إلى الحضور لتوبيخ اليهود على صنيعهم، فكان ثمة احتجاجان فى

(١) (يجعلونه .. يبدونها.. ويخفون)، بالياء غيا - ابن كثير، وأبو عمرو، وقرأ الباقون بالناء.

النص القرآنى احتجاجا على المشركين من أهل مكة بنقض النفى العام عندهم بنزول التوراة التى تفيد أنه كان من البشر رسول من أولى العزم من الرسل، واحتجاج على اليهود الذين غيروا وبدلوا أو احتجاج على العرب، وتوبيخ وتنديد بعمل اليهود.

هذا كله على أن الآية نزلت بمكة، أما على أنها مدنية فيكون الخطاب ابتداء لليهود الذين كانوا يجادلون النبى ﷺ فقد روى عن ابن عباس أن اليهود قالوا فى القرآن: ما أنزل الله كتابا، ويكون قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَسْتَكْبِرُونَ بِهَا وَيَخْتَفُونَ كَثِيرًا﴾، توبيخا شديدا لهم، ولوما عنيفا على تغيير فى كتابهم وإنكار الحقائق الاعتقادية التى اشتمل عليها، وعلمتم بهذا الكتاب ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، وافتريتم بأنكم أهل علم بكتاب، وجحدتم حقوق غيركم بانتمائكم إلى هذا الكتاب، وقتلتم ما علينا فى الأمين من سبيل، وإن كنتم بذلك ظالمين.

وتفسيرها على هذا واضح بين، وكونها آية مدنية فى سورة مكية لا يمنع، فإن العبرة بكون السورة مكية بالأغلب الكثير، لا بالنادر القليل، وقد قال بعض الناس: إنها نزلت مرتين مرة فى مكة وأخرى فى المدينة، وأودعت فى سورة مكية؛ لأنها نزلت فيها أول مرة، وعلى قراءة (يخفون) و(يجعلون)؛ يكون التفات عن اليهود تحقيرا لأمرهم، ومبالغة فى توبيخهم على ما حرفوا وبدلوا.

سألهم الله تعالى على لسان رسوله الأمين ﴿مَنْ أُنْزِلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ ولكن الجواب لم يجرى إلا فى آخر الآية الكريمة، وكان الجواب الكريم الذى أمر الله نبيه أن يقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أى الذى أنزله الله تعالى القادر على كل شىء الذى لا يبعد عن سلطانه شىء فى هذا الوجود، وإذا كان قد أنزل التوراة فهو منزل القرآن، قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، قل لهم ﴿اللَّهُ﴾ بإيجاز، ولا تزدهم، ليتفكروا أو يتدبروا بما فيه أمرهم إن كان فيهم عقل غير عابث، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أى اتركهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ فى القول الذى لا

يعرفون مرماه، ولا يدركون نهايته، ولا يصلون إلى مؤداه لاعيين، فقله تعالى: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ضمير درهم.

وقد ذكر الله تعالى ذلك الكتاب الذى أنكروه، فقال تعالت كلماته: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الإشارة إلى الكتاب وهو القرآن ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة، بعضها فيه معنى التعليل، وبعضها فيه تعليل بالغاية، وأولها أنه ﴿مُبَارَكٌ﴾، ومعنى البركة النماء والزيادة، وإن القرآن مبارك فى معانيه فهو يشمل كل علوم الدين والأخلاق، وفيه ذكر للكون، وفيه بيان العقيدة الإسلامية، وفيه أسماء الله الحسنى، وفيه أوصاف الله الذاتية، وثبوت الكمال المطلق لله تعالى، ونفى كل ما لا يليق بالله، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، وفيه كل أصول التكليفات الدينية، وفيه القصص الحق عن النبیین، وعن الأمم التى خالفت أنبياءها وكيف كان مصيرها، وإن معانيه وما كشفه ألفاظه تذهب فى العقول إلى مذاهب من الإدراك لا نهاية لها، وكلما أمعن القارئ فى ألفاظه وعباراته أشعت منها نورا مبينا، وذكرنا حكيمًا، حتى قال بعض الناس إن للقرآن ظاهرا وباطنا، إذ كلما أمعن فيه بالنظر، أدرك ما لم يكن من قبل، وهو يوجه الأنظار إلى علم الأكوان بإشارات لامحة، وعبارات واضحة.

ومهما نتكلم فى معانى القرآن، فلن ندرك الغاية، ولا نقاربها، وهذا يصور معنى أنه مبارك الأمر الذى فى القرآن أنه مصدق الذى بين يديه، ونجد اللفظ عاما لكل ما بين يديه من أخبار الأنبياء السابقين وأخبار أقوامهم، والعبر، والمثلات فيهم، فهو سجل النبوات، ومعجزات الرسل، وكان كذلك ليعلم بها من يعلم، ومن عنده العظة والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران] ومصدقا للكتب السابقة من التوراة والإنجيل والزبور.

كان القرآن لذلك كله ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والخطاب للنبي ﷺ، وأم القرى هي مكة؛ لأنها في البلاد العربية فإنها الأصل لها، وذلك لأن بها البيت الحرام التي يتخطف الناس من حولهم وإذا جاءوا إليها كانوا آمنين، فهي الملجأ من كل مخوف، ولأن الناس يحجون إليها، ولأنها كانت وسط التجارة في البلاد العربية، ولأن بها قريشا ذرية إبراهيم -عليه السلام- وقد قال بعض العلماء: إنها جغرافياً تعد في وسط العالم، لذلك سميت بأم القرى.

وإنذار أم القرى هو إنذار أهلها، وإطلاق المكان وإرادة أهله هذا كثير في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [١٧] [العلق] وما كانت البقع والمباني لتنذر إنما ينذر أهلها.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من مساكن سواء أكانت لأهل المدر أم كانت لأهل الوبر، بل يمتد ما حولها إلى الفرس والشام وما وراءه والرومان وغير ذلك، للدلالة على عموم الرسالة المحمدية، ولقد قال النبي ﷺ: «كان كل نبي يبعث لقومه، وبعثت للأحمر والأسود»^(١). ولقد قال تعالى في عموم رسالة النبي ﷺ بالقرآن: ﴿... وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴿٢﴾ [الفرقان].

وهكذا نجد الآيات الكثيرة الدالة على عموم الرسالة المحمدية، وهو خاتم النبيين، فلا نبي بعده، وما كان الله تعالى ليترك عباده سدى من غير نذير يرهب بسوء عاقبة الشر، ويشير يبشر بحسن العاقبة لأهل الخير.

(١) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهَوْرًا وَمَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَذْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ حَيْثُ أَذْرَكْتُهُ». رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند جابر رضى الله عنه (١٣٨٥٢). وأصله عند البخارى ومسلم بنحوه.

وإن القرآن يؤمن به من يدرك حقيقة الدين، وحقيقة الدين أن يعلم الإنسان أنه لم يخلق عبثاً، وأن الحياة الآخرة هي الحياة الباقية، وأن الدنيا سبيل لها، وأن نعيمها هو الباقي.

ولذا أخبر تعالى أن الذين يؤمنون بالآخرة هم الذين يؤمنون بالقرآن فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ذلك أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بالحق والخير؛ لأنهم يرون أن الحياة الدنيا فيها التنازع بين الخير والشر، بين النفس اللوامة، والنفس الأمارة، ولا بد أن ينتصر الخير، لأنه الفطرة، ولا يكون ذلك إلا بحياة أخرى، ولأن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بحكمة الإيجاد والتكوين، ولا يمكن أن تكون نتيجة الحياة النهائية هي تلك المغالبة وذلك التناحر، وفوق ذلك أن الإيمان بالغيب يجعل النفس مستسلمة لله تعالى راضية بما عنده، وما أعد لها من نعيم، فلهذا كان الإيمان بالآخرة والإيمان بالقرآن العظيم متلازمين لا ينفصلان، فمن آمن بالآخرة آمن بالقرآن، ومن آمن بالقرآن آمن بالبعث والنشور والقيامة واليوم الآخر.

وإن كمال وصف المؤمنين بالقرآن أن يكونوا صالحين غير مفسدين، وألا يعملوا إلا معروفاً، ولا يقع منهم منكر، وذلك بالصلاة التي هي عمود الدين لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتملأ النفس بذكر الله، ويذكر الله تطمئن القلوب، ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وتقديم الجار والمجرور لبيان أن اختصاص الصلاة بالمحافظة يؤدي إلى كل الخير، والمحافظة عليها بإقامتها مستوفية الأركان حساً ومعنى، وامتلاء النفس بخشية الله تعالى، وأدائها في أوقاتها فإنه بهذا يكمل الدين، ويتم الإيمان.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

بين الله تعالى منزلة كتابه الكريم وذكر أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد بدأ سبحانه وتعالى بذكر ظلم من يفترى عليه سبحانه، ويدعى أنه أوحى الله تعالى إليه، ولم يوح إليه شيء، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

الاستفهام في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ هو للإنكار بمعنى النفي، وفيه من التنديد بالذين يفعلون ذلك أشد التنديد، وقد ذكر سبحانه افتراءهم على الله بنفيهم إنزال الرسل، وقولهم: ﴿... مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ...﴾ (٩١) [الأنعام] والآن يبين أنهم لا يقفون موقف الإنكار، بل يبهتون ويكذبون ويفترون، وذكر سبحانه طوائف ثلاثة ترتكب في حق الله تعالى أشد الظلم لأنفسهم

بتضليلها وإيغالها في الشر وظلم الناس بنشر الباطل بينهم وتضليلهم، وظلمهم للحقائق الدينية.

أولى هذه الطوائف التي افترت على الله تعالى كذبا، أي اختلقت على الله كذبا، والافتراء هو اختلاق الكذب، وهو يتضمن معنى الكذب، ولكن صرح بالكذب، لبيان شدة افتراءهم، واختلاقهم، وكلامهم الباطل الذي ليس له أصل من الحق أو الحقيقة كعبادتهم الأوثان، وادعاء أنهم يقربونهم إليه زلفى، وكادعاء النصرى أن لله ولدا، وأنه إله، وكنهية المشركين بعض النعم على أنفسهم، وتحريم البحيرة والموصولة، وغير ذلك، وكافتراءهم على الله بأنهم أولياؤه وأحباؤه، فهؤلاء في أشد أحوال الظلمة.

الطائفة الثانية- تلك التي تدعى أنه أوحى لها، ولم يوح إليها بشيء كبعض المقربين من النصرى مثل بولس الذي كان وثنيا، وادعى بعد ذلك دخوله في دين المسيح وحوّله من وحدانية، إلى وثنية، وادّعوا أن من سموهم رسلا أوحى إليهم وتجلّى لهم روح القدس، وغير ذلك من الأوهام الباطلة، والأكاذيب التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكبعض الأعراب الذين كانت نواة الردة الذين ادّعوا أنه يوحى إليهم كما يوحى إلى محمد ﷺ.

الطائفة الثالثة- التي ادّعت أن القرآن لا يعجز، وأنها ستنزل مثل ما أنزل الله تعالى من قرآن، وقد أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال].

هؤلاء الطوائف الثلاث هم أظلم الناس؛ لأنهم كذبوا على الله تعالى، وأضلوا أنفسهم وأضلوا الناس وكان كلامهم افتراء، وإن هذا النوع الذي يبهت الناس بالباطل هو الذي نشر الأديان الباطلة والأوهام الكاذبة، وما من عقيدة باطلة تنتشر إلا بظلم هؤلاء، ومن تبعهم.

وإن هؤلاء مآلهم جهنم وبئس المصير، وقد صور الله تعالى حالهم، وأرواحهم تنتزع من أجسامهم، والأيدي تبسط إليهم بالعذاب الشديد العتيد المهيا

لهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ والغمرات الشدائد، جمع غمرة أى شدة، وأصلها الشيء الذى يغمر الأشياء فيغطيها، وإطلاقها على الشدائد من قبيل أنها مغمورة فيها لا تكاد تخرج منها؛ ولهذا قد أحاطت بها، كما يغمر الماء الغريق، فيحيط به من كل جوانبه، وغمرات الموت شدائده التى تكون عند الاحتضار أو عقبه، يحسّ فيها بغمرة شديدة عند الموت، وإذ يقبر، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار^(١)، وإنهم فى هذه الحال التى يحتضرون، وبعد موتهم؛ الملائكة تبسط أيديهم بالشدة والعذاب المهيأ لهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ تقول لهم بلسان الحال ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يقال بسط يده بالعطاء ويسط يده بالحرب، والبلاء والشدة، وذكرت فى القرآن كثيرا بمعنى الشدة، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ... (١١)﴾ [المائدة]. وقول المعتدى عليه من ولدى آدم: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدٌ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة] فمعنى قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أى بالضرب والعذاب الذى لا مناص منه، ولا يمكنهم التخلص منه ولا الخروج، والملائكة يقولون لهم بالقول أو بلسان الحال: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى أنه قد أحيط بهم فلا خلاص لهم، ويقال أخرجوا أنفسكم إن استطعتم إلى الخروج سبيلا، فهو مصيركم ونهايتكم، وما صرتم إليه، بأعمالكم المتكافئة بالشر التى حبط فيها كل خير، لأنه قد طمس على بصائرهم.

وقال بعض المفسرين: إن قوله تعالى ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ خطاب لهم حال الاحتضار كأنه يقال لهم سلموا أنفسكم لنا وقد علمتم أن هذا اليوم هو ساعة الأداء لما كسبتم وما قدمتم فتأخذوا جزاءه، وقالوا: إن هذا تشبيه لحالهم بحال المدين الذى يلزمه غريمه، فلا يستطيع الهرب منه حتى يؤدى الدين الذى عليه، ونرى أن الأول أوضح، وأبين، والنتيجة واحدة.

(١) رواه الترمذى: صفة القيامة والرقائق والورع - باب منه (٢٤٦٠) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ فيه أداة شرط وهي (لو)، وفعل شرط، والجواب غير مذكور يدل عليه التعبير بغمرات الموت، وبسط الملائكة، وحالهم من أنهم لا يستطيعون حولا ولا طولا، ويكون الجواب: لرأيت ثم رأيت هولا شديدا هو جزاءً وفاقا لما قدموا من سوء، وفعلوا من شر.

وقد ذكر الله الجزاء فقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ اليوم فيما يظهر هو ما بعد القيامة من عقاب، وعذاب الهون هو العذاب الذي يكون هوانا، وذلا، واستحقاقاً لأمرهم، وإضافة العذاب إلى الهوان إضافة تدل على أن الهوان ملازم للعذاب، فقد استكبروا على الحق، وقالوا غير الحق، فكانت العقوبة من جنس الجريمة، ولقد قال سبحانه في سبب ذلك: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. أى السبب فى العقاب أمران جمع الله فيهما الظلم كله:

أولهما- أنهم كانوا يقولون على الله غير الحق، فيشركون به، ويقولون إنه ثالث ثلاثة، ويقولون: المسيح إله، ويحلون ويحرمون بغير ما أنزل الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ تدل على استمرار قولهم، وعدم انقطاعه عنهم، وإصرار عليه؛ لأن (كنتم) تدل على الاستمرار، والمضارع يدل على تجدد القول آنا بعد آن. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ثانيهما- أن الآيات البينات الهادية من معجزات دالة، ومن دلائل أخرى فكانوا يعرضون عنها، ويستكبرون، ويظنون أن الالتفات إليها فيه هوان عليهم، وكبريائهم منعهم عن الالتفات إلى الحق، فاستكبروا وتجبروا، وخاب كل جبار عنيد وكان الاستكبار متضمنا لإعراض عن الآيات؛ ولذا عدى بـ «عن» التى تدل على التجاوز والإعراض إذ قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى كنتم تستكبرون معرضين عن آياتنا الدالة؛ ولأنها قاطعة على الحق وفيها الهداية، ولكن لا تهتدون استكبارا وإعراضا، فنالوا جزاءهم.

ولقد بين الله تعالى جزاءهم الذى أشار إليه فى الآية السابقة، بينة وقد زالت عنهم أسباب الطغيان والكبرياء. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فرادى جمع فريد كإسارى جمع أسير، أى جئتم منفردين عن النصراء الذين كنتم تعتزون بهم، فما لكم من نصراء، وذهب عنكم افتراؤكم وما كنتم تقولون نحن أعز نفرا، وذهبت عنكم أموالكم التى كانت تعزكم، وتدفعكم إلى الاستكبار والتطاول بها، وتقولون معترين نحن أكثر مالا، ذهب عنكم كل هذا وجئتم إلى الله بأنفسكم منفردين، وقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ فى موعظة له: «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً» (١) (أى غير مختونين). قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وإنكم تكونون فى هذه الحال، كالحال التى بدأ خلقكم بها ولذا قال تعالت كلماته: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى تعودون ضعفاء كما خلقكم من ضعف أول أمركم؛ إذ خلقكم ضعفاء لا تقدرון على شىء ولا تملكون شيئا، وفى النص إشارة إلى حجة البعث على الذين ينكرونه، ويستغربونه، إذ مؤداها أنه خلقكم ابتداء بقدرته، ويعيدكم بقدرته، ومن كان قادرا على الإنشاء، هو على الإعادة أقدر، وهو العزيز الحكيم.

وإن كل ما كانوا يملكونه من مال ونسب، وعبيد، ووصولة، وسلطان يكون وراء ظهورهم وقال تعالى فى ذلك: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ خولناكم أى مكناكم من أموال وأنعام، وسلطان، وراء ظهوركم، أى جئتم إلينا، وقد خلفتموه وراء ظهوركم فلا يمكن حينئذ أن تعتزوا بشىء منه، وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ تشبيه لحالهم فى أنهم لا يأخذون شيئا معهم كمن ترك ما يملك وراء ظهره، وذهب تاركا له، أو من ولى الأدبار من اللقاء فقد كانوا يغترون

(١) جزء من حديث متفق عليه، رواه بهذا اللفظ مسلم: الجنة ونعيمها وأهلها - فناء الدنيا وبيان الحشر (٢٨٦٠)، والبخارى بنحوه: أحاديث الأنبياء - (٣٣٤٩٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

بأموالهم، وأصبح لا يعرف ماله، فضلا عن أن يغتر به كما كان في الدنيا، ولم يعد المال إلا لحفظ الحياة بالقوت والكساء والصدقة، كما قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم أنه قال: «يقول ابن آدم: مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس»^(١)، تذهب عنهم كل قواهم الذاتية التي غرتهم واستكبروا بها عن آيات الله تعالى، وغرتهم في الحياة الدنيا، فاغثروا بها، وغرهم بالله الغرور.

ولقد ذكر سبحانه بعد ذلك حالهم مع ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى بغير الحق، فقال تعالى:

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

أى أنهم في اليوم الآخر حيث الحساب، ثم العقاب لا يرى معهم شفعاءهم، أى الأصنام التى زعموها، تقربهم إلى الله زلفى إذ كانوا يقولون ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ...﴾ [الزمر] أى ليكونوا شفعاء لنا يقربونا إلى الله تعالى، ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾، ولم يقل تركتموهم وراءكم ظهرها؛ لأن المال والأنصار والعصبيات كان لها وجود، أما هذه الأحجار فلا وجود لها، وليس لها لسان تنطق، فقال سبحانه وما نرى هؤلاء الشفعاء؛ لأنهم لم يكن لهم وجود في الدنيا إلا بزعمهم، فهم موجودون في أوهامهم، ولا وجود لهم في ذاتهم إلا أنهم حجارة، ولقد قال تعالى فى أوصاف هؤلاء الشفعاء فى زعمهم: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ «الذين» وصف للشفعاء وهم حجارة، وكان الموصول بعبارة «الذين» التى تكون للعقلاء إجراء على لفظ الشفعاء لا على حقيقتهم، والزعم هو الاعتقاد الباطل الذى ليس له أساس من العقل أو النقل، والزعم هو أنهم شركاء الله تعالى فيكم بالنسبة للنفع والضرر، والجزاء عقابا أو ثوابا، وقدم قوله تعالى: ﴿فِيكُمْ﴾ إشارة إلى أن الزعم

(١) سبق تخريجه.

الذى زعمتموه فيكم أنتم، وفى أوهامكم، ولا يتجاوزكم إلى غيركم ممن لم يسقط فى مزاعمه مثلكم.

وإن السبب فى أنه تعالى لا يراهم (معهم) أنه لا وجود لهم، وأن الشيطان الذى سول لهم عبادتهم يتبرأ منهم كما يتبرأ المتبوعون عن التابعين فى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴿[البقرة].

كذلك هنا كان الشفعاء الذين غابوا، ولم يروا قد انقطع ما بين هؤلاء وأولئك، لأنه كان وهما ولم يكن هناك سبب يربط بينهم، فلما انكشف الأمر يوم القيامة تقطعت الحبال الواهية التى كانت تربطهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أى تقطعت الصلة التى كانت بينكم التى خلقها وهمكم، والآن قد تكشف لكم الحق البين، وهم أنهم لا وجود لهم إلا ما كان من أوهامكم، فإذا زالت فقد الذى بينكم، ثم أكد الله تعالى هذا المعنى، فقال تعالت كلماته: ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أى غاب عنكم الزعم الذى كنتم مستمرين عليه مجددین له آنا بعد آن.

آيات الله فى الكون وتوليد الأشياء من الأشياء بقدرته

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ تَوْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى كيف اهتدى إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه مما خلق في الكون، وكيف استدل بالوجود على من أنشأ الوجود كله، وهو رب العالمين ثم ذكر سبحانه السموات، ورد على من أنكر أن يبعث الله بشرا رسولا، ذكر بعد ذلك الكون، وما فيه من توالد الأشياء بعضها من بعض بقدرته، وبعلمه وإرادته التي كان بها الخلق والتدبير فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾.

ويروى عن ابن عباس وبعض التابعين أن قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أن معناها خالق الحب والنوى، وفالق في أصل معناه بمعنى فاطر أو يلتقيان في معنى واحد، وهو الشق، فمعنى فلق أى شق، ثم كان من الشق الإيجاد، وفاطر تطلق بمعنى خالق، كقوله تعالى فاطر السموات والأرض أى خالقهما، و«الحب» هو ما ينتجه الزرع كالقمح والشعير والذرة، و«النوى» هو ما يكون في الثمار، كالتمر، والمشمش، والخواخ، وغير ذلك من الثمرات.

ووجه الإعجاب في خلق الحب والنوى هو التوجيه إلى أن هذا الحب يكون منه ذلك الزرع الأخضر، الذى تغلظ سوقه ويقوى، وإن هذا النوى يكون منه النخيل الباسق والدوحات العظام، ويكون منه ذلك الشجر المثمر المعروف، كما قال تعالى: ﴿وَايَّةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾ [يس].

وقد ضعف ابن جرير، تفسير «فالق» بمعنى خالق؛ لأنه لا يوجد (فلق) بمعنى (خلق)، ولكن الزجاج جوز ذلك، وأكثر المفسرين على أن الفلق ليس معناه الخلق إنما معناه الشق، وإن الله تعالى يشق الحب ليخرج منه نبات أخضر فذلك إشارة إلى التوالد الذى يتولاه الله تعالى، فيشق الحب فيكون منه الزرع الذى يكون منه حب..، متراكب كثير، ويخرج من الحبة الواحدة، زرع فيه حب كثير، والنوى يشق فيكون أشجار باسقة، وثمرات طيبة، ويكون من النواة، ثمر فيه نوى كثير، وثمرات ناضجة كثيرة.

وقد ذكرنا أن هذا رأى الأكثرين، وهو ينتهى إلى معنى الخلق، ولكنه خلق عن طريق التوالد الذى يتولاه الله سبحانه وتعالى فيتولد بخلق الله وتكوينه من الحب الذى يبدو جامدا - زرع أخضر، وحب متراكب، ويتولد من النواة التى تبدو كأنها جماد لا حياة فيها - شجر عليه ثمر، وفى الثمر نوى، فهو توجيه من الله تعالى إلى خلق خاص، لا مجرد خلق النواة والحب، ولكن ما يتولد عن النواة والحب من نوى وحبوب.

وإذا كانت الحياة تخرج من هذا الجامد الذى يبدو بادى الأمر أنه لا حياة فيه، فيخرج منه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾.

هذه الجملة السامية الأكثرون على أنها فى معنى التفسير لفالق الحب والنوى، ويكون قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أى يخرج من ذلك الزرع، وذلك الشجر، وهما من الأحياء من الحب والنوى اللذين هما كالجماد الذى لا حياة فيهما فى مظهرهما، وبذلك لا يقال كيف تعد الحبة ميتة، أو النواة كذلك، وهما يطويان فى أنفسهما بذرة الحياة، ولا يعدهما علماء النبات من الأموات.

وقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى أن هذا الحى، وهو الزرع والشجر، يخرج منه الذى يشبه الجماد، وإن كان فيه أصل عنصر الحياة، فقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾، معطوف فى الظاهر المتبادر على (يخرج)، وقالوا إنه يجوز عطف اسم الفاعل، على الجملة المصدرة بفعل مضارع؛ لأن اسم الفاعل فى معناه.

وقد يسأل سائل لماذا عبر بالمضارع، ثم عبر باسم الفاعل؟ ونقول فى ذلك: أن التعبير باسم الفاعل يدل على تصوير الفعل، وهو الحياة، وتجدها آنا بعد آن، فيبتدئ بنبت، ثم يخضر ثم يكون له سوق، فهو يصور تدرج الحياة فيه بحكمة الله تعالى، وكذلك فى النواة فالحياة فيها تبتدئ مما يشبه النبت، ثم تكون عودا فشجرة، أما الحبة أو النواة التى تحيى من الزرع أو الشجرة، فإنها تكون نهاية التجديد، وتظهر دفعة واحدة؛ ولذا كان التعبير باسم الفاعل.

وختم الله تعالى الآية التى موضوعها فى التكوين بالتوليد، بقوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنْتِ تُؤَفِّكُونَ﴾ الإشارة إلى ما ذكره سبحانه من فلق الحب والنوى، وتوليد الحياة منهما، وإن كانت مطوية فيهما، وكانت الإشارة للبعيد لعلو المنزلة السامية لذات الله ذى الجلال والإكرام.

وكانت الإشارة بخطاب الجمع إذ قال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ وذلك لأن ثمة خطابا للناس الذين أشركوا بالله تعالى، والفاء فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ لترتيب ما قبلها على ما بعدها، فهى لتعريف الذات العلية بأنها التى فلق الحب والنوى، وأنها تحمى الموتى، فترتب على ذلك استنكار موقف المشركين، وتعريف الذات العلية، وقال تعالى: ﴿فَأَنْتِ تُؤَفِّكُونَ﴾ فالفاء للإفصاح عن شرط مقدر مطوى فى إذا كانت الذات العلية هى التى خلقت، وتحمى وتميت، فكيف تؤفكون، أى تصرفون عن عبادته وحده سبحانه وتعالى إلى الشرك: وتؤفك، وتأفك وأفك بمعنى صرف، وأحسب إنها صرف فيه إفك وكذب على الله، فالمعنى كيف تصرفون كاذبين على الله تعالى، مفترين عليه بعبادة غيره، سبحانه وتعالى عما تشركون.

وإن الله تعالى خلق الأرض وأحيائها بالنبات والشجر وغذاها بالماء، وقد أظلمها بالسماء، وإذا كان قد فلق الحب، فأخرج منه النبات، والنوى فأخرج منه الثمر، فقد فلق السحاب، فانشق؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح هو شروق الفجر، وذلك بأن يشق الخط الأبيض ظلام الليل.

والذين قالوا: إن معنى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ خالقهما، قالوا هنا أيضا إن معنى ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أى خالق الإصباح بعد إظلام الليل، والذين قالوا، وهم الأكثرون: إن معنى فلق شق، وإن معنى ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ شق الظلمة، بخيط الفجر الأبيض الذى يتسع شيئا فشيئا حتى يعم النور الوجود، فكان النهار المضىء الذى يكون فيه العمل والسعى فى الحياة، وطلب الرزق، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝﴾ [النبأ].

وإن الإصباح كما ترى هو دخول النهار، أو إيذان بدخوله؛ ولذا عطف عليه الليل، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أى تسكن فيه النفوس والأجسام بعد طول النصب واللغوب؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]. فالليل تسكن فيه النفوس وتقر، ويرجع المرء إلى أهله وولده، وهى مسكنه، ومطمأنه، وفى النهار يتغى الرزق فى الأرض، وإن الليل فى أحواله طولا وقصرا، والنهار كذلك طولا وقصرا يتبعان الشمس والقمر، كما يتبعان فى أصل وجودهما الشمس؛ ولذلك قال تعالى بعد الليل والنهار ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ عطف على ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ و﴿حُسْبَانًا﴾، لحساب الأيام والسنين والأشهر، فبالشمس تعرف الأيام، ونعرف ساعاتها، فإن شروقها وغروبها يحدد عدد ساعات الليل والنهار ودرجاتهما، واختلاف أقاليم الأرض فيها طولا وقصرا حتى يقل النهار فى بعض الأرض ويكون الأكثر ليلا، ويتناسب الليل والنهار فى بعض الأرض، وبالشمس تعرف مناطق الأرض على حسب تسلط نورها وأشعتها على الأرض، وتكون الفصول الأربعة من صيف وخريف وشتاء وربيع.

والقمر تقدر به الأشهر القمرية بالأهلة، وتعرف أيامها بحال الهلال؛ ولذا قال تعالى فيما تلونا من قبل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابَ...﴾ [يونس: ٥]. وقوله تعالى: ﴿... بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] أى بحساب دقيق لا يتخلف عن موافقته فى كل بقعة فى الأرض على حالها، لا يتقدم ميقاتها ولا تتأخر حتى ينفخ فى الصور، فيصعق من فى السموات.

والفرق بين الحساب والحسبان، أن الحساب مقدر بعد وقوع ما يحسب وما يعد، أما الحسبان فإنه يحسب ويقدر قبل الوقوع.

ويلاحظ أنه إن ذكر التوالد فى النبات والإحياء والإماتة ذكر الشمس والقمر، لأثرهما فى إنبات النبات ووجود الأشجار، وحياة الأحياء، فالشمس

توجد الحرارة التي تمد الأحياء بالنماء والدفع، ومن الحرارة إيجاباً وسلباً يكون المطر، ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أى وهو القادر الغالب صاحب السلطان المطلق والملك التام فى هذا الكون، وهو العليم بما يكون فيه، وما يجرى وما يدبر.

وقد ابتدأ سبحانه ببيان سلطانه سبحانه فى الأرض، وما يتوالد فيها من أحياء، ثم ذكر ما يؤثر فيها وفى أهلها فى الليل والنهار وما جعل من الشمس والقمر بحسبان، بعد ذلك ذكر السماء، وما يكون فيها، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

خلق الله تعالى النجوم فى السماء، وهى ذات أبراج كمطالع الشمس والنجوم، ولكل نجم مدار خاص به، يظهر فى إبانته، واتجاهه يهذى السائرين فى البر، فيهتدون به، ويعرفون به أهم متجهون إلى الشرق أم إلى الغرب وهل هم متجهون إلى الشمال أم إلى الجنوب، فيهتدون فى الحيرة، ويصح أن يراد بها فى ظلمات البر بالاهتداء بها فى حيرة البر، وظلمات البحر بالاهتداء بها فى ظلمات البحر.

ويصح أن يراد بذلك ظلمات الليل فى البر والبحر، فإن الناس فى نهارهم يهتدون بالشمس فى شروقها وغروبها ومن ذلك يعرفون الاتجاه إلى الجنوب أو الشمال، أما فى ظلمات الليل فالنجوم ليس بكونها منيرة، إنما بمسارها فى اتجاهها.

هذه إحدى فوائد النجوم، أما المزايا الأخرى فأهمها أنها والأرض دلالة على منظم حكيم مبدع فقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴿[ق].

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى بينا الآيات مفصلة واضحة لقوم يعلمون ويعرفون حقائق هذا الوجود ويعلمون مصالحهم.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
 قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
 خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا
 قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
 وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى خلق النبات من الحَبَّات، والشجر من النواة - بين خلق الإنسان فى الأرحام فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

اتجه المفسرون إلى اتجاهات فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فمنهم من نظر إلى أن قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ تتجه إلى أصل التكوين الإنسانى فى أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، فقال: معنى مستقر أى مكان استقرار وهو رحم الأم، ومستودع، أى مكان الودعة الإلهية فى أصلاب الآباء، فهو بيان لأدوار النطفة حتى تخرج من المستودع الذى أودعه الله تعالى فيها، وهو الأصلاب إلى المقر الذى أقرها الله فيها لتنمو فتكون نطفة فى قرار مكين، ثم تكون النطفة علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاما، فيكسو العظام لحما، ثم

يصير بشرا سويا، فتبارك الله أحسن الخالقين، والنفس الواحدة هي نفس آدم أبى البشر.

وكما أشار سبحانه إلى فلق الحبة فتكون خضرة، وفلق النواة فتكون نخلا باسقا، وأشار هنا إلى خلق الإنسان حتى يصير إنسانا مكتملا.

واقجه آخرون إلى الاستقرار فى الحياة، والاستيداع فى النهاية إلى باطن الأرض، فالمستقر هو الدنيا والوجود فى هذه الأرض، والمستودع القبر، الذى يودع فيه حتى يكون البعث والنشور، وذلك كقوله: ﴿... وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ...﴾ [البقرة] والأكثرون من الصحابة والتابعين على الاتجاه الأول، وهو أوضح، وأقرب تبادراً للذهن، وإنى أرى أنه لا مانع من أن تكون فى الاثنين، واللفظ يحتملهما، ويكون فى الأول بما يشبه العبارة وفى الثانى بما يشبه الإشارة، فالعبارة سقت لأصل التكوين، كما سبق أمر الحبة والنواة، وما جاء بعدها لذلك، ودلت بالإشارة على أنه استقرار إلى أمد، وبعده الاستيداع فى القبر، حتى يوم البعث، فتأتى كل نفس بما كسبت، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أى ينفذون إلى أسرار الوجود من وراء مظاهره؛ لأن فقه ليس المراد بها مجرد العلم، إنما المراد بها العلم الذى يشق المظهر ليصل إلى سر ما وراءه، وقد علل الزمخشري أنه ختم الآية التى تدل على الاهتداء بالنجوم بقوله تعالى: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام]، وهنا ختم بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ بأن الاهتداء حسى يرى فهو آية بينة محسوسة لا تحتاج إلى النظر، والانضاع والاهتداء، وأما الثانية، فإن الآيات فيها سر الوجود الإنسانى الذى يتدرج فيه الحى من نطفة تحيى من الأصلاب، وتودع فى الأرحام حتى تكون بشرا سويا.

وليس الفقه هو الفهم المجرد، إنما الفقه هو شق الحقائق حتى يصل إلى لبها وغايتها، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾
[التوبة].

وبعض الكتاب قال: إن العلم أعلى درجة من الفقه؛ لأن الفقه مطلق الفهم، والعلم هو المعرفة عن دليل قاطع يؤدي إلى اليقين، ونحن إلى قول الزمخشري نميل، ونرى أنه هو الذي يتفق مع (فقه)، ومن غير الزمخشري أكثر إدراكا منه.

بعد أن بين الله تعالى كون الإنسان، وتدرجه في الخلق من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وتدرجه فيها إلى أن صار إنسانا في أحسن تقويم، ذكر سبحانه وتعالى نعمة الماء في هذا الوجود، وما يخرج به في الأرض من حبوب وثمار تتشابه في شكلها، ولا تتشابه في طعمها، فهي متشابهة وغير متشابهة، فقال تعالى كلامه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أخبر الله عن ذاته العلية أنه هو الذي أنزل من السماء ماء، فهو وحده الذي أنزل من السماء الماء فلم ينزل إلا بقدرته؛ وهو وحده الذي يثير السحاب حاملة المطر الذي ينزل ماء على الأرض، فنزوله من السماء، هو نزوله من السحاب؛ لأن السماء ما تعلو فوق الأرض، وسماها الله تعالى سماء؛ لأنها تغطي الناس بالغمام الذي يتكاثف فيصير ماء يهطل على الأرض مطرا، ولقد التفت البيان القرآني السامي من الغيبة إلى التكلم، فقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أضاف الإخراج إلى ذاته العلية بصيغة المتكلم لبيان عظيم فضله، وأن إخراج النبات والنخيل والأعنان، والزيتون والرمان، وغيرها من أنواع الثمر والمطعومات بإرادته، وتخيرته وتشكيله لها سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: «به» أي منه، وبه وعن طريقه ولقد قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ...﴾ (٢١).
[الأنبياء].

وإن النص الكريم يفيد أن الله تعالى أنزل الماء وهو في ذاته نعمة، لأن منه حياة الأحياء من نبات وحيوان وإنسان كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ

(٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ [الواقعة] والنعمة الثانية أنه أخرج الله تعالى به نبات كل شيء أى كل صنف من أصناف النبات من قمح، وشعير، وذرة، وأرز، وسمس، وغير ذلك من أنواع الحبوب والبقول، وغيرها وهو منوع مختلف وإن اتحدت الأرض واتحد السقى؛ ولذا قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ...﴾ (٤) [الرعد].

ولقد فصل الله تعالى أدوار الإنبات فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، أى يخرج الله تعالى خضرا، أى أخضر، غضا طريا ذا شعب، ومن هذا الأخضر الغض يخرج بعظيم قدرته حبا جامدا متراكبا أى يركب بعضه بعضا فى نظام رتيب متسق بقدرته تعالى كالسنبلة فى القمح والأرز، والكوز فى الذرة، وغيرها من الأنواع المختلفة، كيف تبدأ خضرا مزهرة فإذا نضجت وصارت حطاما أو قريبا من ذلك أتت بنبات نافع يكون مطعوما يغذى الأبدان، وهنا نجد عجيب قدرة الله تعالى فلقت الحبة الصلبة، وجعلت منها عودا أخضر غضا، ثم جعلت من هذا العود الأخضر وقد صار ثمارا حوى حبا متراكبا صلبا.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى بذكر النبات؛ لأنه يكون منه الغذاء والكساء من العرى، كالقطن، والكتان، والتيل، وغيرها مما يكون اللباس والكساء للناس.

وبعد ذلك بين سبحانه الثمرات التى تكون من النوى، وابتدأ منها بالنخيل؛ لأنه يجىء منه التمر، وهو إن كان فاكهة هو أيضا غذاء، وقد كان غذاء عند العرب يشبه أن يكون رئيسيا.

فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِمَّنْ طَلَعَهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ طلع النخل هو أول ما يبدو من ثمر النخل فيبدو فيه شق، فإذا شق كان العزق، وهذا العزق هو القنوان، وهو الذى بعد التمر يكون عرجونا، وتكون الشماريخ.

وفى هذا بيان نعم الله تعالى فى التمر، وهو عطف على الكلام السابق عطف جملة على جملة، ولم يقل سبحانه وتعالى، وأخرجنا النخل، وإن كان قد

أخرجه فعلا من النوى، ولكنه صار كالأرض يخرج منه مثل ما تخرج الأرض من نبات، وقد قدر إخراج الله لهذا القنو من الطلع، كإخراج النبات من الأرض، فأخراج القنو كإخراج النبات من الأرض بقدرة الله تعالى، و«قنوان» جمع قنو، و«دانية» أى قريبة تتناولها الأيدي، وقد ذكر الدانية لأن نعمتها أقرب، ولأنه يظهر أن النخل القصير يكون طيب الجنى، ويظهر أن هذا النوع هو النخل الذى أكرم الله به السيدة البتول مريم عندما ولدت المسيح قال تعالى: ﴿وَهَـؤُلَـئِـكَ بِجِـذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ٢٥﴾ [مريم].

وقد ذكر الله تعالى النخل والتمر عقب الحب؛ لأن التمر كما ذكرنا يكون غذاء، وكما يقول علماء النبات إنه غذاء كامل.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك الأعناب، والزيتون والرمان فقال تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ٢٦﴾.

وقوله «جنت» معطوفة على «نبات كل شيء» أى أخرجنا جنت من أعناب، وأعناب جمع عنب، والجنت جمع جنة، وهى الأرض ذات الأشجار الملتفة المتكاثفة التى تحن الأرض وتظلها، وعبر عن الأعناب بالجنت؛ لأنه إذا نما وترعرع، وأقيمت له العرائش كان جنة ساترة للأرض وحديقة غناء، تظهر خضراؤها، وتجن أرضها، وذكر الأعناب بعد النخيل؛ لأنه كان كثيرا فى أرض العرب، ولأنه فاكهة كانت أطيب الفواكه عندهم، ولأنه غذاء ودواء من عجمة وهو نواه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الزيتون والرمان، معطوفين على (نبات كل شيء) والتقدير فى كل هذا أخرجنا بالإسناد إلى الذات العلية، لبيان قدرته العظيمة وإرادته الحكيمة، وآلائه على العرب وغيرهم.

وكان النخيل وطلعه بمقتضى السياق يكون معطوفا على (أخرجنا)، ولكن الاختصاص عندهم بالأهمية، ولأنه أكبر الأشجار المثمرة وأعلاها، فكان موجب الاختصاص أن يتغير الإعراب.

وقال تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

المشتبه والمتشابه بمعنى متقارب كمستوي ومتساوي، وهنا في تفسير مشتبه وغير متشابه اتجاهاً في الفهم:

أحدهما - أن ثمار الزيتون قد يكون متشابهاً في الحجم والطعم، وقد يكون غير متشابه، وذلك دليل على أن الأمر باختيار الله تعالى جعل هذا متغيراً فقد يخلق التمر متشابهاً في حجمه وطعمه، وقد يخرج غير متشابه في ذلك؛ وكل بإرادة الله تعالى.

واتجاه آخر - وهو أن تشابه الثمرتان في أنهما من شجرة واحدة، ولكن لا تشابهان في الطعم أو اللون والرائحة كما ترى في ثمر الرمان، فقد تكون رمانتان من شجرة واحدة، ولكنهما مختلفتان في الحجم، وطعم الثمر ولونه، ويقول بعض العلماء: إن شجر الزيتون والرمان تشابه فيهما الأوراق، ويختلف ما ينتجانه والحق أن الوجهين الأولين يمكن الجمع بينهما بأن يكون التشابه في العدد والحجم، وألا يكون تشابه قط، وقد قال تعالى: ﴿نَظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

«الينع» النضج، والمعنى انظروا نظرة اعتبار واستبصار إذا أثمر كيف يبتدئ الثمر خيوطاً رفيعة، ثم تغلظ شيئاً فشيئاً نامية متدرجة في نموه، حتى تصل إلى حال النضج، فإنه يكون متغير الأحوال كما يبتدئ الجنين نطفة، ثم علقه ثم مضغة حتى يصير خلقاً سوياً، كذلك انظر إلى الثمر، كيف يسير في نموه حتى يصير ناضجاً طيباً.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإشارة إلى ما تقدم من إنزال الماء من السماء، وإخراج نبات كل شيء منه، والنخيل وطلعه من قنواته، وتدرجه من حال إلى حال، والأعنان والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه، الإشارة إلى هذا كله وما فيه من عجائب أن فيه آيات بينات على قدرة الله تعالى في تكوين الأثمار وتوالدها، وإذا كان الله تعالى

متصرفا في الوجود ذلك التصرف فهو الذي خلقكم، وهو قادر على إعادتكم كما بدأكم أول مرة، وقال تعالى: ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن أهل الإيمان هم الذين يدركون حكمة الله تعالى فيما خلق، وهم الذين يذعنون للحقائق إذا بدت آياتها.

وخاطب بالإشارة بالجمع بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ﴾ للتنبيه وتوجيه أنظار الجمع إلى ما في هذا الخلق أو التكوين من عبر، تعالى الله العلي القدير.

الوثنية وادعاء البنية لله

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى آياته في خلق الأشياء وتوالده وإثبات قدرته القاهرة، وإرادته العلية، وأنها تقتضي الإيمان بالله تعالى منشئ هذا الكون وما فيه ومن فيه، وأنه الحي القيوم القائم عليه يمسكه، ويمسك السموات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا لا يمسكهما أحد من بعده.

مع هذه البينات ظهر أولئك الذين يشركون بالله تعالى وذكر سبحانه وتعالى أنهم يشركون الجن، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ﴾ أى أن الشركاء هم الجن، أى أنهم عبدوا الجن بجوار عبادة الله تعالى، وقد يسأل سائل إن المشركين قد عبدوا الأصنام، ولم يعبدوا الجن، فكيف يقال إن الشركاء لله الجن، وقد قال فى محكم آياته أنهم اتخذوا الأنداد، والأنداد التى حسبوها أندادا لله هى الأصنام.

وقد اتجه المفسرون فى إجابة هذا السؤال اتجاهين: أولهما - أن الشياطين، وهم من أتباع إبليس وهو رأس الجن هم الذين سولوا لهم عبادة الأوثان، وزينوها لهم، وقد جاءت بذلك النصوص القرآنية الكثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) ﴿[يس]. ويقول الله تعالى على لسان الملائكة: ﴿... سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿[سبا]. ويقول تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَتَّخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا مَرْنَتْهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَتْهُمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) ﴿[النساء].

وإنه ما من شرك إلا والشيطان وراءه، والشيطان من الجن؛ إذ هو تابع لإبليس، وهو من الجن، كما قال تعالى: ﴿... إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...﴾ (٥٠) ﴿[الكهف]. هذا هو قول الأكثرين.

الاتجاه الثانى - روى عن ابن عباس والكلبي أنهما قالوا: إن الذين كانوا يعبدون الجن هم الثنوية من المجوس الذين كانوا يقولون إن الوجود يحكمه إلهان إله الخير، واسمه يزدان وإله الشر واسمه أهرمن.

ولقد قال ابن عباس: إن موضوع الآية الزنادقة، وقد رجح فخر الدين الرازى ذلك الرأى، ولترك الكلمة له، فقد قال: (هذا مذهب المجوس، وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لأن المجوس يلقبون بالزنادقة؛ لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله سُمى بالزند والمنسوب إليه يسمى زندى، ثم عرب فقبل زنديق، ثم جمع فقبل زنادقة، واعلم أن المجوس قالوا: كل ما فى هذا العالم من الخيرات، فهو من يزدان، وكل ما فيه من الشرور فهو من أهرمن؛ وأهرمن، هو إبليس بلغة القرآن، والقرآن قال إنه من الجن، فمن قال بهذا المذهب، فهو يعتبر إبليس وذريته من الجن شركاء لله تعالى فى معنى الألوهية، وبذلك تتحقق شركة الجن).

وفى الحق: إن الآية تشمل بعمومها عباد الأوثان والزنادقة؛ لأن كليهما عبدا الشيطان، وإبراهيم - عليه السلام - عندما نهى أباه عن عبادة الأوثان قال له: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم].

وعلى ذلك يكون المشركون والمجوس قد أشركوا الجن فى عبادة الله تعالى، سواء أكان ذلك بأن سولوا لهم عبادة الأحجار، فتكون عبادة الأحجار عبادة للجن، أم عبدوا الجن مباشرة كالثنوية.

ولقد قال تعالى بعد أن ذكر هذه الشركة الوثنية قال تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أى أن الله تعالى خلقهم، فهم مخلوقون، حادثون ولا يصلحون أن يكونوا معبودين؛ لأن المعبود بحق هو القديم الذى لا أول له، والباقى الذى لا آخر له، ولأنه ليس من العقل فى شئ أن يشترك الخالق مع المخلوق.

ثم ذكر سبحانه وتعالى افتراءات المشركين ومن لف لفهم، فقال تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ نَيْنٍ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وخرقوا معناها اختلقوا القول، وافتعلوا، كان الرجل إذا كذب فى النادى، قالوا خرق ورب الكعبة أى اختلق، فالمعنى: اختلقوا أن يكون لله بنون أو بنات، ومن الناس من قال الملائكة بنات الله، وقد تردد ذلك على السنة المشركين وعلى السنة اليهود.

ومن الذين خرقوا القول بأن لله تعالى بنين - الهنود والبوذيون، وأخذ عنهم النصارى بنوة عيسى، واليهود قالوا عزيز ابن الله، فادعاء البنوة لله تعالى قد أخذ به اليهود، ثم سار وراءهم اليهود والنصارى، وكل من افترى على الله تعالى ذلك الافتراء.

ولقد قال تعالى إن ذلك قول ليس له أصل قام عليه، ولكنه جهالة، فقال تعالت كلماته: ﴿بَغْيَرٍ عَلِمَ﴾ أى أنه ادعاء ليس له أساس، من أين أتوه. بل عن أوهام توهموها، وجهل مبين بمعانى الألوهية، ويدل على فساد فكر وضلال فهم، واستهواء نفس ممن سيطر على نفوسهم. والله تعالى منزّه عن ذلك.

وختم الله تعالى الآية بما يدل على التنزيه، وعلو المقام الإلهى عن ذلك فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وهى مصدر يدل على التسبيح وتنزيه الله العلى الكريم عن ذلك ﴿وَتَعَالَى﴾ أى تسمى سبحانه وتعالى عما يشركون.

ولقد بين سبحانه وتعالى استحالة أن يكون له ولد، فقال تباركت آياته: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾.

وكلمة (بديع) فعيل بمعنى اسم الفاعل، أى مبدع السموات والأرض، وهى تقتضى معنيين: أحدهما- أنه أنشأها على غير مثال سبق، والثانى- أنه لم يكن قبلها شئ يحتذى، فقد أنشأها من العدم إنشاء، فهو خالقها، قبل أن لم تكن ومن كان منشئاً لهذا الوجود بإرادة مطلقة لا يمكن أن يكون وجود الأشياء لديه بنظام الأسباب والمسببات، فلم تكن الأشياء كإيجاد العلة للمعلول، بل هو إنشاء الموجد للموجود.

وإن من كانت هذه الحال حاله لا يمكن أن يكون له ولد.

وقد بين الله سبحانه وتعالى استحالة ذلك من وجهة الأسباب العادية التى تقتضى أن يكون الوالد له امرأة تلد منه؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾.

«أنى» من أين يكون له ولد، أو كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، أى امرأة يعقب منها الولد، كما تزين ذلك عقولكم الواهمة، ونفوسكم المطوقة بأفة الوهم والضلال، إنه ثبت أن الله واحد أحد لا شريك له، فى السموات والأرض، فكيف يقولون ذلك الوهم، لقد ضل الذين قالوه أولا كالبراهمة، وضل الذين قالوه من بعدهم متبعين لهم، وضل الذين يتبعونهم اليوم.

لقد قال النصارى الذين أخذوا من البراهمة والبوذية: إن مريم البتول ولدت عيسى، وأقروا بأنها ولدت بعد أن حملت به تسعة أشهر، وجاءها المخاض، كما يجىء كل امرأة تلد، وأجأها إلى جذع النخلة، وولدت ووضعت فى مزود، ثم عاش كما يعيش الناس، ثم ادعوا له بنوة لله تعالى ثم ألوهية زعموها فمن أين أتت إليه الألوهية وقد عاش بشرا سويا، يأكل كما يأكل الناس؟.

لقد زعموا لفرط وهمهم أن مريم البتول- عليها السلام- ولدت الإنسان والإله، وزعم بعضهم مخفقا فساد القول الأول أنه ولد إنسانا، ثم فاضت عليه الألوهية والبنوة معا، ﴿... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥٠﴾ [الكهف].

ولقد قال الله تعالى مؤكدا نفى البنوة عن ذاته العلية: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى خالق كل شيء فهو غير محتاج لأحد؛ لأنه خالق الوجود كله، والبنوة ثمرة الاحتياج لتكون امتدادا للوالد، والله تعالى الخالق للوجود كله فكيف يحتاج لولده، ولكنها الأوهام المسيطرة، وكل عقيدة تشتمل على أن شخصا له بنوة أو ألوهية عقيدة أساسها الوهم الباطل، وأصحابها يعيشون فى أوهام، وشيوعها دليل على فسادهم وفساد من يتبعونهم.

وقد قال تعالى مؤكدا معنى خلقه وقدرته بسعة علمه وإحاطته بكل شيء علما، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فالخلق والتكوين هو بمقتضى العلم والحكمة والإرادة.

ولقد أكد سبحانه وتعالى حقيقة ربوبيته، وألوهيته بقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ الإشارة في «ذلكم»، إلى ما ذكر من خلق الحب والنوى وإنشاء النبات والأشجار والأنفس، والتوالد، والنزاهة المطلقة عن الشريك والولد، وانفراده سبحانه وتعالى بالخلق والتكوين والقيام لكل شيء والعلم بكل شيء وهذه أوصاف الوجدانية، وإذا كان واحداً في ذاته العلية، وواحداً في إنشائه للكون، فهو الجدير بالعبادة وحده وكل عبادة لغيره تكون باطلة بطلاناً مطلقاً؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أى ذلك المعبود بحق وحده، وهو ذو الجلال والإكرام، والإشارة بالخطاب للجميع (ذلكم) للإشارة إلى التكليف العام بعبادة الله تعالى وحده، وقد ذكر سبب الألوهية الكاملة، فقرنها بوصفين يزكيان معنى الألوهية: أولهما- الربوبية الكاملة؛ الذى يربى الناس والأشياء، يربها ويرعاها ويحفظها، الوصف الثانى- أنه خالق كل شيء، ولا شيء فى الوجود إلا وهو الخالق له والقائم عليه، والمدير لأمره، والكاى له، وهو على كل شيء وكيل.

وقد قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أى أنه إذا كان هو وحده الخالق، وهو وحده المدير فاعبدوه وحده، لا شريك له، فهذه نتيجة للمقدمات الواقعة السابقة، ومن عبد غيره، فإنه قد سبق إليه وهم، وهو عبد للأوهام وليس مؤمناً بالله.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى أنه خالق كل شيء بين أنه خلقه، وهو يحافظ عليه؛ ولذا قال جلّت قدرته، وعظمت حكمته: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ «وكيل» هنا من وكل إليه الأمر ليحفظه ويصونه فمعنى وكيل هنا قائم على الأشياء كلها ليحفظها ويصونها، ويدبر أمرها إلى أن يقضى فيها قضاءه وكان أمراً مفعولاً، فهو إله القائم على كل شيء سبحانه.

وإن الله سبحانه وتعالى منشئ الوجود نحس بآثاره، وننعم بنعمه ولا نراه، فهو خفى الألفاظ ظاهر بنعمه وآثاره؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾.

«الأبصار» جمع بصر، والبصائر جمع بصيرة، والبصر يعلم بالرؤية البصرية. والبصيرة تعلم بالرؤية القلبية، والإدراك العقلي، والخشوع، والاتجاه الروحي، والتعلق بالذات العلية؛ ولذا قال تعالى: ﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج].

والإدراك هو: الرؤية المحيطة بالشئ من كل جوانبه، فالرؤية البصرية لا ترى إلا الجوانب الذى يكون مقابل العيون، أما الإدراك فهو الإحاطة بكل الجوانب، من كل ناحية، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لا تحيط الأبصار بكل جوانب عظمتة وجلاله، وعندئذ تنتقل من الرؤية البصرية إلى ما تنتجه الرؤية من تأمل وتفكير؛ ذلك أن الرؤية البصرية رؤية للمحسوس، ثم بعد رؤية المحسوس يكون التفكير فيما توجهه هذه الرؤية، فاذا رأيت منظرا جميلا، فالرؤية تريك هذا المنظر، فتستريح نفسك، وتستروح معانى من الإحساس بالجمال، فإذا علا إدراكك. فإنك تفكر فى بديع الصنع، وحسن هندسة التناسق، ثم أطياف الألوان، ثم مهارة الصانع، فهذا هو الإدراك بالإبصار، فالإدراك بالإبصار هو المعانى التى تومىء بها الرؤية، ويوجه إليها النظر المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ هو كناية عن التفكير والعلم الذى ينتج عن البصر، وقد نفى الله تعالى الإدراك، وهو يتضمن نفى الرؤية البصرية ابتداء؛ لأن الرؤية البصرية فى الدنيا إنما تكون فى مكان متميز متحيز، والله سبحانه وتعالى ليس له مكان، ولا يحده شئ فى الوجود، وسع كرسيه السموات والأرض وهو السميع العليم.

وفوق ذلك لا يمكن للعقل البشرى أن يدرك الحقيقة الإلهية؛ لأنه أعلى وأجل وأعظم من أن تصل إليه المدارك، ونحن ندرك آياته، ولا نعرف كنه ذاته، تبارك الله العلى الحكيم، هذ معنى نفى إدراك الأبصار، وما تؤدى إليه، وما يمكن أن يؤدى إليه مضمون هذا النفى، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أى يعلمها علما محيطا، وسع علمه كل شئ لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه

مشقال ذرة فى السماء والأرض، يعرف ما تراه العين، وما تدركه، وما تؤدى النظرة من تأملات نفسية، فهو العليم بخواطر النفوس وخلجات الأفئدة، وهو اللطيف الذى يعلم أدق علم، الخبير الذى يعلم دقائق كل شىء.

وقد تكلم العلماء فى هذا المقام فى رؤية الله فى الآخرة وفى الدنيا، فقال الأكثرون: إن الله تعالى يرى يوم القيامة بكيفية لا نعرفها، يراه الأبرار وقد أخذوا ذلك من ظاهر قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ﴾ [القيامة] وإن ذلك من جزاء المتقين، ولا يراه المجرمون أخذوا من ظاهر قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝﴾ [المطففين]. ومن ظاهر قوله تعالى: ﴿... وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ...﴾ [آل عمران].

وأما فى الدنيا، فإن الله لا يرى فيها؛ لأن الرؤية تقتضى التحيز فى مكان، والله تعالى منزّه عن ذلك، وقد طلب موسى - عليه السلام - رؤية ربه فقال: ﴿... قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ...﴾ [الأعراف]. فدلّت هذه الآية على أن الرؤية فى الدنيا غير ممكنة.

وهنا يثار سؤال هل رأى النبى ﷺ ربه فى المعراج؟ بعض العلماء زعم أنه رآه، ولا يوجد نص قاطع يدل على ذلك، ولكن وردت آثار كثيرة، تدل على نفيه، فقد سئل النبى ﷺ: أرايت ربك؟ قال: «إنه نور، فأنى أراه»^(١).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده إلى مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة (كنية مسروق) ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية - وكنت متكئا، فجلست - فقلت: يا

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان، والترمذى فى تفسير سورة ٥٣ (النجم) وأحمد بن حنبل، ج ٥ ص ١٥٧، ص ١٧١، ١٧٥.

أم المؤمنين أنظريني، ولا تعجليني ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير] ﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم] ﴿١٣﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ إنما هو جبريل لم يره على صورته التي خلق الله عليها غير هاتين المرتين.. فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللطيفُ الخبير﴾ أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾ [الشورى] قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ قد كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم الفرية، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ [المائدة] ﴿٦٧﴾ قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ [النمل] ﴿٦٥﴾.

هذا بالنسبة لرؤية الله تعالى في الدنيا، وأما في الآخرة فالأمر فيها إلى الله تعالى، وهو على كل شيء قدير.

البيانات لا يدركها الجاحدون

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۚ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أنه خالق كل شيء ووجه الأنظار إلى تصريف الله تعالى في الكون مما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة، ووجه الأنظار إلى ما فيها من دلائل على أنه وحده هو الخالق، وأنه ليس كمثله شيء وأنه وحده المستحق للعبادة - قرر أن هذه آيات تبصر ذوى العقول الواعية، والقلوب الخاشعة المبصرة فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ والبصائر جمع بصيرة، والبصائر هنا هي الآيات التي ساقها الله تعالى مبصرة للمدارك هادية للقلوب، وهي التي بسببها يدرك أهل البصر النفسى الذى لا غشاوة عليه، وعلى ذلك يكون فى الكلام مجاز، إما أن نقول فيه: إنه شبه سبحانه وتعالى الآيات التى تبين الحق بالبصائر التى تدركه وتعرفه، وتستبينه، وجامع التشبيه أنها تبين بنفسها، كما تدرك البصيرة الحق بفطرتها، أو نقول: إن الآيات سبب لنور البصائر، فأطلق المسبب وأريد السبب، وهو آيات الله تعالى فى الكون وفى أنفسنا وفيما يحيط بنا، وما نراه من توالد الأحياء بعضها من بعض بقدرته تعالى.

وإن هذه الآيات علامات الحق ودلالاته، فمن أدركها فقد نجح، ومن لم يدركها فقد بغى على نفسه وأضلها؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ

فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٧﴾ الإبصار هنا ليس هو النظر الحسى، إنما هو الإدراك الحقيقى، الذى يدرك معنى الآيات وما تدل عليه، فهو المجاز الذى يشبه فيه الإدراك والخضوع للحق البين بإبصار الأمور الحسية التى ترى بالاعين من حيث وضوح الدلالات فى كل، بل إن دلالات الآيات على ما تدل عليه أقوى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ فشبه سبحانه الإعراض عن آيات الله تعالى، بمن عمى فلا يبصر، وأضاف الله سبحانه البصائر إلى الذات العلية بلفظ (ريكم) للإشارة إلى أنه صاحب النعم المتوالية عليهم التى توجب شكرها، والإيمان بها، وتبصر ما تدعو إليه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ظاهر ذلك أنه من النبى ﷺ، ولم يكن ثمة حاجة إلى أن يقول الله تعالى لنبىه: قل: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾؛ لأن الكلام منزل من عند الله تعالى، والنبى ﷺ يخاطب به العرب، والقرينة دالة على أن ذلك من النبى ﷺ لقومه الذى هو رءوف بهم، ولكنه ليس بحفيظ عليهم، ثم إن هذا النص السامى، وهو ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ هو كالنتيجة المنطقية لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أى فالتبعة عليكم. كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس].

يقول تعالى حكاية عن قول النبى ﷺ كما أمره ربه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ قدم الجار والمجرور؛ لأن نفوسهم ستهمهم؛ ولذلك قدم خطابهم على الوصف، وقد أكد سبحانه النفى بالباء، وأكد بالجملة الاسمية، والمعنى وما أنا بحفيظ عليكم من أن تتدلوا فى العذاب بإنكاركم بآيات ريك، وكفركم بالله بعد أن بدت الدلائل القاطعة، والأدلة البينة، الواضحة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد] ولقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ... ﴿٨﴾﴾ [النمل] فلا مسئولية على الرسول فى ضلالهم.

صرف سبحانه وتعالى الآيات الكونية، وصرف سبحانه وتعالى الآيات فى كتابه تعالى فى معانيها وفى مبانيها فمرة يكون بالأمر أو النهى أو الاستفهام، والبيان أحيانا بالإيجاز المعجز، وأحيانا بالإطناب المفصل، فى نسق يعلو عن البشر، وذلك ليعلموا مقدار الإعجاز، وليستبينوا الحق من عباراته السامية، وتوجيهاته الهادية، ولكن كذبوا عليه وافتروا، وقالوا علّمه إنسان؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ (الآيات) هنا فيما يظهر لنا؛ الآيات القرآنية، والتشبيه فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ﴾ أى مثل هذا التصريف فى ذكر الآيات فى الخلق والتكوين وتوليد الأحياء، وبيان الوحداية بأدلتها من خلق الله تعالى، كذلك التصريف فى الآيات الدالة على التوحيد - نصرف فى الآيات القرآنية، من إيجاز وإطناب، واستفهام وإنكار، وتوكيد للقول، وإرسال فى البيان وغير ذلك، ليدركوا مقام القرآن، وقال تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتُ﴾ وفى قراءة (دارست)، الواو فى قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتُ﴾ معطوفة على فعل محذوف يؤخذ من سياق القول، كأن يكون التقدير أو كذلك نصرف الآيات لتصلوا إلى ما فيها من إعجاز إن كنتم تعقلون، وليقولوا دارست غيرك أو درست ذلك على غيرك، فقد كان الكافرون يدعون ذلك، واللام هنا ليست للتعليل، ولكنها لام يسمونها لام العاقبة، أى لتكون العاقبة عند الكافرين أن يقولوا دارستها مع أهل الكتاب أو درست عليهم وأعانوك، وهذا كما جاء فى آيات كثيرة عن افترائهم، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤) [الفرقان]، وقوله: ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥) [الفرقان] وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٣) [النحل]. وقرئ (دَرَسْتُ) بفتحيتين، ومعناها مضت وتكررت، كقولهم: سمعنا هذا من قبل.

وإن الله تعالى أمر نبيه أن يعرض عن المشركين، وإنه يعتبر بحقائق القرآن المؤمنون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَنُنَبِّئَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. واللام هنا للتعليل أى نبين لمن

يتتفعون بعلمه وعظاته وبيئاته، وإن نفع هؤلاء لمؤكد به يوجب بيانه، فمهما يضل الضالون الجاحدون، فإن القرآن لا يزيدهم إلا خساراً، أما المؤمنون فهو شفاء لهم وهداية، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) [الإسراء].

وقوله ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى لقوم يعلمون علماً متجدداً بنزول القرآن فهو يزيدهم علماً كما يزيدهم غيرهم خساراً.

إن الأدلة على صدق دعوة النبي ﷺ قائمة لا يمارى فيها إلا جحود، وآيات الله تعالى هي البصائر لمن عنده قلب يذعن للحق إذا تبين، وقد قامت دالة على وحدانيته، وإذا كان الجاحدون ينكرون دلالات الوحدانية في العبادة، فلا تلتفت إليهم، وامض لما أمرك الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الأمر للنبي ﷺ ابتداء، ولمن اتبعه في الغاية والمآل، اتبع أيها النبي ما أوحى إليك، وهو القرآن؛ لأنه رأس ما أوحى الله به إلى نبيه الأمين، وعبر بالموصول «ما» دون ذكر الاسم الشريف، لبيان سبب الاتباع، وحقيقة القرآن، وهو أنه وحي من الله تعالى، فاتباعه هو اتباع الله تعالى، وشرف القرآن بشرف من أنزله، فقد التقى فيه شرفان جليلان:

أولهما- شرف ذاتي وهو أنه الكتاب الكامل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه المعجز الذى لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، وأنه النبوة فمن حفظه فقد حفظ النبوة بين جنبيه.

ثانيهما- شرف إضافي، وهو أنه الكتاب الوحيد الذى ينسب إليه، وإذا كانت سبقتة كتب أخرى فهو جامعها، وهو سجل النبوات قبله، فيه الشرائع السماوية كلها من غير تفريط فى واحدة منها.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تقوية للاتباع بأنه من الله ذى الجلال والإكرام الذى رب هذا الوجود ونما وعلمه وكونه، فهو أوحى إليك من ربك الذى يعرف ما يشتمل على مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم، فى حياتهم الدنيا، وفيما يوصل إلى الآخرة.

واتباع ما أوحى إلى النبي ﷺ يكون باتباع ما يدعو إليه من وحدانية الله تعالى التي هي ملاك الأمر كله واتباع أوامره ونواهيه، والإيمان بأنه يحل الطيبات، ويحرم الخبائث، وأن ما أحله تعالى فيه الخير والنفع العام والمصلحة في الدنيا والآخرة، وما يحرمه هو الفساد، ويؤدي إلى الهوان في الدنيا والآخرة.

وقرن الله تعالى الأمر باتباع ما أوحى إلى النبي ﷺ بقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومعنى الإعراض عنهم ليس هو السكوت عن دعوة الحق بينهم والإصرار عليها، فإن قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر] وإنما معنى الإعراض أن يعرض عن سخريتهم بالضعفاء من المؤمنين، والجحود الذي يدأبون عليه وادعاء الأباطيل عليه من أنه علمه بشر، أو أنه دارسه مع أحد، ويعرض عن إلحاحهم في النكران، يعرض عن كل هذا ويمضي في دعوته، ولا يهتم لغو اللادين وعبت العابثين وخوض الخائضين الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، يعرض عن هؤلاء المشركين الذين اندفعوا في ذلك بسبب شركهم.

وإن ذلك الإعراض عنهم؛ لأنك دعوتهم وتدعوهم، ولست مستولاً عن إيمانهم، ولا معاقباً على كفرهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد] وإن إشراكهم بتقدير الله تعالى وبعلمه، وإنهم ساروا في طريقهم إلى الشرك، وسهلوا سبيلهم إليه، ولو شاء سبحانه ما مكنهم من الشرك، ولكن لأن الله تعالى خلق الإنسان، وأعطاه قدرة يرى بها الخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء] لهذا الاختيار الذي ركبته الله تعالى في نفوسهم من خروج على سلطانه تركهم في غيهم يعمهون؛ لأنهم سلكوا طريقاً واختاروه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي لو كانت مشيئة الله تعالى تعلقت بعدم شركهم ما أشركوا وما كانوا مشركين، وإذا كان ذلك قدر الله تعالى الذي قدره، وتديره الذي دبره، ودخلوا الشرك باختيارهم فأعرض عن أذاهم وسخريتهم، واتجه إلى الدعوة، واستمر فيها مع ملاحظة أنك لست كفيلاً بإيمانهم، إنما أنت منذر.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى أن النبي ليس مسئولاً عن كفرهم، ولا مطالباً بإيمانهم، إنما هو منذر ومبشر، فقال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾

وما جعلناك حفيظاً عليهم بمنعهم من الشرك ودفعهم إلى الإيمان، و(حفيظ) صيغة مبالغة من حفظ، أى ما جعلناك (حارساً) على إيمانهم تمنعهم من الخروج منه، وتحملهم على الدخول فيه، وقدم (عليهم) بيانا لاهتمامه بشأنهم بمقتضى الحراسة الحافظة، التى نفاها الله تعالى عنه، فالله تعالى لم يجعله كذلك، ولكن جعله فقط مبشراً ونذيراً، وهادياً بإذنه وسراجاً منيراً، وقد أكد سبحانه وتعالى عدم مسئولية النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى ما أنت قد فوض أمرهم إليك بتوكيل وكلته فتدبر أمرهم وتوجههم إلى حيث تريد، إنما أنت منذر، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٥٦) [القصص].

والله تعالى هو الذى ينظم علاقة الرسول بمن بعث إليهم وهى الدعوة، فمن أجاب فقد أحسن، ومن أعرض عن ذكر الله تعالى فقد طغى وكفر، وليس على الرسول تبعة كفرهم، والله تعالى هو المجازى.

النهى عن سب الآلهة، وقاعدة سد الذرائع

﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

نهى الله تعالى عن سب الأوثان والأصنام، وكل ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، حتى لا يسبوا الله تعالى عدوانا وظلما واعتداء على الحق بجهل وبغير علم وإدراك سليم؛ إذ سوا بين الله تعالى وآلهتهم، فالفاء فاء السببية أى بسبب سب المؤمنين الحق لأصنامهم، يسبون الله تعالى ظلما وجهلا بغير الحق، وعبر عن أصنامهم بالموصول الذى يكون للعاقلين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ جريا على زعمهم من أن لهم فكرا وعقلا وإن كانوا لا يعقلون.

وهنا نسأل عن معنى السب أهو الشتم أم مجرد ذكرهم بأنهم لا يضرون ولا ينفعون، وأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، لا يمكن أن تكون من السب أن يقال إنهم لا يضرون ولا ينفعون، فقد ذكر فى القرآن كثيرا أنهم لا يضرون ولا ينفعون، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ (٧١) [الأنعام] وحكى الله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢) [مريم]. والقرآن الكريم المنزل من رب العالمين لا يكون فيه سب ولا شتم، وإنما يكون فيه ذكر الحقائق الثابتة التى لا مجال للريب فيها.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون وصف الأوثان بأنها لا تضر ولا تنفع سباً؛ لكنه لكى يمنع العرب من عبادتها، لا بد من وصفها بحقيقتها ومآلها، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (٩٨) [الأنبياء].

إنما السب هو شتم الأوثان مثل: «لعنها الله»، و«قُبِّحت آلهتكم» من غير ذكر أوصافها.

ولكن قد يقال: إن المشركين عدوا ذلك سباً، فقد قالوا أو قال وفدهم عن النبى ﷺ لأبى طالب، لقد سفه أحلامنا، وسب آلهتنا، ونقول: إننا نفسر كلام الله تعالى، وما علينا أن نفسر كلامهم، فليسموا ذكر الحقيقة سباً كما يشاءون، ولكن السب ليس كما يقولون.

﴿فَيْسُبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى يترتب على سب ما يدعونه من دون الله بالباطل سب الله تعالى ظلما وعدوانا جهلا، وقد فسرنا السب بأنه الشتم، وليس من الشتم وصف الأوثان بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن القرآن الكريم وصفها بذلك الوصف والقرآن ليس فيه شتم ولا سب، وما كان النبي ﷺ فحاشا ولا سبابا؛ ولذلك يجب أن يفسر السب بغير ذلك، ولقد استنبط العلماء من الآية أنه يجوز ترك الحسن إذا أدى إلى معصية، وهو ما يسمى فى الفقه «سد الذرائع» أى منع ما يؤدى إلى الفساد اتقاء إليه، ولو كان فى ذاته حسنا، وإنه يوازن بين الفعل وما يؤدى إليه، فإن كان الضرر الذى يؤدى أكثر من النفع الذى يكون من الأمر، قدم دفع الضرر الكثير على النفع القليل، بل إن القضية الأصولية «دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة».

وإن ذلك أصل ثابت قد قررته هذه الآية الكريمة، وقد قال الإمام الزمخشري فى ذلك: (فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صح النهى عنه، وإنما يصح النهى عن المعاصى، قلت: رُبَّ طاعة علم أنها تكون مفسدة، فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها؛ لأنها معصية، لا لأنها طاعة، كالنهي عن المنكر، وهو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر، انقلب إلى معصية، ووجب النهى عن ذلك، كما يجب النهى عن المنكر، فإن قلت: فقد قال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك فى ديننا، قلت: ليس هذا مما نحن بصدده لأن حضور الجنازة طاعة، وليس بسبب لحضور النساء؛ فإنهن يحضرنها، حضر الرجال أم لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة).

وقد كان كلام الحسن ردا على ابن سيرين إذ امتنع عن السير فى الجنازة؛ لأن فيها النساء.

ويلاحظ على كلام الزمخشري أنه عد سب الآلهة طاعة، كأن الدين أمرنا بسب الآلهة!! إن القرآن ومحمدا ﷺ لم يأمرانا بسب قط، وقد قلنا إن وصف

الآلهة بأنها لا تنفع ولا تضر ليس سباً، ولا يمنع أن يقال بياناً للحقائق، وإبعاداً لهم عن عبادتها، وليس سباً منهيها عنه، ولو أدى إلى قول القبيح، إنما النهى عن سب الأوثان؛ لأنها ليست هي العاصية، ولما يؤدي إليه السب.

ومهما يكن تعليقنا على قول الإمام الزمخشري فإن مسألة سد الذرائع ثابتة، والآية الكريمة توحى إليها وتحث عليها، وإنه من المقررات ما يفضى إلى المعصية يعد معصية، ولو كان أصلها مباحاً.

﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾.

أى كذلك الذى نراه من اندفاع المشركين إلى سب الله تعالى، وهو العلى الحكيم، إذا كان السب لآلهتهم كذلك الأمر زين الله تعالى بمقتضى سنته فى الأحياء أن فى كل أمة أى طائفة من يُحَسِّن لها عملها، حتى تظنه الحق وما هو إلا الباطل الصراح، ومن زين له سوء عمله فظنه حسناً، فإن عليه مغبته؛ وعليه تبعة ذلك الظن الفاسد وذلك العمل الظالم، وتزيين الله تعالى لكم ذلك سنة الله تعالى فى خلقه، ليس مؤداه أنه يبرره، ويرضى عنه، فإن بيان الله تعالى هنا هو بيان لسنة الوجود، وليس ذكراً للعقاب والثواب، والتكليف، وإنه مختار فيما يفعل ومرده إلى الله تعالى فى العقاب والثواب؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أى أنه إذا كان قد زين لهم سوء عملهم فأروه حسناً فى الدنيا، فإنهم راجعون إلى ربهم يوم القيامة، والتعبير بـ «ثم» للدلالة على البعد الزمانى فى نظرهم، والبعد بين ما زين لهم من الشر، وما يستقبلهم من جزاء؛ وفاقاً لما عملوا من شر، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ﴾ فيه تقديم الجار والمجرور على ربهم، للدلالة على الاختصاص، أى المرجع إلى الله وحده، وهو الذى يتولى جزاءهم على ما قدموا من شر، والتعبير بـ (ربهم) إشارة إلى كفرهم بالنعم التى أولاهم؛

إذ إنه هو الذى خلقهم ورباهم ونماهم وأمدهم بآلائه من وقت أن كانوا أجنةً فى بطون أمهاتهم إلى أن رُمسوا^(١) فى قبورهم .

النبأ: الخبر الخطير، ينبئهم أى يخبرهم بما كانوا يعملون، وهو إنباء مقترن بالجزاء، فهو إنباء بأعمالهم وجزائها، فيجزون ما كانوا يعملون، أى أن الجزاء موافق للعمل، وأعدل العدل أن يكون العقاب مأخوذاً من الجريمة نفسها، والله يتولى المحسنين .

الكافر الجاحد لا يؤمن بمعجزة

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

إن النبى ﷺ قد جاءهم بالمعجزة الكبرى، وهى القرآن، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ولو مفترها، وكان يكفى ذلك برهاناً على رسالة النبى ﷺ ولكنهم لم يؤمنوا، وأعتوا فى الطلب، وأرادوا آيات أخرى، فطلبوا أن ينزل عليه كتاب فى قرطاس من عند الله، ولن يؤمنوا حتى يروه، وطلبوا أن ينزل ملك من السماء مع هذا القرطاس، وهكذا من طرق الإعانات المختلفة، ولم يقدروا القرآن - المعجزة الكبرى - حق قدره، ولم يعدوه آية كافية، وهو أقوى الآيات، وهو المناسب لشريعة خاتم النبيين ومخاطبة الأجيال إلى

(١) رُمسوا : دفنوا، ورمس الميت دفنه، والرَّمْس: تراب القبر. الصحاح .

يوم القيامة، ووعدوا قاسمين بأشد الأيمان وأغلظها أنه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

جهد الأيمان، روى أنه الحلف. ذلك أن العرب كانوا يعرفون الله تعالى، ويعلمون أنه الخالق، وأنه ليس كمثله شيء، ولكن يعبدون معه غيره، فإذا حلف بغير الله لم يكن هذا الحلف أشد الأيمان، فإذا حلفوا بالله كان ذلك أشد الأيمان، وهذا روى في التفسير المأثور.

وإننا نرى أن القسم الذى يعد جهد أيمانهم هو أغلظها وأشدّها أيا كانت صيغته وأيا كان المحلوف به، وإن كان القسم بالله فى ذاته هو أغلظ الأقسام وأشدّها، ولا يمنع أن يكون غيره غليظا شديدا فى زعمهم الوثنى، وجهد: بمعنى الشاق وهو نائب عن مفعول مطلق محذوف^(١)، أو هو مصدر بمعنى اسم الفاعل، ومعناه جاهدين، وهو حال من أقسموا، واللام فى (ليؤمنن) لام جواب القسم، ونرى من هذا أنهم يؤكدوا أيمانهم إذا جاءتهم آية أى معجزة، وكأنهم لا يعتبرون ما جاءهم من معجزة قاهرة لا يعدونها آية؛ لأنهم قوم ماديون، ويريدون آية مادية كما طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء، أو تفجر الأنهار تفجيرا، ولقد قال الله لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزلها بحكمته وإرادته، وهو الذى يقدر مناسبتها ويقدر الهداية بها، وهو منزلها، فالأمر إليه، وفى ذلك إقناع وإنذار.

ولكن أهم صادقون فى أيمانهم أنهم إذا جاءت الآية التى تكون على الوصف الذى طلبوه؟ إنه لا دليل من ماضيهم المتعنت أنهم يؤمنون إن جاءت؛ لأن كفرهم ليس فى نقص الدليل، ولكنه جحود ولا يزيدهم الدليل إلا شدة فى الجحود، وعتوا واستكبارا؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ أى يدرىكم ويعلمكم علما يكون كالشعور الحسى ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقرئت بفتح همزة (أن)، ويكون المعنى ما يدرىكم أنها إذا جاءت الآية كما يطلبون لا يؤمنون، ويكون هذا إيذانا بأنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم هذه الآيات التى يطلبونها، لأنهم جاحدون ابتدؤوه وهم يصرون عليه فهم لا يؤمنون؛ لأن الجحود غلب عليهم فغلبت عليهم شقوتهم، وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧) [الأنعام].

لقد سبق إليهم الجحود فاستقر فى قلوبهم، فلا يرجى إيمانهم، وهم فوق ذلك بسبب جحودهم، ومسارعتهم إليه فى قلق فكرى ونفسى دائم، يغيرون تفكيرهم حيثما كان موجب له، ولكنه تغيير فى دائرة الجحود.

وقرىء بكسر (إن)^(١) ويكون المعنى: وما يشعركم، أى وما يدرىكم، ويكون على معنى الاستفهام، وما يدرىكم أنهم صادقون فى عزمهم، وأنهم يريدون تحقيق أيمانهم الذين جهدوا فيها، ثم قرر سبحانه أنهم لا يؤمنون فقال تعالت كلماته: (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) إنهم ليس لهم عزم صادق؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وإن الجاحد لا يكون مستقرا على قرار، ولا على نظر، بل هو مضطرب النفس والفؤاد والنظر فهو ينظر إلى التى تلوح أماراته، فتبهره بيناته، وهو لجوج فى جحوده، فيكون متحيرا بين جحود مستكن قار، ونور تبدو آياته، وهذا قريب من معنى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ أى أن قلوبهم غير مستقرة وأبصارهم أى

(١) ﴿إنها إذا جاءت﴾ بكسر الهمزة، قراءة ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف، وأبو بكر غير يحيى، وأبو زيد غير المفضل، والسراج عن حماد، ونصير وقتيبة غير النهاوندي. غاية الاختصار.

مداركهم، وقد شبهت المدارك بالأبصار المبصرة، فهم متقلبون في تفكيرهم ولا إيمان عندهم تستقر عنده القلوب، لا يفكرون ولا يتدبرون، ويستمرون على جحودهم كحالهم عندما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة، إذ جاءهم، أو كما كانت حالهم قبل أن يقسموا، وهذا تأكيد لأنهم لا يؤمنون بعد القسم الذي أقسموه جهد أيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْلِبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ معطوف على (يؤمنون) كما عطف عليه «ونذرهم في طغيانهم يعمهون».

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أى نتركهم في طغيانهم الظالم، وهو تمردهم على آيات الله تعالى، واقتراحهم على الله أن يأتى بآية أخرى، مما يدل على أنهم لا يريدون إيمانا، إنما يريدون أن يظهروا أنهم على استعداد لقبول ما يجيء من آيات يقترحونها، وما كانوا يريدون بذلك إلا تعلقة لكفرهم، بأنهم لم يقتنعوا بالقرآن دليلا، ومهما يؤت لهم من آية لا يؤمنون بها، إنه قد سبق جحود نظرهم وفي الأدلة المقدمة لهم، فهم قضوا بكفر، وأدلة الأيمان تفرع حسهم قرعا.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ معناها يترددون في باطلهم والبيئات القائمة على بطلانه، فهم يترددون متحيرين، ولا منجاة لهم إلا بإيمان صادق مدعن، وأنى يكون لهم، وقد غلب عليهم طغيانهم الظالم الأثيم، فلا سبيل لأن يصل الحق إلى نفوسهم إذ قد غلفها الجحود، فكان على قلوبهم غشاوة فلا يهتدون.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَكُ كَكَلِمَةٍ وَلَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ
الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
﴿١١٢﴾ وَلِنَصْنَعِ الْإِنْسَ آفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ
أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا
وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم لا يؤمنون بالآيات، ولو أقسموا جهد أيمانهم بأنهم يؤمنون إذا جاءهم ما يطلبون من آيات؛ لأنهم قد سبق جحودهم تفكيرهم، وأن أفئدتهم ومداركهم متقلبة وأنهم مترددون بسبب طغيانهم، وفي هذه الآيات يبين سبحانه أنهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله تعالى ولو نزل إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشر عليهم كل شيء.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾.

إن هؤلاء لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية. فليس هناك حاجة إلى دليل فوق ما تقدم من أدلة، فإنه لا يتقصهم الدليل، ولكن ينقصهم القلب المؤمن الذي يذعن، وقد كتب الله تعالى عليهم الجحود؛ لأنهم لا يؤمنون، ولو أننا أجبناهم إلى كل ما طلبوا على أقصى مداه - ما أجابوا إلى الإيمان إلا أن يشاء الله، فيقول الله تعالى العليم بالنفوس ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ وقد طلبوا أن

يكون من يبلغهم ملك من الملائكة ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة - والتعبير بـ «نزلنا» يشير إلى أنه لو نزل إليهم الملائكة ملكا بعد ملك، لكي يؤمنوا، وقد طلبوا ذلك. وكلمهم الموتى من قبورهم أو خرجوا من القبور ليدلُّوا بالفعل على البعث الذي أنكروه، ولو حشر عليهم كل شيء قبلاً أى قبيل بعد قبيل، كما فسر مجاهد عن ابن عباس، لأن قبلاً جمع قبيل.

وقرئ قبلاً بكسر القاف^(١) بمعنى مقابلة، أى عاينوهم معاينة وقابلوهم مقابلة، ويصح الجمع بين القراءتين بأن يكون المعنى، وجمعنا كل شيء من المعجزات والناس المبعوثين وعاينوهم جماعة بعد جماعة ورأوهم بالعيان والمقابلة - لو كان ذلك ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ معناها ما كان من شأنهم أن يؤمنوا إلا أن يكون تعالى شاء ذلك، فكل شيء بمشيئته سبحانه وتعالى.

وإن هذا النص السامى يفيد أنهم بجحودهم وإصرارهم عليه، وإنكارهم للمعجزات لو سيقّت لهم لن يؤمنوا؛ لأن الله تعالى لم يشأ لهم الإيمان، فكتب عليهم الضلال لسوء ما يفعلون، ويجحدون، وتدل فى سياقها على أنه لا جدوى عندهم فى تكاثر الأدلة، وما عندهم يكفى لقوم يؤمنون.

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (لكن) للاستدراك عما يقتضيه السياق من أنهم يطلبون ويؤكدون أنه إذا جاءتهم آية يؤمنون، فيبين أنهم بجحودهم لم يشأ لهم الإيمان فلا يجدى دليل، فهو استدراك على ما زعموا من أن كفرهم لنقص الآيات، وينسون مشيئة الله تعالى التى كانت لجحودهم وهى أنهم لا يؤمنون، وإن ذلك بجهلهم أن الله قد كتب عليهم الكفر بسبب جحودهم، ويجهلون أن ما عندهم من دليل وبيّنات فيها ما يوجب الإيمان، وهذا معنى، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الحق، ولا يذعنون له ولا يرضون به، وأن الله

(١) ﴿قَبْلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، قراءة نافع وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وابن عامر،، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالضم فيهما ﴿قَبْلًا﴾. غاية الاختصار (٨٦٠).

تعالى قد كتب على أكثرهم الكفر، وأنهم لا يؤمنون، والتعبير بالمضارع يفيد استمرار جهلهم، وتجده أنا بعد آن.

وإن هؤلاء المعاندين قد نصبوا أنفسهم لعداوة النبي ﷺ، ومقاومة دعوته، وهم وأشباههم من أعداء النبيين الذين قاوموا الدعوة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾.

إن النبي ﷺ كان يصابر المشركين ويتحمل أذاهم هو وأصحابه، ويتحمل معاندتهم له، لا يرضون القرآن دليلاً على نبوته، وقد عجزوا عن أن يأتوا بمثله أو بعضه، وأقروا صاغرين بعجزهم، ولكن لم يمتنعوا هم عن معاداته بالباطل متخذين كل ذريعة سيلاً لباطلهم.

والله تعالى يثبت فؤاد النبي ﷺ بأن ذلك كان للنبيين من قبله، وكان مألوفاً، وهو سنة الله تعالى في رسالاته فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أى كذلك الذى تراه من عداوة نفر من المشركين ولجاجتهم فى العداوة، حتى لا يتركوا باباً من أبواب الكيد إلا سلكوه، ولا مسلكاً من مسالك الإغاث إلا اتخذوه، كذلك جعلنا لكل نبي عدواً من شياطين الإنسان والجن، وشياطين الإنس هم أولئك الذين ناصبوك العداوة، وشياطين الجن هم أعوان إبليس الذين يوسوسون، ويأمرون بالسوء والفحشاء ويسولون كل قبيح، ويزينونه، ويسمونهم بغير اسمه، فهؤلاء يدفعون النفس الأمارة بالسوء، وأولئك يستجيبون لهم، ويفترون بوسوستهم، ولذلك قال تعالى: ﴿يُوحِي﴾ الوحى: الخطاب الخفى أو التوجيه الخفى، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨) [النحل].

فالوحى هنا هو التوجيه الخفى الذى يوسوس فى الناس فيلقى فى نفوسهم بتغييرهم، بزخرف القول، فيوهم بأن الكفر إكرام للأبناء، وأن تقليدهم تعصب لهم، وأن الانطلاق من كل القيود الخلقية مروءة، وأن المعاندة هداية، وأن إهمال حكم العقل هو الاتباع، وهذا معنى قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾

غُرُورًا»، أى يلقى فى نفوسهم تحسين الباطل بأقوال باطلة، ولكنها مزخرفة بزخرف يكون غرورا للنفس الضالة، فتتدلى به.

وهكذا يجيء تضليل النفوس فى الأحاد والجماعات بزخرف القول، فتسمى الحقائق بغير أسمائها فيسمى الجحود طلبا للدليل، ويسمى الشجاعة فى الحق تهورا، ويسمى الإفساد حرية، ويسمى الاستبداد شورى، والشورى طغيانا، ولذلك كان بعض الحكماء يرى أن إصلاح الأخلاق يكون أولا بتصحيح الألفاظ، وإن هذه العداوة للأنبياء من شياطين الإنس والجن بإرادة الله تعالى، ولذا قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

أى إن هذه إرادة الله تعالى اختيارا، وليبلغ النبيون أعلى مراتب الإنسانية بجهادهم فى الدعوة إلى الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾. معناه لو أراد الله تعالى ما فعلوه، أى شياطين الإنس والجن، ولكنهم فعلوه ليكون التنازع بين الخير والشر، ولأن الله تعالى مكن لإبليس الذى قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٧) [ص] ولو أراد الله ما تمكن، ولو شاء الله تعالى ما خلقه.

وإذا كان ذلك أمرا ثابتا بالنسبة للنبيين أجمعين، فتقبله وأعرض عنهم، ولا تأس على القوم الفاسقين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أى فاتركهم وأكاذيبهم من إنكارهم حجية القرآن، ودلالته على النبوة، وافتراءهم على أنفسهم بحلفهم أنهم يؤمنون لو جاءتهم، وافتراءهم عليك من أنك تعيب أحلامهم، وتسفه آباءهم، وأنت تنطق بالحق وترشدكم وتهديهم سواء السبيل.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، (الواو) واو المعية، و(ما) اسم موصول، أى أعرض عنهم واتركهم هم وما يفترونه، هذه هى النتيجة بالنسبة للنبي ﷺ، وهى أن يتركهم فى غيهم يتحiron، أما النتيجة بالنسبة لهم ولأمثالهم فقد ذكرها الله تعالى بقوله تعالى:

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

(الواو) هنا عاطفة على نتيجة الجملة السابقة؛ لأن نتيجة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا أن يفتروا، فكان العطف عليه ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فالإغواء بزخرف القول غرهم فأفسدهم وأفسد من هم على شاكلتهم، وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة، وتصغى معناها تميل، أى تميل قلوب أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولم يقل الجاحدون بالآيات، بل ذكر الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ ليشير إلى سبب الكفر وهو عدم الإيمان بالآخرة، ذلك أن الإيمان بالآخرة مقياس الإيمان، وهو ما يفصل قلب المؤمن عن قلب الكافر، فقلب الكافر لا يتسع إلا لما هو مادي محسوس، ولا ينظر إلى ما هو مغيب مستور، فهو لا يؤمن بأن وراء الحياة التى يعيشها حياة أخرى فيها جزاء ما يكون فى هذه الحياة؛ ولذلك كان من أوصاف المتقين كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ... (٣)﴾ [البقرة] فالإيمان بالغيب إيمان بسر الوجود وغايته ونهايته، وإنه لا نهاية لها بالقبور، أما الكافرون الجاحدون فيقولون كما حكى القرآن ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون].

﴿وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾.

ليميل أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة إلى زخرف الشيطان، وتغريب بالغرور، يحسبون أنه الغاية فهو سبيلهم وإذا رضوه عملوا بمقتضاه، وارتكبوا من الآثام ما هو غايته ونهايتهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ والاقتراف معناه الاكتساب، وهو أكثر ما يكون فى اكتساب ما لا يحس وما ليس بخير، وأصل مادة «قرف» أن يقول ما ليس بحق يقال قرفتني إذا رميتني ما ليس فىّ، فهو فى القول الرمى بالباطل، وفى الأفعال اكتساب ما فيه إثم أو ما تكون عاقبته إثم.

وإن هذا النص الكريم يبين كيف يتبدى الشر فى النفس:

فهو يتبدى أولاً: بالميل إليه واستحسانه، وكما يقول الدارسون للنفس الإنسانية: أول الشر استحسانه. وثانياً: بالرضا به خلقاً وقولاً، فالرضا أغلى من الميل المجرد فى مراتب الإدراك النفسى، والقلبى. وثالثاً: بالعمل على مقتضى ما مال إليه وارتضاه؛ ولذا ختم الآية بقوله جل كلامه عن الشبيه والمماثل، ﴿وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ أى ليرتكبوا من المعاصى ما شاءوا أن يرتكبوا حتى يكون اقتراف المعاصى وصفا ملازماً لهم لا يفترقون وهناك بقراءة اللام بالسكون فى قوله تعالى ﴿وَلَيَقْتَرِفُوا﴾ ويكون الأمر للتهديد، والإشارة إلى فساد طواياتهم، كأنه وراء الرضا الارتكاب، فليرتكبوا، كقوله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١) كأنه لا حاجز بين الإنسان والشر إلا الرضا به، فإذا رضى فقد زال وفتح باب الشر فليلج فيه. وهذا يدل على التهديد والإنذار ببلوغ نهاية الشر، والوصول إلى غايته، فليفعل ما يشاء والعاقبة والمآل إلى الله، وهو يستقبلهم بعذاب جهنم وبئس المصير.

إن الكافرين يريدون آية غير القرآن، والله تعالى هو الذى اختار القرآن آية الكبرى ومعجزته الخالدة الباقية فإذا كان يستمع إليهم، فقد اختارهم حكماً على آية الله تعالى التى اختار، وذلك أمر منكر لا يرضاه مؤمن، ولا يرضاه محمد ﷺ؛ ولذا قال الله تعالى على لسان نبيه الأمين:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وقد كان ما قبلها طلب آيات، وقسم منهم بأنها إذا جاءت ليؤمنن بها، وكأنهم بذلك يريدون أن يجعلوا من أنفسهم حكماً على آيات الله تعالى على الآية الكبرى وهى القرآن فينكر النبى ﷺ بأمر ربه أن يكونوا حكماً على آيات الله غير الله.

(١) رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - حديث الغار (٣٤٨٣). كما رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد ومالك. أما أبو داود فقد رواه بلفظ: "إذا لم تستح".

وقد تمت همزة الاستفهام على الفاء؛ لأن الاستفهام دائما له الصدارة، و(حكما) معناها حاكم، بيد أن حُكْمُه دائما حقا صوابا، والحاكم قد يكون صوابا وربما يكون غيره، وقد يكون حقا وربما يكون غيره، والمعنى الجملى: أتقولون فى القرآن ما تقولون، وتطلبون آيات أخرى غير القرآن، وتريدون أن يكون غير الله تعالى حكما، وإنها فى هذا المقام أهواؤكم.

وهنا إشارات بيانية:

أولاهـا: أن الاستفهام إنكارى بمعنى النفى، أى لا أبتغى غير الله تعالى حكما، وقد قدم غير الله حكما، لمزيد استنكار ذلك، وإنه غير معقول وغير جائز، وغير مقبول فى ذاته.

الثانية: أن الابتغاء من (بغى) بمعنى طلب، ومن موضع الاستنكار أن يرضى بغير الله حكما، فضلا عن أن يبتغيه، ويطلبه طلبا مشددا فيه، كما يريدون أن يطلب النبي ﷺ، والله تعالى هو الذى ارتضى له هذه الآية، وهى القرآن الكريم.

ولذا قال تعالى على لسان النبي: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ وهذه الجملة حالية، أى كيف أبتغى غير الله تعالى حكما فى آياته وقد أصدر حكمه، وأنزل إليكم الكتاب مفصلا مبينا معرفا بالأحكام المطلوبة، والأحكام المنهية فى بلاغة، تحداكم أن تأتوا بمثلها فعجزتم عجزا مبينا.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ أى آتاكم آيته؛ الكتاب الكريم مفصلا مبينا حجة باهرة، وقد شهدت له الكتب السابقة والأنبياء السابقون؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾

فالله سبحانه وتعالى يبين أنه كتاب مجيد يعلمه السابقون من الأنبياء، وهو كتاب أزلى أبدى، علم أمره السابقون وسيبقى فى الخلود إلى يوم الدين، وقد

جاءت كتب أهل الكتاب بالشهادة له فهو معجزة أولية ثابتة، وقد قال تعالى في بيان ذكره في الكتب السابقة هو ورسوله الأمين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (١٥٧) [الأعراف] فهو كتاب الخليقة الذي يشتمل على كل الحقائق الشرعية.

ولقد قال تعالى رادا على أى شكوك وارتياب: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤) [يونس].

وإن الشك ليس من النبي ﷺ، ولكنه شك من المشركين أداهم إليه جحود الحق وقد عرفوه ولقد قال بعد ذلك في هذه الآية.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

الامتراء: الشك، والنهي مؤكد بنون التوكيد الثقيلة، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر فإن تقدير القول إذا علمت أنه حكم الله تعالى، وأن الكتب السابقة شاهدة على الصدق، فلا تكونن من الممترين والنهي للنبي ﷺ، بظاهر القول، وهو لأمرته التي يدعوها إلى الإسلام، وإلى أولئك الذين تهجموا بطلب آيات أخرى، وليس النهي للنبي ﷺ في الحقيقة؛ لأن النهي عن فعل يكون حيث يتوقع وقوعه، ولا يمكن أن يكون ذلك من النبي ﷺ، لأنه الذي نزل عليه القرآن، فلا يمكن أن يكون منه امتراء إنما يكون من غيره، وإنما ذكر موجهها إليه ﷺ، لإعلاء شأن القرآن، ولبیان مكانته، وأنه فوق ارتياب المرتابين، ولأنه إذا كان النبي ﷺ منهيا عن الامتراء، وهو من نزل عليه القرآن فغيره أولى بالنهي.

وإن نزول القرآن والتحدى به، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، وتقدير الله تعالى بأنه لا يؤتى بمثله قط إذ قال تعالت كلماته: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ

عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾
 [الإسراء] وإذا قد نزل القرآن الآية الكبرى، فقد تمت كلمة الله في ذلك؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾

كلمة الله تعالى حكمه وتدبيره، وما قرره، كما نقول في الكلام الجارى: قال فلان كلمته أى ما قرره وانتهى إليه فمعنى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بعد أن ذكر شأن الكتاب مقترفا بما يقترحون من آيات يسترون بها جحودهم وكفرهم فقررّت وسجلت، فالقرآن هو المعجزة التى اختارها حجة للنبي ﷺ، على المشركين، ومن يجيء بعدهم من أجيال يخاطبهم القرآن الكريم إلى يوم الدين، وكما تحدى العرب يتحداهم أن يأتوا بمثله.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ﴾ قرئت بقراءة أخرى بالجمع لا بالمفرد بـ (كلمات ربك)^(١) وإسنادها إلى الرب فى القراءتين للدلالة على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعلم ما يناسب الأقوام والشرائع من معجزات النبوات، فهو يختار لكل نبي وشريعته، ما يناسبهما.

وقوله تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أى قررت كلمة الله تعالى فى القرآن حال كونه صدقا وعدلا أن كل ما فيه عن الله تعالى صدق لا ريب فيه، وما فيه من أحكام هى العدل والقسطاس المستقيم، ثم أكد الله تعالى تمام كلماته، فقال تعالت حكمته:

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أى تمت وتقررت كلمة الله الصادقة فى القرآن، وأنه العدل والقسطاس ولا مبدل لكلماته، أى فإن الله تعالى لا يبدل كلماته لأنها الصدق والعدل المستقيم، ولا يمكن أن يكون هناك مبدل لكلمات الله تعالى

(١) ﴿كلمات﴾ على الأفراد، قراءة عاصم وحزمة والكسائي وخلف، ويعقوب، وقرأ الباقون ﴿كلمات﴾ بآلف بعد الميم على الجمع. غاية الاختصار.

غيره؛ لأنه القادر على كل شيء، وليس في الوجود أحد له إرادة بجوار إرادة الله سبحانه وتعالى، وليس في قدرة مخلوق أن يغير على الله تعالى.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقد ختمت الآيات الكريمة بذكر الله تعالى بهذين الاسمين من أسماء الله الحسنى وهو أنه السميع العليم بكل شيء علم من يسمع ويرى بغير كيف ولا مماثلة لعلمنا وأنه عليم علماً مطلقاً ختمت الآيات الخاصة بالمعجزات لتأكيد أن الله تعالى هو الذى يختار بعلمه المحيط بكل شيء ما مثله يؤمن عليه البشر لكل نبي، وهو الحكيم الخبير فيما يختار، فليس لأحد أن يختار عليه، وهو الذى يقدر كل شيء، ﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴿[الرعد].

الاتباع يكون عن بينة

وإن

تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

إن قوة الحق ليست بكثرة من يقولون، وإنما قوته بقوة دليله، فلا تطع الأكثرين لأنهم الكثرة، بل أطعهم لقوة ما عندهم من دليل، فالآية تدعو إلى اتباع العقل والمنطق واليقين، وليس اتباع الكثرة لأنها كثرة، وقد ذكر الله تعالى عن كثرة ضلت، وقلة اهتدت، فقال تعالى مثلاً لذلك: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١) ﴿[الصافات] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٦) ﴿[يوسف].

ولقد قال تعالى فى الآية التى نتكلم فى معناها :

﴿وَإِنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِى الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

هذه الآية تدل بجملتها وظاهر ألفاظها أن الله تعالى يقول لنبىه الأمين : إنك تضل لو أطعت من فى الأرض واتبعت كثرتهم ، وإذا أريد بالأرض أرض المشركين من بلاد العرب ، فالمعنى يكون محدوداً بحدود الكثرة العربية الذين كانوا فى ذلك الوقت مشركين ، فإن تطع أكثرهم يضلوك عن سبيل الله تعالى ؛ لأنهم مشركون والشرك ضلال ، فإن أطعتهم دخلت فى ضلالهم ، ويكون معنى القول نهى لمن مع النبى ﷺ من أن يتبعوا المشركين فى ضلالهم لأنهم الأكثرون ، فالكثرة لا تعطى الدليل قوة ، ولا تتبع اليقين دائماً ، بل إن أقوالهم تعتمد على الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ؛ ولذا قال تعالى : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم] و(إن) هنا نافية بمعنى (ما) ، أى إنهم لا يتبعون إلا الظن فيظنون الأمر ظناً ، ثم يعتقدونه اعتقاداً ، كما قال تعالى عن أمثالهم : ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية] وأكد هذا بيان طريق ظنهم فقال تعالى : ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ والخرص مأخوذ من خرص النخل ؛ ليعرف ما تحمل من بلح ، فيقال : خرص النخل يخرصه إذا حزره ، ولا يمكن أن تكون نتيجة الخرص علماً قطعياً تبنى عليه عقيدة ، أو يؤخذ به رأى سليم فى أى أمر من الأمور ، وأقصى ما ينتهى إليه ظن لا قطع فيه .

فالمعنى : إن هم إلا يظنون ، وإن هم فى سبيل ذلك لا يتبعون إلا الخرص الذى لا ينتهى إلى يقين قط .

هذا الكلام خرجناه على أن الأرض المراد بها أرض الشرك ، ويكون المقصود طاعة المشركين ، ولكن الأرض لو يراد منها الأرض الواسعة أرض الله تعالى ، ويكون المراد إن تطع الناس فيما يرون ويستغون يضلوك عن سبيل الله تعالى ، وليس الحق دائماً مع الكثرة ، بل قد تكون الكثرة على غير الحق ، بل إنه ثبت من التحليل للعقلية الجماعية أنها لا تدرك ما يدركه المتفكر فى خاصة نفسه ، وذلك

لأن الجماعات تغلب عليها العاطفة الجماهيرية، ولا يكون مجال لتمحيصها، ولعل هذا هو ما يرمى إليه النص القرآني في وصف تفكير أكثر من في الأرض، إذ يقول سبحانه: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

ومهما يكن فإن الآية الكريمة تدل على أمرين:

أولهما- أن الاتباع عن غير بينة لا يجوز، بل إنه يجب النظر والبحث، وأن اتباع الجماعات من غير دراسة لا يجوز، وأن الجماعات يغلب على تفكيرها الحسد والتخمين، ولا يسودها التفكير والدرس العميق والمنطق السليم.

ثانيهما- أن قوة الآراء ليست بكثرة معتققيها، وإنما بقوة ما فيها من دليل، وإنه يترتب على ذلك أن التقليد لا يجوز.

وقد يقول قائل إن الكثرة تغلب في الآراء عند الشورى، فلا يغلب رأى القلة، وإن كان معقولا، فكيف رأى الكثرة غير صحيح.

ونقول في الإجابة عن ذلك: إن أساس الشورى الرضا بالعمل، ورأى الكثرة اتباعه هو الدليل على النزول على رضا الجماعة، والنبي ﷺ نزل على رأى الكثرة عند الشورى في حرب أحد، ولو كان رأيه غير ذلك.

إذا كان الناس يضلون في تفكيرهم الجماعي، فلا تطعمهم لأنهم يظنون ظنا، والظن لا يغنى من الحق، فإن الله هو الذى يعلم من يضل، ومن يهديه، ولذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

أكد الله سبحانه وتعالى أنه هو وحده الذى يعلم علما لا يدانيه علم بمن يضل عن سبيله، وهنا أمور بيانية نشير إليها:

أولها- أن الله سبحانه وتعالى عبر بـ ﴿رَبُّكَ﴾ وهو إشارة إلى كمال علمه الخاص بالأنفس؛ لأنه ربها الذى كونها، وربها وقام عليها، ووجهها إلى النجدين، نجد الخير ونجد الشر.

ثانيها- أن ﴿أَعْلَمُ﴾ بصيغة أفعل التفضيل، وليست على بابه؛ لأنها إذا كانت على بابه تكون موازنة بين علمه تعالى وعلم غيره، وعلم غيره لا يوزن به علم الله تعالى، إذ هو علم نسبي، وعلم الله تعالى علم إحاطة شاملة، ومعنى «ربك أعلم»، أنه سبحانه وتعالى يعلم من يضل، ومن يهتدى علما ليس فوقه علم ولا يصل إليه علم كائننا لمن كان.

ثالثها- أن قوله: ﴿مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيه حرف جر حذف دل عليه قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، ف ﴿مَنْ﴾: على حد تعبير النحويين منصوب بتنزع الخافض.

رابعاً- أن قوله تعالى: ﴿يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ عبر بالمضارع للدلالة على بقاءه في الضلال مع تجددته، كلما جاء تارة يضل عنه، ويزداد إيغالا في الضلال، ومعنى «عن سبيله»، أى عن طريق الهداية، والوصول إلى الحق المبين.

خامساً- أن الله سبحانه وتعالى أكد علمه الذى لا يصل إليه علم؛ بـ «إن» الدالة على التوكيد، وبالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، الذى يدل على تأكيد الخبر.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ العطف على «هو» فى الجملة السابقة، وتكرر ضمير الفصل تأكيدا للإسناد، وعبر بالصفة بالنسبة لمن لم يضلوا، تأكيد لهدايتهم، وأنهم بسلوكهم طريق الحق، قد أثار الله تعالى قلوبهم، فكانوا مهتدين بهدائيه.

الله أحل الطيبات

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرَ لَيُضْلِلُونَ

بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾
 وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
 سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْثَلَهُمْ يُذَكَّرُ
 اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى
 أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْنِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

نهى الله تعالى عن اتباع المشركين خاصة، والجماعات من غير نظر عامة، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الضلال الذى كانوا يتبعونه فكانوا يأكلون ما ذبح باسم أصنامهم، وما ذبح على نصبيها، وكانوا يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام، ويزعمون أن تحريم ذلك من الله؛ لذلك أباح الله تعالى للمؤمنين أن يأكلوا مما ذكر عليه اسم الله، وألا يأكلوا مما لم يذكر عليه اسم الله، وألا يحرموا على أنفسهم إلا ما حرم الله، فقال تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. (الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، إن كنتم قد نهيتم عن اتباع المشركين فى تحريمهم وتحليلهم، وتحريمهم بعض ما أحل الله - فكلوا مما ذكر اسم الله تعالى عليه.

وقد دلت هذه الجملة السامية على أمرين:

أولهما- إباحة ما ذكر اسم الله عليه تعالى عند ذبحه، فإن الذبح بإنهار الدم يكون تطهيرا له من الخبث الحسى، وذكر الله تعالى يكون تطهيرا معنويا من خبث الوثنية.

ثانيهما- أن كل الأنعام مباح أكله بعد تذكيتة مع ذكر اسم الله تعالى عليه، فلا يحرم المؤمن شيئا مما حرمه المشركون، وإنه رد على بعض المشركين الذين

استباحوا الميتة، فقد روى النسائي في سننه أن بعض المشركين قالوا: كيف نحل ذبيحة الإنسان، ولا نحل ذبيحة الله؟^(١) يقصدون أن الميت ذبيحة الله تعالى، وذلك غلط فاحش، وكذب على الله، فالذبح إنهار الدم وإزالة ما يكون فيها من خبائث تضر الجسم، والميتة ليس ذبحاً، وفيها بقاء الدم بخبائثه في الجسم.

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن المؤمن لا يتبع المشركين، ولا يحرم إلا ما حرم الله تعالى، ولا يحل إلا ما أحل الله، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه توكيد وصفهم بالإيمان بقوله: ﴿كُنْتُمْ﴾ الدالة على البقاء والاستمرار على وصف الإيمان، وأكد سبحانه وتعالى الإيمان بوصفهم به.

وهنا يثار بحث: هل تناول المباح يعد من الإيمان؟ ونقول في الجواب عن ذلك: إن تناول المباح له جانبان، جانب التناول، وهو مباح بالجزء، فيجوز للإنسان أن يأكل نوعاً، وألا يأكل آخر، فيجوز أن يأكل اللحم، وأن يأكل الطير، أو يأكل السمك، فكلها حلال طيب، ولكن لا يجوز أن يمتنع عنها جملة، فهي مباح بالجزء مطلوبة بالكل، فلا يجوز أن يمتنع عن كل المباحات، والجانب الثانى أن يحسب أن الامتناع عن بعض المباحات تعبد، كأن يمتنع عن اللحم من غير ضرورة جسمية كبعض الذين يسمون أنفسهم نباتيين، فإن هذا يكون ممنوعاً لغير ضرورة أو حاجة، فإنه يدخل فى النهى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ [المائدة]، وقال تعالى مستنكراً من حرم بعض اللباس من غير نص والطيبات من الرزق، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ [الأعراف].

ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

(ما) هنا للاستفهام الإنكارى، وهو بمعنى التوبيخ للمشركين إذ حرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله من بعض الأنعام كالسائبة والبحيرة والحام؛ وذلك لأنه

(١) رواه النسائي: الضحايا - تأويل قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (٤٤٣٧) عَنْ أَبِي عُبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قَالَ: خَاصَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا: مَا ذَبَحَ اللَّهُ فَلَا تَأْكُلُوهُ، وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ أَكَلْتُمُوهُ!

إنكار للواقع، وإنكار الواقع توبيخ، والمعنى أى حجة لكم فى ألا تأكلوا ما ذكر اسم الله تعالى عليه، لا دليل، فأنتم تحرمون على أنفسكم ما أحل الله لكم، وتنسبون التحريم لله سبحانه وتعالى وذلك افتراء على الله تعالى، وكذب عليه، كما قال تعالى فى هذا الشأن إذ حرموا ما حرموا مدعين أنه من عند الله: ﴿... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أى تحرمون على أنفسكم ما أباحه الله تعالى وقد فصل لكم ما حرم عليكم، أى بينه، فإنه حرام، وقد ذكر تفصيل ما حرم الله تعالى، فيما يأتى من سورة الأنعام فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قراءتان متواترتان، قراءة بالبناء للفاعل بفتح الفاء والحاء^(١)، ويكون المعنى تحرمون عليكم بعض الأنعام التى ذكر عليها اسم الله عند ذبحها، وأنتم تعلمون ما بينه الله من محرمات أباحها للضرورة، ولم يكن المنع فيها إلا فى حال الاختيار، ولا منع فيها فى حال الاضطرار.

ويكون التوبيخ على أنهم علموا تحريم الله وأن ما عداه حلال، ومع ذلك حرموا ما حرموا من تلقاء أنفسهم. والمعنى على قراءة البناء للمجهول بضم الفاء والحاء^(٢) يكون المعنى تحرمون ما تحرمون بغيا، وقد علم بالتفصيل ما حرم عليكم،

(١) «فَصَّلَ» بالفتح، «مَا حَرَّمَ» بالضم، قراءة عاصم وحمزة والكسائي، غير حفص والمفضل كلاهما عن عاصم. غاية الاختصار (٨٦٣).

(٢) «فَصَّلَ» بضم الفاء والحاء، قراءة ابن عاصم، وابن كثير، وأبو عمر والمفضل. وقرا الباقيون، وهم نافع وأبو جعفر وحفص ويعقوب: «فَصَّلَ» ما حَرَّمَ. المرجع السابق.

أى إن المحرم كان معلوما من الله، وهو تحريم أيضا بمقتضى الفطرة السليمة؛ لأنه لا تستبينه النفوس السليمة، ولا الأذواق التى تعاف الرجس القذر.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المعنى: إن كثيرا من الناس تسيطر عليهم الأوهام، حتى تزين لهم الضلال، فيتوهمون أنه حق، وما هو إلا الباطل والهوى هو الذى يخرج الوهم، ويحكمون من غير علم.

وقوله ﴿لِّيُضِلُّونَ﴾ فيها قراءتان إحداهما - بفتح الياء^(١) والمعنى أن كثيرا من الناس يضلون فى ذات أنفسهم بأهوائهم التى تسيطر عليهم بغير علم، بل بوهم توهموه، وحكموا على مقتضاه من غير علم أوتوه، وينسبون ذلك إلى الله، والله تعالى برىء منه؛ لأنه مفترى عليه.

وهناك قراءة أخرى بضم الياء، ويكون المعنى: إن كثيرا من الناس يُضلون غيرهم تبعا لأهوائهم التى تجعلهم يتوهمون تحريما فى أشياء بغير ما حرم الله تعالى، وينسبون ذلك لله تعالت قدرته بغير علم علموه من قبل الله سبحانه وتعالى.

وإن القراءتين متواترتان كل منهما قرآن كريم، فكل واحدة قرآن، ويكون بين القراءتين أنهم يضلون بأهوائهم فى ذات أنفسهم، حتى استمكن الضلال منهم فأضلوا غيرهم، فهم يضلون ويضلون بغير علم.

وهذا فيه تنبيه للمؤمنين، بأن يجتهدوا فى عدم اتباع المشركين الذين ضلوا وأضلوا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

وإن هؤلاء اعتدوا على الله فكذبوا عليه، واعتدوا على الناس فأضلواهم واعتدوا بتحريم ما لم يحرم عليهم، فكما أن الاعتداء يكون بتحليل ما حرم الله تعالى، فالاعتداء أيضا يكون بتحريم ما أحل الله.

(١) ﴿يُضِلُّونَ﴾ بضم الياء، قراءة عاصم وحمزة والكسائى وخلف غير المفضل، و ﴿يُضِلُّونَ﴾ بفتحها ابن كثير وأبو عمرو. وقرأ الباقون وهم نافع وأبو جعفر وروح - بفتح الياء. غاية الاختصار (٨٦٤).

وأفعل التفضيل على غير بابيه، والمراد أن الله تعالى يعلم علما، ليس فوقه علم بمن يعتدون، وعبر سبحانه وتعالى بالوصف «بِالْمُعْتَدِينَ» على أن الاعتداء صار وصفا لهم، إذ اعتدوا فأشركوا، واعتدوا فحرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله تعالى من الطيبات.

وقد أكد سبحانه علمه باعتدائهم بذكر أنه رب كل شيء، والرب يعلم بمن خلق وربى، وأكد به ضمير الفصل: «هو» وهو يدل على أنه وحده العليم بالمعتدين، وأكد به «إِنَّ»، وهذا فيه إنذار شديد للمعتدين.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ الإثم هو ما يبطئ عن الخير، وأطلق على كل شر إثم، وعلى كل مخالفة لأمر الله تعالى إثم، وقد عد النبي ﷺ أن الإثم يتدنى من القلب؛ ولذا قال فيما رواه مسلم: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١).

وقد جاء ذلك النص السامى فى هذا الموضع الذى يذكر فيه إباحة الذبائح التى ذكر فيها اسم الله للإشارة إلى أن الأساس فى الذبائح وغيرها، هو ترك الآثام، فذكر اسم غير الله إثم ظاهر وهو شرك واجب تركه، وإن بجوار ترك الإثم الظاهر إثم باطن، وهو ما يتعلق بالنفس من حقد وحسد، ورغبة فى الشر، والدس، والنميمة، والغيبة، والههم بالشر، بحيث لا يكون التخلف عنه بقدرته، بل يكون بأمر خارج عن إرادته، والشروع قسمان: شرور ظاهرة كالقتل والزنى والقذف وشرب الخمر والسرقه، وقطع الطريق، والمجاهرة بالمعاصى، وشر خفى وهو أن تركس النفس فى الآثام، فلا يكون فى النفس، إلا عزم على الشر، أو إخفاء الضغن على الناس، وألا ينوى الخير، وأن يفعل الأمر الحسن مُرَائِيًا، وأن يزكى ويصلى مُرَائِيًا، وذلك هو الشرك الخفى، كما قال ﷺ: «من تصدق يرائي فقد أشرك»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وقد حرم الله الإثم الظاهر والخفى، فى هذه الآية، فقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ...﴾ (١٢٠) أى اتركوا الإثم فى ظاهره وباطنه، وعبر عن الإثم الخفى بباطنه؛ لأنه مستور فى باطن النفس غير معلوم، والإثم واحد فى الحالين، ظهر أو بطن، ولقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ (٣٢) [الأعراف].

وفى هذه الآية سمى الإثم فواحش؛ لأنه زيادة عن الفطرة زيادة فاحشة، فما من معصية إلا كان فيها خروج فاحش على الفطرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ هذا هو الجزاء الذى كتبه الله تعالى، لمرتكبي الآثام ما ظهر منها وما بطن، والذين يكسبون الإثم، سواء أكانوا يكسبونه بجوارحهم الظاهرة، أم يكتنونه فى نفوسهم مع اعتزاله، والحرص عليه، ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (السين) هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل، وعبر سبحانه وتعالى بالموصول للإشارة إلى أن الصلة سبب الجزاء، وأن الجزاء يعم كل من يفعل، وكسب الإثم ارتكابه بقصد وإصرار عليه، وإغلاق باب التوبة، والكسب يجعله يسكن فى النفس حتى يصير لونا من ألوانها، أو تعزيزه والمملكة فيها، فلا يقال إنه كسب السوء، من يفعله مرة أو مرتين عن جهالة ثم يتوب من قريب.

وقال تعالى فى الجزاء: ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ والاعتراف الكسب، ويطلق كثيرا على الكسب الآثم، وقد يطلق فى قلة على كسب الخير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٢) [الشورى].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَْسِقٌ﴾ أباح الله أن نأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وندد بالذين لا يأكلون مما ذكر اسم الله عن يحرمون بعض الأنعام؛ لأنهم حرموا ما أحل الله تعالى لهم.

وفى هذه يبين تحريم ما ذكر عليه غير اسم الله، كأن يذبح على النصب، ويذبح باسم صنم من الأصنام أو شخص من الأشخاص تقديساً له، وتقرباً عن طريقه، فإنه لا يحل، كما قال فى آية أخرى فى المحرمات من الذبائح ﴿... أو فسقاً أهلٍ لغيرِ الله به...﴾ (١٤٥) [الأنعام].

وفى هذه الآية الكريمة أكد سبحانه أن الإهلال عند الذبح لغير الله تعالى فسق، فقال تعالى: ﴿وإنه لفسق﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى أنه فسق بـ (إن) المؤكدة، و(اللام) المؤكدة، والجملة الإسمية.

وقد تكلم الفقهاء فى هذا الموضوع موضحين موجهين الآيات الكريمة غير مخالفين لها.

ذلك أن أمرين نصَّ عليهما:

أولهما- إباحة ما ذكر عليه اسم الله تعالى، وإن ذلك مباح بالاتفاق لأنه منصوص عليه، ولأن الله وبخ الذين لا يأكلون ما ذكر عليه اسم الله، ولأنه يكون قد حرم ما أحل الله تعالى.

ثانيهما- أن الله تعالى نص على النهى عن أكل ما أهل به لغير الله، وأكد النهى بـ (إن) ذلك فسق أى خروج على الدين، ولكن بقيت حال لم ينص عليها نصاً صريحاً، وهى الحال التى يترك فيها اسم الله تعالى سهواً أو عمداً.

قال بعض العلماء: إنه فى حال العمد يكون الأكل غير حلال، وقيل ولو كان سهواً، وحجتهم فى ذلك، أن الله تعالى أباح ما ذكر عليه اسم الله تعالى، فكان بمفهوم المخالفة لا يباح ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، ولأنه نص على تحريم ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، وإن النبى ﷺ ذكر أن المباح هو ما أنهر دمه وذكر عليه اسم الله تعالى عند ذبحه، ولأن النبى ﷺ ذكر أن الصيد لا يحل إلا إذا ذكر اسم الله تعالى عند إرسال السهم أو الكلب الصائد، فقد روى فى الصحيحين «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكر اسم الله عليه فكلوه»^(١)، هذا نظر

(١) سبق تخريجه.

متفق مع النصوص المذكورة فى هذه الآية، ويتفق مع الأحاديث الواردة فى هذا الباب.

وقال آخرون من الفقهاء: إن المحرم هو ما ذبح بأنه لغير الله تعالى ويباح غيره لتلاقى الآيتين فى المعنى، إذ إنه ذكر فى تحريم المطاعم أن ما أهل لغير الله هو المحرم، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ... (١٤٥)﴾ [الأنعام]، فمعنى ﴿مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أى ذكر غيره، والدليل على ذلك الآية الأخرى، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ﴾، والضمير يعود إلى الأكل مما لم يذكر عليه اسم الله، أى الذبيحة، ولا يمكن أن يكون فسقا إلا إذا كان ثمة ذكر لغير الله تعالى.

وفوق ذلك فإنه من المقررات الشرعية أن ذبائح أهل الكتاب حلال أكلها، فقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَحْلَلْتُ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ (٥)﴾ [المائدة].

وهكذا نرى فريقا حرم ما لم يذكر عليه اسم الله سواء أتركه عمدا أو سهوا، وآخرون قالوا: يحل، سواء أتركه عمدا أو سهوا، وهناك قول وسط بين القولين المحل والمحرم، فقال: إن لم يذكر اسم الله سهوا، فإنها تحل، وإن تركه عمدا لا تحل الذبيحة، وهذا الرأى أقرب إلى روح الإسلام؛ لأن من لم يذكر اسم الله سهوا، فإنه قد رفع الخطأ والنسيان، وما كان بإكراه، وأما من تركه عمدا فقد أعرض عن ذكر الله، وذلك إثم لا يبرره شىء.

ونحن نميل إلى هذا الرأى.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ الظاهر أن الشياطين هنا هم شياطين الإنس يوسوسون إلى أصدقائهم ليجادلوا المؤمنين فى أمر ما أبيح من

الأطعمة وما لم يبح، فقد روى أن بعض المشركين كما رويناه من قبل كان يقول للمؤمنين: ما ذبحه الله لا تأكلونه، وما ذبحتموه تأكلونه، وإنهم يفعلون ذلك ليشيروا جدلاً بين المؤمنين؛ ليشككوه في أمر دينهم، والجدل في غير موضع الجدل إثارة للريب والشكوك وإثارة الريب تضعف الإيمان بالحق، وتفتح الأبواب للباطل، وإذا فتحت الأبواب للباطل في القلوب ضلت الأفهام وارتابت العقول والنفوس؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أى إن سايرتموهم في جدلهم، وفتحتم لهم صدوركم، فإنهم يجرونكم إلى طاعتهم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون مثلهم، وهنا قسم مقدر في القول، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هو جواب القسم بدليل وجود (اللام)، وبدليل أنه لم توجد (الفاء) إذ لو كانت جواباً للشرط لجاء بالفاء.

وهذا تأكيد لإشراك المؤمنين إن سايروهم في الجدل في أمور ليست موضع جدل، فالجدل -كما قلت- يولد الريب. اللهم اكف أمة محمد شر جدل أهلها، وامنعها الإيمان بما تقول، وما تدعو إليه.

الإيمان حياة والشرك ظلمات

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا

يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
 آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِحَقِّ نُؤْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ
 أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
 صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

كانت الآيات السابقة في أحوال المشركين من إشراك بالله إلى سيطرة
 الأوهام عليهم، حتى حرموا على أنفسهم ما أحل الله تعالى، وفي هذه الآيات
 يبين سبحانه وتعالى أن الشرك موت نفسى كمن يموت موتاً حسياً، وأن الهداية
 حياة بعد الموت، وأنها نور، وأن الشرك ظلمات متكاثفة بعضها فوق بعض تبتدىء
 بالاهواء، وهى ظلمة، ثم بالأوهام، وهى ظلمة، ثم تنتهى بالشرك وهو ظلمات.

شبه الله تعالى حال من يكون فى جهل ثم يتجه إلى الهداية كحال من
 يكون ميتاً فيحييه الله ويجعل له نوراً يمشى به فى الناس، ليهتدى به، ثم نفى أن
 يكون ذلك الحى المهدي بعد الجهل الذى هو الموت نفى أن يكون مثله كمثل من
 يعيش فى ظلمات من الجهالة والضلالة لا يمكن أن يخرج منها، وهذا معنى قوله
 تعالى:

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ
 لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

(الوار) عاطفة، هذه الجملة عطفت على ما قبلها من ذكر أوهام المشركين،
 وطلبهم آيات وتحريمهم ما أحل الله، وإحالة الإثم منهم ظاهراً وباطناً، وهذه الآية
 هى بيان للفرق بين المؤمن والمشرک، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فهو نفى
 للمشابهة، والمعنى لا يستوى من يكون ميتاً بالجهالة فأحييناه بالإسلام والهداية

والمعرفة وجعلنا له إدراكا ومعرفة يمشى بها فى الناس هاديا لهم يرشدهم ويسترشد بهم، كمن مثله من نشأ فى الظلمات لا يخرج منها، بل يتردى فيها يتحرك فى جنباتها، ولا يخرج، وعبر سبحانه عن عدم خروجه من الظلمات بقوله ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، أى أنه أَلِفَ الظلمات، وصار لا يمكن أن يخرج منها، فعبر باسم الفاعل أى صار مثل المقيم فى الظلمات، وأكد سبحانه وتعالى نفى الخروج بالباء وبالوصف، فهو مرتكس فى الظلمات ليس بخارج منها.

فلا يستوى - بمقتضى هذا النفى - المؤمن والمشرک، كما لا يستوى النور والظلمة، كما لا يستوى المبصر والأعمى، وهذا كقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۖ (٢٢) إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۖ (٢٣)﴾ [فاطر].

﴿كَذَٰلِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كهذه الحال التى صاروا بها فى ظلمات ليسوا بخارجين منها، لأنهم استمروا فى الظلام والقسوة، واستطابوا الإقامة فيه لا يخرجون - مثل هذه الحال زين للكافرين ما كانوا يعملونه من إنكار، وبقاء فى الباطل، حتى حسبوا أن ما هم عليه، هو الحق الذى لا يأتیه الباطل.

وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ﴾ بالبناء للمجهول للإشارة إلى أنه لم يكن لهم من عقل أو فكر أو هداية، إنما زين لهم بأهوائهم وأوهامهم، فضلوا ضلالا بعيدا، و«ما» هنا موصول بمعنى الذى، و«كانوا» دالة على استمرار عملهم، وسيكون ما زينته لهم أوهامهم وبالا عليهم يوم القيامة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

كان النبى ﷺ يعارض، ويُمكر به، ويُدبر له وللمؤمنين زعماء مكة وكبرائها، وذوو البيوتات الكبيرة فيها، يؤذون النبى ﷺ، وضعفاء المؤمنين، وكانوا هم الذين يدبرون ما يقال توهينا لأمر الدعوة، وإدحاضا لقول الحق،

يَنسَوْنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَمَانَةٍ قَرَبَتْهُ مِنْهُمْ، وجعلته الثقة فيهم، ويقولون مرة كذاب، ويقولون أملاه عليه قوم آخرون، ويقولون ثالثة: إنه مسحور، وما كان يدبر ذلك القول إلا إذا كانوا بحكم وصفهم الجاهلى أشرافا وأكابر، فبين تعالى أن ذلك شأن أعداء النبوات، ويكون أكابرهم مجرميهم ويمكرون بالنبي ومن معه؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

الأكابر جمع أكبر، وهو الذى بلغ أعلى العلو فى قومه على حسب مقياس العلو عندهم، وكذلك، أى كالحال التى ترى من ذوى البيوتات فى قومك جعلنا فى كل قرية، أى مدينة عظيمة، أكابر مجرميها يمكرون ويدبرون وقوله تعالى: ﴿أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا﴾ الظاهر منها أن «أكابر» مضافة إلى «مجرميها»، أى صيرنا فى كل قرية مجرميها، ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أى يدبرون ما يقاومون به الأنبياء، ويعارضون، ويكون المؤدى الذين يعارضون الأنبياء فى القرى أى المدن هم الذين يمكرون المكر السيئ فيها، وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٢٥)﴾ [سبا].

وإن مقياس الكبر عندهم هو النسب وكثرة المال والقوة الظاهرة، وليست الأخلاق الفاضلة والعقيدة السليمة والشرف الذاتى الذى لا يكتسب بالنسب، ولكن يكتسب بالخلال الكريمة الفاضلة.

ومعنى ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، أى ليدبروا الأمور العامة كما يحبون، أى يسيطرون على الفكر العام، فلا يكون رأى العام عندهم فاضلا، وإنما يكون فاسدا أتيما.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى إن عاقبة التدبير الفاسد الأثيم يعود عليهم بالوبال؛ لأنهم يريدون إعلاء الرذيلة بتدبيرهم وإنكار الحق بتفكيرهم،

وشيوع الشرك بتقليدهم لآبائهم، وإن ذلك يؤدي - لا محالة - إلى الهلاك، ومصدق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾ [الإسراء]. وهكذا لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وقد قال تعالى أيضا: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف].

مكر هؤلاء أن يحرضوا على معارضة الرسول، وأن يلقنوا الناس ما يردون به على دعوة الحق التي جاء بها النذير من قِبَلِ الله تعالى، وأن يزيدوا معارضة الحق وأن يشبهوهم على الشرك.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله كما يكون؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، أى أن مآل مكرهم عائد بالوبال عليهم، وقد أكد سبحانه أن مآل الوبال على أنفسهم، لا على النذير الذى أنذرهم، أكد ذلك بالنفى ثم الإثبات وذلك فيه معنى القصر، أى أن المكر فى عاقبته لا يكون إلا عليهم، فهم فى حقيقة الأمر يَمْكُرُونَ بأنفسهم، لا بغيرهم.

وما يشعرون بتلك العاقبة؛ لأنهم سادرون فى غيهم، لا يرشدون ولا يفكرون، عميت عليهم أمورهم، فلا يشعرون بمغبة ما يفعلون، ولا بتتبعته، وإنهم إذ يقاومون أمر الله ونهيه اللذين حملهما نبيه المرسل - يقاومون مالك كل شئ والعليم بعواقب الأمور.

وكان مكرهم بأنفسهم؛ لأنهم يضللونها، ويزيدونها ضلالا، إذ إن كثرة التدبير للدفاع عن الضلال يزيد الضال ضلالا، والخاسر خسرانا، وإن عاقبة كل ذلك عليهم، إذ سينالون جزاء ذلك، وسيحملون أوزارهم، وأوزار الذين يضلونهم بمكرهم، وسوء تدبيرهم.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ سمعوا القرآن الكريم، وهو يتلو عليهم قصص النبيين وآياتهم التى أجراها الله تعالى على

أيديهم من أخبار كسفينة نوح وإغراق قومه، وأخبار موسى، وتسع آيات بينات جاءت على يده، وأخبار شعيب وصالح ولوط وهود، وما جرت من آيات حسية نزلت لهم ليؤمنوا، ونزلت بهم إذ كفروا، والمشركون متعتون دائما ليسوا طلاب هداية، ولكنهم طلاب إغنيات، وإرهاق ليرروا جحودهم، ومظهر إغنائهم أن يطلبوا آيات وحسبوا أو أظهروا أن آية القرآن- وهو المعجزة الكبرى- لا تكفيهم^(١)، وقد طلب منهم أن يأتوا بمثله فعجزوا وبدا عجزهم عيانا، ومع ذلك أخذوا يمارون، ويطلبون آيات، أو تأتيهم آية مثل ما أوتى الرسل أنفسهم. ومع أنهم لم يؤمنوا بالقرآن، ولم يعرفوا الرسل إلا عن طريقه، طلبوا آيات كآيات الرسل الذين لم يؤمنوا بهم وقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

قالوا مؤكداين النفي بـ (لن) بأنهم لا يؤمنون، ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾، أى حتى نؤتى من المعجزات مثل ما أوتى رسل الله.

أى أنهم إذا جاءتهم آية بينة تدل على رسالة النبي ﷺ قالوا مؤكداين النفي، لن نؤمن حتى نؤتى الآيات التى أوتيتها رسل الله تعالى، أى حتى ينزل علينا كما نزل عليهم، أو تكلمنا الملائكة كما كلموهم، وجاء ذلك على لسان بعض المشركين الذين يمكرون فى أم القرى، وقد قال تعالى عنهم، إنهم يريدون أن يكونوا كالرسل لهم صحف منشرة ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

وروى أنه عندما دعا النبي ﷺ قومه فى مكة، وأبلغهم أنه رسول من رب العالمين، قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك، لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا، وقال أبو جهل: والله لا نرضى ولا نتبعه حتى يأتينا وحى كما يأتيه.

(١) راجع كتاب (المعجزة الكبرى) للمؤلف - طبعة دار الفكر العربى. وقد نصح الإمام رحمه الله تعالى فى المقدمة بقراءته كتقدمة لهذا التفسير.

وهذا يدل على أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء مثل الأنبياء، ورسلا مثل الرسل قال هؤلاء المشركون إنهم لا يؤمنون إلا إذ أنزل عليهم الذى ينزل على الرسل، فبين الله تعالى أن هذه رسالة يختار الله تعالى لها من يشاء بحكمته وعلمه الذى أحاط بكل شيء، فقال تعالت كلماته:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الله ذو الجلال والإكرام، والعلم والقدرة على كل شيء أعلم حيث يجعل رسالته، وأفعل التفضيل ليس على بابه، وكذلك كل أفعل تفضيل يوصف به الله تعالى؛ لأنه لا توجد مفاضلة بينه وبين أحد من خلقه فى أى وصف من الأوصاف، ومعنى أفعل التفضيل فى العلم بالنسبة لله تعالى على هذا أن الله تعالى يعلم مواضع الرسالة علما ليس فوقه علم قط؛ لأنه علم الله العليم بما كان وما سيكون، وما هو كائن إلى يوم الدين.

وقوله تعالى ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (حيث) ظرف مكان، أى الموضع من خلقه الذى يرتضيه ويصطفيه رسولا فهو الذى يريه على عينه، ويشب على التقوى والعفة والأمانة، والخلق الكريم، حتى صح له أن يقول: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»^(١).

وإن ذلك لبين لهم لو كانوا لا يجحدون بالحق إذا بدت لهم بيناته، وظهرت آياته، ولقد كان من أوسطهم نسباً، فكان فى الذؤابة من قريش^(٢)، وكان أكرمهم خلقاً وأطيبهم نفساً، وأعفهم وأشدّهم أمانة، حتى كان يقال: الأمين، وسموه بهذا الاسم، فكانوا إذا أطلقوا كلمة (الأمين) لا تنصرف إلا إليه عليه الصلاة والسلام، وكانوا يرضون حكمه، إذا جاء الأمر بالاحتكام فعندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود بعد أن بنوا الكعبة ارتضوا أن يكون الحكم أول من يدخل

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير: ج ١، ص ٢١.

(٢) الذؤابة: الشعر المصفور، واستعير هنا للدلالة على الصدارة، وأنه كان موضع الشرف والتباهى فيهم. صلى الله عليه وسلم.

البيت، فكان الأمين أول من دخل البيت، فقالوا مطمئنين راضين هذا الأمين، وطابت نفوسهم بحكمه.

فالله تعالى العليم الحكيم، قد وضع رسالته في خيرهم بإقرارهم فكيف يمارون من بعد ذلك، ويقول قائلهم كبرا وعلوا في الأرض: أنا أولى، ويقول آخر: نريد أن نؤتي مثل ما أوتي الرسل، قالوا ذلك استكبارا فكان عقابهم صغارا، وعذابا أليما، ولذا قال تعالى:

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

الصَّغَارُ: هو الضيم والذل والهوان، فقد كانوا الأكابر الذين أجمروا، فكان العقاب الهوان، وكان عقاب الإجرام الذي ارتكبه واستمره وداوموا عليه العذاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ فيه (السين) لتأكيد الوقوع في المستقبل القريب، والتعبير بالموصول فيه فائدتان بيانيتان، أولاهما- أنها تفيد أن الصلة هي سبب هذا العذاب الشديد، والثانية- تسجيل الإجرام عليه، وأنهم كانوا فيما يمكرون مجرمين، ولم يكونوا أشرفا كراما، كما هو شأن الأكابر الذين يستعلون بأنسابهم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أى بسبب مكرهم السيء، وهذا يفيد أن الكلام في موضوع الأكابر المجرمين الذين ذكروا في الآية السابقة؛ ولذا قالوا إن (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ واو عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾.

اللهم أبعدنا عن الإجرام وأسبابه، وعن الطغيان وبواعثه.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ
 أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ
 فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

بين الله تعالى في هذه الآية أن الناس صنفان صنف سلك طريق الهداية
 فهداه الله تعالى وشرح صدره للإسلام، فدخله مطمئناً نير القلب، وقسم قد كتب
 الله تعالى عليه الشقوة، فضاقت صدره ولم يدخل النور قلبه، وهذا بعض ما يشير
 إليه النص السامي.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

هذا قسم المهديين الذين كتبهم في عباده المؤمنين، وإنه قد فهم القسمان
 فهماً إجمالياً من حال الجحود عند الوثنيين وتديبرهم الأذى للمؤمنين، ففهم أن
 هناك فريقين فريق اهتدى وآمن، وفريق كفر وجحد وأنزل الأذى، وفي هذا يبين
 الله كيف يدخل الإيمان القلوب، وكيف يكون الصد عن سبيل الله.

والفاء مترتبة على ما فهم من أن الناس فريقان فهى لبيان الحال النفسية،
 ولتفصيلها فمن يرد الله أن يهديه فالأمر أولاً للهداية الله تعالى وإرادته، وإنه لا بد
 أن يكون من حال النفس ما يجعلها تتجه إلى الهداية، فلا تكون معوجة بل تكون
 إرادة العبد مستقيمة خالصة نقية من الشوائب، ويكون الاتجاه مستقيماً، فتكون
 إرادة للهداية، ويريد سبحانه أن يهديه مع اختباره من غير إجباره، و﴿يَشْرَحْ﴾
 معناها يُوسِّع؛ لأن معنى (شرح) في اللغة: التوسعة، والصدر القلب، وفي

العبارة مجاز، شبه اتساع القلب للحقائق بالشرع الحسى، وكل تعبيرات القرآن عن المعانى النفسية بالألف الدالة على المحسوسات، من قبيل المجاز، يستعان به على بيان الأمور المعنوية، وقد سئل النبي ﷺ من عبد الله بن مسعود قال: هل ينشرح الصدر؟ فقال النبي ﷺ: «نعم يدخل القلب نور»، فقال ابن مسعود: فهل لذلك من علامة؟ فقال ﷺ: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(١).

وإن هذا يدل على أن شرح القلب، يكون بتوسعة المدارك وفهم قيمة هذه الحياة الفانية وإدراك أنها قنطرة للحياة الساقية، ومن غمَّ عليه ذلك فهو من الفريق الثانى الذى قال الله تعالى فيه:

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

ليس الإضلال من غير عمل من جانب من أراد الله تعالى إضلاله، إنما يكون بعمل من جانبه قد كتبه الله تعالى عليه، بأن تهوى نفسه فى طريق الضلالة بالميل إليها، والرغبة فيها، والحرص على طريق يدفعه إليه الغرور ونسيان الآخرة، وأن يعتقد أنه لا حياة إلا الدنيا وما فيها.

وإنه إذا سار على هذا النحو أراد الله تعالى له الضلال، والكل بما كتبه الله تعالى عليه، وإنه إذا أراد الله ضلاله على هذا النحو الذى بيناه، جعل صدره ضيقا حرجا، أى أن قلبه لا يتسع لغير ما ختم عليه، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة]. فالله تعالى يضيق صدره، وفى هذا أيضا مجاز، لأنه تشبيه للأمر المعنوى، وهو الإعراض عن الحق، وابتعاده عنه بالضيق الحسى، وإسناد الضيق إلى الصدر من ترشيح الاستعارة وتقويتها.

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٣٠١٠٤)، والحاكم فى المستدرک (٧٩٣٥)، ج ٤، ٣٤٦.

وقوله تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ قرئ بالفتح^(١)، على أنه اسم جنس جمعى لحرجة، وهى الأشجار الملتفة التى لا تسمح أن ترعى فيها راعية، والحرجة هى الشجرة التى تكون مختفية بين الأشجار لا يصل إليها.

وقرئ (حَرَجًا) بكسر الراء^(٢) بمعنى الضيق، وهى تأكيد للضيق أى ضيقا شديدا لا يمكن أن تدخله الهداية، وعلى تفسير الحرج بالفتح على اسم جنس جمعى للحرجة قيل إن الإمام عمر رضى الله عنه هو صاحب هذا التفسير.

فقد روى أنه سأل رجلا من الأعراب من أهل البادية عن الحرجة. فقال هى الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية ولا شئ، فقال عمر رضى الله عنه، وكذلك قلب المنافق لا يصل إليه خير.

وعلى هذا التفسير، يكون فى الكلام تشبيه، أو استعارة، وهو تشبيه قلب الكافر فى أنه لا يتنفع به، ولا يصل إليه بالحرج، وهو الشجر الملتف الذى لا ترى الأرض من تحته، ولا تصل إليه راعية ولا وحشية ولا شئ، لأنه لا يتنفع به فى شئ.

﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

هذا تشبيه آخر للكافر، (يَصْعَدُ) أصلها يتصعد، وقلب التاء صادًا، وأدغمت الصاد فى الصاد، وقرئ يَصَّاعِدُ^(٣) وأصله تصاعد، وكان التصريف ما ذكرنا فى يصعد، وهما بمعنى واحد، وتزيد تصاعد على تصعد؛ فى أنها تدل على محاولة الصعود بعد الصعود، وذلك أثقل.

(١) ﴿حَرَجًا﴾ بالفتح، كلهم إلا نافع وأبو جعفر وأبو بكر. غاية الاختصار (٨٦٦).

(٢) ﴿حَرَجًا﴾ بكسر الراء، نافع وأبو جعفر وأبو بكر. السابق.

(٣) ﴿يَصَّاعِدُ﴾ بتشديد الصاد وبالألف، قراءة أبو بكر والمفضل عن عاصم، وقرأها ﴿يَصْعَدُ﴾ بالتخفيف ابن كثير، وقرأ الباقون بالتشديد بغير ألف ﴿يَصْعَدُ﴾. غاية الاختصار.

والمعنى أنه شبهت حال الكافر في جهده، وثقل الإيمان عليه، بمخالفته الفطرة بذلك - بحال من يحمل عبثاً ثقيلاً، ويريد أن يصاعد إلى السماء فينوء به حملة ولا يصل.

وإن ذلك يدل على أمرين: أولهما - أنه مهما يكن الجحود فإن الفطرة تقاومه، وتجعله عبثاً ثقيلاً، ومن يحارب الفطرة، فإنه يبوء بخسران مبین.

ثانيهما - أنها تشير إلى أن الضيق الشديد الذي جعله الله تعالى في قلب الكافر يجعله غير قادر على الرقى إلى الحقائق السماوية التي جاء بها الإسلام.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى حال المشركين التي أركسوا، والتشبيه هو تشبيه الرجس الذي ينزل بهم، و﴿الرِّجْسُ﴾ أصل معناه الفتن أى الأمر القذر، الذى تستقذره النفوس وتعافه، وفيه بيان أن الكفر أمر قبيح تعافه العقول المستقيمة، وكيف تدرك العقول أن حجراً يصنع بأيديهم وهو لا يضر ولا ينفع يعبدونه.

والمعنى لهذه الحال التي رأيناها فى الكافرين، ووصف الله تعالى الكافرين بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك وصف لهم بأقل أوصافهم، وهو أنهم لا يؤمنون، النفى نفى للمضارع، وهو أنه يدل على الدوام المتجدد آناً بعد آن، أى يتكرر، بتكرار الآيات التي لا تزيدهم إلا كفراً.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

بعد أن بين الله تعالى شرح صدر المؤمن لنور الحق، وضيق صدر الكافر، حتى لا يدخل النور قلبه، بعد ذلك بين الصراط المستقيم، والصراط هو الطريق والخط المستقيم.

والإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى ما أوحى للنبي ﷺ مما نزل عليه من الدين والقرآن، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ وهى حال من اسم الإشارة، وهو حكم من الله تعالى بأنه مستقيم، لا عوج فيه، ولا

التواء، والخط المستقيم يصل إلى الحق بأقل طريق، وقال تعالى إن ذلك الحق واضح نير مسلوك، ولذا قال تعالت كلماته: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أى بينا الأدلة القائمة على صدقه، أو يراد من الآيات القرآنية أى بينها ووضحناها لقوم يذكرون، من شأنهم التذكر والإدراك السليم، فلم يطمس على قلوبهم، ولم تضيق عن الحق صدورهم، والله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الجزء

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا
يَمَعَّ شَرَّ الْجِنِّ قَدْ أَسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ
مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي
أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه حال الناس فى الدنيا بين مهدي كتبت له الهداية، وبين شقى كتبت له الغواية، وبين من هداه الله إلى الصراط المستقيم صراط الله، أخذ يبين سبحانه جزاء كل من الفريقين، وابتدأ سبحانه بمن هداه الله تعالى إلى صراط العزيز الحميد، فقال تعالى:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

الضمير فى (لهم) يعود على من فصل لهم الآيات، فتذكرها، إذ يقول سبحانه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والسلام معناه الأمن، ودار السلام هى الجنة، وسميت دار السلام لأنها دار الأمن من الخوف، فلا يخافون أحدا، ولا يحزنون على شئ فاتهم فيها، وهى دار إقامة وفيها النعيم المقيم، وغيرهم فى العذاب، وهم فيها يتمتعون بأمرين أولهما النعيم الدائم الذى لا يخافون فيه انقطاعا.

ثانى الأمرين أنهم يكونون عند ربهم، فهم يلقون الله تعالى، وهو وحده نعيم نفسى لا يعدله نعيم، وهو الذى ربهم فى الدنيا، ويربهم فى الآخرة، فهم فى رحمته فى الدنيا، وقد قاموا بالشكر، وفى رحمته فى الآخرة لاستحقاقهم الأجر، فالشكر منهم، والأجر من الله تعالى متقابلان، وهما البيع الرابع.

وأكد الله تعالى الأمر الثانى وهو قربهم من الله تعالى فقال تعالى:

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(الولى) المولى والنصير، والحبيب، والله سبحانه وتعالى هو ذلك كله بالنسبة للمؤمن الطائع الذى سلك طريق الله تعالى المستقيم، وتذكر الله تعالى فى الدنيا، فى سره وجهره، فى ظاهره وباطنه، فهو وليه إذ أخرجه من الظلمات إلى النور وهو وليه إذ شرح قلبه للإسلام وهو وليه إذ وقاه الله تعالى ضر النفس بالانحراف والظلم، ثم هو وليه إذ لقيه فى الآخرة ووقاه عذاب الجحيم.

وقد تكرم الله سبحانه وتعالى - وهو مجرى النعم - بأن جعل نعيم الجنة جزاء، وهو المتفضل، وله المن والفضل، فقال تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى أنهم استحقوا دار السلام عند ربهم وولايته بالذى عملوا فى الدنيا وداوموا عليه، وكان يتجدد عملهم بتجدد شعورهم بنعمة الله تعالى عليهم، ذلك الفضل من الله، والله يختص برحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾.

بين الله الجزاء الخاص بالمؤمنين أولاً؛ لأن بيان جزاء الطاعة أعظم أهمية من جزاء العذاب؛ ولذا بينه سبحانه وتعالى أولاً، لمكان التبشير، والله تعالى قدم التبشير على الإنذار رجاء الطاعة.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ (الواو) تصل الكلام السابق بالكلام اللاحق، وإن (الواو) قد تكون عاطفة على ما فهم من الكلام السابق.

(ويوم) مفعول متعلق بفعل معناه اذكر لهم يوم يحشرهم الله جميعاً، ويخاطبهم سبحانه بهذا الخطاب ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ﴾، والمراد - والله أعلم - قد شددتم في طلب الكثرة من الإنس لتضلوا، فالسين والتاء للطلب، وخبر الله تعالى بطلب استكثارهم يدل على أنهم نالوا هذه الكثرة، فأغووها، كما قال تعالى في كتابه العزيز؛ عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ [يس].

والجن هنا هم إبليس وجنده من الشياطين كما تدل على ذلك الآيات الكريمة، وكما يدل على قسمه بأن يغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين، ولم يرد الجن، أو لم يذكر الله تعالى جواباً لهم؛ لأن ماضى قولهم يدل على فعلهم، فلم يكن سبيل لأن يردوا، وقد توعدوا المؤمنين وجأهروا بعصيان ربهم، فلم يبق إلا أن ينالوا الجزاء راضين أو ساخطين ﴿وَقَالَ أُولِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الْمُغْرورِينَ، لأنهم لم يكونوا قد رأوا العذاب بما ذكر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾.

قالوا غير مدركين عاقبة أقوالهم ظانين أنهم فى لهو كلهو الدنيا، أو لعب كلعبها، أو قائلين بلسان الواقع الذى هم فيه، فهم قالوا بلسان الحال، لا بلسان المقال، وقد نطقت أيديهم وجوارحهم بما كانوا يفعلون، ﴿رَبَّنَا﴾ شاعرين بمعانى الربوبية الكاملة التى لم يشعروا بها فى الدنيا، ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، أى انتفع بعضنا ببعض انتفاع متعة وبهجة، استمتعنا بإغرائهم، فاجترفنا من اللذات والشهوات، والأحقاد، والعداوات، ووجدوا هم متعة فى إغرائنا، وإغوائنا، وتلهينا، وتعبائنا، وكأنهم يجدون متعة فى متعتنا، ولذة فى لذاتنا، كانت هذه حالهم، ونريد أن نذكر إشارة بيانية فى التعبير بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فإن التعبير بالخشى، يشير إلى أمرين أولهما - أنه يجمعهم غير مختارين ولا مريدين، وثانيهما - أنه يشير إلى كثرتهم، وأن الكثرة الكاثرة لم تمنعه تعالى من جمعهم وحسابهم، ومؤاخذتهم على ما فعلوا، ولقد قال تعالى فى جزائهم:

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

قال جل جلاله بلسان الفعل والمقال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أى محل إقامتكم الدائم الخالد الذى لا ينتهى، فله ابتداء وليس له انتهاء، و(المثوى) اسم مكان من ثوى يثوى بمعنى أقام إقامة دائمة لا يخرج منها مختارا، فالغالب فيها الإقامة الاختيارية، وقد عبر بها هنا تهكما عليهم، كأنهم اختاروا بأفعالهم؛ إذ قد اختاروا أسبابها، ومن اختار بابا فقد اختار الدخول فيه، وإن التعبير بـ (خالدين) يدل على البقاء الدائم بمشيئة الله تعالى الخالدة، وبإذاره بذلك فى عدة من آياته.

ولكنه قال سبحانه وتعالى مستثنيا: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فهل هذا الاستثناء يدل على أن النار لها نهاية، تنتهى بمشيئة الله تعالى وأنه لا خلود فيها؟ وكذا قال بعض العلماء ونسب هذا القول إلى ابن تيمية، وقرره ابن القيم فى كتابه حادى الأرواح.

ونحن نرى أنه قول يناقض الآيات الكثيرة الواردة في خلود الجنة وخلود النار، وأن الحياة الآخرة ليست إلى فناء، وإنما هي دار البقاء، ولا دار بعدها ينتقل إليها الناس، والنبي ﷺ في خطبته التي أُنذر فيها عشيرته الأقربين، وصدع فيها بأمر ربه، قال: «إنها للجنة أبداً، أو النار أبداً، وإنى لنذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١)، وإن الله تعالى يقرر الخلود، ولا يترك أجسامهم تبلى من العذاب إذ يقول تعالت كلماته: ﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ...﴾ [النساء: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لا يدل على أنه عذاب غير أبدي؛ لأنه صرح في النص بأنهم خالدون فيها، ولأنه صرح سبحانه وتعالى بكلمة أبداً في كثير من آياته، فيقول سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ...﴾ [التوبة: ٢٢]، ولأن كلمة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ﴾ تدل أن الأمر إلى مشيئته عذاباً وغفراناً، وأنه شاء العذاب، وأنه: توعّد بالتأييد، وهو لا يخلف الميعاد، وذكر المشيئة هنا للدلالة على أنه شاء ذلك، وأنه يمكن أن يشاء غير ذلك، ولقد قال الزمخشري إمام البيان في ذلك: «يخلدون فيها في عذاب النار الأبدي كله إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم، أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بوتره، ولم يزل يحرق عليه أنيابه، وقد طلب أن ينفس من خناقه؛ أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم الله أنه لا يريد إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف، والتشديد فيكون قوله: إلا إذا شئت من أشد الوعيد، مع تهكمه بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع».

هذا تخريج حسن في الثاني لا في الأول؛ لأن الأول يفيد أن ثمة عقاباً بالبرد الشديد.

والذى نراه ما قلناه من قبل، وهو بيان أن العذاب بمشيئته سبحانه، وإنه إن شاء رفعه، ولكن لم يشأ فبقى الخلود على مدلوله.

ولا يقال إن مشيئة الله تعالى فى عدم التخليد تتحقق فى عصاة المسلمين، إذ عقابهم على سيئاتهم وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، ويرد هذا أن الكلام فى الكافرين بدليل وصف الخلود، إذ يقول سبحانه خالدين فيها.

ومن الغريب أن ابن القيم الذى ساق الأدلة غير الصحيحة فى أن العذاب غير دائم، قال إن نعيم الجنة دائم، وأنه لا مزية فيه، مع أنه جاء فى سورة «هود» الآية الخاصة بنعيم الجنة والاستثناء بالمشيئة أيضا، فقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود].

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ختم هذه الآية الكريمة بذلك الكلام، وهو يؤيد مشيئة الله المطلقة التى دل عليها الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَاءَ﴾ فإن مشيئة الله تعالى تسير على مقتضى ربهيته التى ربت الإنسان وأتمت عليه بالنعمة، وحكمته التى تقدر الأمور والأشياء والأشخاص، وأنه ما خلق هذا الوجود عبثا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون] وأن تديره للوجود بمقتضى علمه الذى أحاط بكل شىء، تعالى الله علوا كبيرا وتنزهت ذاته وعلت حكمته، وسع كل شىء علما.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

إن الولاء يُصلح، ويُفسد، فإذا كان الولى صالحا صلح به من والاه، وإذا كان فاسداً ففسد من والاه، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ التشبيه فيه هو تشبيه حال الناس فى تأثير بعضهم فى بعض بالفساد، بحال تولى

شياطين الجن أو شياطين الإنس يغرونهم بالفساد، ويحسب أولئك أنهم يستمتعون، أو يستمتع بعضهم ببعض، وكلمة (نولى) ما المراد منها أهى الولاية بمعنى السلطان، ويكون المعنى، وكذلك نجعل بعض الظالمين ولاية على ظالمين مثلهم، فيفسد الأمر ويضطرب الحال، ويكون الفساد فى الأرض، بدل الصلاح فيها، وهذا يفيد أن ظلم الولاية يكون بسبب ظلم الرعية فيما بينها، كما روى «كيفما تكونوا يولى عليكم»^(١) وأن فساد الرعية يؤدي إلى ألا يحكمها إلا راع ظالم، فإنهم يتعاونون على الظلم والعدوان، ولا يتعاونون على البر والتقوى، وإن الوالى الظالم يجد العون على ظلمه من الرعية نفسها، وهذا منهى عنه بقوله ﷺ: «من أعان ظالماً سلط الله تعالى عليه ظالماً»^(٢) وقد رأينا ذلك، وإنه إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منع ظلم الرعية، ولقد قال النبی ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يدي الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطراً، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»^(٣).

ووجه الشبه فى الظلم بين الراعى والرعية بالتولى بين الجن والإنس، بإغراء الأولين وتلقى الآخرين وأن كليهما ظالم.

هذا إذا فسرنا التولية بمعنى السلطان، سلطان الظالم من الحكام على الرعية الظالمة الفاسدة، ويرشح لهذا المعنى قوله تعالى: «بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى بما كانت الرعية تكسب من ظلم فى نفسها، وظلم فى معاملاتها وفساد فيما بينهم، يفسدون ولا يصلحون، فيجىء حكام على شاكلتهم فيتشاكلون فيما بينهم، يحكمون بمثل أخلاقهم.

(١) جاء فى كشف الخفا: ج٢، ص ١٨٤ بلفظ: «كما تكونوا يولى عليكم» وقال فى الأصل رواه الحاكم، ومن طريق الديلمي عن أبي بكرة مرفوعاً، وأخرجه البيهقي بلفظ: «يؤمر عليكم»، وذكر أيضاً أنه رواه الطبراني.

(٢) رواه ابن عساکر فى تاريخه عن ابن مسعود رضى الله عنه، رفعه، وفيه ابن زكريا العدوي. منهم بالوضع. كما فى المقاصد. وراجع أيضاً: كشف الخفا ج٢، ص ٣١٥.

(٣) رواه أبو داود: الملاحم - الأمر والنهي (٤٣٣٦)، كما رواه الترمذي أحمد وابن ماجه بنحوه.

وقد يكون معنى تولية الظالمين بعضهم بعضاً، بمعنى الولاء النفسى، والتشاكل الخلقى، فكما أن الإغراء يكون من الجن للإنسان، وكذلك يكون الإغراء بالشر بوسوسة الولى لوليه، كالصديق للصديق، وإن الأولياء الظالمين يسرى بينهم الظلم سريان المرض بين المرضى، فإن السلامة لا تنتقل بالعدوى، ولكن العدوى تنتقل من المرضى، ومثل الظالمين كمثل المرضى يسرى الظلم فيهم، فيتظالمون، ويتبادلون الظلم، ويسرى من بعضهم إلى بعض.

وعندى أن الآية الكريمة تحتمل التخريجين، ولا مانع من الجمع بينهما، والتشابه قائم فى الحالين.

يَمَعَّشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ الْفَيَاتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٠﴾ ذَلِكَ
أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٢١﴾
وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

بعد أن بين الله تعالى أنه سبحانه وتعالى يكشف يوم الحشر استغواء الجن لأوليائهم من الإنس، واستكشارهم من ذلك، وشعور الإنس بأنهم انتفعوا انتفاع متعة لا انتفاع مصلحة، بعد ذلك بين تقصيرهم جميعاً، وأنهم مخاطبون جميعاً بهذا التقصير، وأنهم خوطبوا جميعاً بالرسول، فما استجابوا للحق فقال تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

(المعشر) الجماعة العامة، يا جماعة الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رسل منكم... والخطاب للجن والإنس معاً، وقدم الجن: لأنهم الذين كان منهم الاستغواء، والإنس استجابوا لاستغوائهم، فهم أساس الشر، إذ هم الذين وسوسوا بالشر، وهم الذين دعوا إليه وأغوا به؛ ولذا قدموا عند اللوم على إهمال دعوة الرسل، أولاً، والإنس كان لومهم؛ لأنهم أطاعوهم، فالمُضِلُّ منزلة في الضلال أقوى من منزلة من استجاب للتضليل اختياراً، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ فيه استفهام إنكارى لإنكار الوقوع، وفيه معنى التوبيخ والتأكيد، والمعنى قد أتتكم رسل منكم.

والرسل، أَلَمْ يَأْتِكُمْ من الإنس والجن، أم من الإنس فقط؟ والأكثرون على أنهم من الإنس فقط، أولاً- لأن الله تعالى لم يذكر رسلاً من الجن قط، ولو كان منهم رسل لذكرهم، وثانياً- لأن إرسال الرسل كان لما صنعه إبليس مع آدم إذ وسوس له أن يأكل من الشجرة، فكان الهبوط، وكانت الهداية بالرسل لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٨)﴾ [البقرة]. وثالثاً- أنه جاء النص بأن الرسل ذوو الكتب المنزلة، وجاء على لسان الجن؛ أنهم خوطبوا بما جاءوا به، فقد قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٦) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٧)﴾ [الأحقاف]. ورابعاً- أن الله تعالى ذكر الأنبياء وكلهم من الإنس، فذكر أعداداً كبيرة، ثم قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ قُصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨)﴾ [غافر]. ولم يذكر ولا بالإشارة أن في الجن رسلاً أرسلهم.

لهذا رجح الأكثرون أو اختاروا أن الرسل ليسوا من الجن، ولكن قال بعض العلماء إنه كان من الجن رسل، أخذها من هذه الآية، وهى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ

يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴿١٢٨﴾ فالتعبير يشير إلى أن من الجن رسلا؛ لأن الرسل من الفريقين، ولأن قوله تعالى (منكم) قريب من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة].

وقد أجب عن ذلك بأن هذا لا يقتضى أن يكون من كل فريق رسول، بل إن الظاهر أن يكون الرسول من جماعة الجن والإنس معا، وبذلك يسوغ أن يكون من أحدهما دون الآخرين ما دام ينطبق عليه أنه من جماعة الإنس والجن فهما جماعة المكلفين، وضربوا لذلك مثلا قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)﴾ [الرحمن]. فذكر سبحانه أنه يخرج من البحرين اللؤلؤ والمرجان مع أنه لا يخرج من الماء العذب اللؤلؤ والمرجان بل يخرجان فقط من الماء المالح، ولكن عبر عنهما بقوله تعالى (منهما) - لأنه ذكر البحرين، وهو يخرج منهما، وإن كان لا يخرج إلا من أحدهما.

وإن أولئك الرسل، يقصون آيات الله تعالى الدالة على الوحداية، وأنه قادر على كل شيء؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَقْصُوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾. (يقصون) من القصص،

أو قص الأثر، والآية الكريمة تحتلها، والمعنى على الأول، يذكرون لكم آياتي التي جاءت على أيدي الأنبياء السابقين، فكل رسول يتقدم بالآيات التي أجراها الله تعالى على يديه، ويذكر آيات من سبقوه من الرسل السابقين له، فمحمدا ﷺ تقدم بالمعجزة الكبرى وهي القرآن، وكان معه آيات أخرى من خوارق العادات، وإن لم يتحد بها، وذكر الآيات التي جرت على يد عيسى -عليه السلام- من إحياء الموتى، وإبراء الأكهم والأبرص بإذن الله تعالى إلى آخر ما جاء في القرآن الكريم من آياته، وذكر في القرآن معجزات موسى -عليه السلام- من العصا، وخلق البحر، وانفجار الماء من الأحجار، وغير ذلك من المعجزات الباهرات الدالة على رسالة الله تعالى، وعلى قدرته القاهرة، وآياته الباهرة.

فالأَنْبِيَاءُ قصوا آيات الأنبياء، قصوها في مجموعهم، لا في آحادهم، وبذلك كانت الآيات بين يدي الجن والإنس معلومة ظاهرة بينة تدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتنذرهم بلقاء ربهم في ذلك اليوم فلم يتعظوا، ولم يعتبروا، وكان ذلك اللقاء الذي وراءه الحساب والعقاب.

هذا إذا خرجنا كلمة ﴿يَقْصُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ على معنى القصص، وإذا خرجناها على معنى قَصَّ الأثر، أى تتبع الأثر واستدل، يكون المعنى فى نظرنا أن الرسل عليهم السلام يتتبعون آيات الله فى الكون، من سماء ذات أبراج، وأرض ذات جبال، وماء ينزل من السماء إلى الأرض فينبت كل شىء، ويكون منه كل شىء حى، ورياح تجري بإذن الله، وسحاب مسخر بين السماء والأرض، وغير ذلك من آيات الله، قَصَّ رسل الله تلك الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى أولا، وعلى قدرته القاهرة التى تقدر على الإعادة كما قدرت على الإنشاء، وكما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وإنه من بعد ذلك كان الإنذار باللقاء، والإنذار باللقاء ليس بذات اللقاء، ولكن بما وراءه من حساب وعقاب، ودخول جهنم والعياذ بالله من نارها وشرها.

هذا ما نراه فى معنى القصص، ونرى أن الآية تحتمل المعنيين، ولا مانع من الجمع بينهما بأن يكون المعنى ذكر قصص آيات النبيين التى جرت على أيديهم، وتتبع الأنبياء لآيات الله فى الكون الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، هذا ما يقوله الله تعالى للجن والإنس فى ذلك المشهد الرهيب، فماذا يجيبون؟
﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

ومعنى (شهدنا) أقررنا، فإن الشهادة تكون بمعنى الإقرار، وبمعنى الإثبات، وبمعنى الحكم، وهى هنا بمعنى الإقرار المبني على المعاينة والرؤية، فهو إقرار مؤكد بالمعاينة والملاحظة لا بمجرد الإخبار عن أمر مغيب، وأكدوا الإقرار بأنه على أنفسهم، وهذا الإقرار موضوعه أن الرسل قد أتوا إليهم، وأشارت الآية إلى أنهم شهدوا على أنفسهم بمجئ الأنبياء ولم يؤمنوا بهم، ولم يصدقوهم، وأشار

سبحانه إلى السبب في عدم صدقهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أى غرهم ما فيها من متع، تسلط بها الجن على الإنس فضلوا وأضلوا، ولذا قال سبحانه بعد ذلك عنهم:

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾.

كانت الشهادة الأولى على أنفسهم بأنهم جاءتهم الرسل، ثم ذكر ما يشير بأنهم لم يؤمنوا بالرسل، إذ غرتهم الحياة الدنيا، فدلاهم بغرورها، (واستجابوا لغواية الأبالسة)؛ ولذا كان تكرار الشهادة والإقرار، وإذا كانت الشهادة الأولى إقراراً بأن الرسل دعيتهم إلى الحق، فالشهادة الثانية إقرار بأنهم دعوا إلى الحق وكفروا به؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾ وهى إقرار على أنفسهم بالكفر، وهى شهادة تنطق بها ألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ۖ﴾ [النور].

ولقد اعترض بأنه ذكر أنهم يكونون فى حال فتنة، ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، وقد أجيب عن ذلك بجوابين:

أولهما- أنهم كانوا فى اضطراب من هول الموقف، فمرة ينكرون، وذلك بسبب ما فتنوا به، وما أخذت به نفوسهم المضطربة الحائرة.

وثانيهما- أنهم فى حال الإنكار كانوا فى اضطراب، ولم يكن كشف لهم المكتوب عليهم، والمسجل عليهم فى كتابهم فقد كتب عملهم فى سجل، كمن يكون فى حساب وتحقيق فى القضاء فينكر ابتداء، فإذا عرض عليه فعله المسجل اضطر إلى الإقرار؛ لأنه يحس بأنه لا مناص من أن يقر، والله أعلم بما يكون فى يوم القيامة.

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

(ذلك) الإشارة إلى إرسال الرسل، وقصصهم للبينات، وآيات الله، وذكر يوم القيامة، كل هذا ليكون نذيراً لأهل القرى حتى يهلكهم الله تعالى بظلمهم، وهم

غافلون والقرى المدائن الكبيرة، وقيل: إن الإشارة إلى شهادتهم على أنفسهم بمجىء الرسل، وشهادتهم على أنفسهم بأنهم كفروا بهم، فإذا كان قد ثبت ما ارتكبوا من جرائم وذنوب، ثبت بإقرارهم، فالحجة قد قامت عليهم، فلا ظلم ولا شبه ظلم.

وهنا إشارتان بيانيتان

إحدهما- أن الله تعالى ذكر هلاك القرى، والهلاك نازل على أهلها، ولكنه ذكر القرى، وحذف الأهل للإشارة إلى عمومته وشدته، وأنه لا قبل لهم به.

الثانية- أنه نص على المحذوف في قوله، (وأهلها غافلون)، فكان المحذوف هنالك مذكوراً هنا، ونفى الله تعالى الغفلة عنهم عند نزول الهلاك بهم إذ أنذروا بالرسول والآيات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١٥) [الإسراء] وكما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) [فاطر] وقال تعالى عن أخبار جهنم: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) [المملك].

وقد نفى الله تعالى أن يهلك القرى قبل الإنذار؛ بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ نفى - سبحانه وتعالى - عنه وصف الإهلاك باسم الفاعل من غير إنذار تأكيداً للنفي، ومنعاً للظلم.

وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ (أن) مخففة من الثقيلة، وهنا ضمير محذوف هو ضمير الشأن، والمعنى أنه ليس من شأن ربك أن يكون مهلكاً للقرى.

والظلم المنفى، أهو نفى الظلم عن الله، أى أن الله تعالى لا يهلك القرى وأهلها غافلون ظالماً لهم بعدم الإنذار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢٩) [ق] وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ (٤٤) [يونس] أى أن الله سبحانه وتعالى مهلك قرى المشركين، ولكي يكون الهلاك عدلاً لا ظلماً كان الإنذار.

وهناك تخريج آخر ذكره ابن جرير، وهو الظلم منهم، والمعنى أنه ما كان ربك مهلك القرى بظلمهم وإشراكهم، وهم لم ينهوا بمنع ذلك الظلم.

وقوله ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ حال من القرى، والمعنى ما كان الله ليهلكهم حتى ينذروا، ويبين لهم الحق، حتى يهتدوا عن بينة أو يضلوا عن بينة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾.

ولكل من المكلفين درجات في القيام بما كلفوه من أعمال، فمنهم من يحسن، ويبلغ أقصى درجات التقوى فيكون له في الجنة على مقدار ما فعل، ومنهم من يفعل دون ذلك فيغفر الله تعالى ما شاء أن يغفر، ورحمته سبحانه وتعالى قد سبقت غضبه وعذابه، فيعطى بمقدار ما عمل، وكذلك العصاة درجات، فمن أطاع الكبراء له عذاب يناسب طاعتهم، أى أن الطاعة لها مراتب، والعصيان له دركات، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)﴾ [الأحقاف].

ويكون المعنى على الدرجات في الخير والشر، وأهل الخير درجات، وأهل الشر دركات متفاوتة، على مقدار شرهم وإن كانوا جميعاً منغمرين فيه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)﴾ [النحل].

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الدرجات في العذاب فقط؛ لأن الآيات في تهديد الكافرين وإنذارهم لا في جزاء المؤمنين ودرجاتهم.

وعندى أن الآية فيها تبشير للمؤمنين، وأنهم درجات، وإنذار للكافرين وإنهم في دركات جهنم طبقات، والآية الكريمة تفيد أن الدرجات مما عملوا أى

مأخوذة من أعمالهم، فإن كانت خيرا فخير، وإن كانت شرا فشر، فهي مشتقة منها، ومن جنسها.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

إن هذه الأعمال يعلمها الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء، فهو جزاء لما يعملون، جزاء من يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه شيء، ولذا قال تعالت كلماته: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ عبر سبحانه وتعالى بنفى الغفلة عنه - سبحانه وتعالى - نفيا مؤكداً، بمؤكدات ثلاثة أولها - التعبير بالجملة الاسمية، وثانيها - دخول (الباء) التي تدل على استغراق النفي. ثالثها - التعبير بـ (ربك)؛ لأن الرب هو الذي ربّ النفوس والأخلاق فهو أعلم الوجود بها، وأخبرهم بأحوالها، فجزاؤه جزاء من يضع العقاب في موضعه، والثواب في مكانه.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءْ

يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا

أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنْ مَا

تُوعَدُونَ لَأْتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢٤﴾ قُلْ يَتَقَوْمِ

أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنْ عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٥﴾

إن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن الكافرين يجحدون، وقد قامت الآيات حجة عليهم تدعوهم إلى الوجدانية، وأنه لا يعبد إلا الله، وثبت أنهم يعاندون، ويردون الآيات، ويكذبون رسل الله سبحانه وتعالى، وقد أوتوا بالبينات من

ربهم، وما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر. وفي هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى أن الله غنى عن العباد، فلا يستفيد من عبادتهم إن عبدوه مخلصين، ولا ضرر عليه من كفرهم، إن كفروا، ولكن الله تعالى برحمته بهم، يريد لهم الحق، ولا يرضى لعباده الكفر، ولذا قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾.

(الواو) عاطفة عطف هذه الجملة على ما قبلها، وصدرها بقوله تعالى كلماته: ﴿وَرَبُّكَ﴾ أى خالقك، ومربيك وقد تولاك ربوبيته كما تولى الوجود كله ربوبيته، وهذا ترشيح لمعنى أن الغنى من لا يحتاج فيكون فى غناء عن غيره، ومن هو قائم على الوجود لا يحتاج لأحد فى الوجود، وقد ذكر سبحانه أنه الغنى وحده، فكل من فى الوجود يحتاج لغيره والله تعالى لا يحتاج إلى أحد، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وقد عرّف الله سبحانه وتعالى الطرفين فى قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ وتعريف الطرفين يدل على القصر أى لا غنى فى الوجود سواه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٥٥﴾ [فاطر].

ووصف الله سبحانه وتعالى بعد تأكيد أنه الغنى وحده، وأن كل من فى الوجود فقراء إليه - بأنه ذو الرحمة أى أنه صاحب الرحمة وحده، (ذو) بمعنى صاحب، فهو الرحيم رحمة مطلقة بعباده، ورحمة غيره رحمة نسبية، تليق بال مخلوقات، أما الله تعالى فرحمته واسعة، وسعت كل شيء، خلق الكون والناس برحمته، وخلق العقلاء وكفلهم برحمته، وأنزل من السحاب ماء مدرارا برحمته، وخلق من الماء كل شيء حى برحمته، وجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا برحمته، وخلق الموت والحياة برحمته، وخلق البعث والنشور برحمته، وأنشأ السمع والأبصار والأفئدة برحمته.

فإذا كان هو الغنى وحده، فهو الرحمن الرحيم، والقادر على كل شيء؛ ولذا قال تأكيدا لقدرته وفقر العباد إليه.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ﴾.

إن الذين يعاندون الله تعالى، ويحادون رسوله ومن اتبعه من المؤمنين، ويحادون الله بمحادة عباده المؤمنين. الله لا يحاده شيء في الوجود، فإنه ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ لا تكونون في الوجود، وذلك بإماتتكم أو إفنائكم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ﴾ من الخلق، ومعنى (يستخلف) يكون خلفا لكم في الأرض ما يشاء من عباده، وجاء الكلام للدلالة على العموم، والمعنى أنكم وجدتم بمشيئة الله، ويذهبكم بمشيئته، ويجعل خلفا لكم من يشاء فأنتم في حياتكم ومماتكم، وحياة من بعدكم ومماته بمشيئته سبحانه، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد]. وكما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ...﴾ [النساء] وقد أقام سبحانه الدليل على الإذهاب والاستخلاف بحالهم هم، فقال تعالى:

﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

أى أنتم لستم أول المخلوقين ولا آخرهم، فقد كنتم ذرية لمن سبقوكم، وهم قوم آخرون، وستكون من بعدكم ذرية، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ تشبيه لحال الذين يخلفونهم بحالهم، فهو قياس حالهم على حال من يجيئون بعدهم، فإذا كنتم قد نشأتم من ذرية من سبقوكم، فمن يخلفونكم ينشئون من ذريتكم. والخلاصة: الله غنى عنكم، وهو يرحمكم، والوجود يتوالد بعضه من بعض بقدرة الله تعالى والأجيال متعاقبة فإن كنتم جيلا كافرا، سيجىء من بعدكم جيل مؤمن، والله على كل شيء قدير.

﴿إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

إن أشد إنكارهم كان في البعث، وكان هو العجب الغريب عليهم، فقد كانوا يعتقدون أن الله خالق كل شيء، وأنه ليس كمثله شيء، ولكن يعبدون ما يعبدون من الأوثان ليقرّبوهم إلى الله زلفى في زعمهم وما كانوا يؤمنون

بالبعث، ولا فى الجزاء بعده، ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَنتَ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد].

وإن البعث يكون بعده الحشر والحساب، ثم العقاب أو الثواب، وقد ذكرهم الله تعالى بالبعث، بذكر ما يكون فيه مما وعد الله تعالى به، وأوعد، وقد ذكر آخر ما يكون فيه وهو العقاب على كفرهم، والثواب لغيرهم، فقال تعالى: ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ (ما) هنا اسم موصول بمعنى الذى، وقد حذف الضمير من الصلة، والمعنى إن الذى توعدونه لآت، فأكد سبحانه وتعالى إثبات ذلك الذى أوعدوا به بـ (إن)، وبالجملة الإسمية، وباللام، فى قوله تعالت كلماته ﴿لَآتٍ﴾ وكان الكلام بالبناء للمجهول، لمزيد التهديد بإيهام الوعيد، وعدم ذكره، ليذهب فيه العقل كل مذهب، وبعدم ذكر من أوعد وهو معلوم، ليزدادوا خوفاً، فيضعفوا عن المقاومة، ويؤمن من كتب الله تعالى الإيمان له، ويستمر فى غيه من كتب الله العقاب له.

وإن الله تعالى قادر على كل شئ فهو قادر على إعادتهم، كما هو قادر على إنزال العقاب بهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ نفى الله تعالى قدرتهم على إعجاز الله تعالى عن الإعادة، فإنه قادر عليها كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) قَرِيقًا هَدًى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿٣٠﴾ [الأعراف] وكما قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء].

ونفى سبحانه وتعالى قدرتهم على الامتناع عن عقابه، فهو مالك يوم الدين، وهو المسيطر وحده ﴿... لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر].

وهنا فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ إشارات بيانية:



أولاهـا- فى النفى المؤكد، فقد أكده بذكرهم وخطابهم، وبذكر الضمير (أنتم)، وباستغراق النفى بذكر (الباء)، وبأن النفى منصب عليهم، أى ليس من شأنهم أن يعجزوا لأنهم ضعفاء، والضعيف لا يعجز أحد، كما قال تعالى: ﴿... وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ [النساء].

الإشارة الثانية- أنه لم يذكر فى النفى من يعجزونه، فلم يذكر الله تعالى إعلاء لاسمه الكريم عن أن يكون مظنة عجز أو أن يعجزه أحد، إذ إعجازه مستحيل، ونفى أمر هو مستحيل فى ذاته غير سافح، فى سنة البيان.

الثالثة- نفى عموم الإعجاز من أى نوع هو، ولقد قال ﷺ: «يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، وما أنتم بمعجزين»^(١).

وإنهم يستمرون فى طريقتهم من معاندة محمد ﷺ، وجحودهم وإيذائهم له عليه الصلاة والسلام ولأصحابه الذين اتبعوه مخلصين مسلمين وجوههم لله تعالى، وقد هددهم سبحانه وتعالى بأمر النبى ﷺ لهم أمر تهديد لقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾.

وقد أمر الله تعالى نبيه الأمين أن يتولى هو القول التهديدى، وهو اعملوا على مكانتكم، والمكانة: الطريقة، أو الأمر الذى مكثوا منه، والأمر هنا للتهديد بالإشارة إلى عاقبة ما يفعلون، كقول النبى ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٢)، فالأمر (اصنع) للتهديد بأن يفعل متحملاً تبعة ما يفعل ونتيجته، فإن كنتم تزعمون أنكم على حق فاعملوا وسترون العاقبة، وإنى عامل على ما أدعو إليه، وهو الحق الذى لا ريب فيه، ولكل وجهة هو موليها، فكونوا كما تريدون لأنفسكم.

(١) رواه ابن أبي حاتم، وخرجه الحافظ العراقي: الإحياء: ج ٤، ص ٤٣٧.

(٢) سبق تخريجه.

وإنه في هذا المقام المهدد المنذر الذي يحملهم الله سوء ما يعملون - يأمر نبيه بأن يناديهم نداء يقربهم ولا يبعدهم ويدنيهم ولا يجافيهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ﴾ فأمره تعالى بأن يناديهم بما يربطه بهم، وهو أنهم قومه الذين تربطهم رابطة النسب، فيحب خيرهم، وإنهم إن كذب الناس جميعا لا يكذبهم، فهو يناديهم بنداء المحب الذي لا يعادي ولكن يذكرهم بالحقائق التي لا تقبل مداجاة^(١)، ولا مواربة، وكأنه إذ يحملهم تبعة ما يعملون لا يبعد عنهم بل يدنيهم، ليهديهم، فالهادي لا بد أن يكون قريبا من أنفس من يتصدى لهدايتهم، ولقد ذكر من بعد ما يشير إلى العاقبة، وأنهم سيعلمونها علم البيان، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

(الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و(سوف) هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل، أى سوف يعلمون بالعيان لا بالخبر من له عاقبة الدار، و(العاقبة) النهاية التي تعقب ما يسبقها من أسباب تؤدي إليها، و(عاقبة الدار) المراد بها نهاية هذه الدار، وعاقبتها تكون لمن، والدار هنا قد تراد بها مكة وما حولها مما يسيطرون عليه، أو البلاد العربية، أو الدار الدنيوية على العموم.

أى سوف تعلمون من تكون له في النهاية، وفي عاقبة الأعمال الدار والسلطان، فالمراد من تكون له العاقبة في الدار والسلطان، وينصره الله تعالى حيث يكون لأهل الحق السلطان.

ويصح أن يراد الآخرة، وعندى أنه يراد الداران، أما الدار الآخرة، فأمرها إلى الله تعالى، وقد أشار سبحانه وتعالى أن النعيم المقيم يكون للمؤمنين، والجحيم يكون للكافرين.

وأما في الدنيا - وهذه الآيات قد نزلت بمكة - فإنه قد آل أمر البلاد العربية من اليمن إلى حدود الشام إلى المؤمنين في عصر النبي ﷺ، وصارت الكلمة للمؤمنين، وحقت كلمة الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) المداجاة: المداواة. الصحاح (دجى).

وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) [غافر] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢١) [المجادلة].

هذه عاقبة الدار في الدنيا والآخرة، ولقد ختم الله تعالى الآيات بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

الضمير ضمير الشأن، أى إن الله والشأن وسنة الله تعالى فى خلقه لا يفلح الظالمون، أى لا يفوز الظالمون، والتعبير بالوصف يشير إلى أن الظلم هو سبب الخسران، وإنه وإن بدا الظلم قوياً غالباً فائزاً فىلأى حين، والعاقبة للعادلين المنصفين المقيمين للحق، وللظلم صور شتى: ظلم فى العقيدة، وظلم فى العمل، وظلم فى الحكم وظلم فى المعاملة بين الناس، فإن الظالم لا يفوز فى نهايته، وإن فاز فى بعض الأمور العرضية، والله هو الحكم العدل.

تحريم ما أحل الله

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرِّثُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ
 نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ
 أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ
 خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ
 مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
 سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ
 قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٠﴾

إن فساد الاعتقاد يؤدي إلى فساد الأعمال، فحيث فسدت العقيدة، اتجهت النفس تحت تأثير الأوهام إلى مفسد كثيرة، فالأوهام التي تفسد الاعتقاد تفسد أيضا الحياة، فتحت تأثير أوهام الوثنية أفسدوا حياتهم، فحرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله، وقتلوا أولادهم حاسبين أن ذلك يرضى أوثانهم، ونذروا للأوثان بعض الزرع والنعم ولله نصيب، فكما سورا بينها وبين الله في العبادة، أو رادوهم، فكذلك سورا بينه وبينها في النذر وتحيفوا في تنفيذها لله ولم يتحيفوا على الأوثان، ولذا قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.



(الواو) تصل هذا الكلام بما سبقه من جحودهم وكفرهم وعنادهم بباب آخر من مفاسدهم مترتب على فساد عقيدتهم، وخضوعهم لحكم الأوهام فخضعوا بحكم الأوهام في الأصنام أيضاً، أن جعلوا بهوهم ومن غير دليل من الشرع أو النقل عندهم - جعلوا من الحرث والأنعام وهى الإبل والبقر والغنم، جعلوا نصيباً لله ينفقونها فى الضيافات، وإعانة الفقراء، وجعلوا شيئاً آخر أو نصيباً آخر لآلهتهم ينفق لسدنتها وخدمتها، مع أن الجميع ملك لله تعالى، فقالوا: هذا لله، وهذا لشركائنا، أى لآلهتهم، وعبر تعالى عنهم بـ (شركائنا)، أى من جعلناهم شركاء لله تعالى باعتقادنا أو ظننا أو نسبناهم شركاء لله تعالى.

وهنا إشارات بيانية ننبه إليها:

أولها- أن التعبير بـ(ذراً) أى خلق متولداً من الحب، وانفلاق النوى، فالله سبحانه وتعالى هو الذى ذرأ النبات، وذرأ الثمار، وعبر عنه تعالى بالحرث، وهو نبت الأرض لإنتاج الزرع وهو سبب عاды لإخراج الزرع من الأرض، فأطلق السبب وأريد المسبب، فأطلق الحرث على كل ما أخرجت الأرض من زرع وثمار.

الثانية- التعبير بقولهم (نصيباً) وهو قدر ذكره مجهولاً، ولم يعرفوه ليتصرفوا فيه بما يشاءون، وهو المالك لكل شيء، فالأصل أن يكون كله لله تعالى، ويعطى بحكم الله لا بحكم الهوى كل ذى حق حقه، فهو مقسم الأرزاق وهو الخالق لكل شيء، ولكنهم يذكرون نصيباً، ويعينونه بأنفسهم، وعلى حسب ما تهوى.

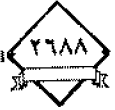
الثالثة- قولهم (هذا لله بزعمهم) التعبير (بزعمهم) فى هذا، والزعم معناه الكذب. أو الظن الذى لا دليل عليه يفيد أمرين:

أولهما- أن ذلك التقسيم فاسد فى ذاته لأنهم لا يملكون تقسيم الأرزاق، بل الذى يملكها؛ لأنه هو بارئها، وهو الله تعالى، ولكنهم يتجهجون على الله، فيقسمون بأهوائهم وأوهامهم، ومع ذلك يغيرون ولا يتفقون بأمر الله فى أوجه البر فيعتدون.

ثانيهما- أن الله تعالى عبر عن أصنامهم بـ (شركائنا) لأنهم لا يقبلون أن يقولوا لأوثاننا أو أصنامنا، والله تعالى والحق لا يقبل أن يقال عنهم آلهة، فعبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا﴾ أى للشركاء الذين قلنا إنهم شركاء لله تعالى، وإضافة الشركاء إليهم، لأدنى ملابسة، ولأنهم ابتدعوها، وما أنزل الله بها من سلطان ولكنهم لا ينفذون ما قرروا فلا يعطون لله ما قرروه، بل يطففون، ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

إنها قسمة ضيزى، فينقصون مما هو لله فى زعمهم، ويزيدون ما هو لشركائهم، فما يكون لشركائهم يخصصون لها شيئاً غير منقوص، وما يكون لله لا يخصصونه له كاملاً، ويقولون الله غنى، وهؤلاء فقراء محتاجون، والله لا يحتاج لشيء، فإذا كان ما خصص للأوثان لا يكفى سدنتها وخدمتها، وما ينفق حولها لا يكفيها أخذوا من نصيب الله ليسدوا كل حاجاتها فى نظرهم، وكله إنفاق فى باطل، لا خير فيه.

وقد روى أنهم كانوا فى الحرث، عندما يخرصون ما ينتج، كل زيادة عما خرصوه يكون للأوثان، ولا يكون لله، وإذا كان الماء الذى يسقى به نصيب أوثانهم قد ذهب إلى حرث الله عدوه حرثاً للأوثان، وإذا كان الماء المخصص لحرث الله ذهب إلى حرث أوثانهم جعلوا الخارج لأوثانهم، ولو كان قد سقى بماء الله تعالى، وهذا قد روى عن ابن عباس فقد روى عنه رضى الله عنه أنه قال فى تفسير هذه الآية: إن أعداء الله تعالى كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءاً، وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه، وأحصوه وإن سقط شيء مما سقى للصمد رده إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن، فسقى شيئاً مما جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التى جعلوها لله فاختلف



بالذى جعلوه للوثن - قالوا هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله فسقى ما سقى للوثن - تركوه للوثن.

تلك إذن قسمة باطلة فى مآكلها، وفى أصلها، ولعل الذى جعلهم يفرطون فى حق الله تعالى، أنهم ماديون، يؤمنون بالمادة وحدها، فظنهم فى الوثن ما ظنوا، وهم يرونه ويلمسونه أنساهم الله تعالى فنسوا أنفسهم، فكل شئ يذهب من نصيب الوثن إلى نصيب الله يردونه حرصا عليه، وكل ما يجرى إلى نصيب صنمهم من نصيب الله يحسبون أن الوثن أراده، فيسقطونه، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى:

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

(سَاءَ) فى معنى التعجب، أى ما أسوأ ما يحكمون به، أى أنه أبلغ الأحكام إساءة، فهو حكم سيئ فى ذاته، وعندى أن الحكم السيئ أشد من الحكم الظالم؛ لأن الحكم الظالم قد يكون فى تطبيقه ظالم، أما الحكم السيئ فإنه فى أصله فاسد، وفى تطبيقه ظالم وفاسد.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾.

إن الوثنيين تحكمهم أوهام باطلة يتوهمونها، وتسيطر عليهم أهواء ينسبونها إلى أوثانهم الذى سماهم الله شركاءهم، أى الشركاء التى زعموها شريكة لله تعالى فى عبادته سبحانه.

وكما موهوا عليهم فأرادوا تحت سلطان الوهم أن يجعلوا من الحرث والنسل نصيبا لله، ونصيبا لشركائهم كذلك زين لهم شركاءهم أى أوثانهم فى أوهامهم قتل أولادهم.

(زينوا) أى حسنوا وجعلوه كأنهم زينة لهم، يتباهون بها، ﴿شُرَكَاءُهُمْ﴾، ونقول فى معنى الشركاء: أهم الأوثان أم شياطين الجن الذين تغفلوا فى

نفوسهم، وشاركوهم في إرادتهم؟ إن قلنا إنهم شياطين الجن الذين وسوسوا لهم، وزينوا لهم قتل أولادهم. كما زينوا لهم أن يجعلوا لله نصيبا مما ذرأ من الحرث والأنعام، فالآيات تسير من غير تأويل لظاهرها.

وإن قلنا: إن الشركاء هي الأوثان التي جعلوها شركاء لله تعالى في عبادته فإنها أحجار فكيف تحسن أو تزين، وهي لا تعقل، ولا تتكلم، ولا تضر ولا تنفع، ونقول إن أوهامهم نحوها من أنها تضر وتنفع وأنهم يريدون إرضاءها، وقد توهموا أنها تطالبهم بذلك، فإن هذا يكون هو التزيين، فوهمهم نحوها هو الذي زين لهم قتل أولادهم، وقدم (قتل) وهو المفعول على الفاعل وهم (شركاؤهم) لأنه أبلغ في التشنيع، والقتل هو الأمر الذي لا يبرر.

وقال تعالى: ﴿لَكثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ﴾ فعبّر سبحانه بقوله: ﴿لَكثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلم ينسب إلى كلهم، بل نسب سبحانه إلى كثير منهم، وذلك إنصاف القرآن الكريم في حكاية أفعال العباد، وقتل الأولاد كان عند كثيرين منهم، وقد نص القرآن الكريم من شناعتهم في ذلك في الكثير من آياته، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير].

وكان بعضهم إذا وصل أبناؤه عددا من الأبناء نذر قتل أحدهم، كما يروى عن عبد المطلب أنه نذر إذا وصل عدد أبنائه إلى عشرة قتل واحدا منهم، فكانت القرعة على عبد الله أبي النبي محمد ﷺ.

وكان منهم من يقتل أولاده من إملاق أو خشيته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء].

فَالَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ مَنِعِ النَّسْلِ الْآنَ خَشِيَةَ الْإِنْفَاقِ أَوْ لِلْإِمْلَاقِ يَدْعُونَ بِدَعْوَةِ
الْجَاهِلِيَةِ لَعْنَهُمُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُمْ .

وقد ذكر الله تعالى ما توسوس به الأنفس، والأوهام المسيطرة، ونهاية ما
تؤدى إليه فقال سبحانه:

﴿لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

(اللام) للتعليل أو ما يسمونها لام كى، وهى مع كونها تعليلًا هى بيان
نتيجة قتل أولادهم، ذلك أن النتيجة أن يوقعوهم فى الردى هو الهلاك، فمآل قتل
الأولاد سواء أكان بالوآد، أم كان بالقتل خشية الفقر، أو للفقر، وقد يكون ذلك
بالعمل على منع النسل، بالعزل أو نحوه، مما سماه النبى ﷺ «الوآد الخفى»^(١)
فإن ذلك يؤدى إلى منع نسل الأمة، ومنع نسل الأمة هلاك لها، وفناء تدريجى
لقوتها، فالولد قوة، والعرب يعتزون بكثرة النفر.

وقال تعالى: ﴿وَلِيْلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أى ليخلطوا دين إسماعيل الذى كان
الحنفية كدين أبيه إبراهيم، بأوهام كاذبة، وبذلك يفسدونه، وقد أفسدوه بالشرك،
وأفسدوه أيضا أن أدخلوا فيه ما ليس من الدين ولا بأمر من الله ونهيه، كما فعلوا
فى جعل نصيب الله تعالى مما ذرأ من الحرث والأنعام، ومن قتل الأولاد، فإن
هذا خلط ما ليس بالأصل الدينى، وبذلك ضلوا سواء السبيل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

إن الله سبحانه وتعالى قدر لهم الضلالة، إذا ستروها، وتركوا الهداية،
وسلكوا سبيلها فاختارها الله تعالى لهم، بعد أن اختاروها لأنفسهم، وإن الله لا
يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وإذا كان الله تعالى قد كتب
عليهم ذلك، فعن مشيئته صدر فعلهم، ولو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه، ولكنه شاء

(١) رواه مسلم: النكاح - جواز الغيلة، وكراهة العزل (١٤٤٢). عن عائشة رضي الله عنها. كما
رواه الترمذي وأبو داود وأحمد ومالك وابن ماجه.

لهم؛ لأنهم اختاروه. وإذا كان تعالى قد شاء لهم فقد افتروه، وقد أذرت، وما عليك جناح إذا استمروا على غيهم فذرهم أى فتركهم مع ما يفترونه، يرتعون فى غيه، وما أنت إلا نذير.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعِمِهِمْ﴾.

هذا كلام موصول بما قبله مما ترتب على العقيدة الفاسدة؛ إذ إنه متى فسدت العقيدة فسد الفكر وضلت الأفهام، فلا يصد عن القلب الذى امتلأ بالعقيدة إلا باطل، وكان أظهر مظاهر بطلان العقيدة الفاسدة ما يتعلق بالحرث والأنعام، فإن فرط أوهامهم فى الأوثان أثر فى حرثهم وأنعامهم، يعطون لها الأكثر ويبقون الأقل.

وقالوا بأفواهم جازمين فى قولهم مشيرين: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا﴾، أى محجورة وممنوعة ليس لأحد أن يأكل منها، فمعنى حجر محجورة ممنوعة، فهى حجر بمعنى محجور كذبح بمعنى مذبح ونقض بمعنى منقوض، أى أنهم يشيرون إلى ناحية من الزرع والثمار فيمنعونه، وإلى قدر من الأنعام فيمنعونه، وقرروا أن الأصل فيه المنع، حتى يكون منهم الإذن بأخذه لمن شاءوا، ولكن المنع يكون لمن، ولأجل من؟ قالوا: إنه يمنع لأجل الأوثان تكون لخدمتهم وسدانتهم ومن يكون حولهم، ومن بقى ينفق منهم على من نريد، ويرون أنه ينتفع منه رجالهم دون نسائهم.

ومهما يكن فإنهم يقررون أنه ممنوع لا يقربه أحد إلا من يشاءون، وهذا مؤدى ما قال الله عنهم: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعِمِهِمْ﴾.

وهنا عبارتان نفق عندهما قليلا.

أولاهما- ﴿لَا يَطْعَمُهَا﴾ أى لا ينال منه أى قدر، ولو بالدوق، إلا من نشاء.

الثانية- ﴿بَزَعِمِهِمْ﴾ فإنه بزعمهم أى بافترائهم وظنهم، وهى تدل على أن المنع كان على زعم فاسد منهم، لا على حق اعتمدوا عليه، ويدل أيضا على أن

إطعامهم من يشاءون مبنى على زعم باطل كاختيار الرجال على النساء، وكاختيار خدام الأوثان على غيرهم.

وقد ندد الله تعالى بهذا العمل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) [يونس].

وإنهم لضلالهم مع علمهم بأن الله تعالى خالق كل شيء وأنه ليس كمثله شيء ما يتخذونه حلالا من طعامهم لا يذكرون اسم الله تعالى، فهم آثمون فيما يحرمون، وآثمون في تناول ما أحل الله تعالى، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ كما حرموا على أنفسهم بعض الحرث والنسل؛ حرموا ركوب بعض الحيوان، ولا يذكرون اسم الله تعالى في الأنعام التي يأكلونها، فمن الأنعام التي حرموا ظهورها، أى لا تركب مهما كانت الحاجة إلى ركوبها ولو كان هناك من يريد ركوبها يعنى قد انقطع، ولا يستطيع: البحيرة والحام، فالبحيرة هى التى نتجت منها خمسة أبطن، وكان آخرها ذكرا، فإنها تبحر أى تشق أذننها، وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل، وذاتها من الذبح، ولا ترد عن ماء، ولا تمنع من مرعى.

والحام هو الفحل من الإبل يضرب عشرا ونتج، فإذا بلغ ذلك قالوا هذا حام، أى حمى ظهره من الركوب، وقد بينا هذه فى سورة المائدة فى ربيع (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما). عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ (١٠٣) [المائدة].

يحرمون هذا بأوهام سيطرت على أفهامهم، ويقولون هذا من عند الله، وما هو من عند الله أن هذا افتراء افتروه فارتكبوا إثمين؛ إثم تحريم ما أحل الله من الأنعام أكلا وحملا، وإثم افترائهم على الله تعالى بإسناد التحريم إليه، فضلوا ضلالا بعيدا.

وإذا تناولوا ما أحل الله تعالى ارتكبوا إثما من نوع آخر، وهو ألا يذكروا اسم الله تعالى عليها، وهو الذى خلقها وأحلها، وأنعم بها؛ وإنهم إذ لا يذكرون اسم الله تعالى يذكرون أسماء الأوثان، وكان كل ذلك افتراء على الله تعالى، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى فى كلامه العظيم:

﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أى أن الله تعالى سيجزيهم أشد الجزاء، و(السين) لتأكيد الوقوع فى المستقبل، وسيكون جزاء وفقا بسبب ما كانوا يفترونه، أى يقصدون الكذب فيه، فقد افتروا على الله وأشركوا، وافتروا على الله تعالى وأحلوا ما حرم الله تعالى ونسبوا التحريم إليه، فكان ذلك بهتاناً وإثماً مبيناً.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾.

الكلام موصول فى بيان ما حرموه على أنفسهم أو بعضهم من الأنعام، وما فى بطون هذه الأنعام هى من الإناث؛ لأن الذكور لا يكون فى بطونها شيء يناله الرجال دون النساء، وما فى بطونها الذى يحرم على النساء ويباح للرجال خالصة قيل هو اللبن، وقيل هو الحمل، وأرى أنه يشمل الأمرين، وإن كان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُن مِّتَةً﴾ أى إن تجىء به فهم فيه شركاء أى يشترك الذكر والأنثى، يرجح أو يقرب أن المراد الأجنة فى الظاهر، ولكنه لا يمنع أن يكون ما فى البطون يشمل الألبان والأجنة معا، وخصت الأجنة بأنها إن نزلت ميتة اشتركوا فيها جميعا.

والإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ إشارة إلى نوع معين من إناث الأنعام، وقد قال مفسرو السلف إنها البحيرة والسائبة التى لا ترد عن حوض ماء ولا مرعى، إذا ولدت خمسة أبطن، فإن هذه يكون لبنها، وما فى بطنها من حمل للذكور دون الإناث إن نزل حيا وإن نزل ميتا فهم فيه شركاء بمعنى اشترك فيه الذكور والإناث.

وروى أن لبن الوصيلة والسائبة كان الرجال يشربونه والنساء لا يأخذن منه شيئا، والوصيلة والسائبة لا يذبحان بل تتركان حتى تموتا، فإذا ماتت إحدهما أكل منه الرجال والنساء.

وإنه يجب إن ننبه هنا إلى أنهم فى هذا الإفك الذى يأفكونه يجعلون للمرأة من الطعام الشيء الذى يعاف، ويجعلون للرجل الطيب من الطعام، ولا يحرمونه مما يخص النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ﴾ (التاء) لتأكيد الوصف بالخلوص، فهى تاء للمبالغة، كالتاء فى علامة ونسابة، وليست تاء التأنيث؛ لأنها خبر لما فى البطن، وبدليل ما بعدها، وهو محرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء.

هذا ضلال جاءهم من أوهامهم فى أوثانهم وفساد اعتقادهم؛ فإن فساد الاعتقاد يجعل العقل عشا للأوهام وتضل به الأفهام، وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت حكمته:

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الوصف الذى جعل سببا للجزاء، هو الظلم الذى افتروه فى جعل بعض الحرث والنعم لله، والطغيان فى نصيب الله تعالى وقتل الأولاد من كثير منهم، وتحريمهم بعض الحرث والنسل إلا من يريدون أن يطعموه، وفى الغالب يجسونه لأوثانهم إلا من يكون فيما حولهم، هذا هو الوصف، وطفوا فى الظلم فى ذاته، وشرك فى الباعث عليه، وظلم لأنفسهم، وإن قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ قالوا: إن معناه سيجزيهم بوصفهم، فوصفهم منصوب على نزع الخافض وكان حذف (الباء) فيه بيان أن الجزاء، هو على قدر هذا الوصف، وهو الظلم المبين الذى لا يمكن إلا أن يكون من الشرك وما حوله.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت حكمته: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن ذلك الجزاء الحكيم هو من وصفين لله تعالى وهو أنه (حكيم عليم) يضع الأمور

بمقتضى حكمته وإرادته، وبمقتضى علمه الذى أحاط بكل شىء، وأنه يعلم ما يخرصون، وما تحبش به نفوسهم، وما تنبث منه أفعالهم، وهو السميع العليم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

هذا حكم الله تعالى فيهم فى الدنيا والآخرة، فقد خسروا أنفسهم وأولادهم وأموالهم فى الدنيا، ونالوا العذاب الدائم فى الآخرة بافترائهم على الله بزعمهم أن ذلك بأمر من الله، أو رضا منه، والافتراء على الله تعالى عاقبته عذاب أليم، وقوله تعالى: ﴿سَفَهًا﴾ أى بخفة عقول وجهل، ولا علم ولا سبب للعلم.

وأى سفه وخفة عقل وعدم تفكير أقبح من أن يقتلوا أولادهم من إملاق أو خشية إملاق، وفى الوقت نفسه يحرمون بعض أموالهم على أنفسهم، كتحریمهم البحيرة والسائبة والحام والوصيلة، إنه جهل مبين، وعقل سفيه، لا إدراك فيه، وينسبون ذلك إلى الله من غير علم.

إن الخسارة فى الدنيا واضحة، خسروا أولادهم الذين هم فلذات أكبادهم بؤادهم أو قتلهم من إملاق أو خشية إملاق، وخسروا أموالهم التى حرموها على أنفسهم بأوهامهم، وأنفقوها إسرافا وبدارا على خدمة أوثانهم، وخسروا إيمانهم، إذ أشركوا بالله واقتروا، وأنهم حرموا بالوهم الفاسد، وزعموا أن ذلك تحريم من الله تعالى، وخسروا الحق فى ذاته، وأثموا إثما عظيما، مع قتل الأولاد.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ هذا هو الأمر الثانى الذى خسروه، أو كان فيه خسراتهم، بأن رزقهم رزقا، فجعلوا منه حراما، فخسروا ولم يتنفعوا بنعمة الله التى أنعمها، واقتروا على الله، فقالوا بزعمهم الكاذب: إن الله تعالى هو الذى حرمها، وبذلك حكموا أوهامهم فخسروا عقولهم، وسيطرت عليهم أوهام بثها فيهم الشياطين فهم فى تحريم ما رزقهم ارتكبوا إثمين: إثم التحريم، وإثم نسبته إلى الله تعالى افتراء عليه، ولذلك كان الخسران فى الدنيا، والعقاب فى الآخرة، والضلال المبين، ولذا قال تعالى:

﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

حكم الله تعالى عليهم حكمين وأكدهما: أولهما- الحكم عليهم بأنهم وقعوا في الضلال والبعد عن الحقيقة، وقد أكد الضلال بقْد، لأن قد تكون في القرآن للتحقيق، سواء أدخلت على الماضي أم على المضارع فلا يكاد في القرآن استعمالها إلا للتحقيق، فلا تكون للتقريب، ولا تكون للتكثير أو التقليل.

فالله قد أكد ضلالهم، وأى ضلال أشد من أن يقتلوا أولادهم للإملاق، وفي الوقت نفسه يمنعون ما رزقهم فيقعون في الإملاق.

الحكم الثانى أنه سبحانه حكم بأنهم ما كانوا مهتدين، فبين في الحكم ضلالهم وبين في الحكم أنه ليس من شأنهم أن يهتدوا، ولذلك نفى وصف الاعتداء، وأكد ذلك النفى بالجملة الإسمية، وبنفى الوصف عنهم.

ونقول هنا إننا بينا أن الخسران فى الدنيا والآخرة، وهو فى الدنيا واضح بين، وفى الآخرة مؤكد، وقد رأينا بعض المفسرين يقولون إن الخسارة هى فى الآخرة لا فى الدنيا، واستدل بقوله تعالى فى سورة يونس: ﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ [يونس].

ولكننا لا نراها تدل على أن الخسارة فى الآخرة فقط، وفوق ذلك إن الآية السامية التى نتكلم فى معناها السامى، قد شملت قتل الأولاد وتحريم ما رزق الله تعالى افتراء، أما هذه الآية التى ساقها المفسر الفاضل فإنها فى اتخاذ الولد ونسبته إلى الله بدليل الآية التى قبلها، إذ يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ (٦٩)﴾ [يونس]. إلى آخر الآية الكريمة.. فكان بمقتضى النسق البيانى للقرآن أن يكون العقاب الأخرى. أما فى الآية التى نتكلم فى معناها فواضح أنهم خسروا فى الدنيا بقتل أولادهم سفها بغير علم، وتحريم ما أحل الله تعالى وافتراء على الله تعالى.

وإنه من أقبح ما يتصور الإنسان من سفه الأحلام قتل أولادهم، وخصوصا وأد البنات، إنهم خسروا بذلك خسرانا مبينا.

وقد جاء في تفسير القرطبي: روى أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، كان لا يزال مغتما بين يدي رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: ما لك تكون محزونا، فقال يا رسول الله: إني أذنبت ذنبا في الجاهلية، فأخاف ألا يغفره الله، وإن أسلمت، فقال ﷺ: أخبرني عن ذنبك، قال: يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لى بنت فتشفعت إلى امرأتى أن أتركها، فتركها، حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتني الحمية، ولم يحتمل قلبي أن أزوجهها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا في زيارة أقربائي، فابعثيها معي، فسرت بذلك، وزيتها بالثياب والحلى، وأخذت على الموائيق بالآ أخونها، فذهبت إلى رأس بئر، فنظرت في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقها في البئر، فالتزمتني، وجعلت تبكي وتقول: يا أبت أيش تريد أن تفعل بي، فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت على الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي فجعلت مرة أنظر في البئر، ومرة أنظر إليها أرحمها، حتى غلبني الشيطان، فأخذتها وألقيتها في البئر معكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتنى، فكنت هناك حتى انقطع صوتها، فرجعت، فبكى رسول الله ﷺ، وأصحابه وقال: «إن الله لرءوف، لو أمرت أن أعاقب أحدا بما كان في الجاهلية لعاقبتك»^(١).

هذه قصة مثيرة، ولا بد أنها كانت تقع من الجاهليين، سواء أصحت هذه الرواية بالذات أم لم تصح، فكيف لا تكون الخسارة في الدنيا بهذا الطيش الجاهل، رحم الله أمثال هذه الفتيات.

(١) ذكره القرطبي في التفسير: ج ٤، ص ٢٥٣٣ - طبعة الشعب. ورواه الدارمي في سننه: المقدمة - ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي ﷺ (٢).

وَهُوَ الَّذِي

أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

ذكر الله تعالى أحوال أولئك الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم، وحرموا على أنفسهم ما رزقهم الله من بهيمة الأنعام ونسبوا التحريم إلى الله تعالى افتراء، ثم ذكر سبحانه من بعد ذلك بطلان التحريم من خلق الله تعالى للنبات والنعم، مع ذكر نعمته في النبات والأشجار مما كان يدعوهم إلى التوحيد، والإيمان بالله وحده بدل أن يشركوا به، ويفتروا على الله بأوهامهم، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾.

الضمير يعود على الذات العلية، و(أنشأ) معناها خلق، وعبر هنا سبحانه وتعالى بكلمة (أنشأ) لبيان أنهم لم ينشئوها؛ فإن إشراف أصحابها عليها يجعلهم يتوهمون أنها نشأت بفعلهم، وإشرافهم فهم الذين غرسوا غرسها، وهم الذين بذروا حبها، وهم الذين حرثوا أرضها، وهم الذين رعوها وسقوها وأبرأوها، وسمدوها إلى غير ذلك. فنبههم الله سبحانه وتعالى أنه الذي أنشأها، ونماها، وأنزل لها الماء الذي يحييها، فإن الماء يسير من جذورها، ويعلو بقدرة الله، ثم

ينحدر وينزل، حتى يصل إلى أعلاها، فتكون غصون الأشجار، وأوراق الزروع والثمار، وترى فيها ريق الماء، إذا سقيت، وما ذلك إلا بتصرف الحكيم.

إن الذى أنشأ الأشجار، وأنشأ الزروع والثمار هو الله تعالى، فما كانت الأرض لتخرج الغرس وحدها، ولتخرج الزروع والثمار وحدها، وإنما يخرجها الله تعالى فهو الله تعالى الذى ينشئها.

وقوله تعالى: ﴿مُعْرُوشَاتٍ﴾، أى لها ما يشبه العرش يقام على سيقان، كما فى الكروم التى تقام على سيقان من الخشب، وأحياناً شبه العروش من غير ما يقام عليه إلا جذور الأشجار، كأشجار البرتقال وغيره مما يشبهه، فإنك إذ تراها متلاحمة تكون كالمعروشات القائمة على العروش، وغير المعروشات، كالأشجار التى تعلق وحدها.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مَتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

خص هذه بالذكر، لما لها من أهمية فى حاجة الناس، فالنخل قوت وفاكهة، والزروع فيه غذاء الإنسان والحيوان، والحيوان فيه غذاء الإنسان، وكل هذه من نعم الله تعالى ما أنشأناها، ولكن أنشأها خالق هذا الوجود فهو الذى يتولاها فى غمها من حبة فلقها، أو نواة شققها، إلى أن تصير نباتاً غلظ سوقه، أو نخلة عالية، والزيتون والرمان متشابهان فى ورقه، فورق الرمان كورق الزيتون يتشابهان، ولكن ثمرتهما مع التشابه فى الورق والأغصان لا تتشابهان.

وقوله تعالى ﴿مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾، الأكل الطعم، وتناوله، فهو مختلف فى ذوقه وإن تشابه غمؤه، وعناصر الأرض التى يتغذى منها، والأسمدة التى تنميه واحدة.

وإن هذا التنوع فى التكوين وإشباع الحاجات الإنسانية يدل على فاعل مختار فعال لما يريد، ولنستعرض فى هذا المقام كلمات كتبها القرطبي فى تفسيره، فقد قال رحمه الله تعالى:

وفى هذه الآية أدلة ثلاثة أحدها- أن التغيرات لا بد لها من مغير. الثانى- على المنة سبحانه وتعالى علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شىء. الثالث- على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها أنشأ فيها أوراقا ليست من جنسها، وثم خارج، من صفته الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأناسها، هل فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب، فلا يتم ذلك فى العقول إلا لى عالم قدير مريد، فسبحان من له فى كل شىء آية، ونهاية.

وإن هذا الكلام كما ترى يتجه إلى أمرين هما أساس التوحيد: أولهما- أن الله تعالى خلق كل شىء بإرادته المختارة، وثانيهما- أنه قائم على هذا الوجود، وأنه وحده الذى يَرَبُّهُ، ويدبر أمره، وهو لى القيوم الذى لا يماثله أحد فيه، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون.

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ الأمر فيه للإباحة؛ لأن الأكل من جنس الثمر ليس بواجب، ولكنه مباح، وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾، إشارة إلى وقت الإباحة، فهو إباحة وإرشاد بالأكل قبل أوان الإثمار فإن ذلك قد يضر ولا ينفع؛ لأن الفج من الثمار يضر الأجسام ولا يفيدها، فوق ذلك أنه إتلاف لا فائدة فيه.

﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أهو الأمر فيه للندب أم للوجوب، ومن المؤكد أنه ليس للإباحة؛ لأن التعبير بحقه، يفيد أن الإتياء لصاحب الحق، والإتياء لصاحب الحق فى المال لا يمكن أن يكون مخيرا فيه بين الإعطاء والمنع، وقد اختلف الفقهاء؛ أهو واجب فتكون زكاة المال قد ثبتت قبل الهجرة، مع أن الثابت أن

الزكاة فرضت بعد الهجرة في السنة الثانية، كذلك قال بعض الفقهاء، أو زعموا أن الآية مدنية.

والحق أن هذا الحق في المال ثبت في مكة، ولكن لم تشرع الزكاة التي تعد فريضة، ومصارفها التي جمعها ولي الأمر إلا في المدينة، حيث قامت الدولة الإسلامية التي تجمعها، أما في مكة حيث ثبت الإسلام ثبتت الصدقات حقا للفقراء والمساكين والسائل والمحروم، فلقد قال تعالى في سورة المعارج وهي مكية وصفا للمؤمنين ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ﴾ (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) [المعارج]. فالصدقات كانت مفروضة في الأموال، وخصوصا في الزروع والثمار، وإن كان ولي الأمر لا يجمعها، لأنه لم يكن للمؤمنين دولة تجمعها، إذ كانوا مستضعفين في الأرض، فلما كانت السنة الثانية بعد الهجرة نظمت وعمت الأموال التي يكون لها ثناء بالفعل أو القوة، وإن حق الفقراء في الزروع والثمار كان معروفا قبل الهجرة، ونظم الجمع، وعمم بعدها.

واقرا ما جاء في قول الله تبارك وتعالى في ابتلاء أهل حديقة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشْئِرُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَاَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم].

إن هذه الآيات الكريمة تدل على أنه قبل الهجرة كان المؤمنون يشعرون بأن في الزرع والثمار حقا للسائل والمحروم كانوا يشعرون بذلك مؤمنين بهذا الحق.

وإن الآية الكريمة تدل على هذا وتدعو إليه، وتحث عليه، وهذا الحق كان المؤمنون يقومون به ويؤدونه من غير أن يجمعه حاكم، ولا يتولاه ولى للصدقات؛ لأنه لم تكن الدولة الإسلامية هي المهيمنة في مكة، فلما كانت الهجرة في السنة الثانية وجد نظام جمع الزكاة، ونظام صرفها، وتولت الدولة جمعها وصرفها.

ولذا نقول إن الآية مكية، ولا نسخ فيها بعموم ولا خصوص، وحكمها داخل في فرضية الزكاة الذي ثبت في المدينة تنظيمه، ولذا نرجح أن الأمر هنا للوجوب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أى يوم صرمه وقطعه، وسماء الله تعالى حق الزرع فقال (حقه) أى الحق الواجب فيه، فالصدقة حق المال، وواجب فيه أى أن المال يتنفع منها، فهي تزكيه وتنميه وتطهره، وهي أيضا حق السائل والمحروم، فهي حق الفقير لتسد حاجته، وحق المال لتطهره وتنميه، ويكون طيبا.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

هذا عطف على قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ فالعطف على إباحة أكل الثمار، فهو إذ أباح أكل الثمار وأمر بإعطاء حق المال يوم قطعه، لقد نهى عن الإسراف، والإسراف معناه الإنفاق في غير موضعه أو الأكل من غير حاجة، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف] وإن النهى عن الإسراف ظاهر فى أنه منع من الإسراف فى الأكل فى الثمر، إذا أثمر، بأن يأكلوا فوق طاقتهم، أو أن يبيعه وينفقوا ثمنه إسرافا وبدارا، أو أن يوزعه على من يستحق ومن لا يستحق، أو إعطاء الكثير لمن يستحق القليل، وبعض المفسرين يعمم النهى عن الإسراف، فيمنعه على من يأكل الثمار إذا أثمرت، وعلى إتيائه حقه يوم حصاده، ومن الإسراف فى ذلك أن يدع قرابته فقراء ويعطى غيرهم، فابدأ بنفسك ثم بمن تعول، وقالوا: إن النهى عن الإسراف

يشمل الولاة الذين يجمعون الصدقات، ويأخذون أكثر من حق الله فيه، ولقد روى أن النبي ﷺ قال: «المعتدى في الصدقة كمانعها»^(١).

وقد ختم الله النهى عن الإسراف ببيان سببه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى النهى سببه أن الله جل جلاله لا يحبه، فيغضب الله تعالى ممن يسرف بمجاوزة حق الإنفاق، وبوضع المال فى غير موضعه، وبأخذ الصدقات مسرفاً فى الأخذ؛ لأنها إذا أخذ منها أكثر من حقها، فهو كمانعها، والله رءوف رحيم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾

(الواو) عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أى: وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشا وطعاما ولحما طريا، فهى ذكر لآلاء الله تعالى ونعمه فى خلقه إذ هيا لهم أسباب الهناء التى أحل فيها طيباته وممكنكم منها.

و (الأنعام) جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وما شاكلها مما يؤكل، ويتنفع به الإنسان، وجعل الله تعالى منه (حمولة)، وهى ما يحمل عليها، و(فرشا) وهى ما يذبح بأن يفرش ويذبح، وما يتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها فرشا، وهذه تشمل النعم التى تذبح، والغنم والعجول التى لا تبلغ القدرة على حمل الأشياء، بل تذبح ويؤكل لحمها، وتسمى العجول، والغنم فرشا؛ لأنه يفرش ويذبح كما ذكر، ولأنها قريبة من الأرض، وقد جعلها الله فراشا، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا

(١) رواه الترمذي: الزكاة - ما جاء فى المعتدى فى الصدقة (٦٤٦)، وابن ماجه: الزكاة - ما جاء فى عمال الصدقة (١٨٠٨)، ورواه أبو داود: الزكاة (١٥٨٥) بلفظ: «المعتدى المتعدي فى الزكاة...». عن أنس بن مالك.

لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ [النحل]. وهكذا كانت آيات الله تعالى تتلى، مبينة نعمة الله في الأنعام يتخذ منها حمولة، ومنها فرش يذبح، ومنها فرش يفرش من أصوافها وأوبارها وأشعارها متاعا إلى حين انتهاء الدنيا.

ولأن الفرش منها الغنم، ونسل الأنعام الذى يذبح، قال تعالى بعد ذلك:

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

والمعنى إذا كان الله تعالى قد خلقها فرشا يذبح، فكلوا منه، لأنه رزق الله، ورزق الله تعالى يُقبل لأنه عطية الله، ويُشكر عليه، فلا تجعلوا مما رزقكم الله حلالا وحراما كما يفعل الذين يتبعون خطوات الشيطان، والأمر هنا للإباحة، والترغيب فى تناول الحلال، وقد قلنا إن أوامر الإباحة تكون فيها الإباحة بالجزء وهى مطلوبة بالكل، فليس للإنسان أن يمتنع عن المباحات، ويترك تناولها، ولا يتركها كلها.

وقد كان بعض العرب يتصدقون بأكثر ما ينتج غرسه، فنهى الله تعالى عن الإسراف وقال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الخطوات ما بين الأقدام، والمراد النهى عما يوسوس به الشيطان، وتجنبه بالآسير سيره الذى يزين به الشر، وفى الكلام مجاز مشهور، والمجاز المشهور تنسى فيه العلاقة والقرائن، وكأنه حقيقة، ومؤدى المجاز تشبيه من يطيع الشيطان فيما يوسوس بالسائر وراء إنسان يتبعه خطوة خطوة، لا يحيد عن طريقه، ولا يترك طريق الشر الذى يسير فيه. وقد علل سبحانه وتعالى النهى بأنه عدو بين العداوة وبيانها ببيان آثارها ونتائجها، وليس معنى (مبين) أنه بين واضح عند السير وراءه، إنما هو بين فى نتائجها وغوايته.

واتباع خطواته هو ما كان عليه الجاهليون فيما رزقهم الله تعالى فحرموا بعضه، بغير ما حرم الله، حرموا السائبة والوصيلة والحام بغير ما أنزل الله،

وجعلوا لله نصيبا مما خلق، وللشيطان نصيبا فى الأوثان التى زينها لهم، وزين لهم قتل أولادهم، وزين لهم أكل الميتة، وما ذبح على النصب، وما أهل لغير الله تعالى به، وهو فسق، وخروج عن طاعة الله الذى يلجأون إليه فى الشدة، والبأساء والضراء.

ولقد أخذ سبحانه وتعالى يبين ضلالهم فيما يحرمون على أنفسهم بوسوسة الشيطان، وينقض زعمهم فقال:

ثُمَّ نَبِّئِ أَزْوَاجَ مَنْ الضَّالِّينَ وَمِنَ الْمَعْرِضِينَ
 قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمْ أَلْأُنثِيَّيْنَ أَمْ أَسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾
 وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ
 حَرَّمَ أَمْ أَلْأُنثِيَّيْنَ أَمْ أَسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ
 أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

نهى الله تعالى بالنسبة لما رزق الله تعالى - المكلفين أن يتبعوا خطوات الشيطان، وما يزينه للذين يفتحون قلوبهم لوسوسته، وأذانهم لسماع دعائه وأتباعه، وقد زين لهم أن يحرموا بعض الثمرات والزرع ويجعلوا جزءا لله، وجزءا لأوثانهم، وتطيش فيعتدون على ما جعلوه لله، ويحرمون ما جعلوه لأوثانهم وحرموا بعض الأنعام، حرما الوصيلة والسائبة والحام والبحيرة، وقد بينا ما يريدون من هذه الألفاظ من مسميات فى موضعها فى سورة المائدة فى ربع

(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) عند الكلام فى معنى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ...﴾ (١٠٣) [المائدة] وفى هذه الآية وما بعدها يبين الله تعالى أنه لا سند من عقل ولا نقل جعل بعض هذه الأنعام محرما، فقال تعالى:

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلُ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أُمَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ...﴾

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ عطف على ﴿أَنْشَأَ﴾، أو مفعول لفعل محذوف، وإذا كان التأويل فهى منصوبة، والأزواج جمع زوج، والزوج يطلق على كل فرد يقابله فرد آخر، ويقال لكل واحد منهما زوج، ويقال لمجموعهما زوج، وعدّ الله تعالت كلماته، ثمانية: اثنان من الضأن ذكر وأنثى، واثنان من الماعز ذكر وأنثى، واثنان من الإبل، فحل، وناق، واثنان من البقر ثور وبقرة، والضأن ذكره كبش، وأنثاه نعجة، والماعز ذكره تيس أو جدى، وأنثاه معزة.

فهذه هى ثمانية أزواج عدا، وقد سلك القرآن فى احتجاجه عليهم مسلك الجمع والإفراد، فبين أن التحريم فى الرزق يكون لحبث فى ذاته اقتضى تحريمه، وأن التحريم يكون من الله تعالى مانح الأرزاق والوجود، وقد ادعوا تحريمهم لما حرموا بوسوسة الشيطان أنه من الله تعالى، متبعا تحريمهم، فقال تعالى: ﴿الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أُمَ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أى كل زوج من المحرمات حرم الذكرين منها كالكبش والجدى فتحرم الذكور كلها، ولكنكم لم تحرموها كلها، بل خصصتم بعضها ﴿أُمَ الْأُنثَيَيْنِ﴾ منها فحرم النعجة والمعزة، وكان يجب أن تحرم كل الإناث، ولكنكم حرمتن بعضها، وتركتم الآخر، وعلى ذلك لا يكون التحريم بسبب فى ذاتها أو ما اشتملت أرحام الأنثيين أى المواليد ذكورا وإناثا فيحرم الجميع، ولكن خصصتم فلا يكون سببه التحريم لذاتها، ولا بسبب من النقل، فبينوا ما اعتمدتم عليه من العلم إن كنتم صادقين؛ ولذا قال تعالى:

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وإنه بعد البيان الصادق الذى ذكر أولا، يكون قوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ من قبيل التهكم بهم؛ إذ لا دليل عندهم، وطلبه بعد بطلان وجوده تهكم به أو تعجيز لهم، والعجز عن إقامة الدليل فى وقت الاحتجاج تسليم بالمدعى بحكم المنطق المستقيم والتفكير القويم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ التعليق بـ (إِنْ) فيه إشارة إلى أنهم لا صدق عندهم وأنهم يفترون على الله تعالى فيما يدعون، وقوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي﴾ النبأ الخبر العظيم، وهذا عظيم فى زعمهم.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ أَمْ أَسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنثَيْنِ﴾.

هذه هى أربعة الأزواج بعد الأربعة الأولى فتكون عدتها ثمانية، قال تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ﴾ أحرم الفحل من الإبل والثور من البقر، أم حرم الأنثيين من الأربعة، فحرم الناقة من الإبل، والبقرة من البقر، فإن كان التحريم للذكورين يشمل الذكور كلها، فإن التحريم على الإناث شمل الإناث كلها. أما وقد حرمت بعضها دون بعضها، فإنه لا يمكن التحريم لأمر ذاتى فيها، ولا لأمر نقلى، فلا دليل من عقل ولا نقل.

وإذا كان التحريم للمواليد كلها ذكورا وإناثا، وهى ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فإنه بمقتضى عموم القول. يكون التحريم لجميع المواليد من البقر والإبل، ولكنكم تحرمون بعضها دون بعض، فلا يمكن أن يكون التحريم لخبث فيها؛ لأن الخبث إن كان سبب التحريم، فهو يعم ولا يخص، فلا يمكن أن يكون التحريم بسبب فى ذاتها، ولا لنقل نقلتموه، وإن ادعيتم ذلك فأنتم تكذبون على الله فى ذلك، ولا دليل عندكم على التحريم من قبل الله، بل هو اتباع الشيطان، وتزيينه لكم حتى صار ذلك هواكم، وغلبتكم الأوهام؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ طالبهم الله تعالى أن يأتوا بعلم يقيني جازم من النقل يدل على تحريم ما حرموه، وقد جاءت النصوص بإباحة الجميع، ثم عدل متهمًا عليهم بأن ذكرهم بأنهم قد يدعون أنهم شاهدوا وعانوا، ولذلك قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ و(أم) فيها معنى الإضراب عما طلب أولاً، ثم ذكر أنهم قد يدعون أنهم كانوا حاضرين إذ وصاهم الله تعالى، والله علم من وصى بهذا، وهذا تهكم عليهم، فإنهم ينكرون الوحي، ولا يدعونه لأنفسهم أنهم أوحى إليهم، ولكنها وسوسة الذي أوجد فيهم أوهاما زينت لهم ما فعلوا. وهكذا نجد النص القرآني سلك سبيل الاستقراء والسير والتقسيم فاستقرأ معهم سبب التحريم وإن كان الذكورة فهي تعم الذكور، وإن كان الأنوثة فهي تعم الإناث، وإن كانت الولادة فهي تعم المواليد، ولكنهم يخصون، فطالبهم بدليل من علم، فما عندهم، فسألهم أهم عانوا ووصاهم الله فهم بلا ريب كاذبون، وهذه هي نتيجة الاستدلال، فهم كاذبون على الله تعالى، ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

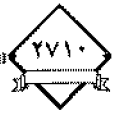
الفاء لترتيب ما بعدها على معنى ما قبلها، والمعنى إذا كانوا قد كذبوا على الله تعالى، وادعوا أن الله حرمها، فهم ظالمون مفترون ومن أشد ظلما ممن يفترى على الله كذبا ليضل الناس، ومن استهامية، وهى للإنكار، لإنكار الوقوع، إذ معناه، لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، أى قصد الكذب على الله تعالى بادعاء أن الله تعالى حرم بعض ما رزقهم الله، وهو لم يحرم، وفى ذلك مع النفي توبيخ لهم، لأنهم فعلوا ما استنكر أشد الاستنكار. وإن ظلمهم مركب من أمرين، أولا لأنهم كذبوا على الله وقصدوا الكذب، والثانى أنه أضل الناس بهذا الكذب على الله، فقال إنه تحريم من الله، وليس من الله فى شيء إلا أوهامهم الضالة.

وذلك الظلم والإضلال أوضح ما يكون فى كبرائهم الذين أضلوا ضعفاءهم، وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين ظلمهم في تحريم ما أحل الله تعالى لهم، وجعلوا ما رزقهم سبحانه منه حلالاً ومنه حراماً وظلمهم في الكذب على الله تعالى بادعاء أن التحريم كان بأمره، وظلمهم للناس بإضلالهم بغير علم، ذكر سبحانه قضية عامة وهي أن الله لا يهدي الظالمين؛ لأن الظالم إذا سلك سبيل الظلم والتضليل استمرأه واستطال على الناس، وركبه الطاغوت، وأظلمت نفسه، وأصاب قلبه ظلام لا نور فيه، فلا يهتدى ولا يرعوى، وقد بين الله تعالى، وأكد أن الظالمين لا يهتدون فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد أكد ذلك بالجملة الإسمية، و(إن)، وبنفى الهداية عن القوم الظالمين، وكان نفى الهداية من الله تعالى عن القوم الظالمين لأنهم بسيرهم في طريق الظلم قد سدوا باب الهداية عن أنفسهم، وذكر سبحانه نفى الهداية عن القوم الظالمين دون أن ينفية هنا عن الواحد للظالمين؛ لأن الظالمين يعاون بعضهم على الظلم، فيتكون منهم رأى عام ظالم يبرر الظلم ويرتضيه، ويشجع عليه، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان بدل البر والتقوى، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قُلْ لَا أَجِدُ

فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾



فى هذه الآية حصر لما حرمه الله تعالى من الأنعام، وبيان أن الله تعالى لم يحرم ما حرموه على أنفسهم من الأنعام، وقد أمر النبى ﷺ أن يتولى هو البيان فيما أوحى إليه به؛ لأنهم كانوا يجابهون النبى ﷺ بتحريم ما يحرمون غير متحرجين فى ادعاء التحريم على الله تعالى، ويفترون على الله الكذب وكانوا ظالمين، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا.

وإن المتتبع لآى الله تعالى يجد أن كل أمر يجرى فيه الجدل، أو يثيرون هم فيه الجدل يأمر الله تعالى نبيه بأن يتولى البيان بلسانه مع بيان الله تعالى.

﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ أى فيما أوحاه الله تعالى، وإنما بنى للمفعول، لبيان نفى وجود الوحي نفيا مطلقا بغير ما هو مذكور، فالبناء للمفعول هنا. لعموم نفى عدم الوجود، وفيه إشارة إلى أن ما حرموه غير معقول إن سمي به وحي مطلقا.

وقال ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾، أى على آكل يأكله، وعبر سبحانه بقوله تعالى ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ بدل (آكل يأكله)؛ لأن الطعم تذوق واستطابة، والاكل قد يكون أكل غير مرغوب فيه، أو ما ليس له ذوق يستطاب، ففى هذا إشارة إلى أنهم يحرمون طيب اللحوم والمطعومات.

﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.

الميتة الحيوان الذى يموت، وينحبس دمه فيه، ويدخل فى معناه المنخقة، والموقوذة التى وقذت بالحجارة حتى ماتت، والمتردة التى تردت فى حفرة أو بئر، والنطيحة التى نطحت من أخرى حتى ماتت، فإن هذه تدخل فى عموم كلمة ميتة إن توسعنا فى معناها، بأن قلنا: إن الميتة ما لم تذك بالذبح، وإنهار الدم، ومهما يكن فإنها فى المعنى قريبة من الميتة.

والدم المسفوح هو الدم السائل، وقد تبين أنه سريع الفساد، وتسارع الميكروبات إليه، والدم المسفوح خرج به الدم الذى يكون بعد الذبح فى جوار

اللحم، أو مخالطاً له، والكبد والطحال، فإن النبي ﷺ فيما روى عنه سماهما دماً، كما روى أنه قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الكبد والطحال، والسمك والجراد»^(١)، والخنزير هو الدابة المعروفة، وهو محرم في الديانات الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام، واستباحها اليهود والنصارى بعد تحريف دينهم عن موضعه، وبعد أن نسوا حظاً مما ذكروا به.

وقد ذكر سبحانه وتعالى سبب التحريم فقال: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أى قدر، فهو قدر فى ذاته، وهو قدر فى غذائه فهو يتغذى من الأقدار، فيتغذى من العذرة، ولحمه رفس إذ إنه مقشش^(٢) فيه ميكروبات. أخصها الدودة، ولاحظ كثيرون أنه حيث يكثر آكلوه يكثر مرض السرطان، ولو تنبه العلماء إليه وبحثوا لحمه لوجدوا بعد الحيرة الطويلة أن هذا الداء العضال تكمن جرثومته فيه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وهو أصدق القائلين وإذا كان الخنزير فيه رفس حسى، ومن أجله حرم أكله، فإن الله تعالى قد حرم ما فيه رفس معنوى، وقرنه به، وهو ما أهل لغير الله به، ولذا قدم كلمه (فسقاً) مقارنة لكلمة (رفس) لأنهما يلتقيان فى المعنى؛ لأن هذا الخنزير رفس حسى، وهذا الفسق رفس معنوى، فهما من باب واحد.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى أنهم ذبحوه لا باسم الله، بل باسم أوثانهم، وكانوا حريصين على ذلك كل الحرص؛ لأنهم قدموا غير الله فى ذبحهم، فقصدتهم التقرب لآلهتهم فيه.

وهنا يشار ببحث، فإن الآية تدل على أن ما أهل لغير الله يكون حراماً، وبمفهوم المخالفة ما لم يهل لغير الله به يكون حلالاً، وعلى ذلك يكون ما لم يذكر عليه اسم الله تعالى، ولم يهل به لغير الله يكون حلالاً؛ وقد قررنا أنه إن

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين (٥٦٩٠)، وابن ماجه: الأطعمة - الكبد والطحال (٣٣١٤). عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) قشش: أكل ما فى المزابل. القاموس المحيط.

لم يذكر اسم الله تعالى، نسيانا فإنه يؤكل المذبح، وإن ترك عمدا، ففيه نظر، ما دام لم يذكر غير الله تعالى.

وهناك بحث آخر، وهو أن ثمة محرمات قد وردت بها آثار كسباع البهائم فإنها وردت الآثار بتحريمها وسباع الطيور، وبعض خشاش الأرض، كالحية والعقرب، وغيرها، وكالحمر الأهلية التي حرمت في غزوة خيبر.

والآية تفيد القصر، أى قصر المحرمات على المذكور، كما تفيد إباحة غيره؛ لأن القصر كما هو مقرر فى علم البيان نفى وإثبات، فقد أثبت التحريم فى هذه الأشياء الميتة والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وثبتت الإباحة بالنص الذى أفاد القصر فيما عداها، وقد ثبت أن بعض ما عداها كان حراما. وهذا يتناقض مع القصر.

وقد أجيب عن ذلك بعدة إجابات:

أولها- أن هذا القصر خاص بالأنعام، وما كان يشبهها من البهائم كالخنزير، فإن النص سيق للرد على المشركين الذين حرموا بعض الأنعام وافترضوا على الله تعالى بالكذب، فكان الرد بهذا القصر الذى يفيد تحريم ما نص عليه، وأن غيره مباح، وغيره هو ما يتعلق بالأنعام، وقد يرد على هذا أن التحريم كان فيه الخنزير، وهو لا يشبهها، فمجيئه لا يدل على أن الكلام فى الأنعام فقط، ونقول إن مجيئه لا يمنع أن الإباحة فيما عدا المنصوص عليه كان فى الأنعام فقط، فلا يدخل فى مدلول نفى التحريم غير الأنعام، بل يبقى سكوتا عنه حتى يجيء نص فيحرمه، وإلا فهو فى مرتبة العفو أو الإباحة، هذا تخريج للقصر، ونعتقد أنه لا يمنع تحريم سباع البهائم وسباع الطير، وخشاش الأرض وهذا عندى أوضح التخريجات وأقربها.

والتخريج الثانى تخريج الزمخشري - وهو أن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، وأنه لا قصر حتى يكون الكلام مشتملا على نفى وإثبات نفى التحريم وإثبات

الإباحة، إنما هناك نفى لتحريم ما حرموا، ويكون مؤدى التخيـرج هكذا: قل لا أجد محرماً علىّ فى ما تحرمون على طاعم يطعمه، فهذا النفى رد عليهم، لكن أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو أهل لغير الله فهو حرام، وعلى ذلك لا يكون قصر فيه نفى وإثبات للإباحة، ولكن فيه تحريم فقط، تحريم بالرد، وتحريم بالاستدراك. هذا كلام قاله الزمخشري.

ونقول لإمام البلاغة: إنه تخريج لا يستقيم مع النسق البيانى الذى يليق بكتاب الله العظيم.

والتخريج الثالث- أن الآية لم تدل على الإباحة المطلقة، إنما أخذت الإباحة بالمفهوم، ولا يؤخذ بالمفهوم حيث يكون نص، وهناك نصوص تمنع.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هذا التحريم مؤكد فى حال الاختيار، لا فى حال الاضطرار، فمن كان فى حال ضرورة لا يجد ما يطعمه، وقد تعرض للهلاك جوعاً وهو غير باغ ولا معتد، فإن الله تعالى يغفر له أكله، وقد قلنا إن حد الضرورة قد بينه النبى ﷺ إجابة لمن سألـه- إذ قال له: «أن يجيء الصبح والغبوق ولا تجد ما تأكله»^(١).

(والباغى) له تخريجان:

أولهما- أن الباغى، هو من خرج باغياً على الحاكم العادل ظالماً له، أو من خرج لمعصية، فإنه لا يتنفع بهذه الرخصة، وذلك يكون سيراً على قاعدة: إن من ارتكب معصية لا تكون المعصية سبباً لنعمة الرخصة، كمن يرتكب جريمة وهو سكران بمحرم، فإنه لا يعفى من الجريمة بسبب السكر، وذلك مبدأ مقرر عند بعض الفقهاء وخصوصاً فقهاء العراق.

والثانى- أن الباغى الطالب لهذا المحرم المشتهى له، كأن يكون مضطراً فلا يجد إلا خنزيراً، يشتهيه ويأكله باغياً له طالباً.

(١) سبق تخريجه.

و (العادى) هو له هذان التفسيران أيضا، فخرجه بعض الناس على أنه الظالم بمعصية أوقعته فى هذه الضرورة فإنه عاص لا يستمتع بنعمة الرخصة.

والثانى - أن العادى أى المتجاوز لحد الضرورة.

وأميل إلى أن الباغى المشتهى الطالب للميتة أو الخنزير، وأن العادى هو المتجاوز لحد الضرورة، فإن رحمة الله تعالى فى الدنيا، تتسع للأشرار كما تتسع للأخيار والحساب عند الله، وعسى أن يغفر الله لهم، وننبه هنا إلى أمرين:

أحدهما - معنوى، وهو أن هذه المحرمات ما حرمت إلا لأنها خبائث، والله حرم الخبائث، وإن فيها إفسادا للجسم الإنسانى وإضرارا به، وإن الضرورة وشدة الجوع قد تذهب بأوضاع الأخباث التى فى هذه المحرمات، وإن ضررها يقل بالنسبة للجائع جوعا شديدا يؤدى إلى الهلاك، وإن كان ثمة ضرر من بعد، فإنه أخف مما يترتب على الامتناع، ولذلك كانت الرخصة مقيدة بالألا يتجاوز حد الضرورة؛ لأنه إن تجاوزه غلب الضرر، واشتد أثر الجرائم المفسدة للجسم التى تحتوى عليها هذه المحرمات.

وثانيهما - وهو بيانى ومعنوى أيضا، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أثر لجواب الشرط المحذوف أو سبب له، فإن المقدر هكذا، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، كما ذكر فى آيات أخرى، أما هنا فلم يذكر، ولكن ذكر سببه، وهو فإن ربك غفور رحيم فالسبب أن الشارع الحكيم هو ربكم الذى خلقكم وربكم، وقام على أمر حياتكم، وأنه غفور يغفر الإثم ويستره، وأنه رحيم لا يرهقكم وإن هذا يدل على رفع الإثم سببا بسببه.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ﴾ بعد أن بين الله ما أحل للمسلمين وما حرم، وأنه فتح باب إباحة الطيبات بإطلاق فكل طيب حلال، وقد استنكر فى عدة آيات كريمات على من جرم الطيبات التى أحلها الله، ونهى عن تحريم الطيبات، وقال تعالت كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (٨٧) [المائدة].

بعد هذا بين سبحانه وتعالى أنه قد يحرم طيبات هي في ذاتها طيبات، ولكنها تزيد أدواء بعض النفوس، فيكون التحريم خاصا بمن حرم عليهم، ولا يكون عاما لكل الناس، كالدواء يكون غير جائز للأصحاء، ولكنه لازم للمرضى.

واليهود أصيبوا بالتخمة والترهل، وأدى ذلك إلى خمول وكسل، ومع الخمول والكسل، يكون القعود، ودعاهم سيدنا موسى إلى أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يدخلوها، لا أن يملكوها لهم دون سائر الناس، قالوا له متخاذلين بسبب ترهل أجسامهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢) ﴿[المائدة].

ويقولون أيضا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) ﴿[المائدة].

كان لا بد من علاج لترهل أجسامهم وذهاب النخوة من نفوسهم. أما الثانى فرباهم على اليأس بأن يعيشوا في الأرض تائهين في صحرائها، فقال تعالى: ﴿... فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ...﴾ (٢٦) ﴿[المائدة]

وأما الأول وهو ترهل الأجسام وكسلهم، فقد عاجله سبحانه بأن حرم عليهم ما يؤدي إلى ترهل الأجسام من شحوم، ولحوم تربي الدهن في الأجسام، وتثقل عليهم حركاتهم. ولذا قال سبحانه.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ حرم الله تعالى على اليهود كل ذى ظفر من الأنعام. وذو الظفر - كما قال ابن جرير رضى الله تعالى عنه - كالبهائم التى لم تكن مشقوقة الأصابع كالإبل، والطير والأنعام والأوز والبط، والحيتان.

ويلاحظ أن هذه المحرمات تمتاز بكثرة الشحم، فالإبل لها سنام كله شحم، والأوز والبط هي شحوم قليل لحمها، وذو الظفر كما ترى قد فسرت به، وكل حيوان لم تنفرج أطراف أرجلها، وكان التحريم لهذا المعنى الذى ذكرناه، وفطما لنفوسهم، وفطم النفوس يعطيها قوة إرادة، ويجعل للعقل سيطرة على أفعالهم.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَنا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ .

هذا هو القسم الثانى مما حرمه الله تعالى، وقد نص على الشحوم مما يدل على سبب التحريم فى الماضى فوق أنه يقال إن أكل لحوم الإبل يقسّى القلب، وقلوبهم قاسية.

وهنا نرى علاج الله تعالى لأجسامهم مع ملاحظة الرحمة بنفوسهم، فقد حرم سبحانه وتعالى الشحوم لما تؤدى إليه من ترهل، وضخامة، مع ضعف قوته وعزيمته، ومع قسوة النفس، وضعف الإحساس، ولكنه استثنى ما لا يستطيعون عليه صبرا؛ استثنى أولا ما حملت ظهور البقر والغنم لطيب طعامها، ولأنها ليست شحوما كثيرة، ولا تؤدى إلى الترهل الكثير، واستثنى أيضا سبحانه:

﴿أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ . (الْحَوَايَا) جمع مفردة حاوية أو حوى، وهو ما تحوى واجتمع فى البطن، وتشمل المعدة والأمعاء، ومواضع اللبن وأبيض ما حملت من شحم، كما أبيحت هى، وذلك لصعوبة فصله وإخراجه، وكان ذلك تيسيرا وتخفيفا فى موضع التحريم، وتسهيلا للاستجابة إن كانوا طائعين.

وأن ذلك التحريم كان علاجا لأجسامهم، ولكسلهم، وفطما لنفوسهم، وتركية لأرواحهم، وإرهاقا لمداركهم وأجسامهم، ولذا قال تعالى:

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ البغى هو الظلم، والظلم يشمل ظلمهم لأنفسهم بانطلاقهم فى أكل ما يشتهون، وتسمن به أجسامهم، ويشمل بغْيهم على غيرهم بالاعتداء والفحشاء، ويشمل ارتكابهم المعاصى ما ظهر منها وما بطن، ودلت الإشارة فيه إلى ما حرمه تعالى عليهم وفطم به نفوسهم الشرهة، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَبَطَّلُوا مَنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّا وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ﴾ (١٦١) [النساء].

وإن هذا التحريم كان تطهيرا لنفوسهم وتقوية لأجسامهم، وجزاء دنيويا على ما اقترفوا من طغيان.

وإن الإسلام أحل لهم الطيبات كلها، وقد قال الله تعالى ذلك عند بشارته بالنبى الأمى، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ...﴾ (١٥٧) [الأعراف]. والله تعالى ولى النعم.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى:

﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ الصدق معنى جامع لكل المعانى العالية، والصدق هنا هو الإخبار بالحق الذى لا مرية فيه، وكيف نشك فى خبر حكاه الله رب العالمين، ويشمل العدل فى الجزاء الذى جازى به بنى إسرائيل على طغيانهم، وعستهم ويشمل صدق الدواء الذى عالج ترهلهم، وإفسادهم لأجسامهم بشهواتهم، وإفراطهم إلى غير حد محدود، وقد أكد الله سبحانه وتعالى صدقه فى خبره وعدالته وعلاجه لأدواء جسمهم ونفوسهم بمؤكدات ثلاثة، أولها- الجملة الاسمية، وثانيها- (إن) المؤكدة، وثالثها- اللام، والله تعالى هو العلى الكبير.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٥٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٩﴾

إن الله سبحانه وتعالى في حكمته البالغة لا يجعل الكافر في يأس من مغفرته، ولا يطمع في أن ينجو من عقابه إن أصر على معصيته، ولم يتب وهو في عافية وقوة، ولذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

يخاطب الله نبيه الكريم بقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ كافرين برسالتك، فلا تجعلهم في يأس من أن يتوبوا، ويتهوا من كفرهم إلى إيمان بربهم، وقل لهم عن ربك فاتحاً باب التوبة والإيمان من غير أن تؤيسهم ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أى صاحب رحمة وسعت كل الوجود أنعم على الناس بالوجود، والنعم المترادفة لعصاتهم والطائعين فيهم، وقد فتح باب التوبة للعصاة، والثواب ثابت للطائعين.

وإنه مع هذه الرحمة الواسعة التى وسعت كل عاص يفتح باب التوبة له، والطائع بالثواب والتعيم المقيم، إنه سبحانه مع ذلك لا يترك العصاة المصيرين من غير عقاب إذا استمروا على غيهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

البأس الشدة، والظاهر أن المراد هنا العذاب الأليم يوم القيامة، وعبر سبحانه بقوله: ﴿الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، بلفظ القوم؛ لأن الإجماع يكون في جماعة تتضافر على الشر ويتعاونون على الإثم والعدوان، ونادر أن يكون من واحد بمفرده، أو عدد متنافر غير متجمع متعاون على الشر. هذا وإن سنة الله تعالى في كتابه الحكيم أن فتح التوبة مرغبا فيها، وأن يذكر يجوارها العقاب، كما قال تعالى:

﴿... وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ٦﴾ [الرعد].

وكما قال عز من قائل: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر]. وكقوله تعالت كلماته: ﴿إِنْ يَطْشُ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُدْئِي وَيُعِيدُ ١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤﴾ [البروج]. وكقوله سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ٣﴾ [غافر].

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾.

يبين الله سبحانه وتعالى ما يجول في قلوب الذين أشركوا وما أبدوه وهو قول الذين يعتذرون عن كفرهم بإلقاء التبعة عنهم، وقولهم هذا لا يؤمنون به ولا يخضعون له، ولكنهم قوم خصمون، والمجادل المموه يحتج بالحجة الباطلة وغير الباطلة.

إنه لو شاء الله ما أشركوا ولا آباؤهم، ولا حرموا من شيء، ولكنهم في وسط هذا القول الظاهر ينسون حقيقتين:

الأولى- أنهم عصوا الله، وأشركوا به، وحرموا ما حرموا مختارين وغير مجبرين، وأنه على ذلك يكون حسابهم وعقابهم في الآخرة ومؤاخذتهم في الدنيا ببيان أنهم خارجون عن الحق ينحرفون عنه، وفوق ذلك حرموا ما حرموا، وادعوا من غير أى برهان أو حجة بأن التحريم من الله افتراء عليه.

الثانية- أنه ما كان الله تعالى ليتركهم في غيهم إلا لأنهم اختاروا السير في طريق الضلالة، فتركهم الله يسيرون فيه حتى بعدوا عن الحق بالضلال البعيد.

وإن ذلك دأب الخارجين، فخرج الذين من قبلهم بذلك القول الذين يلقون به الإثم عن أنفسهم وهو محيط بهم، لا يخرجون من دائرته، ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

كهذا القول الذى سيقوله الذين أشركوا ما أشركنا نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من شيء قال الذين سبقوهم بالشرك من قبلهم، فالشر مسلسل فيهم ما داموا قد غووا، والكفر كله ملة واحدة في التفكير واستيلاء الهوى، وعدم تحملهم مسئولية فعلهم بإلقاء التبعة على غيرهم، ونفيها عنهم، واعتذارهم بأنهم لا يؤاخذون على ما يرتكبون من آثام، وذلك الشأن فى العصاة، يروى أنه حدث أن مرتكباً لما يوجب حدا سيق إلى عمر، فسأله لم ارتكبت هذا؟ قال: قضاء الله، فأقام عمر عليه الحد، وزاده أسواطاً لأنه يحمل قضاء الله تعالى مسئولية عمله، ولقد قال

الإمام أبو جعفر الصادق بن محمد رضى الله عنه: أمرنا الله أمرا وقضى لنا أمرا، فلماذا نترك ما أمرنا، ونحمله على ما قضى لنا.

ذلك شأن الذين يفسقون عن أمر ربهم يلقون عن أنفسهم أوزارهم كاذبين بمثل هذه الاعتذارات وهم لا يؤمنون بها.

وإنهم استمروا على غيهم وعلى قولهم حتى ذاقوا عذاب الله تعالى، ولذا قال الله تعالت كلمته ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا﴾.

وهذا يحتمل أن يكون بأس الله بقوة المؤمنين فى الدنيا، ويحتمل أن بأسه بعذابه الأليم فى الآخرة، وكيفما يكون العذاب فإن الله تعالى عبر بالماضى، وهو واقع فى المستقبل للدلالة على تأكد وقوعه، كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَنَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۖ﴾ [النحل].

وإن هذه الاعتذارات التى يسوقونها بأنه لو شاء ما أشركوا ولا حرموا بعض الأنعام افتراء على الله فهل عندهم حجة على أن شركهم برضا الله، وأن تحريمهم ما حرموا بأمره أو رضاه لا حجة عندهم، ولذا قال تعالى مفتحاً لهم رادا على افتراءهم:

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾.

قل يا محمد فى جدلهم مفتحاً لهم إن ادعاء رضا الله لا يكون بمثل ظنكم، ولكن يكون بعلم جاء إليكم من الله، فتحتجون بهذا العلم، لا بمجرد الظن والتخمين، وكثرة الكلام، والتهافت فيه، فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا تحتجون به، وتسوغون كلامكم إن كان فيه ما يسوغ ما تزعمون.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ، واستغراق النفى المتضمن له الاستفهام بـ(من) يفيد الاستغراق، أى هل عندكم من علم أى علم تزعمونه فتخرجوه لنا ليكون دليلاً لكم؟.

وهذه الجملة السامية فيها إفحام، واستنكار، وتهديد وتوبيخ، وقد أكد الله تعالى أنه لا علم عندهم فقال: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

إنهم لا حجة لهم من علم أوتوه، ولا من دليل اعتنقوه، ولكن الظن الذى سبق إليهم، وتوهموه حقا لا شك فيه هو دفعهم، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا، فهو رجحان أمر فى نفوسهم جعلوه حراما، وذلك الظن لم يبنوه ولو على دليل ظنى مرجح، ولكن على خرص وتخمين سيطرت عليه أوهامهم ووجهتهم إليه، وهذا معنى أو قريب من معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ و(إِنْ) للنفى، و(إِلَّا) للاستثناء، أى ما يتبعون إلا الظن، فهذه الكلمة السامية نافية أن يكون دليلا مقنعا أو ملزما باليقين، ولكنهم يتبعون ظنا ترجحه أوهامهم، وأكد أن الظن مبنى على أوهام بقوله تعالى: ﴿وَأِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أى ما هم إلا يخمنون تخميننا قائما على الأوهام المضللة، وقد ضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

وقد التفت الله سبحانه فى خطابه الكريم من الغيبة إلى الخطاب لتكون المواجهة أربب فى نفوسهم، وليفزعوا إلى الحق وليلتزموا قول الحق - ولكنهم لا يعلمون.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ساقوا كلاما كثيرا فى تبرئة أنفسهم من ذنب شركهم، وتحريمهم بعض ما أحل الله، وطولبوا بالحجة، فلم يجدوا عندهم ما يستدلون به، وتحداهم رب البرية أن يأتوا بعلم أى علم، وقد بهت أولئك الكفار، بما طلب إليهم أن يأتوا به، وفى هذه الآية الكريمة يبين الله أن عنده الحجة البالغة أى التى تبلغ بصاحبها أقصى الحق والاستدلال، ف (بالغة)، معناها مبلغة صاحبها أقوى الأدلة، كقول الله تعالى: ﴿... عِيشَةً رَاضِيَةً﴾ (٧) [القارعة] أى مرضى بها، أو مرضية، وإن استعمال المشتقات بعضها مكان بعض هو من أبلغ البيان العربى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر، المعنى إذا لم يكن عندكم من علم أى علم بما تدعون، فالله تعالى عنده الحجة البالغة الموصلة للحق الهادية إليه.

وتلك الحجة البالغة هي هذا الخلق والتكوين والإنشاء وتوليد الأحياء بعضها من بعض، فكل هذا يدل على الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، وليس كمثله شئ وهو السميع العليم، ولو كان معه آلهة كما يقولون لفسدت السموات والأرض، وهكذا كل ما فى الوجود يدل على أنه واحد سبحانه وتعالى، وأنتم معشر العرب تقولون أنه الخالق وحده ليس كمثله شئ، ولكن مع هذه الحجة التى لا يمتري فيها عاقل، وتقرون بها تشركون معه غيره فى العبادة، والآلوهية، فضلت عقولكم، ولم ترتبوا على المعلوم نتيجته، بل حكمتكم من بعد ذلك الأوهام، وسيطرت. وتلك مشيئة الله تعالى ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى أن الله تعالى شاء لكم الضلالة لأنكم اخترتموها وسرتم فى طريقها بإرادتكم المختارة، فوصلتم إلى الضلال.

وهم فى قولهم معتذرين مبطلين: ﴿...لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ قد حسبوا أن مشيئة الله تستلزم رضا، كما فهم بعض الفرق الإسلامية من بعد؛ ولذا قالوا ما قالوا، والحق أن المشيئة لا تستلزم الرضا، إنما الأمر هو الذى يستلزم الرضا والنهى يستلزم الغضب، فالهداية هي التى تستلزم الرضا؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أى أن كل شئ فى الوجود تحت سلطانه وإرادته، وهو لو أراد أن تكونوا جميعا على هدى لكان ذلك، ولكتم جميعا فى أعمالكم فى رضوان الله تعالى.

وإنما أراد أن يكون منكم المهديون الدعاة إلى الحق، المؤمنون به، وأراد منكم من يكون على غير ذلك ليتم الابتلاء والاختبار، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (٤٨) [المائدة]. مهتدين كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود] وكما قال لو شاء لجمعهم على الهدى وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿٩٩﴾ [يونس].

وإننا نؤكد هنا أن الإرادة والمشية، لا يستلزمان رضاه سبحانه، فإذا كان قد شاء ضلالة بعض عباد، فإنه لا يرضى من عباده الكفر. ولذا لا يصح للمشركين، ولا لمن تكلموا في فلسفة أن يربطوا بين المشية والرضا، فقد نفى الله تعالى ذلك نفياً مؤكداً في الكثير من الآيات، وما ربك بظلام للعبيد.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

الكلام الكريم لا يزال فيما حرموه على أنفسهم مما أحله لهم وآتاهم من رزق، وقد طالبهم الله تعالى بما عندهم من علم أى علم بأن الله تعالى حرم هذا، فلم يكن علم أوتوه، ولكن أوهام سيطرت عليهم، والآن يطالبهم ليشهدوا أن الله حرم هذا ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾.

(هلم) اسم فعل أمر بمعنى ادعوا أو هاتوا شهداءكم، أى الذين تعدونهم قدوتكم، والفضلاء فيكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا.

وإن هذا الكلام سائر مع سياق القول فى تحريم ما أحل الله من رزق فجعلوا منه حراما وحلالا، فقد بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة أنهم لا يستيقنون بشيء إن يظنون إلا ظنا، وأنهم يخرصون أو يكذبون، ولذلك دعاهم إلى أن يحضروا أمثالهم ليشهدوا أن الله تعالى حرم هذا، وإنهم حيثذ يرفضون، وذلك لأن أمثال العرب لا يشهدون كاذبين، وإن كانوا كافرين، وإنا لنذكر أن أبا سفيان- زعيم الشرك قبل الفتح المبارك لمكة - عندما سأله هرقل أجاب إجابة صريحة صادقة وهو مستملل، وقال: لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت. فما كان الأمائل منهم يسارعون إلى الكذب أو يرضونه. طلب الله أن يحضروا شهداء ليشهدوا أن الله حرم هذا، وإنهم لا يشهدون.

ولكن حال تكذيبهم للنبي ﷺ، واتباعهم أهواءهم، وسيطرة الأوهام عليهم قد تغلب عليهم نزعة الصدق، ولذا كان أمر الله تعالى الذى أمره بدعوتهم بأنهم إن شهدوا بالباطل، وليس بمستحيل على من أشرك فقد تدفعه لاجبة الكفر إلى أن يطمس معالم الحق فيكذب، إن شهدوا بغير الحق، ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أى فلا تصدقهم؛ لأن الهوى قد يغلبهم على سجيتهم، ومن يشرك لا يؤمن بكذبه، ولو كان من أهل الصدق، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أى فإن غلب عليهم فشهدوا بالباطل كما ذكر، فأنكر عليهم شهادتهم، ولا تشهد معهم، ولا تسايروهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أى فلا تسايروهم فى كذبهم الذى ينبعث من الهوى، ولذا قال تعالى من بعد.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

نهى الله تعالى نبيه الكريم، ونهيه نهى لكل الذين اتبعوه، ويتبعونه إلى يوم الدين، نهاه عن أن يتبع أهواءهم؛ لأن الهوى ذاته يضل، ولا يهدى، ومن جعل إلهه هواه، فقد ضل سواء السبيل.

ونص القرآن: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والمعنى الذى هو المقصود لا تتبع المشركين المفتريين على الله تعالى الذين يحرمون ما يحرمون، ويفترون على الله الكذب. فيزعمون أنه الذى حرم، وعبر عن المشركين بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ﴾ لأنه لازم لاتباعهم؛ لأن من اتبعهم، فإنما يتبع أهواءهم المنحرفة، وكيف يتردى مؤمن فى اتباع الهوى، والهوى مضل، ومُردٍ، وأنى يكون ذلك من نبي كريم، ومن أتباعه الكرام.

ولذلك كان النهى عن اتباع هواهم، وقد ذكر لهم أوصافا ثلاثة مع أنهم أصحاب هوى وليسوا أصحاب عقل:

الوصف الأول أو الحال الأولى من أحوالهم- أنهم كذبوا بآياتنا آى بآيات الله تعالى فى الكون الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى، فكذبوا الآيات الدالة على وحدانيته، ومعنى تكذيبهم هذه الآيات أنهم لم يعملوا بمقتضى ما تدل عليه من القدرة القاهرة، والإرادة المختارة، وكذبوا بالآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ، وكذبوا بالآيات القرآنية، والأحكام التى نزل بها وحى الله تعالى على نبيه الأمين الكريم ﷺ.

والمكذب بالحق المعلوم الذى تبهر آياته البينات، لا يصح أن يتبع لأنه ضال مضل.

الوصف الثانى أو الحال الثانية- أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ومن ينكر الآخرة ينكر حقيقتين لا ينكرهما مؤمن، ولا يقع فى هذا الإنكار إلا ماذى لا يؤمن بالغيب، وهو لب الإيمان.

أولى هاتين الحقيقتين- إنكار البعث، ويقولون: إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين، وهم بذلك يحسبون أن الله سبحانه وتعالى خلقهم عبثا، وأنه تركهم سدى، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) [المؤمنون].

الثانية- أنهم ينكرون الحياة الروحية، ولا يؤمنون إلا بالحياة المادية، ومن كان كذلك لا يتبع.

الوصف الثالث- وهو الحال الثالثة، وهى نتيجة للأمرين، وهى أنهم بربهم يعدلون، أى يجعلون الأوثان، -وهى حجارة- معادلة للعبادة مع ربهم الذى خلقهم، وكونهم، وربهم بربوبيته، أى أنه خلقهم ولم يتركهم، بل قام على تطويرهم من حياة إلى حياة، فهو الحى القيوم القائم على كل شىء الذى يكلؤهم بالليل والنهار سبحانه الواحد القهار.

وتقديم ﴿بَرَبِهِمْ﴾ على ﴿يَعْدِلُونَ﴾، لبيان ضلالهم فى مساواتهم الله ربهم بالأوثان، وهو تأنيب لهم، وبيان لضلال عقولهم.

وصايا الله

﴿قُلْ

تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَأَنْكَلِفُ نَفْسًا إِلَّا

وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ
 اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
 وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
 فَتَفْرَقَ بِيَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
 تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

هذه وصايا عشر هي وصايا الله تعالى لبناء مجتمع إنساني كامل، يقوم
 على أساس التعاون الإنساني والمودة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات،
 ورعاية الضعفاء.

ولقد قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية
 رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي
 عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هذا ما قاله ابن مسعود الصحابي الفقيه النافذ ببصيرته في معاني القرآن
 الكريم، ومستخرج الأحكام من بين ما نص عليه وما ظهر، وما استكن من معانيه
 العالية.

وفي الحق إن هذه الوصايا الإلهية التي هي وصايا النبي ﷺ يقوم عليها بناء
 المجتمع الإنساني السليم، وبها تحارب الآفات الاجتماعية التي تردى بها الجماعات
 في مهاوى التفرق والانحلال. فيها تطهر النفس والعقول من آفات الفكر، وتطهير
 المجتمع من التقاطع والتنازع ومنع الاعتداء بأي نوع من أنواعه. وفيها، التعاون
 على حماية الضعفاء، وفيها إعطاء كل ذي حق حقه، وفيه إقامة العدل في كل
 ضروبه الذي هو ميزان الحقوق والواجبات، وفيها الوفاء بالعهود الذي هو رباط
 الجماعات الإنسانية مهما تختلف أجناسها وشعوبها وقبائلها.

وإن شئت أن تقول إن فيها أكثر التكاليف الاجتماعية البانية والواقية، وهي متفق عليها في كل الديانات السماوية، ومقررة في كل الشرائع العادلة، وإن لم تكن فيها على هذا السمو الرفيع كما جاء في القرآن.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

خاطب الله نبيه ﷺ لیسبلغ جوهر رسالة ربه بأن يقول لهم: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أى أقبلوا أيها الناس أجمعين فى شتى الأرض أجناسا وشعوبا وقبائل، وأقبلوا بعقولكم وأنفسكم أبين لكم ما حرم عليكم، فالنداء بـ ﴿تَعَالَوْا﴾ دعوة لإقبالهم له بكل مداركهم وتفكير وتنبيه لعظم ما سيبيئه لهم من وصايا وتكاليفات، والتلاوة هى قراءة القرآن الكريم مرتلا متتابعاً فى كلماته وأساليبه، والمراد هنا البيان لأن البيان؛ ثمرة تلك التلاوة المتتابعة الموضحة، فهذا تعبير بالمسبب عن السبب.

وقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، (ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى أبين لكم الذى حرمه الله تعالى عليكم، ويصح أن تكون ما موصولا حرفياً، ويكون المؤدى تعالوا أتْلُ تحريم ربكم تعالى عليكم.

وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى أن ذلك من ربكم الذى خلقكم وربكم، وهذبكم، وهو العالم بالأمور كلها، وهو المحيط بما فيه خيركم، و﴿حَرَّمَ﴾، إنما هو فى الأمور الخمسة الأولى التى آخرها، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، فإن هذه الخمسة محرمات تنتهى عنها وإذا شئنا الإحسان إلى الوالدين، أما الباقى فأكثره مأمورات من الوفاء بالكيل والميزان، وألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن، فهو فى معنى الأمر فى معاملة اليتيم بالتى هى أحسن فى ماله، ثم إقامة العدل والوفاء بالعهد فهذه أوامر لا محرمات.

هذه الأوامر المذكورة فى الآيات نهياً أو طلباً هى تسعة إن جعلنا الوفاء بالكيل والميزان أمراً واحداً، وإن جعلناها أمرين تكون عشرة كاملة.

﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا هو الأمر الأول الذى حرمه الله تعالى، وهو أعظم الأمور، وأقواها أثرا لأنه يتعلق بخالق الكون ومنشئ الوجود، وأصل الاعتقاد الدينى، وهو أول الشريعة، وعليه اجتمعت كل الرسالات، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى].

فالوحدانية لب الإيمان، والله تعالى يجعل كل السيئات قابلة للغفران إلا الشرك، ولذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء].

وإن الوحدانية فيها تطهير للعقول من رجس الأوثان، والإذعان للإنسان والأوثان، وهى تربية العزة فى المراء، فلا يخضع إلا للواحد الأحد، الفرد الصمد، وذلك من يعبد غير الله، ومن يخضع لغيره، وأنه إذا كانت الوحدانية برا بالخالق، فإن الإحسان إلى الوالدين برٌ بمن جعلهم الله سببا ماديا فى وجود الولد ولذا قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

هذا هو الأمر الثانى وهو الوصية بالوالدين، والوصية بهما هى الإحسان إليهما، والإحسان مرتبة أعلى من العدل، إذ هو فوق العدل فى الرحمة والرفقة، فهو عدل ورفقة ووفاء وبر، ولذلك كان الأمر بالإحسان بجوار الأمر بالعدل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [٩]. [النحل]. وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [٢٣]. [الإسراء]. وإن الأمر بالإحسان يتضمن النهى عن الإساءة؛ إذ هو نهى عن الإساءة، وأمر بفضل العاطفة والمواساة والقرب، وإحسان الصحبة.

وإن الله تعالى أمر بالإحسان إلى الوالدين مقتربا بالنهى عن الشرك فى كثير من الآيات الكريمة، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا ﴿٣١﴾ [النساء]. وقرن الله تعالى شكر الوالدين بشكر الله وجمعهما معا، فقال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان]. والإحسان إلى الوالدين شريعة النبيين أجمعين. قد كلفها بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة].

فمن يعق الوالدين فهو فاسق عن أمر الله ونهيه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ هذه هي الوصية الثالثة، وقد نزل سبحانه من إكرام الأصول والإحسان إليهم إلى الإحسان إلى الأولاد، ولم يذكر سبحانه الإحسان إلى الأولاد لأنه أمر فطري تتقاضاه المحافظة على النفس، فالولد امتداد أبيه وما جاء القرآن بالأمر بالإحسان إلى الأولاد، ولكن أمر الإسلام بالقيام على تربيتهم ورعاية شئونهم ورزق أمهاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة].

ولكن كان في وحشية الجاهلية من يثد بناته بغيا بغير علم، وكان من يفعل ذلك وغيره لإملاقهم، والإملاق الفقر من كثرة الإنفاق، وقد نهى سبحانه وتعالى عنه، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى من فقر بسبب الإنفاق عليهم، وهو متلاق في المعنى مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ... ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] فكأنه كان في الجاهلية من يقتل أولاده لإملاق واقع بسبب الإنفاق، ومن يقتل ولده لأنه يتوقع الإملاق إن لم يقتله.

وقد نهى الله تعالى عن ذلك الإثم الجاهلي، وهو من إغواء الشياطين، ولعله كان سهل على الذين يفعلونه معهم، أنهم يفعلون ذلك، وهم بعد في المهدي، أو عقب ولادتهم، فلم يكونوا تعلقوا بهم تعلق الآباء بالأولاد، وكانوا يفعلون ذلك سفها بغير علم، ولم يكونوا قد ذاقوا محبتهم؛ بالإلف، والتودد،

وقد قال تعالى في بيان أن الفقر أو الإملاق لا يبسرر؛ لأنهم لا يرزقونهم، ولكن يرزقهم الله، ولذلك قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أى نحن نرزقكم معهم، كما رزقناكم وحدكم: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ (٦).

[هود].

وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية أن منع النسل لا يجوز بعزل أو نحوه، والعزل أن يلقي النطفة خارج الرحم، ولكن رويت آثار عن النبي ﷺ أنه رأى العزل، ولم يأمر به ولم ينه عنه^(١)، ولكن جاء آخر الحديث في هذا الباب، أن النبي ﷺ قال: «العزل هو الواد الحفى»^(٢).

وروى عن الصحابة أنه رأى أن العزل ليس به من بأس، ولكنه خلاف الأولى، ورأى آخر منعه، والفقهاء بعد ذلك اختلفوا فيه، فمنهم من قال إنه مكروه، ومنهم من قال إنه حرام كالحنابلة وأهل الظاهر، والغزالي قال إنه لا يجوز إلا إذا كان ثمة عذر إليه، وفتح باب الأعذار على مصراعيه حتى لحشت المرأة على جمالها، فإن زوجها يعزل عنها، ولكنه منع منعاً مطلقاً العزل أو حد النسل خوف الإملاق أو للإملاق، فإن ذلك يكون مصادمة للنص، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، والقول الفصل في الحد من النسل المترتب على العزل ونحوه، أن جمهور الفقهاء لم يرضه، حتى إن الغزالي الذى فتح باب المبررات له، قال: إنه لا ينبغي.

ومهما يكن فإنه من المؤكد أن الذين قالوا ليس به من بأس قرروا أن ذلك بالجزء لا بالكل، أى أنه يكون لمن يريد ذلك أن يفعل، إذا كان له مبرر، على التوسعة في المبرر عند الغزالي. ولكنه حرام بالكل، أى حرام أن يدعو أحد إليه،

(١) من ذلك ما جاء في باب العزل من صحيح البخاري ومسلم، ففي صحيح مسلم: النكاح - حكم العزل (١٤٣٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: ذَكَرَ الْعَزْلُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «وَكَمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ؟» وَلَمْ يَقُلْ: فَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ «فَإِنَّهُ لَيْسَتْ نَفْسٌ مَخْلُوقَةٌ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهَا».

(٢) سبق تخريجه.

أو تدعو الدولة إليه؛ لأن ذلك مناهضة للنص الكريم في القرآن، وقوله: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^(١).

وقد قرر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد في الأزهر سنة ١٩٦٥ أن الإسلام يرغب في النسل؛ لأنه يقوى الأمة اجتماعيا، واقتصاديا، وحربيا، ويربى في الأمة روح العزة والمنعة، وقرر أن تنظيم النسل حق للزوجين دون غيرهما، يستعملانه للضرورة، ومسئوليتهما عن الضرورة أمام الله وحده.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

هذه هي الوصية الرابعة، وهي تتصل بالأولاد عن قرب أو عن بعد؛ لأن أخص الفواحش هو الزنى وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢٢) [الإسراء].

والفواحش: جمع فاحشة، والأصل في الفحش الزيادة عن الأمر المعتدل، والفاحش هو الزائد عن المعقول، ولذا يقال غبن فاحش أى زائد عن الحد المعقول في الصفقة؛ إذ لا يدخل في تقويم المقومين، والفواحش هي المعاصي لأنها انحراف، وزيادة عن الفطرة وخروج عن منهاجها، وعن الطريق المستقيم، والظاهر ما يعلن، ويجهر به، والجهر بالمعصية في ذاته حرام، وما بطن أى وما استتر ولم يجهر به، وهو إثم، ولكنه دون إثم المجاهرة، ومن يجهر بالمعاصي، فإن ما يفعله إثمَان إثم الفعل وإثم المجاهرة، ولقد قال النبي ﷺ: «إن من أشد الناس بعدا عن الله المجاهرين» قيل: ومن هم، قال: «ذلك الذى يعمل عملا بالليل قد ستره الله فيصبح يقول فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله»^(٢)، ولقد قال ﷺ فيما رواه

(١) رواه أبو داود: النكاح - النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥٠)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١٢٢٠٢). عن أنس رضي الله عنه.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاقِي إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ يَا فُلَانٌ عَمِلْتَ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ». متفق عليه : رواه البخاري: الأدب - ستر المسلم على نفسه (٦٠٦٩)، ومسلم: الزهد والرقائق - النهي عن هتك المسلم ستر نفسه (٢٩٩٠).

الشافعي: «يا معشر الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو في ستر الله ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد»^(١).

ومن المعاصي ما يستتر استتاراً؛ لأنه خلجات القلوب ولم يظهر في العمل لا لعدول صاحبها، ولكنه فوجئ ما فوت عليه مقصده كمن بيت الاعتداء، أو الزنى، واتجه إلى الفعل، ولكن فات عليه ارتكابها لأمر خارج عن إرادته، فإنه يكون قد أبطن معصيته، ولكن لم يُمكن من ارتكابها رغماً عنه لا مريداً، فإن من الآثام ما يكون باطناً، وعليه الإثم، وكمن يهاجر إلى مكان لا يريد الهجرة لله أو لعمل صالح، ولكن يريد الفسق والفجور أو البغي، فإن هذا يكون فاحشة مما بطن. وهذا النص مثل قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ...﴾ (١٢٠) [الأنعام].

وقد يسأل سائل، إن هذا النص القرآني وما يشبهه فيه نص على المؤاخظة على ما في النفس وما يبطن، مع أن الحديث بأن الله تعالى لا يؤاخذ على ما يحدث المرء به نفسه، وقال عليه الصلاة والسلام: «من هم بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شيء»^(٢)، فإن هذا حديث النفس أو همها، من غير أن تشرع بعمل، بل عدل من تلقاء نفسه.

وما في النص السامي الذي نتكلم في معناه هو من ارتكب الشروع، ولم يقتصر على حديث النفس ولا هم النفس والعدول، بل أراد الفعل وقصده، وأخذ في الأسباب، ولكن لم يتم لأمر خارج عن إرادته.

(١) رواه مالك في الموطأ: الحدود- ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا (١٥٦٢).

(٢) رواه الإمام البخاري: الرقاق- من هم بحسنة أو سيئة (٦٤٩١)، وفي رواية: التوحيد (٧٥٠١).

كما رواه مسلم: الإيمان- إذا هم العبد بحسنة (١٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وعلى هذا فإن من هم بسيئة فلم يفعلها- ابتغاء مرضاة الله تعالى- كتبت له حسنة. والله أكبر.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

هذه هي الوصية الخامسة التي أوصى بها رب العالمين، وهي النهي عن قتل النفس التي حرم الله تعالى قتلها إلا بالحق، ويكون القتل بحق أى بسبب يوجب القتل.

وهذا النص يفيد تحريم قتل النفس أساسا، فهى على أصل المنع إلا أن يكون ثمة موجب لذلك؛ فإن ذلك يكون بحق لحماية النفوس العامة، وقد قال -تعالى- فى قتل قابيل أخاه هابيل حسدا وبغيا: ﴿مَنْ أَجْلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢)﴾ [المائدة].

فالقتل حرام، إلا إذا كان ما يبرره فيكون بحق، ومن الحق الذى يوجب القتل، ويحل النفس، أن يقتل غيره أو أن ييغى، أو أن يحارب الله ورسوله وهم قطاع الطريق أو أهل الحرابة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٤)﴾ [المائدة].

وهكذا نجد الحق الذى يبرر قتل النفس يكون لحماية النفس ذاتها، أو يكون صاحبها قد أباحها.

وإن النهي عن قتل النفس عام إلا إذا وجد ما يبرره؛ لأن الله تعالى حرم قتلها، فقلوله تعالى ﴿الَّتِي حَرَّمَ﴾ قتلها فيه الصلة، وهى علة النهي، فقتلها منهى عنه؛ لأن الله تعالى حرمها، ولذا إذا أباح صاحبها نفسه برده؛ أو محاربة للمسلمين، فإن الله تعالى لم يحرم قتلها، فلا نهى؛ لأنه مباح الدم.

وبذلك يتبين أن الله تعالى نهى عن قتل الدمي المعاهد، ومن دخل أرض المسلمين مستأمنًا؛ لأن عهده عصم دمه، والله أعلم.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الإشارة إلى المذكور من النهى عن الشرك والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهى عن قرب الفواحش وهو نهى عن المقاربة لا عن الوقوع؛ لأنه نهى عن أن يدنو منها، فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيها، والنهى عن القرب يدل على النهى عن الوقوع، والإشارة تشمل النهى عن قتل النفس، فهذا كله من وصايا الله سبحانه وتعالى، ووصايا الله تعالى جديرة بالاتباع، وجعل الخطاب فى الإشارة بـ (ميم الجمع) لعموم التوصية بهذه الأمور التى أشار إليها، وليتسق القول مع ﴿صَّاكُم بِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى لكى ترجوا دائما أن تكونوا متذكرين. وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لعل فيه للرجاء والرجاء من العباد لا من الله تعالى.

والتوصية هى الطلب المؤكد من العباد.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

نهى الله تعالى أن يقربوا مال اليتيم أو يأخذوه، وكان التعبير بالقرب، ويكون بالأولى النهى عن أكله لأنه إذا كان النهى عن القرب إلا بالخصلة أو بالطريقة التى هى أحسن لإتمائه وحفظه وصيانته، ومنها الاتجار فيه إذا كان الوصى عليه أمينا قادرا ماهرا لقوله عليه الصلاة والسلام: «اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة»^(١)، كان أولى بالنهى أكله.

واليتيم هو الذى مات أبوه، والخصلة التى هى أحسن قال فيها بعض المفسرين، إنه المحافظة على أصوله وتثمين فروعه، ولو عبّر فقال المحافظة على الأموال الثابتة كالأرضين والدور والأغراس، وتثمين المنقول بكل طرق التثمين بالأمانة، ولا يأكلها، فإن التعبير يكون أوضح.

(١) سبق تخريجه.

وإنما كان النهى عن قرب ماله إلا بما يحفظه وينميهِ؛ لأنه فقد من يحميهِ، فَقَدَ الأب الحامى الذى يأخذ بيده إلى مدارج الحياة، يلاحظ جسمه، ويلاحظ ماله؛ إن كان له مال، وهنا لم يذكر إلا المال؛ لأنه مطمع الطامعين ومطلب الذين يأكلون أموال الناس أكلا لماً.

وإن مال اليتيم هو جزء من مال الأمة؛ إن حووظ عليه كان محافظة على جزء من ثروتها.

وإن المال أمانة فى يد وصيه، وفى رعاية الأمة مجتمعة ممثلة فى قاضيتها، حتى يبلغ أشده، أى يبلغ السن التى يقدر فيها على المحافظة على ماله، والقيام على شئونه فى خاصة نفسه، وفى معاملته، والأشد قيل جمع شدّ، ككلب وأكلب، وقيل اسم لا مفرد له، والمراد ما ذكرنا وهو بلوغه حد القدرة على إدارة شئون ماله، وأدناه بلوغ النكاح بأن يكون قد بلغ السن التى يمكن أن يتزوج، وأن يبلغ رشداً، أو يؤنس منه الرشيد، بعد بلوغه سن النكاح، قال تعالى: ﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء].

وقد شدد الله تعالى فى الوصية باليتامى فى أموالهم وأشخاصهم لأنهم ضعاف، ولشدة الوصايا بالآيتام كان المؤمنون يخشون على أنفسهم أن يخالطوا اليتامى فيظلموهم أو يأكلوا مالهم فأمرهم الله تعالى أن يكون برهم بالمحافظة على أموالهم، ومخالطتهم؛ لأن المخالطة تقر بها نفوسهم، ويأنسون بها، فلا ينفرون من مجتمعهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة].

وإن رعاية نفس اليتيم تجعله قريباً بنفسه إلى الناس، ولا ينشأ نافراً منهم؛ لأنه لا يجد الحماية والرعاية، وينشأ عدواً للجماعة التى يعيش فيها، ولذا قال

تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى] وقال ﷺ: «شر البيوت بيت يقهر يتيماً، وخير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم»^(١).

هذا إصلاح فى الأسرة وهو إكرام اليتيم، وأوصى سبحانه وتعالى بالأمانة فى الجماعة، فهى رباط المودة فقال تعالت كلماته:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

هذان هما الأمران السابع والثامن اللذان أوصى الله تعالى بهما فى ضمن عشر الوصايا، وهما الوفاء بالكيل فى المكيلات، والوفاء بالوزن فى الموزون بالقسط من غير بخس ولا شطط، ولا زيادة ولا نقص، بل للناس من وفاء الكيل بمقدار ما تطلب، وتعطيهم من الوزن بمقدار ما تطلب لو كنت طالب الكيل والميزان، وذلك على حسب الطاقة فى تحرى الحق فى مكيل غير منقوص، وموزون غير مبخوس؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وإن الله تعالى إذ يطالب بالوفاء فى الكيل والميزان يذم المطففين لهما، فقد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين].

وكان الأمر بالوفاء؛ لأنه المطلوب، فالزيادة غير مطلوبة إلا من أهل السماحة، والنقص محرم ممنوع.

وإن الوفاء فى الكيل والميزان يرمز إلى حسن التعامل فى الأمة، ومنع أكل أموال الناس بالباطل الذى يضعفها ويقتلها.

ولذا عقب الله تعالى النهى عن أكل أموال الناس بالباطل بالنهى عن قتل أنفسهم أى تفريق النفوس فى جماعتهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ [النساء].

(١) رواه بنحوه ابن ماجه: الادب - حق اليتيم (٣٦٧٩).

ولقد قال ابن عباس فيما روى عنه كلمة جامعة فى آفات الجماعات ونتائجها: (ما ظهر الغلول فى قوم قط إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب، ولا فشا الرزى فى قوم إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا اختر قوم بالعهد إلا سلط الله تعالى عليهم العدو)^(١).

هذا وإن العدل فى الأمة ميزانها، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

أمر الله تعالى بالعدل فى القول، وأن لا نقول إلا عدلا، ولذا قال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ والعدل فى القول تحرى الحق فيه، فلا ينطق بأمر لا يكون حقا.

والعدل فى القول يشمل الحكم بين المتخاصمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء]. وتشمل الفصل فى الخلافات بين الناس، فلا يقول إلا الحق، لأن الحق يحسم النزاع ويقطع دابر الخلاف، ويشمل القول فى الشهادة، فلا ينطق إلا بما رأى وعين، فإن الشهادة حكم أو هى طريق الحكم ودليله، وإذا قلت فى مباراة فكن عادلا، وإذا قلت فى امتحان فكن عادلا؛ لأن الامتحان تقدير كفاية فهى حكم.

والعدل ميزان الحق فى معاملات الناس وأحوالهم، والإسلام دين العدل، وإذا كان لكل دين سمة فسمة الإسلام هى العدل، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل].

ولذا كان العدل رابطة الجماعة وميزانها، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أى ولو كان الذى يقوم عليه العدل فى القول فى حكم أو شهادة، أو فصل فى

(١) الرواية موقوفة على ابن عباس فى موطأ مالك: الجهاد - ما جاء فى الغلول (٩٩٨). وخسر العهد: نقضه.

خصومة، أو مباراة، أو امتحان، فإنما العدل حيث تتنازع العواطف، وتمتلك النفوس هو فعل الأبرار، وهو المقياس الذى تتفاوت به مراتب العدول.

وإذ كان العدل ميزان الترابط بين الجماعات فى الأمة، فالوفاء بالعهد ميزان العدالة فى الأمم، ولذا قال تعالى:

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

هذه هى الوصية العاشرة من وصايا الله تعالى وهى تطلب من الناس أجمعين الوفاء بالعهد، وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قدم فيه ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لأهمية الوفاء بعهد الله، ولمعنى الاختصاص، أى احرصوا على الوفاء بعهد الله دون غيره.

وعهد الله تعالى الذى يتجه إليه؛ ما عهده إلى بنى آدم من فطرة مستقيمة أنشأهم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ (١٧٢)﴾ [الأعراف]. وإن تكليفات الله تعالى عهود عليهم.

والعهود بين العباد عهود الله تعالى عليهم؛ لأنهم عادة يوثقونها بأيمانهم، وقد قرر سبحانه وتعالى ذلك، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلْوِكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾ [النحل].

فهذه الآية تحث على الوفاء بما يكون من العهود بين الآحاد والجماعات، وهى تدل على ثلاثة أمور:

أولها- أن من وثق عهده بالله فقد جعل الله تعالى كفيلًا بالوفاء، والخيانة أو خفر العهد خيانة لله تعالى.

ثانيها- أن الوفاء بالعهد يقوى الأمة فيجعل الناس يثقون بها، وتلك قوة، ولذلك شبه الله تعالى من ينقض عهده بالحمقاء التي تنقض ما فلتته من غزل، فتجعله أنكاثا شعرا متفرقا.

ثالثها- أنه لا يصح أن تكون الرغبة في زيادة الأرض والسلطان سببا لخيانة العهد؛ لأن ذلك ظلم وطغيان، وفقد لقوة أكبر وأعز من النكث في العهد والخيانة فيه.

وصدق ما قاله ابن عباس فيما نقلنا (ما خفر قوم في العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوهم).

هذه وصايا الله سبحانه وتعالى، ويلاحظ أنه لم يذكر في هذه الوصايا الصلاة والزكاة والصوم والحج، وهي من أركان الإسلام، والصلاة عمود كل دين، وكما قال النبي ﷺ: «لا دين من غير صلاة»^(١) لأنها لب العبادة.

ولماذا لم تذكر الصلاة في هذه الوصايا، مع أنها لا تقل طلبا في الإسلام عما ذكر من الوصايا العشر؟ ونجيب عن ذلك بثلاثة أمور.

أولها- أن المطالبة بها ذكرت إجمالا في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وقد ذكرنا أن أول عهود الله تعالى تكليفاته التي كلفها عباده.

ثانيها- أن هذه الوصايا مجمع عليها في الأديان، وهي الأساس النفسي والعملی لتكوين الجماعات الفاضلة، وقد جاءت بها الأديان كلها، ورضيتها الشرائع الوضعية المستقيمة.

ثالثها- وهي أهمها، أن هذه الآية مكية، ولم تكن الصلاة ولا الصوم ولا الحج قد فرض، والزكاة لم تكن قد نظمت كما ذكرنا آنفا.

(١) رواه أبو داود: الخراج والإمارة - ما جاء في خبر الطائف (٣٠٢٦)، وأحمد: مسند الشاميين - حديث عثمان بن أبي العاص (١٧٤٥٤)، بلفظ: «لا خير في دين لا ركوع فيه». أي لا صلاة فيه.

وقد بين الله تعالى من بعد أن هذه الوصايا هي طريق الله الحق الذي بينه لعباده، فقال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ .

(الواو) واو العطف، فهي عاطفة هذه الآية على ما قبلها من الوصايا، و(أَنَّ) مفتوحة، فهي ليست صدر جملة مبتدأة، بل مصدر منسبك مع ما بعدها، وعاملها (اتل)، واتل عليهم، وبين لهم أن هذا صراطى مستقيما لا عوج فيه، والصراط: الطريق، فطريق الله تعالى مستقيم، والمستقيم أقرب طريق يوصل إلى الحق، كما أن الخط المستقيم أقرب خط بين نقطتين .

والإشارة إلى ما يبينه الله تعالى من ضلال الذين يحرمون ما أحل الله، وبيان ما أحل وما حرم وبيان ضلال من قتلوا أولادهم سفها بغير علم، وما بينه الله تعالى من نهى عن الشرك، وطلب الإحسان إلى الوالدين، والنهى عن قتل الأولاد من إملاق، والنهى عن القرب من الفواحش والنهى عن قتل النفس التى حرم الله قتلها، والأمر بالإحسان إلى اليتيم ووفاء الكيل والميزان، والعدل فى القول والوفاء بعهد الله .

كل هذه المعانى، أو جماعها هو طريق الله تعالى وهو طريق مستقيم، وقوله تعالى ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال من اسم الإشارة .

والطريق المستقيم الذى هو صراط الله، والذى هو الخط الذى بينه الله تعالى لعباده يجرى بجواره سبل مختلفة هي مثاراات الشيطان يضل بها عباد الله تعالى عن الطريقة المثلى، والمنهاج السوى الهادى .

ولقد روى ابن مسعود قال: خَطَّ رسول الله ﷺ خطا بيده، ثم قال ﷺ: «هذا سبيل مستقيم» وخط عن يمينه، وعن شماله ثم قال: «هذه السبل ليس

منها سبيل إلا على رأسه شيطان يدعو إليه»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١).

ومعنى قوله تعالى ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أن هذه السبل التي هي مثرات الشيطان فيها أمران يخرجان بهما عن سبيل الله.

أولهما- أنها آثام لا استقامة فيها بل هي معوجات مضلة. وثانيها- أنها مع ما فيها من إثم تبعد عن الحق وتتفرق في باطلها، فهي لا تلتقى مع الخط المستقيم، وتتفرق بعضها عن بعض.

جاء في سنن ابن ماجه بسنده عن العرياض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله إن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا، فقال: تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي. عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأموال المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة، وعليكم بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا، وإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد» (٢).

اللهم إن اتباع السبل المتفرقة التي هي مثرات الشيطان، والتي على كل رأس منها شيطان هي التي فرقت أمتك وجعلت بأسها بينها شديدا، اللهم فاهدها إلى صراطك المستقيم.

وإن هذا الصراط هو جماع التوصيات؛ ولذا قال الله تعالى:

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ويصح أن نعد هذه الوصية العاشرة، وتكون الوفاء بالكيل والميزان وصية واحدة، وهو أولى والإشارة إلى الصراط المستقيم

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٤١٣١)، والدارمي: المقدمة - في كراهية الرأي (٢٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه: المقدمة- اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٤)، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٦٩٢) من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه.

وصى الله تعالى به، أى أمرنا بالوقوف على هدى الله فى هذا الصراط أمرا مشددا
بالأ نعيد عنه؛ لأن التفرق فيه يجعل أمرنا سديدا بددا، لا تجمعنا فيه جامعة، ولا
نسلك طريق هداية، ولذلك قرر بعد هذه التوصية المؤكدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى
رجاء أن تمتلئ قلوبكم بتقوى الله تعالى، وأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية،
ولعلكم أن ترجو رحمته بعد خوف عقابه، فإن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل
صالحا، ثم اهتدى.

الرسالة المحمدية حجة على المشركين

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ
وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ
عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

بين الله تعالى صراطه المستقيم، وهو صراط القرآن العظيم، وقد أشرنا من قبل إلى أن هذه وصايا الأديان كلها، ومن بعد ذلك أشار سبحانه وتعالى إلى شريعة موسى مبينة مع شريعة القرآن ليعلم العرب أن ما جاء به النبي ﷺ وما نزل عليه من قرآن هو تكملة للرسالة الإلهية، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

(ثم) هنا عاطفة على الصراط المستقيم، وما سبقه من وصايا، وفهم من التعبير بـ (ثم) هنا أنها لمجرد العطف على التراخي من غير ترتيب؛ لأن ما يتعلق بموسى عليه السلام سابق على شريعة محمد ﷺ قال الحافظ ابن كثير ذلك، وقال إنه ترقى في الخبر من الحاضر إلى الماضي، واستشهد بقول الشاعر:

قلن لمن ساد ثم ساد أبوه ثم من قبل ذلك قد ساد جدّه

ونحن نرى أن (ثم) هنا للترتيب والتراخي أيضاً؛ لأن الترتيب والتراخي كما يكون في المستقبل يكون في الماضي، فهو قد ذكر الأب، ثم ذكر الجد، وذلك تراخٍ في الزمن الماضي. وليس ذلك غريباً في استعمال (ثم)، فهو ترقى في الذكر من الحاضر إلى الماضي، وفي الماضي ذلك التراخي، وإن ذلك يتلاقى مع قول أبي السعود: إن (ثم) تجيء للتراخي في الإخبار مع الترتيب، كأن تقول: قابلتك اليوم، ثم بالأمس، ثم قبل ذلك، فإن استعمال (ثم) هنا في موضعها.

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ إنا وصينا بالصراط المستقيم الذي هو صراط الله تعالى، وهو القرآن الكريم، ثم من قبل ذلك آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً . . . أي أن هذه الوصايا العشر، قد آتيناها من قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ۖ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وكما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (١٧) [هود]. وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا.

وفى الجملة: إن الله تعالى يقرر بهذا أن الشرائع السماوية فى الدعوة إلى الخير والنهى عن الشر ظاهره وباطنه وأن حديثها فى الوحي والتنزيل واحد.

وقال تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أى تتيما وتكميلا لنعمة الهداية فلا شىء أتم من الهداية والتوفيق إلى الصراط وبين الحق، ولأنه الكمال والتمام للخير جعله الله تفصيلا لكل شىء من شئون الهداية والتوجيه، فهو كتاب قد آتاه الله تعالى موسى فيه كمال الخير وبيانه، ووصفه الله سبحانه وتعالى بوصفين كريمين.

أحدهما- أنه هدى فهو يهذى إلى الحق ويرشد الذى أحسن التلقى، وكان قلبه مفتوحا للحق ويدخل إليه، ويصل إليه، ولم ينطمس قلبه وبصيرته، ولم يكن على بصره غشاوة.

وثانيهما- أنه رحمة، ففيه تفصيل الخير، وبين الوصول إلى الحق فى كل مسالك الحياة، والهداية ذاتها رحمة، والشريعة التى جاءت بها التوراة رحمة بمن بعث موسى عليه السلام لهم، وإن هذه الهداية والرحمة، الأخذ بها هو طريق لرجاء الإيمان باليوم الآخر، ولذا قال سبحانه ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أى أن الله تعالى آتى موسى هذا الكتاب تتيما وتكميلا للذى أحسن التلقى، وشرح صدره لقبول الحق، وجعله الله تفصيلا للحق وبيانا له، ونورا وهدى ورحمة - كان رجاء أن يؤمنوا بقاء ربهم، فقله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الرجاء فيها من العبيد لا من الله تعالى.

وهنا يسأل سائل، لماذا كان الرجاء فى الإيمان باليوم الآخر وبقاء الله تعالى، ولم يذكر سبحانه وتعالى غيره مع أن الإيمان له عناصر غير مجرد الإيمان بقاء الله تعالى؟ ونقول فى الإجابة عن ذلك، إن الإيمان بقاء الله تعالى هو

الجامع لكل معانى الإيمان، فمن آمن باليوم الآخر لا يصعب عليه الإيمان بأى جزء من أجزاء الإيمان من بعد، ولذلك كان النكير من العرب والاستغراب فى الإيمان بالبعث والنشور.

وفى قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ذكر لقاء الله الذى خلقهم وربهم كناية عما يكون فى اليوم الآخر؛ لأن لقاء الله تعالى هو أعظم ما يكون فى يوم الدين.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾.

الإشارة إلى القرآن لأنه حاضر مهياً كامل، وهو مبارك لأنه يشمل الخير والحق والفضل، وفيه مصالح الناس فى معاشهم، وفيه الشريعة الإنسانية الكاملة ما ترك صغيرة ولا كبيرة من أمر الدين إلا بينها وفصلها تفصيلاً، ففيه ما يطهر الروح والجسم، وفيه ما يطهر الجماعة وينميها، وفيه ما يجمع الناس على الود والرحمة، وفيه ما يحقق العدالة والميزان فى هذا الوجود، فهو مبارك، وإنه لمستمر لكل من يتلقاه مهتدياً بهدى الله تعالى، فهو حبل الله تعالى إلى يومه فهو مبارك فى كل نواحيه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾ [الأنعام].

وإذا كان الكتاب له هذه البركة وهذه الهداية فإن اتباعه يكون واجباً ولازماً، لمصلحتهم، فإن فيه النفع العميم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، (الفاء) تفصح عن شرط مقدر وجوابه الأمر (اتبعوه)، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ كان لرجاء الخير منه، وقوله بعد ذلك: ﴿وَاتَّقُوا﴾ كانت للوقاية من العذاب، فالاتباع لرجاء النفع، والاتباع لتجنب ما يترتب على المخالفة من عقاب بعد الحساب، فالأمران فيهما ترغيب فى الخير بالاتباع، وترهيب باتقاء نار جهنم عند الاختلاف والمعاندة، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

أى إذا اجتمع اتباع القرآن والأخذ بهدايته وشريعته، وكانت التقوى فى قلوبكم، فإن الرحمة ترجى لكم، ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أى رجاء أن تكون رحمة الله تعالى تعمكم، ورحمة الله وسعت كل شىء والرجاء من العبيد، لا من الله، ويصح أن نقول إن الآية فيها بيان أن الرحمة هى الغاية المرجوة للاتباع والتقوى.

وهنا يجب أن نلاحظ أن القرآن الكريم يذكر دائما شريعة موسى عليه السلام، وذلك لأن موسى أنزل عليه الكتاب وهو التوراة فيه بيان كل شىء وفيه ما كان عقابا لبنى إسرائيل، ولذلك عندما سمع نفر من الجن قالوا كما أخبر القرآن الكريم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف].

وإنه كان من المشركين من يعتذرون عن عبادة الأوثان بأنه لم يجرى إليهم من يهديهم كاليهود والنصارى، فذكر الله سبحانه وتعالى أنه أنزل إليهم الكتاب المبارك لكى يقطع عذر جهلهم، فقال تعالى:

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾.

المشركون كانوا يعتذرون عن وثنيتههم بكل تعلقة سواء أكانت مقبولة أو مردولة، فهم كانوا يرون اليهود والنصارى لا يعبدون الحجارة، وإن كان فيهم - خصوصا النصارى - من يقدسون بعض الأحجار كتمثال العذراء. فكانوا يعتذرون عن وثنيتههم بأنه لم يجرى كتاب يهديهم إلى الحق كهاتين الطائفتين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ متصل بالآيات التى قبلها، فهى قطع الطريق عن تعلقة متعللون، وهو أنهم لا كتاب يهديهم، فالمعنى وهذا كتاب مبارك خاطبناكم لئلا تقولوا معتذرين، أو فأنزلناه حجة عليكم، حتى لا تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين.

وقد اعتذروا باعتذارين :

أولهما- أنهم قالوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، والطائفتان هما اليهود والنصارى، والكتاب المذكور هو فيما يظهر التوراة، فهي مصدر عند اليهود والنصارى، كما هو مقرر عند النصارى في هذا الزمان، وقد قرروا قصر هذه الكتب على هاتين الطائفتين، بكلمة (إنما)، أى الإنزال مقصور على هاتين الطائفتين، ولم ينزل علينا، وما كنا لنكلف بكتاب لم ينزل علينا إنما نزل على غيرنا.

ثانيهما- أننا كنا عن دراستهم غافلين غير مهتمين بدراسة ما عندهم، ولا ظالمين ولكن غافلين عنه، ولأننا لا نعرف لغة الكتاب، ولم يبلغ إلينا. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (إن) هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والمعنى أنه الحال والشأن كنا عن دراستهم غافلين لا نعرفها، ولم ننبه إلى معرفتها.

وقد أكدوا غفلتهم عنها بعدة مؤكدات .

أولها- (إن) المخففة فهى للتأكيد. ثانيها- (كنا)، وهى تدل على استمرار غفلتهم، ثالثها- الجملة الاسمية فهى تؤكد ثبوت الغفلة، رابعها- (اللام).

وكان تسجيل الغفلة عليهم وتأكيدها، لتأكيد عذرهم.

وقد بين الله تعالى أنه قطع عليهم عذرهم بإنزال القرآن الكريم فلا حجة لجهلهم من بعد بيانه، وإنه المبارك والنور، وفيه الهداية، وفيه الشريعة الكاملة.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

(أو) عاطفة على (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين...) فإنزال الكتاب الكريم لكيلا يقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين، أو يقولوا لو أننا أنزل

علينا الكتاب لكننا أهدى منهم، فالآية السابقة اعتذار أو فى معنى الاعتذار عن شركهم وإيمان غيرهم، وهذا لبيان ما يرجون لأنفسهم من فضل لو أنزل عليهم كتاب مثل ما أنزل على غيرهم، بل إنهم يحسبون كما يحسب كل مفتر أنه لو جاء إليهم أمر من الأمور لعملوا بما يدعو إليه.

وإن المشركين قرروا ذلك كما حكى عنهم القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۚ﴾ [فاطر].

أكدوا أنهم لو أنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدى منهم فقالوا (لو أنزل علينا الكتاب لكننا أهدى منهم)، الكتاب المراد الذى أنزل على الطائفتين من قبلهم، ولكنه لم ينزل علينا، فلهم الهداية دوننا، و(لو) هنا حرف امتناع لامتناع، أى امتنع علينا أن نكون مثلهم لأنه لم ينزل علينا مثلهم.

أنزل الله تعالى الشرطية الأولى، وهى أنهم لم ينزل عليهم، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾.

وعبر عن الكتاب الكريم بقوله (بينة) إذ المعنى فقد جاءكم كتاب هو بينة، وعبر بهذا التعبير للإشارة إلى أنه بين فى ذاته، وهى بينة فيها ما يدل على صدق النبى ﷺ والدلالة على النزول من عند الله تعالى، فهو كتاب بين يحمل فى نفسه دليل صدقه؛ لأنه حجة يتحدى بها، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا عجزاً مبيناً.

و(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ للإفصاح عن شرط مقدر مضمونه فى كلامهم، أى فإذا كنتم تطلبون أن ينزل عليكم كتاب، فقد جاءكم. وقد وصف سبحانه الكتاب بأربعة أوصاف.

أولها- أنه ﴿بَيِّنَةٌ﴾، أى هو بين فى ذاته، وفيما دل عليه من شرائع بينها وفصلها، وأحكم بيانها.

ثانيها- بأنه ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ الذى خلقكم ويعرف ما يصلح أموركم، وينفعكم فى معاشكم ومعادكم.

وثالثها- أنه فيه الهداية إلى الصراط المستقيم وإصلاح نفوسكم، وهداية جمعكم.

ورابعها- أن فيه الرحمة بكم؛ لأن فيه الشريعة المحكمة وهى رحمة للعالمين، ولأنه هو نبي الرحمة، قد جاءكم القرآن بما تطلبون أو بما تتمنون، أو بما يكون فيه ادعائكم، فهل آمتم؟ كلا، لم يؤمنوا، وكان كلامهم غرورا أو تغريرا، وهو ضلال فى كل أحواله، بل كذبوا بآيات الله، وانصرفوا عنها، ودعوا الناس للانصراف عنها، فضلوا وأضلوا وأشاعوا فساد الفكر والاعتقاد بين الناس، وهم بهذا أشد الظالمين، ولذا قال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ إنهم بعد أن جاءتهم الرسالة مع الكتاب الذى ادعوا أنه لو أنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدي الأمم أى أكثرها هدى، فلما جاءتهم كذبوا بها، وكذبوا بآيات الله التى أقامها عليهم فى التصديق برسالة النبي ﷺ، كذبوا بالآيات الكونية الدالة على وحدانية الخالق فكذبوا بدلالاتها على هذه الوحدانية، وكذبوا بآيات القرآن فلم يصدقوه، وهو آية كبرى، فكانوا ظالمين أشد الظلم، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيَّاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى أنهم إذا كانوا قد كذبوا الرسول الذى جاء بينة من عند ربهم فقد ظلموا، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أى النفى مع التوبيخ أى لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله تعالى، وصدف عنها فقد ارتكب ظلمين فاحشين:

أولهما- أنه كذب بآيات الله تعالى الدالة على كمال ربوبيته ووحدانيته وعاند الله تعالى فى رسالة نبيه وتكذبه له، وإن ذلك ظلم وكفر، وضلال.

ثانيهما- أنه صدف عنها، أى أعرض عنها إعراضا شديدا، فانصرف عنها، وعمل على أن يصرف غيره عنها، فالصدف الانصراف عنها، وصرف الناس عنها

بتضليلهم، وإيذاء المهتدين لحملهم على الضلال والفساد، والتحريض على ضعف المؤمنين، وإيجاد رأى عام ضال مضل، ولقد أُنذر الله تعالى الذين أَعرضوا عن الحق، ودَعُوا الناس إلى الإعراض وآذوا من لم يعرض عنه، وسلك سبيل المؤمنين، فقال تعالت كلماته:

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

(السين) هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل، وعبر بالسين الدالة على قرب الوقوع المؤكد؛ للدلالة على قرب الوقوع، وتأكده، وكل آت قريب ما دام مؤكد الوقوع.

وأُسند سبحانه الجزء إلى ذاته العلية، لتأكد وقوعه، فإن الله لا يخلف الميعاد عذاباً أو ثواباً.

وعبر سبحانه وتعالى عن الظالمين بالاسم الموصول، وهو إشعار بأن الصلة هي السبب في هذا الجزء الشديد الذي وصفه سبحانه بأسوأ العذاب، أى عذاب وقعه يسوءهم، ويؤلمهم وهو في ذاته سوء لا يكون إلا لمن تكون عاقبته السوءى، ولمن كان يفعل ما يسوء، ويكفر بالله تعالى، وذكر سبحانه السبب في هذا العذاب الذى هو سوء فى ذاته، فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أى بسبب استمرارهم على الصدف بإعراضهم، وحمل الناس على أن يعرضوا عن سبيل الله سبحانه وتعالى.

وهكذا نرى المشركين فى ضلال مستمر، فهم يضلون فى أقوالهم وأفعالهم، وشركهم، وقانا الله شر مآلهم.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ
بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامِنًا مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا

إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

أتى الله تعالى بالبينات فكذبوها، وأرسل عليهم الرسل بمعجزات قاهرة فلم يصدقوها، وأرسل إليهم محمدا خاتم النبيين فكذبوه، فلم يبق إلا أن ينتظروا العذاب، وما يسبقه، والقيامة وما يتبعها من حساب وعقاب. منهم قد يئس الحق من أن يدركوه، ولذا قال تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

أكثر المفسرين على أن ذلك عندما يحين حين هذه الدنيا، والاستفهام إنكارى توبيخى، لا ينتظرون بعد هذا التكذيب إلا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم، أو يأتيهم ربك أى أمر ربك، فهى من قبيل حذف المضاف والاكتفاء بذكر الله تعالى، وأمر الله شديد لا قبل لكم باحتماله، إذ يتغير الكون، وينفخ فى الصور ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ﴾، من تغيير كل شىء فى الكون إذ تقوم القيامة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ﴾، ولم ينفعها خير لم تكن قد قدمته من قبل، وهذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، وهى ما يجىء يوم القيامة، وقد فسر النبى ﷺ بعض هذه الآيات، فقد روى أنه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات، طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، ويأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج الدجال، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف

بالمغرب وخسف بجزيرة العرب^(١) رواه أحمد، وصححه الترمذى، وقال حديث حسن صحيح.

وإذا كان ذلك اليوم المشهود يكون انتهى العمل وبقي الجزء، تكون الدنيا قد انتهت وابتدأت الآخرة، فلا ينفع إيمان لأنه قد جاء بعد إبانة، وفات أوانه، فلا ينفع نفسا إيمانها؛ إن آمنت، إذ الإيمان يكون والنفس فى فسحة من مجيء هذا اليوم، أو إذا كانت كسبت خيرا فى إيمانها لا ينفع فى ذلك اليوم، فهو ليس يوم الكسب بل هو يوم الجزء فلا إيمان يجدى، ولا ينفع كسب كسبه فى إيمان فى ذلك اليوم لأنه إذا كان الإيمان لا يجدى، فما يكتسبه فيه لا يجدى، (أو) فى معنى الواو هنا، ولكن عبر بها لتنويع عدم النفع، إذ لا ينفع إيمان، ولا ينفع كسب مع إيمان، إذ إن هذا هو يوم الجزء.

هذا تفسير المفسرين، وقد خطر خاطر أذكره غير جازم به، ولكنى أذكره على أنه احتمال وذلك أن قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أنهم لم تجهّم بينات النبى ﷺ وقد طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة، ولو جعله الله ملكا لجعله رجلا، وللبسنا عليهم ما يلبسون، وطلبوا أن يروا الله كما طلب بنو إسرائيل أن يروا ربهم، وقالوا أرنا الله جهرة.

وطلبوا هم بعض آيات كونية، ومن ذلك ما حكى القرآن الكريم عنهم، إذ يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فُتْجِيرًا ۖ (٩١) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفْقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ (٩٥)﴾ [الإسراء].

(١) كما رواه مسلم: الفتن وأشراف الساعة - فى الآيات التى تكون قبل الساعة (٢٩٠١).

هذه آيات طلبوها، أن تسقط كسفا من السماء أو يأتى الله والملائكة قبيلا فالله تعالى يقول فى هذه الآية: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ هذه الآيات، أن تأتيتكم الملائكة، أو يأتيتكم ربكم أو بعض آيات ربكم لتؤمنوا، وقد كفرتم بكل الآيات، ثم هددهم بأن تأتيتهم بعض آيات ربك فتكون القيامة، ولذا قال سبحانه أمرا نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾.

قل يا محمد يا خير الخلق: ، انتظروا بعض آيات ربك التى تستقبلكم، فيكون الحساب والعقاب، وإنا منتظرون لنلقاكم فيكون الجزاء بعد الحساب وحينئذ ينزل العقاب بكم على كفركم، وينال المؤمنون الشواب لإيمانهم والله بكل شىء محيط، وإن ذلك جزاء المشركين. ومثل المشركين، الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعا وأحزابا فى دينهم من غير المشركين ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى المشركين وأحوالهم، وكفرهم بالآيات البينات أخذ يبين سبحانه وتعالى غير مشركى العرب من يهود ونصارى وصابئة، وقد تفرقوا فرقا مختلفة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وقراءة حفص بتشديد الراء^(١)، وهناك قراءة بالمد (فارقوا دينهم) وتكتب فى المصحف من غير ألف كشأن كثير من حروف المد فى القرآن كالسموات، ولقد قال على كرم الله وجهه: فارقوا حتى فارقوا.

وإن موضوع الآية الكريمة أهل الكتاب، فقد تفرقوا فى دينهم فرقا مختلفة قبل الإسلام فكان فى اليهود الأريسيون والصدوقيون، ومنهم من لا يؤمن بالآخرة، وكان منهم الربانيون والقرارون، وكل فرع بما عنده يشايح فرعه، ويعادى

(١) «فارقوا» هي قراءة العشرة غير حمزة والكسائي، وأبي غالب عن الأعشى عن أبي بكر عن عاصم. فقراءتهم: «فارقوا». غاية الاختصار (٨٨٢).

غيره، ومن النصارى السامرة الذين ليسوا من بنى إسرائيل، ولكن ينفون عنهم مع أنهم يؤمنون برسالة موسى عليهم، وإن لم يكونوا فى طغيان بنى إسرائيل.

والنصارى اختلفوا قبل الإسلام فيما بينهم فكان منهم الكاثوليك الذين يسمون فى التاريخ العربى الملكانية، والأرثوذكس الذين كانوا على فرق مختلفة، ومن بعد الأرثوذكس الأقباط، وكانوا يسمون فى التاريخ العربى اليعقوبيين وأرثوذكس اليونان والرومان، وغيرهم.

وكان منهم قبل الإسلام النسطوريون، وهكذا اختلفوا على غير جامع من الحقائق يجمعهم، وإن جمعهم اسم النصارى، ولذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم].

فواضح من سياق القرآن الكريم وتاريخ النصارى واليهود أنهم اختلفوا وفرقوا دينهم شيعا، وقد أكد القرآن الكريم أن الاختلاف بعد أن جاء الحق بنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤)﴾ [البينة].

ولقد قال بعض المفسرين: إن موضوع الآية هم المستدعة من أمة محمد ﷺ الذين فرقوا دينهم من خوارج وشيعة، ونهجوا غير منهاج السنة.

ولقد اختار الحافظ ابن كثير أن الآية الكريمة شاملة كل من يختلفون فى دينهم من أهل الكتاب الحاليين الذين فرقوا دينهم من بعدما أوتوه من علم جامع، والذين يفرقونه، ويحذون حذوهم من بعد ذلك فى أمة محمد ﷺ الذين يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية.

وأقول: إن الآية موضوعها أهل الكتاب فى مقابل الوثنيين الذين ضلوا مثل ضلال الوثنيين، ومظهر ذلك اختلافهم فى أصل دينهم ومروقتهم من حقيقة ما أمر

به ربهم، وما فعلوه بعد ذلك من أمة محمد ﷺ يدخلون مدخلهم بالقياس أو الاتباع لهم فهم مثل ضلالهم.

والتشيع - هنا معناه الفرق التي يشايع كل واحدة منها زعيما يكون على الضلال فيتبعونه عن غير بينة وهداية.

ولقد حكم الله تعالى على هذه الشيع ببراءة النبي ﷺ: فقال تعالى: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى أنك برىء منهم، لأنك لست منهم فى منازعهم ومفترقهم فى شىء ومن الاتصال، فقله تعالى: ﴿فِي شَيْءٍ﴾ تأكيد فى نفى اتصاله بهم وتأكيد لمغايرته لهم فى دعوته، ويترتب على ذلك أن تبعة هذا الافتراق لا تعود إليك؛ إنما أنت نذير، ولكل قوم هاد، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

بين سبحانه وتعالى فى هذا النص السامى أن أمرهم فى مصيرهم ونهاية أمرهم هو لله وحده، فهو الذى يتولاهم بالحساب، ومن بعده العذاب، و(إنما) هنا دالة على القصر، أى أن أمرهم إلى الله وحده، وفى ذلك من التهريب بأمر الله تعالى ما فيه من إنذار بالهول الشديد والعذاب العتيد، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الإنباء والتنبيه معناه الخبر الشديد الخطير، ومعنى إنباؤهم بما كانوا يفعلون إنباؤهم بما ينتظرهم من العقاب بما كانوا يقولون، فينالون من بعد ذلك جزاؤه، ويصح أن يكون الإنباء بإنزال العذاب فعلا، فيكون الإنباء بالفعل لا بالقول، ويكون معناه أنه عذبهم بفعلهم لأن فعلهم هو الذى اقتضى العقاب، فهو سببه وملازمه لا يفترق جزاء بما كسبوا.

وفى التعبير بـ (ثم) إشارة إلى افتراق حالهم فى دنياهم عن حالهم فى آخرهم افتراقا بينا؛ لأن بينهم مسافة بعيدة اقتضت التعبير بما يدل على التراخى، والله أعلم.

ما أنعم الله به على من هداهم

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
 فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
 ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
 نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
 فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

ذكر الله تعالى أحوال الكافرين بالرسالة المحمدية، وعناد المشركين الذين
 عاندوا وكفروا بالآيات كلها، وأعقبهم بالإشارة إلى المتنابذين الكفار من أهل
 الكتاب وضلالهم.

وكان لا بد من بعد ذلك من أن يذكر النور بعد الظلام، فأخبر سبحانه
 وتعالى عن المهتدين، وأنه يضاعف الحسنات، ويعفو عن السيئات إذا صدق
 الإيمان، وكانت الهداية الغالبة في أعمالهم وامتلأت بها قلوبهم؛ ولذا قال
 تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾.

من جاء بالحسنة أى العمل الذى هو حسن فى ذاته واستحسنه الشرع الشريف، وحسنة: صفة موصوفها فعله حسنة فى ذاتها، ورآها الشرع حسنة نافعة للناس فيها معاونة أو فيها طهارة وتركية روح وإعانة محتاج وإغاثة ملهوف، وغير ذلك مما هو فى أخلاق الناس أمر حسن، أو فيه نفع قصد به وجه الله تعالى، وجزاء الحسنة عشر أمثالها أى حسنات تساوى عشر أمثالها، أو هى عشر من هذه الحسنات، وفى قراءة (عشر أمثالها)^(١) برفع عشر وتنوينها، أى مقدار عشر هى أمثال هذه الصدقة، ويظهر أن ذلك هو الحد الأدنى، وتعلو الحسنة بعلو القصد فى النفس، وبعلو الموضوع بمقدار النفع والتعاون للإنسان، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن جزاء الصدقة سبعمئة مثل، فقال تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة]. وذلك لأن الصدقة تتضاعف آثارها، وتكثر ثمراتها فهى تشبع نفسا جائعة، وتمنع تفككا واضطرابا، وتلقى أمانا وسلاما، وتزيل أحقادا وتوجد تعاونا مستمرا، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه، وسماه الله تعالى قرضا لله تعالى، فقال ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [الحديد] وإن من يقرض موجد الوجود يكون بدله أضعافا مضاعفة، كمن يعطى ذا مروءة عطاء، فإنه يزيد فى بدله، فكيف بخالق الناس، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض.

وجزاء سيئة مثلها لا يزيد عنها، وقد يغفرها سبحانه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ وَحَدَّ اللَّهُ سبحانه وتعالى هنا الجزاء حدا لا يتجاوزه، فذكر أنه لا يجزى إلا مثلها، فنفى وأثبت، وذلك قصد للجزاء لا يعدوه، أما ما ذكر من جزاء الحسنة فذكر أنه عشر أمثالها، ولم يذكره سبحانه وتعالى حتى لا يعدوه بل هو حد أدنى يقبل الزيادة بحسب أحوال النفوس وبحسب موضوع الحسنة، وكلما كانت متصلة بالناس، لنفعهم تضاعف الأجزاء كما جاء فى آيات الصدقات، والتعبير فى بعضها بأنها قرض لله سبحانه وتعالى، وهو

(١) «عشر أمثالها» هي قراءة يعقوب، وقرأ الباقون بالإضافة.

الغنى الحميد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) [فاطر].

ولقد جاءت الآثار عن النبي ﷺ بما يفيد أن فى معنى الآية من الحد بعشر أمثالها هو حد أدنى، فقد روى مسلم والإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأريد، ومن جاء بسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتى يمشى أتيته هرولة، ومن لقينى بقراب الأرض (أى بما يقاربها فى ملئها وحجمها) خطيئة لا يشرك بى شيئا لقينته بمثلها مغفرة» (١).

والسيئة الأمر الذى يسوء فى نفسه، ويسوء الناس، ويعصى به الله تعالى، وعبر عنه بالسيئة بأقبح ما يكون من معاصي، فإن أعلى المعاصي ما يكون إساءة للناس، وإيذاء.

وقد صرح الحديث بالنسبة لمن يهم بسيئة فلم يفعلها بأنه لا يكتب له شيء ومن هم بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة؛ لأن النية الطيبة حسنة فى ذاتها، فالأعمال بالنيات.

ولقد تكلم ابن كثير فى بيان أحوال من يهم بسيئة فلم يفعلها فقد قسمها إلى ثلاثة أقسام باعتبار حال التارك لها بعد أن يهم، فقال رضى الله عنه: (اعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام، تارك يتركها لله تعالى، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية، ولذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح: «فإنه تركها من جرائى»؛ أى من أجلى (٢)، وتارة يتركها نسيانا وذهولا عنها، فهذا لا عليه ولا له؛ لأنه لم ينو

(١) رواه مسلم: الذكر والدعاء والاستغفار - فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله (٢٦٨٧). عن أبي ذر رضى الله عنه.

(٢) كما فى رواية مسلم: الإيمان - إذا هم العبد (١٢٩) عن أبي هريرة: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: أَرْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُّوهُ لَهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا فَارْتَبُّوْهُ لَهَا حَسَنَةً؛ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَأَى».

خيراً وما فعل شراً، وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعى فى أسبابها والتلمس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها).

وإن ذلك تقسيم حسن أخص ما فيه أنه يخرج ممن يهمل بسببها ولم يفعلها من همّ وأخذ فى الشروع فى جريمة، ولكن حال بينه وبينها أمر لا يستطيع مدافعتها فهو لا يكون قد هم فقط، بل نوى الفعل واعتزمه ولكن عجز لأمر خارج عن إرادته.

ولقد ختم العلى القدير كلماته فى هذا الموضوع بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ إن الآيات عطاء وعفو، فالعطاء من فضل الله تعالى، والعفو من رحمته، وهو الذى يعطى من يستحق، ويمنع عمن يستحق، وإن شاء غفر، وعلى ذلك لا يظلم أحداً شيئاً؛ لا يمنع حقاً، بل يعفو ويصفح عن أهل الإيمان الذين لا يشركون به شيئاً؛ وهو السميع العليم.

﴿قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يبين أنه يسلك الخط المستقيم الذى هو الدين القيم، وأنه ملة إبراهيم ﴿قُلْ﴾ يا محمد أيها النبى الأمى العربى ﴿إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

كان ذلك الأمر للنبى ﷺ ليخاطب به العرب مخبراً عن نفسه الكريمة، وعن اتبعه من المؤمنين - هدانى ربى الذى خلقتنى، وربنى وقام على كل ما أقوم عليه، فهو القوام على كل نفس، والقائم على كل شىء، فوصف الربوبية فى هذا المقام للدلالة على أن الهداية منسوبة إلى الخالق المكوّن، فهى هداية حق لا ضلال فيها، ولا أوهام ولا أهواء عند الله سبحانه وتعالى، وقد أكد أن الهداية من رب الوجود بـ (إن)، والهداية كانت إلى دين اتصف بأمر ثلاثة.

أولها- أنه صراط مستقيم، أى طريق مستقيم موصل إلى الحق الذى لا ريب فيه من غير التواء ولا اعوجاج، فليس فيه تعقيد بل إنه الفطرة المستقيمة، فطرة الله التى فطر الناس عليها.

الوصف الثاني - قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيمًا﴾ أى حال كونه ديناً صحيحاً، قِيمًا و(قيم) مصدر قوم، وزن فعل، كعوج. وهو نقيضه، وقرئ (قِيمًا)^(١) أى هو فى ذاته قِيمٌ بلغ أعلى المنزلة فى الأديان، والقراءتان متلاقيتان فى المعنى وفى القراءة الأولى كان المصدر وصفاً، وذلك فى معنى المبالغة فى أنه قيم وقويم، كقولك فلان عدل.

الوصف الثالث - وهو شرف إضافي، فالوصفان الأولان ذاتيان؛ لأنهما وصفان حقيقيان لأنهما مشتقان من ذات الدين، وذلك الوصف هو قوله تعالى ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وذكر هذا الوصف ليبين للعرب الذين كانوا يتفاخرون بنسبهم إلى إبراهيم، ويأنه أبو العرب، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم مع عبادتهم الأوثان، فالنبي ﷺ يبين لهم بأنه هو الذى على ملة إبراهيم، وليسوا هم على ملته فى شيء.

وهنا وصف ذاتي لهذا الدين جاء فى ثنايا ذلك القول. وهو قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ أى غير منحرف إلى باطل بل هو مائل إلى الحق متجه إليه، فهو مستقيم متجه إلى الحق فحنيفاً صفة للدين.

ثم بين سبحانه رداً على وثنية المشركين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى ليس لكم أن تفاخروا باتباعكم إبراهيم، فما كان إبراهيم من المشركين، ما كان إبراهيم أبوكم وأبو الأنبياء ممن دخل فى صفوف المشركين؛ بل أواباً مؤمناً. وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) [النحل].

(١) ﴿قِيمًا﴾ بكسر القاف، وفتح الباء وتخفيفها، قراءة ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون ﴿قِيمًا﴾ بفتح القاف، وكسر الباء وتشديد هاء.

ولقد كانت ملة إبراهيم عليه السلام سمحة لا ضيق فيها، ودين محمد عليه الصلاة والسلام دين سمح لا حرج فيه. ولقد قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١٦٣) ﴿أمر الله تعالى نبيه بأن يقول قوله يكون بها كله لله تعالى ليس لأحد شيء في نفسه أو جارحته، أمره بأن يكون كله لله، وإنه كذلك، وخاطب من معه من المؤمنين ليكونوا ريانين، وأن يخاطب بذلك المشركين ليتخلفوا عن الشرك والأوهام والأهواء، ﴿إِنْ صَلَاتِي﴾ أى دعائى وضراعتى، وعبادتى، ومنها الصلاة المفروضة، والنفل والتهجد لله وحده ليس لأحد فيها شركة أو نصيب، بل هى لله وحده لا شريك له ﴿وَنُسُكِي﴾ النسك العبادة، والنسك أيضا جمع نسكة، وهى الذبيحة فى أضحية أو حج أو عمرة، قال بعض المفسرين: إنها هنا بمعنى العبادة، فىكون الكلام من عطف العام على الخاص، وتكون كلمة الصلاة المقصودة؛ الصلاة: فرضها ونفعلها، والتهجد بها، وخصت بالذكر، لأنها عمود الدين ولبه، ولا دين من غير صلاة.

وفسر ابن كثير النسك هنا بالذبائح فى الأضحية، والعمرة والحج، ذلك أن العرب كانوا يشركون ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويهلون لغير الله، فبين لهم النبى ﷺ بأمر الله تعالى له بالبيان بأن يذكر أن ملة إبراهيم كانت دينا قيما يعبد الله وحده، ويذبح مهلا لله تعالى وحده، وروى ذكر اسم الله تعالى فى ذبيحة النبى ﷺ، فروى عن ابن عباس عن جابر أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين، وقال حين ذبحهما: ﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩) [الأنعام: ١].

(١) رواه ابن ماجه: الأضاحي - أضاحي رسول الله ﷺ (٣١٢١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ. كما رواه الترمذي وأبو داود وأحمد.

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ وإن تفويض الرسول عليه السلام لربه تعالى تفويض كامل، وملكية الله تعالى له ولعباده ملكية كاملة لا مثنوية فيها لله سبحانه وتعالى، ولذا أمره تعالى بأن يقول: ﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهي تدل على أمرين:

الأمر الأول- أن النبي ﷺ في حياته الدنيا، ومماته من بعدها، ثم حياته في الآخرة لله تعالى هو المتصرف فيها المالك لها، فهو رب الوجود، ومالك يوم الدين، وهذا هو الفناء في ذات الله تعالى على الوجه الإسلامي الخفيف المستقيم.

والأمر الثاني- أن (محيا) و(ممات) مصدران ميميّان، بمعنى الإحياء المستمر، والممات من بعد، ثم الإحياء المستمر، والمعنى إحيائي في هذه الحياة الدنيا المستمدة منك ولك- وإماتتي لك أنت الذي تحييني وتميتني، وحياتي الباقية الخالدة منك ولك، يارب العالمين.

وقرن القول السامي برب العالمين لبيان أنه القائم على الحياة وهو الذي بيده الموت والحياة من بعده، وهو الحي القيوم لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وأكد سبحانه وتعالى على لسان النبي ﷺ بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ لا يشركك يا رب العالمين في نفسي وفي حياتي ومماتي أحد من الناس، أو غير الناس، فكلّى لك من غير شريك، فأنت المالك وحدك لى ولغيرى من كل ما فى الوجود.

ثم يقول ﷺ بأمر ربه: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى أول من أخلص دينه لله ووجهه لله، فالإسلام استقامة النفس واتجاهها إلى الله وحده، من غير إشراك وثن، وأمر الله تعالى نبيه بأن يقول هذا لقومه من المؤمنين والمشرّكين تحريض لمن آمنوا على البقاء، وتحريض للمشرّكين على خلع عبادة الأوثان، فالأولية هى لمن يخاطبهم النبي ﷺ ليحتملهم على الاتباع والافتداء به، كمن يقول لآخر: ادخل هذا الباب، وأنا أمامك أول من يدخل.

فالأولوية على هذا بالنسبة لأمته ولمن بعث إليهم، وذكر تحريضا لهم على الاتباع والافتداء، كما ذكرنا، وليست الأولوية مطلقة، فإن الإسلام دين الأنبياء جميعا قبل النبي ﷺ ولقد قال تعالى فيما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢) [يونس]، وقال تعالى في إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٢٢) [البقرة]، ولقد قال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١) [يوسف].

وقال بعض العلماء: إن أولية إسلام النبي ﷺ أولية مطلقة، فهو كما قال ذلك القائل، أول الأنبياء إسلاما وآخرهم مبعثا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَغْيِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أمر الله تعالى نبيه أن يقول للمشركين فى سياق الدليل على أنه لا يعبد سواه، ولا رب سواه، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع لا يمكن أن يقع منى أن أبغى غير الله ربا، ويكون تقديم غير الله على الفعل. فى معنى القصر أى لا أبغى غير الله تعالى ربا عبده، وعبر هنا بقوله (ربا)، ولم يعبر بكلمة (إلهها) مع أن المقصود هو العبادة، إذ المعنى أبغى غير الله إلهها، وهو رب كل شىء، للإشارة إلى التلازم بين الربوبية والالوهية، إذ أنهم كانوا يعترفون بأن الله تعالى رب كل شىء وخالق كل شىء، ولكنهم يفرقون ذلك عن العبادة، فهم يعتقدون أن الله خالق كل شىء، ولكنهم يعبدون الأوثان، ويقولون: ما نعيدهم إلا ليقتربونا إلى الله زلفى، فقله تعالى ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ بَغْيِي رَبًّا﴾ فيه إشارة إلى الربوبية والخلق والتكوين، والعبادة فالمعبود بحق هو الرب الخالق، لا هذه الأوثان التى تتوهمون فيها سرا وتقريبا، وما هى بشىء.

وقد أكد القصر في العبادة على الله تعالى بقوله ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكانت هذه مقدمة منطقية مؤداها، أنه خالق كل شيء، وخالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده؛ لأنه مالك كل شيء.

وإن التعبير بقوله تعالى ﴿أَغْيَرُ اللَّهُ أَبْعَى رَبًّا﴾ في التعبير بـ (رب) مع ما أشرنا إليه من معنى التلازم بين الربوبية والعبودية فيه إشارة أخرى، وهو أنه لا يعبد غيره، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن الربوبية تقتضي ألا يلجأ المؤمن إلا إليه سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى في معنى ذلك، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا...﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿... فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ...﴾ [هود].

وإن كل امرئ بما كسب رهين، يحمل تبعات أعماله، ولا يحمل وزر غيره ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

قالوا إن المشركين كانوا يريدون من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم الذي تركوه، وقالوا نتحمل وزركم ولا تتحملون آثاما، فالله رد قولهم بهذا، وما نحسب أن ذلك وقع، إن كان قد وقع، فالآية عامة لحقيقة رئيسة، و(الكسب) الفعل الذي يصدر عن شخص مؤمن بما يفعل، قد كسبه نفسه، وقام بها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا تكسب أى نفس عملا إلا كانت مغتبه ومآله عليها، تتحمل تبعته إن شرا، وتنال جزاءه إن كان خيرا وبذلك يكون النص محتملا الجزاء بنوعيه عقابا أو ثوابا.

ويصح أن الكسب هنا كسب الإثم، ويكون عليها بالعذاب، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، أى لا تحمل نفس وازرة وزر أخرى فكل امرئ بما كسب رهين، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى.

وإن جزاء الآخرة ثوابا وعقابا مبني على ذلك، فلا يحاسب امرؤ بجريمة غيره، ولا يلقي عن شخص جرم ليلحق إلى غيره، والله تعالى علام الغيوب، وكل يحمل كتابه.

ولكن فى الدنيا عواقب للأعمال، قد تتعدى الفاعل، وقد قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [التخريج] فإنه إذا عم الفساد وطم سيله، فسدت الجماعة وهلكت، ولا يكون أثره مقصوراً على العصاة، بل يتعداه إلى غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء].

وروى أن أم المؤمنين زينب بنت جحش سألت رسول الله ﷺ قائلة: يارسول الله أنهلك وفيها الصالحون، فقال عليه السلام: «إذا عم الخبث»^(١)، والخبث هنا هو المعاصى وأشدّها الظلم والفاحشة وما يوعز بها وإن عموم الفساد يكون من إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيعم العذاب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراء، أو ليضربن على قلوب بعضكم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»^(٢) وإن عذاب يوم الدين لاحق بكل نفس كسبت، أو قصدت، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(ثم) هنا للتراخى والترتيب؛ لأن ذلك يوم الدين فيكون الجزاء العادل، ينال كل امرئ ما كسب أو قصد، فالله تعالى يجازى على التقصير فى بيان حدود الله ومنع العصاة، كما يجازى على ذات المعصية؛ لأن ترك الواجب معصية كارتكابها.

وقدم الجار والمجرور، لبيان أن المرجع إليه وحده فهو الذى يملك يوم الدين وحده، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته عذاباً أليماً.

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - قصة يأجوج ومأجوج، ومسلم: الفتن وأشراف الساعة - اقتراب الفتن (٢٨٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى هو الذى إليه وحده مرجعكم، فلا يكون لأحد سواء الحكم فى هذا اليوم والقول النافذ له وحده، وهو حيثئذ بقوله الطيب الصادق كبير بالحق فيما كانوا فيه يختلفون، فيعبد فريق الأوثان ويؤمن بالله آخرون، ويختلف النصارى فيما بينهم، واليهود يختلفون مع أنفسهم، وبين أهل الحق من الناس نبىء الله تعالى الناس بالحق، والباطل قولاً وعملاً، فيعذب المجرمين المبطلين، ويحسن إلى المحسنين، وكل امرئ، وما كسبت يده.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّبَلَّوْكُمْ
فِي مَاءِ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

بين سبحانه اختلاف المؤمنين، وما يجب أن يكونوا عليه متأسين بالنبى ﷺ، آخذين بهديه مخالفين ما عليه المشركين، وختم الآية التى قبلها بأن الله تعالى يحكم بين المختلفين يوم القيامة بعد ذلك بين سبحانه وتعالى أن الله تعالى هو الذى خلق الأجيال المتعاقبة الذى يخلف بعضها بعضاً - وهى متفاوتة فقال تعالت كلماته:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

(الواو) هنا واو الفصل بيان الآيات، وهى تفيد أن الآيات مترابطة تبع بعضها بعضاً فى نسق محكم متناسب يرتبط بعضها ببعض.

الخلائف جمع خليفة، أى طبقة تخلف طبقة، وجيلاً يخلف جيلاً، وكل واحد منها يعد خليفة فى هذه الأرض، يسيطر سيطرة الإنسان عليها، إن ظالماً،

وإن عادلا، وذلك تحقيق مستمر للخلافة التي جعلها الله تعالى لآدم أبى البشر، إذ قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ... (٣٠)﴾ [البقرة].

وهنا بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أى صيركم أجيالا تخلف بعضها بعضا، وكل جيل خليفة فى الأرض يفسد بعضه، ويصلح بعضه، ويباح الفساد مع الصلاح، وينازعه حتى لا يعم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة].

ولذا قال تعالى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

الدرجات كما جاء بها التعبير فى القربات هى الدرجات العالية التى تكون سابقات كريمة، والمعنى رفع منكم درجات بالهداية والسمو، والرفعة إذا أطاعوا اتجهوا إلى الخير، وإعلاء منازل الإنسانية، ولو كانوا هم الفقراء أو العبيد، أو المستضعفين فى الأرض، ولا يلزم أن يكون من الأقوياء أو الأغنياء وقد اختبر كلا، فاختبر الأغنياء ليشكروا واختبر الفقراء ليصبروا.

وقد وردت آيات كثيرة فى هذا التفاوت فى الدرجة، مع ملاحظة أن تفاوت الدرجات ليست بالغنى، فليس الغنى درجة، دونها حال الفقر، إنما الدرجات الرفعة عند الله تعالى بالعمل الصالح، ولو كان فقيرا أو ضعيفا تزدرية الأعين كما كانت حال المؤمنين الذين آمنوا بنوح -عليه السلام- والذي أمره الله -سبحانه وتعالى- أن يقول: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٢٦)﴾ [هود].

إنما التفاوت فى الدرجات بالقرب من الله والإيمان، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٢٦) أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٢٧)﴾ ولولا أن يكون الناس أمة

وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)
وَلِيُوتِيَهُمُ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴿[الزخرف]:

فإن الدرجات فى هذه الآية واضح أن المراد منها الدرجات فى الرفعة،
لا الدرجات فى المال، فالتفاوت فى المال لا يكون درجات للأغنياء على الفقراء،
وقوله تعالى ﴿... لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا...﴾ (٣٢) ﴿[الزخرف] أى ليكون
الحال أن يسخر الأغنياء الكافرون من الفقراء المؤمنين.

ولو كان المراد التفاوت بالمال، لكان اعتراض الكافرين مسلماً به؛ إذ قالوا
﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، أى فى المال وكثرته.

وإن المقصود من ذلك السياق أن نقول إن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أن المراد برفعة الدرجات هو إيمان
بعض المؤمنين ورفعتهم، وقد بين الله سبحانه وتعالى الحكمة من ذلك فقال:
﴿لِيَلْوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أى ليعاملكم معاملة من يختبركم فيما آتاكم من مال، أو
رفعة معنوية دينية حيث يزدري الكافرون الأغنياء المؤمنين الفقراء، فيضيفون كفراً
إلى كفرهم، ويضيف أهل الإيمان إيماناً إلى إيمانهم بصبرهم على الأذى وليختبر
الغنى فى غناه فيشكر أم يكفر، ويختبر الفقير فى فقره فيرضى ويصبر فيؤجر، أم
يجزع ويكفر فيعاقب، فالغنى نعمة يختبر صاحبها، والفقر بأس يختبر صاحبه.

والعاقبة إما عقاب وإما غفران ورحمة، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعٌ﴾ أى أن عقابه نازل لا محالة، ومؤكد أنه آت لا ريب فيه،
وكل آت قريب، ووصف سرعة العقاب لله تعالى يؤكد نزوله بالعاصى من غير
تردد فيه، فهو العادل الذى لا يبطئ فى إقامة العدل، ويسارع بإنزاله فليس المراد
بالسرعة سرعة الزمان إنما المراد سرعة الإيقاع.

وإنه في مقابل هذا غفور رحيم، يغفر لمن يشاء ورحيم بالخلق أجمعين ومن رحمته أن كان العذاب للعصاة، والمغفرة لمن لم يشرك به شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

اللهم اجعلنا أهلاً لمغفرتك ورحمتك، وجنبنا سريع عقابك، واعف عنا وتجاوز عن سيئاتنا إنك أنت العفو الغفور.



تمهيد:

هى سورة مدنية إلا ثمانى آيات من الآية رقم ١٦٣ إلى الآية ١٧٠، وستكلم فيها فى موضعها - إن شاء الله تعالى - وعدد آيات هذه السورة الكريمة ست ومائتان.

وقد ابتدأ الله تعالى هذه السورة بالحروف ﴿الْمَص﴾، وقد تكلمنا فى هذه الحروف فى فواتح سور القرآن، وذكرنا أنها من المشابه الذى اختص علم الله تعالى، وذكرنا حكمة ذكرها، وعند الله غيب أمرها.

ابتدئت السورة بذكر القرآن، والأمر باتباعه، ثم أشارت إلى أن يوم القيامة يجرى بغتة، فالقرى يجيئها أمر الله بغتة وهم نائمون، وعندئذ يحس الظالمون بظلمهم إذ ذهب طغيانهم، ويبين الله - تعالى - أن اليوم يوم سؤالهم عما ظلموا، وتوزن أعمالهم بخيرها وشرها، والوزن يومئذ الحق، وقد ذكر سبحانه أن السبب فى طغيانهم أنه مكن لهم فى الأرض، وتمكن الشيطان منهم.

ويذكر سبحانه كيف يتمكن الشيطان، وساق - سبحانه وتعالى - قصة الخلق الأول، ليبين لهم عداوة إبليس وكيف أغوى آدم على مخالفة ربه، هو وزوجه حواء، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور، وقد ذكر سبحانه عاقبة ذلك التدلى.

صرح بعد ذلك القصص الحكيم بالنهى عن الخضوع للشيطان إبليس ومن معه، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾.

وبين - سبحانه - أنه كما دلى الشيطان آدم وزوجه بغرور حتى تسبب فى نزع لباسهم كذلك يغرى قريشا فيجعلهم يطوفون عراة، وإن ذلك هو عين الفساد، وأمر الله تعالى أن يأخذوا زينتهم ويلبسوا عند كل مسجد ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١).

وبيين - سبحانه وتعالى - ما أحله الله من طيبات وما أراد الشيطان أن يحرمه عليهم.

وبيين - سبحانه وتعالى - أن مقاومة الشيطان إنما هى باتباع الهدى الذى يجىء على السنة الأنبياء ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتَيْنَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥).

وبين - سبحانه وتعالى - أن الشيطان يغرى أتباعه بمعاندة هؤلاء الرسل كما أغرى كبيرهم آدم وحواء بمخالفة أمر الله تعالى.

ثم يذكر - سبحانه وتعالى - مآل الطاغين على الرسل بإغواء الشيطان يوم القيامة وكيف يتطارحون الضلال بين الغاوين ومن أغووههم من شياطين الجن والإنس ﴿... حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) وقالت أولاهم لأخراهم فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩).

وبين - سبحانه وتعالى - جزاء الذين استكبروا عن الحق بإهواء الشيطان، وفى مقابلهم جزاء الذين آمنوا وأطاعوا الله، ولم يغوهم الشيطان، وأن لهم الجنة، ﴿... وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴿٤٤﴾.

وكان بين أصحاب الجنة أصحاب الأعراف، وقد نادوا الظالمين الذين يعرفونهم ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ

جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ .

وأما أصحاب النار فقد ذكر الله - سبحانه - أنهم في عطش شديد، ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

بين الله تعالى من بعد ذلك أن الذين عصوا واستكبروا قد جاءهم القرآن الكريم يهديهم، ويدعوهم إلى الحق، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

ولكنهم كفروا به، وطغوا، وطلبوا معرفة مآله، فبين - سبحانه - أنهم يعرفون مآل ما اشتمل عليه بقول الذين نسوه من قبل ﴿... قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

بعد هذا البيان الحكيم في هذه السورة الكريمة وجه الله تعالى العقول إلى آياته في الكون، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

وينهى رب الكون عن الفساد في الأرض، ويبين آياته - سبحانه - في إرسال الرياح بشرا بين يدي رحمته، وأنه - سبحانه - يرسل سحابا ثقالا، إلى الأرض الميتة ليحييها .

ويقص بعد ذلك قصص أنبيائه، ليُسرى على محمد ﷺ بقصصهم، وليسوق العبر والمثالات للمشركين ليعتبروا ويستبصروا، فيذكر خبر نوح مع قومه، ويرمونه بالضلالة، كما رمى المشركون محمدا بها، ويعجبون من أن الله أرسل رسولا، كما تعجبت قريش من رسالته ﷺ، ويذكرهم بأن الله تعالى سينجي

محمدًا من شرهم كما نَجَّى نوحًا، ﴿... فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

ويذكر من بعد نوح في هذه السورة الكريمة خبر هود مع قومه عاد، وكيف رموه بالسفاهة كما رمت قريش محمدًا ﷺ، وقد كان فيهم الصادق الأمين، وكيف كان ينصح لهم، ويذكرهم بما آتاهم الله - تعالى - من نعمة، وقد عجبوا أن جاءهم رسول منهم، كما عجبت قريش ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ وقد وقع عليهم رجس وغضب، وقال لهم هود: ﴿... أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١)﴾.

وذكر - سبحانه وتعالى - من بعد قصة هود قصة صالح مع قومه ثمود، إذ دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وأتى لهم بمعجزة حسية هي الناقة، وقد ذكرهم بما نزل بعاد من قبلهم، وذكرهم بنعمة الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهْلِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾ ولكنهم كفروا وعقروا الناقة، فأنزل الله تعالى عذابه الدنيوى، وتولى عنهم هود وقد أبلغهم رسالة ربه.

ومن بعده بعث الله لوطا إلى قومه، وذكر الله تعالى شذوذهم وأهلكهم الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾.

وأرسل إلى مدين أخاهم شعيبا، وقص الله - تعالى - في السورة قصصه مع قومه إذ دعاهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وألا يفسدوا ولا يعتدوا ولا يصدوا عن سبيل الله، وقد آمنت طائفة، وطائفة منهم وهم الذين استكبروا، وحاولوا إخراج شعيب قائلين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ... (٨٨)﴾، ولكن الله لنجاه منهم، وقال لن نعود في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها.

وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴿... لئن اتبعتُم شعبيًا إنكم إذا لخاسرون﴾ (٩٠) فتولى عنهم شعيب وقال لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين .

وقد بين - سبحانه وتعالى - فى هذه السورة الكريمة سنته مع الذين يرسل إليهم النبيين أن يختبرهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، ثم يختبرهم من بعد ذلك بالحسنة لعلهم يدركون، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ...﴾ (٩٥) فإذا كفروا، ولم تردعهم الضراء، ولم يشكروا السراء، أخذهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون .

ولقد ذكر - سبحانه وتعالى - أن أهل القرى، لو أنهم آمنوا لأنتهم النعم من حيث لا يشعرون، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦) .

ولقد ذكر سبحانه فى هذه السورة المحكمة غفلة أهل القرى أى المدن العظيمة عن أن يأتيهم عذاب الله تعالى فى آياته سبحانه وتعالى، وأن الذين يرثون أرضها لا يهتدون، ولا يعتبرون بما كان منهم، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٠٢) .

ذكر بعد هذه العبرة التى بينها - سبحانه وتعالى - فى سنته فى الهداية، وعقاب من لا يهتدون قصة موسى وفرعون، ومعجزة موسى، بل معجزاته مع فرعون، طاغية الوجود الإنسانى فى مصر، بل لا يزال مثلاً يضرب لكل طاغية فى الأرض .

تقدم موسى إلى فرعون يدعوه إلى الله تعالى، وتقدم بعصاه فحرض فرعون قومه أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره .

جاءوا بكل ساحر عليم، وتقدم موسى بعصاه، قاهر موسى للسريرة ﴿... أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ (١١٦).

فأمر الله تعالى موسى أن يلقى بعصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فخر السيرة ساجدين؛ لأنهم علموا أن ما جاء به موسى ليس سحرا.

عاقبهم فرعون وقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وقد أخذت شيعه فرعون ترد على موسى كالشأن في كل طاعية لا يطغى إلا بشيعه تحسن له الشر، وتفتح له الخير، قالوا لفرعون: ﴿... أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾.

ولكن بنى إسرائيل يتململون بموسى، ويقولون: ﴿... أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ نَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ (١٢٩).

أخذ الله تعالى آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه، وأرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

وإذا اشتد الأمر بهم ﴿... قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٣٤)، فأغرقهم الله تعالى، وجاوز الله بنى إسرائيل البحر وأورثهم ملكا بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض.

ولكن بنى إسرائيل بعد أن جاوزوا البحر عادت إليهم وثنية الفراعنة ﴿... قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨)،

وذكرهم الله الذي نجاهم من فرعون وملئه الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ويسومهم سوء العذاب ﴿... وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾ .

واعد الله تعالى موسى أربعين ليلة ﴿... وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ .

ذهب موسى لميقات ربه ﴿... وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ ، قبل الله توبة موسى وبين له اصطفاؤه له ﴿... وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ... (١٤٥)﴾ من أحكام شريعته عليه السلام، ويقول الله عن هذه الألواح: ﴿... سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا... (١٤٦)﴾ ، وقد بين - سبحانه وتعالى جزاءهم في الآخرة.

وفي غيبة موسى الأربعين ليلة ﴿... وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ... (١٤٨)﴾ ، .. وزين لهم الشيطان عبادة العجل التي تقبلها المصريون في نفوسهم.

وإن الناس يضلون فإذا رأوا داعية الهداية ذهب عنهم ضلالهم فلما رأوا موسى سقط في أيديهم ﴿... وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾ .

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، وقال: بشما خلفتموني من بعدى، وأخذ يعتب على أخيه هارون ﴿... وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ... (١٥٠)﴾ .

أحس موسى بأنه تجاوز في غضبه فاتجه إلى ربه ضارعا ﴿... رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ وذكر الله ما سينال الذين اتخذوا العجل ولم يتوبوا، وقال سينالهم غضب من ربهم وذلة.

وبعد أن ذهب ضجة العجل وسكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفيها هدى ورحمة - واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات الله، فلما أخذتهم الرجفة ﴿... قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ... (١٥٥)﴾.

اتجه موسى وقومه ضارعين إلى الله تعالى، وقالوا: ﴿... إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾.

وذكر منهم من تتسع له رحمته: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾.

ويأمر الله - تعالى - في هذه السورة نبيه محمد ﷺ بعد أن ذكر البشارة به بأن يقول: إنه رسول الله تعالى إلى الناس جميعاً ويدعوهم إلى اتباعه.

وتعود الآيات إلى قوم موسى - عليه السلام - فيذكر أن ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ ويذكر أنه - سبحانه وتعالى - قطعهم في الأرض ﴿... اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا... (١٦٠)﴾، ثم يذكر - سبحانه وتعالى - آياته منهم ونعمه عليهم، من ضرب الحجر بعصا ﴿... فَأَنْهَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِيبَهُمْ... (١٦١)﴾، وأنه أنزل عليهم المن والسلوى، وأنه ظلل عليهم الغمام وأنهم لم يشكروا النعمة، بل كفروا بها.

ويذكر حالهم يوم السبت إذ حرم عليهم الصيد فيه ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ... (١٦٢)﴾.

ولقد يش بعض المهتدين منهم من هداية إخوانهم فقالوا: ﴿... لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤)، ولقد بين الله تعالى حال الذين نسوا ما ذكروا به، وأنه أنجى الذين ينهون عن السوء، وأصاب الذين ظلموا بعذاب بما كانوا يفسقون، ولقد ذكر الله حال بنى إسرائيل من بعد موسى، فقد بعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، وقطعه فى الأرض أما، وورث من بعدهم خلف يأخذون أدنى ما فى الكتاب وإن يأتهم عرض يأخذوه، ويقولون سيغفر لنا.

وإن بنى إسرائيل قد مردوا على العصيان وقد أخذ الله - تعالى - الميثاق ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم وأخذ عليهم الميثاق، وهم تحت تأثير تلك الآية القاطعة، وقال خذوا ما أتيناكم بقوة، ولكنهم نقضوه ولم ينفذوه.

ولقد بين الله سبحانه أنه أخذ ﴿... مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى...﴾ (١٧٢)، ودل ذلك على أن التوحيد دين الفطرة وبين سبحانه أن هذه الآية الفطرية التى أودعها الأخلاف والذرية من ينسلخ منها يتبعه الشيطان ويغويه وتكون كل أعماله فى دائرة الشر، ﴿... كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا...﴾ (١٧٦) وأسوأ الأمثال مثل الذين كذبوا بآيات الله ﴿... وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧).

وإن من يهديه الله فهو المهتدى، ولقد خلق الله للجهنم كثيرا من الجن والإنس، وهؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك هم الغافلون.

وأخذ - سبحانه وتعالى - فى هذه السورة الكريمة يذكر الذين اهتدوا فى مقابل الذين كفروا وظلموا، وقال فى الذين كفروا: ﴿... سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وأُمِّلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾.

ووجه الله تعالى أنظار الناس إلى ملكوت السموات والأرض، وبين أنه ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦).

وذكر الله تعالى الساعة وأنه وحده هو الذي يعلمها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٨).

بعد ذلك بين الله - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وزوجه ليسكن إليها، وصور سبحانه ضلال الإنسان بمن تحمل امرأته حملاً خفيفاً فمرت فلما ثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٠).

وبين - سبحانه وتعالى - ضلال من يشركون وذكر أنهم يدعون في عبادتهم أوثاناً لا تضر ولا تنفع سواء أكانوا أحجاراً أم غيرها وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ (١٩٥) إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨).

ولقد دعا الله - تعالى - نبيه إلى ما يتجلى به في الدعوة فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا

اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ .

ولقد أوصى الله المؤمنين من ضمن وصيته لنبيه ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢٠٤) وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ .

هذه إشارة موجزة إلى بيان ما اشتملت سورة الأعراف إجمالاً، ثم نقدمها بين يدي ذكر معانيها، ولنبدأ من بعد ذكر ما يسعه إدراكنا من معانيها والله الهادي .

معانى السورة الكريمة

الْمَصَّ ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَ هَابًا مُّسَابِقَةً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَاهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

﴿الْمَصَّ﴾ قد تقدم القول في الحروف المفردة التي تبتدئ بها أوائل بعض السور، وهى من المتشابه الذى اختص به علم الله .
﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ .

كتاب خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر ﴿الْمَصَّ﴾ على نظر بعض الذين قالوا: إنها اسم للسورة أو الكتاب، والتنكير هنا لبيان شرفه العظيم، أى أنه كتاب بالغ الغاية فى شرفه ورفعته ومؤداه؛ لأنه منزل من عند الله تعالى العالم بكل شىء،

والقادر على كل شيء العزيز الحكيم، وقال: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، أى أنه أنزل إليك وهو المعجزة التى تتحدى بها الخليفة أن يأتوا بسورة من مثله، فلا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

والحرج الضيق، وأن يحس بأن الناس يجب أن يؤمنوا فلا يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] وكما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف]، فحرص النبي ﷺ على إجابة الكافرين كان يجعله فى حرج نفسى، إذ إن المؤمن بالحق يكون دائما حريصا على إجابة الناس له، فإن لم يجيبوا ضاق بذلك صدره من غير مغاضبة ولا معاندة، كما هو شأن النبيين - عليهم الصلاة والسلام - وقد قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود].

والمؤدى فى كل هذا أن النبي ﷺ كان يضيق من الإنكار لأمر صادق لا مرية فيه، فאלله تعالى يبين له أنه ليس عليه إلا الإنذار.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى: هذا كتاب مبارك هاد مرشد، منير للحق، فإذا لم يجيبوا فلا يكن فى صدرك ضيق، فليس ذلك لنقص فيك أو فيه، وإنما هو لنقص فيهم وقد أذرتهم، وحسبك ذلك وكفى.

وقد ذكر الله غاية الكتاب والرسالة فقال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالغاية من الكتاب الخالد أنه معجز بذاته، ولتنذر به الذين يكفرون، بأن تبين بالكتاب عاقبة كفرهم، وسوء النتيجة التى تنزل بهم، وهى العذاب الاليم، وليس عليك تبعة كفرهم، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد، وإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء.

هذا بالنسبة لمن لم يؤمن، فهو لهم منذر مبين يحمل دليله في ذاته، وبالنسبة للمؤمنين قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والذكرى هي التذكير الدائم، فهذا الأمر ذكرى لكذا، أى مذكر دائم مستمر، يرجعون إليه، والقرآن ذكرى دائمة فيه التذكير الدائم برسالة النبي ﷺ، وفيه تذكير بالشرعة؛ لأن فيه كلياتها، وفيه تذكير بالرسول أجمعين؛ لأنه سجل معجزاتهم، وفيه تذكير دائم بالله تعالى وهو العلى الحكيم، وفيه الأوامر والنواهي، ولذلك قال تعالى:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

إذا كان القرآن فيه ذكرى للمؤمنين، وإنذار للكافرين فاتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم مما يشتمل عليه القرآن الكريم، وما جاء به النبي ﷺ، فما أمركم به فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، فكل ما أمر به فقد أمر به الله، فما كان ينطق عن الهوى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ (٨٠) [النساء].

وقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه إشارات بيانية:

الأولى: أن ما اسم موصول صلته أنزل إليكم من ربكم، والصلة تكون سببا للحكم أو الأمر، فاتبعوا ما جاء به القرآن والنبي. وسبب ذلك أنه أنزل من ربكم الذى هو أعلم بما فيه صلاحكم فى الدنيا والآخرة؛ لأنه ربكم الذى ذراكم وإليه مرجعكم.

الثانية: أن قوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ فيه ملازمة لما أمر الله تعالى باقتفاء أثر النبي الذى أنزل إليه وأتباعه، وأتباعه أتباع الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ (٣١) [آل عمران].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن فيه خيرهم فى الدنيا، وفيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة، وفيه إشعار بكمال ما كلفوه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. بعد الأمر بالاتباع للرسول فيما أنزل إليكم من ربكم، كان النهى عن اتباع غيره، فمعنى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أى غيره، ممن يوسوسون بغير ما أمر، وتشمل كلمة أولياء، كل من يأمر بغير أمر الله تعالى من الشياطين الذين يوسوسون بالشر، فمن لم يتبع ما أنزل الله يتبع أولياء الشيطان، وأن أولياء الشيطان يضلون ولا يهتدون، وكذلك الحلفاء الذين يدعون إلى الشرك ويحرضون عليه ولا يناصرون على الخير ككبار المشركين، أمثال أبى جهل وأبى لهب وغيرهما ممن كانوا يدعون إلى الشرك ويحرضون عليه، ومن دون الله من أولياء، الذين يجرون إلى الأهواء، وهكذا يكون اتباع ما أنزل إليكم من ربكم هو الصراط المستقيم الذى قال تعالى فيه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ... (١٥٣)﴾ [الأنعام].

واتباع غير ما أنزل الله هو اتباع للسبل الضالة التى تتفرق بها عن الحق، وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ تتضمن إشارة بيانية مؤداها أن قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ النهى عن أن يتخذوا غير الله أولياء لهم فالله ولى المؤمنين كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ... (٢٥٧)﴾ [البقرة]، ﴿فَلَيْلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ أى أنه مع هذه البيانات ومع النهى المتوالى فى القرآن عن اتخاذ غير الله أولياء لا تذكرون إلا قليلا، وقليلا مفعول لـ «تذكرون»، و«ما» دالة على قلة التذكر. والمعنى قليلا أى قلة تذكرون أوامر ربكم وتتعتون بعظاته، ﴿... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ [الرعد]، ويقول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩)﴾ [الأعلى].

وإن الله تعالى ذكر بالقرى التى كان هلاكها لعدم تذكرها ولنسيانها أمر الله تعالى، فقال تعالت كلماته:

﴿وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)﴾.

إن سنة الله تعالى أن يأتي بعذابه الديوى، وهم لاهون غافلون؛ وذلك لأن كفرهم يجعلهم فى غفلة، وينسون معه بأس الله تعالى؛ لأنهم يكفرون به ولا يؤمنون، فيأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، وإن ذلك كان شأن كل الذين عتوا عن أمر ربهم؛ ولذلك قال مذكرا من لم يتذكر إلا بقارعات العذاب الذى ينزل بهم: ﴿وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا﴾ و«كم» هنا دالة على الكثرة من غير عدد. و«من» لعموم الاستغراق، ولتأكيد معنى الكثرة، والقرية المدينة الكبيرة؛ لأنها تقرى الناس وتجمعهم فيها، البأس هنا العذاب الشديد أو الهلاك، كما جاء لقوم لوط، ولقوم هود، ولقوم شعيب، والبيات الليل، ومعنى ﴿بَيَاتًا﴾ وهم بائون، والمعنى: وكثير من القرى أهلكتها، فجاءها عذابنا بياتا ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، أى نائمون فى القيلولة من شدة الحر، أو مستريحون.

وإن المراد أنهم يحسبون أنهم فى أمن واطمئنان، فيأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون.

وإن هذه سنة الله تعالى فى الكافرين يمهلهم ويجيئهم العذاب فى مآمنهم، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨)﴾ [الأعراف] كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ (٤٧)﴾ [النحل].

وهكذا تكاثرت آيات الله تعالى فى كتابه العزيز تنبئ بأن الله تعالى يقصم الظالمين، وهم فى غفلة ساهون، حتى إذا أخذهم رأوا الويل.

وإن ذلك فيه إنذار للعرب بأنهم لا يصح لهم أن يأمنوا مكر الله، وإنه نازل بهم لا محالة، وإذا كان أمهلهم فلم ينزل بهم مثل ما نزل بغيرهم، فلأن الرسالة إليهم خالدة وأنها ليست لهم وحدهم، وإنما هى للأجيال كلها، وإن ما ينزل بهم

يكون بتوفيق الله لنبيه بعمل بشرى ينتصر به عليهم، أو بريح صرصر عاتية تهزمهم ولا تمحوهم.

وماذا كانت حال الذين أنزل الله تعالى عليهم بأسه فى قراهم وقد طغوا وبغوا وأثاروا الفساد، إنهم يحسون بظلمهم بعد أن فات وقت الإيمان، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾.

لقد قرعتهم هذه القارعة، وذهب غرورهم الذى دلاهم الشيطان به، وصغوا بعد أن استكبروا فنطقوا بالحق الذى أنكروه، وضرعوا إلى الله أن ينجيهم من العذاب الذى نزل بهم، ولات حين منجاة، بل إنهم يذوقونه وبأل ما كسبوا، فهو جزاء لا فرصة معه لتوبة.

الدعوى هنا: الدعاء، كقوله تعالى: ﴿...وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس].

ويصح أن تكون الدعوى هنا بمعنى الإقرار، وفى التعبير عن الإقرار بالدعوى مجاز؛ لأن كليهما فى مقام الخصومة، وإذ كانوا قد وضعوا أنفسهم فى مقام الخصومة مع الله تعالى بما افتروا من عبادة الأوثان وكذبوا عليه كان التعبير عن الإقرار بالدعوى للإشارة إلى أنهم قد خفضوا من دعاويهم وغطرستهم ولم يبق إلا أن يقرروا خائعين، أغراهم الكفر ابتداء، وأذلتهم القارعة انتهاء.

«الفاء» هنا للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانت القرية قد نزل بها هذا العذاب الحاسم، ماذا كان جواب أهلها؟ فكان الجواب: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾، ولتضمن الدعوى معنى الإقرار لم تلحق تاء التأنيث بالفعل «كان» وهنا نفى وإثبات، وذلك يتضمن معنى الاختصاص والقصر، أى أنه لا جواب لهم إلا الإقرار بالظلم، وإنه كان وصفا اتصفوا به فى كل ما قالوا من كذب على الله تعالى. فما كان قولهم: (ظلمنا)، بل كان قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، وذلك تأكيد لظلمهم، فقد كان بالجملة الاسمية ويتصدرها بـ «إنا»، و«إن» دالة على التوكيد، وتأكيد القول بـ «كنا» الدالة على الاستمرار، وبالوصف بالظلم الدائم، اللهم وفقنا للعدل، وجنبنا الظلم.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا فِيهَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٧﴾
 وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ
 فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

الفاء هنا عاطفة على ما قبلها، وهو إقرارهم بأنهم كانوا ظالمين، والذين
 أرسل الرسل إليهم هم الذين خوطبوا برسالاتهم، كقوله تعالى في بيان سؤالهم:
 ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ
 يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوَا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾
 [المائدة].

أكد الله تعالى أنه سيسألهم بنون التوكيد الثقيلة، واللام الممهدة للقسم، أكد
 - سبحانه وتعالى - أنه سيسألهم، وهو سؤال العارف العالم بما وقع وما كان
 منهم، وما سيجيبون به، ولكن غاية السؤال أن يقرروا بما كان منهم وما يستحقون
 ولنسألن الرسل الذين أرسل إليهم، وإجابة المرسلين إليهم لتسجيل الحجة عليهم،
 ولتكون الحجة قائمة عليهم بإقرارهم وقائمة عليهم بشهادة الرسل الذين بعثوا إليهم
 بأن الحق قد بلغهم ﴿وَجَعَلُوا بِهَا وَأَسْتَبَقْتَهَا أَنْفُسَهُمْ... ﴿١١﴾﴾ [النمل] والسؤال
 في هذه الحال نوع من بيان بطلان ما فعلوا، مع عدم قدرتهم على تغيير ما كان،
 وأنهم لا سبيل لهم لأن يتداركوا ما فات، فالسؤال لهم يلقي في نفوسهم
 بالحسرات، وسؤال الرسل يلقي بحسرات أشد؛ لأنهم قاوموهم ومنعوهم من الحق
 وآذوا المؤمنين.

وأنهم بذلك يعلمون أنهم إن عذبوا إنما يعذبون باستحقاق جزاء ما ظلموا.
 ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لن يهلك الناس حتى

يعذروا من أنفسهم»^(١) ولقد أكد - سبحانه وتعالى - أنه لا سبيل لإنكارهم لأن الله تعالى يعلم غيب أمرهم إن أخفوه، فقال: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧).

الفاء عاطفة ما قبلها على ما بعدها، واللام لام القسم دالة هي والنون والقاف على التوكيد. و«نقص»: معناها نخبر خبر من يتقصى ويتتبع لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والضمير في «عليهم» يعود على من أرسل إليهم، ويحتمل أن يعود إليهم وإلى المرسلين معا، فيعلم المرسلون من الله ما كان يقع عليهم ويدركون أن الله كان عليما بالعت الذي أعتوه، يعلمون ذلك عند الحساب، كما علموه في الدنيا بإطلاع الله تعالى عليه، فعلمهم في الدنيا بالحساب والعقاب، كان علم إيمان بالغيب، ويقين من خبر الله، وعلمهم الآن بالحساب والعقاب والثواب علم معاينة. أما الكفار الذين أرسل إليهم فعلمهم يقيني بما أنكروا من قبل وهو علم بما جهلوا علم معاينة أو علم عقاب أنكروه، وبعث ونشر، وقد كبروا فيه.

وأكد الله تعالى قصصه الحق المتتبع بأمرين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾، أى أنه قصص لأعمالهم وأعمال رسلهم بعلم صادق ليس فيه حدس وتخمين. كما كانوا يدعون من علم من يعلم خاتمة الأعين وما تخفى الصدور، فهو يعلم الظاهر والباطن والأول والآخر.

ثانيهما: أنه علم من عاين وشاهد، وإذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ أى كنا حاضرين حضورا مستمرا ما كنا غائبين فأخبرنا، ولكن كنا شاهدين، فعاينا، وليس علم الخبر، كعلم المعاينة والملاحظة في الصدق واليقين.

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٠٠)، وأبو داود: الملاحم - الأمر والنهى (٤٣٤٧).

وإن هذا العلم الذى ثبت بالعيان والشهادة هو الذى يبنى عليه الحساب والعقاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨).

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، أى يكون الوزن للأعمال وزنا حقا ثابتا لا يميل إلى باطل، ولا يكون مبنيا إلا على الحق، و«الوزن» مبتدأ و«الحق» خبره، وتعريف الطرفين يكون دالا على القصر، أى أن الوزن يكون مقصورا على الحق لا يأتى بباطل، فهو مقياس دقيق يميز خير الأعمال من شرها، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، موازينه جمع ميزان، أى من رجحت كفة موازينه بأن كانت أعماله فى كفة الميزان كبيرة ثقيلة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون، أى أنهم المفلحون وحدهم لا يفلح غيرهم، وذلك لتعريف الطرفين، والإشارة إلى من ثقلت موازينه، وهنا يقال: أن الميزان واحد، فلماذا كان التعبير بالجمع بكلمة (موازينه)؟ فنقول فى الإجابة عن ذلك، إنه لتعدد الأعمال الموزونة يكون كل صنف منها قد ثقل فيها ميزانه، فيكون قد ثقلت موازينه.

وكذلك يقال فيمن خفت موازينه، وقد قال تعالى فيمن خفت موازينه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى علت كفة أعمالهم لخفتها، فأولئك بسبب هذا خسروا أنفسهم، والتعبير هنا بقوله تعالى: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وهى كناية عن أن العذاب ينزل ولا يخفف عنهم، وخسران نفوسهم فى هذا يشير إلى معان ثلاثة:

أولها - أنهم هم الذين كانوا بأعمالهم فى الدنيا عاملين على خسارتها، فلم تكن الخسارة لاحقة بهم من غيرهم.

ثانيها - أن العذاب خسارة للنفس أى خسارة، وأنهم هم الذين جلبوا لها هذه الخسارة الخالدة.

ثالثها - أنهم كانوا يحسبون فى ضلالهم فى الدنيا أنهم يكسبون بغطرتهم وكبريائهم واغترارهم بمظاهر القوة فبين الله تعالى أنهم الأخسرون أعمالا، وذلك عند ميزان الأعمال بميزان الخير والشر، لا بميزان الغرور والاستكبار.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ﴾، أى أن هذه الخسارة التى خسروا بها أنفسهم بسبب أنهم كانوا مستمرين طول حياتهم الدنيوية مكذبين بآياتنا الدالة على وحدانية الله - سبحانه وتعالى - وأضاف - سبحانه وتعالى - الآيات إليه للإشارة إلى عظم تكذيبهم، لأنهم يكذبون الآيات المنسوبة إليه - سبحانه وتعالى - فتكذيب أكبر من فى الوجود، ومنشئ الوجود، أكبر تكذيب وأكبر ظلم.

وقدّم قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ على ﴿يَظْلُمُونَ﴾؛ لأن آيات الله هى محور الحق وميزانه وبرهانه، ونلاحظ هنا أن ظلم ويظلم تتعدى بنفسها من غير باء، وهنا تعدت بالباء، ونقول فى ذلك: إن ظلمهم كان لتكذيبهم بالآيات وكفرهم بها، فكان التعبير بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ﴾ تضمن معنى التكذيب والكفر والظلم وذلك ضلال كبير؛ ولذا تعدى بالباء.

وهنا موضوع يجب أن نذكره وهو يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أياكون يوم القيامة وزن حقيقى حسى وموازن حقيقى حسية؟ أم هذه كناية عن إحقاق الحق وأن يعطى كل امرئ حقه، فلا يضيع لمحسن حسنة، ولا يحمل مسيء فوق إساءته.

نقول فى الجواب عن ذلك: إننا نؤمن بالإيمان كله بأن يوم القيامة ونعيم الجنة وعذاب جهنم وغيرها من أحوال اليوم الآخر كلها حسى، ولكن نميل إلى قول ابن عباس إلى أن المذكور فى القرآن عن نعيم وطعام الذين كتبها الله تعالى

لهم مجازى مقرب، فإذا كان فيها فاكهة ورمان وخمر لذة للشاربين وعسل مصفى، وغير ذلك فإن ذلك مجاز مقرب وليس كقطعنا فى الدنيا، إنما هى فاكهة أعلى من فاكهتنا، وليس لها لغة إلا ما تقربه لغتنا؛ ولذا قال - عليه الصلاة والسلام -: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١).

بعد هذا نقول: إن قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أهو وزن محسوس يميزان محسوس يوم القيامة؟ فنقول مقلدين بعض المفسرين أن ذلك مجاز عن أن كل ذى حق يأخذ حقه بالحق لا ينقص ولا يزداد عليه شيء إلا أن يكون ذلك من رحمته تعالى وغفرانه.

وإنه يكون ثمة استعارة أو تشبيه، شبهت عدالة الله تعالى يوم القيامة، وهو لا يظلم شيئاً بالميزان الذى توزن به الأشياء التى تخف الكفة فيها وتثقل؛ وذلك لدقة الحكم، ونسب ذلك القول إلى مجاهد والأعمش والضحاك.

وقد قال هذا أبو السعود فى تفسيره وذكره الغزالى فى كتابه: (المضنون به على غير أهله) إذ قال رضى الله تعالى عنه: «تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور، وبالموت ينكشف الغطاء» كما قال تعالى: ﴿... فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق] وما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده وهى مقادير تلك الآثار، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض، ولا يمتنع فى قدرة الله أن يجعل سبباً يعرف الخلق فى لحظة مقادير الأعمال بالإضافة إلى تأثيرها فى التقريب والتباعد، فهذا الميزان المعروف، ومنه القبان للأقطان والإصطرب لحركات الفلك والأوقات، والمسطرة للمقادير والخطوط، والعروض لمقادير حركات الأصوات، فالميزان الحقيقى إذا مثله الله تعالى للحواس مثله بما شاء من هذه الأمثلة، فحقيقة الميزان موجودة فى جميع ذلك، وهو ما يعرف به الزيادة والنقص وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل، وللخيال عند التمثيل، والله

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: بدء الخلق - ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم: الجنة وصفة نعيمها - باب (٢٨٢٤).

أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات، والتصديق بجميع ذلك واجب «من تفسير القاسمى». وفى مقابل ذلك الرأى المجازى الذى قاله من السلف مجاهد والأعمش والضحاك، وقاله الغزالى وأبو السعود، ونمىل إليه، قول آخر، وهو أن كل ما ذكر عن اليوم الآخر من الميزان والصراط وغير ذلك حسى حقيقى يجرى على ظاهره؛ لأن المجاز حيث تتعذر الحقيقة، ولا تتعذر الحقيقة هنا، فلا مسوغ للتأويل، وعلى ذلك الاكثرون.

وهنا سؤال يعرض: كيف يكون الوزن، سواء أكان معنويا مجازيا أم كان حسيا، والله تعالى يعلم كل شىء.

وقيل فى الجواب عن ذلك: إن ذلك لإقامة العدل ولييان حقيقة الأفعال، وليقروا بما كان منهم، والله عليم خبير قد أحاط بكل شىء علما.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠).

بين الله - تعالى - ما أنعم به على الناس أجمعين وثنيين ومؤمنين، طائعين وعاصين، فنعم الله تعالى الدنيوية نعم ولا تخص ﴿... وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٤) [إبراهيم].

وقوله: ﴿مَكَنَّاكُمْ﴾، أى جعلناكم ممكنين منها تفتشونها، وقد مهدها لكم تمهيدا وجعلها لكم مستقرا ومقاما تنتفعون بها، وجعل لكم من زروعها وثمارها ومعادنها، وما أودع أرضها من فلزات ما تتمتعون، وجعل - سبحانه وتعالى - لكم فيها معايش وهى جمع معيشة، والمراد ما تتعيشون مما أخرجت الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (٢٢) [البقرة].

وإن المعايش التى جعلها لنا فى الأرض قد ذكر بعضها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾

وَالرَّيْتُونَ وَالرُّمَانُ مِثْلَهَا وَغَيْرُ مِثْلَيْهَا كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ [الأنعام].

هذه بعض النعم التي اتخذ الإنسان منها معاش له.

وإن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ فيه توكيد من الله تعالى بهذا التمكين وذلك الاستقرار وذلك التأكيد اللفظي باللام وقد، وهو تأكيد للفعلين اللذين جاءا بعد ذلك.

وكان هذا التأكيد لتذكير الذين لا يؤمنون بفضل هذه النعم وحق شكرها ولكن الشاكرين قليلون في عددهم بالنسبة للكافرين بها للذين لم يؤدوا حقها. ولذا قال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، «قليلًا» نائب عن المفعول المطلق لـ «تشكرون». و«ما» ليقوى معنى القلة، والمعنى تشكرون شكرًا قليلًا، أى قلة بالنسبة لهذه النعم، إنه مهما يكن شكر المؤمنين فهو قليل بالنسبة لنعم الله تعالى، وهو ولي النعم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾
قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَنَبَّهُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

ذكر - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات وما يليها قصة خلق آدم ومعاينة إبليس، وقد سبق ذكرها في سورة البقرة وليس ذكرها هنا تكرارا لما ذكر هناك أولا، فإنه إذا كررت بعض الوقائع، فإنه قد زيد هنا الفتنة التي فتن به الشيطان النفس البشرية فعلا، وهي تشابه مع ما أدى إليه الاندفاع وراء إبليس من بدء السورة، وأن آدم وحواء قد بدأ يخرصان عليهما من ورق الجنة، فقد فتن المشركين، حتى جعلهم يطوفون عراة كما أدت وسوسته لآدم وحواء إلى أن بدت لهما سوءاتهما.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾.

الخلق الإنشاء، والتقدير خلق الله تعالى الناس من الطين، فقال له كن فكان إنسانا، ثم صوره على هذا الشكل الإنساني الذي جعله في أحسن تقويم، ﴿ثُمَّ﴾ هنا ليست للتراخي الزمني، فإن ذلك إنما يكون بالنسبة للحوادث، أما بالنسبة لله تعالى فلا تفاوت ولا تراخي؛ لأن الزمن لا يكون بالنسبة لله تعالى، إنما هو التفاوت بين حالى الخلق، وإن كان كلاهما يتم بقوله تعالى: ﴿... كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١١٧) ﴿[البقرة]﴾.

بعد أن تم خلق الإنسان الأول وهو آدم، كرمه الله تعالى بأن أمر الملائكة بأن يسجدوا، لعلمه بالأشياء، إذ علمه الله تعالى الأسماء كلها، وهذا قد ذكر في سورة البقرة، ولم يذكره هنا، وعلى ذلك لم يكن تكرارا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ثم: هنا للتفاوت بين تقويم الخلق والتكوين والأمر بالسجود.

واستثنى من إطاعة الأمر فتى السجود - إبليس، والاستثناء لأنه لم يسجد، سواء أكان الاستثناء متصلا؛ لأنه من جملة من كان مع الملائكة أم كان منقطعا، فإنه لم يسجد، مع أن الأمر بالسجود يشملهم، فلم يكن منه سجود، سأل الله تعالى عما منعه من أن يسجد قائلا له تعالت كلماته: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ

أَمَرْتُكَ ﴿١﴾ وسياق النص أن يكون: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، قال بعض المفسرين أن «لا» زائدة ونحن لا نرى أن في القرآن حرفاً رائداً، ومن يقول ذلك يسرف في قوله، ونقول في ذلك أن: «منع فلاناً من أن يؤذى» أى حماه، ويقال: «فلان فى منعة»، أى فى قوة حامية، سواء أكانت نفسية أم من جماعة، والمعنى على ذلك، ما منعك حامياً لك ألا تسجد إذ أمرتك، أى أنه وجد المقتضى للوجود، وهو أمر الله تعالى، وأمر الله واجب النفاذ للملائكة، ومن يكون معهم.

فكان جوابه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وذكر سبب الخيرية التى ادعاهها، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهو فى هذا غافل، ومدع ما لا دليل فيه على دعواه، أما غفلته، فهو أن الله تعالى خالق النار وخالق الطين وما فى خلقه تفاوت، فهما خلق الله تعالى، وهو الذى اختار النار له، واختار الطين لآدم، واختار أن يسجد إبليس النارى لآدم الذى هو من طين، فكيف يعترض عليه بخلقه، وإن هذا ضلال فى الفهم، وغفلة فى الإدراك؛ ولذا قال بعض العلماء: أشد العالمين غفلة إبليس. ودعواه أن الطين خير من النار، وأنه بذلك خير من آدم هذه دعوى لا دليل عليها، بل الدليل يناقضها؛ لأن الطين خلق الله منه الخصب، وكان من الخصب الزروع والثمار والأشجار والنخيل، وكل طعام أهل الأرض، والماء يتزل عليه غيثاً فيكون منه ثمر كل شئ، وطعام الإنسان، والحيوان، والنار تدمر وتحرق، فإذا كان من الطين العمران، فمن النار الدمار، وكلُّ خلق الله تعالى.

ولأن الباعث على قوله هذا التكبر، وليس الدليل؛ لذلك قال الله تعالى له: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

والهبوط هنا هبوط معنوى، إذ يخرج من الجنة إلى الابتلاء والاختبار، يمد الله تعالى له، ويختبر به الناس، فتكون العداوة، كما قال تعالى فى قصة سورة البقرة: ﴿... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ (٣٦) وقد ذكر - سبحانه - أنه

تكبر فى غير موضع تكبر، وكذلك شأن المتكبرين دائما، فقال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أى فى الجنة، فليس من شأن هذا المكان الطاهر أن يكون فيه تكبر من مخلوق على مخلوق، ولذا قال ﴿فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الصاغر هو الذليل، أو الأذل، من الإذلال؛ وهذه معاملة له بعكس ما يريد يتغنى لنفسه ابتغى الكبر فعاقبه الله تعالى بالإذلال، وشأن المتكبرين دائما أنهم يستعلون، فيذلهم الله، و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرُجْ﴾ تشير إلى أن سبب الأمر بالهبوط هو التكبر، والمعنى إذا كنت تتكبر ذلك التكبر فالأولى لنفسك أن تهبط فتكون من الصاغرين.

ولكن إبليس اللّجوج لم يرد أن يترك جهلا محادثه لله - سبحانه وتعالى -
﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤).

أى أمهلنى فلا تعجل بموتى إلى يوم يبعثون، وقد ذكر من بعد ما يريد عمله من ذلك الإمهال وهو إضلال الناس، فأجابه الله تعالى - وهو العزيز الحكيم - إلى مطلبه ليتحقق اختيار الإنسان، وسلطان إبليس عليه أو على الأشقياء من خلقه
﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (١٥)، وإبليس الذى كان فى غفلة قال من بعد ذلك مبينا لماذا كانت المهلة التى طلبها، قال إبليس: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) الإغواء إيقاع الغى فى القلب، وهنا نجد أن إبليس يعترف بسلطان الله تعالى الكامل على العقول والنفوس، وأن الغفلة التى سترت مداركه، وأضلت تفكيره هى بإرادة الله تعالى ويعمل منه، وقوله تعالى عن إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اللام لام القسم، و«أقعدن»: تأكيد لقصده الآثم ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ظرف مكان أى لأقعدن لهم فى صراطك المستقيم، وأضلهم، حتى لا يسيروا، فى هدى، بل يسيرون فى مسارات مختلفة يضلون فلا يهتدون سبيلا.

وبين إبليس أنه يحيط بالأشرار فلا يفلتون منه، فيقول: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧).

ومعنى ذلك أنه يحيط بهم بأعوانه، فيحيط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يفلتون منه، وهذا التصوير الحسى كناية عن الإحاطة النفسية التى لا يخرجون عن دائرتها، وينتهى من قوله بأنه سيضل الأكثرين؛ ولذا يقول: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. وإذا كان قد استعلى واستكبر أولا فقد دفعه الاستعلاء إلى أن يضل باستمرار ويتحدى رب العالمين فى حماقة منه؛ ولذا قال الله تعالى طاردا له من رحمته: ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨) المذموم المذموم المغيب المشئوب المبغض، والمدحور: المطرود الهالك، و«اللام» فى قوله تعالى: ﴿لَمَنِ تَبِعَكَ﴾ لام القسم، وهى لتأكيد العذاب النازل بهم، وتمتلى جهنم منهم أجمعين، من إبليس ومن معه.

وَيَتَكَدَّمُ أَتَّكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ
 سِتْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ
 لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ
 مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا
 مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾
 فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَيْهَمَا وَطَفَقَا
 يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا
 عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾
 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

كشف الله - سبحانه وتعالى - ما فى إبليس من خبث فى ذاته وإرادة الشر، وقصد إلى إغواء آدم وذريته .

اتجه - سبحانه وتعالى - إلى آدم يحذره، ويبين له ما بؤاً له فى الجنة، قال سبحانه: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)﴾ .

نادى الله - تعالى - آدم باسمه تكريماً له، أباح له ليسكن هو وزوجه حواء الجنة، وأن يأكلا منها من حيث شاء من ثمارها فى أى ناحية شاء منها، ولكن حرم عليهما شجرة معينة، اختباراً لقوة أنفسهما، وإرادتهما، وردهما إغواء إبليس لهما، حيثما أراد، وبين أنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين لعصيان أمر ربهما ولضعف إرادتهما، وأول الظلم ضعف إرادة الظالم، وكان نهى الله تعالى لهما ألا يقربا هذه الشجرة، والنهى عن القرب نهى عن الأكل بالأولى، ولا نعلم ما هذه الشجرة فلا نحاول تعرفها ما دام الله تعالى لم يسمها، ولكن إبليس وجد الباب الذى يدخل منه ليوسوس لهما، فكان فى ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ فوسوس الشيطان وهو إبليس اللعين، وعبر عنه هنا بالشيطان لفساده وحركاته الفاسدة، والوسوسة: الصوت الخفى، وتطلق الوسوسة على حديث النفس، فيقال: وسوست إليه نفسه، أى حدثته بفعل معين. تحدث إليهما موسوساً بأن يأكلا من الشجرة، وكانت النتيجة أن بدت لهما سوءاتهما، وهى العورة التى يسوء النظر إليها، وكانت هذه نتيجة الوسوسة، ولأنها نتيجة تأكد وقوعها، جعلت كأنها الباعث على هذه الوسوسة إذ جاء باللام فى قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ وكيف كانت الوسوسة؟

ذكرها الله تعالى متحدثاً عنه مبيناً: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ .

إنه يؤتى الإنسان من رغبة العلو والبقاء، وقد أتاها الشيطان من هذه الناحية التي يبتغيها الإنسان بفطرته فقال كاذبا: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ﴾ أى إلا لمنع أن تكونا ملكين ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ويكون تقدير الكلام إلا كراهية أن تكونا ملكين والنفس الإنسانية طامحة إلى العلو وحب البقاء فكان ذلك السبيل لإغوائهما إلى الأكل وقد غرهما، ثم أراد أن يثبت لهما أنه ناصح لهما فأقسم بأنه لهما من الناصحين.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢١) والمعنى وأقسم لهما أنه من الناصحين، وذكر القسم بلفظ المفاعلة؛ لأنه أقسم لهما وأوقع فى أنفسهما أنه صادق فى قسمة وأكده بكل مؤكد حتى كأنهما صدقاه وبادلاه القسم، وأكد أنه من الناصحين وذلك بعدة مؤكدات، أولا: بالقسم الذى شدد فيه حتى وقع فى أنفسهما صدقه، كأنهما أقسما معه، وثانيا: بـ«إن» المؤكدة، والجملة الاسمية، وإدخاله فى زمرة الناصحين حتى وقعا فى مغبة تغريه؛ ولذا قال تعالى فى أثر هذه اليمين الفاجرة التى أقسمها.

﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

الغرور هو ظن الضار مصلحة، والباطل حقا. ودلاء من التدلية، وهى إلقاء الدلو فى البئر، وهى هنا إلقاء النفس فى الغرور، والمعاصى، والمعنى دلاهما فى المعاصى بالغرور الذى أوجده فيهما، فذاقا الشجرة التى نهاهما عن القرب منها، فلما ذاقاها بدت عوراتهما التى يسوء منظرها، ولما بدت أرادا أن يسترها فطفقا، أى أخذوا يخصفان أى يقطقان من ورق الجنة ما يستر عوراتهما، وقد بدت لهما، وكانت من قبل مستورة عنهما، وبذلك ظهر لهما بينا ألم المعصية وأثرها، وناداهما ربهما وهما فى هذه الحال مذكرا بالنهى، فقال تعالى:

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ أَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ناداهما نداء منها قويا قائلا لهما وهو ربهما الذى خلقهما، فسوى خلقهما، وهو يعرف ما تخفى نفوسهما يلومهما فى أمرين:

أولهما - أنه نهاهما ولم ينتهيا وقال لهما: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ﴾
 أى لقد نهيتكما عن تلكما الشجرة نهيا مؤكدا، ولكن أكلتما كما قال فى آية
 أخرى: ﴿...وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)﴾ [طه].

الأمر الثانى - أنهما أطاعا الشيطان فى تغريره، وحسبا أنه ناصح، وقد بين
 الله تعالى أنه عدو واضح العداوة؛ ولذا قال: ﴿وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ
 مُّبِينٌ﴾ أى لقد قلت مؤكدا القول: إنه عدو واضح العداوة فما كان لكما أن تغترا
 به، أحس آدم بغرور الشيطان الذى ظهر فى أثر العصيان، وأنهما بالعصيان ما
 صارا ملكين ولا صارا فى الخالدين.

فقالا ناديين: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ اتجهوا معترفين بذنوبهم مقرين بخطئهما وقد أحسوا بأن مغبة
 العصيان وقعت فنادوا ربهم ﴿رَبَّنَا﴾.

وهنا حرف نداء محذوف، وهو نداء ضراعة وخشية: أى يا ربنا ظلمنا
 أنفسنا، وظلمهما لأنفسهما كان باديا لعيناهما عندما ذاقا الشجرة فقد بدت لهما
 سوءاتهما وأخذوا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وظلما أنفسهم بعصيان الله
 وذلك ظلم مبين، وظلمهما أنفسهما باغترارهما بالشيطان وقد قال لهما ربهما:
 ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ واضح العدوان.

كان هذا الإحساس العميق بظلم أنفسهما مصحوبا بضراعة إلى الله تعالى أن
 يغفر لهما ويرحمهما؛ ولذا قالوا: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
 يطلبان المغفرة من الله تعالى ولا يكتفيان بها، بل يطلبان مع المغفرة أن يتغمدهما
 الله برحمته، ولئن لم تكن المغفرة والرحمة ليكون من الخاسرين الذين خسروا
 أنفسهم بظلمهم لها وخسروا غفران الله تعالى ورحمته، وذلك هو الخسران المبين.

ولذا قال الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
 وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤)﴾.

ليست الجنة دار ابتلاء، إنما الأرض هي دار الابتلاء التي يتنازع فيها الخير والشر، والحق والباطل، والبر الفاجر، وهي دار الابتلاء فيها تتجلى عداوة إبليس ومن معه لابن آدم وذريته؛ ولذا أخرج آدم من الجنة ومعه زوجته، وأخرج إبليس مذهباً مدحوراً قال الله تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ اهبطوا جميعاً بعضكم لبعض عدو، فإبليس عدو لآدم وزوجه وذريتهما من بعدهما، ويكون بعض هذه الذرية لبعضهم عدواً لإغواء الشياطين، فالشيطان عدو لبني آدم، ويأغوائه يكون بنو آدم بعضهم لبعض عدو.

ولكم أيها المذنبون وذريتكم فيها مستقر أى موضع استقرار ومتاع، تنتفعون بخيراتها وكل ما فيها أو ينتفع بعضهم، وكل ذلك إلى حين أى زمن محدود.

ثم بين الله تعالى حال الناس في الدنيا فقال تعالت كلماته: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، والمعنى فيها تعاقب الأحياء بعضهم من ذرية بعض، والأحياء يموتون ويخلفهم أحياء من بعدهم، والأموات يبعثون من قبورهم ثم تكون القيامة، ويجازى المحسن إحساناً والمسيء الذى أطاع الشيطان، يناله عذاب أليم، والله ولى المؤمنين الصادقين.

ما بين قصة خلق الإنسان فى سورة البقرة وقصته هنا

يبدو بآدى النظر وظاهره، أن القصة هنا هي بحذافيرها المذكورة أولاً في البقرة، وأن ذلك تكرر في القرآن. ونحن نرى أن كون الله خلق آدم، وأمر الله الملائكة أن يسجدوا، وامتناع إبليس عن السجود وطرده وهبوطه هو وآدم وزوجه من الجنة، مذكور في القصتين، ولكن كان الاختلاف فيما وراء ذلك فذكر في إحداهما ما لم يذكر في الأخرى ومجموعهما يأتى بالقصة متكاملة الأجزاء، فيما تعرضت السورتان له، الثمرة من ذكر القصة مختلف في كل واحدة عن الأخرى.

أولاً - أن قررت أن ثمرتها عداوة إبليس لآدم من أصل التكوين، وحذرت الإنسان من أثر هذه العداوة، وبينت الآية الكريمة ما يترتب على هذه العداوة،

وذكرت بنى إسرائيل، وما وسوس به الشيطان فى نفوسهم، وكانوا أوضح مثل فى البشرية لتحكم إبليس فيهم، حتى كأنه هو - أى إبليس - وهُم شىء واحد، لولا أنه من الجن، وهم من الإنس، وهم مع ذلك صورته الحية الواضحة، جعلهم الله تعالى عبرة المعتبرين من أهل الفضيلة.

والثمرة هنا فى هذه الآية هو تحكم إبليس فى العرب حتى جعلهم يطوفون عراة رجالا ونساء، كما حمل إبليس أبوى الإنسان على أن يأكلا من الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما.

ثانيا - أن قصة البقرة فيها تعليم الله تعالى لآدم، وبيان استعدادده لأن يعلم الأشياء كلها، واختبار الله تعالى للملائكة، ثم كان الأمر بالسجود نتيجة لأن آدم أنبأهم بأسماء ما جهل الملائكة أسماءهم، ولم يذكر ذلك فى هذه القصة، بل طوى وكان الأمر بالسجود فحذف من هنا ما ذكر هنالك مفصلا.

وفى قصة التكوين فى سورة الأعراف التى تتكلم فى معانيها، ذكرت الطريقة التى أرسل بها إبليس الزوجين الكريمين، إذ قال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)﴾

ثالثا - وفى سورة البقرة بينت أنه أزلهما ولم تبين الطريقة التى أزلهما بها، فكانت القصة هنا موضحة لذلك، فهى متممة لها، وليست مكررة معها.

رابعا - فى هذه السورة ذكر ما ترتب على الأكل من الشجرة، من أن بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فإن ذلك لم يذكر فى سورة البقرة وذكر هنا، وهو تكميم لما ذكر هناك.

وما ذكر هنا فيه بيان مشابهة ما دعا إليه الله تعالى من النهى عن عري العرب فى مكة بإغواء إبليس، فتشابه عمله مع ذرية آدم بما عمله مع آدم وزوجه.

خامسا - فى قصة التكوين فى الأعراف، أن آدم وزوجه قد أحسا بما صنعا، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ ولم يذكر

ذلك في سورة البقرة إلا قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...﴾ (٢٧)، فكانت الآية متممة أو موضحة لما جاء في سورة البقرة ولم يذكر في سورة البقرة نداء الله تعالى للزوجين قائلا: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وهكذا كان ما هنا متمما لما هناك.

سادسا - ذكر في سورة البقرة إرادة الله تعالى حكمته أن يجعل خليفة وما قاله الملائكة في هذا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٥) ثم بيان الله بتعليمه الأسماء كلها وبيان أنه أحق بخلافة الأرض منهم، ولم يذكر هذا هنا في الأعراف.

وذكر هنا إغواء إبليس، وطريقته في إغوائه وأنه يحيط بهم دائما من عن أيماهم وعن شمائلهم، ولم يذكر هنالك في سورة البقرة، وأنه بهذه الموازنة بين ما اشتملت عليه القصة في السورتين يتبين أمران:

أولهما - أنه لا تكرار، بل كل قصة تكمل الأخرى، وتتكون قصة كاملة لا تتضارب الأجزاء فيها.

ثانيهما - أن الثمرة في كل جزء مختلفة، وأن القرآن معين المعرفة لا يغيض أبدا.

يَنْبِئُ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا
يُؤَيِّرُ سَوْءَ تَكْمٍ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ
الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ آبَايَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يُنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا
فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّا لِلَّهِ

لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ
أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا
هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيََاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

ذكر الله - سبحانه وتعالى - ما كان في خلق آدم وزوجه، وما وقع لهما مع إبليس، وكيف وسوس لهما، حتى ذاقا الشجرة فبدت لهما سوءاتهما.

ويبين في هذه الآية أن الشياطين نعمة أنعمها الله على عباده، ويقول الزمخشري: إن هذه الآية استطراد لما جاء في أصل التكوين، أى أنها في معنى البيان والتفسير لكونهما أخذًا يخصصان عليهما من ورق الجنة، والمعنى أن ذلك أمر فطري، وقد قوى الله تعالى المعنى الفطري، بأنه أنعم على الناس باللباس استجابة للفطرة وذلك صيانة للحياة.

ولا نحسب أن الآية استطرادية، بل الآيات تمهيد لبيان أن ما كان يفعله بعض العرب من الطواف عرايا، هو خروج على الفطرة، وهو خروج على الحياء الإنساني، الذي جعل آدم وحواء يخسفان عليهما من ورق الجنة:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾.

النداء لبني آدم جميعاً؛ لأنه مجاوبة للفطرة الإنسانية التي جعلت أبوى البشر يخسفان عليهما من ورق الجنة؛ ولذا كان النداء إلى أولاد آدم، وفيه إشارة إلى تلك الفطرة السليمة، وإلى ذلك الحياء الفطري الذي هو سمة الإنسانية الرفيعة، لا إلى تلك الإنسانية المسيخة، التي تظهر في العرى الفاحش الذي يقره بعض الذين تبلدت مشاعرهم وأحاسيسهم.

﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ وذلك بإنزال المطر الذي ينبت منه

النبات، وتاكل منه الأنعام، ويحيا به كل شيء حتى في هذه الأرض، ثم يكون من

النبات القطن والكتان، ويكون من الأنعام الأصواف والأوبار والأشعار، مما يتخذ لباسا تستر به العورة.

فأله - سبحانه - يعبر بالسبب، وهو نزول الماء الذى يكون منه النبات وغذاء الجسم، ويكون من ذلك اللباس الذى يوارى السوءة، وهى العورة، وقد بينا أن السوءة وهى العورة، وقد بينا أن السوءة ما يسوء النظر إليه، ولا تقره الفطرة السليمة.

وأقول: إن تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا﴾ بالمطر الذى يكون منه اللباس تفسير سليم، ولكن كلمة «أنزل»، كما تدل على نزول الماء كما فى قوله تعالى: ﴿... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ (٤٨) [الفرقان]، كما فى قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ (٢٢) [البقرة] فإننى أرى أنها كما تدل على ذلك، تدل أيضا على الإنعام، فهو سبحانه أنعم بهذا اللباس الذى يوارى السوءة، فهو الذى أنزل علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ الريش والرياش لباس الزينة، وما تزين به البيوت من فراش، وأطلق الريش على لباس الزينة، على أنه من قبيل التشبيه بريش الطير الذى يتزين به، وتصييه الحسرة إن خلع منه.

والمعنى أن الله تعالى أنزل لبنى آدم، اللباس الذى يوارى السوءة، ولباس الزينة.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

إن اللباس الضرورى هو الذى يوارى السوءة، والريش هو الزينة، وهو الرياش فى البيوت، وكل ذلك فى الأجسام، وما يتصل بها من المسكن والمأوى، فللقلوب لباس يكسو باطن الإنسان، وهو التقوى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ وقد شبه فى هذه الحال، ما يملأ النفس من تقوى سابقة وإيمان قوى، وباللباس الذى يلازم الجسم ويستتره ويتزين به، فإن التقوى ستر لعيوب النفس،

ووقاية لها من غضب الله تعالى، وهى زينة القلوب ونورها المشرق؛ ولذلك قال فيها: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فى ذاته، وخير عما سواه من زينة الناس، فإن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وفسر بعض العلماء لباس التقوى، بأنه لباس الجهاد من لأمة^(١) الحرب، واتخاذ الترس والدرع، وغير ذلك مما يدرع به المقاتل مجاهدا مدرعا، فإن هذا لباس تقوى من جهة أنه لا يكون إلا ممن امتلأت قلوبهم بتقوى الله، وباعوا أنفسهم له سبحانه وتعالى، وذلك أعلى درجات التقوى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...﴾ [التوبة].

وذلك لا شك تحتمله الآية، ولكنه ليس الظاهر المتبادر منها، ونحن فى منهاجنا نتجه إلى الظاهر المتبادر وقد يصح لنا أن نقول: إن الآية تعم الأمرين والله تعالى أعلم.

وإن الله تعالى، إذ خلق لنا نعمة الكساء: ما يكون منه ساترا، وما يكون منه زينة؛ فإنه آية من آيات الله ونعمه يجب أن نتذكرها، ونعتبر بها فى كل تصرفاتنا، وخصوصا فى الحج، الذى هو منسك إبراهيم - عليه السلام - باني الكعبة، وأبى العرب؛ ولذا قال تعالى فى ختام الآية: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

والإشارة بـ«ذلك» إلى نعمة الله تعالى فى إنزال الأمطار التى يكون منها الزرع والحرث والنسل ثم يكون منها للناس والرياش.

لقد حكم - سبحانه وتعالى - أنه من آيات الله فى إنزال المطر الذى كان منه كل شىء حى، والذى به أنشأ الله جنات معروشات وغير معروشات، فهذا كله من آيات الله تعالى ونعمه، التى توجب الشكر وتمنع الكفر، وهى مع ذلك، دالة على وحدانيته.

(١) اللأمة: لباس الحرب.

وختم الله سبحانه قوله العزيز بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾، الضميران يعودان إلى المشركين الذين كفروا بالله والذين يكفرون بنعمة الله، ويطوفون بالبيت الحرام عراة، وقد أنزل عليهم لباسا يوارى سوءاتهم وريشا يتزينون به، فلعلهم يتذكرون فينخلعوا عن هذه العادات انخلاعا.

والرجاء هنا منهم لا من الله تعالى، وقد مهد الله تعالى لهم من الأسباب، وذكر لهم من الآيات ما به يتذكرون.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾.

النداء للناس أجمعين، وكان النداء بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ لهذا العموم، ولتذكير الأبناء بما كان للأباء من عداوة إبليس، وتهديده بإغوائهم، وأنه يقعد لهم الصراط المستقيم، وأنه وسوس لأبوي الآدميين.

قال الله تعالى ناهيا: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ النهي للآدميين، والفاتن هو الشيطان ولم يوجه النهي إليه؛ لأنه تمرد على أمر ربه، وخرج مذموما مدحورا، وكان النهي لبني آدم مع أن الفاعل غيرهم؛ لأن معنى النهي حيث لا يمكنه منهم، وذلك بطاعة الله تعالى وحده ورد الأوهام والأهواء، فإنها باب الشيطان فإن سدَّ باب الوهم والهوى، فقد سُدَّتْ مسالك الشيطان، واستقام في النفس أمر الرحمن، فالحصن الذي يقى المؤمن فتنه الشيطان، هو الطاعة لأوامر الله تعالى، وتقوية العزيمة. . والإرادة وأن يكون للرحمن وليا ويتقى ولاية غير الله تعالى.

والفتنة معناها في أصل اللغة: فتن الفلزات من الذهب والفضة والحديد والنحاس، لإخراج ما يكون فيها من مادة ليست من جوهرها. ثم أطلقت على كل شدة يتميز بها الخبيث من الطيب، وتختبر فيها الإرادات ويتميز فيها ذوو العزائم، ثم كانت للنتيجة وهي محاولة خداع النفوس بالإتيان بما يهد العزيمة

ويضعف الإرادة، بخداع النفس، وإرهاق الإرادة والطفيان على حكم العقل وإضعاف سلطانه.

وهى هنا من هذا القبيل، فالله تعالى ينهانا عن أن نخدع بالشيطان، وله ماض فى إيدائنا وخدع أبويننا: آدم وزوجه حواء، اللذين كان منهما التناسل الإنسانى الدائم، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وقد عزز الله تعالى النهى عن الانخداع بابلis، بماضيه، إذ خدع آدم وحواء، فأتى نفوسهما من جهة ما هو فى فطرة الإنسان، من حب العلو والخلود، فقال لهما مقسما لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ومن هذا الباب دخل إلى أنفسهما وأتباعه من بعده، يسلكون هذا الطريق ذاته فهم يأتون النفوس من قبل ما تحب وتشتهى، فالأهواء والشهوات الباب الذى يدخل منه الشيطان إلى النفوس، والسلطان والطفيان بابان مفتوحان من أبواب الشيطان.

وقد كان لوسوسة إبليس لأبوى الخليقة، أثران: ذكرهما الحق - سبحانه - فى كريم آياته الأولى:

أولهما: إخراجهما من الجنة. فقال فيها: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ وهو - كما أخرجهما من جنة الله تعالى - يخرجكم يا بنى آدم، من جنة الطاعة وعزتها، إلى ذلة المعصية وغوايتها.

ثانيتهما: أنه ترتب على ذلك أن بدت لهما سوءاتهما، وصارا تحصنان عليها من ورق الجنة، كما قال تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾.

كذلك الشيطان ينزع عن المؤمن كل ما استكن فى قلبه من خير، ويكشف عورات الناس، وسوءات المجتمع الإنسانى.

وإن فى ذلك لإشارة واضحة إلى أن الشيطان الذى نزع لباس آدم وحواء هو الذى ينزع عن العرب لباسهم فى الطواف حول أقدس بيت الله فى الأرض، أول بيت وضع لعبادة الناس وهو البيت الحرام.

وإذا كان إبليس قد تراءى فى الجنة الأولى لآدم وحواء فدلّاهما بغرور، فإن أتباعه لا يظهرون، ولكن يوسوسون؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

إن إبليس يختفى ولكن له سلطان قوى على النفوس والقوة الخفية له هو وقبيله أى جماعته التى يجمعها، هذه القوة تبعث فى النفس بقدر لا يقل عن القوة الظاهرة التى كانت لأبوى الخليقة آدم وزوجه، وهذه القوة يؤثر بها فى نفوس الكبراء بإغرائهم بالسلطان وتسليطهم على الضعفاء فىكون على الضعفاء قوتان تسيطران على أنفسهم: قوة أصحاب السلطان الظالم، وقوة الشيطان والاستخذاء له فى نفوسهم. والمؤمن القوى يدفع الإغراءين ولا يستمع إلا لله سبحانه وتعالى، فإذا كانت هذه تسيطر، فقوة الحق عند أهل الحق أقوى، ولو كانوا عبيداً أو ضعفاء؛ لأنهم مؤمنون بالله - سبحانه وتعالى - وقد ذكر النبى ﷺ فى تأثير الشياطين الخفية وتأثير الملائكة «أن للملك لمة وللشيطان لمة، فأما لمة الملك فوعده بالخير وتصديق بالحق، وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق»^(١).

واللمة ما يلزم بالقلب ويتصرف القلب والنفس بمقتضاه، قال القلب تتنازعه قوة الحق وهى من الله أو من الملك، وقوة الشر، وهى من الشيطان، وهو يهرب من الحق، ونتائجه، ويغرى بالهوى والشهوة.

وإن قوة الإيمان تدفع إغراء الشيطان، فالإيمان والتقوى حصان للحق، والكفر والهوى حظيرة الشيطان؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) رواه بنحوه الترمذى: التفسير - ومن سورة البقرة (٢٩٨٨) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

إنه إذا كانت التقوى قوية، تكون إرادتها للحق، وعزيمتها في الخير عزيمة صادقة، لا يقوى الشيطان على قهرها. أما النفوس المضطربة بالباطل التي فسدت فطرتها، فإن الشيطان يجد السبيل لبث شروره وإغرائه وفتنته وخديعته فيها؛ فإنها لفساد فطرتها واضطراب فكرهم - تجدد فيها الشياطين داعيتهم، وهذا معنى جعلهم أولياء للشياطين، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أى أنهم لإفساد فطرتهم المستقيمة وجعلها معوجة، والاعوجاج دائما، يفتح ثغرات لهذا الشر، وتلك الوسوسة التي بها يكون الشياطين أولياءهم، وإنما جعل الله تعالى الولاية ليست في النفوس الإنسانية، وإنما جعلها للشياطين أنفسهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن الشياطين يفعلون والنفوس الإنسانية تقبل، واعوجاجها يسهل دخول الشر فيها، والولى هنا هو الموالى والنصير المتصل، فالله - سبحانه - جعل الشياطين موالى وأحباء وأصدقاء للذين لا يؤمنون، الذين ليست قلوبهم مؤمنة مدعنة للحق؛ ولذا ذكر الفعل المضارع بقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أى لمن ليس من شأنهم الإيمان والإذعان للحق، فالكافرون أولياءهم الشياطين والطاغوت.

وإن من إغواء الشياطين لبنى آدم، أن ينسبوا أفعالهم إلى الله، وإلى أتباع آبائهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

أشرنا إلى ما كان يفعله المشركون فى الحج، وما كانوا فى هذا إلا متبعين لما كان عليه آبائهم، وفى هذا يتبين ما جاء عن مفسرى التابعين فى هذا الموضوع.

الفاحشة: الأمر الزائد عما تقبله العقول المستقيمة، والاحتشام الإنسانى والحياء الخلقى، ولا شك أنهم بطوافهم عراة، يرتكبون أفحش الأعمال الخارجة عن حدود العقل، والاتزان، والحياء الفطرى.

ولقد روى مجاهد فى ذلك، أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة، فكانوا يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، وكانت المرأة تضع على قُبُلها شيئا تستره به،

فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ وقد قال الحافظ ابن كثير في ذلك: وكانت العرب ما عدا قريشا، لا يطوفون بالبית في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله تعالى فيها، وكانت قريش، وهم الخمس (جمع أحمس) يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوبا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه لثلاثي يملكه أحد، ومن لم يجد ثوبا جديدا، ولا أعاره أحمسي ثوبا طاف عريانا، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا يستره بعض الستر فتقول:

اليوم يبدون بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

«وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئا ابتدعه من تلقاء أنفسهم».

وإن هذا الكلام يدل على أمرين خطيرين:

أولهما - أن ذلك كان يحدث من العرب مخالفا كل عرف، ومخالفا لكل تفكير سليم فما كان ليرضى أحداً مثل هذا، وهو أشد أحوال الفحش في الأفعال! ثانيهما - ما يزعمون من أنهم لا يطوفون بثياب ارتكبت فيها معاصي لهم.

وكان قريشا لا معاصي لهم، مع أن بعضهم ما كان يتحاشى المفارقة بالمعاصي، فقد كان منهم من هو رجس في رجس. وإذا كان منهم من كان يمتنع من التدلي فيما يחדش مروءته كعبد المطلب، وأبي طالب، والعباس، فقد كان منهم أيضا من لا يمتنعون عن بعض المعاصي، كالربا ونحوه.

وإنهم إذ يفعلون هذه الفاحشة يبررونها بأمرين:

أولهما - أمر يتفق مع العقل الجاهلي، وهو أنهم يقولون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، ولو كانت فحشا، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

الأمر الثاني - أنهم يفترون على الله، ويقولون: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ويتأولون ذلك بأنه ما دام لم ينهنا عنها فقد أمرنا بها.

وهذا تفكير جاهلي، يقولون أمر الله بالشرك وبتحريم بعض الذبائح، وتحريم بعض ما تخرجه الأرض، ويقولون: ﴿... لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الأنعام ١٤٨] وهذا ما يبرر به المعاصي بعض الجاهلين في هذا الزمان، وقد رد الله كلامهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يواجههم بافتراءهم على الله تعالى، ببيان أنه يستحيل على الله ما يفترون عليه؛ لأن الله تعالى له الكمال المطلق، ومن له الكمال المطلق لا يأمر بالفحشاء؛ لأنه لا يصدر عنه إلا ما هو كمال في ذاته، ولا يتنافى مع عقل عاقل ويرضاه ذو ذوق سليم. وقال تعالى: ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ولم يقل «ما أمر بذلك»، أو ما أمر بالفحشاء، بل قال نافيا الأمر بالفعل المضارع: ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فلا يمكن أن يأمر بذلك لا في الماضي ولا في المستقبل، وليس من شأنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكان النفي بالمضارع؛ لأنه نفى لشأن الله ثم قال تعالى، كما أمر نبيه أن يستنكر قولهم: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾! الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، أى لتوبيخهم على ما وقع منهم؛ لأنهم فعلا افتروا على الله افتراء، فقالوا ما لا يعلمون صدقه، ولم يصل إليهم عن الله تعالى أمره فيه وحكمه.

وإن ذلك فوق أنه توبيخ لهم، واستنكار لفعلهم - فيه توجيه لهم لئلا يتكلموا إلا بعلم، وأن الشيطان لينفذ إلى ما يحكمون به بأوهامهم وأهوائهم. وتقدير قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لبيان وجه الاستنكار الشديد، وهو أنهم يقولون على الله جل جلاله، فكان قولهم هذا أشد الافتراء.

ثم بين سبحانه فقال بعد أن نفى أنه يأمر بالفحشاء:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩).

ذكر الله تعالى فى الآية السابقة أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، أى لا يأمر بالأمر الذى يفحش، فلا تستطيع العقول المستقيمة المدركة أن ترضى به .

وهنا يبين ما يأمر به سبحانه، فيقول: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، وإن السياق يقتضى أن يكون ما أمر الله به نقيض الفحشاء، فالقسط هنا يفسر بأنه العدل، والعدل كل أمر فى ذاته مستقيم تقره العقول ولا ينكره الذوق السليم، فالعدل يشمل العدل فى الحكم، والعدل فى الأقوال والأفعال، والاعتدال فى كل ما يختار فى الأمور، فلا يمتد إلى الحرمان، ولا إلى الاعتداء، بله الإفحاش؛ ولذلك قال بعض المفسرين: إنه يشمل كل ما أمر الله به، فما يأمر إلا بما هو عدل، وما نهى إلا عما هو ظلم. وقال أبو مسلم فى تفسيره: إنه الطاعات كلها، والتعيير بالماضى فى «أمر» فيه تكذيب لافتراءهما وأنه لم يأمر به الله سبحانه، فالله - سبحانه وتعالى - ما أمر بالفحشاء، بل أمر بالقسط، وما به تستقيم الأمور فى العقول.

ولقد صرح - سبحانه - بما يجب للمساجد، من تعظيم، لا أن يطوفوا عراة بالمسجد الأعظم، الذى كرمه الله تعالى، وتشد إليه الرحال؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

هذا أمر معطوف على خبر فى الظاهر، ولكن قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ هنا «أن» مطوية فى الكلام ومقصودة والسياق هكذا: «أمر ربي بالقسط وبأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد». وأقول إن: «أقيموا» معطوف على «أمر» لأن «أمر» يتضمن معنى الطلب، فهو عطف طلب على طلب.

وإقامة الوجه عند كل مسجد، هى الاتجاه إلى الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ (٣٠) [الروم] والوجه هو الذوات، أى اتجهوا إلى الله تعالى بكل أنفسكم عند كل مسجد، وكذلك ما يطلبه الله تعالى عند كل مسجد، مع توقير المساجد، وإعطائها حقها فى الاحترام والإجلال، فلا يصح أن يكون فيها عرى أو ما يكون رذيلة فى ذاته، أو ما يبعث على الرذيلة، وأن يكون

الاحتشام هو الزى الأكمل، وإقامة الذات لله تعالى أن تكون خالصة له سبحانه، ومستشعرة خشيته، وجلاله، وقرن هنا بالمسجد، لكرامة المسجد كما ذكرنا؛ ولأنه رمز الصلاة، فإقامة الوجه في الصلاة بأن تكون مقومة فيها استحضر عظمة الله سبحانه في قراءتها وأدعيتها وكل حركاتها، لا يعمر القلب فيها غير الله تعالى.

وقرن - سبحانه وتعالى - الأمر بإقامة الوجوه لله بالأمر بالدعاء مخلصين له الدين، فقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، الأمر بالدعاء هو الأمر بالعبادة؛ لأن العبادة دعاء، والدعاء في ذاته اتجاه إلى الله بضراعة وخشوع وخضوع، فقد أمر الله تعالى بمعاملة الناس بالقسط بين الناس، ثم أمر من بعد بإقامة الوجه لله تعالى بالانصراف إليها بذواتنا، بأن نجعل كل مشاعرنا، وخلجات قلوبنا لله تعالى، بحيث لا نحب إلا الله، ولا نبغض إلا الله، وأن نكون ربانيين في أنفسنا، وعقولنا، وقلوبنا، ثم أمرنا من بعد أن نعبد وحده، قد خلصت قلوبنا له؛ ولذا قال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والدين هنا الطاعة، وكل العبادات. مخلصين له كل هذا، بحيث لا نشرك في عبادته أحدا، فلا نعبد أحدا سواه، ولا نرائي في عبادته، فالرياء في العبادة هو الشرك الخفى؛ ولذا ورد أن النبي ﷺ قال: «من صلى يرأى فقد أشرك، ومن صام يرأى فقد أشرك، ومن تصدق يرأى فقد أشرك» (١).

وقد قرن - سبحانه وتعالى - هذه الأوامر بالتحذير من عصيانه، والتذكير بالبعث، وأنه وراء البعث القيامة والحساب والثواب أو العقاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

وفى هذا النص دعوة إلى الإيمان بالبعث، وتذكير به، وهذا التذكير يحمل في نفسه دليله، و«الكاف» دالة على التشبيه، والمعنى بهذا البدء بالخلق والتكون تعودون، أى يعيدكم كما بدأكم، ففي الآية ذكر للبعث، ودعوة إلى الإيمان به، والدليل عليه بقياس الإعادة على الإنشاء، وأنه أهون، والله على كل شيء قدير،

وأنه يكون من بعده الجزاء، فمن اهتدى فله الثواب، ومن ضل نزل به العقاب، ولذا قال تعالى:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٠).

يبين الله - سبحانه وتعالى - أن الناس عند عودتهم إلى فريقان: فريق هداة الله تعالى في الدنيا وفريق كان من أولياء الشياطين، وحق عليه الضلالة.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ حال من (تعودون) في الآية، أى يعودون فريقا هداة الله تعالى، وفريقا حقت أى ثبتت عليه الضلالة، والفريق الذى هداة الله قد اتخذ الطريق المستقيم سبيلا، ولم يتخذ طريقا عوجا، فإنه يضل، والفريق الذى ثبتت وتقررت عليه الضلالة، هو الذى اتخذ الشياطين أولياء له يودهم ويحبهم؛ لأنه اتجه إلى المعاصى يشتر عسلها، وجعل قلبه موطنًا للشيطان يسكنه، ويغويه ليحقق قسمه لله تعالى بقوله: ﴿... لأَعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) [ص].

ولقد بين النبي ﷺ فى أحاديث عدة أن الناس يولدون على الفطرة، والفطرة التى فطر الله الناس عليها مستقيمة دائما لا تخرج عن سنن الحق بمقتضى العهد الفطرى الذى أخذه على بنى آدم من ظهورهم وذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا، وإن الشياطين هى التى تحولهم عن الفطرة إلى الضلالة، ولقد قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه»^(١)، وروى مسلم فى حديث قدسى عن النبي ﷺ: «إنى خلقت عبادى حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم»^(٢)، فالله سبحانه خلق الخلق، وهم يدركون بفطرهم أن لهذا الكون خالقا، وأنه وحده الذى انفرد بالخلق والتكوين، وذلك بمقتضى الميثاق الذى أخذ عليهم بمقتضى الفطرة والغريزة، كما أشرنا.

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم: (٥١٠٩) من حديث عياض المجاشعى رضى الله عنه. ورواه أحمد

(١٧٠٣٠) بلفظ (فأصلتهم عن دينهم).

وإن من يسلك طريق السعادة يتجنب الاستجابة للشيطان، ويستيقظ لفنته، فلا يمكنها من أن تسيطر عليه، وتستمكن من منازعه، وحتى مكن للشيطان من أن يصل إلى توجيه فكره، ونفسه، وإرادته، فقد اتخذته من دون الله ولياً، وقد روى في الصحيحين «من كان من أهل السعادة فَيُسَّرَّ لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فَيُسَّرَّ لعمل أهل الشقاوة»^(١).

والآية الكريمة تقول: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ ولم يذكر الفاعل وهو الله تعالى، تكريماً من الله تعالى، يشير إلى أن الهداية ابتداء باتجاه من الذى هداه الله تعالى، كما أن أهل الضلالة قد حقت وثبتت عليه الضلالة بعمل ممن ضل وغوى، وقال سبحانه فى أهل الغواية: ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى أنهم فتحوا قلوبهم وسخروا عقولهم وإراداتهم للشيطان، فكان لهم ولياً من دون الله؛ لأنهم هجروا فطرتهم، وهجروا أوامر الله تعالى ونواهيه، ومعنى ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى، أى من غير إطاعة الله.

ولقد قال تعالى فى الآية السابقة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفى هذه الآية يقرر الله تعالى أن أهل الضلالة اتخذوا الشياطين أولياء، فالولاية ثبتت من الجانبين: الشياطين أرادوها للإغواء، وأهل الضلالة فتنوا بالإغواء، فاتخذوهم أولياء، وإنه لاتخاذهم الشياطين أولياء كان منهم ضلال فكرى، بهذا الاتخاذ؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الضمير يعود على فريق الضلالة الذين حقت عليهم و﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ معناها يظنون متوهمين أنهم مهتدون، أى أنهم بسبب عملهم الإيجابى فى اتخاذهم الشيطان أولياء من دون الله تعالى انقلبت أفهامهم، وأركس إدراكهم، فزين لهم سوء أعمالهم فحسبوه حسناً، فظنوا بأوهامهم أنهم مهتدون، وهذا شر أنواع الضلال، بأن يسير المرء فى طريق الباطل، وهو يحسب أنه الحق والهداية.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية على رضى الله عنه.

وإن هؤلاء فى حسابهم الغواية - محاسبون على ذلك؛ لأن الله بين الحق فأعرضوا، وعاندوا واستكبروا، فلم يطيعوه عنادا واستكبارا، حتى فسدت مداركهم، وضلت أفهامهم، فحسبوا الباطل حقا، والضلالة هداية ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطْنٌ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ
سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

هذه الآيات الكريمة تبين ما أحل الله تعالى وما حرم، وأن ما أحله الله تعالى طيب فإنه تعالى طيب لا يحل إلا طيبا، وما حرمه هو خبيث فى ذاته من أفعال وأشياء، وقد ابتداء - سبحانه وتعالى - بإحلال ما كان العرب يحرمونه من ستر أنفسهم فى الحج عند الطواف بالبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) كان بعض العرب يطوفون عراة، كما بينا فى ذكر معانى الآيات السابقة، وإن الله تعالى قد أنعم علينا باللباس الذى يوارى سوءاتنا والريش من الثياب الذى نزين به، لنبدو فى أقوم صورة، أو فى صورة لا تشنأها الأنظار، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١)؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا

(١) رواه مسلم: الإيمان (١٣١) باب: تحريم الكبر وبيانه، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٢٦٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

زَيَّنَتْكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴿١٧﴾ النداء لبني آدم يشمل الناس أجمعين لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، فلماذا اختص النداء هنا بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ونقول في الجواب عن ذلك الاستفهام المفروض أن ذلك للتذكير بحال آدم وزوجه عند إخراجهما من الجنة، وبدت سوءاتهما وأخذوا يخصفان عليهما من ورق الجنة.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، معناه البسوا لباسا يكون فيه زينة وتجميل لكم، وقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ معناه تحروا أن تأخذوا لباسكم متزينين متجميلين بها، عندما تدخلون أى مسجد، وإن ذلك لتكون المساجد نظيفة دائما، ويحسن فيها الطيب ليكون فيها أريج تطيب له الأنفس وتقبل عليه جموع المصلين، وإن ذلك يوجب أمرين.

أحدهما - ستر العورة باللباس السابغ الطيب الذى هو زينة فى ذاته، والعرى فيه ظهور للعورات، والعورات سوءات يسوء النظر إليها.

ثانيهما - أن يكون ثمة تجميل، وقد حسنَّ النبي ﷺ التجميل عند دخول المساجد، وكان النبي ﷺ يتجمل فى ثيابه، ولا يتبذل فيها، وخصوصا فى المسجد، وعند استقبال الوفود.

ويقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، هذا أمر بالأكل وهو فى معنى الإباحة بالجزاء بأكل أى جزء، أو أى نوع فىأكل بُرا أو تمرًا، أو شعيرا أو أرزا. ويجب بالكل، فلا يصح أن يحرم نفسه من الطعام، وإلا أودى بنفسه إلى الهلاك ولا يحرم على نفسه نوعا من الطعام دون نوع، كالذين يحرمون على أنفسهم أكل اللحوم فإنه يجب عليهم أن يتناولوها، حتى لا يقعوا فى النهي فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ... (٨٧)﴾ [المائدة].

ولقد روى الإمام أحمد بن حنبل أن النسي ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا مخيلة»، والإسراف يكون فى ناحيتين:

إحداهما - أن ينفق مبذرا فوق طاقته، بأن يكثر من الضيفان فوق طاقته فإن ذلك تبذير منهى عنه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ...﴾ (٢٧) [الإسراء].

والثانية - أن ينال من الطعام ما يشغل معدته وأمعاءه، وجسمه، ولقد قال النبي ﷺ فيما رواه النسائي والإمام أحمد: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن؛ حسب ابن آدم أكالات يُقِمَّنْ صُلْبُهُ فَإِنْ كَانَ لَا مُحَالَةَ، فَثَلْثَ طَعَامٍ وَثَلْثَ شَرَابٍ وَثَلْثَ لِنَفْسِهِ»^(١).

وإن الإسراف في الطعام يختلف مقداره ونوعه باختلاف حال الطعام، فإن كان مريضا، فما يؤدي إلى زيادة مرضه إسراف، وإن كان قويا معافى فلا يتناول ما يؤدي إلى إتخامه، فإن زاد فقد أسرف، وقد قال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٧) [الفرقان].

وقد بغض الله تعالى الإسراف للناس ببيان أنه سبحانه لا يحبه ولا يرضاه لعباده فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لأن الإسراف يؤدي إلى إضرار أبدانهم، وحرمان لغيرهم، وضباع لذوى الحاجة في الجماعة الإسلامية كما قال ابن عباس: ما من مسرف إلا ووراءه حق مضيع. وقد أكد - سبحانه وتعالى - بغضه للإسراف بنفى المحبة، ومحبة الله مطلب المؤمنين، ولقد كان من العرب من حرم زينة الله وأوجب العري عند الطواف فاستنكر الله تعالى فعلهم، وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يستنكر ما كان من الذين حرموا زينة اللباس افتراء على الله تعالى كما كان يفعل المشركون، أو ترهضا كما فعل جهلة المتعبدین

(١) رواه أحمد: مسند الشاميين - حديث المقداد بن معدى كرب (١٦٧٣٥)، والترمذي بلفظ مقارب: الزهد - ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وابن ماجه: الاطعمة - الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع (٣٣٤٩).

فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الاستفهام إنكارى لنفى الواقع لا لنفى الوقوع؛ لأنه وقع من المشركين، وإنكار الواقع توبيخ لهم على ما وقع.

وقد وقع فى هذا بعض العرب، فطافوا عراة فى المسجد الحرام، كما ذكرنا، وقد كان الأمر فى الآية السابقة يأخذ الزينة فى المسجد الحرام وعند كل مسجد، وفى هذه الآية يستنكر تحريم الزينة فى المساجد وغيرها، وهى أمرة باتخاذ الزينة أمر إباحة، وكان النبى ﷺ يتجمل فى ثيابه، وإن كان يرقعها أحيانا^(١)، وكان يحث أصحابه على أن يتخذوا أحسن الثياب حتى إذا أوشكت على البلى تصدقوا بها، وكان السلف من الصحابة والتابعين يعنون بثيابهم، وإذا كان قد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه فى مدة خلافته كان يلبس أحيانا ثوبا تعد رقعاته، فما ذلك لتحريم التجمل على نفسه، بل لمعنى فى الحكم الأمر نفسه، فهو يقول: لا أكون أمير المؤمنين إن لم أعش كأضعف المؤمنين.

وكان على بن أبى طالب إمام الهدى يعنى بثيابه ويتجمل بها، فلما ولى أمر المؤمنين كانت أول كلمة قالها: سأرفع من ثوبى ما كنت أجر.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، أى أنه - سبحانه وتعالى - مكن عباده من إخراجها ونسجها، وأنشأ لهم مصدر وجودها، فهو - سبحانه وتعالى - هو الذى أنزل المطر بالماء العذب من السماء فكان النبات، وعاش بالنبات الحيوان، وكان من النبات القطن والكتان، وكان من الحيوان الصوف والوبر والشعر، وكان من كل ذلك اللباس والرياش، وما خلق ذلك عبثا، بل كان وفق ما سنه - سبحانه وتعالى - ولا يليق بمؤمن أن يرد إنعام الله، ولقد قال ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٢). وكما استنكر القرآن الكريم الذى أنزله رب العالمين تحريم الزينة استنكر أيضا تحريم الطيبات، والطيبات هى الأطعمة التى تستلذ وتستطاب ما دامت لا تضر الأجسام، وهى ضد الخبائث كما قال تعالى: ﴿... وَيُحِلُّ لَهُمْ

(١) وذلك كما رواه أحمد: باقى مسند الانصار - باقى المسند السابق (٢٥٥٢٧).

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال: هذا حديث حسن. سنن الترمذى: الأدب - ما جاء فى أن الله يحب أن يرى أثر نعمته (٢٨١٩).

الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ... ﴿١٥٧﴾ ﴿﴾ فهي الطعام الطيب الهنيء المرءى الذى تقبل عليه النفس وتهنأ به وهو لا يعقبه ضرر: من لحم طرى، وسمك شهى، وغير ذلك مما يستطيعه الإنسان.

ولا يتم الطعام الطيب ويكمل إلا إذا كان طيبا فى طريق كسبه، فلا يكون قد أخذ من حرام لقوله عليه الصلاة والسلام: «من نبت لحمه من حرام فالنار أولى به»^(١).

فالطيب من الطعام له خاصتان أولاهما - أن يكون مستطابا فى ذاته مريئا فى عاقبته، والثانية أن يكون من كسب حلال.

وإنه من المقررات العلمية أن يكون من غير إسراف كما ذكر الله تعالى فى الآية السابقة، ويجب أن يعالج العاقل نفسه، حتى لا تندفع إلى الإسراف؛ ولذلك يحسن ألا يأكل كل ما يشتهى ولو كان حلالا، بل يقطع النفس فى بعض الأحيان أو كلها لأمرين:

أولهما - أن ذلك تقوية للإرادة فلا يكون عبدا لبطنه، فلا يقع فى الإسراف المنهى عنه.

ثانيهما - أن التمكن من أكل الحلال أمر كله لا يدوم، فقد يصاب بالحرمان فيستعد له قبل الابتلاء به، فيكون قادرا على الصبر، وإن الله تعالى مكن الذين آمنوا من هذه الطيبات فى الدنيا فقال تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أى أنها مباحة فى الحياة الدنيا للذين يستمتعون بحلالها من غير إسراف، ولا تقتير وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، يحتمل أن يكون المعنى أن هذه المتع يشترك فى الدنيا معهم فيها غير المؤمنين، أما يوم القيامة وفى الآخرة فتكون خالصة للمؤمنين؛ لأنها تكون جزاء وفاقا لما قدموا فى الدنيا.

ويحتمل أن المعنى أنها تكون فى الدنيا صادرة عن نفوس طيبة مؤمنة، وتكون خالصة لله تعالى، وخالصة من كل إثم، أما غير المؤمنين فإن تناولهم لهذه الطيبات قد يكون إثم مبطل من الخير، فحبطت أعمالهم، والاحتمالان جائز جميعهما، فيكون المعنى خالصة يوم القيامة لهم، وخالصة من الآثام فى الدنيا، وختم الله - سبحانه وتعالى - الآية بقوله تعالت كلماته:

﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أى كهذا البيان الذى بينه تعالى فى هذا الشأن يفصل، أى يبين الآيات القرآنية والكونية لقوم من شأنهم أن يعلموا، فلا تغطى غواشى الأوهام والأهواء قلوبهم، فيدركون الحق ويعلمون بنور بصائرهم، ومن شأنهم أن يعلموا؛ ولذا عبر بالفعل المضارع والله تعالى أعلم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

حرم المشركون أو بعضهم اللبس فى الطواف، وحرموا بعض الأطعمة، وأباح الله تعالى ذلك للمسلمين فى غير إسراف ولا لتفاخر، بل بتجمل وتستر، بعد ذلك بين الله ما حرمه على الناس، وتحريمه مستمد من الفطرة؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يبنى لهم ما حرم والفطرة تحرمه. قال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

أمر النبى ﷺ بقوله ﴿قُلْ﴾؛ لأنه مبين شريعة القرآن، والمبلغ لها، وبين لهم قصر التحريم على الفواحش والإثم والبغى، والشرك والكذب على الله.

و﴿إِنَّمَا﴾: للقصر، أى أن التحريم مقصور على هذه المحرمات كلها، وأهل الشرك ما كانوا يتخرجون عنها بل ارتكبوها كلها، وقال سبحانه: ﴿حَرَّمَ رَبِّي﴾ للإشارة إلى أن المحرم هو رب الوجود ورب الإنسان الذى يعلم الفطرة، وفى ذلك إشارة إلى أن الذى حرم هذا، إنما حرمه متسقا مع الفطرة التى فطر الناس عليها، وهو رب كل شىء، والفواحش هى الأمور التى تفحش وتزيد على

الفطرة، وهى تشمل كل المعاصى، وخصوصاً كبائر الذنوب فتشمل كل الموبقات المفسدة للنفوس والجماعات، وبذلك كل ما يجىء من إثم وبغى يدخل فى عمومها، ويكون ذكر الإثم والبغى، تخصيص بعد تعميم، فيكون العطف عليها من عطف الخاص على العام.

وقد نقول: إذا اجتمعنا خصص كل واحد بمعنى، فتخصص الفواحش بالمعاصى الصارخة التى تفسد النفس والمجتمع كالزنى، والخمر، والربا، وغير ذلك، وبعضهم خصصها بالزنى وما يتصل به من قذف للمحصات وغير ذلك والفواحش على معناها العام والخاص يحرم ما ظهر منها وما بطن، وما يظهر منها وما يعلن، وجريمته جريمتان جريمة الفعل، وجريمة الإعلان، وما بطن ما استتر كاتخاذ الأعدان، ويشمل ما بطن فسق القلوب وذلك بالعزم على فعل هو شر فى ذاته، ولكن يحول دون تنفيذه أمر فوق إرادته فهذا يكون معصية، ولا يدخل فى ضمن حديث النفس الذى تجاوزه الله عن أمة محمد؛ لأنه حدث ونوى واعتزم التنفيذ ولكن حيل بينه وبينه بغير إرادته وعلى رغبته، وقد تكلمنا فى ذلك فيما مضى والإثم ذنب لا يتجاوز أذاه فاعله، فهو يبطئه عن فعل الخير، وآثامه على نفسه كشرب الخمر، وتناول الآفات التى تضر نفسه، ولا تتعدى إلى غيره، وإن كانت التفرقة بينهما فى بعض المجتمعات عسيرة، والبغى هو المعصية التى تتعدى إلى غيره، ووصفه سبحانه بقوله: ﴿وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ولا يكون البغى إلا بغير الحق، وهو تنبيه إلى ما يتضمنه البغى فهو يتضمن إثم التعدى، وإثم أنه فعل غير الحق فهو تصريح بما هو قبيح فى ذاته.

ومن البغى أكل أموال الناس بالباطل فى الربا، والرشوة والسحت ومن البغى أكل مال اليتيم، ومن البغى النميمة والغيبة، وأشد البغى الحكم بغير ما أنزل الله، والحكم بين الناس بالباطل ومن أفحش البغى ظلم الحكام للرعية والغلبة عليها، وإرهاقها، وإيذاؤها فى حرياتهما، ولقد قال ﷺ: «اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فرفق

به»^(١) هذا هو القسم الأول مما حرمه الله تعالى: وهذا القسم الآتى داء الشر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

هذا أشد المحرمات، وهو محرم بأمر الله، ومحرم ببديهة العقول، حتى لقد قال العلماء: إن وحدانية الله تعالى أمر تصل إليه العقول بالبديهة أو النظر القريب.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾، أى أن تجعلوا شريكا لله تعالى فى العبادة شيئا، أو جحرا، أو شخصا، لم ينزل الله به سلطانا، ويقول العلماء: إن السلطان هنا الحجة أو الدليل.

وأرى ما رأوا، ولكن فى التعبير عن الحجة بـ «سلطان» إشارة إلى معنى أن هذه الأوثان وما شابهها لا قدرة لها، ولا تثبت أن لها قوة تنفع وتضر، ومهما يكن، فإنهم يعبدونها بالأوهام المسلطة من غير سلطان من حجة أو دليل، ومن غير أن يعرفوا بالعيان أن لها سلطانا فى الأفعال أو التوجيه فى الكون، إنما هى الأوهام التى تصورها صالحة للعبادة مع الله تعالى لا شريك له.

إن من الأمور التى حرمها الله تعالى أن نقول على الله مفترين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذا ثالث نوع من أنواع المحرمات، وهو الافتراء بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون أن الله حكم به وقاله أو شرعه، كتحريم بعض الأحكام، وتحريم لبس اللباس فى الطواف، ويقولون أنه من عند الله، وما هو من عند الله. وكما قال الله - تعالى - فى الآية السابقة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فذلك افتراء، وهو من أشد الافتراء ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ (٩٣) [الأنعام].

(١) رواه مسلم: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٨)، وأحمد: باقى مستند الأنصار - حديث السيدة عائشة رضى الله عنها (٢٤١٠١).

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ

فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَتَّبِعُكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يُمْضُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِي فَمَن
أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آتِنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ
قَالُوا أَضَلُّوْا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبِينَ ﴿٣٧﴾

لقد فعل الناس ما فعلوا في الدنيا منكرين ما أنكروا من بعث ونشور وحساب وعقاب، ومنهم من آمن بالله وبالبعث، وبإرادة الله تعالى الذي يختار ما يشاء، ويتبدى من بعد ذلك بيان الحقائق لمن آمن واهتدى ولمن ضل وغوى كتابا منشورا ويتبدى ذلك من البعث، وقد بين الله - سبحانه وتعالى - أن الجميع إلى نهاية ومن بعدها البعث فقال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)، هذا بيان نهاية كل إنسان في هذه الحياة الدنيا، فهو يعيش إلى أجل محدود قد عينه الله تعالى له، لا يتأخر ولا يتقدم، وأجل الإنسان هو نهاية حياته.

وقال - سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، ولم يقل لكل إنسان أجل مع أنه لكل إنسان أجل فعلا فلماذا اختار - جل جلاله - ذكر أجل الأمة تلك حكمة الله تعالى فيما يختار من بيان في الذكر الحكيم، وتلمس الحكمة في ذلك، نقول: إنه - سبحانه وتعالى - ذكر الأمة، دون الآحاد بآحادها أولا - لأنه إذا كان للأمة بآحادها وجماعاتها أجل فأولى أن يكون للآحاد آجالها، ثانيا - ولأن الأمة

هى الجماعة التى يجمعها عصر وعادات وتقاليد، ويكون فيها توجيه إلى الخير أو إلى الشر، فهى جيل له أحواله، وعليه تبعاته، فالله - سبحانه - أخبرنا أن لكل جيل من الأجيال أجله الذى ينتهى عنده، ويذهب بأثقاله ويجىء من بعده جيل آخر له شأنه.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ والساعة أقل من الزمان، والسين والناء فى ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ للطلب، والمعنى لا يتأخرون، والتعبير بالسين والناء هنا إشارة إلى أنه لا يتأخر، ولو طلبوا تأخير، بما يقتضيه حب الحياة بالنسبة للعصاة فإنهم يتمنون الحياة، ولا يتمنون الموت أبداً.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، «أى لا يُقَدِّمَ ولو طلبوا أن يقدموا؛ كأولئك المؤمنين الذين يستعجلون لقاء ربهم لا طلبوا للموت ولكن رغبة فى الحياة الآخرة ولقاء ربهم، طمعا فى ثوابه، أو رغبة فى رضوانه.

والمعنى لكل أجل كتاب والموت بأى سبب من الأسباب هو نهاية الأجل الذى لا يتأخر ولا يتقدم فالموت بمرض، أو بقتل أو حرق أو غرق، أو استشهاد فى سبيل كلمة حق لأجل الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ... (٧٨)﴾ [النساء].

وقدم قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ على ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لأن الرغبة كثيرة، والرغبة فى التقديم قليلة والله يتولى الأنفس وهو بكل شئ عليم.

وإن من بعد انتهاء الآجال يكون البعث، ويكون بعد البعث الحساب على التصديق والتكذيب لما جاء به الرسل؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)﴾.

خاطب الله تعالى بنى آدم، وفى ذكر آدم - عليه السلام - نبيه وتذكير بما كان من إبليس لآدم - عليه السلام - وعمله على إغوائه وإغواء ذريته من بعده، وقوله:

﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ﴾ فيه «إن» الشرطية، و«ما» المؤكدة لمعنى الشرطية، وهذا تأكيد من الله تعالى بأنه سيرسل رسلا مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿...وَأَنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) [فاطر]، وقوله: ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء]؛ ولذا أكد الشرط مع «ما» بالنون. ومؤدى الآيات أن الله تعالى مرسل الرسل لا محالة ولكن ذلك ليس بواجب عليه تعالى، لا يجب عليه شيء، ومن الذى يوجب عليه شيئا، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣) [الأنبياء] فالكمال كله له تعالى.

ورسل: جمع رسول، وقد أشار - سبحانه - إلى عملهم، وهو التبليغ عن الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ آيَاتِي﴾ والقصاص الإخبار والتكليف، وتوجيه الأنظار إلى الكون قضا وتتبعها، لا يترك أمراً واجب البيان ولا يبينه والآيات تشمل لعمومها الآيات المبينة للأحكام التكليفية، والآيات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى، وعلى وحدانيته فى الخلق والكون، والصفات العلية، وتشمل المعجزات الباهرة التى تدل على الرسالة.

وإن هذا القصص الحكيم، والذكر الذى يهدى ويرشد، هو كالمطر، تتلقاه بعض النفوس فتؤمن به، وتتلقاه أخرى فتكفر به؛ فالغيث ينزل فيأتى بالخصب والخير الكثير للمؤمنين، ولا ينبت نباتا، ولا يسقى حرثا فى الأرض الحدياء، قال تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إذا جاءتهم الرسل بآياتى فمن اتقى وأصلح...، ونسب الله - سبحانه وتعالى - الهدى إليه - سبحانه وتعالى - تعظيما لمعناه، وليبان أن الرسل يتكلمون عن الله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾... (٨٠) [النساء]، وليبان ما يترتب على ذلك، وهو نفى الخوف والحزن؛ ولذا قال تعالى: فلا خوف عليهم من عذاب، بل هم فى أمن وسلام؛ لأن الهداية أمن واطمئنان؛ ولأن الطاعة لا عقاب منها بل ثواب فلا خوف من عقاب. ولا

يحزنون، أى لا يصيبهم حزن، ولا ألم نفسى أو وجدانى، ولا تؤثر فيهم زوايع الحياة لأن نفوسهم مطمئنة بإيمانها، راضية بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿... أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد]، فمن اهتدى فقد حصن نفسه بالأمن والرضا، فلا يخاف ولا يحزن.

وقد بين الله تعالى حال الذين لا يؤمنون بما جاءت به الرسل من الهدى والبيّنات فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦).

هنا ذكر للذين يعصون الرسل، ويكفرون بما جاءوا فى مقابل الذين اهتدوا بهديهم، وهو هدى الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى وصفين لهما هما اللذان أديا بهم إلى عذاب الله تعالى وهما:

الوصف الأول - أنهم كذبوا بآيات الله تعالى كذبوا آيات التكليف فلم يؤمنوا بصدقها عن الله تعالى مع قيام الأدلة على صدقها، والبراهين الدالة على أن الرسل يتكلمون عن الله، فهم إذ يكذبون الرسل يكفرون بمن أرسلهم، ويكذبون بما تدل عليه الآيات الكونية من خلق السموات والأرض، وما يكون منها من زروع وثمار، وحياة كاملة، وما فى السماء من نجوم وبروج إلى آخر ما فى الكون من دلالات على أن خالقها واحد أحد هو الفرد الصمد.

الوصف الثانى - أنهم استكبروا عن آيات الله فحسبوا أن اتباع الرسل ينافى عزتهم، وينقص من كبريائهم، فأخذتهم العزة الواهمة بالإثم الحقيقى، وهنا نجد أن الله تعالى يقول: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ فعبر هنا التجاوز وذلك للإشارة إلى المجاوزة للحقيقة، أى أن استكبارهم تجاوز بهم عن فهم الآيات وإدراكها لتضمين استكبروا معنى التجاوز، كان التعدى بـ «عن»، والسياق هذا مؤداه: استكبروا متجاوزين عنها تاركين لها ولقد ذكر سبحانه جزاءهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإشارة هنا إلى الذين كذبوا آيات الله، واستكبروا معرضين عنها متجاوزين، والإشارة إلى الموصوف بصفات فيها إيماء إلى أن هذه الصفات هي السبب في الجزاء، فهذا الاستكبار، وذلك التكذيب هو السبب في هذا العقاب وهو دخول النار، وتخليدهم فيها، وأنهم لا خروج لهم منها، وقد أكد - سبحانه وتعالى - خلودهم في النار بمؤكدات ثلاثة أولها - القصر، فقد قصرها عليهم بتعريف الطرفين، وتعريف الطرفين من أنواع القصر، فالمعنى أولئك وحدهم هم أصحاب النار، ثانيها - أنهم أصحاب النار أى الملازمين لها ملازمة صاحب لصاحبه. ثالثها - التأكيد بضمير الفصل، إذ يقول سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وتقديم «فيها» فى معنى قصرهم على النار، أى أنهم فيها لا فى غيرها خالدون.

وقد بين - سبحانه وتعالى - ظلم أولئك المكذبين للرسل المفترين على الله تعالى وما يكون لهم يوم القيامة فقال تعالت كلماته: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

بعد أن بين الله الذين اتبعوا هدى الله، وما منحهم الله من فضله من اطمئنان وأمن ورحمة، وذكر الذين شقوا فكذبوا بآيات الله تعالى واستكبروا - وصف بعض أفعال المكذبين الكافرين ومآلهم، فقال: إنهم افتروا على الله الكذب، وهم بذلك ظالمون، وكذبوا بآياته، وذلك ظلم ثان عظيم، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

الاستفهام هنا إما للتعجب أو للإنكار، وعلى الأول يكون المعنى: أى ظلم أفحش وأشد من الكذب على الله تعالى، والافتراء عليه، بهذا أمر من شأنه التعجب منه، وإما على كونه للإنكار فيكون إنكار للواقع للتوبيخ على هذا الذى وقع منه، والتعجب أو الإنكار من أمرين: أحدهما - الافتراء على الله، وهو الكذب عليه عن جهل قاطع للحق، والثانى - تكذيب الآيات، وإن الافتراء على الله تعالى قد وقع من بعض، فمنهم حرم بعض الطعام الطيب ونسب ذلك إلى الله تعالى، ومنهم من زعم أن الملائكة بنات الله تعالى، ومن زعم أن الأوثان

تقرب إلى الله تعالى، فكل هذا افتراء عليه - سبحانه وتعالى - عما يقولون علواً عظيماً.

وهذا ظلم عظيم بذاته يتعجب منه ويستنكر، والظلم الثاني التكذيب بآياته، ومعناها ألا يأخذ بما يهديه إليه من معجزات باهرات، وآيات في الكون ظاهرات، ومنها آيات توجب الإيمان بها إيماناً بالرسائل الإلهية كآيات التكليف التي أنزلها الله تعالى على رسله، وعلى رأسها القرآن الكريم.

وهنا إشارتان بيانيتان:

الأولى - قوله: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ . . «افتري» هنا معناها قال قولاً مخترعاً له لم يكن له أصل وهو كذب في ذاته، فالمعنى أنه في حقيقته كذب، قد اخترعه أو افتراه كما في قوله: ﴿... إِنْكَ افْتَرَاهُ ...﴾ (٤) [الفرقان].

الثانية في التعبير بأو بدل الواو، وهي للترديد، وهي تشير أن الافتراء على الله يمثل ما ذكرنا من اتخاذ الولد، وغير ذلك من المفتريات ظلم فاحش يستنكر ويتعجب منه، فليس الاستنكار منهما مجتمعين، بل من كل واحد منهما منفرداً، ومجتمعاً.

بعد ذلك بين الله تعالى ما يترتب على افتراءهم وتكذيبهم، فقال تعالى حكيمته: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الإشارة هنا إلى أولئك الذين ارتكبوا أشد الكذب نكراً، وأفحشه كفراً، وكما ذكرنا هذه الإشارة تفيد أن ذلك الوصف هو سبب ذلك الحكم عليهم.

و﴿الْكِتَابِ﴾ المراد به عند بعض المفسرين ما كتب لهم في الدنيا من رزق، وما مكنوا منه من متع وما ينالون من مكاسب ومن سلطان، ومن بعد ذلك يأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، ولذلك ختم قوله تعالى بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُثَبِّتُ لَهُمْ وَرَأْسَهُمْ﴾ فهذا الذي ينالهم هو في الحياة الدنيا، وذلك كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩) متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (٧٠) [يونس]، ومثل قوله تعالى:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ [لقمان]، وهذا توجيه قول الذين فسروا الكتاب بما كتب في الدنيا من رزق، وما كتب لهم من أجل.

ولكن يرد على هذا التعبير بـ ﴿يُنَالَهُمْ﴾ لا بـ «ينالون»، فالرزق والمتع إذا كانت هي المكتوبة ينالونها، وهذا يخالف التعبير بـ «ينالهم» إنما نيلهم بأمر يكون عقابا لهم لا متعة ينالونها ويقتربونها.

ولذا نرى أن الكتاب الذى هو كتب لهم فى الآخرة من حساب وعقاب، إذ يجدون كتابهم قد سجلت فيه أعمالهم وينالهم هذا النصيب من الكتاب الذى سجل ما فعلوا، والتعبير بـ «نصيبهم» من الكتاب تعبير دقيق يصور عدل الله تعالى فنصيبهم من العذاب هو نصيبهم فى أعمالهم، فجزاؤهم مستحق من أعمالهم، فكل نفس تجزى ما كسبت أى جزاؤها من كسبها، فلولا ما كسبت ما عذبت، فعقابهم جزاء وفاق لعملهم.

وإن ذلك الكتاب الذى سجلت فيه أعمالهم يأخذهم بنصيبهم منه من وقت قبض أرواحهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

«حتى» هنا على قول من يقول: إن النصيب هو الأرزاق والمتع والأجال تكون بمعنى «إلى» أو للغاية، أى أنهم يتمتعون بما كتب لهم حتى تحيى إليهم رسل الموت، الملك عزرائيل ومن معه فيما كلفه الله تعالى إياه، وكان جمع «الرسول» لهذا ومن قال - وهو ما نختار - أن الكتاب ما كتب عليهم من أعمال تنالهم بالعذاب عليها - تكون «حتى» تفرعية أى مبينة تفرعاً للعذاب من أول نزولها بإحصائها عليهم من أول لقائهم فى الآخرة.

يقول لهم رسل الله تعالى التى تقبض أرواحهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى تدعون دعاء عباده تشركون بالله بهم، والاستفهام هنا للتعجيز والتوبيخ والتبكيت، وتذكيرهم بسوء ما كانوا فى دنياهم يفعلون.

وكقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، أى يفيضون أرواحهم وقد توفوهم نصيبهم من الحياة الدنيا وبقي ما ينالهم من حساب وعقاب فى الحياة الآخرة.

ويكون جوابهم ما عبر الله عنه بقوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾، أى غابوا غيبة من لا يستطيع أن يعودوا منها، وبذلك ثبت عجزهم وثبت لهم بهذا الإقرار أنهم لا يستطيعون أن ينفعوهم أو يضرروهم وفى هذا اليوم العصيب الذى استقبلهم، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ الشهادة هنا إقرار وحكم على أنفسهم أنهم كانوا فى حياتهم الدنيا كافرين بالحق وبالله وحسب ذلك دليلا عليهم، وعلى استحقاقهم كل عقاب ينزله الله تعالى بهم.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾

أشار - سبحانه وتعالى - إشارات بينات واضحات إلى ما أغرق فيه المشركون أنفسهم فى الدنيا، وبين - سبحانه وتعالى - طغيان أنفسهم، وفساد عقولهم،

وضلال تفكيرهم، وفي هذه الآيات يذكر - سبحانه - عاقبة أمرهم وهى دخولهم فى مجتمع أهل النار فقال تعالى:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾.

القائل هو الله تعالى ولم يصرح به بجوار الفعل؛ لأنه مذكور دائما فى الأفهام وفى القلوب فلا حاجة إلى ذكره ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ «فى» هنا قيل: إنها بمعنى «مع»، أى ادخلوا مع أمم قد خلت أى مضت من قبلكم فى النار، ونحن نرى أن «فى» معناها الظرفية كأصل وصفها، وإدخالها فى هذه الأمم فيه إشارة إلى أنها وليست غيرا عنها، والمعية قد توهم المغايرة، ولا مغايرة بل هم أمم فى ذواتهم، وهم أمة واحدة فى كفرهم، فإن فرقتهم الأجيال فقد جمعهم الضلال وجمعهم العقاب، والتكذيب لآيات الله تعالى، والمعادنة لأحكامه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، أى مضت قبلكم متحلة ما انتحلتم، مكذبة ما كذبتكم من الحق والآيات، كاذبة على الله وغير مصدقة لآياته، ومستكبرة عنها.

وهذا النص يفيد أولا - أن الكفر كله ملة واحدة لا تفريق بينها، فالباطل قد جمعها والعقاب قد وحدها، ويفيد ثانيا أنه يتسلسل فى الأجيال جيلا بعد جيل، وبعد تفرقهم فى الأجيال تجدهم قد التقوا فى النار جميعا، وإن تنظر إلى تاريخ الملل والديانات الإنسانية تجدها أحيانا تتلاقى فى نوع واحد من الكفر، فتجد مثلا عقيدة التثليث فى الاعتقاد المزعوم من آلهة ثلاثة يوجد عند المصريين وعند البراهمة، وعند البوذية وعند الأفلاطونية الحديثة التى قبست من البرهمية والبوذية. . . وعند النصارى الذين اتبعوا بولس، وقد قبسوها من البرهمية الذين قالوا فى «كرشنة» ما قاله هؤلاء فى يسوع عند بولس، وقبسوها أيضا من كلام البوذيين فى بوذا، فنحلوه ليسوع فى زعمهم، ثم قبضوا القبضة الكبرى من الأفلاطونية، وسموا ذلك نصرانية بعد أن انحرفوا عن المسيح - عليه السلام - الذى علمهم التوحيد واعتنقوه حتى غيروا وبدلوا.

وهكذا نجد فكرة وثنية عمت أجيالا، وكذلك عبادة الأوثان سيطرت على اليونان والرومان والعرب في عصر واحد.

فإذا كانت هذه الأجيال والأمم من الإنسان والجن فإنها تدخل النار جميعا، يلحق التابع المتبوع، وقد جمعهم الشرك بالله تعالى ووجد بينهم العقاب، ولذا يقول - سبحانه وتعالى - يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، أى مضت من الإنس والجن، والنار متسعة للجميع.

و«مِنْ» فى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ بيانية لبيان شمولها الضالين من الجنسين، الجن أتباع إبليس والإنس الذين أضلهم.

وفى هذا المجتمع الجهنمى يكون التابع والمتبوع، ولقد ذكر الله - تعالى - ما يكون بينهما فى ذلك المحشر:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾.

إن الله - تعالى - ذكر تلاحق هذه الأمم التى ضلت، وكان ضلالها واحدا، أو متقاربا مختلفا فى شكله، متحدا فى معناه؛ إذ كله وثنية وإشراك بالله تعالى، وكفر بالحقيقة الإلهية، وضلال أى ضلال فى فهم حقيقة خالق الوجود ومنشئه، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التى دخلت معها، أو التى سبقتها، وذلك يدل على النفرة التى تكون بينهما، فإن من أشد العقوبات النفرة النفسية بين المجتمعين فى واحد، ويدل أيضا على أن الاتحاد فى عقيدة ضالة جعل واحدا من المتحدين يلغيها ويلعن من يعتنقها؛ لأنه يحسب أنه هو الذى سهل دخولها عليه، ثم يلعن الأتباع المتبوعين؛ ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أى تلاحقوا فيها جيلا وراءه جيل، وسلفا وراءه خلف وآباء وراءهم أبناء.

قال المتأخر للمتقدم، أو التابع للمتبوع: ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ وعبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾.

أى أن الأخلاف قالوا عن أسلافهم أعطهم يا رب العالمين عذابا مضاعفا عنا لأنهم هم الذين اتبعناهم فأضلونا، فالعرب كانوا يقولون نتبع ما كان عليه آبائنا، أو نتبع ما ألفينا عليه آبائنا - فكانوا ضالين بضلالهم والضعف هو المثل، والمعنى اجعل لهؤلاء الذين أضلونا عذابا زائدا بمقدار الضعف المماثل لعذابنا وكأنهم يريدون أن جريمتهم جريمتان: إحداها ما فعلوه وفعلناه، والثانية أنهم أضلونا فعليهم وزر مثل وزرنا وعليهم وزر آخر؛ لأنهم أضلوا. وقد رد الله قولهم بأنهم فعلوا مثل ما فعل أسلافهم فكانوا مضلين لمن بعدهم كما أضلهم من سبقوهم. وكذا قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أى يقول لهم رب العزة لكل منكم أنتم التابعون والمتبوعون ضعف من العذاب مثل العذاب الذى نزل بكل منكم؛ لأن كلا منكم ضال ومضل، فالخلف ضلوا بسلفهم وأضلوا من بعدهم، فإذا كان منطقتكم أن يزيد من أضل على من ضل فأنتم أضللتم ولكن لا تعلمون سريان الفساد من جيل بعد جيل، وكل يضل من بعده.

وإن الترامى بالضلال يتبادل بين التابع والمتبوع، وكل تابع هو متبوع لمن بعده، وقد ردت الطائفة الأولى على من بعدها فقالت، ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٩).

وأولاهم هى المتبوعة أى هى السلف، والثانية الحلف، وهذه معان نسبة فكل جيل يكون طائفة أولى لمن يليه وتكون ثانية بالنسبة له، وهكذا تتعاقب الأجيال، وتتطارع الوزر، كل تطرحه على من سبقها والجميع فى ضلال مبين.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ و«من» هنا للاستغراق أى ليس لكم علينا أى فضل يخفف العذاب، أو يوجب أن يثقل العذاب علينا فوق عذابكم؛ فأنتم ضللتم كما ضللنا والعذاب للضلال والعناد أو الكفر وقد شاركتمونا فى ذلك، وإذا كنا قد أضللناكم واتبعتمونا فى ضلالنا، فقد أضللتم غيركم، واتبعوكم فى ضلالكم كما اتبعتمونا.

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ تفصح عن شرط مقدر تقديره مثلاً، فإذا كنتم قد ضللتهم مثلنا، فما لكم علينا أى فضل يخفف لكم أو يزيد علينا.

ثم يسوق - سبحانه وتعالى - على لسان أولئك المتنازعين قولهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ «الفاء» لعطف ما بعدها على ما قبلها، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، أى ادخلوا فى النار ذائقين لها محسين بآلامها، وعبر عن ذلك بالذوق، للإشارة إلى شدة آلامه، ومتاعبه.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، أى بسبب ما كنتم تكسبون من ظلم وعبث وفساد، فهذا هو الأصل فى سبب العقاب، وكل امرئ بما كسب رهين، لا فرق فى ذلك بين ضال، ومضل، ما دام قد وقع كلانا فى الضلال مختاراً، ما دام له عقل يدرك وما دام قد أنذرتة الرسل، وقامت بين يديه البينات، فإذا كان قد اتبع من قبله فعلية إثمه، وقد جاءه الهادى الرشيد، فلم يتبعه.

وقريب من هذه المراجعة بين التابع والمتبوع قوله تعالى فى سورة أخرى: ﴿... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنْحَنُ صِدْقًاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)﴾ [سبأ].

وقد وصف الله تعالى فى بيان أن العذاب بالكافرين لا مناص منه، فقال تعالت كلماته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٤)﴾.

السماء فى الحس المكان الذى يجىء منه المطر، والخير والبركات، ولقد جعل الله تعالى السماء موطناً لذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... (٩٦)﴾ وعندما يدعو الإنسان الله تعالى يتجه

إلى السماء ضارعا، والله تعالى لا مكان له؛ لأنه منزّه عنه والسماء لأنها علو يتجه الناس إليها، لأنهم يريدون العلو، ويستغفون، وإن المشركين الذين يكذبون بآيات الله لا يكون لهم رجاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

يلاحظ أن الله تعالى قال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، قد عدى التكذيب بالباء، وهو يتعدى بنفسه، فيقال: كذبت هذا القول وكذبت هذا القائل، وكذبت الآيات كذلك، ولكن هنا تعدت بالباء، كما فى الآية السابقة، وذلك لتضمن التكذيب معنى الكفر، فالمعنى كذبوا رسلنا كافرين بآياتنا، واستكبروا عادلين أو متجاوزين عن اتباعها.

ذكر الله تعالى للكافرين بآيات الله تعالى جزاءين:

الجزاء الأول - أنه لا تفتح لهم أبواب السماء، والمعنى فى ذلك يحتمل أموراً يصح أن تراد كلها، الاحتمال الأول: أن المراد أن تغلق أبواب الرحمة فى الآخرة، وعبر عن ذلك بأبواب السماء؛ لأن الرحمة تكون فى كثير من الأحيان من السماء، فالشمس فيها، وهى مصدر النور والحرارة، والنجوم وبروجها، والقمر وضياؤه، ومنها المطر الذى يكون غيث ورحمة، وذكر أبواب السماء إشارة إلى أنهم سدوا على أنفسهم كل مصادر الرحمة والغفران؛ لأنهم سدوا كل سبل الخير على أنفسهم فى الدنيا، فحق عليهم هذا فى الآخرة. الاحتمال الثانى: أن يكون المراد أرواحهم، فأرواحهم لا تفتح لها أبواب السماء، بل تغلق دونها؛ لأنها أرواح خبيثة ننته يتقرز منها أهل السماء والأرض إذ تكون أعمالهم الخبيثة قد أفسدت فطرتها.

والاحتمال الثالث: أعمالهم، فلا تفتح لها أبواب السماء؛ لأنها فى بعثهم يجزون عليها، وإننا نرى أن تفتح أبواب السماء، لا يكون لهم؛ لأنهم لا يرحمون ولا يغفر لهم، وأرواحهم خبيثة وأعمالهم لا ترفع إلى علو السماء بل تهبط إلى أوهاد الأرض، والمراد فى كل الأحوال ألا تنالهم رحمة السماء.

الجزء الثاني - أنهم لا يدخلون الجنة وأن ذلك مستحيل عليهم، كاستحالة دخول الجمل في سم الخياط؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

أى أنهم لا يمكن أن يدخلوا الجنة؛ لأنهم لم يعملوا لها، بل كان عملهم لجهنم، وشبه استحالة ذلك باستحالة دخول الجمل بضخامته في سم الخياط، والخياط هو ما يخاط به، وهو (الإبرة) وسمها هو ثقبها الضيق الذي لا يدخل فيه إلا الخيط الرفيع، وليس ميسرا.

فهذا حكم الاستحالة كما يقول الرجل لامرأته: أنت طالق إذا قبضت على الشمس، فهذا نفى مؤكد للطلاق؛ لأنه علق على مستحيل.

وكذلك هنا في المعنى لا يدخلون إلا إذا ولج، أى دخل الجمل في ثقب الخياط، وذلك مستحيل، فلن يدخل الجنة إلا إذا تحقق هذا المستحيل ولن يتحقق، فهو نفى مؤكد لدخولهم، وبيان استحالة عليهم، وإذا لم يدخلوا الجنة، فإنهم يدخلون النار، وإنها للجنة أبدا، وللنار أبدا، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

الواو واصلة هذا الكلام السامى بما قبله، والتشبيه معقود ما بين عذابهم، واستحالة الرحمة بهم، وبين ما أعدّه الله تعالى بالنسبة لكل من يجرم ويأثم في حق الله تعالى، والمعنى فهذا الجزاء الذى علمتموه يجزى الله المجرمين، والإجرام ارتكاب الجريمة وهى بمعنى المعصية والذنب، بيد أن فى لفظها إشارة إلى الاعتداء على غيره، فالمعاصى قسمان معاصى هى الآثام، ولا يتعدى فسادها صاحبها ابتداء، وإن كان شيوع الفساد يضر بالرأى العام فيتعدى انتهاء، ومعاصى تتضمن ابتداء معنى الاعتداء كالقتل والقذف والسرقه، وغير ذلك من المعاصى التى تتعدى ابتداء.

ولقد فصل الله القول في عذاب الكافرين المكذبين لآيات الله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١).

المهاد: المكان الممهّد للإقامة فيه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴿[النبأ]، وكما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٩) ﴿[نوح].

وأحسب أن التعبير عن جهنم بأن لهم مهّاد منها فيه نوع تهكم، أي أنه تعالى مهّاد لهم جهنم بدل الراحة التي كانت لهم في الدنيا، بتمهيد الأرض يتمتعون من خيراتها.

وغواش، جمع غاشية وهي الغطاء، وغطاؤهم هنا نار موقدة، فبعد أن كانوا يلتحفون بالرياش، ويفترشون الوسائد، صار مهّادهم جهنم، وغطاؤهم نار مشتعلة تشتعل عليهم، ﴿...كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ...﴾ (٥٦) ﴿[النساء].

وخلاصة المعنى أن مهّادهم أو فراشهم نار، وغطاءهم نار، والنار تحيط بهم يلتفون فيها وتشوى بها جباههم وجنوبهم، وكل أجسادهم، ولا منفذ منها إلا إليها، فلا يخلصون منها أبداً، وإن ذلك جزاء من كذبوا بآيات الله كافرين بها ظالمين، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أي كهذا الجزاء الذي جازى الله تعالى به الذين كذبوا بآياته واستكبروا، شأن الله تعالى في جزاء الظالمين، فهو العادل القادر الذي لا يظلم أحداً.

والتعبير هنا بالظالمين، وفي الآية السابقة بالمجرمين؛ لأن الوصفين متحققان فيهما، فهم أجرموا في حق المجتمع فأفسدوه؛ وظلموا أنفسهم، وظلموا الحقائق بما ارتكبوا من معاصٍ، وتعدوا الحدود، ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه، وكان ما ينزل بهم يوم القيامة جزاء وفاقاً لما ارتكبوا، والله تعالى يتغمّدنا بعطفه ومغفرته.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

وبعد أن بين - سبحانه وتعالى - ما ينزل بالمشركين أو الكافرين، عموماً أخذ - سبحانه وتعالى - يبين في مقابلة ما يناله المؤمنون من جنة ونعيم مقيم، وروح وريحان وزوال للأحقاد وغل للأنفس، وذلك نعيم فوق كل نعيم، ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) ﴿الواو هنا عاطفة، عطف جزاء الصالحين على جزاء الكافرين من مشركين وكتابين وصابئين ومجوس وغيرهم من براهمة وبوذيين.

وبالموازنة بين الجزاءين، يتبين الفرق بينهما في الآخرة كالفرق بينهما في الحياة الدنيا، فجزاء الآخرة هو ثمرة ما وقع في الدنيا، إن خيراً فخير

وصف الله تعالى المؤمنين بوصفين هما صلة الموصول، الأول بقوله تعالى: ﴿آمَنُوا﴾ أى اعتقدوا اعتقاداً جازماً مع الإذعان لكل ما طالب به الله تعالى، وأحبوا الله تعالى، وقدموا أنفسهم له سبحانه:

الوصف الثانى ما عبر عنه - سبحانه وتعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى كانت ثمرة إيمانهم واضحة فى أنهم صاروا قوما صالحين والصلاح وصف يقتضى أن يكون نافعا، وصالحا فى ذات نفسه، ليس فى قلبه فساد، ولا يسيطر عليه هواه، وأن يقوم بالعمل الصالح من طاعة لله تعالى فى أوامره ونواهيه، فلا يعصى الله تعالى، ولا يرتكب ما نهاه عنه، ولا يتخاذل عن القيام بما أمر به.

ولا تجد فى آيات الذكر الحكيم ذكر جزاء المؤمنين إلا كان هذان الوصفان الإيمان والعمل الصالح مذكورين معا فإن العمل ثمرة الإيمان، وغصونه، والشجرة تتغذى من الغصون، كما تتغذى من الجذر، فالعمل يثبت الإيمان، ويغذيه ويقويه.

وقد ذكر - سبحانه وتعالى - الجزاء، وهو خبر الموصول، فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الإشارة إلى المتصفين بهاتين الصفتين، وهما صلة الموصول، وذكرهما دليل على أنهما سبب هذا الاستحقاق، وقد أكد الله تعالى استحقاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات للجنة بقصرها عليهم، وذلك بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل «هم» فهم أصحابها الملازمون لها، وأكدها لهم بخلودهم فيها، والله تعالى ذو المن والإكرام.

وقد ذكرت جملة معترضة بين متلازمين، وهما المبتدأ فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، والخبر فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

وكانت هذه الجملة التى توسطت بين هذين المتلازمين هى قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ والوسع هو ما يمكن عمله بيسر وسهولة، كما فسر بذلك معاذ بن جبل - رضى الله تعالى عنه -، والمعنى لا يكلف الله تعالى نفسا مؤمنة، واعتراض بهذه الجملة السامية بعد كلمة «الصالحات»، لبيان أن القيام بالتكليفات الإسلامية سهل ميسر، وليس شاقا إلا على من عصى الله تعالى، فهو سهل فى

ذاته، لمن تكون له إرادة، لم يخالطها الهوى، ولم تسيطر عليها الشهوة، وإن النبى ﷺ قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»^(١).

ولقد روت عائشة - رضى الله عنها: «ما خير النبى ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن معصية»^(٢).

وإن الله تعالى أنعم على المؤمنين يوم القيامة بهذا النعيم المقيم، وأنعم عليهم مع ذلك بنعمة المحبة، والرضا واطمئنان النفس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

إن الجنة مكان طاهر مطهر اختاره الله تعالى سكنا لعباده الاتقياء الأطهار، وإنه فى مقامه لأطيب من أحب مسكن يختاره فى الدنيا، كما ورد فى الأثر.

وإنه لطهارته كان من فيه جميعا فى طهارة كاملة حسية ومعنوية، طهارة الأبدان وطهارة القلوب التى فى الصدور، وإن أشد ما يدرن القلوب الغل والحسد، والأحقاد الدنيوية، فإنها أمراض تصيب القلوب، لتجعل الإنسان فى هم مستمر، وعذاب مقيم، فكان من مقتضى النعيم الذى أنعم الله به على الأبرار أن يتم عليهم نعمته بأن يكونوا فى نعيم فى قلوبهم، كما أن أجسامهم فى نعيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

ونزعنا: أى استخرجنا، والنزع أقوى من الاستخراج؛ لأن النزع إخراج ما هو متأشب^(٣) بالقلب لا يسهل إخراجة، ولكن الله تعالى ينزعه نزعا، ويبقى القلب مصقولا بنور المحبة والمودة، فيتحابون ويتوادون، ولا يتباغضون، ولقد قال

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

(٣) من التأشب، وهو التجمع من ههنا ههنا. لسان العرب - أشب.

النبي ﷺ: «الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزع الله تعالى من قلوب المؤمنين»^(١).

ورد في بعض الآثار أن أهل الجنة إذا سيقوا وجدوا بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فإذا شربوا من إحداها ينزع الله ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم يشعثوا، ولم يشيخوا بعدها أبداً، ولقد قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا...﴾ (٧٢) [الزمر].

هذا النعيم معنوي، وهناك نعيم حسي قال الله تعالى فيه: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أى أنهم في غرفات تجري الأنهار، وكأنها تجوس خلالها، فيكون منظر النهر العذب ينساب انسياباً، ومنظر الظلال والأشجار ينسرق^(٢) من تحتها الماء، ويرزقهم الله تعالى أمراً معنوياً هو الاطمئنان إلى الهداية، وفيها إدراك ما وصلوا إليه بفضل الله تعالى، وقد حمدوا الله تعالى على ما وصلوا إليه في الدنيا، وأورثهم الله ثمراته في الآخرة، فيقولون ما حكى الله تعالى عنهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

إن قولهم هذا سرور وفرح واطمئنان إلى الغاية التي آل إليها أمرهم، ويقول صاحب الكشف في هذا: يقولون ذلك سرورا واعتباطاً بما نالوا، وتلذذاً بالتكلم به... كما ترى من رزق خيراً في الدنيا، يتكلم بنحو ذلك، ولا يتمالك أن يقوله للفرح.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أى ما كان من شأننا ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً أن نرشد ونهتدى إلى الحق لولا أن هدانا الله تعالى،

(١) ذكره القرطبي، والتهالبي في مستهل تفسيره لهذه الآية دون إسناد. ورواه البخاري بنحو: التفسير (٦٣٨٨)

«وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ...» (٤٧) [الحجر].

(٢) أى ينساب بخفاء وفتور.

و«لولا» يقول النحويون عنها: إنها امتناع لوجود، ومعنى ذلك لولا هداية الله لامتنتعت علينا، فهو يملك كل أمورنا هو الذى وفقنا وهدانا وأرسل إلينا الرسل هداة مرشدين إلى الحق؛ ولذا قالوا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَّخِذُوا الْجَنَّةَ زُورًا أَوْ تُرْثَمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

النداء لم يذكر فيه المنادى أهو من وحى الله تعالى فى نفوسهم أم من الملائكة الأطهار، والميراث هو العطاء من الله تعالى، قد جعل هنا خلفا للعمل الصالح، فهو ملكية ثابتة بالخلافة عن العمل الدائم الذى كان مستمرا فى الدنيا، وهذا قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أى بالذى كنتم تعملونه مستمرين دائبين عليه ترجون رحمة الله وتخافون عذابه.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَوْ تُرْثَمُوهَا﴾ والميراث عطاء بغير عوض فيه إشارة إلى أن الله تعالى هو الذى جعل ذلك النعيم عطاء للعمل، فليس العمل وحده متجا للعطاء، إنما هو يجعل النعيم ميراثا للعمل، والفضل فى كل الأحوال لله تعالى صاحب المن والفضل، ولقد روى فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «اعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»^(١)، وقد روت عائشة أم المؤمنين عن النبى ﷺ أنه قال: «سدّدوا وقاربوا وبشّروا، فإنه لا يدخل أحدا الجنة عمله»^(٢) اللهم اغفر لنا وارحمنا.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾.

إن الذين آمنوا بالبعث والنشور، والجنة والنار فرحون مغتبطون بأنه تحقق لهم وعد الله تعالى لهم بالجنة، وقد عاشوا فيها غير حاقدين ولا حاسدين،

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، وهذا لفظ مسلم عن أبى هريرة.

(٢) متفق عليه وقد سبق تخريجه.

حامدين الله تعالى على هدايتهم، وقد أرادوا أن يزدادوا سرورا باهتدائهم، وأن يعرفوا هذا الذى جاءهم وعد الحق، جاء مقابله للذين كذبوا بآيات الله تعالى واستكبروا عنها نالهم ما أوعدوا به من عذاب دائم خالد.

وقد نادى الملائكة مؤكدين إجابتهم التى لم يجدوا عنها حولا ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

أى أعلم معلم من الملائكة بينهم، أى بين الفريقين اللذين يتبادلان ذلك الحديث ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، أى أن الحال المستقر الثابت لعنة الله والطرده من رحمته ومن نعيم الجنة للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بتضليلها وكفرها وظلموا الحق بالكفر به، وظلموا الآيات الإلهية بتكذيبها، وظلموا الناس بأفعالهم.

ومثل هذا أو فيما معناه، قوله تعالى: ﴿فَاطْلِعْ فَارَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)﴾ [الصفات].

ونلاحظ أن «قد» فى قوله تعالى: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ للتحقيق أن ذلك محقق لا محالة وقد عرّف الله تعالى الظالمين الذين استحقوا لعنة الله، فقال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾.

هذا بيان للظالمين، فذكر - سبحانه وتعالى - لهؤلاء ثلاثة أوصاف:

أولها - ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى يعرضون عنها، ويمنعون غيرهم منها، كالسخرية ممن يؤمنون، واستضعافهم والشكيك فى عقائدهم والغطرسة عليهم، وإيذائهم والاستخفاف بهم والإصرار على باطلهم، والتواصى بالباطل بينهم على مقاومة الهداة المرشدين وتهديدهم بالأذى، كما قالوا: ﴿... وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ (٩١)﴾ [هود]، وهكذا. وسبيل الله تعالى هى الصراط المستقيم الموصل إلى الحق فهم يصدون عنه، وكأنهم يقفون على رأس الطريق يمنعون من يدخل فيه، فهم يترصدون أهل الهدى، ويردونهم.

الوصف الثاني - ﴿وَيَعْبُوهَا عِوَجًا﴾، وعوج: مصدر موصوف به، ويعبون يطلبون بشدة كأنها أمر هو بغيتهم التي يستعونها، والمعنى يريدون الصراط المستقيم معوجة متعرجة سبلا للباطل. إن الفطرة تتجه نحو الاستقامة، فلا تطلب إلا المستقيم الذي لا عوج فيه فهم يريدون تحويل فطرتهم وفطرة غيرهم عن طريقها، ويعبدون الأوثان، ويعلمون أنها لا تضر ولا تنفع، ولكنهم يعوجون بها فيقولون ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ [الزمر]، وهكذا يتركون كل مستقيم، ويريدون كل معوج، وذلك لسيطرة الأوهام عليهم، وتسלט الأهواء والشهوات، والعصية والغطرسة والعنجهية الجاهلية فيهم.

الوصف الثالث - وهو الذى ذهب بهم فى متاهات الضلال وقد ذكره الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى أنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والعقاب، أو الثواب ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون].

وقد أكد - سبحانه وتعالى - كفرهم باليوم الآخر، وهو يبتدئ من البعث إلى أن توفى كل نفس ما كسبت بأن تنال جزاءها من النعيم أو الجحيم.

أكد كفرهم بعدة مؤكدات أولها - ذكر ضمير الفصل «هم»، فذلك يؤكد الحكم، وثانيها - تقديم الجار والمجرور، وهو قوله تعالى: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ على ﴿كَافِرُونَ﴾ ففى ذلك تأكيد لكفرهم به، وثالثها - التعبير بالجملة الاسمية، فإنها تدل على استمرارهم على هذا الكفر، وأنهم جاحدون جحدا (لا مثوية فيه)^(١).

(١) لا مثوية فيه، ولا استثناء بمعنى واحد، أى لا تغل منه، من المثوية فى اليمن.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ
 رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ
 لَمَّا دَخَلُوا هُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
 أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا اجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ
 الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ
 وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءُ الَّذِينَ اقْسَمْتُمْ لَا يَبْلَاغُهُمْ
 اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ
 ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا
 مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا ابْكُوا لَكُمْ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى
 الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

أشار - سبحانه - إلى ما عليه أهل الجنة من نعيم روحى بنزع الغل من قلوبهم، ونيعم حسى بكون الأنهار تجري من تحتهم فى ظلال الجنة، وما كان بين أهل الجنة والنار من نداء، وهنا يبين أن بينهما حجابا حاجزا لا يمنع أن يصل صوت كل فريق إلى الآخر بدليل هذه المجاوبة، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ «وبينهما» أى بين أهل الجنة وأهل النار (حجاب) أى حاجز يمنع الاختلاط بينهما، والضمير فى «بينهما» يعود إلى الفريقين: فريق الجنة، وفريق السعير، وقد قال الله تعالى فى هذا السور الحاجز: ﴿... فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد]. وفى أعلى هذا السور أعراف وهى جمع عرف وهو أعلى السور، فالعرف أعلى الشئ ومن ذلك عرف الديك وعرف الفرس.

على أعراف هذا السور الحاجز رجال، وإن التعبير برجال يفيد أنهم ليسوا من الملائكة؛ لأن الملائكة لا يعبر عنهم برجال فليسوا ذكورا ولا إناثا، ولكن من هم أولئك الرجال؟!

اختلف المفسرون في ذلك على أقوال كثيرة، فروى عن النبي ﷺ أنهم ناس استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقد سئل رسول الله ﷺ: «عن استوت حسناته وسيئاته فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»، ومع أن الحديث مقوى بنص الآية إذ نصها ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ولكن قال ابن كثير وهو من أهل العلم بالروايات: إنه حديث مرفوع، ولكن فيه غرابة.

هذا قول، وهناك قول آخر، وهو أنهم ناس من أهل الفضل فرغوا من أعمالهم في الجنة، وأخذوا يتكلمون إلى الناس، ويتعرفون أمورهم، ويحكمون عليهم، وقد وقفوا على أطراف الصراط.

وقريب من هذا القول، قول من قال: إنهم قوم من المؤمنين نصبوا بفضلهم للشهادة على الناس، ومن بعد سنوازن بين القولين لنختار واحدا منهما.

ويقول الله تعالى في أوصاف أهل الأعراف: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، و«كلا» مضاف إلى محذوف، أى كل فريق من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، أى علاماتهم، فالسيما العلامة ويقولون: إن علامة أهل الجنة البياض، وعلامة أهل النار السواد، والله تعالى أعلم بسيماهم، وهم لا يكتفون بموقف التعرف، ولكن ينادون أهل الجنة وأهل النار، ونداؤهم لأهل الجنة مقصود؛ لأنهم مقصودون بالتحية والتكريم، وأما أهل النار فهم غير مقصودين، ولكن بالصرف إليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

نادوا أهل الجنة مقبلين عليهم مهتئين مرحبين، ونداؤهم لهم ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أن مخففة من أن واسمها ضمير الشأن؛ أى أن حالكم وشأنكم سلام، أو أن قولنا لكم سلام، وهو تهئة وأمن، ومشاركة لهم في سررائهم بالقول، وهذا

قريب من قوله تعالى: ﴿دَعَاَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥) [يونس].

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، الضمير في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ يعود على أهل الأعراف وهو ظاهر السياق، وهذا يقتضى أنهم لم يكونوا قد تقرر لهم دخول الجنة، ولكن لأنهم لا تنزل بهم سيئاتهم إلى جهنم، ولم تنهض بهم أعمالهم إلى الجنة يطمعون في الجنة، وإن هذا بلا رب يعين في ترجيح أن أهل الأعراف هم الذين لم تنهض حسناتهم حتى يدخلوا الجنة ولم تحبطهم (سيئاتهم) إلى النار.

فهم يطمعون في الجنة، ويرغبون فيها، ولكن لم يدخلوا بعد فيها.

وإن ذلك هو التقسيم العادل الذى لا يكون إلا من الله، وهو أنه بعد أن توزن السيئات والحسنات بميزان الله وهو الوزن يومئذ بالقسط، منهم من ترجح حسناته فيكون للجنة، ومنهم من ترجح سيئاته فيكون في النار وبئس المهاد، ومنهم من لم يرجح ميزانه.

وقد يرد على هذا أنهم في مكان من الأعراف، فظاهر أنهم فوق الفريقين، ونقول: إن علوهم ليرى الفريقين، لا لمنزلة لهم فوق أهل الجنة.

وبعض العلماء يرى أن أهل الجنة لم يكونوا قد دخلوا الجنة بعد، فالضمير في «دخلوا» يعود إليهم، والحق أن ذلك ليس متسقا مع السياق؛ لأنهم صاروا أصحابها، ويقتضى ذلك أن يكونوا دخلوا فيها، والله تعالى أعلم.

إن أهل الأعراف يقصدون إلى أهل الجنة قصدا؛ لأنها مطمعمهم، ولكن لا يلتفتون إلى أهل النار لأنهم لا يريدون الاتجاه إليهم، ولكن قد تصرف أنظارهم إليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧).

«التلقاء» على وزن تفعال من اللقاء وهى هنا الناحية، و«صرفت» مبنى للمفعول وجعل فاعله لعدم الحاجة إلى ذكر من صرفهم، إنما المراد أنهم صرفوا بوجوههم تلقاءهم غير عامدين ولا قاصدين ولا متجهين، فهم يقع نظرهم عرضاً على أهل النار فيقع بصرهم تلقاءهم.

وذلك لطمعهم فى الجنة، ورغبتهم فى دخولها يتجهون إلى أهل الجنة عامدين مستبشرين راجين أن يكونوا معهم، أما نظرهم لأهل النار، فهو عرض صرفوا إليه ولا يريدونه، والتعير بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ إشارة إلى أن أبصارهم وقعت على أهل النار، أو تلقاءهم من غير إرادة، بل هى إرادة من صرفهم.

وإنهم إذا وقعت أنظارهم رأوا هول ما فيهم، فإذا كانوا قد فرحوا عندما رأوا المؤمنين فهم عندما وقعت أنظارهم على أهل النار، اعترتهم رهبة، وخافوا على أنفسهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

عندما يرون النار متأججة فى الأجسام البشرية يأخذهم الهول، فيتجهون إلى الله تعالى قائلين: ربنا الذى خلقتنا وكونتنا، وقمت فى الوجود علينا وأنت الحى القيوم لا تجعلنا مع القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الحق وكذبوا طاعين بالآيات، واستكبروا عن اتباع الأنبياء، وأنغضوا رؤوسهم عن الحق إذ دعوا، لا تجعلنا مع هؤلاء، لا تجعلنا فى هذه النار مثلهم فقد عتوا عتواً كبيراً، ودخلوا فى عذاب أليم اللهم قنا غضبك.

هذا ما قاله أهل الأعراف لأنفسهم، وضرعوا إلى الله حماية لأنفسهم، ولم يصبوا بالملامة يوجهونها لأهل النار، وطمعهم فى الجنة يلهمهم قول الحق.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْكِبُونَ﴾ (٤٨).

هذا الكلام موجه من أهل الأعراف لكبراء الشرك وزعمائه، الذين كانوا يعتزون بعصبيتهم وبأنهم أكثر وأعز نفرا، فإنهم كانوا يستكبرون عن أن يكونوا تابعين، وهم أهل الجاه الديوى، والكبرياء المادى، ينادونهم، لينبهوهم إلى ما يقولون لهم وقد قال الله تعالى فى ذلك: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾.

نادوهم ليستمعوا إليهم فى قول الحق، وقد كانوا ينادون أهل الجنة يعرفونهم بسيماهم، أما فى هذه المرة، فينادون: ﴿رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، التى لم تغيرها النيران وإن كبتهم وسودتهم، وذكر الرجال هنا للإشارة إلى أنهم يخاطبونهم فرادى تقريبا وتذكيرا بسيئاتهم متفردين عن غيرهم.

﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قال لهم وقد عرفوهم وعينوهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، وهو العصية الجاهلية التى كانت تجمعهم على العناد والغطرسة، ويتعاونون لا لإحقاق الحق، ولكن على الإثم والعدوان، ويدخل فيه قوة المال الذى يعتزون به والنفر الذى يستنصرون به ونظروهم لأنفسهم على أنهم أعلى من غيرهم واستكبارهم عن الإيمان بالآيات بتكذيبها.

ومن استكبارهم أيضا أنهم يرون أن أتباع النبيين ضعفاء فقراء عبيد فقط، كما قاله قوم نوح لنوح: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِرَأْيِي ...﴾ (٢٧) ﴿هود﴾.

فسألهم أهل الأعراف: هل أغنى عنكم هذا فلم يعذبكم الله تعالى، بل أنتم هؤلاء فى الجحيم تذوقون عاقبة ذلك، تريدون النجاة ولا منجاة.

ويلتفت أهل الأعراف إلى أهل الجنة، فيجدون الضعفاء الذين كانت تزدرهم أعين هؤلاء الطغاة فيخاطبونهم وهم فى النار بقولهم:

﴿أَهْوَلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٤٩) ﴿ هذا القول فيه بيان لمقام الإيمان، ودرك الكفر، لقد كانوا يسخرون منهم لفقرهم، ويحسبون أنهم أعلى منهم منزلة في الدنيا، فيجب أن يكونوا أعلى منزلة في الآخرة، وكانوا يقسمون بأن هؤلاء الفقراء أتباع النبيين لن ينالهم الله برحمة من عنده، أخذًا من حال الفقر وازدراؤهم التي كانوا عليها في الدنيا.

فأهل الأعراف رأوهم في الجنة، فقالوا لأهل النار مشيرين إلى الضعفاء في الدنيا، وهم في الجنة أقوياء مستمتعون: ﴿أَهْوَلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

أهم الذين ترونهم رأى العين في رحمة الله تعالى في جنة الخلد، أهؤلاء والإشارة إليهم وهم في الجنة تجرى من تحتهم الأنهار، ﴿أَهْوَلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾، أن الله لا ينالهم برحمة، والتذكير الذي جاء على ألسنتهم في الدنيا لتصغير الرحمة. أي أنهم أقسموا أن الله تعالى لا ينالهم بأى رحمة مهما صغرت وضوّلت.

وذلك لأفن عقولهم، وضلال أفهامهم، إذ ظنوا أن من ينالون القوة والثراء في الدنيا هم الذين ينالونها في الآخرة إن كانت، وما كان قسمهم هذا إلا لازدراؤهم، وتكريم الأنبياء لهم، ووعدهم بالثواب عند الله، وإن الله تعالى يجزيهم أحسن الجزاء فما كان قسمهم إلا تكذيباً للأنبياء الذين وعدوهم الحسنى في الآخرة، وإن هذا التوسل على لسان أهل الأعراف نذير لما كان من أهل النار في الدنيا وبيان أنهم في ضلال مبين، وقد كان ضلالهم بالعيان المحسوس، لا بالحدس المتلمس.

وقد وجهوا بعد ذلك الخطاب لأولئك ملتفتين إليهم من التحدث عنهم إلى خطابهم فقالوا: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ادخلوا أيها المخلصون الذين أخلصوا دينهم، وصبروا وصابروا الجنة بما فيها من نعيم حسي، وراحة نفسية، وطلب الدخول هنا تقرير للدخول؛ لأنهم دخلوا فعلا، وما كان دخولهم بعد الطلب، إنما كان قبله، كما ترى إنسانا في أرض طيبة فينتفع وهو فيها، ويستحقها، تقول له: ادخلها وابق فيها.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ من شر يحيق بكم، ولا هم يغمكم، بل أنتم في روح وريحان، ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على الخير لكم، وحاضر نعيم، وسعادة، وقد نزع الله تعالى من قلوبكم الغل فأنتم تنعمون براحة البال والمحبة والتواد بينكم، فلا تنغص من حقد أو حسد، أو تباغض.

تنبيه: إن أهل الأعراف يحبسون عن دخول الجنة، ويرون ما عليه أهل النار، وما عليه أهل الجنة، ويقول في ذلك الزمخشري في الكشاف: «فائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وإن أحدا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف إلا بتخلفه فيه وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، ولتصور أن كل أحد يعرف في ذلك اليوم بسماء التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أن العصاة موبخهم كل أحد حتى أقصد الناس عملا».

فإنك كما ترى أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة، وهم يطمعون فيها ومع ذلك كان فيهم ذلك التوبيخ والتنديد بالعصاة ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

انتهت المجاورة التي كانت بين أهل الأعراف وأصحاب الجنة التي لم يدخلوها، وكانوا يطمعون فيها، وهي دلت على أن الأعمال هي تدخل الجنة، وأن التقاصر عنها هو الذي يدخل غيرها.

وإن أهل النار كانوا في شقاء، فعند أهل الجنة ما يشتهون من لحم، وعسل مصفى، وحوار عين، وأنهار تجري.. أما أهل النار ففي حرمان مطلق من كل

هذا، ولقد صورهم القرآن الكريم يتقدمون طالبين الماء وبعض هذه الخيرات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ نادوهم مستصرخين من شدة العطش، وحرارة النار ﴿أَنْ أَفِضُوا﴾، «أن» هنا تفسيرية؛ لأن المطلوب هو إفاضة الماء، فكان المعنى نادوهم: أفيضوا علينا الماء.

وإفاضة الماء التوسعة فى إعطائه، ويبدو أن أهل الجنة كانوا فى مرتفع تجرى فيه الأنهار والعيون، وأهل النار فى منحدر والماء يفيض من الأعلى إلى الأدنى، والمعنى لا يمنعونه بسدود، حتى يفيض عليهم مدرارا، وينهمر أنهارا.

والماء أهم شئ للأحياء، والصدقة به أبر الصدقات، وقد سئل النبى ﷺ عن أبر الصدقات فقال: الماء، وهل معنى هذا أن أهل النار كانوا محرومين من الماء حرمانا مطلقا؟ نقول لا، بل كان عندهم، ولكنه حميم، وغساق يمزق الأحشاء فلم يكن عندهم النмир العذب الذى تجرى به الأنهار وتنضح به العيون.

نادوهم، وفيهم آباء لمن ينادونهم، وأخلاء فى الدنيا، ولكن الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو، فهى قطيعة بين أهل النعيم وأهل الجحيم قطعوها فى الدنيا، فسجل الله تعالى عليهم ذلك فى الآخرة.

ولقد طلبوا مع الماء شيئا مما هو عند أهل الجنة من طعام شهى، وفاكهة ورمان ولذا قالوا: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى أعطاكم من خيرات من لبن سائغ للشاربين، وعسل مصفى، وخمر لا غول فيها ولا يصدعون منها، طلبوا هذا، ولكن ذلك حرام عليهم؛ ولذا أجاب أهل الجنة وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قال أهل الجنة معتردين عن عدم الإجابة، أو مقررين الوقائع التى غابت عن أهل النار تحت تأثير العطش الشديد، والحاجة الملحة إلى الطعام، وهو أن ذلك

جزاء الله تعالى، ووعدته الذي وعدهم به وإن الله لا يخلف الميعاد، قالوا لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ذلك أن لكل نصيبه وجزاءه، وحسبكم ما تمتعتم به في الدنيا آثمين ظالمين كافرين بالحق مستكبرين عن اتباعه مكذبين لدعائه.

والتعبير بالكافرين إشارة إلى أن سبب الحرمان هو الكفر، ولا خلاص لكم مما كتب عليكم بأعمالكم.

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا
لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾
وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَّنَا
مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

هذا بيان للكافرين وأعمالهم في الدنيا، وقد ذكر - سبحانه - ما ينزل بهم في الآخرة، وأنهم في شقاء جهنم يطلبون الماء العذب فلا يجدونه، بل يجدون حميما وغساقا، ويطلبون الطعام، فلا يجدون إلا شجرة الزقوم.

وقد ذكر - سبحانه وتعالى - حالهم في الدنيا لبيان عدالة ما يستحقون في الآخرة، وأنه جزاء ما كسبوا. ذكر الله تعالى لهم وصفين خطيرين كانا السبب فيما ينالهم في الآخرة:

أولهما - أنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، ودينهم هو ما خوطبوا به من الرسل الذين أرسلوا إليهم، إذ هو الدين الذى طلبوا بالقيام بحقه، فأعرضوا عنه، واتخذوه لهوا وهو ما يلهيهم عن الحق، ويموّهون به الباطل، ويتعابثون به على الرسل وأتباعهم وازدراءهم، وقالوا هم أرادلنا، فكل هذا ألهاهم عن الحق، ولم يفكروا أن الدلائل الموصلة بل فكروا فى أهواء ضالة. واللعب هو الأعمال العابثة التى لم يكن لها حد مقصود بل ترفع إليه أهواء جامحة كشربهم الخمر ولعبهم بالميسر، واتخاذهم القيان^(١)، وانغماسهم فى حياة عابثة.

ثانيهما - أنهم غرتهم الحياة الدنيا بزخرفها، وشهواتها، وما ينالون منها، وظنوها الحياة التى لا حياة بعدها، فاغترارهم بهذه الحياة جعلتهم ينكرون البعث، ويقولون: ﴿... أَلَيْدًا كُنَّا تَرَابًا أَتِنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ... ﴾ [الرعد].

ولقد كانوا يتكلمون على هذه العقيدة، ويقولون متهمين لاعمين: أرجع آبائنا، أرجع قصصاً؛ فإنه رجل خير... وهكذا كانوا يعبثون بالحقائق؛ وذلك لأنهم قوم ماديون، لا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون إلا بما يرون ويحسون. وقد نسوا الله تعالى، ونسوا مقدرته فى هذا الوجود، فكان أن تركهم كما تركوه.

ولذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

النسيان على الله تعالى لا يجوز؛ لأنه - سبحانه - لا يغفل عن شيء قلّ أو جلّ، وكل شيء عنده فى كتاب أحصاه لا يتخلف عن علمه شيء، وأريد بالنسيان لازمه، وهو الترك بل بعض علماء اللغة يقول: إن الأصل فى معنى النسيان هو الترك، والمعنى فى قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذى تجزى فيه كل نفس بما كسبت نتركهم فى جهنم يريدون الماء فلا يجدونه إلا فى حميم، ويطلبون الطعام، فلا يذوقون إلا طعام الزقوم.

(١) القيان جمع قينة، وهى الجارية المغنية.

وقد ذكر - سبحانه وتعالى - أن ذلك في مقابل أمرين أو عقاب لأمرين:

أولهما - أنهم نسوا لقاء يومهم هذا مع كثرة النذر، ومع إرسال الرسل،
ومع أنه يوجبه منطق الحياة، وأن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى، يأكل ويلعب
كالحيوان، إنما هو مخلوق مدرك، وأن الدنيا فيها الخير والشر، وأنه لا بد للخير
من أن يتتصر، ولا بد للشر من أن ينهزم، وأنه يتناسب مع علو مكانة الإنسان في
هذه الأرض.

ثانيهما - ما كانوا بآياتنا يجحدون «ما» هنا على تقدير الكاف، وهي معطوفة
على قوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، أى أن الله تعالى نسيهم، كما
نسوا لقاء يومهم هذا، وكما كانوا بآياتنا يجحدون، وجحود الآيات إنكار ما تدل
عليه من دلائل التوحيد، ومعاندتهم لله تعالى، وتكذيبهم لأنبيائه، فكان نسيان
الله تعالى لهم وتركهم في جهنم يصلونها، من مقابل نسيانهم، وجزاء لجحودهم.
والله على كل شيء قدير.

ولقد بين الله - سبحانه وتعالى - أنه ما تركهم هملا من غير كتاب يعلمهم
ويهديهم ويرشدهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢).

ما تركهم رب العالمين سدى من غير هاد ولا مرشد، بل أعذر إليهم بإنزال
كتاب قد فصله على علم بما يدل عليه من عظات، وما يوجههم إليه من آيات،
فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ أكد مجيء الكتاب لهم بـ«اللام» و«قد»، وقد
عبر بأنه جاء إليهم ولم يقل أنزل عليهم؛ لأنه نزل على محمد ﷺ والرسول جاء
به إليه على أنه معجزته الكبرى، وكلام الله تعالى الذى خاطبهم هم والأجيال
القادمة إلى يوم القيامة، فالمراد من الكتاب القرآن، وجاء نكرة ومقامه التعريف؛
للإشارة إلى فخامته، وإلى أنه كتاب لا يتسامى إلى مثله كتاب.

ويقول تعالى: ﴿فَصَلِّنَاهُ﴾ بيناه ووضحناه، وأتينا بفصوله كاملة على علم بل اشتمل عليه من معرفة بالشرائع وأخبار النبيين، وتنبهه إلى أن يكون القرآن وآياته، للدلالة على وحدانية الله تعالى لا شريك له، وذلك كقوله تعالى: ﴿... كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝﴾ [هود]، ولقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿... أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ... ۝﴾ [النساء].

وقد وصفه - سبحانه وتعالى - بوصفين جليلين:

أحدهما - أنه ﴿هُدًى﴾؛ وذلك لأنه معجزة هادية إلى الحق وصدق الرسول، وكل ما يشتمل هداية ببيان الشرائع والأحكام، وما فيه مصلحة الناس في معادهم ومعاشهم، وما فيه تنظيم جموعهم، والسير بهم في سبيل الخير.

وثانيهما - أنه ﴿رَحْمَةً﴾ لما فيه من أحكام كلها نفع وخير للمجتمع وفيها العدالة، وهي الرحمة الكاملة بالمجتمع، وفيه الأمانة وفيه شرعية القتال، وفيه رحمة ودفع للفساد، ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝﴾ [البقرة].

وإن رحمة الله وهدايته وعلمه لا تؤتي أكلها إلا في قلوب مؤمنة غير جافية فهي التي ينبت فيها زرع الخير ويؤتي أكله؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي لناس من شأنهم الإيمان بالحق إذا جاءهم، ومن شأنهم الإذعان للحقيقة، يؤمنون بها إذا عرفوها، وهناك قلوب جافية طمس عليها، هي غلف لا يدخلها النور، ولا تصل إليها الهداية، وهذه ليس من شأنها أن تؤمن، ولو جاءتها الأدلة واحد بعد الآخر؛ لأن عليها غشاوة تمنع وصول النور، فالذين يجدون الرحمة والهداية في القرآن هم الذين من شأنهم الإيمان بالحق إذا جاءهم؛ ولذا عبر بالمضارع الدال على الاستمرار، والله تعالى أعلم.

لقد كفر المشركون والكفار من أهل الكتاب، وانتظروا تحقيق ما يدل عليه من بعث وحساب وعقاب وثواب؛ ولذا قال تعالى:

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

إن الكفار من وثنيين وكتابين لم يؤمنوا بالقرآن، ولا بما اشتمل عليه، يوجه الله تعالى إليهم سؤالاً استنكارياً فقال: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾، و«النظر» هنا بمعنى الانتظار كقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (البقرة).

والاستفهام هنا إنكارى لنفى الوقوع، والمعنى لا ينتظرون إلا تأويله. والتأويل هنا معرفة المآل والعاقبة، أى لا ينتظرون إلا أن يروا مآلهم وعاقبتهم، لقد أنكروا البعث وأنكروا الحساب والعقاب، فهل ينتظرون أن ينزل ذلك بهم واقعا لا فكاك عنه، حيث يأتيهم ما أنكروه من بعث، وحساب ومن ذلك عقاب وثواب. وإن تأويل القرآن كما قال ربعة: لا يزال يجيء آنا بعد آن، فكل خبر فيه يتحقق حتى يجيء الخبر الأكبر، وهو البعث والنشور والحشر والميزان، والصراط وما أخبر به مما ينكرونه، ولا يؤمنون به.

وعلى ذلك لا تكون كلمة التأويل مرادا بها التفسير، إلا أن يراد هذا التفسير الواقعى الذى يكون يوم القيامة، وإنه عندم يجيء ذلك المآل الحق يتذكر الناسون، ويتنبه الغافلون، ويرون لنا عيانا ما أنكروه فى الدنيا جهارا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾، أى الذى نسوا تأويل الكتاب من قبل أى وهم فى الدنيا متذكرين قد ذكرتهم الزواجر وقرعت حسهم العقوبات ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾، أى قد جاءت هذه الرسل منذرة ومبشرة داعية إلى الحق، ولتتميم قولهم وعاندهم وجحدنا بالآيات

وكذبناها. ويقرون الآن بالحق الذى أنكروه فَيَنْصُون على أن الرسل جاءوا بالحق، أى الأمر الثابت الذى لا يرد ولا ينكر، وأحسوا بغفلتهم عنه فى الدنيا وأن العذاب واقع بهم لا محالة، فيتجهون إلى طلب الشفعاء، فيقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.

«الفاء» هنا لتفصل ما اعترى نفوسهم فى هذا الهول، ومع أن الله قد قال فى كتابه عن هذا اليوم لا يُقبل فيها شفاعاة ولا عدل، مع ذلك طلبوا الشفعاء، أو رجوا أن تكون ثمة شفاعاة، فقالوا: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، و«من» هنا لاستغراق الطلب، والمعنى هل يوجد لنا من شفعاء أى شفعاء كانوا، سواء أكانوا أولياء أم كانوا أعداء ولو شامتين، ولكنها أمنية لا تتحقق؛ ولا يمكن أن تتحقق؛ لأن الله تعالى نفى ذلك فى الدنيا، وهو لا يخلف مواعده.

ولأنهم يشسوا من أن يكون لهم شفعاء قالوا أمرا آخر وهو أن يردوا إلى الدنيا، فيعملوا غير الذى عملوا فيقولون: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

ولكنهم إذا عادوا إلى الدنيا سيطرت أهواؤها وغرتهم بغرورها فكانوا كما هم، ولقد قال الله تعالى فى آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام].

ولقد ختم الله تعالى الآية بتسجيل الخسارة عليهم، وتخلى أوليائهم عنهم فقال عز من قائل: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أكد الله تعالى خسارتهم بقيد، فقد خسروا فى ذات أنفسهم إذ ضلوا، والضلal خسارة للنفس، وخسروا أنفسهم فأوقعوها فى الهلاك الذى يكون يوم تأويله، وخسروا الحق فكانوا من الميطلين، وخسروا أيضا أولياء لهم يناصرونهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى غابوا غيبة منقطعة لا يعرفون أين هم، وهم الأوثان التى كانوا يفترونها، فخسروا خسرانا مبينا، وعبر - سبحانه

وتعالى - عن الأصنام بما كانوا يفترونه؛ لأنهم لا وجود لهم إلا في افتراءهم، فصنعوها بأيديهم، وأضافوا عليها افتراء من عند أنفسهم معاني العبودية فكان ضلالهم كبيرا.

آيات الله في الكون

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا
 وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
 وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
 وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
 الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
 اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين يوم القيامة، وحال المؤمنين وبين حال كفرهم في الدنيا الذي تأدى بهم إلى العذاب في الآخرة.

أخذ يبين - سبحانه وتعالى - آياته في الكون التي تدل على أنه الواحد الأحد؛ لأنه الذي خلق الكون كله. والمشركون من العرب كانوا يعرفون ذلك، ويؤمنون به ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ (٢٨) ﴿ [الزمر]، ولكنهم كانوا يعبدون الأوثان ويقولون: ﴿ ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... ﴾ (٣) ﴿ [الزمر].

ولقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

إن ربكم الذى خلقكم وبراكم أخرجكم من بطون أمهاتكم هو الله - جل جلاله - وكمل كماله، الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، و«سته» أصلها «سدسة» فقلبت الدال تاء وأدغمت فى السين فصارت ستة؛ ولذا تجمع على «أسداس»، ومنه الوصف «السادس» جريا على مقتضى الأصل لبنية الكلمة. وقد أكد الله - سبحانه وتعالى - ذلك بـ«إن» الدالة على التوكيد وذكر لفظ الجلالة الذى يكسوا الكلام مهابة وجلالا، و«ربكم» مبتدأ، ولفظ الجلالة هو خبر القول، وقد وصفه الله^(١) - سبحانه - بأنه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام.

فما هى هذه الأيام، إن اليوم الذى نعرفه هو الذى يتم بدورة الأرض حول الشمس مرة، وهو يبتدئ من الغروب إلى الغروب، ولا يمكن أن يكون ذلك قبل السموات والأرض، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال بعض المفسرين: إنه ألف سنة كما قال تعالى: ﴿... وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج].

وإن الذى يقدر فى ذهنى أن اليوم هنا هو دور التكوين للسموات والأرض، وقد أشار - سبحانه وتعالى - إلى ذلك بشكل يبين أدوار خلق السموات والأرض، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت].

ونستطيع أن نحصى الأيام الستة من هذه الأدوار؛ فالأرض والسموات السبع قضاهن فى يومين، إذ قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ

(١) أى وصف الخبر، وهو لفظ الجلالة.

اٰتِيًا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا قَالَتَا اٰتَيْنَا طَائِعِيْنَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِيْ يَوْمَيْنِ ... ﴿١٢﴾ ﴿فصلت﴾ وهما اليومان نفسيهما الذى قضى فيهما الأرض.

ثم كانت الأرض، كون - سبحانه وتعالى - القشرة الأرضية وجعل فيها رواسى، وبارك فيها، وقدر أقواتها، وجعل من الماء كل شيء حى فيها، وكان ذلك فى أربعة أيام سواء للسائلين.

فتحن نرى أن الأيام الستة هى أدوار التكوين الذى قدره الله تعالى فى خلقه، وهو العزيز العليم، وهو الأعلم بخلقه بعد أن خلق الله - سبحانه وتعالى - السموات والأرض فى ستة أيام أى فى ستة أدوار كونية، ذكر - سبحانه وتعالى - أنه يدير أمرها ويشرف على وجودها، ويسيرها فى مدارجها، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

العرش: يطلق على كرسى الحكم كما فى قوله تعالى: ﴿... نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا ...﴾ ﴿٤١﴾ [النمل]. وما قال تعالى عن يوسف - عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ...﴾ ﴿١٠٠﴾ [يوسف].

واستوى بمعنى استقر، والعلو على هذا العرش.

ويقول علماء الكلام: إن للعلماء فى مثل هذا النص السامى ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ منهاجين: أحدهما يفسر، فيقول: إن معنى استوى استولى على عرش هذا الوجود، وصار له السلطان الكامل فيه؛ لأنه مالك كل شيء، ولا شيء لغيره فيه، فهو المالك وحده. والثانى يفوض، فيقول: إن الله ذكر أنه استوى على العرش، فنؤمن بذلك ولكن لا نحاول أن نبحث عن مدى هذا المعنى، كما قال الإمام مالك - رضى الله عنه: «الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عن ذلك بدعة».

فهو يرى أننا نؤمن بالحقيقة، ولا نسأل عن كيفها، ونؤمن بنزاهة الله، فننزّهه عن أن يكون له مكان، فإن ذلك شأن الحوادث، والله تعالى لا يماثل

الحوادث في شيء، كما قال تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

وإنه ل يبدو لنا غير مفتاتين، ولا مدعين، أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تعبير مجازي، قصد به استيلاء الله تعالى على حكم هذا الذى خلقه فهو تشبيه سلطان الله تعالى فيما خلق من السموات والأرض وما بينهما وتديره لهما، وتسييره أمرهما - بمن يستوى على عرش ملك يدبره ويسير أمره، ولله - سبحانه وتعالى - المثل الأعلى فى السموات والأرض.

بعد ذلك وجه الأنظار إلى ما يجرى بين الناس كل يوم من ليل ونهار، شمس وقمر ونجوم مسخرات بين السماء والأرض، فقال عز من قائل: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ يغشى الليل النهار أى يجعل الليل غاشيا للنهار؛ لأنه ظلام، والظلام هو الذى يغشى النور، وذلك فى الحس، فالظلام يجرى ويستر النور، والنور يعقبه، وكل ذلك فى ترتيب مستمر، وكأن كل واحد منهما يطلبه حثيثا^(١)، ولا يتخلف، لا الليل يسبق النهار، ولا النهار يسبق الليل كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى خلقهما، ف «الشمس» معطوفة على «السموات والأرض» - فى يومين، وقوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أى خلق الله - سبحانه وتعالى - النجوم مذلات بأمره، تسير فى مداراتها كل نجم يسير فى مداره باستمرار بأمر الله تعالى، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا...﴾ [فاطر] فكل شيء يسير بأمر الله تعالى، وهو على كل شيء قدير.

(١) حثيثا أى مُسرعا حريصا. لسان العرب - حثث.

وقد أكد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

«ألا» للتنبيه، وهى كثرمة، لما ذكر - سبحانه وتعالى - من أمر خلق الكون، وما يسير عليه فله وحده الخلق ولو الإنشاء والتكوين، والأمر فيه والسلطان عليه والمسير له والمدير لبقائه، لا إله إلا هو الحى القيوم.

فبارك الله تعالى وعلت بركته - سبحانه وتعالى - على هذا الوجود، وهو أحسن الخالقين. وأفعل التفضيل ليس على باب، أى أنه - سبحانه وتعالى - خلقه خلقا هو الكمال فى الحسن والتنسيق، ولا خالق سواه حتى يقال أن خلق الله تعالى أحسن من خلقه! إنه عزيز حكيم.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾.

كان الأمر بالدعاء بعد أن بين أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وأن الله صاحب السلطان فيها، والأمر بالدعاء يشمل دعاء الله تعالى وعبادته وحده سبحانه، فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ادعوا ربكم: اعبدوه، فالدعاء مخ العبادة. ادعوه وحده؛ لأنه ربكم الذى خلقكم، ويربكم ويربيكم، ويدبر أموركم، ولا تدعوا مع الله أحدا، وادعوه تضرعا، أى فى ضراعة وخضوع وتذلل إلى الله - سبحانه وتعالى - وخفية «أى فى خفاء مستترين غير مجاهرين، ولا معلنين، فإن الإعلان قد ترفقه برياء، وإن الله لا يقبل الدعاء إلا أن يكون له وحده، فالعبادة له - سبحانه وتعالى - وحده لا يشاركه فيها أحد.

والدعاء كما قلنا يشمل العبادات من صلاة وصوم وأدعية فيها ذكر الله كثيرا، وقد حث النبى ﷺ كما أمر الله تعالى بأن يكون الدعاء خفية، وإن جهر لا يكون بإعلان وضجة، فقد روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا،

فقال النبي ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنه معكم سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جده»^(١).

وإن المأثور عن الصحابة والتابعين أنهم كانوا يدعون الله تعالى، ويعبدونه مستترين إلا ما يكون في جماعة، ولقد كانوا وهم في أعمالهم يدعون الله تعالى بالتوفيق والعمل الصالح، حتى وهم في المجاهدين يدرعون بالصبر، والالتجاء إلى الله تعالى ورجاء رحمته ونصرته، وهم في خيرهم يتسترون ولا يجهرون، لأن الستر يجعله خالصاً لله، مخلصين له الدين، روى عن الحسن البصري أنه قال: «إن كان الرجل قد جمع القرآن وما يشعر به أحد، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان مع الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً، ولقد يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم؛ وذلك أن الله يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً وحكى عنه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(٢) [مريم].

وكان الدعاء «خفية» ذا فضل عظيم، لأنه مناجاة الله، وكأنه يُودعُ ربه سرّاً وعلانيته، وهو مظهر المحبة، وهو بعيد عن كل رياء، ولأن النية مطلوبة قالوا: إن الإشارة في الدعاء إلى السماء ليست مطلوبة، ونحن نقول: إن الدعاء الخفي أفضل من الدعاء الجلي، بيد أن الدعاء بالجهر قد يكون مطلوباً كالتلبية، وفي هذه الحال تجوز الإشارة بالأيدى لأن ذلك انفعال ضارع. وقد كان النبي ﷺ يدعو ويشير بيديه^(٣)، وقالوا: إنه كان يدعو وهو

(١) متفق عليه؛ رواه بهذا اللفظ البخاري: الجهاد والسير- ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٣٩٩٢)،

ومسلم بنحوه: الذكر والدعاء (٢٧٠٤). عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه.

(٢) من ذلك ما رواه البخاري: الحج- إذا رمى الجمرتين (١٧٥١).

على ناقته، فإذا مالت أخذ بزمامها بيد، واستمرت يده الثانية الكريمة ممتدة بالدعاء^(١).

ويختتم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

إنه - سبحانه وتعالى - لا يحب الذين يعتدون، أى يتجاوزون الحدود المحدودة عليهم، فيعتدون على غيرهم، أو يتجاوزون الأمور المفروضة عليهم، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، فتعدى الحدود أمر لا يحبه الله تعالى، وقد يكون حراما، كالاعتداء على حق غيره، وقد ذكروا أن ذكر الاعتداء عقب طلب الدعاء يدل أن الاعتداء قد يكون فى الدعاء.

والاعتداء فى الدعاء كأن يقضى وقته كله فى دعاء، ولا يقوم بواجب الحياة، كأولئك الذين ينقطعون للعبادة ويتركون أمر الحياة ولا يدبرون أمرها، فذلك اعتداء فى الدعاء، وقد جرى برجل للنبي ﷺ فقالوا: هذا عابدنا، فقال ﷺ: ومن يؤكله، قالوا: أخوه يؤكله، فقال ﷺ: أخوه خير منه. وكأولئك الذين ينقطعون فى الزوايا، أو ما يسمونه الخانقاه، بحسبان أنهم يدعون الله تعالى ويعبدونه، فإن ذلك اعتداء فى الدعاء وتجاوز لحد المطلوب، وقد روى أن النبي ﷺ قال: «سيكون قوم يعتدون فى الدعاء»^(٢). ولعله سبحانه ينبئ بهؤلاء.

ولقد ذكر القرطبي وجوها فى الاعتداء فى الدعاء منها:

الجهر الكثير والصياح، ومنها أن يدعو الإنسان فى أن تكون له منزلة نبي أو يدعو فى محال، ونحو هذا من الشطط، ومنها أن يدعو طالبا معصية، ومنها أن يدعو ما ليس فى الكتاب والسنة.

(١) رواه النسائي: مناسك الحج - رفع اليدين بالدعاء فى عرفة (٣٠١١).

(٢) رواه أحمد: مسند العشرة - مسند أبى إسحاق سعد بن أبى وقاص (١٤٨٦)، وأبو داود: الصلاة - الدعاء (١٤٨٠).

وفى بعض هذه الوجوه نظر، فالدعاء بطلبه المعصية معصية وليس بدعاء يدخل فى باب العبادة، وتجاوز المراتب الإنسانية شطط وليس بدعاء.

والله تعالى لا يستجيب إلا لما يكون حقاً، ولا يقبل من الدعاء إلا ما يكون خالصاً لله، ولا يكون قاطعاً عن الحياة ومطالبها، فإنه لا رهبانية فى الإسلام.

ويقول - سبحانه - فى عمارة الأرض والدعاء مع الإصلاح:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾.

ذكرنا أن من الاعتداء فى الدعاء، أن ينصرف عن العمل فى الدنيا كاسباً متكلاً على الدعاء كما يفعل الرهبان، وإنما يجب مع ذكر الله أن يندمج مصلحاً فى الأرض منتجاً مثمراً فإن ذلك فيه إرضاء لله؛ لأن فيه خيراً للعباد ونفعاً لهم، و«خير الناس أنفعهم للناس»^(١).

وإن الله تعالى فى وسط الأمر بالدعاء نهى عن الإفساد فى الأرض، ويتضمن ذلك العمل فيها بالإنتاج والإغناء يقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

إصلاح الأرض: خلقها صالحة لأن يعيش عليها الإنسان فى زرعها وغرسها، ومستمتعا بكل حلالها وطيباتها، وقد أرسل الرسل منذرين ومبشرين، وهداة إلى الحق ومصلحين وعاملين للخير.

وإفسادها إشاعة الظلم، وإفساد ما تنتج، والتعدى التعاون على الإثم والعدوان وقطع الأشجار وحرق الثمار، وجاء فى القرطبي (تجارة الحكام من الفساد فى الأرض).

(١) سبق تخريجه.

ونرى أنه قد جاء النهي عن الفساد، ولم يجئ الأمر بالإصلاح؛ وذلك لأن الله تعالى تولى جعل الأرض صالحة لأن يعيش فيها أهلها آمنين مطمئنين بأن جعلها مهادا، وجعل الجبال أوتادا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات كل شيء: أخرج به حبا متراكبا، وغروسا ذات ثمار يانعة، فهو - سبحانه وتعالى - تولى ما به صلاح ذات الأرض، وأرسل الرسل تصلح ما بين الناس بالحق، وأجرى على أيديهم شرائع تهديهم إلى الرشاد، وتأخذهم إلى الحق إن استقاموا على الطريقة، وإذا عرفنا معنى الإصلاح الذي كان من الله تعالى في الأرض، عرفنا معنى الإفساد الذي يكون بعد الإصلاح الأزلي الذي قرره الله تعالى فيكون الإفساد تخريب العامر، وقطع القائم وإهلاك الحرث والنسل، وتعطيل شرائع الله، وإشاعة الأخلاق الفاسدة، وإثارة الغرائز الفتاكة والقاتلة لكل فضيلة بين الناس، وفتح باب الرشا وأكل السحت.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، تقرير لواقع الأمور؛ لأن الفساد لا يكون إلا تقويضاً لصلاح، وإنه في وسط تلك المعرفة القائمة بين الصلاح والفساد، مع الامتناع عن الثاني يكون الالتجاء إلى الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أى ندعو إليه - سبحانه وتعالى - بدعاء: ربكم الذى خلقكم ويكلفكم بعنايته وتدبيره وحكمته ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أى خائفين من مغبة أعمالكم في الحياة (الدنيا)، ومن آثارها في اليوم (الآخر)، وطامعين في غفرانه ورحمته التى وسعت كل شيء رحمة وفضلا. فمعنى ﴿خَوْفًا﴾ أى خائفين من عذابه، و﴿طَمَعًا﴾ أى طامعين في غفرانه. وإن الله تعالى يقرن رجاءه بخوفه، ورحمته بخوف عذابه. قال تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾ [الحجر] وقدم - سبحانه وتعالى - الخوف على الطمع؛ بأنه يجب على المؤمن أن يغلب الخوف على الرجاء؛ لأن من غلب الخوف على الرجاء أمن

واحترس، وسار على الصراط المستقيم آمناً، وإن غلب الطمع، ربما انساق وراءه، وإذا انساق ربما سار في غير الطريق السوى.

ولقد قرب الله تعالى رحمته لعباد، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

المحسنون هم الذى أجادوا أعمالهم فى الدنيا، وبلغوا بها الكمال الإنسانى، وبالغوا فى أداء واجبهم، وزادوا عليه وأطاعوا ربهم فى كل ما أوجبه عليهم وألزمهم به.

ورحمة الله غفرانه (ذنوبهم)، والإنعام عليهم، وأن يكتب لهم الثواب بفضل منه وكرم، وقد قال تعالى فى دعاء الأبرار:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيها إشارة إلى أن الله تعالى يعطى رحمته لمن يستحقها بغير حساب، ومن غير تسويف، والمسافة بين الرحمة وطالبها قريبة إن قدم لها العمل الصالح وعدم الإفساد.

وهنا بحث لفظى، يقول الله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ على أنها خبر لرحمة، وهى مؤنث لفظى لحقته التاء، وكان مقتضى السياق اللغوى أن يقول «قريبة» بدل «قريب».

خرج بعض النحاة ذلك على أن (رحمة) مؤنث مجازى، ولا يلزم فى خبره التانيث، بل يجوز فيه التذكير.

وبعضهم قال بتقدير مكانها، فقال السياق: «وإن رحمة الله مكانها قريب» أى أنها سهلة فى الوصول إليهم؛ لأنه كلما قرب المكان كان الوصول إليها أسهل.

وخرج آخرون بأن الرحمة متضمنة معنى الثواب أو الغفران، وهو مذكّر.
وهذه وغيرها تخريجات نحاة ليستقيم إعرابهم، أما كلام الله فهو فوق
طرائق إعرابها وهو سليم منزّه عن أى عيب يئانى.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
الشَّجَرِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ
إِلَّا نَجَسًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

بين الله تعالى آياته فى الكون كيف خلق السموات والأرض فى ستة أيام،
وبين - سبحانه وتعالى - وجوب الضراعة من بنى الإنسان كما يسبح له كل ما فى
الوجود، وإن كنا لا نفقه تسييحهم، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته،
وفى هاتين الآيتين يعدد - سبحانه - على الإنسان ما سخر له فى الأرض، فقال عز
من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ «الواو» هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ
حَثِيثًا﴾، أى أنه وقد أنعم بنعمتى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات
أنعم بالماء يسقى الأرض فتنبت نباتا طيبا، وهو - سبحانه وتعالى - الذى يوزعه فى
الأرض، على حسب حاجة كل بلد إليه، وتوزيعه عادل صالح يحى الأرض بعد
مواتها.

﴿وَهُوَ﴾ الضمير يعود على الله تعالى جل جلاله، وتعالى كماله، يثيرها
سبحانه، ثم يرسلها بقدرته ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أى أمام رحمته مبشرة

الناس بأن السماء ستمطر، والمطر غيث يغيثهم، يشربون منه، وينبتون به زرعهم ويسقون به أنعامهم، وغرسهم، ويجنون به ثمارهم، فهي بشرا لهم، مبشرة لهم برحمة من الله ويكون المطر. وبشرا: جمع بشير، كقَلْب جمع قلب، وأصلها «بُشْرًا»، وسكنت للتخفيف، وهناك قراءة بالنون، لا بالباء، وبضم الشين، أى (نُشْرًا)^(١)، وهى جمع ناشر، كما أن شُهْدًا جمع شاهد، والمعنى أن الرياح تنتشر، مبشرة بأن السحاب سيمطر مطرا يكون غيثا، وحول هاتين القراءتين قراءات أخرى يبلغ عددها سبعا، والفرق بينها فى الكلمة، ولا يؤثر اختلافها فى مضمونها. وهى تكون منتشرة معلمة بالبشرى بالماء الذى يحىى الأنفس، ويحىى موات الأرض.

ويقول سبحانه فى تحقيق البشارة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ حتى ثارت هذه الرياح فبخرت البحار فتكون منه الماء، وحملت السحاب، وتكاثفت الرياح. . . و﴿أَقَلَّتْ﴾ أى حملت، ولا تقال كلمة ﴿أَقَلَّتْ﴾ بمعنى «حملت» إلا إذا كان سحابا ثقالا أى ممتلئة ماء.

وسحاب اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين مفردة بالتاء أو بياء النسب كتمر، وتمر، وبقر وبقرة، وعرب وعربى، وروم ورومى. والثقال جمع ثقل.

امتلات السحاب بالماء، وحملتها الرياح، ولم تنزل حيث كانت، بل إن الله تعالى المنعم الموزع لرحمته لا ينزلها إلا فى مواطن الحاجة إليها على ما مضت به حكمته، وعلى مقتضى علمه - سبحانه وتعالى - فهو الحى القيوم المدبر للوجود، ولأهل الأرض ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيَّتٍ﴾ أى سقنا السحاب، فالضمير يعود إليها، وهى تذكر وتؤنث، فأوماً - سبحانه وتعالى - إليها مذكرا. ساق: تتعدى بـ«اللام» وتتعدى بـ«إلى»، ومعنى سوقها دفعها، وتعديتها باللام هنا لمعنى الاختصاص

(١) قرأها: ﴿نُشْرًا﴾ بضم النون ابن عامر، و﴿نُشْرًا﴾ بفتح النون حمزة والكسائى وخلف والمفضل، و﴿بُشْرًا﴾ بياء مضمومة عاصم إلا المفضل، و﴿نُشْرًا﴾ بضم النون والشين نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. غاية الاختصار: الجزء الثانى - برقم (٨٩٦).

بقسمة الله تعالى العادلة، فالمعنى سقناه إلى هذا البلد، ليكون مختصا بها حتى يحيى مواتها، فإذا ماتت أرض أخرى اختصاصها بما يحييها من غير تثريب^(١) فسبحان الرزاق الحكيم.

والبلد الميت، هو الأرض الميتة التي لا ماء فيها، ولا ينتفع بها فى زرع أو غرس، ولا يوجد ما يأكل منه حيوان أو يحيا به إنسان، فيحيى الماء بعد مواتها بإذن الله العليم الحكيم الرزاق ذى القوة المتين.

وقال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

إن السحاب الذى ساقه الله تعالى إلى البلد الميت يلقي حمولته من الماء بإذن الله وبأمره وبنعمته؛ ولذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ والضمير فى «به» يعود على البلد الميت، أى فأخرجنا بهذا البلد الميت، الذى لا ينبت زرا ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من: هنا بيانية، أى أخرجنا كل الثمرات بهذا البلد الميت، أخرجنا حبا وزيتونا ورمانا، متشابهها وغير متشابهه، وأخرجنا نخلا وعنبا، وأخرجنا كل شىء، وجعلنا منه كلاً تأكل منه الإبل والبقر والغنم، وكل ذى كبد رطبة ينتفع بها، ويختبر بها.

فكان من هذه الأرض الموات تلك الحياة، وذلك الخضر من كل شىء، وإن ذلك يقرب لكم إعادة الأموات إلى الحياة؛ ولذا قال تعالى خاتما الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أى كهذا الذى رأيتم من إخراج ثمرات كل شىء نباتا حيا، وغرسا مثمرا، وحبا متراكبا، وكلاً طعاما للنعم كهذا الذى شاهدتم، وتشاهدون كل يوم يخرج الله تعالى الأموات من قبورهم أحياء، فالتذكير بقدرة الله تعالى على البعث ثابت فى كل ما يشاهدون، يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى.

(١) التثريب: كالتأنيب والتعيير والاستقصاء فى اللوم، يقال: لا تثريب عليك.

فشبه الله تعالى إخراج الأموات من قبورهم وبعثهم، وإنشأهم بعد موتهم بإخراج النبات من الأرض الميتة أحياء. ولقد جاء فى بعض الأخبار أن الله عند إحياء الأموات ينزل المطر، أربعين يوما فيخرج الأموات أحياء كالنبات^(١).

ولقد قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أى رجاء أن تذكروا، وأنتم ترون ذلك فى الأقوام، والبلدان. إنه عليم حكيم.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ﴾ (٥٨).

البلد: الأرض، وهى الأرض ذات التربة الخصبة المشتملة على كل ما يتكون منه النبات أو الغراس مع الماء والحرارة، وما تقتضيه طبيعة النبات، وما يكون غذاء له، والأرض الخبيثة أو البلد الخبيث ما تكون تربته غير منبثة كالحجارة أو ما يشبهها، وكالأرض التى تكون قرية من المالح، فيكون ملحها مفسدا لطبيتها وخصبها، وخبيثها حجارتها وسبخها، وكل ما لا ينبت، ومنه الرمال التى لا تحبس الماء، فالبلد الطيب يخرج نباته طيبا غزيرا كثيرا يشبع، ويرضى الزارع بإذن الله، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا، أى القليل الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع، فالنكد هو القليل، هو يصيب الزارع بنكد وغم وحزن، وكأنه ينبت ذلك النكد الذى لا طيب فيه ولا نفع منه.

وإن ذلك مثل لتقسيم الأرزاق، فمن الناس من رزقه الله تعالى أرضا طيبة تأتى له بالخيرات والثمرات، ومن الناس من اختبره الله بأرض خبيثة لا تخرج إلا

(١) وذلك كما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه.

[البخارى: تفسير القرآن - «يوم يشخ فى الصور فتأتون أفواجا» (٤٩٣٥)، ومسلم: الفتن وأشراط الساعة-

ما بين النفتين (٢٩٥٥)].

نكدًا، وهذه تدعوه إلى أن يبحث عن أرض خير منها ﴿... فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا
وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [المالك]، وأن يبحث عن خيرات الأرض من
باطنها مما اختزنته من معادن وفلزات وكنوز، وأحجار وماس، وكل ما له نفاسة،
فكل أرض الله تعالى لا تخلو من خير.

وهذا معناه أنه لا يمكن أن يمحي الفقر والغنى أو يذاب ما بينهما من فروق
كما يقول الجهلاء الذين لا يؤمنون بشيء، وقد نقص إدراكهم عن أن يصل إلى
حقائق الوجود، وإن تزعموا وتحكموا، وحكموا بالباطل.

وإن بيان معاني هذه الآية المحكمة على أنها حقيقة تبين قدرة الله وتصريف
خيرات الوجود بمقتضى علم الله تعالى، وتدييره وحكمته، وأن بلاد الله فيها
الطيب الذى يحييه خير الله، ويتزل الماء فيه، وفيها الجذب الخبيث الذى لا ينبت
إلا نكدًا، وإن كان قد ضم باطنه خيرا آخر، لا فى الطعام والثمر والزرع، ولكن
فى منافع الناس.

وقد رأى ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - أنه مثلٌ ضربه الله تعالى
للمؤمن والكافر، فالؤمن كالبلد الطيب يخرج نباته وثمره بإذن ربه، فقلب المؤمن
كالأرض الرطبة لا يكون منها ماهو طيب، وقلب الكافر خبيث كالبلد الخبيث
الذى لا ينتج إلا نكدًا، قبيحا وشرًا.

وإننا نقول غير جامعين بين الحقيقة والمجاز، إن الآية تدل على تصريف الله
تعالى، وتشير عن بعد إلى قلب المؤمن وقلب الكافر، وتقاربهما من البلدين،
الأول من البلد الطيب، والثانى من البلد الخبيث.

وقد روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال:
«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضا،
فكانت نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت فيها أجداب أمسكت
الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما

هى قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به^(١)، ولقد ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ﴾.

التشبيه والإشارة هنا ﴿كَذَلِكَ﴾ الذى رأيت من تصريف القول من بيان نعمة الله على الوجود بخلق السموات والأرض فى ستة أيام، وبيان النعم فى الإنبات والإثمار، وإخراج كل ما هو نافع للأحياء، كهذا الذى رأيت نصرف الآيات، ونبينها فى تصريف محكم مقرب للنفوس، أى كهذا التصريف فى ذكر هذه الآيات، نصرف فى بيان الحقائق دائماً، لقوم من شأنهم الشكر، وتقبل النعمة بالقيام بحققها؛ ولذا عبر بالمضارع الدال على تجدد الشكر المنبعث من النفس الإنسانية المؤمنة، والله غفور شكور.

القصص القرآنى

بعد الآيات الكونية التى ذكرها الله تعالى دالة على وحدانيته - سبحانه وتعالى - ساق أنباء الرسل، ودعوتهم إلى التوحيد، وتبليغهم رسالات ربهم فى إصلاح الإنسان، والقيام بحق ما أنعم الله به عليه، وأنباء من أرسلوا إليهم، وكفر من كفر، وعناده، وأخبر عن دعوة كل رسول وما أجيب به، وذلك لأمر كثيرة:

أولها - العبرة بأحوال السابقين والوثنيين الذين اعترضوا على الأنبياء، لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

وثانيها - بيان ما نزل بالمشركين الذين كفروا بالله وكذبوا الأنبياء وعاندوهم وأذوا من اتبعوهم، من عذاب حتم عليهم، ومن خسف جعل على ديارهم سافلها، ومن ريع صرصر عاتية، وليعلم الوثنيون الذي يخاطبون النبي ﷺ أن الله تعالى يهملهم ولا يهملهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦٦].

وثالثها - أن الآيات مهما تكن شديده قارعة حسية لا تجعل من القلب الجاحد مؤمنا، فهؤلاء السابقون جاءتهم الآيات الحسية القارعة، ولكن لم تحمل الوثنيين على الإيمان، بل جحدوا وإن كانوا مستيقنين.

ورابعها - التسمية عن النبي ﷺ بأنه لم يكن أول من كُذِّبَ وجُحِدَت آياته بل كذبوا من قبل.

وخامسها - أن في نبأ كل نبي من الأنبياء تساق الحجج على التوحيد، والتنبيه إلى آيات الله تعالى في الكون.

وسادسها - أن في القصص علم الأمم، وأخلاقها، وضلالها، وهداية من يهتدى.

من نبأ نوح - عليه السلام -

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
 قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
 يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿٦١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لَوْ أَنَّ صَاحِبَكُمْ يَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ

مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِرَّائِنَا إِنَّهُمْ كَانَُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

ابتدا نوح كلامه مع قومه مستندنيا قلوبهم، مقربا القول إلى نفوسهم، وكان إرساله إليهم، ولم يوجد ما يدل على أنه أرسل لغيرهم، كما قامت رسالة رسول الله محمد ﷺ إلى الناس.

قال عليه السلام: ﴿يَا قَوْمُ﴾ نادى بالرابطة التي تربطه بهم، وهى أنهم قوم الذين يستنصرهم، ويعتز بصلتهم ويريد الخير لهم، ويجب كل كمال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ والجملة الأولى دعوة إلى عبادته لأنه خالق الكون ومنشئ الوجود، والجملة الثانية تدل على انفراده وحده بالالوهية، فهى نفى وإثبات؛ نفى أن يكون لهم إله غير الله، ولذا قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، أى ليس لكم من إله غيره سبحانه، و«من» لاستغراق النفى، والمعنى: ليس لكم أى إله يعبد غيره؛ لأنه الخالق، ولأنه ليس كمثله شئ فى ذاته أو صفاته، فهو المعبود وحده.

وقد حذرهم من عصيان الله تعالى، والكفر به، وعبادة غيره، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفى هذا يظهر عطفه عليهم داعما دعوته بخشية ما ينزل بهم، ومع ذلك هو تهديد لهم بعاقبة إنكارهم. وقد أكد خوفه عليهم بكل مؤكدات القول، بـ«إن»، وبقوله ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وتنكير العذاب، و﴿عَظِيمٍ﴾، وأنه لا يدرك جهته، ولا تدرك المشاعر الآن حقيقته. هذه هى الدعوة إلى التوحيد والترغيب فيها، والترهيب من عصيانها؛ فبماذا أجاب قومه؟.

قال الملأ من قومه، أى قال الكبراء والرؤساء والأشراف من قومه مستنكرين مستهترين: إنا نراك فى ضلال مبين، وكذلك نجد الكبراء فى كل قرية أكابر

مجرميتها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم . كانت إجابتهم إصرارا على غيهم ، واستمساكا بما هم عليه ، وعدوا غيره ضلالا وسفها : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، أى إنا نراك فى بعد عن الهداية ، والحق واضح . وقد أكدوا ذلك بـ «إنا» ، وبأنهم يرونه كذلك ، وإنه يستفاد من هذا أمران :

أولهما - أنهم يردون قوله ، ولا يقبلونه ويعصونه ، وأنهم يرون أن صاحبه فى ضلال واضح لا هداية معه ، وأنهم بهذه الحال لا يمكن أن يجيبوه بل أن يفكروا فى إجابته .

وثانيهما - أنه يلاحظ أن ذلك من كبرائهم ، كما ذكرنا ، أما ضعفاؤهم فإنه لم تعرف لهم إجابة ، لأنهم مغمورون غير مذكورين ، كما كان الأمر من بعد ذلك للنبي ﷺ ، إذ مكث وقت الدعوة المحمدية فى مكة ، ما كان يتردد فى جنباتها إلا صوت أبى جهل وأبى لهب ، والوليد بن المغيرة ، ولا يتردد صوت عمار ، وبلال وأبى بكر ، وإن نوحا النبى الأمين ، منهى عنهم ولا يرد عليهم ، بل يقول فى أناة المؤمن : ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقول مبتدئا القوم بندائهم ، بما يقربهم ويدنيههم لا بما يبعدهم ، وينبئهم ، يناديهم يا قومى يا من أنا منكم وقطعة من جمعكم يضيرنى ما يضيركم ، ويؤلمنى ما يؤلمكم ثم يقول نافيا ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ أى ليس بى حال أضلتنى عن الحق ، وكأنهم قصدوا من الضلالة أنه مسحور قد ضل عقله وغاب ، فهو يقول ما بى ضلال ، بل أنا برشدى الكامل وأنا فوق ذلك هاد مرشد متحدث عن الله تعالى ؛ ولذا أردف نفى الضلالة بقوله : ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ والاستدراك من نفى الضلالة إلى مرتبة عالية ، وذكر أنه رسول ، قد أرسله الله تعالى رحمة بهم ، وإنقاذاً لهم من ضلالهم ، وأضاف الرسالة إلى الله تعالى معبرا بقوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أى الذى ربي الناس وكونهم ، وهو القائم عليهم ، والمصرف لأموالهم ، وللوجود كله سبحانه وتعالى .

وإنه لهذا ما أرسل الرسالة إلا رحمة بكم ، وهداية وتوجيها إلى الصراط المستقيم .

ثم بين الرسول الأمين واجبه وهو التبليغ والنصيحة، والدعوة إلى الهداية فقال الله تعالى عنه: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢).

﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي﴾ وعبر عنها بصيغة الجمع للدلالة على أنها متعددة النواحي، فهي للتوحيد، وهو رأسها، وعمادها. وإصلاح الجماعة، ونشر الفضيلة، وتكوين الأسرة، وتنظيم المعاملات الإنسانية على أساس العدل ومنع البغى ولتعميم الإحسان، وإصلاح الأرض ومنع الفساد.

ولقد قال بعض العلماء: ما كانت بعثة نوح لقومه فقط، بل لجيله ومن يتبعه إلى أن يجيء من ينسخ شريعته، وأضاف الرسالات إلى ربه - سبحانه وتعالى - لأنه منزلها، ولأنه القائم على الوجود، والمرئى له، والعالم بكل ما يصلحه، وذكر أمرين يقوم بهما بعد تبليغ رسالات ربه، وإعلانها لهم:

أولهما - أنه ينصح لهم، بمحض الحق مخلصا لهم، لا يأتي إلا بما فيه نفعهم، والخير العميم لهم، والنصيحة والنصح إخلاص النية من الغرض وقصد الفساد، نصحته ونصحت له، أي أخلصتها له.

ثانيهما - الإشارة إلى أنه عنده علم من الله لا يعلمونه؛ لأنه يخاطبه الله تعالى وحيا أو برسول من الملائكة أرسله إليه؛ ولذا قال في تأكيد نصحه، وبيان صدقه، وأنه هاد مرشد: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاقبلوا نصحي وإرشادي، فإنه ليس مني، ولكن من الله ربكم ورب العالمين.

ولقد أدرك أنه يجوز أن يكونوا في استغراب، وهو يريد هدايتهم، فيريد أن يزيل غرابتهم، فقال مقربا متحيا مخاطبا وجدانهم مزيلا استغرابهم:

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣).

الواو هنا عاطفة ما بعدها على ما قبلها، فهي عاطفة كلام نوح - عليه السلام - الأخير على ما قبله، ولكنها أخرت في الذكر عن الهمزة، وهو بهذا ينههم إلى ما يزيل عجبهم واستغرابهم، فهو استفهام في معنى النفي، أى لا يصح أن تعجبوا من ذلك فإن الله لا ينزل، ويكلم الناس، ولا ينزل الملائكة، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (٩٦) [الأنعام] ولقد أزال عجبهم، وأمرهم بالآلا يعجبوا.

وموضع العجب الواهم هو ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أن» تذكير بالحقيقة المستكنة في قلوبهم التي يطمسونها طمسا، حتى لا يذكروا، ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، أى على لسان رجل منهم، أو أن «على» بمعنى «مع» أى: مع رجل منهم، وكذلك قال المشركون لمحمد ﷺ: ﴿... أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) [الإسراء] ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ (٧) [الفرقان]، وقد بين الله الغاية من الرسالة التي جاء بها نوح - عليه السلام - وهى غاية الرسل أجمعين فقال: ﴿لِنُنذِرَكُمْ﴾ بهذا الذكر الذى يثير العلم الذى تطمسونه فيذكركم به منذرا من عذاب، ومبشرا بثواب ﴿وَلَتَتَّقُوا﴾ ولتعملوا على أن تتخذوا من عملكم وقاية لكم من العذاب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، أى ولترجوا أن يرحمكم الله باتباع ما أمركم به من توحيد، وإصلاح، فإن ذلك هو الرحمة الحقيقية بكم.

قال نوح ذلك متوددا متحيا، مخاطبا بما يجمعهم من مودة، ولكنهم نفروا من دعوته، ومن هدايته فكذبوه، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾. الفاء: هنا للإفصاح، أو للترتيب، أى أنه ترتب على هذا الذكر، وهذه الدعوة الهادية الباعثة على العبرة أن كذبوه، وكان لا بد بعد هذا التكذيب القاطع للحق، والهادم لكل صالح أن يكون العذاب لمن طغى، والنجاة لمن هدى، أمره الله تعالى بأن يصنع الفلك، لينجى فيه من آمن من قوم نوح، وأن يغرق من عاند وكفر، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أى بسبب تكذيبهم؛ لأن الصلة فى الموصول هى سبب الحكم،

وقد أكد - سبحانه وتعالى - وصفهم بالضلال، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^{٦٥} عمين جمع عم، وهو صفة مشبهة من عمى، فهم ضالون قد أعمى الله تعالى بصائرهم. وإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى الأفئدة التي في الصدور.

هذا ما ذكره الله تعالى في هذا الموضع من قصة نوح - عليه السلام - ونكتفى بالكلام هنا، وتكلم في باقى قصة نوح مع قومه فى مواضعها من القرآن الكريم، فلكل جزء منها عظة قائمة بذاتها.

وسيدنا نوح - عليه السلام - هو أبو الأنبياء بعد آدم، وقيل: إن إدريس أكبر منه، ولكن الظاهر من سياق القرآن للأنبياء، أنه أبو البشرية بعد آدم، والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

من قصة هود عليه السلام

وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ
هُودًا قَالَ يَنْقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِيِّينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقُومُ
لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ
أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا لَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ

يَعْبُدْءَابَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ
 ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
 أَتَجِدُونَنِي فِي سَمَآءٍ سَمِيَّتُمْوهَا أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ
 مَا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهَِا مِنْ سُلْطٰنٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَقَطَعْنَا دَآبِرَ الَّذِينَ كَذَبُواْ بَيِّنَآتًا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يدل ما ذكره - سبحانه وتعالى - هنا من قصة هود - عليه السلام - أنه جاء من بعد نوح - عليهما السلام - فقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ إلى آخر الآية الكريمة. يقول تعالى: ﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، الواو عاطفة على قوم نوح، وهى على نية تكرار العامل أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، وقدم قوم هود، وهم عاد؛ لأنهم كانوا فى عتو شديد. قال لهم هود الهادى المرشد: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ابتدأهم بدعوة النبين إلى التوحيد، وهى دعوة نوح من قبل، ودعوة من بعد عاد إلى أن تكون دعوة محمد ﷺ ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾، ف «من» هنا لاستغراق النفى وانحصار الألوهية فى الله تعالى وحده، وحذرهم من الكفر كما حذر نوح إذ قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقال هود محذرا ومحرضا على أن يجعلوا لأنفسهم وقاية بينهم وبين العذاب، فقال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ والفاء للترتيب والتعقيب، وموضعها مقدم على الهمزة، ولكن الاستفهام له الصدارة، والمعنى، أنه يترتب على المطالبة بعبادة الله وحده أن تتقوا عذابه، وتخافوه، فهى تتضمن ذكر الخوف والتحذير من عذاب الله تعالى، وأن يجعلوا لأنفسهم منه وقاية، فأجابوه إجابة المتعنت المستخف.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦).

كان الذين يردون هم الكبراء البارزون، فيهم كشأن أعداء الأنبياء دائما؛ لأنهم الذين يخافون على سلطانهم، كما رأيت في الذين عاندوا نوحا وكفروا به، وكما رأيت في الذين عاندوا محمدا ﷺ. وكما نرى في الذين عاندوا هودا أخا عاد، وقد بادروه بالطعن في شخصه. قالوا في شخصه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ وأكدوا ذلك بـ«إن» وباللام، أى: إنا لنراك فى خفة عقل وحق وطيش وذلك استخفاف به، لأنهم ضالون. ودعاهم إلى الحق الذى لا ريب فيه. وأما طعنهم فى قوله، فهو قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ والظن هنا هو العلم المزعوم عندهم، بدليل أنه أكدوا حكمهم بـ«إن» واللام، وكونه داخلا فى زمرة الكاذبين، وقد يطلق الظن بمعنى العلم، وهو هنا كذلك. أجاب هو إجابة النبيين:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٧) ناداهم مدنيا مقربا لهم، بقوله يا قوم وقد اختاره الله على أنه أخ لهم، إذ قال: ﴿وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ﴾، ليس بى سفاهة فما خالفتكم، ودعوتكم إلى عبادة الله تعالى وحده لحق أو سفه، وإنما لأنى أرسلت بذلك؛ ولذا قال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلنى إليكم، داعيا إلى عبادته وحده ثم قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ من شرائع وأحكام فيها صلاحكم فى الدنيا والآخرة، وإنى مع الرسالة ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، أى أنصحكم النصيحة بأمانة لا أغشكم ولا أخدعكم بل أدعوكم إلى سواء السبيل، وقد توقع استغرابهم من أن يكون منهم رسول، وقد ذكروا ذلك كما ذكروه من بعد لمحمد ﷺ، فالعقلية الوثنية الجاحدة واحدة، تختلف الأقوام، ولا يختلف المتزع.

قال لهم مقالة نوح:

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، وأنذرهم بالعذاب الشديد إن لم يؤمنوا، وذكرهم بما كان من قوم فرعون، ونعم الله تعالى فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، أى يبين لكم عقاب الله، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ذكرهم بثلاثة أمور تدينهم، وتجعلهم يشعرون بأن الله أنعم عليهم، وأعطاهم العبر ليعتبروا:

ذكرهم أولا - بأنهم خلفاء قوم نوح، وإن ذلك فيه عبرة لهم لأنهم كيف أغرقوا، ولم ينج إلا من حملته السفينة الربانية، وخلفاء جمع خليفة، أى أنهم خلفوهم فى سكنى أرضهم وأرسل هو إليهم، كما أرسل نوح من قبل.

وذكرهم ثانيا - بأن الله زادهم فى الخلق بصطة، أى قوة فى الجسم فكانوا عمالقة، وبصطة أصلها بسطة، وتكتب السين صادًا، لاتصالها بالطاء، وهى ساكنة.

وذكرهم ثالثا - بنعم الله تعالى عليهم من زروع وثمار، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أى نعمه، واحدها «إلى» و«ألى».

ذكرهم بهذه الأمور الثلاثة رجاء أن يعتبروا ويتعظوا ويؤمنوا، وبذلك ينالون الفلاح والفوز؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أى لترجوا الفلاح والفوز بالصلاح فى الدنيا والنعيم فى الآخرة.

ولكنهم مع هذا التذكير الواعظ المرشد، لم يهتدوا، بل قالوا مجادلين: ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

يستنكرون أن يجيئهم، ليدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، و«نذر»، أى نترك ما كان يعبد آباؤنا. وهكذا يذهب بهم الغلو فى الكفر إلى درجة أن يعتبروا أمراً نكراً يستحق الاستنكار أن يعبدوا الله ويتركوا ما كان عليه آباؤهم، وهكذا قال المشركون، عند قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة] أنذرهم هود بعذاب شديد فتحذوه أن ينزله، وقالوا: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تحذوا هوداً أن ينزل الله العذاب الذى هددهم به، وطلبوا من نبيهم أن ينزله كأن الأمر بينهم وبينه، وذلك للاستمرار على كفرهم وجحودهم، إذ إنهم لا يعتبرونه مرسلًا من الله تعالى، ولقد وقع بهم ما استعجلوه، وقال لهم قبل وقوعه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونِنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

وقد أنزل الله - تعالى - بهم عذابين أحدهما «الرجس»، وهو الضلال الذى أدى إلى هذا الكفر، و«غضب الله» وهو وحده عذاب من الله، وسيؤدى إلى العذاب الذى نزل بهم فى الدنيا والآخرة وإنه لقريب؛ ولذا: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وقد اشتمل كلام هود - عليه السلام - على أمور ثلاثة هى إشارات بيانية.

أولها - قوله: ﴿أَتُجَادِلُونِنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ فهذا استفهام توبيخى على ما وقعوا من عبادة أشياء لا تنفع ولا تضر.

ثانيها - أنها لا وجود لها فى ذاتها إلا أن تكون أحجاراً، ليس لها إلا أسماؤها الباطلة التى سموها بها.

ثالثها - أنه ما أنزل معها بحجة تسوغ عبادتها، أو قوة فيها تكون سلطاناً لها.

وما كان من بعد هذا إلا العقاب، فنزل بهم عذاب ساحق أهلكتهم الله تعالى، وأنجى الله تعالى هودا ومن معه من المؤمنين؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وترى التشابه التام، بين ما لقي النبي محمد ﷺ من المشركين، وبين ما لقي نوح، وهود من قبله - عليهم الصلاة والسلام - وإن ذلك يجعل النبي ﷺ يصبر، ويحمل التبعة، وشدائدها فإن تلك سنة الله مع الدعاة، والذين يدعونهم، وما كنت بدعا من الرسل.

بيد أن الله تعالى أهلك المجرمين الذين يعصون الأنبياء، أما قوم محمد ﷺ فإنه - سبحانه - أمهلهم ليكون من أصلابهم من يعبد الله، وليجاهدهم على الحق هو ومن اتبعه إلى يوم الدين.

من قصة صالح - عليه السلام

نذكر من قصص الأنبياء في هذا الموضع، ما قصه الله تعالى في هذه السورة الكريمة، ونترك بقية قصص الله تعالى فيها إلى موضعها، وبمجموع ما يذكره سبحانه يكون خبر النبي من الأنبياء، ولكنه مفرق في السور، كل جزء منه في موضع عبرته، وإرادة مغزاه.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٢﴾
وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ

الْجِبَالِ يُّوْتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
 أَنَّ صَلَاحًا مِّنْ رَّبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
 مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ
 أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَآخَذَتْهُمْ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
 رَسُولًا مِّنِّي وَفَضَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾

كان بعث صالح بعد هود، وكانت ثمود خلائف لعاد، قال الله تعالى:

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، أى أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، كما كان
 لعاد أخوهم هود، وذكر الأخوة فى هذا المقام فيه إشارة إلى أنه واحد منهم قد
 ربط بينهم برباط الأخوة، وكذلك كان يبعث الله تعالى لكل أمة رسولا منهم،
 كما بعث محمدا ﷺ من أنفسهم.

قال صالح لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. هذه دعوة
 التوحيد، وهى دعوة النبيين أجمعين ودعوة الفطرة، ودعوة المنطق العقلى.

ولقد أردف دعوته إلى الله، ببيان أنه مرسل إليهم من الله تعالى، ومعه
 البينة الدالة على إيمانه؛ ولذا قال لهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أى معجزة

مبينة من ربكم دالة على رسالته، هذه البينة هي: ناقة لكم آية، أى دليل على الرسالة، ويظهر أنها كانت لها أوصاف خاصة تميزها عن غيرها، قال بعض الناس: إن الله تعالى خلقها من حجر صلد، ولكن لم يثبت ذلك بسند صحيح عمن بين القرآن للناس، ولم يرد بسند صحيح شيء عن أوصاف هذه الناقة، ولكنها على أى حال كانت مميزة عندهم معروفة بشخصها لديهم، ولذا قال لهم: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾، أى: فاتركوها تأكل.

وأردف نبي الله صالح - عليه السلام - يبين لهم العبرة من أسلافهم عاد، ونيهم هود - عليه السلام - قال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أى اذكروا أنه جعلكم خلفاء لهؤلاء الذين كانوا أقوياء وطغوا، ورأيتم ما آل إليه أمرهم، من العذاب الذى نزل بهم جزاء عصيانهم، وسكتتم فى مساكنهم الذين ظلموا فيها أنفسهم، وقد بوأكم فى الأرض وثبتكم، وجعلكم مستمتعين مترفحين، فجعلتم من سهل الأرض قصورا بنيتموها، ونحتم الجبال فجعلتم منها بيوتا، وذلك أعلى درجات الترفة فى المسكن قصور فى السهول، وبيوت فى أكناف الجبل، فكانت لكم الوقاية من البرد والحرور.

وإذا كنتم تمكتتم من ذلك، فاذكروا آلاء الله تعالى ونعمه، وقوموا بحق شكرها، ﴿وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تطغوا وتظلموا، فيؤدى ذلك إلى قساد، ولذا قال: ﴿وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، العثى والعتو، لغتان فى مصدر عثى، وهو الفساد، والمعنى لا تفسدوا فى الأرض ويستمر فسادكم حتى تكونوا مفسدين، وقوله مفسدين حال دالة على استمرار الفساد، هذا قول صالح - عليه السلام - وهو كلام يتضمن الدعوة الرفيعة الحكيمة إلى عبادة الله تعالى وحده، والتذكير بنعمه تعالى عليهم، وتحذيرهم من الإفساد، والاستمرار عليه بالإشراك والظلم وترك أمورهم فوضى، لا ضابط من دين ولا خلق.

وهنا نجد الكبراء وأشرفهم الذين يعارضونه، والضعفاء هم الذين يتبعونه، ويتوجه الكبراء بالاستعلاء على المستضعفين، وقد قال تعالى عنهم:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ فيه أن قوله السامى: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل اشتغال، والمعنى أى قال الملأ للمؤمنين، وسبق بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ للإشارة إلى أن المجيبين هم الضعفاء، وكذلك يسارع الضعفاء لاتباع النبيين، لسلامة فطرتهم، وعدم وجود الأهواء التى توجب الإعراض، ولأنهم يرون فى الأوامر النبوية ما يرفع الظلم عنهم، ولأنهم أقرب إلى الحق دائماً، فالمساكين أقرب إلى الاستجابة، وكذلك كان أتباع محمد الأولين من أمثال بلال، وصهيب، وآل ياسر، وغيرهم من العبيد والفقراء.

قال المستكبرون من ثمود قوم صالح للمستضعفين المؤمنين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كأنهم مستكبرون ذلك منهم، ويسخرون منهم، فرد عليهم المؤمنون الرد القاطع الحاسم قائلين: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أكدوا إيمانهم بالتعبير بالجملة الاسمية، وبـ«إن» وبالقصر إذ قدموا ﴿بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾، وهذا يفيد القصر أى أنهم يؤمنون به، ولا يؤمنون بالشرك، فلا يؤمنون بغير ما أرسل به.

وقال المستكبرون يحسبون أنهم يغرونهم بتقليدهم وحكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)﴾ وقد أكدوا كفرهم، كما أكد المؤمنون إيمانهم، وفى هذا إيماء إلى أنهم يجب أن يتبعوهم؛ لأنهم أهل القوة، ولكنهم لم يفعلوا وإن آذوهم. استرسل المستكبرون فى غيهم فأخبر الله عنهم فقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)﴾.

تحدى هؤلاء صالحا، وتحذوا معه ربهم، أمرهم بالحفاظ على الناقة لأنها ناقة الله، فشرفها بالنسبة إليه سبحانه، وأمرهم بأن يجعلوا لها شربا ولهم شرب معلوم، وأن يتركوها تأكل في أرض الله، فعقروها، أى ضربوا قوائمها وذبحوها وتحذوا نبي الله أن يأتيهم بالإنذار، إن كان من المرسلين، وعتوا: أى استكبروا بذلك التحدى.

وعظهم صالح أقوى الوعظ، وأبغى، فلم يتعظوا وتحذوه، فتزل بهم ما أنذرهم به فى الدنيا فأخذتهم هزة أرضية، زلزال شديد، فالتصقوا بالأرض، وهذا معنى قوله تعالى فى أمرهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أى الهزة الشديدة بالزلزال، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾، أى هدمت مبانيهم، والتصقوا بالأرض، ميتين إلى يوم يبعثون.

وانتهت مهمة صالح بهذا التبليغ الحكيم، والنهاية المحتومة التى انتهوا إليها بتحذيتهم رسولهم وربهم، وقال صالح متأسيا، أسفا، ولذا قال تعالى عنه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عنهم، ﴿وَقَالَ﴾ مخاطبا من بقى أو مخاطبا من مات، ولصق بالأرض كما خاطب محمد ﷺ أهل القلب من قتلى بدر^(١)، قال لهم صالح: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ بغلبة أهوائكم، واستكباركم، وعتوكم وفسادكم.

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْقَلْبِ فَقَالَ: 'وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا' فَنِيلَ لَهُ: 'تَدْعُو أَمْوَالًا؟' فَقَالَ: 'مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ'. رواه البخارى: الجناز - ما جاء فى عذاب القبر (١٣٧٠).

لوط - عليه السلام - وقومه

قال تعالى في هذه القصة في هذا الموضع، وقد كان لوط في عصر إبراهيم، وله قرابة، وما بينه وبين إبراهيم نوحله للبيان القرآني في موضعه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
إِلَّا أَمْرَاتَهُ ۚ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
مَّطَرًا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

كان قوم لوط، أفحش الأقوام العربية فجورا، وانحرافا وإسرافا، فكانوا مع إشراكهم قد انحرفوا عن الفطرة وشذوا عنها؛ ولذا كان أول ما واجههم به نبي الله لوط أن ذكر لهم تلك الجريمة البشعة التي شذوا بها عن الفطرة، والإنسانية، والأخلاق العربية.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ مفعول لفعل محذوف، تقديره واذكر لوطا، وهو في هذا يذكر مساوئ الشرك وأهله، فإذا أضلهم عبادة غير الله فهو انحراف في الفكر والنفس يؤدي إلى أعظم الانحراف في العمل: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، وذكر قومه يدل على أنه ليس دخيلا بينهم، بل هو من أسرته وجماعتهم، ولكنهم انحرفوا عن الإنسانية، قال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ

الْعَالَمِينَ ﴿ الفاحشة: الأمر الزائد زيادة فاحشة بعيدة عن كل معقول، ما سبقكم بها أحد من البشر أى اخترعتموها لانحراف نفوسكم وعقولكم عن حكم الفطرة، فارتكبتم فاحشة لم يقع أحد من الناس قبلكم، وفسرها بعد ذلك الحكم القاسى الذى يليق بهم وأمثالهم من شواذ بنى الإنسان ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أكد لوط - عليه السلام - فعلتهم النكراء، بـ «إِنَّ» وباللام. يأتونهم أى يضعون فيهم ما يوضع فى النساء، وعبراً بالرجال لبيان مخالفة الفطرة بوضع ما هو للنساء فى الرجال، وهذه شناعة لا حدود لها، ويظهر أنها كانت معروفة عند اليونان والرومان ولكن ليست شائعة؛ ولذا وجد خالد بن الوليد عند فتح الشام مثل هذه فأرسل إلى خليفة رسول الله أبى بكر - رضى الله عنه - يخبره بأنه رأى عجباً، رأى الرجل يفترش الرجل كما تفترش النساء، فسأل عن هذه الحال، فاستشار الصحابة فى حكم هذه الحال والحد الواجب.

وقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول مطلق لمحذوف تقديره، تشتهونهم شهوة من دون النساء، أى يكون منكم ما يكون للنساء، وهو فى الفطرة. وهذا بيان لعكسهم للفطرة، إذ يشتهون ما ليس موضع شهوة لانحراف نفوسهم وعقولهم، وإنسانيتهم، مُضْرِباً عن ذلك بالترقى فى أوصافهم بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وبلى هنا للإضراب ببيان أوصافهم، فوصفهم بأنهم مسرفون فى البهيمية، إذ أتوا ما لا ترضى به البهائم، ومسرفون فى التفحش إذ خرجوا على سنة الإنسانية، ومسرفون فى هذه العادة الشاذة، فهم يُعْرِضُونَ عن النساء، ويطلبون الرجال، ومسرفون فى أفعالهم، فإن من يشيع فيهم هذه الحال تكون كل أفعالهم شذوذاً فى شذوذ، كما ترى الآن فى أمريكا، وما يشبهها ممن تقع فيهم هذه الحال، حتى إنه فى إنجلترا يعترف بأن للشباب أن يتزوج الشاب، وتحترم هذه العلاقة الشاذة.

ومعنى شيوع هذه العادة الشاذة فى قوم لوط، أنها كانت تقع ولا تستنكر، وكان ذلك كثيراً، وكان أكثرهم لا يتناهى عن ذلك، ولا يعده سبة وأمراً غير جائز، ويروى الحسن البصرى أنهم كانوا يفعلون ذلك فيمن يجيئون إليهم من

الغبراء. فهل أجاب قوم لوط بالارتداد؟ بل طلبوا إخراجهم؛ لأنه يتطهر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (٨٢).

استمكن ذلك الفساد، حتى أصبحوا لا يطبقون أن يكون معهم من يتطهرون عن فعله، وقد أجابوا شاعرين بأنهم ليسوا على خير، وأنهم في دنس لا يلتئم معهم من يتطهرون عن إثمهم، و«القرية» كما علمنا هي المدينة التي يجتمع الناس فيها.

أنزل الله تعالى على هؤلاء الذين رضوا بهذه المهانة الإنسانية، وذلك الشذوذ عذابا مهينا، بينه في آية أخرى نستعيرها من موضعها في هذا الموضع، فقد قال تعالى مبينا الحال عند نزول العذاب في الدنيا: ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ﴾ (٨٢) ﴿مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ (٨٣) [هود].

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤).

وهكذا عاقبهم الله تعالى بجعل أرضهم عاليها سافلها، وبحجارة نزلت عليهم؛ ولذا قال مالك إمام دار الهجرة: إن عقوبة الذين عندهم هذا الشذوذ الرجم؛ لأن الله تعالى رجمهم، سواء أكانوا محصنين أم كانوا غير محصنين. وقال أبو حنيفة: إن هذا فساد ولم يوجد له حد منصوص عليه فتكون عقوبته التعزير، وقال الشافعي: عقوبته كعقوبة الزنى في حالتى الإحصان وعدمه، وروى عن على وأبى بكر وتبعهما بعض المجتهدين: الإحراق بالنار؛ لأن أبا بكر عندما أرسل إليه خالد كتابه الذى أشرنا إليه استشار الصحابة، فأشار علي بحرقهم بالنار فارتضاه.

وإن هذا الشذوذ نراه الآن ذائعا في إنجلترا حتى أباحتها قوانينها بالنص عليه، ويشتهر بينهم، حتى صار زواجا بين رجلين، كما أشرنا.

وهو في أمريكا شائع ذائع، حتى رأينا من يشغل مناصب سياسية يقبض عليه متلبسا لا بأنه فاعل، بل على أنه مفعول به؛ ولذا شاعت عندهم السياسة المتبجحة التي لا تخجل قط!!

من قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ
مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا
فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

بعث الله - سبحانه وتعالى - بعد لوط صالح إلى مدين، أخاهم شعيبا، ولم يذكر في القرآن الكريم معجزته التي ثبت بها أنه رسول الله، ولكن عدم ذكرها لا يدل على عدم وجودها، فإن كل نبي بعث ومعه ما مثله آمن عليه البشر، فما بعث نبي إلا ومعه حجته، وإن لم يكن من حجة فلا بد أن يطالبوه بها، وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر معجزته فلم يذكر أنهم طالبوا بمعجزة دالة على الصدق ولكنهم جحدوا واستكبروا.

وما ذكره القرآن الكريم من رسالة شعيب - عليه السلام - يدعو على أنه دعا إلى ثلاثة أمور:

أولها - عبادة الله تعالى وحده، وهي لب الرسالة، وهي أول ما نادى به: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ناداهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ للإشارة إلى ما يربطهم به من نسب، وأنهم أولى بتصديقه، وأولى الناس بأن يصدقهم ولا يكذبهم، وقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى معجزة مبينة رسالته، وهذا دليل على أنه كانت مع هذا الرسول الأمين معجزة ملزمة تحدى بها، وعجزوا عن أن يأتوا بمثليها.

ثانيها - أنه جاء بإصلاح اقتصادى اجتماعى، ومظهره الوفاء بالكيل والميزان فى التعامل: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ومقتضى هذا الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان فى كل ما يتعاملون فيه، ومقتضاه ثانيا ألا يبخسوا أى لا ينقصوا الناس أشياءهم أى حقوقهم، فلا يأكلوا أموال الناس بالباطل، ولا يرشوا الحكام، ولا يمتطوا الدين وهم قادرون، وأن يعطوا كل ذى حق حقه كاملا غير منقوص، ولا ممتول، ولا يكون تطفيف فيه على وجه ولا تصعيب فى الأداء.

ثالثها - ألا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها؛ ولذا قال - عليه السلام - فيما طلبه إلى قومه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨٩٧﴾، أى بالحق؛ ذلك أن إعطاء الناس حقوقهم كاملة غير منقوصة خير لكل جماعة؛ لأنها متوادة متراحمة، ويكون أداء الحقوق قوة لها فى نفسها وأمام أعدائها، فلا قوة لأمة إلا بإقامة العدل والقسطاس، وإعطاء كل ذى حق حقه من غير وكس.

ولقد كان منهم من يقطعون الطريق، ويحاربون أمن الناس، ومنهم من كان يمنع الذين يريدون أن يستمعوا إلى شعيب، وكان منهم المكاسون الذين يفرضون من أنفسهم ضرائب على الناس ليمروهم إلى مآمنهم، ففى سبيل منع الفساد، والتهيئة للقضاء على المفسدين قال لهم - عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ «الصراط» الطريق المعبّد المستقيم الذى يسير فيه السابلة ويتقلون فيه من مكان إلى مكان أو قرية إلى قرية أو مصر إلى مصر، لا تقعدوا فيه تواعدون المارة، وتقطعون الطريق، وهذا هو القعود الحسى والمنع الحسى الواضح الأذى، وهناك منع معنوى، وهو ليس لمنع المارة وقتلهم، أو سرقتهم، ولكنه للصد عن سبيل الله بمنع الناس من الإيمان بالله وحده، يصدون بهذا عن سبيل الله تعالى من آمن ويبغونها عوجا أى معوجة لا استقامة، وهم يغفلون الأمرين بكل صراط مستقيم، يقطعون السبيل على المارة، ويصدون عن سبيل الله.

ويصح أن يفسر «الإيعاد» بإيذاء المؤمنين وتعذيبهم أو التهديد بتعذيبهم، كما يتبين من بعد. وصد من آمن، يراد به منع من هم بصدد الإيمان من أن يدخلوا فيه، وإيذاء من آمنوا، وإيعادهم بالعذاب الشديد. ويذكرهم بأمرين، بنعمة الله تعالى عليهم إذ كثر جمعهم بعد قلة، والثانية بعاقبة من أفسدوا من قوم نوح، وعاد وثمود، فقال لهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾ أى جعلكم كثيرين، ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين أفسدوا فى دينهم، فأشركوا مع الله تعالى غيره، وأفسدوا

فى جمعهم، فلم يوفوا الكيل والميزان، وبخسوا الناس أشياءهم وأكلوا أموالهم، وظلموهم.

وقد استجاب ناس من قومه، فأمنوا، وعصى آخرون فجحدوا، فذكر القسمين، وأن الله تعالى هو الذى يحكم بينهم، فقال لهم - عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)، وهذا فيه تبشير للذين آمنوا؛ لأنهم يعبدونه وحده؛ لأنه لا يمكن أن يحكم لصحة ما يقول الذين يشركون معه حجارة، وهو إنذار للذين لم يؤمنوا؛ لأنهم يشركون ويعبدون غيره وهو - سبحانه وتعالى - وحده خير الحاكمين، وأفعل التفضيل ليس على بابه، لأنه لا خير فى حكم سواه، فهو أحكم الحاكمين.

كان هذا ما بين شعيب وقومه، فماذا كان جواب قومه ؟، قد أشار - سبحانه - فى النص الكريم السابق إلى أن منهم من آمن، ومنهم من لم يؤمن وكان رأس من لم يؤمنوا، كبرأؤهم، وقد قال تعالى فى موقف هؤلاء الكبراء:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَاهِنِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَصِيحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا إِتَّكُمُ إِذَا الْخَسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩١﴾
الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَبًا

كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنُوحِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ
 أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ
 عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

هكذا كانت دعوة شعيب الهادية المرشدة بعد أن بين لهم الحجة الدالة على رسالته، ولقد آمن بعضهم، وأعرض غيرهم، فماذا كان جواب قومه الذين يقدون الشرك منهم؟.

قال رؤسائهم المسيطرون: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾، وإليك ذكر القرآن الكريم لأقوال هؤلاء: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أى الكبراء وساداتهم، ووصفهم - سبحانه - بأنهم الذين استكبروا وكذبوا بآيات الله تعالى وصموا آذانهم عن الحق: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أكدوا بالقسم بأن يخرجوهم من قريتهم، أو يعودوا فى ملتهم، مؤكدين الإصرار على الخروج بالقسم، أو الإصرار على العودة فى ملتهم.

فأجابهم شعيب نبي الله - عليه السلام - موبخا بأن ذلك ضد الحق، والحرية فقال: ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾، أى تخرجوننا على الرغم منا، ولو كنا كارهين فعلتكم لأنها غير الحق، وأنها الباطل الذى لا ريب فيه.

ويؤكد لهم شعيب أن مطلبهم العود لن يكون أبدا، فهما حاولتم الإيذاء والتهديد فيقول - عليه السلام - لهم: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ «قد» هنا للتحقيق كما هى فى كل استعمالات القرآن الكريم، سواء أدخلت على فعل ماض أم دخلت على فعل مستقبل ﴿افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أن نعود إلى ملتكم أى كذبنا على الله تعالى كذبا مقصودا متعمدا إذا عرفنا الحق، واعتنقناه، ثم كفرناه، وأكد - عليه السلام - هذا المعنى بقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ أى بعد نجاتنا، وإخراجنا من الضلال إلى نور الهداية، ثم قال - عليه السلام - مؤكدا عدم العود: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أى ليس لنا بعد أن

رأينا النور وصرنا فيه، أن نعود إلى الظلمة، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أى إلا أن يريد ربنا وخالقنا لنا الضلالة بعد الهداية، ويكون ذلك بعمل منا، ثم صرح - عليه السلام - بالتفويض لله تعالى فقال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وعلمنا هنا تمييز محول عن مفعول، ومعناه وسع ربنا علم كل شيء، فهو يعلم ما كان وما يكون، وما هو كائن ثابت، ولذا لا يتوكل إلا على الله ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وذلك رد لتهديدهم بالإخراج، فالله ربنا عليه توكلنا، ولن يغلبه تهديدكم، فإذا كنتم تستعينون بجبروتكم وكبرياتكم، وغطرستكم، فنحن نعتمد على الله، ومع ذلك تذهب رحمة النبوة إلى تجنب العداوة والاتجاه إلى الله تعالى الذى يعلم الحق كله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، أى افصل بيننا وبين قدمنا بالحق، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

وقد ذكر - سبحانه - تهديد الكافرين للمؤمنين بالإيذاء فقال تعالى عنهم:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا مِنْكُمْ إِذَا لُخَسِرُونَ (٩٠)﴾.

انتقلوا من التهديد العام لشعيب ومن معه إلى تخصيص الذين اتبعوه بتهديد خاص، ووضح أنه للمؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى استجابة لدعوة شعيب ليستغلوا ضعفهم، وهم الكبراء، مؤكدين خسارتهم بسبب اتباعهم لشعيب، وأكدوا تهديدهم بالقسم بما يقسمون به ويقولون ﴿إِنْكُمْ﴾، واللام فى قوله تعالى: ﴿لُخَسِرُونَ﴾ ويترتب ذلك على الاتباع، بذكر الإيذاء باعتبار الخسران نتيجة للخسران.

وما كان الله ليذر المشركين يهددون المؤمنين، ويصدون عن سبيل الله، وهى سبيل الحق، ولذا أنزل تعالى بهم ما أوعدهم، وما تحذوا به شعيبا، أن يأتى به إن كان من المرسلين؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)﴾.

الفاء هنا فاء السببية، أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، أى أنه بسبب تكذيبهم وكفرهم وصددهم عن سبيل الله تعالى أخذتهم الرجفة، وهى زلزال شديد، هز ديارهم هزا عنيفا فهدمت على أهلها، وصاروا مقيمين أمواتا تحت ركامها، وذهب تعالى بهم كافرين، وكأنهم لم يكونوا فيها، ولم يقيموا بأرضها؛ ولذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٢) لم يغنوا أى كأن لم يكونوا مقيمين فيها، فقد قطع دابر القوم الظالمين، وذلك بسبب تكذيبهم لشعيب وصددهم عن سبيل الله، وإن الله تعالى غالب على كل شيء.

لقد تهدد الكافرون المتغطرسون المؤمنين بأن يكونوا خاسرين إن استمروا على اتباعهم لشعيب، فذكر - سبحانه - أن أولئك المكذبين هم الخاسرون حقا وصدقا، فقد خسروا أنفسهم فكفروا وضلوا، وخسروا ديارهم فهدمت، وخسروا يوم القيامة، فكانوا حطاب جهنم، وهم فيها خالدون.

وماذا كان من أمر نبي الله تعالى الذى كذبه وهو شعيب فقال سبحانه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عنهم عندما علم أنهم قد أصروا على الكفر إصرارا، وآذوا المؤمنين، أعرض عنهم ونزل بهم ما نزل، وعند إعراضه، قال لهم - عليه السلام - عند نزول البلاء عليهم، وقد توقعه فوقع ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ كيف أحزن على قوم كفروا، وأصروا على كفرهم حتى ماتوا وهم كافرين.

وفى هذا الكلام من نبي الله شعيب إشارة إلى محبته لهم ابتداء، وطلب الهداية لهم، ولكنهم كفروا، فلم يحزن عليهم، وكان غريبا أن يحزن عليهم مع موتهم كافرين.

سنة الله في الأمم

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا
أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ
ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرْتُوبَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصْبَنَهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
لَاكُثْرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

بعد أن قص الله - سبحانه وتعالى - قصص نوح، وهود وصالح ولوط،
وشعيب، أخذ يبين - سبحانه وتعالى - سنته في الناس، ومعاملتهم لأنبياء الله،

وكيف يختبرهم بالشر والخير فتنه، وذكر هذه السنة سبحانه، ليعتبروا بالقصص، ويروا ما يصلح حالهم، وما يحملهم على السير في طريق الخير، وليعلموا أن الله تعالى يختبر بالنعمة، ويعاقب من لا يشكر، وليروا بأعينهم سنة الله تعالى في الظالمين، وما ينزله من عقاب دنيوى يحل بديارهم فوق العقاب الآخروى الذى يستقبلهم، فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤).

هذا بيان الله تعالى للأمة من الأمم إذا بعث فيها نبيها الذى يدعوها إلى الإيمان بالله تعالى وحده، ويدعوها إلى الخير الذى يصلحون به فى الدنيا والآخرة، ويقدمون على الله يوم القيامة بالعمل الصالح، فيجزئهم جزاءه وفقاً لما قدموا، فيقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ أى فى مجتمع أمة من الأمم ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من هنا بيانية، والمعنى وما أرسلنا فى مجتمع كبير، فالقرية المجتمع الكبير الذى يقرى إليه الناس ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أى أن الله تعالى لا يرسل نبيا مؤيذا بالمعجزات، إلا يوطن النفوس به - عليه السلام - ببيان قدرة الله تعالى، فيأخذها ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ وهى شدائد الفقر والحرمان والتعرض للطغيان من الحكام، ﴿وَالضَّرَاءِ﴾، وهى ما يصيب الأبدان من مرض شديد مختلف الأنواع، لا قبل لهم به، وإذا مسهم الضر دعوا الله تعالى، وضرعوا إليه، كما نزل بأهل مكة عند مقدم النبي ﷺ إلى هذا الكون الإنسانى.

وأخذ الله تعالى للقرى التى بعث فيها النبي بذلك؛ لأن الشدة تولد فى قلب من عنده استعداد للإيمان الاتجاه إلى طلب النجاة، فتخضع النفس للحق إذا دعيت إليه، فإنه حيث الضعف أو الشعور به تنبع منابع الإيمان، وتتجه النفوس إلى الديان، وإن الله تعالى يختبرهم بذلك رجاء أن يضرعوا ويخضعوا، ويدلوا له - سبحانه وتعالى - وحده، فإنه وحده الخالق لكل شىء الذى يلجأ إليه عند هذه الشدائد.

ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرُّعُونَ﴾ أى ليرجو الضراعة والخشوع لله تعالى، وحيث كانت الضراعة، كان انفتاح القلب للإيمان؛ لأن الضراعة أعظم العبادة، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً... (٥٥)﴾. يختبرهم سبحانه من بعد الشدة بالنعمة؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضُّرُّ وَالسَّرُّ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا لبيان التراخي والافتراق بين ما كانوا عليه من بأساء أصابت أحوالهم، وضراء أصابت أجسامهم وما اختبرهم من نعماء عمتهم، فالفارق المعنوى والحسى بينهما عظيم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى جعلنا بدل السيئة فى مكانها الحسنة، والسيئة هى ما يسوء وهى هنا البأساء والضراء، لأنهما تسوءان، والحسنة هى هنا الخير الذى يفيض به عليهم بعد الشدة، وصور الله زيادة الخير بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾، أى كثروا، ونموا وزادوا، فالعفو يطلق بمعنى الكثرة وبمعنى اليسير، وبمعنى درس، وقدم.

وهى هنا بمعنى كثروا ونموا، وزاد الخير فيهم، فعندئذ لا يذكر الجاحدون أنه فضل الله تعالى ونعمته، وأنه إذا كانت الشدة توجب الضراعة، فالنعمة توجب الشكر، ولكنهم بدل أن يشكروا، يقولون ذلك لنا وهو ما كان لأسلافنا وآبائنا مستهم الضراء والسراء، وهكذا دواليك، نسوا الله، وحسبوا أمرا ينزل بهم خيرا بعد ضر، وإذا كانوا ضرعوا فى الشدة، فقد كفروا بالنعمة وهم يمرحون، وكذلك شأن الجاحد دائما كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ... (١٢)﴾ [يونس] كما قال تعالى فى شأن النفس الإنسانية: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا قَلِيلًا (٩) وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرٍّ مَسَّهُ لَيَقُولُنَّ زَبَّابُ السَّيِّئَاتِ عَنِيَ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾

[هود].

وهكذا شأن الكافر، تبسه الشديدة، وتطغيه النعمة، فهو غير ثابت النفس، منكر لحكم الله تعالى، وأما المؤمن فقلبه مطمئن بالإيمان ثابت قار؛ ولذا قال ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»^(١) فالنعم والنقم للمؤمن سواء في خيريتها؛ النقم تصقله وتهذبها والنعم يحس فيها بوجوب شكر المنعم، ولقد قال ﷺ: «إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه»^(٢).

إن الجاحدين أذلتهم المحنة، وأطغتهم النعمة وكفروا بالنبي الذي بعث لهم، ولم تُجدّ فيهم الشديدة ذاقوها، ولا النعمة فاضت عليهم، بل زادتهم النعمة جحودا، وقالوا هكذا كان آباؤنا مستهم الضراء والسراء، فسنة الأولين تجرى علينا، ونسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، وبيننا هم يرتعون فيما أنعم الله عليهم لاهين عنه - أنزل بهم عذابه فقال: ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

«الفاء» هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه بسبب أنه لم تُجدّ فيهم الشدة، وأغرتهم النعمة، عاقبتهم، فأخذناهم إلى الهلاك، بالرجفة أو بريح فيها عذاب شديد، أو جعلنا قريتهم عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، وكان ذلك بغتة، لم يتوقعوا وقوعه، بل جاءهم فجأة وهم لا يشعرون، أى لا يحسون بأنه سينزل بهم، وإن الفجأة تكون شديدة على من لا يؤمن بالله تعالى؛ لأنها تأخذه وهو فى مرحه وعبه، وذلك بخلاف المؤمن؛ ولذا قال ﷺ: «موت الفجأة راحة للمؤمن، وأخذه أسف للكافر»^(٣).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦).

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الدارمي، وأبو داود بزيادة فيه، وراجع الفتح الكبير ١/ ٣٣٢، ومشكاة المصابيح ٢/ ٦١٢.

(٣) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار - باقى المسند السابق (٢٤٥٢١).

إن الكون يسير على سنة الله وعلى نواميس محكمة يدبرها منشئ الكون وخالقه، والقيوم عليه بحكمته وإرادته المختارة، فهو الفاعل لما يريد.

وإن من سنته - سبحانه وتعالى - أن يوزع الأرزاق على من يستحقها في علمه المكنون، وهو العزيز العليم، وفي هذا النص الكريم يتبين أنه - سبحانه - يعطى القرى حسب إيمانها وتقواها، ويشير إلى أنه إن أمهل الظالمين قاطع عليهم خيرهم جزاء ما اكتسبوا.

يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا﴾.

﴿وَلَوْ﴾ يُسْمُونَهَا امتناع لامتناع، وهى داخلة على فعل مقدر تقديره: لو ثبت أن أهل القرى - أى المجتمعات الكبيرة - التى يقرى إليها الناس آمنوا بالله حق إيمانه، واتقوه حق تقاته لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا﴾ جواب، و«اللام» دالة على الجواب، والمراد - والله أعلم - أنزلنا عليهم من السماء، وأنبتنا لهم النبات فى الأرض، على أن يكون ذلك بركة، أى خيراً كثيراً نامياً، فالظاهر إنزال المطر، وإنبات ثمرات كل شئ من عند الله تعالى.

والتعبير بـ«فتحنا»، تعبير مجازى، شبه فيه نزول المطر وانهماره بفتح السماء والأرض فشبه نزول المطر مدراراً من السماء عليهم بفتح باب يدخل فيه الناس أفواجا أفواجا، وذكر قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قرينة على أنه المطر، وإن ارتباط الأرزاق بالتقوى والإيمان ذكره الرسل فى دعواتهم إلى أقوامهم، فقد قال نوح لقومه: ﴿... اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١١) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١٢)﴾ [نوح] وقال هود لقومه: ﴿... ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (٥٢)﴾ [هود] ورسل الله تعالى لا يخدعون أقوامهم، بل إنهم الصادقون المبعوثون رحمة للعالمين. ولقد قال فى يونس وقومه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمَنُوا فَمَعَنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس].

وهكذا نجد النصوص الكريمة تفيد أن مقت الله تعالى من الضراء، والشدائد تنزل بالعاصين كما قال سبحانه، وكما جرى على السنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ولقد رأينا ذلك رأى العين، فقد وجدنا رجالا كفروا بأنعم الله وساقوا أمهم إلى الفجور، والعصيان، فنزل عليهم غضب الله تعالى فى خذلان مستمر، ونكسة وراء نكسة.

وإنا لا نقول مقالة بعض الفلاسفة الذين يربطون الأخلاق الإنسانية بنظام الكون، فيقولون: إذا فسدت الأخلاق، اضطرب الكون، وانعكس الفساد فى سير الأفلاك، وفى السماء وفى الأرض، وهى الفلسفة الكونفوشيوسية.

لا نقول ذلك، ولكننا نرى أن الله تعالى ربط الكفر والعصيان بهلاك الأمم، وربط فتح الأرزاق بالتقوى والإيمان، لنؤمن به، ولكن لا نغالى مغالاة الفلاسفة.

ويجب أن ننبه إلى أن المؤمنين قد يختبرون بالشدائد والمكاره ليتبين صبرهم، ويحق جزاؤهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة].

فإن ذلك الاختبار للقوى المؤمنة فى تقواها، لا يمنع أن الله تعالى ينزل عليهم خيرهم، والعاقبة للمتقين.

بين الله تعالى أن أهل القرى لو آمنوا لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، ولكنهم لم يفعلوا؛ ولذا قال: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الاستدراك هنا من الوعد بفتح السماء والأرض بالبركات، فهم كذبوا ولم يؤمنوا، ولم يتقوا، فحق عليهم العذاب الشديد فى الدنيا والآخرة؛ ولذا قال تعالى كلماته: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «الفاء» هنا لترتيب ما بعدها على

ما قبلها، أى بسبب هذا التكذيب أخذناهم بالرجفة أحيانا، وبإمطار الحجارة أحيانا، وبعذاب من رجز اليم.

وذلك بسبب ما كانوا يكسبون من كفر وجرائم إنسانية، واغترار بالحياة الدنيا.

ومع توالى العبر، ووقوع عذاب الله بالكافرين يفترون بالدنيا، ولا يحسبون حسابا لعذاب الله النازل بهم فى الدنيا؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ٩٧﴾ «الفاء» عاطفة ترتب ما بعدها على ما قبلها، وهى داخلة على ألف الاستفهام، ولكن قدمت ألف الاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع، أى ما آمن أهل القرى أن يأتهم بأسنا بياتا وهم نائمون.

إن الذين تأخذهم الدنيا بغرورها ينسون بأس الله تعالى، ولو كانوا يذكرونه ما غفلوا، وما نسوا أنه قادر على كل شىء، وفى أى وقت، فليس لهم أن يأمّنوا أنهم مستمرون فى غيهم من غير أن ييغتهم الله ببأس شديد.

فهذا الاستفهام تنديد لهم بفعلتهم، فهم لا يأمّنون هذا، ولكن حالهم توهم أنهم آمنوا، فالله تعالى ينبههم إلى أنه أمان الغافل الذى لا يعرف أنه يعاند الله.

و﴿بَأْسُنَا﴾ أى الشدة التى تنزل بهم عقابا على جحودهم، وعبرة لغيرهم تحيئهم ليلا، وتحيئهم ضحى، والله محيط بهم، وقوله تعالى: ﴿بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يشير إلى أن بأس الله تعالى يأتهم وهم فى غفلتين، غفلة الليل والبيات فيه حيث الأمن والدعة والقرار، والغفلة الثانية - غفلة النوم حيث يكون النعاس قد غشيهم، وهم لا يفكرون فيما ارتكبوه من عناد وجحود لله تعالى الذى لا يغفل عنهم أبدا.

فهل آمنوا هذا، وهم لا يملكون شيئا بجوار قدرة الله تعالى: وإذا كانوا لا يأمنون بأس الله ﴿يَبَاطًا﴾، فإنهم لا يأمنون به ضحى؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩٨).

«الواو» واو العطف دخلت على همزة الاستفهام، ولكن قدمت الهمزة في السياق؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام هنا إنكارى، بمعنى نفى الوقوع مع التوبيخ، أى لا يؤمنون أن بأس الله وشدته التى تكون نكالا وعبرة، أن يأتيتهم ضحى، فى النهار وضحاها، والشمس ساطعة تبين كل شىء وتكشفه، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ سعى الله تعالى عملهم لعبا، واللعب هو العمل العابث الذى لا يقصد ضرا ولا نفعاً، سعى - سبحانه وتعالى - عملهم لعبا لأنهم ما داموا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يكون عملهم كاللعب؛ لأن القصد الطيب هو أن يكون طاعة لله تعالى، وقد عصوه، فإن العمل الذى يخرج عن اللعب هو عمل الخير، ولا خير فى معصية، ولا خير يكون من جاحد، يشرك مع الله أحدا.

وإن الآيتين الكريمتين تفيدان أولا أنهم فى غفلة لاهون لا يشعرون بعاقبة أعمالهم، وآثامها، وإنهم عمون غير مدركين. وتفيدان ثانيا أن بأس الله تعالى يأتيتهم من حيث لا يحتسبون ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم يلعبون، وإن ذلك بتدبير الله تعالى، ولذا قال بعد ذلك:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩).

«الفاء» هنا عاطفة يترتب ما بعدها على ما قبلها، لأنهم إذا كانوا لم تجدهم النعمة ولا النعمة، وبأس الله يأتيتهم فى مأمنهم ليلا وهم نائمون، وضحى وهم يعملون عملا لا جدوى فيه فهو لعب أو كاللعب، فهم لا يأمنون.

ومكر الله تعالى تدبيره المحكم الذى يُنزل به العذاب السريع على من يستحقه، والأمن والطمأنينة لمن يستحقه، وهو الحكيم، وقد فسر بعض المفسرين بأنه العذاب، أو البأس الشديد، وهو تفسير بالنتيجة، إنما هو من الله التدبير

المحكم. والمكر قسمان: مكر سيئ وهو الذى يكون من الأشرار، ونتيجته شر، ومكر طيب وهو رد مكر الأشرار، ونتيجته طيبة، ولقد قال فى شأن قريش فى تدبيرهم للنبي ﷺ أن يشتوه أو يقتلوه أو يخرجوه: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران] أى أنهم كانوا يدبرون لإيذاء النبي ﷺ، ويمكرون المكر السيئ الذى لا يحق إلا بأهله، والله تعالى يدبر لنبيه نجاته منهم، وهجرته من أرضهم من غير إخراج، حتى يكون الفصل بينه وبينهم.

والاستفهام إنكارى بمعنى النفى والتوبيخ، فهم لا يأمنون مكر الله، ويوبخهم الله - سبحانه وتعالى - لأنهم غفلوا عن الحق، ونسوا تدبير الله تعالى المهلك لهم جزاء بما كسبوا، وبما كذبوا بآيات الله؛ لأنهم يأمنون مع ذلك العذاب الشديد ينزل بهم، وهذه غفلة شديدة، وعدم اعتبار بما كان لمن قبلهم؛ ولذا ختم الله - سبحانه وتعالى - الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

إن المؤمن يتفطن دائما لمقام قدرته تعالى بجوار قدرته، وإذا عصى يتوقع عذاب الله تعالى من عصيانه، ويتخوف ولا يأمن أن تنزل به العقوبة، وإن المؤمن لفرط حسه بمعصيته، وإيمانه بالله يخاف دائما عذابه، ولا يرجو إهماله وقد عصاه؛ ولذا كان من المبادئ الصوفية (تغليب) الخوف على الرجاء؛ لأن الخوف من غير إسراف على النفس من ورائه التقوى، والرجاء من غير أسبابه يفضى إلى الغرور، ووراء الغرور الاستهانة بأمر الله تعالى ونهيه.

والكافر يعصى، ويرى عصيانه حسنا، وينسى قوة الله، وأنه يعاند ويحارب أمره ونهيه، ناسيا أنه يعاند القوى القادر القهار الذى هو غالب على كل شىء، وأنه لا إرادة لمخلوق بجوار إرادته - سبحانه وتعالى - وعلى ذلك يأمن عذاب الله وتدبيره، وإن ذلك هو الخسران المبين؛ ولذا حكم الله تعالى بأنه: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وحكم الله تعالى بخسارتهم، مؤكدا الخسارة بالقصر، وأن الخسارة مقصورة عليهم، وخسارتهم فى أنهم خسروا أنفسهم فليسوا فى حال عقلية مدركة،

وخسروا أنفسهم بالاستمرار على غيهم، وخسروا بالعذاب الأليم الذى ينزل والله سبحانه هو الذى يقى المؤمنين شر الغفلة والنسيان وأمن عذاب الله، وجعلهم فى فطنة دائمة واعتبار بأمر الله ونهيه، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

وقد حذر الله تعالى الذين يرثون الأرض بأسه الذى ينزل بهم؛ ولذا قال: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾.

الواو عاطفة، وقدمت عليها همزة الاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة فى الذكر، وإن هذه عبرة القصص من ذكر أولئك الذين ذكر الله - تعالى بيانه - ذكرهم، وورث هؤلاء أرضهم.

والاستفهام إنكارى، للنفى، وهو حض للذين يرثون الأرض بعد أولئك الذى أنزل الله تعالى بأسه بهم، ومن الذين ورثوا الأرض أهل مكة، فهو تحريض لهم على النظر فى العبر من هذا القصص الذى ذكر فيه مآل الكافرين من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وآثارهم بجوار الأرض التى يقيمون فيها، فعليهم أن ينظروا ويعتبروا إن كانت لهم أبصار يعتبرون بها وعقول يهتدون بها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾، معناه يتيسر لهم، وقرئ بقراءة مشهورة متواترة: «أولم نهدي»، بالنون بإسناد الهداية إلى الله، ومعنى القول الكريم على هذا: أولم نبين لهم هادين مرشدين معتبرين بالقصص، أن لو نشأ أخذناهم بذنوبهم، وأنزلنا عليهم البأس الذى نزل بغيرهم.

و«هدى» يتعدى بنفسه، فى المفعول الأول، وباللام أو «إلى» فى المفعول الثانى، فيقال: هديناه إلى الخير، أو: إلى الطريق، أو للطريق.

وهنا فى قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ﴾ فيه نهدى، أو يهدى متضمنا معنى يبين، وذكر لفظ الهداية للدلالة على أنه بيان للهداية الحقّة.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ و«أن» هنا مخففة من الثقيلة أى أنه الحال والشأن لو نشاء أصبناهم أى أنزلنا عليهم بأسنا، كما أنزلناه على من سبقوهم بسبب ذنوبهم التى ارتكبوها من شرك ومحاربة لله تعالى، وكفر بالمبادئ التى جاء بها النبيون معاندين جاحدين، وأسباب الصدق ثابتة، وطرائق الهداية قائمة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أى الحال أننا نطيع على قلوبهم بخاتم الضلالة فلا يسمعون. وإن مغزى الكلام السامى فى هذا أن المشركين الذين كانوا يستعجلون العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ...﴾ [الرعد] إنهم كانوا يستعجلون العذاب، وساق لهم الله من قصص الكافرين وما نزل بهم، ألم يبين لهم؟! وقد استدرك - سبحانه - فقال: ﴿وَنَطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أى أن الله طبع على قلوبهم، فهم لا يسمعون القصص الحق، ولا يحاولون أن يدركوا مغزاه، وختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، وفى هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠١) وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين (١٠٢).

الخطاب فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ للنبي ﷺ؛ لأنه ﷺ قد جاء بالحق الذى يتفق مع الفطرة، فكان يجد الكفر والإنكار والعصيان ومعاداة الله ورسوله،

فتذهب نفسه عليهم حسرات، حتى قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، فالله تعالى يبين له العبرة فى قصص النبيين، وأن أقوامهم كفروا بهم وعاندوهم، حتى جاء أولئك بأسُ الله، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إنما أنت منذر، ولكل قوم هاد.

والقرى: المجتمعات الكبيرة التى قص الله تعالى قصصها من أخبار قوم نوح، وعاد وثمود، وآل مدين، وقوم لوط.

وقوله تعالى: ﴿نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ نتبع أخبارها بالقصص، والأنباء: هى الأخبار ذات الشأن الخطر التى تفيد العظة والاعتبار، والاطمئنان للنبي ﷺ.

هذه أخبارهم أو أنباؤهم ذات الشأن ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أى بالأدلة المعجزة الموجبة للإيمان، وأكد - سبحانه - أن الرسل جاءتهم بالبينات بقوله ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لأن اللام للتأكيد، وقد للتأكيد، والتأكيد ليس لمجىء الرسل، إنما هو لمجيئهم بالبينات التى فيها الحجج القاطعة التى لا يرتاب فيها طالب للحق، وإنما يرتاب المرتابون الذين لا يؤمنون بحق، ولا يطلبون الهداية، ولا يخضعون للحق إن بدت أماراته، وظهرت بيناته.

وقد وصف الله تعالى حال الذين يصلون، ويختم على قلوبهم بالباطل، فذكر أنهم مبادرون بالإنكار والتكذيب من غير أن يفحصوا ما جاء به الرسول من أدلة فإذا سبق الإنكار والتكذيب تشبثوا بهما وقد حججوا عن أنفسهم النور وكلما أمعنوا فى التعلق بما سبق إلى نفوسهم ازدادوا جحودا ولا تزيدهم الآيات إلا كفرا، وإعناتا.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ «الفاء» للإفصاح إذ تفصح عن شرط مقدر، وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، أى ما كان من شأنهم أن يؤمنوا وقد سارعوا إلى التكذيب بمعنى قبل أن يفحصوا بميزان الفعل،

ويثبتوا، ولقد قال فى ذلك ابن كثير فى تفسيره والباء فى قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَبُوا﴾ للسببية أى ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد لهم، حكاية ابن عطية رحمه الله، وهو متجه حسن.

وذلك لأن أول خاطر يتعلق بالنفس، ويلتصق بالفكر، فيكون التخلّى عنه محتاجا إلى جهد لا يستطيعه إلا الصابرون، وإن أولئك الذين يكذبون لأول وهلة من غير نظر يصلون إلى الحق بمجهودين أولهما الانخلاع مما سبق إليهم، والثانى التماس البينات بلب سليم، وفكر مستقيم قد خلا مما يعوقه.

ولقد بين تعالى أن هذا طريق إغلاق القلوب عن نور الحق ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

أى كهذه الحال التى رأيتموها من المسارعة بالتكذيب لأول وهلة والاستمساك بأهدابه، لطبع الله على قلوب الكافرين، فلا يدخلها نور الحق، فهم سلكوا الباطل مسارعين إليه، قبل أن يتبعوا، فلما جاءهم الحق بالبينات فكان القلب قد أغلق على الباطل، فضلوا وما أضلهم الله، إذ هم الذين سدوا الطريق وإن أولئك الذين طبع الله تعالى على قلوبهم قد أفسدوا فطرتهم بإصرارهم على التكذيب، وخالفوا العهد الذى أخذ الله على بنى آدم من ظهورهم ذريتهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾.

الفطرة الإنسانية توجب الإيمان، لو استقامت على طريقها من غير وسوسة الشياطين؛ ولذا قال ﷺ كما فى صحيح البخارى ومسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبوه يهودانه، وينصرانه ويمجسانه»^(١).

وروى مسلم بسنده أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فأصلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٢).

وإن الله تعالى عهد إلى بنى آدم من ظهورهم ذريتهم أن يؤمنوا بالله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ هذا عهد الله على بنى آدم، وهم فى ضلال آياتهم، قبل أن يصلوا إلى أرحام أمهاتهم، وهذا يدل على أن الإيمان المذعن هو استجابة للفطر، ومن يكفر بالحق إذ جاءه إنما يحيد بالإنسان عن طريق الفطرة المستقيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ الذين فسقوا عن أوامر الله تعالى ونواهيه التى جاء بها النبىون وكذبوا ليس لهم من عهد، يوفون به، حتى عهد الفطرة التى فطرهم الله تعالى، فهم خالفوا العهد الأول، وخالفوا كل عهد عاهدوه، حتى انحلت نفوسهم انحلالاً، و«من» هنا لاستغراق النفى، أى ما وجدنا لأكثرهم أى عهد يحترمونه، وينفذونه، وأولها وأقواها عهد الفطرة الذى أخذه الله تعالى فى الأصلاب.

وإذا كانوا لا عهد لهم، وخالفوا فطرة الله التى فطرهم، فهو فاسقون خارجون عن قضايا العقل البديهية؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن اسمها، وقوله تعالى: ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، والمعنى إنه أى الحال والشأن وجدنا...

واللام فى قوله ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ لام التوكيد، واقعة فى خبر إن.

ونجد هنا حكم الله تعالى العادل، يحكم بالكثرة الغالبة، لا بالكلية الشاملة، فمنهم صالحون ومنهم فاسقون وإن الأمم لا توصف كلها بالفسوق؛ لأنها تفسق كلها، إنما توصف بالفسق؛ لأن كثرتها الغالبة المسيطرة، الفاسقة فهى الظاهرة البارزة، وهى المسيطرة على الجماعة، وهى التى توجد رأياً عاماً فاسداً، يسوده الشر، ويختفى فيه الخير والله رءوف بالعباد.

موسى وفرعون وبنو إسرائيل

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
 حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
 بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ
 جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى
 عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
 لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ
 عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
 قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا ثَوَكُ
 بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
 لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
 لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ
 نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا
 أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
 ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
 يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغلبوا
 هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾
 قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

ذكر الله تعالى أخبار الأنبياء الذين أشرك أقوامهم، ودعوة الأنبياء لهم فذكر نوحا وقومه، وما نزل بهم، وذكر عادا، ونيهم هود، وشمود ونيهم صالحا، وذكر لوطا وقومه وما كانوا عليه من مفاسد لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

وقد بين - سبحانه وتعالى - سنته في هداية الأقوام، وكيف يضلون.

ومن بعد ذلك ذكر موسى - عليه السلام - وأنه لقي أكبر طاغية في عصره، وإن وجد من حاول محاكاته من بعده ومع موسى وفرعون ذكر لأحوال بني إسرائيل، بعد أن أنقذهم موسى - عليه السلام - من فرعون الذي كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم.

وإن هؤلاء في الزمن بعد من سبق ذكرهم في القرآن من نوح إلى شعيب، وأكثر أولئك كانوا في البلاد العربية. وموسى - عليه السلام - نشأ في مصر، وبعث في أرض مصر، وتقدم هو وأخوه هارون لدعوة فرعون.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ يدل على بعد الزمان والمكان ما بين هؤلاء الذين جاء ذكرهم من الأنبياء، وموسى - عليه السلام - فأولئك كانوا قبله بقرون وكانوا في أرض العرب، وموسى في أرض مصر، وأولئك خاطبوا أقوامهم في صحراء أقرب إلى البادية ولم تعرف لهم حضارة، وموسى - عليه السلام - كان في أرض فرعون، وفيها ملك ثابت، وإن لم يقم على الإيمان، وكانت مصر ذات علوم وفنون.

ويقول الله تعالى في بعث موسى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فلم يكن إلى فرعون وحده، بل كان إليه وإلى الكبراء من قومه فذكرهم مع أنه إذا ذكر جاءوا في ذكره ضمنا، ونقول: إن كل ذي طاغوت لا يكون طاغوته من شخصه وحده،

بل منه ومن حاشيته فهم مطبوعون بطابعه، يزينون له ما يفعل، ويحسنونه ويؤيدونه، ويشجعونه، ولولا أنهم حوله ما طغى وبغى، أو ما كان طغيانه بالمقدار الذى وصل أو يصل إليه كل طاغية، ولقد رأينا بعض الطواغيت فى هذا الزمان يتخذ حاشية تعينه على الظلم، بل تطفى عليه وهو لا يشعر، رأينا ذلك رأى العيان؛ ولذا خص الله تعالى ملاً فرعون بالذكر، وسنجد من سياق القصص الحكيم فى أمر فرعون أنه ملاءه كان يعاونه بالقول والفعل، ويسكت عن جرائمه من اعتراض دائماً.

وقد نسب الله تعالى الظلم إليهم مع فرعون ولم يفرد بالظلم، فقال: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فلم يكن الظلم من فرعون وحده بل كان منه ومن هذا الملاء والشعب مأكول فيهما ومأسور بظلمهما.

والظلم يشمل ظلم الرعية، ويشمل الظلم فى العقيدة بالشرك، وإن الشرك لظلم عظيم، والظلم يؤدى الفساد، فالشرك فى العقيدة إفساد للعقل والفكر والنفس بالضلال، والضلal أبلغ أنواع الشرك، والشرك ينشأ من الأوهام ويؤدى إلى كثرة الأوهام والضلal، ألم تر أنهم كانوا يعبدون العجل، والظلم يؤدى إلى فساد الرعية بالخنوع والطاعة للظالم، والرضا بالهون، وفقد الحرية والاندفاع فى الظلم، حتى ساغ له أن يقول لهم: ما أريكم إلا ما أرى.

ولذا قال تعالى بعد أن ذكر الظلم: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ انظر يا محمد مآل الذين أفسدوا فى الأرض بشركهم وإرهابهم للرعية، واستبدادهم إنى عاقبتهم أن أغرقوا فى اليم، ولم يُجد فرعون وملاءه أن قالوا: آمنا برب هارون وموسى.

فلننظر إلى ما كان من فرعون أكبر طاغية فى عصره، ويحاكيه الطغاة فى كل عصر، وقد كان فرعون جاهل فى أرض مصر، وسام أهلها سوء العذاب، لجنونه وحمقه وجهله، حتى أرداها فيما لم تترد فيه فى أى عصر من عصورها.

أيد الله موسى بمعجزات كثيرة، عدها الله تعالى آيات، أيده بالعصا، وباليد البيضاء من غير سوء والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، وكانت هذه الآيات الكثيرة لإمعانهم في الضلال والطغيان، وكانت كل آية تأتي في حال تناسبها، ووقت الحاجة إليها.

موسى يواجه فرعون

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾.

«الواو» عاطفة على ﴿بَعَثْنَا﴾ وهذا الكلام تفصيل لمعنى بعثة موسى، واجه فرعون ومعه أخوه كما جاء في سورة طه، وكما سيجيء في هذه، وتقدما إليه، وهما في وجل بشرى ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه]، والطاغى يرهب لأنه لا قيد من حق أو دين أو إيمان أو خلق، ولكن الله أيدهما، فقال: ﴿... لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾ [طه].

تقدم موسى إذ علم أن الله معه، وهو فوق الجبارين قاهر فوقهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ يُشعر فرعون

بالخوف من الله كما شعر أولا بالخوف من فرعون حتى ثبته الله وإشعاره بالخوف بذكر الحق، وهو أنه رسول من الذى خلق الناس ورباهم وهو المسيطر على كل من فى الوجود، ولست المسيطر.

وقد جابه فرعون بأنه يخاطبه بالحق الذى لا ريب فيه، وأنه يطالب برفع

الظلم عن قومه بنى إسرائيل، قال له: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾.

﴿حَقِيقٌ﴾: فعيل من الحق، وفيها مبالغة فى التمسك، أى حقا على ألا

أقول على الله إلا الحق، أى أنه حق على ألا أقول على الله إلا أنه رب العالمين، وإنى لا أعترف لك بشيء مما تدعيه لنفسك، وهذه مجابته لمن هو فى حال فرعون

الذى يقول: ما علمت لكم من إله غيرى، فهذا صدع بالحق من غير أى مواربة، وقال ذلك موسى، ولم ينتظره حتى يطلب دليلا، بل قال له موقنا مفحما ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى قد جئتكم بحجة مثبتة مبينة من ربكم، وخاطبة بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سالبا منه كل معانى الربوبية، وقاصرا لها على رب العالمين، فهو ربي وربكم، وأول طلب طلبه رفع الظلم القائم، وابتدأ بما يخصه فقال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط، أى إن كنت قد أرسلت إليك وملئتك من رب العالمين، فأطلق معي بنى إسرائيل من الذل الذى هم فيه.

ونلاحظ بعض إشارات بيانية:

الأولى - أنه حصر الألوهية فى الله تعالى وأن فرعون ليس بإله، وأن الله وحده هو الإله الحق فى قوله: ﴿أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أى فى ألوهيته وعدله، ولتكن أنت ما تكون.

الثانية - أنه أفرد الخطاب لفرعون فى قوله: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾، وجمع فى قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وأفرد فى قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ لأنه بسلطانه أسرهم، وما كان ملؤه له إلا معاونين.

وجمعهم فى قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾؛ لأن الدعوة الموسوية، لهم جميعا، ولأنهم أعوانه المشاركون له فى ظلمه.

الثالثة - الإشارة بالرسالة بأنه حق عليه أن يبلغها صادقا.

أجابه فرعون، ولم يفرط عليه أو يطغى، كما توقع أولا؛ لأنه أحس برهبة الحق، ولأن الله تعالى ألقى فى روع فرعون مع طغيانه رهبة الحق، أجابه بقوله: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، إن ذا الجبروت إذا وجد فى الموقف ما يرهبه اتزن فى القول ولم يشطط فى الخطاب، ومعنى قوله: إن كنت قد جئت إلينا بآية أى معجزة تدل على أنك رسول، أو على صحة ما تدعو

إليه، فأتنا بها إن كنت من الصادقين، أى إن كنت من زمرة الصادقين الذين لا يفترون ولا يكذبون.

أمر الله تعالى موسى - عليه السلام - بأن يجيب جواباً عملياً، والعمل يبيّنه الظالمين، ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨).

معجزتان من المعجزات التسع التى أيد الله تعالى بها موسى أمام فرعون الطاغية، لعنه الله تعالى، ولعن كل من حاكاه من الطغاة، أما المعجزة الأولى فإنها العصا، ألقاها على الأرض، وهى فى يده عصا، فإذا هى على الأرض حية تسعى، أذهلت وأفزعت، وأثارت العجب.

هذه هى الأولى، وقد جاءت على الصورة من انقلاب العصا إلى ثعبان واضح مبين، وذلك فى مظهره قريب من السحر، وقد كان أهل مصر اشتبهوا بالسحر، فالسحرة علماؤهم وكهنتهم، وما كان فرعون يحكمهم إلا بهذه الأوهام، وكذلك تجدد كل الطغاة الذين حاكوه وخصوصاً فى مصر يستجلبون كل من يتعاطون السحر، ويقربهم زلفى إليهم.

وعلم السحرة - كما سيأتى - أن ما جاءهم به ليس من السحر فى شيء، وإن بدا أمام الناظرين فى صورته.

الآية الثانية أو المعجزة الثانية أنه أدخل يده فى جيبه، فخرجت من الجيب ساطعة البياض لها نور، ولها لمعان من غير سوء أى مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ...﴾ (١٢) [النمل]، ولقد روى عن ابن عباس أنه قال: «كان ليده نور ساطع بضئ ما بين السماء والأرض» أفزع فرعون هذا، ولم يتكلم، ولكن تكلمت الحاشية متحدية الحق والرسالة، تأكيداً لولائهم، وتشجيعاً على الإنكار، وما كان لهم أن يتكلموا عن بياض اليد؛ لأنه فوق ما يستطيعون وما يعلمون، وحاولوا إبطال الأولى؛ لأنها تتعلق بنوع علم

عندهم، والعاجز عن رد الحجة يختار ما يحسبه أسهل في الاستدلال عليه فيتكلم فيه، ليشغل الناس عن الآخر، وما كان كلام الحاشية إلا تشجيعا على الإنكار؛ لأنهم طوعوا أنفسهم على العيش بجوار فرعون، وقد رأوا دعوة موسى اعتداء على ألوهية فرعون في زعمهم، فسبقوه إلى الإنكار مرضاة له، حتى رموه في البحر ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾.

اتجهوا إلى الإنكار سابقين فرعون ليرضوه بالإنكار، وليشجعوه عليه، ولم يكتفوا بتحريض فرعون، ورميه بأنه ساحر عليم بل أرادوا أن يحرضوا الشعب عليه، وشعب مصر، وإن لم يحافظ على حرите أمام فرعون يحافظ على استقلال بلده، وأن يحكمه حاكم من أهله، ولو كان مستبدا عاتيا، كفرعون؛ ولأن موسى من بنى إسرائيل جاءوهم من قبل استقلالهم، فقالوا يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، أى يفقدكم استقلالكم ويجعلكم محكومين ببنى إسرائيل كما حكمكم الهكسوس من قبل، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أى فماذا ترون وتأمرون يا معشر شعب مصر، فدبروا الأمر لهذا الذى يفقدكم استقلالكم، وعبر عن ذلك بقولهم: ﴿يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ لأن من يفقد استقلاله يخرج عن أرضه، ويتسلمها من يتحكم فيها؛ إذ يتصرف فيها كما يشاء، وليس لأهلها فيها أمر، كأنما أخرجوا.

قال الممثلون للشعب، أو الحاضرون منه، أو من جمعوهم ليؤلبوهم على موسى وهارون.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ كان أمرا خطيرا ذلك الذى جاء به موسى، فما تعودوا من فرعون إلا أن يأمر وحده، وأن يطاع وحده فيجىء من تربى فى بيته، ويصدع بين يديه بالحق، يشتد فى دعوته، ويجىء الكبراء يحرضون الشعب عليه، إنه لأمر خطير، لم يعهدوه، فلا بد أن تجمع الجموع للتضافر فى مقاومته.

قال الذين تكلموا من الشعب: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أى أرجئه وأخاه، أى أجّله زمنًا، وأرجه أصلها أرجئه وأخاه، فحذفت الهمزة تخفيفًا، والضمير يعود على موسى، وأخوه هو هارون الذى أرسله الله تعالى مع موسى رداً له يعضده، ويعاونه - أرجئهما، أى أجّلهما، وقيل أرجه بمعنى احبسه، ونرى أن ﴿أَرْجِهْ﴾ معناه تأجيلهما، والشعب أو المتكلمون باسمه كانوا أقرب إلى النصفة؛ لأنهم يقولون لا تتعجل أمرهما حتى ندرسه مع أهل الخبرة بالسحر ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ فى قرى مصر وريفها ﴿حَاشِرِينَ﴾ اسم فاعل من حشر، أى جامعين الناس لمشهد عظيم، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (١١٢) أى يأتوك بالمهرة من السحرة، وعبروا عن أولئك المهرة، ووصفوا أيضا بأنه ﴿عَلِيمٍ﴾ مدرك للأعياب السحر، وأفانيه، فهو عمليا ﴿سَاحِرٍ﴾، وعلميا ﴿عَلِيمٍ﴾ ذو خبرة.

تضافرت القوى ضد موسى وهارون، إذ جابها فرعون بإنكار ألوهيته الموهومة، وحرص ملؤه الناس بأنهما يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما. اجتمعوا، وهنا يظهر الفرق بين المخلص الذى يدعو إلى الحق احتساباً لله، والمأجور الذى يطلب الأجر. استمع إلى قول الله تعالى عنهم: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣) ساوموه قبل أن يبدأوا يطلبون الأجرة، وهذا يدل على أنه مع طغيانه كان أرفق من بعض الحكام الذين حاكوه وساروا على طريقته.

أجابهم فوراً: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١١٤) ذكر لهم أجرين أحدهما مادي، والثانى معنوى، أما الأول فهو المال الذى طلبوه، والثانى رضاه عنهم، وتقريبه لهم؛ ولذا أكد الثانى بالجملة الاسمية وبـ «إِنَّ» وباللام، وبإدخالهم فى ضمن المقربين منه كحاشيته.

وهذا ما كان يعبر فى حكم الملوك بالرضا السامى، وعبر به الطغاة فى كل زمان بعد أن ضمنوا الأجر والقرب، إن كانوا هم الغالبين. اتجهوا إلى موسى فى المشهد العظيم:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥)﴾ .

خيرًا موسى - عليه السلام - بين أن يبدأوا هم بإلقاء حبالهم وعصيهم أو ما معهم بشكل عام، وبين أن يلقي هو، وقدموا التخيير بإلقائه هو عن إلقائهم لأنهم يريدون أن يعرفوا ما عنده من طاقة ويقدرُوا طاقاتهم على قدرها، وعبروا عن إلقائه بقولهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ معبرين بالفعل استهانة بإلقائه غرورا وتعصبا، وليرضوا فرعون بأنهم فوق موسى في الحلبة، وعبروا عن أنفسهم بقولهم: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ بالجملة الاسمية وتأكيدا بلفظ «نحن» وبقولهم «نكون»، وثوقا بأنفسهم وليثبتوا لفرعون أنهم الغالبون.

ولكن فطنة النبوة عند موسى جعلته يقدمهم عليه في الإلقاء، ليعرف ما عندهم: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْبَهُهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ .

ألحقوا حبالهم وعصيهم، والسحر لا يغير حقائق، فلا يجعل العصي والحبال حيآت، ولكنه يؤثر في الرائي في نفسه؛ ولذا قال: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ جعلوهم يرون غير الحقيقة، ﴿وَاسْتَهْبَهُهُمْ﴾ أى طلبوا رهبتهم بذلك السحر، وقد قلنا عند الكلام في السحر: إنه نوع من استهواء النفس، والسيطرة عليها بحيث يجعله في يد المستهوى، أو ما يعبر عنه بالتنويم المغناطيسى، فيغير إحساسها من محبة إلى بغض، ومن بغض إلى محبة؛ ولذلك قال الله تعالى عما يفعله الذين يسحرون: ﴿... يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ... (١٠٢)﴾ [البقرة] فيغيرون حال المحبة بينهما بهذا الاستهواء.

فكل ما فعله السحرة الذين نازلوا موسى - عليه السلام - أنهم استطاعوا أن يموهوا على الأنظار، ويسحروا الأعين لا أن يغيروا حقائق الأشياء، فلم يجعلوا الحبل ثعبانا، ولكن العيون مسحورة، وأرهبوا الناس بعملهم وجاءوا في هذا بسحر عظيم في بابه الذى أتقنوه، إرادة الأجر من فرعون وإرضائه، ليكونوا من المقربين عنده.

عندئذ أثر الخس في نفس موسى، وخاف ألا ينتصر، فأوحى الله إليه ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ولقد صرح الله سبحانه في آية أخرى بما أوجس في نفس موسى خيفة فقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (١١٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (١١٨) [طه].

في وسط هذا المظهر السحري، أوحى الله تعالى إلى موسى أن يلقي عصاه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧)، ألقى موسى عصاه، فإذا هي حية تسعى، وإذا هي تلقف وتبتلع حبالهم وعصيتهم، ﴿تَلْقَفُ﴾ مضارع لقف بمعنى تلقم وتبتلع، وقد لقفت الحبال والعصى التي كان يراها الذين سحرت أعينهم حيات وأفاعي، وقد قال تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾، أى ما يصرفون به أعين الناس كاذبين، وقد أطلق على الحبال والعصى، أنها ﴿يَأْفِكُونَ﴾؛ لأنها مادة إفكهم وكذبهم وتمويههم، وتضليلهم.

وقد رأى السحرة أن هذا ما ليس بسحر؛ لأن يعلمون أن السحر لا يغير الأشياء، ولكن يموه على الأنظار، ولكن هذا يغير الأشياء، وليس تمويهها على الأنظار، فأدركوا أن آيته تعالى حق، ولقد رأى بحس الأعين المستيقظة أن حبالهم، وعصيتهم لا وجود لها، إذ ابتلعها العصا.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٨).

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أى ثبت وتبين وظهر، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أى ظهر أنه كان باطلا، لا حقيقة، وأن آية الله في العصا ثابتة لا ريب فيها.

وبدل أن يطلبوا أجرا وتقربا، غلبوا، وقال الله تعالى: ﴿فَغَلِبُوا هنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ (١١٩) غلب أولئك السحرة، وعادوا صاغرين أذلهم الحق وغلبهم، وبعد أن كانوا يعتزون بسحرهم أحسوا بصغار الهزيمة يذهب بافتخارهم.

ولكنهم إذا كانوا قد خسروا المعركة، فقد ظفروا بما هو أعظم وهو الإيمان، إذ علموا أنها معجزة حقا وصدقا، وإن موسى وهارون صادقان بالبرهان والدليل، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السُّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ (١٢٠)، أى ألقوا بأنفسهم خارين سجودا لله رب العالمين ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (١٢٢)، أى رب العالمين العاقلين، وذكر موسى وهارون على أنه ربهما لا للاختصاص به، بل لأنهما دعوا إليه.

فرعون يعذب السحرة الذين آمنوا

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِمِقْبَلِ اَنْ ءَاْذَنَ لَكُمْ اِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوْهُ
فِي الْمَدِيْنَةِ لِنُخْرِجُوْا مِنْهَا اَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴿١٢٣﴾ لَا قِطْعَنَ
اَيْدِيكُمْ وَاَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَا صَلِيْبَتْكُمْ اَجْمَعِيْنَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوْا اِنَّا اِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا اِلَّا اَنْ ءَاْمَنَّا
بِاٰيَاتِ رَبِّنَا لَمَجَآءَ تَنَارِنَا اَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ ﴿١٢٦﴾

إن الطاغية لا يفكر إلا في نفسه، ولا يحس بحق غيره إلا من زاوية استقامة الأمر لأهوائه وشهواته، لقد ثارت نقمة فرعون لأمر:

أولها - إنكار موسى ألوهيته.

ثانيها - تحديه بآياته، وكان يرجو ويتوهم أنه يقضى على موسى بحجته، فاستعان بالسحر والسحرة، فما أسعفه بحجة، فكان الغلب عليه، فأثارة ذلك.

ثالثها - ثم كان من بعد ذلك أن من استعان لهم ليغلبوا موسى وهارون خذلوه.

رابعها - وأيدوهم، وآمنوا بهما، وتشايح بين الناس إيمانهم، فغلت بالشر نفسه، والمعاند لا تزيده الآيات البيّنات إلا كفرا، رأى فرعون ما رأى، فلم يؤمن؛

لأن نفسه لم تكن نفس مؤمن، بل طغى وبغى، وقد رأى ملكه يزول، وأوهامه تضمحل فطغى وبغى وأثر الملك والحياة الدنيا على الآخرة، واتجه إلى السحرة، يعذبهم، ويصب جام غضبه عليهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

يوبخهم على إيمانهم قبل إذنه، فلاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، وموضع التوبيخ أنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم!!، وكان طاغوته قد سول له أنه ملك قلوبهم وألستهم فلا تتحرك إلا بإذنه، وقد رأينا ذلك من فرعون دونه عقلا، وفوقه طغيانا.

ولم يذهب إلى نفسه أنه حق أدركوه، وإيمانا صدقوا به موسى وهارون، بل حكم على أساس من وهمه أنه مؤامرة عليه، وهو الذى اصطفاهم واختارهم من بين رعيته وهم مختارون من الشعب فَمَوَّهَ على الشعب بباطله أنها مؤامرة عليه وعلى الشعب، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾، أى لتفرضوا على أهلها سلطانا غير سلطانها، فتفقد استقلالها، ولا تكون لها أرضها، ردف ذلك بالتهديد الشديد، والعذاب العتيد، قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أى سننزل بكم عذابا تعلمونه بالعيان، لا بالبيان، و(سوف) هنا لتأكيد الكلام.

أصدر الحكم بخياله وهواه، لا بعقله والبرهان وهو أغلظ عقاب:

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)﴾.

أقسم الطاغى بما يقسم به عنده أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أى يقطع من جانب يدا، ويقطع من الجانب الآخر رجلا، وأقسم أيضا ليصلبهم أجمعين، ولا يستثنى أحدا، وقد صرح فى آية أخرى بأنه يصلبهم فى جذوع النخل.

وهكذا يتكرر الطغيان هذا العقاب الشديد، روى الحسن البصرى عن ابن عباس - رضى الله عنهما: إن فرعون أول من عاقب بقطع اليد والأرجل من

خلاف والصلب. وقد كنا نقرأ ذلك ونعجب من أن يكون هذا من فرعون، ويرضى به الشعب المصرى، ولكن رأينا ما يقرب منه؛ من طاغية يحاكيه فى غير عصره، ورأينا من الشعب المصرى من يهلل ويكبر، ويعاون!!

هذا ما هدد به فرعون ونفذ واختص السحرة بذلك؛ لأنهم أول من تمرد عليه من الشعب، وخشى أن يسرى التمرد فشدد العقاب، وترك موسى وأخاه مؤقتاً؛ لأنهما لم يكونا من المصريين، بل كانا من بنى إسرائيل، ومع ذلك سيتبته إليهم.

وماذا كان موقف من آمنوا عن بينة، وعرفوا الفرق بين السحر والمعجزة لقد قوى إيمانهم؛ لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، سكن فيها، ولا يستطيع أحد ولو كان فرعون، ومن يحاكيه أن يخرج من الصدور؛ لأنه وديعة القوى الجبار الرحمن الرحيم.

قالوا: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ أى عائدون إلى ربنا، وهو القوى، فنحن قد لجأنا إلى ركن لا تقوى عليه أنت ومن معك ممن ألفناهم أتباع ظلم وظغيان، إنا عائدون إليه، وسيكون لنا النعيم الخالد، وهو يعوضنا من أذاك، وقد تحررت قلوبنا ورقابنا من طغيانك، يا من ألعن من فى هذه الأرض، ومعك من يحاكيك عن جهل (أو عن علم) فى غير عصرك.

ثم عللوا طغيان فرعون فقالوا:

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا﴾.

أى ما أخذوا علينا إلا حقاً، نقموا علينا هو أننا آمنا بالمعجزة أو هى من آيات الحق التى جاء بها موسى، وهى آيات ربنا.

وأعلنوا صبرهم على الأذى ضارعين إلى ربهم قائلين:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنا مُسْلِمِينَ﴾ ربنا أفرغ علينا صبراً، أى أنزل علينا

صبراً يملأ فراغ قلوبنا، وتوفنا مسلمين مخلصين لك يا رب العالمين.

الملا من حاشية فرعون يحرضونه

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا
 فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي
 نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
 اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوِذِنَا
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ
 أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

ذكرنا أن حاشية الطغاة لا تقف من الطاغى موقفا سليبا، أو محايدا، بل
 إنهم يحرضونه مرضاة له، وطلبا لما ينفذه إجابة لهم، فهم لا يهمهم إلا أن يأخذوا
 منه ما يشبع نهمتهم، وليسوا مخلصين له يمنحونه النصيحة، إنما هم المماثلون له
 فى باطله، لم يكف الملا والحاشية ما أنزله بالسحرة، أو ما هم أن ينزله بهم، بل
 نبهوه إلى موسى وقومه من بنى إسرائيل، وأرادوا اجتثاثهم من الأرض، قالوا
 محرضين:

﴿أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ أى أترك موسى
 وأخاه وقومه من بنى إسرائيل ومآل ذلك الترك أن يفسدوا فى الأرض بإشاعة
 التمرد عليك، والانتفاض على حكمك والخروج عليك، وذلك فساد أى فساد،
 فاللام فى قوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هى ما تسمى لام العاقبة، أى
 أتركهم لتكون عاقبة الترك أن يؤلبوا الناس عليك، وينتفضوا على حكمك.

والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، وهو بمعنى لا ينبغي لك أن تترك موسى وقومه يؤلبون عليك.

هكذا حرضوا فرعون على بنى إسرائيل ذلك التحريض الخبيث ليزدلفوا إليه، وكذلك الحاشية المفسدة تسبق إلى فكر الطاغى، ليتوهم إخلاصهم له، وما هم إلا الممالئون المنافقون الكذابون، ولم يكتفوا بالتحريض على بنى إسرائيل، بل علا التحريض إلى موسى، وجاءوه من جهة ما، فقالوا عن موسى: ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَكَ﴾.

أى بتركك موسى، فيخرج عليك غير طائع لك، بل معاند، ومجاهر بالمخالفة وإنكار ألوهيتك، فى أول دعوته ويترك ألّهتك، ولقد كان لأهل مصر عدة ألّهة كبيرهم الإله رع، وقالوا: إنه يحل فى فرعون، ويتنقل بينهم من سلف إلى خلف، والمعنى لا ينبغي أن تتركه وقد تركك بالخروج عليك، وعلى ألّهتك المقدسة، وقال: إن الله واحد أحد.

استجاب فرعون الطاغى لهم، لأنها رغبته، وقد سبقوه إلى ذكرها، ممالئين مزدلفين إليه بالباطل. قال: ﴿سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

قال سنقتل الأبناء ونترك النساء، وسمى تركه النساء استحياء لهن، وهو لا يحيى ولا يميت، تركهن ليكن جواري وخداما فى البيوت، وأكد قدرته على ذلك وإذلاله لهم بقوله وإنا فوقهم، المسيطرون عليهم، الذين نستطيع استئصال من نحب، وإبقاء من نحب أذلاء مقهورين، وهنا قد يسأل سائل: لماذا ترك موسى وهو الرأس فلم يقتله وأخاه؟.

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إن موسى تربى فى قصر فرعون، فكان له فيه أولياء، وكان على رأسهم امرأة فرعون، فكانوا يخذلونه عن أن ينزل به أذى، أو يقتله مثلاً.

وإن لموسى لهيئة ورهبة فى نفس فرعون تمنعه من أن ينزل به ما يريد، وهو يرى الآيات تجرى على يديه وهو إن لم يؤمن بها أفزعته، وأرهبته.

وإن مثل أوليائه من آل فرعون، كمثل أبى طالب فى حمايته للنبي ﷺ من أذى قريش وأن ينالوا منه، وهكذا يؤيد الله تعالى رسله ببعض خلقه.

لم يكن لموسى وقد رأى الإرهاب لبنى إسرائيل إلا أن يشبهم، فقال لهم:
﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أى اجعلوا استعانتكم بالله واتكسلوا عليه، واصبروا على ما ينزل بكم، ولا تحسبوه الشر الذى لا ينتهى فإن ملك فرعون زائل، وطغيانه منته، ولن يخلد أو يبقى، فإنه ستزول دولته. والأرض تكون لمن يرثها من الصالحين، والعاقبة والنهاية للمتقين، قال ذلك تثبيتاً لقلوب بنى إسرائيل، ومن اتبعه من المؤمنين: فقد حكى الله تعالى قولهم فقال: ﴿قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾.

كان بنو إسرائيل متململين من عذاب فرعون من قبل موسى - عليه السلام - ورجوا من مجيئه أن يرحمهم الله تعالى من عذابه على يد موسى - عليه السلام - وقد غلبه بالحجة الباهرة، وكان هو وقومه صاغرين أمام حجة الحق وقوته.

ومن يكون من عذاب يتلهف على الرحمة، ويطلبها سريعا، ولكن فرعون قرر استمرار عذابهم فقالوا متململين: قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، قال: عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض.

طمأنهم موسى بأن الله لا يخلف وعده، وأنه وعده بهلاك الطاغية العاتى؛ ولذا قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يتضمن كلام موسى الكلم - عليه السلام - أمورا ثلاثة:

أولها - رجاء هلاك فرعون؛ لأن الله أعلمه بذلك، وأن لذلك وقتا معلوما، لم يحن حينه، ثانيها - أنهم يرثون الأرض من بعده، وأنهم سيكونون مستقلين أحرارا ليس لأحد عليهم سلطان إلا الله، ثالثها - أنه قد تكون مخالقات، ومناقضات، ولذا قال: ﴿فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، أى فيرى منكم عملكم أو يقدر لكم من الجزاء بمقدار عملكم، والله بكل شىء عليم.

وإن سياق القصص القرآنى قد يشير إلى أن فرعون عندما كان يقتل الأبناء، ويستحيى النساء - ما كان يستأصل، بل فرض فيهم هذه العقوبة يستعملها ما يشاء.

هذا، وإننا نرى آل فرعون وسكان مصر، لم يدفعوا طغيانه، وإن الله تعالى لا يأخذ العامة بظلم الخاصة إلا إذا رأوا الظلم ولم ينكروه، والمصريون لم ينكروا فعل فرعون؛ ولذا عاقبهم الله تعالى بعقوبات دنيوية مختلفة، فقال الله تعالى فى ذلك:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا شَجَرَهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾
فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ آكَّرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي

إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَرَ إِلَى أَجَلٍ
هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

إن المصريين شاركوا فرعون فيما أوقع من مظالم ومآثم بني إسرائيل؛ لأنهم رأوا الظلم ولم ينكروه، فكانوا مسئولين، وما استمكن فرعون منهم ومن بني إسرائيل إلا بهم، لأنهم لم يقولوا: ظلمت.

ولذا قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

وآل فرعون هنا ليسوا حاشيته ولا خاصته إنما هم أهل مصر جميعاً؛ لأنهم أيدوه، ولو بالرضا، أو على الأقل بالصمت من غير نكير، والدليل على أنه أريد أهل مصر جميعاً، أن السنين ونقص الثمرات لم يكن خاصاً بفرعون وحاشيته؛ لأنه بلاء إذا جاء يعم ولا يخص، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾، أى آل مصر الذين هم آل فرعون، ومن يقوم بهم وبالحكم فيهم، وأخذناهم معناه اختبرناهم بالسنين، أى بالجدب والقحط، فيقال: أصبت بالسنة، أى بالجدب والنقص والجوع. وقد أصابهم الله بسنين جدب وقحط، ونقص من الثمرات، ويقال: أخذنا فلاناً بالرفق والإكرام، وأخذناه باللوم، والتأنيب بمعنى عاملنا، وتأويل القول أخذناه وضممناه معاملين له بالرفق أو معاملين له باللوم أو التأنيب. فأخذ الله آل فرعون معاملًا بالسنين بحدة تصيهم، ونقص الثمرات، يختبرهم سبحانه بذلك لعلهم يذكرون، أى لعلهم يتذكرون أن هناك مدبراً غير فرعون، وأن الأمر ليس بإرادتهم ولا بإرادة فرعون، إنما هو بإرادة من خلق فرعون، وخلق الزرع والثمار، وأنشأها جنات معروشات، وغير معروشات ولكنهم لم يتذكروا لفنائهم فى فرعون وملته، وكذلك أهل فرعون دائماً، لا ينفصلون فى نفوسهم

عن حكاهم، وإن كانت قوتهم عليهم، يقودون إلى النكسات نكسة بعد نكسة، وهم من ورائهم راضون راغبون فيهم على سوءاتهم غير راغبين عنهم.

وكانت معاملتهم لموسى الهادى الرشيد، معاملة غير رفيقة يحملونه إثم ما ينزل بهم من شر، وما ينزل بهم من حسن يحسبونه استحقاقا لهم؛ ولذا قال الله تعالى فيهم: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾.

﴿الْحَسَنَةُ﴾ هى الحال الحسنة التى يستحسنونها، ويستطيعونها، ويرون فيها مسرة لهم، لم يذكروا أنها من عند الله تعالى؛ أفاض بها عليهم من عنده، إنما يحسبون أنها جاءتهم لأنها لهم ويستحقونها وجاءتهم من غير معط؛ ولذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾، أى لنا نستحقها، ولا يتصورون معطيا يستحق الشكر، والطاعة، والرضا بما أعطى، وإذا جاءتهم السيئة، أى الأمر المسئ لهم من قحط وجذب وطوفان اطيروا بموسى ومن معه أى تشاءموا.

وأصل الطيرة فى الاستعمال العربى أنهم كانوا يزعمون الطير، فإذا اتجه إلى اليمين تيمنوا به وسموه السانح، وإذا اتجه إلى الشمال تشاءموا به وقالوا البارح.

ولقد جاء فى تفسير القرطبى ما يتعلق بالطير «وكانوا يتطيرون أيضا بصوت الغراب، ويتأولونه البين، وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضا على أمور وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك، وهكذا الظباء إذا مضت سائحة أو بارحة، ويقولون: إذا برحت بالسانح بدل البارح، إلا أن أقوى ما عندهم كان يقع فى جميع الطير فسموا الجميع تطيرا من هذا الوجه، وتطير الأعاجم إذا رأوا صبيا يذهب به إلى المعلم بالغداة، ويتمنون برؤية صبي يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون بروية السقاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتمنون برؤية فارغ السقاء (مركبة) مفتوحة». وهكذا كما جاء فى ذلك التفسير، وعلى أى حال التطير فى اللغة العربية التشاؤم.

وإن المصريين قد قالوا هذا المعنى مواجهين موسى - عليه السلام - وعبر عنه بذلك التعبير العربى، وكأنه ترجمة لتعبيرهم فى لغتهم.

ولقد أجابهم بقوله كما حكى القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أى إن ذلك قضاء الله تعالى وقدره فيكم. وعبر عنه بطائركم تشبيها للقدر المحتوم بالطائر المشتوم؛ لأنه فى معناه لاحق بهم، فَإِنْ تَعُدُّوهُ شُومًا فَهُوَ مِنْ سَوْءِ عَمَلِكُمْ، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يعلمون أن كل شىء عند ربك بمقدار، فيتشائمون؛ ولذا نفى النبى ﷺ الطيرة، وقال: «لا عدوى ولا طيرة»^(١) أى لا عدوى إلا بإذن الله تعالى العلى القدير.

ومع أن الله تعالى قد ابتلاهم ﴿بِالسِّنِّينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ويطمثنون إلى الله الذى هو منشئ العالم، وأنه ليس لفرعون أية ألوهية، ومع ذلك أصروا على كفرهم، ورموا موسى بأن هذا الابتلاء سحر يسحرهم به موسى، وأنهم لا يؤمنون؛ ولذا قال الله تعالى عنهم:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾.

مهما تأتى من معجزة باهرة قاهرة، فإنها لا تعدو أن تكون سحرتنا بها، فما نحن بمؤمنين لك، أى بمسلمين لله بالحق الذى تدعو إليه، نفوا إيمانهم مؤكدين النفى بالباء الدالة على استغراق النفى، وبالجملة الاسمية وتقدير الجار والمجرور «لك» على «مؤمنين»، وقولك مؤمنين لك، أى إجابة لدعوتك منضمين لك، فلن نخرج عن صفوف الفرعونية الكافرة الجاحدة إلى صفك المؤمن المدعن لله تعالى.

نزلت عليهم آيات قاهرة أشد من الأولى بسبب إصرارهم على الكفر، وقد ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣)﴾ وأرسلنا: بمعنى أنزلنا قاصدين كأن هذه مرسلة من عندنا، والطوفان هو المطر الشديد، وفيضان النيل الطاغى الذى أغرق الزرع، وأهلك النسل، وهدم البيوت، وما كان لفرعون طاقة على إنجائهم والسييل قد طم، وحزب، وصار عبثًا، لا غيثًا.

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الطب - الفال (٥٧٥٦)، ومسلم: السلام - الطيرة والفال (٢٢٢٤)، وتمة الرواية: «ويعجبني الفال الصالح الكلمة الحسنة».

والجراد، وهو الطير الصغير المعروف الذى يأكل الزرع، ويفسده، وخصوصا ما كان قوتا، فإنه يسلط على القمح، والشعير، والأرز، ويتعدى طعام الإنسان إلى طعام الحيوان.

وبعد البلاء فى زرعهم وحرثهم ونسلهم كان البلاء فى أجسامهم، فسلط عليهم القمل، وهى دويبة صغيرة، وقال ابن عباس: القمل السوس، وهو يصيب الزرع المخزون لأكلهم فيصيبهم، وقيل: إنه القمل المعروف الذى هو داء فى الأجسام ومرض من الأمراض.

والضفادع جمع ضفدع، وهى الحيوان المعروف، كثرت وكثر ضجيجها حتى أزعجتهم، وأفسدت زرعهم وملأت أرضهم فكانت الحياة مع هذه الكثرة حياة شاقة شديدة لا تحمل.

والدم، قالوا: إن النيل صار ماء دما، ومات السمك فيه، فأصبح لا يسقى، بل يميت، وإنا لا نعترض على ذلك التفسير، وقد روى عن بعض الصحابة، ولم نر فيه حديثا صحيحا، يذعن المفسر لمثله، ولكن صريح اللفظ أنه الدم، ولعل الله تعالى اختبرهم بذلك وقتنا وإن لم يكن طويلا، ولكنه أراهم آياته مفصلات، ويصح تفسير الدم بمرض أصيبوا به كرعاف ونزيف وضغط.

ولقد قال الكثرة من المفسرين: إن الله تعالى اختبرهم أولا بالطوفان الذى خرب ديارهم، وأفسد زرعهم فدعوا الله أن يكشف ذلك عنهم، ودعا لهم موسى ووعدوه بأن يؤمنوا إذا كشف عنهم الضر، فكشف فلم يؤمنوا، فأصيبوا بالجراد فطلبوا أن يدعوا لهم فإذا كشف عنهم آمنوا، فكشف فلم يؤمنوا، ثم اختبرهم بالضفادع كذلك، وبالدم كذلك ولم يؤمنوا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. والاستكبار عن الحق سبيل الضلال والوقوع فى الدل، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فيه تسجيل الإجرام والعتو عليهم، وقد أكد - سبحانه وتعالى - إجرامهم واستمرارهم على الإجرام، وسيطرة الأخلاق الفرعونية عليهم، وإنها فساد كلها،

يصيب النفس، فلا تنخلع منه، والنوازل تصيب نفوسهم، ولا تصل إلى أعماقها ولا تجتث الشر منها، ككل من امتلأت نفوسهم بالشر، فإنه يكون لونا من ألوانها لا تمحوه عظة ولا يدفعه بلاء.

ولقد قال تعالى في ذلك:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئَن كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزُ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسَلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٣٤).

﴿الرِّجْزُ﴾: هو العذاب، وهو يشمل ما سبق أو هو هو، وإن ذكر هذا يدل على أن طلبهم من موسى كان بعد أن نزل بهم الرجز جملة وتفصيلا وتوالى عليهم نزوله، وأن التجاءهم إلى موسى - عليه السلام - بعد ذلك التوالى.

أو نقول إن الله حكم عليهم بالاستكبار والإجرام، ثم بين بعد ذلك كيف كانوا مجرمين، وقد ذكر إجرامهم إجمالا، ثم فصل كيف كان ذلك العتو والاستكبار.

لما نزل بهم هذا الابتلاء آيات مفصلات وغيره، اتجهوا إلى موسى - عليه السلام - وكأن الشك قد عراهم بالنسبة لما كانوا عليه ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أى يعهده عندك وإيمانك به، ووعدته لك بالنصرة والتأييد ﴿لَئِن كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزُ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسَلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، طلبوا كشف الرجز من موسى، مع أنهم طلبوا أن يدعو ربه، ونسبوا إليه كشفه؛ لأنهم اطمأنوا إلى أن الله سيجييه، ولأنهم تعودوا أن يكون الأشخاص هم ذوى السلطان، ولا سلطان إلا لشخص ﴿لَنُؤْمِنَ لَكَ﴾، أى لنؤمن بما تدعو إليه مسلمين لك بالحجة والدليل وأن كلامك الحق، ومع إيماننا لترسلن معك بنى إسرائيل، أكدوا إيمانهم بالقسم

ومؤكداته، وأكدوا إرسالهم بنى إسرائيل بالقسم ومؤكداته من نون التوكيد، ولام القسم.

ولعلمهم كانوا فى ذلك صادقين فى أنفسهم، لوقع الرجز عليهم، ولإحساسهم بالضعف أمام جبروت الله تعالى الذى تخاذل أمامه جبروت فرعون، وطغيانه، ولكن الحق لم يصب قلوبهم، وليس لهم إذعان صادق، بل هو عارض عرض لهم، ولم يكونوا مؤمنين. وما هؤلاء الذين طلبوا من موسى ذلك الدعاء يظهر أنهم الكبراء والسادة من ملأ فرعون، ولعله كان معهم، أو طلبوه بأمره بدليل أنهم وعدوا موسى بأن يرسلوا معه بنى إسرائيل، فما كان يملك ذلك إلا فرعون وقادته وملؤه، والكبراء، معه ومع هذا القسم الذى أقسموه، ما وفوا، ولذا قال سبحانه:

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) ﴾.

الفاء للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا كانوا قد أقسموا ذلك القسم فقد نكثوا، فلما كشفنا عنهم الرجز إذا هم ينكثون فلا يؤمنون، ولا يرسلون بنى إسرائيل، والتعبير عن زوال الرجز بـ ﴿ كَشَفْنَا ﴾ تشبيه له بالغمة التى تغم عليهم، وتكشف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ﴾ إشارة إلى أنه سينزل بهم ما هو أشد، فالإزالة للرجز لم تكن دائمة، بل هى إلى أجل محدود، فإن الله خبأ لهم فى قدره ما هو أشد وأقوى، وهو إغراقهم فى البحر؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أى جازيناهم بذنوبهم، وسمى الله تعالى عقابه لهم بأنه انتقام؛ لأنهم مردوا على الشر، وعقابه لهم استئصال، والله تعالى هو المنتقم الجبار فعاملهم

معاملة المنتقم؛ ولذا قال: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٣) ﴿

أى عاملناهم معاملة من ينتقم ممن أعلن الحرب على الله ورسوله موسى - عليه السلام - اختبرناهم ثم كشفنا عنهم ما اختبرناهم به رجاء أن يتذكروا ويعتبروا، فما زادوا إلا ظلما واستكبارا وعتوا وفسادا، فليس لهم إلا أن ينزل بهم العذاب الأكبر، الذى يكون استنصلا، وهو الإلقاء فى البحر، واليم هنا البحر، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات التى تواترت لهم آية بعد آية وغفلتهم عن مغزاها ومعناها، ولذا قال: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، أى أنها كانت لهم بمرأى العين والحس ولكنهم غفلوا عنها، واستهواهم الشيطان فضلوا.

بنو إسرائيل بعد الإنقاذ

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ
الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
وَجَنَوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ يَلْ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامِهِمْ لَهُمْ قَالُوا يُؤْمِسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ
مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

كان بنو إسرائيل مستضعفين في أرض مصر، ومن يكون تحت فرعون يكون مستضعفا ذليلا ولو كان من أهلها، ولكن بنو إسرائيل استضعفوا لغربتهم، ولحكم فرعون.

خرجوا من ذل فرعون وملئه، وأورثهم الله تعالى مشارق الأرض ومغاربها بعد أن استضعفوا بذل فرعون، وأرهقهم ظلما خاصا بهم، وقد صار لهم بعد خروجهم من مصر ملك عريض: شرق وغرب، وخصوصا في حكم داود وسليمان، والملوك، ووصف الأرض بأن الله بارك فيها، ويشير هذا إلى أنها الأرض المقدسة، فقد أخذوا شرقها وغربها، وما أحاط بها، وكانت أرضا قد بارك الله فيها بالخصب، وأنها يجتمع فيها النبيون في إسراء النبي ﷺ والمعراج.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ وكلمة الله هي ما وعد به تعالى بنصرهم، إذ قال: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)﴾ [القصص].

ووصف الله - سبحانه - الكلمة بأنها الحسنى - وهي مؤنث - لأن هذه الكلمة المباركة أوصلتهم إلى أحسن أحوالهم، وأبركها عليهم.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، هذا ما كان لبنى إسرائيل، أما ما كان لفرعون وملئه، فقد دمر الله تعالى ما كان يصنع فرعون من بناء وما كان من جنات، وما كانوا يعرشون فيها زراعات وغروس تكون بالعرش والسقف على الأرض، فلا يرى سوداؤها من خضرائها، كما قال تعالى:

﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان].

هذه نعم أنعم الله بها على بنى إسرائيل بسبب صبرهم على ظلم فرعون،
وإنه لبلاء عظيم. ولكن هل قدروا النعمة حق قدرها، ذلك ما ستبينه الآيات
التالية:

قال تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا
مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ
وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)
وَإِذْ أَجْنَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾.

أنهى الله تعالى قصص فرعون بهلاكه وابتدأ بقص قصص بنى إسرائيل،
ونرى فى هذا القصص الحكيم ما أحدثوه بعد أن منَّ الله تعالى عليهم بإخراجهم
من استعباد فرعون وظلمه لهم، ومعابيتهم الآيات الكبرى بخلق البحر بعصا
موسى، وكيف عبدوا العجل، وكيف أرادوا أن يجعل لهم موسى إلها غير الله
يعبدونه، وما استرسلوا فيه من كفر ومعاص، وقال الزمخشري: ذلك ليعلم حال
الإنسان، وأنه كما وصفه الله تعالى ظلوم كفار جهول كنود، إلا من عصمه الله
تعالى: ﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ (١٣)﴾ [سبأ].

يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ
لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ جاوز بمعنى اجتاز، والبحر هو البحر الأحمر كما
نسميه الآن، وكما كان يسمى بحر القلزم اجتازوه حتى وصلوا إلى اليابس
﴿فَأَتَوْا﴾ أى أقبلوا على قوم يعكفون، أى يقيمون على عبادة أصنام لهم، وقالوا
يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إن المقام الطويل الذى أقاموه فى مصر
هزغ^(١) فيهم الوحداية التى كانت دين آبائهم، وإن كانوا لم يعبدوا ما عبد

(١) هزغ: هَزَعَهُ يَهْزَعُهُ هَزْعًا وَهَزَعَهُ تَهْزِيعًا: كَسَرَهُ فَانْهَزَعَ أَيْ انْكَسَرَ وَانْدَقَّ. وَهَزَعَهُ: دَقَّ عَقَبَهُ. وَانْهَزَعَ
عَظْمُهُ انْهَزَاعًا إِذَا انْكَسَرَ وَقَدْ لَسَانُ الْعَرَبِ هَزَعٌ.

المصريون فقد لانت عقيدتهم، وصاروا مترددين لا يؤمنون بشيء ولذلك قالوا ما قالوا؛ لأنه لم يثبت في قلوبهم التوحيد الذى جاءهم به موسى، وصاروا كالأعراب الذين قالوا لرسول الله محمد ﷺ آمنا، فأمر الله تعالى نبيه بأن يقول: ﴿... قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ ...﴾ (١٤) [الحجرات].

والقوم الذين أتوا عليهم قيل إنهم كانوا بالسويس، إذ كانت أول يابسة جاءوا إليها، والله أعلم ما هؤلاء الأقوام، ولكن نستبعد أن تكون السويس؛ لأن ظواهر الأخبار تبين أنها كانت تحت حكم فرعون، وجزءا من مصر.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أى تجهلون العقائد السليمة، والعقائد الباطلة، والمتردد جاهل، غير مدرك، وإنهم خرجوا من حال كفرة إلى حال مؤمنة موحدة، ولما يدخل الإيمان قلوبهم.

وأكد لهم موسى ببيان بطلان هذه العبادة، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ﴾ هالك ما هم فيه، والتعبير يتضمن معنى التخریب والفساد، كما قال تعالى: ﴿... وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلَوُا تَتَّبِعُوا﴾ (٧) [الإسراء]، أى أنه عمل فاسد، لا أصل له من الحق، فهم فى ضلال ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقدم الخبر على المبتدأ لتأكيد الحكم بالبطلان على ما يعملون، ثم أخذ رسول الله ﷺ يوبخهم على ما طلبوا من ناحية بطلانه فى ذاته، ومن ناحية أنه كفر بالنعمة التى أنعم بها عليهم، فقال فى توبيخهم فى الأولى: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾، أى أطلب لكم إلها وحذفت اللام، وذلك توبيخ بالاستفهام الإنكارى، أى لا يمكن أن أفعل ذلك وأنا الذى دعوت فرعون إلى التوحيد، ويبيّن أن ذلك كفر بنعمة الله تعالى، وهو يزيد الأمر استنكارا فقال: ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ﴾، أى جعل لكم فضلا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بأن تولى هو إنقاذكم من ذل فرعون واستعباده. وهو دال على استنكار موسى بسبب ما أعطاهم الله من نعم لم ينعم بها أحد من العالمين، وهى آية عظيمة من آيات رب العالمين تدل على كمال توحيده، وأنه المتفرد بالإيجاد والخلق والتدبير، فقال: ﴿وَإِذْ أَجْنَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أى اذكروا نعمة الله

عليكم، وآياته فيكم، إذا نجاكم من آل فرعون وذكر آل فرعون؛ لأن آل فرعون وحاشيته هم المعاونون المحسنون لما ارتكب من طغيان وظلم، والذين يسولون له كل ظلم، ويررون ما يفعل من شر، وذكرهم ذكر له لأنه رأس الفساد، وغيره تابع له محسن، ومسول وهم كالشياطين حوله يشاركونه في الإثم، ولا يعفى منه. ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾، أى يذيقونكم سوء العذاب، ثم بينه سبحانه بقوله:

﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أى ويل شديد اختبرتم به أشد اختبار، فهل تكفرون بالله تعالى الذى نجاكم، وتشركون به.

تلقى موسى الألواح من ربه

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّا قَبْلُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ
مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ وَلَكِنِ أَنْظُرْ
إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَجَلْ
رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾
قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ
فَخُذْ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

ذهب موسى إلى جبل الطور ليتلقى تعاليم ربه على موعد منه، وكانت المدة ثلاثين ليلة، أى ثلاثين يوما، وذكرت فى القرآن الليالى دون الأيام؛ لأن الأشهر القمرية أمانة ظهورها بالليل، إذ يبرز القمر هلالا، ويتدرج فى النمو حتى يصير بدرا، وتعرف الأوقات من الشهر بمقدار الهلاك.

وقد قيل: لماذا ذكر الثلاثين ثم أتم الأربعين بعشر ليال أخر؟، فقالوا: إن موسى عندما ذهب إلى التجلى استشعر روحانية، وقالوا: إنه استششق ريح المسك، فطلب تلك العشر الزيادة، فأتمها الله تعالى أربعين ليلة، والتصريح بالأربعين مع أن العدد مفهوم من ذكر العشر بعد ثلاثين، وذلك لبيان استجابته سبحانه لما طلب موسى، وذكر ذلك من شعائر الإنعام.

خلف موسى بنى إسرائيل، وفيهم عناصر متضاربة متباينة وهم أهواء مختلفة وفيهم تردد، كما ظهر عندما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا أن يكون لهم إله كما لهؤلاء آلهة.

مع هذه الحال، خلفه فيهم أخوه هارون، فهو ردء موسى ومعينه وهو نبي، ولكن الذى تلقى التوراة أو الألواح هو موسى.

قال موسى لأخيه هارون ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾، أى كن خليفتي فى قومي، ترعاهم وتصلح أمرهم؛ ولذا قال فى تحقيق الخلافة: ﴿وَأَصْلَحْ﴾ أقم فيهم الحق، والعدل والإصلاح بينهم، فاحفظ وحدتهم وحارب دعاة التفرق؛ ولذا قال له : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، أى تجنب أن تسير المفسدين، بل اقطع عليهم الطريق، ولا تمكنهم من فسادهم، وكأنه بفطنة النبوة أدرك أنهم سيحدثون أحداثا من بعده - كما سيجيء - باتخاذهم العجل، وإن لم يكن قد توقع ذلك بالذات، ولكن توقع غيره وسبل الشيطان ماثرات مختلفة.

ذهب موسى - كلم الله تعالى - إلى الجبل فى الميقات الذى وقته الله تعالى، وقيل: إنه ذو القعدة وعشر من ذى الحجة، والله أعلم بالميقات.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ استأنس كلم الله بربه وطمع الكلم فى أن يرى حبيبته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، أى افتح بصرى بالرؤية لأنظر إليك، أو تبين لى أنظر إليك.

قال الله الذى كلم موسى، وحسب موسى أن الرؤية كالكلام، وإن كان الكلام من وراء حجاب، وقد شجعه على طلب الرؤية أنه سمع الكلام، ومن سمع الكلام الجميل الجليل طمع فى رؤية من يكلمه.

قال الله - تعالى - له: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

لن للنفى، المؤكد، وقال الزمخشري: إنها للنفى المؤبد، أى لن ترانى أبداً، وهذا على مذهبه من أن رؤية الله تعالى غير ممكنة، ونحن إذا قلنا: إنها لتأييد النفى، فإن ذلك موضوعه فى الدنيا، أما فى الآخرة، فأمرها عند علم الله وهو العليم بما فيها، والحياة فيها غير الحياة فى الدنيا، وما يكون مستحيلاً فى الدنيا، أو ما يرى كذلك لا يكون مستحيلاً فى الآخرة والله بكل شىء عليم، وفسر بعضهم قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، أى لن تستطيع رؤيتى.

وقد استدل الجماعة على أن رؤية الله ممكنة وإلا ما طلبها موسى، وقد علقها الله تعالى على استقرار الجبل وهو أمر ممكن فهى ممكنة.

ولترك الأقوال فى ذلك، فليس القرآن موضع جدل، وهو منزّه عن ذلك، وفوق جدال المتجادلين.

قال تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ وقد علمت قول الناس في ذلك، ثم كان الاستدراك لتطف لموسى، وتقريب له لمعنى نفسى الاستطاعة، فقال: ﴿وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، والجبل أقوى وأشد وأضخم من موسى فإن استقر حين تجلى الله وبزوغ النور الإلهى فسوف ترانى، ولكنه إن لم يستقر فإنك لن ترانى.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أى فلما ظهر نور الله على الجبل متجليا له ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾، أى مستويا بالأرض، وكان لذلك ما يثير الفزع فى نفس موسى ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾، كأنما أصابته صاعقة، وغشى، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ أحس بأنه طلب ما ليس له، وما هو فوق طاقته البشرية، وما لا يتحقق فى الدنيا - استغفر ربه، وسبحه، فقال: ﴿سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

تاب موسى من هذا الطلب الذى تبين له أن الله لا يجيبه فى الدنيا، وما كان ذلك خطيئة ارتكبتها، ولكنه خطأ لا ذنب، ولكن النفس المؤمنة التى تحس تستكثر خطاياها، وتستقل صوابها، أحس أنه ذنب يتاب منه، وما هو بذنب، وكذلك استتابة المرسلين تكون من أخطاء تغتفر، بل لا حساب عليها، ولكن يعظم أمرها فى نفوسهم فيتوبون.

وأكد - عليه السلام - استغفاره، وكمال إيمانه فقال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أى يبعدك عن الشبهة، وأنت منزّه عن كل نقص، وأول المؤمنين بأنك لا ترى فى هذه الدنيا.

وقد استجاب الله تعالى لاستغفاره وتوبته النصوح وقال تعالى:

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤).

نادى الله تعالى نبيه موسى، ويبين ما ميزه به على أهل جيله، وعلى كثير من الأنبياء ناداه ﴿يَا مُوسَى﴾ وفى النداء بالاسم نوع إنداء وتقريب، وإبداء للمحبة، والدنو منه. ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾، أى اخترتك مفضلاً لك على الناس، ف﴿صُطِفَيْتُكَ﴾ متضمنة معنى التفضيل، ولذا تعدى ب﴿عَلَى﴾، وقوله: ﴿بِرِسَالَاتِي﴾، وهى جمع رسالة، وجمعت لشمول شريعة التوراة التى نزلت على موسى - عليه السلام - من عقائد التوحيد والتنزيه وشرائع الزواج الاجتماعية من قصاص وحدود، وشرائع مدنية فى معاملات الناس وتحريم الربا، وأحكام الأسرة؛ وبعبارة أعم فى التوراة شرائع كثيرة جامعة ضمت رسالات. وقوله تعالى: ﴿وَبِكَلَامِي﴾، أى بكونى اختصاصتك من بين الأنبياء بأن كلمتك من وراء حجاب، وليس ذلك دليلاً على فضله المطلق عليهم، بل هو من هذه الناحية وليس فضلاً من كل النواحي.

وقال تعالى بعد بيان اختصاص موسى بأنه كليم الله، واختياره للرسالات كاملة وإن لم تكن النهائية ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ (الفاء) هنا فاء الإفصاح، أى فإذا كنت قد اخترتك من بين الناس بالرسالات وبكلامي، فخذ ما أعطيتك، واقنع به، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الذين تظهر النعم عليهم، ولا تطلب الزيادة على ذلك بالرؤية، فإن هذا ليس لك.

وَكَتَبْنَا

لَهُ فِي الْأَلْوَاكِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يَأْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَائِهَا سَيْلٌ مِّنَ السَّمَاءِ لَا يَتَّخِذُوهَا سَبِيلًا وَإِنْ يَرَائِهَا سَيْلٌ مِّنَ السَّمَاءِ لَا يَتَّخِذُوهَا سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

ذكر الله - سبحانه وتعالى - ما أرسله الله لموسى من رسالات فقال:
﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الألواح هى ما اشتملت عليه التوراة.

وقوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾، فسر بعض رواة الحديث بأن الله تعالى كتب على هذه الألواح، فقد ذكر الترمذى أنه قبض عليه جبريل بجناحه فمر به فى العلا وأدناه حتى سمع صريف القلم حين كتب الله تعالى له الألواح.

وإننا لا نرد خبرا إذا ثبتت صحته عن الرسول، ولا نعلم مقدار صحة هذا، وإن الذى نراه فى هذا أن ﴿كُتِبْنَا﴾ معناه فرضنا وشرعنا شرعا ثابتا مقررا ومفروضا فى الألواح، وقد تكون قد أُلقيت عليه مكتوبة فى الألواح.

وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ «مِنْ» فيها بيانية، أى كتبنا له كل شىء فى أمر الشرع من حيث العقيدة، ومن الشرائع المختلفة. وتكون موعظة، وتفصيلا لكل شىء فيها بيان لنسوع ما فى هذا الذى كتب وفرض، ففيه العظة والاعتبار بما فيها من أصل التكوين، والإخبار عن الأنبياء الذين سبقوه، وفيه تفصيل أحكام الشرائع تفصيلا مبينا موضحا، لا يخفى على الذين يدركون، ويطلبون الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أى يختاروا أحسنها، وكلُّ حسن، وأحسن، أى اطلبوا الأحسن فيها، فإذا كان واجبا فيه تخيير، فاختاروا الأحسن، فإذا خيبرتم بين العقاب والعفو فاختاروا العفو، أو نقول: إن الأحسن وصف للتكليفات كلها، إذ كلها بلغ الأفضل فى ذاته، وأفعل التفضيل ليس على بابه بل المراد الأخذ بها كلها، لأن كلها أحسنها، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا

أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ... ﴿٥٥﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿... يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر]، ﴿١٨﴾ أي يتبعون الحسن وهو القرآن أحسن القول.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، أي خذها بعزم صادق على تنفيذ أحكامها من غير هواده، والمراد بالأخذ بقوة لازمها، وهو العمل بقوة وصدق، والأمر لموسى هو أمر لأمته، وصرح بأمر حسن بلغ أعلى درجات الحسن، كما ذكر فقال: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وأشار - سبحانه - إلى أنه سيكون من يفسق عنها من قومه، وذلك ببيان أنه سبى موسى وخاصته الفاسقين ومكانهم، فقال تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الفاسقين من بنى إسرائيل، ومؤدى القول: ستعلم منازلهم وفسقهم ودرجاته.

ويصح أن يقال سقين: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ هى دار فرعون ومن سبقه من الفاسقين، وعندى أن التخريج الأول أوضح، ويؤكد قوله تعالى بعد ذلك:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

التكبر فى الأرض بغير الحق ولا يكون التكبر بحق قط، وهذا وصف كاشف لبيان مضرة الكبر وفساده أن التكبر يجعل المتكبر لا يفكر إلا فى نفسه وما يستعلى به على الناس، فإذا غمره كبره فى هذا لا يرى إلا من ورائه، فلا يتجه نظره إلى ما يجب عليه، بل يتجه إلى ما يحسبه حقاً له، وبذلك ينصرف عن الخير منصرفه فيصرفه الله عنه، وهذا قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، فصرف الله تعالى للمتكبرين نتيجة حتمية لانصرافهم لغمرتهم فى الكبر، فهو سبب هذه النتيجة وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، هو كشف الحقيقة المستكبرين من الطغاة والحكام، وكل المفسدين فى الأرض.

ولقد صور الله تعالى تفكيرهم فقال فى نظرهم إلى الحق وإلى الباطل تعالت كلماته: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآةً لَا يُؤْمِنُوهَا﴾؛ لأن قلوبهم صرفها هواهم عن الحق، فصارت متدنة بالباطل لا تستسيع الحق. إن كل آية، أى آية مهما تكن

واضحة الدلالة بينة الهداية ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لا يصدقون بها، لأنهم عميت عن الحق أبصارهم، وأصبحوا فى صمم عنه، فإن القلب إذا أعمى كره الحق، وغفل عن آياته، ومثل ذلك آل فرعون، جاءتهم العصا فكفروا بها، وجاءت يد موسى بيضاء تلمح بالنور، فأعرضوا، وأصابهم الله بالعذاب، وأصاب أنفسهم وأموالهم وزروعهم، ورأوا آيات فيهم رأى العين، وخضعوا بالحس لله، ولكن ما زالت قلوبهم كافرة فاتجهوا إلى الله رب موسى وربهم، وطلبوا إلى موسى أن يدعو الله ليكشف عنهم، فلما كشف ذهب نور الإيمان، وبقي ما استقر فى نفوسهم بسبب الكفر.

وقال تعالى فى تصوير نزوعهم إلى الباطل: ﴿وَأَن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ إن الرشد يحتاج إلى عزيمة وقوة نفس، وسيطرة على الشهوات، وحمل على الإيثار، ومنع للأثرة، والذين يستكبرون ويطغون فيهم أثره، وفيهم شهوات مستحكمة، وهو غالب، وكما قال محمد خاتم النبیین ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات». فلهذا إذا رأى المكذبون سبيل الرشد الذى يعطى لله وللناس حقوقهم فإنهم لا يتخذونه سبيلا لسلوكهم، وطريق حياتهم لأنه يحتاج إلى بصيرة مدركة، وعزيمة صادقة، وإرادة عاقلة.

﴿وَأَن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أى إن يروا سبيل الضلال وهو الغى يتخذوه مسلكا لهم؛ لأنه سبيل الأثرة والهوى والشهوات والطغيان فهو يتفق مع نزعة التكذيب لآيات الله تعالى، والغفلة عن هدايتها، والاستكبار الذى أعماهم عن التأمل فيها، وتعرف أسرار الله فى مكنونها.

ولقد ذكر الله تعالى سبب ذلك الضلال الذى يحولهم من الرشد إلى الغى، فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

الإشارة في ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الحال التي آلوا إليها من استحسانهم للشر وسبيله، واستهجانهم للخير وطريقه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أى بسبب أنهم كذبوا بآيات الله؛ سارعوا بتكذيب آيات الله، فاجتالهم الشيطان عنها، وساروا منحرفين عنها غافلين عن معانيها، ومن سار في طريق منحرفا عن الخط المستقيم أوغل في الانحراف حتى يضل ضلالا بعيدا، وكلما أمعن في السير أمعن في الضلال، حتى لا تكون هداية، أخذهم الكبر فكذبوا بآيات الله ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، ففسدت نفوسهم وأذواقهم حتى صاروا يذوقون المر فيحسبونه حلوا، وفسدت مداركهم، فصاروا لا يفرقون بين الخير والشر، ولا بين الحسن والقبيح، فإن رأوا سبيل الرشd لا يختاروه وإن رأوا سبيل الغى اختاروه وهكذا إيفت مشاعرهم، وضلت أفهامهم، وإنما يستقيم الفكر إذا استقامت النفس.

ولقد قال تعالى فى جزاء الذين كذبوا بآيات الله، فقال عز من قائل:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧).

هذا النص السامى وصف عام لكل المكذبين لآيات الله ولقائه وأخص من ينطبق عليهم المشركون الذين كفروا بمحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾.

أنكر هؤلاء أمرين وكذبوهما. أولهما - آيات الله تعالى أى معجزاته القاهرة الباهرة، فلم يؤمنوا بموجبها ولم يصدقوا ما تدعوا إليه من إيمان، وأهملوها، وافتاتوا عليها، فقالوا: سحر مبين، وكذبوا بدلائل الوحداية فيها فغفلوا عن إدراك ما تهدى إليه.

وثانيهما - كذبوا بلقاء الآخرة، أى بلقاء الله تعالى فى الآخرة، أو كذبوا بلقاء الآخرة بأن كذبوا بالبعث وما يعقبه، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب، وما نحن بمبعوثين، وحسبوا أن الإنسان يترك سدى، ونزلوا به عن مكانته

التي خلقه الله تعالى عليها، وجعل الملائكة يسجدون له خاضعين، وحسبوا أن الله خلقهم عبثاً، وأنهم إليه لا يرجعون.

وبسبب هذا التكذيب لهذين الأمرين أصدر الله تعالى الحكم، فقال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أى بطلت أعمالهم فلا ثواب لهم على عمل، ولو كان فيه نفع ظاهر أو ظاهره النفع؛ وذلك لأن الأعمال ثوابها بحسب القلوب، وما دامت القلوب ممتلئة بالشرك، مدرة بتكذيب الحق فلا خير فيها، ولا خير منها، فإن إشراق الحكمة لا يكون إلا من قلب سليم.

ومع أن أعمالهم تكون باطلة لا ثواب فيها، إلا أن عليهم العقاب فيما يرتكبون؛ ولذا قال تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع بمعنى النفى، وفيه معنى تأكيد النفى بمعنى أنه لا يتصور إلا أن يجزون بعملهم، فهو نفى فيه معنى حصر العقاب فيهم.

وفى قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا﴾ فيه بيان عدل الله تعالى فى جزائه، فالجزاء من العمل ذاته، فهو الذى يقرره، وكأن الجزاء هو ذات العمل لتساويهما وتلازمهما، إنه العليم العدل الحكيم.

عبادة العجل فى بنى إسرائيل

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عَجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلْقَوْا أَنَّهُ يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ وَأَنشَأَ لَهُمْ آلِهَةً مِن بَعْدِي ۖ أَفَعِلْتُهٖم مَّا رَزَقَكُمُ ۚ وَالْقَىٰ الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ۖ فَلَا تُشْعِمَنِي ۚ الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي ۖ وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

عاشر بنو إسرائيل أهل مصر زمانا فأنثروا فيهم بأخلاقهم، وإن الضلال يعدى كما تعدى الأمراض البدنية، وقد سرت إليهم عدوى تقديس العجل، وعبادته، كما انحلت عقيدة الوحداية منهم، وقد أكدها موسى - كليم الله عليه السلام - ولكنهم لما رأوا قوما عكفوا على أصنام لهم طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - إلها كما لهم آلهة.

وقد ذكر الله تعالى عبادتهم العجل في آيات كثيرة، وكان يذكرها في أكثر الأحيان بالإشارة العابرة، بيانا لضلالهم، وفي هذه يذكرها - سبحانه وتعالى - ببعض التفصيل، ويذكر وقتها وهو أنه كان، وقد غاب موسى لتلقى الألواح، ومناجاة ربه، فجاءهم، وقد اتخذوا العجل، صنعوه من حلى صناعة محكمة وعبدوه، صنعوه بحليهم، وجعلوه على صورة جسد عجل، ومهارتهم فى الصناعة التى اشتهرت بها مصر فى ذلك الإبان، وضعوه فى وضع إذا مرّت الريح فى موضعه من الخلف صار له صوت يشبه خوار البقر وادّعوه إلهاً، ولتتلّ الآيات الكريمة فى ذلك: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، أى فعل بعضهم ذلك وسكت عنه سائرهم، فنسب الفعل إلى كلهم، فقد كان فيهم هارون، وما كان ليرضى ولم يسكت، حتى استضعفوه وكادوا يقتلونه وفيهم صفوة من الفضلاء، كان منهم النقباء.

وقوله: ﴿مِنْ حَلِيهِمْ﴾، أى صنعوا من حليهم، جمعوها وصهروها، وصنعوها على شكل عجل، يعبدونه كما يعبد المصرون و﴿جَسَدًا﴾ أى جسما، ﴿لَهُ خَوَارٌ﴾، أى صوت كصوت خوار البقر، لما مهروا فى صناعته وفى وضعه، والجسد لم يكن فيه حياة ككل الأجسام، وقد فهم بعض الناس من كلمة جسد أنه كان فيه حياة، والحقيقة أن كلمة جسد تكون بمعنى جسم فى كل دالاتها، وسواء كان فيها حياة أم لم تكن، وإن استعمال جسد فى التعبير عن الجسم كثير فى القرآن، ولقد قال الأصفهاني فى مفرداته: «والجسد كالجسم، ولكنه أخص، وقال الخليل: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، وأيضا فإن الجسد ما له لون، والجسم يقال لما لا لون له كالماء والهواء، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].. وقال: ﴿... عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ...﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿...وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

والخلاصة أن الجسد بمعنى الجسم، وأنه لا يشترط فى الجسد أن تكون فيه حياة، وأنه يطلق على الجماد. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ...﴾ [الأنبياء: ٨٨]، أى ما جعلناهم جمادا لا يحتاج غذاء، بل جعلناهم أحياء يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق. ولقد بين الله تعالى بطلان عبادة العجل وبيان أنه ليس بحى فقال تعالت كلماته: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، وفى آية أخرى فى غير هذه السورة، فقال تعالى فى سورة طه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [٨٩].

وإن ذلك دليل على أنه لا حياة فى هذا الجسد، وإنما هو جماد قد ذكر القرآن أصله وهو الحلى، ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فقد ظلموا الحق بعملهم على خلاف التوحيد، وظلموا أنفسهم بعبادة ما صنعوه بأيديهم، وظلموا موسى الذى أنقذهم من طغيان فرعون، وكذبوا آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وأفسدوا تفكيرهم الذى هدى موسى إليه.

ولقد كان من المفسرين أو أكثرهم من أخرجوا كل بيان للقرآن على أنه من خوارق العادة، فزعموا أن العجل كان جسدا حيا، وسرت إليه الحياة من أن السامري الذي صنعه، أخذ قبضة من أثر فرس جبريل، ووضعها في صناعته، فجعلته حيا له خوار، وزعموا أن ذلك يؤخذ من قول السامري الذي حكاه القرآن عنه إذ قال: ﴿... فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) ﴿[طه]، فزعموا أن قول السامري فقبطت قبضة من أثر الرسول: أى جبريل. قبض السامري قبضة من أثر فرسه فوضعها في صناعته.

وهذا تأويل بعيد عن الحقيقة، وعن مدلول الألفاظ.

أولا - لأن الرسول، «أل» فيه للعهد، ولا بد من رسول مذكور في السياق أو معهود حاضر في الذهن وهو موسى، وأثره هو شرعه، ونبذه إهماله وتركه، وهو التوحيد.

ثانيا - أنه اعتبر ذلك مما سولت به نفسه الشيطانية.

ثالثا - أن جبريل ما كان طريق خطاب الله لموسى، إذ قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾ (٥١) ﴿[الشورى] فكان كلام الله تعالى لموسى من وراء حجاب كما قال تعالى: ﴿... وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤) [النساء]، وإن قوله تعالى عن السامري أنه قال: ﴿... بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ...﴾ (٩٦) ﴿[طه] أى فى صناعة الحلوى التى لم يكن غيره ذا بصر بها.

وأخيرا إنه لا حاجة إلى هذا التكلف والإغراب والتقدير.

وتخريج الآية على ما بينا ابتداء هو المعقول الذى لا يحتاج إلى تأويل به،

ولا إلى تقدير كلام مطوى بلا دليل.

وخلاصته أن السامري اتخذ من الحلى شكل عجل، وبمهارة الصناعة وتمكين الرياح من أن تدخل منافذ فيه كان له صوت يشبه صوت البقر وهو الحوار، فعبده، وقبض قبضة من أثر موسى وهو التوحيد فنبذه وأهمله.

أدركوا أنهم ضلوا، ولقد حكى الله ذلك فقال: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

وكلمة ﴿سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ تستعمل حال الندم، ومثله أسقط في أيديهم، والأفضل سَقَطَ، وخطأ بعضهم أسقط، وهو مردود لكونه استعمال قرآني، قيل: إن العرب لم تسبق إليه، ومعناه اللفظي سقط تفكيرهم من رؤوسهم إلى أيديهم، وصار فيها وذلك أن من يقع في خطأ يندم عليه يضرب كفاً على كف، وأحياناً يعرض على بنائه، وهذا الكلام يدل على أن في الكلام كناية عن الندم لأنه ذكر اللازم الحسى له.

وقد سجل الله تعالى ندمهم بذكر سببه، فقال: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾، أى علموا علم اليقين أنهم ضلوا ووقعوا في الضلال، فقلدوا أتباع فرعون فيما صنعوا، وأحسوا بأنه لا منجاة لهم إلا أن يرجعوا إلى ربهم، ويتضرعوا إليه، وقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ رجوا الرحمة، والرحمة تكون بالغفران، فالغفران هو الرحمة وهي لازمة، وذكر الشيء ولازمه.

وجواب القسم ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والخسران خسران تفكيرهم بسبب ضلالهم، وخسران الحق، والخسران المبين بشركهم، ولا منجاة من ذلك إلا برحمته وغفرانه.

وهذا الندم أكان بعد حضور موسى من الميقات ولومهم وتأنيبهم، أم كان بعده؟ والظاهر هو الثاني. وقد قال في حال موسى - عليه السلام - عندما رجع:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾.

أخبر الله - سبحانه وتعالى - موسى أخبارهم، ولما رجع ظهر غضبه عليهم، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ﴾، أى أنه غضب غضبا شديدا؛ لأن التعبير بغضبان تدل على امتلاء النفس بالغضب؛ لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء كسكران وشبعان، ونحوها، و﴿أَسِفًا﴾ أى حزينا، أى أنه غضب لهذا الأمر الشاذ، ولما تفكر فى الحال حزن حزنا شديدا، فالأسف: الحزن. كقول يعقوب: ﴿... يَا أَسْفَى عَلَى يُونُسَ ...﴾ (٨٤) [يوسف]، أى أنه فى حال الحزن الذى لا حزن وراءه.

قال لهم: ﴿بِقِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾، أى بشس ما صنعتم خلفى من بعدى وفى غيبتى أى خلفتمونى بشر، وهو جدير بالذم، وكان ذلك فى غيبتى، فكانهم خانوه مرتين مرة بهذا العمل الفاسد الضال المشرك، ومرة بأنهم انتهزوا فرصة غيبتة وفعلوا ما فعلوا، فكانوا آثمين، إثمين، إثم العمل، وإثم أنهم خانوه فى غيبتة، وقال: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أردتم العجلة فى أمر ربكم وذلك خروج عن حدودكم.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾، التى تلقاها عن ربه مكتوبة مفروضة جانبا، لا أنه رماها حتى تكسرت كما زعم بعض المفسرين. بل ألقاها جانبا ليفرغ لمناقشة الذين غيروا وبدلوا من بعده، ومن سكتوا عن تغييرهم، وأول مستول سألوه هو أخوه هارون، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أكثر المفسرين على أنه فى غضبه، قد أخذ لحية أخيه وقبض قبضة من شعره يجره إليه، وقالوا: إن ذلك كان متعارفا عندهم، أو لأنه أراد مناجاته، أو أراد أن يسر إليه أمر الألواح، أو أراد نصحه، ونرى ذلك بعيدا عن روح النص؛ إنما الظاهر أنه أراد لومه لوما شديدا؛ بحسب أنه قصر عن مقدرة بدليل رد هارون: ﴿إِن أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي﴾. ويصح لنا أن نقول على هذا إنه يصح أن يكون أخذ اللحية وجر الرأس لا يراد به حقيقته إنما يراد به لازمه، وهو إلقاءه التسعة عليه لأنه خلفه عليهم، ونهاه عن أن يتبع القوم المفسدين، وأن ذلك كناية عن هذا؛ لأن ذلك يكون عند اللوم الشديد، وقد اعتذر

لأخيه بأنهم استضعفوه، أى عدوه ضعيفا، أو طلبوا موضع الضعف فيه، وهو أنه ليس المسئول الأصلي، وإنما هو ردة لأخيه، وقد غاب الأصل، فاستضعفوا خليفته، وقال: ﴿وَكَاذِبُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أى شدد النكير عليهم حتى كادوا يقتلونه، أى قاربوا أن يقتلوه، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ طلب من أخيه أمرين: أولهما، ألا يتمادى فى مؤاخذته فيشمت الأعداء بهارون وهو المداوم على نصرته، وعرض نفسه معه لأذى فرعون الطاغية، الثانى: ألا يجعله فى عداد الظالمين، بأن يعتبره ممن عبدوا العجل، أو تهاونوا فى استنكاره، فإنه قد قام بحق الخلافة عن أخيه، ولكنهم وقعوا فيما وقعوا فيه بأمر لا قبل له فى دفعه، وهو له منكر.

ولقد كان موسى - عليه السلام - شديد الغضب، لكنه كان سريع الفئدة؛ ولذا قال راجعا إلى الحق فى أمر أخيه معلنا الرضا. فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

طلب الغفران لنفسه لأنه يحس كما يحس الأبرار بقصور نفسى من تقصير حقيقى، ولأنه ألقى التبعة على أخيه، وما قصر أخوه، وأن يغفر لأخيه، إذا كان لم يحملهم على الجادة، ولم يمنعهم عن غيهم، ثم يقول: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ التى كتبها للمؤمنين، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وهنا إشارة بيانية فى القول فإن هارون قال ﴿ابْنَ أُمٍّ﴾ وهو نداء استعطاف واسترحام، وخصت الأم بالذكر؛ لأنها مجتمع الحنان والرفق والمودة بين أولادها.

جزاء الذين اتخذوا العجل

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ سَيْنًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٤﴾

غضب موسى، وغضب له ربه؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

أكد سبحانه وتعالى أن الذين اتخذوا العجل بأن صنعوه بأيديهم، وعبدوه من دون الله فاتخذوه إلها تقليدا وعماية عن الحق، وعن الإيمان بالآيات البينات، حكم الله تعالى عليهم بسبب اتخاذهم العجل فقال: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

السين في سينالهم لتأكيد ما ينزل بهم و﴿غَضَبٌ﴾ حال تقوم بالذات العلية، وهى غير غضبنا، وإن مظهره عذاب شديد، وبعد عن رحمته ﴿... وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ...﴾ (٧٧) [آل عمران] وذلك إذا لم يتوبوا إليه، كما تدل على ذلك الآية التالية لهذه.

وينالهم مع الغضب ذلة، وهى ذلة المبطل إذا ظهر الحق، وتضرب عليهم الذلة إلى يوم القيامة إن لم يتوبوا إلى ربهم، ويرجعوا إليه.

وإن ذلك جزاء المجرمين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، أى كهذا الذى ينالهم حتما من غضب الله الذى يكون أثره العذاب الشديد، والبعد عنه، والذلة تكون جزاء المجرمين الذين مردوا على الإجمام والمخالفة والعصيان، أى صار الإجمام وصفا ملازما لهم، لا يخرجون منه ولا يتركهم؛ لأنهم لا يتوبون، وقد فتح الله تعالى باب التوبة مما يدل على أن ذلك العقاب هو لغير الذين يتوبون ويعملون الصالحات.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَّنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٥٣).

«الواو» عاطفة واصله بين هذه الجملة وما قبلها، و﴿السَّيِّئَاتِ﴾ جمع سيئة، وهى ما يسوء الناس، وهو قبيح فى ذاته ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَّنُوا﴾ «ثم» هنا

للترتيب والتراخي لبعد ما بين السيئة والتوبة؛ لأن السيئة فعل قبيح لا يرضى الله - سبحانه وتعالى - والتوبة رجوع إلى الله، فالمنزلتان متباعدتان تباعد البعد من الله بالسيئات، والقرب منه بالتوبة، وقوله تعالى: ﴿تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ يوحى إلى أن التوبة لا تكون بعيدة الزمن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ...﴾ (١٧) [النساء].

﴿آمَنُوا﴾، أى أذعنوا للحق، فكأن التوبة لها ثلاث خطوات هى الشعور بالذنب والندم، ثم التوبة، ثم الإذعان لحقائق الإيمان بحيث لا يعودون لمثلها أبداً.

وقد وعدهم الله تعالى بقبول التوبة فقال: ﴿إِنْ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أى إن ربك الذى خلقك وكونك من بعد هذه التوبة النصوح ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن هذا بيان لقبول التوبة ببيان وصف قابلها، وهو أنه غفور للذنوب قابل للتوب، وأنه رحيم بعباده يريد لهم التوبة، ولا يريد لهم العقاب إلا أن يصروا إصراراً.

وفى هذا النص تأكيد بقبول التوبة بالتأكيد بالجملة الاسمية، وبوصف الربوبية، وبوصف الغفران والرحمة، وب «إن» وباللام فى قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وإن الله تعالى فى القرآن الكريم حيث يذكر العقاب يذكر التوبة وقبولها حتى لا يئس المذنب من غفرانه، فينساق فى معاصيه وهو يقنط من غفران الله ورحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) [الزمر].

موسى بعد الغضب ينظم الدعوة للإيمان

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي
نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ
مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهِلِكُنَّ بِمَا فَعَلَ
السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا أَفْنَتُكَ نُضِلُّ بِهَا مَن نَّشَاءُ وَتَهْدِي
مَن نَّشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾
وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

كان الغضب أمرا عارضا لموسى بسبب أن قومه انتهكوا حِمى التوحيد، وأشركوا بالله، ولم يغب عنهم إلا أربعين ليلة، فاستطالوها وعجلوا به مخالفين أمر ربهم، وبعد أن هدا الغضب، إذ أقام أمر الله ونهيه، وقد كان سريع الفينة كما روينا أى سريع الرضا، وكذلك شأن النبيين لا يلج بهم الغضب؛ حتى لا يشغلوا عن الدعوة إلى الحق الذى بعثهم الله تعالى لإقامته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ يدل على أنه عارض زال فعاد الواجب قويا قائما، بعد زواله ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا﴾، أى فى المكتوب فيها، وهو الأصل الثابت الذى كتب بأمر الله تعالى، وكأنه - سبحانه وتعالى - هو الذى كتبه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، أى فى نسختها الأصلية. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، أى

هداية إلى الحق فى وسط دياجير الباطل والظلمات ورحمة بشريعتها التى اشتملت عليها، فالشريعة فى التوراة بأخذها على أيدي الظالمين وإقامة العدل، يكون ذلك رحمة، فالعدل فى ذاته رحمة، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ... (١٧٩)﴾ [البقرة].

وإن هذه الهداية وتلك الرحمة إنما ينتفع بها الذين يرهبون الله تعالى ويخافونه، والذين يخافون الظلم ويجتنبونه، والذين فى قلوبهم رافة بالناس، ويخافون أن يؤذوهم ويتجنبون الأذى، ويخافون عذاب الله، ولذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

أى إن الهدى والرحمة للذين هم يخافون الله تعالى ويرهبون عذابه، فإنه مع رهبة رب العالمين يكون الاتعاظ والاردجار، والانتفاع بالهداية، وتلقى الرحمة، واستحقاقها. وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فيه تأكيد لرهبتهم لله بعدة مؤكدات: أولها ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ وثانيها: تقديم ﴿لِرَبِّهِمْ﴾، أنهم لا يرهبون إلا ربهم، ولا يخافون غيره، وثالثها: فى قوله ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ فاللام هنا تفيد زيادة الرهبة، إذ إن ﴿يَرْهَبُونَ﴾ تتعدى بنفسها دون اللام، فذكر اللام لتقوية التعدى أى لتقوية الرهبة، وهكذا لا ينتفع بما اشتملت عليه من الهداية إلى الطريق، والرحمة بالانتفاع بنظمها إلا هؤلاء؛ لأن هذه الرحمة لا ينتفع بها إلا الذين يخافون الله تعالى ويرجون ثوابه ويخافون عذابه فيكونون منه دائما على حذر، فينجون.

بعد أن ذكر الله تعالى الميقات الذى واعد الله موسى عليه، وما كان من عبادة العجل، ولوم موسى لأخيه على عبادة بنى إسرائيل العجل، بين الله - سبحانه - اختيار موسى لسبعين من رجال بنى إسرائيل يمثلونهم، وكأنه اختار بنى إسرائيل كلهم، فقال تعالى:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾.

اختار موسى سبعين رجلا لميقات الله تعالى الذي واعدته موسى - عليه السلام - وكأنهم صحبوه في هذا الميقات، ولكن انفرد بمكالمة الله موسى - عليه السلام.

وقد طلبوا أن يروا الله تعالى جهرة، ويظهر أن موسى - عليه السلام - طلب أن ينظر الله تعالى تمهيدا لأن يروه، فقال الله تعالى لن ترانى، ﴿... فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا...﴾ (١٤٣) وكانت رجفة في الأرض خر من أجلها موسى صعقا، وأخذتهم الرجفة.

وانتهى من هذا إلى أن الذهاب للميقات واحد، ذهب موسى ومعه سبعون رجلا اختارهم ممثلين لبنى إسرائيل، وهذا ما يمكن أخذه من ظاهر السياق القرآنى، وهو أن الميقات واحد.

ولكن يذكر محمد بن إسحاق أن هذا ميقات آخر، وهو أن موسى عندما رأى من عبادة العجل ما رأى، أخذ ميقاتا من ربه، ليذهب هؤلاء السبعون معه، ويستغفروا ربهم، فقالوا: ﴿... لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ...﴾ (٥٥) [البقرة]، فصعقوا.

وإن هذا الكلام مقبول في ذاته، ولكن لا نجد له سنداً صحيحاً من سنة وليس في الكتاب إشارة واضحة إليه ولعله يرشح لهذا النظر قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ولكنه لا يقطع؛ لأنه ربما يشير إلى أن طلب الرؤية ذاته كان تعديا وسفها، ولذا استغفر عنه، على أن الاستفهام للإنكار، أى لإنكار الوقوع من الله تعالى أى أنت يارب العالمين لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، أى بما يكون بسبب خفة أو تسرع.

وهنا إشارات بيانية:

الأولى - أن الله تعالى يقول: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ وسبعون بدل من ﴿قَوْمَهُ﴾ بدل بعض من كل، ولكنه يشير إلى أن اختيارهم هو اختيار جميعهم، لأنهم يمثلونهم، وكأنهم هم أنفسهم.

الثانية - فى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ نادى الله بعنوان الربوبية أنه لو شاء أهلكهم وأهلك موسى معهم، وذكر نفسه معهم؛ لأن السبب، وهو طلب رؤية الله تعالى، قد اشترك فيه موسى، وتلك مساواة منصفة من كليم الله تعالى موسى مع غيره.

الثالثة - أن الله تعالى هدى موسى لأن يستنكر بنفسه طلبه الرؤية، وظنه أن ذلك سفه أو تسرع، ولكنه ليس بذنب مقصود، وإنما دقة الحس بالإيمان جعل يظن أن ذلك سفه يدخله فى جملة السفهاء؛ ولذا قال هذا، وقال من قبل: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

الرابعة - من الإشارات البيانية، قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾، أى من وقت الميقات وأنا معهم ثم قال موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾، الفتنة: الاختبار، وهى مضافة إلى الله تعالى، ومعناها إنك تعاملنا معاملة من يختبرنا فى أنفسنا، تهدى بها من تشاء ممن يعتبرون بالعبر، ويؤمنون بقدرتك، ويطيعونك فيما تأمر به وتنهى عنه، ويضل فى هذا الاختبار الحكيم، فلا يدرك عظمتك وجلالك، فيضل عن الطريق ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا﴾ أى أنت ناصرنا ومعزنا، ومتولى أمورنا، والقريب منا العفو الغفور.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كنت ولينا وناصرنا، والقريب الدانى منا برحمتك وعفوك، فاغفر لنا ذنوبنا وارحمننا وأنت خير الغافرين.

فإذا كان منا مخالفة فأنت خير الغافرين، و﴿خَيْرُ﴾ هنا للتفضيل، ولكنه فى غير باب، والمعنى أنت غفار بقدر لا يتصور أن يكون فوقه قدرة، ولا يفاضل بينه وبين غيره.

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ .

هذه ضراعة إلى الله تعالى إلى أن يوفقهم للخير، وألا يجعلهم من الأشقياء، دعوا ربهم أن يكتب لهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وحسنة الدنيا هي الحال الطيبة التقية النقية الطاهرة التي تكون غايتها إرضاء الله تعالى، والبعد عن معصيته وفي الآخرة، والدعوة إلى الكتابة في الدنيا، دعوة إلى العمل الطيب، فحسنة الدنيا عمل صالح ونفع وخير، وأن يكون مصدر خير دائم، وفي الآخرة تكون الحسنة جزاء يكون وفاقا للعمل.

ولقد ذكر الله تعالى حسنة الدنيا، وطوى في الذكر حسنة الآخرة؛ لأنها ليست عملا، بل هي جزاء على عمل في الدنيا ثمرة الأولى، فمن حسنت دنياه وكانت للخير، حسنت آخرته، وكانت نعيما مقيما.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ... (١٥٦)﴾ وهو لمن اختار النفس والهوى، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وذلك لمن اختار طريق الحق والهداية كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد] أى نجد الخير، ونجد الشر.

وقد أسند العذاب إليه وإلى مشيئته سبحانه لعظم العقاب، وليبين أنه حق، وأنه من عند الله، وقد كتب العدل على نفسه كما جاء في الحديث القدسي^(١)،

(١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيَمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا». جزء من حديث طويل رواه مسلم وقد سبق تخريجه.

فهو العدل وهو خير الفاضلين، وقدم الله تعالى ذكر العذاب على الثواب؛ لأنه يكون لمخالفي الفطرة وللتنذير قبل التبشير، ليختار المكلف نَجْدَ الخير .

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ العموم فيها عموم كامل صادق، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ ولم يقل كل شخص، للإشارة إلى أن الرحمة شاملة عامة للأشياء والأشخاص، فشريعته عدل ورحمة وإرساله الرسل عدل ورحمة وخلقه الكون وما فيه من شمس مشرقة مضيئة للكون، وقمر منير، ونجوم ذات بروج، وسحاب ورياح ومرسلات رحمة، وهكذا كل ما سخره الله تعالى للإنسان، وما مكنه منه رحمة به .

هذه إشارة إلى معنى العموم الذى اشتمل عليه ذلك النص السامى، وما ترمى إليه رحمته، وإن نعيم الجنة رحمة من الله، وقد كتبها الله تعالى للذين يؤمنون بالله وبالآخرة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

الفاء هنا لتفصيل بعض العام، والسين لتأكيد المستقبل، و«اكتبها»، أى أسجلها غير قابلة للمحو، وذكر أعمال أو أوصاف من يستحقونها، فكانت خلاصاً ثلاثاً:

الأولى - التقوى واستشعار مخافة الله، وأن يتخذوا وقاية بينهم وبين الشر، وذلك بتهديب أنفسهم بالعبادات المهدبة للنفس، التى يستشعر فيها المؤمن خشية الله تعالى، وابتدأ - سبحانه وتعالى - بها لأنها أساس قوة الخير، وهى روح الدين، وعمران القلب بذكر الله تعالى .

الثانية - الائتلاف مع المجتمع الإسلامى بالمعونة والبر، وأشار بذلك إلى إيتاء الزكاة، فهى أساس التعاون الاجتماعى، وهو سبحانه يذكرها بجوار التقوى، وهى

الكلمة الشاملة لأكثر العبادات تقريبا لله - سبحانه وتعالى - وإن التعاون الإنساني قرين العبادات، بل هو منها، وأقربها عند الله - سبحانه وتعالى .

الثالثة - أنهم يؤمنون بآيات الله تعالى وحدها، يؤمنون بالمعجزات ولا يؤمنون بما يحيط به المشركون أنفسهم مما يشيرونه من أهواء ومفاسد وجحود، ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقد قدم فيه الجار والمجرور على كلمة يؤمنون للدلالة على أنه لا يصح أن يؤمن بغيرها، والإيمان بآيات الله إيمان بما دلت عليه، وهدت إليه من إيمان بالوحدانية، وحدانية الله تعالى بالألا يشرك به شيئا، وأكد سبحانه وجوب هذه الخصلة بثلاثة مؤكدات .

أولها - أنه كرر الموصول، فإن التكرار تأكيد، فقال: ﴿وَالَّذِينَ﴾ .

وثانيها - التعبير بالجملة الاسمية .

وثالثها - بضمير الفصل، وأخيرا بذكر كلمة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، فإن التعبير بالمضارع يفيد استمرار الإيمان وتجديده بالزيادة أنا بعد آن . جعلنا الله تعالى ممن كتب له رحمته وبرحمته وغفرانه .

النبى الأمى المبشر به فى التوراة والإنجيل

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

الرَّسُولَ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ
فِى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ
عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا

النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

إن ذلك القصص القرآني فيه تسلية للنبي ﷺ، وشد لعزيمته، وعزاء للنبي ﷺ بكفر الأقوام الذين كفروا بالأنبياء قبله كقوم نوح وصالح وهود، وموسى من بعد هؤلاء، وفي هذه الآيات الكريمات مع العزاء الرباني وشد العزم المحمدي، بيان أن النبي ﷺ مبشر به في التوراة والإنجيل، وأن اليهود الذين يعاندون محمدا ﷺ مخاطبون، وأنه إليهم جميعا، وأن اتباعه واجب عليهم، وأنهم ينحرفون عن دين موسى - عليه السلام - إن لم يؤمنوا به، وبهديه الذي جاء إلى الخليقة الإنسانية كلها به.

ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ بدل اشتغال من قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أو تكون منصوبة على التخصيص، ويكون المعنى أن الذين كتب الله تعالى عليهم الرحمة؛ الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم به يؤمنون، ويخص - سبحانه - الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه إلى آخر الآية الكريمة، وكان تخصيص الذين يتبعون النبي ﷺ؛ لأنهم يؤمنون بكل الأنبياء، ولأنه خاتم النبيين، ولأن شريعته هي الشريعة الخالدة الباقية إلى يوم الدين، وهو خاتم النبيين، فكان أتباعه جديرين بالتخصيص، ولأنهم شهداء على الناس مكلفون بتبليغهم والنبي ﷺ شهيد عليهم، وهو مبلغهم والشاهد عليهم

بوجوب التبليغ، ونشر الإسلام، والدعوة إليه، من أجل هذا خصوا بالبيان بين الذين كتب الله تعالى لهم الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ﴾ نقول في الكلام في معناه: الرسول هو المرسل من قبل واحد إلى واحد أو جماعة، والرسول في القرآن الكريم هو المرسل من الله تعالى لخلقه لتبليغ شريعته وبيان التكليف الذي كلف الناس إياه، والنبى الذى أنبأه الله تعالى، وشرفه بتلقى وحيه، وإن وصف النبى ﷺ بالرسالة والنبوة فيه للملزوم واللازم، فإن الرسالة تلزمها النبوة فى المعنى القرآنى؛ لأنه لا يعد رسولا إلا إذا كان نبوة عن الله، وقد تلقى العلم عن الله جل جلاله بوحى، أو يكلمه من وراء حجاب أو يرسل رسولا.

وذكرها - أى وصف الرسالة والنبوة - مع هذا التلازم فيه إشارة إلى التبليغ، وإلى أنه يُنبأ من الله تعالى، والأُمى نسبة إلى الأم، أى أنه جاء فى العلم والكتابة كما ولدته أمه، أو نسبة إلى أمه؛ ذلك أن العرب لم يكونوا أهل علم وكتاب، فلم تغلب عليهم العلوم والكتابة، وإن كان فيهم من يعرفون الكتابة وبعض العلوم، ولذا كان يطلق عليهم الأميون، وذكر القرآن الكريم ذلك الوصف لهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾ (٢) [الجمعة].

ولقد كان النبى ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب لتكون الحجة عليهم قاطعة بنزول القرآن الذى فيه علم الأولين والآخرين، وهو لا يمكن أن يكون من أمى قط، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) [العنكبوت].

ولقد حاول الذين لا يرجون للإسلام وقارا أن يكذبوا فيدعوا أن النبى ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ليشككوا فى القرآن، وقد حاول بعض المتحذلقين من المسلمين أن يقول فى هذه المقالة الكاذبة فردهم القرآن الكريم ردا عنيفا؛ لأنهم يسايرون الكفار الكذابين.

هذه أوصاف ثلاثة. ووصف رابع ذكره الله تعالى بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، وهذا الوصف يدل على أمر بالنص، وهو أنهم يجدون النبي ﷺ مذكورا مكتوبا في التوراة والإنجيل، ويدل على أمرين آخرين:

أولهما - وحدة الديانات السماوية فهي تدعو إلى دين واحد، قد تتغاير بعض الفروع، ولكن الأصل واحد. كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... (١٣)﴾ [الشورى].

وإن اليهود والنصارى قد حرفوا القول عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، ولا يزالون يغيرون، وبدلون على حسب أهوائهم، وقد ظهرت في مصر طبعة للإنجيل متى فيها تغيير عن سوابقها، ولا تكاد تجد نسخة مكتوبة في مصر، تتلاقى في كل أجزائها مع التي جاءت من بعد، يغيرون لفظا بدل لفظ، ويزيدون قيدا أو شرطا، ولا يلمح ذلك القارئ العادى بادئ ذي بدء حتى يخفى ذلك على عامتهم بل بعض خاصتهم.

لقد ذكر النبي ﷺ بالاسم وذكر بالوصف، فغيروا الاسم وأحاطوه بما يجعله مبهما مع ملاحظة اختلاف اللغة العربية على اللغة العبرية.

ولكن الأوصاف لم يستطيعوا تغيير كثير منها، وهم يحاولون التغيير، ولنأت بنصين أحدهما من التوراة، والثاني من الإنجيل، وهما لم تمتد إليهم أيدي التبديل والتحريف ونرجو ألا يغيروا من بعد.

ما في التوراة - جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من سعيير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم».

وصريح أن إشراق الرب من سيناء هو إنزال التوراة، وإشراقه من سعيير - وهي موضع بالناصره - إنزال الإنجيل، وإشراقه من فاران، وهي مكة أو ما

حولها، لأنها التي نزل بها إسماعيل، كما جاء في التوراة نفسها فقد جاء فيها: «أنجيت هاجر ابنا لإبراهيم وكان هذا الابن قرة عينها وبهجة قلبها ولكن سيدتها سارة حاولت إذلاها فاستجارت بزوجها إبراهيم لكنه تركها لسيدها بقوله لها: هو ذا جاريتك، فاشتدت بها إيلاما وإيذاء حتى هربت ترجو النجاة مما ألم بها، فقابلها ملاك الرب في الطريق فقال: مالك يا هاجر، وقال لها شدى بابنك لأنى سأجعله أمة عظيمة، وفتح عينيها، فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة، وسعت بالغلام فكان الله مع الغلام فكبر وسكن في بيرة فاران».

وإشراق الرب فى فاران إذن هو إنزال القرآن (راجع رسالة بشرى زخارى ميخائيل بعنوان: محمد رسول هكذا بشرت الأنجيل).

وجاء فى إنجيل يوحنا وهو بعض ما فى الأنجيل - التبشير بلفظ «الفارقليط»، ففى الإصحاح الرابع عشر من هذا الإنجيل جاء النص التالى على لسان المسيح: «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب، فيعطىكم فارقليط آخر، ليثبت معكم إلى الأبد، وهو روح الحق الذى لا يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه، ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه، لأنه مقيم عندهم، وهو ماكث فيكم».

وجاء فى الإصحاح السادس عشر من هذا الإنجيل «لكنى أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتكم الفارقليط، فأما إذا انطلقت أرسلته إليكم، فأما إذا جاء فهو يكت العالم على خطيئته وعلى بر، وعلى دينونة. أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى».

راجع المرجع السابق فهو يبين أن مجيئ الفارقليط هو مجيئ محمد ﷺ وصدق الله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وقد ذكر الله تعالى ما يقوم به الرسول النبى الأمى، فقال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

هذا أحد أمور أربعة خص الله تعالى رسالة محمد ﷺ بها، والأمر المعروف والنهي عن المنكر وصف عام للشريعة الإسلامية، فكل أمر تأمر به من الحلال، وتكلف الناس أن يقوموا به هو من الأمور التي تقرها العقول، وتعرفها، إذ المعروف الأمر الذي ترضاه العقول، وتراه صالحا مصلحا للناس، تقره وتعرفه بفطرتها، ودين الفطرة يأمر بكل ما يستقيم مع الفطرة، فالعبادات كلها، ومنها الزكاة تقرها الفطرة، والعقل المستقيم، والوفاء بالعهود، وجهاد الأشرار لحماية الفضيلة، وإقامة الحدود، والقصاص من المعتدين تقره الفطرة ويؤيده العقل.

وكل أمر نهى عنه الإسلام هو من الأمور التي لا تقرها العقول، وتتجافاه، فالزنا والسُّكر، وقذف الأطهار، والاعتداء على الأنفس والمال، ومحاربة العدل، ونصرة الظالمين والرضا بظلمهم أمور تنكرها العقول السليمة وتجافيهها. وقد سئل أعرابي أسلم: لماذا آمنت بمحمد؟ قال: ما رأيت محمدا يقول في أمر افعل والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمدا يقول في أمر لا تفعل والعقل يقول افعل.

والأمر الثاني الذي ذكره القرآن مما يفعله النبي ﷺ ودعا إليه في رسالته ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، والطيبات هي الأمور المستحسنة في ذاتها، من أطعمة طيبة مريئة، هنيئة، لا تفسد الأجسام ولا تضر العقول، ولباس حسن من غير إسراف ولا مخيلة، ولذات طيبة في حدود الخلق والمروءة، وتصرفات طيبة لا اعتداء فيها، ولا نكث وخيانة، وغير ذلك مما هو طيب في ذاته، وحصل عليه بطريق طيب أحله الله تعالى ولا اعتداء فيه ولا اغتصاب.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ وهي الأشياء الخبيثة في ذاتها التي تضر الأجسام، كالخنزير والميتة والدم المسفوح أو تضر العقول كالخمر، أو تلقى بالعداوة بين الناس كالميسر والبغضاء أو الاعتداء على حق غيره بالسرقة والاعتصاب أو القتل، فكل هذه خبائث تدخل في باب الفحشاء والمنكر والبغى، وكذلك أكل أموال الناس بالباطل كالربا ونحوه.

والأمر الرابع ذكره سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ والإصر هو الثقل، والمراد ثقل التكليفات فلم تكن تكليفاتهم يسيرة، بل كان فيها شدة وكان فيهم غلظة في طباعهم، وقسوة في نفوسهم، فكان تشديد التكليف عليهم تهذيبا لهم، وكفا لشُرِّه في نفوسهم، فكان لابد لفظهم عن بعض الطيبات، كما قال تعالى: ﴿فَبَطَّلْنَا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ... (١٦٠)﴾ [النساء]، أى هي في أصلها حلال.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾ [الأنعام].

ومما رفعه سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ والأغلال جمع غل، وهو ما يوضع في العنق في مخنقة ليثقل ويوضع كذلك تقييدا لحركته وإثقالا عليه، والمراد هنا ما وضع من قيود في الحلال عليهم تهذيبا كتحرير الصيد يوم السبت، ومنع بعض المحللات في ذاتها، ولكنها حرمت عليهم تربية لهم.

والأغلال مجاز عن هذه القيود التي شدد الله بها على نفوسهم لقمعها عن الإسراف في الشهوات، شبهت هذه القيود بالأغلال الحسية؛ لأنها ثقيلة على النفوس المستقيمة، ولكنها علاج للنفوس المريضة السقيمة، وإن شريعة النبي الأمي جاءت موائمة للفترة السليمة جاءت لليسر، دون العسر، وكانت عزاء للإنسانية كلها لا فرق بين أحمر وأسود، وهى الباقية ما بقى الإنسان.

وإذا كان محمد ﷺ قد جاء برفع الأصار فإن الواجب تأييده ونصره؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَزَّوْهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ وَلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر يتضمن الكلام المتقدم فحواه، ومؤدى القول إذا كان هذا النبي الأمي ينعم الله على يده عليكم تلك النعم، وهو قد جاء بالحق في ذاته، ورفع عنكم الأصار والأغلال؛ فعزروه أى فوقروه وأيدوه،

وانصروه على من يعادونه، فإن نصرته تأكيد للحق، وشكر للنعمة، وقيام بواجب الحق على أهله.

وكلا الأمرين واجبان بالنسبة للنبي الأُمى، وهناك واجب أعظم، وهو جماع الإيمان، وفيه تنفيذ أحكام الرشد، وهو ما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾، أى أنزل من عند الله تعالى ومصاحبا لدعوته، مؤيدا لرسالته وهو المعجزة الكبرى الخالدة، وهو القرآن، والتعبير عنه بالنور فيه استعارة فقد شبه بالنور؛ لأنه مبين للحقائق مزيل للجهالات، دافع للأوهام، كما أن النور يزيل غياهب الظلام.

واتباع القرآن اتباع لصراط الله المستقيم الذى لا عوج فيه، وهو الخلاصة الإلهية للرسالة الإلهية، وهو سجل النبوات جميعا، فيه أحكامها، وأخبارها، ومعجزاتها.

وقد حكم الله سبحانه وتعالى على الذين قاموا بهذه الصفات بأنهم الفائزون فى الدنيا باتباع الحق، وأن حياتهم كلها فاضلة وأن تكون حياتهم فى الآخرة نعيما مقيما، ورضوانا من الله العزيز الحكيم، وهو أكبر الفوز العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

والإشارة إلى الصفات، يفيد أنها علة الحكم وسببه، أى بسبب هذه الصفات ينالون الفلاح فى الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم.

وقد أشار - سبحانه وتعالى - بالبعيد للدلالة على بعد الشرف، وعلو المنزلة، وقد قصر الله تعالى الفلاح عليهم، بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل، أى أنهم المفلحون، ولا يفلح سواهم، والقصر قصر حقيقى، إذ إنهم سلكوا الصراط المستقيم، ومن لم يسلك سبيل الله فقد سلك ماثرات الشيطان، وهذا فرق ما بين الهدى والضلال.

وإذا كان ذلك طريق الفوز عند الله، وفي الحياة الدنيا والآخرة فإن الإنسانية كلها مخاطبة بها، ولذا قال تعالى آمرا نبيه بخطاب الناس كافة بهذه الشريعة السمحة البيضاء.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾.

إن شريعة النبي الأمي هي شريعة الناس جميعا لا فرق بين أحمر وأسود وأصفر، ولذلك أمره الله تعالى أن يخاطب بها الناس جميعا؛ ولذلك كان الخطاب بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا فرق بين قبيل وقبيل وجماعة وجماعة، فما كان ما اشتملت عليه رسالتي علاجا لجماعة ظهرت فيها أمراض نفسية واعتقادية ولكن لصالح البشرية أينما كانوا، وكما قال تعالى على لسان نبيه: ﴿... لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ... (١٩)﴾ [الأنعام].

ولذا نادى الناس، ولم يختص بنداثة المؤمنين، بل عم بنداثة الناس، وأكد هذا التعميم بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ وبأن الرسالة إليكم معشر الناس أجمعين. وإن الرسالة السامية ذات خطر وشأن، وتجب طاعتها، والاستجابة لها، وذلك لأنها من الله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فله ملك الكون والسلطان وهو مالك كل شيء فهذا الوصف، لإلقاء مهابة الرسالة في نفوس الناس، فهي رسالة من ملك السموات والأرض، وله السلطان المطلق فيها، ولا يوجد سلطان مطلق في الوجود لغيره، وهو العزيز الرحيم.

وهو لا يملك السموات والأرض وما فيهما من أكوان فحسب، بل يملك كل حي فيها من نبات وحيوان وإنسان، وهو الذي يملك الحياة والموت؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

وإذا كان له الملك هو مالك كل شيء، ومالك الحياة والموت لكل الأحياء، فإنه الجدير بالعبادة، وحده وهو الذى يكرم رسوله، فمكانة الرسول مستمدة من مكانة من أرسله، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ الفاء هنا لربط ما قبلها بما بعدها برابطة السببية، أى ما ذكر من كمال سلطانه فى الكون جماده، والأحياء فيه.

والإيمان بالله تعالى هو الإيمان بوجوده، وأنه الخالق الفاعل المختار، وأنه صاحب السلطان فى الأكوان والإنسان، وأنه المعبود وحده بحق، ولا معبود بحق سواه، وبعبارة أعم الإيمان بالله وبوحدانيته فى الخلق والتكوين والذات والصفات والإيمان بالله تعالى إلهها معبودا.

والإيمان بالرسول: التصديق به رسولا من رب العالمين، والإيمان بصدق ما يدعو إليه، وأنه من عند الله العليم الحكيم واتباعه فى كل ما جاء به، والاقتداء به، واتخاذ أسوة فى العمل الصالح الذى يهذى إليه، ووصفه سبحانه بثلاثة أوصاف تفيد كماله فى رسالته.

الوصف الأول: أنه النبى أى الذى يخبر عن الله تعالى، وأن ما يدعو إليه هو ما كلفه الله إياه ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ (٨٠) [النساء].

والوصف الثانى: أنه الأمى، الذى ينطق بالفطرة وبالوحى، وأن حاله تدل على صدق معجزته، وأنه لا علم عنده إلا ما علمه الله تعالى رب العالمين، وإن ما معه من كتاب لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه تنزيل من عزيز حميد.

والوصف الثالث: ما ذكره - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ وإيمانه بالله هو ما ذكرنا، وإيمانه بكلماته هو الإيمان بالقرآن، فهو

كلمات الله السامة الكاملة التى لا يعادلها أو تقارب أى كلام من البشر، والذى تحدى الناس أن يأتوا بسورة منه فعجزوا فقامت عليهم الحجة.

ورجح بعض المفسرين أن كلمات الله تعالى لا تخص القرآن وحده، وإن كان أكملها، وأبقاها، وإنما يشمل الكتب التى نزلت على النبيين من قبل من التوراة والإنجيل والزبور، وغيرهما مما لم يذكره الله - سبحانه وتعالى - وإن هذا يدل على أن رسالة كل الأنبياء واحدة.

وذكر الإيمان بالله وبكلماته فى هذا الموضع للدلالة على أنها رسالة واحدة، وهى الإيمان بالله وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس بوالد ولا ولد.

وإذا كان النبى ﷺ على هذه الأوصاف السامية التى اختصه الله تعالى بها فإن الإيمان به واجب، واتباعه اتباع لأمر الله ونهيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، الفاء لربط ما قبلها بما بعدها بالإفصاح عن سببها لرجاء الاهتداء، والرجاء من العباد لا من الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يرجو إنما يرجو عباده، يرجون بالإيمان بالنبى ﷺ واتباعه أن يهتدوا إلى الحق والبر، فيهتدوا إلى الجنة وهى نعم الجزاء الأوفى.

والآية دليل على عموم الرسالة المحمدية، وأنه - عليه السلام - بعث للألوان كلها، وكما قال ﷺ: «كان كل نبي يسعث فى قومه، وإنما بعثت فى الأحمر والأسود»^(١).

وروى مسلم عن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»^(٢).

(١) رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند جابر بن عبد الله (١٣٨٥٢).

(٢) رواه مسلم: الإيمان - وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١٥٣)، وأحمد

بنحوه: باقى مسند المكثرين (٢٧٤٢٠).

عود إلى بنى إسرائيل

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
إِذْ أَسْتَسْقِنُهُ قَوْمَهُ رَأً أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ
وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيئَتَيْكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

إن القرآن الكريم ينصف القلة من الكثرة، فإذا كانت الكثرة طاغية عاتية، وفيهم قلة هادية مرشدة؛ يذكر القرآن الكريم أهل الخير من بينهم، وإن طغى الشر في جمعهم، وصار الفساد هو المظهر فيهم.

ولذا قال تعالى في وسط بيان مآثم اليهود: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، أى ومن هؤلاء الذين كانت فيهم عبادة العجل، وكان منهم من قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، من هؤلاء جماعة كأنهم أمة وحدها منفصلون

بشعورهم وعقولهم عنها؛ ولذلك عبر بأمة من حيث إنهم قد اجتمعوا على طاعة الله وطاعة رسوله موسى، وذكرهم متسبين إلى موسى، إشارة إلى اتباعهم له، وأنهم قومه الحقيقيون الجديرون بنسبتهم إليه، وهم منه وهو منهم وذكر الله تعالى لهم وصفين هما كمال فى كمال:

أولهما - أنهم يهدون بالحق، أى أنهم فى وسط انحراف بنى إسرائيل إخوانهم وبنى جلدتهم ونسبهم يدعون بالحق، أى يعلنونه ويدعون إليه، ويؤمنون به غير محرفين، والهداية بالحق كلمة جامعة للدعوة بكل ما هو خير، يهدون إلى التوحيد، وهو الحق أو من الحق، ويدعون إلى طاعة موسى وهى حق، ويدعون إلى شكر نعمة الله التى أنعمها عليهم،، ويذكرون آلاء الله تعالى عليهم، ونجاتهم من فرعون، ويعبدون الله وحده .

الوصف الثانى - ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَيَبْغِى يَعْدِلُونَ﴾، أى بالحق وحده يزنون كل شىء، فيزنون كل قول وفعل يكون فى جماعتهم بميزان الحق وحده لا بميزان الهوى والشهوة، فإنها والحق نقيضان لا يجتمعان. وقدم الجار والمجرور للدلالة على قصر الحكم على الحق وحده لا يحكمون بغيره، ولا يتجهون لسواه، وهذا النص الكريم مثله قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿... مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦) [المائدة].

وهكذا شأن الكتاب الحكيم لا يدغم الخير فى الشر، بل يخص الخير بالذكر، ويخرجه من وسط ظلمات الباطل.

وقد أخذ - سبحانه وتعالى - يعرض من بعد ذلك قصص الذين انحرفوا عن الحق من بنى إسرائيل، ومنعوا وصول الحق إلى قلوبهم.

وقد ذكر بعض هذا القصص فى آيات آخر، ولكنه سيق لا لأجل التكرار، بل لأنه تكملة لعبرة جديدة تساق، ولا تذكر مقطوعة عن أصلها، ولأن الذى لم

يذكر في الماضي لا يتم بيانه إلا بربطه بما مضى من القول، ليكون الكلام بينا ولتكون العبرة واضحة بينة.

ابتدأ سبحانه وتعالى بذكر تقسيمهم إلى أسباط، وشعب بنى إسرائيل فقال تعالت حكمته:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾

قلنا: إنه ليس في القرآن قصة مكررة تكرارا كاملا من غير زيادة، إنما الذي في القرآن يكون التكرار لخبر لم يذكر في القصة في موضع، ويذكر في الموضع الآخر، ويقتضى إعادة أجزاء ذكرت ليكون التناسق بين القصة في أصلها وفي أحداثها، وكذلك الأمر في قصة أسباط بنى إسرائيل، فلم يذكر تقسيمهم من قبل هذه الآيات في القرآن، وفي هذه ذكر خبر التقسيم، وحكمته، ذلك أن بنى إسرائيل قطعة جماعية واحدة، فرقها الله تعالى أقساما ليعنى كل قسم بنفسه، ويندمج من بعد ذلك في المجموع بالتأليف، فإن الجماعات لا تصلح بمجموعها ابتداء، إنما تصلح بأجزائها أولا ثم تنضم الجماعات الصغيرة أو الأجزاء بعضها إلى بعض، وتتألف صالحة متعاونة على البر والتقوى غير متعاونة على الإثم والعدوان؛ ولذلك كان في سنة الاجتماع إصلاح المجتمعات الصغيرة في القرية أو أحياء المدينة، لتتألف مع المجتمع الأكبر، كما فعل النبي ﷺ في الأمة الإسلامية التي ابتدأ بها المجتمع في المدينة، وكما قوى الإسلام مجتمع الأسرة، ليكون بتألفه قوة المجتمع الأكبر.

قسم الله تعالى بنى إسرائيل أسباطا، لتتعاون كما يتعاون أقارب القاتل خطأ في دفع الدية.

والأسباط جمع سبط وهو الفرع من فروع بنى إسرائيل، وقال بعض الكتاب: إنه بمنزلة القبيلة في العرب، ولكن على أساس التعاون والمناصرة، لا على أساس المعاداة بين القبائل والعصبيية، كما هو في جاهلية العرب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اِثْنَيْ عَشَرَ﴾ فيه إشارتان بيانيتان:

إحداهما - فى التعبير بكلمة ﴿قَطَعْنَاهُمْ﴾ فإنها تدل على كمال الصلة بينهم، وأنهم كقطعة واحدة، قطعت أجزاؤها وهى متجاذبة يجذب بعضها بعضا لا نفور بينها ولا تنافر، بل تواصل وتراحم بينهم، ولكن ليصلح كل أمره فى خيره ويلتقى الجميع على مودة ورحمة.

وثانيتها - أن قوله: ﴿اِثْنَيْ عَشَرَ اَسْبَاطًا اُمَمًا﴾ عبر بالجمع الدال على تأنيث المعداد مع أن أسباطا ليست جمعا لمؤنث، بل جمع سبط، وهو ولد الولد ولكن قالوا إنه - سبحانه وتعالى - بعد ذلك قال: ﴿اُمَمًا﴾ على أنها بدل، أى أن هؤلاء الأسباط أمم فلوحظت كلمة أمم، وهى غاية التقسيم، وهى جمع أمة وهى مؤنث لفظى.

وذكر - سبحانه وتعالى - التعبير عن الأسباط بالأمم لمعنى التعاون بين كل سبط كأنه أمة مجتمعة متحيزة متعاونة فى الخير، ثم من بعد ذلك يكون التعاون بين أمة بنى إسرائيل، وهى الجماعة الكبرى لهم. ولقد ذكر سبحانه أحكاما ذكرت من قبل على أنها نعمة فى ذاتها، وتذكر الآن على أنها اجتمعت لطلب النعمة، واجتمع بعضها على الكفر بها، فذكر - سبحانه - ما طلبوه، وذكر - سبحانه - ما أكرمهم به رفعا للألم عنهم.

وأول أمر طلبوا وهم فى هذه الصحراء المجذبة الاستسقاء أى طلب الماء لشربهم فقال تعالى: ﴿وَاَوْحَيْنَا اِلَى مُوسَى اِذَا اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ اَنْ اَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَا عَشَرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَّشْرِيبَهُمْ﴾ انبجست أى انفجرت، وكلمة انبجست تدل على أن الانفجار كان من حجر، لا من تراب سهل، وهو موضع من مواضع الإعجاز؛ لأن خروج الماء من الأرض السهلة كثير معهود، ولكن خروجه من الحجر هو أمر خارق للعادة وكانت المعجزة الأخرى أنها انفجرت عيوننا على قدر عددهم، وهو اثنا عشرة عينا، فكان إخبارا بأن كل سبط له عين قائمة بذاتها.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ معناها أنه علم كل سبط من الأسباط المكان الذي يشرب منه فلا يتزاحموا على مشرب واحد، فيأخذ كل الماء براحة من غير مشاحة ولا تزاحم.

والنعمة الثانية - أن الله تعالى ظللهم بالغمام ليدفع حر النهار ووهج الشمس، فقال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰ غَمَامٍ غَمَامًا﴾.

والنعمة الثالثة - أن الله أطعمهم في وسط هذه الأرض المجدبة التي لا زرع فيها ولا ثمر، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ وقد ذكرنا معناهما في سورة البقرة، وكيف تمللوا منها مع طيبها، وجودة غذائها، وأمرهم سبحانه أمر إباحة بأن يأكلوا منها طيبة، فقال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ و«من» هنا بيانية والمعنى كلوا طيبات ما رزقناكم، والمغزى وصفها بأنها طيبة كلها، ومن البيانية دالة على كمال طيبها، وكمال الإنعام بها.

ولكنهم كفروا بالنعمة ولم يقوموا بشكرها، وما ظلموا الله بكفر النعمة، ولكن ظلموا أنفسهم بهذا الكفر لأنه انهواء لنفوسهم، وحط من كراماتهم، وتسهيل للذلة عليهم؛ لأن الطاعة عزة، والعصيان ذلة لذوى النفوس المدركة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أى لم يظلموا إلا أنفسهم، ولذا قدم الجار والمجرور على الفعل، وتأكد ظلمهم لأنفسهم وحدها بـ«كانوا» الدالة على الاستمرار باستمرار عصيانهم، والله تعالى هو العدل الحكيم.

وقد ذكر - سبحانه وتعالى - ما كان منهم من الكفر بهذه النعمة، فقال:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)﴾.

طلبوا أن يغيروا نوع الطعام الذى أنزله تعالى عليهم، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وهو الذى كان فى الصحراء إذ أنزل عليهم المن والسلوى، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوا قرية فيها الطعام الذى يريدونه وقال لهم: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ

الْقَرْيَةِ ﴿الَّتِي فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَغْذِيَةِ فِيهَا فُومُهَا وَقَتَائِهَا، وَسَائِرُ بَقْلِهَا، وَقَالَ لَهُمْ مَبِيحًا لَهُمُ الطَّيِّبُ مِنْهُ: ﴿وَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، أَيْ مَكَانَ لِلنَّبْتِ شِئْتُمْ، مِمَّا تَنْبَتُ الْأَرْضُ، مِنْ طَعَامٍ مُخْتَلَفٍ أَلْوَانِهِ.

وَأَمْرُهُمْ - سَبْحَانَهُ - وَقَدْ مَكَّنُوا مِنَ الْعَيْشِ الَّذِي يَرِيدُونَهُ رَغْدًا أَمْرِينَ:

أَحَدُهُمَا أَنْ يَقُولُوا حِطَّةً، وَالثَّانِي أَنْ يَدْخُلُوا سَاجِدِينَ.

وَمَعْنَى حِطَّةٍ: دَعَاءُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَحِطَّ عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا، مِنْ عِبَادَتِهِمُ لِلْعَجَلِ، وَطَلِبَهُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ آلِهَةٌ، كَمَا لَهُؤُلَاءِ آلِهَةٌ، وَمَنْ كَفَرَهُمْ بِنِعْمِ اللَّهِ، وَمَنْ قَوْلُهُمْ لِمُوسَى: ﴿... لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً... (٥٥)﴾ [البقرة] وَأَمْرُهُمْ سَبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ يَكُونُوا مَعَ ذَلِكَ خَاضِعِينَ خَاشِعِينَ سَاجِدِينَ، وَهَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، أَيْ ادْخُلُوا بَابَ الْمَدِينَةِ سَاجِدًا، أَيْ خَاضِعِينَ خَاشِعِينَ، أَيْ طَالِبِينَ فِي ضِرَاعَةِ غَفْرَانِ الذَّنْبِ.

وَقَدْ سَرْنَا فِي هَذَا عَلَى أَنَّ الْقَرْيَةَ قَرْيَةٌ تَحَقُّقٌ فِيهَا مَا طَلَبُوهُ مِنَ أَلْوَانِ الطَّعَامِ، وَلَكِنْ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ ذَكَرَ أَنَّهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ أَوْ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ، فَمَا مَقْدَارُ قَوْلِهِمْ مِنَ الصَّحَّةِ؟

لَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ - سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ مَا يَفِيدُ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا فِي حَيَاةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَلْ دَخَلُوهَا مِنْ بَعْدِهِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (أَيْ أَنْ تَدْخُلُوهَا) ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا

فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي
الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴿

وإن هذه الآيات الكريمة تومئ إلى أن دخول الأرض المقدسة رغبوا فيه في عهد موسى، ولكن لم يدخلوها في عهده - عليه السلام - ولكن دخلوها في عهد الأنبياء من بعده.

والآيات الكريمة التي نتكلم في معانيها السامية تومئ إلى أن طلب دخول القرية كان في عهد موسى - عليه السلام - لأنه متناسق مع ما قبلها وما بعدها.

ولذا نميل إلى أن هذه القرية غير الأرض، وإن الأرض المقدسة ذكرت بعنوان الأرض المقدسة، لا بعنوان القرية فإنها ليست ككل القرى.

وقوله تعالى: ﴿نُغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ جواب فعل الأمر في قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾. وقد زادهم الله تعالى نعمة فوق نعمة الغفران، وهي نعمة الثواب، والرحمة بنعيم الجنة، فقال تعالى: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ والسين لتأكيد الزيادة للمحسنين وهم الذين يؤدون واجبهم، ويخلصون لربهم.

ولكن لم يغفر الله لهم خطاياهم، لأنهم لم يطيعوا وعصوا عابثين بأمر ربهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾.

طالبهم الله تعالى بأن يقولوا وهم يدخلون: حطة، أى حط علينا ذنوبنا، فبدلوا ذلك الأمر المعنوي الذي كلفهم الله تعالى، وهو غفار لمن تاب، بدلوه بما يدل على ماديتهم، واستغراق الملاذ الجسمية، فقالوا: «حنطة» أى طعاما، فماضيهم كحاضرهم لا يطلبون إلا المادة ولا ييغون غيرها سبيلا ولا مطلبا، وكأنهم يستخفون بأمر الله تعالى، وطلب غفرانه، ويطلبون ما تهوى أنفسهم، فلا يطلبونه، كما تقول لرجل اطلب مغفرة الله، فيطلب مأكلة لا مغفرة.

وذلك كفر يضاف إلى كفرهم، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

أى أن الله تعالى عاقبهم عقوبة دنيوية بعذاب أنزله الله تعالى بهم من السماء بأن أرسل عليهم حاصبا يتعبهم ويعذبهم ولا يبيدهم، وقيل لطاعون أصابهم، والله أعلم بما أنزل بهم، وما دام سبحانه لم يبيته، فلنعلمه ولا نفصله؛ لأنه سبحانه لم يفصله، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أى بسبب ظلمهم، واستمرارهم عليه، فلا يرفعون عن عيهم، ويلاحظ هنا أمران:

أولهما - أن الله - سبحانه وتعالى - نسب تبديل القول إلى بعضهم دون كلهم، فقال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وكأنهم كانوا صنفين ظالما وعادلا، فبدل الظالم ولم يبدل العادل، ولكن فى العذاب ذكرهم جميعا، ولم يذكر بعضهم، فهل طغى ظلم الظالمين على غيرهم كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لِّأُتَصِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً... (٢٥)﴾ [الأنفال]. الظاهر ذلك؛ لأن العادلين رأوا ولم ينهوا، ولا يأخذ الله العامة بظلم الخاصة إلا إذا رأوا الظلم ولم ينكروا.

وثانيهما - أن الذى ذكر فى سورة البقرة فى هذه القصة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ... (٥٩)﴾ [البقرة]، ولم يذكر منهم، وقال تعالى: ﴿...بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة]، وهنا ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وإنه بمجموع الآيتين يستفاد أن الذين بدلوا كانوا الكثرة، فحكم بما يعم لأنه الغالب، وفى الثانية نسب الظلم إلى بعضهم، وإن كانوا الأكثر عددا، والأقوى صوتا.

والتعبير فى سورة البقرة بالفسق يدل على الانحراف العقلى والنفسى والخروج عن الحق، وفى هذا الموضع بالظلم وهو الإيذاء بالفعل للنفس، والكفر، وهما متقاربان من حيث إنه يلزم كل واحد الآخر.

يوم السبت

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
 حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
 حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
 لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
 وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
 عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٦٤﴾
 فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
 وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا بَشِيسًا بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
 فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّأْنِهِمْ أَقْنَيْنَا لَهُمْ كُونًا قَرْدَةً خَاسِعِينَ ﴿١٦٦﴾

الخطاب للنبي ﷺ مأمورا بأن يسأل اليهود الذين عاصروه - عليه السلام - عما كان من أسلافهم، ويقرونه ويرضونه، ولقد ذكر - سبحانه وتعالى - اعتداءهم في يوم السبت، وظلمهم فيه. وفي هذه الآية الكريمة يذكر اختبارهم بالحيتان نجى في هذا اليوم، ولا نجى يوم لا يسبتون؛ أى في يوم لا يكون يوم السبت، وذلك ليعاملهم الله معاملة المختبر لهم حتى يتميز الخبيث من الطيب، وحتى تظهر حالهم، ومقدار قوة إيمانهم، وما تخبئه نفوسهم، وما تنطوى عليه جوارحهم.

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾، أى بجواره، يقال حضره إذا قاربه وداناه، فمعنى حاضرة البحر مشرفة عليه دانية منه على سيفه، وقد سجل الله تعالى في هذه الآية أموراً ثلاثة:

أولها - أنهم كانوا لا يحترمون السبت، ولا يلتزمون حدوده، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَعِدُونَ فِي السَّبْتِ﴾، أى فى الوقت الذى كانوا لا يلتزمون حدوده، بل يعدونه ويتجاوزون ما أمروا فيه.

وثانيها - إن الله تعالى يكشف حالهم، ويعاملهم معاملة المختبر لهم، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ «سبتهم» فيه إضافة اسم اليوم إليهم لأنه اليوم الذى فرض عليهم ألا يقوموا بالصيد، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾، أى لا يكونون فى يوم السبت، أى لا يدخلون فى السبت الذى يمنعون فيه من الصيد، والمعنى أنهم فى يوم السبت تأتى حيتان السمك ﴿شُرْعًا﴾، أى شارعة معلنة نفسها، اختبارا لهم، ويوم لا يكون الصيد محرما عليهم لا يأتون.

وقد اختبرهم الله تعالى ليكشف حالهم، ويهذبهم بأمرين: بتحريم الصيد يوم السبت ليفطموا شهواتهم ويقرعوا نفوسهم الشرهة، والمسلطة عليهم، وثانيا - بأن تأتيتهم حيتان السمك شرعا، لتثور شهواتهم ويقمعوها إن كانت فيهم إرادة، فإن لم تكن ربوها وهذبوها، وقدعوها عن شهواتها استجابة لأمر ربهم؛ فالنفس الشرهة التى تسيطر عليها الشهوة لا بد من فطمها.

وثالثها - أن الله تعالى ذكر أنهم كانوا يعدون فى السبت، فمنهم من كان يتناول المحرم فى السبت غير متأثم ولا متخرج ومنهم من يحتال، وقالوا: إنه كان يحفر حفرة بجوار البحر، ويعمقها فإذا جاءت حيتان السمك شرعا يوم السبت نزلت فى هذه الحفرة، فإذا جفت بعد قطع الماء عنها لا تستطيع الخروج، فيأخذونها بأيديهم، وتلك حيلة تفوت معنى تقوية النفوس وتربيتها، وهم بذلك يعدون يوم السبت، لأنهم يخرجون بذلك عن الابتلاء الذى يكشف الله به نفوسهم.

ولقد قال تعالى فى حكمة تحريم الصيد يوم السبت، وإتيان حيتانهم شرعا فيه: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أى كهذا الذى صنعناه معهم من تحريم

السبت ومجىء الحيتان فيه - نعاملهم معاملة المبتلى المختبر لتهدب نفوسهم وتربى إرادتهم، وذلك بسبب استمرارهم على الفسوق، وانحراف النفوس وخضوعها لشهواتها، ولأجل تعويدهم ضبط النفس، والصبر على الحرمان، فإن الصبر نصف الإيمان.

وإن الله تعالى وصاهم، ودعاهم إلى الهدى، وشرع لهم ما يصقل نفوسهم ويهذى قلوبهم ولكن كتبت عليهم الشقوة فلم يهتدوا، ولقد شعرت بذلك أمة منهم، فقال - سبحانه وتعالى - عنها: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

الأمة هي الجماعة المؤتلفة التي تجمعها فكرة واحدة وشعور متحد، بحيث يوائم كل واحد فيها من معه، و«إذ» ظرف زمان ماض، والمعنى اذكر يا محمد ذلك الوقت الذي هم فيه بلغ اليأس من اهتدى منهم حتى قالت منهم جماعة مهدية يائسة من إيمانهم، منكرة وعظ من يعظهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، والوعظ بيان الحق مقارنا بمغبة الباطل ذاكرا ما ترتب على الباطل من أذى لأهله، وهلاك لمن استمسكوا بالباطل استمسكا وتركوا الحق وانحرفوا عنه، والعاقلة من اتعظ والجاهل من يأبه ولا يتعظ. يستفهم هؤلاء المهديون مستكرين، أو متعرفين الغاية؛ لم تعظون قوما قد تضافروا على الشر، وتقرر هلاكهم وهم على ضلالهم، وبعد هذا الهلاك يعذبهم عذابا شديدا، ما الباعث على ذلك؛ فيجيبهم فريق ممن اهتدوا وهم الواعظون: ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَيْنَا رَبِّكُمْ﴾، أى يجب علينا أن نعظ لنعتذر إلى ربنا بأننا قمنا بحق بيان الهدى والنور، وليكون استحقاقهم الهلاك على الضلال بعد بينة أقيمت وحق أعلن، ونقدم هذه المعذرة إلى ربنا عن ضلالهم.

وهذا كله على أساس أن المستفهمين مهديون وهو الأنسب لمعنى الآية، وفرض بعضهم أن المستفهمين هم الذين وقعوا فى الضلالة، وكأنهم يقولون إنكم

تحسبون أننا هالكون ومعذبون، ونحن مصرون، فاتركونا بضلالنا، حتى نلقى جزاءنا بزعمكم، ويكون الاستفهام لإنكار الواقع، وتوبيخ الواعظين على وعظهم. وإن ذلك تحتمله الآية الكريمة، ولكننا غيل إلى الأول، وقد قسم القرطبي في تفسيره اليهود إلى ثلاثة أقسام، ونسب التقسيم إلى جهود المفسرين، فقال: «قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية؛ فرقة عصت وصادت (أى يوم السبت). وفرقة نهت واعتزلت، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وأن هذه الطائفة قالت للناحية: لم تعظون قوما - تريد العاصية - الله مهلكهم، فقالت الناحية موعظتنا معذرة إلى الله».

وإن هذا تقسيم حسن، وإن الذين اعتزلوا، ولم ينهوا، وإن اهتموا وأطاعوا، لم تتم طاعتهم وهدايتهم لأنهم لم ينهوا العاصين، وكمال هدايتهم في نهيمهم، فالتناهى عن المنكر مطلوب من الذين اهتموا. ولقد قال تعالى: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [المائدة].

وإن المعذرة التى قام بها الناهون يرفعونها إلى ربهم تقربا إليه بقول الحق والدعوة إليه، والقيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورجاء أن يتقوا أو يخافوا العذاب، ويتوبوا إلى الله، ويقلعوا عن الذنوب التى وقعوا فيها؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ويكون الرجاء من هؤلاء، على حقيقة الرجاء؛ لأنه من المكلفين فى شأن مكلفين.

وإن ذكر الذين لاموا الناهين، وإجابة هؤلاء فيها دعوة للنبي ﷺ إلى الاستمرار على دعوته ومداومة موعظته، ولو كان المشركون يعاندون، ويصرون على شركهم ﴿... إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ... (٧)﴾ [الرعد]، فعليه أن يستمر على دعوته، ولو كانت حال مؤثس من الاستجابة فإن الله تعالى قد يغير من حال إلى حال.

وقد عصوا أمر ربهم، وذكروا بموعظة قومهم فنسوا ما ذكروا، ومنهم من لم ينس فقط، بل استكبروا عاتين عن أمر ربهم، وقال تعالى في مؤاخذتهم فابتدأ بمن عتوا فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْنَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥).

«الفاء» هنا لارتباط ما بعدها بما قبلها، أو للإفصاح عن شرط مقدر تقديره وإذا كان النهي من الناهين وتقدير المعذرة لرب العالمين، فقد كان استقبالهم لذلك، بين قوم نسوا ما ذكروا، ومن ذكروهم.

والنسيان غفلة العقل عن تذكر ما نبه إليه، وقد يكون غفلة النفس عن إدراك ما ذكرت به، والنسيان غفلة النفس عن الحق بعد التذكير به، والمعنى حيثئذ: ولما غفلوا عن الحق وأهملوه تاركين له كان أولئك بين يدي الحق - فريقين: فريق نهى وذكر، وفريق غفل الحق وأهمل، وذكر ما يستحق كل فريق:

فقال فيمن ذكر ونهى: ﴿أَجْنَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾، أى عن الفعل الذى هو سيئ وليس بحسن فى شيء، فهو سيئ فى ذاته، وسيئ إلى الناس فيفسد جماعتهم، وإلى النفوس فيمرسها بالباطل، والحق فينكره، وتسوء عقابه بالعذاب يوم القيامة.

أنجاهم الله تعالى لأنهم اهتدوا، ودعوا العصاة إلى الهداية فقاموا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وأما الذين نسوا الذكر وغفلوا عنه وأهملوه فإن الله تعالى قال فيهم: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

بئس مشتق من البأس، وهو الشدة والقوة، فالعذاب البئس هو العذاب الشديد العنيف فى ذاته الذى يلقي بالبؤس فى ذاته.

وعبر الله تعالى عن الذين نسوا ما ذكروا به بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لأنهم إذ نسوا ما ذكروا به استمرعوا الشر الذى وقعوا فيه، وأدى بهم ذلك إلى ظلم أنفسهم والناس والحق، فكانوا ظالمين، وكان العقاب الشديد البأس فى ذاته بسبب ذلك

الظلم لأن صلة الموصول في ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهذا الظلم هو سبب العقاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: أخذناهم من مراقدهم مصحوبين بعذاب شديد، فالباء للمصاحبة كقول القائل لمن أساء أخذناه بالعقاب، أى أخذناه مصاحبا للعقاب.

وذكر - سبحانه وتعالى - سبب ذلك الأخذ الشديد، فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أى بسبب استمرارهم على الفسق الذى كان يتجدد ويستمر، والفسق الخروج عن الحق.

وقد وصفهم الله تعالى بوصفين؛ وهما الفسق والظلم، والفسق هو الانحراف والخروج من نور الحق، والظلم ما ترتب على ذلك من إيذاء أنفسهم وإيذاء غيرهم.

ولقد ذكر - سبحانه - أن أولئك الظالمين عتوا عن أمر ربهم، وبذلك خرجت نفوسهم عن أن تكون نفوسا آدمية، تدرك الحق وتعمل به، إلى خنزيرية شهوانية، تنزوا نزوا القردة، وتغلظ غلظ الخنزير، حتى لا تسمع هاديا، ولا تحجب داعيا.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾.

العتو: الاستكبار وتجاوز الحد فى الظلم، مستكبرين سادرين فى الباطل صادين عن الحق جاعلين الدعوة إليه دبر آذانهم، لم يكن ثمة سبيل لهدایتهم، فكان اليأس منهم، ويقول تعالى فى نتيجة ذلك: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وقلنا هنا هى مقالة التكوين، أى جعلنا نفوسهم نفوس قردة نارية لا تجدى فيها موعظة، ولا تهتدى بهداية، فهى كنفس القرد فى شهواته ونزواته وانسياب نفسه فى الشر من غير اعتبار بموعظة، ولا إدراك الحق ولا إيمان.

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾، أى مطرودين لا يسمع لهم ولا يلتفت إليهم، وهنا شبههم بالقردة، وفي آية أخرى شبههم بالقردة والخنازير فقد قال تعالى: ﴿... وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ ...﴾ (٦٠) [المائدة] ومن بيانية أى جعلناهم قردة وخنازير.

وإنهم بسبب فساد نفوسهم، وتجردهم من الإنسانية المهدية جعلهم الله تعالى أذلة فى الأرض فأذن الله تعالى لهم بمن يسومهم سوء العذاب.

وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِبَعَثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ
الضَّالِّحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٧٠﴾

فى هذا القصص عبرة لأولى الأبصار، وفى أخبار بنى إسرائيل العبرة الكبرى، إذ تقبلوا فى النعيم، وعوقبوا بالنقم - فلم يشكروا النعمة، ولم تردعهم النعمة، وضلوا ضلالا بعيدا، ولذلك ساق الله تعالى أخبارهم للنبي ﷺ لتكون سلوانا له فى معاندة المشركين الجاحدين، وتذكير النبي ﷺ بأحوالهم كثير فى القرآن الكريم.

﴿وَإِذْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ هى دالة على الوقت، ومتعلقة بمحذوف تقديره اذكر، أى اذكر أيها النبى ذلك الوقت وتذكر أحداثه، واعتبر به فى قومك وغيرهم ممن ناوءوك ويناوئونك ويعاندونك ويحاربونك، وتذكر هذه الأحداث من بنى إسرائيل، واعتبرها فى بنى إسرائيل الذين عاصروك، ويعاندونك ويتمالأون مع المشركين فى عداوتك ومحاربتك.

و﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، معناها آذنهم بقوة وشدة، فتأذن بمعنى أذن بشدة، ولشدة الإيذان والإعلام كانت متضمنة معنى القسم؛ ولذلك كان فيها لام القسم، وفيها نون التأكيد التى تلازم جواب القسم ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ جواب القسم أو فى معنى جواب القسم ﴿عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، وعدى بـ «على» دون «اللام» للإشارة إلى علوه عليهم وتغلبه وسيطرته، وأنهم يكونون دونه وهو فوقهم مستعليا قاهرا.

و﴿يَسُومُهُمْ﴾ يعنى يذيقونهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أى العذاب الذى يسوؤهم، ويؤذيهم، ويكون عاقبة سوء لهم، وبئس المصير، وقد صدق وعد الله تعالى فإنه قد سيطر عليهم وعذبهم فى الأرض من الشرق بختنصر والكلدانيون، ومن الغرب الرومان قبل بعث المسيح وبعده، وكانت الذلة مفروضة عليهم، واصطنعوا مع الرومان النفاق وهو صنيع الأذلاء، فتمنوا على السيد المسيح عند سادتهم ونجى الله تعالى عيسى من الفريقين الغالب والمغلوب والقاهر والمقهور، وأذاقهم الرومان من بعد أن دخلوا فى النصرانية، أكوسا من الذل والهوان، واستمروا فى أوربا أذلاء مقهورين يتسمون بالخسة والهوان، حتى هان الأوربيون فى أنفسهم مثلهم، ولقد صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) ﴿[الإسراء].

وقد يقول قائل: إن لهم فى هذه الأيام غلبا، فهم يسيرون دفة الأمور فى الأرض الجديدة، وإن كانوا عدداً قليلا، وهم يتحكمون فى مال الدنيا وخيراته، وهم قد اقتطعوا من أرض العرب قطعة طاهرة مقدسة.

ونقول فى ذلك: إنها فترة صغيرة فى حكم الزمان، وعرض من أعراض الحياة الفاسدة فى الأرض، وهم الأذلاء وإن بدوا فى غطرسة، فمن يستمد القوة من غيره ذليل، ولو حكم وملك، ولقد قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ...﴾ (١١٢) [آل عمران].

ولقد صدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، أى إن العقاب الذى ينزله تعالى سريع مؤكد وقوعه، والسرعة هنا تطوى فى ثنائياها معنى الشدة؛ لأنه يفجئهم من حيث لا يحتسبون، ويحيثهم من حيث لا يتوقعون فيكون أشد وأقسى.

وإنه - سبحانه وتعالى - بجوار عذابه للمعاندين الكافرين المستكبرين تكون رحمته ومغفرته للمؤمنين المتقين؛ ولذا يقول تعالت كلماته: ﴿وَأَنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أى أنه يغفر الذنوب جميعا برحمته، وقد أكد غفرانه ورحمته بالجملة الإسمية، وبيان، وباللام فى خبر إن، وكذلك كان تأكيد العقاب.

وقد تفرق بنو إسرائيل فى الأمم، وكان منهم الصالحون، ومنهم القاسطون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾.

إن الله تعالى كتب على المعاندين من بنى إسرائيل الذلة إلى يوم القيامة، وحكم فيهم القاهرين من المنفول، والرومان، وأهل أوربا، حتى ضلوا بهم، ومن أخذهم برفق أخذوه بالعنف والفساد اللثيم. أشار - سبحانه - إلى أنه كان من بعد موسى أخيار صالحون، وأشرار فاسدون، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾، أى فرقناهم فى الأرض أمما، أى جماعات منفصلة عن غيرها، كأنها أمم قائمة بذاتها،

والتعبير بـ ﴿قَطَعْنَاهُمْ﴾ يدل على أنهم وإن دخلوا في أمم أخرى في الأرض متصلون بعضهم ببعض، وكذلك الأمر في شأنهم كما نراهم حتى اليوم، وإن هذه الجماعات التي تفرقت كانت في الماضي ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ قائمون بالحق آخذون به مهتدون بهدى الكتاب الذى نزل على موسى - عليه السلام - ﴿وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ﴾، أى دون الصلاح، أى ليسوا صالحين، وعبر سبحانه بقوله: ﴿دُونُ ذَلِكَ﴾ للإشارة إلى أن الصالحين في المنزلة العليا مهما يكن حالهم من فقر أو غنى، وأن غير الصالحين في المنزلة الدنيا مهما كانوا من سطوة ومهما يكونوا من غنى وقوة، فالصلاح له العلا، والفساد له المنزلة الدنيا مهما يكن حال أهله.

ويذكر - سبحانه وتعالى - أنهم وهم متفرقون في الأرض إنما يختبرهم سبحانه بالحسنات، فإن شكروها كانوا صالحين، وإن كفروها كانوا في المنزلة الدون، ويختبرهم بالأمور التى تسوء فإن صبروا أُجروا، وإن جزعوا فإن اعتبروا اهتدوا، وإلا فهم في ضلال بعيد، وذلك كقوله تعالى: ﴿... وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ (٣٥) [الأنبياء].

والحسنة هى الحال الحسنة كالخصب وتوفير الرزق، والاطمئنان. والسيئة الحال التى لا تسر، بل تسيء كالجذب والآفات، والله - سبحانه وتعالى - هو الحكيم الخبير.

وإن ذلك الاختبار بالحسنة والسيئة وتوالى الأمرين، والضراعة فى حال النعمة، رجاء أن يوفوا قدره وأنه هو الذى ينفع ويضر، وأنه هو القادر على كل شئ، وإذا عرفوا ذلك وآمنوا به رجعوا إلى الحق ورجعوا إلى ربهم واهتدوا؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أى أن الله - سبحانه وتعالى - عاملهم معاملة من يريد أن يرجعوا إلى جنبه الأعلى وساحته العليا، فيهدوا بعد بُعدٍ عنه سبحانه. كان هؤلاء فيهم الصالحون ومن هم دون ذلك، وكلما تقادم العهد وطال بينهم وبين موسى - عليه السلام - قست قلوب الأكثرين؛ ولذا كان الأكثرون من

الأخلاف فيهم الشر أوضح، وقال تعالى في ذلك: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوهُ﴾.

إن الذين سبقوهم كان منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، أما الذين جاءوا من بعدهم فالشر قد غلب فيهم وظهر على سطح جماعتهم، واختفى الخير، وإن كان موجودا فهو في كِنٍ غير ظاهر، وصار جوهم العام فاسدا، والعبرة في فساد المجتمعات أن يكون الفساد هو الظاهر، والحق مختفيا وإن كان موجودا وقائما، ولكنه مغلوب.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ - الخلف بالسكون العقب الذي لا خير فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ (٥٤) [مريم].

وقد قال الله تعالى فيهم أمورا تثبت وهن اعتقادهم وفساد أعمالهم:

ذكر أولا أنهم ورثوا الكتاب أى جاءهم علم الكتاب، وهو التوراة، بالوراثة لا بالتلقى، فلم يفتحوا له صدورهم ولكن جاء إليهم من غير أن يتدارسوه ويتقبلوه، والشئ الموروث الذى لا يقوم عليه وارثه يكون حجة عليه، ولا يتنفع به.

وذكر ثانيا نظرتهم إلى هذا الكتاب ونظرهم إلى الدنيا وعرضها، إذ ينظرون إليه على الغرض المقصود، والمطلب المنشود؛ ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ - أى يأخذون عرض هذا العيش الأدنى وهو أدنى معيشة فى الحياة، أى يطلبون أدنى ما فى الحياة من متاع، ويطلبون المتاع الأدنى وهو الحرام، ويستمرئونه فيأكلون السحت والرشوة والربا ويتناولون الحياة فى صورتها المحرمة، ويحسبون أن الاستغفار يمحو ما فيها من عصيان، ولا يتوبون توبة نصوحا، إذ إن من أركان التوبة النصوح ألا يعود إلى الذنب الذى اقترفه، ولكنهم يعودون؛ ولذا

يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾، وهكذا يتوالى أخذ الآثام والاستغفار عنها، ولا توبة ولا إقلاع من قلوبهم.

وإن التعبير عن متع الحياة التي يأخذونها بقوله تعالت كلماته: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾، والأدنى هو مذكر دنيا، أو دنيا مؤنث أدنى، والعرض هو الأموال التي ليست دراهم ولا دنانير، ولكنها أهون من ذلك فهم يتخذون عرض الأدنى من الأموال، إما لضآلتها وإما لحبشها وخبث كسبها كالميسر، والربا والرشوة والسرقة. يفعلون ذلك ويقولون: ﴿سَيَغْفِرُ لَنَا﴾، وكأنهم متأكدون من ذلك من غير توبة ولا استغفار. ويتوالى ذلك منهم، كما حدث في عصور ضعف الإيمان، إذ يقولون: إن الذنوب تغفر ولو أصروا عليها.

ولقد روى في ذلك عن معاذ بن جبل أنه قال: «يبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب، يقرأونه لا يجدون له شهوة ولا لذة. يلبسون جلود الضان على قلوب الذناب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا سنبليغ، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئاً»^(١).

وهكذا تكون الحال، إذا ضعفت القلوب والهمم وضعف الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ينسون المواثيق التي أخذت عليهم؛ ولذا يوبخهم القرآن الكريم.

وإن كل المحرمات هي العرض الأدنى في هذه الحياة؛ لأن الله ما حرمها إلا لحبشها، ولأنها أدنى طرق الكسب، فالكسب الطيب يكون من كرام الرجال، ومن العرض الطيب، وليس الأدنى.

وقد بين الله تعالى أنهم كان في نفوسهم خبث، وطلبوا خبث الكسب والأدنى في الحياة مع أنهم أخذت عليهم المواثيق بأن لا يقولوا على الله إلا الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

(١) رواه الدارمي هكذا موقوفاً على معاذ بن جبل: فضائل القرآن - تعاهد القرآن (٣٣٤٦).

الاستفهام للإنكار بمعنى النفي والتوبيخ، وقد دخل الاستفهام على النفي بـ«لم» ونفي النفي إثبات، فالمعنى قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، وهذه الصيغة فيها تأكيد لأخذ الميثاق بإقرارهم كأنهم سئلوا ذلك، وأجابوا بالإيجاب، ولأنه يتضمن استنكار وقوعهم في مخالفة الكتاب وترك الأخذ بميثاقه، أى أحكامه المؤكدة الموثقة عليهم التى توجب الطاعة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أى فحصوه وعلموه وأدركوا مغازيه وما يرمى إليه، ويدعوهم الله فيه، فما فعلوا ذلك عن جهالة بل قد قدمت لهم أسباب العلم كاملة، وإذا كانوا قد أهملوا الأخذ بها بعد بيئة تجعلهم يحملون التبعة كاملة غير منقوصة.

ويلاحظ هنا بعض عبارات تشير إلى حقائق ثابتة:

أولاهـ أن الميثاق الذى أخذ عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق مع أن ما فسقوا به عن أمر ربهم أمور عملية، وخلاصتها أنهم يأخذون بالعرض الذى هو أدنى وهو عمل لا قول، ونقول فى الإجابة عن ذلك:

أولاً - أنه ساد فيهم الكذب على الله والادعاء عليه كقولهم: ﴿...نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ [المائدة]، وذلك بلا ريب غير الحق، قالوا على الله تعالى كذبا وافتراء عليه، فخالفوا الميثاق الذى أخذ عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق.

وثانيا - أن فعل الباطل يسبقه قول باطل يحسنه، فالنفس المنحرفة يستدئ انحرافها فى الفكر، فيدفع إلى القول الباطل يزين الفعل الباطل، والذين يغيرون الشرائع يستدئون بتزيين مخالفتها وتسهيلها فيقولون أولا على الله غير الحق، ثم يفعلون الباطل المنهى عنه، فالقول ذريعة العمل.

ثانيها - أن العصاة دائما يغرمهم الغرور، فيغلب عليهم الطمع من غير عمل على الخوف الذى يدفع إلى العمل، فهؤلاء بنو إسرائيل طمعوا فى الله دائما حاسين أنه لا يعذبهم وأهملوا أمره ونهيه، وكانوا مثلاً للفاسدين، فكان من التربية للنفس المؤمنة أن تغلب الخوف من العذاب، على رجاء الثواب.

هؤلاء اختاروا الدنيا، وأخذوا بأدنى ما فيها، وهي خباثتها ومحرماتها، فكانوا أشد لهجة من غيرهم، بل من بعض الذين لم ينزل عليهم كتاب سماوى به موثيق أخذت عليهم وتدارسوه.

ونسوا الآخرة، وما فيها من نعيم مقيم لمن أطاع، وعذاب أليم لمن ضل وغوى، وقد ذكر الله تعالى بها فى مقام نسيانها فقال تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أى أنها فى أعلى درجات الخير للذين يتقون الله وامتلاّت قلوبهم بذكره، فأعرضوا عما نهى عنه، وطلبوا ما أمرهم به.

وخاطب الله بنى إسرائيل بما يدل على أن غوايتهم وأهواءهم أفسدت عقولهم، فصاروا لا يدركون، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الفاء هنا لترتيب إنكار أن يعقلوا على ما يفعلون، وأخرت عن همزة الاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة بحكم تنسيق القول العربى، والمعنى فأنتم لا تعقلون؛ لأن الاستفهام إنكارى توبيخى، فهو تأكيد لحضهم على التفكير، وتوبيخ على عدم التفكير فى عواقب أمورهم، وإن العذاب يستقبلهم بسوء ما يفعلون.

هذا شأن العصاة منهم، وهم الأكثرون؛ إذ فعلوا الشر، ولم يستنكروا أكثرهم، ولقد ذكر من بعد ذلك الصالحين بعد أن ذكر فضل الدار الآخرة على الحياة الدنيا، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧).

إذا كان عصاة بنى إسرائيل قد استهانوا بأحكام التوراة، معرضين عنها إهمالا، فتقاتهم قد استمسكوا بها؛ لأنها العروة الوثقى لهم، وقال تعالى فى استمسакهم بها: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ وفى قراءة «يُمَسِّكُونَ» بتسكين اللام وكسر السين، وقالوا إن معنى يمسكون به: يستمسكون به، وفى اللغة: مسك به واستمسك به، وتمسك به كل بمعنى واحد.

وأقول مع الاتحاد فى جملة المعنى أظن أن مَسَّكَ به فيه قوة فى التمسك، ليست فى مَسَّكَ به، بل أكثر من استمسك؛ لأنها تتضمن الأخذ به، والعمل بما فيه والإذعان لأحكامه من غير إهمال ولا نسيان، ودعوة إلى مسكه والعمل به من دون غيره، واستنكار لمن لا يمسك به.

ومعنى التمسك به، الإذعان لأحكامه، والدعوة لهذا الإذعان، والعمل به مخلصين غير متحايلين لتركه، وإلقاء المعاذير عند ترك العمل به.

والتمسك به كما ذكرنا يتضمن معنى الدعوة إلى الاستمسك، وبالأولى يستمسك المسلم فيعتقد، ويؤمن ويدعو.

وقد ذكر أعظم أعمال الطاعة بعد التمسك بالكتاب، فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أى أتوا بها مقومة على وجهها الأكمل، وتكون الصلاة على الوجه الأكمل إذا كان ذكر الله، واستشعار خشيته فى كل ركن من أركانها، واختصاصها الله تعالى بالذكر؛ لأنها ركن الدين، ولبه، ولا دين من غير صلاة كما ذكر النبى ﷺ، ولأنها سبيل للابتعاد عن المنكرات التى كان بنو إسرائيل يفعلونها، وقد قال تعالى فى القرآن كتابه الخالد الباقي إلى يوم القيامة: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ... (٤٥)﴾ [العنكبوت].

وقد ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء الذين يمسكون بالكتاب، فقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ والمعنى لا نضيع أجرهم.

ولكن هنا إشارات بيانية لا بد من التنبيه إليها:

الأولى - أن الله تعالى ذكر الجزاء بطريق الاقتضاء، فوصف ذاته العلية بأنه لا يضيع أجر المصلحين، وقد أصلحوا فاستحقوا أجره الذى لا يضيعه أبداً، فهو إعطاء مع ذكر داعيه.

الثانية - أنه ذكر - سبحانه - ما يليق بذاته وهو أنه لا يضيع أجر من أحسن

عملاً.

الثالثة - أنه أظهر في موضع الإضممار، مصرح بقوله: ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾ بدل قوله لا يضيع أجرهم، وذلك لأمرين؛ أولهما - أنه للدلالة على أن ذلك شأن من شئون الله العلى الأعلى، وثانيهما - الإظهار للإشارة إلى السبب في الجزاء وهو الإصلاح، أى كونهم مصلحين.

وفى التعبير بقوله: ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾ إشارة إلى أن تمسيكهم للكتاب يتجاوز الإمساك إلى الدعوة إليه كما أشرنا.

أخذ الميثاق عليهم وعلى الإنسانية

وَإِذْ نَقَّضْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَنُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

ميثاقان يذكرهما الله تعالى، واحد منهما خاص ببني إسرائيل لأنه يتعلق بميثاق التوراة، والثانى يتعلق بميثاق الإنسانية كلها.

والأول قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِذْ نَقَّضْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ

بِهِمْ﴾.

نتقنا معناها رفعنا، ولكن يظهر أنها لا تكون إلا فى رفع الشقيل الذى لا يستطيعه إلا الأقوياء، فمن الألفاظ العربية ألفاظ تحمل فى نفسها قوة المعانة فى دلالتها، فلا نقول: نتقت العصا، أو نتقت السيف، ولكن قد نقول: نتقت الجبل، أو نتقت أطنان الحديد. ولقد نتق الله الجبل وعلا عليهم، وكأنه ظلة من ظلال السحاب فوق رؤوسهم، ولأنه جبل أو جرم كبير ثقیل ﴿وَضَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، أى واقع نازل بهم قاصد رؤوسهم. والله يقول: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، أى خذوا التعاليم فى الحلال والحرام، وما كلفتموه عامة بقوة، أى بتقبل منكم، ورضا به، واطمئنان إليه واذكروا ما فيه أى اذكروه وتدبروه، وعوا ما فيه، واعملوا به لعلكم تتقون، والرجاء منهم، أى راجين بذلك أن تتقوا السيئات. بل إن تتقوا شر أنفسكم الأمانة بالسوء، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ...﴾ (البقرة)، وقد يسأل سائل: لماذا كان رفع الجبل مع إعطائهم الميثاق بقوة؟ الظاهر أنهم ترددوا فى قبوله وتلكأوا كشأنهم دائما فى قبول الحق المنزل والعمل به، فأتى موسى - عليه السلام - معجزة حسية قاهرة تلزمهم، ولا يحIRON جوابا فيها، فكان نتق الجبل، وكانت هذه المعجزة الرهيبة الدافعة إلى الإيمان، المانعة من كل تردد، وقد جاءت الآثار بما يفيد ذلك: روى ابن كثير أن موسى - عليه السلام - قال لهم: هذا كتاب تقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها - أى الألواح - فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلنا. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها، فراجعوه مرارا، فأوحى الله تعالى للجبل، فانقلع، فارتفع إلى السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم والسماء فقال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربى عز وجل؟! فأخذوا التوراة وهو الميثاق بهذه القوة الدافعة.

وإنه مع هذا الدليل المادى الحسى القارح نجدهم غيروا وبدلوا وانحرفوا عما أمرهم به الله - سبحانه وتعالى - وقد أردف - سبحانه وتعالى - ذلك ببيان ميثاق الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

«إِذْ» ظرف للزمن الماضي، والخطاب للنبي ﷺ، وهو تذكير بأن الفطرة الإنسانية توجب الإيمان بأن الله رب هذا الوجود وحده، وأنه هو الذى خلقه، وهو واحد بذاته وبصفاته، وقد حتم تعالى ذلك بالفطرة الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ عبر عن ذى الجلالة بربك بالإشارة إلى معنى الربوبية التى تملأ نفس النبي ﷺ وقد أدركها قبل النبوة بالفطرة الإنسانية الكاملة، فتفر من عبادة الأوثان، وعبد الله تعالى وحده، وقال إنه الديان وحده.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ومن بنى آدم: عطف بيان على قوله تعالى: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ وهذا بيان لنوع من أخذ من ذريتهم، وهم بنو آدم، وهذا مبين عموم الذين يتسبون إلى آدم أبى الخليقة، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، أى وهم فى أصلاب آبائهم، قبل أن يصلوا إلى أرحام أمهاتهم، وهذا يدل على أن ذلك من وقت الإنشاء، فوقت إنشاء الأدمى من وقت أن يكون فى صلب أبيه.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ منصوبة على أنها مفعول أخذ، ومؤدى القول أن لربك أخذ الذرية من التى هى من الأصلاب وهى فى الأصلاب ذلك العهد، أو ذلك الإقرار الذى كان بحكم الفطرة. قال لهم ربهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهو تفسير لمعنى الأخذ.

الهمزة للاستفهام، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، و(لست) للنفى، وقالوا: إن نفى النفى إثبات، والمعنى أنا ربكم الحق، وجيء بذلك النحو من القول لتأكيد الإيجاب كأنه سألهم، وأجابوا بالإثبات، أى بإثبات الربوبية. وقد أجابوا على هذا السؤال مثبتين موجب نفى النفى، قالوا: بلى، وهى تثبت ما بعد النفيين، أى أنت ربنا، وقالوا: ﴿شَهِدْنَا﴾، أى أقرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، أى حملهم على الإقرار على أنفسهم، أو اتخذ منهم شهداء على أنفسهم فاستجابوا وشهدوا على أنفسهم فهى شهادة الفطرة الإنسانية السليمة بالربوبية لله تعالى.

وقد بين - سبحانه - حكمة هذا الميثاق فقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أن تقولوا: مضاف إليه لمضاف محذوف تقديره: كراهية أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، فإنه فى فطرتكم التى خلقكم الله تعالى عليها، ولن تغفلوا عما فطركم الله تعالى عليه، إلا أن تطمسوا فطرتكم بالأهواء والأوهام التى تطمسون عليها، فلا تدرك، وتحولون بينكم وبين نورها الهادى المرشد.

وإن هذا الذى ذكره الله تعالى من أخذ ذرية بنى آدم من الأصلاب فيه تصوير محكم دقيق لتكوين الفطرة الإنسانية على الإقرار بمعنى الربوبية والتوحيد، لسلامة التكوين وأنه سوى خلقه فأحسن تسويته، وأنه صوره فأحسن صورته وقد قال بعض المفسرين: إن هذه المجاوبة مجاز، إذ شبهت حال خلق الإنسان مفطوراً على الإيمان بهذه المجاوبة، ونحن نقول تبعاً لهذا التخريج: فهذا الأخذ فيه تصوير لتكوين الفطرة، ولقد قال تعالى فى الإسلام ودعوة الله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [الروم].

وإن محمداً ﷺ آمن بفطرته، وهجر الأوثان بعقله، وإبراهيم أبو الأنبياء فكر بفطرته، حتى اهتدى إلى ربه، وقال بعد اهتدائه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ... (٧٩)﴾ [الأنعام].

ولقد قال النبى ﷺ فيما رواه مسلم: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالهم عن دينهم»^(١).

وروى الطبري بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها، أو ينصرانها»^(١).

قلنا: إن الله تعالى ذكر قصة الفطرة الإنسانية لكيلا يكون اعتذار لمنحرف لأنه يخالف الفطرة، وأيضا لكيلا يحتج بأنه يتبع آباءه فقال تعالى:

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٢).

«أو» هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ومقتضى السياق أن يكون المعنى كراهية، إن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا وكنا ذرية من بعدهم.

والمعنى أخذ عليكم الإقرار، وأنتم ذرية ليتبين أن فطرتكم تناديكم بالإيمان فلا تعتذروا بأن آباءكم كانوا مشركين، وأنتم اتبعتموهم، فإن أخذتم فلإنما تؤاخذون بشركهم، ولكن أخذ عليكم من قبلهم بالإيمان، فأنتم مسئولون عن عهدكم الذى عاهدتم الله تعالى عليه أولا، لا عن تقليدكم لأباكم، وإنه لا يصح هذا التقليد وفيكم فطرة الإيمان، أتتبعون آباءكم ولو خالفوا الفطرة التى شهدوا فيها بأن الله وحده هو المعبود بحق هو أنكم بمقتضى الفطرة مؤمنون فلم تتبعون آباءكم فى كل حال، ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، وخالفوا سنة الفطرة. فإن خالفوها، فإن ذلك لا يخليكم من الإقرار الذى أخذ عليكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فيها ما يوهم أن شركهم كان بالوراثة، وأنهم لهم تبع، فكما ورثوهم فى أجسامهم ونسبهم، فقد ورثوهم فى اعتقادهم.

ولذا قال الله تعالى عنهم: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخره عن تقديم لأن الاستفهام له الصدارة، وهو

(١) جزء من حديث رواه أحمد: مسند المكيين - حديث الأسود بن سريج (١٥١٦٢).

استفهام إنكارى لأنهم ينكرون مؤاخذتهم، إنما المؤاخذة على من سبقوهم، فالله تعالى بمقتضى سياق الآيات الكريمة يبين أنهم مسئولون ومؤاخذون، هم يقولون إنا تبع لمن سبقونا ولا نؤاخذ بفعلهم وقد سرنا مسارهم، فالله - سبحانه - يبين لهم أنهم مؤاخذون بمقتضى الفطرة، وكان الواجب عليهم أن يعرفوا أنهم مأخوذ عليهم مشاق بإقرارهم بأن الله وحده ربهم، وما كان لهم أن يتبعوهم. بعد ذلك ختم الله تعالى هذه بيان تصريحه للآيات وتفصيله فيقول تعالى كلامه العزيز:

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾

أى كهذا البيان الذى فصل الله تعالى هذه الآيات وبينها من تصوير الحال فى الخلق والتكوين؛ يفصل الله - سبحانه وتعالى - الآيات ويقربها ببيان أصل الخلق والتكوين، وأن الذين يضلون هم المنحرفون عن أصل الفطرة. يبين البيان كذلك دائما ليهتدوا ويدركوا الحق، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى أصل فطرتهم التى فطرهم الله تعالى، ويعودون إلى التوبة وإلى الإنابة إلى ربهم. بعد هذا البيان وضرب الأمثال من ماضيهم، وبيان سوء حاضريهم.

مثل من خالف الفطرة، وخضع للشيطان

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ

الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَانفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ ﴿١٧٧﴾ مِّن يَّهْدِ اللّٰهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَن يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن تهديه فطرته إلى الحق، ولمن يرى الآيات بينة واضحة تغمره بنورها، وتسبغ عليه كما يسبغ الثوب على لابس، فينسلخ منها ويخلعها ويتبعه الله تعالى الشيطان فيكون من الغاوين، وقال تعالى في ذلك: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أى اذكر لهم نبأ الذى آتيناه آياتنا. والنبأ الخبر ذو الخطر والشأن، وكان خطره وشأنه فى أنه قد جاءته الآيات بينة قد غمرته بالنور، وصارت كأنها اللباس السابغ، الذى لا يفارقه، ولكنه تعمد أن يخرجها من ملابسه وجسمه، وينسلخ: أى يخرج منها كما تخرج الذبيحة من إهابها.

وإنه إذ فعل ذلك يكون قد سلك سبيل الضلال وسار فيه، ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى فجعله الله يتبع الشيطان؛ لأنه إذا انسلخ من الآيات السابغة المشيرة قد اتجه إلى الضلال، فأتبعه الله للشيطان وصار تابعا له؛ لأنه ترك رحمة الرحمن بترك آياته، ومن ترك رحمة الله، أدخله الله تعالى حظيرة الشيطان، وصار من أتباعه.

وإن فى هذا النص القرآنى المصور لمن يغوى ويضل عدة مجازات، تبدو فيما يأتى:

أولا - أنه شبه الآيات النيرة الدالة بالثياب السابغة التى تلازم الشخص، ولا تنفك عنه حتى يخلعها.

وثانيا - أنه شبه تركها وعدم الأخذ بها بالانسلاخ منها، فشبه تركه لها بالانسلاخ والذي هو خاص بسلخ الشاة الذبيحة فيتعري كما تتعري الشاة.

وثالثا - أنه عبر عن اتباع الهوى، والتردى فى مهالكة ب ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ لأن السبب هو سيطرة الهوى، والهوى هو باب الشيطان الذى يدخل منه إلى القلوب، فعبر باسم المسبب وأراد السبب وهو اتباع الهوى.

وإن اتباع الهوى أو الشيطان يؤدى إلى الضلالة لا محالة، ولذا قال تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، أى من الضالين، فغوى معناها ضل بسبب اتباع الشهوات.

وقد قلنا: إن هذا مثل من تحيط به آيات الله التى تدعم فطرته التى فطر الناس عليها، فلا يلتفت إلى دلالتها، ويتركها منسلخا عما تدعو إليه كما ينسلخ اللابس من ثوبه الذى يستره، ويجمله، وينحط إلى مهاوى الشيطان.

هذا، وإن كتب التفسير فى هذه الآية مملوءة بأساطير يهودية لم تثبت بسند صحيح يصلح تفسيراً للقرآن، ولذلك ضربنا عن ذكرها صفحا؛ ذلك أنهم زعموا أن قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ يتعرض لقصة شخص معين، فاستعانوا بالإسرائيليات، ليعلموا من هو. والحقيقة أنه ليس بشخص معين، إنما هو تصوير لمن تأتبه الآيات السابقات بالنور فيتركها.

وزعموا أن قوله تعالى: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ﴾ ففهموا من هذا أنها قصة لها أشخاص ورجال وحوادث، فاستعاروها من بنى إسرائيل، وهذا لا يساعده النص، إنما النص فى قصص المثل ذاته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وستكلم فى هذا إن شاء الله تعالى.

وقد صور الله تعالى حال ذلك الذى تأتبه آيات الله نيرة سابعة فينسلخ منها فقال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثْ﴾.

أى إن ذلك الذى انسلخ من آيات الله تعالى، وقد أسبغها الله تعالى عليه لو شاء الله لرفعه بها إلى أعلى الدرجات لو سلك سبيله، واتجه إليه ولم ينسلخ عنها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ لو شئنا له أن يهتدى رفعناه بها إلى مقام المؤمنين الصادقين، لو كان قد سلك سبيلنا ولم يرفض نعمة البيان وإسباغ الآيات، ولكنه أخلد إلى الأرض وسكن فيها بنزواتها وأهوائها وشهواتها، واتبع هواه، فلم يسيطر على شهواته، وكان عبدا لها، فاستوى عنده البينات والظلام، ولذلك مثله الله تعالى بالكلب الذى يندلع لسانه لاهثا دائما، فقال تعالى كلماته: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

أى إن حاله كحال الكلب المندلع لسانه، إن تحمل عليه بأن تهيجه ينبح مندلعا لسانه، وإن تركه من غير تهيج ينبح مندلعا لسانه أيضا.

أى إن أولئك الذين ينسلخون من الآيات التى ينعم الله تعالى عليهم ببيانها يستوى عندهم البيان والترك بل إنهم يضلون دائما، إن ضلالهم فى حال البيان أشد وأوغل، فالجامع بين المشبه والمشبه به هو البقاء على حال سوء دائما، سواء أكان البيان أم لم يكن.

وقد شبههم الله تعالى بالكلب، فى أقبح صورته، وهى الحال التى يكون فيها خارج اللسان يسيل فيها لعابه، وهى أقبح مناظره؛ ولذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أى تلك الحال التى قصصناها وبيناها، حال الذين كذبوا بآياتنا نقدوا تفكيرهم وتقديرهم للأمور، فلم يعرفوا الفرق بين النور الذى تجيء به الآيات هادية مرشدة، وبين الظلام الذى يعمهون فيه متحيرين، وكانت حالهم لحال هذا الحيوان فى أقبح صورته.

إذا كانت هذه حالهم، ومآل أمرهم، ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ﴾ الفاء كما ترى للإفصاح، ومعنى اقصص: اذكر حالهم وخبرهم، فإنه يصور حالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى لعل هذا التصوير الذى تقصه عليهم يحملهم على التنبيه فى

حالهم العقلية التي ينزلون فيها إلى الحيوان الذي لا يدري الفرق فيما يعمل،
يفتكرون ويتدبرون الآيات ولا ينسلخون منها.

ولقد بين الله تعالى سوء حالهم، فقال:

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾.

ساء تستعمل أحيانا بمعنى التعجب، فيكون المعنى ما أسوأه مثلاً هذه الحال،
وتكون ﴿مَثَلًا﴾ تمييز، وهو يدل على المتعجب منه، أى أن حالهم بلغت أقصى
أحوال السوء فى الضلال، ومجافاة الحق، وجعلهم النور ظلاماً والهدى ضلالة
وأنهم فى ذلك لا يضررون غير أنفسهم، فالله يغضب عليهم والرسول ﴿وَأَنْفُسُهُمْ
كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ يظلمون أى يستمرون على ظلمها باستمرارهم على تكذيب آيات
الله الهادية المرشدة، وانسلاخهم عنها.

وإن الله - سبحانه - تركهم فى غيهم؛ لأنهم سلكوا سبيل الغى، وتركوا
سبيل الرشـد، فحقت عليهم كلمة الضلال؛ ولذا يقول الله تعالى:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾.

«مَنْ» اسم شرط، أى الذى يهديه الله تعالى فهو المهتدى وحده، وليس
معنى ذلك أنه ليس مختاراً فى سلوك طريق الهداية، فإن الله عدل، لا يظلم
أحداً، إنما يكون بين يديه طريق الرشـد، وطريق الغى، فيختار طريق الغى، فيصل
إلى نتيجته ويختار الله ما اختاره لنفسه، وإن كان غير راض عما اقتترف، ويقترف
من سيئات، ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وإضلال الله تعالى لا يتنافى مع
اختياره؛ لأنه اختار سبيل الغى، والفساد، فسار فيه بإذن الله واختياره، وإن كان
الله تعالى غير راض، فالله تعالى أراد له الشر إذ سلك طريقه، ولكنه لا يرضى
لعباده الكفر.

وهنا إشارتان ببيانين:

أولاهما - فى قوله تعالى: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ فيه تعريف الطرفين، فيفيد القصر، والمعنى لا يهتدى غيره، فالهداية من الله تعالى.

ثانيتهما - أن الله تعالى قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وفى هذا النص السامى الإشارة إلى الموصوفين بتكذيبهم لآيات الله، والإشارة إلى الأوصاف تفيد أنها سبب الحكم.

وقوله تعالى: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تفيد تأكيد الخسارة وقصرها عليهم، وذلك لضمير الفصل «هم»، وخسارتهم فى أنهم خسروا نعيم الآخرة، وخسروا بضلالهم وفقدتهم التمييز بين الحق والباطل، والضلال والهداية، وخسارتهم بتركهم نعمة الله تعالى فى آياته، وخسارتهم رضوان الله، وهو أكبر.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ ﴿١٧٦﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُدْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٨﴾

أكد الله تعالى أنه خلق الخلق من ذريات آبائهم، وعلم أنهم لا يهتدون، بل يدخلون فى الضلالة، ومن ورائها الكفر، ومن وراء الكفر جهنم، وليس معنى ذلك أنه أجبرهم على الكفر الذى يلجئهم إلى جهنم إجباراً، بل معناه أنه كتبه عليهم فى علمه الذى أحاط بكل شىء، ولا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فالله - سبحانه وتعالى - علم ما يكون منهم فهو - سبحانه - يعلم ما كان وما سيكون عالم الغيب والشهادة، وهو السميع العليم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

أكد الله تعالى ذلك بـ«قد»، وهى للتحقيق دائماً، وباللام، وذراًنا معناها، خلقناها من ذرية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾ (١٣٦) ﴿[الأنعام] ذراً ليست بمعنى خلق كأى خلق، بل معناها أنه خلق من ذرية.

وقوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾، أى أن مآلهم إلى جهنم؛ لأنهم يختارون الضلالة، فيكفرون فتكون جهنم مآلهم وبئس المصير، ووصفهم سبحانه بأنهم كثيرون من الجن والإنس، فليس الضلال بقليل فى الأرض، وإنه لكثير، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (١١٦) ﴿[الأنعام]، وقد ذكر - سبحانه وتعالى - حال الذين كتب عليهم أن يكونوا لجهنم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أى لهم قلوب لا ينفذون بها إلى الحق فيذعنوا له، وهذا معنى فقهاها، ولهم أعين لا يبصرون آيات الله فى الكون من شمس لها ضياء، وقمر له نور، وسماء ذات أبراج، ورياح تحمل السحاب المطر، يساق إلى بلد ميت فيحييه، ولهم أذان لا يسمعون بها نداء الحق فيحييونه، وآيات الله تتلى فلا يدركوها، ويسمعون صوت المنادى «الله أكبر» وكأنهم لا يسمعون.

وقد يقال: إن هذا مثل للضالين وتصوير لهم، فهم كمن لا عقل له ولا بصر ولا سمع، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

إن فرق ما بين الحيوان والإنسان هو العقل والتدبير، وترتيب النتائج على المقدمات، والنظر إلى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر، فإذا فقد ذلك فقد صار كالأنعام فى أنفسها، ولذلك قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ والإشارة إلى الذين لهم قلوب لم يدركوا بها إدراكا نافذا إلى ما وراء. وأوتوا أبصار لم يعرفوا عظمة الكون وخالقه منها، وأوتوا سمعا، لم يستمعوا به إلى المواعظ النيرة، والزواجر الزاجرة.

هؤلاء ما دام لم ينتفعوا بهذه المواهب، يصيرون كالأنعام؛ لأن ما أعطاهم سبحانه من مواهب جعلوه هملاً فكأنهم لم يعطوه كالأنعام، ويقول سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن من أعطى شيئاً ولم ينتفع به أضل ممن لم يعط شيئاً.

هذا هو الحكم الأول عليهم، والحكم الثانى هو أنهم غافلون عن الأمور التى يجب عليهم إدراكها، فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عما يجب التنبيه إليه ليقوموا بواجبهم وليستعملوا ما وهبهم تعالى من هبات مميزة مدركة، وأكد الله - سبحانه وتعالى - الحكم بغفلتهم بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، وبقصر الغفلة عليهم بتعريف الطرفين، أى أنه لا غافل غيرهم، لأنهم غفلوا عن أهم ما يجب أن ينتبهوا له.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى عدة آيات معانى هذه الآية فيما يناسبها فقال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ...﴾ [الأحقاف].

وقد شبههم سبحانه بالأنعام فقال عز من قائل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ...﴾ [البقرة] وهكذا كل من يعطل المواهب التى وهبها الله تعالى له.

وإن المشركين كانوا يعبدون غير الله تعالى، وينكرون صفات الله تعالى التى تجعله وحده المستحق للعبادة، ولذا قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٨٠].

تطلق الأسماء ويراد المسميات، والأسماء هنا يراد بها صفات الذات العلية التى لا يماثلها صفات الحوادث، كما قال تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى] مثل القاهر القادر المريد السميع البصير، والغفور

الرحيم الرحمن، فإن هذه وأشباهاها أسماء الله تعالى، وهى أيضا صفاته وهى ليست شيئا غير ذاته، إنما هى مبينة لها، معرفة بها، فنحن نعرفه سبحانه بهذه الصفات التى هى أسماؤه سبحانه وتعالى، وبعدد الأسماء أو الصفات لا يقتضى تعدد المسمى، أو الموصوف، ولقد سمع مشرك قول المؤمن فى وصف الله تعالى بأنه الغفور الرحيم، فقال جاهلا أو متجاهلا: إن محمدا يدعو إلى إله واحد، فما باله يذكر إلهين. وهذا إلحاد فى أسمائه سبحانه، فالموصوف لا يتعدد بتعدد الوصف، والمسمى لا يتعدد بتعدد الاسم، وقد روى الترمذى وغيره أن لله تعالى تسعة وتسعين اسما، أى وصفا، وقد ذكر ابن كثير هذه الأسماء التى بلغت هذا العدد فقال: (وهو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الخليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور).

وقد رويت هذه الأسماء فى الصحاح بأحاديث مختلفة، والله قد اتصف بكل هذه الأسماء.

وصف أسماء الله تعالى بالحسنى، وهى مؤنث أحسن، وأفعل التفضيل ليس على بابه، والمعنى أنها بلغت أقصى درجات الحسن والكمال؛ لأنها صفات المتصف بكل كمال.

وقد قال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الفاء للإفصاح، أى إذا كانت الأسماء هي صفات الكمال المطلق، فادعوه بها أى نادوه فى دعائكم وضراعتكم إليه بها.

﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، أى يتخذون الإلحاد والشرك فى أسمائه، وذلك بالزيادة فيها بما لا يليق بالذات العلية أو يغيروها بما لا يليق بذاته، كالمعطلة والمشبهة الذين يفسرونها بما يشبه الحوادث، أو ينقصون منها تبعا لأهوائهم، وقوله تعالى: ﴿ذُرُوا﴾ أى اتركوهم بمعنى لا تقيموا لقولهم وزنا، ولا تتبعوا ما يقولون

ثم ذكر الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السين هنا لتأكيد وقرع الفعل فى المستقبل، وقد قدروا الباء، أى: سيجزون بما كانوا يعملون.

وإن حذف الباء فيه إشارة بيانية، وهو توافق الجزاء مع العمل، حتى لكان الجزاء هو العمل ذاته، لاتحاد السبب والمسبب، فكان جزاء وفاقا للعمل لا يزيد عليه، وقد يغفر له متعمدا له برحمته.

وقد ذكر الله تعالى الضالين ممن ذرأ من الجن والإنس، وأنهم كثيرون، وليسوا قليلا ذكر المهتدين، فقال تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١).

ليس الناس جميعا أشرا را، بل إنه من رحمة الله تعالى بعباده أن كان الوجود لا يخلو من الأخيار الذين يقاومون أهل الشر، ويدفعون شرهم ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١) [البقرة].

وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية أخيار الناس فقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، أى من الذين خلقناهم من الجن والإنس من ذريتهم أمة طائفة مجتمعة على الهدى والخير يؤم كل واحد منها الجماعة، ويعينها ويقصدها بخير،

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أى اهتدوا، ويهدون غيرهم بالحق، أى هداية مصحوبة بالحق، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أى بالحق وحده يعدلون فى كل أمورهم، وفى حياتهم عدل بالحق، وفى شئونهم العامة والخاصة عدل بالحق، وفى كل ما يباشرون من أعمال يستغنون الحق ولا يريدون سواه، فحياتهم كلها عدل وحق. وفى تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قصر؛ أى لا يعدلون بغيره، بل يزنون به الأعمال والأشياء والصلوات كلها، فهو ميزان الوجود الإنسانى، وبه قامت الإنسانية الفاضلة.

وقد بين الله تعالى ما يعامل به الذين يكذبون بآياته، ويعادون أولياءه، ويعاندون الحق، فقال:

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فِيْ أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا
هَادِي لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

كان ما قصه - سبحانه - من قصص لنوح وهود وصالح وشعيب، وموسى وما كان من قومه ومعاناته فى سبيل هدايتهم وبث الإيمان فى قلوبهم؛ تسلياً للنبي ﷺ وبيان ما يلقاه أولو العزم من الرسل من عند الكافرين والضالين.

ومن بعد ذلك أخذ - سبحانه وتعالى - يبين حال المشركين الذى يدعوهم النبي ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ هذا حكم عام بالنسبة للمكذبين بالآيات، لا يأخذهم سبحانه بمجرد تكذيبهم، بل يمهلهم ويغدق عليهم الرزق حتى إذا عمادوا في شرهم، ولم تهدم النعمة، ولم يحسوا بشكرها أخذهم الله تعالى من حيث لا يحتسبون، فهو يختبرهم بالآيات فيها العبر، ثم يختبرهم بالنعم.

ومعنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ نأخذهم درجة بعد درجة نازلين إلى الهاوية من حيث لا يشعرون؛ من مكان لا يشعرون فيه أنهم كلما أنعم عليهم بنعمة وكفروها يسيرون إلى الهاوية وهم لا يشعرون، إن الله يختبر المكذبين بآياته الكونية وما تدل عليه، والمكذبين لمعجزات النبوة كالقرآن، وسائر آياته لأنبيائه، يختبرهم بالنعم أحيانا يذوقونه ثم يحرمون منه.

ولقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

وإن ما يكون عليه الكافرون من ملاذ وزخارف لا يصح أن يكون علامة الرضا، بل هو في أكثر الأحوال علامة السخط، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف]، وإن ذلك من إملاء الله تعالى، ليزدادوا ضلالا وفتنة. ولقد أكد الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَأْمُلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

في هذا النص السامي يبين سبحانه عاقبتهم، وهى العذاب الشديد الذى يستدرجون إليه فيقول: ﴿وَأْمُلِي لَهُمْ﴾، أى أطيل عليهم الأمن، أى أتركهم ملاوة من الزمن يستمتعون فيها، كما تستمتع الأنعام، وهم سادرون فى طغيانهم

وكفرهم، وكلما أمعنوا في لذاتهم وشهواتهم وما مكنوا منه؛ ازدادوا إثماً، حتى إذا امتلأوا آثاماً بما كسبت أيديهم أخذوا أخذ عزيز مقتدر، وما أفلتوا من عقاب شديد؛ ولذا قال تعالى مبيناً ما بيته لهم: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، هو التدبير للأشرار معاملة لهم بمثل تدبيرهم وشرهم، وإيذائهم لأهل الإيمان ﴿مَتِينٌ﴾، أى غليظ شديد مأخوذ من متن الجسم وهو الجانب القوى فى عظامه.

وإنه قد قالوا: إن هذه الآية نزلت فى كبراء قريش الذين كانوا يؤذون المؤمنين وخصوصاً ضعفاءهم، فالله تعالى يبين لهم أنهم مأخوذون وسيستقم الله تعالى منهم، وقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم فى موقعة بدر، أخذ الذين بالغوا فى إيذاء النبى ﷺ أخذ عزيز مقتدر.

ونقول: إن عموم الآية يشمل هؤلاء وغيرهم ممن يظهرون مغترين، يقولون فى غرورهم نحن أكثر أموالاً وأولاداً، فالله تعالى يمهّل ولا يهمل.

وإن اغترار المشركين بالمال والنفر يمنعه من التفكير فى مآل أمرهم، والداعى إلى الحق وماضيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جُنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨٨).

لقد كان النبى ﷺ الأمين الصادق فى قريش، وعاش بينهم أربعين سنة كان يعرف بينهم بالأمين، وإذا ذكر اسم الأمين لا ينصرف إلا إليه، يحكم بينهم فى خلافهم إذا تنازعوا، ويرتضون حكمه إيماناً بعقله وكمال تدبيره، فلما دعاهم إلى الحق وترك عبادة الأوثان قالوا مجنون، وقد رد الله قولهم بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢) [التكوير].

ولما رموه بهذا دعاهم الله أن يتدبروا ما يقولون، ويوازنوا بين قولهم هذا وما عرفوه من قبل، حتى يدركوا الحق وينفوا قولهم فيه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جُنَّةٍ﴾ أى يقولون هذا القول، ولم يتفكروا، ويعلمون أنه ما بصاحبهم من جنّة، فالتفكر ليرودا عقولهم إلى ماضى قولهم فيه من أنه العاقل الأمين فى

شبابه، حتى إذا بلغ أشده وبلغ الأربعين قالوا فيه ما قالوا، وإن نتيجة التفكير والموازنة أن يتجهوا إلى الحكم بأنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾. وعبر الله تعالى بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ من فيه إشارة إلى مصاحبته أربعين سنة في صحبة كريمة عاقلة أمينة يرجعون إليه في أمورهم المهمة ويشركهم في فعل الطيبات أنى اتجهوا إليها.

وإن ما دفعكم إلى هذا الوصف الذى يتنافى ماضيه وحاضره إنما هو أنه جاء بالحق بشيرا ونذيرا وهاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى ذاكركم لعاقبة الكفر، وهو العذاب الشديد، مبين لكم ذلك وموضحه.

والاستفهام هنا إنكارى للتوبيخ؛ لأنهم اندفعوا فى رمية بالجنون من غير أن يتفكروا.

وقد وردت آيات كثيرة فى هذا المعنى فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنِئَةً وَأَفْرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ].

فالله تعالى فى هذه الآية يدعوهم إلى أن يتفكروا مجتمعين وفرادى، ومتذاكرين وستتهون إلى أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾، إنه الكامل فيكم صيبا وشابا ورجلا مكتملا، ولكنه العناد قد جرکم إلى إنكار ما هو ثابت ثبوتا لا مجال للريب فيه، وبعد أن دعاهم الله تعالى إلى التفكير فى أمر النبى الصادق الأمين، دعاهم إلى النظر فى الكون ليؤمنوا بالله وحده، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾.

عقيدة الإيمان الإسلامية شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنه الصادق الأمين، وقد بين سبحانه فى الآية السابقة أن صدق محمد ﷺ ثابت عند المشركين لصحبته لهم قبل أن ينادى بأنه رسول رب العالمين، ولم تتغير حاله

بعد الدعوة وليس به جنون كما ادعيتم ولكنه حمل الرسالة بالإنذار والتبشير لكم فلا مسوغ لكم في تكذيبه، وقد علمتم من ماضيه فيكم أنه الصادق، وتأيد صدقه بالمعجزة الباهرة القاهرة فيكون كل ما جاء به حق .

وإنه إذا ثبتت المعجزة، وإنها ثابتة لا محالة، فقد ثبت كل ما جاء به ودعا إليه من التوحيد، وألا يشركوا بالله شيئاً.

وقد أخذ - سبحانه وتعالى - يثبت بالأدلة الكونية، وقد دعاهم - سبحانه - إلى النظر في الكون، وما خلق من شيء فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملوك صيغة مبالغة في الملك، وهي تدل على كمال السلطان وقوة الملك، وأن كل شيء في هذا الملوك لا يسير إلا بأمر الله تعالى ونهيه - سبحانه وتعالى - والاستفهام للتعجب من أمر المشركين الذين هبط حالهم إلى عبادة حجر لا ينفع ولا يضر، وهو ملقى ككل الحجارة الملقاة ولا ينظرون إلى الكون العظيم وخالقه، لا ينظرون إلى السماء وأبراجها والشمس وضوئها، والقمر ونوره، وتعاقب الليل والنهار، ولا إلى الأرض وسهولها وأوتادها ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾، والأشياء التي خلقها الله تعالى من حيوان، وجماد وفلزات في باطن الأرض، لا ينظرون إلى ذلك ويسجدون للصنم، ويجعلونه إلهًا كخالق هذا الكون، وخالق الوجود كله! إن هذا قصور في الفكر والعقل، وضلال في القول والعمل، وخطب في العبادة من غير إدراك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفعل فيها عطف على فعل محذوف تقديره أيشركون بالله أصناماً، ويجعلونها أنداداً له - سبحانه وتعالى - ولم ينظروا إلى خلق الله وعظم هذا الخلق، والأثر يدل على المؤثر، والمخلوق يدل على الخالق سبحانه، وهذا الكلام فيه دعوة إلى النظر في الكون، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ في السماء والأرض، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (١٠١) [يونس]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)

وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سَطَحَتْ ﴿٢٠﴾ [الغاشية]، وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ [الذاريات].

وهكذا يجب ابتداء النظر إلى الكون وما فيه، وإلى النفس الإنسانية وما هى، ومم تكونت، ولقد أمر الله تعالى فى الآية بالنظر إلى مآل الإنسان، وأنه داع إلى الاعتبار، ولا يمكن أن يكون قد خلق عبثاً، فقال تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾، و«أَنْ» هنا مخففة من «أَنَّ» الثقيلة، وإنها ضمير الشأن، أى: وأنه الحال والشأن أن يكون قد اقترب أجلهم.

والله - سبحانه وتعالى - يذكرهم بضرورة النظر إلى الموت، وإلى أن الأجل الذى أَقْتَحَتْ حياتهم انتهى، وهذا التذكير فيه فوائد:

أولاًها - أن غرور الحياة يدفع إلى الطغيان فيها، فينهوى إلى ضلالها، فإذا ذكر بالموت علم أنها فانية فيقل طغيانه وغروره بها وتلك نافذة إلى الإيمان.

ثانيها - أن تذكر الموت يدفع إلى التفكير فى قيمة الحياة فإذا عرف قيمتها عرف قيمة الدنيا؛ ولذلك كان بعض الصالحين إذا عزى فى وفاة قال: اللهم انفعنا بالموت، لأنه عبرة وفيه إنذار بالنهاية فإن لم يؤمن باليوم الآخر، فالحياة تكون لغير غاية.

ثالثها - أن التفكير فى الموت والنظر فيه يدفع إلى الإيمان باليوم الآخر، وأن حياته ليست عبثاً كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) [المؤمنون].

إنها آيات الله البينات، فيها عبرة وعظة لقوم يؤمنون.

ولقد قال تعالى من بعد ذلك فى استفهام تعجيبى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا لم يؤمنوا بالله الخالق المنشئ المدبر، وآياته الدالة عليه ولا فى الموت النازل بهم لا محالة، إذا لم يؤمنوا بذلك، فبأى حديث يحدثون به يؤمنون.

والاستفهام إنكارى توبيخى، هو نفى لإيمانهم بأى حديث مهما يكن، وذلك فيه توبيخ، وفيه إثبات أن أمثال هؤلاء لا يؤمنون بشيء وفقدت قوة الإيمان بأى أمر، ومن فقد أصل الإيمان بالأشياء فهو حائر باثر ضال لا يهتدى؛ ولذا قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

إن من لا يؤمن بشيء كتب الله تعالى عليه الضلالة؛ لأنه سلك طريق الغي، واتخذة سبيلا، فسار فيه من غير تبصر، وبذلك كتب الله تعالى عليه الضلال، وعبر عنه بأن الله أضله، فإن الله لا يكتب الضلالة إلا لمن سار فى طريقها، واختار سبيل الغي، ولم يختار سبيل الهدى، وإن من يكتب الله تعالى عليه الضلالة - لا هادى له لأنه ارتكس فى الشر، ولم ينقذه الله تعالى منه، لأنه اختاره، ولذا قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾، أى من سار فى طريق الغي، حتى بلغ نهايته فقد أضله، ومن كتب الله تعالى عليه الضلال فلا هادى له؛ لأن الضلالة استمكنت فى نفسه وتغلغلت فى أطوائها^(١)، فلا مدخل للنور فى قلبه الذى ختم الله تعالى عليه.

وإن الله يتركه فى ضلاله، وقد قال تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أى يتركهم الله تعالى فى ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾، أى ظلمهم الطاغى الذى تجاوز كل حد، فطغيانهم يكون ظلما لأنفسهم، وظلما للناس وعُتُوا عليهم واستكبارا فى الأرض، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أى يتحيرون ويترددون، والتحير أو التردد هنا فى موضعه؛ لأنهم خالفوا الفطرة وقاوموها، فهم فى حرب معها، وإذا كانت الحرب داخلية نفسية فإن الإنسان يكون فى حيرة مستمرة بين فطرة تدعوه إلى ألا يطغى ولا يظلم، وبين حال قائمة قصدها، وهى ما عليه من طغيان وعتو، والله - سبحانه - لطيف بعباده، ولئى لمن اهتدى ولم يخالف فطرته التى فطر الناس عليها.

(١) يعنى ما تطوى عليه. من الطى وهو ضد النشر. لسان العرب - طوى.

الساعة

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
 أَيَّانَ مَرُّسُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْ قُبِهَا إِلَّا هُوَ يُنْقَلَتُ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ
 عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾
 قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَعْتَضْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ إِنَّا
 أَنَا الْبَاقِيُونَ ﴿١٨٨﴾

يقول ابن كثير: إن هذه الآية مكية، وإن كانت في سورة أكثرها مدني، وإن
 لذلك موضعاً فيما نقول عن السائل من هو؟ فقل: إن السؤال من يهودي ليعجز
 النبي ﷺ، وعلى ذلك يرجح كون الآية مدنية، وقيل - ويرجح الحافظ ابن كثير -
 إن السائل من قريش قالها استبعاداً لوقوعها، واستعجالاً لها لأنه لا يؤمن بها،
 كأنه يقول للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فبين متى تجيء كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ
 بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ
 يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى]، وقال تعالى عن كفار قريش:
 ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ [النمل].

ونقول: إن السؤال عن الساعة يرد على خاطر المؤمن والكافر، فالكافر يسأل
 مستبعداً، والمؤمن يسأل لأنه مؤمن بها، والعقل طُلْعَةٌ يريد أن يعرف زمانها،
 وتعرف المجهول المستور غاية من غايات العقول، تتطلع لمعرفة.

سؤالهم ذكره الله تعالى بصيغة ﴿أَيَّانَ مَرُّسُهَا﴾ المرسى: اسم زمان أو
 مكان، ويطلق على مرسى السفن، ونهاية مسير المركب إلى الأرض اليابسة.

والمعنى يسألون عن وقت تنتهى إلى المرسى الذى ترسى إليه أو إلى الزمن الذى ترسى إليه، وتنتهى عنده، فشبّه زمن وجودها بالمرسى الذى ترسى عنده السفن، ويكون المعنى على هذا أيان ينتهى الزمن إليها، وأى قدر من الوقت يمضى حتى نعرف منهاها.

أجاب النبى ﷺ بقوله الذى أمره به ربه ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، أى إن علمها عند ربى وحده لا يعلمها أحد سواه، ولذلك عبر - سبحانه - بـ«إنما» الدالة على القصر، ولقد صرح الله تعالى بهذا القصر، وقال تعالى على لسان نبيه الكريم: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ﴾، أى لا يوضحها فى وقتها إذ يجيء إلا الله، فاللام هنا بمعنى «فى»، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ...﴾ (الإسراء)، أو تتعلق بمحذوف، ويكون السياق هكذا لا يوضحها ذاكرا لميقاتها إلا الله تعالى.

﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد وصفها الله تعالى بأنها تشغل على النفوس؛ لأنها تشتمل على وقت الحساب، والكافر يحس بعظم ما ارتكب، والمؤمن لا تزين له أعماله فيحسبها كلها حسنة فهو مُشفق منها، والمغتر بما عمل من أعمال حسنة فهو مشفق منها، ثم هى عندما تحيى يختل نظام الكون ويضطرب، فإذا جاءت انشقت السماء، وانتشرت الكواكب والنجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، فنقلت على النفوس وصعب احتمال ما يصحبها.

وإنها تكون حيث لا علم بها، ولا توقع لها؛ ولذلك قال: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ إلا مباغتة لا تتوقعون مجيئها، وذلك يزيد فى ثقلها.

وقد ذكر النبى ﷺ أشرطا لها، تنذر بقربها، ولكنها لا تعين ميعادها، وإذا جاءت لا تنفى أن مجيئها كان بغتة، فالأشراط مقربة للزمان، وليست معينة له.

ويقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وقالوا: إن «حفى» معناها عالم، وعُدّي بـ«عن» على معنى كأنك عالم شيئا عنها، وقد فسرهما عبد الله بن

عباس بأنه (كَأَنَّ) بينك وبينها مودة تتفاضاك أن تعرف الكثير عنها، فإنه يقال في العربية إن فلانا حفي بفلان أى بينه وبينه مودة تقتضى أن يعرف عنه الكثير مما عنده، والمؤدى واحد، وهو أن سؤال النبي ﷺ لأنهم يحسبون أنه عالم به أو ﴿حَفِيٌّ﴾ وَمَعْنَى بَأَن يَعْرِفُ عَنْهَا مَا يُعْرِفُ .

وذكر السؤال عنها مرة أخرى لاختلاف متعلق السؤال، فالسؤال فى الأول لمعرفة ميقاتها، وتكرار ذكر السؤال لبيان ظنهم بأن النبي ﷺ حفى بمعرفة شىء عنها .

وهكذا التكرار فى القرآن لا يعد تكرارا؛ لأن ذكر اللفظ المكرر يكون ذكره لمقصد آخر، غير المقصد، وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام فى قصص القرآن الكريم .

ولقد قال الزمخشري: فإن قلت لم كرر ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ وإنما علمها عند الله؟ قلت للتأكيد، ولما جاء به من زيادة ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وعلى هذا تكرار العلماء الحذاق فى كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة .

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم ما أمره به أولا، وهو: ﴿إِنَّمَا عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ وذلك لتأكيد اختصاص علم الله تعالى بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... (٣٤)﴾ [لقمان] .

وإنما جهل الله تعالى العلم بالساعة لكى يقدم الناس على أعمالهم جاهدين مثمريين مستغلين الأرض مخرجين خيراتها، ولو علموا زمانها، لقلت همتهم، وضعفت عن الإنتاج والإثمار عزمهم، والإسلام لا يريد أن يفشروا فى أعمال الحياة والعبادة وأن يتموا أعمالهم، ولا يبطلوها، ولقد ورد أنه إذا جاءت، والرجل

قد أخذ يزرع فسيلة فعليه أن يتم ما بدأ^(١) ثم ختم الله - سبحانه - الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا عما وهمه الناس من أن العلم بميقات الساعة ينفع ولا يضر، ولذا قال أكثر الناس لا يعلمون حكمة القادر الحكيم العليم، فيما يبين ويترك بيانه لميقاتها، والله - سبحانه - تعالى - بكل شيء عليم.

ولقد بين - سبحانه - تعالى - أن النبي ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله تعالى عليه، ولم يطلعه عن ميقات الساعة، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٨).

بعد أن بين الله - تعالى - أمر الساعة وأن علمها عند الله وحده، أمر النبي ﷺ أن يبين لهم أنه بشر رسول وأنه لا يملك لهم أن يأتي بها قبل أن يقدر الله تعالى؛ لأنه لا يملك في نفسه لنفسه شيئاً، لا يملك لنفسه نفعاً يجلبه ولا ضراً يدفعه، بل إنه يجرى عليه ما يجرى على البشر، فلا يملك أن يغير في أمر الساعة شيئاً، فليس لهم أن يسألوه عنها ويطلبوا منه ميقاتها، ولقد قال تعالى مثل ذلك في آية أخرى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتُخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)﴾ [يونس].

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾.

(١) عن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَدَأَ أَحَدُكُمْ فَسِيْلَةً فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ". رواه أحمد: باقى مسند المكشرين (١٢٥٦٩). الفسيلة: صغار النخل.

وإن هذا النص بما فيه من رد على أسئلتهم فيما يتعلق بالساعة فيه تأكيد لبشرية النبي ﷺ وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله تعالى، فأنا تحت سلطانه وظله، لا أملك إلا ما يملكني، وما لا يملكني ممنوع على لا سلطان لي فيه، وإن علم الغيب لله وحده، فعلم الساعة له وحده، وأنا لا أعلم الغيب، وإنما علمه عند الله عالم الغيب لا يُطلع أحدا عليه، ولذا قال النبي ﷺ بأمر من ربه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ لطلبت الكثير من الخير ونلتها، فكنت أستنصر في الحروب في غير مكيدة ولا تدبير، ولدفعت أمر الشرك، ولجعلت الأرض خصبة إن كانت جدبا، ولكني أفوض أمري إلى، إن أعطاني فيأحسانه، وإن منعني فبحكمته وهو العليم.

﴿وَمَا مَسْنِي السُّوءُ﴾، ولو كنت أعلم الغيب ما مسني سوء فما يمسني ضر، ولا أنهزم في حرب، ولا أغلب في أمر، إنما أنا كسائر البشر أغالب أهل الشر وأنازعهم، وأنال منهم، وربما ينالون مني.

وإنما ما اختصت به هو الرسالة وحدها، وأن الله يكلفني؛ ولذا قال: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي أنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها، ولا يعدوها، فهو نذير للكافرين، بشير للمؤمنين ﴿إِنْ﴾ في الآية نافية، فهي نافية إلا ما ثبت بعد الاستثناء، إلا وهو الرسالة من الله ينذر بها الكافر، ويبشر بها المؤمن.

وإنما يتفجع بالبلاغ المحمدي بالإنذار والتبشير - المؤمنون، فهم الذين يخافون عذابه إن أنذروا، ويجيبون نداه ويستبشرون برحمته إن أطاعوا، والله سبحانه هو الهادي إلى سواء السبيل.

النفس الإنسانية

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا
اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى
اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾

بين الله تعالى أن الفطرة الإنسانية تتجه إلى الإيمان بالله تعالى، وأنها شهادة النفس الإنسانية، وأنها العهد الذي أخذه الله تعالى على الناس وهم في ظهور آبائهم، وقد بين كيف انحرفت، وتوالت هذه الانحرافات، وصارت الخلائف تتجه إليها في ذرياتهم، وكأنها حيلة وليست كذلك. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أى أن الناس جميعاً يرجعون إلى نفس واحدة فى جنس واحد؛ ولذلك كانوا متجانسين ملتقين فى طبيعة واحدة مهما تختلف أجناسهم أو تتباين شعوبهم وقبائلهم، فهم من جنس

واحد، أو نقول النفس الواحدة هي نفس آدم وجعل الله تعالى زوجها من جنسها أو منها ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾، ليأنس روح كل منهما بصاحبه والمؤدى فى التخريجين واحد، وهو التجانس التام بين النفسين، النفس التى انبعثت منها زوجها والزوج المنبعث. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾ توضح التجانس، سواء أذكر ابتداء، أم كان ذكر بانتهاء القول، أى سواء أفسرنا النفس بالوحدة الجنسية، أم فسرنا النفس بآدم وحواء.

وقوله: ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾ أى ليستأنس ويطمئن، ويمتزج روحاهما، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (٢٦) [الروم].

ويلاحظ هنا من الناحية البيانية أنه - سبحانه وتعالى - ذكر النفس فى السياق بالسياق مرة بأنها مؤنثة الضمير عليها مؤنثة فقال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فلما بين الله - سبحانه وتعالى - ثمرة ذلك التجانس، وهو التلاقح بين الذكر والأنثى ليقى الوجود، وليكون ذلك التجانس منتجاً أقصى غايته، قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ بين حينئذ الذكر والأنثى، وأن الذى تغشى عند اللقاء المنتج بينهما هو الذكر، وأن التى تُغشى هي الأنثى، وبذلك تكون الثمرة الإنسانية هي نتيجة ما بينهما؛ ولذا عاد الضمير مذكراً، فتغشى معناها: كان بينهما ما أوجبه الفطرة.

ولقد ذكر - سبحانه وتعالى - مراتب الشعور بالحمل الذى يكون نتيجة لذلك التغشى فذكر مراتب ثلاثة:

المرتبة الأولى - مرتبة الحمل فى أوله، وهى مرتبة تردد وتعرف، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾، أى سهلاً محتملاً، ولم يمنعها من عمل، وكان من صفات هذه المرحلة أنها لم تعقها عن عمل، ولم تمنعها من أداء واجباتها المنزلية؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، أى كانت تنتقل به، ف«الباء»

بمعنى «مع»، أى أنها كانت مع هذا الحمل الخفيف تروح وتغدو وتقلب فى أمور بيتها وفى شئونها.

المرتبة الثانية - هى أن يثقل حملها، وتشغل به، ولا تفكر هى وزوجها إلا فيه، وفى هذه الحال يشركها زوجها فى شعورها، ورجائها ويضرع هو وهى إلى الله تعالى أن يجعله ذرية صالحة؛ ولذا قال تعالى فى هذه المرحلة: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أى صارت تحمل حملا ثقيلا، ونسب الإثقال إليها دون الجنين، مع أنه هو الذى أثقل؛ للإشارة إلى أن الأنس بالجنين، والفرحة به والرغبة فى استقباله تنسيها ثقله، فليس ثقيلا على نفسها، وإن أثقل جسمها.

وفى هذه المرحلة كما أشرنا يشترك الزوج والزوجة فى شعور واحد وهو الدعاء له بالسلامة. وهنا لا يذكر إلا هو؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دُعُوا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يشتركان فى الدعاء؛ لأنه يلتقى شعورهما، شعور الأبوة، وشعور الأمومة، ولا تفكير إلا فى سلامته من الآفات، ومعنى صالحا، أى أن يولد قويا مستقيما فى تكوينه سويا فى خلقه، ليس به آفة من آفات الخلق والتكوين. يدعون ربهما مقسمين بالله: لئن آتيتنا مولودا قويا سويا لنكونن من الشاكرين. والشكر هو شكر النعمة بالقيام بحققها، وعدم الكفر بها.

المرتبة الثالثة - أن يفصل عنها، ويلقى عنها ثقلها، ويكون حق الوفاء بعهدهما قد جاء ميقاته، ويلاحظ أنهما عندما ضرعا إلى الله تعالى؛ عبر عن ذلك بـ ﴿رَبَّهُمَا﴾ - لأنه الخالق المربى المدبر، وهو الذى يلجأ إليه سبحانه.

ولكن هل وفيا بحق العهد واليمين:

يجيب الله تعالى عن ذلك بقوله عز من قائل: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾.

من شأن المشركين أنهم فى الشدائد يرجعون إلى الله تعالى خائفين طامعين، يرجونه خوفا وطمعا، وإن هؤلاء عندما أثقل الحمل اعتراهم شعوران: أحدهما

الخوف من أن يضر ذلك بالأم، والطمع في أن يكون منهما ولد سوى الخلق والتكوين يفرح به ويسر، ولا ملجأ يلجأ إليه إلا الله، ولا مأمّن إلا عنده، فلما ذهب الخوف، وتحقق الطمع تركا الضراعة وراءهم ظهرياً، وبدت سوءات الشرك في نفوسهم، وسيطر الجحود عليهم، والكفر والبهتان حكما أمورهما، وقد صور الله تعالى هذا المعنى السامى بقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ كان يقرآن بأنه المعطى وحده، فلما أعطاهما ولدا سليم الجسم سوى البنية جعلتم ثمة شريكا في خلقه وتكوينه، فزعمتم أن ما تدعون من دونه له دخل في تكوينه وخلقته فزعمتموهم بأوهامكم أنهم شركاء لله في الخلق والتكوين.

وهكذا نفس من يضل عن سبيل الله، ويسير في طريق الغواية، وتستولى عليه الوسوس، إذا كان في شديدة يستولى عليه الخوف والذعر فيستقيم تفكيره، فإن اطمأن وذهب عنه الخوف لا يهتدى بل يضل.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أى تسامى قدر الله تعالى، وتعالى علوه عما يشركون. «ما» هنا إما مصدرية، والمعنى تعالى قدره عن إشراكهم، وطغيان الأوهام على نفوسهم، أو «ما» موصولة بمعنى «الذى»، ويكون المعنى: تعالى الله بذاته العلية الذى لا يماثله شىء فى الأرض ولا فى السماء أن يكون له مماثل من هذه الأوثان التى لا تضر ولا تنفع.

وإن هذه قصة تصور حال الإنسان فى أمور ثلاثة:

أولا - أنه وزوجه من جنس واحد مؤتلف متجانس فكلاهما متم لصاحبه، وكلاهما من خلق واحد، وتكوين واحد، وخلقاً متقابلين متكاملين.

وثانيا - تصور أنه حال الخوف والطمع لا يلجأ إلا إلى الله، فهو الذى يشبع حاجته، وهو الذى يرجى وحده فى الشدة.

وثالثا - فى أنه إذا ذهب الخوف غلبته الأوهام، وسيطرت عليه.

يقول القفال في هذه القصة: لما آتاهما ولدا صالحا سويا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبايعين كما هو قول الطبايعين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، وذلك الأخير أكثر ما كان عند العرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾.

إن مقياس الألوهية هو الخلق والتكوين، فإن كان الله هو الخالق المكوّن فهو المالك لما خلق وكون، وهو وحده المستحق للعبادة، سبحانه وتعالى، والله تعالى مالك السموات والأرض وخالقهما، وخالق الإنسان فكيف يعبد غيره؟! ولذا قال تعالى مستكرا ما عليه الضالون: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١)، الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع بمعنى التوبيخ، أى أشركون بالله فى العبادة ما لا يخلق شيئا وهو ذاته مخلوق، وننبه هنا إلى ثلاثة أمور:

أولها - أنه هنا ذكر شركهم ولم يذكر من يشاركونه، وهو الله، تساميا لاسم الله تعالى عن أن يذكر مقارنا بالأوثان.

ثانيها - أنه - سبحانه وتعالى - ذكر أنهم لا يخلقون. والله خالق كل شيء وهم مخلوقون. والله خالق وليس بمخلوق.

ثالثها - أنها لا تضر ولا تنفع ولا ينصرون أحدا، ولا ينصرون أنفسهم، والله تعالى غالب على كل شيء ينفع ويضر وينصر من ينصره، إنهم لو كانت لهم عقول ما أشركوا مع الله أحدا أو شيئا من هذه الأوثان أو غيرها.

وكل مقدمات هذه الفارقات ثابتة بالبداهة لله جلّت قدرته، والأوثان ثابت كل ما سلب عنهم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

وقد كان إبراهيم - عليه السلام - يقول لأبيه: ﴿... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢)﴾ [مريم]، وجاء إبراهيم وكسر الأوثان جذاذا إلا كبيرا لهم فلم يستطيعوا نصرا، قال تعالى في ذلك: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾ [الأنبياء].

﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾، أى إن هذه الأصنام فوق أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تنصر أحدا، ولا ينصرون أنفسهم إذا رامها عدوها سوء لا تحيب نداء، ولا ترد دعاء، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وهذا لا يخلو من تهكم؛ لأن الأحجار لا تعقل ولا تدرك، فلا يتصور منها ضلال أو هداية، إنما ذلك لصاحب العقل الذى يرشد أو يضل، وأصل العقل ليس قائما فيهم.

وإنه سواء عليكم أقلتُم أم لم تقولوا فهم لا يسمعون قولاً، ولا يردون قولاً، ولذا قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾.

أى أنه يستوى دعوتهم بالستكم أم صمتكم عنهم، وعبر فى الجملة الأولى بالفعل الماضى ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾؛ وعبر عن المعادلة الثانية بالجملة الاسمية ﴿أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾؛ لأن الأصل هو الصمت، ولأن الصمت أولى؛ لأنه هو الجدير بالأخذ فى هذا المقام، إذ القول لغو، وصون اللسان عن اللغو أولى، ولأن الأوثان غير جديرة لأنها أحجار، والخطاب شأن العقول.

ساق كتاب السير والصحاح أنه روى أن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ ابن جبل - رضى الله عنهما - وكانا شابيين قد أسلما لما قدم رسول الله المدينة، فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ليعتبر قومهما بذلك، ولم يؤثروا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيدا فى قومه - صنم يعبد، ويطيبه، فكانا يجيئان فى الليل، فينكسانه على رأسه ويلطخان

بالعذرة فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنعا به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: انتصر، ثم يعود لمثل ما صنعوا، ويعود لمثل صنيعه أيضاً حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مُسْتَدَنَّ

لم تك والكلب جميعاً فى قَرْن

هذه صورة من صور الوثنية.

ولقد أدرك عمرو بن الجموح الدين الحق فأسلم وحسن إسلامه واستشهد يوم أحد.

تدرج الله تعالى مستكراً لعبادتهم من أدنى حال متصورة لهم إلى أعلاها، فذكر أنها أحجار لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع لأحد نصراً ولا تنصر نفسها، ثم صور لهم أنها تنادى فلا تجيب لأنها لا حياة فيها، إنما يجيب النداء للأحياء ولو كانت تنعق، ثم تدرج إلى تصور أنها من الأحياء، فإنها لا تستجيب للدعاء، فقال تعالت كلماته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٤).

الخطاب للمشركين من أول الحديث في عبادتهم الأوثان، والله - سبحانه وتعالى - يتدرج في تصويره لما يعبدون من أحجار لا تنفع ولا تضر ولا تسمع، وليس فيها حياة إلى فرض أن فيها حياة، وفي هذا الفرض البعيد لا يعلمون عليكم معشر المشركين، بل يנהدون إلى أن يكونوا عباداً مثلكم والمعبود يجب أن يكون أعلى منكم لتسجدوا له، فكيف تعبدون مثلكم، ولماذا تختارونه للعبادة وهو على أكثر تقدير له - مثلكم؟!.

والحق أنه دونكم لأنه أصم لا يسمع، أبكم لا يتكلم، قد محيت منه آية الإبصار فلا يرى. ولقد تحداهم أن يدعوهم، فإن استجابوا كان لكم أن تدعوا ما تدعون زورا وربما تعدون في العقول؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم الألوهية. والأمر للتحدي أو للتعجيز لا للطلب ولا الإباحة.

وهنا ملاحظات بيانية:

الأولى - أنه سبحانه وتعالى قال عن الأحجار: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وكيف يقال إنها عباد، وكيف يقال: إنها مثل المشركين، وكيف يتحدث عنها كأنها جمع مذكر سالم؟. والجواب عن هذا أن الواضح هو بيان مثليتها في أنها مخلوقة مثلهم، وعلى الأقل هى متماثلة مع المشركين في أنها خلق لله لا تُعبد كما لا يعبدون، فكيف يعبدونها، وهذا القدر كاف لاستكار عبادتها، وتسميتها عبادا من حيث إنها خاضعة لله، فله يسجد طوعا أو كرها كل ما في السماء والأرض من أجرام.

والبعض يزعم أن للجماد روحا ﴿... وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾ (٧٤) [البقرة]. وعود الضمير عليها كضمير جمع العقل مجازاة لهم في تفكيرهم، إذ جعلوها من العقلاء فعبدوها.

الثانية - لام الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ما موضعها من القول؟ نقول: إن موضعها أنها لام الأمر؛ يطلب إليهم رب العزة أن يأمرهم ليستجيبوا، أى أن الأمر بالاستجابة ليس من الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يطلب الاستجابة ممن لا يجيب، بل الأمر يكون من غيره ممن يعبدها وليكون التعجيز والتحدى كاملا.

وبهذا التخريج يكون طلب الاستجابة من المشركين لا من الله تعالى.

الثالثة - أن سياق القول يدل على أن الاستجابة غير ممكنة؛ ولذا كانوا غير صادقين، وبذلك ينتهى التحدى بالتعجيز والعجز، فعجزوا أن يثبتوا صدقهم. ولقد بين الله من بعد ذلك أنها أدنى خلقا ممن يعبدونها فقال تعالى:

أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿١١٥﴾
إِنَّ وَلِىَّ اللَّهِ الَّذِى نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
وَتَرَنَّهُمْ يُنْظِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١١٨﴾

إن الآية السابقة، ذكرت أنهم عباد أمثالهم، وقد خرجنا معناها على ذلك، ويكون قوله: ﴿أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ وتكون الآية هنا تنزيلا لهم عن مقام المائلة إلى ما دونها، فأنتم لكم أجسام مصورة؛ لكم أرجل تمشون بها، وأيد تبطشون بها ولكم آذان .

وأنسينا عند الكلام فى معانى الآية السابقة أن نذكر قراءة (إن) بالتخفيف بمعنى النفى، ويكون المعنى: «ليس الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم» فتكون لنفى المائلة بينهم، بل إن المشركين فى الخلق والتكوين أكمل وأعلى فكيف يعبد الأعلى من هو أدنى منه مقاما، وأقرب منه إلى الإكرام. ويكون قوله تعالى: ﴿أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ الآية بيانا لهذه الأفضلية، ومنع المائلة. وأن قوله تعالى: ﴿أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

آذَانَ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿ لاَ اسْتَفْهَامَ كُلَّهُ لِلإِنكَارِ بِمَعْنَى نَفَى الْوُقُوعِ ، أَيْ لَيْسَتْ لَهُمْ أَرْجُلٌ ، وَلَا أَيْدٍ ، وَلَا آذَانٌ . وَجَاءَ النَّفْيُ بِصِيغَةِ الاسْتَفْهَامِ لِتَأْكِيدِهِ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى الْإِلْتِفَاتِ لَهُمْ ، ثُمَّ الْحُكْمُ يَنْفَى هَذِهِ الْجَوَارِحَ عَنْهُمْ ، وَمِنْ عِنْدِهِ هَذِهِ الْجَوَارِحُ أَكْمَلُ بَلَا رَيْبٍ فِي الْخَلْقِ وَالتَّكُونِ وَالْآخِرُ أَدْنَى مِنْهُ .

وقد ذكر المشى بالنسبة للرجل ، والبطش بالنسبة لليد ، والسمع بالنسبة للأذن مع أنه إذا انتفى وجود الرجل انتفى المشى لا محالة ، وكذا السمع واليد ، فلماذا ذكرت هذه الصفات مع أن نفى الأصل ينفيها ، ذكرت للدلالة على قوة العابدين لهم ، وضعف هذه المعبودات ، فكيف يعبد القوى الضعيف ، وكيف يعبد القادر غير القادر ، وكيف يعبد من أوتى الحركة الجماد الذي لا يتحرك ، ولا يستطيع أن يدفع الباطش به أن يبطش .

ومع هذا الضعف الدال على الزاوية بمن يعبدونها ، كانوا يخوفون النبي ﷺ منهم ، كما خوف من قبل قوم نوح وعاد وثمود أنبياءهم . فقد قال تعالى عن هود إذ هددوا عاد : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود] .

كانوا يخوفون النبي ﷺ منها ، كما كانوا هم يخافون ، ولقد تحذاهم الله تعالى أن ينزلوا هم وأوثانهم بالنبي ما يخوفون فيكون ذلك بيان لعجزهم ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴾ .

إن كنتم تخافونهم ، وتخوفون محمدا فقل يا محمد : ادعوا شركاءكم ، أى من جعلتموهم شركاء لله ، فالإضافة لأدنى ملابسة ، أى الشركاء الذى هم شركاء فى زعمكم أى هم شركاء فى زعمكم أنتم ﴿ ثُمَّ كِيدُوا ﴾ ، أى دبوا لى وأعلنوا الحرب ، وقد يطلق الكيد ويراد به الحرب . تقول كتب السيرة فى بعض سرايا النبي

﴿عَادُوا وَلَمْ يَلْقُوا كِيدًا﴾^(١)، أى حرباً. والمعنى أعلنوها حرباً مدبرة ﴿فَلَا تُنْظَرُونَ﴾، أى لا تؤجلونى لحظة من زمان، هذا تحد أمر الله تعالى به نبيه، وبيان لضعف ما يعبدون - وإنما هى الأوهام، ووساوس الشيطان هى التى تفرض فيهم قوة، وما هم بشيء فضلاً عن أن يخوف عاقل مدرك بهم.

ولئن كانت لهذه الأصنام قوة، أو لكم أنتم معشر العابدين لها - قوة، فقوتكم من الشيطان وهو وليكم والله ولى المؤمنين، وأين أولياء الشيطان من أولياء الله؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦).

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ﴾ الولى هو الحبيب الموالى، والنصير، والمظل بالرعاية، وكل هذا يتضمنه ولاية الله لنبيه فهو حسيبه وناصره، ومن يعيش فى ظله، ومن يفيض عليه برحمته وهديته، ومن يكون الله تعالى وليه لا يضار، ومن يرومه رد عليه. وقد أكد النبى ﷺ ولايته لله بالجملة الاسمية، و«إن» المؤكدة. والكلام يفيد القصر، أى إن ولايتى لله تعالى وحده، لا ولاية لأحد سواه، هنالك الولاية لله الحق، وإنه نعم المولى ونعم النصير.

وقد ذكر بعد ذلك أن الله تعالى هو منزل القرآن، وهو جدير بأن يحفظه كما وعد، وكما ذكر، وأن يؤيد من بلغه رحمة للعالمين، فقال تعالى: ﴿الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ﴾ وصلة الموصول علة فى الحكم أو مؤكد لمعنى القول، أى أن الله تعالى ناصر محمداً ﷺ؛ لأنه صاحب الولاية المطلقة؛ ولأنه رسوله، وصاحب الكتاب المبين الذى يمارى فيه الضالون، فالله ناصره.

وأمر ثالث يوجب عون الله تعالى، ونصرته، وهو أن الله تعالى من شأنه أن يتولى الصالحين، أى يتعهدهم برعايته وتأييده وتوقيفه، ولا يتولى المفسدين.

وفى هذا الكلام إشارتان بيانيتان :

إحداهما - الحكم على النبى ﷺ بأنه من الصالحين الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون، وأن عبدة الأوثان مفسدون، قد أفسدوا فى تفكيرهم وفى اعتقادهم، وأفسدوا وأضلوا باتباعهم الأوهام، وعبادتهم من لا ينفع ولا يضر.

والثانية - أن الله تعالى ناصر الصالح على الفاسد، ويتولى الصالحين برعايته، وأنه - سبحانه وتعالى - لن يضيعهم أبداً، وأن النصر فى النهاية للفضيلة لا للرديلة، وللحق لا للباطل، وهو يتولى عبادة المخلصين دائماً.

وإذا كان الله ناصر المؤمنين، فالشيطان ولى الكافرين؛ ولذا قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ الخطاب للمشركين، وقد ذكر معناه آنفاً، وكرر القول فيه لبيان الحق الذى ينكرونه، ولتثبيت القول فى نفوسهم، ليخرج منها الوهم، فإن القول إذا قيل فتح خطأ فى النفس، فإذا تكرر عمقه، ولا يزال يتعمق حتى يستكن فيها، فإذا كتب الله تعالى له الهداية استرشد، وعلم أنها أوهام، وإن لم يهتد فمآله الضلال. إن الأوثان لا تضر ولا تنفع فلا تستطيع نفعاً، ولا تنصر نفسها. ثم قال الله تعالى: ﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ وأصحابه، والمتحدث عنهم المشركون فإنهم مع هذه البراهين ومع هذه الأدلة الحسية التى تفيد أنها لا تضر ولا تنفع، وأنها دون من يعبدوها حساً ومشاهدة، وأنهم لا ينصرون أحداً ولا ينصرون أنفسهم، مع كل هذا عاكفون على أصنامهم يعبدونها، وإذا سمعوا دعوة الحق أعرضوا عنها، ولذا قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ أى لا يسمعون سماع وعى وإدراك وتأمل، بل هم معرضون، وشبهت حالهم فى عدم تدبر القول، وتعرف ما فيه بعدم السماع، باعتبار أن سماعهم الحسى لا جدوى فيه، إذ لا يتدبرون، بل على

قلوبهم أقفالها، وصور - سبحانه وتعالى - حالهم فقال عز من قائل: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أى أنهم بعد أن يستمعوا إلى الهدى مشدوهين متحيرين، يأخذهم نور الحق حيث يفكرون ويتدبرون ولكن لا يلبثون أن يغلبهم التقليد وزيف الباطل، فيترددون وتصيهم حيرة بين ماضى ألفوه، وحق بزغ نوره فغلب ضياؤه فعميت أعينهم عن أن ترى .

وقد صور الله - سبحانه وتعالى - بهذه الجملة السامية ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أى تراهم ينظرون إليك، وما تدلى به من بينات باهرة، وأمارات للحق ظاهرة، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أى إبصار تأمل وتدبر فى آياته، فهم المبصرون الذى لا يرون، والناظرون الذين لا يعرفون ما ينظرون إليه، فهم فى حيرة أدت إلى ضلالهم.

وهذا استعارة تمثيلية، فقد شبهت حالهم التى يلوح لهم فيها الحق ولا يعرفونه، ويبرق لهم النور ولا يعرفونه، بحال الذين ينظرون ولا يبصرون، لأنها رؤية لا ترى الحق ولا تضع أيديهم عليه، فهم فى ضلال مبين، والله - سبحانه وتعالى - يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الدعوة إلى الله

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ

بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٣٣﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٣٤﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا أَلَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا

قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُكُمْ مَا يُوْحِي إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾

بعد أن بين الله - سبحانه وتعالى - أن البراهين العقلية لا تجدى معهم، وأن الأدلة الحسية لا ترشدكم، وأنهم فى الغنى يعمهون فيه - أمر الله تعالى نبيه أن يستمر فى دعوة الحق فى رفق، وحكمة، وأن يبين مكارم الشريعة فى ذاتها، فإنها بما فيها من صلاح ودفع فساد، وهداية داعية لنفسها من غير برهان ولا دليل، مع التأليف^(١)، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... (٢٢٥)﴾ [النحل]، وكما قال ﷺ: «تألفوا النفوس»^(٢). والآيات الكريمة تبين:

أولاً - جماع مكارم الاخلاق فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾.

وثانياً - تبين علاج النفس إذا عراها نزغ الشيطان وفساده بالغضب أو الجهل والحمق، وهو الاستعاذة من الشيطان الرجيم، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾.

فالالتجاء إلى الله فى أزمات النفس فيه النجاة، كالاتجاء إليه سبحانه فى الكروب.

وثالثاً - أن ذكر الله تعالى يبصر القلب بعماء إذا ضل، وما ضل الذين ضلوا إلا بتركهم لذكر الله، وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾.

(١) أى مع تأليف القلوب بالمال والخلق الحسن.

(٢) انظر كنز العمال: ج ٤، ص ٤٩ (١٠١٥٨).

ورابعا - وتبين أن عدوى الشر تحيىء من إخوان السوء، وهم الذى يمدون فى الغي ويجعلون الضال يسير شاردًا عن هداة. وقد بين - سبحانه وتعالى - ذلك بقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠١)﴾.

وخامسا - أن ضلال الضالين إنما يكون بإغوائهم بطلب آيات يريدونها ويريدون أن يجتبيها لهم، ومصادق هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٢)﴾.

هذه آيات بينات وهى تكشف معانيها من غير تبين مبين، ولا تفسير مفسر، فهى كتاب مبين واضح، ولكن ما نذكر من بيان ليس تفسيراً، إنما ذكر لنسق القرآن الحكيم، وضرب فى ناحية من إعجازه الذى لا تتناول إليه الأعناق، فهى تنهد إليه وتتسامى ولا تسمو، وتحاول ولا تصل.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾.

العفو هو الزائد الميسر الذى يسهل أخذه، ويسهل إعطاؤه، ويسهل القيام به، فالنص داع لمن يعطى بأن يعطى السهل الذى يمكن المداومة عليه من غير ضيق وتبرم، كما قال تعالى: ﴿... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ... (٢١٩)﴾ [البقرة]، ويقبل من الناس القليل، ولا يكلفهم ما لا يطيقون من قول أو عمل، ويفعل اليسير من العبادات الذى يمكن المداومة عليه، ولقد كان النبى ﷺ يقول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(١). وكان يقول ﷺ: «إن الله يحب الديمة من الأعمال»^(٢). وإن العفو السهل اليسير يسهل المداومة عليه، والاستمرار فى عمله، واقبل من الناس ما يسهل عليهم ولا تكلفهم شططا، واجعل العفو دائما شعارك، لا تشتت فى الطلب، ولا تعاسر الناس بل خذهم برفق؛ فإنك إن فعلت كسبت خيرهم، واجتنبت شرهم، وكنت أليفا مألوفاً.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

هذا هو الأمر الأول، أما الثانى فهو قوله تعالى لنبيه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، أى أمر بالأمر الحسن فى ذاته الذى تألفه العقول، ويألفه الناس، ويدركونه، وإن هذا يجمع كل ما أمرت به الشرائع الإلهية فى معاملات الناس، وفى اجتماعهم، ولقد روينا فى عدة مناسبات قول الأعرابى الذى سئل لماذا آمنت بمحمد فقال: ما رأيت محمدا يقول فى أمر افعل، والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل، والعقل يقول افعل.

وإن هذا النص الكريم يدل قطعاً على أن كل ما أمر به النبى ﷺ وجاء به القرآن أمر متفق مع ما تأتى به العقول، وما أمر به هو حسن فى ذاته، وما نهى عنه قبيح فى ذاته، وقال بعض العلماء: إن ما كان حسناً فى ذاته فهو من أمر الله، وما كان قبيحاً فى العقل فقد نهى الله عنه.

وقد أسرف ناس على أنفسهم وعلى الله فظنوا أن ما يستحسنونه أو يقبحونه فلهم أن يمنعه، وإن أباحه الله، ولهم أن يوجبوه، وإن منعه الله: ﴿... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾ [الكهف].

وقوله فى الأمر الثالث: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أى أهل الحمق والجهل، الذين لا يهتدون بهدى، ولا يسمعون مرشداً، بل يعملون على إيذاء الداعى، ويستهزئون بالمرشد، وهؤلاء ليس لهم إلا أن يعرضوا عن هؤلاء، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ٥٥﴾ [القصص]، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ٦٢﴾ [الفرقان].

ولما نزلت هذه الآية قال جبريل للنبي ﷺ: «إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك»^(١).

(١) رواه الحاكم فى المستدرک ج: ٢، ص ٥٦٣ برقم (٣٩٦٢).

وفى الحق إن هذه الآية جمعت محاسن الأخلاق وبينت محاسن الشريعة، وحكمت بين الناس ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

التزغ الإفساد، ومن ذلك قول الله تعالى على لسان يوسف - عليه السلام - مخاطبا أبويه: ﴿... وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ...﴾ (١٠٠) [يوسف]، ويظهر لى من استعمال القرآن الكريم أن التزغ يكون إفساد ما بين من يجب الارتباط بهم بالمودة، وإسناد التزغ إلى الشيطان؛ لأنه يكون من وساوسه التى تكبر السيئات وتصغر الحسنات.

وقد قالوا: إن التزغ والنزغ والهمز والوسوسة بمعنى واحد، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) [المؤمنون].

وإن العلاج من نزغات الشيطان هو الاتجاه إلى الله تعالى أن ينزع من النفس أضعافها، وهمزات الشيطان فيها ليرتاح نفسيا، وليكون خيرا للناس، ويفتح قلبه لهم، وينبسط بالسرور للقائهم. ومعنى استعذ بالله، أى اجعل الله تعالى معاذك وملجأك، فإن الالتجاء إليه مطمأن النفوس، ومكان استقرارها، ومن علا إلى ملكوت الله تعالى أحس بعلو عن الضغن وحسك الصدر، وأحس بأنه ربانى لا ينزل إلى موضع التحاسد والتباغض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ فيه «إن» مدغمة فى «ما» الدالة على تأكيد ما بعدها. والمعنى إن ينزغنك بشدة وقوة نزغ مصدره الشيطان، فاستعذ بالله، ولأن ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ فيها تأكيد ألحقت به تون التوكيد الثقيلة، وكانت فى معنى القسم، وقوله: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ بتقديم الجار والمجرور يكون تأكيد أن التزغ من الشيطان وحده، فلا يكون إلا منه، وفى ذلك حض على مقاومته، والاستعانة على مقاومته، بكل ما يدفع شره، وفى ذكر أنه من الشيطان وحده بيان أنه شر مفسد ما بين الناس دائما.

وإذا كان الشيطان ينزغ دائماً، فالمعاذ به هو الله، وهو وحده القادر على دفع الشر؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أى هو وحده السميع العليم، وذلك يزكى معنى الالتجاء إليه - سبحانه وتعالى - وحده فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تخفى النفوس، وما تظهره الألسنة، وهو سميع أى عليم علم من يسمع ومن يبصر.

ومن كان له الصفات العليا فهو الجدير بأن يلجأ إليه لتطهير النفوس من أدرانها.

وهذا النص كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٢٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٢١) نَزْلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٢٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٢٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٢٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾ [فصلت].

ولقد قال رسول الله ﷺ: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعون منكم بسط الوجه وحسن الخلق»^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠)﴾:

إن المؤمنين الصادقين فى إيمانهم لا تتمكن منهم نوازع الشيطان فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ ومعنى ﴿اتَّقَوْا﴾ جعلوا وقاية لأنفسهم من خوف الله والحرص على طاعته، بسبب ذلك ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾، أى إذا أصابهم إصابة تمس إحساسهم ومشاعرهم ﴿طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٤٣٢) ج ١، ص ٢١٢، ورواه أبو يعلى والبزار، وزاد: «وَحَسَنُ الْخُلُقِ». وانظر:

مجمع الزوائد (٢٧٦٢١).

وفى قراءة (طيف من الشيطان) أى غضب، أو خيال يمس الوجدان من الشيطان بأن همز الشيطان فى نفوسهم فسرعان ما يستيقظ وجدانهم العامر بتقوى الله تعالى فيتذكرون الله ويرجون ثوابه، ويخافون عقابه سبحانه، فإذا غشاوة الشيطان نزول عنهم، ويرجعون إلى ربهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

والتعبير بالموصول يفيد أن الباعث على ذكر الله تعالى، وحضوره فى القلب واستيلائه على الإحساس والشعور بالواجب أنشأته التقوى.

والطيف والطائف معناه الغضب، ومنهم من فسره بإمامة الشيطان، ومنهم من فسرهم بالهم والذنب، ومنهم من فسرهم بالذنب.

وإن الطائف يحتمل كل ذلك، وربما يشملها جميعا، وهى من الشيطان. وقد يكون طائفٌ من الرحمن كما فى قصة أصحاب الجنة التى قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم].

فالطائف يطوف من الشيطان بالغضب أو الذنب، أو الهم بالذنب، أو نحو ذلك.

ومعنى النص الكريم أن الذين اتقوا ربهم إذا هموا بالشر أو أرادوه سرعان ما يرجعون فيتوبون فيقبل الله تعالى منهم. وينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ... (١٧)﴾ [النساء].

وإن أهل التقوى لا يكونون بعيدين من ربهم، بل هم على مقربة منه، قلوبهم عامرة بذكره، فإن أصابتهم غمزة، فغفلوا، فسرعان ما يتنبهون، وسرعان ما يبصرون ويشوبون.

وقال تعالى فى التعبير عن تنبيههم للمعصية عندما تساورهم أسبابها: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ عبر أولا بالمفاجأة للناظر لحالهم، وطائف الشر يطوف بهم، فهو

يفاجأ بقطع السير إلى الرذيلة، والمفاجأة بأنهم يبصرون، والإبصار هنا هو يقظة الضمير وقوة الوجدان وسيطرة النفس على أهوائها، وشبهت هذه الحال بالبصر الدائم المستمر، الحارس على النفس أن تنفعل لداعى الشيطان، وعبر بقوله: ﴿هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ بالتعبير بالجملة الاسمية، للإشارة إلى دوام البصر بالحقائق وإدراكها، وتغلبها على الأهواء والمنار.

هذه هي النفس من داخلها تدفع شرورها وتعالج أسقامها، وإن الذين يجعلونها في معركة مستمرة وهم الذين يقاومون الفطرة، حتى إبصار الضمائر المستيقظة، هم إخوان السوء، وعشراء الشر؛ ولذا قال - سبحانه وتعالى - بعد ذلك: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾.

أشار الله - تعالى - في الآية السابقة إلى ما في المؤمن التقى من حراسة على النفس من أن يتدلى إلى الشر تدلياً، فإذا جاءها طائف تذكروا الله وعظمته، وآياته الباهرة، فيدركون بفطرتهم كما يدرك المبصر بنصره، فلا يتردى في معصية، ولا يصل إلى أقصاها.

ولكن لا يكون العيب من ذات نفوسهم، بل يكون من إخوان السوء الذين يزينون له سوء الأفعال فيحسبها حسنة، ويكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً، فأولئك هم الذين يقاومون فطرة المؤمن ويحاولون طمس النور فيها، ويزيدونها سيرا في الغي إن سارت فيه، فبينما الحق يذكرهم، إخوان السوء يمدونهم في الغي، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾.

الإخوان هم الذين يرتبطون معهم بصلة نسب، أو صلة مودة أو صلة جوار أو يتصلون بهم بأى صلة إنسانية ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، أى يسرون يمدونهم بكل أسباب الطغيان والعتو. ويقال مده في عمله وزينه له وحسنه، ولذا كانت قراءة الأكثرين بفتح الياء وضم الميم، ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ والمد التزيين والتحسين والتشجيع، والغي هو الضلال والفساد، وكل ما يؤدي إلى الوقوع في مراتع الهوى.

وإنه توجد موازنة حكيمة، بين نفس متقية مؤمنة هدايتها من نفسها إذا جاءها الشر أو طائف منه قاومته بذكر الله وبصيرة المؤمن، وبصبر الإيمان.

والنفس الأخرى نفس شقية أغواها سوء، فلما طاف عليها طائف الشر، زيتته وأغرى النفس إخوان سوء وزينوه وحسنوه، فأصرت على طائف الشر بتزيينهم، وتشجيعهم ومدهم، فهم فى طغيانهم يعمهون وأن يستمروا على تحسين الشر، ولا يتهون تحسينهم وتزيينهم. فهم فى غمرة من الشر لا تنتهى، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ أقصر معناها أنهى، و﴿ثُمَّ﴾ هنا للدلالة على تراخى الزمن واستمراره، فهى فى موضعها، والمعنى ثم بعد استمرارهم فى غيهم وضلالهم ﴿لَا يَقْصِرُونَ﴾، أى لا يتهون بل دائمون.

وهكذا الشر يستمر مع مقاومة الفطرة باستمرار دعاة الغى وأنصاره، وكان مدهم وتزيينهم مستمرا يغذى شجرة الشر، كما يغذى الماء القدر النبات الخبيث الذى لا يكون إلا نكدا.

فالشر يتغذى بدعاة الشر، وينمو ويغلظ سوقه بهم، والفساد لا يستشرى فى جماعة ويعمها بالشر إلا بالبيئة الفاسدة وبالرأى العام الفاسد المرذول، فإخوان السوء يمدون بالغى وسواء أكانوا آحادا، أم كانوا جماعات، وكلمة إخوانهم تنطبق عليهم.

وإن من يرد إصلاح جماعة لا يصلح آحادها ابتداء إنما يصلح نية الإخوان الذين يسيطرون على جوها العام أولا، ثم يصلحون الآحاد، فيصلحون بالجملة الأولى.

وإنك إن علوت من رذائل الأفعال إلى فساد العقول، تجد إخوان السوء هم الذين يمدون فى فساد العقول بعبادة الأوثان والكفر بالآيات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أُنِيعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

الشيء الغائب معظم مذكور بالخير في زعم الذين يسرون وراء الأوهام، ولا يحكمون الحقائق في ذاتها، فكل مستور تنوهم فيه الأوهام، وتحاط به، وكذلك كان إخوان السوء يجيئون إلى تضليل الناس من وراء ما يستتر عنهم، فالغيب عن الناس لم تجئ من ورائه إلا الباطل.

بين أيدي الناس معجزة باهرة قاهرة تحدهم النبي ﷺ أن يأتوا بسورة فعجزوا، ثم تحدهم أن يأتوا بسورة مفتراة فعجزوا، ومع ذلك طلبوا هم وإخوان الغي فيهم أن يأتهم بآية غائبة لم تأتهم، فما دامت لم تأتهم فلها قدسية، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾.

أى إن الذى أغراهم بطلبها أنه لم يأت بهذه الآية، ولو سايرهم بمنطق تفكيرهم لتأدى بهم أنه إذا جاءتهم الآية وصارت حاضرة مهياة بين أيديهم طلبوا آية أخرى وقالوا لولا اجتبيتها، وهكذا تتوالى الطلبات عبثاً؛ لأن من لا يؤمن لا يقنعه بشيء.

والأولى الوقوف عند حال معينة فاطمة للنفس، عن متطلباتها، والوقوف عندها. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا بمعنى هلا للحض على الإتيان بآية معينة طلبوها بذاتها، ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾، أى اخترتها، وهى آية حسية، وقد جاءت من قبلهم مثلها فكفروا، وإذا كانت الجملة شرطية فمؤداها أنهم مطالبون بما لم يأتهم آية بعد آية، وما هذا شأن المؤمنين، فالدليل إذا كان مقنعاً، فهو كاف وحده.

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

هذا هو الجواب الذى أمر الله تعالى به نبيه أن يجيبهم على الطلب الذى دفع إليه أوهامهم الباطلة وهو مكون من أجزاء ثلاثة:

الجزء الأول عبر النبي ﷺ بقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ وخلاصته أن الآية يختارها لى ربي لا أبدى عليه، ولا أعين له، وقد قصر الآية

على ما يوحى به الله، وحصره بـ«إنما» أى ليس لى أن أقترح عليه آية لم يأت بها، وبين الدليل على وجوب الطاعة فيما اختار، فهو ربى الذى خلقنى وأرسلنى، وهو أعلم بما يصلح دليلاً لرسالتى وما لا يصلح، وهو وحده الذى يوحى إلى فليس لى أن أقترح عليه، وإن كفرتم بآياته فقد كفرتم به، وفى هذا الجزء برهان صدق الآية التى تحداهم بها.

الجزء الثانى وصف الآيات. فقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة وأصلها من البصر وهى الرؤية والنظر ثم الإدراك والفهم ثم أطلقت على ما يؤدى إلى الإدراك أو هو آئته، فإطلاق البصائر على الآيات من قبيل المجاز؛ لأنها سبب إدراك الحقائق الربانية، والسييل إلى معرفة الله تعالى وقدرته، ورسالاته الإلهية، فهى من قبيل إطلاق اسم السبب، وإرادة المسبب، وهو إِبصار الحقائق الربانية، ومعرفتها.

وإذا كانت هى بصائر آتية من قبل الله تعالى فهو الذى يجتبيها ويختارها، ويريدها، وهى من ربكم الذى خلقكم وبراكم، وهو أعلم بمن خلق ورباً ويراً وهو اللطيف الخبير.

والجزء الثالث قاله تعالى فى وصف هذه الآيات، وهو الذى قاله بقوله تعالى: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

هذان وصفان وصف الله تعالى آياته، وأخصها القرآن، ففيه أمران جليان ذا شأن فى الرسالات الإلهية:

أولهما - فيه هدى يهدى إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، فهو يبين الهدى من الضلالة، والنور من الظلمات بما اشتمل عليه، وبدلالته الذاتية، وبإعجازه، وبأنه يهدى إلى الطيب من القول، ويهدى إلى الصراط الحميد.

وثانيهما - أن فيه الرحمة بما اشتمل عليه من شريعة حكيمة تصلح أمور الناس، وتذهب عنها الفساد، فهي بما شرعت من النظم فى الأسرة، ومعاملات بين الناس، ومنع لأكل أموالهم بينهم بالباطل.

وإن هذه الهداية وتلك الرحمة لقوم من شأنهم الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فوصفهم بالجملة التى يتصدرها الفعل المضارع للدلالة على إيمانهم المستمر، المتجدد أنا بعد آن على وجه الدوام.

وذلك لأن شأن المؤمن أن يتجدد إيمانه، فيقوى بالعمل المستمر والمتجدد، فإن العمل الصالح يجدد الإيمان، فلو كان العمل فهو للإيمان كالماء العذب الفرات يغذى الإيمان كما يغذى الماء الزرع.

قراءة القرآن عبادة، وجزء من أكبر عبادة

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ بِكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

بين الله - سبحانه وتعالى - فى الآية السابقة أن الآية التى تحدى بها العرب أن يأتوا بمثلها هى بصائر مبينة للناس الحقائق الدينية، ومثبتة لصدقها، وهى هدى ورحمة، وهى القرآن، ولا يمكن أن ينتفع بها بعد إعجازها بأن ينتفع بهدايتها ورحمتها إلا إذا قاموا بحققها عند قراءتها بالاستماع إليها، والإنصات لها، وتدبر

ما جاء فيها من تكليف هو رحمة للعالمين، ومواعظ، وعبر وقصص في ذكر الأولين؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤).

القراءة للقرآن عبادة من القارئ؛ لأنه يتلو كلام الله تعالى، وأى منزلة في القريبى إلى الله تعالى أعلى من أن يكون متحدثا بحديث الله فهو يتكلم بكلام خالق الوجود، وتجربى على لسانه عباراته جل وعلا، ويرطب لسانه بأطيب كلام، فهو عبادة؛ ولذلك وجب أن يكون متطهرا من الجنابة ويحسن أن يكون على طهارة كاملة. إن قراءة القرآن سمو إلى المكان الأعلى والمقدس الأقدس لمن تدبر موقفه عند القراءة ومقامه.

والاستماع إلى القراءة عبادة، إذا استشعر بأن الله تعالى يخاطبه بالقرآن من أعلى الملكوت، وهو إن يستمع يناهد إلى مقام رب العزة فيستمع إليه، أكاد أرى أن هذا مقام طهر، لا يستمع إليه من به نجاسة من جنابة وإذا كان الفقهاء لم يصرحوا بهذا فإنى أراه مقتضى مقام الطهر لمستمع أظهر قول فى الاستماع أفتعل من السماع أى طلب سماعه، والإقبال عليه، وتلقيه بقوة وتقبله وتقبل معانيه؛ ولذا قال بعض المفسرين: إن الاستماع هو تدبر المعانى، والاستبصار بها، وإدراك مراميها ومغازيها، فليس المراد مجرد السماع، بل السمع فى تدبر وتفهم وتذكر واعتبار.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ الإنصات معناه السكوت للاستماع والمراعاة، والإصغاء، فمعنى ﴿أَنْصِتُوا﴾، أى هيئوا أنفسكم للاستماع وأعدوها وراعوا ما تسمعون، وكان الإصغاء تقدمه للاستماع، بأن يفرغ النفس له، ويقدم عليه، كأنه مقدم علمى صاحب الكلام، وهو رب العالمين، ألم تر الناس وهم يقدمون على استماع كلام عظيم من عظماء الأرض فى سلطانه، يستعدون وينصتون فكيف بكلام مالك الملك ذى الجلال والإكرام والإنعام.

القرآن قراءته عبادة، والاستماع إليه مع التدبر والتأمل وتعرف أسرارهِ عبادة، وهو جزء من أكبر عبادة (وهي الصلاة)؛ ولذا قال تعالى: ﴿... فَأَقْرَأُوا مَا تَنَسَّرَ مِنْهُ...﴾ (٢٠) [المزمل].

وقال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ نزلت للقراءة في الصلاة.

ونقول: إنها عامة، ولو نزلت في مقام خاص؛ لأن الأصوليين يقولون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولقد قال تعالى في ختام هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أى رجاء أن ترحموا بطلبكم للقرآن، وتدبر آياته والإنصات إليه، والأخذ بتكليفاته، ومواعظه، فهو رحمة، ومنه الرحمة، وهو نور وبرهان.

والرجاء من العباد والله تعالى يعاملهم معاملة من يرجو وهو القادر العليم.

وإذا كان تدبر القرآن والاستماع إليه وتلاوته رحمة، فذكر الله تعالى هو أصل الرحمة، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥).

القرآن هو الذكر الحكيم، وهو الذكر الأكبر، وهو خير أورد المؤمنين؛ ولذلك بعد الأمر بالقراءة والاستماع إليه مع الإنصات رجاء الرحمة أمر - سبحانه وتعالى - بدوام الذكر لله تعالى، بأن يكون الله تعالى حاضرا في نفسه أطراف الليل وآناء النهار لا يغفل عن ذكره - سبحانه وتعالى - وأن يكون حاضرا في قلبه في كل وقت يعمر قلبه، ويملا نفسه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

فالذكر يتبدئ بامتلاء النفس بالله يعمر قلبه دائما، وأن تكون في حال تضرع وتذلل لله تعالى، فالذلة لله تعالى هي عين العزة، والتكبر في حق الله تعالى هو عين الذلة، وإن كان لا يشعر؛ لأن من ذلَّ لله استعلى على الناس بأمر الله تعالى، ومن تعالى على جانب الله استعان بأحط الناس قدرا فكان ذليلا، وسبحان من له العزة والكبرياء في السموات والأرض.

وذكر الله تعالى يكون في حال خوف من عقابه؛ ولذا قال تعالى:
﴿وَحَيْفَةً﴾، أى حال خوف فإن الخوف من الله يطهر النفس، ويجعلها لا
تستحسن ما تقدم، بل تستصغر ما تقدم وتطلب المزيد من الخير فترضى الله تعالى
أو تنال رضوانه، وهو أكبر جزاء، وإن الخوف يوجب استصغار شأن العبيد، ومن
عز عند الله كانت له العزة، ومن عز عند العبيد كانت له الذلة، ومن خاف من
الله لا يخاف الناس.

وإن الذكر لله الأصل فيه القلب، ولكن يكون مع القلب ذكر اللسان،
بحيث لا يسمع إلا نفسه؛ ولذا يقول تعالى في حال الذكر لله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ
الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

وإن الله - سبحانه - حد النطق باللسان فجعله دون الجهر من القول، أى لا
يرفعه جاهرا، ولا يخفضه خافتا ولكن لا بد من ذكر اللسان؛ لأن ذكر اللسان،
يسد منافذ الشيطان، فحركة اللسان المقصودة تضبط النفس نحو ذكر الله تعالى:
ويجعل ذكر النفس ثابتا، وعمرانها بالله قائما لا يُنسى وحد الله تعالى الوقت
فقال: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أى فى غداة اليوم، ﴿وَالْآصَالِ﴾، وهى جمع «أصيل»،
ك«يمين» و«أيمان». إن الذكر يكون وقت الغدو أى وقت الصفاء، والآصال أى
وقت استرواح النفس من عناء عمل الناس، وبعض العلماء يقول: إن تحديد هذين
الوقتتين لدوام الذكر آناء النهار وطرفا من الليل، أى يكون فى ذكر دائم، ويقرب
هذا قراءة «وبالآصال» أى من الغدوة وأصلا الذكر دائما ما دام صاحبا.

وقد يقول قائل: كيف يكون وقت المعاش والقيام بالصناعات؟ نقول: يجب
دوام ذكر الله تعالى وهو فى عمله؛ لأن العمل عبادة والذكر عبادة ولا مانع من أن
يجتمعا، فيكون عاملا عابدا، مجدا ذكر الله، وينطبق على هذا قوله ﷺ: «لا
يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا الله»^(١) فهو يعمل لينفع الناس ويقصد
ذلك، وهذه عبادة؛ لأن النبى ﷺ يقول: «خير الناس أنفعهم للناس»^(٢).

سورة الأنفال

تمهيد

هذه السورة مدنية، وقالوا: إن سبع آيات منها مكية، وعباراتها السامية تنبئ عن أنها مكية، وهى تبدئ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ٢٠﴾ [الأنفال] فإن هذه الآيات السبع مكية، تدل عليها عباراتها وزمانها، ولكن لأنها متصلة بالهجرة أضيفت إلى سورة مدنية.

والأنفال سميت بأولها، وهو ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ١﴾ [الأنفال] فسميت بهذا الاسم، وإن هذه السورة تشتمل على أعمال من أجل ما قام فى الإسلام، ففيها كان يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، وبهذا اللقاء كان الفرق بين عزة الحق وذلة الباطل، وفيها تشريع الأنفال والغنائم، وفيها حكم الأسرى، ومتى يكون الأسر، وفيها إعداد العدة، وفيها الوفاء بالعهد، ومتى ينقض.

وقد ابتدئت السورة بذكر الأنفال، وما يؤخذ من الحرب، وبين الله تعالى أنها فى الأصل لله تعالى ورسوله، ليقوى بها الجيش، ويتخذ منها العدة والأهبة، وكان ذلك إيذاناً بما يجيء بعد ذلك من يوم الفرقان.

ابتدئت السورة بالإشارة إلى ما كان من تساؤل حول الأنفال، ثم تكلمت بعد ذلك عن الاستعداد لالتقاء يوم الفرقان، وكانت أول العدة طاعة الله ورسوله، وامتلاء القلوب بهيبة الله، وبيان أن المؤمنين المجاهدين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، ويتوكلون على ربهم إذا أعدوا العدة، ويقومون الصلاة ويؤتون الزكاة، وإن ذكر الماضى وإرادة تغييره يكون

بالعمل والجهاد، وإنه يجب الصبر على فراق الأحبة، ومنع المجادلة في الحق، قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ .

ثم يملأ الله تعالى قلوب المؤمنين إيماناً وهو من عدة النصر، ﴿وَإِذْ يَدْعُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨﴾ .

وبين من بعد ذلك الالتجاء إلى الله واستغاثته فاستجاب بإمداد الملائكة الروحي الذي جعله الله تعالى بشرى لهم ولتطمئن قلوبهم .

ورزقهم الله الأمان فناموا، والنوم آمين قوة، وأنزل الله تعالى من السماء ماءً ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجس الشيطان، ويوحى رب العالمين إلى الملائكة أن يشبثوا الذين آمنوا فيشبثوهم، وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، وصار المؤمنون على استعداد للقتال يضربون فوق الأعناق، ويضربون منهم كل بنان؛ لأنهم عاندوا الله ورسوله وساقوه فليذوقوا ذلك البأس ومن بعد النار .

ثم يكون التحريض على القتال والثبات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٦﴾ .

وإنه بعد انتهاء المعركة التي كانت يفصل الحق بين قوة الإيمان والكفر، بين الله أن ذلك كان بفضل الله للمؤمنين، وأنه هو الذى رد كيد الكافرين، ووهن تدبيرهم، وأنه سبحانه هو الذى جاء بالفتح وأمر من عنده، وأنه مع إرادة الله تعالى للنصر، لن تغنى عنهم فتنتهم من الله سبحانه، وإن ذلك من طاعة المؤمنين لله وسماعهم لأوامره، وأنهم لا يقولون سمعنا وعصينا .

وقد بين الله بعد ذلك أن شر الدواب الذين آتاهم الله عقولا، فأصموا آذانهم عن الحق وترددوا فى الباطل تردداً، وليعلموا أن الله هو المسيطر على القلوب

به يهتدون، ويتركهم إن ساروا في طريق الغواية فيضلون، ويبين أن الفتن إن جاءت تعم ولا تخصص، وأن أشد الفتن أن يخونوا الله ورسوله ويخونوا أماناتهم، وأن التقوى حصن القلوب، وهى فرقان ما بين الحق والباطل، وبها يفرق بينهما.

ويذكر الله تعالى بعد ذلك ما كان فى آخر إقامتهم بمكة إذ يدبرون لمحمد حبسه أو قتله، أو يخرجوه، ويمكرون، والله سبحانه يدبر له أمر هجرته، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠).

ويذكر بعض ما كان المشركون ينالون بالباطل من القرآن، وما تلج به عداوتهم فيقولون مستهينين بالحق الذى يدعوهم الله تعالى إليه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣١)، وذلك أبلغ التحدى والاستهانة بالحق فبدل أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه، يقولون متحدين ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، ولكن الله تعالى ما كان ليعذبهم والنبي ﷺ فيهم قائم بدعوته.

ثم يفرق الله تعالى بين المؤمنين الذين ينفقون فى سبيل الله والكافرين الذين ينفقون ليصدوا عن سبيله، وأن مآلهم جهنم، ويفتح الله تعالى لهم باب الرجاء والمغفرة إن ينتهوا، وإن نهاية القتال هو انتهاء الفتنة فى الدين ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٢) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعَمْ الْمَوَلَىٰ وَنَعَمْ النَّصِيرُ﴾ (٤٠).

فى هذه السورة من أولها إلى هذه الآية، بيان القتال، وأن النصره فيه بالتأييد من الله العزيز الحكيم والإيمان الصادق المستجلب لهذا التأيد، فهو قوة المسلمين، وضعف المشركين من كفرهم، وأنهم ينفقون ليصدوا عن سبيل الله تعالى.

بعد ذلك يتكلم الله تعالى فى توزيع الغنائم، فيقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١).

ويبين الله مواقع القتال يوم بدر الذى انتهى بالنصر المؤزر، وإذ يربى الله تعالى قوة روح المؤمنين برؤية الأعداء فى المنام قليلاً، ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ...﴾ (٤٣) وإنه فى رؤية العيان تستقلونهم لتتقدموا، ويستقلونكم لأنكم فعلا قلة، وذلك ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا...﴾ (٤٤).

ويدعو الله تعالى إلى الثبات مكررا له؛ لأن الثبات فى الصدمة الأولى هو قوة الصبر كما قال النبى ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» (١).

ويدعو مع الثبات إلى ذكر الله تعالى؛ لأنه عدة الاتقياء، وينهى عن التنازع حتى لا تذهب القوة، ولا يكن خروجكم بطرا بالمعيشة ورجاء الترف أو رثاء الناس فإن هذه هى مفسد الجهاد، ولا يصح أن يزين الشيطان لكم ويركبكم ويقول لكم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ...﴾ (٤٨) وإذ التقى الجمعان قال إنى بريء منكم.

وعندئذ يجد المنافقون سبيلاً إلى جموعكم، ويقولون: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ...﴾ (٤٩)، فاطرحوا الشيطان وغروره، وتوكلوا على الله، وإن الملائكة يضربون وجوه الكافرين وأدبارهم عند موتهم، وقد ضرب الله تعالى الأمثال بآل فرعون إذ أخذهم الله بذنوبهم، وإذ كذبوا، وإن الله تعالى: ﴿لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ (٥٢).

ومن بعد ذلك يعود إلى الجهاد، والوقوف أمام الأشرار وحربهم، والاستعانة بالعهد لمن يقدم عهدا، إن وفوا ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ...﴾ (٥٨) وإنه يجب أن يكون المؤمنون على حذر واستعداد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠) وأنه مع وجوب الاستعداد والإعداد، ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ (٦١).

(١) متفق عليه، من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، وقد سبق تخريجه.

ولا تنس التحريض على القتال، فيجتمع العهد مع الوفاء، والاستعداد للسلم وللحرب معاً، ولا بد مع ذلك من تأليف قلوب المؤمنين، فإنه أقوى أسباب النصر، وإن القوة المعنوية مع اتلاف القلوب تضاهي الألوف ﴿وإن يكن منكم عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ (٦٥).

وإن أدخل فيكم ضعف بوجود المنافقين فيكم، وضعاف الإيمان فإنه ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦).

وقد بين الله بعد ذلك وقت الأسر، وهو بعد الإنحان في الأرض، وعتب الله على نبيه والمؤمنين أن كان لهم أسرى وأخذوا فدية، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾.

هذا إذا أرادوا، وإن يريدوا خيانة الرسول فقد خانوا الله من قبل.

وبعد ذلك بين الله تعالى ولاء المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَصْرَوْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢).

وقد بين سبحانه أن الكافرين بعضهم أولياء بعض، فلا تربطنا بهم ولاية، وإلا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥).

هذه إشارات إلى ما اشتملت عليها سورة الأنفال، ولولا أنها سميت بذلك لقلنا إنها سورة من سور الجهاد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

الأنفال: جمع نفل بفتح الفاء، وهو هنا الغنائم، وسميت أنفالا؛ لأن النفل هو الزيادة، لأنها ليست في مقابل، حتى تكون أجرة للمحارب كالمرتزقة من الجنود في هذا الزمان، وإنما أجر المجاهد عند ربه، وثوابه ورضوانه أعظم، فهي زيادة على ثواب الجهاد، وقد جعلت الغنائم من خواص الرسالة المحمدية.

ويطلق على الغنيمة، وقد يطلق على كل ما يؤخذ من العدو من غير قتال كالفيء، وقد يطلق على ما نفعه النبي ﷺ من خمس الله ورسوله لبعض المؤمنين، ومنه ما كان يعطى للمؤلفة قلوبهم، ومهما يكن ما يعطى من نفل غير ما يكون في الجهاد، فإن الظاهر المراد من الأنفال الغنائم التي غنمت في غزوة، فقد جاءت قریش بخيلها ورجلها، وكثير من مالها، فآل ذلك كله للمؤمنين المتصيرين، فأخذ كل من المجاهدين ما عده حقا له دون غيره، وثبت في الصحاح بعض الاختلاف، إذ لم يكن ثمة منهاج يتبع، ولم يكن لهم بهذه الغنائم في الإسلام مثال يحتذى، فيروى الإمام أحمد في مسنده عن عباد بن الصامت أنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ، فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر، يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ حتى لا يصيب

العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم لبعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن جمعناها وحويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن الذين أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾^(١)، ولقد حاول بعض المجاهدين أن يأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، فيروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: «لما كان يوم بدر قتل أخى عمير، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى الكتيبة، فأتيت به نبي الله ﷺ فقال: اذهب فاطرحه في القبض -وهو المكان الذى تجمع فيه الغنائم- قال فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى، وأخذ سلبى قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ إلى آخر الآية»^(٢).

لم يكن بالمسلمين عهد بالغنائم ولا تقسيمها، فاختلفوا فى ذلك، فأنزل الله تعالى أنها لله تعالى ورسوله يضعانها حيث تكون القسمة العادلة التى تجمع بين العدل والمصلحة، وقد أخذها رسول الله ﷺ وقسمها حيث أراه الله.

وهل قسمها قسمة الغنائم المنصوص عليها فى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ إلى آخر السورة!!

يرجح بعض الرواة أنه لم تكن نزلت آية الغنائم فقسمها النبي ﷺ بين المحاربين بالسوية، ورجح الحافظ ابن كثير أنه قسمها قسمة الغنائم فى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ.....﴾.

(١) مسند أحمد: باقى مسند الأنصار - حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه (٢٢٢٥٦).

(٢) رواه أحمد: مسند العشرة المبشرين - مسند أبى إسحاق سعد بن أبى وقاص (١٥٥٩)، كما رواه مسلم: السير والجهاد (١٧٤٨).

واستأنس لذلك بما روى عن على - كرم الله وجهه - أنه كانت له شارفتان أخذهما من الخمس؛ بمقتضى الآية الكريمة.

ولقد قال الزمخشري: إن من الخلاف في الأنفال، أن المهاجرين طلبوها دون الأنصار؛ لأنها بدل عما اغتصب من أموالهم عند الهجرة، ولكن ذلك لا سند له من الرواية، فلعله قياس قاسه الزمخشري، ولعل عنده رواية ولم يذكر نقلها.

بعد الإجابة عن التساؤل عن الأنفال، وكانت بادرة خلاف، وإن كان قد حسمه الإيمان والجهاد واحتساب النية لله، وأن الأمر آل إلى أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولكن الله تعالى دعا إلى الادراع بالتقوى، حتى يسد منافذ الخلاف ومثار الشيطان فقال آمراً بكل ما يقضى على الخلاف في موطنه، فقال تعالى:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أمرهم سبحانه بأمور أربعة وقاية من النزاع، وإبقاء للمودة:

أولها - التقوى، فإن القلوب إذا امتلأت بالتقوى لم يكن للشيطان منفذ، ولم يكن للخلاف موضع، و(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فاء الإفصاح؛ لأن المعنى إذا كان الأمر في القسمة لله ورسوله، ففرغوا أنفسكم لتقوى الله، ولا تشغلوا أنفسكم بالمال وتقسيمه، فقسمة الله هي العدل والمصلحة معاً، وهي العدل والحق والنظام.

وثانيها - في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وهي الأمر الذي يربطكم، فليس المراد البين نفسه، إنما المراد ذات الرابط، وهو كما قلنا المودة الواصلة، ومعنى إصلاحه رعايته، وتعهد، بأن تكون المودة ملاحظة في كل ما يربطنا، فيكون الإيثار بدل الأثرة، والمحبة الموصولة بدل الحرص المفرق.

الأمر الثالث والرابع - طاعة الله ورسوله بالآلا تجعلوا لأنفسكم إرادة بجوار إرادة الله، وأن تجعلوا الله ملء أسماعكم، وطاعة رسوله هي سنة حياتكم.

وقد بين سبحانه أن ملاحظة هذه الأمور هي نور الإيمان وموجبه، ولا إيمان إلا كانت معه هذه الأمور؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان الإيمان حالة نفسية ملازمة لكم.

وقد قال الزمخشري: «جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته؛ ليعلم أن كمال الإيمان موقف على التوفر عليها». وبعد أن ذكر المؤمنين الكاملين أخذ سبحانه وتعالى يبين صفاتهم فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾.

ذكر الله بعد أن ذكر موجبات الإيمان من إصلاح ذات البين والتقوى والطاعة ذكر سبحانه صفات المؤمنين، فذكر صفتين معيتين، وعملين تدفع إليهما قوة الإيمان.

أول الأمرين الأولين - ذكره الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، الوجل الخوف منه والفرع إليه، فالله سبحانه هو مالك الوجود من استحضر عظمته وجلاله وكبريائه وملكوته خافه وفرع إليه فى الملمات، وركن إليه مطمئنا إلى ساحته العظمى، فهو المخوف المحبوب المرجو فى الملمات؛ ولذا جاءت هذه الآية تقول: إن القلوب توجل لذكره، أى ترهبه وتحس بعظمته، وتعتمد عليه وحده، وتطمئن بالالتجاء إليه، كمن يخاف رجلا عظيما، فيرهب قوته، وفى الوقت ذاته يطمئن إليه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد]، فهو المخوف الذى يركن إليه.

وقال تعالى جامعا بين وجل المؤمن واطمئنانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٢٣) [الزمر].

وثانى الأمرين- ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أى إذا قرئت عليهم الآيات القرآنية زادتهم إيماناً، فكل آية فيها نور مبین، والإيمان استضاءة بالنور، فكلما تعددت مشارق النور عم الضياء وازداد النظر إبصاراً، كذلك آيات الله تعالى، كلما تليت عليهم آية أضاءت القلب وازداد نور الإيمان فازداد إيماناً، فزيادة الإيمان بزيادة الدليل وكثرته، وكل آية تقوى ناحية من نواحي الإيمان، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة].

وهناك مسألة تثار، وهى زيادة الإيمان ونقصه، ونحن ممن يقولون إن الإيمان يزيد بتضافر الأدلة، وكثرة الآيات الموحية، فإنها تقويه وتثبتته، وتزيل الريب والشبهات، وليست زيادة الإيمان إلا قوته ودعمه بالأدلة، وكل آية فى القرآن دليل قائم بذاته.

وهناك أمر ثالث يتعلق بالأمرين السابقين، وهو التوكل؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ التوكل على الله تعالى حق توكله يتحقق بعد اتخاذ الأسباب فى ثلاثة أمور:

أولها- أن يحس بأنه مهما يكمل إعداد أمره فإنه لا ينتج ثمرته إلا بإرادة الله تعالى، فمن يظن أن الأسباب وحدها تنتج الأثر فقد ضل؛ لأنه توهم أنه يؤثر فى الإيجاد، وذلك وهم يفسد العقول.

ثانيها- أنه يفوض أموره لله تعالى وحده.

ثالثها- ألا يعتمد على أحد سواه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فقدم الجار والمجرور على الفعل أى لا يتوكلون على أحد سواه، وبهذا يكون التوكل عبادة من العبادات.

هذه الأحوال النفسية للمؤمن، أما الأمور للعملية المدفوعة بأمور نفسية فهى إقامة الصلاة والإنفاق مما رزق الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

وهاتان صفتان أو عملان لهما مظهر عملي، ولهما مظهر نفسي إيجابي:

أولاهما - إقامة الصلاة؛ أي الإتيان بها مقومة على وجهها من أداء الأركان الحسية مستوفاة، وأن تكون مصورة للمعاني الروحية من خضوع وخشوع، واستحضار لصفات الربوبية بأن يكون قائما بحق الله فيها كأنه يراه، مستشعرا الإحساس بأنه في حضرة الله تعالى جل جلاله، وبذلك تتحقق للصلاة خاصيتها، وهي أنها تجانب المرء من فعل السوء، كما قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ [العنكبوت]، فليست الصلاة نقر كنقر الديكة، ولكنها تجرد لله تعالى، وانصراف، وقضاء وقت في حضرته.

والتعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يفيد المداومة عليها في أوقاتها من غير تخلف؛ لأن التعبير بالمضارع يفيد التجدد المستمر الدائم، والمحافظة عليها من غير انقطاع.

وإن الصلاة فريضة عملية مهذبة تجريدية لله سبحانه وتعالى، وهي فريضة اجتماعية، لتأليف مجتمع متحاب متواد مترابط بصلات من الرحمة والتعاون، يجمعه الإلف الروحي والطهر والإخلاص والالتقاء عند الله تعالى في كل يوم خمس مرات.

ومهما يكن فالأساس في أمر الصلاة أنها تهذيب روحي، وتأليف اجتماعي على الطهر، واجتماع على الألفة والمودة والرحمة. أما الزكاة فهي تعاون اجتماعي، وقد ذكر النبي ﷺ أنها مغنم لا مغرم، لأنها تغني الفقراء، وتدفع الآفات الاجتماعية الناجمة عن الفقر، ولقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي أن الزكاة من رزق الله تعالى، لا من فيها، فالله هو المعطي وهو المنفق وهو الأمر وهو المكلف، فتقديم الجار والمجرور، لبيان الاختصاص أو القصر، أي أن الإنفاق مما أعطاه الله دون غيره، وفيه من الاهتمام بأنه من رزق الله الذي رزقه للأغنياء ليعطوا منه للفقراء، فالمال مال الله، والجميع عباد الله، فهو يأخذ من مال الله ويعطى عباد الله. وإن الله اختبر بعض الناس بالمال وجعلهم مستخلفين، كما

قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ [الحديد] وأمرهم بالعطاء، واختبر بعض الناس بالفقر، وأمرهم بالصبر والعمل واحتمال البلاء.

ولقد حكم الله تعالى للمؤمنين الذين وجلت قلوبهم عند ذكر الله، والذين يزداد إيمانهم إذا تليت آيات الله تعالى، والذين بعد إحكام العمل، لا يتوكلون إلا على الله، حكم الله تعالى لهم بما كتب فقال:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

حكم الله تعالى لهم بأنهم المؤمنون حقا، أى إيماننا حقا صادقا ثابتا، وفى النص الكريم ما يدل على القصر، أى أنهم وحدهم دون غيرهم المقصور عليهم وصف الإيمان، أى لا مؤمن على وجه الكمال غيرهم، وهذه شهادة من الله تعالى بانفرادهم بكمال الإيمان، وكفى بالله شهيدا.

وقد وصفهم الله تعالى بثلاثة أوصاف هى صفات الكمال للمؤمنين:

أولها- أن لهم عند الله درجات، والدرجات لا تذكر إلا للدرجات العليا، ومعنى ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾، أن السبق عند الله، وأنهم علوا على الناس بهذه الدرجات فهو بيان للتشريف كما نقول- ولكلام الله المنزلة - لفلان مكانة عندى فأى درجة أعلى من درجات عند الله.

الوصف الثانى- أن لهم مغفرة أى أنه غفار الذنوب وقابل التوب يغفر لهم وذلك تقرب من الله تعالى لهم، فإنه تعالى يتجاوز عن سيئاتهم إذا تابوا وأنابوا، وتلك منزلة مقربة، وثبت أنهم قريبون منه تبارك وتعالى.

والثالثة- رزق كريم، والرزق عطاء الله تعالى، وهو رزقان: مادى ومعنوى، فأما المادى: فهو عطاء الله فى الدنيا، بحيث يغنيه عن الناس لا يجعل حاجته عند أحد، بل تكون حاجته عند الله، والمال نعمة لمن أحسن تحصيله، فلم ينله إلا من حلال، ولم ينسقه إلا فى حلال، والنبي ﷺ قد ورد أنه قال: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»^(١).

(١) رواه أحمد : مسند الشاميين - حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ (١٧٠٩٦).

والمعنوى: هو رضا الله تعالى وتعمده برحمته في الآخرة، بالنعيم المقيم وإبعاده عن العذاب الأليم، فهذا رزق، ومن الرزق المحامد، وأن يقول أهل التقى فيه الخير، ولا يقولون إلا خيرا، ومن الرزق الكريم ألا يوفق لعمل سوء، ولا يوفق إلا للخير.

ووصف الرزق بالكريم يفيد أنه لا يكسب إلا بشريف الأعمال، ولا يتدلى في طلبه إلى حيث الأشرار، والمعنى أنه يرزق من خير، ولا ينفق إلا في خير، ولا يكتسب إلا من مكان كريم، والله يرزقه من حيث لا يحتسب.

مقدمات يوم الفرقان

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ

مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَايِرُهُونَ ﴿٥﴾

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ

وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا

لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ

﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الآيات بعضها متصل ببعض، فهذه الآيات متصلة بما قبلها في النسق والبيان والموضوع، إذ كلها في مقدمات غزوة بدر، والسير النفسى حتى تصل إلى نهايتها، وقوله تعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَايِرُهُونَ﴾

ما موضع «كما» فى التشبيه، ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى عدة تفسيرات كلها تحملها الآية، فذكر أنها متصلة باختلافهم فى الأنفال، وأن الله تعالى انتزعها من أيديهم على رغبتهم فيها كذلك ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يقول الطبرى فى توضيح هذا المعنى: «ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم فى المغانم، وتشاحتم فيها، فانتزعها الله تعالى منكم وجعلها إلى قَسْمَةٍ، وقَسَمَ رسول الله ﷺ فقسمها على العدل فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز غيرهم فكان عاقبة كراحتهم للقتال بأن قدره الله لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً وهدى ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

وخلاصة المعنى أن الله يختبركم الآن كما اختبركم فى الغنائم، فقد أخذها منكم وتولى النبى ﷺ قسمتها بالعدل والمصلحة، كذلك اختبركم، فأخرج النبى ﷺ لذات الشوكة والمصلحة ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾.

ونرى أن هذا التخييج مؤداه أن الله اختبركم بمنع نفوسكم من المشاقة فى المال ترويضاً على الصبر على هوى النفس، وقمعها عن شهواتها استعداداً للقتال كذلك اختبركم بحمل أنفسكم على ما تكره ابتلاء بالصبر على المكاره، كما اختبركم بالصبر على رد هوى النفس، فكلاهما لا بد منه للجهاد.

ويذكر ابن جرير وجهاً آخر، فيقول: «قال آخرون معنى ذلك: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه من بعد ما تبين لهم أنه الحق».

ومؤدى هذا أنهم وجد فيهم حال تردد أو على الأقل كراهية للقتال مرتين: مرة عندما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهو الأمر الثابت الذى قامت الدواعى إليه وكان ذلك للغير، ومرة أخرى عندما تعين القتال، وصار الأمر للتفسير لا

للغير، وإنى أميل إلى التخريج الثانى لأنه يساوق اللفظ ولا يحتاج إلى تأويل، ولا تأباه الألفاظ، ومؤداه أنه كما وجد فريق من المؤمنين كاره للخروج من بيتك لتتبع الغير، وجدت كراهية القتال عند إرادة الحرب، ويكون قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ متعلقا بقوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

ونقف هنا عند أمرين: أولهما- أن الله تعالى ذكر الحق بالحق مرتين،

أولاهما- ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ أتى بالأمر الثابت الذى هو الحق فى ذاته، والحق فى رفع شأن الدين، والحق فى مصلحة المؤمنين، والحق فى أنه أمر الله تعالى وإرادته، وأن النبى ﷺ ما أراده من ذات نفسه، وإنما أراده الله تعالى له، وهو ربه الذى خلقه ورباه وهو أعلم بمصالحه ومصالح المؤمنين والإسلام، وإعزازه تعالى كلمة الحق، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا.

ثانيهما- عندما ذكر الجدال فى قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

والحق هنا هو أمر القتال فقد فرت منهم الغير التى خرجوا إليها ليأخذوها، وبدا لهم النفير، فبدل أن يلقوا غيرا ينقلوها، لقوا جيشا يقاتلونه، وذلك هو الحق الثابت الذى فيه الشوكة إن انتصروا، والصبر عند الصدمة، وقد جادلوا فى هذا مع أنه صار أمرا لا مناص منه.

وفى الحق كانت قوة الكفر مسيطرة، وما كان للمؤمنين قِبَلُ بها لولا تأييد الله تعالى ونصرته، فالخوف كان لا بد منه، وليس الشجاع هو الذى لا يخاف، إنما الشجاع هو الذى يقدر قوة عدوه ويخافها، ولكن يدبر للقائها، ويعمل على التغلب عليها، ولقد كان جدلهم فى هذا منشؤه المحافظة على النفس كجدلهم حول الغنائم فمنشؤه الرغبة فى الموت.

وقد قال الله تعالى فى تصوير خوفهم وتقديرهم للقاء: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ فقد شبه سبحانه وتعالى حالهم بحال من يساق إلى الموت، وهو مشدوه ناظر إليه، متوقع له كأنه يراه رأى العين، وأنه نازل به لا محالة.

ولقد تجسم لديهم الخطر، كأنه نازل بهم لا محالة، ولا منجاة منه، وإن رضوا بالفداء فالله سبحانه وتعالى يبين لهم أن ثمة خطر، ولكن ثمة أيضا وعد الله تعالى بالنصر والتأييد وثمة الإيمان الثابت الذى تزلزلت معه الجبال ولا يتزلزل.

وإن الله تعالى يدعوهم فى هذا إلى الصبر والاطمئنان إلى وعد الله تعالى وإن النبى ﷺ كان يثب فيهم روح الاطمئنان والأمن، ولكنه كان يريد أن يثبت من اعتزامهم اللقاء وطلبهم للنصر، وطاعتهم له.

ويروى الحافظ ابن كثير وأصحاب السُّير الصحاح أنه لما بلغ النبى ﷺ خبر فرار العير إلى سيف البحر، ومجيء جيش المشركين وكان النزال لا بد منه أراد ﷺ أن يثبت من جيشه فاستشار من معه وأخبرهم عن قريش.

فقال أبو بكر، فأحسن القول، ثم قام عمر فقال فأحسن.

ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: امض يا رسول الله لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة بالحشة) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا على أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذماننا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله يتخوف من ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا من دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى

عدوهم من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك. قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: «أجل». قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله كما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى بك عدونا غدا، إنا لصبرٌ عند الحرب صدقٌ عند اللقاء، ولعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك، فسرُّ بنا على بركة الله تعالى، فسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه، وقال: «سيروا على بركة الله»^(١).

انظر إلى حكمة القائد المحنك لا سير إلا بعد أن يعرف أن إرادة جيشه قد اجتمعت على الحرب.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

لقد أراد الله تعالى أن يعز الإسلام، ويضع الحواجز المانعة من أن يستمر الشرك في غيه، لقد طأوكه النبي ﷺ، وصابره في مكة، وتحمل أذاه حتى كون الله للإسلام شوكة في المدينة دار الإيواء والنصرة، فكان لا بد من بعد ذلك من وضع حد للطغيان، ووقف للفتنة فكان لا بد من القتال. كانت غير ملكة تذهب إلى الشام وعمر على المدينة أو على مقربة من المدينة وكانت فيها أموال كثيرة لقريش، فأراد النبي ﷺ أن يأخذها المسلمون بدل الأموال التي أخرجوا منها، ولأنه لا سلم بينهم، ولأنهم أباحوا دماء المسلمين في مكة وأموالهم، فكان حقا أن تباح دماؤهم وأموالهم، خرج نحو ثلاثمائة لمصادرة العير، فانفلت بها المشركون وعلى رأسها أبو سفيان، ولكنه كان قد أرسل إلى مكة يستنفرها لتحمي غيرها، فنفرت بجيش كبير اتجه إلى بدر، ومع أن العير قد نجت فقد أصر الحمقى من المشركين على غزو المدينة، ونسوا الآل والرحم فكان اللقاء أمرا لا بد منه.

(١) البداية والنهاية: ج ٤، ص ٦٠، وتاريخ الطبري: ج ١، ص ٩٥٤، وقصص الأنبياء: ج ١، ص ٣٦٠.

ولقد كان بعض المؤمنين، وخصوصا الذين أخذت أموالهم يودون العير، ولم يريدوا القتال لأنها غنيمة أتت إليهم، وأنفلهم الله إياها، ولأن القتال كره لهم، والنفس المؤمنة رقيقة تكره الدماء، وكما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وإن كان خيرا فى مثل حال المشركين معهم ولذلك كانوا يودون العير، لا الحرب، وتلك هى الفطرة، وقال تعالى:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

وعد الله تعالى إحدى الطائفتين إما طائفة العير وإما طائفة النفير، والطائفة هنا الجماعة، والمراد هنا جماعة العير يأخذونها بما معها من مال، أو جماعة الحرب يقتلون ويأسرون فيهم، ويغنمون أموالهم، ولكن فيها الشوكة والقوة وإذلال المشركين.

وهم يودون السهلة الهينة الخالية من الدماء، ولكن ليس فيها شوكة، ويختار الله تعالى لهم ما فيه الشوكة.

وعبر عن القوة بالشوكة على سبيل المجاز؛ لأن نتيجة الحرب ستكون رهبة للمشركين تجعلهم يتحفظون فى معاملة المسلمين، ولا يقدمون على إيذائهم إلا إذا أقدموا على أمر خطير يشوكهم قبل أن ينالوه، فلا يكون طعمة تؤكل أو تُتَشَهَّرُ الفرص لاكلها.

وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن إرادتهم العير بقوله تعالت كلماته ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ﴾ أى تودون العير وهى تعطيكم مالا، ولا يكون لكم بأخذها قوة ترهبهم، فهى ما لا حماية ولا عزة فيها، وعبر سبحانه وتعالى عن إرادتها بقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أى تحبون مائلين للعير، للمعانى التى ذكرناها.

وفى هذا التعبير إشارة إلى معنى من معانى العتب، وتنبه إلى أن الواجب هو طلب القوة، لمن كان المشركون يستضعفونهم، فيبدل الله تعالى من خوفهم أمنا، ومن استضعافهم قوة، وتمكيننا فى الأرض؛ ولذلك يقول الله تعالى:

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

عبر الله تعالى بقوله يودون فى جانبهم، وعبر بقوله «يُرِيدُ اللَّهُ» دون «يود» للإشارة إلى أن ذلك من جانب الله إرادة، وإرادة الله نافذة وهى المصلحة وهى الخير، وكان التعبير فى جانبهم بقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ للإشارة إلى أنه مجرد ود، ولم يصير إرادة، وكيف يريدون ما لم يرد الله تعالى، وكيف وهم المؤمنون حقا وصدقا، وإرادة الله إعلاء لهم، وميلهم ميل إلى ما هو أدنى.

وقد عبر سبحانه عن إرادة الشوكة والقوة بقوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أى أراد سبحانه وتعالى ذات الشوكة، ليقوى الحق ويشبته ويؤيده ويؤكد، وليكون له الكلمة العليا، وتكون كلمة الذين كفروا هى السفلى، فمعنى إحقاق الحق إعطاؤه حقه من التأييد والتثبيت والنصر والاستعلاء على الباطل وخفض نقيضه. وذكر الله تعالى نتيجة إحقاق الحق وليقطع دابر الكافرين؛ وذلك لأن نصر الحق وإعلاءه خبص^(١) للكفر شيئا فشيئا، حتى تذهب قوته ليجتث من أرض العرب اجثنائا، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ الدابر هو الخلف، وعبر بذلك كناية عن أن لا يبقى من الكافرين من يجهر بكفره، ويعاند الله تعالى، ويستعلى عليه، وذلك فيه تشبيه للكفر بالجيش الذى يولّى مدبرا، ويقاثل بقناه^(٢) حتى يقضى عليه بقطع أدباره والقضاء عليه.

هذا ما أراده الله تعالى، وذلك ما كانوا يودونه، وقد أراد الله تعالى لهم العزة، فكان النصر المؤزر، وكانوا قليلا فكثّرهم الله، وقوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾، أى بالقرآن الذى هو حجة، فالتأييد تأييد للقرآن الكريم.

ثم أكد سبحانه معنى تأييد الحق، فذكر أنه سنة الله فى تأييد الإيمان، وإبطال الشرك وهو الباطل: فقال عز من قائل:

(١) أى القضاء عليه شيئا فشيئا، من خبص خبصا: مات. لسان العرب.

(٢) أى يسلب سلاح العدو ويقاثل به.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾.

(اللام) هنا لام العاقبة، وهى تدل على الباعث على القتال، و(الحق) هنا هو الدين الثابت، و(الباطل) هو الشرك المفترى، والمعنى لتكون عاقبة القتال الذى هو الحق المؤيد للحق الذى أراده الله، وهو ذات الشوكة أن يثبت الحق ثبوتاً دائماً مستمراً ما دام أهل الإيمان مستمسكين، ويبطل الشرك وهو الباطل مستمراً، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨) ولو كان ذلك رغم المجرمين الذين يجرمون فى الأرض فيفسدون فيها ولا يصلحون ونجد هنا أن المجرمين مكروهون على قبول بما يقع، ولو كان وبالاً.

وعبر هنا بالمجرمين، وفى الآية السابقة بقطع دابر الكافرين، وذلك لتنوع عنادهم وتعدد صورهم، فهم كافرون لجحودهم مع قيام البينات، وهم مجرمون مفسدون لفتنتهم المؤمنين، فإذا كان الكفر تعدياً على أنفسهم، وهم به كافرون، فالفتنة تعد على غيرهم، وهم بها مجرمون.

والحق الذى أحقه الله وثبته هو الجهاد وطلب ذات الشوكة، ولذا اقترن بها قطع دابر الكافرين، والحق الثانى هو الدين الحق، وتثبيته وإبطال الباطل، وهو منع الفتنة، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

المعركة

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ
عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا

سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ
 الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
 عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

كان النص القرآني السامي يحث المسلمين على أن يطلبوا الجهاد، بطلب الطائفة ذات الشوكة، والنبى ﷺ أمامهم يستحثهم ويستوثق منهم، حتى لا تغلبهم الدنية في دينهم، وقد ظهر أنهم يودون غير ذات الشوكة، حتى إذا دنت الواقعة كان مع الاستعداد بالقلوب، والاطمئنان كان لا بد من الالتجاء إلى الله تعالى ليكون الغوث، وليكون النصر، فهم مؤمنون، وليسوا مغرورين؛ ولذلك لا بد من الالتجاء إلى الله، وخصوصاً من الرسول الذي أحس بأن عليه العبء الأكبر، فاستغاث هو ومن معه بالله، وكان هو أظهرهم. قال تعالى :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبَدِّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّفِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

والاستغاثة طلب الغوث، و « إذ » ظرف يكون للماضى، وهو هنا للماضى المتصل بالحاضر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾... ﴿٨﴾ وجاء المضارع بعدها لتصوير الاستغاثة وأنها كانت التجاءً متجدداً مستمرا لله تعالى .

وقد روت السنة استغاثة النبى ﷺ، وقد كانت ضراعة له سبحانه وتعالى، وروى مسلم والإمام أحمد، وغيرهما من الصحاح عن عمر بن الخطاب أنه قال: « لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبى ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم

قال: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض أبداً» فما زال يستغِيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأناه أبو بكر فأخذ رداءه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبى الله كفك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك^(١).

هذه هى استغاثه رسول الله ﷺ، وهى استغاثه من معه، فهو إمام الصلاة استغاثته استغاثه لهم، كما أن الإمام قراءته قراءة للمؤمنين، وإن النبى ﷺ عندما اتجه إلى الاستغاثه اتجه إلى القبلة، وكأنها صلاة، يمح وجهه فيها شطر المسجد الحرام.

وقد استجاب الله تعالى لاستغاثه نبىه، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّينَ﴾.

(الفاء) للعطف الدال على الفورىة، أى أن الإجابة كانت فور الدعاء، وكذلك دعاء النبيين ومن معهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

والاستجابة بالسين والتاء هى شدة الإجابة كأحسن ما تجاب به الاستغاثه؛ لأنها استغاثه لله تعالى فهى إيمان لأجل قوة الإيمان وعزة المؤمنين، وقرنت الإجابة بما يدل على قوتها، فهى من ربكم الذى يكلؤكم، ويرعاكم، وذكر الاختصاص فى قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ﴾، أى الإجابة لكم أنتم من ربكم ولا إجابة لغيركم لأنكم على الحق، وتدعون للحق.

وفسر سبحانه وتعالى الاستجابة بقوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّينَ﴾ هنا ثلاث قراءات فى (الف)، فقرئ بـ (ألف)، ويكون الإمداد بألف من الملائكة على قدر عدد المشركين، فإنه إذا كان عددكم ثلاثمائة ونيفا وعددهم ألف، فقد أمدكم الله تعالى بألف من الملائكة، فيكون العدد فى الحسبة متساويا أو تزيدون.

(١) رواه مسلم: الجهاد والسير- الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر (١٧٦٣)، والترمذي: تفسير القرآن- ومن سورة الأنفال (٣٠٨١)، وأحمد: مسند العشرة- أول مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٠٨) عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

وهناك قراءة أخرى بـ (أُلف)، جمع ألف، على وزن أفعل، وبذلك لا يكون العدد محدوداً بل بالألف، وذكر الزمخشري قراءة ثالثة وهي (آلف)، والرسم الإملائي العثماني القرآني غير المنقوط والمشكول يحتمل القراءات الثلاث.

و«مردفين» أى متتابعين، مشتقة من أردف، وهى لغة فى ردف وتقرأ بفتح الدال وهى قراءة ^(١)، والمعنى أنهم جاءوا وقد أردف بعضهم ببعض.

وهنا تقرر أن الله تعالى أمدّهم بألف أو عدد من الألف، وذلك أمر لا ريب، ولا تناقص بين الإمداد بآلف، أو بآلاف، فالمراد جنس الألف لا تعيين العدد.

ولكن كيف كان الإمداد، جاء فى روايات لم نرها فى صحاح السنة أنهم صوروا بالإنس، وكان بعض الناس يرى سيوفا لا يرى حاملوها.

ولكن الثابت فى الصحاح أنه كان إمداداً من غير أن يتعرض لبيان أنهم كانوا بصور إنسانية أم لم يكونوا، وهذا ما نراه.

وإذا لم تكن ثمة صور أو أجسام إنسانية، فإننا نقرر أنه كان إمداداً روحياً، ومن الإمداد الروحى شحذ العزائم وطمأنينة نفوسهم، وإبعاد الشياطين ومنازع الشيطان، وهذا بلا ريب من إمداد الله بالملائكة، فهو حقيقة ثابتة، وإنه يؤيد أن الإمداد روحى - آمنا بحقيقته وجهلنا كيفيته - قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

الضمير يعود إلى المصدر المشتق من (ممدكم)، أى أن ذلك الإمداد كان روحانياً فيه بشرى أى تبشير لكم بالنصر وإنه آت لا ريب فيه، وفيه أمن للقلوب، ولتدخل الحرب مع رجاء النصر، فرجاء النصر والاطمئنان إليه مع أخذ الأبهة

(١) (مردفين) بفتح الدال، قراءة نافع وإبي جعفر ويعقوب، وقرأ الباقر بالكسر. غاية الاختصار - الهمداني (٩٢٩).

نصر على النفس، وابتداء النصر اطمئنان النفس فلا تفزع، ولا تهاب، ولا تخور؛ ولذا قال سبحانه، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، فلا تجزع فتقدم فى غير خوف ولا وجل، وإنه وحده الناصر فما كان الإمداد بالملائكة، والإخبار به إلا لتطمئن القلوب.

وإنه بعد اتخاذ الأسباب لا يكون النصر ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ العزيز الحكيم أى الغالب الذى يدبر لكل شىء وبأمره سبحانه وتعالى.

وفى الآيتين الكريمتين إشارات بيانية تليق بكتاب الله معجزة الوجود الإنسانى كله:

أولها - تأكيد الإمداد بالملائكة تلك القوى الروحانية التى تبشر وتطمئن فقد أكدها بالتوكيد بأن فى قوله تعالى: ﴿أَتَى مُمِدُّكُمْ﴾ وبإضافة الإمداد إليه سبحانه، وهو القوى القهار الغالب على كل شىء.

وثانيها - بالجملة الاسمية الدالة على البقاء والاستمرار.

وثالثها - الحد بألف الذى يوازى عدد المشركين أو يزيد، وهو على القراءات الأخرى أضاعف عدد المشركين.

ومن الإشارات البيانية- ضرورة الاعتماد على الله بعد أخذ الأهبة، وإعداد العدة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقد قصر النصر مهما تتوافر أسبابه على أنه من عند الله فلا نصر إلا منه، والقصر بالنفى والإثبات نفى وجود أى نصر إلا أن يكون من عند الله، ووصفه سبحانه وتعالى بما يزكى هذا القصر، فهو العزيز الذى لا يغلب، وهو الحكيم الذى يدبر الأمور بحكمته ومن مقتضاها أن ينصر الحق ويخذل الباطل، فهو وحده ناصر الحق دائما، وتأكيد ذلك ب (إن) والجملة الاسمية.

وبين لله تعالى أنه أفاض الأمن والاطمئنان، فقال تعالى:

﴿إِذْ يَغْشَىٰ كُفْرُ النَّعَاسِ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرًا بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

يقال: غَشَّاه، بمعنى غلبه النوم، و(غَشَّى) كـ (أَغَشَّى) يجوز فيها التعدية بالتضعيف وبالهزمة، كقوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس] وكقوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [٥٤] ﴿فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَ تَمَّارِى﴾ [٥٥] [النجم].

وغشاهم الله تعالى بالنعاس أى وضعه على عيونهم كأنه غشاء من نعاس. ونعاس مفعول ثان.

و﴿أَمَنَةً﴾ مصدر أمن، والمعنى غشاهم الله تعالى بالنعاس آمنين، أى لأجل أن يكون ذلك أمناً لهم من الخوف، أى للدلالة على أمنهم واطمئنانهم، فإن النعاس أمن وقرار، وبُعد عن الهم، فمع القلق السهر، ومع الأمن النوم.

وإن النعاس عند الإقدام على أمر مهم يقوى النفس، ويشحذ العزيمة، ويذهب القلق والاضطراب، وهو أمانة الاطمئنان، وقد أُنعم الله تعالى على المؤمنين، ليلتقوا بالأعداء آمنين مطمئنين راجين النصر، مُحْسِنِينَ بتأييد الله، ومحسين بأن الحق معهم، ولقد قال علي -كرم الله وجهه- فى ليلة بدر: «ما كان منا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ».

والنعمة الأخرى التى ثبت الله تعالى بها قلوبهم نزول المطر، فقد قال تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فقد كان المشركون فى مكان فيه ماء، ولم يكن عند المؤمنين ماء فغلب عليهم الظمأ، فوسوست فى بعضهم الوسوس، فأنزل الله سبحانه وتعالى الماء حتى سال الوادى، وملاؤا الأسقية وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة فجعل الله ذلك الماء طهوراً، وثبت به الأقدام إذ لبَّد الله به الأرض، ويقول الحافظ ابن كثير: «وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله تعالى المطر عليها فضر بها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام».

وهذا قول الله تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

فالماء الذى أنزله الله تعالى سقوا منه، وكان طهوراً أذهبوا به رجز الشيطان وهو الجنابة، وطهروا حساً ومعنى، وربط الله تعالى به على قلوبهم، وثبتهم

وأذهب عنهم وساوس الشيطان، ولبدَّ به الأرض وثبت عليها الأقدام، فلا تغوص في الرمال، وإن هذا الماء كان وبالا على المشركين فقد انهمر حتى دعر^(١) عليهم الأرض وصارت الأرض لا تقوى على تحمل أقدامهم.

هذا كله تأييد حسى من الله اقترن به اطمئنان وذهاب القلق، والطهر، وهو يزيد النفوس اطمئنانا.

وقد كان بجوار ذلك تثبيت الله تعالى بالملائكة فقد قال تعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

موقعة الفرقان هي موقعة الحق أيدها الله، واتخذت كل الأسباب لها، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء، أيدهم الله تعالى أولا بالمدد من الملائكة الذى كان بشرى واطمئنانا، وأيدهم ثانيا بأن الله مع المؤمنين والملائكة، وأيدهم ثالثا بأن أمر الملائكة بأن يثبتوا الذين آمنوا، وأيدهم رابعا بأن ألقى الرعب في قلوب الكافرين، وأيدهم خامسا بأن كان الضرب فوق أعناقهم، والضرب في الأيدي التى تقتل.

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ هي للماضى المتصل بالحاضر، والمضارع للدوام المتجدد، أى اذكر أيها النبی ومن معك، وحى الله تعالى المستمر الذى لا ينقطع إلى الملائكة أن الله معكم أيها الملائكة فى تأييدكم للمؤمنين فهو سبحانه جل جلاله فى ملكوته الأعلى معكم فى تأييد المؤمنين وتثبيت قلوبهم، ﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و «الفاء» هنا للإفصاح عن شرط مقدر، والمؤدى: إذا كان الله معكم فى هذا التأييد فثبتوا الذين آمنوا، أى قوهم معشر أرواح الله، واملأوهم بروحانيتكم لتمتلى قلوبهم بروح من عند الله، وإحساس بعظمته، وجبروته وقوته وعزته ليطلبوا العلاء والعزة ولا يذلوا.

وقد التفت سبحانه من خطاب الملائكة إلى خطاب المؤمنين، ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وهذا معناه اضربوا الرءوس، فما فوق العنق هو الرأس، والبنان

(١) الدَّعْرَةُ بفتح الدال: الهدم والمُدَّعْرُ المهْدوم . الصحاح- دعر.

الأيدي، والمعنى أن اضربوا رؤوسهم، فإنها موطن الشيطان، واقطعوا أيديهم، فإنهم يبطشون بها وآذوا المؤمنين وعذبوهم، وفتنهم عن دينهم.

والمعنى لا تأخذكم بهم رافة، فرد الاعتداء يكون بمثله، فاقتلوهم وأضعفوا قواهم يشف الله بذلك صدور قوم مؤمنين.

وإن ذلك جزاء بما ارتكبوا، ولمحاربتهم الله ورسوله؛ ولذا قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الإشارة إلى الرعب الذى ألقاه الله فى قلوبهم، وإلى إمداد الملائكة للمؤمنين وإلى تثبيت الملائكة لقلوب المؤمنين، وإلى الغلب فى المعركة، وأمر الله للمؤمنين أن يضربوا رؤوسهم وأطرافهم، كل ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله، أى صاروا فى شق، والله ورسوله فى شق آخر، يحادون الله ورسوله، ويغالبونهم حاسبين أنهم الغالبون، و «الباء» فى قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ للسببية أى بسبب أنهم حادوا الله ورسوله، وما دام الأمر أمر مغالبة، فالله هو الغالب، وذكر الله ورسوله، وكان يكفى ذكر الرسول أو ذكر ربه، والجواب عن ذلك الإشارة إلى أن محاربة الرسول محاربة لله، وأن طاعة الرسول طاعة لله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وإلى أن عصيان الرسول محادة لله سبحانه وتعالى، وأظهر فى موضع الإضممار: فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، ولم يقل من «يشاققهما» وذلك لبيان عظيم ما يقتربون، فهو تنديد بهم، وتكرار لعظم جرمهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بيان لشدة العقاب فى الدنيا والآخرة، وهى دالة على جواب شرط محذوف هذه علتة، والمعنى فإن الله منزل عقابه الشديد بهم فى الدنيا؛ لأنهم يغالبون الله ورسوله، ونسوا أن الله تعالى غالب على كل شىء.

وسماه الله عقابا لهم، للإشارة إلى أنهم ليسوا فى مقام المغالبة لله، بل إنهم فى مقام من يؤدبون ويعاقبون، ويردون خاسئين.

وإن عقاب الدنيا والتنكيل بهم فيها، لكيلا يستشرى الشر، ولكيلا يغفروا بالمؤمنين، ولكيلا يكون على المؤمنين حرج، ولكي ينالوا جزاء ما فعلوا، ولأن السابقين كان ينزل العقاب الديني بهم بخاسف أو بريح صرصر عاتية، أما أمة محمد ﷺ فإن الله تعالى يفنى الأشرار، ويبقى الأخيار.

كان عقاب الدنيا لذلك، وهذا لا يمنع عقاب الآخرة، وهو الأوفى جزاء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

الإشارة إلى هذا العذاب الأليم، وأتى بكاف الخطاب للجمع، تأكيداً لعموم الخطاب للكافرين، وأنهم جميعاً يخاطبون بذلك حتى يتوبوا، فإن تابوا فقد انتهوا والله قابل للتوب شديد العقاب.

وذلك كما قلنا إشارة إلى العذاب، والإشارة استحضار له، و«الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ فيها إشارة إلى العذاب الديني الذي «يدوقونه» وهي للإفصاح أى إذا كان هذا عذابكم فذوقوه، والتعبير بذوقه إشارة إلى آلامه وقد ذاقوها وأحسوها، فقد ذاقوا النكال وذاقوا القتل، وذاقوا الذل بعد الاستكبار، وذاقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون.

وإنهم مع ذلك لن يفلتوا من عذاب الآخرة، فإذا النار لاحقة بهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ وفي العبارة ما يوحي بأنه العذاب المعد لهم، وكأن عقاب الدنيا أمر عرضي ليس هو الجزاء الحقيقي لهم، إنما كان لمنع استمرار شرهم، وإنهاء فسادهم، ومنع الفساد في الأرض.

﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولذا أكد جزاء الآخرة، لأنه الأصل الثابت، فقال: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ فأكد أولاً - ب «أن» الدالة على التأكيد، وثانياً بالجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والدوام، وثالثاً - بتقديم الجار والمجرور الدال على اختصاصهم بعذاب النار، ورابعاً ببيان أن الكفر هو السبب؛ لأنه عبر بالوصف، وذلك دليل على أن الكفر هو السبب في عذاب النار..

اللهم اكفنا شره، واقبل من حسناتنا ما يمحو سيئاتنا، فإنك قلت قولك الحق: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِیُسِلِّيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُفْرُكُمْ أَلْفَتْحٌ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِیَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

هذه معركة الإيمان والكفر، وإن شئت فقل معركة الله ورسوله مع الكافرين؛ لأن المؤمنين اتخذوا الأسباب، لأنهم توكلوا على الله واستغاثوا به، ولأنه لم يكن فيهم ضعفاء الإيمان أو المنافقون، فكانت معركة الله حقاً وصدقاً، وهو ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يبين الله تعالى أن أول النصر الثبات، وألا يفر من الميدان؛ ولذا شدد سبحانه وتعالى في منع الفرار، لأن الفرار أول الهزيمة، ولأنه خور في العزيمة، ولأنه والصبر نقيضان لا يجتمعان ولا معذرة في فرار قط، ولأن يقتل الرجل وهو مقبل بصدرة، خير من أن يقتل وهو مدبر بظهره.

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾.

النداء للمؤمنين بوصف كونهم مؤمنين، والإيمان صبر وفداء، فالنداء بالذين آمنوا تحريض على الصبر واللقاء والثبات، وذكر لقاء الكافرين، وهم كانوا يتمنون لقاءهم ليتصروا لله منهم، وليردوا كيدهم، فكان نداء أهل الإيمان بعنوان الإيمان تحريضا على الثبات والمجاهدة، وكان ذكر لقاء الكافرين تحريضا أشد؛ لأنهم الذين آذوهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم؛ ولذا كان النهى بعد التمهيد، فقال: ﴿فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ و«الفاء» واقعة في جواب الشرط، وعبر سبحانه وتعالى عن النهى عن الفرار بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ ومعنى تولى الدبر، أى أن يتركوا ظهورهم للسيوف تضرب فى أدبارهم، وذلك منظر هو من أقبح المناظر وأقبح تصوير للفرار من الميدان بضرب السيف فى دبره وقفاه، وإن من يُقتل فى صدره لا يُقتل إلا بعد أن يُقتل من الأعداء، أما من يُقتل فى ظهره، فإنه يذهب دمه عبيطا^(١)، لا يثار لنفسه.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

ذكر مفردا فارا؛ للإشارة إلى وجوب التضافر والتآزر، وألا ينفرد بقرار، وألا يكون إلا فى جماعة.

وقد استثنى الله تعالى من الذين يتركون الميدان طائفتين لا تُعدان فارتين، بل تُعدان متقاتلين.

أولاهما- المتحرفة لقتال، والثانية - المتحيزة إلى فئة.

المتحرفة معناها المائلة، والمتحيزة هى التى تتجه إلى حوزة جماعة من جماعة المسلمين.

(١) ذهب دمه عبيطا أى خالصا طريا.

والمتحرفة المراد بها المائلة في القتال غير تاركة، ولكنها أخذت بضرب من ضرب الحيلة والخديعة، وقد ضرب لذلك الحافظ ابن كثير مثلاً، فقال: «ذلك الذي يظهر أنه يميل إلى الفرار حتى إذا اطمأن محاربه انقض إليه غرة وقتله، والتحيز إلى فئة الذي يلجأ إلى فئة يحسبها تحتاج إلى قوة فينضم إليها مقوياً صفوفها».

وهاتان الطائفتان لا تعتبران فارتين ولا موليتين الأدبار؛ ولذا نقرر أن الاستثناء منقطع، بمعنى لكن، أى لكن المتحرف أو المتحيز لطائفة لا يعدان مولين الأدبار.

وقد يكون الفرار أمراً ضرورياً إذا كان العدو أغلب، ولكن الفرار لا يكون بتولية الأدبار، بل يكون بتدبير الانسحاب ويكون بالتراجع، من غير أن يولوا ظهورهم للأعداء، يضربون في أدبارهم، كما فعل القائد العظيم خالد بن الوليد هذا عندما آل إليه أمر القيادة بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله ابن رواحة، فقد رأى أن أمامه جيشاً يعد بمئات الألوف، ومعه ثلاثة ألوف، فقد أخذ يتراجع، ويوهم الأعداء أنه قد جاءه مدد حتى عاد إلى المدينة وسماهم بعض المجاهدين فرارين، وسماهم النبي ﷺ «العكارين»^(١) أى الكرارين.

وإن الفرار في الزحف من أكبر الكبائر، فقد قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يارسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

(١) رواه الترمذي: الجهاد- ما جاء في الفرار من الزحف (١٧١٦). كما رواه أبو داود في سننه: الجهاد- التولي يوم الزحف (٢٦٤٧). وبنحوه رواه أحمد: مسند المكثرين- مسند عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما (٥٣٦١).

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: الوصايا- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ١٠] (٢٧٦٧)، ومسلم: الإيمان- بيان الكبائر وأكبرها (٨٩). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد تكلم العلماء فى الفرار، فأجازه بعضهم إذا كان العدو كثيفا، والمؤمنون قلة، وهم مأكولون لا محالة، ونحن لا نحيز تولية الأدبار مطلقا، لأنه تمكين من رقاب المؤمنين، وإذهاب للبأس، ولكن نحيز التراجع المنظم كما فعل القائد العظيم خالد، إن تولية الأدبار إذلال للمؤمنين وتمكين من القتل الرخيص وليس هو التراجع الحكيم؛ لأن المتراجع يحمى صدره، والمولى الأدبار يمكنهم من ظهره.

وقد بين الله سبحانه فى النهى عن الفرار جزاء من يولهم يومئذ دبره، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ﴾ أى يوم الزحف ولى مدبرا مضطربا ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى رجع مغضوبا عليه من الله تعالى، فغضب عليه، والواجب أن يطلب رضوانه، ﴿وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ﴾، أى الذى يأوى إليه جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وبعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى أن النصر بيد الله، وأنه سبحانه هو الذى يهزم المشركين، وهو الذى يرميهم فقال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وفى الله المؤمنين فى هذه الغزوة، كانوا قلة فأراهم المشركين كثيرين، ورأوا المشركين قليلا وهم كثيرون، وسهل الله السبل للمؤمنين فألقى فى قلوبهم الرعب وأمدكم بالملائكة، فملاكم روحانية وجعلهم الله بشرى لكم، واطمأنت قلوبكم، وغشاكم النعاس، وأنزل عليهم الماء فثبت به الأقدام وطهر رجز الشيطان.

أمدهم الله تعالى بهذا فكان النصر، وقد قال تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فكان النصر من عند الله، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ولما أصابهم الغرور، وحرّمهم الله من نصره ابتداء ولوا الأدبار، وقال الله تعالى فى ذلك: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] لهذا التوفيق

وذلك التأييد الذى تكاثر فى غزوة بدر نسب الله تعالى النصر إليه سبحانه، والقتل إليه والرمى إليه، فقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ نفى سبحانه أنهم قتلوهم، لأنهم لم يكونوا المسلطين عليهم من أنفسهم إنما سلطهم الله تعالى عليهم، وهو الذى أرواهم، و«الفاء» مترتبة على ما قبلها ما دام الله تعالى هو الذى هداهم وحرصهم، وأيدهم بنصره، وبملائكته ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ إما أن نقول إن القتل حق لله تعالى؛ لأنه هو الفاعل المختار، وإن نظرنا إلى الأسباب العادية نقول: إنه من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب، فلأن الله تعالى هو السبب فى القتل أسند القتل إليه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

قال بعض المفسرين على أن المراد من الرمى هو الرمى بالنبال المريشة التى تصيب المقاتل، ويكون من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب؛ لأن الله تعالى هو السبب إذ هو الموفق، وهو المؤيد، وهو الممد بالملائكة وهو سبحانه وتعالى ملقى الرعب فى قلوب المشركين.

وقال بعض المفسرين: إن النبى ﷺ عندما التقى الجمعان قبض قبضة من التراب، ورمى بها المشركين، وقال: «شاهت الوجوه»^(١)، فاضطربت الأبصار، وزاغت القلوب.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أى فَلَسْتُ أَنْتَ الذى رميت إنما الله تعالى هو الذى رمى؛ ولذلك أفرد النبى ﷺ بالخطاب لأنه هو الذى رمى.

وإنى أميل إلى التفسير الأول لأنه هو الأوضح، ونحن نميل إلى الواضح من الآراء.

(١) انظر صحيح مسلم: الجهاد والسير - غزوة حنين (١٧٧٧).

وإن الله سبحانه وتعالى فعل ذلك، ليؤيد المؤمنين بنصره، ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أى ليعامل المؤمنين معاملة المختبر الذى يبلّسهم بلاء حسنا، أى بلاء نتيجة حسنة دائما، وذلك بأن يكلفهم، وأن يتخذوا هم الأسباب للنصر المؤزر، والعزة والرفعة، وأن تكون كلمة الله على أيديهم هى العليا، وهو العزيز الحكيم، ولقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى إن الله عالم علم من يسمع، ومحيط بكل شيء علما.

وإن الله تعالى إذ ينصر المؤمنين ذلك النصر بإرادته وتقديره هو الذى يوهن شأن الكافرين فالله ناصر المؤمنين، وهازم الكافرين؛ ولذا قال تعالى:

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾

الإشارة إلى نصر الله تعالى وما كان من تأييده حتى شرف الله تعالى ذلك القتل والقتال بأن نسه إليه سبحانه، وأتى بضمير الخطاب للجمع، لإعلام الجميع بذلك النصر، وخبر اسم الإشارة محذوف معلوم من الكلام، أى ذلك النصر المؤزر ثابت لكم وحسبه نعمة أنعم بها عليكم، فالنصر وحده له فرحة شديدة، فتقبلوا نعمة الله فيه، وعطف على هذا النصر أمر آخر جليل فى ذاته وهو ثمرة النصر، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ فموهن معطوف على ما يفهم من الكلام السابق وهو فوق بشرى النصر بشرى إضعاف وتوهين شأن المشركين وكيدهم، لقد كانوا أصحاب القوة والسطوة، والسلطان والشرف فى البلاد العربية وكانوا يستطيّلون بكل ذلك على المؤمنين، فلما جاء النصر المبين لتلك الفئة الصغيرة واستطالت عليهم ونالت النصر دونهم وهنوا فى أنفسهم، وإذا وهنوا فى ذات أنفسهم وهن كيدهم للمسلمين، وهو تدبيرهم، وتأليبهم العرب عليهم، وحرّبهم، وصاروا يرهّبونهم بعد أن كانوا يستضعفونهم، ويرون فيهم العزة.

فهذه الحرب المقدسة كان لها ثمرتان دانيتان:

إحداهما - النصر فى ذاته، وأن صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الشرك هى السفلى، وتلك نعمة أنعم الله تعالى بها عليهم.

الثانية- أنه انتهى عهد الاستهانة بالمسلمين واستعلاء المشركين عليهم ووهن أمر الكافرين لديهم فكانت تلك هي الضربة القاصمة التي كسرت أنفقتهم وكبرياءهم.

وعبر الله تعالى بالكافرين لبيان أن الكفر هو السبب في وهنهم ، والله من ورائهم ، قال الله تعالى :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

بعد أن ذكر الله تعالى غزوة بدر الكبرى ، أو (يوم الفرقان) كما سماها القرآن الكريم ، أخذ يشير سبحانه وتعالى إلى المغزى الأمثل فيها ، وهو الطاعة لله ورسوله ، فهو كان أساس النصر ، وتخاذل النصر في أحد ، لنقصان في الطاعة للرسول ﷺ ، وفي هذه الآيات يبين الله تعالى مقصد الحرب عند الفريقين ، ومقام طاعة الله تعالى فيها .

قال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ .

الاستفتاح السين والتاء لطلب الفتح ، وهو النصر أو الفصل بين الحق والباطل ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

وهل استفتح المشركون ، أى أئعد الخطاب للمشركين ، أم يعد الخطاب للمؤمنين ؟ ، إن الخطاب فى الآيات السابقة لهذه الآية للمؤمنين مثل ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ الْكَافِرِينَ ﴾ وهكذا تجد الآيات السابقة المخاطب فيها المؤمنون ، والمتحدث عنهم بالغية الكافرون ، وكان مقتضى السياق ذلك ، كما هو فيما بعد هذه .

لكن طائفة من المفسرين قالوا: إن الخطاب للمشركين ، لأنهم استفتحوا فعلا بالله الذى كانوا يعلمونه ، وإن لم يوحده فى العبودية ، ولقد ذكر الزمخشري وابن كثير وابن جرير عدة صور من عبارات استفتاحهم فيروى أنهم عندما أرادوا أن ينفروا لحماية العير ، ومحاربة النبی ﷺ تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم

انصر قرانا للضعيف، وَوَصَلْنَا لِلرَّحِمِ، وَفَكَّنَا لِلْعَانِي إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى حَقٍّ فَانصُرْهُ، وَإِنْ كُنَّا عَلَى حَقٍّ فَانصُرْنَا.

ويروى أنهم قالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، ويروى أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أفجر وأقطع للرحم فأحنه، أي فأهلكه.

هذه صور للاستفتاح المروى، وإن صح أن الاستفتاح كان منهم فلعلها جميعها قد وقعت منهم والاختلاف اختلاف عبارات لأحاديث لا لجمعهم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾، قال الزمخشري: إنه تهكم عليهم، من حيث إن الفتح كان على غير ما يرغبون، وقد يقال: إنه أريد الحد، لأنكم إذا كنتم تستفتحون طالبين الفصل بينكم وبين محمد ﷺ فيها هو ذا الفصل، فاخضعوا له ولكنهم لا يطلبون حقا، ولا يخضعون للحق، وإن انتهوا بالإيمان بالحق بموجب استفتاحكم ووعدكم فهو الإيمان وهو خير لكم، وإن تعودوا إلى الباطل ومحاربة محمد ومن معه نَعُدْ إليهم بالنصر، ولن تغني عنكم جماعتكم وكثرتكم شيئا، ولو كثرت، وإن الله تعالى مع المؤمنين دائما بنصره وتأيدته، وقد رأيت مرات هذا النصر وذلك التأيد، فصارت كلمتهم هي العليا والله عزيز حكيم.

هذا هو توجيه القول الكريم على أساس أن الخطاب للمشركين، وهو ظاهر لا يقاومه إلا سياق الآيات السابقة قبلها وبعدها.

وأما تخريج القول الكريم على أن الخطاب للمؤمنين فإنه يؤيد سياق الخطاب، ويكون المعنى إن تستفتحوا أيها المؤمنون، بأن تتضرعوا إلى الله تعالى طالبين الفتح والنصر، وتستغيثون به، فقد جاءكم النصر فعلا، ومعه الغنائم التي طلبتموها وأردتموها، وقد علمتم أن ذلك بفضل الطاعة، والامتناع عن العصيان ﴿وَأِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي إن تنتهوا إلى الطاعة، وإصلاح ذات بينكم وتقوية جمعكم، فهو خير لكم، ﴿وَأِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي إن تعودوا إلى المشاحنة والخلاف

على الغنائم والمنازعة نعد لكم بالخذلان والفشل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] ولا تغنى الكثرة شيئا مع الاختلاف لأن الاختلاف لا يكون فيه القوة على العدو، ولكن يكون بأسهم بينهم شديدا، فحربهم على أنفسهم لا على أعدائهم، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك فقال: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

أكد سبحانه وتعالى النفي بـ «لن»، وأنه لا يغنى أى شيء ولو قليلا، وثالثا أنه لا يغنى مع الكثرة. وإن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب، يخبر بما سيكون يوم أحد، فقد كانت معهم قوة، وسابقة نصر، ولكن لم يطيعوا واختلفوا على الغنائم فلم يتصروا، ولا نقول انهزموا، بل كان الأمر بينهما.

ذالكم تخريجان، ونحن نرى أن الأقرب إلى سياق الآيات، وإلى سياق الأمر بالطاعة، وإلى الانسجام البياني المعجز، أن نقول: إن الخطاب للمؤمنين تحذيرا وإنذارا.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت حكمته وكلماته: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «أن» مفتوحة الهمزة للدلالة على أنها متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ويكون هذا قرينة على أن الخطاب للمؤمنين وليس للكافرين، وهناك قراءة تقول: إن «إن» مكسورة.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سواء أكانت أن مكسورة أو مفتوحة يدل على أمرين:

أحدهما- أن الله تعالى مع المؤمنين، ينصرهم، ويكون الفتح فى جانبهم ومعهم دائما، والثانى- أن ذلك يكون إذا تخلقوا بأخلاق المؤمنين، ولم يتفرقوا، حتى لا يفشلوا فتذهب ريحهم.

وبعد أن أشار سبحانه إلى أن قوة المؤمنين فى طاعتهم لله ورسوله واستمسакهم وتعاونهم وتضافرهم أقر بالأمر الجامع بينهم، وهو الطاعة فقال:

يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ

تَسْمَعُونَ ﴿٥﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ

لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦﴾

النداء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالبعيد لعموم النداء ولأهمية ما يدعوهم إليه سبحانه، وهو الدفاع عن المؤمنين والضعفاء، والشيوخ والنساء والذرية، نادهم بطاعة الله ورسوله، والنداء من النبى ﷺ، وهو الذى يجاب فمقام الله تعالى لا يتناولون إليه، وإنما يخاطب رسوله.

وذكر الله تعالى (رسوله) هنا للدلالة أولاً- على أن من يطع الرسول يطع الله تعالى، وثانياً- لأنه هو الذى ينصر، وهو الذى يعز ويذل، فإجابته اعتزاز بمنشئ الوجود كله، وثالثاً- لأنه المسيطر علينا وعليهم كما كان النبى ﷺ يقول فى دعائه عند الدخول فى حرب: «اللهم إنهم عبادك ونحن عبادك» لهذا ذكر الله تعالى قبل ذكر الرسول، والنبى ﷺ هو الذى يتولى دعوتهم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمَعُونَ﴾

«ولا تولوا» بتخفيف إحدى التاءين، وهناك قراءة بثبوت التاءين معا (ولا تتولوا). والتوالى الإعراض، أو الانصراف، والمعنى لا تنصرفوا، وأنتم تسمعون القول، والانصراف وهم يسمعون القول، يتضمن معنيين: أولهما- أن يكون التولى نفسياً، فهم يكونون سامعين ولكن غير واعين، وغير منفذين، ولا نقول غير مطبقين، ولكن نقول غير مقدرين القول قدره.

وثانيهما- أن يعرضوا عن النبى ﷺ فيعرضوا حسياً، وهو يتكلم، وهم يسمعون، وخلاصة المؤدى أن النص يطالب بثلاثة أمور:

أولها - سماعهم سماع وعى وعناية بالقول بفهمه، وتعرف مراده.

ثانيها - ألا يعرضوا عن القول فكرا أو نفسا، وأن يكونوا معه بقلوبهم، وكل جوارحهم.

وثالثها- الطاعة المطلقة فيما لا رأى فيه، ومراجعة النبي ﷺ فيما رأى في حرب، أو مكيدة، كما شاور النبي ﷺ في منزل الحرب في غزوة بدر الصحابي حُبَاب بن المنذر رضى الله عنه. وهنا إشارة بيانية لأبد من ذكرها، هي أن الله تعالى طالب بطاعة الله ورسوله، وعندما نهى عن الإعراض أعاد التضمير مفردا فقال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾.

والجواب عن ذلك أن طلب الطاعة لهما لما ذكرنا، ولكن النبي ﷺ هو الذى خاطبهم وهو المتحدث باسم ربه عنهم، ولا يتصور أن يكون التولى عن الله تعالى، بل التولى عنه ﷺ، وإن نسبة التولى منهم لله تعالى لا تليق، وإن كانت غير ممكنة.

والنهى عن التولى، وهم فى حال يسمعون فيها؛ ولذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ فهو دعوة إلى حسن الاستماع؛ ولذا قال تعالى مؤكدا هذا المعنى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أى لا يكن حالكم كحال الذين يقولون بأفواههم سمعنا، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى سمعنا، ولم نع ما نقول ولم نتدبره، ونتفكر فيه ونعمل على تنفيذ ما طلبه القائل، فهم سمعوا بأذانهم، ولم يسمعوا بقلوبهم.

وإن هذا النص يؤخذ منه بالتضمن أن السماع أقسام ثلاثة:

أولها - سماع تفهم وتدبر وإدراك وتنفيذ على بصر وعلم، وهذا الذى يطلبه الله تعالى والنبي ﷺ، وهو الذى ذكرناه آنفا.

والثانى- سماع من غير تدبر وإدراك وتبصر، وهذا ما ينهاهم الله تعالى عنه، وهو إن لم يكن نفاقا فهو غفلة عن الحق، وليس سماع وعى وإنصات.

والثالث- سماع أهل النفاق الذين يقولون: سمعنا وعصينا، أو الذين يحرفون القول عن موضعه.

ومهما يكن فهذان القسمان الآخران سماع كلا سماع. اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

سماع الحق

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

إن الله تعالى أعطى الإنسان أدوات الفهم التي تميزه عن الحيوان، وتجعله كونا مستقلا قائما بذاته، وما ذلك إلا ليحتل المكانة التي هيأها الله تعالى له في هذا العالم بين العالمين فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [الحل]. فالسمع لمعرفة ما أمر الله، والبصر لمعرفة آيات الله في كونه، والأفئدة ليدرك وليفهم ويعلم، وهذا شكرها.

وإنه إذا فقد ما خصه الله تعالى به من هذه النعم فقد نزل من درجات الإنسانية إلى حضيض الحيوانية، وكان شر الدواب في هذا الكون؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

الدواب جمع دابة وهي ما يدب على وجه الأرض من النملة إلى الحشرة إلى ما فوق ذلك، وإنه إذا عبر عن الإنسان بأصغر ما ينطبق عليه اسم الدواب والحيوان كان ذلك تحقيرا له واستهانة بأمره من زعيم يرفع ويخفض إلى حيوان لا يملك من أمره شيئا، تدعكه الأرض بالأقدام، وهو حيوان كله آفات، ليس بكامل بل هو أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، وهو لا يعقل فليس فيه قلب يفقه، ولا عقل يعقل، إنه شائه^(١) في ذاته، ناقص في كونه، وإن كان ذا رواء؛ لأن تقدير الإنسان ليس بشكله وصورته، ولكن بقلبه وعمله.

وفي الكلام استعارة تمثيلية شبه فيها من لا يسمع الحق ولا يدركه، ولا يبصر الآيات ولا يتأملها، ومن لا يفقه الحق ولا يدرك بالدابة التي لا تسمع مواطن الأقدام، فتطوها، ومن لا ينطق مستغيثا، فتدقه الأمور دقا، ومن لا يعقل ما يضره، فيكون فريسة الكل، وجامع التشبيه هو عدم الفائدة من هذه الخواص فهي إذا كانت ذات فائدة في ذاتها فإنه لا يستفيد منها، ومن لا يستفيد من شيء فوجوده وعدمه سواء.

وإن تشبيه الكافر بالدابة هو أصغر تشبيه له، وقد قال تعالى في تشبيهه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ (البقرة). وكقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف).

وإنهم لو سمعوا لا يجيبون؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

هذا ترشيح للاستعارة التي قوامها تشبيه حالهم في أنهم لا يسمعون سماع تدبر، ولا يبصرون بصر تأمل، بمن لا يسمعون ولا يبصرون فهذا النص تقوية للتشبيه؛ لأنه قرينة تساعد المشبه به.

(١) شائه: قبيح. كما في القاموس.

وإن الله تعالى بكل شيء عليم، فهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وهو قد قدر كل شيء بعلمه، وقد قدر سبحانه في علمه أنهم لا يهتدون؛ لأنهم لم يسلكوا طريق الهداية، ولن يسلكوه، وذلك لا ينافي اختيارهم، كما قال الإمام على - كرم الله وجهه - وفسر قَدَرَ الله بعلمه الواسع المحكم.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ «لو» هي حرف امتناع لامتناع، أي امتنع إسماع تعالى لهم الكلام إسماع تدبر وإدراك لما فيه من تهديد وإنذار وتبشير، وامتنع ذلك لأنه لم يعلم خيرا في السماع، والمعنى لو علم الله أنه سياترب على سماعهم تدبرهم وتفكرهم، وأنه سياترب خيرا كالعظة والاعتبار - لأسمعهم.

وليبيان أن من كتب الله تعالى شقوتهم لا جدوى معهم فقال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ولو سمعوا سماع تدبر، وإمعان وإدراك ما صبروا على الحق، بل إن قلوبهم في ريب دائم مستمر، واضطراب لا استقرار معه، فالحق يحتاج البقاء عليه إلى صبر، ودوام تأمل وتفكر؛ فليس الإيمان واقعة تمر، بل هو حال مستمرة دائمة، يغذيها التدبر، ويقويها طول التأمل، وهؤلاء، إن سمعوا وتفكروا حيناً، لا تستمر بشاشة الإيمان في قلوبهم.

ولذا قال تعالى في جواب الشرط: ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وهذه صورة حال المعرضين بعد أن كاد يدخل نور الإيمان قلوبهم، التولى أن يولى جنبه بدل وجهه ولإظهار أنه معرض شبهت حالهم وقد أعرضوا عن الحق وتركوه بحال الذين يديرون وجوههم وهم معرضون، غير مقبلين.

والله يدعوهم إلى الحق، ويناديهم ليجيبوه؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

النداء للذين آمنوا، والنداء للبعيد؛ لعموم النداء، ولأن أداة البعيد أنسب في هذا المقام والنداء هو قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ والاستجابة معناها

الإجابة، والسين والتاء للطلب، ومعنى ذلك أن المنادين يطلبون إجابة أنفسهم، أى يسعون لأن يجيبوا؛ لأن الإجابة لمنفعة أنفسهم، لا لمنفعة من يجيبونه فالخير عائد إليهم، وذكر الرسول بجوار إجابة الله تعالى للدلالة على أن إجابة الرسول إجابة لله تعالى، وليبان أن الرسول هو الذى يوجه الخطاب عن ربه لذا عاد الضمير بلفظ المفرد.

والاستجابة لأمر عظيم، وصفه الله تعالى بأنه ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ فقال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ والأمر الذى يحيى الناس جميعاً؛ لأنه يعم كل المؤمنين -هو العقيدة، وما اشتمل عليه القرآن من أوامر ونواهٍ، وأمر بمعروف ونهى عن المنكر، فإن العقيدة وما اشتملت عليه من توحيد بها إحياء للعقول والنفوس بإدراك الحق، وإنقاذها من الأوهام، والبعد عن مزالق الشيطان، والشرعية بما فيها من أحكام زاجرة، وأحكام مصلحة ورابطة للعلاقات الإنسانية على أكمل وجوه التعاون، فى كل هذا حياة للجماعات؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام] فجعل الهداية حياة، وجعل الشرك موتاً، أو عيشاً فى الظلمات.

وبعض المفسرين قال: إن المراد بما يحيى هنا الجهاد؛ لأن الجهاد فى طلب الحق به حياة الأمم، فما تركت أمة الجهاد إلا أماتها الذل، وما اعتزت أمة بالجهاد إلا وهبت الحياة، كما قال خليفة رسول الله ﷺ: (اطلب الموت توهب لك الحياة)، وكما قال الأستاذ الشيخ محمد عبده: (إن موتاً فى سبيل الحق هو عين البقاء، وحياة فى ذلة هى عين الفناء).

وإن الحق أن يكون ما يدعو إليه النبى ﷺ من الشريعة كلها من عدل وتعاون وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وجهاد فى سبيل الله، وهو أعلاها، وهو سنام الحق وعزته.

ويقول سبحانه وتعالى حاثاً على القيام بالحق ومحاربة الهوى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾

ذكر الزمخشري في تفسيره أن هذا التعبير السامي يحتمل ثلاثة تفسيرات:

أولها- أن الله تعالى مالك للإنسان في أفكاره ومشاعره، فهو موجه قلبه إلى ما يريده الله تعالى، فالله مالك كل شيء، وهو الموجه إليه في مصيره، أى أنه هو الذى يحول المرء وقلبه واتجاهه، فهو لا يملك من أمره شيئا، وقالوا: إن هذا يفسر قول النبي ﷺ مخاطبا ربه: «أنت مقلب القلوب»^(١)، ويظهر أن الزمخشري المعتزلى لا يرتضى هذا؛ ولذلك يقول إنه قول بعض الجبرية، وذلك غير مذهبه، ويقول تعليقا على ذلك: إن الله لا يوجه جبرا ولكن يوجه من سار فى الخير إلى ما سار فيه، ومن سار فى غيره إلى نهايته.

والاحتمال الثانى- وهو الذى اختاره، أن المعنى أن الله بأوامره ونواهيه يحول بين المرء وقلبه، أى بين المرء وما تهواه نفسه، ويشتهيه قلبه من لذائذ هذه الدنيا، وشهواتها، فالشريعة قامة للنفوس كابحة للأهواء.

وإننا نرى ذلك حقا من غير أن نقرر بطلان السابق، كما أشار الزمخشري.

والاحتمال الثالث - أن يراد قرب العبد من الله، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد وأنه بينه وبين قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر].

وإنه لا مانع من الجمع بين هذه الاحتمالات فليست متعارضة، ولا شبه متعارضة، فيصح أن يراد أن الله مالك كل شيء، وأن شريعته فاصلة بين المرء وأهوائه، وأن الله تعالى قريب منه مجيب دعاءه إذا دعاه، وأنه رقيب عليه يراه.

(١) روى الترمذي: القدر- ما جاء فى أن القلوب بين إصبعي الرحمن- ٢١٤٠- عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ" قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَابِ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَعَائِشَةَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ: مُسْنَدُ الْمُكْثَرِينَ- مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١١٦٩٧).

ثم بين الله سبحانه أنه راجع إليه سبحانه، فقال منذراً، مبشراً: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الضمير ضمير الشأن، والمعنى، وأنه الحال والشأن تُحشرون، أى تجمعون مهما يكن جمعكم، ومهما تداخلت أجزاءكم فى الأجسام، ولو كنتم فى حجارة أو حديد، أو خلق مما يكبر فى صدوركم، فأنتم مجتمعون، والتعبير بـ (تُحشرون) يفيد الجمع مهما يكن العدد، ومهما تتناثر الأجزاء أو يتباين كونها.

وقدم الجار والمجرور للدلالة على أن الناس جميعاً يحشرون إليه وحده، وهو الذى أئذّر وبشر، وأنه منفذ ما وعد، وما أوعد.

فهذه الجملة السامية تربي مهابة اللقاء، وتؤكدده، وإنه لقاء بالغفور الرحيم العزيز الحكيم المنعم الجبار.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لِّأَصِيحَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إن ظلم الجماعات لا تقف مغباته عند من يرتكبون الظلم، بل يتجاوز إلى الإفساد فى الجماعة نفسها، فمن أشاع الفاحشة فى الذين آمنوا بأن جاهر بها مرتكباً لها، أو أشاع قول سوء فى الجماعة- إنما يدعو إليها، محرضاً عليها ولو كان ما يرتكبه ليس كثيراً، ولكن المجاهرة بها دعوة إليها، وتحريض عليها؛ ولذلك كان النبى ﷺ يدعو إلى الاستتار، فيقول فيما روى الشافعى: «يا معشر الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات، فليستتر، فهو فى ستر الله، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد»^(١).

ومن أجل هذا حث الله تعالى على اتقاء الفتن، وهى الذنوب، أو الذنوب التى تختبر بها الجماعات ومن شأنها أن تشيع أو تفسد رأيها العام، كما نرى فى عصور الانحلال وشيوع الفساد، وشيوع الدعوات المنحرفة، ويكون فيها الهوى

متبعاً، والرأى منحرفاً، أو الفتنة تموج كموج البحر، كما رأينا في بغى معاوية ومن معه على إمام الهدى عالم المسلمين، وحامل سيف الحق علي بن أبى طالب كرم الله وجهه.

يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ومعنى اتقوا: اجعلوا بينكم وبين الفتنة التى تعم آثارها وقاية، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتنوير العقول وتثقيف القلوب. وتطهير الرأى العام من شيوخ الأقوال الباطلة، فإنها تفسد الأفكار ولا تجعلها متجهة صوب الحق، بل تسمع العقول، ويكون شح مطاع وهوى متبع، ولا يكون التفكير الدقيق لما يقال، بل يتبع كل فاسق.

وإن الوقاية تكون بأمرين: أولهما- العدل، وثانيهما- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولذا قال النبى ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنَّ على الحق أطراً، أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هى جواب لشرط محذوف أو فى معنى جواب الأمر، وهو «اتَّقُوا»، والمعنى: إن تقوها، لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. ودخلت نون التوكيد الثقيلة؛ لأن جواب الأمر فى معنى الأمر، ونون التوكيد تدخل الأمر فتؤكد جوابه، وذكرت الصلة فى الموصول للإشارة إلى السبب وهو الظلم الذى يعم، ولا يخص، وأظهر الظلم ليتبين أنه السبب، وأن السبب فى عموم الفتنة أو الذنوب، أو الفساد فى الأمة بعمل الطاغين، وعدم الخصوصية أن ظلم الخاصة تكون نتيجته على الجميع؛ لأنه لا يوجد من ينهائهم، وقد أمروا بأن ينهوهم بل أن يحاجزوا بينهم وبين الظلم كما أشرنا، وكما روينا عن النبى ﷺ، وقد قال ﷺ: «لا تؤخذ العامة بظلم الخاصة

إلا إذا رأوه ولم ينكروه»، فلا يعترض على عموم الفتنة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام] فالعامة لا يؤخذون بورر غيرهم إنما يؤخذون بتقصيرهم، وإنه إذا كان الفساد من بعضهم، فأثر الفساد يعم، فإذا شاع العبث، ونتاج برأسه غير مبالٍ بشيء فإن الجماعة كلها مسئولة؛ لأنها لم تأخذ على يد من يدعو إلى الشر، ويعلمه جهارا، ورضيت من المتسلطين ما يفعلون أو لم يستنكروا، ولم يقاطعوا أعمال المنكرين، ومن يدفعونهم أو يشجعونهم، فكانوا وهم على سواء. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإنه لا يكفي أن يكون الأخيار غير مرتكبين ما يرتكبه الأشرار، بل إنه يجب أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن الفتنة الكبرى التي وقعت بعد مقتل الإمام عثمان -رضى الله عنه- وظهور البغي السافر في عهد إمام الهدى عليّ وقعت آثاره على المؤمنين، ولترك الكلمة للإمام الزمخشري في تفسيره فقد قال ناقلاً: «روى أن الزبير قال: نزلت فينا وقرأناها زمانا، وما نرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها». وعن السدي: نزلت في أهل بدر فاقتتلوا يوم الحلبة، وروى أن الزبير كان يساير النبي ﷺ يوما إذ أقبل عليّ -رضى الله عنه- فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «كيف حبك لعليّ؟» فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إني أحبه كحبي لولدي أو أشد حبا. فقال: «فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله»^(١).

ولقد كان ما انتهى بأن ذهب الشورى في الإسلام، وصارت ملكا عضوضا، صالحا أو طالحا، ولكن فقد الحكم قوة الأمة، وأهمل قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾ [الشورى].

ولم يبق إلا أن نعلم أن الله أنذرنا بعقابه فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وإنا قد علمناه، ولم نرتدع عن غينا، ونسلك طريق ربنا، علمناه وأما به، ورأينا بعضه، وهو عقاب الدنيا، فتفرق جمعنا، وتقطع الأمر بيننا، وتحكم الأعداء فينا وصرنا نهبا مقسوما، وصار أكثر حكامنا يرمون في أحضان من لا

(١) ذكره بهذا اللفظ الرازي في التفسير ج ١٥، ص ٤٧٣، والزمخشري في الكشاف: ج ٢، ص ١٥٢.

يرجون للإسلام وقارا، ويفسدون تفكير المسلمين، وما يلقانا يوم القيامة أشد هولا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإسلام قوة للمؤمنين إن آمنوا به

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
 أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَنَاصِبَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَوَزَقَكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَخَوْنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْنُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا
 اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

إنه لكي تشعر الجماعات والأفراد بنعمة الحاضر يجب أن تعرف الماضي، وأن تكون صورته حاضرة دائما في حاضرها، وكذلك إذا عرفت ما كان في ماضيها من خير أدركت ما عساه يكون حاضرها، ومن حكمة الله وسنته دائما أن يجعل الماضي نورا للحاضر، أو يكون فيه عبرة للمعتبر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد].

يذكر الله سبحانه وتعالى ما كان بالمؤمنين من ضعف ليذكروا ما هم فيه من قوة ونعمة، وليشكروه على ما أعطاهم وعلى ما آتاهم، فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

«الواو» عاطفة على قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الوقت هنا «إذ» مفعول به، وليست مفعولا فيه، فالذكر ليس ظرفه الوقت، وإنما ذات الوقت هو المذكر، والوقت إذا كان في الوقت يكون مظلوما فيه لا يعدوه، وأما إذا كان هو المقصود فيكون الذكر لذات الوقت، وما كان فيه من أحداث وأحوال.

والمعنى: اذكروا في زمن العزة زمن الذلة، وصور الله سبحانه وتعالى الحال فقال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ أى: عدد قليل فإن الإسلام إذ نشأ كان عدد المسلمين قليلا، وكان المشركون يستذلونهم، ويستضعفونهم ويؤذونهم، مرة بالسخرية والاستهزاء، ومرة بالضرب والأذى، ومرة بوضع الحجر المحمى على ظهورهم، حتى كانوا يضطروهم إلى أن ينطقوا بكلمة الكفر، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ولم يسلم النبي ﷺ من الأذى، حتى إنه ليرمى عليه فرث الجزور وهو يصلى، ومع هذا الاستضعاف في الأرض غير مستقرين في أنفسهم وأموالهم فهم في خوف وفزع واضطراب؛ ولذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ والتخطف معناه: سلبهم أو سلبت أموالهم سريعا من غير تلبث، والتخطف هو موضع الخوف، ولا يكون معه استقرار أبدا، فلا يأمن التاجر، ولا العامل، ولا الزارع، لا على ماله، ولا على نفسه؛ ولذلك كانت منهم الهجرة إلى الحبشة، وقد بين الله نعمته بالإيواء والتأييد بالنصر، والرزق من الطيبات.

فقال سبحانه: ﴿فَأَوَّكَّمْ﴾ بالهجرة إلى المدينة حيث الإخوة بالمدينة الذين آووا ونصروا وعوضوكم عن نصره القرابة والنسب التي عقها الشرك أخوة الإيمان، وآثروكم على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة وقال: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ فجعل لكم الغلب والقوة، وكان يوم الفرقان، إذ جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، وأعزكم بعد ذلك، وصاروا هم - أى الكفار - يخافون الاختطاف

العادل، وسلبهم الله تعالى الأمن والاطمئنان. وقال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى الطعام الطيب فى ذاته، والطيب فى طريق الحصول عليه، فوجدتم فى المدينة الزرع والثمار بدل الجذب، وأعطاكم من غنائم المشركين حلالاً طيباً، ثم قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى رجاء أن تشكروه على ما أنعم.

ونجد أن الخطاب للمؤمنين ليذكروه على ما أنعم من نعم نالوها بإيمانهم، واتجه بعض المفسرين إلى أن الآية تبين نعمة الإسلام على العرب، بعد أن دخل الناس فى الإسلام أفواجا، أفواجا، ولا يقتصر الإيواء والنصر على ما كان بعد الهجرة مباشرة، بل يعم ما شمل العرب من خير عميم، وجاء ذلك فى أقوال بعض التابعين، فقد روى عن قتادة السدوسى فى هذه الآية أنه قال: (كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاها عيشاً، وأجوعها بطوناً، وأعراها جلوداً، وأبينها ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم زوى فى النار. يؤكلون، ولا يأكلون، والله ما نعلم من حاضر أهل يومئذ من كانوا شرا منزلاً منهم حتى جاء الإسلام، فمكَّن به فى البلاد، ووسَّع به فى الرزق، وجعلهم ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ريكهم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر فى مزيد من الله).

وإن هذا ليس رأياً مغايراً للتفسير السابق، ولكنه حكم بعموم النعمة على العرب أجمعين، لا للذين هاجروا وجاهدوا، وأيدهم الله تعالى بنصر النبى ﷺ، بل بكل العرب؛ إذ رفعهم من جهل إلى علم بالإيمان، ومن شظف العيش إلى عيش رفيع، حتى لقد قال خليفة رسول الله ﷺ: (والله ليتألمن من النوم على الصوف الأذرى كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان)، ولقد حذر الله تعالى من أسباب الفساد عندما يفيض الخير فقال عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أمر الله تعالى المؤمنين بأن يذكروا في الرخاء الشدة، وفي الكثر يذكرون القل، وفي العز يذكرون الذل، وفي حال الاعتزاز يذكرون الاستضعاف ليعرفوا النعمة، وحقها، وقد ذكر بعد ذلك ما يصون رفعة الأمم والآحاد، فذكر أنه الأمانة؛ ولذا حث عليها بالنهي عن الخيانة.

والتفسير اللغوي لكلمة «خان» هو أن معناها نقص؛ ولذا يقال لنقيضها، «وقى» فيقال خان الأمانة، بمعنى نقضها، ويقال وقأها أى أداها على وجهها، والنهي عن خيانة الله وخيانة رسوله فهي واحدة، لأن ما يطلبه الله يطلبه رسوله، ولكن الحق جلالة مع النبي أو النبي مع الله؛ لتأكيد المعنى في أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، وليبان أن الرسول لا يطلب إلا ما يطلبه الله تعالى؛ ولأن يبين أن نصرة لرسول نصرة لله، ومحبة الرسول محبة لله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ (آل عمران)، وأن خيانة الرسول خيانة لله تعالى.

وخيانة الله ورسوله، تشمل عدم إطاعة الشرع، ومخالفة نواهيه، وترك الجهاد، وإفشاء أسرار المؤمنين، وإعلان ما أمر الله بكتمانه، والغلول في الغنيمة قبل قسمتها، والكيد لجماعات المسلمين، واتخاذ بطانة من غيرهم، وموالة أعداء الحق، وفي الجملة مناوأة أهل الحق سرا وباطنا، فهذه كلها خيانة لله ورسوله، وعدم رعاية الأمانات، ومناصرة الظالم، ومعاونته على الظلم وعدم مراعاة الأمانات، وفي الجملة تشمل خيانة الله ورسوله كل خيانة للشرعية، سواء أكانت تتعلق بالآحاد والجماعات، وقوله: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عطف على خيانة الله ورسوله، والمراد ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ الأمانات التي عهد إليكم بالقيام عليها، وأدائها في وقتها ويكون النهي عن خيانتها وارد من ناحيتين:

الناحية الأولى: من جهة أن خيانتها خيانة لله ولرسوله؛ لأن الله تعالى أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا

وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ [النساء] ومن أن شريعة الله التي بلغها محمد ﷺ تأمر بأداء أمانات العباد إلى أصحابها.

والناحية الثانية من أمانات العباد: حق العباد، وديوان ظلم العباد لا يُغفر إلا برد مظلمة ظلم الطاغين، وقد أكد الله تعالى النهى وغلظه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى تجحدون الأمانة وأنتم تعلمون وجوبها، أو تنكرونها، وأن تعلمون أمرها، وأن أداءها واجب عليكم.

ونرى من هذا أن خيانة الله ورسوله والناس أجمعين منهى عنها، وأن عمومها لا يمنع أنها قد تكون اقترنت في نزولها بحوادث وقعت من بعض الصحابة.

فقد روى أن أبا لبابة كان بينه وبين بنى قريظة صلوات، فلما حَكَمَ النبي ﷺ سعد بن معاذ فيهم أشار إليهم أبو لبابة ألا يحكموه، وأشار إليهم بأن حكمه الذبح، فأحس بأنه خان رسول الله ﷺ فربط نفسه في سارية المسجد، ونذر ألا يأكل حتى يحله رسول الله، فمكث تسعة أيام خر على أثرها مغشياً عليه فتاب الله تعالى عليه، وحل وثاقه فقال: إنه نذر أن ينخلع من كل ماله، إن تاب الله عليه، فاكتمى رسول الله ﷺ بثلاث ماله^(١).

وروى أنها نزلت عندما أرسل حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين يخبرهم بسير النبي ﷺ وقد أمرهم النبي ﷺ بالكتمان، فخان المسلمين بهذا الإخبار^(٢). وفي الحق إن الآية عامة لهذه الأحوال وغيرها.

وإن خيانة الأمانة سببها الهوى، ومسير الهوى ودافعه فتنة المال والولد؛ ولذا قال تعالى ذاكرا سبب الخيانة ليكون الحذر:

(١) رار أحمد: مسند المكين-حديث أبي لبابة (١٥٣٢٣) وانظر مسند الإمام أحمد: مسند الأنصار- باقى

مسند عائشة رضي الله عنها(٢٤٥٧٣).

(٢) انظر البخاري: الجهاد والسير- الجاسوس(٣٠٠٧)، ورواه مسلم: فضائل الصحابة- من فضائل أهل بدر(٢٤٩٤).

﴿وَعَلِّمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

سبحان منزل القرآن، أنزله نظاما وشرعا محكما، وحكمة منزلة، هو أمرنا ألا نخون، وعلمنا كيف نحارب نوازع الخيانة في نفوسنا، ونعالج منابع الفساد فينا، وهدانا السبيل لأن نربى أنفسنا؛ طلب إلينا ألا نخون، ثم بين موضع الداء وهو فتنه المال والولد.

والأمر في قوله تعالى : ﴿وَعَلِّمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أمر تعليم وعلم، وهذا العلم هو أن المال والولد فتنة، والفتنة هنا المراد بها الاختبار والامتحان من فتن الفلز إذا صهره بالنار لإخراج الفلز مما يعلق من مفاسد.

وإنه بمقدار توقُّفنا لفتنة المال يكون بعدنا عن الخيانة، ولقد قالوا: إنه كان لأبى لبابة الذى ذكرنا أنه شعر بأنه خان الله ورسوله إذ أشار لليهود بأن الحكم الذى سيصدره معاذ هو الذبح، كانت له أموال عند اليهود يخاف ضياعها ففتنة المال أغرته بأن يقدم على الخيانة، وأن يطهر نفسه ذلك التطهير الشديد، بأن يحاول الانخلاع من كل ماله، فيخفف النبي ﷺ بأن يجعله فى الثلث.

وفتنه المال أشد فتنة، ويقول الله تعالى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [الكهف]، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ...﴾ [التغابن].

وقدم المال على الولد؛ لأن المال فى أظهر أحواله متعة خالصة، والولد متعة، وتكليف، وما لا تكليف فيه يكون أوضح وأظهر استمتاعا؛ ولذلك طلب المال الجميع. والأبوة متعة، ولكن معها تكليف ورعاية، والذين تفتنهم الدنيا تغرهم الأمور الظاهرة، وتعوق متعتهم الأمور القابلة، وإنه حيث فقد الشخص إحدى المتعتين المال، أو الولد، اشتدت الأخرى؛ ولذا كانت متعة الولد تشتد عند الفقراء، ولا تكون عند الأغنياء، كقوتها عند الفقراء، وتلك الفطرة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيها قصر الأموال والأولاد على الفتنة، ومن ناحيتها تجد الخيانة مسرب الشيطان إلى النفوس، فالآية تحذرننا من هذه الفتنة، والحذر لا يكون بترك المال والأولاد، إنما الحذر ألا نطلب المال إلا من الحلال، وألا تدفعنا عاطفة الأبوة إلى الشطط ومجاوزة الحد.

وإنه يجب محاربة المتعة حتى لا تشتط بالإنسان بطلب متعة أبقي وأدوم وأهدى سيلا، ولذا علمنا الله تعالى الإيمان بأن عند الله أجراً عظيماً، إذا قاومنا فتنة المال والولد، والمقاومة ليست بالحرمان كما أشرنا، ولكن بالحذر، وألا نتعدى حدود الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا...﴾ (البقرة)، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أجر مقاومة الفتنة، والوقوف بالمحبة للمال والولد، عند الحد الذي لا تكون معه خيانة، ولا تجانف لإثم.

وقد أكد الله تعالى أجر الله الذي يتكافأ مع مقاومة الخيانة بسبب متعة المال والولد أولاً: بالتعبير بالجملة الاسمية. وثانياً: بـ (أَنَّ)، وثالثاً: بتكثير أجر، فإن معنى هذا التكثير الكبر إلى درجة، ورابعاً: بوصفه بأنه عظيم وذلك لتحسين نفسه بهذا الأجر الذي لا يقارن قدره.

وإن تقوى الله تعالى هي السبيل لمقاومة الشر، وجعل فارق بين يجعل النفس تلتزم الجادة ولا تحيد عنها؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يحصن الله تعالى نفس المؤمن ليكون دائماً بعيداً عن الخيانة، وقد حصنها بما أعد من أجر عظيم للمؤمنين الأتقياء الذين شربوا أنفسهم لله تعالى، وأعدوا بتربية التقوى في النفس، حتى تكون في حال خوف من عذابه، كما ترجو ثوابه؛ لذلك ناداهم سبحانه وتعالى مبيناً خواص التقوى، فذكر أنها تنير الطريق، فلا

تضل العقول، فيقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

ثلاثة أمور تترتب على التقوى مجاوبة لنفس المتقى، وهى الفرقان، وتكفير السيئات، والغفران.

أما الأول وهو الفرقان، فهى كلمة جامعة لمعانى الفصل بين النور والهدى، والحق والباطل، والواضح النير وما فيه إشباه وإبهام، والطاعة والعصيان.

وتطلق كلمة الفرقان على كل ما يودى إلى هذه المعانى، فتطلق على النصر؛ لأنه يعلى الحق، ويخفض الباطل، ويفرق بين العزة والذلة، وتطلق على البيان؛ لأنه يفرق بين الحق والشبهات، ويشهر الحق ويعلنه، وينشر الاسم والصيت فى الأرض.

وكيف تكون التقوى تعمر النفوس، وتطهر القلوب، وتنير الأبصار، وفى الحكمة الشرقية أن القلب إذا عمره الإخلاص وقذف الله فيه بالحكمة، فاستقام اللسان واستقام العمل، واستقام السلوك ولم ينحرف عن الجادة، وحينئذ لا يشبهه أمر من الأمور، وتكون المشتبهات صاحيات نيرات إما إلى الهدى، وإما إلى الضلال.

هذا هو الفرقان، وهو أولى ثمرات التقوى، وهو جامع للخير، إذ هو جامع للعلم النافع الهادى.

والثانى: هو إن الله تعالى يكفر عنه السيئات، وتكفير السيئات معناه إزالة آثارها فى النفس، فإن النفس إذا أذنبت نكتت فيها نكت سوداء تتوالى حتى يرباد القلب، وتكفير السيئات إزالة هذه النكت السوداء، أو ما علق منها، حتى يصير القلب أملس كالمرآة، وإن التقوى تفعل ذلك؛ لأنها تجلو صداً القلوب ويمتلىء القلب بذكر الله تعالى، فيعبده كأنه يراه، ويحس بعظمته تملأ نفسه، وتنير سبيله.

والثالث : فمن بعد تطهير النفس من السيئات بتكفيرها، يكون الغفران وستر الذنوب، وتكون الرحمة الشاملة، ولقد ختم الله تعالى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ لأن ذلك كله من فضل الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ذكرنا الله تعالى بما كان عليه المؤمنون في مكة، إذ كانوا عددا قليلاً مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وقد بين أشد ما دبروه، وهو ما أعقبه الهجرة، ليتذكروا شدتهم في رخائهم ولذا قالوا: إن تسع آيات مكية جاءت لهذا التذكير ومنها قوله تعالى .

المكر لأبلغ الإيذاء

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ أَيْكُنَّا
قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا
هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ آتِنَا بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

في هذه الآية يذكر الله سبحانه وتعالى ما كانوا يبيتونه للنبي ﷺ قبيل أن يهاجر، وإن النبي ﷺ كان يدبر للهجرة من قبل ذلك، فقد أخذ يعرض نفسه على

القبائل، حتى وجد قبل الهجرة بما يقارب ستين الأوس والخزرج، فأخذ يدبر أمر الهجرة إليهم في يثرب، ويعد العدة لذلك ويهيئ المتبوء، ويتم الرسالة، بلاغا وتبييناً، وقد هاجر من هاجر قبل ذلك إلى الحبشة، وهاجر إلى المدينة من يحفظ القرآن ويعلم الإسلام فهل كانت الهجرة فراراً من الإيذاء وطلباً للأمن؟.

لا شك أن فرار الذين هاجروا إلى الحبشة كان من الأذى والفتنة في الدين، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ [الحج].

أما هجرة النبي ﷺ فما كانت فراراً من الأذى بل كانت نظاماً لتأسيس دولة، ولأنه نظام يجب أن يتحقق، ولأن الإسلام جاء لإقامة دولة تحكم بأمر الله ونهيه، وتقيم العدل، وترفع الجور، وما كانت تتمكن من ذلك، وهى خاضعة لعبدة الأوثان، بل كان لابد من الهجرة حيث تكون القوة، وحيث يتمكن من إقامة الدولة، وقد اختار الله تعالى من الأرض أرضاً ينتشر منها خبر الدعوة المحمدية في كل ربوع البلاد العربية، فكانت أرض البيت الحرام، وقد مكث محمد ابن عبد الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو، دخل خلالها في دينه بعض قريش، وبعض القبائل، وعرف العرب دعوته، حتى إذا تكونت الجماعة التي كانت النواة الأولى، مهد لإنشاء الدولة، فسافر إلى المدينة مهاجراً.

وبينما هو يعد العدة، أو أعدها ومهد الأرض وعبد المقام - كانوا يفكرون في الإيذاء، ولذا لا نقول هاجر فراراً، بل كان الاتفاق الزمنى، وهم يفرغون جمعهم، وقد أفرغوها، وراشوها^(١)، ولم يجدوا موضوعاً لفعلهم.

(١) راش السهم، راش سهمه يريشه ريشاً إذا ركب عليه الريش، إشارة إلى كماله واستقامته. لسان العرب - ريش. والمعنى أنهم استعدوا لما هموا به من قتل النبي ﷺ.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(إذ) ظرف وقائعه فى الماضى، وهو متعلق بمحذوف تقديره اذكر، أى اذكر يا محمد ومن معك الوقت الذى بلغ الأذى أقصاه، وهم يمكرون، ويدبرون ويحكمون، ويتجادلون فى أنجع طريق لسد الطريق على دعوتك، أيحبسونك، أو يقتلونك أو يخرجونك، وقد اجتمعوا، ويقول الله تعالى مشيراً إلى آرائهم ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ و(يثبتونك) معناها يحبسونك فيمنعونك الحركة أو يقتلونك أو يخرجونك.

ولنضرب بكلمة موجزة، لقد ثبت بإسناد صحيح أن الملاً من قريش اجتمعوا فى دار ندوتهم ليستأوروا فى أمر النبى ﷺ وقد صار على أمر عظيم عليهم، خالفهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم فتقاولوا فى أمره ماذا يصنعون أيثبتونه أى يمنعونه من الحركة بالحبس، أم يقتلونه، أم يخرجونه.

قال قائل منهم: احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من قبله، فلم يرتضوا هذا رأياً، وقال قائلهم: والله ليخرجنه أصحابه فليوشكن أن يثبتوا يأخذونه من أيديكم فيمنعونه منكم. قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم، فتستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، وكان أمره فى غيركم.

فقال قائل: ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه القلوب بما تسمع من حديثه، والله لئن فعلتم ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم.

وقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره؛ قالوا: وما هو؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسطاً نهذاً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إن رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا.

قبلوا ذلك الرأى واستطابوه وهموا لتنفيذه، واجتمعوا حول داره لينفذوا الخطة، وأتوا بالشباب الأنهاد، ولكن الله تعالى كان يدبر لرسوله ورسالته، ولقد جاء سيف الحق علي كرم الله وجهه ونام مكان النبي ﷺ، وخرج النبي ﷺ وهم مصطفىون حول الدار وقبض قبضة من الرماد وقال: «شاهت الوجوه»^(١)، ويروى أنه تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس]^(٢).

هذا تدبيرهم ومكرهم، وإنه فى هذا الوقت الذى كانوا يمحرون فيه، كان الله يدبر فيه لرسوله ولرسالته، فكان يدبر أمر هجرته، وابتدأت بهجرة كبار الصحابة كعمر رضى الله عنه، وأبى عبيدة، وغيرهما من كبار الصحابة، وكان النبي ﷺ يحتجز أبا بكر لصحبته، فكان له فضل الصحبة فى الغار.

وسمى تدبير الله تعالى مكرًا من قبيل المشاكلة اللفظية، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة] فدفع الاعتداء ليس اعتداء.

والله تعالى ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى خير من يدبر، وينظم ويحمى نبيه ورسالته لأن تدبيره سبحانه وتعالى خير، ولا يمكن إلا أن يكون خيراً وهو نافذ وممتنع ومؤد إلى غاية هى خير غاية.

وقد ترتب على تدبير الله أن قامت دولة الإسلام وظهر فى الوجود أفضل مدينة كانت للفضيلة ونشأت بالفضيلة، وقد ذكر الله استهزاء الكافرين بآيات الله تعالى، وكيف يتلقون آيات الله بأهمال وسخرية فقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

(١) رواه أحمد: مسند بني هاشم - بداية مسند عبد الله بن عباس رضى الله عنهما (٢٧٢٥).

(٢) رواه أحمد: مسند بني هاشم (٣٢٤١).

نزلت هذه الآية في مكة، وهى تتلى فى سورة أكثرها نزل بالمدينة لتذكركم بما نزل بهم من المشركين بمكة إذ كانوا يستهينون بأمرهم، ويستضعفونهم، وقد امتد أمر استهانتهم إلى الحجج القارعة، مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله القرآن، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذا تصوير لبعض أحوالهم عند سماع تلاوة القرآن، فأحيانا كانوا يتناهون عن الاستماع وقالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت] وأحيانا يطلبون آيات، وأحيانا لا يعيرون القرآن التفاتا ويعلنون الاستهانة به.

﴿وَإِذَا تُلِّى عَلَيْهِمْ﴾ عبر بالمضارع لتصوير حالهم وتجدها آنا بعد آن والتلاوة: الترتيل بالقراءة آية تلو آية فى نغم هو ترتيل الله تعالى، ولا يجيبون بالتأمل والتفكير والتدبر فيما يتلى، بل يعاجلون القارئ كأنهم يطلبون أن يسكت ولا يقرأ قائلين: سمعنا، كما تقول لمتكلم لا تريد منه الاستمرار: سمعنا، سمعنا، أى أقصر، وكأنهم يتأففون، ثم يردون قائلين، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾.

أى لو شئنا أن نقول مثل هذا الكلام لقلناه، ولكننا لم نرده، وهذا كلام يحمل فى نفسه دلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله، ولقد تحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور، فما أتوا، تحداهم أن يأتوا بسورة ففجزوا واعتدروا بأنهم لم يأتهم تأويله، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتریات ففجزوا، أفبعد هذا التحدى الشامخ والسكوت الخانع والعجز الخاضع يقول قائلهم: لو شئنا لقلنا مثل هذا؟! تلك غطرسة كاذبة، ونفخة جوفاء.

ويرد فون كذبهم بكذبة أخرى فيقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (إن) هنا نافية، أى ما هذا الكلام إلا أحاديث الأولين التى يسمربها ويقصدونها قطعاً للفراغ، والأساطير جمع أسطورة وهى الأخبار التى يخرعها القصاصون وغيرهم فى سمرهم ولهوهم.

وقد روى أن قائل هذا هو النضر بن الحارث، وكان يتخذ مجلسا بعد النبي ﷺ يقص فيه أخبار ملوك الفرس، وأمرائهم، ونسب القول إلى كلهم؛ لأنهم ارتضوه وقبلوه وصدقوه. وكل ذلك كان بهتاناً وكذباً.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم قالوا ذلك ورد قولهم، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان].

وإن هؤلاء المشركين لا يريدون الحق ليتبعوه، بل هم في ضلال، وإنهم يضلون ضلالاً بعيداً، وقد حكى الله تعالى حالهم، ودعاهم الساخر الماجن: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾.

إن هذه الجملة السامية الحالية تنبئ عن أن هؤلاء قد أركست نفوسهم في الشرك إلى درجة أنهم يتمنون أن يعيشوا فيه، وألا يفكروا في تغيير ما بأنفسهم.

يقول الله تعالى عنهم يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ...﴾ هذا أقصى أحوال الجحود والإنكار، حتى إنه ليتوقع شر ما يتمناه المرء إذا كان ذلك صدقاً، فيقول: إن كان هذا هو الحق وحده ولا حق سواه، فخير لنا أن تنزل علينا حجارة من السماء أو تأتينا بعذاب أليم من جنس هذا العذاب، فهو ينكر أولاً، ويعدده شر الأحوال ثانياً، ويصر عن إنكاره، ولو بدت دلائل الحق ثالثاً.

وفى ذلك فوق هذا الجحود الذي لا حد له سخرية وتهكم، وأنه يستحيل في نظره أن يكون حقاً. وهنا إشارتان بيانيتان رائعتان:

الأولى - قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾، فيها قصر الحق على هذا، وهو التوحيد، والإيمان بما جاء به محمد ﷺ، فالإنكار واقع على قصر الحق، وكأنهم يريدون أن يكون ما هم عليه حقاً وهو الباطل الذي لا ريب فيه.

الإشارة الثانية- أنهم يقولون فى الجواب المترتب على هذا الشرط، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فذكر السماء؛ لأنه المناسب للإمطار، وليكون أشد؛ لأنه يكون حجارة تنصب على الرؤوس انصبابا كانصباب الماء، ولأنه كما قال الزمخشري، يكون سجيلا، كالحجارة التى نزلت بأصحاب الفيل، التى حمى الله تعالى بها بيته الحرام من أبرهة الذى أراد هدم البيت.

وإن ذلك النص السامى، كما هو أقصى الجحود والتهكم هو أقصى ما يدل على الحمق والجهل، يروى فى هذا أن معاوية بن أبى سفيان دخل عليه رجل من سبأ، وقال له: إنكم قوم تجهلون ولستم عليكم امرأة، فقال الرجل: أنتم أجهل؛ لأنكم قلتُم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ولم تقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا.

والجواب لمثل معاوية حق؛ لأنه هو وأبوه كانا ممن يظن أنهم قالوا ذلك، وإن أسلموا من بعد وكانوا من المؤلفة قلوبهم وأخذوا مئآت من النوق.

إنهم يستعجلون العذاب قبل أن ينزل، وقد بين الله تعالى استحالة ذلك على مقتضى السنة التى سنّها الله تعالى مع الرسل وأقوالهم، وهى أن الله تعالى لا يعذبهم والرسل بينهم يدعون، ولذا قال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

هذا النص السامى فيه بيان أن الله لا يعذب الأقوام، والرسول يدعوهم حتى يكون اليأس من إيمانهم كما فعل الله تعالى مع قوم نوح، لقد قال تعالى عند إنزال العزم فيهم ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ...﴾ [هود].

و (اللام) فى قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ هى التى يسميها علماء النحو لام الجحود أى تكون لتأكيد النفى، والمعنى: ما كان من شأن الله العلى الأعلى أن

يعذب المشركين، وأنت فيهم تدعو، ويفشو الإيمان فيهم وقتا بعد آخر، وهؤلاء بهذا الدعاء الذى يجحدون به يستعجلون العذاب، والله فوق أهوائهم وله فى خلقه سنة ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلا، ولقد كان النبى ﷺ يقول: «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى»^(١).

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال بعض العلماء إن العذاب الذى نعم يكون الجميع مستحقونه، فإذا كان فيهم من يستغفر لا يعمهم العذاب، فمعنى ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أى بعضهم يستغفر وعبر بما يدل على الجميع للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون ذلك، وقيل إن المراد قولهم فى الطواف: غفرانك. وقيل المراد توبتهم إن تابوا.

وينقدح فى نفسى أن الأقرب للمعنى أن نقول، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بمعنى يدخلون فى دين الله تعالى فوجا بعد فوج، إذن لانقطع السبيل على المستغفرين الذين يجيئون تباعا بإنزال العذاب، بطلب المستعجلين خضوعا لأهوائهم وضلالهم.

وقد نفى الله عن ذاته العلية الشأن، فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ فنفى اسم الفاعل وهو نفى الوصف القائم بالذات العلية، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل].

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: بدء الخلق - ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلم: الجهاد والسير - ما للنبى صلى الله عليه وسلم (١٧٩٥).

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
 عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
 بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ
 أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
 عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
 يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
 الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ
 فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

إن الله سبحانه وتعالى رد استعجالهم للعذاب، كما استعجل المشركون
 إسلافهم العذاب، فأنزله تعالى، أما المشركون الذين بعث فيهم محمد ﷺ، فما
 بعث لهم وحدهم، بل بعث للأحمر والأسود، والابيض والأصفر، فما كان لينهى
 رسالته بكفر أهل مكة وإصرارهم على الشرك ومعاندة الحق، بل لا بد من تبليغ
 رسالة ربه، وأن يعرفها الكافة فقد أرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
 كَافَّةً لِّلنَّاسِ...﴾ [سبأ] ولذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ
 اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على ما ذكرنا ولكن هناك عذاب لهم ينزل بهم في
 الدنيا، أساسه منازعة الحق للباطل، وإزالة ماثرات الشيطان أمام شرع الرحمن،
 ولا بد أن يخلو وجه الناس للحق، فكان لابد من مغالبتهم بالقتال، وهو بعون الله
 تعالى عذاب لهم، وهذا هو العذاب الذي قرره الله تعالى لهم في قوله تعالى:

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

هذا تعجب من عدم تعذيب الله لهم بالمغالبة، ومنازعتهم ما وضعوا أيديهم عليه بالباطل، وأقاموا أصنامهم فيه، وليسوا أهلا لولايته.

والاستفهام للتعجب من مناقضة حالهم لما يجب لحرم الله الأمن، والمعنى أى أمر ثبت لهم حتى يقيموا فى الحرم ولا يعذبهم بمنعهم منه، وهم يحاربون شعائره، وذلك بصددهم عن سبيل الله، وعن المسجد نفسه فهم يمنعون النبى ﷺ من أن يؤدى المناسك، ويمنعون ضعاف المؤمنين بإيذائهم، ويصدون الناس معنويا بوضع الأصنام على الكعبة بناء إبراهيم، ويتهكون المحارم، بحمل الناس على الطواف عرايا رجالا ونساء، حتى إنهن ليسترن سوءاتهن بكفهن، هذا كله صد عن البيت.

فكيف لا يعذبهم الله بمغالبتهم على الاستيلاء على البيت، والحال أنهم لا يقومون على حرمت البيت، وهو المسجد الحرام الذى جعله الله حرما آمنا، والناس يتخطفون من حوله.

والتعذيب، كما أشرنا هو مغالبتهم لنزع البيت من تحت أيديهم، ووضعهم فى يد أولياء الله ولكنهم يدعون أنهم سددته، أو أنه بأيديهم مفاتيحه، من عهد إبراهيم، وقد أجاب الله تعالى عن ذلك بأنهم ليسوا أولياءه، أى ليسوا حُماته، أو القائمين عليه؛ وذلك لأن ولايتهم إنما هى بالخلافة عن إبراهيم بانيه ورافع قواعده، وما كان مشركا.

وإنهم إذ أشركوا، وصدوا الناس عن المسجد الحرام، ومنعوا غير العرايا، قد فقدوا صفة الخلافة عن إبراهيم الذى جاء بالحنيفية السمحة، قد فقدوا الحق فى هذه الولاية. ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى ما استمرت لهم هذه الولاية، لأن «كان» تدل على الاستمرار وفيها نفى لهذا الاستمرار.

والولاية الحق تكون لمن كانوا على ملة إبراهيم السمحة؛ ولذا قال: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ هذا قصر للولاية على الموحدين المؤمنين الذين بلغوا ذروة

الإيمان، وهى التقوى، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنفسهم وضلالهم فلا يستحق الولاية المؤمن فقط، بل المؤمن الذى يتقى الله ويحفظ حرمان بيته، قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة].

وإن هؤلاء المشركين لا يعرفون شيئاً مما يليق بهذا البيت العتيق الذى هو أقدس بيت فى هذه الأرض؛ لذا ذكر سبحانه، كيف يتعبدون فى هذا البيت عابثين، غير مؤمنين.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

كانوا يصفرون ويصفقون، ويضعون خدودهم على الأرض، وهم على هذه الحال، ويسمون هذه الحال صلاة، فهى فى حقيقتها ليست صلاة إبراهيم، ولا صلاة مطلقاً، ولكنهم سموها صلاة، وعدوا أنفسهم بها مصليين، وتجاوزوا كل معقول، وعدوا أنفسهم أولياء البيت الحرام، وهم يصدون الناس عنه، ويتحكمون فيه، وفيمن يغدون إليه إجابة لدعوة إبراهيم من كل فج عميق.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ أى ما كان دعاؤهم عند البيت أو ما كان ما يسمونه صلاة، سولتها لهم نفوسهم عند البيت، أى عند ذلك المكان المقدس الذى كان أول بيت وضعه الله للناس الذى قال الله تعالى فيه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [٩٦] فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا... [آل عمران]، [٩٧]، إما كانت إلا مكاء وتصدية وذكر كلمة البيت، وأن هذه التى سموها صلاة كانت عنده، ليتبين عبثهم بهذا البيت المقدس، وليتبين عبثهم فى هذا المكان الذى ادعوا أنهم أولياؤه، والمكاء كرغاء وخوار وغشاء ويعنى الصفير، فوزنه فُعَال، وفعله مَكَأَ يَمْكُو إذا صَفَّرَ، والتصدية مأخوذة من الصدى، والمراد التصفيق؛ لأن التصفيق ترديد للصدى. وقد

روى ذلك عن أبى حاتم، وابن عمر، وقال ابن عباس: كانت قریش تطوف بالبيت عراة، وتصفق، والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

ويروى أنهم كانوا يفعلون ذلك، ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته.

وإن الزمخشري يقول: إن الله تعالى سمى فعلهم ذلك صلاة تهكماً عليه، وقد جاء فى الكشف ما نصه: «فإن قلت ما وجه هذا الكلام قلت هو نحو قوله:

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أداهم سوداً أو محدرجة سُمرا

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء، ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء وهم يشبكون أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول ﷺ .»

وخلاصة القول أن نقول: إن تسمية عملهم صلاة على زعمهم، أو نقول مقالة الزمخشري: إنه تهكم على فعلهم، فسمى صلاة تهكماً، كما يسمى وضع الأيدي فى القيود، وهى الأداهم، والسياط وهى المحدرجة السمر- عطاء، وذلك إهانة للبيت، وتحقيراً له، لا يعقل أن يصدر من أوليائه فليسوا له.

هذه تصرفاتهم فى البيت، وهى صغار شديد لأمره، لا يليق ببيت إبراهيم، بيت الله العتيق، ولذا قال تعالى:

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وفى هذا الكلام التفات إليهم وتوجيه الخطاب لهم، لأن مخاطبتهم بالعقاب يجعله أوقع فى النفوس وأدعى للرغبة، والفاء فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، إذ يكون الكلام تقديره: إذا كانت هذه صلاتهم وإذا كان هذا فسادهم، فذوقوا العذاب بسبب كفركم.

وهنا إشارات بيانية يجب التنبيه إليها.

الأولى - التعبير بـ (ذوقوا العذاب) فإنه مجاز عن نزوله بهم بحيث يمس إحساسهم، وكأنه يذاق مذاقا مؤلما ولا يخلو ذلك من تهكم بهم، كما يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤) [التوبة].

الثانية - قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥)، فإنها تدل على استمرار الكفر، وأن هذا الاستمرار هو السبب في ضلالهم، فإن كنتم وكان فيها دالة على الاستمرار.

الثالثة - أن التعبير بالمضارع يفيد تصوير حال كفرهم المتجدد المستمر، فكل ساعة تمر وهم كافرون تجدد للكفر، وحيث يتجدد الكفر يتجدد سبب العذاب، وقانا الله تعالى منه.

وإن المشركين بذلوا، وسيبذلون كل مال للصد عن سبيل الله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقُوْنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

هذه الآية أقرب إلى الظن أنها مدنية، ولكن نقبل ما يقرره القراء، وهي أنها مكية عند بعضهم، وهي لا تتغير بوصف المكية أو المدنية، فكله كلام الله تعالى لا يتغير بميقات نزوله، ونحسب أن ما في سورة الأنفال مما نزل بمكة، قد انتهى إلى ما قبل هذه الآية.

كتب الصحاح التي تكلمت في أسباب النزول تجمع على أن سبب نزول هذه الآية أن قريشا بعد أن عضتهم الحرب في بدر، وأرادوا أن يثأروا لأنفسهم جمعوا مالا لينفقوه في حرب أخرى يعدون لها، ولكن قال الضحاك: إنه عنى بالآية المطعمون الذين كانوا يطعمون يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلا.

والمذكور فى سيرة محمد بن إسحاق أنه لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان لعيره، مشى رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له فى تلك العيرة تجارة فقالوا: «يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثارا بمن أصيب منا» ففعلوا، وقد ذكر ذلك عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

وأيا كانت الأخبار فى ذلك وإنها لصادقة، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن الله تعالى الرحيم الرؤوف بعباده، لا يجعل المؤمنين فريسة لأموال المنافقين ينفقونها للصد عن سبيله، فينصروا بأموالهم ويتخذ أهل الحق، فصد هؤلاء عن سبيل الله.

إن الله تعالى يؤكد أن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فلا يتحقق لهم قصدهم فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾.

أكد الله سبحانه الإنفاق لهذه الغاية وهى الصد عن سبيل الله، وذلك يجعل كلمة الشرك عالية، ويخضع شوكة المسلمين دعاء الحق، ويمنع الرسول ومن اتبعه من الدعوة، وفى سبيل حرب أهل الإيمان، وقد أكد الله تعالى أنهم سينفقونها بهذه النية الفاسدة، فالسين هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل، وقد كرر النص الكريم الإخبار بالإنفاق، والأول للغرض من الإنفاق، وهو أنه للصد عن سبيل الله فهو بيان للنية الخبيثة، والقصد الفاسد.

والثانى لبيان أنه لا نتيجة لهذا الإنفاق، بل يكون عليهم حسرة، وسيغلبون.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ لبيان وقوع ما يريدون من غير أن يترتب عليه ما يحبون.

و(ثم) هى للعطف والترتيب، وكان التعبير ب (ثم) لبيان بُعد ما يقع عما يريدون، فهم أرادوه سرورا لأنفسهم بتحقيق الصد عن سبيل الله، وهزم الحق، وكانت النتيجة ليست سرورا بل حسرة؛ لأنهم لم يحققوا ما أرادوا وكانت الهزيمة، وهى حسرة ثانية، وكان نصر المؤمنين، وأن يكونوا هم المغلوبين.

ولا شك أن هذه الأمور التى ترتبت بعيدة عن الغاية التى أرادوها، فكان التعبير ب (ثم) لهذه المفارقة بين النتائج التى حققت، والمبعث للإنفاق.

والتعبير بالموصول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إيدان بأنهم يغالبون الله - وهم الكافرون - بأموالهم، والله هو القاهر فوق عباده.

هذه عقوبتهم فى الدنيا، وهى إنفاقهم وإحباط عملهم، وذهاب ذلك حشرات عليهم، وأن يكونوا مغلوبين ما داموا يناعون أهل الحق ويصدون عن سبيل الله.

أما فى الآخرة فجهنم وبئس المصير؛ ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى كلماته: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أى والذين كفروا بسبب كفرهم يذهبون إلى جهنم يحشرون فيها، وقدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، أى أنهم يحشرون إلى جهنم وحدها، والتعبير بيحشرون يومئى إلى كثرة أهل جهنم، وإلى أنهم يكونون فى ضيق محشورون. اللهم قنا عذاب النار.

وإن المؤمنين فى جنة ونعيم مقيم.

وكان الكافرون فى جهنم ليميزوا بعقابهم، ولذا قال تعالى:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الآية متصلة بالآية التى قبلها، فاللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ فى آخر الآية السابقة، أى أن الله تعالى يحشر أولئك الكافرين فى جهنم دون غيرها

يمسهم فيها النصب واللغون كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها، كان ذلك الحشر ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ والخبيث هو الكافر، والطيب هو المؤمن، وأظهر في موضع الإضمار، فلم يقل ليميزهم عن المؤمنين؛ وذلك لبيان أن الكافر خبيث في عقله وفكره وعمله واعتقاده، وليبان أن المؤمن طيب في نفسه واعتقاده وعمله وخير كله، وليبان أن الخبيث لا ينتج إلا الحشر في جهنم، وأن الطيب لا ينتج إلا خيرا، وهذا النص يفيد بإشارة القول ولمح البيان أن جزاء الطيبين نعيم مقيم.

وإن الخبيث يجتمع بعضهم إلى بعضه، يضم الخبيث إلى الخبيث ويتراكم عليه، حتى يكادوا يكونون عليه لبدا، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ تعبير يتناسب مع تكاثف شيء كله خبيث، أى يجعل الله تعالى الخبيث الحاضر فوق الخبيث الغابر، فوق ما سبقه، فنظمه جميعا بعضه لبعضه، وفى هذا إشارة إلى أن فى جهنم مكانا للجميع، وإن كان مزدحما متراكما، وإشارة إلى تلاحق الحاضرين مع من يقلدونهم، وإشارة إلى تميزهم على الطيبين، أو تميز الطيبين عنهم، وإن هذا كله ينبئ عن الخسارة المطلقة التى لا كسب فيها؛ ولذلك قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الإشارة إلى الذين أنفقوا ليمسوا عن سبيل الله، ومن كان إنفاقهم حسرة عليهم، والذين حشروا إلى جهنم، وكانوا قد حملوا الخبيث، أى أولئك الذين كان منهم هذا وجوزوا ذلك الجزاء- هم الخاسرون، وفى الكلام قصر بتعريف الطرفين، أى أولئك هم الخاسرون وحدهم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وإن الله دائما يفتح باب الرحمة، ويذكر العذاب.

قُلْ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا

فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَسِيلُهُمْ حَقٌّ

لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ فَايَاتٍ

أَنْتَهُوا فَايَاتٍ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

إن الذنوب مهما تكبر، فباب التوبة مفتوح فما أنزل الله الرسل ليحصوا عدد الذين أساءوا، بل للدعوة إلى الحق، وقد يكفرون فالدعوة تستمر لهدايتهم، ومن يستجب منهم تجب استجابته ما كان منه من قبل؛ ولذلك كان الباب مفتوحا، ولذا أمر الله نبيه - مع كفرهم - أن يقول لهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

يأمر الله نبيه بأن يقول لهم في شأن الذين كفروا متحدثا عن مآلهم إن ينتهوا عما هم فيه من كفر ومشاقة للمؤمنين ومحاربة للحق - يغفر لهم ما سلف من أعمالهم، ويدخلون في الإسلام طاهرين مبتدئين حياة جديدة هي طهر وتقى ونقاء. وهناك قراءة بالخطاب، ورويت عن ابن مسعود: «إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف» ولكن القراءة المشهورة الأولى، ويكون المعنى قل مخاطبا لهم إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف.

والتعبير بالذين كفروا في موضعه؛ لأنهم متلبسون بالكفر، ومنع تلبسهم بالكفر، إن ينزعوه من إهابهم ويلبسوا لباس الإيمان وينتبهوا من أرجاسه يغفر لهم ما قد سلف؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، وعبر عن الإيمان بعد الكفر بـ «الانتها» للإشارة إلى أن الفطرة هي الإيمان، وأن الكفر عارض على النفس وهو حال قابلة للانتها، وإذا انتهت عاد الطهر والنقاء.

وقال تعالى: ﴿يُغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من حرب وإيذاء، ولبس الحق بالباطل، وكل ما كان منهم من جرائم في جنب الله، فالله غفور رحيم، وما ارتكبوا من زور وريبا موضوع، وكل دماء الجاهلية موضوع، فكل هذا داخل في قوله تعالى ﴿يُغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

وقرر الفقهاء أن الحربى إذا أسلم لم تبق عليه تبعة من حقوق الله تعالى، لأنه إذا غفر الشرك فما دونه أولى بالغفران، إلا ما كان من حقوق العباد كديون عليه، أو أكل مال بالباطل أو نحو ذلك، والذى إذا أسلم فإن الحدود تقام عليه وحقوق العباد تجب على العباد؛ لأن ذلك يلزمه بمقتضى عقد الذمة، والإيمان يؤكد الالتزامات ولا يسقطها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَّعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ظاهر النص إن يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان فإن معاملة الكافرين تعود إليهم، فمعنى ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾، أى فقد تقرر سنة الأولين، وهى معاداتهم لله تعالى، منزل بهم ما نزل بالأولين من إخضاعهم للحق بالمحاربة وتنكيس رءوسهم، وإقامة الحق، أو تدمير ديارهم بزلزال مدمر أو حاصب من السماء، وإن سنة الأولين إما سلم مخزية، أو حرب مجلية، كما فى بدر، أو ريح عاصف أو سيل عال.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الفتنة فى الدين: إيذاء المؤمن لمنعه من اعتقاد ما يراه الحق، أو من الاستمرار عليه، وحمله على تركه بعد اعتقاده، كما يفعل المشركون فى مكة مع المؤمنين، وكما فعل أصحاب الأخدود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ (٤) ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ (٥) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ (٦) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (٧) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٨) [البروج].

ومن الفتنة فى الدين أن يمنع الداعى إلى الحق من الدعوة إليه، وأن يمنع تعريف الناس بهذا الحق. وكان الناس يفتنون فى دينهم بعد دعوة محمد ﷺ إلى الحق، فكانوا فى مكة يفتنون، وقتل فى الشام من أسلم من العرب، وحيل بين

الدعوة الإسلامية، وأن تصل إلى الناس، والقتال يستمر إلى أن يزول سببه، وأن يكون الدين كله لله تعالى بأن يطلب الرجل الدين خالصا لا إرهاب ولا ضلال، بل يعتقد ما يعتقد مخلصا لله طالبا وجه الله والحق لا يبغي سواه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، وإنه إذا طلب الدين كله لله سبحانه وتعالى، لا يفكر فيه كله إلا من هو لله مخلص مستقيم فإنه لا يمكن أن يكون مشركا، بل لابد أن يكون مؤمنا بالله الواحد الأحد الذي ليس بوالد ولا ولد، فإنه حيثئذ يسلم كل أمر في وجهه لله تعالى بعيدا عن تأثير الملوك والرؤساء، وتضليل المضلين، هذا هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، أى يكون الدين كله لله تعالى.

إن نهاية القتال تكون بانتهاء الفتن في العقيدة، وأن يكون طلب الدين، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والمعنى إن انتهوا عن الشر والاعتداء والفتنة في الدين، والإيذاء في الاعتقاد، فإن الله تعالى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى أنه مراقب نفوسهم وعليم بما تخفى صدورهم، وما يجيش بنفوسهم، وفي هذا بيان علم الله الكامل، وتهديد لهم إن عادوا، كما فيه تبشير لهم إن استقاموا على الطريقة، وفي آية يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾.

في الآية السابقة فتح الله تعالى باب التوبة للكافرين ليخلصهم الله تعالى من الشرك الذي أركسوا فيه، وأشار سبحانه إلى أنه أمر عارض على نفوسهم، يستطيعون أن يرحضوه عنها، كما يرحض الوسخ على الثوب الأملس، وبين أن القتال لإزالة الفتنة في الدين، حتى يكون الدين لله.

وبعد هذا ذكر ولاء الله تعالى للمؤمنين، وأنه وليهم وناصرهم إن أعرض المشركون، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى أعرضوا ونأوا بجانبهم بعد أن فتح لهم باب الغفران، أو أن يقول: إن استمروا على إعراضهم وتناثيهم عن الحق فإنه هو مولاكم، فلا تخافوهم، وإن الله غالبكم عليهم لأنه مولاكم وناصركم، فقال

تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ ليس هو الجواب، إنما هو علة الجواب بل الجواب فأنتم الغالبون، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ أى أنه مولاكم أنتم دون غيركم، والولاية للحق، ومعنى مولاكم أى وليكم وناصركم، وأنتم وحدكم حزب الله.

ومن كان الله وليه فلن يهزم، من كان الله ناصره، فلن يغلب ﴿فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة] ولذا قال تعالى ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ونعم من الألفاظ التى تقال فى مقام المدح، والمدح بالنسبة لله تعالى الشكر، والثناء على الله بما هو أهله، فنعم هو وليا مواليا، ونعم الله نصيرا غالبا.

قسمة الله فى الغنائم

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن
كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ
أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ
أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلَافَ لَكُمْ فِي الْمِيعَدِ
وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

هذا تعليم الله تعالى بشأن توزيع الغنائم، فالله سبحانه وتعالى تعهد الحرب من وقت الإعداد لها إلى الإقدام عليها إلى اللقاء فيها حتى الانتهاء، ثم علمنا

توزيع غنائمها ليكون التوزيع حكماً شرعياً نخضع له، فلا نختلف ولا نتأثر، وقسمة الله تعالى هي العادلة وغيرها قسمة باطلة، وقسمة ضيزى لا صلاح فيها، ولا خير.

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ «ما» في قوله تعالى هي اسم موصول بمعنى (الذي) والمصدر المنسبك من أن وما بعدها، مفعول لـ (اعلموا)، أي اعلموا كون الذي غنتموه: خمسه لله ولرسوله إلى آخر النص الكريم.

والغنيمة ما يؤخذ بغير مقابل، ولكن بجهد، وخصت في عرف القرآن بما يؤخذ في الحرب من العدو؛ لأنه يؤخذ بغير مقابل، لأنه أبيع دم العدو وماله، إذ الحرب تبیح دماء العدو وأمواله، ولكنها لا تؤخذ إلا بجهد، وصار ذلك حقيقة عرفية قرآنية.

ولكن أنطلق الغنائم على كل ما يستولى عليه في الحرب، سواء أكانت أرضاً يستولى عليها، أم كانت أموالاً منقولة، كالذهب والفضة والثياب والمطبوعات، أم كانت جوارى وأناسى؟.

تجرى الأقلام على ذلك، ولذلك لاقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مخالفة بادئ ذي بدء عندما منع قسمة الأرضين عن الفاتحين، وخالفه الأكثرون حتى إذا قرأ عليهم قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ٨﴾ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ٩﴾ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ١٠﴾ [الحشر].

وعندما تلا عليهم أمير المؤمنين عمر هذه الآيات خروا صاغرين ووافقوا على ما قال، وقد دل هذا على أمرين:

أولهما - أنهم عدّوا الفىء من الغنائم، إذ أجروا على الغنائم حكمه، وكذلك قال بعض فقهاء الصحابة والتابعين فعدوا الأنفال والفيء والغنائم مؤداها واحد، وإن اختلفت أسماؤها.

ثانيهما - أن الغنائم لا تكون إلا في المنقول الذى ينقل من حيز إلى حيز كالعروض والذهب والفضة والأواني والثياب ونحوها، وقد قال ذلك الرأى بعض الصحابة، جاء في تفسير القرطبي: «لم يختلف العلماء»، في أن قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليس على عمومه، وأنه يدخله الخصوص فمما خصصوه بإجماع أن قالوا: سلب المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام، وكذلك الرقاب أعنى الأسارى الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف ومما خص به أيضا الأرض، والمعنى ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة. وأما الأرض فغير داخله في عموم هذه الآية. ولو كانت الأرض ما بقى لمن جاء بعد الغانمين شيء، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر] بالعطف على قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ...﴾ [الحشر] قال: أو إنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع.

نقلنا هذا الكلام، لبيان أن من علماء الصحابة من قال: إن الغنائم ما يؤخذ وينقل، والأراضى لا تنقل ويستولى عليها، فلا تعد عليها، ولنضع الحجة في أفواه الذين يقولون: إن الإمام عمر رضى الله عنه عارض النص بالمصلحة عندما عارض نصا، ولما اعتمد على المصلحة وحدها لم يجد من يوافقه من الصحابة إلا من كان له مثل علمه، وبصره بالنصوص كعلي بن أبى طالب عالم الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ - من - في قوله تعالى: من شيء، بيانية

ليان عموم ما يغنم قليلا كان أو كثيرا، أى قدر من الغنمة يغتنم يُخَمَّس قليلا كان أو كثيرا، وهذا دليل على أن هذا التقسيم من الله تعالى لا يجوز لأحد أن يقسم غنائم الحروب العادلة كما يهوى، بل إنها أموال الله تعالى يتولى تقسيمها ولى الأمر بتقسيم الله تعالى، لا بمجرد الهوى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، كما كان يفعل ملوك الأمويين والعباسيين، حتى جاء الأتراك فطم سبل الفوضى، وضاع حكم الله تعالى، وصار أمر المؤمنين فرطا.

وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أن ومصدرها مفعول لفعل محذوف، تقديره: ثبت والمعنى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، فقد ثبت وتقرر وحكم الله أن لله خمسة... وللرسول.

هذا تقسيم جعل الخمس أولا لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فهو خُمُسٌ مُخَمَّسٌ إلى خمسة أخماس، وأربعة الأقسام الأخرى تقسم على الغانمين، ولم يصرح بتوزيعها؛ لأنها معلومة بحكم الغنم الذى قام به الفاتحون، فهى تقسيم بين محصورين، وهم: الله ورسوله، وفقراء الأمة وضعفاؤها، والفاتحون، فإذا ذكرت حصة أحد الفريقين فقد علمت حصة الفريق الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ...﴾ (النساء) ويعلم بذلك أن الأب حصته الباقي وهو الثلثان.

فإذا علم أن فريق الله ورسوله والضعفاء نصيبه الخمس، فأربعة الأقسام تكون للقاتلين... ولتتکلم فى حصة الله ورسوله والضعفاء.

قالوا: إنها مقسمة إلى خمسة أقسام، فالأول للرسول، وهو لله تعالى، والله ورسوله خمسهما واحد، والثانى لذوى القربى، والثالث من خمس الله ورسوله - للضعفاء واليتامى، والرابع للمساكين، وهم الفقراء الذين سَكَّتْهم الحاجة، ولا قوت عندهم، والخامس لابن السبيل، وهو الذى انقطع عن ماله فى سفره، فإنه يعطى من ذلك الخمس، ما يكفيه حتى يعود إلى أهله.

وهنا ملاحظة بيانية - ترتب عليها حكم فقهي، هي أن نصيب الرسول والضعفاء، ذكر فيه أنه لله، فلماذا ذكر الرسول بجواره؟ والجواب عن ذلك الإشارة إلى أن ما كان للرسول، إنما هو للقربات، ولأن الرسول هو لسان الحق، وهو ينطق باسم الله، ولأن ما خص به الرسول ليس لذاته، ولكن جعل تحت يده ينفق منه على الكعبة، وعلى المؤلفلة قلوبهم ويرضخ منه لمن لا سهم له من الفاتحين كالعبيد والنساء فهو ليس له خاصة، بل يسد به ما عساه يكون مكملًا للقسمة ومهما يكن فإنه ينفق في الحاجات العامة للمسلمين.

هذا تخريج بعض العلماء، فخمس الله ورسوله والضعفاء يقسم إلى خمسة.

وبعض العلماء يقول: إن لله في هذا الخمس، كإصلاح الكعبة والقيام على سدانتها، ويظهر أن مثل ذلك المرافق العامة.

وأما ما يخص الرسول ﷺ فينفق منه على أزواجه، وعلى من يرضخ لهم ونحوهم مما يتعلق بالجهاد بالنسبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، قال العلماء: إن المراد بهم ذوو القرابة للنبي ﷺ من بنى هاشم وبنى المطلب، وقال رواية السيرة: إنه لم يعط كل بنى عبد مناف، فلم يعط بنى نوفل، ولا بنى عبد شمس من الأمويين؛ وذلك لأن بنى المطلب كانوا يناصرون النبي ﷺ في الجاهلية، وكانوا مع بنى هاشم، ولما قاطعت قريش بنى هاشم انضم إليهم في شعب أبي طالب بنو عبد المطلب فرضوا مختارين أن ينزل بهم ما نزل ببني هاشم، في الوقت الذي لم يشرك أبو لهب إخوته في بلائهم وروى أن عثمان بن عفان، وجبير بن مطعم لما أعطى بنى المطلب ذهبًا إلى رسوله ﷺ، وقالوا له: هؤلاء إخوانك من بنى هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، رأيت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم

بمنزلة واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام، وإنما هاشم وبنو المطلب شيء واحد» وشبك بين أصابعه^(١).

وإنهم يأخذون بالنصرة والقراية فهم واسوه فى الشدة، فكان أن يواسوا فى الغنيمة؛ لأنهم نصرأؤه، ولم يسلموه إلى المشركين وقت أن رآه أولئك المشركون بالسوء.

ولقد كانوا يأخذون ورسول الله حى، ومن بعده يستحقونه لهذا السبب لأنهم نصرأ رسول الله، ولأنهم لا يأخذون الصدقة لأنها أوساخ الناس، ويأخذون سهمهم بالسوية بينهم غنيهم وفقيرهم على سواء، ولا يسقط سهمهم بوفاة النبى ﷺ لأنهم لا يستحقون شيئا بالفقر، فبقى ذلك السهم لهم بالنصرة، والقراية.

أما سهم النبى ﷺ، فإنه يسقط ويكون فى يد ولى الأمر ينفقه حيث كان ينفقه الرسول ﷺ. والشافعى يبقئ سهم ذوى القربى غنيهم وفقيرهم على سواء غير إنهم لاستحقاقهم بمقتضى القربى كان التوزيع على نحو قريب من الميراث، بأن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين.

وإن الأسهم الثلاثة الأخيرة تكون لليتامى والمساكين وابن السبيل لكل سهم، ولا يعدو أصحاب سهم على آخر. وقال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه: بعد سهم الله ورسوله وذوى القربى يكون الأمر فى الأسهم الثلاثة الأخرى مفوضا لرأى الإمام إن شاء أعطى كل ذى سهم سهما، وإن شاء لم يعط واحدا، ولكنه لا يخليها منها.

وعلى الأسهم ستة يقدر لله سهم يكون للكعبة، وقد روى أن الرسول ﷺ كان يأخذ الخمس، فيقبض منه قبضة، فيجعلها للكعبة، وهو سهم الله تعالى، ثم

(١) رواه النسائي: قسم الفىء- باب (٤١٣٧)، وأحمد: أول مسند المدنيين رضى الله عنهم أجمعين- حديث جبير بن مطعم (١٦٢٩٩). وهو عند البخارى: المناقب- مناقب قريش (٣٥٠٣).

يقسم ما بقى على خمسة^(١)، وقد جاء فى الكشف لجار الله الزمخشري: وقيل إن سهم الله تعالى لبيت المال، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان على ستة أسهم، لله وللرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبض، فأجرى أبو بكر - رضى الله عنه - الخمس على ثلاثة، أى اليتامى والمساكين وابن السبيل. وروى عن عمر ومن بعده من الخلفاء. وروى أن أبا بكر منع بنى هاشم، وقال: إنما لكم أن يعطى فقيركم، ويزوج أيمكم، ويخدم من لا خادم له منكم، أما الغنى منكم بمنزله ابن السبيل لا يعطى غنى من الصدقة، ولا يتيم موسر.

وخلاصة هذا القول أن رأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ألا يعطى من بنى هاشم، ويظهر أن مثلهم بنو المطلب ألا يعطى إلا ذوو الحاجة، يزوج الأيم، ويخدم من لا خادم له، ويكون ذلك من سهم ذوى القربى، وأن سهم النبى ﷺ يسقط بقبض الله تعالى له، ويكون تحت يد ولى الأمر.

وعند من يقول: إن لله سهمًا، يكون تحت يد ولى الأمر من المؤمنين.

وإنه بالاتفاق لا يأخذ اليتامى والمساكين وأبناء السبيل من أسهمهم إلا بسبب الفقر لأن الصيغة نفسها تومئ إلى أن شرط الأخذ هو الحاجة.

بقيت أربعة الأخماس، فنقول: إنها تصرف للغزاة، وقد روى فى طريق توزيعها إنها تقسم أسهما، فيكون للراجل سهم، وللفراس الذى له فرس ثلاثة أسهم؛ سهم للمقاتل، وسهم للفرس، وسهم للقائم على علف الفرس وتدريبه وملاحظته، وهذا روى فى الصحيح، وهو مذهب الحنفية.

وروى أن للفراس سهمين اثنين فقط؛ سهمًا للفرس، وسهمًا لصاحبه، ولكن الأصح سندًا الذى يتفق أكثر الرواة عليه هو الأول، تشجيعًا للعناية بعدة القتال وتوفيرها إذ يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ...﴾ [الأنفال].

(١) ذكره الزمخشري فى كشفه: ج ٢، ١٥٨، والأكوسي: ج ١، ص ٢، وأبو السعود: ج ٤، ص ٢٢ عن أبى العالية رضى الله عنه.

وإن البرذون^(١) من الخيل عند الحنفية، وعند الأوزاعي لا يعد البرذون خيلاً، والحق ما قاله الحنفية فإنه لا فرق في المعنى بين الخيل والبرذون (راجع الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف). وإنه يجب التنبيه إلى أمرين:

أولهما- أن ذلك التقسيم للغنائم هو عمل الله تعالى، يروى أن رسول الله ﷺ أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: «لا يحل من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، ولقد قال ﷺ فيما رواه أبو الدرداء وقد تناول وبرة بين أئمتيه: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم؛ فأدوا الخيط والمخييط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله تبارك وتعالى القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحضرس والسفر، وجاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجي الله تبارك به من الغم والهم»^(٢).

ثانيهما- أن هذه الغنائم ليست سلباً ولا نهباً، كما ادعى بعض الكذابين من كتاب الفرنجة، إنما هي مغنم النصر، ومغارم الاعتداء، وإنما حرب المسلمين للمعتدين رد لاعتدائهم، وسلوا جيوش أوربا فإنها لا تكتفى بما يؤخذ من أموال المغلوب نتيجة للغلب، بل إنها بعد الصلح تأخذ كل ما تغنم، وتقرض عليه ما أنفقته في الحرب، وأنى هذا من عدل الإسلام الذي لا يفرض أن ثمة مجرمى حرب، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين.

ويقول سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ الشرط هنا متعلق بقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، أى الخمس يكون لله وللرسول... إن كان الإيمان شعاركم، وكنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فإن ذلك الإيمان يجعلكم تعطون حق الله وحق الرسول، وحق ذوى القربى واليتامى والمساكين طيبة بذلك نفوسكم مطمئنين

(١) البرذون : وجمعه براذنين، دابة الحمل الثقيل.

(٢) رواه أحمد: باقي مسند الأنصار - حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه (٢٢١٩١).

بذلك، فلا تأخذوا حق الله ولا حق الضعفاء، كما قال رسول الله ﷺ: «ابغوني في ضعفائكم، إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»^(١).

وإن الإيمان بالخمس الذي لله ورسوله وللضعفاء هو من الإيمان بالله، ولقد قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس، من الغنائم»^(٢)، فجعل رسول الله ﷺ أداء خمس الله ورسوله والضعفاء من الإيمان.

وإن هذا يدل على أكمل التعاون؛ لأن خمس الله ورسوله لسد حاجة بيت المال، ولإعانة الضعفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ في هذا النص تذكير بيوم بدر وأن النصر كان من عند الله وبفضل معونته وتأييده، ففي هذا اليوم كان تأييد الله، إذ بشرتهم الملائكة، وألقت في أرواحهم بالاطمئنان والبشرى وأن وهبهم الأمن ومعه النعاس، وأن ثبت لهم الأرض بالأمطار، وأن طهرهم من الرجس، وأن ثبت أقدامهم، وما كان النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

ويوم الفرقان هو اليوم الذي فرق الله به بين الحق والباطل، فـ «ال» للعهد، وفسره الله تعالى بأنه يوم التقى الجمعان، جمع الحق بقيادة محمد رسول الله ﷺ، وتأيد الله سبحانه وتعالى، وإمداده بالملائكة، (وجمع الباطل)، فقول تعالى: ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ يدل من يوم الفرقان.

ثم ذيل الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي هذا إشارة إلى الله تعالى القادر على كل شيء هو الذي نصركم، وهو الذي

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري: العلم- تحريض النبي وفد عبد القيس (٨٧)، ومسلم: الإيمان- الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قهر عدوكم مع كثرة العدد والعدد، وهو الذى بذل من دُلكم عزاء، ومن عزهم خذلانا، وهو الذى دمع الباطل فأزهقه، وهو الذى حق الحق بكلماته وأبطل المجرمون.

فإذا كان نصركم بتأييد الله، وتؤمنون به حق إيمانكم فلا تستكثروا حق الله والضعفاء فى الغنائم إن كنتم مؤمنين

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلُ مِنْكُمْ﴾.

ذكرت فى الآية السابقة الغنائم التى أخذت فى بدر، وكيف توزع، واختص الله تعالى بالذكر الخمس على الضعفاء، والذى ذكر باسم الله ورسوله.

ولكى تقى النفوس شحها، أشار سبحانه إلى أن النصر كان من عند الله، وفى هذه الآية: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا...﴾ يبين سبحانه وتعالى أن الموقعة كلها كانت بتدبير الله تعالى، ولم تكن بتدبيرهم، ولا بتدبير المؤمنين، ولو تواعد الفريقان لاختلفا فى الميعاد.

وإذ فى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ متعلقة بمحذوف معناه: اذكر يا محمد أنت ومن معك إذ أنتم بالعدوة الدنيا، وقد جئتم لمصادرة العير، لم تريدوا نفيرا، ولكن تريدون عيرا، وقد أفلتت منكم، وهى أسفل منكم، أى أسفل من المدينة عند سيف البحر، فجاءكم جيش هو بالعدوة الدنيا، وقد قال بعض المفسرين: إن (إذ) بدل من يوم الفرقان، وذلك جازم، ولكن نختر ما ذكرنا؛ لبعد ما بين البذل والمبدل منه، ولأن تعلقها بمحذوف تكون ابتداء لكلام مستقبل فيه عبرة واضحة، ويبان لأن النصر من عند الله العزيز الحكيم استقلالا، ولأن ذكر يوم الفرقان لبيان التذكير به والإيمان بما فيه.

و ﴿الْعُدُوِّ﴾ أعلى الجانب، و ﴿الدُّنْيَا﴾ مؤنث أدنى، والبعد والقرب بالنسبة للمدينة، و ﴿الْقُصْوَى﴾ مؤنث أقصى، وهو القاصى عن المدينة، و ﴿الرَّكْبُ أَسْفَلُ مِنْكُمْ﴾، الركب هو العير الذى كانت فيه متاجر قريش، وخرج المسلمون لأخذها

بدلاً من الأموال التي اغتصبها المشركون منهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق، ومن المقرر في قانون العدل والإنصاف أن من ظفر بعين ماله أو بمثله ممن اعتدى عليه واغتصبه كان له أن يأخذه، فلا يذهب حق صاحب الحق هدراً، ولأن المشركين إذ أهدروا حقوق المسلمين وأموالهم واستباحوا دماءهم، فقد أباحوا دماء أنفسهم، وأموالهم وما على المؤمنين من سبيل إن استباحوها، فذلك قانون الحرب بسبب العداوة والبغضاء التي آثراها المشركون.

كان المؤمنون بالناحية القرية من المدينة، وكانت العير أسفل عند سيف البحر، وقد كان ذلك لقاء بغير تدبير كامل مقدر مقصود، بل هو لقاء توفيقى من الله تعالى.

وقد جاء فى سيرة محمد بن إسحاق «بعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر علي بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام فى نفر من أصحابه يَتَحَسَّسُونَ له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبنى سعيده بن العاص، وغلاماً لبنى الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فوجدوه يصلى، فجعلوا يسألونهما: من أنتما، فيقولون: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكرهوا خبرهما، فضربوهما حتى أزلقوهما، قالوا: نحن لأبى سفيان فتركوهما، وقال ﷺ: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش: أخبرانى عن قريش، قالوا: هم وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى. فقال رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالوا: كثيراً، قال: ما عدتهم لهم؟ قالوا: لا ندرى، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: عدتهم ما بين التسعمائة إلى الألف.

هذا خبر يؤكد نزول جيش المشركين بالعدوة القصوى على كثيب من الأرض، والمؤمنون بالعدوة الدنيا، وهنا نجد سؤال الزبير وسعد وعليّ كان على العير؛ لأن رسول الله ﷺ كان -وهم- خارجاً للعير، ولذلك كذب الغلامين إذ لم يخبراها عن العير الذى كان بحراسة أبى سفيان، والنبي يسأل عن قريش.

والعير كما ذكرنا كان من أسفل المدينة عند سيف البحر، كما أشار القرآن الكريم.

وإن قصة خروج جيش المؤمنين، وجيش المشركين، والعير، هي كما أشار القرآن الكريم، خرج جيش الإيمان وكان قليلاً لمصادرة عير لقريش وقد أفلتت منه، وهي ذاهبة إلى الشام، فترصدها المؤمنون، وهي عائدة، وأحس بذلك أبوسفیان قائدها، فمال بها نحو سيف البحر، وأخبر قريشاً بنجاتها ولكنها كانت جيشاً لحمايتها، وأصروا على الذهاب إلى بدر، حيث كان الترصد للعير، ليفرضوا هيبتهم في البلاد العربية، وإنهم لم يتخاذلوا، ولم يضعفوا، فكان اللقاء بتوفيق الله تعالى أو توقيفه، وإرادته، ليعز الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾

أى أن ذلك اللقاء الذى انتهى بذلك اللقاء الذى كان فرقانا بين الحق والباطل لم يكن بميعاد على حرب، ولا اتفاق ابتداء على معركة، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، أى لتخلف بعضكم، فيختلف الميعاد، فالمؤمنون ابتداءً ما أرادوه: لقلة عددهم، ولقلة ما عندهم من عدة ولسطوة قريش في أرض العرب، فقد يودون غير ذات الشوكة تكون لهم، والمشركون ظهر التردد فيهم، فبنو زهرة تركوا جيش الشرك، وبعض بنى هاشم تركه، ومن جاء منهم إلى الحرب كالعباس ما كان مريداً، بل كان متورطاً، وما فى قلوبهم من هبة النبى ﷺ وما اعتراهم من العلم بأن الله معه، ولو لم يؤمنوا به، وخصوصاً ما أفرعهم من خروجه من بين ظهرانيتهم، وهم يترصدونه يوم الهجرة، فهم كانوا يتهيبون لقاءه، وإن كانوا يعاندونه، ويقاومونه.

ولكن الله أوجد هذا اللقاء، وإن ابتداء غير مقصود من الفريقين المتقاتلين؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى ليقضى الله تعالى أمراً وحقيقه،

وهو إعزاز الإسلام، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، و«كان»، أى قرره الله تعالى وثبته على أن يكون واقعاً ثابتاً مفعولاً، ويصح أن تفسر (كان) بمعنى صار أى

صار مفعولاً، ولقد قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

أغراهم الله تعالى بالغير ليخرجوا، وأراد المشركون أن يحموا غيرهم فالتقوا وتحقق ما أراد الله. ثم قال تعالى:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (اللام) هنا لام العاقبة، والمعنى لتكون نتيجة ذلك اللقاء أن يهلك الذين هلكوا عن بينة وحجة قائمة، وهو أن الله تعالى ناصر المؤمنين وغالب الكافرين، وأن الله تعالى مؤيد جنده، ويستشرف المستشفون إلى نصر الله، ﴿وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أى حجة ونور وهداية أن يكون الحق غالباً، وأن يظهر الله دينه، ولو كره المشركون.

ويصح أن يكون الهلاك والحياة مجازيين، ويراد من الهلاك الكفر، ومن الحياة الإيمان، ويكون المعنى وليكفر من يكفر عن بينة ظاهرة، وهى بيان أن الله ناصر المؤمنين ويحيي المؤمنون بالإيمان عن بينة برجاء النصر.

وللزمخشري فى هذا كلام قيم نقله، قال رضى الله تعالى عنه: (فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وإن العير كان أسفل منهم؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته تمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين، والثبات فى أمرهم، وأن غلبتهم فى مثل هذه ليست إلا صنعا من الله سبحانه، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أن العدو القصوى التى كان المشركون فيها كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدو الدنيا وهى خبارٌ (أى لينة مسترخية) تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم



وتشجذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ليعيشتهم الذود عن الحريم، والغيرة على الحرب على بذل جهيداهم في القتال ولا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم، ويضبط همهم، ويوطن نفوسهم على ألا يبرحوا موطنهم، ولا يخلوا مراكزهم ويبدلوا منتهى نجاتهم، وقصارى شدتهم، وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر ليقتضى الله أمرا كان مفعولا من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين بمهمة غير مينة، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص بقریش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله ﷺ لأموالهم حتى نفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا، وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراء العير يحامون عليها حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان) وهذا القول من عيون ما اشتمل عليه الكشف من دقة معنى، وبلاغة لفظ، وتسام لإدراك سر القرآن، وسر الأحداث.

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن ذلك كله تدبير من الله، وهو من مقتضى علمه الشامل الذى هو علم من يسمع من غير أذن، ومن يبصر من غير عين جارحة؛ لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقد أكد سبحانه علمه بالجملة الاسمية، وبـ «إِنَّ» المؤكدة، وباللام في قوله: «السميع»، وبصيغة فعيل، فسبحان من وسع كل شيء علما.

وإن الله تعالى يبين أنه سبحانه هو الذى جمع بين المؤمنين والمشركون في هذه المعركة فأغرى المؤمنين بالعير، وحرك قریشا لحماية غيرها، وهو الذى سهل اللقاء على الفريقين فأطمع المشركون فى المؤمنين، وسهل للمؤمنين اللقاء بهم ليحقق ما أراد سبحانه وهو إعزاز الحق، وإذلال الباطل، فقال تعالى:

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا
 وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفْشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ
 يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ
 فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ
 تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
 فَاتَّبِعُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
 وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنْزِعُوا عَنْ أَفْئِسَّالُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
 وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
 خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

إن اللقاء كما قررنا، وكما أرشدنا الله تعالى كان بجمع الله بين الفريقين،
 وتلاقيهما، والنصر أيضا والإقدام كان بإرادة الله تعالى وهدايته.

وإن أول النصر ألا يهاب المؤمن عدو الله وعدوه بل يقدم وهو مدرع بأمرين
 أولهما - إرادة النصر، والثاني - الصبر، وقد هيا الله تعالى الأمرين، فقال
 تعالى:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفْشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾

أما الصبر فقد أمر به فى آيات كثيرة، وقد أمر بالثبات، كما سيأتى فى الآية الأخرى، وأما إرادة النصر فتكون بالإقدام، وذلك برؤية النبى ﷺ فى المنام الأعداء قليلين، ورؤية النبى ﷺ وحى، وقد قال ﷺ: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من الوحي»^(١).

ومعنى رؤيتهم عددا قليلا، أنه ﷺ رآهم فى حال يستهين بها، فلم يتكاثروا عليهم، ولم يتضافروا على المؤمنين، ورأى المؤمنين ظاهرين بارزين كأنهم كثيرون، وكأن أولئك قليلون من قوة الغلب، ومظاهرتهم عليهم، أو أنه يستتر عنه فى منامه أكثرهم، فيستبشر النبى ﷺ بالنصر، ويفهم النبى ﷺ من تأويل رؤياه أنه سينصر أهل الإيمان، فما يفهم أن العدد قليل، ولكن يفهم أن الرؤيا الصادقة النصر المبين لا محالة، وذلك لا ينافى أن النبى ﷺ قدر عددهم بما بين تسعمائة وألف، وقد كانوا كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ إذ مفعول لفعل محذوف أى اذكر يا محمد لأصحابك ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ و «قليلًا» مفعول مطلق لموصوف محذوف أى عددا قليلا، ويقوم هنا الوصف مقام الموصوف.

وإن الله تعالى أرى النبى ﷺ العدد قليلا، ليقدم المؤمنون واثقين، فالثقة بالنصر تزيدهم قوة، وتدفعهم إلى الإقدام، ولا يصيبهم رفق ولا خوف، فيتقدمون واثقين بالنجاة.

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَأَوْهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ﴾، أى لو أراهم الله عددا كثيرا قويا لأصابكم الفرع ووراء الفرع العجز، وهذا معنى الفشل، فالفشل هو العجز، ﴿وَتَتَنَزَعْتُمْ﴾ لاختلقتم فى الخروج، ولكان فيكم من يخشى عاقبة الحرب مع قلة العدد، ومع قلة العدة، ومع قلة ما يحملكم، فلقد كنتم فى قلة من الأمرين، ومع الاختلاف التنازع فى الفكرة ثم التنازع من بعد ذلك فيما بينكم وبين أنفسكم.

(١) انظر مسلم: الرؤيا: باب-(٢٢٦٤).

وقوله تعالى ﴿وَلَتَنَارَزَنَّ فِي الْأَمْرِ﴾ مؤداه الاختلاف في أمر القتال؛ أتقدمون عليه مع إحساسكم بالقلّة وضعف العدة أم تمتنعون عنه لهذا الإحساس. وعبر عنه بالتنازع لقوة أسباب الخلاف، فإنها في باب القتال أمر خطير.

وقد درأ الله تلك الأسباب عن أعينكم بما رآه النبي ﷺ من رؤيا صادقة كان تأويلها نصركم، ولقد كان النبي ﷺ، يطمئن المؤمنين بعد أن تقرر القتال، فبعد أن أخذ رأى الأنصار في القتال وقال قائلهم: «امض لما أمرك الله فإننا صدق في الحرب صبر عند اللقاء، قال النبي ﷺ: «إني لأرى مصارع القوم»^(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾، الاستدراك من الكلام السابق، وسلم الله تعالى من الفشل والجزع والتنازع، وكان اللقاء يوم الجمعة مع النصر المؤزر، الذي جعل المؤمنين أعزة، بعد أن كانوا مستضعفين يتخطفهم الناس، ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ذات الصدور هي ما يكون في الصدور مما يدفعها إلى الإقدام، أو يثبط فيها العزائم، أو يلقي فيها بالخور والخوف، فالله تعالى عليم بها، وبما يدفع الهمم، ويقوى القلوب، ويمنع الفشل والتراجع، فيطب لأدوائها بما يقيها الهلع والفرع ويطمئن القلوب، ويبعد عنها مخاوفها، إنه عليم حكيم.

هذا ما أودعه قلب القائد الحكيم، وأودعه قلوب المؤمنين بتلك الرؤيا الصادقة التي أراه إياها.

وقد كان الجيشان تحت عنايته سبحانه، ليقدم كل منهم على القتال غير خانع ولا خائف؛ ليبدى كل واحد منهما ما عنده من قوة، وليعلم كل منهما كيف كان نصر الله للمؤمن، وخذلانه للكافر مع أنه أبدى كل ما أوتي من قوة.

فقال سبحانه:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَقُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

(١) انظر البداية والنهاية ج: ٤، ص ٦٠، وسنن النسائي الكبرى، ج ٥، ص ١٨٦، وفي مجمع الزوائد (٨٧٩٩) وراجع رواية مسلم: الجهاد والسير - غزوة بدر (١٧٧٩).

قد كان من أمر الله تعالى وتوفيقه أن يرى المؤمنين المشركين عددهم قليلا، وأن يقلل عدد المؤمنين في نظر الكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الثَّقَاتِ فَبَقِيَ الثَّقَاتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ١٣﴾ [آل عمران].

وإن الحكمة في أنهم في نظر المؤمنين عدد قليل واضحة؛ لأن الله تعالى ألقى في قلوب المؤمنين بأسا وقوة جعلتهم يستصغرون عددهم، ويستهيئون بقوتهم لكي يقدموا من غير وجل مع الإيمان بالله وبالنصر، وقد رأوهم كذلك قلة، إذ صغر أمرهم في نظرهم، ولم يجدوا كثرتهم، والعين قد تخطى في العدد بالكثرة أو القلة فقد كان المشركون عددا كبيرا، قد قدر النبي ﷺ عددهم، ولكن المؤمنين عندما التقوا بهم لما ألقاه الله تعالى في روع المؤمنين من قوة بأس وإقدام رأوهم قليلا، لا للهمة التي بدت من المؤمنين كحمزة، وعلى، والزبير، وابن رواحة، وسعد بن معاذ، فقد كانوا يفرون من سيوف هؤلاء حتى لم يروا في الميدان إلا عددا قليلا.

وأرى الله تعالى جيش المؤمنين قليلا في نظر المشركين عند اللقاء ليستهيئوا بهم، ويغتروا بقوتهم فيسترخوا في القتال، حتى إذا غطتهم قوة المؤمنين، ورأوا فيهم شدة البأس أرادوا المقاومة بعد الاستهانة والاسترخاء فلم يجدوا، وأخذت صفوف المسلمين المتراصة تحصدهم حصدا، وقد كانت رؤية عدد المسلمين قلة من الكافرين حقيقة، ولكنها سيطرت عليهم الاستهانة، فقتلت منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فيه متعلق بفعل محذوف تقديره اذكروا إذ... وفي ذلك تذكير بفضل الله في هذه المعركة، إذ قواكم وسلطهم عليكم، وأذهب عنكم الفرع منهم، وثبت أقدامكم، وهنا إشارتان ببيانيتان:

إحداهما- أنهم لم يكونوا قليلا، بل كانوا عددا كثيرا، ولكن الله تعالى جعل أبصارهم ترى ذلك الكثير قليلا، فالله تعالى هو الذي يخلق الأبصار، فهو

يجعله قليلا، ويجعله كثيرا، ولا تغير في الحقائق إنما التغير في الإدراك لحكمة علمها الله وقدرها، وكان النصر بسببها وهو ينصر من يشاء بإذنه.

الثانية- قوله تعالى: ﴿وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ - فقوله «في أعينهم» فيه إشارة إلى أن هذا التقليل في أعينهم هو من إرادة الله تعالى؛ لأنه استهانة منهم أدت إلى استرخاء في القتال، فالله سبحانه وتعالى ما جعل المؤمنين قلة، لأنهم فعلا كانوا قلة، ولكن عمل الله جعلهم يجعلون من أمر قتالهم أنهم قلة فقاتلوهم على أنهم عدد قليل فاستهانوا وتهاونوا، وكان النصر المؤزر.

وقال تعالى: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى ليحقق الله بقضائه المحتوم أمرا كان مفعولا أى صار واقعا ثابتا، وهو النصر بفضل الله، وتأيدته، فقد حقق الله تعالى كل أسباب النصر فهياً الأسباب المادية من النعاس الآمن، وأنزل المطر الذى لبد الأرض، وهياً الأسباب النفسية من بشارة الملائكة، ومن تقليلهم فى أعينهم.

وختم الله تعالى بقوله: ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، أى إلى الله وحده ترجع الأمور يوم القيامة، فهذا هو نصر الله عليهم فى الدنيا بتوفيقه سبحانه، وتهيئة كل الأسباب المؤدية إلى النصر، وفى الآخرة الأمور كلها إليه سبحانه. وتقديم الجار والمجرور دليل على أن الأمور لا ترجع إلا إليه سبحانه وهو يجازى المحسن إحسانا، وللمسئ العقاب السوء.

وقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الثبات هو القوة، وقد ذكرنا أنه عبرة النفوس فى القتال فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفئة الجماعة من الناس، والتعبير بفئة يفيد بأنهم قد فاء بعضهم إلى بعض، وتجمعوا لغرض أن ينالوا منكم، وكان هذه الآية وما بعدها. تعد المؤمنين للقاء أشد عن لقاء بدر؛ لأن لقاء بدر كان لأجل حماية المال، واللقاء من بعد لأجل

الثار، ولأجل إلقاء السطوة والسلطان، وهو أعنف من المال، وإذا كان الله تعالى قد استقبل القتال في بدر بعدم الفرار فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَتْسَلِّمُ الْمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال]، فإنه سبحانه يستقبل القتال الجديد، بطلب الثبات، والذكر لله، والطاعة لله ولرسوله، ومنع التنازع، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ فِتْنَةً فَاقْبَلُوا بِكُفْرٍ كَثِيرًا﴾.

أمران جليان عند اللقاء، وهما الثبات، وذكر الله. واللقاء لم يبين فيه من الذي ابتدأ باللقاء، وظاهر القول أن المشركين هم الذين جاءوا إلى ديارهم والتقوا بهم، ولقد قال النبي ﷺ «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»^(١).

أمر الله تعالى بالثبات بأن يلاقوهم ثابتين في أماكنهم، فإنهم إن لم يشبوا ضربوا في أفقيتهم، فيتمكن منهم العدو، فيقتلون، ولا ينالون من عدوهم منالاً، وإن ثبتوا لا يقتل واحد من المؤمنين إلا إذا قتل عدداً من المشركين، وحيث كان الفرار كانت الهزيمة لا محالة، وقد أمر بذكر الله كثيراً فإن النصر ليس بالسلاح ولا التخطيط فقط، بل مع ذلك بأمرين في القلوب:

أولهما- الثبات، فلا تضطرب الصفوف ولا يصيبها الخلل فترجف الأفتدة ولا تضع الثقة بين الجند .

وثانيهما- ذكر الله تعالى، فإن ذكر الله يجعل القلوب مطمئن، وإن ذكر الله يملأها إيماناً و يقيناً، ورجاء في النصر. وإن ذكر الله يذهب فزع القلوب، ويساعد على الثبات، وإن ذكر الله يذكر بوعده بالنصر فهو يزيده أملاً بالنصر،

(١) متفق عليه، رواه البخاري: الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم: ومسلم: الجهاد والسير- كراهة تمنى الموت (١٧٤٢). عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

وإن ذكر الله إذا جهر به في الميدان ازداد المؤمنون حماسة، وألقى بالرعب في قلوب المشركين، وإن ذكر الله يجعلهم لا يشغلهم عن الله شاغل، وتكون أجسامهم وقلوبهم لنصره، و ﴿كَثِيرًا﴾ مفعول مطلق أى اذكروا الله ذكرا كثيراً بحيث لا تتوقفوا عن ذكره مهما تشدد الحرب، وتلتحم السيوف وتتلاقى بالحتوف وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أى راجين بثباتكم وذكر ربكم أن تفوزوا بالنصر، فالرجاء من الناس لا من الله؛ لأن الله تعالى يعلم الغيب فى السماء والأرض، ويعلم ما كان وما يكون.

وإن طاعة القائد والاتحاد أولى دعائم النصر؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

إن الله سبحانه وتعالى يأمر بطاعته ورسوله فى هذه الحرب التى أمر الله تعالى فيها بالثبات وذكر الله كثيراً، والأمر بطاعة الرسول فى الحرب أمر بطاعة القائد؛ لأن الرسول ﷺ فى الحروب التى قامت فى عهده كان هو القائد، وطاعة القائد واجبة لأنه المنظم، وإذا كان ذلك وواقعة أحد التى خولف فيها القائد فكانت القتلة فى المسلمين، وإن لم يكن الانهزام كما تصور بعض الأقلام، فيكون ذلك من الله تنبيها لما يقع، وهو علام الغيوب، وإن طاعة الرسول ﷺ فى الحروب هو بكونه قائدا فيكون أمراً بطاعة القائد، فإن طاعته إذا كان درية مخلصاً من أسباب الانتصار.

وطاعة الله هى لب الاستقامة، وطهارة القلوب، وهى التى تكون بها قوة الإيمان، وقوة الإيمان دعامة الانتصار، وهى قوة الجهاد، ودعامة الصبر، وتلك عناصر الجهاد الحق فى سبيل الله تعالى.

وذكر تعالى بعد الأمر بطاعته ورسوله - النهى عن التنازع، والنهى عن التنازع يكون أولاً بالنهى عن الخلاف، فإن الخلاف يؤدى إلى النزاع، والنزاع يؤدى إلى التنابد والتدابير، وأن يكون كل فريق جمعاً منفصلاً عن الآخر، ويكون بأسهم

بينهم شديداً، وإن الأثر الواضح للتنازع هو الفشل؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَتَفَشَلُوا﴾ الفاء للسببية تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها، أى أنه بسبب ذلك التنازع يكون الفشل، والفشل هو العجز، بحيث كان النزاع كان العجز عن عمل جماعى؛ لأن العمل الجماعى يجب أن تتضافر فيه القوى، ويكون كل جزء من الجماعة متعاوناً مع الجزء الآخر، فتتحد القوى، وتتلاقى نحو هدف معين يجمعها.

وإنه وراء الفشل ذهاب القوة، ويطمع فيهم الطامعون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى قوتكم، ويفسر الزمخشري الريح بالدولة، ويقول رضى الله تعالى عنه: (والريح الدولة شبهت فى نفوذ أمرها وتمشيئه بالريح وهبوبها)، فيقال: هبت رياح بنى فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، ومنه قوله:

يا صاحبي ألا لحي بالوادي إلا عبيد قعود بين أزراد^(١)

انتظران قليلاً ريث عقلهم أم تعدوان فإن الريح للعادى

ولقد قال قتادة لم يكن نصراً إلا بريح يبعثها، وكان ذلك مناسباً فيكون الفشل فيه ذهاب للريح التى تكون القوة، ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»^(٢).

حذرهم الله تعالى من ثلاثة أمور أولها: مخالفة الله ورسوله بالعمل بغير أمر الله ونهيه، والثانى: من مخالفة الرسول ﷺ القائد، ومخالفة كل قائد رشيد، والأمر الثالث: من التنازع، فإن الاختلاف مضیعة الجيوش، ومهلكة الأمم.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وفى هذا النص الكريم يدعو الله تعالى إلى الصبر؛ لأنه قوة الجهاد، وقوة الطاعة، ويربى العزيمة، ويمنع الاختلاف، إذ إن الاختلاف ينشأ عن الجزع

(١) الزرد: والزرد مثل السرد وهو تداخل حلق الدرع بعضها في بعض لسان العرب- زرد.

(٢) سبق تخريجه.

أو عن الطمع، والصبر علاج الجزع والطمع معاً؛ إذ الجزع ضعف فى الإرادات وخور فى العزيمة، والطمع يتنافى مع ضبط النفس، وضبط النفس لا يكون إلا مع الصابرين، والله تعالى مع الصابرين.

وقد رفع الله تعالى الصابرين إلى أعلى المراتب عند الله، فذكر أنه سبحانه فى آية أخرى أنه يحب الصابرين، والحب أعلى من الرضوان؛ لأنه يتضمن رضا الله وأكثر منه، وهو أن يكون محبوباً عند الله؛ لأن الصبر تحمل المشقة فى طاعة الله، وقد أكد الله محبته للصابرين بالجملة الاسمية وبـ (إنّ) المؤكدة، وبفعل المضارع الدال على تجدد المحبة كلما صبروا، وإن محبة الله -تعالى- غاية المؤمنين الصادقين.

وإن ذلك الصبر يكون بإخلاص النية لله تعالى، وألا تكون الحرب بطراً ورتاء الناس، بل تكون لله سبحانه وتعالى؛ ولذلك حظر الله تعالى من الحرب بطراً ورتاء الناس فقال تعالت كلماته:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

إن الإيمان قوة الجهاد، وإخلاص النية لله تعالى هى خشيته، والمؤمنون كانوا يجاهدون طالبين مرضاة الله ومحبته، وكانوا يصبرون ويصابرون، وقد حثهم الله على طاعته ورسوله، وأن يمتنعوا عن النزاع، وقد جنبهم أن يكونوا كالمشركين الذين يحاربون مفاخرين، قد بطروا معيشتهم، ولا يهتمهم إلا المراءاة بالقتال، والصد عن سبيل الله؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ البطر كفر النعمة والتقوية بها على معاصى الله، والاستعلاء بها على الناس، والرتاء مصدر رأى يرائى، يقصد به الظهور أمام الناس مفاخر مباحياً، لا يقصد به رفع حق ولا خفض باطل، ولا إغائة ملهوف، ولا نصرة مظلوم، بل يقصد الغلب لمجرد الغلب، وقد خرجوا من ديارهم لهذا الغرض وهو البطر ورتاء الناس؛ ولذا قالوا: إن بطراً ورتاء الناس مفعولان لأجله، أى العلة الباعثة للخروج من ديارهم هى البطر والمفاخرة والاستعلاء على الناس، وإذا كان لهم غرض آخر يظهر من أعمالهم، فهو الصد عن سبيل الله تعالى باستعلائهم، وإرهاب الناس

وبيان أن لهم القوة في بلاد العرب، فيرهبهم المؤمن ويخافهم من يريد الإيمان، وبذلك يصدون الناس ويدفعونهم عن سبيل الله تعالى، وهو الصراط المستقيم، وسبيل الحق.

ومعنى النهي عن مشابهتهم بهؤلاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أن يخرجوا من المدينة لأجل الحق ونصرته، لا للبطر والاستعلاء والمفاخرة.

ولقد كان المشركون قد خرجوا لذلك، أو انتهى الأمر في خروجهم في بدر إلى تححض لذلك، لقد خرجوا ليحموا غيرهم، ولكن أبا سفيان انفلت بالغير عن طريق بدر، وعبر بها سيف البحر، وقد أرسل إليهم بنجاة العير، وكان حقا عليهم أن يعودوا أدراجهم إذ قد نجت غيرهم، وسلمت أموالهم، فذهب الباعث على خروجهم، وعاد بنو زهرة منهم، وتلكا الباقون من عقلائهم، وترددوا وأرادوا حقن الدماء، وقالوا: نقاتل أبناء عمومتنا من غير حاجة إلى قتال؟! وغلب رأى السفهاء منهم، ووقف «أبو الحكم» الذي سمي في التاريخ الإسلامي «أبا جهل» وقال: «والله لا نرجع عن قتال محمد، حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمر، وتعزف علينا القيان، فإن بدرا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بمخرجنا، فتهاهبنا آخر الأبد»، وقد انسأقت قريش وراء هذا الناعب، فكانت المعركة ولم يشربوا الخمر، بل ذاقوا كأس المنون، وكان الحِمَام بدل المُدَام، وناحت عليهم النواحي بدل غناء القيان.

ونرى أنهم ما اضطروا إلى الحرب، بل بטר النقمة، والاستعلاء بالقوة والصد عن سبيل الله، وأن يكون الشرك هو الغالب، مع أن الله تعالى هو القاهر.

وقد بين الله قدرته وأنه القاهر فوقهم، فقال تعالى في ختام الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وصدرَ الجملة السامية بلفظ الجلالة لبيان قدرة الله العالية وتربية المهابة في نفوسهم، وقدم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لبيان اختصاصه سبحانه بالعلم بما يعمل به وإحاطته، والجملة السامية تهديد لهم، لأن هذا العلم الجزاء الوفاق لعملهم.

أولياء الشيطان

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمْ

الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

إن الشيطان ولى الكافرين يخرجهم من النور إلى الظلمات، ومن الحق إلى
الباطل؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ
لَّكُمْ﴾.

(الواو) عاطفة هذا الكلام على ما قبله، والضمير فى لهم يعود إلى الذين
خرجوا من ديارهم بطرا وثناء الناس، وفى هذا النص بيان أنهم ما دفعوا إلى ما
فعلوا يوم بدر حتى كان نصيبهم الردى والهزيمة النكراء - إلا لوسوسة الشيطان،
فالذى حرضهم على ذلك الخروج هو ما زين فى نفوسهم من أن لهم الغلب.

و(إذ) ظرف للماضى متعلق بمحذوف، أى: اذكر يا محمد إذ زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس، وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ﴾ أى حَسَنَ لهم ذلك، بأن وسوس فى نفوسهم حُسْنَةً وأوهمهم الشيطان بوسوسته فى النفس أنهم أوتوا القوة كلها، وأنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأن لهم بحيرا من أوهامهم فليس هناك شيطان ظهر لهم، وقال ما قال، إنما هى وسوسة الشيطان، وهو يجرى فى الإنسان مجرى الدم، فهو زين لهم بوسوسته، كما زين بها عبادة الأصنام، وكما زين لهم تحريم ما أحل من بحيرة وسائية ووصيلة وحام، زين لهم بوسوسته أنهم لا غالب لهم من الناس، وزين لهم بأوهامه التى بثها فيهم أنه مجير وجار لهم يجيرهم من أى ضيم ينزل بهم، كما تلاقى الخربان تبدد ذلك كله، ورأوا الأمر عيانا، وأنه لا منجاة لهم، ورأوا أنه أوهمهم ما لم ير، وإن الحقائق بدت لهم واضحة .

الكلام تصويرى يحكى قصة إغرائه، وتزيينه لهم أنهم الأقوياء وكأنه يحدثهم، فيدليهم بغرورهم، وبث فيهم القوة الزائفة، ويوهمهم أنه جار ولا جوار، وأنه لما اشتدت الشديدة قال: إني برئ منكم، وإني أرى ما لا ترون، وكل هذا تصور لما جاش فى نفوسهم، وإنا نميل إلى هذا.

وقد جاء فى السير وفى بعض الأخبار فى مقابل ما ذكرنا أن إبليس تمثل فى صورة رجل من العرب، روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يشبههم، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم، وكان من أشرف بنى كنانة فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم لنا بشيء تكرهونه فخرجوا سراعا، قال محمد ابن إسحاق: فذكروا لى أنهم كانوا يرونه فى صورة سراقه بن مالك فلا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان كان الذى رآه حين نكص - الحارث بن هشام أو عمير بن وهب، فقال: أين سراقه؟! ونظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة

قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبيه، قال: إني بريئ منكم إني أرى ما لا ترون، وصدق الله، والله شديد العقاب.

وقد روى مثل هذا عن السدى والضحاك والحسن البصرى ومحمد بن كعب، وقدر رأى ذلك النظر الحافظ ابن كثير بما ورد من آيات فى شأن تغيير إبليس لأهل الضلال، فتلا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر]. وقال الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم].

ذانكم الرأيان اللذان أخذ فيهما بظاهر الالفاظ، واعتمدا على روايات فى روايتها نظر، والذي أخذ فيه بمعنى الالفاظ وإنا نؤمن بصدق قصص القرآن، ولكننا فى هذه الآية نميل إلى النظر إلى أنها خير تصوير لاستمكان الشيطان من قلوب الكفار، وتحكمه فيها، وسد ينابيع الإدراك فى نفوسهم، ونميل إلى ذلك؛ لأن خبر إبليس وتمثله بصورة سراقه لم يثبت بسند صحيح يفسر به القرآن، ولأننا نفسر القرآن بما يبعده عن الغرائب، وبما هو مأنوس للناس من غير تكذيب لأخباره، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِتْنَتَانِ﴾ أى الجماعتان المتقاتلتان ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، نكص معناها رجع على عقبيه، تصوير لارتداده متقهقرا سائرا على العقبين، وهو خائف مضطرب، ويتبرأ من لحق أغراه، وقد رأى الشدة آخذة بهم، وذلك تصوير لما يكون فى نفوسهم، وسيكون يوم القيامة محسوسا، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أى إني أعلم ما لا تعلمون وقد أضلهم، وقد غرهم الغرور، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٤٨] يعلن أنه يخاف الله والله شديد العقاب.

وبذلك يصور لهم كيف ضلوا بوسوسته، وكيف تعرضوا للعقاب بتزيين ومثله فى هذا التصوير كمثل من يدلى يانسان فى هاوية حتى إذا تردى فيها أخذ يعيره فى هذا التردى، وما فعله إلا بتزيين وتحسينه فهو المجرم الأصيل.

هذا حال الكفار، وقد كان من الذين يجاورون النبي ﷺ من كانوا إخوان الشياطين كالكافرين، وكانوا أحبب نفسا وأفسد قلوبا، وهم المنافقون ومن في قلوبهم مرض، وقد قال فيهم:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾.

عندما انتصر المسلمون في غزوة بدر وصارت لهم قوة ترهب أعداء الله وجد من ينافق بأن يظهر الإيمان ويطن الكفر، لقد كان سكان المدينة منهم الذين آمنوا بالله ورسوله وأيدوه، ومنهم اليهود، ومنهم الوثنيون فلما صارت للإسلام شوكة وعزة وقوة - ظهر النفاق، وأولئك كانوا مع المؤمنين في المظهر، ومع أعداء الله - تعالى - في حقيقة نفوسهم، وكانوا يبشون الخبال في المؤمنين، فقال تعالى في أولئك المنافقين: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أهما وصفان لطائفة واحدة، وهم الذين وصفوا بالنفاق، فلهم وصفان أحدهما النفاق، والثاني أن في قلوبهم مرضا، وقد وصفهم الله تعالى بذلك، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾ [البقرة]، والعطف عطف أوصاف، لا عطف موصوفين لقولهم:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم

أو نقول: إن هناك موصوفين، وهم المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، والطائفة الثانية هم الذين في إيمانهم ضعف، فهم آمنوا على حرف ولما يدخل الإيمان في قلوبهم.

وقد بدا لي نظر لم أطلع عليه، ولكن له شواهد، وذلك أن الذين في قلوبهم مرض اليهود، ذلك أن في قلوبهم مرض الحسد، وهو أشد أدواء القلوب، وهو في اليهود دائما، فالمراد بالمنافقين الذين يقولون: إنهم مؤمنون ويطنون الكفر، والذين في قلوبهم مرض اليهود.

والوقائع التاريخية تؤيد ذلك أن المنافقين كانوا يقولون غرَّ هؤلاء دينهم، أى أوقعهم في غرور، فظنوا أنفسهم الأقوياء، وليسوا من القوة في شيء وقال اليهود

من بنى قينقاع: (لقد غر هؤلاء دينهم، وغرهم انتصارهم، لئن لاقونا فسيجدتنا الناس) وكان منهم اعتداء على المسلمين حتى أجلاهم النبي ﷺ، هذا ما سبق إلى خاطرنا، وهو ينطبق على المنافقين واليهود، والشواهد التاريخية تؤيده، والله أعلم.

ولقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوكل هو التفويض إلى الله تعالى بعد أخذ الأسباب وتهيئة ما يكون سببا للنصر، ثم يتجه إلى الله تعالى معتمداً عليه مفوضاً الأمور إليه، فإن الأسباب لا تعمل وحدها بل تعمل بإرادة الله، وهذا فرق ما بين التوكل والتواكل، إذ أن المتواكل لا يتخذ الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ليست جواب الشرط وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بل هي سبب جواب الشرط قام السبب مقام المسبب، والمعنى ومن يتوكل على الله حق توكله، فإن الله ناصره، وهو الغالب، لأن الله معه، وهو عزيز وحكيم ينصر من ينصره وهو على كل شيء قدير.

هذه نتائج النفاق وضعف الإيمان ومرض الحسد في الدنيا، أما في الآخرة فعذاب أليم، يبتدئ من وقت قبض أرواحهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

تصور هذه الآية الكريمة هول عذاب الجحيم، وتبين أنه من وقت أن تتوفاهم الملائكة الذين أمرهم الله بذلك، والتوفى مصدر توفاه، معناه أوفاهم الله أجلهم في الدنيا، وانتهوا به، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

و(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ..﴾ حرف امتناع لامتناع، وهي هنا لتصوير حالهم والعذاب يستقبلهم إذ تتوفاهم الملائكة إذ تتوفاهم الملائكة المأمورة

بذلك آجالهم، وهنا فعل شرط حذف جوابه، لبيان هوله، وأن تذهب فيه النفس كل مذهب من حيث إنه لا يدرك كنهه، ولا تتصور حقيقته في الدنيا، والمعنى لو عاينت الذين كفروا، وأرواحهم تقبض ثم ما يجيء بعد ذلك رأيت هولا عظيما، لا تدركه عقول أهل الدنيا ولا تحيط به أفهامهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة].

ويقول الزمخشري: إن (لو) إذا دخلت على المضارع جعلت معناه ماضيا، فمعنى لو ترى: لو عاينت ورأيت الذين ظلموا إلى آخره، وكان التعبير بالمضارع لتصوير الماضي حاضرا مرثيا مهيبا ليتصور ما يكون ويراها كأنه حاضر، والتعبير بالذين كفروا لبيان أن السبب في هذه الشدة التي يكونون عليها هو كفرهم، وهو مقابل لطغيانهم وتمردهم وعنادهم للحق في الدنيا، فإنه بسبب ذلك الطغيان، يكون الإذلال والخسران والهوان.

وقد صور حالهم فقال: ﴿الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وهذا تصوير لحال ذلهم الذي يقابل اغترارهم واستكبارهم عن الحق، فتضرب الوجوه التي تكون بها المواجهة، وضرب الوجوه لا يكون لمن يعاملون بالصغار والهوان، وهذا عقاب معنوى شديد، وأدبارهم، أى يركلون بالأرجل فى أدبارهم كما تضرب بالأيدي وجوههم، فهم فى مهانة تحيط بهم، أو أن المهانة والذلة تحوط بهم من الأمام والخلف، وذلك تصوير لذلهم بعد الغطرسة، والاستهانة بهم بعد الغرور.

وذلك بلا ريب عقاب معنوى، بالتحقير، فى مقابل تكريم المؤمنين الذين كانوا يقولون: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ﴾ [هود].

وقد بين بعد ذلك العذاب المعنوى فقال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ وذلك بتقدير فعل محذوف تقديره، ويقولون لهم ذوقوا عذاب...، أو تقول: إن هذا فعل أمر فى معنى

الخبر، ويكون يذوقون عذاب الحريق، وعبر سبحانه وتعالى عن إصابة العذاب لهم بقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ للإشارة إلى أن العذاب لا يكون إلا بالإحساس به، فهم في إحساس دائم به، يذوقونه ويحسون به، وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب.

والحريق هو النار المحترقة التي لا يطبقها إحساس محس إلا أن يكون عذابا. وإن التعبير بقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ لا يخلو من تهكم بهم؛ لأنهم فسقوا وذاقوا من الهوى ما ذاقوا، فكأنه يقال لهم: كما ذقتم المتع والشهوات، فذوقوا الحريق، وكأنه يبشرهم.

وقد قال بعض المفسرين: إن ذكر ضرب الوجوه، وضم الأدبار إليهم تذكير لهم بشهوتهم التي كانوا منغمسين فيها وأنهم يضربون فيها، كما وقعوا في المفاصد بها والله تعالى أعلم.

وقد بين سبحانه وتعالى عذابه مربوطا بسببه فقال:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

الإشارة إلى ما سينزله الله بالذين كفروا، من العذاب الشديد والعذاب الأليم، والباء للسببية والمعنى العذاب الشديد بسبب ما قدموا من إيذاء للمؤمنين، ومعاونة لرب العالمين، وجحود بالآيات وتكذيب لكتاب الله ورسله، وعبر سبحانه وتعالى عن ذنوبهم التي تضافرت وتكاثرت بقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ مع أن الذنوب تكون بالأسنة وقول الباطل كما تكون بالأيدى؛ لأن الأيدى بها البطش الظاهر، وبها أودى المؤمنون، وبها نكل بالضعفاء، وحملها للأسلحة في الحروب، وإن التعبير عن الكل باسم الجزء مجاز مرسل مشهور، إذا كان للجزء مكانة خاصة في الحكم، كقولهم عن الجاسوس: العين؛ لأن العين لها مظهر خاص في التجسس.

والمراد بما قدموا من أعمال وما قالوا به من أقوال، وإن هذا الجزء عدل لا ظلم فيه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) [فصلت]، وقال سبحانه في هذه الآية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ والواو هنا للعطف، أى أن ذلك العذاب كان بسبب ما قدموه، وبسبب أن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، أى أنهم ينالون جزاء ما اقترفوا والعدل يعطى كل إنسان ما يستحق، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ...﴾ (٥٨) [غافر]، فذلك يتحقق عدل الله الكامل، وينتفى عنه الظلم سبحانه إنه على قدير.

ولو كان الله تعالى سوى بين المجرمين والمحسنين، لكان ثمة شائبة ظلم، والله منزّه عن ذلك، ومعاذ الله أن ينسب إليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، فيه تقرير العذاب، وتثبيته، وفيه تبريره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ نفى للظلم الكثير المتكرر، فهل معنى ذلك بمفهوم المخالفة أن الظلم القليل، ليس بمنفى عنه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا؟

والجواب عن ذلك أن النص الكريم ينفى أصل الظلم عن رب العالمين، وإنما النفي بصيغة المبالغة للإشارة إلى أن المساواة بين المحسن والمسيء ظلم كبير ولا يفعله إلا ظلام للعبيد، وقيل: إن الظلم بصيغة المبالغة لكثرة المستحقين للعقاب، فلو لم يعاقبهم لكان ظلما، والله تعالى ليس بظلام.

ومن هذا النص الكريم يفهم أن العدل يوجب أمرين أولهما ألا يعاقب المحسن، فإن عقابه ظلم، وثانيهما أن يعاقب المسيء ولا تأخذ الناس به رافة، لأنه لم يرحم الناس، ويقول ﷺ «من لا يرحم لا يُرحم»^(١).

وقد أخذ سبحانه يقص بعض القصص عن الظالمين وعقابهم.

كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٍ ءَالٍ
فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ ۖ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَاذِبٍ لَّامٍ ﴿٥٤﴾

بين الله تعالى في الآيات السابقة أن الله تعالى يعاقب المشركين عقابين؛
عقاباً في الدنيا وهو أن يتصف للمؤمنين، وأن ينصرهم، وأن يجعل الكافرين
الأذلين، وكلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، ويبدل المؤمنين من
خوفهم أمناً.

العقاب الثانى هو عقاب الآخرة، وإن عقاب الدنيا قد يكون بأسباب يوفق
إليها، وقد يكون من الله تعالى يكون بمعجزة أو بأمر خارق للعادة كإغراق
فرعون، والنصرة بالريح، وكلاهما من أمر الله تعالى، ومن توفيقه، وقد ذكر الله
طواغيت مكة بطاغوت فرعون، وقد أدال الله تعالى منه، فقال تعالى: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ
فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾.

الكاف للتشبيه والمشبّه ما فعله بالمشركين، وما ارتكبه بالنسبة للمؤمنين،
والمعنى أن الله تعالى لتشابه أفعال مع أعمال فرعون وآله أنزل بهم ما أنزل
بفرعون، لقد طغوا وبغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، فأخذهم بذنوبهم أى أنزل
بهم عاقبة ما فعلوا، فأصابهم بالرجس وأرسل عليهم الضفادع والدم آيات
مفصلات.

وقوله ﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الدَّابُّ مصدر دَابَّ دُوبًا، أى فعلوا مثل ما فعل آل فرعون دائبين مستمرين عليه من تذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم، وإيذاء موسى وقومه، ومن قطع أيدى السحرة وأرجلهم من خلاف، إذ آمنوا بربهم، ومن طغيانه وملته فى البلاد، وادعائه الألوهية وطغيانه على أهل مصر، وقوله لهم ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

تشابهت أفعال المشركين مع أفعال فرعون وملته الذين دأبوا عليها، واستمروا قائمين بها، فكان حقا عليهم أن ينتظروا لهم مثل ما آل إليه أمر فرعون، وقد بين سبحانه وتعالى أنه أخذهم بذنوبهم فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الباء للسببية وأخذهم معناها أخذهم أخذ معذب مكافئ بما فعلوا، فالأخذ يتضمن عقابهم على ما فعلوا، وهو القوى القادر، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر] وقوله تعالى بذنوبهم، أى أخذهم بالعقاب بسبب ذنوبهم التى ارتكبوها فى حق الناس من تأله، ومن تعذيب، وإفساد للعقول بالضلal، والنفوس بالإرهاق والأذى، ويصح أن تكون الباء للإلصاق، ويكون المعنى أخذهم مصاحبين للذنوبهم فيذكرون جرائمهم، إذ ينزل بهم العذاب.

وقد ذيل الله تعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وهذا فى مقام التعليل لقدرته تعالى على الأخذ الشديد لفرعون وأشباه فرعون، وإن طغوا وبغوا، وقد وصف الله جل جلاله بوصفين يدلان على شدة الأخذ والعذاب؛ الأول وصف ذاتى معنوى، وهو القوة، فهو ذو القوة المتين، والوصف الثانى، وهو أن عقابه شديد متناسب مع الذنوب، ومثل فرعون وملته ذنوبهم كبيرة شديدة قوية، فلا بد أن العقاب من جنسها، وهو جزاء وفاق لها.

وأكد الله تعالى هذين الوصفين بعدة مؤكدات فأكد به بتصويره الجملة بوصف الجلالة، وهو يلقى بالرهبة والهيبة، ويكون الجملة إسمية، وبـ «إن» التى تؤكد القول. . . وقانا الله تعالى شر عذابه ومنحنا رحمته، إنه هو الغفور الرحيم.

وإن ما ينزل بالطغاة من أخذ لهم إنما هو من نفوسهم التي غيروها، وشوهوا فطرتها بمظالمهم، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ (الرعد)، وقال الله تعالى في معنى هذه الآية:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

الإشارة إلى ما فعله الله سبحانه وتعالى بالمشركين من أهل مكة، إذ عجل لهم عذاب بتشكيل المسلمين بهم، وغيرهم من سطوة في أرض العرب وجاء وسلطان إلى أن يغلبوا على أمرهم، ويذلوا بعد عزة، وإلى ما فعله سبحانه بآل فرعون ومن قبلهم من قوم نوح وعاد وثمود، وآل مدين، فإن هؤلاء غيروا نفوسهم، وطمسوا فطرتهم، فغير الله تعالى نعمته، فانتزع منهم ما كانوا في زرع فاكهين فيه.

والمعنى كان هذا الذي أنزله بالكافرين بآيات الله تعالى قد وضع نظاماً حكيمة في هذا الوجود الإنساني، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، أى أن نظام الله تعالى في الإنسان أنه أنعم عليه نعماً لها واجب وكما أنها له حق وعليها واجب، وأن الفطرة الإنسانية تدرك حق كل نعمة، وتفسد هذه الفطرة بالاتجاه إلى الشر، وذلك تغيير وطمس لنور الفطرة، والمعنى أن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم، إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، و«ما» هنا موصولة بمعنى الذى، والذى بأنفسهم هو نور الفطرة، وإخلاصها، وما أخذه الله تعالى على ظهور بنى آدم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم قالوا: بلى، فهذا العهد المودع في الفطرة وهو التوحيد هو الذى يغيرونه بأنفسهم، فكفار قريش كانت لهم القوة لأنهم كانوا يدينون بديانة إبراهيم، ولكنهم غيروا ما بأنفسهم فشوهوا الفطرة، وأشركوا بالله أحجاراً لا تضر ولا تنفع، وزاد تغييرهم لما فى أنفسهم بأن جاءهم رسول من ربهم يدعوهم إلى التوحيد فعاندوا، وكفروا بآيات الله تعالى، فأزالهم من سطوتهم، إلى حيث يغلبون على أمرهم.

وكذلك آل فرعون ومن قبلهم آتاهم نعمة المال والسلطان فغيروا ما بأنفسهم من موجبات الفطرة وكفروا بالله وعبدوا غير الله، فغير الله النعمة، وأزال أموالهم، وأغرقهم في اليم، وكانوا عبرة المعتبرين، وهذه سنة الله في الأكوان وفي الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً...﴾ ولذلك كانت «أن» هي المفتوحة وليست المكسورة، والمعنى ذلك التغيير بسبب «أن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم، وأن الله سميع عليم» أى بسبب ما سنه الله، وبسبب بأن الله تعالى سميع يسمع همسات القلوب، وخواطر النفوس وما يختلج في الأفئدة، فهو يعلم النفوس إذا تغيرت، عليم بكل ما يجرى في الوجود، وما تتحرك به الجوارح، وما يعلمون من أمور مغيبة على الناس فإنها لا تغيب عن الله.

وإن هذا النص يدل على أمرين جليلين:

أولهما - أن النفوس الإنسانية هي التي تتعلق بها الأحكام، ويجرى الله تعالى أمره على ما في هذه النفوس من خير أو شر.

ثانيهما - أن النصر والتأييد من الله تعالى بالقوة إنما هو باستقامة النفوس، فإن استقام ما فيها استقام الأمر وكان النصر والتأييد، وبعد أن بين سبحانه وتعالى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا الذي بأنفسهم، ذكر الطغاة، وما يقضى به عليهم فقال تعالت كلماته:

﴿كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

التشبيه منعقد بين المشركين وآل فرعون والذين من قبلهم، كما هو في الآية السابقة، بيد أنه في التشبيه صرح سبحانه بما لم يصرح به في الآية السابقة، ففي هذا التشبيه صرح سبحانه بأن أخذهم كان بالإهلاك الذي لا بقاء معه، وفي هذا التشبيه صرح بإغراق آل فرعون، ولم يصرح بذلك في التشبيه السابق، وفي هذا

التشبيه بأنه كان مع الكفر والتكذيب لآيات الله كان الظلم للناس فلم يكتفوا بكفرهم، وتكذيبهم لآيات الله، بل ظلموا أحكامهم، ولم يتخذوا العدل صراطا مستقيما وظلموا مخالفهم، وظلموا رسلهم مع رعيته، والقول الجملى أن التشبيه الأول كان تقريبا ما بين الظالمين من مناهج ومسالك، والثانى فيه معنى تعيين وجه الشبه.

قال تعالى فى أوصاف المشركين وآل فرعون ومن قبلهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أى أنهم جاءتهم المعجزات الباهرة القاطعة، فجاء فرعون تسع آيات مفصلات، فكذبها أى كذب ما تدل عليه من وحدانية الله تعالى فى الخلق والتكوين والذات والألوهية، والمشركون كذبوا ما تدل عليه المعجزة الكبرى وهى القرآن فوق ما تدل عليه الخوارق الأخرى من وجوب الإيمان بالرسالة.

وهذا التكذيب سبب الكفر، فإذا كان قد ذكر فى التشبيه الأول - بأن السبب فى العذاب هو الكفر، فقد صرح فى هذا بأن سبب الكفر هو إصرارهم على التكذيب كأنه لا رقيب عليهم ولا حسيب.

وعبر سبحانه فى التكذيب بأنهم كذبوا بآيات ربهم، ونسبة الآيات المكذبة إلى ربهم تفيد فائدتين:

إحداهما- بيان فظاعة التكذيب؛ لأنهم كذبوا بآيات ربهم الذى خلقهم وكونهم وربهم وهو العليم بما يناسبهم من أدلة.

والثانية- أن هذه الآيات من المتفضل عليهم بنعمة الوجود والتنمية، وإعطائهم القوة التى طغوا بها.

ويقول سبحانه: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (الفاء) عاطفة لربط ما بعدها على ما قبلها، أى أنه بسبب تكذيبهم أهلكتهم الله تعالى بسبب هذه عقابا من الله تعالى، ولأن الذنوب المتضافرة يترتب عليها الهلاك لا محالة.

وفى الكلام التفات من الغيب إلى الحاضر، والإسناد إلى الله تعالى، بإسناد الإهلاك إليه سبحانه وتعالى؛ لبيان تأكد الوقوع لأنه من الله تعالى القاهر فوق عباده العزيز الحكيم، ولترية المهابة فى النفس، وللتذكير بالرهبة من الله تعالى.

وقد خص آل فرعون بذكر هلاكهم فقال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ اختص آل فرعون بذكر هلاكهم؛ لأن فرعون كان أشهر ملوك عصرهم، وأشدّهم طغيانا عن رعيته، وأرهبهم، وأظلمهم، فذكره للعرب وقد أهلكه الله تعالى بالغرق أرباب لنفوسهم، وأشدّ على غرورهم، وأردع لطمغيانهم، وفوق ذلك أغرقه الله تعالى بأمر خارق للعادة لم يكن في حسابانهم، إذ انفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ثم انطبق عليهم بما لم يعهدوا، ولم يحسبوا، فهو يذكر المشركين بأن الله تعالى يأتيهم من حيث لم يحتسبوا، وأنه سيهزمهم من حيث لا يشعرون، بل يحسبون في أنفسهم أنهم الغالبون، ويوسوس لهم الشيطان بأنهم لا غالب لهم وقد وصف الله تعالى العصاة جميعا بأنهم ظالمون، فقال تعالى: ﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أى كل الذين كفروا برسل الله، وآيات ربهم كانوا ظالمين.

ف (كل) مضاف إلى محذوف يعم حكم الله تعالى عليه بأنه ظالم، وأكد ذلك الحكم بـ (كان) الدالة على استمرار الظلم، وبالجملية الإسمية، وقد ظلموا أنبياءهم بتكذيبهم مع أن الحق واضح أبلج، وظلموا أنفسهم لأنهم ارتضوا الضلالة بدل الهداية، وظلموا المؤمنين لأنهم آذوهم، وسخروا منهم، وظلموهم لأنهم حاربوهم، وهم فاجرون في حربهم، وظلموهم لأنهم أشاعوا عنهم السوء، وهكذا أحاط الظلم بهم، والظلم ظلمات يوم القيامة والله منتقم جبار.

لا عهد للمشركين

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ
مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ
قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

فى هذه الآيات البينات يبين ما عليه الذين كفروا من إصرارهم على الكفر، ونقضهم للعهد، وما ينبغى لهم من معاملة، وأنه إذا وجدهم فى الحرب للمسلمين فيه غلب أن يضربهم ضربة قاسمة ليشرد الذين من ورائهم من قومهم أو يصيبهم الرعب، فلا يجتمعون عليه رهبا وخوفا، وإنه يجب توقع الخيانة منهم ومن كان يخاف خيانتة، ينبذ عهده، ويتقى أذاه، وقد ابتدأ سبحانه بوصف الكفر، كيف يتدلى الكافر من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الدواب الحقيرة التى هى أدنى الحيوان إلى أن قال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

«الدواب» جمع دابة، وهى كل ما يدب على وجه الأرض من حشرات إلى قرودة وخنازير، إلى كلاب وحمير وخيل، إلى الإنسان، والتعبير عن الذين كفروا بالدواب حط من إنسانيتهم؛ لأنهم أغفلوا مداركهم وصاروا كأقل الحيوان ذكرا، ومكانا.

وليسوا فقط أخط الأحياء، بل هم أخط من أخطها، فهم شر الدواب، وهم فى الدرك الأسفل من الحيوانية، وأخط ما فى هذا الدرك.

يقول تعالى مؤكدا القول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فحكم الله تعالى بأنهم أشد الحيوانات شرا، من الحشرات التى تدب إلى الإنسان الذى خلقه الله تعالى فسواه فى أحسن تقويم، وشرهم الشديد؛ لأنهم أوتوا عقولا فشوهوا إدراكها، وأوتوا فطرة سليمة، فرضوا أن يعبدوا حجارة هى أخط من أخط الحشرات وجودا؛ لأن الحشرة فيها حياة وأوثانهم لا حياة فيها، وهم شر الأحياء لأن كل شىء حى فيه نفع، وإن كنا لا نحصيه، وهم شر لأنهم ظالمون ولا نفع فيهم، وهم شر لأنهم يعاندون الخير ويعاندون الحق ويؤيدون الشر، وإذا كان مقياس الخير والشر هو النفع فى الخير، والفساد فى الشر - فالذين كفروا بمقتضى هذا المقياس سلب منهم كل خير، واتسموا بكل شر، فكانوا شر الأحياء.

ثم قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ «الفاء» تفيد السببية والمعنى هم سبب كفرهم لا يؤمنون والنفى نفى متجدد للإيمان، أى أنه قد تلبس بهم الكفر فلا يؤمنون قط، وعبر بالمضارع لتجدد كفرهم أنا بعد آن، وتلك حالهم، ونفى الله عنهم الإيمان بإطلاق، فلم ينف الإيمان بالله والرسول فقط، بل نفى الإيمان بإطلاق فهم لا يؤمنون بحق إلا فى ظل أهوائهم وشهواتهم، ولا يؤمنون بفضيلة، ولا يؤمنون بحق الإنسان على أخيه بل يؤمنون بالحبث والطاغوت، لا يؤمنون إلا بالشيطان، فعقولهم كلها للنشر، ونفوسهم سكنها الشيطان يعاضدون الظلم، ويؤيدون الباطل، فكانوا بهذا شر الدواب عند الله، أى فى حكم الله تعالى خالق الحياة والأحياء.

وأوضح سبحانه إيذاءهم للناس بأنهم لا يرتبطون بعهد مع الناس قط، فهم لا يشعرون بحق لغيرهم ولو بعقد التزموه أو عهد أبرموه فهم جاثرون بآثرون فى تفكيرهم وإنسانيتهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ فى هذه الآية بدلا من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فى الآية السابقة، فهذا وصف من أوصافهم، وحال من أحوالهم، وأوضح ما كان ذلك فى اليهود الذين جاءوا النبي ﷺ فى المدينة فهم الذين عاهدوا النبي ﷺ ونقضوا عهده؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ وإذا كانت واضحة فى اليهود، ولم يكن للمشركين إلا عهد الحديبية، وقد نقضوه، فيصح أن يكونوا عاهدوا النبي ﷺ ونقضوه، ولكن لم يتكرر نقضهم؛ ولذا نقول: إن البدل فى الذين عاهدتهم ليس بدل كل من كل، بل بدل بعض من كل.

واليهود عاهدوا النبي ﷺ وتكرر النقض فقد عاهدهم النبي ﷺ أول إقامته عهد تعاون على البر والتقوى، ونقضه بنو قينقاع عقب وقعة بدر الكبرى، ثم أبرموه مرة ثانية بنو النضير حتى اضطر النبي ﷺ إلى إجلائهم، حتى يقيم فى المدينة (والجنة تجاوره)، ثم كانت الممالة للمشركين، ومكانتهم للمشركين، والنبي

فى الشديدة فى غزوة الأحزاب، وقد تألّبت عليه الجزيرة العربية كلها وتحزبت عليه، وقد جاءوا ليقتلوا الإسلام من المدينة فرد الله الذين كفروا بغیظهم ولم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أى هؤلاء الذين ينقضون العهد، فى كل مرة يعاهدون الرسول ﷺ «لا يتقون» وقد أطلق عدم الاتقاء فلم يذكر أنهم يتقون الله، أو يتقون أذى الناس، أو يتقون نقض فهو سبحانه أطلق عدم الاتقاء، أى من صفاتهم التقوى وتقدير الأمور، وتقدير معنى الوفاء بالعهد، فإنه لا يصح نقض العهد لأى سبب؛ لأنه يفقد الثقة، وفقد الثقة يؤدى إلى ضعفهم، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل].

ولا شىء يضعف الجماعات أكثر من النكث فى العهود؛ لأن الناس لا يتقون، ويكونون جميعاً إلماً لبعض، وتعد فاسدة الأخلاق، ولا تكون لها قوة أبداً.

وقد رأينا ذلك فى الدول فى الماضى، ونراه الآن؛ ولذا يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء].

وإذا كان الكافرون لا يتقون فى عهد عهده، ولا يتفعلون بل يضرون، فلا بد لحملهم على الحق من القوة الغالبة، والقهر الذى يرهبهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿فَإِذَا تَنَفَّسْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾.

«الفاء» عاطفة، وهى فاء السببية، أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، أى أن هؤلاء الكفار لا يفعلون خيراً، وليس منهم إلا الأذى المنكر، ولا يُمنع شرهم بعهد يقدمونه، فإنه يجب قمعهم بالشر إذا وجدوا فى حرب حتى لا يجتمعوا على شر؛ لأن اجتماعهم إيذاء فلا بد من إرهابهم.

﴿فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ﴾ (إن) مدغمة فى (ما)، و (ما) زائدة لتوكيد القول، ولذا جاء فى الفعل نون التوكيد وجوبا. أو قريبا من الوجوب، والتأكيد للفعل، أى إن تأكدت من وجودهم، فلا تجعلهم يفلتون من يدك، واضربهم الضربة القاسمة التى تنزع من خلفهم فيشردون، بدل أن يكونوا مجتمعين للشر، فضرب من يقع فى اليد من الأشرار ضربات قاسمة يجعل من خلفهم بمن هم على شاكلتهم مشردين غير مجتمعين، ومعنى ﴿تَثَقَّفْنَهُمْ﴾ تجدهم فى ثقاف، أى حال ضعف تقدر فيها عليهم، وذلك من قوله ثقفته أى وجدته.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْحَرْبِ﴾، أى انساقوا إليك محاربين، وقدرت عليهم فاغلظ عليهم واضربهم الضربات القاسمة التى تجعلهم نكالا لغيرهم، فلا يستمرئون الشر بعد ذلك، وقال تعالى: ﴿فَشَرِدَ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أى شرد بضربهم والتنكيل بهم مَن خلفهم، فإذا رأوا الهوان ينزل بمن هم على شاكلتهم جزاء غيهم، فإنهم لا يجتمعون لحرب أهل الحق بعد ذلك؛ إذ إن ضرب الذين جاءوا للحرب وأخذهم بالسوق والأقدام يجعلهم لا يجتمعون على قتال لأهل الحق، فلا يهاجمون المؤمنين من بعد ذلك؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أى رجاء أن يعتبروا بغيرهم، ويذكروا مآلهم الذى يستقبلهم بما يرون فيمن تقدموهم، إن فى ذلك لذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

«إما» هنا كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ﴾ هى «إن» الشرطية مؤكدة بلفظ «ما»؛ ولذا أكدت بالنون الثقيلة، ويكون تأكيدا للشرط، فهو تأكيد للخوف، والمعنى إن خفتم خوفا مؤكدا توافرت أسبابه، حتى يكون توقع الخيانة أمرا ثابتا قامت أماراته وبدرت بوادره، ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أى اطرح عهدهم وانبذه نبذا ظاهرا معلوما تكون وهم على سواء، لا يربطكم، ولتأكد الخوف قال بعض المفسرين: إن معنى الخوف هنا العلم.

وقد فسرنا كما ترى معنى ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، أى لتكونوا معهم على سواء أى متساوين تُحْلِلُونَ من العهد ويتحللون ويكون الاستعداد من الجانبين، وقيل: إن معنى ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى يكون النبذ معلوما مشهورا.

وإن النبذ يقتضى أن يكون ثمة عهد قد خانوه، أو همُّوا بأن يخونوه، وتأكد لديكم هذا، وتلك هى الأمانة التى أودعها الله تعالى أوامره للمؤمنين، بأن يكون أشرافا فى الوفاء بعهودهم، فإذا توقعوا الخيانة متأكدين لها، فإنهم لا يَسْبِقُونَ بالخيانة، بل يَنْبُذُونَ ويُعلمونهم بأن لا عهد.

وإن الخيانة لها صورتان:

الصورة الأولى- صورة الذين يتوقعون الخيانة ومتأكدين من وقوعها قبل أن تقع، وفى هذه الحال يعلنون ترك العهد واعتباره كأن لم يكن ليستعدوا.

الصورة الثانية- أن يغدر المتعاهدون بالفعل، كما غدر المشركون فى صلح الحديبية، فقد كان العهد يجيز لمن يدخل فى جانب محمد أن يدخل فلا يعتدى عليه، فدخلت خزاعة فى عهده، فاعتدت عليها قريش، وقد رأينا ذلك فى الدول فى الماضى، ونراه الآن، ولذا يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء] فكان الاعتداء بل الخيانة بالفعل.

وقد زال العهد بذلك، فكان متحللا؛ ولذا غزا الغزوة الكبرى بفتح مكة من غير نبذ، إذ هم قد نبذوه من قبل لا بالقول بل بالفعل.

وقد كان الصحابة قبل أن ينقضوا هذا العهد بالفعل، يحذرون النبى ﷺ من نقضهم ويخافونه، فكان النبى الوفى الأمين يقول: «وفوا لهم واستعينوا الله عليهم».

وإن ذكر الخوف من الخيانة يقتضى أن هناك عهدا عاهده ﷺ أو من جاء بعده، ويخاف من نقضه فإنه لا خيانة إلا فى عهد مبرم.

ونقول: إن الخيانة قد تكون بحرب يعدونها، وينقضون بها السلم الذى كان بحكم العلاقات الأدبية أو السلمية، ويريدون أن يخونوا المسلمين ويأخذوهم، فإنه

إذا تأكد المسلمون نبذوا هذا السلم الذي كان أصل هذه العلاقة وكانوا معهم على سواء.

ولا يقال: إن النبذ بُنى على الخوف من الخيانة، والخوف ظن، ولا يبنى أمر قطعى على أمر ظنى - لأننا قلنا: إنه خوف مؤكد بدت بوادر الخيانة، وظهرت أماراتها، والقائد المدرك لا ينتظر حتى تقع الخيانة، بل يسارع بنبذ العهد، ويستعد لهم، ويحلهم من العهد، كما أحل نفسه، حتى لا يؤتى من غرة.

فمن عمرو بن عبسة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة، ولا يحلها حتى يمضى أمدّها أو ينبذ إليهم على سواء»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ هذا النص السامى فيه تعليل للنبذ على سواء، أى أن النبذ على سواء إعلام بإنهاء العقد، ليكون معلوما مشهورا، ولا يقع المؤمنون فى خيانة؛ لأن الله تعالى لا يحب الخائنين، فالنص يمنع عن الخيانة، بالنبذ على سواء، وإلا لو هجموا سواء على دمائهم قبل النبذ فقد خانوا، والله تعالى لا يحب الخيانة وقد أكد نفى محبة الله تعالى للخيانة بالجملة الاسمية، و«إن»، ونفى المحبة أبلغ فى النهى؛ لأن محبة الله مطلوبة فإذا كانت الخيانة لا تؤدى إليها فهى منهى عنها نهيا شديدا مؤكدا.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِذْهُمْ لَا يَعْرِضُونَ ﴿٥٩﴾
وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(١) رواه الترمذي وصححه: السير - ما جاء فى الغدير (١٥٨٠)، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٥٦٧) وأول مسند الكوفيين (١٨٩٤٣)، وأبو داود فى الجهاد - الإمام يكون بينه وبين العدو عهد (٢٧٥٩).



هاتان آيتان في بيان قوة الإيمان وأهله، وأنه لا يعجزه شيء مادام مؤمناً بالله ومستعيناً به سبحانه، ومادام يستعد ويأخذ في أسباب القوة، ولقد كان المشركون يتوهمون الغلب لمجرد أن يسبقوا في أمر أو يفوزوا فيه أو يفتلوا من مصادرة غيرهم، فبين الله تعالى أنهم إن نجوا مرة لا يعجزوا الله تعالى ورسوله والمؤمنين، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

«الواو» للاستئناف، و«لا» ناهية، والنهي عن الحساب والظن هو نهى عما ينبغي؛ لأن الحساب لا يقع عليه النهى إنما المراد- فيما يظهر والله أعلم- لا ينبغي لهم أن يحسبوا أنهم سبقوا أى فازوا، إذا سبقوا إلى غيرهم وأخذوها وأفلتوا بها فإنهم لا يعجزون، ولم يذكر في الآية ما سبقوا فيه أو ما فازوا به، بل أطلق نفى ظنهم أنهم سبقوا أى نوع من السبق، أو فازوا بأى نوع من الفوز، فالمعنى أنهم لا يظنون أنهم يسبقون بأى سبق، فحياتهم فارغة أبداً، لأنهم ليست لها غاية، لأن أى سبق لهم فهو لغو، وأن نهايتهم واحدة إن استمروا على كفرهم، وإن الله تعالى غالب، والنصر للمؤمنين وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرنت بكسر (إن)، وتكون الجملة مستأنفة في معنى تعليل نهيمهم عن حساب أنهم سبقوا على المعنى الذى ذكرناه، لأنه ما دامت النهاية للمؤمنين وأنهم لا يعجزون، فالهزيمة لاحقة بهم مهما سبقوا، ومهما يفوزوا فى حركات ليست هى النهاية، والله من ورائهم محيط حتى يوم القيامة.

وهناك قراءة بفتح أن^(١)، أى أنهم لا يعجزون، وتكون هنا لام التعليل محذوفة، ومفهومة من مطوى الاسم: ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون، وكثيراً ما تحذف لام التعليل؛ لأنها مفهومة من سرد القول، والمعنى الجملى للنص السامى أنهم مهما يسبقوا ويفوزوا فإن الغلب عليهم، ولا تحسبنهم معجزين من المؤمنين، كما فى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾ [النور]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَغْرُنَّكَ تَلَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٦٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ...﴾ [آل عمران].

(١) قراءة (أنهم لا يعجزون) بها قرأ ابن عامر، وقرأ الباقون بكسر الهمزة. غاية الاختصار (٩٣٨).

إنهم لن يعجزوا الله، ومهما ينالوا من سبق فلن يعجزوا الله عن أخذهم من نواصيهم بالهزيمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

ولكن هزيمة الدنيا لا بد لها من أسباب يقوم بها العباد بتوفيق الله تعالى، والتوكل عليه سبحانه بعد الاستعداد بالعدة، وأخذ الأهبة والعزيمة والصبر؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ هذا أمر تكليفي وهو فرض كفاية على الأمة الإسلامية يجب على الأمة كلها أن تتعاون في إعداد هذه القوة، بالدربة، والتعليم والرمي، وكل ما يربى الجند القوى.

فلا بد من التريية على الجندية، وإعداد عدة القتال، وذلك بالمستطاع بل بأقصى ما استطاع، ومن هنا بيانية في قوله ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ وهى تدل على عموم القوى، فأعدوا كل ما يمكن أن يكون قوة في الحرب من درية على الرمي بالسهم، ولقد كان النبي ﷺ يقول: «ألا إن القوة الرمي»^(١)، كما روى عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ، وقد كان الراوى نفسه وهو عقبة راميا حتى لقد مات وعنده سبعون قوس رمى، ومن القوة الحصون، ومن القوة المنجنيق، وهكذا كل ما يكون سببا للقوة، ومنها من الماضى النار الإغريقية، ولم تكن معروفة عند العرب، وإن وجدت في الحروب الإسلامية.

فكل قوة مستطاعة يجب على الأمة أن تتضافر على إيجادها، وإلا أثمت كلها، ولم ينج من الإثم فقيرها وغنيها ولا قويها أو ضعيفها، فالقادر بقدرته، والضعيف بلسانه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ معطوفة على ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾، ورباط الخيل جماعة الخيل خمسة فأكثر، وقيل رباط جمع ربيط، وقيل رباطا مصدر - رابط،

(١) رواه مسلم: الإمارة - فضل الرمي (١٩١٧). كما رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي.

وأطلق على الخيل؛ لأن المراقبة تكون بها، ومهما يكن فالمراد من رباط: الخيل المجتمعة، وخصت الخيل بالذكر؛ لأنها كانت قوة الحرب، في العرب، وربط الخير بنواصيها، فكانت رمز القوة، ولقد قال النبي ﷺ: «الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر، ولرجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله في رقابها، ولا في ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخرا ورياء فهي له وزر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ترهبون أى تخيفون، وتفزعون، وتربون في نفوس أعدائكم المهابة، وتلقون في قلوبهم الرهبة وسمى الكفار عدو الله؛ لأنهم كفروا به وكذبوا آياته، وسماهم «عدوكم» لأنهم يريدون بكم الأذى، ويناصبونكم العداوة لإيمانكم وكفرهم.

وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وقوله: ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ أى من غيرهم، أى من غير الذين يجاهرون الآن بعداوتكم من المشركين واليهود وغيرهم ممن يلاقونكم من الرومان الذين يعاصرونكم، ويشير بهذا إلى الذين يجيئون بعد ذلك الذين لا يعلمهم المسلمون في عصر النبي ﷺ، ومن والاه والله تعالى يعلمهم؛ لأنه علام الغيوب، وإن الله تعالى يشير بذلك إلى الأخلاف الذين يجيئون بعد ذلك، فإنه بمجرد أن انتشر الإسلام في الأرض ودخل الناس في الدين أفواجا، صار المسلمون في مذابة من الأرض، فأوربا أرادت أن تنقض على الإسلام من الشرق والغرب... والتار أخذوا ينقصون على المسلمين الأرض من أطرافها.

وكان لابد من قوة تقهر وترهب هؤلاء، وتلقى مهابة المسلمين في قلوبهم، ولكن مع ذلك لم يستجيبوا لنداء الله، ولم يعدوا ما استطاعوا من قوة، وإن ذلك الاستعداد كان يوجب أولا - أن يكون لهم مصانع تصنع لهم الأسلحة لا أن

(١) سبق تخريجه.

يستعينوا بأسلحة من غيرهم، إن شاء أعطى وإن شاء منع، وفي عطائه ومنعه يعمل لمصلحة نفسه، ولا يريد بالإسلام خيرا.

ويوجب ثانيا: أن ينافسوا الناس في اختراع الأسلحة ليدفعوا أذاهم، وإلا كانوا - وهم هم المرهوبون - يُرهَبُونَ ولا يُرهَبُونَ، يَخَافُونَ، ولا يُخَافُونَ، وتبديد قواهم ضياعا.

ويوجب ثالثا: تعاونهم جميعا في ذلك، حتى لا يؤكلوا في الأرض.

وقد كان عكس ذلك، فتقطعت وحدتهم، وضرب الناس بهم في افتراقهم فتوزعتهم الأرض، وأكلتهم ذئابها، وصيروا الخير لغيرهم دونهم، وصاروا لأعداء الله وأعدائهم ما يصنعون به السلاح ليستعمل لإرهابهم، وإرهاب كل من يعاونهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

هذا وإن إعداد عدة الحرب، والحرب ذاتها تحتاج إلى المال، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

إن الحرب تحتاج إلى نفقات، وإعداد العدة يحتاج إلى نفقات، وفي أيامنا تحتاج العدة إلى الإنفاق من الدولة والجماعات، ولقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من يخرج من ماله كله للجهاد في سبيل الله، كأبى بكر، ومنهم من كان يخرج من نصف ماله كعمر، ومنهم من كان يجهز جيشا بأسره كذى النورين عثمان بن عفان، وأنى لنا بأمثال هؤلاء من أمراء المسلمين وملوكهم، وعندهم المال الوفير من أكتاز الأرض.

ومن لا ينفق ألقى بنفسه ويقومه في التهلكة، ولقد قال تعالى في الإنفاق في الحرب: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ [البقرة].

﴿وَمَا تَنْفِقُوا﴾ و«ما» هنا شرطية، أى أن تنفقوا في سبيل الله تعالى، وسبيل الله تعالى هو الجهاد ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أى بالبركة في رزقكم وبتيسير الرزق لكم وتسهيل سبل الحياة، والنماء في أموالكم، وبعد ذلك الجزاء في الآخرة، وهى خير

وأبقى، وأوفى وأتمّ بهذا التفسير الدنيوى والنماء فى هذه الحياة، والجزاء فى الآخرة لا يظلمون لا تنقصون شيئا مما قدمتم.

السلام

وإن جنحوا

لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله هو الذى أيدك

بنصره وبالمؤمنين ﴿٦٢﴾ وألف بين قلوبهم لو أنفقت

مافى الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم ولكِنَّ

الله ألف بينهم إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يتأَيَّها النَّبِيُّ حَسْبُكَ

الله وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

إن الإسلام ما جاء للحرب، بل جاء للسلام، وهو يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ ﴿٩٤﴾ [النساء]، فهو دين السلام، وما كانت الحرب إلا لتأييد السلام، وليكون على العدل، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٥١﴾ [البقرة].

وما حارب النبى ﷺ المشركين إلا بعد أن فتنوا الناس عن دينهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وشرّدوا المؤمنين، فكان لابد من القتال ليقدهوهم، ويمنعوهم من هذا الظلم، فإذا جنحوا للسلام، وامتنعوا عن الفتنة، فقد زال سبب القتال، وعاد الأمر إلى أصل السلام الذى هو أساس العلاقة الإنسانية بين المسلمين وغيرهم؛ ولذا ﴿وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾.

﴿جَنَحُوا﴾ أى مالوا، والضمير يعود إلى المشركين الذين وقعت الحرب بينهم وبين النبي ﷺ والذين كانوا يريدون الغارة على النبي ومن معه من المؤمنين الوقت بعد الآخر، والذين يخاف النبي ﷺ خيانتهم من وقت لآخر، وإنهم إن كانوا كذلك ينبذ إليهم على سواء، والسلم تكون بفتح السين كما فى هذه الآية، وتكون بكسرها، كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَبْغُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة].

والسلم هو السلام، وهى مؤنثة كتنقيضها، وهى الحرب، ولذا عاد الضمير عليها مؤنثا فى قوله تعالى: ﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ومؤدى هذا النص السامى أنهم إذا مالوا إلى السلم، ولم يقولوه بظاهر من القول، بل قالوه مطمئنين إلى أنه أصلح لهم، فإنه لا مضارة منه عليهم، ولا على المسلمين.

ومؤدى ذلك أن الإسلام يكون فى قوة وعزة وغلبة أو أقرب إلى الغلب، فإنه يجب على المؤمنين، ولو كانوا هم الأقوياء الغالبين أن يميلوا إلى الصلح كما مالوا، فالإسلام لا يريد الغلب لذات الغلب، فليست فروسية، إنما يريد دفع الأسرى وتسهيل الدعوة، وإزالة كل العقبات المانعة للدعوة، فإن كان ذلك بسلم فهو أولى بالأخذ والاتباع.

وقد لوحظ فى الدعوة المحمدية أنها تقوى فى السلم العزيمة، ولا تضعف، فقد حصل فى فترة الحديبية أنه دخل الناس فى الإسلام بعدد يعد أضعاف ما دخل فيه المسلمون من وقت البعثة المحمدية إلى وقت عهد الحديبية.

وإنه واضح من النص الكريم أن الذين جنحوا إلى السلم هم المشركون، وأن المسلمين كان فيهم الغلب والقوة، وقد نهى الإسلام بنص القرآن عن أن يعرض المسلمون الصلح على المشركين، وهم فى صلفهم لا يبدون ميلا للسلام، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ...﴾ [محمد].

وإن التقدم بطلب الصلح فى هذه الحال خنوع فى وقت القوة، والصلح فى هذه الحال يمكنهم من معاودة الحرب، والاستعداد لها.

فالصلح، أو السلام لا يكون إلا حيث تكون شوكة العدو قد خضدت، وفلّت حدتها، فهو صلح حيث تُؤمّن الحرب من بعد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى اجعل اعتمادك على الله تعالى وتوقع الأمن الدائم، وأن يتجهوا إلى الحق فى هدأة السلم وأن يؤمنوا، ولقد رأوا قوة الإيمان، وخذلان الشرك.

وإن الله تعالى حامى دينه، وعاصم نبيه، وناصر أوليائه، وهو سميع لكل ما يقولون، عليم بكل ما يفعلون؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الإسلام يتشوق للسلم إن كانت الحرب، كما يتشوق الجراح المخلص لإنهاء جراحة بالشقار اضطرتة حال الجسم لإقامتها. فمثل الحرب فى نظر الإسلام كمثل الجراحة التى يقطع بها جسم فاسد، يخشى أن يسرى فسادها؛ ولذلك إذا جنح العدو للسلم كان على المؤمن أن يبادر إلى المجاوبة على السلم بسلم غير متردد، ولا متوان؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فهذا النص فيه أمر بمنع التردد، لشك يقوم فى نية الصلح أو السلم، إذ السلم خير كله، ولا يمنع الخير، لظن الخديعة، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ جعل سبحانه فعل الشرط إرادة الخديعة لا الخديعة نفسها، وعبر فى حرف الشرط بـ «إن» الدالة على الشك، لبيان أنه يجب إبعاد إرادة الخديعة والخديعة نفسها ليقدم على السلم بقلب سليم، وإرادة معتزمة مع اليقظة والحذر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (٧١) فالإقدام على السلم يكون من غير دخل، ولا تردد فى العزيمة مع الحذر.

وجواب الشرط هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أى أن الله تعالى كافيك وعاصمك من الناس بقوته وقدرته القاهرة الظاهرة، وقد أكد الله تعالى عصمته لنبيه وأنه عاصمه من الناس بـ «إن»، وبتعريف الطرفين، وهو يفيد قصر العصمة على الله تعالى وحده، أى أنه وحده هو العاصم لك من الناس، ومن يحاول أن يخدعك، فإنما يخدع الله، والله بكل شىء عليم.

وقد أيد الله تعالى عصمته بحاضر نصرته، والماضي نور للحاضر، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الله تعالى وحده هو الذى أيدك بالنصر المؤزر كما كان فى بدر، فأيدك بالملائكة، وأيدك بالاطمئنان فى المعركة، وأيدك بما كان من إلقاء الرعب فى قلوبهم، وإذ يريكموهم فى أعينكم قليلا، وأيدكم بالكلمة، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فالؤمنون اجتمعوا ولم يختلفوا، واعتزموا ولم يترددوا، وانتظموا فى صفوف كالبنيان، وأمدهم بالصبر ولم يهنوا ولم يحزنوا.

وما ذلك كله إلا بفضل من الله العزيز الحكيم، وإن أعظم أسباب النصر بعد تأييد الله تأليف القلوب، ولذا قال سبحانه فى فضل نعمة التأليف:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«التأليف» إيجاد ألفة بين الجماعات، بحيث تألف كل واحد من الجماعة صاحبه، كالألفة التى أنشأتها المؤاخاة بين المؤمنين، وهو غير الاتحاد؛ لأن الاتحاد الاجتماع على أمر بالرأى والنظر، وقد لا يأتلف واحد صاحبه، وذلك قد يكون يجمع على فكرة أو حزب، ولا يشترط فيه تلاقى قلوب الاجتماع، واتلاف النفوس، وإن ذلك لا يستطيعه إلا الله، لقد ألف الله تعالى بين المؤمنين والمهاجرين حتى كان الأنصار يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، وألف بين الأنصار بعضهم مع بعض، حتى زال ما بين الأوس والخزرج ما كان بينهما من حروب، وامتزجت نفوس القبائل المهاجرة، حتى زالت من بينهم العصبية الجاهلية.

وإن تأليف القلوب لا يمكن أن يجيء إلا من عمل مقلب القلوب، ومؤلف الأرواح، وقد بين الله استحالة ذلك إلا من الله فقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ كما أن خلق شئ من العدم لا يكون إلا من خالق

الوجود، وكما أن الزرع لا يخرج من كمنه إلا من الله، وكما أن الله يذُرُّ الإنسان كهذه كلها يكون التأليف بعد النفور، والمودة بعد العداوة كذلك خلق الله تعالى هذا التأليف في النفوس؛ لتكون الجماعة القوية المتألّفة المتآثرة التي يكون فيها البنيان يشد بعضه بعضاً، وإن ذلك مستحيل من العبيد، وقد بين الله استحالة ذلك، فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى لو ملكت كل ما فى الأرض جميعاً، وأنفقتة طالباً بهذا الإنفاق أن تؤلف القلوب، ما استطعت لأنك لا تستطيع أنت ومن أن تخلقوا ذباباً، والتأليف لا يملكه إلا الخالق، فهو ليس فى مقدور أحد من العباد، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ الاستدراك، ارتقاء فى القول من قدرة الإنسان العاجز، إلى ما يملكه الخالق القادر.

وإن هذا التأليف كما قلنا هو الذى أوجد الجماعة الإسلامية الأولى التى كانت الخلية التى بذرت فيها بذرة الإسلام، فنمت وترعرعت، وكانت قوة الإسلام وقد قال الزمخشري فى معنى ذلك التأليف: (التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة؛ لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبية، والانطواء على الضغينة فى أدنى شئ وإبقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يأتلف منهم قلبان، ثم اتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ واتحدوا، وأنشأوا يرمون عن قوس واحد، وذلك لما نظم الله من ألفتهم، وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحاب والتواد وأماطه عنهم من التباغض والتماقت، وكلفهم من الحب فى الله والبغض فى الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقبلها كما يشاء، ويصنع فيها ما أراد، وإنه إذا كان للنبي ﷺ خوارق عادات غير معجزة القرآن فهذا أشد خوارق العادات وضوحاً وبياناً.

وإن الآية تدل على تأليف قلوب العرب الذين كانوا أول من خوطب بالرسالة، يستوى فى ذلك المهاجرى والأنصارى والأوسى والخزرجى، بهذا نما الإسلام قويا عزيزا غالبا بقوة الله وقدرته).

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عزيز يخلق العزة وأسبابها، عالم يجمع القلوب بحكمته وتدييره، وهو الذى أحاط بكل شىء علما.

وفيه إشارة إلى أمرين:

أولهما- أن ائتلاف القلوب والتحاب والتواد، والبعد عن التباغض والتناز هما عماد العزة، والتدبير الحكيم.

وثانيهما- إنه لا غلب ولا سلطان إلا بالتآلف، وإن يصير المجتمع كالبنیان المرصوص يشد بعضه بعضا.

اللهم أعد للمسلمين ائتلافهم، واجمعهم على محبتك ومحبة رسولك، وأزل ما بينهم من بغضاء وعداوة وأبدل بهما محبة وولاء، إنه لا يقدر على ذلك إلا أنت، كما ألفت القلوب ابتداء، فأعدها بعزتك وحكمتك إنك سميع مجيب الدعاء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

النداء للنبي ﷺ، وكان النداء بـ «يا» التى تكون للبعيد، لبعد الشرف فى موضوع النداء وهو الاعتماد على الله والالتقاء بحمايته، وبكلايته سبحانه.

والكلام السابق فى هذه الآية وما قبلها للتحريض على الجنوح للسلام إن جنحوا معتمدا على الله، آمنا من أن يخدعوه؛ لأن الله تعالى منه وكالته، والمؤمنون معه يؤيدونه وينصرونه، وإنه بنعمته سبحانه ألفت بين قلوبهم، وما كان يمكن لأحد أن يؤلف قلوبهم، وتلك إحدى خوارق العادات، وهنا تصرح الآية الكريمة بأن الله وحده عاصم نبيه ومن معه.

﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معنى حسبك عاصمك وكافيك وحاميك، ولقد قال شاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

أى إذا كانت الهيجاء تكاد تحبك مع الضحاك سيف مهند.

و«الواو» فى قوله ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ﴾ هى واو المعية، والمعنى عاصمك وكافيك مع المؤمنين ذلك، أن النبى خاف من الحروب على من معه من المؤمنين أن يُخَانُوا أو يخدعوا، فبين الله أنه حاميه وعاصمه هو ومن معه من المؤمنين، فلن يأخذهم من مأمَنهم، لأن الله معهم.

ويصح أن تكون الواو عاطفة «من اتبعك من المؤمنين» على «الكاف» فى «حسبك»، ويجوز العطف على الضمير المجرور من غير إبرازه بضمير منفصل، ويكون المعنى حسبك أنت ومن معك من المؤمنين.

والمعنيان واضحان من حيث المؤدى، ولكن الأخذ بأن الواو للمعية أولى؛ لأنها تدل على الصحبة، والتصريح به هنا يقوى الكلام ويؤيده.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى حكمة العصمة والكفاية، وهو كونهم الذين اتبعوا النبى ﷺ فى دعوته، ونصرتة، وإنهم بذلك قوة الرسالة، فهم قوة الدين الحق، وكان الله تعالى عاصمهم كما وعد نبيه بأنه عاصمه من الناس كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ (١٧) [المائدة].

وإن الله تعالى إذ يأمرنا بالسلام، إن جنحوا، ويزيل كل شك فى أن يأخذوا المؤمنين على غرة يأمر النبى ﷺ بأن يجعل المؤمنين على حذر ويستعدوا للحرب إن جالوا جولة ثانية، وذلك بأن يحرضهم على الاستعداد للقتال، وأن يقوا وحدتهم، وجماعتهم وأن يعلموا أنهم لن يُغلبوا من قلة.

إن الفئة المؤمنة لها قوتان: قوة الإيمان، والعدد المناسب، وقوة الألفة فوقهما، فيكونون بهذه القوة محاربين أشداء؛ ولذا قال تعالى:

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ
 الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ
 يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَفَ
 اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
 صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
 بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

هذا بيان تحذير الله تعالى لنبية إذا جنحوا للسلم، فلا تُغمد السيوف في أجفانها، ولا يسترخون، ويسكنون فإن المشركين إن جنحوا للسلم مدة، وجنح المسلمون استجابة للسلم يكونون على حذر دائم، فعساهم يأخذون المسلمين على غرة فيجب أن يكون المسلمون على استعداد دائم يستجيبيون لكل هيلة^(١)، ويكونون مستعدين للنفير دائما، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٦١]. ولذا أمر الله نبيه بأن يثبت فيهم روح القتال دفاعا عن الحق، كما يثبت فيهم الإيمان، فإنه لا بد لهم من شوكة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حثهم وحث فيهم روح الحمية، وإعداد العدة والاستعداد للحرب وإن يأخذوا الأهبة للقتال، ويدربوا أولادهم، فإن الكفار لا أمان لهم، ولو جنحوا للسلم؛ لأن الاستعداد وقاية من أن ينقضوا على المؤمنين انقضاضا.

ولقد كان من الحض على القتال أن يبين لهم أنهم بإيمانهم أشد بأسا، وأكثر عزمًا، فإن كانوا في العدد كثير، فهم بالإيمان أكثر وأعجب، وأقوى وأثبت، وبالصبر والعزيمة أعظم وأشد.

(١) الهيلة: الصوت عند حضور العدو.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ إلى آخر ما ذكر من أعداد؛ أهو إخبار من الحكيم الخبير، ويتضمن الحض على الإيمان والصبر، أم هو أمر بالشبات مع هذا العدد، وعلى أنه أمر يكون ما فى النص تكليف بالألا يفرون مائة من ألف، ولا عشرون من مائة، فإذا التقى عشرون فى سرية بمائة لا يفرون منهم، ويعودون أدراجهم لكاثرتهم بالعدد، بل عليهم أن يقاتلوهم صابرين فى قتالهم، وإذا التقى مائة بألف، لا يفرون منهم لكثرتهم، بل يقاتلون مريدين النصر والعزة، وعندما تكاثرت المجوس على المسلمين، وخاف عمر رضى الله عنه على المسلمين لم يأمرهم بأن يعودوا، بل اعتزم أن يخرج إليهم، ويتقدم صفوفهم، ويذهب للقتال، واستشار الصحابة فى ذلك فمنهم من وافقه، ولكن عليا اعترض ومنع، وهو أخبرهم بالجهاد فى سبيل الله، فقال رضى الله عنه: «كن قطبا، واستدر رحى الحرب بالعرب، فإنك إن خرجت فما تدع وراءك من العورات أشد، وأما كثرة العدد، فإننا ما كنا نتصر بالعدد، بل بالنصر والمعاونة».

هذا على قول من قال: إذ ذكر الأعداد للأمر بالألا يكون الفرار من أقل من هذا العدد.

وابتدأ بذكر العشرين؛ لأن السرية عادة لا تكون فى أقل من العشرين.

وقال بعض المفسرين، والنص يحتملها: إن ذلك للإخبار عن قوة النفوس بالصبر والإيمان، وأن الواحد بها بعد عشرة ممن لم يؤتوا الإيمان والصبر وعزة الحق، ونفوسهم بوار من هذه القوى كلها، وهذا النحو من القول فيه تثبيت للقلوب، فإن جنحت فعندها من مدخر من هذه القوى، ما تقابل بها الخيانة إن كانت، وإن حاربوا ولم يسالموا ولم يجنحوا إلى سلم- كانت القوى واقفة تدفع الباطل بالحق فإذا هو زاهق وللكافرين الويل مما يصفون، وإنه إذا كان القول للإخبار، فإن الأمر يجرى نتيجة للخير، إذ إن مقتضى إخبار الله المحيط بكل شىء علما بذلك الخبر الذى لا يتطرق إليه الشك- أن يكون الوجوب عليهم بمقدار ما منحهم الله تعالى من هذه القوة التى منحهم الله إياها، فالوجوب على مقدار

الاستطاعة، والاستطاعة كانت عظيمة؛ فالواجب عظيم. ينتهى الأمر بأن المؤمنين عليهم أن يعدوا العدة من قوة المادة والدرية وأن يعدوا أقوى عدة، وهى الصبر والعزيمة والاعتزاز بعزة الله تعالى وعزة الحق.

وهنا أمور تجب ملاحظتها هنا فى هذه الآية التى تثبت القلوب:

أولها- أنها تثبت أن المؤمنين إن كانوا أقوياء بالوحدة المؤلفة الجامعة للقلوب والمشاعر، يكون العشرون غالبيين لمائتين، فإذا كان الرجل بالرجل، فليقوة النفس والائتلاف تسعة رجال وحدها، فيكون الواحد بعشرة، وبذلك يتبين فضل الصبر والوحدة المؤتلفة التى لا تفرق فيها.

ثانيها- أن الله تعالى وصف العشرين بالصبر، وترك ذكره فى المائة، وهو ملاحظ فيها، ولم يذكر اعتمادا على ذكره فى الأول، وذلك شأن الكلام البليغ فكيف يكون الشأن فى أبلغ كلام فى الوجود.

ثالثها- قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو وصف أيضا للمائتين، أى أنهم من الذين كفروا، وذكر الوصف بالموصول للدلالة على الكفر هو سبب الضعف كما كان الإيمان والصبر هما بسبب القوة فينا، فعلى أن ندرع بالصبر والإيمان دائما، لأنهما قوتنا، وعزتنا.

وقد علل الله سبحانه هزيمة الكفار بقوله تعالى كلماته: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أى سبباً لذلك التفاوت فى القوة الذى كان مظهره التفاوت العددي، بأن كانت العشرون الصابرة تعادل منهم، السبب فى ذلك «أنهم قوم لا يفقهون» أى لا يدركون إدراكا ينفذ إلى الحقائق، وإلى لب الأمور، فإنهم بذلك ضلوا، فلم ينفذوا إلى الحق فيؤمنوا به، ولم ينفذوا إلى إدراك قوة الحق فظنوا أنهم يغلبونه بالكثرة الكثيرة، ولا تغنيهم فى الشديدة قتيلا، ولم ينفذوا إلى سبب الغلب، فغرهم الغرور.

والله سبحانه وتعالى يعبر عن الجماعة التي يجمعها هوى «بالقوم» لأنه لا قوة لهم إلا كونهم قوما، جمعهم جامع من هوى أو غرور، وضلال.

ذكر الله تعالى مدى جهاد المؤمنين إن كانوا جمعا قد تحلى بالقوة التي قوامها الصبر والألفة، والعزة من الله، وقد ذكر قوتها إذا عراها ضعف، والضعف يكون بأن يعرفوها ما يناقض أسباب القوة.

فقال تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

كان هذا التناسب في العدد الذي ذكره القرآن من أن العشرين الصابرين فيهم كفاية لمائتين، كان ذلك في حال القوة المؤمنة، وتلك القوة تقوم على الاتحاد والاتلاف، وعلى قوة الإيمان بالنصر والتأييد من الله تعالى وعلى قوة العزم والتوكل عليه سبحانه، وعلى الرغبة في إحدى الحسينين النصر أو الاستشهاد، وفيه حياة، فمن كانوا على هذه الحال كانوا الأقوياء حقا وصدقا.

أما إذا كان الضعف فقد خفف الله النسبة؛ ولذا قال تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن التناسب العددي فيه تكليف بالشباب لما يناسبه من عدد، فالعشرون مكلفون أن يثبتوا أمام مائتين وقد ذكرنا أن ذلك مطلوب، إما بالقصد الصريح، أو بالتضمن وقد بين معنى القوة، فلنشر إلى معنى الضعف، وهو ألا يكون الاتلاف قويا، وألا يكون العزم صادقا وأن يكون فيهم ضعفاء الإيمان ومنافقون، وقد بدا ذلك واضحا في غزوة أحد، فقد كان في جيش تردد في الخروج من المدينة ابتداء، وكان في بعضهم ميل إلى المادة، وكان في بعضهم ضعفاء الإيمان، وكان فيهم منافقون، ولم يكن في بعضهم صدق، وكان الصادقون قوته؛ ولذا في أول الأمر همت طائفتان أن تفشلا، والله وليهما.

ولذلك لم يكن النصر المؤزر كما كان فى بدر؛ إذ لم يكن الأقوياء الذين غير بهم وجه القوة فى البلاد العربية هذا هو الضعف، وذلك هو العزة، وخفف الله التكليف فى تناسب العدد فى حال الضعف، فجعل المائة تغلب مائتين. وقال تعالى فى ذلك: ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى أن التكليف يكون بأنه إذا كان مائة لا يجوز أن يفروا من مائتين، بل عليهم أن يثبتوا، وإن كان ألف يجب أن يثبتوا أمام الألفين.

والتخفيف هو تخفيف التكليف، وتخفيف التكليف لا يمكن أن يعد نسخا، وقد يعد ترخيصا من عزيمة وهى الأصل، ولم يقل: ألف صابرة، أى لم يذكر وصف الصبر، اكتفاء بذكره أولا، وذلك شأن الكلام البليغ موجز حيث يوجد ما يدل على المضمون.

وذكر المائة فى مقابل المائتين، كما ابتدأ فى الآية الماضية ذكر العشرين ابتداء، وذلك من التخفيف؛ لأن العشرين مع القدرة عدد مناسب للسرايا ونحو ذلك، فلا يرسل فيها إلا الأقوياء، ولا يرسل فيها من يكون فيه ضعف، إلا بعدد كثير، فكان ذكر المائة كحد أدنى، لجماعة فيهم ضعف.

ومع قلة التناسب فى العدد فى حال وجود الضعف، لا يكون النصر بقوتهم الذاتية، إنما يكون النصر بإذنه أى بتوفيقه وتوجيهه، وهو لازم فى كل الأحوال فى حال القوة، وإن كان هناك ضعف، وصرح به هنا لأنه واضح بأنه من أسباب النصر، أو سببه فى حال ما إذا كان ضعف.

ومن الناس من شغف بإثبات النسخ فى القرآن فيفرضون النسخ لأوهى معارضة لفظية، كما فرضوا النسخ فى آيات الصيام، ولا معارضة بين آياته، وكما فرضوا النسخ بين الآيتين، وكان المعنى بين الآيات واحدا يكمل بعضه بعضا، كذلك ادعوا النسخ هنا، فافترضوه لمجرد التخالف التقديرى بين الآيتين، وادعوا أن الثانية ناسخة للأولى مع أنه لا تعارض بين الآيتين، إن الأولى ذكرت ذلك

العدد فى حال القوة، والتآلف بين المؤمنين، والثانية خفف فيها العدد الأول لحال الضعف، والجهة منفكة بينهما.

وهكذا بينَّ أو مسلم الأصفهاني ونفى أن يكون النسخ بينها سيرا على مبدئه الذى انتهى إليه أنه لا نسخ فى القرآن قط، وأن القرآن ينسخ غيره، ولا ينسخ حكمه أبداً.

ولقد ادعى الإجماع بأن الثانية نسخت الأولى، ولكنه ليس إجماعاً، ولكنه قول قليل، وقبله كثيرون من علماء الأصول وساروا فى دراسة الموضوع فى الآيتين على أن ثمة نسخاً.

والحق أن الآيتين حكمهما خالد دائم إلى يوم القيامة، وهو أنه فى حال القوة يكون العشرون كفء المائتين وفى حكم الضعف بالأسباب التى ذكرناها، أو بعضها - يكون المائة فى مقابل مائتين.

ولقد قال تعالى فى نصر المائة أمام مائتين، والألف أمام الألفين: ﴿يَا ذُنِ اللّٰهُ﴾ وفى الواقع كان نصر إنما هو بإذن الله، ولكن ذكر هنا، ولم يذكر فى الآية الأولى للإشارة إلى أن الضعف والتخاذل لا يكون معه نصر إلا إذا كان ثمة إذن الله، للبحث على منع التخاذل والتنازع والتردد، واتقاء كل أسباب الضعف والله يؤيد من يشاء بغير حساب.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ مَعَ الصّٰبِرِينَ﴾ والمعنى فى ذلك: والله تعالى بجلاله وقوته وتأيدته مع الصابرين، وهذه المعية السامية تجعل الصابر مطمئناً إلى النصر لا محالة لسببين:

أولهما - أن الله معه، ومن يكون الله معه تكون معه القوة كلها، فلا تقف أمامها قوة فى الأرض فكيف يغلب، إنها تدرأ العجز، وتغلب القوة، بل يجعل من الضعف قوة فيكون النصر.

ثانيهما- أن الصبر يقرب من الله؛ لأن فيه ضبط النفس عن الهوى، وعن الجزع يوم الفزع، والقرب من الله لشدة العزائم، وتثبيت القلوب.

وإن الله تعالى يحب الصابرين، والمحبة أعلى من الراضى الذى هو أكبر الجزاء، فالمحبة أكبر من الرضوان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۚ ۝٦٥﴾ (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝٦٦﴾.

كانت غزوة بدر غزوة مباركة إذ انتصر فيها المسلمون قتلوا سبعين، وساقوا من المشركين سبعين أسيرا من كبار قريش، وكان المقتولون مثلهم من كبار قريش، وكان النبى ﷺ يميل إلى الإبقاء على الأسرى، سيرا على سنته فى الدعوة من أنه يريد الإيمان للمشركين مع حياتهم، ولا يريد قتلهم كافرين فما كان يحارب لأجل كفرهم، ولكن كان يحارب لتنفيذ الدعوة وتستمر رجاء إيمان الإجماع، وذلك سبب الميل فى إبقاء الأسرى.

والله تعالى عاتب نبيه لا على إبقاء الأسرى، بل عاتبه لأنه أسر، وليست له قوة قاهرة مستمرة، عاتبه لأنه فى أول واقعة التقى بهم، وأسر منهم، بل كان قتلهم فى الميدان، وإثقالهم بالجراح وهو الإثخان، حتى تكون له قوة قاهرة قاصمة، ويأسر قِيمَنُّ أو يفدى.

الأسرى

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ
 لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
 وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾
 اللَّهُ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا
 غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾
 يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ
 فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾

كان النبي ﷺ يريد أن يستبقى المقاتلين من أعدائه رجاء أن يكونوا للحق أو أن يكون من ذريتهم من يعبد الله تعالى، كان يقول ﷺ في حروبه لقواده: «لأن تأتونى بهم مؤمنين، خير من أن تأتونى بنسائهم وذرياتهم سبايا مأسورين»^(١)، فكان يحب الإبقاء على مقاتليه بدل إبادتهم، ولذا كان لا يبيد الخسيس، فلما انهزم المشركون أسر منهم بدل أن يقتلهم، وقد كره سعد بن معاذ الأمر عندما وقع، وقد كان يحرس عريش النبي ﷺ، وذكر ذلك وقال للنبي ﷺ: إن هذه أول واقعة بيننا وبين المشركين فما أحب أن أسر قبل أن نثقلهم بالجراح، وجاء القرآن الكريم بذلك النظر فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾

أى ما ساء لنبي، أمره الله تعالى بالجهاد لجعل كلمة الله أن يكون له أسرى حتى يشخن فى الأرض حتى يثقلهم بالجراح بحيث لا يستطيعون أن يقفوا للحرب مرة ثانية، فالإثخان المبالغة فى الجراح، حتى يثقلوا عن استئناف القتال، وتكون المعركة شافية لا تبقى من باقية، وذلك حتى لا يتجمعوا لكم من بعد فى وقت قريب، كما فعلوا فى أحد، وحتى لا تثقلوا أنتم بإطعام الأسرى، وقد يكون ذلك عليكم عسيرا، وإطعامهم لا بد منه، ولذا يقول تعالى فى أوصاف المؤمنين: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان]، ولكى يسد باب الخديعة والنفاق، كما حدث من بعض الأسرى.

لهذا كان النهى الذى يتضمن نهيا مؤكدا، عن أن يكون للنبي ﷺ أسرى، والآية كما تضمنت النهى عن أخذ أسرى قبل أن يشخن فى الأرض، ويثقل العدو حتى لا يتحرك إليه عن قريب، لما نهى عن ذلك نهى عن أخذ الفدية، فى حال عدم الإثقال؛ ولذلك قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أى تريدون عرض الدنيا بالمال تأخذونه، وقد برروا أخذ الفداء بأن يكون قوة للمؤمنين، والله سبحانه وتعالى يريد الآخرة، أى يريد ما يكون نصرا غالبا مؤزرا يؤدى إلى إرضائه سبحانه.

وقصة إشارة النبي ﷺ بالفداء كانت بشورى أشار بها بعض كبار المؤمنين الصديقين، وإليك الخبر كما جاءت به كتب السنة والسيرة فى أصح أخبارها.

لما كان يوم بدر جىء بالأسرى، وفيهم العباس فقال رسول الله ﷺ: «ما ترون فى هؤلاء الأسرى»، فقال أبو بكر: قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: كذبوك وأخرجوك وقاتلوك؛ قدّمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: انظر واديا كثير الخطب فأضرمه عليهم.

فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرد عليهم مسغيا، ثم خرج رسول الله ﷺ وقال: «إن الله ليلين قلوب رجال منه حتى يكون ألين من اللبن ويشدد قلوب

رجال حتى تكون أشد من الحجارة، ومثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة].

ومثلك يا عمر مثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح]، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس].

اختار النبي ﷺ أخذ الفداء، لأنه أرفق، ولأنه رأى فيه تقوية للمؤمنين، بالمال يأخذه منهم، وتقوية للمؤمنين بتعليم الأيمن من الصحابة إذ كان من يقرأ ويكتب من الأسرى وليس معه مال، تكون فديته بتعليم بعض المؤمنين، ولقد من على العاجزين عن الأمرين ممن رجا فيه خيرا.

نزلت هذه المعاتبة بعد ذلك، فبكى النبي ﷺ، وبكى معه صاحبه في الغار، وصديق هذه الأمة، وقالوا: ﴿إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِرَأْيِ عَمْرٍ﴾^(١).

ونحن نرى أن القرآن نزل برأى سعد بن معاذ، وروى أنه وافق سعدا الفاروق عمر، وعبد الله بن رواحة؛ لأن العتاب ابتداء ما كان متجها إلى أخذ الفداء، إنما كان متجها ابتداء إلى أخذ الأسرى قبل أن يشخن في الأرض، أما الفداء فلا لوم فيه، وقد جاء به القرآن في نظام الأسرى، فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَنْخَضْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [٤] [محمد].

وهنا يسأل سائل لماذا لم يعلم الله رسوله الحق قبل أن يقع في الخطأ بدل أن يتركه يخطئ، ثم يعتب عليه والجواب عن ذلك أن حكمة الله تعالى في أقواله وأفعاله بالغة، فإن في ذلك تعليم لنا ومنع لغرورنا، إن هذا يبين أن هذا النبي

(١) البداية والنهاية: ج ٤، ص ١٠٤، وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسلم: الجهاد والسير - الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣).

المختار المصطفى إذا ترك في أمر قد يقع في الخطأ والوحي ينزل، أو تعرض للخطأ، وإن كل إنسان عرضة للخطأ، وإن العقل يعجز عن إدراك الحقائق كاملة، وبيان فساد حكم الطغاة الذين ينفردون بالحكم، ويحسبون أنهم لا يخطئون، ويجوارهم فئة المنافقين الضالين المضلين الذين يأكلون السحت مما يتساقط من أموالهم التي هي سحت كلها، إن هذا رسول الله وسيد الخلق المصطفى إذا ترك من غير وحي في أمر تشريعي، كان عرضة للخطأ وقد أخطأ فكيف بكم أيها الطغاة الذين قمتم للشر وقام ببنائكم على الشر.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي أنه هو العزيز الذي أعطاكم العزة والرفعة في هذه، وجعل لكم قدرة على الأسر بعد أن كنتم قليلين مغلوبين يتخطفكم الناس في الأرض، وقد فعل ذلك بمقتضى حكمته.

ثم بين سبحانه أنهم معفوون من خطئهم، فقال تعالت كلماته:

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية كسابتها في موضوع الأسرى وأخذ الفداء عنهم، وعتب الله على النبي ﷺ في شأنه وأخذ الفداء عنهم.

و «لولا» في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ﴾ حرف شرط امتناع لوجود، أي امتناع الجواب لوجود الشرط، أي امتنع أن يمسمكم عذاب عظيم بوجود كتاب سبق، والكتاب الذي سبق هو الذي عهد إلى بنى آدم ألا يعذبهم حتى يبين، (فلا عذاب إلا إذا سبقه بيان)، وهو أيضا ألا عقاب على الخطأ في اللفظ كما قال النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١)، والعهد أيضا لا عقاب على الخطأ في الرأي، وأن المخطئ في الاجتهاد له أجر، ومن له أجر في أمر ليس عليه عقاب فيه، فلا يجتمع الأجر والعقاب، فلوجود الكتاب كان العفو، وهذا الشرط وجوابه يوميء إلى أن أخذ أسرى هو في ذاته موضع مؤاخذه، ولكن

لم يكن العقاب لهذا الكتاب الذى أشرنا إليه، فالنص يومئذ إلى أن أخذ الأسرى لولا ما حف به - لكان محل العقاب.

وعبر سبحانه وتعالى عن العذاب بقوله تعالى: ﴿لَمَسْكُكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فعبر عن العذاب بـ (مسكم)؛ لأن عذاب النار يمس الجلد، ونكر العذاب ببيان أنه عذاب شديد، ووصفه بأنه عظيم، لأنه على قدر الذنب الموقع يكون العذاب، والذنب لو وقع كان فى الحرب، والحرب إما هزيمة وانتصار، ويجب ألا يكون فيها تراخ، ولا أخذ بالهواة، بل إنها أخذ بالصرامة والصرامة فى الحرب تمنعها، ويرهبها الناس، فلا يقعون فى أسبابها.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من المال يؤهم أن أخذ المال وحده هو السبب فى هذا العقاب، والحقيقة أن ذلك جزء من السبب وإن لم يكن جوهر السبب؛ لأن السبب الأصلى هو أخذ الأسرى، وتبع هذا الأخذ إن اختار النبى ﷺ أخذ الفداء تيسيراً عليهم، واستبقاء لهم عسى أن يتوبوا، وقد دخل فى الإسلام أكثرهم واستمر على الكفر أقلهم، والتيسير فى الدعوة مطلوب لقول النبى ﷺ للمجاهدين: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»^(١).

وقلنا: إن أخذ المال جزء من سبب المؤاخذه؛ لأن المؤاخذه هى على الأسر وما تبعه من أخذ الفداء أو إن شئت فقل إذا إن السبب أخذ المال فى هذا الأسر الذى لم يسغ.

وقد قال الرازى: إن بعض المفسرين قال إن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمَوْهُمْ فَشَدُّوا الْوُثَاقَ﴾ [محمد] نسخت: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ إلى آخرها، والحق أنه لا نسخ، بل الآيتان متلاقيتان متضافران فى الدلالة على معنى واحد وهو أنه لا أسر إلا عند الإنخاض، وإذا كان الأسر فى موضعه ووقته، فالإمام يخير بين المَنِّ من غير فداء، والفداء بالمال، أو مبادلة

الأسرى كما بادل النبي ﷺ أسرانا بأسراهم ، فتلک شریعة محكمة باقية خالدة لا تغیر فیها ولا تبدیل .

ولقد بین الله للنبي ﷺ أنهم كانوا فی غناء بالغنائم عن أن يأخذوا فداء ، ولذا قال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(الفاء) فاء الإفصاح ، فهي تفصح عن شرط مقدر ، أى تقديره مأخوذ من حالهم عند أخذ الغنائم ، والتقدير هكذا إذا كنتم تريدون تقويتكم بالمال ، وما تأخذونه منكم ، فعندكم الغنائم ، ولذا قال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ومعنى الأكل هنا الأخذ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة] ، أى لا تأخذوه ، وعبر عن أخذ المال بالأكل ، لأن الأكل هو الأمر الضرورى الذى يؤخذ لأجله المال ابتداء ، فعبر عن الشئ بأهم مسبباته ، وذلك من المجاز المرسل السائغ ، كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف] ، أى أعصر عنبا يكون سبب الخمر .

وقوله تعالى : ﴿ مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ المراد بها الغنائم التى وزعت بحكم الله تعالى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ . . . ﴾ إلى آخر النص الكريم العادل ، وعلى ذلك يكون المراد هذه الغنائم ، وذكره (من) للدلالة على نصيب المجاهد منها ، والمعنى على هذا ما كان لكم أن يكون لكم أسرى ولم تتخسروا فى الأعداء ، لتكون الغاية أن تأخذوا منهم ما تتقون به ، فإنه يكفيكم ما تأخذون من الغنائم حلالا ، لا لوم فيه ولا عتاب ، وإنه لكثير يغنيكم عما يكون فيه لوم أو عتاب تأخذونه من فداء الأسرى فى أمر جاء فى غير وقته ومن غير مبرراته .

وقال بعض المفسرين : إن النص لإباحة تناول الفداء باعتباره من الغنائم ، واللوم فى أصل الأمر ، وإنا نرى أن الأظهر للأوضح الذى يتفق مع العتاب على أخذ الفداء مع الأسر ، ويكون النص تأكيدا للعتب وتديلا على وجوبه .

ويقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ أى اجعلوا بينكم وبين الوقوع فى المحذور وقاية، فلا تفعلوا ما يغضبه. وارجوا رحمته ومغفرته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى كثير المغفرة يرحم الناس بمغفرته، وقد أكد سبحانه وتعالى مغفرته ورحمته، بصيغة المبالغة أو الصفة المشبهة فى ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وبالجمله الاسمية، وبـ (إِنَّ) المؤكدة «اللهم اغفر لنا وارحمنا».

وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يتجه إلى الأسرى يرشدهم ويهديهم ويطيب نفوسهم، فيقول تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

يظهر أن ذلك العتب كان والأسرى لا يزالون بالمدينة أو أكثرهم، وكانوا قد دفعوا الفداء؛ وذلك لأنه سبحانه أمر نبيه بأن يخاطبهم هذا الخطاب وعبر بأنهم لا يزالون فى أيدي المسلمين أو بعضهم.

خاطب الله نبيه بأن يقول لهم كلمة رحيمة هادية تقرب القلوب، ولا تحفيها، قال سبحانه لنبيه: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ﴾، أى لا يزالون تحت سلطانكم، وقرابين منكم ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا، وهو رجاء الإيمان منكم، أو قرب احتماله، يؤتكم خيرا مما أخذ منكم أى يؤتكم إيمانا وأن تكونوا فى صفوف جيش الله ومع المؤمنين، فيكون الإيمان، وهو خير مطلق، وفضل عميم ويؤتكم من خير الغنائم أكثر مما أخذ منكم.

وهذا تحريض على الإيمان، وقوله تعالى: ﴿يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من غنائم غنمها المسلمون، ومن فدية افتديتم بها أنفسكم، وقد روت صحاح السنة أن ممن شملهم خطاب النبى ﷺ العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ. ويقول بعض المفسرين: إن الآية نزلت فيه، ونحن نقول: إنها تشمله فيمن كان معه من الأسرى الذى أخذت منهم غنائم فى القتال، وأخذت فدية فى الأسر، وقد عوض من الأمرين خيرا مما أخذ منه.

روى عن العباس رضى الله عنه من طريق الزهري: بعثت قريش فى فداء أسرهم، ففدى كل قوم أسيرهم، وقال العباس رضى الله عنه- وكان فى الأسرى: قد كنت مسلما، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأنا ظاهرك» (فقد كان علينا وقد كان ممن ضمن طعام جيش مكة فى بدر) فافد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو، وعبد الله قال: ما ذاك عندى يا رسول الله قال ﷺ: «فأين المال الذى دفعته أنت لأم الفضل؟».

قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى فيه لبنى الفضل، وعبد الله، وقثم.

قال العباس: والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك لرسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل.

فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مالى، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك، ففدى نفسه وولدى أخويه، وحليفه»^(١).

وقد قال: عوضنى الله عن أربعين أوقية أربعين عبدا فى الغزوات، وأعطانى زمزم، وما أحسب أن لى بها جميع مالى، وهكذا عوض الله تعالى كل من آمن من بعد ذلك وغزا مع النبى ﷺ الغزوات فأصاب من خير وآتاه الله تعالى مع ذلك الإيمان والإخلاص، ومن قبل منهم فى الجهاد، أعطى خيرا من كل هذا فضل الشهادة وإن فضلها لعظيم.

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أى أنه سبحانه وتعالى مع هذا العطاء المضاعف لما أخذ منكم يعطيكم شيئا غير قابل للتعويض وهو من فضل الله ورحمته وهو غفران ما أسلفتم من كفر وجحود ومعاندة لله تعالى، فهو الغفور الذى يغفر ما سبق بأبلغ درجات الغفران ويرحمكم بأبلغ الرحمة.

(١) رواه أحمد: مسند بني هاشم-باقي المسند السابق(٣٣٠٠).

هذا حال الأسرى إن آمنوا واستبدلوا بالكفر إيماناً، والأكثرون منهم كانوا كذلك، ومنهم من خانوا ما عاهدوا النبي ﷺ، فمن عاهد النبي ﷺ على ألا يدعوا الجموع ضد، فمن النبي ﷺ من غير فداء، فعاد ورفع عقيرته بالدعوة ضد النبي ﷺ وألب الناس عليه داعياً لأخذ الثأر؛ ولذا قال:

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا

اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنْ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

الزمخشري لا يعد الضمير يعود على الكفار الذين يخونون العهود في المستقبل، والذي خانوا عهد الله بارتدادهم، ويذكر أنه ربما يعود على الأسرى الذين عاهدوا النبي ﷺ على أن يكفوا ألسنتهم عنه فلم يكفوها وألبوا الناس، وهؤلاء خانوا.

ويلاحظ أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أى وسوست لهم شياطينهم بالخيانة وأرادوها، فإن أرادوها فخذ حذرك ولا تأس عليهم، فقد خانوا الله تعالى وكفروا به وأشركوا به الأوثان وهموا أن يقتلوك، فأمكن الله تعالى أهل الإيمان منهم، وأعلنوا بذلك كلمة الحق والإيمان.

وإن مضمون النص يجعلنى أميل إلى أن الضمير لا يعود على الأسرى، ولا يعود على من ذكر الإيمان وردده من المشركين وأظهروا أنهم يريدونه تقرباً للمسلمين.

وإنما أميل إلى الذين جنحوا للسلم، وأمر الله نبيه أن يجنح ولا يمنعه أن يحاولوا خديعته؛ لأن الله حسبه، وفى هذه الآية بين الله تعالى لنبيه أنه يجب أن يستمر غير ملتفت لهم إن أرادوا خيانة بعد أن جنحوا للسلم، ولكن أرادوا خيانتك، وألا يهتم لخياتهم فى ذاتها، وألا يأسى على خياتهم بعد أن جنحوا للسلم والله تعالى ينبه نبيه بأنهم إن أرادوا خيانتك بأن هموا بالانقضاض على المؤمنين، فإنهم قوم من طبعهم الخيانة فقد خانوا الله تعالى من قبل بأن عبدوا الأحجار والأوثان وهموا بأن يقتلوا الرسول، أو يحبسوه أو يخرجوه، وخانوا الله

تعالى بخيانة أهله فلا تأس عليهم، والله من ورائهم محيط؛ ولذا ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بخبايا نفوسهم، وما تحدثهم به خواطرهم، وبنزعات نفوسهم، وقد رتب لهم سبحانه ما يصلح لهم بمقتضى علمه وحكمته، فهو حكم من يضع الأمور فى مواضعها، ويدبر لك بحكمته، فلا تخش وبالهم، والعاقبة للمتقين.

ولاية المؤمن للمؤمن وولاية الكافر للكافر

إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَمْ يُهَاجِرُوا مَالَهُمْ وَلَا كُرْمَهُمْ وَلَيْتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا
 وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ التَّصَرُّؤُا عَلَى قَوْمٍ
 يَبِينُكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي
 الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا
 وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
 الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ
 بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ
 بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

المؤمنون أمة واحدة، وولايتهم واحدة، فلا ولاية للمؤمنين إلا من المؤمنين، ولن يجعل الله للمؤمنين على الكافرين سيلا، وأكد الله تعالى هذه الولاية ومنع غيرها، فقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقد نهى الله تعالى عن كل مداراة للكافر يكون فيها نصرة له، وانتصار به، أو اتخاذه بطانة يعرف منها أسرارها وخفايا أمورها، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وعندما هاجر النبي ﷺ كان المؤمنون فريقين مؤتلفين متوآدين متحابين قد عقد النبي ﷺ المؤاخاة التي قد صارت سنة يجب اتباعها إلى اليوم.

ولقد أكد سبحانه وتعالى الولاية بينهم مع افتراق كقبائلهم وفخوذهم وبطونهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ وصف الله المهاجرين بأنهم آمنوا إيماناً لقوا فيه الأسى والعذاب فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، وصبروا وصابروا، وبأنهم هاجروا، أى تركوا ديارهم وأسرهم وأموالهم وخرجوا من ديارهم وهى الحبيبة إليهم، فنالوا فضل الهجرة بترك الأحبة فى سبيل الله، وما هاجروا للسياحة والراحة بل خرجوا ليحملوا مشقة أعظم مما يحملوا؛ ولذا قال تعالى فيهم: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جاهدوا الهوى فى النفس والركون للراحة، وحملوا السيوف مقاتلين فى سبيل الله، وبذلوا أموالهم التى كسبوها بكدهم من كسبهم بعد الهجرة بعد أن فقدوا أموالهم التى كسبوها قبل الهجرة، وكان من هؤلاء من يخرج من كل ماله لله ورسوله، ومنهم من يحمل من ماله نفقات جيش، كما حمل عثمان نفقات جيش العسرة.

وكل ذلك فى سبيل الله تعالى لا يرجون إلا ما عند الله، وهؤلاء أولياء لمن يماثلون خيراً، وهم الذين آووا ونصروا وتحلوا بما تحلى به إخوانهم المهاجرون،

فآمنوا بالإيمان الكامل، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وإذا كانوا قد نقصوا عن إخوانهم فضل الهجرة، فقد عوضوا عن ذلك بفضل الإيواء والنصرة، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

هؤلاء الأطهار قرر الله تعالى أن بعضهم أولياء فقال سبحانه وتعالى في خبر «إِنَّ» ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الولاية محبة ومودة ومناصرة، وقد اجتمعت كل هذه الأحوال في ولاية المؤمنين المهاجرين، والأنصار فقد اجتمعت فيها المودة، فتوادوا وتحابوا، وتناصروا وجاهدوا جميعا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ولقد جمعت المؤاخاة معنى المودة والمحبة والإيثار وجمع الجهاد معنى النصر، والتعاون بالجهاد في سبيل الله، وإن هذه الولاية كانت تتضمن مع ما ذكرنا معنيين آخرين:

أولهما - أنهم يقتسمون الغنيمة بالسوية على النظام الذي قرره الله تعالى في الغنائم، لا فضل لأنصارى على مهاجرى، ولا فضل للمهاجر على الأنصارى، ولما أعطى رسول الله المؤلفة قلوبهم، وجد بعض الأنصار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنها لعاعة^(١) مال تألفت بها قلوب قوم، وتركتكم لدينكم»، ودعا للأنصار دعوة ختمها بأنه من الأنصار لولا الهجرة، «ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

ثانيهما - أن هذه الولاية التي كللها رسول الله بالمؤاخاة كانت تثبت الميراث بين المهاجرين والأنصار إذا مات أحدهما من غير قريب مسلم، فالمؤاخاة تثبت الميراث، كأنها تحل محل بيت المال.

(١) اللعاعة: البقية اليسيرة من الشيء، ونص الرواية عند أحمد: باقي مسند الكثيرين - مسند أبي سعيد الخدري (١١٣٢٢).

هذه الولاية بين المهاجرين والأنصار، والإيمان وحده من غير هجرة يوجد ولاية الإيمان لا موجد ولاية قسم الغنيمة والميراث بالمؤاخاة؛ ولذلك نفى هذا النوع من الموالاة عن الذين يؤمنون ولم يهاجروا نعمة الجهاد المشترك بين المهاجرين والأنصار و نعمة المؤاخاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

عندما شاع أمر الإسلام، وذاع في البلاد العربية مع استمرار الدعوة والجهاد قد آمن ناس ولم يهاجروا وقد رغب الإسلام في هجرتهم، ليكثر بهم جمع أهل الإيمان، وليكون الجهاد متكاملًا أمام أهل الشرك، ولكي لا يستضعف المشركون يستخذى المؤمنون لقتلهم وضعفهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء].

وقد ذكر الله تعالى في هذه مقدار ولايتهم، وهى ثابتة لأنها ولاية الإيمان، ولكن لا تكون لهم ولاية قسمة الغنيمة، ولا الولاية التى تثبت بالإخاء، ولذا قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ﴾ أى ليس لكم من ولايتهم في الغنائم أى شيء. وهذا النص يرمي إلى أنه يحسن بهم أن ينضموا لجماعة المؤمنين ويتناصروا.

ولقد جاء في تفسير الحافظ ابن كثير ما نصه: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرا، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا ديارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله تعالى

الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا - أى الإسلام - فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا - أى الإسلام والجزية - فاستعن بالله وقاتلهم»^(١).

هذه رواية مسلم، وظاهر أن الولاية المنفية هى ولاية الاشتراك فى قسمة الغنائم وما يترتب على الإخاء، أما الإيمان فولايته قائمة ثابتة وهى ولاية النصرة، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنْ اسْتَشَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾.

إن هذه ولاية الإيمان وهى توجب النصرة على أساس أن المؤمنين جميعا إخوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات].

فحيثما كان المؤمن فهو فى ولاية المؤمنين مهما تختلف الديار، وتتباعد الأقطار، ولذلك إذا استنصر المؤمن؛ أى طلب النصر - وجبت نصرته، فالسین والتاء للطلب أى طلب النصرة، فى دفع عدو داهم، أو فى حرب عادلة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والاستجابة لطلبه، وقد استثنى الله حالا واحدة، وهى أن يكون ثمة ميثاق، أى عقد موثق بمواثيق الله تعالى، وميثاق وزن مفعال من (وثق)، فأصله (موثاق) قلبت الواو ياء لوقوعها ساكنة بعد كسرة، والمعنى عليكم النصر، أى فإن دعوكم فعليكم الإجابة إلا أن يكون النصر الذى تنصرونهم فيه يكون على قوم بينكم وبينهم ميثاق، أى لا تنصروهم على قوم لهم ميثاق، ولكن يجب أن تدفعوا عنهم كل من يعتدى عليهم، ولو كان بينكم وبينهم ميثاق، لأنهم ينقضون الميثاق بمجرد أن يعتدوا على مؤمنين، فلا عهد مع الاعتداء على أهل الإيمان.

(١) مختصرا من حديث طويل رواه مسلم: الجهاد والسير - تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته (١٧٣١).

وإذا كان في المؤمنين غير المهاجرين ضعف، واستضعفهم أعداء الإسلام أيان كانوا، وجبت نصرتهم، ويقول في ذلك ابن العربي في تفسيره في أهل الميثاق إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد، حتى تتم مدته إلا أن يكونوا - أي المسلمون - أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة حتى لا تبقى منا عين تطرف، حتى تذهب إلى استنقاذهم إن كان عدونا يحتمل ذلك، أو ينزل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد منا درهم.

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي أن الله العلي الكريم الغالب على كل شيء مطلع كما مطلع ذو البصر على ما تعملون، ومكافئكم عليه، وقدّم « بما تعملون » على « بصير » لمزيد الاهتمام، والحساب على مقتضى علمه سبحانه وتعالى بما يعملون.

هذه حدود ولاية المؤمنين، ولقد ذكر سبحانه وتعالى ولاية الكفار بعضهم مع بعض، وعدم ولايتنا معهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

إذا كان المؤمن لا يوالى إلا مؤمنا، ولا تكون له المحبة والولاية إلا لمؤمن مثله، فلا تكون ولايته لغيره، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أنهم لا يكونون إلا أولياء لأنفسهم، فالمسلمون ولايتهم للإسلام، والكفار لا يتولون ولا يصح لمسلم أن يتولاهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة]، والولاية هنا النصر، أي أن الكافر نصير الكافر، ولا يصح أن ينصر المسلم الكافر، والنص يتضمن ذلك المعنى، أي أنه لا تناصر بين المسلم والكافر، ولا تناصر إلا بين الكافر والكافر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ الضمير هنا يعود على التناصر بين المسلم والكافر بأن يستنصر المسلم بالكافر أو ينصر المسلم، ونفيه مفهوم ضمنا من

اختصاص الولاية للمؤمن بأن تكون مع مؤمن، واختصاص الولاية للكافر بالآ تكون إلا لكافر، و﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ هى «إن» المدغمة فى «لا» النافية، ففعل الشرط (لا تفعلوه)، ومعنى إلا تفعلوه أى إن لا تتقوا تناصركم معه، تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير، والمعنى إن كنتم تتناصرون بهم فتستنصرون بهم وتنصرونهم تكن فتنة فى الأرض وفساد، لأن نفى النفى إثبات، ومؤدى ذلك: إن كنتم لا تتباعدون عن المناصرة فيهم تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وذلك حق؛ لأن أقبح الفتنة أو أشدها أن يكون ولاء المؤمن للكافر، بأن يكون للولى ناصرا، ومستنصرا فإن ذلك يفتن المسلمين عن دينهم، ويجعلهم فى ولاء للكافرين، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المتحنة]، فتوليهم فتنة تفتن المؤمن عن دينه وفى خلقه، وتجعل تعاونه مع الكفار، وفيه فساد كبير ففيه قوة للكفر، وضعف للإيمان وأى فساد أكبر.

وإن الفساد الذى أصاب المسلم الآن، والفتنة التى يموج فيها المؤمنون، إنما هى من ولاء المؤمنين للكافرين كما ترى ذلك فى ساسة المسلمين منذ ضعفوا، فقد ازدادوا ضعفا بهذا الولاء، وكان أمر المسلمين إلى بوار، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [٥٥] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

جمع الله تعالى فى هذه الآية الذين كانوا دعامة الإسلام، وعليهم هدى الرسول ﷺ قام بنيانه، وشيدت أركانه، وهم المهاجرون والأنصار، فالمهاجرون ابتدأ بهم تكوين الجماعات الأولى التى صبرت وصابرت وتلقت الصدمة الأولى من المشركين، ويقول ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١)، فهم الذين

تلقوها من عتاة المشركين الذين قابلوا أهل الحق بالأذى من أمثال أبى لهب، وأبى جهل، والوليد بن المغيرة، وغيرهم، وهم الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بإيمانهم، ومنهم من هاجر إليها مرتين، وهم الذين لاقوا العنت، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، ومنهم من اضطروه تحت العذاب أن ينطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من مات بعض أسرته تحت حر العذاب.

ثم فى آخر الأمر هاجروا إلى المدينة، فاستقبلهم إخوانهم بالترحاب وآووا ونصروا.

والأنصار هم الذين آووا ونصروا، وأعزوا كلمة التوحيد وأغلوها وأعلوها، فإذا كان المهاجرون هم الذين أظفوا شجرة الإسلام ابتداء، فالأنصار هم الذين حموا ثمرتها وقامت دولة الإسلام فى أرضهم وحراستهم، وإذا كان المهاجرون قد لاقوا العنت فى مكة فقد لقوا الإيواء فى المدينة، وإذا كانوا هم دعامة الإسلام فالأنصار دولته، وفى رحابهم قامت المدينة الفاضلة التى أقامها محمد ﷺ فى ديارهم وإذا كان المهاجرون قد جاهدوا ابتداء بالصبر والمصابرة، فقد كان جهادهم فى المدينة مع إخوانهم الأنصار بذلك وبالقتال فى المدينة، والفريقان اختارهم الله للتأليف حتى تكونت منهم أظهر جماعة رأيتها الإنسانية وأقواها؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

الإشارة إلى السابقين، والإشارة إلى الموصوف إشارة إلى أوصافه، وجعلها مناط الحكم، أى أولئك الذين هاجروا بعد الإيمان، وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا هم المؤمنون حقاً، أى إيماناً ثابتاً صادقاً حقاً تلاقت أقوالهم وقلوبهم وأعمالهم.

وفى الكلام قصر، أى من كانوا على هذه الصفات هم وحدهم المؤمنون حقاً، أى لا يؤمنون حقاً غيرهم، ومن هم على صفاتهم، وفيهم قوة الإيمان مثلهم، أى ذلك هو الإيمان حقاً وصدقاً ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢٦) [المطففين].

ولقد كرر الله تعالى الثناء على المهاجرين والأنصار فى كثير من محكم آياته، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ (١٠٠) [التوبة].

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ (١١٧) [التوبة].

وقال تعالى فى توزيع ما أفاء الله على رسوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (٩) [الحشر].

وهكذا ترى قوة الإيمان، والجهد ونصرة الرسول، والإيثار فكانوا بذلك المؤمنين حقاً وصدقاً، وقد ذكر الله تعالى ما كتب من خير فى الدنيا والآخرة، بعد أن ذكر أنهم المؤمنون حقاً، قال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهذا يتضمن جزاءين:

أولهما- المغفرة السابقة ووراءها الرحمة والنعيم المقيم.

ثانيهما- رزق كريم واسع في الدنيا بعد المشقة التي تحملوها والله واسع

عليم.

هذا شأن المهاجرين الذين آمنوا والذين آووا ونصروا، وقد ذكر بعد ذلك شأن الذين يهاجرون ويؤمنون من بعد، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

باب الإيمان مفتوح، وباب الهجرة مفتوح، وميدان الجهاد متسع للجميع، فلم يغلق على المجاهدين الأولين، ويحكم الرّجاج على من بعدهم، لا بل هو مفتوح، وهذه الآية الكريمة تلحق الذين يؤمنون من بعد ويهاجرون بالأوليين الذين هم المؤمنون حقا، ولهم مغفرة ورزق كريم^(١).

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ أى من بعد نزول هذه الآيات الكريمات، ويفعلون فعل من سبقوهم فيهاجرون ويجاهدون معكم لا فرق بينكم وبينهم في الميدان فأولئك منكم، ومثل هؤلاء أبو موسى الأشعري، ومن معه من الأشعريين؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أى أولئك يصيرون جزءا منكم لهم حكمكم، ولهم ثناؤكم، لا تعملون عليهم لأنهم منكم، فالمهاجر الأول والذين آووا ونصروا لهم فضلهم، ويلحق بهم في الفضل والثناء والجزاء من آمنوا من بعد وأبلوا مثل بلائهم، ولم

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: *سَكُونُ هِجْرَةٍ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلَزَمَهُمْ مُهَاجَرَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَبَقِيَ فِي الْأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا، تَلَفَتْهُمْ أَرْضُوهُمْ تَقْدَرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ، وَتَحْتَرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ*. رواه أبو داود: الجهاد - في سكنى الشام (٢٤٨٢)، وأحمد:

يتخلفوا عنهم فى الفضل وإن تخلفوا فى الزمن، وهو لا حساب فيه عند الله ما دام الإيمان والجهاد والهجرة قد تحقق فيهم.

هذا ولاء المؤمنين بعضهم مع بعض، وكهدى القرآن لا يمحو ولاء الفطرة ولا يمحو الولاء العام، ولاء الأسرة لأنه يدعمه ويقويه، ولذلك جاء ولاء الأسرة بعد الولاء العام، فقد قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

أى فى حكم كتاب الله تعالى، ومقررات الإسلام الثابتة، فالأسرة لا تفنى بجوار الإيمان ولكن تقوى دعائم المجتمع الإسلامى.

سورة النبوة

تمهيد:

وهي مدنية وعدد آياتها ١٢٩ ويقولون إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان.

وفي المصحف أنها نزلت بعد المائدة، ولكن الثابت أن آية ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...﴾ [المائدة] نزلت في عرفة في حجة الوداع، وأن براءة نزلت في حجة الصديق رضى الله عنه، وصلى بها على بن أبى طالب، فهي قبل المائدة، وقالوا: إنها نزلت في تبوك، وفيها أخبار المسلمين والمنافقين في هذه الغزوة مما يدل على أنها مقارنة لها في الزمان، وتسمى «الفاضحة»؛ لأنها فضحت المنافقين، وتسمى «البَحْثُ» لأنها بحثت أسرار المنافقين وكشفتها، ولم تبدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» كغيرها من السور.

وقالوا في ذلك: إن الصحابة لم يفصلوا بينها وبين سورة الأنفال بالبسملة، وذلك لأن القرآن الكريم كتب ما كتب فيه بالتوقيف لا بالرأى، ووضعت آياته وسوره بالتوقيف، وقد اتبع زيد بن ثابت والجماعة الذين كانوا معه ما رسمه رسول الله ﷺ من سوره ونزل عليه من آياته ووضع كل آية في موضعها من سورتها، ولم يضع «بسم الله الرحمن الرحيم» بين الأنفال وبين براءة، والكتابة سنة متبعة ثابتة بالتوقيف، هذا لا مجال للريب فيه فقد ثبت بالتواتر.

وقالوا في الحكمة في عدم كتابة البسملة: فمنهم من قال إن البراءة امتداد للأنفال فموضوعهما في الحرب والعهد، وتلك حكمة واضحة بيّنة، وقال بعضهم إن الرحمة والسلام اللذين تدل عليهما البسملة، لا يتناسبان مع ما اشتملت سورة براءة من نقض للعهد، وتهديد بالحروب، وكشف للنفاق.

ونحن نرتضى التعليل الأول؛ لأن الحرب بكل صورها ما دامت إسلامية عادلة، فهي رحمة بالناس، ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ...﴾ (٢٥١) ﴿[البقرة].

والسورة الكريمة قد اشتملت على العهود الموثقة، ونقض المشركين لها والبراءة ممن ينقضونها، وبيان أن الجهاد سياحة المؤمن، كما صرح الرسول ﷺ^(١) ولذا قال في الفراغ من الجهاد ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾ (٢)، وإعلان البراءة من الشرك وأهله، وأوجب سبحانه مع هذه البراءة الوفاء للمشركين الذين لم ينقضوكم شيئاً من عهودكم.

وإن القتال محرم في الأشهر الحرم، فإذا انسلخت كان القتال لغير أهل العهد، وتتبع المشركين في كل مكان، وكل ذلك مع ملاحظة النجدة، وإجارة من يريد الجوار، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦).

ثم بين سبحانه أنه لا يصح الاعتماد على عهود المشركين، لأنهم لا يبرون بعهودهم، واستثنى سبحانه الذين تفرض فيهم الاستقامة على أحد الاحتمالين، ولذا قال تعالى: ﴿... فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ...﴾ (٧).

وإن استقامتهم المفروضة تكون والمسلمون أقوياء ﴿... وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً...﴾ (٨)، وإن ماضيهم ينبئ عن حاضرهم إذ كانوا يصدونكم عن المسجد الحرام.

وأنهم إذا تابوا فإخوانكم في الدين، وإن استمروا على الكفر ونكثوا الأيمان فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم، وأمر سبحانه وتعالى وقد استمروا على عداوتهم والنكث على عهودهم أن على المؤمنين أن يقاتلوهم، وقال تعالى:

(١) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى". رواه أبو داود: الجهاد- النهي عن السياحة (٢٤٨٦).

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ﴾ (١٤).

وإن هذا الخزي يذهب غيظ قلوبهم، والهزيمة تجعله يتبدد. وإن الجهاد فريضة محكمة يعلم الله تعالى به المجاهدين علم واقع يروونه.

بعد ذلك اتجه سبحانه وتعالى إلى عمّار البيت المشركين وبيان أنهم ليس لهم أجر؛ لأن عمارة المساجد شرطها الإيمان ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين (١٨). وذلك إشارة إلى عمارتهم المساجد، فإنه لا يفيدهم ما داموا مشركين، ولذا قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

بعد أن بين الله أنه لا يستوى المؤمن والكافر. بين جزاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وأولئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء يجب أن يكونوا لله سبحانه وتعالى، فبين أنه يجب عليهم ألا يتخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء من دون الله إن استحبوا الكفر على الإيمان، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤).

وذكرهم سبحانه وتعالى بنصرهم في مواطن كثيرة، وذكرهم سبحانه بيوم حنين إذ أعجبهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً، وضائق عليهم الأرض بما رحبت،

ثم ولوا مدبرين ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦).

قد كسرت الأصنام، ولكن كان المشركون يدخلون المسجد، فأمر الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨).

وقد أمر سبحانه من بعد ذلك بقتال الكافرين سواء أكانوا يهودا أم نصارى أم مشركين حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وبين أن اليهود قالوا عزير ابن الله فكانوا كالمشركين، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله فكانوا مثل المشركين في أن أشركوا في عبادة الله المخلوقات.

وزادوا بأن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم وسائط في العلم عن الله فاتخذوهم أربابا، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢١) يريدون أن يطفئوا نور الله بأفئسائهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿وَبَيْنَ سُبْحَانِهِ مَسَاوِي الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ فِي أَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ (٢٢).

ثم ذكر سبحانه مآل هؤلاء يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُكُورٌ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣٥).

بعد ذلك ذكر سبحانه عدة الشهور وهي اثنا عشر منها أربعة حرم، لا يحل فيها القتال لأنها أشهر الحج أو الانتقال إلى بيت الله الحرام، وكذلك العمرة، وهي ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب (مُضَر) الذي بين جمادى وشعبان فهو شهر عمرة مُضَر. فالحق بأشهر الحج.

وحرم الله تعالى النسء ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ...﴾ (٢٧) وإن ابتداء الحرب في الأشهر الحرم لا يجوز، ولكن إذا كان القتال ﴿... فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٦).

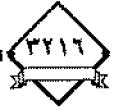
بعد ذلك أمر الله تعالى بالقتال ، ولامهم على الشاغل عنه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُم إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨) ﴿ وبين سبحانه وتعالى عذاب من لا ينفرون في سبيل الله فإنه يستبدل قومًا غيرهم .

وبين أنهم إن لم ينصروا النبي ﷺ فإن الله ناصره : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ... ﴾ (٤٠) ﴿ وصرح الله تعالى بوجوب النفور إلى القتال خفافاً وثقالاً .

بعد ذلك أشار الله سبحانه وتعالى إلى تخذيل المنافقين للمؤمنين كما فعلوا في غزوة تبوك، فقد عوقوا وخذلوا، ولم ينفروا مع المؤمنين وقال تعالى في ذلك : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٤٢) ﴿ .

ولقد عفا الله جل جلاله عن نبيه أن أذن لهم بالتخلف ، ولو لم يأذن لتبين نفاقهم ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٤٣) لا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (٤٥) ﴿ .

وأخذ سبحانه وتعالى يبين أحوال المنافقين فهم لنفاقهم وريبهم لم يستعدوا للقتال، وأن الله كره انبعاثهم، وقيل اقموا مع القاعدين، وإن قعودهم فيه خير لأهل الإيمان : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك



الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴿

إنهم يخذلون النبي فيأمر الله نبيه بأن يقول لهم: ﴿ قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥١﴾.

وبين الله تعالى لنبيه أنهم يتربصون للمؤمنين الموت والخذلان ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾.

وقد منع الله نبيه أن يقبل منهم نفقة في حرب؛ لأن مالهم سحت، ولا يجدى في الحرب إلا المال الطيب الذي ليس فيه خبيث، ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾.

وبين سبحانه وتعالى حالهم في إيمانهم الكاذبة، ويبين أنهم يخافون ويفرقون، ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾.

وإن منهم لمن يعرض بالنبي في الصدقات ليعطى منها ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾، ولقد بين الله سبحانه وتعالى مصارف الصدقات فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَيْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٦٠﴾.

ولقد كان المنافقون يؤذون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بكل أنواع الأذى، فكانوا من إيذائهم قولهم: ﴿ ... أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٦١﴾.

ومن اختلاق المنافقين الكذب أنهم يحلفون ليرضوا المؤمنين، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، يحادون الله ورسوله ومن يحاد الله فله نار جهنم، هم يرون أدلة قائمة ويعلمونها، ولكن لا يدعون للحق إذا تبين لهم، ويحذرون أن تنزل سورة تخبرهم بما في قلوبهم، ﴿... قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥)﴾، وقد ذكر سبحانه وتعالى ضلال المنافقين وأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

ثم بين الله تعالى العذاب الشديد الذي يلقاهاهم، وأنهم كالذين من قبلهم استمتعوا بخلافهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلافهم وخاضوا في الفتن كما خاضوا، ثم بين لهم العبرة في قوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم وأصحاب الأيكة والمؤتفة أنتهم رسلهم بالبينات، ونزل بهم ما نزل، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم بين سبحانه وتعالى علاقات المؤمنين في مقابل علاقات الكافرين والمنافقين فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ وبين من بعد ذلك ما وعد الله به المؤمنين من جنات ونعيم خالدين فيها ورضوان من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم.

وأمره الله بأن يجاهد هؤلاء المنافقين والكافرين ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾.

ولقد كان المنافقون يفترون على النبي ﷺ ويشيرون بالفتنة بالقول على المؤمنين، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾.

وبين سبحانه وتعالى أخلاق النفاق، إذ يعاهدون الله لئن آتاهم من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به، وتولوا وهم معرضون، وبذلك زادوا نفاقاً لأن نفوسهم تمسكت به.

وإن أولئك المنافقين حياتهم سخرية بالمؤمنين، فالذين يطوعون أنفسهم في الجهاد والذين لا يجدون إلا جهدهم يلومونهم، ويسخرون منهم، ولقد كان النبي ﷺ ككل رسول يطلب لهم الهداية، وككل قائد يستغفر لهم لكي يقربوا بدل أن تبعد نفوسهم.

ولكن الله تعالى بين أنه لن يغفر الله لهم ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)﴾.

وإذا خرج النبي لجهاد عام، كما في غزوة تبوك تخلفوا وفرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)﴾.

بعد ذلك كشف الله أمر النفاق وأمر الله تعالى نبيه أن يقول: ﴿...لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٢) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٣)﴾ وإنهم كلما نزلت سورة تدعو إلى الجهاد ﴿اسْتَنْذَكْ أَتُولُوا الطُّوْلَ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٤) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٥)﴾.

وقد بين الله سبحانه وتعالى حال الرسول والذين معه يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، وبين حكم ذوى الأعذار فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى

الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٢﴾

وقد بين بعد ذلك أن الذي يؤاخذ الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾. ومن مظاهر النفاق كثرة الحلف ولذا قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

بعد ذلك بين الله تعالى أحوال الأعراب، وهم الذين وجد المنافقون فيهم مرتعا خصبا، فذكر أنهم ﴿... أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

وقد أنصف الله تعالى بعض الأعراب وهم الذين آمنوا، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

وقد ذكر سبحانه وتعالى السابقين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا دعامة الإسلام وقوته ﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

عاد سبحانه وتعالى إلى حديث المنافقين فذكر أن أكثرهم حول المدينة وفي المدينة الذين مردوا على النفاق وتربوا عليه، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ

وقد أمر الله تعالى بعد ذكر المنافقين أن تؤخذ الزكاة، فهي كاشفة النفاق، ونماء المؤمنين وطهارتهم. ثم فتح باب التوبة للآثمين وحث على العمل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤) وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴿. وبين سبحانه وتعالى أن من الذين خوطبوا بالدعوة مرجون لأمر الله إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم والله عليم حكيم، وأن المنافقين الذين حول المدينة قد اتخذوا مسجدا يتلقون المعلومات من أعداء الله والرسول، والذي سمي مسجد الضرار، وقال الله تعالى فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَبِّهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسِّسَ بِنِيَانِهِ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بِنِيَانِهِ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَالِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

وبعد هذه الآيات التي ذكرت المنافقين، ومن يدورون حول فلهم، ومن يتقربون منهم - ذكر الله تعالى المؤمنين الصادقين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿... يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١١).

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أوصافهم البرة، فقال سبحانه:

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

وقد ذكر الله تعالى أنه ما كان لنبي أن يستغفر للمشركين، ولو كانوا أولى قربي، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، وإن الذين اهتدوا ما كان الله ليضلهم بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم.

وقد بين سبحانه سلطانه في ملك السموات والأرض، ثم بين سبحانه توبته على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، والمهاجرين الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم.

وكان من المؤمنين الصادقين من تخلفوا في غزوة تبوك من غير عذر من الأعذار التي ذكرها القرآن فرباهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم - وهو خير المرين - بالإعراض عنهم حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم.

وقد أمر الله المؤمنين الصادقين بأن يلتزموا. وقد وضع سبحانه وتعالى مبدأ ثانياً مقراً فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾ وإن الله خفف على المؤمنين ألا ينفروا جميعاً، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

ثم أمر بجهاد الذين يلونهم من الكفار؛ لأنهم يحادونهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٢)﴾.

وقد ميز الله تعالى بين المؤمنين والمنافقين عند نزول آيات الله تعالى فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٦)﴾.

يقول سبحانه في المنافقين ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾.

وختم الله تعالى السورة بأنها رحمة في جهادها، وكشف المنافقين بهاتين الآيتين اللتين قيل عنهما أنهما نزلتا بمكة، وهما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾.

معانى السورة الكريمة

قال تعالى :

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ
فَنَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۖ وَأَذِنَ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا الْبَيْعَ الَّتِي لَهُمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

براءة، من برئ منه إذا خلص من تبعته وعهده، وبرئ براءة من عهده إذا تخلص من تبعاته و﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (١)، أى لا تبعة بالنسبة للذين عاهدتم، فعهودكم رد لا يؤخذ بها.

وقالوا: نسبت العهود للذين آمنوا على أنهم هم الذين عاهدوا لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى عاهد باسمهم، كما يتعهد رئيس الدولة باسم رعاياها والمتمين إليها، إذ هم بمقتضى عهدة الحكم هم الذين فوضوا إليه، وأسند العهد إليهم، والبراءة من العهد إلى الله تعالى، لأن هذه البراءة حكم شرعى بنقض العهد مع المشركين الذين نقضوا عهودهم، واستمروا على شركهم، وكانوا إلبا على المسلمين، حتى غلبوا على أمرهم، وكان ذلك فى حرب المؤمنين مع أهل الطائف، وكان قد قرب زمان الأشهر الحرم، فأنهاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ومع أن العهود المطلقة غير المحدودة بمدة قد انتهت، وبرئ الله ورسوله منها، فإن لهم أربعة أشهر، الحرب فيها حرام لا تُبتدأ فيها، وأن الأربعة الأشهر هى الحرم، بدليل أن الله جعل نهايتها انسلاخ الأشهر، فقال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾ (٦) والفاء هنا لتفصيل ما يكون بعد البراءة من العهد، فذكر سبحانه أنهم فى أمان من القتال لمدة أربعة أشهر هى الأشهر الحرم، وكلمة ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى سيروا فيها آمنين من القتل والقتال، ولمدة أربعة أشهر، ولكن اعلموا أنكم لا تعجزون الله تعالى، فلا تحسبوا أنكم أمتتم إلى النهاية ولذا قال تعالى: ﴿...وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ

... (٢) ﴿ عن أن ينالكم عذابه في الدنيا والآخرة، فاطمئنوا فقط في أربعة الأشهر الحرم، وقد بينها النبي ﷺ فذكر أنها ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وتلك الثلاثة الأولى أشهر الحج والذهاب إليه والأوبة منه ورجب الذي بين جمادى الآخر وشعبان^(١) شهر عمرة فإذا كان الله ترككم تسيحون في الأرض فلستم بمعجزى الله و﴿... وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)﴾ أى منزل بهم الخزي بإنزال الهزيمة بهم، وإضعاف شوكتهم، وذهاب تطاولهم، وسيطرتهم على البلاد العربية.

وإنه لكى تتجلى هذه الآيات نقبس كلمة من الصحاح، والسورة تبين نزول هذه الآيات ومواقيت نزولها - فتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان، وأتاب عنه فى الحج هذا العام عتاب بن أسيد، وفى سنة تسع امتنع عن أن يحج بنفسه؛ لأن المشركين كانوا يحجون، وكانت قريش يحجون عرايا، فلم يرد أن يراهم كذلك فى الحج، وأتاب أبا بكر عنه فى الحج هذا العام، وقد نزلت سورة براءة فى شهر شوال من هذه السنة، فأمر النبي ﷺ علياً أن يبلغهم أربعين آية من أولها، وقيل أقل من ذلك، فأتبع أبا بكر علياً بها، فلما دنا عليٌّ من أبى بكر وهو راكب العضباء ناقة رسول الله ﷺ سمع رغاءها فوقف وقال: هذه ناقة رسول الله ﷺ فلما لحق به عليٌّ قال أبو بكر: أمير أم مأمور، قال عليٌّ: بل مأمور، فلما كان يوم التروية اليوم الثامن من ذى الحجة خطب أبو بكر، وحدثهم عن مناسكهم، وقام عليٌّ رضى الله عنه وقال: إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا، فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. وعن مجاهد ثلاث عشرة آية، ثم قال أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتمم إلى كل ذى عهد عهده.

(١) عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الزَّيْمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

عندئذ قال من حضر من المشركين: يا عليّ، أبلغ ابن عمك أنّا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف.

وإن هذا يدل على أنهم ابتدأوا بنبذ العهد، وأن الله ورسوله عندما برأنا من العهد كانوا هم المبتدئين بالنبذ، فكانت البراءة من عهودهم مجاوبة لهم في نبذها، وأباح الله تعالى أن سيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الواو عاطفة (أذان) على (براءة)، وبراءة هي براءة الله من الذين عاهدهم النبي ﷺ والمؤمنون من المشركين لنكتهم عهدهم، كما أعلنوا ذلك لعليّ رسول الله ﷺ، ولأنهم لا إيمان لهم، ولا عهد لهم.

أما الأذان فهو الإعلام، وهو بمعنى الإيذان، كالعطاء بمعنى الإعطاء وهو إعلام الناس جميعا مع من كان معاهدا ونكت، ومن لم يكن عاهد من المسلمين، وهو إعلام بالبراءة من المشركين، ولذا كان موضوع الإعلام أن الله برىء من المشركين ورسوله، فلا عهود لهم إن نكثوها ولا عهود لمن لا عهد له من قبل، إلا إن استقاموا عليه ولم يظاهروا على المؤمنين.

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بالفتح على تقدير الباء، والمعنى إيذان بأن الله برىء من المشركين، وحذف الباء قبل أن. وهذا كثيرا في كلام العرب، وقرئ بكسر (إن) (١) لأن الإيذان يتضمن معنى القول و(إنّ) تكسر بعد القول.

﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالرفع معطوفة على اسم، وهو لفظ الجلالة، وإن ذلك جائز إذ يعطف على اسم بالرفع إذا كان الخبر قد تم، ويقول الزمخشري: إنه يعطف على الضمير المقدر في (برىء)، وهو اختلاف لفظي لا جدوى فيه من حيث المعنى.

(١) ليست في العشر المتواترة.

وإن الإعلام الذي أعلمه الله ورسوله للمشركين هو ما روى عن علي رضي الله عنه: «فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة - فقال: ما كنتم تنادون به؟ قال: كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان، وما كان بينه وبين رسول الله عهد فإن أجله أو أمله إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين، ورسوله، ولا يحج إلى هذا البيت بعد العام مشرك»^(١) والرواية الراجحة التي تتفق مع المعنى القرآني هي أن يتم لكل ذي عهد عهده، لا أن يكون أربعة أشهر لا يزيد عليها، كما ستبين ذلك الآية الآتية.

ويوم الحج الأكبر قيل هو يوم عرفة، ورجح الأكثر أنه يوم النحر^(٢)؛ لأنه وإن كان الحج عرفة لا يتم به الحج، وإنما يتم الحج بالطواف الركن، وهو طواف الإفاضة، ويوم النحر يتوسط بين عرفة وهذا الطواف، ولأن الروايات تضافرت على أن علياً آذن يوم النحر، وقال ذلك عند العقبة.

وسمى الحج الأكبر في مقام العمرة؛ لأنهم يسمونها الحج الأصغر، ولأنه في يوم النحر تكون أكثر أعمال الحج قد أدت، وقال الحسن البصري: إنه اجتمع في الحج في السنة التاسعة المشركون والمؤمنون، وقال: وقد وافق عبادة أهل الكتاب ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده.

ونسبة هذا القول إلى التابعي المؤمن الحسن البصري وجدته في الكشف للزمخشري وأنا أشك في نسبته إليه أو نسبة ما قاله عن اتفاق الحج مع عبادة أهل الكتاب، وتسميته بالحج الأكبر لذلك؛ لأن عبادة أهل الكتاب لا عبادة بها عند أهل الإيمان ولا عند الله، فإنه بعد بعثة النبي ﷺ وجب عليهم اتباعه فيما أتى به من عبادة كما قال ﷺ: «لو كان موسى بن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعي»^(٣).

(١) سبق تخريجه. وسيأتي بعد.

(٢) وما يؤيد ذلك ما رواه البخاري: الصلاة - ما يستمر من العورة (٣٦٩)، ومسلم: الحج (١٣٤٧) عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين (يوم النحر) يؤذنان: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. (٣) سبق تخريجه.

وبراءة الله ورسوله من المشركين تتناول عهودهم التى نكثوا فيها، وتتناول شركهم، وتتناول طريقة حجهم وفيها إيماء بمنعهم، ولقد صرحت به الآية الكريمة من بعد، إذ قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَذَا...﴾ (٢٨) وقد فتح الله تعالى باب التوبة والرجوع إلى الله تعالى.

ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وكان الالتفات لأنه فيه انتقل من البراءة منهم إلى تقربهم إليه بفتح باب التوبة لهم بخطاب الله تعالى لهم مبشرا إن تابوا منذرا إن استمروا فى غيهم، فإن تبتم عن الشرك وعن الطواف عرايا وعن عداوة الرسول فهو خير لكم، أى فالرجوع إلى الله تعالى هو خير لكم إذ تطهرون عقولكم ونفوسكم، ومجتمعكم، وما ورثتم عن جدكم إبراهيم.

﴿وَأَنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أى إن أغرضتم عن سماع الحق والاستجابة له، والإذعان، وإسلام الوجه فيجب أن تضعوا فى علمكم أنكم تمادون الله تعالى، وأن الله تعالى غالب ولا يمكن أن تعجزوه فهو مالك السموات والأرض، وهو القاهر فوق عباده، فلن تعجزوه فى الدنيا والآخرة، وقد كان الالتفات بالخطاب فيه تربية المهابة، وهى تزيد الإنذار قوة.

ثم قال فى بيان عذابهم فى الدنيا والآخرة: ﴿... وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣) أى مؤلم فى الدنيا والآخرة، وفى الدنيا بالهزائم المتوالية وفى الآخرة بالجحيم.

وفى الكلام إشارتان بيانيتان:

أولاهما: أن التبشير يكون بالخبر السار، فإذا ذكرت فى الأخبار المفزعة المؤسفة، فذلك لا يخلو من تهكم واستهزاء، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ... بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الثانية: فى التعبير بالموصول فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإنه يشير إلى أن العلة فى عذابهم الأليم هى كفرهم، فإن تابوا فنعيم مقيم.

وإن الله العادل الحكيم قد استثنى من المشركين من لهم عهود راعوها حق رعايتها فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، قال الزمخشري: الاستثناء من ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾. وأرى أن الاستثناء من الذين تبرأ الله تعالى من عهدهم ونبذهم إليهم فى قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾، فكان الاستثناء من هؤلاء أى أن الله برىء من عهد هؤلاء؛ لأنهم خاضوا فى عهدهم ونقضوه، وقد رأيت أنهم بادروا بالنقض عندما أخبرهم علي كرم الله وجهه أنه لا يدخل البيت الحرام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان... فبادروا بنقض عهودهم، وقالوا ليس بيننا وبين ابن عمك إلا الطعن بالرماح، والضرب بالسيوف.

أما الذين وفوا بعهودهم ولم ينقضوا شيئاً منها، ولم يظاهروا عليكم أحداً فعهدهم باقٍ مستمر، وليس الكفر وحده؛ فقد كان التعاقد وهم كفار وهذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ والتعبير بـ(ثم) للدلالة على دوام وفائهم، وأنهم مع كونهم عرضة للنكث والنقض كإخوانهم المشركين ضبطوا أنفسهم ولم ينكثوا فى عهدهم، ولم ينقضوا المسلمين - مع بغضهم لأهل الإيمان - شيئاً من شروط العهد، بل وفوا به حق الوفاء، والوفاء جدير بالوفاء من أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]، وكما وصفهم الله تعالى بأنهم لم ينقضوا شيئاً مما عاهدوا عليه - ذكر وصفاً دالاً على الوفاء والمبالغة فيه، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أى لم يعاونوا أحداً من أعدائكم بأن يكونوا فى ظهره يدفعونه إلى اللجاجة فى عهدكم كما فعل بنو النضير وقريظة، وغيرهم من أعداء

الله الذين عاهدوا النبي ﷺ ثم ظاهروا المشركين، وعاونوهم، وأظهروا عورات المؤمنين .

وهناك في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ﴾ بالصاد المهملة قراءة أخرى بالضاد المعجمة^(١)، أى لم ينقصوكم شيئاً من النقص، ولو فى جزئية من جزئيات العهد أى وفوا وفاء كاملاً لا نقص فيه .

وقال تعالى: ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنهم إن وفوا ولم ينقصوا ولم يظاهروا عليكم فأوفوا لهم، وأتموا عهدهم إلى مدتهم . وأضاف العهد إليهم باعتبار أن متعة الانتفاع بالعهد لهم، وأضاف المدة إليهم لأنهم الذين يتنفعون بهذه المدة كما انتفعوا بالعهد ذاته، ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ أى الذين يتقون الله تعالى بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب النار وقاية، ومن التقوى الوفاء بالعهد، فهى تعليل للاستثناء، وتتمام العهد أن الوفاء فى العهد من تمام التقوى، ومن فضل الأقوياء .

هذا شأن الذين وفوا بعهودهم، أما الذين لم يوفوا بعهودهم فإنهم يسيحون أربعة أشهر يحرم فيها القتال، وبعد ذلك يكون القتال .

قال تعالى :

فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ
فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ٥
وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا أَمَرَهُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ٦

(١) ليست فى العشر المتواترة .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ
(٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَقْوَاهِمَ وَتَأْنِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَنَسِقُونَ (٨)

قوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ يقال: سلخت الشهر إذا صرت في آخر أيامه، أى إذا مضت الأشهر الحرم وانتهت، والأشهر الحرم يقول الزمخشري: إنها التى حرم فيها القتال من وقت الحج الأكبر وهى من عشرة ذى الحجة، وهى أربعة تنتهى بعشرة من ربيع الأول، ولم يذكر أنها الأشهر الحرم الأربعة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ... (٣٦)﴾ وقد بينها النبى ﷺ بأنها ثلاثة سرد، وواحد فرد، الثلاثة ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم، والواحد الفرد رجب الذى بين جمادى وشعبان.

والأكثر على أن الأشهر الحرم فى هذه الآية هى هذه الأربعة التى بينها النبى ﷺ، وانسلاخها أى يكون القتال فيما عداها، سواء أكانت بعد انتهاء الثلاثة السرد أم بعد انتهاء رجب، أى لا قتال فى الثلاثة، ويجوز القتال بعدها إلى رجب، ثم يستأنف بعد رجب؛ وذلك ليكون الطريق إلى الحج مأمونا، ولتكون بين المتقاتلين هدنة ترجع فيها القضب إلى أجفانها، وتستيقظ العقول، ولقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ... (٢١٧)﴾ [البقرة].

ويقول تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ لأنه قد أصبح دمهم مباحا، فقد نقضوا العهد، ولم يدخلوا في الإسلام، وقد تحدوا الله ورسوله، وأشركوا، والعلاقة في أصلها كانت حربا انتهت بالعهد فنقضوه، وقد أعطاهم مهلة ساحوا فيها في الأرض آمنين، ولم يحدثوا توبة ورجوعا إلى الحق، فلم يبق إلا القتال. وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ يشمل الحِل والحرم؛ لأنهم ممنوعون من المسجد الحرام، وهم مقاتلون، والله تعالى يقول: ﴿... وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ ...﴾ [البقرة].

﴿وَحُذُّوهُمْ﴾ أى شدوا الوثاق، فقد أختتموهم، وغلبتم عليهم فلکم أن تأسروا منهم من تشاءون، ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾ أى امنعوه من التقلب في البلاد، وعن ابن عباس: أى امنعوه من المسجد الحرام لا يدخلوه؛ لأن النبي ﷺ بأمر ربه قرر ألا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أى فى كل ممر، يعنى اتخذوا القتل والتتبع المستمر لهم فى كل ممر، وكل مرصد «ظرف» أى أقعدوا لهم فى كل مكان مترصدين لهم، لا ينجون منكم ما داموا على كفرهم، والله تعالى يفتح باب التوبة دائما، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ التوبة هنا ترك الشرك، وذكر الله التوبة، وذكر بعدها إقامة الصلاة؛ وإيتاء الزكاة؛ لأن هذا يجعل الإيمان صادقا من غير نفاق وفيه خضوع لأوامر الله تعالى واتباع لأوامره، ونواهيه، ولأنه لا بد للإيمان من شواهد. وقال فى جواب الشرط ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أى افتحوا الطريق أمامهم، ولا ترهقوهم بقتل ولا أسر، ولا منع من البيت، وعن ابن عباس: دعوهم وإتيان المسجد الحرام.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى إن الله تعالى كثير المغفرة وكثير الرحمة، وقد أكد الله سبحانه وتعالى غفرانه ورحمته بـ «إِنَّ» الدالة على التأكيد، وبالجمله الاسمية، وبصيغ الصفة المشبهة الدالة على الدوام والاستمرار لغفرانه ورحمته.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)﴾ .

لقد أرسل محمد - صلى الله تعالى عليه وسلم - داعيا إلى الحق وصراط مستقيم، ولم يرسل للقتال والغلب، وما كان القتال إلا لمنع الفتنة في الدين، وتأمين الدعوة، ولذلك فتح الباب للدعوة في كل الميادين، في الحرب وفي السلم، في العهد وفي نكث العهد على سواء، فأولئك الذين نكثوا عهودهم وأبيحت دماؤهم - يقتلون حيثما كانوا، وإذا جاء أحدهم يطلب جوار التجارة أو رسالة، أو لمجرد الأمان فإنه يجاب، ويكون في أمن المؤمنين، حتى يسمع كلام الله ويفهمه ويتدبره، ثم يبلغ مأمنه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ ولقد قال النحويون إن كلمة (أحد) فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعد (أحد)، ولأن (إن) لا تدخل على الاسم، فيقدر لها فعل، ويكون نسق القول، وإن استجارك أحد من المشركين، وهنا يسأل السائل لِمَ قُدِمَ أحد، واحتجنا لسياق النحو إلى هذا التأويل، والجواب عن ذلك، أن الاهتمام لهذا الترك أولا لا للاستجارة في ذاتها؛ لأنه المقصود إذ هدايته مطلوبة أولا وبالذات، وليست الاستجارة هي المطلوبة، والاستجارة طلب الجوار بأن يعيش في أمن دولة، والجوار هذا أمان مؤقت حتى يسمع كلام الله ويفهمه ويتعرف معنى الوجدانية، وبطلان الشرك، ويسمعه النبي ﷺ تعاليم الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأعمال الخير والوفاء بالعهد والتراحم وغير ذلك من مبادئ الإسلام، وكلام الله تعالى إما أن يفسره بالمعنى الخاص، وهو القرآن الكريم، وسماع تلاوته وتفهم معانيه ومراميها، وذلك خير في ذاته، وهو سجل الإسلام في كلياته، وإما أن يفسره بمعناه العام وهو الإسلام؛ لأن أوامر الإسلام ونواهيها كلها ترجع إلى كلام الله تعالى لأنها منه، وما كان محمد ينطق عن الهوى... ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم].

وبعد أن يسمع كلام الله تعالى، إما أن يؤمن وذلك خير، ويكون من المؤمنين، وإما أن يستمر على ما هو عليه، وهنا سيتبين الخلق المحمدي الإسلامي بأمر الله، ولذا قال تعالى أمرا نبيه ﴿ثُمَّ أبلغه مأمته﴾ والعطف بـ (ثم) هنا في موضعه إذ إن معناه أن يسمع ويتفهم ويتدبر ويعلم، ويعطى فرصة من الوقت يراجع نفسه فيها بين خير يرتجى، والبقاء على ما هو عليه، فإن اختار الخير، فقد اختار لنفسه، وإن اختار الأخرى فلا إكراه في الدين، والمؤمن هو مكان الأمن له حيث داره وأهله، وقوله تعالى: ﴿أبلغه مأمته﴾ معناه توصيله إلى حيث أمته؛ بأن يصحبه أحد من المؤمنين حتى لا يدركه أحد فيقتله بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾.

وإن ذلك لتقريب المشركين وتأليف قلوبهم، فلا يقرب إلى الإيمان شيء إلا تأليف القلوب بالمودة والحسنى، وليتمكن كل مشرك من أن يتعلم الإسلام ومبادئه، فالنبي هاد، ولم يجئ بالحرب إلا لمنع الشر من أن يستشري ويفسد، ولذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى الأمان وسماع القرآن سماع وعي وتدبر واتباع للأحسن، وكله حسن، بسبب أنهم جماعة جاهلة، والجاهل يُعلم فلا يسأل عن جهله حتى يعلم، والتعبير بـ (قوم) إشارة إلى أنهم جماعة جمعهم الجهل فكانوا كالقوم.

ولا شك أن هذا الجوار أمان مؤقت أعطاه الله تعالى نبيه عليه السلام باعتباره إمام المسلمين، فيعطاه كل إمام من بعده، وقد أعطاه النبي ﷺ لكل واحد من المؤمنين، فقد قال ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسمعى بذمتهم أدناهم»^(١) أى إن أقل المؤمنين شأنًا يستطيع أن يؤمن من يشاء من المشركين، فكل بالغ عاقل ذكرا كان أو أنثى له أن يعقد عقد الأمان، والعبد له ذلك، وكان أبو حنيفة لا يجيز أمان العبد؛ لأنه يجوز عنده أن يؤسر شخص ويسلم فيؤمن من كان معه،

ولكنه بلغه من بعد عن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى - عنه أن عبداً أمن أهل حصن فأجاز أمانه، فكان من بعد ذلك يجيز أمان العبد إذا خرج للقتال مع مالكة، والله نعم المعين، ولقد روى عن سعيد بن جبير أنه جاء رجل من المشركين إلى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقال: «وإن أراد الرجل بعد انقضاء الأجل أن يأتى محمداً لسمع كلامه أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾».

قال تعالى فى عهود المشركين:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)﴾.

بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية استبعاد أن يوفى المشركون بعهودهم، أو على الأقل بين أنه لا يصح للنبي ﷺ ومن معه أن ينتظروا الوفاء من المشركين؛ لأنهم خانوا الله ورسوله، ومن يخن الله ورسوله فهو قد استمر النفاق، والنفاق والوفاء بالعهد نقيضان لا يجتمعان، ومن أمانة المتأفق أنه إذا وعد أخلف.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ الاستفهام للتعجب والاستنكار بمعنى النفي، فهذا إنكار للوقوع، أى كيف يتوقع عند الله ورسوله أن يفوا بعهدهم لهما، وإذا كانوا كذلك فليس من المعقول أن يوفى الله تعالى لهم بعهد؛ لأن العهود توجب حقوقاً وواجبات متبادلة، فمن توقع عدم الوفاء وتأكد له النكث فى العهد، فليس عليه وفاء.

وقد نفى الله بهذا أن يكون عند المشركين وفاء بعهد لله ولرسوله، وبالمثل لا يتوقعون الوفاء بعهد نكثوا فيه من جانبهم، ولكن كان من المعاهدين من المشركين من يتوقع الوفاء، فهؤلاء لا يرد إليهم عهدهم، ولذلك استثناهم الله سبحانه وتعالى، وهو العادل فى قوله وحكمه فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهم عند ابن كثير أهل الحديبية، وقد وفى النبي ﷺ حتى

نقضوا العهد فأعانوا بنى بكر، وكانوا فى حلفهم على خزاعة، وكانوا فى حلف
النبي ﷺ، واستغاثوا بالنبي ﷺ فأغاثهم وفتح، ولكن يلاحظ أن وقائع العهود
كانت بعد فتح مكة، ولذا يجب أن يكون هؤلاء غير أهل الحديبية، ويجب أن
تكون عهودهم بعد الفتح، وقد ذكر الزمخشري أن منهم بنى كنانة وبنى ضمرة.

الاستثناء هنا فى معنى المنقطع، لأنهم مغايرون للأولين الذين كان منهم
النكث، ولذلك ذكر الزمخشري أن الاستثناء هنا بمعنى (لكن)، فهو استدراك
وليس استثناء متصل، وقد بين الله تعالى طريق معاملتهم فقال سبحانه وتعالى:
﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ و«ما» هنا شرطية دالة على دوام الاستقامة فى
الوفاء بالعهد إذا أقاموه على وجهه من غير خيس^(١) فيه، ولا نقض لأى جزء من
أجزائه، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أى فاقموا العهد، والعهود كما قلنا حقوق وواجبات
متبادلة.

وإن الوفاء بالعهد من التقوى، إذ هو يرضى الله، ويقوى الأمة، وهو من
أفضل الأخلاق، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.
وهنا إشارة بيانية، وهى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ
وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ فلماذا تكررت العندية مع أن ما يكون عهدا عند الله يكون عهدا
عند النبي ﷺ. ونقول: إن تكرار العندية للإشارة إلى مقدار نكثهم للعهد، فهم
نكثوا عهد الرسول، وتلك جريمة، ونكثوا عهد الله وهو العليم بذات الصدور،
العليم بكل شىء.

(١) الخيس: نقض العهد، وعن أبى رافع قال: بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا
رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلْقَى فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي لَا أَحِسُّ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحِسُّ بِالْبُرْدِ (جمع بريد،
وهو الرسل) وَلَكِنْ أَرْجِعُ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الْآنَ فَارْجِعْ" قَالَ: فَدَعَيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْلَمْتُ، قَالَ بِكَيْرٍ: وَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ قِطْلِيَا. رواه أبو داود:
الجهاد (٢٧٥٨)، وأحمد: باقى مستند الأنصار-حديث أبى رافع رضى الله عنه (٢٣٣٤٥).

ويقول تعالى فى إثبات أنهم لا يصدقون فى عهد ما داموا ينجثون:

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾ .

(كيف) هنا للاستفهام الإنكارى مع التعجب، وهى داخلة على ما دخلت عليه (كيف) السابقة. أى كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله والحال أنهم ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ . . .

يقال ظهر عليه إذا غلبه وانتصر عليه، وظَّهر الحائط أى علاه، وكقوله تعالى فى السدِّ فى سورة الكهف: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ .

(والإل) يطلق بمعنى الحلف والعهد، ويطلق بمعنى الرحم والقربة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بأن يتصروا عليكم لا يراعوا رحماً ولا قرابة، ولا جامعة بينكم وبينهم، ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾، أى عقداً تربطون به دينكم، فهم يرضونكم بأفواههم لا بقلوبهم.

والمعنى الجملى، كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله وحالهم أن ذلك عهد لكم وأنتم أقوياء غالبون ظاهرون عليهم، فإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم رحماً واصله، ولا عهداً عاهدوه، فإن ذلك العهد كان لإرضائكم لا للوفاء، وهم ينقضون ذلك العهد عند أول فرصة يفترصونها، ويحسون فيها القوة، ولا عهد للذليل، وهذا عهد الأذلاء يعقدونه للإرضاء لا للوفاء، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى، وتعالى كلماته ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فما أعدل الله تعالى فى كلماته، نسب الفسق وعدم انضباط النفس وانحلالها بحيث لا تصبر على العهد - إلى أكثرهم لا إلى كلهم، ولكن هذا الأكثر هو الغالب فيهم الذى أفسدهم وجعل فيهم رأياً عاماً فاسداً، لا وفاء فيه ولا إيمان بحق ولا بعهد.

ولقد وصف الله تعالى عهدهم بوصف يدل على أنه عهد لا يبعث عليه إلا النفاق، فيقول عز من قائل: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذا معنى

مصور لما انبعث به عهدهم، فهو عهد للإرضاء بالقول الذى ينقصه القلب ولا يؤيده، فهم يحاولون فيه الإرضاء بالأفواه فقط، وتأبى قلوبهم أى تمتنع عن الموافقة على ما تنطق ألسنتهم، وكيف يكون هذا عهدا عند الله علام الغيوب، وعند رسوله الذى يعرف قلوبهم من لحن القول، ولقد وصفهم تميم بن مقبل فى شعره، فقال:

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإلّ وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وجدناهمو كاذبا إلّهم وذو الإلّ والعهد لا يكذب

أوصاف المشركين فى عهودهم

قال تعالى :

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا
عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذُوا مِنْكُمْ
فِي الدِّينِ وَتَفَصَّلِ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا
آيَمَتَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا
أَيِّمَةَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾

إن الصفة العامة فى المشركين أنهم غرتهم الحياة الدنيا والأمانى فيها، والأهواء ومَتَاع الحياة الدنيا، فكان الوصف العام أنهم اشتروا بآيات الله ثمنا

قليلاً، وآيات الله تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته، إذ هو الذى خلق كل شيء بديع السموات والأرض، وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وأنه وحده الجدير بأن يعبد ولا معبود بحق سواه، وقد بعث الله تعالى محمدا رسولا، مبشرا ونذيرا، ومعه القرآن الحجة الكبرى القائمة إلى يوم القيامة، كانت هذه الآيات كونية ومتلوة تدعوهم للإيمان، وعدم الشرك، ولكنهم تركوها، ولم يلتفتوا إليها، واستبدلوا بها هواءهم، ومتعهم من سلطان غرهم، وذلك ثمن بخس قليل لا يساوى شيئا بجوار ما تركوه من حق خالد.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أى باعوها بثمن هو عرض من أعراض الدنيا وهو قليل بجوار الحقائق الخالدة التى فيها الصلاح فى الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أى إنهم بسبب اختيارهم ذلك الثمن القليل، وتركهم ذلك الحظ الوفير من الحق وسلامة الفكر، والهداية والرشاد، قد عدلوا عن الطريق، وصدوا أنفسهم عنه، وصرفوا غيرهم منه، فصدوا عن السبيل القويم والهدى المستقيم.

ولقد بين سبحانه وتعالى الحكم الصادق عليهم، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى إنهم بهذا العمل الذى تركوا فيه الآيات التى تلوح بالحق وتبينه قد ساء فعلهم الذى استمروا عليه، وهو يتجدد آنا بعد آن فهو فعل مستمر. ونلاحظ هنا ثلاثة أمور.

أولها: أن قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فيه استعارة تمثيلية إذ شبه حالهم فى تركهم الحق الواضح البين الذى يأتى بأطيب النتائج والثمرات، بمن يترك بضائع قيمة فى مقابل ثمن بخس لا يجدى ولا يغنى.

ثانيها: بيان أن ترك الوفاء بالعهد لاتباع الهوى والخيانة وهو خسارة لا كسب فيها.

ثالثها: أن قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التعجب، أى ما أسوأ ما كانوا يعملون، وأن الفعل المضارع يدل على تجدد حالهم الفاسدة، و﴿كَانُوا﴾ دالة على دوام هذه الحال فيهم.

ثم بين سبحانه حالا عامة مستمرة فيهم فقال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)﴾.

وهنا نجد النص السامى التفت من الخطاب إلى الغيبة؛ إذ كان فى الآيات ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾، وهذا النص السامى ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وذلك الوصف يؤذن بالعلة، أى أن السبب فى أنهم لا يراعون رحما، ولا عهدا، هو الإيمان، فالإيمان الحق والإذعان لله تعالى وتوحيده هو السبب فى أنهم لا يراعون فيكم رحما واصله، ولا مودة راحمة، ولا عهدا يعاهدونكم فيه، إنه إيمانكم هو الذى صرفهم إلى النكث فى العهود.

وإنه إذا كان الحق هو الذى جعلهم ينكثون فى عهودهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

الإشارة فى (أولئك) إلى أوصافهم فى أنهم لا يراعون قرابة ولا عهدا، يقطعون القرابة وينقضون الميثاق، والإشارة إلى هذه الأوصاف تومئ إلى أنها علة الحكم، وهو الحكم عليهم بالاعتداء، فقد اعتدوا على الحق فى ذاته، واعتدوا على القرابة التى لم يراعوها حق رعايتها، ونكثوا فى أيمانهم، وذلك أعظم اعتداء.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ فيه تأكيد الاعتداء من وجوه:

أولها - فى التعبير بالإشارة المتضمن لصفاتهم التى هى سبب الحكم.

ثانيها - ضمير الفصل الذى يؤكد الحكم.

ثالثها - القصر بالحكم بأنهم المعتدون وحدهم؛ لأن تعريف الطرفين يدل على الاختصاص، أى أنهم اختصوا بالاعتداء، وليس بمعتد عليهم من لا يأخذ بعهدهم.

ومع هذا الاعتداء فإن باب التوبة مفتوح لم يغلق، ولذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾.

(الفاء) هنا لترتيب نسق القرآن. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وقد قرن إقامة الصلاة وأداء الزكاة؛ لأنها أمارات الإيمان العملية، ولكي يخرج الكافر مما كان عليه لا بد من مظهر عملي دال على الخروج مما كان عليه، فإنه كان يسجد للأوثان، ويتصدق على سدنتها، فكان حقا أن يكون منه نقيض ذلك بأن يسجد لله بإقام الصلاة، وأن يتصدق على الفقراء، ولذلك اشترط أبو حنيفة للإيمان ألا يكون منه ما يدل على بقاءه على دينه الجديد.

فكانت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة دليلا على انخلاعه من دينه القديم، وأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تثبت الإيمان، وبيان الإذعان الكامل لما أمر الله تعالى به، ونهى عنه.

وعندما كانت الردة عقب انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان أبو بكر لا يقبل من المرتدين مجرد التوبة والإنابة إلى الله تعالى، لا يقبل التوبة إلا إذا كان معها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكان منهم من أقام الصلاة، ولم يعط الزكاة، فلم يقبل منهم أبو بكر واعتبرهم لا يزالون على ردتهم، وذلك أولا: لأنه قرن كل توبة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وثانيا لأن إعطاء الزكاة أمانة الخضوع للدولة الإسلامية، وعدم التمرد عليها، ولذا قال رضى الله عنه ردا على من لم يعط الزكاة «سلم مسخرة أو حرب مجلية». وذلك حق لكى تقوم الدولة الإسلامية موطدة الأركان ثابتة الدعائم غير مضطربة ولا مزلزلة، وجواب الشرط ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أى فقد دخلوا فى الإسلام، وصاروا إخوانكم، وعبر بقوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ للإشارة إلى أنهم دخلوا فى الأخوة الإسلامية، وهى عهد الله الجامع الذى لا تفرق فيه، ولا تتجافى القلوب بل تتواد وتتراحم بعرى الإيمان الوثيقة.

ولقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من فرق بين ثلاث فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة: من قال: أطيع الله ولا أطيع الرسول، والله تعالى يقول: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ (٥٩) [النساء]، ومن أقام الصلاة ولم يؤد الزكاة والله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ (٤٣) ومن فرق بين شكر الله وشكر والديه والله تعالى يقول: ﴿... أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ...﴾ (١٤) [لقمان]»^(١).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به شيئا، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ، وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم»^(٢).

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَتَفَصِّلِ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أى نبين آيات الله لقوم يعلمون، أى من شأنهم أن يعلموا الحقائق، ويدركوا مراميها وغاياتها.

وبعد أن بين الله سبحانه حال الذين ينخلعون من عبادة الأوثان، ويتوبون لله ويرجعون إليه ويطيعون الصلاة ويؤتون الزكاة، بين ما يعامل به الذين يستمرون فى غيهم، وينقضون عهودهم ويطعنون فى الدين وما يعاملون به، فقال تعالى:

(١) ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر رضى الله عنه، وكفر من العرب، فقال عمر رضى الله عنه: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عنها كانوا يؤذونى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلنهم على منعها، قال عمر رضى الله عنه: فوالله ما هو إلا أن قد شرع الله صدر أبى بكر رضى الله عنه، فعرفت أنه الحق. رواه البخارى: الزكاة - وجوب الزكاة (١٤٠)، ومسلم: الإيمان - الأمر بقتال الناس حتى يقولوا (٢٠).

وروى الترمذى: البيوع - ما جاء فى كراهية الفرقة بين الأخوين، أو بين الوالدة وولدها (١٢٨٣)، كما رواه أحمد والدارمى.

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه: المقدمة - فى الإيمان (٧٠).

﴿وَإِنْ نَكْثَوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)﴾ .

النكت: النقض للشئ المفتول بفكه بعد أن أحكم فتلته، وقوله: ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ أى عهودهم، وذكر الأيمان وهى جمع يمين بدل العهود؛ لأنها تقوى وتوثق بالأيمان، ولأن نقض يمين أشد شناعة وأدل على انحلال النفس والذمة، وبعد الثقة فيهم، وقال تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ الذى عاهدوه ووثقوه بأيمان الله. ولم يكتفوا بنكت الأيمان ونقض العهود، بل طعنوا فى دينكم ويسب النبى ﷺ بالطعن فى عقيدة التوحيد التى هى من الدين.

وإن موضوع الآية فيه تخريجان أحدهما: أن موضوعها الذين دخلوا فى الإسلام، وارتدوا ونقضوا أيمانهم. ويقول الزمخشري فى ذلك: صاروا إخوانا فى الدين ثم رجعوا فارتدوا عنه ونكثوا ما بايعوا عليه من الأيمان، والوفاء بالعهود وقعدوا يطعنون فى دين الله ويقولون ليس دين محمد بشئ فهم أئمة الكفر وذوو الرئاسة والتقدير فيه.

وعلى ذلك يكون الذين نكثوا هم الذين كانوا قد أعلنوا التوبة ثم ارتدوا بعد إسلام.

وإننا نرى أن هؤلاء غير الذين تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وكانوا إخوانا للمؤمنين، وإنما موضوع الآية قوم آخرون نكثوا عهودهم التى وثقوها بالأيمان، ولم يكتفوا بذلك، بل أخذوا يطعنون فى الدين، ويفترون عليه الافتراءات المختلفة.

وإن هؤلاء يقاتلون، ولذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ وأظهر فى موضع الإضمار، ولم يقل فقاتلوهم، وكان ذلك الإظهار لبيان أن هؤلاء أئمة الكفر وقادته ودعاته، والمحاربون للدعوة الإسلامية، وإن ذلك يسوغ قتالهم لمنعهم من أن يفتنوا المؤمنين فى دينهم.

وبين سبحانه وتعالى السبب في قتالهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، أى إنهم لا عهود لهم، ولو وثقوا بالأيمان فلا أيمان لهم، وقرئ بكسر الهمزة (لا إيمان لهم)^(١)، أى أن نفوسهم منحلة لا يجزمون بشيء ولا يذعنون لشيء، لا بعهد قطعوه على أنفسهم، ولا غيره، بل هم جائرون باثرون ليس عندهم شرف الوفاء العربى، والاحتفاظ بالكلمة.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أى رجاء أن يتنهوا عن غيهم، ويقمعهم إرهاب السيف، ومن لم تقنعه الحجة والبرهان والآيات تتلوها الآيات، فالحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس.

هذا وقد استنبط الفقهاء من هذه الآية بأن الذمى أو الحربى إذا طعن فى الإسلام يقتل، فليعتبر الذين حماهم الإسلام من ذل الرومان، وقد دأبوا على الطعن فى النبى ﷺ، والقرآن والإسلام حتى صار الإسلام غريبا فى بلاده، اللهم هب للمسلمين حاكما ينفذ القرآن، وقد كان الصحابة يقتلون من يسب النبى ﷺ ولو بالتعريض.

يروى فى ذلك أن رجلا فى مجلس على كرم الله وجهه قال: ما قتل كعب ابن الأشرف إلا غدرا، وكان النبى ﷺ أوصى بقتله فأمر عليا بضرب عنق قائل ذلك القول.

وقاله آخر فى مجلس معاوية فما فعل شيئا، فقام محمد بن مسلمة فقال: أيقال هذا فى مجلسك وتسكت!!، والله لا أساكنك تحت سقف أبدا.

ولا عجب، فعلى فارس الإسلام، وقامع الكفر، ومعاوية الطليق ابن الطليق، وقد ابتدأت غربة الإسلام فى عهده، اللهم أعز الإسلام وآؤه بعد غربته.

(١) قراءة (لا إيمان) بكسر الهمزة، أول موضع للقراءات المتواترة فى سورة التوبة، وبها قرأ ابن عامر، وقرأ الباقون: (لا إيمان) بفتح الهمزة. غاية الاختصار فى قراءات العشرة أئمة الأئصار - الهذلى العطار - تحقيق الدكتور أشرف محمد فؤاد طلعت - مكتبة التوعية الإسلامية [ج ٢، ص ٥٠٧، برقم (٩٧٤)].

قتال المشرك عبادة

قال تعالى :

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا
 بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّفَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
 قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُكُمْ
 عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ
 غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

هذه الآيات الكريمة تحريض على قتال المشركين الذين لم يوفوا بعهودهم، وأذاو النبي وأصحابه بمكة وأرادوا إخراج الرسول، وبدءوهم بالقتال.

فقال تعالى: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ﴾ و(ألا) أداة تحريض، وأصلها همزة الاستفهام دخلت على (لا) النافية، والاستفهام إنكارى بمعنى نفى الواقع، فالمعنى قاتلوا قوما كانت منهم هذه الأفعال. قال الزمخشري فى معنى (ألا) دخلت الهمزة على (لا تقاتلون) تقريراً بانتفاء المقاتلة، ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة.

وقد بين الله تعالى أسباب الحض على القتال من أعمال المشركين الذين قاموا بها، فذكر هذه الأعمال على أنها مبررة لوجوب القتال، ووبخهم على السكوت مع هذه الأعمال، وهى النكث فى العهد فقال: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ نقضوا عهودهم، ويشير سبحانه إلى نقضهم معاهدة الحديبية، فقد نقضوها بمعاونة بنى بكر الذين كانوا فى عهدهم مع خزاعة الذين كانوا فى حلف

النبي ﷺ، فكان ذلك نقضا للعهد، ونقض العهود مفسد للعلاقات، وقاطع للمودة التي أنشأها العهد، ومن ينقض العهد لا حرمة له بهذا العهد، ومن يرضى بأن ينقض عهده في حليفه، فهو يرضى بالذلة ولا يرضى بالملذلة عزيز كريم.

وهموا بإخراج الرسول فهم في مكة آذوا المسلمين وعذبوا الضعفاء، وسخروا من الشرفاء، حتى خرجوا مهاجرين إلى الحبشة مرتين، وقد كان هذا الإيذاء المتوالى إخراجا للمؤمنين، ولقد قال تعالى: ﴿... يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَأْكُمُ أَنْ تَوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ...﴾ (١) [المتحنة]، وإن هذا الاستفزاز الشديد الذي لقيه النبي وأصحابه كان لإخراجهم من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...﴾ (٧٦) [الإسراء]. ثم كانت إرادة الخروج واضحة على أنها إحدى الخصال التي عرضوها في ندوتهم إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠) [الأنفال].

والحال الثالثة التي كانوا عليها وكانت، أنهم الذين بدأوا أول مرة، أى بدءوا بالمنازمة والمحاربة أول مرة من الاعتداء، ولم يذكر أنهم بدءوا بالقتال؛ لأنهم بدءوا العداء التي كان القتال من صورها. لقد ابتدءوا بالعداوة عندما جاءهم الرسول بالقرآن نور الله تعالى وبرهانه، فبدل أن يجادلوه بالتى هى أحسن صدوه، وآذوه، وفتنوا المؤمنين فى دينهم، والفتنة أشد من القتل، ثم أغروا به سفهاءهم، وحالوا بينه وبين الدعوة، وبين إقامة دولة إسلامية، وبدأوا بالقتال فى غزوة بدر الكبرى، فبعد أن نجا غيرهم صمموا على القتال، وأن يجيشوا إلى بدر بالخمور والقيان، والقتال.

ثم هم الذين بدأوا بالقتال ونقضوا صلح الحديبية بإعانتهم لبنى بكر على خزاعة وقتلهم فى البيت الحرام، كان منهم كل هذا: نكث للعهد، وإيذاء شديد فى الماضى وفتنة، وقتال ابتدأوه فى عدة مرات، فهل يسكتون عليهم ألا يقاتلونهم، ثم حرضهم الله تعالى أبلغ تحريض، فقال ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أى أيمنعكم

من قتالهم أنكم تخشونهم، أى تخافونهم فزعين من قتالهم. ﴿قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ واللّه أحق أن تخافوه وتفزعوا من غضبه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان الإيمان شأنا من شئونكم، وصفة من صفاتكم، فإن المؤمن لا يخشى إلا الله، ولا يقدر فى أموره كلها إلا رضا الله والخوف من غضبه وعذابه.

وقد صرح سبحانه وتعالى من بعد ذلك التحريض الذى يثير الهمم، ويثبت أن قتالهم حق على كل مؤمن - بالأمر بالقتال وذلك بعد أن بين أنه حق كامل.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

بعد أن بين الله تعالى بواعث القتال من نكث العهد، وإخراج النبى والمؤمنين، وبدئهم بالفتنة، والفتنة أشد من القتل، وبدئهم بالقتال، إذ هاجموا فى بدر من غير ضرورة تلجئهم، ولا حاجة تدفعهم إلا أن تكون كراهة لدينكم، وبدئهم بمعاونة بنى بكر على خزاعة.

بعد هذا بين ثمرات القتال: فقال تعالى كلماته: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وذلك بالإثخان فيهم، وصرح بقوله بأيديكم، أى أنها عذاب لهم تتولونه أنتم، فقوله (بأيديكم) يراد بأنفسكم، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية، وعبر بالأيدى لأنها هى التى بها البطش، وهى التى تحمل السيوف والرماح والنبال.

وكان العذاب فى الدنيا بأيدى أهل الحق لردع أهل الباطل، وكسر شوكته، ولكيلا يستشرى الشر، وتستعلى الرذائل وتنخفض الفضائل ﴿... وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ...﴾ [الحج ٤١] لهذا كان لا بد من عذاب الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ بالأسر، والتتبع فى الأرض، وذهاب سطوتهم وقوتهم، وانخلاع العرب من ربقتهم، وذهاب سلطانهم المادى والأدبى.

﴿وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، فإن النصر بيد الله، ﴿... وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج]، ونصرة العبد لله بإطاعة أوامره، ومنها الأمر بالقتال، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، ولا يكون النصر من الله إلا إذا اتخذت أسبابه من العبد واحتسب النية.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. ذلك أن قلوب المؤمنين إذا رأت الكفر ناتئ الرأس، ولم يكن من يقمعه، ويرد كيده في نحره عراها الشك أو التردد، أو محاولة تعرف الحكمة في إهمال الكفر، وتركه في عنفوانه وإيذائه، فإذا نصر الله المؤمنين شفيت صدور قوم مؤمنين، وخرج ذلك التردد، وذهبت عنها تلك الحيرة، فالله - بقتال المؤمنين لأهل الكفر - يشف تلك الصدور المؤمنة من تلك الحيرة الممضة التي قد تثير الريب، ومن ذلك الحزن والموجدة، وفيه إشارة إلى الوعد بالفتح.

﴿وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ الضمير في قوله غيظ قلوبهم يعود إلى الذين تحتاج صدورهم إلى شفاء بنصر موزر يدفع الباطل ويزهقه، ويرفع الحق ويعليه، والغيظ انفعال النفس بالآلم من رؤية الباطل عاليا والحق مستكينا أو مستخذيا، فإذا انتصر الحق وعلا، ذهب ذلك الغيظ، واستقامت النفس على سواء الصراط، وارتاحت الضمائر المؤمنة.

وعبر الله في الغيظ بقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن الغيظ ليس داءً، ولكنه حال عارضة من أمر قابل للزوال، والنصر يزيله وفيه إشارة إلى حصول الوعد.

أما التردد والحيرة، ويوادر الشك، فأمراض تلازم النفوس المريضة فعبر عن زوالها بالشفاء؛ لأنها أمراض الإيمان، والله هو الذى يشفيها، ويودعها الاطمئنان.

وإن الحرب التي تختبر فيها النفوس، ويذهب فيها غرور الذين يغترون بأصنامهم، ويحسبون أنها تنصرهم في الشديدة وتغيثهم في الكريهة من شأنها أن تجعل النفوس تفكر فيما هي عليه، وفيما عليه الذين يحاربونها، فيعرفون الغث

من السمين، والحق من الباطل، ويتعرفون ما عليه آلهتهم التي يزعمونها، وما نصر به الإله الحق أولياءه المؤمنين فيهتدون بعد ضلالة، ولذا قال الله إن من آثار الحرب التي يدك فيها الشر أن يتوب الله على من يشاء من عباده، فقال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أى أنهم يحسون بقوة الحق، وضعف ما هم عليه من كفر، وضلال فى الأوثان فيتوبون أى يرجعون إلى الله بعد أن بعدوا عن الإيمان، والآية تشير إلى أن هذه التوبة فيض من الله عليهم وصلوا إليها بعد أن ذهب غرورهم بما هم عليه من عبادة الأصنام.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم النفوس وما يهديها، وما يوجهها، إلى الحق، حكيم يضع الأمور فى مواضعها، ويدبرها بحكمته، وهو العزيز الحكيم.

قال الله تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ ..

(أم) هنا للإضراب الانتقالى من باب فى الجهاد وتحريض عليه إلى باب الاختبار بالجهاد وتمحيص المخلصين من غير المخلصين، والهمزة فى «أم»

للاستفهام التوبيخي على حسابانهم وظنهم أنهم يتركون من غير تمحيص، واختبار وكشف المجاهدين من غيرهم، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة] وكقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... (١٧٩)﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ لما للنفي في الحاضر مع توقع الوقوع في القابل، ونفي العلم هو نفي المعلوم؛ لأن الله عليم بكل شيء بما كان، وما يكون، والمراد نفي العلم بالجهاد واقعا، وإن كان متوقعا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾ [آل عمران].

وإن الجهاد جهادان: جهاد بقاء الأعداء، واشتجار السيوف، وجهاد آخر بتنقية الصفوف من الأعداء والدُّخُولِ ومنع الولاية لغير المؤمنين، ولذلك عطف ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾، وهو وصف آخر بقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ الوليجة الحاشية البطانة، أي جاهدوا ولم يتخذوا من الله والرسول والمؤمنين وليجة أي بطانة يسرون إليهم بالمودة، وتكرار لا لتأكيد البعد عن أن يتخذوا من غير هؤلاء بطانة لهم.

و(وليجة) من ولج بمعنى دخل، ومعنى وليجة: دخيلة مودة وبطانة من دون الله، وهم يحادون الله ورسوله والله تعالى يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... (٢٢)﴾ [المجادلة]. ولقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

بَطَانَةٌ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ... ﴿١١٨﴾ [آل عمران].

وقد ضعف شأن المسلمين من وقت أن اتخذ ملوك بنى أمية ومن جاء بعدهم من اليهود والنصارى بطانة كانت تدس بين المؤمنين، وتشير الفتن، بينهم حتى أدخلوا في الدين ما ليس منه.

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى إن الله عليم علما دقيقا بما تعملون من ظواهر أيمانكم وبواطنها.

ولقد حرم الله تعالى على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام من بعد العام التاسع، وربما كان منهم من يدعى أنه يعمر المسجد الحرام فهى عن ذلك أيضا، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أى ما ساغ وما استقام للمشركين أن يعمروا مساجد الله، وعمارة المساجد بإقامة الشعائر فيها، وتشيد بنيانها، وهنا قراءتان قراءة «مسجد» الله تعالى وهو البيت الحرام؛ لأنه أول بيت بنى للعبادة وهو أعظم المساجد، وإذا ذكر المطلق انصرف إلى الفرد الأعظم، وبيت الله الحرام هو الفرد الأعظم فى المساجد، وهناك قراءة أخرى بالجمع «مساجد الله» وهى قراءة حفص، وبها قرئت (مساجد)، وتخرج على أن المراد المسجد الحرام، والجمع؛ لأن كل بقعة منه مسجد ولأنه إمام المساجد، فهو قبلة المسلمين، وكل مسجد له تابع. أو يراد جنس المساجد كما تقول: فلان لا يقرأ الكتب تريد جنس الكتب لا تريد واحدا بعينه، وإنه ليس للمشركين عمارة المساجد؛ لأن عمارة المساجد إقامة الشعائر فيها كما ذكرنا وعمارتها بعبادة الله وحده، وليس من عبادتها إحاطتها بالأصنام، والطواف عرارة، وغير ذلك من المحدثات التى ليست من العبادة فى

وقوى الله سبحانه وتعالى نفى أن يعمرُوا المساجد بقوله تعالى كَلِمَاتِهِ ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ أى حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر أى بعبادة الأصنام وهو كفر لا ريب، فإن هذه الحال مناقضة تمام المناقضة للعمارة الحقّة للمساجد بأن يعبدوا الله حق عبادته، ولا يشركوا به شيئاً، وقد بين الزمخشري هذه المناقضة فضل بيان فقال: غفر الله تعالى له: «ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متناقضين عمارة متعبدات الله تعالى مع الكفر بالله تعالى وعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ظهور كفرهم، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا للأصنام».

وإنه لما التقى الأسرى من قريش بالمهاجرين أخذ هؤلاء يعيرونهم بأنهم قطعوا الرحم، فقال علي كرم الله وجهه لعمه العباس يعاتبه لقتال ابن أخيه محمد ﷺ، وقطيعة الرحم، وأغلظ فى القول فقال العباس: «تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا، فقال علي: ألكم محاسن؟ قال نعم: إنا لنعمر المسجد، ونحجب الكعبة، ونسقى الحجاج ونفك العانى».

وقيل إن هذا سبب نزول هذه الآية، وفى الحق إنه كان فى الجاهلية بعض أعمال ولكن يذهب بها كلها الشرك، فمن يعمل ابتغاء مرضاة الله الواحد غير مفاخر، ولا معتز بعصية يكون عمله لله ولا يكون مشركاً أحداً بالله فى عبادة قط، ومن يعمل مفاخراً معتزاً بعصيته، غير معتز بالله، فعمله فى هباء، ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، الإشارة إليهم متصفين بالكفر البادى من كل أعمالهم من عبادة الأصنام، والطواف عراة، وما يكون من أعمالهم فيه بعض النفع خلطوا به نية المفاخرة، والعصية الجاهلية، والإشارة إلى الصفات تفيد سبب الحكم، وهو حبوط أعمالهم ودخولهم النار، وحبوط الأعمال بطلانها وعدم إنتاج ثمرتها، والحبوط يفيد البطلان الذى يكون ناشئاً من ذات العمل، فبطلان أعمالهم ناشئ من ذاتها؛ لأنها لا تصحبها النية الطيبة المؤمنة بالله تعالى ﴿وَفِي النَّارِهِمْ

خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ قدم الجار والمجرور (فى النار) لاختصاصهم بالنار لا يدخلون غيرها وتأكد ذلك الحكم بضمير الفصل (هم).

هذا وإن المساجد كما أشار الله سبحانه وتعالى بيوت الله، ولا تعمر إلا بالعبادة الخالصة لله. وهى مأوى المؤمن فى الدنيا، ولذا قال ﷺ فيما رواه معاذ ابن جبل رضى الله عنه «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية، فأياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعمامة والمسجد ﴿١٨﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾» (١).

(إنما) للحصر، فهى أداة من أدوات القصر، والمعنى: «لا يعمر مساجد الله إلا من آمن بالله...» والعمارة كما ذكرنا بالعبادة فيها حق العبادة، بأن يعبد الله وحده لا شريك، وأن يقوم بترميم وإصلاح ما وهى منه، وإذا كان المشركون يفعلون ذلك فإنهم بإشراكهم يطلون ما صنعوا، وإن العمارة للمساجد نوعان أحدهما: معنوى، وهى عمارتها بالعبادة وإقامة شعائر الدين، والثانى: مادى، وهى ترميم ما يحتاج الترميم وتنظيفها وإضاءتها بالمصابيح، وغيرها مما يتصل ببنائها، وإنه لا يفعل الأمرين إلا الموحدون الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويغشونها لإقامة الدين وجمع المسلمين وسماع القرآن الكريم، ومواعظ رب العالمين، وهدى الرسول الأمين.

ويلاحظ أنه ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، فالإيمان بالله الواحد الأحد هو الدين أو لبه، والإيمان باليوم الآخر هو فيصل الإذعان والتمرد، وفيصل الإيمان بالغيب والجحود به؛ إذ لا يكفر به إلا من لا يؤمن إلا بالمحسوس.

(١) رواه أحمد: مسند الأنصار - حديث معاذ بن جبل. رضى الله عنهم (٢١٥٢٤).

وقد يسأل سائل: لماذا لم يذكر الرسول والإيمان به؟ والجواب عن ذلك أن الإيمان بالله يوجب أن يؤمن بالرسالة الإلهية، فالإيمان بالله يستلزم لا محالة الإيمان بالرسول الذي بعث رحمة للعالمين، ولأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي التي جاء بها الرسول الكريم، وهو الذي علمه الرسول، فالعمل بها يتضمن لا محالة الإيمان بالرسول، فهذا عمل يتضمن علما؛ ولأن الإيمان بالله يقترب به دائما الإيمان بالرسول فكان الإيمان بالرسول معلوما من غير إعلام، وبيننا من غير بيان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ومعنى الخشية الخوف المقترن بالخضوع والخشوع، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى لم يخش خوف خضوع وتذلل ومحبة إلا الله، فلا يخاف غيره من رئيس يرهب، أو صنم يعبد ولا يذل كبير، ولا لصنم، ولا يخضع لأحد غير الله.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قيل ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ والمؤمن يخشى المحاذير لا يتمالك ألا يخشاها. قلت: الخشية والتقوى فى أبواب الدين، وألا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران أحدهما حق الله، والآخر حق نفسه فيؤثر حق الله على حق نفسه، وقيل كانوا يخشون الأصنام ويرجونها وأريد نفى ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و(أولئك) إشارة إلى صفات هؤلاء من إيمان بالله واليوم الآخر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وألا يخشوا إلا الله، والإشارة إلى الصفات إيماء إلى أن هذه الصفات هي السبب فى رجاء الهداية.

ومؤدى ذلك أولا: أن المشركين ليس لهم أن يكونوا من المهتدين؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر، ولا يخشون غير الله، ولا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة.

والرجاء من هؤلاء المؤمنين لأنهم قدموا ما يسوغ هذا الرجاء، وذكر الرجاء لمنع الاغترار، فإن الاغترار قد يدلى بالغرور، فيفسد التقرب، ولقد قال بعض الصوفية: إن معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت دلاً وافتخاراً.

وإن الآية تشير إلى فضل عمارة المساجد بالعبادة، وتنظيفها من الأوساخ الحسية والمعنوية بالمنع من لغو الحديث فيها، وعن النبي ﷺ «يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقتاً، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم، فليس لله بهم حاجة»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «الحديث فى المساجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»^(٢)، وقال عليه السلام فى حديث قدسى عن ربه: «إن بيوتى فى أرضى المساجد، وإن زوارى فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى، فحق على المزور أن يكرم رائره»^(٣)، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من ألف المسجد فقد ألف الله»^(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»^(٥)، وعن أنس رضى عنه: من أسرج فى مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحمة العرش تستغفر له ما دام فى ذلك المسجد ضوءه.

(١) رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه: بزيغ أبو الخليل، ونسب إلى الوضع. كما فى مجمع الزوائد (٤٠٢).

(٢) ذكره أهل التفسير، منهم الرازى، وأبو السعوى، والألوسى، والزمخشري، دون إسناد.

(٣) «رواه الطبرانى عن ابن مسعود».

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. كنز العمال: ج ١٠ - ص ١٤٨٨، وذكره

المنذرى فى الترغيب والترهيب: ج ١ - ص ١٣٧ برقم (٤٩٨)، وضعفه بابن لهيعة.

(٥) رواه ابن ماجه: المساجد والجماعات - لزوم المساجد وانتظار الصلاة (٨٠٢)، والدارمى: الصلاة - المحافظة

على الصلوات (١٢٢٣)، كما رواه الترمذى: الإيمان (٢٦١٧) بلفظ (يتعاهد)، وأحمد: باقى مسند

المكثرين (٢٧٣٠٨) بلفظ «المسجد».

وقد نقلنا هذه الأخبار في آداب المسجد، وعمارته ونظافته وإضاءته من الكشاف للزمخشري، وهى تدل على أمرين: أولهما: أن عمارة المسجد تكون أولا بالعبادة فيه، وبعده عن لغو الحديث، وثانيهما: العناية به وبإسراجه.

فضل الإيمان والجهاد

قال تعالى:

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٢﴾
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿١٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

كان المشركون بمكة يفاخرون دائما بأنهم سدنة البيت الحرام يسقون حجيجه، ويعمرونه بالتنظيف والتشيد، والقيام على شئونه وما يحتاج إليه من عمارة، وهم أهل جواره الذين يستقبلون الناس ويتناولون على الناس بهذه المكانة، حتى إنه ليروى أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه كان يقول قبل إسلامه أو قبل أن يظهر إسلامه لابن أخيه علي بن أبى طالب: تذكرون مساوتنا ولا تذكرون محاسنتنا، كنا نسقى الحجيج ونعمر البيت، ونطعم الطعام، ونأوى العانى. بل إنه

يروى أن بعضهم قال لليهود الذين كانوا يمالئونهم على النبی ﷺ: أينما خير أنحن الذين نقوم بالسقاية والسدانة، ونطعم الطعام، أم محمد؛ فيقول لهم اليهود الذين لم يجر على ألسنتهم قول الحق قط: أنتم.

يقول الله تعالى موبخاً مستنكراً ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمعنى أصيرتم سقاية الحاج، أى جنس الحاج وهم الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، أى تنظيفه والقيام على بنائه وتشيدته، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله.

وقال أكثر المفسرين: إن فى الكلام تقديرًا لمحذوف تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وقالوا إنه يدل عليه قراءة (سُقَاةً) ^(١) بضم السين وهى جمع ساق، ويكون المعنى على هذه القراءة: أصيرتم سقاة الحجيج، وأهل عمارة البيت الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد فى سبيل الله تعالى، والاستفهام إنكارى توييخى متضمن النفى وأن ما صنعوا لا ينبغى لأهل العقول المدركة، والآيات تتلى عليهم بالحق المبين ليتدبروه فينكصون عنه، ويسمرون بهجر القول، ويتفاخرون بشعر العرب، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾ [المؤمنون]، أى يهجون القرآن، وكانوا يسمرون بالأساطير والخرافات ويهجرون القرآن هجرا.

وقد أجاب سبحانه وتعالى عن الاستفهام التوييخى مبينا الحق ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فمقامهم عند الله مختلف مقام المجاهد المؤمن بالله واليوم الآخر، مقام عال، لا يناصى، ومقام المشرك الذى يكتفى من الشرف بالسقاية والعمارة المادية، ويظن ذلك مقرباً إليه زلفى، وهو يشرك بالله فى عبادته الأنداد. إنهم تركوا الجوهر وناقضوه، وأخذوا بمظهر باطل لا يغنى عن الحق شيئا.

(١) ليست فى العشر المتواترة.

وقد بين جزاء الأعلياء المفضلين من بعد، وبين هنا ضلال المشركين، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والظالمون هم المشركون، وقد سمى الله الشرك ظلم، لأن المشرك ظلم الحق فعبد أوثانا لا تضر، وظلم العقل المدرك فطمسه، وظلم نفسه فتردى بها فى مهاوى الضلال، وطمس الحق، وإن الله لا يهدى الذين أركسوا أنفسهم فى هذا، لأنهم لم يسلكوا نجد الحق والعقل والإدراك السليم.

وهنا إشارة بيانية، وهى أن سياق الآية فى ظاهره من غير تقدير جعل المناظرة بين سقاية الحاج وعمارة البيت الحرام ومن آمن..... والمعنى إيمان من آمن، ولكنه ذكر من آمن... وذلك لبيان الإيمان قائما فى أصحابه محسوسا مريئا، لأنه تزكية ظاهرة، ودعوة عملية إليه كقوله تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [البقرة] إلى آخر آية البر.

وبعد أن بين الله تعالى أن الظالمين بسبب ما سلكوا يستمرون فى غيهم يعمهون، بين جزاء الهداة الذين جاهدوا بعد أن آمنوا وهاجروا.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٥).

هذا النص الكريم، هو الحكم الذى أصدره الله تعالى فى قضية الموازنة بين الإيمان والجهاد وبين سقاية الحاج، وعمارة البيت، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾.

ذكرهم سبحانه وتعالى بأنهم أعظم درجة، وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه إذا كان على بابه يكون مؤداه أن الذين اكتفوا بالسقاية والعمارة لهم درجة عظيمة عند الله، وإن لم تكن الدرجة الأعظم، إذ الحقيقة أنهم ما داموا على الشرك ليست لهم عند الله أية درجة، بل إنهم فى الحضيض الأوهى، ولا درجة لهم عند الله قط، وإذا كان أفعل التفضيل ليس على بابه، فمعناه أنهم عند الله فى درجة عظيمة، لا تطاولها درجة، وعبر بأفعل التفضيل لما كان من مقابلة لفظية.

وهذه الدرجة العظيمة التى لا تفضل عنها درجة قط؛ لأنهم كانوا فى أوصاف عالية تجعلهم رجال الله ورجال الحق - أولها - أنهم آمنوا، والإيمان فى وسط الشرك الغامر والوثنية الغالبة فيه جهاد النفس، ومغالبة الباطل، ونور العقل، ومقاومة الجاهلية وعصبيتها، وطغيانها، وشروورها وآثامها، ومع هذا كله تكون رفعة الدرجة، إذ بمقدار تلك المغالبة النفسية يكون علو الدرجة.

والوصف الثانى - أنهم هاجروا، إذ إن ذلك الوصف يتضمن نداء الإيمان بالرضا بترك الأهل وصرم القرابة والدعة والراحة، وتحمل الأذى، والخروج بالإيمان نقياً طاهراً من أرجاس الجاهلية وعصبيتها، والخروج من جو الجاهلية المعتكر بالعصية والضلال إلى جو النور والإيمان.

والوصف الثالث - أنهم جاهدوا فى سبيل الله، أى طريق الله الحق بأموالهم وأنفسهم، فلم يكن إيمانهم سلبياً بل كان إيماناً إيجابياً، آمنوا بالحق، وضحوا فى سبيله بالأهل والولد، ثم دعوا إليه محاربين الباطل، جاهدوا أنفسهم أولاً بتخليصها من أدران الشرك وأوهامه، وصابروا على الأذى بعد أن صبروا عليه وقدموا أموالهم مجاهدين، وأنفسهم فى اشتجار السيوف والرماح، واستجابوا لقول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألستكم»^(١).

وقد حكم الله تعالى لهم فقال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الإشارة إلى أوصافهم، وفيه دلالة على أن هذه الأوصاف هى سبب ذلك الفوز، وقد بين سبحانه أنهم المختصون بالفوز دون غيرهم؛ لأن تعريف الطرفين وضمير الفصل دلاً على أنهم المختصون بالفوز، ولا فائز إلا من عمل عملهم، وحمل أوصافهم، فهم رجال الله تعالى حقاً، وقد بين الله تعالى جزاءهم فى الآخرة فقال تعالى كلماته:

﴿يُشْرِهِمُ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾.

البشرى: الخبر السار، ولا تطلق على غيره إلا تهكما، كقوله تعالى: ﴿...وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢). وقوله تعالى: ﴿يُشْرِهِمُ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ بيان للفوز الذى حكم به سبحانه وهو أعدل الحاكمين، والبشرى تتضمن الرحمة، والرضوان من الله تعالى، وقد نكرا وهما مضافان إلى رب هذا الوجود للدلالة على الفخامة والعظمة، فهى لا يدرك كنهها ولا تحد حدودها، وهى من الله تعالى واسع الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء، والرضوان من الله وهو أعظم من كل ثواب مادى، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿...وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٧) أى أنه أكبر من كل نعيم؛ لأنه الرضا من الله تعالى، وهو نعمة لا يشعر بها إلا من يحس بعظمة الله وجلاله، ويفنى فى ذاته العلية، حتى إن الصوفية ليقسمون العبادة إلى ثلاث مراتب، المرتبة الدنيا: مرتبة من يعبد الله اتقاء عذابه، والثانية: من يعبد الله رجاء ثوابه، والعليا: من يعبد الله رجاء رضاه.

﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وهى غير الرحمة؛ لأن الرحمة ضد الشقاء، وهى وحدها نعمة؛ لأن الخروج من الضلال إلى الهدى والشعور بالحق وأنه اهتدى إليه وخرج من الضلال إلى نور الهداية هو وحده رحمة ونعمة، فأول جزاء للمؤمن من يأخذه من الإيمان نفسه، فيشعر باستقرار لا اضطراب فيه.

وبعد هذا الشعور والإحساس برضا الله تعالى تكون الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، ويكون للذين يدخلونها من أهل الحق والإيمان نعيم مقيم، أى ثابت دائم.

وقد أكد سبحانه ثوابه بقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) الخلود نعمة فوق نعمة الجنة ذاتها، فإن الإحساس بدوام النعمة نعمة، وليس فى مقابل الدنيا الفانية، وأكد الله سبحانه وتعالى خلود الجنة ودوام نعيمها

بقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ فهي دائمة لا بقدر الدنيا، كما توهم بعض الذين لا يدركون حقائق نعم الله، إنما هي باقية أبدا ما شاء الله تعالى أن تبقى.

وقد بين الله تعالى بعد ذلك أن عند الله تعالى ما هو أكبر من ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والعبادة تحتل أن عند الله جزاء آخر غير ما ذكر وتحتل أن الله تعالى يبين أن ذلك أجر عظيم، وقد نكر أجر للدلالة على أنه أجر لا يحيط به عقل أهل الدنيا، ولذلك نرجح الاحتمال الأول وهو أن وراء الجنة وخلودها، ونعيمها أجرا أعظم من ذلك، مثل هذا تجليات الله على عباده يوم القيامة. إنه هو العزيز الرحيم.

الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٦﴾ قُلْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٣٧﴾

كان المؤمنون في أول الإسلام قلة، ولا يكون للقلة قوة إلا إذا تضافت وتوالت، وجعلت الولاية لأنفسهم دون غيرهم، ولذلك كانت الهجرة واجبة حتى تجمع قوة الحق وتتآزر وتكون لها ولاية مستقلة عن ولاية أهل الشرك ومناصرتهم، والولاية هي النصرة والسلطان وأن تكون الموالات لدولة مسلمة.

روى الزمخشري، عن ابن عباس أنه كان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر، ويصارم أقاربه الكفرة، ويقطع موالاتهم، فقالوا: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرننا، وذهبت تجارتنا، وهلكت أموالنا، وخربت ديارنا، ولقينا ضائقة. فنزلت الآية. وإن صحت هذه الرواية فإن الآية يكون المخاطب بها الذين آمنوا أولاً ثم هاجروا، ولكن مع ذلك فحكم الآية عام؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨) [آل عمران]، ولقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...﴾ (٥١) [المائدة] اللهم إنا برآء من جعل نصرته عندهم، فإنه منهم.

ولقد روى أن النبي ﷺ قال «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله، حتى يحب في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه»^(١).

ولقد قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢) [المجادلة].

(١) ذكره أبو السعود في تفسيره: ج ٤، ص ٥٤، والزمخشري في الكشاف: ج ٢، ص ١٨١، برقم (٤٥٣).

وفي الآية الكريمة إشارات بيانية بليغة:

الأولى: قد اقتصر الله تعالى في الآية على الآباء والإخوان، ولم يذكر الأبناء، لأن الآباء والإخوة تكون منهم النصرة، والاعتزاز، أما الأبناء فإنهم تبع لآبائهم؛ ولأنه لا تأثير للأبناء على آبائهم، ولأنه يندر من كان يسلم، وأبناؤه مستمرون على الكفر؛ لأن تأثير الآباء على الأبناء يمنع من أن يتغذوا بلبان الشرك، ومن النادر إيمان أبي بكر، وبعض ولده مشرك حتى اشترك في غزوة بدر مع المشركين.

الثانية - في قوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ هذا شرط لمنع الولاية عنهم والانتصار بهم، ونصرتهم و﴿اسْتَحَبُّوا﴾ معناها أحبوا بشدة وتعصب؛ لأن السين والتاء للطلب، أى طلبوا محبة الكفر حتى أحبوه، فكانوا مبالغين في الكفر متعنتين في عداوة المؤمنين، فمن والاهم فقد والى أعداءه الكافرين.

الثالثة - أن الله تعالى حكم بالظلم على من يتولاهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (مَنْ) شرطية، وهى اسم، والتولى جعلهم أولياء له ونصراء، وقال تعالى: ﴿مَنْكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه ترك ولاية الحق إلى الباطل، لأن منكم تدل على أن الأصل هو ولايتهم لكم، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ﴾، الإشارة إلى انفصالهم عنكم، وحكم عليهم سبحانه بالظلم وقصره عليهم؛ وذلك لأنهم ظلموا أنفسهم بترك أوليائهم الحقيقيين كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٥٥) [المائدة] فتركوا ولاية الله وإخوانهم المؤمنين، فكانوا ظالمين إذ استنصروا بمن لا ينصرونهم، وليس في قدرتهم أن ينصروهم من دون الله، ولأن موالة الشرك شرك ﴿...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان].

إن الجهاد تجرد لله تعالى، وصدق رسول الله ﷺ إذ جعل المجاهد كالراهب متجردا من أهله وماله، وسكنه وتجارته، فقال عليه الصلاة والسلام: «لكل أمة

رهبانية، ورهبانية أمتى فى الجهاد^(١) وإنه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾.

الخطاب للنبي ﷺ أمرا أمته بالجهاد محرضا على التجرد له، والانقطاع له، لا يشغله قلبه إلا أن يتصر لله ورسوله ويعتز بأهل الإيمان ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ والعشيرة هى الجماعة المتناصرة المتوالية، وهم الأقربون، ومن يدانونهم، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى اكتسبتموها مقتطعين لها؛ لأن الاقتراف معناه الاقتطاع ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، أى ثمينه لها أوقات تخشون ألا تروج فى وقتها، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾، أى ترضون مناخها، وحدائق ترعونها، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أى تؤثرون المعيشة الرفاهية الفاخرة عن طاعة الله ورسوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فى سبيل الله تنالون به العزة، وتبعدون به الذلة ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أى ترقبوا، حتى تنزل المذلة إن استرخيتم تحت ظل النعيم، وعند الاسترخاء والاستئمان للراحة يكون القعود عن الجهاد، ولقد توقع خليفة رسول الله ذلك، إذ قال رضى الله عنه: «لتأمن على الصوف الأزربى كما يتألم أحدكم من النوم على حَسَكِ السَّعْدَانِ»، ولقد كان ذلك عندما وجدوا الدمقس والحريز، وجلسوا على عرش كسرى، وجاءتهم غنائم من الأندلس والصين، عندئذ كان الترفه والتنعيم، والارتقاء فى أحضان القيان، وكثرت الأغاني، ورق الذوق، وحين كان ذلك لا تكون عزيمة، ولقد قال الزمخشري فى ذلك: هذه آية شديدة وهى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة لهذا الدين، واضطراب حال اليقين، فلي نصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمسكن وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرد منها لأجله أم يزوى الله

عنه أحقر شيء منها لمصلحة، فلا يدرى أى طرفيه أطول، ويغريه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره.

هذه حال الناس فى عهد الزمخشري، يوم تقاتل المسلمون، واستبدل الملوك بالجهاد فى سبيل الله القتال بينهم فصار بأسهم بينهم شديدا، ونسوا الجهاد حتى جاءهم من لا يرحمهم. جاء الصليبيون من أوروبا وجاءهم التار من الصين ففرقوهم شذر مذر.

ولقد توقع رسول الله ﷺ ذلك، فقال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها»، قالوا أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكن غشاء كغشاء السيل، ولنزعن الله من قلوب عدوكم المهابة، وليرزنكم الوهن» قالوا: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت»^(١) اللهم حبب إلى قلوبنا الإيمان، وأن يكون الله ورسوله وجهاد فى سبيله أحب إلينا من آبائنا، وأبنائنا، وإخواننا وأزواجنا وعشيرتنا، وأموالنا، وتجارتنا، ومساكننا، وكل حظوظنا، فإن ذلك إن كان، فقد وهبت العزة وصارت تحت أقدامنا حظوظ الدنيا.

يوم حنين

قال تعالى:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار- ومن حديث ثوبان رضى الله عنه (٢١٨٩١)، ورواه أبو داود فى الملاحم- تداعى الأمم على الإسلام (٤٢٩٧) ولفظه: «وليقتلن فى قلوبكم الوهن».

يَمَّا رَجَبْتُ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

المواطن جمع موطن، وهو مكان الحرب، الذي توطن فيه النفوس على القتال، وهو كما قال الزمخشري: ومواطن الحرب، مقاماتها، ومواقفها، قال الشاعر:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوى^(١)

والمواطن الكثيرة: بدر، وجلاء بنى قينقاع والنضير، وقرينة والأحزاب، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة، وذكر أيضا أحد، فما انهزم المسلمون ولكن أصابهم قرح، ومؤتة، فالمسلمون فيها قتلوا من الرومان مقتلة عظيمة، وما فروا، ولكن عادوا ليستعدوا أمام مائتي ألف، ثم عاودوهم من بعد في تبوك فمن الله تعالى على المسلمين، أو بالأحرى المؤمنين - بالنصر في هذه المواطن، وقد هداهم الله تعالى إليه وأمداهم بالملائكة؛ لأن قلوبهم كانت مستعدة لتجلى الملائكة، وإمدادهم بهم.

وذكر سبحانه يوم حنين؛ لأن قلوب الكثرة من المسلمين لم تكن مستعدة لهذا التجلى للملائكة، وعبر سبحانه بيوم حنين، ولم يعبر بغزوة حنين؛ لأن هذه الغزوة كان لها دوران: دور يوم حنين وهو الذي جرح فيه المسلمون، والدور الثاني الذي انفرد به المهاجرون والأنصار فكان النصر وكان تأييد الملائكة.

(١) قلة النيق: سفح الجبل.

والعبرة كانت فى يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم، أى أدخلت فى نفوسهم العجب كثرتهم، وقالوا لن نغلب اليوم، وقد حسبوا أن النصر بالكثرة العددية؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أى فلم تغن عنكم شيئاً من النصر، بل كانت الكثرة سبباً فى الهزيمة، وإن لم تكن هى النهاية، وصور الله سبحانه وتعالى هذه الهزيمة المؤقتة بقوله تعالى: ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ﴾ أى أنه سدت عليكم المسالك، إذ نزلوا بوادى حنين، ولم يستطيعوا، وتسلط مع ضيق المسالك الخوف، إذ كان فيهم من لم يمرسوا بقتال الإيمان، وربما كان منهم من أسلم ولما يدخل الإيمان قلبه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ والخطاب للمجموع فإن الذين فعلوا ذلك ليسوا هم المؤمنين من المهاجرين والأنصار، إنما أكثر من فعل ذلك من الطلقاء وأبناء الطلقاء، الذين بلغ عددهم فى ذلك الجيش نحو ألفين، وفيهم من أسلم بعد الحديبية، ولم يكن فيهم إيمان الأنصار والمهاجرة.

والتعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ للإشارة إلى البعد المعنوى بين إرادة النصر والفرار، وقوله تعالى: ﴿وَلَّيْتُمُ﴾ إشارة إلى أنهم عند الصدمة الأولى أعرضوا عن القتال، وفروا مدبرين تاركين أقفيتهم للعدو، تعمل فيها سيوفهم.

هذه إشارات إلى يوم حنين، ولنذكره ببعض التفصيل ليعلم من الذين ولوا، ويتبين من الذين أجرى الله تعالى النصر على أيديهم.

«حنين» واد بين مكة والطائف، وأساس القصة أن النبى ﷺ وقد فتح الله عليه مكة، وأسلم الأكثرون وأطلق الطلقاء بلغه أن هوازن وثقيفا تعد العدة لقتاله؛ لأنهم توقعوا أنهم الأدنون الذين يجيء إليهم جيش الحق، وجمعوا جيشاً كثيفاً، عدته أربعة آلاف على أرجح الروايات، من هوازن وثقيف، وانضم إليهم بنو سعد ابن بكر، وأوزاع من بنى (هلال)، وقد أقبلوا ومعهم النساء، والولدان، والأموال من النعم والشاة وجاءوا بقضضهم وقضيضهم.

خرج إليهم رسول الله ﷺ بالجيش الذى كان معه لفتح مكة، وانضم إليهم من الطلقاء ألفان فكانت عدته اثنا عشر ألفاً .

ولم يكونوا جميعاً من المؤمنين أمثال الذين قاتلوا فى بدر وأحد، والمغازى الإسلامية التى قاتل فيها المؤمنون، بل كان فىهم المؤلفة قلوبهم الذين دخلوا فى الإسلام وهم حديثو عهد به.

جاءت هوازن مدفوعة بحمية الدفاع عن النفس، وجاء المسلمون ولم يكونوا على قلب رجل واحد، بل كان فىهم من توسوس له نفسه أن يغدر بمحمد ﷺ، وقد بادر أهل الطائف فرشقوا المسلمين ومن معهم بالنبال، وأصلتوا فى الوادى الذى يسمى حنيئا، وجاء النبى ﷺ، وكانت هوازن ومن معها قد كمنّت فى جنبى الوادى وهجمت على المسلمين الذين دخلوا فى بطن الوادى هجمة رجل واحد، واضطرب المسلمون، ولم يعرف أحد أحداً، وبذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت إذ قد تهيأت هوازن ومن معها فى مضايق الوادى وأحنائه.

ورسول الله ﷺ فى ناحية من الأرض قد ثبت، وثبت معه المؤمنون، من المهاجرين والأنصار، وأخذ ينادى المسلمين، ولكن انكفاً بعضهم على بعض، وكما قال الحافظ ابن كثير فى تاريخه: «انحط بهم الوادى فى عماية الصبح، وثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم، وانكفاً الناس متهرين لا يقبل أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس هلم إالىّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، فلا شىء، وركبت الإبل بعضها بعضاً، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: «يا عباس، اصرخ يا معشر الأنصار»، فأجابوه: لبيك لبيك ذهب الأنصار فى هذا المضطرب مجيبين رسول الله ﷺ.

كان رسول الله ﷺ ومعه بعض أهله الأدين، معه عمه العباس، وهو آخذ بلجام دابته، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وابنه جعفر، وعلى بن أبى طالب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، وربيعة بن الحارث، والفضل بن عباس وقثم بن العباس، فهؤلاء عشرة من أقارب رسول الله ﷺ الأدين ومعهم ويرا النبى ﷺ.

كان هؤلاء الثابتون وعلى رأسهم رسول الله ﷺ الذى كان إذا حمى الوطيس أحاطوا به واتقوا حر القتال بالإيواء إليه، والنبى ينادى المؤمنين، والعباس

جهير الصوت يصرخ فى المؤمنين داعيا أهل البيعة التى كان بعدها الهجرة، فلما أحاط بالنبي ﷺ المهاجرون والأنصار من الأوس والخزرج تغير وجه القتال وتجرد أهل الإيمان للمشركين، بعد أن ماز الله الحبيث من الطيب، وانفصل الذين لا يزال فى قلوبهم رجس، أو أسلموا، ولما يؤمنوا.

وهذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا فى معناها؛ لأنه كانت مدة بعد الاضطراب وعادت السكينة، ولبعد ما بين الاضطراب والفرج والسكينة، وقد أنزلها برحمة منه، بعد أخذ النبي ﷺ فى جمع أسبابها، وتلافى أسباب الفشل، واتخاذ أسباب النصر بأن جمع المؤمنين الذين لهم سابقات فى النصر وانحازوا إليه واتخذهم قوة الحق واتقاء الهزيمة. وأضاف سبحانه وتعالى السكينة والاطمئنان إليه سبحانه؛ لأن ما يكون من الله لا يتغير ولا يحول، ولا يتبدل فهى سكينة ثابتة قائمة، تؤتى ثمارها وغايتها.

وقال سبحانه: ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتكرار ﴿عَلَى﴾ للدلالة على أن السكينة عامة ولم تخصص، وتأكيدها بالنسبة للمؤمنين، وعبر سبحانه بالمؤمنين، ولم يقل المسلمين للإشارة إلى أن هذه السكينة كانت خاصة بالذين آمنت قلوبهم، واطمأنت بالإيمان نفوسهم.

وقد أيد الله المؤمنين بالملائكة مبشرة بالنصر القريب، وأن لهم الفوز والغلب، والجنود الذين لم يروهم هم الملائكة الذين ملثوا قلوبهم بالطهر والعزم والصبر، وتلك أدوات الحرب، فالأداة الأولى للحرب الطهر والإيمان والعزم والصبر والتوكل على الله تعالى، وألا يغتر المجاهد بعدة، ولا عدد.

ولقد روى أن رسول الله ﷺ والشديدة شديدة، أخذ حصيات ورمى بها وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا ورب محمد»، ويروى أنه قال: «شاهت الوجوه».

ثم قال تعالى: ﴿وَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عذب الله الذين كفروا في هذه المعركة بأن هزمهم هزيمة، وقد لاح برق الانتصار في أولها، ولكن كان الزعم القاصم الذي صك الأذان صكا عنيفا، وأشد ما يكون على النفس وقعا، أمل النصر، ثم وقع الهزيمة من بعد، وفوق ذلك فقد كان النصر بقتل ذريع داهم مستمر.

ولقد ساقوا أموالهم كلها ليثور حماسهم برؤيتها، فغنمها المسلمون جميعها، فكأنهم ساقوها ليأخذها المسلمون غنيمة باردة، وساقوا نساءهم وأولادهم ليزدادوا حماسة برؤيتهم، فسباهم المسلمون وأذلّوهم بسبيهم فكأنهم كانوا يعدون المائدة للمؤمنين.

هذا هو العذاب الدنيوي، هزيمة وقتل، وإذلال بالسبي، وأخذ الأموال غنائم غير مردودة، وإذا كان السبي قد رفق بهم النبي ﷺ في أمره، فلما قد وزع بين المجاهدين، وأخذ منه المؤلفة قلوبهم ما أخذوا.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (ذلك) الإشارة إلى ما ارتكبوا من تدبير، وأن ذلك رد كيدهم في نحورهم فقد دبّروا وبيستوا، ووضعوا الكمائن، وساقوا أموالهم ونساءهم وذرياتهم فجازاهم الله تعالى ذلك بأن هزمهم، وغنمت أموالهم، وسبيت نساؤهم، وذلك بسبب كفرهم.

ولقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لمن يشاء من عباده عساهم بعد أن رأوا أن أوثانهم لا تضر ولا تنفع، ويعد أن عركتهم الحرب وهزموا فيها، وغنمت أموالهم وصاروا في رحمة محمد ﷺ وهى من رحمة الله تعالى فعساهم يهتدون، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧).

﴿ثُمَّ﴾ هنا للبعد بين كفر عنيف، وتوبة ضارعة راجية، ﴿يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى يرجع على عباده بالتوبة، والإقلاع عن الشرك والرجوع

إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى من بعد بيان أنهم لم يغنهم غرورهم وانهزامهم هزيمة منكرة وسبى نسائهم وأموالهم، وكرم النبي ﷺ فإنه يروى أنهم جاءوا أو جاء كبارؤهم بعد ذلك مستسلمين يريدون سباياهم وأموالهم، وكان النبي ﷺ قد فرق بعض السبايا أو كلها فى المقاتلين من المسلمين.

جاء ناس منهم إلى النبي ﷺ فبايعوه على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبر الناس، وقد سبى أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، وكان السبى يومئذ يعدون بالألوف فقام النبي الكريم الرؤوف برحمة من رب العالمين، فقال: «إن عندى ما ترون، إن خير القول أصدقه: اختاروا إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا.

فقام الرسول بين أصحابه وقال لهم: «إن هؤلاء جاءوا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذرارى والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا، فمن كان عنده شيء وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا وليكن فرضا علينا، حتى نصيب شيئا، فنعطيه مكانه»، قالوا: رضينا وسلمنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنى لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا»، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا^(١).

وهذا الخبر وقبله الآية الكريمة يدل على أمور:

أولها - أن المغرور إذا هزم، وتبين أن غروره لم يجده شيئا، وأنه ضعيف أمام الحق ارعوى، وتغير تفكيره إذ تغيرت حاله من غرور نفسى إلى اقتناع بأن أوهامه باطلة، فيتجه إلى الحق، لقد كان أهل الطوائف من ثقيف وهوازن أشد الناس اغترارا بقوتهم، ومالهم، وكانت فيهم غلظة وجفوة دون غيرهم من العرب فلما عضتهم الحرب فكروا فى أمرهم مسترشدين.

(١) صحيح مسلم: الجهاد والسير - غزوة حنين (١٧٧٥)، عن العباس - رضى الله عنه - عم النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيها - أن الذين اقتنعوا بالحق وأعلنوه منضمين إليه ناس منهم، والكثيرون استمروا في شماسهم حتى أقنعهم إخوانهم^(١).

ثالثها - رفق النبي ﷺ ورغبته في الحرية، لأنه نبي الحرية فأعطاهم سبائهم سمحا كريما.

رابعها - أن الرفق يغير القلوب، ولو كانت قلوب أشد الناس شماسا وغلظة وقسوة، والنبي ﷺ كان أرفق الناس، وبرفقه جذب إلى الإيمان قلوبا غليظة، ﴿... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...﴾ (١٥٩) ﴿[آل عمران]، وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى أنه كثير المغفرة كثير الرحمة سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَبِلُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ

(١) الشَّماس، ويقال: رجلٌ شَمُوسٌ: عَسِرٌ، وهو في عداوته كذلك خلافاً وعسراً على من نازعته، وإنه لذنو شِمَاسٍ شديد. وشَمَسَ لى فلانٌ، إذا أَبْدَى لك عداوته كأنه قد هَمَّ أَنْ يَفْعَلَ. [العين-شمس].

يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ
 اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٥﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
 وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
 مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾

إن البيت الحرام أول بيت بنى للعبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران]، وقد وضعه الله تعالى على يد إبراهيم أبي العرب، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران] وقد مكث آمادا في أيدي المشركين الذين كانوا يعرفون الله، ولكن لا يعبدونه، وجاء محمد ﷺ ليعيدهم إلى التوحيد ملة إبراهيم، فحطم الأوثان. وكان حقا - وقد عاد البيت إلى ملة إبراهيم - أن يمنع منه المشركون، ونريد أن نفسر الشرك هنا بعبادة غير الله، ويدخل في هذا الشرك العام اليهود والنصارى ممن اتخذوا أشخاصا وعبدوهم وسموهم آلهة، ولذا جاء ذكر اليهود والنصارى وراء المشركين بنحلتهم في ادعاء النبوة لعزير، والمسيح، وأن قتالهم كقتال الشرك، واقتلاعه من الجزيرة العربية، حتى لا يبقى فيها إلا عبادة الله سبحانه وتعالى، فتكون أرض التوحيد، كما كانت عندما بنى إبراهيم الكعبة، إذ كانت الوثنية تسيطر فيما حولها، وإبراهيم ينادى بالتوحيد في ربوعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وقرئ بكسر النون وسكون الجيم، وقرئ بفتح النون، وكسر الجيم ك(كَيْدٍ)، وقرئ بفتحهما نَجَسٌ^(١).

والنجاسة هنا نجاسة معنوية لما امتلأت قلوبهم بالشرك، وجوارحهم بعبادة غير الله تعالى، من أحجار وأشخاص، ومن التابعين من قال: إنهم النجاس العين

(١) قراءة (نَجَسٍ) ليست في العشر المتواترة.

كالخنازير، ولكن نجس العين يكون بأصل التكوين والخلق، وهؤلاء لم يخلقوا أنجاساً، ولكن خلقوا على الفطرة حنفاء، ولكن انحرفوا تقليداً لأبائهم، أو اتباعاً لأهوائهم، فكانت النجاسة أمراً عارضاً، وما يكون أمراً عارضاً يكون قابلاً للتغيير إذا رجعوا فلا يكون أمراً ذاتياً كنجاسة الخنازير، ولذا قال الأئمة أصحاب المذاهب: إن النجاسة نجاسة الشرك، فمصافحتهم تحوز، ومبايعتهم على الإيمان تحوز، وغير ذلك من الملامسات الجسدية.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ (الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنهم إذا كانوا أنجاساً بشركهم لا يصح أن يدخلوا المسجد الحرام، و(لا) هنا ناهية داخلية على فعل للغائب؛ فهي دالة على نهى المؤمنين عن أن يدخلوهم المسجد الحرام، وأن يمنعوهم منعاً باتاً قاطعاً، وعبر بالغبية مبالغة في النهي، كأنهم نفذوا، وأخبر عنهم بأنهم لم يدخلوهم، وعبر في النهي بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ بدل (لا يدخلوا) مبالغة في النهي عن الدخول، وللدلالة على أنه يجب تطهير ما حول المسجد من الشرك والمشركون، وإذا كانوا لا يقربون المسجد الحرام، فإنهم بالأولى لا يحجون ولا يعتمرون كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وقد كانوا يتولون سقاية الحجيج، وسدانة البيت، فمنعوا من ذلك ومن كانوا يتولون السقاية والسدانة، ويدهم مفاتيح البيت في الجاهلية بقيت في أيديهم بعد أن أسلموا، فتولوها بصفتهن مسلمين غير مشركين بالله تعالى.

وإن النهي عن دخول المسجد الحرام يدل على حرمة دخوله بالنص، وعلى حرمة دخول غيره من المساجد بالقياس عليه، وبالنص المشير إلى ذلك بقوله: ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (٢٦) رَجُلٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٢٧) [النور].

وإن رفعة المساجد فى الآية الكريمة تومئ إلى ألا يدخلها من يشرك بالله أحجارا أو أشخاصا، أو صافهم تتنافى مع أوصاف الذين يسبحون فيها بالغدو والأصال.

ولقد كان حجيج المشركين من شتى البلاد العربية يوجدون راجا ماديا بين أهل مكة، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (٢٧) [إبراهيم]. فإذا منع المشركون حُرْم سكان مكة، وهم المسلمون بعد الفتح من ذلك الوفد الذى يجىء إليه، ولذا قال تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ العيلة: الفقر إذا حرموا من أرفاق المشركين ومتاجرهم، وقد قدر الله خوفهم من الفقراء، أو قلة المال إذا منع المشركون من الحج وقصد بيت الله الحرام فقال: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ﴾ وعبر للدلالة على أن تقدير الخوف مشكوك فيه منهم؛ لأن الإيمان يجعلهم يطمثون ولا يخافون، ومع ذلك طمأنهم الله تعالى فأكد أنه سيغنيهم الله من فضله إن شاء، ونشير هنا إلى أمرين:

أولهما - أن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (الفاء) فيها فى جواب الشرط، و(سوف) لتأكيد وقوع الإغناء إن شاء الله تعالى فى المستقبل، فالسين وسوف لتأكيد الوقوع فى المستقبل.

ثانيهما - التعبير بقوله تعالى: ﴿مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ فذكر الفضل منسوباً إلى الله تعالى فيه إشارة إلى أنهم لا يرزقونكم بل الرزاق ذو القوة المتين هو الله الذى يرزقكم من فضله، وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ بالتعليق على مشيئته سبحانه وتعالى فيه إشارة إلى: أولا بأن ذلك بمشيئته سبحانه إذا اتخذوا الأسباب، وإن ذلك حسب حكمته؛ يغنيهم إن لم يطغهم الغنى، ويحرمهم إن كان الحرمان يقطع نفوسهم، ويقوى إرادتهم ويعودهم الصبر، والصبر عزيمة الأمور.

ولذا ختم الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فى الجملة تأكيد بالجملة الاسمية، وب(إن) وبتصدير الكلام بلفظ الجلالة الذى تتصف

ذاته الكريمة بكل كمال وجلال، وفي هذا التصدير دلالة على صدق ما وعد، و﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم كل شيء وما تعلمون وما لا تعلمون، و﴿حَكِيمٌ﴾ ويدبر الوجود بمقتضى حكمته.

وقد أنجز الله تعالى ما وعد، فقد أغنى الله تعالى أهل مكة ومن حولهم بالجزية والخراج، وإسلام أهل اليمن، وكان ذلك عقب الفتح، فجاءهم الحجاج بأرفاقهم، مسلمين غير مشركين، وما حرموا من خير كان يجيء إليهم، بل استمر ومعه زيادة وهو يجيء طيباً من أطهار، وأرسل عليه السماء مدراراً، فأثبت الزرع وأثمر الشجر، وأنت الأنعام بالخير.

قلنا في أول تفسير هذه الآية، إن المشركين هنا تعم المشركين الذين يعبدون الأحجار، والذين يعبدون الأشخاص. ولذلك قال تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾.

ذكرنا أن النصارى واليهود، لأنهم عبدوا أشخاصاً وافتروا على الله تعالى - مشركون، وإن سُموا أهل كتاب؛ لأن الله تعالى بعث إليهم رسولين من أولى العزم من الرسل، وأنهم حرفوا تعاليمهم، وكتبهم التي نزلت من عند الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بقتالهم كالمشركين على سواء؛ لأن الشرك يجمعهم وإن اختلفوا عنهم بأن كتاباً جاء بالتوحيد خوطبوا به، فكانت الحجة قائمة عليهم أشد من قيامها على الأميين من المشركين.

ولذا ذكر الله تعالى وصفا موجبا للقتال يجمعهم مع المشركين، فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وكرر لا لتأكيد كفرهم باليوم الآخر؛ لأنهم صدقوا به على انحراف، فاليهود منهم الفريسيون، لا يؤمنون بيوم الآخرة قط، وسائرهم لا يؤمن بالجزء الأخرى،

ويعتقدون أن ما ذكر من عذاب العصاة والمذنبين إنما هو في الدنيا، لا في الآخرة بل إنهم ينكرون الروح ولا يؤمنون إلا بالمادة، فهم ماديون في اعتقادهم من كل الوجوه.

والنصارى لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الحقيقي، فهم يقولون إن الذى يدين الناس به هو المسيح لا الله وحده.

ويعتقدون أنه شريك لله تعالى فى الدنيا على أنه الابن ، وهو بهذا الوصف هو الذى يُدين، فالطائفتان لا تؤمنان بالآخرة ولا تؤمنان بالله حق إيمانه، فهم يشركون بالله فى العبادة أشخاصا، ويستوى من يشرك مع الله حجرا، ومن يشرك مع الله شخصا، فالاثنتان مشركان، وكلاهما يشرك من ليس له مع الله تعالى أمر، ومن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولو كان نبيا مرسلا، كما قال النبى ﷺ وحكى عنه ربه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...﴾ (١٨٨) [الأعراف].

وقال الله تعالى فى تكملة أوصافهم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ لقد حرم عليهم فى التوراة، وهى شريعة لليهود والنصارى أكل الخنزير فأكلوه، وحرم عليهم الربا، فاستحلوه، وحرم عليهم أن يسفكوا دماءهم فسفكوها، وكانوا كالمشركين يحرمون الطيبات ويستحلون الخبائث.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من أوصافهم التمرد على الحق، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، أى لا يدينون دين الإسلام الذى هو الحق فى ذاته، لقيام الأدلة والبراهين والآيات القاطعة المثبتة صحة نبوة محمد، ونزول القرآن الكريم عليه، وعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، بل عجز الناس أجمعين ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وثبت أن هذا الدين هو الحق الخالد الذى نسخ ما قبله من الأديان؛ لأن فيه خلاصتها السباقية، ولو كان موسى بن عمران حيا لآمن به واتبعه، وعندهم العلم به، لأن التوراة والإنجيل قد بشرّا به، ويعرفون رسالة محمد كما يعرفون آبائهم وأبناءهم، ومع ذلك تمردوا ولم يؤمنوا ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

وقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (من) هنا بيانية للذين فى قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وإذا كانت (من) بيانية يكون المؤدى: قاتلوا الذين أوتوا الكتاب، وإنما ذكر الكلام أولا معرفا بأوصاف من يقاتلون، ثم بين بعد ذلك بـ(من)، لبيان هذه الأوصاف الموجبة للكفر والعناد أولا، وبيان تمردهم عن الحق ثانيا، ولأن الإجمال ثم البيان يثبت المعنى فضل تثبيت ثالثا.

فالمقصود قتال أهل الكتاب بعد قتال المشركين، وفلّ شوكتهم، ولقد قال الحافظ ابن كثير فى ذلك:

«هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب على أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذلك فى سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة، فأذعنوا له واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا».

وذلك لأن والى الروم قتل من أسلم من أهل الشام، فكان لابد من تقليم أظفارهم، والكلام فى القتال فى غزوة تبوك سيأتى قريبا، إن شاء الله تعالى.

وإن هذا القتال له نهاية وهو العهد، ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أى عن يد مواتية طائعة راضية، غير ممتنعة، والتعبير باليد إشارة إلى إنهاء القتال الذى يكون بيد باطشة، متجاوزين إلى يد معطية للجزية بالرضا، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، أى كما نقول غير متمردين، قد دخلوا فى طاعة أهل الإيمان فى صغار متقادين مؤتلفين، غير مجاهرين بالعداوة.

وما يعطيه الذمى من المال يسمى جزية؛ لأنها تجزى أى تقضى؛ ولأنها جزاء لأن يدفع الإسلام عنهم، ويكفيهم مئونة القتال، ولأنها جزاء لما ينفق على فقراء أهل الذمة كما كان يفعل الإمام عمر، وكما هو واجب فى ذاته على المؤمنين وإن

المسلمين فى عصر الصحابة كانوا يوفون بعهودهم مع المؤمنين، روى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح، كان أخذ مالا من أهل حمص على أن يدفع عنهم جيش الرومان إن أغاروا عليهم، فلما أصيب جيشه بالطاعون ضعف عن رد غاراتهم، ورد إليهم أموالهم.

والإسلام قام بحق التساوى بين جميع من يكونون فى طاعته، فإن الجزية التى تكون على الذمى تقابل ما يكون على المسلم من تكاليف مالية، فعليه زكاة المال، وعليه صدقات ونذور، وعليه كفارات، وغير ذلك، ولو أحصى كل ما يؤخذ من المسلم لتبين أنه لا يقل عما يؤخذ من جزية إن لم يزد.

وإن الدولة كما ذكرنا تنفق على فقراء أهل الذمة، ولقد روى أن عمر - رضى الله تعالى - عنه وجد شيخا يهوديا يتكفف، فسأله: من أنت يا شيخ؟ قال رجل من أهل الذمة، فقال له: ما أنصفناك أكلنا شيبتك وضيعناك فى شيخوختك، وأجرى عليه رزقا مستمرا من بيت المال، وقال لخدمته: ابحث عن هذا وضربائه، وأجر عليهم رزقا من بيت المال.

والجزية بإجماع الفقهاء تفرض على اليهود والنصارى لنص هذه الآية، وتفرض على المجوس لقول النبى ﷺ: «سوا بهم سنة أهل الكتاب»^(١) ولا تفرض بالإجماع على مشركى العرب، لأنهم يخبرون بين القتل والإسلام، حتى لا يكون فى بلاد العرب دينان.

وقال أبو حنيفة: تفرض على كل مخالف عقد عقد الذمة، سواء أكان وثنيا أم كان مجوسيا أم كان كتابيا، لا فرق؛ لأن الكفر كله ملة واحدة، وأكثر المالكية على هذا رأى، وقال الشافعى: لا تفرض الجزية إلا على اليهود والنصارى والمجوس لورود النصوص.

(١) مالك فى الموطأ: الزكاة - جزية أهل الكتاب والمجوس (٦١٧). عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه. ورواه البخارى: الجزية - الجزية والمواذعة مع أهل الحرب (٣١٥٧).

ومقدار الجزية على حسب الاتفاق فى الأمان، والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

«عزير» هذا كاهن من كهنة اليهود ظهر بعد أن دك أرضهم وشتت شملهم «بختنصر» وهو رأس القوم الأشداء الذين جاسوا خلال الديار، والذين قال الله تعالى فيهم وفى بنى إسرائيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء].

وقد قال القرطبى فى تفسيره: إنهم لم يكونوا جميعا يذكرون أنه ابن الله، ولكن شاع القول بينهم بأنه ابن الله فى عصره، ولم يستنكروه، فكان القول، كان قولهم أو على الأقل قول مجموعهم، وقال إنه لا يوجد يهودى يقول ذلك فى عصره، ولكن الزمخشري يقول فى الكشف: «الدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم، فما أنكروا وما كذبوا، مع تهالكهم على التكذيب».

ولقد روى السدى كلاما يقارب ما جاء فى التوراة، لقد قال الحافظ ابن كثير: «ذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك «أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزيز يبكى على بنى إسرائيل، وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هم ذات يوم، إذ مر على جبانة وإذا امرأه تبكى عند قبر، وهى تقول: وامطعماه، واكاسياه، فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله، قال: فإن الله حى لا يموت، قالت: يا عزيز، فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل؟ قال: الله؟ قالت: فلم تبكى عليهم؟، فعلم أنه شئ وعظ به، ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغسل فيه، وصل هناك فإنك ستلقى هناك شيخا، فما أطعمك فكله، فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ قال: افتح فمك، ففتح فمه، فألقى فيه شيئا كهية الجمرة

العظيمة ثلاث مرات، فرجع عزيز، وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة، فقالوا: يا عزيز ما كنت كذابا، فعمد وربط على إصبع من أصابعه وكتب التوراة بإصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء وأخبروا بشأن عزيز فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوه بها فوجدوا ما جاء به صحيحا، فقال بعض جهلهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وقد جاء في شأن عزيز كلاما يشبه هذا في الإصحاح الثامن والتاسع، والعاشر، وإن لم يصرح فيه بأنه الله، ولعل ذلك مما جرى فيه التغيير، على أن نقول إنه باطل محرف وغير محرف.

والنصارى قالوا المسيح ابن الله، قاله بولس، وهو أول من ادعى ألوهية المسيح، ولكنه لم يقله أحد من الحواريين أصحاب الرسول 'إلا ما قال يوحنا في إنجيل منسوب إليه، وقد كذبت دائرة المعارف الإنجليزية، وقالت إن الذى كتبه فى القرن الثالث تلميذ من تلاميذ الأفلاطونية الحديثة.

واستمر سائدا بين المسيحيين أن المسيح ليس إلها ولا ابن إله، حتى جاء مجمع «نيقية» سنة ٣٢٥ فقرر ٣١٨ أسقفا من ٢٠٤٨ ألوهية المسيح، وفرض ذلك فرضا على المسيحيين، وبذلك كان التغيير الذى ذكره القرآن ثم كان من بعد ذلك مجمع كهذا المجمع قرر ألوهية روح القدس، فكانوا ثلاثة، ولا شك أن ذلك كفر بل إشراك.

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى أن ذلك القول قول تردده أفواههم بألسنتهم، ولا يدركون له حقيقة يتصورونها، فهم يرددون: الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، وإذا سألتهم عن مميزات كل واحد، وكيف يجتمعون، لم يحيروا جوابا إلا أن يقولوا هذه غيبات يصدقها العقل الدينى، ولا يصدقها العقل والمنطق، ويقولون الآن كما قال بعضهم فى القرن الرابع المسيحى: إنها صفات ثلاث للإله، ولو سألتهم هل المسيح الذى ولدته مريم من غير أب صفة، وليس ذاتا كانت قمشى فى

الأسواق، وتعظ، وقتله - فى زعمهم - الرومان وصلبوه، وجعلتم الصليب، قالوا: إن اللاهوت دخل الناسوت، أو ولد اللاهوت والناسوت، ولم يستطيعوا أن يصوروا ما يقولون تصويراً تدركه العقول.

ومما يجب ذكره أنهم فى الزوبعة التى أثارها قسطنطين الرومانى الوثنى الذى حول النصرانية إلى وثنية عندما أراد دخولها، وذلك فى مجمع نيقية آنف الذكر - وجد الأكثرون من بينهم يستنكرون الألوهية، ولكن ما زالوا يعذبونهم، ويطردونهم، حتى وسدوا فكرة الألوهية توسيداً.

ومن أعلن معارضتهم نسطورس الذى أقر بالبنوة التى ادعاها بولس، ولكنه قال إنها بنوة محبة ثم سادت بعد بين أتباع «نيتشة» عندما ساد التثليث فكرة الثلاثة سموها صفات، وجاء بعض المسيحيين فى هذه الأيام لما أحسوا باستنكار العقول لعقيدتهم الباطلة، واستحسن كلمة الصفات وهى الأخرى غير معقولة، فذات المسيح المصلوب فى زعمهم الذى ولد وعاش وقتل ودفن ثم قام من قبره لا يمكن أن تكون صفة، إذ الصفة غير الذات.

وإن هذا التثليث هو بذاته اعتقاد الأفلاطونية الحديثة، اختاره قسطنطين، ومن تبعه ديناً لهم^(١).

وما أبلغ قوله تعالى فى تصوير حالهم، إذ يقول: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، فهو ليس إلا ألفاظاً تردد من غير تصور لمعناها، ويلقنونها لمن يدعونهم إليها، ويستعينون بطرق الاستهواء المختلفة، والخمر، ليودعوها عقولاً ضالة بهم.

وقال تعالى: ﴿يُضَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يضاهتون أى يشابهون قول الذين كفروا، وذكر الله تعالى الذين كفروا ولم يبين من هم فقليل المشركون، ولا شك أن وصف الذين كفروا ينطبق عليهم، وهم يشابهونهم فى أنهم أشركوا فى العبادة غير الله، كما أشرك أولئك الأوثان، وإنى أقول إن المشابهة ليست بعيدة

(١) راجع «محاضرات فى النصرانية» للإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى.

الأركان بل ثابتة القرب واضحة، ويدخل معهم أيضا عبدة الأوثان من غير العرب أيضا، وهم البرهمية والبوذية، فهم قالوا إن للإله ابنا، فالبراهمة قالوا إن كرشنه ابن لبراهما، وقال البوذيون: إن بوذا ابن للإله، كما قال النصارى، ويظهر أن موجة من ادعاء البنوة كانت سائدة في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح أخذت منها وثنية النصارى في القرن الرابع مع الأفلاطونية الحديثة عقيدتها الباطلة، ولعل الأفلاطونية الحديثة ذاتها قد أخذت من الهنود، فقد ثبت أن كبيرها ذهب إلى الهند، وعاد بعقيدته^(١).

﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾، قيل إنها كلمة تعجب كانت تجرى على ألسنة العرب، وقيل إنها للعن مع التعجب، وقد خطر لى أن تكون من القتال، أى أنهم بهذا الإفك الذى لا يعلمون، قد أعلنوا حربا على الله يقاتلهم وسيكون له النصر عليهم، ثم قال تعالت كلماته: ﴿أَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ أى كيف يصدفون عن الحق إلى الضلال الذى لا يفهمونه ولم يفهموه ولم يعقلوه.

وإن دخول هذه العقيدة التى لم يفهموها، وهى فى ذاتها غير قابلة للفهم أنهم يأخذون دينهم من رجال ويتلقونه من غير إدراك، ولا تفهم، فأضلهم أولا بولس، وأضلهم ثانيا الأساقفة الـ ٣١٨ فى مجمع نيقية وأضلهم من جاءوا بعد ذلك، ولذا قال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾.

الأحبار جمع حبر بالكسر، ويقال بالفتح، وهو العالم الذى يحسن القول، ويخبره، ويتقنه، وله فصاحة وبيان حسن، والرهبان جمع راهب، وهو الذى ينصرف إلى العبادة فى زعمهم، وهو من الرهبة بمعنى الخوف من المعبود، والله تعالى ذكر الرهبة - لما فيها من الخوف، والرهبة من المعبود - بغير الذم، وإن كانت

(١) راجع «محاضرات فى النصرانية»، ورسالة «مقارنة الأديان» للشيخ محمد أبى زهرة - دار الفكر العربى.

مبتدعة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد].

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾، أى جعلوهم أربابا، وفسر النبي ﷺ كونهم أربابا، لا بأنهم عبدوهم، ولكن اتخذوا الدين منهم لا من كتابهم، فما يحلونه حلال، وما يحرمونه حرام، ولو كانوا يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله.

روى الترمذى عن عدى بن حاتم الطائى أنه أتى الرسول ﷺ وفى عنقه صليب من ذهب فقال له: «ما هذا يا عدى اطرح عنك هذا الوثن، ويقول حاتم: وسمعتة يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ثم قال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه»^(١) فهم يأخذون عن هؤلاء، وقد كان ذلك سببا لضلالهم، فأحلوا لهم الخنزير وشرب الخمر، وملأوا رءوسهم بالأوهام، وابتدعوا ابتداء ما سموه بالعشاء الربانى الذى يكون فيه خبز وخمر، فأوهموهم أن الخبز جسد المسيح، والخمر دمه، فأباحوه فى هذا العشاء.

وإذا كان علم الدين لم يؤخذ إلا منهم فقد أضلوهم ضلالا بعيدا، إذ لم يأخذوا الدين إلا منهم، وتفسير الكتب إلا منهم، وبذلك تركوا دينهم، وتعاليم المسيح إلا منهم فزوروها، ووضعوا الزيف بدل الحياض منها ﴿وَالْمَسِيحَ﴾، وهو معطوف على الأحبار، وقدم قوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ على ﴿وَالْمَسِيحَ﴾، للإشارة إلى أنهم اتخذوه بمرتبة من الربوبية التى نحلوها له غير ما اتخذوه من أربابهم.

(١) الترمذى: تفسير القرآن- ومن سورة التوبة (٣٠٩٥).

فما نحلوه له من ربوبية كان عبادة له فكانوا بذلك مشركين، وما اتخذوا من أحبارهم من ربوبية، فهي أنهم قد أخذوا التعاليم منهم، فحرموا من عند أنفسهم، واستباحوا من عند أنفسهم، فمثلا لم يكن في الإنجيل منع من تعدد الزوجات، ولكن الكنيسة بأحبارها ورهبانها منعه، وكانوا يبيعونه على حسب أهوائهم، كما أباحوه لنابليون، والتوراة فيها الإباحة من غير عدد.

ولو كانت آخرت كلمة ﴿أَرِبَابًا﴾ عن ﴿الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لكان المعنى أن الربوبية التي اتخذوها واحدة، مع أن ربوبيتهم للمسيح عبادة، وربوبية الأحبار أخذ للتعاليم، وذكر الله تعالى أمه فقال: ﴿الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ للإشارة إلى كونه إنسانًا، ولد كما ولد غيره، وإن كان من غير أب.

﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الضمير في أمروا يحتمل أن يعود إلى النصارى، وهو الظاهر، والمعنى أنهم جعلوا المسيح إلها يعبد، ولما أقروا بحكم ما أنزل على موسى وعيسى وحكم إلههما تقدست ذاته وتزهت عن أن يكون له شريك، ويحتمل أن يعود على الأرباب وهو غير الظاهر، ويكون المعنى أن الأحبار والرهبان قبل أن يكونوا أربابا، أو أن يُتخذوا أربابا، هم أنفسهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا.

قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(هو) تعود على الله تعالى، فهو حاضر في كل نفس، وهو عائد على الله الذى أمروا بعبادته، فقلوه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لمعنى ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فيها تصريح بالالوهية له وحده، سبحانه وتعالى عما يشركونه من عبادة المسيح ابن مريم.

وبهذا يتبين أن من يعبد المسيح مشرك مع المشركين، وكونهم أهل كتاب يضاعف الحجة عليهم.

ثم قال تعالى فيما وصل إليهم الأحبار والرهبان من مفسد بعد أن أباحوا لأنفسهم أن يحلوا ما شاءوا وأن يحرموا ما شاء بلا رقيب ولا حسيب، فقال سبحانه وتعالى في أعمالهم التي يريدون بها إطفاء نور الحق:

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلًّا
أَنْ يَسْمُ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

إن المشركين واليهود والنصارى بالتمويهات الباطلة التي لا تدركها العقول المستقيمة، وهم ينطقونها بأفواههم ولا تتصورها عقولهم؛ لأنها غير قابلة للتصور، هؤلاء يريدون أن يطفئوا نور الله، وهو الحقائق الثابتة الدالة على أن الله خالق السموات والأرض ومن فيهن، والحق الذي جاء به محمد ﷺ والمعجزة الكبرى وهي القرآن الكريم، والهدى العظيم، يريدون بهذه الأوهام أن يطفئوا ذلك النور.

وقد شبه الله تعالى محاولاتهم وتضليلهم بحال من يحاول إطفاء الشمس في علاها، والقمر في بزوغه، فمن يحاول طمس الحقائق الظاهرة ضال مبطل في محاولاته كمن يحاول إطفاء الشمس.

وأضاف النور إلى الله تعالى تشريفا لهذه الحقائق، وتنويها بشأنها؛ لأنها مضافة إلى العلى القدير، نور هذا الوجود، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور].

أولئك من مشركين وكتابين يريدون إطفاء نور الله، فهم يعاندون الله، والله تعالى غالب عليهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾، في مقابلة ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾، هم يريدون والله تعالى يأبى عليهم، ويأبى عليهم كل أهوائهم، وعلى ذلك فمعنى (يأبى) لا يريد الله، والاستثناء حيثذ مفرغ، والاستثناء المفرغ لا يكون إلا في حال النفي، مثل لا يقوم إلا أحمد، ولا يهدى إلا محمد، ولا معجز إلا القرآن.

فكيف يكون قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ استثناء مفرغاً، ونقول إن (يأبى) متضمنة معنى (لا يريد)، في مقابل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ﴾، فهم يريدون الإطفاء والله لا يريد إلا أن يتم نوره، ويعم الوجود الإنساني، وإرادة الله هي النافذة، لأن إرادتهم ظلمة، والنور كاشف الظلمة، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لأن ستر الحقائق والتسوية والتضليل لا يدوم مهما بطل الزمان، وقد أيد الله دعوة الحق بإرسال محمد يكشف به الظلمات، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢٣).

الضمير يعود على لفظ الذي يأبى إلا أن يتم نوره، وكان من إتمام نوره إرسال محمد ﷺ الذي أبطل الشرك وأبطل مقالة أهل الكتاب التي ليس لها من الحق سلطان تقوم عليه.

قال تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الهدى هو القرآن، وهو ما جاء به النبي ﷺ من هداية. أخرجت العرب من الظلمات، والقرآن فيه الهدى الكامل كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ...﴾ (١٨٥) [البقرة].

و(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ للمصاحبة أى مصاحبا للهدى أى معه المعجزة الباهرة، والهداية الكاملة.

وأضاف الرسول إليه سبحانه في قوله: ﴿رَسُولُهُ﴾ تنويهاً بشأنه، وتشريفاً وتكريماً، وللإشارة إلى أنه ناصره ومؤيده وقاهر عدوه مهما يكونوا.

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ اللام للتعليل أو للعاقبة، وعلى أنها للتعليل يكون المعنى أنه أرسله ليظهره على الدين، فالإرسال وكونه رسوله علة للإظهار، أو للعاقبة، ويكون لتكون عاقبة الإرسال أن يظهره على الدين كله.

ودين الحق هو التوحيد، والإضافة لليبان، أى الدين الحق، والإضافة تدل على أنه الدين الحق الذى هو لباب الأديان الحق كلها، ولذا قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (١٣) [الشورى]، وهو التوحيد.

وقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الدين كله قالوا إن المراد على الأديان كلها، ولكننا نرى أن المراد الدين الحق الذى ذكره أولاً؛ لأن إعادة المعرفة معرفة تكون عينها، ومعنى ظهوره على الدين كله المراد بقاؤه ظاهراً معروفاً؛ لأنه خاتم الرسل وآخرهم، ويتضمن كل ما جاءت به الرسل جميعاً، وهذا هو معنى «كله» فهو الدين الجامع لكل الرسالات السابقة، فمن آمن بها فقد آمن بكل الشرائع السماوية السابقة سليمة غير محرفة.

هذا ما نختاره والله الموفق للصواب.

وقد جاءت أخبار كثيرة تدل على انتشار الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وإنها لصداقة (راجع تفسير الحافظ ابن كثير)، وفى هذه الأخبار الصحاح إشارة إلى أن الأمراء هم الذين يفسدون أمر المسلمين، فقد جاء فى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه: «سمعت شقيق بن حبان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول: صلى هذا الحى من محارب الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»^(١) صدق رسول الله

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار - أحاديث رجال من أصحاب رسول الله ﷺ (٢٢٥٩٩).

ﷺ فحكّام المسلمين هم الذين أفسدوا الناس وكانوا حجة على هذا الدين، ومهما يكن فإن الله أظهر الدين على الدين كله، وقال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الذين عادوا الله وعادوا الحق، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

وإن الله تعالى حافظ دينه، وإذا كان المسلمون قد غلبوا على أمرهم بعمل حكامهم، فإنه لا تزال طائفة منهم قائمة على الحق تنادى به وتحفظه. بعد أن بين الله الضلال الذي أضل به الأحرار والرهبان اليهود والنصارى إذ اتخذوا أرباباً من دون الله، وذكر أن محمداً ﷺ قد أرسل بالهدى والدين الحق ليزيل ضلالهم، وليظهر بالحق على الدين عاد إلى الكلام في الأحرار وكيف فسدوا وأفسدوا، فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ
أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُخَمَّى
عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَيُظْهِرُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٢٥﴾

الخطاب للذين آمنوا والنداء لهم بالبعد، والخبر عن أحبار اليهود ورهبان النصارى، فلماذا كان الإخبار للذين آمنوا؟، مجرد القصص الحكيم الذي تكون فيه العبرة أم له ولأمر آخر يطويه الإخبار بقول إن القصص لا ريب فيه العبرة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾ (يوسف)، ولكنه يطوى أمرين آخرين، وهما..

أولاً: ألا يثق المؤمنون بهم بما يلبسونه من طقوس، ومسوح يلقون بها بين الناس المهابة منهم والثقة فيبين الله للمؤمنين أنهم يتجرون بعلمهم، ويأخذون الرشا وسحت المال، والاتجار بالعلم في ذاته غير جائز، فكيف إذا كان الثمن رشا وبراطيل وسحت المال.

وثانياً: ليكون ذلك تحذيراً لمن يتعلمون علم الإسلام بألا يتخذوه مُتَجَرِّاً يتجرون به، فعلم الإسلام أعلى ما يدخره العلماء فلا يبيعونه ولا يحطون به على هوى الحكام، ولقد قال في ذلك الحافظ ابن كثير: «والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان الثوري: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى... والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم، ويقول في ذلك الفقيه عبد الله بن المبارك:

«وهل أفسد الدين إلا الملوك وأخبار سوء ورهبانها»

﴿لِيَأْكُلُوا مَوَالِ النَّاسِ﴾ معناها يأخذونها بغير مسوغ ديني، وعبر عن الأخذ بالأكل لأن الأكل في الأصل هو أوضح الغايات، ولأنه ينبئ عن الشره والطمع في الأموال وأخذها بغير حق، وذلك أنهم كانوا يأخذون سحت الأموال، ويبيعون ما يحلون لأنفسهم من الدين، ويأخذون البراطيل، وكلما زادت ثقة الناس فيهم ازدادوا طمعاً في أموالهم، بل فيما هو أفحش من باطل الأموال، وبعد أن ضعف الدين في قلوب علمائنا كان منهم من يفعل مثل فعلهم، ويقول في ذلك ابن كثير: «وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم، ورياستهم في الناس يأكلون بها أموالهم، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تحيى إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها».

وإن نور النبوة المحمدية بعد أن بزغ، وعم ضياؤه كان مزيلاً لما يشيعه الأخبار والقيسون من إفساد وضلال، ولذلك لما فتك النصارى بالمسلمين في

الحروب الصليبية كان بعده الإصلاح المسيحى، مع أن حال المسلمين لم تكن كما أراد لها الإسلام.

كلمة (والأخبار) فسرناها من قبل بالعلماء الذين يحبرون العلم، ويزينونه بحسن الأداء والبيان واللسان والقلم، ولكن بعض المفسرين يفسرون الأخبار بأنهم علماء اليهود، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ...﴾ [المائدة ٦٣] وأما علماء النصارى فيقال عنهم قسيسون، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة ٨٢] والرهبان عباد النصارى ولعلمهم يقابلون الرهبانيين فى اليهودية ولا مانع من هذه التسمية، ولعل إطلاق الأخبار ربما يسع القسيسين ليكون سيرا على الأصل اللغوى من معنى كلمة الأخبار.

وعبر سبحانه وتعالى عن كل كسب خيىث بقوله تعالى: ﴿بِالْبَاطِلِ﴾؛ لأن الباطل يشمل أخذ المال بغير حق، يسرر الأخذ بالخدعة أو بالغش والتدليس والاتجار بدين الله تعالى.

ومع أنهم كانوا يخدعون الناس بتدينهم الآف، وخصوصا الرهبان كانوا يصدون عن سبيل الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكانهم يتخذون مسوحهم ورياستهم الدينية، لابتزاز الأموال، وأخذها بغير حقها، والعبث بها، واكتنازها متخذين فى ذلك مظاهرم ذريعة لمآثمهم، يصدون ويمنعون أتباعهم الذين اتخذوهم فرسة لأهوائهم من أن يتبعوا الحق، والنور الذى جاء به محمد ﷺ، وهو سبيل الله الحق الذى لا يمترى فيه عاقل، ولا ذو قلب، وبصر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ [الأنعام ١٥٣].

وإن الأموال التى يأخذونها يجمعونها، ويكثرونها، ومآواهم جهنم، ولذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾.

وهذا النص الكريم يبين أن جمع المال لا يجدى، ويضر صاحبه، ومآله شر في الدنيا والآخرة، والكنز في اللغة: الضم والجمع لكل شيء ثمين سواء دفن في باطن الأرض، أو لم يدفن، ولكن شاع استعماله فيما يدفن في باطن الأرض، ولكن شيوعه لا يمنع أصل إطلاقه، ولا يمنع الشيوع من أن يطلق على الأصل اللغوي القوى، ولقد قال شيخ المفسرين الطبري: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها.

وظاهر الآية يدل على أنها عامة تعم الأحرار والرهبان وغيرهم من المسلمين وغيرهم، ولكنها سبقت في مقام الكلام على أكل الرهبان والأحرار لأموال الناس بالباطل، ولا يمنع ذلك من عموم؛ لأن لفظها عام، والعبرة بعموم اللفظ، وقد جرت مناقشة في ذلك بين أبي ذر الصحابي الجليل، ومعاوية بن أبي سفيان، ولندكر بعضها:

قال الحافظ ابن كثير: «كان من مذهب أبي ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتى بذلك، ويحث الناس عليه ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه».

كان الصحابي الطاهر المؤمن يعيش في الشام، والأمير معاوية، وأبو ذر يجهر برأيه ويحث الناس عليه ويستنكر النعيم الذي يرقل فيه معاوية، ومن يواليه، فأبلغ أمره إلى أمير المؤمنين عثمان ذى النورين، فأحضر أبا ذر، فاختر أبو ذر أن يقيم بالريذة، ولكن الراجح من الروايات أن عثمان هو الذى أنزله بها، وبها مات رضى الله عنه.

وقد روى البخارى عن زيد بن وهب: مررت بالريذة، فإذا بأبى ذر فقلت: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقلت: نزلت فينا

وفيهم، فكان بينى وبينه فى ذلك، فكتب إلى عثمان يشكونى فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثر على الناس كأنهم لم يرونى قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت فسكنت قريباً، فقال: فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل، ولو أمر على عبد حبشى لسمعت وأطعت.

وإن هذا الحديث يدل على أنه اختار هذا البعد، وربما يكون قد اختار الريدة بالذات.

وفى المناقشة بينه وبين معاوية أغلظ، وقد أراد معاوية أن يغويه بالمال أو يختبره وهو عنده، أيوافق قوله عمله أم لا، فبعث إليه بألف دينار، ففرقها على الفقراء من يومه، ثم بعث إليه الذى أتاه بها، فقال: إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب، فقال: ويحك إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالى حاسبتك. وفى الحق أن أبا ذر قد أصاب كل الإصابة فى قوله: إن الآية تعم الأحرار والرهبان وأتباع محمد ﷺ وأخطأ معاوية، وما لمعاوية وفقه القرآن!

ويحق إذن أن نقول أن الآية عامة لا تخص الأحرار والرهبان، ولا نسير إلى المدى الذى يسير إليه سيدنا أبو ذر الصحابى المخلص بحيث لا يبيح لذى المال إلا ما يكفيه وعياله كما كان يفعل فى ذات نفسه، ويدعو إليه. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه كان مع أبى ذر، فخرج عطاؤه، ومعه جارية، فجعلت تقضى حوائجه، فقضت منها سبعة، فقلت: لو ادخرت لحاجة بيوتك، وللضيف ينزل بك، فقال: إن خليلى أوصانى أن أئما ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله إفراغا.

ولقد قال ابن عبد البر: «وردت عن أبى ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش فهو كثر يذم فاعله، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة».

ونحن نتبع جمهور الصحابة؛ وذلك لأنه إذا لم يبق شيء من المال بعد نفقاته ونفقات عياله لم يكن ثمة زكاة، لعدم وجود وعاء لها، فشرعية الزكاة توجب مالا مدخرا حولا، وذلك ينافي ما ذهب إليه أبو ذر رضى الله عنه.

وأیضا فإن الأخذ برأى الصحابى الجلیل ينافى الميراث؛ لأن الميراث يكون فى المال الذى يبقى، وقد منع الصحابى الجلیل بقاء أى مال يورث أو تحب فيه الزكاة.

وأیضا فإن معنى رأيه إلغاء الوصية مع الميراث، وقد شرعت الوصية بالقرآن، وبالحديث النبوى، فقد روى أن النبى ﷺ قد قال: «إن الله تصدق عليكم فى آخر أعماركم بثلاث مالهكم فضعوه حيث شئتم»^(١).

ولقد كان من الصحابة من لهم ثروات فى عصر النبى ﷺ فما استنكرها عليهم، فعثمان كان ثريا وتاجرا، وعبد الرحمن بن عوف كان ثريا وتاجرا، وأبو بكر وعمر كانا من ذوى الأموال.

وإنه لو أخذ برأى أبى ذر ما كانت التجارات، فأسواقها تقوم على رهوس الأموال، وما كانت الصناعات، فهى أيضا تقوم على رهوس الأموال.

من أجل هذا كان لابد من تخصيص كنز الذهب والفضة الذى أوعده الله تعالى، وقد خصصوه من ذات النص القرآنى فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الوعيد على الأمرين مجتمعين لا على أمر واحد منهما. فليس الوعيد على الكنز لذات الكنز، وإنما الوعيد على الأمرين معا، على الكنز وعدم الإنفاق فى سبيل الله تعالى، فإذا وجدا معا كان التبشير بالعذاب الأليم، وكان الوعيد الشديد لمن يمنع الإنفاق مع أنه يكثر المال، ولذا تضاربت الروايات على أن من يعطى الزكاة لا يكون عليه إثم الكانزين، بل إنه لا يعد كائنا من يخرج حقه فى سبيل الله، وإنما الكائز هو الجامع للمال الذى يمنع حقه.



وقد ورد ذلك عن النبي ﷺ، بأن الإنفاق يمنع إثم الكاثر الذي يجمع المال، وإنما ورد في الأثر الصحيح: «نعم المال الصالح في يد العبد الصالح»^(١).

ويجب أن نشير هنا إلى أن الآية تشير إلى أن المال لا يكثر من الذهب والفضة، بل يجب أن يخرج للاستغلال الحلال بالتجارة، والصناعة، والزراعة، ولا يبقى في الخزائن، كالماء العطن الذي لا يتففع به، وفي الآية إشارات بيانية:

منها - قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ فإن في الآية تهكما عليهم؛ لأن العذاب الأليم لا يبشر به، بل يهدد به، وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ تهكم بهم، إذ إنهم كانوا يرتقبون خيرا في الآخرة من تكاثرهم في المال واكتنازه فجاءت العقبي غير ما يرتقبون.

ومنها - أن الضمير أعيد على الذهب والفضة بضمير المؤنث في قوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لملاحظة المعنى وهو الدنانير من الذهب، والدراهم من الفضة، وهي جمع، فأعيد عليها بضمير المؤنث، وهو لما لا يعقل يكون بالضمير المؤنث.

والثالثة - أنه ذكر الكثر في الذهب والفضة دون غيرهما مع أن الأموال كثيرة، وكان المال يطلق على النعم دون غيرها، وأجيب عنها بأن الذهب والفضة تطلق على كل المال، وهما مقياس التقدير لكل الأموال، وقد قال في ذلك الزمخشري: إنهما قانون التمول وأثمان الأشياء، ولا يكثرهما إلا من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكثرهما، لم يعد سائر أجناس المال، فكان ذكر كثرهما دليلا على ما سواهما.

(١) عن عمرو بن العاص يقول: بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ ثُمَّ أَتْنِي» فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِي النَّظَرِ ثُمَّ طَاطَأَهُ فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ، وَيُعْظِمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً» قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو نِعَمَ الْمَالِ الصَّالِحُ لِلْعَمْرِ الصَّالِحِ». رواه أحمد: مسند الشاميين - حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه (١٧٣٠٩).

هذا معنى الآية الكريمة فيما يظهر لنا، ويجب أن ننبه إلى أنه لا يصح النهي في المال إلا للقيام بمصلحة عامة، ولا يصح أن يكون المال مطلباً ذاتياً، وغرضاً مقصوداً لذاته لا للتمكن من النعم، فإنه حيثئذ يلهي عن المقاصد السامية، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ﴾ [التكاثر: (١)]، ولأنه يصير عبداً للمال، لا سيداً متصرفاً، والنبي ﷺ يقول: «تعس عبد الدرهم» - وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «تبا للذهب تبا للفضة» قالها ثلاثاً فقالوا له: أى مال نتخذ: قال: «لسانا ذاكراً وقلبا خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه»^(٢) وقال ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها»^(٣).

ذكر الله عذاب يوم القيامة لمن كنز الذهب والفضة من غير إنفاق:

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [٣٥].

﴿يَوْمَ﴾ تتعلق بقوله: ﴿بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾، أى ذلك الإيلام الشديد، يوم يحمى عليها أى يوقد عليها، والضمير يعود إلى الذهب والفضة كما يعود ضمير ينفقونها إليها على التخريج الذى ذكرنا آنفاً، ولهذا النص تصوير لحال الأشعة الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبل الخير، ولا يؤدون ما تعلق بها من نفقات على العيال، والفقراء، فلا يعطون المال على حبه مسكيناً يتيماً وأسيراً، ويعيشون لأنفسهم، لا يتجاوزونها إلى غيرهم من الفقراء والمحاييج والمجاهدين والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله.

و﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أى يوقد عليها فتكون كمقامع تكوى بها وجوههم، وجنوبهم وظهورهم، وذكرت هذه الأعضاء لأنها تعم الجسم كله، وابتدأ بالوجوه

(١) جزء من حديث رواه البخارى: الجهاد والسير - الحراسة والغزو فى سبيل الله عن أبى هريرة رضى الله عنه (٢٨٨٧).

(٢) رواه أحمد فى مسنده: باقى مسند الأنصار - حديث رجال من أصحاب النبى ﷺ (٢٢٥٩١).

(٣) رواه أحمد: مسند الأنصار - حديث أبى ذر رضى الله عنهم (٢٠٩٦٩). قلت: وقد نوّه الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى إلى مراجعة الكشاف عند هذا الموضع.

لأنها بها المواجهة، وبها تتميز الأشخاص؛ ولأنهم يطلبون بكنز المال الواجهة في الدنيا، والشأن فيها، ولأنهم بالكثرة يصونون ماء وجوههم، كما قال الزمخشري «أن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل الطيبات يتضلعون منها، وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب، يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم لا يخطر على بالهم قول رسول الله ﷺ «ذهب أهل الدثور بالأجور». وقيل لأنهم كانوا إذا بصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه، وتولوا بأركانهم، وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقاديمهم، ومآخيرهم وجنوبهم» اهـ.

هذه مقالة الزمخشري، ونرى الأقوال التي ذكرها كلها صادقة، فهم ينتفعون بالأموال مفاخرين بها مباهين مستعلين يملثون بطونهم منها، ويلبسون الدمقس والحريز، ويعبسون للفقراء، ويهشون للأغنياء، ويوم القيامة تحيط بهم النار من الجهات الأربع، بحيث لا ينفلتون عنها، ويكونون بها في كل أجزاء جسمهم، ولا يجدون للفرار منها سبيلا.

﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ هذه النار الموقدة من تنوركم هي ما كنزتموه أي عاقبته ومآله، أو ذاته، فذوقوا ما كنتم تكنزون، أي وبال ما كنتم تكنزونه، أو ذوقوه موقدا للنار.

هذا خبر الله تعالى عن الكنوز وأصحابها يوم القيامة، وما يتعلق باليوم الآخر نقبله كما هو، ويصح أن نقول إنه تصوير لحالهم تسبيه عاقبة أمرهم بمن يكونون بذهبهم وفضتهم، والله عليم خبير.

قد ابتدأ في سورة براءة بذكر الأشهر الحرم ومنع القتال فيها ثم تكلمت على عهد المشركين وعمارة المسجد الحرام، وعلى منع المشركين من المسجد الحرام وبيان شرك أهل الكتاب، وعبت الأخبار والرهبان بمداركهم.

ومن بعد كان الجهاد، وقدم الله تعالى بيان الأشهر الحرم حرامها وحلالها، فقال تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٧﴾
إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
فِيهِ لَوْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٨﴾

إن الله تعالى وقت العبادات غير الصلاة بشهور من السنة، فرمضان شهر القرآن، وشهر الصيام، وذو الحجة شهر الحج لأن فيها يوم عرفات، والحج له أشهر معلومات كما قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ... ﴾ (١٩٧) [البقرة]، وهذه الأشهر هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وجعلت الأشهر بالأهلة، تبتدئ برؤية الهلال وتنتهي برويته، كما قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... ﴾ (١٨٩) [البقرة] وقال تعالى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (٢٩) [يس]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ (١٢) [الإسراء] وجعلت الأهلة علامة الشهور ابتداء وانتهاء، أو هي الشهور لأمرين:

أولهما - أن يعلم ابتداء الشهر بالحس لا بالتقدير والحساب المجرد؛ فإن الأشهر الشمسية لا تعرف إلا بالحساب.

ثانيهما - ألا تتغير السنة بالزيادة والنقصان فتكون (كبيسة) فتراد، أو (بسيطة) فلا تزداد، وإنها تتفق مع طبائع الناس.

وبذلك لا تتغير أوقات العبادات، ولا تختلف، وجعلها الله تعالى اثني عشر شهراً، وقد ثبت كل شهر في موضعه ذاته لا يفترق عنه، وقلنا: إن طبائع الناس تسير مع الأشهر العربية فثبت أن الحيض والحمل يتبعان الأشهر القمرية.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ و﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ معناها في حكمه وتقديره سبحانه وتعالى، وعلينا أن نهتدى بما هدانا إليه، وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أى فيما كتبه علينا من أحكام متعلقة بهذه الأشهر، وقال بعض العلماء: المراد ما كتب في اللوح المحفوظ الذى فيه ما قدره الله تعالى بعباده، فهو لوحه المكنون.

ويقول سبحانه: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الضمير يعود إلى ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾، و﴿حُرُمٌ جمع حرام، وقد فسرت بأنها التى حرم فيها القتال، وكان ذلك قبل الإسلام على شريعة إبراهيم عليه السلام الذى تعود إليه مناسك الحج، وإذا كان المشركون قد حرفوا فيها وغيروا وبدلوا فإن الإسلام قد أعادها كما بدأت؛ لأنه ملة إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ...﴾ (٧٨) [الحج].

وهذه الأشهر الحرم هي ثلاثة سرد، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان، وقد قال النبى ﷺ فى خطبة الوداع مبينا شريعته، ومنها الأشهر الحرم، وكانت الخطبة فى العام العاشر «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة

حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» ثم قال: «أى يوم هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أى شهر هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم، ثم سكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس البلدة الحرام؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، وستلقون ربكم فىسألکم عن أعمالکم، ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت، ألا ليعلم الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أمر يكون أوعى له من بعض من سمعه^(١).

وإن معنى قول النبى ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أن المشركين كما سيتبين يغيرون فى الأشهر الحرم اتباعا لشهواتهم فى القتال والغارات، فكانوا إذا جاء الشهر الحرام، وهم يتقاتلون، أو يريدون الغارة أجّلوه إلى ما يليه، ويسمون ذلك النسيء كما سيأتى فى الآية الآتية، إن شاء الله تعالى، فمعنى قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، أن هذا الوقت هو وقت صادق أنه فى الأشهر الحرم.

وتحريم القتال فى هذه الأشهر فرض هدنة شرعية تحمل الناس على ألا يرفعوا السلاح ولا يقاتلوا، فتعود القضب إلى أجفانها فتكون التروية، وإذا كان بين المتقاتلين هدنة يتروون فيها تكون كالنسيم العليل فتهدأ النفوس، وربما أنهت القتال، ألم تر أن هدنة الحديبية أنهت القتال بين النبى والمشركون.

وفوق ذلك فهذه الأشهر هى أشهر الحج، فيجب أن يكون فيها أمن السارى فى ذهابه إلى الحج وأوبته، حتى تؤدى فرائض الله، والأشهر المتواليات أشهر

(١) متفق عليه، رواه البخارى: المغازى- حجة الوداع (٦٠٤٤)، ومسلم بنحوه: القسامة والمحاربن- تغليظ تحريم الدماء (١٦٧٩).

الذهاب والأوبة، ورجب مضر كان شهر عمرة، فأمن ليتمكن من يريد العمرة من أن يعتمر فيه.

ولقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من عدة الشهور، وتحريم القتال في أربع منها هو الدين، وعبر عنها بأنها الدين لمكان تحريمها من الشرع، وإن كانت بعض ﴿الدِّينِ﴾، فذلك التعبير السامى تأكيد لمنع القتال في الأشهر الأربعة، و﴿الْقَيِّمُ﴾ معناه المستقيم القويم وكان كذلك؛ لأنه ما سلكه إبراهيم بنى البيت ورافع قواعده، ولأنه يكفكف حدة القتال، ولأنه يمكن قاصدى البيت من أن يصلوا إليه، ويعودوا منه.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الظلم: النهى عنه فى هذه الأشهر الحرم، هو ظلم أنفسهم باستمرار القتال فيها، فظلم للنفس أن يقاتل، وقد منع من القتال، ولأنه عصيان لله، وكل عصيان لله تعالى فهو ظلم للنفس، وقال بعض العلماء: إن الظلم للنفس فى الشهر الحرام هو أن يعتدى عليهم فلا يدافعوا عن أنفسهم ويردوا اعتداء غيرهم، ونقول: إن القتال فى هذه الحال لا يكون محرماً فى الشهر الحرام، بل المعتدى على الشهر غيرهم، والله تعالى يقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ...﴾ (١٩٤) [البقرة].

وبعد ذلك أمر الله تعالى بقتال المشركين كافة رداً لاعتدائهم فقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...﴾ (١٩٤) [البقرة].

وهذه لا تتنافى مع تحريم القتال فى الأشهر الحرم، بل إنها تؤيده فى معناه، إن المشركين فى غزوة الأحزاب وغيرها - وخصوصاً إذا أدخلنا فى عداد المشركين من كانوا يعبدون الأشخاص - كانوا يجتمعون كافة، فكان حقاً على المؤمنين أن يجتمعوا كافة لهم، ولا يتخاذلوا أمامهم، وإن قاتلوا المؤمنين بكافتهم فى الأشهر الحرم، وجب أن يجتمعوا كافة لمقاتلتهم ولا يتوانوا ويثأقلوا.

وكان غريباً أن يتخذ بعض الفقهاء من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دلالة على نسخ الأشهر الحرم، كأن بعض الآية يهدم

بعضها الآخر، فأول الآية يبين شريعة الأشهر الحرم، وآخرها - في زعمهم الغريب عن كل معقول في القول - يهدمه، وهذا إذا كان في كلام الناس يكون غريبا، فكيف يكون مقبولا في كلام الله سبحانه وتعالى، بل من الغريب أنهم تنسخوها قبل تتميم حكمها بالكلام في النسيء، ويزكون وهمهم الكاذب بأن النبي ﷺ حاصر الطائف في الشهر الحرام، وإن الشابت تاريخيا أن النبي أنهى الحصار قبل انتهاء شوال^(١).

وإن الحق أنه لا نسخ، ومن ادعى النسخ فقد ادعى أمرا غير معقول في ذاته، وذلك لما يأتي:

أولا - أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أكد تحريم القتال في الأشهر الحرم في حجة الوداع، وبين أحكاما أخرى.

ثانيا - أن الله تعالى ذكر الشهر الحرام في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ...﴾ (٢) [المائدة]، وهذا في سورة المائدة التي هي من أواخر القرآن نزولا، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾ (٢٧) [البقرة].

وهكذا تعددت الآيات المحرمة، ومع ذلك يدعى بعض الفقهاء النسخ بغير حجة إلا أن تكون موافقة الملوك الشرهين إلى الدماء، وتكون مع المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد أتم الله تعالى ما ذكره في تحريم القتال في الأشهر الحرم، وتلاعب المشركين به فقال:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧).

(١) راجع كتاب «خاتم النبیین» للإمام محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي.

ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ لإشعار المؤمنين بأنه من التقوى إطاعة الله في تحريم القتال في الأشهر الحرم حقنا للدماء، وأن الله تعالى لا يصاحب ولا ينصر إلا المتقين، وأكد ذلك بالأمر بالعلم، كما أكدته بالصحبة السامية لله تعالى، وبالجملة الاسمية.

ولذلك ذكر من بعد ذلك الاعتداء على الأشهر الحرم بالنسء، والنسء معناه التأخير والتأجيل، يقال: (نسأ) بمعنى أخر وأجل، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «من أراد منكم أن يبارك له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه»^(١).

وكانت طريقة النسء أن يجرى إلى المحرم وهو من الشهر الحرام فيستبيح القتال فيه، ويؤجل التحريم إلى صفر، فيستبدل بالشهر الحرام شهرا حلالا، ولأنه يريد الغارة، وقالوا: إنما كانوا يفعلون ذلك رغبة في الغارات، وطمعا في الأموال من النعم، ويذكر ابن إسحاق في سيرته أن أول من فعل ذلك رجل من كنانة اسمه «الْقَلَمْس».

ولقد ذم الله النسء أشد الذم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أى ليس النسء إلا زيادة في الكفر، فد(إنما) أداة قصر، فهو ليس إلا زيادة فيه؛ كفروا بملة إبراهيم عليه السلام فعبدوا الأوثان وطاقوا بالبيت عراة، وكان شرع إبراهيم تحريم القتال في أربعة أشهر معينة بالتعيين، فغيروا فيها بالنسء، فزادوا بذلك كفرا إلى كفرهم.

وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أن شهواتهم في الغارات والقتال وتحكم الشيطان في نفوسهم يضلهم، ويلاحظ أنه بنى للمجهول للدلالة على أن عوامل الضلال كثيرة رأسها شهواتهم في الحرب، وسيطرة الشيطان على نفوسهم، والعداوة والبغضاء بينهم، وكان هذا لأنهم أصحاب غارات وحروب

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الأدب- من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٥٩٨٦)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٥٧).

مستمرة، فإذا جاء الشهر الحرام، لم يحرموا ما هم عليه من قتال، بل يستمرون سادرين في غيهم، ويؤخرون التحريم إلى الشهر الذي يليه، ثم يسيرون في غيهم، ويقول الزمخشري: ربما جعلوا السنة ثلاثة عشر شهرا أو أربعة عشر.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ يحلون النسء عامًا، ويمنعونه عامًا حسب سيطرة هوى الحرب على أنفسهم، وتحكم شهوتها في نفوسهم، وقد يقصرون السنة عن اثني عشر شهرا، ليعوضوا الزيادة التي زادوها، وذلك ليواطئوا عدة ما حرم الله، «العدد الذي حرمه الله تعالى وهو أربعة أشهر».

وإنهم بذلك يخالفون ما شرعه الله تعالى، وهو أنه حرم أشهرًا معدودة بأربعة، ومعينة بالتعيين، حسب ميقات كل شهر وموضعه من السنة، وبالنسبة لما قبله، وما بعده، فبالنسيء خالفوا التعيين، ووضعوا شهرا في موضع شهر من عند أنفسهم من غير علم أوتوه، ولا حجة اعتمدوا عليها، بل هو الهوى، فهم نظروا إلى العدد، ولذلك قال تعالى: ﴿لَيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، أى ليوافقوا العدد، لا الأوقات ذاتها، وبذلك أحلوا ما حرم الله، فكان المحرم هو شهر المحرم، فأحلوه، وكان الحلال صفر فحرموه، ولما اضطربت الأشهر وتغيرت مواضعها، أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله، ولذلك عندما أعلن النبي ﷺ تحريم الأشهر الحرم قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أى صار كل شهر فى موضعه لا يتعد عنه، فرمضان هو رمضان كيوم خلق الله السموات والأرض، وذو القعدة كذلك، وذو الحجة والمحرم، وبذلك يكون الحلال من الأشهر حلالا والحرام حراما.

ثم يقول سبحانه: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ أى زين لهم الشيطان والهوى سوء عملهم القبيح، وبنى للمجهول للإشارة إلى أن عوامل كثيرة سولها لهم كفرهم، جعلتهم يغيرون خلق الله فى الأشهر، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ لأنهم سلكوا سبيل الغواية، واختاروا الضلال، فساروا فيه، فكان فى ذلك ضلالهم، والله سبحانه مع من سلك طريق الحق مختارا هداه إلى نهايته، ومن سلك طريق الباطل مختارا أنهاه تعالى إليه.

القتال في غير الأشهر الحرم

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقِلْتُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
 فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾
 إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنَّا فِي أَشْيَيْنِ إِذَا هُمَا فِي الْفَارِ إِذَا
 يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلِ
 اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
 وَجَعَلَ لِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى
 وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٠﴾
 أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

بعد أن بين الله تعالى الأشهر الحرم وعبث المشركين، بين الجهاد سيرا على
 نسق الأشهر الحرم، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ
 حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ... (٥)﴾.

والقتال هنا قد تجاوز الجزيرة العربية إلى ما حولها من الشام، وتجاوز الوثنية إلى أهل الكتاب الذين يعبدون غير الله تعالى وذلك في غزوة تبوك، فقد كانت في شدة القسيط، وكانت بعد أن ملأت الغنائم الجيوب، وبعد أن أخذ الترفه يغزو النفس المؤمنة، وهو آفة القوة.

أخذ يدعوهم ﷺ إلى الجهاد، فكان منهم من أقعدته الدعة، والاستنامة إلى الراحة، فلم يكونوا كما كانوا من قبل إذا دعوا إلى الجهاد سارعوا إليه، ولذا عاتبهم الله تعالى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلْتُمْ﴾ صدر النداء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للإشارة إلى أن موجب الإيمان كان يدعو إلى المبادرة، لا إلى التثاقل، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام إنكارى بمعنى التوبيخ، معناه أى شيء ثبت لكم فمنعكم من المبادرة إذا دعيتم، ثم صرح سبحانه بما تضمنه الاستفهام، وهو ﴿اتَّأَقَلْتُمْ﴾ أصلها تثاقلتم، وفي قراءة الأعمش (تثاقلتم) على أصل الاشتقاق^(١)، وموضع الاستنكار هو التثاقل عندما ﴿قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا﴾، و﴿إِذَا﴾ متعلقة في الفعل المقدر في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ والمعنى أى شيء أثبت لكم حال ما قيل انفروا اثاقلتم و﴿انْفِرُوا﴾ معناه انتقلوا إلى الحرب، والجهاد في سبيل الله، فالنفي معناه الخروج إلى القتال.

وقوله تعالى: ﴿اتَّأَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ معناه تثاقلتم، وثقلت عليكم المبادرة إلى القتال مخلدين بأنفسكم إلى الأرض حيث الدعة والراحة، والاستغلال بظلمها، والسكون، ويتضمن هذا المعنى أنهم رضوا بالتقاعد في الأرض وترك الرفعة والمقام المحمود في الجهاد، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ... (١٧٦)﴾ [الأعراف].

والمعنى أنهم إذ تثاقلوا عن الجهاد رضوا بالبقاء في الأرض، فحققت عليهم الذلة.

(١) (تثاقلتم)، ليست في العشر المتواترة.

وقال تعالى فيما يترتب على ثقافتهم، وهو أن يكونوا قد تركوا الجهاد ورضوا بمتاع قليل، وتركوا متاع الآخرة الكثير، فقال تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ الاستفهام للاستنكار التوبيخى، ومعناه أنكم إذا اناقلتم عندما دعيتم إلى النفور فى سبيل الله فقد رضيتم بأن تكون لكم الحياة الدنيا التى هى الدنية ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من هنا بمعنى بدل، أى رضيتم بالدنيا ونعيمها الزائل بدل الآخرة، ونعيمها المقيم الدائم.

ولذا قال مقررا الفرق بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة، فقال تعالت كلماته: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

(الفاء) هنا للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر تقديره، إذا كنتم رضيتم ذلك فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قدر قليل ضئيل، وهنا إشارات بيانية نذكرها.

أولها - فى التعبير بـ ﴿أَنَاقَلْتُمْ﴾ فإن الصيغة بحالها من الإبدال فى لفظها دلالة على استثقال النفور فى سبيل الله، وما ذلك شأن المؤمنين المجاهدين الذين سبق لهم البلاء فى الإسلام، ولهم فى الجهاد سابقات كرام.

الثانية - فى النفي والإثبات فى قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فإنه يفيد قصر متاع الدنيا، مهما يكن من إحساس وراحة بالنسبة للآخرة فما هو إلا قليل.

ولم يذكر متاع الآخرة لكثرتة، ولأن الإيمان بها فى ذاته سعادة غير محصورة، فهى علو فى إدراك النعيم المقيم الثابت الدائم.

وإن عاقبة القصور عن الجهاد هى الذل، والهوان، ولذا قال تعالى:

﴿إِلَّا تَتَفَرُّوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩).

هذا إنذار من الله لكل الذين يتركون الجهاد، ولا ينفرون في سبيل الله، فقد أُنذر في هذه الآية بالعذاب والسخط والهلاك، وأنه لا ضرر على الله ورسوله.

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ أى في سبيل الله والجهاد، هى (إن) الشرطية المدغمة فى (لا)، وجواب الشرط ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ذكر العذاب منكرًا، مطلقًا، والتنكير لتعظيم هذا العذاب، وأنه شديد يتطابق فى شدته مع التماثل عن الجهاد عند وجوب موجه ودعوة الإمام الحق إليه، وإطلاقه يفيد تعدده وكثرته، فهو يشمل الغزو من الأعداء، والذلة، والمهانة والصغار، هذا فى الدنيا، أما يوم القيامة فنار الجحيم وغضب الله، وسخطه، وبعده عنه.

وذكر مع العذاب الأليم الهلاك، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أنه يكون عند هلاككم، وحيث تهلكون مصحوبين بالخزى والهزيمة والعار يجىء قوم غيركم يكونون أشد بأسا وأعرف بحق الله تعالى منكم، وأرضى له، ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، أى شىء من الضرر قليلا كان أو كثيرا، والضمير يعود - فى ظاهر السياق (على الله سبحانه وتعالى) والمعنى على ذلك - أن الله تعالى غنى عن العباد، وهم الفقراء إليه، والآية تشير إلى أنهم لا يضررون إلا أنفسهم، فالعاقبة تعود إليهم، فهم الذين تنزل بهم الذلة، وتركبهم المهانة، وتلحقهم الهزيمة.

ويجوز أن يعود الضمير إلى النبى ﷺ، وهو حاضر فى الأذهان دائما، وهو الذى دعاهم إلى أن ينصروه بأمر ربهم، ويكون المعنى لا تضروا الرسول بتخاذلكم، وتثاقلكم شيئا، فإن الله تعالى ناصره، فإن لم يكن بكم فبغيركم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على أن ينصره بغيركم، ولكن بعد فنائكم وضرب الذلة عليكم.

وإن الإنذار الذى اشتملت عليه هذه الآية عام خالدا، يشمل العصور كلها، فمن يوم أن اثاقت الأمة الإسلامية عن الجهاد، وتركته، ضربت عليها الذلة،

وتفرق المسلمون، وصار بأسهم بينهم شديدا، وتوزعتهم الأمم، ونزل بهم العذاب الأليم في الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

يبين الله تعالى معنى أنهم لم يضرُوا الرسول شيئا، فإن الله معه وهو في مكة ثم وهو خارج منها وإنه لن يتركه أبدا، وقد كان معه، وقد نصره يوم الفرقان وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ (إلا) (إن) الشرطية المدغمة في (لا) أى: إن كنتم لا تنصرونه وتخاذلتم عن نصرته فهو في غنى عنكم ولن يُخذل إذ قد نصره الله تعالى وهو في قلة من العدد، ولم يكن معه أحد، فالماضى دليل على ما يكون في الحاضر، ويكون الماضى جوابا للشرط الذى هو فى الحاضر، إذا كان الماضى فاصلا وفصله مستمد من الحاضر كقوله تعالى: ﴿... إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)﴾ [يوسف]، ولذا دخلت (الفاء) فى الجواب لتبين أنه جواب الشرط.

وخلاصة المعنى السامى: إن كنتم لا تنصرونه فى الحاضر، فلن يُغلب لأن الله ناصره، وقد نصره فى الماضى، وصور الله تعالى الماضى، أو أعاد صورته فى الأذهان فقال تعالت كلماته: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ وإذ ظرف للماضى متعلق بقوله تعالى فقد نصره الله، والمشركون لم يقصدوا إلى إخراج النبي ﷺ بل فكروا فى أمور ثلاثة إما أن يشتهوه أى يحبسوه أو يقتلوه أو يخرجوه، وأرادوا تنفيذ القتل، فاجتمعوا حول داره ليقتلوه، وأتوا من كل بطن من بطونهم بفتى نهى، ليضربوه ضربة رجل واحد، فيضيع دمه فى القبائل، ويرضى بنو هاشم بديته، ولكن الله حارسه.

وقد كان ما ذكرناه من قبل، وقد جاء فى بعض كلام المفسرين أنه خرج فارا من القتل، وإن كان ذكر الفرار غير سليم؛ فإن الهجرة كانت مقررة فى علم الله تعالى، وفى نظام الدعوة من قبل ما دبروه أو مكروه فى يوم الندوة بدليل ما كان

من هجرة عدد من المؤمنين من قبل، ولم يبق بمكة إلا النبی وأبو بكر، وعلى، ولعل بعض بنی هاشم.

فالهجرة كانت مقررة، ويصح أن ينسب إلى المشركين أنهم أخرجوه على أساس أنهم كانوا السبب في خروجه؛ وذلك لأنهم عادوا الدعوة المحمدية، وناذوها، وأذوا أهلها، ولم يعاضدوا محمدا ﷺ في دينه الذي بعث به، فلم يعودوا صالحين لأن تقام دعوة الحق في أرض مكة؛ لأنه لا يمكن أن تقوم دولة في ظل دولة الأوثان، وقد كانت تناوئها، وتعذب أهلها، فكانت الهجرة أمراً لا بد منه لإقامة دولة الحق والوحدانية في المدينة التي وجد الإسلام فيها بيئة صالحة، فغرس فيها غرسه.

وقد صور الله تعالى في كلامه الحكيم كيف كان نصره سبحانه في الهجرة، فقال تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ حال كونه واحداً من اثنين، أى أنه في قلة ليس معه إلا واحد، وهم يقتضون آثارهما ويتبعونهما، ويلجآن إلى غار، يتبعهما فيه عدد من رجالهم، وأرسلوا واحداً، يسير وراءهم إلى المدينة، وإنهما عندما نزلا في الغار عشن على ظاهره الحمام والعنكبوت، وما ذلك إلا من عمل الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، ولقد كان من يقتضى الآثار قد انتهى اقتفاؤه إلى هذا الغار، وقال: ها هنا انتهى الأثر، ولكن ظاهر الحال يكذب القافى؛ لأن العنكبوت قد نسج خيوطه، والحمام قد عشن عليه، فكيف، وذلك من فعل خالق الغار، وخالق الحمام والعنكبوت الذي أحكم خلقه وقدره تقديرًا، ولقد روى الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال: «نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه، أبصرنا تحت قدميه! فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١).

(١) رواه أحمد: مسند العشرة - مسند أبى بكر الصديق. رضى الله عنهم (١٢)، وبالفعل نفسه رواه مسلم: فضائل الصحابة - فضائل أبى بكر الصديق (٢٣٨١)، وينحوه البخارى: المناقب - مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٦٥٣).

وكما قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ .

أى إن الله تعالى يصحبهما بحراسته وحمايته فلا يتمكن منهما .

والغار كان فى جبل ثور على سير ساعة من مكة وهو فى الجهة اليمنى منها، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام، كانت تأتى لهما فيها بالطعام - أسماء بنت أبى بكر، أم الشهيد عبد الله بن الزبير الذى قتله الأمويون قتلة فاجرة، وهتكوا حرمة البيت الحرام .

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ .

الضمير فى ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على النبى ﷺ، بدليل قوله تعالى من بعد وأيده بجنود لم تروها، فالضمير بلا ريب يعود إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

والجنود الذين أيد الله تعالى بهم نبيه - ما وقت التأييد؟، قالوا: يحتمل أن يكون ذلك التأييد هو حراسة الملائكة لرسول الله وهو فى الغار، فهو كان فى حراسة الله تعالى، وأمر ملائكته الأطهار بحراسته، وحمايته من أعدائه، ويحتمل أن التأييد كان فيما جاء من بعد من حروب، قام بها النبى ﷺ وخصوصا غزوة بدر الكبرى، فقد صرح فيها بتأييد الملائكة .

ونختار الاحتمال الثانى لسببين - أولهما - أن التأييد يكون فى معركة حربية، وكانت بعد الهجرة أول معركة «بدر الكبرى»، - وثانيهما - أن الله تعالى جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا .

وقد وصف الله تعالى بأن هذه الجنود لم يروها، وإن التعبير عن الملائكة الذين أيدوا النبى ﷺ بالجنود يدل على أن التأييد كان فى معركة، وأقربها بعد الهجرة، وهى التى انقلب بها ميزان القوى فى البلاد العربية، ذلك أن قريشا كانت لهم القوة فى البلاد العربية، والسلطان الأدبى فيها، فلما قهروا فى بدر، هبط سلطانهم، وضعف نفوذهم، ولذا كانوا بجذع الأنف يحاولون فى الغزوات المتتالية إعادته فما استطاعوا إلى ذلك .

و(الكلمة) فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يراد بها الدولة والقوة؛ لأن قوة الدولة تجعل كلمتها نافذة أو مردودة عليها، فإذا كانت قوية كانت لها الكلمة النافذة، وإذا كانت ضعيفة كانت كلمتها غير نافذة، وعبر الله تعالى عنها بالسفلى للدلالة على أنها مغلوبة وفوقها غيرها، وقد جعلت واقعة بدر كلمة الإسلام هى العليا، ودولته هى العليا، وعبر سبحانه وتعالى عن الإسلام بكلمة الله؛ لأنه دين التوحيد ونبىه مبعوث من الله، وذلك بيان للحقيقة، وتشريف للدين الخفيف.

خلاصة القول أن الله تعالى يبين للذين يقعدون عن الجهاد ولا ينصرون النبى ﷺ ولا يجاهدون بأنهم إن لم ينصروه، فالله ناصرهم، وقد نصره فى هجرته، ولم يمكن المشركين منه، ثم نصره فى حربه مع المشركين، وأيده بجنود لم يروها حتى صارت كلمته هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

وختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى قادر غالب يدبر الأمور بحكمته وعلمه، بعد أن لام الله الذين يقعدون عن الجهاد، بين الله تعالى مع نبىه أمر بالجهاد فقال تعالى:

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾.

أكثر الرواة على أن هذه الآية وما سبقها فى غزوة تبوك التى خرج بها النبى ﷺ إلى الروم، وقد أراد أن يخرج من الغزوة بعدد كبير؛ لأنهم كانوا فى مؤتة التى كان فيها حملة الراية زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة وقتلوا جميعاً، وجاء خالد بن الوليد فأخذ يتراجع بجيش المسلمين، وكان عدد جيشه نحواً من ثلاثة آلاف، وأنى يكون ثلاثة آلاف بجوار مائتى ألف من الروم، ومن استخدموهم من العرب فكانت المهارة فى التراجع غير منهزم.

فلما أراد النبي ﷺ أن يعيد الكرة على الروم لكيلا يطمعوا في المسلمين، ويستصغروا أمرهم كما هو الشأن في استصغارهم أمر العرب، ولأنهم قتلوا من أسلم من أهل الشام ليفتنوهم عن دينهم، وما كان النبي ﷺ ليسكت عن فتنة المؤمنين، وهو قادر على منعها.

كانت غزوة تبوك هي الردع للروم، لكيلا يضطهدوا المؤمنين في أرضهم، ولكيلا يتخذوا أهل الحق خولاً لهم، وأراد النبي أن يكون العدد كثيراً، أو أراد الله تعالى له ذلك.

ولذا دعا الجميع أن ينفروا؛ لأن قضية العرب أمام الرومان، فقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي انفروا جميعاً، ولا فرق بين غنى حمله خفيف، أو فقير مشقل بالعيلة والأولاد، ولا فرق بين شاب وشيخ، ولا فرق بين حال منشط أو مكروه، وحال إقبال وحال إقبال واستكراه، وحال خفة إلى العمل، وإثقال في التحرك إليه.

انفروا جميعاً غير متعللين بأية علة، فإنها قضية الإسلام والعرب، فإذا أن يذلولوا للرومان أو يعتزوا بالإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ والجهاد بالمال يكون بالإتفاق على الحرب، وعلى أدواته، وعلى إعانة من لا مال لهم، والجهاد بالنفس بحمل السيف، والقتال، وإعانة المقاتلين، ويروى أن شيخاً أثقلته السنون ذهب إلى الحرب، فثبطه ضعف الشيخوخة، فقال: إن لم أقاتل عاونت المقاتلين، وأغنيهم عن بعض ما يحتاجون إليه.

والجهاد بالنفس يتناول تعويدها الصبر وتحمل المكاره.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الخروج بنفير عام، وغير معوقين بأثقال أو بأي سبب من الأسباب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه العزة، والعزة خير من الذلة، وفيه إرضاء الله وإرضاء الله خير كله؛ ولأنه الرفعة، ولأنه الكرامة، والكرامة خير من

المهانة، وذكر الخطاب في الإشارة إلى الجمع للنص على عموم الخطاب بالنفي حتى يعم الجميع بالخطاب نصاً ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير من الشر، فالموت في عزة خير من الحياة في ذلة، والموت مع كرامة الجهاد خير من الحياة مع ذلة الكفر والاستسلام والمهانة.

تخاذل ضعاف الإيمان والمنافقين

قال تعالى:

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيْبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعْدَتْ
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجَنَا
مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾
عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِي رَبِّهِمْ يَنرَدُّوْنَ ﴿٤٥﴾

مع الدعوة القاطعة إلى النفي العام كان ثمة متخاذلون متخلفون عن الجهاد، وذلك لأنه شاق عليهم، يرونها عيشة راضية على أى حال كانت هذه الحياة أوفى عزة تنال بالجهاد أم في ذلة ترضى بالهون وأدنى معيشة في الحياة. وقد بين سبحانه أنهم يريدونها رخاء سهلاً، فقال سبحانه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾
 (العَرَضُ) هو المتاع، أو ما يعرض من منافع الدنيا، و(القريب) السهل الذى يجىء
 من غير مشقة وإجهاد، و(السفر القاصد) السهل القريب الذى لا مشقة فى السير
 فيه ولا تعب، و(الشُّقَّة) المسيرة الشاقة المجهدة، أو الأمر الشاق فى نفسه.

والمعنى «والله» إنك لو دعوتهم فى هذا النفير العام الذى يجب ألا يتخلف
 عنه أحد من أهل الإيمان والإخلاص - إلى عرض من أعراض الدنيا قريب أو مال
 قريب، أو كان السفر قاصدا سهلا وقريبا لاتبعوك؛ لأنهم يريدون الدعة والاستنامة
 إلى الراحة وأن يرضوا بأدنى الحياة ذليلة أو عزيزة فى كرامة أو مهانة.

فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ فاعلها ضمير يعود إلى النفير المفهوم من
 قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، والكلام يفيد أنهم لم يجيبوا دعاء النبى ﷺ إلى
 النفير العام، وتخلفوا مع أن النفير العام لا يفرق بين ذى عذر، وغيره ما دام
 قادرا.

وبين الله سبحانه وتعالى سبب تخلفهم، وهو أن الشقة الشديدة بعدت
 عليهم، والنفير فيه بُعد فى الطريق ومشقة شديدة.

وإن الاعتذار هو حجة الضعيف الذليل، ووثقوا الاعتذار بالإيمان الكاذبة،
 ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

(السين) لتأكيد حلفهم بالله، والحلف فى هذه الحال يتضمن الاستعانة بالله
 تعالى مع كذبهم، وذلك كفر وبهتان على الله، وقوله: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ مقولة لقول
 محذوف تقديره قائلين: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، وهى مضمون الحلف أو
 المقسم عليه، وقد أكدوا كذبهم بهذه اليمين الفاجرة، ليخفوا السبب الحقيقى، وهو
 الجبن، وضعف الإيمان، أو السفاق الذى أفسد قلوبهم وأضل عقولهم، وقد بين
 سبحانه فجورهم فى هذه اليمين، فقال تعالى: والله يعلم أن مغبته تخلفهم فقال:
 ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى يهلكون أنفسهم بهذه اليمين
 الكاذبة؛ لأنها تفسد نفوسهم وأى هلاك أشد من فساد النفس، وضعف إيمانها،

وإنهم بتخلفهم يكشفون عن ضعف مُزَّر، وإنهم فوق ذلك لفساد تفكيرهم ألقوا بأيديهم إلى الذلة، إذ استبدلوا بعزة الجهاد ذل الاستخذاء.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى كذبهم في قوله تعالت كلماته بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أولاً بذكر ﴿يَعْلَمُ﴾ فما يعلمه الله صادق لا محالة، وثانياً بالجملة الاسمية، وثالثاً: بـ(إن)، ورابعاً: باللام في لكاذبون. قبح الله الجبن، وضعف الإيمان والنفاق، فإنها أدواء الأمم بها تذهب عزتها، وتضرب عليها الذلة.

لقد اعتذروا بانتحال أعذار واهية، فأذن لهم النبي ﷺ، وما كان له أن يحكم بظواهر ما يقولون، ولأنه لا فائدة في أن يكون في الجيش متخاذلين، يكون ذريعة للفشل في صفوفه، ولكن الله يعلم إنهم لن يخرجوا إذا لم يأذن لهم النبي بالتخلف، فيظهر كذب أعذارهم، وينكشف أمرهم، ولذا عتب على رسوله إذ قبل عذرهم، فقال تعالى كلامه:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣).

هؤلاء المنافقون الذين يذكركم الله في هذه الآيات قد اعتزموا القعود وعدم الخروج، ضعفوا وجبنوا، وليفتوا في عضد أهل الإيمان. وعن مجاهد: «نزلت هذه الآيات في أناس استأذنوا رسول الله ﷺ وقالوا فيما بينهم. فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، فهم قاعدون في الحالين، فكان الإذن ساتراً لحالهم من قصد التخلف في الحالين، ولذا عاتب الله نبيه على الإذن الذي ستر حالهم، ومقصدهم الخيث، وقعودهم الدليل، فقال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ وقالوا إن هذا خطأ وقع من النبي ﷺ عاتبه الله تعالى عليه في اللفظ عبارة عتاب، فقد ابتدأ قبل بيان وجه العتاب (بذكر العفو)، ثم ذكر موضع العتاب؛ وذلك لأن النبي ﷺ اجتهد في أمر قد أعطى حق الاجتهاد فيه، وهو تدبير الحروب، وتعرف أنجح الخطط فيها، وخيرها وصولاً إلى الغاية، وقد رأى أن قعودهم خير من أن يكونوا معهم، ويهيموا بالفشل، والمركة قائمة، ولكن الله

تعالى بنه النبي ﷺ إلى أمر لا يعلمه النبي ﷺ وهو أنهم لن يخرجوا والله يعلم ذلك.

والنص الكريم هنا فيه عتاب على الإذن، وقد أجز الإذن عند الاستئذان في آية أخرى فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور].

وموضوع الآيتين مختلف، فالآية الكريمة التي نتكلم في معناها موضوعها المنافقون وضعفاء الإيمان، أما موضوع آية سورة النور فمؤمنون بالله ورسوله، وأجابوا الأمر الجامع للمؤمنين وهو الجهاد، واستئذانهم كان لبعض شأنهم كاستئذان ذي النورين عثمان بن عفان في التخلف عن غزوة بدر الكبرى لبعض شأنه، وقبول النبي ﷺ عذره، وإذنه له في التخلف.

وموضوع العتاب بينه الله تعالى بقوله: ﴿ لَمْ أَذِنَ لَهُمْ ﴾ وهو استفهام للاستنكار بمعنى النفي، أى لا سبب للإذن؛ لأنهم كانوا قاعدين لا محالة، فالنص ليس فيه استفهام عن سبب الخروج، ولكن نفي مع العتاب لأن يكون ثمة مسوغ للإذن، ولذا لم يقل سبحانه، وله المثل الأعلى في الكلام المعجز، «لماذا»؛ لأن ذلك يكون نصا في السؤال عن المسوغ؟.

وإن ذلك الإنكار كان لعدم الانتظار حتى تبين حالهم الحقيقية، وهو أنهم قاعدون، ولذا قال تعالى: ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى أنه كان يجب الانتظار، والآن تسارع بالإذن حتى تبين حالهم، وينكشف أمرهم. والنص الكريم، يومئ إلى أن الذين أذن لهم في التخلف كان منهم صادقون في أعدارهم، كبعض الفقراء الذين لا يجدون ما يحملهم في ذلك السفر البعيد الشقة الشديد المشقة، وهؤلاء تبين صدقهم، والمنافقون تعلم كذبهم علما يقينيا،

ووصفهم سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَتَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾ الذين صار الكذب وصفا لهم وشأنا من شئونهم، كالمنافقين، فإن الاتصاف بالكذب يلزم النفاق ولا يفترقان.

وقد بين الله تعالى أن المؤمنين المجاهدين لا يستأذنون إلا لعذر قاهر، أو لأمر ظاهر، كما أمر عليا فارس الإسلام بأن يبقى في المدينة ليكون قريبا من أهل النبي ﷺ، وقد تألم عليٌّ لذلك ولكنه أطاع، ويظهر أن الله تعالى وفق النبي ﷺ في إذنه لعليٍّ بالتخلف، فإنه لم يكن قتال.

قال تعالى:

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤).

إن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يستأذنونك في القعود عن الجهاد؛ لأنهم يعلمون أن الجهاد فريضة، ولأنهم أعزاء في ذات أنفسهم؛ ولأنهم يعلمون أن الله تعالى مبتليهم بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس، ولأنهم يصبرون في الشدائد، ولأنهم يعلمون أنهم في الجهاد يفوزون بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وفيهما الخير كله، فالفوز بإحدهما، ولأنهم يعلمون أن الدنيا متاعها إلى أجل محدود وأن الآخرة خير وأبقى، ولذا ذكر الإيمان باليوم الآخر بجوار الإيمان بالله، فالإيمان بالله اعتماد على القوى المتين، والإيمان بالآخرة إيمان بالجزاء والعوض عن الحرمان والشهادة.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ أى في أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وحذف حرف «في» في المصدر المنسبك من (أن وما بعدها) كثير في كلام العرب، ويصح أن يقدر كراهية أن يجاهدوا، وهذا نفى لأن يقع ذلك منهم، فهم لا يستأذنون في التخلف لكراهية الجهاد؛ لأنهم لا يكرهون أمراً فرضه الله تعالى، إذ إن إيمانهم يوجب عليهم أن يحبوا ما أحب الله لهم وفرضه عليهم، ولأنهم يريدون العزة، والعزة تحت ظلال السيوف.

﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، أى بإعداد العدة والقوة، وإمداد الجيش بالمؤن والذخيرة، وحمل الفقراء الأقياء إذا لم يجدوا ما يحملهم، ويأن يتقدموا بأنفسهم فى غير اضطراب ولا وجل، ويُفزعون أعداء الله وأعداءهم بإقدامهم؛ ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهذا إخبار عن علم الله تعالى بالمتقين الذين يتقون عذاب يوم القيامة، ويتقون أن تكتب عليهم الذلة، ويتقون أن يستخذوا، ويستكينوا لأعداء الحق وأعداء الله تعالى، ويتقون أن يكون للكفار عليهم سلطان، وأن تكون ولايتهم لغير المؤمنين. الله تعالى عليم بهؤلاء المتقين، وسيجزئهم بأحسن الجزاء فى الدنيا والآخرة، وفى الدنيا العزة والكرامة، والعلو فى الأرض من غير فساد، وفى الآخرة بالنعيم المقيم.

ثم بين الله تعالى الذين يستأذنون فى القعود، فقال تعالى كلامه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (١٥) قصر الله سبحانه وتعالى من يستأذنون فى القعود على الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فلا يستأذنك فى القعود مؤمن بالله واليوم الآخر، وأفاد القصر بـ(إنما) لأنها من أدواته.

ذلك لأن المنافق لا يؤمن بالله تعالى، فلا يطيع أوامره ونواهيه، ولا يذعن لما جاء به محمد ﷺ عن ربه، وإن نطق لسانه بكلمات الإسلام والطاعة والخضوع ظاهرا لا يطيع قلبه، وقد ذكر الله تعالى فيهم أقوالا ثلاثة كلها تقعد بهم عن الجهاد، بل واحدة منها :

أولها: أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فعدم إيمانهم بالله يجعلهم لا يذعنون، ولا يجيبون ما فرض عليهم من جهاد، ولا يؤمنون بما فيه من عزة وكرامة، وفوق ذلك لا يريدون العزة للمؤمنين ولا يبتغونها لهم، ويريدون الذلة لهم، وعدم إيمانهم باليوم الآخر، يجعلهم يعتقدون أنه لا تعويض لهم، وأن الدنيا وحدها هى الحياة، ويقولون إن هى إلحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين.

ثانيها: حال الريب، فهم فى ريب دائم، والريب لا يوجد معه إيمان بشئ، فأول ما يصاب المنافق يصاب فى نفسه، إذ يكون فى بلبال مستمر، واضطراب فكرى دائم لا يستقر معه على حال، ولا يستطيعون عملا.

ثالثها: أنهم فى تردد دائم نتيجة لريبهم.

ومن نعم الله ألا يخرجوا مع المجاهدين.

قال تعالى فى بيان أن من الخير ألا يخرجوا وأنهم ما أرادوا الخروج:

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ
مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكْفُرَ بِي وَلَا يَنْفَتِي^{٤٩} فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

هذه الآيات وما يليها فى شأن المنافقين الذين قعدوا متلمسين الأعداء وهى كاذبة - والنفاق سوسة المجتمعات، ينخر فى عظامها - ولقد حاولوا إفساد الجماعة الإسلامية، ولكن النور المحمدى كشف ظلماتهم.

وفى هذه الآيات يبين سبحانه مضارهم فى الحرب إن خرجوا، ولكن النفاق لا يلتقى مع مخاطر الجهاد، فلم يخرجوا وكان خيرا كما أشرنا فقال تعالى وقد ثبَّطهم الله عن الخروج لأنه كره انبعاثهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

إن الله تعالى عتب على نبيه ﷺ أن أذن لهم عندما استأذنوا، ولو لم يأذن لكشف أمرهم، وتبين أنهم كاذبون في ادعاء العذر ولا عذر لهم، لأنهم لم يريدوا الخروج ابتداءً، وأكد الله تعالى عدم قصدهم الخروج، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ لبدت أماراته، فأعدوا العدة من إعداد الكراع^(١) والسلاح، وما تحتاج إليه حرب شديدة فيها ملاقات الرومان الذين كانوا أقوى دولة في ذلك الإبان، ولكن لم يعدوا عدة، فلم يكونوا على نية الخروج، وأظهروا ما في مقصدهم باعتذارهم، وكان ذلك خيرا للمسلمين، وكره الله تعالى أن يخرجوا، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ ومعنى الاستدراك أنه منع لوهم إرادة الله تعالى - خروجهم؛ لأن مؤدى إعلانه على عدم خروجهم قد يوهم إرادة الله خروجهم، فنفاها سبحانه بهذا الاستدراك، فقال: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ والانبعاث النهوض للخروج مع المجاهدين، وكراهية الله تعالى لخروجهم لما علم سبحانه أنهم يريدون الخيال والاضطراب للمؤمنين، كما تدل على ذلك الآيات التالية، وكما دلت على ذلك الأمور الكثيرة التي كانت تقع بإثارة الفتنة منهم، ولكن كانوا كلما أوقدوا نارا لفتنة أطفأها الله سبحانه وتعالى.

﴿فَبَطَّيْهُمْ﴾ أى خذلهم وأوقع فى نفوسهم نزوع الكسل والضعف، وأزال رغبتهم فى النهوض إلى النفير مع جيش الإيمان، وما ذلك إلا للمصلحة المترتبة على منعهم من الخروج، فما أريد التشييط لذاته، ولكن أريد ما يترتب عليه من حماية جيش الإيمان من الفتن يشونها فيه، وإثارة الخلاف، إن سنحت لهم أسبابه ولا يضعف الجيش إلا النزاع، كما قال تعالى: ﴿... وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا...﴾ [الأنفال].

فكانت المصلحة فى ألا يخرجوا، ﴿فَبَطَّيْهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (قيل) بالبناء لمفعول، وأسند إلى المفعول لتعدد عوامل التخليل التي كانت فى مضمون القول، فجبنهم، وإرادة الشر بالمؤمنين وبعد الشقة، وكون الغاية فيه بعيدة، وفساد

(١) الكراع: اسم لجميع الخيل والدواب التي تصلح فى الحرب.

نفوسهم، وتخاذلهم عن نصره الحق، وكراهية الإيمان وأهله، كل هذه عوامل يمكن أن تكون الفاعل الذى استعاض عنه بالمفعول، والمفعول المقول، وهو أقعدوا مع القاعدين. هذه العوامل التى أشرنا إليها انتهت بهم إلى أن كان لسان حالهم يقول: ﴿أَقْعِدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

قولهم لأنفسهم ﴿أَقْعِدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، قال فيه الزمخشري: هو ذم لهم وتعجيز، وإلحاقهم بالنساء والصبيان والزمى الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت وهم القاعدون، وهم القاعدون والخالفون والخوالف، وبينه الله تعالى فقال: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ... (٨٧)﴾.

وقد علق الناصر فى حاشيته على الكشف فقال: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيدها بسطا فنقول: لو قيل (اقعدوا) مقتضرا عليه لم يعد سوى أمرهم بالقعود، وكذا لو قال: كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد الموسومين بهذه السمة إلا من عبارة الآية، ولقد جاء على لسان فرعون فى إبعاد نبي الله موسى عليه السلام ﴿... لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾ [الشعراء]، ولم يقل لأجعلك مسجوناً، لمثل هذه النكتة من البلاغة.

هذا، وإن الله تعالى عاتب النبي ﷺ لإذنه لهم بالقعود مع أن الله تعالى كره اتباعهم، لأنه سبحانه كان يريد أن يتبين النبي ﷺ حالهم، حتى يتبين له الصادق من الكاذب، وأنهم لا يخرجون.

وقد بين الله تعالى الحكمة فى أنه ثبطهم، فلم يخرجوا فقال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)﴾.

أى لو خرجوا فى جمعكم المؤمن المجاهد، وساروا، لا يجاهدون، ولكن يسرون على ما كانوا عليه بينكم من التشكيك فى خروجكم وفى قوتكم، وفى

ذلك إشاعة العناء والخور والضعف، ولذا قال الله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الخبال: الفساد والشر بالتشكيك وإثارة الفزع، والاستثناء هنا يمكن أن يخرج على استثناء منقطع؛ لأن المستثنى ليس من ضمن المستثنى منه، إذ الخبال لا زيادة فيه كما يقال ما غنم إلا الهزيمة، وما زاد إلا النقص.

ويرى الزمخشري وهو عالم اللغة وفقهها أن الاستثناء هنا ليس منقطعا، إنما هو استثناء من أعم الأحوال، أو من أعم العام كما عبر الزمخشري، والخبال نقص أعم العام كما يقال: «ما زادوكم شيئا إلا خبالا وإفسادا»، ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ الخلال: جمع (خلل) وهو ما بين الشيئين أو الأمرين، و(الإيضاع): الإسراع، يقال وضع يعنى أسرع، ووضع البعير إذا عدا، وقال الراجز العربى:

ليتنى فيها جذع ليتنى فيها جذع
أخب فيها وأضع

وأضعته: حملته على العدو، والمعنى فى النص الكريم: لاوضعوا ملحقين الجيش خلاله بأسباب الفتن من غيمة ومن توهين، ومن تشكيك، وشبه السعى بالفساد بإيضاع الإبل فى عدوها، لأن كلا إجهاد، بيد أن سير الإبل قد يكون إلى الخير، أما الإيضاع هنا فهو فساد وتوهين وتخذيل، وسعى بنميمة.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أى يطلبونكم بشدة وقوة، لا يبغون أشخاصكم؛ لأنهم لا يودونكم، ويتربصون بكم الدوائر ولكن يبغون الفتنة بينكم، فالفتنة بدل اشتمال من الضمير، أى يبغون فتنتكم فى عامة أموركم، وذلك بأن يمشوا بالنميمة فى جموعكم، ويروهونكم من أعدائكم، والقول بالريب فيما اعتزمت من عمل.

ثم يقول تعالت كلماته: ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ سماعون صيغة مبالغة من سامع، أى أنهم حريصون على السمع لهم، وقد كان اللفظ يحتمل أن فيكم سماعين حريصين على أن يستمعوا ويبلغوهم، فاللام فى هذه الحال معناها لأجلهم، أو يكون المعنى أن يستمعوا لهم، ويطيعوهم، وينحازوا إليهم، ونرى أن هذا هو الأنسب للسياق والذي يلائم إيضاعهم بالخبال، وذكر ابتغائهم الفتنة

وطلبهم، ويتفق مع رغبتهم في الخبال والفساد، وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أى أن الله تعالى عليم بهم وبنياتهم، وما يطوونه في جنوبهم من إرادة الشر بالمؤمنين، وأظهر في موضع الإضمار لتسجيل الظلم عليهم، وأن الظالمين لن يفلحوا أبداً.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).

الضمير يعود إلى الذين استأذنوا من النبي ﷺ، وثبطوا المؤمنين، وهم المنافقون، و﴿ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ أى طلبوها بشدة راغبين فيها، قاصدين الفتنة أى تضليل المؤمنين، والإفساد من قبل، أى من قبل ذلك التخاذيل الذى بدا منهم الآن، فذلك ديدنهم، وما أرادوا بالإسلام إلا خبالاً، حتى لقد روى أنهم - والأوس والخزرج كانوا يبايعون النبي ﷺ بالعقبة - كانوا يدبرون الأمور لاغتياله عند مقدمه المدينة كما روى ابن جريج، ولقد قال فى ذلك الحافظ ابن كثير: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك، وخذلان دينك، وإخماده مدة طويلة، وذلك أوان مقدم النبي ﷺ المدينة، ورمته العرب عن قوس واحدة، وما رتبته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبى: هذا أمر قد توجه، فدخلوا فى الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى صرفوها، ودبروها، وكانوا أحياناً يمالئون أعداء الدين من أهل الكتاب والمشركين، ومرة يخذلون المؤمنين، ومرة يدخلون فى الغزوات مجاهدين، ثم يعدلون ليلقوا التردد فى نفوس المؤمنين كما فعلوا فى غزوة أحد، ومرة يحرضون من يوالونهم من بعض الأوس والخزرج لحوادث صغيرة يثيرونها. حتى كادت تكون فتنة بين الحيين من الأنصار، فهم فى فتنهم الدائمة المستمرة، يلبسون لكل حال لبوسها، يحركهم الكفر، ويدفعهم النفاق

إلى أن يرتكبوا حماقات، وإنهم ليتعدون حدودهم، فيثيرون حديث الإفك حتى تملأ منكم ذوؤهم، وأصبح أهل كل بيت فيه منافق يحرضون النبي ﷺ عليه.

وهكذا مضى أمرهم، والإسلام ماضٍ في طريق الحق، حتى وصل إلى غايته، وهذا قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا أَمْرَ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أى ظهرت أحكام الإسلام، وهى أمر الله، وانتشر في الوجود أمره، وهم كارهون، أى ظهر مع تدبيرهم الفاسد، وبغضهم الشديد له.

وكانوا يتدربون بكل الحيل ليأذن لهم النبي ﷺ، والله تعالى فى علمه المكنون أنهم لا يخرجون وكره انبعاثهم، وما كرهه الله تعالى لا يمكن أن يتحقق، ولقد ذكر الله تعالى بعضاً مما كانوا يعتدرون به فقال تعالت كلماته:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُوْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

كان المنافقون يتعللون بكل علة صادقة أو كاذبة، بل إنهم لم يتعللوا بصادق، بل كلها تعلات يقولونها بأفواههم وقلوبهم غير مطمئنة إلى الخروج؛ لأنهم يريدون التعويق، وهول القتال قد أفزعهم، وبعد الشقة قد أقعدهم، وكان من تعلتهم أن قالوا إننا نخشى فتنة النساء فى الرومان لجمال نسائهم، روى أن الجد ابن قيس أخا بنى سلمة قال له رسول الله ﷺ: هل لك فى جلاد بنى الأصفر، فقال: يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنى فوالله لقد عرف قومى ما رجلا أشد عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله وقال: «قد أذنت لك»^(١).

ومعنى هذا أن الآية جاءت تمثل ضروب معاذيرهم الواهية التى لا تقنع، إنما هو عدم الإيمان، وفزع النفاق، والزمخشري يفسر الآية على العموم، ويفسر «لا تفتنى» أى لا تأذن لى فى الخروج فأقع فى الفتنة التى لا قبل لى بها وهى

(١) البداية والنهاية: سنة تسع - ذكر غزوة تبوك (ج ٥ - ص ٢١٢)، وتاريخ الطبرى: (ج ١ - ص ١٢٣).

عصيانك، فيبين الله أن هذا الاعتذار النافه الذى لا يدل إلا على عجز حقيقى هو الفتنة فى ذاته، ولذا قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى فى الفتنة الكبيرة سقطوا، والفتنة أطلقت، والمطلق ينصرف إلى الفرد الأعظم أى الفتنة الكبرى سقطوا فيها، وقدم المفعول وهو الفتنة على الفعل للإشارة إلى أن عملهم مقصور على الفتنة. فهو الفتنة، ولا يكون غيرها؛ لأن عذرهم كاذب ساقط فى ذات نفسه.

وعلى أن الآية نزلت فيمن اعتذروا بفتنة نساء بنى الأصفر تكون فتنة التخلف مشاكلة لما ادعوه من فتنة النساء فى اللفظ وإن كانت غيرها.

وإنهم بهذا الكذب والاعتذارات الواهية، وعدم إيمانهم يعدون كافرين، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى أنهم مؤكدون داخلون فيها، وستحيط بهم يوم القيامة، وذكرت الآن لتأكد وقوعها، كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ [١] [النحل]، فهو تأكيد لما سيقع بتصويره كأنه واقع وقوعاً مؤكداً.

وقد أكد سبحانه وتعالى الوقوع فى جهنم يوم القيامة بعدة مؤكدات:

أولها: الجملة الاسمية، ثانيها (إن) الدالة على تأكيد الخبر، وثالثها بيان أنها محيطة بهم إحاطة الدائرة بقطرها لا يخرجون عما تحيط به، ورابعها باللام المؤكدة فى قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾.

وأظهر سبحانه فى موضع الإضمار فلم يقل: «المحيطة بهم» بل قال ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لبيان سبب هذا العذاب الأليم وهو الكفر، وقانا الله شر النفاق وأهله.

ثم بين سبحانه شعور المنافقين نحو المؤمنين.

قال تعالى:

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا

وَهُمْ فَرِحُوا ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
 اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
 ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا لِأَحَدٍ الْحُسَيْنِ وَنَحْنُ
 نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ
 أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

إن المنافقين لم يندمجوا في أهل الإيمان، ولم تتحد معهم مشاعرهم وأحاسيسهم، فلم يكونوا منهم، ولم يشعروا بما يشعر به أهل الإيمان، فلا يشاركونهم في سرائهم، إن أصابهم ما يسر، ولا ضرائهم إن أصابهم ما يضر، بل يناقضونهم مناقضة تامة، فما يسرهم يسوءهم وما يضرهم يسرهم، وكذلك شأن المنافقين في كل جماعة لا يشاركون في أحاسيسها، ولذا قال في وصف هذه الحال:

﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أى إن ينزل بكم أمر هو حسن في ذاته، وعندكم، ويملاً نفوسكم بالسرور يكون هذا سبباً لآلامهم، فسروركم مسيء لهم؛ لأنهم يريدون أن تدور عليكم الدوائر، فنصركم يوم بدر ساءهم، وكذلك يوم الأحزاب، ويوم مؤتة، إذ رضيت من الغنيمة بالإياب أمام مائتى ألف، وأنتم ثلاثة آلاف، وقتلتم منهم مقتلة عظيمة مع قلة عددكم، وإن لم تغنموا شيئاً منهم.

﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾

المصيبة مؤثمة مصيب أى نازلة وشدة كارثة، وأصلها كما ترى من أصاب، ولكنها بالتاء غلبت في الشدائد والكوارث والنكبات، فإذا أصاب المؤمنين نكبة أو قرح، كما أصابهم يوم أحد، قالوا: أخذنا أمرنا، أى أننا استولينا على أمرنا من قبل فلم نعرض أنفسنا لمخاطر الحروب ونوازله فنجونا من أن نقع فيما وقعوا فيه،

وكانهم يشمتون فى المؤمنين، وقد وقع ما يتمنون، ويصفون أنفسهم بأنهم أهل الحذر، ليثيروا غضب من أطاعوا الرسول.

﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ معطوف على يقولوا، أى وينصرفون إلى أهليهم وأصحابهم يتحدثون فى أمر هذه النكبة وهم فى فرح بها؛ لأنها أصابت هوى فى نفوسهم، ولذا قال تعالى: «وهم فرحون» أى والحال أنهم فرحون فرحا غمرهم، ويصح أن يكون تولوا بمعنى أعرضوا عن الرسول غير مقبلين عليه مظهرين خبيثة نفوسهم، وفى هذا ما يفيد أنهم جروا عليه، وحسبوا أن الغد لهم، وما هى إلا جولة، حتى يكون الغلب لهم، ولكن هيهات أن يكون ذلك، فالهزيمة فى معركة بعدها الظفر والنصر.

ولكن المؤمنين مطمئنون لما يقضى به الله تعالى لا يستطيعهم نصر، ولا يخذلهم قرح، بل إنهم يقدمون متوكلين عليه سبحانه، إن أصابتهم حسنة لم يستطيعوا بها، بل يستعدون لما بعدها، وإن أصابتهم نكبة رضوا، وعلموا أن الله تعالى قد قدر لهم ما فيه خير. ولذلك قال تعالى:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾.

أمر الله تعالى نبيه أن يقول ما هو تفويض إليه سبحانه، وما فيه توقع الخير، حتى فيما يكون فى ذاته نكبة أو شدة، إذ قد يكون وراءه خير، أو خير قد اختفى فى هذه الشدة، كما قال تعالى: ﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة].

فعسى هذه الشدة يكون فيها خير كثير، ولو كانت مكروهة، كما قال تعالى: ﴿... فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٦)﴾ [النساء] ولذا قال: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى أنه ليس لنا أن نتبين إن أصابتنا كارثة أو نكبة، فقد تكون كارثة تنبها إلى خطأ وقعنا فيه فيكون هذا التنبيه خيرا لنا، وواقيا لنا من أن نقع فى مثله، وفوق ذلك فإن المستقبل يكون خيرا لنا لننال الحسنى إن قتلنا، ففضل الشهادة خير مما تفرحون.

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أى هو فى اعتقادنا وإيماننا مولانا وناصرنا، ومتولى أمورنا فيما وقع وما يقع، ومن كان الله ناصره لا يخذل، ومن كان الله معه، فإن العاقبة له إن لم يكن فى هذه الدنيا، ففى الآخرة، وفيها النعيم المقيم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى عليه وحده يتوكل المؤمنون، وقد أمرنا بذلك، وتقديم الجار والمجرور للإشارة إلى أن الله تعالى هو الذى يتوكل عليه المؤمنون، فلا يتوكلون على أحد سواه، ولا يرجون غيره، ولا يعتمدون إلا عليه، و(الفاء) لفصل الفعل الأمر عن الإخبار.

والأمر هنا بالتوكل لا ينافى العمل، فالعمل بالأسباب الدنيوية أولا، ولكن يجب عليه لكى ينجح العمل أن يقرن به التوكل، فالأسباب وحدها (لا تكفى) إلا بفضل من الله وتوفيق، فالإتكال من غير عمل تواكل، والعمل من غير توكل على الله غرور، وثمرد على الله سبحانه وتعالى.

وإن المنافقين يترصدون الدوائر بالمؤمنين بأن تتوالى نكباتهم، ولا يتوالى ما يسرهم؛ لأنهم أعداء كارهون، والعدو الكاره لا يتسنى لعدوه ما يسره، بل يتمنى له المكروه، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فَّتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قلنا إن المنافقين لا يندمجون فى جماعة يعيشون فيها، بل يكونون فى جانب، ومن معهم فى جانب آخر، كما يفعل اليهود الذين مردوا على النفاق وأجادوه.

وكذلك كان اليهود بالمدينة الذين كانوا رأس النفاق فيها، فهم يعيشون مع المؤمنين وليست قلوبهم معهم، بل هواهم مع غيرهم أيا كان ذلك الذى يغيّر جماعة المؤمنين كتابيا كان أو مشركا، فهم لا يعيشون مع جماعتهم إلا وجانبهم

لغيرهم؛ لأنهم لم يذوقوا طعم الاندماج مع الناس والإخلاص لهم، ولذا يعيشون مع المؤمنين ويتربصون بهم الدوائر.

ويقول الله تعالى آمرا نبيه ﷺ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ يأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم هذا القول ولم يسنده تعالى إلى نفسه؛ لأنه فوق الجميع، إنما جعل الرسول يسنده إلى نفسه؛ لأنه من أحد الفريقين المتربصين وإن كان الله تعالى مع المؤمنين، والتربص: الانتظار، والاستفهام للإنكار بمعنى إنكار الوقوع بدليل الاستثناء. والمعنى لا تنتظرون لنا إلا إحدى الحسينين، والحسينان هما: الاستشهاد، وذلك حسن في ذاته وعند المؤمنين؛ لأنه ينتهى بهم إلى الجنة، ونعم الانتهاء. أو النصر، وهو غاية حسنة عظيمة.

وإن نتيجة التربص لا يهواها المنافقون، فهم يتربصون الشر والفساد والخبال والاضطراب في جيش المؤمنين رغبة فيما يريدون، فيبين الله تعالى أن النتيجة تحيء عكس ما يبغيون.

ويقول النبي ﷺ بأمر من ربه، وباللفظ النازل على النبي من الله رب العالمين: ﴿وَنَحْنُ تَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

أى نحن معشر المؤمنين ننتظر لكم أحد أمرين أيضا، وهما أن يصيبكم الله تعالى بعذاب ينزله سبحانه وتعالى بكم كصاعقة من السماء تحرقكم، أو ريح تقلبكم من الأرض، أو تموتوا في داركم جائمين، وهذا عذاب من عند الله، وإضافته سبحانه وتعالى إليه، ينزله من عنده مظهرا لغضبه عليهم الذى يبيءون به، كما باء من قبل إخوان لهم فى النفاق: اليهود ومن يواليهم، والأمر الثانى عذاب من المؤمنين ينزلونه بتمكين الله تعالى منكم.

وهنا بعض إشارات بيانية:

منها: قوله تعالى: ﴿تَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ فعبر بـ(كم) للإشارة إلى أن ما ينزل بهم عقاب، فى مقابل ما حكى عنهم فى قوله تعالى: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾.

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ للإشارة إلى القتال الذي يكون بالأيدي التي تبطش، وذلك إشارة إلى قوة المؤمنين المؤيدة بنصر الله تعالى العزيز الحكيم. ويقول تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ الفاء فاء الإفصاح المنبهة عن شرط مقدر، أى إذا كان هذا أمرنا وأمركم فى التربص فتربصوا. وهذه الجملة السامية فيها تهديد لهم بسوء العاقبة بالنسبة لهم، وبيان حسن العاقبة بالمؤمنين، والله تعالى بعزته ناصر جنده، وخاذل عدوه.

لا يقبل الإنفاق من منافق

قال تعالى:

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنْتُمْ
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٣﴾
فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
بِهَافِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٤﴾
وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ
قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٥﴾ لَوْ يَخْدُونَ لَخَبَدُوا مَلَكًا أَوْ مَغْرَبًا
أَوْ مَدَّخَلًا لَوْلَا إِلَهُهُمْ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٦﴾

إن هذه الآيات الكريمات تبين أمرين: أحدهما: أن المنافقين فى كل العصور يطاولون الناس بأموالهم، ويجبنون دائما، ويستبدلون بالجهاد المال يدفعونه،

ويحسبون أنه يغنى عن الجهاد والعمل للنصرة وصيانة الحق عن أن يعيب به العابثون .

ثانيهما - أنه لا ثواب إلا مع النية المحتسبة، والنية لا تكون إلا مع إيمان صادق بالله ورسوله والحق الثابت المبين .

وقد ذكرت الآية الأولى أن إنفاقهم طوعاً أو كرهاً لن يقبل منهم بسبب فسقهم، وذكرت الآية التالية تفصيل المانع من قبولها، وذكرت الآية الثالثة أن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم في الدنيا والآخرة شيئاً. وذكرت الآية الرابعة أنهم يريدون أن يعتقد المؤمنون أنهم منهم ومنضوون في جماعتهم ليخدعوه فلا يغروهم، متميزين عنهم تميز الخبيث من الطيب .

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ﴾ المعنى الظاهر وكتاب الله تعالى بين بذاته لا يحتاج إلى بيان، إن الله تعالى لن يقبل منهم إنفاقهم في الآخرة سواء أنفقوه طائعين أم أكرهوا على الإنفاق، وسواء أنفقوه كارهين أم أنفقوه راغبين، فمعنى طوعاً، أى طائعين راغبين فى الإنفاق طيبة به نفوسهم أو كارهين غير راغبين، أو يأكراه أحد، أو بتورط، ولا يرضون .

وهذا المعنى ظاهر، ولكن كيف يخرج الأمر فى هذا. وبلا شك لا يقصد الطلب ولا الإباحة ولا النذب، ولا أى باب من أبواب الطلب وإذن فما سبيله؟ .

قال القرطبي: إن معناه الشرط، وجوابه لن يقبل، وتقدير القول هكذا، إن تنفقوا لا يقبل منكم سواء كان الإنفاق طوعاً أو كرهاً .

وقال الزمخشري: إن معنى الأمر هنا الإخبار بأنهم لا يقبل منهم، ويظهر أنه يعود إلى معنى الشرط، والمؤدى ينتهى إلى أنه لن يقبل الإنفاق، ومثلوا له بقول كثير عزة، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى .

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقد بين السبب فى منع قبول أموالهم قربات عند الله، فقال سبحانه:

﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وجملة ﴿إِنَّكُمْ﴾ منفصلة عن سابقتها؛ لأنها تعليل لها، ولأن الجملة الأولى طلبية، والثانية خبرية. والفسق هو الخروج، وهم بالحكم عليهم بأنهم فاسقون يكون محكومًا عليهم بأنهم خارجون عن الجماعة بشعورهم، وإن كانوا فيها بأجسامهم، وذلك مع كفرهم، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك الحكم بعدة مؤكدات، أولها بالجملة الاسمية، وثانيها بـ (إن) الحرف الدال على التوكيد، وثالثها بـ (كان) الدالة على استمرارهم في الفسق والخروج عن الجماعة وعدم الشعور بشعورها.

ونفى الله تعالى بقوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾ ظاهره أن الله تعالى لن يجازى عليه جزاء القربات يوم القيامة؛ لأنهم لم ينووا بها التقرب، وإنما أرادوا ستر جنبهم ونفاقهم، ليستقيم ادعائهم أنهم من المسلمين، وهم غير مؤمنين، وشرط النية المأجورة الإيمان، ولقد قال تعالى عما ينفق الكافرون: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران].

وهل يقبل النبي منهم ما يدفعونه مغرماً، إن الأمر في ذلك متروك للنبي ﷺ، وقد بين سبحانه وتعالى المانع عن قبول صدقاتهم بالتصريح بما طوى في هذه الآية فقال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارَهُونَ (٥٤)﴾.

وُصِلت هذه الآية الكريمة بالآية السابقة؛ لأنها تتميم للسبب الذي منع تقبل ما ينفقون، والنفقة هي الإنفاق، والتعبير بالنفقة فيما أحسب يدل على صغر ما ينفقون، ومع ذلك لا يقبله الله سبحانه وتعالى؛ والتعبير بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ على أن اسم المفعول يعود إليهم، فيه إشارة إلى أنهم كانوا يرجون أن يقبل منهم



ما ينفقون في الدنيا رجاء أن تتم الخديعة التي أرادوها، وعبر سبحانه وتعالى هنا بقوله تعالى: ﴿أَنْ تُقْبَلَ﴾، وفي الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿نَفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ﴾ بصيغة يتقبل، وذلك لأنهم كانوا يظنون أن أي إنفاق يقدمونه يتقبل برغبة من النبي وأصحابه، فإن صيغة التقبل تدل على القبول برغبة كما قال تعالى في نذر مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ... (٢٧)﴾ [آل عمران].

وفي هذه الآية: (تُقبَل) من أصل القبول، وسبب الرد أصل القبول، ولو كان المنع من التقبل، لكان أصل القبول غير ممنوع.

و«أن تُقبَلَ» الضمير المنسبك من (أن وما بعدها) في موضع المجرور بـ(من) لأن حروف الجر تحذف كثيراً قبل أن وفعلها، كما في قوله تعالى: ﴿... مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... (٢٧)﴾ [الأعراف].

وقد ذكر الشوكاني في تفسيره فتح القدير: أن الآية الكريمة تشير إلى أن الأسباب ثلاثة فقال: «جعل المانع من القبول ثلاثة أمور، الأول: الكفر، والثاني: أنهم لا يُصلّون في حال من الأحوال إلا في حال الكسل والتشاغل، والثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون؛ لأنهم يعدون إنفاقها وضعا لها في مضیعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله.

وقد ذكر الأمر الأول فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الضمير المنسبك من أن وما بعدها في محل رفع فاعل للفعل (منع) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ فكفرهم بالله لأنهم تمردوا على أوامره ونواهيه، وجحدوا بآياته، وكفرهم برسوله لأنهم جحدوا رسالته، واليهود منهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وقد جاء بالكتاب من عند الله وعجز العرب عن أن يأتوا بمثله بعد أن تحداهم فما استطاعوا، وكرر الباء، فقال: ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، للإشارة إلى أن الكفر بالله كفر، والكفر بالرسول كفر، أيضا.

وفي الأمر الثاني قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي لا يقومون عند النداء إلى الصلاة إلا وحالهم حال الكسالى متشاغلون كأنهم غير

راغبين فى أدائها، أى أنهم فى هذا المظهر الذى لا يتوافق فيه العمل مع القلب يتشاقلون فيه؛ لأنهم ما داموا كفارا فإنهم ليس منهم صلاة مقبولة أو صلاة قط، لهذا ترد عليهم نفقاتهم، فكيف تكون صلاة، إنما مظهرها صلاة، فهم حتى فى هذا يقومون كسالى، وهى جمع كسلان كسكارى جمع سكران، وغيارى جمع غيران، كما يقول الزمخشري فى الكشاف.

ومهما يكن وصفهم بأنهم يقومون بالصلاة كسالى فإن صلاتهم من الصلاة التى يكون لهم الويل فيها، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝۵ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝۷﴾ [الماعون].

والأمر الثالث هو فى إنفاقهم بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أى لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة إلا وهم غير راغبين، بل ينفقون كارهين النفقة فى ذاتها، أو لموضعها، ولا يفعلون ذلك إلا سترًا لنفاقهم، ويتخذونه وسيلة للتمكن من الخداع الذى يقصدونه.

ولا تعارض بين هذا النص الذى حصر إنفاقهم فى حال نفسية واحدة، وهى كراهية الإنفاق، وعدم الرغبة فيه لشح فى أنفسهم، ولكراهية المؤمنين.

فهذه الآية تدل على ذلك، وأما الآية السابقة فمؤداها نفى القبول، ولو أنفقوا طائعين أو ملامين بأمر النبى ﷺ، أو نقول طائعين رغبة لا فى الإنفاق لذات الإنفاق، بل رغبة فى الخديعة وستر حالهم من جبن وإرادة الفساد، أو كارهين لهذا الإنفاق.

فالمنافقون كانوا إذا طلب منهم النفير جنبوا وامتنعوا وتمردوا، ورضوا بالمال كما فعل الجلد بن قيس فيما قصصنا من قبل، إذ امتنع وتعلل بأنه ضعيف أمام نساء الرومان بنى الأصفر، ويخشى الفتنة، وقال: هذا مالى خذوا منه ما تشاءون، ووصف الكاره ينطبق عليه؛ لأنه يكره الإنفاق فى سبيل الله، ووصف المختار ينطبق عليه أيضا لأنه اختاره.

وقد يعجب العاجب من أنهم مع نفاقهم وكفرهم لهم أموال كثيرة وبنون،
إنما هذا استدراج كما قال: ﴿... سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾
[الأعراف]، ولذا قال تعالى:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَزْهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾.

الفاء للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر يقتضيه سياق البيان، أى إن
كانت هذه الأموال لا ينفقونها فى سبيل الله فلماذا يعطونها، فقال تعالى: ﴿فَلَا
تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية، أى لا يثرُ عجبك كثرة أموالهم وأولادهم وأنصارهم، مما
أعطوا مع كفرهم ونفاقهم واستهانتهم بالحق والتنفير منه، وتآليب المبطلين. لا
يغرنك هذا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغْرِنُكَ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ
قَلِيلٌ... (١٩٧)﴾ [آل عمران] وكما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا
مِنْهُمْ زهرةَ الحياةِ الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١)﴾ [طه] إنما هى فتنة
لهم واستدراج، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف].

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أى يريد إعطاءهم وعذبهم،
وحذف المفعول ليشمل كل متع الدنيا من مال وسلطان، وقدرة على التحايل،
وغير ذلك ليعذبهم، أى لينصرفوا مغرورين مخدوعين، فيكون من بعد ذلك
العذاب الأليم فى الآخرة، ولتكون لهم عذابا فى الدنيا بالافتتان بها، ومن وراء
فتنتهم يكون الحرمان بالمصائب والنكبات، وأن تكون مغنم للمؤمنين إذا اشتدت
شديدة الحرب عليهم، والضياع والحرمان، فالمال ليس متعة خالصة، ولكنه تحمل
لهومومه، فأكلة الربا الذين يستكثرون به من الأموال فى هم دائم، حتى أنه لا يرى
ربوى إلا ومعه سقام الجسم والنفس، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا
يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ... (٢٧٥)﴾ [البقرة] وذلك هم
واصب نشأ من ذات المال وأصاب النفس ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ أى يموتون، وقد

ضاقَت نفوسهم من هموم الأموال وما فيها، ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جاحدون الحق، فتكون نفوسهم قد حرمت متعة الدنيا بمصائب الأموال والبنين ومفاتنهم، وحرموا راحة الإيمان، واطمئنان الحق، فحسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ولقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون] وإنهم لنفاقهم يبتعدون بقلوبهم عنكم، شاعرين بأنكم نافرون منهم غير واثقين يا معشر المؤمنين، وكلما كان النفور بسبب ما تعرفونه من لحن أقوالهم، كلما شعروا بذلك أحسوا بأنهم لا يستطيعون خديعتكم، ولذلك يحاولون أن يحملوكم على الثقة فيهم، وما هم بأهل للثقة، وقال تعالى عنهم ذلك: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦)﴾.

(الواو) تدل على صلة هذه الجملة بالتى قبلها؛ لأن الكلام كله فى المنافقين، وشعورهم نحو المؤمنين، يحاول أولئك المنافقون أن يشعروا المؤمنين بأنهم منهم فى شعورهم وإحساسهم، واتجاههم ليستطيعوا أن يثبتوا فيهم ما يريدون من خداع وأن يفتنوه عن دينهم، ويدسوا فيهم الخوف وضعف العزيمة، وذريعتهم الحلف بالله العظيم، وذلك يدل على مهانتهم فى ذات أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلُّ حَلَّافٍ مِّثْلَهُ (١)﴾ [القلم].

وموضع القسم أنهم منكم، ولذا يقول تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ ويؤكدون ادعاءهم لا بالنطق فقط، بل بغير ذلك «بأنهم لمنكم» فيؤكدون بـ(إن) وباللام التى فى خبرها، يؤكدون ذلك فضل تأكيد. والله يشهد أنهم ليسوا منكم بشعورهم وإحساسهم، بل تفرقت القلوب بينكم وبينهم بسبب نفاقهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)﴾ [المنافقون].

وقد قال تعالى مردفا هذا الادعاء بما يدل على الدافع لهم على هذا الحلف ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ الفرق: الخوف. الاستدراك فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُمْ﴾ هو استدراك من حلفهم، ويفيد عدم تصديقهم تأكيداً لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ وخوفهم من ناحيتين، أولاها ما خوفهم من المؤمنين من أن يعرفوا حالهم، وينكشف أمرهم، وهو مكشوف، وهم يظنونهم مستورا، وغرارة المنافق دائما أنه يحسب دائما أن أمره مستور، وهو معلوم ولا يجهل كشفه إلا هو، والثانية أنهم يخافون أن يغامروا فى جهاد مع المؤمنين، إذ يحسبون الجهاد مغامرة، لأنهم لا يؤمنون به، ولا يحسبون أن الجهاد حياة فى عزة، ولا يؤمنون بالحياة الآخرة، فيحسبون أن النهاية تكون عند الموت وأنهم يجعلون أنفسهم من المؤمنين، ولا يقولون أنهم معهم، بل يقولون إنهم من المؤمنين، وادعائهم أنهم منهم يتضمن أنهم مؤمنون، وأنهم جزء من المجتمع الكريم أو بعضه، ذلك إيغال فى دعوى أن شعورهم كشعورهم، ولو مع ادعائهم ذلك يضيقون بجوارهم للمؤمنين، ويريدون أن يفارقوهم، ولذا قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٥٧).

الملجأ - الحصن، والمعنى لو يجدون ملجأ يتحصنون به فى قمة جبل وذلك حصن طبيعى، أو قلعة بينونها، وذلك حصن صناعى، أو جزيرة يأوون إليها. ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾، بفتح الميم وهناك قراءة أخرى بضمها^(١)، وعلى قراءة الفتح يكون الفعل غار وعلى قراءة الضم يكون الفعل أغار، والمعنى مكان يختفون فيه عن الأنظار، ولذا قيل على الثقب فى الجبل غار؛ لأنه يختفى فيه من يذهب إليه، فلا يراه السياره.

﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾، وهو الطريق الخفى الذى يختفى عن الأعين، كالشعب بين جبلين، أو نحو ذلك من المسارب التى لا يقتحمها الناس، ولا يقصدون إليها.

(١) قراءة (مغارات) بالضم، ليست فى العشر المتواترة.

و(لو) فى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغَارًا أَوْ مُدْخَلًا﴾ حرف شرط يقال له حرف امتناع لامتناع، وجواب الشرط ﴿لَوَلَوْ إِلَى اللَّهِ﴾، أى لانصرفوا إليه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أى لذهبوا إليه مسرعين، كالفرس الجموح، وكان التعبير بالجموح للإشارة إلى جموحه، وأنهم يشردون عن الطريق، فهم إن كانوا يجمحون هذا الجموح، موعلين فى انحرافهم فكيف يؤمنون؟، ويخلعون رداء النفاق الدنس ويكونون مع المؤمنين يشعرون بشعورهم، ويحسون بإحساسهم؟.

ولماذا كانوا يتمنون أن يخرجوا؟، كانوا يتمنون ذلك لأنهم يضيقون ذرعا بالمؤمنين، يسوءهم عزهم وهو مستمر بعونه تعالى، وحياطته لهم، ولأن المؤمنين كشفوا أمرهم، ولأنهم يدعون للجهاد ولا يذهبون إليه؛ ولأن ذوى قرابتهم، وأولياءهم قد برموا بهم فضاق العيش، وما ضاق عليهم إلا لسبب ما أوتى المؤمنون من الخير... والله من ورائهم محيط.

قال تعالى:

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ
فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ
لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

النفاق أصناف وضروب، يعلو وينزل، وأعلاه من يظهر الإيمان بالله، ويبطن الكفر، وهؤلاء كانوا بالمدينة، وعلا شأن الإسلام، فكان من اليهود

والوثنيين هؤلاء الذين أعلنوا الإسلام خوفاً، وأبطنوا الكفر، غيظا وعداوة وبغضا، ومن النفاق ألا يستقر الإيمان في قلبه كأولئك الأعراب الذين قالوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم. ومن الأعراب من كانوا يأخذون ظواهر القرآن ولا يطيعون، كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... (٩٧)﴾، وكل هؤلاء تشملهم كلمة المنافقين، ولذلك كان الحسن البصري يقول: إن مرتكب الكبيرة منافق؛ لأن عمله يناقض قوله، فكما أن من ينكر بقلبه ويؤمن بلسانه منافق، فكذلك من يعلن الإيمان، ويصدق بقلبه، ولكن يناقض عمله قوله، والإيمان كما يقول الجمهور من علماء العقائد، اعتقاد وعمل، وهو الإيمان الكامل عند جميع العلماء اتفقوا عليه.

بعد هذا نتكلم في معنى النص الكريم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ اللمز: العيب فالرجل الهمزة أو المرأة اللمزة العيب والعيابة، واللمز يشمل العيب باللفظ الصريح، ويشمل العيب بالتعريض والتلميح، والوخز في الكلام: وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] وقالوا إن اللمزة من يعيب في وجه من يعيبه ولو بلحن القول، والهمزة من يعيب في غيبه وفي غير محضره ولا يواجهه من يعيبه.

والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى المنافقين، و﴿مَنْ﴾ تدل على التبعيض، وإنه عمل بعضهم، ويظهر أنه ليس من الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، بل هو من الذين يعبدون الله على حرف، الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج]، وكذلك هؤلاء المنافقون الذين عابوا النبي ﷺ، وقال الله تعالى فيهم: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

(الفاء) تدل على أن ما بعدها بيان أو إشارة إلى نوع عينهم، وهو بيان لنفوسهم إن أعطوا من المال بحق رضوا واطمأنوا، وقالوا إنها قسمة عادلة، واستقاموا على الطريقة، وإن لم يعطوا لعدم استحقاقهم سخطوا فهم طامعون في

أن يأخذوا بغير حق. ﴿وَإِذَا﴾ - تدل على أن سخطهم أمر لا يرتبط بمنطق الأمور، فهم فاجتوا أهل الحق به، والدليل على المفاجأة ﴿إِذَا﴾ فهي تدل على المفاجأة.

والمفاجأة تدل على أنه غير منطقي؛ لأن من يرضى بالحق عند العطاء، لا يصح أن يغضب إن منع بحق، ولكن النفس المناقة تريد دائما أن تحتجز الخير لنفسها، ولا تلتفت إلى حق غيرها، فأية المؤمن أن يعرف حق غيره كما يعرف حق نفسه، ومن علامة المنافق النفسية ألا يفكر في حق غيره، فكل من لا يلتفت إلى حق غيره فيه شعبة من نفاق.

ومما روى في معنى هذه الآية، ممن كانوا يلمزون في الصدقات أن أبا الجواز من المنافقين في أعلى درجات النفاق قال: ألا ترون إلى صاحبكم، إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل، وروى أن رسول الله ﷺ قال له وقد فهم أنه يعيب رعاة الغنم قال له: «لا أبا لك، أما كان موسى راعيا، أما كان داود». فلما ذهب أبو الجواز هذا قال ﷺ: «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»^(١).

وقد وصفهم رسول الله ﷺ بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهلهم.

وروى في الصحيحين عن أبي سلمة أن ذا الخويصرة واسمه حرقوص اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال: اعدل فإنك لم تعدل فقال صلوات الله وسلامه عليه: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ثم قال: «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»^(٢).

(١) أشار المصنف رحمه الله: هذا المبحث مأخوذ من الكشف للزمخشري.

(٢) رواه في البخاري: المناقب-علامات النبوة (٣٦١٠) عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه، كما رواه مسلم بنحوه: الزكاة-ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٤٦). أبو سلمة هو: عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف، من الطبقة الوسطى من التابعين، وهو الراوى عن أبي سعيد رضى الله عنه.

ولقد روى أن النبي ﷺ كان يقول: «والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكم، وإنما أنا خازن»^(١) هذا بعض ما روى عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أولئك المنافقين الذين كانوا يلمزون أظهر من فى الوجود - فى الصدقات .

ويجب أن ننبه هنا إلى أن الصدقات غير الغنائم، فالغنائم تقسيم أموال لمستحقها بمعنى الغنم والفتح يأخذها الفاتحون بملكية تثبت لهم بمقتضى الجهاد، أما الصدقات فإنها تكون معونات تعطى لمصارف معينة يحتاج إليها أهلها .

وقد بين الله تعالى صفات المؤمنين بجوار ما يفعله الذين فى قلوبهم نفاق، فقال تعالى مسينا من فى قلوبهم نفاق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ٥٩﴾ ﴿لَوْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ هى شرطية، وجوابها محذوف تقديره مثلا: (لكان خيرا لهم)، وإنى أظن أن حذف الجواب لتضمن ﴿لَوْ﴾ معنى الحظ والرجاء بأن يكونوا كذلك إن خلعوا رداء النفاق من أنفسهم .

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فيه بعض نواح نشير إلى بعضها أولاها: أن (رضى) تتعدى بالباء فىقال رضيت بالأمر، وتتعدى بنفسها، فىقال رضيت الأمر، وهنا متعدية بنفسها، وأشعر بأنها إذ تتعدى بنفسها تتضمن معنى الرغبة والافتناع، وهذا ما يليق بالمؤمن عند العطاء من الله ورسوله .

الثانية: أن الله تعالى قال: ﴿آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وذكر الله سبحانه وتعالى، مع أنهم لمزوا ما فعله الرسول، للإشارة إلى عظم الجرم الذى ارتكبهوا؛ لأنهم إذ عابوا رسول الله ﷺ، فكانهم يعيبون الله تعالى؛ لأن الرسول لا يعمل بالهوى،

(١) (إنما أنا خازن) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه: الزكاة- النهى عن المسألة (١٠٣٧)، وأحمد بلفظ مقارب مسند الشاميين- حديث معاوية بن أبى سفيان (١٦٤٦٧)، وأبو داود: الخوارج والإمارة والفىء- فيما يلزم الإمام من أمر الرعية (٢٩٤٩).

ولأن الرسول ينفذ، وإنهم إذا عصوه عليه السلام فقد تجرءوا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ (٨٠) [النساء].

الثالثة: ما أشرنا إليه من قبل، إلى أن ذلك الرضاء أمر يحبه الله ورسوله، ويرجوه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لهم، ليكونوا من المؤمنين حقاً.

وقد صور الله تعالى النفس المؤمنة بأنها قاعة غير طامعة، ونفس المنافق غير قاعة بل هي طامعة دائماً وتريد من الدنيا المزيد؛ لأنها لا تؤمن إلا بالدنيا ومتعتها وموادها، فيبتغون المزيد منها، وبشئ ما يبتغون، فقال سبحانه في تصوير النفس المؤمنة بعد رضاها ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أى كافينا الله، ولم يقل الله تعالى عنهم أنهم يقولون حسبنا ما أتانا الله، بل إنه سبحانه وتعالى يقول عنهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أى إن الله كافينا، أعطانا هذا ما رضىنا به، وسيعطينا إن احتجنا، وما أخذناه يكفيننا.

وقوله تعالى عنهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ فيه من معانى التفويض والتوكل على الله ورجاء ما عنده ما لا يدركه إلا القلوب المؤمنة المتبتلة الضارعة له سبحانه وتعالى وحده.

وإن قوله تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيه تصوير معنى الاتكال على الله تعالى، ورجاء ما عنده. على أنه فضله فيستحق الشكر ولا يجوز أن ينتقص ما يأمر بإعطائه، وينتقص باللمز، والسير فى طريق الكفر، وهو الضلال البعيد.

ولقد قال الله حاكياً عن أقوال المؤمنين ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ هذه غاية الضراعة، أن يرغبوا إلى الله تعالى وحده ولا يرغبون فيما لا يقتنونه، ولا عرضاً من أعراض الدنيا ولا غاية من غاياتها، وتقديم الجار والمجرور ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى على ﴿رَاغِبُونَ﴾ يفيد الاختصاص، أى لا يرغبون إلا إليه سبحانه وتعالى.

وإن الله تعالى بين بعد ذلك مصارف الصدقات، ولم يتركها لنبهه، بل تولاها سبحانه وحده، لكيلا يتناول بعض من بقلبه مرض من ضعف إيمان أو

نفاق أو من تتعلق نفوسهم بظواهر الأمور دون لبابها وغاياتها، فقال تعالت كلماته:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٩٠﴾ .

جاءت آية الصدقات بعد ما جاء عن المنافقين في أحوال كثيرة، وأن منهم من عاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في توزيع الصدقات، فجاءت الآية تبين أن التوزيع من الله سبحانه وتعالى، فلم يتركها لنبي ولا لغيره، تولاها هو سبحانه بالبيان فمن عاب التقسيم، فإنما يعيب تقسيم الله تعالى، فليعلم مكانه في الإيمان، روى عن زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات، حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك»^(١).

فكانت هذه الآية ردا على هذا الفريق من المنافقين بأنهم يلمزون النبي صلوات الله وسلامه عليه، إنما يتجهمون على مقام الألوهية، ولبيان أنهم إذ لم يأخذوا منها، فلأنهم لم يدخلوا في صنف من هذه الأصناف الثمانية، ومن دخل في صنف منها فما منع، بل أخذ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر، أي أن الصدقات قد اختصت بها هذه الأصناف دون غيرهم، فليست لأحد غير هؤلاء من الأغنياء والأقوياء الذين يكسبون ما يكفيهم وأهلهم بالمعروف، ولذا قال عليه السلام «لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذي مرة سوى»^(٢).

فالذين يلمزون الرسول ﷺ أغنياء أو أقوياء.

(١) رواه أبو داود: الزكاة - من يعطي الصدقة وحد الغنى (١٦٣٠).

(٢) رواه الترمذي: الزكاة (١٦٣٤)، وأحمد: مسند المكشرين (٦٧٥٩)، والدارمي: الزكاة (١٦٣٩)، وابن ماجه: الزكاة، من سأل عن ظهر غنى (١٨٣٩) عن أبي هريرة رضى الله عنه.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ لا تفرق اللغة بين الفقراء والمساكين في الجملة، فكلاهما لا مال له يكفيه وأهله بالمعروف ولكنهما اجتماعاً في هذه الآية على أنهما صنفان مختلفان، يتميز كل واحد منهما عن الآخر، وعن الاجتماع بين لفظين معناهما متقارب يخص كل واحد منهما بمعنى ينفرد به عن الآخر، وقد اختلف الفقهاء في تعريف الفقير ليميز عن المسكين، واختلافهم بلا ريب أدى إلى اختلافهم في معنى المسكين.

فقال الأكثرون الفقير ضد الغنى، وهو من لا يملك نصاباً، وهو ما تكون قيمته عشرين مثقالاً من ذهب، أو مائتي درهم من فضة، والمسكين من أسكنته الحاجة وأذلته، أى أنه دون الفقير حالاً، وقيل العكس، ولكن الأكثرين على الأول، وروى عن عمر رضى الله عنه أنه فسر المسكين بأنه المريض بمرض مزمن من أهل الذمة.

وروى أن المسكين هو المتجمل الذى لا يسأل الناس، ولا يلتفت الناس إليه، وقد روى ذلك عن النبى ﷺ، فقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمرتان»، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يظن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»^(١).

وقد اتفق الفقهاء على أنهما يعطيان من الصدقات، وإن كنت أرى أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، فإن لم يكف ما يعطى لهما معاً، فإن المسكين يكون أولى بالعطاء.

ثم قال تعالى فى الصنف الثالث، وهم العاملون عليها، أى الذين يجمعونها من أرباب الأموال كما عين النبى ﷺ ولاية لجمع الصدقات، كما عين الأمراء من بعده ﷺ، وقرر الفقهاء أن أولئك يأخذون ولو كانوا ذوى مال، وقرر الحنفية والمالكية أن ما يأخذونه أجرة، ويكون قدرها بمقدار ما يراه ولى الأمر عليهم، على أنه أجرة عمل تكون متناسبة مع الأجرة فى مثل هذا العمل.

(١) سبق تخريجه.

وقال آخرون ليس لهم من العطاء إلا ما يكفيهم لأهلهم بالمعروف يأخذونه جزاء احتباسهم وتفرغهم لهذا، ولو كانت لهم أموال، كما تأخذ الزوجة نفقتها من زوجها جزاء احتباسها، ولو كانت ذات مال، وهكذا أجر العامل لمصلحة الكفاة، وإن هؤلاء يأخذون من الزكاة، وإن هذا يدل على أمرين:

أولهما - أن الزكاة لا تترك لأربابها يؤدونها، بل يجمعها ولي أمر المؤمنين أو من يوليه لذلك، وقد كان الأمر كذلك في عهد النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر، وفي عهد ذي النورين كان يجمع زكاة الأموال الظاهرة، وهي زكاة النعم والإبل والبقر والغنم، وزكاة الزروع والثمار، وزكاة الأموال التي تنتقل من مصر إلى مصر التي يجمعها العاشر، وأتاب ذوى الأموال في أن يؤدوا زكاة الأموال الباطنة، وهي زكاة النقدين «الذهب والفضة»، وعروض التجارة في أن يؤدوا هذه الزكاة، ولو بلغ الأمر أنهم لم يؤدوها، جمعها منهم كما يجمع غيرها.

ثانيهما - أن الزكاة يجب أن تكون لها حصيلة قائمة بذاتها، والقائمون عليها يكونون منفصلين عن بقية العاملين في الدولة، ولذا عندما دونت الدواوين كان هناك ديوان هو ديوان الصدقات، أو كما سمي في كتب الفقه بيت مال الصدقات. والصنف الرابع: ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ والمعنى اللفظي للنص القرآني السامي الذين تؤلف قلوبهم بأن يقرب الإسلام إلى نفوسهم، بعد أن كانوا ينفرون منه.

وهؤلاء الذين كان فيهم هذا الوصف، كانوا على طوائف مختلفة فمنهم الكبراء الذين يتزعمون قبائل فيعطى لهم من الصدقات، ما يؤلفون به الضعفاء ليقربوا، ويألفوا الإسلام ويهجروا الوثنية.

ومنهم من آمن وخلع الوثنية، ودخل في الإسلام ممن قال بلسانه ولم يؤمن قلبه، ومنهم من خضعوا للغلب، وطيب قلوبهم لكي يؤمنوا، ويعتقوا الإسلام.

وليس هذا رشوة لهم فقد أخضعوا واتبعوا، ويريد النبي ﷺ أن يجعل منهم مؤمنين بدل أن يكونوا خاضعين.

ومنهم ناس كان للنبي ﷺ معهم حروب، وكان فيهم مقاتل في الحرب الحميدة، وكان لابد من أن تطيب نفوسهم، وترضى قلوبهم وتحل المودة محل الخصام والنفرة فأعطاهم النبي ﷺ، ومنهم أبو سفيان وأولاده وعلى رأسهم معاوية ابنه، ولعل هذا العطاء لهؤلاء فيه معنى الديات.

وهل هذا الصنف بقي بعد النبي ﷺ؟ نقول إنه باق ما بقي الإسلام إذا احتاج إليه المؤمنون، بل نقول إن الحاجة إلى تأليف القلوب باق ما بقي الإسلام، وإنه لباق إلى يوم الدين.

وإن عمر لم يلغه أو ينسخه كما ادعى الكتاب، وإنما فعل عمر أنه منع استمرار العطاء لبعض الناس؛ لأنه لم يكن ذلك حقا مكتسبا لهم.

وإنه ممن ينطبق عليهم لفظ المؤلفة قلوبهم أولئك الذين يسلمون، فيخرجون من أهلهم أو قومهم، ولا يجدون ما يستطيعون أن يقيموا لأنفسهم أسرة أو يحرمون من مناصبهم، فإنه يجب أن تؤلف قلوبهم بتعويضهم عما خسروا بإسلامهم، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، وإنه يجب أن يتفق على الدعوة الإسلامية من سهم المؤلفة قلوبهم؛ لأن المقصد الأصلي من المؤلفة قلوبهم هو تثبيت الإسلام في قلوب لم يستقر فيها الإيمان، والله سبحانه وتعالى هو الموفق للحق.

الصنف الخامس: ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي الإنفاق لفك الرقاب؛ لأن دين الحرية لا يرضى بالرق، وقد عمل على الحد من أسباب الرقيق فألغاهما كلها إلا الرق في الحروب فقد تركه؛ لأن الأعداء يسترقون من أسرانا، وقد أمرنا الله تعالى أن نرد الاعتداء بمثله فقال تعالى: ﴿... فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ (١٩٤) [البقرة].

ومع أن الرق قد بقي في هذه الحدود الضيقة، فقد حث على العتق، وجعل له في الزكاة نصيبا مفروضا، يعان به المكاتب لفك رقبته، والمكاتب هو الذي اتفق

مع مالكة على أن يعتقه إذا أدى له ثمنه أو قيمته أو ما يتفقان عليه، ويسعى عاملاً مجداً، حتى يجمع ثمنه، وقال تعالى: ﴿... فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ...﴾ (٣٢) [النور] فيعطى من سهمه فى الصدقات ما يعينه على فك رقبة، وكذلك يشتري من هذا السهم عبيد ويعتقون، وكذلك تدفع منه فدية الأسارى من المؤمنين، حتى لا يسترقوا، وهكذا كل ما يعرض المؤمنين للرق يمنع بدفع مال من هذا السهم.

والصنف السادس: ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ والغارم هو المدين الذى عليه غرامة وهى الدين، والغرم هو الدين الذى يلزم الشخص من غير جباية ولا خيانة كانت منه، وغرم أى وجب عليه غرم، والغارم من وجب عليه هذا الغرم، والدائن يقال له غريم، لأنه يلازم المدين ولا يفارقه.

ويجب أداء دين الغارم أى المدين من الصدقات إذا كان قد استدان فى غير سفه، وعجز عن السداد من غير سفه، والتجار الذين يستدينون لجلب البضائع من الأقطار فى حكمة وعناية بمتجرهم، ولكن تجارتهم تبور أو تغرق مركبها، أو تذهب أموالهم بأى سبب من أسباب الضياع، وكذلك الذين تحملوا ديوناً للصالح بين الناس، فإنه يؤدى ما تحمّلوه من مال الصدقات.

وإنما أديت ديون الغارمين من الصدقات للتعاون، وإقالة العثرة، وازن بين هذا التعاون البانى والتكافل الذى بين المؤمنين، وازن بين هذا وبين القانون الرومانى الذى كان قد عاصر نزول القرآن الكريم، وقد كان يجعل للدائن الحق فى أن يملك رقبة المدين، وازن بين هذا القانون وقانون القرآن معجزة الله الكبرى، إذ يفرض من الصدقات سداد الدين عن المدينين.

وإن هذا القرآن يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بنظام بشرى فى أى بقعة من الأرض، أى يمثل ما أتى به من تكافل اجتماعى. ونذكر هنا قصة صادقة حدثت فى عهد الحاكم العادل حاكم بنى أمية عمر بن عبد العزيز، أنه ببركة العدالة وإعطاء كل ذى حق حقه فاض الخير وعم، ومن مظاهر ذلك أن والى الصدقات

فى أفريقية (تونس وليبيا والجزائر) شكا من تكدر أموال الصدقات فى بيت المال فأرسل بذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، فأرسل إليه: سدد الدين عن المدنيين، فسدها، ولكن مد الصدقات لم ينقطع، فأرسل يشكو امتلاء بيت المال، فأرسل إليه اشتر عبيدا وأعتقها، فأخذ يشتري من عبيد المؤمنين ويعتقهم.

والصنف السابع: ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فسر هذا بعضهم بالإنفاق على المجاهدين إذا كانوا فقراء، وكانوا لا يجدون ما يحملهم، فيعطون من الصدقات ما يحملهم، وفسر بعضهم بالإنفاق على الجهاد بإعداد العدة للجيش وإمداده بكل ما يحتاج إليه جيش الإسلام من أدوات الحرب، والإنفاق على المجاهدين.

وبعض العلماء أدخل فى سبيل الله - الحج، وأجازوا أن يتفق الشخص من صدقاته ما يتفق فى الحج، وأرى ألا يتفق عليه من مال الزكاة؛ لأنه لا يجب الحج إلا على من يستطيع إليه سبيلا، فهو شرط لوجوب أدائه، والزكاة فرض قائم بذاته، والقفال الشاشى قرر أن ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تشمل كل وجوه البر.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾ هو الذى انقطع عن ماله وكان فى مكان لا مال فيه، وهو فى حاجة إلى القوت والمأوى، وسمى ابن السبيل لأنه صار لا مأوى له، وكان السبيل أبوه الذى يؤويه ويحميه.

وإيتاؤه أن يعطى ما يحفظ أمره، ويؤويه من غائلة الطريق، ويوصله إلى بلده حيث ماله، ويصح أن يكون عطاؤه عارية مستردّة إن كان قادرا على الأداء، ويصح أن يكون عطاء غير مسترد، على حسب ما يرى أمير الصدقات.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال الزمخشري: إن ﴿فَرِيضَةً﴾ بمعنى المصدر أى فرضا من الله.

ولماذا لا تكون فريضة وصفا للصدقات وتوزيعها المحكم، أى أن هذا كله موصوف لفريضة، كفريضة الصلاة والصوم والحج، وأنها لازمة لزوم كل الفرائض

المشروعة، ونسبها سبحانه إلى الله منزلها، فقال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ وذلك لبيان لزومها ومنع تغييرها وإجمالها وضرورة إعطائها، وتعود على الذين لمزوا النبي ﷺ في الصدقات ببيان أن التقسيم من الله تعالى، وأن من يعيبه إنما يعيب الله سبحانه وتعالى.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفيه إشارة إلى أن هذا التعاون بين الأغنياء والمحاويج يربى العزة، وهو تشريع من العزيز مانح العزة، الحكيم الذي يعلم الأشياء كلها، ويدبر الأمور بمقتضى حكمته وينظمها بمقتضى علمه.

وقبل أن ننهي الكلام في آية الصدقات نشير إلى أمرين أحدهما فقهي والآخر لغوي، ونبتدئ باللغوي وذلك أن الزمخشري رحمه الله تعالى بين السبب في التعدية باللام في الأربعة الأولى وهي الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وذلك لأن العطاء لهؤلاء لا يكون إلا بالتملك والاختصاص فالفقراء والمساكين يأخذون بالتملك ما يعطون، وكذلك العاملون عليها والمؤلفة قلوبهم، والأربعة الأخرى كانت التعدية بـ (في) فقال تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾، فإن هؤلاء لا يأخذون، فالرقاب لا يأخذون، بل الذي يأخذ مالك الرقبة، وكذلك الغارمون لا يأخذون، إنما الذي يأخذ هو الدائن الغريم، وابن السبيل لا يملك، ولكن يطعم ويؤوى، والله أعلم.

أما الأمر الفقهي فهو أن الفقهاء قد اختلفوا أهذا الإحصاء للاستيعاب واختصاص العطاء في هؤلاء أم الصدقات تقسم ثمانية أقسام. فيكون لكل قسم ثمن الصدقات، قال الشافعي بذلك، وقال جمهور الفقهاء: إنه يقسم على مجموع الأقسام الثمانية، لا على كل قسم بحظه المعلوم، وولى الأمر ينق لكل بما يراه أصح وأعدل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

من أعمال المنافقين

قال تعالى :

وَمِنْهُمْ
 الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٌ
 لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
 يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
 أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
 مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
 ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ
 أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا
 رَبَّ اللَّهِ يَخْرِجُ مَا تُخْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

ذكر سبحانه مقالة بعض المنافقين في لمر النبي ﷺ في الصدقات، وقد رد تعالى قولهم، وبين سبحانه أن أمر الزكاة وسائر الصدقات ليس فُرطاً، بل إن الله نظمها، وأن من يعيب توزيعها إنما يتهجم على الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لم يتركها له ليوزعها كما يشاء، بل ذكر أصناف مستحقيها. ولكنهم يستمرون في إيذائه ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

ولكنهم استمروا على إيذاء النبي ﷺ بأقوال كاذبة، ويفتنون في عضد الجماعة الإسلامية ويشيعون فيها بما يفرقها ويرجعون بالقول، فإذا تسامع الناس بها، وعلموا أنها وصلت إلى مسامع النبي ﷺ لا يبالون، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾،

ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ وليس قولهم: هو أذن - هو الإيذاء، بل الإيذاء بالقول منهم متنوع مختلف لا يتوانى عن الكذب على النبي ﷺ والافتراء عليه كما كانوا يلجون في إشاعة الافتراء على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، فإذا رأوا كبر ما يفعلون سهلوه، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾ أنه يأخذ العلم من مسمعه من غير أن يفحصه، بل يقبله مصدقا له، فما عليهم إلا أن يحلفوا أنهم ما قالوه حتى يصدق أيمانهم من غير أن يفحص كذب ما قالوا، ونسوا أن الله يعلمه بما تبليبل به ألسنتهم، ويجيش في صدورهم، وكلمة ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ كما قلنا أنه يعلم من أذنه، فإذا صدق ما قيل عنهم، فإنه مصدق أيمانهم النافية الكاذبة ولا عليهم شيء من بعد ذلك، وهكذا المنافق يظن أو يتوهم أنه يخدع الناس بقوله وهو المخدوع، وإنما يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون .

وعبر عن المستمع بأنه أذن لأنه في زعمهم علمه كله من أذنه، وذلك مجاز مرسل علاقته الجزئية، فعبر عن الكل باسم الجزء؛ لأن هذا الجزء له مزية خاصة في الموضوع، كما يعبر عن الجاسوس بالعين؛ لأن العين لها المزية الأولى في عمله، ورد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ أُوذُنُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كقولنا أذن صدق، ورجل بر، ورجل حق، فقد سلم بأنه أذن، يستمع إلى الأقوال التي تصل إليه، ولكن لا يقبلها بإطلاقها كما يتقولون، ولكن يفحصها، ويعالج نفوسكم على مقتضاها، ويتدبر الأمر لهدايتكم، ولا يبادركم بشر يناسبكم، ولا يفضحكم؛ لأن الله تعالى أمره بذلك، ولأنه يقصد إلى خيركم، ولا عيب إذا سمع وصدق، ولقد قال بعض المفسرين كلمة طيبة: كلما كانت النفس ألين عريكة، وأسلم قلبا وأسهل قبولا كانت أقبل وأشد استعدادا له، وليس هذا اللين من باب الضعف، والتأثر من كل ما يرد عليه، ويراه حتى الكذب والشرور.

فهم زعموا أن النبي ﷺ إذ لم يجابهم بشرهم يقبل كل كذبهم وافتراءهم، ولو كانت موثقة بالآيمان المغلظة، ونسوا أنه يعرفهم، ولكن لا يريد أن ينزل بهم أى عقاب، حتى لا يقال إن محمدا يعاقب أصحابه وينزل بهم سوء العذاب.

وبين الله سبحانه وتعالى ما يقوى أنه أذن خير، فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وهذا تعريض بهم بأنهم لا يؤمنون بالله، فهو يؤمن بالله حق الإيمان، ويدعن الله حق الإذعان، لا أن يفترى ويوثق افتراءه بأيمان تدل على ما يدينهم ولا تبرئهم، ويقول تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى يسلم للمؤمنين ويصدقهم، وهذا أيضا تعريض بهم، فهو يسلم للمؤمنين ويصدقهم لأنهم مؤمنون، ولا يؤمن لكم ولا يصدقكم لأنكم منافقون، فلا تحسبوا سماحته لكم تصديقا، وإنما سماحته لكم رفق فى الدعوة، وتلطف بكم عسى الله أن يجعل منكم من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويخلع نفسه من النفاق وأهله، وقد عدى البيان القرآنى بالبلاء فى قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، لأن الإيمان بالله معناه التصديق والإذعان، والتصديق يتعدى بالبلاء.

وتعدى باللام فى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان فيما يتعلق بالمؤمنين معناه التسليم لهم، وقبول قولهم، مثل قوله تعالى فى الإخبار عن كلام إخوة يوسف: ﴿... وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ... (٨٢)﴾ [يونس]، وقول الكفار لنوح: ﴿... أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تعريض لهم بأنه عليه السلام لا يقبل قولهم، لأنهم ليسوا بمؤمنين، وإن رفق بهم وتلطف فى القول، فالرفق شأنه، ولكن لا يدل على ما ظنوه من أنه يقبل كل كلام ولو كان كلامهم.

ثم يقول تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالعطف على ﴿أَذْنُ خَيْرٍ﴾ وقرئ بالجر^(١)، أى رحمة للذين آمنوا منكم.

والمعنى على قراءة الجر، هو أذن خير لكم، وإذن رحمة للذين آمنوا منكم.

(١) قراءة (ورحمة) بالجر قراءة حمزة، وقرأ الياقون بالضم. غاية الاختصار (٩٥٩).

وعلى قراءة الرفع، وهى قراءة يكون العطف فيها على ﴿أُذُنْ﴾، أى هو أذن خير لكم، وأذن رحمة للذين آمنوا منكم، والضمير فى ﴿لَكُمْ﴾ و﴿مِنْكُمْ﴾ يخاطب به المنافقين.

ووجه الخيرية لهم أنه يتستر عليهم بقبول كلامهم، وذلك خير لهم من أن يتجهم لهم فيفضحهم، ويكشف سوء نفاقهم، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أى من أهليكم وذوى قرابتكم، ومن كانوا فى الأصل منكم وهذا هم الله تعالى فلا يكشف عن نفاقكم بإظهار القبول لكلامكم، وإن كان يعلم أنكم لكاذبون لكيلا يضار هؤلاء، وعندما ظهر أمر المنافقين ولم يعد خفيا ذهب ابن عبد الله بن أبى رأس المنافقين إلى رسول الله ﷺ وقال له: إن كنت قاتلا فدعنى أقتله، حتى لا أحمل ضغنا لمؤمن، فكان كتمان أمرهم، وعدم مجابتهم بالتكذيب رحمة بهؤلاء الذين آمنوا منهم.

ثم ختم الله سبحانه الآية بذكر العذاب الاليم لمن يؤذى رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أظهر فى موضع الإضمار لأن صدر الآية يبين أن موضوع الآية المنافقون الذين يؤذون رسول الله، فكان يصح أن يعود الضمير إليهم، ولكنه أظهر فى موضع الإضمار، ليبين سبحانه أن سبب العذاب المؤلم هو إيذاء رسول الله ﷺ، ولذا قال جمهور الفقهاء: من سب رسول الله ﷺ، فقد كفر وعُدَّ مرتدا، وحل قتله إلا أن يتوب، ولهم العذاب الاليم أى لكل من يؤذى رسول الله.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى محاولتهم تكذيب ما يقال عنهم بالحلف، والحلف الكاذب شارة المهانة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّهِينَ ۝٦١﴾ [القلم]، فقال سبحانه وتعالى عنهم:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ



إن هؤلاء المنافقين حاولوا الكذب على النبي، وأيدوا كذبهم بأيمان غموس غير صادقة، وحسبوا أن ذلك يخدع رسول الله ﷺ، وظنوا أنهم قادرون على ذلك بأيمانهم لأنه أذن، وقد بين سبحانه وتعالى فساد رعمهم في الآية السابقة، وفي هذه الآية حاولوا أن يخدعوا المؤمنين بأيمانهم الكاذبة؛ لأنهم يعيشون في أوساطهم ويساكنونهم ويجاورونهم فحاولوا أن ينفوا عنهم نفاقهم بالأداة التي يملكونها ويملكها كل فاجر كافر فأخذوا يحلفون، وقال الله تعالى في ذلك: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ لقد تخلفوا عن الجهاد في وقت النفير إلى بني الأصفر المتكاثف عددهم، فكانوا بذلك جبنا، وكانوا كاذبين في ادعائهم الكاذب، وثبت بدليل قاطع نفاقهم، والمنافق في وسط عربى صريح يعلن القوة، ولا يتقبل العاذر - مشنوء مهين، فكانوا يحاولون تبرئة أنفسهم بالإيمان، وقوله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ التعبير بالمضارع لأنهم يحلفون في الحال لا في الماضي وفيه إشارة إلى أن الحلف شأنهم وهو متجدد، وكلما كذبوا حلفوا، وكلما تخلفوا بأعذار غير صادقة حلفوا، فالحلف ديدنهم.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ إشارة إلى أن من معهم من العشراء والجيران من المؤمنين هم المقصودون، وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك فقال: ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أى أن الباعث لهم على هذا الحلف الكذب إرضائكم، وإزالة الوحشة بينكم وبينهم، وزوال النفرة التي تحسونها منهم.

وإن هذا الإرضاء مع أنهم يطلبونه يريدونه لغاية في أنفسهم؛ لأن دوام النفرة منهم يمنعهم من الثقة فيهم، وذلك لا يمكنهم من الدس الخسيس فيهم إذ لا يثقون فيهم، والدس يحتاج إلى الثقة ممن يدسون لهم، ويلقون بالفتنة فيهم، وقد بين الله سبحانه الغش في محاولة الإرضاء، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى أن العيب فيكم ليس في اعتذار أو تخلف أو كذب، إنما العيب الأصل هو النفاق، فالنفاق هو الذي جعلكم تتخلفون عن

الجهاد، وهو الذى جعلكم تعتذرون عنه بأعذار مكذوبة، وهو الذى جعلكم تحلفون ممتهين الأيمان المغلظة.

فهم حاولوا إرضاء المؤمنين ولم يحاولوا إرضاء الله ورسوله لأنهم يعلمون أن ذلك غير ممكن، ولذا قال تعالى فيما تلونا ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى لو كانوا مؤمنين ولا يريدون التخلف، وإن تخلفوا فبأعذار صادقة - لآمنوا أن الله ورسوله أحق بالإرضاء، وإرضاء الله ورسوله ليس بالأيمان الكاذبة، إنما هو بأن يخلعوا أنفسهم من النفاق، ويؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان.

وفى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ إشارة بيانية، وهى أن الله تعالى ورسوله ذكر أنهما أحق بالإرضاء، ولكنه عند عود الضمير أعاده مفردا ﴿يُرْضَوْهُ﴾، وذلك للإشارة إلى أن إرضاء أحدهما إرضاء لهما، فإرضاء الله تعالى إرضاء للنبي ﷺ، وإرضاء النبي ﷺ إرضاء لله تعالى، كما قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... (٨٠)﴾ [النساء]، وفى ذلك إشارة إلى أن الذين يؤذون النبي ﷺ، إنما يتهجمون على مقام الألوهية ويتحدون الله ورسوله، ولقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخَزِيَّةُ الْعَظِيمُ (٦٢)﴾.

لقد كان هؤلاء المنافقون مع ما يظهرون من محاولة إرضاء المؤمنين ليثبتوا فيهم الخور، وضعف العزيمة، حتى إنه فى غزوة «أحُد» بتأثيرهم - همّت طائفتان أن تفشلا بعمل كيدهم.

كانوا مع ذلك يستهزءون بالمؤمنين والنبي ﷺ وقد وضعوا أنفسهم فى حيز، محادين الله ورسوله، فقال تعالى فيهم:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾ الاستفهام هنا للنفى والتوبيخ، ولم نافية، ونفى النفى إثبات كما يقول أهل العلم بالعربية، فالمعنى لقد علموا أنه من

يحادد الله ورسوله، فأن لهم جهنم، وكان الإثبات بهذه الطريقة البيانية لتأكيد علمهم وتأكيد شرهم، كأنهم أقدموا على هذا الشر عالمين، ووجه التأكيد في التقرير بهذه الطريقة مؤداه أنه سئل عنهم: يعلمون أم لا يعلمون، فأجيب عنهم بأنهم يعلمون، فكان في ذلك فضل تأكيد.

وحاده ك (شاقه)، أى جعل بينه وبين الحق حداً، لا يصل الحق إليه، ولا يحاول هو أن يصل إلى الحق، ومن يكون في جانب، والله تعالى في جانب آخر، كأنه يناوئه ويقاومه، ولقد قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ (٢٢) [المجادلة].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فيها قراءتان قراءة حفص بفتح (أن)، وتخريج القول على هذه القراءة أن النار واقعة في جواب الشرط، وأن المصدر المنسبك منها وما بعدها، فاعل لفعل محذوف تقديره (فقد ثبت أن لهم جهنم خالدين فيها أبداً)، وهناك قراءة بكسر (إن)^(١)، وتكون هي وما بعدها جملة مبتدأة، واقعة في جواب الشرط، أو دالة على جواب الشرط، وذلك على تقدير أن الشرط محذوف، ويكون المحذوف تقديره (هالك).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، أى أنهم إذا كانوا في الدنيا يتسترون بنفاقهم، ويخفون حقيقة أمرهم، فإن ذلك مكشوف يوم القيامة، إذ ينكشف أمرهم ويتبين حالهم، ويكون خزيهم وهم خالدون فيها.

المنافق دائماً حذر من أن ينكشف أمره، وقد رأوا النبي ﷺ ينزل عليه الوحي ويخبره بكشف أمر المنافقين، فكانوا يخشون إذا نزلت سورة أن يكون فيها كشف لأمر من أمورهم، فقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤).

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ إخبار عن المنافقين بأنهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة، والحذر يكون دائما من شأن من يستر شيئا؛ لأنه يخشى أن يكشف، وإذا كشف ضاع الغرض الذى ستره من أجله، والسورة الجزء من القرآن المفصول عن غيره كأنه سورٌ بسور يحده، والتنزيل من الله تعالى على نبيه الكريم، فلا تنزل على المنافقين، إنما تنزل على قلب محمد الأمين، فكيف تنزل عليهم، ولكن المراد أنها تنزل فى شأنهم، وكانت التعدية به (على) للإشارة إلى أنها تنزل عليهم كالصاعقة يفاجئون بها، وعلى ذلك يكون الضمير فى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود إلى المنافقين، وكذلك الضمير فى ﴿تَنْبِئُهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فى معنى الأمر، وكثيرا ما تجيء الصيغة الخبرية بمعنى الأمر، كما فى قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وكما فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ [البقرة: ٢٢٨] فإن الخبر فى كل هذه الصيغ يدل على الطلب.

ولكن تخريجها بمعنى الخبر أولى؛ لأنه يناسبه قوله تعالى فى الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾.

والزمخشري يرى أن الضمير فى ﴿عَلَيْهِمْ﴾، و﴿تَنْبِئُهُمْ﴾ يعود على المؤمنين والنبي ﷺ، لأن الشأن فى النزول القرآنى أن ينزل على النبي ﷺ، ومن معه من المؤمنين، وأما الضمير فى قوله تعالى: ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فإنه يعود على المنافقين؛ لأنهم الذين يخفون ما لا يسبدون، فالأنسب أن يعود إليهم، والقرائن تعين عودة الضمائر على هذا النحو.

كان المنافقون يستهزئون فى مجالسهم بالنبي ﷺ وبالمسلمين وبالجهاد، حتى أنهم كانوا فى غزوة تبوك التى كانت ذاهبة إلى الشام يتهاكمون على المؤمنين، ويستهزئون بهم، ولا يكتفون بالقعود عنهم، ولقد روى أنهم كانوا يقولون مستهزئين: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات. وكانوا يريدون ألا يطلع على ذلك أحد من المؤمنين، ولذا قال تعالى:

﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا﴾ هذا أمر للتهديد، كقولك للمجرم الذى بدا إجرامه: افعل ما شئت، وكقول النبى ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى إن الله تعالى كاشف ما تأتمرون به، وما تستهزئون به من قول يكشف عن نفاقكم، وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى أن يخرج، تأكيد لإخراج هذا الأمر الذى يحذرون خروجه، أولا بالجملة الاسمية، و﴿إِنَّ﴾، الدالة على تأكيد الخبر، وفى التعبير بلفظ الجلالة الذى يربى الرهبة والخوف فى النفس، وقوله ﴿مُخْرِجٌ﴾ فيه إشارة إلى مبالغتهم فى الحذر، كأنهم دفنوه فأخرج من دفين نفوسهم.

ولقد جاء فى تفسير أبى مسلم أن قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ...﴾ من قبيل تهكمهم على القرآن، فقال هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا رسول الله ﷺ يذكر كلامهم ويدعى أنه من الوحي، وكان المنافقون يكذبون ذلك فيما بينهم، فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا إظهاره، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا﴾، أى بالله وآياته ورسوله، أو افعلوا الاستهزاء، وهو أمر تهديد ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى مظهر بالوحي ما تحذرون خروجه.

ويقول إن هذا احتمال، ولكن السياق القرآنى يدل على استهزاء أظهره الله تعالى.

وإن هذه الآية تدل على أنهم يكثرون من الاستهزاء والله مخرج أمورهم، حتى لا يخدع فيهم مؤمن قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)﴾ [محمد].

قال تعالى:

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا وَقَدْ كَفَرْتُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

كان المنافقون في المدينة يشبطون المؤمنين عن الجهاد بيث التخاذل فيهم، ووضع ما يؤدي إلى الفشل والعجز فيما بينهم لا يبالون، ما يمنعهم من غرضهم عشيرة أو جوار، أو أنه إذا نزلت بالمدينة كارثة لا ينجون منها.

فكانوا يستهزئون بالمؤمنين في مجالسهم، ويتهمون عليهم، إذا خرجوا إلى الجهاد حاولوا تثبيطهم عنه بيث روح الفشل، أو بالتهكم اللاذع، واستصغار شأن المؤمنين، ومما جاء في مقالاتهم من نفاقهم «أنه بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك كان ركب من المنافقين وبعضهم يقول لبعض: اتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض، والله لكأننا بهم مقرنين في الجبال. قالوا ذلك ترهيباً للمؤمنين، وقال رجل من المنافقين طعنا في المؤمنين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا السنة، وأجبنا عند اللقاء.

علم النبي ﷺ بهذه الأقوال، وراجت وشاعت بين المؤمنين، وكانت تشتد شيوعاً كلما كان قتال؛ لأنه يلهج ألسنتهم بفساد القول كلما كانت حرب أو شدة لتكون السخرية، ويكون التشيط.

وإذا سألهم النبي ﷺ عن هذه الأقوال أقروا بها، وبمقصدهم منها، وهو العبث، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

والخوض هو الدخول في الماء والانغمار فيه، ثم أطلق على الدخول في الكلام الذي يسمرون به، والقصص من الأساطير، واللعب من الفعل أو القول الذي لا يكون لغاية، بل لمجرد العبث، أو الاستهزاء والسخرية.

وقد أكد الله سؤال النبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ بالقسم وفيه اللام الممهدة للقسم، وحذف المفعول؛ لأن أقوالهم كثيرة، وكان جوابهم مؤكداً تبعاً لتأكيد القسم، فهم أكدوا أنهم كانوا يخوضون ويلعبون، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستهزئون، ولذلك أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم: ﴿قُلْ أَلَا لِلَّهِ آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

بين الله سبحانه وتعالى خطر استهزائهم بالخوض في الكلام العابث، واللعب الجاحد، بين لهم أن ذلك يتضمن الاستهزاء بالله خالق كل شيء، والآيات التي ترشد العقلاء إلى الحق، والرسول الصادق الأمين الذي قامت الأدلة من القرآن ومن شخصه على الرسالة، فكفروا بالله وكذبوا الآيات.

وتقديم ﴿أَلَا لِلَّهِ آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ﴾ على الفعل يستهزئون فيه إشارة إلى تخصيص هؤلاء بالاستهزاء، فأى ضلال أشد من هذا، وأى كفر وجحود أشد.

والاستهزام هنا للاستنكار، إنكار الواقع أى التوبيخ على ما فعلوا.

ولهذا الفجور الذى يندر من ألسنتهم ويدل على قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَدُوا﴾؛ لأن كل اعتذار يلقون فيه أنفسهم بهايوة من الكفر أشد مما هم فيه، فقال تعالى:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾.

والنهي هنا على حقيقته، فالله تعالى ينهاهم عن الاعتذار؛ لأن الاعتذار يؤدي إلى أن يقعوا في ذنب أشد مما يعتذرون عنه لحميتهم، وجهالتهم بسبب النفاق الذي أركس نفوسهم في الشر، أو نقول النهي للتهكم باعتذارهم الذي يجعلهم يعترفون بأفحش ذنوبهم.

والاعتذار محو أثر الذنب، وأصله القطع، واعتذرت إليه قطعت ما في قلبه من الموجدة، فهم يحاولون إزالة ما أوجده كلامهم من كفر، فيزيدون الذنوب.

والاستهزاء استخفاف، فإذا كان بالله وآياته ورسوله فهو كفر، ولذا قال تعالى في اعتذارهم وإقرارهم بالاستهزاء ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقد أكد الله تعالى كفرهم بـ ﴿قَدْ﴾ الدالة على التحقيق فأكد الله تعالى كفرهم، وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ والنفاق ليس فيه إيمان، والمنافق ليس بمؤمن، ولكنه يظهر الإيمان، ويكون بعد إيمانكم أى بعد إظهار إيمانكم، فكشفتكم كفركم بعد ستره، فافتضح أمركم بعد أن سترتموه، أو نقول: إنه كان فيهم ضعفاء الإيمان، فكان اشتراكهم معهم في الاستهزاء والسخرية بالله تعالى وآياته ورسوله كفرا لهم بعد إيمان كان فيهم، وإن كان ناقصا، وإنى أختار هذا، والله تعالى أعلم.

ثم يقول سبحانه: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾، إن عفو الله منوط بالتوبة، الطائفة التي يعفو الله عنها هي التائبة، فالتوبة تجب ما قبلها، وقد كان في هؤلاء الذين خاضوا ولعبوا وتعاثوا، من تاب وأتاب.

وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره نقلاً عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس: وكان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أن أعني بها (أى لأنه كان ممن خاضوا بها) تقشعر منها الجلود، وتوجل منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتى قتلا في سبيلك، لا يقول أحد أنا غسّلتُ، أنا كفّنتُ، أنا دفنت. فأصيب يوم اليمامة، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره.

هؤلاء هم الذين عفا الله عنهم، وهذا أحدهم لقد تاب فعفا الله عنه وصار من الشهداء الصديقين، وأسند سبحانه العفو والعذاب إليه سبحانه تعظيماً لمقام العفو، وتهديداً بأهل العذاب، ولقد بين سبحانه العذاب، بقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ الإجماع الذنب الكبير الذى يكون له جرم، وتفعله الجوارح، وتكتسبه النفس، وقد أشار سبحانه إلى أنهم مستمرّون على إجرامهم ولم يتوبوا، ولذلك يتأكد إجرامهم واستمرارهم عليه، وعدم انخلاعهم منه، فقد أكد الإجماع بالجملة الاسمية، و(أن) الدالة على تأكيد ما بعدها، و(كان) التى تؤكد القول، وتدل على استمراره.

أحوال المنافقين وصفاتهم

وقد بين سبحانه صفات المنافقين الذين لا يرجى إيمانهم، فقال تعالى كلماته: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)﴾.

إن المنافقين ينزلون عن الجماعة المؤمنة، فهم فى نفرة عنهم، ويكونون أنفسهم جماعة موحدة يجمعها فكر عام موحد يناقض الجماعة العامة التى يعيشون فيها، فلا يرضيهم ما يرضى الجماعة بل يخالفونها، ويناقضونها فيما تفكر وفيما تعمل، فقد عزلوا أنفسهم عنها، فإذا كانت الجماعة العامة متضافرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم عكسوا، معروفهم منكر عند جماعة المؤمنين، ومنكرهم هو المعروف، ولذا قال تعالى:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى أنهم كل متصل الأجزاء، ولايتهم واحدة وتناصرهم واحد، وفى هذا تكذيب ليمينهم الكاذب فيما نقله سبحانه عنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ... (٥٦)﴾، وهو تأكيد لما قاله سبحانه فى نفى أنهم منكم.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أنهم متضافرون في أسرهم، فأسرهم في الجملة منافقة، ولذا ذكر سبحانه وتعالى المنافقات مع المنافقين، وقال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾، أى أنهم لُحمة متصلة يتغذى بعضهم بلبان النفاق من بعض، فهم بيئة واحدة يغذيها لبن النفاق، أو بالأحرى سُمه.

وقد ذكر سبحانه أحوالهم:

أولاهها: أنهم ينشرون الفساد في الفكر والعمل، فلم رأى عام يخصهم يسوده الفساد في النفوس والأخلاق، يشجع الرذيلة ويتهكم على الفضيلة، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ يشجعون كل ما هو شر، ويمنعون كل ما هو خير، معروفهم منكر، ومنكرهم هو المعروف، وهكذا يقضى الله على بعض الجماعات الإنسانية بالشر، كما نرى الآن من منافقي عصرنا، فعدلهم ظلم وحرمتهم اعتداء، وشوراهم استبداد.

الثانية: أنهم غير متعاونين في ذات أنفسهم، وفي جماعتهم فلا ينفقون في خير قط، والشح يستولى على نفوسهم، ولا يجعلون أنفسهم في وقاية منه، بين تعالى في ذلك الوصف بقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ القبض ضد البسط، وقبض اليد غلها عن الإنفاق، فعبر عن عدم الإنفاق في موضعه بقبض اليد، كما عبر عن الإنفاق في موضعه ببسط اليد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ... (٦٤)﴾ [المائدة].

الثالثة: أنهم ينسون الخير نسيانا، فإذا ذكر لهم الخير تهكموا بصاحبه، وقالوا مستهزئين متهكمين بمن يتكلم في الفضيلة، وهذا عبر الله عنه بقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أى نسوا الله تعالى فلا تذكره قلوبهم، ولا تطمئن به، إن القلوب إذا نسيت الله لا تطيع أمره، ولا تجتنب نواهيه، ونسيان الله تعالى ألا يوفقهم لخير، وأن يجعلهم منغمسين في الشر الذي اختاروه والضلال الذي أحيط بهم.

وإن المنافقين قد ينفقون فى حالين: إحداهما أن يستروا نفاقهم، كما كان المعتذرون المتخلفون عن الجهاد يعتذرون عن الخروج، ويقولون هذه أموالنا أخذوا منها ما شئتم.

والحال الرابعة - أن ينفقوا فى الشر لتأييد الفاسدين، وقد نسوا رقابة الله، فسيهم أى فتركهم يرتعون ويعبثون حتى يوم الحساب. ولقد قال تعالى حاكما عليهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الفسق هو الخروج والتمرد على الحقائق، وهو هنا أشد من الكفر، فهم كافرون بنفاقهم إذ يسترون الكفر، ويظهرون الإسلام، وبهذه المساوئ التى أشار إليها الكتاب العزيز، فيتمردون على الله، ويعاندونه، ويحادونه إذ يحادون الحق.

وقد قال الزمخشري: إن فسقهم هو الفسق الكامل، ونقول إن الله تعالى أكد فسقهم، بالجملة الاسمية، وب﴿إِنَّ﴾، وقصرهم على الفسق بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُمْ﴾، أى أنهم مقصودون على الفسق لا يخرجون من دائرته فهو محيط بهم، إحاطة الدائرة بقطرها.

وقد ذكر الله تعالى عذابهم، فقال تعالى فى كتابه العزيز:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨).

هذا وعيد الله تعالى للمنافقين والمنافقات، ويلاحظ هنا أنه أظهر فى موضع الإضمار، فذكرهم بأوصافهم للدلالة على أن النفاق هو السبب فى هذا العقاب الشديد، ونص على النساء المنافقات؛ لأنهن يكوّن الأسرة التى يُعشش فيها، ويشتكن فى إيجاد البيئة النفاقية التى يسودها الفساد ويحكمها الشر، وقد ذكر الكفار بعد المنافقين، وهم والمنافقون داخلون فى الكفر؛ لأنهم كفار يزيدون النفاق، ولذا قدموا لأنهم أوغلوا فى الكفر، والكافر الضال مظنة التوبة كما تاب الطلقاء وأبناء الطلقاء، وأما المنافق فإنه ملتوى النفس ملتوى الفكر، وقد يكون

الكفار سبب كفرهم عصبية جاهلية، أما المنافقون فسبب كفرهم مع هذا الانحياز الذى يشبه الانحياز العصبى فإنه يوجد فى رءوسهم ضلال فى الفكر والتواء فى القصد.

وذكر سبحانه الموعود فقال: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

ذكر ثلاثة أولها نار جهنم، يلقون فيها وهى تتسع لهم جهنم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر، ٤٤] وهى مراتب ودركات، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ...﴾ [النساء، ١٤٥] فهم أشد الكفار عقابا، وأعظمهم عذابا.

ويقول سبحانه: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، هى الكافية، وهذا يدل على هولها، وشدتها، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها، وهى عقاب مادي.

والنوع الثانى: عقاب معنوى، وهو الطرد والإبعاد المعنوى، وعبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾ أى طردهم من رحمته، وأبعدهم عنه سبحانه لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم.

الثالث: عبر عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى مستمر دائم، وعطفه على هذين السابقين دليل على أنه غيرهما؛ لأن العطف يقتضى المغايرة، ولم يعين سبحانه نوعه، ولكنه أخبر به فيجب علينا أن نصدقه.

قال تعالى:

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكْثَرَ
أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ
كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٦﴾ الْقُرْآنُ

نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ ثُوجٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

بين الله تعالى فى الآية السابقة العقاب الشديد الذى يستقبل الكافرين، وخص المنافقين بالذكر؛ لأنهم كفار أخساء لؤماء، مفسدون، ثم بين سبحانه وتعالى أن ذلك العذاب قريب وليس بعيد، وأنه أصاب الذين من قبلكم، فقال مقربا لعذابهم مثلا له بعذاب من سبقوهم، فقال: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الذين سبقوكم بالكفر والطغيان، والخطاب للكفار والمنافقين، وإن ذكرهم وقد فنوا يومئذ إلى أنهم سيكونون مثلهم فى فناء، وأن الحياة الدنيا التى آثروا متعتها فانية، وقوى ذلك المعنى المشار إليه بقوله تعالت كلماته: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ كانوا فى قوة غزت الأقاليم وفتحت البلاد ودانت لهم رقاب العباد، وسيطروا على الأرض، كان عدد المملأ من قوم فرعون كثيرا، والأموال من الزرع والثمار والسائمة، تجرى فى أيديهم، فأنى يكون عددكم بجوار عددهم، وأموالكم وأنتم بواد غير ذى زرع بجوار أموالهم، ومع ذلك حسبوا الحياة كل شىء ففنوا مع فناء حياتهم الدنيوية.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أى بنصييهم الذى خلقه الله تعالى لهم، استمتعوا بهذا النصيب، وحسبوه الحياة، ولا حياة بعدها، وتحكموا واستكبروا، وقال الطاغوت الأكبر فرعون - ومن شابهه -: ﴿... أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ... (٥١)﴾ [الزخرف] وسرتم سيرهم، فحسبتم أن الدنيا هى الحياة، ولا حياة بعدها. ولذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾.

استمتع معناها طلب المتعة، ونالها، فالأقدمون استمتعوا بما أوتوا من حظوظ الدنيا، وجعلوها متعتهم، وقصروا متع حياتهم عليها لا يطلبون غيرها من متع

الآخرة، ولا يريدونها، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ تدل على ترتب ما بعدها على ما قبلها، ترتب محاكاة واتباع، فطلبتم ما طلبوا، وحاكيتهم فيما فعلوا، ولذا قال: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قلنا: إن الخوض معناه دخول الماء، واختفاء الأرجل والسير فيه، وأطلق على الخوض فى الباطل والإثم، وفيه مجاز، من حيث تشبيه الخوض فى الباطل بالخوض فى الماء من غير تعرف لما فيه، وقد يكون فيه صخور، أو أشياء تجرح وتضر.

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أى خضتم فى الباطل كالذى خاضوا فيه.

والمعنى تشابهت أحوالكم مع أحوال من سبقوكم فاستمتعتم بحياة لاهية رخيصة، من غير نظر إلى عاقبة أموركم وأمورهم وحسبتم أن خلاقكم فى الدنيا هو الحظ الأوفر، فلم تفكروا فى الآخرة، ولم تعملوا على صلاح أموركم فيها، بل إنكم أنتم وهم حسبتم أن حياتكم هى الدنيا، وظننتم أنكم خلقتم عبثاً من غير غاية، وأنه ليس هناك يوم تجازون فيه، وإن الصيغة الكريمة تومىء إلى أن قصر الحياة على حظوظ الدنيا استهانة بأنفسهم، وقد قال الزمخشري فى بيان السبب فى تكرار التشبيه لحالهم بحال من سبقوهم من الفجرة الآثمين العاتين، وفائدته أن يذم الأولين بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهائم بشهواتها الفانية عن النظر فى العاقبة، وطلب الصلاح فى الآخرة، وأن يصغر أمر الاستمتاع بها، ويهين أمر الرضى بها، ثم يشبه حال المخاطبين بحالهم، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله، فنقول: أنت مثل فرعون؛ كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله.

فهو سبحانه وتعالى يشير إلى سوء حال من سبقوهم، ويبين أنهم مثلهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الإشارة إلى أوصافهم من أنهم حسبوا الحياة لهواً ولعباً، فاستمتعوا بحظهم فيها، واستمتعتم أنتم مثلهم، هذا سبب أن حبطت أعمالكم، أى بطلت؛ لأنها تحمل فى نفسها أسباب فسادها،

وأولئك هم الخاسرون، وقد تأكدت خسارتهم، وفي الكلام قصر، واختصاص أنهم مقصرون على الخسران، فلا فلاح لهم في الدنيا إذ تكون حياتهم يأكلون ويمرحون، ولا فلاح لهم في الآخرة إذ يستقبلهم العذاب المهيّن.

وقد أشار سبحانه إلى الهلاك الذي نال من سبقوهم فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾.

بعد أن ذكر أمر من سبقوهم، وأنهم جعلوا حياتهم لاهية لا يقدرّون فيها تبعات، ويحسبون أن حياتهم أن يستمتعوا بخلافهم ولا يقدرّون لهذه الحياة ما بعدها، والآن يذكر لهم سبحانه بعض أعيان من كان مثلهم، ممن يسرون في ديارهم ويرون آثارهم في أرضهم، وعلموا بالتواتر علم اليقين أخبارهم، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾.

الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، وهو يدل على تأكيد الخبر، وهو بمعنى النفي الداخل على النفي، والمعنى مع التوبيخ والتأكيد: لقد أتاكم نبأ من قبلكم، النبأ: الخبر العظيم الشأن، وهذا خبر عظيم الشأن لمن تأمل مغزاه وما يهdy إليه، وهو نبأ قوم نوح، وكيف كفروا، فأغرقهم الله، ولم ينج إلا قليل هم الذين اتبعوه وآمنوا به، وما آمن إلا قليل، وعادٌ وقد أهلكتهم الظلة، وثمود، وقد أرسل الله تعالى عليهم ريحاً صرصراً عاتية، والمؤتفكات؛ وهى القرى التى بعث فيها لوط عليه السلام، وسميت مؤتفكات، لأنها انقلبت على أهلها، من اتفك أى انقلب، وقيل هى فى سدوم، وقد قال فى انقلابها بعد أن أمر لوط وأهله إلا امرأته أن يسرى بقطع من الليل، ولا يلتفت منهم أحد: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود].

وقد أشار سبحانه إلى هلاك الكافرين الذين جحدوا بآيات الله تعالى قوما قوما ولم يعذبهم في الدنيا إلا بعد الإنذار الشديد إليهم، كما قال تعالى كلماته: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ۝١٥﴾ [الإسراء] وقد بعث الله تعالى الرسل إليهم قبل هلاكهم لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فقال تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أى أتتهم رسل الله، بعثت إليهم بالبينات أى بالآيات الدالة على صدقهم، وأضيفت الرسل إليهم، وهى رسل الله للإشارة إلى مزيد العناية بهم من حيث إن الرسل جاءت إليهم خاصة، وخاطبتهم بما يهديهم إلى الحق، ومعهم الأدلة الدالة على الرسالة مستقيمة لا عوج فيها، وبذلك قامت الحجة عليهم، فإن آمنوا فعن بينة، وإن كفروا فعن جحود بعد أن قامت عليهم الحجة.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ اللام فى ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لام الجحود، أى تفيد تأكيد النفى فى قوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾ أى ليس من شأن الله تعالى أن يظلمهم، فقد أقام الحجة عليهم، وقد تأكد بنفى ظلم الله تعالى بما النافية، ولام الجحود، و﴿كَانَ﴾ الدالة على استمرار النفى، أى أنه ليس من شأن الله ولا من كماله أن يظلمهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الاستدراك من عموم النفى، وإثبات ظلمهم لأنفسهم، وتقديم أنفسهم على يظلمون يفيد تأكيد ظلمهم لأنفسهم، وفيه ما يفيد أن ظلمهم يعود إلى أنفسهم، فلا يظلمون إلا أنفسهم، والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلمهم.

وبعد أن بين الله تعالى مآل المنافقين والكافرين الذى أدت إليه أعمالهم، قال فى أعمال المؤمنين وثوابهم:

أحوال المؤمنين وصفاتهم

قال تعالى:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
 أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
 وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ
 وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

ذكر الله تعالى أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض أى من جنس بعض، ولم يقل أنهم أولياء؛ لأن الولاء يقتضى المحبة والنصرة، والمنافق لا يحب أحدا، ولا ولاء له لأحد، بل هو خبٌ لثيم^(١) يترصد للناس الدوائر، وإن وافق غيره يكون ممالأة، ولا يكون إخلاصا، ومن لا يخلص للحق لا يخلص لشيء، ومن لا يخلص لله لا يخلص لأحد.

ولكن بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الأولياء جمع ولى، والولى هو النصير، والمحِب، والوالى هو الذى يجعل عزه عزة لمن يواليه، وعبر عنهم بأنهم أولياء؛ لأنهم جمعتهم الرحمة والمودة، والإخلاص لله تعالى وللحق، وجماعتهم وأسرهم تقوم على الفضيلة، والإخلاص والتراحم؛ لأنهم صَغَتْ قلوبهم لله تعالى، ولانت

(١) من ذلك ما رواه الترمذى: البر والصلة (١٩٦٤)، وأبو داود فى الأدب (٤٧٩٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ غَيْرُ كَرِيمٍ، وَالْفَاجِرُ خَبٌ لَّثِيمٌ»، وَالْحَبُّ: مَنْ سَعَى بِالْخُلَاعِ، . . . وَالْإِسَادُ بَيْنَ النَّاسِ.

أفندتهم له سبحانه، فهم مرتبطون برباط معنى لا ينقسم، وما تربطه المادة يقبل التحطيم أو القطع، وما يربطه الولاء والمودة لا تنقسم عراه؛ لأنه مربوط بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فهي رباط المؤمنين الذين يستمسكون به.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بصفات توثق الإيمان وتقويه.

وأول وصف هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثانى وصف هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أى يؤدونها مقومة مستقيمة بخشوع وخضوع، وحضور لجلال الله تعالى فى أداء أركانها من قيام وركوع وسجود، لا أن يتقروا نقراء، وهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويتحقق فيها قوله تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت].

وثالث الأوصاف هو فى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ والزكاة هى المعاونة الاجتماعية التى يتعاون فيها الناس، فالغنى يعين الفقير، كما يعين القوى الضعيف، وهى الماعون الذى ذكره سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]، فالزكاة هى المعاونة التى فرضها الله على الأغنياء للفقراء، يعتقدها المؤمن مغنما ولا يحسبها مغرما.

والوصف الرابع ذكره سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى طاعة غير متململين فيها بتكليف، ولا مظهرين الطاعة ومضميرين العصيان، يطيعون بقلوبهم وجوارحهم، وينفذون أوامر الله تعالى فى كل شئونهم، وشئون الجماعة المؤمنة، وعلى رأسها الجهاد.

إذا كان المؤمنون يقومون بهذه الواجبات، ويتصفون بهذه الصفات فقد حكم الله تعالى لهم بقوله تعالت كلماته:



﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ الإشارة إلى الصفات التي اتصفوا بها من أنهم أولياء يناصرون بعضهم بعضاً، وأنهم يطهرون نفوسهم بالصلاة، وجماعتهم بالزكاة، ويتواصلون بالمودة، ويحمون أنفسهم بالجهاد في سبيل الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبسبب هذه الأوصاف يرحمهم الله تعالى، فيتأزرون ويجمعون ويتحابون، وأى رحمة أعلى من ذلك، والسين - هنا وفي كل مكان تذكر فيه في القرآن - للدلالة على تأكيد الوقوع.

وقد قال في ذلك الزمخشري: السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد، كما في قولك: سأنتقم منك يوماً - تعنى أنك لا تفوتنى، وإن تباطأ ذلك، ونحوه ﴿... سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)﴾ [مريم]، ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥٠)﴾ [الضحى]، ﴿... سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُمُ... (١٥٢)﴾ [النساء].

فالسين وسوف، يدلان على وقوع الفعل في المستقبل القريب والبعيد، ويؤكدان وقوعه، كما أشرنا إلى ذلك في مقام ذكرهما فيما مضى من كلامنا في معانى القرآن العظيم.

وقد بين سبحانه وتعالى قدرته على تنفيذ وعده ووعيده فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز هو القادر الغالب، مربى العزة فى النفوس والجماعة، والحكيم هو الذى يضع كل أمر فى موضعه.

وقد قدر الله أن عزة الجماعة تكون بترابطها وتوادها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، والاستعداد له، والإقبال عليه بنفوس راضية، وقلوب مؤمنة، ومن تخلف عنه، فقد ذل بعد عزة، وتفرق بعد اجتماع، والله ولى المؤمنين.

وإذا كان سبحانه قد ذكر وعيد المنافقين فإنه سبحانه يذكر وعد المؤمنين

فيقول سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢).

وعد الله تعالى أن يعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وكان الوعد هو ذات الجنات، لا إعدادها، وفي ذلك إشعار بأنها موجودة مهياة قائمة ثابتة، ليس أمامهم إلا أن يدخلوها، ولذا لم يذكر دخولها، بل ذكر وجودها، وذكر سبحانه أن الأنهار تجري من تحتها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وجريان الأنهار يفيد ثلاثة أمور:

أولها: أن ساكنها يتمتع بمنظر بهيج، وثانيها: أنها تجعل جوها لطيفا، لا قرّ ولا حرور، وثالثها: أنها تمد جذور أشجارها بالماء الطيب الذي يجعلها وارقة الظلال لا يبس فيها، بل لها غصون خضراء تجعل المتعة كاملة.

وقال تعالى: ﴿وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ والمسكن الطيبة هي المساكن التي يستطيب نازلها الإقامة فيها، وهي ممهدة تمهيدا طيبا للإقامة، وقد روى أنها قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر، والزرجد، وروى أنها تكون لبنات من فضة وذهب، ولا تعارض في أن تكون كذلك، ولكن نقول إنها مساكن طيبة تطيب الإقامة فيها، وتستريح النفس والقلب بالإقامة، و﴿عَدْنٍ﴾ قال الزمخشري فيها: إن جنات عدن التي وعد بها الرحمن، ويدل عليه ما رواه أبو الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «وعدن دار الله تعالى التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك»^(١).

وإن هذه الآية، وهذه الآثار تدل على أن جنات عدن جزء من الجنة يكون فيها الأبرار، والأطهار، هذا كله جزاء مادي، وهنا جزاء معنوي وهو رضوان الله تعالى، فقد قال عز من قائل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الرضوان هو الرضا

(١) جزء من حديث جاء في كثر العمال: تفسير سورة الإسراء-ج ١، ص ٣٢٤، برقم (٤٤٨٥).

العظيم، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وإن الإحساس بالرضا من الله رب الخلق، وخالق الخلق سعادة لا تعدلها سعادة، ولقد قال فى ذلك الزمخشري كلمة قيمة نقلها. «وشىء من رضوان الله تعالى أكبر من ذلك كله؛ لأن رضاه تعالى هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض كان ذلك أكبر فى نفسه مما وراءه من النعيم، وإنما تنهياً له برضاه، كما إذا علم بسخطه، تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة، وإن عظمت، وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة والنفس الحرة من مشايخنا يقول: لا تطمع عيني، ولا تنازع نفسى إلى شىء مما وعد الله فى دار الكرامة كما تطمع وتنازع إلى رضاه عني، وأن أحشر فى زمرة المهديين» اهـ.

ونرى أنه يفهم من قول الزمخشري أن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أن معناه شىء من رضوان الله أكبر، أى أن أول شىء من رضوان الله تعالى أعظم من كل هذا النعيم.

ويقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والإشارة هنا إلى نعيم أهل الجنة، وتاجه رضوان الله تعالى، هو الفوز والفلاح، والحصول على أعظم جزاء، ويصح أن تكون الإشارة إلى رضوان أكبر؛ فإن ذلك الرضا العظيم جزاء لا يُناهد، والعبارة تدل على القصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، أى لا فوز غير هذا، والله أعلم.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَتَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ
مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ

وَهُمْ أَوْلَىٰ بِمَا كُنَّا لَكُمْ فَاكِهِينَ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَوَلَّوْنَ ۚ
 مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ
 اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
 مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

بين الله تعالى حال المشركين، وما هم عليه، وذكر العذاب الذي يستقبلهم في الدنيا والآخرة، ثم بين حال المؤمنين، ثم يدعو سبحانه إلى استمرار المؤمنين في الجهاد، غير وائين ولا مقصرين.

والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وللمؤمنين معه، وكان الخطاب للنبي ابتداء، لأنه القائد الأعلى، ولأنه الهادي والمرشد، والموجه، ﴿جَاهِدِ﴾ معناها ابذل الجهد في دفع الكفار والمنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام بالاستهيم، ويقولون آمنا بأفواههم، وما هم بمؤمنين، ولا شك أن بذل الجهد في دفع الكفار والمنافقين يختلف، فالكفار الذين أعلنوا الكفر وفتنوا المسلمين يكون جهادهم دفعا بالسيف والقتال، والكفار الذين لم يعلنوا الكفر وأبطنوه، ولم يفتنوا المسلمين بالإيذاء والتعذيب. . كان يفعل ذلك المشركون في مكة ولكنهم يثيرون الفساد، والدس والفت في عضد المؤمنين فدفعهم يكون بدفع أذاهم وشرهم، ومقاومة ما يثونه في المؤمنين من تضليل، وأن يبعدهم عنهم، وبطلان ما يدعون إليه، وإقامة الأدلة عليهم ومنع تأثيرهم، والنبي ﷺ يقول: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألستكم»، ولا شك أن الجهاد باللسان له مقامه في جهاد المشركين، وأشد ما يكون تأثيرا في جهاد المنافقين.

ومن جهاد المنافقين ألا ييش لهم، حتى يطمعوا في خداعه، بل يشعرهم بأنه في حذر منهم، ويقول ابن مسعود: يستنكر أفعالهم بيده، فإن لم يستطع فباكفهرار وجهه. وفي الجملة يسد عليهم باب خديعتهم، وقال الحسن البصري: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود، وذلك على أساس مذهبه من أن مرتكب الكبيرة

منافق، ويرى ابن جرير أن يكون جهادهم بالسيف إذا كشف نفاقهم، وأظهروا كفرهم، ويقول في ذلك إنهم في هذه الحال يخرجون من إسرار النفاق إلى الجهر بالكفر، فيدخلون في عموم الكفار المظهرين الكفر.

ولقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين بينه الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ... (٥)﴾ وسيف لكفار أهل الكتاب، وبينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾، وسيف للمنافقين بينه الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، وسيف للبغاة، كما قال تعالى: ﴿... فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ... (٩)﴾ [الحجرات].

وإنه قد روى أن الذي تولى سيف المنافقين هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ، فقد تكشف نفاقهم في الردة التي وقعت عقب وفاة رسول الله ﷺ، إذ ارتد الأعراب الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ... (٩٧)﴾.

وإنه لهذا قال ابن جرير بقتل المنافق وقد لاحظ وصف الظهور، كالذين ارتدوا في عهد الصديق وقاتلهم عندما أرادوا أن يؤدوا الصلاة، ولا يؤتوا الزكاة، فقال لهم رضى الله عنه: «سلم مخزية، أو حرب مجلية».

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ أى عاملهم بخشونة، ولا تفرق بهم فإن الرفق يكون بحملهم على الإيمان بالشدة عليهم حتى لا يمعنوا في الكفر، وعسى أن تكون الشدة دافعة غرورهم مانعة طغواءهم، وهذا عذابهم في الدنيا، ويكون بالهزيمة، والخزى والخسران.

أما جزاؤهم فى الآخرة، فقد ذكره سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَنِشْ الْمَصِيرُ﴾ والمعنى يسرون إلى الآخرة حتى يجدوا المأوى الذى يؤويهم، وهو جهنم وفى هذا نوع من التهكم؛ لأن المأوى يأوى إليه الإنسان ليجد فيه المستقر والراحة والاطمئنان، فذكر المأوى فى هذا المقام تهكم عليهم كقوله تعالى: ﴿... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٦)﴾ [آل عمران].

ثم ذم الله تعالى هذا المأوى فقال: ﴿وَنِشْ الْمَصِيرُ﴾ الذى آووا إليه. اللهم قنا عذاب النار.

لقد قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١) فقول الذين عاصروا النبى ﷺ، كان أوضح أوصافهم الكذب والحلف، ولذا قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

كان المنافقون ينالون بالستهم من النبى كثيرا، ولا يكفون ألسنتهم، ويقولون إذا أظهروا الإيمان، إنما نحن نستهزئ بهم، وكان الله يُعلم نبيه بأحوالهم وأقوالهم، وكان النبى ﷺ يعرفهم فى لحن أقوالهم، كما قال تعالى: ﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... (٣٠)﴾ [محمد].

وكانت كلماتهم الفاسقة، تتساقط على مسامع بعض المؤمنين من غير أن يتنبهوا، روى أن النبى ﷺ كان يخطب فقال رجل من المنافقين، وزيد بن أرقم بجواره، قال ذلك المنافق: (لئن كان هذا الرجل «أى الرسول» صادقا فنحن شر من الحمير، فقال زيد رضى الله عنه: فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار).

كان هذا القول وأشباهه يصل إلى مسامع رسول الله ﷺ، وربما يجابهم بهذا الذى ينقل، عندئذ يجدون المطية التى اختاروها، وهى مطية كل كذاب مهين، وهى الحلف بالله تعالى من غير أى حريجة.

ولذا يقول فى بيان حالهم عندما يكشف أمرهم وتعلم أقوالهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

قلنا: إن أقوالهم المنافقة كثيرة لا تخص واحدة دون الأخرى، بل كلما تكشف قول ينبئ عن نفاقهم - كذبوه وحلفوا اليمين الغموس الفاجرة، وقد أشرنا إلى أن اليمين الفاجرة، كانت المساغ لكذبهم، لعنهم الله هم وأخلافهم فى هذا الزمان، وقد قالوا كلمة الكفر أى ما قالوه فيه كلمة واحدة هى كافية لطردهم من رحمة الله، واستحقاقهم نار جهنم، وهى إنكار الرسالة المحمدية؛ إذ هى الكلمة التى أوقعتهم فى حضيض الكفر، أو نقول «كلمة» بمعنى كلمات، وكلمة بها كلام قد يؤم^(١)، والمراد أن كلامهم كله فى الاستهزاء والتهكم، وإيقاع الفرقة، والفساد، والفساد، هو كفر.

وقال ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أى بعد إعلانهم الإسلام، وإبطانهم الكفر والنفاق، فهذه الكلمة أو الكلام قد كشف نفاقهم الذى كان مستورا بإعلان الإسلام، فما استفادوا إلا بيان حالهم، ومعرفة الوصف الحقيقى لهم.

﴿وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ أرادوا أن يفسدوا أمر المؤمنين، وتوقعوا الفتنة والفشل فيهم، ولم ينالوه؛ لأن الله تعالى رقيب عليهم، وكاشف للمؤمنين أمرهم، وكلما أوقدوا نار فتنة أطفأها الله سبحانه وتعالى، وعادت الأمور بيضاء لا فتنة فيها، ولقد هموا بقتل النبى ﷺ يوم أرادوا الفتك به بإلقاء حجر عليه فكشف الله تعالى بالوحى أمرهم ولم ينالوا مأربهم، وهموا بقتله فى عودته من تبوك ولم ينالوا ما ييغون؛ لأن الله تعالى عاصمه من الناس، فإنهم جمعوا عددا ما بين اثنى عشر، وخمسة عشر رجلا للفتك برسول الله ﷺ، وهو فى أعلاها، على حسب اختلاف الرواة كى يفتكوا برسول الله ﷺ، وإليك القصة كما رواها الإمام أحمد

(١) «وكلمة بها كلام قد يؤم»، شطر بيت من ألفية ابن مالك، ومعناه: أن «كلمة» تطلق، ويقصد بها «كلام»، مثل كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

قال: «لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا أن ينادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوق به عمار، إذ أقبل رهط ملثمون على الرواحل غشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار رضى الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة «فُذْ فُذْ» حتى هبط الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فلما هبط ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: «هل عرفت القوم؟» فقال رضى الله عنه: قد عرفت عامة الرواحل والقوم ملثمون! قال عليه الصلاة والسلام: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال صلوات الله وسلامه عليه: «أرادوا أن ينفروا برسول الله، فيطرحوه»^(١).

وهكذا هموا بقتل رسول الله ﷺ ولم ينالوا منه، وصدق وعد الله لرسوله إذ يقول له: ﴿... بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد ذكر المفسرون أن النص الكريم ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ خاص فى تلك الحادثة. ونحن نقول إن النص يشمل كل ما هموا به ولم ينالوه.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لقد ازداد عمران المدينة بمقدم رسول الله ﷺ، فاتسعت تجارتها، وكثر سكانها، ثم ما كانت تأتى به الحروب الإسلامية من غنائم زادت الخيرات واتسعت الموارد، وعمت سكان المدينة وغيرهم، ولكن المشركين لم يلتفتوا إليه وأن ذلك يوجب الحمد، ولكنهم لؤماء أخساء، قابلوا النعمة بالكفر، وتأكد لؤمهم بقلبهم النعمة نقمة، فهم بدل أن يشكروا النعمة كفروها، وقالوا إن هذا يشبه تأكيد المدح بما يشبه الذم فى صيغته، كما فى قول النابغة الذبياني:

(١) راجع القصة كاملة فى مسند أحمد: باقى مسند الأنصار- حديث أبى الطفيل عامر بن واثلة رضى الله عنه (٢٣٢٨).

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

بيد أن كلام الله العلى الكبير فيه تأكيد ذمهم لا تأكيد مدحهم، فكان حقه عليهم أن يعدوا محمدا ودينه بركة عليهم يقدرونها حق قدرها.

وقد ذكر سبحانه أن هذا الغنى من فضل الله تعالى من به عليهم كان يوجب عليهم حسن الصحبة لمن جاوروهم الذين جاء الخير على أيديهم، لا أن يتربصوا بهم الدوائر، وذكر رسول الله ﷺ بجوار رب العزة، وهو الغنى والناس جميعا فقراء إليه سبحانه، ذكر الرسول مع الله تعالى؛ لأن الخير كله أجراه الله تعالى على يديه، ولكي يعلموا أن مقدمه عليهم بركة وخير، ولأن الله تعالى أكرمهم لمقام النبى ﷺ بين ظهرائهم.

ومع هذه المكاييد والفتن فتح الله تعالى لهم باب التوبة، فهو ينهى عن أن يقنط عباده من رحمته، فباب الرحمة والتوبة مفتوح، ولذلك قال تعالى فاتحاً باب الأمل لهم:

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أى إن يتوبوا توبة نصوحا يخلعون فيها أنفسهم من الكفر، كما يخلع الثوب النجس ليلبس طاهرا، ﴿يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛ أى يكون ذلك خيرا لهم؛ لأن نفوسهم قد طهرت، وطهارة النفس فى ذاتها خير، واستقامة النفس اطمئنان وإيمان، وخير أيضا؛ لأن النفاق ضعف، والإيمان قوة، وقوة النفس خير، وخير أيضا لأنه نجا من خزى النفاق وذله وجبنه، وخير لأنه نجا من عذاب يوم القيامة، وإنه يكون عكس ذلك إن استمروا على غيهم، وبقوا فى رجسهم، ولذا قال سبحانه:

﴿وَأَنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أى إن أعرضوا وانصرفوا إلى الفساد وساروا فى طريقه يعذبهم الله فى الدنيا بضعف نفوسهم

وخزيهم، وفقد الثقة فيهم، والخزي العظيم، ونفور الناس منهم، وضرب الذلة عليهم، وانتقام الله منهم، وكشف ما يضمرون، وقتلهم، كما فعل أبو بكر الصديق عندما ارتدوا، فأنزل بهم الهزيمة والخزي والعار بتأييد الله، وعذابهم في الآخرة جهنم وبئس المصير.

ومن عذابهم في الدنيا أنهم لا ولي لهم ولا نصير، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ - في الأرض - أى في هذه الدنيا، أى أنهم في الدنيا يفتقدون الأولياء الذين يحبونهم ويؤدونهم، إذ الولاية والمحبة توجب الثقة والمودة والإخلاص، وأخص ما يختص به المنافق أنه يفقد الإخلاص فلا يخلص لأحد، قريباً كان أو بعيداً، وإذا فقد الإخلاص فليس ولي ولا حميم ولا نصير، أى لا أحد يكون نصيراً لأن ذلك يكون بالثقة، ولا ثقة في منافق. اللهم اكفنا شر النفاق والمنافقين.

عهود المنافقين

قال الله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِ
 ءَآتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾
 فَلَمَّآ آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ
 ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا
 اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ
 الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
 جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

فى الآفة السابقة بين الله تعالى كذب المنافقين؁ واستعانتهم فى تأييد كذبهم بالآيمان الكاذبة التى لا تصدر إلا عن مهين؁ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١٠) [القلم].

وذكرنا الحديث الصحيح الذى قال فيه النبى ﷺ «آفة المنافق ثلاث: إذا حدث كذب؁ وإذا وعد خلف؁ وإذا أؤتمن خان» (١).

وقد كانت علامة النفاق الكذب؁ وقد ذكر الله تعالى الكذب؁ ونتيجته ويذكر الله تعالى خلاف الوعد؁ فيقول تعالت كلماته:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

الضمير فى ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى المنافقين؁ وما أشد إنصاف الله تعالى فى أحكامنا؁ وإنه سبحانه يعلمنا الصدق فى أحكامنا فلا نسرف فى القول فنعمم القول؁ والخبر عن خاص.

والعلماء يذكرون شخصا بعينه؁ أو أشخاصا معينين؁ ونحن نميل دائما إلى أن تكون ألفاظ القرآن على عمومها من غير تخصيص أشخاص؁ وهنا نقول إن من خواص النفاق إخلاف الوعد؁ وإن الإخلاف يقع من بعضهم؁ وإن كان يحتمل أن يقع من كلهم؁ وعهد الله تعالى الذى يعاهد عليه بعضهم يشمل ما إذا عاهد النبى ﷺ؁ أو عاهد الله مناجيا ربه؁ أو أقسم بالله معقدا الأيمان أو نحو ذلك فهو فى كل ذلك يعاهد الله تعالى؁ فمن أقسم أن يصدق إذا جاءه فقد عاهد الله تعالى؁ ومن نذر لله نذرا إذا أعطاه الله تعالى ليصدقن؁ فقد عاهد الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ اللام هى الموطئة للقسم؁ وقوله تعالى: ﴿آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾؁ لم يذكر فيه نوع ما يؤتیه؁ أهو علم؁ أم مال؁ أم جاه... إلى آخره؁ لم يذكر ما يعطيه الله تعالى صراحة؁ ولكن الظاهر أنه مال؁ بدليل

لنصدَّقن ولنكونن من الصالحين، فهي نص في المال، ولعل مثل المال غيره، فمن آتاه الله تعالى علماً، فصدقته أن يجعله لله خالصاً، فلا يتجر به ولا يبيع كلام الخالق بالدرهم والدينار، ولا يفتي بغير الحق ولا يحل ما حرم الله، ولا يحرم ما أحل الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَنَصُدَّقَنَّ﴾ جواب القسم، وليست جواب الشرط؛ لأنه يقدم جواب القسم على جواب الشرط، والدليل على ذلك نون التوكيد الثقيلة، ووجود اللام ونون التوكيد الخفيفة في المعطوف.

ونرى كما قلنا أن النص عام لا يخص أحداً منهم، وإن كان في مساق بيان أحوال المنافقين.

ولكن يذكر المفسرون خبراً عن النبي ﷺ، قال الأكثرون إنه ضعيف السند في النسبة إلى النبي ﷺ، ولكن نذكره؛ لأنه مع ضعفه يصور طمع النفس التي لا تشبع، بل يزيده العطاء من فضل الله طمعاً، ويوجد فيها شحاً.

وذلك أنه مع ضعفه يصور النفس الإنسانية إذا استغنت، ونرى كيف يتحقق قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (٦) «أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى» (٧) [العلق]، وهذه الرواية كما جاءت في كتب التفسير بالرواية، ونقلها الزمخشري، ولم يضعفها، وإن كان علماء الرواية قد ضعفوها: روى أن ثعلبة بن حاطب، قال يارسول الله: ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله ﷺ: «قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه»، فراجعته، وقال: «والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله لأعطين كل ذي حق حقه، فدعاه، فاتخذ غنماً، فتمت كما تنمى الدود، حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ، فقبل كثر ماله حتى لا يسعه واد، قال: «ويح ثعلبه»، فبعث رسول الله ﷺ مصدقاً لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقائهم ومرا على ثعلبة وسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ الذي فيه الفرائض. فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: أرجعا

حتى أرى رأى، فلما رجعا قال لهما رسول الله قبل أن يخبراه: «يا ويح ثعلبة» مرتين. فلما نزلت آية الصدقات جاءه ثعلبة بالصدقة، فردها النبي ﷺ.

وإن هذه القصة تصور كيف يكون الإنسان، وهو في حرمانه سليم القلب، فإذا جاءه المال أطعاه وأنساه ربه ودينه. وإن إخلاف الوعد، أو العهد الذي عاهدوا الله تعالى ينشئ النفاق، وينمى النفاق، ويجعله يتكاثر ويزداد، ولقد قال تعالى مبينا خلف وعدهم: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

(الفاء) لترتيب الإخلاف بالعهد، لأن الحلف لا يزيد المنافق إلا خداعا، ولا يجعله يؤدي الحق فهو يكون على عكس ما يوجهه الإيمان إذ الإيمان يوجب الوفاء، والنفاق على عكس ذلك يوجب الإخلاف، وقد صور الله تعالى إيتاءهم وإخلافهم للعهد بقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ ويبدو ذلك في الرواية التي رويت عن ثعلبة ابن حاطب، كيف بخل عن الواجبات المفروضة لا عن الصدقات غير المفروضة، وتعلل بأن الزكاة أخت الجزية، وإنه كان عليه أن يتفضل بالخير؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله من حيث لا يحتسب، وكان رزق الله تعالى فائضا.

وفي الآية الكريمة تصوير لنفس البخيل يؤتيه الله تعالى من فضله بعد أن وعد بأنه سيعطى ويتصدق، ويكون من الصالحين، ويوثق عهده بالإيمان المغلظة، ثم ينقض بعد ذلك عهده شحا بالمال، وقد زاده العطاء شحا، ويصور كذلك نفس المنافق، ولا ترتبط بعهد، ولا تصرّ على وعد، بل نفسه منفلة دائما، وعائرة، لا تستقر ولا يوثق لها، وإن المنافق إذا فقد الضمير والنفس اللوامة انماعت نفسه، فأصبح لا يؤمن بشيء ولا يربط بعهد أو وعد.

وقد استنبط بعض فقهاء الزيدية من هذه الآية وجوب الوفاء بالعهد مادام في غير معصية، والفقهاء جميعا على ذلك، ومصادقه قوله ﷺ: «من نذر أن يطيع

الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه^(١) والعهد لله نذر، وقد قال جمهور الفقهاء إن النذر واجب الوفاء إذا كان من جنس فرض من الفروض، وإن العهد لله الذى يعاهد أولئك المنافقون عليه عهد على طاعة، وهى الصدقة فى قوله عنهم: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيه إيماء إلى أنهم يحسون بأنهم ليسوا صالحين، وأنهم يريدون أن يعدلوا، ليخرجوا من الحال غير الصالحة إلى حال أخرى غير حالهم، وهو حال النفاق.

وقد زادهم العطاء نفاقاً؛ لأنهم لم يفوا بالعهد، وكذا ما عاهدوا الله عليه. وصور الله تعالى نكثهم بقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) أى عرضوا عن الله تعالى بعد أن أدنوا أنفسهم منه سبحانه، وأكد سبحانه وتعالى إعراضهم بالحال، أى أنهم انصرفوا عن الله، وصار الإعراض حالهم، التى يعيشون فى دائرتها، فيتقلون فى محيطها من إعراض عن الله تعالى إلى إعراض أو حل فى النفاق، ولذا قال تعالى:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧).

فأعقبهم أى جعل الله عقب فعلهم هذا نفاقاً إلى نفاقهم. أى فازدادوا نفاقاً وأوغلوا عما كانوا، وقال الحسن البصرى إن الضمير الفاعل يعود إلى البخل، أى أن البخل بعد العهد الذى عاهدوا الله تعالى عليه، زادهم نفاقاً؛ وذلك لأن الاستمرار على المخالفة يزيد النفاق نفاقاً ويتراكم بعضه على بعض حتى يتكاثر، ويمتلئ القلب نفاقاً، حتى لا مزيد عليه، وكأنما الأعمال الفاسدة هى الخبث الذى يسقى به نبات النفاق فيزيده، وينميه، حتى يستغلظ سوقه.

(١) رواه الترمذى: النذور والأيمان - من نذر أن يطيع الله (١٥٢٦)، والنسائى: الأيمان والنذور - النذر فى الطاعة (٣٨٠٦)، وأبو داود: الأيمان والنذور - ما جاء فى نذر المعصية (٣٢٨٩)، وابن ماجه: الكفارات - النذر فى المعصية (٢١٢٦)، وأحمد: باقى مسند الأنصار - حديث السيدة عائشة رضى الله عنها (٢٣٥٥٥).



والاكثرون على أن الضمير الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ يعود على الله؛ لأنه في النفس دائما، ولأنه صاحب العهد الذي عاهدوه على الوفاء به، ومعنى إعقابه سبحانه وتعالى النفاق لهم أنه سبحانه وتعالى وقد ساروا في طريق الغي والضلال أمدهم بما يزيدهم عتوا ونفاقا، وطغيانا، فأمدهم في طغيانهم، وهم الذين ابتدعوه.

﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ سبحانه وتعالى، وعندئذ يكون العذاب الذي أنكروه بعد الحساب بعد أن ترى كل نفس ما فعلت، وبعد أن يأخذوا كتابهم بشمالهم.

وقد بين سبحانه ما غدّى نفاقهم، وزاده فقال تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أى أخلفوا الوعد الذى وعده الله تعالى، وجعل الإخلاف لله ابتداء لبيان جرمهم فيما فعلوا، إذ إنهم أخلفوا الله تعالى خالفهم وبارئهم ومالك أمرهم، وأى نكر أشد من ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدُوهُ﴾ كأنه فى مقام البيان لما أخلفوا به رب البرية، فأى أمر تنكره العقول أبلغ من ذلك! وأى نفاق أجرا وأمكن من ذلك!، أى أنهم زادوا نفاقا إلى نفاقهم بسبب إخلافهم الله ما وعده، وبسبب كذبهم على الله سبحانه وتعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

أى وبسبب استمرارهم على الكذب، لأن (كان) تدل على الاستمرار، والتعبير بالمضارع ﴿يَكْذِبُونَ﴾ يدل على تجدد كذبهم آنا بعد آن، فحديثهم كذب مستمر متجدد، وإن الكذب يهذى إلى الفجور، والفجور يهذى إلى الفسوق، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا، وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحد صار منافقا، وإن كان منافقا ازداد نفاقا على نفاقه.

وإنهم يعاهدون ويخلفون، ويكذبون حاسبين أن الله تعالى لا يحصى ما يفعلون، ويدبرون ويعاهدون، والله عليهم بهم، ويحسبون أنهم يخدعون الله، والله خادعهم، ولذا قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٧٨) .

الاستفهام إنكارى بمعنى النفى مع التوبيخ، و(لَمْ) نافية، ونفى النفى إثبات، والمعنى يعلمون علما لا مرية فيه أن الله تبارك وتعالى يعلم سرهم ونجواهم، والسر ما يكون فى النفس ويجرى فى العقل، وتحدثهم به نفوسهم، والنجوى ما يتناجون به ويتشاورون، ولا يعلنونه جهارا بين الناس، أى أن الله يعلم ما فى نفوسهم وما ينوونه، فهو عالم أنهم عند وعدهم بما وعدوه النبى ﷺ وعاهدوه عليه، ويعلم أنهم لن يوفوه العهد؛ لأن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما ينوون وما يعلنون، وهو محيط بكل شىء، وعليم بكل شىء.

وهذا النص الكريم يفيد أن الله يعلم عندما عاهدوا النبى ﷺ عهدهم ﴿لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن﴾ أنهم لن يوفوا بعهدهم الذى عاهدوه مختارين^(١)، وأخلفوا مختارين، ولكن الله تعالى تركهم فى غيهم يعمهون.

وأكد سبحانه بأن الله أحاط بكل شىء، بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ عطف هذا المصدر على ألم يعلموا، أى أنهم يعلمون أن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم، وأن الله تعالى علام الغيوب، يعلم ما استكن فى نفوسهم من إرادة النفاق والكذب، وأنهم لن يوفوا.

وعلام الغيوب صيغة تؤكد علم الله تعالى الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا فى كتاب، وهو يعلم خافية الصدور ومكنون النفوس، يعلم الغيوب كلها ما مضى وما يجرى، وهو السميع العليم البصير القاهر فعال لما يريد.

وهؤلاء الذين عاهدوا، وغدروا، ولم يوفوا بما وعدوا من صدقة إن أغناهم الله من فضله - عيابون شأن كل منافق كله عيوب، ويعيب على غيره، فهم يعيبون على الذين يتطوعون بقليل من المال وقد بذلوا أقصى طاقتهم ويقول الله تعالى فى بيان هذا الحال فيهم:

(١) من الحتر، وهو الخيانة للعهد.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩).

﴿الَّذِينَ﴾ وصف للمنافقين، ﴿يَلْمِزُونَ﴾ أى يعيبون وقتا بعد آخر، وتكرر غمزهم، لأنهم من ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أى المتطوعين، وقلبت التاء طاء وأدغمت الطاء فى الطاء، والمتطوع هو المتصدق تطوعا، وقد أدى الفريضة، وإن هذا الإدغام قوى المعنى فى اللفظ، أى الذين يؤدون فيه أقصى التطوع، فذو المال يتطوع بأقصى ما يمكن من التطوع لا يدخر، والقل من المال يتبرع بمقدار جهده وطاقته، وهم يعيبون من يتطوع بالكثير فيقولون يرائى، ومن يتطوع بالقليل مما يقدر عليه يقولون ساخرين: الله غنى عنه، فهم عيايون لا يتبرعون، ويعيبون من يتبرع، ذا مال أو لم يكن ذا مال.

روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: لما نزلت آية الصدقات كنا نحامل (أى نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة)، فجاء رجل، فتصدق بسخاء كثير فقالوا! يرائى، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله غنى عن صدقة هذا.

وروى الإمام أحمد رضى الله عنه عن أبى السليل عن أبيه أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها، فجاء رجل لم أر أشد سوادا ولا أصغر منه - بناقة ساقها لم أر فى البقيع ناقة أحسن منها، فقال يا رسول الله: أصدقة، قال عليه الصلاة والسلام: «نعم»: قال الرجل: دونك هذه الناقة، فلمزه رجل، وقال: هذا يتصدق بهذه، فوالله لهى خير منه، فسمعها رسول الله ﷺ، فقال: «كذبت هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المثين من الإبل» ثلاثا، قالوا: إلا من يارسول الله؟، قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه، وعن شماله، قال وقد أفلح: «المزهد المجهد»، وفسرها ابن كثير المزهد فى العيش المجهد فى العبادة.

وتبرع عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أجننت أنت! قال: ليس بى جنون، هو مالى ثمانية آلاف درهم، أقرضت الله منها أربعة آلاف، وجعلت لعيالى أربعة آلاف، فدعا له النبى ﷺ، ولكن المنافقين قالوا: ما تصدق إلا رياء.

وجاء رجل بصاعين من بر تبرع بصاع وأبقى لنفسه صاعا، فسخروا منه وقالوا: الله غنى عن صدقته، وهكذا كانوا يلمزون من يتصدق بالكثير، ومن يتصدق بالقليل، وذلك شأن المنافقين دائما يصغفرون عمل غيرهم قليلا أو كثيرا ولا يعملون، قبحهم الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الجهد: الطاقة أى الذين لا يجدون ما يستصدقون إلا بقدر طاقتهم المحدودة، والجهد بفتح الجيم، وضمها: الطاقة، وفيها القراءتان^(١).

وظاهر القول أن ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ معطوفة على ﴿الْمُطَوِّعِينَ﴾، ويكون المعنى أنهم يلمزون الذين ينفقون عن يسار، وهذا هو المعطوف عليه، والمعطوف بعد ذلك (الذين لا يجدون إلا طاقتهم)، فيسخرون من الفريقين، يتحكمون على أهل اليسار برميهم أنهم يراءون، وهكذا يرمون بدائهم، فالمرءون هم المنافقون فى كل الأحوال، وخطر لى أن أقول: إن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾، فكأنهم يعيبون المتطوعين عن سعة، ويسخرون من الذين لا يجدون إلا مقدار طاقتهم وهى محدودة، و(الفاء) هنا لأن الموصول فى معنى الشرط، والمعنى إن كان الذين لا يجدون يسخرون منهم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، أى أنهم يعاملون معاملة من يسخر منهم، أو أن ذلك دعاء عليهم بأن يكونوا موضع السخرية والاستهزاء عندما يكشف أمرهم، وتعرف حالهم.

(١) (جهدهم) بفتح الجيم، ليست فى العشر المتواترة.

وإن ذلك لهم خزي فى الدنيا، كالمناق موضع سخرية حقيقية فى الدنيا
بتقلب قلوبهم وتناقضهم فى أحوالهم دائما.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أى مؤلم أشد ما يكون الألم وحسبهم جهنم وبئس
المهاد.

لا استغفار لمنافق

قال تعالى :

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ
مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْ بِنُورِ الْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا
مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

كان الرسول الأمين حريصا على هداية الذين بعث إليهم، وكان يرجو أن
يتوبوا ويغفر لهم، فكان ﷺ يستغفر لهم، لأن الاستجابة تقتضى التوبة، كما
يقول عن كفار مكة: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»^(١)، وكان يستغفر

كذلك للمشركين برجاء توبتهم، وأن يعيشوا في صفوف المؤمنين، ويكونوا منهم بالفعل، لا بادعائهم، فبين الله تعالى له أنه ميثوس من إيمانهم؛ لأنهم ازدادوا كفرا وطبع على قلوبهم إذ بأت بالسوء، وكلما جاءتهم آية ازدادوا نفاقا وكفرا، ولذا قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فالأمر في معنى بيان اليأس، كما قال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿... لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ...﴾ [٣٦] [هود]، ومحط الخبر في قوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وعدد السبعين يراد به الكثرة، وكان العرب يستعملونه في الكثرة التي لا يحصيها عد.

وهذا المعنى الذي اختاره ابن كثير، فقد قال (يخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل إن السبعين مرة ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها) فهذه الآية فيها بيان أنه لا يرجى إيمانهم، فيرجى الغفران لهم؛ لأن الله تعالى قد غضب عليهم، فقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وعلل سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولا رجاء في أن يؤمنوا كما يدل آخر الآية.

ولقد قال بعض المفسرين إن (أو) للتخيير، وإن الأمر للإباحة، فأباح الله تعالى للنبي أن يستغفر أو لا يستغفر، ورد ذلك المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما - وأنه ﷺ قال: «لأزيدن على السبعين»^(١) ولكن يقول القشيري: لم يثبت ما روى أنه قال لأزيدن على السبعين.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في ختام الآية الكريمة ما يدل على أنهم مردوا على النفاق، وأوغلوا في الكفر فقال تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(١) رواه البخارى: الجنائز - ما يكره من الصلاة على المنافقين (١٣٣٦) عن ابن عباس رضى الله عنهما، وتفسير القرآن (٤٦٧٠)، ومسلم: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٤) عن ابن عمر رضى الله عنه.

الْفَاسِقِينَ ﴿١٠﴾ وهذا بيان لليأس من أن يهديهم، والقوم الفاسقون هم الجماعة التي تمردت على الحق وفسقوا عن أمر ربهم، وتحالفوا على الضلال، وكلما بنى بينهم داعى هدى أسكتوه، وكلما ظهر لهم نور الحق أطفأوه، فهم تعاونوا على الإثم والعدوان.

ولا يهديهم الله سبحانه وتعالى، لأنهم مسلوبو الإدراك، وأصبحوا سادرين فى طريق الغواية، وإن أولئك المنافقين كانوا يفرون من الجهاد، ويفرحون بتخلفهم عنه، ولقد قال تعالى فى ذلك:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)﴾.

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ هم الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك وكانت فى أشد الحر وفى وقت جنى الثمار والاستقامة إلى الراحة فى ظلال الأشجار.

وهم تخلفوا مختارين، ولم يتخلفوا مجبرين، ولكن عبر عنهم باسم المفعول للإشارة إلى أن الله تعالى لم يرد انبعاثهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾ ولذا قال تعالى فى النظم السامى ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾، ولم يقل سبحانه (المتخلفون).

ولكن مع أنهم ثبتهم الله فخلفوا لم يكن ذلك بإرادة النبى ﷺ الظاهرة، بل إنه عليه السلام دعاهم كما دعا غيرهم، ولذا قال تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ المقعد مصدر ميمى معناه القعود، أى بعودهم مخالفين رسول الله ﷺ «فخلاف» مصدر بمعنى مخالفين، وقيل إن (خلاف) معناها خلف رسول الله ﷺ والمعنى على الحاليين، أنهم فرحوا بعودهم وراء رسول الله ﷺ مؤثرين أن

يكونوا من النظارة الذين لا يخوضون الحروب، وأن يكونوا كالنساء قاعدات فى أخدارهن، وقال تعالى فى الباعث الذى بعثهم على هذه الحال المزرية بالرجال فقال تعالت كلماته: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كرهوا أن يخرجوا مجاهدين بإنفاق أموالهم؛ لأنهم بخلاء فى كل ما هو خير، وكرهوا أن يجاهدوا بأنفسهم؛ لأنهم جنباء أولاً، ولأنهم لا يؤمنون بالله، ولا يجاهدون فى سبيله ثانياً، وقال سبحانه: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ ولم يقل كرهوا أن يخرجوا، مع أن الكراهة ابتدأت بالشاغل فى الخروج، بل قال: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ للإشارة إلى سبب عدم الخروج أولاً، وللإشارة إلى حال المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، فهو تعريض بالمؤمنين فيه مقابلة بينهم، فالمؤمنون يتحملون المشاق، والمنافقون يتخاذلون.

وقد اتخذوا لعدم خروجهم تعلقة أخرى، وهى الحر الشديد ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أى قالوا فيما بينهم مجمعين على هذه التعلقة، فقالوا فيما بينهم، ووصلت إلى مسامع المؤمنين ليخذلوهم، راجين أن يثوا الفرع بينهم، ويشطوهم عن الجهاد، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يرد هذا القول ببيان أنهم مخيرون: جهاد فى الحر، أو لقاء جهنم، ولا مناص من أحدهما، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أى أنهم إن كانوا عقاء يدركون أن هذا الحر الشديد موقوت، ومربوط به العزة والكرامة، وإرضاء الله، وإن تركوه استقبلهم عذاب الأبد، وهو نار أشد حرارة، بل لا يوازىها حر الدنيا، وإن الحر الموقوت بأجل الذى يترتب عليه خير عظيم، أولى بالترك والإهمال من الحر الدائم بنار جهنم، وذلك يكون لأهل الإدراك والموازنة بين تعب عاجل قليل، ونار دائمة، ولذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ الفقه الإدراك النافذ إلى لباب الأمور، فلو كانوا يفقهون الأمور لوازنوا بين ما يستقبلهم فى تخلفهم، واتقاء حر الدنيا، وبين ما يلقونه بعد البعث، وإنه لآت لا ريب فيه، وجواب (لو) محذوف للإشارة إلى أنهم يرون هولا عظيماً.

إنهم يختارون المتعة العاجلة القليلة، ويختارونها ويتركون المتعة الدائمة،
ويقبلون العذاب الاليم، ولذا قال تعالى:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾.

ويقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾
استمهال لهم؛ لأن من تصوّن عن مشقة ساعة فوق وقع بسبب ذلك التصون في مشقة
الأبد كان أجهل من كل جاهل ولبعضهم:

مسرة أحقاب تلقيت بعدها مساء يوم أزيها شبه الصاب

فكيف بأن ألقى مسرة ساعة وراء تقضيها مساء أحقاب

والمعنى أن مسرة أحقاب يعقبها مساء يوم يكون غسلها مرا كالصاب، وهو
شجر شديد المرارة، فكيف يرضى العاقل بأن يلقى مسرة ساعة، وراءها مساء
أحقاب، أى أزمان.

وإن الآيتين متصلتان، ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ وكنى سبحانه وتعالى بالضحك
عن السرور والفرح بالقعود عن الجهاد اتقاء للحرارة، فإن الضحك يلزم السرور
عادة، وهو مظهر من مظاهره، كما أن البكاء كناية عن الألم الدائم؛ لأن البكاء
ظاهرة من مظاهر الألم الشديد.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا...﴾ للإفصاح؛ لأنها تفصح عن
شرط مقدر؛ لأن المعنى العام، إذا كانوا قد فروا من الغزوة اتقاء للحر في الوقت
القصير، وأهملوا ما يستقبلهم من حر جهنم الأشد الذي يكون جزاء التخلف،
فقد استبدلوا البكاء الطويل بضحك قليل.

والأمر للتهكم على أولئك الذين لا يفقهون، وتهديد لهم، وجاء التهكم
بصيغة الأمر لما في معنى الأمر من الحتم واللزوم، وأنه واقع لا محالة، فهم بلا
ريب سيكونون في سرور وقت قصير في الدنيا، ثم يكون من بعده ألم طويل في

الآخرة، وإنه يدل على أن ذلك البكاء الطويل من نار جهنم حتم لازم، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى أن الله تعالى يجازيهم ذلك الجزاء، ونصب جزاء على أنه مفعول لأجله.

أى أن ذلك البكاء الطويل يكون جزاءً مقابلًا للضحك القليل، والرضا بالعذاب الطويل فى مقابل الراحة القليلة، أو اللذة العاجلة فى مقابل المنفعة الدائمة الخالدة، ويستحق ذلك الجزاء، وقال تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى بسبب وفى مقابل ما كسبه من راحة مؤقتة، وترك للواجب، والكسب ما يصير عادة للنفس، وتستمر عليه فى حياتها.

فهذا العذاب للمنافقين ليس لأجل هذا القعود فقط، وإن كان إثما كبيرا فهو عقاب على ما كسبه فى أنفسهم، وصار حالا مستمرة لهم كانوا يفعلون بموجبه دائما مع المؤمنين.

والتعبير بـ (كان) مع الفعل المضارع فى قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يدل على استمرار هذا الذى كانوا يكسبونه، وتجده آتيا بعد أن كلما كان أمر جامع، وكلما بدا نفاقهم المستمر.

كانت تبوك غزوة اختبر الله بها المؤمنين فبان من استخذى وندم، ومن نافى وأصر، وما كان استئذان المنافقين لسبب يوجب قعودهم، بل كان خدعا للنبي ﷺ ومن معه، فلكى يعرفوا أن أمرهم صار مكشوفاً، ولكيلا يحاولوا خدعه ﷺ نهى الله تعالى نبيه عن أن يأذن لهم، فقال تعالى:

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتِزْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٢)﴾.

رجعك الله إلى المدينة سالما غانما، فالرجوع إلى الجميع مؤمنين ومنافقين، فلما خص سبحانه وتعالى الرجوع إلى طائفة منهم، والضمير فى منهم يعود إلى

المنافقين؛ لأنهم موضع حديث الله تعالى فى كتابه سبحانه إذ الكلام فى أحوالهم النفسية وتخذيّلهم للمؤمنين وخدعهم لهم، ونقول خص سبحانه الرجوع إلى طائفة من المنافقين؛ لأن هذه الطائفة هى التى اعتادت التّشيط، وبث روح التردد والهزيمة، وهى تعاود الاستئذان كلما اشتدت الشديدة وجد الجدد، لا ليقعدوا فقط، بل ليكونوا أسوة لغيرهم، فيقتدى بهم من ضعفاء الإيمان والجناء من يصيبهم هلع عند الحرب، وفزع عند اللقاء.

هذا هو الذى بدا لنا من التعبير فى قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ إذ هى التى اعتادت التخذيّل والتّشيط، وبث روح التردد والهزيمة، وقوله تعالى: ﴿فَاسْتِزْنُوكَ لِخُرُوجِ﴾ الفاء هنا للترتيب والتعقيب، أى أنه بمجرد أن ترجع إليهم يفاجئوك بالاستئذان كعادتهم، وقد يكررون فى هذه الحال معاذيرهم الكاذبة، وهذا يدل على أن هذه الطائفة منهم هى ذات المعاذير المتكررة المثبّطة.

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يسجل عدم الشقة معهم، وأنه لا يعدّهم فى جماعته المؤمنة المجاهدة فقال تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾.

و أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ بالنفى المؤكّد بـ (لن)، لأن لن لتأكيد النفى، ولقد قال الزمخشريّ فى تفسير قوله: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا﴾ إن لن لتأكيد النفى، وسواء أكان القول ما قال الزمخشريّ أم لم يكن، فإن النفى هنا للتأييد بقوله تعالى أبداً.

وكان قرار منع الخروج الأبدى؛ لأنهم خرجوا فى أحد، فهمت طائفتان أن تفشلا بتخذيّل المنافقين ثم تركوا هم الغزوة، ليسلك غيرهم مسلكهم، وأفسدوا ما بين المؤمنين فى غزوة بنى المصطلق، وقال قائلهم: ﴿... لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...﴾ (أ) [المنافقون] وهكذا فهم إذا خرجوا مع المؤمنين كان منهم السعى بالشر بينهم، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وإن هذا

النفى المؤكد هو تقرير للواقع، فهم لا يقاتلون أعداء النبي ﷺ بل هم يوالونهم، ولا يعدونهم أعداء.

وإن الله تعالى العليم الخبير أعلم نبيه ﷺ بأمرهم، ولكن أمر نبيه بأن يأخذ من ماضيهم دليلاً على حاضريهم فكان أمر بقوله لهم: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أكد سبحانه وتعالى رضاهم بالقعود أول مرة بـ (أن)، وخاطبهم بهذا القول، وقالوا: إنما أول مرة، هي عندما دعاهم للقتال وتشاقلوا، ونقول: ليست هذه أول مرة، بل كانت أول مرة هو رجوعهم في غزوة أحد، وتثيبتهم للمؤمنين حتى همت طائفتان أن تفشلا، كما تلونا.

وإنهم إن خرجوا لا يخرجون للجهاد والقتال، بل يخرجون للغنيمة كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)﴾ [الفتح].

ويقول الله تعالى أمراً نبيه بذلك القول: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (الفاء) للسببية، والأمر هنا للتهكم عليهم والنذير بهم، و(الخالف) اسم فاعل من خلف، أى كان وراء المجاهدين متخلفاً عنهم مع القاعدين من النساء والضعفاء الذين لا قدرة لهم على قتال، وقيل إن معنى الخالفين الفاسدين في ذات أنفسهم وضمائرهم، ولقد قال ذلك القرطبي في كتابه أحكام القرآن، فقد قال: (قيل المعنى فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم من خلوف فم الصائم، ومن قولك خلف اللين إذا فسد) وهذا يدل على أن استصحاب المخذل في الحرب لا يجوز، والله سبحانه وتعالى أعلم.

اجتناب المنافقين

قال تعالى:

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْبِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَكَاكِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

إن الآية الكريمة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ قاطعة في النهي عن الصلاة على المنافقين؛ لأن الصلاة على الميت دعاء له بالخير يناله يوم القيامة، ولأنها استغفار، والاستغفار للمنافق منهي عنه كما تلونا قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...﴾ (٦) [المنافقون] ^(١) ولأنه يجب أن يتميز المؤمن عن الكافر، والصلاة عليه فارق بين المؤمن والمنافق.

والنهي ثابت ناه على وجه التأييد، ولذلك قال: ﴿أَبَدًا﴾، فلا مشنوية فيه ولا تجوز، ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ داعيا بعد دفنه أو قبل دفنه، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، يتضمن الدفن، والدعاء له عند الدفن أو بعده؛ لأنه نهى عن الصلاة، وما في معناها من الدعاء.

هذا معنى الآية، ولكن روى في الصحاح وغيره أن النبي ﷺ صلى على عبد الله بن أبي رأس النفاق، والمفرق بين المؤمنين، والذي كان يوالى الكفار، من

مشركون وأهل كتاب، وقد خاضت في ذلك خوفا كثيرا كتب السيرة النبوية والمفسرون بالرواية.

وإننا من مجموعها نستخلص أمرين - أولهما - أن النبي ﷺ صلى عليه، ويظهر أن ذلك كان قبل نزول هذه الآية.

وثانيهما - أن النبي ﷺ كفته في قميصه^(١)، وكان ذلك أيضا قبل نزول هذه الآية الناهية، وإن الصلاة عليه، لأن النبي ﷺ كان رفيقا بأصحابه، وقد كان ابن هذا المنافق صحابيا جليلا فكان ﷺ يكرم الحى، بالسكوت عن إيذاء الميت، ولقد قال النبي ﷺ عندما أسلم عكرمة بن أبى جهل لأصحابه: «لقد جاءكم عكرمة مسلما، فلا تسبوا أباه، فإن السب يؤذى الحى ولا يضر الميت».

ويروى في ذلك أنه لما مرض عبد الله بن أبى بعث إلى الرسول ﷺ ليأتيه، فلما دخل عليه قال ﷺ: «أهلكك حب اليهود»، فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لى لا لتؤنبنى، وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه، فلما مات دعاه ابنه إلى جنازته^(٢).

وأما أنه ﷺ قد كفته فى قميصه فقد قال الرواة: إنه عند أسر العباس، كان قميصه قد فقد، فلما رآه النبي ﷺ من غير قميص رق له، وقد ناصره بعد أبى طالب، فطلب صحابته أن يأتوا بقميص، فلما يوجد قميص على تفصيله إلا قميص عبد الله بن أبى؛ لأنه كان ضخما. والنبي ﷺ أحق من أوفى بالمعروف معروفا ولو كان من رأس النفاق^(٣).

ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذه الجملة فى مقام

(١) الواقدي وابن سعد وابن عساکر عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه. جامع الاحاديث والمراسيل - السيوطى: ج ٩ - ص ٢٧٦ (٢٨٢١٢).

(٢) جاء ذكر موت عبد الله بن أبى قبحه الله فى البداية والنهاية لابن كثير (ج ٥، ص ٢٤٥).

(٣) روى البخارى فى الجهاد والسير - الكسوة للأسارى (٣٠٠٨) عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: لما كان يوم بدر أتى بأسارى، وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصا، فوجدوا قميص عبد الله بن أبى يقدر، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذى ألبسه. قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يد فأحب أن يكافئه.

التعليل لما قبلها، ولذا كان بينهما فصل، فكمال الاتصال بالعلة ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأكد سبحانه كفرهم بأن، وأنهم يحملون أوصافا تقتضى تحقق الكفر بالله وبرسوله، إذ يحاولون أن يخدعوا الله ورسوله، وقد استمروا على ذلك حتى ماتوا ولذا قال تعالى: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى ماتوا على حال الفسق والتمرد على الحقائق، وأشد من التعبير بالفسق فى حالهم بأنه أشد الكفر؛ لأنهم كفرون، ومخادعون، وغشاشون، فهم تمردوا على الله وتمردوا على كل خلق كريم، والله أعلم بهم.

وهم لا يفاخرون إلا بما آتاهم الله من مال وولد، ولا يستطيعون المفاخرة بمكارم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

تقدمت هذه الآية فى هذه السورة عند الكلام على ما يتمناه المنافقون للمؤمنين، ومنع النبى ﷺ من أن يقبل منهم نفقاتهم، فقد قال تعالى فى ذلك: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٤).

ونرى الآيتين متلاقيتين فى المعنى والألفاظ، إلا فى حرفين: أولهما - أنه هنا عبر (بالواو) فقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ وفى الآية السابقة عبر (بالفاء) ولها مناسبتها، والثانى - أنه فى هذه الآية لم تذكر (لا) بعد ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾، وفى الآية السابقة ذكرت لا وأيضاً فالنص السابق «إنما يريد الله أن يعذبهم فى الحياة الدنيا» وفى هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

وإن هذا الاختلاف فى الألفاظ هو تصريح القول الذى هو من أسباب الإعجاز البيانى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ...﴾ (٦٠٥) [الأنعام].

فهل يعد هذا من التكرار؟ نقول إنه يكون من التكرار إذا كانت المناسبة التى ذكرت فيها الآيتان واحدة، أما إذا اختلفت المناسبة، فإنها تغير المقصود، وإذا تغير المقصود لا يكون المعنى واحداً من كل الوجوه.

وقد كانت المناسبة فى الآية السابقة أن الله منع رسوله من أن يقبل منهم نفقات فى الحروب، ومعاونات فيها، مهما تكن أموالهم كثيرة، وأنهم أعز نفرا، فالله هو الغنى الحميد.

وأما المناسبة هنا فهى النهى عن الصلاة عليهم بسبب كفرهم، وتأكيد ذلك النهى، وكان قبل ذلك النهى عن الاستغفار لهم، وحلفهم الدائم، وقد كان يظن أن يكون مالهم وأولادهم توجب العطف، فبين الله تعالى أن ذلك كله لا يسوغ العطف عليهم، ولا رجاء الخير منهم.

ولقد قال الزمخشري فى تكرار بعض الآيات: وقد أعيد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾؛ لأن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل الله تعالى وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال المخاطب لا ينسأه، ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية، ولا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأصبح الشئ الذى أهم صاحبه فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

وإن المنافقين قد استمروا على فرارهم من الجهاد، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦).

كان المنافقون كلما نزلت آية جهاد، قبعوا قبوع القواقع فى أصدافها، ورضوا بأن يكونوا من المتخلفين لا يتقدمون إلى الجهاد، وإن كانت فيه العزة؛ لأن أسباب العزة من جهاد ومقاومة للباطل ثقل عليهم، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ السورة فى عرف القرآن الكريم هى الجزء من القرآن الكريم المسورة المحدودة المبدوءة بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» إلا سورة براءة، فقد بينا أنها ليست مبدوءة بها، ويصح أن يراد به هنا بعضها، وهى آية من الآيات، ويكون قد عبر

عنها بسورة لبيان كمالها، وأحكامها، وأن غايتها ثابتة قائمة، وهى الجهاد فالجهاد ماض إلى يوم القيامة^(١).

وإن أريد بها سورة كاملة، فأوضح سور الجهاد سورة براءة؛ لأنها ابتدأت به، وتنظيمه مع العهود والمواثيق، وآياتها داعية إليه كاشفة تخاذل المنافقين عنه.

وقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أن تفسيرية، وهى تبين أن ما بعد هو السورة، فتكون بمعنى جزء السورة، ويصح أن تكون مصدرية، والمصدر فى مقام الجار والمجرور، أى نزلت السورة بـ ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾، ولم يذكر الإيمان بالرسول لأن الإيمان بالله حق الإيمان إيمان برسله؛ لأنهم جاءوا بمعجزات أيدهم الله بها، ولأن الإيمان بالرسول مذكور مطلوب فى قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾.

فالمطلوب بالسورة أمران: أحدهما - الإيمان بالله حق الإيمان بأن يذعنوا لكل ما يكلفهم إياه، وأن يعلموا مؤمنين بأنه القادر القاهر، الناصر المعز المذل العليم الخبير، أى يؤمنون بأنه واحد فى ذاته وصفاته التى هى الكمال المطلق، وأنه لا يعبد غيره.

والثانى - الجهاد مع رسول الهدى ودين الحق؛ لأن الجهاد معه سبيل العزة، ورفع الحق، وخفض الباطل، هذا هو الدين الحق، ولكن المنافقين يفسرون من الجهاد، ولا يحتملونه فى ذات أنفسهم، وينفرون منه ولو كانوا ذوى قدرة، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿اسْتَفْذَنْكَ أَوْ لَوْ الطُّولَ مِنْهُمْ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، و﴿اسْتَفْذَنْكَ﴾ أى طلبوا إذنك فى أن يتخلفوا وحالهم تنافى طلبهم، لأنهم ﴿أَوْ لَوْ الطُّولَ﴾ أى أصحاب الطُّول والسَّعة والفضل فى المال، والطاقة البدنية التى تتحمل الجهاد بالنفس والمال ﴿مِنْهُمْ﴾، والضمير فى منهم يعود على المنافقين، استأذنوك ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أى اتركنا مع

(١) وهو مفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم: «الحيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

القاعدين من النساء والأطفال والضعفاء، أى رضوا بالمتزل دون والمكان الهون، وذلك لأنهم بخلاء جبناء، وبهم تبنى الأمم والجماعات.

وقد بين سبحانه وتعالى هوان هذه النفوس فقال تعالت كلماته:

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧).

وإذا كان أولو الطول والسعة والقوة فى أبدانهم قد قالوا ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ولا تستغفروا فى جهادك الذى بعدت فيه الشقة، وعظمت فيه المشقة، فقد ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، والخوالف جمع خالفة، وهى المرأة المتخلفة عن الجهاد، ويطلق على ما لا خير فيه، أى أنهم رضوا أن يكونوا كالنساء القاعدات فى البيوت، والأشياء التى لا خير فيها ولا منفعة، أى رضوا بحياة الدعة والاسترخاء ولو كان معها الذلة، وتركوا حياة الكد والتعب ولو كان فيها العزة.

وقال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى أنه بهذه الحال وأخواتها، مما فروا فيها من الجهاد فرار الجبناء، فسدت نفوسهم، وأغلقت قلوبهم عن حب الخير والعيش الكريم، وبنى للمجهول للإشارة إلى الأسباب المتراكمة التى توالى على نفوسهم، وطبعته على النفاق، فطبع مع النفاق الذلة والاستهزاء والكذب، وإخلاف الوعد، وإن مدوا أعناقهم للذلة.

إن النفاق يولد الجبن، والجبن يولد المذلة والكذب وكل قبائح النفس، ولذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الفاء) تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها؛ لأن طبع القلب على النفاق يفسد الفكر، فلا ينظر إلى عواقب الأمور، ولا ما تنتهى إليه، وأعيد الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ﴾ لتأكيد وصفهم، وثبوت حالهم، والفقه كما ذكرنا هو العلم بلباب الأمور وغايتها، فهم لم يعرفوا أن موقفهم لو سلك المؤمنون مسلكه لذلوا، ولذهبت ريحهم، ولم يدركوا أنهم بما يفعلون يقون أنفسهم من شقة الجهاد، ولكن يكونون مهينين فى الدنيا، وتناهم جهنم وبئس المصير.

وبعد أن بين حالهم فى فرار من الجهاد، وإبداء المعاذير الكاذبة، ورضاهم بأن يكونوا مع النساء والضعفاء وبأن يكونوا أشياء لا خير فيها ولا فائدة - ذكر بعد ذلك الذين يريدون الحياة الحق، حياة الجهاد ومفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة، وهم الرسول والذين اتبعوه، فقال: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨)﴾.

الاستدراك هنا للانتقال ممن ارتضوا المنزل الهون إلى الذين لم يريدوا إلا العزة والكرامة والرفعة، ومن امتلأت قلوبهم بحب الله تعالى، فأثروه على كل الوجود، ورضوا بالمشقة وإن اشتدت؛ مرضاة له سبحانه وتعالى، فالاستدراك لبيان الرفعة التى وصل إليها المؤمنون فى مقابل الذلة التى ارتضاها الآخرون، كقوله تعالى: ﴿... فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [الأنعام]، وكقوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨)﴾ والمعنى فإن استرخى هؤلاء عن الجهاد، ورضوا بالقعود مع الضعفاء والنساء فالرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وقوله: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ...﴾ التعبير بالرسول فى هذا المقام للإشارة إلى أن مقام الرسول يوجب الجهاد؛ لأنه تبليغ للدعوة، وحماية لها، ودفع للذين يعاندونها، وذكر بجوار مقام الرسالة من معه، أى من آمنوا، وصاروا معه فى جهاده الذى حمل عبته بحمله عبء الرسالة، والرسول وما عطف عليه مبتدأ خبره ما جاء بعد ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أى قدموا النفس والنفس، وقدم سبحانه وتعالى الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، مع أن النفس أغلى وأعز، والوجود بها أقصى غاية الجود، قدم المال مع ذلك؛ لأن الإنفاق فى سبيل الله هو عدة الجهاد ابتداء، وامتشاق السيوف هو نهايتها، ولأن ذلك يشير إلى أنهم باعوا أنفسهم لله تعالى واطرحوا الدنيا اطراحاً، فالمال يطلب لغايات الدنيا، وقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم فلا حياة لهم إلا مع الله.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الإشارات إلى الموصوفين بالأوصاف السابقة، أى أولئك الذين كانوا مع الرسول، ولزموه فى جهاده، ولم يتخلفوا عنه، وأحبوا الله تعالى وبذلوا أموالهم وأنفسهم، ولم يريدوا شيئاً إلا إرضاء الله، لهم الخيرات، الخيرات جمع خير، وعبر بالجمع للدلالة على كثرة ما يمنحهم الله من خير وتنوعه، فخير فى الرزق، وخير فى نيل المطالب، وخير فى النصرة، وخير فى العزة، وخير فى منع تحكم الأعداء، وخير فى رضا الله تعالى، وخير فى صلاح الولد، وخير فى الهداية... إلى آخره من الخيرات فى الدنيا، والخير الأكبر فى الآخرة.

ثم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى المشار إليهم المتصفون بهذه الصفات هم الفائزون بنعيم الآخرة، ورضوان الله تعالى والقرب منه، وقد قصرنا الله تعالى الفلاح عليهم بتعريف الطرفين، لأن تعريف الطرفين؛ يفيد القصر، وبضمير الفصل، أى أن الفلاح لهم، وليس لغيرهم.

وقد بين الله تعالى بعض ما فازوا به، وهو الجنة، فقال تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩).

هذا بعض الفلاح الذى ذكره الله، وهو أنه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، أى أن الله تعالى أعطاهم نعيماً فيه ثلاث خواص كلها يزكى بعضها بعضاً. أولها: أنها جنات، وهى جمع جنة فيها الأشجار التى تظل من الحرور، وتمتع النفس برؤيتها، وبهبتها، وفيها الثمار البانعة، وفيها من كل فاكهة ما يشتهون، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ففيها متعة النفس والجسم والروح.

الثانى: أن الأنهار تجري من تحتها تدفع الحرور، وتسقى النفوس والأجسام، ويكون التمتع ببهبتها ومنظرها.

الثالث: أنها خالدة، ففي كل نعيم غير باق يكون الألم بفنائه وانتهائه، أما نعيم الجنة، فهو للبقاء.

ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى هذا النعيم المقيم، وقصر الفوز عليه، أى فلا فوز غيره، فما يحسبه فى الدنيا من أسباب الفوز إنما هو باطل لا يجوز.

ودل على القصر تعريف الطرفين، وضمير الفصل، والله تعالى أعلم بما يجزى به عباده المتقين.

اعتذازا الأعراب

قال تعالى:

وَجَاءَ
الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ
مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ
مِمَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿١٢﴾

كان الكلام فى المنافقين الذين نبتت نابتهم فى المدينة عندما انتصر المؤمنون فى غزوة بدر الكبرى، وصارت لهم القوة والسلطان فيها، واستقر الأمر فيها

للتوحيد، والإيمان بمحمد ﷺ، وحيث كانت القوة العادلة، اختفت العداوة الظاهرة، واستمرت عداوة النفوس مستكنة فيها فيكون النفاق الذي يأكل القلوب، ويملوها حقدا، ورغبة دانية في الكيد.

ولما صارت القوة للإسلام في الجزيرة العربية، وصارت الكلمة العليا لله ورسوله، وجد سبب النفاق في داخل الجزيرة وحول المدينة كما قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ... (١٠١)﴾.

وعندما يكون النفير العام، أو الخاص يظهر من الأعراب اعتذارات بعضها صادق، وبعضها كاذب، ويقعد بعضهم عن الجهاد كفرا ونفاقا، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

في الآية قراءتان إحداهما بتشديد الذال مع كسرهما، والثانية بتخفيفها مع كسرهما أيضا^(١)، فقراءة التعذير في الأولى، يكون معناها التقصير وعدم الاهتمام، من قولهم عذّر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى، وذلك مقصور في الأعراب الذين هم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله تعالى، ولا فرق عندهم بين دعوة إلى الجهاد في سبيله، ودعوة إلى عادات كانت تجرى بينهم للمنازعة على الكلا، أو مواطن الماء، أو للعصبية الجاهلية.

ويصح أن يكون المعذّرون هم المعتذرون، ويكون في الكلام إعلالا صرفيا، فأصل «المعذرون» المعتذرون من اعتذر، فقلبت التاء ذالا، وأدغمت الذال، ونقلت حركة التاء إلى العين، ويكون المعنى جاء المعتذرون الذين شددوا في اعتذارهم؛ لأن الادعاء ينبئ عن شدة الاعتذار، وإن معنى ذلك أنهم يعتذرون بأعذار مقبولة، ويدل على ذلك المقابلة، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

(١) قراءة (المُعذِّرون) ساكنة العين خفيفة الذال، قراءة يعقوب، والنهاسوندي عن قتبية عن الكسائي، وقرا الباكون، بفتح العين وتشديد الذال. غاية الاختصار (٩٦٣).



فإن المقابلة تقتضى التغاير بين القاعدين الذين لم يصدقوا الله ورسوله وكذبوا، وبين المعذرين، ولكن المقابلة لا تكون إلا إذا كان اعتذار الأولين حقا وصدقا. وقراءة «المُعذرون» بالتخفيف من الإعذار، وهو إبداء العذر الذى يكون مظنة القبول.

وإننا نجد أن الآية من قراءاتها المختلفة تفيد إبداء العذر، وإن المقابلة بين القاعدين الذين كذبوا الله ورسوله، والمعتذرين تفيد أن العذر مقبول اقتضى الأمر لهم.

وقد جاء بذلك التفسير المأثور، فقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال فى المعذرين: هم الذين تخلفوا لعذر فأذن لهم النبى ﷺ، وروى عنه غير ذلك، والله أعلم، وقيل إنها نزلت فى عامر بن الطفيل ورهطه، فإن رهطه قالوا عندما دعاهم ﷺ إلى الغزو قالوا: لو غزونا معك أغارت أعراب طيئ على حلالتنا وأولادنا ومواشينا، فعذرهم النبى ﷺ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يفيد أولا أن الذين جاءوا هم المعذرون ولم يذكر الذين جاءوا مجاهدين؛ لأن منهم من جاء مجاهدا، وخصوصا أولئك الذين كانوا مع الرومان فى مؤتة، وتخلفوا عنهم فى تبوك وخذلهم، ولكن ذكر المعتذرين فقط؛ لأن الكلام فى المستأذنين فى التخلف بأعذار غير صادقة وهم المنافقون، فناسب ذلك ذكر المعتذرين من الأعراب.

وتفيد ثانيا أنهم جاءوا للاعتذار وليؤذن لهم، ولو كانوا يعتذرون كذبا ما جاءوا بل قعدوا كما قعد غيرهم، وقال تعالى:

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى قعد وتوانى الذين كذبوا الله ورسوله، وكذبوا بالتخفيف تتضمن معنى التكذيب لله ولرسوله، ولآياته البينات، ومعنى

(١) ذكره القرطبي: الجامع لأحكام القرآن - ج ٨، ص ٢٢٤. عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الكذب على الله ورسوله والناس بإظهارهم الإسلام، وإبطانهم الكفر، وإظهار أعذار غير صادقة.

وبين الله تعالى عاقبتهم فقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهنا إظهار في موضع الإضمار؛ لأن المؤدى أنه سيصيب هؤلاء القاعدين الذين كذبوا الله ورسوله عذاب أليم، وكان الإظهار لأمرين: أولهما - بيان أن منهم كافرين، وبسبب الكفر سينالهم عذاب أليم، وثانيهما - أن منهم من لا يصرون على الكفر فيتوبون، فهذا العقاب للذين يصرون ولا يتوبون.

و(السين) في قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ لتأكيد وقوع الفعل في المستقبل.

وقد ذكر الله تعالى بعد ذلك أصحاب الأعذار المقبولة فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

في هذه الآية وما بعدها بيان الأعذار التي تبيح التخلف عن الخروج، ولم يذكرها القرآن الكريم بعنوان أنها أعذار، ولكن النص يفيد أنه لا إثم إذا تخلفوا، وذلك للإشارة إلى أن الجهاد غير واجب على هؤلاء، والاعتذار إنما يكون عند الوجوب والتخلف، وإذا لم يكن وجوب فالتخلف حيثئذ له رخصة، وهؤلاء عاجزون عن القيام بهذا، والله لا يكلف العاجزين؛ لأنه تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة: ٢٨٦) فالجهاد غير واجب عليهم، وذكر النبي ﷺ أن لهم فضل المجاهدين إذا نصحوا لله ورسوله، والنصح إخلاص القلب واللسان والعمل لله تعالى فالقلب لا يحدث إلا بالله، واللسان لا ينطق إلا مخلصاً، والعمل لا يكون إلا لله تعالى، ويقال نصح له القول إذا أخلص له في قوله، ونصح له في العمل إذا أخلص له، ولقد روى مسلم في صحيحه عن تميم

الدارى أن رسول ﷺ قال: «الدين النصيحة. ثلاثاً، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

وجاء فى تفسير القرطبى: قال العلماء: النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى الوجدانية ووصفه بصفات الألوهية وتنزيهه عن النقائص، والرغبة فى محابه، والبعد عن مساخطه، والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته والتزام طاعته فى أمره ونهيه، وموالاته من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبة آل بيته (أى الذين اتبعوا هديه) وتعظيمه، وتعظيم سنته، وإحيائها بعد موته بالبحث عنها والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ.

والنصح لكتاب الله قراءته والتفقه فيه، والذب عنه وتعليمه، وإكرامه والتخلق به. والنصح لأئمة المسلمين بترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغلوه من أجور المسلمين، ولزوم طاعتهم فى الحق والقيام بواجب حقهم.

والنصح للعامة ترك معاداتهم، وإرشادهم، وحب الصالحين والدعاء لجمعهم، وإرادة الخير لكافتهم.

والمراد أنه لا إثم فى التخلف على من سقط عنه واجب الجهاد إذا نصحوا لله ورسوله، إن استقامت قلوبهم وألستهم، وقاموا بحق الإرشاد والتنبيه، وإن كان لهم رأى فى الجهاد وجهوه، وكأنهم إذا سقط واجب الجهاد بالسيف، والاعتراك فى المعركة، فإنهم يحملون واجبا آخر هو الإرشاد والتوجيه، والمعاونة بكل ما يستطيعون، وإنهم إذا كانوا كذلك فإن لهم فضل الجهاد.

(١) رواه مسلم: الإيمان - الدين النصيحة (٥٥)، عن تميم الدارى، وليس فيه ذكر الثلاث عند مسلم، وإنما ورد التكرار فى رواية تميم الدارى عند أبى داود: الأدب - فى النصيحة (٤٩٦٦)، وباللفظ المذكور أعلاه عند أحمد: مسند الشاميين - حديث تميم الدارى (١٦٤٩٤) كما ورد ذكر الثلاث فى روايات أبى هريرة عند الترمذى: البر والصلة - ما جاء فى النصيحة (١٩٢٦)، والنسائى: البيعة - النصيحة للإمام (٤١٩٩)، وغيرهم.

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم أقواما ما سرتهم مسيراً ولا أنفقتهم من نفقة ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة!! فقال: «حبسهم العذر»^(١).

وهؤلاء الذين سقط عنهم واجب الجهاد بالسيف، والاشتراك في المعركة، ذكرهم الله تعالى فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ أى إثم أو أن يكلفوا أنفسهم العنت والضيق.

والضعفاء هم الشيوخ الذى أثقلتهم السن، والنساء والصبيان، وغيرهم من الذين لا تتحمل أجسامهم لضعف بنيتهم، وخور مَنَتَهُم^(٢)، والأعمى والأعرج، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧) [الفتح].

والضعفاء الذين عذرهم، وفيهم الأعمى والأعرج وعذرهم ثابت دائم، وهناك أمر ليس بدائم، وهو عارض، ولكنه يسقط الوجوب فى مدة وجوده، وهو المرض الشديد الذى يقعد عن القيام بالواجب أو يزيده الجهاد مرضاً.

وهناك عجز ليس فى ذات الجسم دائماً، أو عارض قابل للزوال، وهو ألا يجد ما ينفق منه على نفسه فى رحلته، وقال تعالى فيه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

وكل لا يجب عليهم الجهاد، ولكن يجب عليهم أن ينصحوا الله ورسوله، وقد بينا ما قال العلماء فى ذلك، وإنهم بإخلاصهم ونصيحتهم، والقيام بالواجب الذى يقدرّون قد أحسنوا فى جنب الله، ولذا قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

(١) هذه رواية أبى داود: الجهاد- الرخصة فى القعود من العذر (٢٥٠٨).

(٢) المنة: القوة. والمقصود ضعف قوتهم.

وهذا النص السامى من جوامع الكلم . . وهو يفيد أن هؤلاء الذين قعدوا بأعذار حقيقية إذا نصحوهم الله ورسوله محسنون، أى قاموا بالواجب وزيادة، ومن أحسن لا عقاب عليه، ومعنى قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى طريق لتأنيبهم، أو لوم أو عتاب، أو تعييب لموقفهم؛ إذ إن موقفهم أنهم قاموا بالواجب على قدر طاقتهم.

وهناك صنف غير من ذكرنا ليسوا ضعفاء، ولا مرضى، ويجدون ما ينفقون، ولكن لا يجدون ما يحملهم فى هذه الشقة البعيدة، وهم يسقط الوجوب عليهم، وقد قال تعالى فيهم:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)﴾.

(الواو) هنا عاطفة عطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى...﴾ وتكرار لا لتأكيد نفى القدرة، وتحقيق العذر وثبوته.

فهؤلاء الأصناف أربعة: الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقونه من زاد، والصنف الرابع الذين لا يجدون ما يحملون عليه، وكان الرجل كما قال ابن عباس يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه، وبعير يحمل الزاد والماء فى هذه الرحلة الشاقة.

وقد قال فى هؤلاء مبينا حالهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وهذا يدل على أنهم لا يجدون ما يحملهم، ويدل على أنهم شكوا حالهم لرسول الله ﷺ، وأن الرسول لم يجد ما يحملهم، وذلك صريح، وهذا الكلام فيه من إيجاز الحذف ما لا يمكن أن يكون إلا فى أبلغ كلام وهو كلام رب العالمين، وما فى قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ لتأكيد فعل الشرط، وهو مجيئهم للنبي ﷺ وعرض حالهم، ومحاولة النبي ﷺ علاج

أمرهم، والبحث عما يحملهم عليه، وجواب الشرط هو قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (تولوا) معناها انصرفوا، وحالهم مؤلمة باكية، وعبر عنه بقوله: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ﴾ جملة معترضة بين فعل الشرط وجوابه، أو حال الكاف في ﴿أَتَوَكَّ﴾، وهذا ما اختاره الزمخشري.

وقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾.

(الواو) واو الحال، و﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ فيه مجاز في إسناد الفيض إلى العين؛ لأن معناه أن العين ذاتها تفيض كأنها صارت دمعاً، لامتلائها، واغروراقها، و﴿مِنْ﴾ بيانية، أى أن تفيض العين من الدمع، والجار والمجرور فى مقام التمييز، كما تقول فاضت العين دمعاً، وقوله: ﴿حَزَنًا﴾ حال، أى فاضت العين دمعاً لأجل الحزن الذى استولى بسبب الحرمان من الجهاد، وهو متعة نفوسهم، وغاية ما يبتغون عند ربهم.

﴿أَلَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ﴾ وألا يجدوا، المصدر المؤول، ويكون المعنى هم فى حال حزن شديد، ﴿أَلَا يَجِدُوا﴾ أى لأنهم لا يجدون ما ينفقون، ولا يجدون ما يحملهم، ففيه تقدير حرف محذوف.

وهذا يتضمن أنهم لا يجدون مركباً يركبونه، ولا نفقة ينفقونها.

وإنه يجب أن ننبه أن بعض الضعفاء الذين رفع عنهم الحرج بسبب ضعفهم، لم يرضوا بأن يكونوا قاعدين، وإخوانهم يجاهدون، بل ذهبوا وجاهدوا، وتقدم أحدهم وهو أعرج، قال لا بد أن أكون بعرجى فى الجنة، ولم يتراخ ولم يرض بالقعود، وذهب بعضهم وهو يهادى بين رجلين، حتى وصل إلى الصف ليموت مجاهداً، رضى الله عنهم.

المؤاخذون في التخلف

قال تعالى:

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى
 الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾
 يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَن
 تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
 اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ
 وَاللَّهُ شَهِيدٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
 بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
 عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَنُهُمْ جَهَنَّمَ جَرَاءً بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن
 تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾

كان آخر الآيات السابقة التي بينت ذوى الأعذار أنهم لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم، وأنهم لا يجدون ما يحملهم من إيل أو خيل، ولا يجدون من يمكنهم من الركوب بإعارة أو تبرع أو نحو ذلك.

فكان المناسب أن يذكر المقابل لهم الأغنياء الذين يجدون النفقة، ويجدون ما يحملهم، ومع ذلك يعتذرون عن الخروج بمعاذير كاذبة، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ (إنما) أداة قصر، أى لا

سبيل للعتاب أو اللوم أو العقاب إلا على الذين يبادرون بالاستئذان، وهم أغنياء

يستطيعون الإنفاق ويجدون ما يركبون ويقطعون به الفياض والقفار، وكلمة (السيل) في البيان القرآني تطلق على الطريق للمواخظة، ثم العقاب من بعدها كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وأن مؤدى هذا التعبير بيان أن ما يرتكبون سينتهى بهم لا محالة إلى عقاب شديد.

والقصر هنا إضافي؛ لأنه في مقابل أنه لا سبيل على الضعفاء، الذين سبق بيانهم، فالسبيل خاص بالذين يستأذنون وهم أغنياء.

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان سبب تخلفهم، وهو رضاهم بالمهانة والمذلة والاحتقار، إذ رضوا بأن يكونوا من الخوالف، وهن القواعد من النساء اللاتي لا يقاثلن، اللاتي يعبر عنهن بربات الخدور، والخوالف أيضا الأشياء الفاسدة التي ترسب في الإناء بعد تفرغها.

وقد ذكر سبحانه وتعالى السبب في هذا الرضا الذي لا يرضى به عربي سليم في إدراكه لمعنى المروءة والكرامة، فقال تعالى: ﴿وَطَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي أنه بتوالى نفاقهم، وسيطرة الاحقاد على قلوبهم، ونسيانهم ما توجبه المروءة والأخلاق والكرامة والعزة، قد طبع الله تعالى على قلوبهم، وختمها على ما فيها من مفسد نفسية وفكرية، فهم لا يعلمون الخير من الشر وما تكون عاقبته وبالا وما لا تكون، لا يعرفون أنه إذا نزلت نازلة الهزيمة أمام الرومان تكون على العرب وفيهم المنافقون، لا فاصل بين البريء والسقيم.

وإن دأب هؤلاء الذين يعتذرون عن مواقف الشدة بغير عذر أو بعذر كاذب أن يحسبوا أن كل كلام يقبل، سواء أكان مقبولا أم كان غير مقبول، فكانوا يفعلون ما يفعلون، ويحسبون أن النبي ﷺ يقبل معاذيرهم الكاذبة، وإن فساد قلوبهم وعقولهم يجعلهم يتصورون أن طيب القلب يقبل كل ما يدلون به، ولذلك أكثروا من الاعتذار عما يفعلون، كما يكثرون من الاعتذار عن النفور إلى الجهاد،

ولذا قال تعالى عنهم: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)﴾ .

ما كانوا يتوقعون أن يعود النبي ﷺ موفورا منصورا، بل كانوا يتوقعون أن ينال منه الرومان هو ومن معه من المؤمنين، حتى لقد كانوا يقولون في مجالسهم، إن الرومان سيكبلون العرب، والمنافق مسرف في القول دائما، ولكنهم رأوهم قد جاءوا منتصرين، وتخاذل الرومان عن لقائهم، وقد راعهم ذلك، فبدءوا يعتذرون كاذبين، كما اعتذروا في التخلف كاذبين، ولذا قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ سالمين أقوياء مسيطرين على أنفسكم أحراراً غير مكبلين، والاعتذارات كاذبة كقولهم لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فيأمر الله تعالى نبيه بقوله تعالت كلماته: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ فكان النهي عن الاعتذار؛ لأنه كذب، والتمادى في الاعتذار الكاذب تماد في الكذب، والتمادى في الكذب فجور وهو غير مقبول، ولذا بين السبب فقال: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾، أى لن نسلم لكم بما تقولون من أكاذيب، ونحن نكذبها لأن النبا اليقين قد جاءنا عن الله، ولذا قال تعالى في سبب التكذيب وعدم التسليم لهم ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ النبا: الخبر الخطير، و﴿مِنْ﴾ هنا للتبعض، أى قد نبأنا الله تعالى ببعض أخباركم وهو ما يتصل بنياتكم وبقلوبكم، وبالأفعال التى تقصدون بها إفساد عزائم المؤمنين، وتخذيْلهم عن المجاهدين، وحقيقة ما تقصدون باعتذاراتكم وأنها كاذبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ (السين) لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، أى أنه ليس لكم أن تتكلموا فى الماضى، فالله تعالى قد علمه من قبل، ونبأنا به، وإنما الأمر الحاضر، ﴿وَسَيَرَى﴾ أى سيشاهد، أو سيعلم علم المشاهدة أو الواقع الله ورسوله.

وهذا الكلام السامى يفيد أمورا ثلاثة: أولها - أنه لا يصح أن تشغلوا أنفسكم بما استدبرتم من أمور، بل اشغلوها بما تستقبلون من أموركم، وثانيها - التهديد بأن الله تعالى ورسوله يعلمان أموركم فى المستقبل علما مؤكدا لا مناص من أن تتخلصوا من تبعاته، وإن الله تعالى سيحبط أعمالكم، وثالثها - رجاء أن يدخل الخير قلوبكم، فتتوبوا عما أنتم عليه، ويصلح بالكم، فلا تعتذروا عن التخلف كاذبين.

وينذرهم الله سبحانه وتعالى الإنذار الشديد فيقول سبحانه: ﴿ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (ثم) للترتيب والتراخى، والتراخى هنا فى موضعه؛ لأن فيه الانتقال من الدار الفانية إلى الدار الباقية، فيه الانتقال من دار العمل إلى دار الجزاء، وقوله تعالى: ﴿تَرْدُّونَ﴾ تفيد أمرين: أحدهما - أنهم يذهبون إلى هذه الدار غير مختارين، بل يردون إليها مدفوعين، ثانيهما - فى التعبير بلفظ ما يفيد معنى الرجوع إليها بعد هذه الحياة، وكأنهم فى الدنيا فى سفر يعود بعدها المسافر إلى حيث إقامته وموطنه، فالإنسان ما خلق عبثا، إنما خلق لأجل البقاء فى الآخرة، فهى وطنه الأصلى إما نعيما مقيما، وإما عذابا أليما.

والمراد فى الآخرة إلى الله تعالى حيث يلقاه العباد ويلقاهم بأعمالهم التى لا تخفى عليه منها خافية، فلا نفاق ولا كذب ولا مراعاة، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الغيب هو المغيب أو المستور، وعالم الشهادة هو العالم الظاهر، فهو يعلم السر والجهر ويعلم الحاضر والغائب، يعلم ما كان وما يكون. ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (والفاء) هنا للترتيب والتعقيب؛ إذ إن الإنباء يكون عقب الرجوع إلى الله تعالى، وذلك دليل على تأكد وقوع ما وعد به وتحققه وأنه لا مفر من قيام القيامة، ونزول ما وعد الله تعالى به.

والإنباء فى هذا الحال، ليس بالأقوال، ولكن بالرؤية والأفعال فهو مجاز، يرون أعمالهم، تنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون، وتشهد عليهم ألسنتهم

وجوارحهم وأفعالهم، فالإنباء فيه وعد ووعد، فيه أن يعلم الناس ما فعلوا ويروا جزاء ما فعلوا حاضراً مهياً يستقبلهم ويستقبلونه.

ابتدأ المنافقون بالاعتذار ليصدق النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين معاذيرهم؛ لأنهم رأوهم جاءوا سالمين، وسولت لهم نفوسهم أنهم سيجيئون مقهورين مكبلين فى الأصفاد وزين ذلك فى قلوبهم، فلما جاءوا بالظفر والقوة ابتدءوا فاعتذروا فلم يقبل لهم عذر، فترلوا عن بعض ما رغبوا إلى أن يعرضوا عنهم، وينسوا ذلك الأمر الذى وقع ليستقبلوا معاملة جديدة كما يجرى فى وهمهم، وكما يريدون أن يوهبوا به المؤمنين، وحكى الله تعالى عنهم بقوله تعالت كلماته: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)﴾ (السين) لتحقق الفعل فى المستقبل، و﴿انْقَلَبْتُمْ﴾ معناها رجعتم، وعبر عن الرجوع بالانقلاب؛ لأن المجاهد سائر فى طريقه إلى الأمام فإذا أراد العودة انقلب من السير إلى الأمام إلى العودة إلى الوراء، والتعبير بالانقلاب يفيد العودة مختاراً غير مقهور ولا مهزوم ولا مترجع.

وحلفهم ليس للاعتذار، بل هو لطلب السكوت عنهم، ولذا قال تعالى: ﴿لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ أى تسكتوا عنهم فلا تلوموهم ولا تعيروهم ولا تذكروهم بما رضوا به من قبل من القعود مع الخوالف، وقولهم ذرنا نحن مع القاعدين. طلبوا أن يسكتوا عنهم فأمر الله تعالى المؤمنين بأن يستجيبوا لهم لا إرضاء لنفوسهم، ولكن لأنه لا جدوى فى لومهم، ولأن الله تعالى يريد أن يسكتوا عنهم حتى لا يكثر قول النفاق منهم، ولذا قال: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ...﴾ فأعرضوا عنهم، فلا تلوموهم، ولا توبخوهم لأنهم رجس، أى أنجاس قدرهم لا يظهره لوم ولا عتاب، كالشئ الذى يكون نجس العين مثل الخنزير، لا يطهره الماء، بل الماء ينجس به، وكثرة القول معهم فى أنجاسهم يشيع قول السوء فى الذين آمنوا.

وأنهم وراءهم العذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى مستقرهم الذى يستقرون فيه ويأوون إليه جهنم جزاء بما كسبوه فى الدنيا من آثام فى أقوالهم وبثهم الشر والفساد بين المؤمنين وسعيهم وتبليطهم لهمم المؤمنين.

وقلنا: إن التعبير فيه نوع من التهكم عليهم؛ لأن المأوى مكان الاطمئنان والراحة، وإن المنافقين يرتعدون من الإعراض عنهم ويسعون إلى طلب رضى النبي والمؤمنين، فيحلفون لهم بما يقرب قلوبهم، ولذا قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٩٦) لقد أعرضوا عنهم ولكنه إعراض من لا ينسى ما كان منهم ولكن لا يذكره، أعرضوا عنهم بوجوه مكفهرة، وما فى قلب المؤمن يظهر فى لمحات عينه وعلى وجهه فهو فى اشمئزاز منهم، وإن كان لا يتكلم بسوء، وهذه الحال لوم شديد، وهم يريدون إرضاءهم فأخذوا عدتهم من القول، وهو الحلف ليدنوا منهم ويتقربوا من نفوسهم، وتتلاقى مشاعرهم وإحساساتهم، فيتمكنوا منهم، ويعرفوا دخائل نفوسهم، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، ولذا قال: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

والمؤمن يطلب رضا الله دائما، ويتبع ما يرضى الله، ولا يفعل قط ما لا يرضى الله، فإذا كان الله لا يرضى عنهم، فالمؤمن اتباعا لحكم الله تعالى لا يرضى عنهم.

وإن رضا المؤمنين من غير رضا الله تعالى لا يجديهم؛ لأنه هو الذى يعاقب وهو الذى يتعم، ويشقى، فإن أرادوا الرضا، فليطلبوا رضا الله تعالى لا رضا المؤمنين وحدهم، ورضا الله فى أن يخلعوا أنفسهم من النفاق، ويخرجوا من إهابه، فبئس الإهاب يلبسونه.

وقد بين الله سبحانه وتعالى السبب في أنه لا يرضى عن المنافقين ما داموا مستمرين على حالهم ، وذلك في قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فإن الإظهار والمقام مقام الضمير، كأن يقول تعالت كلماته « فإنه لا يرضى عنهم » وفي ذلك تعليل سبب عدم الرضا، وهو فسقهم وتمردهم على أوامر الله ونواهيه وتضافرهم على ذلك، حتى صاروا بذلك التفاهم على النفاق بينهم قوماً قائمين عليه راضين به، اللهم اكف أمتك شر النفاق والمنافقين .

الأعراب

قال تعالى :

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا
حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ
لَّهُمْ سَيَدْخُلُوهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

لقد تم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول ﷺ، والكلام على هذه الآية يدل على أن القرآن من عند الله تعالى علام الغيوب؛ لأنه يدل على أمرين وقعا بعد وفاة الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه :

الأمر الأول: أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، ولذا ارتدوا أو أكثرهم بعد وفاة النبي ﷺ حتى أحاطوا بالمدينة، ولولا وقفة الصديق خليفة رسول الله، والصحابة الأولين من المهاجرين والأنصار لاقتلعوا الإسلام .

الأمر الثانى: أنه عندما قويت دولة الإيمان عليهم، وهزموا هزيمة منكرة، رضوا بالصلاة دون الزكاة لأنهم اتخذوها مغرماً، ولم يتخذوها قربات عند الله وتعاونوا بين المؤمنين، وهو تعاون على البر والتقوى، ولذا لم يقبل خليفة رسول الله إلا الإسلام الكامل، والطاعة، وقالها مؤمناً: إما حرب مجلية، وإما سلم مخزية.

ولقد تربص أولئك الأعراب الدوائر بالمؤمنين فانتهزوا فرصة وفاة النبي ﷺ وارتدوا فدارت عليهم دائرة السوء.

وإن ذلك كله دلائل على أن القرآن من عند الله تعالى العزيز الحكيم.

الأعراب هم سكان البوادر فى خلقهم جفوة، وفى طبائعهم خشونة، وفيهم نفرة لا يأنسون بالناس ولا يأنس بهم الناس، وإن كان فيهم يقظة وسرعة حركة ونجدة، وهم لذلك أقل الناس علماً وفكراً، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السطان افتن».

ولقد قال ابن كثير فى تفسيره: ولما كانت الغلظة فى أهل البوادر لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى...﴾ (١٠٩) [يوسف]، والقرى: المدن العظيمة، وخير القرى ما يكون قريبا من البادية أو فى وسطها كمكة والمدينة... فهى تجمع بين قوة نفس البدوى وأنس الحضرى، وكذلك كان يبعث النبيون فموسى بعث بمدين، وعيسى بعث على مقربة من البادية، ومحمد بعث بمكة عليهم الصلاة والسلام، وقد وصف الله تعالى الأعراب بثلاثة أوصاف: أولها: أنهم أشد كفرا، وثانيها: أنهم أشد نفاقا، وأفعل التفضيل ليس على باب؛ لأنه لم يذكر الفضل عليه، وحيث لم يذكر الفضل عليه يكون المعنى أنه كفر بلغ أقصاه

وأشد أحواله فهو كفر يلتقى فيه الجحود، وعدم التفاهم، والجهل الشديد، والغلظة الجافية.

ونفاقهم ليس كنفاق أهل المدينة، ولكن نفاقهم يكون بعدم الإيمان المطلق مع التسليم الظاهر، وعدم الإلّف، وهم كما قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (١٤) [الحجرات].

والوصف الثالث هو قوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ إنهم بإقامتهم فى البادية كانوا جديرين وخلقاء ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله بالأى يعرفوا أحكام الشريعة والفرائض، وتوابعها وأحكام الجرائم، وعقوباتها، والمحرمات من النساء والأنكحة والموارث، وغير ذلك من أحكام الشريعة التفصيلية.

﴿وَأَجْدَرُ﴾ أفعل تفضيل على غير بابه، إذ إن المفضل عليه غير موجود، والمعنى أنهم لبعدهم عن المدائن والقرى حيث العلم والفقه - صاروا فى أغلب الأحوال جديرين بالبعد عن العلم بحدود الله تعالى.

وفى مذهب مالك لا تقبل شهادة البدوى على الحضرى، ولا تجوز إمامته له، وذكر هذا القرطبى فى تفسيره وهو مالكى، ونقول إنه غريب عن مالك إمام دار الهجرة رضى الله عنه، وإن المؤمنين عدول فيما بينهم، والإمامة للأعلم فالأقرأ، وقد يكون فيهم أعلم وأقرأ، ووصف مجموعهم لا يقتضى وصف كل واحد منهم.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى يعلم الله تعالى أحوال الجماعات ونفوسهم مؤمنهم وكافرهم قويهم وضعيفهم، وهو المتصف بالعلم الكامل، وحكيم يدبر الوجود بمقتضى الحكمة.

فإذا كان الجهل فى البادية لبعدها عن العمران ففيها البأس والقوة، والصبر على مصاعب الحياة وشدائدها، ولذلك لما قضى الصديق على الردة، وأخلى

الأرض العربية منها - جيش الجيوش إلى كسرى وقيصر، وكان أكثرهم من أهل الأعراب الذين ارتدوا فوجه قوتهم إلى الأعداء.

بعد أن بين سبحانه أخلاق الأعراب أخذ الحكم العدل اللطيف الخبير بين أهل الشر منهم، وأهل الخير فقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨).

إن الأعراب الذين هم أشد كفراً ونفاقاً يرون المسلمين لهم القوة والسيطرة فما يدفعونه من زكاة يقدمونها على أنها مغرم أى مال وجب عليهم أداؤه، ولأنهم لا يؤمنون بالله ورسوله ولا اليوم الآخر يعدونه مغرماً - والمغرم: الغرم أو الغرامة، والغرامة هى المال الذى يدفع فى غير مقابل، ولأنهم لا يؤمنون ولا يرجون خيراً فى عطائهم، وأصل الغرام الشئ الملازم، وأطلق على المدين الغارم، لأنه ملازم دائماً من الدائن ولذا قال تعالى: ﴿... إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٦٥) [الفرقان].

فهؤلاء الأعراب لاعلاقة لهم بالمجتمع، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يعدون ما ينفق من زكاة مفروضة غرامة، ويتظنون أن ينخلعوا من هذا المال المفروض عليهم، ولا يؤمنون بوجوبه عليهم؛ لأنهم لا دين لهم وقال: ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أى ينتظر ذلك الفريق من الأعراب أن تنزل بكم النكبات، «والدوائر» وهى جمع دائرة، والدائرة النائية وهى فى أصلها مصدر كالعافية، وقد تكون اسم فاعل من دار يدور، أى نكبة دائرة، وتتعاقب على الناس، أى أن أولئك المنافقين غير المؤمنين من الأعراب يستظنون أن تنال المؤمنين دائرة تذهب بقوتهم، فيتحللون من تلك النفقات المفروضة، وقد انتظروا حتى توفى الرسول ﷺ فحسبوا فرصة فارتدوا، ثم لما زادت الشدة من أهل الإيمان عليهم رضوا بالصلاة، وامتنعوا عن الزكاة، حتى دفعوها صاغرين بسيف الله الذى رفعه الصديق رضى الله تعالى عنه.

ويقول سبحانه: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى أنه ينزل عليهم نكبة السوء، وهنا فى (السوء) قراءتان، إحداهما بضم السين^(١)، وهى المصدر بمعنى ما يسوءهم، فالدائرة نازلة ومقبلة، ولكنها ليست على المؤمنين بل على المنافقين من الأعراب، ولذلك هزمهم الصديق وخضد شوكتهم، وتقرأ السين فى القراءة الثانية بالفتح^(٢)، والسوء: الضرر والفساد وكل قراءة من القراءتين قرآن متواتر.

ويجمعها يكون المعنى أنه يصيبهم نكبة تفجعهم وتسوءهم، وعاقبته مضرة شديدة عليهم أن يشرذم جمعهم ويتفرق أمرهم وتسبى نساؤهم ثم يعتقن، وأن يقتل رجالهم وينهزموا.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أن ما ينوون وما يترصبونه يعلمه الله تعالى ويدبر الأمور على غير ما يريدون، بل على ما يريد الحق جل جلاله، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ صدر الجملة السامية بلفظ الجلالة، لتربية المهابة فى نفوس القارئ والمستمعين، وملء القلوب برقابة الله تعالى؛ لأنه ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع ما تحدث به النفوس، وما تهمس به الأفتدة ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شىء، يدبر الأمر على مقتضى علمه، وقد أحاط بكل شىء علما.

وأن الله يعلمنا الإنصاف فى الأقوال والأفعال، والله المثل الأعلى، فيذكر تعالت كلماته بجوار المنافقين من الأعراب الأبرار فيقول عز من قائل:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخِلُهمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)﴾.

هذا هو الصنف من الأعراب الذى أخلص الله تعالى، وسلمت قلوبهم من النفاق، وآمنوا بالله وأقاموا الصلاة، وقد ابتدأ سبحانه وتعالى بالإيمان بالله تعالى،

(١) قراءة (السوء) بضم السين والمد، قراءة ابن كثير وأبو عمر، وقرأ الباقون (السوء). غاية الاختصار (٩٦٤).

(٢) السابق.

فقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ذكر سبحانه وتعالى الإيمان بالله تعالى وهو الإيمان بوحْدانيته، وأنه الخالق من غير شريك، والواحد في صفاته من غير مثل، والمتفرد بالالوهية والعبادة وحده سبحانه وتعالى، والإيمان بأن له رسلاً أرسلهم إلى خلقه ويؤيدهم بمعجزات باهرة تدل على أنهم يتحدثون عن الله، وأنه أرسل محمداً بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

فذكر الإيمان بالله تعالى يقتضى الإيمان برسله عامة ورسالة محمد ﷺ خاصة، وقال تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو يوم القيامة وما قبله من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، فكل ذلك إيمان باليوم الآخر، وهو إيمان بأن الإنسان لم يخلق عبثاً، وأن الدنيا قنطرة الآخرة.

وقوله تعالى وهو ما يتبع الإيمان: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ﴾ ومعنى ﴿يَتَّخِذُ﴾ يفعلها قاصداً أن تكون قربات، لا كالذين فعلوها على أنها مغرم من المغارم يغرمونها، ﴿قُرْبَاتٍ﴾ أى يفعلونها متقربين بها إلى الله تعالى، فالقربات جمع قربة، وهى ما يتقرب به إلى الله تعالى، وجمعها لتعدد الخير فى الصدقات فهى طاعة لله تعالى وهذه قربة، ووقاية النفس من شحها وهذه قربة أيضاً، ومعاونة اجتماعية وهذه قربة رابعة، وعلاج لأدواء المجتمع الإسلامى بإعطاء السائل والمحروم حقهما، وتلك قربة خامسة، وطب لنفوس المحاييج حتى لا يحقدوا على المجتمع، وهذه قربة سادسة. وهكذا تجتمع القربات فى الزكاة وهى الإنفاق فى سبيل الله.

﴿وَصَلَّاتِ الرُّسُولِ﴾ معطوفة على ما ينفق قربات للرسول، وصلوات الرسول قال أكثر المفسرين إنها جمع صلاة بمعنى دعاء أى دعوات الرسول التى يدعو الله تعالى بها عند قبول الصدقات، أى أنهم يتخذون الزكاة قربات لهم



ودعاء الرسول بالبركة يتخذونها قربات أيضا، ويزكى ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾.

وقد خطر على ذهني أن قوله تعالى: ﴿وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ﴾ معطوفة على قوله ﴿مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ﴾ أن الظاهر الصلوات المفروضة وليس الدعاء المقرون من الرسول بقبول الصدقات وإضافتها إلى الرسول ﷺ باعتبار الصلاة فرضت في القرآن، وبينها النبي ﷺ بيانا عمليا، فقال معلما للمؤمنين «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١) فكانت صلوات المؤمنين جميعا هي صلوات النبي ﷺ، فكانت إضافتها إليه ﷺ باعتباره المبين لهذه الفرائض ويكون هؤلاء المتقون من الأعراب قد قاموا بالصلاة والزكاة معا، لا يفرقون بينهما كما أراد المرتدون. ثم قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾.

الضمير - على ما قلنا - يعود إلى الصلوات، وعلى قول أكثر المفسرين يعود إلى ما ينفقون في سبيله، ولا شك أن عوده إلى الصلوات أوضح؛ لأن الضمير مؤنث، وهو أجدر بأن يعود على جمع مؤنث.

و(ألا) هنا أداة تنبيه، وهي تفيد معنى القربة وتؤكد، وتغني عن ذكر وصف الصلوات بأنها قربة أيضا.

وقوله تعالى: ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: (السين) لتحقيق الدخول في الرحمة، والرحمة إما أن يراد بها الجنة وعبر عنها بالرحمة؛ لأنها نعيم مقيم وأعلى رحمة يعلو الإنسان إليها، وإما أن يراد بها الرحمة الشاملة المذكورة ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (١٥٦) [الأعراف]، لتشمل الجنة وغيرها ويكون المعنى أنهم باتخاذهم ما ينفقون والصلوات - تحيط بهم رحمة الله تعالى لا يخرجون منها إلا إليها.

(١) سبق تخريجه.

وقد ختم الله تعالى الآية بما يفتح باب التوبة للأعراب، وهم أقرب المنافقين في المدينة الذين مردوا على النفاق فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أكد غفران الله تعالى ورحمته بـ (إن) المؤكدة، وبالجملة الاسمية، وبصيغة ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وبعد أن بين الله أحوال الأعراب ما بين مؤمن ومنافق، ذكر أحوال الذين سبقوا إلى الإيمان.

السابقون

قال تعالى:

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ
مُتَنَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

بعد أن بين سبحانه أحوال المنافقين في المدينة بين أصنافا ثلاثة من الذين يحيطون بصاحب الدعوة: أولهم وأنقاهم: هم الذين قامت عليهم دعامة الإسلام، وآمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر.

وثانيهم المنافقون حول المدينة، والذين مردوا على النفاق في داخلهم، والله تعالى يعلمهم.

وثالثهم: فريق خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وأفاقوا واعترفوا بذنوبهم فعسى الله تعالى أن يتوب عليهم، وهو التواب الرحيم.

الصف الأول ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ والسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴿السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ هم الذين سبقوا إلى الإسلام، والنبى ﷺ منفرد قد أُنذر عشيرته الأقرين، فأعرض بعضهم وأنكروا شديد النكير. ومن لم يعرض وقف حائراً بين غرابة ما يدعى إليه وماضى الصديق الأمين.

والذين كانوا من الضعفاء ولم يكونوا من الأقوياء إلا نفر قليل، والضعفاء كان منهم الرومى، ومنهم الفارسى ومنهم الحبشى، وكونوا الخلية الأولى للإسلام، ولكنهم وإن كانوا قليلاً كانوا بإيمانهم واستمسакهم وتقديتهم للإسلام كانوا أقوى وأشد، وكانوا يتبعون النبى ﷺ سرا ولا يجهرون حتى انضم إليهم عمر فأعز الله نبيه وأولئك الضعفاء، وكان أن صدع بأمر الله كأمر ربه. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر]، ولما علم أهل المدينة بدعوة محمد قابلهم فى العقبة الأولى ثم فى العقبة الثانية، وهاجر ومن معه إليهم فأووا ونصروا، وإذا كان الأولون قد سبقوا إلى الاستجابة، فقد سبق الأنصار إلى إنشاء دولة الإسلام، وإذا كان الأولون قد سبقوا ابتداء ولهم فضل الهجرة، فقد سبق الأنصار إلى بناء الدولة، ونالوا أفضل الإيواء والنصرة.

والذين اتبعوهم بإحسان فى هذا الدين ممن أسلموا وهاجروا ثم اشتركوا فى الإيواء.

وهناك قراءتان إحداهما بالواو^(١) (والذين اتبعوهم بإحسان)، ويكون هذا لبيان فضل من جاء بعدهم ممن نهجوا منهاجهم فى حياتهم، ومن جاءوا بعدهم،

(١) قراءة العشرة. وهى المتواترة.

ومن في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ بيانية، أى هم المهاجرون والأنصار.

وهناك قراءة من غير الواو^(١)، ويكون من تبعوهم بيان لفضل الأنصار وتكون بدلا أو عطف بيان، أى أن المهاجرين سبقوا وتلقوا الأذى والبلاء، والأنصار نصرؤهم واتبعوهم بإحسان أى اتبعوهم بإتقان وإجادة، ورضا وتقبل بقبول حسن، ولقد ذكر الله تعالى مناقب المهاجرين والأنصار وجزاءهم.

فذكر الجزاء الأعلى وهو رضاهم بالله وليا ونصيرا، ورضا الله تعالى عنهم أحباء لله تعالى، فقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ورضوان الله تعالى أكبر جزاء على الطاعات، فقد ذكر الله تعالى الجزاء من جنات ونعيم مقيم، ثم قال: ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٧٢) وقد قدمه تعالى على كل جزاء من بعده، فالإحساس برضا الله أعلى درجات الجزاء، ووصفهم الله بأنهم رضوا عنه، رضوا بتكليفاته، وتقبلوها بقبول حسن، وقاموا بحق طاعته، وأحبوا الله لا خوفا من ناره، ولا طمعا في جته، بل لكمال محبته، وتلك هى المنزلة العليا فى العباد، لا يعبد سبحانه خوفا ولا طمعا، ولكن محبة، وسعادة بعبادته.

ومع هذه المرتبة العليا من المكاتب التى لا تعلوها مكانة، ولا ينهد إلى مثلها جزاء ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

فى هذا النص السامى فراءتان متلاقيتان فى المعنى، ففى المصحف المكى زيادة «من» وفى غيره خلو منها^(٢)، وفى الجنات الثمار الطيبات وتعدد الجنات لتعدد ثمارها، ففيها فاكهة ونخل ورمان، وغيرهما مما لا عين رأت ولا أذن

(١) قراءة: (الذين) بغير الواو، ليست فى العشر المتواترة.

(٢) (تجرى من تحتها)، بإثبات (من) قراءة ابن كثير، وكذلك رسم هذا الحرف فى مصحف أهل مكة، وقرأ الباقون (تجرى تحتها)، وكذلك رسمها فى بقية المصاحف، انظر المقنع-ص ١٠٤، السبعة-ص ٣١٧، والنشر- ١٨٠٢. غاية الاختصار- برقم (٩٦٧).



سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يخاف فيها الفوت، ولا الانقطاع، ولذا قال تعالت كلماته ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ والخلود ذاته نعمة؛ لأن البقاء نعمة، والفناء فيه الخوف.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى هذا الجزاء العظيم من رضوان منه، ورضا بأمره ونهيه، وقضائه خيره وشره وجنات متعددة الثمار مختلفة الألوان والأنواع، هو الفوز العظيم، ولا فوز يقابله أو يناهده، ومن ناله فقد نال خير الدنيا والآخرة.

ذكر الله تعالى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين جاءوا من بعدهم واتبعوهم بإحسان في وسط الكلام في المنافقين؛ لتمييز الخبيث من الطيب، وليكونوا قدوة لهم إن أرادوا الهداية، ولقد عاد القول إلى المنافقين فقال تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدِيبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾.

هذا هو الصنف الثاني ممن شملتهم الآيات الكريمة، وهم الذين شغلوا الكثير من الآيات الكريمات، وشغلوا أفكار المسلمين بتخلفهم المرة بعد الأخرى، واعتذارهم الكاذب في كل مرة ويحلفون بالله كاذبين مجترحين الأثام بعد الأثام، ويكرر الله تعالى ذكرهم لأنهم آفة الجماعات، وداؤها الدوى، ولا تنهض جماعة إلا بإبعادهم عن بيتها الفكرية.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ وهم قبائل مختلفة - ذكر بعض المفسرين قبائلهم، فقال من مزينة وجهينة، وأسلم وغفار وأشجع، ناس منهم وليسوا كلهم، ولذا ذكر بعضهم فـ«مِنْ» في قوله: ﴿مِمَّنْ﴾ أى (مِنْ) المدغمة في (مِنْ)، أى بعض من حولكم من الأعراب منافقون أتقنوا النفاق وأجادوه، حتى إنهم ليحسنون إخفاء ما فى بطونهم، فلا تعرفهم فى لحن القول، كما تعرف

غيرهم ممن تكشف بعض أمرهم، فقال الله تعالى فيهم: ﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ...﴾ (٣٠) [محمد]، ولقد قال للنبي ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أى مع فطنتك وقوة حسك، ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ المتكلم هو الله جل جلاله، وهو يعلم ما تسره النفوس، وما يناجون به فيما بينهم، وهذا نفاق فيمن حولكم، أى يحيطون بدياركم ويجب الحذر منهم والاحتياط لهم، وتكشف أمرهم حتى لا يخدعوكم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الذين يتبعون عورات المؤمنين، ويتسمعون مواضع الضعف فيكم، وهؤلاء أصلاء فى النفاق من وقت أن رأوا القوة فيكم، فأسروا الكفر وأظهروا الإسلام، ودأبوا على النفاق ولجوا فيه، حتى صار النفاق عليهم سهلاً ميسراً، وعبر الله تعالى عن دأبهم فى النفاق ﴿مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ﴾ وتجردوا له حتى خلصت نفوسهم له حتى صاروا لا يستطيعون الصدق لو أرادوه، والإخلاص لأمر من الأمور، ولقد صاروا مهرة، من مرد فلان على العمل، إذا مهر فيه.

ولذلك رتب على مرد أن الرسول الفطن الأريب لا يعلمهم، والله علام الغيوب، وما تحدث به النفوس يعلمهم، وإن الله إذ يعلمهم يعذبهم فى الدنيا والآخرة، ولذا قال: ﴿سَعْدَبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَعْدَبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ غير العذاب الأليم الذى يردون إليه، وأن توزيع العذاب عليهم يجعل العذاب مرتين، والعذاب الذى يردون إليه فى الآخرة.

وقد اختلف المفسرون فيه، فقليل العذاب مرتين عذاب الفضيحة، وعذاب القبر، وقليل العذاب مرتين الفضيحة، وتنفيذ الحدود فيهم وأخذ الفرائض منهم.

وإنى أرجح أن العذاب مرتين هو الفضيحة، ورد كيدهم فى نحورهم، وفساد تدبيرهم، وغيظهم من أن المسلمين بقيادة النبي ﷺ يخرجون من كل تدبير دبروه سالمين، وأميل إلى الذين فسروا قوله تعالى: ﴿سَعْدَبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ إلى أن مرتين كناية عن كثرة العدد، وترادف المرة بعد المرة، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْجَعْ

الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿١٤٤﴾ [الملك] وقد عذبوا مرات، كل مرة تتلوها أختها، عذبوا بعد أحد، وبعد الخندق، ومن قبل وبعد بدر، وفي كل غزوة كانوا يتمنون فيها الخسارة للمؤمنين، ولقد قال تعالى فيهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

و(السين) في قوله تعالى سنعذبهم لتأكيد وقوع العذاب المتكرر بهم، وهو عذاب نفسى وعذاب بدنى كما وقع لقريظة، وعذاب مالى كما وقع لبنى النضير وكل ذلك مع العذاب النفسى المستمر لغيرهم فى كل الغزوات حتى تبوك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ ثم ينقلبون إلى عذاب عظيم فى نار جهنم، و(ثم) هنا فى معناها من حيث التفاوت بين عذاب الدنيا وهو مكرر، وعذاب الآخرة الدائم الذى لا ينتهى، ويردون فيها معنى الدفع لهم عن الذى كانوا يحسبونه إلى عذاب عظيم، والتذكير هنا لتكثيره وشدة آلامه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء].

وبعد أن ذكر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ذكر الذين تابوا واعترفوا بذنوبهم.

فقال تعالى: ﴿وَأَخْرُونا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

هذا هو الصنف الثالث، وهم الذين تخلفوا فى غزوة تبوك، فالقسم الأول من المهاجرين والأنصار ومن اتبعوهم بإحسان واقتدوا بهم، وإن لم يسبقوا سبقهم وهؤلاء ما تخلفوا عن غزوة غزاها النبى ﷺ، والقسم الثانى المنافقون الذين تخلفوا وكانوا يتمنون الهزيمة للمؤمنين.

والقسم الأخير تخلفوا من غير معذرة، ولم يدنسوا ألسنتهم بكذبهم، وأحسوا بكبر ما فعلوا فاعترفوا بذنوبهم وأحسوا بوخز الإثم يحيك فى صدورهم، وكبر أمرهم فى أنفسهم عندما نزلت الآيات للمتخلفين، فجاء بعضهم وربطوا

أنفسهم على سوارى المسجد وأقسموا ألا يحلوا أنفسهم إلا إذا حل رسول الله ﷺ رباطهم، فلما جاء من سفره وإنه كان من سته أنه إذا جاء من سفر صلى الله ركعتين، فلما رآهم أبى أن يحل وثاقهم حتى يجيء أمر الله بذلك، وقد نذروا أن يتصدقوا بأموالهم إن غفر الله لهم تخلفهم، فغفر الله تعالى لهم بهذه الآية التي فيها ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

فلما تاب الله تعالى قدموا من أموالهم، وبعضهم قدم كل أمواله تكفيراً عما اجترح من سيئة التخلف وهو قادر، ويقول تعالى في شأنهم: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الجهاد السابق والإيمان، والإحساس بالذنب، والتوبة النصوح، والتصديق، والآخر السيئ؛ وهو التخلف في الجهاد الذي بعدت فيه الشقة، وهذا أمر سيئ؛ لأنه عصيان لأمر الله تعالى؛ ولأنه تخاذل في وقت الشدة؛ ولأنه إثارة للراحة على الجهاد.

وقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾، أى جمعوا بين الخير والشر، ولم يقل سبحانه وتعالى - ولكلامه المثل الأعلى - خلطوا بعمل صالح آخر سيئاً من غير تمييز بين المخلوط والمخلوط به؛ لأنه ليس المقصود معرفة المخلوط من المخلوط به، إنما المقصود أنهم جمعوا بين الصالح والطالح، وقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الرجاء ليس من الله إنما هو من العباد، يرجون أن يتوب الله عليهم أى يرجع عليهم بقبول التوبة.

أو يقال إن الأمر مادام قد اختلط الخير بالشر وكان الترجى فإن الأمر يرجى فيه قبول التوبة؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ولأن الخير الغالب برحمة الله يذهب بالشر المغلوب، وأن غفران الله ورحمته يطلبان قبول التوبة حيث كان لها مسوغ، لأن الله تعالى يقبل التوبة من عباده، ولأنه غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب، وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فى هذه الجملة

(١) راجع ابن جرير الطبرى: جامع البيان (١١ / ١١٠). كما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل. الدر المنثور (٤ / ٢٧٤).

السامية تأكيد لمعنى الغفران وقبول التوبة رحمة بعباده، وذلك لأن الجملة السامية مؤكدة الغفران والرحمة بـ (إن) الدالة على التوكيد، وبالأوصاف للذات العلية ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وبالجملة الاسمية.

وقد كان أولئك التائبون المعترفون بذنوبهم يقدمون أموالهم تكفيرا عن ذنوبهم، فأمر الله تعالى نبيه الأمين أن يأخذها فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣).

يحسب بعض الكتاب فى التفسير القرآنى أن فى هذا النص ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ به فرضية الزكاة، ونحسب أن الزكاة قد فرضت قبل ذلك، وإنما هذه الصدقة المطلوبة من الصدقات التى تكفر المعاصى، أو من المطلوبات التى تعم المفروض والمندوب ولقد قال النبى ﷺ: «الصدقة تطفى الخطيئة، كما يطفى الماء النار»^(١) ولقد كان من بعض الخطائين الذين تخلفوا فى تبوك من أراد التصديق بكل ماله تكفيرا عن خطيئهم فى التخلف، وإحساسا بكبر ما ارتكبوا، وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ وهناك قراءة بسكون الطاء، وعدم الإدغام فى الهاء من أظهر والمعنى فى القراءتين أن الصدقة تطهر نفوسهم من شحها؛ لأن من تخلف محافظة على أن الزمان كان زمان إثمار وإنتاج زراعى، فالصدقة علاج الشح، ومطهرة النفس منه، وقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ قال الزمخشري: إن التزكية تصح أن تكون بمعنى المبالغة فى التطهير حتى تكون نفوسهم بتطهيرها نامية بسبب التطهير، فتكون مشتملة على معنى النماء؛ لأن المبالغة فى التطهير غمتها أو نمت النزوع إلى الفضائل فيها، أو تقول: إن معنى التزكية من الرسول ﷺ أى يصفهم بما يكون تزكية لهم وثناء عليهم، أى يزكيهم ﷺ بهذه الصدقات الطاهرة.

﴿مِنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ للتبعض أى خذ بعض أموالهم، وليس من المستحسن أن يأخذ كل المال، بل يبقى لأهله ما يكفيهم المعروف، والآثار الصحاح قد وردت عن النبى ﷺ بأنه كان لا يستحسن الأكثر من الثلث، فقد قال سعد بن بن أبى وقاص عندما استأذنه فى الوصية قال ﷺ «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تدع أولادك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس».

ومع هذه الصدقة التى أمره الله تعالى أن يأخذها منهم أمره سبحانه بأن يصلى عليهم، فقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ الصلاة هنا بمعنى الدعاء والاستغفار، والتعديدية بـ (على) للإشارة إلى أنها سابقة لهم فائضة بالخير عليهم نازلة بالبركات عليهم، وقد ذكر الله سبحانه الغاية الواضحة من الصلاة وهى أنها ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾، والسكن معناه الاطمئنان وقرار النفس، وذلك الاطمئنان يكون بردا وسلاما عليهم؛ لأنهم كانوا شاعرين بعظم جرمهم فيتوهمون بفرط إحساسهم وإيمانهم بأن ذنبهم غير مغتفر، فصلاته ﷺ اطمئنان لهم، وقرار لنفوسهم، ثم ختم الله تعالى الآية بقوله عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى سمع اعترافهم المطهر لنفوسهم وندمهم على تخلفهم عليم بضمائرهم الطاهرة التى زادها الاعتراف طهارة، واستحقوا تزكية النبى ﷺ.

الله يقبل التوبة عن عباده

قال تعالى:

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُئِدُوا إِلَىٰ عِلْمِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فِيَنِّيْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

يؤكد الله سبحانه قبوله للتوبة حتى لا يسرف العصاة ولو كانوا منافقين على أنفسهم، ويظنون أنه لا رجعة إلى الله وإلى الحق، فإن اليأس يولد السفرة والنفرة تولد الكفر، والرجاء في الله يكون معه الرجوع إليه، والرجوع إليه يكون معه الإيمان، ولذا قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ...﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ فيه قراءتان إحداهما بالياء والأخرى بالتاء^(١)، فأما التي بالتاء فتكون خطاباً للمؤمنين، وتقريراً لحقيقة دينية يجب الإيمان بها، وأن يعلموا أن الله تعالى لا يترك المذنب في ردة الذنب، بل إنه سبحانه يفتح له الباب لتطهير نفسه من الذنوب وتخليصها منها، والله تعالى منه قريب يستجيب دعوته إذا دعاه، ويغفر له إذا استغفره بقلب سليم لم يركس، ولم يستغلق باب التوبة، وعلى القراءة بالياء تكون الآية الكريمة في شأن العصاة الذين تابوا، والذين لم يتوبوا، وترجى توبتهم، فهي دعوة لمن لم يتب ألا يئس من روح الله، ويعود إلى الله ورسوله والمؤمنين، إن الإسلام يستجر الناس إلى الخير فقد جاء داعياً إليه، ولا يستجرهم إلى العصيان حيث يكون العقاب.

﴿أَلَمْ﴾ - في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ فيه (الهمزة) للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، و(لَمْ) للنفي، ونفي النفي إثبات، فيكون المعنى تأكيد علمهم بأن الله يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات التي يريدون بها تكفير سيئاتهم، والله تعالى هو المتصف بأنه التواب الرحيم، الذي يكثّر قبوله للتوبة رحمة بهم؛ لأنه الرحيم الغفور الودود.

(١) قراءة (ألم تعلموا) بالتاء خطاباً: قراءة جبلة عن المفضل عن عاصم، وقرأ الباقون بالياء. غاية الاختصار (٩٦٠).

والتقرير هنا لتطمئن نفس التائب، فهو تقرير لقبول التوبة، واطمئنان العاصي إلى أن التوبة جبت ذنبه، والتعدي بـ (عن) في قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ لتضمن قبول التوبة معنى التجاوز عن المعصية التي عصاها المعبود، فالمعنى على ذلك: يقبل التوبة مستجاوزاً عن سيئات عبادته، شأن القادر العليم الحكيم الذي هو فوق عبادته، وفوق الوجود كله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ مع أن الذي يتتفع بها العباد، ويأخذها النبي ﷺ ويوزعها عليهم - تشريف لمن يعطيها؛ لأن الذي يأخذها رب العباد، وكأنما العبد يعطيه هو جل جلاله، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...﴾ (٢٤٥) [البقرة]، فهذا النص السامي فيه حث على الإكثار من الصدقات.

والخلاصة في ذكر أن الله يقبل التوبة عن عبادته ويأخذ الصدقات أن ذلك تهييج للحث على المسارعة بالتوبة، والمسايرة إلى الصدقات، فكلتاها خير يتلقاه الله تعالى بالقبول، ووصف الله تعالى صفة مؤكدة بأنه التواب الذي يكثر قبول التوبة؛ لأنه الرحيم.

ولذا قال تعالى بعد ذلك مترقياً أن يعملوا الخير ويتوبوا:

﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يخاطب المؤمنين الذين أخطأوا والذين لم يخطئوا بأن العبرة بالعمل الحاضر، فإن كانوا عصاة فليتوبوا، وإن كانوا من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فليستمرروا على المنهاج الذي ارتضاه لهم ربهم، أمر نبيه بأن يقول لهم: ﴿اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

إذا كان الله تعالى يقبل توبتكم، وباب التوبة مفتوح لا يغلقه الغفور الرحيم، فاعملوا أيها الناس، اعملوا لما يرضى الله تعالى ولا يمنعكم ذنب أذنبتموه، أو خطأ وقعتم فيه من أن تعملوا، والخطاب عام للمؤمنين وغيرهم وليس للتوايين وحدهم، ولا للمتخلفين وحدهم، ولكنه موجه للجميع، ليعمل المذنب الخير ويستر غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ قال بعض المفسرين إن في ذلك تهديد أو إنذار، ولكننا نرى أن فيه تحريضا على العمل الصالح ورؤية الله تعالى يعقبها جزاؤه إن خيرا فخير وإن شرا فشر، والرسول يرى العمل فإن كان خيرا أقره، وإن كان شرا نبه إليه ودعاهم للإقلاع عنه، ورؤية المؤمنين ليعلموا حال من يخالطونهم فإن كانوا أشرارا نصحوهم ثم اجتنبهم، وإن كان عملهم خيرا عاونوهم وأقروهم، وأكد أنه والرسول ومن معه يرون الأعمال، وذلك لأن (السين) تفيد تأكيد تحقق الوعد الذي وعده الله تعالى، ولقد جاء في الحديث الصحيح برواية أبي سعيد الخدري: «ولو أن أحداكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان»^(١) والناس يشهدون على الخير خيرا وعلى الشر شرا، والرسول يشهد على الناس، كما يشير قوله تعالى ﴿... لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ (١٤٣) [البقرة].

﴿وَسُتَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

السين لتأكيد وقوع ما بعدها في المستقبل، أي ستعودون إليه سبحانه، وتعرض عليه أعمالكم لا تخفى منها خافية، فإن كانت خيرا، أو شرا تبتم منه وأحسستم التوبة، فإن الجزاء يكون خيرا، وإلا فالعاقبة السوءى.

وهذه الجملة السامية فيها تبشير وإنذار، تبشير للمؤمنين، وإنذار للمشركين الذين عصوا أمر ربهم، واستمروا في عصيانهم وضلالهم.

(١) أخرجه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند أبى سعيد الخدري (١٠٨٤٦).

وفى الكلام السامى إظهار فى موضع الإضمار؛ لأنه سبحانه وتعالى قال عز من قائل: ﴿وَسْتَرْدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ولم يقل - ولكلامه المثل الأعلى - «وستردون إليه» وذلك للإشارة إلى أن الأمر سيرجع إلى من لا تخفى عليه خافية فى السماء والأرض، والغيب ما غاب عن الحس، أو ما أخفته الصدور، وما أسروه فى نفوسهم، فهو يعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور، والشهادة هى الأمر المعلن الذى تشاهده الجوارح مبصرة أو سامعة، أو باطنة، يعلم سبحانه كل شىء ما يسر وما يعلن، وما يظهر وما يختفى، سبحانه علام الغيوب.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الجزء الواقع لا محالة فقال تعالت كلماته: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كنتم ستردون إليه سبحانه فإنه ينبئكم أى يخبركم إخبار فعل وجزاء بما كنتم تعملون، فترون أعمالكم عيانا، تنطق بها جوارحكم، وكتابا منشورا قد سجل كل ما عملتم، لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فتجزى كل نفس بما كسبت.

وإن هذا فيه تبشير للمؤمن، وإنذار للمشرك والمنافق، وأعمالهم كلها فى كتاب.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لمن تخلف، وعصا، بعد ذلك ذكر أناس ممن تخلفوا لم يكتب عليهم الشقوة بل لا يزال الباب مفتوحا للتوبة، فإما يتوبون، وإما يعذبهم الله على نفاقهم وتخلفهم، فقال تعالى:

﴿وَأَخْرَجُوا لَكُمْ آيَاتٍ لِّتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾

﴿١٠٦﴾ .

ذكرنا أن الذين دعوا إلى الخروج إلى الغزوة التى كانت فتحا للطريق إلى بلاد الشام وما وراءها من الأرض التى كان الروم يسيطرون عليها، وأشرنا إلى أنه كان فيهم السباقون إلى المكرمات المهاجرون والأنصار، وكان فيهم المنافقون

المعوقون الذين يعتذرون المعاذير الكاذبة، ويحلفون الأيمان الفاجرة، ومنهم من كانوا مخلصين، واعترفوا بذنوبهم فى التأخر، وقد ذكر فى هذه الآية فريقاً، قد أرجئ أمرهم ترجى منهم توبة.

يقول تعالى: ﴿وَأَخْرُوجُونَ لَأْمَرِ اللَّهِ﴾ أى ما قدر فى علمه المكنون بالنسبة لهم، ومرجون أى مؤجلون لأمر الله تعالى فيهم، وما قرره سبحانه وتعالى بالنسبة لهم وهو مطوى فى علمه المكنون لهم، وخفى عنكم وعنهم، ومرجون أصلها مرجئون، قلبت الهمزة ياء وحذفت لوجود واو الجمع، وبعض المفسرين يقول إنهم من المنافقين، ويحتمل توبتهم فيتوب الله تعالى عليهم، ويحتمل أن يبقوا مصرين على نفاقهم ليعذبهم سبحانه، وبعض المفسرين ذكر أنهم من الفريق الذين اعترفوا بذنوبهم، وبعضهم ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد حتى بين سبحانه وتعالى قبول توبتهم ففك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وثاقهم، وآخرون لم يفعلوا ذلك، وهؤلاء الثلاثة المخلفون الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وسنذكرهم من بعد عند تفسير الآية التى تصرح بأمرهم، وإنى أميل إلى الأول، فإن الثلاثة خُصُّوا بآية تذكر حالهم.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَعْذِبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ (إمّا) هنا تدل على أن نهايتهم مترددة بين حالين، إما أن يستمروا على نفاقهم فيعذبهم الله تعالى، ومأواهم جهنم وبئس المصير، وإما أن يتوبوا فيتوب الله عليهم، ويفيض عليهم سابغ رحمته.

والتردد ليس بالنسبة لله تعالى فإنه يعلم مآلهم، إذ هو يعلم ما كان وما يكون، فيعلم ما سيثول إليه أمرهم من غير إخبارهم، إنما علمه إحاطة، وأعمالهم بإرادتهم.

وإنما التردد بالنسبة للمخاطبين والمتحدث عنهم، فإنهم لا يعلمون إلا ما يقع بالفعل، ويعاينونه، ولا يعلمون ما سيقع، وقدره الله سبحانه، ولذا ختم سبحانه

وتعالى الآية بقوله عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بكل ما يقع فى المستقبل مما غيب عليكم، حكيم يقدر الأمور فى نطاق حكمته، وهو العزيز الحكيم.

مسجد الضرار

قال تعالى:

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِلْمَنَ حَارِبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ قَبْلُ
وَلِيُحَلِّقُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَلْحُسْنَ وَاللَّهُ يُشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

إن المنافقين لا يكتفون بأن تكفر قلوبهم، وتسلم ألسنتهم، وأن يخذلوا
المؤمنين، ويشبطوهم، ويلمزوا فى الصدقات، ويستهزئوا بالمتطوعين بها من
المؤمنين، وأن يكثرُوا من التهم على الرسول ومن معه، لا يكتفون بذلك، ولكن
يتناولون فيريدون أن ينشئوا بنيانا يكون مربطاً لهم، يلجأون إليه، ويترقبون أخبار
المؤمنين منه، ويُعلمون بها الرومان ومن لَفَّ لَفَّهُمْ من المنافقين أمثالهم، وأنشأوا

ذلك البنيان على مشارف الصحراء ليتمكنوا من الاتصال بالرومان من غير علم أحد، وسموا ذلك مسجداً، وسماه التاريخ الإسلامى مسجد الضرار؛ لأنه أنشئ للضرار، فأخذ اسمه من مقصده.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فى قراءة أهل مكة يثبتون الواو عطفاً على أخبار المنافقين، ومن غير واو فى مصحف المدينة والشام^(١)، ويكون عطف بيان للمنافقين أيضاً، وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا مَسْجِداً﴾، أى أنشئوه، واتخذوا مسجداً، أى أن اتحلوه مسجداً باتخاذهم لا أنه مسجد فى حقيقته وذاته، بل باتخاذهم، وانتحالهم، وقد ذكر الله تعالى أن غرضهم من إنشائه الذى بعثهم هوامهم عليه أمور أربعة - هى ما بنى لأجله: أولها - أنه ضرار وهو مصدر ضاراً، فهم يبنونه مضارة للمؤمنين، ومكايده للذين بنوا مسجد قباء لله وللصلاة فيه، وقد صلى فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فبنوه قريباً منه ليضار أولئك الذين بنوا الأول، وليكايدهم، وقوله تعالى: ﴿وَكُفْراً﴾ أى دفعهم إلى بنائه الكفر لا الإيمان، فهم لا يصلون، ولكن ينافقون، وهم كانوا كفاراً، ومن أعظم البواعث هو تفريق المؤمنين، ولذا قال تعالى فى الباعث: ﴿وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن ذلك التفريق هو إبعاد فريق من المؤمنين عن الجماعة التى يؤمها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يغرونهم بالتأثير فيهم رجاء أن يقتطعوا من المؤمنين من يضمونهم إليهم، إذ بعدوا عن النور الكاشف لخداعهم، وإفسادهم، فيخلو لهم الجو ليخادعهم، وينجح خدعهم، ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يقال رصد، وأرصد: راقب، ورصد تكون للخير والشر، وأرصد لا تكون إلا للشر، وقد اتخذ هذا المسجد ليكون موضع ترقب للمنافقين يتصلون منه بأعداء الله تعالى،

(١) (الذين اتخذوا) بغير واو، قراءة: نافع وأبو جعفر، وعاصم وحزمة والكسائى وخلف، وهذا الحرف فى مصاحف المدينة بلا واو، وقرأ الباقون بإثبات الواو، وكذلك هى فى بقية المصاحف. المنع ١٠٤، والسبعة ٣١٨، والنشر ٢٨١/٢. غاية الاختصار (٩٧٠).

وقالوا إن ذلك يشير إلى أبى عامر الراهب، وهو رجل خزرجى من الخزرج، كان قد تنصر فى الجاهلية، وقرأ ما عند أهل الكتاب من بقايا كتبهم، وكانت له عبادة فى الجاهلية، وكبير فى الخزرج، فلما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة وكونَ فيها قوة الإسلام الأولى، وأظهر الله المؤمنين فى غزوة بدر الكبرى شَرِيقَ أبو عامر هذا بذلك النصر المبين الذى كان فاتحة السيطرة على بلاد العرب، فأرسل إلى قريش يمالئهم ويحرضهم على غزو المدينة والأخذ بثأرهم، فقدموا فى السنة الثالثة، وكانت واقعة أحد، فخبَّ أبو عامر هذا فيها ووضع، وتقدم إلى المبارزة ليحرض الأنصار، وخاصة قومه الخزرج ودعاهم إلى نصرته، فردوه ردا منكرا، فعاد مذهباً مدحوراً.

ولقد ابتدأ بما يظهر منه ميله للإسلام، ولكنه لم يعم، فدعا عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يموت بعيدا طريدا، فكان كذلك ومات طريدا وذلك أنه لما فرغ الناس من أمر أحد، وقد رأى أمر الرسول فى علو، وكانت عاقبة أحد للمؤمنين، وإن كان قد أصابهم قرح فى أثنائها، وصار الأمر من بعدها فى ارتفاع للمؤمنين وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يحرضه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقام عنده وكتب إلى جماعة من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه قادم بجيش يقاتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه رسله بكتبه، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم، فشرعوا فى بناء مسجد قريب من مسجد قباء، وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا إليه ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم، لتكون صلاته حجة لهم فى تقريره، وليتموا خداعهم للمؤمنين، وليخفوا مقصدهم من إنشائه، وهو أن يكون إرسادا لمن حارب الله ورسوله، فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله تعالى»، فلما قفل راجعا من تبوك إلى المدينة، ولم يبق بينه

وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل يخبر الرسول بمسجد الضرار، وما قصده بانوه، من الضرار والإمعان في الكفر، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله والمؤمنين، فأرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من هدمه قبل مقدمه المدينة، لقد أعدوا في المسجد سلاحا، وعتادا ليعاونوا الرومان المقبلين.

ومع وضوح أمرهم عادوا إلى كذبهم وتوثيق الكذب بالآيمان المغلظة أنهم ما أرادوا إلا الخصلة الحسنی، فقد كانوا عند بنائه مخفين مقصدهم الخبيث، ومكرهم السيئ، فقد قالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندا ابتدائهم فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه.

لقد قالوا ما قالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخفون مكرهم السيئ، ولكنهم نسوا أن الله تعالى كاشف أمرهم فيبين الله تعالى خفى أمرهم، وما أسروه، ولم يعلنوه.

جاء في الكشاف ما نصه: «لما قفل رسول الله تعالى من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية عليه. فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشيا قاتل حمزة، فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه، واحرقوه»^(١)، ففعلوا، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف، والقمامة، ومات أبو عامر بقنسرين».

لقد حلفوا موثقين يمينهم، وقال تعالى في حلفهم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ وقد أكدوا حلفهم باللام الموطئة للقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، والمقسم عليه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ و(إن) هنا نافية، أى ما أردنا إلا الخصلة الحسنی، أو الفعل الحسنی، وحصروا إرادتهم في إرادة ما هو حسن في ذاته، وغايته، وقد

كذَّبهم الله، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يشهد أى يعلم علم من عاين وشاهد، إنهم لكاذبون، ولقد أكد كذبهم بـ (إن) المؤكدة لما بعدها، وبالجملة الاسمية، وبلاد التوكيد، والله سبحانه وحده هو الصادق وهم الكاذبون.

ولقد نهى الله تعالى عن الصلاة فيه، فقال تعالى:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨).

النهى للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه عن الصلاة فيه، وعبر عن الصلاة بالقيام؛ لأن أداء الصلاة على وجهها إقامة، ويطلق القيام على الصلاة، كقولهم يصوم النهار ويقوم الليل، أى يقوم الليل متهجدا مصليا، والنهى عن الصلاة فيه أكدته الله تعالى بقوله: ﴿أَبَدًا﴾، أى فى كل الأحوال، النهى يفيد عموم الأحوال فلا يكون هناك مسوغ للصلاة فيه.

ولعل ذلك هو الذى جعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يهدمه ثم يحرقه، ويجعل موضعه كناسة تلقى فيه القمامة، إن الصلاة فيه تحقق فيها بعض أغراضهم، وهى المضارة لغيره من المساجد، والتفريق بين المؤمنين ووازن سبحانه بينه وبين مسجد غيره، فقال تعالى:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ اللام لام الابتداء وهى تفيد التأكيد، ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ أى وضعت أسسه على التقوى، أى أنه قام على التقوى، والوقاية من غضب الله واتقاء عذابه، وهذا مجاز لإثبات أنه قام على نية طيبة يتقى بها سوء العذاب، ويرضى الله تعالى، وإذا كانت الصلاة عبادة فى كل دين، فيجب أن تؤدى فى مكان قام على تقوى رب العالمين من أول يوم، أى من أول يوم كان بعد الهجرة، فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما هاجر، وانتهى إلى ما يصاقب المدينة فنزل بقاء وأنشأ المسجد فيها، وقد وصل يوم

الإثنين وبقي بقباء أربعة أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ثم انتقل إلى المدينة يوم الجمعة، فيكون منطبقاً عليه أنه أسس على التقوى من أول يوم تمت فيه الهجرة، وأسس على التقوى لأن الذي بناه هو الرسول أولاً، وبنى ابتداء للعبادة ثانياً، وذلك فضل ثانٍ للمسجد يجعله أحق أن تقوم فيه الصلاة من غيره، ويلاحظ أنه ذكر فضل هذا المسجد ولم يذكر ما أحاط بالآخر من نيات مناقضة، إذ إن الآخر أُسس ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المسلمين، وإرساداً لمن حارب الله ورسوله - لم يذكر ذلك اكتفاء بما ذكر أولاً، فذكر السوء لا يكرر، ولأن في ذكر حسنات هذا المسجد، تعريضاً واضحاً بسيئات الآخر.

والمسجد عند الأكثرين هو مسجد قباء، وادعى بعض الرواة أنه مسجد النبي ﷺ، ولكننا نختار ما اختاره الأكثر؛ لأن مسجد قباء أول مسجد بنى بعد الهجرة، بل أول المساجد بإطلاق، ومسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بنى بعده، ولأن المفاضلة كانت بين مسجد قباء ومسجد الضرار الذي حاولوا به الغض من مقامه، ومقام الذين بنوه، وإن الضرار الذي ذكر كان يقصد به مكايده أهل قباء وذلك ما نراه الحق، ومسجد الرسول له فضله فوق كل هذا، فهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال: البيت الحرام، وبيت المقدس، ومسجد الرسول.

هذا فضل ذاتي لمسجد قباء، وله فضل إضافي آخر، وهو فضل من يصلون فيه، فإنهم ليسوا منافقين ولا مرائين، بل أخلصوا دينهم لله تعالى، ولذا قال فيهم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ أي رجال يريدون أن تخلص قلوبهم وتطهر نفوسهم من الرياء والكفر والتفاق، ويغسلوها من أدران النفوس، أي يحبون أن يكونوا لله مخلصين له الدين لا أن يكونوا لغيره، والله يحب هؤلاء المطهرين، الذين غسلوا أدران قلوبهم.

وقد فسر الزمخشري وغيره الطهارة الحسية والبدنية، فقد جاء في الكشف ما نصه: وقيل: لما نزلت مشى رسول الله والمهاجرون حتى وقف على باب مسجد

قَبَاءَ فَإِذَا الْأَنْصَارُ جُلُوسٌ، فَقَالَ ﷺ: «أُمُومَنُونَ أَنْتُمْ» فَسَكَتَ الْقَوْمُ ثُمَّ أَعَادَهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرْضَوْنَ بِالْقَضَاءِ» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «أَتَصْبِرُونَ عَلَى الْبَلَاءِ» قَالُوا: نَعَمْ قَالَ ﷺ: «أَتَشْكُرُونَ فِي الرِّخَاءِ» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُؤْمِنُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ» فَجَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فَمَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ عِنْدَ الْوُضُوءِ وَعِنْدَ الْغَائِطِ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَتَّبِعُ الْغَائِطَ بِالْأَحْجَارِ الثَّلَاثَةِ، ثُمَّ نَتَّبِعُ الْأَحْجَارَ بِالْمَاءِ، فَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

ويفهم من هذا أن الطهارة فسرت بالطهارة الحسية، وأرى أن الطهارة الحسية مفهومة بالبداهة، وهي تحيى اقتضاء للطهارة المعنوية وكتاهما مقصودة، وتتم الله تعالى الموازنة بين مسجد الهدى ومسجد الضرار، بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)﴾.

(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ...﴾ هى لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى أنه يترتب على ذكر الحقيقة المقررة الثابتة، وهى أن المسجد الذى أسس على التقوى أحق أن يقوم فيه مصليا اتقى، وأن فيه رجالا يحبون أن يتطهروا، وقد رتب على هذا إنكار أن يكون فى مسجد الضرار خير أى خير، وقدمت (الهمزة) على (الفاء)؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما.

والاستفهام للإنكار والتعجب من المقابلة بين مسجد التقوى ومسجد الضرار، وأسس: وضع أساسه، والتقوى أساس مجاز، وتأسيسه على التقوى مجاز، والمعنى أفمن أقيم بنيانه على باعث من التقوى وخوف الله تعالى ورجاء رضوانه، ففيه تشبيه التقوى فى نياتها، وطلب الرضا بالأساس المتين من البناء لقوة

التماسك، إن التقوى وطلب الرضوان أقوى وأثبت، وأبقى، إذ الحجر يتفتت، وتقوى الله وطلب رضوانه باقية بقاء الله العزيز الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فيه مجازان يثيران في العقل أروع الفكر، لمن يتدبر قول الله تعالى، ويحاول أن يتعرف بعض أسرار الذكر الحكيم.

المجاز الأول شبه النيات الفاسدة لأهل النفاق، والبواعث التي بعثت إلى إنشاء مسجد الضراء بالجرف الهائر أى القائم على جرف من الرمل منهار لا يثبت أمام الزوابع فضلا عن معاول الإنسان من حيث إن سرائر المنافقين سرعان ما تنكشف أمام أقل صدمة يصدمون بها.

المجاز الثاني هو تشبيه الانهيار الذى ينتهى إليه المنافق وبنيان به أنه ينهار فى نار جهنم، فلا ينهار فى ماء، ولا ينهار فى أرض لينة، إنما ينهار فى نار جهنم، وذلك لأن الانهيار النفسى والفكرى الذى ينهار فيه المنافق هو السبب فى استحقاقه نار جهنم، فهو مجاز علاقته السببية.

وقال تعالى فى عاقبة المنافقين الذين فسقوا عن أمر ربهم: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ صدر الجملة بلفظ الجلالة ترهيبا للفساقين، ونفى أن يهديهم سبحانه؛ لأنهم سلكوا طريق الضلال وأوغلوا فيه، حتى إنهم لا يردون، ولا يهتدون سواء السبيل، وسماهم سبحانه وتعالى قوما؛ لأنهم تضافروا على النفاق، ووصفهم سبحانه وتعالى بالظلم، لأنهم ظلموا الحقائق، وظلموا معاشريهم، وحقدوا عليهم لإيمانهم، ثم ظلموا أنفسهم أشد الظلم، لأنهم بنفاقهم ماتت نفوسهم، وذهبت إرادتهم، وأصبحوا لا يؤمنون فى وجودهم بشئ من الأشياء وأشركوا، وإن الشرك لظلم عظيم.

وبين سبحانه من بعد ذلك أنهم فى ريب من أمر بنائهم، وأشد ما يصاب به المنافق أنه فى ريب مستمر.

فقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٠).

البنيان هو الذى بنوه والذى بعث من الكفر، ومضارة أهل الإيمان، وتفريق بينهم، وإرصاد لمن حارب الله ورسوله، هذا البنيان من ريبهم الذى كانوا يترددون فيه دائما ويتنقلون فى أجوائه المختلفة بعث عليه ريبهم فى دينهم، وزادهم البناء ببواعثه ريبا، ولما هدمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأحرقه وحقر مكانه، حتى جعله كناسة تلقى فيه الجيف والقمام، زادهم ذلك حقدا وحسدا، وريبا ونفاقا؛ لأن هذا النفاق يولد من الحسد والحقد، فلما ازدادت أسبابه ازدادوا ريبة، ولذا قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا تزول إلا أن تقطع قلوبهم، أى لا يزول إلا إذا زالت قلوبهم، وتقطعت أجزاء، فما دامت قلوبهم المركسة فى النفاق الغائر فيها، والى أربدت به، ولازمتها ملازمة الحسك للصوف، وهذا النص الكريم تصوير لاستقرار النفاق فى القلب، وتزايد بهتزايد المغريات له، والأعمال المنافقة تقوى النفاق وتدعمه، أنا بعد آن، والريبة هى الريب فى كل شىء يفكرون فيه، وقد يقال: كيف توصف عقيدتهم وحالهم بالريب، وهم يعتقدون الكفر، ويظهرون غيره، ونقول: إن المنافق لا يؤمن بشىء ولا يعتقد شيئا، وهو غير مؤمن بالله والرسول ويظهر الإيمان بهما، ولذا كان منافقا، ولكنه ليست له عقيدة تحل محل الإيمان بالله ورسوله، ولذا هو فى حال ريبة مستمرة تمكث فى قلبه وتستقر به، ولا تزول إلا أن تقطع قلوبهم إربا إربا.

وقرأ الحسن (إلى) بدل (إلا)^(١) أى أن الريبة تستمر حتى يقبروا وتقطع قلوبهم، وإن هذا البناء الذى بنوه كان يحرك ضغنتهم طول حياة الرسول، ومن بعده فى عهد أبى بكر وعمر، وكان الناس يتذكرونه، فيصخون أسماعهم صخا

(١) (إلى أن تقطع قلوبهم) هكذا بحرف الجر: قراءة يعقوب، وقرأ الباقر (إلا) على الاستثناء. غاية الاختصار (٩٧٤).

شديداً بذكره، جاء في الكشف: روى أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع أن يأتيهم في مسجدهم فقال: لا ولا نعمة عين؛ أليس إمام مسجد الضرار، فقال (أى مجمع): يا أمير المؤمنين لاتعجل على، والله لقد صليت بهم والله يعلم أنى لا أعلم ما اختمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرأون من القرآن شيئاً، فعذره وصدقه وأمره بالصلاة.

لعن الله النفاق وأهله وأعمالهم، ولقد كثر المنافقون في عصرنا حتى نالتنا لعنة الله بهم، اللهم ارحمنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، إنك غفور رحيم.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أى يعلم كل شيء ما خفى وما ظهر، ما أسرته القلوب، وما جهرت به الألسنة، وحكيم يضع الأمور في مواضعها، ويقدر فيكمل تقديره، وقد أتى بالجملة السامية مؤكدة بالتصدير بلفظ الجلالة، وكونها جملة اسمية، وبالصيغ الدالة على كمال الوصف بالعلم والحكمة.

بعد أن بين أوصاف المنافقين، وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ابتداءً بذكر المؤمنين.

الْمُؤْمِنُ هُوَ وَمَالُهُ مِلْكٌ لِلَّهِ

قال تعالى:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
 بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۖ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾
 السَّيِّئُونَ الْعَصِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّخِيحُونَ
 الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
 يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
 مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ
 اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا
 بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

الشراء جالب للمبيع، ومقدم للثمن، فالمؤمنون وأموالهم هم المبيع، والجنة، وما فيها هي الثمن، وإن هذه الآية تصور المؤمنين يقدمون أنفسهم يبيعونها لله تعالى يبيع السماح راضين، فهم أنفسهم وأموالهم يملكونها لله تعالى والثمن أنه يعدهم بالجنة يدخلونها، وما هو أعظم من الجنة، وهو رضوان الله تعالى، ولم يذكر هنا لأن الآية تتضمنه؛ لأنه سبحانه وتعالى قد رضى بالصفقة، وهي تقديم النفس والمال، ولا يمكن أن يكون إلا ومعه الرضا عن البيع، وهو أعلى ما يملكه الإنسان، فهو النفس والنفس.

وإن تلك العبارة مصورة، ولكنها وقعت قبيل الهجرة، ففي العقبة الثانية كانت المبايعة على هذا الأساس في البيع والثمن بين الرسول، والأوس والخزرج، وقد قال عبد الله بن رواحة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: اشترط لربي أن تعبدوا

الله ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال ﷺ الجنة، فقالوا نربح البيع لا نفقد، ولا نستقيل.

وهذه بلا ريب صور حسية للعقد، وإن كانت الآية مصورة، لتسليم المؤمنين أنفسهم لله تعالى، العلى الحكيم، الغنى الحميد، ويروى أن أعرابياً سمع هذه الآية، فقال: من يقول هذا؟ قالوا: الله. قال: بيع مربح.

وقد بين الله تعالى ثمره البيع أو آثاره التى يتحقق فيها ما يجب على البائع، فإن عليه أن يقدم المبيع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فالزمخشرى ومن تبعه، على أن الفعل هنا بمعنى الأمر، أى عليكم أن تقاتلوا فى سبيل الله، وقال إن ذلك كقوله تعالى: ﴿... وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ...﴾ (١١) [الصف].

ونقول إن الإتيان بالصيغة الخبرية بمعنى الطلب كثير فى القرآن، وهو من بلاغة القرآن؛ لأن المؤدى أنه كان الطلب فاستجاب بقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ (٢٢٨) [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ...﴾ (٢٢٣) [البقرة].

والوجوب هنا له قرائن شاهدة؛ لأن المقاتلة فى سبيل الله تعالى من آثار العقد المبرم بين الله تعالى والمؤمنين إذا باعوا أنفسهم وأموالهم إليه، فهو المالك، وما يجرى بعد ذلك من تصرف المالك فيما يملك، والمقاتلة لا تكون فى سبيل الله تعالى إلا بشرطين - أولهما - إخلاص النية، فلا يقاتل لذات الغلب أو الفروسية، إنما يقاتل لتكون كلمة الله تعالى هى العليا، فمن قاتل لغير ذلك لا يكون قتالاً فى سبيل الله تعالى.

والشرط الثاني - أن يدخل غير مستبق لنفسه، كما كان يفعل المجاهدون الأولون أمثال حمزة وعليّ والزبير الذين يدخلون المعركة، فلا يدرون أيقعون على الموت، أم يقع الموت عليهم، ولذا قال تعالى:

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى إذا دخلوا فى القتال رضوا بممارته، وإرادة النصر، وأن تكون كلمة الله تعالى هى العليا، فيقتلون الكفار فى سبيل الله، ويقتلون هم فى هذا، ولا يحسبون أنهم يخسرون فى الحالين، فإن قتلوهم فذلك سبيل النصر، وإن قتلوا سارعوا إلى قبض الثمن فى الصفقة التى عقدها مع ربهم.

وفى هذا النص الذى ذكره القرآن الكريم أمران نتكلم فيهما:

أولهما - أن هذا النص يشير إلى أن الفرار لا يجوز، لأنه ضنٌ بتسليم المبيع وهو النفس، ولا يضمن مؤمن بتقديم ما عاهد الله تعالى عليه، وقد قال تعالى فى آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلْوَهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ (١٥) [الأنفال].

الثانى أن هنا قراءتين - أولاهما - فيقتلون بالبناء للفاعل، والثانية بالبناء للمفعول، والقراءة الثانية العكس^(١)، وكل قراءة قرآن، وبمجموع القراءتين تكون الآية داعية إلى ألا يفرقوا بين أن يقتلوا أو يُقتلوا، فإن الملكية التى أثبتها الله تعالى تسوغ ذلك، وتوجيه كما نوهنا.

وقد قدموا أنفسهم لله تعالى، وأكد الله تعالى أن الثمن الذى قدره، وهو مريح، ويزيد أضعافا مضاعفة على ما أعطوا - آت لا محالة؛ لأنه وعده الذى وعده، ولذا قال تعالى: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أى وعد الله وعدا حقا لا يتخلف؛ لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد، وإذا كنتم قد قدمتم ما عندكم، فإن الله تعالى

(١) (فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ): قراءة حمزة والكسائى، وخلف. وقرأ الباقون (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ). غاية الاختصار-

مقدم ما وعدكم، وأكد سبحانه وتعالى وعده وعهده، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ هذا استفهام إنكارى بمعنى نفى الوقوع، والمعنى لا أحد أوفى بعهده من الله، وجاء النفي على صيغة الاستفهام للتشبيث، وتأکید النفي وتوثيق العهد، وسماء الله تعالى عهدا، لبيان قوته، وكان فيه طرفان، والله أعلى وأجل، وإذا كان الوفاء محققا لوعد الله تعالى بالوفاء.

وقد أكد الله وعده بأمور ثلاثة:

أولها: أنه حق ثابت مؤكد لا يمكن أن يتخلف أبدا، وكيف يتخلف، وهو من الله العزيز الحكيم.

ثانيها: أنه ذكر أن الجهاد ثابت ما دام هناك حق يغالب باطلا، وأن الله تعالى وعد المجاهدين بالنصر، وأن جهادكم مذكور فى التوراة والإنجيل والقرآن كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

وهذا النص يدل على أن الجهاد واجب؛ لأنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدل على أن الذين آمنوا عليهم أن يعزروه ويؤازروه وينصروه، ولأن الجهاد من اتباع النور الذى جاء به.

ولقد قال فى سورة الفتح فى وصف المجاهدين المؤمنين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْكِهِ لْيُعْجِبَ الزَّرَّاعُ لِيَغْيِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

ثالثها - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، وذلك كقوله تعالى: ﴿...وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧) [النساء] وكقوله عز من قائل: ﴿...وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١١٢) [النساء] وأن الإخلاف مستنكر لا يقدم عليه الكرام، فكيف يكون من الله، ولا شك أن ذلك العقد المقدس كان خيرا على من عقده مع الله تعالى خالق وبارئ النسم. ولذا قال تعالت كلماته، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾، الاستبشار طلب البشرى، أو نيلها، وقد نالوا هذه البشرى من الله تعالى، و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن وعد الله إذا كان مقرا فى الرسالات الإلهية التى جاءت بها التوراة والإنجيل والقرآن، فإن على الذين يحق عليهم العهد أن يستبشروا بنفسم أنفسهم لله تعالى، فإن الثمن عظيم، وقوله تعالى الذى بايعتم به أى بعتهم به أنفسكم، فتبايعتم على أن تقدموها، وتأخذوا بدلها ثمنا غاليا هو أغلى ما فى الوجود من ثمن مقدر، وتسليمه محقق، وهو ممن يملكه.

وختم الله تعالى الآية بقوله عز من قائل: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى التبايع، أو الثمن، وهو الجنة وهو الفوز العظيم، وفيه قصر الفوز على العظمة، أى أنه فوز يعد فوزا عظيما خيره، اللهم اجعلنا من أهله.

وقد ذكر الله تعالى أوصافا للمؤمنين فقال تعالت قدرته: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢).

هذه أوصاف ثمانية للمؤمنين تبين سلامة نفوسهم، ورقابتهم عليها لدوام تطهيرها، فكلما صدأت أزالوا صدأها، يتجه آحادهم إلى جماعتهم يزيلون ريبها، ويطهرون مجتمعتها، ويجعلون لها رأيا عاما فاضلا يلتزم حدود الله تعالى التى حدها.

ولنتكلم بكلمات موجزة مشيرة إلى تطهير أرواح المؤمنين:

الصفة الأولى أنهم ﴿التَّائِبُونَ﴾، وهم الذين يراقبون أنفسهم وتشتد فيهم قوة النفس اللوامة، فهم كلما أحسوا بأمر يندس أمرها، أو يكون فيه شك، أو يكون غيره أولى، أو تركه أولى، تابوا فهم يراقبون أنفسهم، يتوبون دائما إلى ربهم منيبين إليه، وكأن في يدهم مكيالا مملوءا ماء يزيل أى دنس يعتري نفوسهم بالتوبة كما يطهر أى غبار يقع على الثوب.

والوصف الثانى ﴿الْعَابِدُونَ﴾ بالقيام بحق الله تعالى، يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فهم يشعرون بأنه يراهم، والوصفان «التائب والعابد»، مقترنان أولهما للتخلية والثانى للتحلية.

والوصف الثالث ﴿السَّائِحُونَ﴾ أكثر المفسرين على أن السائحين هم الصائمون فقد ورد فى الأثر: «إن سياحة أمتى الصوم»^(١)، ولكن نرى أنه الجهاد فى سبيل الله، فقد روى أبو أمامة أن رجلا استأذن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى السياحة فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله»^(٢).

وقال بعض العلماء إن المراد السياحة فى طلب العلم.

وإننا نقول: الجمع بين الآراء أن نقول السياحة تشمل كل سياحة فى سبيل الله، فتشمل السياحة فى الجهاد، والسياحة فى نشر الإسلام، والسياحة فى تعرف أحوال المسلمين، كما تشمل سباح الفكر سائحا فى ملكوت الله تعالى.

(١) ذكره أبو السعود فى تفسيره: ج٤، ص ١٠٤.

(٢) رواه أبو داود: الجهاد- فى النهى عن السياحة (٢٤٨٦). والمقصود من السياحة المنهى عنها هنا: سكنى البرارى، وترك المباحات والمآلوفات قهرا للنفس.

والوصفان الرابع والخامس ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ قالوا إن هذين الوصفين لإقامة الصلاة، وهى ذكر الجزاء وإرادة الفعل، فالصلاة قيام وقعود، وركوع وسجود، وقراءة ودعاء، واختص الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما الوصفان اللذان يتجلى فيهما معنى الصلاة، لأن إقامة الصلاة بإحسان الخضوع والخشوع لله تعالى. وإن إخلاص القلب بخضوعه الكامل، وتفويضه التام هو إقامة الصلاة، وكفى به عن معنى الإقامة فيكون من المعقول أن يعبر بركنى الركوع والسجود عن الصلاة، وبهما يتحقق ما اختصت به الصلاة من أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويتحقق فيها ذكر الله تعالى.

بعد أن بين سبحانه الأوصاف التى تربي نفوسهم قليلا واجتماعيا، ذكر صفتين تطهر مجتمعهم، وتجعل الفضيلة دائما هى السائدة.

وهاتان الصفتان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولذا قال تعالى: ﴿الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، إن المجتمع الفاضل يقوم على الأمر بالمعروف، أى كل ما هو معروف لا تنكره العقول السليمة، والنهى عن كل أمر تنكره العقول السليمة، فإن المجتمع الفاضل ظل لكل خلق سليم ينمو فى ظله الوارف، ولذا كانت أمة محمد أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ...﴾ (١١٠) [آل عمران].

والوصف الثامن قول تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ الحد ما يحده الشارع فاصلا بين الحلال والحرام، ومعنى حفظه حمايته وصونه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢٩) [البقرة].

ويطلق الحد فى عرف الفقهاء على كل عقوبة ذكرها الله تعالى للجرائم التى تعد اعتداء على حق الله تعالى، أو كما يعبر فى لغة العصر بحق المجتمع، فالحدود عقوبات على الرذائل وحماية للفضائل.

وتدخل الحدود بهذا المعنى الفقهي الخاص في ضمن حدود الله التي تفرق بين الحلال والحرام، وحفظها صونها ومراعاتها، وألا يعتدى عليها.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله، بيانا لعاقبة الإيمان، وهى نيل الخير والاطمئنان فى الدنيا والجنات فى الآخرة، ورضوان من الله أكبر، ولذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بشرهم بحسن الجزاء كما ذكرنا، والله سبحانه وتعالى عنده حسن المآب، وكانت (الواو) فى قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ﴾ لبيان أن هذا نوع مغاير لما سبقه وإن هذا جزاء المؤمنين، والمشركون لهم عذاب الجحيم، ولا يستغفر لهم أحد، إنما القربى بالأعمال، لا بالقرابة؛ ولذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣).

﴿... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ (٢١) [التوراة]، ﴿... لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا...﴾ (٤٨) [البقرة]، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٩٩) [النجم]، تلك قواعد قرآنية توجب ألا يغنى عمل إنسان عن إنسان غيره، ولقد كان بعض المؤمنين لمحبة رابطة بين أحد المؤمنين والمشركون يطلب المؤمن المغفرة لمن يحبه من المشركون لرحم جامعة أو قرابة رابطة، أو لمودة موصولة، فنهى الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك هو ومن معه من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ أى أصحاب قربى قريبة، فقربى مؤنث أقرب، أى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم، وقد رد الله تعالى استغاثة نوح لابنه، وقال: ﴿... إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾ (٤٦) [هود].

يقول ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾، أى ما ساغ له، وما صح للنبي الذى يدعو إلى الحق أن يستغفر لمن يصد عنه، ويعانده، ويقاومه، ما دام قد ضل لا يحل الاستغفار له إذا مات على ضلاله، ولقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى حال شدة قومه عليه فى واقعة أحد عندما كسرت ثيابه: «اللهم اغفر

لقومى فإنهم لا يعلمون»، ألا يعد هذا استغفاراً؟ ويرد على ذلك بأن دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعوة بالمغفرة التى تلازمها التوبة، والتوبة محتملة وقرية، ماداموا أحياء، فإذا ماتوا فقد انقطعت التوبة وصاروا من أصحاب النار، وهذا موضع النهى، فالاستغفار للأحياء يجوز لرجاء التوبة، والاستغفار دعوة بها، والتعبير للمشركين فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

والتعبير بالمشركين لبيان عدم شفاعة ربهم، وضلالهم فى أن جعلوا الأحجار أندادا لله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ أى مهما ربطتكم بهم الروابط كما ذكرنا، وذلك لتوثيق المنع، وتأكيده.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أى ما كان للنبي والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وذلك بوفاتهم مشركين معاندين لرب العالمين، فإنه بعد الوفاة لا رجاء فى توبتهم، حتى يستغفر لهم، ولذلك قالوا: إن الأحياء من المشركين يجوز الاستغفار لهم، لأنه طلب المغفرة لهم، وطلب المغفرة يستدعى الدعاء لهم بالتوبة، والدعاء بالتوبة جائز، وأما الاستغفار لمن مات فقد تبين أنه فى الجحيم، ولا توبة، لأنه انتقل من دار التكليف إلى دار الحساب والجزاء، وفى قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ملاحظتان بيانيتان:

الأولى: فى قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ فإنها تشير إلى ما فعلوا من أذى عاينوه، وعناد قاوموا به الحق، ثم ماتوا وهم كارهون للحق وأهله مقاومين كافرين بالله ورسوله.

الثانية: فى التعبير بـ ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، أى الذين يلزمونها، والتعبير يشعر بأنهم مقصرون عليها ومقصورة عليهم أى لا يتجاوزونها أبداً، وهى لازمة لهم ولأمثالهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤).

نهى الله تعالى نبيه والمؤمنين عن أن يستغفروا للمشركين، وقد استغفر إبراهيم لأبيه في فترة من الزمان؛ لأنه كان يرجو أن يتوب ويغفر له، ولكن تبين له بعد ذلك أنه عدو لله، وإن هذه الإشارة الموجزة تؤكد نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه عن أن يستغفروا للمشركين.

وقوله: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وتلك الموعدة ما صرح به في سورة مريم محتجته مع أبيه، فقد قال تعالى في هذه المحاجة: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾ [مريم].

هذه الموعدة التي وعدها لأبيه، لأنه كان يرجو أن يتوب، وأن يغفر له الله تعالى، فالاستغفار كان بطلب المغفرة التي تحيي التوبة لازمة لها، والتوبة محتملة، وممكنة؛ لأنه كان حيا، فلما تبين له استمراره على غيه، وعداوته لله بصناعة الأوثان التي تعبد من دون الله تبرأ منه. وجاء في سورة الممتحنة، فقد قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٤) [الممتحنة].

وعد إبراهيم بالاستغفار لأبيه، ولما مات مشركا، وهو على غيه فى صناعة الأصنام وعبادتها، تبرأ منه وصارت مثالا للمؤمن فى تبرؤه من أبيه الذى كان إبراهيم له برا، ويراد له الهداية.

ثم بين الله تعالى الباعث النفسى الذى بعثه على الاستغفار لأبيه رجاء توبته، وبعدها المغفرة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ الأواه كثير التأوه لركة قلبه وشدة إحساسه، وفرط محبته لأولى قرياه، وحليم عاقل صبور مدرك لمن ينبغى أن يرحم، ومن يتبرأ منه، والله غفور رحيم.

قال تعالى :

وَمَا كَاَبَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى
يُبَيِّنَ لَهُمْ مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللّٰهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ
دُوْبِ اللّٰهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللّٰهُ عَلَى
ٱلَّتِىِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ أَتَبَعُوهُ فِى
سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِّنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيْغُ قُلُوْبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَارْحَبٍ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوْٓا۟ أَنْ لَا مَلْجَأَ
مِنَ اللّٰهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوْٓا۟ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ ٱلنَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

(الواو) تدل على وصل هذه الآية بما قبلها، وما قبلها كان نهيا عن الاستغفار للمشركين، وجاءت قصة إبراهيم عليه السلام فى استغفار إبراهيم لأبيه

تمة للنهي عن الاستغفار، وقد كان من المؤمنين من دفعته الرأفة بآله، أو ذوى القربى أن استغفر لهم، فكانت الآية لبيان أنه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، لبيان أنه لا مؤاخذه من غير تكليف، وخصوصاً لمن اختار سبيل الهداية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ نفى مؤكد عن ذات الله تعالى، أن يكون منها إضلال لمن اهتدى وعلى قول أكثر المفسرين، ولتكون الآية مرتبطة بما قبلها ارتباطاً وثيقاً يكون معنى ﴿لِيُضِلَّ﴾ الحكم بالضلالة والمؤاخذه عليها، قبل أن يبين سبحانه ما يتقى من الضلالة، فكما أنه سبحانه لا يعذب إلا بعد رسول مبين بمقتضى قوله تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء]، وكذلك لا يؤاخذ سبحانه بذنب ارتكب إلا بعد بيان أنه ذنب، والطريق لاتقائه، وهذا على أن الهداية التى هداهم الله هى الدخول فى الإسلام فلا يحاسبك على شرب الخمر إلا بعد النهى عن الشرب، ولا على الزنى إلا بعد النهى عنه، ولا على القذف إلا بعد النهى عنه، ووضع الحدود المانعة من الارتكاب، وما كان الله تعالى ليؤاخذ على الاستغفار إلا بعد النهى عنه، وفى النهى بيان لما يتقون به المؤاخذه.

وقد خطر لى، وأنا أكتب، أن يكون المعنى، وما كان الله تعالى ليأخذ قوماً ساروا بمقتضى الفطرة الإنسانية، والميثاق الذى أخذه عليهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنتهم بربكم، فهذه هى الهداية الفطرية التى فطر الناس عليها، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ هَدَاهُمْ﴾ أى وقت أن هداهم فى بدء الخليقة وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ أى حتى يبين ما يؤيد الفطرة ويدعمها، ويبين لها ما تنقيه بأن تجعل بينها وبينه وقاية، فلا تقع فيه، والحاجز المانع هو أمر الله تعالى ونهيه، وتكون متطابقة تماماً مع قوله تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء].

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد لعلمه الذي يعم الوجود كله بالإحاطة والشمول، وبالتأكيد بـ (إن)، وبتصديره الجملة السامية بلفظ الجلالة، وبمقتضى علمه الذي عم الوجود كله، يقدر كل شيء، ويدبره على مقتضى علمه وحكمته.

وقد جاء فى الآية التالية ما يؤكد عموم علمه؛ لأن كل الوجود ملكه، يتصرف فيه تصرف المالك فيما يملك، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١١٦).

هذه الآية أثبتت ملك الله تعالى وسلطانه، ولقد أراد اليبضاوى أن يربط بين هذه الآية والأمر بالبراءة من المشركين والاستغفار لهم إذا ماتوا على الضلالة، فقال رضى الله تعالى عنه: (لما منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولى قربى)، وتضمن ذلك وجوب التبرؤ منهم رأساً، ويُن لهم أن الله مالك كل موجود ومتولى أمره، والغالب عليه ولا تتأنى لهم ولاية، ولا نصرة إلا منه ليتوجهوا إليه ويتبرءوا مما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصد فيما يأتون ويذرون سواء. اهـ.

ونرى مع ما رآه اليبضاوى أن الآية الكريمة تؤكد علم الله تعالى الذى ختمت به الآية السابقة، فهذه الآية السامية الأخيرة، تؤكد علم الله تعالى الشامل، وتبين سببه، وتبين سلطان الله تعالى المطلق، الذى يدبر كل شيء فيه على مقتضى علمه وحكمته التى أقامت الوجود، ورتبه ونمقه، وأبدعه كله ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (١١٧) [البقرة].

وإن ملكه لا يكون على الإنسان فقط، بل هو على السموات بأبراجها والأرض بطبقاتها لا يخرج عن ملكه شيء فى السماء، يحيى ويميت، وفى ذلك

إشارة إلى الوصف الذى يحياه الحى كافرا، أو مؤمنا، والحال التى سيموت عليها مؤمنا أو كافرا، وأن لا استغفار لمن لم يرج توبته، ولا استغفار لمن مات، وأغلق أبواب عمله فى الدنيا.

﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ الخطاب للمؤمنين ومعناه، وما لكم أيها المؤمنون من ولى يواليكم وتحبونه إلا الله تعالى، ولا نصير ينصركم سواء، فلا تؤثر عليه قرابة، فلا ترأفوا بمن عصى الله تعالى ورسوله الذى أرسله رحمة للعالمين، وإنه سبحانه أولى بخلقه يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

ولقد بين الله سبحانه مآل الذين تخلفوا والذين اتبعوه فى ساعة العسرة فى غزوة تبوك فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾.

كانت غزوة تبوك اختبارا شديدا للمؤمنين وقد تحقق فيها كل البلاء، وتعلم فيها المؤمنون معنى، وصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة].

ولذا ذكرها الله سبحانه وتعالى ببعض التفصيل، وكرم الذين صبروا، وعاقب الذين خذلوا وثبطوا ثم تخلفوا، وعاتب المؤمنين الذين تخاذلوا فى وقت الدعوة إليها، وذلك لأن الصبر فى مثل هذه الحال مناط العزة والرفعة، ويجب أن يكونوا كحال هؤلاء الصابرين، ليعتزوا بالإسلام، ويعتز بهم المسلمون فى الأرض كلها.

وقد نالهم البلاء كله، فنالهم الخوف، ولولا أن الرسول بينهم، ما استطاعوا الذهاب إلى الرومان، لقد كان من شأن حرب بنى الأصفر أن يلتقى فى قلوبهم

الرعب، وكان المنافقون بينهم ييثون ذلك الخوف، ويلقون في النفوس الذعر ونالهم الخوف والجوع ونقص الثمرات؛ إذ تركوها في المدينة وقد نضجت فلم يحصدوها، وكان الجوع والعطش وهم سائرون في شقة بعيدة، جاء في تفسير الحافظ ابن كثير في تصوير المشقة في هذه الغزوة التي أرهبت الرومان وكانت إرهاصا بفتح الشام، فروى عن قتادة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خرج بالمؤمنين في لهبان الحر وأصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما... وروى عن ابن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب في وصف ما نالهم: خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد، فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنتقطع من شدة العطش، وحتى إن الرجل ليذهب يلمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنتقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيه، ليعصر فرثه، فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا فقال ﷺ: «تحب ذلك!» قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعها حتى سالت السماء وأهطلت، ثم سكنت فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجد لها جاوزت العسكر^(١)، هذا ما جاء في ابن كثير، وجاء في غيره أن الرواحل لم تكن موفورة، بل كان العشر يعتقبون على راحلة واحدة أو بعير وإن لم يكن راحلة.

هذه هي المشقة أو إشارة إليها وذكرها القرآن ليبين كما ذكرنا من قبل، كيف يكون الجهاد، وكيف يكون طلب العزة، ورفع الذلة، وكيف يكون الاطمئنان والقوة، وكيف يكون جسر التعب الذي لا بد لنيل الحياة العزيزة الكريمة من المرور عليه.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ ساعة العسرة أى وقت الشدة في الجهد، والمال، والحر الشديد،

(١) البداية والنهاية: ج ٦، ص ٢٣١.

وطريق الوصول إلى المكان المنشود، ومحاربة قوم غلاظ شداد هم الذين كانت لهم السطوة.

وقد أشارت الآيات السابقة إلى أن المهاجرين والأنصار كانوا السابقين، وإلى أن الذين تخلفوا، قال سبحانه فيهم ما كان عتبا قاسيا، فيه عقاب لنفوسهم المؤمنة، وبين فيما مضى المخلفين نفاقا وضعفاً في الإيمان.

يقول تعالى: لقد تاب الله تعالى على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أخطائه التي وقع فيها كإذنه للذين استأذنوه من المنافقين، وهو يعلم كذبهم، وكذلك اجتهاده في أمر الأسرى فأخذ فداء الأسرى قبل أن يشخن، ونحو ذلك مما يتعلق بالحروب، والمعاهدات التي تعهد فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ويبين الله تعالى أنه أخطأ في اجتهاده، وما كان اجتهاده وتخطئة الله تعالى إلا ليعلم الذين يجيئون من بعده أن الذين يجتهدون بعقولهم يخطئون، وهذا سيد البشر، إذا اجتهد فقد يخطئ، فإن الحاكم أيا كان عرضة للخطأ وليس له أن يستبد بفكره، ويقول مقالة فرعون ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

ولقد تعلق الجهلاء من النصارى، ولو كانوا فى مناصب عالية عندهم، وادعوا أنهم من فلاسفة هذا الزمان، أن عيسى عليه السلام أفضل من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه لم ينسب إليه ذنب يغفر، ومحمد عليه الصلاة والسلام غفر له كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ [الفتح]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فنقول إن ذلك جهل فاحش، أو هوى فاسد، أو هما معا.

أولا - لأن التوبة مقام من مقامات العبودية، والخضوع للذات الألوهية، ولذا وصف الأنقياء بأنهم التوابون؛ لأن التوبة تنبعث من إحساس بعلو المقام الإلهي، وتفتيش النفس، والبعد عن الغرور، والشعور بالتقصير نحو الذات

العلية، مهما تكن الأعمال الصالحة، فالعابد يستصغر ما يفعل في جنب الله مهما يكن كبيراً، فيتوب عما يحتمل من وجود تقصير أو فوات طاعة واجبة.

وثانياً - أن الأخطاء التي لا يؤاخذ عليها بحسن فرط طاعته، واستجابته لما يطلبه العلى الأعلى بأنها ما كانت تجوز، وأنها تخالف الطاعة المطلقة التي هي حق الله على عباده، وخصوصاً الأنبياء الذين هم صفوة خلق الله تعالى.

وثالثاً - أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم كان بمقتضى دين الفطرة، ومعالجة أحوال الناس، والجهاد في دعوة الحق، معرضاً لأن يخطئ، لا أن يذنب، ولفرط طاعته، واستقامة نفسه يحس بأن خطئه كالذنب، والرضا به لا يتفق مع مقامه من الله تعالى الذي يخاطبه.

ورابعاً - أن التوبة يجب أن تكون خلة ثابتة من خلال المؤمنين؛ لأنها رجوع إلى الله تعالى، والمؤمن لا يجوز أن تغره الحياة، فلا يرجع إلى الله تعالى، فالرجوع إلى الله بالتوبة يجب ألا يغفل المؤمن عنها؛ لأنها في ذاتها تجديد للإيمان، وتذكير بالطاعة المستمرة، وتوبة محمد سيد البشر دعوة للمؤمنين لأن يتوبوا كما قال تعالى: ﴿... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١) [النور].

وخامساً - أن النفوس كلما علت أحست بأن الهفوات كأنها ذنوب، فتلجأ نائبة بالإنابة إلى ربها، وهذا ما يقوله العلماء: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وبهذا يتبين أن التوبة، والغفران والإحساس بالخطأ كأنه ذنب سمات الأبرار والعلو في مقام إدراك معنى الربوبية والعبودية، وليس نقصاً في الذات النبوية ذات أفضل البشر.

وذكر بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المهاجرين؛ لأنهم الذين كونوا الخلية الأولى للإسلام، ولأنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء نشر

الدعوة الإسلامية، واستمساكا بدينهم، وكان الأنصار الذين آووا ونصروا، وإذا كان المهاجرون آزرُوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقاموا معه الدعامة الأولى لبناء الإسلام، فالأنصار هم الذين عاونوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في إقامة الدولة الإسلامية، وإذا كان الأولون هم قوم النبي ﷺ وأقرباءه، فالأنصار هم أحبائه الذين أقسم لهم وإنه لصادق: «لو سلك الناس شعبا، وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار»، والذين دعا لهم فقال: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار»^(١)، رحمهم الله ولعن من أذاهم وأبى.

وقد وصف الله المهاجرين والأنصار بوصف يبين حالهم في حال الشديدة التي كانت في تبوك فقال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، والساعة الجزء من الزمن كالغداة، والعشى، والظهيرة، وهذا وصف كاشف لحالهم ولحبيثه، فالمهاجرون الذين تركوا الدار والأهل والمال هم الذين اتبعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ساعة الشدة، وكذلك الأنصار الذين آووا ونصروا، وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة هم كذلك الذين اتبعوه في ساعة العسرة، وقد ذكرنا بعض ما كان من عسرة شديدة، حتى أن الأعناق كادت تنقطع من شدة العطش لولا دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد صور الله تعالى شدة العسرة على بعض النفوس فقال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾، أى أن الشدة بلغت أقصاها حتى كادت تزيع قلوب أى تنحرف وتضل قلوب فريق منهم، ولكنهم لم يزيغوا، ولم يضلوا، بل اصطبروا، ومرت الشديدة، وانتهوا إلى الاطمئنان.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إما أن يعود إلى المهاجرين والأنصار، ويكون تأكيدا لقبول توبة الله لهم، وإما أن يعود على الذين كادت تزيع قلوبهم، وهذا ما نبيل إليه، ويكون المعنى إن العسرة كانت شديدة

لجوجا، حتى كادت تزيع قلوب فريق من هؤلاء المهاجرين والأنصار ولكن الله سلم، وارتدت أفئدتهم فتاب الله تعالى عليهم بسبب تلك الخواطر التي جاشت، وكادت تضلهم وإن ذلك من رأفة الله تعالى بهم، ولذا ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الضمير يعود على الله جل جلاله، وهو مذكور قريبا من النص الكريم، وهو حاضر دائما في القلوب والعقول لمن تذكر، وتقديم الجار والمجرور في ﴿بِهِمْ﴾، دليل على كريم العناية، يرأف بهم ويرحمهم، ويختصهم بذلك.

وكان في المخلفين ثلاثة تخلفوا من غير معذرة أبدوها، ومن غير سبب يبرر التخلف، وأحسوا بأنفسهم اللومة تلومهم، وأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمقاطعتهم تأنيبا وتهذيبا، وتربية لضمائرهم، فهؤلاء بعد التجربة الشديدة تاب الله تعالى عليهم، ولذا قال تعالى:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾.

(الواو) عاطفة، والمعطوف عليه قوله تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار، أى أن الله تعالى تاب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار، وعلى الثلاثة الذين خلفوا بعد أن طهروا قلوبهم، ومنهم من خرج من ماله كله، ولتتكلم في معاني ألفاظ النص القرآني السامي.

ووصف الله الثلاثة بأنهم ﴿خَلَفُوا﴾ أى تركوا، ولم يكونوا مع الذين نفروا للجهاد فى تبوك، وعبر الله تعالى بالبناء للمجهول، ولم ينسب إليهم أنهم تخلفوا، بل لم يذكر مَنْ خَلَفَهُمْ، وإنما الواقع أنهم ما أرادوا القعود ابتداء، من وصف حالهم أنهم تباطأوا، وأخذوا يؤجلون يوما بعد يوم، حتى فاتهم الركب، فهم خَلَفُوا، ولم يريدوا التخلف ابتداء ولكن آل أمرهم إلى التخلف، وما أن

بلغهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصل إلى تبوك، حتى أخذ الندم يغزو قلوبهم حسرة على أنهم لم يسارعوا، ولما لقيهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مغضبا منهم، إذ كان يعرف فيهم النجدة والإيمان، وكلهم كانوا من الأنصار، وهم مالك بن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي.

ولقد تخلف منافقون فلم يبال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم، وتخلف مؤمنون، واعتذروا فقبل النبي أعذارهم، ولكن هؤلاء الثلاثة أحسوا بأنهم لا أعذار لهم، وأبوا أن يكذبوا فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فيهم خيرا، ورأى فيهم قصورا قد وقعوا فيه، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى أن يهذب نفوسهم بالاستنكار للفعل من جماعة المؤمنين فأمر المؤمنين ألا يخاطبوهم، ثم رأى أن يعتزلوا نساءهم، وألا يلقوهن، وأجاز لشيخ فيهم أن تلقاه امرأته، ولكن يعتزلها، ومكثوا على ذلك خمسين ليلة ثم نزل الوحي بقبول توبتهم، هذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ بتلك المقاطعة، أى أن الأرض باتساعها ورحبها صارت أضيق من كفة الحابل، لأنهم لا يستطيعون الحركة لها، إذ فقدوا الأنس بالناس وخصوصا الذين طهرت نفوسهم، وزكت أرواحهم، ففى الكلام مجاز خلاصته أنهم شعروا بضيق الناس بهم لا يقرئونهم سلاما ولا يقولون لهم كلاما أيا كان الكلام، لوما أو عتابا، أو تقريحا، أو أى نوع من الكلام يسمعون، فعبر عن هذا بأن الأرض ضاقت بهم مع اتساعها ورحبها.

وانتقل تبرم الناس بهم إلى تبرمهم بأنفسهم، فصارت نفوسهم كأنها عبء ثقل عليهم، ﴿وَنُظِّنُوا أَنَّ لَكُمْ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ الظن هنا بمعنى العلم، أى علموا أنهم لا يجدون ملجأ من أمر الله تعالى إلا أن يلجأوا إليه هو، فاستقامت نفوسهم راجعة إليه بمعاودة التوبة وتكرارها، شاعرين بأنه راحمهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (ثم) هنا للتراخي، لأنه قد مضت عليهم خمسون ليلة يحسون بالقطيعة، وبعد الخمسين تاب عليهم بأن أمر النبي والناس أن يقربوا إليهم، وألا

يجافوهم، وأن يعيشوا بين المؤمنين، لأنهم منهم، وقوله تعالى: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أى ليجددوا توبتهم، ويدأوموا عليها فيكونوا من التوابين الذين يرجعون إلى الله تعالى دائماً، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أى أن الله تعالى يقبل توبة عباده كثيراً فقال ما يدل على أن قبول التوبة النصوح المخلصة من صفاته، وقد قال تعالى فى وصفه سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ... (٣)﴾ [غافر].

ومن الخير فى هذا المقام أن نذكر ابتداء غزوة تبوك ونهايتها، ونعرف كيف كان المهاجرون والأنصار، يتزاحمون على الذهاب مع شدة الحر، وإثمار الغرس وإحصاء الزرع، ولكن الجهاد أبقي وأوفر.

جاء فى الصحاح أنه روى أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم من بدا له كره مكانه، فلحق به، وعن الحسن البصرى، بلغنى أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم، فقال: يا حائط ما خلّفتنى إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت فى سبيل الله، ولم يكن لآخر إلا أهله، فقال: يا أهلاه ما أبطأنى ولا خلّفتنى إلا الضن بكم لا جرم والله لا كابدن المفاز حتى ألحق برسول الله، فركب ولحق به، ولم يكن لآخر لا أهل ولا مال فقال: يا نفس ما خلّفتنى إلا حب الحياة، والله لا كابدن الشدائد، حتى ألحق برسول الله فتأبط زاده ولحق به... وعن أبى ذر أن بعيره أبطأ به، فحمل متاعه على ظهره، واتبع أثر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماشياً، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى سواده، «كن أبا ذر»، فقال الناس: هو ذاك فقال ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»^(١)، وعن أبى خيثمة، أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله تعالى عليه

(١) رواه الحاكم فى المستدرک: ج ٣، ص ٥٢. عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وسلم فى الضح، والريح !!.. ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح، فمد رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة»، فكانه، ففرح به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستغفر له. الكشاف للزمخشري.

وكان الثلاثة من هذا الصنف المخلص، ولكن لم ينبعث فى نفوسهم ما انبعث فى نفوس هؤلاء، وقد يكون الخاطر يخطر، ويحول مجرى النفس من اتجاه سليم إلى غيره، وقد يكون غيره، والله عليم بذات الصدور.

هذا ذكر للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

ولنقص قصص الثلاثة كرواية أحدهم وأجرئهم فى الحق مالك بن كعب.

لقد قدم النبى صلى الله تعالى عليه السلام المدينة، وكان كلما قدم من سفر صلى ركعتين، ثم جاء المتخلفون وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فأبدوا معاذيرهم، فصدقها، ووكل باطنهم إلى الله تعالى.

ولما جاء مالك بن كعب هذا ولترك الكلمة له قال: «فلما سلمت عليه، فقال لى: ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا؟ فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك بكذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إني لأرجو عقبي ذلك من الله عز وجل، والله ما كان لى عذر والله ما كنت أفرغ ولا أيسر منى يوم تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك، فقمتم وقام إلى رجال من قومي، واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون، فقد

كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لك . فقال :
فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى .

قال : ثم قلت : هل لقي معى هذا أحد؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ما
قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت فمن هما ، قالوا : مرارة بن الربيع العامرى
وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرأ لى فيهما أسوة ،
فمضيت حين ذكروهما لى قال : ونهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن
كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى
فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فبلغنا على ذلك خمسين
ليلة ، فأما صاحبأى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشد القوم
وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى
أحد ، وآتى رسول الله ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأسلم وأقول فى نفسى :
أحرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا؟ ، ثم أصلى قريبا منه ، وأسارقه النظر ، فإذا
أقبلت على صلاتى نظر إليّ ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال علىّ
ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى
وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علىّ السلام فقلت : يا أبا قتادة ،
أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال : فسكت ، فعدت له فنشدته
فسكت ثم قال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عينأى من الدموع ، وتوليت حتى
تسورت الحائط فبينما أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى «أى فلاح» ، من أنباط
الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ويقول : من يدل على كعب بن مالك ، فطفق
الناس يشيرون إليّ ، حتى جاء فدفع إليّ كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبأى فإذا
فيه :

(أما بعد فقد بلغنى أن صاحبك قد جافاك ، وإن الله لم يجعلك بدار هوان ،
ولا مضيجة ، فالحق بنا نواسك) .

فقلت حين قرأته: (إن هذا أيضا من البلاء، فتيممت به التنور، فسجرتة).

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتيني يقول لى: يأمرك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟، فقال: اعتزلها ولا تقرها، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء!! قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ فقال: لا، ولكن لا يقربك، قالت: والله ما به من حركة إلى شىء، وإنه والله مازال يبكى منذ ما كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله فى امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله، وما أدرى ما يقول فيها إذا استأذنته، وأنا رجل شاب، فلبثنا عشر ليالٍ، فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على هذه الحال... سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس ييشروننا... وانطلقت أؤم رسول الله، وتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهتئوننى بتوبة الله، يقولون لَسْهَنِكَ توبة الله عليكم، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله جالس فى المسجد والناس حوله فلما سلمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟، قال: «لا بل من عند الله»، وكان رسول الله إذا سر استنار وجهه.

وذكر من بعد أنه كان من توبته أن ينخلع عن كل ماله، فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فأمسك سهمه الذي أخذه في غزوة خيبر، وانخلع عن باقي ماله^(١).

وهنا نقف وقفة قصيرة نتحدث فيها بثلاثة أمور:

أولها - لماذا أهمل أمر الذين تخلفوا وقدموا معاذير جُلّها كاذب، وأقلها فيه صدق، نقول: ترك أولئك لأن الكاذب منهم لا يرجى منه خير، ولو عوقب ذلك العقاب ما أجدى معه، وربما عاند فزاد ضلالا، والنبي ﷺ لا يقدم على عمل يزيد الضلال ولا ينقصه، وربما كان الترك أجدى، والله يهدي من يشاء.

أما هؤلاء الثلاثة فإنهم صدقوا، والصدق بر وهو يهدي إلى البر، وكان لابد من أن يرحض عن نفوسهم ما علق من شائبة التخلف، وذلك بالهجر الجميل، الذي أحسوا فيه بمغبة عملهم، وزاد نفوسهم صفاء.

الأمر الثاني: أنهم صبروا أعنف الصبر وأقواه، وهو الصبر على الحرمان من الأئس بالناس، والالتقاء نفسيا بمن يحبونهم، ويخالطونهم، فإن الإنسان اجتماعي مدني، تعيش نفسه في وسط نفوس متجاوبة.

الأمر الثالث - أن استنكار القبيح، أو ما يظن فيه قبح يغسل النفس منه، وإن المجتمعات الفاسدة هي التي لا يستنكر فيها فعل القبيح، ولو تكاثر عدد الصالحين، فالاستنكار مهذب الإثم، والله سبحانه هو الحكيم العليم.

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: المغازي - حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، ومسلم: التوبة - حديث توبة كعب بن مالك (٢٧٦٩).

الصدق والجهاد قوة الأمم

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
 الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ
 مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ
 عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ
 وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
 الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
 بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾
 وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
 وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾

إن الصدق أخص ما امتاز به الثلاثة الذين خلفوا في الأرض، وكانوا صفوة
 الله ورسوله، رخص خطأ التخلف عن نفوسهم، ولقد صبروا على الاختبار،
 وصقلت نفوسهم، حتى قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأحدهم: «إنك
 منذ الليلة عدت كما ولدتك أمك»، لذلك كان يناسب هؤلاء أن يكون الأمر العام
 بالصدق ليرتفع كل مؤمن إلى هذه المرتبة التي تولى الله تعالى تربيتهم، ومن يتولى
 الله تربيته يحسن هذه التربية، ويكون ربانياً.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿ اقترن
 الأمر بالتقوى مع الأمر بالصدق والدخول في زمرة الصادقين؛ لأن التقوى هي



امتلاء النفس بخشية الله تعالى، والوقاية مما يغضبه ولا يرضيه، فهي وقاية من العذاب، ومن هذه الوقاية طلب الرضا، فلا يقى من غضب الله إلا طلب رضاه بطاعته ومحبته وعبادته، وإن الصدق طريقها، وهما معا، «ولقد سئل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: أياكون المؤمن جباناً؟ فقال: يكون، فقيل: أياكون بخيلاً؟ قال ﷺ: يكون، فقيل: أياكون كذاباً؟ قال ﷺ: لا يكون المؤمن كذاباً»^(١) وقال فى الأمر بالصدق ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى كونوا فى صحبتهم رحمهم الله، مثل الذين صدقوا فى تخلفهم وغيرهم من الصادقين، و(أل) للاستغراق تشمل كل صادق من المؤمنين، فلا يقصد جمع معين؛ لأنه لا عهد ليعين ذلك الجمع، فاللفظ يكون على عمومه، وتكون للاستغراق وعموم أصل الصدق الذين يصير الصدق وصفا ملازما لهم، ولقد قال ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا»، ويقول ﷺ: «ياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»^(٢).

والصدق ليس مقصورا فى معناه على الصدق فى الخبر، بل إن ذلك أظهره وأقربه، وإن كان يشمل صدق الإيمان بأن يؤمن بالله ورسوله، وأن يقوم بما يوجبه الإيمان، ويصدق فى الجهاد، ويصدق أمام الناس فى إيمانه، فلا يخالف لسانه قلبه ولا عمله قوله، ومن الصدق صدق النفس فلا يكذب على نفسه، فيحسن عمله وهو قبيح، ولا يخدع نفسه، ومن الصدق الإخلاص فى كل ما يظهر على لسانه، فلا يخادع ولا يتافق، وفى الجملة الصدق ملاك الأخلاق الفاضلة، والإيمان الصحيح، والعمل الصالح.

(١) موطأ مالك: الجامع (١٨٦٢) عن صفوان بن سليم رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يفيد أن الله تعالى يحث المؤمن على أن يعيش في بيئة يكون فيها الصدق سائداً، والبر مسيطراً، فإن فساد البيئة الفكرية والخلقية يؤدي إلى عموم الفساد، والبيئة الصالحة، تهذب آحادها، وتجعل الشر يختفى والخير يظهر، وظهور الخير يدعو إليه، وظهور الشر يحرض عليه.

وقد حرض الله تعالى أهل المدينة بعد الأمر بالصدق على الجهاد؛ لأن الجهاد من صدق الإيمان كما أشرنا عند الكلام في معنى الصدق، فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ...﴾ نفى للشأن والكون، أى ما كان من شأن أهل المدينة من مهاجرين وأنصار أووا ونصروا وهم أهل النجدة والإيواء، ومن حولهم من الأعراب الذين أشربوا الإيمان أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويؤثروا الدعة والراحة، ويتركوه وحده يكابد المشاق، ويتحمل المتاعب في سبيل عزهم ورفع دينهم، ما ساع لهم ذلك، وهم يرغبون في الدعة وطيب العيش الرغيد، وقوله تعالى: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾، أى متوقفين عن نفسه فى أن يرغبوا له ما رغب فيه لهم.

لقد قال الزمخشري في ذلك: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط، لا أن يقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه علما بأنه أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها، للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تنهت فيما تعرضت، ولا يكثر لها أصحابها، ولا يقيموا لها وزناً، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها، ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهيج لمتابعته بأنفس رحيمة.

والمعنى على هذا فى قوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أى لا يصونوا أنفسهم عما يرغبون فيه من عيش رغيد هين، وظل ظليل فلم يصونوا أنفسهم عن رغباتها، كما لم يُصن نفسه عن رغباتها.

ولنا أن نقول: إن عن نفسه معناها متجاوزين نفسه، ولذا كان التعدى بـ(على)، و(لا) فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ لتأكيد النفى بـ(ما)، أى ما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم، فتكرار النفى تأكيد له.

وإن هذا خبر فى موضع الطلب بأبلغ معانى الطلب، فيكون المعنى لا تتخلفوا عن رسول الله إذ يخرج للجهاد، ولا ترغبوا فى الدعة، والإقامة فى بجموحة العيش، وتركوا الرسول يخرج للجهاد وحده وإن ذلك له جزاؤه، ولذا قال سبحانه بعد ذلك مبينا الجزاء:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾.

الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى النهى المفهوم من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ﴾.

إن هذا التفسير من أهل المدينة المأمور به، والمنهى عن التخلف عنه، وألا يرغبوا بأنفسهم، كما فعل أبو ذر إذ خرج يتبع الرسول حتى حسب أن بعيره يبطئه عن الوصول إلى الرسول، فسار على قدميه يحمل متاعه وآلة الحرب، وكما فعل أبو خيثمة وكانت له زوجة حسناء، قد تزوجها حديثا، فرطبت له الأرض بالماء وفرشت له الحصى، وقدمت له الرطب والماء فتذكر الشدة التى فيها الرسول وصحبه من المهاجرين والأنصار، فترك ذلك كله، وركب بعيره حتى لحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ذكر ذلك بسبب أنهم قد أدركوا وفهموا وعد

الله تعالى والله لا يخلف الميعاد؛ وبسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش شديد كذلك الذى اعتراهم فى تبوك حتى كادت أعناقهم تنقطع من العطش، لولا أن النبى استسقى السماء لهم فأغدقت. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أى جوع شديد، كالذى أصابهم فى هذه الغزوة، التى فتحت الباب للشام، إذ أصابهم جوع شديد حتى إنهم كانوا يتقاسمون التمرة، ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أى لا ينزلون أرضا تدخل فى حماية الكفار، يكون وطؤها فيه غيظ لهم، إذا انتهكوا حمى أرضهم، ولم يستطيعوا حمايتها من جيش الحق والإيمان، وذلك فيه عنت شديد لهم وإهدار لحرمت أرضهم، وفى ذلك إذلال لهم بعد أن كانوا لا يمس أحدهم حماهم الذى يحمون ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾، بأن يحاربوا فيهمزموهم.

أى أن ظمأهم الشديد، وجوعهم الذى صبروا عليه، ووطأهم أرض العدو الكافر التى كانت لا ترام، ونيلهم من بنى الأصفر الذين يتحكمون، ولا مسيطر عليهم أو محاسب، ما من أمر يقوم به أهل الإيمان إلا كتب الله تعالى لهم به عملا صالحا عند الله، ينال أهل الإيمان به رضاه أولا - واعتزازهم بالحق ثانيا، وجنة النعيم ثالثا، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أى أن ذلك الجزاء العظيم أجر للعمل الصالح، وسماه سبحانه أجرا تكريما منه وتفضلا، وإلا فلا أجر إلا بفضلله لأنه المنعم، والعبد ملك لسيده، وسمى الذين يقومون بحق الجهاد محسنين؛ لأنهم قاموا بما وجب عليهم، وأحسنوا الطاعة، وأبلوا فأحسنوا البلاء.

هذا نوع الجهاد بأنفسهم، إذ تركوا الراحة ومتعتها، وأثروا البلاء فأخذهم الظمأ، والجوع، ووطئوا أرض العدو ونالوا منه نيلا.

وهناك نوع الجهاد بالمال، وقطع الفيافي والقفار، وما يكون فيه من جهد بالمال، والنفس، وقد قال سبحانه فيه: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١).

قد كان الجزاء على العمل الصالح، على المشقات التي تحملوها، والجهود التي بذلوها من ظمأ قطع رقابهم وأمعاءهم، ومن جوع حرموها فيه من الزاد، ووطء أرض العدو وما فيه من إذلال كما قال علي: ما وطئت أرض قوم إلا ذلوا، ومن نيل نالوه منهم، أما في هذه الآية فالجزاء على النفقة: صغيرة كانت ولو بسوط أو علاقته، أو كبيرة كتجهيز عثمان جيش العسرة رضى الله عنه، وإن السير في الفيافي والقفار، ولو لم ينالوا ويطثوا أرض العدو هو ذاته له أجر وجزاء. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾، الوادي: المنفرج بين الجبلين، ويراد به هنا الأرض، لأن قطع الوادي لا يكون إلا بقطع الجبلين اللذين تعرج بينهما، وقد قال الزمخشري: واديا أى أرضا فى ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل، وهو فى الأصل فاعل من ودى إذا سال، ومنه الودى، وقد شاع فى استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون لا تصل فى وادى غيرك.

لا ينفقون ولا يقطعون أرضا إلا كتب لهم بذلك عمل صالح يستحقون عليه جزاء ما عملوا، ولذا قال تعالى: ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كتب لهم ذلك ليعطيهم سبحانه وتعالى جزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وعبر عن الجزاء بالعمل ذاته وقال: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبيان المساواة التامة بين أحسن العمل والجزاء، وللإشارة إلى أن الجزاء ذاته مشتق من العمل فهو ثمرته، والله تعالى الفضل والمنة.

وقبل أن نترك الكلام فى معانى هاتين الآيتين اللتين فيهما تحريض على الجهاد ننبه إلى أمرين:

أولهما - أن قوله تعالى ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا﴾ أن النيل فى أصل معناه بمعنى الأذى الذى ينزل بالعدو، ويقال نال منه بمعنى: نكبه بما يسوء ويلحق به ضرراً.

الثانى - أن قطع الوادى والوصول إلى العدو، هو ذاته خير، لأنه قصد بقطع الوادى فعل أمر مثوب عليه، ومن يسعى فى خير كان سعيه شكورا، ولو لم يتم الفعل، ولقد قال تعالى: ﴿...وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ (١٠٠) [النساء].

الفقه والجهاد

قال الله تعالى:

وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

التفقه فى الدين فرض كفاية، وكذلك الجهاد فى سبيل الله، وقد قرر الإمام الشافعى أن فرض الكفاية، واجب على الكافة، وإذا ترك أثم الجميع الكافة والخاصة، ووجوبه على الخاصة يكون فرض عين، ولنبين ذلك بمثالين:

أولهما - أن الفقه فى الدين، وتعرف أسرار فرض كفاية، وعلى الأمة أن تسهل قيام هذه الطائفة التى تكون لعلم الإسلام، بتحفيظ القرآن، ورواية الحديث،

وجمعه، ويكون حينئذ تعليم الدين فرض عين على هذه الطائفة التى كان ذلك التعليم أول أعمالها، وإذا لم تقم هذه الطائفة أثمت الأمة كلها الكافة؛ لأنهم لم يقيموها.

والمثل الثانى - الجهاد فى سبيل الله تعالى فإنه على الكافة أن تهب الأسباب للقادرين، وتغدهم بالعدة، والنفقة، والجهاد عليهم فرض عين فإن تخلفت الأمة عن الجهاد أثمت كلها.

وهذه الآية ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وما بعدها تحدثنا فى هذين الفرضين حدا جامعا.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا نفى مؤكد لنفورهم للحرب كافة نفيا مؤكدا وقد أكدته لام الجحود، والمعنى ما ساغ ولا صح أن ينفر المؤمنون كافة للجهاد، بحيث تخلو المدينة ممن يقوم بحق الله تعالى، وحق العلم بالدين والفقه فى القرآن. فاللام لتأكيد النفى - إذ مقتضى السياق ما كان المؤمنون أن ينفروا فجاءت (اللام) لتأكيد النفى.

وقد بين سبحانه من الذين لا ينفرون، فقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾، فهنا نفوران، واحد منفى، وواحد مثبت، فأما المنفى، فهو النفور للجهاد، وهو منفى عن الكافة أى ليس للكافة أن ينفروا جميعا للجهاد، والنفير الثانى المثبت المحرض عليه، أن ينفر من كل فرقة طائفة - أى ناس متخصصون فى التفقه فى الدين، وهؤلاء ينفرون لهذا العلم من كل فرقة مقدار من الناس. واحد أو اثنان أو أكثر عددا، وإنهم ينفرون من فرقهم إلى الرسول، وينفرون بعد تفقهمهم إلى قبائلهم.

وكان المؤمنون ينقسمون إلى قسمين أحدهما ينفر للجهاد، والآخر يبقى في المدينة، متعلما فقه الدين، وينفر إلى الرسول ليعلمه، ويرجع إلى قومه لينذرهم. وهنا ملاحظات بيانية.

أولاهـا - أن مسمى الاتجاه إلى الفقه يدرسه نفير؛ لأنه أولا ينفر له ناس لدراسة القرآن وفقه الإسلام إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم يرجع إلى أهله، ولأن العكوف على علم الإسلام لا يقل فضلا عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وأنه جهاد مثله؛ لأنه من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالإيجاب، والجهاد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر برفع الاعتداء وتمهيد السبيل.

الثانية - أن قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ...﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا كان المؤمنون لا ينفرون للحرب كافة، فإن طائفة تخصص للفقه لينذروا قومهم إذا رجعوا، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾، لولا هنا للتحريض على الفقه في الدين.

الثالثة - أن الفقه هو العلم، وهو العلم النافذ الذي يخترق العوائق لإدراك لب الدين، ويقول الغزالي في هذا المقام: كان الفقه في العصر الأول اسما لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدة الأعمال، والإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

الرابعة - أن الله تعالى قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، ولم يقل لعلمهم يتفقهون، وذلك لأن الخوف من عذاب الله تعالى وتقليل الخوف من العذاب هو ثمرة الفقه في الدين.

الخامسة - أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أى رجاء أن يحذروا أو يخافوا، والرجاء منهم لا من الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله تعالى عنده غيب السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير.

وقد تكلم الرواة في هذه الآية على الآثار الواردة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مقام العلم بجوار الجهاد، وأن الآثار التي وردت في فضل العلم لا تقل عن الآثار التي وردت في فضل الجهاد، وكلاهما ينبعان من نبعة واحدة وهي إعلاء كلمة الله، فالأول لبيان الحق، والثاني للذود عن حياضها، وتغيير السبل أمامها، حتى لا يعوقها طاغ من طغاة الأرض، وقد روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١).

ولقد روى الترمذى من حديث أبي الدرداء، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة»^(٢)، وروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»^(٣).

وإن هذا الوصف هو للعالم الذى فقه فى الدين، واعتز به، ولم ينافق فيه، ولم يتخذة سبيلا للعلو والفساد واجتياز المجالس عند الأمراء ونيل الدنيا به، وبالنفاق والكذب، والافتراء على الله، ولقد قال الزمخشري فى هذا الصنف من العلماء، ويظهر أنهم كثروا فى عصره عندما انزلق العلماء إلى موائد السلاطين. فقد قال رضى الله تعالى عنه فيما ينبغى للعلماء:

«وليجعلوا غرضهم، ومرمى همتهم فى التفقه إنذار قومهم، وإرشادهم، والتصغية لهم، لا ما يتجه إليه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمنون به من المقاصد الركيكة من القصور والتروس، والتبسط فى البلاد، والتشبه بالعظمة فى ملابسهم، ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضا، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح لأحدهم مدرسة لآخر أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكه

(١) سنن ابن ماجه: المقدمة- فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذى: ما جاء فى فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥). وابن ماجه: المقدمة- من قال العلم الخشية وتقوى الله (٢٨٩) يلفظ مقارب.

على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قول الله عز وجل: ﴿... لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا...﴾ (٨٣) ﴿[القصص]﴾ اهـ. فما أشبه الليلة بالبارحة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا خط العلم في الرسالة المحمدية، والجهاد ماض في طريقه إلى يوم القيامة، ولذا جاء بعد آية التفقة في الدين آية للجهاد فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣).

نداء إلى الذين آمنوا يشير بهذا النداء إلى أن الجهاد في سبيل الله تعالى ثمة الإيمان، والتقاعس عن القتال يكون من ضعف الإيمان، أو مرض القلوب، وأمر الله تعالى بقتال الذين يلون أرض الإسلام سواء أكان المؤمنون بالمدينة أم أقاموا في أرض أخرى، فالأمر أمر عام بقتال الذين يصاقبونهم، لتكون العلاقة بينهم حرباً واضحة، أو عهداً وفياء، أما أن تكون العلاقة علاقة من يتربص بالآخر، ويتتهز الفرصة، قاتلوا الذين يلونكم، ثم الذين يلونهم إن لم يرضوا بالعهد، وهكذا كما ابتدأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنذر عشيرته الأقربين ثم صدع بأمر ربه، ولما هاجر قاتل قريشاً، ثم قاتل العرب أجمعين لما نزعوا عن قوس واحدة، قاتل المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، ولما ابتدأ يقاتل خارج الجزيرة العربية ابتداءً بالرومان؛ لأن واليهم قتل من أسلم من أهله، ولأنهم أقرب إلى المدينة من الفرس، ولأنهم كانوا يمالئون اليهود، ونصارى العرب، ولأنهم أهل كتاب، ولأنهم في أرضهم بيت المقدس، مسرى رسول الله ﷺ، ولأنه يجب أن يتحرر من أهل الكفر، كما تحرر البيت الحرام من الشرك، ولأنهم المسلمون وهم ورثة الأنبياء أجمعين، والقوامون على الرسالة الإلهية بعدهم.

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والأمر هنا في معنى وأغلظوا عليهم، ولكن قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أبلغ

لأن مؤداه أن يكونوا كلما راموكم بسوء وجدوا فيكم غلظة فلا يفكرون في أن يرموا بسوء، والغلظة معناها الشدة والقوة، والغلظة تجمع الجرأة، وعدم التوانى، والصبر، والمبادرة، والعنف في القتال من غير اعتداء فيه، وألا تأخذهم بهم رافة في دين الله تعالى.

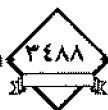
وكانت الغلظة في قتال الذين يلونهم، ليأمنوا شرهم، وليرهبهم، ولكيلا يتمكنوا من الاعتداء إن فكروا فيه، أو أرادوهم لأنهم ما داموا لم يعاهدوا عهدا وفيا، فإن شرهم متوقع، ودفع الشر قبل أن يأتي من شأن الحذرين، والله تعالى يقول: ﴿... خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾ (٧١) [النساء]، والقتال أنفى للقتال، وأبعد عن الاعتداء، وخير الدفاع ما يكون هجوما.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ إن الله يحب الذين يتقون عذابه، ويتقون الشر قبل وقوعه ولا ينتظرونه حتى يقع، فإن وقع صعب دفعه، والذين يتقون الاعتداء، وكان ختم الله تعالى الآية بذلك لهذه المعانى التى أشرنا إليها، ولتحريض المؤمنين على اتقاء الاعتداء ما تمكنوا منه.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، أى هو مصاحب لهم، فلا يقع عليهم، وهو قريب منهم ينصرهم ويعزهم، ولا يمكن عدوا منهم، وقد أكد سبحانه أنه مع المتقين بالجملة الاسمية، وبإان الدالة على التوكيد، ويتصدير القول بلفظ الجلالة الذى يربى فى النفس المهابة من الله ومخافته.

وقد بين الله سبحانه وتعالى كيف يتلقى المتقون ما ينزل من القرآن، وكيف يتلقاه غيرهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٢٤).

(الواو) للاستئناف، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ (ما) مؤكدة للشرط، وهو نزول الآية والتأكيد لبيان مقام السورة النازلة، والسورة مجموعة من آيات الله تعالى



تكون في سور تبتدئ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وتختتم بابتداء سورة أخرى بهذه البسمة المباركة التي هي جزء من كتاب الله.

ويصح أن يراد بالسورة بعضها، وهو أى من السورة، وكله قرآن، فبعض القرآن قرآن.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ (الفاء) لتفصيل حال من يتلقونها ما بين مؤمن يتلقى قول الله تعالى بما يكون فيه الهدى، وبعضهم من مرضى القلوب الذين لا يزيدهم الدليل إلا ضلالاً وعتاً وكفراً.

والضمير في ﴿فَمِنْهُمْ﴾، قال الزمخشري: إنه يعود إلى المنافقين، أى من المنافقين الذين يستهزئون بالمؤمنين، ويسرفون على أنفسهم يقولون متهمين أيكم أيها المستمعون للقرآن زادتهم هذه الآية أو السورة إيماناً، كأنهم يقولون، لعنهم الله: إن هذه السورة أو الآية لا فائدة منها، فمن اهتدى فقد آمن، ومن عصى فقد كفر.

ولكن لا نجد ذكراً في الآية السابقة ولا ما قبلها للمنافقين إلا أن يدعى أنهم في الأذهان لما كان منهم من أفعال، وأنا أميل إلى أن الضمير يعود إلى المؤمنين يسأل بعضهم بعضاً عن سر هذه الآيات التي تنزل وقتنا بعد آخر، يتعرفون غايتها ومراميها، ولقد روى عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كانت إذا نزلت آيات عشر أو دونها سألوا رسول الله ﷺ عن معانيها، ومغازيها، ويقولون أيهم زادته هذه، وقد بين الله تعالى موقعها في قلوب المؤمنين، وموقعها في قلوب الذين في قلوبهم مرض، فقال تعالى كلماته: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الفاء) لبيان تفصيل موقعها في القلوب، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، وزيادة الإيمان بزيادة تثبيتته في القلوب وزيادة العمل، فإن آيات القرآن الكريم يستأنس بها المؤمن، ويزداد رهبة من الله وخوفاً منه ورجاء في رضوانه، وهذا بلا ريب زيادة في الإيمان، ولقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا

مُتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴿[الزمر].

وإن ازدياد إيمانهم بالآية تنزل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى يجدون فى الآية الجديدة بشرى لهم بأن الإيمان هداية الله تعالى تتوالى عليهم، ويستبشرون لتوالى خطاب الله تعالى لهم، وأى مؤمن يحب الله ورسوله ثم لا يستبشر بكلام من يحبه ويطلب رضاه؟!

هذا شأن الذين آمنوا عندما تتلى عليهم آيات الله. وأما الذين فى قلوبهم مرض فيقول الله عز من قائل فيهم:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (٢٤)﴾ ﴿[١٢٥].

الرجس هو الشيء القذر الذى تستقذره النفوس وتعافه، كالميتة ولحم الخنزير، والخمر، فإن النفس، وإن لا تعافها طبعاً، فإن العقول تعافها؛ لأنها تنزل مشاربها من مرتبة العاقلين المدركين إلى دركة من لا يعقل، ولذلك سماها الله تعالى رجساً، فى قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة] ويطلق الرجس مجازاً على الكفر، لأن العقول السليمة تدرك أن عبادة غير الله أمر لا تقره العقول السليمة ولا الطبائع المستقيمة، والمراد به هنا الكفر، لأن العقول تنفر منه، ولا تقره، وكيف تقر العقول رجلاً يصنع حجراً ويعبده، وكيف تقر العقول رجلاً يرى آيات الله البينات ثم، يكفر بها.

والذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾. وإن ذلك وصف حكيم، فإن النفاق مرض يصيب القلوب، فيفسدها، والعقول فيمنعها من الإدراك السليم، ذلك أن المنافق منحرف

التفكير دائما، لا يرى الأمور كما يراها السليم، بل إنه غير مستقر، وتوالى نفاقه يفقده الإيمان بالحقائق، وبفقده الإدراك السليم، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن المنافق لا ينافق لغرض من المال أو دنيا يصيبها، ولكن يضعف عن النطق بالحق، ولعله يتدلى نفاقه بشيء من الغرض، ولكن يتوالى نفاقه ليصير مرضا، فينافق لغير غاية.

وإن السورة أو الآيات التي تنزل تزيد المنافقين كفرا إلى كفرهم، أى كفرا مضموما إلى كفرهم الأصيل وإنما زادتهم كفرا، لأنهم يعاندون الحق، والمعاند تزيد قوة الدليل عنادا، لقد انحازوا إلى جانب الباطل، فكلما زاده الدليل فى الحق زاد لجاجة فى الباطل فزاد كفرا ولا احتمال لتوبته وعودته إلى الحق، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْأَمَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى استمروا معاندين للباطل، حتى حال موتهم، فيموتون وهم كافرون، وعبر بالماضى لتأكيد هذه الحال التى يموتون عليها، والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

ثم قال تعالى موضحا حالهم:

أُولَٰئِكَ
 أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
 لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ
 سُورَةٌ تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْأَحَادِ
 ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ
 ﴿١١٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
 عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
 رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١١٩﴾

كان المنافقون فى المدينة ملتوية أفكارهم كما تلتوى العيون بحول يصيها، فهم يرون النور، ولكن أعينهم يزيدا لمعان النور انحرافا عن التفكير السليم، كان المؤمنون يغزون ويجاهدون، وهؤلاء يشتد نفاقهم وكيدهم كلما رأوا عزة للمؤمنين بعد عزة، وتمكنوا لهم فى المدينة بعد تمكين، وعلوا فى أرض العرب، وهم يعيشون فى أمان، يرجون للمؤمنين الشر والانتكاس.

فيقول سبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ (الواو) للاستئناف وهى مقدمة فى المعنى على الاستفهام، ولكن قدمت همزة الاستفهام، لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتوبيخ، والمعنى: أيستمرون على حالهم من النفاق، ولا يتدبرون، وهم يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين وهم لا يذكرون، الفتنة اختبار النفوس بشدة كما يختبر الذهب ليخرج ما فيه من غش، والمعادن لإزالة الصدأ، وإن الله يختبر الناس فيما يحبون، فيختبر سبحانه المحب للمال فى ماله، والمحب للنساء والولد فيهما، ويختبر المؤمنين بالخوف، ويختبر المنافقين فيما يحبون من خذلان المؤمنين، وهو أن تخضع شوكتهم وتقل قوتهم، ويختبرهم الله بذلك مرة أو مرتين كل عام، ومرتين يقصد بها مرات، فيعطى الله فى الاختبار للمؤمنين نصرا مؤزرا، اختبرهم ببدر، فأنشأوا فى أنفسهم النفاق واختبرهم فى بنى قينقاع، وقد أجلاهم الرسول عن المدينة لما حرضهم المنافقون على المؤمنين، واختبرهم فى أحد إذ أجلى بعض اليهود، واختبرهم فى الخندق بتحريضهم بنى قريظة، فأباد نصراءهم، واختبرهم بالنصر للمسلمين فى السرايا، واختبرهم بفتح مكة، ثم اختبرهم بالانتصار فى الطائف على هوازن وثقيف، ثم اختبرهم فى تبوك، وهكذا توالى الاختبار بالحن تنزل بهم من فرط غيظهم من الإيمان والمؤمنين.

هذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أى مرات، ولو كانت نفوسهم غير ملتوية وعقولهم غير منحرفة، لكان

توالى هذا النصر رادعا، وحاملا لهم على ترك غيهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أى رجاء أن يتذكروا أنهم على الباطل، وأن فى قلوبهم أمراضا عليهم أن يعالجوها، وأن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق الذى لا ريب فيه، وأن الله ناصره غير خاذله، وأن العاقبة للمتقين، فإذا تذكروا واعتبروا واتخذوا مما وقع دليلا على ما يقع فاستقاموا، ولكنهم لم يتذكروا واستمروا فى غيهم؛ لأنهم انفصلوا بأحاسيسهم عن الناس، فعاشوا فى محيطهم المنافق، فلم يعتبروا وإذا جاءتهم التذكرة أعرضوا عنها، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَأُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾ وإذا ما أنزلت سورة هادية مرشدة مبينة الحق وذاكرة أحوال المؤمنين ومن يعاديهم لم يطبقوا سماعها من النبى ﷺ؛ لأن القلب المريض لا يطبق سماع الحق الذى يكون فيه شفاء له وللناس، ولا يستسيع الأخذ به، فإذا تلا النبى ﷺ الآية أو السورة النازلة نظر بعضهم إلى بعض نظرات لها معان عندهم، وهى أنهم ضاقوا بها ذرعا ويريدون أن يخرجوا من المسجد تبرمًا بسماعها، وبغضا فيها، أو تنافرا عليها، واستهزاء بها، وبعد هذه النظرات الغامزة، أو المنكرة للحق ينصرفون، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ التعبير بـ (ثم) هنا فى موضعه؛ لأنه تفاوت بعيد بين حالين، حال الاستماع، وهو يقتضى الإنصاف والإيمان، وحال الانصراف عن الاستماع إلى الحق والقول الذى هو شفاء للناس.

وقوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ جملة معترضة بمعنى الدعاء عليهم بأن يكونوا منغمرين دائما فى الباطل لأنهم اختاروه وأرادوه، والله لا يهدى القوم الفاسقين.

ويصح أن نقول إنها بيان لانصرفوا، أى أنهم انصرفوا لأن الله تعالى صرف قلوبهم عن الحق، فصارت قلوبهم معرضة؛ لأن نفوسهم الملتوية جعلتهم لا يقبلون على الحقائق.

وإن قوله تعالى عنهم أنهم يقول بعضهم بلمح النظر: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ فيه إشارة إلى أنهم يريدون أن يتسللوا من المسجد لوادًا لا يحس بهم أحد حتى لا يعرف نفاقهم، ويتميز أمرهم، وهم لفرط انغمارهم في النفاق يحسبون أنهم لا يعلم بهم أحد، مع أن أعمالهم تكشف عن سرائرهم ولا يخفى أمرهم على أحد، فإن لم يكن ظهوره بأقوالهم، فظهوره بأفعالهم وتقاصر همهم عن أى خير، و﴿مِنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ لاستغراق النفى، أى هل يراكم أى أحد، و﴿هَلْ﴾ للاستفهام الإنكارى بمعنى إنكار الوقوع أى لا يراكم من أحد فاخرجوا.

ثم بين سبحانه السبب فى أنهم لا يذكرون ولا يرجعون عن غيهم، مع توالى المنكرات المنهيات فقال تعالت كلماته: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الباء) للسببية أى أن انصرافهم عن الاستماع للقرآن وتدبر معانيه، وعن الاختبارات المتوالية بسبب أنهم لا يتدبرون الآيات ولا الأحداث، ولا يعتبرون بالعبر، وذلك كله من عدم فقه الأمور، والآيات، وإدراك غاياتها ومراميها، وقد ختم الله تعالى السورة التى كثر فيها ذكر القتال وانبثاق النفاق بما يدل على أن محمداً ﷺ نبي الرحمة فإذا كان قد قاتل، وكشف النفاق وأهله فذلك من باب الرحمة بعباده والرافة بهم؛ لأن قتال المفسدين وكف فسادهم رحمة بالأبرار المتقين، فليس من الرحمة بالناس أن يترك الشر يستشري، والردائل تتحكم، والاعتداء يسيطر، فإن الضعفاء فريسة المستضعفين، والفساد يتضمن ظلم الذين لا يستطيعون دفعه، وكشف النفاق رد لمكايد المنافقين، ولقد قال تعالى: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة].

ولأن محمداً ﷺ نبي الرحمة قال - تعالى - مخاطباً العرب أجمعين:
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨).

أكثر العلماء على أن هذه الآية الكريمة والتي تليها نزلتا بمكة، ومعانيها تعين على ذلك، وقد يسأل سائل: لماذا كانت في سورة كلها مدنية، وهى من أواخر السور نزولا؟ نقول إن الله سبحانه وتعالى كان ينزل القرآن الكريم على نبيه تنزيلا وكان عند نزول الآية يكتبها من فى حضرته ممن يقرأون ويكتبون وينشرها بين المؤمنين آمرا بوضعها فى موضعها من السورة الذى قرر النبى ﷺ وضعها فيها، والأمر لله تعالى يأمر نبيه بأن يضعها حيث يأمره جبريل، فالترتيب توقيفى، وليس للنبى ﷺ.

وقد اختار الله أن يكون وضعها فى آخر سورة براءة؛ ولذلك حكمة نتلمسها، وقد تلمسناها فقلنا إنها جاءت فى ختام سورة كلها فى النفاق والمنافقين؛ ليتنبه القارئ للقرآن الكريم إلى أن القتال وكشف النفاق رحمة للعالمين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ هذه مئة من الله تعالى من بها على العرب إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، ولقد أكد ذلك بـ (اللام) وبـ (قد)، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وهنا قراءتان إحداها بضم الفاء والثانية بفتحها^(١) والمعنى على الأول منكم لا من غيركم، والمعنى على الثانية (من أنفسكم) أى من أعلاكم نسباً. وبمجموع الآيتين، وكل آية منهما قرآن بذاتها، أنه بعث فيكم رسولا منكم، لا من غيركم، وهذه مئة، ومن أعلاكم نسباً وشرفاً وهذا شرف للرسالة، والنبيون يبعثون من أعلى الأوساط.

ومهما تكن القراءة التى يقرأ بها، فإن محمداً ﷺ دعوة إبراهيم إذ قال الله تعالى عنه فى دعائه لربه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو...﴾ (١٢٩) ﴿البقرة﴾، وقد من الله تعالى على المؤمنين إذ قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ (١٦٤) ﴿آل عمران﴾.

(١) (من أنفسكم) بفتح الفاء، صحيحة المعنى، غير أنها ليست فى العشر المتواترة.

ولقد ذكر الحافظ ابن كثير المؤرخ المحدث أن جعفر بن أبي طالب، والمغيرة ابن شعبة قالوا لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته».

وإنه إذا كان النبي ﷺ من العرب، ومن أنفسهم، ودعوة إبراهيم، فإن الأثر الذى يترتب على ذلك، ويكون من جنس الأخوة المحبة - أن يكون رءوفاً بهم محبا لهم ورحيما، ولذا قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ العنت الشدة، ويقول ابن الأنبارى أصل العنت الشديد.

فإذا قالت العرب فلان يتعنت فلانا ويعتته فمعناه يشدد عليه ويلزمه بما يصعب عليه أداءه.

والمعنى يعز على النبي ﷺ وقد بعث إليكم بالملة بالسمة السهلة ملة إبراهيم أن يكون فى شريعته ما يعتكم ويصعب عليكم. فدينه دين الفطرة يساوقها، ولا يعتها، وقوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عنتكم، ف(ما) مصدرية هى وما بعدها مصدر وقد وصف النبي ﷺ بثلاثة أوصاف للمؤمنين من العرب وغيرهم؛ لأنه بعث للناس كافة.

أولها - أنه عزيز عليه عنتهم، فالشريعة التى جاء بها من عند الله سهلة لا مشقة فيها تعلق على الطاعة وفيها الاعتدال الكامل، وليس فيها إرهاق للنفوس، ولا للأجسام، والعقول تدركها وتعرفها.

الصفة الثانية - وهى من أعلى صفات البشر أنه رءوف والرفقة انفعال النفس بالمحبة والرفق بالناس، وهى صفة ضد الفظاظة والغلظ، وهما ينفران ولا يقربان، ولقد قال تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...﴾ (١٥٩) [آل عمران].

الصفة الثالثة - الرحمة، وهى أوسع شمولاً من الرأفة، إذ إن الرحمة النبوية تكون بالكافة، وقد يكون العقاب منافياً للرأفة، وهو من مقتضيات الرحمة، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى يقول فى حد الزانى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور].

ونرى أن الرأفة قد تجافى العقاب

أما الرحمة فإن العقاب ينبعث منها؛ لأنه رحمة بالكافة، وقد قال بعض الصحابة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: أكثرت من ذكر الرحمة، ونحن نرحم نساءنا وأبناءنا، فقال: ما هذا أريد، إنما أريد الرحمة بالكافة.

كانت هذه الآية إخباراً بمقام الرسول من قومه، وتنويه بالشرعية التى جاء بها، ودعوة إلى اتباعه، فمن اتبعه، فقد اهتدى، ومن لم يتبعه فقد تعرض للغواية وبعد عن الهداية، ولذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾.

(الفاء) هنا لربط هذه الآية بسابقتها، ترتيب أمر على أمر، يعد نقيضاً له، فإن كون الرسول من أوسطهم نسباً، وأنه عزيز عليه عنتهم، وأنه رءوف رحيم بهم كان يوجب عليهم أن يطيعوه، فهو لا يمكن أن يكون فى دعوته ما يضرهم أو يشق عليهم، بل فيه تنزيه لقلوبهم عن الشرك والضلال، مع هذا إن تولوا - أى انصرفوا، وهم معرضون، وقد شبهت حال الإعراض الفكرى، بحال التولى الحسى، لكمال معارضتهم للشرع، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ فعل شرط جوابه: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى إن لم يجيبوك فقل حسبى، أى يكفينى أن يكون الله معى، وهو صاحب الملك كله، لا إله إلا هو، فلا أعبد سواه.

والآية الكريمة تومئ إلى أنه كان بمقتضى ما تضمنه الآية السابقة من معانى يكون نصرأؤه منهم، وناشرو دعوة الله إلى الحق منهم، بل إنه كان يرجى منهم حتى بمقتضى عادة العرب أن يؤيدوه، ولا يخذلوه. ولكنهم إن خذلوه، فالله معه، وهو كافيه عن الحاجة إلى غيره، ولذا قال سبحانه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أى توكلت عليه وحده، لا أعتمد على أحد غيره سبحانه وتعالى، وتقديم الجار والمجرور (عليه) على الفعل (توكلت) يفيد القصر، أى أنه لا يتوكل أحد من العباد، ما دام الله تعالى كافله وعاصمه من الناس، كما قال تعالى: ﴿... وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...﴾ (٦٧) [المائدة].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ما يدل على سعة سلطانه، وعزة من يعتمد عليه، فقال تعالت كلماته: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الضمير يعود على لفظ الجلالة، ورب معناها مالك، والعرش هنا تفسره بالسلطان، أو ما يشبه كرسى الملك، والمعنى: والله هو مالك السلطان الكامل فى هذا الوجود، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويعلى من يشاء ويخفض من يشاء، وهو الحكيم الخبير، فمن يلتجئ إلى الله فقد التجأ إلى من يدفع كل شر، وكل سوء، ومن يعلى الحق.

وقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، فى (العظيم) قراءتان: إحداهما بضم الميم، فى العظيم، والثانية - بكسرها - فالقراءة بالضم تكون وصفا لرب العرش، أى تكون وصفا لله، وهو العظيم الذى لا يقدر قدره؛ لأنه فوق التقدير، وعلى قراءة الكسر تكون وصفا للعرش، وهو يثبت أن سلطان الله تعالى عظيم، والله سبحانه وتعالى أعلم.



تمهيد:

سورة مكية عدد آياتها ١٠٩، استثنى منها علماء القراءات أربع آيات قالوا إنها مدنية، هي الآيات ٤٠ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦.

ابتدئت بحروف مفردة للتنبيه على إعجاز القرآن، ووصف الكتاب بأنه الحكيم، وذكرت أن الناس كانوا في عجب أن يوحى إلى رجل منهم، فذهبوا إلى تكذيبه وقالوا بسبب كفرهم: إنه ساحر مبين، وكان عليهم ألا يعجبوا ويعتروا؛ لأن الوحي من عند الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر، وأنه وحده له الملك، وأنه لا شفيع عنده إلا من بعد إذنه.

﴿... ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ

حَقًّا... ﴿٤﴾.

فأنتم سترجعون إليه فيحاسبكم، ولا عجب فى رجوعكم فهو سبحانه يبدأ الخلق ثم يعيده.

﴿... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ

مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ... ﴿٤﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥) ويبين سبحانه

وتعالى آياته فى اختلاف الليل والنهار، ثم أشار إلى أولئك الذين ينكرون البعث

ولا يرجون لقاء ربهم، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وغفلوا عن آيات الله

سبحانه وتعالى، وبين أن مأواهم النار بما كسبوا من سيئ الأعمال، وفى مقابل

ذلك ذكر سبحانه الذين آمنوا بالله وآياته وعملوا الصالحات وجزاءهم من النعيم المقيم والسلام.

﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾.

وإن من سنة الله تعالى ألا يعجل الشر لمن أساء.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾ وبين الله تعالى طبيعة الإنسان أنه إذا ضعف اتجه إلى الله ولجأ إليه.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾.

وبين حال الذين بعث لهم النبي ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ... (١٥)﴾.

فأمره الله تعالى أن يقول:

﴿... مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾.

وقد ذكر حالهم في شركهم بأنهم يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا فيأمر الله نبيه ﷺ فيقول لهم: ﴿... قُلْ أَتَشْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾.

وبين الله تعالى بعد ذلك أن الناس في أصل التكوين أمة واحدة، ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)﴾.

جاءهم النبي ﷺ بالقرآن وهو أعظم آية أُيد بها النبيون، ولكنهم لتعتهم يريدون آية أخرى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)﴾ .

ولقد بين الله النفس الإنسانية المنحرفة عن الحق أنها إذا مسها الله تعالى بالخير بعد الشدة تصورت أن الخير لها ولم يكن لفضل الله ودبرت أمورها على ذلك، وذكر الله تعالى مثلاً فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢١) فَلَمَّا أَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾ .

ثم مثل سبحانه وتعالى الحياة الدنيا في زوال متاعها فقال:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ .

دعوة الحق

بعد ذلك بين الله تعالى مآل دعوة الحق إلى دار السلام والهداية إلى الصراط المستقيم يوم القيامة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ .

وإنه في البعث يحشرهم الله جميعاً ويفر الذين سول لهم الشيطان أن يعبدوهم - من الذين اتبعوهم .

ويسأل الذين أشركوا أين شركاؤكم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾.

بعد ذلك يبين الله تعالى إنعامه على عباده وآياته في خلقه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾.

أخذ يبين سبحانه وتعالى عجز الأوثان أن تبدأ الخلق ثم تعيده، بل إنها تخلق، ثم إن أوثانهم لا تهدي ضالا وإن الله هو الهادي إلى الحق، وإن الذين يعبدون الأوثان لا إيمان لهم فهم لا يؤمنون بها.

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٤)﴾.

وإن القرآن حجة الله البالغة ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٥)﴾.

ثم يتحدثهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من مثله.

﴿...وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾.

وإن الأمر بالنسبة لهم ليس آخر دليل يطلبونه بل إنهم يكذبون قبل أن يطلبوا الدليل؛ أي بادروا بالكذب ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٧)﴾.

وأنه بعد مجيء القرآن فإن منهم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَأْتِهِ لَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَقُلُوبُهُمْ مَعْرُضَةٌ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢) ﴿كَمَا أَنْ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ غَيْرِ مُبْصِرٍ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى ما أعدّه للكافرين، وأنه أرسل إلى كل أمة رسولا يقضى بينهم بالقسط ولكنهم يقولون متى وعد الله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... ﴿٤٩﴾ .

وبيّن سبحانه وتعالى أن له ما في السموات والأرض وأن وعده حق ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) .

كما بيّن أن شرع الله تعالى فيه الموعظة وفيه شفاء لما في الصدور: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴿كَمَا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضْلُهُ عَلَى الْخَلِيقَةِ فَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) .

أى تنزل النعمة حلالا طيبا ويفترون فيحرمون من غير بينة: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠) .

كما بيّن الله علمه بكل شئون الرسول ودعوته: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١) .

ثم يذكر أولياء الله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ .

وينهى الله النبي ﷺ عن الحزن ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾ .

إن الله مالك العزة يعز من يشاء؛ لأن له ملك السموات والأرض، وأن الذين يعبدون الأوثان لا يستيقنون لها قدرة، وإن يتبعون إلا الظن: ﴿... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾ .

ثم يبين سبحانه كمال ملكه وتصريفه للكون وبطلان من اتخذ له ولدا وبطلان قول الذين يعبدون الأوثان وأن جميعهم لا يفلحون؛ لأنهم يفترون على الله الكذب.

﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ .

بعد ذلك يذكر سبحانه وتعالى الأنبياء الذين لقوا من أقوامهم مثل ما لقي النبي ﷺ فبدأ بذكر نوح الأب الثاني للبشرية، وما قاله لقومه وقد كبر عليهم مقامه فيهم وتذكيرهم بآيات الله وتوكله عليه وما رأى منهم من عنت وقد أخذهم بالحسنى ﴿... فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ .

فكذبه قومه وصدقه الضعفاء - كما كان لمحمد ﷺ - ثم نجاه الله ومن معه في الفلك المشحون.

وبعث الله - كما تدل الآيات - رسلا من بعده فكذبوا ثم بعث موسى وأخاه هارون إلى فرعون، وأيده بآيات الله التي تثبت رسالته فاستكبروا وكانوا قوما

مجرمين، ثم جاء لهم موسى وأتاهم بتسع آيات بينات وكانت إحدى الحجج المنزلة من بينها عصا موسى.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧).

وقد آمن السحرة وذرية من قومه ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنْ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٣).

ثم أخذ موسى من آمن ودعاهم إلى التوكل على الله الذى آمنوا به وأن يقولوا: ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين ونجتنا برحمتك من القوم الكافرين.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٧).

ودعا موسى على فرعون وملئه الذين لم يؤمنوا: ﴿... رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩).

ولقد جاوز موسى بأمر الله البحر حيث انشق فكان كل فرق كالطود العظيم واتبعهم فرعون فى اجتيازهم البحر فانطبق عليه هو وجنده حتى إذا أدركه الغرق قال: ﴿... آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩٠).

وبعد ذلك بين سبحانه وتعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل فبوا لهم مبواً صدق ورزقهم من الطيبات ولكن اختلفوا لما جاءهم العلم.

بعد هذه العبرة من أخبار الرسل وأولى العزم بين سبحانه لنبيه وجوب الاطمئنان إلى ما يدعو إليه من الحق.

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥) .

وبعد ذلك ذكر نبي الله يونس عليه السلام ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (٩٨) .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى مقتضى إرادته أن يؤمن من اهتدى ويكفر من طغى ؛ ولذا قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٠) .

وبين الله تعالى أنه لا تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وأن الله تعالى ينجي رسله من العذاب الذى ينزل بالاقوام الذين يكفرون ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٣) .

ثم يخاطب الله الناس خطابا عاما يدعو إلى عبادة الله وحده ويأمر نبيه ﷺ بإقامة الدين الحق .

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١٠٩) .

معانى السورة الكريمة

الرَّتِلَآءِ ۚ أَيِنْتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
 أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا
 لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ مَن شَفِيعٌ
 إِلَّا مَنۢ بَعَدَ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۚ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ
 يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ
 بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنۢ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
 أَلِيمٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

ابتدأ الله تعالى السورة الكريمة بالحروف الصوتية المفردة، وهى من المتشابه
 الذى اختصه الله تعالى بعلمه، وإن تفسيرنا لها رجم بالغيب إذ لم يرد عن النبى
 ﷺ فيها برواية صحيحة بيّنة، فليس لنا أن نتعرف معناها ما دامت قد أبهمت
 علينا، وتركها الله تعالى من غير بيان ولكن علينا أن نؤمن بحقيقتين:

أولاهما - أن الله تعالى لم يضع هذه الحروف إلا لغاية أرادها وحكمة،
 وعلينا أن نتحررها.

ثانيتها - أن نتلمس الحكمة وقد تلمسها المفسرون فوجدوها فى أمرين:

* إن كبار المشركين لما رأوا أن من يسمع منهم القرآن يؤثر فيه ويصغي إليه فؤاده فدفعهم العناد والمكابرة إلى أن قالوا كما أخبر تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت].

وكان النبي ﷺ يفجؤهم بتلاوة القرآن بهذه الحروف الصوتية فينقضون اتفاقهم ويحنون إليه تباعاً، وروى أنهم في ليلة اتفقوا على هذا الموقف السلبي ولكن كل واحد منهم نقض ما اتفق عليه وذهب إلى المكان الذي يستمع منه إلى النبي ﷺ فإذا هم يلتقون حيث كانوا يتفقون على البعد عن الاستماع.

* الأمر الثاني أن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، والامى يعرف الكلمات ولا يعرف الحروف فمجيء هذه الحروف على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب فيه غرابة، وفوق ذلك فإن هذا من التحدى كأنه يقال لهم: هذا الكلام الحكيم مركب من الحروف التي ركب منها كلامكم فكيف تعجزون عن أن تأتوا بمثله، وفى ذلك دليل على أنه ليس بنوع كلامكم ولا هو مما فى إمكانكم أو طاقتكم، والله سبحانه وتعالى هو وحده الذى نزلّه على نبيه تنزيلاً وهو العزيز الحكيم.

وقد يبدو أن هذه الحروف مساقفة فى أكثر الآيات المبتدأة بهذه الحروف للإشارة إلى القرآن الكريم وآياته؛ لذا قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى هذه الحروف أو إشارة إلى ما يأتى بعد ذلك من الذكر الحكيم.

والإضافة هنا بمعنى (من) أى تلك الآيات التى تتلى عليك من آيات الكتاب الحكيم وهى بذاتها تدل على قدرة الله تعالى الذى أنزلها وعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وإنه ﴿الْكِتَابِ﴾ الكامل الجدير بأن يسمى كتاباً، و﴿الْحَكِيمِ﴾ لاشتماله على الحكمة إذ إنه جمع التكليفات كلها والشرائع المصلحة للبشرية والمنظمة للعلاقات الإنسانية، ثم إنها نزلت كلها على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب؛ لم يجلس إلى معلم ولم يكن ببلد تدرس فيه العلوم الإنسانية أو الكونية فقد كان أمياً من بلد أمى، وجاء بكتاب فيه أصول وفروع الشريعة وهى إحدى دلائل إعجازه بين الكتب حقاً وصدقاً.



وكان خليفاً بالمشركون أن يؤمنوا إذ تحداهم وأعجزهم، ولكن لم يدفعهم العجز إلى الإيمان بل دفعهم إلى الجحود والعناد، ليس لحجة عندهم بل لأنه كان غريباً لم يألوه أو يعرفوه؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾.

والاستفهام هنا لإنكار الواقع وهو بمعنى التعجب من عجبهم، والتوبيخ على أنهم اتخذوا إرسال رجل منهم موضعاً للعجب، فالرسول لا يمكن أن يكون إلا رجلاً منهم فلا يصح أن يكون ملكاً من الملائكة كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام].

وقد كان تعجبهم لأمور ثلاثة:

أولها - أنه أوحى إلى رجل، وما كانوا يفهمون أن الرسالات تكون لرجال منهم.

ثانيها - أنه يتيم فقير، كان يسمى يتيم أبى طالب، وأنه ليس من الأغنياء وكانوا هم العظماء

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف].

ثالثها - أنه فوق هذا جاء للإنذار بالبعث فكان قولهم:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون].

وفى هذا أشد العجب من أمرهم كما يقول تعالى:

﴿وَأَنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ [الرعد].

[الرعد].

هذا تعجبهم، والإنكار التعجبي من عجبهم لتلك الحقائق الثابتة، والإرسال لا يكون إلا لرجل كما تلونا ولقوله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾ (الإسراء: ٩٥).

وأذكروا أنه يتيم فقير وهم يعلمون أنه من بيت الذروة من قريش، وإذا كان يتيم أبى طالب، فأبو طالب كان شيخ البطحاء وتدين قريش كلها له، كما كانت تدين لأبيه عبد المطلب ولجده هاشم، وأن النبوة لا تُختار بالغمى ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكان محمد ﷺ قبل الرسالة تدين له قريش كلها بالخلق الكريم والصدق والأمانة حتى سُمى بالأمين ولا يمكن أن يكون المال والولد مقومات النبوة إنما الصدق والأمانة، والله هو الذى يختار كقوله تعالى:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ...﴾ (٣٧) ﴿[سبا]﴾.

ولا ينبغي أن يعجبوا من الإنذار بالبعث والحساب والجزاء فإن هذه الدنيا متاعها قليل والعاقبة عند ربك للمتقين، وإن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى بل جعل حياته فى الدنيا عاملاً للخير أو عاملاً لغيره، وفى الآخرة يكون الجزاء الأوفى.

ولننظر بعض نظرات إلى النسق السامى.

١ - قوله تعالى: ﴿أَكَاكَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ - ولهم عقول ومدارك - أن يتعجبوا من هذه الأمور.

٢ - ﴿أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾ (أن) تفسيرية، وأنذر الناس هى لإيحاء الذى أوحاه الله تعالى لنبيه، والإنذار هو بيان ما يكون للكافرين من عذاب أليم، والبشرى بما يكون للمؤمنين من نعيم مقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَكَاكَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يقول الزمخشري عن معنى (اللام):

(وما الفرق أن تقول «أكان عند الناس عجا»: أنهم جعلوه أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه علما يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم) ولعل المعنى الذى يريد



الزمخشري أن اللام تفيد هنا أن كان للناس عجباً أن يعجبوا من أنه أوحى إلى رجل منهم، وأن اللام تفيد الملك، أو الاختصاص أو الحق أى متى حق أن يتخذوا الرسول بالحق موضع تعجب واستغراب ثم استهزاء، وقال فى بشارة المؤمنين وهو الجزء الأكبر من عمل النبي المبعوث ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وقد بينا معنى البشارة والنذارة، ولم تذكر الجنان ولا النعيم المقيم كما ذكر سبحانه فى آيات كثيرة، ولكن ذكر ما يوجه ويتأدى إليه لا محالة وهو أن لهم قدم صدق عند ربهم وهى سبقهم إلى الإيمان والتصديق بما جاء به النبي ﷺ.

وهنا أمران بيانان يجب أن نشير إليهما بمقدار ما ندرك.

أولهما - عبر عن سبق إلى الإيمان بقوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ ونقول: إن هذا مجاز عبر فيه باسم الجزء، وأريد الكل وذلك لأن المراد أن لهم سبق بالصدق، ولكن لأن سبق يكون بالقدم فهى التى بها يكون السير السريع أو البطيء فقد عبر عن ذلك بـ ﴿قَدَمَ﴾، كما يقال فى النعم: «فلان أياذ على»؛ لأن الإعطاء يكون باليد عادة.

الأمر الثانى - قوله تعالى: ﴿صِدْقٍ﴾ نقول أنه وعد، ووعد الله صدق دائماً ولكن المؤمنين أيضاً قدموا بالصدق وهو الإيمان بالحق، فصدقوا الرسول وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

يقول الزمخشري: (فإن قلت لم سمى السابقة قدماً، قلت لما كان السعى والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد).

وإضافة القدم إلى ﴿صِدْقٍ﴾ دلالة على زيادة فضل وإنه من السوابق العظيمة.

هذا ما قاله تعالى بالنسبة للمؤمنين وهو يدل على أنهم بقلوبهم الطاهرة سبقوا إلى التصديق والصدق، أما الكافرون فقالوا تحت تأثير استغرابهم وتعجبهم إن هذا لساحر مبين، هذا صوت الاستغراب، من غير موجب، ويدل أن يقولوا آمنا ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾، أى بين واضح. حكموا بأنه ساحر مسترسلين فى استغرابهم وأكدوا أنه ساحر بالجملة الاسمية، وبإن المؤكدة وباللام، والإشارة فى هذا إلى النبى ﷺ وهو مسوغ لاستغرابهم، وعجبوا من إرسال رسول منهم ومن قدرة الله تعالى، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

والأيام الستة ليست هى الأيام التى نعرفها؛ لأن ذلك مستحيل؛ لأن هذه الأيام التى نعرفها من دوران الأرض حول الشمس وما كانت الأرض ولا السموات بما فيهما من شمس وقمر وسائر الكواكب والنجوم، ولذلك نقول إن الأيام الستة هى أدوار التكوين الذى أنشأ الله به السموات والأرض، ذكرها الله فى سورة أخرى:

﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ ثَلَاثُونَ يَوْمًا (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت].

ونرى من هذا النص السامى أن الأرض أخذت ستة أدوار ومثلها السموات حتى كانت الأرض بطبقاتها وتكوينها، وكانت السماء بأبراجها ومصاييحها، وكانت الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لنعلم عدد السنين والحساب.



أنشأ الله تعالى السموات والأرض في هذه الأدوار التكوينية بتدبيره سبحانه وإحكامه وإرادته وهو الفاعل المختار، وليس كل دور انتقالاً من الدور الذي سبق فيتوهم أن كل دور خلق ما بعده بل إن ذلك بإرادة المنشئ المختار؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ والمعنى استولى على السلطان والعرش كناية عن كمال السلطان فهو صاحب الملك قد استوى على كرسى ملكه الذي خلقه وأنشأه على غير مثال سبق، وأنه يدبر شئون ذلك الكون الذي أبدعه ﴿يَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [البقرة: ١١٧]، ويدبر أى يتحكم فيه ويقدر ويضع كل شيء فى موضعه الذى يلتم مع ما يناسبه فخلق الماء فى الأرض وجعل منه كل شيء حى وخلق المطر الذى يكون غيша وينبت منه كل شيء وجعل الأرض فراشا والسماء بناء.

وأصل التدبير معرفة أدبار الأمور، والمدير يعرف حاضر الأمور ويعلم القابل والحاضر والدابر منها والعواقب، لا يغيب عن علمه شيء وقد أحاط بكل شيء علما وفى قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ الأمر هو أمر الخلق والتكوين ومن يعيش فى السموات والأرض وحالهما - تبارك الله.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ هذا إنذار للذين يعصون من خلقه بأنهم عند العذاب لا تنفعهم شفاعة الشافعين وما لهم من شفيع يشفع ولا قرية يفتدون بها أنفسهم فإنه لا شفيع إلا من بعد إذنه، والتعبير بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ إشارة إلى أنه محكوم بسلطان الله تعالى غير خارج عن ملكه لا يفرض عليه.

وهنا إشارتان بيانيتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ جملة مستأنفة لبيان كمال السلطان، وهى أثر للخلق والتكوين؛ لأنه إذا كان الخالق كان المدير وتدل على أنه فاعل مختار.

الثانية - قوله تعالى: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تدل على كمال السلطان، وأنه لا يخرج عن سلطانه شيء في الأرض ولا في السماء، فالأرض باتساعها من جبال ووهاد ويابس وماء وأحياء وزرع وغراس كلها بتدبيره وسلطانه.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى خالق السماء والأرض وما فيهن ومدير أمرهما وذو السلطان المستولى على كل شيء، والخطاب للإنسانية كلها لأنه رب العالمين.

ويلاحظ المتبع لآيات الله تعالى أن الإشارة تقتزن بحرف الكاف ويكون الخطاب للنبي ﷺ ولأمته بالتبع، وضمير الجمع كما في هذا النص ﴿ذَلِكُمُ﴾ يكون إما للناس أجمعين، وإما للنبي ﷺ وأمته ابتداء. وهذا الخطاب للناس أجمعين، وذكر لفظ الجلالة فيه إشارة إلى أنه المستحق وحده بلا شريك وأنه المنشئ والمشرف على كونكم وقد ربكم ورباكم وتعهدكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي أنه يعبد لأنه الله المنشئ جل جلاله؛ ولأنه رب الوجود ولا يُعبد إلا وحده فاعبدوه عبادة تقتضى بطلان الشريك.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للتعزيز وطلب التذكر، و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهي مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما، وهمزة الاستفهام داخلية على (لا) والاستفهام لإنكار الوقوع بمعنى النفي ونفي النفي إثبات، والمعنى حض على التذكر، والتذكر أدنى التفكير، والمعنى تفكروا بأدنى التفكير فإنكم حيثذ تجدون الله هو الذى يعبد وحده ولا يعبد سواه.

ثم بشر الله بعد ذلك المؤمنين وأنذر الكافرين، فقال تعالت كلماته: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾.

بعد أن بين الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ومن فيهن ذكر سبحانه وتعالى أنه لم يخلقهم عبثا، بل إنه خلقهم ليعمروا الأرض ويقوموا فيها بالأعمال

الصالحة وأنه سيعيدهم إليه ويجزيهم بالإحسان إحساناً، ومن كفر فله عذاب أليم، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ قدم الجار والمجرور على المبتدأ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لإفادة القصر، أى إليه وحده المرجع والمآب كما أنه وحده الخالق المنشئ فالمرجع إليه وحده، ثم ذكر إمكان ذلك وتقريب قدرته تعالى على رجوعهم إليه وحده فقال: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فهذه الجملة فى مقام التعليل لقوله - سبحانه -: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وتقريب وقوع ذلك وقدرته سبحانه وتعالى على الإعادة كما بدأ كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (٢٧)﴾ [الروم].

وقد بين الله تعالى أن ذلك هو النظام الذى سنه سبحانه وتعالى واختاره لخلقه فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أى إن ذلك وعد وعده الله تعالى عندما خلق الإنسان الأول وعاداه إبليس اللعين وأنزله من جنته. وقال سبحانه:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعاً﴾ ذكرت لبيان عموم من يعيدهم سبحانه، فسيعود إليه البر والفاجر والمطيع والعاصى والمفسد والمصلح، ثم ذكر سبحانه وتعالى غاية ذلك ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾: اللام للتعليل، أى لتعليل الرجوع إليه والإعادة بعد البدء، وفى التعليل بيان الغاية والمآب ويتحقق وعد الله تعالى الحق الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل، وقد ذكر الإيمان والأعمال الصالحة كشأن بيان الله تعالى عند ذكر الثواب ولم يذكر سبحانه وتعالى الجنة والنعيم المقيم، ولكن ذكر ما يتضمنها وزيادة فقال تعالى: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أى الجزاء بالقسط فهو عدل من الله تعالى، وعدله وفضله يوجبان الجنة وما فيها.

والرضوان والسعادة التى يتضمنهما أداء الواجب هو الثواب العدل للمؤمنين الصالحين، فهم شكروا النعمة ولم يكفروها وقابلوا فضل الله بالقيام بالواجب

واعتدال النفوس وحالهم هي العدل والقسط، ويقول البيضاوي في تفسيره ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أى يعدله أو عدالتهم وقيامهم على العدل فى أمورهم، ونرى أن هذا كله تشمله كلمة (القسط) وليس ثمة تردد بين واحد منها.

وبعد أن ذكر سبحانه جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكر جزاء الذين يكفرون فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ - ذكر القسط فى جزاء الذين آمنوا على أنه مقابلة بين عمل صالح قويم مستقيم وجزاء عدل قويم، وذكر ما يستحقه المنحرفون من غير أن يذكر ما يدل على أنه جزاء، وذلك للدلالة على أن الجزاء مع عدله تفضل من الله، وأن الكافرين حرموا من هذا الفضل ونالهم ما يستحقون، وليبان أن الرجوع إلى الله تعالى يقتزن بالجزاء الذى هو عدل، وأن الناس خلقوا ليقوموا بالإصلاح، وإن الإعادة ليجازوا على هذا الإصلاح، أما المنحرفون المفسدون فإنهم ينالون ما يستحقون بسبب انحرافهم عن الفطرة التى فطر عليها الناس. وابتدأ سبحانه بالجملة الاسمية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وذلك فيه أمور ثلاثة مؤكدة لشدة العقاب:

الأولى - الجملة الاسمية المؤكدة للحميم.

الثانية - التعبير بالموصول الذى يعتبر أن الكفر علة الحكم.

الثالثة - اللام فى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾ فإن اللام تفيد أنه أمر مختص بهم وليس لهم غيره.

والحميم: الحار الشديد الذى يقطع الأمعاء، فيقال: حممت الماء أى أحمرته فهو حميم أى محموم، بمعنى مفعول إذا كان حاراً حرارة شديدة تزيد عما يطيقه الجسم؛ ولذا قال الله تعالى:

﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۖ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۝٥٨﴾ [ص]، وقال: ﴿يَطْرَفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ۚ إِنَّ ۙ ۝٤٤﴾ [الرحمن].

وذكر سبحانه سبب هذا الذى ينالهم فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ جمع هنا بين الماضى والمستقبل، ودل هذا على استمرارهم فى الكفر الذى فعلوه أولاً ثم استمروا مجددين للكفر آن بعد آن، وقانا الله تعالى شر الضلال وانحراف العقول.

قال تعالى:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ
ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعِينَ
وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ
النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ
اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَّآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

يبين سبحانه وتعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه ما خلقهما عبثاً، بل سخرهما للإنسان ليشكر أو يكفر، وأن المرجع إليه سبحانه وتعالى يحاسب كل امرئ بما كسب، وأنه الحكم العدل الذى يجزى به كل نفس بما كسبت.

وفى هذه الآيات فصل نعمته على مخلوقاته وكيف هى مسخرة لهم، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا، جعل الشمس ذاتها ضياء، فكتلة كلها ضوء، ويقول بعض المفسرين: ذات ضياء، ونحن نقول: إن الشمس ذاتها ضياء، والقمر نور، أى ذا نور، وقلنا فى القمر ذو نور؛ لأن ضياءه ليس من ذاته إنما هو من توسطه بين الأرض والشمس، ونوره عرضى وليس ذاته نورا كالشمس فى أن ذاتها ضياء، ولقد أدرك هذا بعض المفسرين الأقدمين الذين لم يعنوا بدراسة الأجرام السماوية. فقد قال البيضاوى: أنه سُمى «نورا» للقمر للمبالغة، فهو أعم من الضوء، وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور، وقد بينه سبحانه وتعالى بذلك أنه خلق الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نيرا بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، وهذا ما يقرره علماء الكون، وفى الواقع أن ضياء الشمس حقيقى، فهى كالمصباح والنور ينبثق منه، والقمر لا ضياء فيه وإنما نوره نسبى فى انعكاس ضوء الشمس عليه؛ ولذا كان له منازل، وقد ينطمس على الأرض قال تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ فهو يبتدىء هلالا يكبر شيئا فشيئا حتى يصير بدرا ثم يعود يصغر شيئا فشيئا حتى يكون المحاق.

ولذا قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾ وقال بعض المفسرين: إن ما قدر منازل ليس هو القمر وحده بل الشمس والقمر، والمعنى: قدرهما منازل؛ فالشمس منازل كالقمر، ولكن منازل القمر سريعة يومية ومنازل الشمس ليست كذلك، وإن كان لها أثرها فالتقدير نسب إلى القمر ابتداءً والمراد هما، كعود الضمير على التجارة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا...﴾ [١١] [الجمعة]، ونحن نرى أن المنازل للقمر؛ لأنها الظاهرة ولأنها التى نعلم بها الأيام والأشهر والسنين القمرية، وبعض المفسرين يقول: منازل أى ذا منازل، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى تقدير (ذا)؛ لأن المنازل فى ذات رؤية القمر يبدو صغيرا ثم يكبر وبعد أن يصير بدرا يعود صغيرا كما بدأ ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [٣٩] [يس]، ويبين سبحانه أن الحكمة فى هذا أن تعلموا عدد السنين والحساب، أى عدد السنين بعدد الأشهر والأيام والحساب، وقالوا إن العدد فى السنين والحساب فى الأوقات، فيعلم عدد السنين بدوران القمر وابتداء كل شهر والأيام برؤية القمر ليلا، والعربى كان يعرف

اليوم فى الشهر برؤية مقدار الهلال فيعرف أنه فى الليلة الأولى أو الثانية أو الثالثة إلى العاشرة فى سماء العرب الصافية .

وإن ذلك بنظام ثابت لا يتغير ولا يتحول ، وإحكام فى الخلق والتكوين ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الأمر الثابت الذى يسير على سنة محكمة هى سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلا .

ثم يبين سبحانه وتعالى أن ذلك كله من آيات الله تعالى التى بينها فقال تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ والجملة مستأنفة ، لبيان خلق الله تعالى - يفصل ، أى يبين الآيات الدالة على كمال خلقه ووحدانيته ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ويدركون الحق ويؤمنون به ويدعون لفاطر السموات والأرض ، ومديرهما .

وإن اتصال الأرض والشمس والقمر يكون منهما الليل والنهار ، كما أن اتصال الشمس بالقمر والأرض يوجد منه نور القمر ، وتوجد منه منازل ويكون منه العلم بعدد السنين والحساب ، وقد بين سبحانه أثر اتصال الشمس بالأرض فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

واختلاف الليل والنهار بمعنى تعاقبهما بأن يكون كل خلفه للآخر ، فالليل يعقب النهار ، والنهار يعقب الليل ، تشرق الشمس على الأرض فى دورانها فيكون النهار ، ويكون ذلك الإشراق فى جزء من الأرض ، وفى دورانها تخفى الأرض نصفاً منها فيكون ليلاً وفى النصف الآخر النهار ، وهكذا تتعاقب الأيام والليالى وهكذا النظام الذى ابتدعه منشئ الوجود رب العالمين ، وهناك اختلاف بين الليل والنهار تشير إليه الآية أيضاً وهو الاختلاف طولاً وقصراً ؛ فأحيانا يطول النهار ويقصر الليل ، وأحيانا يطول الليل ويقصر النهار ، وأحيانا يستويان ؛ وذلك من تحرك الشمس فى فلكها وحسب قربها من الأرض قرباً نسبياً وبعدها عنها نسبياً ، ويشير سبحانه إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس] ، فالشمس تدور فى فلكها

والقمر يدور حول الأرض في فلكها، والأرض فراش الإنسان مهّدها له العلى
القدير .

ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٩٠)﴾ [آل عمران]، أى العقول المدركة، وهكذا كان الكون وما
يجرى فيه من الآيات والنذر، ولكن ما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ﴾ هذا توجيه النظر لما فى السموات والأرض من نجوم وكواكب .

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى
لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾
[ق].

فأشار سبحانه وتعالى إلى الكون فى إنشائه وتنوعه وتفاوته وتدبيره وإحكامه
وتناسكه وأنه لا فروج بين كواكبه ونجومه وأنها متماسكة بالجزائية .

﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ هذا اسم إن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ﴾ وإن (اللام) لام (التوكيد)، والآيات جمع آية، وهى الأمر الكونى الدال
على وحدانية الله وكمال قدرته وإبداع الكون على غير مثال سبق، وأنه سبحانه
منشئ الكون بإرادته .

وهذه الآيات لا يدرك مغزاها وما توحى به إلا القوم المتقون، الذين امتلأت
قلوبهم بالإدراك ومراقبة أنفسهم، يخافون العواقب ويقدرّون الأمور تحت سلطان
التقوى، يعلمون أن الله الواحد الأحد منشئ الكون وحده هو المعبود وحده لا
معبود سواه .

وقد ذكر سبحانه من يدركون بأنهم (يعلمون)، ومرة أنهم (يؤمنون)
وأخرى أنهم (يوقنون)، ومرة رابعة بأنهم (يتقون)، وهم الذين يدركون ما تدل

عليه الآيات، ومن لا يدركها ليس عنده علم ولا إيمان ولا يقين ولا تقوى، وعدم إدراكهم ناشئ عن ظنهم أن الحياة الدنيا هي كل شيء فلا يتدبرون ما بعدها وينكرون البعث؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾.

ذكر سبحانه آياته الكبرى في خلق السماوات والأرض الدالة على أنه أنشأ كل شيء وأن من أنشأه ابتداء يستطيع أن يعيد ما أنشأ، كما قال: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ... (٣٠)﴾ [الأعراف].

وبعد ذلك ذكر الذين ينكرون البعث والنشور والقيامة والحساب، وأنهم لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً لانغماسهم في الأهواء والشهوات، وفسدت مداركهم فلا يفكرون في عواقب أمورهم، وكلما غلبتهم الشهوات ألهمتهم عن التفكير في خلق الله تعالى وما يدل عليه، وعن التفكير في الآيات والنذر وما تدعو إليه من إيمان ثابتة دلائله.

اليوم الآخر، هو ما يكون من بعث وحساب وجزاء، وقد قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ إشارة إلى استهانتهم بأنفسهم وخالقهم، وليبيان المهابة في لقاء هذا اليوم والإشعار بأنه يوم خطير على الكافرين عسير.

كما أضاف سبحانه لحال إنكارهم الرضا بالفانية ومتعتها بدل الحياة الأخرى الباقية بنعيمها الباقي، ورضوا بالقليل الحاضر عن الكثير المقيم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا﴾.

أى أنهم رضوا وقنعوا بها لم تمتد أنظارهم إلى ما وراءها فشغلوا بالطريق وما به من منافع قصيرة عن المرتجى والمتهى؛ لأن الحس استغرقهم ولم يجعل في نفوسهم مكاناً للنور يدرك به الحق، واطمأنوا وسكنوا للمذاتهم وشهواتهم وقالوا في ذات أنفسهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون].

وقد وصفهم سبحانه بالغفلة عن آياته: ﴿هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ وهذه جملة معطوفة على ما قبلها.

الوصفان متغايران وإن كانا متلازمين.

أولاً - وصفهم بعدم توقع لقاء الله وأنهم قنعوا بالحياة الدنيا وما فيها واطمأنوا إلى ذلك واكتفوا به.

ثانياً - وصفهم بالغفلة، وأن الرضا بالحياة الدنيا والاعتناع بها لا يكون إلا من غير المدركين المنتهين لحقيقة الحياة وما بعدها.

وقد أكد سبحانه وتعالى غفلتهم بسبب انغماسهم في الأهواء والشهوات بالجملة الاسمية.

وفى ذلك أبلغ تأكيد لغفلتهم عن آيات الله الكونية والأحكام التكليفية فكفروا وفسقوا عن أمر ربهم، وقد حكم الله حكماً صارماً قاطعاً فقال: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨) فهذه الآية الكريمة فى مقام خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وهى خبر (إن) بمقتضى السياق، ويكون الخبر مؤكداً بـ (إن) ويتضمن اسمها (أى اسم إن) سبب الحكم وهو الخبر؛ لأن اسم الموصول تضمنت صلته أنهم لم يتوقعوا لقاء الله فانهمكوا فى الشهوات وقنعوا بالدنيا وغفلوا عن آيات الله، وكل ذلك تأكيد لسبب الحكم وهو أن يكون مأواهم النار.

وهنا نجد أسباباً تضافرت وأوجبت عقابهم:

أولاً - اغتروا فلم يتوقعوا لقاء الله.

ثانياً - رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وهواوا فى اللذات مرتعاً.

ثالثاً - غفلوا عن آيات الله القرآنية والتكليفية.

وهذه أسباب متتابعة بعضها يتبع بعضها وكلها آثام، وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ والإشارة إلى الأوصاف السابقة واستحضارها إشعار بأنها السبب فى هذا الجزاء.

﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ معناه المكان الذي يأوون ويتتهون للإقامة فيه وكان القصد من المأوى الاستراحة لا العذاب.

وقد علل الله العقاب بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والباء للجزاء والمقابلة بين ما فعلوا وما انتهوا إليه، والجمع بين الماضي في ﴿كَانُوا﴾ والمستقبل في ﴿يَكْسِبُونَ﴾ دليل على الدوام والاستمرار فكانوا في غيٍّ مستمر، وبعد أن بين سبحانه حال وجزاء الذين لا يرجون لقاءه ذكر في مقابلة الذين آمنوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس].

هذا جزاء الذين يرجون لقاء الله ويتوقعونه مستيقنين به؛ لأنهم آمنوا فيخافون العذاب ويرجون الثواب ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ ذكر الله لهم جزاءين أولهما- أنهم بسبب الإيمان والعمل الصالح يهديهم ربهم إلى الحق دائماً فلا تغمرهم الشهوات ولا يرتعون في المفسد؛ لأن الإيمان نور في قلب المؤمن، به لا يفكر إلا في الحق، ولا يقول إلا الحق، ولا يعمل إلا الحق وسيره بين الناس لا يكون إلا بالحق، وقد قال رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»^(١) ذلك أن النور يهدي فيزداد المؤمن بإيمانه إيماناً.

والعمل السيئ تظلم به النفس فتضل، تبدأ في طريق الضلالة وتنتهي إلى الضلال البعيد، وقال ﷺ: «يتلقى المؤمن عمله في أحسن صورة فيؤنسه ويهديه، ويتلقى الكافر عمله في أقبح صورة فيوحشه ويضله»^(٢)، وفي قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ إشارتان:

أولهما - أن ذلك من الربوبية فهو يربى نفوس المؤمنين بما يهيئها للخير

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ / ٣١٢ بنحوه.

والحق دائما، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس]، فإذا ألهمت التقوى سارت في طريقها تبلغ غايتها، وهذا أمر معنوى تطيب به النفوس المؤمنة وترضاه وتطمئن به.

ثانيتها - جزاء مآدى فى اليوم الآخر، وهو روح وريحان ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أى أنهم يدخلون الجنة تجرى من تحتها الأنهار.

وهنا إشارتان ببيانين:

الأولى - أنه إذا كان ثمة جزاء ان فإنه يعطف بينهما بالواو ولكن لا عطف، وذكرنا منفصلين فما حكمة ذلك؟ نجيب قائلين: إن الانفصال هو الأولى؛ لأن زيادة الإيمان فى الدنيا وجريان الأنهار تحت الجنان فى الآخرة. هو جزاء للأول وثمره له فكان مقتضى ذلك أن يذكر منفصلا عنه، وتجري من تحتهم هو جريانها من تحت المستقر الذى استقروا عليه تعطيهم منظرا يسر الناظرين وتنعم به النفس والقلب والعين، وتكون الراحة الخالدة.

الثانية - أنه سبحانه قدم جريان الأنهار من تحتهم على جنة النعيم، للمبادرة بذكر المتعة النفسية الروحية، ولبيان أنها تحتهم هم، وذكر بعد ذلك أن هذا فى جنات النعيم، أى فى الجنات التى خصصت للنعيم أو هى النعيم ذاته، وفى قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ اقتضت الهداية على أنها بالإيمان مع أنه ذكر الإيمان والعمل الصالح، فلماذا اختص الإيمان بالذكر هنا؟ نقول عن ذلك أمرين: أولهما - أن العمل الصالح ثمرة من ثمرات الإيمان الذى هو النور الهادى والمصباح المضى فذكر الإيمان استتبع ذكر ما هو أثر له.

ثانيهما - أن الإيمان وحده هو الذى يهدى.

وبعد ذلك ذكر سبحانه نعيم الجنة المآدى والنعيم الروحى وهو تسبيح وسلام وحمد لله رب العالمين، فقال تعالى: ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾.



الدعوى هى مصدر دعا - يدعو، كالشكوى، فى شكا - يشكو. والدعوى فى الدنيا طلب الحق والطلب من الله تعالى.

ودعائهم لله تعالى هو تقديسه وتسبيحه وتنزيهه؛ لأنهم وصلوا إلى أقصى الغايات والمنى فلم يبق إلا أن يسبحوه ويقدسوه وينزهوه، و(اللهم): هو نداء لفظ الجلالة، أى سبحانك يا إله العالمين ويارب هذا الوجود وخالقه.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أى أمن ودعة واطمئنان، وهذه التحية تتبادل بينهم بالأمن والسلام والاستقرار وتحية الملائكة المقربين لهم سلام، كما قال تعالى: ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ [الرعد]، وتحية من ربهم ورب هذا الوجود كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس].

فحياتهم فى الجنة تقديس لله وتنزيه وتحيات مباركة وأمن دائم.

﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى آخر دعائهم حمد الله سبحانه وتعالى؛ لأن ما سبق نعم؛ التقديس نعمة والتحيات نعمة وكلاهما يستحق الحمد. يقول الزمخشري: «أن» هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن.

ويقول البيضاوى: لعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعانوا عظمة الله تعالى وكبريائه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف الكرامات، فحمدوا الله وأثنوا عليه بصفات الإكرام. ابتدأوا بالتقديس وانتهوا بالحمد. فاللهم اجعلنا منهم وإن لم نعمل عملهم ولكنك غفور رحيم.

النفس الإنسانية في ضرائها وسرائها

قال تعالى :

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ
 اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ
 لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَافٍ طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوت ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
 الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
 عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ
 لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا تَلَامَوْا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
 لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
 خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

فى هذه الآيات الكريمات يبين سبحانه وتعالى لطفه بعباده وإجابته لهم عند الاستغاثة به، وبيان الذين لا يرجون لقاء الله تعالى، وأنه أمهلهم ليتدبروا إن كان فيهم من يفقه ويدرك، وابتداً سبحانه ببيان أنه يعجل الخير ولا يعجل الشر.

وفى قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ - «لو» هنا حرف امتناع فهمى تتضمن النفي، ينفى الله أن يعجل وينفى سبحانه جواب الشرط أيضاً وهو ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ أى ينهى أجلهم لأنه سبحانه لا يستعجل الشر ولا يعجله كاستعجالهم للخير.

وليس الشر هنا ما يفسد أو يضر إنما يراد به ما يسوؤهم ولو كان عدلاً وجزاءً وفاقاً لما يفعلون، والمعنى ولو كان الله يعجل لهم ما يسوؤهم ويهددهم به



وينذر من عذاب أليم - كالرجفة أو ريح فيها عذاب أليم أو يجعل على الأرض سافلها أو يغرق كغرق قوم نوح - لانتهد آجالهم، وهذا معنى ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ﴾، وكانت - إلى - بدل اللام للدلالة على أن قضاء الأجل هو إنهاؤه ويتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ...﴾ (٢٧) ﴿[الأنبياء] والخير الذي يستعجلون الله وأنفسهم فيه ليس هو الخير في ذاته ولكنه الخير لأنفسهم - سواء أكان حلالا أم كان حراما، وإن الله لا يعجل السيئة التي تسوؤهم أو النازلة التي تنزل بهم إملاء لهم، عسى أن يكون من ظهورهم من يعبد الله، ولذا قال سبحانه لمشركي العرب:

﴿...سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٨)﴾ [الأعراف].

فالإهمال ليس إهمالا ولكنه أولا: لتمكينهم من أن يعملوا صالحا إن أرادوه وثانيا: ليكون الجزء الأوفى إذا استمروا في ضلالهم، وثالثا: ليعرفوا العبر. وفي قوله: ﴿فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كنا لم نعجل لهم العذاب الدنيوى - نذرهم فى طغيانهم.

(نذرهم)، أى نتركهم لاهين عمين عن الحق وعن البعث غير مدركين، وعبر سبحانه بالموصول: ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ للإشارة إلى أن السبب فى استمرار طغيانهم وتجاوزهم أنهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى وتلقى الجزاء فيخافون، أو تلقى الثواب فلا يظغون، ولكن المناسب هنا هو جزاء الطغيان إذ هو المذكور.

والطغيان هو تجاوز الحد والاعتداء على الأشخاص فيسيرون وراء أهوائهم وشهواتهم وطغيانهم لا يقفون عند حد من الحدود فيرتكبون ما شاءت لهم أهواؤهم بعد أن جعلوا إلههم هواهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ أى يتخبطون ويتحIRON، ومنشأ الحيرة أن فطرهم تدعوهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ولكنهم يطمسونها بأهوائهم وملذاتهم وسلوكهم، فهم فى حيرة نفسية، وإن من الحيرة إيمانهم بأن الله خالق كل شىء وأنه المستعان عند الشدائد، وهو إذا أغاثهم عادوا كما بدأوا، كما يقول تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ذكرنا فى مواضع كثيرة أن العرب كانوا يعرفون الله ولكن يشركون معه عبادة الأوثان، وغيرهم ما كان يعرف الله إلا مع ثلاثة، أو يعرفونه حالا فى بعض خلقه، أو لا يعرفونه قط، فالعرب كانوا خيرا منهم أن كان فى الشر خيار، فكانوا يعرفون أن الله وحده خالق الكون وأنه يلجأ إليه فى الشدة، وأنه ليس مثله أحد من خلقه، ولكنهم يشركون فى عبادته وبذلك ضلوا ضلالا بعيدا.

ومما يدل على التجائهم فى الشدة الالتجاء إليه فى المرض الذى لا يعرفون سببه وتتعدد أحواله، كما تذكرنا الآية الكريمة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ وهنا بيان الحقيقة وكمالها، أى الضر الذى بلغ حدا لا يعرفون له علاجا ولا دواء، وأن الإنسان بإنسانيته المفطورة على الضعف يلجأ إلى ربه ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ واللام فى ﴿لِجَنبِهِ﴾ بمعنى (على) وهى حال كونه مضطجعا على جنبه أو ملقى على جنبه لا يستطيع حراكا لا يملك أن يقعد، ﴿أَوْ قَاعِدًا﴾ لا يستطيع أن يقوم ﴿أَوْ قَائِمًا﴾ لا يمشى كما اعتاد.

وتعدد هذه الأحوال للدلالة على أنه يدعو فيها كلها لا فى بعضها، وهذا دليل على شدة الالتجاء إلى الله وكثرة الالتجاء.

أو يدعو فى كل أحوال الأمراض ومنها ما يلقيه فى الأرض، أو مرض يقعد فيه ولا يستطيع غيره أو يقوم من غير قدرة على السير، والمراد فى كل الأحوال كثرة الدعاء لله وذلك مثل قوله: ﴿...وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت].

هذا حال الإنسان إذا مسه الضر فإذا كشف عنه الضر نسي ولم يفكر في حاله الذى كان عليه وضراعه إلى ربه وأنه الملجأ والملاذ؛ نسي ذلك نسيانا تاما، وطمغت عليه وعلى تفكيره حال الصحة ونسى الله ونسى ضعفه، وأنه لا يمكنه العيش دون رعاية الله وتديره، يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّمُسْ﴾ (الفاء) عاطفة حال كشف الضر على حال الضعف والالتجاء إلى الله، وهما حالان متباينان فى ظاهرهما وإن كانا متوافقين فى الدلالة على ضعف الإنسان، كما قال تعالى: ﴿... وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء] ولكن الغرور هو الذى يوهمه بالقوة ويطغيه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّمُسْ﴾ (الفاء) عاطفة جملة الاستجابة على جملة الاستغاثة والضراعة، والعطف يقتضى المغايرة، وكانت المغايرة بين حال الإنسان فى ضعفه واستكانته وحال قوته وتمكنه، ففى الأولى ضراعة واستغاثة، وفى الثانية غرور واستهانة.

﴿كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾، معناها أزلنا عنه حال الضر وكأنها كانت غشاء أخفى كفه فلما زال الغشاء عادت حقيقته كما كانت.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّمُسْ﴾ فيه (أَنْ) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، أى كان الشأن أنه لم يدع الله إلى ضر مسه وذلك شأن اللثام من بنى الإنسان، ينسى الإحسان فى وقت القوة وكهؤلاء اللؤماء الكافرين فى نفوسهم، كذلك قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كهذه الحال التى عليها المريض الضعيف الذى كشف الله تعالى عنه الضر فنسى فى عافيته ما كان فى مرضه، كهذه الحال زَيْنَ للمُسْرِفِينَ ما كانوا يعملون، أى أنهم نسوا حال خلقهم وتكوينهم والإيمان بربهم وزين لهم الغرور والإسراف فيه ما كانوا يعملونه من شرور وآثام وظلم للعباد وطمغيان فى أنفسهم، وإسرافهم فى الشر يجترعونه اجتراء، وعبر الله عن الجاحدين المنكرين الذين لا يرجون لقاءه بالمُسْرِفِينَ؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم فاعتقدوا الباطل واعتقدوا أن الحياة الدنيا هى الوجود كله وأسرفوا على الناس فطغوا وبغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد.

ويسوق الله العبر في آياته فلا يعتبرون؛ لأنه قد زين لهم ما كانوا يعملون، أى ما استمروا على عمله؛ لأنه بالجمع بين الماضى فى ﴿كَانُوا﴾، والمستقبل فى ﴿يَعْمَلُونَ﴾. يسوق الله تعالى العبر ولا معتبر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢).

القرن: الجيل، والقرون: الأجيال، وليس هلاك هذه الأجيال إهلاكها كلها وإنما الإهلاك للمكذبين منهم، فأهلك قوم نوح وأبقى المؤمنين ولما أهلك عادا وثمودا، أبقى المؤمنين، وأهلك من قوم لوط المفسدين وأبقى المؤمنين وهكذا، وفى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إشارة إلى وجوب الاعتبار بهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩) [النمل].

﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى أن الهلاك كان عند ظلمهم وبسببه، وأن ظلمهم كان سببه الشرك وإن الشرك لظلم عظيم، حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه، وكانوا طغاة كفرعون وأمثاله، فطعنوا فى البلاد، وظلموا العباد، واستغلوا قوى الناس بغير مبرر إلا أهوائهم.

ظلموا الرسل بتكذيبهم - قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالمعجزات الواضحة الدالة على الرسالة الإلهية التى حملوها فما طغى المجرمون عن غير بينة: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء]، ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) [فاطر].

تكاثفت ظلماتهم وتوالى شرهم وفسدت نفوسهم حتى اسودت وما عاد للحق فيها موضع، فبين سبحانه أنه لا إيمان لهم بعد أن أظلمت قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى ما استقام لهم ليؤمنوا، و(اللام) هى التى تسمى بلام الجحود، ولا يستقيم لهم الإيمان لاسوداد قلوبهم وطمس نورها فلا يدخلها

نور الحق، فهي في ظلمات دائمة مستمرة ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أى كهذا الجزاء الذى جزيناهم به من الهلاك الذى نزل بهم وكطمس قلوبهم فلا يؤمنوا نجزي المعاندين، وقد وصفهم سبحانه وتعالى بالإجرام وأن ذلك هو الذى أدى إلى هلاكهم، وإجرامهم كان فى كفرهم وطغيانهم وفسادهم فى الأرض وهذه عبرة ساقها القرآن لمن يعتبر، وخاطب بها المشركين الذين يعبدون الأوثان ليعتبروا فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا لمعناها من الترتيب والتراخى، وأن التراخى فيها يدل على تعدد الأجيال وكثرتها وما تركته من عبر وآثار تدل على عاقبة أمرهم، وهم على مقربة منهم يسرون فى أرضهم، و﴿خَلَائِفَ﴾ جمع خليفة وهم الذين يسكنون فى مساكنهم كما قال تعالى:

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥)﴾ [إبراهيم].

إن هذه الخلافة فى الأرض التى فيها العبر والرسوم الدالة على مآل الذين ظلموا فيها وقاوموا الأنبياء وكذبوهم، وهى كافية لاعتبارهم واهتدائهم إن غلبت عليهم الهداية، أو ضلالهم إن غلبت عليهم الشقوة؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، (اللام) للتعليل أو الغاية، وهى هنا للغاية، وضمير المتكلم وهو الله ذى الجلال والإكرام، والنظر من الله تعالى لأمر أنها واقعة لا أنها متوقعة، فهو يعلم الأمور كلها ما حضر وما غاب وما كان وما يكون، والنظر هنا إلى ما هو واقع أهو الهداية والاهتداء أم هو الضلالة والابتعاد؟، و(كيف) استفهام عن حالهم وواقعهم هدى أم ضلال.

القرآن معجزة الله الكبرى طلبوا غيره

قال تعالى :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَاءَنَا أَنتِ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي
أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِنَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا
فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

المعجزة الكبرى والحجة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة، ما كانت عظمتها في أنها تقرع الحس قرعا لتنقضي بانقضاء عهدا كالمعجزات الحسية للأنبياء، والتي انتهت بانتهاؤها وقتها، وإنما عظمة هذه المعجزة الكبرى في خلودها، فيجئ الناس خلقا بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، وهي قائمة باقية بقاء النبوة المحمدية، تحتاج الجاحدين لها في كل العصور؛ لأنها معجزة خاتم النبيين الذي لا نبي بعده حتى يوم الدين.

وإن المشركين يتبرأون في إشراكهم بإنكار نبوة رسولهم، فكان لابد من أن ينكروا رسالة محمد ليسوغوا كفرهم وعنادهم، مع أن الله تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، ثم جاءوا يجادلون في أمره وكانوا قوما خصمين؛ يجادلون في كل شيء حتى القرآن بل يجادلون في الله وهو شديد المحال.

جادلوا في القرآن وقد عجزوا عن أن يأتوا بمثله فقال تعالى عن ذلك: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ والذين يجادلون في الآيات هم الذين لا يتوقعون لقاء الله أى يكفرون بالبعث والنشور ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون]، وفى هذا إشارة إلى أن فيصل التفرقة بين الإيمان والكفر هو الإيمان بالغيب. والإيمان بالبعث والنشور، فإن الذين لا يؤمنون بالغيب لا يؤمنون بالله؛ لأن الله سبحانه لا نراه وإنما هو القوة التى أنشأت الوجود وسيطرت عليه جل جلاله، فمن لم يؤمن بالغيب لا يؤمن بالله العلى القدير، ومن لا يؤمن باليوم الآخر لا يمكنه الإيمان بالتكليف الإلهي؛ لأن الجزء على ما يعمل الإنسان، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فهو يحسب أن الله ترك الإنسان سدى، يموت ويحيا من غير تبعات يتحملها، ولا غاية يرجوها، بل يأكل ويشرب كالأنعام بل أضل سبيلا، فأساس الهداية الإيمان باليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ الآيات البينات القرآن، وتلاوته مرتلا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان].

فالتلاوة قراءة القرآن كما أقرأ جبريلُ النبي ﷺ، فالقرآن محفوظ بذاته وروايته وترتيبه عن الله تعالى ومتواتر بلفظه وقراءته، وإن المشركين الذين لا يرجون لقاء الله مع تحديهم وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، يقولون كافرين متدللين: انت بقرآن غير هذا، وفى قولهم هذا لا يحتجون على أن المعجزة قرآن يتلى، وإنما يطلبون غيره من غير حكمة يقدرونها، ولا أمر يتعلق بالقرآن يريدون خلافه، كأنهم لا يريدون تكليفاته ولا يريدون ما فيه من محاربة عقائدهم وشركهم، وهل

إذا جاء غيره لن يكفروا به أيضاً، وإن هؤلاء المشركين حسبوا أن محمداً هو الذى أتى بهذا القرآن أو ادعوا ذلك، مع أن بلغاؤهم المتمرسين بالبيان قالوا: إن له خلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ما يقول هذا بشر، ومع هذا طالبوا محمداً ﷺ أن يأتى بغيره أو يبدله، فإن جاء لامته الحجة بأنه ليس من عند الله بل هو من عنده، وقولهم: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ففى التغيير تسليم بأن المعجزة تكون قرآناً ولكن يريدون غيره، أما التبديل فهو يكون بإتيان معجزة عدا القرآن كعصا موسى، أو إبراء الأكمه والأبرص أو إحياء الموتى بإذن الله لعيسى أو غير ذلك من المعجزات الحسية. . . وقد طلبوها كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۙ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ۙ﴾ (٩١) أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ۙ﴾ (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْفُقَ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۙ﴾ (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۙ﴾ (٩٤) [الإسراء].

هذا فيما نحسب هو التبديل الذى أرادوه بأن يستبدل المعجزة القرآنية بمعجزة جسية مادية لأنهم لا يؤمنون، ولقد رد عليهم النبى يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وهذا الرد كان على التبديل؛ ولذلك نقول: أن الجواب أحد أمرين:

الأمر الأول - أن يكون إغفالا لطلب الإتيان بقرآن غير هذا باعتباره كلاما عابثا؛ إذ ما داموا قد سلموا بالمعجزة القرآنية، فلا فرق بين قرآن وقرآن، ما داموا قد عجزوا عن الإتيان بمثله.

ثانى الأمرين - الذى يحتمل أن يكون فيه الجواب، أن التبديل للمعجزة يشمل تغيير القرآن والإتيان بمعجزة أخرى فكان الرد على التبديل شاملا

الاعتراضين، وفي رد النبي ﷺ: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أى ليس لى أن أختار المعجزة من تلقاء نفسى إنما الاختيار لله سبحانه وتعالى؛ ولذا قصر عمل الرسالة على اتباع ما يوحى الله به فقال لما أمره ربه: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (إن) نافية أى: لا أتبع إلا ما يوحى إلى، وما يجىء من ربي فهذه المعجزة قدرها سبحانه لا أخالفه ولا أعصيه، ليس لى ولا لأحد أن يعترض عليها ما دامت مثبتة للرسالة وما داموا عاجزين عن الإتيان بمثلها، وإن فى ذلك العصيان وعاقبته، وبهذا قال ﷺ كأمر ربه: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفى هذا إنذار لعصيانهم واعتراضهم.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦) وفى هذا تأكيد أنه من عند الله تعالى، وأن النبي ﷺ لا يبدله من تلقاء نفسه وإنما الذى يبدله هو الله تعالى كقوله: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ مفعول المشيئة محذوف دل عليه ما بعده - أى لو شاء الله تعالى ألا أتلوها ما تلوته، وذكر قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ للإشارة إلى أنهم المقصودون بالتلاوة ليدركوا مغزاها وما فيها من إعجاز وتكليف، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ أدراكم أفعل من (درى) بمعنى علم، أى: ولا أعلمكم به، ولكنه اختار تلك الحجة لكم لبلاغة كلامها الذى يبقى مسجلا لتلقاه الأجيال جيلا بعد جيل إلى يوم الدين، فالمعجزات الحسية واقعات تنتهى بانتهاؤها زمانها، أما هذا الكتاب فباق إلى يوم القيامة؛ لأنه معجزة خاتم النبيين ﷺ الذى يقول: «ما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر وإن ما أوتيته وحيا أوحى إلى وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(١).

﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ قرأه ابن كثير بلام التوكيد وليس بلا النافية، فيكون المعنى ولو شاء لأعلمكم به وجعلكم تؤمنون بصدقه، والواو عاطفة على نية تكرار الفاعل.

ثم يبين سبحانه صفات النبي ﷺ في الصدق والأمانة وشرف النفس مما يوجب تصديقه فقال تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أميا صادقا لا أقول شعرا، ولا كنت خطيبا فيكم، ولقد علمتم قولي وكيف اختلف عما أتلوه عليكم، وقد كنت وإياكم في بلد أمي لا علم فيه ولا درس، لم أمارس علما أو ألق علما، ثم قرأت عليكم كتابا أعجزكم بيانه وفصاحته وما فيه من علم غزير بالحلال والحرام والأخبار الصادقة، وقصص فيها العبرة لمن يعتبر، هكذا كان عمري فيكم قبل البعث.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا توازنون بعقولكم بين الحاضر، وبين ماض لا يتفق وما جئكم به.

وإن توجيههم إلى الماضي النبوي الكريم يدل على أمرين:

أولهما - أنه صادق شريف ينبغي الإيمان بقوله، وأنه لا يدعى باطلا وأولى به ألا يكذب على الله إذ كان لم يكذب قط قبل.

ثانيهما - أنهم عرفوا كلامه وأنه كان بليغا، وأنه لم يقرض شعرا، ولم يرق منبرا، فهذا الذي يتلى ليس من نوع كلامه ولا يمكن أن يكون من كلام أحد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الفاء) متأخرة عن تقديم، مترتبة على ما قبلها وأخرت لمكان الاستفهام من الصدارة، والاستفهام إنكارى بمعنى نفى الوقوع، داخل على نفى، وهو (لا) ونفى النفي إثبات، فهو تحريض على التفكير والتدبر وألا يركب الشيطان رءوسهم فيهملوا عقولهم ويكونوا قوما بورا.

وهكذا كل من أهمل القرآن وتركه يريد معجزه أخرى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر].

ثم أشار سبحانه إلى ظلم من كذب على الله أو كذب بآياته فقال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾ .

«الفاء» للإفصاح عن شرط مقدر، تقديره: إذا كان من عندى كما تدعون
وكما تفترون، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، أى لا
أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا بأنه من عند الله وما هو من عند الله، وهنا
يبين سبحانه أن نبيه لا يمكن أن يكذب على الله؛ لأن ذلك أشد الظلم وأقبحه،
وأن الله لا يختار لنبوته كذابا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ
قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... (٩٣)﴾ [الأنعام].

ويكون النص على هذا إثبات أن القرآن الذى تلاه عليهم هو من عند الله؛
لأنه ليس بظالم، فضلا عن أن يكون أظلم الناس، إذ هو الصادق الأمين الذى
عرفتموه، وهو تنديد بالمشركين؛ فهم أظلم الناس؛ لأنهم افتروا على الله تعالى إذ
أشركوا به غيره، وأى افتراء أكبر من ذلك، ثم هم قد سفهوا النبى ﷺ وافتروا
عليه الكذب.

وقد بين سبحانه شعبة أخرى من ظلم المشركين الذى لا يماثله ظلم، وهو
تكذيب القرآن الكريم وإنكار نسبته إلى الله تعالى، وكذبوا الدلائل الواضحات فى
الخلق والتكوين فأشركوا بالله؛ لأن هذه الآيات الكونية تدل على أن الله واحد أحد
ليس له ولد ولم يكن له كفوا أحد.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الضمير هو ضمير الشأن، أى أن الحال والشأن أنه
لا يفلح أى لا يفوز ولا ينجح، وقد أكد نفى فلاحهم: أولا: بالجملة الاسمية،
ثانيا: بـ (إن) الدالة على التأكيد، ثالثا- أنه وصفهم بالإجرام وهو الشرك وكسب
الفساد.

ولقد بين الله تعالى جرمهم الأكبر وهو الشرك فقال سبحانه:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨).

«الواو» واصلة ما بعدها بما قبلها، والضمير في ﴿يَعْبُدُونَ﴾ يعود إلى المشركين، والذين لا يرجون لقاء الله، وينكرون البعث والنشور، ويحسبون أنهم خلقوا عبثاً وأنهم إلى الله لا يرجعون، جعلهم ذلك الإنكار يسيرون في مناهات من الضلال تكاثف بعضها فوق بعض، فينقلبون في دركات الضلال دركة بعد دركة حتى ينتهوا إلى الشرك وهو الضلال.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، ﴿مِنْ﴾ بيانية، أى أن معبودهم غير الله تعالى الخالق لكل شيء مالك كل شيء الذى يدعوهم مستغيثين فى الشدائد ولا يلجأون إلى غيره فيما يُروّعهم فى السماء والأرض، وأنهم يستبدلون عبادته حجراً لا يضر ولا ينفع، لا يضرهم فيخافوا أذاه، ولا ينفعهم فيعبدوه رجاء خيره ونفعه.

(لا) فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ لتأكيد النفي السابق، فالعبادة تكون رهبة من الضرر أو رجاء للنفع، وهؤلاء ضلوا ضلالاً بعيداً فعبدوا ما لا يُخاف ولا يُرجى.

وهكذا ركبهم الوهم والشرك كله أوهام فى أوهام، ليس لهم عقل مدرك ولا بصيرة تميز الحق من الباطل، وهم فى عمى وغفلة عن الحقائق، وإن الديانات التى تقوم على الأوهام كالنصرانية الحديثة تقوم على أوهام ليس لها منطق عقلى يدركها.

ولقد زينت لهم الأوهام عبادة الأحجار، ثم زينت لهم أمراً آخر هو ظنهم أن لها شفاععة عند الله، وهذا جمع غريب بين الشرك وبين العلم بأن الله وحده



الخالق، هم يزعمون أن الأوثان تقربهم إلى الله، ويبين سبحانه قولهم: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ (٣) [الزمر].

يرد سبحانه وتعالى: ﴿أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الاستفهام هنا للتقريع واللوم والتهكم، ﴿أَتَنْبِئُونَ﴾ «أتخبرون» الله بما لا يعلم له أصلاً في السموات ولا في الأرض، فالشفاعة علاقة بين المشفوع والشفيع، فإذا كانت حقيقة فلا بد أن يعلم المشفوع بها.

﴿... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣) [الرعد].

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تقدس وتنزه وتعالى عما يشركون.

الناس أمة واحدة

وَمَا كَانَ

النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

﴿١١﴾ وَيَقُولُونَ لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا

الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذِ الْهُم مَكْرُفِي

ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ
 ﴿٦١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
 وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَاوِيحٌ عَصِيفٌ
 وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
 اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الشَّاكِرِينَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾

ذكر سبحانه الفطرة الإنسانية واتحاد الناس فيها، كما أن انبثاق الاختلاف كان من أصل الوحدة في التكوين، ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

﴿كَانَ﴾ هنا بمعنى «وُجِدَ» أى ما وُجِدَ الناس إلا أمة واحدة، أى واحدة في منازعها وغرائزها وكيانها الإنسانى، فحب النفس واحد وحب السلطان والغلب وهذه المنازع فى النفوس من شأنها أن تتغالب، وإذا تغالبت بين الآحاد اختلفت فكان الاختلاف فى أصل الوحدة.

إذ الوحدة فى الطبائع أوجدت الاختلاف فى المنازع؛ ولذلك ترتب الاختلاف على أصل الوحدة.

فوحدة الإنسانية ليست كوحدة الملائكة - وحدة الطاعة - لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإنما وحدة الإنسانية هى وحدة الطبائع التى يمتد بعضها إلى أصلها الحيوانى، ولذا رتب الله سبحانه وتعالى الاختلاف على الوحدة ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ (الفاء) عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالغرائز تتناحر فمن

يُغلب عقله على هواه يهتدى، ومن غلبَ لذاته يكون عبداً لشهواته فيضل ويشقى، فمن الناس من يغالب للشر ويقاوم الخير فيفتري، ومنهم من يناصر الحق ويدفع الاعتداء فيهتدى.

إن الله تعالى هو الذى يحكم وهو خير الفاصلين، ولكنه أخر قضاءه الذى يقضى به فى الدنيا، إلا إذا طمَّ الشر ويغى وخشى على الحق من سطوته فيمنعه كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، أى امتنع قضاء الله، أى حكمه فيما بينهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾، وكلمة الله السابقة وهى التأجيل ليوم الحساب وتركهم فى الدنيا - دار البلاء والاختبار - ليصل كل إلى أقصى ما تتأدى به نزوعه، فيكون حكمه بعد الأعمال كلها، ويفتح الله باب الرجوع إليه سبحانه فإنه تواب رحيم وما داموا فى الدنيا فباب التوبة مفتوح إنه هو التواب الرحيم.

وأحد منازع الشر عند الضالين أنهم لا يؤمنون بالحق إذ جاءهم؛ ولذلك لا يؤمنون بإعجاز القرآن وإن بدا الحق فيه، ولما عجزوا إذ تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله طلبوا آية أخرى غيره ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)﴾.

أرادوا إعنات الرسول ﷺ مع قيام الحجة ووضوح الدليل وقد لبث فيهم ﷺ عمراً طويلاً، أمينا صادقاً عاقلاً رزيناً، حكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ومع هذا طلبوا آية أخرى غير القرآن.

وإذا ذكر لهم قصص أمم أهلكها الله إذ كفروا وبغوا على أنبيائهم تحدوا الرسول وطلبوا آية تهلكهم كما هلك عاد وثمود وقوم تبع وقوم نوح.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ - آية حسية أو آية مهلكة - التعبير بالمضارع يفيد تكرارهم ذلك القول آنأ بعد آن، وهو الموقف السلبي لمن يريد جعل

الوقت فى صالحه فالمحاورة مستمرة وطلب الدليل بعد الدليل يحسبون أنهم بذلك قد فازوا بالوقت.

﴿لَوْلَا﴾ بمعنى «هالاً» للتحضيض، كأن الحجة التى ساقها النبى غير كافية وكأنهم يتحدثونه ﷺ أن يُنزل بهم مثل ما نزل بغيرهم من قص قصصهم، فال المطلوب إذن آية حسية تقنعهم - فى زعمهم - أو تهلكهم.

ومعنى إنزالها - إتيانها - تشبيها بالقرآن إذ نزل على قلبه الأمين، ولكن المعجزات الحسية قد جاءت للأنبياء السابقين وكذبوا، فما الجدوى من التغيير؟ يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ... (٥٩)﴾ [الإسراء].

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ... (٩٧)﴾ [يونس].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)﴾ [الأنعام].

إنهم كانوا ليستعجلون العذاب الذى نزل بالمكذبين قبلهم مبالغة فى التحدى والإعنات، بل طلبوا الآية المهلكة.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾ [الرعد].

وقد أجابهم ﷺ بأمر ربه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

«الفاء» تدل على أن ما بعدها مترتب على قولهم الذى قالوه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ أى إن ما تطلبون معجزة كان أم هلاكاً هو أمر يغيب عنى ومفوض لربكم؛ ولذلك جاءت العبارة القرآنية مصدرة بـ «إنما» الدالة على القصر، وفى هذا إشعار بأمرين:

أولهما: أن المعجزة الكبرى (القرآن) هي من عند الله اختارها لكم فى غيبه المكنون، وأنه أمهلكم لا ينزل عليكم الآيات المهلكة لحكمة يعلمها؛ لأن شريعة محمد ﷺ تخاطب الأجيال كلها، وعسى أن يخرج من أصلابكم من يعبد الله.

ثانيهما: أن محمدا ﷺ لا يعلم الغيب، وهو بشر مثلكم بعث فيكم رسولا منكم؛ ولذا يقول سبحانه: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

«الفاء» للدلالة على أن ما بعدها مترتب على ما قبلها؛ لأنه إذا كان علم الغيب عند الله تعالى وحده فإنه ﷺ عليه انتظار ما غيب عنهم.

كما أن قوله هذا سبحانه وتعالى يومئ إلى المساواة بينهم وبين رسوله ﷺ فى علم الغيب، وأكد هذه المعية إدماجه ﷺ فى المنتظرين وأنه معهم.

ليس فى ذلك تصغير لمقام النبوة، ولكنه بيان لمنزلة النبى البشر، وتأكيد بأنه يتكلم عن الله سبحانه.

ثم يبين سبحانه الطبيعة الإنسانية التى تخرج عن الفطرة، تمسها الضراء فتحن، وتذوق النعماء فتبطر، وينسيها الترف ما كان فى ضرائها. يقول تعالى:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١).

وتلك هى الطبيعة الإنسانية غير الصابرة، تذوق النعمة فتبطر معيشتها، وتمسها الضراء فإذا بها فى ضعف وخور ويأس، تلجأ إلى الله فإذا أذاقها الرحمة عادت إلى طغوائها.

الضراء: هى الضرر فقد تكون مرضا يصيب الجسم أو جوعا وقحطا، فالضراء هنا تشمل السقام وتشمل القلة فى الطعام والرزق، وقد أصاب قريش القحط سبع سنين دأبا حتى جاءهم الغيث فكان رحمة بهم بعد القحط وقلة الغذاء، وقد عبر سبحانه بالإذاقة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ﴾ للإشارة إلى التمكن من الرحمة والدلالة على أنهم تمتعوا بعد الحرمان.

﴿رَحْمَةً﴾ هذا تأكيد على أن الرحمة مصدرها الله تعالى، إشارة إلى وجوب اختصاصه بالعبادة وحده؛ لأن الرحمة كانت ولم تكن من غيره مما سموه واتخذوه أنداد لله تعالى.

﴿إِذَا لَهُمْ مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ هذا جواب الشرط ﴿إِذَا أَذَقْنَا﴾ وصدر الجواب بـ ﴿إِذَا﴾ التي هي للفتنة، ودلالاتها في هذا المقام أنهم في بأسائهم كان ينخفض وراء خضوعهم الظاهر لجحود قد استبطنوه، سترته الشدة وكشفته الرحمة، فظهر مكنون نفوسهم وهو مكرهم في آياتنا، يقولون إنها سحر مبين أو بهتان وإفك، أو يقولون: إنما يعلمه بشر، والله راد كيدهم بتدبيره الحكيم. ﴿مُكْرٌ﴾ المكر هو الكيد الخفي، وقد قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فإذا بدا المكر السيئ الذي أخفته الضراء، فإن تدبير الله ورده عليهم أقوى وأحد.

ثم يبين سبحانه علمه بما يبدون وما يخفون وما يسرون ويعلمون، فقال سبحانه ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ وهم الكرام الحفظة الكاتبون من الملائكة. وفي هذا إشارة إلى دقة ما يعلمه عنهم، وإلى أن ما يدبرون يعلمه - سبحانه وتعالى - في وقته فيكتبه.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال الإنسان في ضعفه، وكيف يلجأ إلى ربه مخلصاً واعدداً بالشكر وعدا مؤكداً فإذا خرج من شدته كفر أو ظل على كفره، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾.

صورة للنفس الكافرة تصيها الشديدة ويحيط بها ما تكره فتدعن وتخلص وتلجأ إلى قوة الله تعالى خالق كل شيء واعدة وعدا مؤكداً بالشكر إذا نجت، فإذا نجاهم عادوا كما بدأوا كافرين.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الضمير يعود على الله جل جلاله الذي أوجد لهم القوى التي يسبغون بها في البر والبحر، ويسط لهم الأرض، وسخر لهم ما يركبون في البر والبحر، وقد نسب التسيير إلى نفسه؛ لأنه سبحانه خالق الأسباب والمسببات، وممهد المهاد إنه القاهر فوق عباده وعلى كل شيء قدير.

بعد ذلك بين سبحانه هول البحار بالنسبة للصحراء، وقد كان العرب يعدون البحر مركب الأهوال، وكانوا يخافونه لأنهم لم يألفوه، والذين عرفوه وألفوه كانوا يتعرضون لمخاطره وشدائده؛ ولذا خصه سبحانه وتعالى بالذكر ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾.

﴿حَتَّىٰ﴾ جاءت كناية للإشارة إلى خوفهم ركوب الفلك، أى حتى إذا أقدمتم مع خوفكم وركبتكم الفلك، والفلك تكون جمعا أو مفردا وهى هنا جمع بدليل ﴿جَرَيْنَ﴾ فإن الضمير يعود على جمع ما لا يعقل مثل بهن فلول من قراع الكتائب.

والخطاب إلى الغيبة؛ لكى يتمكنوا من رؤية العبرة كأنها فى غيرهم وليست فيهم، وقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ طيبة أى رخاء لينة وكأنها متعة للمسافرين فى البحار، فرأوا فى البحر غير ما توقعوه وخافوه، ثم لم يلبثوا حتى جاءهم ما يرهبون.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ - الضمير يعود إلى الريح الطيبة - المعنى أن الريح الطيبة أعقبته ريح عاصف بصريها واضطراب البحر، وجاءهم الموج من كل مكان يرتفع كالجبال متراكما بالأذى وصاروا فى ظلمات، كقوله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ... (٤)﴾ [النور].

فالسما فوقهم معتمة والأمواج حولهم متراكمة، لا منجاة لهم، وظنوا أنهم قد أحيط بهم، والظن هنا بمعنى العلم بما هو مخوف مرهوب، وهو علم يتوهمون

معه أملا فى منجاة - ﴿أَحْيِطَ بِهِمْ﴾ كناية عن الهلاك وفى ظنهم بأنه لا منجاة، دعوا الله مخلصين له الدين، أى اتجهوا إليه بالطاعة والتأليه والعبادة، وقد أخلصوا وخلّصوا نفوسهم من الشرك، وقالوا: ﴿لَنْ أُنْجِثَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أكدوا وعدهم الله تعالى بالقسم الذى تدل عليه - اللام - الأولى الموطئة للقسم واللام الثانية فى الجواب ونون التوكيد الثقيلة ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ وأكدوا بدخولهم صفوف المؤمنين الشاكرين، والشكر هنا هو الطاعة لله وإخلاص العبادة والخضوع له وحده.

﴿فَلَمَّا أُنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾.

لكن الإنسان ما أكفره! إنه كان فى حال ضعفه وقد أحيط به يتضرع إلى ربه طائعا خاضعا، فإذا خرج من شدته طغى وبغى ونسى ضراعتة، وكان شديدا على الناس وهو الضعيف البادى ضعفه.

﴿فَلَمَّا أُنْجَاهُمْ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه بعد الشكر والذى أقسموا عليه إذا نجاهم بطاعته والقيام بالعمل الصالح، إذا هم يبغون.

﴿إِذَا﴾ المفاجئة تدل على أمرين:

أولهما - سرعة البغى كأنه مستكن فى صدورهم لم قد تدحضه الشدة؛ لأن معدنهم خبيث لم يتأثر إلا فى ظاهر الأمر حال ضعفهم ثم يستولى عليهم غرورهم كما كانوا.

ثانيهما - أنها تدل على نقيض ما كان ينبغى أن يكون منهم إذ كان قسمهم يوجب عليهم أن يكونوا بعد النجاة طائعين مدركين قدرة الله وسلطانه، وأنه قادر على ردهم إليه كما كان قادرا على إغاثتهم فى كربهم.

(البغى) هو الخروج عن الجادة وسلوك طريق الفساد، فيشمل كل المعاصى من زنى وخمر وشرك واعتداء على الآحاد والجماعات والسعى فى الأرض،

فيشمل فساد النفوس في الاعتقاد والعمل كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُم بِبَغْيٍ﴾ في الأرض بغير الحق ﴿وذكر الأرض يؤكد أن هذا البغي فساد يعم الأرض ويشمل كل ما فيها من اعتداء على الآحاد واقتراف المعاصي والسعي بين الناس وارتكاب كل ما يكون من تخريب وهدم للقائم.

وفي قوله تعالى: ﴿بَغْيٍ الْحَقِّ﴾ بيان أنهم لم يكن لهم مبرر فيما يعملون أياً كان هذا الذي يزعمونه مبرراً، وإظهار لحقيقة البغي وأنه لا يمكن أن يكون له مسوغ، وعلينا هنا أن نفرق بين القصاص والبغي، فلا يصح القول بأن ما صنعه النبي ﷺ مع بني النضير وقريظة بغياً، إنما هو قصاص لشركهم ولا يكون القصاص بغياً لكنه رد لاعتدائهم المتكرر، ولا يصح أن يقال عن رد الاعتداء المتكرر والخيانة بغياً، إنما هو العدالة الحقيقية في هذه الأرض ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اتجه سبحانه وتعالى إلى مخاطبة الباغين فكان الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه الشديد بالمواجهة والتصدي لبيان شركهم، وكان النداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لكمال هذا التنبيه الزاجر وللردع ولبيان سوء العاقبة ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي أن البغي على أنفسكم وحدكم لا يتجاوزكم إلى غيركم، ذلكم أنكم إن أشعتم البغي فيما بينكم عم الفساد فيكم ولم تكن منكم جماعة فاضلة ذات حقوق وواجبات بل جماعة متحللة متقاطعة متدبرة تعمرها الرذيلة ويسودها الشر يتجرد فيها الإنسان عن إنسانيته والمرء عن مروءته وفوق ذلك عقوبة يوم الدين.

﴿بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ مبتدا وخبر، وفي قوله تعالى ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ﴾ إن البغي تتمتعون به متاع الحياة الدنيا، هذا بالنصب على قراءة حفص، وفي قراءة الرفع يكون المعنى أن البغي هو متاع الحياة الدنيا^(١).

(١) (متاع) بالنصب: حفص، وقرأ الباقون برفع العين. غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار: ج ٢/ ٥١٥. التوعية الإسلامية.

وفى النص الكريم أن متاع الحياة الدنيا دون الآخرة هو البغى الدائم المستمر، فيه يأكل القوى الضعيف والمردول الكريم، ويتصارع الناس كوحوش الغابة ثم يكون الرجوع إلى الله تعالى فينال كل امرئ ما كسب.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب والتراخي، لاستطالتهم الحياة الدنيا وكثرة فسادهم وهنا إشارات بيانية:

أولها: تقديم الجار والمجرور على ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ فهذا يفيد التخصيص، أى إلينا وحدنا مآلكم ومرجعكم.

ثانيها: إضافة مآلهم إلى الذات العليا فيه تهديد أى تهديد، ومؤداه إن كنتم قد كذبتكم فى قسمكم فى الدنيا فحسابكم على ذلكم عندنا فى الآخرة وهى أبغى وأدوم.

ثالثها: بيان أن العقاب من جنس العمل وأن كل عمل يحمل فى ذاته عقابه فى الآخرة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والإنباء هو الإخبار بالأمر الخطير الشأن، وكان الإنباء بالعمل مقرونا بالعقاب الشديد من الله سبحانه وتعالى، وقد تكلم الزمخشري فى هذا المكان عن الظلم ومرتعه، فقد عاش مثل زماننا، وقد تعاقبت عهود الظلم على المسلمين حتى صار أمرهم بورا، وذكر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ شدد فى النهى عن المكر والبغى والنكوث وأنه ﷺ قال: «أسرع الخير ثوبا صلة الرحم، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة، وأنه اثنتان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين»^(١).

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين:

يا صاحبُ البغى إن البغى مصرعةٌ فارتع فخيرُ فعَالِ المرءِ أعدلهُ
فلو بغى جبلٌ يوما على جبلٍ لاندكَّ أعلاه وأسفلهُ

(١) تاريخ الطبرى، عن أبى بكره رضى الله عنه، وبنحوه الترمذى وابن مساجه، وكذا أبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها. وانظر ما جاء فى فيض القدير: ج ١ / ٢٩٩.



وعن محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغى والنكث والمكر.
 إذا كان البغى هو متاع الدنيا للباغين، فقد بين سبحانه أن متاع الدنيا يتهدى
 إلى حطام وأن متاع الآخرة إلى دوام.
 فقال تعالى:

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا
 أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيًّا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ
 بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ
 يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾
 ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
 وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

شغلتهم الدنيا عن الآخرة وزينت لهم فحسبوا أنها الحياة وحدها وأنه لا
 آخرة بعدها، فانكروا البعث والحساب، وكان هذا ذريعة لأن ينكروا كل مغيب
 فكفروا؛ ولذلك يبين الله تعالى لهم أن الدنيا متاع قليل بزينتها وزخرفها وأنها
 تذهب عندما يظنون أنهم قادرون عليها فتزول وإذا هم لا يقدرُونَ على شيء
 كالقابض بيديه على الهواء، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ
 السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾.

هذا تشبيه تمثيلي جار مجرى الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف].

شبه حال الدنيا في سرعة انقضائها وانخداع المغرور بها، كزرع نبت في الأرض من اختلاط ماء السماء بها وسريانه في نباتها حتى إذا أخذت زخرفها ولمعت لمعان الذهب وازينت بالغروس من كل لون، وفرحوا بها وظنوا أنهم تمكنوا فيها - أتاها أمر الله فأزال زرعها بوباء أو بآفة فصارت كأنها قد حصدت بمنجل، وأصبحت قفرا خاليا كأن لم يكن فيها زرع نبت ردحا من الزمان، وهذا مثلهم في الدنيا لا يبقى لهم منها إلا الحسرة والندامة، مثل ما بقى من الزرع الذي فنى حيث يرتقبون منه الانتفاع.

هذه خلاصة التمثيل القرآني وما نحسب أننا وصلنا إلى غاية بيانه فله إشارات بيانية نعيًا عن بلوغها، وأطياف نورانية يعيا المصور عن تصويرها ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى حالها فى سرعة انقضائها وقت زيتها والاعتزاز بها.

﴿إِنَّمَا﴾ دالة على القصر، وخصصت بهذا الحال لبيان حقيقتها، وهى أنها فانية عند ازدهارها، أى ليست بها صورة بقاء قط إنما حقيقتها الفناء.

﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قصد بالسماء هنا ما علا الأرض وأحاط بها، والماء هو المطر وقد يكون عينا تنبت الزرع والكلاء وغراس الأرض.

﴿فَاخْتَلَطَ﴾ هناك قراءة بالوقف عليها، والمعنى أنه نزل على الأرض ماء اختلط بترابها فأخصبه للزرع والنبات وإثمار الغراس، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ (من) بيانية، لبيان نتيجة الاختلاط.

وجملة القول أنهم لما رأوا بريق الزخرف والزينة بالخضرة النضرة وحسن تنسيق الخالق، والحياة المملوءة بها السوق والعيidan وجمالها، ثم فوق ذلك الأمل

المأمول من ترقب الغلات، فوجئوا بأمر الله المكتوب وقدره المحتوم، وأضاف الأمر إليه سبحانه لبيان أنه لا يقبل التخلف قط.

﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أتاهما ذلك ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قائمون، فأصابتها ريح حطمتها أو آفة أكلتها.

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ الحصيد فعيل بمعنى مفعول، أى جعلناها كأنها محصودة بآلة الحصاد وصارت الأرض كأن لم يكن فيها زرع ولا حشائش مما يأكل الناس والأنعام. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ أى كأن لم يكن فيها شيء فى الزمن القريب (الأمس) ولا مانع أن تدل على الأمس القريب. ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى كذلك التمثيل لفصل الآيات فنيينها لقوم يتدبرون.

هذه دار الفناء وقد قابلها سبحانه بدار البقاء التى أعدها للمتقين

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾.

السلام هو الأمن الذى لا انزعاج فيه، وفيه الأمن من الفناء وعوامله من الآفات، وقد قال الحسن البصرى - رضى الله عنه - إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة كما قال عز من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ... (٤٤)﴾ [الأحزاب].

وقد قال بعض الصوفية: «يا ابن آدم دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تحييه، فإن أجبتَه فى دنيَاك دخلتها وإن أجبتَه فى قبرك مُنِعْتَهَا».

ودعوه الله إلى دار السلام هى ما يدعو إليه من الإيمان به وباليوم الآخر وبما جاء من تكليف على ألسنة الرسل الكرام فإن ذلك هو السبيل إليها، وإن الدعوة إلى دار السلام تعم كل الناس؛ لأن الباب إلى الجنة مفتوح لهم جميعاً، وهنا يتبين من اهتدى وأجاب الداعى ممن ضل وأصم أذنيه عن الحق، وقد ذكر سبحانه وتعالى من اهتدى، أى سلك سبيل الهداية فأخذَه إليها وهداه الصراط الموصل إلى

الحق من أقرب الطرق، ولذا قال سبحانه: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والصراط هو الطريق المستقيم الموصل إلى الجزاء الحق وهو طريق الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فسبيله خط مستقيم هادٍ مرشد إلى الحق الذي لا ريب فيه، والسبل الأخرى هي مسارات الشيطان ومضطرب أهوائه.

وهنا أمران يجب الإشارة إليهما:

أولهما - أن الله تعالى نسب إلى ذاته الدعوة إلى دار السلام، وهي الجنة دار الأمن الباقية التي لا إزعاج فيها ولا عذاب.

ثانيهما - أن الله تعالى يهدي من يشاء، وأن من سلك طريق الهداية أوصله إليها، ومن سلك طريق الضلالة سار إلى الضلال البعيد.

لم يذكر الله سبحانه وتعالى أنه يشاء الضلالة لعباده، بل هم الذين يسيرون فيها، وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى هداية الذين استجابوا لله ولرسوله ذكر جزاءهم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الذين أحسنوا هم المؤمنون الذين آمنوا بالبعث والنشور والجزاء من الثواب والعقاب وآمنوا أولاً بقاء الله.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، (اللام) للملك أو الاختصاص، أي يعطيهم الله الجزاء عطاءً موفوراً لأجل إحسانهم. ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مؤنث أحسن، أي يعطيهم الله الجزاء الأحسن، أي الذي بلغ أعلى درجات الكمال. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ للإشارة إلى أن عطاءهم ليس بمقدار إحسانهم؛ لأنه سبحانه المتفضل المكرم الذي لا يعطى بمقدار ما قُدِّم بل إنه كما قال تعالى: ﴿... وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ...﴾ [النساء: ١٧٣].

والزيادة بغفران بعض السيئات ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ [هود]، ثم بالرضوان وهو أكبر ما يعطى الله تعالى، وقد قال أهل السنة فى ذلك أنهم يرون ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، وهذا جزاء مَادَى ومعنوى إيجابى وهناك جزاء معنوى سلبى قال فيه تعالى: ﴿وَلَا يَرَهُقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذُلٌّ﴾، ﴿يَرَهُقُ﴾ معناها يغشى، ﴿قَتَرٌ﴾ معناها سواد، وكلمة يرهق تتضمن فى معناها الألم والتأذى.

والمعنى أن وجوههم ناضرة مشرقة بالعزة والسعادة والرضا بأنفسهم وبالله سبحانه ثم ذكر الجزاء الكامل، فقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أشار إليهم سبحانه بالإحسان ومن قبله بالهداية، والإشارة إلى موصوف يفيد أن الصفة سبب الحكم، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وأصحابها أى الذين يقيمون فيها إقامة الملائك فى ملكهم يلازمونها ولا يخرجون منها.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذكر الضمير وقدم فيها لبيان قصرهم عليها لا يدخلون غيرها جزاء من كسب السيئات.

قال تعالى:

وَالَّذِينَ

كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهُقُهُمْ ذُلٌّ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَّكَاءُكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَّكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ ﴿٢٩﴾

هَذَا لِكَ تَبْلُوا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ
الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ
فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَدْعُوا
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ
يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَالْكَفْرُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ (٢٧) ﴿

يبين سبحانه جزاء الذين كسبوا السيئات - بعد أن بين جزاء الذين أحسنوا:
﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ (الواو) تعطف هذه الجملة على ما
قبلها وهو جزاء المحسنين؛ وتقدير القول وجزاء الذين كسبوا السيئات سيئة بمثلها

(الباء) للمقابلة فإذا كان المحسنون يجازون بالحسنى وزيادة، فحسب المشركين أن تجازى السيئة بمثلها، كما يقول تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا...﴾ (١٦٠) ﴿[الأنعام].

والمثل كثير إزاء ما ارتكبوا؛ فالشرك مثله من الجزاء كبير فلا حاجة إلى الزيادة، وقد ذكر سبحانه وتعالى هنا كلمتين نرى فيهما:

أولاً: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦٠) ﴿ الكلمة لا تدل على مجرد ارتكاب الذنوب، بل تدل على أن هذه الذنوب أشربت بها نفوسهم وكسبتها قلوبهم حتى صارت وكأنها كالجلبة لهم إن لم تكن كالفطرة منهم.

وفى اكتساب السيئات قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) ﴿ [البقرة].

ثانياً: كلمة ﴿بِمِثْلِهَا﴾ أى بمثل السيئة، وهذا فى المقابلة والمساكلة اللفظية فالجزاء ليس سيئة إنما هو العدالة التى ليست سيئة فى ذاتها، كقوله تعالى: ﴿... فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾ (١٩٤) ﴿ [البقرة].

ولكثرة سيئاتهم وتضافرها أظلمت بها نفوسهم، ويوم الحساب تظهر ظلمة القلوب ظلاماً فى وجوههم، ولذا قال تعالى: ﴿وَتَرَهُمْ ذُلًّا مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾.

هنا تشبيه واستعارة، أما الاستعارة فهى قوله تعالى: ﴿قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ وفيها يبدو الليل كأنه الثوب الأسود الذى قُطع قطعاً.

وأما التشبيه فى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ أى ألبست وأغطيت بقطع مظلمة، وهذا تصوير لسواد وجوههم بما اقترفوا، فقلوبهم المظلمة تكسو وجوههم بالظلام، وفى هذا التصوير الحسى تصوير معنوى لنفوسهم.

ثم ختم الله تعالى بعذابهم فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أولئك الذين أشركوا وظلموا وهم أصحاب النار يلزمونها ملازمة الصاحب لصاحبه وهم خالدون فيها، وقد تأكد خلودهم بضمير الفعل، كما تأكد اختصاصهم بها بتقديم الجار والمجرور على ﴿خَالِدُونَ﴾، أى هم وحدهم الخالدون فيها.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس].

الكلام فى بيان اليوم الذى أنكروه: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون] ولتذكيرهم بما يكون فى هذا اليوم من حساب وعذاب وما هو جدير بأن يعلموه، وهو تبرؤ معبوديهم الذين اتخذوهم أندادا لله منهم ومعبوديهم هؤلاء هم عقلاء ينطقون كالملائكة والأنبياء الذين عبدوهم مع الله كالنصارى أو الأحجار التى لا تضر ولا تنفع.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة تدل على الترتيب والتراخى الزمانى والمعنوى، أما الزمانى فهو أن ذلك القول بعد الحشر وبعد أن ارتكبوا فى الدنيا ما ارتكبوا وطغوا وبغوا وأفسدوا، وأما المعنوى فهو البعد بين حالهم وما كانوا فيه من إنكار وطغيان، وحالهم وقد تبين لهم ما أنكروه واقعا ونطق الذين عبدوهم بالحق وتبرؤوا منهم.

وقوله تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ مفعول لفعل محذوف معناه الزموا مكانكم وقفوا حيث أنتم وكانوا هم وشركاؤهم مجتمعين حسا ومفترقين نفسا، ولذا قال تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وهناك قراءة «فزايلنا بينهم» وهما من زال فزِيلَ مضاف زال- وزايلنا - مفاعلة من زال، أى فرقنا بينهم وجعلنا ما كان بينهم فى الدنيا يزول وافترق العابد عن المعبود كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا زُوا الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [٥٩] [يس]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِذُ بَتَفَرُّقُونَ﴾ [١٤] [الروم]، وقوله تعالى: ﴿... يَوْمَئِذٍ يَصُدُّعُونَ﴾ [٤٣] [الروم].

﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمُ﴾ الشركاء هم الأنداد التي عبدوها أو غيرهم، وسما شركاؤهم؛ لأنهم انتحلوا لهم الشركة فعلا، وإن لم يقولوها قولا.

وقال هؤلاء نافرين نفيا باتا: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِدُونَ﴾ أى ما كنتم تسمونه عبادة ليس عبادة، فما عبدتمونا ولكن عبدتم أوهامكم وما حسبوهم آلهة بإيعاز الشيطان، كما جاء على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام:

﴿... قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة].

وفى قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِدُونَ﴾ النفى مؤكدا قاطع؛ لأنه نفى فى الماضى والمستقبل، وأن ما كانوا يسمونه عبادة ليس عبادة مطلقا وأن من خصوهم بالعبادة ينكرونها فليسوا أهلا لأية عبادة.

وقد يسأل سائل: كيف كانت الحجارة التى تمثلوها آلهة تنطق بذلك النفى؟ فنقول: إن ما عبدوهم من الأنبياء كعيسى يقول ذلك، أما الحجارة فينطقها الله فتقوله، أو هو تصوير لحالها فى أمرها وأمرهم والله تعالى شاهد.

يقول تعالى:

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾.

هنا يوثق المعبودون قولهم بشهادة الله تعالى: (الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَكَفَى﴾ عاطفة لتأكيد قولهم، والباء فى قوله تعالى: ﴿بِاللَّهِ﴾ زائدة مقوية لمعنى الشهادة، أى كفانا الله تعالى شاهدا فى بطلان ما تدعوه من أنكم كنتم تعبدوننا ثم أكدوا بأنهم كانوا لا يعلمون ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

﴿إِنْ﴾ هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف، ويدل عليه الخبر، وهو ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

(اللام) مؤكدة، وتفرق بين خبر (كان) المجرد، وخبر (إن)، فهي تدل على أن الخبر هو خبر (كان)، وبتوكيدها تومئ إلى أن الجملة خبر (إن).

وقد أكدوا بهذا أنهم ما كانوا يعلمون عبادتهم لهم، وأنهم برآء من هذه العبادة، وأنهم ما كانوا يشعرون بهم ولا بما ارتكبوا من إثم مبين وهو الإشراك بالله تعالى، وهذا بيان لسوء عملهم وفساد اعتقادهم وضلالهم الواضح المبين، وقد أرسل الله تعالى رسله فينبوه لهم، وكذبوهم حتى حقت عليهم كلمة العذاب والله بكل شيء عليم.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الدنيا دار الابتلاء، والآخرة دار الجزاء فقال عز من قائل:

﴿هَٰئِلًا تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾.

﴿هَٰئِلًا﴾ إشارة إلى ذلك الموقف الرهيب والمكان الرفيع، وهو الحشر أمام الله تعالى، وكانت الإشارة بالبعيد؛ لرفعه الموقف أمام الله وشرفه، ولأنهم كانوا يستبعدونه ويظنونونه مستحيلا.

﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ فيها ثلاث قراءات، قراءة بالتاء ﴿تَبْلُو﴾ وقراءتان بالنون (نبلو) إحداهما بنصب (كل)، أى النفوس كلها هى المختبرة، والثانية برفع (كل).

وفى الأولى ﴿تَبْلُو﴾ أى تتلو كل نفس ما أسلفت من أعمال فى كتابها الذى تحمله يمينها أو شمالها فتقرأ عملها محضرا، كما قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿... وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣)﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (١٤) [الإسراء].

أما فى القراءة بالنون برفع كل «نبلوا كل» أى تعاملهم معاملة التعرف لما

وقوله: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة] فالاختبار هنا يكشفه الله ويستحضر لهم فيه ما أسلفوا.

أما القراءة بالنون مع نصب «كل» أى (نبلوا كل) فهى نصب فى المعنى السابق والاختلاف فى الإعراب ولا اختلاف فى المعنى.

ومن هذا نجد أن الاختلاف الحقيقى يكون بين القراءتين بالتاء والنون وكله من عند الله تعالى.

﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ المولى بمعنى الناصر وبمعنى الخالق وبمعنى المالك، أى مالكمهم الحق، أى الثابت ملكيته، وسلطانه والحق للاحتراز عما ادعوا من أوثان وأنداد اتخذوها، ففى هذا اليوم يتبدى سلطان الله تعالى حقا وتتبدد أوهامهم عن أولياء الشيطان وما زعموه.

ولذا قال سبحانه: ﴿وَضَلُّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى غاب عنهم ويعد عن عقولهم ما كانوا يفترونه فى عبادات باطلة وافتراء كاذب كانوا مستمرين عليه يكررونه ليلا نهارا، وفى قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا﴾ يدل على الاستمرار وذلك بالجمع بين الماضى فى ﴿كَانُوا﴾ والمستقبل فى ﴿يَفْتَرُونَ﴾ فالجمع بين الماضى والمستقبل يدل على استمرار الفعل.

يقول تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٣٦].

قلنا فى أكثر من موضع: إن العرب كانوا على علم بالخلق والتكوين وأنهم يؤمنون بوحداية الخالق، ولكنهم فى العبادة يشركون ويزعمون استحقاق الأوثان للعبادة على أن يكونوا شفعاء لهم، فبين الله بطلان عبادتهم وقد كانوا لضلالهم يربطون بين وحدة الخالق للكون وبين ما يعبدون، فبين لهم سبحانه فى كثير من

الآيات أن وحدة الخلق تقتضى وحدة العبادة، وهذا هو ما آمن به أبوههم إبراهيم وغيره من الرسل الكرام، وجاء محمد ﷺ لإحياء ملة إبراهيم وهى الإسلام ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتنبية إلى الحقائق الثابتة وتوجيه النظر، فهو استفهام تقريرى لتقرير الحقائق، وعبر بالاستفهام لأنه موجه وفيه حمل لهم على الإقرار بما يعرفون ويشاهدون فهم يعلمون علم اليقين بالمشاهدة والحس أن الله تعالى هو الذى ينزل الأمطار من السماء ليختلط بالأرض يشقها شقا، وما أوجده الله تعالى فيها من خصب ومواد مختلفة يتكون منها نبات به حب متراكب وأشجار فيها ثمار دائية القطوف، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَاطٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

وقد عبر سبحانه عن كل ذلك بالرزق الذى هو الغاية المرجوة وهو النعمة الظاهرة التى أنعم بها سبحانه وتعالى على عباده فى حياتهم من غذاء ولباس ومأوى، وكل ذلك كان فى اختلاط ماء السماء بالأرض.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك أصل خلقهم ودقيق صنعه فى أنفسهم وكيف أوجد القوى فيهم، وأن هذا وإن اختفى عليهم خلقه لا يختفى عليهم أثره، فهم يسمعون ويبصرون ويدركون بأى شىء كان ذلك.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ فهو الذى أنشأهما حتى أن الإنسان الذى مدَّ له الله تعالى الكون من سماء وأرضين، واستطاع بإذن الله أن يرتفع إلى القمر وغيره - لا يملك أن يوجد قوة من قوى الله.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يبين الله تعالى أمرا يشاهده الإنسان كل يوم وهو الموت والحياة فيجئ الموت بدل الحياة، والحياة بدل الموت، بل إنه سبحانه يخلق الحياة فى الميت، كما أنه يجعل النواة الجامدة كأنها لا

حياة فيها شجرة وارفة الظلال، ومن الماء المهين إنسانا سويا، ثم يكون الزرع حطاما والإنسان ميتا مقبورا، ولقد قال تعالى في تصوير ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

هو سبحانه خالق كل شيء ولم يخلقه ويتركه من غير تدبير، بل إنه سبحانه وتعالى القائم عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ﴾ كما أنه سبحانه يمسك السماء والأرض أن تزولا، ويدبر الأرزاق.

ثم نعود لصيغة الاستفهام القرآنية ﴿أَمَّنْ﴾ فصيغة القرآن استفهام ويطلب منهم الجواب ليكون جوابهم إقرارا أو تقريرا، وكذلك قال الله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فإذا قالوها وهى الحق أجيبوا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فترتب على إقرارهم دعوتهم إلى تقوى الله والإحساس بجلاله وتجنب ما لا يرضيه.

بعد أن أخذ سبحانه وتعالى منهم إقرارا بأنه خالق الكون ومدبره والقائم عليه وحده، بين سبحانه وتعالى أنه هو الرب وحده وأشار إلى أنه المستحق للعبادة وحده، فقال عز من قائل:

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [٢٢].

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان الله الخالق وحده والمدبر للكون وخالق القوى الإنسانية وغيرها وحده فهو الرب حقا وصدقا، و﴿الْحَقُّ﴾ تأكيد لمعنى الربوبية، والربوبية والعبادة متلازمان تلازما لا يقبل الانفصال، فالرب حقا هو المعبود وحده المنفرد بالخلق، وهو المنفرد بالعبودية فلا إله غيره.

الخطاب فى اسم الإشارة للجمع؛ لأنه لا يخاطب به النبى وحده إنما يخاطب به الناس أجمعين وخصوصا المشركين؛ لأنهم الذين أقروا بالخلق وضلوا فى العبادة.

وقد كانوا يقولون عن معبودهم «الرب» فاللات والعزى كانتا إلهان، وهبل كان رب قريش، والنصارى المثلثون قالوا عن المسيح الرب، فالآية تشير إلى أن هذه الأرباب الكاذبة ادعأوها انحراف في الفكر وبطلان في الاعتقاد، فالرب حقا وصدقا هو الله تعالى وحده.

وقد أشار سبحانه في قوله: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى أنه الذى يرزق من السماء والأرض ويدبر الأمر ويقدر كل ما فى الوجود، وهو الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى فهو الرب المعبود حقا وصدقا وغيره باطل؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على أن الله تعالى هو الرب لا رب سواه من حجر أو نبي أو ملك.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ الاستفهام هنا إنكارى بمعنى نفى الوقوع وأن ذلك فكر لا يتصوره ويستكره العقلاء، والمعنى أنه ليس بعد الحق - وهو أن الرب المعبود هو الله وحده - إلا الضلال، فالأمر إما حق أو باطل ولا توسط بينهما مما تدعون من أوهام بأنهم شفعاء لله، فإن ذلك باطل فى ذاته، وأنه سبحانه لا يتخذ عنده شفعاء لا ينفعون ولا يضررون، وإن لم يكونوا حجارة فإن منزلتهم من الله هى منزلة غيرهم على سواء.

﴿فَأَنَّى تُصْرِفُونَ﴾ (الفاء) مثل التى قبلها ﴿فَأَنَّى﴾ بمعنى كيف والاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع، وفيه توبيخ، والمعنى كيف تصرفون عن ذلك المعنى المستقيم وهو أن الخالق وحده هو الرب المعبود ولا معبود سواه؟! ولكن هكذا تضل الأفهام وتعمى القلوب التى فى الصدور.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٢).

بعد أن بين سبحانه في الخلق ما يدل على التوحيد وأن كفر من كفر عجيب وغريب ذكر أنه قد سجل عليهم. ﴿كَذَلِكَ﴾، (الكاف) للتشبيه إشارة إلى ضلالهم بعد أن قامت بينات القاطعة في الخلق والتكوين وإقرارهم بأن الله الخالق وحده لا خالق سواه، ثم بعد ذلك ينحرفون من غير سبب للانحراف إلا ضلالهم.

أى أنه كهذه الحال التى رأيتموها ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أى أنهم ينحرفون عن الأمر الذى يقرونه ويقره العقلاء.

أى أنهم ينظرون إلى الأشياء نظرا منحرفا كما ينظر من رَمَدَ أو حَوْلَ، ثم ينغمرون فى طريق الانحراف حتى يبلغوا فى ضلالهم أقصاه.

فمثل هذا هو الذى حقت به، أى ثبتت به كلمة الله التى لا تختلف ولا تتغير، على الذين فسقوا وانحرفوا وتمردوا على الحق، وأظهر فى موضع الإضمار للإشارة إلى أن فسقهم وتمردهم أدى بهم إلى ما حق عليهم.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾: بدل بيان من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، أى أنهم لا يؤمنون فهو نفى للإيمان ذلك لأنهم سلكوا طريق الباطل.

أى كذلك حقت على الذين فسقوا كلمة ربك التى هى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

بعد أن بين سبحانه أنه الخالق للكون والأرزاق، والمدير للوجود وحده أخذ يبين عجز من اتخذوهم أربابا من دونه، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾.

أمر النبى ﷺ بأن يتولى جدالهم وإفحامهم وأن يسألهم ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وشركاؤهم: الأوثان والأحجار والأناسى التى ادَّعوا أنها شركاء لله فى العبادة، أى هل فى الأوثان التى تعبدونها أو غيرها مما زعمتم من يبدأ الخلق ثم يعيده.

والتعبير بالمضارع لإفادة استمرار البدء والإعادة، كالزرع في خلقه وتكوينه ثم يصير حطاما، ثم يعاد مرة أخرى.

وفى النص الكريم إشارة إلى القدرة على الإعادة كالقدرة على الابتداء، كما قال فى آية أخرى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]، فالإشارة واضحة إلى إمكان البعث بل وجوبه وقد أنكروه ولأنهم لا يؤمنون بالإعادة وينكرونها أمر الله تعالى نبيه بأن يتولى الإجابة على إنكارهم، وللإشارة إلى أن ذلك موضع تسليم لا امتراء عند أهل العقول المستقيمة، وأيضا لمنع لجأجتهم ولإرشادهم إلى الحق: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وإذا كانوا ينكرون الإعادة من الله فأولى أن ينكروها من أحجار لا تضر ولا تنفع، بل إنهم يعلمون أنها لا تستطيع الإنشاء فأولى ألا تستطيع الإعادة.

ولذلك تولى النبى ﷺ الإجابة ليقيم الحجة عليهم بأن ما بدأ يستطيع الإعادة ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أى تصرفون عن الحق إلى الباطل.

(الفاء) لترتيب الاستفهام الإنكارى على إنكارهم المستمر والموقف السلبي الذى يقفونه لا يتحركون بخطوة إيجابية إلا فى الإيذاء والاستهزاء والفتنة فى الدين، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فالله تعالى ينكر انصرافهم عن الحق ولجأجتهم فى الانصراف والاستمرار فى غيهم ﴿فَأَنَّى﴾ بمعنى «كيف».

ثم يبين سبحانه أنه الذى يهديهم، وأن الأوثان لا تهدي بل يضلون بها، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)﴾.

يخاطبهم سبحانه على أنهم عقلاء مدركون لمعنى الهداية والرشاد ويسألهم إذا كان هؤلاء على ما ترون؟ فهل يهدونكم إلى الحق كشأن التابع للمتبع.

إن الهداية هي المقياس الإنساني لعلو الإنسان وقد كان في المشركين ذوو
رشد ينطقون بالقول الطيب كما ينطق الحكماء منهم: أكثم بن صيفى وغيره، فهل
الأوثان وغيرها يعلونهم بفضل الإرشاد والتوجيه للعمل الصالح فتعبدوها أو
تتبعوها لهذا؟ وحيث لا شيء من ذلك فلا مسوغ للعبادة إلا الضلال.

ولذلك قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الاستفهام داخل
على فعل محذوف، والمعنى هل وجد من شركائكم أى من المعبودات التى زعمتم
أنها شركاء لله فى العبادة، من يهذى إلى الحق كما يهذى الله حتى تجعلوه كالله
تعالى، يقال هدى إلى الحق وهذى للحق، و﴿إِلَى﴾ تتضمن معنى الانتهاء فى
الهداية إلى الحق، أى هدى منتها فى هدايته إلى الحق.

والإجابة عن هذا السؤال ستكون بالسلب لأنها أحجار نَحَتُهَا بأيديهم لا
تضر ولا تنفع، فكيف تهذى وترشد؟ ولذا فرض أن الإجابة بالسلب كما هو شأن
من له أعين تبصر وأذان تسمع، وقد ترتب على هذا الفرض الواقع سؤال آخر
فيقول سبحانه:

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وحقها التقديم؛ لأن السؤال مترتب
على الإجابة المفروضة فى السؤال السابق، ولكن لأن الاستفهام له الصدارة أخرت
عن تقديم، والاستفهام هنا للإقحام وفيه الفرض الأول ثم بيان أنه لا مساواة بين
الفرضين، أى أن من يهذى إلى الحق أحق أن يتبع فالاستفهام فى هذه الناحية هو
أنه لا مساواة بين من يهذى إلى الحق ومن لا يهذى إلا إذا وجد من يهديه،
فالاستفهام لبيان أحقية الاتباع لمن يرشد ويصلح بدلا ممن لا يستطيع الإرشاد
ويحتاج كغيره ليهديه، فمن لا يحتاج أحق ممن يحتاج لإرشاد غيره وهدايته، وهذا
فى قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾ .

الكلمة ﴿يَهْدِي﴾ فيها إعلال أصلها (يهتدى) وقلبت التاء دالا لقربها من حروف الإطباق، وأدغمت التاء فى الدال وكسرت الهاء للتخلص من الساكنين، والأصل فى التخلص من النطق بالساكنين يكون بالكسر؛ وهناك قراءة أخرى وهى فتح الهاء؛ لأن حركة التاء قبل الإدغام كانت الفتح فكان الفتح رمزا للأصل .

وإن هذه الصيغة تفيد أنه لا يهتدى إلا بصعوبة بل لا يهتدى أصلا، ولكن كان الفرض أن يكون اهتداء بعد أن توجد الهداية الداعية المرشدة، وكل هذا فيه توبيخ وتبكيت لهم وهم عقلاء، فيهم من نطق بالحكمة وأرادها، ثم يتبعون من لا يرشد ولا يهدى .

إن العاقل إذا رأى هاديا مرشدا يدعوه ومعه الأدلة المتضافرة والآيات المبينة ورأى بجواره أصم لا يهدى ولا يرشد فأيهما يتبع، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ وهذا استفهام إنكارى عن حالهم المضطربة الحائرة، ثم أردفها سبحانه باستفهام يوضح اضطراب فكرهم وفساد تقديرهم فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ .

وهذا للاستنكار، فبأى أحوال النفس العاقلة تحكمون على تصرفاتكم هذه! تتركون الهادى المرشد وتتبعون من لا يضر ولا ينفع، ويصعب أن يهتدى بل لا يمكن أن يهتدى ولو جاءه أهدى الهدى .

وقد بين سبحانه أنهم لا يتبعون الأصنام وغيرها مستيقنين، بل يظنون ظنا بأوهامهم أن لهذه الأصنام وأشباهاها قوة وأنها تستحق العبادة، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) .

أى أن أكثرهم غلبت عليهم خيالات وأوهام شاعت فى جمعهم وانتشرت بينهم واتبعوها جميعا، فالأفكار الفاسدة الضالة تنبعث من بعض الجماعة وتكثر فيها وتشيع فى آحادها فتصير فكرا عاما مضللا، وعلى العقلاء أن يصدوا هذه الأفكار الباطلة فى أول نشوئها حتى لا تصير هى الغالبة، وبعض المفسرين يقول: «إن الأكثر يراد به الجميع، ونحن نقول على هذا المعنى، ويقول البيضاوى: «إن أكثرهم ما يتبع فى اعتقادهم إلا ظنا مستندا إلى خيالات فارغة فاسدة».

الناس صنفان أحدهما: له عقل مستقيم يدرك، والثانى: غلبت وسيطرت عليه الخيالات، فأما الذى آتاه الله تعالى عقلاً يدرك فإنه يفكر فى خلق السموات والأرض وما بينهما ويأخذ دليلا على وجود خالقهما من الأثر وقوة المؤثر، ثم يجرى الرسل فيهندي بهديهم ويتبع ما يدعون إليه، وهو الذى ينطبق عليه الوصف القرآنى الكريم:

﴿... رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه]، فالهداية ثمرة العلم بالخلق. والصنف الثانى يقع فى أخيلة وهمية تسيطر عليه فلا يأخذ الهداية من الخلق والتكوين، بل تسيطر عليه الأوهام؛ فيتوهم فى حجر قوة، ويتوهم فى شخص ربوبية، ولو نادى ليلا نهاراً بأنه عبد من عباد الله لا يستنكف عن عبادة الله ولا يستكبر، وهؤلاء يظنون القوة فى غير قوى، والقدرة فى عاجز، وتكون عقولهم دائما حائرة مضطربة، ولا يكون منهم اعتقاد ولا يقين قط وكلها ظنون يتصورونها اعتقادا، ولسان حالهم يقول: ﴿... إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ (٢٢)﴾ [الجاثية].

هذا بيان لعلمهم الذى يتجاوز الظن ولا يزيد عليه، ويخيل لهم أنهم يعتقدون ثم يتعصبون له ويعاندون أهل الحق به.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الاعتقاد لا يبنى على ظن بل يجب أن يكون على يقين، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى لا يغنى بدل

الحق، ﴿مِنْ﴾ هنا بمعنى «بدل» فالحق وهو الأمر الثابت الذي لا ريب فيه لا يطلب بأدلة ظنية بل لا يطلب إلا ببيانات قاطعة، فمعنى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أن الظن لا يغنى شيئاً بدل الأدلة الحق القطعية.

هذه الآية الكريمة تؤكد حقيقتين ثابتتين:

أولاهما: أن ما يتحله أهل الكتاب والمشركون - بشكل عام - والوثنيون مبنى على أوهام أوجدت ظنوناً جعلوا منها عقائد تعقبوا لها وكأنها حقائق لها براهين أذعنوا لها فما ظنوا إلا ظناً.

ثانيهما: أن التعصب قد يبنى على أوهام وظنون بل إنه سيطرة أوهام وضعف في النفوس وليس بإيمان صادق.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، وفي هذا تأكيد لعلم الله بهم في ظنونهم وأعمالهم وحركات نفوسهم، وقد أكد هذا سبحانه أولاً: بالجملة الاسمية، وثانياً: بـ «إِنَّ» المؤكدة، وثالثاً: بالصفة.

القرآن هو المعجزة الكبرى

يقول تعالى:

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ
 فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
 مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾
 بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

بعد أن ذكر سبحانه أوهام المشركين وأخيلتهم التى جعلتهم يهيمنون فى أودية الظن بغير علم، بين سبحانه الحق والدليل القاطع على صدق محمد ﷺ فى حديثه عن الله تعالى، وأنه جاء بالمعجزة الكبرى الباقية الخالدة إلى يوم القيامة، وأن غيره من المعجزات ما استمر باقيا إلا؛ لأنه ذكرها وسجل وقوعها فى آياته التى كفر بها من كفر وآمن بها من آمن، وقد قال تعالى فى المعجزة الكبرى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)﴾ والإشارة هنا للقرآن الذى يتلى عليهم، وتخيرهم عباراته وتعجزهم بلاغته وفصاحته كلماته.

وقوله ﴿أَنْ يُفْتَرَىٰ﴾ المصدر من (أن وما بعدها) خبر ﴿كَانَ﴾، أى وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله، أى من عند غير الله سبحانه، وعبر بالفعل دون المصدر لتصوير قبح أن يصنع اصطناعا من عند غير الله، وبيان أن ذلك غير متصور وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ معناه: ما استقام وما ينبغى أن يكون هذا القرآن افتراء من دون الله تعالى؛ لأنه أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، ولأنه اشتمل على علوم ما كان لهذا الأُمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أن يعلمها، ولأنه اشتمل على شرائع فيها مصلحة الدنيا والآخرة، ولأنه اشتمل على قصص الأمم، كما قال على - كرم الله وجهه - فيما رواه عنه الحارث الأعور «فيه خبر ما قبلكم ونبا ما بعدكم وفصل ما بينكم»^(١) معنى هذا: أن هذا القرآن بذاته يتفى أن يكون مفترى، والقرآن صادق من شهادة غيره بعد أن أثبت أن معجزته ذاتية فيقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أى الكتب التى سبقت، وعبر بأنها ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ للإشارة إلى أنها حاضرة شاهدة بصدقه.

وقد ذكر سبحانه دلائل صدقه من أمور أربعة:

الأمر الأول - أنه تصديق الذى بين يديه فى الكتب السابقة الصادقة، وما كان النبى ﷺ يقرأ أو يكتب ونشأ فى قوم أميين لا يعرفون علم الكتابة ولم يختلط ﷺ بأحد من أهل الكتاب، أو يلتق بأحد من الأخبار والرهبان إلا مرتين، واحدة وهو غلام فى الثانية عشرة، والأخرى وهو فى الخامسة والعشرين وكلتاها كان فيهما عابر سبيل، وأن التوافق بين ما جاء بالقرآن وما جاء بالكتب السابقة دليل على أنه ليس افتراء بل هو من عند الله سبحانه وتعالى، والاستدراك معناه الانتقال من نفى الافتراء إلى الإيجاب بذكر الدليل الخارجى من نفس ما سبقه من كتب، وفى التعبير بكلمات: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إشارة إلى أنه شاهد لها بالصدق، وإن كان التوافق دليل على أنه ليس به افتراء وهو مشتمل مع ذلك فى ذاته على الإعجاز، فالكتب ليست معجزة بذاتها، ولكن اقترن بها ما يدل على صدق الرسل من بينات شاهدة: كعصا موسى وغيرها، وكإبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله ونزول المائدة بأمر الله تعالى.

الأمر الثانى - مما اشتمل عليه القرآن الكريم أنه «تفصيل الكتاب» أى بيان ما كتبه الله تعالى على خلقه من فرائض ونظم وأحكام فيها صلاح العباد فى الدنيا والآخرة من صلاح معاشهم وتنظيم حياتهم وتكوين مجتمع فاضل يكون الخير فيه شائعا ظاهرا، وتكون الرذيلة مخفية مغمورة.

الأمر الثالث - من دلائل صدقه - أنه لا ريب فيه لمن تدبر وتأمل، فهو ثابت بذاته وبما اشتمل عليه من تصديق ما بين يديه فى الكتب وتفصيل الأحكام والشرائع فلا مجال للريب، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة].

الأمر الرابع - أنه من رب العالمين الذى كون العالمين ورباهم ودبر أمورهم وأقام الحق والعدل فيهم، وذلك كله فى القرآن الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعد أن بين سبحانه بالأدلة الذاتية صدقه، أخذ سبحانه يدفع افتراء المفتريين فقال تعالى :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ .

وصف الله سبحانه وتعالى القرآن أوصافا تنفى الافتراء، وبين مقامه فى الكتب السابقة وأنه مصدق شاهد بها، وبعد ذلك أخذ يبين مقام المشركين منه وهو ادعاء افترائهم الذى هو منفى عن القرآن لذاته فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ .

﴿أَمْ﴾ يقول بعض المفسرين: أنها هنا فى معنى الهمزة للاستفهام. والأولى أن تقول أن «أَمْ» تتضمن معنى الاستفهام كما تتضمن الانتقال من الحقائق المقررة الثابتة التى لا ريب فيها إلى الاتجاه إلى المشركين وأوهامهم بالنسبة للقرآن العظيم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أى نتقل من الحق الجلى إلى أوهامهم فنسألهم: أتقولون افتراءه؟! والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الواقع، فهو توبيخ لهم على ادعاء الافتراء، وقد قامت أدلة الصدق، ووقع الحكم بأنهم مبطلون فى ادعائهم وافترائهم، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ليظهر كذبهم وأنهم المفترون على الله تعالى ونبيه ﷺ والحق؛ ولذا أمر سبحانه محمدا ﷺ أن يدعوهم لأن يأتوا بسورة من مثله، أى مما ترون أنه مثله، فأتوا بسورة منه، فهم يدعون أنه مفتري افتراء محمد ﷺ فليأتوا بسورة من مثله إن كان له مثل .

إن محمدا بشر مثلهم فإذا كان قد افتراء فأنتم بشر مثله فأتوا بسورة من مثله، ويصح أن نقول أن ﴿مِنْ﴾ بيانية ويكون المعنى اتوا بسورة منه، أى من جنسه، ولعل ذلك أظهر .

وقد تحداهم الله أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فعجزوا، ثم نزل فتحداهم أن يأتوا بسورة فعجزوا .

ولكمال التحدى أمر الله نبيه أن يدعوا من يناصرونهم ومن يستطيعون نصرهم، فقال فى سياق أمره - سبحانه - لنبيه: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فدعوة هؤلاء النصراء لأميرين: أولهما - ليشهدوا كذبهم فى ادعائهم.

ثانيهما - لينتصروا بهم ويكونوا قوة معهم يظاهرونهم فيما يدعون، ولكنهم مع ذلك لا يمكنهم أن يأتوا بقرآن مثله كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى فى ادعائكم الافتراء وإن محمدا كذب على الله تعالى ولكنكم عاجزون فيبطل ادعاؤكم الافتراء.

وفى كلمة ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ - الفاء للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كنتم تدعون أن محمدا افتراء فمحمد بشر عربى مثلكم، فأتوا بسورة من مثله.

هم لا يؤمنون أنه افتراء ويؤمنون أنه كلام لا ينطق البشر بمثله، ولكن لأنهم سارعوا بتكذيب الرسالة المحمدية لجأوا فى التكذيب وتورطوا فى الإنكار حتى وقعوا فيما لم يقع فيه عربى يعرف معنى البلاغة فى القول، لذا قال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾.

﴿بَلْ﴾ للإضراب عما حوى ما قبلها، والإضراب عن ادعاء الافتراء، معناه أنهم لم يقفوا فى دعوى الافتراء إلا بأمر سبقه، وهو أنهم سارعوا بالتكذيب من غير أن يتأملوا. وهذا هو قوله تعالى: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أى بما لم يعلموه علم إحاطة وفحص لحقائقه ومدى ما فيه من إعجاز بيانى وما حوى من شرائع

توائم العقل وتواكبه ومدى ما فيه من إنذار لمن كفر وثواب لمن آمن، وذلك لمن يخاطب بأمر غريب لم يألّفه فإِنَّه يسارع إلى إنكاره بادی الرأي، ثم إذا شرد عقله عن الطريق المستقيم ضل في السبل وأصبح لا يسمع منادى الصواب إذ يناديه، وداعى الهداية إلى الحق وهو يدعوه.

وهذا نراه في أصحاب المذاهب المنحرفة إذا فوجئوا بما يخالفها أنكروه ثم حاولوا أن يجمعوا ما يؤيد ما جنحوا إليه من المنكر، وإن محمداً ﷺ جاء إليهم على فترة من الرسل في الأرض العربية وقد عمتهم جهالة دينية، فجاءهم بأنه رسول من عند الله تعالى وكان ذلك غريباً فيهم، وجاءهم بقرآن هو معجزته فلم يتدبروه ويفهموه فعجلوا برده، ثم ساروا من بعد في سبل الضلال.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ التأويل هو التفسير والفهم وفقه الكلام ومراميه ويطلق بمعنى معرفة المآل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا...﴾ [الأعراف].

والنص القرآني يقبل تفسيرين، بل لا مانع من الجمع بينهما:

أولهما - أنهم كذبوا ولم يحيطوا بعلمه، والحال أنهم لما يأتهم في مداركهم وأفهامهم فقهه وما فيه من إنذار وتبشير، وسيأتيهم لا محالة إذا تأملوه.

ثانيهما - أنهم لم يأتهم مآله، وأنه آت لا محالة، وأنهم كذبوا القرآن بما فيه من بعث ونشور وحساب وثواب بالجنة وعقاب بالنار وأنه سيأتيهم، وقد وعد سبحانه، وإنه منجز وعده.

وإن هذه الحال من المشركين هي الحال التي كانت في الأمم السابقة الذين بعث فيهم الرسل وسارعوا بتكذيبهم قبل أن يتأملوا ما أتوا به وقبل أن يعرفوا قوة المعجزة، ثم لجوا في تكذيبهم حتى نفذ الله تعالى أمره فيهم كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كهذه الحال التي كان عليها المشركون من العرب

فى مسارعهم إلى التكذيب واللجاجة فيه ثم المعاندة والمقاومة بالعنف من غير إدراك سليم، وهذه الحال هى حال الذين من قبلهم فإذا تشابهت الحال فلا بد أن تتشابه النتيجة أو الأثر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أى فانظر على أى حال كانت عاقبة الظالمين كانت ريحا صرصرا عاتية، أو ريحا فيها عذاب شديد، أو جعل أرضهم دكا سافلها عاليها أو خسف بهم الأرض أو غير ذلك من آيات الله الكبرى فى الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون الحق معهم، وإذا كان الله قد أمهل المشركين ولم ينزل بهم ما أنزل بالذين من قبلهم؛ فلكى يستمر اختيارهم وعسى أن يخرج الله من أصلاهم من يعبد.

وفى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ إظهار فى موضع الإضمار؛ لبيان أنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الأنبياء الذين أرسلوا إليهم وأنكروا حقائق ثابتة قد خلت فيمن ظلموا.

وإن الحق حق فى ذاته، سواء أكثر من آمنوا به أم قلوا، وسواء خضع له أو لم يخضع، والثواب لمن آمن واهتدى والعذاب لمن كفر .

ولذا قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠).

الضمير فى كلمه ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود على المشركين فى قریش، أما ضمير فى كلمه ﴿بِهِ﴾ فيعود على القرآن الكريم.

وإنه من نعم الله على الخلق أن لم يجعلهم جميعا على كلمة الشرك أو الإنكار، بل منهم من يذعن للحق فيسارع إليه كما يسارع المشرك إلى الإنكار.

وهذا الكلام فيه تبشير للنبي ﷺ بأنه مع هذه الحال الخالكة المظلمة سيكون من يؤمن ومن يجدد إيمانكم فى كل الأزمان ويصدق بالقرآن ويذعن له، فالقرآن باقٍ خالد محفوظ، ونور يهدى ما بقى الإنسان فى هذه الأرض.

ومنهم من يستلئ بالله به المؤمنين بإنكارهم ولجهنم في الإنكار ومعاندتهم للحق وحربهم لأهله، والتعير بالمضارع لبيان تجديد الإيمان واستمراره وأن الكفر باق ليكون ذلك ابتلاء للمؤمنين وتثبيتاً لإيمانهم، ثم يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ علماً دقيقاً محيطاً بالذين لا يؤمنون، وعبر عنهم بالمفسدين؛ لبيان أن في طلبهم الإفساد في الأرض ومنع الإصلاح فيها، فمنهم المنافقون الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ومنهم المعاندون الذين يحاربون الإيمان ويحاولون أن يسدوا مسالك الهداية، وذكر العلم بالمفسدين إنذار بالعقاب من الله تعالى الذي لا يغيب عن علمه كبيرة ولا صغيرة في السماء ولا في الأرض.

إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ

قال تعالى:

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
 أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آَعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَن
 يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
 وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا
 لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ
 النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانُ لَرَّيْلَسُوا إِلَّا
 سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَلَاءِ اللَّهِ
 وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُنَوِّقَنَّكَ
 فَالِيْنَا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

كان النبي ﷺ حريصاً على هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]، فبين الله سبحانه أنه لا يهدى وإنما ينذر ويبشر كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ... (٤٥)﴾ [النارعات].

فى هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحملهم إن كذبوا تبعات أعمالهم فى الكفر فقال تعالى: ﴿وَأَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ مغيبة عملكم عليكم، ومثوبة عملى لى وإنى برئ مما تعملون وتكررون عمله أنا بعد آن وتجددونه تجدداً مستمراً، وقد أعذر من أنذر وقد أنذرتكم وشددت النذير ووعظتكم أحسن الوعظ وتلوت عليكم آيات بينات فيها سبيل العمل الصالح وتكوين الجماعة الفاضلة فإن استجبتم فقد أحسنتم لأنفسكم، وإن كذبتم فعليكم تبعات ما تعملون، كما قال الله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون]، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كل إنسان وما يعمل، لا يؤاخذ ﷺ فى كفرهم هو برئ منهم ومن أعمالهم، ومع هذا يبرأ إلى الله من أعمالهم تنزيهاً لنفسه عن أن يشرك أو يرضى عن شركهم المستمر المتجدد، وقد عبر بالمضارع؛ لأن أعمالهم الفاسدة متجددة مستمرة التجديد.

فى المسلك الذى أمر الله تعالى نبيه أن يسلكه إرشاد حكيم للعصاة وإيثار لهم من أن يكون معهم، بل فيه دعوة إلى الاقتداء به فى عمله، وفيه إشارة إلى فساد أعمالهم، والمفسد إذا رأى عمل المصلح تأثر بعمله، بل إن ذلك أشد تأثيراً من قوله وأفعل فى النفس وأدعى للتأمل، واتجاه النفس إلى ما فى ثناياها، وربما اهتدت، وأنها لو فوض أمرها إليها قد يكون الخوف فيها؛ وأنه إذا داخل الجاحد الخوف من مغيب عنه سار فى طريق الهداية.

إن هؤلاء المشركين عقولهم غائبة عن الحق سائرة فى الضلال غافلة عن دعوة الداعى إلى النور، وقد قال تعالى فى بيان غفلتهم:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)﴾.

إن السمع لا يعتبر وحده ولا يدرك وحده، بل لابد من السمع والإدراك، والبصر لا يدرك ما يشاهد ومغزاه وعبره، بل لابد من أن يرى الرائي ويدرك العبر، وإن هؤلاء أهل جهنم الذين طمس على بصائرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف]، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: ومنهم أى من المشركين الذين يعرضون عن الحق، من يستمعون إليك بظاهر حسهم، وتحسبهم مستمعين للقول فيتبعون أحسنه ويفكرون مستديرين مميزين بين الحق والباطل، ولكنهم كالأصم من حيث الهداية؛ وذلك لأنهم يستمعون إلى الألفاظ تتردد ولا يفقهون معناها ولا يدقون الحق ويدركونه، وهم كالصم فى آذانهم وقر، قد ماتت عقولهم وصاروا فى عدم إدراكهم معنى الكلام ومرماه وغاياته وجماله وكماله كمن لا يسمع أصلاً؛ لأنه لا ثمرة لسمعه؛ لأنه يسمع جرس الكلام ولا يفقهه ولا يدق بيانه. ومن مواضع العجب أن يطلب ممن هذا شأنه - الإدراك والاعتبار بما يسمع من قصص وعظات، ولذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

الاستفهام للتعجب والنفي، (الفاء) لترتيب التعجب على حالهم، والمعنى أنه لا فائدة فى استماعهم ودعوتهم، والعجب من رجاء الاستجابة منهم، فهم قد اجتمعت فيهم صفتان تمنعان الاستجابة:

الأولى - الصمم النفسى، وهو يكون بإعراضهم واستكفافهم كأن بهم وقرا.

الثانية - أنهم لا يعقلون، فلا يستجيبون لدعوة الحق.

وإن نظرهم كسمعهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣)﴾.



إنهم ينظرون إلى السماء وما فيها من أبراج وإلى الأرض وما تخرج من
طيات الرزق ولكنهم عمون عن عجائب الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا
إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ
(١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق].

ينظرون في الكون ولكن لا يدركون ما يهدى إليه النظر فكأنهم عمى لا
يدركون؛ لأن النظر من غير إدراك لما يدل عليه المنظور من آيات بينات، شأنه كعدم
النظر سواء؛ إذ ثمرة النظر مفقودة في الحالين.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ ولكنهم غير ناظرين؛ لأنهم
غير مدركين ما في الوجود من آيات بينات، وقال سبحانه: ﴿إِلَيْكَ﴾ وفي الآية
السابقة ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى أنهم يكونون مع النبي بحسبهم وليس
بعقولهم، ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ﴾ وشبههم
بالعمى لعدم الثمرة في نظرهم، وهم معرضون عن آيات الله تعالى، والاستفهام
للتعجب.

ولقد قال الزمخشري في هذه الآية والتي قبلها: «ومنهم ناس يستمعون إليك
إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون
ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون، أفتطمع أن تسمع الصم
ولو انضم إلى صمهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل، ولكن
إذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فلا فائدة في استماعهم ودعوتهم، أحسب
أنك تقدر على هداية الأعمى ولو انضم إلى العمى، وهو فقد البصر فقد البصيرة؛
لأن الأعمى له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتطنن، وأما العمى مع الحس فجهل
البلاء، وذلك يعنى أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا
بصائر لهم ولا عقول».

إن الله تعالى قد أنزل آياته وشرائعه يهدي بها من يهتدى، ومن ضل فإنما يضل عليها، ووصفها أمام الأعين البصيرة والأذان المستمعة والقلوب المستقيمة، وأنه يؤاخذ الناس بما كسبوا فإن استقاموا على الطريقة كانت الهداية وإن لم يستقيموا كان الضلال، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤).

إن الله وضع كل أسباب الهداية أمام الناس وأرسل الرسل مبشرين، وما كان ليعذبهم إلا إذا أرسل إليهم من ينذرهم بالعذاب الأليم، إن لم يسلكوا سبيل الحق واختاروا سبيل الضلال وأفسدوا في الأرض بعد أن أضلوا عقولهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾.

أصل «ظلم» بمعنى أنقص، وأطلقت على ما هو ضد العدل والاستقامة، وأطلقت على الشرك؛ لأنه انحراف بالعقل عن الاستقامة والطريق السوى، وقال تعالى: ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان].

والظلم هنا إما أن نفسره بمعنى النقص ويكون المعنى أن الله لا ينقص الناس شيئاً بل يوفر لهم أسباب الهداية والإرشاد من: إرسال الرسل، وإقامة الشرائع وآيات الله والتنبيه إليها، ومنحهم العقول التي تدرك، وحرية الاختيار فيما يفعلون، ويوجد سبحانه فيهم قوى الإدراك. كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [النحل]، وإما أن نقول: إن الظلم المنفى هنا هو عدم العدل، ويكون المعنى على ذلك أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً في الظلم مهما قل؛ لأنه أوجد فيهم الاختيار والإدراك وجعل تحت أيديهم أسباب الهداية، فإن ضلوا فعن بينة وإرادة حرة مختارة، والله تعالى يحصى أعمالهم ويجزيهم عليها، كما ورد برواية مسلم عن رسول الله ﷺ في حديث قدسي عن ربه: «يا عبادي إنما هي أعمالكم

أحصىٰ عليها عليكم ثم أوفىٰكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(١).

وإذا كان الله تعالى لا يظلم أى قدر من الظلم قلّ أو جلّ فإن نزول العذاب بالناس بظلمهم لأنفسهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وهذا استدراك من النفى السابق، وإذا كان الله لا يظلمهم فهم يظلمون أنفسهم، وقدم المفعول على الفعل للاختصاص أو القصر، أى هم يظلمون أنفسهم ولا يظلمون سواها، كما سبق قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا بِغَيِّكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ...﴾ (٢٣) وذلك؛ لأن الظالم يقع ظلمه على نفسه ابتداء؛ لأنه يفسد فطرته وتكون غشاة على قلبه فتتقص مداركه وتسوء معاملته، ويسئ إلى نفسه ثم يتردى فى أسباب الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

يقول تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥).

وإن العذاب يجيئ إليهم فى الآخرة كما ذكر سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أى جزء من الزمان قليلا من النهار، وذكر النهار؛ لأن الليل قد يستطيل الإنسان وقته، ولأن الحشر وكأنه يجيئ فى غير ظلام بل فى إشراق ليستبين المهتدى من الضال، كما قال تعالى: ﴿... كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ...﴾ (٣٥) [الاحقاف]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦) [النازعات]، والمراد أن يوم الحشر لا يحسون فيه بفاصل زمنى بينهم وبين ما كانوا عليه فى الدنيا، فيحسون أن الدنيا بطولها ليست إلا زمنا قصيرا قضوه فيها، وفى ذلك إشارة إلى قصر الدنيا مهما طالّت فلا يحسون بها إلا زمنا قصيرا، وقد قال تعالى

(١) سبق تخريجه.

فى بيان ظنونهم نحوها ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ (٥٥) [الروم].

كما يقول سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (١٠٤) [طه]، وكل ذلك يصور إحساسهم بقصر الدنيا يوم تقوم الساعة.

وفى قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً ﴾ الدليل على أنه سبحانه يحشرهم بأقل ما يمكن من الزمن وأن حشرهم ليس عسيرا حتى يأخذ زمنا عند الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهم يحسون الدنيا الفانية شيئا قصيرا الأمد، ساعة من نهار، أو يوم فى تقدير أمثلهم طريقة.

ثم يقول تعالى: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ التابعون والمتبوعون، الذين ضلوا والذين أضلوا الفقراء، الذين سخروا منهم والساخرون.

عندئذ يدرك الذين كذبوا ببقاء ربهم ما خسروه بسبب طغيانهم فى الدنيا واستهزائهم وقولهم لكل نبي ما نراك اتبعك إلا أراذلنا، ولذلك بين سبحانه أنهم رأوا وعابوا مقام التابعين للحق كما عابوا دركهم فى الجحيم.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ خسروا لأنهم ضلوا واشتروا الضلالة بالهدى والحياة الدنيا بالآخرة، لم يقدموا لأنفسهم فخسروا خسرانا مبيئا، ختم الله تعالى الآية بالخسارة العظمى التى أدت إلى الخسائر كلها بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فنفى عنهم الاهتداء نفيا مؤكدا وبقي الضلال المؤكد.

ثم يذكر سبحانه وتعالى ما ينزل بهم:

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤٦).

﴿إِمَّا﴾ هي «إن» الشرطية المدغمة في «ما» و«ما» لتقوية الشرط، وجاءت بعد نون التوكيد الثقيلة.

وأن نريك بعض الذى نعدهم من الدنيا فى خذلان وإعلاء لكلمة الحق وجعل النصر للمؤمنين، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الحق هى العليا وضياع سلطانهم وجعل السلطان فى بلاد العرب لله ولرسوله، إن نريك هكذا تكن العزة، فجواب الشرط محذوف تؤخذ دلالاته من الشرط نفسه، وقد رأى النبی ﷺ ما وعدہ ربه وما أوعدهم به.

﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هو الغرض الثانى وهو معطوف على الشرط السابق، أى يتوفاك الله الذى خلقك ونصرك وأعزك ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾، أى إن تحضر النصر على الكافرين جميعا وكان منهم من بقى على كفره أو كان إسلامه على نفاق كالأعراب الذين ارتدوا أو ممن لم تبلغهم الدعوة فى حياتك ثم بلغهم الإسلام بعد وفاتك ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾، وقدّم الجار والمجرور على ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ للإشارة إلى أن لله وحده المرجع والمآب، وهو الرقيب عليهم فى الدنيا والمحاسب لهم فى الآخرة، ينزل العقاب لمن كفر، والثواب لمن آمن واهتدى وآثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

وإن الله شهيد على ما يفعلون ويعطى الثواب والعقاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتراخى، والترتيب ترتيب معنوى فالله تعالى شهيد على ما فعلوا فى حياة النبی ﷺ وما يفعلون بعده، ولكنه فرق بين رؤية النبی فيما يقع حسا، وبين ما ينزل بهم إلى علم الله عالم الغيب والشهادة الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض.

والبعد الذى تدل عليه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ هو البعد المعنوى بين رؤية الإنسان وشهادة الله تعالى ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أى عالم علم من يشهد ويرى كرويتك المؤكدة، فهو عالم علم المشاهدة بما يفعلون آنا بعد آن، أى بما يتجدد فى فعلهم وهو سبحانه يحاسبهم عليه إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإليه المآب.

لكل أمة رسول

قال تعالى :

وَلِكُلِّ

أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَنْتُمْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

إن الله تعالى لا يظلم الناس فما كان ليعاقب إلا بعد أن يبين الحق ويدعو إلى الرشاد، وينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، ولذلك كان لكل أمة رسول كما قال سبحانه: ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾ [فاطر].

وقد اتجه المفسرون في قوله تعالى لكل أمة رسول اتجاهين :

الاتجاه الأول - أن ذلك يوم القيامة حيث يجيء كل رسول يشهد لأمرته بما كسبت ويشهد عليها بما اكتسبت فيقضى بينهم بالقسط، أى بالعدل الموزون بميزان الحق وهم لا يظلمون، أى أن القضاء يكون الإنصاف فلا ظلم قط .

والاتجاه الثانى - أن هذا نظام الله تعالى الذى سنه فى الدنيا يرسل لكل أمة رسولا، ونكر كلمة ﴿رَسُولٌ﴾ فلم يأت به معرفة لتعدد الرسالات وتنوعها،

فمنهم من جاء لتربية القوة والعزة كما هي شريعة التوراة التي نزلت على موسى، ومنهم من جاء لتربية الروح والنفس كما هي شريعة عيسى لبنى إسرائيل الذين غلظت أكبادهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ أى جاء فى وسطهم يدعوهم إلى سواء السبيل، كان من أجاب منهم له ثوابه ومن أعرض ونأى بجانبه حق عليه عقابه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾.

ونرى أنه لا تعارض بين الاتجاهين، ويمكن الجمع بينهما، فيكون الرسول داعيا فى الدنيا، ويكون فى اجابته المهتدى والضال، ثم يكون يوم القيامة شاهدا على الفريقين، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

وإن المشركين فى إنكارهم للبعث يستعجلونه

إن الأساس فى رد دعوات النبيين إلى الرسالة الإلهية وهو إنكارهم البعث والنشور وكفرهم بما يغيب عنهم، ولذا يكون استغرابهم من دعوة الرسل وإجابتهم واحدة ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ والخطاب فى هذه الآية للرسل، والقائلون هم المشركون، فالضمير فى كلمة ﴿يَقُولُونَ﴾ للمشركين لأنهم الذين يجادلون النبى ﷺ.

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الاستفهام هنا للتعجب والاستهزاء، وللإستفهام عن الزمن البعيد عن الوعد الذى يكون وراء البعث، والوعد هو الإنذار الشديد بالعذاب الأليم فيقولون ساخرين: متى يكون ذلك الوعيد؟ ويكررون ذلك الإستفهام المستهزئ الذى ينم عن الاستهانة وعدم الاهتمام غرورا بأنفسهم وانغمارا فى لذاتهم.

وأعقبوا الاستهانة والاستهتار بقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى أنهم يردفون الاستهزاء بتكذيب الرسل، ولا بد من الإشارة إلى أن ذلك يتكرر فى خطاب كل

الرسول، وأن الكفر بلسان واحد في الاستنكار والاستهزاء؛ ولذا جاء الخطاب للرسول أجمعين لا لمحمد ﷺ وحده؛ لأن دعوتهم واحدة، ورد المشركين واحد، وإن كان المتحدث عنهم مشركو العرب؛ لأنهم صورة منهم بل أوضح صورة عند محمد ﷺ - طلبوا منك ومنك ومنك، وكرروا الطلب متى هذا الوعد؟ وهو العذاب الذى أوعدت، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)﴾.

طلبوا مستهزئين غير مباليين أن يحل بهم ما وعد الله من عذاب فأمر الله نبيه ﷺ بأن يقول لهم أنه لا يملك ذلك وإنما يملكه الله تعالى وحده، ويقول لهم ﷺ أنه إنسان مثلهم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً، وبالأولى لا يملك لغيره ثم بالأولى لا يملك ضرراً عاماً يعم المشركين جميعاً كما يطلبون.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقدم الضر على النفع؛ لأنهم يطلبون أن ينزل بهم ما يضرهم فكان الرد بنفسه أولاً، فإذا كان لا يملك أن يضر نفسه فلا يملك أن يضر غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء يبين كمال سلطان الله وأنه وحده الذى يشاء ويختار وينفذ فى الوجود الكونى ما يشاء هو، لا ما يشاء غيره، والمعنى هنا إن شاء فالذى يملك سبحانه وإن لم يشأ فلا أملك، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ حيث الإرادة والاختيار المطلق لله تعالى وحده كقوله سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ... (١٠٧)﴾ [هود]، فهى دالة على اختياره المطلق ومدلول هذا الاختيار أنه لو شاء لضر، فليس أمر هذا الكون أو الإنسان يقع بغير اختياره، وهذه إجابة فيها بيان أنه ﷺ ليس مغترا كاعتراهم وأن قوته محدودة ولا يدعى ما ليس له مثله، ومع هذه الإجابة إجابة أخرى هى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أى زمن محدود تنتهى عنده، والأمم السابقة كان أجلها

بما ينزل عليها من عذاب ساحق مبيد للكافرين كالغرق لقوم نوح، والهلاك بسبب سماوى كما كان لقوم لوط وعاد وشمود.

لم يقدر لكم الله تعالى الهلاك كهذه الأمم، بل إنه لا يزال يرتجى الخير لبعضكم أو أن يكون من أصلابكم، وفى هذا ما يفيد أن الوعد فى الآية السابقة ما كان مقصوراً على الكافرين بعذاب الآخرة بل يشمل ما كان فى الدنيا من إهلاك الكافرين المفسدين، كما تقص القصص الصادقة فى القرآن.

﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أى إذا حل أجلهم فى زمانه المعين الذى قدره الله تعالى لا يستطيعون طلب تأخير أو تقديمه (السين، والتاء) للطلب أى أنهم ليس لهم تأخير أو تقديمه كما يتوهم المشركون ويطلبونه مستهزئين أو جادين.

وقد أشار سبحانه من بعد ذلك إلى أن عذابهم قد يقع فى الدنيا كما وقع لغيرهم، فأمر رسوله ﷺ ليقول لهم:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠)﴾.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ استفهام داخل على رأيتم وهو لتصوير حالهم، والمعنى أرايتم وتصورتهم حالكم إذا أتاكم عذابه بياتاً وأنتم نائمون بريح عاصف أو هدمت عليكم دياركم وجعل الله عاليها سافلها وأنتم نائمون، أو جاءكم نهارة ورأيتم الهول الكاسح، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ [الأعراف].

هذا تصوير العذاب الذى يطلبونه فيقول سبحانه: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ هنا إضراب انتقالى فى القول، والمعنى أرايتم إن ينزل بكم العذاب بياتاً أو نهارة، وتصوره واقعاً بكم، أم ماذا تريدون، أو ما الجزء الذى تريدونه، وهو لا يتجزأ أو يتجزأ وجزؤه ككله، وفى النص القرآنى بعض الألفاظ:

أولا - قوله ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ هو استفهام عن الرؤية البصرية أو القلبية، وقد قلنا: إن الكلام يتضمن تصوير العذاب الذى يستهزئون به أنه لم يقع، والزمخشري يقول: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تدل على طلب الإخبار، أى أخبرونى ما هى حالكم إذا نزل بكم العذاب بيانا أو نهارا.

ثانيا - عَبَّرَ سبحانه عن نزوله ليلا بقوله: ﴿بَيَّاتًا﴾ للدلالة على السكون والاطمئنان وأنه يجيئهم وقت اطمئنانهم وسكونهم فيكون أشد وقعا.

ثالثا - إن جواب الشرط فى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ محذوف وهو الندم على الاستعجال والإحساس بالهول الشديد.

رابعا - قوله تعالى: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وصفهم بالإجرام، أولا والإشاره إلى سبب إنكار البعث وعذاب الله الذى يستحقونه وهو إيغالهم فى الجريمة وللتوبيخ على فعلتهم، وقد قال فى ذلك الزمخشري: «إن فى حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه وإن أبطأ فضلا عن أن يستعجله». فيشير بهذا إلى أنهم كان يجب عليهم أن يشعروا بالجريمة وأنها تستدعى عقابا لا محالة؛ وذلك يوجب عليهم أن يتوقعوه لا أن يستعجلوه.

إن وعد الله على لسان نبيه ﷺ آت لا محالة يوم لا ينفع نفس إيمانها بعد أن كفرت، ولذا قال تعالى:

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ عاطفة وهى للترتيب والتراخى، والترتيب هو ترتيب الاستفهام بعد الاستفهام، والاستفهام السابق كان لتصور العذاب وحالهم عنده ليعتبروا ولا يستعجلوا، وجاء الاستفهام الذى يليه وقد وقع العذاب فعلا؛ فالأول كان لتصوير العذاب متوقعا، والثانى لوقوعه بهم والتفاوت بينهم كالتفاوت بين المتوقع والواقع والتصور والحقيقة، وفيه الإشارة إلى أنهم لماديتهم لا يؤمنون إلا بما يرون.

والتوقع هو ما يريد النبي ﷺ أن يتوقعوه ويتصوروه، وإلا فهم مكذبون مستهزون.

﴿ثُمَّ﴾ متأخرة والتقديم للاستفهام؛ لأن له الصدارة وتقدير القول أنه إذا ما وقع ورأيتموه رأى العين في الآخرة أمتم به وصدقتموه، وقد قضى زمن التكليف وانتهت دار الابتلاء وجاءت دار الجزاء، إنه إيمان لا ينفع.

ثم أردف سبحانه ذلك بتوبيخهم على تأخيرهم في الإيمان واستعجالهم العذاب فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْإِيمَانَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا بَلْ كَانَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ ضَلَالٌ كَبِيرٌ﴾ أي تؤمنون به في هذا الوقت المتأخر وقد كنتم به تستعجلون وتستعجلون متحدين أو متحكمين أو ساخرين، فلا استفهام إنكارى توبيخي، والتوبيخ من نواح ثلاث:

أولاهـا - من ناحية إنكارهم البعث.

ثانيتهما - من ناحية تهكمهم على من ينذرهم.

ثالثتها - أنهم لا يؤمنون إلا في الوقت الذي لا ينفع النفس إيمانها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْإِيمَانَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا بَلْ كَانَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ ضَلَالٌ كَبِيرٌ﴾ يقول كثير من المفسرين التابعين للزمخشري: ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ معناها تكذبون، وإنى أقول أنهم كانوا مكذابين حقيقة ولكن كانوا يستعجلون فعلا ولو بظاهر القول، ويكون ذكر الاستعجال تهكما بهم وتوبيخا لهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْإِيمَانَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا بَلْ كَانَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ ضَلَالٌ كَبِيرٌ﴾ جمع بين الماضي والحاضر، وهو دليل على استمرار استعجالهم التهكمى وتكذيبهم باليوم الآخر ووعد الله تعالى بالجزاء.

هذه حال المكذبين وإيمانهم بعدم وقوع العذاب وإنكارهم لتوقعه ثم إيمانهم به بعد أن يروه، ثم يبين سبحانه وقوع العذاب وتمكنه منهم فيقول تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢).

﴿ثُمَّ﴾ للعطف والترتيب والتراخي، والعطف هنا يكون على الاستفهام السابق وما تضمن من توبيخ وتهكم بهم، كما تهكموا على أوامر الله تعالى ونواهيه من قبل، ودعوتهم إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب، والتراخي في الانتقال من مرتبة التوبيخ على الكفر إلى مرتبة العذاب العتيد الحاضر المهيأ.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بنى للمجهول للإشارة إلى أنه استخفاف منطقي يقال بحكم المنطق والوقوع لكفرهم، وعبر عنهم بالموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾ للإشارة إلى سبب العقاب وهو ظلمهم بالشرك وقصد الضلال والإفساد في الأرض وأشاعه زور القول وبهتانه، وإفراطهم في الأخذ بالماديات التي سيطرت على أفهامهم وصاروا لا يؤمنون إلا بها.

﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ فيه إضافة العذاب إلى بيان له هو أنه خالد دائم ما دامت السموات والأرض، وفي قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا﴾ تشبيه للعذاب بالشئ الذي يذاق فيصيب إحساسهم، حتى أنهم يذوقونه كما يذاق الشئ المؤلم المرير.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فيه أن العذاب بسبب ما كنتم تكسبون من أعمال خبيثة فيها إيذاء للناس وإفساد لعقائدهم فهو جزاء وفاق، والجمع بين الماضي والمستقبل دليل على أنهم يكسبون الشر دائما لا يتأون عنه ولا يقصرون.

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، والمعنى لا تجزون إلا ما كنتم تكسبون، فجعل سبحانه الجزاء كأنه العمل الذي استوجبه أصلا، وذلك مبالغة في العدالة فالجزاء والعمل متساويان.

الجزاء شديد

وَيَسْتَبْشِرُونَكَ

أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآلِآنَ

وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

ذكر لحالهم يوم القيامة عندما ينزل بهم ما كانوا يستعجلون به ويرونه حقا
وصدقا وعيانا، وقد كانوا من قبل ينكرون وقوعه ويعجبون ويستهزئون ممن
يذكرهم، وقد ذكر سبحانه صورة من القول الذي كان على ألسنتهم.

﴿يَسْتَبْشِرُونَكَ﴾ النبأ هو الخبر ذو الشأن، والسين والتاء للطلب وهي، هنا
لطلب البيان، فالمعنى يستخبرونك عن النبأ العظيم وهو أن الناس يحيون بعد أن
يموتوا، وتجمع أجسامهم بعد أن صارت رفاتا وعظاما، وقد أمر الله تعالى أن
يجيهم بتأكيد الوقوع مقسما. فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.

﴿إِي﴾ معناها «نعم» إنه حق ثابت واقع لا محالة، وقد قدر علماء البيان
أن كلمة ﴿إِي﴾ التي تكون بمعنى نعم، لا تكون إلا ومعها قسم، وقد قال النبي
ﷺ كما أمره ربه: ﴿وَرَبِّي﴾ أي الذي خلقتني فبرأني ورباني، وفيه إشارة إلى
تقريب تحقق ذلك الأمر الذي عجبوا منه واستنكروه واستهزؤا به، والقسم عليه
﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أكد أنه حق بالجملة الاسمية وب «إن» التي للتوكيد وباللام.

أكد القسم أنه في قدرة الله وفي إمكانه ولا يخرج عن قدرة القاهر لكل شيء فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لستم معجزين لله تعالى عن إعادتكم وحسابكم على ما قدمتم وأخذ المجرم بما اكتسب وإعطاء المحسن ما استحق من ثواب، والاستفهام في ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ حقيقى منهم لأنهم جاهلون باليوم الآخر غلبت عليهم الحياة الدنيا، وأنه قد يكون تعجبا واستغرابا واستنكارا، وتوهم إلى هذا صيغته ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ وهو لعجبهم الذي بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ...﴾ (٥) [الرعد].

قال ابن كثير: «لم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بإجابة المشركين بالقسم إلا في ثلاث مواضع هذه أولها. والثانية: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُم ...﴾ (٣) [سبأ]، والثالثة: في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتَنْبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧) [التغابن].

كان أمر الله بالقسم في هذا المقام لينزيل غرابتهم أولا، وليؤكد في ذات نفسه ثانيا، وليحملهم على الاستعداد له ثالثا.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فيه بيان للإمكان ثم التحقق، وتأكيد لإزالة الاستغراب، وهو نفى مستغرق للإعجاز، فالله تعالى خالق كل شيء لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

إن ما يكون في يوم الجزاء من عقاب للآثمين يساوى كل ما في الدنيا بحذافيرها من متاع، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤).

إن الهول سيكون فوق ما تدركه عقول من كفروا بذلك اليوم واستهانوا واستهزؤا به، وأنه لو تحقق لكل نفس ظلمت بالشرك والعناد والاعتداء والشهوات

وغير ذلك من الظلم وهو ظلمات يوم القيامة، لو ثبت أن لها ما فى الأرض من معادن وزروع وحدائق وجنات ونعيم ثابت وعارض تملكه وما فى الأرض جميعا لافتدت به وقدمته كله فداء، وهذا بيان لتضاؤل الدنيا بنعيمها وما فيها إلى جانب عذاب الله تعالى، وأن على كل نفس أن تتوقاه فى هذه الدنيا.

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ عندما يرون هول يوم القيامة اعترتهم الندامة وأسروها لا يستطيعون إبداءها من ذهولهم بما رأوا، وقد قال فى ذلك الزمخشري قولا حسنا: ﴿أَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ لما رأوا العذاب؛ لأنهم بهتوا برؤية ما لم يحسبوا ولم يخطر ببالهم، وعانوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع سوى إسرارهم الندم والحسرة فى القلوب، كما ترى المقدم للصلب فإنه من فظاعة الخطب لا ينبس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا، وقيل أسر رؤساؤهم وسفلتهم، أسروا الندامة حياء منهم ومن فعلتهم وخوفا من توبيخهم. وقيل أسروها، أى أخلصوها إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم أسر بالشئ لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة.

وإن الآية الكريمة تشمل كل هذه المعانى مع أن أولها المتبادر، ولكنه كلام الله يحمل المعانى التى ندرکها وغيرها، والله تعالى وحده أعلم.

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ الضمير يعود على كل الظالمين الذين ظلمت نفوسهم وودوا أن يكون فى ملكهم الأرض وما فيها، والضمير بلفظ الجمع يعنى الجمع فى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾.

وإن الله يقضى بينهم بالقسط، أى بالحق الذى يوزن فيه بميزان دقيق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وهم لا يظلمون، أى لا ينقصون شيئا لأنهم يحاكمون أمام الحكم العدل اللطيف الخبير.

إن البعث وما بعده من حساب هو فى قدرة الله؛ لأنه مالك الوجود بما فيه ومن فيه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥).

﴿ألا﴾ للتنبيه إلى عظم ما يجيئ بعدها لدلالته على القدرة القاهرة والسلطان الظاهر.

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من نجوم ذات أبراج، وأرض ذات جبال، ومعادن، وأحياء وغير ذلك، وأن من يملك شيئاً يحكمه ويكون في قبضة يده ينظمه بحكمته وعدالته، وأنه يبدأ الخلق ثم يعيده وإن الحساب أمر ثابت، وإن الله لا يخلف الميعاد، وإن مواعده حق لا يقبل التخلف. وفي الكلام إخبار مؤكد من الله تعالى أن وعده حق، فقال سبحانه بعد بيان ملكيته المطلقة للكون وما فيه وقدرته: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذا تأكيد من الله تعالى يؤكد بإضافته إلى الله تعالى العلى الأعلى.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا لمخالفة المخالفين بعد تأكد الخبر من فم الأمين الصادق ومن الله تعالى، وذلك يوجب التصديق والإذعان والإيمان وحكم على الكثرة لا على الجميع؛ لأن الذين لا يعلمون الحق وأخذوا بالمادة هم الأكثرون كقوله تعالى: ﴿وَأِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (١١٦) [الأنعام].

ولقد قرب الله تعالى البعث بأمر يروونه كل يوم، فقال تعالى:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦).

الضمير في كلمة ﴿هُوَ﴾ يعود إلى لفظ الجلالة مالك السموات والأرض والمدير لهما ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يخلق من الميت حياء، ويخرج من النواة الجامدة حياء ناميا، يأتي بالزرع حبه متراكب ثم يصير غشاء أحوى فيكون في ذلك حطام، ويميت الإنسان فيصير ترابا، وهكذا المثل المستمر في الوجود بين إحياء وإفناء، وأن من يفعل ذلك قادر أن يعيد الأموات أحياء ويعيّنهم.

ثم يبين سبحانه النتيجة منذراً ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى أن الرجوع إليه وحده لا محالة، وإن جزاء الإحسان إحساناً، وأما الإساءة فعاقبتها عذاب يوم عظيم والله يتولى كل شىء.

شرح الله رحمة وشفاء

يقول تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَدْبَك لَكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ ؕ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

النداء للناس جميعاً عرباً كانوا أم عجماء؛ لأن شريعة الله للناس كافة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ (٢٨) ﴿[سبأ]﴾.

ولذا كان النداء بالبعيد لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

تبين هذه الآية أن ما جاء به ﷺ قد اجتمعت فيه عناصر أربعة هي أقسام القرآن الكريم وهدايته:

القسم الأول - الدعوة إلى كل خير والإبعاد عن الشر والزجر، وضرب الأمثال في القصص القرآني الحكيم، والتربية النفسية بالعظة والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾ (١١١) [يوسف].

ونسب سبحانه الموعظة إلى نفسه فقال: ﴿مَنْ رُبِّكُمْ﴾ وذكر الرب في هذا المقام إشعار بأنها في التربية الربانية الحكيمة لمن اتعظ واعتبر وأدرك وفقهت نفسه إلى الحقائق ووعاها.

القسم الثاني - أنه مما اشتمل عليه القرآن أنه شفاء لما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ فإذا كانت الموعظة تقتضى واجبا إيجابيا هو تربية وتهذيب وإنشاء، فالشفاء كشف وإزالة لأدران الأمراض النفسية من حسد وحقد وتباغض وتنازع وخوف تبسّدي في الصدور وتنتهي إلى أن تكون أسقاما في المجتمع البشرى تفسد بناءه وتقوضه، وكل هذا داء يحتاج إلى دواء، وفي القرآن الكريم ذلك الدواء الذي يكون به الشفاء.

القسم الثالث - هو الهداية فقال سبحانه: ﴿وَهْدًى﴾ أى أن فيه الهداية إلى الطريق المستقيم، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم فسلكوا الطريق الأقوم وبعّدوا عن الشرك والضلال والاعوجاج، وساروا على هدى من الله استقامت به قلوبهم وألستهم وكان منهم المجتمع الكامل القويم لا عوج فيه ولا التواء عن القصد سوى.

القسم الرابع - ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو ما في القرآن الكريم من رحمة، والرحمة هنا هي الشريعة المنظمة لمجتمع المؤمنين الذي يأخذ بها كل ذى حق حقه، ويرتدع بها الظالم، أففى شرائعها الإيجابية رحمة بالناس وكل نظمها رحمة وفى شرائعها الناهية رحمة؛ لأنها تنقية من الفساد ودفع لظلم الآحاد، وإذا كان الظلم شقاء فدفعه رحمة وسعادة، وإن العقوبات الزاجرة التى شرعها الكتاب الحكيم رحمة، وإنه من الرحمة أن يؤخذ المجرمون بجرائمهم، وقد قال ﷺ: «من لا

يَرْحَمَ لَا يُرْحَمُ»^(١) ودفع الظلم والقصاص رحمة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾ (٧٩) [البقرة].

ودفع اعتداء المعتدين رحمة وذلك من قوله تعالى: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ...﴾ (٢٥١) [البقرة].

وإن الموعدة والشفاء والهدى والرحمة للمؤمنين؛ لأنهم يتعظون بمواعظه ويستشفون بشفائه ويهتدون بهدأيته وتنالهم رحمته.

قال البيضاوى فى مغزى هذه الآية: «قد جاء كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، الرغبة فى المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التى هى شفاء لما فى الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم، نجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران إلى مصاعد من درجات الجنان».

إن من فضل الله على عباده نزول القرآن الكريم المشتمل على هذا الفضل العظيم الذى يقول فيه سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨).

أمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ أى أن هذا القرآن الذى نزل جامعا للموعدة المينة وشفاء القلوب وهدايتها، والشريعة هى من فضل الله على خلقه الذى يختص بها من يشاء، وبرحمته على عباده الذين أنقذهم من الضلال، وفى هذا بيان بأن تنزيل القرآن وما فيه هو بفضل الله ورحمته، وتكرار حرف الجر (الباء)؛ لبيان أن كليهما مراد الله تعالى من تنزيل الكتاب، ثم يبين سبحانه أن هذا القرآن بما فيه هو أساس للسعادة والسرور والفرح لقوله تعالى:

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ والفاء الثانية واقعة في جواب الشرط المقدر المطوى في قوله تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ أى فإن ذلك النزول إذا كان من فضل الله ورحمته فليفرحوا، وتكررت (الباء) لتأكيد أن ذلك الفضل وتلك الرحمة من أسباب الفرحه وهو يزيد على كل خير الدنيا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الضمير في ﴿هُوَ﴾ يعود إلى القرآن بما فيه من موعظة وهداية وشفاء لأسقام القلوب، ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى من أموال ورخاء فى الدنيا وأسباب القوة وغير ذلك مما هم حريصون على جمعه راغبين فيه، فإنه إن كان يفرح زمنا فإنه يكون وبالا على صاحبه، والمفاضلة هنا هى بين منافع مادية عاجلة ومنافع روحية، وكلمة خير تدل على أنه بلغ أعلى الدرجات عن هذا الذى يجمعونه.

إن الشريعة الرحيمة التى تشمل الحلال والحرام يخرج الكافرون عن نطاقها ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩).

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم عن الرزق الذى أنزل إليهم إذ يجعلونه حراما وحلالا من غير أمر إلهى يحل لهم ويحرم. وقد بين الله تعالى فى الآية السابقة كيف هداهم وأرشدهم، وفى هذه الآية الكريمة كيف يتلقون رحمة الله إذا انحرفت نفوسهم بالشرك.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ استفهام إنكارى والإنكار منصب على الرؤية وما بعدها من جعلهم بعضه حراما وبعضه حلالا، والاستفهام الإنكارى هنا إنكار للواقع، أى بمعنى التوبيخ فالله تعالى يوبخهم على أن جعلوا منه حراما وحلالا.

وكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ معناها خلق وأنشأ، وعبر بالنزول باعتبار أن الرزق رحمة نازلة من الله تعالى، أنزل سبحانه من السماء مطرا أنبت به من ثمرات كل شئ مما يأكل الناس والأنعام وهو بمقتضى أصل الخلق والتكوين حلال بالإباحة الأصلية

الثابتة، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ (٢٩) ﴿[البقرة] إلا ما كان من الخبائث التي حرمها الله تعالى، ويقول سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا...﴾ (١٣٦) [الأنعام].

أى للأحجار التي جعلوها بزعمهم شركاء لله.

وحرّموا السائبة والوصيلة والحام وغير ذلك كفرا بالنعمة وشركا بالله وعبثا برحمته.

﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أى صيّرتم منه حراما على أنفسكم، ولم يكن كذلك بل كان حلالا بمقتضى أن الله لم يحرمه. ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم ﴿قُلْ أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وهنا الاستفهام داخل على لفظ الجلالة وموضوعه الإذن وهو فاعل لفعل محذوف دل عليه «أذن» بعد ذلك، كالشرط إذا دخل على الاسم كما فى قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١)﴾ [الانشقاق].

الاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع مع التوبيخ لهذا التحريم، و﴿أَمْ﴾ التالية للإضراب عن الاستفهام السابق؛ لأن المستفهم عنه منفى وقوعه، فهو انتقال من الاستفهام الإنكارى النافى إلى استفهام توبيخى نافى للواقع، فقد حكم سبحانه مع التعجب التوبيخى بنفى أن يكون ذلك بإذن الله، والاستفهام محصص للتوبيخ على ما وقع منهم، وهو الافتراء على الله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

وقدم قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ للتخصيص، أى أنتم بهذا تفترون على الله لا على غيره، وأى فساد فى التفكير أن يكون افتراؤهم على الله خالقهم وخالق الوجود كله، وأنهم يعترفون بالخالق وأنه لا شريك له فى خلقه ولكن يعبدون الأحجار لتكون شافعة عنده، فكانوا سخفاء فى شركهم وفى تبريره. تعالى الله عما يشركون.

بعد أن أكد سبحانه أنهم يفترون سألهم عما يتوقعه الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ٦٠﴾.

الظن هنا هو التوقع المبني على الظن الذي اختاروه لأنفسهم سبيلا بدل أن يتحروا مستيقنين، والاستفهام توبيخي إنكارى وطلب لأن يفكروا فيما يتوقعون يوم القيامة، هل يتوقعون مع افترائهم على الله أن يدخلوا جنات النعيم؟ أم يتوقعون جزاء وفاقا لما صنعوا في جنب الله تعالى من عصيان وتمرد على أوامره، بل إنهم ساروا في عصيانهم إلى أبعد أنواع الضلال فافتروا على الله في الحلال والحرام، فحرموا على أنفسهم نعمه ونسبوا التحريم إليه، وحلّلوا ما حرم الله وافتروا كما كانوا يفعلون من الطواف عرايا.

وقد بين سبحانه أنه أنعم عليهم، وهم الذين غيروا وبدلوا وحرّموا طيبات أحلت لهم ولم يشكروا بالطاعة والحمد على ما تفضل به عليهم سبحانه، فقال تعالى كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ في قوله تعالى تأكيد لفضله بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة وبالجملة الاسمية، وبأن الفضل يصحب كل تصرفه لأمر العباد تعالى، فقال سبحانه: ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ مؤكداً ذلك باللام.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستدراك هنا معناه أنه كان حقا عليهم أن يشكروا فاستدرك سبحانه على هذه النتيجة المنطقية وقرر أن أكثرهم عدلوا عنها وانحرفوا عن مسلكها إلى الضلال فكانوا لا يشكرون وجحدوا، وكان التعبير بالمضارع؛ لدوام عدم شكرهم وتكرر جحودهم وتجده آنا بعد آن.

الله تعالى رقيب على العباد

قال تعالى :

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

إن أكثر الناس لا يشكرون نعمة الله ويكفرونها، وإذ يدعوهم النبي ﷺ يناله أذاهم واستهزأؤهم والتعذيب لبعض أتباعه ومقاومة الدعوة وفتنة من يتبعونها من الضعفاء وغيرهم، والله تعالى يبين علمه بذلك وإمهاله لهم رجاء إجابتهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الشأن هو القصد والحال من قولهم شَأْنَتْ شَأْنَهُ، أى قصدت قصده، والله تعالى يعلم أحوال النبي ﷺ ومقاصده وما يقوله من إرشاد وتوجيه وبيان لحججه، والله سبحانه عليم بجهاده فى دعوته إلى ربه ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أى ما تتلوه عليهم من أجل هذا الشأن، ولتحقيق الرسالة فى القرآن فالضمير فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ يعود على الشأن، أى ما تتلوا من أجله عليهم فى بيان هذا الشأن لتكذيبهم، فتحدثاهم لإثبات الحق كالأيات التى يحدثاهم فيها أن يأتوا بمثله.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ التفت الخطاب الكريم إلى الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، كما هو شأن الخطاب فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ...﴾ [البقرة]، وكان هذا الخطاب العام للناس لبيان علمه سبحانه بكل ما يعملون، وفى ذلك إنذار وتبشير ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، ﴿مَا﴾ نافية وكلمة ﴿إِلَّا﴾ للاستثناء من

النفي، أى ما كان عمل النبي معهم ولا عملهم معه إلا كنا عليه شهودا، ضمير المتكلم لله سبحانه، وجاء بضمير الجماعة تعظيما وإجلالا، وجاء هكذا المناسبة ضمير الجماعة فى ﴿كُنَّا﴾؛ ولأن ﴿شُهُودًا﴾ تتضمن تعدد الشهادة بعدد حوادثها، فالله تعالى يعلم علم المشاهدة والمعاينة لكل واقعة وكأنه شاهد عليها، ويتعدد الحوادث يستعدد العلم بالمشاهدة، وكان علمه سبحانه - وله المثل الأعلى - علم شهود.

والشهادة تتضمن هنا معنى المراقبة والإحصاء والتتبع والاستقراء، ولذا قال تعالى فى بيان أنه يعلم كل شأن وكل عمل فى وقت وقوعه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أفاض بمعنى اندفع واسترسل، والضمير فى كلمة ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى كلمة ﴿عَمَلٍ﴾ أى لا تعملون عملا، ويشمل العمل القول، إلا يعلمه سبحانه وقت أن تندفعوا فيه مسترسلين سواء كان خيرا أم كان شرا، دقَّ أو جَلَّ؛ ولذا قال سبحانه فى بيان علمه لكل شئ مهما صغر: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، ﴿يَعْزُبُ﴾ أى يغيب فالمعنى أنه لا يغيب ولا يبعد فهو حاضر دائما مهياً عند الحساب، ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أى وزن ذرة وهى أصغر جزء لفتات الأشياء، وقد أثبت العلم أن بالذرة نواة ذات ثقل والله تعالى أعلم بما فيها، وقال العلماء: إن فى قوتها مجتمعة ومنفردة دليل لقدرة المنشئ لكل شئ فى الوجود الفاعل المريد المختار.

ثم يقول سبحانه فى بيان عموم علمه: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ كلمة ﴿لَا﴾ هنا هى تأكيد للنفي فى ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ وكل هذا مكتوب فى كتاب مبين، أى بين واضح يبرز يوم القيامة منشورا معلما كل ما فيه، ولقد ذكر سبحانه عموم علمه بالأشياء ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام].

ثم يقول سبحانه: ﴿... لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ...﴾ (٣) [سبأ].

وقد تساءل الزمخشري عن تقديم السموات على الأرض في هذه الآية؛ لأنه سبحانه قدم الأرض في الآية من سورة يونس، فقال الزمخشري: «من حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه سبحانه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم فلزم تقديم الأرض، وفوق ذلك أن التكليف والحساب والإنذار والتبشير على أهل الأرض ولا يعرف لأهل السماء إلا في علم التكليف، ولأن الأرض خلق منها الذين يحاسبون وإليها يعودون والله تعالى عليم بكل ما في الوجود».

أولياء الله

الْآيَاتُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لَهُمْ لِكَامِلَتِ اللَّهِ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

ذكر سبحانه وتعالى أنه ناصر أولياءه، وأن مآلهم النعيم لا يخافون ولا يحزنون: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴿

ولى الله هو المحب لله المطيع لأوامره المجتنب نواهيه، ويكون الله تعالى في قلبه دائماً، لا يتحرك إلا في حب الله رجاء رضاه أولاً، ورحمته ثانياً، واتقاء

عذابه ثالثاً، وإن المشركين الكافرين كانوا يعادونهم ويستكبرون عليهم فبين الله تعالى أنهم إذا كانوا فقدوا ولاء الكافرين فقد استبدلوه بأن الله مولاهم، وأولياء الله يتحابون فيما بينهم ولا يوادون من يحادد الله ورسوله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...﴾ (٢٢) [المجادلة].

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم من عذاب يترقبونه ولا هم يحزنون لخير فاتهم، وأكد نفى الحزن عنهم؛ لأن قلوبهم عامرة بالله سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣) آمنوا بالله حق الإيمان يعبدونه كأنهم يروونه فإن لم يكونوا يروونه يحسون في عبادتهم كأنهم في حضرته العلية سبحانه، وهذا هو الإحسان، كما قال ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١). ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أى يخافون غضب الله تعالى ويتقون عذابه.

وإنهم إذ يؤمنون ذلك الإيمان ويحسنون ويتقون الله حق تقاته، تكون قلوبهم عامرة بذكر الله تعالى فلا يخافون من مستقبلهم، وقد فوضوا أمورهم لله تعالى وتوكلوا عليه سبحانه حق توكله بعد أخذهم بالأسباب، وتركوا لله تعالى مؤمنين أن يوفق ويربط الأسباب بمسبباتها.

وهنا عبارتان لهما مغزاهما:

العبارة الأولى - قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى أنهم يرجون ما يرجوه المؤمن من ربه فالله تعالى يلقي في قلوبهم الاطمئنان إلى المستقبل، وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تأكيد لعدم الحزن:

أولاً: بتكرار كلمة ﴿لَا﴾ النافية، فإنها مؤكدة للنفي المذكور فى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

ثانيا: بذكر الضمير ﴿هُمْ﴾ فذلك مؤكد من مؤكدات الحكم.

ثالثا: فى التعبير بالمضارع الذى يصور الاستمرار فإنهم لا يداخلهم الحزن؛ لأن قلوبهم عامرة دائما بذكر الله فامتلات طمأنينة، والاطمئنان يطرد الحزن كقوله تعالى: ﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد]..

العبارة الثانية - قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وفيه جمع بين الماضى والمضارع، الماضى فى ﴿كَانُوا﴾ والمضارع فى ﴿يَتَّقُونَ﴾، وهذا يفيد استمرار التقوى، قلوبهم ممتلئة دائما بخشية الله تعالى، وهم بذلك يستصغرون أعمالهم بجوار حق الله ويشعرون أنهم لم يؤدوا حق الله فيرجون رحمته ويخافون عذابه، وذلك مقام الصديقين القريبين من الله دائما.

عن عمر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قيل: يا رسول الله أخبرنا من هم، وما أعمالهم؟ قال: هم قوم تحابوا فى الله من غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس^(١)، ثم قرأ الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٦) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وقبل أن نترك الكلام فى معنى الولاية وقد عرفها سبحانه بأنها الإيمان الخالص والإحسان الكامل وامتلاء النفس بالتقوى، لابد أن نتكلم حول خوارق للعادات، يقولون أنها تجرى على أيدي من يسمونهم أولياء، وبعض علماء الكلام يقولون: إنها تسمى كرامة، وذلك خلاف لما جاء على يد الرسل وسميت معجزات.

(١) أخرجه أحمد: باقى مسند الأنصار - مسند أبى مالك الأشعري رضى الله عنه (٢٢٣٩٩).

ويذهب البعض إلى وجوب الإيمان بكرامة الأولياء، ونحن نقول: لا نزيد على الدين ركنا من أركان الإيمان، فمن رأى خوارق جرت على يد رجل ليست سحرا فليُسّر بما رأى، ومن لم ير شيئا من ذلك فليس عليه أن يؤمن بما لم يكلفه الله تعالى الإيمان به.

وقد ذكر سبحانه ما ينال أولياء الله تعالى من خير بقوله:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٤).

﴿لَهُمُ﴾ الضمير يعود على أولياء الله، البشرى هي التبشير بما يلقي السرور في أنفسهم، وقد حكم الله تعالى لهم بالبشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وذلك وعد حق، ولذا قال سبحانه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وهى ما قرره سبحانه من عذاب ونعيم وبعث ونشور فهى لا خلاف فيها ولا تبديل لكلمات الله الأزلية الباقية ومن ذا الذى يبدل أو يغير فى كلمات الله التى كتبها لعباده المتقين.

والبشرى فى الحياة الدنيا تكون بما ذكره الله لعباده المتقين فى كتابه الكريم وسنه نبيه ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣١) [فصلت].

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن البشرى هى الرؤيا الصادقة تبشره بالخير»^(١)، وروى أن البشرى تكون الشئاء على عمله والرضا بما يفعل. روى عن

(١) رواه البخارى بنحو عن أبى هريرة رضى الله عنه: التعبير - الميشرات (٦٩٩٠). كما رواه مسلم: الصلاة - النهى عن قراءة القرآن فى الركوع (٤٧٩)، والنسائى: التطبيق (١٠٤٥)، وأبو داود: الصلاة (٨٧٦)، وابن ماجه: تعبير الرؤيا (٣٨٩٩)، وأحمد: مسند بنى هاشم (١٩٠٣)، والدارمى: الصلاة (١٣٢٥).

أبى ذر أنه قيل: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل يحمده الناس ويشنون عليه، فقال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(١).

إن المؤمنين الصافية نفوسهم والذين أخلصوا وجوههم لله تعالى تميل إليهم قلوب المخلصين، وكان بعض الأعراب يؤمنون بمجرد رؤيتهم لوجه النبي ﷺ رآه مرة أعرابى فسأله: أأنت الذى تقول قريش أنك كذاب، ما هذا بوجه كذاب ثم أسلم. ذلك صفاء النفس المحمدية بدا نورا فى وجهه فأمن الأعرابى.

وأما بشرى الآخرة فهى لقاء الملائكة لهم بالبشرى، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٠٣) [الأنبياء].

كما يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢) [الحديد].

وإذا كان النبي ﷺ ولى الله وهو أول الأولياء وهاديتهم فلا يلتفت إلى قول الذين يناوئونه؛ لأنه ولى العزيز الحكيم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذا نهى له ﷺ حتى لا يبالى بهم ولا يأبه أو يحزن لما يقولون من تكذيب وتهديد ومن استهزاء وسخرية ومعاندة وإصرار على الكفر وطلبهم لعشيرته أن يسلموه لهم ليقتلوه، والنهى عن الحزن نهى عن الاستسلام له والانشغال به بل يستمر فى دعوته، فالله عاصمه من الناس، وقد علل ذلك النهى بما يبين أن الغلب فى النهاية له، فقال ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وهذا استئناف فى مقام التعليل للنهى السابق، والعزة هى الغلبة والسلطان وجميعها لله تعالى فلا عزة

(١) هذا لفظ أحمد: مسند الأنصار (٢٠٨٧٢)، والحديث رواه مسلم: البسر والصلة - إذا أثنى على الصالح فهى بشرى لا تضره (٢٦٤٢) عن أبى ذر رضى الله عنه.

لهم وإن استكبروا واستعلوا بالباطل وحاولوا إيذاء النبي ومن معه، ولم يذكر عزة للنبي ﷺ؛ لأن عزته سبحانه وتعالى هي عزة للنبي ﷺ إذ هو وليه والله ناصره إذ يدعو؛ إلى سبيله ويناله ما يناله بسبب دعوته إلى الله ووجدانيته وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الكفر هي السفلى.

وقد طمأن الله نبيه، وهدد معانديه بقوله تعالى في ختام الآية: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

والضمير يعود إلى لفظ الجلالة وهذان وصفان، يؤكدان أولاً- عزة الله تعالى وأنه وحده هو العزيز الغالب؛ لأنه سميع، أى عالم علم من يسمع، عليم بكل أحوالهم ما خفى منها وما ظهر ومن كان كذلك فهو العزيز وحده، ثانياً- إنذار لهؤلاء المستهزئين بعاقبة ما يقولون؛ لأنه يحاسبهم على ما يقولون ويستهزئون والله هو الولي وهو الناصر القادر على كل شيء.

الله هو الخالق وحده

يقول تعالى:

الْأَيَّاتِ لِلَّهِ

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّا نَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ألا﴾ للتنبيه إلى ما يقوله سبحانه وما يمكن أن يكون دليلا على قدرته القاهرة الموجبة لعبادته وحده، والأمر الجدير بالتنبيه أنه سبحانه وتعالى له من في السموات ومن في الأرض، وكلمة ﴿من﴾ للعقلاء، أى أن الله تعالى يملك العقلاء في السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس، وإن كان يملكهم فهم عبيده، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾ (النساء) [١٧٢] وكقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٢٣) [مريم]، وإذا كان هؤلاء لحكم الملكية عبيدا فغير العقلاء مثل الأحجار والأبقار أولى بأن يكونوا عبيدا؛ إذ للعقلاء حرية وإرادة واختيار وعقول وفكر ومع ذلك هم عبيد الله بحكم أنه خلقهم وملكهم فليس بجائر أن يكون معبود غير الله تعالى؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ومؤدى النص الكريم أن الذين يدعونهم، أى يعبدونهم على أنهم شركاء لله تعالى ليسوا شركاء لله تعالى فى شيء من الشركة التى تقتضى أن للشريك ملكا وأن الشريك نظير لشريكه، وكيف تتحقق هذه الشركة بين خالق كل شيء وبين حجر لا يضر ولا ينفع، أو بين عبد من عباده هو سبحانه خالقه ومالكة، وكلمة ﴿ما﴾ نافية، أى لا يتبع الذين يعبدون غير الله شركاء لله تعالى، وكلمة ﴿من﴾ بمعنى بدل، وذلك إذ إنهم أشركوا عبادة غير الله مع الله فقد كفروا بالله ولم يعبدوه.

فالشركة منفية بلا ريب، ولا حقيقة لها، فإذا كانت غير موجودة فلا يصح أن يقولها من يعرف أن الله وحده هو خالق السموات والأرض.

أشار سبحانه إلى أن أوهامهم وظنونهم هي التي زينت لهم أن يجعلوا شركاء، ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، فهم لا يتبعون إلا الظن وليس الظن هو العلم الراجح وإنما هو الأوهام والهواجس تتوهمها عقولهم ثم تلج فيها وتستولى عليها بحكم التزيين، حتى تكون كالظن بل حتى تكون كالعلم في عقولهم التي عششت فيها الأوهام وأيقنت بها، فيقول سبحانه: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أى يتوهمون ثم يظنون ثم يعتقدون وما لهم من حجة ولا دليل، ثم أكد سبحانه عموم خلقه فهو لم يخلق العقلاء وحدهم بل خلق الوجود كله.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧).

أنعم الله تعالى على خلقه العقلاء بنعمتى الليل والنهار، ليل ليسكنوا فيه ويقروا مع أهليهم وذرياتهم قرة أعينهم وليطمثنوا، وجعل النهار مبصرا ليعملوا فى الأرض يعمروها ويصلحوها، وفى قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجاز لأن المبصر هو الحى الذى رزق نعمة البصر ووصف به الزمان للمبالغة فى وصف نوره وضياه، وفى هذا إشارة إلى أصل خلق الكون؛ فاختلاف الليل والنهار حال موقع الشمس من الأرض، وذكر هذا فيه دلالة بالاقتضاء على نعمة الله فى خلق الكون كله من السماء وبروجها والأرض برواسيها ومهادها وأكامها وطبقات معادنها وأطيافها وأسماكها وكل ما فيها من نعم، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ [النحل]، وأن الكون كله وما فيه من آيات تدل على أنه الواحد الأحد وأنه لا معبود سواه؛ لأنه الإله وحده، وأن ما يسمونه لهم عبادة ليس بعبادة إنما هى أوهام سيطرت عليهم خضعوا لها ولأهوائهم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إشارة إلى الدلائل البينة الواضحة لخلق الليل والنهار

لقوم يسمعون الحق ويستجيبون له ويهتدون به، وكأن الله تعالى ينفي السماع عنهم
يسمعون ولا يفقهون، كقوله تعالى: ﴿... وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا
يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ (١٧٩) [الأعراف].

ولكن في هذه الآية ذكر سبحانه السمع دون البصر؛ لأن القرآن يتلى عليهم
والآيات تقرأ حسهم فلا يعتبرون، فهم لا يسمعون دعاء القرآن لهم بعبادة الله
تعالى وحده ولو كانوا يعتبرون بالآيات لسمعوا القرآن واعتبروا به.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ
عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨).

إذا كان كل من في الأرض ملكا لله تعالى وعبيدا له، فالمسيح مملوك لله
تعالى؛ لأنه سبحانه خالقه، ومن يستنكف أن يكون عبدا لله تعالى، وإذا كان
الوثنيون قد اتخذوا الأحجار آلهة، فإنه لا يقل شركا عنهم من قال إن الله اتخذ
ولدا؛ ذلك أن كليهما أشرك، والوثنيون لم يمسوا الذات الإلهية وإن كانوا ضلوا
ضلالا بعيدا، أما من قالوا اتخذ الله ولدا فقد وافقوهم في الشرك ومسوا الذات
العلية.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ لم يبين سبحانه من قال هذا، والنصارى ليسوا
وحدهم؛ ذلك لأن الذين قالوه كثيرون - غيرهم - قبلهم، فالبراهمة قالوا: أن
كرشنة ابن الله، والبوذيون قالوا: إن بوذا ابن الإله، وعنهم أخذت الأفلاطونية
الحديثة، وعن الأخيرة أخذت النصرانية بعد أن بدلت وحُرِّفت عن مواضعها
وكذبوا على المسيح عليه السلام.

وكل هؤلاء مشركون والفرق بينهم وبين المشركين من العرب، أن مشركي
العرب عبدوا الأوثان بعد أن قالوا: إن الله خالق السموات والأرض واحد في ذاته
وصفاته، وإشراكهم كان في عبادة غيره معه، أما هؤلاء الذين ادعوا أن الله اتخذ
ولدا فإنهم لا ينزهون ذات الله تعالى ويشركون الولد كما أشرك غيرهم.

وفى قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ تصوير صادق لقولهم فهم يقولون إن الله تعالى أراد أن يكفر عن سيئة آدم التي لحقت الخليقة فأنزل ولده إلى الأرض ليكفر عن خطيئة الخليقة بصلبه فداء عنهم، وقوله تعالى يشير إلى ذلك إشارة بينة واضحة، وإنهم بذلك القول الأحمق الغريب يمسون الذات العلية فيحسبون أن الله يحتاج إلى الولد كما يحتاج البشر، ولذا قال سبحانه ردا لقولهم: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أى تنزهت ذاته العلية، ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ إشارة إلى بطلان أقوال هؤلاء الذين لم يقولوا إن الله فاعل مختار، وقد بين سبحانه أن كلامهم ادعاء لا دليل عليه وافترافات فرضتها الوثنية الرومانية والفلسفة اليونانية، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ والسلطان هو الحجة، والقرآن الكريم يستعمل كلمة السلطان فى معنى الحجة؛ لأن الحجة الباهرة توجد بسلطان من الحق على الباطل، وسلطة الحق أقوى وأبعد من سلطة الطغاة الظالمين وإن كان ذلك مجاز من أبلغ الكلام.

وإذا كانوا لا حجة لهم فقد قال تعالى فى قولهم هذا ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والاستفهام للتوبيخ ورميهم بالجهل أولا، وبالكذب على الله ثانيا، وبمخالفتهم لكل منطق وعقل ثالثا، وقد جاء فى قوله تعالى فى نفى الولد: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ (٨٩) تكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴿[مريم].

إنهم يقولون على الله ما لا يعلمون ويصفونه بما لا يليق ويفترون على الله تعالى الكذب، وقد ذكر سبحانه عاقبة ذلك فأمر نبيه ﷺ بالرد.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٩٦).

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ليبين لهم مغبة من يفترى الكذب فى قولهم اتخذ الله ولدا، وأن الأصنام شفعاء لله بقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى،

وهم فى ذلك كاذبون، ومعنى يفترون الكذب، أى يقطعون من الكذب قطعاً وينسبون إلى الله ما لا برهان به .

وعد سبحانه بالموصول للدلالة على أنه السبب فى الحكم عليهم بعدم الفوز وما يفوزون به فى الدنيا إنما هو الأمد القصير، وليس بفوز ما تكون عاقبته عذاباً شديداً ونديماً كبيراً .

والافتراء يكبر ويكبر المفتري عليه، وهؤلاء افتروا على خالق الوجود وهو الله جل جلاله، وأكد سبحانه عدم فلاحهم بكلمة ﴿إِنَّ﴾، والتعبير بالمضارع فى كلمة لا يفلحون يدل على الاستمرار، وإن من شأن الكاذب على الله تعالى ألا يفلح، ولذا قدمت كلمة ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على كلمة ﴿الْكَذِبِ﴾ لبيان شناعة الافتراء وأنه على رب الوجود ومنشئه وبارئه .

وقد يقول قائل: إنما نرى هؤلاء المفترين الكاذبين ينالون متعاً يفوزون بها، فيبين الله تعالى أن ذلك متاع الدنيا وأمدّها القصير .

يقول تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ .

أى أن ما ينالونه فى الدنيا ليس الفوز العظيم الذى يفوز به المتقون ولا الفلاح الذى يناله أهل الحق، وأن من يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً لا يعدون فائزين، بل متعجلين لأدنى النفع طاردون للمنفعة الباقية بالمنفعة العاجلة، والتذكير فى كلمة ﴿مَتَاعٌ﴾ للتحقير والتصغير، والتعبير بمتاع يومئى إلى أنه قليل غير جليل، وقد حدد بأنه فى الدنيا، ويرتضيه من يقبل الدنيا بدل الآخرة، ومن يطلبها وي طرح وراءها الآخرة .

ثم يقول سبحانه فى عاقبة من يكذبون على الله ويتحدون الأنبياء: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ . كلمة ﴿ثُمَّ﴾، فى موضعها من الترتيب والتسراخى، والتراخى زمنى ومعنوى، أما الزمنى خلاف الرجوع إلى

الله بعد البعث والنشور وقيام الساعة، أما المعنوى فما بين متعة الدنيا الفانية وعذاب الآخرة الباقي ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ فيه تقديم كلمة ﴿إِنَّا﴾ على مرجع وفى ذلك معنى الاختصاص ووراء الإنذار الشديد، أى إلينا وحدنا رجوعكم وقد افتريتم الكذب وعبدتم غير الله فلا بد أن تنالوا الجزاء الوفاق على ما قدمتم من قول باطل وعقيدة فاسدة وشرك بين، ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ على موضعها كأختها التى قبلها. وعبر الله تعالى عن العذاب بقوله «نذيقهم» للإشارة إلى أنه يصيب مشاعرهم وأحاسيسهم، يشعرون به، وكلما نضجت جلودهم بدّلهم الله تعالى جلودا غيرها، ثم يبين سبحانه أن ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، حيث يدل الفعل الماضى والمضارع على الاستمرار على كفرهم يجددونه أنا بعد آن.

نوح عليه السلام وقومه

قال تعالى:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرُ عَلَيْنَا
مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا
إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾
فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً
وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ
﴿٧٨﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَبَاءُوا بِالْبَيْتِ

فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

تجىء القصة فى القرآن للعبرة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ... (١١١)﴾ [يوسف] فكل قصة هى موضع عبرة وكل جزء من قصة هو لعبرة فى هذا الجزء تناسب وضعه ولا تكاد تجىء قصة كاملة فى موضع إلا قصة يوسف عليه السلام فهى متكاملة فى موضوعها وهى بيان لحال الأسرة المصرية فى عهد فرعون أو عهد الفراعنة - كما سنبين عند الكلام فى معانيها إن شاء الله تعالى، إن امتد الأجل إليها فى موضعها. نجد فى قصة نوح - عليه السلام - ومن يليه من الأنبياء مواقف مشابهة لتلك التى كانت تلقى بالحزن والألم الشديد فى قلب النبى ﷺ من كبراء قريش وخصوصا من كانوا يقفون موقف الزعامة الوثنية فيها، حتى لقد قال الله تعالى مخاطبا نبيه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... (٦٥)﴾ فكان من المناسب ذكر جزء من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه وكيف صبر وصابرهم ثم بيان ما نزل بهم من غرق، وكذلك قصة موسى مع طاغية التاريخ الإنسانى فرعون وما لقيه منه موسى - عليه السلام - وما قاوم به ثم ما آل إليه أمره من الغرق فى اليم بعد أن نجى بنو إسرائيل بعد أن انفلق البحر لهم اثنى عشر فرقا، وكل فرق كالطود العظيم. فكان هلاك الظالمين من قوم نوح وقوم موسى بالغرق وإن اختلف نوعه، فهلاك قوم نوح كان بسيل منهمر وينابيع، أما هلاك فرعون وجيشه فكان بسيرهم فى البحر الذى فتح لبنى إسرائيل مع موسى عليه السلام ثم انطبق على فرعون وجنوده.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أى الخبر العظيم الشأن الذى اتصل بنوح - عليه السلام - ولم يتدئ بقومه، بل ابتدأ به؛ لأنه الذى نزل به البلاء وكانت المحاربة بينه وبين قومه الذين عتوا وبغوا فى الأرض وأصروا على عبادة الأوثان بإصرار .

﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾

ناداهم نوح - عليه السلام - بما يقربه إليهم، وهو أنهم قومه الذي نشأ بينهم وتربى فيهم وكان الأولى بهم أن يستجيبوا له بدل أن يناوئوه ويكونوا حربا عليه، ﴿إِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ مؤيِّداً من الله، والمقام هو مقام الرسالة الذي كرمه الله تعالى به، وعظم عن أن تدرك عقولهم تذكيره بآيات الله - فإنه بهم لا يبالى فقد توكل على الله تعالى ولم يعد يحزنه قولهم، وبلغ عدم الاهتمام بهم أن قال لهم ﴿فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه يترتب على التوكل على الله أن يواجههم معتمداً إمضاء كلمة الله تعالى، ﴿فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، أى اعتزموا ما اعتزمتم، يقال جمع أمره إذا عقد عزمه ووثقته، ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، الشركاء: هى الأوثان التى اتخذوها بزعمهم شركاء الله تعالى فى عبادته، سبحانه وتعالى عما يشركون، وهو بهذا يتحداهم معتمداً على الله متوكلاً عليه حق توكله. ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أى لا يكن أمركم مستورا، وهذا معنى ﴿غُمَّةً﴾، بل يكون ظاهراً مكشوفاً بيّناً، أى اثبتوا بكل قوتكم ظاهرة. ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أى افعلوا بى ذلك الأمر الذى تدبرون، من إهلاك أو طرد أو ما تروونه أنفسكم. ﴿وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ أى عجلوا أمركم لا تؤجلون، فإننى مؤيد من الله وهو معى ولن يضيرنى ما اعتزمتم وقد اعتمدت عليه سبحانه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٧)﴾.

﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى أعرضتم عن الآيات وعن دعوة التوحيد التى أدعوكم إليها فإنكم تعرضون عن قول رسول أمين وناصح رشيد لا يريد منكم أجراً من مال أو جاه أو سلطان إنما يريد الحق لذاته. ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أى لا أريد منكم أجراً فقد كفانى الله أجرى وهو شرف الرسالة لا شرفكم ولا جاهكم ولا سلطانكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أسلموا وجوههم وهم مخلصون لا يريدون إلا ما عند الله.

هذه دعوة لينة إلى الحق بعد التحدى الذى قدمه وبعد أن بين لهم أنهم ضعفاء أمام الحق فإنه استمالهم إليه إلا أنهم عادوا فكذبوه .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنُجِّنَاہُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)﴾ .

ذكر سبحانه نجات المؤمنين مع نوح - عليه السلام - ابتداءً، وذكرت القصة تسرية للنبي ﷺ وذكرى للعالمين وبيان أن العاقبة ستكون له ﷺ، وفى ذلك أمران :

الأمر الأول - أنه سبحانه جعل نوحا - عليه السلام - وأتباعه خلائف فى الأرض، وخلائف جمع خليفة أى الذين يعيشون فى الأرض خلفاء لأبناء آدم، أى انحصرت ذرية آدم حال ذلك فى نوح عليه السلام والذين آمنوا معه .

والأمر الثانى - أنه سبحانه أغرق الآخرين، ثم قال سبحانه مبينا العبرة من قصة نوح عليه السلام وقومه ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ الذين أنذرناهم فلم يفتنوا ولم يعتبروا، ولم يذكر سبحانه جزاء للمؤمنين؛ لأنه بين منجاتهم، أما الجزاء الأوفى يكون يوم الحساب وهو يوم الدين .

وقد ذكر سبحانه الإغراق إذ قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فغير بالموصول دليل على أن الصلة هى السبب فى الغرق، والصلة كانت التكذيب بآيات الله تعالى التى ساقها لهم نوح - عليه السلام - فلم يؤمنوا وأصروا واستكبروا استكبارا .

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾ .

أشار سبحانه إلى الأنبياء من بعد نوح مثل هود وصالح شعيب وإبراهيم ولوط عليهم السلام وغيرهم، وكلهم كذبوا مع ما جاءوا به من الآيات، وجاء ذكر الرسل بعد نوح - عليه السلام - بالإجمال، فلم يذكرهم سبحانه نبيا نبيا، كما جاء فى سور أخرى وكما سيجىء فى سورة هود ولكن الله تعالى أثبت أمرين :

الأمر الأول - أن كل رسول جاء بالبينّة الدالة على رسالته صارفا أنظارهم إلى الكون وما فيه، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعود على الكافرين بكل الرسل وكأنهم مع اختلاف أجيالهم قبيل واحد يجمعهم الجحود والعصيان والكفر بآيات الله تعالى؛ فالنّاس أبناء النّاس ويجمع الأخلاف صفات الأسلاف، ويجمع المؤمنين صفات الإذعان للدليل والتصديق للحق، ويجمع المكذبين صفات الجحود بالآيات ولو كانت بينة تستيقنّها نفوسهم.

الأمر الثاني - سبب الكفر الذي تتوارثه الأجيال التي كتب الله عليها شقوتها فقال جلّت كلماته: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى أن شأن الذين يكفرون أن يبادروا عند دعوة الحق الذي يجيئ به نبي من الأنبياء بالكذب قبل أن يمنعوا في دعوته وقبل أن يستمعوا إلى الدليل ويتأملوه ويتعرفوه، فإذا سارعوا بالكذب نأوا عن الحق وجادلوا عن كفرهم وأمعنوا في الباطل إمعانا وضلوا ضلال بعيدا فلا يستقيم لهم إيمان بعد ذلك ويطلع الكفر على قلوبهم وتنغلق على الكفر، كما جاء في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿... وَطُغِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧)، وكقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ فهم يبادرون بالإنكار معتدين، ثم يلج بهم العناد فيكرروا الاعتداء المرة بعد الأخرى حتى يصير والاعتداء وصفا ملازما لهم، لا يقفون عند حد فيكون اعتداء على الحقائق وعلى آيات الله وعلى العباد.

من قصة موسى وفرعون

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مِثْنٌ ﴿٧٦﴾
 قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ

السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَصَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ عَابَاءَنَا
 وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقَوْأُ قَالَ
 مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
 عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَى
 خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
 فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ
 ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
 تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا
 بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ
 أَن تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بُوْتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى
 رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
 قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بعد ذلك ذكر الله تعالى قصة موسى وفرعون، وذكرها في هذا المقام:

أولاً - فرعون أكبر طاغية عرف في تاريخ الإنسانية وطغيان الكبراء من العرب دونه، وقد أعز الله موسى وبنى إسرائيل وأهلكه فكان حقا على النبي ﷺ أن يطمئن إلى عزة الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

ثانياً - أن فرعون كان مسيطراً جباراً على قومه يراهم ملكاً له، وقد جاء محمد ﷺ بأنه لا مالك إلا الله وأن الناس جميعاً عباد له سبحانه.

ثالثاً - كان فرعون يتحكم في عقول قومه ويقول لهم: ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَأَىٰ وَمَا أُهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [«غافر»]، وجاء محمد ﷺ بحرية النفس والفكر والعقل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ بَيَاتِنًا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥)﴾.

جاء موسى بالبينة الدالة على رسالته، وجاء بالعصا التي ألقاها فإذا هي حية تسعى، وكان قومه على علم بالسحر، فإذا عرفوا أنها ليست سحراً قامت عليهم الحجة. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتراخي، أي أنه بعد أزمان متعاقبة ومتطاوله بعث الله موسى وهارون، ذلك أن موسى سأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه ﴿أَشَدُّدُ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ [طه]. أرسلهما الله إلى فرعون وملئه، أي كبراء قومه والذين يحرضونه على الفسق في مصر، ويمالئونهم على ما يدهيه ولم يذكر شعب مصر أي الكثرة الغالبة وكانوا مهملين لا رأى لهم؛ كما وصفهم عمرو بن العاص في ذكره مصر «هي لمن غلب»، وقد بادروا بالكذب وعجلوا فيه دون أن يتفكروا ويتدبروا حقيقة الدعوة إلى الحق والبيّنات الشاهدة بأن موسى وهارون مبعوثان من الله تعالى، ولذا قال سبحانه: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وكان العطف بالفاء للدلالة على المبادرة بالاستكبار، وفيه تكذيب وعلة للتكذيب، أي فكذبوا واستكبروا عن الاستماع إلى الحق وأصموا آذانهم ووصفهم الله تعالى

بقوله: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وكلمة ﴿وَكَانُوا﴾ تدل على أنهم كانوا كذلك فى الماضى، والوصف بالإجرام ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ يدل على استمرارهم فلم تكن دعوة الحق فيهم مستجابة.

لذا قال تعالى فى شأنهم مع رسولهم:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧٦).

الفاء للترتيب والتعقيب، والحق هو الدعوة إلى التوحيد وإلى الله وحده، وقال سبحانه: ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ تكبيراً لذلك الحق؛ لأنه من عند الله تعالى مالك الملك ذى الجلال والإكرام فوصفه سبحانه بالحق، ووصفه بأنه الحق شرف ذاتى له ويكونه من عند الله تعالى شرف إضافى له، وكلمة الحق تتضمن الدلالة على أنه حق لا ريب فيه. وقد أتى الله تعالى موسى تسع آيات بينات ويظهر أنه ابتداء بتقديم العصا، ولذا قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، بادروا فأكدوا أنه سحر مبين، أى سحر واضح بين ﴿إِنَّ﴾ تدل على التوكيد وباللام وبالجمله الاسمية، ذلك من مسارعته بالتكذيب ثم الانغمار فيه إلى آخر مداه، ولقد تولى موسى عليه السلام المجاوبة وتركه فرعون يدافع عن دعوته.

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧).

أى أقولون للحق لما جاءكم إنه سحر، جاهلين حقيقة الأمر فلاستفهام لإنكار قولهم وتوبيخهم عليه، وكرر الاستفهام فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ فكان الإنكار للجحود وقولهم الجاحد للحق والحقيقة، والاستفهام للتوبيخ على قولهم وهو لإنكار الوقوع، أى ليس بسحر، وقد أكد سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أى لا يفوز الساحرون فى معركة الاستدلال والمنازلة، وإذا لم يفلحوا فإنه يجب أن تؤمنوا ولكنهم لجوا فى العناد وتمسكوا بما هم عليه.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨).

ذكر الله تعالى قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لَتَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، أى لتصرفنا عما وجدنا عليه آبائنا من عبادة فرعون والآلهة التى يحل فيها، ومن عبادة الشمس وإله الزرع وعبادة البقر. ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى السلطان والسيطرة والحكم فى الأرض وهى أرض مصر؛ وعبر عن الحكم والسلطان بالكبرياء؛ لأن المصريين كانوا لا يفهمون فى الحكم إلا الاستعلاء والتحكم والاستكبار، وأن تكون طبقة الحاكمين العالية وطبقة المحكومين المردولين، وعبادة المحكوم للحاكم.

ثم أكدوا كفرهم بالحق لما جاءهم فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ نفوا عن أنفسهم صفة الإيمان نفيا مؤكدا وكان ذلك:

أولا - بذكر الضمير الدال على التعظيم.

ثانيا - بالجملة الاسمية، وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ لامتناع التسليم، بل إنهم مناوئون غير مستسلمين، بل هم منصرفون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠)﴾.

جاء فرعون وتولى المنازلة فقال اتنوني بكل ساحر عليم، أى عليم بالسحر وأفانيه، وكان للسحرة مكانة ومنزلة فى مصر، وكانوا كثيرين مشهود لهم بالسحر ولهم مكانة فيه، فلما جاء السحرة قال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾. وفى هذه الآية نجد موسى - عليه السلام - عندما التقى بهم طلب إليهم أن يلقوا، وفى الآية التالية ما يدل على أنهم ألقوا وتشير إلى ابتدائهم، ولكن فى سورة الأعراف ما يدل على أنه قد حدثت مجاوبة بينه وبين السحرة قالوا فيها: ﴿... إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيْنَ النَّاسِ وَاسْتَزْهَبَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ [الأعراف]. وأنه لا تعارض بين الآيات بل توافق تام ولكن ما فى سورة الأعراف يُفَصِّلُ بعض التفصيل، وهنا يُجْمَلُ كل الإجمال؛ إذ إن نتيجة المجاوبة كانت أن طلب موسى أن يلقوا هم، وأدرك موسى وهو المؤمن

بحجته أن فعلهم سحر كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١).

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ إنه هو السحر وحده، لا ما سيقدمه، والاختصاص ثبت بتعريف الطرفين، وأكد أن الله سيبطله وأنه فساد بين الناس، وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧).

وختم الله أمر السحر ببطلانه حيث قال تعالى:

﴿وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢).

يثبت الله الحق ويؤيده وينصره بكلماته وأمره الذي يكون بكلمة، وبآياته الأمرة والناهية المثبتة لحق المحكومين على الحاكمين والمبطللة لظلم الظالمين ولو كانوا من الفارعين، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أشركوا فأجرموا وطمعوا وبغوا وغرهم الغرور.

قال تعالى:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣).

مع هذه الدعوة الصادعة إلى الحق لم يستجب إلا القليل وفي كلمة ﴿قَوْمِهِ﴾ يعود الضمير إلى فرعون، وما آمن شيوخ كبار منهم بل آمنت ذرية، أي جيل جديد ممن لم يتمرسوا بذلّ الفرعونية، والشباب إنما يكونون أكثر مسارعة إلى الحق وأقلّ تمسكًا من آبائهم بأهداب القديم، خاصة إذا كان ذليلاً، ويقول قائل: إن الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ يعود إلى موسى، وقوم موسى هم بنو إسرائيل وذكر الذرية دون عمومهم؛ لأن الذرية تطلب الحرية وتبغيتها، وشيوخهم غرست في نفوسهم العادات والعبادات المصرية القديمة ورضوا بالدون من الحياة كما يبدو ذلك

فى قصصهم مع موسى، وفى قولهم له: ﴿...اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا...﴾ (١٢٨) [الأعراف]، ومن عبادتهم العجل، ومن امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة، وقد رأى ذلك ابن جرير ونحن نتبعه فى رأيه. وقد كان إيمان هذه الذرية على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وكلمة ﴿عَلَى﴾ بمعنى (مع)، أى أنهم فى إيمانهم كانوا وجلين خائفين من فرعون وملئهم، والضمير فى كلمة ﴿مَلَّتْهُمْ﴾ يعود إلى فرعون والمراد به فرعون وملئه، والذى رأى أن يعود الضمير على ملائ بنى إسرائيل أن تلك الذرية المؤمنة كانت على خوف من قومهم الذين تأثروا بالعقائد المصرية من تقديس فرعون وعبادة العجل كما سيبدو من حالهم مع موسى بعد اجتيازهم البحر ورؤية المعجزات الباهرة ونعموا بها، أى إن أولئك الذرية الذين آمنوا بما جاء به موسى كانوا على وجل من فرعون وقومه وعلى وجل من قومهم أنفسهم ومنهم الشيوخ الذين تمرسوا بالخنوع والكفر.

(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ﴾ للترتيب، أى بسبب أنهم عتاة فى الضلالة ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، وقد وصف الله تعالى فرعون بما يمنع إيمانه فقال تعالت كلماته: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ وفى هذا وصفان كلاهما يمنع الاستجابة لدعوة موسى عليه السلام:

الوصف الأول - أنه عال فى الأرض ينظر إلى الناس كأنهم جميعا دونه وأنه ليس من طيبتهم، ومن كان ذلك يغره الغرور فيقول للناس ما أريكم إلا ما أرى. والوصف الثانى - أنه مسرف، أى مُعَالٍ فى كل شىء، أسرف على نفسه وأسرف على الناس وأسرف فى العتو والفساد.

أكد الله الوصفين بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام، وبالجملة الاسمية، و﴿يَفْتِنُهُمْ﴾ بمعنى يضطهدهم فى دينهم، وذكر الضمير بالمفرد عودا على فرعون أولا وبالذات، فهو قطع أيدي المؤمنين وصلبهم فى جذوع النخل فنسبت الفتنة إليه دون ملئهم.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤).

اتجه موسى عليه السلام إلى قومه الذين جاء لإنقاذهم وقد رآهم يخافون فرعون ويخشونه فقال لهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ حق الإيمان فلا تخشوا فرعون وطاغوته بل توكّلوا على الله، ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾، (الفاء) واقعة في جواب الشرط، يليه الفعل للاختصاص، أى توكّلوا عليه وحده. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أى إن استمررتم على وضعكم وهو إسلام الوجه والإخلاص لله سبحانه. ولقد استجاب قوم موسى فتوكّلوا على الله لا يرهبون فرعون وطاغوته.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾.

أى عليه وحده توكّلنا، ومن يتوكّل على الله لا ترهبه قوة فى الأرض، ثم اتجهوا إليه سبحانه ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أى لا تجعلنا موضع فتنة واضطهاد وإيذاء للقوم الذين تضافروا على الظلم واتباع الطاغية فرعون، أى ربنا اصرف عنا أذاهم، ثم أردفوا دعاءهم بطلب الإنقاذ فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) وهم فرعون وملئه.

كان الذين آمنوا هم الذرية، ولكن القوم جميعا شعروا بأن موسى جاء لاستنقاذهم فأسلموا وسلموا له، وإن كان لا يزال منهم من فيه بقية من ذل فرعون كأمنة ستبدو بعد أن يطمثوا لخروجهم من ذل فرعون.

كان بنو إسرائيل مختلطين بالمصريين الذين يسومونهم سوء العذاب، فأوحى الله تعالى إلى نبيه موسى - عليه السلام - أن يفصلهم عن المصريين، وأن يتحيزوا حيزا دونهم ليكون ذلك خطوة للنجاة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعِلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧).

﴿تَبَوَّءَا﴾، من باء بيوء بمعنى رجع واطمأن، أى اختاروا بيوتا لقومكما بيوءون إليها وتكون نائية عن بيوت الفرعونيين؛ لأنكم ستخذونها لعبادة الله تعالى

وحده وتقيمون فيها الصلاة، وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أى مصلى؛ ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أما إلى أية جهة يتجهون، فلم تعرض الآية لذلك، وقيل: كانوا يتجهون إلى الكعبة وبعضهم قال: إلى بيت المقدس.

وإنى أرى أن المراد بأن تكون بيوتهم قبله هو أن يعلمها بقية بنى إسرائيل فيتجهون إليها ويأرزون نحوها فيجتمعون فيها وتكون لهم حوزة يتحيزون إليها. والجميع أمروا بإقامة الصلاة، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أى أن من يؤمن منهم له البشرى فى الدنيا والآخرة وأن الله ولى المؤمنين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾.

علم نبي الله موسى - عليه السلام - أن بنى إسرائيل تبهرهم المادة وتستهوهم زخارف الدنيا ووافقه على رأيه أخوه وردفه هارون، ورأيا أن طغيان فرعون كان سببه ما فى يده من أموال وزخارف وما تحت سلطانه من كنوز الأرض، فقد كان ملكه يمتد إلى الحبشة وما فيها من جبال ووهاد قد ضمت فى بطونها معادن وذهباً وفلزات الأرض، فقال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ﴾ أعطيت فرعون وأشرافه الذين يعاونونه ويمالثونه فى ظلمه وبغيه، زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾، اللام هنا لام العاقبة، أى كانت عاقبة هذا الإيتاء وذلك التمكين فى الأرض أن يضلوا عن سبيلك بالكفر والظلم والعتو والطغيان، ألا يراعوا حقاً، وأن يدعى فرعون أن له ملك مصر، وأن هذه الأنهار تجري من تحته، ويرجو موسى ربه ضارعا أن يزول عنهم ما سبب طغيانهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الطمس هو المحق، أى امحق أموالهم لا تجعلها صالحة لأن يتنفعوا بها ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى اجعل قلوبهم تذوق الشدة المريعة فمن

صخرة الشدة قد تنبع المعرفة فيعرفون ضعفهم أمام قوة الله تعالى فيذهب طغيانهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ في ذهاب أموالهم وفراغ نفوسهم وذوق قلوبهم للقسوة الشديدة، و(الفاء) فاء السببية.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَ وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٢٩).

وقد أنزل الله تعالى بهم ما طلب موسى وأخوه، والدعوة هنا الدعاء وتطلق على كل طلب، والاستقامة هي الإيمان بالحق والإخلاص في القول والعمل وصدق الاتجاه إلى الله تعالى، وأكد الله تعالى طلب الاستقامة بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن مسلكهم ليس فيه استقامة بل هو الاعوجاج والعدول عن الطريق المستقيم. ولقد قال تعالى في معنى الاستجابة لموسى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون (١٣١) وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٣٢) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين (١٣٣) ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل (١٣٤) فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون (١٣٥) فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٣٦) ﴿[الأعراف].

نجاة بنى إسرائيل وإغراق فرعون

قال تعالى:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ أَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلَيْكُم نَجِيكَ يَدُكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
 خَلَفَكَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ أَيِّنَا لَغٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
 وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
 فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

ضاق فرعون ذرعا ببني إسرائيل، ومع أن الآيات توالى عليه حتى بلغت تسعا، ومع كل هذا أراد الفتك ببني إسرائيل، وكان موسى قد تبوأ لقومه مكانا يقيمون فيه شعائر دين التوحيد فأمر الله نبيه - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وكانت الفروق اثني عشر فرقا بقدر عدد أسباطهم فاجتازوه وأتبعهم أى أدركهم ولاحقهم وقد أعد العدة لإبادتهم، وحسب أنه ناج مثلهم من الغرق فانطبق البحر عليه فأغرقه ومن معه.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أى اجتازوه بأمر الله تعالى وعنايته بهم ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ أى لاحقوهم بغيا من عند أنفسهم وعدوا ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ ذهب عنه غروره ساعة أن أدركه الغرق وبان ضعفه وتكاثرت عليه آيات الله التى جاءت على يد موسى وأخيه فأمن ساعة الموت حيث لا يقبل الإيمان: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآلَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء].

وقد بين الله تعالى لفرعون أن إيمانه غير مقبول ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) الاستفهام للتوبيخ على تأخره وقد آمن حيث لا ينفع

نفس إيمانها، والاستفهام منصب على ﴿الآن﴾، والتوبيخ على تأخر الإيمان إلى وقت الغرق ولذا يقول سبحانه: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وقد أشار سبحانه إلى أمرين:

الأمر الأول - يتعلق بفرعون نفسه وقد عصى من قبل وادعى الألوهية وكفر بالوحدانية واصطناعه العصاة مثله وخضوعه للسحر والكهانة.

الأمر الثاني - يتعلق بعمله ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أرهقت الناس بظلمك وأضعفت إرادتهم وقتلت نخوتهم وجعلتهم عبيدا، ولا فساد في أمة أكثر من فناء أحادها حتى يكونوا كالألات يحركها ويدفعها، ووصف سبحانه فساده بالاستمرار طول حياته وحياة أمثاله، فعبر بـ ﴿كُنْتَ﴾ التي تدل على الاستمرار، ووضع في صف المفسدين في الأرض وقد كان أشدهم عتوا وطغيانا.

لقد نجاه الله بيده ليكون آية دالة على قدرة الله تعالى وليراه الناس مثلاً واضحاً لمن أرق شعبه وظلم وطغى وبغى وأكثر الفساد، ونرى ذلك دائماً فيمن يحاكونه وكأنه على مقربة منا.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾.

(الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، تقديره إذا كنت قد غرقت وضعفت واستخذيت في آخر لحظة - اليوم ننجيك ببदनك، وذكر اليوم للإشارة إلى أنه ينجو بيده في ذلك اليوم، وأضاف الإنجاء إليه سبحانه وجعله واقعا على فرعون باعتبار أنه صاحب البدن؛ ولذا قال تعالى: ﴿بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾، أى دلالة أولا على عظيم قدرة الله تعالى التي قهر بها طاغوت عصره، وثانيا للاعتبار لأن مآل الطغاة هو الفناء، وثالثا بيان أن الله تعالى القادر على بقاء الأبدان، هو قادر على إعادة الأموات، ورابعا بيان أن العدالة هي الخير الباقي وأن الظلم هو الشر الذي يذكر الطغاة بسببه بأنهم مفسدون.

ولقد بقى ببدنه وهو آية القدرة الإلهية، يتخذهُ المفسدون لنشر الفساد والإتجار به فى العالم.

﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ غافلون عن آيات الله تعالى فى الكون والناس ولولا أنهم غافلون لأقاموا العدل واعتبروا بفرعون ولأبعدوا الغرور عن أنفسهم وما استبدوا بمن يماثلونهم فى الخلق والتكوين من الناس وقد يزدون عليهم فى المواهب التى أنعم الله بها على بعض عباده الأبرار، ولو لم يكونوا غافلين لآمنوا بقدرة الله تعالى على البعث والنشور.

وقد أكد الله غفلة الكثيرين من الناس بكلمة (إن) وبالجمله الاسمية وباللام فى قوله تعالى: ﴿لَغَافِلُونَ﴾.

هذا أمر فرعون ونهايته، أما أمر بنى إسرائيل فقد ذكره الله تعالى فى قوله:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُورًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٢).

كان بنو إسرائيل فى أرض فرعون فى منزل دون ومكان هون، فكانوا فى ذلة ومهانة فخرجوا وجاوزوا البحر فى عزة ورأوا فرعون وملئه يغرقون ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُورًا صِدْقٍ﴾ أى مكنا لهم مكانا يطمثون فيه ويبيءون مستريحين أعزة فيما بينهم مستقلين عن التبعية والذل.

وقوله: ﴿مَبُورًا صِدْقٍ﴾ أى مقاما مطمئنا فاضلا يبعد عن السحر والكهانة وغيرها من أوهام فرعون. وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني أنه يضاف إلى الصديق الفعل الذى يوصف به نحو قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ...﴾ (٥٥) ﴿[القمر]، و... قَدَمَ صِدْقٍ...﴾ (٢) فالصدق هو عنوان الفضائل؛ لأنه يتضمن صدق القول وصدق النفس والضمير، وهو عنوان لكل عمل فاضل ومكان طيب.

وفى هذه الإقامة الطيبة الفاضلة الكريمة العزيزة رزقهم الله تعالى المن والسلوى، وقد سجل الله اختلافهم بعد أن جاءهم العلم بالحق، ورأوا الميئآت

الواضحة الدلالة القاطعة في إثبات الوجدانية والرسالات الإلهية، ومع ذلك لما اختلفوا، كانت الذلة جامعة بينهم موحدة مؤلفة، كما جاءهم العلم ومعه العزة اختلفوا على فرق والله سبحانه يحكم بينهم يوم القيامة.

العبرة في القصص

يقول تعالى :

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ أَلْفَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾
فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا
ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ
جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ
عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمُوتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ
 قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي
 رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ
 أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
 وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾
 وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
 يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ
 ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ
 مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) .

الشك هو الضيق، ثم أطلق على التردد في الحكم بين اليقين والإنكار؛ لأنه يحدث في النفس ضيقاً، وسياق القول في هذه الآيات وما قبلها هو بيان القرآن

للنبي ﷺ أنه أصاب أولى العزم من الرسل ما أصابه من قومه ونزل بهم من الشدائد والإعراض والاستهزاء والسخرية ما نزل به ﷺ، وأنه سبحانه ينبيه نبيه ﷺ إلى صدق ما أخبره ويثبت فؤاده، وفي النهي عن الشك أمر بالتثبت واليقين والاطمئنان إلى أنه الحق. فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هو فرض غير واقع والغرض منه:

أولا - تثبيت النبي ﷺ.

ثانيا - بيان أن الكتب السابقة ثابت فيها هذا.

ثالثا - تذكير النبي ﷺ بما حدث للنبيين قبله.

رابعا - بيان أن القصص الصادق يربى اليقين.

والدليل على أن النص لا يفيد أن النبي ﷺ لم يشك، أن أداة الشرط هي «إن» وهي تدل على أن فعل الشرط ليس بواقع ولا محقق.

والشك - كما قال الغزالي - هو طريق الوصول إلى الحق، وقد ذكر الله تعالى في القرآن أن المشركين يسارعون بالكذب ولا يتروون فيتفكروا ويصلوا إلى الحق البين، والله سبحانه وتعالى يفرض الشك الذي لم يقع كأنه واقع ليسوق الأدلة المثبتة وهي شهادة الكتب السابقة لهذه الاخبار الصادقة، التي تزيل كل أوهام المشركين على أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ﴾ هو لأهل الخطاب الذين يعلمون القرآن أو يتلون به بأن يسألوا الذين أوتوا الكتاب من قبل.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ فيها ما يفيد نفى الشك لأنه من عند الله تعالى الذي بعثك رحمة للعالمين فلا ريب ولا يمكن أن يكون رياء؛ لأنه عاين الوحي الذي خاطبه به الروح الأمين جبريل عليه السلام نزل به على قلبك وأن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ (١٤٦) [البقرة]، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) [آل عمران].

الامتراء هو الشك بعد اليقين، فالنهي عن الامتراء هو للاستمرار على اليقين والإيمان، وألا يتزلزل ذلك اليقين بفعل المشركين، وأن مؤدى ذلك القول هو تأكيد الحق وتثبيتته لأتباع محمد ﷺ ولتثبيت فؤاد النبي محمد ﷺ وإيمانه الراسخ كالجبال أو أشد، فكثرة الدلائل تثبت اليقين كقول إبراهيم - عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِّيَ طَمَئِنَّ قَلْبِي ...﴾ (٢٦٠) [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ نص يوجب اليقين، فالحق وحده نور يجلو اليقين قد أكده سبحانه وتعالى بكلمه «قد» وباللام قبلها، وقال: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أى الذى خلقك ورباك، ولذا رتب عليه النهى عن الافتراء.

(الفاء) فى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها والنهى موجه فى ظاهرة للنبي ﷺ، وهو موجه للناس عامة وأهل مكة خاصة.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥).

لقد جاء قوله تعالى بعد النهى عن الامتراء. وهذه الجملة القرآنية معطوفة على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ والنهى كالنهي السابق مؤكد بنون التوكيد الثقيلة وهو موجه إلى النبي ﷺ بظاهر القول وموجه للناس كافة، ومع ذلك فيه إشارة إلى النبي ﷺ سواسية فى الخطاب بالحق مثلهم، وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ اللَّهِ﴾ نهى عن الامتراء، وأن الامتراء بعد الإيمان يؤدى إلى تكذيب آيات الله تعالى، ولذا نهى عنه ﷺ بسياق القول وظاهر الخطاب، النهى للناس أجمعين، وجعل النبي ﷺ أسوة لهم فى الخطاب كما هو أسوة لهم فى الإيمان والنهى الموجه له يكون بالأولى نهى لغيره، ذلك ليفتشوا قلوبهم ويبعدوها عن الامتراء فى الحق حتى لا يؤدى ذلك إلى التكذيب بآيات الله.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ اللَّهِ﴾ فى قوله تعالى نهى مؤكد لأن يكون الرسول ﷺ فى صفوف الكثرة الضالة التى خير منها القلة المؤمنة، فلا يقاس



الحق بالعدد والكثرة ولكن بالإيمان وقوة الدليل، ونكرر أن الخطاب للناس فلا يصح أن ينساق أحد وراء الكثرة المبطلّة تاركاً القلة المحقّة، وعبر سبحانه بقوله تعالى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لبيان أن صلة الموصول سبب لانغمارهم في الضلالة، إذ الآيات الكونية واضحة وآياته القرآنية تحدى بها العرب أن يأتوا بمثلها فعجزوا، وقد رتب الله تعالى على تكذيب الآيات الكونية والقرآنية الخسارة ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، (الفاء) لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، أى أنه يترتب على تكذيب آيات الله أن تكون فى صفوف الخاسرين الذين خسروا الإيمان، وهذا أساس الخسران فخسروا الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء بعد الحساب، وخسروا فزعموا أن الحياة الدنيا وحدها هى الحياة وهذا هو الخسران المبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾.

بين سبحانه أن الذين كفروا حقت عليهم كلمة ربك بالكفر فلا يؤمنون بأية آية مهما تكن واضحة.

تبين الآية حال المشركين فهم لا يؤمنون لنقص فى المعجزة الكبرى ولكن لأنهم سبقوا إلى الرد وأصروا عليه إصراراً ونفروا من الحق لا يردهم إليه معجزة، هم يطلبون معجزات مادية ولو جاءتهم لأنكروها وتنكروا لها بعد فترة من الزمان، وقد كانت التجربة مصدقة فى فرعون وملئه فمع الآيات التسع التى جاءت ما آمنوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾ يؤكد سبحانه أن الذين ثبتت عليهم كلمة الله تعالى أنهم فى سجل الكافرين، لا يؤمنون ولو جأته كل آية ولو كانت مما يطلبون، أى لو تضافرت الآيات معجزات كلها وجاءت مجتمعة لا يؤمنون، وأقرب القول أن يقولوا سحرت أعيننا فالجحود ملازم لهم لا يزيلهم أبداً. كان التأكيد فى هذا الحكم بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

تعبيرا بالمضارع دليلا على أن الإيمان ليس من شأنهم، وأنهم لا يذعنون وليس من طبعهم أن يؤمنوا بشيء بل الجحود شأنهم.

إن الكفر ينمى بعضه بعضا، فالكافر يبدأ جاحدا ثم يعاند ثم يؤذى المؤمنين ويحاربهم ثم يسير فى طريق الفساد حتى يتمكن الكفر منه فلا يؤمن.

وإذا كانوا كذلك فلن يؤمنوا بآيات الله مهما وضحت وبهرت الأنظار، وتستمر لجأجتهم فى الكفر حتى يروا العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة.

أما فى الدنيا فقد كانت فى الماضى بالآيات المدمرة، أما بعد رسالة محمد ﷺ فبالقاومة لشركهم بالحرب، وجند له أبطالهم، ذلك لأن النفس الجاحدة تغريها النصر بالمخالفة والفساد، والسيف قد ينبهها فيتهدى من يتهدى. وفى الآخرة فالعذاب فى جهنم وبئس المصير.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾.

عندما أدرك فرعون الخرق قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ كان ذلك بعد أن سبقته الأحداث ولم تعد له توبة، وقد قص الله تعالى أمر قوم يونس وقد أجدى فيهم الإنذار وصدقوا رسولهم وهم على اختيار من أمرهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ كلمة (لولا) للحض على الإيمان مع ذكر أثره، والقرية هى المدينة العظيمة التى يجتمع فيها الناس، ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ طهر نفوسها ومنع أهلها من الظلم وقربهم من ربهم، وجواب لولا محذوف إذا قلنا إنها شرطية، كقوله تعالى: ﴿...لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)﴾ [سبا]، ودل عليه أو قام مقامه فنفعها إيمانها. وإذا قلنا إنها لمجرد الحض على الإيمان فإنها لا تحتاج إلى جواب، ومهما يكن فالكلمات ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾. بيان لأثر الإيمان وهو أن النفوس تتطهر وتقترب إلى الله تعالى ويكون لها الثواب والنعيم المقيم، ونفع الإيمان أيضا كان فى سعة من الوقت وليس كإيمان فرعون.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى

حِينٍ﴾ الاستثناء منقطع بمعنى لكن، وفيه بيان نفع الإيمان، والمعنى ألا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، لكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي، وجوز النحويون أن يكون الاستثناء متصلاً؛ لأن كلمة (لولا) حرف امتناع تدل في مضمونها على النفي فيكون المضمون- ما قرية آمنت فنفعها إيمانها، إلا قوم يونس فإنهم آمنوا وقت السعة والاختيار فنفعهم إيمانهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ أى حين آمنوا مختارين أزلنا عنهم، وعبر بكلمة ﴿كَشَفْنَا﴾ إشارة إلى أن الخزي غمة وهلاك فإزالته كشف للغمّة ومنع لها، وأبقيناهم ممتعين مرفحين في الحلال إلى حين قضاء أجلهم. وقد روى أن يونس - عليه السلام - قد بعث نبيا في مدينة «نينوى» من الموصل وكانت مدينة عظيمة، وقصة الآشوريين في حكمهم - وهى مدينة قديمة دأب أهلها على تحصينها، وقويت شوكة حكامها حتى خضع لهم الكثير من ممالك آسيا، والملك الواسع يوصى بالتجبر كما كان من آل فرعون، وقد أغار قوم يونس كثيرا على من جاورهم، وكلما أغاروا أكثروا الفساد وسلبوا ونهبوا وارتكبوا الكثير من المظالم، أنذرهم يونس بالعذاب ينزل بهم لا محالة، وهم يعلمونه صادقا أميناً فيهم فلم يعبأوا ابتداء، ويروى أنه أخبرهم أن العذاب نازل بهم بعد أربعين ليلة فقالوا فى أنفسهم لو بقى فينا فنحن فى أمن وإن غادرنا لا نكون آمنين، لكنه غاب عنهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب وفى قلب أميرهم الإيمان، ورأوا مقدمات العذاب تقترب منهم وتغشاهم وغامت السماء غيما أسود، فأمنوا واستغفروا وأتابوا إلى ربهم.

وإن هذا المثل يضرب بعد فرعون الذى آمن بعد فوات الأوان، وهو مثل لإدراك قوم يونس بعد أن غشيهم ما جعلهم يتوقعون ما أنذروا به فسارعوا بالنجاة وأزالوا آثار ما اقترفوا.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ .

إن كفر من كفر وهداية من اهتدى يكون بتقدير الله تعالى في كتابه المكنون .

كان النبي ﷺ حريصا على إيمان قومه ومن بعث إليهم جميعا؛ لأن الحجة قائمة والحق بين والهدى مرشد، فيبين الله تعالى له أنه سبحانه لو شاء لهداهم أجمعين، ولكن تركهم يختارون عن بيته، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها . فقد خلق فيهم العقل الذي يختار ووضع فيهم النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة فكانت الإرادة حرة، وتم الاختبار ليكون الثواب والعقاب والله أعدل الحاكمين .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ ، ﴿كُلَّهُمْ﴾ تأكيد، و﴿جَمِيعًا﴾ حال . لو شاء الله أن يكون الناس كلهم مجتمعين على الهداية والإيمان لكانوا جميعا كذلك، ولكن لم يشأ ليكون الاختيار ويتميز المؤمن من الكافر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا...﴾ (١٣) ﴿[السجدة]، ولكنه سبحانه أودع النفوس القدرة على الاهتداء، وبعث الرسل لكيلا يكون للناس على الله حجة وهدى الإنسان النجدين ليكون الاختيار...﴾ ﴿وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً...﴾ (٣٥) ﴿[الأنبياء]، ذلك ليكون التنارع بين الفضيلة والرذيلة وليكون من آمن عن بيته ومن كفر عن بيته، وكلمة ﴿كُلَّهُمْ﴾ تأكيد لفظي وجميعا حال، والمعنى مجتمعين على الإيمان لا يشذ من بينهم أحد .

ولقد قال تعالى في تقرير الاختيار: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩) ﴿[هود] .

وإذا كانت تلك مشيئة الله تعالى وإرادته أن ترك لهم الاختيار، فليس لك أن تريد منهم ما لم يردده الله لهم .

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أيكون الإيمان بإكراههم والله تعالى أراد لهم الاختيار في الاعتقاد والإيمان، و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛

لأنه إذا كان الله تعالى يريد لهم الاختيار فلا تكرههم، الاستفهام للإنكار بمعنى النفي، أى ليس لك أن تكره الناس على أن يكونوا مؤمنين، وقدم (أنت) على الفعل لأن موضع النفي أن تكون أنت أيها النبي مكرههم، وقد قرر الله تعالى لهم الاختيار.

﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا يفيد أن الإكراه موضع استنكار لأنه إيجاد للإيمان حيث لا تكون إرادة وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فيه ما يدل على أنه ينشئ مؤمنين، وليس له ذلك، إنما هو الله تعالى الذى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ...﴾ (٧٧٢) [البقرة].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) [القصص].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ [الغاشية].

ثم يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠).

أى ما استقام لنفس أن تؤمن بالله وباليوم الآخر والرسل الذين جاءوا بالأدلة الحاسمة إلا بإذن الله تعالى توجيهها وتصريفها وتوفيقها فهو سبحانه وتعالى الملمهم خلق النفس فسواها ألهمها فجورها وتقواها، فمن سلك سبيل الهداية والرشاد واتبع ما جاء به الرسل واستمع إليهم أخذ الله تعالى بيده إلى الإيمان، ومن سلك سبيل الغواية أمعن فى طريق الضلال، وكلاهما بإذن الله تعالى وإرادته.

﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الرجس هو الأمر المستقذر فى العقل والإدراك والحس، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...﴾ (١٤٥) [الأنعام]، أى أنه قدر حسا، والكفر يعد قذارة معنوية يصيب الفكر

كما يصيب لحم الخنزير المعدة بالقذارة، فإطلاقه على الكفر والتخاذل والبعد عن الله تعالى من قبيل المجاز بالاستعارة.

وفى قوله تعالى: أنه يجعل الرجس على الذين لا يدركون بعقولهم الفرق بين الحق والباطل، ولا يعملون بعقولهم، بل يقولون نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ولا يديرون الأمور بميزان العقل فهم فى ضلال بعيد.

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾.

أمر الله نبيه أن ينبههم إلى خلق السموات والأرض، وما يدل عليه، وأن يذكرهم بالوجود وما فيه، وأن العالم المرئى هو السموات والأرض وما فيهما من عجائب ونظم ونواميس يدبر أمرها ويقوم على وجودها ويسيرها بإرادته، لا تتحرك حركة عن حركة إلا بإذنه سبحانه بدیع السموات والأرض.

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿مَاذَا﴾ استفهام وتنبية إلى عجائب السموات وارتباط نجومها وأبراجها برباط محكم لا يمكن أن يسير نجم فى غير مساره، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]، وكل ما فى الكون سخره الله للإنسان من ثروات سائلة وجامدة، وما فى البحار من كنوز وأحياء، وله الجوارى تجرى فى البحر، بإذنه والرياح العظيمة والناقلة للماء واللقاح.

انظروا ماذا فى الأرض والسماء، هل من إله غير الله يسيرهما.

إن ذلك دليل على اللطيف الخبير المنشئ المبدع بإرادته السرمدية قائم على الكون ممسكا له من الزوال. كل ذلك أقره العرب ثم أشركوا، فتعالى الله عما يشركون.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿مَا﴾ نافية، والآيات هي الدلائل التي أشرنا إلى بعضها، والنذر جمع نذير وهو الرسول ﴿...وَأِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) ﴿فاطر﴾.

والمعنى أنه لا تنفع الآيات والنذر نفعا فيه غناء عن قوم لا يؤمنون، أى أن الله سبحانه أقام الآيات كافيها بالرسول مبشرين ومنذرين ولا ينفع هذا كله قوما لا يؤمنون، أى قوما ضلوا سواء السبيل وسلکوا طرائق الشيطان، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ليس من شأنهم الإيمان بل اضطربت عقولهم وقلوبهم ونفوسهم وأنهم لا يفقههم إلا قارعة تنزل بهم فهل ينتظرونها .

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) ﴿

يراد بالأيام هنا الوقائع، وما نزل بالأمم قبلهم من خسف وريح وحاجب من السماء، و(الفاء) فى كلمة ﴿فَهَلْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على استمرارها فى غوايتهم وضلالهم أنهم لا ينتظرون إلا قارعة مثل الذين مضوا قبلهم. والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع بمعنى النفى، أى لا ينتظرون إلا أن يقع مثل ما وقع للذين مضوا من قبلهم ممن عاندوا فى الحق وحاربوه وفتنوا أهله ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أمر الله نبيه أن يخاطبهم منذرا مهددا.

إن كل نبي بعث فى قومه، أما محمد ﷺ فقد بعث للناس كافة الأحمر والأسود، ومن عاصروه والأجيال من بعدهم وهو خاتم المرسلين. والنص فى الآية الكريمة يستدل منه إلى أنه سينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم كريح أو خسف أو غرق، ولكن الآية التى قرعت حسهم وأذهلتهم فى باطلهم هى الحرب العادلة منعا للفتنة وفتحا للدعوة حتى صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣).

فبعد أن أشار الله تعالى إلى ما ينزل بالكافرين من نوازل الدنيا مثل الذين خلوا من قبلهم، ذكر أنه ينجو من ذلك الرسل ومن يؤمنون.

كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي والبعد الزمني والمعنوي؛ لأن ما ينزل بهم يكون بعد إمهال يتمادون فيه ثم يكون الهلاك ثم تكون النجاة، والبعد الفارق بين أن ينزل البلاء وبين النجاة من عذاب يعم ولا يخص، وأضاف سبحانه الرسل إليه تشريفا لمكانتهم وليبان أنهم ينطقون عن الله تعالى ولا يأتون ببهتان يفترونه ثم كانت المفارقة بين الذين آمنوا والذين كفروا بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ فيه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة على محذوف دلت عليه الإشارة إلى أنهم يتظرون إلى أن يهلكوا مثل الذين خلوا من قبلهم.

وقوله تعالى: ﴿نُنَجِّي﴾ بتشديد الجيم قرئت كذلك عند الأكثرين، وقرئت بالتخفيف، والتعدية بالهمزة والتضعيف، غير أني أرى في التضعيف معنى تأكيد النجاة والسلامة، فقد قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد بعد تأكيد. وفي ذلك تبشير للنبي ﷺ بأن العاقبة للمتقين، وأن الظالمين مهما أרعدوا وأبرقوا فأمرهم إلى زوال، وأنه ﷺ ناج من كيدهم وتديبرهم وغالب هو ومن معه في هذا الميدان الدنيوي بين الخير والشر والإيمان والكفر.

وقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ جملة معترضة بين متلارمين وهما ﴿كَذَلِكَ﴾ ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأن قوله تعالى ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ معترضة لتأكيد وعد الله تعالى للمؤمنين وأنه لن يختلف فسماه سبحانه حقا عليه وهو الذي لا واجب عليه ولا يسأل عما يفعل، و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ مصدر لفعل محذوف، والله ذو الفضل والمنة على عباده.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤).

قد بين سبحانه أن المشركين فى قبضته ثم أمر نبيه ﷺ أن يجعل نفسه أسوة فى الإيمان.

الخطاب لأهل مكة ومن يكون مثلهم كافة، ولذا نادى سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والنداء للبعيد، لبعد نفوسهم عن نفسه ﷺ ومجافاتهم للحق وهو يتبعه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ إن كنتم فى ريب مع ما قدمت لكم من براهين وأدلة قاطعة على الدين الذى أؤمن به وأعتقد أنه الحق فى ذاته والعقول تتلقى ما فيه بالقبول.

إن كنتم كذلك فلا تطمعوا أن أكون مثلكم أحيد عن الحق وأجافيه، وأعبد مثلكم الذين تعبدون من دون الله وهى الأوثان، وعبر عنها بما يدل على العقل بكلمة ﴿الَّذِينَ﴾ مجازة لتفكيرهم إذ يعدونها من العقلاء ويعبدها كبرائهم من المشركين والضالين.

وفى مجازاة الضال من غير اعتناق لما ضل به أفضل تنبيه، وحمل له على التفكير.

﴿تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فى هذا دليل وبيان للسبب الذى دعاه ﷺ لئلا يعبدها وهى أنها غير الله الذى لا يعبد إلا هو وحده لا شريك له.

ولقد صرح ﷺ بمن يعبد فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأكُمْ﴾ والاستدراك؛ لنفى أن أوثانهم تحيى أو تميت، وهو يتضمن إثبات عبادة الله وحده لا شريك له متجاوزا عبادتهم مبتعدا عنها، وفى الكلمة القرآنية ﴿الَّذِي يَتَوَقَّأكُمْ﴾ إشارة إلى استحقاقه للعبادة لأنه الذى يتوفى الأنفس حين موتها فهو يحيى ويميت وهم يرون ذلك ويشاهدونه.

وقد ذكر سبحانه الوفاة ولم يذكر الإحياء؛ لأن الوفاة لا تكون إلا للحى فذكرها يتضمن ذكر للإحياء، وإشارة إلى أنهم ليسوا بمخلدين وأنهم ضعفاء يموتون، وذكر الموت يذهب بغرورهم وفى ذهابه تقريب لهم إلى الإيمان، كما أن آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع، لا تميت ولا تحيى.

﴿وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جاء ذكر الأمر ولم يذكر الأمر سبحانه وتعالى الذى يعرفون أنه الخالق وحده؛ لأنه حاضر فى النفس دائماً؛ لأن الأمر من الله يكون معه أمر العقل والإدراك المستقيم، والبرهان الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالأمر إذا جاء من الله الخالق الواحد الأحد جاء من العقل المدرك وجاء من الآيات البينات.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه ﴿أَنْ﴾ مصدرية، والأمر بالكينونة بهذه الصفة يفيد أن يكون مندمجاً بها فى المؤمنين فى جمعهم الظاهر البعيد عن الوثنية.

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾.

بعد أمر الاندماج وتضافر صفوف المؤمنين، أمر نفسه فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذى جاء فى الآية السابقة، وجاء بصيغة الأمر من الله تعالى ومن آياته البينات الدالة على وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده، وكلمة ﴿وَأَنْ﴾ مصدرية هى وما بعدها مصدر، أى أمرت بالقيام لله وحده، وفى قوله تعالى: ﴿وَجْهَكَ﴾ إشارة إلى الاتجاه إلى الله تعالى بنفسه كلها لا يكون فيه شئ لغير الله، فالوجه كناية عن الذات كلها، فيكون حبه وبغضه لله تعالى، كما قال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ الشَّيْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى»^(١).

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ معناه مستقيماً فى اتجاهه بلا انحراف ولا اعوجاج ولا ميل لباطل أبداً.

ثم صرح سبحانه بيطلاق الشرك وأنه منهى عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فإنك إذ أمرت بأن تكون من المؤمنين فقد نهيت عن أن

(١) سبق تخريجه.

تكون من المشركين، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وهكذا كان النهي عن الشرك بعد الأمر بالإيمان وإقامة الوجه لله بلا ميل، ذلك لأن الشرك يدخل إلى النفس من مسارب شيطانية كثيرة يحسبها الناس صغائر وهي كبائر، فالمرآة في العبادات شرك، والخضوع للحكام والأمراء في معاصيهم شرك، وقد قال ﷺ: «من تصدق يرائي فقد أشرك، ومن صلى يرائي فقد أشرك» (١).

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون].

وقد كان تأكيد النهي عن الشرك بنون التوكيد الثقيلة وقد عطف على ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾.

﴿تَدْعُ﴾ الدعاء هنا العبادة والضراعة وهذا معطوف على ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أى غير الله تعالى وهي الأوثان التي جعلتموها أندادا لله مستحقة للعبادة، وقد وصفها سبحانه بحقيقتها الثابتة فقال: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أى أنها فى ذاتها لا تنفعه ولا تضره، وجعل الخطاب بالنفع والضرر لمن يدعوها إشارة إلى أنهم تركوا ما ينفع ويضر إلى ما لا ينفع ولا يضر، وذكر هذه الحقيقة فيه تعليل للنهي عن عبادتها؛ لأنه إنما يعبد الجدير بالعبادة ويوفى الشكر لمن ينفع ويخشى عذابه، أما الأوثان فلا نفع فيها يرتجى ولا ضرر منها يُتقى.

إن عبادة الأوثان واتخاذها أندادا لله تعالى والشرك به سبحانه، ظلم بين، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾، (الفاء) فى مقام التعليل للنهى، أى أن عبادة ما لا ينفع ولا يضر - ظلم، وقد جاء ذلك بصيغة الشرط والجزاء ليعين ارتباط الفعل بوصف الظلم، أى أن هذا الفعل مترتب عليه وصف الظلم لا محالة. وقد ذكر ذلك بالشرط الدال على الارتباط أولا، والإيماء إلى الارتباط بقوله: ﴿إِذَا﴾، أى أنه إذا كان الأمر كذلك فإنك من الظالمين لا محالة، و(الفاء) الثانية للدلالة على الجزاء.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾.

بين الله تعالى أن من الإثم البالغ والضلال البعيد عبادة ما لا يضر ولا ينفع من جماد وغيره، ثم يبين سبحانه فى هذه الآية أنه هو الذى ينفع ويضر والنفع يشاؤه لعباده والضرر يكتبه عليهم.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾. المس إصابة الإحساس بالألم والانزعاج، وأنه لا كاشف له إلا الله، أى رافعه ومزيله، وقد عبر سبحانه عن إزالته بالكشف؛ لأنه يكون كالغمة تصيب النفس وتستولى عليها ولا تنحسر إلا بأمر من الله تعالى. والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود على الله سبحانه وتعالى ذى الجلال والإكرام وهو يجب أن يكون مذكورا فى النفس حاضرا فى القلب دائما، فالضمير يعود إلى معلوم فى النفوس والقلوب.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، وهنا نجد إشارتين بيانيتين:

الإشارة الأولى - التعبير باسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وهذا يفيد أنه لا يوجد من يستطيع رده فليس الكلام لمجرد الرد، بل هو نفى لوجود من يستطيع الرد ويقدر عليه.

والإشارة الثانية - قوله تعالى: ﴿لِفَضْلِهِ﴾، فيها إظهار في موضع الإضممار، ذلك لبيان أنه لفضل من الله ورحمة منه سبحانه وأنه واجب الشكر على هذه النعمة، وجاء التعبير هنا بقوله تعالى: ﴿وَأِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ للإشارة إلى أن الخير مراد لله تعالى مقصود إنزاله بالشخص، وفي التعبير إبهام ثم بيان للتوكيد قال تعالى: ﴿وَأِنْ يُرِدْكَ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿بِخَيْرٍ﴾ فكان الأخير بيانا لإرادة الله تعالى بالعبد، ثم قال تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى يصيب بهذا الفضل من تتعلق به مشيئة الله من عباده.

وتتعلق مشيئة الله بمن يسير في طريق الخير كما كتبه الله تعالى فيوصله إلى غايته، والخير المذكور فى الآية هو النفع والهداية والاتجاه إلى الله ورجاء رحمته، ثم يختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى أن مغفرته تعالى وقبوله التوبة هو الخير الذى يشاؤه لعباده، ومغفرته من رحمته؛ لأنه سبحانه يريد لهم الخير برحمته وفضله، والشيطان يسول لهم الشر، فالذين مكنوا الشيطان من نفوسهم حرموا من الخير، ومن أبعدوا وساوسه فقد اتجهوا إلى الله، وكل شيء بعلمه وتقديره سبحانه، كل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وقد أوضح الله الحق وبينه فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ وقد بشر وأنذر أن يبين لهم أن الحق قد جاءهم بدلائله وقامت أعلامه، وقد علموا طريق الغواية وما فيه من اعوجاج، وطريق الهداية وما فيه من استقامة، فمن شاء سلك طريق الهداية وأصاب فيه الخير، ومن شاء سار فى طريق الضلال، أصابه الشر، ويكون فى ضلاله عائدا بالضرر على نفسه.

ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ، أى جاءكم الأمر الثابت فى ذاته وبأدلته وبراهينه من رسول منذر ومبشر وقرآن مبين فيه تكليفات الله تعالى الهادية إلى سواء السبيل والداعية إلى الخير المبينة لطريقه والتي هى فى ذاتها رشاد لمن أرادها طريقا مستقيما لا عوج فيه، فمن اهتدى بهدى هذا الحق فسمع وأطاع فإنما يهتدى لنفسه، أى نفع بالهداية نفسه إذ هى الخير كله، والله غنى عن عباده، ومحمد ﷺ لا عمل عليه إلا أن يبشر، ومن ضل فإنما يضل على نفسه بسلكه الغواية وتركه طريق الهداية بعد أن بدت الأعلام واضحة هادية، وعاقبة الضلال تعود عليه إذ يسير فى متاهة الباطل والفساد ومغبة ذلك عليه وحده.

ويقول ﷺ بأمر ربه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فينفى أنه وكيل وقد وكل إليه أمر المحافظة عليهم.

والباء فى قوله: ﴿بِوَكِيلٍ﴾ لاستغراق النفى، أى لست عليكم حفيظا قد وكل إلى أمركم - بأى حال من الأحوال - إنما أنا مرشد.

كما قال تعالى: ﴿... إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾ (٤٨) ﴿[الشورى]، وقد بلغت، وكما قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧) ﴿[الرعد].
﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩).

جعله الله قدوة فى اتباع الوحي وهو له ابتداء ولمن تبعه من المؤمنين، ولقد أمرهم سبحانه وتعالى بأمرين هما: خلاصة الحكمة، والدعوة المحمدية، ونوه سبحانه بأمر ثالث هو الخضوع لحكم الله تعالى وإليه المآل.

الأمر فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ هو التكليفات الشرعية كلها والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ومن التكاليفات قيامه ﷺ بالتبليغ وهو لا يقصر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧) [المائدة].

إن الدعوة ليست أمرا هينا لينا ولكن يكتنفها المشاق والصعاب، فعلاج
النفوس ليس أمرا قريب المنال، وإنما يتعرض لما يتعرض له أهل الحق من سفاهة
السفهاء وأذى الأقوياء وغطرسة العتاة الظالمين.

ولذا جاء الله تعالى بالأمر الثاني وهو الصبر فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى
يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أى اصبر على ذات ما يوحى إليك من تكليف، هو فى ذاته شاق
على النفوس، واصبر على أذى من تدعوهم، واصبر على الدعوة وجهاد الظالمين،
الذين يفتنون الناس عن دينهم، وإن لذلك منتهى، هو حكم الله .

وإن الله تعالى ناصر الحق وهو الهادى المرشد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

سورة هود

تمهيد:

عدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة، كلها مكية إلا ثلاث، الآية الثانية عشرة، والسابعة عشرة، والرابعة عشرة بعد المائة.

ابتدئت السورة بالحروف المعجمة، التي ذكرنا من قبل أنها من المشتبهات التي لا يعلم علمها إلا الله تعالى، وذكرنا ما نظنه حكمة في ابتداء السور بها، وأنها في أكثر أحوالها يكون ذكر الكتاب والتنويه بأمره مما جعل بعض العلماء يقول: إنها أسماء للكتاب نفسه، وقد قال الله تعالى من بعد الحروف ﴿... كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)﴾. ومن بعد ذكر القرآن وأحكامه ذكر القصد الأسمى من الدين وهو عبادة الله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)﴾، ثم طلب الاستغفار والتوبة وهى سبيل الله تعالى وسبيل الاستجابة، وأن الإيمان بالله وصدق الإخلاص يأتى بخيرى الدنيا والآخرة، وأن الإقامة فى الدنيا إلى أجل مسمى عند الله ﴿... وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾ لكنهم يكفرون بالرجوع إلى الله تعالى ويصرفون صدورهم عنه ويستخفون منه، والله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون ويعلم كل ما فى الوجود ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)﴾؛ وذلك لأنه الخالق لكل شيء ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا... (٧)﴾. ومع أنه الخالق المبدع فإنه سبحانه وتعالى يذكر بالبعث ﴿... وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا

سَحَرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴿

ولقد ذكر سبحانه أن من طبيعة الإنسان الفرح عند النعماء واليأس في الضراء ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ كَفُورٌ ﴾ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴿

وبيّن الله تعالى رغبة النبي ﷺ في أن يؤمنوا جميعاً، وأنه يضيق صدره بكفرهم فيقول سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى إفراطهم في طلب المعجزات ومكانة القرآن في الإعجاز بقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴿

وبعد ذلك بين سبحانه منزلة الذين يريدون العاجلة وزينتها وأنه يوفى إليهم أعمالهم فيها ولا يبخسون ثم تكون عاقبتهم السوء ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿

ثم يوازن سبحانه وتعالى بين المؤمن الذي يكون على بينة من ربه الذي هو شاهد بين على خلقه وتكوينه وما نزل من قبله على موسى، أيتساوى مع من يكفر بالله ويتحزب في الكفر فالنار موعده ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿

وأنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا... ﴾ ﴿١٨﴾ كما بين سبحانه أنهم ضعفاء أمام الله تعالى وأنهم ليسوا بمعجزيه،

وأنه يضاعف العذاب ويتحدى صاحب الجبروت والطواغيت، وأنهم يوم القيامة هم الآخسرون، وعلى عكسهم المؤمنون الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأختبوا إلى ربهم أى أنابوا واطمأنوا إليه. وأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون. وقد لخص القرآن الكريم الموازنة بين الهدى والضلال بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

لقد كان المشركون فى مكة يعبدون أوثاناً ويعاندون ويجحدون ويؤذون، فناسب أن يذكر سبحانه قصص النبيين الذين جاءوا فى بلاد العرب وجوبهوا بالعناد والجحود والاستهزاء والسخرية ليتأسى بهم النبى ﷺ وليعرفوا عاقبتهم إذا استمروا فى عنادهم .

وقد ابتدأ بذكر نوح أبى البشرية الثانى بعد آدم وقالوا: إن بعثه كان فى البلاد العربية أو ببلاد تدانيها، وجاء فى قصة نوح - وإنها لصادقة - أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده، وكانت إجابة الملائ من قومه مماثلة لما أجاب به المشركون فى مكة وأنهم كانوا يعيرونه كما عيروا محمدا ﷺ بأن الضعفاء والعبيد هم الذين اتبعوه .

قال الملائ من قوم نوح الذين سارعوا فى الكفر وبادروه ﴿... مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٢٧).

وقد قالت قريش مثل هذا القول للنبي ﷺ ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ (٢٧) [الفرقان]، وقد قال نوح لقومه إنه على بينة من ربه الذى آتاه رحمة ﴿... فَعَمِيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مُكْمُوهُمَا وَاتَّخَفْنَا لِهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨)، كما أنه لا يسألهم أجراً، وطالبوه أن يطرد من معه لأجل أن يدخلوا فى دعوته فيقول نوح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠)، ثم عيره قومه أنه ليس غنيا مثل كبرائهم فى

الشرك فيقول لهم: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا...﴾ (٣١).

تلمل الكافرون الذين أصموا آذانهم عن الحق فقالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢)، فيرد قولهم بأن الله تعالى هو الذى يأتيهم به إن شاء، ويأس منهم نبي الله عليه السلام فيقول لهم ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤).

وقد تشابه موقف مشركى مكة مع مشركى نوح الذين تشابه تحديهم مع حال مشركى قريش فى إهمالهم المعجزة الكبرى وهى القرآن وادعائهم أنه ﷺ قد افتراه.

يش نوح من إيمان أكثر قومه وأوحى إليه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، كما أمره تعالى بأن يصنع الفلك وسط سخرية قومه وهو يقول: ﴿... إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٩)، والفلك يصنع ويسير ببخار الماء الذى يغلى ويفور كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠).

ثم نادى نوح عليه السلام ابنه وكان فى معزل ﴿... يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ (٤٣).

وينادى نوح ربه حزينا ﴿... رَبِّ إِنِّي أُنَبِّئُ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥). فيجيبه سبحانه: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦)، يتدارك نوح

عليه السلام قائلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾.

وإنه بعد غرق الكافرين برسالة نوح، ذهب الطوفان ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ... (٤٨)﴾.

وهذه القصة ليست مكررة في مواضع أخرى بهذا السياق الذي جاء في هذا الموضع لبيان المشابهة فيما لقيه نوح من المشركين، وهو يتشابه تماما مع ما لقيه محمد ﷺ من قريش، وإن كانت النتيجة مختلفة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يرجو الإيمان من قومه فلم يطلب هلاكهم. ولقد قال تعالى بعد قصة نوح وبيان العبرة فيها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾.

بين سبحانه وتعالى الخبر الصادق عن عاد مع نبيهم هود عليه السلام، فنجد أن إجابتهم كإجابة مشركي مكة من العرب للنبي ﷺ فيقول سبحانه: ﴿وَالِىَّ عَادُ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾.

وأنه بين لهم التوحيد دين الحق وبين أنه لا يريد منهم أجرا، إن أجره إلا على الله، ويقول لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥١)﴾. ويردون بأنه لا دليل على نبوته: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٢)﴾.

نرى الإجابة واحدة، إجابة عاد وإجابة مشركي العرب، الذين قالوا عن محمد ﷺ: ﴿... رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧)﴾ [الإسراء]، وأنه يعتريه الجنة ويحسبون أنهم يستطيعون علاجه وكذلك قالت عاد لهود من قبل ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)﴾.

ويندد بهلاكهم إذا لم يجيبوا دعوة التوحيد ﴿... وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

ثم ينزل بهم أمر الله تعالى بريح عاصف كما بين الله في سورة الأحقاف ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَاتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ .

كانت هذه عاد وعاقبة جحودها ولقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ .

ثم جاء ذكر صالح عليه السلام وقد بعث في ثمود فقال تعالى: ﴿وَالِئِنْ ثَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ .

دعاهم إلى دين الله تعالى وهو الوحداية، وذكر معها دليلها الذي هو الإنشاء والخلق والتكوين، ولكنهم أجابوا بالكفر كما أجاب مشركو العرب ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ .

آتاهم بالبينة وهي ناقة الله ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ . ثم نجى الله تعالى صالحا ومن آمن معه وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

وقد جاء بعد هؤلاء ذكر إبراهيم أبى العرب وأبى الأنبياء، وابتدأ بذكر رسل الله تعالى من الملائكة إليه عليه السلام. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

كان إبراهيم عليه السلام جوادا فما لبث أن جاء بعجل حنيذ - أى مشوى ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

كانت معجزة أن تلد، إذ لم تلد وهى شابة ثم وهى عوان^(١)، فكيف تلد وقد صارت عجوزا.

علم إبراهيم خليل الله أنهم جاءوا إلى قوم لوط منذرين مهلكين فأخذ يجادلهم لأنه أواه عطوف حلیم منيب إلى ربه فأجيب بقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

ولقد ذهبت رسل الله من بعد ذلك إلى لوط فسئء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب، ولما رأى قوم لوط الملائكة جاءوا طامعين فيهم، وقد كانوا قوم سوء يفعلون الفاحشة، ويأتون الذكران من العالمين، فقال لهم لوط: ﴿... يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

ولقد أحس لوط بالضعف وأنه لا نصير له يشد أزره فأزال رسل الله من الملائكة كربه وبينوا له ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

(١) العوان: كل ذات زوج، والمُتَعَاوِنَةُ: المرأة الطاعة في السن. والمقصود الأخير. القاموس المحيط - عون.

ثم جاء أمر الله فجعل عاليها سافلها، وأمطر الله تعالى عليهم حجارة من سجيل منضود أى متتابع مصفوف، ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ...﴾ (٨٣) أى معلمة عنده سبحانه، وما هى من الظالمين ببعيد.

جاء بعد ذلك خبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام وقومه «مدين» فقال تعالى: ﴿وَالِىَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْشَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥).

وقد بين لهم أن البيع الحلال خير وأبقى وأبرك، فأجابوه كما أجاب مشركو مكة كما جاء فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧). قالوا الجزء الأخير متهمين والجزء الأول منكربين مستغربين، وهذا ما أجاب به مشركو العرب.

لكن شعيبا عالج نفوسهم المتمردة على الحق فذكر لهم أنه يطيع الله فيما يدعو إليه، وأنه لا يدعوهم إلى أمر ويخالفه ﴿... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨). وقد طلب إليهم أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه بعد أن يقلعوا عن عبادة الأوثان، لكنهم انتقلوا من الإنكار إلى التهديد بعد تحذيرهم أن يصيبهم ما أصاب من كانوا قبلهم: ﴿... وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مَتَكُم بِعِيدٍ﴾ (٨٩).

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ (٩١)، وهكذا كان يقول مشركو قريش لمحمد ﷺ كما أنهم هموا بقتله لولا خوفهم من بنى هاشم. ثم يقول لهم شعيب عليه السلام.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ... ﴾ (٩٢) .

لكن قومه عاندوا واستمروا في جحودهم فأنذرهم ﴿... سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٩٣) ، ثم ينجي الله تعالى شعبيا والذين آمنوا معه وتأخذ الصيحة الذين ظلموا وتلك عاقبة المكذبين ﴿... أَلَا بَعْدُ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴾ (٩٥) ثم جاء ذكر موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (٩٨) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس الورد المرفود ﴿... ﴾ (٩٩) .

العبرة من القصص الحكيم

بين سبحانه العبرة من هذا القصص وأنه كان غيبا على النبي ﷺ فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠٠) ، أى تقادم أثره كالزرع المحصود، وإن هؤلاء أخذوا بذنوبهم فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأن آلهتهم التى عبدوها من دون الله ما أغنت عنهم وما زادتهم إلا هلاكا .

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) .

وإن فى ذلك عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، ذلك اليوم المشهود الذى آخر لأجل محدود ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (١٠٥) .

ثم بين سبحانه مآل الذين كفروا وشقوا ففى النار، لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك .

كما بين سبحانه الذين سعدوا وهم أهل الإيمان ﴿ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٌ ﴾ (١٠٨) أى غير منقطع .

هذه حقائق ذكرها الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام، وفيها أن الرسل من قبله قد نال منهم أقوامهم بمثل ما ينال قومك منك، وأن العاقبة للمؤمنين، أما هؤلاء فلا يصح أن تدفع أفعالهم إلى الشك في أن الله سيوفيههم نتيجة كفرهم غير منقوص ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)﴾.

وأن الشرائع التي شملها كتاب الله العزيز قد سبق فيها موسى بكتاب فاختلف فيه، وأنه لولا كلمة سبقت من ربك ببقائهم حتى يوم الجزاء لقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وأن اليهود قوم موسى لفي شك منه مريب، وأنهم جميعا سيوفيههم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير.

كما بين الله تعالى لنبيه ما يحب أن يسلك في دعوته فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابٍ مَّعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءِ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْبَأْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾.

هذه حكمة الله لا يهلك القرى إلا بظلم أهلها وغفلتهم عن إدراك العواقب التي تستقبلهم وليسوا مصلحين، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولكنها إرادته. فجعل فيهم الفساد والمصلح ﴿... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾.

بين الله تعالى أن العبرة يسوقها للناس وللنبي ليثبت فؤاده ويزيده تمسكا بالحق فيقول تعالت كلماته: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ

مَكَانَتَكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَنْتُمْ ظُنُّوا إِنَّا مُنْتَظَرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴿

إن ما ذكر من القصص ليس تكراراً لما ذكر في غير سورة هود، ولكن كلما كان هناك إشارة كان هنا بيان، فقصة الفلك مثلاً ذكرت هنا مفصلة مبينة، وذكرت في غيرها مشاراً إليها، وكذلك قصة لوط كان فيها إجمال وتفصيل، الإجمال كان في الفساد، وفصل الهلاك حيث إن تفصيل الفساد كان في سورة أخرى كما أشير إلى الهلاك.

معاني السورة الكريمة

قال تعالى:

الرَّكَابُ أَهْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ يُمِيعْكُمْ مِّنْ عَاقِبَاتِ الْأَجَلِ مُسَمًّى وَيُؤْتِ
 كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
 يَنْتَوْنُ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوهُنَّ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
 يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

إن ما نعلمه عن الابتداء بالحروف المفردة ذكرناه في أول سورة البقرة وآل عمران وأول سورة يونس، ولا يفيد هنا تكرار ما ذكرناه هناك، وإن التكرار بغير غرض مقصود لا يجوز ممن يتكلم في القرآن لأنه المنزه عن اللغو، فلا نلغو في معانيه.

﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝﴾

جاء ذكر الكتاب بعد الحروف المفردة التى فهم بعض المفسرين أنها رمز للكتاب الكريم، وفى كلمة ﴿كِتَابٌ﴾ التنكير للتعظيم، أى أنه كتاب عظيم لا يطاول ولا يأتى أحد بمثله، ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾ أى نسقت ألفاظه فهى متآخية فى نغمتها وتآلفها وهو نسق بيانى مؤتلف غير مختلف، ومعانيه متساوقة فالخواطر تتسابق إلى النفس بإيماء من الله يمهّد كل معنى لما يليه كعقد من الجواهر تتبع كل حبة آخرتها، وأحكم مدلوله لا يعرفه تضليل ولا تبديل، ولا تناقض أو تضارب فى معانيه، بل إنها متلاقية متعاونة مدعمة بالحجج والبراهين القاطعة الحاسمة تسير متهادية متصلة، ولكلمات الله المثل الأعلى.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ (ثم) للترتيب والتراخى، والتراخى هو التراخى المعنوى، ذلك لأن الناس ألفوا أن الكلام المحكم فى نغمه وألفاظه وكلماته وأسلوبه لا يكون مفصلاً فى معانيه، أى لا يكون مبيناً واضحاً؛ لأن النغم يشغل القارئ عن المعانى، ولكن هذا القرآن كتاب الله الخالد فى الوجود الإنسانى، كان مع حلاوة نغمه وتواصله وعباراته وتساوق معانيه مبيناً مفصلاً لأبواب الحلال والحرام والعقائد والمواظ. والترتيب ليس للترتيب الزمنى، إنما هو للترتيب الفكرى والترابط النفسى فكلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب والتراخى.

ولقد أعطى الله تعالى القرآن شرفاً إضافياً بعد شرفه الحقيقى فى إعجازه وأنه لا يزال يتحدى الخليفة عرباً وعجماء أن يأتوا بمثله وأنى يكون، فيقول تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ كلمة ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ معناها من عند، وقل أن تستعمل فى القرآن الكريم فى غير جانب الله العليم القادر. ويقول الزمخشري فى معنى الآية الكريمة: ﴿أَحْكَمَتْ﴾ دون الباطل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصل القلائد الفرائد من دلائل التوحيد والأحكام والمواظ والقصص. إذ جعلت فصولاً سورة سورة، وآية آية ووقّت فى التنزيل فلم تنزل جملة واحدة، فإن قلت ما معنى كلمة ﴿ثُمَّ﴾؟ قلت: ليس معناها التراخى فى الوقت بل فى الحال، فتقول هى محكمة أحسن

الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفيه طباق حسن لأن المعاني أحكمها حكيم، وفصلها، أى بينها وشرحها خير عالم أى قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فيه هذا الطباق بين أحكمت وفصلت ووصفها الله تعالى بأنها ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك المقصد الأسمى من القرآن ألا وهو التوحيد وإثبات رسالة النبي ﷺ. لذا قال تعالى:

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ﴾ (٢).

النفي والإثبات دليل على قصر العبادة على الله وحده لا يعبدون غيره من أوثان أو أشخاص أو أى كائن من مخلوقاته سبحانه وتعالى. أى أن الله تعالى أحكم القرآن وفصل آياته تفصيلاً، وأقام فيه الدلائل القاطعة على أنه الخالق لتعبده وحده ولا تشركوا به شيئاً.

ثم يقول تعالى حاكياً عن قول نبيه ﷺ: ﴿إِننِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ لمن عصى وأشرك أنذره بالسعير، ﴿وَبَشِيرٍ﴾ لمن آمن بالله تعالى وحده وكلل إيمانه بطاعة الله فيما أمر به من طاعات فيها خير الدنيا والآخرة، وفيما نهى عنه من معاصي فيها فساد فى الأرض وعذاب فى الآخرة، والضمير فى كلمة ﴿مِّنْهُ﴾ يعود على الله تعالى.

ويأتى ذكر النذير البشير ﷺ بعد عبادة الله تعالى وحده، إيماء بأن القرآن الكريم قد أحكمت آياته وفصلت ليكون آية النبوة ومعجزة الرسالة المحمدية الخالدة إلى يوم الدين. فالقرآن الكريم هو البرهان لعبادة الله وحده، وهو معجزة النبي ﷺ، تلك المعجزة الكبرى التى لا تدانيها فى بقائها وثمراتها معجزة أخرى من معجزات النبيين قبله ﷺ.

بعد أن نهى سبحانه عن عبادة غير الله وبين أن النبي ﷺ نذير وبشير أمر بالاستغفار والتوبة فقال:

﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٣).

(الواو) عاطفة على قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولتضمنها معنى الأمر، وإن كانت للحكاية، ولكن لأنها غاية أحكام الآيات وتفصيلها، وكون النبي ﷺ له الإنذار المؤكد، والبشارة كانت في معنى الطلب بدليل الإنذار والتبشير، إذ لا بد أن يسبقها الطلب، ولذا جاء عطف الطلب.

كلمة ﴿وَأَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، يصح أن نقول إنها تفسيرية، ويصح أن تكون مصدرية. والاستغفار طلب المغفرة، والخطاب لقوم مشركين فطلب إليهم أولا الإقلاع عن عبادة الأوثان، ثم الاستغفار، وطلب عفو الله فيما ارتكبوا من آثام في حقه سبحانه، ثم يكون بعد ذلك الرجوع إلى الله والعيش في رحابه، وذلك بالتوبة إليه. كأن الاستغفار هو الدخول إلى الوحدة مع طلب عفو الله ومغفرته، ولهذا قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار كان عن الشرك وما اتصل به من جحود وعناد، والتوبة الرجوع إلى الله وطاعته فيما أمر ونهى. والتعبير بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على الترتيب والتراخي للدلالة على البعد بين المقامين، مقام الاستغفار عن الشرك ومقام التوبة، فالتوبة ذاتها عبادة، ولا تراخي في الزمن بل الزمن واحد ولكن البعد في الرتبة. وفي قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ معنى قرب الله تعالى من العبد لأنه ربه الذي برأه ورباه وقام على تدبير حياته وحياء ما حوله.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أى عودوا بالتوبة إليه سبحانه؛ لأن العبد بالشرك يبعد عن الله بعد أن خلقه حنيفا، وبالتوبة عاد إلى ما ابتدأ وهو القرب من الله.

﴿تُوبُوا﴾ فعل أمر له جواب كجواب الشرط؛ وقوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى إن تتوبوا بعد أن تستغفروا يكن الجزاء أن يمتعكم متاعا حسنا، أى يمكنكم من أن تتمتعوا متاعا حسنا. والمتاع الحسن هو المتاع

الحلال الذى يكون من كسب حلال وفى حلال كالرجل مع زوجته، والمتاع الحسن ماضى كالذى أشرنا إليه، ومعنوى وهو الاطمئنان إلى الحق، والقرار، وعدم الظلم، والرضا والقناعة، والاستمساك بالفضائل، والبعد عن الرذائل، والسكون إلى جانب الله، ولقد قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾ (٩٧) [النحل]. وأن هذه المتعة التى تعم المجتمع الفاضل هى إلى أجل مسمى وهو الحياة الدنيا.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ هذا الإيتاء فى الدنيا والآخرة.

أما فى الدنيا فإنه يتكون مجتمع فاضل كريم حيث يكون كل ذى فضل فى مكانته، فيعطى حقه غير منقوص، ويتمتع الجميع بمتاع حسن وتكون الحقوق قائمة أدبية ومادية، فالمجتمعات التى لا تظلمها الفضيلة لا تعرف فيها قيم الأفاضل وتضطرب الموازين اضطرابا شديدا بل تنقلب للرجال والأعمال معا.

وأما فى الآخرة يؤتى ذو الفضل فضله بالنعيم المقيم والرضوان من رب العالمين وهو الجزاء الأكبر. وفى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ معناه جزاء فضله ولم تذكر كلمة الجزاء، وإن قدرت فى مطوى الكلام، للإشارة إلى أن الجزاء مساوٍ للفضل تماما حتى كأنه هو، فالله تعالى عادل حكيم. وفى مقابل جزاء الذين يحسنون قال تعالى مهددا من يعرضون: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ تولوا أصلها تتولوا وحذفت التاء لتوالى التاءات وذلك كثير فى العربية وفى القرآن الكريم، ويكون خطابا للمخاطبين فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ ولكن من الذى يخاطبهم، أهو الله تعالى أم نبيه ﷺ، والله جل جلاله لا ينسب له الخوف ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ فيكون الابق بالنبي ﷺ على أساس بشارته وإنذاره. الكلمات إنذار للذين يعرضون وينصرفون عن كلام الله وهو أنهم محل خوف ممن أرسله هاديا ومبشرا ونذيرا، وقد أكد الله تعالى الخوف عليهم بالجملة الاسمية وبكلمة ﴿إِنْ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ الكبير

وصف لليوم، وكبره لأن فيه أهوالا شديدة ولأنه يوم الشدة يحس الإنسان بطوله كما أنه فى ذاته كبير فيه الحساب والثواب والعقاب.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

قدم الجار والمجرور للدلالة على القصر، أى إلى الله وحده مرجعكم لا إلى أحد سواه ولا شريك له فى الحكم على أعمالكم وأقوالكم وما كسبتم واكتسبتم، ولذكر لفظ الجلالة تربية للمهابة فى قلوبهم، وفى ذلك إنذار شديد للمشركين الذين أشركوا غيره باطلا، ثم يؤكد سبحانه الإنذار بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فعقابه عقاب القادر القاهر فوق عباده ويحكم يوم الحساب، إذ هو قادر على كل شىء فى الوجود وليس على درجة الكمال سواه.

بعد أن بين الله قدرته القاهرة بين علمه الذى يحاسب على مقتضاه فقال:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٥).

﴿يَنْتُونْ﴾ فعله ثنى بمعنى طوى. وكلمة ﴿أَلَا﴾ للتنبيه، والمعنى: ألا إنهم يطوون صدورهم على عداوة وبغضاء وكراهية شديدة، فأولئك الذين كانوا يعادون النبى ويزدرون عند سماع الحق وكأنه يكون منهم أمران:

أولهما: العداوة والبغضاء يطوون قلوبهم عليها وتدفعهم إلى عمل ما لا يجوز ويفتنون المؤمنين عن دينهم.

ثانيهما: الازورار عن الحق ازورارهم عما لا يحبون، وانصراف صدورهم عنه ويريدون أن يستخفوا عن النبى ﷺ وينسون أن الله بكل شىء عليم.

ثم يبين سبحانه كمال إحاطة علمه فيقول: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ويريدون أن تكون غاشية لهم تلف إحساسهم، أى أنه سبحانه يعلم ما يطوون عليه

صدورهم وما يستخفون به في حسهم وفي نومهم، ولذا قال تعالى موضحاً مؤكداً ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وأنه سبحانه يجازيهم بذلك الذي يطوون. ثم يقول سبحانه في بيان صفة علمه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهذا التعبير القرآني يبين دقة علم الله تعالى، و(ذات) هي الحقائق التي تلازم الصدور من خواطر خير وغيره، ومن خلجات القلوب وما تخفى السرائر، وكلمة (ذات) بمعنى صاحبة أو متلازمة الصدور لا تخرج إلى الجهر والإعلان، ولا تكون كذلك إذا خرجت من مكنونها إلى موضع الإعلان.

وإن ذكر هذا العلم الشامل المحيط بكل صغيرة وكبيرة لبيان أنهم يتحملون جزاءه سبحانه، وهو جزاء ممن لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض الذي يعلم ما تكن الأفئدة وتكسب الجوارح ويجازي كلا بما يستحق، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكل بما اكتسب رهين.

خالق الكون ومدبره

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمُ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)﴾ .

﴿مَا﴾ نافية، وكلمة ﴿مِنْ﴾ للدلالة على عموم الأحاد في كل الدواب، أى يعلم كل دابة علماً دقيقاً في مفرداتها وجماعاتها، أى أن كل دابة على الله رزقها، وكانت التعدية للدلالة على أن ذلك متحقق ثابت بمقتضى وعد الله تعالى الذى لا يخلفه، فعبر بـ ﴿عَلَى﴾ وهذا لأن الله لا يجب عليه شيء إلا ما كتبه سبحانه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... (٥٤)﴾ [الأنعام].

وليس هناك إلزام، ولكن هناك وعداً والتزاماً، والدواب ما يدب على الأرض من أصغر الكائنات إلى الإنسان، وعلى الله رزق كل هؤلاء، والإنسان بكل ما يتخذه من أسباب ليس هو المنشئ للرزق فقد يتخذ كل الأسباب ولا يكون إلا الحرمان، فكل شيء من فضل الله، وعلى الإنسان أن يسعى ولا بد من الأخذ بالأسباب بعد التوكل وتفويض الأمر لله، وليس لأحد أن يحسب أن أسبابه وحدها تموله وتمونه، بل لابد من التوكل على الله والتفويض إليه.

والرزق بالنسبة للدواب والأحياء، هو ما يتمول به ويتغذى، فيمى جسده ونفسه ويكون بقاءه، وذلك عام في الدواب جميعها، وبمقتضى إرادته الحكيمة يكون بعض الدواب رزقاً للآخر، وكل ذلك بتقدير الله تعالى وبفضله الذى أنشأ ودبر وحكم.

وأكد سبحانه أن كل دابة فى ظل فضله وسلطانه يدبر أمرها ويحكم بتدبيره فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المستقر هو الإقامة فى الأرض، ويصح أن نعتها مصدراً ميمياً، فيكون المعنى ويعلم استقرارها، كما يصح أن نعتها اسم مكان أو زمان، أى يعلم مقامها فى الأرض وزمان إقامتها.

ومستودعها هو مكان إيداعها فى قبورها إن كانت فى الأحياء التى تدفن، وإن الذى يعلم مكان استقرارها ومكان إيداعها هو يعلم مقدار حاجتها فى الرزق فلا يمكن أن يفوت الرزق أحداً.

ثم يؤكد سبحانه كل هذا بقوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أى أن كل دابة ورزقها ومقامها واستيداعها فى باطن الأرض ودبعة مستردة بعد حين، كل ذلك مكتوب فى كتاب واضح هو اللوح المحفوظ والعلم المكنون.

وإن من ألفاظ القرآن أنه ﴿...لَقَوْمٌ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾ وإن وعده سبحانه الحق لا يقبل إخلافاً ولا تخلفاً، ولكن ناساً لا يؤمنون بالخالق الرازق ذى القوة المتين يحسبون أنهم يرزقون أنفسهم، ويريدون أن يفعلوا فعل أهل الموءودة ويظنون أنهم إن قضوا على نسلهم ضمنوا رزقهم، ولقد نسوا قول الله تعالى: ﴿...وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ... (١٥١)﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ... (٢١)﴾ [الإسراء].

ولقد قال بعض الذين يتخذون الأسباب:

وكيف أخشى الفقر والله رازقى ورازق هذا الخلق فى العسر واليسر

تكفل بالأرزاق للخلق كلهم وللضب فى البداء والحوث فى البحر

ثم بين سبحانه كمال سلطانه فى خلقه وتديره لأمورهم فيقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله جل جلاله، وهو فى نفس كل إنسان وعقله وقلبه إذا كان يؤمن بالله واليوم الآخر، والآية تؤكد تدبير الله تعالى لخلقهم وإمداده

بالرزق وإمساكه لللكوته كله . والأيام الستة ليست هى أيامنا فلا يقال ابتداء بالأحد وانتهى بالجمعة؛ لأن أيامنا نشأت بعد خلق السموات والارض، وارتباط الأرض بالشمس والقمر والنسبة بينهما وكل يدور فى فلكه، والشمس والقمر بحسبان .

إنما يراد بالسته أيام الأدوار الكونية، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأدوار فى سورة فصلت: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَنَكْفُرُونَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت].

فالأيام هى أدوار الخلق والتكوين كما تشير الآيات .

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ يصح أن نقول - والله سبحانه أعلم بمراده - إن العرش كناية عن السلطان الكامل، وفى ذلك تصوير لتدبير ملكه وخلقته فى أرزاقهم وأقواتهم وبقائهم والتماسك بين أجزاء السماء والأرض وكيف ينزل الغيث ومنبت الأرض بعد موتها وكيف يمسك السموات والأرض أن تزولا، وكيف يحفظ الوجود كله وهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . وهذا قد يكون معنى العرش فيما أحسب، والله لا إله إلا هو وحده عنده العلم الكامل .

وذكر سبحانه أنه على الماء للإشارة إلى أنه سبحانه هو الذى يدبر أمر الأحياء كلها، وأن رزق الذى يسبح فى الماء فى كفالة الله كرزق الذى يدب على الأرض .

ثم يقول سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أى ليعاملهم معاملة المختبر، إذ إن لهم إرادة تتجه إلى الخير وتتجه إلى الشر، وهو سبحانه خلقكم ومكّن لكم فى الأرزاق والأقوات والاستقرار فى الأرض؛ ليظهر المؤمن فيشكر ويظهر الكافر فيكفر، و﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيها ﴿أَحْسَنُ﴾ بمعنى أخلص والمخلص الذى بلغ إخلاصه أعلى الدرجات .

ويلاحظ هنا ذكر الذين يظهر خيرهم ولم يذكر الذين يظهر شرهم، وكأنهم همل لا يعدون في الأحياء، فالحياة حياة الروح، ولقد قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام].

فالذى ظهر شره يعد ميتا وإن لم يموت، وإن المشركين مع هذا الخلق وذلك الإبداع منكرون اليوم الآخر، وأن الله يعيدهم كما بدأهم أول مرة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، (اللام) الموطئة للقسم، أى إن قلت لهم مؤكدا القول بعد هذه الآيات البيّنات فى دلالتها وكمال وضوحها فى قدرة الحكيم العليم الخالق لكل شىء، لئن قلت لهم يا محمد إنكم لمبعوثون من بعد الموت، لا يكون الجواب بالإيجاب بل يكون بالسلب؛ لأن موضع استغرابهم أنه بعد الموت .

وقد أكد الله تعالى قول النبی بالقسم وبالجملة الاسمية وإنّ المؤكدة ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾، كما أكد إجابتهم باللام وينون التوكيد الثقيلة ﴿لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد كانت إجابتهم سلبا مع استغراب وجحود ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أى إن إجابتهم، إن هذا أمر باطل كما أن السحر أمر باطل، وأن ذكره خيالات وأوهام كما أن السحر خيالات وأوهام، وإن الإخبار بهذا لا دليل عليه إلا القرآن وإنه لسحر وقول ساحر وما هم بمصدقين لساحر أو مجنون.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَا يَوْمُ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾.

فى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام موطئة للقسم، ولئن أخرنا عنهم العذاب الذى نال مثله الذين من قبلهم إلى أمة أى مدة معدودة من السنين المحدودة القليلة؛ لأن التعبير بمعدودة يومئ إلى أنها قليلة، كما قال تعالى عن قول اليهود: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً... (٨٠)﴾ [البقرة] فالأمة هنا بمعنى مدة.

وكلمة أمة وردت في القرآن بمعان مختلفة، فتجىء بمعنى المدة كهذه الآية، وتكون بمعنى الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ...﴾ (٢٣) [القصص]، وتطلق على الرجل المهيب الجامع لمكارم الأخلاق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا...﴾ (١٦٠) [النحل].

وتطلق بمعنى الملة كقوله تعالى: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾ (٢٢) [الزخرف].

وهذه معان مشتركة في لفظ واحد كإطلاق لفظ «القرء» على الطهر وعلى الحيض، ومعنى الآية الكريمة أنه إذا أخرج الله تعالى العذاب الدنيوي الذي ينالهم بريح عاصف أو رجفة تجعل عالي الأرض سافلها أو بحرب مخزيه لهم ترد الحق إلى أصحابه وتقمع الباطل وترهقه فإنهم يقولون متحدين النبي ﷺ ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾، ما يمنعه، وكلامهم هذا يتضمن تحديا وإنكارا وتكديبا مثل الذين سبقوهم إلى الكفر والجحود.

إن سنة الله في الذين خلوا من قبلهم أنه سبحانه يمهّل الكافرين، يدارسهم رسولهم الحق يدعوهم إليه ويؤيدهم بالبرهان ويردده المرة بعد الأخرى حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ قوم نوح وعاد وثمود وآل مدين وآل فرعون، وإذا كانت الدعوة خالدة كدعوة محمد ﷺ غالبهم الحق وغالبهم، فقد صابرهم ﷺ حتى هاجر وكان الجهاد والمغالبة حتى وضع الله الباطل وأزهقه إنه كان زهوقا.

ولذلك لما جاء لم يكن مصروفا بل كان لونا آخر ليس من نوع ما نزل بمن سبقوهم.

إنهم تحدوا الله منكرين مستكبرين يقولون: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ فلا استفهام للاستنكار والإنكار والاستهزاء بما هددهم به القرآن، وإنهم إذ تحدوا محمداً ذلك التحدى السافر المستهزئ فإن الله تعالى يقول: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ألا للتنبيه الزاجر الموقظ لغفلتهم التي كانت من فرط الاغترار بقوتهم الظاهرة.

﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أى ساعة أن يجيئهم لا يصرفه عنهم رجاء أو شفاعة شافعين، وإنهم إذ يندمون فقد فات وقت الندم، كذلك كان الأمر فى ماضى الأمم مع الكافرين، وإن ما قدره الله لكم معشر كفار قريش إذا جاء العذاب على أيدي المجاهدين بأمر من الله تعالى لن يرفع عنكم حتى تستسلموا خاضعين، وحتى يتمكن الإيمان من الكفر والكافرين.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (حاق) معناها أحاط وهى تتضمن معنى لانزال الجزاء. جاء فى تفسير معنى (حاق) فى مفردات الراغب الأصفهاني: قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...﴾ [فاطر]، أى لا يتزل ولا يصيب، وأصله «حق».

وخلاصة المعنى على هذا، أنه أحاط بهم ونزل الأمر الذى كانوا به يستهزئون، وهو حق عليهم استحقوه بأعمالهم واستهزائهم فكان جزاءً وفاقاً لما فعلوا من قبل، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يفيد أن استهزاءهم كان دائماً ومستمراً، ولذا عبر بالماضى الدال على وقوعه فى ماضيهم واستمراره فى حاضرهم ومستقبلهم حتى نزل بهم ما تعجلوه.

الصبر خلق الإيمان

قال تعالى:

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝٩ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ

وَصَآئِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ
مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ كَفُورًا ﴿٩﴾﴾ .

هذا نص كريم فى بيان طبيعة النفس التى تخضع للحس دون العقل المدرك الذى يوازن بين الماضى والحاضر ويضبط نفسه ووجدانه، بل يكون هلوغاً عندما يصيبه ما يسوؤه وطموعاً أشراً بطراً عندما ينال خيراً ويذهب عنه ما يسوؤه، فإذا أصابه خير بطر، وإذا أصابه سوء جزع.

أما المؤمن المدرك صبور لا تبطره النعمة، ولا توتسه النقمة، وهو يضبط نفسه، وضبط النفس والصبر متلازمان لا يفترقان.

﴿وَلَكِنْ﴾ (اللام) هى الممهدة للقسم، إن حرف شرط ودخول اللام يؤكد فعل الشرط أى أن أذاق الإنسان منه سبحانه رحمة ثم نزعها إنه ليكفور كفور.

وهنا ملاحظات بيانية موضحة ومقربة للنص الكريم:

الملاحظة الأولى: قال سبحانه: ﴿أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أى جعله يذوق ويحس متنعمًا، وأضاف سبحانه وتعالى ذلك إليه لبيان عظمها وأنها منحة جلية، وسماها سبحانه رحمة لوجوب شكرها وبيان أنه أعطاها لتكون مصدر خير للناس تعم ولا تخص، فهى ليست له خاصة ولكن ليكون شكرها نفعاً للناس.

الملاحظة الثانية: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ يشير إلى التفاوت بين العطاء الكريم والتزع الحكيم، وفيه تفاوت بين العطاء والتزع، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، وفيه بيان أن نعيم الدنيا ليس بدائم بل فيها العطاء والمنع، ونعيم الآخرة دائم غير مجذوذ.

الملاحظة الثالثة: هى الانتقال إلى حال شديد مؤكد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيَكُونُ كَفُورًا﴾ بصيغة المبالغة الدالة على الهلع والجزع والبأس من رحمة الله التى

لا ييأس منها إلا القوم الكافرون. وكان القول: ﴿كَفُورٌ﴾؛ لأنه لا يرجو الله ولا يؤمن بما عنده.

الملاحظة الرابعة: جواب القسم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ كَفُورٌ﴾ فيه تأكيد لعمق يأسه واستيلائه عليه وكفره، وكان التأكيد بصيغة المبالغة وباللام وبالجملة الاسمية وبـ «إن» المؤكدة.

وكل ذلك لأنه مآدى لا يؤمن إلا بالمادة ولا يرجو ما عند الله الذى يعطى ويمنع ويعز ويذل، وهذا حال الإنسان الذى لا يؤمن إلا بالدنيا، إذا كان المنع بعد العطاء.

أما حاله فى النعماء بعد الضراء فقال تعالى فيه:

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٦﴾﴾.

(اللام) مهدة للقسم وما قلناه فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، يقال هنا، والنعماء هى النعمة السابعة، والضراء ما يضر فى الجسم أو المال ويصيب النفس فيوجد بأسا وضرا لا يرجى زواله عند غير المؤمن.

جواب القسم ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، وكان جواب القسم لدخول اللام، والتأكيد بنون التوكيد الثقيلة، والقسم واللام ذاته تأكيد.

والسيئات الأمور التى ساءت والتعبير بالماضى دليل على تأكيد الذهاب، وهو لا يسند ذلك لله، بل يذكره من غير إسناد للمنعم وكأنه جاء عفو من غير مسبب الأسباب ومقدر الأقدار.

ومن قوله تعالى، إنه يفرح بذلك ويفاخر به فقال: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أى إنه يغمره الفرح فينسيه ما كان فيه من ضراء وما أصابه من شقاء.

هكذا المادى لا يؤمن إلا بما هو فيه ناسيا ما كان معتبرا به، فله الساعات التى هو فيها لا يفكر فيما سواها، وفى وصفه يقول الله تعالى: ﴿فَخُورٌ﴾ أنه يتناول على غيره مغترا بما آلت إليه حاله، والفخر فيه أمران مفسدان للنفس:

الأمر الأول: المطاولة على الغير وغمط الناس حقوقهم .

الأمر الثانى: إنكار نعمة المنعم معتقدا أنه مجهوده وعمله وليس بعتاء من الله وإن التفاخر يوهم صاحبه أنه فى حال لم يصل إليها غيره فيتخيل ما ليس عنده، وقد نهى النبى ﷺ عن هذا حين قال، «كلوا واشربوا والبسوا من غير سرف ولا مخيلة» وقال تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ (٣٦) [النساء].

وهذا شأن الإنسان الذى لم يؤته الله تعالى صبر المؤمنين ولا ضبط نفوسهم، ولذلك استثنى الذين صبروا وآمنوا وعملوا الصالحات من عموم الإنسان فقال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١).

إن الصبر وضبط النفس كريمان متلازمان، بل إن ضبط النفس شعبة من شعب الصبر الثلاث:

الشعبة الأولى: تحمل المشاق النفسية والبدنية، ومن المشاق النفسية المحن والنعم، ويكون تحمل المحن بتلقيها من غير تملل ولا تزلزل، أما النعم فيتلقاها بالشكر والصبر على القيام بحقها.

الشعبة الثانية: تكون بعدم الأنين أو الشكوى والضجر، وهذا هو الصبر الجميل الذى التزمه يعقوب عليه السلام.

الشعبة الثالثة: هى رجاء زوال ما يمتحنه به الله تعالى، فلا يئأس من رحمة الله ولا يكفر بنعمه وألا تغريه نعمة الله بالكبر والبطر.

وإن ضبط النفس يكون في مطوى هذه الشعب، فلا تكون نفس الصابر رعاء تبشها الشدة وتقرها النعمة فيكون في اضطراب مستمر، وهوج في النعم والنقم.

وقد استثنى الله تعالى الصابرين، وذكر في أوصافهم العمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أى عملوا كل شىء فيه صلاح أنفسهم وجماعتهم، وصلاح دينهم الذى هو عصمة أمرهم، وإن اقتران العمل الصالح بالصبر يدل:

أولاً: على أن العمل الصالح يقتضى صبراً على الاستمرار فلا بد أن يكون مستمراً دائماً، ولذلك قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(١)، كما أنه قال: «إن الله يحب الديمة في الأعمال»^(٢).

ثانياً: يدل اقتران العمل الصالح بالصبر على أن العمل الصالح يحتاج إلى تحمل بعض المشاق، كما قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»^(٣).

وقد بين سبحانه وتعالى جزاء الصابرين العاملين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الإشارة إلى أن الجزاء مغفرة، إذ إن الله يستمر ما لهم من أعمال غير مقبولة بغفرانه؛ لأن الصبر والعمل الصالح يستران بذاتهما العمل غير الصالح بأمر الله تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ (١١٤)، وبعد هذه المغفرة الساترة يكون الأجر الكبير الذى هو عظيم فى ذاته وبلغ قدراً لا يدرك كنهه إلا الله معطيه.

(١)، (٢) رواه البخارى: الرقائق - القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤)، وينحوه مسلم: صلاة المسافرين وقصرها - فضيلة العمل الدائم من قيام الليل ونحوه (٧٨٣).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم: الزهد والرقائق - المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

وإذا كان للصبر هذه المستزلة، فأول أوصاف النبين الصبر، الصبر فى سبيل الدعوة والاستمرار فى التبليغ، والصبر على الأذى والتحديات الآفة^(١) والمطالب الجائرة والحائرة، ولذلك قال تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

(الفاء) فاء الإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، والشرط تحريض على الصبر وتقديره، إذا لم تصبر فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك. أى أنه لا مناص من الصبر على الأذى والتأني لهم حتى يكون النصر المبين، وإلا فإنك تنزل عند رغباتهم الآثمة. ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾. (لعل) هنا فيها إشارة إلى ما يرجون، فلعلك أنت يا رسول الله إلى خلقه أجمعين تجاريهم فى ترك بعض ما يوحى إليك من شرع مرضاة لهم، فتحرم ما يحرمون وتبيح ما يبيحون. تحرم ما يحرمون من طيبات، وتحجز طواف العرايا ثم تنزل فى مرضاتهم حتى تسبغ لهم عبادة الأوثان أو يكون السكوت عنهم فيها.

﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى ﴿مَا يُوحَىٰ﴾، ﴿ضَائِقٌ﴾ أى يعرض أمر غريب على نفسك وهو أن يضيق صدرك ببعض ما أنزل عليك وبعثت من أجله وبه اهتديت وبه تهدى.

ليس المعنى أن النبى ﷺ قد ضاق صدره أو يضيق، إنما المعنى أنهم يرجون أن تترك بعض ما أوحى إليك وأن يضيق صدرك بإيذائهم فتتركه مضطرا.

والنبى ﷺ لم يكن منه شىء من ذلك ولا يفكر فى شىء منه ولكن يحرضه الله تعالى على البقاء على الدعوة وتبليغ الرسالة غير ملتفت إلى أحد منهم، ثم قال تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ وهذا متعلق بمحذوف «كراهة أن يقولوا لولا» أو نقول إنه متعلق بـ ﴿ضَائِقٌ﴾ ويكون المعنى على هذا:

(١) الآفة: التى تجمع بين النقص، وضعف العقل، والحق. راجع لسان العرب - أفن.

لعلك تارك بعض ما يوحى إليك بسبب إيدائهم المتوالى وسفاهتهم معك، أو يضيق صدرك فى عدم خضوعهم للمعجزة الكبرى وقد تحديتهم فعجزوا، ثم طلبوا معجزات أخرى. وهذا هو الذى نختاره.

وقد أنكروا على النبى ﷺ أنه فقير ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣٦) [الزخرف].

وأنكروا أن يكون بشرا منهم رسولا ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ (٧) [الفرقان].

أنكروا الأمرين وطلبوا معجزة واقعة لأحدهما وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ﴾ أى مال مكنوز يفعل فيه مثل الذين يكتزون الذهب والفضة. والمعجزة أن ينزل عليه إنزالا من غير أى سبب من أسباب الكسب فيكون له جبل من ذهب وآخر من فضة، وبذلك يدفع فقره ويكون اتباعه لثروته وإنزال هذه الثروة والإعجاز بها، أما الأمر الثانى فيدفع بأن يكون معه ملك، وتكون الرسالة برسول سماوى لا برجل يمشى فى الأسواق مثلهم، وقد بين الله استحالة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) [الأنعام].

ولقد كان النبى ﷺ حريصا على إيمانهم راغبا فيه، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) [القصص].

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾، أى إنك مقصور على الإنذار بمقتضى الرسالة وليس عملى الهداية، بل التوجيه والتخويف لمن عصى، والتبشير لمن اهتدى، ووَضَعَ العلامات على الطريق لكيلا يضل أحد ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أى إنه جل جلاله حفيظ على كل شىء، فتوكل عليه فى دعوتك ولا تأبه لهم، فالله سبحانه حافظك منهم ومن طغواهم وهو سبحانه عالم بكل ما يصنعون، ومعاقبهم عليه، وهم راجعون إليه سبحانه وتعالى، ولن يفلتوا من جزاء ما يفعلون، فتوكل على الله الحى القيوم، وامض فيما أمرك به؛ إنه عليم بذات الصدور.

القرآن هو المعجزة الكبرى

قال تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
 وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
 فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
 ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
 مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى (بل)، فهي منقطة وسياق القول أنهم بطلبهم أن ينزل على النبي ﷺ كثر من السماء أو يكون معه ملك ينكرون المعجزة القرآنية، فواجههم الله تعالى بالتحدي المتجدد المستمر، والإضراب هنا فيه انتقال إلى هذا التحدي .

لقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا فتحداهم بسورة فعجزوا، وقد صور الزمخشري أن الانتقال من العشر إلى الواحدة تنزل في التحدي كمن يقول لمن يتعلم الكتابة، اكتب عشرة أسطر فلا يستطيع، فيقول له اكتب سطرا فإذا لم يكتب كان ذلك دليلاً على العجز المطلق، ولقد ادعوا على النبي ﷺ أنه افتراه، فتحداهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتریات، مثله في حسن

بلاغته وانسجام عباراته وتوافق فواصله من غير سجع مرهق للمعاني، ولا جفوة في الألفاظ.

لقد تضمن اعتراضهم أمرين، إنكار أن يكون القرآن معجزة، والثاني أنه مفترى وليس نازلا من الله تعالى، ولقد اتجه الرد عليهم إلى إعجازهم وعجزهم، لأنه الأمر الذي أنكروه ابتداء. فقل لهم يا محمد أن يأتوا بعشر مفتريات، واختلقوها اختلاقا لتكون على النهج الذي جاء به القرآن فإنكم أرباب البيان وأهل الفصاحة واللسان، واجعلوا الحكام في هذا الأمر منكم ممن يلغون لغوكم وينكرون الإعجاز مثلكم، وقوله من دون الله تعالى يعنى غير الله من أمثالكم ممن يصادون الله تعالى ويعادونه ولا تتقيدوا بواحد أو اثنين بل ادعوا من استطعتم عددا وقوة وعلمنا بأساليب البيان إن كنتم صادقين في أنه ليس بمعجز وأنه ليس من عند الله وإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فأنتم الكاذبون.

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا﴾ تفصح عن شرط مقدر يناسب ما بعده، والتقدير، فإن كان افتراه كما ادعيتم فأتوا بعشر سور مثله مفتريات إن كنتم صادقين في ادعائكم افتراءه، وما هو بمفترى فلستم صادقين.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٤).

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، تحداهم بأن يأتوا بمن يحكم في هذا الأمر بأن يأتوا بعشر مفتريات، ثم يوازنوا بين القرآن وما جاءوا به فإن لم تستجيبوا فقد قامت الحجة، والاستجابة طلب الإجابة، ويراد بها التحدى للإجابة، والإجابة بقوة، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ للنبي ﷺ ولمن اتبعه، وذكر المفسرون أنه قد يكون للنبي وحده مخاطبا بضمير الخطاب للجمع تضييحا وتعظيما لشأنه، ولكن لم يعهد ذلك في القرآن كثيرا، وإن كان ﷺ في المقام الأعلى عند الله فهو صفيه وحييه وخاتم النبيين. ويتضح هنا أمران:

الأمر الأول: كان خطاب الله تعالى لمن مع النبي ﷺ لأن تحدى النبي ﷺ وتكذيبه تكذيب لمن اتبعه وآمن به، وللإشعار بالتعاون التام بينه ﷺ وبين صحبه الأولين الذين هم كالحواريين أنصار عيسى - عليه السلام - إلى الله تعالى، ولأن عليهم التبليغ بعد أن آمنوا؛ إذ هو جهاد، وهم المجاهدون الأولون الذين خطبوا بالجهاد ابتداء، وهم حملة الرسالة المحمدية من بعده وحاملوها معه ﷺ.

وإذا كانوا لم يستجيبوا ويأتوا بعشر سور مثله فقد لزمتهم الحجة، فوجب عليهم أن يؤمنوا ووجب عليكم معشر المؤمنين أن توثقوا علمكم بأنه من عند الله تعالى، ولذا قال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (الفاء) واقعة في جواب الشرط، واعلموا بالبرهان القاطع الحاسم أنه ما أنزل إلا بعلم الله تعالى.

وكلمة ﴿أَنَّمَا﴾ أداة حصر تنفي وتثبت، فهي تنفي أن يكون مفترى وأثبتت أنه أنزل بعلم الله فليس مفترى عليه سبحانه. وهذا يدل على أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ به ليكون معجزته الكبرى ودليله على رسالة ربه، وإن الله تعالى معلمكم صدقه ولو كان من غيره ما كان معلمه .

الأمر الثاني: هو أن لا إله إلا هو، لأنه إذا ثبت أن القرآن من عند الله وبعلمه نزل، فيكون ما اشتمل عليه حقاً وصدقاً، ومما اشتمل عليه الوحداية فلا معبود إلا الله تعالى وهو العزيز الحكيم.

ولقد قال بعد ذلك، والخطاب للمسلمين ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا قامت الحجة على أنه من عند الله، فبايعوا محمداً ﷺ على الإسلام وأخلصوا وجوهكم لله وأحسنوا، والاستفهام هنا يتضمن معنى الطلب، وقال علماء البلاغة: إن أبلغ صيغة تدل على الطلب المؤكد هي الصيغة التى تصدر بالاستفهام مثل: ﴿... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١) [المائدة]، ومثل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

هذا على أن الخطاب للنبي ﷺ ويصح أن يكون الخطاب للمشركين، ويكون الضمير الذى للغائب فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ يعود على قوله تعالى ﴿مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ فى الآية السابقة ويكون المعنى أنهم إذا لم يستجيبوا لكم معشر المشركين بألا يحضروا هذه الموازنة أو يحضروها ولا يستجيبوا لرغباتكم بأن يحكموا بأنه ليس مفترى - فاعلموا معشر المشركين أنه قد بطلت دعواكم بأنه ﷺ قد افتراء وقامت الحجة عليكم، وأنه نزل بعلم الله ومنه سبحانه وتعالى، وأنه لا إله إلا هو فانتهوا عن الشرك وبايعوا على الإسلام وكونوا مؤمنين.

والتخريجان محتملان وإنى أميل إلى التخريج الأول فهو أقرب. ولأنه لا تقدير فيه، وإن أولئك الذين أنكروا القرآن بعد قيام الدليل بعجزهم عند التحدى إنما يؤمنون بالحسيات فطلبوا أن يكون لمحمد كثر أو يكون معه ملك، وزين لهم ضلالهم أنه لا يمكن أن يكون الرسول من عند الله فقيرا، ولا بد أن يكون عظيما ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف].

ثم بين الله لهم أن الدنيا يعطيها للبر والفاجر، والآخرة لا يعطيها إلا لمن أحب، وأن المتمتع فى الدنيا لا يلزم أن يكون متمتعا فى الآخرة، فهما مفترقان وليسا متلازمين، ولكن التلازم فى الإيمان والآخرة، ولذا قال تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ [١٥].

وفى هذه الآية يبين سبحانه أن الحياة الدنيا وزينتها تسير على سنة الله فى الوجود مربوطه بالأسباب والمسببات وليس لها صلة بالفضل فى الآخرة، فالحياة وزينتها تكون للمؤمن والكافر إذا أخذ كل منهما بأسبابها، ومتعة الدنيا ليست دليلاً على متعة الآخرة بل قد يكون اختيارا شديدا بعده العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [٣٢] وَلَبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُونَ [٣٤] وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إرادة الحياة الدنيا لمتاعها وما يتصل بها من رغائب مثل البنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وغير ذلك من متع الدنيا وشهواتها وزينتها ورخرفها والتفاخر بشيائها وأثاثها ومباهجها ومناظرها وما فيها من محاسن وزينة مما يتفخرون به ويزدهون .

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ شرط جوابه قوله تعالى ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ ومعنى وفاء الأعمال أى إعطاء نتائجها، فإذا زرع كان زرعه موفورا، وإذا صنع كانت ثمرات صناعته كاملة غير منقوصة، وكذلك إذا تاجر لا يحرم من شىء من نتائج عمله إلا أن يشاء الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْسُونَ﴾؛ لأنهم فى الدنيا لا يخسبون ثمرة عمل من أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ فيه إشارة إلى سنة الله تعالى فى هذه الدنيا أن الأمور تربط بأسبابها، والأعمال تربط بنتائجها فمن أجاد عملا فى الدنيا أخذ حظا فيه سواء أكان مؤمنا أم كافرا. وهذا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدِّدُ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) ﴿[الإسراء].

هذا أمر الدنيا ومتاعها وزينتها، أما الآخرة فقد قال تعالى فيها وفيمن اقتصر سعيهم على طلبها:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) ﴿.

أولئك غرضهم الزينة والتفاخر كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ...﴾ (٢٠) ﴿[الحديد].

هؤلاء نالوا متعتهم ولم يعملوا لآخرتهم فليس لهم فيها إلا النار يصطلونها؛ لأن طالب الدنيا وحدها لا يناله إلا الشر فهو يعتدى ولا يعرف حق غيره، ويكفر بالله ويعبد الأوثان، فهو لا يؤمن إلا بما يلمسه بين يديه وكل ذلك إلى النار، وإن طلب المتعة الدنيوية ذاتها أو طلب زينتها لا يؤدي إلى النار، إنما الذى يؤدي إلى النار هو ما يقترب بطلب الدنيا وزخارفها من عدم الوقوف عند حد المباح من الطيبات، بل يكون الاعتداء والتناول والشرك وإن هذا مآله النار، وقد قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى] وفى قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أى فسد ما صنعوا.

والحَبَطُ أن يكون فساد العمل أو الشيء من ذاته وليس من أمر خارج عنه، ويقول الراغب الأصفهاني فى مفرداته، أصل الحَبَط من الحَبَط وهو أن تأكل الدابة حتى تنتفخ بطنها.

والحبط فساد الأمر من ذاته لا من أثر خارج عنه كما أشرنا، وقد قال الراغب رضى الله عنه فى المفردات أيضا: «حبط العمل عن ثلاثة أضرب: أحدها: أن تكون الأعمال دنيوية لا تغنى فى القيامة عنا كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٢)﴾ [القرقان].

والثانى: أن تكون أعمالا أخروية فى ظاهرها لكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله تعالى، فإنه يؤتى بصاحبها يوم القيامة فيؤمر به إلى النار.

والثالث: أن تكون أعمالا صالحة ولكن بإزائها سيئات وهو ما يشار إليه بخفة الميزان.

وإن أولئك الذين قال فيهم سبحانه: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ هم الذين ما نظروا إلا إلى الدنيا وزينتها ولم يفكروا فى الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ولقاء الله تعالى، وما كانوا يصنعون المعروف إلا للرياء والسمعة فكانوا مشركين.

وقوله تعالى: ﴿مَا صَنَعُوا﴾ يفيد صنائع المعروف التي حبطت لأنهم لم تكن لهم فيه نيات حسنة، والأعمال في ثوابها بالنيات ومقاصد الخير ولم تكن لهم نيات صالحة. وختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كل عمل عملوا قد صار باطلا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (٢٣) [القرآن] ذلك أن قلوبهم قد فسدت بالشرك فلم يكن لهم خير يُحمدون عليه.

أهل الحق وأهل الباطل

قال تعالى:

أَفَمَنْ كَانَ

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ
مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْتَارُ مَوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدْتُمْ لِآلِ الذِّكْرِ كَذَبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾
أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ

السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ
 فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى
 وَالْأَصْرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿أَقْمَنَ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً
 أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
 مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

هذه موازنة بين الذين يتبعون الحق والذين يطلبون الدنيا وزينتها وتكون
 وحدها مقصدهم ويشركون بالله تعالى ، وبين الذين يؤمنون بالله .

﴿أَقْمَنَ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الفاء) هنا مؤخرة عن تقديم ، وهى تفيد أن
 الاستفهام المتسائل مترتب على ما قبله من عمل غير فاضل ، وكلمة ﴿مِّن﴾ اسم
 موصول بمعنى الذى ، والمعنى أمن كان على بينة من ربه كمن هو فى عماية عن
 الحق ولا يدرك إلا الحياة الدنيا ، وحذفت الموازنة الدالة على المفارقة الواضحة
 بينهما ، إذ فرق بين من يطلب الحق الباقي ومن يطلب العاجل الفانى .

(البينة) الأمر البين الذى تدركه العقول السليمة فى غير اعوجاج ، ويصح أن
 يراد به الإسلام ؛ لأنه بين لا يأتى إلا بما تقبله العقول ولا ينهى إلا عن الأمر المنكر
 غير المعقول ؛ ولأنه دين الفطرة السليمة .

أسند الله تعالى البينة إلى ربه ، للدلالة على أنه الهادى إليها بمقتضى ما ركزه
 الله تعالى فى النفوس ، وبمقتضى ما هدى إليه بالرسالات الإلهية ، وقال تعالى :

﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ بالتعديدية ﴿عَلَى﴾ للدلالة على تمكنه من المعرفة، وأنها ليست وهما يتوهم ولا ظنا يظن بل عقيدة متمكنة.

ذكر الله تعالى بعد البينة أن لها شاهداً من الله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أى يجيء شاهداً من الله، فالضمير الأول فى ﴿يَتْلُوهُ﴾ يعود إلى البينة، وعاد مذكراً لأن البينة البرهان القاطع الحاسم الذى تهدى إليه الفطرة، فعاد الضمير مذكراً للإشارة إلى أنها برهان بين واضح الدلالة على الوحدانية. والضمير الثانى فى قوله ﴿شَاهِدٌ﴾ يعود على الله ربك، أى أنه هداك وأيدك، والشاهد هو القرآن الكريم النازل من لدن عزيز حكيم.

وإن القرآن الكريم جاء مع البينة، وقلنا إنها الإسلام، فكيف يقال إنه وليها ونقول فى ذلك إن الإسلام يكون دفعة واحدة؛ لأن له شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والقرآن نزل منجماً فهو كان يتلى بعده لا قبله، وإن قلنا إن البينة هى برهان العقل المدرك فالقرآن جاء واليا، جاء به الحق.

وقد نقول وبحق نقول: إن القرآن جاء مع البينة مؤيداً لها، والتعبير بأنه تلاها للإشارة إلى التلاوة فيه وهى الترتيل، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] وكما قال سبحانه: ﴿... وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ ... (٤)﴾ [المزمل]، وللإشارة إلى أنه هناك مراتب فى الإدراك، فالأولى أن تجيء البينة، والمرتبة الثانية هى التأيد من الله بالقرآن ولا تراخ بين المرتبتين بل هما متصاحبتان، كما تقول: فكَرَّرْ ثم اقرأ، أى اقرأ قراءة متفكر متدبر، وكأن القرآن شاهد؛ لأنه ببلاغته، وفصاحة كلمه، وعمق معانيه مع وضوحها، وعلمه وقصصه الحكيم كان المعجزة الخالدة، فهو شاهد دائم ناطق بالحق إلى يوم القيامة، وفيه الدلالة الواضحة على رسالة محمد ﷺ إلى يوم الدين.

ثم أشار سبحانه إلى تصديقه للكتب السابقة وبشارتها به فقال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، فدللت هذه العبارة على أمرين .

الأمر الأول: بشارة التوراة والإنجيل به كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف].

الأمر الثاني: الذى دلت عليه الآية أنه مصدق لما بين يديه من الكتاب، وأن الإيمان به إيمان برسالة الرسل أجمعين كما صرح بذلك القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وصف لكتاب موسى وهو التوراة التى نزلت عليه ولم ينس منها خط ولم يحرفوها أو يبدلونها، فلا يستدل بالمطبوع الذى يُغَيَّرُ إلى الآن أنا بعد أن تقرأه تجد فى ذاته دليل بطلانه وبرهان بهتانه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِمَامًا﴾ أنه يؤتم به فى الدين، ومعنى ﴿رَحْمَةً﴾ أن ما اشتمل من شرائع فى الزواج والطلاق والعقوبات هو الرحمة؛ لأن من رحمة الله بعباده أن يؤخذ الجانى بشدة رادعة زاجرة فالشدة العادلة على الجانى رحمة بالمجنى عليه، والرفق معه ظلم وقسوة على المجتمع، وهنا لابد من الإشارة إلى أمرين:

الأمر الأول: كيف يكون ما جاء به موسى إماما يأتى به أتباع محمد ﷺ؟.

الأمر الثانى: أشريعة موسى نسختها شريعة محمد ﷺ أم لم تنسخها، والجواب عن الأول أن شريعة موسى فى ضمن شريعة محمد، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبع ما جاء به محمد ﷺ، فكتاب موسى إمام باعتباره مقدما فى الزمن، والشريعتان فى معناهما واحد والاختلاف فى فروع جزئية تابعة للأزمة. أما الإجابة على أن شريعة محمد ﷺ نسخت شريعة موسى عليه السلام فهو أن شريعة محمد ﷺ نسخت من شريعة موسى فروعاً ولم تنسخ أصولاً، وما جاء به محمد ﷺ هو ما يجب اتباعه. ولقد روى سعيد بن جبير عن أبى موسى رضى

الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى...﴾ (١٣) [الشورى].

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إشارة إلى الذين على بينة ويؤمنون بموسى عليه السلام، فرسالة محمد ﷺ جامعة للرسالات كلها، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْطَاطِ وَمَا أَوْتِي مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢٦) [البقرة].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ الأحزاب جمع حزب، وهو من يحزب لفكرة أو لقوم أو لعصبة غير مؤثر الحق فى ذاته إنما يؤثر من يتعصب له حقا كان أو باطلا وإن التحزب كالتعصب يعمى عن الحق وهو يعمى ويصم، لا يطلب الحق فى ذاته إنما يطلب على هوى من يتعصب لهم، والأحزاب يصح أن تفسر فى موضوع الآية الكريمة بأنها القبائل المتعصبة المتجمعة لمحاربة الحق وكانت القبائل كذلك، وسماهم القرآن الأحزاب لأنهم تجمعوا متحيزين ضد الدعوة الإسلامية وذهبوا فى غزوة الأحزاب ليقتلوا الإسلام من المدينة فخاب فآلهم وطاش سهمهم وارتدوا خاسرين بريح كريح ثمود، والذين كفروا به من الأحزاب لا يؤمنون بمحمد ﷺ ولا يؤمنون بموسى عليه السلام ويهددهم الله تعالى بقوله: ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ فالنار مكان تنفيذ وعد الله تعالى فيهم، وقوله تعالى هذا لا يخلو من تهكم لاذع بهم؛ لأنهم كانوا يرجون رحمة، فإذا بهم يلقون عذابا وكأنهم عقدوا موعد اللقاء فخاب ظنهم وكانت النار موضعه.

(١) رواه أحمد: أول مسند الكوفيين - حديث أبى موسى الأشعري رضى الله عنه (١٩٠٦٨).

ثم انتقل قول العزيز الحكيم إلى خطاب النبي ﷺ فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من هذا البيان الذى بين الحق وأزهد الباطل، والمرية هى الشك، والأمر يمتد لمن خاطبهم النبي ﷺ لأنه نهى على أبلغ الصور؛ لأنه إذا كان نهيا من الله تعالى لسنبيه المصطفى الذى لا يزيغ قلبه ولا يرتاب فأولى بهذا النهى ثم أولى الذين ربما يعتريهم ذلك وهم من أرسل إليهم.

وأكد سبحانه النهى عن الريب بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ والضمير يعود إلى البيان والقرآن، والحق هو الأمر الثابت الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد جاء من ربك الذى خلقتك ودبر أمورك بحكمته.

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه الحق بـ(إِنَّ) المؤكدة، ويأنه من ربك الذى خلق فقدر وهدى، فاجتمع له فضلان فضل ذاتى لأنه الحق فى ذاته، وفضل إضافى يؤكد أنه الحق، وهو أنه من عند الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستدراك هنا معناه، أن مقتضى الإسلام بينة وبرهان، وأنه حق ثابت أن يؤمن الناس جميعا ما دامت لهم عقول تدرك وقلوب تؤمن، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وكان التعبير بالمضارع للإشارة إلى أن أكثر الناس لهم قلوب ليس الإيمان من شأنها بل هم دائما متمردون على الحق وظلم الحقيقة، وهم مفترون على الله تعالى ويكذبون عليه، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾.

إن الكفر مباءة للآثام، تعيش فيه وتفرخ، ويتبع الإثم إثم مثله، ويأخذ بعضه بحجز بعض فى سلسلة متصلة تبدأ بالشرك بالله تعالى ثم بالكذب عليه بتحريم ما أحل الله على أنه من عند الله، والجحود بما أنزل سبحانه والافتراء عليه تعالى وفساد اعتقادهم بأن يعبدوا الأوثان ويقولوا إنهم شفعاؤنا. وهكذا يكون الشرك كالمعاطن التى تحوم حولها الحشرات والجراثيم وكل الموبقات.

وأوضح ما فى الشرك الكذب على الله تعالى بما ذكرنا وغيره، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، الاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى مع التوبيخ، بمعنى لا أحد أظلم ممن افترى قاصدا الكذب على الله تعالى، وهم قد ارتكبوا أشد الظلم إمعانا فى الشر والكذب على الله بأن يشركوا به غيره كما أشرنا، وبأن ي اخترعوا مفاصد وينسبوا إلى شريعة إبراهيم عليه السلام كطوافهم عرايا وأن يحرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله ويزعمون أن الله حرمها وغير ذلك مما حرموه ناسبين التحريم إليه افتئاتا عليه، فلا أحد أعظم منهم بهتانا وكفرا. افترى الكذب معناه قصده وأراد، والكلمة نكرت لبيان أن الكذب على الله تعالى قل أو كثر ظلم عظيم بل أعظم الظلم، وأن الشرك ظلم عظيم لأن من أشرك ضلل نفسه وضلل الناس ولأنه ارتكب بهتانا عظيما.

ويقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ الإشارة إلى الذين افتروا الكذب، يعرضون على ربهم الذى خلقهم ورباهم وحفظهم وهو الحى القيوم. وهم يعرضون على ربهم ويلقونه سبحانه غير مختارين، وهو اللقاء الذى لا يتمنونه؛ لأنه لقاء الذين كفروا بربهم يعرضون عليه كما يعرض الجانى على شهوده ليشهدوا عليه، كما أنهم يرون ما أنكروا وكذبوا.

وفى المحشر والحشد الجامع يقول المشاهدون من ملائكة وأنبياء وصديقين ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ مشيرين إليهم استنكارا لفعلهم وبياناً لشناعة ما كانوا عليه وحسبهم ذلك سوءا وفحشا واستحقاقا للعذاب. وإن ذلك العرض وتلك الشهادة أبلغ عقاب معنوى، ومن بعد ذلك يكون العقاب المادى على ذلك الظلم الفاجر الآثم والشرك الضال المضل.

والأشهاد جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، أو جمع شهيد كأشراف جمع شريف، والمعنى واحد، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الا) أداة تنبيه وفيها تأكيد للحكم الذى يجىء بعدها، و﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ مقتته وعذابه والطرده من رحمته وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ إظهار فى موضع

الإضرار، وذلك لتسجيل الظلم عليهم، وليبين أن هذا الظلم الذى قد بلغ أقصى حدوده هو السبب فى بُعدهم عن رحمة الله تعالى، ويعم الحكم بالعذاب على كل من عتى عن أمر ربه وأشاع الفساد فى الأرض. إنه لا يحب المفسدين.

وقد ذكر الله أفعال أولئك الظالمين فقال تعالت كلماته:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)﴾.

يذكر الله تعالى أحوال الذين يفترون على الله الكذب، وقد ذكرنا كيف كانوا يفترون، وهذه الحال التى ذكرت هى الصد عن سبيل الله تعالى بإيذاء المؤمنين وفتنهم ليقولوا كلمة الكفر وهم لها كارهون، وقد بالغوا فى إعناتهم حتى مات منهم من مات تحت حر العذاب الذى ابتدعوا فيه طرائق تتنافى مع كل إنسانية بل ووحشية، حيث كانوا يحمون الحديد ويصبونه محميا فى فرج المسلمة حتى لقد اضطر بعض المسلمين أن ينطق كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وكان من صدهم أن النبى ﷺ عندما كان يذهب داعيا فى الحج القبائل كان يذهب منهم من ينفرهم من الإسلام كأبى لهب، وأن الأوس والخزرج عندما استجابوا للنبى ﷺ كانوا يلتقون به على استخفاء منهم وفى سر لا إعلان فيه، وهم يتبعونهم كلما علموا باجتماعهم به، ولذا قال تعالى فى وصف هذه الحال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وسبيل الله هى الحق والإسلام كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام].

﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يريدونها ملحقين فى ذلك أن تكون معوجة بأن يلين معهم فى عبادة الأوثان وتحريم ما أحل الله ويرضى بما يرضون، أو يريدون ويبغون أن يكون أتباعه معوجين منحرفين عن الحق وأن يرتدوا عن دينهم الذى ارتضوا، وقد أشار سبحانه إلى السبب الذى جعلهم يوغلون فى الكفر ذلك الإيغال ويمعنون فيه هذا الإمعان، فقال تعالى فى حالهم التى أضلتهم: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

أى أن الكفر بالبعث جعلهم لا يؤمنون إلا بالدنيا وزينتها وظنوا أنها وحدها هى الحياة مما أدى بهم إلى هذا الغباء وهذه اللجاجة فيه .

وقد أكد سبحانه كفرهم بالبعث واليوم الآخر وأنه لا حساب ولا عقاب، أكدّه أولاً بالضمير وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ وتكراره فى قوله تعالى: ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ وأكدّه بالجملة الاسمية .

وذلك ضلالهم وهو الضلال البعيد، وأنهم بغوا وطغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد وحسبوا أنهم الغالبون وأنه لا يعجزهم أحد وذلك سر طغيان الطغاة .

لذا قال تعالى ما يفيد أنهم أعجزوا العباد فلن يعجزوا رب العباد .

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٠) .

الإشارة إلى الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ويبنونها عوجا ويريدون أهلها معوجين غير سائرين فى الجادة، والإشارة إلى الموصوفين بصفات تدل على أن هذه الصفات سبب لما يقومون به من تحد لله تعالى، ولذا قال سبحانه: ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، أى لم يكونوا معجزين لله عن أن ينزل بهم ما أنزل بمن سبقهم بجوائح ماحقة كخسف فى الأرض أو رجفة أو ريح صرصر عاتية أو حرب مجلية مخزية، والمعنى أنهم لم يكونوا بحالهم وكيونتهم معجزين الله فى الدنيا، فالله هو القهار والغالب على كل شىء فلا ولى لهم يقاوم إرادة الله تعالى فيهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى ما كان لهم أولياء يعاندون الله تعالى فيما يريد فيهم ويقاومون إرادته، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنها تدل على المضادة لما يريد الله سبحانه وتعالى فهم لا يستطيعون نصرتهم ولا منع العذاب عنهم، قالوا بمعنى النصر المانع وكلمة ﴿مَنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ لتعميم النفى أى ما كان لهم أى ولى من الأولياء .

هذا فى الدنيا إذ حسبوا أنه لا رقيب عليهم ولا دافع يدفعهم وهم
مسلطون، فبين الله تعالى أنه قاهر فوقهم. أما فى الآخرة فقال الله تعالى عن
حالهم فيها ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى يكرر العذاب عليهم فيكون ضعفين أو
أضعافاً؛ لأنهم أشركوا بالله عبادة الأوثان، ولأنهم آذوا المؤمنين وحاولوا صدهم
عن سبيل الله، ولأنهم طغوا وبغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد، ولأنهم ظلموا
الناس وفتنواهم فى دينهم.

وما بعثهم على تلك الآثام التى ضاعفت لهم العذاب إلا أنهم لم يستمعوا
إلى الحق ولم يبصروا الآيات، ولذا قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَمِعُونَ السَّمْعَ وَمَا
كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ذكر الله تعالى فى هذا النص الكريم السبب فى هذه المآثم فذكر
أنه أمران:

الأمر الأول: أنهم لا يستطيعون السمع، وليس المراد أنهم صُمُّ حقيقة، بل
شبهت حالهم بحال الأصم الذى لا يستطيع السمع؛ ذلك لأنهم لا يتدبرون ما
يسمعون من دعوة إلى الحق وآيات تتلى فيها الإعجاز فكانوا كأنهم لا يسمعون،
وقد ذكرهم الله فى مواضع أخرى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ
قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الاعراف].

الأمر الثانى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أى ينظرون نظرة تأمل
للكون ويدركون أسرارها، والجمع بين الماضى والمستقبل فى قوله تعالى: ﴿وَمَا
كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ للدلالة على استمرار غفلتهم عن الآيات وتجديدها وقتاً بعد آخر،
فكلمة «كان» تدل على الماضى وكلمة «يُبْصِرُونَ» تدل على المستقبل، كذلك
قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَمِعُونَ السَّمْعَ﴾ والله أعلم بمراده فى كتابه.

ولقد حكم سبحانه بعد ذكر عذابهم فى الدنيا والآخرة فقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١)﴾.

الإشارة هنا إلى الذين هددوا بعذاب الدنيا وإنه لنازل بهم، وأنذروا بعذاب الآخرة، ومن قبل صدوا عن سبيل الله، وأرادوها ملحقين في إرادتهم أن تكون معوجة، والإشارة إلى الموصوف بصفات تدل على أن هذه الصفات هي سبب الحكم، وهذا الحكم هو الخسران المبين.

وأنهم خسروا بضلالا عقولهم، وخسروا أنفسهم بظلمهم، فالظلم خسارة للنفس، وخسروا أنفسهم بكفرهم باليوم الآخر وعدم رجاء ما عند الله، وبعذاب الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ أى غابت عنهم الأوثان التى كانوا يحسبونها شفعاء عند الله، وتلفتوا فلم يجدوها والتعبير بـ﴿ضَلَّ﴾ يفيد أنهم طلبوها فلم يجدوها، أو توهموا أنها تنفعهم فلم تجدهم، وفى تعبيره سبحانه عن الأوثان بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ إشارة إلى أنها لا وجود لها فى ذاتها وإن وجودها كآلهة إنما هو فى أوهامهم وافترائهم.

ثم يؤكد سبحانه خسارتهم البالغة إلى أقصى حد.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢).

قال الخليل وسيبويه إن ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة واحدة معناها حق ويكون المعنى: حق وثبت أنهم فى الآخرة هم الأخسرون، فالنص يثبت أنهم خسروا وأنهم بلغوا فى الآخرة أقصى درجات الخسارة، ولذا جاء جمع ﴿الْأَخْسَرُونَ﴾، وفعل التفضيل هنا يدل على أقصى درجات الخسارة، أى لا خسارة فوقها أو مثلها بل هى فوق كل خسارة، وما ظنك بخسارة مؤداها البقاء فى الجحيم خالدين فيها إلى ما شاء الله تعالى.

وروى عن الخليل أيضا فى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أن معناها لا بد ولا محالة فهى تفيد التأكيد بأنهم فى أعلى درجات الخسارة.

والأصل فى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أن لا نافية، وهى رد لهم فى أطماعهم، وبيان بطلانهم، وجرم معناها كسب، والمعنى لا كسب ذلك الفعل لهم - أنهم الأخسرون. ومؤدى لا جرم حق كما ذكرنا أولا.

وهذا شأن الكافرين الجاحدين الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ويغونها عوجا، أما شأن المؤمنين فقد قال تعالى فيه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣)﴾ .

بعد أن بين سبحانه وتعالى حال الذين كفروا في الدنيا وفي الآخرة، وأنه في الدنيا غرور بها وزينتها، وفي الآخرة خسران مبین وشقاء وجحيم، بين سبحانه حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، ذكر سبحانه وتعالى لهم أعمالا ثلاثة :

أولها: الإيمان الذي يقذفه الله في قلب المؤمن فيخضع للحق ويدعن له وإن القلب إذا أشرق بالإيمان واستضاء به كانت الحكمة والاستقامة في القول والعمل فلا يكون منه إلا الخير والإذعان للحق.

والثانية: العمل الصالح وهو ثمرة الإيمان وأن الإيمان إن لم يصاحبه العمل كان ذلك نقصا في الإذعان، فإن الإخلاص يتولد عنه الحكمة التي يتولد عنها القول الطيب والعمل الطيب.

والحال الثالثة: هي الإخبات إلى الله، والإخبات هو الاطمئنان، والكلمة مثل للأرض والخبث، وهي الأرض المصمتة^(١) السهلة، والاطمئنان إلى الله يتضمن تصديق ما وعد، والخضوع لما أمر ونهى، وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لما يفيد معنى الربوبية والخلق والقيام على حفظهم وتربيتهم وما يترتب على ذلك من الاطمئنان والخضوع وعدم التمرد عليه سبحانه والخروج عن طاعته.

وقد أكد سبحانه هذه الأحوال بـ (إِنَّ) المؤكدة، وذكره بالاسم الموصول للدلالة على أنه سبب الجزاء الذي يعطيهم ربهم، والثناء الذي أضفاه عليهم خالقهم.

(١) أَصْمَتَتِ الْأَرْضُ: أَحَالَتْ آخَرَ حَوَائِجِ. كما في القاموس، والمراد هنا الساكنة المهتدة للسير.

ثم ذكر بعد ذلك جزاءهم فقال تعالت كلماته: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وإن الإشارة إلى صفاتهم من إيمان وعمل صالح وإخبات إلى ربهم إيضاح إلى أنها سبب ذلك الجزاء العظيم، وقد أكد سبحانه وتعالى جزاءهم بأنهم ملازمون للجنة، وأنهم أصحابها الذين لهم اختصاص يشبه ملك المالك لما يملك وأكد أيضا بضمير الموصول فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا مكان الذين آمنوا، وذلك مهوى الذين يصدون عن سبيل الله، وقد وازن سبحانه وتعالى بين الفريقين فقال تعالت كلماته:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

المثل هو الحال والشأن، الفريقان فريق من ضل وغوى فكان فى السعير، ومن آمن واهتدى وعمل صالحا واطمأن إلى حكم ربه فكان فى الجنة، فجعل فريق الغواية كالأعمى الذى لا يبصر والأصم الذى لا يسمع، وفريق الهداية كالبصير الذى أوتى حدة فى البصر حتى كان بصيرا يرى الأشياء والحقائق، والسميع الذى أرفف سمعه حتى صار يسمع دبيب النمل.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾؟ هذا استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، أى لا يستويان مثلا أى حالا وشأنا، بل يفترقان ويكونان بما يتفق مع حال كل منهما، فالأعمى الذى لا يرى حتى يعرف الطريق، والأصم الذى لا يسمع الهدى الذى يرشده فهو يتردى فى الهاوى غير رشيد ولا مسترشد، والبصير الذى يرى أعلام سبيل الله تعالى وهو السميع الذى يسمع المرشد الهدى إلى سواء السبيل لا بد أن يسلك الطريق الآقوم، فلا يستويان فى الابتداء والانتهاء، ففريق فى الجنة، وفريق فى السعير.

والتشبيه فيه تخريجان:

التشبيه الأول: تشبيه الكافر بالأعمى الأصم الذى لا يرى الطريق ولا يسمع من يهديه، والمؤمن بالبصير السميع الذى يهتدى ببصره وبإرشاده وقد وضعناه.

والتشبيه الثانى: تشبيه الكافر بالأعمى فى عدم إدراكه، وبالأصم فى عدم الإصغاء للهداية والمؤدى فيهما واحد، ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۖ (٢٢)﴾ [فاطر].

ختم الله الآية الكريمة موجها القول إلى الناس ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وأخرت عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتوبيخ والتحريض على التذكر والاعتبار وإن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

القصص الحق

قال تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
 أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿٢٦﴾
 فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا
 مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِي
 الرَّاْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾
 قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِى رَحْمَةً
 مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمُ النُّزُلَ مَكْمُومَهَا وَأَتَمَمْتُهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾
 وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا
 أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفَهُمْ
 أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
 أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
 أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا
 لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ .

إن قصص القرآن ليس فيه تكرار إنما فيه بيان العبرة، وتساق القصة أو جزء منها في موضع العبرة فيها، وإذا كان فيه تكرار فهو ليس في الأخبار إنما هو في موضع الاعتبار .

وموضع الاعتبار هنا أن قوم نوح يحاربونه بما حارب الملا من قريش محمدا ﷺ، ودعوة نوح هي دعوة محمد الخالدة، وهي دعوة النبيين من قبل، وهي الحقيقة الأزلية، هي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ الذين يالفهم ويألفونه ويعرفون مقامه فيهم، ونسبه منهم، وقد ناداه نداء الحذب عليهم المحب المنذر لهم، مبينا مغزى رسالته ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وهذا معنى أرسلنا والغاية من الرسالة، وهذا مشابه لأمر النبي ﷺ عندما قال لقومه عندما أبلغهم برسالته: «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم»، قالوا: ما عهدنا عليك كذبا، قال: «إني لنذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١) .

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ .

(١) رواه البخاري: تفسير القرآن - «وانذر عشيرتک» (٤٧٧٠)، وأطرافه في البخاري ستة، بنحو من هذا، كما رواه مسلم: الإيمان - «وانذر عشيرتک الاقربين» (٢٠٨) .

تضمن هذا النص الكريم لب الرسالة وهو الوجدانية فى الذات وفى الصفات وفى العبادة، كما تضمن فى اللفظ مودة الإنذار بالعذاب الذى يكون فى يوم مؤلم فى أهواله وفى مآله، وإنه يوم المآل.

وقد تبعه من تبعه من الضعفاء والفقراء الذين يزدريهم الكبراء فى هذه الدنيا كما ازدري كفار مكة أتباع النبى ﷺ من الفقراء والأرقاء واستهزءوا بهم، كذلك كان الذين كفروا بنوح ابتداء من الملأ والكبراء.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٧٧)﴾.

وتتضمن إجابتهم ثلاثة أمور كلها لقيها النبى ﷺ من قومه والملأ هم الأشراف الأقوياء المستكبرون فى الأرض بغير الحق، ووصفهم سبحانه بالموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لبيان أن السبب هو كفرهم وليس ثمة باعث حقيقى مما تضمنه قولهم، إنما الباعث هو الكفر الذى سبق إليهم ابتداء، وكان ذلك القول مظهره وأول ما دل عليه، وهو استغرابهم أن يكون بشر منهم رسولا، وكذلك كان يقول مشركو مكة.

الأمر الأول: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ فأى ميزة جعلتك رسولا من بيننا، وهذا كقول المشركين فى مكة: ﴿... مَا لَهُذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ... (٧)﴾ [الفرقان]، وهذا هو أول ما تضمنته إجابتهم.

الأمر الثانى: أنهم قالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَالٍ، وهم الأنخساء فى نظرهم لأنهم يقيسون الخسة والرفعة بمقدار القوة المادية، فمن كان غنيا مستعليا بماله ونفقه كان عاليا، ومن كان قليلا فى ماله ونفقه كان خسيسا فى نظرهم ومعنى ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ أى ظاهر من الرؤية لا يحتاج إلى دليل.

الأمر الثالث: ما نرى لكم يا نوح أنت ومن معك من فضل علينا حتى تستحقوا الثواب دوننا، ومن هذا البيان استغراق النفى، أى لا نرى لكم علينا أى



فضل حتى تكونوا مستحقين للثواب دوننا، وذلك لربطهم الرفعة في الدنيا بالمادة ثم أكدوا بعد ذلك ما توهموا فقالوا: ﴿بَلْ نَطْنَكُمُ كَاذِبِينَ﴾ وهو إضراب عما يوهم كلامهم في فرض صدق الأخبار بأنهم يستحقون ثوابا، ويقول المفسرون إن الظن هنا هو العلم، وأنا أقول إنه الظن الحقيقي؛ لأن الكفار كل علمهم أوهام، والأوهام إذا كان منها اعتقاد لا يمكن أن يكون إلا ظنا، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا.

ولقد أجابهم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (٢٨).

ابتدأ نوح عليه السلام نداهم بـ«يا قوم» تقريبا وتأليفا، ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى دليل وسلطان، ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أى خفيت عليكم ولم تهدكم، ﴿أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أى لا نلزمكم إياها وأنتم كارهون لها، والرحمة من آثار الإيمان، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى جاءت البينة فلم تدركوها فخفيت عليكم، والخطاب أرفق ما يكون لقرينهم إليه، ولم يقل كفرتم بل قال: «خفيت عليكم» وترك الأمر لاختيارهم، ووجه أنظارهم إلى أن الأمر ليس لفضل شخصي، ولكن لهدى إلهي، ولأن رسالات الله بينات وهداية.

ثم بين أن المسألة ليست أمرا دنيويا، حتى تتنافسوا عليه، إنما هو أغلى مما عندكم وما تتنافسون فيه.

ثم ناداهم عليه السلام بما يؤلفهم:

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩).

طمأنهم إلى أنه لا يسألهم مالا، والمال عنصر حياتهم المادية التي بها يستعلون وهو زخرف الحياة وزينتها، ولكن يسألهم هداية، وأجره على الله وحده

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (إن) نافية، لا أجر لى إلا عند الله فلا تحاولوا أن تنكروا الرسالة ما دامت لا تكلفكم مالا، بل تكلفكم إصغاء وإيمانا. ثم هم كانوا يطعنون فى اتباعه ويغضون من مقامه عند الله ولا يرضون أن يكونوا صفا واحدا مع هؤلاء الأراذل فى زعمهم المادى الفاسد، فيقول لهم قولا قاطعا حازما حاسما فيه شدة وقوة ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنى جئت للهداية لا للثروة والمال، وعبر بالموصول فى كلمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لبيان سبب النفى، وهو كونهم آمنوا، فحققوا ما جئت به، فكيف أطردهم.

وإن الاعتبار بحالهم وحالكهم إنما يكون فى الآخرة وليس فى الدنيا، ولذا قال: ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ وعند لقاء ربهم الذى خلقهم ورباهم على تقوى منهم، فستكونون معهم وستعلمون أنهم أهدى سبيلا.

ويتجه نوح إلى أن يصدع بالحق فيهم بعد هذا الرفق الكريم ويقول: ﴿وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، وهذا الاستدراك من القول اللين العطوف الى القول الحق الذى لا يخلو من عنف فى لطف، أراكم قوما تجمعتم وتحزبتم وأنتم تجهلون الحقائق وتمارون بالباطل، انتقل من عذرهم بخفاء الأمور عليهم إلى رميهم بالجهل المستمر الذى يتجدد آتيا بعد أن وقد استمروا عليه. ثم من بعد ذلك مستنكرا طردهم.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠).

ابتدأ أيضا بالنداء المقرب المؤلف ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ إن كنتم تسترذلونهم وتستحقرونهم فهم عند الله أهل القربى فكيف أطردهم ومن ينصرنى أمام الله لدفع انتقامه منى وقد طردت عباده المقربين، وكلمة ﴿مَنْ﴾ فى النص تدل على مجابته لله، ومدافعتة لإرادته، ومن ينصرنى أمامه، ثم تختتم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أفلا تفكرون وتستدبرون لتعرفوا أن طردهم ليس بصواب ولا حسن العاقبة، وأنهم إذا كانوا فقراء فأنا أيضا فقير إلى الله تعالى ولست أفاخر بمال، ولذا قال تعالى حاكيا عنه:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

نفى أربعة أمور:

الأمر الأول: أنه ليس عنده خزائن، فهو في الأموال دونهم، فالله تعالى لم
يبعث رسولا يعطيه خزائن الأرض، لكن يبعثه بما هو أعز وأعلى وهو إثراء الروح
والنفس بحبة الله ورجاء ثوابه وتقوى الله تعالى وخوف عقابه.

الأمر الثاني: نفى أنه يعلم الغيب، فما جاء إلا هاديا للحق وداعيا إلى الله
تعالى، وذلك لا يقتضى علم الغيب الذى اختص الله تعالى به نفسه، وهو في
هذا مثلكم.

الأمر الثالث: أنه لا يقول إنه ملك، وهو بشر مثلكم نشأ بينكم وعرفتكم
مولده، وأنه بشر كسائر البشر.

الأمر الرابع: نفى أنه يقول للمؤمنين الذين يحترقهم أغنياؤكم، مجاوبة
لكم، لن يؤتيهم الله خيرا بل لهم الخير كل الخير، وعبر عنهم: ﴿لِلَّذِينَ تَزْدِرِي
أَعْيُنُكُمْ﴾ للدلالة على أنهم ليسوا مزدريين في ذات أنفسهم، بل أعينكم الغاشية
هى التى ترى هذا الازدراء.

ثم يشير إلى أن الاعتبار ليس للصورة ولكن إلى نور القلوب، ولذلك قال
﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهى الجملة المعترضة بين قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ
تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى إذا
قلت لهم ذلك مطاوعة لرغباتكم، وأكد ظلمه باللام وكونه - إذن - فى زمرة
الظالمين الذين لا يعرفون إلا بالظلم إذ اشتهروا به.

فى سياق القصة

قَالُوا يَنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
 جِدَالَنَا فَأِنَّمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
 إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ
 نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ
 هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ
 قُلْ إِن أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْحَرُونَ ﴿٣٥﴾

قال تعالى فى المجاوبة بينهم:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ
 الصّٰدِقِیْنَ ﴿٣٢﴾﴾ .

لم يثن نوح عليه السلام عن دعوتهم وملايبتهم وأخذهم بالرفق حتى أعلنوا
 مجافاته وقالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ فسموا دعوته إلى الحق جدالا
 يقصد به الغلب فى البيان، وما هو إلا ناصح أمين يريد الهداية والإرشاد إلى
 الطريق الأقوم، ولكنهم لا يريدون رشادا بل أرادوا تحديا، ولذا قالوا ﴿فَأْتِنَا بِمَا
 تَعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ لقد أُنذِرهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاستعجلوا
 العذاب ولم يستعجلوا العظة والاعتبار والهدى ورفع الضلال.

وما كان العذاب فى قبضة نوح، إنما هو بيد الله ينزله فى الوقت الذى يعلمه
 سبحانه وتعالى مناسبا، لذا قال:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر، أى لا يأتيكم به إلا الله، إن شاء يأتيكم به فى زمانه الذى يشاء أن يكون فيه. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى إنه لا محالة نازل بكم فى وقته الذى حدده الله تعالى فى علمه، وأنكم لستم مع طاغوتكم بمعجزين لله سبحانه وتعالى؛ ذلك أنهم ضعفاء لا يقفون أمام إرادة القاهر الجبار.

وإن عمل نوح ليس إنزال العذاب، إنما ذلك من عند الله، وعمله هو النصيح، فإن لم ينفع النصيح، فالله تعالى يريد أن تستمروا فى طريقكم فتقعوا فى العذاب بإرادتكم، إذا اخترتم طريقها وصرتم فى مجرفها حتى انتهيتم إليها.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤).

أى لا تنفعكم نصيحتى الصادرة لكم فى إخلاص وإيمان بالحق إن أردت أن أنصح لكم وأخلص لكم مرفقا بكم غير مغلظ، ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أى إن كانت إرادة الله تعالى أن تستمروا فى طريق الغواية وهى الضلالة حتى تنتهوا إليها، فانا أريد لكم النصيح والله يريد لكم أن تستمروا فى طريق الضلالة وإرادته سبحانه هى النافذة.

ثم ذكر نوح أن الله تعالى هو الذى خلقكم ويعرف مآل أعمالكم وأنكم راجعون إليه ولذا قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، هو ربكم الذى خلقكم ويعلم ما تخفى صدوركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إنذار لهم فالمرجع إليه وأنه لمحاسبكم على كل ما صنعتهم محاسبة العليم الخبير السميع البصير، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تدل بتقديم الجار والمجرور على أن المرجع إليه وحده، وإن فى هذا القصص الحكيم لأمرين:

الأمر الأول: التخفيف عن النبى ﷺ، ولبيان أنه لاقى النبىون مما لاقى هو، والعاقبة كانت لهم وحادهم المشركون بما حادوا به النبى ﷺ، وأن ذلك عبء يحتمل فى سبيل أداء الرسالة الإلهية إلى خلق الله تعالى، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

الأمر الثاني: إثبات الإعجاز وهو أنه أتى بهذه الأخبار الصادقة عن النبيين السابقين من غير أن يتعلم على معلم، ومن غير أن يقرأ في كتاب ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت].

ولذلك كان هذا القصص الحق مع الأسلوب المعجز من دلائل الإعجاز، ولقد أشار سبحانه إلى ذلك فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾.

﴿أَمْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي أى أنه سبحانه فى الأسلوب القرآنى الحكيم ينتقل من السير فى القصة إلى نهايتها وإلى ما تشير إليه من دلائل الإعجاز، أى يقولون قصد الكذب فى هذا الكلام الدال على صدق الرسالة، قد يقولون ذلك وهم يعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يعرفوا له كذبا قبل البعث وبعده، ويأمره الله تعالى بأن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾، قل إن افتريته وكان قصصه كاذبا فإن إجرامه على، فعلى هذا الإجماع أى وباله وإثمه ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ فإجرامكم كثير، إشراك بالله وأوهام تسيطر عليكم فتحرمون ما أحل الله وتحلون ما حرم الله تعالى وتؤذون أهل الحق وتصدون عن سبيل الله وتبغونها عوجا، وإن البراءة من إجرامكم خير لا ريب فيه وهداية لا شية فيها.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ كان التعبير بقوله ﴿إِنْ﴾ لبطلان أصل الافتراء واستحالة؛ لأنه ﷺ لم يعرف عنه كذب قط، ولأنه يوافق كتب أهل الكتاب التى لم يتلوها من قبل، ولأنه من الله العليم بكل شىء وقوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ يفيد أنه عليه السلام يتحمل تبعه قوله وأن إجرامهم ثابت وهو برىء منه.

الْفُلُك

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا
فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
تَجْرَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَعَزٍ لِّبْنِي ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءَهُ
أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ

أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِن وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾
 قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ
 مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
 تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنُوحُ
 أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
 وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلَ بَأْعَيْنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
 مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ .

بذل أقصى جهده في التقريب والتأليف والنصيحة والإرشاد وتحمل سفه
 القول منهم حتى آمن من آمن، وما آمن معه إلا قليل، ومن بعد إيمانهم أوحى
 الله تعالى إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن غيرهم. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أى لا تحزن
 ولا تأسف بما كان يفعل من استكبروا فى الأرض من سخرية وازدراء لأهل
 الإيمان، وإنما أنت نذير وقد أُنذرت، ولم يبق إلا أن ينزل بهم ما كانوا يستعجلون
 ويقولون بتحد ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، وقد اشتبه حال نوح معهم بحال محمد ﷺ مع
 قريش قبيل الهجرة، إذ لم يؤمن منهم أحد، وإن كان منهم من يلقى بالمودة من
 غير إيمان، ثم كانت الهجرة وكانت الحرب وأنزل الله بهم هزيمة بعد هزيمة ولم
 تكن إبادة كإبادة قوم نوح عليه السلام؛ لأن رسالة محمد خالدة فكان من أصلاب
 المشركين بالله والجاحدين لرسالة محمد ﷺ، من يعبد الله وحده ومن يدعو إلى
 الله ويجاهد فى سبيله كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل.

أما رسالة نوح فلم تكن خالدة، ولذا كانت الإبادة لمن كفروا وبقيت من المؤمنين بقية صالحة، ولذا أمره الله تعالى بأن يصنع الفلك لنجاة نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وإغراق المشركين حتى لا يذر منهم أحد، ولقد أمر سبحانه بصنع الفلك وهى السفينة، ويطلق على الجمع، فقال تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أى رقابتنا ورعايتنا وحمایتنا، وعبر سبحانه عن ذلك بقوله ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وذكر العین لأنها أقصى إدراك الحس، وذكرت بالجمع «بأعيننا» جمع عين؛ للدلالة على كمال الرعاية والحفظ والكلاءة، وقوله تعالى: ﴿وَوَحَّيْنَا﴾ أى بإرشاد منا إلى مواضع الأحكام فيها ودفع أى خلل فى بنائها، ويبدو أن نوحا عليه السلام كان مع غضبه من قومه ومن جحودهم كان يرجو أن يكون منهم مؤمنون، ولكن الله تعالى رده وقرر أنه لا رجاء فيهم، وقد حق عليهم العذاب فقال سبحانه: ﴿... وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ويصنع نبي الله ومن معه الفلك بمقدار ما يسع نوحا وأهله إلا ابنه ومن آسف معه .

﴿وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْءٌ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) .

لم يترك قومه غيهم وما هم فيه من ضلال ﴿وَكَلَّمَا مَرْءٌ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ أى طائفة من أشrafهم وكبرائهم ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ كانوا يحسبون ذلك عملا لا ثمرة له فينبى لهم نوح عليه السلام نتيجة ما يفعلون ويقول لهم:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٩) .

وكلمة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فى قوله تعالى لتحقيق العلم لأنه سيكون علم معانيه لا علم إخبار .

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠) .

أمر الله تعالى هو الأمر الكونى وهو الغرق، والنجاة لمن نجا عليها، ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾، التنور مكان النار، وقالوا فى تصوير ذلك إن كل جزء من الأرض صار فيه تنور يفور منه الماء وكانت المعجزة أن يخرج الماء من التنور ويصير غرقا.

وعلى ذلك يكون التنور فى الأرض ليكون منه الغرق، وليس التنور فى السفينة أى أن التنور لما فار ووجدت أسباب الغرق أمر الله نوحا وقد استعدت السفينة للسير أن يحمل فيها من كل حى زوجين اثنين ليكون التوالد فى الحيوان والنبات بشكل عام.

وقد عرض لى خاطر أذكره وهو أن التنور فى السفينة، وأنه فار وخرج منه بخار حرك السفينة للسير، فهى قد سارت بالبخار لا بالتجديف أو الرياح، إذ لم يذكر هنا ولكن ذكر فقط التنور وفورانه. وقد يقال إن البخار لم يكن قد اخترع، وما اكتشف إلا فى القرن التاسع عشر، حيث سارت به القطر والسفن.

نقول فى الجواب على ذلك بأن صنع السفينة قال فيه الله تعالى:

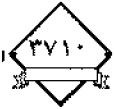
﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ فالسفينة كانت تصنع تحت رعايه الله ووحيه فهل يعجز سبحانه عن تسييرها بالبخار الذى جعل سبحانه العقل البشرى يتوصل إليه بعد ألوف السنين، إن هذا هو ظاهر الآية.

أولا: لأن ظاهر الآية يدل على أن ذلك كان عند تمام صنعها.

ثانيا: أنه جاء مقترنا للأمر بحمل زوجين اثنين من كل الأحياء.

ثالثا: أنه لم يكن ثمة ذكر للأرض ولكن ذكر للسفينة، فالتنور فيها، وليس معنى ذلك بالفعل أن السفينة فارت بالماء المغرق، إنما فارت بالماء المسير.

إن ذلك الخاطر استمر يطرق أبواب التفكير حتى آمنا به، والله أعلم بالصواب. بعد أن أعدت السفينة تحت رعاية الله وكلاءته، وصنعت بوحي فى تركيبها جزءا جزءاً، وما كان نوح صانع سفن، ولكن كان نبيا مرسلا موحى إليه،



فكانت صناعتها معجزة، وإغراقهم معجزة، ونجاة من نجا معجزة وكل ذلك صار مرثيا للعيان.

حمل نوح عليه السلام. من كل زوجين اثنين وحمل أهله، إلا من سبق عليه القول منهم وهو ابنه، وحمل من آمن، وذكر سبحانه أن الذين آمنوا كانوا عددًا قليلًا.

وقد ذكر في الأخبار أن السفينة كانت ضخمة كأنها مدينة تسير في البحر، وروى أن طولها مائتا ذراع وألف، وعرضها ستمائة ذراع وارتفاعها ثلاثون، والله أعلم، وبعد صنعها أمر نوح بتكليف من ربه بأن يركبوا.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٢﴾.

ركب نوح وما معه وأهله، ومن معه ممن آمن واتبعه، ومن بعد ركوبهم كان الغرق بالماء الذي جاءهم من حيث لا يحسبون، جاءهم الماء من السماء والأرض، جاءهم من السماء فانهمر المطر، وجاء من عيون الأرض كما ذكر سبحانه في سورة القمر: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسِّرَ ١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ [القمر].

وهكذا نجد مجموع آيات القرآن الكريم فيها القصة كاملة، لكن كل جزء ذكر في موضع عبرته، ولا تكاد نجد تكرارًا، إنه كلام العزيز الحميد الذي أحاط بكل شيء علما.

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي بسم الله تعالى من وقت جريها إلى وقت رسوها، وهناك قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الذنوب لعباده المؤمنين برحمته، ثم وصف حال الفلك فقال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي

مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴿٤١﴾ أى إن الماء ارتفع وكثر حتى علا موجه واصطفق، وشبه الموج بالجبال لارتفاعه وصعوبة اختراقه .

وهنا تحركت عاطفة الأبوة الفطرية فى نفس نوح، والفطرة السليمة تتحرك فيها العواطف الإنسانية، فنادى على ابنه خشية الغرق، وقد عزل نفسه عن أبيه الداعى إلى الحق وهذا معنى ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ أى مكان معزول عن أبيه لكفره، أو عن القوم فرارا بنفسه ولكن لا فرار من قضاء الله المحتوم، فقال مغرورا مخدوعا غير مقدر أن العذاب نازل لا محالة .

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .

يعصمنى من الماء أى يمنعنى من الماء فلا يغرقنى، قال نوح الذى يعلم من الله أنه الهلاك المدمر ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ﴾ وهم الذين نجوا فى السفينة مع أبيك وأهلك ومن تبعه .

وكان الموج الشديد الهائل كالجبال الذى حال بين نوح عليه السلام وابنه، وكان من المغرقين لأنه رضى أن يكون مع الكافرين فناله مما نالهم مع أنه ابن نوح، فليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى .

بعد أن غرقوا ولم يبق منهم دينار جزاء ما اقترفوا وأشركوا، رفع الله الماء الذى كان إهلاكاً لهم .

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

فى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ﴾ القول تكوينى، وكان الفعل بالنداء لغير المعلوم، لمعرفة من ينادى بالتكوين جل جلاله، ولأنه فى المظهر غاض الماء من ذات نفسه، وهو يأمر الله تعالى: ﴿ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ فالأرض ابتلعت الماء الذى ملاها

بعبونها، ومن المطر المنهمر، ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي﴾ وأقلعي أى أوقفى ماءك المنهمر، ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أى نقص بعد أن تمت المعجزة ونزلت آية الله تعالى فى القوم الكافرين وقضى الأمر أى أنجز الله وعده بإهلاكه، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ الضمير يعود إلى سفينته، والجودى جبل، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ بمعنى استقرت بجوار ذلك الجبل وكأنه منع استمرار سيرها. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى إبعادا وطردا وهلاكًا للقوم الظالمين الذين اجتمعوا على الظلم، وتناصروا فيه، وبعد أن انتهى الأمر عاود نوحا عليه السلام كشأن الآباء حينه وإشفاقه على ابنه فنادى ربه مناجيا.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥).

إذ وعده الله تعالى أنه ناج هو وأهله، فقال له ربه نافيا دخول ابنه فى أهله فلا يكون داخلا فى الوعد بالنجاة.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧).

إنه فى ذاته عمل غير صالح، فشاقك وترك صفك وكان فى صف المشركين، وهناك قراءة بكسر الميم فى كلمة ﴿عَمَلٌ﴾ على أنه فعل وبفتح الراء فى كلمة ﴿غَيْرٌ﴾ فيكون اللفظ «عمل غير صالح»^(١) ذلك بانضمامه إلى صفوف المعاندين، ويكون فى التقدير على القراءة الأولى أنه ذاته صار كأنه عمل غير صالح، وهى أبلغ فى الدلالة على فساد من القراءة الثانية، وقد عاتبه الله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، (الفاء) لترتيب ما قبلها على ما بعدها، فترتب على كونه عمل غير صالح وعده نوح من أهله - ذلك

(١) (عَمِلَ غير) قراءة يعقوب والكسائى، وقرأ الباقون (عملٌ غير). غاية الاختصار (١٠١١).

العتاب، وفي كلمة: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ النون نون التوكيد الخفيفة المؤكدة للطلب، ثم أكد العتب بذكر علتة: ﴿أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى أبصرك كراهة أن تكون من الجاهلين بأن الولاية مقطوعة بين المؤمن والكافر.

بعد هذا التنبيه الرقيق العاتب أدرك نوح خطأ موقفه فقال مناجيا ربه ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أى إني ألجأ إليك سبحانه أن تعينني ألا أسألك ما ليس لى به علم وأستعينك يا رب العالمين أن يقع منى فى المستقبل سؤال لك فيما ليس لى به علم، وما هو من تقديرك وتديريك فى أن الحق أولى من الآباء والأبناء وكان هذا عن المستقبل، أما عن الماضى فقال، ﴿وَالْأُتَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى إن كنت سبحانه لا تغفر لى هذا الخطأ برحمة منك أكن من الذين خسروا، وليس معنى ذلك أن نوحا وقع فى ذنب يحتاج إلى الغفران، إنما هو لإحساسه بجلال الله، وقدره وعظم سمو أوامره ونواهيه، فقد ظن أنه ارتكب ذنبا، وما هو بذلك، أو أنه ارتكب فى جنب الله ما حسبه خطيئة، وما هو من ذلك فى شىء، وهذا ما يسميه علماء الصوفية «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، ولقد أقر الله قلب نوح وأوحى إليه أن يهبط من السفينة بسلام ولذا قال تعالى:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨).

القائل معلوم وإن بنى الفعل لغير المعلوم، ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أنزل من السفينة مصحوبا بسلام وأمن من الله، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾، وجعل سبحانه منهم أمما مع أنهم عشرات أو على الأكثر مئات، ذلك لأنهم آباء لجماعات مؤمنة طاهرة أى ستكون منهم ذرية طاهرة، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أى سيكون ممن معك أمم صالحة وأخرى ظالمة، والخلاصة أن الأمم الذين يجيئون ممن معك، على بعضهم بركات، ولبعضهم عذاب أليم.

العبرة فى القصة

قال تعالى :

تِلْكَ

مِّنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِّنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤١﴾

الإشارة إلى القصص الحكيم من قصة نوح عليه السلام، وهى أنباء عظيمة
أى أخبار ذات شأن وخطر، وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ
هَذَا ﴾ لأنهم كانوا أميين ليس عندهم من يدرس، ولا عندهم كتب تكتب، ولم
يكونوا أهل كتاب نزل فيها كالنوراة والإنجيل يعلمون علم النبوات منه قبل هذا،
وقد علمت ما فى هذه الأنباء من عبر وكيف جاهد نوح فى الدعوة إلى الله،
وكيف عانده قومه وكيف عابوا دعوته كما عاب قومك دعوتك، وأن الذين ابتدءوا
بالاستجابة هم الضعفاء من عبيد وفقراء، وكيف كانت آية الله بالفلك المشحون،
وانهمار الماء من السماء، وتفجير الأرض عيونا، حتى كان الغرق وسارت السفينة
فى موج كالجبال وكذلك كان عاقبة المكذبين.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، إذ ترتب
على القصص الحق وما فيه من معاندة الكافرين ونزول آية الله فيهم بالإغراق -
الأمر بالصبر حتى يرى آية الله فى المشركين من قريش، وإنها آية لا محالة، وإن
كانت المجاهدة حتى صارت كلمة الله هى العليا. وفى قوله تعالى : ﴿ الْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى أن التقوى هى السبب فى حسن العاقبة، والنصر المبين لمن
خاف واتقى، والخزى لمن ضل وشقى. وفى الآيات إشارة لأمرين :

الأمر الأول: الصبر ألا يأخذه ما هم عليه من مظاهر القوة والغرور.

الأمر الثاني: ما فى القرآن من إعجاز إذ يأتى من أخبار الغيب ما يجتاز
مجاهل التاريخ حتى تبين الحقيقة نيرة بينة يوافقها الصادق الباقي على صدقه مما
جاء فى التوراة.

هود وقومه

قال الله تعالى:

وَإِلَىٰ عَادٍ

أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ
غَيْرُهُ إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَنْقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِي آلِ الْهَيْثَانِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾
إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِ الْهَيْثَانِ بِسُوِّ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِّنْ دُونِهِ فَكِدُونِي
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا
مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْنَافِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ

رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾
 وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ جَدِّكَ إِسْمَاعِيلَ
 رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا
 بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

﴿وَالِىَ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

نجد الدعوة إلى التوحيد كما دعيت إليه قريش، وناووا هودا كما ناوت قريش، وصابروهم كما يصابروهم، ولما أصروا على الشرك والإيذاء أنزل الله عليهم ما دمرهم.

ناداهم هود بما يقربهم إليه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أى اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ووضح ذلك بقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أى مالكم أى إله غيره فكلمة ﴿مِنْ﴾ لاستغراق النفي وشموله؛ لأن الألوهية تقتضى الانفراد بالخلق والتدبير، وأن يكون المعبود واحدا فى ذاته وصفاته ليس كمثله شىء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره، ولكنهم فعلوا غير المعقول وغير ما يوجبه العقل السليم، ولذا قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وكلمة ﴿إِنْ﴾ نافية ثم جاء بعدها الإثبات بكلمة ﴿إِلَّا﴾ أى أنتم مقصورون على الافتراء والكذب المقصود بعبادتكم أوثانا لا تضر ولا تنفع ولا تتكلم ولا تتحرك.

وإنه في هذه الدعوة لا يريد مالا ولا سلطانا أو جاها يكون أجرا على دعوته ولذا قال تعالى عن هود: ﴿يَا قَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى عرض من أعراض الدنيا، ولا أجر لى إلا الجزاء من الله على القيام بواجب إرشادكم وهدايتكم، وقال فى ذلك: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أى خلقتنى على الفطرة السليمة المستقيمة غير المتوية، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يدعوهم إلى التدبر و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو أن حالهم أوجبت تنبيههم إلى أن ما هم فيه يجب أن يتدبروه؛ لأنه غير معقول فى ذاته إذ كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضر وهو حجر لا ينطق ولا يعقل، ويناديهم بعد ذلك نداء المحبة التى يريد بها النفع فيقول ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أى اطلبوا الغفران، لأن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا وعبر بـ «ربكم» للإشارة إلى ما يبعثهم على عبادته، وهو أنه الذى خلقهم وربهم ودبر أمورهم بحكمته وإرادته.

ويبين سبحانه ما يترتب على الاستغفار، وهو ذاته مما يوجب العبادة فقال تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾، المراد المطر، وعبر عنه بمكان نزوله من قبيل (إطلاق المحل وإرادة الحال)، ومدرارا أى كثيرا، ينبت به زرعكم ويكون قوام حياتكم، وفى ذلك الخير فائدتان:

الفائدة الأولى: أن القرب إلى الله وعبادته الخالصة ييسط الله بهما الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

الفائدة الثانية: تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم وهى توجب أن يؤمنوا بدل أن يشركوا ويقول سبحانه على لسان نبيه هود ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أى يزيدكم قوة مضمومة إلى قوتكم، فشكر النعمة يزيدنا ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ



لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ [إبراهيم]، فالقوة نعمة فاشكروها
تزدادوا قوة إلى قوتكم. وينهاهم عن الفساد والإجرام بهذه القوة التي إن لم تُشكر
كانت سبباً للإجرام، ولذا قال لهم نبي الله ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أى لا تتولوا
حال كونكم بهذه القوة فتكونوا قوما مجرمين.

وقد أجابوا هذه الدعوة الرشيدة الحسنة، الرقيقة القوية العميقة بالرفض
القاطع فطالبوا بعد الرفض بالبينة، أى الدليل الملزم، وكان هذا غريباً بعد الرفض
كالقاضى الذى يرفض الدعوى ثم يطالب بالدليل.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾.

هى أقوال ثلاثة رافضة:

أولها: ادعائهم أنه لم يأتهم بيينة أى بدليل يدل على رسالته، وهم بذلك
يمضون فى عنادهم غير معترفين بما جاءهم من معجزات هى علامة قاطعة.

ثانيها: أنهم ينفون إجابته نفياً لازماً قاطعاً لا يترددون فيه قائلين: ﴿وَمَا
نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ عن قولك ويردون النفى بإضافة الآلهة إليهم كأنهم منها وهى
منهم.

ثالثها: أنهم لا يؤمنون بالحق إذ جاء، ولذا قال كما حكى الله تعالى عنهم:
﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى وما نحن بمؤمنين استجابة لك، وقدم ﴿لَكَ﴾
للإشارة إلى اختصاص الكفر به وعدم التسليم، فى مقابل إيمانهم بما آمن به
آباؤهم وقد تأكد النفى بالباء فى قوله ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد اتهموه بأنه قد اعتراه بعض آلهتهم بسوء، أى اتهموا عقله وأن يكون به
مس من الجن، كما قالت قريش للنبي ﷺ، إذا كان هو ربنا قد جاءك التمسنا لك
الطب، وقال أولئك: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، أى إن الحال أن
بعض آلهتنا أنزل بك سوءاً فقلت ما قلت.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)﴾.

ولكن هودا عليه السلام يصابرهم، ويلين بالقول معهم، فلما طمعوا أن يمنعه أو يجروه إليهم قال لهم قولاً جازماً: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أى أجعله شهيداً على ما أقول أى إنى برىء من شرككم، فكلمة ﴿مِمَّا﴾ وما بعدها من الفعل مصدر، وأكد براءته فى الشرك بـ (أن) فى كلمة ﴿أَنِّي﴾ وبالجملة الاسمية، والتعبير بالفعل لتصوير حالهم القبيحة وهم يشركون بالله تعالى رب العالمين.

إنه إذ يبرأ منهم ومن إشراكهم، يعتمد على الله تعالى خالقهم فيقول: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أى فكيدونى مجتمعين غير متفرقين، ودبروا لى ما هو إيذاء وكيد وتدبير خبيث لى: ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أى لا تؤجلون، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا يفيد أن يكيدوا غاية الكيد وأبعده، وأن يتدبروا أبعد التدبير ولا يؤجلونه.

وفشل تدبيرهم لأن قوتهم لا تقف أمام قوة الله وتدبيره، وأكد هذا سبحانه وتعالى:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أى اعتمدت عليه سبحانه فهو يحمينى بحكمته وتقديره وتدبيره وهو ربي وربكم، يعرف طاقتكم وما عندكم من قوة وتدبير، وإنه بلا ريب ضعيف بجوار تدبيره، وقاض عليه سبحانه، وأكد ذلك قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أى قادر عليها متمكن من أمرها، وفى قوله تعالى: ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أى قادر عليها متمكن من أمرها، وفى قوله تعالى: ﴿آخِذٌ﴾ تمثيل لقوته تعالى وسيطرته وأنه آخذ بناصية خلقه لا يتمكن أحد من البعد عن قبضته، ثم بين لهم أن طريق الله هى الطريق فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى



صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥٣﴾ أى إن ربى ممسك الطريق المستقيم متمكن منه، وأن ما يدعو إليه هود هو الصراط المستقيم كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾ (١٥٣) [الأنعام].

وقد أبلغ هود رسالة ربه وحسبه ذلك، ولم يبق إلا أن ينزل بهم ما استعجلوه ولذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أبلغ هود رسالته فى بيان ورفق، ولم يكن رفقه ضعفا فى جنب الله، ولكنهم أصروا على الكفر والعصيان واستعجلوا العذاب الذى كان يذكرهم به أثناء تبليغ رسالة ربه، عندئذ ذكرهم بعاقبة أمرهم، فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾، ﴿تَوَلَّوْا﴾ فعل مضارع حذف فيه تاء، أى فإن تتولوا بأن تعرضوا فقد أبلغتكم رسالة ربى الذى ربانى وخلقنى، ولم يبق بعد الرسالة إلا أن ينزل بكم ما أنذركم به وهو عذاب محيط مدمر، ولذا قال تعالى فيه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى بعد إزالتكم من الأرض، ولا تضرونه شيئاً بزوالكم وذهاب جمعكم لأنه لا يحتاج إلى خلقه وهم يحتاجون إليه.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾، أى رقيب لا تخفى عليه أعمالكم ويجازيكم عليها حق الجزاء وهو حفيظ على كل شيء، لا يمكن أن يضره شيء، وهو فوق كل شيء وعلى كل شيء قدير.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

بين سبحانه نزول العقاب بالكافرين ونجاة المؤمنين برحمة كريمة منه، وحسبها شرفاً أنها من رب العالمين، وبين سبحانه أن النجاة كانت عظيمة؛ لأنها نجاة من عذاب شديد، كما بين سبحانه أن العذاب غليظ أى شديد لا رفق فيه؛

لأنه لا رفق مع ظالم؛ لأن الرفق بالظالم عنف بالمظلوم، ولم يذكر في هذه الآية نوع العذاب، وقد ذكر في آيات أخرى أنه عذاب بريح السموم، وقد جاء ذكره في سورة الأحقاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)﴾.

أشار الله تعالى إلى العبرة من عاد، كانت أقوى للعرب في أزمانها، وكانت منهم آفات ثلاث، أنهم جحدوا بآيات ربهم أى أنكروا دلالتها، وعصوا الرسل، واتبعوا الجبابة في غيهم وطغيانهم.

﴿وَتِلْكَ﴾ الإشارة إلى الذين تضمنت الأخبار السابقة ذكرهم، وكانت الإشارة إلى عاد لقوتها وطاغوتها وتمردا ومآل أمرها ولما فيها من عبرة، وأنبأت أخبارهم عن موطن الاعتبار، وهو طغيانهم ثم نزول العقاب بهم من غير هواة لإنكارهم الآيات وعصيانهم الرسل، وقد استهوتهم القوة الظاهرة للجبارين في الأرض الذين عاندوا في الحق وتحدوا الله ورسوله المبعوث لهم رحمة بهم. وقال تعالى في عذابهم عند الهلاك الذى اجتثهم من الأرض:

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

أى أنهم قد والاهم غضب الله تعالى، ومعنى ﴿اتَّبَعُوا﴾ أى أتبعهم الله، ولعنته سخطه وطردهم من رحمته فى هذه الدنيا، وكان مظهر اللعنة ما نزل بهم من عقاب قطع دابرهم، وتسجيل إثمهم وطغيانهم وما أحسوا به فى ذات أنفسهم، وخروجهم عن سنن الفطرة والاتجاه إلى الأذى والإيذاء، ولعنتهم فى الآخرة العذاب فى الجحيم، وأن الله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أى ألا طردا من رحمة الله تعالى وهلاكا لهم مع هذا الطرد والإبعاد. وذكر سبحانه أنهم قوم للإشارة إلى مظهر كفرهم وعنادهم برسولهم الذى هو منهم وهم قومه وكان جديرا بهم أن يؤمنوا ولكنهم كفروا وطغوا.



صالح و ثمود

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ
 يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
 ﴿١١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ
 نَعْبُدَ مَا يَعْبُدَ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾
 قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاتَنِي
 مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي
 غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
 فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
 عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِيمِينَ
 ﴿١٧﴾ كَانُوا يَفْغَرُونَ فِيهَا إِلَّا أَنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا وَارْتَمَتْهُمُ اللَّعْنَةُ
 لَثَمُودَ ﴿١٨﴾

قال تعالى :

﴿وَالِىْ ثَمُوْدَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ .

العطف فى هذا الموضع على ما سبق فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ... ﴿٢٥﴾﴾ .

فالمعنى أن الله سبحانه وتعالى أرسل نوحا ومن بعده هودا وإن لم يتعاقبا، ومن بعدهما صالحا إلى ثمود .

وكانت دعوته الأولى هى التوحيد، لب الرسالات السماوية ومجتمعها المشترك فيها جميعا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ حق عبادته لا تشركوا معه أحدا ولا حجرا ولذا قال سبحانه فى تفسير معنى عبادته ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ثم أخذ يجرى على لسان نبيه أسباب الألوهية له ونفيها عن غيره فقال : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى خلقكم من الطين، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى جعلكم تعمرونها فتنشئون فيها المباني والحدائق الغناء، والسين والتاء فى كلمة ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ معناهما التكليف لعباده أن يعمروها فهو سبحانه مظهرهم على ما جعلهم يسخرون السموات والأرض بما قدره تعالى لهم .

ثم يقول صالح ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى اطلبوا غفرانه بأن يستر ما ارتكبتم من ذنوب وينشئكم نشأة طاهرة طيبة، وبعد الاستغفار توبوا إليه ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أى ارجعوا إليه بعد أن بعدتم عنه بالشرك، وعبر بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على بعد حالهم فى الانتقال من الاستغفار إلى الرجوع إلى الله تعالى ؛ لأن الاستغفار طلب محو الذنوب أو سترها، وتلك أول خطوة فى ترك الكفر والشرك، وتعلوها مرتبة الاتصال بالله لقبول التوبة، ولذا قال تعالى على لسان نبيه بعد ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ وهذا إدناء إلى التوبة وتقريب لها، أى أن الله تعالى فى عليائه قريب إلى النفوس التائبة محب للدعاء والرجوع إليه، وذلك رد على أوهامهم التى يقولون

فيها أنهم شفاعونا عند الله، وقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فصالح يقول لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ فلا حاجة إلى شفاعة الشافعين، إن كان يتصور أن يكون في هذه الحجارة شفاعة. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ إشارات بيانية منها تأكيد القول بالجملة الاسمية وبكلمة «إن».

وفيها التعبير ﴿رَبِّي﴾ وذلك يفيد أنه مربيه ومُنشؤه، ومربيهم ومُنشؤهم فكيف لا يكون قريبا منهم وهو الحي القيوم في السموات والأرض.

ومنها ذكر كلمة ﴿مُجِيبٌ﴾ وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الذى يدعى فيجيب لا تلك الأحجار التى لا تضر ولا تنفع فلا تجيب دعاء ولا تسمع نداء، وماذا كانت إجابة قومه إلى تلك الدعوة الحق.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾.

كان صالح معروفا قبل الرسالة بالكمال الإنسانى، كما كان محمد ﷺ معروفا بأنه الصادق الأمين ﴿مَرْجُوًّا﴾ مرجو خيره غير مذموم، وقولهم: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أى كنت فينا مرجو الخير محمود الخصال والفعال، وكانهم يحسبون أنه ينبغي أن يفعل ما هو على هواهم ويردد مقالاتهم ويعبد ما يعبدون.

ويثيرون العجب فيقولون: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فهم يستنكرون دعوته، والاستفهام إنكارى لأنكار الواقع، وهو أنه فعلا ينهاهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم، وليست عبادة آلهتهم حجة مسوغة لهم؛ فأباؤهم كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فالشك هو عدم التصديق بما يقول والتظن في صدقه، فهم يشكون فيما يدعو إليه من التوحيد وهجر عبادة الأوثان لأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، وإن هذا الشك يوقعهم فى الريب، أى أن شكهم فى صدق ما يدعوهم إليه يوقعهم فى حال الريب فلا يؤمنون بقوله ويكونون فى حال من الاضطراب.

ثم قال لهم صالح :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ٦٣ ﴾ .

التخسير مصدر كلمة «خسر» أى تضعيف الخسارة، وذلك أنهم بردهم لدعوته ومحاولة أن يكون معهم ويتبع ما كان عليه آباؤهم، يجعلون الخسارة مضاعفة له بردهم دعوته وعصيانه لله تعالى إن لم يبلغ دعوته .

وهو سبحانه ينقل قوله لهم فيقول تعالى عنه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ الاستفهام للتنبية والتقرير، والمعنى لقد رأيتم وعلمتم هذه الحال التى أكون عليها، ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أى بصيرة وإدراك وحجة بينة واضحة بعبادته وحده، ﴿ وَأَتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةٌ ﴾ وهى الرسالة التى كان اصطفانى بها رحمة بى ورحمة بكم، فإذا عصيته بعدم تبليغها واتباع أهوائكم ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي ﴾ أى يعصمنى من الله إن عصيته بالامتناع عن التبليغ واتباع ما تدعوننى إليه، ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أى فإنكم بهذا لا تزيدونى غير خسارة مضاعفة بكفركم وعدم استجابتكم، وبامتناعى عن التبليغ ثم باتباعى أهوائكم، وتلك خسارة مضاعفة، بعد هذا ذكر لهم المعجزة، وقد كانوا فى الصحراء وسفيتهم فيها الناقة تقطع الفيافى والقفار فى صبر ووداعة وأناة فكانت المعجزة من جنسها، ناقة لها خواص ليست لكل صواحبا تجعلها غير مشابهة لهم، وهى آية لهم ونذير، إن اعتدوا عليها، وجعل لها شرب أى ماء، غير شرب سائر النوق، فقال لهم عليه السلام فيما قص الله تعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ٦٤ ﴾ .

نسب صالح الناقة إلى الله مع أن كل شىء من المخلوقات منسوب إلى الله، ولكن الله تعالى اختارها لتكون معجزة صالح عليه السلام، كان ذلك له فضل اختصاص فى النسبة إلى الله تعالى .

وقوله ﴿آيَةٌ﴾ أى معجزة دالة على رسالة صالح، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر دلت عليه الجملة قبلها، أى إذا كانت آية الله لنبية فاتركوها تأكل فى الكلاً المباح فى أرض الله تعالى، ولا تمسوها بأى أمر يسوء فى ذاته وعاقبته، وبسببه يأخذكم عذاب واقع لا محالة، ولذا قال لهم ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، (الفاء) للسببية، ووصف العذاب بالقرب للدلالة على وقوعه لا محالة وأنه يجيئكم فى أقرب وقت، وفى التعبير ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ إشارة إلى أنه يأخذهم من مأمَنهم إلى حيث الهلاك والدمار.

ولكنهم لم يكثرثوا لتحذير نبيهم فعقروها استهانة منهم بتحذيره ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٦٥).

فقال لهم الرسول صالح عليه السلام: ابقوا متمتعين فى داركم ثلاثة أيام، وهى لتطبيق القرب الذى أنذرهم به، وليعايشوا جريمتهم، ثم أكد نزوله بعد هذه المدة القصيرة فقال: ذلك وعد من الله تعالى صادق غير مكذوب، وهو متحقق لا محالة.

بعد ذلك نزلت آية الله تعالى بالعذاب المهلك الذى اختص الله به الذين كفروا فقال سبحانه:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِتُهُمْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٦).

فلما جاء أمرنا أى بعد الأيام الثلاثة، وهو الهلاك المدمر نحينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا، أى برحمة أرادها الله تعالى وكانت هبة للذين آمنوا جزاء بما كانوا يعملون، نجوا بها من خزي يومئذ، أى هذا اليوم.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ (٦٧) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لثَمُودَ (٦٨).

﴿جَائِمِينَ﴾ أى ساقطين على وجوههم، والصيحة عبر عنها فى سورة الأعراف بالرجفة، ويبدو أن هذه كانت من صاعقة رجت الأرض رجا فرجفت واهتزت بما أذهب ألبابهم ثم أجسامهم فسقطوا منكسين جائمين. كان ذلك بعد مرور أيام التمتع الثلاثة التى أنذروا بها، ثم بين سبحانه أنهم ذهبوا بغلوائهم وطفوائهم ونهجهم، ﴿كَأَن لَّمْ يَعْنُوا﴾ أى كأن لم يقيموا فيها غناء واستعلاء وكبرياء، ظانين أنهم استغنوا بأصنامهم عن كل شىء. ﴿إِنْ تُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى أنكروه وجحدوه، ولذا عبر عن نفسه سبحانه وتعالى من غير الباء، وكأن العابد للصنم متذكر لله تعالى ولو ادعى أنه يؤمن بأنه الخالق وحده، وأنه واحد فى ذاته وصفاته، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّلْمُودِ﴾ ﴿أَلَا﴾ للتنبيه، و﴿بُعْدًا﴾ معناها طردًا وإهلاكًا؛ لأن البعد عن رحمة الله تعالى هلاك وإهلاك.

إبراهيم ولوط

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا
 سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لِيَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا
 رَأَى آيِدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
 قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ
 فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾
 قَالَتْ يَوْنِيلَتْنِي ۚ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا
 لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ
 وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
 عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّسِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمَ أُعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ
 قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ دُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
 جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا
 يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا
 يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَبْقَوُا هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
 ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
 ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا
 يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
 مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا
 مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
 فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَظْرَنَا عَلَيْهَا
 حَجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
 وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ
 بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ
 إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ .

جمع الله تعالى قصة إبراهيم ولوط فى موضع واحد؛ لأنهما كانا فى زمن واحد، ولا مانع من أن يوجد نبيان فى زمن إذا تباعد الإقليمان، وقد يكونان فى زمن وإقليم واحد كما فى خطاب قوم إسرائيل، ومجادلة طاغية كفرعون، وإن كان أحدهما رسولاً والآخر ردثاً له.

وفى القصة التى جمعت بين إبراهيم ولوط عبر نذكر بعضها قبل التصدى لذكر ما جاء فى هذا الموضع، منها إثبات أن الله هو الفاعل المختار المريد الذى لا يتقيد بالأسباب العادية كما نتقيد بها، بل إنه خالق هذه الأسباب يملك تغييرها، وأنه سبحانه وتعالى القادر المريد، فهذه عجوز تجاوزت سن الولادة تحمل وتلد، ومن هذه العبر أن الملائكة أراد الله جعلهم كالأناسى ويلبس الأمر كما لبس على إبراهيم عليه السلام إذ أنكرهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام وأوجس منهم خيفة.

ومنها أن الفواحش تفتك بالجماعات وتذهب قوتها وتعددها للفناء، كما فى شأن قوم لوط إذ إن فاحشتهم قطعت نسلهم وأسلمتهم إلى الدمار، ومنها أن كل امرئ بما كسب رهين ومعاقب بعمله، فلم يعف امرأة لوط من العذاب أنها امرأته، ولأنها كانت من المفسدين حق عليها ما نزل بهم من العذاب.

ومنها أن آل لوط لم يكونوا عبدة أوثان فقط بل كانوا مع ذلك يأتون الفاحشة التى ما سبقهم بها أحد، يأتون الرجال شهوة من دون النساء حتى أصبحوا لا يخرجون من شر إلا إلى شر، فهم فى دائرة الفساد المطلق والفاحشة الشنعاء التى هى كرهوس الشياطين من المخثين ومن يتشبهون بالإناث فى ملابسهم وشعورهم بل وفى أفعالهم، ووُجِدَتْ جماعة تنطلق انطلاقاً إلى كل موبق باسم حرية الإرادة وما هى إلا الوقوع فى أسر الشهوة ومن ورائها ذلها.

ومنها أن الانطلاق إلى الهوى لا يرده عقل ولا تدبير ولا حياء بل ولا أى مروءة إنسانية، حتى أنهم عندما رأوا الملائكة، جاءوا إلى لوط عليه السلام

يهرعون، وإنه ليعرض بناته للزواج، فيقولون في تبجح لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وهكذا نرى ممن يشبهونهم في عصرنا.

ولنبداً بذكر القصة بعد هذا الذي أدركناه من عبر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ (١٩)، حيوه بالسلام، وهو مصدر لفعل محذوف أى «نُسَلِّمُ سلامًا»، وقد كانت هذه تحية فردها بأحسن منها فقال ﴿سَلَامٌ﴾ أى أمرى كله سلام، وأتم التحية بكرم الضيافة الذى امتاز به أبو العرب إبراهيم بأن أعد الطعام الشهى المشوى ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ (الفاء) للعطف الدال على الفورية أى ما أبطأ أن جاء بعجل مشوى: يقال حنذ الشاة أى شواها. ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد صدر القصة بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وكلمة (قد) مؤكدة للخبر؛ وأكد الخبر لأن فيه غرابة وهى مجيء الملائكة إلى الأرض ﴿رُسُلُنَا﴾ تكريماً وتشريفاً وتعظيماً.

وقال ﴿بِالْبُشْرَى﴾ أن مصاحبة لهم البشرى بولد لإبراهيم عليه السلام الذى قدم لهم من الطعام ما ينبئ عن الكرم وحسن اللقاء، ولم يجدهم يمدون أيديهم إليه وعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ مبالغة فى الامتناع عن الأكل إذ لم تتحرك أيديهم بل بقيت فى مكانها لا تمتد إليه، ولما رأى ذلك أحس أنهم غرباء عنه، وعن جملة أحاسيسه، إذ إنهم لم يمدوا أيديهم ولم يعتذروا، وعبر الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ وهو بمعنى أنكرهم واستنكر أمرهم، وإن كلمة ﴿نَكِرَهُمْ﴾ تدل على ما هو أبلغ من الإنكار والاستنكار، بل تدل مع ذلك على الوحشة من لقائهم، ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، والإيجاس هو الإدراك بالحس، والخيفة الخوف الشديد الذى يظهر فى الهيئة؛ لأن خيفة اسم هيئة من الخوف، أى أدركوا سبباً للخوف وظهر الخوف فى هيئته عليه السلام، وخيفة فى الإعراب تمييز محول من المفعول إلى التمييز، وقد أحس الرسل بهذا فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ عندئذ اطمأن وقر قراره، ﴿وَأَمْرُهُ فَائِمَةٌ﴾ ويقول المفسرون إنها قائمة وراء الستر ﴿فَضَحِكْتُ﴾

سرورا بزوال الخيفة التي اعترت زوجها؛ ولأنها استأنست بأن هؤلاء سيقضون على أهل الدعارة والفساد، ولأنها كانت خائفة على لوط من قومه أو إذا نزل عذاب يعم قومه. وبعض المفسرين قال إن (ضحكت) معناها حاضت، وعندى أنه إذا جاز ذلك لغويا فإن ظاهر الضحك هو ما يكون بسبب السرور، ولا يخرج اللفظ عن ظاهره إلا لقرينة فإن ادعوا أنها البشرية بغلام فإنها ليست قرينة تخرج اللفظ عن ظاهره وإن البشرية أقرب إلى أن يرجح أن الضحك للسرور وأنها لما ضحكت وسمعتها الرسل كانت البشرية.

﴿وَأَمْرَ أَنَّهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾.

وذكر يعقوب بعد إسحاق وهو ابنه للإشارة إلى أنه سيكون من ذريته النبيون فهو أبو الأنبياء من الأسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم جميعا السلام وهي كانت عقيم، أما هاجر كان منها الولد فكانت البشرية داعية سرور وغرابة أما السرور فلهذه البشرية وقت زوال ألم العقم، وأما الغرابة فقد كشفت عنها بقولها:

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)﴾.

الاستفهام للعجب، والعجب كان يقوم على أمرين:

الأمر الأول: أنها عجوز قد أدبرت سن الولادة والحمل.

الأمر الثاني: أن زوجها شيخ هرم، وصرخت بالعجب فقالت: إن هذا لشيء عجيب. وقوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ هي للتعجب وتستعمل الكلمة غالبا في العجب من أمر متعجب شاق، وشاع استعماله في العجب، وعندى هنا أنه للأمر الشاق؛ لأن البشرية تحمل في نفسها آلام الحمل والوضع، كما أنها أحست في نفسها بما يتبع من وهن كما قال سبحانه في ذلك الأمر ﴿... حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ... (١٤)﴾ [لقمان] رد الملائكة عجبها بقولهم لها.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٢).

هذا استفهام لإنكار العجب لأن ذلك من خوارق العادات والعجب إنما يكون فيما هو من أمر العباد والأسباب الجارية، أما ما يكون من أمر الله فإنه من خالق الأسباب والمسببات، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أى بيت النبوة فقد كان بيت إبراهيم عليه السلام مهد الأنبياء الذى كان منه يعقوب والأسباط من بعده، ويوسف وموسى وداوود وسليمان وإل ياسين وعيسى.

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ الضمير يعود على لفظ الجلالة ﴿حَمِيدٌ﴾ وصف لذات الله بمعنى أنه المحمود الذى يدوم حمده وإنعامه ويحمد لهذا الإنعام، و﴿مَجِيدٌ﴾ على وزن فعيل من ماجد لأنه العالى فى ذاته وصفاته ومجده سبحانه وتعالى.

كان الاتجاه إلى قوم لوط لينزل بهم ما استعجلوه من عذاب وليكون العقاب الصارم القاطع لفسادهم، المجتث لجمعهم، وإبراهيم الحليم أخذ يجادل فى قوم لوط، ويظهر أن هذه المجادلة كانت لرجاء إمهالهم وألا يعجل الله تعالى فى أن ينزل بهم ما يستحقون، ولذا قال تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤) **إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥).**

أمران جليان ألقيا فى نفس إبراهيم بالاطمئنان أحدهما: أنه ذهب عنه الروع أى الخوف الذى راعه واسترهبه، والآخر أن جاءته البشرى بولد أخاً لإسماعيل الذى تركه فى البرية، فلما كان هذان الأمران أخذ يجادل فى إمهال قوم لوط.

﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ والتعيير بالمضارع لإفادة الاستمرار فى المجادلة وحدثها متجددة وكانت المجادلة لربه؛ لأن فى القوم لوطا النبى وله به قرابة نسب فهو حريص على نجاته شقيقا عليه. وعلل سبحانه تلك المجادلة بوصف إبراهيم

عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥)، وهى صفات ثلاث من مكارم الأخلاق، ولكن المجرمين من قوم لوط فجروا فارتكبوا فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

الصفة الأولى: لإبراهيم عليه السلام: الحلم فهو لا يتعجل العقاب بل يريد للمجرم فرصة للانخلاع من ذنوبه فهو يؤثر السماحة على العقاب.

الصفة الثانية: أنه مرهف الإحساس كثير التأوه من الشعور بالخطأ، وإن لم تكن خطيئة ولا ذنب، ومعاذ الله أن يكون خليل الله تعالى أثيماً، وإنما هى قوة الإحساس والخشوع فى جنب الله تعالى.

الصفة الثالثة: أنه منيب أى راجع إلى الله تعالى فهو لا يفترق عن ربه إلا فى محبة مُدنية مقربة.

وإن الله تعالى يأمره بالإعراض عن الدفاع عنهم فلا يصح أن يجادل عن المجرمين ويناديه الله نداء الخليل.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦).

ناداه ربه باسمه تقريبا له، أَعْرِضْ عن هذا الجدل فإنه لن يغير شيئا؛ لأنه قد مضت إرادة الله تعالى وأمره بالإهلاك. والتعبير بكلمة ﴿رَبِّكَ﴾ فى هذا المقام للإشارة إلى أنه مقتضى الربوبية فى أن يؤخذ الظالم بظلمه لأنه لا يستوى المسىء والبرىء، كما لا يستوى الأعمى والبصير.

وأكد سبحانه أن العذاب نازل بهم لا محالة ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وقد أكد سبحانه نزول العذاب بعدة مؤكدات:

أولها: وصفه بأنه غير مردود.

ثانيها: بالجملة الاسمية.

ثالثها: بأن الدالة على التوكيد.

وهكذا كان العقاب نازلا لا محالة، ذهب رسل الله تعالى إلى لوط ولم يذكر أنه فوجئ بهم كما فوجئ إبراهيم عليهما السلام، ويظهر أن المفاجأة وقعت ولكن استغنى عن ذكرها هنا بذكرها هناك، أو أنه شغل عن المفاجأة برؤيتهم بحال قومه وفسادهم عند لقاء هؤلاء الأطهار، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾.

جاء رسل الله الملائكة الأطهار في صورة أناسى مشرقه وجوههم متكاملة صورهم، فساء مجيئهم لوطا، إذ هو يعلم من قبل ما عليه قومه من فساد، ولذلك ساءه ذلك المجيء المفاجئ وعبر الله تعالى عن ذلك بكلمة ﴿سَيِّئًا﴾ بالبناء للمجهول لبيان أنه داخل نفسه السوء من كل ناحية، ثم أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وكلمة ﴿ذَرْعًا﴾ تميز محول عن الفاعل، والمعنى ضاق بهم ذرعه أى باعه، وهذا التعبير تصوير لضيقة بصورة حسية كمن يضيق باعه فلا يستطيع أن يتحرك دافعا شرا داهما، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أى شديد وقد قال الشاعر فيما يدل على الشدة فى كلمة ﴿عَصِيبٌ﴾ يوم عصيب يوجب الإبطالا، ولقد جاء فى معنى ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، أصله أن يذرع البعير بيديه ذرعا فى سيره على قدر سعة خطوه، فإذا حُمِّلَ أكثر من طوقه ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه فضيق الذرع، فضيق الذرع كناية عن ضيق الصدر، وهذا تخريج آخر، والقرآن الكريم حمال لكل وجوه القول البليغ.

هذا ما كان من أمر نبي الله لوط وقد توقع الشر من قومه، أما ما كان من قومه فقد قال تعالى فيهم:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨)﴾.

الإهراع الإسراع فى رعدة، وقد جاءوا بهذا الإسراع فى رعدة الشهوة الجامحة الفاسدة، ولا يستعمل «يهرع» إلا بالبناء للمجهول، جاءوا مسرعين مهتزين مرتعدين من شدة الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين، وهم معروفون عند نبي الله لوط عليه السلام بهذه الفاحشة، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أى كانوا مستمرين من قبل على عمل السيئات التى تسىء الإنسانية فى ذاتها، وتسيئهم وتسىء مجتمعهم، فأدرك لوط ماذا يريدون، وعرض بناته عليهم ليتزوجوهن بدل الاسترسال فى هذه الفاحشة التى لا يرضاها الحيوان لفطرته، ويظهر أنه ألح فى العرض وألحوا بالرد وتكاثروا بالفساد فقال ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ بعد أن لجأ إلى مروءتهم إن كان عند مثل هذا الصنف من الناس مروءة أو بقية من إنسانية فقال: ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي﴾.

قالوا مصرين على سؤنهم وقبح فحشهم.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾.

قالوا ما لنا فى بناتك من حاجة، وعبروا عن هذه الحاجة بكلمة الحق، فقد توهموا لفرط غلبة الشهوة عليهم أن هذا الذى يفعلونه من إثم حق منحه الله لهم، هم ومن يشبههم من جيل هذا الزمان.

فضاق صدر نبي الله وقد أحس بضعفه أمام قوتهم وكثرتهم وقلة من معه فقال مستيئسا ﴿لَوْ أَنِّي بِيَكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أى لو أن لى بدفعكم قوة أردكم بها أو آوى إلى قوى أمتنع به دونكم، وشبه ذلك القوى بالركن من الجبل، ويصح القول (أخرج من هذه الأرض الفاسدة وآوى إلى جبل يعصمنى منكم ومن شركم)، وكلمة ﴿لَوْ﴾ للتمنى، وفى هذا الاستضعاف الشديد يكون فرج الله، فيجد أنه آوى إلى أعظم ركن وهو ركن الله تعالى، وقد رأى ذلك الركن بجانبه وهم الملائكة.

﴿قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِن مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ .

فوجئ لوط، وقد كان في حال ضعف يتمنى النجاة، بقولهم إنا رسل ربك الذى خلقك ورباك وبعثك وهو القوام عليك وعلى الناس أجمعين، وقد أدرك من كونهم رسل الله أنهم جاءوا للعذاب قومه وإنجائه وابتدءوا بذلك .

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ والإسراء السير ليلا، «بقطع من الليل»، وهو الجزء الذى يكون فى منتصف الليل أو قريبا من النصف الأخير حيث يهجعون ويكونون فى نوم عميق .

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى لا ينظر وراه ولا يتخلف لمتاع أو لنحوه مما يشغلهم عن أنفسهم، واستثنيت امرأته، ووصفها الله تعالى فى آية أخرى بقوله ﴿... إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت] وإن العذاب نازل بها، كما هو نازل بهم أى أن الحال والشأن يصيبها ما أصابهم، وعبر باسم الفاعل للدلالة على نزوله نزولا مؤكدا بها، وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ فى التعبير بالماضى والعذاب لم يقع بعد لتأكيد الوقوع كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ... (١)﴾ [النحل] .

وقد تعين موعد نزول العذاب وأنه قريب فقالوا: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أى أن العذاب نازل بهم فى الصباح وإنه لقريب، ومعنى الاستفهام التقرير، إذ هو للنفى وقد دخل على النفى إثبات، وجاء بهذه الصيغة لتأكيد الوقوع وقد أكد بالباء ثم كان العذاب الشديد المبيد، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَحَابٍ مُمْضٍ (٨٢)﴾
مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ .

﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى أمرنا بالعذاب، ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ أى خسفت بهم الأرض فانهد العالى وصار سافلا، وكان العذاب المتلاحق بعد خسف الأرض بهم وابتلاعها لديارهم ما صورته سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أى طين متحجر، ولذا عبر عن هذا المطر الحجارى بأنه حجارة من طين. و﴿مَنْضُودٍ﴾ أى متتابع لم ينقطع. ﴿مُسَوَّمَةٍ﴾ أى معلّمة كل حجر معلّم عليه إشارة العذاب، ونرى أنه شبهت الحجارة التى نزلت متتابعة بالمطر الذى ظنوا فيه غيثا فإذا هو العذاب الاليم.

وأشار سبحانه إلى أن ذلك قريب من مشركى مكة لشركهم وكفرهم وعنادهم للنبي ﷺ، ولذا ختم الله تعالى قصة صالح وثمود بقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ أى أن ذلك ليس يبعد عن كفار مكة، وأنه يترقبهم مثله إن لم يؤمنوا، وأن فى قصص ثمود وعاد وقوم نوح لعبرة لأولى الأبصار.

مدين وشعيب

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ
شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوْمِ
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيطٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشُعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ

نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُونَ أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
 إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ آرَاءَ يَتُمَرِّانِ
 كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
 مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
 وَيَتَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ
 بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
 رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

قال تعالى :

﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا
 الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿وَالِى مَدِينٍ﴾ معطوف على ما قبله من قوم صالح ، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ذكر
 أنه أخوهم لأن الرسول يكون من قومه ، ومن ذؤابتهم ، وفى كلمة ﴿وَالِى
 مَدِينٍ﴾ ، الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف ، أى أرسلنا إلى مدين ، لأن عطف
 النسق يكون على نية تكرار الفاعل .

وقد اتجه شعيب إلى قومه يتاديههم بندااء الرابطة الواصلة بينه وبينهم الدالة
 على المحبة المتبادلة بقوله : ﴿يَا قَوْمِ﴾ ويطلب إليهم الإيمان بوحداية الله التى
 تتجلى فى عبادته وحده : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وكلمة ﴿مَنْ﴾

هنا لاستغراق النفي، أى ما لكم أى إله غيره، أى لا يوصف بالالوهية غيره؛ لأنه الخالق وحده ولأنه واحد فى ذاته وفى صفاته ليس كمثله شىء.

وإذا كان قوم لوط قد اشتهروا بالفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فقد اشتهر آل مدين بالفساد فى البيان والمعاملات والتطيف فى المكيال والميزان، ولذا نهاهم عن التطيف بعد الأمر بعبادة الله وحده فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾.

وعلى الرسول الكريم نهي عن ذلك بقوله: ﴿إِنِّي أَرَأَكُمْ بِخَيْرٍ﴾، أى أراكم فى سعة من العيش وعندكم الرزق الوفير، فلستم فى فقر يسوّل لكم أخذ حق غيركم، بل أنتم فى سعة من الحلال فلا تمدوا أيديكم إلى الحرام، لكن الطمع يغريكم بأخذ حقوق غيركم، وإنه لا يردع من كانوا فى هذه الحال إلا عذاب يوم القيامة الذى يحيط بكم إحاطة الدائرة تنتقلون فيها من عذاب إلى أشد منه هولاً.

وبعد أن نهى عن تطيف الكيل أمر بالوفاء تأكيدا إليه من حسن التعامل .
﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥).

ناداهم عليه السلام نداء المودة والرغبة فى نفعهم فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أى أعطوهما لأصحابهما وافيين غير منقوصين، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أى لا تنقصوهم حقوقهم فإن نقص الحقوق ظلم فى ذاته، وهنا انتقل من الخاص إلى العام، فالنهى عن نقص المكيال والميزان نهى عن نقص فى الكيل والوزن، أما النهى عن بخص الناس أشياءهم نهى عن كل معاملة فيها أكل مال الغير بالباطل، كالربا والغش والتدليس والخيانة والرشوة والسرقة والاغتصاب وغير ذلك من نقص لأموال الناس وأكل لها بالباطل.

وإن التعامل الآثم واستحلال أخذ الأموال بالباطل، وسيادة الفسوق فى المعاملات يؤدى إلى التناحر وتقطيع أواصر المجتمع، ولذا قال معقبا: ﴿وَلَا تَعْتُوا

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ والعتو تنقيص الحقوق واغتصابها، وكل معاملة فاسدة، وقوله تعالى: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال من (الواو) والمعنى أنكم في حال هذه المعاملات الفاسقة تكونون قد تلبس بكم الإفساد لآئه مترتب عليها لا محالة. ثم يقول لهم إن الكسب الحلال الذى يعود لكم من التجارة الرباحة هو أثمن وأبقى فيقول:

﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦).

أى البقية القليلة الحلال التى تفضل لكم من متاجرهم ومعاملاتهم هى خير لكم وأثمن لأرزاقكم وأكثر وفرا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإن الإيمان يولد القناعة ويقطع الطمع، ومصارع الرجال تحت بروق المطامع، ولذا قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ حفيظ يحفظهم من غضب الله وظلمهم أنفسهم.

هذه دعوة شعيب تنزيه للنفس عن الشرك وتنزيه من البخس والظلم والطمع فماذا كانت إجابة قومه؟! .

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧).

استنكروا دعوته فى العبادة وفى إصلاح المعاملات، ولما كان كثير الصلاة والضراعة قالوا ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ أى تدفعك لأن تدعونا إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأوثان، كما يستنكرون دعوته لإصلاح معاملاتهم، وذلك من مبادئ الأخلاق الكريمة.

ثم يقولون: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، قال بعض المفسرين إن قولهم هذا كان تهكما عليه، كأنهم يقولون أنحسب نفسك العاقل الرشيد المدرك وحدك وما أنت كذلك.

وإنى أرى أنهم قالوا ذلك قاصدين معناه على إدراكهم، ولذا أكدوه بـ (إن) بأن، وباللام، وأنت، و﴿الْحَلِيمُ﴾: العاقل المدرك، و﴿الرَّشِيدُ﴾ الذى يدبر أموره على حكم العقل.

وكانهم يقولون إن مقتضى ما أنت عليه من العقل والرشد والإدراك كان يوجب عليك ألا تنهانا عن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا وأن تتركنا على ما ألفنا، وألا تصدر أموالنا أو تنهانا عن طرقنا التي تدر علينا الربح الوفير والخير الكثير، وذلك أشد ما تقع فيه النفس من فساد والعقل من الأهواء، إذ يحسبون الدعوة إلى الخير مما لا يليق، ويعاود نبي الله إرشادهم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨).

بعد أن قالوا للنبي كما فهمنا، إن ما أنت عليه من عقل ورشد يمنعك من دعوتنا إلى ترك ما عليه آباؤنا، وإلى منع متاجرتنا، ومكاسبنا، يقول لهم مؤكداً أموراً ثلاثة:

الأمر الأول: أنه على بينة من ربه، وإنه مبعوث لهذه الدعوة، ولذا يقول متنبهاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ وفي قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تنبيه الاستفهام فيه للتقرير وإثارة الانتباه الشديد، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ (إن) هنا مخففة من نون التوكيد، أي أنه الأمر، والثاني ﴿كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي بيان برسالتي من ربي الذي خلقني ورباني وقام على شئون الوجود.

الأمر الثاني: أن الله رزقه رزقاً حسناً طيباً لا ظلم ولا تطفيف ولا تدليس ولا بخساً للناس بغير حق وأريد منكم رزقاً، ولكن أريده رزقاً حلالاً طيباً، وفي ذلك دعوة إلى القدوة به.

الأمر الثالث: إنه يطبق على نفسه ما يدعوهم إليه فيقول: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾، أي أن أقصد ما نهيتكم عنه وأنتم مولون، أي إني أبتدئ بالأخذ بالنهاي في الأمور التي نهيتكم فلا أنهاكم وأفعل ما أنهاكم عنه، وذلك ليتخذوا منه قدوة طيبة، ولا أخالفكم أي لا أقصد خلفكم إلى ما نهيتكم،

ثم بين أن ما يدعوهم إليه هو الخير الذي فيه صلاحهم في دنياهم وآخرتهم وإصلاح نفوسهم وجماعتهم، فقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ «إن» هنا هي النافية أى ما أريد إلا إصلاحكم فى نفوسكم على قدر استطاعتى ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾، و(ما) هنا شرطية، أريد الإصلاح إذا استطعته، وما دمت أستطيعه، أو مصدرية منسبكة مع ما بعدها فى مصدر أى: إني أريد الإصلاح استطاعتى ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾، أى الله وحده هو الذى يوصلنى إلى الغاية، ويحققها ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى توكلت عليه وحده، ولا أتوكل وأعتمد إلا عليه، ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى إليه وحده أرجع، وهو الذى يجزىنى على الخير، وفى هذه العبارات الثلاث، تأكيد إرادة إصلاح النفس والجماعة، وتأكيد الاعتماد على الله فى النتائج، وتأكيد الرجوع إليه سبحانه.

وقد رأى نبي الله شعيب أنهم شاقوه وصاروا فى جانب، وهو فى جانب، فقدر أن هذه المجانبة إلى العصيان، وأن يصيبهم نتيجة شقاقهم أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ولوط، ولذا قال شفيقا عليهم رفيقا بهم، ﴿وَيَا قَوْمُ﴾ ناداهم المحب الرفيق، ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وهذا الكلام فيه تنبيه إلى سوء العاقبة، وبين أيديهم العبر من غيرهم، وهى تستقبلهم فى عاقبة أمرهم ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم المشاقة والمعاندة على استمراركم فى العصيان فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من غرق، وما أصاب قوم هود من ريح صرصر عاتية، وما أصاب قوم صالح من صيحة تتبعها رجفة، وما أصاب قوم لوط، وقال فى هذا ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾، بل إن أرضهم تصاقب أرضكم.

وإن شعيبا نبي الله تعالى رفيق بقومه، يذرهم، ثم يفتح باب التوبة ليدنوا منه، ولا يجافوه، فيقول :

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠) يطلب إليهم أن يستغفروا ربهم، بأن يطلبوا مغفرته عما ارتكبوا ويرتكبون من شرك، وسوء في المعاملات، وعسى الله أن يغفر لهم، ثم يتوبوا إليه، أى يرجعوا إليه بعد أن بعدوا، وكانت التوبة بعيدة عن الاستغفار، وكذا عطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على عظم ما ارتكبوا، وقبح ما فعلوا، ولكن الله تعالى يغفر، وقد كلل بقوله التوبة، ومغفرته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أى إنه بسبب رحمته بخلقه، وقربه منهم بالمودة يغفر لهم، ويقبل توبتهم، فيبين شعيب الرفيق باب الرجوع إليه، ويعرفهم أنه قريب من عباده، قبل أن ينزل بهم عقاب يوم شديد.

لم تنفع العظا، ولم يبق إلا العقاب

قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مَن
اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ
كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الْآبَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

بعد هذه العبارات القوية فى معناها ومراها، الرقيقة فى مبنائها قالوا متحدّين شعيباً ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أى ما ندرك كثيرا من قولك إدراك فهم، وما ذكروا ذلك ليزدادوا فهما، بل ذكروه مستنكرين لما يريد مستهينين به، وهو يتضمن رفضا لقوله، وإنكاراً لدعوته إلى التوحيد، وحسن المعاملة، والقيام بالعدل فيها وإعطاء كل ذى حق حقه، وكأن المعاملة بالبخس حق لهم، ولذا قالوا متحدّين أيضا مهديّين: ﴿وَأَنَا لَنَرَكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أكدوا أنهم يرونه ضعيفا لا يمتنع عليهم إذا أرادوه بسوء، ولولا جماعتك، أو عصبتك الذين يوالوننا، ولا نريد أن نغاضبهم لرجمناك، أى لقتلناك شر قتلة، وهى القتل رميا بالحجارة حتى تموت: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى بممتنع علينا، إن أردناك بسوء، أو أردنا رجلك، ونفوا أنه عزيز عليهم أشد النفي، فأكدوه، بالخطاب وتكراره، وبالباء، ويتقديم ﴿عَلَيْنَا﴾، وذلك اغترار بقوتهم، وسطوتهم، وتأكيد بأنه فى قبضة أيديهم.

ويرد الخليم الرشيد شعيب غير عابئ بتهديدهم معتمدا على ربه، معترزا بعزته: ﴿أَرَهْطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وفيه تهكم بهم وبغرورهم، والمعنى ليس رهطى أعز عليكم من الله، وإن زعمتم ذلك فأنتم فى غرور، وانخداع بأنفسكم، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أى نسيتم الله ذا العزة والجلال، وحسبتم أن رهطى أعز عليكم من الله، وجعلتم رب العزة والجلالة وراءكم ظهريا وهذا تعبير لمن يطرح الأمر الجدير بالاعتبار وراء تفكيره، فشبه فعله بفعل من يرمى الأمر وراء ظهره، بحيث لا يراه، وقد هددهم بأن الله مانعه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى عالم علم إحاطة وشمول لا يخفى عليه شئ من أفعالكم، وما تريدون برسوله إليكم، وإنه لمحيط بكم، وعبر بربى للإشارة بأنه حاميه منهم، لأنه هو الذى أنشأه وربّه ويحميه ويحرسه.

ويسترسل النبي الهادى فى إرشادهم، فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على ما تتمكنون من عمله، لتكون نتيجة لكم أو عليكم وإنى عامل ما يمكننى الله تعالى منه، وما أرسلنى به، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (سوف) لتأكيد الوقوع ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ فى الدنيا ﴿يُخْزِيهِ﴾ ينزل به، فيجعله فى أسفل السافلين، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ فى قوله، وفى دعوته، فتبين حينذاك خزيكم وكذبكم، كما يتبين صدق قولى فيما دعوتكم إليه، وفى إنذاركم.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ارتقبوا ما يستقبلكم، وإنى معكم رقيب متتبع متوقع صدق ما أنذر الله ربى وربكم نزل العذاب بهم بأمر الله تعالى فى ميقاته، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى ما قدرناه لهم عقاباً فى الدنيا، وكانوا يستعجلون به ثم ذكر سبحانه وتعالى أمره بعد أن نجي شعباً والذين آمنوا برحمة من الله، وكانت رحمته فى أن هداهم إلى الإيمان وأن أبعدهم عن العذاب، وفى أنه يستقبلهم النعيم المقيم يوم القيامة.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ وأظهر فى موضع الإضمار لبيان أن ما أنزل بهم من العذاب سببه الظلم بالشرك والظلم بنقص المكيال والميزان، والظلم بمنع الناس حقوقهم، وبخسهم حظوظهم.

والصيحة تبعثها رجفة فى الأرض ماتوا بها، ولذا قال ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أى ميتين. وجاثمون ملازمون أماكنهم لا يستطيعون حراكاً؛ لأن الموت الداهم أفقدهم الحركة.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾: كأن لم يقيموا فيها إقامة مستمتعين بمغانيها، وهذا يشير إلى أن متعة الدنيا إلى وقتنا هذا لا بقاء منها لشيء، ويقول سبحانه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدَيْنٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ أى ألا بعداً وطرداً من رحمة الله تعالى، وهلاكاً لمدين، كما بعدت ثمود وهلكت.

موجز قصة موسى وفرعون

قال تعالى:

وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيهِ فَاَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
الْمُورُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ
الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

قلنا إن قصص القرآن لا مكرر فيه، وإن كان يبدو ظاهر الأمر أن فيه تكرار؛ لأن الذكر يكون على قدر العبرة.

وهنا في هذا الموضع يذكر أحوال الأمم الذين يبعث النبيون إليهم، ولذا ذكر قوم فرعون، وما حل بهم من اتباعهم فرعون، ولم يفصل الآيات المتوالية التي كانت تجري على يدى موسى آية بعد آية، وهم لم يرتدعوا حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق كما ذكر سبحانه ذلك في سورة الأعراف، وكما ذكر حال فرعون وقد أصابه الغرق، وآمن فى آخر رمق فى حياته إيماناً لا يقبله الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ أكد الله تعالى إرسال موسى وأكد إرساله بالآيات البينات بحجة ظاهرة قاهرة، وسماها سلطاناً مبيناً، أى بيناً، وتسمية الحجة سلطاناً؛ لأنها تجعل لصاحبها سلطاناً غالباً من الاحتجاج ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى من يحيطون به، ويشاركونه فيما يفعل، ثم وصف سبحانه حال ملاً فرعون، وهو وصف عميق لآل فرعون، ولأهل مصر،

فقال: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أى اتبعوه مطلقا، وكذلك حال مصر تتبع من يحكمها دائما سواء أكان عدلا أم كان ظلما، وسواء أكان رشدا أم ضلالا، فهم أتباع لا استقلال لهم، ولذا وصفهم العربى عمرو بن العاص: «هم لمن غلب» ولأنهم له تبع يكونون يوم القيامة وراءه، فكما اتبعوه فى الدنيا عن غير إدراك، بل لأنه فرعون - قال فيهم يوم القيامة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨) والورد هو الذى يرده الناس لتبريد أجسامهم، ونقع غلتهم وترطيب أكبادهم، وسميت النار به تهكما بحالهم، إذ يردونها، فيجدون النار المتأججة بدل الماء الفرات.

وأنهم بهذه التبعية للطاغوت: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩) وألقوا فى هذه الدنيا لعنة طردوا فيها من العزة والكرامة ونزل بهم الهوان والذل والمقت، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ﴾ أى العون الذى يعين به الرافد من يعينه، ﴿الْمَرْفُودُ﴾ أى المعان، أى أن فرعون ومن اتبعه، وكل المصرين الذين اتبعوه، يتعاونون فى تبادل إرفاد النار، يعين كل منهم الآخر، فهو يعينهم، وهم يعينونه، وهذا تصوير لحالهم، إذ تعاونوا على الظلم والذل والإذلال فى الحياة، فتعاونوا على المقت وإرفاد النار بعد الوفاة.

العبرة فيما قص الله تعالى هنا

قال تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ

أَلَيْمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
 نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ
 إِلَّا بِذِيهِ ۖ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَوْنَ
 النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلْدَيْنَ فِيهَا مَادَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
 ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيَنُفَخُونَ فِي الْجَنَّةِ خَلْدَيْنَ فِيهَا مَادَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءٌ غَيْرٌ مُّجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾
 فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
 آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ۖ نَصِيبُهُم غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

بعد أن ساق القرآن الكريم ذلك القصص الصادق الواعظ أو ذكر بعض ما
 فيه من عبر، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾
 ﴿١٠٠﴾ الإشارة إلى السابق من قصة نوح وقومه، وعاد وهود وثمود، وصالح،
 ومدين وشعيب، وطغيان فرعون، أى هذا القصص الحكيم ﴿مِنْ أَنْبَاءِ﴾ أخبار
 القرى، أى المدن التى يتحرك إليها الناس، ويجتمعون فيها، كقريتك التى تدعو
 إلى التوحيد فى وسط الشرك فيها، وإن هذه القرى عرفناك أنباءها، كيف أشركت
 وعاندت وكابرت، ثم أخذها الله أخذ عزيز مقتدر يجدون آثار ما أنزل الله بها،
 ورسوم بعضها تنادى ببيان ما حل بها. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قائم مثله كمثل العود
 من الزرع إذا صار حطاماً، وجف ماء الحياة فيه، ومنها ما هو محصود كالزرع
 المحصود الذى قطع قائمه، وبقي بعض جذوره، وهذا يدل على ما نزل بهؤلاء.

وفى ذلك عبرة للذين يطغون، ويعاندون، ويؤذونك وصحبك ويستهزئون بكم ويسخرون من آيات الله فيهم، ومعجزته التى تتلى عليهم.

إن ما نزل بهم هو بسبب ظلمهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أى أن ما نزل بهم لم يكن ظلما، بل كان عدلا؛ لأنه لا يستوى المحسن والمسيء، والأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، فهو جزاء عمل، وجزاء العمل من جنسه، ولكن ظلموا أنفسهم بإضلالهم بالشرك، وانسياقهم فى طريق الفساد، ومعاندتها للحق واضطهادها لأهلهم، وإشاعتها للضلال، وخضوعها للأوهام بدل العقل المدرك المستقيم.

وإنهم إذا تردوا فى هذا الهلاك الذى نزل بهم منعوا لاستمرار فسادهم، وطغيانهم، ومحاربتهم - بدا لهم عيانا بيانا أن الآلهة التى اتخذوها من الحجارة أو غيرها، لا تدفع عنهم ضرا، ولا تجلب لهم نفعا، ولا تحميهم مما نزل بهم، ولذا قال تعالى حكيمته: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا لاستغراق النفى، أى ما أغنت عنهم الآلهة التى زعموها مضادة لله تعالى أى شىء من الغناء.

وأضاف كلمة آلهة إليهم، لبيان أنها ليست آلهة فى ذاتها، وهى عاجزة كل العجز، إنما هى آلهة فى زعمهم، وأوهامهم التى أضلتهم، وسارت فى ضلال بعيد.

إن هذه الآلهة أخزتهم، ولم تُفدِهم؛ لأنهم ساروا فى الضلال إلى أقصى الغاية بل إنهم ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالإهلاك، وهو خالقكم والقائم على وجودكم لم يستطيعوا دفعا للضرر، ولا جلبا لنفع ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ التباب الهلاك والتتبيب الإهلاك الشديد الذى يتضاعف فى ذاته، أى ما زادوكم إلا هلاكا متضاعفا، والهلاك ليس زيادة فى ذاته وإنما الزيادة هى زيادة الضرر.

والتعبير بضمير جمع العقلاء، وليست الحجارة عاقلة إنما هو تهكم بهم،
وينظرهم الذى يعبد حجارة، ويرجو نفعها، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ تَنْبِيْهِ﴾ أى
هلاك متضاعف متكرر.

وإن الله تعالى قدر العذاب وأنزله فكيف تزيد الحجارة فيما قدر الله وهى لا
تملك من الأمر شيئاً؟ والجواب عن ذلك أنه تصوير لحالهم مع هذه الحجارة، إذ
إنهم استمروا فى عبادتها لا ينون بل يجادلون، ويعاندون حتى جاءهم العذاب
الآليم، وكلما زادوا عنادا كان العذاب على قدره، وعنادهم المتزايد، وعقابهم عليه
المتضاعف، كله فى تقدير الله العزيز الحكيم، والله حكيم عليم.

وإن هذا سنة الله تعالى فى خلقه العصاة، ولذا قال تعالت كلماته:
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٧).

التشبيه فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ هو
تشبيه حال القرى القائمة الظالمة فى توقع عذاب الله لها بحال الذين أخذوا من قبل
كغرق قوم نوح، وكالرجفة التى أخذت ثمود ومدين، وكالريح الصرصر الذى
أخذ من قبل عاد كهذا الأخذ الذى أخذ به السابقون، يؤخذ القائمون فى عصر
النبي ﷺ، وإن ذلك الماضى إنذار للحاضرين من القرى الظالمة كالمشركين فى
مكة الذى يتحدثون الله ورسوله، ويحسبون أنهم الغالبون، والله تعالى غالب على
أمره، وقد قرر بعد ذلك شدة عذابه فى أخذه لهم من حيث لا يحتسبون، فقال
عز من قائل: ﴿إِنْ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أى إن أخذه المفاجئ الذى لا يرتقبونه فوق
ما فيه من ألم المفاجأة، وهم يرتعون ويلعبون هو فى ذاته مؤلم موجه، وشديد فى
إيلامه وفى حاله، وحالهم معه، كانوا ينتظرون مطرا يمطرهم، فإذا هو ريح فيها
عذاب أليم.

وإن ذلك إنذار كما ذكرنا للمشركين، حتى يرجعوا عن غيهم، وإن الله إذا
كان قد أخر عنهم العذاب، لأجل محدود، فإنهم ليسوا غالبيين، وإنه سبحانه

جاعل العذاب من نوع آخر، يستبقى الأطهار ولا يتأصل الأشرار لأنه يكون من أصلابهم من يعبد الله ويجاهد في سبيله، ألم يجعل من أصلابهم قادة مجاهدين، فكان من أصلابهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، وغيرهما من القادة المجاهدين.

ووصف أخذ القرى بأنه يأخذها وهي متلبسة بظلمها، تحمل في نفسها موجب عذابها.

وإن هذه الإنذارات يتعظ بها ويتزجر من يؤمن بالآخرة، ويخاف مقام الله فيها، ولذا قال:

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾

الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ للمذكور من أنباء قوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب الآية، أى لدلالة واضحة على قدرة الله تعالى، وإن خوارق العادات فيها دلالة على إرادة الخالق، وأنه فاعل مختار، وأنه قادر على الإعادة كما بدأ الخلق، وأن قدرته ليست بقدرة البشر، وإنها ليست مرتبطة بالأسباب والمسببات كالعباد بل فوق كل شيء، وأنه خالق الأسباب والمسببات، ولكن لا يدرك هذه الآية إلا من سلمت نفسه من آفات الشك والشرك، وآمن باليوم الآخر، ولم تكن الحياة الدنيا خلب كبده^(١)، وكل شيء في حياته، ولذا قال: ﴿لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ومن يخاف الآخرة يؤمن باليوم الآخر وأن بعد هذه الحياة الدنيا حياة آخرة هى الحياة الحقيقية التى يكون فيها البقاء، ويؤمن ثانياً بأن الحياة الآخرة فيها العذاب فيخافه؛ لأنه محاسب على ما قدمت يده.

وليس المراد أن هذه آية فقط لهؤلاء الذين يؤمنون باليوم الآخر، ويوم الحساب، ولكن المراد أن الذين يدركون هذه الآية من استقامت نفسه، وعقله وقلبه

(١) والخَلْبُ، بالكسر: لُحِيْمَةٌ رقيقة تصل بين الأضلاع، أو الكبد، أو رياتها، أو حجابها، أو شيء أبيض رقيق لازق بها. القاموس المحيط - فصل الحاء.

هم الذين امتلأت قلوبهم إيماناً باليوم الآخر، وأن الإنسان لم يخلق سدى، وأن عمله لا يذهب هباءً منثوراً، بل يوم الحساب يترقبه، وهو يخاف، أما الذين ران على قلوبهم هذه المادية الغاشمة فليسوا من هذه الآية فى شىء.

وقد وصف الله بعد ذلك اليوم، فذكر أنه يوم الحشر، وقال فيه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أى أن الناس جميعاً مجموعون له فى أول خلق آدم إلى يوم القيامة، وذلك يوم مشهود يشهد فيه الناس جميعاً، وهو مُعَلَّمٌ معروف لأهل المعرفة، وهو مشهود بما فيه من أحداث وحساب وعقاب، وبما ينزل فيه الملائكة صفاً، وبما يتجلى فيه رب البرية ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاْفِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

وإن ذلك اليوم لآت لا محالة وإن تأخر فلأجل معدود ولذا قال تعالى : ﴿وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُوْدٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أى أجل معدود فى علم الله لا يتأخر، ولا يتقدم، بل معدود بالسنين والأشهر، والشىء المعدود لا يقبل الزيادة ولا النقص، وإذا كان معدوداً فإنه آت لا محالة، فلا يتقدم لاستعجال أحد، ولا يتأخر لإرادة التأخير، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

ثم قال تعالى فى يوم مجيئه فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ هنا قراءتان: القراءة الأولى: أن الباء غير محذوفة وهو الأصل: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

والقراءة الثانية: حذف اجتزاء بدلالة الكسرة عليها، كأنها مقدرة فى الكلام، تخفيفاً وتيسيراً، والقراءتان مشهورتان، وإن حذف الباء موجود فى لغة هذيل، وهى من أفصح العرب، فيقال لا أدر من غير عامل يعجزم الفعل ويحذف الباء، ويقول الزجاج: إن هذه قراءة، والذى أراه اتباع المصحف، وإجماع القراء لأن القراءة سنة متبعة.

ولا يقال ما قاله الجهلاء إن القرآن خالف النحو، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: إن الكسر إنباء عن وجود الباء وإن لم ينطق بها ليكون ذلك خفيفا على اللسان، ووافق لغة من لغات العرب الفصيحة.

الأمر الثاني: أن النحو تشتق قوته من القرآن، والقرآن فوقه.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ تكلم فعل مضارع حذف فيه التاء، وأصله لا تتكلم نفس إلا بإذنه. والضمير يعود على الله تعالى ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، لأنه حاضر في العقول والنفوس والقلوب، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ [المرسلات].

وكونهم لا يتكلمون إلا بإذنه لكيلا يقولوا إلا صوابا كما قال تعالى: ﴿...لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) [النبأ].

ففي هذا اليوم يكون الإقرار بالذنوب من غير ممارسة، بل يقرون بالحق؛ لأن هذا يوم الصدق، وإن الكلام في هذا اليوم بالإقرار الصادق، أما أن يكون فيه شقيا لما ارتكب وإما أن يكون سعيدا، ولذا قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فمن الجمع المجموع شقي بما ارتكب في النار، وإما سعيد لم يرتكب إثما، فيكون في الجنة، وقد فصل القول سبحانه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) الشهيق النفس في الصدر، والزفير إخراجها وقيل العكس، (أما) للتفضيل والبيان لما يثول إليه أمر الشقي، وما يثول إليه أمر السعيد، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَفِي النَّارِ﴾ أى الذين شقوا بأعمالهم في الدنيا، وتسجيلها عليهم بإقرارهم في الآخرة، ﴿فَفِي النَّارِ﴾ أى أن مآلهم النار يدخلونها، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، أى يدخلونها فى صدورهم بشهيقهم، ويخرجون منها نارا بزفيرهم، فالنار تكوى جلودهم، وتدخل إلى أحشائهم، يتلظون بها فى أبدانهم ظاهرا وباطنا، داخلا وخارجا.

وقد سجل الله تعالى خلودهم فيها، فقال تعالى كلماته: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ جريا على استعمال العرب في تأكيد دوام الحكم بأمر من الأمور، فيقولون في بيان دوام العقد: ما بلّ بحر صوفة، كما قالوا في عقد حلف الفضول، ومقتضى هذا التعبير أنه يجب أن تبقى السموات والأرض لكي تدوم النار، وإن قيل في هذا الدليل على فنائها مع فناء ما يكون فيها.

ولا دليل على أن النار فانية، ولها نهاية، وكذلك الجنة لوجود هذا التعبير؛ لأن التعبير بقول ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ جاء في آيات الكتاب الحكيم مطلقا غير مقيد ببقاء السموات والأرض، ويعرف ذلك ما يفهم بطريق مفهوم المخالفة لا يعارض النص بإجماع علماء الأصول، وإن الخلود في النار ثابت بثبوت الخلود في الجنة ونحن في جميع الأحوال خاضعون لإرادة الله تعالى ومشيتته في الدنيا والآخرة.

ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وقد ذكر هذا النص الكريم هنا، في أهل الجنة، وقد جاءت آثار في معناه نختار بالذكر منها ثلاثة:

القول الأول: ما ذكره بعض التابعين، وحكاه الزمخشري من أن الاستثناء هو من الخلود في النار، أو من أصل دخولها، والمستثنون هم فسقة أمة محمد، وغيرهم ممن يؤمنون بالله، وكان منهم عصيان، فإنهم يدخلون النار على مقدار معاصيهم، ويشاء الله أن يخرجوا فيخرجون، أو أن تنفعهم شفاعة الشافعين، على رأى جمهور العلماء.

وإن هذا القول قد يستقيم بالنسبة للذين شقوا، ولكنه لا يستقيم في الذين سعدوا.

والقول الثانى: أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فيها بيان أن العذاب والعقاب متعلق بمشيئته فهو الفاعل المختار، والأمر في ذلك متعلق بمشيئته هو فى العدل والرحمة، فليس يحتم عليه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾

[الأنبياء]، فإذا كان قد أدخل الكفار النار فبمشيئته، وإذا كان قد أعطى المؤمنين الأتقياء جنة، فبرحمته ومشيئته، وعطائه، ولذا قال بعد ذلك ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾: وهذا القول مستقيم نختاره، ونذكر القول الثالث، ونراه معقولا في الجملة ولا نرده:

القول الثالث: أن هذا ذكر للاستثناء في مقام الفعل، أخذ به الله في حقه ليندب خلقه إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... (٢٤)﴾ [الكهف].

وإذا كنا لم نختر هذا القول، بل اخترنا الثاني فإننا لا نقول: إنه قول باطل، وإنما اختيارنا للثاني لأنه صحيح في ذاته، ويرشح له قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فهذا النص السامى يثبت أن إرادة الله مطلقة في كل ما يعطى، وكل ما يمنع.

وقوله تعالى إلا ما شاء الله: التعبير بـ (ما) دون (مَنْ) لأن معناها أنه إلا أن يشاء الله هذا ما ينال الذين شقوا من عذاب، أما ما يناله الذين سعدوا، فقد بينه بقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ (١٠٨)﴾، ﴿سَعَدُوا﴾ بالبناء للمفعول، لأن الفاعل معلوم، وهو الله تعالى، فالمعنى سعدهم الله، فسعدوا، وقد سعدوا، لأنهم اهتموا إلى الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وسعدوا لأنهم دخلوا الجنة على وجه الدوام في الآخرة، وسعدوا لأن نالوا رضوان الله في الدنيا والآخرة، ولأنهم يوم القيامة، يتجلى عليهم ربهم فتنضر وجوههم وتنظر أعينهم، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة].

وذكر سبحانه نيلهم الجنة، فيقول: ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ﴾ مقيمون على وجه الخلود، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وقد ذكرنا أن هذا ليس تقييدا لإرادة الله

بقاء السموات والأرض، وإنما إرادته مطلقة وإنما كان هذا التعبير تأكيداً لمعنى الخلود، على مجرى عبارات العرب فى تأكيدهم للبقاء بأمر ظاهر البقاء عادة.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ذكرنا ما قيل فيه، وقلنا إن المختار عندنا إنه بيان لمشيئة الله التى لا يقيدها شئ فلا حتم عليه، وإذا كان قوله فى أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يؤيد معنى المشيئة، فقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾، يؤيد المشيئة المطلقة هنا؛ لأن العطاء لا إلزام فيه، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾ ومعناه غير مقطوع بل هو دائم، والله أعلم.

وإذا كانت هذه الأقوام الماضية قد نزل بها ما نزل، وإن المشركين لا يترقبون مثلها، فتأس بالأنبياء من قبلك، واصبر كما صبروا، ولذا قال تعالى:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُوهُمْ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)﴾.

(الفاء) تصل الكلام بما قبله، وهو مترتب على القصص السابقة والجزاء الذى أعدّه الله تعالى للأشقياء والسعداء، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر مؤداه إذا كان ما علمت من قصص لعبدة الأوثان وأنبيائهم، وما نزل بالمشركين، فلا تك فى شك من بطلان ما يعبد هؤلاء، وأصلها تكن، وحذفها كثير فى القرآن الكريم، وهو يعطى اللفظ جمالا فى النسق والنغم وحلاوة فى اللفظ، وتلك خصائص القرآن الكريم، وقوله: ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أى شك يدفع إلى المراء، والمجادلة، والنهى هنا والحال أن ذلك لا يتصور منه، فهو بالنسبة له ﷺ أمر غير متصور الوقوع منه ﷺ وللنهى فائدتان:

الفائدة الأولى: أنه نهى لمن يقرأون القرآن، فهو نهى فى ظاهره للنبي ﷺ، وفى حقيقته لكل أتباع محمد، وكل من يخاطبون بالقرآن، وهو اقتلاع جذور الشك من النفس.

الفائدة الثانية: أن النهى لإفادة البطلان بدليله، فإن ما سبق فيه أدلة بطلان الشرك، وأنه معاقب عليه، وأن عاقبته العقاب الصارم الذى يجتث الأمم.

ومن أحسن ما قرأت فى تأويل ذلك أن مؤدى النهى هو أمر النبى ﷺ عليه بأن يقول لكل من يخاطبه ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ وإن كان اللفظ لا يساعد فى ظاهره ذلك، فهو متناه، يؤدى إليه قوله تعالى ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾، والإشارة إلى المشركين، أى قل لقومك لا تكونوا فى مرأ مما يعبد هؤلاء من أوثان، فإنهم لم يفكروا فيه، ولم يتجهوا فيه إلى منطق عقلى أو صلهم إليه، ولكنهم ألغوا عقولهم اتباعاً لأبائهم ولذا قال تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أى أنهم مقلدون، وليسوا بمفكرين ولا بمهتدين ولذا كانوا يقولون لأنبيائهم: ﴿... أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ...﴾ (٢٢) وكان مشركو مكة يقولون: ﴿... وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣) [الزخرف] وكانوا يقولون: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٧٠) [البقرة].

وهكذا، وذكر سبحانه اتباعهم لأبائهم، بل لبيان أنهم لا يفكرون، وهم مؤاخذون لكفرهم، وإلهمال الآيات الدالة على الوحداية، وللمعجزة الدالة على رسالة محمد ﷺ، وهى معجزة القرآن الكريم.

ولهذا قال تعالى فى بيان جزائهم: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

ذكر بعض المفسرين أن المراد نصيهم فى الدنيا من رزق، ويكون المعنى لا يغرنك تقلبهم فى البلاد وما أوتوا من ثروة، وجاه، فإنه لا يدل على أنهم على حق، فإن رزق الدنيا منوط بأسبابه، وإن الله يعطيهم أرزاق الدنيا غير منقوصة، فالنصيب هنا هو الرزق الدنيوى.

وأما الرأى الثانى أن المراد نصيهم من العذاب، والقرينة تعينه، لأن الكلام عن عذاب الذين عاندوا النبيين، وصادموا دعواتهم، وسخروا منها. وقوله تعالى ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حال مؤكدة لمعنى الوفاء فى كل الأقوال، ولعل خير الأقوال ما يشمل النصيبين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الاختلاف في الحق

قال تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ
 ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِينَهُمُ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 فَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
 لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ
 اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ
 ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

كانت التسليية في قصص الأنبياء الذين بعثوا في أرض العرب، وللعرب، ولم تذكر لهم كتب، وقد ذكر بعد ذلك موسى وقد جاء بكتاب يصدقه القرآن، وفيه بشرى بمحمد ﷺ، فأشار سبحانه إلى قصة موسى بطرف من القول فقال تعالت كلماته:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أكد الله نزول الكتاب على موسى بـ (اللام) و(قد)، وأضاف سبحانه الإتياء إليه، وكان فيه آيات بينات، وعظات، وأحكام زاجرة، ولم يترتب على

إيتاء موسى عليه السلام الإيمان به، وقد أنقذهم من ظلم فرعون الذي كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، ورأوا تسع آيات حسية ملزمة، ورأوا آيات الله تعالى فيهم ونعمه ظاهرة وباطنة تفيض عليهم، مع كل هذا لم يذعنوا لما جاء به من شرائع بل اختلفوا فيه، فإذا كانوا قد اختلفوا في شأنه ما بين مدعن ومؤول ومخالف، فكيف تنتظر يا محمد من قوم أميين أن يذعنوا بمجرد النزول.

و(الفاء) في قوله: ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ للعطف والترتيب من غير تراخ، وكأنه ترتب على إيتاء الله تعالى موسى الكتاب الاختلاف، وهذا يدل على أن الاختلاف ليس ناشئاً من ذلك الكتاب، بل هو ناشئ من فساد النفوس وإذا فسدت النفوس لا يقنعها الدليل، ولا يهديها البرهان مهما يكن حاسماً.

وقد افترق اليهود على فرق شتى حول التوراة ما بين ربانيين وقراءين، وصدوقيين لا يؤمنون باليوم الآخر.

ويبدو من فرقهم أن الاختلاف في شأن الكتاب كان في فهمه، حتى ضلوا وحرفوا الكلم عن موضعه، وأتوا بكتاب لم يُنزل على موسى، وقالوا إنه من الكتاب، وليس منه في شيء.

ولقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا أن الله تعالى يمهل الظالمين إلى يوم يبعثون، ويتركهم يتجادلون، ليزيد ابتلاؤهم لقضى بينهم في هذا الاختلاف وبين الحق الذي لا يحتر فيه أحد، ولكنه تركهم يتعرفونه؛ لأنه خلقهم ذوى مدارك، ومع كل نفس فجورها وتقواها.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ الشك معناه التظن في الحق، وقد بدت دلالة، والريب هو نتيجة هذا التظن، والضمير في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ يعود إلى المشركين كما يقول أكثر المفسرين، والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى القرآن.

ولكن لم يكن ذكر للمشركين، ولم يكن ذكر هنا للقرآن، وإن إعادة الضمير إليهم، وإلى كتاب الله تعالى لا يأتي بفائدة جديدة، وأرى أن الضمير يعود إلى قوم موسى الذي أوتى التوراة، ويكون الريب بسبب اختلافهم، فإن الاختلاف يحدث الشك، والجدل ذريعة الريب، والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعود حيثنذ إلى مذكورين في القول غير مطوين، وكذلك الضمير في ﴿مِنْهُ﴾.

وإن في ذلك لعبرة من ناحيتين:

الأولى: تسلية النبي ﷺ.

والثانية: بيان أن الاختلاف والجدل تبيع فيهما الحقائق، ويحل محلها الشك والريب، اللهم هنا الوفاق، وجنبنا الشقاق، وقد أكد الله تعالى شك القوم بأن وباللام وبالجملة الاسمية.

ويقول في جزاء السابقين واللاحقين:

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقْهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١﴾.

- هنا قراءتان إحداهما ب (أَنْ) الثقيلة، والثانية ب (إِنْ) الخفيفة^(١)، والتنوين في ﴿كَلَّا﴾ نائب عن المضاف إليه، أي إنهم جميعا ليوفينهم ربك أعمالهم، وهذا يتضمن مآل الماضين والسابقين على محمد ﷺ وإنذار الذين يعادونه، ويؤذون أصحابه ويسخرون منهم، فالمعنى إذن، وإن كلا من الفريقين لما سيوفيههم ربك أعمالهم.

اللامان لتوكيد القول؛ الأولى واقعة في خبر (إِنْ)، والثانية موطئة للقسم أو العكس، ولا تغيير في المعنى بأى التقديرين، وكانت (ما) فاصلة بينهما لكيلا يثقل النطق بلامين وهي مع ذلك دالة على تأكيد ما تدل عليه اللام الأولى.

(١) قراءة (وإن كلا) بإسكان النون، قراءة مكى ونافع، وأبو بكر والمفضل، وابن بشار عن علي. وقرأ الباقون بتشديد النون. غاية الاختصار (١٠٢١).

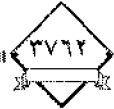
وقول ﴿لِيُوقِنَهُمْ﴾ فيه تأكيد للوفاء، وهو القسم فكأنه تأكد الكلام باللامين، وبالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وأكد أيضا بالتعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾ أى الذى خلقك، وخلقهم، وقام على هذا الوجود، وإذا كان هذا الخالق الحى القيوم هو الذى يعد بالتوقيه، فإنها واقعة لا محالة.

وقوله ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾، أى جزاء أعمالهم، ولكنه سبحانه حذف الجزاء، وأضاف الجزاء إلى الأعمال للإشارة إلى أن الجزاء وفاق العمل، فكأنهما شئ واحد، إذ يكون عادلا تمام العدل، يوم تجد كل نفس عملها محضرا، وإن العدل الحقيقى يقتضى المساواة بين العمل والجزاء، ويقتضى العلم، وقد أشار إلى العدل بالمساواة بين الجزاء والعمل حتى كأنه هو، وصرح بالثانى فى قوله ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الضمير يعود إلى الله الذى تذكره القلوب، ولا تنساه، و﴿خَبِيرٌ﴾ معناه، عالم علما دقيقا لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، يعلم ما تكسبه الجوارح، وما يجول فى الأفئدة. إنه سميع بصير.

﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢).

﴿فَاسْتَقِمَّ﴾ السين والتاء للطلب، أى اطلب إقامة الدين، وحفظ جوارحك الظاهرة والباطنة فى دائرة القيام به، وإدراك غاياته ومراميه، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾ الكاف للتشبيه والمعنى اجعل أعمالك ومرام نفسك وقلبك كما أمرت أى كما أنزل الله تعالى، وبنى للمفعول لأن الفاعل معلوم حاضر فى الذهن دائما، ولأن الاستقامة توجب اتباع الأوامر فى ذاتها ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾، فقله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ معطوفة على الضمير فى استقم، وإنما جاز النطق على الضمير المستتر فى الخطاب من غير أن يؤكد بالضمير البارز للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وهو بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾، فيكون عدم إبراز ضمير الخطاب مناسبا للنسق.

وإن الاستقامة هى غاية الكمال الدنى؛ لأنها القصد إلى الهدف الأسمى، ولأنها روح الإسلام وغايته، وقد قال بعض الصوفية: إن الاستقامة هى مطلب



الصوفي الأمين على حقوق الإيمان، وروى مسلم في صحيحه عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: «قل آمنتم بالله ثم استقم»^(١)، وروى عن عبد الله بن عباس أنه قال لمن استوصاه: «عليك بتقوى الله والاستقامة».

ولقد قال تعالى: فى بيان الاستقامة أن أعلى درجات الإيمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت] إلى آخر الآيات.

وقوله ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أى الذين معك من المسلمين، وعبر عنهم بأنهم تابوا للإشارة إلى أن إسلامهم لا يكون كاملاً إلا إذا كانوا مع الله تعالى، وإلى أن الإسلام توبة عن الشرك، وإن الشرك انحراف فى النفس، وتركه رجوع إلى الله تعالى.

وإن الاستقامة تهذيب روحى، واتجاه نفسى، وقد نهى عما يؤدى إلى الانحراف عن الاتجاه المستقيم (ولا تطغوا) فيه، إن النفس تنحرف عن الجادة، والطريق الأقوم بالطغيان، وهو مجاوزة الحد، ومجاوزة الحد قسمان:

القسم الأول: التشدد فى الدين الذى يؤدى إلى إرهاق النفس، وإن إرهاقها يؤدى إلى التقصير، ولذا أمر النبى ﷺ بالاعتدال، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه، ولكن سدّدوا وقاربوا»، وقال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(٢).

والقسم الثانى من الطغيان: الظلم، ومجاوزة الحد مع غيره، وإن هذا المعنى مناسب للآية بعد ذلك. ولقد بين الله سبحانه وتعالى أنه مراقب العباد،

(١) رواه مسلم: الإيمان - جامع أوصاف الإسلام (٣٨)، ولفظه عند مسلم: قل آمنتم بالله فاستقم»، وباللفظ أعلاه رواه أحمد: مسند المكين - حديث سفيان بن عبد الله الثقفي (١٤٩٩٠). كما رواه الترمذى فى الزهد، وابن ماجه فى الفتن، والدارمى فى الرقائق.

(٢) سبق تخريجه.

ومجازيهم فقال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الضمير يعود على الله تعالى أى أنه تعالى عليم بما يعملون علم من يبصر ويرى، وقدم الجار والمجرور ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾ للاهتمام بالعمل، وإنه مناظر الجزاء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وإن الاستقامة هى أقصى درجات الإحسان، ولقد قال النبى ﷺ فى تعريف الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»^(١).

كان فى هذه الآية النهى عن الظلم، ثم أردفها بالنهى عن الارتكان إلى ظالم، فقال:

﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣).

﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: الواو عاطفة هذا النهى على النهى السابق، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الركون الاستناد، فيقال ركن إلى الجدار أو الجبل أو الركن إذا استند إليه، ويتضمن ذلك النهى الاعتماد على الظالم، والإدهان إليه والميل إليه، والتودد له، والتقرب منه، ومعاونته فى الأمر الذى يفعله، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى الذين وقع منهم الظلم، وإن لم يتصفوا بالظالمين، وإذا كان النهى عن مساندة الذين وقع منهم ظلم، فأولى بالنهى من يكون الظلم عادة وسياسة مستمرة لهم، ويلاحظ أن التعبير بالموصول فيه بيان بسبب النهى، وهو مرفوع الظلم منهم، ولقد قال الرسول ﷺ فى معاونة الظالمين: «ومن سعى مع ظالم، فقد سعى إلى جهنم»؛ لأنه عاونه فى ظلمه، ولو أن الذين يظلمون لا يجدون من يعاونهم، ويمانعهم، وينصرونهم على المظلومين ما استمروا يراعونها، حتى تكون فيها أشواك الأذى الممزقة.

ولقد وجدنا ناسا فى عهد طاغوت رأيناه أشد من فرعون عتوا، يمالئون على المسلمين، حتى قتل، وأذى وقطع أطراف الشباب، ووصل عدد قتلاه خمسة

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه من رواية عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وثلاثين ألفاً من المسلمين غير من قتلوا تحت حر السياط والتعذيب فى سجونہ التی فاقت سجن الحجاج طاغية العرب عدداً، والحجاج كان عربياً، فلم يعذب، ولم يضرب بالسياط، لأن مروءة العربی تمنعه.

وقد كتب الزمخشري فى هذا كتابة قيمة نقلها من تفسيره، رضى الله عنه: «والنهي متناول الانحطاط فى هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم، وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزى بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُؤْا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى الذين وقع منهم الظلم، ولم يقل الظالمين، فكيف بالظالم، وحكى أن الموفق (أحد خلفاء العباسيين فى عهد انحلال الحكم العباسى) صلى خلف الإمام فقراً بهذه الآية، فغشى عليه، فلما آفاق قيل له: هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم. وعن الحسن (البصرى) رحمه الله: «جعل الله الدين بين لائىين ﴿لَا تَطْغَوْا﴾، و﴿لَا تَرْكُؤْا﴾.....».

ولما خالط الزهرى السلاطين كتب إليه أخ له فى الدين :

«عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، قد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله، بما فهمك الله من كتابه، وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه: ﴿... لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ...﴾ [آل عمران]. واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت، أنك آنت وحددة الظالم وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلا حين أدناك، اتخذوك قطباً تدور عليك رضى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك إلى العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فى جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ

مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ ﴿مريم﴾، فإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك، فقد دخله سقم، وهبى زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض، ولا فى السماء والسلام» هذا كتاب واعظ، لتابع من أجل التابعين، وإن كان من أصغرهم سنا.

ويسترسل الزمخشري فى نقل ما قاله العلماء فى الظالمين، والذين يركنون إليهم كما نرى فىمن اتسموا بسمه العلم، قال رضى الله تعالى عنه وقال سفيان (الثورى): فى جهنم دار لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك.....

وعن الأوزاعى «ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا».

وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء.

وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه».

ولقد سئل سفيان الثورى، عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء، فقال: لا. ف قيل له يموت، فقال: «دعه يموت».

رضى الله عن الزمخشري، وإن كنا لا نرضى عن فتيا سفيان الثورى الأخيرة، فإنه صح عن النبى ﷺ أنه نهى عن القتل بالعطش، وهذا أمر بالإسعاف.

ولقد قال بعد النهى عن الركون إلى الظالم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا لاستغراق النفى و﴿أَوْلِيَاءَ﴾ النصراء أى ليس لهم من الذين

يعادون الله تعالى بظلمهم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى أولياء أحياء مناصرون.

﴿ثُمَّ لَا تَنْصَرُونَ﴾ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا، وهى دالة على التراخى لبيان البعد بين الانتصار، وموالة الظالمين، أو الركون إليهم بموادتهم، ومعاونتهم.

اللهم لا تؤاخذنا بما كان منا للظالمين من سكوت، فى كثير من الأحيان، اللهم هبى نفوس حكامنا للعدل، فإنهم أضاعوا المسلمين بظلمهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد قال تعالى بعد النهى عن الفساد، آمرا بالصلاح، لأن التخلية قبل التحلية.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤).

هذا معطوف على الأوامر والمنهيات قبله، وقلنا إنه سبحانه نهى عن الظلم والطغيان، والامتناع عن الظلم والطغيان فعل الخير، وإن الظاهر من هذه الآية، وآية الروم، وهى قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٨) [الروم]، فإن هاتين الآيتين تومئان إلى أوقات الصلوات الخمس، فكانت بعد فرضيتها فى المعراج.

وإقامة الصلاة فى الأمر ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الإتيان مقومة مستوفية أركانها الظاهرة والباطنة من خلوص المشيئة لله تعالى: واستشعار معانى الأركان النفسية، وألا يقصد بها المראה، فمن صلى يرائى فقد أشرك، وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥) الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ﴾ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧) [الماعون].

وطرفا النهار ما هما؟، اختلفت الروايات فى ذلك، وأقربها فى اعتقادنا، وهو المأثور عن النبى ﷺ أن الطرفين الفجر أو الصبح، وما بعد الظهر، وزلفا من

الليل والزلف الساعات المتقاربة، وفسرها النبي بأنها المغرب والعشاء، وسميت زلفاً من الليل، لأن ساعاتهما متقاربة، فما بين المغرب والعشاء متقارب إلى حد اختلاط زمنهما، والاختلاف في حد ما بينهما، وهما بإجماع العلماء صلاة العشى.

وإن تعيين الآيات تقارب أو يتعين اتحادهما في هذه الآية، وآية الروم، ولا شك أن إقامة الصلوات الخمس مستوفيات أركانها الظاهرة والباطنة، والاستمرار عليها يطهر النفس من أرجاسها، ويمحو تلك المعاصي التي يغرب بها القلب، ولقد قال ﷺ فيما رواه مسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

وذكر شرط اجتناب الكبائر؛ لأنه لا يمكن أداء هذه العبادات على وجهها، مجتمعاً مع الكبائر قط، إذ لا يجتمع في قلب مؤمن عبادة أدت على وجهها، وارتكاب كبيرة، ولقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»^(٢).

ولذا قال تعالى بعد الأمر بإقامة الصلاة في وقتها: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ لأن الحسنات نور يدخل القلب فيزيل غمته، وهي طهارة ترحض ما في النفس من أدران الشر، وأخبائه.

ولقد قال النبي ﷺ: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»^(٣).

وإن الصلوات الخمس - إن أقيمت على وجهها - أشد العبادات محاربة للمعاصي، ولذا قال تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت] وإن توزيعها في أوقاتها جلاء

(١) رواه مسلم: الطهارة - الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة (٢٣٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) سبق تحريجه.

النفوس، فإنه إذا أقبل الفجر، وأصبح الصباح أدى صلاة الصبح، فتجلو صدأ النفس ويستقبل الحياة بقلب سليم، فيعمل في الحياة طاهراً حتى إذا ابتدأت النفس تصدأ بالاحتكاك بالناس جاءت صلاة الظهر، فأزالت ذلك الصدأ، ثم من بعد ذلك العصر، وزلف الليل المغرب والعشاء .

ولقد روى البخارى عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١).

ولقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ الإشارة إلى القيام بالفرائض الخمس، وقال المفسرون: إنه إشارة إلى القرآن، وكانت الإشارة إلى البعيد لعلو منزلته، ورفعة مكانته، وبعد شأوه، ولا مانع فيما نرى أنها للقيام إلى الصلوات الخمس، لهذه المعاني أيضاً، والمشار إليه مذكوراً.

والذكرى التذكير الدائم الباقي المستمر، ولا شك أن أداء الصلوات الخمس في موافقتها على الوجه الكامل يجعل نفس المؤمن في ذكر دائم لله، ولذا ختم الله تعالى آية الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بقوله تعالى: ﴿... وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ (٤٥) [العنكبوت].

وإن العبادات أداؤها على الوجه الأكمل الذى أشرنا إليه يحتاج إلى صبر وضبط النفس، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) [البقرة]، ولذا قرن الأمر بإقامة الصلاة، بالأمر بالصبر، فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥).

الأمر في هذه الآية وما قبلها للنبي ﷺ ابتداء، ولمن يتبعه من المؤمنين انتهاء، وهنا ملاحظة بيانية، تليق بالقرآن الكريم المعجزة الكبرى في بيانه، وكل شئونه .

(١) رواه البخارى: مواقيت الصلاة - الصلاة كفارة (٥٢٦)، ومسلم: التوبة (٢٧٦٣).

هذه الملاحظة هي أنه في المطالب الإيجابية يكون الخطاب في هذه الآيات للنبي ﷺ ابتداء، ويكون لأمته بالتبع، ولكن في هذه الآيات نجد النهى متجها ابتداء إلى الجماعة الإسلامية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لأنه لا نهى إلا حيث يتصور وقوع النهى عنه، ولا يمكن أن يتصور من النبي ﷺ طغيان، أو ركوب إلى الظالمين.

والصبر ضبط النفس عند وقوع ما لا يرغب، أو ما يرغب، فالصبر على النعمة، لا يفرح بها فلا يبطرها بل يشكرها، والصبر على وقوع ما لا يرغب بأن تنزل به شديدة فإنه يكون بألا يفرع ولا يهلع، فيضطرب تفكيره، ويطيش ولا يتدبر الأمر في رفق، وثبات جأش، واطمئنان قلب.

وبين الله تعالى أن الصبر من إحسان المحسنين فقال تعالت كلماته: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يعملون العمل الصالح، ويحسنونه، ويدأومون عليه بالصبر، ولا يجزعون لحرمان أو شدة، ولا يأسرون ويطيرون إن اختبرهم الله تعالى.

الفساد يعم بسكوت الأخيار

قال تعالى:

فَلَوْلَا

كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَظْلِمَ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
 ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ^١ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قال تعالى فى بيان ما يصلح الأمة: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران]، إن الجماعة إذا كان فيها من يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر جعلها فضلاؤها، كلها فاضلة، ولقد بين سبحانه وتعالى أن سبب فساد السابقين الذين أصابهم الله تعالى بالهلاك هو أن أهل الفضل لم يدعو إليه ولو أنهم دعوا ما استجابوا لهم، فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿بَقِيَّةٍ﴾ معناها العقل والفضل، والخلق المستقيم، و(لولا) إما أن نقول إنها شرطية حرف امتناع لوجود، وجوابها محذوف تقديره مثلاً لاستقامت أمورهم ولاستجابوا لدعوة الحق إذا دعوا إليها.

أو نقول إن (لولا) بمعنى (هلا) للتحريض على أن يكون منهم فضلاء لنجاتهم، ولكن كيف يقال إن ثمة تحريضا، وقد مضوا بما كان منهم، والتحريض للحاضرين لا للغائبين، والجواب عن ذلك أن القصة الصادقة تصورهم حاضرين ويكون التحريض لهم على التصوير، وللقائمين ليتعظوا ويعتبروا. وإطلاق كلمة البقية على الفضل إطلاق فى اللغة العربية حلله الزمخشري بقوله رضى الله عنه:

﴿أُولُوا بَقِيَّةً﴾ أولو فضل وخير، وسمى الفضل، والجودة بقية؛ لأن الرجل يستبقى مما يخرج به وأجوده وأفضله، فصار مثلاً، فى الجودة والفضل، ويقال فلان من بقية القوم، أى من خيارهم، وبه فسر بيت الحماسة:

«أن تزينوا ثم يأتينى بقتيتكم»

ومن قولهم فى الزوايا حنايا، وفى الرجال بقايا.

وهكذا نجد الرمخشى اللغوى البليغ يرد أصل الاستعمال القرآن إلى معناه السليم الدقيق العميق، وإن الكلام الكريم فوق كل كلام.

وخلاصة ما يرمى إليه النص أن الأمم إنما تسير فى طريق الهلاك، إذا سكت عقلاؤها عن النطق بالحق فى إبانة، فما كفر مشركو قريش إلا لأنه لم يكن من رشدائهم من يقاوم أمثال أبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم فى طغيانهم وظلمهم.

ولذا قال تعالى فى عمل أولى البقية لو صلحوا: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ من فشو الأراذل، كما فشا فى قوم لوط، ومن تطفيف الكيل والميزان كما فشا فى قوم شعيب، ومن الشرك فيهم جميعا، حتى لقد كانوا يعبدون الأحجار ولا يوجد فيهم من يبين أنها لا تضر ولا تنفع، ولما جاءهم الرسل، سكت أولو البقية، ولم يرشدوا، ولم ينادوا بالحق، منكر، نسكت من يُنتظر منهم قول فاضل، وتكلم المستهزون من الحق والساخرون.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ (من) الأولى بيانية، و(من) فى (منهم) تبعيضية، والاستثناء قال المفسرون البلاغيون: إن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، أى لكن قليلا منهم ممن أنجيناهم منهم قد استقاموا على الطريقة، واتبعوا سبيل الرشاد.

ولا مانع أن يكون الاستثناء متصلا غير منقطع، ويكون المعنى فلولا كان من القرون أولو بقية، أى ما كان من القرون قبلكم أولو فضل إلا الذين قليلا أنجيناهم منهم، ويكون فى النص قصر الفضل على الذين اتبعوا الأنبياء، وأرى أن هذا أقرب، وعليه يكون الذين بعث فيهم النبيون قسم تبعهم، وأنجاهم الله، وهم عدد قليل، وقسم عصوا ربهم، وهم الظالمون، وقد بين سبحانه أمرهم فقال عز من قائل: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾.

أى أن الفريق الظالم اتبع ما أترفوا فيه أى اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه من الهوى والشهوات بكل أنواعها شهوة السلطان والجاه، وشهوة الاقتراب من الحكام، والازدلاف إليهم، وشهوة التحكم فى الضعفاء، وشهوة الأثرة، وفى الجملة الترف كل ما يتنعم به من مادة، ومن أمور أخرى.

والترف والأثرة متلازمان، فحيثما كان الترف كانت الأثرة؛ لأن من يطلب النعم لا يهتم إن كان من طيب أم كان من خبيث، وأكان باعتداء أم كان من غير اعتداء.

وإن المترفين الأثرين هم دعاة الشر دائماً، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ فيه أمور ثلاثة:

الأمر الأول: اتبع أى طلبوه، وساروا وراء الترف لا يلوون عنه.

الأمر الثانى: ذكر أنهم ظلموا، أى تجاوزوا الحد، واعتدوا، ودفعهم ظلمهم إلى هذا الاتباع.

الأمر الثالث: أنهم اتبعوا الترف وشهوات الترف، فهذا كقوله اتبعوا الشهوات.

ولقد وصفهم - سبحانه وتعالى - مسجلاً عليهم الإجرام، والآثام، فقال: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أى استمروا فى ماضيهم متجمعين على الإجرام، حتى صار الإجرام وصفا ملازماً لهم.

وإن هذا الإجرام، والسكوت عن النهى على الفساد، وترك الأشرار يرتعون، وترك الظالمين يترفون يجعل الأمة كلها فاسدة وظالمة، وبذلك تهلك، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧).

الظلم ذكر بعض العلماء أنه الشرك لقوله تعالى حاكيا عن لقمان: ﴿...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان]. وإنه ظلم بلا ريب فيه، ويكون المعنى على هذا: وما كان الله يهلك القرى بشركها، وأهلها مصلحون فيما بينهم يتعاونون، ويقيم الحق في معاملاتهم حتى لقد قال بعضهم إن الشرك مع إقامة العدل لا يهلك، والإيمان مع ظلم التعامل يهلك الأمم.

وقال بعض المفسرين: إن المراد والظاهر أنه مراد، أنه ما كان ربك ليهلك القرى ظلما لها، وأهلها مصلحون يعدلون فيما بينهم، ولا يشركون بالله ولا يكون منهم ظلم بل نصفه وعدل، فما كان الله ظلما لعباده.

وعندى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ بظلمها، وأهلها متعاونون، صالحون للبقاء، والظلم أعم من الشرك، والاعتداء في المعاملات، والفساد، والتخريب، وقطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

﴿وَمَا﴾ هنا نافية، و(اللام) لتأكيد النفي، ولذا تسمى عند النحويين لام الجحود، والمعنى ما صح وما استقام لربك الذي خلقك وقام على تدبير أمرك أن يهلك القرى بظلم يقع فيها، وأهلها مصلحون، متعاونون في الإصلاح كما أشرنا، وفاضلهم ينصح أرذلهم، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قائمون بواجبهم، قد ابتغوا الغاية السامية، وهي نشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، قائمين بالقسط شهداء الله.

ولقد روى الترمذى حديثا في هذا المعنى: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»^(١).

(١) رواه الترمذى: الفتن - نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، كما رواه أحمد في مسند أبي بكر الصديق (٣٠)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥).



وإنه قد حق على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الهلاك الذى نزل بها، لأن الظالم يظلم، ويجد الكثرة الكاثرة تؤيده، وتنصره على المظلومين، وتصفه بالحكمة والعدل والعبقرية، حتى اختلطت على الناس الألفاظ والحقائق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وإن إرادة الله تعالى تعلق بتنازع الخير مع الشر، من وقت أن هبط آدم وإبليس إلى هذه الأرض وقال: ﴿... اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ (٣٦) [البقرة] يتنازع الخير والشر، فى نفس كل إنسان، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠) [البلد] حتى إن كف النفس عن الشر يعد جهادا، يثاب عليه، ويتنازع الآحاد بعضهم مع بعض، وتتنازع الجماعات وتتحارب الدول، وتلك إرادة الله، ولو شاء لخلقهم على منزع واحد، ولا تكون الحياة معتركا للخير والشر يتنازعان.

ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨).

﴿لَوْ﴾ هنا حرف امتناع لامتناع. امتناع الجواب لامتناع الشر، أى لو شاء ربك الذى خلقك وذراؤك وكونك على أحسن تقويم أن يجعل الناس أمة واحدة، جماعة واحدة متحدة فى هدايتها وتقواها لجعلها كذلك، وما كان التنازع بين الخير والشر، والعدل والظلم، والفضيلة والرذيلة، والرزق والحرمان، والغنى والفقر إلا بإرادته، بين - سبحانه وتعالى - أن ذلك الاختلاف دائم مستمر، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فيما بينهم فى نفوسهم، وفى آحادهم، وفى جماعاتهم، وفى أممهم.

وإن الاختلاف على ذلك ابتلاء واختبار، ليبلو الناس فيما، فمن أراد الخير انتزعه من وسط الشر انتزاعا فيكون به الثواب الجزيل، ومن أراد الشر سار فيه، وأعلام الخير واضحة معلمة، تدعوه إلى سلوكه، فإن ضل فعن بينة، والله من

ورائه محيط، ويكون الجزاء لمن ضل عن سبيله جزاء وفاقا لما جنى على نفسه، وعلى الحق ثم يقول سبحانه:

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

الضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ يصح أن يعود إلى الناس، ويكون الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ استثناء من الاختلاف ويكون المعنى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة في الهداية والتقوى والفضيلة، ولكنه لم يشأ ذلك إلا في الذين رحمهم، وتكون (اللام) للتعليل، أى أن الله تعالى خلق الناس متنازعين في الخير والشر، ولا يهتدى إلى الخير إلا الخلصاء الأطهار، ولذلك خلق الناس مختلفين لتبين الصفوة، ولتصل إلى الخير في وسط أشواك من الباطل فيكون لهم فضل الجهاد في الوصول إلى الحق.

ويصح أن يعود الضمير إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أى المستثنى ويكون المعنى كالأول في نتيجته، وغايته أى أن الله تعالى خلق الناس مختلفين متعاريكين يخلص الصفوة المرضية، ولأجل تلك الصفوة، والمؤدى فى التخريجين أن الله تعالى خلق الناس كذلك ليميز الله الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... (١٧٩)﴾ [آل عمران].

وإن القلة التى يرحمها الله بالإيمان، والكثرة هى تكون فى النار، ولذا قال تعالى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أشار سبحانه وتعالى إلى الذين رحمهم الله تعالى، وفى هذا النص يذكر الذين عصوا أمر ربهم، والرحمة بهم ليست من عدل الله، لأنهم لم يرحموا أنفسهم، ومن لا يرحم لا يرحم، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾.

وتام الكلمة إحكامها بحيث لا تتغير، ولا تبدل، ولا تتخلف، وكلمة الله تعالى هي أمره الذى ظهر فى قوله. وفى الكلام قسم مطوى دلت عليه اللام فى ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ فهى لام القسم، ونون التوكيد ملازمة للقسم فهى أيضا دالة عليه، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿مِنَ﴾ هنا لبيان من يملأ منهم، و﴿الْجَنَّةِ﴾ الكلام على تقدير العصاة أى من عصاة الجن، وعصاة الإنس، والجن عبر عنهم بالجنة، والإنس عبر عنهم بالناس كما فى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [٦] ﴿[الناس]﴾.

وقدر عصاة لأمرين:

الأمر الأول: أن الجزء بجهنم كما فى عرف القرآن، وكما هو العقل - يكون للعصاة.

الأمر الثانى: أن الناس مختلفون، فذكر الله تعالى أهل الطاعة، وتفضل عليهم برحمته، فقال فيما سلف ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ والمخالفون لهم هم العصاة، وكان بمقتضى التقسيم أن تكون لهم جهنم، وقد تأكد أنهم يملأونها.

وعلى ذلك تكون كلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد، بأن العصاة كلهم سيدخلون جهنم، وتمتلى بهم لا يفر منها جبار، ولا نافخ نار.

وإذا أريد جنس الجنة، وجنس النار يكون الظاهر، أنه لا ينجو من أحد الجنسين أحد، ويكون التأكيد لبيان أنه يستوى الجنسان، فى ألا يغادرها أحد، كما تقول ملأنا الحقيقة من أوراق امتحان الشريعة، والمدنى والجنائى، جميعا، أى فيها الأصناف جميعا غير متخلف بها صنف من هذه الأصناف.

ولا شك أن التقدير الأول أظهر وأبين، وسياق القول يقتضيه، ولقد روى فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس. وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين

والمتجبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة: فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله خلقاً يملأ فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط^(١)، والله أعلم.

القصص لتثبيت النبي ووعظ المؤمنين

قال تعالى:

وَكَلَّا نَقْصُ

عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧٨﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٣٧٩﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ
﴿٣٨٠﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨١﴾

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ التنوين في ﴿كَلَّا﴾ عوض عن مضاف إليه محذوف يقدر بما يتناسب مع ما يجيء بعده، و﴿كَلَّا﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿نَقْصُ﴾ والتقدير على ذلك، وكل نبأ أو كل خبر، أو كل قصص، نقصه عليك متى نخبرك به متتبعين خفاياه، كما يتتبع قاص الآثار الآثار.

(١) رواه البخاري: التوحيد: ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنْ رَحِمَتِ اللَّهُ قَرْيَةً﴾ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ [الأعراف] (٧٤٤٩)، وتكرر ثلاث مرات بنحو من هذا، كما رواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها - النار يدخلها التكبرون (٧٨٤٧)، بلفظ: «تحتاج الجنة والنار»، وفيه: «فأما الجنة فينشئ الله لها خلقاً».

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أى أخبارهم ذات الشأن كدعوتهم إلى التوحيد، ورد أقوامهم، ومعاندتهم، ثم نزول الهلاك بهم، بعد أن استئس الرسل، ووقع فى نفوسهم أنهم كذبوا، ولا علاج فى رشدهم، وإقرار الله تعالى لما آل إليه أمر هؤلاء المكذبين كقوله لنوح: ﴿... أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ...﴾ (٣٦) وذكر الله تعالى، ثمرة هذا القصص الذى يقصه تعالى من أنباء المرسلين، فقال عز من قائل:

﴿مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فكان الثمرات لهذا القصص الصادق ثلاث:

الأولى: تثبيت فؤاد النبى ﷺ إزاء إنكار المشركين وإيذائهم للنبي عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين فإن أولئك الرسل أودوا كما أودى، وكانت الباقية لهم وللمتقين فليطمئن النبي عليه الصلاة والسلام إلى العاقبة، ولا يغرنك تقلبهم فى البلاد فالعاقبة لك ولأصحابك، ومعنى تثبيت فؤاد النبى ﷺ زيادة تثبته بأنه لم يكن بدعا من الرسل، وإذا كان الله تعالى قد عذب أقوام الأنبياء الصادقين بالعذاب الذى يجتث من فوق الأرض العصاة، فإنه سيعذب قومك بأمر إرادى كذلك ليتنفى الظالمون، فيحصدون بالسيف، ويبقى غيرهم ممن يرجى أن يكون منهم أو من أصلابهم من يعبد الله.

الثانية: الموعظة، وهى الاتعاظ بمن أنزل الله تعالى عليهم العذاب، والاتعاظ طريق الإيمان، ومن لم يتعظ بغيره، فالبلاء فى نفسه شديد، وهذا الاتعاظ للمؤمنين أى الذين فى قلوبهم اتجاه إلى الإيمان.

الثالثة: الذكرى، أى التذكر الدائم المستمر لما نزل بالأقوام الظالمة.

وهذه أيضا للمؤمنين والذين يتجهون بقلب مدرك للإيمان، هذه ثمرات القصص.

وقد ذكر الله تعالى بعد تثبيت قلب النبي ﷺ، وقبل موعظة المؤمنين، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ مؤكداً أن هذه الإيتاء هو الحق الكامل الذى لا حق فوقه لأنه ثابت صادق، وفيه التثبيت والموعظة، والتذكر الدائم، وقد أكد سبحانه وتعالى أنه الحق بـ (ال) التى تدل على أنه كمال الحق لا ريب فيه ﴿فِي هَذِهِ﴾ أكثر المفسرين على أن الإشارة إلى السورة، لأنها اشتملت على قصص مفصل لبعض الأنبياء.

وروى عن قتادة أن الإشارة إلى الدنيا، والله أعلم.

بعد ذلك أمر الله تعالى نبيه أن ينبه المشركين إلى هذا القصص الصادق، وفى هذا التنبيه تهديد لهم فقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (١٢١).

المكانة الحال، وما تمكنوا منه، والأمر للتهديد، كما تقول لمن يفعل الشر، افعل ما يبدو لك، وكما قال ﷺ: «إن مما أدركه الناس من أقوال النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١)، وكما فى قوله تعالى: ﴿... أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ...﴾ (٤٠) [فصلت].

فالأمر للتهديد، وعبر الله تعالى عن المشركين بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بفعل المضارع، أى ليس عن طبيعتهم، وكيانهم أن يؤمنوا، فالكافر الجاحد تنحل عقدة الإيمان فى قلبه، فلا ينعقد قلبه على إيمان، بل هو جاحد مضطرب الفكر والنفس والقلب تأسره الأهواء المتنازعة، ويسير مع أشدها انحرافاً، وأقواها استهواء ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أى على حالكم التى أنتم عليها من الغنى والضلal، والاستكثار من الأموال، والأهواء والشهوات، وكل ما تمكنون منه من أهواء وشهوات ومفاسد، وبين أن المؤمنين والنبي عاملون فقال: ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أى مستمرّون فى حالنا من إيمان، وإذعان للحق، وصبر على أذاكم

والعاقبة ليست واحدة، فأنتم إلى طريق النار، وغضب الله، ونحن إلى طريق رضا الله، ولكم عبرة ممن مضوا، وقد علمتم قصصهم، ثم أكد - سبحانه وتعالى - التهديد، والبشرى للمؤمنين، فقال: ﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (١٢٢) أي انتظروا بقية أعمالكم، وعواقب فسادكم وجحودكم، وما استهواكم من مفسد، و﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ما نرجو من رحمته ورضوانه، وجزاء وفاقا لأعمالنا.

وهذه مقابلة بين الحق والباطل، وسوءى الباطل، وحسنى العاقبة فى الحق والله بكل شىء عليم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣).

سورة يوسف

تقديم:

سورة يوسف سورة مكية، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة، وقالوا: إن أربع آيات هي الأولى والثانية والثالثة والسابعة مدنية، ولا نرى فيها ما يدل معناها على أنها مدنية، والله أعلم.

ولقد كفرت طائفة من الطوائف الخارجة عن الإسلام بإنكارها سورة يوسف، وادعاء أنها ليست من القرآن، وكأن القرآن يخضع بالزيادة والنقصان للأهواء المنحرفة، وإن ادعت التمسك بالدين، فهي تفرق منه مروق السهم من الرمية، وأولئك هم أتباع عبد الكريم عسجرو، وإن القرآن كله غير منقوص ثبت بالتواتر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه تلقاه عن جبريل الرسول الأمين عن رب العالمين مرتلا متلوأ، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٢٢)﴾ [الفرقان].

وما كان لنا أن نعرف ما دفعهم إلى هذا الإنكار الذي كفروا بسببه، ولكن نذكره لبيان أنه وهم كافرين لم يذوقوا القرآن ولم يعلموه، قالوا إنها قصة غرام، ونزلت دفعة واحدة، والقرآن منزّه عن ذكر الغرام والحب، والقرآن نزل منجماً، ونقول في الإجابة عن ذلك، إنها قصة المجتمع المصري، والأسرة الفرعونية التي طغت في البلاد وأكثرت فيها الفساد، وقال قائلهم: ﴿... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات]، وبيته على هذا النحو من الانحلال، وهي بيت مغبة الغرام، وكيف يوجد الانحلال، والاستعصام بالفضيلة حيث تفور فورة الرذيلة، ودعوة الوحدة في وسط الوثنية، وتدبير الاقتصاد، واستعانة الفراعنة بخبراء الاقتصاد حيثما كانوا، وخضوعهم لأرائهم، وتوسيد الأمر لهم، ثم هي تبين مركز مصر

الاقتصادى، واستعانة من حولها بها، ثم تثبت نفسية الآباء مع الأبناء، والحسد بين الإخوة، وما ينبغى عند تربية الأولاد.

وإن ما سموه الغرام المنحرف لم يكن إلا فى جزء صغير منها، ولم يستغرقه، بل ترددت عباراته، وقد ابتدأته ب ﴿وَرَأَوْدَتُهُ لَئِي هُوَ فِي يَبْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ... (٢٣)﴾، وانتهت بدخوله السجن، وهى ثمانى آيات، فيها الغرام من جانبها والاستعصام من جانبه، وباقي السورة حكمة واقتصاد وتديير، وتعاون، ومشقة وصبر، ثم لقاء الأحباب على مائدة المودة والأخوة الودود.

فكيف تسمى سورة غرام إلا ممن انحرف عقله انحرافا منعه من استيعاب السورة.

وإن القرآن لم ينزل كله منجما، فأول سورة التوبة نزل دفعة واحدة، وأكثر سورة الأنعام نزل دفعة واحدة وسورة إبراهيم أكثرها نزل دفعة واحدة.

وإذا كان ممن تسموا باسم من الخوارج من قال هذا القول، فقد كان منهم أيضا، من أجاز نكاح البنات والأمهات والمجوس، وهم - بلا شك - كافرون كإخوانهم.

ونقول: إن أكثرهم كان مؤمنا منحرف العقل، ورضى الله عن على بن أبى طالب إذ قاتلهم، وقتل منهم مقتلة كبيرة، فقد قال بعد ذلك القتال: (لا تقاتلوهم بعدى، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه).

إن القصص الذى فى هود وغيرها، كان فى الأرض العربية، ولم يكن فيها من غير البلاد العربية، إلا قصة موسى عليه السلام، وقد ذكر فيها طغيان فرعون، وخضوع أهل مصر له، فى نفوسهم، وأفكارهم، وعقولهم حتى ساغ له أن يقول: ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٥)﴾ [غافر]، أما قصة يوسف عليه السلام فإنها تناولت ناحية اجتماعية، تعرضت للأسرة، وما يجرى فى داخل القصور، وتعرضت للمجتمع المصرى، وانحراف نساء الطبقة التى

تسمى راقية، ثم تعرضت للاقتصاد في مصر، وكيف كان يدبره إلى آخر ما جاء في السورة الكريمة، ثم صوّرت لقاء الأخوة بعد أن فرق الحسد فيما بينهم.

الحسد بين الإخوة في سورة يوسف

إذا كان الحسد بين ابنى آدم قد حمل أحد الأخوين على أن تطوع له نفسه قتل أخيه، فقتله، فالحسد بين يوسف وإخوته على أن يحاولوا أن يلقوه في غيابة الحب.

رأى يوسف رؤيا صادقة، وهو غلام، قال يوسف لأبيه ﴿... يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾ فهم يعقوب الأب الحبيب الذى يؤثر يوسف على إخوته باختصاص بمحبة أكثر لصغره، ومنها أن ليوسف منزلة عند الله فوق منزلة إخوته، فقال له: ﴿... لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾.

ولقد أخبره باصطفاء ربه له، وتعليمه من تأويل الأحاديث، ما قد يشير لإخوته.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧﴾، أى دلائل تبين حكمة الله تعالى فى الخلق والتكوين، وطبائع النفوس، وطفیان الحسد على المحبة الأخوية والمودة الواصلة، وإن تسعة أعشار الجرائم أو كلها سببها الحسد، فإذا اقتلع من النفوس اقتلع أكثر الأخبار النفسية. و﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى الباحثين الدارسين لطبائع النفوس.

ابتدأ التدبير السيئ بقولهم: ﴿... يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصَّةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَاةِ الْجُبِّ ... ۝١٠﴾، لم ينفذوا القتل، أو لم يريدوه، وذلك للمشورة، فكان منهم

من لم يرد القتل المباشر، بل أراد القتل البطيء، أو الموت المحتمل وذلك حين تكون الحياة أقرب من الموت، ولذا قال: ﴿... يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ...﴾ (١١).

التنفيذ

ذهبوا إلى أبيهم، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (١١) محبون مخلصون، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٢).

عندئذ قال يعقوب ما يدل على توجهه خيفة على ولده الحبيب العزيز، وفرطت من الرجل الطاهر نبي الله كلمة اتخاذها ذريعة لستر جريمتهم، قال لهم: ﴿... إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣).

لقد ذكر أنه يخاف أن يأكله الذئب، في غفلتهم، فلقنهم ما يستر إجرامهم، قالوا وقد وجدوا الحجة وأخفوها في أنفسهم، ﴿... لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لُخَسِرُونَ﴾ (١٤).

ذهبوا به واجتمعوا أن يلقوه في غيابة الجب ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥)، وقد ألقى الله تعالى في روع يوسف الغلام الحبيب أنه سيعلو عليهم، وسينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

بعد أن ألقوه في الجب ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧).

وهكذا ترى أن الأب الشفيق الكريم قال إنى أخاف أن يأكله الذئب، فقالوا ساترين جريمتهم أكله الذئب، ونبي الله تعالى لم يصدق أبناءه، بل قال بعد أن جاءوا على قميصه بدم كذب: ﴿... قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨).

استراح إخوة يوسف، أو توهموا أنهم استراحوا، وعشى على قلوبهم الحسد البغيض فلم يدركوا ما صنعوا وبقيت لوعة الشيخ أبيهم تترقب ابنه، ولم يذهب عنه الأمل فى لقائه، ولم يئس ﴿... إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾.

ولنتظر فى قصة القرآن عما جرى ليوسف، وقد ألهمه الله تعالى الاطمئنان، جاءت قافلة تسير فأرسلوا واردهم يتعرف أماكن الماء، فوجد الجب، فألقى دلوه، فلم يخرج الماء، ولكن خرج ما هو أظهر فاستبشر، و﴿... قَالَ يَا بَشْرَى هَذَا غُلَامٌ... (١٩)﴾، وأسروه على أنه بضاعة، ولأنها بضاعة جاءت من غير ثمن، باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، ولم يكونوا راغبين فى اقتناء هذه البضاعة بل كانوا فيه من الزاهدين.

وإذا كان قد استقبل شقوة الحسد، فقد استقبل بعد ذلك بالبشر والحبور، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّةَ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا... (٢١)﴾، وكذلك أشرق النور فى وسط الظلمة.

وبذلك مكن الله تعالى ليوسف، وألهمه الله تعالى تأويل الأحاديث التى تتحدث بها النفس فى منامها، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾.

ولكن النفس الصبور يصقلها الله تعالى بالشدة، وإذا كانت الشدة التى استقبلته أولا كانت تتعلق بحياته أو موته، فالشدة الثانية أخطر على نفس الصديق يوسف.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ... (٢٣)﴾، أى أرادته لنفسها، وحاولت أن تخرجه من نفسه الطاهرة الصافية، ﴿... وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه... ﴿(٢٤)﴾ فى وقت هذه المحنة النفسية رأى نور الحق الذى يعصم نفسه، فبقى

نقيا طاهرا، وصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عباد الله الصالحين، واستبقا بعد ذلك إلى الباب هو يفر هاربا، وهى تمنعه وتجذبه إليها، وفى هذه المسابقة قَدَّت قميصه من ورائه؛ لأنها تجرى ورائه لتشدّه إليها مانعة له من الخروج.

ولكنهما وجدا سيدها لدى الباب، وببداهة المرأة التى تفجر أَلقت التهمة على يوسف، و﴿... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾.

فبرأ يوسف نفسه عن التهمة، وقال الصدق: ﴿... هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي (٢٦)﴾ ...

اتهمته كاذبة، واتهمها صادقا، فلم يندفع العزيز، واحتكم، فحكم حكم من أهلها: ﴿... إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾ فألفيا قميصه قُدَّ من دبر، وبذلك تبين كذبتها، وصدقه.

اطمأن زوجها إلى براءة يوسف، وقال: ﴿... إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾.

وإن أخبار القصور تشيع وتنتشر، وقد كانت قصة المراودة بين زوج العزيز، ويوسف، وزوجها وبعض ذوى قرباها، ولا ندرى كم كان عددهم، والخبر إذا خرج عن اثنين شاع، والناس دائما فى شوق إلى ما يجرى داخل القصور، وينشر دائما ما فيه غرابة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ... (٣٠)﴾ فأقامت لهن وليمة ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ يُسْجَنُ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّاعِرِينَ (٣٢)﴾.

ومع تصميمها على المراودة، كان تصميم يوسف على الطهر، والدفع، ورضى بالسجن عن هذه المعصية ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٢) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ... ﴿٣٤﴾ .

كان الخبر يشيع، وقد رأى العزيز وملؤه الآيات الدالة على براءة يوسف، وأنه كان فريسة المراودة ولم يكن فاعلها. وقد رأوا حسماً للشائعات حبسه ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٣٥) ﴿أَي حَتَّى تَمُرَ مَدَّةٌ تَهْدَأُ فِيهَا عَوَاصِفُ الشَّائِعَاتِ .

دخل السجن، ومعه فتیان، استأنسا به، وفاضت نفوسهما إليه، ورأى كل منهما رؤيا، فقال أحدهما يقص رؤياه: ﴿... إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦) ﴿أَجَابَهُمَا، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨) ﴿ابْتَدَأَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وهو رسالة النبيين، ومعه دليلها، وهو تعليم الله تعالى له، أنه ينبغيهم بما يأكلون، كما علم عيسى من بعده، ثم أول رؤياهما فقال: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١) .

ويظهر أنه أهمل أمره، فأراد أن يذكر العزيز به: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢) .

رأى الملك رؤيا فتذكر الناسي، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤) .

وهكذا شأن أتباع الملوك، لا يتذكرون واجبا إلا لإرضاء صاحب السلطان فاذكر بعد فترة طويلة ساقى الخمر للملك ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا...﴾ (٤٥) واذكر بعد أمة ﴿... أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) ذهب إلى السجن، وقابل السجين الطاهر المؤمن النبي، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦).

قال الصديق الطاهر، الذي علمه ربه: ﴿... تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴿٤٨﴾ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿٤٩﴾ أى يحلبون، ويعصرون فالعصير من الشمار.

علم الملك الذى أولت له الرؤيا، ولعله نسى المراودة وأمرها كشأن حكام مصر من الأزل، ينسون من يحسن إليهم ولا يذكرونه، وأى إحسان أعظم من أن يكرم شرفه وعرضه.

قال الملك اتنوى به أستخلصه لنفسى، ولكن يوسف الصديق الطاهر لا يذهب إلا وقد ثبتت براءته، فقال للرسول الذى أرسله الملك ﴿... ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠).

رجع الملك إلى الماضى، وسأل امرأته التى فتنت بالصدیق وأسند يوسف الكريم الأمر إلى النسوة، ولم يستند إلى امرأة الملك.

قال الملك: ﴿... مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ...﴾ (٥١) عندئذ تقدمت امرأة العزيز تعترف بذنبها، وتبرئ يوسف، قالت امرأة العزيز: ﴿... الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

(٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) ﴿

بعد هذه البراءة، وقد تضمنت حياته في السجن دلائل نبوية، ودعوة إلى التوحيد إذ يقول: ﴿...أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرًا أُمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ كانت حياة جديدة، دعاه الملك واستخلصه لنفسه، وقال: ﴿...إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾، تولى أمر المالية المصرية ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)﴾ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴿.

كانت مصر في ذلك الإبان وما بعده مُسترد الخير^(١)، وبتنظيم نبي الله يوسف، وتمكينه من الملك صارت مقصد الشرق، وجاء إخوة يوسف يمتارون، فعرفهم إذ لم يكن التغيير فيهم كبير، ولم يعرفوه إذ ألقوه في الجب غلاما، وقد صار رجلا مكتملا، وقد جهزهم، وأعطاهم ما طلبوا، ولكن قال لهم:

﴿...اِئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنَرَاوُدُّ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴿.

وإنه بهم لشقيق إذ قال لمن معه، ﴿...اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾ ذهبوا إلى أبيهم وقالوا: ﴿...يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَّكْتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ فتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم، ففرحوا وقالوا ما نبغى شيئا فوق ما سهله لنا. ﴿...قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) ﴿.

(١) اسم مكان، والمعنى: مكان استيراد الخير لما حباها الله بها من أنواع الخيرات ووفرتها في أرضها الغنية.

ولكن الشيخ يعقوب حريص على ولده، ويريد المواثيق عليه ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦) .

ولشفقته على أولاده وخوف العين قال: ﴿... يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ (٦٧) ، ولكنها الشفقة الأبوية دفعته لأن يتصون عليهم .

دخلوا على يوسف، فأوى إليه أخاه، وقال: ﴿... إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩) ، ثم جهزهم بجهازهم، وأودع السقاية في رحل أخيه ﴿... ثُمَّ أَذْنٌ مُؤَدِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠) قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴿٧١﴾ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حملٌ بعير وأنا به زعيم ﴿٧٢﴾ زعيم: أى كفيل، قالوا: ﴿... مَا جِئْنَا لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣) قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿٧٤﴾ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ... ﴿٧٥﴾ ، أى يكون ملكا .

أخذوا يفحصون أوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرجوها من وعاء أخيه، كذلك كان تدبير الله تعالى ليأخذ أخاه بعد طول افتراق .

ولقد كانت لفظة من عداوة أبناء العلات^(١) التى تظهر فى القول لا تزال متمكنة فى قلوبهم ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧) قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴿٧٨﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴿٧٩﴾ .

ندموا وتذكروا موثق أبيهم، وذكرهم به كبيرهم، وقال: ﴿... فَلَنْ أَرْجِعَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠) أرجعوا إلى أبيكم

(١) أبناء العلات: أبناء الضرائر، أى أن الأنبياء يرجعون إلى أب واحد وهو إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء، وإن اختلفت أمهاتهم .

فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَأَسْأَلُ
الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴿

قالوا لأبيهم ذلك، ولكنه أحس بأمر، رشح له ما كان بالنسبة ليوسف من
قبل، فقال مثل مقالته الأولى: ﴿... بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ... (٨٢)﴾ وبإلهام النبوة توقع الخير في وسط هذه الشدة، وقال:
﴿... عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا
أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُونُسَ
حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ
مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ
اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴿

ذهبوا إلى يوسف طالبين الميرة مرة أخرى، و﴿... قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا
وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾

اللقاء على المودة والعفو

أعلن يوسف الصديق نفسه لإخوته فقال لهم: ﴿... هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ
يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)﴾ قَالُوا أَأَنْتَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْ
اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) ﴿، قال كلمة العفو الودود: ﴿... لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي
يَأْتِ بِصِيرًا... (٩٣) ﴿، ذهبوا إلى الشيخ الذي ابضت عيناه من الحزن، فأحس
بريح يوسف، وقالوا: إنه أحس من بعد ثمانين ميلا، ولا غرابة في ذلك فهو أبو
الأنبياء ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾ قَالُوا

تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴿

وبهذا تنتهى قصة يوسف الصديق الحبيب؛ أخذ من بين أهله، وألقى فى الحب، وانتهى ملكا مصلحا، ونبيا مبشرا ونذيرا، وكان له أثر فى مصر، ذكر بعده بقرون عندما بعث موسى، فقد قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ... (٣٤)﴾ [غافر].

التقى الأحباب ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ... (١٠٠)﴾، أى خضعوا لحكمه كما تخضع الرعية لراعيها العادل، لا أنهم سجدوا له كما كان يسجد للفراعنة، فمعاذ الله أن يكون نبي الله يعقوب ساجدا لغير الله، ومعاذ الله أن يقبل ذلك يوسف نبي الله من أبيه.

أخذ يذكر يوسف أباه برؤياه الأولى، ويذكر له كيف أخرج من السجن بعد أن نزع الشيطان بينه وبين إخوته ولم يبق إلا أن يحمد الله على ما أوتى من نعمة، ويقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾.

العبرة

كانت القصة كلها من الأخبار الغيبية على العرب، وقد كان فيها أخبار عن ناس لم يكن من شأنها أن تكون معلمة، معلنة، إذ هى أخبار أسرة، ﴿... وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)﴾ فتلك أخبار النفوس لا يعلمها إلا علام الغيوب، وتلك معجزة الذى كفروا به.

وإن الكون كله آيات بينات دالة على منشئه الواحد الأحد الفرد الصمد، وإذا كانوا يؤمنون بالله تعالى، فهو إيمان بالقدر، ووحداية الخالق المنعم، ولكنهم يعبدون غيره، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)﴾.

وإنهم يرون آيات الله تعالى تنزل بالمشركون، ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧).

وإن الحق ما تدعو إليه، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨).

ولقد بين سبحانه وتعالى أنه لم يكن بدعا من الرسل، وأن الرسل قبله كانوا مثله، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠٩) ويبين للنبي ﷺ أن الرسل كانوا يستتسبون، وفي حال يأسهم يجيء عذاب الله للمشركين ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠).

الرسل جميعا اعتراهم اليأس إلا محمدا ﷺ، وذلك فضله عليهم أجمعين، بل قال وهو في أشد ما نزل به وقد فقد الناصر والمواسى: «إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله»^(١)، ولقد ختم السورة بقوله تعالت كلماته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١) صدق الله العظيم.

ما سبق استعراض لمعاني سورة يوسف عليه السلام إجمالا، وما كانت قصة غرام كما افتراه الكاذبون، إنما فيها آفات النفوس في الأسر، وعلاجها، وفيها علاج المجتمعات التي يصيبها الفقر، وفيها أن الشفقة في الأسرة هي إدامها، وفيها أن الشيطان يتزغ في النفوس من الحسد الذي يؤدي إلى أشد الجرائم فظاعة.

(١) انظر البخارى: بدء الخلق - ذكر الملائكة (٢٩٩٢)، ومسلم: الجهاد والسير - ما لقي النبي ﷺ (٣٣٥٢).

معانى السورة الكريمة

قال تعالى :

الرَّتِلَآءِ ۚ آتَتْ الْكِتَابَ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾
قَالَ يَبْنَىٰ لَا يَبْنَىٰ لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا
إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰ آلٍ يَعْشَوْنَ كَمَا آتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَلِإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

ابتداً سبحانه وتعالى هذه السورة بحروف صوتية منفردة، ومهما يحاول العلماء أن يفسروها لا يصلون إلى معانيها وهى ظنون يرددونها وليست معانى يستقيم إدراكها، إنها متشابه اختص الله تعالى بعلمه، وقد آمنا به، كل من عند ربنا، ولا ينبغي تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله .

ونتلمس الحكمة فى نزول هذه الحروف، فما أنزل الله شيئاً إلا لحكمة، وما أنزل شيئاً عبثاً سبحانه، وإنا نتلمس الحكمة فى أمور:

الأمر الأول: أنها حروف مفردة لا يعرفها الأمي، ويعرفها الكاتب، فمجيئها على لسان أمي دليل على إعجاز القرآن الكريم.

الأمر الثاني: أنها تشير إلى الإعجاز، فهي تشير إلى أنه مكون من الحروف التي تتكلمون بها، ولكنه معجز، فهو من جنس كلامكم، ولكنكم لا تستطيعون أن تأتوا بمثله؛ لأنه فوق طاقتكم، وإن كان قريباً لكنه معجزة.

الأمر الثالث: أن كبار المشركين كانوا قد اتفقوا على أن يلغوا إذا سمعوه ليشغلوا أنفسهم، فكان النبي ومن معه من المؤمنين إذا ابتدءوا يقرأون بهذه الحروف الصوتية قطعوا عليهم كفرهم والتفتوا مستمعين ناقضين ما اتفقوا عليه، كما اتفقوا على ألا يذهبوا ويسمعوا، ثم تبين أن المستفقيين على المقاطعة، قد اجتمعوا ليسمعوا.

ولذا يذكر القرآن أمر الكتاب بعد هذه الحروف في كثير من السور التي ابتدئت بها، والله أعلم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، الضمير يعود على القرآن الذي تشير إليه هذه الحروف، حتى قيل: إنها اسم للسور التي تصدرتها ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى أنزلناه كتاباً يقرأ عربياً، وليس أعجمياً، فهو قرآن عربي، وليس بأعجمي، وهذا النص يدل على أمرين:

الأمر الأول: أنه نزل مقروءاً متلوّاً، علمنا الله تعالى قراءته وتلاوته، ولم يتركنا نتصرف في قراءته، كما نقرأ كلاماً من كلام الناس، بل علمنا قراءته وترتيبه، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝٣٢﴾ [الفرقان]. وكما قال تعالى في نزوله، وجبريل يقرئه للنبي ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ [القيامة].

الأمر الثاني: إن القرآن المعجز هو العربي، وليست ترجمته قرآناً؛ لأنها من عبارات البشر، ولأن الترجمة لا يمكن أن تكون محققة لمعاني القرآن، إذ هو

عميق يغوص فيه الغواصون على الحقائق، وإنه محدد المعاني، تزيد المعاني في نفس القارئ بمقدار ما يزداد إدراكه، وهو واضح لكل إنسان بمقدار إدراكه، فالأمر يدرك منه بمقدار ما تتسع له طاقته العلمية، والعالم بالكون تتسع له المعاني بمقدار طاقته، ولذا وصفه العربي البليغ بقوله: إن أعلاه لثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، ولا يُعلَى عليه.

ولا يصح أن يدعى لأحد أنه ترجم القرآن، وأن ترجمته قرآن يتعبد بتلاوته، ويسجد له سجدة تلاوة ولا يمسه إلا وهو طاهر، وقد أجمع على ذلك العلماء؛ السلف والخلف على سواء، إلا من ران الله على قلبه وعقله، وإذا كان قد روى عن أبي حنيفة أنه أجاز الفاتحة بالفارسية، فإن الراجح أنه رجع عن ذلك، عندما لانت السنة الأعاجم، بقراءة القرآن^(١)، وقانا الله تعالى شر البدعة والمبتدعين.

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أى رجاء أن تعقلوا معانيه، وما يدعو إليه وما يتضمنه من بلاغة معجزة وما فيه من بلاغ للناس، والرجاء من الناس لا من الله، أى لعلكم تكونون فى وضع من يرجو الإدراك السليم، والله عليم بما تخفى الصدور.

وقد مهد الله سبحانه وتعالى لقصة يوسف، التى كان الخبر عن يوسف الصديق عليه السلام هو قطبها الذى دارت عليه أخبارها، عليه وعلى نبينا أفضل السلام وأتم التسليم، فقال:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾.

الضمير ﴿نَحْنُ﴾ ضمير المتكلم، وهو الله تعالى، وهو الله العظيم فى ذاته وصفاته، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، والقصص الأخبار المتتابع، الذى يحكى، ويتبع ما يحكيه، تتبع الاستقصاء، وعبر عنه سبحانه بأنه ﴿أَحْسَنَ

(١) راجع كتاب «أبو حنيفة» للإمام محمد أبو زهرة.

الْقَصَصِ ﴿٤﴾؛ لأنه قُصَّ بأبداع أسلوب، ولأنه يبين عجائب النفوس، وفيه أحسن الآداب، وما ينبغي لاتقاء آفات النفوس، وانحرافها، ولأن فيها علاج الآفات النفسية التي يترغ فيها الشيطان نزغته، ولأن فيها علاج الأمم في اجتماعها واقتصادها وإفضاء بالخير على جيرانها، وإمداد المحتاجين من الأمم، ففيه الخير، كما في إمداد الآحاد بالخير.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أى أن هذا القصص مصدره الوحي، ولا علم لأحد به حتى يعلمك هذا، ولذا قال: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أى بإيحاءنا، ولا مصدر له إلا وحي الله تعالى، وقد أوحى به فى ضمن القرآن الكريم، ليكون دليلا من أدلة إعجازه، وسببا من أسباب الإعجاز، إذ أخبر بما هو صادق، ولم يكن للعرب علم به عندهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْ كُنْتَ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، وإنها ضمير الشأن والحال، والمعنى وإن الحال والشأن كنت من الغافلين، و«اللام» لام التوكيد، وقد تأكد نفى علم النبي بذلك من غير الوحي ب«إن» المخففة من الثقيلة، و«كان» الدالة على استمرار غفلته عنه من قبل ذلك القرآن المبين الذى أوحى به.

وعبر سبحانه بإثبات الغفلة، لا بمجرد نفى العلم؛ للإشارة إلى أن هذا من دقائق العلم وعميقه الذى تغفل عنه العلماء، إلا من يكون آتاه الله تعالى وحيا من علام الغيوب؛ لأنه علم بالنفوس، وخواطرها وما تختلج به الأفئدة، وذلك لا يكون إلا من عليهم، وفيه علم كامل بالاقتصاد من غير تعليم أحد من البشر، فعلم يوسف بالاقتصاد الصالح مع النزاهة النبوية علم من الله، فعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا الصادقة، وبها اهتدى ودبر الأمر، وادخر من سنى الرخاء للشدة، وكان تدبيره خيرا، وبذلك علم الناس، ألا يسرفوا فى رخاء حتى لا يقحطوا إذا اشتدت من بعد.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى ذكر القصص بذكر الرؤيا التي رآها، وهو غلام، ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤).

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية البصرية، فهي رؤيا فى المنام، لقول أبيه له فيما قصَّ القرآن الكريم: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾، الرؤية تكون رمزا لأمور مغيبة، فهذه الكواكب أحد عشر، رمز لإخوته وعددهم أحد عشر، وقد قال فى ذلك ابن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه، وهذا تأويل الرؤيا كما فهم يعقوب أبوه عليه السلام، والسجود هو الخضوع، وقد ظهر التأويل الصادق فى آخر السورة، وقد خضع لحكمه أبواه وإخوته.

وإن هؤلاء كانوا إخوته من أبيه، كما جاء فى حالهم عندما سألهم عن أخ لهم من أبيهم، وهو شقيقه فدل هذا على أنه مع إخوته الأحد عشر من أولاد العلات الذين تختلف أمهاتهم، ويتحد أبوهم، ولا يكونون متحابين كتحاب أولاد الأعيان أى الأشقاء، ويجد الشيطان فرصة لينزع بينهم.

وقد ذكروا أسماء الكواكب فى روايات لم تصح عندنا، ولا نحتاج إلى معرفتها؛ لأن المغزى متحقق، وهو أنه رأى هذه الرؤيا الصادقة، ورؤيا النبين لا تكون إلا صادقة، ويوسف عندما رآها كان غلاما، ولا يمنع ذلك من أن تكون صادقة، فإن صدق الرؤى ليس مقصورا على الأنبياء، إنما رؤى الأنبياء مقصورة على الصدق، رأى نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام، ما يحرك نفوس الإخوة، أن تثير هذه الرؤيا حسد إخوته الذين ليسوا أشقاء فقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

هذا درس حكيم لمن يكون له أولاد علات، يجب عليه أن يعلم أن الشيطان ينزغ بينهم بالعداوة ويزكى لهيب التحاسد بين الأولاد، فيجب عليه أن يمنع ما يوجب التحاسد، فوراء التحاسد التباغض، وعداوة القرابة تكون أشد إزراء^(١)، كما قال الشاعر:

(١) جاء فى القاموس المحيط (زرى): زَرَى عليه زَرِيًا وزَرِيَةً ومَزَرَةً ومَزَرَانًا، بالضم: عابه، وعابته.

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

لم يرد نبى الله يعقوب أن يذكر يوسف الرؤيا لإخوته وقال فى سبب النهى عن قص الرؤيا على إخوته ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (الفاء) تدل على أن ما قبلها وهو القصص سبب لما بعدها وهو الكيد، والكيد هنا هو التدبير السيئ الذى يسببه الحسد، الذى هو سلاح الشيطان، لذا قال بعد ذلك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أى إنه عدو لك وإخوتك، ولذا يغرى بينكم بالعداوة والبغضاء، وتكون الإساءة بدل الود.

وإن هذه القصة فيها آيات بينات دالة على النفس الإنسانية فى توادها، وبغضائها، ورعاية الله للضعفاء، والأخذ بأيديهم من المهانة إلى المعزة، وقد قال تعالى فيها، إن فيها آيات للسانلين.

وفى وقت هذا الحرص الشديد على منع يوسف من القصص على إخوته حتى لا يثير حسدهم، بشره بأن الله اجتباء لمكانة عظيمة، فقال مبشراً: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦).

الاجتباء افتعال من «جبي»، وهو الجمع للنفس، فمعنى اجتباك أى جباك لنفسه، واختارك سبحانه وتعالى، أى لتكون خالصاً لله تعالى، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى ما تضمنته الرؤيا، أى كهذه الرؤيا التى سجدت لك فيها الكواكب والشمس والقمر، يختارك الله تعالى لتكون نبيه ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، أى معرفة مآل الأحاديث فى الرؤيا، وفى الرؤية، فيعرف صادقها وكاذبها، ويتم نعمته عليك بالنبوة والملك والسلطان العادل ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إذ جعله خليفه، وصفيه وحبيبه، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ أى وكما أتمها على إسحاق بالنبوة وحباه من ذريته النبيين، وآل يعقوب هم إخوته وأسرته، وعلى رأسها أبواه.

وقد صحت نبوءة يعقوب التي فهمها من الرؤيا الصادقة، فقد أجلس أسرته على عرش مصر، كما تبين من آخر القصة، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

فى قصة يوسف آية للسائل

قال تعالى:

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ
 آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا
 أَيْنَا مَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا
 يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن
 بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ
 وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

هذا تدبيرهم الماكر، وقد ابتدأ الله سبحانه بالإشارة إلى ما فى قصة يوسف عليه السلام من آيات بينات فى تكوين النفوس والمجتمعات من أول الأسرة إلى المجتمع الإنسانى الأكبر الذى يجمع العناصر المكونة للمجتمع الكبير والمجتمع الصغير، وفى الأسرة والحي.

أول هذه الآيات بدءاً وظهوراً: «الحسد» الذى يعترى أولاد العلات أو أولاد الضرائر، وهو ظاهرة من الظواهر التى تبدو، ويحسب بعض الناس أنه داء لا علاج له، والسورة تشير إلى أنه داء، يمكن توقيه، وإذا وقع يمكن تحسين عواقبه، وأنه لا يصح لإبعاده، منع تعدد الضرائر، أو منع تعدد الزوجات.

ولكن السورة أشارت إلى أن الوقاية منه هو منع ما يثيره، بإظهار المتزلة العالية، لبعض الأبناء، وإظهار البخس للآخرين أشار إلى ذلك قول يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

وإن هذا الحسد ليس حسدا مستمكنا بحيث يبقى بين الإخوة ما داموا، بل إنه سرعان ما تقضى عليه المحبة التالية التي إن اختفت حيننا، فلن تختفى طوال الحياة، وسرعان ما تكون، وهي الباقية، والأصل، والحسد عارض لا يدوم، ألم تر لقاء يوسف بإخوته ذلك اللقاء الحبيب، وهم يقولون: ﴿... تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١).

والثانية: من الآيات النفسية. أنه لا يذهب بقوة الرجل غير الحزن الدفين المستكن في النفس، فهذا يعقوب الإنسان يُمضّ نفسه الحزينة، حتى تبيض عيناه من الحزن وهو كظيم.

الثالثة: أن البشر بعد البؤس، والسرور بعد الألم يرد إلى النفس ما أذهبه الحزن، فإنه لما ألقى على وجهه قميص يوسف ارتد بصيرا؛ لأن الحزن قد ذهب إلى غير أوبة، والسرور يفعل فعله في الجسم فيزيل ما فعلته الكآبة فيه.

الرابعة: أنه في وسط ثورة الباطل وحدثه في غلمان يعقوب وحسدهم لأخيهم وجد من يدعو إلى الرفق، ويستمع إليه، فقد اتفقوا على قتله، فجاء واحد منهم، وهم في حدة الحسد، وقال: ﴿... لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ...﴾ (١٠)، وهذا يوحى إلى أن كلمة الرفق لها استجابة في أشد الإخوة عنفا.

الخامسة: إن أشد ما يثير الحسد، هو الإيثار بالمحبة، فإن إثارة الحسد، لا تكون بالإيثار بالطعام أو الشراب وإعطاء المال فقط، بل إن الإيثار بالمحبة أفعل وأشد، ألم تر أولئك الغلمان يقولون: إن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا ونحن عصابة..

السادسة: أن الصِّبَا أقرب إلى حب الانتقام من كِبَرٍ في السن، فشدة الصِّبَا، معها شدة الجهالة وحب الانتقام، من غير نظر إلى العواقب، وأنت ترى صبيان يعقوب، وهم يحسدون يوسف قد بدَّله الله تعالى منهم رجالا يتحملون التبعات بعد أن أوشكوا أن يكونوا كهؤلاء أو كانوا.

السابعة: أنه لا يطفى الحسد إلا المحبة القوية المانعة، ألم تر أن المحبة التي كانت تنبعث من قلب الأب الرفيق الشفيق كانت تنهه من حدة الحسد فيهم، وقد بدا ذلك منهم عندما طلب يوسف أخاهم من أبيهم، فقالوا: ﴿... إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ...﴾ (٧٨)، فهل كانت هذه حالهم عندما أخذوا يوسف، وألقوه في غيابة الجب بعد أن أرادوا قتله.

وإن هذا يدل على أن حسد الإخوة مهما يكن مآله إلى زوال، وعوامل زواله أقوى من عوامل بقاءه.

الثامنة: أن الدعوة إلى الخير لا يصح أن يكف عنها المؤمن مهما يكن في حال من البؤس والألم، ألم تر يوسف الصديق وهو في السجن، لم تشغله حاله عن الدعوة إلى التوحيد.

التاسعة: أن السورة تصور النفس الإنسانية في انحرافها، واستقامتها، ألم ترها تصور امرأة العزيز وقد انحرفت عن الجادة نحو فتاها، وأنه شغفها حبا، وإن ذلك يدل على فساد القصور في هذا العهد، وألا ترى أن في هذا دعوة لأن يحتاط أرباب البيوت فلا يجعلون في خدمتهم جميلا؛ فإنهم يفسدون به نساءهم، ويفسدونهم، ويطمعونهم فيهم.

وإن هذه الحال من شغف امرأة العزيز بيوسف، وردّها، ومقاومة دواعي الهوى في شاب قوى فتى، يدل على أن الإرادة القوية الحازمة تكبح جماح الشهوة.

العاشرة: أن السورة تصور نساء الطبقة المترفة في ذلك العصر لقد كن يُشعن قالة السوء وينشرنها، غير ملتفتات إلى عواقب ما يقلن، وما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ذلك لا يزال خلق المترفات من نساء مصر، وخصوصا أهل القصور.

الحادية عشرة: أن الرؤيا الصادقة سبحة روحانية، وأنها تكون للمشركين كما تكون للمؤمنين، والإنسان ولو كان مشركا له روح، فقد رأى الفتيان صاحبا يوسف في السجن، رأيا رؤية كانت صادقة، فأولّ لهما يوسف الصديق الرؤيا، ووقعت كما أول.

الثانية عشرة: أن يوسف عليه السلام، كان علمه لدنياً من الله تعالى، فما تعلم على أحد، وما درس، فقد فصل عن أبيه في سن دون سن التعلم، وعاش عيش العبيد، وهو «الكريم ابن الكريم»^(١)، وقد علمه الله تأويل الأحاديث، وعلمه تدبير السلطان، وخصوصا وقت أن تعقد الاقتصاد وتأزمت حلقاته.

الثالثة عشرة: أن مصر كانت مصدر الخير، لأهل الشرق، فكانت مزرعته الذي يقصد إليها في شدائده.

الرابعة عشرة: أن أرض الله يفيض خيرها بعضها على بعض، كما رأيت ما أفاضت به مصر على جيرانها، وكيف كانت تميرهم، وتمونهم.

الخامسة عشرة: أن الله تعالى له عبرة في خلقه، كيف جعل ذلك الأسير الذي باعوه بثمن بخس لأنهم لا يريدونه - ملكا مسيطرا على مصر، ومن حولها من بقاع الأرض.

السادسة عشرة: أن سيادة العدل تأتي بالخير الوفير، وأن الظلم لا يأتي إلا بالشر المستطير.

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام». رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ... (٧)﴾ (٣١٣٨)، وأحمد: مسند المكثرين (٥٤٥٤).

السابعة عشرة: أن الصفح الجميل علاج كل الآفات الاجتماعية ما دام الصفح عن قوى.

الثامنة عشرة: أن العز الحقيقي يجب أن يفيض على الأحباب حتى من ظلم، ولا يُبخس لحق غيرهم كما فعل يوسف مع أبويه.

التاسعة عشرة: أنه يجب أن يخضع الكبير في سنه، لحكم الصغير في سنه ما دام عدلاً، وقد رأيت خضوع يعقوب ليوسف، كما قال: ﴿... وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا... (١٠٠)﴾ أى خاضعين؛ لا أنهم سجدوا له سجود الصلاة.

الآية المتممة للعشرين: شكر المنعم، كما فعل يوسف الصديق، فقد قال خاضعاً خاشعاً: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾.

هذا ما نراه في معنى الآيات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ (٧)﴾، أى للمتعرفين الذين يسألون عن معاني الحوادث وما ترمى إليه، وما تدل عليه.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى قصتهم بذكر ما جالت به صدور إخوة يوسف وما نطقت به ألسنتهم ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨)﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف للماضي، وقالوا إنه يتعلق بفعل محذوف تقديره «اذكر»، أى اذكر هذا القصص يا محمد. ﴿قَالُوا﴾، وهم الإخوة عن أخوتهم من امرأة غير أمهم، وقالوا كما صورته لهم العلاقة بين أولاد من أمين، وليس الأمر كما تصوروا وقد أكد لهم ذلك شبابهم، وانفصال نفوسهم عن أخويهم وقالوا مؤكداً: ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ وقد أكد لهم وهمهم أنهم أقرب حبا إلى أبيهم، وقالوا: ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ وأضيفوا جميعاً إليه للدلالة على أن

التسوية واجبة بينهم، وزعمهم أنه لم يسو بينهم، كما صورهم لهم وهمهم، وأكدوا أن يوسف وأخوه أحب إلى أبيهم، فعبروا بقولهم ﴿وَأَخُوهُ﴾، كأنه ليس أخاهم، ولكن الشر استحكم في نفوسهم.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى قوة نافعة له فى زرعه وضرعه، وكل حاجاته، ليستهوا بأن قالوا كما زين لهم الشيطان بسبب الحسد: ﴿إِنَّا أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى أنه بعيد عن الصواب بعدا بينا، وأكدوا ذلك الذى توهموه به ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة، واللام فى قوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾، والتعبير ﴿لَفِي﴾ فيه إشارة إلى أن الضلال محيط به إحاطة المظروف بظرفه، سيطر الشيطان على نفوسهم، فحرك الحسد إلى أقصى غاياته، فابتدءوا تديبرهم فقالوا:

﴿اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٩).

هذا تصوير للجريمة كيف يستدئ دخولها فى نفس من تسول له نفسه الإجرام، لقد زينوا لأنفسهم أولا أنهم الأجدر بالمحبة، وأنهم الأنفع، ثم اندفعوا إلى تديبر الجريمة وتنفيذ القتل، أو أن يطرحوه أرضا بعيدة عن العمران، فاتفقوا على أحد الأمرين إما القتل، وإما النفى، وتركه فى أرض الله.

ولكن واحدا منهم أبعد فكرة القتل، وقال: لا تقتلوه.

ومعنى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يكون خالصا خاليا من الحب الذى كان ليوسف، ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أى تستقيم حياتكم مع أبيكم، ويصلح أمركم مع أبيكم بعذر تعتذرونه، أو تتوبوا عن إثم القتل، ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، وهكذا تزين الجريمة، وتقرب التوبة.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٠).

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أبعاد أحدهم فكرة القتل لبقية من شفقة، ولا يريد أن يقتل أخوه بين يديه، ولا يريد أن يغيب في الأرض تائها فيها، ولكن يكتفى بأن يغيب عن أبيه، ويتركه لله عسى أن ينقذ، قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، وذكره باسمه لبقية من صلة تربطه، ﴿وَأَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، الغيابة ما يغيب عن الأنظار، غيابة الجب قاعه الذي يغيب عن الأنظار، ولا يستطيع أن يرتفع يوسف منه إلى ظاهر الأرض، والتقاط بعض السيارة له احتمالي، ولكن جعل قريبا، ولعله كان يرجو ذلك كبقية الإخوة مع حرارة الحسد، و﴿السَّيَّارَةِ﴾: القافلة السائرة في الصحراء، ثم يقول إن كنتم فاعلين، وإن هذا القائل، كان يرجو من بقيتهم أن يعدلوا، ولذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فعلق القول بـ﴿إِنْ﴾ الدالة على الشك دون القطع، ونحسب أنه كان يرجو ألا يفعلوا.

وقوله تعالى: ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ معناه يأخذه لقيطا، كأنه لُقطة لا مالك لها.

دبروا ذلك التدبير، وبيتوا لأخيهما الشر، وبقي أن يسيطوا أيديهم إليه، بأن يأخذوه من أبيهم.

وقال تعالى عنهم:

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ لَتُنَتِّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَ-
أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ
وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلْهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ
يَدٌ مِرْكَبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

كانت المرحلة السابقة مرحلة ظهور الحسد البغيض، والكيد والتدبير السيئ، وهذه المرحلة مرحلة التنفيذ بلا رحمة وبإحكام، ذهبوا إلى أبيهم يعتبون عليه بظاهر من القول أنه لا يأمنهم على يوسف، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ نادوه بالأبوة التي تجمعهم بيوسف، وأبدوا له أنهم يحذبون عليه ويحبونه، ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أى لاى سبب سوغ لك ألا تأمنا على يوسف، وهنا أدغمت نون (تأمن) مع (نا) ضمير المتكلمين، ﴿وَأِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ النصيح يتضمن الشفقة والإخلاص وإرادة الخير، وقد أكد الكاذبون نصيحهم له بـ(إن) وباللام، وبالجملة الاسمية، وكان هذا التوكيد لأنهم يريدون أن ينزعوا من نفس أبيهم ما يعتقد أنهم يحسدونه، فهم يقولون: إنا نحبه ونريد الخير، ولا نبغضه.

وبنوا على قولهم الذى أظهروا فيه الشفقة والحرص والمحبة قولهم: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١٢﴾ نرتع، أى نجرى مرحين فى خصب الأرض والمزارع، ومتسع الأفق، ويلعب معنا، وذكر ذلك بصيغة تدل على اتصاله بهم، وأنهم جمع واحد، يرتع ويلعب، فهو ليس أجنبيا عنهم، بل يرتعون معه، ويرتع معهم، وطمأنوا أباهم، فقالوا: ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وأكدوا حفظهم له

بـ(إنَّ) وباللام، وبتقديم حرف الجر (له)، للدلالة على عظيم اهتمامهم، وكريم رعايتهم، وليلقوا بالاطمئنان فى قلب أبيهم.

فأجاب الأب الشفيق الطيب، وقد كانوا فى مذابة من الأرض، يكثُر ذئابها، قال:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣).

بذلوا أقصى معسول للقول، وأكثرُوا من تأكيد المحبة، والإخلاص، ويكثر الكائد من قول يكون لإحساسه بأنه كاذب فى نفسه، ويحاول أن يستر ذلك على من يخاطبه.

وقد توجس يعقوب منهم خيفة، وقال معلنا خوفه بهاتين العبارتين أولاهما: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وفى هذه العبارة السامية يبين حزنه الشديد الذى أكده بـ(إنَّ) ولام التوكيد، وسبب الحزن هو مفارقتة، فذهابهم به يوجد فى نفسه حزنا عميقا، وذلك إمارة حبه الدفين الذى لا يستطيع معه فراقا، والثانية: قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فهو لا يحب أن يفترق عنه، ويخاف عليه من الذئب.

وهنا نقول: إن نبي الله يعقوب كان ينطق بفطرة الأبوة المحبة، ولكنه يخاطب من يريدون الشر ويفعلون، ويحاولون من بعد أن يلتمسوا المعاذير التى يرونها تدخل على نفس أبيهم فى يسر، ومن غير استئذان، وقد وجدوا الأب الكريم الطيب النقى، يسهل لهم معاذيرهم، وهو خوفه من أن يأكله الذئب، وهم عنه غافلون، فقالوا: أكله الذئب، فعذرهم الكاذب أخذوه من قول أبيهم الصادق، وعلموا أنه الذريعة إلى التصديق، وإخفاء ما بيتوا.

قالوا مسترسلين فى خديعة أبيهم، ومن يدبر الشر ﴿لَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أكدوا لأبيهم، أن حمايتهم له كاملة شاملة، لا يمكن أن

يأكله الذئب، وهو بينهم، و(اللام) فى قولهم: ﴿لَئِنْ﴾ هى الموطئة للقسم الدالة عليه، وأكدوا استبعاد أن يأكله الذئب، بالجملة الحالية ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى قوة مانعة حامية، وجواب القسم ﴿إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ﴾ إن كان ذلك نكون فى خسارة مؤكدة، وضعف، ولا يمكن أن يكون ذلك.

قبل الأب الكريم ما بدا من ظاهر قولهم، ولكنه لم يحس بالاطمئنان الكامل، لأنه كلام ليس خارجا من قلوبهم، بل هم كاذبون فى حقيقة أمرهم، والله ولى الباطن، وللناس - ولو أنبياء - ما ظهر.

أخذوه بعد أن أحكموا الخطه، ونجحت الخطوة الأولى منها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتيب على أخذه بعد إقناع الأب أن يأخذه، فلما أخذه، نفذوا فيه ما دبروا ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ معناه اعتزموا وأصروا على أن يجعلوه فى أعماق البئر، كما قرروا من قبل ودبروا، ويروى أنهم آذوه بالضرب والتكيل، وهو يستغيث، ولا يغاث حتى كادوا يقتلونه، ونبههم إلى ذلك من نهاهم عن القتل فى ابتداء التدبير، وفى هذه الشديدة، والألم المريع، ألقى الله تعالى فى قلبه الاطمئنان إلى المستقبل، وألهمه الإلهام الصادق بوحى الله تعالى أن المستقبل سيكون له، وأنه سينبئهم بأمرهم هذا، وفى وقت يكونون محتاجين إليه، وهو غير محتاج إليهم كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى آخر السورة، وهم لا يشعرون بهذا الإلهام الذى كان وحيا إلهاميا.

بعد أن أتموا ما دبروا من إثم قاتل، وإن لم يأخذ صورة الذبح عادوا إلى أيهم باكين حقا، أو متباكين لستر ما دبروا، ونحسب أنه بكاء؛ لأن الاندفاع إلى الشر لا يمنع الإحساس بالألم عند وقوعه، ودم الإخوة لا ينقطع، بل له عواقب أليمة بعد الفعل القاطع.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦).

أى أنهم قضوا النهار غائبين عن أبيهم، ثم عادوا فى العشية، يقول المفسرون: إنهم كانوا يتباكون، ولا ييكون، ونحن نميل إلى أنه كان ثمة بكاء حقيقى من بعضهم على الأقل، وهو بعض من الندم على ما ارتكبوا أو أثموا وقد أحسوا بفظاعته، وخصوصا عندما لقوا أباهم، فإن لم يكن لأجل يوسف، فلأجل أبيهم الثاكل.

قالوا فى بكائهم أو تباكيهم:

﴿... إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧) كانت المعذرة التى اعتذروا بها هى التى لقنوها من كلام أبيهم عليه السلام.

قالوا أمرين كاذبين:

الأمر الأول: أنهم ذهبوا يتسابقون، وتركوه عند متاعهم.

والأمر الثانى: أنهم قالوا: إن الذئب أكله، وما أكله ذئب، إنما أكله الحسد والحقد الدفين.

ولقد أحسوا بأنه لن يصدقهم، فقالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أى ما أنت بمسلم لنا ومؤمن بصدق قولنا، ولو كانوا صادقين، وادعائهم صدق قولهم هو أكذب الكذب.

وقد أحسوا بأن القول لا يغنى فتिला، إزاء الشك من أبيهم، ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أى بدم مكذوب، ووصف بأنه كذب، أى أنه دم هو كذب فى ذاته؛ لأن الدم ليس دم يوسف، بل هو دم غيره، من غزال أو نحوه، قالوا فى الروايات: إنه عندما أمره على وجهه أحس بكذبهم، وقال: ما رأيت كالיום ذئبا أحلم من هذا!! أكل ابنى، ولم يمزق قميصه. وهكذا كان ما اتخذوه دليلا على

البراءة كان دليلاً على ثبوت الجريمة، فهل يبقى القميص غير ممزق، وقد مزق الجسد وأكل، وهكذا نرى أن المجرم مهما يحاول الإخفاء، فإنه يبين دليل الاتهام من محاولة الإخفاء.

لم يصدق كلامهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ و﴿سَوَّلَتْ﴾ معناها سهلت، وزينت لكم أمراً خطيراً شديداً الخطورة، فالتنكير في ﴿أَمْرًا﴾ لبيان شدته، وبلوغ أقصى قوته، ثم قال: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾ والصبر الجميل هو الذى يليق بمقام النبوة، والصبر الجميل هو الصبر من غير أنين والشكوى مع الرضا بقدر الله تعالى، وما كتبه الله ورجاء كشف البلاء، ولذلك ما يئس قط من أن يعود إليه ابنه وحبيبه، ولو ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم.

وهو فى صبره المبرر يتجه إلى الله تعالى ويقول: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أى لا يستعان إلا وحده فى الصبر على ما يصفون من قول، ولم يقل على ما وقع، بل قال على ما وصفتم، للإحساس بأن ما وصفوا غير ما وقع.

والصبر الجميل، لا يمنع الألم المبرر، بل إنه لا صبر إلا إذا كان الألم الشديد، ولكن لا يجزع، ولا يفرط منه ما يدل على عدم الرضا بما قدره الله تعالى وكان.

وديعة الحب، وما جرى لها!!

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ
دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لَا مِرَاءَ ۖ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ

أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَشْخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

ألقى يوسف الحبيب في الحب، وسلمه إخوته وديعة لله تعالى، وإن لم يقصدوا، ونرجح بمقتضى طبائع النفوس أنهم لم يكونوا جميعا مستريحين لهذه الجريمة بل روى أن واحدا منهم كان غائبا، فلما أخبر ذهب إلى الحب، ولكن السيارة كانت قد التقطته، وإنه لا يمكن بمقتضى الطبيعة الإنسانية أن يرتاح المجرم بعد جريمته، وخصوصا أنها كانت على أخيهم، وجريرتها كانت على أبيهم الشفيق.

ألقى في الحب، وقد ألقى الله في قلبه الاطمئنان بإلهام الله تعالى والرضا بقضائه وقدره، ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ قافلة ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذى يتكشف لهم الماء ليرده، ويملا لهم ما يسقيهم، فتعرف هذه البشر التى يقر فيها يوسف نتيجة الحسد، ﴿فَادَلَّى دَلْوَهُ﴾، أى أرسل الدلو إلى ماء البئر فتعلق به الغلام الذى أريد له الضياع - أو الموت أيهما أسبق - بالدلو فبدل أن يخرج ماء وجد غلاما جميلا، فقال: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾، استبشر به، وكان وجهها صبوحا مشرقا، وقال: ﴿يَا بُشْرَى﴾، يناد البشرى من فرط فرحه، أى أقبلى فهذا وقتك.

أسرته القافلة كلها، وعدوه بضاعة يتجر فيها، تباع وتشتري، ويجرى من ورائها كسب، ولم يكونوا راغبين فى بقاءه بينهم؛ لأنهم لا يكون معهم إلا من يعمل معهم، وغلام يحملونه ويغذونه قد يكون عبثا عليهم، وهذا معنى قوله تعالى حكاية عن حالهم ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، زهدوا فيه ولم يرغبوا فى

إقامته معهم، وحملهم إياه، ولذلك باعوه بيع من يرغب عنه، لا من يرغب فيه، وفي اقتنائه، إن صح هذا التعبير بالنسبة لنبي الله تعالى.

ولذا قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ لأنهم كانوا فيه زاهدين، وشروه هنا معناها باعوه؛ لأن «شَرَى» تستعمل بمعنى البيع، وبمعنى الشراء، وعندما تكون بمعنى البيع يكون التعبير بلفظ الشراء تكون فيه دلالة على الزهد فيه، وتركه، وعبر سبحانه عن الثمن بأنه ﴿بَخْسٍ﴾، أى مبخوس غير مرغوب فيه، وأكد البخش بأنه ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، وليست دنانير، وبالدراهم التى تعد، وذلك فى قليل الدراهم، أما الكثير فيكون التقدير بالوزن.

باعوه لأحد المصريين، وقد ابتداء الفرج، وابتداء يلقاه من يرغب فى بقاءه، لا من ينفر منه، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، أى أكرمى إقامته، أى اجعلوه فى مقام مكرم غير مهين، ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أى عسى أن ينفعنا ببيعه أو بعمله، أو نتخذه ولدا، ويقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى كهذا الذى كان من أنه وجد بين من يحبونه، ولا يبغضونه، ويريدون له الحياة، ولا يريدون الموت: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؛ ليعيش معززا مكرما، ولو فى رق وأسر، ﴿وَلِنَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ لنعلمه: معطوفة على فعل محذوف هو نتيجة التمكين فى الأرض، ليعيش مطمئنا هادئا، ول يتمكن من العدل والإصلاح فى الأرض، ودفع أزماتها، و(اللام) لام العاقبة فى الفعل المذكور، والفعل المقدّر، و﴿الْأَحَادِيثِ﴾ هى الكتب المنزلة، أو ماثورات النبين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وتأويلها معرفتها، ومعرفة مآلها، وقد يكون من ضمن ما علمه الله تعالى تفسير الرؤى والأحلام، وقد كانت الطريق لتمكينه فى الأرض وإقامة العدل فيها.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ لا يردده شىء، ولا يرد قدره شىء، أرادوا له الضياع، وأراد الله له الكرامة فكان ما أراد الله، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يغتزون بما أوتوا من قوة، وما مكثوا، فيعصمهم ذلك عن حقيقة السلطان الإلهي، فلا يعلمون.

كان ذلك التعليم بإلهام من الله وهو صغير لم يبلغ أشده، ولما بلغ أشده آتاه حكمة وعلمًا بالأمور وتدبيرها، عندما تمكن من حكم مصر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾، وكهذا التكريم والتعليم نجزي الذين اتصفوا بالإحسان في أعمالهم وقلوبهم حتى صاروا خالصين لله تعالى.

وهنا نسأل أتناولته الأيدي بالبيع والشراء حتى وصل إلى العزيز، فاشتراه، أم أن الذي اشتراه ابتداء هو العزيز؟ الظاهر من العبارات أن المشتري الأول لم يكن العزيز، وإلا كان يذكر، والله أعلم.

المحنة النفسية

تنقل يوسف من محنة إلى محنة، لقد امتحنه الله تعالى بإرادة إخوته له الضياع، ثم امتحنه بالرق، وهو الكريم ابن الكريم وقد احتمل، ثم امتحنه بعد ذلك بمحنة لا يقوى عليها إلا أهل العزيمة، وهي فتنة النساء به، وخاف أن يصبوا إليه، ولذا قال تعالى:

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا

الْبَابِ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيَاسِيْدَ هَالِدًا الْبَابِ
 قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
 أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
 مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
 هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

راود من راد، فهو مفاعلة من راد، وأصلها تكرار الفعل مرة بعد أخرى،
 وهي الأخذ برفق ولطف وقوله: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾، أى أنها راودته فى نفسه، أو
 لتحوله عن نفسه وإرادته ليكون لإرادتها هى ورغبتها فيه، وإن هذه المراودة
 القولية، واللين والتلطف معه، لتحوله عن إرادة نفسه إلى إرادتها تبتعتها حركة
 عملية، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾، ولم يعد منفذ يمكن غيرهما من الاطلاع على ما
 تريد، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أى أقبل، وقوله: ﴿لَكَ﴾ أى النداء له، ولعله تغافل
 عنها أو لم يستجب ابتداء لكلامها، أو لم يفهم، فقالت: النداء لك، فلما علم ما
 تريد صراحة من غير مداورة ولا مواربة، صرح هو الآخر بردّها، وقال إنه لا يليق
 به فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أى الله معاذى وملجئى، أعوذ به من أن أفعل مثل هذا؛
 لأنه فوق فحشه، ليس وفاء لرب البيت الذى أكرمنى، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾،
 هذه الحماية تعليل لامتناعه عن هذه الفحشاء، أى لأن زوجها هو ربه الذى أحسن
 إليه فى مثواه أى فى إقامته فى بيته، فلا يخونه وإنه حينئذ، يكون خائناً وظالماً،
 ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾، لا يفوزون بخير قط.

وقد كان أدبه النبوى أن يتكلم عن نفسه، لترعوى هى فى نفسها، وتمتنع عما هى مقدمة عليه، فهو قد أكرمها، وأعزها وهى زوجه، وأجدر من فتاها بالوفاء.

ولكنها أصرت، وسارت فى الغى إلى أقصى مداه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤).

ومعنى ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ أى قصده وأرادته لنفسها، فالهمُّ بالشئ قصده، والعزم عليه، فهَمَّتْ به أرادت مخالطته فى هذه الخلوة التى أرادت، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جاء فى تفسير البيضاوى، والمراد بهممه بها عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى، وذلك عما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشاركة الهم، كقوله: قتله لو لم أخف الله ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فى قبح الزنى وسوء مغيبته لخالطها لشبق الغلظة ولا يجوز أن يجعل ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، جواب لولا، فإنها فى حكم أدوات الشرط اهـ.

وخلاصة كلام البيضاوى، وهو كلام الزمخشري أيضا، أنها بدأت له فى حال انفعال جسدى، وهمت بمخالطته وأثارت شهوته، وكان الشأن أن يهَمَّ بها وأن يقصد مخالطتها، ولكن فى هذه الساعة الحرجة رأى برهان ربه وأراد الفرار من سورة الشهوة، وليس فى ذلك ما يمس النبوة، بل هو يعليها، فليس الفضل لمن لا يزنى وهو غير قادر، إنما الفضل لمن كف عند منازعة الشهوة ومساورتها، وردّها، والاستقامة على الطريق.

دفعها عن نفسه، وتركها فشدت قميصه حتى قُدَّ من ورائه، واستبقا الباب، هى تريد الوصول إليه لتحكم إغلاقه، أو تسد عليه طريق الخروج، وهو يريد أن يسبق ليخرج طاهرا مطهرا.

لكن كانت المفاجأة ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ ، وبيديها المرأة حولت التهمة إليه ، وأرادت به سوء ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بدلت الحقيقة ، فاتهمت البريء لتبرئ نفسها ، وقررت العقوبة ، وهى السجن أو عذاب أليم .

ولقد نطق البريء وما كان لينطق لولا هذا الاتهام ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ هى تتهمة وهو يتهمها ، ويظهر أن ذلك الأمر شاع فى داخل الأسرة ، وأريد الفصل فيه بإعلان من تكون عليه التهمة لاصقة ، ومن يكون له البراءة فكان لا بد من حكم منصف ، فحكم بعض أهلها ، وإن لم يكن محايدا ، وقد حكم بالعدل ، فقرر أنه ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ﴾ أى من أمامه ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ، لأنها هى التى جذبتة لكيلا يفر من الاتهام ، ويكون هو الذى راودها ، وحاول ، ثم لما رفضت أراد الفرار ، فجذبتة لكيلا يهرب .

وإذا كان قميصه قطع من دبر أى الورا فمؤدى ذلك أنه أراد الفرار مما دعتة إليه ، وأرادت استبقائه لغايتها ، وقد ثبت أن قميصه قد من دبر أى من الورا ، وهذا قوله تعالى :

﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ ثبتت براءة يوسف ، واتهامها ، ويظهر أن العزيز كان قد أوتى حلما ، فلم يسارع إلى عقاب لها ، بل اكتفى بأن حكم عليها ، واتهمها بالكيد وتدمير الشر ، وإن هذا من النساء غير مستغرب .

ولماذا تساهل هذا التساهل؟ لعله عذرها لجمال يوسف ، ولإيمانه بعفته ، وقد يكون لبرود طبعه ، أو لقوة سلطانها عليه .

﴿وَشَهِدَ﴾ هنا معناها حكم ، كما يبدو من السياق .

طيب العزيز نفس يوسف، وقد كان له محبا، واتخذ له ولدا، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، أى عن هذا الإفك الذى أفك عليه، ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لَدُنْكَ إِنَّكَ كُنتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، أى الآثمين، وصرت فى صفوف أهل الإثم، لا أهل الصلاح.

إن الأمر لم يعد سرا؛ لأنه قد صارت محاكمة، ليعرف البريء من السقيم، وهذا موضوع من شأنه أن تتناوله الأفواه، وإن أخبار هذا الصنف سرعان ما يسرى بين النساء، وخصوصا نساء القصور.

الشائعة

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا
عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِءًا ۖ أَتَتْ
كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ
نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمُرُهُ يَكُونَا لِيَخْسَبَنَّ وَلَيَكُونَا
مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ
﴿٢٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾

أخذت الألسنة فى المدينة تلوك الخبر، وتحدث به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾، ما بين لائمة ومتعرفة، ومتمنية كشأن النساء، وقال سبحانه: ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ لبيان شيوع القول بين أهل المدينة، وقلن ﴿فَتَاهَا﴾؛ لأن الفتى هو العبد، وذكر ذلك لتصغير شأنها، وأنها تتحب إلى عبدها، وقالوا فى بيان تدللها به، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أى أصاب شغاف قلبها حبه، فيقال شغفه إذا أصاب شغاف قلبه، ويقال دماغه إذا أصاب دماغه، و﴿حُبًّا﴾ تمييز محول من الفاعل أى شغف حبه قلبها، ثم حكمن عليها بالضلال حكما صريحا، ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى ضلال بين واضح، والضلال هنا تنكب الصواب، والوقوع فى الهوى الذى لا يليق بها فهو لوم شديد لها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لما سمعت بأقوالهن اللائى يروونها أرسلت إليهن، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أى هيات ﴿لَهُنَّ مُتَكًا﴾، أى أقامت لهن وليمة أو نحو ذلك، وسمى متكنا تسمية للشئ باسم مكانه، وهى تصور التمتع الذى كانت فيه، ﴿وَأَتَتْ﴾ وأعطت ﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، ولعل ذلك كان موجب الوليمة أو ما يشبهها.

وسمّت قولهن مكرا؛ لأنهن كن يُشعنه، وكأنه تدبير السوء، ولأن بعضهن علمته من جانبها فما كتمن لها سرا، ولأنهن كن يوجهن اللوم إليها، ويتبادلن ذلك، وكأنه أمر يدبر، ولذا سُمى مكرا.

وبعد أن تهيأ المجلس، قالت ليوسف اخرج عليهن ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَهُنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾.

خرج عليهن، يتلألا فيه نور الحق، الجمال الذى كساه الله إياه، فأخذ أبصارهن وقلوبهن، وحسهن، فقلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى تنزيها له عن فعل البشر، وقوله ﴿لِلَّهِ﴾، لأنه هو الذى نزهه وكرمه، أو قلن كلمة التنزيه، لأنه خلق مثل هذا الملاك الكريم.

﴿ أَكْبَرْتَهُ ﴾، أى جعلته فى موضع الإكبار والشرف، ولذهولهن من الروعة التى تبدى بها جرحن أيديهن، وعبر سبحانه عن الجرح بالقطع؛ لأن الجرح كان بليغا، ولأن الجرح فى حد ذاته قطع لبعض البشرة، وقلن تلك الكلمة المعبرة عما فى نفوسهم: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ بهرهن حتى ارتفعت مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الملكية. ف﴿ إِنَّ ﴾ هنا هى النافية أى: ما هو إلا ملك كريم.

التفتت امرأة العزيز إليهن، وقد رأت الجروح تسيل بالدم من أيديهن، وما اعترى نفوسهن من إكبار له، واستهواء حتى حسبه ملكا كريما، وليس إنسانا من الطين.

قالت: ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ ﴾ وكأنها تقول مُصِرَّةً على غيها، فهل هذا، وهل كان يجوز أن تلمنى فيه، وقد قطعتن أيديكن، إذ رأيتهن عبر النظر، فما بال من تكون قريبة منه يطلع عليها نوره دائما؟!، لقد انكشف أمرهن، وصبون إليه فكشفت نفسه لهن، ولا ملام عليها، وكان حقا فى منطقها أن يعذرنها.

فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ كشفت كل ما كان خفيا، أو ما كان ينبغى أن يكون، وبلغت الغلظة أقصاها، ولم تعد المراودة والملاطفة، لأنه استعصم، أى طلب العصمة، وتمسك بها، وتحول الأمر إلى إكراه بالسجن، وتصغير أمره وشأنه فى القصر.

ولكن يوسف الأمين المحفوظ برعاية الله، والمحصن بحصن الإيمان، ارداد قوة فى الاستمسك بالعفة؛ وإنه إذا كانت المراودة والتلطف تدنى، فالإكراه يجافى ويبعد، وإزاء التهديد لجأ إلى ربه معاذه وملجأه قال: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٢).

قالت المرأة الشبهة المغتلمة، إما السجن، وإما الاستسلام لها، فقال عليه السلام: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾، وإذا كانت قد بلغ بها عنف

الشهوة أعلاها، فقد بلغت به العفة أقواها، ولكنه خشى بحكمة النبوة أن موالة المراودة والمعاودة إليها والتدبير لإسقاطه أن يؤثر في نفسه، فلجأ إلى مقلب القلوب، ومصرف الأنفس ﴿وَالْأَتَصَرَّفُ عَنْيَ كَيْدُهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى إن لم تصرف عنى تدبيرهن الخبيث، وإغراءهن المتوالى أمثل إليهن وأكن من الجاهلين، أهل الحماقة والفساد.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾.

أجابه سبحانه وتعالى إلى دعائه، والسين والتاء لتأكيد الإجابة، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أى تدبيرهن، وكان يأسهن من إجابته سهلا للانصراف عن الكيد بالمراودة والإغراء والتهديد، وإن لم تصرف عنه قلوبهن، إنه سبحانه هو العليم بكل الأحوال السميع لكل الأقوال يدبر كل شئ على مقتضى علمه وحكمته.

السجين البرىء

قال تعالى:

ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لَيْسَ جُذُنُهُ
 حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا
 إِنِّي آرَنْتِي أَغْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي آرَنْتِي أَحْمِلُ فَوْقَ
 رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
 بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
 مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾
 وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ

لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِ السِّجْنَءَ أَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِ السِّجْنَءَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

هبطت الفتنة في نفوس النسوة، ولكن صداها كان يتردد بين الناس، وخصوصا النساء، وقد آمن الملك بحقيقتين: غفة يوسف، وإغواء امرأته، وانضم إليها من كن يلمنها، وتشايح الخبر في المدينة، فرأوا أن من حسن السياسة أن يسجن يوسف ليعمل عامل الاستهواء، وليس الناس هذه السيرة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ أى العزيز ومن معه من أهل مشورته من بعد ما رأوا البيئات الدالة على مكرهن وإغوائهن مع التهديد ﴿لَيَسْجُنَنَّ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى أكدوا إرادة سجنه حيناً.



أى بدا لهم الإصرار على سجنه لمدة معينة، حتى ينسى الناس حوادث المرأة والنسوة اللاتى انضممن إليها، وقد أكدن هذا الأمر الذى بدا لهم بالقسم، ولامه، ونون التوكيد، ولكن السجن كان مؤقتا، وليس مطلقا كما ظهر من كلامهم.

وكان تأكيد السجن، لأنه لم يكن منطقيا أن يسجن وهو البرىء، ولكن لأنهم وجدوه إطفاء لهذه الشائعة التى هزت مقومات المجتمع، وأشاعت القول بالفاحشة - عن أكبر سيدة فى مصر، فكان التأكيد بالسجن ليقاوم منطق البراءة الذى يوجب الثناء وطيب الجزاء، بدل العقاب والإلقاء فى غياهب السجن.

حسنت الألفة بين يوسف الحبيب، ومن معه فى السجن؛ لأنه أليف بفطرته، ولأن الضعف يقرب ولا يبعد، ولأن محنة السجن جمعت بينهم، والمحنة تجمع، ولا تفرق.

رأى أحدهما أنه يعصر خمرا، أى يعصر عنباً يكون بعد ذلك خمرا، فعبر بالخمير باعتبار المآل، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزا، وتأكل الطير منه.

اقتضى حسن الصحبة أن يلجئا إلى يوسف، وقد توسما فيه الخير، فاتجها إليه قائلين: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى أخبرنا الخبر الخطير بتأويله أى بمعرفة مآله، لأننا نراك محسنا من المحسنين، أحسنا الظن به وأكدنا أنهما يريانه محسنا من المحسنين.

أجابهما يوسف، ولكن قبل أن يجيبهما دعاهما إلى الحق وإلى عبادة الله وحده، وأثبت ما يوجب نبوته، ونحسب أنه فى هذا الوقت بلغ كمال الرجولة، ولنجزئ الكلام فى المعجزة والدعوة.

أما المعجزة فقد قال ما يدل على أنه يتكلم عن الله تعالى، وأن الله تعالى يعلمه قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾.

التأويل هنا معرفة حقيقة الطعام، ومآله، وقال ليس ذلك بإعلام أحد، إنما هو من تعليم الله تعالى، ولذا قال: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، وإن ذلك إخبار

بالغيب بتعليم الله تعالى، وليس من ذاته، وإنه لا يعلم الغيب إلا الله، وما يعطيه الله تعالى، كما أعطى عيسى ابن مريم، إذ كان ينبتهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكان ذلك بعد يوسف بعشرات القرون.

وإن هذا يدل على أن الله تعالى قد بعثه نبيا على ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وقد كان قد بلغ أشده ليتحمل الرسالة، لقد تلونا من قبل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾ والنبوة هي الحكم والعلم.

قبل أن يؤوّل تقدم بالنبوة، ودعا إلى إبطال الشرك وإنكار البعث، وابتدأ الدعوة النبوية بأن ذكر نفسه قدوة لهم، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، وقد وصفهم بحالين سلبيتين إحداهما: أنهم لا يؤمنون بالله، بل يعبدون الأوثان، والثانية: أنهم يكفرون بالبعث، وأكد كفرهم بالبعث بتقديم (الآخرة)، على الكفر، وذلك لمزيد الاهتمام بالكفر بالآخرة، وبتكرار ﴿هُمْ﴾، وكان التأكيد لغرابته عند أهل العقول المدركة، فالعقل يوجب الإيمان بالآخرة؛ لأن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى، ولأن فيه سلوان لمن لا يدرك حظه في الدنيا، ولأنه يتفق مع العلو الإنساني.

بين أنه ترك أن يكون من ملة هؤلاء المشركين الكافرين باليوم الآخر، وبين بعد ذلك أنه لم يكن سلبيا، بل كان إيجابيا، ولذا قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ذكر هنا أبوه يعقوب، وجداه إبراهيم وإسحاق، وملتهم واحدة، وهى ملة إبراهيم الحنيفية السمحة: التوحيد، وقال: إنها المعقولة التى تدركها العقول المستقيمة، والدين الحق، ولذا قال: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا لبيان عموم النفى، أى من شىء وأى شىء، حجرا أو إنسانا أو زرعا، أو حيوانا، أو غير ذلك مما عُبد من دون الله، وإن التوحيد فضل وعلو بالنفس الإنسانية إلى مقام الإدراك السليم، ولذا أخبر تعالى عنه أنه قال: ﴿ذَلِكَ

مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ الإشارة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة غير الله تعالى أيا كان، فهو فضل الله إذ هداهم إلى عبادة المنعم وحده، وهدى الناس إليه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون المنعم بعبادته وحده، ثم بعد أن بين إيمانه وهدايته ليأتسوا، وجه الطلب إليهما، مبينا بالدليل القاطع أن الله وحده هو المستحق للعبادة ولا يستحقها غيره فقال: ﴿أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ هذا استفهام إنكارى توبيخى توجيهى فليس بمعقول أن تكون أرباب متفرقة ليس لها فضل المنشئ المنعم ليس لواحد منها ذلك، ولا لها مجتمعة قدرة، لا تنفع ولا تضر، وتكون عبادتها مع ضعفها، وعدم قدرتها، عبادتها خيرا من عبادة الواحد الأحد الخالق للكون وحده والقهار الغالب عليه، والذي لا يكون فى الكون شىء إلا بأمره.

ثم أخذ يبين بطلان الشرك المصرى، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

نفى وجود ما يسمونه آلهة، فهى فى حقيقة أمرها لا وجود لها وجودا حقيقيا، فضلا عن أن تكون آلهة معبودة وذلك حق؛ لأن قدماء المصريين كانوا يفرضون آلهة للزرع، وآلهة تتوالد، وتتقاتل، كلها فروض لا وجود لها فهى أسماء سموها وعبدوها، وتتابع أجيالهم على عبادة ليست إلا أسماء سماها أبوهم، وتبعوهم تبعية الوهم للوهم ما كان لها وجود ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، أى حجة تسوغ عبادتها، وإن الحكم والسلطان، والقدرة القاهرة ليست إلا لله خالق كل شىء ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وهو الجدير بالسلطان وحده ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وقد أمر ألا تعبدوا غيره، و﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أى الدين القويم الذى مع العقل والإدراك السليم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أى ليس لهم علم بالحقائق، بل تسيطر عليهم الأوهام الباطلة، التى تخدع العقول فلا تعلم، والمصريون القدماء كانوا خاضعين للأوهام، ولا تزال بقية منهم خاضعة للأوهام، وهم الذين لم يدخلوا فى دين التوحيد دين الله القيم.

وهكذا نرى نبي الله يوسف عليه السلام ابتداءً بإثبات معجزته، ثم نهى عن الشرك، ووجههم إلى الاقتداء بشخصه، وقد صاروا له حبيبين، ثم وازن بين الوجدانية وتعدد الآلهة، ثم بين لهم إلى أنه لا وجود لما يسمونه آلهة، وأن الدين القويم الحق الذى يوافق قضية العقل البديهية هو الوجدانية.

بعد ذلك اتجه لتأويل رؤياهما، وقد يقال إن دعوته إلى الوجدانية، كانت بين اثنين، ونقول: إن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ابتداءً دعوته بين زوجه خديجة، وصديقه أبى بكر، وعليّ وكان ابن تسع، ومولاه، ومكث مستخفياً بالدعوة بضع سنين، فالعدة لا تكون بكثرة العدد، ولكن بقوة الإيمان.

اتجه إليهما بعد ذلك الإرشاد قائلاً: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وقد كان الأول ساقياً للملك بعد ذلك، وروى أنه كان من قبل ساقياً، فاستمر فى عمله بعد أن اتهم بأنه دس فى الشراب سما، فتبين بطلان التهمة، فعاد إلى عمله بعد أن سجن، والثانى اتهم بأنه دس فى الطعام سما، وثبتت التهمة فقتل وصلب، والله أعلم.

مكث فى السجن حيناً، وهو يعلم أنه برىء والمكث يعلم ذلك، والنسوة يعلمن، فأراد أن يذكر الملك بنفسه فطلب ممن ظن أنه ناج أن يخبر الملك بذلك ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أى عند الملك، وسماه رباً مع أن يوسف نبي التوحيد، من قبيل رب الأسرة بمعنى راعيها، وحافظها، فنسى أن يذكر ذلك فمكث نبي الله بعد ذلك بضع سنين، وهذا قوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

وهنا ملاحظتان تتعلقان بالمنهج البيانى القرآنى

الأولى: قول يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، فعبر بالظن ولم يعبر بالعلم، تأدباً مع الله فى العلم بالغيب، فإنه وإن كان يقينا عند يوسف، ولكن طريقه لا ينتج إلا ظناً.

الثانية: فى كلمة ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، المعنى ذكره عند ربه، والإضافة لأدنى ملابسة، وقد مكث بعد ذلك بضع سنين، كان فيها داعية للتوحيد، وقد أنس به الذين كانوا يدخلون السجن، فدعاهم إلى التوحيد، وكانوا يدخلون متهمين من الملك أو غيره، ويخرجون مؤمنين مدركين، وكان بعضهم لأنسه بيوسف الصديق يرغب فى أن يعود سجيناً.

وكان يدعو - كما رأينا فى دعوته - صاحبى السجن أولاً، وفى هذا إشارة إلى استمرار دعوته إلى التوحيد.

والسجناء فى مصر كانوا فى أغلب الأحوال أبرياء وضعفاء، وأول من يستجيب للنبيين الضعفاء كما رأينا من بعد فى أتباع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وكما رأينا من قبل فى أتباع نوح عليه السلام، كما قال عن قوم نوح: ﴿... وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ ...﴾ (١٧) [هود].

الخلاص

قال تعالى:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
قَالُوا أَضُغْتُ أَحَلِمْتَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
فَارْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ

وَأُخْرِيَٰ بِسَبِّ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
 تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا
 قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
 مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي
 بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ
 النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
 مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
 مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ
 الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ
 لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾
 وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
 رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

ابتدأ الخروج من السجن، لأن نور النبوة خرج إليهم بعد أن اهتدى بنورها
 من اهتدى من نزلائه، وكانوا يودون أن يعودوا بعد أن يخرجوا أنسا بيوسف.

رأى الملك رؤيا صادقة، إن وصفت رؤيا من لم يكن موحدا - بالصدق،
 وإن لم تكن وحيا، رأى الملك ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، أى
 نحيلات لا لحم عليهن، ولا سِمَنَ فيهن، والعجاف يأكلن السمان، ورأى سبع

سنبلات خضر وآخر يابسات لا خضرة فيهن، وهى متجاورات، نادى ملاء، وهم شيعته الذين يحيطون به وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، يقال عَبَّرَ الرُّؤْيَا، أى جاء بما تدل عليه الحال النفسية التى دلت عليها من عبارة بينة موضحة، وقد تكون من عبور النهر بمعنى عبر النهر، أى بلغ نهايته، وهى هنا ما تنتهى إليه الرؤيا من حقائق قد تكون ثابتة، ومعنى ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾، أى اعبروا إلى هذه الرؤيا التى هى أمرى وحالى المستولى على نفسى المستغرق لها.

ولقد أجابه ملؤه مجهلين لحاله، وما يشغله، أو مسرين عليه، حتى لا يلج به الهم الغالب، وذلك هو الأقرب المعقول بين ملك وحاشيته.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤) ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ أَى أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، أى أحاسيس نفسية مختلطة، والأضغاث جمع ضغث، والضغث هو مجموع النبات من بقل أو حشيش، أو حزمة من العصى، كما قال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام إذ فدى يمينه من الحنث بضربه ببضعة من الحشائش والأخلاق. ﴿وَحَذَّ يَبِيدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤) [ص].

وأتوا الجواب بنفى قدرتهم على تأويل الأحلام، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ وما نحن بمعرفة مآل الأحلام بعالمين، أكدوا نفى علمهم بالباء فى ﴿بِعَالَمِينَ﴾، وكان تأكيد ذلك النفى لتأكيد أنه لا مدلول لها؛ ليطمئن بعد أن أصابه القلق الملقى بالهم والحزن.

عندئذ تذكر صاحب السجن بعد أن أنساه الشيطان، والحوادث يذكر بعضها ببعض إذا كانت متجانسة فذكرته رؤيا الملك برؤياهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) وهو صاحب الثانى

من صاحبي يوسف فى السجن، ﴿وَأَذْكُرْ﴾ أى تذكر، وأصلها اذكر قلبت التاء دالا، والذال دالا، وأدغمت الدال فى الدال.

والمعنى تذكر تذكرنا شديدا لاثما لنسيانه ما كلفه يوسف من أن يذكره عند ربه، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أى حين من الزمان، إذ لبث يوسف بسبب هذا النسيان سبع سنين، والبضع بين الثلاث والعشر، وقيل: خمس سنين، كان فيها هاديا مرشدا للمساجين، قال ذلك الذى نجا: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ بمعرفة مآله، ويظهر أنه أخبرهم بأن يوسف هو الذى سيعلمه، ولذا قال: ﴿فَارْسِلُونِ﴾، أى أرسلونى إلى السجن ليعلمنى يوسف.

ذهب إلى السجن، وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦)﴾.

﴿أَفْتِنَا﴾، أى بين لنا ما تدل عليه هذه الرؤيا، رجاء أن أرجع إلى الناس، ورجاء أن يعلموه.

قال يوسف فى تأويل الرؤيا: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾، أى دائبين مستمرين على عادتكم، ويجيئكم الخير سنة بعد سنة لا يتخلف، بل كل السنين سنين خير مستمر.

وذكر لهم نصيحة، وهى مقتضى الحلم فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾، أى ما قطعتم من عيدان الحبوب، ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، وبقاؤه فى سنبله يحميه من السوس، ويبقى لما يجيء بعد ذلك من سنين يابسة لا خير فيها لا تؤتى أكلا، وقال بعض المفسرين: إن هذه نصيحة، وهى غير الرؤيا، ونحن نرى أنها نصيحة حقا وهى صادقة، والرؤيا تشير إليها، إذ إن العجاف لا تأكل السماء إلا إذا ادخرت ثمرات السماء لتأكلها العجاف، والعجاف جمع عجفاء.

ويقول يوسف مما حكاه الله تعالى عنه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (٤٨) ﴿﴾ وصفت السبع اليابسة بأنها سبع شداد، لأنها تكون شديدة على الناس، إذ يكون الناس فيها فى شدة تضطربهم لإخراج كل ما ادخروا، ليدفعوا ضررها، ويأكل الناس فيها ما قدموه من قبل لها، وهياؤه لدفع شدتها، ووصفت السنون بأنها تأكل مع أن الأصل هم الذين يأكلون؛ لأن هذه السنين تكون سنين غير منتجة، فكأنها هى التى تأكل.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾، من أحصى بمعنى حفظ، وكأنه جعله فى حصن، وهو ما ادخروه ليكون بذرا للزرع فى مستقبل أيامهم.

بعد ذلك التفسير بشرهم بأن الأزمة التى تأزمت تنتهى بعد ذلك، وذلك بما علمه من غيب ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤٩) ﴿﴾، أى يغاثون من القحط، فيدر الله تعالى عليهم أخلاف الرزق، وفيه يعصرون العنب والزيتون وتدر عليهم الأبقار بالأنها.

ولقد بلغ الملك هذا التعبير، وهذا التبشير، فراعته ذلك، فأرسل إليه يحضر ليختص به: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَنِّي بِهَ فَلَمَّا جَاءَهُ الرُّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠) ﴿﴾.

طمأن الملك بعلم حقيقى مما علمه ربه، فأرسل إليه ليأتوه به، ولكن الكريم ابن الكريم لا يذهب إلا مبرأ من كل إثم، وإلا مبينا أنه كان مظلوما بهذا السجن، وأنه كان فريسة كيد النساء، وإن الله تعالى عليم بكيدهن.

طلب منه التحقيق فى سبب إلقائه فى السجن: قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ لقد كادوا لى ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ذكر النسوة اللاتى قلن ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تَرَاوَدُّ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾، وخرج عليهن فجرحن أيديهن، أسأله ما بالهن أى ما حالهن، ومآل أمرهن.

سأل عن النسوة، ولم يسأل عن امرأة العزيز، وهى التى كانت الأصل فيما نزل به، وقد أدخل السجن لستر الأمر ومنع الناس من أن يتحدثوا به، ويجعلوه ملهاة مجالسهم وسمهم، وذلك أولا لأن تحقيق مآل النسوة يجرُّ إلى الكلام فى امرأة العزيز؛ لأنه مترتب على ما كان من امرأة العزيز، وثانيا، لأنه لم يرد أن يفاجئ الملك بأمر يمس شخصه، فلم يذكره، لأنه نتيجة للبحث فى أمر النسوة، ولا يقوم هو بالاتهام إكراما للملك، فقد أحسن مثواه، ولكى لا يشنع عليها، ولكيلا يحرجه أمام الناس فى اتهام امرأته.

استجاب الملك لسؤال يوسف الصديق فقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ سألهن الملك ما الخطب الشديد الذى ظهر منكن، إذ راودتن يوسف عن نفسه، فأجبن بالنفى عن أن يوسف بوصف فيه سوء، لأنهن ما علمن عليه من سوء فاكنتين بالرد ببراءته، ولم يتعرضن لأمرهن ومعنى ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيها له لأجل الله تعالى، مع التعجب من عفته وبراءته.

هذا ما كان منهن، وموقفهن فى هذا المقام سلبى، أما امرأة العزيز فقد تحرك ضميرها، ونفسها اللوامة، فقالت مخبرة بالإيجاب بالنسبة لها وله ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ اشتمل كلام امرأة العزيز على ثلاثة أمور كلها إيجابى، وليس سلبيا.

الأمر الأول: قوله: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أى الآن ثبت الحق واستقرت الأمور، وعرفت على حقيقتها، وحصحص: معناها استقر الحق، مأخوذ من حصحص البعير إذا أناخ فى مباركه واستقر.

الأمر الثانى: إقرارها بأنها راودته عن نفسه.

الأمر الثالث: أن يوسف كان هو الصادق عندما قال: ﴿... هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي... (٢٦)﴾ وكان قولها موافقا تمام الموافقة لما انتهى إليه الحكم الذى كان من أهلها، وقال إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٢).

الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قول امرأة العزيز، ولكن الضمير يعود إلى مَنْ في قوله: ﴿أَخُنْهُ﴾، أيعود إلى يوسف، أم يعود إلى الملك؟، إن قلنا: إن الكلام كلام يوسف يعود إلى الملك، أى كانت تلك المجاوبة ليعلم أنى لم أخنه فى غيبته، وأنى كنت أمينا على شرفه وعرضه، وإن الله تعالى لا يهدى كيد الخائنين، أى لا يوفق تدبير الخائنين، ويقول تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

هذا على أن هذا القول جاء على لسان يوسف، وهو تخريج الزمخشري، ويصح أن يكون ذلك استرسالا لقولها، ويكون على مع هذا التخريج، ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب، وأنى اتهمته وأصررت على الاتهام، وهأنذا أقر بالحق أمام زوجى وأمام الناس وأنا ما أبرئ نفسي، إن النفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربي إن ربي لغفور رحيم.

وانى أميل إلى أن ذلك من كلام يوسف عليه السلام تبرئة لنفسه أمام العزيز، ولأن قوله ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هى التى تليق بمقام النبوة، وقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فيه إشارة إلى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ...﴾ (٢٤) وفيه إشارة إلى جيشان الغريزة، ثم كفها، لما رأى برهان ربه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تمكينه من ولاية مصر

قال تعالى:

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ

لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥١﴾ قَالَ

أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۖ وَكَذَلِكَ
 مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
 بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ
 الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ
 يُوسُفَ فَأَدْلَوْا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
 جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ
 أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا
 كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا اسْرِئِدْ عَنْهُ أَبَاهُ
 وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

من غيابات السجن إلى ملك مصر

سار بهداية الله، وتحت عين الله ورعايته من الجب حتى قال الملك:
﴿ أَتُنُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾، أى أجعله خالصا لنفسي أوسد إليه من الأمور ما
أصلح به أمرى، وهذا يدل على أن ملوك مصر حتى فى عهد الفراعنة، يتخيرون
الرجل ليضعوه فى المكان الذى يصلح به الأمر، لا كطاغية ظهر فى عصر، يعطى
الأمر غير أهله، ولا يختار من تكون له كفاءة خاصة.

اختار يوسف ليكون بجواره، فلما كلمه، قال: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
أَمِينٌ ﴾، ومكين أى ثابت لك مكانة وممكن فى الأمور تأمّنك على كل شىء.

ويوسف الصديق عليه السلام عرف مما علمه ربه المكان الذي يستطيع به إصلاح الأمور، وعرف مما عبر من رؤيا تعلم تعبيرها من الله كيف أمر اقتصادها ولذا قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى إنى أحفظها من الضياع، فلا يختلس فيها مختلس، ولا تضيع فيها الأمانات، ولا ينفق منها إلا فى موضعه، ولا يبذر فيها، ولا يقتتر فى مواطن الإنفاق، وعليم بما يصلح وما لا يصلح، وبوجوه الحاجة، وبوجوه الإسراف، فلا يخرج مال إلا بحقه، ولا يجمع إلا بحقه، وقوله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ فيه طلب جعله واليا على أموال الدولة، و﴿الْأَرْضِ﴾ المراد بها أرض مصر.

إن هذه المكانة التى وصل إليها يوسف، الفضل فيها لله وحده، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦) التشبيه هو بين الحال التى تنقل فيها يوسف من الحب والرق والتحكم فى مشاعره، حتى كان كل أحاسيسه ملنكا لمن كان عندها، حتى صار حاكم مصر، أخصب المناطق فى عصره. وإرادة الله تعالى التمكن، أى كهذا الذى رآه القارئ فى القصة كان تمكين الله ليوسف عليه السلام، فهذا التشبيه يفيد أن ما كان ليوسف فى هذه الأدوار كان بتمكين الله.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى نجزي الذين يتصفون بالإحسان، والإحسان يقتضى استقامة العقول، وإخلاص القلوب، والقول الطيب والعمل الصالح، وغير ذلك مما يدخل فى معنى الإحسان، وهذا جزاء دنيوى مداره التوفيق فى القول والعمل. وفى الآخرة خير منه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧) (اللام) لام التوكيد، والآية الكريمة تبين أن أجر الآخرة خير من هذا الذى رأيناه ليوسف الصديق عليه السلام وإنما يستحقه من كان فيه وصفان:

الوصف الأول: الإيمان، فقال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقد أطلق الإيمان، ليشمل الإيمان بالله تعالى، وهو رأس الإيمان، والإيمان بالحق، والإيمان

بالفضائل، والإيمان بحقوق الناس وحماية هذه الحقوق، ويصح أن نقول إن الإيمان بالله تعالى يتضمن هذا كله.

الوصف الثاني: التقوى، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أى استمروا على التقوى، والتقوى استشعار خشية الله تعالى، وأن يجعلوا بينهم وبين المفسد أيا كانت وقاية من الاندحار فى مخازى الشيطان.

اللقاء

لقى الإخوة أخاهم فى الحب، ثم كذبوا على أبيهم وصاروا لا يعلمون من أمره شيئا، وما كان يجول بخاطرهم أنهم سيلقونه ملكا حاكما، يمدون أيديهم طالبين منه العون، ولكن ما لم يكونوا يتصورونه كان أمرا واقعا رأوه، ولم يعرفوه؛ لأنهم تركوه غلاما صغيرا، ولكنه عرفهم، وهذا قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)﴾.

ولقد صدق بهذا اللقاء إلهام الله تعالى فى وحيه إذ قال تعالى: ﴿... وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ معناه أنهم لم يعرفوه، والنفى مؤكد، بكلمة ﴿هُمْ﴾، وبالوصف، فحالهم حال إنكار مؤكد وذلك لطول العهد، وتركهم له وهو غلام، وقد صار رجلا مكتملا، وليوهمهم أنه هلك، والفارقة الكبيرة بين حاله إذ رموه فى غياهب الحب، وحاله وهو جالس على عرش مصر، أو قريب منه، لذا لم يعرفوه.

وقد روى الكتاتون فى قصص الأنبياء أنه صار وزير الملك، وجعل على خزائن الأرض وأقام العدل، والعدل ذاته فيه نماء، واجتهد فى تنمية الثروة المصرية، فأكثر من الزراعات، وضبط الثمرات والغلات وادخر ما ادخر لسنى الجذب على النحو الذى شرعه فى تفسير الرؤيا، ولما جاء الجذب، وكان يعلم ذلك بتعليم من الله، عم القحط مصر، وتوجه الناس إليه فباعها بالدرهم والدنانير

أولاً، ثم باعوا حليهم وجواهرهم ثانياً، ثم باعوا أنفسهم ثالثاً، ولكن نبى الله أعتقهم بتفويض من الملك.

وقد وصل القحط حيث تقيم أسيرة نبى الله تعالى يعقوب فأرسل ولده يمتارون من مصر التى كانت وحدها بفضل تعليم الله تعالى لابنه هى التى يمكن أن تكون فيها الميرة.

كان يوسف هو الذى يتولاها، فأعطاهم ما طلبوا، وطلب منهم طلباً وقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ﴾، أى ملأ ما معهم من جهاز، وأوفر ركائبهم بما طلبوا، طلب أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم، وهو شقيقه وهذا قوله تعالى: ﴿قَالَ اثْنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، أى خير الذين يكرمون الضيوف، وينزلونهم فى أحسن المنازل.

ثم هددهم بأنهم إذا لم يحضروه، وكان فى شوق إليه، وفى جمع الشمل، وهذا من دوافعه ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

﴿قَالُوا سَنَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾، أى سنلطف بأحسن القول مع أبيه، أكدوا أنهم فاعلون ذلك وأكدوا ذلك ب (إن)، وبالجملة الاسمية.

ولكن يوسف ما نوى أن يمنعهم من الكيل، ولكن أظهر لهم ذلك، ولذلك قال لعبيده: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾، أى فى ركائبهم، فقال تعالى فى ذلك: ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ انقلبوا معنا هنا وصلوا، والرحال جمع رحل، وهى ركائبهم، رجاء أن يعرفوها ورجاء أن يرجعوا إلينا بما وعدوا به.

ونرى هنا أن يوسف الذى كان رفيقاً بأهل مصر، كان رفيقاً أيضاً بإخوته وأبيه، فلم يؤخر عنهم الميرة، بل عجلها لهم، وإن أوهمهم أنه يؤجلها حتى يعودوا إليه مع أخيه.

هل آمنكم عليه!!

قال الله تعالى:

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْدُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ
قَبْلُ فَأَلَّهٗ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئِيعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَئِيعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
آخَانًا وَنَزِدَا دُكَّيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْدٌ يَّسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مِن مَّوْثِقَائِي مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا
أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّاءَ اتَّوَّهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

أرادوا أخذ يوسف من أبيه ليكيدوا له، وكادوا ما كادوا، وهذه المرة، أخذوا
أخيه لا ليكيدوا له، ولكن ليميروا لأهلهم، تشابه الموقف في الظاهر، واختلف
الباطن، ويشترك القصص القرآني الصادق في مجراه.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعْ مِنَّا الْكَيْلَ﴾، الكيل المراد به المكيل، فهو مجاز لتلقى الاشتقاق، وذلك لإحضار أخينا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانًا﴾ أو نقول: إن الكيل على حقيقته، أى منع أن يكال لنا، و﴿نَكْتَلُ﴾ معناها يكال لنا، ونكتل مجزومة فى جواب الأمر، ﴿وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ وعدوا وأكدوا الوعد بـ (إن) واللام، كوعدهم عند أخذهم ليوسف، ولكنهم كانوا كاذبين، وهنا كانوا صادقين، فتشابهت ألفاظ الوعد، واختلفت الحقائق فيها، وإن الأحكام على الأقوال تؤخذ من الظاهر، ويقاس فيه الحاضر بالماضى، وقد كان ماضيهم فى يوسف يجعله يخاف من حاضره.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، وهو وقوع الأمن، أى ليس أمنى عليه منكم، إلا كأمنى على يوسف منكم، وقد كانت نتيجة الأمن فى الماضى أن جثم تبكون، وتقولون أكله الذئب، فلستم أنتم الذين تحفظون أخاكم، ﴿قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وإنه إذ قال ذلك أبدى عدم ثقته بحفظهم أولاً، وعدم الثقة بما فى نفوسهم ثانياً، وبالنسبة للأول ترك الأمر لله فهو خير حافظاً، وأخذ موثقاً للأمر الثانى فقال: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوَّنَ مُوْتَقَاتًا﴾ كما ستتلو الآية كاملة من بعده.

وإنه فى أثناء مبادلة القول مع أبيهم بشأن أخيه، وجدوا بضاعتهم فى رحالهم، ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾، ففرحوا أشد الفرح، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾، ﴿مَا﴾ إما أن نقول استفهامية، ومعناها أى شىء نريده بعد ذلك؟، لقد طابت الأمور واستقامت. يطيبون بذلك قلب أبيهم ويدخلون فى قلبه السرور، ويصح أن تكون نافية، أى لا شىء نبغيه، فقد تحقق كل ما بغينا، ولا شىء بعد ذلك، لقد دفعنا الثمن، وتسلمنا البضاعة ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ويلاحظ أنه عبر عن أخذهم بالبضاعة بقولهم ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ولم يقولوا جاءتنا، وذلك لأنهم صدقوا

مقالة العزيز عندما قال: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ كأنها أخذت ثم ردها، كما يصنع الملوك خصوصا ملوك مصر.

وإن وجود البضاعة في رحالهم أحيت آمالا، فقالوا: ﴿نَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ فاطمأنوا إلى ذلك، ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، واعتزموا الوفاء لأبيهم، بحفظ أخيه، فقالوا: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾.

وأبوهم كان مكلوما من نتائج إعطائهم يوسف، فكان لا بد أن يحتاط لأخيه، حتى لا تكون النتيجة مثل ما كان بالنسبة ليوسف، بل أخذ عليهم ميثاقا كان نصه: ﴿لَتَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ كان الميثاق أن يأتوه به إلا أن يكونوا في حال إحاطة بهم، بحيث يغلبون على أمرهم، أو يكونون لا يطيقون فيها القدرة على المحافظة، ولقد قال بعد أن آتوه مَوْثِقَهُمْ ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، أى رقيب يعلم ما فى الصدور فيعرف نيتكم، وإرادتكم الوفاء.

ولقد كان نبي الله شقيقا بأولاده جميعا، ويخص يوسف وأخاه بحبه لصغرهما، إبان رمى يوسف فى غيابة الجب، ولذا قال لهم: ﴿يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لقد كانوا فى فخامة وكثرة، وقد أكسبتهم مقابلتهم الأولى مكانة، وقد خشى أن تصيبهم عين، أو يتدافع الجند عليهم، أو نحو ذلك، ثم قال: ﴿مَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أى ما أدفع عنكم من الله من أى شىء، ف ﴿مَنْ﴾ هنا لاستغراق النفى، أى أن احتياطه هذا لا يمنع قدر الله تعالى إن كان قدر لكم شيئا ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، أى ليس الحكم النافذ إلا لله تعالى، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أى عليه وحده توكلت، فلا أتوكل على سواه وعليه وحده فليتوكل المتوكلون، فهو السند، وهو العماد وحده.

لقاء الأحبة

وَلَمَّا

دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
 لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخِيهِ قَالَ
 إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
 فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
 أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا
 عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَقْضُ صُوعِ الْمَلِكِ
 وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
 ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا أَجْزَاؤُهُ
 مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
 ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ
 وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
 فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ
 وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾



دخلوا من أبواب متفرقة، وتمثلت في يعقوب النبی صورة الأب الشفيق الذي يخشى على أولاده من كل شيء، فإن الشفقة توهم ما لا يكون له حقيقة أو تكون له حقيقة ولكن بعيدة؛ خاف على أولاده أن يعانون، أى تصيبهم العين، فقال: ﴿يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾، ففعلوا استجابة للحنان الذى يغمرهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾، أى من أبواب متفرقة حيث أمرهم أبوهم مما كان لا يغنى عنهم من الله من شيء، أى لا يدفع عنهم دون الله تعالى من شيء، أى أن العين وأشباهاها لا تدفع بالدخول من أبواب متفرقة، إنما يدفعها الله إذا شاء ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾، هذا استثناء منقطع، على نظر الكثيرين من المفسرين، والحاجة هى الخاطر الذى خطر على فكر يعقوب، وصار فى حاجة لأن ينصح ولده بأن يدخلوا من أبواب متفرقة، وهذه الحاجة هى شفقتة على أولاده، وخوفه من العين تصيبهم، كما أشرنا، ومن المفسرين من أنكر خوف العين، على مثل نبى الله يعقوب عليه السلام، وقال: إنه الخوف من الملك إذا رآهم وأولادهم جميعا فى أبهة وفخامة أن يبطش بهم، والحاجة تحتل الأمرين، وربما كان يرشح للثانى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ من الحكمة والنبوة فلا يغنى عن الله شيء وإنا نميل إلى هذا.

ورشحه أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل يسيرون وراء ما يتوهمون، وإن لم تكن له حقيقة ثابتة، والله أعلم.

التقى يوسف بأخيه الحبيب المحسود من إخوته كما حسد هو، وترتب على الحسد كيدهم له الذى أدى إلى وقوعه فى الرق ثم نجاته، وصيرورته عزيز مصر المنقذ.

التقى بأخيه فضمه إليه، وأسر إليه وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والأخوة هنا هي الأخوة بالمعنى الخاص، وهو أنهما شقيقان، ولأن حقدهما عليهما جعلهما ينحازان في منحاز واحد، كما أراد الإخوة الكبار، وتذهب به شفقتة، وما أنعم الله تعالى به عليه إلى التسرية عن نفس أخيه بقوله ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أى فلا تدخل على نفسك البؤس والحزن بما كانوا يعملون، أى بما استمروا على عمله من إثارة للحسد والحقد، عملوه معى وكانت عاقبته ما ترى لى، فقد آلت عاقبة فعلهم إلى أن أكون عزيز مصر، وما يفعلونه معك لا تتصوره أن تكون عاقبته شرا، فعاقبته لك خيرا.

وكأنه أسر إليه بالاطمئنان إزاء ما سيفعله معهم، لا إرهابا ولا انتقاما، فمعاذ نبي الله أن يكون منتقما جبارا، ولكن ليقى أخوه فى ظله، وليستمع كلاهما بالأخوة الرفيقة القرية، كما سيتبين من الآيات.

جهزهم بجهازهم الذى جاءوا طامعين أن يزيدهم كيل بعير، وحقق ما يتغنون، ومكر بهم مكر طيبا، ليس خبيثا، ولا اعتداء كما فعلوا هم معه، فجعل الصواع الذى يكال به فى رحل أخيه، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وقوله: ﴿بِجَهَّازِهِمْ﴾ أى الجهاز الذى ابتغوه وأرادوه غير منقوص، وقد جعل السقاية فى رحل أخيه، أو وضعه فى الرحل الذى يحمل البعير المخصص له، ثم بحث عن السقاية، فتبين أنها غير موجودة، وأنها فى رحال القوم، فانطلق حراس القافلة منادين، وهذا معنى ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، أى أعلم معلما ﴿أَتَيْهَا الْعِيرُ﴾، أى أتيتها القافلة، وهو اسم الإبل التى عليها الأحمال، وهنا مجاز مرسل إذ أطلقت، وأريد راکبوها.

وفى وصفهم بالسرقة مع أنه لم تكن منهم سرقة، وما كان لنبي الله يوسف أن يكذب، ولو لخير، وقد أجيب عن ذلك بأنه لم يكن هو الذى وصفهم بالسارقين، إنما الحارس المنوط به حراسة حاجة الملك هو الذى قال ذلك، وإن كان

يوسف هو الذى وصفهم، فالوصف حقيقى، لأنهم سرقوا يوسف من أبيه، فكيف لا يسمون سارقين وقد سرقوا من الأب أعز ولد عنده.

والسقاية هى المشربة التى يشربون منها، وسميت هنا سقاية، وسميت من بعد بالصواع، لأنها استخدمت سقاية، واستخدمت للكيل، ولا مانع للمقتصد من أن يستخدم أمرا واحدا فى حاجتين مختلفتين، وخصوصا إذا كانت غالبية فى ذاتها، فقد قيل إنها كانت من الفضة أو نحو ذلك، والصواع لغة فى الصاع.

أجابهم العير ﴿مَآذًا تَفْقِدُونَ﴾، أى شىء ضاع منكم وتبحثون عنه؟ ﴿قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَآذًا تَفْقِدُونَ (٧١)﴾ جملة ﴿وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ جملة للحال، أى قالوا حال كونهم مقبلين، ماذا تفقدون، أى شىء ضاع منكم، وتبحثون عنه؟.

﴿قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)﴾ الضمير فى ﴿قَالُوا﴾ يعود على جماعة الملك الذين يبحثون عن الضائع، وكيف يتكلم بلسان حالهم واحد منهم، ولقد ذكر هذا المتكلم عنهم جائزة مكافأة عنها وهى كيل بعير، أى حمل بعير يكال لهم سماحا، وقد تعهد المتكلم عن جماعة المصريين الحاضرين فى هذا ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أى كفيل، فزعيم تطلق بمعنى كفيل وحميل، وضامن، وغيرها مما يدل على معناها.

كانت التهمة صريحة ابتداء، ثم هدأت للبحث عن المفقود، فتحايل المؤذن المتكلم باسم المصريين ليجد المفقود، وتخلّى عن الاتهام الذى ابتدأه وعرض المكافأة، وتكفل بها.

ولكن الاتهام الأول بالسرقة ما زال قائما.

ولذا رد إخوة يوسف الاتهام بقولهم: ﴿قَالُوا تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)﴾ دفعوا التهمة أولا بأن المصريين الذين يطيفون بالعزير علموا علما مؤكدا بحسن نيتهم، وأنهم ما جاءوا ليفسدوا فى الأرض، والسرقة

والاغتصاب وأشباهها من الفساد فى الأرض، وما كانوا ليفعلوه، ومن حول يوسف يعلمون ذلك علم اليقين.

وثانياً بأن السرقة لا تليق بهم، وليست من شأنهم، ولذا قالوا: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، أى ما كان شأننا ولا من خصالنا أن نتصف بوصف السرقة.

وقد أكدوا نفى التهمة بالقسم، وباللام، وبأن ذلك لم يكن مقصدهم ولا غايتهم.

لم يقبل من كان يتهمونهم ذلك النفى المجرد، ولا أن يكتفوا بهذا الاتهام المجرد، بل أردفوا الأمر بالتحرى ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾، أو ماؤا إليهم بالتحرى، وسألوهم الجزاء لمن وجد الصواع فى متاعه، ليكون الجزاء به برضاهم، ولا يكون فيه غمط لهم أو تجاوز للحد، أو الشطط فى زعمهم.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)﴾ أى جزاء هذه السرقة التى يستحقها من سرق، من وجد فى رحله، فالسارق هو الجزاء، ويظهر أن ذلك مبدأ كان معروفاً، وهو أن السارق يكون جزاء للمسروق بأن يملكه المسروق منه، ويكون عبداً له، ولذا قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، أى كهذا الجزاء لنجزي الظالمين. وإن استرقاق الأحرار فى نظير المال كان مبدأ مقررأ فى بعض عهود القانون الرومانى الذى جاء بعد ذلك بعدة قرون.

عَدُّوا الحكم على السارق إن كان، وهو أن يسترق فى نظير ما أخذ، فأخذوا يبحثون فى الأمتعة، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، أى أنه بمقتضى الحكم الذى قرره أن يكون أخوه حبيساً رقيقاً عند العزيز ومن معه، وذلك مبتغى يوسف، لأنه يريد أن يحتجز أخاه عنده مكرماً غير مهين، وتم له بذلك ما أراد. وذلك بتدبير الله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أى كدنا ليوسف هذا التدبير، أى دبرنا ليوسف مثل ذلك التدبير ﴿مَا

كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٧٥﴾ ودين الملك سلطانه وقدرته، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ نفى للشأن: ما كان من شأنه أن يأخذ أخاه عدلا في سلطان الملك إلا أن يشاء الله بأن يجرى على ألسنتهم ذلك الحكم، وهو أن يكون جزاء صواع الملك رق أخيه.

ويبين الله تعالى عدالته العامة في الناس ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ أى نرفع درجات ومنازل في العلو من نشاء، وقد رفعنا يوسف فوق إخوته، حتى احتاجوا إليه، ومدوا أيديهم طالبين منه الميرة والعون، وأعطيناه الملك والعزة والحلم وتبدير شئون الدولة، حتى صارت تمد غيرها، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وما من علم بتبدير الأمور إلا فوقه علم الله تعالى وهو فوق كل علم، وقد أحاط بكل شيء علما.

الرجاء واليأس والماضى

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ

فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ ۖ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ۖ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ۖ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ

الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
 ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يٰأَبَانَا إِنَّا بَنُكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ
 ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
 وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
 فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
 الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

استيقظ الحقد الدفين، فكذبوا على يوسف، وهو يخاطبهم، وهم فى
 كلاءته، وحمايته، فقالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وإذا كانوا قد
 سلموا بالسرقة، لأنهم قامت لديهم الظاهرة الدالة عليها، فلماذا كان الافتراء على
 أخيه، وهم الذين سرقوه من أبيه، والقوه فى الحب، ولكنه الحقد والحسد لم
 يقتلها الزمان، وأسرَّ ذلك يوسف فى نفسه، ولم يبدها لهم، كَرَمًا وهو القوى
 المسيطر ولكنه ليس جباراً، وليس حانقاً، لأن الله سبحانه وتعالى جعل النتيجة
 خيراً ونعمة له، وكانت بحكم الله تعالى التمهيد لذلك السلطان، فكيف ينتقم وإذا
 كان لم يُبَدَّ ما أسرَ فإنه وصفهم بوصفهم الحقيقى، وقال ما هو نفى للسرقة عن
 أخيه ونفسه ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾، أى أنتم شر منزلة عند الله لأنكم سرقتم
 أخاكم، وصنعتم السوء من غير جريرة من أبيكم ولا أخيككم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ علما
 ليس مثله علم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾، ولو كانوا يعلمون أنه أخوهم يوسف لأدركوا
 المغزى والمرمى من القول، ولكنهم لم يعلموا، ولم يتوهموا أن يكون هو يوسف
 والضمير فى ﴿فَأَسْرَهَا﴾ يعود إلى القرية أو الكلمة.

وبعد أن افتروا ذلك الافتراء إشباعاً لنهمة الحقد أخذوا يستعطفون يوسف، ويشيرون عوامل الرحمة في نفسه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) نادوه بالمنصب مهابة وإجلالا، وتقربا، وذكروا حالهم، وهو أن له أبا شيخا كبيرا قد تعلق به، وإن أى واحد منهم قابل لأن يكون فى الرق مكانه، ولكن يوسف عليه السلام لا يريد أحدا غيره؛ لأنه حبيبه فى باطن الأمر وفى ظاهره هو السارق، ويتخذ من الظاهر ذريعة إلى تحقيق الباطن، فباسم الظاهر يقول لإخوته: لا نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، فلا نأخذ غيره بجريرته، إنا إذا لظالمون، أى إنا معشر الحاكمين نكون إذن ظالمين، إذا أخذنا مكان الجانى غيره، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وكل امرئ بما كسب رهين، وقد أكد الحكم بالظلم على من يأخذ بدل الجانى.

ويلاحظ هنا أمران:

الأمر الأول: أن ينبوع الشفقة على أبيهم أخذ ينبع من قلوبهم، فقبلوا أن يكون أحدهم فى الرق بدل أخيه المحسود، رفقا بأبيهم، وللعهد الذى أخذ عليهم.

الأمر الثانى: أنهم نادوا يوسف بأنه العزيز، ويستفاد من الكلام أنه آل إليه أمر مصر، ويؤيد هذا أن أخبر الله بعد ذلك أنه استولى على العرش.

يشس الإخوة من أن يرجعوا بأخيهم إلى أبيهم، وقد صاروا فى حيرة من أمرهم، ودفعتهم الحيرة إلى أن تعود قلوبهم إلى ما كانت عليه، ولذا قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، أى انفردوا متناجين، ونجيا مصدر، والمصدر يستعمل فى معنى الجمع، وفى تناجيهم قال كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ﴾ الاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، ونفى النفى إثبات، والمعنى أنه عنفهم فى قوة قائلا لقد علمتم أن آباكم أخذ عليكم عهدا موثقاً بأيمان الله، ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾، أى من قبل إذ

فرطتم في يوسف، وألقيتموه في غيابة الحب، وهذا الكلام يدل على أن أخاهم الأكبر لم يكن راضيا عن فعلتهم مع يوسف، ويؤكد صدق الرواية التي تقول: إنه كان غائبا، إذ فعلوا فعلتهم مع يوسف، وأنه حاول أن يستعيده ويخرجه من الحب، ولكن السيارة كانوا قد أخذوه.

أبدى الكبير العهد، وأبدى استنكاره لتفريطهم في يوسف، وعبر عن فعلهم بأنه تفريط في حق الأخوة، واستهانة بالواجب نحوها، سيرا في طريق الحقد، والغنى، ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أى مصر، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

ولكن كما أشرنا انبعث فيهم ما كان قد اختفى من نفوسهم الحاسدة، فقالوا في نجواهم:

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١) وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢).

يتضمن هذا الكلام الذى حكاه الله تعالى عن سائر الإخوة مُفْرِدًا الكبير بكلام عاطف نابع من النفس اللوامة، وكلامهم هذا يشير إلى معانٍ:

المعنى الأول: أنهم استهانوا بالأمر، وأن الأمر لا يتجاوز أن ابنه سرق، وما عبروا بأنه أخوهم بل بأنه ابنه، وهى نعمة الافتراق الحاسدة.

المعنى الثانى: أنهم لم يقولوا اتهم بالسرقة، بل يقولون: إنه سرق، مؤمنين بذلك مستوثقين ومؤكدين، وذلك من بقايا حسدهم وحقدهم عليه.

المعنى الثالث: أنهم يؤكدون سرقة بثلاثة أمور:

الأمر الأول: شهادة القرية التى كانوا فيها وهى المدينة العظيمة بمصر.

الأمر الثانى: شهادة العير التى كنا فيها.

الأمر الثالث: تأكيد صدقهم، وكل هذا من انفعال نفوسهم بالحق الدفين على يوسف وأخيه.

ذهبوا إلى أبيهم، وقالوا تلك الكلمات التي تنبئ عن حقدهم، ولذا لم يصدقهم الأب الشفيق، ورد كلامهم قائلا: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٢) رد عليهم في أمر أخى يوسف، كما رد عليهم في أمر يوسف، و﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب برد كلامهم، وعدم تصديقه، و﴿سَوَّلَتْ﴾: معناها حسنت لكم أنفسكم أمر سوء، وإذا كان ذلك حقا في أمر يوسف فهو ظن في هذا الموضوع سوغه له ماضيهم مع أخيه، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أى فأمرى، أو فصبرى لا أئين فيه ولا شكوى لأحد من الناس.

ولكن الرجاء فى رحمة الله سابق إليه دائما، ولذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، أى يوسف وأخيه، ولعله قد انضم إليهم أخوهم الأكبر الذى لم يشترك فى تفریطهم فى يوسف ولأمهم بعد عودته، وكان غائبا وقد أكد رجاءه بأن يأتوا إليه مجتمعين غير متفرقين.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة، بما يقوى رجاءه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الضمير يعود إلى الله تعالى الحاضر فى الألسن المؤمنة دائما، العليم الذى يعلم كل شىء، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، الحكيم الذى يدبر الأمور بحكمته وعلى مقتضى علمه الواسع.

الأب الحزين الذى ابيضت عيناه من الحزن

قال تعالى:

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاسَفَى عَلَى

يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٦﴾

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُوْنَ حَرَضًا
 أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي
 وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٨٦﴾
 يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا
 مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُوْنَ ﴿٨٧﴾

زاد أباهم حزن إلى حزنه، لما عادوا إلى أبيهم من غير ابنه، فنكثوا جرحه القديم على يوسف، ولقد صور الله تعالى حاله عندما أنهوا إليه خبر ولده الثاني فقال تعالت كلماته: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوْسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤) أعرض عنهم؛ لأن إخبار أخبار السوء، تضر ولا تسر، فانكفاً على نفسه، والأسف الحزين الذى يملأ نفسه الحزن، ويستغرق حسه، وهو يقول ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوْسُفَ﴾، وهى جملة تصور ألمه وحزنه، وكأنه ينادى الأسف والحزن؛ لأن هذا وقته، وذكر يوسف مع أنه رزى رزءاً جديداً بولديه شقيق يوسف وولده الأكبر الذى كان يشاركه فى أحزانه وآلامه، وذلك لأن أمرهما معلوم، فهو يعلم أنهما على قيد الحياة، وأن أحدهما فى الرق، والآخر قد رضى مختاراً بالبعد، ويشاركه فى الأسف، أما يوسف الحبيب فأمره مجهول لا يدرى أهو حى أم ميت، وأهو فى تعب أم فى راحة فرزؤه فى يوسف كان عاقده المصائب، وكان غضبه آخذاً بمجامع قلبه، كما عبر البيضاوى^(١).

وقد اجتمع طول الأدهر التى مرت على يعقوب غربة ولده التى لا يعلم له مآل وقلق مستمر، وحنان وشوق شديد إلى رؤيته وبكاء مستمر، دائب، وحزن عميق مؤسف، وانقسام بين أحبابه وفلذة كبده، وكل هذه الآلام أثرت فى بصره،

(١) انظر البيضاوى - ج ٣ / ٣٠٤.

ولذا قال تعالى: ﴿وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى طوى نفسه على آلام مستمرة من أولاده الذين كادوا لأخويهم، ومن الحوادث التى باعدت بينه وبين أحبابه، وكظم الغيظ فى ذاته ممض، وملق بالبؤس فى نفسه، لولا ما امتلأ قلبه بالإيمان، ولولا الرجاء الذى يرجوه، والأمل الذى عاش عليه، والكظم أصله كظم البعير إذا ردها من فرقه.

أجابه أولاده فى ذكر آلامه المستمرة ﴿تَاللَّهِ تَفَتًا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ كانت الإجابة غير مخففة لآلامه، بل كانت مؤججة لها، كانت إجابة من لا يهتم بالأمر فى ذاته، والحزين يحتاج إلى من يشاركه فى الحزن، لا إلى من يلومه على حزنه، ويل للشجى من الخلى، والحرَض هو المريض الذى أشرف على الهلاك أو أذابه الهم والمريض.

والمعنى أنهم يؤكدون بالقسم أنه لا يزال يذكر يوسف حتى يؤدى به الأمر أن يكون فى مرض دائم مستمر يذيب نفسه، ويتهى بالهلاك لا محالة، و﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو.

قال لأولئك الذين يلومونه على حزنه، وهم سببه، ولا يحسون باهتمام لآلامه، بأنه لا يشكو حزنه إليهم إنما يشكو حزنه إلى الله ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦).

البث الهم العارض الذى لا يمكننى الصبر عليه، ويتشر فى كل نفسى، ويسدُّ على أسباب السرور، و(الحزن) ما يكون فى النفس من الآلام الدفينة، وقد كان حزنه على يوسف قديماً، وبثوا إليه همّاً آخر هو فى ولديه شقيق يوسف وكبيرهم، و (إنما) من أدوات الحصر، أى أنه لا يشكو همومه العارضة، وأحزانه الدفينة إليكم، بل يشكوها إلى الله وحده.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذه الجملة تحوى فى نفسه كل الرجاء الذى يرجوه والأمل الذى يأمله، وفيه دلالة على أنه يعلم أن الله كاشف كربته، مزيل

همه، وهو من علم الله تعالى، لا من علم أحد، يعلمه بالإلهام أولاً، وبرجائه فى الله ثانياً، ويرؤيا يوسف الصادقة ثالثاً، ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا له ساجدين، وتأويل الرؤيا أن يكون فى ظل يوسف، وهو فى عز مكين، وإن ذلك واقع لا محالة.

وقد بنى على هذا الأمل، وذلك الرجاء أن كلفهم بالبحث عن يوسف وأخيه، فقال كما حكى الله تعالى:

﴿يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) ناداهم بنداء الأبوة الكريمة العاطفة، طالبا منهم أن يذهبوا فى الأرض متعرفين أخبار أخويهم يوسف وأخيه، والذهاب إما فى بقاع الأرض باحثين، وإما إلى أرض مصر، والظاهر الثانى لأن شقيق يوسف كان فى مصر بلا نزاع، فالمعنى اذهبوا إلى أرض مصر ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، والتحسس التعرف بالحواس الظاهرة والباطنة، أى فتعرفوا الأمور عن يوسف وتتبعوا آثارهما وأخبارهما، ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه، ﴿إِنَّهُ لَا يَبْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، أى أنه لا يقنط من رحمة الله وفرجه إلا القوم الكافرون الذين إذا أصابتهم سراء طغوا فى البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وإذا أصابتهم ضراء، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ (٩) وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠) [هود] فرجاء نبي الله يعقوب فى لقاء يوسف لم يذهب أبداً.

جمع الشمل

قال الله تعالى:

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ
وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا

إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
 يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَءِتَكَ
 لَأَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ
 عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْرِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّاهُ لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
 وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾
 أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
 وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

طلب إليهم أبوهم أن يتحسسوا، ويتبعوا أثر يوسف وأخيه، ولا يئسوا من
 روح الله، ولعلمهم أطاعوا وأخذوا الأهبة، ليتعرفوا آثار أخويهم، وخصوصاً أنهم
 يذهبون لمصر للميرة، وهى مكان تحسسهم، فذهبوا إليها، ولقوا يوسف كبيرها
 ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا
 الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾ .

(الفاء) هنا تفصح عن كلام مقدر تقديره قصدوا إلى يوسف، فلما دخلوا
 عليه، نادوه بما يليق بمنصبه، وبمكانته التى صار بها عزيز مصر، وخاطبوه بذلك
 متلطفين طالبين عطفه ورفده ﴿مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ﴾ وهو الضرر الذى يصيب الجسم
 فى داخله، وذلك الضر الذى أصابهم سببه الجوع، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أى
 مردودة مدفوع عنها، لرداءتها وعدم الرغبة فيها، أى جئنا ببضاعة ليس من شأنها

أن تقبل، بل من شأنها أن تزجى وتدفع، ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وإيفاء الكيل ليس مترتباً على كون البضاعة مزجاة مدفوعة، إنما أيضاً الكيل مترتب على إصابتهم الضرر، أى بسبب هذا الضرر أوف الكيل مع أن الثمن الذى تقدمه بضاعة مزجاة.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أى تصدق بهذا الوفاء وبالإضافة عليه مع أن البضاعة التى جعلناها ثمناً رديئة تُرد ولا تقبل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، فاطلب حب الله، ولا تطلب عوضاً منا.

آن ليوسف الصديق الرفيق الشفيق الصالح أن يظهر شخصه مع ما من الله تعالى به عليه: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩) الاستفهام هنا تقريرى تذكيرى، وفيه إشارة إلى شخصه وقد أنكره ابتداء لانقطاع الخبر، ومرور الزمن، وتفريق ما بين رجل مكتمل وحدث صغير، وقد صار رجلاً سوياً، كان ذلك توجيهها لأن يرجعوا بالبصر كرتين، فرجموه، فتبين لهم أنه يوسف، فقالوا مؤكدين ومتأكدين: ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ وأكدوا أنه يوسف بـ(إن) المؤكدة، وبـ(اللام)، وبـ(أنت)، فقال لهم: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ ولم يكن ثمة حاجة إلى التأكيد، لأن التوكيد مظنة الإنكار، ثم يبين نعمة الله عليه وعلى أخيه ﴿وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قد تفضل الله علينا بمنه وأكرمنا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أظهر فى موضع الاضمار، فلم يقل إن الله لا يضيع أجرنا، وكان ذلك أولاً لوصف عملهم بالإحسان أولاً، ولأن الإحسان هو السبب فى من الله تعالى وعطائه، وثانياً للتعريض بما فعل الإخوة معه، وأنه لم يكن من الإحسان فى شىء ثالثاً.

يشد الإحساس بالخطأ إذ أظهرت النتائج غير الحسنة، ولذلك أحس أولئك الإخوة بظلم ما فعلوا فقالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١).

قالوا مقسمين على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الله أثر بالفضل والإحسان والتوفيق يوسف عليه السلام، فقد أعطاه النجاة من الموت والرق، والسلطان على مصر، خير بلاد الأرض تجاورهم، فكان هو ملكا عزيزا، وهم دونه، وأكدوا أن الله آثره: بـ (اللام)، و(قد)، وبـ (القسم).

الحقيقة الثانية: أنهم أحسوا بأنهم كانوا آثمين، ولذا قالوا: ﴿وَأِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة وإنه الحال والشأن كنا لخاطئين، والخاطئ هو الواقع في الإثم، أو الخطيئة، وقد أكدوا إثمهم أولا بـ (إِنْ) المخففة من الثقيلة، و(كان) الدالة على استمرار خطيئهم، و (لام التوكيد) ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ وهذا اعتراف خطير بالذنب، وهو أول خطوات التوبة.

ولكن الكريم ابن الكريم، النبي ابن النبي يعقوب، «وما زاد عبد بعفو إلا عزاً»^(١)، ويقول: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، التثريب، اللوم والتوبيخ، والرمى بالعار. وقد روى عن قتادة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إذا زنت أمة أحدكم، فليجلدها الحد ولا تثريب عليها»^(٢)، أى لا توبيخ ولا رemy عليها بالخزى حتى لا تصاب بالهوان، فتسهل الجريمة عليها، ومعنى ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، أنه فى اليوم الذى بدا نصر الله، وإعزازه لمن كنتم تريدون له الضياع أو الهوان، والرق، فإن ذلك يكفيكم عبرة، وبيانا لسوء مغبة أفعالكم، وأحقادكم، فلا توبيخ أكثر من معرفة النتيجة، ولكن بدل التوبيخ، واللوم محبة الإخوة، ومودة الأهل، ولذا قال بعدها، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، يطلب من

(١) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». رواه مسلم: البر والصلة والآداب - استحباب العفو والتواضع (٤٦٨٩)، والترمذى: البر والصلة (١٩٥٢)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٦٩٠٨).

(٢) رواه البخارى: الحدود - لا يثرب على الأمة إذا زنت (٦٣٣٤)، ومسلم: الحدود - رجم اليهود أهل الذمة فى الزنا (٣٢١٥).

الله تعالى المغفرة لهم مما أساءوا إليه، والرحمة بهم عامة، وهكذا يكون الصفح الجميل الخالي من المنّ به، واللوم على ما فعلوا، فاستجاب حقاً لأمر الله تعالى لأنبيائه ﴿... فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر]، ثم تلفت إلى أبيه وقد أعلمه الله تعالى بحاله، وكيف ابيضت عيناه من الحزن، فقال لهم: ﴿ذَهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وهذا دليل أن بصره قد ذهب من شدة الكمد والحسرة والأسف، وكثرة البكاء، وارتداد البصر من خوارق العادات، وهذا يوسف ويعقوب يرد الله على أيديهما البصر بعد ذهابه قبل عيسى الذي كان يرى الأكمه والأبرص.

وقد دعا يوسف الصديق إلى جمع الشمل بالمودة الواصلة، بعد أن فرقه إخوته بالحسد الغامر، وقال: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من تربطكم بهم قرابة دانية، وقرابة قاصية.

الغضبان والرحمة ولقاء الأب لابنه الحبيب

قال تعالى:

وَلَمَّا فَصَلَتِ
الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تَفْتَدُونِي ۖ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا
يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا

دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
 إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا
 لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
 رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ
 مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ
 رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ
 قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
 مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

كان صفح يوسف الجميل هو الخطوة الأولى لجمع الشمل، وما أشبه ذلك بصفح محمد ﷺ عن قريش الذين أخرجوه، وقتلوا أحبته من المؤمنين، من وقت مبعثه إلى فتح مكة، فاستمر الأذى عشرين سنة أو تزيد، ومع ذلك ما إن بعثهم، حتى قال مقالة يوسف: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١) وموقف محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان جليلا عظيما، يتعاضم بعظم ما ارتكبوا في جنبه ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [البقرة: ٢٥٣].

صفح عنهم يوسف، والتفت إلى أبيه الشيخ الحزين الأسيف، وكان أن أرسل القميص، وعادت العير إلى البدو حاملة القميص، وقد كان معطرا بعطر

(١) انظر ما رواه البيهقي في ذلك (١٨٦٤٧): ج ١٣ / ٤٣٩ . كما رواه النسائي في الكبرى (١١١٩٣): ج ٦ /

ملوك مصر، وقد قالوا: إن عبيقه شمه نبي الله يعقوب من نحو ثمانين فرسخا، وقد يقال إنه إلهام النبوة، جعله يشم رائحة يوسف من مكان بعيد، ويقول عليه السلام: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾، أى إلا أن تنسبونى إلى الفند، والفند نقصان عقل بسبب الشيخوخة، وما هى شيخوخة، ولكنها نبوة وشفقة أبوة. و ﴿لَوْلَا﴾ حرف شرط وتعليق، وجوابه محذوف، أى لولا أن تفندونى لصدقتم، ولأمتتم بالحق، وتقدير التفنيد لعقليتهم غير المدركة، لا للأمر فى ذاته.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (١٥)﴾، الضمير فى ﴿قَالُوا﴾ يعود إلى الحاضرين، ويظهر أن بعضهم ذهب فى العير للقاء عزيز مصر، وبعضهم بقى مع أبيه، أقسموا مؤكدين بأنه ليس فند الشيخوخة، ولكنه حال قديمة، وقالوا إنه ضلال قديم لازمك، ولذا أضافوا الضلال إليه عليه السلام، وهو زعمهم الكاذب فنبى الله تعالى مستحيل أن يكون ضالا، ومهما يكن فقد نفوا عنه فند الشيخوخة. وكل ذلك قبل أن يجىء البشير، ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾، ﴿أَنْ﴾ مؤكدة لمجىء البشير، وقد سمى بشيرا، لأنه بشر يعقوب عليه السلام بوجود ابنه، وقرب لقائه، ولأن معه ما يرد البصر إليه، وبمجرد مجيئه ألقاه على وجهه، و﴿أَنْ﴾ كما أكدت الشرط، وهو مجىء البشير، أكدت أيضا ترتيب الجواب على الشرط، ألقاه فور مجيئه، ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾، الفاء للعطف مع الفورية، وتلك خارقة للعادة كما أشرنا من قبل، وقد بين يعقوب بعد ذلك أنه لم يكن واهما، ولا ضالا عندما كان يقول لهم: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ وعندما كان يذكر لهم ما أعلمه الله تعالى، لذا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام لإنكار الوقوع مع التنبيه الشديد، داخل على النفى ونفى النفى إثبات، والمعنى لقد علمتم أنى أعلم من الله ما لا تعلمونه أنتم.

عندئذ أحسوا بجريمتهم الشديدة نحو أبيهم، إذ حرموه من ابنه سنين طويلا، وتركوه فريسة الشوق والحزن والأسى والبكاء مع الصبر الجميل من غير

أَنْبِيَاءَ لَأَحَدٍ مِنَ الْعِبَادِ، فَاتَّجِهُوا إِلَى آبِيهِمْ يَطْلُبُونَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ رَبَّهُ ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

لقد أحسوا بعظم الذنب، وهو أول طريق التوبة وندموا على ما فعلوا، وطلبوا المغفرة، وبذلك توافرت عناصر التوبة طلبوا من بعد ذلك أن يطلب أبوهم المغفرة؛ لأنه مع الذنب العظيم هو المجنى عليه، وهم يطلبون مرضاته، وفتح قلبه لهم وهو القريب إلى الله، ولذا لجأوا إليه، وعبروا به ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ آمين غير مدركين سوء المغبة.

فأجاب الأب الشفيق النبي الكريم: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾ ما فارق يعقوب نبي الله حنانه على أولاده جميعا، وإن كان يخص يوسف وأخاه بفضل من المحبة لصغرهما، وحاجتهما إلى العطف الأبوي ثم زادته غربة يوسف وجدا عليه ومحبة وشفقة، ولذا لم يلمهم، ولم يذكر ماضيهم معه، ومع أخيه، بل وعدهم وعدا مؤكدا بأنه سيستغفر لهم ف ﴿سَوْفَ﴾ لتأكيد الاستغفار المستمر في المستقبل ﴿لَكُمْ﴾، واللام لام الاختصاص، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأكد لهم الغفران بوصف الله تعالى بأنه الغفور، أى الكثير المغفرة وصف للذات العلية، وأن ذلك الغفران من رحمته، والرحمة شأنه وصفته الدائمة.

كان يوسف عندما طلب أن يوضع القميص على وجه أبيه ليرتد بصيرا طلب أن يأتوهم بأهله أجمعين ليكونوا معه فى عزة الحكم، وإن الكريم عندما يجتمع أهله بعزته ينال متعتين: أولاها متعة العزة الحلال العادلة لنفسه، ومتعة مشاركة أهله له فى العزة والسلطان؛ تلك هى الفطرة.

استجاب إخوته أو من جاءوا إليه منهم لرغبته، وأتوا بأهله، وفيهم الأبوان الكريمان، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ (٩٩)﴾، رحب بهم جميعا، وخص أبويه بفضل ترحيب، لما قاسا من الهول فى

غيبته، ولأنهما الأبوان، وهما أحق الناس بالإحسان، و﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ﴾ هنا معناها ضمهما، وأسكنهما في مسكنه ليتمكن من رعايتهما وحسن القيام على شئونهما، وليستمتعا بقربه بعد طول فراق، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، ودخول مصر منصب على الأمن، أى ادخلوا حال كونكم آمنين بمشيئة الله من الخوف والقحط والشدة، أو أن سيدنا يوسف استقبل قبيله شوقا ورغبة فى اللقاء خارج الأمصار، ثم قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ مطمئنين تجدون سهلا وأهلا وعزة وكرامة، وفى القصص إنها لم تكن أمه بل كانت خالته، وسميت أما كما يسمى العم أبا، ونقول: إن تعبير القرآن هو الصادق حتى يقوم الدليل على خلافه.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ إن السجود هنا ليس سجود الصلاة، وإنما هو تقديم الطاعة والخضوع للحكم والسلطان، ويصح أن نقول: إنه تحية وتكرمة لصاحب عرش مصر وهو يوسف، والخر - ومعناه الانحناء خضوعا وتكرمة وتحية.

وقال بعض المفسرين: إن الضمير فى ﴿لَهُ﴾ يعود على يوسف، والمعنى وخروا ساجدين لله شكرا على النعمة التى أنعمها على يوسف، وأن صاروا فى رحابه، وذلك معنى معقول فى ذاته.

وقال بعض المفسرين: إن الضمير فى ﴿لَهُ﴾ يعود لله تعالى، والمعنى خروا ساجدين لله كأنهم يصلون صلاة شكر لله تعالى، والمعنيان الأخيران نميل إليهما، ولا مضاربة بينهما، بل السجود فيهما لله.

أخذ يوسف يستمتع بالحديث مع أبيه، ويشيران ذكريات طيبة، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

قص يوسف على أبيه ما أصابه من شدة، ولكنه ذكر النعم التي أعقبت النقم، ذكر خروجه من السجن، ولم يذكر دخوله، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وذكر تأويل الرؤيا وغايتها، ولم يذكر ما كان بعد الرؤيا، وكان مستمتعا بنعمة الأبوة إذ يناديه ﴿يَا أَبَتِ﴾ وفيها ياء المتكلم قلبت تاء، حتى كان اللفظ نداء محبة.

ذكر اللقاء السعيد في هناءة وسرور، فقال: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾، أى جاء بكم من بدو الصحراء حيث لأوائها وشدائدها، وقبضها وريحها الرعاء الساخنة إلى ريف مصر وخصبها.

فهو يذكر النعم، والنفس المؤمنة تذكر النعمة وتشكرها فكانت نفس النبي الصديق ذاكرة للنعمة غير مبينة للشدة؛ لأن الأساس هو النتائج، لا الوسائل.

ولم تذكر قضيته مع إخوته إلا بالإشارة غير عائدة باللائمة عليهم، بل يكاد لا يخلو نفسه من ملام، فيقول: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أى أفسد ما بيننا من محبة وود وإخاء جامع، و﴿نَزَغَ﴾ معناها نخس وأفسد من قولهم نخس الدابة فجمحت فألقت حملها، ولم ينسب الشر إلى إخوته، بل نسب النزغ بأنه بينهم مع أنهم المعتدون وهو البرىء المجنى عليه، ولكنه الكريم ابن الكريم، يريد أن يمحو العداوة بالمودة، وعبر بالأخوة الرابطة، فقال: ﴿نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ثم بين لطف الله، وترتبه الخير وسط إرادة الشر، فقال مشنيا على ربه بما هو أهله، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، أى لطيف التدبير محكمه يجعل الخير من إرادة غيره، ويجعل من النعمة نعمة، ومن السيئة حسنة.

إذ لولا سيئة إخوته ما كانت أرداف الحسنات التي أسبغها الله تعالى عليه، إنه هو العليم بكل شيء، العليم بمقدمات الأمور ونهاياتها الحكيم الذى يدبر كل شيء بمقتضى علمه الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم اتجه إلى الله شاكرًا له فضل نعمائه جملة وتفصيلا فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ابتداء النداء الضارع بقوله: ﴿رَبِّ﴾ أى

منشئ والمنعم على بالوجود والإنسانية والمسرة فى الشدة، والنجاة من كل ألم بفضلك وعنايتك.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾، ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق، وقال: ﴿مِنَ الْمَلِكِ﴾ ولم يقل الملك، لأن الملك كله لملك الملك ذى الجلال والإكرام، والطول والإنعام، فما يملك الحاكمون ليس إلا ذرة من ملكه سبحانه، وهو ليس من جنسه، بل من جنس آخر، وهو ما يكون للعبيد فى هذه ومتاعها، وهو قليل بجوار متاع الآخرة.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، أى من معرفة مآل الأحاديث سواء أكانت رؤيا فى المنام أم كانت أحاديث الناس فمعرفة أحاديث الناس، شعوبا ودولا وجماعات، من علم سياسة الدولة، وكيف يُدبَّر أمرها، وقال عليه السلام: ﴿مَنْ تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ﴾، أى علمه بعضها، لا كلها، وفوق كل ذى علم عليم، فما علم كل سياسة الحكم، ومعاملة الناس، وما علم كل تأويل الرؤى، ولكن علم بعضه، وذلك من تواضع العلماء، أمام العلم العام.

ثم نادى ربه بأنه خالق الكون كله وانتقل من نعمته عليه إلى نعمته على الكون كله، فقال: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أى مبدعهما على غير مثال مسبق فهو بديع السموات والأرض.

ثم أعطاه الولاية كلها، أو اعترف بالولاية كلها، فقال: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أى أنت ناصرى ومتولى أمري فى الدنيا والآخرة، توليتنى بحمايتك ورحمتك فى الدنيا، فتولنى بها فى الآخرة، ثم قال ضارعا لربه، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، توفنى إليك مخلصا الدين لك أنت وحدك، واجعلنى فى الصالحين من الصديقين والشهداء ومن ارتضيتهم يا رب العالمين.

الاعتبار والاستدلال

قال تعالى :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٣﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

هذه قصة نبي الله يوسف عليه السلام كان القطب الذي دارت عليه القصة تلك الشخصية العائلية، التي تغلبت عليها، وقد بينا أنها ليست قصة غرام، كما توهم ذلك بعض الذين خرجوا عن الإسلام بهذا الوهم الذي توهموا وبنوا عليه ما كفروا به، فقد حققنا أن ما يتعلق بغرام امرأة العزيز به عليه السلام، واستعصامه بأمر الله ونهيه لا يتجاوز ثمانى آيات، كانت فيها المفاضلة بين الفضيلة والرذيلة، وإذا أضيف إليها إقرارها بأنها راودته عن نفسه تكون تسع آيات من إحدى عشرة آية.

وإن القصة - كما رأيت - صورت لك الغلام ينتقل من عز الأبوة الحرة الكريمة إلى الرق، ثم من الرق والسجن ينتقل تحت عين الله تعالى وبصره إلى ملك مصر الذى كان يملكه فرعون وأصلح يوسف فى الأرض، ونمى الخير، ودبر به أمر البلاد، ولم يقل أنا ربكم الأعلى، بل قال أنا عبد الله، ولم يقل مفاخرًا

أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، بل قال شاكرا ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنت لطيف لما تشاء، وإذا كانت مصر قد اشتهرت بحكم الفراعنة والاستبداد، فقد جاء حكم يوسف حكما صالحا، ليثبت الله أن الإصلاح رزع طيب يربى النفوس، ويقوى العزائم حتى فى أرض فرعون الذى طغى وبغى وأكثر فيها الفساد.

والسورة فوق ذلك تصور كثرة أسباب الرق وفوضاه، وتصور أسباب السجن ومظالمه، وتصور الحال الاقتصادية فى مصر، والبلاد التى تجاورها، وكيف كانت مصدر الرغد لمن حولها، وغير ذلك مما ذكرناه فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَكِّينَ (٧)﴾، الذين يبحثون عن حقائق الأمور ومآلاتها.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من أنباء كان يوسف قطبها، والخطاب فيه للرسول ليكون ذلك المذكور من نبأ يوسف تسلية لابن عمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، يتسلى به إذ يرجو النصر، وإن كان الشرك هو الظاهر، فهذا غلام ملقى فى الحب، ثم يباع ويشترى، وتنكشف الأمور بغد سجنه عن ملك عادل يسوس أخصب أرض الشرق ثناء وثروة، إن من يحكم الأمور بتدبيرها ليس ببعيد عليه أن يخرجك من وسط بأساء قومك، إلى عز الله تعالى:

﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، الأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الخطير ذو الشأن، و﴿الْغَيْبِ﴾ أى متلبسا الغيب؛ لأنه غائب عنك، وعن قومك، وما كان ليعلمه أحد من قومك، لأن أحداثه ليست فى بلاد العرب، وما كانت فى أرض مجاورة لبلاد العرب، بل فى أرض غير مقاربة، ولا فى إقليم كالعرب، بل فى إقليم له تقاليد فرعونية طاغية، يقول حاكمها ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، فهو حاكم يقنئ الشعب فى شخصه، ولا يفنى فى شعبه، يظلم ويسيطر، ولا يعدل ويشاور.

وإذا كانت غيبا بعيدا عنك وعن العرب فهو وحى من الله ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، وقد أكد سبحانه أنه غيب عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ وهذا فيه أمران: فيه استدلال على أنه بوحي من الله تعالى، وفيه تصوير لحالهم، وهم يمكرون ليغتصبوا أخاهم من أبيهم، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾، أى ما كنت عندهم حتى تعلم حالهم إذ تكون مختلطا بهم متعرفا أمرهم، ﴿إِذْ أَجْمَعُوا﴾، أى إذا عزموا أمرهم على رميه فى غيابة الجب، ويقال: أجمع أمره، إذا اعتزم الأمر جازما من غير فكاك، وهم يدبرون بمكر سيئ على أخيهم، وعلى أبيهم.

هذا أمر فيه عبرة، وفيه بيان أن هذا القرآن ليس من عند محمد صلى الله تعالى وسلم، بل هو من عند الله علام الغيوب وكان عليهم أن يصدقوا به، ولكن لا يرجى تصديقهم، ولكن يرجى الغلب عليهم، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣).

(الواو) واصله هذه الجملة بسابقتها، وهى تشير إلى أنه مع كثرة الأدلة التى توجب الإيمان وتضافرها فإن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، وما المراد بالناس، أهم كل من يشملهم اسم الناس من عرب وعجم، وببيض وسود، وصفر وحمرة؟ أم المراد أهل مكة، ومن يشبههم من المشركين.

وعلى أن المراد بالناس أهل مكة، وما أكثر الناس ولو حرصت على إيمانهم بمؤمنين لك ومسلمين بهذه الأدلة، إلى حين، حتى تصير كلمة الله هى العليا، فإنه بعد مكة صار أكثر الناس مؤمنين، وكان منهم أبطال الجهاد والإمرة فى الجيوش، فكان منهم أمثال خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، فيكون النفى، وإن كان ظاهره العموم فإنه مقيد بالزمان، فإن شمل عموم المكان لا يشمل عموم الأزمان.

وإن أردنا الناس جميعا عربا وعجماء، فإن الحقائق الواقعة أن أكثر الناس لا يؤمنون، فالتصارى المثلثون واليوديون غير الموحدين، والبراهمة الكافرون، أضعاف المسلمين، فالآية صادقة.

ونحن نرى أن الناس هم مشركو مكة، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ فإن هذا يدل على أن الناس هم الذين كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعاصرهم، ويرجو إيمانهم، ويحرص عليه، حتى قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ [٥٦] ﴿[القصص].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ تدل على رغبة النبي ﷺ، حتى قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٣] ﴿[الشعراء].

وقوله ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ الباء لتأكيد النفي، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عنهم وصف الإيمان الذي يوجب عليهم الخضوع والتسليم؛ وذلك لأن النفوس قسمان نفس تؤمن بالحق وتدعن له إذا جاءها دليله، وهى التى خلصت من أدران الفساد، ومطامع الشيطان، وقليل ما هم، ونفس دُرَّتْ بالفساد، والعناد، وجمشت بها الأهواء والشهوات، فتحكم فيها الشيطان، وهذه لا تؤمن، ولا يقنعها إلا مقامع من حديد، والحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وهؤلاء تكون حربهم لتمكين غيرهم من حرية الرأى ثم الإيمان، كأمثال أبى لهب وأبى جهل، والوليد بن المغيرة، وغيرهم من لهاميم^(١) قريش الذين كانوا يؤذون المؤمنين، ويفتنونهم عن دينهم الذى ارتضوا، ويسخرون منهم، سخر الله منهم.

وإن هذه الدعوة إلى الله التى يقوم بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هى تبليغ من الله لا يريد بها ملكا، ولا سلطانا، ولا رئاسة، ولا مالا، ولا أى أجر من الأجور التى اعتاد الناس أخذها فى دعاياتهم، ولذا قال تعالى:

(١) واللهوم: الجواد من الناس والخيلى، واللهام: الجيش الكثير، كأنه يلتهم كل شىء. الصحاح للجوهري (لهم).

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤).

الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾، يعود إلى أنباء الغيب والقرآن، والتبليغ بهذا الدين، وما تسألهم على هذا التبليغ بهذه الأنباء وبالوحدانية، لا تسألهم أى أجر، فـ ﴿مِنْ﴾ لبيان عموم النفي لا تسألهم أى أجر من أنواع الأجور، لا تسألهم رياسة، ولا إمرة ولا شيئا من هذه الأمور الدنيوية، ولقد عرضوا على النبی صلى الله تعالى عليه وسلم الأمر والسيادة، وقالوا إن أردت سَوَدْنَاكَ، وعرضوا عليه الأموال، ورضوا بأن يعطوه كل جاه ومال، وأن يتركهم وما يعبدون، ولكنه حَقَّرَ ما يعرضون بجوار ما يدعوهم إليه من التوحيد، وعدم الشرك.

بل قال الله تعالى فى رد ما يعرضون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، ﴿إِنْ﴾ هى النافية والضمير يعود إلى التبليغ وما يتضمنه من القرآن الكريم، وقصصه الحق الموحى به، ليس هذا إلا تذكير للعالمين، لأهل العقل فى هذه الدنيا.

ثم بين سبحانه وتعالى أن آيات الله الدالة على وحدانيته كثيرة، فقال تعالى:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥).

﴿وَكَايْنٍ﴾ بمعنى كم الدالة على كثرة العدد، وعن سيويه أن (كأين) هى (أى) بالتنوين، ودخلت كاف التشبيه وبنيت معها، فصارت فى الكلام فى معنى (كم)، ولا يهمننا أصلها النحوى، إنما يهمننا أنها للكثرة فى العدد، والآية هى الأمر الدال على قدرة الله تعالى فى الكون فى السماء والأرض، وعلى قدرته على العصاة، وأماكن هلاكهم بما عثوا وأفسدوا، ورسومهم دالة على هلاكهم، وأن الله بدل بهم غيرهم، ولم يضره شيئا.

وأنهم ليمرون على هذه الآيات، وهم عنها معرضون غير ملتفتين إلى ما فيها من عبر، فالكون كتاب فيه الدلائل على الوحدانية، والأرض كذلك، وفيها عبر من آثار العصاة.

وقال ابن كثير في هذا: «عبر تعالى عن غفلة الناس عن التفكير في آيات الله، ودلائل التوحيد بما خلقه في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة، ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالبقاء والصمدية للأسماء والصفات»^(١).

نقلنا هذه الكلمة مع طولها وسجعها المتكلف، لعموم ما تشير إليه من آيات الله تعالى في السماء والأرض.

وإن العرب كان فيهم إيمان بالله، كانوا يؤمنون بأنه الخالق لمن في السموات والأرض، وأنه هو المغيث، وأنه ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته، ولكنهم مع هذا الإيمان بخلق الله تعالى يشركون معه الأوثان في العبادة، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٦).

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، أي أكثر الناس، وما المراد بالناس هنا؟ أراد بهم العرب قبل ظهور الإسلام أم الناس أجمعون؟ لا مانع من إرادة أحد العرضين أو إرادتهما معا بمعنى شمول الكلمة لكل ما تدل عليه من ناس عرب وعجم.

على الفرض الأول يكون في هذا النص السامي بيان حقيقة تاريخية تومئ إلى حكمة بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في العرب ابتداء، وعموم دعوته من بين صفوفهم من بعد ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ (١٢٤) [الأنعام] ذلك أن العرب من شعوب الأرض كانوا يعلمون الله، ويؤمنون بأنه الخالق لكل شيء وأنه واحد في ذاته وصفاته، ولكنهم مع ذلك يعبدون الأوثان مع الله سبحانه وتعالى، وكانوا في تلييتهم في الحج، يجمعون بين الإيمان بالله الواحد الأحد

وإشراك غيره معه، ففي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك^(١)، وفي صحيح مسلم: أن النبي ﷺ كان سمعهم قالوا لبيك اللهم لبيك، قال عليه الصلاة والسلام: «قَدْ قَدَّ، أَيْ حسب حسب لا يزدون على هذا»^(٢).

وإنهم كانوا في الشدة لا يستغيثون إلا بالله لعلمهم بأنه وحده الخالق المغيث، ولكنهم يشركون به غيره في العبادة، ولقد كانوا بهذا أقرب إلى التوحيد من غيرهم، فليس على الداعي إلى الوجدانية إلا بطلان عبادتهم للأوثان وقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فالله قريب من عباده ﴿... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ [غافر] وما لهم عنده من شفعاء.

هذا على منطلق أن الناس المراد بهم عرب الجاهلية، وعلى الفرض الثانى والثالث يكون المعنى أن أكثر الناس تعريضهم حال إشراك مهما أخلصوا التوحيد لله تعالى، فالأوهام تسيطر على الناس وقد تأدت بالوثنيين إلى عبادة الأوثان، ولكنها بالنسبة لمن جاء بعدهم تأدت بهم إلى أوهام حول الأشخاص، لم يعبدوهم ولكن اعتقدوا فيهم قوى خفية، وإن آمنوا بأنهم مخلوقات، وأنهم بشر.

وإن أظهر ما يكون ذلك فى الرقى، روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه خبر روته امرأته زينب قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فاتتهى إلى الباب تنحنح كراهة أن يهجم على أمر يكرهه، وإنه جاء ذات يوم، فتحنح، وعندى عجوز ترقينى، فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى جانبى، فرأى فى عنقى خيطاً، فقال: ما هذا الخيط؟، قلت: خيط رُقِى لى فيه، فقال: إن آل عبد الله لا غنىاء عن الشرك، سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إن الرقى والتمائم شرك»^(٣).

(١) رواه مسلم: الحج - التلبية وصفتها ووقتها (٢٠٣٢). (٢) المرجع السابق.

(٣) انظر ما رواه أحمد: مسند المكثرين من الصحابة - مسند عبد الله بن مسعود (٣٤٣٣)، وبنحوه ابن ماجه:

الطب - تعليق التمام (٣٥٢١)، وأبو داود: الطب - فى تعليق التمام (٣٣٨٥).

ولقد كانت رقية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الخالية من الشرك :
« اذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشاف، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر
سقما »^(١).

وروى أن رقية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت بالمعوذتين : قل أعوذ
برب الفلق إلى آخرها وقل أعوذ برب الناس إله الناس إلى آخرها^(٢).

وفى الحق إن الأوهام التى تسيطر على الناس من ناحية الغيب دفعت
النصارى إلى التثليث، وهو شرك، ودفعت المشركين من العرب إلى عبادة
الأوثان.

والآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الحرص على التوحيد، وتفويض الأمر إلى
الله تعالى، وأن يبعدوا عن الأوهام المضلة، فلا يعتقدون فى مخلوق أن فيه قوة
تشفى، أو تنفع، فإن الأوهام أدت إلى الشرك فى جاهلية العرب وأدت النصارى
إلى التثليث، ولا تزال الأوهام تسيطر عليهم حتى تأدت بهم إلى عبادة الأحجار
والصور والتمائيل.

سبيل الله

قال تعالى :

أَفَآمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

(١) رواه الترمذى : الدعوات - دعاء المريض (٣٤٨٨) قال أبو عيسى هذا حديث حسن . وانظر السابق .

(٢) انظر ما رواه الإمام أحمد : باقى مسند الأنصار - مسند عبد الله بن فضالة (٢٢٨٣٢)، ومسلم : السلام -

رقية المريض بالمعوذات والنفث (٤٠٦٥).

إِلَّا رَجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
 وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ
 إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
 نَصْرُنَا فَنُجِّي مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
 حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
 وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾

إن من يخدعه الشيطان يكون في لهو عن مستقبله يستغرقه حاضره اللاعب
 اللاهى، ولا يتخذ من الماضى لغيره أو له عبرة يتعرف بها المستقبل، بل هو ساء
 فى لهو لا يفكر فى أمر مستقبله، كأنه آمنه واستقر على ما يجيء به، ولذا قال
 تعالى فى المشركين الذين استغرقهم حاضره وما هم فيه: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ
 غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ (الفاء) مقدمة عن تأخير؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما،
 أو الهمزة داخله على فعل مناسب محذوف دل عليه ما بعده، ألها وأشركوا
 وعبثوا ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾، أى أى غاشية من الغواشى التى
 تكون من عذاب، فتعمهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وكأنها ثياب تغشاهم
 وتعمهم، وتكون سابغة عليهم، ولهم فى ذلك العبر من الأمم العربية التى كفروا
 بأنعم الله فجاءتها ريح صرصر عاتية، أو جعل الله تعالى عاليها سافلها أو دمر الله
 عليهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ
 الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ
 بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل].

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، إما أن تأتيتهم نقمة تخصهم لكفرهم وغيهم وفسادهم في الأرض، وإما أن تأتيتهم القاضية، وهى ساعة القيامة، وسمى يوم القيامة ساعة، لأنه يتم بين غمضة عين وانتباهتها، وفى هذا إشارة إلى أن أعمال الكافرين أعمال من يظن الحياة الدنيا دائمة، ولا يترقب يوم القيامة وما وراءه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإقبالها، وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ إشارة إلى أنها تفجؤهم من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، بل هم فى غيهم مستمرين.

وإن الله تعالى أمر نبيه بأن يدعوهم إلى الحق غير مبال بإنكارهم وعنادهم، وإنه مستمر فى دعوته لا يننى عنها أبداً.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يبلغهم أمره فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ الإشارة هنا إلى ما يدعوهم إليه من التوحيد فى العبادة، وألا يشركوا بالله شيئاً، وأن يؤمنوا بالبعث والنشور، وأنهم يموتون كما ينامون، ويحيون كما يصحون، ومن ذلك تكون الجنة أبداً أو النار أبداً، فهذه الدعوة «هى سبيلى» التى أسلكها، لا أحميد، وماضٍ فيها، وأدعو إليها، أنا مستمر فى الدعوة إلى أن يقبضنى الله تعالى ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يحملون عبء التكليف بهذه الدعوة والسير فى سبيلها غير وائين ولا مقصرين.

وهذا يدل على أن الدعوة إلى الله فرض على المؤمنين كل يقوم بواجبه فيها، الدولة الإسلامية تهتئ دعوة إلى الحق، ويختلف الوجوب علواً ودرجات باختلاف الجماعات والآحاد من حيث العلم والثقافة والقدرة على القيام بحق الدعوة، وقوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، أى على علم بالحق وحقته ودليله، وهذا يدل على وجوب علم الداعى، وأن يكون له بصيرة نافذة يدرك الحق ويعلم نفوس الناس، وما يجب اتباعه لدعوتها.

ويقول: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أنزهه عن الشريك، وأصبح له خاضعا خاشعا، أرجو رحمته وأخاف عذابه، وكل من في الوجود يسبح له: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيه مطلق، وخضوع لله تعالى من الرسول، ومن الوجود كله، ثم أيأسهم من أن يكون مثلهم فأمره بأن يقول: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إن استمررتم على شرككم فأنا برىء منكم، وإن هذه السبيل هي سبيل النبيين أجمعين بعثوا بها في أقوامهم، ودعواهم إليها، وإن النصر من الله لهم: لأنهم أصحاب دعوة الحق؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠٩).

هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ تدل على أن التوحيد، وتنزيه الله تعالى رسالة النبيين أجمعين، فهي تدل على ذلك، وتدل ثانيا، على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل، بل سبقه بهذه الدعوة أنبياء سابقون. وتدل ثالثا على أن رسالة الله إلى خلقه تكون برجال يدعون بها، لا بملائكة، وذلك رد على قولهم: ﴿... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ [الفرقان] وعلى طلبهم أن ينزل عليهم ملك يخاطب برسالة الله، وقد قال تعالى في الرد عليهم ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء].

وهكذا كانت هذه الآيات الكريمات وغيرها تحمل الدلالات القاطعة التي ترد إنكارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ ليس من أرسلناهم من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم أى أنهم ليسوا ملائكة، ولكن اتصالهم بالله تعالى بطريق الوحي يوحى إليهم سبحانه وتعالى بأوامره ونواهيه، وبعبادته وحده لا شريك له، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْقُرَى﴾ أى أن هؤلاء الرسل من أهل القرى، والقرى هى المدن العظيمة، وفى هذا بيان أمرين أحدهما: أن الرسول يكون من أهل المدن العظيمة، وثانيهما أنه يكون من قومه، عرفوه من أوسطهم، وأكثرهم أمانة وصدقا، كما قال تعالى فى شأن النبی محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة].

وكان رسل الله من أهل المدن يبعثون فيها، ليكون الرسول على علم بأحوال الناس، وليكون معروفا بينهم مشهورا غير مغمور، يكون ذا مكانة من غير غطرسة فيهم، قبل النبوة، فتكون شهادة له بالصدق بعدها.

وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة، وهى أن الرسل من الناس، وليسوا ملائكة، وأنها معروفة بالعيان لمن سار فى الأرض، وتعرف ديار الذين كفروا بالرسل، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هذا النص السامى فيه برهان أن الرسل كانوا رجالا، وفيه إنذار لمشركى العرب بالمآل الذى يتولون إليه إذا استمروا على غيهم، وإنه إنذار يحمل فى نفسه دليله، وبرهانه من الآثار والرسوم للذين هلكوا بسبب إنكارهم وكفرهم، وانتحالهم التعلات للعناد والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخره عن تقديم للاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة فى البيان، والاستفهام

للنفي، ونفى النفي إثبات، والمعنى لم تسيروا، وفيه تحريض على السير فى الأرض ليروا عاقبة الذين من قبلهم، وأنكروا ولبّوا فى الإنكار، وعاندوا مثلهم، فليعرفوا حالهم مما آل إليه أمر من سبقوهم.

مآلهم بعد ذلك فى الآخرة أشد وأنكى وأدوم، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك ببيان عاقبة الذين من قبلهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى أنه سيصيبكم ما أصاب الذين من قبلكم، والذين اتقوا ينجون من العذاب الساحق الذى ينزل بالكافرين، وليست النجاة وحدها جزاءهم فذلك جزاء سلبى، والجزاء الإيجابى فى الآخرة، ولذا قال مؤكداً ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، أى اتقوا غضب الله، واتقوا الشرك، واتقوا العذاب، وغلبت عليهم فى ذات أنفسهم التقوى والإيمان والإذعان للحق.

ودعاهم سبحانه وتعالى إلى التفكير، واستعمال عقولهم، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الفاء) كما ذكرنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما قبلها من أحوال الأمم، وما يكون يوم القيامة للأبرار يدعوهم إلى التعقل والتفكير، والهمزة للاستفهام الإنكارى الباعث على العقل والفكر، فإنه إنكار للدعوة إلى أعمال العقل، وتدبر مآلهم، والله بكل شىء عليم.

وقد بين سبحانه وتعالى سنته فى أعمال الرسول، ومآل الأمر حال يأسهم، فقال تعالت حكمته.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠).

هنا كلام مقدر بما جاء بعد، و﴿حَتَّىٰ﴾ غايته، والمعنى أن الرسل جاءوا ودعوا وكذبوا وحوربوا، وقلَّ المؤمنون بجوار الكافرين وكانوا يسخرون من الذين آمنوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

استيئس الرسل اعتراهم اليأس الشديد، واستولى على نفوسهم كأنهم طلبوه، وما طلبوه، وصارت حالهم يأساً، وصور صورة من يأسهم، فقال، ﴿وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ جال في روعهم أنهم كذبوا، ولم يعد مجال للإيمان أو النصر، وهنا قراءتان في ﴿كُذِّبُوا﴾ القراءة الأولى بالتخفيف والبناء للمجهول، وهى قراءة الأكثرين، والثانية بتشديد (الذال) للبناء للمجهول أيضاً، وهى قراءة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وأرضاها، وطائفة من القراء بعدها^(١).

والمعنى على قراءة التخفيف كما جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني علموا أنهم تَلَقَّوْا من جهة الذين أرسلوا إليهم بالكذب، أى ظنوا أن الذين تَلَقَّوْا عنهم أخبار الإنذار يظنون الكذب فيهم، وإليك نص عبارة الراغب رضى الله عنه: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أى علموا أنهم تَلَقَّوْا من جهة الذين أرسلوا إليهم بالكذب، فكذبوا نحو فسقوا، وزنوا - إذا نُسِبوا إلى شيء من ذلك، والمعنى على هذا ظنوا أنه وقع فى نفوس من يخاطبون كذب ما أنذروا.

أى أنه قد طال الأمد الذى أجلوه، حتى توهم الرسل أن الذين يخاطبونهم من المشركين قد وقع فى نفوسهم كذب الرسل، واتخذوا من المطاولة فى الزمن، أنهم كاذبون فى إنذارهم، واتخذوا من طول الزمن دليلاً على كذبهم.

وعلى قراءة التشديد يكون المعنى أن الرسل قد استيئسوا حتى ظنوا أى علموا أنهم كُذِّبُوا فيئسوا من إيمان غير من آمنوا، كما قال الله تعالى: ﴿... لَن يُّؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ...﴾ (٣٦) [هود].

والظن هنا بمعنى العلم، أو بمعنى ما يعرض للبشر عند اليأس من خواطر تجعلهم يظنون فى أمر المبعوث إليهم، ولتنقل لك كلام الزمخشري فى هذا، فهو يدل على نفاذ بصيرة فى معانى العبارتين ومراميها من غير تهجم، ولا تقحم على

(١) قراءة ﴿كُذِّبُوا﴾ بالتخفيف عاصم وحمة والكسائي وخلف، ويزيد (أبو جعفر)، وقرأ الباقر بتشديد الذال. غاية الاختصار ج ٢ / ٥٣٠.

المعاني قال: ﴿وَضَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ أى كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم عنهم بأنهم يُنصرون، والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله، قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط، وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، وظنوا حين ضعفوا أو غلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر. وقال: كانوا بشرا، وتلا قوله تعالى: ﴿... وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ...﴾ (البقرة)، فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهيجس فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشر، وأما الظن وهو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم، وإنه متعال عن خلف الميعاد، منزّه عن كل قبح، وقيل: وظن المرسل إليهم بأنهم كذبوا من جهة الرسل، أى كذبتهم الرسل فى أنهم ينصرون عليهم.

وإنه بعد هذا التحليل نقول: إن أم المؤمنين عائشة ردت قول ابن عباس رضى الله عنهما وقالت: إن الرسل لا يظنون بالله خلف الوعد.

وخلاصة القول أن نقول: إن معنى وظنوا أنهم قد كذبوا، على التخفيف والبناء للمجهول أن يظنوا أنه ألقى فى نفوس المرسلين إليهم أنهم كذبوا فى إيقاع العذاب بهم، وإن ذلك النطق نوع من هواجس الفكر البشرى، وهى تتلاقى مع قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا﴾ (البقرة) والْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٦١٤﴾﴾ (البقرة).

وقوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، أى بغتة من حيث لا يحتسبون، ﴿فَنَجَّيْنَا مِنَ النَّشَاءِ﴾، وهم الذين استقاموا على الطريقة واتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين اجتمعوا على الإجرام واتفقوا عليه، حتى كانوا قوما من شأنهم الإجرام واجتمعوا عليه.

خاتمة

قال تعالى: في ختام هذه السورة التي بلغت أقصى غاية القصص بلاغة وبيانا، وعلمنا نفسيا وخلقيا، وبيانا للإرادة القوية، وكيف تصبر في مواطن الهجوم عليها بالأهواء الجامحة، والشهوات المنحرفة، والوفاء، والمحبة، والرفق في المعاملة، وعلاج الأمور بالحكمة، والتدبير، ولطف المواتاة للخير.

قال تعالى في ختام هذه السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١).

القصص بالفتح: الإخبار عن الماضين، والقصص بالكسر جمع قصة، كقطع جمع قطعة، وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، قصر بعض المفسرين القصص على قصة يوسف عليه السلام، وبعضهم عممه على قصص الأنبياء جميعا، وعلى ذلك يكون الضمير في قصصهم يعود إلى الأنبياء الذين ذكرت أخبارهم في القرآن الكريم كنوح وإدريس وإبراهيم وموسى وعيسى، ولوط، ويوسف، ويعقوب، وعلى الرأي الأول يكون الضمير يعود إلى يوسف وأبيه وإخوته.

وقد رجح الزمخشري الثاني يعود الضمير إلى الأنبياء، وذلك لقراءة كسر القاف، إذ إنها تكون قصصا، وليست قصة واحدة، وقصة يوسف واحدة، وليست قصصا متعددة.

ومهما يكن فإن قصة يوسف قصة واحدة، اختص بها يوسف عليه السلام، وهى أخبار متنوعة قطبها يوسف عليه السلام، وفيها عبر مختلفة، فيها بيان لحال النفوس، وما يعرفها من منازع، وما تعترك به من أهواء، وما فى النفس من قوة إرادة وصبر للمهتدين، ونزوغ فاسد للضعفاء الذين ينساقون، وما فيها ما يحمى البيوت من آفات، وما يعرفها من انحرافات، وفيها بيان لتدبير الجماعة، وتنظيم

لاقتصادها، وإحكام، وإخلاص، وعدل، وبيان لما يجب من الادخار من سنى الرخاء لسنى الشدة، كما قال تعالى: ﴿...فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧).

وفى سورة يوسف صورة للحاكم العادل، تراها فى أوصاف يوسف عليه السلام.

وأولى هذه الصفات البارزة قوة الإرادة، ومظهرها الصبر عندما تعتلج النفس بأسباب الشهوات.

وثانيها: الأناة، وأن يضبط نفسه عند الغضب، ولا ينساق وراءه، فالحاكم الذى يسير وراء الغضب يشط، ويظلم، وقد رماه إخوته بالسرقة كاذبين عليه، مغرضين عليه.

وثالثها: العناية بذوى الحاجات، ولو كانوا مؤذنين له، أو سبق لهم منه الأذى كما عامل إخوته.

ورابعها: الثقة بالنفس، وطلب الأمر إن كان يصلحه، كما قال يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ فلم يفرّ من تحمل التبعة عن بينة وجدارة واستحقاق، مع ذاكرة قوية مدركة، يعلم ما مضى وما حضر.

وخامسها: الإخلاص لله تعالى، وعبادته وحده، فلا يشرك، فتدين الحاكم يجعله خاضعا لله.

وسادسها: أن يكون رفيقا فى معاملة الناس شفيقا بهم، فهو كالوالى على اليتيم، يعطيهم من رفقته ورفده ما يدينهم إليه، وهكذا كان يوسف حتى وهو فى سجنه، فقد كان يناديهم، وهو فى سجنه مع المسجونين بأنهم أحبابه وأصحابه، وإن من الشفقة والرفق العفو عندما توجد أسباب يداوى به الحسد والعداوة، فلا يجتث شئ الحسد والأحقاد كالعفو والمحبة وإدناء البعيد، وتقريب العشير، وكل ذلك كان فى يوسف.

وسابعها: التآني للأمور، وقد رأينا كيف أخذ الثقة في لين، ومن غير إعنات من العزيز، ظهر ذلك فيمن هو أعلى منصبا منه، وظهر في صغائر الأمور، كما رأيت في استبقائه أخاه من غير اقتتال، بل بوضعه السقاية في رحل أخيه من غير اتهام لشخصه، ثم أخذ الحكم من الستهم، ونفذه بقولهم.

ثم من بعد ذلك أخذ الأمور بالتآني، حتى التقى بأبيه على مائدة الرحمة والمودة والإيثار، وقد قتل الحقد بالعفو، والغيرة بالمحبة، والضلال بالهداية.

وفي السورة عبر كثيرة، وقد ذكرنا بعضا منها في أول السورة في معاني قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧)﴾.

وقلنا: إن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الضمير يعود إلى الأنبياء، وخصصنا نحن قصة يوسف ببعض ما يلوح منها من عبر، والعبرة والاعتبار الحال التي يعرف فيها، ما يجب عمله في الحاضر بالأخذ مما كان في الماضي بأن يتفكر ويتدبر ما كان في الماضي من وقائع، ويعلم أنه نور يضيء للحاضر، فالإنسان ابن الإنسان يتشابه في آثامه، ويتشابه في عواقبها ونهايتها، فذكر هذه الآثام لجماعة أو قبيل، وبيان العواقب بيان للعواقب في كل جيل لمن يقع فيها من أهل هذا الجيل الذي خلف الأول، ولذا كان في قصص الرسل إنذار للمشركين وتسلية للنبي والمؤمنين بأن نصر الله آت، وكل آت قريب مهما تأخر الزمان.

ويقيد سبحانه وتعالى المعتبرين بأن يكونوا من ذوى الألباب أى العقول التي تذهب في إدراكها إلى لب الأمور وحقائقها، ويتدبرون مبادئها، ونهاياتها،

وبيين الله سبحانه أنه لم يكن حديثا يفترى ويخترع كأساطير الأولين ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ كما قال الأفاكون أنها ﴿... أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)﴾ [الفرقان] والتكثير في - حديثا - لعموم النفي أى ما كان ﴿حَدِيثًا﴾ أى حديث يفترى ويخترع اختراعا لمجرد التسلية وتزجيجه الفراغ،

والتسلي المجرد، بالأحاديث، بل كان أخباراً جاءت بها الكتب السماوية من قبل، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى أنه كلام فيه تصديق لما بين يديه من الكتب السماوية التى نزلت من قبله كالتوراة الصادقة، وقوله: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيه إثبات صدقه فيما أخبر، وصدقها فيما أخبرت به؛ لأن الصدر فيها واحد، ويعبر بكلمة ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فى القرآن بما سبقه، وكأنه يعلمه حاضر بين يديه.

لقد ذكرها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال إنها من القرآن، وهى موافقة للصادق من الكتب عند اليهود والنصارى ومبينة للزائف منها، وكان ذلك على لسان رجل لا يقرأ ولا يكتب، وفى قوم أميين ليس عندهم علم ولا معاهد للعلم، وما كان كثير النجعة والارتحال، بل لم يعرف له إلا رحلتان إلى الشام، إحداهما فى الثانية عشرة، والثانية فى الخامسة والعشرين من عمره.

والضمير المستتر فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ عائد إلى القصص، وهو مصدق لما جاء فى الكتب السابقة، ودليل على صدق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه هداية ورحمة لقوم من شأنهم الإيمان بالحق إذا جاءهم فالقصص فيه هداية لأن فيه دعوة النبين وعاقبة المكذبين، وفيه رحمة لتجنب المؤمنين عاقبة الكفر.

ويصح أن يكون الضمير عائد إلى القرآن الكريم المشتمل على القصص فهو فى ذاته هدى، لأنه من عند الله، وهو رحمة، لأن الهداية رحمة، وخص ذلك بالذين يؤمنون ويدعون للحق إذا جاءهم، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أما من لا يدعون ولا يؤمنون فهم قوم بور.



تمهيد:

سورة مدنية، وعدد آياتها ثلاث وأربعون آية، وسميت «سورة الرعد» لقوله تعالى فيها: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ... (١٣)﴾ ولو سُميت الكون والهداية لكانت التسمية محكمة.

وقد ابتدأت بالحروف المفردة ﴿الْقَمَرُ﴾، وأعقبها بإشارة إلى القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم بعد ذلك بيّن الله سبحانه وتعالى ما فى الكون مما يدل على قدرة القادر ووحدانيته، فالله هو الذى رفع السماوات بغير عمد مرئية، ولكن عدم رؤيتها لا ينفى وجودها، وسخرَ الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجلٍ مسمى، فسبحان الذى يدبّر الأمر يفصل الآيات لعلهم بقاء ربهم يؤمنون.

وهو الذى مدَّ الأرض وبسطها، وجعل فيها جبالاً رواسى، وأنهاراً وجعل من كل الثمرات، ومن كل من الحيوان وكل الأحياء زوجين اثنين، وجعل الليل والنهار آيتين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وجعل فى الأرض قطعاً متجاورات وجنات من أعناب، وزرع، ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ومع أنها متجاورة وتسقى بماء واحد، يفضل الله بعضها على بعض فى الأكل، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

وإن هذا الكون وما فيه يدل على أن الذى قدر على خلق الإنسان قادر على إعادته، كما بدأكم تعودون، ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَتَنَّا لِفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ . وقد استرسلوا في إنكارهم النبوات، والبعث، وإذا أُنذروا بالعذاب واستعجلوه إمعانا منهم في الإنكار، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٦﴾ .

وإنهم لينكروا المعجزات التي جاءت دالة على رسالة الرسول الذي أرسل إليهم، ويتجرءون على الله باقتراح معجزات، وينكروا أن يكون غيرها آية ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿٧﴾ .

ثم يبين سبحانه إحاطة علمه، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ﴿٨﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴿٩﴾ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴿١٠﴾ له مقببات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴿١١﴾ .

ثم يبين الله سبحانه عجائب خلقه ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ﴿١٢﴾ وَيَسْجِجُ الرُّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ... ﴿١٣﴾ ، ينشئ كل ذلك، ويرويه عيانا ومع ذلك يجادلون في شأن الله تعالى ﴿... وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ﴿١٤﴾ .

ويبين الله تعالى الحقائق التي يجب أن يدعن لها المؤمن، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿١٥﴾ ، وبين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن كل ما في الوجود ومن في الوجود خاضع له بمقتضى التكوين طوعا وكرها، ونبه سبحانه إلى أنه خالق السماوات والأرض فسألهم ﴿... مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ ﴿١٦﴾ ووبخهم على اتخاذهم آلهة من دون الله ﴿... قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي

الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ... (١٦) ﴿﴾ .

وضرب الله مثلاً بين الحق والباطل ، فقال تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ .

وبعد ذلك يبين جزاء الذين يستجيبون ، ويشير إلى الذين يكفرون وهم الذين لم يستجيبوا له ﴿ ... لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ .

ويبين الله على طريقة الاستفهام فيقول : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾ .

ويبين أوصاف أهل الحق بأنهم : ﴿ ... يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ . و ﴿ ... يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾ ، وهم الذين ﴿ ... صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ... (٢٢) ﴾ ، ثم يبين جزاءهم في الآخرة فيقول : ﴿ ... أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عَقَبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ .

ويبين الله سبحانه وتعالى أوصاف الكفار ، وهي نقيض أوصاف المؤمنين فهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ... (٢٥) ﴾ وجزاؤهم بينه سبحانه بقوله : ﴿ ... أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾ .

وقد كان المشركون يتخذون من بسط الرزق وضيقه دليلاً على الفضل عند الله، وإذا كان الله تعالى قد بعث محمداً ﷺ فقيراً، ومجيبوه من الفقراء فقد ظنوا أنهم أولى، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٢٦).

وقد طلبوا آيات أخرى مادية، وما كانوا ليؤمنوا إذا جاءتهم، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّثَابٌ (٢٩).

ثم بين سبحانه أن مثل هذه الآيات جاءت من قبلهم ولم يؤمنوا، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ (٣٠).

وبين منزلة معجزة النبي ﷺ، وهي القرآن فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِّ لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣١).

وإذا كانوا يستهزئون بك وبمن معك فقد استهزئ برسل من قبلك ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَآمَلْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾ (٣٢) أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤).

وبعد بيان عذابهم في الدنيا والآخرة ذكر الجنة التي ينالها المؤمنون، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾.

وبين سبحانه وتعالى موقف اليهود من القرآن والنبى، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُبْكِرُ بَعْضُهُ قُلُوبًا إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَثَابُ (٣٦) وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)﴾.

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الله أرسل رسلا من قبله من البشر لهم أزواج وذرية، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، يمحو الله ما يشاء من الآيات، ويثبت، وعنده أم الكتاب، وهو التوحيد، وألا يشركوا بالله شيئا ومهما يكن من أمر المشركين، فإما نرينك بعض الذى نعدهم من العذاب، وإما نتوفينك. فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

ولقد بين سبحانه وتعالى العبر، وقدرة الله تعالى ليستخدموا فلم يعتبروا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾، وبين سبحانه أنهم يدبرون تديبرهم الخبيث والله يعلم ما تكسب كل نفس ﴿... وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

معانى السورة الكريمة

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ
 عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
 يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ
 رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ
 وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ
 النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ
 قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
 وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ
 فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿المر﴾ هذه حروف مفردة، وقد تكلمنا عن هذه الحروف وقلنا: إنها من
 المشابه الذى استأثر علم الله تعالى به، ولسنا من الذين زاغت قلوبهم، يتبعون ما
 تشابه ابتغاء تأويله، ولكننا نلتمس الحكم فى ابتداء السور بهذا، وقد حاولنا تلمس
 هذه الحكم، وقلنا: إن أكثر السور التى ابتدأت بهذه الحروف يذكر بعدها أمر
 الكتاب بالإشارة إليه تعالت كلماته، ويقولون فى مقام هذه الحروف من الإعراب:
 إنها اسم للسورة أو الكتاب. وتعرب على أنها مبتدأ، خبره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾

الْكِتَابِ ﴿١﴾ ، والإضافة إليها باعتبارها جزءاً من آيات الله ، فالإضافة في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ إضافة بمعنى (من) ، أى إن تلك آيات من كتاب الله ، أو الإضافة بيانية ، أى تلك آيات هى الكتاب . من قبيل أن جزءاً فى الكتاب هو قرآن يتحدى به ، فقد كان يتحدى بآيات القرآن على أن فيها كلها ما امتاز به الكتاب الكريم من المجاز . و(أل) فى ﴿ الْكِتَابِ ﴾ للدلالة على أنه الكتاب الكامل الذى هو جدير بأن يسمى كتاباً ، كأن غيره ليس جديراً بأن يسمى كتاباً ؛ لأنه من عند الله تعالى ، وكلام الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ جملة معطوفة لبيان أن ما أنزل منه من ربك هو الحق الثابت ، وهذا من صفات كمال الكتاب ، فكان من هذه الصفات :

أولاً : أنه ليس من عندك ، بل أنزل من الله تعالى إليك ، فليس افتراءً ولا كذباً .

وثانياً : هو من ربك الذى يدبر الأمر بحكمته ، وينزل كل شئ منزله ، وهو الذى اختار أن يكون المعجزة المحمدية الكبرى .

وثالثاً : هو الحق الثابت الذى ما جاء فيه إلا الحق فى العقيدة وفى الشريعة ، وفى دفع الأوهام ، ودفع الفساد فى الأرض ، وعلاج أمور الناس بالحق ، فهو الحق فى كل ما جاء به لأنه من الحق جل جلاله ، وعلا كماله .

ويكون العطف بين الجملتين ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ ... ﴾ إلى آخره ، لبيان أن الكتاب متصف بصفتين كليهما تؤدي معنى الكمال : الأولى : أنه الكتاب الكامل فى ذاته .

والثانية : أنه الكامل لأنه من عند الله تعالى ، فالتقى فيه الكمالان : الكمال الذاتى والكمال الإضافى .

وكان حقا أن يؤمن الناس جميعا به، ويدعنوا لحقائقه... ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾، فالاستدراك لما كان تقتضيه حقيقة الكمال في القرآن، فكانت تقتضى الإيمان ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أى لا يدعنون للحق وليس أن شأنه أن يدعنوا، بل إنهم يمارون، ويجادلون، فتضيع الحقائق فى وسط لاجحة الجدل... وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ [الكهف].

وإن أول الحق الذى جاء به القرآن، وأوحى به الديان عبادة الله تعالى وحده، وألا يشركوا به شيئا؛ ولذا بين الله استحقاقه للعبادة وحده بالكون، وما خلقه وبديع صنعه فى السموات والأرض، وما خلق من كل شىء، فقال تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

صدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة الذى يتضمن الخالق المدبر المتصف بكل كمال، والمستحق وحده للعبادة، ولا يعبد معه شىء: حجر، أو حى، أو نجم، أو غير ذلك مما توهم فيه بنو الإنسان فى العصور المختلفة قوة يعبد لأجلها.

وبين سبحانه فضله فى خلق الكون فابتدأ بذكر الكون الأعلى مجملا عرفه بخلق الله فقال: ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، هنا اتجاهاان: نفى العمد، ووجود العمد ونفى رؤيتها:

الاتجاه الأول: أن النفى متجه إلى وجود العمد، وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ دليل على نفى وجود العمد، أى دليل على عدم وجودها عدم رؤيتكم لها، فالله سبحانه وتعالى أنشأ السموات كالقبة المحيطة بالأرض من كل أطرافها، من غير عمد قائمة، ويرشح لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿... وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ... ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

والاتجاه الثانى: أن النفى واقع على الرؤية، وعلى هذا يكون هناك عمد، ولكن لا ترى، فالله سبحانه وتعالى قد أوجد تماسكا بين السماء والأرض بالجاذبية، وكأنها عمد ولكنها لا ترى، وبهذه الجاذبية، وهذه الجاذبية كأنها العمدة التى لا ترى. والاتجاهان يحتملهما اللفظ، وهما صادقان، وأميل إلى الاتجاه الثانى، ورجح ابن كثير الاتجاه الأول، وكلاهما فيه قدرة الله تعالى الجليلة واضحة، والعمد (بفتح العين وضمها) جمع عماد أو عمود، وهى الأسطوانة التى يقام عليها السقف المرفوع.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (ثم) هنا لبيان مراتب الخلق فى ستة أيام، أى أدوار كما مضى القول فى ذلك فى سورة الأعراف، فإنه بعد أدوار الخلق التى تمت بإرادة الله تعالى، والاستواء على العرش كمال سلطانه فى الكون، كما يستوى الملك العادل على عرش ملكه، والله المثل الأعلى، وما مثلنا إلا للتقريب، فلا مساواة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى ذللهما فى حركتهما وسيرهما فى مداريهما، فكل له مدار، وكل له خواصه، فالشمس هذا الضياء المشرق الذى يملأ الوجود حرارة يكون بها الأحياء والأزهار والأشجار. والقمر يستمد نوره من ضوء الشمس، ولاشعته الصافية المستمدة يكون السير ليلا، ويؤثر فى النفوس، وفى البحار بالجزر والمد، وفى الأحياء، فيكون الحمل والإرضاع تابعين لأدواره.

﴿كُلٌّ﴾ فى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى لأجل معين ينتهى عنده ذلك الأجل الذى حد له، وقد قال البيضاوى فى ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع فى حدوث الكائنات وبقائها. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة دونها سيرها وهى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ وإذا النجوم انكدرت ۝٢﴾ [التكوير]^(١)، أى أن الأجل المسمى يفسره بتفسيرين:

أولهما: الأجل الذى تتم به أدوار الشمس من حيث قربها نسبيا من الأرض وانحرافها نسبيا عنها فتبعد، ويكون من ذلك الفصول الأربعة التى تتغير فيها حال الأرض، وما تنبت من زرع، وما يكون من دفء وحرارة ونوعها. وما يختلف به الليل والنهار طولاً وقصرًا، وما ينتظم به الزرع والثمر ويختلف باختلاف الفصول، إلى آخر ما هو معروف فى العلم، ويحس به الناس فى أدوار الحياة وتعاقب الليل والنهار.

والثانى: أن الأجل المسمى هو أجل الدنيا، الذى يكون بعدها لرلة الأرض، وفناء العالم ليجدد فى حياة أخرى هى الجزاء والتعويض لما كان فى الدنيا.

وإنى أرى أنه لا مانع من إرادة الأمرين، فهما ليسا أجلين، بل هو أجل واحد يكون أولهما فى دائرة الوجود الدنيوى وهو فى الثانية الذى هو النهاية.

وإن النص القرآنى يقول: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أى أن الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، فالقمر يجرى حول الأرض ويدور حولها دورته الشهرية. وتكون من هذه الدورة درجاته وصوره من كونه هلالاً إلى أن يكون بدراً ﴿... وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس] وإن القمر له بهذا الدوران أوقات تؤثر فى الأحياء، فالحمل والرضاع، ونمو الأطفال، وحياة الجنين، وولادته، والحياة التناسلية لها ارتباط وثيق بالقمر وأدواره، وطمث المرأة، وقرؤها، له ارتباط بالقمر، والميزان الدقيق لمعرفة ذلك وأدواره هو الشهر القمري، بل إن القمر له أثر فى الإخصاب، حتى عبروا فى بعض اللغات عن الأمراض العصبية بأنها الأمراض القمرية. وهكذا، وإن القمر يجرى لأجل مسمى فى دائرة المعانى التى ذكرناها، وإنه يستمر جارياً إلى أن تنقضى الدنيا، والله أعلم.

وإن الله تعالى بعد بيان القدرة المشيئة ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ الأمر هو ملكوت السموات والأرض من حركات النجوم، وأبراجها، وإحياء الأحياء وإماتتهم و(أل) فى قوله تعالى: ﴿الْأَمْرَ﴾ للعهد، وهو ما يتعلق بهذا الملكوت.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ينزل عليهم الآيات المبينة للقدرة من خسف وكسوف، وزلازل وغيث يحيى الأرض، وغيث يدمر ما عليها، كل هذه لتكون آيات بينات تدل على القدرة، وعلى أن الكون يسير بإرادة مختارة، وأنه يبدئ ويعيد، وينشئ، ثم يميت، ثم يحيى، وهو على كل شيء قدير.

وإن الله تعالى أشار إلى هذه القدرة العظيمة رجاء أن يؤمنوا بالمعاد فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

أى: لعلكم ترجون لقاء ربكم وتوقنون به، فالرجاء ليس من الله، ولكن الرجاء من الخلق وهو على كل شيء قدير، أى لعلكم إذا تأملتم ما فى السماوات والأرض من خلق توقنون بلقاء ربكم ولا تنكرون ولا تظنون ظنا. بل تستيقنون استيقانا، وهنا إشارات بيانية فى هذه الآية وما قبلها نذكرها إجمالا:

أولاهـا: أن تعريف الطرفين فى قوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ للقصـر، أى لا حق سواه.

الثانية: فى قوله: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ فيها دليل على وجود الصانع المنشئ والمدير، وأن وراء كل جزئية من الكون سرا إلهيا، هو الذى يدبر، وهو الذى يقوم عليه فهو الحى القيوم.

الثالثة: أن قوله عن البعث: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن البعث لقاء الله، وقدر ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ على الفعل ﴿تُوقِنُونَ﴾ لمزيد الاهتمام. وبعد ذكر الله تعالى رفع السماوات، وما فيها من أجرام ذكر الأرض وما فيها من آيات بينات فقال عز من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

بعد أن بين سبحانه وتعالى قدرته فى رفع السماء بغير عمد ترونها، وما فيها من كواكب ونجوم رمز إليها بأجلها شأنا، وهى الشمس مصدر نورها، والقمر،

وكان رمزا لمن استمد نوره منها، وهو من أكبر أتباعها. أنزل آياته إلى الأرض وهي قريبة من الأنظار غير بعيدة عنها، وفيها يمرحون، ومن خيراتها يتخذون ثماءهم؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾، أى بسطها طولا وعرضا بحيث يسهل افتراشها أو الانتقال فى أجزائها شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا وليس ذلك دليلا على أنها غير كروية، بل كونها كروية ثبت من الليل والنهار، ومن أدلة عقلية كثيرة وكرويتها لا تنافى مدها، وجعلها مفترشا لابن آدم، وذلك لكبرها وامتداد أطرافها.

ثم أخذ يبين سبحانه ما جعل فيها، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أى جعل فيها جبالا كالأوتاد لها، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ (٧) [النبا] ورواسى جمع راسٍ، وقال البيضاوى وغيره: إنها جمع راسية، وجاءت التاء لأنها وصف لأجبل. ونحن نرى أن ذلك تكلف لا داعى إليه؛ لأنها جمع (راسٍ). وهو وصف لما لا يفعل وفواعل تجمع ما تكون وصفا لما لا يفعل، و(راسٍ) من رسا إذا ثبت، ف﴿رَوَاسِيَ﴾ معناها ثوابت مستقرة كأنها أثقال تزن الأرض، وعطف على الرواسى الأنهار ﴿وَأَنْهَارًا﴾ للتعابل بينهما؛ لأن الجبال أحجار أو نحوها، والأنهار ماء سهل فهما متقابلات فى الجملة؛ ولأن أودية الماء تكون بجوار الجبال وتتخذ منها، أو تتكون مياه الأنهار ما ينحدر من الجبال، أو تنزل الأمطار على الجبال، ثم تنحدر حتى تجرى فى الأنهار، كما ترى فى نهر النيل، إذ إنه تكون من البحيرات التى ترفدها بمائها ثم تنحدر المياه من جبال الحبشة، فيكون فيضانه بخيراته التى أفاض الله بها على عباده، فأوجد الخصب فى وادى النيل، وأخصب مصر من وقت أن جرى فيها.

وإنه من وراء الأنهار يكون إنبات النبات، وإثمار الأشجار، فإن هذا كله يكون من الماء الذى جعل الله تعالى منه كل شىء حى، وكذا قال سبحانه وتعالى بعد الأنهار وجريانها وتحددها من الجبال: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجِينَ﴾،

أى جعل سبحانه وتعالى صنفين متقابلين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، وجعل منها زوجين أى الذكر والأنثى ، فمنه الذكر الذى يلحق بما تحمله من البذر الرياح اللواقح ، والأنثى التى تحمل بذر الذكر، كما تحمل أنثى الحيوان بذر الذكر فى رحمها .

ومن هذا يتبين أن كلمة زوجين تتضمن معنى التقابل الذى يعم التقابل بين الذكر والأنثى ، والتقابل فى الألوان ، والتقابل فى الطعم ، والتقابل فى الصغر والكبر ، وهذا كله فى أرض واحدة ، وكان مقتضى اتحاد الأرض واتحاد الماء أن تكون شيئا واحدا فى لونه أو طعمه ، أو ذكوره أو أنوثته ، أو صغره أو كبره ، ولكن تعددت وتخالفت ، فدل هذا على وحدة الصانع الحكيم العليم المريد الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

ثم بين سبحانه بعض العلاقة بين السماء والأرض ، وهى الليل والنهار ، فهما من دروان الأرض حول الشمس ، وكل يدور فى مداره ، فبدوران الأرض يكون الليل والنهار ، وبدوران الشمس تكون الفصول الأربعة . ولقد قال تعالى : ﴿يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ بسكون (الغين) وهناك قراءة بفتح الغين وتشديد الشين من التغطية ، وكلاهما بمعنى اللباس الذى يغطى الجسم ، وفى هذا الكلام استعارة تبعية وأصلية ، فأما الأصلية : فهى تشبيه الظلمة بالثوب الأسود ، والضوء بالجسم الأبيض ، وتبع ذلك أن شبه النهار بأنه يغطى الليل .

وإن هذا من اتصال الشمس بالأرض ، أى اتصال الأرض بالسماء .

هذه آيات الله تعالى ، وبيئاته ، وخلقها ، وتكوينه ، وهى تدل على أنه فعل فاعل مختار لما يريد ، وأن الأشياء لا تنشأ عنه سبحانه نشوء المعلول عن علته ، كما يقول الفلاسفة ، ويسميه الناس حكماء وليسوا كذلك ؛ ولذا قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى المذكور من: مد الأرض، ووجود أوتادها، وتحدر الأنهار منها، ووجود الأزواج المختلفة ﴿لآيَاتٍ﴾ أى لدلالات بينات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لجماعة يفكرون ويتفاهمون على التفكير ويتدبرون المعانى، فإنها لو كانت بالتعليل المجرد ما تنوعت هذا التنوع، وما تقابلت هذا التقابل فيما بينها، بل كانت صنفا واحدا ولم تكن أصنافا، وكانت لونا واحدا، ولم تكن ألوانا، والله بكل شىء عليم.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضٍ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

إن القضية بين الفلاسفة الطبيعيين، والدين الإسلامى فى أصل الخلق أن الطبيعيين يقولون - باطلا - : إن الأشياء كانت من العقل الأول كما يكون المعلول من علته. وإن ذلك يقتضى جدلا وحدة المخلوقات جنسا وشكلا وحقيقة، ولكنها متغايرة فى كل شىء، متغايرة فى طبيعتها وشكلها وطعومها وألوانها مما يدل على أن لها خالق مدبر فعال لما يريد، مبدع على غير مثال ولا محاذاة.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ بعضها طيب تخرج نباتها، وبعضها سبخة لا تخرج زرعاً، وبعضها صخرى، وبعضها رملى، وبعضها صالح للزرع دون الغراس، وبعضها صالح لها. وإنه لا يخصص هذه لهذه الصفة، وللأخرى غيرها إلا لللطيف الخبير مبدع السموات والأرض، فدل هذا على وجود المنشئ المدبر لهذا الكون، الذى يغير ويبدل بإرادة مبدعة.

وفوق هذا، هذه الأرض المتدانية المتقاربة تسقى بماء واحد، ويختلف بعضها عن بعض فى الأكل مع أن التربة تكون أحيانا واحدة، وتسقى بماء واحد، وتبذر بها بذور واحدة ورعايتها واحدة، ومع ذلك تأتى إحداها بالخير الوفير وإحداها لا يكون فيها الخير الكثير، فدل هذا على أن هناك مريدا يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، وكلُّ عنده بمقدار، وكلُّ بوقت معلوم، ولِحِكْمٍ يعلمها اللطيف الخبير.

﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ انتقل البيان من الأرض إلى ما تثمره، وما تأتي به من خير، وابتدأ بجنتات الأعناب؛ لأنها كانت أحب الثمار إليهم، يتخذون منها سكرًا ورزقًا حسنًا، ولأنها سهلة لينة، ولأنها أطيب ما تخرجه الأرض العربية.

﴿وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ﴾ هذا إحصاء من غير استقراء لبعض ما ينتج في الأرض العربية وغيرها من الأرضين، وهي متنوعة، فزروع مختلفة من حبوب وبقول، ومختلفة الأنواع، وتخرج مختلفة في طعومها، ونوعها، وإشباعها للحاجات المختلفة ففيها اللين، وفيها الصلب، وذكر الجنتات من الأعناب رمز لغيرها من أنواع الثمار كالرمان والخوخ وغيرها.

﴿صِنَوَانٍ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ النخلات، أو النخلتان اللتان تخرجان من أصل واحد، أى النخيل سواء أكان مجتمعاً من أصل واحد، أم كان متفرقاً، وفي هذا إشارة إلى أنه لو كانت مخلوقة بالطبع أو بالعلة ما اختلفت صنوائاً وغير صنوان.

ثم بين سبحانه اتحاد سبب الإنتاج فقال: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾، أى أن التربة واحدة، والبذر واحد، والسقى واحد، ومع ذلك يفضل بعضها على بعض فى الأكل ما بين حلو ومر، وردى وجيد، وغير ذلك مما هو مختلف؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ والأكل هو الثمر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (ذلك) إشارة إلى الاختلاف مع أن قطع الأرض متجاورة، وأن الجنتات من الأعناب والزرع والنخيل - الممتدة الجذور وتسقى بماء واحد - وهو صنوان وغير صنوان، فى كل ذلك آيات مبينة لقدرة الخالق، لقوم يعملون عقولهم ويدركون أن هذا يدل على خالق مختار فعال لما يريد.

إنكار البعث أعجب العجب

وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَأْلَفْ خَلْقَ
 جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ
 فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾
 وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ
 قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

الخطاب للنبي ﷺ، وقيل الخطاب لكل من يقرأ القرآن، والأول أولى لأنه
 جاء بعد ذلك ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾
 والاستعجال منهم لا يكون إلا للنبي ﷺ.

ومعنى النص السامي: وإن يكن من شأنك يا محمد أن تعجب من أمر
 فالأمر الجدير بالعجب، أو هو أجدر الأمور بالعجب، فهو قولهم ﴿أَنَذَا كُنَّا تُرَابًا
 أَنْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أما إن هذا هو وحده الأمر الحقيقي بالعجب، ونكر ﴿فَعَجَبٌ
 قَوْلُهُمْ﴾ لإفادة عظم هذا العجب لشدة الغرابة فيه.

والعجب منصب على قولهم ﴿أَنَذَا كُنَّا تُرَابًا أَنْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، فموضوع
 العجب هو هذا القول؛ لأنه غريب في ذاته ينافي كل معقول، وكل محسوس؛
 لأنهم يرون في خلق الله تعالى أن الله سبحانه خلق السموات والأرض، وخلق
 كل نوع نباتا، وأشجارا، ويحيى ويميت، ويفلق الحب والنوى. فيجعل منه زرعا

متراكبا، ونخيلا وجنات، وفوق ذلك هم يسلمون بأنه الذى ابتداء خلقهم، والابتداء فى حكم العقل والفكر أشد من الإعادة، كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف] وعجبهم الضال هو فى أنهم بعد أن يصيروا ترابا يعودون أحياء.

والاستفهام للإنكار، لإنكار الوقوع مع الغرابة من هذا الوقوع، إن كان، وكرر الاستفهام ﴿أَلَمْ نَكُنْ تَرَابًا﴾، وقولهم: ﴿أَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ لأن موضع الغرابة هو الخلق الجديد بعد أن يصيروا ترابا، فدخل الاستفهام على الحالين، والتعبير بـ ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يدل على موضع استغرابهم، ونسوا أن الذى يخلقهم خلقا جديدا هو الذى أنشأهم ابتداء على غير مثال سبق، ومن أنشأ على غير مثال سبق قادر على الإعادة على المثال الذى بدأه.

والسبب فى ذلك أنهم كفروا بربهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الإشارة إليهم محملين بهذا العجب من إعادة الخلق جديدا من بدأه، وفى هذه الجملة السامية بيان سبب الإنكار وهو أنهم كفروا بربهم، كفروا بقدرته القاهرة، والتعبير بربهم فى هذا المقام له سره العميق؛ لأنهم يكفرون بقدرته وهو الذى أنشأهم، ويرببهم، ويقوم على أمورهم، فكيف يعجز عن حال من أحوالهم.

﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الإشارة إليهم على النحو الذى بيناه، والأغلال جمع غل وهو القيد الذى يرفع اليد إلى الأعناق، وذكرت الأعناق فى الآية لتأكيد وجود الغل، وفى الكلام ما يفيد أن الأغلال معنوية؛ ذلك أنهم لسيطرة المادة عليهم كانوا كأنهم فى أغلالها لا ينفصلون عن هذه الأغلال، فالكفر بالغيب أدأهم إلى هذه الحال المثيرة للعجب من أمرهم، ففى الكلام استعارة، شبهت حالهم فى استغراق المادة لنفوسهم بحال من وضع الغل فى عنقه، فلا يتحرك إلا تحت سيطرة هذه الأغلال، و﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ترشيح للاستعارة.

وهناك تخريج آخر، وهو أنهم يكونون فى أغلال من حديد يساقون بها إلى جهنم، وقد أكد سبحانه وتعالى بعد ذلك أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون. فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الإشارة لما ذكرنا إلى موضع العجب من أمورهم، وقد أكد خلودهم فى النار بالتعبير عنهم بأنهم أصحاب النار، أى الذين يلازمونها بالصحبة الدائمة المستمرة، وب (هم) التى تدل على التوكيد، وتدل أيضا على اختصاصهم بالدخول فى النار والخلود فيها، أنهم يبالغون فى إنكار البعث، ولا تجديهم النذر، بل يستهزءون بالإنذار بعد الإنذار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ٦﴾.

السين والتاء للطلب، فهم يطلبون التعجيل بالسيئة قبل الحسنة، أى أنهم عندما يسمعون البشير والنذير، يستعجلون العقوبات التى تكون فى الإنذار بدل أن يعملوا الحسنات ويستعجلونها طالبين لها، وذلك من فساد الفكر وضلال النفس، وسيطرة العادة، والمبالغة فى إنكار الحق، فإذا جاء إنذار بعذاب شديد إن استمروا فى غيهم، وجنات النعيم والعزة فى الدنيا إن استقاموا على الطريقة واهتدوا، لا يفكرون فى فعل الخير يستعجلون به بل ينساقون فى الإنكار ويستعجلون السيئة متهمين، مهملين مستهترين، والسيئة هى ما يسوء فى ذات نفسه، والحسنة ما يحسن فى ذات نفسه فهم يطلبون السيئ تحديا وتهكما، واستهتارا، وكأنهم لا يعبثون.

وفعلون ذلك، ويقولونه، مع أن العبر بين أيديهم شاهدة بصدق ما يخبرهم به ربهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ و﴿خَلَتْ﴾ معناها مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ والمثلات جمع (مَثَلَةٌ)، ك(سَمُرَةٍ)، أى خلت العقوبات التى نزلت بالذين من قبلهم كما عتوا وتجبروا، وعاندوا رسلهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وسميت مَثَلَةً؛ لأنها كانت عقوبة

متماثلة لما ارتكبوا، ويصح أن تكون مشتقة من مثال بمعنى قصاص؛ للتماثل بين الجريمة والعقوبة، وذلك أعدل وأردع.

وإنه سبحانه وتعالى مع عدله في أن تكون العقوبة على قدر الجريمة، وملاحظة التماثل بينهما من غير أى بخس لعمل ولا مجاوزة للعقاب يعفو عن كثير؛ ولذا قال تعالى بعد أن قرر أن المثالات قد مضت، أنه عندما يشتد سيل الشر ويتفاقم أمره ينزل العقاب؛ دفعا للشر ووقفا له حتى لا يعم الفساد، ويضل العباد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أى إن ربك لذو مغفرة، تلازمه المغفرة كما يلزم صاحب صاحبه حال كونهم ظالمين لأنفسهم بالشر الذى ارتكبوه، ولكنه يقبل التوبة فالتوبة سبيل الغفران، كما قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ... (٣)﴾ [غافر]. فالظلم بمعنى ظلم النفس بارتكاب المعاصي وليست بمعنى الشرك، فإنه ظلم كما قال تعالى عن لقمان: ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]، ولكنه هنا بما دون ذلك؛ لأن الله تعالى لا يغفر الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ... (٤٨)﴾ [النساء]، وكما أن الله سبحانه وتعالى صاحب المغفرة التى هى ستر الذنب، ولا يحاسب عليه إذا كانت دون الشرك، فهو أيضا شديد العقاب على المصرين على المعاصي الذين أحاطت بهم خطيئاتهم واستغرقت نفوسهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أى إن عقابه شديد لمن أصر على المعصية وتدرنت بها نفسه وأظلمت.

وقد أكد سبحانه وتعالى عقابه بالجملة الاسمية، وب (إن) التى للتوكيد، وباللام.

ويلاحظ أنه سبحانه وتعالى عبر بالرب فى صفة المغفرة، وشدة العقاب، وفى ذلك إشارة إلى أنه من مقتضيات الربوبية، فهو يهذب عبده بالإنذار بشدة العقاب، وفتح باب التوبة من غير أن يقنط العصاة من رحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا... (٥٣)﴾ [الزمر].

وقد ورد في معنى هذا النص السامى آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾ [الحجر]، ومنها قوله تعالى: ﴿... إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾ [الأنعام]، وهكذا النصوص القرآنية الدالة على أنه لا يصح أن يطمع العاصي في عفو مطلق، ولا أن يئس من رحمة الله تعالى، ولقد قال رسول الله ﷺ في هذا المعنى: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدنا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد»^(١) والله أعلم.

وإنهم مع قيام الدلائل على الوجدانية، وقيام المعجزة الكبرى، وهى القرآن يطلبون آيات أخرى وينكرون إعجاز القرآن مع قيام التحدى الشامخ. وعجزهم عن أن يأتوا بمثله؛ ولذا قال الله تعالى لهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾.

أظهر لنا، ولم يضمّر، كما قال من قبل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ فعبّر بالموصول بدل الضمير؛ وذلك لبيان أن الكفر ابتداء هو الذى دفعهم إلى طلب آية أخرى، فصلة الموصول، وهى الكفر، علة الطلب، فليست علة الطلب الحق ليهتدوا، فقد طمس على قلوبهم، وإنما اتخذوا ذلك تعلقة لكفرهم، وتماديهم فى غيهم، وإلا ففى التحدى والعجز دليل على الإعجاز.

و﴿لَوْلَا﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ معناها هلا أنزل عليه آية من ربه، وإن ذلك يتضمن أنهم لا يؤمنون لعدم وجود آية، ويتضمن بالتالى إنكار أن يكون القرآن آية مع التحدى المتوالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فى التعبير بالمضارع ما يفيد بتكرار هذا الطلب عنادا وسترا لكفرهم، ولعجزهم عن التحدى فقد طلبوا أن ينزل عليهم

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب.

كتاب في قرطاس وأن يلمسوه بأيديهم، وأنكروا أن يبعث الله بشرا رسولا، ورد الله تعالى قولهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥) [الإسراء]، وطلبوا آيات أخرى يسترون بها كفرهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٦) أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩٧) أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا (٩٨) أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفُقِ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفُوقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٩) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (١٠٠) [الإسراء].

وهكذا يكفرون بالمعجزة الكبرى ويتحللون لأنفسهم ما يحسبونه عذرا بإنكارهم القرآن، وقوله تعالى: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ فيه تنكير ﴿آيَةً﴾ للمبالغة في الإنكار، كأنهم يطلبون أى آية، ولا يعدون القرآن الكريم آية، وهو أعظم الآيات وأبقاها.

رد الله سبحانه وتعالى قولهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (إنما) أداة من أدوات القصر، أى لست إلا منذرا ينذرهم بسوء العقى، ومآل الإنكار، وقد أُنذرت، وأُقيمت الحجة على أنك متكلم من عند الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ متضمن معنيين، وتشملهما؛ الأول: أن كل قوم لهم نبي يهديهم ويرشدهم، فإن اهتموا كانت لهم الحسنى، وإلا كان لهم السوءى، وهذا كقوله تعالى: ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١٤) [فاطر]، والثانى: أن كل قوم لهم معجزة تهديهم إلى الرسول تناسبهم، فكانت معجزة عيسى ما كان لأنه بعث فى عصر لا يؤمنون فيه بالسببية، ويعتقدون أنها لا تتخلف، فجاءت معجزاته هدمًا لقانون السببية، وخرقا لنظامه، ومحمد ﷺ جاء للخليقة كلها من بعده إلى يوم القيامة، فكانت معجزته من النوع الذى يبقى ولا يزول ولا يحول، وهو كلام الله الذى يبقى ويتحدى بإعجازه الخليقة إلى يوم الدين ﴿قُلْ لِّئِنْ

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء].

وإن الذين أرسلت إليهم الآيات المادية منهم من كذب بها، وكانوا الأكثرين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ...﴾ ﴿٥٩﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى على النحو الذى نهجناه وهو ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ جملة مستقلة عن التالية، فيكون معناها ما ذكرنا من أنه عليه الصلاة والسلام مختص بالإنذار، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ جملة أخرى دالة على ما ذكرنا من الأمر، وجاء فى حاشية الشهاب على البيضاوى أن ﴿هَادٍ﴾ معطوف على ﴿مُنْذِرٌ﴾ أى إنما أنت منذر وهاد، وتكون هاد مؤخره عن تقديم، ويكون المعنى: إنما أنت منذر وهاد لكل قوم. وهو معنى محتمل ولكنه ليس الظاهر البين من السياق.

بعد أن أشار سبحانه إلى خلق السموات وما فيها بين سبحانه آياته فى خلق الإنسان.

قال الله تعالى:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ
الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا أَمَّا بِأَنفُسِهِمْ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالِ ﴿١١﴾

يَبْنِ سُبْحَانَهُ قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا، وَسُخْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكَائِنَاتِ الَّتِي هِيَ سَمَاتُ هَذَا الْوُجُودِ، وَالْآنَ يَبِينُ خَلْقُ الْإِنْسَانِ، وَكَيْفَ كَانَ فِي عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ سُبْحَانَهُ. فَقَالَ تَعَالَى:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)﴾.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ (ما) هنا قد تكون موصولة بمعنى الذي، ويكون السياق: الله جل جلاله يعلم الذي تحمله كل أنثى، والذي تغيض به الأرحام والذي تزداد، وكل شيء عنده بمقدار قدره، وحده وعينه.

يعلم ما تحمل كل أنثى من ذكورة وأنوثة، ومن حجمه، وشكله، وامتداده، وعمره، وما قدر له من حياة سعيدة أم شقية، وإيمان، وصباحة ودمامة، واستقامة وفجور، وما يكون في قلبه هاديا مهديا، أو مقيتا شقيا، وغير ذلك مما يكون في حياته البدنية والنفسية، وكل ما يتعلق به.

يعلم أدوار الحمل من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ومن وقت وضعه نطفة في قرار مكين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]، ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ... (٣٧)﴾ [النجم]، ويقول تعالى: ﴿... يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ... (٦)﴾ [الزمر].

يعلم الله تعالى ما تحمل كل أنثى من هذه الأطوار كلها طورا بعد طور، وما يعلمه الله هو علم الخالق لما خلق، ومهما يكن متعلقا بـ (ما) في الأرحام فالعلم عند الله علام الغيوب، وقد روى في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال



رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك»^(١).

﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، الأرحام جمع رحم، وهو وعاء الولد فى بطن أمه الذى تلقى فيه النطفة، وتمكث فيه أربعين يوما كما ذكر النبى ﷺ، ثم تصير علقه، ثم مضغة، كما روينا عن النبى ﷺ.

وتغيض أى تنقص، يستعمل لازما ومتعديا، ومنه غاض الماء، ويقال غضته أى نقصته، ومنه قوله تعالى فى قصة الغرق لقوم نوح ﴿...وَتَغِيضُ الْمَاءَ...﴾ (٤٤) [هود] و﴿تَزْدَادُ﴾ فأخذه زائداً.

ومعنى هذا بالنسبة للحمل أن يكون الرحم خاليا من الولد أو يزداد فيه بالحمل ونموه، وتعدده، ويغيض بالخلو من الدم الذى يشتمل على خلايا التولد وامتلائه بهذا الدم، يكون التوالد من نطفة الرجل وخلايا المرأة.

وخلاصة القول فى هذا أن الذكورة والأنوثة، وكل ما يخص التكوين الخلقى من عمل هو فى علم الله، والله وحده الذى يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وإن ذلك كله بعلم الله تعالى وتسييره، ويسير على سنة مرسومة محدودة لا يغيرها إلا خالقها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أى كل شىء عنده بمقدار معلوم محدود، فأدواره مقصورة محدودة قدرها الله سبحانه وتعالى، ولا يعلمها إلا هو لأنه العالم بالشاهد والغائب، وبالسر والجهري؛ ولذا قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى علمه بما تحمله كل أنثى، وهو من الغيب الذى لا يظهر فى حسناً والذى لا يعلم إلا بعد ظهوره لنا، ذكر سبحانه أنه المحيط علمه

(١) رواه البخارى: بدء الخلق - ذكر الملائكة (٢٩٦٩)، ومسلم: القدر - كيفية خلق آدمى (٤٧٨١).

للحاضر والغائب، وما يَسُرُّ به الإنسان وما يجهر، وما يستخفى ويظهر، فقال تعالت كلماته: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩).

هو تأكيد ما تضمنته الآية السابقة من علمه بما فى الأرحام منذ وجودها فيها ومكنونها، وأدوارها، وقابلها، وكان التأكيد بذكر عموم علمه للغائب والحاضر، والغيب مصدر غاب، وأطلق على ما يغيب حتى اشتهر، فيه مبالغة فى غيبه عن الرؤية والحس، والشهادة من شهد بمعنى حضر، ثم أطلقت على ما هو حاضر محسوس، مبالغة فى حضوره والحس به، والمعنى: عالمٌ بما يغيب عن الحس، وما هو محسوس حاضر، وقال (عالم) ولم يقل يعلم؛ للإشارة إلى أسمائه وأنه صفة ملازمة له سبحانه وتعالى، وذكر الغيب والشهادة لإثبات أن علمه واحد بالشاهد والمغيب على سواء؛ لأنه علم محيط، لا يفترق فيه شيء عن شيء.

ووصف ذاته العلية بأنه فوق البشر وفوق كل ما هو من شأن البشر، فقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الكبير أى العظيم فى قدرته وإرادته، وكمال سلطانه وتديره وخلقه لكل هذا الوجود بسمائه وأجرامه وكواكبه وسياراته، وأرضه، وكل ما هو مسخر فى هذا الوجود ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أى المتسامى فى صفاته، وفى كل ما هو من شأنه فلا يشبه شيئاً من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، تعالى الله سبحانه عن مشابهته للمواد علواً كبيراً وهو الواحد الأحد الفرد الصمد.

ثم بين سبحانه وتعالى علمه بالناس فى سرهم وجهرهم، فى خواطر نفوسهم وما تنطق به ألسنتهم، فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ التفت سبحانه وتعالى من الغيبة إلى الخطاب عندما تحدث بعلمه عن الأحياء، فقال: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ...﴾ ليشعر الأناس من خلقه بأنه معهم، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ويخاطبهم سبحانه وتعالى، وهذا إشعار لهم بمقام المشاهدة ليتجهوا إليه؛ ليحسوا برقابته، وكمال شهادته.

﴿سَوَاءٌ﴾ بمعنى يستوى منكم من أسر القول فلم ينطق بما تحدثه به نفسه، ومن يجهر بما في قلبه فهو سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى، يعلم ما يجول بالخواطر وأحاديث النفس، وما يجهرون به، يعلم ما يبيتون وما يظهرون، يعلم النيات والأعمال على السواء، فهم تحت رقابته وعلمه، وهو بكل أحوالهم محيط فيما يسرون، وما يعلنون، ويكون (مَنْ) فاعل يستوى.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ المستخفى بالليل: السين والتاء للطلب، أى من هو طالب للاختفاء بالليل، فهو لا يكتفى بخفاء الليل وظلمته، بل يطلب خفاء آخر بأن يكون فى كُنْ من الأرض مستور لا يعلمه أحد، و(السارب)، هو السائر فى سرب، أى فى طريق ظاهر بالنهار، فحال لا تخفى على أحد؛ لأنه فى وضوح النهار، ولأنه سائر فى سره معلوم، وذكر هذا بجوار الاستخفاء بالليل للدليل على أنه لا تفاوت فى علمه بين الظاهر والخفى، بل الجميع فى علمه على سواء، إنما التفاوت يكون فيمن يكون علمه مبنيًا على الحس فيختلف عنده المحسوس عن غير المحسوس، وعلم الله سبحانه وتعالى ذاتى، كل المعلومات عنده سبحانه وتعالى على سواء، ولا شعاع الناس جميعًا بأنهم تحت سلطان علمه المحيط.

ولقد قال العلماء: إن ﴿سَوَاءٌ﴾ بمعنى الاستواء تكون لمعادلة اثنين، ولا شك أن ﴿مَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ معطوف على ﴿مَنْ أَسْرَ﴾، فتكون سواء داخلة عليه، لأن عطف النسق على نية تكرار العامل، فسواء مقدرة فى الاستخفاء، وسارب، فما هما المتعادلان؟ قالوا: إن (مَنْ) مقدرة فى قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ لأنها معطوفة على ﴿مُسْتَخَفٌّ﴾ فتقدر (مَنْ) الداخلة على ﴿مُسْتَخَفٌّ﴾، وليس فى هذا كبير خفاء.

وقد بين سبحانه إحكام رقابته على عباده ورعايته لهم فقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ۚ﴾ (١١).

يبين الله تعالى في الآيتين السابقتين علم الله تعالى بالغائب والحاضر علما واحدا، وعلم الأسرار والجهر علما واحدا، لا فرق في علمه بين أسرار النفوس وجهار الألسنة، وأنه يعلم المستخفي في ظلام الليل كعلم السارب بالنهار على حد سواء، وفي هذه الآية: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الآية تبين أن علم الله تعالى يحيط بالחסنات والسيئات، ويحفظ الإنسان في حياته ما دام حيا، وكلُّ بأمره، ويعرف حاضر أمره وقابله وتفسير أحواله وأسباب التغيير كلُّ في علم الله تعالى وكل يارادته، فالمستغرق في ضلاله يعلمه ويغير ما به إذا غير ما بنفسه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ «المعقبات» جمع معقبة، والتاء للمبالغة مثل علامة وفهامة، فإنها تدل على المبالغة في العلم والفهم، ومثل رحالة ونسابة، فإنها تدل على كثرة الرحلة، ودقة العلم في النسب.

والمعنى تعقبه فهى تكون ملازمة له محتذية عقبه لا تختلف عنه، والضمير يعود إلى الإنسان المتحدث عنه في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَأُ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)﴾ فكما أن الله تعالى يعلم سره وجهره، واستخفاه وظهوره، قد أحاطه بمعقبات من بين يديه ومن خلفه يحيطون به إحاطة الدائرة بقطرها، وهم من الملائكة يحصون عليه ما يفعل من خير وشر، ويكتبون ما يفعل من حسنات وسيئات، ولقد قال تعالى: إنها مع هذه الإحاطة الشاملة به وأنهم يعدون عليه سيئاته وحسناته، مع هذا فإن عمل هؤلاء الملائكة أنهم يحفظونه من أمر الله تعالى، ويقول الزمخشري: إن قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ صفتان، أى بعد ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.

وتقدير الصفة الأولى، أى أن هذه المعقبات (تحفظه)، وقوله: ﴿مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ صفة ثانية أى يحفظونه لأنه أمرهم بذلك، وكلفهم الحفظ وصيانيته، وقال الزمخشري: إنه يؤيد لذلك قراءة (يحفظونه بأمر الله) فهم مكلفون الحفظ بأمر الله تعالى.

ويصح أن يكون ﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ليست وصفا جديدا بعد ﴿ يَحْفَظُونَهُ ﴾، إنما التقدير يحفظونه من أمر الله، أى مما كتب الله تعالى عليه أن ينزل من صواعق أو خسف، أو غير ذلك من مللمات الأمور، فالله سبحانه ينزل عليه ما قد يؤذيه، ويكلؤه بحفظه من الملائكة يحمونه، وكلا الأمرين يعمل من الله تعالى، فهو رحيم فى ابتلائه، ويقارب هذا المعنى ما قاله شاعر العربية فى زمننا شوقى، إذ يقول:

وقى الأرض شر مقاديره لطيف السماء ورحمانها

فالله تعالى ينزل البلاء، وينزل معه الحماية والانتقاء.

ويصح أن نقول: إن المعنيين مرادان، إذ لا تناقض بينهما، ويمكن الجمع فيهما إعمالا للقراءتين، فالحفظ بأمر الله، ومما ينزله تعالى من أمور تكرهه كتعرض للغرق أو الحرق أو غير ذلك، وإن كل شىء بقدر، وكتبه الله تعالى.

وإن التعبير عن الكوارث والنوازل بأنها من أمر الله تعالى ينبئ بأن ذلك يكون فى كثير من الأحيان عن معاصى يرتكبها الناس فى ذات أنفسهم، أو مجتمعهم، أو تخاذلهم عما أمر الله تعالى به من أخذ الأهبة.

وقد أشار سبحانه وتعالى أن الريح الصرصر العاتية قد تحيى بسبب الظلم، فقال فى شأن الخير الذى يفعله الكافرون من غير إيمان ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران].

وقد صرح الله سبحانه وتعالى بأن المعاصى والمفاسق يصيب أصحابها بالجوع والفقر، فقال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل].

هذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾، أى أن المحن تكون بأمر الله ويحفظ الناس بحفظة من الملائكة حتى لا يعم الهلاك.

وإن الوقاية ليست فى حفظ الملائكة فقط، بل إن تغيير الحال من ظلم إلى عدل، والنفوس من انحراف إلى استقامة، هو الحماية الكبرى؛ ولذا قال تعالى عقب حفظ الله بالملائكة عند نزول قدره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

والمعنى الجملى أن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا أنفسهم، فإن كانوا فى خير يأتهم رزقهم رغدا من كل مكان لا يغير حالهم إلى ضراء وبأساء إلا إذا غيروا أنفسهم من خير إلى شر وانحرفوا، ولا يغير الله حال قوم أصابهم الضر والشر والخذلان والهزيمة أمام أعدائهم، إلا إذا غيروا حالهم من فساد إلى صلاح، ومن تخاذل نفس وتفرق كيانى إلا إذا غيروا أنفسهم واجتمعوا على الحق، وتركوا التنازع والتدابير، وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بالجملة الاسمية، وبتصدير الكلام بلفظ الجلالة اسم الله العلى الأعلى القادر على كل شئ وبالغاية (حتى)، فجعل تغيير الحال الأليمة إلى حال صالحة راضية منتفية إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، أى إنهم يستمرون فى الآلام تنزل بهم إلى أن يغيروا أنفسهم.

وما أحرانا نحن المسلمين بالاعتبار بهذه الآية، لقد كنا أعزّة بعزة الله تعالى حتى تفرقنا، وأضعنا أحكام القرآن بيننا، حتى صارت غريبة تستغرب إذا ذكرت، وضاعت لغتنا، واستنكرت حال من يمسك بها، وتقاتل المسلمون بعضهم ببعض، ووالوا الكفار واستنصروا بهم على بعض وصرنا وراء كل الأمم، فهل لنا أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله حالنا.

ولكن أراد بنا هذا التخاذل، وقد قال: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ أَلٍ﴾. (السوء) ما يسوء الأمم من الهلاك أو الهزيمة، أو الخسران، أو الحرمان، أو الفساد والدمار، إذا أراد الله تعالى ذلك وأشابهه، مما تضع به الأمم وتذهب قوتها من أعمالها، بأن ارتكبوا الشر واستعذبوا فعله، إذا أراد الله ذلك بسبب ما فى نفوسهم وما يرتكبون فإنه نتيجة حتمية لعملهم، وأراد الله تعالى فيهم بسبب سوء ما يصنعون.

وقد سمعنا أن شر حاكم رآه التاريخ الإنسانى أصيبت بلاده التى حكمت به بسبب تقاصره، وظلمه، وقتله الأنفس البريئة وطغيانه المستمر الدفين، دُكِّرَ بالصلاة فقال: كيف أصلى له وهو لم ينصرنى، ونسى أنه سبب الهزيمة النكراء، وإذا كان ما ينزل بسبب الظلم، وأراد الله النزول كمسبب يكون ثمرة للاعتداء فإنه لا يرد، و(مردّ) مصدر ميمى، بمعنى الرد، ثم أكد أن الشر لا محالة نازل بمن ظلموا أنفسهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾، أى ليس لهم غير الله من والٍ يواليهم وينصرهم ويدفع عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (من) الثانية لاستغراق النفى، والمعنى ليس لهم من غير الله أى والٍ من العباد أو غيرهم؛ لأن ما ينزله الله لا يدفعه أحد من عباده.

بعد أن بين سبحانه وتعالى علمه الشامل بكل شىء بين مظاهر الخلق والتكوين قال تعالى:

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا
بَكْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

بَيَّنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مَا يَسِيرُ الْإِنْسَانُ، وَعَلَّمَ اللهُ الْمَحِيطَ الَّذِي يَشْتَمِلُ مَا يَظْهَرُ وَمَا يَخْتَفِي، وَالْمَعْقَبَاتِ الَّتِي تَحْفَظُ وَتَحْصِي وَلَا تُرَى.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَرَى وَمَا يَسْمَعُ، وَمَا يَحْرِقُ، وَاللَّهُ مُسِيرُهُ، وَمُوجِبُهُ، بِحَيْثُ تَرَى آثَارَهُ، وَلَا يَكُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ تَفَاعُلُهُ، بَلْ يَتَوَلَّى أَمْرَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الضمير يعود على الله تعالى الذي يكون الحفظ من أمره، وَمَنْ كُلِّ مَا يَقْدِرُهُ، فَهُوَ الَّذِي يَرِينَا الْبَرْقَ حَالَةً كَوْنَنَا خَائِفِينَ مِنْ مَنَظَرِهِ، وَمَنْ عَاقِبَتُهُ، طَامِعِينَ فِي أَنْ يَعْقِبَهُ مَطَرٌ يَكُونُ غَيْثًا، وَخَائِفِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ غَيْثًا مَدْمَرًا مَفْسَدًا. وَالْبَرْقُ يَنْشَأُ عِنْدَ اصْطِدَامِ سَحَابَتَيْنِ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ فَيَحْدُثُ مِنَ الْاصْطِدَامِ النُّورُ الْبَارِقُ. وَيَقُولُ عِلْمُ خَوَاصِ الْأَجْسَامِ: إِنَّ إِحْدَى السَّحَابَتَيْنِ تَكُونُ ذَاتَ كَهْرِبَاءَ مُوجِبَةً، وَالْأُخْرَى ذَاتَ كَهْرِبَاءَ سَالِبَةٍ، فَيَحْدُثُ مِنْ احْتِكَاكِهِمَا بَرْقٌ، وَيَكُونُ مَعَهُ الرَّعْدُ، بَيِّنٌ أَنَّ الرَّعْدَ لَا يَصِلُ إِلَى الْأَسْمَاعِ إِلَّا بَعْدَ فِتْرَةٍ مِنْ رُؤْيَةِ الْبَرْقِ؛ لِأَنَّ الرَّعْدَ صَوْتُ الْاصْطِدَامِ وَالْبَرْقُ صَوْتُهُ، وَلَكِنْ يَصِلُ الصَّوْتُ إِلَيْنَا يَمُرُّ بِأَجْوَاءِ الْفُضَاءِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا مَسَامِعُنَا إِلَّا بَعْدَ فِتْرَةٍ يَقْطَعُ فِيهَا مَرُورُهُ، وَالصَّوَاعِقُ إِذَا كَانَتْ أَحْيَانًا مِنْ هَذَا الْاصْطِدَامِ تَكُونُ مَعَ الْبَرْقِ فِي فِتْرَةٍ وَاحِدَةٍ تَقْرِيبًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَبَيَّنُ رُؤْيَا الْبَرْقِ، وَالَّتِي تَلِيهَا تَبَيَّنُ سَمَاعَ هَزِيمِ الرَّعْدِ، وَالثَّلَاثَةُ تَبَيَّنُ إِصَابَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِالصَّوَاعِقِ لِمَنْ يَشَاءُ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُ يُرَى النَّاسَ الْبَرْقَ خَائِفِينَ طَامِعِينَ، وَذَكَرَ بَعْدَ الْبَرْقِ السَّحَابَ الْمَمْلُوءَ مَاءً، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ السَّحَابُ اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِي لِسَحَابَةٍ، وَاسْمُ الْجِنْسِ الْجَمْعِيُّ هُوَ الَّذِي يَفْرُقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُفْرَدِهِ بِالتَّاءِ أَوْ يَاءِ النِّسْبِ، مِثْلُ شَجَرٍ وَشَجَرَةٍ، وَمِثْلُ عَرَبٍ وَعَرَبِيٍّ، فَمُفْرَدُهُ كَمَا رَأَيْتَ سَحَابَةً، وَالثِّقَالُ جَمْعُ ثَقِيلَةٍ، وَعَبَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنِّسْبَةِ لِلْسَّحَابِ بِأَنَّهُ أَنْشَأَهَا، وَلَمْ يَقُلْ سَيَّرَهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى رَحْمَتِهِ بِالنَّاسِ، أَيْ أَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ الْمَلْحَ يَتَبَخَّرُ ثُمَّ يَتَكَاثَفُ مَاءً عَذْبًا، يَثِيرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَحَابًا مَمْلُوءًا بِالماءِ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا ثِقَالًا لِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ الْعَذْبِ الْفَرَاتِ، وَيُرْسِلُهَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ

عباده، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾ [النور].

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى مزية البرق المثير للخوف والطمع معا ذكر ملازمها وهو الرعد فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾.

للمفسرين اتجاهان في هذا:

الاتجاه الأول: أنه يفسر الرعد بمن يسمعه، فالتسبيح ليس تسبيح الرعد ولكن تسبيح من يسمعه؛ لأنه يكون خائفا فزعاً، كما يكون الفزع من كل صوت مزعج، فيجعله الخوف والفزع في حال إدراك لقوة منشئه كما تكون النفس عند رؤية أى أمر مزعج.

والاتجاه الثانى: أن الرعد ذاته يكون في حال تسبيح الله تعالى وحده؛ لأن هذا الصوت المزعج الرهيب المفزع يكون خاضعاً لله تعالى، دالاً على توحيده، وعلى كمال سلطانه، فكل شيء يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وإنى أُميل إلى الاتجاه الثانى؛ لأنه يتفق مع النسق القرآنى، إذ إن النسق القرآنى يبين خضوع الكون ومظاهره لله تعالى مسبحاً بحمده، وهى تدل على الباعث على هذا التسبيح، وهو حمده على نعمة إيجاده، وكمال خضوعه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أى من خوفه سبحانه، و(خيفة) فعلة بكسر الفاء، وهى هيئة الخوف، أى هيئة الخوف الرهيب من الله تعالى، فلا يدرك عظمة الله القوى الجبار إلا من يكون قريباً منه سبحانه وتعالى. ومع تسبيح الرعد بهزيمة، والملائكة الأبرار بخيبتهم من الله، ينزل الله تعالى الصواعق وهى من احتراق البرق، فالبرق يحدث معه الرعد، وأحياناً يكون السحابتين السالبة والموجبة محدثة شراراً ينزل على الأرض فيحرق ما يصيبه ومن تصيبه؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ومع هذا البرق الخاطف للأبصار الذى يروونه ويفزعون له، ويرجون المطر منه، وهزيم الرعد الذى يسبح لله تعالى، وتسبيح الملائكة من خيفته، وإرسال الصواعق الحارقة مع رؤيتهم هذه الظاهرة الدالة على القدرة القاهرة، والإبداع الباهر يجادل المشركون فى الله؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يجادلون فى قدرة الله تعالى على إعادتهم فى البعث، كما بدأهم، ويجادلون فى الله فيحسبون أن الأحجار تعبد لأنها تكون شفيعه عنده، ويجادلون فى قدرتها فيحسبون أن لها قدرة مع قدرته سبحانه وتعالى، وغير ذلك من الأوهام الفاسدة التى يشيرونها حول الذات العلية، والجدل من جدل الحبل إذا قتله فتلا شديدا ليحمل به الأشياء الثقيلة، ويشد عليها، واستعمالها هنا بمعنى قتل الحجة الباطلة يريدون أن يعتمدوا تفكيرهم الفاسد، ووهمهم الباطل عليها، ﴿... وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك أن جدلهم فى هباء أمام قدرة الله تعالى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ الضمير فى ﴿وَهُوَ﴾ يعود إلى الله تعالى، والمحال: قال الأزهرى: إنه القوة والشدة، ويقال: ما حلت فلانا أى قاومته حتى يتبين أينأ أقوى، ومِحَالٌ فعَالٌ من الماحلة، أى أنه لا يغالبه فى الوجود أحد فهو أقوى من كل الوجود، ومع ذلك يجعلون ذاته الكريمة موضع جدال. ولكنه الضلال الذى أوجد غمة على العقول فلا تدرك الحق المبين الواضح الذى قامت فيه الدلائل على قوته القاهرة.

ويجادلون فى الله بأوهام توهموها؛ ولذا بين سبحانه وتعالى أن دعوة الله هى الحق ودعوة أندادهم هى الباطلة، فقال تعالى:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٥٥﴾.

بعد أن بين سبحانه علمه الذى لا يفرق بين جهر وإسرار، وإخفاء وإظهار وقدرته الباهرة ويرونها عيانا فى آياته فى البرق والرعد والصواعق: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ الضمير فى (له) يعود إلى الله جل جلاله، وتقديم (له) على ما بعدها يدل على الاختصاص أى له وحده لا لغيره دعوة الحق.

و﴿دَعْوَةُ﴾ إما أن تفسرها بمعنى الدعاء وهو العبادة، أى له وحده العبادة الحقة، والإضافة بيانية، أى أن المضاف إليه فيه بيان للمضاف، أى الدعوة التى هى الحق، والحق ضد الباطل أى العبادة الثابتة الصادقة التى هى الحق، وغيرها الباطل. وإما أن يفسرها بمعنى الطلب، والالتجاء، أى لا يلجأ إلا إليه، ولا يجيب غيره دعوة اللاجئين المستغيثين، ولا مانع من إرادة المعنيين؛ لأنه لا تضاد بينهما، ولا تضارب، فيمكن الجمع بينهما، ويكون المعنى العبادة هى الحق، ولا التجاء بحق إلا له سبحانه، وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك بطلان دعوة غيره، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَالِغِهِ﴾.

كثر فى الكلام العربى تشبيه الذى لا يقبض على شىء ثابت بالقباض على الماء؛ لأنه لا يستقر فى يده؛ إذ لا يمكن القبض عليه، وجاء القرآن الكريم بأبلغ مما عند العرب فى هذا المثل الرائع فى لفظه ومعناه، فشبّه حال من يدعو غير الله بحال من يسط يد له الماء ليلبغ فاه، وما هو ببالغه، أى ليرتفع إلى فمه، وما هو من شأنه أن يلبغه؛ ولذا كان النفى باسم الفاعل، فنفى عن الماء ذلك الوصف، ونفى الوصف أبلغ من نفى الفعل، والتشبيه تشبيه تمثلى، فيه تشبيه حال بحال، ففيه حال من يدعو ما لا يضر ولا ينفع ولا يجيب، ولا يدرك معنى الطلب أو العبادة، بحال العطشان الذى أمضه العطش، فيطلب من الماء أن يرتفع إلى فمه إذا بسط يده، ومد أنامله إليه على قرب أو بعد، فإن الماء لا يجىء إليه، ولا يستطيع أن يتناول منه بهذه الطريقة ما يتنقع غلته ويطفئ ظمأه.

ولقد روى عن على كرم الله وجهه فى تفسير هذا التشبيه: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدا فكيف يبلغ فاه.

وفسره مجاهد - تلميذ ابن عباس - بأنه يسط يده إلى الماء فى نهر أو عند غدير يدعوه إليه فلا يأتيه.

وأغرب بعض المفسرين فقال: إن المثل هو تشبيه حالهم فى دعوتهم ما لا يضر ولا ينفع بمن يرى خياله فى الماء يسط يده إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه. وكلها يفيد معنى محققا فى عبدة الأوثان، وهو أنهم يتوهمون القدرة فيما لا قدرة عنده على شيء، وهو مستحيل أن ينفع، وأن يحقق مبتغى.

وهنا إشارات بيانية:

أولها: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ فقد أعاد الضمير على الأنداد بضمير العقلاء، وذلك على زعم المشركين فى وصفهم إياها فى صفوف العقلاء المدركين، وليست إلا أحجارا، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ الباء لاستغراق النفى، وتنكير (شيء) لبيان عموم النفى، أى لا يستجيبون بأى شيء من الاستجابة.

الثانية: فى قوله تعالى: ﴿كَبَّاسِطٍ كَفِّهِ﴾ هنا مضاف محذوف، أى إلا كاستجابة باسط كفّيه، والاستجابة مستحيلة، فتكون استجابة أندادهم مستحيلة.

الثالثة: فى قوله تعالى: ﴿لِيَلْبَغَ فَاهُ﴾ فيه بيان وجه الاستحالة؛ لأنه يمكن أن يكون بلبل الماء، ولكن لا يمكن أن يرفع إلى الفم، فكأنه يرى الماء والعطش يقتله، وبمحاولته لا ينال شيئا، فتعبه فى هباء، ومن غير جدوى، ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

ومعناها: ما دعاء المشركين الذين يشركون الأنداد مع دعائهم لها بالعبادة، والالتجاء فى الحاجة إلا فى ضياع إجابة له، فضراعتهم للأنداد ضراعة لأوهام، إذ

لا حقيقة لها في شيء ولا وجود لها إلا أن تكون أحجارا صنعوا وابتدعوا لها قوة أرادوها، وما يستطيعون تغيير حقيقتها بأوهامهم.

ولقد بين سبحانه بعد ذلك أن الوجود - كله عقلاء وغير عقلاء - خاضعون له طوعا وكرها، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)﴾.

بعد أن بين سبحانه وتعالى بطلان الشرك، وضرب الأمثال على ذلك، وهى أمثال على عظمة البيان القرآنى الذى لا يسامى، ولا يناهد، أخذ يبين سبحانه وتعالى خضوع الوجود كله له سبحانه، والانقياد له سبحانه، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، والمراد من السجود فى ظاهر القرآن، وكما قرر أكثر العلماء الخضوع، وتسخير الله سبحانه وتعالى له، وبذلك يكون المعنى خضوع الموجودات كلها لإرادته سبحانه وتعالى، فالرياح تسير بأمره، والكواكب والنجوم مسخرات بأمره.

وإذا كان المراد من السجود لازمه، وهو الانقياد يكون التعبير من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق السجود وأراد لازمه.

وإذا كان المراد الخضوع والانقياد فإن فيهم العقلاء وغير العقلاء، وقد نصّ على الظلال بالغدو والآصال، ولا تعد من العقلاء التى تخاطب، فلماذا عبر بـ(مَنْ) التى تدل على العقلاء؟ ونقول: إن ذلك من قبيل تغليب العقلاء على غيرهم، كما يعبر بجمع المذكر السالم على الذكور والإناث تغليبا للذكور العقلاء على غيرهم، وقد تطلق (مَنْ) على العموم، ولو لم يكن فى مضمونها عاقل وغير عاقل. وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾ [النور].

وإن كل شيء يسجد لله تعالى حتى الظلال بالغدو والآصال، فهي أيضا تسجد خاضعة لله تعالى منقادة له سبحانه، وذكرت مع أنها تابعة لأشخاصها، وذلك للإشارة إلى أن أولئك المشركين خاضعون منقادون حتى ظلالهم التي تلازمهم، ويقال: فلان ألزم لفلان من ظله، فالوجود كله تابع ومتبوع، ملازم وغير ملازم، خاضع لله تعالى، والغدو جمع غداة، كَالْقُنُوجِ جمع قناة، والغدو مصدر.

وبصح أن نقول: إن ذكر الغدو والآصال توجيه النظر إلى مظهرها في طول الظل وقصره، بين الغدو في الصباح. والآصال، وهي جمع أصيل، وكيف أنه في الصباح غير مرتفع، ثم يرتفع شيئا فشيئا حتى يكون عموديا على الأرض في وقت الزوال، ثم ينحدر من بعد الزوال إلى الغروب، فيعود منخفضا نحو الأرض، وتصفّر الشمس، وإن من وراء ذلك التغيير المستمر الدائم اتصال الشمس بالأرض، ووجود الحرارة في ارتفاعها فيكون الدفء، وفي انخفاضها فيكون البرد، ثم ما يكون للظلال من أثر، فتنبت الزرع وتنميه، حتى يستغلظ سوقه، ويعجب الزراع وهكذا، وذكر الوقتين وهما الغدو والآصال؛ لأنهما الوقتان اللذان يختلف فيهما الطول والعرض؛ ولأن الغدوة تشرق فيها الشمس على الوجود فتمده بكل أسباب القوة والنماء للأحياء؛ ولأن الأصيل هو الوقت الذي تؤذن فيه الشمس بزوال، والله على كل شيء قدير.

وننبه هنا إلى أمرين:

الأمر الأول: أن كلمتي ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ تدل على عموم السجود في حالي الطوع والاختيار والكره والاضطرار، وهذا دليل على كمال السلطان لله تعالى.

الأمر الثاني: أن بعض المفسرين قال: إن المراد من السجود سجود الصلاة، ومعنى الطوع الملائكة والدخول في الإسلام طوعا، ومعنى كرها: الدخول في الإسلام بعد الحرب نفاقا أو ضعفا، ولكن ذلك ليس بظاهر السياق. أولا لعموم من السموات والأرض، والمناسب لذلك أن يكون الخضوع للوجود كله.

وثانيا: فإن الكلمة السامية ﴿وَضَلَّاهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ تعين أن يكون الواضح السجود بمعنى الخضوع.

الله تعالى رب كل شيء

قال الله تعالى:

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا
يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

كان العرب يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض، وأنه ليس كمثله شيء، ولكنهم مع الإيمان بهذه القدرة القاهرة الغالبة كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى؛ ولذلك كان الاحتجاج عليهم بالخلق والتكوين احتجاجا بأمر يعترفون به ويقرونه، ولا يخالفون فيه؛ لذلك أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كان السؤال لهم للإلزام، لا للإثبات، فهذا أمر ثابت لا

خلاف فيه عندهم؛ ولذا أمر الله نبيه بأن يتولى هو الإجابة، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لأنهم يقرون بذلك ولا ينكرونه؛ ولأن ذلك بدهى فى ذاته؛ إذ لم تكن فيهم انحرافات الفلاسفة الذين يقولون فيها بالعلة والمعلول. ولم تكن فيهم خرافات المصريين فى عهد الفراعنة؛ ولذلك أمر نبيه أن يجيب عنهم، ثم أمره سبحانه أن يسألهم عن شركهم لماذا يكون مع اعتقادهم أن خلق السموات والأرض لله تعالى وحده، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ... (٦١)﴾ [العنكبوت].

أمره الله تعالى أن يسألهم ما رتبوه على هذا الاعتقاد، وهو نقيضه، ﴿قُلِ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والهمزة للاستفهام، وقدم على الفاء؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتوبيخ أو التهكم، والمعنى: فقد رتبتم على قولكم: إن الله خالق السموات والأرض أن اتخذتم أولياء أو نصراء لهم ولاؤكم كأنهم آلهة غير الله تعالى ودونه فى العقول عند كل المعقول، وتركتم من خلق وحده، وبدل أن تعبدوه عبدتم ما لا يملك لنفسه نفعًا وإن أراد، ولا ضرا إن أراد دفعه، ومن لا يضر نفسه ولا ينفعها، فبالأولى لا يضر ولا ينفع غيره، فلا يرجى خيره، ولا يدفع شره إلا ما يكون فى أوهامكم، وإن هذا التوبيخ يتضمن التوجيه إلى الوحداية والبعد عن الشرك بالدليل القاطع المانع.

ولقد بين سبحانه ما تنكره العقول فى هذا النحو من التفكير، وأمر الله تعالى نبيه أن يوجه إليهم الأسئلة ليتنبهوا إلى بطلان ما هم فيه، ومناقضته لاعتقادهم أن الله خالق كل شيء ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ هذا الاستفهام إنكارى فى الاثنين، وهو توبيخى، وفيه معنى التهكم، هل يستوى الأعمى الذى لا يرى بالبصير الذى يرى الأشياء، وإنكم قد أبصرتهم الحق بإقراركم أن الله خالق السموات والأرض، فأقررتهم بأنه الخالق، ومع

ذلك عبدتم ما لا يملك جلب خير لنفسه، ولا دفع ضرر لها، فلا يستويان، كما لا يستوى الأعمى والبصير، والظلمات والنور.

و(أم) في قوله ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ للإضراب الانتقالي، فينقل الله نبيه من السؤال عن استواء الأعمى والبصير إلى السؤال عن استواء الظلمات والنور.

ويتنقل أمرا نبيه بأن يسألهم سؤالاً إيجابياً عن الخلق عساهم يشركونهم في الخلق بدل التوحيد الذي قرروه من قبل فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ (أم) هنا للإضراب الانتقالي، وهو استفهام إنكارى لإنكار الواقع، أى توبيخ لهم لأن حالهم فيها إنكار؛ لأن الله خالق كل شيء، إذ إنهم يؤمنون بالأوثان كإيمانهم بالله أو أشد، فحالهم حال من جعلوها شركاء لله تعالى فى خلقه وإنشائه للوجود، حتى تشابه الخلق عليهم، فحسبوا أنهم خلقوا كما خلق.

والخلاصة أن حالهم ليست حال من يعتقد أن الله تعالى خالق الوجود وحده سبحانه؛ لأنهم يشركون بل يفردون الأوثان بالعبادة.

ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يؤكد أنه سبحانه وتعالى خالق كل شيء وحده، ولذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الله تعالى هو الخالق لكل شيء ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى الواحد الأحد الفرد الصمد القاهر الغالب لكل شيء، وهنا إشارة بيانية وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ معناها أن ذلك مثل جعلوه، وزعم زعموه، وهو أنهم شاركوا الله فى الخلق، ولم يستطيعوا تمييز عمل أوثانهم عن عمل الله، فتشابه الخلق عليهم، ولم يميزوا بينها.

وإن ذلك الفرض أخذ من حالهم فى عبادة الأنداد مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق كل شيء سبحانه وتعالى. وبعد أن بين سبحانه وتعالى إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض، ومناقضة حالهم لهذا الإقرار - بين سبحانه فضله الدائم المستمر المثبت لربوبيته الكاملة فقال تعالت كلماته:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها: أولاً: بيان نعمة الله تعالى على الناس، فيما ينزل من ماء يجرى في الأودية والأنهار فينتفع به الناس آماداً، يأمنون فيها على أنفسهم وزرعهم وضرعهم من العطش الشديد، والجذب، وضياح الحرث والنسل. وفيها ثانياً: نعمة الله تعالى عليهم فيما أودعه باطن الأرض من فلزات يوقدون عليها فتكون منها حلبيهم وأمتعتهم من أوان وأدوات حروب، ودفع لأعدائهم، وبذلك يكون منها متاع وحماية ودفاع.

وفيها ثالثاً: وهو الذي سيق له القول ظاهراً، وهو ضرب المثل بالحق والباطل، فالحق هو الأمر الثابت الباقي الذي ينفع الناس، والباطل هو الزبد الذي يجيش الماء فيوجد كالرغوة لا تبقى، والذي يوحده الغليان في الفلز فيظهر خبثاً غير مفيد، والفلز يبقى من بعده خالصاً ينفع الناس.

هذه خلاصة مقاصد الآية الكريمة السامية، بعضها بالقصد الأول، وبعضها بالقصد الثاني، وكلاهما فيه فضل الله واضح بين، بلا فرق بين ما سيق له الآية قصداً، وما سيق تبعاً، فالجميع كلام الله تعالى مقصود كل معانيه أصلياً وتبعياً.

ولتكلم في أجزاء الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ السماء هي العلو، والماء ينزل من المزن، وهي السحاب الثقيل التي ذكر الله تعالى أنه ينشئها في الآية السابقة، وتلك نعمة من الله أنعمها على الناس، نزلت من السماء على الجبال أو المرتفعات فتحدرت عليها المياه وسالت حتى كونت أودية وأنهاراً، وهذا قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، الأودية جمع واد، وهو المكان الذي يجرى فيه الماء، وليست الأودية هي التي تسيل، إنما الذي يسيل هو الماء الذي يجرى فيها،



وأطلقت الأودية وأريد ماؤها من قبيل إطلاق المحل وإرادة ما يحل فيه، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) [العلق] أى أهل ناديه، وقيل: سالت الأودية وأريد الماء؛ لأن السيل شديدا عنيفا قد طم، حتى اختفت الأودية من شدته فصار الناظر لا يرى إلا المياه المتدفقة، وكان حكمه على ما يراه، لا على محله، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ وقرئ بسكون الدال لا بفتحها، والمراد بمقدار ما يملؤها، وقيل: بما قدر لها من ماء يكفى الناس فى معاشهم وزرعهم وضرعهم، ويصح إرادة المعنيين، والنص يحتمل الجمع، ولا تعارض بينهما.

(والزبد) ما يحمله الماء عند جريانه وجيشانه من أتربة وغيرها، وإن هذا بلا ريب يذهب ولا يبقى، بل أحيانا يكون رغوة يبددها الهواء، فهي كأزيز^(١) الموج يصطخب ولا يبقى منه شيء.

ولقد قال تعالى توجيها لأمر آخر، وهو الفلز عندما يُفْتَن ليخرج ما فيه من خبث تعلق به من باطن الأرض فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ﴾ (مما) مدلولها الفلزات من المعادن وهى القابلة للطرق والسحب أو التى تنصهر بالنار كالذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير وغيرها، و﴿فِي النَّارِ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف يفهم من القول، والمعنى: مما يوقدون عليه ملقى فى النار، وقوله: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ﴾ أى مما يلقى فى النار الموقدة بقصد طلب حلية كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾، أى أمر ينتفع به كالأواني، وأدوات الحروب وغير ذلك ﴿زَبَدٌ مِثْلُ﴾، أى أن خبث الفلزات يكون كالزبد الذى يجىء من إثارة الماء للتراب واصطخاب الأمواج.

والجُفَاء هو ما يلقيه السائل بعيدا ليصفو، وذلك من قولهم جفأه السيل، وقد مثل الله تعالى المهتدى بالبصير، والضال بالأعمى، والعبادة الحقبة بالنور، والباطلة بالظلمات فى الآية السابقة. وفى هذه الآية مثل الحق بالماء الذى ينزل من

(١) الأزيز: كل صوت يأتى من شدة الحركة، فيقال أزيز الموج، وأزيز الطائرة، وأزيز النحل، لذلك.

السماء فتسيل منه أودية مختلفة تأتي بالزروع والشمار مناوبة، ولذا نكر أودية، وشبه الحق بالفلز الخالص، والزبد الذى يكون فى حال جيشان الماء، ويكون من إيقاد النار على الفلز، أى شبه الباطل بهذا الزبد الذى لا يبقى، بينما الماء والفلز الخالص يقيان نافعين دائمي النفع ووجه الشبه بين الحق، والفلز والماء، أنها مفيدة دائما، وباقية لغذاء الإنسان، ومتاعه وحليه، وأنها جوهر صالح. ووجه الشبه بين الباطل والزبد، أولا: أنه لا بقاء لهما، ثانيا: أنهما لا حقيقة لهما، وثالثا: أن السلامة فى الخالص منهما.

ويصح أن يكون التشبيه تشبيها تمثيليا، بأن يشبه حال الحق فى بقاءه ودوامه بالماء والجوهر الصافى من حيث النفع والبقاء والدوام، ويشبه حال الباطل من حيث إنه لا حقيقة له، وإذا كانت له حقيقة فهو خبث تجب إزالته وتطهير الجسم النافع، شبه حال الباطل بالزبد الذى يكون من الماء، أو يكون من إيقاد الفلز فى النار؛ لأنه لا حقيقة لها، وإذا كانت لها حقيقة فهي خبث يجب زواله.

وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ كذلك يبين الله الحق والباطل فيشبه الحق بالماء والفلز ويشبه الباطل بالزبد، وقد بين سبحانه وجه الشبه، فقال: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وقد ذكر فى الأول المشبه به لتأكيد ذهاب الباطل، وفى الثانى ذكر المشبه وهو الحق لبيان بقاءه ونفعه وثباته، وأن النهاية دائما له ﴿لِيَحِقَّ الْحَقُّ وَيُطْلَ الْبَاطِلُ...﴾ (٨) [الأنفال]، وقد ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

والإشارة إلى بيان مثل الحق بالماء والفلز، ومثل الباطل بالزبد الذى لا يبقى، والمعنى كهذا المثل الذى بين الله تعالى به الحق والباطل بين الأمثال المشابهة، ويبين المعانى الجلية، والحقائق الثابتة، ويهذى بها من يشاء من عباده.

المؤمنون الذين يستجيبون لله

قال الله تعالى :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ،
لَوْ أَنَّهُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَمَّى الْهَادُ ﴿١٨﴾
﴿١٩﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ
أُولَٰئِكَ إِلَّا الْبَلْبُ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ
وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

بعد أن ضرب الله تعالى الأمثال للحق، وبين الدلائل المينة الدالة على عبادة الله وحده لا شريك له من أنداد وأوثان، أو أحد من خلقه، وضرب الأمثال للحق والباطل، بين سبحانه وتعالى من يستجيب للحق وجزاءه، ومن لا يستجيب، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى هو مؤث أحسن، وليس أفعال التفصيل على بابها هنا، بل المراد الحال البالغة أقصى درجات الحسن ونهايته التى لا غاية فى الحسن بعدها. و(استجاب) معناها أجاب، ولكنها فى أصلها طلب الإجابة؛ لأن السين والتاء للطلب، والمعنى: للذين أجابوا دعوة ربهم الذى خلقهم، وقام على شئونهم الجزاء الأحسن الذى لا حسن بعده.

هذا جزاء الذين استجابوا لدعوة الحق ولربهم رسوله، أما الذين لم يستجيبوا لربهم ولم يلبوا دعوته إلى الحق وعدم الشرك فلهم السوء، أى أسوأ الأحوال التى لا نهاية بعدها فى السوء. ويلاحظ أن الذين استجابوا جعل استجابتهم لربهم، والذين لم يستجيبوا لم يذكر فى النفى أنها لربهم، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن عدم ذكر ذلك لعدم التكرار، والتكرار فى الأمر مذموم فى ذاته غير مقبول.

والسبب الثانى: بيان أنهم ليس من شأنهم أن يستجيبوا لحق، فقد طمس الله على قلوبهم، وعلى أعينهم غشاوة ولا يبصرون.

وقد ذكر الله الجزاء الذى يقابل الحسنى بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وهذا يدل على أنه عذاب عظيم يحاول من ينزل به الخلاص منه، وأنه لا يخلص منه إلا بفداء عظيم يساوى الفداء منه كل ما فى الأرض من أموال وأعراض ومتع ومناصب وجاء، فكان له كفاء، ومعنى ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ..﴾ إلى آخره لو ثبت أن لهم كل ما فى الأرض من ملاذ وشهوات جميعا غير منفرط منه شىء، لافتدوا أى رضوا أن يقدموه فداء له، فما فى الأرض إن كانوا يملكونه يقدمونه.

و(لو) حرف امتناع لامتناع، أى امتنع عليهم الافتداء؛ لأنهم لا يملكون ما فى الأرض جميعا.

ولقد صرح سبحانه بأنه سوء فى ابتدائه وانتهائه، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وسوء الحساب أنه شاق يسوء فى نتائجه لا تخفى فيه خافية. بل يحاسبون حسابا شديدا فى شكله وغايته، وقد ذكره سبحانه وهو الإلقاء فى الحميم. و(المأوى) ما يأوى إليه الإنسان يتقى به الحر والبرد، والمأوى الذى يأوون إليه فى الآخرة هو جهنم، وهى بئس المهاد، و﴿الْمِهَادُ﴾ جمع مهد وهو الفراش الذى يفرشه لينال به الراحة والقرار، ولكنه

فِي الْآخِرِ لَيْسَ لِلرَّاحَةِ وَلَكِنَّ لِلْعَذَابِ الدَّائِمِ ﴿... أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩) ﴿[البقرة].

وقد أخذ يبين - سبحانه - الفرق بين جزاء الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا، فبين سبحانه أنه العدل الذي لا يدخله شيء من الضير، وغيره هو الظلم، فقال تعالى:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ (١٩).

هذا النص الكريم لتأكيد الفارق بين جزاء المتقين وجزاء الذين لا يستجيبون للحق ولا يدعون، والاستفهام هنا إنكارى، لإنكار الوقوع، أى أنه لنفى التشابه بين من يعلم الحق، ويدعن له، ويؤمن به، ومن يعرض عن الحق ويترك الآيات الدالة على الحق المبين وكأنه الأعمى الذى لا يبصر، إذ عدم البصيرة كعدم البصر على السواء.

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على اختلاف الجزاءين تقرير أن التشابه بينهما غير ممكن، وآخر الفاء عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة كما ذكرنا من قبل.

لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، أفيستوى الذين يعلمون ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾. والمراد بالذى ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ القرآن، وذكر بهذا الموصول ليكون متضمنا للحكم، وهو أنه الحق لأنه أنزل إليك من الله الذى خلقك ورباك وأيدك، فلا بد أن يكون الحق، وتعريف الطرفين يدل على القصر، أى أنه لا يمكن أن يكون إلا حقا، ولا يمكن أن يكون فيه باطل قط ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ...﴾ (٤٢) ﴿[فصلت]، وقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ المراد من لا يصدق أنه الحق، كأنه كالأعمى، إذ إنه أعرض عن الآيات الشاهدة بالصدق، وأنه المعجزة الكبرى، والآيات الدالة على أن الله واحد

أحد فرد صمد، وقد خلق كل شيء وقدره تقديرا، فاستعير لفظ الأعمى لمن أعرض عن ذكر ربه وأنكر آياته كأنه لم يرها. وإن فَقَدَ البصيرة كَفَقَدَ البصر على سواء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (إنما) أداة من أدوات القصر، أى لا يتذكر إلا أولو الالباب، أى العقول التى تدرك لُبَّ الأمور، وخواصها، وما تدل عليه من غير شائبة تقليد، ولا اتباع لغير المؤمنين، و(أولوا) أى أصحاب الالباب، ومعنى التذكر إدراك الآيات، وكأنها لا تحتاج إلى تعرف جديد؛ لأن أصلها فى الفطرة.

وقد بين سبحانه وتعالى القول فى أوصاف أولى الالباب، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾. هذا هو الوصف الأول من أوصاف المؤمنين أولى الالباب.

يصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالوفاء بالعهد، وما بعده من أوصاف.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة].

فالوفاء بالعهد من صفات المؤمنين، ومن خصال الإيمان؛ وذلك لأن الوفاء يقتضى أن تصدق النفس فى ذاتها وأن تدرك ما يجب فى حق النفس، ويشعر المرء بالمعادلة فى الحياة بينه وبين الناس، يشعر بحقوقهم عليه كما يطالبهم بحقه عليهم؛ ولذا كان علامة من علامات الإيمان. وكان خُلف العهد علامة من علامات النفاق؛ لأن المنافق يحسب أن الناس خلقوا له يستغلهم ولا يعطيهم، يأخذ منهم ولا يقدم لهم.

والعهد أُضيف إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا...﴾ (٩١) [النحل].

والعهد سواء أكان مضافاً إلى الله تعالى أم كان مضافاً إلى العبد واجب الوفاء؛ لأنه من أمر الله، والنقض من أمر الله تعالى، فمن أوفى بعهده للناس فقد أوفى بعهد الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ (١) [الأنعام].

والعهود تشمل التكليفات الشرعية كلها فهي عقود الله تعالى على عباده، وتشمل العهود التي عقدت موثقة بيمين سواء أكانت نذورا أم كانت عهداً للناس، وثقها على نفسه بيمين الله تعالى، فالوفاء بها من الإيمان، ويشمل العهود التي يعقدها مع الناس ولو لم يذكر فيها يمين لما ذكرنا؛ لأن الشعور بالوفاء شعور بالمبادلة الاجتماعية بينه وبين الناس في الحقوق والواجبات، وبذلك يكون الاجتماع المستقيم القائم على هدى رب العالمين.

وأكد الله تعالى الوفاء بزم نقيضه، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، و(الميثاق) وهو ما وثق من العهود بيمين الله أو غيره، و(أل) فيه للعهد، وقد ذكر الميثاق على بنى إسرائيل وهو ميثاق الله تعالى الذي حمّله الأنبياء، وقد بينه الله تعالى على بنى إسرائيل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣) [البقرة].

هذا ميثاق الله تعالى على عباده أجمعين، جاء على لسان الأنبياء الأكرمين، ولكن ذكر مع بنى إسرائيل لأنهم أشد الناس مخالفة له. وقد أمر به في القرآن أمراً، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) [النساء].

هذا ميثاق النبيين، وهو يقوم على القيام بحق الله تعالى، والقيام بحقوق العباد التي أكرها الله سبحانه وتعالى بأمره، وهذا الميثاق هو ميثاق الجماعة، وميثاق العدل الاجتماعى الكامل.

الوصف الثانى والثالث والرابع من أوصاف الإيمان:

قال تعالى فيه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)﴾.

وذكر الله تعالى لهم ثلاثة أوصاف: وصف يتعلق بالصلات الاجتماعية التي بها يقوم بناء اجتماعى سليم يتدنى من الأسرة بمعناها الممتد الذى يشمل القرابة جميعها قريبة كانت أم بعيدة، ويشمل المجتمع الصغير، ومجتمع المدينة، ثم الدولة، ثم المجتمع الإنسانى، وهذا هو الوصف الأول ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، والوصف الثانى نفسى، وهو أساس البناء الاجتماعى الفاضل، ورمز الله تعالى إليه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أى يخافون الله تعالى فى كل عمل يعملونه، فلا يطغون، ولا يظلمون، ولا ينقصون الناس حقوقهم، فمن خشى الله تعالى يتذكره فى كل عمل يعمله فى ذات نفسه، وفى أهله وبينه وبين الناس.

والوصف الثالث: الإيمان بأنه يحاسب عليه، وقد ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، وخوف الحساب يتضمن الإيمان بالبعث والنشور، ولقاء الله تعالى يوم القيامة أولا، وأنه سيحاسب على ما كان فى الدنيا ثانيا. ويتضمن ترجيح الخوف على الرجاء، وأنه يخشى السوء قبل أن يرجو الثواب. ثالثا: فهو يستقل ما قدمه من خير، ويستكثر دائما ما وقع فيه من هفوات، وهذا شأن الأبرار، يستقلون ما يفعلون من خير، ويستكثرون ما يقع منهم من هفوات.

ولنذكر كلمات موجزة عن هذه الصفات الثلاث:

فأما الأولى، فهي: أن يصلوا ما أمر الله به أن يوصل، فنقول: إن ما أمر الله به أن يوصل هو ما يتعلق ببناء المجتمع على المودة والرحمة، فيصل قرابته القريبة والبعيدة، فقد أمر سبحانه وتعالى بصلة الرحم، فقال: ﴿... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ...﴾ (٧٥) [الأنفال]، وأمر على لسان رسوله بصلة الأرحام في أكثر من حديث، وأمر بالصلة بين الناس بالتعاون فيما بينهم على الخير، فقال تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ (٢) [المائدة]، ودعا إلى إقراء السلام على من عرفت ومن لم تعرف، وأمر بإغاثة المستغيث، وفك كرب المكروبين. فكل هذه صلوات قد أمر الله تعالى بوصلها. ولقد جاء في الكشف للزمخشري ما نصه: ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام والقربات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ (١٠) [الحجرات]، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم وطرح التفرقة بين أنفسهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنازتهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر^(١).

وهكذا نجد من الأمر بأن يصل ما أمر الله به أن يوصل، أن يعملوا على راب الصدع وجمع الوحدة، وإزالة الفرقة، وأن يحسنوا إلى الضعفاء والمساكين، وقد روى ابن كثير عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة: إيتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقتك، فتأمرنا أن نأتيهم فنسلم عليهم، فيقول: إنهم كانوا يعبدونني لا يشركون

بى شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع قضاءها»^(١).

هذه صلة من أمر الله به .

وأما خشية الله تعالى فهى امتلاء القلب بالله، وخشية عقابه، ورجاء ثوابه، وأن يكون ذاكراً لله، شكوراً لنعمه، راجياً قبول طاعته ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ (٢٨) [فاطر]، فهم أعلم الناس به ذاتاً، وصفاتٍ، وقدرًا، وإكباراً.

ومنها خوف سوء الحساب، فهو خوف نتائج السر الذى كان فى الدنيا، والله غفور رحيم.

الوصف الخامس والسادس والسابع والثامن من صفات المؤمنين، وهو من مقتضيات الإيمان: الصبر، وما بعده، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٢).

ذكرت هذه الآية أربع خصال للمؤمنين، أولها: الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، وإقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله تعالى، ودرء السيئة بالحسنة.

أما الصفة أو الخصلة الأولى: وهى الصبر ابتغاء وجه الله، فإن معناها ضبط النفس عن الشهوات، وتسيطر على منازع النفس فتقوى الإرادة، وتكون الأهواء أمة لها، ولا تكون سيذا عليه، وإن الصبر فى المصائب التى تنزل، والإصرار على الوقوف عند أمر الله تعالى ونهيه، ولقد فسر ابن كثير الصبر ابتغاء وجه ربهم بقوله: «الصبر عن المحارم والمآثم، فقطعوا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه» وفسره الزمخشري بقوله: «﴿صَبَرُوا﴾ مطلق فيما يصبر عليه من

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين من الصحابة - مسند عبد الله بن عباس (٦٢٨٢).



المصائب فى النفوس والأموال، ومشاق التكليف ابتغاء وجه الله، لا يقال ما أصبره، وأحملة للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لثلا يعاب بالجزع، ولا لثلا يشمت به الأعداء كقول القائل: (وتجلى للشامتين أريهم)^(١)، ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مر فيه للفائت كقول القائل:

ما إن جزعت ولا هلع — — — — — ت ولا يرد بكأى زنداً

فكل عمل له وجوه، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما كان حسناً عند الله، وإلا لم يستحق ثواباً، وكان فعلاً كلاً فعل^(٢). قيل هذا الكلام بليغ، وفيه بيان متى يكون الصبر ابتغاء وجه ربه، ومتى لا يكون، وإنه بلا ريب كلام حق، ولكنى أزيد عليه، بأن كلمة: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا بد أن يكون فى موضع معين يكون الصبر فيه ابتغاء وجه الله، أى يبيع المؤمن نفسه لله تعالى صابراً محتسباً، وهو الجهاد، فهذه الجملة السامية أو الخصلة الكريمة مع أنها تفيد أن الصبر فى كل أحواله خير، وخصوصاً إذا لم تقصد به المفاخرة، كما جاء على لسان بعض الشعراء، فإن الأخص هو الصبر فى الجهاد، يدفع نوازع النفس، وبالتقدم للميدان رجاء ما عند الله تعالى، والصبر فى كل أحواله خير.

ومعنى ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أن يطلب رضا ذات الله تعالى العلية عليه. وعبر بالوجه عن الذات؛ لأنه فى أصل معناه اللغوى ما يواجهه الإنسان.

والخصلة الثانية: إقامة الصلاة، أى الإتيان بها مستوفية الأركان، وبخشوع وخضوع، وبأداء حقيقة معناها الناهية عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٤٥)﴾ [العنكبوت]،

(١) يعنى إظهار الصبر مراعاة كى لا يشمت الشامتون.

(٢) الكشف للزمخشرى: ج ٢ / ٣٥٧، وتتمة البيت كما ذكره البيضاوى ج ٦ / ٣٧٦:

وتجلى للشامتين أريهم أنى لرب الدهر لا أنضعضع

البيت لأبى ذؤيب قاله يرثى بنيه.

وإن الصلاة إذا أقيمت لقويت النفس، وناجى المؤمن ربه حق المناجاة، وقرب من ربه، وامتألت نفسه به، وصار قلبه نوراً، وفكره نوراً، واستقامت نفسه وقلبه.

الخصلة الثالثة: كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ معناها: إنفاق بعض ما رزقناهم، أى من حلال مكاسبهم، فالكسب الحلال رزق من الله، وإضافة الرزق إلى الله تعالى يقتضى أولاً ما ذكرنا وهو أن يكون حلالاً، ويعتبر ثانياً أن المال مال الله تعالى فهو الذى رزق، وما تكلف من إنفاق إنما هو مما أعطاك، فقد أعطاك لتنفق، فهو ابتلاك بالمال لتنفقه وتشكر، وابتلى غيرك بالفقر ليصبر، والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق.

وقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ولكل حال فضلها، ففضل السر الستر على من يعطيه، وألا يكون تفاخراً، وأن يكون العطاء لوجه الله لا رياء فيه، وقد قال النبى ﷺ: «من تصدق يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك»^(١)، وفى العلانية فضل أحياناً كأن تعرض الناس على العطاء، وأن يمنع الاتهام بالشح ليقى نفسه منه.

والخصلة الرابعة: بينها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

(دراً) بمعنى دفع، ومن ذلك قوله تعالى فى اللعان: ﴿وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور].

ودرء السيئة بالحسنة فسرهما المفسرون بأنه دفع الإساءة بالإحسان، ومقابلة الحرمان بالإعطاء، والقطيعة بالوصل، كقول النبى ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»^(٢)، وقد روى عن ابن عباس أنه

(١) رواه أحمد، وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه البخارى: الأدب - ليس الواصل بالمكافئ (٥٥٣٢). كما رواه الترمذى: البر والصلة (١٨٣١)،

وأبو داود: الزكاة (١٤٤٦)، وأحمد: مسند المكثرين (٦٢٣٨).

قال فى معنى هذه الآية: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم، وعن الحسن البصرى: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قُطعوا وصلوا.

وجملة هذه المعانى تتجه إلى نشر التسامح، ومنع مبادلة السوء بالسوء حتى لا يؤدى ذلك إلى التقاطع والتدابير، وأن يكون بأس المسلمين بينهم شديداً، وهذا هو ما أمر الله تعالى به منعا للعداوة، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) [فصلت].

هذا معنى سليم مستقيم، ويصح أن نقول: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، أن الإكثار من الحسنات يدفع السيئات؛ ذلك أن الحسنات طهارة للنفس، والطهارة تزيل أخباث النفس، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ (١١٤) [هود] فإن السيئات تخط فى القلب خطوطاً، والحسنات تزيلها، أو تذهب بنكتها السوداء، ويصح أن يراد المعنيان. ولقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن الحسنة تمحو السيئة، فقال ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» (١).

وقد بين الله تعالى جزاء المؤمنين الذين اتصفوا بهذه الصفات السامية المطهرة للنفوس وللجماعات، وهى تدل على أن هذه الصفات هى سبب الجزاء العظيم، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ وعقبى الدار (الجنة)؛ ولذا بينها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾.

(١) رواه الترمذى: البر والصلة - ما جاء فى معاشره النساء (١٩١٠)، كما أخرجه أحمد فى مسند الأنصار (٢٠٣٩٢)، والدارمى: الرقاق (٢٦٧١).

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل أو بيان لمعنى عقبى الدار، أو الدار نفسها التى تكون عاقبة العاملين عملاً صالحاً، والذين صبروا فى الجهاد ابتغاء وجه ربه، و﴿عَدْنٍ﴾ يعنى إقامة، أى جنات يقيمون فيها إقامة دائمة وهى الفردوس، وتكون فى وسط الجنة، وفوقها عرش الرحمن الذى يحكم فى عباده بما يشاء، وهذا تصوير بيانى رائع لبيان النعيم المقيم الذى يختص به الأبرار المجاهدون الأطهار.

يدخلونها، لا عائق يعوقهم، ولا حائل بينهم وبينها، ويدخلون معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. ذكر هؤلاء الذين يكونون الأسرة، والمؤمن فى حنان مستمر إلى هؤلاء، من آباء وأمّهات وأبناء وأحفاد. فالله سبحانه وتعالى يطمئنه عليهم، وبأن الأسرة الدنيوية تكون معه فى الآخرة يأنس بها وتأنس به، وقيد هؤلاء بأنهم الصالحون، وغير الصالحين ليسوا منه، وليس هو منهم كابن نوح، إذ قال ربه: ﴿... إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ...﴾ (٤٦) ﴿[هود]، وهذا يشير إلى أن الجنة جزاء للأعمال، لا للأنساب كما قال النبى ﷺ لأحبابه من بنى هاشم: «يا معشر بنى هاشم، لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالأنساب، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»^(١). وقد فهم بعض المفسرين أن أولئك ألحقوا به إكراماً له، ولكن اشتراط الصلاح يقيّد دخولهم ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾، إنما كان استقلالا لعملهم بدليل ذكر الصلاح، ولكن ذكروا معه لبيان أنسه بأحبابه فى الدنيا أولاً ولاطمئنانه على من يحذب عليهم ثانياً.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنس المجاهدين الصابرين المتقين بذوى الصلوات بهم فى الدنيا إذا صلحوا - ذكر أنسا روحانيا كريماً، وهو إيناسهم بالملائكة الأطهار، فقال تعالت كلماته: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أى يحفون بهم، يجيئون إليهم من كل ناحية، فهم فى أنس روحى، كما أنهم فى متعة الجنة، وهى نعيم مادى، ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (٤٨) ﴿[الرحمن]، وفيها كل ما تشتهى النفس، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

(١) رواه أبو يعلى مرسلاً، ووثقه ابن حبان وغيره، مجمع الزوائد (٢٩٦٧٢): ج ١٠ / ٣٩٠.

بشر، وأولئك الملائكة الأبرار يقولون ما يملأ نفوسهم بالأمن والبشر والاطمئنان؛ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ...﴾ (٤٤) ﴿[الأحزاب] وهذا يتضمن معنى الإيناس بإقراء السلام، فأقراء السلام فى ذاته إيناس، وفيه مع ذلك بث الاطمئنان وطيب الإقامة، وذلك بسبب الصبر، أى بسبب صبركم فى الجهاد، وصبركم على الطاعات وتجنب الشهوات، وصبركم على تحمل المكاره، وصبركم على البعد عن الأحبة، وقد روى عبد الله بن عمر، أن النبى ﷺ قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «المجاهدون الذين تسد بهم الشغور، وتتقى بهم النار، فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»^(١).

ولقد روى أن النبى ﷺ كان يأتي على قبور الشهداء كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»^(٢)، وكان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك، ولم يذكر علي مع أنه بطل الجهاد الأول بعد رسول الله ﷺ، وهو أعرف الناس بعد الرسول بحق الجهاد وهو القائل: (الجهاد باب من أبواب الجنة).

وإن النبى ﷺ قال: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة»^(٣)، وإن المسلمين هانوا على أنفسهم يوم بث أعداؤهم التخاذل عن الجهاد، فأطاعوهم، فخذلهم الله تعالى، ولا تزال تطلع على المتخاذلين من المسلمين عن الجهاد، فقد ساروا وراء أذيال النعم، وصاروا عاملين لأعدائهم يقدمون لهم أسباب المال الذى يستخدمونه ضدهم.

ثم بين سبحانه أن هذا الجزاء هو خير الجزاء، فقال: ﴿فَنِعْمَ عَقْبَى الدَّارِ﴾.

الفاء للإفصاح، أى إذا كان ذلك هو العقبى والنتيجة، فنعم هذه العقبى، وتلك النهاية.

(١) سبق قريباً. (٢) انظر ما جاء فى البداية والنهاية - ج ٤ / ٢١٨.

(٣) رواه أبو داود: فى الغزو مع أئمة الجور (٢١٧٠).

أوصاف الضالين

قال الله تعالى :

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
 أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
 وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا
 بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ
 مَآبٍ ﴿٢٩﴾

هذه أوصاف الذين عتوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن جادة الحق، وأوصافهم
 في مقابلة أوصاف المؤمنين، وهم متصفون بصفات ثلاث، جعلتهم يمردون على
 الكفر والطغيان، وهذه الصفات الثلاث هي: نقض عهد الله، والثانية: قطعهم ما
 أمر الله به أن يوصل، والثالثة: الفساد في الأرض.

أما الأولى فقد بينها سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
 مِيثَاقِهِ﴾ وعهد الله تعالى بدهى تدركه البديهة السليمة؛ لذا سمي دين التوحيد،
 فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها. وهي إدراكها حقيقة، حتى إن بعض

العلماء المسلمين قال: إن إدراك الله تعالى تدركه البديهة السليمة؛ لذا سمي دين التوحيد، فطرة الله التي فطر الناس عليها. وقد نص على عهد الله في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾ [الأعراف].

ولم يترك الناس بعد هذا العهد الذي أخذ بمقتضى الفطرة، بل وثقه بميثاق، ولذا قال تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا الميثاق الذى وثق به الرسل الذين أرسلهم مبشرين ومنذرين ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء].

ولقد جاءت النذر بهلاك الأمم التى فسقت عن عهدها، فكان ذلك توثيقا بعد توثيق، وإنذاراً بعد إنذار، ومع ذلك نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه.

الصفة الثانية: قطعهم ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام، والعلاقات الاجتماعية الفاضلة على ما بينا فى معنى قوله تعالى فى صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

الصفة الثالثة: أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الفساد فى الأرض ألا يقوم فيها النظام الاجتماعى على التكافل بين الآحاد، ومعاونة بعضهم، وألا يستعلى قوى على ضعيف، وألا يندغم الضعفاء فى الجماعة، وألا يراعى لهم حق، وأن يكون التفاوت الظالم بين الآحاد، وألا يكون ضابط يحمى الضعفاء من الأقوياء والأغنياء من الفقراء، وأن يسود الظلم من الحكام لرعاياهم، فإن ذلك فسادا أى فساد، وقد رأينا حكاما ظالمين يقتلون الرعية بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، والله أكبر، ويدعون أنهم يصلحون وهم المفسدون؛ لأن أساس كل نظام العدل. إفساد أى حكم بالظلم أولا، وما يتبعه

تحسّس وتحسّس وسعاية ثانياً، وما يجري وراءه من نفاق ثالثاً: وإذا جاء النفاق عمّ الفساد. ولقد قال أبو العالية: «ست صفات في المنافقين، إذا كانت الظهرة (أى السيطرة) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتّمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا ثلاث خصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اتّمنوا خانوا».

وإن النفاق دائماً وليد الاستبداد الغاشم، والظلم الطاغى، وقد رأينا وشاهدنا.

وقد بين الله سبحانه الجزء الأوفى للذين لا يؤمنون، فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ اللعنة هى الطرد، وقد ذكرت غير مقيدة، فإنها فى الدنيا أو الآخرة، أما لعنتهم فى الدنيا فالملت الشديـد والبغض والكراهية، وسوء الأحداث، واقتران حياتهم بالخوف من الناس، والاضطراب النفسى حتى يموتوا بغيظهم، وسوء الحديث عنهم تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل. ويقال فيهم ما قاله الشاعر البطل محمود سامى البارودى:

زالوا فما بكت الدنيا لطلعتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

واللعنة فى الآخرة: الطرد من رحمة الله ورضوانه، فلا ينظر إليهم ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ والدار هى الآخرة وسوءها جهنم وبئس المهاد.

وإن المشركين كانوا يغترون بمالهم ونفوذهم، والمؤمنون كانوا فى أكثرهم فقرا وضعفاً وكانوا يعقدون ملازمة بين رضا الله والفقر، فمن كان غنيا فهو موضع رضا الله، ومن كان فقيراً ضعيفاً فهو موضع مقت الله تعالى، فازدادوا بذلك كفراً وطغياناً، فبين الله سبحانه أنه لا ارتباط بين الغنى والإيمان، ولا بين الضعف والكفر.

قال تعالى كلماته: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٢٦).

صدر سبحانه وتعالى الآية الكريمة بلفظ الجلالة الذى يطالبهم الله تعالى بعبادته وحده من غير أن يشركوا به شيئا، ويبين سبحانه أنه هو الذى يسطر الرزق لمن يشاء، أى يمسده ويجعله ممدودا واسعا، ويقدره لمن يشاء أى يجعله محدودا قليلا، كقوله تعالى: ﴿... وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا...﴾ (٧) [الطلاق].

والمعنى فى تصدير الآية بلفظ الجلالة هو أن الله تعالى هو الذى بسط لكم الرزق، فكان حقا عليكم أن تشكروا لا أن تكفروا وتشركوا أحجارا. وهو الذى قدر الرزق للضعفاء والفقراء فصبروا فحق لهم التكريم وحسن الجزاء، ولا يستوى المحسن والمسيء، ولا الأعمى والبصير.

وإن الله الذى بسط الرزق وقدره لم يجعل أمر الدنيا فى السعة والضيق دليلا على الرضا أو البغض إنما هذا للاختبار، فهو سبحانه وتعالى يختبرنا بالتوسعة ويطلب بالشكر، ويختبر بالقدر والضيق ويطلب بالصبر، وكل له جزاؤه.

وإن أولئك المشركين بسط الله تعالى لهم فى الرزق فلم يشكروا؛ ولأن الشكر يقتضى أن يحسوا بفضل المنعم، لا أن يحس فقط بالاستمتاع بما أعطى، والاستطالة به على الناس وإن ذلك ينشأ من الفرح ببسط الرزق، لا ينشأ من القيام بحق الشكر؛ لأن إحساس المؤمن بأنها ابتلاء، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ (٣٥) [الأنبياء]، وإحساس الكافر بأنها متعة يتنزهها.

ولقد قال فى ذلك: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى إن الكافرين فرحوا بما بسط الله تعالى من الدنيا، وفرحوا بها فرحا أدى إلى أن بطروا معيشتهم، وغمطوا الناس حقوقهم، وإن فرحهم بالحياة الدنيا لم يكن فرحا يذوقون حلوها ومرها، بل فرح استعلاء واستغواء لا يلاحظون إلا أنها متعتهم يستكبرون بها على غيرهم،

وينسون في سبيل ذلك كل حق عليهم، ولا يعرفون أن المتعة حق يتبعه واجب، وبذلك تكون متعة لا يعقبها خير في الآخرة ينالون به نعيما مقسيما؛ إذ لم يلتفتوا إلى الآخرة وما فيها، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ التنكير في ﴿مَتَاعٌ﴾ للتحقير لا للتكبير، أى الإمتاع نزر قليل، لا بقاء له، لأنه سرعان ما يزول إذ هو في الدنيا، والدنيا زائلة، ويقول الزمخشري في ذلك: (وخفى عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئا نورا يتمتع به كعجالة الراكب، وهو ما يتعجله به من ثمرات، أو شربة سويق أو نحو ذلك)^(١).

ولقد ذكر الله تعالى في آيات أخر، مثل قوله تعالى: ﴿... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء، ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [١٦] وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى، ١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون، ٥٦].

وإنهم يتعللون لكفرهم الطاغى بأنهم لم تحيئ إليهم آية تثبت رسالة النبي ﷺ، ويطالبون بآية كونية، كآيات التي جاءت للأنبياء السابقين مستهينين بالآيات المتوالية التي جاء بها محمد ﷺ أو غافلين عنها ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [٢٧].

إن هذا من تعنتهم ومحاولة إعنائهم للنبي ﷺ، وحالهم كحال الأعمى الذى لا يحسن أن يعيش فى ضوء الشمس وحرارتها، ويقول لا توجد شمس ولا دفء، وما العيب إلا فى مشاعره التى إيفت، فهو ينكر ما لا يحس به، طلبوا ملكا رسولا، وطلبوا أن تفجر الأنهار، وغير ذلك من المطالب التى ساقوها، وما هى إلا تعلات الكفر والإشراك، ولقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر آيات من مثله فعمجزوا، وكان عمجزهم دليلا على أنه من عند الله، ولقد أمر الله سبحانه

وتعالى نبيه أن يرد عليهم بأن الذى دفع إلى طلب هذه الآية هو ضلالهم، وإصرارهم على الكفر والعناد، وقد جاءت هذه الآيات وأشباهاها لمن سبقوهم وكفروا وضلوا سواء السبيل، أمر الله نبيه فقال: ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾.

﴿أُنَابَ﴾ رجع، أى رجع إليه، وابتدأ السير فى طريق الهداية، فإن الله يأخذه بيده حتى يصل إلى نور ربه، والمعنى: الذين كتب الله تعالى عليهم الضلالة، وهم الذين ساروا فى طريق الغواية يكتبهم سبحانه من الضالين فتعمى قلوبهم عن إدراك ما فى الآيات من أمارات الحق وهدايته، وإن كانت هى فى ذاتها منيرة بينة، أما الذين عادوا إلى ربهم وأنابوا إليه فإنه يهديهم إليه سبحانه وتعالى.

وهذا يفيد أن الذين يريدون آية غير القرآن وغير ما جاء على يديه من خوارق العادات كالإسراء والمعراج إنما يريدون هذه الآية إمعانا فى ضلالهم.

وهنا إشارات بيانية نذكرها:

أولها: التعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيها إشارة إلى تكرار قولهم هذا وهم مبطلون.

الثانية: التعبير بالموصول يدل على أن الصلة علّة الطلب، فكفرهم هو علة طلبهم، أى أنهم سبقوا إلى الكفر فاعتنقوه، ثم حاولوا الاستدلال لتأييده، فما طالبوا ببراءة، طالب الحق بل حكموا أولا وأخذوا يتعتنون لإثبات ما هم عليه ومثلهم كمثل القاضى الذى يحكم ثم يحاول تقديم البيئة لإثبات ما حكم به.

الثالثة: أن الهداية تكون لمن فتح قلبه للرجوع إلى الله؛ ولذا عبر بالماضى فى قوله: ﴿مَنْ أُنَابَ﴾ أى من فتح قلبه للإجابة إلى الله، فأخذ الله سبحانه وتعالى بيده إلى الحق، والتعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾، للإشارة إلى تكرار الهداية بشرطها من غير إجبار على كفر، ولا طاعة، بل الطاعة بالإرادة، ولذا كان الثواب والمعصية بإرادة العاصى؛ ولذا كان العقاب.

وقد قال الزمخشري في الكشف في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ قال ما خلاصته: كيف كان قوله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ردا لقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾؟ فأجاب بأن قوله تعالى يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب كلام جار مجرى التعجب من قولهم؛ وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية، وراء كل آية، فإن جحدوها ولم يعتبروا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم، وما أشد تصميمكم على كفركم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة، فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن نزلت كل آية^(١).

وإن ذلك بيان يليق بمقام الزمخشري في البيان، وإدراك ملامح القول، وهو لا ينافي ما بينا من قبل، وإن زاد معنى التعجب من صلابة تفهم.

وأناب في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ معناها: أقبل إلى الحق، ودخل في توبة الخير؛ لأن أناب معناها اللغوي دخل في التوبة، والمناسب هنا دخوله في توبة الخير.

وقد بين الله تعالى الذين أنابوا من الاطمئنان والإيمان فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل أو بيان لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾، فهي بدل من قوله: ﴿مَنْ أُنَابَ﴾، وعلى ذلك يكون محل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، النص؛ لأن ﴿مَنْ﴾ محلها النصب، على أنها مفعول به لـ ﴿يَهْدِي﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الفعل ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ يكون معطوفاً على ﴿يَهْدِي﴾، ويكون الفعل المضارع معطوفاً على مثله، وليس في الكلام السامى عطف مضارع على ماض.

أى أن الله يهذى من أناب، وهم الذين آمنوا وصدقوا وأذعنوا، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى بهذه الهداية، والرجوع إلى الله تعالى وبذكر الله، وذكر الله تعالى يجعل القلوب مطمئنة؛ لأنه إذا امتلأ القلب بذكر الله تعالى سكن إليه، وأصبح لا يبالى شيئاً من كوارث الدنيا، فالقلق والفرع، والخوف من الحرمان، والشدائد، كل هذا يذهب، ولا يكون شيئاً إذا عمر القلب بذكر الله، فلا يكون فيه فراغ لشيء من هذا الخوف أو الفرع؛ وذلك لأن الأنس بالله يوجد فى القلب اطمئناناً، ويجعل النفس فى حال رجاء لرحمته، ومغفرته.

وقد قرر الله تعالت حكمته هذا المعنى فقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، أى أنها تكون فى فزع هالع إذا لم تذكر الله، فإذا ذكرت الله تعالى هان كل شيء؛ لأنها حيثئذ تلجأ إلى حصن من القرار، لا تصل إليه عوامل القلق والاضطراب، وقوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بتقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد الاختصاص، أى بذكر الله وحده لا بشيء آخر تطمئن القلوب، و(ال) فى ﴿الْقُلُوبُ﴾ لبيان عمومها، فالقلوب كلها لا تطمئن إلا بذكر الله تعالى؛ ولذلك تكون القلوب الخالية من ذكر الله تكون فى فزع مستمر؛ لأنها خالية من الإيمان غير عامرة.

وإن المؤمنين لفرط إحساسهم بالواجبات عليهم وإدراكهم للنذر تقشعر جلودهم عند سماع القرآن، وما فيه من نذر تقشعر جلودهم، ولا يذهب بذلك إلا ذكر الله تعالى، اقرأ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر].

ذلك جزاء معنوى للمؤمن الذاكر لله تعالى العامر قلبه بأنسه ونوره، وفى الآخرة يكون هذا الجزاء، وجزاء رضوان الله تعالى، ونعيم الجنة، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك فقال عز من قائل:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّا بَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا جزاء آخر، غير جزاء الاطمئنان والقرار الذي يختص به المؤمنون دائماً، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهى على وزن فعلى كبرى، وزلفى، وأصلها طيبى، وقعت الياء ساكنة بعد ضمة فقلبت واوا، وقد قال الزمخشري عالم البيان فى تعريفها: «وطوبى مصدر من طاب كبرى وزلفى، ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك».

وعلى كلام الزمخشري تكون هذه الكلمة السامية تحية من الله تعالى لعباده المؤمنين، وتكون هذه التحية مقررّة لهم بأن لهم السلام والاطمئنان، والطيب فى إقامتهم فى الجنة، بدليل ما جاء معطوفاً عليها، وهو قوله تعالى: ﴿وَحَسَنُ مَّا بَ﴾ أى مأب، ومرجع ونهاية هى حسنة فى ذاتها، ليجتمع لها طيب الإقامة، وحسن الثواب، بل كلاهما من الثواب.

وطوبى، محلها هنا الرفع، بدليل المعطوف عليها، فإنه مرفوع.

وقد ذكر سبحانه وتعالى لاستحقاق هذه التحية المباركة وصفين:

الوصف الأول: الإيمان.

والوصف الثانى: العمل الصالح.

فالعمل الصالح غذاء الإيمان، وإذا لم يكن جف الإيمان، وصار حطاماً أو غشاً أحوى، وإن أساس الخير هو الإذعان للحق، ثم الجهد به، ثم العمل، ثم السير على مقتضى الإيمان فى أعمال الحياة، اللهم هب لنا من لدنك رحمة، وهبى للمسلمين من أمرهم رشداً، وهبهم الاطمئنان إلى ذكرك، وحتى لا يرهبوا، ولا يفزعوا ولا يطمعوا، واجعل قلوبهم تعمر بك، حتى يجتمعوا، ولا يتفرقوا.

معجزة القرآن تسير الجبال

قال الله تعالى :

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
لِتَتْلَوْا عَلَيْهِمْ أَلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ
بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ
وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَهْزَىٰ بُرْسُلِ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾

بين الله تعالى لنبيه الكريم الذى لاقى ما لاقى فى سبيل دعوة الحق أن ذلك
سنة الجهاد فى سبيل دعوة الرسل وقد أتيت فى رسالته بأمر خطير، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا
صَبَرُوا وَلَوْ الْعَزْمُ مِنَ الرُّسُلِ ... (٣٥)﴾ [الأحقاف].

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى كذلك
الإرسال الذى أرسلنا به الرسل السابقين أرسلناك، فالشبه هو إرسال النبى ﷺ
ذلك الإرسال الذى حملة الواجبات الكبرى والجهاد الأعظم، والمشبه به إرسال
الأنبياء السابقين، فالإشارة هى إلى إرسال الرسل السابقين.

ويصح أن تقول: إن الإشارة إلى إرسال النبي ﷺ، وهو المشبه به، والمشبه هو إرسال الرسل إلى الأمم الأخرى، والمعنى على هذا أن ما تعانيه من إنكار المنكرين في سبيل الحق الذي لا ريب عاناه من قبلك رسل سبقوك في أمم قد خلت، فاصبر كما صبروا فلا تحسب أن من سبقوك وجدوا أرضاً طيبة وقولاً ولا كلاماً مجاباً ولا تسليماً سهلاً لا معاناة فيه.

قوله: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى أمة الشرك التى قد مضت من قبلها أمم على مثل ما هى عليه من إنكار وجحود ولاقى رسلهم منهم مثل الذى تلاقى من عنت واستهزاء وسخرية، وإيذاء لمن اتبعوك، وفتنة للضعفاء فى دينهم، وعناد ومحادة لله ولرسوله، ولأهل الحق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى مضت من قبلها أمم.

والغاية من الرسالة التى بعثت بها أن تتلو عليهم القرآن؛ ولذا قال: ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ اللام للتعليل، والمعنى أرسلناك لتتلو عليهم القرآن الذى أوحيناه إليك، والتلاوة القراء المتتابعة المتناسقة فى اللفظ والمعنى، ويصح أن تكون بمعنى الترتيل، وقد نقل إلينا القرآن متلوا مرتلاً، فلم تثبت روايته هو بذاته فقط، بل تواتر طريق ترتيله، فجبريل الأمين علم النبي ﷺ ترتيله، كما حفظه القرآن ذاته؛ ولذلك نزل القرآن منجماً، ليحفظه النبي ﷺ مرتلاً؛ ولذا قال تعالى فى بيان حكمة نزوله منجماً: ﴿... كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان].

ومع هذا الترتيل الذى تذهب به المعانى فى النفس حالهم حال إنكار شديد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وقد نص على كفرهم بالرحمن، وكان التعبير بالرحمن عن الذات العلية مع أنهما اسمان للذات العلية، ولا تتغير الذات بكثرة أسمائها، وإن التعبير بالرحمن لملاحظة الرحمة الشاملة، فهم مغمورون برحمته فى وجودهم وكلاءتهم، إذ هو الذى يكلؤهم فى السموات والأرض، ومع

أن نعمه سابقة لهم، ورحمته لهم، كفروا به، والتعبير بالمضارع يفيد استمرار كفرهم وتجده أنا بعد آن.

ولقد روى أن العرب كانوا في إيمانهم الناقص بالله سبحانه وتعالى ما كانوا يعرفون إلا لفظ الجلالة، حتى إن النبي ﷺ، وهو يملئ شروط صلح الحديبية وابتدأه بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: الرحمن هو رحمان اليمامة لا نعرفه قل باسمك اللهم، وقد نزل فيهم: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى... (١١٠)﴾ [الإسراء].

وقد أمر الله تعالى أن يعرفهم بالرحمن فقال تعالت كلماته: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾، أى هذا الذى يكفرون هو ربى الذى خلقنى وربانى وقام على شئونى، فهو الحى القيوم القائم على كل شىء، وهو الله.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أى عليه وحده توكلت فى الدنيا؛ لأنه هو القائم على كل نفس بما كسبت، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للدلالة على القصر، أى لا أتوكل على غيره، والتوكل لا ينافى العمل، بل إن التوكل بين أمرين كلاهما باطل، الأمر الأول أن يعتقد أن الأسباب وحدها هى التى تؤثر فى النجاح، وينسى قدرته المحيطة بكل شىء، والثانى من الباطل التوكل، وهو أن يهمل الأخذ بالأسباب، بل يأخذ بالأسباب، ويترك الوصول إلى النتائج لله سبحانه وتعالى فهو تعالت قدرته لا يغفل عن شىء، والقادر على كل شىء ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾، (متاب) مصدر ميمى لتاب بمعنى رجع وتقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص، أى أن مرجعى إليه وحده، وله الحساب وحده، وله الثواب والعقاب وحده، لا شريك له، فالملك اليوم لله الواحد القهار.

وإن المشركين طلبوا آيات: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ... (٣٧)﴾ [الأنعام]، وكأنهم لا يعتدون بما جاء النبى ﷺ من معجزة القرآن، وأنه سبحانه وتعالى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وبدا عجزهم، وظهر إعجازه، ولم يكن

لأى آية غير ذلك التحدى المعجز، ولأجل ذلك بين الله سبحانه وتعالى مقام القرآن فى ذاته، وأنه أغلى كلام فى الوجود، ولو أن كلامه يسير الجبال لسيورها، ولو أن قرآنًا يقطع الأرض أجزاء لقطعها، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

جاء فى السيرة النبوية أن نفرًا من كفار قريش ذهبوا إلى النبي ﷺ يتحدثونه فيهم أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال عبد الله: إن سرك أن تبعلك سير لنا جبال مكة بالقرآن فادعها عنا حتى نتفسح فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا؛ حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح لركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا ونوالتجنا، ثم نرجع من يومنا، فلقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت، فلست أهون على ربك من سليمان بن داود، وأحى لنا قصى بن كلاب جدك، أو من شئت أنت من موتانا، فعيسى كان يحيى الموتى، ولست أهون عند الله من عيسى ابن مريم.

ولقد حكى القرآن الكريم فيما تكون من قبل عنهم مثل ذلك فقد قالوا: ﴿... لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا... (٩٢)﴾ [الإسراء] إلى آخر ما تلونا.

وقد نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، ولا نقول: إن أقوالهم التى رواها القرآن الكريم عنهم أم التى روتها كتب السنة هى السبب فى نزول هذه الآية كما ذكر فى أسباب النزول، أم أن الآية الكريمة جاءت لتحقيق معنى فى القرآن لا يوجد فى غيره من الأمور الخارقة للعادة، فالآية الكريمة تبين أن القرآن أعلى من

كل ما ذكروه وطلبوه من آيات لولا أنه من طبيعة غير طبيعتها، ومنهاج غير منهاجها، وهو أبقي وأخلد، فما يطلبون هو حوادث تنقضي بانتهاه وقتها، أما القرآن فباق خالد إلى يوم الدين، يتحدى الأجيال كلها شامخاً عالياً أن تأتي بمثله، كما تلونا من قبل: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨) ﴿[الإسراء].

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ﴾، أى لو ثبت أن قرآنًا يقرأ ويتلى سيرت به الجبال، فانتقلت من أماكنها، وانفسحت عن شعابها لتتسع رقعة للزرع والغراس، أو قطعت الأرض فتشقت - لا تكون منها بحار تجري فيها المياه، أو يكلم به الموتى بمعنى أنه يحييها، ثم يكلمها، وجواب الشرط محذوف يفهم من سياق القول، وهو لكان هذا القرآن، ولكن الكلام لا يسير الجبال، ومع ذلك فهو أقوى تأثيراً، وكان يمكن أن يؤثر في قلوب المشركين بأشد من ذلك، لولا أن عنادهم حجر قلوبهم، وكما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾ (٢١) ﴿[الحشر]، ولكن القلوب التى سكنها الشرك والكفر، وهى كالحجارة أو أشد قسوة، بل لله الأمر جميعاً، الاضراب للانتقال بين هذا إلى بيان أن اختيار المعجزات من أمر الله، وله وحده كل الأمر.

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيَّأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فسر كثير من المفسرين أن يئس هنا بمعنى لم يعلم، وساقوا شواهد من العربية للدلالة على ذلك، وفسرها الزمخشري بذلك، ويجوز أن تكون يئس بمعنى اليأس، وهو اليأس من إيمان المشركين، ويزكى هذا قوله تعالى بعدها: ﴿أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، ولنترك الكلمة له فهو يقول رضى الله تعالى عنه:

«ومعنى ﴿أَفَلَمْ يَيَّأَسِ﴾ أفلم يعلم قيل هى لغة قوم من النسخ، وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه؛ لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لن يكون، كما استعمل الرجاء فى معنى الخوف، والنسيان فى معنى الترك لتضمن

ذلك، قال سحيم بن وثيل الرياحي: (أقول لهم بالشعب، إذ يسرونني، ألم يئسوا أنى ابن فارس زهدم . . .) إلى أن قال: (يجوز أن يتعلق ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ بآمنوا، على معنى أولم يعتظ من إيمان هؤلاء الكفرة ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾).

ومعنى الكلام الأخير، أفلم يئس الذين آمنوا من إيمان الكافرين، ويعلموا أن لو يشاء الله لآمن الناس جميعا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيَّأْسِ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر مؤداه أن تكون المعجزة فى هذا المقام من الإعجاز، يقول الذين كفروا غير معتدين بها، فلم يئس الذين آمنوا من إيمانهم، والاستفهام لإنكار الوقوع أى للمعنى، ونفى النفى إثبات، والمعنى يئس الذين آمنوا من أن يهتدوا، ويعلمون أن لو شاء الله لهدى الناس.

والمعنى لو شاء الله إيمان الناس جميعاً لآمنوا، ولكنه سبحانه وتعالى تركهم ليطهر المؤمن عن نيته، ويعلم الكافر عن ضلاله، وتركه الحق، ويكون الجزاء عقاباً أو ثواباً.

وكان على الكافرين أن يرجعوا عن غيهم، ويسيروا فى طريق الرشاد، فالقوارع تنزل بهم قارعة بعد قارعة، أو تحل قريباً من دارهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ القارعة: الكارثة الداهية أو الشديدة التى تقرع حسا قرعا، تنبهم إلى ما هم فيه من الضلال، فمن لا ينه الدليل والبرهان، ولا يجديه البرهان لا يتنبه بالعقل، بل لابد من الشدة تقرع حسه، وكان الإقدام قبل النبى ﷺ إن لم يقتنعوا وعائدوا ينزل بهم ما يزيل ديار، أو ريح صرصر، أو غرق، وغير ذلك مما يبيد خضراءهم، وتبقى من بعدهم من اتبع النبيين، أما محمد، فإن رسالته، باقية خالدة، لا يؤثر فى اتجاهها كفر من كفر، ولكن يغالب الكفر بالإيمان، ليكون من بعدهم من يعبد الله تعالى، ويدعو إلى ربه؛ ولذلك كانت القوارع التى تقرع حسهم، ليست

إبادة، ولكنها مغالبة، ودفع الفساد، فالقارعة التي تصيب الكافرين هزيمة منكرة، تنزل بهم كالتى نزلت بهم ببدر، والخندق، وكأحد فقد رجعوا فيها إلى حين من الغنيمة بالآيات، وإن كان المسلمون توجهوا بهم قرع، وكان تعليمًا، وتوجيهًا، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ...﴾ (١٤٠) [آل عمران]، لكن قرحهم كان هزيمة، وقرح المؤمنين لم يكن انهزامًا ولا فرارًا.

فالقارعة هى الهزيمة لا تزال تصيبهم مرة بعد أخرى، أو تحل قريباً من دارهم، فى السرايا التى يثبها النبى ﷺ، فقد كان يبقياها النبى ﷺ حول مكة تدعو إلى الله، وتذرههم، حتى كان صلح الحديبية، وبه آمنوا على أنفسهم، وأخذ الناس يدخلون فى دين الله فى مكة وغيرها.

وتلك القوارع، والسرايا التى تحل قريباً من دارهم، حتى يأتى وعد الله بالنصر الحاسم، وأن تكون الكلمة للإسلام فى البلاد العربية وما وراءها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

وإن المشركين كانوا يستهزئون بالنبى ﷺ فى إبان نصرته، كانوا فى إبان مقامه فى مكة، وهم يحسبون أنه فى قبضة أيديهم والله ناصره، وخاذلهم، ألم ترهم يقولون بعد حديث هرقل لهم فى سؤاله عن النبى ﷺ: «لقد أمر أمر ابن أبى كبشة».

وقد بين الله تعالى أن النبيين استهزئ بهم كما استهزئ به، فإن من لا يدرك الحق يهزأ به، ومن استغرقتهم المادة يستهزئون بأهل الحق، والعالى والروح؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٧).

﴿اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ جاءوا مبشرين ومنذرين من قبلك، والاستهزاء يدل على جهل المشركين بما يستهزئون، ونسيانهم فضل من يسخرون منهم، ويدل أيضاً على

أنهم لا ينظرون للأمر نظرة من يجد ولا يهزل، ويدل على سيطرة العبث العاثر، واللهو الماخن على نفوسهم، وهذه حال تحير الداعى إلى الحق من أين يحملهم على أن ينظروا جادين غير عابثين، ولا مازحين.

ولقد أكد الله استهزاء السابقين برسولهم، باللام، وقد ساق الله تعالى ذلك لنيه ليتسلى عن إعراضهم واستهزائهم ولئلا يذهب به اليأس من قومه، وألا يرجو الانتصار منهم، فقد استمر الاستهزاء وأملى لهم، أى أعطاهم ملاوة من الزمن، حتى ظنوا أنه لا عاقبة مؤلة تنتظرهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أملت كما ذكرنا أعطيتهم ملاوة من الزمن إمهالا لهم من غير إهمال لاستهزائهم، وسخريتهم من الحق، والفاء لبيان أن ما بعدها مسبب عما قبلها، والمعنى كان استهزاؤهم سببا للإملاء لهم، حتى يأخذهم، وهم لا يتوقعون، مثل قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٢) [الأعراف].

وثم للدلالة على التراخي، أى أنه أمد لهم أمدا غير قصير، حتى ظنوا أنه لا مؤاخذه على ما يفعلون، وغرهم الغرور، وحسبوا أن الدنيا قد طابت لهم بحذافيرها، ثم أخذتهم، أى أشعرتهم بسلطاني، وأنى أمهل ولا أهمل والأخذ كناية عن الإشعار بالسلطان؛ لأن الأخذ يتضمن أنهم صاروا غير خارجين عن سلطانه؛ لأن الأخذ أقصى ما يدل على التمكن، وأن يكونوا فى قبضته يصرفهم كيف يشاء، وذكر الله تعالى عقابه فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ياء المتكلم محذوفة على وجود ما يدل عليها، والمحذوف مع وجود ما يدل عليه يكون كالمذكور، بل إن تقديره بجهله مذكور، لم يبين الله سبحانه وتعالى العقاب، ولكن أشار إليه إشارة تدل على هوله، وعلى أنه كان حاسما قاطعا فمن غرق، أو جعل الأرض سافلها، ومن ربح صرصر عاتية، ولقد قال تعالى: ﴿وَكَاَيْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨) [الحج].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) [هود].

وفى الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته».

الأوثان ليس لها وجود حتى تعبد

قال الله تعالى:

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ
يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ
السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

هذا بيان لبطلان عبادة الأوثان، وهو برهان يستمد منها، لا من أمر خارج عنها، فالله الأعلى يوازن بين قدرته على كل شيء، وحياطته لكل شيء، وقيامه تعالى على الأنفس، وبين الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، وأنها لا حقيقة لها في عالم الأحياء، يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، وبيان عجز آلهتهم، وقدرة الله تعالى، وقائم معناها: القيام على شئون الأنفس، خلقها، وهى مربوبة لها، وعالم بها، ومحافظ عليها، يعلم ما تسره وما تعلنه، وما تظهره، وما تخفيه.

ويقول ابن كثير فى معنى هذه العبارة السامية: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أى حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منقوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا تخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾ (٦١) [يونس].

فمعنى قام ليس ضد القعود، وإنما معناه القيام على شئون الأنفس، والعلم بها، كما قال تعالى: ﴿... هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ (٢٥٥) ﴿[البقرة]﴾، وعبر عن القيام بهذه المعاني؛ لأن القيام يدل على الحركة، والحركة تدل على معاناة الأعمال خيرها وشرها، وهو بالنسبة لله تعالى القيام على شئون هذا الوجود، وهو هنا الأنفس.

وذكر الله تعالى كل نفس للدلالة على عموم تديره للأنفس، والعلم بما تفعل من خير وشر، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يتضمن العلم بكل ما تصنع النفوس العاملة، والجزاء على ما تفعل، وفي ذلك بعضها لإنذار العصاة، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١) لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...﴾ (١١).

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾، لتمام الموازنة تكون التسوية مقتضية محذوفا مقدرًا تقديره كى لا يستطيع شيئًا، ولا يقوم على شيء ولا يضر ولا ينفع.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ضلالهم في عبادة الأوثان، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، وهذه الجملة حالية، والحال أنهم جعلوا لله شركاء يشركونه في العبادة مع أنها لا تنفع ولا تضر، ومع أن ذاته العلية جلت عن المشاركة، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يسألهم عن حقيقتها، ولكنها من بيان الكنه والحقيقة يتبين بطلان ما يعتقدون قال تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ عبر عنهم بضمير ما يفعل على حسب زعمهم وأوهامهم، وإلا فهي حجارة لا تضر ولا تنفع، ولا تعقل ولا تدرك.

﴿سَمُّوهُمْ﴾، أى اذكروا أسماءهم، وأوصافهم، أى شيء لهم من الأسماء والصفات، وإنهم إذا جاءوا إلى ذلك، قالوا: إنها أحجار سميت اللات أو العزى أو هبل، أو نحو ذلك من الصفات التى تجعلها دونهم، فكيف يعبدون ما هى دونهم أو لا وجود لها فى حقيقة أمرها، إلا أن تكون أحجارا، لا تنطق ولا تضر، ولا تنفع.



﴿أَمْ تُبْتِغُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ ، أم للإضراب الانتقالى مع تضمنها معنى الاستفهام الإنكارى التوبيخى ، أى أتنبئون به شئ لا يعلمه فى الأرض ، وهو خالفها ، والذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، أى أتنبئون بأمر لا وجود له ، والمؤدى أنها لا وجود لها فى الأرض فهل تنبئون بأمر لا يعلمه فى هذه الأرض ، وهذا كلام يؤدى لا محالة إلى أشياء لا وجود لها فى الأرض ؛ لأنها لو كان لها أسماء وأوصاف لادعى وجودها ، ولو كان لها وجود كآلهة فى الأرض لعلمها سبحانه . ﴿أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ ، أم للإضراب عن السابق مع دلالتها على الاستفهام التوبيخى الذى ينبههم إلى فساد قولهم ، والمعنى أهذا العلم بظاهر من القول الذى لا يدل على حقيقة فقط ، إنما أوهامهم جعلتهم يرددون ظاهرا من القول لا يستطيعون أن يقولوا فيه إنه شئ له وجود ، وصفات اقتضت الألوهية .

والحقيقة أنه زين لهم وهم لا مدلول له جعلهم يكفرون ، وهم لا يشعرون ؛ ولذا قال تعالى :

﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ .

بل للإضراب عن القول ، أى أنه ما دام قد ثبت أنه لا حقيقة لأصنامهم التى يعبدونها ، فأوصافهم لا تثبت ألوهية ، بل لا تثبت وجود لها نفع وضرر ، فالأمر أنهم زين لهم ما هم عليه بوهم توهموه ، وخيال تخيلوه ، وكان ذلك الخيال أساس مكرهم ، وتدبيرهم ضد الحق وأهل الإيمان ، وبه صدوا عن السبيل ، وصدوا غيرهم عن الطريق السوى ، وفى قوله تعالى : ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قراءة بالضم ، أى أنه بهذا التزيين الضال صدوا عن الطريق الحق ، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وهناك قراءة بالفتح ، أى صدوا غيرهم عن الحق بالاعتداء ، والإيذاء ، والاستهزاء بالرسول ، ويجب أن يراد القراءتان أنه لا مانع من الجمع بينهما ، فهم أبعادوا بأوهامهم عن الحق ، وأوغلوا فى الضلال بإبعاد غيرهم عنه .

وأكد الله سبحانه وتعالى الحكم بالضلال عليهم ، فقال عز من قائل : ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ ، أى من يحكم الله تعالى بضلاله ؛ لأنه سار فى طريق

الغواية وصل إلى الضلال، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مِنْ لعموم النفي، أى ليس له من هاد أى هاد، فلا هادى بعد الله .

بعد ذلك بين الله تعالى جزاءه، فقال:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (٣٤).

ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن لهم عذابين، أولهما عذاب الحياة الدنيا، والثانى عذاب الآخرة، ليس لهم من الله من واق.

أما عذاب الدنيا، فإنه واقع فى هذه الحياة، وإن لم يكن هو الأشق، وعذاب الدنيا يتدنى من ذات أنفسهم، وهو ضلال الفكر واضطرابه وعدم استقامة أنفسهم، فإن استقامة العقل والنفس نعمة واطمئنان واستقرار وضد ذلك عذاب، لا ريب فيه، وعذاب الدنيا باللحاجة فى الباطل، والبراهين ساطعة، والأدلة قائمة، ثم من عذاب الدنيا الحزيان والذل، وضرب الذلة، ومن عذاب الدنيا قتلهم بسيف الحق، كما كان فى بدر والأحزاب، بل أحد الذين رجعوا فيها من الغنيمة بالإناث، وقد يكون عذاب الدنيا بآية من آية.

أما عذاب الآخرة فهو أشق من عذاب الدنيا، ويواجهون الله، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾، فالله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم، ويبدو لهم جهلهم، وضلالهم، ثم بعد ذلك جهنم التى جعلها مثوى الكافرين، و﴿مِنْ﴾ فى قوله: ﴿مِنْ وَاقٍ﴾ لاستغراق النفي، أى ما لهم واق من عذاب الله واق، ما لهم من شفيع ولا نصير، بل إنهم يتقدمون إليه سبحانه متناولين كتابهم بشمالهم، اللهم قنا شر ذلك اليوم.

قال الله تعالى :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
 الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ
 بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ
 أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِ ﴿٣٦﴾
 وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

بين الله تعالى نعيم الجنة مقارنا بعذاب النار، فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، المثل الحالى أو الوصف القريب الذى يسترعى الافكار والانظار، والمعنى حال الجنة العجيبة التى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، تجرى من تحتها الأنهار، فتكون متعة النظر، ومتعة النفس، ومتعة النسيم العليل، ومتعة الراحة، والظل الظليل، ومثل مبتدأ خبره جملة تجرى من تحتها الأنهار، ويصح أن يكون الخبر مصدر، تقديره مثل الجنة كجنة تجرى من تحتها الأنهار، وفى ذلك معنى تحقق التشبيه بذكر المشبه والمشبّه به، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾، أى ثمر مستمر، من ثمر نخيل ورمّان، ﴿وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣) [الواقعة]، وغير ذلك من الثمار.

﴿وَزُلْزِلَتْ﴾، وهو معطوف على أكل، أى أن ظلها دائم مستمر، ليس فيها حر لافح، لا يتسخ ظلها بشمس.

ثم يقول تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، الإشارة إلى الجنة بأوصافها الثلاثة المذكورة، من أنها تجرى من تحتها الأنهار، فتنعّم النفس بالمنظر الجميل،

والنسيم العليل، والمنظر البهيج، ومن أن ثمراتها دائمة لا تنقطع، فتنعم بحياة دائمة، ونعيم مقيم، ومن أنها ظل دائم مستمر، وتلك مبتدأ خبره ﴿وَعُقِبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، أى نهاية الذين اتقوا انتهوا إليها وذكر الموصول للإشارة إلى أن الصلة، وهى التقوى علة تلك العاقبة الحميدة فى ذاتها.

ولقد ذكر فى مقابل هذه النهاية الحلوة المرتبة عاقبة الكفر والأشرار، فقال: ﴿وَعُقِبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾، أى نهاية الكافرين الذين كفروا بالله وبآياته، وبنعمه النار يلقون فيها، وهى دائمة، ﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ...﴾ (٥٦) [النساء].

والتعبير بـ﴿عُقِبَى﴾ فى جزاء الأشرار والأبرار للإشارة إلى أنه جزاء أعقب عملا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والله تعالى لا يظلم العباد، وهم الذين يظلمون أنفسهم، وله إرادة مختارة، وعقل مدرك، وإذا كانت الأعمال غير مستوية، فالعقبي غير مستوية، فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) [الحشر].

ولقد بين سبحانه وتعالى مكانة القرآن بين أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلُ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (٣٦).

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ﴾ ذكر الزمخشري، وغيره أن الذين يفرحون من أهل الكتاب هم اليهود الذين أسلموا كعبد الله بن سلام، والنصارى من نجران واليمن والحبشة، وعدهم ثمانين رجلا، أربعين من نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من اليمن.

وأولئك ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلُ إِلَيْكَ﴾، وهو القرآن؛ لأنهم وجدوه مطابقا لما عندهم فى التوراة والإنجيل من تبشير بمحمد ﷺ إذا كانوا يعرفونه فى التوراة والإنجيل، وما أنزل إلى النبى ﷺ هو القرآن الكريم.

وعندى أرى أن الذين آتاهم الله الكتاب يعم من أسلم، ومن لم يسلم، بل يدخل فى عمومهم ابتداء من لم يسلم فقد كانوا يفرحون ببعث النبى ﷺ، إذ كانوا فى حرب مع المشركين فى يثرب، ويستفتحون عليهم بأن نبيا قد آن أوانه سينصرهم عليهم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وإن سياق هذا فى هذا المقام يدل على أن الإيمان الصادق ليس مطلوباً من المشركين فقط، بل منهم ومن أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب كان ينبغى أن يؤمنوا لمعرفة السابقة به؛ ولأنهم كانوا يفرحون به عندما توقعوا مجيئه قريباً، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾، أى من الجماعات المتحيزة التى تفهم أن التدين تحزب وتعصب منهم من ينكر بعضه وهو ما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر، فالصدوقيون من اليهود أنكروا البعث وحسبوا الحياة مادة حتى النفس فسروها بالمادة، والنصارى حرفوا التوحيد وقالوا إن الله ثالث ثلاثة وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

ولأنهم أنكروا بعضهم اليوم الآخرة، وأنكر بعضهم الوجدانية، رد الله تعالى ذلك عليهم، وذلك بأمره للنبى ﷺ بأنه يستمسك بالوجدانية والإيمان باليوم الآخر، فقال تعالت حكمته: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ كان ما أمر الله تعالى به نبيه أمرين قد أنكرهما، وهما عبادة الله تعالى وحده، وذلك يتحقق فى قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾، فهذا إثبات للوجدانية فى الذات والصفات والخلق، والعبادة، ونفى لأى شريك فى العبادة، والنصارى أثبتوا الشرك فى العبادة بعبادة ثلاثة ابتداء، ثم لا يزالون يأتون بعبادة آخرين كالعذراء كما يسمونها فى الأوهام التى توهموها فى أنهم رأوا خيالها نوراً، وعبادة القديسين فى نظرهم، وبذلك أنكروا أصل التوحيد الذى هو أصل الديانات السماوية كلها، وقد دعاهم النبى ﷺ إلى كلمة سواء بينه وبينهم، فى

كتاباه إلى هرقل، والنجاشي، والمقوقس، وهذا بعض ما جاء فيه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا...﴾ (٦٤) [آل عمران].

والأمر الثاني الذي أنكره اليهود، وهو اليوم الآخر؛ ولذا قال فيه: ﴿وَالْيَهُودُ مَثَابٌ﴾، أى إليه وحده مآب أى مرجعى، لا إلى غيره من مسيح ونحوه، فإنه يوم القيامة عبد، كما كان فى الدنيا عبد من عباده الصالحين الأبرار وإن كانت له منزلة الرسل كإخوانه من أولى العزم من الرسل.

وحض الله تعالى بدعوة النبى ﷺ، فقال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾، أى أدعو إليه وحده، فتقديم الجار والمجرور يدل على أنه لا يدعو إليه غيره، فلا يدعو ابنا، ولا أما لهذا الابن، ولا روح قدس وغير ذلك مما توهمته الأفلاطونية الحديثة، وأخذوه منها كما يؤخذ الباطل من سلسلة الباطل.

وقد بين الله تعالى معنى الرسالة المحمدية فقال عز من قائل:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (٣٧).

كذلك، التشبيه بين ما هو كائن، وما قدره الله تعالى، وأحكمه، أى كهذا الذى تراه من نزول القرآن بلسان عربى مبين قدرناه وأحكمناه حكما عربيا، ووصف الحكم الإسلامى بأنه عربى؛ لأن القرآن الذى هو حجته عربى؛ ولأن الرسول الذى بعث به عربى؛ ولأنه من سلالة إبراهيم أبى العرب، ولم يكن من سلالة إسحاق، بل من سلالة إسماعيل ضئضى العرب.

وليس معنى ذلك أنه مقصور حكمه على العرب فتلك فرية، إنما معناه فى الحدود التى ذكرناها؛ لأن القرآن شريعته عامة للناس كافة، لا فرق بين عربى وأعجمى.

ويصح أن يراد من كلمة ﴿حُكْمًا﴾ قرآن، أى أنزلناه قرآنا عربيا، وعبر عنه بحكم؛ لأن ما اشتمل عليه هو الحكم القائم إلى يوم القيامة.

والعربية صفة الشريعة وإن كانت عامة فى تطبيقها؛ وذلك لأن الشريعة نزلت، واختار الله تعالى نبيه من بينهم، ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ (الأنعام)؛ وذلك لأن العرب من بين الأمم كانوا أعرف الناس بالله فهم كما ذكرنا فى عدة من كتاباتنا كانوا يؤمنون بأن الله خالق السموات والأرض ومن فيهن، ويؤمنون بأنه واحد فى ذاته وصفاته، ولكنهم كانوا فى العبادة يشركون معه الأوثان، وغيرهم من الأمم التى عاصرت مبدأ الإسلام ما كانت فيها معرفة الله تعالى تلك المعرفة فكانت جديرة بأن تكون أرض الدين الذى يدعو إلى التوحيد المطلق، إذ كانت فيه بذوره، فكان عمل محمد ﷺ تقويم سوقه.

وإن ذلك يقتضى ألا يتبع النبى ﷺ أهواء المشركين، ولا أهواء أهل الكتاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الضمير فى ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعود إلى المشركين وأهل الكتاب، وقد وصف بأن ما هو عليه هوى الأنفس، وشهوة العقل الفاسد، فهو الخاضع للأوهام الذى لا يسيطر عليه عقل مدرك، ولا جاء من العلم للنبى ﷺ هو علم التوحيد، وعلم التكليف، وكل ما عداه انبعث من الهوى وضلال الفكر، وفساد الاعتقاد، واللام فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْتَ﴾ هى لام مؤكدة ممهدة للقسم، وما جاء بعد ذلك جواب القسم لا جواب الشرط؛ لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يكون جواب القسم أولى وأجدر، ويكون دالا على جواب الشرط.

فالكلام فيه قسم مطوى، وهو تأكيد للحكم، وهو العذاب الذى ينزله الله تعالى، ولا وقاية منه، أيا كان الواقى، والخطاب للنبى ﷺ، وليس هناك احتمال لأن يتبع النبى ﷺ أهواءهم فما اتبعها قبل أن يبعثه الله رسولا، فكيف يتبعها بعد أن شرفه الله تعالى بالرسالة العامة الخالدة، وإنما الخطاب له ابتداء، لتقتدى به أمته، وتتبعه، أو يكون الخطاب لكل قارئ للقرآن مخاطب بأحكامه وبيانه، وجواب القسم ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ من الله متعلق بواق، ومن الثانية لاستغراق النفى، أى ليس لك واقٍ من عذاب الله تعالى أى واقٍ كان، كقوله

تعالى: ﴿... مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٢٠﴾ [البقرة]. اللهم قنا شر غضبك، واجعلنا في وقاية من معصيتك، فإنها الوقاية من النار.

الرسل من البشر

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
 لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾
 يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٩﴾
 وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْنَا
 الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
 مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

كان المشركون يقولون: إنه لا يكون رسولا لله تعالى إلا ملك يجيء إليهم، ولا يكون بشرا، وقد رد الله تعالى في كلامهم في أكثر من آية في ثنايا كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ٩﴾ [الأنعام]، وكانوا يقولون: ﴿... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ... ٧﴾ [الفرقان].

وفي هذه الآية بين سبحانه وتعالى أنه قد سبق الرسل والأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل، وأولاد إبراهيم من إسحاق فكل أولئك كانوا رسلا وأنبياء وكانوا بشرا، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾، وما

كان لهم مشركين أو أهل كتاب أن ينكروا رسالة رسل كانت لهم أزواج وذرية، وأبو الأنبياء إبراهيم الذي كان شرف العرب، ومجدهم الذي يتفاخرون به كان رسولا، وهم لا يزال عندهم بعض شريعته فى الحج، وهو باني البيت الحرام بأمر ربه، فقد كان رسولا نبيا، وكان زوجا كريما، ومن ذريته إسماعيل وإسحق وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ (٣٩) ﴿إبراهيم﴾، والزوجية لازمة من لوازم البشرية، والملائكة لا يتزاوجون ولا يتناكحون ولا يتناسلون.

ولقد أكد سبحانه رسالة هؤلاء الرسل من البشر، بقَدِّ وباللام، وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَكَ﴾ رسالتك، فليست بدعا، وكان حقا عليهم ألا يعترضوا بذلك الاعتراض.

هذا الاعتراض الأول الذى كانوا يعترضون به على النبى ﷺ، فهم يحسبون أن الرسول لا يكون إلا ملكا وذلك يناقض ما هو معلوم عندهم من رسالة موسى، ونبوة إسماعيل، ورسالة إسحاق، ونبوة يعقوب عليهم السلام.

الأمر الثانى الذى اعترضوا به المعجزة، فهم يريدون آية غير القرآن تدل على رسالة محمد ﷺ، وكانوا يقولون لولا أنزل عليه، كأنهم لا يعتدون بالقرآن آية معجزة، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا.

وقد رد الله سبحانه كلامهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، إن ما كان من شأن الرسول أن يأتى بآية يثبت بها رسالته عن الله إلا بإذنه، فالآية من شأن من أرسله لا من شأنه، فالله هو الذى يرسل، وهو الذى يعطى لرسوله المعجزة التى تثبت أنه يتحدث عن الله، ومثل المعجزة بالنسبة للرسول كمثال الأمانة التى تكون شاهدة بصدق الرسالة عن الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى الذى يختارها.

وقد اختار القرآن دليلا على الرسالة، ولكل زمن المعجزة التى تناسبه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أى لكل زمن أمر قد كتبه الله تعالى فى قدره،

فكان لزمن موسى ما كتبه من معجزات، وكان لزمن عيسى معجزات كتبها سبحانه وقد كانت معجزة عيسى عليه السلام خرقاً لنظام الأسباب والمسببات؛ لأن الزمان كان يناسبه معجزات خارقة لنظام الأسباب والمسببات، وكان عيسى ذاته في وجوده معجزة خارقة لنظام الأسباب، فكَذَلِكَ كَانَ إِبْرَاهِيمَ لِلْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وإحياءه للموتى، وإخراج الموتى من قبورهم، فكان هذا مناسباً لأجلها وزمنها، وكان كتاب الله تعالى بها، والزمن الذي عاش فيه ورسالته الخالدة، كان يناسبها، كتاب خالد يتحدى الأجيال جيلاً بعد جيل، وهو أعظم من كل معجزات عيسى، وموسى وإبراهيم؛ لأن هذه المعجزات حوادث تنقضي، وتنتهي بزمنها، ولا يراها إلا من شاهدها، ولولا أن القرآن سجلها ما علم بها أحد، أما القرآن فمعجزته خالدة باقية تتحدى الناس جميعاً جيلاً بعد جيل؛ لأن شريعة محمد ﷺ خالدة، فكانت معجزتها خالدة باقية تدل على صدقها أمام كل الناس في كل زمان.

وإن كل زمان له معجزته كما ذكرنا، فلا تكون آية صالحة لكل زمان، وإن الله تعالى يحو كل معجزة إلا في زمنها؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾.

يمحو الله من الآيات ما يشاء محوه منها، ويثبت ما شاء منها، فإذا كانت العصا معجزة في عصر موسى، وأقامت الدليل على رسالة موسى عليه السلام، فإن الله تعالى نسخها، ولا تكون آية لإتيان رسالة محمد ﷺ، ويثبت له آية أخرى، وهي القرآن الكريم، وإذا كان عيسى له آيات خرقت نظام الأسباب والمسببات، فقد نسخها الله تعالى، وأثبت لمحمد معجزة أخرى تناسب رسالته، وتبقى ببقائها، فيثبتها الله تعالى.

هذا ما نراه تفسيراً للمحو والإثبات، ونرى أنه يمكن أن يكون التفسير الذي يتسق مع ما قبلها وما بعدها من الآيات، فالكلام في الآيات التي يطلبونها إعنائاً وعناداً.

وقد قال الزمخشري عدة معانٍ تحتملها الجملة السامية، وهذا نص ما قاله: «إنه يقول يحو ما يشاء ويثبت، أي يأتي من الشرائع بما شاء، وينسخ منها ما

يشاء، وعنده أم الكتاب الأصل الذى لا يمحق، ولا يقبل المحو، وهو التوحيد، فشرائع النبيين ينسخ بعضها بعضا، ولكن الأصل قائم، وهو أم الكتاب، أى الشرع المكتوب المقرر فى كل الشرائع، وهو التوحيد، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...﴾ (١١٣) [الشورى].

وإن هذا يتسق مع قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

ولقد قال الزمخشري فى هذا المعنى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته أو يتركه غير منسوخ، ويسوق أقوالا أخر.

وإنا نرى أن هذين الوجهين كافيان فى البيان، ويمكن الجمع بينهما بأن يكون المحو، بإلغاء آيات مادية، والإثبات إثبات أخرى، وأن تكون الشرائع السماوية التى جاءت بها الرسل، ينسخ بعضها بعضا، ولكن يبقى الأصل القائم وهو أم الكتاب، وهو التوحيد، والعدل، وإقامة الحق، والإصلاح فى الأرض.

وقد قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ما نصه:

«العرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشيء أما له، ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب».

﴿وَأَنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِينَكْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠).

إن الشرطية مدغمة فى تاء الدالة على تأكيد التعليق، وليست زائدة، كما يعبر بعض النحويين، فليس فى القرآن زائد، وإنما الزائد فى إعرابهم، وفعل الشرط هو نريك، أو نتوفينك، والمعنى إما أن نريك بعض الذى نعدهم من أهوال

تنزل بهم فى حياتك، أو تتوفيك قبل أن ينزل بهم ما نعدهم به، كيفما كانت الحال، فإنه نازل بهم جزاؤهم فى الدنيا ما استقام أهل الإيمان على الطريقة، فإن حادوا عنها، حيد لهم.

وقد تأكد الشرط بما الدالة على التوكيد، وبنون التوكيد الشقيلة التى تلازم «ما» غالباً، وتوكيد الشرط توكيداً للتعليل كله، أى أن الارتباط بين الشرط والجواب مؤكد، فإنه إذا لم تر بعض ما وعدهم الله به من عقاب بوفاك قبله، أو تراه فإنه نازل بهم، وقد أديت ما وجب عليك من تبليغ وبقى أن ينفذ وعيد الله تعالى فيهم، ونعدهم أى الإنذار الذى أنذرهم الله تعالى به، فوعد بمعنى أوعد. وأحسب أن القرآن عبر عن الإيعاد بالوعد فى جملة ما جاء به من إنذار.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ليس هو جواب الشرط، وإنما يدل عليه والجواب مثلاً، أنزلنا بهم ما وعدنا، وأريناك مصارعهم، وما عليك أى تبعة من أمورهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، إنما للقصر، أى ليس عليك إلا البلاغ، وقد بلغت، وعلينا الحساب، العقاب، وعبر عن العقاب بالحساب؛ لأنه جزاء لما فعلوا، ويفعلون، وهو ذاته حساب لهم على ما آدوا المؤمنين وهم مستمررون فى غلوائهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۚ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۚ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۚ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۚ﴾ [الغاشية].

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض ما ينزل بهم من وعده الذى أنذرهم به. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١).

قال ابن عباس فى معنى ذلك النص الكريم: «أو لم يروا أننا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض ونقصان الأرض من أطرافها، اقتطاعها جزءاً جزءاً من سلطانهم، وذلك بحروبهم مع النبى ﷺ، وإن عذاب الله تعالى الذى ينزله فى

الكافرين جزاء كفرهم يكون بأحد أمرين، إما اجتثاثهم من الأرض، وأخذهم من حيث لا يحتسبون بريح عاصف أو بخسف يجعل على ديارهم سافلها، أو بطرق يحيط بهم فلا يبقى ولا يذر، وحيث لا يكون من أصلاهم من يعبد الله، وقد أوقع الله تعالى هذا بالذين بعث فيهم الأنبياء قبل النبي ﷺ من نوح وهود، وصالح، وشعيب.

والأمر الثاني: أن يكون ذلك بالمغالبة، يقاتلون، فيقتلون، ويقتلون، والعاقبة للمتقين، وإن ما نزل بمشركى مكة، واليهود كان من الثانى لا من الأول، لأن النبي ﷺ قال: «إنى لأرجو أن يكون من أصلاهم من يؤمن بالله واليوم الآخر».

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع بمعنى النفى، ونفى النفى إثبات، فلا استفهام الإنكارى داخل على «لم» والمعنى التنبيه على ما هو واقع بهم، والواقع أنهم يرون أن الله أتى الأرض ينقصها من أطرافها عليهم، وإسناد الإتيان للأرض إلى الله تعالى للدلالة على أن الله تعالى مع جيش المسلمين الذى يأتى الأرض التى لهم النفوذ، والسلطان فيها، ويتلاقون مع سكانهم فى الشرك الذى يجمعهم و﴿نَنْقُصُهَا﴾ نأخذها جزءاً فجزءاً من دائرة الكفر، حتى تضيق حوزتهم، وتضيق الدائرة عليهم شيئاً فشيئاً حتى يحيط بهم، ويصلح الرسل من الأرض، وكذلك كان الأمر، فقد كانت الغزوات والسرايا تنزل بالمشركين، وقد ذهبت إلى ما حول مكة وأطراف الجزيرة داعية إلى الله تعالى مجاهدة، فكانت الأرض تنقص من نفوذهم من أطرافها، بسببين:

أولهما: وهو أن دعوة الإسلام تدخل إلى قلوبهم من يسرى إليهم ثلة من جنود المسلمين، وفى ذلك نقص من سلطانهم، وخروج من نفوذ مكة وأهلها.

ثانيهما: أنه يقتل من المشركين عدد، وإن لم يكن كثيراً، إلا أنه يبعدهم عن مكة وأهلها.

وإن إتيان الله للأرض إتيان لقوة الله قوة الحق والإيمان فهو سبحانه يأتي القلوب فتزمن، ويعمرها بالإيمان، وكل عمران بالإيمان، نقص للأرض من سلطان الكفار.

وإذا دخل الإسلام أرضاً كان هو الحكم وحده، لا معقب لحكمه، أى لا يخرج منه ويحىء عقبه حكم غيره، فالإيمان الصادق إذا دخل النفوس لا يخرج منها لأنه يكون به سكونها واطمئنانها وقرارها.

وقد قال الزمخشري، وهو ابن نجدتها ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد لحكمه، والمعقب الذى يكر على الشئ فيبطله، وحقيقة الذى يعقبه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق، معقب لأنه يعفى غريمه بالاعتضاء والطلب؛ لذا قال لييد: «طلب المعقب حقه المظلوم»، والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾، أى الله وحده يكون الحاكم للنفوس، وليست الأهواء المتحكمة، ولا قهر الأقوياء للضعفاء، إنما هو الرحمة والعدل، ولا حكم يتعقبه.

ويكون للذين كانوا يسيطرون الحساب، وإنه لقريب، وإنه لسريع؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، أى أن الحساب آت لا ريب، وكل آت فهو سريع، لأنه مؤكد الوقوع، وعدد السنين والشهور لا قيمة له ما دام مؤكد الوقوع، وما يكون سريع الحساب يكون شديداً؛ لأنه يفاجئ المنكرين من حيث لا يحتسبون؛ ولأن سرعة الحساب يكون لأجل غرض العقاب، ولتحقيق معنى الجزاء، وذلك يكون على قدر ما ارتكب المسىء، والله عزيز ذو انتقام.

قال الله تعالى:

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

المكر العمل على صرف غيره عن مقصده بحيلة، وأنه يأخذ وصف الذم والحمد، من المقصد الذى قصد الصرف، فإن كان ذلك القصد مذموماً، فالصرف عنه خير، ما لم يكن السبيل ذاته شراً، وإن كان القصد محموداً، فالصرف عنه مذموم؛ لأن الصرف عن المحمود يوجب الذم.

وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الضمير يعود إلى المشركين، أى مكر الذين من قبلهم الذين ساروا هم على سننهم، وضلوا ضلالاً بعيداً مثلهم، ولا شك أن من هذه حالهم مكرهم يكون لتحويل الناس عن إطاعة النبيين، وصرف النبيين لهم عن اتباعهم، وذلك بطرق التدبير السيئ المختلفة من اضطهاد وأذى وسخر بهم، وقيل لهم أحياناً، والشتم والذم فى أكثر الأحيان، فقد سخر قوم نوح منه ومن تبعه، وقالوا ما اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى رأى، وكذلك قوم هود وقوم صالح، وآل مدين قوم شعيب.

وذكر هذا الخبر للمشركين لبيان أنهم لن يضيروا النبي ﷺ، وأصحابه مكرهم إلى هباء، ولا يعد شيئاً بجوار مكر الله تعالى، والتدبير للمؤمنين لينجوا من شرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أى لله وحده التدبير الذى يحول القلوب، وقد دل هذا النص السامى على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن مكرهم لا اعتداد به، ولا ثمرة له فى تحقيق الغاية التى أرادوها، وهو تحويل الناس عن عقائدهم إذا آمنوا بها.

الأمر الثانى: أن القلوب بيد الله، وهو الذى يهديها، وهو الذى يتركها تسير فى مهواة الضلالة، حتى تهوى فيها.

الأمر الثالث: أن الله مذهب كيدهم، وجعلها فى هباء، وناصر أهله.

وإن الله تعالى تديره منتج مثمر لا محالة؛ لأنه يعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر، وتحدث به النفوس، وما تكسبه الجوارح، وهو وحده مقلب القلوب.

قلنا: إن ذكر مكر السابقين لبيان العبرة للمشركون الذين عاندوا النبى ﷺ، ومحاولتهم فتنة المؤمنين لتحويلهم عن دينهم الذين ارتضوه، وفيه إشارة إلى بطلان مكرهم، وإلى أن مكر الله فوقهم، وأنهم إذ يمكرون بالنبى ﷺ، إنما يقاومون بمكرهم مكر الله وتديره للمؤمنين أوليائه؛ ولذا قال تعالى مهددا لهم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ الكفار (ال) فيها للعهد، أى كفار العرب من مشركين ويهود، ومن لف لفهم، والسين لتأكيد وقوع الخبر فى المستقبل، والعلم الذى سيعلمونه علم معاينة، لا علم خبر وإخبار، إن تتوالى عليهم الهزائم هزيمة بعد هزيمة حتى تصير الأرض العربية كلها تحت ظل الإسلام الظليل، ويخرج المشركون من رجس الوثنية، والفساد اليهودى المنحرف، وتكون الكلمة العليا لله ولرسوله، وللمؤمنين، ومن بقى على كفره يعلم علما آخر بعقبى الدار فى جهنم للكافرين، والجنة للمؤمنين.

وقوله: ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ لِمَنْ جار ومجرور، والمعنى لمن تكون عقبى الدار، أى عاقبة هذه الحياة الدنيا التى تكون فيها هذه المغالبة بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، وإن العقبى هى غلب الإيمان فى الدنيا، والجنة لمن آمن فى الآخرة، والنار لمن عصى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولقد اشتد المشركون فى الإنكار، وما لأهم على ذلك اليهود.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٢).

ذكر سبحانه بعض مكر المشركين وغيرهم التى يقصدون بها تحويل المؤمنين وفستهم عن دينهم، فذكروا أنهم يقولون للنبي ﷺ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، فهم يسلمون بأن لله رسالة، ولكن لست من أصحابها، فالله لم يرسلك، وهم بهذا ينكرون رسالة محمد ﷺ، وينكرون أن يكون له معجزة دالة على هذه الرسالة، ويريدون آيات أخرى غير القرآن، إذ لا يعدون القرآن آية، وما كان للنبي أن يأخذ كلامهم أخذ من يعتبره، وقد قام الدليل عليه بالتحدى، وإدراك أهل الذكر منهم ما فيه من نسق، ووثيق نظم؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أى كفا الله شهيدا بينى وبينكم، فهو الحق وشهادته الحق، وليست شهادته كلاما يردد، ولكن شهادته معجزة تفحم، وقد جاءت الخوارق ترى بشهادة الحق فى كل ما ترون من حياته، وما أحاط بها، وما دبرتم وقد رد تدبيركم فى نحوركم، وقوله تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فيه تهديد لهم بما يكون لإنكارهم من عواقب وخيمة عليهم تنصر أهل الحق.

ويصح أن تقول: ﴿شَهِيدًا﴾ معناه حاكم؛ لأن الشهادة تحيى بمعنى الحكم، كما فى قوله تعالى: ﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ...﴾ (٢٦) [يوسف]، والمعنى وكفى بالله حاكما بينى وبينكم، ويرشح لهذا المعنى عبارة بينى وبينكم، فالحكم هو الذى يكون بين اثنين، وأما الشهادة فتكون لأحد الفريقين على الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الكتاب إما أن يراد جنس الكتاب، ومن عنده علم الكتاب هو العالم بالكتب السماوية قبل تحريفها، فإنها تشهد بنبوّة محمد ﷺ، وتحكم بأنه رسول، هذا التبشير بالنبي ﷺ فى التوراة والإنجيل،

ولا يزال آثاره معها باقية إلى اليوم تعرف برموزها لمن عنده علم بالكتاب، هذا إذا كان المراد جنس الكتاب، ومن عنده علم بكتاب أهل الفقه المخلصين من الكتابيين.

وإذا أردنا الكتاب وكانت (ال) للعهد، يكون المراد هو القرآن الكريم، ومن عنده علم القرآن هو العليم بأساليب الكلام العربى يعرف شعره ورجزه، وإرساله ونشره، ويعرف ما فى الكلام، كما روى عن فصحاء العرب، فإن هؤلاء يشهدون بإعجازه كما يقول قائلهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، ما يقول هذا بشرا، وإنه ليعلو، ولا يُعلى عليه.

هذا وإنى أرى الوجه الثانى، وكلاهما عميق فى معناه.



تمهيد:

سورة إبراهيم مكية إلا الآيتين ٢٨، ٢٩، وعدد آياتها اثنان وخمسون آية، وسميت سورة إبراهيم لما فيها من قصص إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق، وسكن إسماعيل وذريته بجوار بيت الله المحرم، ولكن لم يتخذ شخص إبراهيم ﷺ محور السورة، كما كان الشأن في سورة يوسف ﷺ.

ابتدئت السورة الكريمة بالحروف المجردة وهي ﴿الر﴾ ثم ذكر الكتاب الكريم وأن الله أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، وذكرت السورة ملك الله للسموات والأرض وما فيهما، وأن الويل للكافرين بآياته الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله تعالى ويغونها معوجة، وأولئك في ضلال مبين.

ويذكر الله سبحانه أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، وهو العزيز الحكيم.

وبعد ذلك يشير الله سبحانه إلى طرف من قصة موسى وقومه، فيذكر سبحانه على لسان موسى بنعمته عليهم إذ أخرجهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، ويبين سبحانه وتعالى أنهم إن شكروا زادهم نعماً على نعم، ويقول موسى لقومه ﴿... إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

ويشير سبحانه من بعد ذلك إلى أبناء قوم نوح وعاد والذين من قبلهم لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم، وعضوها غيظاً، وقالوا إنا بما أرسلتم به كافرون، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب.

ويحكي سبحانه وتعالى دعوة الرسل عامة، ومجاوبة المشركين المتشابهين عامة، قالت لهم رسلهم: ﴿... أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...﴾ (١٠) فيرد عليهم الكافرون وهو رد متحد عند الكافرين جميعا، قد انبعث عن جحود واحد فاتحد... قالوا: ﴿... إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١١).

وكان رد الرسل واحدا ﴿... إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)، ولكن الله يمين على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وقد قرروا أنهم لا يتوكلون إلا على الله، وليصبرن على أذى أقوامهم.

ولقد كان الإيذاء متحدا من الكافرين، إذ اتحد السبب المنبعث منه وهو الجحود، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكُنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٢) وَلَنَسْكُنَنَّكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤).

وإنه من بعد ذلك الخزي في الحياة الدنيا يكون العذاب الشديد، ﴿... وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ ... (١٧).

وقد مثل الله تعالى أعمال الذين كفروا في الكفر بأن ﴿... أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨).

ثم بين بعد ذلك خلق السموات والأرض ﴿... إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)، وقد صور الله سبحانه وتعالى حالهم يوم القيامة، إذ تجادل الضعفاء والذين استكبروا ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ...﴾ (٢١)، قال

الذين استكبروا ﴿... لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ (٢١)﴾ .

ويدخل الشيطان في المجادلة فيقول: ﴿... إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوَا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ .

وقد ذكر سبحانه بعد ما كان بين المشركين ضعفاء ومستكبرين والشيطان، ذكر سبحانه وتعالى إدخال المؤمنين الجنة .

﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾ .

وقد ضرب سبحانه مثلاً يفرق بين الإيمان والكفر بالفرق بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فالكلمة الطيبة ﴿... كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ ، والكلمة الخبيثة ﴿... كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٥) يُثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٦)﴾ .

وذكر سبحانه أن حال الكافرين حال عجيبة تثير الاستفهام، فقد ﴿... بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ ؛ وذلك لأنهم جعلوا لله أنداداً من الحجارة، وقد صاروا بذلك غير مدركين حقائق أمورهم، وجدديرون بأن يقال لهم ﴿... تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ ، وذكر في مقابل ذلك المؤمنين الذين لم يبدوا نعمة الله كفراً، وقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال .

ولقد ذكر الله نعمه على خلقه، فهو ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ .

ولقد ذكر الله تعالى بعد ذلك خبرا صادقا عن إبراهيم أبى العرب، وكيف كان يدعو الله ولا يعبد الأصنام، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾ . وأخذ يدعو لذريته فى البلاد العربية بسعة الرزق فقال :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾ .

ذكر الله سبحانه وتعالى أدعية إبراهيم ليكون ذلك تذكيرا لذريته من العرب، ليتركوا الأوثان ويتجهوا إلى الضراعة إلى الله تعالى كضراعة جدهم أبى الأنبياء إبراهيم .

ولقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن الله لا يخلف وعده رسله يوم القيامة، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُ لَهُمْ

هَوَاءَ ﴿٤٣﴾ ، وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن ينذر قومه بيوم القيامة، وبما كان قد نزل بمن قبلهم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ .

ولقد حذر الله تعالى من نزول وعده، وذكر سبحانه أنه في يوم القيامة يكون الجزاء، تجزى فيه كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب. ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أُولَئِذَا الْأَبَابُ ﴿٥٢﴾﴾ .

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى :

الرَّكَّتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

تكلّمنا فى هذه ﴿الر﴾ وذكرنا أنّها من المتشابه الذى اختص به علم الله تعالى، وأشرنا إلى بعض ما نحاول أن نتعرف به الحكمة فى وجوده، وما كان من الله ما يسوغ أن يوصف بأنه جاء لغير حكمة وإن خفيت على العقول جلها أو كلها. وهذه الحروف إذا جاء بعدها ذكر الكتاب كانت مبتدأ والكتاب خبره، وهى هنا كذلك، فقوله تعالى: ﴿الر﴾ مبتدأ خبره ﴿كِتَابٌ﴾، ويكون الابتداء فيه إشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب مكون من تلك الحروف التى يتكون منها كلامكم، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله، فلا يدل هذا على أنه من عند أمثالكم من البشر، بل من عند خالق البشر، ويرشح لذلك كون الكتاب خبرا لهذه الحروف.

و﴿كِتَابٌ﴾ التّكثير فيه للتّعظيم، والمعنى كتاب عظيم الشأن لا يدرك كنهه، ولا تحيط به أفهام البشر، إلا إذا كان ذلك بتوفيق من الله، وما يعلم تأويله إلا الله، وأضف إلى ذلك ما يقوى مكانته أو يحققها، وهو أمران ذكرهما الله تعالى:

الأمر الأول: أنه أضافه إلى الله تعالى على أنه نازل من لدنه فى سموه سبحانه، إلى منتهاه فى نزوله إلى النّبي ﷺ، وهذا هو قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾، وبالإضافة إليه سبحانه بضمير الجمع؛ لأنه الضمير العائد إلى الله خالق الوجود كله، عاقله وغير عاقله، إنسه وجهه، وهو الحكيم الخبير.

الأمر الثانى الذى يكشف عن عظمة الكتاب: وهو شرف ذاتى فوق شرفه الإضافى بالنسبة إلى الله تعالى، وهو أنه يخرج الناس - إذا أدركوه - من ظلمات الضلال إلى نور الهداية وذلك بتبليغ محمد ﷺ له، وهذا هو قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فهذا النص السامى يدل على أن القرآن هاد ومرشد يخرج به النّبي ﷺ الناس من الضلال إلى الهدى بإذن الله، ففى ذلك ثلاثة معانٍ: أولها: أن الضلال كالظلمة، وثانيها: أن الهداية كالنور، وثالثها: أن الأمور كلها بتوفيق من الله، فمن سلك سبيل الهداية وصل إلى الغاية، ومن سلك طريق الضلال وصل إلى نهاية الضلال البعيد.

وعلى ذلك ففي التعبير بالظلمات والنور استعارة، تشبيه الضلال بالظلمة؛ لأن السائر فيها كالسائر في ظلام لا يعرف طريقه فيكون في حيرة دائمة لا ينتهي فيها إلى حق واضح ولا إلى طريق لاجب، وشبهت الهداية بالنور؛ لأن من هداه الله تعالى يكون في نور يعرف به طريقه الهادي المرشد إلى أقوم طريق وأهدى سبيل.

وقد عرف الله سبحانه وتعالى بالبيان إلى أن النور صراط الله العزيز الحميد.

الصراط: الطريق المستقيم، وهو أقرب طريق للوصول إلى الحق، وهو في هذا الوصف العظيم مضاف إلى الله تعالى فيزداد شرقا وتكريما، وهو صراط العزيز الذي لا يقهر، وهو فوق كل شيء والغالب على كل أمر وحده، ومن سلك طريق الحميد، فإن العقابة فيه محمودة، فهو محمود في ذاته ومحمود في غايته ونهايته.

ومن سلك غيره ذل، ولا يحمد العقابة، والعاقبة هي السوءى.

وقد ذكر سبحانه القلوب المظلمة، فقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢).

صدر سبحانه الجملة التي فيها كمال سلطان الله تعالى في الوجود بلفظ الجلالة، لتربية المهابة في نفس القارئ؛ ولأن ذلك يتلاقى مع سلطان الله الكامل، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ للدلالة على ملكيته لكل ما في السموات، وتكرار ﴿مَا فِي﴾ للدلالة على كمال استغراق الملكية له سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء قدير، مالك كل شيء، وذكر سبحانه ملكيته لما في السماء والأرض وذلك يقتضى ملكيته لهما؛ لأن ملكية ما يشتملان عليه يقتضى - لا محالة - ملكيتهما، إذ ملكية المظروف تقتضى ملكية الطرف، وإن الملكية الكاملة لهذا الوجود كله بما فيه من أجرام، وأحياء عاقلة وغير عاقلة يتضمن أنه يملك الأنداد، وأنها وعبادها في قبضته سبحانه العليم بكل شيء، وفي ذلك برهان قاطع أنها غير جديرة بالعبادة؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذكر سلطان الله تعالى في الوجود

كله، وأنه لا سلطان لغيره ذكر بعض مقتضياته، وهو كفر من يعبد الأوثان، واستحقاقه للعذاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ الويل: الهلاك، وقال الزجّاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلاك ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في ذاته، وفي هذا إنذار ووعيد، والمعنى هلاك لهم من عذاب شديد. وكأن المعنى كما يقول الزمخشري: يولولون من عذاب شديد، ويصيحون قائلين يا ويلاه.

وننبه هنا إلى أمرين:

أولهما: أن ذكر الويل يتزل بالكافرين، هو في مقابل الذين يسلكون صراط العزيز الحميد، من حيث إنهم يكونون في عزة بعزته سبحانه وتعالى، وعاقبتهم محمودة بسلوكهم طريقه المحمود، أما الذين لا يسلكون الطريق ويخالفون مقتضى الملكية الثابتة لله تعالى في السموات والأرض ومن فيهن، فإنهم يكونون في ويل من عذاب شديد.

وثانيهما: الله مالك كل شيء، حتى لقد قرر الفقهاء أن ملكية الناس للأشياء ملكية نسبية وليست ملكية حقيقية؛ لأن المالك في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

وقد بين سبحانه وتعالى صفات الكافرين الذين لهم الويل من عذاب شديد، لا يكتنه كنهه، ذكر سبحانه أوصافهم الظاهرة، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢).

وصفهم سبحانه وتعالى في هذه الآية بثلاث صفات، وختمها بجزائهم المستحق من هذه الصفات والترتب عليها:

الصفة الأولى: أنهم ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، (استحب) السين والتاء للطلب، فمعنى استحب الحياة، أى طلب حب الحياة الدنيا، وهذا يستفاد منه أولاً الرغبة الشديدة في الحياة بمعنى اللجاجة في طلبها، ويستفاد منه

ثانياً أنه يختارها على الحياة الدنيا، ويترك الآخرة تركاً، كما يُترك كل مهجور، ولقد قال في ذلك الزمخشري: «هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب منه نفسه أن يكون أحب إليه وأفضل عنده من الآخرة».

والصفة الثانية: أنهم لا يكتفون بإيثارهم الدنيا على الآخرة، بل يصدون عن سبيل الله، أى يقفون مترصدين السبيل يصدون عنها بمنع الناس منها، وقرأ الحسن البصري ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بضم الياء وكسر الصاد، والمعنى أنهم أعرضوا عن سبيل الله، وحملوا غيرهم على الإعراض عن سبيل الله تعالى، وذلك بالجمع بين القراءتين، وصدّهم عن سبيل الله بالدعوة إلى عدم الدخول، كما كان يذهب أبو لهب إلى حيث النبى ﷺ إلى القبائل يكذب النبى ﷺ ويدعوهم إلى الإعراض أو عدم الاستماع، وأشدّ الصد عن سبيل الله إيذاء المتبعين لسبيل الله وتعذيبهم ليحملوهم على الردة عن دينهم، وسبيل الله هو صراط العزيز الحميد، وهو طريق الحق والهداية وتوحيد الله تعالى.

والصفة الثالثة: أنهم ييغونها عوجاً، أى يطلبونها راغبين ملحفين أن تكون معوجة غير مستقيمة، بل يطلبونها ناكبة عن الطريق غير سالكة سواء السبيل، ييغونها زيفاً ويطلبون الاعوجاج كما كانوا يريدون محمداً ﷺ أن يكون عن سب آلهتهم ويدعونه إلى اتباع آبائهم، وكأنه جاء ليردد ما عندهم، لا ليهديهم ويرشدهم إلى الطريق الآقوم.

ولقد بين سبحانه بعد ذلك الوصف الجامع لهم، ولذى سيطر عليهم فقال: ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ الإشارة إليهم محمّلين بهذه الأوصاف التى استحبوها بها الحياة الدنيا وصارت خلب أكبادهم وآثروها على الحياة الآخرة، ورضوا بالدنية عن الحياة العزيزة الكريمة فى الآخرة، وصدوا عن سبيل الله وبغوا الحق معوجاً غير مستقيم ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

الضلال ضد الهداية، وضلال الطريق أن يسير في متاهة يتيه فيها، وكلما أوغل في المتاهة ازداد ضلالة وبعُد عن الغاية والنجاة من المتاهة، فهؤلاء بحسبهم للدنيا دون الآخرة، وصدهم عن سبيل الله وإرادتهم الزيف دون الحق أمعنوا في متاهة الباطل، فبعدوا بضلالهم، وغابوا عن الحق وسواء السبيل.

والبُعد إما أن يكون وصفا للضلال، ويكون معنى ذلك أنهم أوغلوا في الضلال إغالا حتى بعدوا عن الطريق السوى الموصل إلى الغاية المنشودة والذي هو طريق السلامة.

وإما أن نقول إنه وصف للضال نفسه، وذكر السياق وصفا للضلال من قبيل المجاز المرسل الذي يجعل المصدر هو الموصوف، والحقيقة أن الوصف هو للضال، والله أعلم.

ولقد بين القرآن الكريم حقيقة ثابتة في الرسالات الإلهية، وهي أن يكون الرسول بلسان قومه، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

﴿مِنْ﴾ هنا لاستغراق النفي ثم الإثبات، أى ما أرسلنا أى رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم، وهذا النص الكريم يفيد أنه سبحانه لا يرسل رسولا إلا بلسان قومه الذين بعث من بينهم، وأن البيان الأول يكون لهم ثم ينبعث نور الدعوة من ورائهم، وكذلك كان النبيون، فعيسى عليه السلام بعث بلسان قومه وكانت دعوته بلسان قومه وهو العبرية، وعمت دعوته ابتداء بلسان قومه، والأناجيل التي حكّت مواعظه فى الجبل والسفح كانت بلغة قومه ابتداء، فإذا كانت قد ظهرت بغير لغته ولغة قومه، بل بلغة أعدائهم فإن السند يكون حيثئذ منقطعاً بين الرسالة ومن أرسل فيهم، بل بينهم، وبين الرسول ذاته، ولذا كان تحريف القول عن موضعه.

وموسى من قبل عيسى - عليهما السلام - بعث أيضا بلغة قومه وهم بنو إسرائيل ابتداء، ثم كانت لغة فرعون عندما خاطبه هو هارون.

وكذلك محمد ﷺ، قد بعث بلغة قومه الذين كانت دعوته الأولى بينهم وانبعث نورها منهم ولكنها كانت عامة، كما قال تعالى عن نبيه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ (١٥٨) [الأعراف]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ (٢٨) [سبأ]، وكما قال ﷺ: «بعثت للأحمر والأسود»^(١).

وكونه بلسان قومه لا يفيد أنه كان للعرب خاصة، فذلك لما قصته الآيات القرآنية الصريحة والأحاديث النبوية الشريفة والوقائع التاريخية الصادقة، فإن دعوته دخل فيها صهيب الرومي، وبلال الحبشي، ثم سلمان الفارسي، وذكر ﷺ أن هؤلاء يصورون أجناسهم في الدعوة المحمدية، ولم يلبث النبي ﷺ بعد أن عمّت دعوته الجزيرة العربية أن بعث إلى هرقل ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى المقوقس عظيم القبط، يدعوهم إلى الإسلام، وهكذا.

إذن فالدعوة كانت للناس قاطبة، ولكنها ككل دعوة حق تبث في أضيق دائرة، ثم تتسع شيئاً فشيئاً حتى تصبح نورا ساطعاً يعم الأكوان، فابتدأت الدعوة في أسرة الرسول وأصدقائه ثم دعيت عشيرته، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) [الشعراء]، ثم كان الصدع بالدعوة والجهربها ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) [الحجر]، ثم كانت في القبائل العربية، ثم تجاوزت ربوع الصحراء العربية إلى أرض كسرى وقيصر وسارت إلى الحبشة بعد أن عمّت ربوع اليمن.

وقوله تعالى في مقابل إرسال الرسول عن قومه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

ذكر سبحانه أن البيان الأول يكون لقومه، ثم يكون بعد ذلك لغيرهم.

(١) من حديث ابن عباس، أخرجه أحمد، ومن مسند بنى هاشم - بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٦٠٦).

والآن ونحن نرى الاختلاط الفكرى بين البشرية، حتى إن الأمر ليقع فى أرض فيذيع خبره، بعد أقل من ساعة فى كل أنحاء الأرض، لا نعجب فى أن يكون بعث الرسول بلغة ويعم علمه بعد ساعة من نهار أو ليل كل بقاع الأرض، ولكن العجب فى أن يكون فى الماضى البعث بلغة والدعوة عامة، هذا ما أثاره وبينه الزمخشري، وهذا ما قاله سننقله بطوله:

«فإن قلت لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس كافة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ (١٥٨) [الأعراف]، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم يكن للعرب حجة فلغيرهم حجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة، فلو نزل بالعجمية لم يكن للعرب حجة أيضا، قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة لنزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل، فبقى أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهمه، كما نرى الحال ونشاهد من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك جلائل الفوائد وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكذا القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب؛ ولأنه أبعد من التحريف، وأسلم من التنازع والاختلاف...» (١).

وننتهى من كلام الزمخشري إلى أمرين: أولهما: أن نزول القرآن والدعوة المحمدية كانت باللغة العربية؛ لأنها كانت لغة النبي ﷺ فكانت أقرب إليه؛ ولأن القرآن المعجز إذا كان باللغة عانى غيرهم من حفظ لفظه وتفهم معانيه، وفى ذلك ثواب أولا، وصون للقرآن عن التغيير والتبديل فيه ثانيا.

ويشير إلى أنه لو نزل بكل اللغات، وكان معجزاً فيها جميعاً لكان الإيمان بالإلحاء لا بالاختيار وله فى ذلك نظرة.

وإنه يجب أن نلاحظ أمرين:

أولهما: ما قاله الشافعى رحمته الله أنه يجب أن يعرف كل مسلم قدراً من اللغة العربية يصحح به دينه.

وثانيهما: أن جعل القرآن باللغة العربية، ومحاولة الأعاجم أن يحفظوه يقرب بين اللغات، وحيث قربت اللغات قربت العلاقات الإنسانية.

وكان ذلك قائماً يوم كانت الوحدة العربية قائمة، وكانت اللغة العربية جامعة لهم وفيها دونت ثقافتهم وكانت وعاء للعلم الإسلامى، فلما انبعثت اللغات الإقليمية من مراقدها ذهبت الوحدة وتفرقت الكلمة.

ونعود إلى الكلام فى معنى الآية الكريمة ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، أى أنه يترتب على البيان أن يسير بعض الناس فى طريق الضلالة، إذ يكذبون، ولا يصدقون، ويهذى الله تعالى من يسير فى طريق الهداية، فيأخذ بيده إلى غايتها.

وهنا يسأل سائل لماذا قُدِّمَت الضلالة على الهداية؟ ونقول فى الجواب عن ذلك إن الآيات سبقت لبيان إنذار الضالين، فهم موضع الإنذار؛ ولأن الشيطان قريب من نفوس البشر؛ ولأن الأهواء تجعل حكم الضلال هو الأغلب.

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لبيان أن الكفار مهما يكن سلطانهم وقوتهم وحسبانهم أنهم لن يغلبوا، ويذهب بهم غرورهم إلى زعم أنهم العالون، فالله تعالى هو واهب العزة، وهو العزيز الذى يذلهم، ويجعل لأهل الإيمان الكلمة العليا، وهو الحكيم الذى يدبر الأمور بحكمته، ويعلمه الذى وسع كل شئ، فهو يمهل الكافرين ويملى لهم، كما قال عز من قائل: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ [القلم] يملأ لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

من نبأ موسى عليه السلام

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
 قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا
 اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
 إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 وَيَدْبِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
 ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
 رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ
 عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلْقِيَا تِلْكَ الْكَفْرَانِ
 مِنْ قَبْلِكَ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
 بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

فى الآفة السابقة ذكر سبحانه وتعالى أنه لا يرسل رسولا إلا بلغة قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويبين لهم فيضل من يضل، ويهتدى من يهتدى، وفى هذه الآفة وما يليها من آيات يبين الله أخبار نبي من أولى العزم بعث فى قومه، وغيرهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويذكرهم بأيام الله تعالى من وقائع من نزلت بمن سبقهم من الأمم، وما نزل بهم هم من نعم، وهو موسى عليه السلام، وقد أخرج الله على يدى موسى بنى إسرائيل قومه من فرعون وظهرت آياته فيهم، ومع ذلك ضلوا من بعده، وفى حياته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أكد الله تعالى إرسال موسى إلى قومه بـ(اللام) وبـ(قد)، وقومه أهم بنو إسرائيل وحدهم أم قوم موسى كل من أرسل إليهم؟ ظاهر القول بادئ الأمر أنهم بنو إسرائيل؛ لأنهم قومه وجنسه أو قبيله، ولكن موسى لم يرسل لبنى إسرائيل وحدهم، إنما أرسل إلى سكان مصر وفيهم فرعون، وقد قال تعالى فى رسالة موسى وأخيه هارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) [طه].

وهذه تدل على أنه بعث لمصر كلها، لا لبنى إسرائيل وحدهم، وإن كانت فضائل الرسالة عادت على بنى إسرائيل بالنعمة والإنقاذ ابتداءً، والهداية للجميع كانت المقصد فى نهاية الرسالة وغايتها وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

وردت أخبار من السلف بأن أيام الله، الوقائع التى انتصر الله فيها لكلمة الحق والإيمان، كما نزل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وآل مدين؛ وذلك لأن كلمة (أيام) تطلق فى التاريخ العربى على الحروب التى كانت لها دوى فى العرب كحرب «ذى قار» الذى انتصر فيها العرب على فارس، وكحرب «الفجار»، وكحرب «عبس وذبيان»، وكحرب «البسوس»، إلى غير ذلك من الأيام الشداد.

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن أيام الله هي النعم التي أنعم بها على بنى إسرائيل، والأيام التي أنزل بها اعتباراً لأهل مصر ليسلموا، فقد أنزل عليهم تسع آيات هي: الطوفان والجراد والقمل، والضفادع والدم والعصا، ويده إذ تخرج بيضاء من غير سوء، والسنين ونقص من الثمرات.

ويمثل عبارات بعض المفسرين إلى أن الأيام التي طلب الله تعالى من موسى أن يذكرهم بها تعم أيام المحنة التي نزلت ببنى إسرائيل وأيام النعمة، وقال الطبرى فى ذلك: وعظّمهم الله تعالى بما سلف من الأيام الماضية لهم، أى بما كانوا فى أيام الله تعالى من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيداً مستذلّين.

وهكذا نرى أن ابن جرير يخص الأيام بأيام الله تعالى فى بنى إسرائيل محنة ونعمة.

والحق أن أيام الله تعالى تعم أيام الشدائد، وأيام النعم، وتعم بنى إسرائيل ومن سبقهم من الأمم كقوم نوح إلى آخره، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تلك الأيام ببعض التفصيل بذكر النعم والنقم معاً.

وهذا بحث نحوى أشار إليه المفسرون اللغويون، وهو يتعلق بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فيقول: أرسل الله موسى مؤيداً بالآيات التسع التي أشرنا إليها قائلنا له: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أى من الضلال الذى هو كالظلمات المتكاثفة إلى الحق الذى كالنور الواضح البين، ويصح أن نقول: إن ﴿أَنْ﴾ تفسيرية، أى إن ما بعدها تفسير لمعنى الرسالة، وجوز الزمخشري أن ﴿أَنْ﴾ مصدرية ولا مانع من دخولها على الأمر؛ لأنه فعل، ويكون المعنى: أرسلنا موسى إلى قومه بإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقد بينا أن قومه تعم كل من بعث إليهم، وهم بنو إسرائيل، وأهل مصر، وقد كانت دعوته - عليه السلام - فيهم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى إخراجهم من الظلمات إلى النور والآيات الدالة على رسالته، والأيام باشمالها على النعم التي جاءت إليهم وأفاضها عليهم، والشدائد التي نزلت بغيرهم، ﴿لَآيَاتٍ﴾ أى لأمارات هادية مرشدة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وجاء ذكر الصبر بصيغة المبالغة، وذكر الشكر بصيغة المبالغة أيضا، للدلالة على أن من يعرف هذه الآيات ويدركها هو الذى صار الصبر بتمرسه له صفة كالجبلية فيه، وصار شكر النعمة والقيام بحقوقها كذلك، وقالوا: إن المراد الصبر على البلاء، والشكر على النعماء، وإلى أن الصبر كما يكون فى النعمة يكون أيضا فى النعمة، والصبر بالنعمة ألا تدفعه إلى الغرور، والأشر والبطر، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبِّئُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً...﴾ [الأنبياء، ٢٥]، والنعمة أيضا تحتاج إلى الشكر، إذ تذكر بما أنعم وأكرم فى حال البلاء والاختيار، فيكون الشكر على ما أسلف على رجاء الإنقاذ مما أوقع، ثم يكون الشكر على الماضى والحاضر.

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض ما أنعم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٦).

﴿إِذْ﴾ ظرف زمان للماضى، والخطاب لمحمد ﷺ يذكر بنعم الله تعالى على المظلومين، وأنه سبحانه ينتقذهم من أذى طاغية الدنيا فى عصره، وهو فرعون، وإن هذا إيذان بأنه ينتقذ النبى ومن معه من المشركين، وجاعلا لهم السلطان عليهم، وقوم موسى هنا متعين أن يكون لبنى إسرائيل، وإن كان قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لا يخصهم، بل يشملهم وغيرهم.

يقول لهم رسول الله الذى أنقذهم على يديه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أى أصحاب فرعون ونصرائه ومعاونيه على الشر، ونرى

أن فرعون في أكثر الآيات المثبتة لظلمه القاسى الغاشم لا يذكر فرعون وحده، إنما يذكر ملؤه أو آله، أو غير ذلك مما يدل على المؤازرين له، وهذا ينبنى بمعنى أن سنة الله تعالى في خلقه أن الطغاة لا يطغون بذات أنفسهم، ولكن بمؤازرة من الأشياء والأتباع، ولو كانوا مرشدين ما كان منهم ذلك الظلم الغاشم فهم آثمون معهم.

وقد كانت النجاة أو الإنجاء من أقسى المظالم الإنسانية، بشاعة وقسوة، كما حاول من ساروا على دأبه - أسكنهم الله معه فى السعير، فهم وهو على سواء، إلا أنهم أشد؛ لأنهم جاءوا بعد أن جاءتهم البيئات.

﴿إِذْ بَدَلْ مِنَ الْأُولَى، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَنْجَى مِنْهُ فَقَالَ: يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أى يذيقونكم أشد العذاب سوءا من استرقاق، وإذلال وتكليفكم المشاق الغلاظ الشداد، أو استباحة لكرامتكم، وإبعادكم عن أماكن السلطان وجعلكم أرذالا تابعين، ولم يجعل منكم سادة متبوعين، حتى أنقذكم الله من هذا فجعلكم سادة أنفسكم، وعبر عن ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿... وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا... (٢٥)﴾ [المائدة]، أى مسيطرين على أنفسكم ولستم خاضعين لغير الله تعالى، وقال سبحانه وتعالى مع هذا الإذلال والاسترقاق ﴿يَذُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فى سورتي البقرة والأعراف ﴿... يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ... (١٤١)﴾ [الأعراف] من غير (واو)، فكان هذا تفسيرا لسومهم العذاب، وهو بيان بأفصح أحواله، وهنا جمع بين الاسترقاق والذل والتكليف بالمشاق والأهوال، وبين ذبح الأبناء واستحياء النساء.

وعبر عن قتل الأبناء هنا بالذبح للإشارة إلى أنهم فعلوا ذلك، وهم آثمون سالمون غير ثائرين ولا ناقلين، فهم فى غير اندفاع ثورة، ولكن فى أمن ودعة، يأتون إلى الطفل من حجر أمه أو بين لداته ويذبحونه ذبحا، وحسبك أن تعلم أن أم موسى رضيت - بإلهام من الله - أن تلقىه فى اليم مع رجاء الله تعالى، عن أن تراه يذبح بين يديها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، أى يطلبون حياة نساءهم وبقاءهن، لا رغبة فى ذات الإحياء بل ليكون إماءً فى بيوتهم، ويستمتعون بجمالهن، فهو ظلم فاحش لا يعرفه إلا فرعون وأمثاله، كما رأينا واحدا منهم فى هذا الزمان.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، الإشارة إلى الإنجاء، ويصح أن تكون الإشارة إلى سوم العذاب، وعلى الأول يكون البلاء هو بلاء بنعمة الإنجاء، كما أشرنا إلى قوله تعالى: ﴿... وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ (٣٥) [الأنبياء]، فالنعمة تحتاج إلى صبر واختبار، وإذا كانت الإشارة إلى سوم العذاب وتذبيح الأطفال واستحياء النساء يكون اختبارا من الله عظيما، ونسب البلاء إلى الله تعالى، وهو الرب الخالق، للإشارة إلى أن تمكين فرعون من ذلك كان اختبارا من الله تعالى حتى يمتحنوا بالنقمة، وتصل نفوسهم بها.

وإنى أرى أن الأول أوضح، والله تعالى أعلم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧).

﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى آذن وأعلم، ولفظ ﴿تَأَذَّنَ﴾ يدل على المبالغة فى الإعلام، وتكرره آنا بعد آن، وشكر النعمة أداؤها فيما خلقت له، فشكر نعمة الأذن ألا يسمع إلى منكر، وشكر نعمة اللسان ألا ينطق إلا بالحق، وشكر نعمة العقل ألا يذعن إلا للحق ولا يفكر إلا فى الوصول إلى الحق والإيمان بالتوحيد، والإنسان مغمور فى نعم من لسان ينطق وأذن تسمع، وعين تبصر وجوارح تكسب، وكل نعمة لها شكرها، فإن شكر رادها الله تعالى.

وكفر النعمة ألا يتخذها فى طاعة، فكفر ذى المال بإنفاقه فى غير حله، والاستعلاء به وبطر العيش، وأن يطغى إذا استغنى.

ولقد قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ هذا شرط مؤكد بالقسم، والجواب ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ جواب القسم ودل على جواب الشرط، واللام موطنه للقسم، وكان الجواب مؤكدا بنون التوكيد الثقيلة، وكذلك فى قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ

إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ هذا لأن الشكر جواب القسم، وهو دليل على الجواب، وليس نصاً فيه لأن الجواب بمدلول الله، ولكن إن كفرتم لأعذبنكم، إن عذابي لشديد، والمعنى إن شكرتم أجرتكم لا محالة، وزادكم الله نعمة، وإن كفرتم منعتم وعوقبتهم، وإن الله تعالى شديد شدة بالغة الغاية.

وإن هذا يدل على أن الطاعة تعود عائدتها على من قام بها؛ لأن شكر المنعم، وشكر النعمة يزيدها، وإن كفر النعمة معه عذاب أليم، والله غنى عن العباد؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

صرح الله سبحانه بأن ذلك القول من موسى لقومه، ولم يصرح بأن قوله ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ فاحتمل أن يكون الكلام منسوباً لموسى، أو هو من كلام الله رأساً، والأذان هو ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ إلى آخر الآية، وسواء أكان الكلام منسوباً لموسى، أم إلى الله، فالإيدان بالزيادة في الشكر والعذاب في الكفر من الله، أما الكلام في هذه الآية فمنسوب لموسى قال لقومه من بني إسرائيل، أو هم وغيرهم.

وفي هذا النص ﴿إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه بيان أن الشكر والكفر مغبتهما تعود على الناس والثقلين جميعاً، ولا تعود على الله تعالى في شيء؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وهذا ينبئ عن جواب الشرط، والمعنى إن يكفر الناس والثقلان فإن الله لا يضره شيء، ولا ينقص من ملكه، إن الله لغنى حميد، أى لا يحتاج إلى عباده وهو حميد، أى محمود من الملائكة، ولقد قال البيضاوى فى تفسير كلمة ﴿حَمِيدٌ﴾: «مستحق للحمد فى ذاته، محمود تحمده الملائكة وتنطق بنعمه كل المخلوقات، فما ضررتكم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد»^(١).

روى مسلم عن أبى ذر الغفارى عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(١).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

الاستفهام هذا للإنكار بمعنى نفى الوقوع فهو للنفى جاء على صورة الاستفهام تأكيداً للنفى كأنهم سئلوا فأجابوا بالنفى، وهو داخل على النفى، فنفى النفى إثبات، فمعنى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ إلخ، قد جاءكم نبأ الذين من قبلكم قوم... والنبأ الخبر الخطير الشأن.

وقد قال ابن جرير: «إن هذا الكلام على لسان موسى لقومه بنى إسرائيل وأهل مصر»، ولكن رد ذلك القول ابن كثير فى تفسيره، ونحن معه؛ لأنه لا دليل على نسبته إلى موسى عليه السلام؛ ولأن فائدته فى جعله عاماً أوفى من حيث المعنى؛ ولأن روح الآية تجعل الخطاب لمن يتلو القرآن من مشركى العرب وغيرهم.

و«النبأ» الخبر الخطير الشأن، وقد كان خبر قوم نوح خطير الشأن، وكذلك عاد وثمود؛ لأنها أخبار بهلاك أمم وجماعات بسبب خروجهم عن أمر ربهم.

(١) رواه مسلم: البسر والصلة والآداب - تحريم الظلم (٤٦٧٤). من حديث أبى ذر رضى الله عنه، كما رواه الترمذى، وأحمد، وابن ماجه، والدارمى، وقد سبق تخريجه.

والمعنى فى الجملة: قد أتاكم الخبر الخطير الشأن قوم نوح إلى آخره،
﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ومن هم الذين من بعد هؤلاء، ولا يعلم
مالكهم إلا الله تعالى.

أحسب أن المراد بهم أمة محمد ﷺ الذين كفروا برسالته، ويعاندون فيها،
ويؤذون المؤمنين، ويسفهون قول الرسول ﷺ، ويصرون على عبادة الأوثان.

ويكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ تهديد لهم،
وحمل لهم على المقايسة بينهم وبين غيرهم، فإذا كان نبأ الغابرين هلاكهم،
فليقيسوا حالهم على حال أولئك الغابرين.

وقد حكى سبحانه ما كان بين الرسل السابقين وأقوامهم، فقال عز من
قائل: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أى بالأدلة المينة الهادية المرشدة التى لا يدخلها
امتراء فلم يجيبوا. وعبر الله سبحانه وتعالى عن امتناعهم عن الإيمان بقوله
تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا
تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ كانت حالهم تحيب بأن ردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا....

وقد تكلم الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فذكر
عدة احتمالات مجازية لمعنى هذا التعبير القرآنى الكريم ولم يعين واحدا، فقال:
﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ يعضوها غيظا وضجرا مما جاء به الرسل، كقوله
تعالى: ﴿... عَصُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ...﴾ [آل عمران]، أو ضحكا
واستهزاء، كمن غلب عليه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى
الستهم من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وهذا قول قوى، أو وضعوها على
أفواههم يقولون للأنبياء أطبقوا أفواهكم وأسكتوا، أو ردوها فى أفواه الأنبياء
يشيرون لهم إلى السكوت يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدى جمع
يد، وهى النعمة بمعنى الأيدى أى ردوا نعم الأنبياء التى هى أجل النعم من
مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات فى أفواههم؛ لأنهم إذا

كذبوها، ولم يقبلوها فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل^(١).

هذه احتمالات مختلفة لم يعين واحدا منها للدلالة في الآية الكريمة، وإن كان وصف القول الثالث بأنه قوى، وإنا نرى أن وضع اليد في الفم يكون عندما يلقي إلى الشخص خبر مستغرب، فالتعبير الكريم كناية عن استغرابهم الخبر، وإن كان لنا أن نختار من احتمالات الزمخشري، فهو قوله عضوا أناملهم من الغيظ، ولكننا مع ذلك نرى أنه كناية عن استغرابهم.

عرض لهم استغراب قول رسلهم أولاً، ثم انتهى الاستغراب بالإنكار، والكفر ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ انتهى استغرابهم بالإنكار بكونهم رسلا، فالكفر بالرسالة أما موضوعها وهو ما يدعونهم إليه من توحيد وشرائع، فقد قالوا فيه: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ومريب معناه موقع في الريب، من أرابه أو أوجد عنده قلقا، أى أنهم يرتابون في دعوى التوحيد، وأنها تجعلهم في قلق بالنسبة لآلهتهم التي ورثوا عبادتها عن آباؤهم، فدعوة التوحيد تخرجهم من الاطمئنان إلى الباطل إلى الشك والريب، فدعهم في ريبهم يترددون.

إجابة رسلهم

قال تعالى:

قَالَتْ

رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا

عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا سُطُلَانِ مُبِينٍ ﴿١٠﴾
 قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَان لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
 بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
 ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا
 وَلَنْصِيرَكَ عَلَىٰ مَاءٍ أَذِيثُمْوْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

جاء النور على المشركين كالضوء الساطع على من يكون في ظلام دامس،
 فلا تقوى عينه على النظر وتضطرب وترتاب، فقالوا: ﴿إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا
 إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فهذه حيرة من يكون في ظلمة حالكة فيلاقي ضوءاً شديداً.

وقد كانت مجاوبة بين الرسل وأقوامهم، وهذه المجاوبة صورة واضحة
 متحدة في كل الخلاف بين الشرك والإيمان أو بين الرسالة الإلهية ومن ينكرونها،
 ولم تكن هذه المجاوبة بين رسول بعينه، وقوم بأعيانهم، بل هي صورة عامة
 جامعة متحدة، وإليك المجاوبة:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام إنكارى
 توبيخى لإنكار الواقع، فقد وقع الشك منهم كما تدل الآية السابقة، وهو حيرة
 أهل الظلام إذا رأوا النور تحيروا بين باطل ألفوه، وحق جاء إليهم هادياً فارتابوا.

وقدم الجار والمجرور ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ لأهمية الشك في الله أو لغرابة أن
 يكون ثمة شك في الله تعالى، وهو الذى فطر السموات والأرض، أنشأهما
 إنشاءً، وفطرهما فطراً، أ يكون فى وجوده شك، وقد قامت الأدلة وتوافرت
 البراهين من الوجود بكل أطرافه.

هذا عجب عجاب من الشك في الله سبحانه وتعالى، وهناك عجب من الشك فيما يدعو إليه الرسل، إنهم يدعون إلى أمر نافع في ذاته لا يسوغ للعاقل أن يتشكك فيه أو يرتاب، وقال تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وهنا أسندت الدعوة إلى الله تعالى لتربية المهابة في نفوسهم، ولتكون النسبة إليه بيانا لوجوده، ورقابته لهم ولأعمالهم وإشعارا لهم بالهيمنة عليهم، وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، ﴿مِّنْ﴾ هنا إما أن تكون بيانية، ويكون المعنى (ليغفر لكم ذنوبكم) وتكون للدلالة على استغراق الغفران لكل الذنوب إذا آمنوا، فإن الإسلام يجب ما قبله كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...﴾ (٣٨) [الأنفال]، وإما أن تكون للتبعيض، أى (ليغفر لكم بعض ذنوبكم)، وهو ما يتعلق بالشرك ونحوه، أما ما يتعلق بالمظالم فإنه لا يغفر إلا أن يعفوا أصحابه.

وعندى أن تخريج القول الكريم على أنها بيانية أولى بالأخذ أولا، لأن جَبَّ الإسلام لما قبله عام غير خاص بذنب دون ذنب، وإذا كان الشرك قد غفر فما دونه أولى. وثانيا، لأنه كان من المشركين من قتلوا وسفكوا فغفر الله لهم ذلك، وحسبك أن الله غفر لوحشى قاتل حمزة، وثالثا: لأن النبي ﷺ صرح بأن كل دم فى الجاهلية موضوع، وبأن ربا الجاهلية موضوع^(١).

وقد ذكر سبحانه أنه يؤخرهم إلى أجل مسمى، وبعده يكون البعث، وفى هذا إنذار لهم إن استمروا فى ضلالهم يعمهون.

هذا كلام الرسل، فماذا أجابوا؟.

أجاب المشركون بتصوير القرآن ذاكرا الإجابة التى اتحدوا فيها على اختلاف قرونهم ليسبين للنبي ﷺ ألا يضيق صدرا بما يجادل به مشركو مكة، فهو حال

(١) صرح به فى خطبة الدواع، وهى خطبة طويلة، أخرجهها مسلم: الحج - حجة النبي ﷺ (٢١٣٧) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

الشرك في كل العصور في إنكارهم رسالات الله، ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، ﴿إِنْ﴾ هنا نافية وهي مع الإثبات بعدها بالاستناد تفيد القصر، أي أنتم معشر الرسل مقصورون على البشرية، لا يصح أن تتعدوها إلى ادعاء أن الله يخاطبكم من عليائه وأنكم رسله إلينا، كما قال مشركو مكة: ﴿... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ...﴾ (٧) ﴿[الفرقان]، وجاء على لسان المشركين قولهم: ﴿مِثْلُنَا﴾، أي أنكم تماثلوننا في البشرية ونحن لسنا أنبياء، فلستم بأنبياء مثلنا، وإنكم تحاولون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا من أوثان، وكأنهم بهذا يستندون إلى حجة واهية من حججهم الداحضة، وهي أنهم يتبعون آباءهم، وذلك كافٍ لاستمرارهم في غيهم.

وقرنوا قولهم هذا بأن الرسل لم يقدموا حجة، فأنكروا ما جاء إليهم من معجزات دالة على رسالاتهم تعنتا ولجاجة في الخصومة، وقالوا: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، أي بدليل واضح بين يلائمنا، والسلطان هنا الحجة، وكثيرا ما عبر القرآن الكريم عنها بالحجة؛ لأنها تجعل للخصم سلطانا على خصمه يلزمه بالقبول والخضوع لما يقول.

تنبيهان:

أولهما: أن الله تعالى جمع أقوال الرسل في قول واحد، وهم كانوا في أجيال مختلفة، وجمع أقوال المشركين في قول واحد؛ لأنهم جميعا على قول واحد، وكأنه نابت من منابت الشرك المتحدة، فيكون إنتاجها واحدا، ولييان أن الرسل أجيبوا جميعا بمثل ما أجيب فليتأس وليصبر، فإن الله لا يضيع أجر الصابرين.

ثانيهما: أننا خرجنا قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ رجحنا أن ﴿مِّنْ﴾ بيانية وسقنا ما نحسبه دليلا على الترجيح، ومن الحق علينا أن نذكر رأيا مخالفا لرأينا وهو رأى إمام البلاغة الزمخشري، فهو يرجح أن ﴿مِّنْ﴾ تبعيضية، ولتنقل

لك عبارته الدالة على ذلك فهو يقول: «فإن قلت ما معنى التبعض في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله تعالى: ﴿... وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مَنْ ذُنُوبَكُمْ ... (٤)﴾ [نوح]، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبَكُمْ ... (٣١)﴾ [الأحقاف]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيزُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء.

وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم^(١).

هذا ما وجب ذكره من كلام الزمخشري ليعلم القارئ الموضوع من وجوه النظر، وما كنا لنهمل رأى إمام البيان الزمخشري، وقد يسأل سائل لما ذكرت ﴿مَنْ﴾ في جانب المشركين إذا آمنوا، ونقول: لكثرة ذنوبهم فكان التعبير فيه إشارة إلى أن الغفران لكلها مع كثرتهم.

إجابة الرسل على اعتراض المشركين:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

اعتراض المشركون بأنهم بشر مثلهم، وبأنهم لم يأتوا بسُلطان يثبت الرسالة، ولقد سلموا لهم الأمر الأول مؤكدين تسليمهم، قالوا: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أكدوه بأن قصروا أنفسهم على البشرية لا يعدونها، ولكن المشركين بنوا على المثلية بطلان دعواهم فلم يسلموا لهم ذلك، أى أنهم سلموا لهم بالمقدمة ولم يسلموا

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٢/ ٣٦٩.

لهم بالنتيجة؛ لأنه لا تلازم بين التماثل بينهم وبين غيرهم فى البشرية ومنع الرسالة؛ ولذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، فالاستدراك استدراك من النتيجة التى رتبوها فى زعمهم وقد عدوا هذه النبوة من الله تعالى على الذين اختارهم من صفوة عبادہ سبحانه وتعالى: ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ [الأنعام]، وقد قالوا: إنه من الله تواضعا، وتبرئة لأنفسهم من أن يعتقدوا أن لهم فضلا على الناس إلا ما اختصهم الله تعالى به من الرسالة من فضلًا، وما كان ذلك إلا لحكمة قدرها، أو كان فيهم بإرادة الله، فهو أوجد فيهم من المزايا ما يجعلهم أكثر من البشرية المطلقة التى يتصف بها العاصى والطائع، والرسول ومن أرسل إليهم.

أما كلامهم الثانى فى أمر المعجزة فقد طلبوا نعتا ولجاجة معجزة اختاروها، وأعلنوا أن لن يؤمنوا إلا إذا جاءتهم هذه الآية، كما فعلوا مع النبى ﷺ، وقد ردوا زعمهم هذا بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أى ما ساع لنا ولا جاز أن نأتىكم بآية غير ما جئنا به إلا بإذن الله تعالى، فهو الذى من علينا من بين عبادہ بالنبوة، وهو الذى اختار لنا الآية الدالة على رسالتنا كشأن كل رسالة من غائب لحاضر، أن الغائب هو الذى يختار الإشارة الدالة على أنه مبعوث من قبله، وقد اختار ذلك السلطان، فلا مناص لنا منه إلا أن يمين علينا بسلطان غير ما أعطانا، وإذا كنتم مستمرين على معارضتكم، ومقاومتكم، وإعناتكم وإيذائكم، فنحن قد بلغنا وفى سبيل البلاغ لا حامى لنا إلا الله تعالى؛ ولذا قالوا: ﴿... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا...﴾ [الأعراف]، أى إذا كنتم تعتمدون فى معاندتكم وإعناتكم على قوة لكم تحسبونها، فنحن متوكلون على الله يحميننا من إيذائكم، وقدم الجار والمجرور ﴿... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا...﴾ [الأعراف]؛ لبيان أنهم لا يعتمدون إلا عليه، وأنه فوق كل الأقوياء، وأمروا المؤمنين الذين يؤذيهم المشركون ويسخرون منهم بأن يتوكلوا على الله، ويصبروا فإنه لا محالة ينجيهم من إيذائهم وستكون كلمة الله هى العليا، وهو العزيز، ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وقدم الجار والمجرور للدلالة على أنه لا يعتمد إلا عليه سبحانه،

و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى إذا كنا معشر الرسل قد توكلنا على الله وحده فليتوكل المؤمنون على الله وحده، ويتضمن ذلك طلبين: أحدهما الصبر على أذى المشركين، والثاني: الاعتماد على الله وحده، وأنه سبحانه وتعالى ناصر الرسل ومن اتبعوهم غير خاذلهم ولا ممكن لمشرك منهم.

وبعد ذلك بين سبحانه على لسان رسله المسوخ لتوكلهم عليه وحده فجاء على لسانهم قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

﴿وَمَا لَنَا﴾ الاستفهام هنا لتقرير التوكل وتثبيتته، أى ما ساغ لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، أى سبيل الحياة الصالحة التى جعلتنا نؤمن بأن الحياة الدنيا طريق الآخرة، وأن الحياة الآخرة هى الحياة الحقيقية الباقية، أما الأولى: فهى الفانية، وقوله: ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ جملة حالية تفيد أولاً أنهم آمنوا بهداية الله فعرفوا سبيل الحق وسبيل الباطل.

وأما الثانية: أنهم عرفوا بطلان عبادة الأوثان. وأفاد ثالثاً: أنه لا قوة فى الوجود إلا قوته، وأضيفت السبل إليهم ﴿سُبُلَنَا﴾ للإشارة إلى أن هذه السبل هى التى ينبغى أن تكون مطلبهم وأن تكون غايتهم التى يبتغونها.

وأنهم إذا عرفوا السبيل صراط الله، واتخذوها سبيلاً لهم فإنهم المعتمدون على الله الصابرون؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ اللام لام القسم؛ ولذا كانت معها نون التوكيد الثقيلة التى تلازم القسم ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾، على ما تقدمونه من إيذاء متوالٍ مستمر، فإن على أهل الحق أن يصبروا على أذى المبطلين.

ولقد أكد الرسل والمؤمنون اعتزامهم على الصبر حتى يبلغوا رسالات ربهم. وإنهم أمام هؤلاء الأقوياء المتعنتين لابد من اعتماد على القوى القادر القهار؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أى عليه وحده فليتوكل المتوكلون، كان الأمر الأول بالتوكل للمؤمنين فقط، أما هنا فهو يشمل المؤمنين

والرسل، وهو تحديد للتوكل الذى يجب أن يكون حال المؤمن لا يفارقه؛ لأنه التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب عبادة.

محاولة الإخراج

بعد أن كلت بهم الحجة ضاق صدرهم، فانتقلوا من الجدل الباطل إلى الإخراج من أرضهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

لا يلجأ أحد إلى القوة إلا إذا كلَّ به الدليل، وأحس بأن ما يسوقه من قول يحسبه حجة انهيار أمام قوة الحق؛ ولأن أتباع الرسل دائماً يكونون قلة وأكثرهم ضعفاء يستهين بهم المشركون؛ لأنهم أعز نفراً، وأشد بأساً، وأكثر تعنتاً؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ انحصر كلامهم فى أن الرسل والمؤمنين يكونون بين أحد أمرين: الإخراج من أرضهم، أو أن يعودوا فى ملتهم فى عبادة الأوثان، وهنا أمران مهمان لا بد من الإشارة إليهما.

أولهما: القسم، فمهما هددوا به الرسل، وقد أقسموا ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ والقسم دلٌّ عليه باللام الموطئة للقسم ونون التوكيد الثقيلة، وهى بالنسبة لهم أوضح؛ لأنهم يملكون أعمالهم وأنفسهم فكيف يكون القسم بالنسبة للرسل، كأنهم يقسمون على الرسل والمعنى أنهم أخذوا قاسمين على أمرين لا بد من تحقق أحدهما، وهو لنخرجنكم أو لتعودون، ونحن نقسم عليكم بذلك.

الثاني: أن التعبير بـ ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ يوحى إلى أنهم كانوا فى ملتهم، وخرجوا منها وطلبوا أن يعودوا إليها، والرسل لم يكونوا فى ملتهم أبدا، فما كان الرسل يشركوا بالله ويعبدوا الأوثان، والجواب عن ذلك من وجوه أولها: أن عاد بمعنى صار، وهى كثيرة الاستعمال فى اللسان العربى كذلك، وثانيها: أن ذلك ينطبق على أتباع الرسل، وثالثها أن حال الرسل قبل الرسالة تكون صمما عن الشرك لا يعتقدونه ولا يقومون بالدعوة ضده، فيحسبهم الجاهلون من أهل الشرك أنهم معهم، فإذا جاءوا بعد البعث يدعونهم حسبوا ذلك جديدا على الرسل كما هو جديد عليهم، فطالبوا بأن يعودوا إلى ما كانوا عليه لا يزعمونهم بدعوة إلى الوحداية ولا برسالة، ولا ذكر رسول.

وفى هذا الوقت الذى بلغ فيه العند أشده والكفر أطغاه ثبت الله قلوب رسله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أوحى الله إلى رسله قائلا لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، أو كان مدلول الوحي ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾: اللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة، وهى توكيد للقسم فضل توكيد، وأظهر سبحانه فى موضع الإضمار، فلم يقل لنهلكهم، بل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، لبيان سبب الهلاك، وهو الظلم، وقد ظلم هؤلاء إذ لم يؤمنوا وأشركوا ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان]، وظلموا فتعتوا وطلبوا آيات أخرى وقد جاءتهم البيّنات، وظلموا بإيذاء المؤمنين وظلموا أشد الظلم فهموا بإخراج الرسول ومن معه، وحاولوا فتنه المؤمنين ليكفروا بعد إيمان، ولم يتركوا بابا من أبواب الظلم إلا دخلوه ﴿... وَمَا اللَّهُ بِرِيدٍ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣١) [غافر].

وكان من وحي الله تعالى أنه بعد هلاك الظالمين يسكن الله الرسل ومن معهم مكانهم ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والأرض هى أرض الدعوة التى هدد المشركون أن يخرجوهم منها، ولكن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر قبل أن يتمكنوا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ

الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ... ﴿١٣٧﴾ [الأعراف]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْثَقَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدْيَارَهُمْ ... ﴿١٣٧﴾ [الأحزاب].

وإن ذلك نصر الله تعالى فقد قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾
[الصافات]، وقال تعالى: ﴿... وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص]، وقال تعالى:
﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، ﴿مَقَامِي﴾ مصدر ميمي، المقام بمعنى
قيام، ومعنى قيام الله، ومعنى الخوف من مقام الله تعالى، أو قيامه على تدبير
شئونه - رقابة كل أمور الإنسان بأنه لا يعمل عملاً إلا والله تعالى يحاسبه عليه
صغيراً أو كبيراً فيعبد الله كأنه يرى الله، فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه، وإن
هذه مرئية الإحسان في الشعور بالله تعالى، كما ورد عن الرسول صلوات الله
تعالى وسلامه عليه ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾، أى خاف وعيد الله بالعذاب الشديد فهو
يغلب الخوف على الرجاء؛ لأنه يستصغر حسناته ويستكثر سيئاته، وإنه ورد في
الأثر: «من أذى جاره ورثه الله داره».

المآل هو العذاب والخيبة

قال تعالى:

وَأَسْتَفْتَحُوا

وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ

مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ،

وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن

وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مِّثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا دَأَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾
الَّتِي تَرَأَى اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

﴿أَسْتَفْتَحُوا﴾ طلبوا الفتح والنصر، والضمير يعود إلى الرسل، أى أن الرسل بعد أن اطمأنوا إلى وعد الله تعالى لهم بأنه مهلك الظالمين بسبب ظلمهم تقدموا لمنازلة المشركين، واستفتحوا كما كان يستفتح النبي ﷺ في كل غزوة يغزوها، والفتح هو النصر، أى يطلبون النصر من الله تعالى، ويصح أن يكون طلب الحق بأن يفصل بين الحق والباطل، كما قال الله تعالى: ﴿... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف].

ويقول الزمخشري: إنه يكون مشتقا من الفتح بمعنى الحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ بيان لنتيجة المعركة التي استفتح لها الرسل، والواو للعطف على فعل محذوف، تقديره، وفتح الله تعالى للرسل بأن نصرهم أو حكم لهم وخاب كل جبار عنيد، والكلية هنا معناها أن المتكبرين على الحق الجبابرة الذين يعتدون ويلجئون في الباطل، ولا يصغون إلى حق من أى مكان، مآلهم الخيبة، والخسران المبين؛ وذلك لأن الجبار يستعلى فيظلم، ولا نصر لظالم، والعنيد يركب رأسه، فلا ينصت لداع يدعو إلى التأمل وتعرف عواقب الأمور، فلا يرى إلا ما يكون بين يديه من أمور ظاهرة لا يتعرف ما وراءها، ويقول دائما مقالة فرعون: ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر].

ولقد قال بعض السلف: إن الضمير فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ يعود إلى الظالمين، أى الظالمين مع ظلمهم وطغيانهم يطلبون النصر، وذلك منهم إمعان فى الضلال الفكرى؛ إذ حسبوا ما عندهم خيرا يجهلون أنهم أن يستفتحوا من أجله.

وقال بعض السلف: إن الاستفتاح كان من الفريقين فريق الحق وفريق الضلالة، وفتح الله للمؤمنين وخاب الكافرون، وعبر عنهم بكل جبار عنيد للإشارة إلى سبب الخيبة، وهو الاستعلاء بالباطل واللجاجة فيه، ويقول تعالى فيما يستقبل كل جبار عنيد من عذاب اليم:

﴿مَنْ وَّرَاثَهُ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۖ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ...﴾.

الضمير في ﴿مَنْ وَّرَاثَهُ﴾ يعود إلى كل جبار عنيد، أى أنه في الدنيا خيبة، وعجز مع استعلاء وتجبر وعناد، وبعد ذلك في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلها، ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ﴾ هو صديد من قروح جلود أهل النار، ووراء تجيء بمعنى بعد، كما تقول عذاب وراء عذاب ولوم وراء لوم، كما قال النابغة الذبياني.

حلفت فلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للمرء مذهب

أى بعد الله، وكما قال الشاعر:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

كما تقول: جاءوا صفوفًا صفا وراء صف.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ الواو عاطفة على فعل محذوف، تقديره من وراثته جهنم يبقى فيها، ويسقى من ماء صديد، وهو الماء الناتج من القروح التى تجيء من حرق جلودهم، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها حتى يدوقوا العذاب، وكأنه يستقبلهم من وراء عنتهم ولجأجتهم عذابان: أحدهما: الإبقاء فى جهنم وهو ذاته عذاب، إذ يكون لهيئها، والعذاب الثانى: أنهم لا يرتوون إلا بماء شربه ذاته عذابه اليم، وهو الصديد، وقد وصف سبحانه وتعالى شربه فقال:

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَّرَاثِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۖ﴾ (١٧).

يطلبون الماء فيجالبون، ولكن سقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه، فإذا استسقوا جاءهم ماء، هو صديد يجتمع فيه قبح ذاته وحرارته، وأنه يقطع الأمعاء، ولكنهم مع ذلك يشربونه لأنهم عدموا الرى، فلا رى سواه ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أن يحاول شربه بأن يتجرعه جرعة جرعة ولا يطيق أن يشربه شرباً مع رغبته فى الماء ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يقال: أساغه، أى شربه مستطياً له مسيغاً له، أى مرّاً فى حلقه بسهولة، وكذلك أساغ، أو نقول: أساغه حاول أن يجعله يمر فى الحلق سائغاً ولا يكاد يستطيع ذلك، فقد اجتمع فيه ما ذكرنا من قبح الذات والمنظر والحرارة وشأنه ليس بمرء، وقد وصف الله تعالى حالهم، فقال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فالموت يأتيه من فوقه، ومن تحته، ويقول بعض الصالحين ناقلاً عن المأثور: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكلّ به نوع من العذاب لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها، أى أن أسباب الموت تتضافر عليه فلا يموت، وإنه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى، ١٧]، فهى حياة هى الفناء، بل إنه لو كان الفناء لكان خلاصها.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ﴾ أما بعد تلك الحياة الشديدة الغليظة التى لا تُفنى، ولا تُبقى، من بعدها عذاب شديد ﴿غَلِيظٌ﴾ يجمع بين صفتين: الشدة والغلظ، فيكون أقصى العذاب؛ لأنهم تمتعوا بالشر والأذى والاستكبار فكان ذلك العذاب جزاءً وفاقاً لما قدموا.

وقد بين الله تعالى مع ذلك أن ما يفعلون من نفع فى الدنيا لأنه ينقصه الإيمان، يذهب هباءً، فقال عز من قائل:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [١٨].

المثل: الصفة الغريبة، وغرابتها ليست في ذاتها فقط، إنما كانت غرابتها لأنها جاءت على خلاف ما يزعمون، إذ يزعمون أولاً: أن أوثانهم ستكون شفيعة لهم، وكانوا يفعلون أموراً يحسبون أنها من مكارم الأخلاق كإكرام الضيفان وإغاثة الملهوف أحياناً، كما فعل بعض كبرائهم في حلف الفضول، ويحسبون ذلك عملاً طيباً، ولو كان مقصده المفاخرة والمباهاة. ثانياً، ويرون أنهم الكبراء الذين لا تُنسى محامدهم ثالثاً، لكنهم يرونها يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾،

أي حال الذين كفروا بربهم، أي جحدوا بربهم الذي خلقهم وأنشأهم وقام على شئونهم وربهم وحفظهم، حالهم الغريبة أعمالهم كرماد اشتدت به الريح، وفي قراءة الرياح، وهذه الجملة هي الخبر أو دالة عليه.

وقد شبه الله سبحانه وتعالى أعمالهم بالرماد الذي تأتي عليه ريح عاصفة شديدة الهبوب فتشيره فتكون رماداً يتبدد، يغير به الجو، ثم لا يبقى منه شيء، إلا الغبار الذي يصيب أعينهم ويفسد جوههم، والريح هو العاصف، ولكن وصف اليوم بأنه العاصف من باب إطلاق الزمن على اسم ما يحل فيه، كيوم ماطر، ويوم صائف، ويوم صائم.

وذلك لاستغراق عصف الرياح لليوم كله، حتى كأنه اليوم الذي اتصف بالعصف وليس غيره.

وقوله تعالى: ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ مشتقة من الشد بمعنى العدو، كقولهم شد عليه بمعنى عدا عليه وغلبه، أو مشتقة من الشدة، وهو الأظهر، والباء للتعدي، أي اشتدت فيه الريح وفي قراءة الرياح.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ قدم ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ على ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ للاهتمام بما كسبوه فهم كانوا يحسبونه شيئاً من المكارم، والأعمال الصالحة فلا يجدونه شيئاً؛ وذلك لأنه فقد المؤثر النفسى وهو الإيمان، وقصد الخير

لذات الخير للمفاخرة والمباهاة وإثارة العصبية، والمفاخرة، ومعنى ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ لا يملكون، يكون في مقدورهم أن ينتفعوا به؛ لأنه صار متثورا لا يقبض عليه، كما قال تعالى في آيات أخرى:

﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٢) ﴿[الفرقان]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧) ﴿[آل عمران]، وتلك النهاية هي غاية البعد من الحق والضلال البعيد في الضلالة.

وقد بين سبحانه أن الجزاء الأوفى يكون يوم القيامة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) ﴿[الأعراف]؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (٢٠) ﴿.

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أى للنفى، وهو داخل على النفى (لم) ونفى النفى إثبات وهو إثبات مؤكد، كأنه استفهام فكان الجواب هو الإثبات، وتأكيد أن الله خلق السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أى متلبسا بالحق فى ذاته، وبأنها لم تخلق عبثا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) ﴿وبأنها ثابتة دائما ثبات الحق، فوضع لها نظاما، وسننا ونواميس تجعلها مربوطة برباط محكم، فأقام السماء بغير عمد ترونها وزينها بزينة الكواكب.

وكما قال تعالى: ﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٩١) ﴿[آل عمران]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) ﴿[ص]، ما خلق الله ذلك إلا بالحق.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أن هذا الذى أنشأ السموات والأرض ولم يعى بخلقهن قادر على أن يذهبهم وأن يفتنيهم، فالإنشاء أسهل من الإنشاء ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وإن الإتيان بجديد مثلهن القدرة عليه ثابتة بالمقايسة، فمن قدر على الإنشاء قادر على الإنشاء الثانى ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾، أن ليس ذلك الإنشاء الثانى بعزيز، أى متعذر أو متعسر عليه سبحانه، فهو سبحانه وتعالى قادر بذاته، لا يختص بابتداء ولا إنشاء من جديد، فالقدرة ثابتة، ومتى ثبت لا يعز شىء عليه ولا صعب.

وفى هذا الكلام بيان أن الله سبحانه وتعالى قادر على الإعادة؛ لأنه قادر على الإنشاء من جديد، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. وكما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ [الأحقاف]. وكما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾ [يس].

وإن الآية تفيد بإشارتها ترهيب المشركين بأنهم لا يعجزون الله، فإنه يستطيع إهلاكهم، وخلق غيرهم.

وإنهم فى قبضة الله فى الدنيا، وجزاؤهم عنده فى الآخرة، وهو يتولى الجزاء بالإحسان لمن أحسن وبالعذاب لمن عصى.

ما بين التابع والمتبوع والشيطان

قال الله تعالى:

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا
 أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٥﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ
 لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
 فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
 بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
 أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾

هاتان الآيتان تصوران المجاورة التي تكون بين العصاة وأولهم الشيطان الذي أقسم ليغوين الناس إلا عباد الله المخلصين، والطبقة التي استغواها ابتداء المتبوعون من ذوى الاستكبار والاستعلاء على الناس بالجاه الدنيوى والمال والعزة، وهؤلاء يؤثرون فى غيرهم فتكون الطبقة التابعة والإمعات^(١) الطائفة.

صور الله سبحانه أقوال التابعين للمتبعين وابتداء من الدنيا فى العصيان إلى من أخذوهم إلى الضلال، فقال تعالى: ﴿وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أى ظهروا أمام الله جميعا وقد عصوه، إذ أشركوا به أندادا لا تنفع ولا تضر، وذلك بعد أن بعثهم الله تعالى، وأنشروهم من قبورهم وجمعهم يوم الحشر فكانوا أمام الله، وقد كذبوا بلفائه، وقالوا: ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَتَنَّا لَئِي خَلَقَ جَدِيدٍ ...﴾ ﴿٥﴾ [الرعد]، والتعبير بـ ﴿بَرَّزُوا﴾ فيه تذكير بالعيان لبطلان أقوالهم فى الدنيا، وجميعا: إشارة إلى أنه قد جمع التابع والمتبوع والأبيض والأسود، والعربى والأعجمى، وكانوا بين يدى الله وحده، وكانت المجاورة الآتية: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ الضعفاء: جمع ضعيف، والضعيف يشمل ثلاثة أنواع ممن يتصفون بالضعف:

(١) جمع إمعة: وهو من يقلد غيره فى قوله أو فعله.

أولهم: الأرقاء والفقراء والأرذلون في معيشتهم في الدنيا، الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً وفيهم ذلة لم يزيلوها بالإيمان.

وثانيهم: الضعفاء في تفكيرهم الذين يرضون بأدنى فكرة ويتبعون غيرهم اتباعاً من غير دليل، بل في استكانة، وإن كانوا أقوياء في مالهم فهم ضعفاء في نفوسهم.

وثالثهم: الذين يتبعون القوة دون دليل.

يقولون للذين استكبروا من الكبراء ذوى الوجاهة والقيادة في الضلال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، وتبع جمع تابع، أو مصدر نعت به، ويكون معنى التعبير هو الإيغال في التبعية كأنهم لا وجود لهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الفاء تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها، أى بسبب هذه التبعية هل أنتم مغنون عنا عذاباً من عذاب الله من شيء ﴿مِنْ﴾ الأولى للتبويض، ومن الثانية للاستغراق، والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع، أى لستم مغنون عنا بأى قدر من عذاب.

أجاب الذين استكبروا عن الحق، فقد أجابوا عن هذا الاستفهام الإنكارى، الذى لا يخلو من معنى التوبيخ والملامة حيث لا لوم قائلين: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾، والمعنى أننا على سواء، لو هدانا الله إلى الحق لهديناكم إليه ولكننا ضللنا فضللتم، وإنكم إذ كنتم تبعاً لنا فارتضوا بما وقع لنا، ولا يخلو هذا الكلام من إلقاء اللوم عليهم فى التبعية من غير تفكير وتبرير، وكأنهم يشيرون إليهم إلى أنهم كان عليهم أن يتبعوا عن بينة.

ثم يقولون لهم: إننا وقد وقعنا فى الضلال علينا أن نذوق مغبتها طائعين؛ لأننا مجبرون، وفى آية أخرى صرح الكبراء فقالوا: ﴿... فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف].

وفى هذه الآية يقولون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ سواء معناها يستوى علينا جزعنا أم صبرنا، فالجزع لا يحول الشر عنا، والصبر لا يمنع الأذى. وقد فسرنا هذه التسوية بقولهم: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾، أى منجاة من العذاب، أو مهرب منه أو متحول من هذه الحال إلى غيرها، ومحيص: من حاص حيصا، وهو التحول، أى مالنا من تحول، ومحيص هنا إما أن يخرج القول على أن محيص اسم مكان، ومكانهم جهنم، أى ما لنا تحول عن هذا المكان، أو مصدر ميمى، أى ما لنا تحول عما نحن فيه، فالأمر لله.

تلك هى المجاورة التى بين التابع والمتبوع، والشيطان مصدر ضلالهم وإغوائهم وهو كالمتمرغ عليهم ولكنه غير ناج: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى أحكم وفصل فيه، ولم يكن لحكم الله مرد ولا نقص، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾، أى وعد هو الحق، فالإضافة بيانية، أى الأمر الصحيح الثابت الصادر من مالكة، وهو الذى يجازى عليه بالثواب وعلى مخالفته بالعقاب، والفعل فى ذاته نفع لا ضرر فيه، وخير لا شر فيه، وكان عليكم أن تطيعوه، ولا تخرجوا عليه.

﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ولم يذكر وصف وعده؛ لأنه مفهوم من وصف الأول بأنه الحق ومقابله باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال، وترك لأنه مفهوم من السياق، ولكى تذهب مذاهب فيما يعد به الشيطان إنه لا يعد إلا بما يكون من ورائه الفساد والبوار، والعيب والشر، فهو ليس باطلا فقط بل أكثر من باطل إمعانا فى الشر، وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، أى منيتكم الأمانى الباطلة، وأودعت نفوسكم الأوهام، وزينت لكم السوء لتحسبوه أنه حق، وإسناد الإخلاف إليه - لعنه الله تعالى - مع أن الإخلاف من الله تعالى، وبيان كذب ما وعد وألقى به فى أمانة الناس؛ لبيان أنه وهو يعد يعلم أنه باطل وأنه إغواء، فكأنه هو الذى أخلف لأنه يعلم أنه كذب لا حقيقة بل هو وهم وضلال.

بعد ذلك اتجه الشيطان لتبكيتهم لأنهم أطاعوه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾، أى أجبتكم دعوتى الخالية من أى تسلط أو دليل طالبين ذلك مجيبين له، فما كانت تبعة طاعتكم لى على، إنما كانت عليكم؛ ولذا قال: ﴿فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْءَا أَنْفُسَكُمْ﴾ لقد كان أمامكم أمر الله، وهو الخالق المنشئ، ودعاكم إلى الحق، ومعه الأدلة الثابتة وأمامكم دعوتى الخالية من البرهان والدليل، وليس لى عليكم قوة مهيمنة إلى وسوسة خفية فأطعتمونى وعصيتكم ربكم.

وهذا شأن أتباع إبليس دائما يقعون فى الشر ثم يلومون من أوقعوهم لأنهم أطاعوهم، وإن الشيطان له عذاب، وهو يصرخ بأنه فيه، وإنه لا يستغيث؛ لأن أحدا لا يغيثه ولا يستطيع أن يغيث أحدا؛ ولذا جاء على لسانه قوله: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ المصرخ هو المجيب للمستصرخ المغيث له، والصارخ هو المستغيث والمعنى بمستطيع إغاثتكم وما أنتم بمستطيعين إغاثتى، فالعذاب نازل بنا، وعلى كل أن يتحمل مغبة ما عمل وما اعتقد وما وسوس به من شر.

وقد أعلن ضلاله وضلالهم بقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾، (ما) هنا مصدرية أو موصولة ولا يختلف المعنى فى التقديرين، والمعنى: إني كفرت بالذى أشركتمونى فى عبادتكم من قبل، أى كفرت الآن بشرككم فى الدنيا، وآمنت بالله تعالى وحده لا أشرك به شيئا، وقال: أشركتمونى مع أنهم ظاهرا ما كانوا يشركون الشيطان بل كانوا يشركون أوثانا. فلم نسب إليهم أنهم كانوا يشركونه؟ والجواب عن ذلك أن عبادتهم الأوثان كانت بوسوسته هو وتسويلهم، والأصنام لا حقيقة لها، فكأنهم كانوا يشركونه بالله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿كَفَرْتُ﴾ تفيد أنه يكفر الآن، مع أنه وهو الذى يزين عبادة الأوثان يعلم أن الله وحده هو المستحق للعبادة، ولا معبود سواه، وأن عمله إغواء وإضلال، فهو غير مؤمن بها من قبل، والجواب عن ذلك: أنه الآن يعلن كفره بها.

ويقول الله تعالى واصفا العصاة بالظلم: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤٠) تحتل هذه الجملة السامية أن تكون تميمًا لكلام إبليس، وتحتل أن تكون من الله لبيان استحقاق العصاة جميعًا للعذاب، وأرى أن الاحتمال الثاني هو الحق، فهو بيان لتسجيل العذاب المؤلم في ذاته عليهم بسبب ظلمهم تابعين ومتبوعين ومغويهم معهم، فهم ظلموا الناس، وأفسدوا في الأرض فحققت عليهم كلمة العذاب.

أهل الجنة

قال الله تعالى:

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّاتُهُمْ
فِيهَا سَلَامٌ ﴿٤١﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٢﴾
تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
﴿٤٤﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٥﴾

بعد أن صور الله تعالى حال العصاة، وشيخهم إبليس ليعلم المؤمنون مآل العصيان فيجتنبوا أسبابه في الدنيا، بين سبحانه ما ينتظر المؤمنين تشجيعاً لهم ليستمروا في طريقهم وهو طريق الحق، فقال سبحانه: ﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ البناء للمجهول، ومن الذى أدخلهم، أى ما الفاعل الذى لم يذكر وبنى للمجهول، قالوا: إن الفاعل هم الملائكة، وإن ذلك سائق مستقيم، ويصح أن تقول: إن الله سبحانه هو الذى أدخلهم، ولكن لم يذكر لفظ الجلالة للإشارة إلى أن ذلك جزء عملهم، فالبناء للمجهول يؤدى إلى هذا المعنى وهو ترتيب الإدخال فى الجنة على أعمالهم، وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أى برضاه وأمره، وما رتبته من أن لكل نفس ما كسبت، وقد ذكر سبب دخول الجنة فى صلة الموصول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فسبب دخول الجنة أمران: الإيمان وهو بالحق وتصديقه والإذعان به، والعمل الصالح، وقال تعالى:

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أى الأفعال الصالحة من أداء الفرائض، والصح وصف عام لكل عمل هو نافع لذاته، وقصد به وجه المنفعة للناس، فالصالحات تشمل كل الفرائض الشرعية والعمل الطيب والقول الطيب.

ولا نتعرض لكون العمل جزءاً من الإيمان أولاً، إنما نقول: إن ما تنطق به الآية ومثيلاتها أن العمل جزء من استحقاق الثواب الذى أعد للمؤمنين.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بأنها النعيم المقيم، فالأنهار تجري من تحتها، أى أن الأنهار تجري من تحت الأشجار، فتجرب فيها متخللة أشجارها فيكون المنظر بهيجاً، وتكون متعة النفس بالظلال، ومنظر الماء يجرب، والخضرة التى تسر النفس، وتمتع القلب.

ويكون مع ذلك الأئس الروحى بالائتلاف والأمة والسلام؛ ولذا قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يتبادلون التحية، وليس تلاوماً أو تأثيماً، كما يجرب بين أهل النار بين التابع والمتبوع والشیطان من ورائهم.

وإن الفرق بين الإيمان والكفر أمران: أولهما الإيمان، وثانيهما كلمة الحق، وإن كلمة الحق تهدى إلى البر والإيمان؛ ولذا مثل الله تعالى كلمة الحق، وكلمة الكفر بمثلين، فقال تعالت كلماته:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

الاستفهام لإنكار الوقوع بمعنى النفي، وقد دخل على (لم) وهى للنفي، ونفى النفي إثبات، والمعنى، لقد ترى كيف ضرب الله مثلاً والإثبات على هذا النحو يدل على تأكيد الإثبات والتنبيه وتوجيه النظر إليه.

والعلم متجه إلى الحال والكيف، قال: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا...﴾ أى لقد ترى الحال فى ضرب الله المثل، ضَرَبَ بمعنى بَيَّنَّ، والمعنى: كيف بين مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فى الأرض بجذورها الممتدة فى عروق الأرض، ثابتة بثبات هذه الجذور، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، أى غصونها ممتدة فى السماء، وكلما علت الشجرة فى السماء وامتدت فروعها فيها كثرت ثمراتها، وتدلّت مع فروعها، والمراد من الفرع الفروع كما فى بعض القراءات، أى فروعها فى السماء.

ثم وصف سبحانه طيب هذه الشجرة فوق ما وصف بأن ثمراتها دائمة لا تنقطع، فقال تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، أى تؤتى ثمراتها فى كل حين، وإيناعها بإذن ربها.

والشجرة هى المشبه به، وقد وصفها سبحانه بأنها طيبة، وطيبها فى أنها ثابتة الأصل، وبأنها مرتفعة، وبأنها تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

هذا هو المشبه به، فأما المشبه: هى الكلمة الطيبة، والكلمة الطيبة فيها عناصر الطيبة التى ذكرت فى الشجرة، فهى كلمة النفس والقلب والعقل، تنبع من القلب والعقل فقال بإخلاص لله تعالى، وهو الحق، وإنها إذ تقال تعلق بصاحبها

عن سفساف الأمور، وتتجه به إلى معاليها، فهي ترفع صاحبها ولا تهوى، وهي هادية مرشدة ممتدة النفع تؤتى ثمراتها كل حين، والكلمة الطيبة تبقى ببقاء الأنفس المتبصرة المدركة، فالكلمة حياة تحيى النفوس والأفئدة.

وما الكلمة التى تتحقق فيها هذه المعانى؟ قيل: إنها كلمة التوحيد، وقيل: إنها الإيمان، والحق أنها الكلمة التى تكون صادقة فى ذاتها ومنبعثة من النفس لإرضاء الله تعالى، والذود عن محارمه وتتحقق فيها النية الطيبة، والقول الطيب، كما قال تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج]، وروى من حديث أنس أن النبى ﷺ قال: «إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة، الإيمان فروعها، والصلاة أصلها، والزكاة فروعها، والصيام أغصانها، والتأذى فى الله نباتها، وحسن الخلق ورقها، والكف عن محارم الله ثمرتها».

ولقد قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أى الأمور المتشابهة بين بعضها البعض، فيبين المعنوى بالحسى حتى يصير كأنه محسوس مرئى، ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك البيان ليرجوهم أن يتذكروا ويعتبروا، فالرجاء ليس من الله تعالى الذى يعلم كل شئ ولا يغيب عن علمه شئ فى الأرض ولا فى السماء.

هذا مثل الكلمة الطيبة وهى كلمة الحق الجامعة لكل معانى الخير والطيب، والكمال والجمال، أما الكلمة الخبيثة فقد قال تعالى فى مثلها:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢١)﴾
الكلمة الخبيثة هى الكلمة التى تنبعث من خبث النفس، وضلال الفكر، وتكون فى باعثها أئمة، وفى غايتها أئمة فهى على نقيض الكلمة الطيبة؛ لأنها لا تنبعث من إخلاص لله ولرسوله، ولا تكون طيبة فى واقعها، ولا فى نتائجها، وما يترتب عليها، وأوضحها الكذب، وقد قال النبى ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه يهذى إلى البر والبر يهذى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً،

وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً^(١).

والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة التي لا فائدة منها ﴿اجْتُمْتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾، أى أنها ليس لها جذوع ممتدة فى باطن الأرض، بل هى على سطحها، ومعنى ﴿اجْتُمْتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أى ظهرت جثتها من فوق الأرض فليس لها جذور تمتد فيها كبعض أنواع النباتات التى ليس لها جذور تغوص فى عروق الأرض، ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، أى استقرار وثبات فى باطن الأرض، والمؤدى من هذا التشبيه أن الكلمة الخبيثة لا تعيش فى الوجود، وليس لها بقاء فيه، بل إنها تنتهى بانتهاء زمانها وتنزل من الأضرار بمقدار وقتها، كالسعاية والنميمة والكذب والخديعة والغيبة، وليس لها وجود إلا بمقدار زمانها وقد تضر، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها وبيء، ولا تبقى إلا الكلمة الطيبة، وما يكون لله وللحق وحده.

وعن قتادة رضي الله عنه أنه قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة؟ فقال: «ما أعلم لها فى الأرض مستقراً ولا فى السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها ربه يوم القيامة»، اللهم جنبنا خبث القول، واجعلنا من الذين قلت فيهم: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج].

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

يثبت الله الذين آمنوا بأن يلقى فى روعهم الاطمئنان إلى الحق والجزم به والنطق بمقتضاه، والثبات عليه لا يحيد عن النطق بالحق والعمل به، والرضا بنتائجه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، ولقد قرر العلماء أن صاحب النفس المطمئنة الراضية بحكم الله المنفذة لتكليفه يلقى الله فيها بالإخلاص، والإخلاص لله يجعل النفس تشرق بنور الله، فتدرك فتؤمن فتقول الحق وتعمل

به، ويكون من بعد ذلك السلوك الاجتماعي المستقيم بأمر الله ونهيه، فمعنى ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ القول الذي يقوم على دعائم الحق، ولا يتزلزل لباطل، ويصح أن نقول: إن الثبات صفة لصاحب القول، وأضيفت إلى القول؛ لأنه لا يثبت القول إلا بثبات صاحبه الذي لا تزلزله عواث الهوى ولا أوهام الشيطان، وما أحكم ما قاله الزمخشري إذ يقول رحمته: «القول الثابت هو الذي يثبت بالحجة، والبرهان في قلب صاحبه، وتكمن فيه فاعتيقده، واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا أنهم إذا فتنوا في دينهم لن يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقداتهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر».

هذا كلام صدق، وإن القول الثابت كما يشمل الصبر في العقيدة يدخل في عموم الثبات على الحق في نصيحة الحاكم، والامتناع عن قول الباطل مداينة له، ويقول للحاكم الظالم: اتق الله، ويكررها كلما اقتضت الحال قولها في غير موارد، إلا إذا كانت الحكمة أن يداور لأجل إيصال الحق إلى قلب الحاكم، وتسويغه في نفسه، فللقول سياسة، وللعلم سياسة، ومنها تسويغ الحق ليهضم معناه، وخصوصا في أزمان الفساد كالزمن الذي نعيش فيه، ولعل الإمام الزمخشري عاش في مثله، وما ضيع المسلمين إلا سكوتهم عن القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ معنى إضلال الظالمين أنهم إذا ساروا في طريق الضلالة أوغلوا فيه ولا يرددهم سبحانه وتعالى عنه بل يزيكهم سبحانه يسرون فيه إلى نهايته، ووصفهم بالظالمين فيه إشارة إلى أنهم يبدعون بالسير في طريق الظلم الذي يشمل الظلم في الاعتقاد بالإشراك، والظلم للنفس بارتضاء طريق الشر، والظلم للناس في معاملاتهم، وفتنة الناس في دينهم وإيذائهم في اعتقادهم.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لأنه المختار المريد، لا يسأل عن يفعل وهم يسألون.

ويلاحظ أن لفظ الجلالة ذكر مرتين فى جملتين متعاقبتين، ولم يكتف بالإضمار بل أظهر فى موضعه، فقال سبحانه: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ وذلك لتربية المهابة أولاً، وليبين كمال سلطانه ثانياً، وتأكيد إرادته المختارة ومشيئته الحكيمة ثالثاً، والله ولى الإنعام.

جزاء كفر النعمة وجزاء مكرها

قال تعالى :

الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ
وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبُسْ
الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَاةَ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ
تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾
وَعَاتَبَكُمْ مِّن كُلِّ مَسَآلَتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

التبديل معناه التحويل، أو جعل شيء بدل شيء، ومعنى تبديل نعمة الله كفرا فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أنهم جعلوا بدل النعمة التى تستوجب الشكر كفرا، فالذين أعطوا نعمة بدل أن ينتفعوا بها فى وضعها موضعها من الشكر عليها كفروا بها، وكثيرون من ذوى النعم الذى أنعم الله عليهم بالثراء استعلوا به فجعلوه كفرا، ومن أنعم الله تعالى عليه بجاه فى الدنيا بدلوه كفرا، فاستغلظوا واستعلوا، وجعلوا جاههم غطرسة وكبرا، وبطروا معيشتهم.

وكذلك أهل مكة فى الجاهلية أكرمهم الله تعالى بمقامهم حول البيت الحرام، وتلك نعمة أنعم الله بها عليهم، فبدل أن يقوموا على سدانته وطهارته وضعوا عليه الأوثان، فاستبدلوا بالنعمة كفرا، وكذلك أنعم الله عليهم وعلى البشرية ببعث محمد ﷺ، فبدلوا كفرا وعاندوه وآذوه وأصحابه، وأنعم الله تعالى عليهم برحلتى الصيف والشتاء، وأن تكون مكة وسط البلاد العربية تغدو منها المتاجر وتروح إليها بين اليمن والشام فبدلوها كفرا، واتخذوها ربا الجاهلية، وأكلوا السحت، وكذلك اليهود بدلوا نعمة الله إلى كفر، أعطاهم الله تعالى علم الكتاب فغيروا وبدلوا واستطالوا على الناس، وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وظلموا الناس وأكلوا أموالهم سحتا ورشوة، وقالوا: ﴿... لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ...﴾ (٧٥) [آل عمران]، وهكذا.

ولذا نقول: إن الآية عامة تشمل كل من أنعم الله عليه بنعمة، فبدل أن يضعها فى موضعها يتخذها أداة للطغيان والضلال، فتكون كفرا، وأنهم بسبب ذلك الطغيان الذى يستخدمون النعمة طريقا له يكفرون ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، أى الهلاك، أى ينزلون قومهم من عزة الإنسانية إلى الذل فيكون ذلك طريقا لانحدارهم إلى الهلاك، وأصحاب النعم التى يكفرونها هم الذين يفسدون أقوامهم، ويأخذونهم إلى حيث الفناء، وفناء الأمم والأقوام بشيوع الكفر والجحود فيها.

وقد قال الزمخشري: «إن تبديل النعمة كفرا، معناه تبديل شكر النعمة كفرا، وقد ذكر وجوها كثيرة فقال: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، أى شكر نعمة الله ﴿كُفْرًا﴾؛ لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدلوه تبديلا ونحوه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة]، أى شكر رزقكم؛ حيث وضعت الكذب موضعه، ووجه آخر، وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفرا على أنهم لما كفروا سلبوها، فبقوا مسلوبى النعمة، موصوفين بالكفر حاصلا لهم بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله تعالى حرمه، وجعلهم كرام بنبيه فأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقمح سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر، وقد ذهبت عنهم النعمة، وبقي الكفر طوقا فى أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه هم الأفجران من قريش، بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية، فمتعوا حتى حين». هذه وجوه ذكرها إمام البيان الزمخشري، ونحن لا نقيد عموم القرآن ببلد أو جماعة إلا أن يكون لفظ الكريم، يوحى بالتخصيص بدل التعميم، واللفظ هنا فيه بيان لأحوال النفوس الإنسانية عندما تحيد عن أمر ربها، وخلاصة الوجوه بعد إخلائها من التخصيص بقوم أو قبيل أنها تتجه إلى أن التبديل فى الشكر، فيكون الكلام على حذف مضاف، بدلوا شكر النعمة كفرا، أو يكون التبديل فى ذات النعمة فلم ينتفعوا بها الانتفاع الطيب وبدلوا كفرا.

وبذلك سرى الفساد إلى أقوامهم فأحلوهم دار الهلاك فى الدنيا بالذل والهوان وفى الآخرة بجهنم؛ ولذا قال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (٢٩).

جهنم عطف بيان لدار الهلاك، وأن هلاك أشد من النيران يصطلون بها، يحيط بهم حرها الشديد ويكونون وقودا لها، وإنها تكن أسوأ نهاية؛ ولذا ذمها الله

فقال تعالت كلماته: ﴿وَبَشِّرِ الْقَرَارُ﴾، أى بشّر المقر الدائم، فالقرار مصدر أريد به المكان، فالذم للمكان، أو الذم لذات القرار فى جهنم، وهو الحال التى انتهوا إليها.

وقد ذكر الله تعالى أشد الكفر الذى بدلوا به نعمة الله تعالى، وهو اتخاذ الأنداد شركاء له فى العبادة فقال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾.

الوار عاطفة على ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، فقد بدلوا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وجعلوا لله أندادا، وجعل الله سبحانه وتعالى الأصل، وهو تبديل نعمه التى أنعم الله بها نعمة تجزى، فجعلوها كفرا هو الأصل لكل مآثمهم، ونسيجة عقوبته؛ وذلك لأن الانغماس فى الأهواء والاستطالة بها سبب الشر ونسيان الله تعالى، ومن نسى الله تعالى كان منه الانحراف الفكرى والاعتقادى، والانغماس فى الشهوات.

﴿وَجَعَلُوا﴾ معناها اتخذوا ﴿لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وأنداد جمع ند، وهو المماثل، وهذه الأوثان بالبداهة ليست أندادا مماثلة لله جل جلاله، ولكنهم اتخذوها أندادا بأوهامهم وأهوائهم وفساد تفكيرهم؛ إذ كيف تكون الأحجار التى لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع أندادا لله، ولكنهم جعلوها كذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيها قراءتان: إحداهما بضم الياء والثانية بفتحها، والأولى قراءة كثرة القراء، والثانية قراءة من دونهم عددا وهما متواترتان، ونحن نعدهما كليهما قرآنا لا ريب فيه، ويكون المعنيان صحيحين ما داما غير متعارضين، ولا يمكن أن يكون ذلك فى قراءتين متواترتين.

فالمعنى ليضلوا عن سبيل الله تعالى بذلك الجهل الذى جعلوا فيه الأحجار أندادا لله تعالى، فإنه ذاته هلاك، وعاقبته ضلال، إذ العاقبة دائما من جنس مؤثراتها والنتيجة دائما من جنس مقدماتها.

وهم إذا ضلوا بها يعملون على إضلال غيرهم بالفتنة في الدين، وإيذاء المؤمنين وسب دعاة الحق، والسخرية منهم.

وقد يقول قائلهم: إنهم اتخذوها بغير الضلال، ونقول: إن النتيجة كان الضلال أو الإضلال، ولذلك قالوا: إن اللام لام العقابة لتكون النتيجة ضلالهم بها؛ وإضلال غيرهم لتقديسها؛ وذلك أنهم صنعوا حجارة على أشكال آدمية، ثم توهّموا فيها قوى خفية، ثم عبدوها ضلالاً بها.

وقد أمر الله تعالى نبيه الأمين بأن يقول: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ إن الذي أغراه بعبادة الأبحار واتخاذها أندادا لله هو ضلال عقولهم وانغماسهم في الأهواء والشهوات مما جعلهم لا يفكرون في حقائق الأمور ويستمتعون بأهوائهم، فأمر الله تعالى نبيه بأن يقول: ﴿تَمَتَّعُوا﴾، أي استمروا في تمتعكم وأهوائكم ومفاسدكم الفكرية والتفسيرية، وليس هذا أمر للطلب بل للتهديد، أي استمروا فإن مصيركم إلى النار، فالعبرة بالنتيجة لا بصيغة الأمر كما في قوله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١)، والنتيجة الاندحار في مفاسد الأخلاق والأهواء إلى أراذل الأعمال، وقال الزمخشري: «إن الأمر هنا إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره، ولا يريدونه مأمورين قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه، ولا يملكون أمرا دونه، وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن دمتم على الامتثال لأمر الشهوة فإن مصيركم إلى النار»^(٢).

أي أن الأمر ليس من الله والنبي ﷺ، إنما الأمر من أمر هو الانسياق وراء الأهواء والشهوات، فكأنه أمر أمروه، واتبعوه، وكان مآلهم إلى النار.

هذا شأن الذين بدلوا نعمة الله كفرا واتخذوا الأنداد، أما شأن الذين أدركوا النعمة وشكروها ولم يكفروا فإنهم لا يضلون في ذات أنفسهم، ولا يضلون غيرهم بل يكون منهم الخير والطهارة لأنفسهم ولجماعتهم؛ ولذا قال عز من قائل:

(١) سبق تخريجه.

(٢) الكشاف: ج ٢/ ٣٧٧.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ۖ﴾ (٣١).

الأمر للنبي ﷺ في مقابل الأمر للكافرين بأن يتمتعوا بالعاجلة، فالأجلة مصيرهم فيها إلى النار، والأمر للمؤمنين هو أمر بشمرات إيمانهم، وعبر عن المؤمنين بـ (عبادي) للإشارة إلى أنهم قاموا بحق العبودية، فلم يشركوا مع الله أحدا، وأخلصوا الذات، وأعطوا ما هو حق على العبد أن يؤديه.

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أى (أن) هنا محذوفة وهى تفسيرية تفسر مضمون القول، قل لهم أن يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم سرا وعلانية.

أو نقول: «إن قوله تعالى: ﴿يُقِيمُوا﴾ خبرية على أنها جواب الأمر، أى قل لهم تكليفات الله ليقيموا الصلاة، ويرى الزمخشري أن تكون ﴿يُقِيمُوا﴾ بمعنى ليقيموا الصلاة، والمعنى على ذلك قل لهم مبينا أحكام الشريعة وهديها، وخص الصلاة والزكاة أى الإنفاق؛ لأن الصلاة للتهذيب وإقامتها استشعار للربوبية، وهى عمود الدين، ولا دين من غير صلاة، والزكاة - أو الإنفاق - فيها التعاون؛ ولذا تسمى «الماعون»، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ (٥) الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) [الماعون].

الإنفاق فى السر سترًا للمتجملين من الفقراء حسن فى ذاته، والإنفاق علانية للاقتداء ونشر التعاون، وكل فى موضعه حسن.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ ليتدارك التقصير بتعويض يقدمه أو فدية يفتدى بها نفسه، ولا مخالّة وصداقة ينقذ بها الصديق صديقه، والرفيق رفيقه، وقد قال تعالى فى هذا المعنى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨) [البقرة].

والسرية تحسن فى حالة التطوع، وإيثار ذوى القربى والجيران سترًا عليهم، والإعلان يكون فى الواجب، وهنا يرد سؤال، إن الزكاة لم تجب إلا فى المدينة،

والسورة مكية، كما هو معلوم، فكيف يجب الإنفاق؟ ونقول: إن وجوب الإعطاء هو من قبيل معاونة المؤمنين من الضعفاء والأرقاء على الصبر على الأذى يؤذيهم به المشركون لإخراجهم من دينهم، وإنه دعى إلى الزكاة فى سورة مكية، منها قوله تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُّوْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ (٣٩)﴾ [الروم].

وقبل أن نستقل هذه الآية الكريمة إلى ما بعدها نذكر كلاما قيما ذكره الزمخشري فى حكمة اقتران قوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾، قال أثابه الله تعالى: «فإن قلت كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال؟ قلت: من قبل أن الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات، فيعطون بدلا ليأخذوا مثله وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستخرجوا بهديايم أمثالها أو خيرا منها، وأما الإنفاق لوجه الله خالصا كقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (٤٥) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)﴾ [الليل]، فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص فينفقوا منه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال، أى لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالطة، ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى»^(١).

وإن هذه إشارة بيانية قويمة تشير إلى أن الإنفاق سرا وعلانية المطلوب هو لوجه الله تعالى، لا للكسب بمعاوضة ولا للكسب بإرضاء صديق أو رجاء فى شدة.

وفى قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ...﴾ إشارة إلى أن الإنفاق لوجه الله تعالى هو ذكر لله تعالى، فليس من التجارة التى قال الله تعالى فيها: ﴿... لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ... (٩)﴾ [المنافقون]، ولا التجارة التى ذم بها المنافقون فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوٍ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة].

وقد ذكر سبحانه بعض نعمه فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝﴾ (٣٧).

ذكر سبحانه وتعالى أن المشركين بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا لله أندادا من حجارة وجعلوها آلهة، وفي هذه الآية يذكر بعض نعمه على الوجود كله فقال تعالت كلماته: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ صدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة مفيض النعم، لتربية المهابة، وللمقابلة عبادته، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، بعبادة الأوهام والضلال، و﴿اللَّهُ﴾ لفظ الجلالة: مبتدأ، والموصول هو خبره، فهو تعريف لله تعالى بأنه الذي خلق السموات والأرض، خلق سبحانه وتعالى السماء بيروجها ونجومها وكواكبها، والأرض بطبقاتها وجبالها وما أودع بطنها من أحجار وفلزات ومعادن جامدة وسائل، اقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝﴾ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝﴾ (١١) [ق].

هذا هو الإله القادر القاهر الغالب، وهو الجدير بأن يعبد لما أنشأ وأبدع وأنعم. ثم ذكر نعمته في تلاقي السماء بالأرض يجمع بينهما الذي يسقى الأنفس والثمار؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أفرد السماء هنا وجمع السموات في الخلق؛ لأن الماء ينزل من المزن السحاب الثقيل المملوء ماء وسميت سحابا؛ لأنها فوق الأرض التي تمطرها، أما السموات فتحيط بالأرض كأنها الشيء الصغير في داخل قبة، وإن هذا الماء هو الذي تخرج منه الثمرات؛ ولذا قال: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، والثمار جمع ثمرة وهو ما تنتجه الأرض من زروع وغراس وكروم، ونخيل، ومن الثمرات تكون المطاعم

والملابس والمساكن اليدوية والأخشاب وغير ذلك ﴿رِزْقًا﴾ بمعنى مرزوق كمطحن بمعنى مطحون، أى أنه يرزقكم إياه ويגיע إليكم سهلاً بغير مشقة إلا العمل الذى يكون سبباً مقترناً بالعطاء وليس منشأً له، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين.

و﴿مِنْ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بيانية لتنوعها، والمعنى فأخرج من الثمرات المتنوعة المختلفة الفوائد التى ترجع بأحسن الفوائد.

وإن هذه الثمرات تنقل من أرض إلى أرض، وإنه ثبت الآن أن خير السبل البحار وما كان ذلك معروفاً عند العرب، بل النقل عند العرب كان بالجمال التى كانت تسمى أو سميت سفن الصحراء، ولكن القرآن أنزل من حميد يعلم ما كان وما يكون، فهو يعلم أنه سيكون زمن يكون النقل بالبحار فى جُلِّه، وفى الأرض فى قله؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ ومعنى سخرها مكن الإنسان من صنعائها واستخدامها وجعلها تعلقو فى البحر سائرة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، حاملة خيرات وفيرة من أرض إلى أرض أخرى، هذه الخيرات كثيرة، وبذلك تكون الخيرات موزعة فى الأرض بالقسطاس لولا ظلم الإنسان.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ وهى المجارى العذبة كنهر النيل ودجلة والفرات وسيحون وجيحون، ومعنى سخرها سهلها وتكون فى البلاد التى تقل أمطارها، ولا يكفى ما تنزل السماء من ماء لسقيها وزرعها، وسمى النهر نهراً لأنه ينهرها ويشققها ويجرى فيها، والأنهار الكبار تمخر فيها السفن كالبحار، والله هو الرزاق.

بعد أن ذكر سبحانه ما سخر فى الأرض من اقترانها بالسماء أخذ يبين للإنسان من أجرام السماء فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣).

الدءوب معناه السير والمرور فى استمرار ودأب من غير لغوب، وتلك سنة الله تعالى فى أجرام السماء، فهى تسير فى دأب يعلم الله تعالى سيرها، وناموسها

وسننها من غير إبطاء، والشمس والقمر يسيران ويتحركان في دأب مستمر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)﴾ [يس].

وهي مسخرة يستفيد الإنسان من حركاتها، فالشمس ذات الضياء والأشعة التي تمد الزرع والشجر والثمار بالنمو، والإنسان بالدفء والحرارة والأشعة، وكل ما فيه حياة الإنسان، والقمر يمدّه بما تنظم به الحياة في الإنسان والحيوان، وحسبك أن تعلم أن طُمث المرأة وحملها وجهاها مرتبط بمنازل القمر، وأن تعلم أن المد والجزر مرتبطان أيضا بالقمر، وإن ارتباط الشمس بالأرض كان منهما الليل والنهار، فالأرض في دورانها يحجب عنها ضوء الشمس فيكون الليل وينبسط عليها ضوء الشمس فيكون النهار، وفي الليل الهدأة والسكون والشبات والراحة، والاستجمام، وفي النهار تكون الحركة والسعي للرزق كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبا].

وقد أنعم الله على عباده بتلك النعم كلها، وظهرت بها قدرته القاهرة، وإبداعه، وإنعامه وهو المستجيب في السراء والضراء، والمنقذ في المدهمات، وما يكرث العباد؛ ولذا ختم الكلام في نعمه بقوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾.

(الواو) عاطفة على ﴿خَلَقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكلها نعم مترادفة متوالية جامعة، بعضها مع بعض أو تالي لبعض، ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، فيها قراءتان إحداهما من غير تنوين في (كل)، بل كل مضافة إلى ما بعدها: وقرئ بالتنوين، ولها إضافة و(ما) في ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ اسم موصول بمعنى (الذي) أو نافية.

ومن في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ﴾ إما تبيضية، وإما مؤكدة لاستغراق الحكم رائدة في الإعراب، والمعنى على أنها تبيضية على قراءة الإضافة، وأتاكم بعض ما

سألتموه، أما ما احتجتم إليه، وكانت حاكم حال من يسأله إياه، وإن لم يسأل باللسان بل سأله بالاستعداد والتكوين، فأعطاكم الكساء والغطاء واللباس والوقاية، وممكنكم من أن تتسلحوا ضد من يغير عليكم من سباع الأرض حيوانات أو أناس، وغير ذلك، والبعضية بعضية أنواع أى بإعطاء بعض كل نوع من الأنواع تسألونه بمقتضى الفطرة والتكوين والحاجة الفطرية، وعلى أن ﴿مِنْ﴾ بيانية، يكون المعنى أعطاكم كل ما سألتموه بمقتضى الاستعداد والفطرة على ما بينا، وإن ذلك واضح جمع فيه بين الكلية فى كل - ومعنى العطاء.

وعلى قراءة التنوين: يكون ثمة مضاف محذوف دل عليه التنوين، والمعنى أتاكم من (كل) شيء سألتموه، أى بمقتضى أصل التكوين، وتكون القراءة ثان متلافتين على تخريج ﴿مِنْ﴾ بأنها بيانية.

ولا أرى موجبا أو داعيا لأن نقول: إنها نافية، والله أعلم.

وإن هذه وما سبقها من نعم هى نعم الإنشاء والإبقاء، فقد أنعم بالإنشاء وأنعم سبحانه وتعالى بالإبقاء مستمكنا من كل شيء حتى يكون اليوم الآخر يوم الجزاء لمن شكر بالنعيم المقيم، ولمن كفر بالعذاب الأليم.

وقد أشار سبحانه إلى أن الإنسان يكفر النعمة ظلما، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا]

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ظلوم صيغة مبالغة من الظلم، أى أنه ظالم أبلغ الظلم بظلم نفسه بالكفر وغمط حق غيره، والاعتداء على الناس وعلى الحقائق، والاعتداء بعبادة الأوثان، و﴿كَفَّارٌ﴾ صيغة مبالغة فى الكفر، وهو كفر النعمة وعدم شكرها، بل اتخاذها سبيلا لعتوه واستكباره وفساده فى الأرض، وقد أكد الله تعالى ظلم الإنسان بـ«إن»، وبـ«اللام» وبصيغة المبالغة فى الظلم، وكفر النعمة، والله محيط بالكافرين.

دعاء أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام

قال تعالى :

وَإِذْ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
 أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
 فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٦﴾
 رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
 الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ
 تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾
 رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾

هذا دعاء أبى العرب ومن يتشرفون بالانتساب إليه وهو باني البيت، وأول دعائه ما يتعلق بالبيت العتيق الذي كان أول بيت وضع للناس.

أول دعائه اتجه إلى الأرض في البيت، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ والبلد هو مكة المكرمة، زادها الله تعالى تشريفاً، وقوله تعالى: ﴿آمِنًا﴾ أى ذا أمن؛ لأن الأمن للسكان لا للمكان، ومعنى الأمن لا اعتداء فيه، ووصف المكان بالأمن، فيه بيان سيادة الأمن، فالمكان لا اعتداء فيه، وهو مقدس، وقد أجاب الله تعالى دعاءه وكان فضلاً من الله على العرب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [العنكبوت].

والجزء الثانى من الدعاء أنه دعا ربه مبتهلاً إليه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام فقال تعالى حاكياً دعاءه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ دعا ﷺ لنفسه ولبنيه أن يجنبهم عبادة الأصنام، فقوله تعالى: ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فيه ﴿أَنْ﴾ وما بعدها، مصدر وهو عبادة الأصنام، وذكر الفعل المضارع لتصوير عبادة الأصنام، وفى ذلك إشارة إلى قبحها وبعدها عن المعقول.

وقول إبراهيم: ﴿وَبَنِيَّ﴾ واضح أنه لا يشمل الذرية كلها لدلالة اللفظ على ذلك؛ ولأن الإجابة لم تكن للذرية كلها، فقد كان من هذه الذرية من عبد الأصنام، بدليل هؤلاء الذين نظر فيهم القرآن، وخاطبهم محمد ﷺ يدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئاً، فالله تعالى لم يكن فى إجابته سبحانه وتعالى ما يعم الذرية كلها.

ولقد كان إبراهيم ﷺ الذى كان أبوه صانع أصنام، والذى ابتدأ حياته بحطّم الأصنام، والذى قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذُأً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ... (٥٨) [الأنبياء]. كان إبراهيم أشد الناس بغضاً للأصنام وإدراكاً لضلال من يعبدونها؛ ولذا قال مؤكداً: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى الأحجار، مع أن الإضلال هو من الشيطان الذى ابتدع الأوهام حولها؛ وذلك لأنهم لما عبدوها وأحاطوها بأوهام كثيرة وصار الوهم يولد وهما وتوالت وتكاثرت، وكلها حولها صح إسناد الإضلال إليها، وعبر إبراهيم عليه السلام عن الذين ضلوا بها بأنهم كثير، وليسوا عدداً قليلاً، وذلك لعموم الضلال بها، وعمومه لا يجعلها حقاً، بل هى باطل، ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦) [الأنعام].

وإن ذكر ضلال الأوثان على لسان إبراهيم ﷺ، وهم يتشرفون بنسبتهم إليه وهو باني الحرم الشريف المقدس، فيه بيان أنه برىء منهم ما داموا يعبدون الأوثان؛ ولذا قال عليه السلام فى دعائه: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ملة إبراهيم هى التوحيد،

كما قال تعالى: ﴿... مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ [النحل]، فمن تبعه في ملته فإنه منه، ومفهوم هذا أن من لم يتبعه في التوحيد، وعبد الأوثان فليس منه؛ لأن اشتراط كونه موحدًا ليكون منه، فيه بيان لئن لم يتبعه لا يكون منه، بل هو برىء منه، كما تبرأ من أبيه، وكما تبرأ من قومه إذ قال: ﴿... إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ [الأنعام]، ثم قال ﷺ في دعائه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وصف الله تعالى خليله بقوله: ﴿... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]، وإن حلمه وعطفه وشفقته لتبدو في قوله: ﴿فإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو ﷺ لم يحكم بالعذاب على من عصاه، بل ترك أمره لله تعالى، كما قال عيسى عليه السلام مثل ذلك فقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]، وليس معنى النص أنه يطلب الغفران لمن أشرك بالله، فمحال أن يطلب عدو الأصنام الأول غفرانا لعبدة الأوثان، إنما الذي يفهم من مضمون العبارة السامية أنه يرجو الرحمة لمن عصاه ابتداءً ألا يستمر على عصيانه فهو يرجو التوبة ولا يقدر البقاء على الشرك حتى يكون العذاب الأليم.

وهنا إشارة بيانية حكيمة، فيقول خليل الله ﷺ في دعوته: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ تعبر عن ترك عبادة الأوثان ﴿وَاجْنُبْنِي﴾، أى اجعلنى فى جانب وبنى فى جانب فهى تتضمن المباحدة، وكان حقاً على ذرية إبراهيم التى عبدت الأوثان أن تباعد بينها وبينها.

بعد أن دعا أبو العرب الشفيق لهم بتطهير نفوسهم، وأن يكونوا لله تعالى، دعا لهم بالرزق فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٢٧)﴾.

كان دعاء إبراهيم عليه السلام بضمير المتكلم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وذلك فى العبادة، أما فى طلب الرزق فقد طلبه بضمير الجمع فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ

غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴿١﴾؛ لأن الرزق يطلبه المخلص ليعم لا ليخص فهو يطلبه باسمه وباسم ذريته، ويعم مؤمنهم وكافرهم، كما قال تعالى منها إبراهيم إلى أن يطلب لمن آمن ومن كفر، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة].

يقول إبراهيم في دعائه مقررًا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع، و﴿مِنْ﴾ هنا للتبعية وهي ذريته من إسماعيل، أما ذريته من إسحاق فلم تكن بواد غير ذي زرع، أي أنه لا زرع فيه، ينبت ما يكون غذاء للإنسان والحيوان كالحنطة والشعير ونحوهما مما يكون غذاء للإنسان.

الأمر الثاني: كان إسكان هؤلاء لغرض تعمير بيتك العتيق الذي بناه بأمر الله أبو الأنبياء؛ ولذلك قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، أضاف البيت إليه سبحانه وتعالى تشريفًا لشأنه، ووصفه بالمحرم؛ لأنه تحرم فيه الدماء، وهو في ذاته حرم آمن يأمن كل من يأوى إليه.

وقد بنى في صحراء جرداء ليكون آمنًا من طمع الطامعين ورغبة المعتدين، إذ إنهم يرومون خصب الأرض ليشبعوا نهمتهم ويرضوا مطامعهم، وليكون الاستغلال الغاشم والاستعمار الظالم، فكان في أرض لا يطمع فيها طامع، ولا يرومها فاتح.

وقد كرر نداء ربه ضراعة، فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ متعلق بأسكنت، اللام للتعليل، أي أن أسكنتهم لأجل إقامة الصلاة فيه وأن يعمره بصلاتهم، لا ليستمر خرابا من العبادة، خاويا من الناس، فلا تنتهي إلى الغاية التي أمرت بإنشائه من أجله، وفي هذا إشارة إلى أن المشركين من ذرية إبراهيم قد انحرفوا به عن غايته عندما أحاطوه بالأوثان التي هدمها

النبي ﷺ يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم.

الأمر الثالث: بعد أن ذكر إبراهيم حالهم وحال أرضهم ذكر دعاء طالبا من ربه ﴿فَجَعَلَ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقَهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (الفاء) تدل على أن الباعث لهذا الدعاء ما قبلها، وهو ﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾.

في قوله تعالى: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ مؤداها أن يفد بعض من الناس إلى هذه الأرض التي لا زرع فيها مسرعين تميل قلوبهم وتهوى نفوسهم محبين الرحلة إليها مع رمالها، وجبالها وأنها لا خير فيها، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ معناها بعض الناس، وروى ابن عباس أنه قال: لو قال تعالى: أفئدة الناس لاردحم بالفرس والترك من غير المسلمين، وقوله تعالى: ﴿تَهْوِي﴾ من هوت الناقة إذا أسرع في سيرها إسراعاً شديداً كأنها تسابق الريح، وقوله تعالى: ﴿أَفْئِدَةً﴾ خرجها بعض العلماء على أن أصلها (أوفدة) جمع وفدة، حصل فيه قلب مكاني فحلت الفاء محل الواو، وحلت الواو محلها فقلبت همزة، وإنه لا داعي لهذا التخريج النحوي ولا دليل عليه، وإن الأولى أن تكون كلمة أفئدة على معناها الأصلي وهي أنها جمع فؤاد بمعنى القلب، والدعاء يكون منصبا على أن تميل القلوب إلى المكان مع جفاف مائه وصعوبة أرضه وارتفاع جباله الصماء التي لا تكتسى بخضرة قط، والمعنى على ذلك يكون مستقيماً وقوياً ككل معاني الذكر الحكيم.

وذكر الزمخشري أن هناك قراءة أخرى وهي (أفدة) اسم فاعلة من أفدت بمعنى أسرع جماعة أو جماعات متتالية جماعة بعد جماعة، حتى لا ينقطع عنهم خير الأرض كلها؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَارْزُقَهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾، و﴿مِّنَ﴾ هنا يصح أن تكون بيانية، أي ارزقهم الثمرات التي حرمتهم أرضهم منها، ويصح أن تكون بمعنى بعض، ارزقهم بعض الثمرات من كل صنف.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن يشكروا هذه النعم، أى تكون حالهم حال شكر، لا حال كفر فلا يعبدوا إلا الله تعالى العزيز الحكيم. والرجاء من العباد لا من الله، أى ليكونوا فى حال رجاء الشكر دائمة بدوام هذه الخيرات التى يسوقها الله سبحانه وتعالى إليهم ونجى إليهم فى واد (قفر) ليس فيه رزق ولا ثمر، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام فجعله حرماً آمناً تنجى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه وفضله، بهذا الخير يتوافر أصناف الثمار ما لا يوجد كله فى أخصب الأرض وريف الأمصار، وفى بلد من بلاد الشرق والغرب، إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، ثم يقول: وليس ذلك من أيامه بعجيب متعنا الله بسكنى حرمة، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا الشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب». تلك كلمات جار الله فى مكة المكرمة - الزمخشري^(١).

وقد أحس إبراهيم خليل الله بالخشوع أمام ربه والضراعة إليه بعد أن دعا لولده وذريته بما دعا، وأدرك أن دعاءه فيه معنى التطاول مع علم ربه، وهو العليم بكل شىء فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٨).

نادى ربه بضمير الجمع، فقال: ﴿رَبَّنَا﴾، أى أنه ربه ورب ذريته، ورب الوجود كله. وأنه أعلم بحالهم، سرهم وعلايتهم، وأن العلم على سواء يستوى فيه المغيّب والمعلن وما غاب وما حضر، وكأنه يستدرك على دعائه؛ لأنه سبحانه هو الذى أسكنهم فى ذلك الوادى الجذب، وهو الذى أقامهم بجوار بيته المحرم الذى يحرم فيه ما يباح فى غيره من صيد وقتال لو كان عادلا، إلا أن يكون دفاعا.

يعلم كل ذلك، بل إنه ما كان له أن يتطاول على مقام الألوهية بهذا الدعاء، وقد ابتدأ الدعاء بذكر حالهم من العلم بسرهم وجهرهم، ثم عمم علمه سبحانه

فقال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، و﴿مِنْ﴾ هنا لعموم النفي، أى ما يخفى على الله شئ فى الأرض من خيرها وجديها وزرعها، وقحطها، وطبقاتها، وما فيها من معادن سائلة وجامدة، والسماء وما فيها من نجوم وكواكب، وسحب ثقال تأتى بالدر الوفير والخير الكثير.

ولقد قال الزمخشري فى هذه الآية كلاما قيما ننقله عنه فيما يلى:

«والمعنى أنك أعلم بأحوالنا، وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك، وتذللا لعزتك، وافتقارا إلى ما عندك، واستعجالا لنيل أياديك وقربا إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة فى إصابة معروفه، مع توفر السيد على حُسن الملكة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ذكرت الأرض أولاً؛ لأن الكلام فى جديها وخصبها، وذكرت السماء؛ لأنها تمدها بالسقى والماء.

وظاهر القول أن ذلك من ضراعة إبراهيم عليه السلام، وهو ما نراه، وقيل: إن ذلك من قول الله، والحق أن كله من قوله تعالى ما جاء على لسان إبراهيم وغيره.

شكر النعمة

قال الله تعالى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي

عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَنَا ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

يقول تعالى: ﴿... لَنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾
فاستدامة النعمة بالشكر؛ لذلك بادر إبراهيم بشكر النعمة التي أنعم الله بها عليه.
إن الله تعالى وهب له وهو كبير طاعن ولديه إبراهيم وإسحق، وكانت أمرا خارقا
للعادة، وعندما بُشِّرَ بذلك امرأة إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا
بِعَلِّي شَيْخًا... ﴿٧٢﴾﴾ [هود]، فأعلن بالحمد إبراهيم الذي كان مثالا للإنسان
الفطري الكامل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي
لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾.

ابتدأ كلامه بالحمد إشعارا بشكر النعمة وتقديرها، إذا أعطاه ولدا حيث
يستحيل ذلك عادة وعلى مجرى الأسباب المعروفة؛ إذ أم إسحق عجوز وزوجها
شيخ هرم، حتى قيل: إن سنه عند البشارة بإسحق كانت فوق المائة، وقوله:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فيه معنى القصر، أي أن الحمد لله تعالى وحده، فهو مانح النعم
ومجريها وحده، وهو الذي وهبه في هذا الكبر العتي، وقوله تعالى: ﴿عَلَى
الْكِبَرِ﴾، ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى مثلها في قول الشاعر:

إني على ما ترين كبري أعلم من حيث تؤكل الكتف

وقوله: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ تدل على جلال الشعور بالنعمة، إن ذلك واضح أنه
إكرام من الله تعالى بخرق الأسباب، وإن شكر النعمة بذكر إسماعيل وإسحق فيه
معنى جليل؛ لأنهما ولدا أبي الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام، فكان
النبوة انحصرت في ذريته عليه السلام، كما يبدو من قصص القرآن الكريم الصادق في
ذاته.

وقد جاءت العبارة الضارعة التي تؤكد شكره للنعمة، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، والدعاء هنا هو الضراعة إلى الله تعالى، وطلبه منه الولد، فقد طلبه، ودعا ربه به، فقد جاء في سورة الصافات أنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) [الصافات]، فهذه بشره بإسماعيل عليه السلام، وكانت استجابة لدعائه، وكانت بعد ذلك في نفس السورة بشره بإسحق فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) .

والبشارتان مختلفتان: فإسماعيل أكبر من إسحق، فالذبيح إسماعيل لا إسحق كما جاء في التوراة المحرفة.

ومهما يكن الأمر في هذا فقله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فيه ما يدل على أن ذلك كان بدعاء من الخليل واستجابة من الله تعالى، فقد أكد أن الله سميع الدعاء أولاً: بالجملة الاسمية، وثانياً بـ (إن) المؤكدة، وثالثاً باللام في قوله: ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وعبر بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ فيه أيضاً شعور بالشكر الجزيل لربه؛ لأنه الذي ربه وكونه وقام على شئونه واستجاب دعاءه.

لقد كان إبراهيم عليه السلام صورة سامية للفتوة الإنسانية، وأوضح هذه الفتوة حب الذرية والحدب عليها وإكرامها وتوجيهها إلى الحق وإلى عبادة الله تعالى؛ ولذا قال الله تعالى على لسانه:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (٤٠)

النداء إلى الله سبحانه وتعالى بوصف أنه ربه الذي كونه وأنشأه، وربّه وقام على شئونه يدعوه إلى أن تكون نفسه للعبادة، يفسيده بروحه وبالإيمان، وإقامة

الصلاة، كما غذاه فى بدنه وعموم أحواله، وحاجاته البدنية، فيطلب غذاءه الروحى بعد غذائه الجسدى.

ويقول ﷺ مخاطبا ربه: ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، أى صبرنى وحولنى ووجهنى إلى أن أكون مقيم الصلاة، أى مؤديا لها أداء مقوما مستقيما كاملا، بأن تكون أركانها الحسية مستوفاة، ومنها الخشوع والخضوع المطلق، والصلاة رمز إلى القيام بحق الدين كاملا من غير التواء، ولم يكتف بالدعاء لنفسه بل أضاف إلى ذلك الدعاء لذريته، ولكن الله تعالى أشار إلى أنه سيكون من ذريته من لا يشكر الله تعالى، ومن يعصيه؛ ولذا قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، و﴿مِنْ﴾ هنا للتبويض، أى اجعل من ذريتى مقيم الصلاة ليكون حبل العباداة متصلا إلى يوم القيامة لا ينقطع التوحيد، وإقامة شعائره، بل تتصل إلى يوم القيامة، ومن ذريته قائمون على الحق يهتدون بهديه، ويسرون فى طريق الحق، وهو الطريق المستقيم.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (الوار) عاطفة على ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، وجاء قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ كالجملية تكون بين متلازمين، وهما هنا المعطوف والمعطوف عليه، وذكر ﴿الدعاء﴾ للضراعة والابتهاال إلى الله تعالى، وذكر بضمير المتكلم ﴿رَبِّ﴾، والجمع ﴿رَبَّنَا﴾ للإشارة إلى أنه يتكلم عن نفسه، وعن الصالحين من ذريته، والدعاء هنا هو العباداة، إذ هى دعاء لله تعالى وضراعة إليه، ومن يدعون الأنداد إنما يعبدونها، وهى لا تضر ولا تنفع، فهم بدعوتهم من دون الله سبحانه وتعالى يعبدون ما لا يضر ولا ينفع، ولقد ورد أن النبى ﷺ قال: «الدعاء مخ العباداة»^(١) فالدعاء من العباداة، وهو ذاته عباداة.

وقال: ﴿تَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ والتقبل شدة القبول، وتقبل العباداة من الله تعالى قبولها مع الرضوان، ومحبة القائم بها.

(١) سبق تخريجه.

وإن ذلك يتقاضى أن يكون ذلك من العابد بقلب سليم مخلص طاهر، لا يقصد بها غير وجه الله الكريم، لا يرائي به، ولا ينقض بعضها ببعض، بل يتجه بكل نفسه لربه لا يكون فيها موطن لغيره سبحانه.

وإن إبراهيم عليه السلام يمثل في شخصه النبوى، الرجل الفطرى المستقيم النفس فى كل اتجاهاتها، وقد رأينا من فطرته أنه فكر فى ذريته كما فكر فى نفسه، والفطرة السليمة تجعله يذكر عند الخير أبويه كما ذكر ذريته؛ ولذا عندما اتجه إلى ربه طالبا مغفرته ذكر أبويه فقال تعالى على لسانه:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١).

كان إبراهيم عليه السلام متجها دائما إلى مقام الربوبية فنادى ربه بالربوبية، وقد ذكرناها فى ذلك من ضراعة المؤمن المقدر لنعمة الإيجاد، والربوبية، والقيام على شئونه، وأنه الحى القيوم القائم على ما أنشأ من خلق، وهو اللطيف الخبير، ودعاه بالمغفرة، وابتدأ بنفسه أولا، ثم ثنى بوالديه، وثلث بالمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، سواء أكانوا من ذريته أم كانوا من غيرهم، فهو دعاء لعامة المؤمنين، وإبراهيم عليه السلام كانت أدعيته العامة جماعية؛ لأنه نادى بالأخوة الإنسانية.

وطلب الغفران وستر الذنوب، ومحو السيئات، وقيام الحسنات، يوم يقوم الحساب، وهو يوم القيامة حيث يكون الحساب بأن يقوم كل إنسان ما قدم من خير، وقد كتب ما ارتكب من خير وشر، فهو يطلب من الله فى هذا اليوم عفوهِ وتغليب مغفرته على عذابه، وذلك بالنسبة للمؤمنين، وبالنسبة لوالديه.

وهنا يسأل سائل كيف يستغفر إبراهيم لأبويه، وأبوه بلا ريب كان مشركا يعبد الأوثان؟ ويقال: إنه كان يصنعها؟ ونقول فى هذا: إن إبراهيم كان رجل الفطرة المستقيمة، ففطرته الإنسانية المستقيمة دفعته لأن يكبر عليه أن يهتدى وأبوه مشرك، وأن يعبد الله وأبوه يعبد الشيطان، وأن يكون فى الجنة وأبوه فى النار، وقد بدا ذلك فى مجابته، إذ قال لأبيه: ﴿... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ

وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴿[مريم]، طرده أبوه من حضرته مع ما فى عبارته من رفق، وما تشف عنه من محبة، ولكنه يستمر فى رفقته بمقتضى حكم الفطرة، فيقول: ﴿... سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ [مريم]، كانت هذه أول موعدة وعدها إياه، فاستغفر له ولم تكن بينهما بغضاء الضلال التى اتسم بها أبوه؛ ولذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ... ﴿٤٨﴾﴾ [الممتحنة].

إذن كان الخليل ﷺ يستغفر لأبيه ويطلب له المغفرة ومربط معه بمودة لم تفرقها عداوة، وهذه السورة التى نتكلم فى معانيها سورة مكية، وسورة الممتحنة التى فيها ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مدنية، وهذا يدل على أن النهى لم يكن حتى سورة الممتحنة، وجاء النهى بعد ذلك كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

وقد قلنا: إن إبراهيم ﷺ تتمثل فيه الفطرة القويمة.

الكافرون بالنعيم ظالمون

قال الله تعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقَدَتْهُمْ

هَؤُلَاءِ ﴿٤٣﴾ وَانذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبَّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى مثلاً كاملاً لشكر النعمة، واختار لذلك خليفه إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أبو العرب الذين يعتزون بنسبه، وهو الذي أجرى الله على يديه بناء البيت مكان عزمهم، وذكره دعوة إلى اتباع ملته، والإسلام ملة إبراهيم الذي سمي المسلمين مسلمين.

بعد ذلك ذكر سبحانه من يكفرون النعمة ويظلمون أنفسهم بكفرهم، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢).

الحسبان هو الظن أو العلم المبني على الظن، والنبى ﷺ منزّه عن أن يظن الغفلة أو السهو على الله تعالى، فالله يعلم ما كان وما يكون، وما هو كائن؛ ولأنه تعالى وعده بالنصر، والعقاب الشديد على ما يفعله، وأنه محص عليهم أعمالهم كل امرئ بما كسب فكيف ينهى عن الظن بأن الله غافل، وما كان احتمال لأن يرد ذلك على قلب النبى ﷺ حتى ينهى عنه، والجواب فى ذلك أن هذا الكلام لتأكيد أن الله تعالى يحصى على المشركين أعمالهم، كما يقول تعالى: ﴿... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) [القصص]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ

اللَّهُ إِلَهًا آخَرَ... ﴿٨٨﴾ [القصص]، فهو نهى للتبث، وتأکید أنه لم يقع من النبی ﷺ، وفوق ذلك أن النهی إعلام للنبي ﷺ بأنه عالم بحالهم مُحصٍ عليهم سيئاتهم، وهو تهديد شديد لهم، كما يقول المجادل لمجاده: لا تجهل أنى عالم بكل أخطائك، فهو إعلام، وهو تهديد للمشركين.

وعبر بقوله تعالى: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ فأظهر في موضع الأضمار لتسجيل الظلم عليهم؛ ولأن العقاب سبب الظلم، فهم أشركوا، والشرك ظلم عظيم، وأدوا المؤمنين والمؤمنات، وذلك اعتداء ظالم آثم، وصدوا عن سبيل الله، فلم يتركوا الناس أحراراً يعتقدون ما يرونه حقاً.

وإذا كان الله تعالى عالماً بظلمهم مجازيهم على ما يفعلون من آثام، فهو لا يهملهم، ولكن يمهّلهم، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم]، وفي هذا النص السامى يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٧) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٨﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ هنا أداة حصر، أى كان التأخير لأجل هذا اليوم الذى يكون شديداً، وفيه النفوس جميعاً تكون فى هلع وفزع، فليس التأخير لنسيان، أو غفو أو ترك، إنما التأخير هو ليوم كله عذاب الأجساد والأنفس، وإذا كانوا يمشون فى الأرض مرحاً، ويستهزءون ويرتعون ويلعبون ويسخرون من المؤمنين فسيكون عليهم يوم عسير شديد، وقد وصف الله تعالى حالهم فى ذلك اليوم فذكر لهم خمس أحوال كل حال فيها تنبئ عن فزع بذاته.

الحال الأولى: ما ذكرها سبحانه بقوله: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، أى العين تشخص لا تغمض من هول ما ترى، فإن إغماض العين يكون من الدعة والاطمئنان، أما يوم القيامة يوم الفزع الأكبر، فإنه لا يكون اطمئناناً ولا يكون

دعة، وتكون العين مفتوحة متسعة الأحداق من الأهوال التي تراها، حتى كأنها مع فتحها وعدم إغماضها لا تشعر بشيء إلا الهول وأسباب الفزع.

والحال الثانية: هي ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾، ومعناها مسرعين فإنهم كانوا في الدنيا يسيرون متثدين مالكي أنفسهم مسيطرين على قواهم، وكما قال في آية أخرى في وصف حالهم يوم القيامة: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر]، والإهطاع إسراع في ذل وتكسر وخوف وهلع، فبعد أن كانوا يسيرون في الأرض مرحا كأنهم يخرقون الأرض أو يبلغون السماء طولا يسيرون مسرعين أذلاء خالفين لأول داع، خائفين من أن يكون وراء الدعوة أمر أشد هولاً.

والحال الثالثة: عبر عنها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ من أقنع رأسه، وتستعمل بمعنى رفعها متطلعا إلى من فوقها من شدة الهلع، وقد قال في معناها الأصفهاني في مفرداته: أقنع رأسه رفعها قال: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، وقال بعضهم: أصل هذه الكلمة من القناع، وهو ما يغطي به الرأس، فقنع لبس القناع ساترا لفقره، كقولهم حفى أى لبس الحفاء، وقنع إذا رفع قناعه كاشفا رأسه بالسؤال كخفى إذا رفع الحفاء.

وخلاصة هذه المعاني أنهم يكشفون ذلهم وحاجتهم رافعين رءوسهم بالذل والهوان، لا يستتر من أمرهم شيء، فلا يبدون ما يخفون، ويظهرون ما لا يسرون.

وذكر الزمخشري أن بعض علماء اللغة يفسر ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ يخفضها ذلا وانكسارا، ورءوسهم ارتفعت، أو انخفاضها، فهو ذل ظاهر واضح، وصار كالسائل الذي كشف قناعه للمساءلة.

والحال الرابعة من أحوالهم: أن أبصارهم زائغة لا تتحرك أطرافها من هول ما هم فيه وهذه عبر الله عنها بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، والمعنى أن أنظارهم قد استغرقتها الأهوال التي تراها فهي فرعة هلعة قد سمرت أعينهم فيما

ترى من عذاب هو عذاب الهول الأكبر، فلا ترجع إليهم، أى لا تعود إلى سيطرتهم فترى ما يجب أن تراه وتمتنع عن رؤية ما لا يجب أن تراه، فهى قد ملكتها تلك المريعة المفزعة ولم يعد له عليها من سلطان.

والحال الخامسة: أن أفئدتهم فرغت من أسباب الاطمئنان، وامتلات بأسباب الهموم والخوف، وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾، أى لا تدرك شيئاً ولا تعيه من شدة الخوف والهلع، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِعًا...﴾ (١٠) [القصص]، أى أنه فرغ من الوعى والإدراك ولم يبق إلا موسى والخوف عليه، والهواء فى اللغة المجوف الخالى، والمعنى أصبح فؤادهم مجوفاً خالياً من العلم والإدراك لشدة ما رأى وما وقع، ومن هذا المعنى قول حسان شاعر الإسلام من أبى سفيان قائد الشرك آن ذاك:

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوفٌ نجبٌ هواء

وهذه الأحوال تصوير لحالهم يوم القيامة من فزع وذلل وانكسار، وامتلاء قلوبهم بالخوف والرهبة، وإنها من آيات الإعجاز، وكل القرآن إعجاز يبهز المدركين.

ولقد أمر الله تعالى نبيه أن ينذر الناس بهذا اليوم الذى ذكر فزع الناس فيه فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾.

الكافر ماذى لا يؤمن إلا بما يرى ويحس، فما لم يحسه لا يؤمن به، وليس عنده نفاذ بصيرة يعى به ما لم يدرك وما لم يره؛ ولذا كان من أوصاف أهل الإيمان أنهم يؤمنون بالغيب وهم بالآخرة هم يوقنون، يرون الناس يموتون ويحيون، فيعلمون أن الحياة لغاية وأن الموت ابتداء نهاية.

ولذا كان أول إنذار هو الإنذار بالعذاب الاليم فى يوم القيامة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ الإنذار: التخويف، وهو يتعدى إلى مفعولين الأول ﴿النَّاسَ﴾، والثانى ﴿يَوْمَ﴾.

والإنذار متجه لما يجرى فى هذا اليوم من حال تقشعر من هولها الأبدان، إذ تكون أبصارهم فيها شاخصة، خوف العذاب الاليم الذى هو فى ذاته هول أكبر، ولكن جعل التخويف لليوم من إطلاق اسم المحل وإرادة الحال، وإنه لشديد تضطرب له نفوس أهل النار ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الفاء هنا لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها فما فيه من هول شديد، وما فيه من جحيم ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم]، يكون سببا لأن يطلبوا الرجعة إلى الدنيا، وقد قالوا: ﴿أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمن قليل، وعبر عنه بالقريب لأنه قريب ما بين طرفيه أوله ومنتهاه، وهذا كقولهم فيما يحكى الله تعالى عنهم: ﴿... رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة]، وكقولهم فيما حكى سبحانه عنهم: ﴿... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ...﴾ [فاطر].

وقوله تعالى: ﴿تُحِبُّ دَعْوَتَكَ﴾ وهى دعوة التوحيد، وألا يشركوا بالله شيئا وما جاء به القرآن وغيره من كتب السماء، ومن شرائع، ﴿وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، أى لا نستكبر عليهم ولا نتعالى وننسامى عليهم، بل لنكون لهم تبعاً.

فيقول الملائكة بأمر الله تعالى مبكتا مذكرا لهم كفرهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾، (الواو) عاطفة على ما قبلها، والهمزة للاستفهام الإنكارى الذى فيه إنكار الواقع، والاستفهام داخل على النفى ونفى النفى إثبات على معنى التسويخ، والمعنى لقد أقسمتم من قبل مغترين على الله تعالى جاهلين لأنفسكم، ولمجرى الحياة ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ زَوَالٍ﴾، أى ليس لكم أى زوال، وإنهم فى الحقيقة كما يظهر من مجرى

أمورهم أنهم كانوا لا ينكرون الموت، ولكن ينكرون الحياة بعد الموت ويقولون: ﴿... أَلَدَا كُنَّا تَرَابًا أَتِنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ [الرعد].

ولكن لأنهم عتاة غاشمون لا يرعون إلا ولا ذمة، وقد اغتروا بالحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور، يعملون كأنهم لا يموتون ولا يفنون، وأنهم فى الدنيا خالدون.

وقد فسر بعض العلماء أن المراد من الزوال المنفى أنهم لا يزولون ثم يبعثون، وهذا تفسير مجاهد تلميذ ابن عباس ترجمان القرآن، كما سماه عبد الله ابن مسعود، ويكون المعنى على هذا التفسير: ما لكم من زوال من هذه الدنيا تنتقلون من بعده إلى الآخرة.

وإنهم فى قسمهم هذا أو فى حال الغرور التى اغتروا بها وحسبوا أنها حياة خالدة، والعبر بين أيديهم قائمة، ولذا قال تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [٤٥].

سكن، معناه قرَّ فيها، وغنى فيها، وتعدى بـ(فى)، كما تعدى بنفسها، فيقال سكنت الدار، والأصل هو التعدية بـ(فى) ثم لما شاع الاستعمال تعدت بنفسها.

والمعنى أن العبر كانت قائمة، وأقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لا يبعثون بعد موتهم، وقد سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والإيذاء للمؤمنين والصد عن سبيل الله، وتبين لكم ما نزل بسبب ظلمهم من إمطارهم حجارة من سجيل منضود، ومن جعل الأرض عاليها سافلها إلى آخر ما هو ثابت عبرة للآخرين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾، أى تبين ما فعله الله بهم، وحالهم العجيبة الجديرة بالنظر، وبيننا لكم الأمثال الأشباه، ومع ذلك لم تعتبروا، فاليأس من إيمانكم كان ثابتاً، واليأس من إيمانكم بعد رجعتكم إلى الدنيا أشد ثبوتاً.

ومع هذه العبر والأمثال استمروا في غيهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦).

الكلام في أخبار الذين سكنوا في مساكنهم، وقد تبين كيف فعل الله بهم، وقد بين في هذه الآية أنهم كانوا يدبرون التدبيرات الخبيثة للكيد للحق وأهله، والتوحيد ومعتنقيه، أى دبروا كل ما يحاربون به عقيدة التوحيد، فاعتقدوا الباطل وناصروا الشرك، وحاربوا المؤمنين بكل أنواع الحرب من فتنة في الدين . . وإيذاء للمؤمنين وسخرية بهم ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، أى وعند الله تعالى علم مكرهم، وأنه محيط بما كانوا يمحرونه ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

الجبـال هنا المراد بها شرائع الله تعالى التى جاء بها النبـيون، فشبهت بالجبـال لثباتها وشمـوخها وعلوها ورفعتها، و﴿إِنْ﴾ هنا إما أن نقول: إنها مخففة من (إِنْ) الثقيلة، والمعنى أن الحال والشأن أن ذلك المكر كان مهياً ومعداً لتزول به الشريعة، ولكن تدبير الله كان أحكم فنجت الشرائع التى بلغت فى شموخها وعلوها وثباتها مبلغ الجبال.

وإما أن نقول: إنها نافية وتكون اللام لام الجحود، ويكون المعنى، وما كان مكرهم مهما يبلغ من القوة والتدبير والإحكام فى زعمهم لتزول منه الشرائع المحكمة التى هى كالجبـال فى ثباتها وعظمتها، وإن الله تعالى حافظ شرعه وأنبياءه والمؤمنين، ولو تضافر الشرك كله.

إن الله لا يخلف الميعاد

قال الله تعالى:

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
 مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى
 وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا
 بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

كان النهي فى الآيات السابقة عن أن يُحسب أن الله تعالى تارك الظالمين، وما يفعلونه، غير منزل بهم ما يستحقون من عقاب، جزاء وفاقا لما يفعلون، وهنا فى هذه الآيات يبين أن الله تعالى أنه منزل هذا العقاب لأن جزاؤهم، ولأنه قد وعد رسله به، وإن الله تعالى لا يخلف رسله ما وعدهم به.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَهُ رَسُولُهُ﴾، و﴿رُسُلُهُ﴾ مفعول للوعد، أى لا تحسبن الله مخلف ما وعد الرسل، وقدم الوعد على الرسل للإشارة إلى أن إخلاف الميعاد ليس أمرا جائزا بالنسبة لله، سواء أكان من وعده رسولا أم كان غير رسول.

وقد وعد الله رسله بالغلب، وأن يكون السلطان للحق، كما قال تعالى: ﴿... لَا غَلِبَ أَنَا وَرُسُلِي ...﴾ (٢١) [المجادلة]، وقد بين تعالى أن الغلب لهم فى هذه الآية، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، ﴿عَزِيزٌ﴾ معناه غالب قوى مسيطر يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقوله تعالى: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾، أى صاحب انتقام للحق من الباطل، وللضعفاء من الأقوياء، والانتقام معناه مجازاة المسىء بما أساء وأن يقتص بالحق من القوى للضعيف، وأن تكون العقوبة على قدر الجريمة، فأساس العقاب فى الشريعة أوفى، أى يكون العقاب على قدر الجريمة، وأن يكون جزاء وفاقا لها.

وهنا يسأل سائل، لماذا عبر سبحانه في الجزاء بالانتقام؟ لأن الظالمين من المشركين قد أزهقوا الضعفاء المؤمنين من أمرهم عسرا وصعبوا الاستمسك بالحق وجعلوه مرا فكان لابد من الجزاء انتقاما من الظالمين لتقر أعين الضعفاء ويذوقوا حلاوة الحق بعد أن ذاقوا مرارته.

وقد يسأل سائل لا يعرف آداب القرآن ولا حكمة الديان: كيف يسمى العقاب انتقاما وهو لإصلاح النفوس لا للانتقام منها، ونظرية الانتقام يطلها علم القانون، ونقول في الإجابة على ذلك: إن شأن الآخرة هو القصاص من جرائم الدنيا، وأما في الدنيا فكلامهم قد يكون واردا على نظر فيه، فإن العقوبات الإسلامية للردع، والإصلاح يكون من طريقه، إذ يكون فيه عبر لمن يكون على استعداد للارتكاب، وقد قال بعض القانونيين: إن العقوبة إذا كانت من جنس الجريمة كانت أردع للجاني؛ لأنه يتصور وهو يرتكبها أن سينزل به مثل الذي ينزله بالمجنى عليه فيمتنع رهبة.

وإن ذكر العقوبات القاهرة فيه عبرة لمن يكونون على وشك الارتكاب في الدنيا، فمن يعرف أنه سيذل يوم القيامة لا يذل الناس، ومن يعلم أنه يتال عذاب الجحيم لا يكفر ولا يؤذى عبدا.

وإن ذلك الذي يكون فيه انتقام الله تعالى من الأشرار هو يوم القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَتَرَوُنَّ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ يوم متعلق بـ(انتقام)، أى أن الله تعالى في هذا اليوم: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ...﴾ والتبديل قد يكون في الذات كقولك بدلت الدراهم دنائير، ومنه ﴿... بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا... (٥٦)﴾ [النساء]، ﴿... وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ... (١٦)﴾ [سبا]، وقد تكون في الأوصاف كتبديل سبائك الذهب إلى حلى فنقلت من شكل إلى شكل، والجوهر واحد في القولين، وقد يكون تغييرا بين النقيضين أو الضدين، ومنه قوله تعالى: ﴿... فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ... (٧٠)﴾ [الفرقان] فالعبرة في هذا بالآثر.

وتبديل الأرض أمر واقع لا محالة، واختلف في كيفية وحاله، ف قيل: تبدل أوصافها، فالجبال تتفكك وتصبر كالعهن المنفوش، وتحرك وتضطرب وتتفجر الينابيع وتسوى الماء باليابس فلا يرى عوج ولا أمت، وقيل: إن الأرض كما هي، ولكن يتغير ناسها، ولا يكون فيها ظلم يقع، بل تكون كلها تحت سلطان القهار وروى ذلك عن ابن عباس.

فقد أنشد بعد ذلك:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار الذي كنت تعلم

وتبديل السموات بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها^(١)، ومن الحق أن كل الكون يتغير في أحواله وأوصافه ودورانه، فالسماء تتغير، كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)﴾ [التكوير].

وهكذا تبدل الأشياء، وتبديل الأحوال، فبعد أن كان الظلم في الأرض يغالب الحق فإذا الحق هو الأمر الذي لا يغالبه شيء.

هذا يوم القيامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، أى ظهرُوا وعلموا أنهم قد لقوا الله تعالى وقد كانوا يكذبون لقاء الله، ويعجبون من أن يعودوا بعد أن يصيروا ترابا وعظاما، ولكنه لقاء لا يسرهم، إنا هو لقاء القهار لعقابهم؛ ولذلك ذكر سبحانه وتعالى بوصفه الرهيب عندهم الذي ينقض اعتقادهم الباطل فقال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ولفظ ﴿لِلَّهِ﴾ يلقى وحده المهابة في نفوسهم بعد إنكارهم لقاءه، ووصفه بـ﴿الْوَاحِدِ﴾ ليعرفوا أن شركهم كان باطلا، وأنه وحده الحكم العدل، فلا شفاعة لأحد، ولا لأوثانهم، و﴿الْقَهَّارِ﴾ صيغة مبالغة من القهر، أى أنه سبحانه وتعالى وحده الذي سيوفيههم جزاءهم مقهورين مغلوبين.

(١) من الكشف بتصرف.

ولقد صور الله تعالى حالهم بعد ذلك اللقاء المفزع الذى تشخص فيه الأبصار، وهذه كقوله تعالى: ﴿... لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر].

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

ذكر الله تعالى لهم أحوالا ثلاثة:

الأولى: أنهم مقرنون فى الأصفاد.

والثانية: أن سراويلهم من قطران.

والثالثة: أن النار تغشى وجوههم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أولا وصفهم بالأجرام؛ لأن ما كسبوه من جرائم فى اعتقادهم، وفى أعمالهم، وفى إفسادهم فى الأرض عبثا وفسادا، هو السبب فيما ينالون من عقاب.

وقوله تعالى فى الحال الأولى: ﴿مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ من قرن بمعنى جمع، وقرن بمعنى شدد فى الجمع ووثق فى الأمر الجامع، والمعنى مشدودون بوثق مجموعين فيه لتشابه جرائمهم، واتحادهم فى أوصافهم الإجرامية، ومقرنين فى أيديهم وأرجلهم بالأصفاد، جمع صَفَدَ، وهو القيد يقيدون به، وتغل أيديهم وأرجلهم به.

هذه هى الحال الأولى.

والحال الثانية: وهى مما ينزل بهم أحادا كما جمعوا جميعا وهى قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ والسراويل : جمع سربال، وهو القميص الذى يلاصق أجسامهم، ويسبغها، ولا يترك فراغا بينه وبينها، والقطران هو ما استحلب من بعض الأشجار، وتهنأ به الإبل دواء لها من الجرب، ومن شأنه أنه يشتعل بالنار،

فإذا بقمصانهم المتصلة بأجسامهم اللاصقة بها نيران مشتعلة، فالنار تحوطهم من كل ناحية فى أجسامهم.

ولكن القمصان أو السراويل لا تغطى الوجوه عادة فتجىء الحال الثالثة، وهى قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، أى النار تستر وجوههم كما ستر القطران الملتهب أجسامهم.

وكان ذلك جزاء، والإخبار به تبليغا؛ ولذا قال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢) .

هذا البيان من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ﴾ إلى بيان ذلك العذاب الذى تعم فيه النيران أجسامهم، إنما هو:

أولا: لبيان العدالة الإلهية.

وثانيا: ليبلغوا بالفعل وجزائه، والخير والشر، وما يجب عليهم.

وثالثا: للإنذار لكى يعلم أهل الشر مآلهم.

ورابعا: ليعلموا أن الله هو الواحد القهار، وأن لا شىء له صفة الألوهية إلا الله تعالى.

وخامسا: ليتذكر أهل الألبياب المدركين المؤمنين، فهو ذكر لهم وإنذار لغيرهم.

أما أولها: فقد ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ وعبر بأن الجزاء هو ما كسبوا من عمل، فليس فى ظاهر اللفظ أنه جزاء العمل، بل هو العمل ذاته؛ وذلك للإشارة إلى المساواة التامة بين الجزاء والعمل، فكأنه هو هو، وقد أكد الله وقوعه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فإن السرعة هنا تأكيد

للوقوع، وأن المقاربة الزمنية بالنسبة لله تعالى مؤكدة، فهو سبحانه لا تستطال على أفعاله الأزمان.

أما الأمر الثاني: وهو التبليغ، فقد عبر سبحانه عنه بقوله: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ تبليغ من الله تعالى لكى يكون حسابهم على بينة من أمورهم، كما قال تعالى: ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) [فاطر].

ومن التبليغ ما جاء فى الأمر الرابع وهو أن يعلموا ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، هذا قصر، والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله تعالى، أى أنه لا إله إلا الله، فالمعبود بحق واحد، وما عداه باطل فى باطل.

والأمر الثالث قبل الرابع، وإن كنا ذكرناه أولاً لاتصاله بالبلاغ فى كلامنا وكلام الله أعلى وأحكم وأوثق.

والأمر الرابع: أن هذا الإنذار للكافرين ليعتبروا والعبرة قد تفيدهم.

والأمر الخامس: أن فيه تذكيراً لأولى الألباب، أى أولى العقول المدركين وهم المؤمنون فيزدادوا بهذا البلاغ إيماناً، والله أعلم بشرعه.



تمهيد:

أول الجزء الرابع عشر، وأوله سورة الحجر، وهى سورة مكية إلا ما قيل: إنه يستثنى مكيته وهى الآية السابعة والثمانين، وعدد آياتها [٩٩].

وقد ابتدئت بالحروف المفردة ﴿الر﴾، وذكر بعدها القرآن الكريم ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ وقد أخبر سبحانه أنه ﴿ربما يؤذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ (٢) ولكن غلب عليهم الهوى، ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ (٣)، وإن بين أيديهم العبر ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ (٤) ومن لهوهم وعبتهم قولهم لنبيهم: ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ (٥) لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين (٦)، وإن الملائكة لا تنزل، وإذا نزلوا لا يؤجلهم ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾ (٨)، وذلك شأن الكافرين يتوارثون ذلك الفكر السقيم جيلا بعد جيل، وإن القرآن باق ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (٩) ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين (١٠) وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (١١) كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (١٢) لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين (١٣).

وإن الآيات لا تخزيهم؛ لأن قلوبهم أغلقت عن الحق ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ (١٤) لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (١٥).

بعد ذلك أخذ ينبههم سبحانه إلى خلق السموات والأرض وما فيها من عجيب التكوين ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين﴾ (١٦) وحفظناها من كل

شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴿ وَيَعِدُ هَذَا الْخَلْقَ ، وَذَلِكَ التَّكْوِينُ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَفِي قَبْضَةِ يَدِهِ ﴾ ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِقَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُمُوهَ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿ ٢٢ ﴾ .

وإن الله تعالى ترى آثاره في خلقه من إماتة وإحياء ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ وإذا كنتم ترون بالعيان الإحياء والإماتة فقد كان ذلك فيمن تقدم، وفيمن تأخر، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿ ٢٥ ﴾ .

بعد ذلك أخذ سبحانه يذكر في هذه السورة خلق الإنسان من طين فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ ﴿ ٢٦ ﴾ وَالْجَانُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿ ٢٧ ﴾ .

بعد ذلك أشار سبحانه إلى خلق آدم وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس أن يكون من الساجدين، وغروره بأنه من نار وادم من طين، وقد طرده الله سبحانه من جنته وقال له: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿ ٣٥ ﴾ ، وأنظره الله إلى يوم يبعثون ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ ﴾ ﴿ ٣٦ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ ٣٧ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ ٣٨ ﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٣٩ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ ٤٠ ﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿ ٤١ ﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿ ٤٢ ﴾ .

بعد ذلك ذكر تعالت كلماته جزاء الذين يغويهم إبليس ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ ٤٣ ﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿ ٤٤ ﴾ ، وذكر بعد هذا جزاء الذين لم يطيعوا الشيطان ولم يستطع إغواءهم ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ﴿ ٤٥ ﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴿ ٤٦ ﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ

مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴿

بعد ذلك جاءت العبر في القرآن الكريم، وابتدأت العبر بمن هو أقرب إلى العرب نسبا، ويعيشون في رحاب بيت الله الذي بناه إبراهيم، فقال في قصة إبراهيم: ﴿وَبَشِّرْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ ولأنهم ملائكة، لم يعهد في الأرض لقاء مثلهم - وجل منهم، وقال: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِمْ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

هذا تذكير بالخلق والتكوين، وأنه يجري على حكم إرادة الله تعالى الفاعل المختار، لا بالأسباب والمسببات، كما يقول الجاهلون، وإن الأسباب لا تسيطر على فعل الله تعالى، فالأسباب تجعل الرجل لا ينجب وهو كبير فلم ينجب وهو شاب، ولكن بإرادة الله ينجب إبراهيم، وامراته عجوز عاقر.

بعد هذا ذكر القرآن الكريم ما يكون تهديدا للفاسقين الخارجين عن أمر الله تعالى، وهم قوم لوط، قالت رسل الله تعالى لإبراهيم: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَاجِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

أنزل بهم العذاب الأليم في الدنيا، أخذتهم الصيحة في الصباح فجعل الله تعالى عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾.

بعد هذا يرينا الله تعالى من عجائب قدرته ليعتبر العرب في قصة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، وتكذيبهم الرسل، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٧) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٨)﴾.

ولقد أخذ سبحانه وتعالى يشير إلى العبر في تكوين هذا الوجود، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾.

وإذا كان خلق الله السموات والأرض وما فيه من نعم للكافة، فقد أعطاك الله نعمة القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾ ولا تلتفت إلى ما عند غيرك، فما عندك هو الأعظم وهو الجليل: ﴿لَا تَمْدُدْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

ولقد أمر الله نبيه بأن يصدع بما يؤمر به فقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

الرَّتِّلْكَ عَايَتْ الْكِتَابِ وَقُرْءَانِ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا
 وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا
 مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
 أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ
 الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا
 إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

تكلمنا فى الحروف المفردة، وقلنا: إنا لا نعلم على التحقيق المراد منها،
 وإنها من التشابه التى اختص الله بعلمه، واتباع التشابه ابتغاء تعرفه من صنع
 أهل الزيغ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً...﴾ (٨) ﴿
 [آل عمران]، وقلنا: إنا نتعرف حكمتها، ولا نتعرف المراد، وأشرنا إلى أنها
 سيقت لتذكير العرب بأن القرآن مكون من الحروف التى تعرفونها، ومع ذلك
 عجزتم عن أن تأتوا بمثله، وهذا العجز دليل أنه من عند الله؛ ولأن العرب كانوا
 قد اتفقوا على ألا يسمعه أو يلغوا فيه إذا سمعوه، فكانت السور تبتدئ بتلك
 الحروف الصوتية فتنبههم فينفضون ما اتفقوا، وقيل: إنها أسماء للسور، أو
 للكتاب.

وجاء بعد هذه الحروف فى السورة ذكر الكتاب الكريم، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارة إلى السورة، أو إلى المتلو بعد هذه الحروف، والكتاب بمعنى المكتوب، وقد وصفت الآيات بوصفين أولهما: أنها آيات الكتاب؛ لأنها معجزة بذاتها، فكل آيات من القرآن معجزة تعد من الكتاب المعجز؛ ولذلك كان يتحدى بالقرآن قبل تمام نزوله، وقد وصفت الآيات بأنها مكتوبة، ووصفت بأنها مقروءة متلوة؛ ولذلك جاء معطوفا على الكتاب قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾، أى مقروء كريم؛ لأنه نزل مقروءاً من الله، ولأنه محفوظ، ولأنه سجل الشرائع السماوية، ولأنه المحفوظ الخالد إلى اليوم، فالكتاب الكريم يوصف بأنه مكتوب، ويوصف بأنه مقروء؛ لأن طريقة تلاوته من عند الله تعالى، فقد أوحى إلى الرسول فكتب وحفظ، وقرئ وحفظ متلوا كما قال تعالى لنبيه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة].

فالقرآن متواتر بكتابته وبقراءته وبتلاوته، فكان حفظه فى الصدور مانعا من تحريف السطور، تلقى الناس القرآن فأمن قليل، وكفر كثير، وقد رجا المؤمنون ما عند الله وطغى المشركون، وبغوا واعتدوا وفتنوا الناس عن دينهم، وإن الله تعالى يبين أن الذين كفروا بهذا القرآن الكريم سيأتى الزمن الذى يودون فيه لو كانوا مسلمين، فيقول تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾.

يقول العلماء فى (رُبَّ): إنها لا تتصل إلا بالاسم، فإذا دخلت على الفعل توسطت ما، وربما هى رب المخففة، وقد قرئت بضم الراء وبفتحها، وهما لغتان فيها.

وقالوا: إن (رُبَّ) تكون داخلة على الفعل الماضى، ولكنها هنا دخلت على الفعل المضارع لتؤكد وقوعه فكان كفعل الماضى فى معناه عند الله تعالى، وإن معنى المضى متحقق لفظا فى ﴿كَانُوا﴾، وربما تكون للتقليل وقد تستعمل للتكثير، والمعنى أنه ربما يود الذين كفروا فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين، وما

هذه الأوقات؟ قيل: هي الأوقات التي تعلق فيها كلمة الحق، وتصير الأرض العربية للمؤمنين فيها الكلمة العليا، ويكون لهم السلطان والقوة، فيتمنى المشركون الذين كفروا بالله وبالقرآن أن لو كانوا مسلمين، فإذا كانوا يغترون الآن بقوتهم، وعزتهم، ويستضعفون المؤمنين، فربما يكون العكس، ويودون لو كانوا مسلمين، وإنهم في المنزلة عند الله ورسوله ليسوا سواء، فلا يستوى من أسلم، وفي المسلمين ضعف، ومن أسلم وفي المسلمين قوة؛ ولذا قال تعالى: ﴿... لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً...﴾ (١١) [الحديد].

هذا إذا قلنا: إن الوقت الذي يكون فيه هذا الود، وذاك التمنى هو قوة المسلمين، وإن قلنا: إن الوقت هو يوم يرون العذاب، فإن المعنى أنهم يتمنون أن لو كانوا مسلمين لتكون لهم النجاة، حيث لا منجاة إلا بأن يكونوا مسلمين.

وقد أشار الله تعالى بهذه الآية أن المشركين، وإن استطالوا بفضل قوتهم الآن فإنهم سيمتتون أن لو كان مسلمين في المستقبل فلا يأسى النبی عليهم، والعاقبة للمتقين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ذَرُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

كان النبي ﷺ يتمنى: لو يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) [الشعراء] ولكن الله تعالى أشار إلى نبيه أنه ليس عليه ألا يؤمنوا ما دام قد بلغ رسالة ربه؛ ولذا قال: ﴿ذَرُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾، أي اتركهم يأكلوا ويتمتعوا... وهذه الأفعال مجزومة في جواب الأمر، وليس تركهم سبب هذه الأفعال، إنما الترك إهمال لهم كما أهملوا النذير والاستجابة، فالترك لانغمارهم في الشر، وابتدأ بذكر الأكل للإشارة إلى أن متعتهم من أفواهم، كمتعة الحيوان، فهم كالأنعام بل أضل سبيلا، ويتمتعوا تلك المتع المادية التي كان الأكل عنوانها ورسمها، ولا يفكرون إلا فيما هو من جنسه، كالوان الثياب والنساء، وما إلى ذلك وهم يغفلون كأنهم لا يموتون، وكأنهم المخلدون، وأملهم في هذه الحياة يلهمهم عن التفكير فيما يسوقون إليه أنفسهم،

وأن أملهم المادى المتجدد آنا بعد أن، والذي يزيد وقتنا بعد وقت - يلهيهم عن الحقيقة، ولعلمهم لا يفكرون فى غاية إلا ما توحى بهم آمالهم العريضة فى جاه يريدونه أو سلطان يتغونه، أو مال يحبونه، أو أى شهوة عاجلة أو مؤجلة يرونها، ويجمع ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلُ﴾.

ولقد قال ﷺ فيما روى البزار فى مسنده: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الفاء) لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، و(سوف يعلمون) تهديد بسوء العاقبة لسوء ما يفعلون، وطيبات المآرب واللذات الدنيوية على نفوسهم، و(سوف) لتأكيد وقوع ما يفعلون ونذيره، والجملة السامية تدل على أن حالتهم توجب اليأس من إيمانهم، وقد قال الزمخشري: «فسوف يعلمون سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر ولا واعظ إلا معاينة ما يُنذَرُونَ به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاضهم قبل ذلك، فأمر رسول الله تعالى بأن يخليهم وشأنهم، ولا يشغل بما لا طائل تحته، وأن يبائع فى تخليهم بما لا يزيدهم إلا نداما فى العاقبة، وفيه إلزام للحجة، ومبالغة فى الإنذار، وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم، وما يؤدى إليه طول الأمل وهذه هى حال أكثر الناس من ليس على من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا على أخلاق الهالكين، هذه حال المشركين، وقد ضرب لهم الأمثال وبين العبر بأحوال الماضين فقال تعالى: ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝ مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۝﴾.

الكتاب هنا الأجل، أى أن أية قرية أهلكت كان لها أجل معلوم، وهذا فيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد لهم بأنه إذا كان قد أهمل أهل الشرك حتى طفوا وتجبروا واستكبروا فليس ذلك إهمالا لجرائمهم، وما من قرية، أى مدينة جامعة أهلكها إلا لأجل معلوم، فانتظروا كتابكم الذى كتب لكم أيها المشركون، فإما أن تخذلوا

بسبب مقاومتكم للرسالة، وتدلوا للحق، والدلة للحق هي العزة، وذلك إذا كان يرجى الإيمان فى ذرياتكم، وإما أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ عاداً وثمود، وآل مدين، ومن قبلهم قوم نوح، ثم كما أخذ فرعون ذى الأوتاد، وسائر الذين طغوا فى البلاد.

وإذا كان قد تركهم أمداً، فلأنه سبحانه قد قرر ذلك فى علمه المكنون.

ولذا قال تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۝٥﴾، وقد عبر سبحانه وتعالى هنا بـ ﴿أَجْلَهَا﴾ للإشارة إلى أن الكتاب والأجل بمعنى واحد، والتعبير فى الأولى بالكتاب للإشارة إلى أنه مكتوب مسجل مكنون معلوم عند الله تعالى، وعبر فى الثانية بـ (أجل) للإشارة إلى أن له ابتداء وانتهاء، لا تسبق الأمة أجلها وإن طغت وبغت، ولا تستأخره، أى لا تطلب تأخيرها، ولو طلبت ما أجبت؛ ولذا عبر فى الأولى بـ (تسبق)، وفى الثانية بـ (تستأخر)، فمهما طغت لا تسبق أجلها، ومهما طلبت لا يؤخر أجلها، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ إشارة إلى أن العاقبة ليست محمودة لهم، فمن شأنها أنهم يطلبون تأخيرها، ولكن مهما يطلبوا لن تؤخر، بل إنها نازلة فى وقتها لا محالة، وقد كانت الهجرة فى ميقاتها، وكانت الحرب الدائرة عليهم حتى كان أمر الله تعالى، وكان قدرا مقدورا، ولقد ذكر الله بعض شر ما قالوا فقال: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾.

هذه صورة من طغيانهم، طغت الأوثان على تفكيرهم، حتى حسبوا من يدعو إلى التوحيد مجنونا، وأكدوا جنونه وقالوا مخاطبين النبى ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ النداء للبعيد، لكبر الدعوى التى يدعونها، وهى جنون النبى ﷺ، و﴿الذِّكْرُ﴾، أى المذكر لهم ببطلان عبادة الأوثان، وأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، وتسميته بالذكر من الله تعالى لا منهم؛ لأنهم لو علموه ذكرا ما أنكروه، والجملة كيفما كان أمرهم ساقوها متهمكين لادعين بالقول، كما حكى الله تعالى عن الملأ من آل فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ [الشعراء]، فالكلام سوق لبيان تهكمهم على رسولهم، وإن كان فيه إشارة إلى التنديد بهم، وهو أنهم بدل أن يعتبروا ويتذكروا يتهكمون مع أنه ذَكَرُ لَهُمْ.

وقد أكدوا دعواهم بجنونه فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ خاطبوا النبي ﷺ بذلك الخطاب الذي يبهت كل عاقل مدرك، أكدوه بـ(إِنَّ) التي لتوكيد القول، وبالجملة الاسمية، وباللام، وإن هذا يدل على شدة تمسكهم بعبادة الأوثان حتى عدوا كل من يدعو إلى تركها مجنوناً، ويدل على شدة طغيانهم وأنهم لا يذعنون للحق، وإن دلت عليه دلالة واضحة بيّنة، ويدل ثالثاً: على إمعانهم في إيذاء النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين وبعد أن سارعوا بالإنكار، وادعاء أن النبي ﷺ جاءهم بغير المعقول، تعنتوا وزعموا أنهم يطلبون دليلاً ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧﴾.

(ما) نافية، و(لولا) نافية، إذا دخلت (لو) على (لا) - كانت بمعنى الامتناع للوجود مثل قوله تعالى: ﴿... لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾ [سبأ]، وتكون بمعنى الحض مثل قوله تعالى: ﴿... لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ...﴾ ﴿٣٦﴾ [الفرقان] مع امتناع الشيء الذي يحض عليه، وهو ما قبل (لا)، فإنها تدل على الحض، وعلى الامتناع لعدم وجود شيء فقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ معناها الحض على أن تأتي به الملائكة، وعلى أن الامتناع عن الإيمان لأنه لم تأت به الملائكة، بيد أنه يلاحظ أن (لا) تدل على النفي في الحال والاستقبال، و(ما) تدل على النفي في الماضي، وقد جمع في هذه الآية الكريمة بين (ما)، وفعل المضارع بعدها، فدلّت على أن الامتناع عن الإيمان في الماضي لعدم إتيان الملائكة به، وأنهم مستمرّون على عدم الإيمان ما دامت الملائكة لم تنزل به.

وقد رد الله كلامهم الدال على الإيمان في الكفر، والتعلة للإيغال فيه، فقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ ﴿٩﴾ [الأنعام] وتعنتوا بهذا وبغيره، وقرأ ما جاء أول سورة الأنعام، فقد قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ [الأنعام].

وفى الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها رد الله تعالى قولهم بقوله تعالت كلماته: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فى هذا إشارة إلى إمكان إنزال الملائكة، وإنه ليس ثمة أمر يتعذر على الله خلقه، وقد نزل الملائكة إلى أرض قوم لوط فجعلوا عاليها سافلها، وعبر بـ ﴿نُنْزِلُ﴾ إشارة إلى أن نزولها لا يكون دفعة واحدة بل تتوالى النزول، وقتنا بعد آخر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أى إلا بسبب باعث من الحق فى ذاته بأن تكون حكمة فى نزولهم، ومصلحة فى خطابهم، فالله تعالى ما خلق شيئاً عبثاً، وما جعل الأمور سدى تنزل الملائكة حيث يبتغى المشركون ويريد الكافرون، وإن لم يكن جدوى من نزولهم، وإن حالهم حال إنكار، لا تحتاج إلى دليل، فإن نزولوا قالوا هؤلاء رجال لا ملائكة كما تلونا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام].

وإنهم إن أنزلوا كما طلبوا لكانت القاضية عليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾، أى ما كانوا مؤجلين إلى يوم القيامة إذا نزلوا، والله تعالى بحكمته العالية قدر للمشركين من العرب أن يكون من ذريتهم ومن الجاحدين أنفسهم أمة مؤمنة تحمل عبء التبليغ بعد رسول الله ﷺ؛ لأن شريعته - وهو خاتم النبيين - يجب أن تكون معجزته باقية ببقاء شريعته الخالدة، ورسالته الدائمة التى لا تنقطع؛ ولذا كانت معجزة القرآن آى من نوع الذكر الدائم الذى يحمل دلائل إعجازه، ويتحدى الأجيال إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

أضاف سبحانه وتعالى القرآن العظيم إلى الذات العلية المقدسة فاستفاد بهذه الإضافة شرفاً إضافياً فوق شرفه الذاتى الذى جعله الله تعالى كذلك، واستفاد بهذه الإضافة أيضاً أنه نزل بالحق الذى وعد به وقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، فما نزل إلا بالحق والأمر الثابت، وهو أنه باق مادامت الشريعة والرسالة باقيتين، وإنهما لباقيتان.

وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة أن معجزة القرآن من نوع الكلام؛ لأنه ليس حادثة تنتهى بانتهاء زمانها، بل هو كتاب محفوظ قائم تقرأه الأجيال، ويتحدثها جميعاً، ولقد روينا من قبل قول النبى ﷺ: «ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذى أوتيته وحياً، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

وقد تعهد الله العلى الكبير بحفظه ليخاطب الأجيال إلى يوم القيامة، فقال: ﴿وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أضاف الحفظ إليه سبحانه، فكان ذلك تمكيناً وتوكيداً.

وقد حفظه الله تعالى كما وعد من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيح فأوجب حفظه مرتلاً، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝ ٣٢﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿... وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝ ٤﴾ [المزمل]، وقد علم النبى ﷺ صحابته ترتيله، وعلموه من بعدهم، واقتضى ذلك أن يعتمد فى حفظ القرآن على الصدور، ولا يكون الاعتماد على السطور وحدها؛ لأنه يمكن فيها التغيير والتبديل، والصدور تمنع ذلك، ولا تزال تطلع على طائفة من اليهود، تريد أن تجعله كغيره من الكتب، فيبين حفظه القرآن الكريم إفساد فعلهم الدنىء.

وحفظت شريعته من التغيير والتبديل، فهى قائمة وإن حاول بعض المنافقين الذين يدهنون للحكام تحريفها عن مواضعها بتحليل ما حرم الله، والله من ورائهم محيط.

الكفر كله ملّة واحدة

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي
قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَلَوْ فَحَصْنَاهُمْ بِآبَاءِ مَنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ
﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

إن حقيقة الكفر واحدة، وإن تعددت الأجناس والأنواع واختلفت الألوان، فالإنسان هو الإنسان لا تختلف حقيقته، وإن اختلفت الصور، فالؤمن حقيقته واحدة، وإن اختلف الأزمان، والكفر ملّة واحدة، وإن اختلف الأقوام، فما تراه فى مشركى مكة يرى فى غيرهم ممن مضوا.

ولقد قال مسلياً نبيه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ هنا اسم مفعول محذوف دلت عليه كلمة أرسلنا رسلاً من قبلك، وقد كان لهم ما يكون لك من الذين يعتقدون اعتقاداً باطلاً، ويستمسكون به ويكونون فرقةً وشيعاً يتشيعون لها، فقوله فى ﴿شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾، أى فى جماعات متشعبة لفكرة واحدة، يتعصبون لها ولا يخرجون عنها، وأصل الشيعة من الشيع، وقد قال البيضاوى فى ذلك: «جميع شيعة، وهى الفرقة المتفقة على طريق ومذهب، من شاعه إذا اتبعت، وأصله الشيع، وهو الخطب الصغار توقد به الكبار».

وعبر سبحانه وتعالى بشيع الأولين؛ للإشارة إلى أنهم لم تكن خالية أذهانهم، بل كانت مملوءة، ولكن بزور من الفكر والقول، يتعصبون له على غير بيئة، ويشيع بينهم من غير تفكير، ويتبعوه خلفاً عن سلف، ويقولون: ﴿... بَلْ

نَتَّبِعْ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آيَاتُنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ [البقرة]، فإذا كان محمد ﷺ قد عانى من هؤلاء المشركين الذين يتشيعون لأوثانهم، فقد عانى الرسل قبلك نفس المعاناة من شيع الأولين، فاصبر يا محمد كما صبروا.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال هؤلاء الرسل مع تلك الشيع المتجمعة على الباطل فقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

(الواو) تصل الجملة التى سبقتها بالجملة التى لحقتها، وهى موضع السلوى لمحمد ﷺ من إيذاء الضعفاء أصحابه الذين لا يملكون حولا ولا طولا، ولا جوارا يدفع عنهم، واستهزاء بالدين الحق، وصاحبه وأتباعه، ومعنى الجملة السامية (لا يأتِيهِمْ، أى رسول ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾)، ف﴿مِنْ﴾ هنا صلة لبيان عموم النفي، والاستهزاء به، أى لا يأتِيهِمْ أى رسول فمهما يكن ما عليه من خلق كريم، ومهما يكن ما يأتى به من حق مبين إلا جعلوه والحق الذى معه موضع استهزائهم وسخريتهم، وذلك لفساد عقولهم، وسفه أحلامهم، وكان ذلك اختباراً لصبر الرسل، وقد صبروا.

ويقول الزمخشري: «إن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ حكاية لحال ماضيه؛ لأن (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو فى معنى الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال، ولعل مراده أنهم استمروا على هذه الحال فى الماضى، فالواقع بك من سخريّة واستهزاء هو استمرار الحال وقع بعضها فى الماضى، ويقع الباقي معك، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف].

وإن ذلك شأن الإجماع فى الحاضر والماضى يدخل بالاستهزاء فى قلوب المجرمين، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

والسلك إدخال الشيء فى غيره كإدخال الخيط فى الإبرة، والرمح فى المطعون، والسهم فى الهدف، والضمير فى ﴿نَسْلُكُهُ﴾ يعود إلى الضلال والتعصب والاستهزاء، وهذا كله مفهوم من سياق الكلام، ويصح أن يعود الضمير

إليه على أنه معنى تضمنه القول، والمؤدى على ذلك كذلك الذى كان من السابقين من الأمم الذين سبقوا قومك من الاستهزاء برسلهم، والضلال والحماقة، نسلكه وندخله فى قلوب المجرمين من قومك، وأظهر فى موضع الإضمار، لوصفهم بالإجرام فى هذا المسلك الذى سلكوه سيرا على نمط ماضيهم من المجرمين، فالإجرام متصل الحلقات بعضها آخذ بحجز بعض، لا يفصل عنه، ولا ينقسم عنه.

وإن هذه الأخلاق من كفر وضلال وتعدّ على أهل الحق إذا سلكت فى قلوب أصحابها، لا ينفضون عنها ولو تطاول عليهم الأمد؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى الذكر، وهو الحق الذى يوجب الإيمان، وهذه الجملة مقررة لما قبلها؛ لأنه إذا كان الباطل قد دخل فى قلوبهم دخول الخيط فى المخيط، فإنه لا يمكن أن يجتمع والحق فى قلب واحد، فلا يمكن أن يؤمنوا بالذكر الحكيم، ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾، أى مضت سنة الأولين أى طريقتهم.

وفى ذكر هذه الجملة السامية ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إشارة إلى أمرين: إلى استمكان الكفر والضلال فى نفوسهم، وقراره فيها، وأنه لا رجاء لمن كان على هذه الحال، والثانى إشارة إلى مآل أولئك الماضين من هلاك وعصف بهم، وإذا كان ذلك ما ناسب الماضين، فما يناسب الحاضرين هو سلم مخزية بعد حروب مجلية مع الحق.

وإذا كان ذلك ما كتبه الله تعالى عليهم كما كتب على من سبقوهم، فلا تظن أيها الرسول الأمين أن كفرهم لنقص فى المعجزة التى جئتهم بها، إنما ذلك لأنهم صدوا عن الحق، فلو جئت بالمعجزات التى لا يمارى فيها العقلاء لماروا فيها، وادعوا ضلال أبصارهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٥).

طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة، وأقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، ولو جاءتهم لا يؤمنون، فאלله تعالى يبين أنهم لو رفعهم إلى الملائكة وفتح لهم بابا يرتفعون إليه، فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤)، أى فتحنا عليهم فرجة من السماء واتجهوا إليها فاستمروا فيها يرتفعون بها صاعدين إليها، حتى يروا الملائكة عيانا بياناً، ما آمنوا ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، أى سحرت أعيننا، أو سدت علينا مسام الإدراك، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ الإضراب للترقى فى الحكم من سحر أبصارهم إلى سحر كل أجسامهم، وليسوا أحاداً بل إنهم قوم مسحورون.

وهكذا تجد الكفر قد استقر فى قلوبهم فلا يؤمنون بأية آية ولا يصدقون أى دليل، فذرهم فى غيهم يعمهون ولا تلتفت إليهم ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ (١٢٥) [النحل].

بدائع الخلق والتكوين

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ
فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا الْكُرْمَ فِيهَا
مَعْيِشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُمْ بَرَزَقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ
لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ

يَخْزِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ مُنْتَهُى، وَنُؤْمِتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
 وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٢٤﴾
 وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

بعد أن ذكر سبحانه حال الجحود الذى استمكن فى قلوب المشركين حتى صاروا بحال يكذبون لها حسهم، وأنهم إذ كذبوا القرآن عنادا وجحودا، فإنهم يكذبون كل شئ مهما يكن مرثيا رأى العين، حتى إنهم لا يقتنعون بما يراه حسهم، فلو عرجوا إلى السماء لأنكروا وقالوا: إن أعيننا سكرت، وصرنا حيارى كالسكارى، وإن محمدا خيّل إلينا ما لم نره.

بعد هذا أخذ يبين - سبحانه - عجائب التكوين فى خلقه، حتى إن هذه المخلوقات تعلن بالبداهة عن منشئ الكون، وأنهم إذ ضلوا عن هذا، فإن شيئا لا يقنعهم من بعد هذا الضلال.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦)، ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرناها بعد أن أنشأناها وأبدعناها على غير مثال سبق، و(البروج) جمع برج، وهو القصر، والمنزل، والبروج هنا منازل النجوم، أى أن كل نجم فى منزله الذى أحله الله تعالى فيه، وارتبط بغيره عبر هذا الوجود، بحيث يكون كل نجم فى مكانه ومداره لا يحول عنه ولا يحور، وكأنها مبنية بناء محكما لا فروج فيها ﴿... وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) [ق] فالارتباط بينها ثابت بما يسمونه الجاذبية التى تشد بعضها ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦)، أى أنها فى منظرها وإحكامها زينة فى ذاتها، وجعلها الله تعالى بهجة للأعين، كما قال فى آية أخرى، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ...﴾ (٥) [الملك]، وكما قال تعالى فى سورة «ق»: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) [ق].

وإن الله سبحانه وتعالى بناها ذلك البناء المحكم الدقيق الذى ارتبط ارتباطاً وثيقاً، وحفظها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧)، (الشيطان) هو المفسد العاث، و﴿رَجِيمٍ﴾ بمعنى مطرود ملعون مبعذ عن رحمته سبحانه وتعالى، وهذا التعبير السامى فيه إشارة واضحة إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون العظيم، وحفظه من أن يتطرق إليه فساد أو عبث عاث.

ومن هم الشياطين الذين حفظ الله السموات منهم، ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم مرجومون مطرودون من رحمته ملعونون؟ لم يبين من هم، ولم يرد فى السنة من هم، فلنكتف بما بين، غير متزيدين على كتاب ربنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٨).

الاستثناء هنا يصح أن يكون منقطعاً عند بعض المفسرين، ويكون المعنى لكن من استرق السمع، وعلم بعض الأمور التى لا يصح إعلانها من أسرار هذا الكون السامى، ولا يكون ذلك إلا بتقدير الله تعالى.

وعندى أن الاستثناء متصل؛ لأن (الفاء) فى قوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ وهى تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها تبعد أن يكون الاستثناء منقطعاً، وإذا كان متصلاً يكون المعنى حفظه سبحانه من كل شيطان مرجوم أن يتناول فيعبث، وأقصى ما يصل إليه أن يسترق السمع، أى أن يأخذ معلومات عن طريق الخفية كمن يسترق السمع، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٢١٢).

[الشعراء].

وإن هذا الذى يكون كمن يسترق السمع، ويتخذ ذلك طريقاً لمعرفة ما لم يعرف، لا ينجو، بل ينزل الله تعالى عليه ما يحرقه، قبل أن يكشف علم ما نهى عنه؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ والشهاب كوكب مضىء، كما قال تعالى: ﴿... فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (١٠) [الصافات] فهو نار مشتعلة أو شعلة مضيئة، ويقول ابن عباس: تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع، فينفرد منها، فيرمى بالشهاب.

وإن هذا لتصوير حكيم لحفظ الله السماوات من أن يكون فى السموات مفسدون، كما فى الأرض من يفسد فيها، وهم شياطين خارجون عن الطاعة كشياطين الإنس والجن فى الأرض.

وقد فهم بعض الناس من هذه الآية أنها تشير إلى علم النجوم، وعلم حركاتها، وتعرف أسرار الحظ من هذه الحركات، ولكننا نقول: إن الآية الكريمة بمنأى عن هذا، والله سبحانه وتعالى أعلم بالكون ظاهره وباطنه.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بدائع خلقه فى السموات وصيانتها من كل عابث، وحفظها إلى ما شاء الله تعالى أن تبقى، وبعد ذلك أشار إلى نعمائه على أهل الأرض فيما أنعم فقال تعالت كلماته:

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾.

﴿مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها ليسهل الانتقال فيها، والإقامة فى أجزائها، وتبدو مبسطة سهلة مع أن تعاقب الليل والنهار يدلان على أنها تدور حول الشمس، وأنها كرة سابحة فى الفضاء بقدر معلوم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٢٠﴾ [النازعات]، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات]، فكان خلق الأرض، ومدها، ودحوها نعماً مكنت الإنسان من الانتفاع بها، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. رواسى جمع راس أى ثابت، يثبت الأرض بشقله، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبا].

وإنه من تلاقى السماء الدنيا بالأرض يكون المطر الذى ينبت به كل شىء، وكما قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۝٣٠﴾ [الأنبياء]، فمن هذا المطر يكون الغيث الذى ينبت به النبات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وموزون معناها مناسب مقدر بقدره الذى يكفى أهلها، ويجعل إقامتهم فيها طيبة راضية، وقد وزنها خالق كل شىء ولتكون للأحياء عليها غير

منقوصة، بل كاملة تجعلهم فى بحبوحة وسعادة كاملة لو أحسنوا فيما بينهم، ولعل فى ذلك ردا على الذين يدعون إلى نقص سكان الأرض بدعوى أن الأرض ضاقت بمن فيها، وكما قال الذين يريدون أكل الشعوب الضعيفة وإبادتها، أو أن تكون طعما لهم أن الإنسان تكاثر نسله، فليحد ذلك التكاثر، إن بكر الأرض والماء اللذان لم يستغلا أكثر وفرا وأدر خيرا، إن خالق الإنسان هو الذى جعل النبات بقدر موزون، وهو الخلاق العليم.

ثم بين سبحانه المخلوق، ووزن حاجته فقال تعالت كلماته:

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۖ﴾ (٢٠).

وجعل لكم فى الأرض معاش، أى مكنكم من أن تتخذوا معاش لكم من طعام موفور، وثياب سابغة، وماوى تأوون إليه، مكنكم سبحانه وتعالى، لكم ولأولادكم، وكل من يكونون فى عيالكم، والضعفاء الذين تعاونونهم، مكنكم من هذه المعاش ومكن حيواناتكم الأليفة من الرزق، وعبر عن هؤلاء الأتباع بقوله: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾، أى أتباعكم الذين لا ترزقونهم أنتم، بل الله تعالى هو رازقهم، ليعلموا أنهم لا يرزقون أولادهم حتى يقتلوهم أو يؤذوهم، بل الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وقد قال البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ «يريد به العيال والخدم والماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظنا كاذبا، فإن الله يرزقهم وإياكم، وفذلكة الحياة الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء فى الوضع محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة، وطبيعة، مع جواز ألا تكون كذلك على كمال قدرته، وتناهى حكمته، والتفرد فى الألوهية، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم من ذلك ليوحده».

ولقد ذكر سبحانه وتعالى أن كل شىء عنده بمقدار، وأن كل شىء عنده

خزائنه، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۖ﴾ (٢١).

(إن) هنا نافية، و(من) صلة لبيان عموم النفي، والمعنى ما من شيء إلا عندنا علمه، والمكان الذى يكون منه، ونحن الذين نظهره إن أردناه ولا ننزله إلا بقدر معلوم.

فالمراد كمال السلطان، وإحكام الخلق والتكوين، وبسط الرزق، وتقديره، الله يسط لمن شاء ويقدر، وقد يعطى العاصى إملاء له ليكون عقابه، وقد يمنع التقى اختباراً لصبره ورجاء ثوابه، وكل له ثواب وجزاء، فالعطاء بيد الله، والتعبير بقوله تعالى: ﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ مجاز عن علمه سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء، وبأنه سبحانه وتعالى الموزع للأرزاق، وأنه المختبر للناس بعطائه ومنعه، فهو يختبر من يعطيه بالعطاء ليكفر النعمة أو يشكرها، ويختبر من يمنعه ليصبر أو يجزع، وكل بقدر معلوم، لا يكون عفواً من غير تقدير، بل بإحكام وتدبير.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض أسباب الرزق فقال تعالت كلماته:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٢٢).

أرسلها أطلقها، والرياح بالجمع، ولواقح جمع لاقحة، وفى تفسير لاقحة نظران أحدهما - أنها محملة بالماء أو مثيرة للسحاب المحملة بالماء، كما قال تعالى: ﴿... وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢) [الرعد]، وكأنها شبهت بالحامل لإثمارها وإنجابها؛ وذلك لأن المطر يتكون من بخار الماء، ويتكاثر حتى يصير سحاباً، والرياح تحرك هذه السحب من مكان إلى مكان حيث تصادف جواً بارداً، فتتزل أمطاراً، ويزكى ذلك النظر قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ فذكر الماء بعد ذلك دليلاً على أنها تثير السحاب المملوء بالماء، وذلك ما سوغ وصفها باللواقح. والنظر الثانى - أن تكون الرياح حاملة بذور التلقيح للأشجار فهى تحمل بذور الذكورة أو الأنوثة، وعندى أن النظرين يمكن الجمع بينهما، إذ لا تعارض، فالرياح لواقح باعتبارها حاملة أسباب اللقاح، كما

يلقح فحل الحيوان أنثاه، وباعتبارها مشيرة للسحاب الثقيل المملوء ماء، وينزله الله تعالى حيثما أراد وفي أى أرض شاء، فإنه لا تخرج حركة عن حركة إلا بإذنه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، (الفاء) هنا لبيان أن ما بعدها سببا لما قبلها، أى أنه بسبب هذه الإثارة التى أثارتها الرياح أنزل سبحانه وتعالى الماء من السماء، ليسقى الزرع والغراس، والأعشاب التى يكون منها طعام الإنسان والحيوان، وكل ما يدب على ظهر الأرض.

والسببية هنا ليست سببية فاعلة أو باعثة إنما هى سببية اقتران، و(جعل)، أى جعل الله تعالى هذا سببا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، (الفاء) عاطفة على (أنزلنا)، وجعل الخطاب بالسقى للناس مع أنه لسقى الزرع والعشب والأشجار والإنسان؛ لأن سقى الإنسان أعظم وأقوى؛ ولأن سقى ما عدا الإنسان هو للإنسان فى غايته ونهايته، فكان الإسقاء للإنسان فى الابتداء والانتهاء، ولكنه يكفر بنعم الله تعالى: ﴿... إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٤) [إبراهيم] ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الباء) فى قوله تعالى: ﴿بِخَازِنِينَ﴾ لاستغراق النفى، أى أنتم ليس لكم أى عمل فى خزن هذا الماء فى السحاب، وكأنه شبه السحاب بمخزن للماء خزن فيها؛ إذ يخرج من الأرض بخارا ثم يتكاثف فيها ثم يوزعه سبحانه وتعالى فى الأرض بتصريف الرياح، أى ليس أحد منكم معشر الناس بخازن هذا الماء ومصرف الرياح به وموزعه فى كل بلد حسب حاجته، وحسب عطاء الله تعالى له، سبحانه إنه هو الخلاق العليم.

وإن الله سبحانه وتعالى هو المنشئ، والقائم على كل ما خلق، وهو الذى يبدأ الإبقاء والإفناء؛ ولذا قال: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنَمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٢).

أكد سبحانه أنه هو وحده المحيى والميت أكده بضميره الأعظم، وأكد به نحن، وهو تأكيد لفظى، وأكد باللام، وأكد الإحياء ولم يؤكد الممات؛ لأن الإحياء غير مرئى، وإنما تظهر آثاره فى الحياة، ولم يؤكد القرآن الحكيم الممات؛

لأنه مرئى محسوس، يرى كل يوم، فما لا يظهر للحس وهو الإحياء أكده، وما يظهر للحس الحس يؤكد، وقد أخبر سبحانه أن الجميع بعد الموت يقول إليه سبحانه وتعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ فالجميع يثول إليه كما يثول الميراث للوارث.

وإن الله هو الذى أحيا، فهو الذى أنشأ الكون كله، وهو الذى أنشأ الإنسان من سلالة من طين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ [المؤمنون].

وإن قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ يومئى إلى ما صرح به سبحانه وتعالى، من البعث فى الآية التى تلونا، والآيتان تشيران إلى أن من أحيا وأمات قادر على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]، ﴿... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾ [البقرة].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)﴾.

﴿الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾، السين والتاء للطلب، وكذلك فى ﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾، ومعنى السين والتاء هنا طلب الإيغال فى التقدم والإيغال فى التأخر، فالذين تقدموا إلى أبعد التقدم، والذين تأخروا إلى أعظم التأخر فى علم الله تعالى، وعلمه الماضى والحاضر على سواء، ولقد أكد علمه بالتقدم، وعلمه بالتأخر بأبلغ المؤكدات، فأكد باللام وبقد وكلاهما لتأكيد التحقيق.

والمتقدم يشمل المتقدم فى الخلق والإحياء والموت، والمتأخر كذلك، كما يشمل المتقدم فى الطاعة والإجابة والمتأخر فيها، والله سبحانه عليم بكل ذلك فى ميفاته، وإذا كان عنده علم ذلك، فهو يعرف أين يكونون وفى أى زمان كانوا ويكونون، وعلى أى حال هم أكانوا رميما، أم كانوا فى حجارة أو حديد، كما

قال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء].

وإذا كان يعلمهم جميعا، فإن البعث لهم جميعا، وسيحشرهم إليه جميعا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾.

إن ربك خالقك ومربك والقائم على شئون كل حي، العليم بأدواره من يوم وجد حيا إلى أن يرأس ميتا، فالتعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾ تذكير بالتكوين واستمرار القيام على ما كون ومن كون، والضمير ﴿هُوَ﴾ للدلالة على أنه هو الذي أنشأ وهو الذي يحشر، فهو حجة على الإمكان، وأن ذلك لا يستحيل، لأنه أوجده أولا، فهو يعيده ثانيا، و﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، أى يجمعهم، وعبر بـ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ للدلالة على كثرتهم ولقائهم فى وقت واحد؛ لأن جمعهم كذلك فى وقت واحد، ويكونون أمام الله تعالى فى يوم واحد هو يوم تقوم الساعة وإن ذلك من دواعى حكمته، وعلمه الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض، ولا فى السماء؛ ولذا قال تعالى فى مقام الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، أى أن ذلك اقتضته حكمته. كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون] وهو عليم أين يكونون، وعلى أى حال، ولو كانوا حجارة أو حديدا فسيعيدهم، إنه عليم بكل شئ.

قصة خلق الإنسان والجن

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

مِنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٦٦ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ

السَّمُومِ ۝٦٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن

صَلَّصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن
 رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
 أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾
 قَالَ يَبْنَئِ بَلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ
 لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلَّصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ
 فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ
 الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
 مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
 أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ
 اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

ذكرت قصة خلق الإنسان وإبليس قبل ذلك، وليس في ذكرها الآن تكرارا
 لما ذكر أولا وثانيا، بل إن لكل واحدة عبرة في ناحيتها، وكلها يشترك في أمرين
 ثابتين، وهو أن الله تعالى كرم الإنسان، فجعله فوق الجن والملائكة، إن استقام
 على طريقه، والثاني أن الله تعالى كرمه منذ بدء الخليقة وفي كل مرة من ذكر
 القصة تفصيل لأمر لم يكن في المرة الأخرى، ففي مرة ذكرها في سورة
 الأعراف، كيف كان الإغواء وإصراره عليه، ونتيجة هذا الإغواء، وفي السابقات لم يكن
 تصريح بهذا، ولنرو القصة الحق، كما نتلوها من القرآن الكريم.

ذكر سبحانه وتعالى خلق الإنسان، فقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٦) الصلصال هو الطين اليابس، وروى ذلك عن ابن عباس، وقال مجاهد: هو الطين المتين، أى الطين العطن وذلك بيان لصغر أصل الإنسان حتى لا يستكبر ويغتر، ونحن نميل إلى رأى ابن عباس رضى الله عنهما وقوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ الحمأ: الطين، و(من) ابتدائية، أى خلقناه من طين يصلصل، ﴿مَّسْنُونٍ﴾، أى شكل بأى شكل، وليكن شكل إنسان.

هذا خلق الإنسان أو أصل مادة تكوينه، أما الجن فقد قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السُّمُومِ﴾ (٢٧) والجان الجن الذى منه إبليس اللعين، والسموم الرياح الشديدة الحرارة التى تنفذ فى المسام، وذكر أنه كان من قبل خلق آدم بدليل أن إبليس أمر بالسجود لآدم.

وهنا فى هذا النص لم يذكر آدم على أنه خليفة فى الأرض، وذكرت هنالك المفاضلة بينه وبين الملائكة فى العلم ولم تذكر هنا، ولا تعارض بل توافق من غير مقابلة مضادة.

ويقول سبحانه وتعالى فى طلب السجود: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، أى شكلته على الخلق سوى فى أحسن تقويم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ قال سبحانه بعد قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٨)، وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ معناه خروا له ساجدين، سجود إجبار وتكريم لا سجود عبادة، فالعبادة لله تعالى وحده لا شريك له، ويقول الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو ليحصل ما يحيا به فيه، وحاصل هذا أن ذلك تصوير للروح إذ تدخل الجسم ويحيا بها الإنسان حياة محس مدرك، ويقول البيضاوى فى قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ «حتى جرى آثاره فى تجاويف أعضائه، وأصل النفخ إجرء الريح فى تجويف جسم آخر، ولما كان الروح يتعلق أولا بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، ويفيض عليه القوة الحيوانية، فيسرى حاملا لها فى

تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن جعل تعلقه بالقلب نفخا فيه، وإضافة الروح إلى نفسه لما مر في (النساء)، والمعنى أن الله نفخ من روحه هو تصوير لخلق الحياة، وإضافتها إليه سبحانه وتعالى لأنه خالقها ومنشئها، وليس ثمة نفخ، وإنما هو تصوير للمخلق والتكوين، وعلى هذا يكون معنى نفخنا فيه من روحنا، فليس فيها دلالة على أن عيسى من روح الله كما أن آدم ليس من روح الله، وإنما هو من خلق الله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٢٠)﴾ تأكيدان بلفظين للسجود جميعهم، أحدهما بقوله: (كلهم)، وثانيهما بقوله: (أجمعون)، فقد سجدوا سجوداً مؤكداً لم يمتنع منهم أحد، وذلك لتكريم آدم، وفي سورة البقرة بيان لسبب التكريم.

وقد استثنى الله تعالى إبليس من الساجدين فقال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٢١)﴾، والاستثناء هنا منقطع على أن إبليس لم يكن من الملائكة، وكلهم كان مطالباً بالسجود الذي طولبوا به، وإذا كان منهم أو داخلاً في عمومهم فإن الاستثناء يكون متصلاً، وقد ظهر بهذا تمرد شذوذه، أما تمرد وخروجه عن الطاعة فلأنه أبى، وقد أمر بالسجود، وأما شذوذه، والشذوذ ومجابهة الجموع بالباطل أساس الانحراف، فقد أشار الله تعالى إليه بقوله تعالى: ﴿أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

خاطبه الخالق جلّت قدرته قال: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٢٢)﴾ والمعنى أن رب الوجود ومنشئه سأل عن المسوغ الذي سوغ له ألا يكون مع الساجدين، أى شيء أثبت لك وسوغ ألا تكون مع الساجدين، مع أن سجودهم كان يستحقك على أن تسجد مثلهم.

فأجاب إبليس قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٣)﴾ والنفي نفى وجود، أى لم يكن من شأنى أن أسجد لبشر خلقته

من طين، وفى معنى هذا إجابته فى سورة أخرى ﴿... أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف] وكان هذا الذكى فى غفلة؛ لأن خالق النار هو الذى أمره بأن يسجد، وهو أعلم بمن خلق.

كان هذا تمردا، وغرورا، ومعارضة لما أمر الله تعالى؛ ولذلك أمره الله تعالى بأن يخرج مذهباً مدحوراً، فقال له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ الضمير فى منها يعود إلى الجنة، ورجيم معناها مطرود مرجوم بالحجارة، وسجل الله عليه اللعنة إلى يوم الدين فقال تعالت كلماته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣٥) من هنا ابتدأت المعركة بين الإنسان وإبليس اللعين، وصارت العداوة بين عنصر الخير الملكى وعنصر الشر الإبليسى، وقد طلب إبليس أن يؤجل إلى يوم يعيشون قال إبليس: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْعَثُونَ﴾، (الفاء) فى فأنظرنى فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كنت قد طردتني من رحمتك، ولعنتني، فأجلني إلى يوم يعيشون لأكون أنا وهم على سواء نجازى بما ترى من جزاء.

أجابه الله تعالى إلى طلبه فقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إلى يوم الوقت المعلوم (٣٨)، (الفاء) أيضا تفصح عن شرط مقدر، أى إذا طلبت التأجيل، فإنك من المؤجلين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس ما كسبت، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وسماه سبحانه وتعالى ﴿الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ﴾؛ لأنه وقت قدره الله تعالى، وهو معلوم عنده، وإن لم يكن يعلمه الناس، ولا يجليها لهم إلا لوقتها.

أخذ إبليس المرجوم الملعون المطرود من رحمته يستعد للقيام بما أوجبه على نفسه حسدا وكبرا لآدم وذريته ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) أقسم إبليس لأزينن لبنى آدم، ولأغوينهم أجمعين، أى أنه يستبدئ بأن يزين لهم الشر ويحسنه، وأول (الشر) استحسانه، ثم يأخذهم إلى الضلال عن طريق ما يستحسنون ويشتهون، والإغواء: الإضلال.

والغرور فى الدنيا يتدئ بتزيين الشيطان لها، وحتى يغتروا بها ثم يكون بعد ذلك الضلال، وقد أقسم على ذلك ولم يحث فى قسمه، وقد ابتدا كلامه بقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وهو أولا نادى بقوله: ﴿رَبِّ﴾ شعورا بالربوبية، وقد علمها وضل على علم؛ لأنه لم يطع ربه وقال: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، أى بسبب أنك أغويتنى، وسمى ترك الله تعالى له ليضل إغواء له، مع أنه هو الذى اختار المخالفة والعناد، وإن الله تعالى لا يهدى من اختار سبيل الشر وسار فيه.

وهكذا تجد إبليس حسد آدم، إذ أمره الله تعالى بالسجود فامتنع حسدا وعنادا وحسدا ذرية آدم؛ لأن الله تعالى تركه حتى غوى وضل فأراد إغواءهم، كما غوى.

وقد أدرك إبليس أنه لا طاقة له لإغواء المخلصين منهم فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٤٠)﴾، أى الذين أخلصوا لطاعتك، وخلصت نفوسهم من شوائب الهوى، وتزيين الدنيا.

وهنا نجد أن الاستثناء كان من قوله: ﴿وَلَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهو استثناء من مؤكد، والاستثناء من عام مؤكد بقوله أجمعين دليلا على أن الكثرة هى التى استجابت لإغوائه، والقللة أخلصت لله تعالى.

وإن إبليس يذكر أن العباد المخلصين لا يغويهم، فيقول: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، الإشارة إلى الاستثناء، وهو أنه لا يقوى على عباد الله الذين أخلصوا لله تعالى، وصاروا له تعالى وحده. والصراط المستقيم هو الطريق السوى، أى أنه لا يضل إلا من يتبعه أما من لا يتبعه، ويكون لله، فإنه لا يغويه ولا يضله، وفى الحق أنه لا يستطيع أنه يغويه، فإنه لا يقوى على إغوائه، وإن كانوا كثرة.

وقد أكد الله تعالى أن عباده المخلصين ليس له عليهم سلطان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤١)﴾.

عباد جمع عبد، والعباد جميعا مضافون لله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم، وأنشأهم فهم فى قبضة يده سبحانه وتعالى، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أى ليس عندك قدرة إضلالهم، ولا حجة تسوغ ضلالهم إلا أن يسبقوك بالضللال فيتبعوك من غير حجة ولا برهان، كما قال هو فى التخلص من ذنوبهم: ﴿... وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي... (٢٢)﴾ [إبراهيم] فهم ضالون لم ينهجوا سبيل الرشاد؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، أى الضالين ابتداءً.

عذاب أتباع إبليس

وبين سبحانه جزاء الغاوين فقال:

وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

أقسم إبليس اللعين ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقرر الله تعالى العلى أنه لا يتبعه إلا الضالون، بعد ذلك أن جهنم موعدهم أجمعين، كأنهم اتفقوا جميعا على مكان يلتقون فيه تحقيقا لوعده وعدوه بمبادلة التزيين والإغواء؛ ولذا قال تعالى مصورا ذلك اللقاء فقال تعالى: ﴿وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)﴾، وفى ذلك من التهكم بهم، وكأنهم فى أخذهم بأسباب استحقاقهم لجهنم ودخولهم فيها، كانوا قد اتفقوا على موعد يلتقون فيه جميعا، وهو جهنم نار الله الموقدة.

وقد أكد سبحانه دخولهم جهنم بـ(إن) المؤكدة والجملة الاسمية، و(اللام) فى قوله تعالى: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وبالتأكيد اللفظى فى قوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وقد قلنا: إنه يفهم من القول وإشاراته البانية أن عدد العصاة أكثر، وعدد الأبرار أقل؛ لأن الأبرار هم صفوة الإنسانية، والصفوة من كل شيء أقله وليس أكثره.

ولكثرتهم كثرت أبوابها لتسع لهم في دخولها؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٤) فبعض المفسرين فهم أن السبعة عدد حقيقى، وأنهم فى جهنم مراتب حسب هذا العدد وعلى مقدار ذنوبهم، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أى أن كل طبقة من طبقاتها لها باب قد قسم لها جزء من المعذبين يدخلون فيه من غير سلام، بل مدفوعين، ملقون فيها كما تلقى أهمال الأشياء.

وقد ذكر هذا الفريق من المفسرين طبقات النار، وهى جهنم، ثم لظى ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الحميم، ثم الهاوية، ويقول البيضاوى فى توضيح هذا رأى: «ولعل تخصيص هذا العدد لانحصار المهلكات فى الركون إلى المحسوسات، ومتابعة القوة الشهوية، والغضبية لأن أهلها سبع فرق لكل باب منهم من الأتباع جزء مقسوم أفرز لها، فأعلاها للموحدين العصاة، والثانى لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين».

وإنا لا نوافق العلامة البيضاوى ومن نقل عنه:

أولاً: لأن ذلك لا يعلم إلا بالتوقف.

وثانياً: لأن عصاة المؤمنين ليسوا داخلين فى الذين تواعدوا مع إبليس على أن يكون موعدهم جهنم؛ ولأن هذه الأسماء أوصاف للنار، وليست أقساماً لها.

وعندى أن العدد سبعة يذكر فى اللغة العربية للدلالة على الكثرة لا على خصوص العدد سبعة.

جزاء المتقين

قال الله تعالى:

إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ
﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

هذه نعم المتقين، والمستقون هم الذين جعلوا بينهم وبين الشر وقاية، واتقوا غضب الله تعالى، وعملوا على إرضائه وجانبوا الفواحش، ووسوسة إبليس، وقد ذكر الله تعالى لهم نعماً أربعة أولها: نعيم مادي، وثانيها: أمن وسلام واطمئنان، وثالثها: راحة لا نصب فيها، ورابعها: بقاء وخلود.

أما النعمة الأولى وهي المادية فهي المبينة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤٥﴾، فهي حدائق ذات بهجة للناظرين، فيها من كل فاكهة وما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وما لم يخطر على قلب بشر، وفيها الأنهار التي تجري من العيون الوفيرة بالماء، والماء نعمة بما فيه من رى، وبمنظر يجري، وما يحدث من خضرة.

والنعمة الثانية: الأمن وإقرار السلام، وهذا أشار سبحانه وتعالى إليه بآيتين كريمتين هما قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ ﴿٤٦﴾، والثانية قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿٤٧﴾.

أما الأولى: فإن الملائكة يطلبون إليهم أن يدخلوها بسلام يجمعهم فيها سلام، حال كونهم آمنين من الأشرار وأسقام النفوس ومدافعة الأعداء، فلا

حرب، ولا خصام ولا نزاع من نوع ما كان يجرى فى الأرض، وهناك راحة نفسية، وهى أبرك النعم بعد الأمن، أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧) نزع الله تعالى ما فى النفوس من الغل الذى يتكون من الحقد، والحسد وحب الاستعلاء؛ لأنه سبب فى شقاء الدنيا، فالناس يشقون إذا ملأ الحقد والحسد قلوبهم، فالحاسد فى هم دائم، وتعب ملازم، وكلما تكاثرت النعم على المحسود تفاقت النقم على الحاسد، ومن كان فى قلبه حقدٍ أوجب انتقاما، فهو يضم بين جنبيه نارا تلهب دائما، وتؤجج أضغان القلوب.

وقد صور النفوس المطمئنة فقال: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، أى جالسين على سرر جمع سرير، متقابلين بوجوه مقبلة فرحة مستبشرة، وهذه نعمة أخرى من أجل النعم الإنسانية وهى نعمة الأخوة والمحبة المتوادة المتراحمة، ويروى أن المجاهد الأعظم بعد رسول الله عليا كرم الله وجهه عندما قرأ هذه الآية قال: «أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم» رضى الله تعالى عن أولئك الأطهار، ولعن الأشرار الذين بثوا بينهم وتاب على من هو أهل للتوبة منهم.

والنعمة الثالثة: نعمة الراحة، وعدم المغالبة، وقال فيها: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾، أى تعب، بل فيها الراحة المطلقة للجسد، والسرور النفسى المستمر، ونعمة المحبة والمودة والصفاء، وتلاقى القلوب.

وإنها نعم لا يخشى فواتها، بل هى خالدة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ ذكر الضمير ﴿هُمْ﴾ لتأكيد القول، وقدم ﴿مِّنْهَا﴾ للدلالة على نعماتها وجلالها، ونفى الوصف ﴿بِمُخْرِجِينَ﴾ للدلالة على أنه لا يمكن أن يوصفوا بأنهم مخرجون، فهو نفى للإخراج بأبلغ وجه، أى ليسوا من شأنهم أن يخرجوا؛ لأنه مقيم فاض الله تعالى به عليهم بسبب تقواهم وبرهم وهو الكبير المتعال.

الله غفور رحيم، ومنتقم جبار

قال الله تعالى:

نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٤٢﴾

الخطاب للنبي ﷺ، وهو تقريب لمن في قلوبهم رجاء الإيمان، وترهيب لمن يصرون على الشر إصرارا، والتنبيه بالإخبار بالأخبار الخطيرة ذات الشأن، وأى خطر أعظم من أن يكون منعنا لليأس من رحمة الله تعالى، وأعظم من منع يستمر في غيه، سادرا عن طريق الله تعالى.

﴿نَبِيَّ عِبَادِي﴾ أخبرهم ذلك الخبر الخطير في ذاته، الدال على عظمة الخالق في رحمته وفي عذابه ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أكد سبحانه وتعالى هذين الوصفين لذاته بـ(أَنَّ)، وبالضمير، والصفتين المشابهتين، فهو سبحانه يغفر لعباده لمن تاب وآمن وعمل صالحا، وإنما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة، ثم يتوبون من قريب، ويدعوهم سبحانه لأن يتوبوا ليغفر، فيقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...﴾ ﴿٥٢﴾ [الزمر] وإن هذا الغفران من مقتضى رحمته لأنه يريد لعباده أن يكونوا أطهارا وأن يموتوا أطهارا، ومن تدنس من أدناس العصيان يطالبه بأن يرحضه عن نفسه، ليغفر له برحمته، ويريد من عباده أن يعلموا الصبر والشكر نهاية أعمالهم في الدنيا.

وإذا استمروا في غيهم ولم يتوبوا إلى ربهم، فليرتقبوا عذابه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ﴿٥٠﴾، أى العذاب المؤلم الذى يكون شديدا، قد أكد سبحانه وتعالى شدة عذابه بالضمير ﴿هُوَ﴾، ونسبة العذاب إليه، وقصر الإيلام على عذابه، أى أن عذابه أليم فى ذاته، وكأنه لا إيلام فى غيره بجوار إيلامه.

وإن الله تعالى يعلمنا كيف نربي النفوس ونهذبها، فهي تربي بالرفق من غير شدة، وبالإرهاب من غير تربية لليأس، وبالعقاب حيث يجب، فلا تربي بالعطف الدائم ولا بالعذاب الذي لا رجاء فيه، وكذلك علّمنا ربنا، وكذلك كانت أخلاق نبينا، وينبغي أن تكون أخلاق مصلحينا، وأولى الأمر منا، وليس الأمر من يفرضه أعداؤنا، أو من يفرضون أنفسهم علينا.

من قصة إبراهيم وضيضه ولوط وقومه

قال الله تعالى:

وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾
 إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
 لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ
 مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ
 فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيَةِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ
 رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
 ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ
 إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
 الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ
 يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
 بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ

وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ
 دَابِرَهُتُّوْلَاءَ مَقْطُوعٍ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
 يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْقُوا
 اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾
 قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
 يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا
 سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَلسَّبِيلُ مَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

فى الآيات السابقة طلبوا أن ينزل معه ملائكة ليؤمنوا به، وقد رد الله تعالى قولهم بأنه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) [الأنعام]، وفى هذه الآيات التى تلونا نزل ملائكة الله تعالى إلى الأرض فكانوا فى مظهرهم بشرا ورجالا ولكن الروحانية تجعل من يخاطبهم - ولو كان نبيا من أولى العزم من الرسل - يوجل منهم؛ لأن جنسهم غير جنسه.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١)، وضيف اسم جمع، فالمراد العدد الذى أنزل على إبراهيم، وكان كريما مضيفا، ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾، أى نسلم سلاما، وقوله تعالى: ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تدل على معنى المفاجأة إذ لم يكن يترقبهم، وإنهم إذ فاجئوه طمانئوه، فرددوا السلام، وجاءت بالنصب مفعول مطلق لفعل محذوف، أى نُسَلِّمُ سلاما، أبدى إبراهيم ﷺ بالمفاجأة وجهه، وإلحساسه بأنهم ليسوا مثله فقال: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾، أى خائفون لأنهم دخلوا مفاجئين، والوجل: اضطراب فى النفس يحدث خوفا.

قالوا مطمئنن له بعد فرع المفاجأة: ﴿لَا تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق عليه السلام؛ لأنه ذكر في آية أخرى بأن امرأته عجبت لأنها كانت عاقرا وعجوزا، وذلك يعين أنه إسحاق عليه السلام، ووصف الغلام بأنه ﴿عَلِيمٍ﴾ ليتم معنى البشارة، لأنها لا تكون كاملة إلا إذا كان عالما وليس خاملا، وأولئك رسل الله تعالى يتكلمون عنه، وهو لا يعلم الغيب المكنون في لوح محفوظ، كانت المفاجأة الثانية بهذه البشـرى وإن كانت مفاجأة سارة لا توجب وجلا ولكن توجب عجبا؛ ولذا قال: ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسْنِيَّ الْكِبَرِ﴾، ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى (مع) والاستفهام للتعجب فهو تعجب من أن يشر مع الكبر قد مسه، أى أصابه وأحس به وأثر فيه أثره، ﴿فَإِمَّ تَبَشِّرُونَ﴾، أى فبأى خبر عجيب تبشرون؛ وذلك لأن مجرى الأسباب العادية يجعل ذلك متعسرا لأنه شيخ مسه الكبر، وامراته عجوز عقلت فى صدر شبابها فكيف تنجب فى دبر حياتها.

قال الرسل: ﴿بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ الحق هو الأمر الثابت، والله لا يشر إلا بالحق الثابت، فلا تكن من الداخلين فى صفوف القانطين من رحمة الله الذين يحسبون أن الأسباب الجارية بين الناس تُعجز إرادة الله تعالى الفاعل المختار الذى هو خالق الأسباب والمسببات فلا يتقيد بها.

تنبه أبو الأنبياء لرحمة ربه بعد أن نبهوه، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ نفى خليل الله عن نفسه القنوط بإثبات أن القنوط لا يكون إلا من الذين يضلون عن الله، ولا يعرفون قدره، وأنه لا يقيد شىء من خلقه إنه فعال لما يريد.

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الذين ضلوا عن الحق وغاب عنهم.

وإنه بإحساس النبوة، وإيمانها قام فى نفسه أنهم جاءوا لأمر أخطر من هذا، ولذا قال لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، (الفاء) لربط ما بعدها بما قبلها، أى

أدركنا هذه البشارة وحمدنا الله تعالى عليه، وما شأنكم بعدها، ولقد جاءوا عددا فلابد أن يكونوا للبشارة ولغيرها، فسألهم عن شأنهم في غيرها، قالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وصفهم سبحانه وتعالى بالإجرام؛ لأنهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكفر فقد الطبيعة الإنسانية. فشذوا بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين وإذا كانوا قد وصفوهم بأنهم مجرمون، فمؤدى ذلك أنهم جاءوا لإنزال العقوبة بهم، كما صرح بذلك فى آية أخرى فكان لابد أن يتشوف إبراهيم خليل الله لمعرفة مآل ذوى قرابته؛ ولذا قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)﴾، أى أن الهلاك واقع بالمجرمين لا محالة، ما عدا آل لوط فإنهم ناجون منه، واستثناء امرأته؛ لأنها ما كانت مؤمنة بلوط، ونبوته؛ ولذا كان استثناءها من الناجين، فقال تعالى: ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدْ رَأَيْنَا أَنَّهَا كَتُمُ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾ وهنا ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: فى قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَيْنَا﴾، أى كان قدرنا الذى لا ينقض أن تكون غير مؤمنة مع أنها مع نبي من أنبياء الله.

الملاحظة الثانية: وصفها أنها من ﴿الغابرين﴾، أى المجرمين المستحقين للهلاك، وقد أكد أنها منهم بـ (إن) المؤكدة، وبـ (اللام)، وباندماجها فيهم تجمع صفة الموصوفين بالإجرام.

ذهبوا إلى قوم لوط وحكى الله تعالى مجيئهم فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ (٦١)﴾ لم يذكر الله تعالى تحيتهم، ولعل ذلك اعتمادا على ذكر هذه التحية مع إبراهيم، وأهله، ومهما يكن فلم يذكر سبحانه أنهم حيوهم؛ ولذا ذكر أن جواب لوط ﷺ قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ﴾، أى إنكم مجهولون، ولم يكن منكم ما يؤنس بكم، وإنى أخافكم، وهذه فى مقام قول إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ﴾.

وقد أجاب الملائكة بما يلقى بالاطمئنان فى قوله: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٢)﴾ والذى كانوا يمترون فيه هو تهديدهم بالعذاب الشديد إن

استمروا فى شركهم وغيره مما جاء واشتهرت به فاحشتهم، إذ يأتون بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقد جاءوا بالعذاب الذى احتاروا فيه وأنكروه، وقالوا: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، أى الأمر الثابت الذى لا ريب فيه، ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ فى إخبارنا إياك، وأكدوا صدقهم بـ (إن)، و(اللام)، والجملة الاسمية، وإن هذا تأكيد له بأن يذهب عنه الخوف، وإنهم ما جاءوا لإرهابه، ولكن جاءوا لإنزال ما وعد الله تعالى له بنصرته.

ولذا أمره أمر إحاطة ومودة وإنفاذ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥) بأوامر أربعة لنجاتهم:

الأمر الأول: أمرهم بالخروج فى جنح الليل، فالإسراء: السير ليلاً، و(قطع) أى بعد قطع الظلام من الليل، أى فى شدة إظلامه.

والأمر الثانى: أن يتبعوا أدبارهم بأن يخرجوا من طريق لا يواجهونهم فيه بإقبالهم، بل يسرون فى طريق يستدبرونهم فلا يلقونهم.

والأمر الثالث: لا ينظر إلى ما وراءه، فإنه يكون الهول والعذاب النازل بهم حيث تقشعر من هوله الأبدان.

والأمر الرابع: أن يمضوا حيث يؤمرون بوضع النجاة، ويقىمون حيث يكونون بعيدين عما أصاب أولئك الذين طغوا فى أنفسهم، وأفسدوا الإنسانية، والفترة السليمة.

هذا ما أمر به أولئك المرسلون من ملائكة الله الأطهار، لوط ومن معه من الأبرياء، أما ما قضى بالنسبة لهؤلاء الأنجاس الأشرار، فقد أخبروا به فقالوا: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (٦٦)، أى بلغناه وأفضينا إليه بما قضى الله تعالى وقدره، وذلك الأمر العظيم الشأن الخطير فى ذاته، وهو أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

أى مستأصلون مقطوعون، لا تبقى منهم باقية فى صباح تلك الليلة التى نجوت فيها، والتعبير بـ ﴿دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾ فيه إشارة إلى استئصالهم؛ لأن القطع إذا ابتدأ من الإدبار كان دليلاً على استئصالهم جميعهم، وفوق ذلك فيه تصوير لحالهم عند نزول العذاب بهم، والجيش المغلوب الهالك يضرب فى أدبارهم فيكون الهلاك لا محالة، أما الذى يضرب فى وجوههم فإنه يقاتل، فيقتل ويقتل وكذلك نزل غضب الله تعالى بهم، كما نزل بغيرهم من الجيوش المدحورة.

هذا ما كان من أمر رسل الله الأطهار وأمر لوط الطاهر هو ومن معه، وسط أرجاس هؤلاء المفسدين، ولكن ماذا كان أمر أولئك الأنجاس عندما رأوا ملائكة الله ونور الله يحف بهم يسعون فى المدينة، لقد رأوهم فسولت لهم نفوسهم ما هم فيه واستبشروا، فحسبوا أمراً شبعاً لهم، وقد حكى سبحانه وتعالى ذلك عنهم فقال: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧)، ﴿أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ هم أولئك شذاذ الإنسانية، الذين نشروا فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، جاءوا لما رأوا رسل الله الأطهار، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يطلبون البشرى التى توافق أهواءهم، وبدرت بوادر الشر الجهول منهم وأدرك نبي الله لوط ما جال بخواطرهم، وهو بهم عليم: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٦٨) وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) ضيفى يعنى ضيوفى، ولم يخبرهم أنهم الملائكة لأنهم لا يدركون، فكان نبي الله الأريب الذى يذكر لهم ما تدركه عقولهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بأن يكون منكم ما يؤذى هؤلاء، فليذاؤهم إيذاء لى، وخزى وعار، وأنتم جديرون أن تحفظوا جوارى، وإن كنتم فاسقين فى ذات أنفسكم.

ولكنهم الشواذ، وفى هذا الصنف الصفاقة المستمكنة فى نفوسهم، لم تنخهم مروءة؛ لأنها ليست عندهم ولم يخلقها الله فيهم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٠) سول لهم الفساد، والهوى الجامح، والشذوذ فى الطبع أن يلقوا تبعة فجورهم مع الملائكة على نبي الله لوط ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٠) (الوار) عاطفة على فعل محذوف، والاستفهام للإنكار بمعنى نفى الوقوع، ونفى

النفي إثبات، والمعنى تلومنا على إيذاء ضيفك وقد نهيناك عن أن تلقى أحدا من العالمين، وإلا كان لنا معهم ما ترى.

ولا نرى تبجحا من العقلاء غير الفاسدين إلا قول بعض الطغاة، وقد ذُكر بأنه قتل من قال محمد ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»، فقال لمن يحطون على هواه: إنما قتله من أرسله!!.

ضاق نبي الله تعالى لوط بهم ذرعا، فقال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فتزوجوهم شرعا، ويَكُنَّ لكم بحكم زواج صحيح.

هذا أبلغ ما وصل إليه العنت منهم، وأبلغ ما وصل إليه الرفق في القول بهم، ولكن قضاء الله تعالى قد نفذ فيهم جزاء بغيتهم وشذوذهم بإرادتهم؛ ولذا قال تعالى في حالهم عند إنزال العذاب بهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢)، (اللام) في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لام القسم أو الابتداء، و(عمر) مبتدأ وخبره محذوف تقديره قسمي، وهي جملة عربية مشهورة في القسم بعمر من يخاطبه، وهو النبي الطاهر يقسم بعمره المبارك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ جواب القسم، والسكرة هي ضلالة الطغيان فهي تسكر صاحبها فلا يدرك الحق الحق والصواب، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ معناها يتحIRON تائهين لا يدركون حقا، ولا يطيعون رشيدا.

ثم قال في وصف العذاب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) كان بالأرض رجفة شديدة هزت قشرة الأرض وتكسرت، فانخفض بعض أجزائها، وعلا الآخر، وبذلك ابتلعت الأرض ديارهم بمن فيها، ووضح سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (٧٤)، أى أنزلنا الأحجار نزولا متتابعًا كالطرر الدائم المستمر، والسجيل: الطين المتجمد أو طين سجل لهم واقع بهم في كتاب من عند ربهم.

ويلاحظ أنه عبر في قوله: ﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ فعبر بلفظ الإصباح، وهنا في هذه الآية عبر بمشرقين، وكان التعبير الأول مناسباً للآية؛ لأنه كان والملائكة يأمرهم لوطاً والأبرار معه بالخروج، فكان المناسب التعبير بالإصباح باعتباره نهاية الليل.

وعبر هنا بالإشراق باعتباره أول النهار، وهو وقت، إذ المناسب في ذلك أن يستقبلوا النهار المشرق بتلك الداهية الدهيئة التي تجعل نهارهم أسود من قلوبهم المريدة بأقبح السوء.

ولقد ذكر سبحانه ما يدعو المنكرين إلى الاعتبار بقصص قوم، وأشباههم وإن ما نزل بهم هو سبيل دائم مستمر ينزل بالفساق، فيعتبر المؤمنون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾، أى لعلامات واضحة مرشدة، ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أى للمفكرين، الذين يتفهمون الأمور ويتعرفونها بمنطق العقل المستقيم، فيقيسون حاضرمهم على غيرهم، ويعتبرون بما نزل بالسابقين، وأنه نازل بهم إن عملوا عملهم وساروا في طريقهم، واتخذوا طريقهم.

وذلك لأن هذه سنة مستقيمة غير متخلفة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّهَا لَبِيبٌ مَّقِيمٌ (٧٦)﴾ الضمير فى (إنها) يعود على الآيات، أى وإن هذه الآيات ثابتة بطريق مستقيم مقيم لا يتخلف أبداً، فإنها سنة الله تعالى فى خلقه وحكمته البالغة فى أمره؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾، أى إن فى هذا الأمر المذكور بما فيه قصة لوط لآية أى لعبرة للمؤمنين، أى للذين أوتوا قلوباً مؤمنة مذعنة للحق، معترفة لا تمارى فى الحق، ولا تجادل فى الله تعالى، وهو العليم الحكيم.

وهنا ملاحظة أن الآيات ذكرت بلفظ الجمع فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾ وهنا ذكرت بالمفرد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾ فما السر فى ذلك؟.

إن الذى يبدو لنا، أن المتوسمين المتفكرين بين أيديهم الآيات الكثيرة يدرسونها، فكانت الآيات بالجمع موضع الدراسة والفحص، أما بالنسبة للمؤمنين فالأمر فيها هو العبرة، وهى أمر واحد مأخوذ من مجموع الآيات المتضاربة التى هى موضع الدراسة، ومع تعددها العبرة واحدة.

ثمود ومدين

قال الله تعالى:

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَآمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَتْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ
الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

(الأيكة) وهى جماعة الشجر الملف المتكاثف، فهى الغيضة الربعة المثلثة، وجمعها (أيك) وفرق بين المفرد والجمع بالتاء فى المفرد.

﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام، وقد صرح بذلك فى سورة الشعراء، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩)﴾ [الشعراء]... إلى آخر الآيات الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨)﴾، (إن) فيها هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وإن الحال والشأن ﴿كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾، وهذه هى خبر كان، واللام لام التوكيد، أو المرحلة كما يعبر النحويون، وكانوا ظالمين؛ لأنهم أشركوا، وإن الشرك لظلم

عظيم، وكانوا ظالمين؛ لأنهم كانوا يطففون في الكيل والميزان، وكانوا ظالمين؛ لأنهم فتتوا المؤمنين عن إيمانهم، وكانوا ظالمين؛ لأنهم هددوا نبيهم بالرجم، وقالوا: ﴿... وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ...﴾ (٩١) [هود]، وهكذا توالى ظلمهم وتسلسل؛ لأن الظلم يولد ظلماً.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الظلم عاقبته وخيمة، فقال: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّنْ يَّسِّرِينَ﴾ (٧٩).

الانتقام ليس هنا التشفى من الجانى والأخذ بغير حق، بل معناها إنزال العقوبة مماثلة لما ارتكبه، ولأنه كان ظلماً متوالياً، واعتداء مستمراً، فكان العقاب مماثلاً له، وشفاء لغيظ من جنى عليهم.

وإن أولئك ليعرفون أن ذلك أمامهم، فالمثلات بين أيديهم ﴿لِبِإِمَامٍ مِّنْ يَّسِّرِينَ﴾، أى طريق بين واضح ينتهى بما انتهى به الأول، والإمام هو ما يعلن ويؤتم به، وأمامهم المثلات البينة الموضحة، وإن عليهم إذ يعتبروا بغيرهم، ولكنهم ضلوا عن بينة والعقوبة معلومة بينة.

هذه إشارات إلى قصة مدين مع نبيهم شعيب، والجزاء الذين نالوه.

ومثلها قصة أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، وقال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٠) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١).

جاء فى تفسير القرطبي: «الحجر، ويطلق على معان منها حجر الكعبة، ومنها الحرام كما فى قوله، وأنعام وحرث حجر قال تعالى: ﴿... حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (٢٢) [الفرقان]، والعقل كما فى قوله تعالى: ﴿... لِّذِي حِجْرٍ﴾ (٥) [الفجر]، والحجر ديار ثمود وهى المراد منها وهى مدينة بين مكة وتبوك، وهو الوادى الذى كانت تسكنه ثمود، وقد مر عليه النبى ﷺ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك، ونبه جيشه إليه، وإلى ما فيه من عبر، وقد جاء ذلك فى كتب السير، وصحاح السنة،

وروى عن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذر أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (٨٠) مع أنهم كذبوا رسولا واحدا، وهو صالح عليه السلام، والجواب عن ذلك أنه ذكر أن صالحا عليه السلام بعث لهم، وكذبوه، ولكن لا يمنع ذلك أنه بعث فيهم غيره وكذبوا، على أنهم إذا كانوا كذبوهم جميعا فيما يدعوههم إليه من التوحيد، ومكارم الأخلاق فقد كذبوا الرسل جميعا لأن هذه دعوتهم أجمعين، فمن كذب واحدا في هذا فقد كذبهم جميعا.

وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٨١)، أى قدمنا لهم آياتنا الدالة على توحيد الله تعالى وبعثة رسولهم صالح إليهم، وإذا قال قائل: إن المذكور في القرآن معجزة واحدة، وهى الناقة، وقد أجيب عن ذلك بأن الآيات ليست معجزة النبی ﷺ وحده، بل أدلة التوحيد من خلق السموات والأرض، وما يدل عليه ذلك الخلق المتنوع، الذى يدل على الواحد المختار والفعال لما يريد.

وكانوا عن هذه الآيات البينات معرضين عنها.

وإذا كانت المعجزة هى الناقة، فهى آية تتضمن آيات، كما قال البيضاوى، أو معجزاته كالناقة وسقيها وشربها، ودرها، وما نصب لهم من الأدلة.

كذبوا رسولهم، فكذبوا الرسل أجمعين، ومع ذلك كانوا يبنون بيوتهم متينة قوية، حتى إنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا يسكنون فيها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (٨٢)، أى أنهم يفتحونها فى الصخور لتكون مساكنهم آمنة من الهدم أو أن يأتى عليها السارقون أو المغيرون، ويحسبون أنهم بذلك آمنوا أن يأتيتهم عارض يأخذهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْحِينَ﴾ (٨٣)، أى جاءتهم صيحة جعلتهم فى دارهم جائمين، وهذه الصيحة من الله تعالى أحدثت

رجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وقد عبر سبحانه وتعالى بكلمة رجفة في آية أخرى، فقال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾ [الأعراف] ويبدو من سياق الخبر في الآيات المختلفة أن رجفة قوم لوط أصابت قشرة الأرض، فجعلت عاليها سافلها، وأما رجفة ثمود فقد لمست حواسهم فأتتهم، وبئس المصير.

وما أغنت البيوت التي نحتوها، ولا الزروع التي كسبوها؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾ من بناء نحتوه من الصخور، ولا ثمار جنوها، ولا زروع حصدوها فأضاع كل ذلك فسقهم.

ويلاحظ أولاً: أن البيوت التي نحتوها من الصخر لم يذكر أنه سبحانه جعل عاليها سافلها، ولا أنهم أمطروا حجارة كقوم لوط الفاسقين.

ويلاحظ ثانياً: أن قصة شعيب ذكرت هنا بالإشارة، وذكر فيها جزاء عتوهم، وكذلك ثمود أشير فيها إلى العقاب وترك من القصة تفاصيل فلم يذكر ما دعا إليه شعيب من إيفاء الكيل والميزان وعبادة الله تعالى.

ولم يذكر في قصة ثمود وما جرى من مجاوبة بين ثمود وصالح، وهكذا تجرد القصة كاملة في القرآن، ولكن متفرقة فيه لموضع العظة في كل جزء منها.

فقصة موسى ذكرت أجزاؤها في مواضعها من العظة والاعتبار، وإنك لو تتبععت أجزاء قصة موسى وفرعون وبنى إسرائيل لخرجت بقصص كاملة رائعة مصورة لأحوال النفوس المستضعفة للطغاة، ونفوس الطغاة، ونفوس الذين استمكن فيهم الخنوع، وذلت منهم النفوس، وكيف تبنى الأمم وتربى العزائم.

وقد يسأل سائل لماذا لم تذكر القصة كاملة؟ فنقول في الجواب عن ذلك:

أولاً: إن القرآن ليس كتاب تاريخ، ولكنه كتاب عظة واعتبار، فكل جزء فيه عظة، ويذكر في موضعه مقروناً بما سبق في القرآن لأجله فيكون الاتعاظ سببه بين والوعظ أهدى سبيلاً.

وثانياً: أنها لو ذكرت جملة ما عرفت مواضع العظات بالتفصيل.

وخلاصة القول أنه ليس في القرآن مكرر من القول قط، وما يبدو بادئ الرأي فيه تكرار في ذكر القصص في القرآن يبدو بطلانه إذا فحص القول، وعمق القارئ النظر فيه، والله منزل الكتاب ومتزهه.

آية الله تعالى في خلقه

قال الله تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨٦ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٨٩ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ٩١ فَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٣

بعد أن ذكر جلت حكمته ما أصاب الذين فسقوا عن أمر ربهم، وارتكبوا أشد المفساد ونزل بهم أشد المهالك ذكر أن الكون ما خلق عبثاً إنما خلق لحكمة

أرادها فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ما خلق هذه الثلاث: سموات ذات أبراج، وأرض ذات طبقات، وما بينهما من فضاء فيه عجائب، وفيه أحياء، وفيه أسرار للوجود التي لا يدركها الذين يرتفعون وينخفضون، إنما يدركها المؤمنون برب هذا الوجود، ما خلق ذلك إلا بالحق إلا بأمر ثابت مؤكد الحصول هو غاية الوجود، ما خلق الناس ليتمتعوا، ويأكلوا، ويلبوا ويعشوا، ما خلق الله ذلك بغير حكمة ظاهرة، ولا نهاية قاهرة، وإنما خلقها ليعمر هذا الوجود، وتسوده الفضيلة، وتبعد عنه الرذيلة، ويحكمه الخير، ولا يحكمه الشر، ويكون الحساب من بعد ذلك؛ ولذا قال: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾، أى أن الله يمنع الشر فى الدنيا، بالقضاء على الأشرار الذين لا يرجى منهم خيرا، بل يغلب عليهم الفساد، كما رأيت فى عاد وثمود، ومن قبلهم قوم لوط، ومن بعدهم فرعون ذو الأوتاد.

وإنه بعد الدنيا سيגיע يوم القيامة، وعبر عنه بالساعة إشارة إلى أنها ساعة فاصلة بين حياة دنيا فيها لهو ولعب، وحياة فيها الحساب والجزاء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، إنها للجنة أبدا، أو للنار أبدا، وهى الساعة التى لا يدرك كنهها إلا عند نزولها، وهى الجديرة وحدها بأن تسمى ساعة، وقد أكد سبحانه وتعالى مجيئها باللام وبـ (أن).

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وجه هذا الترتيب أن العصاة ينالون العذاب والبوار وفى الآخرة الساعة تنتظرهم، وإذا كانت هذه حالهم، فلا يغيظك ما يفعلون، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، بل استمر فى دعوتك معرضا عن إثمهم وإيذائهم، وفتنهم للمؤمنين، فإنهم ملاقو ذلك فى دنياهم بالتغلب عليهم، وفى آخرتهم بالجزاء على ما صنعوا.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، والصفح يتضمن الإعراض عن الإساءة وعدم التخلّى عن الدعوة والاستمرار فيها، وتضمنت كلمة الجميل بيان أن

يلقاها بقلب مفتوح ليفتحوا قلوبهم للاستجابة، أو ليفتح هو هذه القلوب التي أصابتها غشاوة.

وفى هذا إشارة إلى معنى جليل فى الداعى، وخصوصا الرسول الأمين رسول رب العالمين، وهو أن الداعى لا يستفزه غضب ولا يثيره أذى، ولا يمنعه تجهم وسوء معاملة، بل يجب أن يكون البشير النذير دائما فى قرب للقلوب، وإدناء للنافر وإيناس للشارد؛ لأنه الطبيب المداوى، وليس الحاكم المسيطر ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ﴾ (٢٢) ﴿[الغاشية].

لقد كان النبى ﷺ ذا شخصية قوية عالية، من شأنها أن تعلو دائما، وهى تُرهب الفجار، ولكن لم يدعُ محمد ﷺ فى مكة إلا بقوة الدليل، وبالنفس الأليف التى تقرب ولا تبعد.

وكانت تلك الشخصية الجبارة تبدو من حين لحين تعلن عن وجودها، جاء رجل يطلب دينا من أبى جهل فاستعان بملاً من قریش، فأشاروا عليه بأن يستعين بصاحب هذه الدار مشيرين إلى دار النبى تهكما بالرجل وبالنبى معا، ولعل الذين استعانهم من أشكال أبى جهل فالرجل الغريب ذهب إلى النبى، فأشكاه الرسول القوى، وذهب به إلى دار أبى جهل، فصك داره صكة ارتعدت فرائص أبى جهل لها، فقال رسول الله ﷺ قوله الحازم الأمر: «أد الرجل دينه»، فدخل وأعطاه الدين صاغرا.

وما كان النبى ﷺ ليستخدم تلك الشخصية التى تفرض الحق على من يخاطبه، إنما تطامن، ورضى بأن يكون الداعى غير الغليظ إدناء للنفوس.

هذا معنى الصفح الجميل، أى الإعراض فى قرب ومودة وإلف من جانبه؛ ولذا كان الإسلام، ينمو ويزيد، ولا ينقص ويقل.

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى الإخبار بخلقه لهذا الوجود بالحق، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦) ﴿.

عبر ب ﴿رَبِّكَ﴾ للإشارة إلى أمرين:

الأمر الأول: أنه هو الذى يقوم عليه، ويدير له أمر دعوته، بالآ يسلم للكفر، ويصطبر ويعامل بالتقريب لا بالتبعيد.

الأمر الثانى: هو الذى يدير أمر هذا الوجود، ويرتب حاضره وقابله، وأن الحق فى النهاية إليه بأمر ربه.

و﴿الْخَلْقُ﴾ الكثير الخلق بكثرة هذا الوجود من سموات وأرضين، وملائكة وإنس وجن، و﴿الْعَلِيمُ﴾ الذى يعلم كل ما خلق ويعلم الماضى والحاضر والقابل، ويدبر الأمر على مقتضى علمه وحكمته، فهو يمهّل الأشرار ولا يتركهم، ويجازى الأبرار ويحوظهم برحمته، ويثبت الحق بدعائم من الحق، ويعطى كلا جزاءه فى الدنيا أو الآخرة على حسب ما يقتضى علمه وحكمته، وقد بين الله تعالى تأييده لنبيه بالحجة القاطعة، والأدلة الساطعة، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، وقد طالبه رب البرية بأن يصفح ويعرض عن إيذاء المشركين بأن يصفح الصفح الجميل الذى يكون بإقبال نفس، وبشاشة وجه، وأنه معه الدليل القاطع، والبرهان الساطع، وهو القرآن الكريم، ولذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ أكد الله أن معه الحجة، باللام وقد، والسبع المثنى ما هى؟ قال ابن عباس: هى القرآن كله، والسبع لا تذكر لذات العدد بسبع، بل تذكر للكثرة، والقرآن كله وصف بالمثنى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ... (٢٢)﴾ [الزمر].

و﴿المثنى﴾ جمع مثنى أى مكرر لاثنين، كقوله تعالى: ﴿... مَّثْنًى وَثُلَاثَ وَرَبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ... (١)﴾ [فاطر]، ومعنى مثنى أن فيه من كل معنى اثنين متقابلين، ففيه الإنذار والتبشير، وكرر ذلك، وفيه الأمر والنهى ويتكرر

ذلك، وفيه بيان الحلال والحرام، ويتكرر ذكر ذلك، وفيه الخبر والإنشاء، وفيه القصص الكريم مثنى مثنى وهكذا.

هذا تفسير السبع على أنها القرآن الكريم، ويكون عطف القرآن عليها في قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ من قبيل عطف الصفة على الصفة، ويكون معنى القرآن المقروء المتلو الذي يتعبد بتلاوته، فيكون معنى السبع المثاني وصف معانيه، وما اشتمل من أحكام وقصص وزواجر ونواه، وأوامر وتوجيه، ويكون القرآن العظيم المقروء المعجز بألفاظه والعظيم في إعجازه وتلاوته، وعطف الوصف على الوصف جائز في العربية كما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم

وإن معنى العطف يشير إلى أنهما حقيقتان ثابتتان في القرآن، الأولى وهي أنه كتاب التكليف، وسجل الرسالة الإلهية، والثانية أنه حجة بألفاظه وأساليبه، وطرق البيان فيه، إذ فيه التصريف المعجز، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام].

هذا ما اخترنا في معنى السبع المثاني، ولقد روى في أحاديث صحاح أن السبع المثاني سورة الفاتحة، وعطف عليها بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

وروى عن ابن مسعود وغيره من كبار الصحابة أن السبع المثاني هي طوال السور، وهي سبع، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، بأن تشمل براءة، على أنهما سورة واحدة.

وفي الحق إن ست من السبع الطوال مدني، والسورة التي نتكلم في معانيها مكية، فكيف تكلم عن هذه السبع، وست منها لم تنزل بعد وقد رد هذا بأنها كانت نزلت في اللوح المحفوظ.

والذى نراه الحق هو أن السبع المثانى القرآن كله، وتخصيص الفاتحة بالذكر معناه أنها من السبع المثانى التى هى القرآن وكل جزء منه يكون السبع المثانى، إذ كل جزء منه متكامل فى ذاته، وهو العليم القدير.

ولقد هدى الله تعالى نبيه بهداية القرآن، وأنه الحجة ونعمة الرسالة، وأخذ من بعد ذلك يبين أنه الغنى بالحق الأعلى وأنهم مهما يكونوا قد أوتوا من مال وجاه وقوة، فلن يكونوا كمن هداه الله تعالى، فقال تعالت حكمته: ﴿لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾.

أى لا تطمع، ولا تلتفت، ولا يغررك ما متعنا به أزواجا، أى أصنافا متقابلة منهم فيهم الغنى وجاه الدنيا والقوة، والغرور، والطغيان، والكفر.

وعبر سبحانه عن الطموح إلى ما هم فيه والغرور به ﴿... فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤)﴾ [غافر] عبر عن ذلك بمد العين؛ لأن هذا يسترعى النظر فكان الأعين تمد إليه، ولا تنحرف عنه.

لا يغررك هذا ولا يسترعى نظرك، فإن هذا أمر إلى فناء، وما يدعو إليه أمره إلى بقاء، وإذا كان ذلك أمر فيه متعة وقتية، فقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، أوتيت القرآن ومثله معه، وأى قدر مما أوتوا يقارب قيمة ما أوتيت من الحق، وعزة الحق، ونهى الله تعالى عن الحزن على الكافرين كما نهى عن أن يغرر بهم، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وإذا كان لا يغرر بما أوتى المشركون من أسباب النعيم، فإن من معه من المؤمنين هم الأولى بالرعاية والحفظ لأنهم الذين هم ذخيرة الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أى تظامن، وارفق بهم ولن لهم بجانبك، ﴿... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ... (١٥٩)﴾ [آل عمران].

وقد عبر سبحانه عن لين الجانب والرفق وتقريب القلوب وإدنائها بقوله: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وذلك مجاز بالاستعارة مشهور، فشبّه سبحانه وتعالى حنو محمد ﷺ على أتباعه، بوضع الطائر أولاده بين جناحيه، للمبالغة في الحيلة والحفظ والصيانة.

وإن هذا النص السامي تصغير لما عند المشركين، وتعظيم لمن آمن، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام].

وإن هذا النهي لصاحب الرسالة عن أن يمد عينيه إلى ما متع الله به الأقوياء وأعطاهم أزواجا متماثلة من متع الدنيا هو نهى لأمته، وفيه بيان كيف يتدلى الحق إذا مد صاحبه العين إلى ما عليه أهل الدنيا، فإنه هنا تكون المذلة ويكون التدنى عن مقام الحق الأعلى، إلى المنزلة الدون أمام أهل المال والجاه والسلطان والباطل، وهو سلطان أهل هذا الإيمان.

ولقد قال القرطبي في تفسيره في التعليق على هذه الآية: «رأى القراء المخلصون من الفضلاء الانكشاف عن الذات والخلوص لرب الأرض والسموات أولى، لما غلب على الدنيا من الحرام، واضطر العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته، ومصانعة من تحرم مصانعته، فكانت القراءة أفضل والفرار من الدنيا أصوب للعبد وأعدل قال ﷺ: «يأتى على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع المطر، يفر بها من الفتن» اهـ.

وأحسب أن زماننا أشد الأزمان فتنة في نفسه، إذ تولاه الجهال، وسيطر على الفكر الجهال، وتولى على رياسة العلم من يبيعون دينهم لهؤلاء الجهلاء بثمان بخس مهما تكن قيمة الدرهم والدينار، وصح فيه ما روى بحديث قوى السند حتى ادعى تواتره: «إن الله لا ينزع العلم انتزاعا من قلوب العلماء، إنما ينزع العلم بتولى جهلاء يضلون ويضل بهم الناس» أو كما قال ﷺ.

وإذا كنت لا تغتر بما منع به المشركون، فلا تحزن عليهم، وليعلمهم بأن عمله أنه نذير؛ ولذا قال: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩).

الخطاب للنبي ﷺ، أمره ربه بأن يبين لهم أنه منذر من عذاب أليم، لا يميل مع الأقوياء، ولا يحيف على الضعفاء، ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أكد رسول الله تعالى بأمر ربه إنذاره به (إن)، والتوكيد اللفظي بالضمير المنفصل، وبالنصر، فعقد عمله ﷺ على الإنذار، وأنه إنذار واضح بين لمن أراد أن يعتبر بصاعقة عاد وثمود، وقوم هود وغيرهم مما ذكرهم الله تعالى في قرآنه العظيم، من رجفة في الأرض جعلت عاليها سافلها، أو ريح صرصر عاتية.

وهذا النص السامي جاء على غمطه قوله ﷺ: «أنا النذير العريان».

ولقد بين سبحانه تلقى المشركين للقرآن العظيم، فقال عز من قائل: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣).

﴿كَمَا﴾ التشبيه هو تشبيه الإنذار الذي يقوم الرسول بإنذار المقتسمين، فهو بيان لإنذار هؤلاء المقتسمين وأنه من إنذار الرسول الذي كان للإنذار، وتنبية المشركين إلى عاقبة ما يعملون، أي الإنذار كما ينزل بهؤلاء، ومن هم المقتسمون؟ ذكر المفسرون في ذلك أقوالاً كثيرة، وعندى أن أقواها الجدير بالنظر قولان:

القول الأول: أنه عندما أخذ النبي ﷺ ينشر الدعوة الإسلامية في قبائل العرب في موسم الحج، أخذ ستة عشر رجلاً منهم كما قال مقاتل والفراء بعثهم الوليد بن المغيرة فاقتسموا مكة وأنقابها وفجأها يقولون لمن سلكها لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، وسموا المقتسمين؛ لأنهم اقتسموا هذه الطرق، هذا أحد القولين.

والقول الثاني: وهو ما نيل إليه هو قول قتادة: إنهم كفار قريش، قسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، وهم بذلك قد قسموا كتاب الله تعالى وفرقوه.

وإني أميل إلى هذا؛ لأنه يتفق مع بيان القرآن لهؤلاء المقتسمين، فقد قال تعالى في تعريفهم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١).

﴿عِضِينَ﴾ جمع عضة والمعنى صار أجزاء مفرقة هي باطلة في ذاتها، وهي تفرقة في أمر لا يقبل التجزئة قط وهو جمع، و(عضون) جمع سالم على غير القياس، والواحد كما ذكرنا عضة، أى قسما مفرقا من قولهم عضيت الشيء تعضية إذا فرقته، وكل فرقة عضة.

والمعنى أن هؤلاء المقتسمين لم يأخذوا بما فيه، ولم يعتبروا بعبره، بل قسموه على حسب أهوائهم أقساما باطلة لا أصل لها في حقيقته فتركوا تدبره وتعرفه، وإدراك ما فيه من إنذار وتبشير ومعرفة وحكمة، وما فيه من أخبار السابقين، والكشف عما يكنه الغيب بالنسبة للمستقبل، وعكسوا أهواءهم عليه، فجعلوها أقساما له، وهي باطلة في ذاتها وباطلة بالنسبة للحاضر، وبذلك كان بينهم وبينه حجابا مستورا، نسجوه من أوهامهم فزادوا بذلك ضلالا فوق ضلالهم.

وإنهم بذلك ارتكبوا إثما مبيئا، وحجبوا أنفسهم عن النور، وإن الله سبحانه وتعالى سيحاسبهم على ذلك حسابا عسيرا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

(الفاء) للدلالة على أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، أى أنه ترتب على اقتسامهم للقرآن، وجعله متفرقا في زعمهم الباطل، وإيغالهم في الشرك والفساد إيغالا أضل عقولهم وأقوالهم وأعمالهم أن أقسم الله بربوبيته، ليسألن عما كانوا يعملون، وكان القسم بقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ للإشارة إلى أن ذلك من الحياة لرسالتك وجزاء اقترافهم عليها وجحودهم لها.

وجواب القسم ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقد أكد سؤالهم بـ (نون التوكيد)، وبـ (لام القسم)، وبكلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أى أنه لا يعزب أحد عن السؤال، وليس العقاب هو مجرد السؤال، وإنما العقاب ما وراء السؤال من عذاب، وذكر السؤال

ليبان أنهم محاسبون على كل ما يفعلون، وأن الله تعالى عنده علم كل شيء، وأسند السؤال إليه سبحانه؛ لبيان جلال الأمر، وعظم ما يرتكبون، وإن كانوا يلهون ويلعبون بما يفعلون، فالله لا يتركهم، وما الله بغافل عما يعملون.

قال الله تعالى:

فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَظُنُّ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

ابتدأت الدعوة المحمدية بإعلانها بين أهل النبی ﷺ فكان أول من آمن خديجة، ثم على بن أبي طالب، ثم زيد بن حارثة، ثم بين أصدقائه الذين يعرفون أمانته وفضل خلقه، وعظمة نفسه كأبي بكر، ثم أصدقائه كعثمان، وهكذا نبتت في خفاء كما نبتت البذرة في ركن مستور مغشى بلباب، حتى أمر الله نبيه أن يجهر وسط عشيرته فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٢١٤﴾ [الشعراء]، فجمعهم وأنذرهم ومنهم من ردوا شيئاً كأبي لهب، ولكن العبادة كانت في خفاء لا يخرج المؤمنون جهاراً، والإيذاء مع ذلك يتوالى، حتى دخل بعض الأقوياء بأشخاصهم فوق شرفهم النسبي كحمزة بن عبد المطلب والفاروق عمر بن الخطاب، فكان الجهر وتلقى الأذى بالمجاهرة ونزل قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٤﴾.

اصدع، معناها اجهر بما تدعو إليه مأموراً به، ولا تبال أحداً، وأعرض عنهم، والصدع شق الشيء الصلب وتفريق أجزائه، أو الوصول إلى ما وراءه ولا

يبقى حاجزاً، أو من الصديق، وهو ظهور الفجر الصادق يشق ظلام الليل البهيم، ويحيط النور الأبيض يشق الجو المظلم.

والمعنى حيثئذ، اجهر بالحق، وشق به ظلام الجاهلية، كما يشق الفجر بنوره ظلمة الليل.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أى أن شق الظلام بالنور هو بما تؤمر، فهو النور الذى يشق الظلام.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، أى لا تلتفت إليهم، ولا تبال بهم، ولا تدهن معهم بقول فى دين الله تعالى، ولا تحسب إن ممالأتهم تدنيهم، إنما يدنيهم الجهر بالحق مع الموعظة الحسنة من غير جفوة، ولا إدهان ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ [القلم].

ثم قال تعالى محرضاً رسوله النبى الأكرم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾، أى حفظناك من شرهم، فلا ينالون منك ولا من دعوتك، وما يكون منهم من أذى بالقول، أو الغمز، أو نحو ذلك من أساليب الاستهزاء أو السخرية والتعابث فى تلقى الدعوة، لن ينال من شخصك، ولا من أتباعك إلا بمقدار ما ينال المؤمن صاحب الحق من عبث العابثين، وإن يسخروا منك، فسوف يكون اليوم الذى يسخر الحق منهم.

وفى بعض التفسير الأثرى أن الله تعالى كفاه أشد المستهزئين، وذكر أنهم كانوا خمسة رجال من أشراف قريش هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعدى بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب يبالغون فى إيذاء النبى ﷺ والتهكم به وبدعوته، فأهلكهم الله تعالى، أما الوليد فمر بنبال فتعلق به سهم، فلم ينعطف تعظماً لأخذه فأصاب عرقاً فى عقبه فمات قبل هجرة النبى ﷺ ولم يحضر بدرأ، وأن العاص بن وائل، قد دخلت فى أخمص قدمه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى، ومات منها، وأما عدى بن قيس، فامتخط

قيحا حتى مات، وأما الأسود بن عبد يغوث فإنه كان تحت شجرة فأصابته حال كان ينطح بسببها الشجرة، ويضرب الشوك حتى مات، وأما الأسود بن المطلب، فقد أصابه الاستسقاء، وهذا خبر قد روى وليس لنا أن نرده، لمجرد أنه خارق للعادة، ولكن نقول الآية من غير الاعتماد عليه واضحة.

ولقد بين سبحانه صفة المستهزين وباعثهم على الاستهزاء، وعاقبته فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)، أى أنهم بعقلهم المظلم وفكرهم التافه، يجعلون من ذات أنفسهم مع الله خالق السموات والأرض، المنزه فى ذاته وصفاته وإبداعه الخلق - عن الشريك كما كانوا يؤمنون ويجعلون بذات أنفسهم لا من منطق أو عقل إلها آخر وحسبهم ذلك موجبا للاستهزاء بهم والسخرية، فهم المستهزون ليس لهم أن يستهزئوا بأحد، وقد هددهم سبحانه بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أى بسبب هذا الشرك سوف يعلمون، وسوف لتأكيد الفعل فى المستقبل، أى يعلمون نتيجة استهزائهم وشركهم، والعقاب الذى ينزل بهم.

ولقد وصى الله تعالى رسوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧).

إن محمدا ﷺ بشر من البشر، قد كان يسمع باطلا، ويؤذى بالقول والاستهزاء، ويرمى عليه فرث جزور، فتتحى الفتاة الطاهرة فاطمة التى صارت سيدة نساء المؤمنين، فلا يتبرم بها، ويستمر طليق الوجه ولكن صدره يضيق حرجا، والرجل الكامل وخصوصا أعظم الدعاة الحق يضيق صدره، ولا يتغير قوله أو عمله، ولقد قرر الله تعالى خالق الخلق ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) عبر سبحانه عن ألم النفس، وضيقها بضيق الصدر كأن الصدر أصبح لا يتسع لمثل هذا القول الذى كانوا يقولونه من قولهم ساحر، ومن قولهم مجنون، ومن قولهم فى القرآن إنه شعر، وإنه أساطير الأولين، ومن طلبهم خوارق غير القرآن، ومن عبادتهم الأوثان.

وقد أكد الله تعالى علمه بذلك بـ (اللام) وبـ (قد)، وإن تأكيد علم الله بما يضيّق به صدر نبيه الأمين تسرية لنفسه، وفيه كمال معاونته، وفيه مع كل هذا ما يفيد الإنذار للمشرّكين على ما يقولون ويفعلون ويعتقدون، فما دام علم ثانياً، فإنه يحقّ الحق، ويبطل الباطل، ويجزى كلا بما يفعل، وهو القوى المتين.

وقد ذكر سبحانه الطب لهذا القلق النفسى كما أشار إلى جزاء ما يقولون وما يفعلون، والطب الذى ذكره الله تعالى هو طب النفوس القلقة وهذا الطب هو الاتجاه إلى الله تعالى وتقديسه والركون إليه، والخضوع له؛ ولذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾.

(الفاء) هنا تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كان قد أصابك قلق النفس فعالجه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أى فاتزع إلى الله، واركن إليه بالتسبيح والحمد، فإن ذلك فى ذاته كشف للكرب وبه زوال الهم، إذ فيه الركون إلى جانب القوى الذى لا يناهده جانب لآى جانب من جوانب الدنيا، وهو فى الوقت ذاته شعور بأن ما ينال صاحب الرسالة من أذى إنما هو لله وللقيام بحقه، وذلك ذاته تسبيح أى تسبيح وحمد لله أى حمد.

وعبر سبحانه بقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للإشارة إلى أن ربك الذى حماك ويكلؤك، فإن كان منك قلق، فلن يكون منهم أذى لك فى قابل أمرك، إنما هو أخذ بالغلب أو أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، أى استمر فى خضوعك لرب العالمين، والسجود هنا إما أن نقول: إن معناه الخضوع المطلق لله تعالى، فالخضوع له وذكره هو اطمئنان القلوب، وقد قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد] أو نقول: إنه سجد الصلاة، ويكون المعنى كن مستمراً فى صلاتك، وفى الصلاة تفسريح الكرب، وذهاب الأحزان، والانصراف عن الهموم، وفى الأثر: كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ولقد روى أيضاً أن النبى ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء».

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩).

فى هذا بيان لحقيقة التسبيح بحمد ربه، وهو العبادة بكل أنواعها من تطهير للنفس بالصلاة والصوم والحج وتطهير للمجتمع بالصدقات المنشورة والمفروضة، وقد كانت مطلوبة قبل الهجرة، وهم فى مكة كما قال تعالى فى سورة الروم المكية: ﴿... وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ﴾ (٣٩) [الروم].

والتعبير بـ﴿رَبَّكَ﴾ فيه إشارة إلى أن مقام الربوبية يقتضى العبادة الخالصة له، وقد حدد سبحانه وتعالى نهاية العبادة بقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

الكثرة الكبرى من المفسرين يقولون: إن اليقين هنا هو الموت، ويكون المعنى على هذا حتى يأتاك الأمر الذى لا يرتاب فيه وهو اليقين الثابت بالموت، إذ يكون اليقين ثابتاً بالاعتقاد، حتى يكون الموت، فيكون ثابتاً بالعيان لا بالبرهان وهذا الكلام يشير إلى حقيقتين ثابتتين:

الحقيقة الأولى: وجوب العبادة طوال الحياة حتى الممات.

والحقيقة الثانية: فيه إشارة إلى أن العبادة تزيد اليقين فيزداد المؤمنون إيماناً إلى إيمانهم، والله غيب السموات والأرض وإليه مرجع الأمور.

سورة النحل

تمهيد:

سورة النحل مكية، وعدد آياتها ١٢٨ ثمان وعشرون ومائة، وسميت النحل لذكر النحل فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨).

وهي كالسور المكية تتجه إلى إثبات التوحيد مما خلق من أرض وسماء وأحياء، وتأكيد للبعث والنشور، وإبطال عبادة الأوثان، وما اقترن بعبادة الأوثان من وأد البنات.

وابتدئت بتأكيد عذاب الله لمن يشرك وأنه نازل به لا محالة، وأنه سبحانه ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، وإن في ذلك إثبات الرسالة الإلهية تجيء على لسان البشر.

وقد أثبت من بعد ذلك قدرته سبحانه في خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من نطفة، فإذا هو خصيم مبين مشيراً إلى مدرجه في التكوين، حتى يصير ذا لسان يجادل به، وعقل يفكر به.

وذكر نعمة الله تعالى على الإنسان بخلق الأنعام يتخذ منها أسباب الدفء من ملابس ومساكن، ومنافع في ركوبها، الانتقال بها من أرض إلى أرض، ومنها تأكلون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦) وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا يَشِقِ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨).

وبعد ذلك بين نعمته سبحانه وتعالى فى الماء ينزل من السماء بأمره يكون منه حياتكم، ويكون منكم الشجر، ﴿وَالزُّرْعُ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وذكر سبحانه تسخير الشمس والقمر والنجوم سخرها بأمره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وسخر سبحانه ما خلق فى الأرض من فلزات ومعادن يتخذ منها الحلى وتقام بها المصانع وألوانها مختلفة. ووجه سبحانه وتعالى الأنظار إلى البحر وما فيه ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَّوْبُوشًا مِّنْ جَوَاهِرٍ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَجْرَى فِيهِ الْفَلَكَ الَّتِي تَمْحَرُّ عَابِبُهَا بِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ ﴿أَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦).

ذكر هذا لبيان خلق الله العظيم ومع ذلك يشركون فى عبادته من لا ينفع ولا يضر ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ، أى لا حياة فيها.

وقد قرر الله سبحانه وتعالى الحق فقال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ولا ينكر حقيقة الألوهية ويضل فى معرفتها إلا الذين يكفرون بالبعث، فقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مَُّنكِرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾.

وقد أنكروا الوحداية وأنكروا القرآن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أُنزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٣) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٤).

وقد ذكر سبحانه العظائم فيمن مضوا، فقد مكروا مكروهم، ودبروا تدبيرهم، وبنوا على ما دبروا أوهامهم، ﴿فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ

السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ، وبعد ذلك يجيء إليهم عذاب يوم القيامة يخيبيهم ، ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

هذا شأن الكفار الذين أنكرت قلوبهم ، أما المتقون يوم القيامة ، فإنهم يذكرون الحق يوم القيامة ، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

ولقد بين الله تعالى بعد ذلك تفكير المشركين فى عدم تدبرهم وعدم تفكيرهم ، وإهمالهم الإنذار بعد الإنذار حتى ينزل بهم ما لم يتوقعوا ، وهم فى غفلة ، فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ، والمشركون يحملون آثامهم على الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ .

وقد أشار سبحانه إلى ما نزل بالسابقين من المنكرين ، ولكنهم يصرون على إنكار التوحيد وإنكار البعث ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ، وإن البعث أمر ليس بعسير على الله ، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ .

وقد ذكر بعد ذلك سبحانه ثواب المؤمنين : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ ، وقد ذكر سبحانه وتعالى أوصاف الإيمان ، وأولها الصبر ، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ، ولقد

كانوا يقولون لم بعث رسولا من البشر؟ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق؟ فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾. ولقد أشار سبحانه أن المشركين في غفلة إذ يعاندون الله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)﴾.

وينبتهم سبحانه إلى خلقه سبحانه الذي ﴿يَتَفَقَّهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾.

وقد أمرهم سبحانه بالحقيقة الخالدة وهي الوجدانية ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيايَ فَارْهَبُونَ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى نعمه مجملة: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾.

ولقد ذكر عادة جاهلية، وهي كراهية النبات، ووأدهم أحياء، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾.

ولقد حكم الله تعالى على المشرك أنه أسوأ ما يكون عقلا، فقال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)﴾.

وإن الله لا يؤاخذ الناس بأعمالهم فور وقوعها، ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ومع إشراكهم ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾.

وقد أكد الله تعالى لنيه أنه سبحانه أرسل ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقد ساق ذلك وأكده ليتأسى النبي بالرسول قبله، وأنه يجب أن يسير في بيان الشريعة، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤).

ثم ذكر سبحانه ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٥)، ثم بين سبحانه عجائب الخلق في الأنعام، ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ وذكر سبحانه ثمرات النخيل والأعناب قد مكن الناس منها، فاتخذوها منها رزقا حلالا، واتخذوا مسكرا حراما، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وذكر النحل، وما ألهمه سبحانه، والذي يخرجها من بطونها ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾، ثم بين خلق الإنسان ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠)، ثم بين سبحانه اختلاف الناس فقرا وغنى، ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾.

وذكر سبحانه نعمه بأن جعل لنا من أنفسنا أزواجا وذرية بنين وحفدة، وورزقنا من الطيبات، ومع هذه النعم المتضافرة ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٢).

وقد ضرب الله تعالى المثل لضلالهم، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط

مُسْتَقِيمٌ ﴿٧٦﴾ ، وهكذا الأمثال تحوى فى ذاتها حكما وأخلاقا وتوجيها للأنظار مع دلالتها على معنى التوحيد والموازنة الحكيمة بين الخالق والمخلوق .

وقد وجه سبحانه الأنظار إلى خلق الإنسان لا يعلم شيئا ثم جعل له السمع والأبصار والأفئدة رجاء أن يشكروا فكفروا، ثم وجه سبحانه الأنظار إلى خلق الطير صافات، كما وجه إلى خلق السموات والأرض والأنعام والخيل والبغال وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

ووجه الأنظار إلى البيوت التى يسكن إليها، ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم وكل هذه نعم ليشكروها فكفروها، وبينه النبى ﷺ أن عليه البلاغ فقط، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ، وقد أُنذِرهم سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وذكر سبحانه بعد ذلك حال المشركين مع الأوثان يوم القيامة ثم أسلموا أنفسهم لله ﴿وَأَلْقُواْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (٨٧) ، وبين سبحانه وتعالى مقام النبوة المحمدية يوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) .

وبين الله تعالى لب الإسلام وغايته، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠) .

ويدعو الله إلى الوفاء بالعهد، وينهى عن نكث العهد، وبين أن العهد قوة، ونكث العهد نكث للقوة، وجعلها أنكاثا، وأنه لا يصح أن يكون الرغبة فى الكثرة فى الأرض، والقوة سببا للنقص، ولا تتخذوا ﴿أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ

هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٥﴾ ،
وبين أن الله تعالى قدر اختلاف الأمم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ .

ونهى عن نقض العهد نهياً قاطعاً، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ
الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) .

وقد بين سبحانه آداب المؤمن عند قراءة القرآن، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
(٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠) .

وقد بين سبحانه أن القرآن معجزة النبي ﷺ، وأنه آيته الكبرى، والله أعلم
بأى الآيات أجدى وأنسب وأحكم، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٣) .

وبين أن الكذب شأن ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ، وبين سبحانه وتعالى
حكم من ينطق بكلمة الكفر مكرهاً ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ
(١٠٧)﴾ وقد بين سبحانه أنه طبع على ﴿قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ﴾ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٠٩) .

وبين بعد ذلك جزاء المؤمنين المهاجرين، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا
مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٠) .

وذكر سبحانه أنه فى ذلك اليوم تُوفى كل نفس ما كسبت بعد أن جاءت
تجادل عن نفسها، وهم لا يظلمون، وقد ضرب الله مثلاً للقرية الظالمة بعد أن أنعم
الله تعالى عليها ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ

مَكَانَ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) ﴿

ولقد أشار إلى ما أباحه سبحانه وتعالى فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)﴾ .

وبين من بعد ذلك المحرمات، وهى خبائث تفسد الأجسام، وإن التحليل والتحریم من الله وحده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾ .

ثم بين أن هذه المحرمات كانت على الذين هادوا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأشار سبحانه إلى أن باب التوبة مفتوح ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

ذكر الله سبحانه وتعالى العرب بما كان يتحلى به إبراهيم، وهو جدهم الذى يتشرفون بالنسب إليه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)﴾ ، ثم خاطب النبى ﷺ بأن دينه هو ملة إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ .

وأشار سبحانه إلى أن تحريم السبت كان على اليهود الذين اختلفوا فيه ولم يكن على غيرهم .

وبين سبحانه طرائق الدعوة إلى الحق، وأشار إلى العقاب دفاعاً عن الخير فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ .

وهذه الآيات أشبه بأن تكون مدنية، والله سبحانه وتعالى أعلم .

معانى السورة الكريمة

قال تعالى:

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
 ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ
 خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
 ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾
 وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
 الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ
 وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

كان المشركون يتلقون وعد النبي ﷺ لهم بالغلب في الدنيا أو العذاب الأليم في الآخرة بالاستهزاء، والسخرية مبالغة في الإنكار، ويتحدون النبي ﷺ أن ينزل بهم ما يندرهم به، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣) [العنكبوت] وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) [العنكبوت]، أى أن أسبابها محيطة بهم، وهى قريبة منهم، وقد نزل قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ...﴾ (١) [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ

وَأَنْشَقُّ الْقَمَرَ ﴿١﴾ [القمر] فاستعجلوه، وقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، قال فيه النحويون: إنه ماضٍ بمعنى المضارع، وعبر بالماضي لتأكيد وقوعه.

وفي الحق: إن الأزمان بالنسبة لله تعالى لا تختلف بين ماضٍ ومستقبل بل إن ذلك بالنسبة لنا؛ إذ يختلف الماضي الذي نعلمه واقعا عن المستقبل الذي لا نعلمه بل في الغيب المكنون المستور عنا.

على أن قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾، أى تقرر أمر الله تعالى وما يقرر الله تعالى قد أتى فيه قراره، وتعلقت به إرادته، وإذا كان قد أتى فلا تستعجلوه؛ لأنه قد قرر فهو واقع لا محالة، واستعجالكم لا يعجله، وسكوتم لا يؤجله، و(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، تدل على أن ما قبلها سبب لما بعدها، فسبب النهى عن الاستعجال أنه تقرر بالفعل، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أى تنزهه وتقدس وتبرأ، وتعالى أى تسامى عما يشركون، و(ما) مصدر حرفى أو اسمى، وفى الجملة معنى النص السامى: تقدس سبحانه وتسامى فى علوه عن أن يكون له شريك فى السموات والأرض.

وهذه العبارة السامية فيها تقرير أن الله واحد لا شريك له، ولا يمكن أن يكون له شريك فى قدسيته، وكبريائه، وقد بين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أنه أرسل الرسل بهذه الحقيقة لينذر المشركين بإرسالهم، فقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿٢﴾.

(الروح) فسر ابن كثير بأنه الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٢﴾ [الشورى].

وتسمية الوحي روحا؛ لأنه يجيء بما فيه حياة الناس، فهو كالحياة لهم، أو يقوم مقام الروح فى الأجساد. وقوله تعالى: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أى من

اختارهم لرسالته ويصطفاهم، الله يختبر من يشاء من عباده وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾، أى أنها مقبلة بأمره سبحانه، أو من أجل أمره، وتنفيذ ما قدر وقرر، وأمره بينه سبحانه بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

فهو تقرير للوحدانية جاء على لسان الحق جل جلاله ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ داخل عليها حرف جر، وهو الباء (أَنْ) هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أى أنه الحال والشأن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وقد ذكر ضمير المتكلم لتربية المهابة، ولفيض جلاله سبحانه وتعالى، والجملة دالة على القصر، فالألوهية مقصورة على الذات العلية، وما ينحلونها بالألوهية من أوثان باطل فى أصله، وإنما هى أوهامهم التى أعطتها صبغة الألوهية، وإذا كان الله تعالى جل جلاله هو وحده الإله فإن الوقاية من عذابه، وخوف عقابه أمران لازمان؛ ولذا رتب سبحانه على وصفه وحده بالألوهية قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه إذا كان هو الإله وحده لا شريك له، فلا يتقى غيره، وجاء على لسان الأمر، لكى يجتنبوا ما يعرضهم للعذاب، ومعنى (اتقوا) اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، واملأوا قلوبكم بتقواه، كما قال تعالى: ﴿... اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران].

وإن أسباب انحصار الألوهية فى ذاته العلية هو أنه وحده خالق السموات والأرض ومانح النعم؛ ولذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣)﴾.

أنشأ الله السموات والأرض بالحق أى بالأمر الثابت، والنظام المحكم، ربط بين أجزاء السماء بسر الوجود فكل نجم فى مداره، وبروجها ثابتة لا تتغير وتسير إلى مستقرها وتتحرك فى مدارها وكل شئ يجرى بحسبان فى السماء والأرض بطبقاتها، وما أودع باطنها من فلزات وأحجار، وعروق المعادن، والجبال

الراسيات، والبحار التي تجري الفلك فيها ماخرات عابها، والأنهار والأمطار تنبت الزرع، وتأتي بالثمار، هذا ما يشير إليه؛ لذا كان سبحانه وتعالى قد خلقها بذلك الإحكام وبذلك النظام الثابت الذي لا يتخلف، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يمسك السموات والأرض، فهو سبحانه وتعالى المتعالى عن الشركاء؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تسامى في ذاته عن أن يكون له شريك؛ لأنه ليس كمثله شيء قط، فهو المنفرد بالخلق والتكوين والإنشاء.

وقوله سبحانه: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كانت هذه الجملة مفصلة عما قبلها، لتمام الاتصال فإن تمام الاتصال يوجب فصل الجملتين، كما يوجبه كمال الانفصال، إذ الجملة الأولى سببا للثانية، فإن الخلق للسموات والأرض سبب لكمال العلو عن المثل والشريك.

هذا هو الخلق العام، والإنسان نفسه فيه إثبات قدرة الله بديع السموات والأرض ومبدع الإنسان؛ ولذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٤).

وهو الماء الذي يخرج من بين الصلب الذي قالت آية أخرى: ﴿... مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٨) [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يشير إلى الأدوار التي مر بها من طين فنطفة، فعلقه، فمضغة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٦) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٧) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٨) [المؤمنون] هذه أدوار الإنسان، وهو جنين لم يخرج إلى ظاهر الوجود، وإذا خرج إلى ظاهر الوجود كان معه السمع والأبصار والافتدة، حتى تكون فيه كل قوى الإنسان من لسان وعينين وأذنين.

هذه الأدوار كلها يشير إليها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، الخصيم الناطق المجادل الذي يحسن إدارة القول وتحويره وتحويله كعمرو بن العاص الذي

كان معروفًا بالحيلة في القول، حتى إن عمر الفاروق رأى رجلاً لا يكاد يبين، فقال سبحانه الله خالق لسان هذا هو خالق لسان عمرو بن العاص.

و(الفاء) و(إذا) يدلان على المفاجأة، والمفاجأة مع هذه الأدوار المتدرجة بأمر الله وتقديره للدلالة على التفاوت البين بين ماء مهين، وخصيم مبین، سبحانه من كون وأنشأ، وهدى وعلم.

بعد هذا أخذ سبحانه يبين النعم التي أنعمها على الإنسان فقال تعالى:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)﴾.

الأنعام جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وما يشبهها من غزال أو نحوه، وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية نعمًا على الإنسان، فقال تعالى:

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

النعمة الأولى منها الدفء، وهى دفع البرد، وذلك باللباس من وبرها وصوفها، ومن النفع اتخاذها أثاثًا وبيوتا من الخيام، كما قال تعالى: ﴿... وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾، والمنافع كما قال ابن عباس: النسل والركوب واتخاذها فى الحرب لحمل المجاهدين، والثالث منها تأكلون أى من لحومها وألبانها.

وذكر سبحانه نعمًا للإنسان أخرى فيها، وهى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾.

ترى الراعى للإبل أو القطيع ساقها إلى الرواح قد ذهب عنها الجوع وامتألت شبعًا من الكلاً والنبات، ويخرج بالنعم سارحا إلى حيث المرعى والمسقى، وحيث يرعاها ويشرف عليها فى حركاتها وملاعبها ذلك هو معنى ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾.

و(الجمال) هو الصورة التى تكون متناسقة وتؤثر فى النفس، وهو يكون فى الخلق والتكوين، كما ترى فى جمال الأشخاص والصور والمناظر وتتفعل به النفس

فى إحساس بالسرور والارتياح، ويكون فى جمال الطبائع السليمة الطيبة، ويكون فى المعانى والصور النفسية.

وإن فى منظر قطعان الإبل والغنم والبقر وهى سارحة متجهة إلى مراعيها، ما يشرح النفس؛ لأن منظر الحياة فى الأحياء يفرح النفس، ويلقى فيها بهجة، ومنظرها وهى عائدة ريانة بالشبع والسقى يعطى ارتياحا أشد.

وقد ذكر رواحها، قبل سراحها مع أن الرواح خاتمة اليوم والسراح ابتداءه؛ لأن الإحساس بالجمال فى الرواح أشد؛ إذ تكون مزدهرة مملوءة بالشبع، ورواحها يكون أشد، وجمالها أوقع فى نفس صاحبها؛ لأنه يكون بعد تعب رعيها والإشراف عليها، ولأنه يكون بعد انتصارها على مطامعها، وإشباع حاجتها.

وقد قال الزمخشري: من الله بالتجمل بها، كما من بالانتفاع بها؛ لأن من أغراض أصحاب المواشى، بل هو من معازمها؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى وسرحوها بالغداة، فزينت بتسريحها الألفية، وتجابوب فيها الثغاء والرغاء أنس أهلها وفرح أربابها وأجملها فى عيون الناظرين إليها وأكسبتهم الجاه والحرمة ونحوه.

وقد يسأل سائل لماذا ذكر جمال النعم فى غدوها ورواحها وجمال الدنيا كثير؟ والجواب عن ذلك أن الله تعالى ذكر زينة الأرض بنباتها، وزخرفها، وذكر أنها زينت بذلك للناظرين، وإن ذكر جمال النعم فى تلك الأوقات ترغيباً فى تربيتها والعناية بها؛ لأن فيها نفعاً وغذاء.

وذكر الله تعالى مع ما ذكر من منافع للنعم حمل الأثقال فقال تعالى كلماته: ﴿وَتَحْمِلْ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧).

الأثقال: جمع ثقل، وهو ما يثقل حمله، ويشق بكسر الشين، وتفتح وهى قراءة بمعنى المشقة، وإن البلاد العربية كان الحمل فيها بالجمال حتى قيل: إن

الجمال هي سفن الصحراء، أى أنها تنقل الأمتعة والأثقال فى الصحراء، كما تنقل السفينة الأثقال على سطح الماء.

فالضمير وإن كان يعود إلى الأنعام كلها، إلا أن حمل الأثقال عند العرب للجمال فقط، وفى الحق إن حمل الأثقال ظاهره حملها على الظهر، ولكنه يشمل بالتضمن جرّها على العربات، وأن من البقر ما تجر العربات المحملة، كما يرى فى مصر، وكما يرى فى غيره من البلاد، وقد رأينا فى باكستان الإبل تجر العربات.

وجملة معنى النص، وتحمل أثقالكم أو تجر ما يحملها إلى بلد نائية عن مقركم لم تكونوا بالغى هذا البلد لنأيه وبعد المسافة إلا بمشقة شديدة.

وإن ذلك من رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم؛ ولذلك قال تعالى فى ختام الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أى أنه سبحانه يرأف بكم فى خاصة أموركم ويرحمكم فى عامة أحوالكم، وفى وجودكم، وهنا بعض إشارات نذكرها:

أولها - أن الله تعالى عبر بـ ﴿رَبَّكُمْ﴾ للإشارة إلى أن ذلك التمكين من مقتضيات الربوبية والقيام على شئونكم وهو سبحانه وتعالى: الحى القيوم الذى يحيط بكل شىء علما.

الثانية - أنه قال: ﴿لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، والفرق بين الرأفة والرحمة فيما نحسب أن الرأفة فيما يكون فى الإنسان فى خاصة أمره من حيث الرفق والتسهيل والتيسير، والرحمة ما يكون بالإنسانية فى عامة أمورها، وقد تكون الشدة فى بعض الأحوال من مقتضيات الرحمة؛ لأن رحمة الكافة قد تقتضى شدة على الظالمين.

الثالثة - أن الله تعالى أكد وصفه بالرأفة والرحمة بـ ﴿إِنَّ﴾، وصيغ المبالغة، وبالجمله الاسمية، وباللام.

ولقد قال تعالى في نعمة النعم: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨).

بعد أن ذكر سبحانه نعمته في الأنعام، وما تتخذ منها من منافع، وما يكون فيها ذكر نعمة في غيرها مما لا يشملها اسمها وكان العرب يجدون فيها متاعا، وهي الخيل والبغال والحمير، فإن فيها نعمة التمكين من ركوبها أو نعمة أنها تتخذ زينة لهم في غدوهم ورواحهم، وقد قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَحْرَثِ...﴾ (١٤) [آل عمران].

فالخيل المسومة من زينة الحياة، فالخيل ومثلها البغال والحمير تتخذ زينة، وقد قال العلماء في الخيل ومثلها البغال، وكلمة الخيل قد يدخل في عمومها البغال؛ ولذا يكون سهمها في الغزو واحداً عند كثير من الفقهاء وعلى رأسهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رضى الله عنهما. إن الخيل تتخذ لأغراض ثلاثة:

الغرض الأول: القنية، للإنتاج وهذه حسنة في ذاتها؛ لأن الإنتاج في الحيوان كالإنتاج في النبات مستحسن بل مطلوب.

الغرض الثاني: للجهاد، فإن في نواصيها الخير وذلك مطلوب.

الغرض الثالث: للخيلاء والتفاخر، والخيلاء منهى عنه.

والزينة هي ما يكون في الخيل من راحة للنفس، وفرق بين اتخاذها زينة والخيلاء بها، فإن الخيلاء تفسد القلب، أما التزين، أو طلب ما يكون فيه زينة فإنه لا شيء يمس القلب ليفسده.

ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أى يخلق ما نعلم وما لا نعلم، وما كان يعلمه العرب، وما لا يعلمونه، ولو أن المتأمل المستبصر تعرف إعجاز القرآن في إخباره بما كان مغيبا في زمان نزوله لوجده في مثل هذه الآية،

فإن مما خلقه الله تعالى مما كان العرب لا يعلمونه، ولم يكن قط في عصر نزول القرآن - السيارات التى تنهب الأرض نهبا، والطائرات التى تقطع أجواء الفضاء قطعا، ومما يجرى الآن فى عصر الفضاء فإن ذلك كله خلقه الله تعالى، ومكن الإنسان فى عصره ما لم يكن ليعلمه، وسنرى مما يخلقه الله، ويعلمه من بعدنا، ولا نعلمه نحن.

نعم الله تعالى فى المطر والشمس والقمر والبحار

قال تعالى :

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ تَآكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسْبُلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْ وَيَا نَجْمٍ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

يقرن الله تعالى الأمور الحسية بالمعنوية، فيذكر الحسى أولاً، ثم يتجاوزه إلى المعنوى، وقد يكون ذلك فى جملتين متصلتين سببية أو وصفية، كما قال تعالى: ﴿... وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...﴾ (البقرة)، فصدر القول التزود فى الحج بزاد الدنيا، وجاء فى التعليل الزاد المعنوى، وذلك ليجمع بينهما، وكما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ أَتَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ...﴾ (الأعراف).

وقد ذكر سبحانه فى الآيات السابقة ركوب الخيل والبغال والحمير وزينتها وأن الله يخلق ما لا نعلم من نزل فىهم القرآن، وقد خلق السيارة والطيارة، وقد أخرج روائع الأرض إلى السماء، حتى يصل الإنسان إلى الأفلاك ومواقع النجوم. ذكر سبحانه تلك النعم المادية، وذكر بعدها المسالك المعنوية الهداية، والشقوة، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾.

القصد مصدر بمعنى اسم الفاعل، والقصد والقاصد معناهما مستقيم لا انحراف فيه، وطيب لا سوء فيه ثم إنه كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ...﴾ (التوبة).

ومعنى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، أى على الله بيان السبيل المستقيم الموصل إلى الحق، ومعنى بيانها إقامة البنيان والأعلام الدالة على الطريق وإرسال الرسل للهداية وقد وهب إليهم القلوب المدركة للحق بفطرتها.

وحذفت (بيان)، وبقيت كلمة ﴿قَصْدُ﴾ نظراً إلى المضاف، للإشارة إلى أن الطريق القاصد هو بنفسه هاد، ذلك لأن النفوس المفطورة على فطرة الله تعالى الحق وحده يهديها ويرشدها.

وليس معنى أن قصد الطريق على الله أنه لازم عليه، بمعنى أنه واجب عليه، فالله تعالى لا يجب عليه شيء وليس في الوجود من يوجب عليه شيئاً، سبحانه وتعالى، وإنما كتب الله تعالى على نفسه أن يضع لهم أسباب العلم والهداية ودراية الحق ليسلكوه مختارين، فليس فيه إلزام على الله، كما أنه ليس فيه جبر للعباد.

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، (جائر) أى مائل منحرف حائد، ليس بمستقيم، والضمير فى (منها) يعود إلى السبيل وهى الطريق، وتؤنث. وذكر هذه الجملة بعد الأولى يدل على أن الأصل هو الاستقامة؛ لأن الفطرة مستقيمة بذاتها، والانحراف من تسلط الشياطين بتسليط الأهواء، والشهوات.

وإن هذين الخبرين يدلان على أن الناس فيهم المستقيم، والمنحرف الجائر الحائد عن الطريق، وإن الله تعالى قد وضع للفريقين أسباب الهداية والصواب لعلمه القصد، فمنهم سلك القاصد ومنهم من انحرف عن الطريق السوى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أى لو شاء أن تكونوا جميعاً على سواء فى الرشاد، لهداكم أجمعين بأن جعلكم جميعاً تسلكون سبيل الهداية، وأنتم مختارون غير مجبرين كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا...﴾ (١٣) [السجدة].

عاد سبحانه وتعالى من بعد أن بين أن الله سن طريق الهداية وهو طريق الفطرة، وأن الناس يجورون بالطريق فيرتكبون ما لا يجوز، بعد ذلك بين النعم العادية الداعية إلى الشكر لمن أراد الحق وسلك سبيله، فقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠).

الضمير يعود إلى الله جل جلاله؛ لأنه حاضر دائماً، ولأنه المتحدث عنه فى القرآن دائماً، ولأن القرآن كتابه، فهو منه والقرآن هو الذكر الحكيم.

الماء هو الصلة التي تصل السماء بالأرض فمنها ينزل المطر إلى الأرض، وقد ذكر سبحانه وتعالى نعمتين جليلتين فيه:

أولاهما - أن منه الشرب، ورى الأبدان، وقد عبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾، وقال سبحانه: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾، أى أن الماء لكم منه شراب، تشربونه وتدفعون به العطش، وعبر سبحانه بقوله تعالى لكم منه شراب ليشمل شربه ريا وسقيا، ويشمل اتخاذه محلى بمادة من مواد الحلوى، ويشمل الشراب الذى يكون من النبات والكروم غير المتخمّر، فإن الماء أصل ذلك كله.

وثانيتهما - أن ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، والشجر يطلق على كل نبات سواء أكان زراعا ينتج حبا متراكما، أم كان غرسا لكل ذلك يسمى، وقد ذكر اليبضاوى شعرا فى ذلك، وهو:

يعلفها اللحم إذا عز الشجر والخيل فى إطعامها اللحم ضرر

فالشجر الذى يعز فى علف الخيل هو الزرع لا الغراس.

ومعنى قوله تعالى: ﴿تُسِيمُونَ﴾ من أسام الماشية إذا رعاها، وجعلها تطلب أماكن الكلا والرعى، وأصلها من المسومة، وهى العلامة التى تكون قطع الكلا، ورعى النعم له.

وإن هذه بلا ريب نعم تستحق الشكر، فهل تشكرون.

وقد فصل سبحانه وتعالى القول فيما تكون من ماء السماء، فقال تعالى:

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١).

الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى الماء، أى ينبت الله تعالى لكم بهذا الماء الزرع وهو الحب المتراكب والكلا، ونحوه من أنواع الزيتون، والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات.

والزيتون اسم جنس جمعى لزيتونة، والنخيل معروف، والأعناب جمع عنب، ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (من) فيها تظن أنها بيانية، أى كل الثمرات، كـ(من) فى قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٤) [آل عمران] ويقول الزمخشري إن من تبعية، وذكر التبعية هنا لأن ثمرات الدنيا مهما كبرت وكثرت هى بعض الثمرات، وفى الجنة كلها.

وإن النباتات فى ذاته نعمة؛ لأن الله تعالى فالق الحب والنوى، تنشق من الحبة أو النواة بأمر الله فتخرج بالرى عوداً، تجرى إلى أعلى فيكون منه سيقان الزرع والشجر، وينشق إلى أسفل فتكون منه العروق والجذور التى تجرى فى باطن الأرض على امتداد قصير أو طويل على حسب نوع النبات والشجر، والضوء والحرارة يعاونان فى تكوين الغصون والأوراق، وإن الزيتون إما أن يراد به الثمرة، أو يراد به الشجرة، وفى كل آيات، ويدرس العلماء إدام الزيتون فيحسب بعض الباحثين أن فيها دواء للسرطان، ولا تزال آيات الله تعالى قائمة فى كل خلق، سبحانه وتعالى عما يصفون، وهو الخلاق العليم.

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى إن فى ذلك الخلق العظيم الدقيق الحكيم لآيات دالات بينات على عظيم الخلق، وإحكام الأسباب التى سيرها بأمره، وهو العليم الخبير، سبحانه وتعالى، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى لأناس متجمعين يتفكرون تفكر المتدبرين فى أحكام صنيعه، وكريم نعمه، وعظم المن فى فضله، سبحانه وتعالى.

هذه نعم الله تعالى التى خلقها فى الأرض أو بعضها، وقد عدد نعمه فى الأرض ثم اتجه إلى نعمه على الإنسان فى السماء، فقال عز من قائل:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢).

فألله تعالى سخر لنا الليل والنهار، أى ذلل الليل والنهار لنا، فجعلهما بذاتهما نعمة، ففي الليل يكون الهدوء الساتر؛ ولذلك سمي الليل لباسا، وفي النهار يكون العمل والكسب الكدح، وفي الليل يكون الاستجمام لعمل النهار، وفي النهار يكون العمل المنتج المثمر.

ثم هناك أمر آخر فى الليل والنهار، ففي الليل يكون الكربون الذى تنمو منه عروق الأشجار والأوراق وتنفت الزائد منه عن حاجتها.

وفى النهار تكون الحرارة، وتنفت الأشجار ما يكون عناصر تدخل فى تكوين الأحياء، وهكذا كان فى الليل والنهار نعمة أو نعم نذكر منها ما أدركنا، وهو بعض قليل من نعم كثيرة منَّ بها علينا الله سبحانه وتعالى، وهو الحكيم العليم.

وبعد ذلك ذكر سبحانه ما يكون فى النهار من شمس مشرقة وهى ضياء تمد بكل العناصر التى يتغذى منها النبات، والنخيل والكروم والزيتون، وغيرها من الدوحات العظام والباسقات، ثم القمر وما يكون منه من نور، وإن لم يكن ذاتيا، فهو فى ذاته نعمة، وثبت بالواقع أن له تأثيراً فى الأجنة فى بطون أمهاتها، وفى حياة المرأة، وفى طمثها وطهورها، وحملها وولادتها وسر ذلك عند العليم الحكيم، والعلماء داثبون فى البحث والتعرف.

ولذا قال تعالى وقد علق فكر ابن آدم بالسماء: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾.

ومعنى التسخير تذليلها لمنافع الناس، فليست مذلة بذاتها للناس، ولا سلطان لهم عليها ولكنه سبحانه وتعالى جعلها مذلة لمنافعهم، فالشمس والقمر يكون منهما الليل والنهار، ويكون ما ذكرنا وهو بعض مكمل، ويعلم بهما الحساب ﴿... وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابَ ...﴾ (٥٠) [يونس].

وسخر الله تعالى النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أى فى ذلك الذى ذكره سبحانه من خلق السموات والأرض، وتسخير الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، لآيات بينات دالة على وحدة الخالق، وأنه وحده المستحق للعبادة، لقوم يعملون عقولهم فى خلق السموات، وإدراك حقيقة الوجود، ولا يقولون فى عبادتهم: ﴿...بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾ (١٧٠) ﴿[البقرة].

ولقد قال فى ذكر بديع خلقه:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣).

الواو عاطفة على الليل والنهار، والعطف على نية تكرار الفاعل، والمعنى «سخر لكم ما ذرأ»، وذرأ: خلق وأبدع، وقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ حال، فالبذر فى أرض واحدة، أو قطع من الأرض متجاورات، وتسقى بماء واحد، وتسمد بسماد واحد ومع ذلك يخرج الزرع مختلفا ألوانه، والحيوان مختلف الألوان، والإنسان مع أن النطفة واحدة يكون مختلف الألوان، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ...﴾ (٢٢) ﴿[الروم].

وإن تسخير الله ما ذرأ مختلفا ألوانه، فيه نعمتان جليلتان أنعم الله تعالى بهما على عباده:

النعمة الأولى - أن اختلاف الألوان يومئ إلى اختلاف الأنواع والأصناف، وكل يؤدى للإنسان غرضا فهذا يكون منه لباسه، وذاك يكون منه طعامه، وذلك منه أثاثه وزينته ومنه ما يكون أداة حربه وجهاده.

النعمة الثانية - أن اختلاف الألوان يكون فيه بهجة للناظرين، ويجعل الأرض ذات منظر بهيج. وإن المعادن التى ذرأها الله تعالى فى الأرض من حديد ونحاس وذهب وفضة وغيرها من فلزات، هى مختلفة الألوان، وفيها بهجة

وزينة، وفيها منافع الناس، والحديد فيه بأس شديد، والأحجار من فحم وماس، وغيرهما ذراهما الله للناس لمنافعهم وهي مختلفة الألوان، وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾، أى إن فى ذلك الذى ذكره من ذرء، وخلق مختلف الألوان فى باطن الأرض، وما على ظاهر الأرض من زروع وثمار كل ذلك فيه آيات دلائل بينات على وحدة الخالق ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾، أى يتذكرون الأشياء والأمور ويربطونها بعضها ببعض.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى فى بديع نظم القرآن وإحكامه، قال فى الآية الأولى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ليدعوهم إلى التفكير، وفى الثانية ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ليدعوهم إلى أن يكون التفكير بعقولهم لا بأهوائهم، وفى الثالثة: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ ليكون دعوة إلى اعتبارهم، وربط الأمور بعضها ببعض.

كانت الآيات السابقة تدعو إلى النظر فى نعم الله التى احتوتها الأرض من أشجار وزروع وثمار وإلى ما فى السماء من شمس وقمر، ونجوم مسخرات بأمره، وما فى اتصال الأرض بالسماء، وفى الآية التالية دعوة إلى النظر فى البحر وما فيه من نعم فقال تعالت كلماته:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازٍ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله تعالى، وذكر الموصول لبيان سلطان الله تعالى، وللإشارة إلى أنه سبحانه هو الذى ذلل البحر لمنافعهم، وتمكنهم مما فيه، وليس صيدهم هو الذى يمكنهم، بل تسخير الله البحر لهم كان نعمة لهم وتمكيننا من نفعهم، وقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، ووجه الأكل إلى لحمه مباشرة وفيه إشارة إلى أنه لا يزكى، بل يؤكل ميتاً، ولذا روى فى الأثر «أحل لنا ميتتان حلالان السمك والجراد»^(١) وعبر سبحانه وتعالى أيضا بقوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾،

ولم يقل سمكا؛ لأن في البحر ما ليس بسمك، حيوانات تشبه حيوانات البحر، والظاهر أنها حلال وفيها ضخم يكفى الألف، كالحويان البحرى المسمى الترسه، وكالحوت وفرس البحر، وغير ذلك، وكلها لحم طرى.

وقد وصف القرآن اللحم الذى يؤخذ من البحر بأنه لحم طرى؛ لأنه فعلا طرى، وعظمه قليل، ولا يتخلل أجزاء جسمه، بل هو فى موضع معين والذى يتخلل جسمه شيء صغير يسميه العامة «سفا»، ويقول الزمخشري فى وصفه بأنه طرى للإشارة إلى أنه سريع العفن، وأنه ضار إذا تعفن، وفى ذلك نظر، فإنه إذا وضع الملح عليه لم يكن ضارا فى تعفنه، وهو المتفسخ منه، وقد أنكره أطباء عصرنا وزماننا ثم أباحوه بل استحسّنوه، وقرروا أن فيه سرا طيبا، وإن لم يعرفوه. وحرم التفسخ الخفية؛ لأنه ضار، وقد علمت ما فيه.

و(اللام) فى قوله تعالى: ﴿لَتَأْكُلُوا﴾ هى لام الغاية أى ذلله وسخره لتأكلوا منه لحما بعد صيده، وإنضاجه، وفيه مواد غذائية كبيرة، مملوءة بالقشور، وغيرها. وإذا كان ذلك الطعام فيه منفعة مرئية طيبة فالبحر وعاء للجواهر المختلفة، ولذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهى ما يسمونه بالأحجار الكريمة من لآلىء، وزمرد، وغيرهما مما يتحلى به النساء وبعض المرفهين من الرجال، وإن لم يتشبهوا بالنساء.

وتوهم بعض المفسرين أن التحلى بالجواهر حرام، وقاسوه على التحلى بالذهب، ولكن الثابت فى الآثار أن التحريم مقصور على الذهب على أنه روى أن بعض الصحابة قال: إنه لا تحريم، ولكن قالوا: إن ذلك من شواذ الأقوال ولقد ذكر الشوكانى فى «نيل الأوطار» أن هناك عشرين من الصحابة لم يحرموا الذهب على الرجال، ولكن لم يذكر من هم ولم يذكر من أسند هذا القول إلى النبى

ومهما يكن فإن الجواهر والآلئ والزمرد والياقوت، وغيرها من الأحجار الكريمة، كالماس والكهرمان ونحوها لم يثبت تحريمها إلا أن يتخذها عقدا كما يتخذها النساء فإن ذلك يكره للتشبه بالنساء.

والنفع الثالث الذى ذكره القرآن الكريم من المنافع التى سخرها الله تعالى: الفلك، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾، ﴿مَوَاحِرَ﴾ جمع ماخرة، وهى السفينة التى تشق عباب الماء حتى يكون لها صوت يسمع، ولا يكون إلا للمراكب الكبيرة التى تحمل الأمتعة والأشياء، ولو كانت شرعية، وإنك لترى المراكب الشراعية ذوات الشراع المختلفة المتعددة وفى ذلك إشارة إلى نعمة التنقل فى البحار، وقد كانت من بعد عصر القرآن الأساس فى نقل البضائع والرجال من بلد إلى بلد، حتى إنه ليقاس عمران البلاد بمقدار شواطئها على البحار وتمكنها من الانتقال فى الأقطار، وقد عمم الله سبحانه بيان انتفاع الإنسان بالبحار، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ سبحانه وتعالى، و(الواو) فى قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ عاطفة على فعل محذوف هو ثمرة لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ لتنقلهم من أرض إلى أرض وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، ولترتبطوا بأقطار الأرض، ولتبتغوا من فضله، أى لتطلبوا فضل الله الذى أفاض به فى أقطار الأرض، فينقل كل إقليم ما يفيض من فضل الله إلى الإقليم الآخر، والابتغاء: الطلب بالشدة.

وقوله فى منفعة الفلك: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾، أى أن رؤيتها ذات متعة للأنظار، كما أن النعم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) ﴿[الشورى] فالجوارى تربط الأرض بعضها ببعض، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان حيثما كان وأنى سيكون.

وقال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أى أسبغ عليكم هذه النعم الظاهرة والباطنة لترجو شكر الله على ما أنعم لا ليكفروا بها، وكما قال تعالى: ﴿... لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) ﴿[إبراهيم].

ينقل القرآن عجائب نعم الله تعالى على خلقه من نعمة إلى أخرى وهذا أيضا فيه عجائب التكوين فمن ذكر للأنعام وذكر النبات والزيتون والنخيل والانتقال إلى ذكر البحار وخيراتها والفلك المشحون يجرى فيها، وانتقل سبحانه من البحار وماء الأرض إلى يابسها، وهو يشغل ربعها، فقال عز من قائل:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥).

قلنا إن الجزء اليابس من الأرض هو ربعها والبحار ثلاثة أرباعها، وكانت على هذا الاتساع لتصل أجزاءها، فالبهار يجرى فيها الفلك المشحون ناقلة من الشرق إلى الغرب، والشمال إلى الجنوب، وكان جزءاً من الأرض مجهولاً لجزئها الآخر، وكلاهما يابس فكشفته جارية في البحر، جرت فاتصلت الأجزاء، والماء سبيل الاتصال.

وبعد أن تكلم سبحانه عما في الماء من خيرات ومنافع يستغنى ويطلب من فضل الله ذكر الأرض اليابسة في مقابل الماء، وذكر الجبال التي جعلها الله سبحانه وتعالى أوتاداً فقال سبحانه: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾، ﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع راس، وفواعل يكون لفاعل إذا كان وصفاً مما لا يفعل كشوامخ جمع شامخ، والرواسي هي الجبال، وقد قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى﴾ ومعناها خلق وأنشأ، وجعل، ولكن عبر بالقي، للإشارة إلى أنها ليست من جنس التراب الذي يكون في السطح من حيث قوتها وكونها في أكثر أحوالها حجارة، ولما لها من هذه القوة ولما يبدو أنها ثقيلة كانت كأنها رواسي؛ لأن الراسي هو الثابت المثبت، فكأنها ثبتت الأرض من أن تميد وتضطرب، والمعنى ألقى الله الجبال الراسيات لئلا تميد الأرض وتضطرب، أو خوف أن تضطرب، والمعنى على الحاليين أن الرواسي أرسنها وثبتها وقال تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾، فالأنهار جزء من اليابس، وكذلك السبل في الأرض والصحارى، والمعنى أن الله تعالى جعل في الجزء اليابس من الأرض أنهاراً تجري بالماء من مكان إلى مكان رزقا للعباد، ويقول في ذلك ابن كثير: «ينبع في

موضع وهو رزق لأهله موضع آخر، فيقطع البقاع والبرارى والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذى سخر لأهله.

وفى ذكر الأنهار بعد الجبال إشارة إلى أن الجبال كما أنها أوتاد الأرض تنزل من فوقها الأمطار، فتجرى فى الوديان والأنهار، كما ترى فى نهر النيل ودجلة والفرات وغيرها.

﴿وَسَبَّأً﴾، أى طرقا يسير فيها السائرون كما قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبَّأً ...﴾ [الأنبياء] وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أى رجاء أن تهتدوا وتتركوا الحق وتتركوا الباطل وتؤمنوا بمناجى النعم، ومسجريها ونخالق الكون وكالته، وحافظه.

ثم قال سبحانه:

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦).

أى أن الجبال والسبل والأنهار تكون علامات للأماكن وحدودها، وتعريفاً بأماكن البلاد، وحدودها شرقاً وغرباً، وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾، معطوفة على جبال، أى جعل الجبال والأنهار علامات.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أى أن النجوم ومواقعها فى السماء، وتنقلاتها فى مداراتها علامات للسائر فعلاً، وكان العرب على علم واقعى بمواقع النجوم يتفعلون بها فى أسفارهم، وقد أكد سبحانه اهتداءهم بالنجم بتقديم النجم، وإن ذلك أصل لعلم الفلك هدى الله تعالى إليه.

والتفت سبحانه وتعالى من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن الله يخاطب الناس بالنعم عليهم، وقد ذكر هذه النعم، وهى نعم الجميع، وثبتت للجميع، أما النجوم فمع عموم نفعها وهديتها لا يهتدى بها إلا السائرون فى ظلمة الليل البهيم.

وفى الخطاب تذكير بالإنعام الدائم المستمر، وفى الحديث بالغيبة تقرير للحقائق الثابتة المستقرة ولو كان النفع الحسى فيها لبعض دون بعض.

لا تشابه بين الخلق والخالق

قال تعالى :

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءَ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِنْ هُمْ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَأَجْرَمَ أَتَى اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا
سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾

ذكر سبحانه وتعالى خلقه، وأن الوجود كله يتمتع بنعمة خلقه، ومع هذه
النعمة، خلق نعماً للإنسان إذ سخر له الشمس والقمر والليل والنهار، وأتى بنى
الإنسان من كل ما سألوه، فالنبات والزيتون، وغيره من الثمرات والبحر،
والفلك، وما فيه من لحم طرى إلى آخره.

كل هذا، ومع ذلك يشركون بالله فى عبادته سبحانه ما لا يملك شيئاً،
ولذلك نبه سبحانه وتعالى إلى ضلال العقل فى هذا الأمر، ويذكرهم بذلك؛ لأن

فطرتهم تنفر منه؛ ولذا يستثير سبحانه هذه الفطرة بحمل الإنسان على التذكر فيقول سبحانه:

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧).

الاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع؛ لأنهم فعلا عبدوا الأحجار فجعلوا من خلق الوجود كمن لا يخلق شيئا، وهو ذاته مخلوق ميت لا حياة فيه إذ هو جماد من الجمادات وحجر من الأحجار، وإنكار الواقع توبيخ؛ لأنه يكون استفهاما عن واقع غير معقول، فيكون الجواب منهم إقرارا بأنهم يفعلون أمرا غير معقول.

و(الفاء) فى قوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه يترتب على أن الله تعالى خالق الأشياء والنعم والأنفس، وبذلك يكون هو المعبود وحده، وإلا كان الأمر المستنكر عقلا، وواقعا، وهو أن يكون الخالق كالمخلوق، بل إن يكون الخالق كأصغر ما خلق، والفاء مؤخرة عن تقديم، فحق القول ببياننا أن يكون فأمّن يخلق كمن لا يخلق، ولكن الاستفهام له الصدارة فى الجمل فأخرت الفاء، وكذلك فى القرآن كل فاء جاءت بعد حرف الاستفهام، والواو العاطفة كذلك.

ويلاحظ فى النص السامى ما يأتى:

أولا: أن الله تعالى عبر عن الأحجار التى كانوا يعبدونها بـ(مَنْ) الدالة على العقلاء، فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ وكان ذلك لأنهم عدوها معبودة، فكأنهم يعاملونها معاملة العقلاء، فكان التعبير مساوقة لزعمهم، ولأن بعض الذين يعبدون غير الله يعبدون عقلاء، كالثالوث المسيحى ففيه العقلاء، وقد أشركوا، وقد يكون ذلك للمشاكلة، والتسوية التى أرادوها بين الخالق والمخلوق، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿... فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ...﴾ (٢٤) [النور] وإن الله سبحانه فى أكثر من آية يعيد الضمير عليها كالعقلاء، كقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ

يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا... ﴿١٩٥﴾ [الأعراف]، فهو نوع من مجاراتهم حتى تكون النتيجة بالموازنة أنهم ليسوا كمن خلق فقط، بل هم دون من خلق أو بالأحرى دون من يعبدونهم.

ولقد ذكر الزمخشري أن سياق البيان كان أن يشبهوا هم بالخالق لا أن يشبه الخالق بهم، فكان يقال أقمّن لا يخلق كمن يخلق، وقد أجاب عن ذلك، أن الاستنكار موجه إلى المساواة بين الخالق والمخلوق، فكأنهم جعلوه في ضمن المخلوقات، وقد يجاب عن ذلك أيضا بأن سياق القول في بيان الخلق، فكان موجه أن يذكر الخالق أولا، وكأنهم ينزلونه من مرتبته التي لا تناهد إلى منزلة المخلوق، وهذا في ذاته موضع استنكار.

ويختتم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقال في (الفاء) هنا ما قيل في (الفاء) في قوله تعالى: ﴿أَقْمِنَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ والاستفهام لإنكار الوقوع مع التوبيخ، والتعبير ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن عبادة الأحجار من غفلة العقول، وإنها تتذكر وتذهب الغفلة، حتى تنبيه إلى حكم العقل وهو الوحدانية، وذلك حق؛ لأن عبادة الأوثان من سيطرة الأوهام التي تجعل العقل في غفلة تامة، كما ترى في هذه العصور عند بعض النصارى.

﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨).

بين الله سبحانه وتعالى كيف سوى عبدة الأوثان بين المنعم والأوثان، وبين الخالق والمخلوق، وأنهم قد تجاوزوا المعقول وغفلوا عن الفطرة، فبدل أن يشكروا النعمة كفروها.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك أن نعم الله تعالى أكثر من يضبطها العد والإحصاء، وإنها واجبة الشكر على قدر الطاقة فإن ما لا يحصى لا يعلم للإنسان، ولا يستطيع الشكر إلا من يعلم، ويقدر ما يعلم.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾، أى إذا أردتم أن تعرفوا نعم الله بالعدد لا تحصوها، ولا تضبطوها، ففي كونك فى بطن أمك فى نعمة، وفى غذائك وأنت فى الغيب المكنون فى نعمة، وفى تنقلك فى بطن أمك من نطفة إلى علقة، فمضغة مخلقة وغير مخلقة فى نعمة، وإذا خرجت إلى الوجود وجعل لك السمع والأبصار والأفئدة فى نعم، وإذا سخر لك الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم فأنت مغمور فى نعم، وهكذا فى كل حياتك أنت فى نعم الله تعالى، وهو القيوم عليك.

وإذا كانت معرفة هذه النعم لا تبلغها طاقتكم، فأنتم أحرى بالألا تبلغ طاقتكم شكرها؛ ولذا قال تعالى بعد بيان أن الناس لا يستطيعون إحصاء نعمه عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أكد سبحانه مغفرته ورحمته، فكانت المغفرة من الرحمة، إذ إنه سبحانه لا يطالبكم بالشكر إلا فيما تعرفون وما تطيقون وفيما تعرفون يعفو عن كثير سبحانه وتعالى، وقد أكد سبحانه هذين الوصفين الجليلين أولا بـ(إن) المؤكدة، وبصيغة المبالغة، وباللام، والله على كل شىء قدير.

وإن الله تعالى يحاسب القلوب فى خيرها لحبه المغفرة، ولإرادته الرحمة، ولعدله، ولكيلا يتساوى المحسن والمسى؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ (١٦)﴾.

هذه العبارة فيها تهديد لأهل الشرك، وتقريب لأهل الإيمان، فهو يحاسبكم سبحانه على ما تعلنون من أعمال، وما تسرون من عقائد ونيات يصحبها عمل، فإن اتجهتم إلى شكر الخالق بعدم الإشراك به والإحساس بنعمه فإنه غافر لكم ما ترتكبون وتتوبون عنه إذا تبت من قريب، وإن أسررتكم الخير ونويتموه، وهممتم أن تفعلوه فإنه غافر لكم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، وبالنسبة للشر لا تحاسبون إلا بما تفعلون، وما تعتقدونه من شرك وعبادة غيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ... (١١٦)﴾ [النساء]؛ لأن الغفران لا

يكون إلا فى دائرة الإيمان بالوهية الله تعالى وحده، فمن آمن بالله وحده، كان جديرا بنعمة الغفران، ومن أشرك بالله غيره، فإنه ليس بجدير، والله بكل شىء محيط.

وقد صرح الله تعالى ببعض الحقائق فى معبوداتهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾.

ذكر سبحانه وتعالى فضل خلقه ونعمه، وإنه الخالق المنعم، وبين المقايضة العادلة التى تفرق بين من يخلق ومن لا يخلق، وبعد ذلك ذكر أن المعبودات التى يعبدونها لا يمكن أن تخلق شيئا؛ ولذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، فالواو عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ (١٩)﴾ وعبر سبحانه وتعالى عن الأوثان بالذين التى هى للعقلاء مجارة لهم فى تفكيرهم إذ يعطونها بأوهامهم من الصفات ما هو أعلى من العقلاء، و﴿شَيْئًا﴾ التنكير فيه للعموم، أى لا تخلقون أى شىء مهما صغر وهان، ولقد قال تعالى فى تصوير عجزهم المطلق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج] إنها أحجار تنحت من صخور الجبال، ولذا قال تعالى: ﴿قَالَ اتَّعْبُدُونِ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات].

ولقد بين سبحانه أن المشركين أحسن خلقا من أوثانهم، فقال عز من قائل:

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾.

هذه الحجارة جماد لا تجرى فيه الحياة، وهؤلاء الجهلاء يدعونها وهى أحجار، ومعنى يدعونها يعبدونها، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾، أى وكانت موصوفة بالموت؛ لأنها فاقدة الحياة ليس لها روح تسرى فيها، كما تسرى فى الأحياء، والتعبير عنها بأموات لا يخلو من مجاز؛ لأن الموت يكون للحى الذى فقد الحياة

ولو كان نباتا، فكيف يقال عما لا تدخله ابتداء ميتا، ولكن لأنها جماد لا يتحرك بالإرادة، ولا تجرى فيه حركة عبر عنه بميت، وقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ يشير إلى هذا المعنى، أى أنه جماد لا تجرى فيه الحياة قط.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ﴾ الضمير عائد إلى الأوثان، وأعيد الضمير المذكور العاقل، جريا على عدها آلهة تدرك وتعقل فى زعمهم، ويزدلفون إليها، ويتقربون ويدعون.

والمعنى على هذا أن هذه الأوثان يعبدونها، رجاء خير منها، وهى لا تشعر متى تبعث أو فى أى مكان تبعث.

وهذا يقتضى أن ما يعبد يكون عنده قدرة على الجزاء بالثواب على العبادة، والعقاب على تركها، وهذه لا تشعر متى تبعث وتجازى بالخير أو الشر.

ويصح أن يكون الضمير عائدا على الذين يدعونها أى يعبدونها، أى ما يشعر أولئك العباد أيان يبعثون، مع أن البعث آت لا محالة، وهم ينكرون البعث، ولذلك دعوا الحجارة وآمنوا بها، فالكفر بالبعث هو الضلال المبين وهو الذى أدى إلى هذه الأنواع المتكاثرة من أنواع الضلال المختلفة.

ويجب أن نذكر تفسيرا آخر له وجاهته، وهو أن الموت ليس فى هذه الآية وصفا للأحجار إنما هو وصف لمن يدعونها ويعبدونها، فالمشرك ميت غير حى؛ إذ إن حياته لا نفع فيها له، فهو كالميت؛ ولذا كان التصريح بأنه غير حى، وقد عبر القرآن عن المشرك بأنه ميت وعمن يخرج من الشرك إلى الإيمان بأنه حى، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

فسمى الله تعالى المشرك ميتا، وبذلك يكون الشرك موتا والمشركون أمواتا غير أحياء، ويكون قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ﴾ ظاهرا فى العودة على المشركين، والله أعلم.

بعد هذه البراهين القاطعة، والآيات البينة تقرر النتيجة التي لا ريب فيها، وهي الوحدانية:

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٧).

هذه الجملة منفصلة عما قبلها غير موصولة بها؛ لأنها بمنزلة النتيجة لما سبقها، فهي مقدمات، وتلك نتيجتها وهي بمنزلة السبب، وتلك بمنزلة المسبب، وإضافة الإله إلى المخاطبين معناه معبودكم أيها المؤمنون هو إله واحد لا شريك له في حقيقة معنى الألوهية؛ لأنه وحده الخالق، فلا خالق سواه، وهو الواحد في ذاته وصفاته، ليس كمثل شئ، وإنه بذلك يجب أن يكون واحداً في عبادته لا يعبد سواه، ولا يلجأ إلا إليه.

وقد قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ هذا النص السامى سبق لبيان كفر من كفر، أو شرك من أشرك، فذكر أن سبب ذلك لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فذكر سبحانه أن عدم الإيمان بالآخرة يؤدي إلى وصفين:

الوصف الأول - أن تكون القلوب منكرة.

والوصف الثاني - أنهم مستكبرون، وذلك لأن عدم الإيمان بالآخرة، وأنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب يجعل الشخص يحسب أن الإنسان خلق عبثاً، وأن الحياة الدنيا هي الحياة، وهي المتاع ولا متاع سواه، فيكون قالبا للحقائق، وجاحدا دائماً، إذ الدنيا وما فيها من حسيات قد استغرقت وملأته، ولا موضع لغيرها في نفسه فقلبه منكراً إلا للمحسوس، فلا يؤمن بالله، ولا بالرسالة الإلهية.

وأما أنهم مستكبرون، فلأن الدنيا تدليهم بغرور، ومن اغتر بهذه الحياة، وأوتى منها حظاً طغى واستكبر وتجبّر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) أن رآه استغنى (٧) ﴿[العلق].

ومن كان من طبيعته الإنكار والاستكبار، فإنه تنغلق في قلبه مفاتيح الهداية.

و(الفاء) في قوله: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، فاء الإفصاح، والمعنى إذا كان الله واحد فلماذا يكفرون؟ فأجيب بأنهم يكفرون بالآخرة.

وأساس الإيمان هو الإيمان بالغيب، فالذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس، لا يؤمنون بالله ولا الملائكة ولا بالرسالة الإلهية، ولذا ذكر سبحانه أن أولى صفات المؤمنين بالغيب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى سعة علمه سبحانه فقال:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٢).

في الآية السابقة بين سبحانه أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة، وهم مستكبرون فمظهرهم إثم ومخبرهم نكران وجود، وهنا يبين سبحانه وتعالى أنه يعلم باطنهم الذي تنبعث منه أعمالهم ومظاهرهم: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا تخفى عليه خافية من أمورهم، وهو مجازيهم بها يوم القيامة الذي أنكروه، وكاشف أمرهم الذي ستروه، ﴿لَا جَرَمَ﴾ ذكر الزمخشري أن معناها «حقاً» فهي لتأكيد علم الله تعالى بما يسرون وما يعلنون أى ما يخفونه، ولا ينطقون به، وما يظهرون ويجهرون به من معاص تدل على مقدار عتسهم، ومجابهتهم الحق.

ونقول: إن لا جرم فيها معنى «حقاً» فيها رد لهم؛ لأن معنى جرم كسب و(اللام) تدل على النفي، فالعنى لا كسب لهم، ولا ثمرة لأعمالهم المكتومة والظاهرة، ويكون المعنى لا كسب لهم فيما يفعلون من إنكار القلوب، واستكبار النفوس، لأن الله تعالى يعاقبهم بما أسروا وبما أعلنوا، ﴿... وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ...﴾ (٦١) [يونس]، والله أعلم.

وإن ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ لا يقتصر على إنكار القلوب بل يشمل ذلك وكل ما يبيتون وما يدبرون من شر، وما يمكرون من مكر يقصدون به إيذاء النبي ﷺ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يشمل المجاهرة بالعصيان، والمعاندة والإصرار على الباطل ومعاندة الحق وأهله لما يشمل قتال المؤمنين وإرادة الذلة لهم، والله يريد العزة للمؤمنين.

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، وهى تشير إلى عذاب الله تعالى لهم، وأن هذا الإنكار من الاستكبار، وذلك لأن النفس المستكبرة متعالية عن الناس وعن الحق، ومع الخضوع والتواضع يكون الإيمان؛ لأن التواضع من غير صفة يكون معه اتساع القلب للحق فيدخله، ومعنى عدم حب الله تعالى أنه لا يكون دانيا منه قريبا إليه، بل لأنه استكبر بعيد عن الله تعالى، وكلما بعد عن الله تعالى لم يشعر بجلاله ولا يذكره، ولا يطمئن قلبه.

وإنه يترتب على عدم حب الله تعالى للمستكبرين، ألا يغفر لهم؛ لأنهم لا يتوبون، والتوبة باب المغفرة؛ لأن التوبة تدل على الرجوع إليه سبحانه، والضراعة إلى الله تعالى، والتوسل إليه سبحانه وتعالى، والكبر والتوبة نقيضان لا يجتمعان فى قلب مؤمن.

ولأنهم يستكبرون عن الحق لا يدركونه، ولا يريدونه؛ ولذا قال الله تعالى

فيهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤﴾.

أى أنهم لا يرون فى القرآن إلا قصصا، ولا فى قصصه إلا أنه أسطورة من أساطير الأولين، وذلك لاستكبارهم عن أن يفتحوا صدورهم وعقولهم لإدراك ما اشتمل عليه من أحكام، وما فيه أن أساليب البيان التى يعجزون عن أن يأتوا بمثلتها، إن استكبارهم يمنعهم من الاتجاه إلى الحقائق ليدركوها، وإذا أدركوها خضعوا لها.

والأساطير جمع أسطورة كما قال المبرد، والأسطورة هي الأحاديث التي لا يربطها فكر، ولا أصل لها وتقال للتسلية، أو هو الأخبار التي تحبىء على السنة الحيوان، وقالوا فى السيرة: إن النضر بن الحارث كان فى فارس، فعلم ما فى كتاب كليله ودمنة، فقال: كلام محمد ﷺ هو كهذه أساطير الأولين: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥٠ ﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ فيه (قيل) مبنى للمجهول فمن هو الفاعل الذى جهل وحذف؟ يصح أن يكون القائل النبى ﷺ أو من معه، وكأنه يتحداهم، ويدعوهم إلى التأمل، وإدراك معانيه ووجوه البيان الذى هو فوق البشر، ويوجه أنظارهم، ولكن قلوبهم معرضة مستكبرة، والاستكبار كما ذكرنا يسد مسالك الإدراك، فيكون العقل غافلا عن إدراك الحق، ولذا يجيبون ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾، أى أحاديثهم التى لا أصل لها ولا واقع يحققها وكأنهم نظروا إلى القصص الحكيم فى القرآن، ولم يصفوه بوصفه، بل قالوا ما قالوا منصرفين عن الحق، غير مدركين لموضع العبر فيه، ولم ينظروا إلى ما فيه من دعوة إلى التوحيد، وبطلان الشرك، وما فيه من أحكام شرعية تصلحهم فى دنياهم وآخرتهم.

هذا على أن الفاعل المحذوف هو النبى ﷺ، ومن معه، ويكون قوله تعالى ﴿ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ المراد به القرآن الحكيم، والاستفهام هنا على حقيقته ليحملهم على التفكير والتدبر.

ويصح أن يكون من الكفار بعضهم لبعض، وكأنهم يتساءلون عن حقيقة ما جاء به محمد ﷺ فى نظرهم، وما يمكن أن يردوا به على المصدقين، أو ما يمكن أن يشككوا فيه المؤمنين به، ويصدوا به الذين لم يؤمنوا عن أن يدخلوا فيه ويكون تعبيرهم ﴿ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ من قبيل التهكم بالقرآن، ومن نزل عليه، إذ هم فى ظاهر حالهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يصدقون أنه نزل من الله تعالى على قلب محمد ﷺ.

ويصح أن نقول إن قائل هذا القول ليس من المشركين، إنما هو من الوافدين إلى مكة في موسم الحج، والرد من المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ليصدوا الناس عن سبيل الله تعالى، ويضلوا الذين يدعوهم النبي ﷺ عندما أخذ يعرض نفسه على القبائل الوافدة إلى الحج، وقد دعاهم النبي ﷺ إلى القرآن الذي أنزله رب العالمين، لقد سأل أولئك البادون الذين جاءوا من خارج مكة عن القرآن ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فضللوهم وقالوا أساطير الأولين وبذلك صدوهم عن الإيمان الذي كان يمكن أن يدخل قلوبهم لولا هذه المبادرة المضلة.

وإني أميل إلى الأخير وأرى الفاعل المحذوف يحتملها جميعاً، وربما تكرر السؤال، وتكرر الجواب، وهنا إشارة إلى أن القرآن أنزل من الله وعبر بالرب، للإشارة إلى أنه أنزل من ربهم الذي أنشأهم ورباهم، ويعلم ما فيه صلاح أمرهم في دنياهم وعاقبة أمرهم.

وإن الذين قالوا هذا القول مضلين صادين عن سبيل الله تعالى أيا كان السائل لهم الذي أجابوه، قد ضلوا في ذات أنفسهم، وأضلوا غيرهم؛ ولذا يتحملون وزرهم كاملاً ويتحملون من أوزار الذين أضلوهم بغير علم، فقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥).

اللام لام التعليل، وتكون العلة هي قولهم أساطير الأولين، أي قالوا ذلك ليحملوا أوزاراً، والظاهر أن اللام لام العاقبة، وهو ما نراه، أي قالوا ما قالوا وصدوا عن سبيل الله لتكون العاقبة أن يحملوا أوزارهم كاملة وأوزاراً من أوزار من ضلوهم.

والوزر: الحمل الثقيل، وفيه إشارة إلى أنه حمل ثقل كله أوزار وآثام كما قال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ...﴾ (٣٢) [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه إشارة إلى أن هذه الأوزار مآلها عذاب دائم أليم؛ لأن

القيامة دار الجزاء ويحملون جزاء أوزارهم كاملة غير منقوصة فى شىء من النقص، وعبر عن الجزاء بحمل الأوزار للإشارة إلى المساواة بين العقاب والفعل، حتى كان الذى يحمل الوزر يحمل جزاءه؛ لأنهما متلازمان ومتساويان.

وقد ذكر سبحانه أنهم يحملون وزرهم كاملاً يوم القيامة، ويحملون من أوزار الذين يضلونهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لتحقيق معنى الإضلال؛ لأن الإضلال عادة يكون لمن لا يعلم، وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول فى قوله تعالى: ﴿يَضِلُّونَهُمْ﴾، أى أن ذلك لا يكون إلا بغير علم، وذلك يزيد فى جرمهم جرماً، لأنهم لا يكتفون بضلال، بل يتعدون به، فيضلون غير العالمين بحقيقة الدعوة المحمدية، فيذكرون ضلالهم فيها، ولا يذكرون حقيقتها.

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ﴾ «ومن» هنا بمعنى بعض، فلا يحملون كل أوزار المضللين، بل يحملون بعضه، ويبقى وزر شركهم، ذلك لأنهم باستجابتهم لهم من غير تبين وتعرف، قد وزروا فى ذات أنفسهم، إذ أنهم كان عليهم أن يبحثوا ويتعرفوا الحق، وقد بلغوه، وعلموا بأمره، فما كان لهم أن يكتفوا بكلام أعداء محمد ﷺ، بل كان عليهم أن يتعرفوا الحق من مصدره، وألا يكتفوا بالمعرفة من خصومه، وإن الإضلال يتضمن أمرين: أحدهما إيجابى، وهو المضل، والثانى استجابة المضلل، فهذه الاستجابة يحاسبون.

وإن هذه الأوزار التى حملها المضلون كاملة لأنفسهم، وحملوا معها بعض أوزار الذين أضلوهم هى أسوأ ما يحمل الضالون والمضلون لأنها عذاب أليم، ولذا نبه سبحانه إلى عظم هذه الأوزار فقال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ و﴿أَلَا﴾ أداة تنبيه لبيان أن هذا الحكم الذى يليها ثابت ثبوتاً مؤكداً و﴿سَاءَ﴾ فيها معنى التعجب، ومعناها ما أسوأ ما يحملون من أوزار؛ لأنها عذاب مقرر ثابت، وعبر عن هذا العذاب بقوله تعالى: ﴿مَا يَزُرُونَ﴾ لما فى الوزر والعذاب من توافق كامل، وتساوٍ بينهما على ما بينا، والله تعالى أعلم.

العبرة بمن كانوا قبلهم

قال تعالى:

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 فَأَنَّ اللَّهَ بَنَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
 مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾
 ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ
 كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَى
 الْيَوْمَ وَالسَّوَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى
 إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
 خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٩﴾

يضرب الله سبحانه وتعالى لنبية الكريم الأمثال بحال المشركين الذين كفروا
 بالرسول، ودبروا التدبيرات ليمنعوا الرسل من تبليغ رسالات ربهم، كما يبين
 للمشركين الذين يعاندون النبي ﷺ، ويكفرون بالله ويدبرون التدابير لمنع الدعوة
 من أن تسرى، حتى أنهم يسدون السبل على مكة فيلتقون بالركبان، ويصدونهم
 عن سبيل الله، فقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أى دبروا الأمور لنقض
 الدعوة، وأحكموا تدبيرهم على الناس، وسدّوا كل مسالك الهداية ليضلّوهم
 وكادوا لأهل الإيمان كيدا، ظنوا معه أنهم قضوا على الدعوة، واقتلعوها، ولكن
 الله تعالى أفسد عليهم تدبيرهم ورد كيدهم فى نحورهم، وأن ما بنوه دمره الله
 تعالى، وللكافرين أمثالها، فقال تعالى: ﴿فَأَنبَى اللَّهُ بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ

السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴿١٦٦﴾ وإن هذا الكلام فيه استعارة تمثيلية إذ شبه الله تعالى حالهم بحال من بنوا صرحًا وشيدوه، وأقاموا قواعده على عمد وأسطوانات، وأحكموا بنيانه حاسبين أنه يبقى على مدى الأزمان، ولكن أتى الله تعالى بنيانهم بأمره من قواعدها، فتداعت وانهارت فصارت هباءً منبثًا، فخر عليهم السقف من فوقهم، وماتوا تحت أنقاضه، وبذلك كان ما بنوه للحياة ومتعها، وتدبير الأمور للحق صار عليهم وبالاً، وسبباً لهلاكهم وأتاهم العذاب به؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أى أتاهم من المكان الذى يشعرون أن فيه مأمْنهم فكان فيه مهلكهم وفناؤهم.

وهذا يذكر المشركين فى عصر النبى ﷺ بأن ما يدبرونه ضد النبى ﷺ من تدبير يريدون به إخفاقهم لهم سيكون من عوامل نصره، وإن الله محيط بهم، وبما يدبرون.

وإن هذا عذاب الدنيا للمشركين، وقد تبين فى عاد وثمود، ومدين، وفرعون وملته، ثم يوم القيامة يكون الحزى والجزاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٧)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا فى معناها، وهو الترتيب والتراخى، وهو هنا بمعنى الإهمال من غير إهمال، وذلك يطوى فى نفسه التهديد والإنذار وهو فى ذاته وعيد بالخزى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ بإسناد الفعل إلى الله تعالى فيه تعظيم لذلك الحزى، وذلك الحزى يشمل فضيحتهم على الأشهاد، لتذهب الكبرياء الآئمة، وتشمل الذل بعد الاستكبار، وتشمل العذاب؛ لأن العذاب خزى فى ذاته، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٧٢)﴾ [آل عمران] وقد كان من إخزاء الله لهم أن كشف حالهم مع الأوثان التى أشركوها فى العبادة مع الله تعالى، وأنها لا شىء وأنها تهرب منهم، ولا تجد لها مهرباً؛ ولذا قال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾.

وهنا نلاحظ ثلاثة أمور بيانية:

الأمر الأول - إضافة الشركاء إليه سبحانه وتعالى هو من باب الإضافة لأرقى ملابسة إذ هم قد عبدوها مع الله تعالى، فجعلوها لله شركاء بزعمهم، فكانت الإضافة أخذًا بهذا الزعم تبكيًا لهم، إذ كيف يكون المخلوق شريكًا للخالق، وكيف تكون الحجارة التي لا تنفع ولا تضر شريكة للنافع الضار، رب السموات والأرض، والحي القيوم القائم على كل ما في هذا الوجود.

الأمر الثاني - في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾، أى تعادون الحق والأنبياء والدعاة المرشدين فيها، أى تكون فى شق والحق فى شق، و(فى) هنا معناها المحل، أى محل المشاقة فيها، فيتنازعون، حيث لا مكان للمنازعة؛ لأنها منازعة بين الخالق، وما هو أدنى المخلوقات، لأنها حجارة لا تنفع ولا تضر.

الأمر الثالث - أن ثمة قراءة بكسر النون، والكسر يدل على ياء المتكلم، أى تشاقوننى فيها أى تنازعوننى أنا الله الخالق رب الوجود فيها، ويكون فى هذه القراءة معنى آخر جليل، وهو أن منازعة الرسل منازعة له سبحانه وتعالى.

ولقد شهد عليهم بهذا الخزي رسلهم الذين أرسلوا إليهم وأتباعهم، والملائكة ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، والذين أوتوا هم النبيون، فقد أوتوا علم النبوة، والذين اتبعوهم فقد اقتبسوا من علم النبوة، والملائكة، فقد أوتوا علم الرسالات بمقتضى تكوينهم، فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وشهادة أولو العلم: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أى الخزي والسوء على الكافرين بسبب كفرهم وعنادهم، ومشاققتهم لله ولرسوله، وأهل الحق، وقد قال تعالى فيهم:

﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ هم الكافرون، فهذه الجملة عطف بيان أو بدل مما قبلها، وهذا يتضمن حالهم عند الوفاة، ووصفهم الأصلي الذى أرداهم فى الجحيم، وهو أنهم ظالمون لأنفسهم، وذلك الظلم بشركهم، فالشرك فى ذاته ظلم، وهو ظلم للنفس؛ لأنه انحراف فيها، وعوج فى تكوينها يشبه عوج الأعضاء بعد استقامتها، وهو ظلم للعقل والفكر إذ يحطه من عبادة الله إلى عبادة الأحجار، وهو يؤدى إلى ظلم الأبرار، والظلم يعود على الظالم، فمرتعه ونهايته عليه، فكانه فى الابتداء انتهى إليها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوا السَّلَمَ﴾ وهو الاستسلام والخضوع والإخبات بعد أن عتوا واستكبروا، والفاء للتعقيب، أى أنهم بعد أن توفهم الملائكة فوراً ألقوا السلم والخضوع، وانتقلوا من كبرياء ظلمة إلى ضعة صاغرة مستكينة، وعبرَ بـ(ألقوا) والإلقاء لا يكون إلا للأجسام للإشارة إلى أنهم انحطوا كما تنحط الأجسام من أعلى إلى أسفل، ونسوا ما كانوا يعملون، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، و(من) لاستغراق النفي، أى ما كنا نعمل أى سوء، ونسوا أنفسهم ونسوا أعمالهم لقد زال كبرهم وغطرستهم، فزالت شخصيتهم الظالمة، وحسبوا أنهم لم يفعلوا سوءاً.

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلى تدل على الإضراب عن قولهم، والقائل هم الملائكة أو أهل العلم الذين أوتوه من النبيين أو أتباعهم، وعندى أن القائل هو الله تعالى، لأنه لم ينسب القول إلى غيره، وهو القائل المتولى أمرهم ابتداء وانتهاء.

وقد أكد الله تعالى علمه بالوصف وبيان وبالجملية الاسمية وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) فيه موصولة بمعنى الذى، أى بالذى كنتم تعملونه، وهو استحضار لهذا العمل كأنه حاضر مهياً يرى، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أى عملكم الذى استمررتم عليه، ولم تفارقوه حتى تستبين به خطاياكم.

وقد بين بعد ذلك العقاب الذى ينتظرهم، فقال:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾.

(الفاء) هنا فاء السببية، أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، فبسبب ظلمهم انفسهم بما قدموا من ظلم للفطر، وشرك، يدخلون النار، وجاء إدخالهم بصيغة الامر، للدلالة على أنهم مجبرون فى هذا الدخول لا مخيرون، وجاء بكلام يدل على أنهم دخلوا، ولم يقل (أدخلوا جهنم)، للتهكم بهم كأنهم اختاروها، وإنهم كذلك فقد اختاروها من يوم أن اختاروا الكفر على الإيمان واستكبروا على الحق فلم يؤمنوا به مع قيام بيناته ودلائله.

﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كناية عن سعتها، وسهولة الوصول إليها لمن كتبت عليهم وأردوها بأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر] وإنهم خالدون فيها لا يزيلونها، وخالدون فيها حال، والخلود وهو الاستمرار فى البقاء بها، وقد بين سبحانه أنها أسوأ مقام، فقال: ﴿فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

و(الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا سيدخلون جهنم خالدين، فلبئس مشواهم، و(اللام) لتأكيد ذمها، وأظهر فى موضع الإضمار، فقال: ﴿فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ولم يقل بئس مشواهم، للدلالة على أن الكبر عن الحق وعدم الاستماع إليه، والإصغاء لأهله - هو الذى أودى بهم.

والتعبير بكلمة ﴿مَثْوًى﴾ وهى الإقامة، وغالبا ما تكون المختارة؛ لأنها طيبة من قبيل التهكم بهم.

ولقد قال ابن كثير: إن الآية تدل على أنهم يدخلون النار، أو يكونون فى حرارتها بمجرد قبرهم، وأنه تكون أرواحهم فى عذاب بحرارة جهنم، حتى يكون البعث فتلتقى الأجسام بالأرواح، ويكون العقاب، ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر] اللهم اغفر لنا، وجنبنا أسباب النار، وانظر إلينا يوم لقائك، وإن لم نكن لذلك أهل.

المتقون

قال تعالى:

وَقِيلَ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوفِّقُهُمْ
الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

هذه مقابلة بين الإيمان والتقوى، والكفر والاستكبار، قيل للمستكبرين ماذا أنزل ربكم قالوا: أساطير الأولين ولتتل الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أساطيرُ الأولين﴾ ﴿٢٤﴾ وسئل هذا السؤال نفسه للمتقين، فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ وهذا فرق ما بين التقوى والفجور، الفاجر لا يهمه أن يقول الحق أو يفرغه، والمتقى الطيب محب للحق، ويتحراه، فإن وجده اطمأن إليه، واستقام على طريقه.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، الفاعل المحذوف هنا هو الذى ذكرناه فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أساطيرُ الأولين﴾ ﴿٢٤﴾ وقد كان الجواب غير الجواب الأول، وإن كان السؤال واحدا بيد أن السؤال هنا للمتقين وهناك

«للمستكبرين» كان جواب المتكبرين يتناسب مع ضلالهم، وكان جواب المتقين ﴿خَيْرًا﴾، أى أنزل خيرا، وذلك يشمل القرآن وما فيه من شرائع وما جاء به النبى ﷺ من أحكام وشرع صالح فيه خير البشرية؛ ولذلك نجد الجواب هنا خيرا منصوبا بالفعل، بينما نجد الجواب فى الأولى مرفوعا، وهو أساطير، والفرق أن الجواب جواب مؤمنين يؤمنون بالتنزيل، فيجيبون من غير تلثم واضطراب، بينما الجواب فى الأولى جواب كافرين بالتنزيل وفيه التواء وتلثم لأنه باطل، والباطل دائما لا نور فيه، ولا انكشاف.

ووصفوا المترل بأنه خير، ويشمل القرآن كما ذكرنا والشرائع الإسلامية كلها، وهى خير فيه صلاح الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿... لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ...﴾ (١١) [الزمر] يصح أن تكون هذه الجملة من الله تعالى فيها تميم جواب الذين اتقوا، والظاهر أنها من تنمة إجابة المؤمنين وقولهم، وهم بهذا يرغبون فى الإيمان، ويرغبون فى الإحسان، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، أى خصلة حسنة، وأثر حسن، فالثمرة من جنس العمل، فإذا كان العمل حسنا كانت الثمرة حسنة، وهل ينتج الخير إلا خيرا، وهل ينتج الإحسان إلا إحسانا.

والعمل الصالح ينال به الشخص الخير الحسن؛ لأنه يكون بنية خالصة، والإخلاص فى ذاته أمر حسن لا يذوقه إلا الذين أخلصوا دينهم لله ولم يندسوا قلوبهم بفساد، والإخلاص يدفع إلى الكلم الطيب، والكلم الطيب يدفع إلى العمل المستقيم والسلوك القويم، وكل هذا خير، وإذا كانت متاعب من عمل الخير، فإن الصبر عليها نعمة وحسنة يشعر بها الأبرار الذين يفتدون الحق بأنفسهم وبالبلاء ينزل بهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، أى ثواب دار الآخرة، وإنما أضيف الخير إلى ذات الدار، لأنها كلها خير، فلا ينال الطيبون فيه إلا طيبا، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾، (اللام) لام التوكيد، وإنها كل موضع الشاء، والحمد، وهى نعم الدار، وذكر المتقين بالإظهار بدل الإضمار للإشارة إلى أن

التقوى هي السبب في هذا الجزاء، وللدلالة على أن ثواب الآخرة خير للمتقين دون غيرهم.

ثم بين سبحانه ثواب الآخرة أو بعضه، فقال.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)﴾.

﴿جَنَّاتُ﴾ بدل أو عطف بيان لدار المتقين، إنها ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بها إقامة دائمة ثابتة يجتمع فيها جمال المنظر، والرى، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وتلك متعة النظر، فيكون خمر الماء مع ما يحوطه من خضرة تسر الناظرين بنضرتها، وترتاح النفوس بمنظرها، وبين بعد ذلك أن هذا المنظر الجميل الذي يشرح الصدر معه التمكن من كل ما يحبون؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من خير، وما يريدون من طيب لا يمنع عنهم شيء، وإذا كانوا قد حرموا في الدنيا من مال ونسب فهم في الآخرة ممكنون، وإذا كانوا قد صبروا أنفسهم لله تعالى فإن الله تعالى قدر عنهم بأن مكنهم من كل ما يريدون، منطلقاً إرادتهم ومشيتهم، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ... (٧١)﴾ [الزخرف].

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾، أى كهذا الجزاء الذى نراه للذين اتقوا ربهم يجزى الله المتقين دائماً، وهذا تشبيه أو تصوير لمعنى المكافأة الذى يكافئ الله تعالى بها عباده، فهو تصوير للمعنى الكلى فى جزاء الله للمتقين بهذه الحال التى ينالها المتقون، وهم المحسنون الذين أتقنوا أعمالهم، بإحكامها وأحكام الخير وإحسانه يكون أولاً بتطهير النفس من الأهواء، والآثام، ويكون بالنية الصادقة الصافية، وثانياً بالعمل الصالح.

وإذا كان سبحانه قد بين كيف يستقبل المستكبرون عندما تتوفاهم الملائكة،

فقد بين أيضاً ما يستقبل المخلصون، فقال:



﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢).

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى المستكبرين بأنهم ظالمون أنفسهم، وهم في هذه الحال التي أوقعتهم في رجس وفسوق، فإنه سبحانه قد وصف المتقين بأنهم طيبون، والطيب ضد الخبيث، وضد الشرير، فوصفوا بأنهم طيبون؛ لأنهم خلصوا من الشرك والظلم والاستكبار، ولأنهم صالحون في ذات أنفسهم زكية نفوسهم طيبة راضية مرضية، وطيبة حياتهم من بعد.

والطيبة وصف للنفوس المطمئنة الراضية غير المعتدية الآثمة، وهو وصف جامع لكل الخلال الباطنة والظاهرة يوصف به كل الذين لا يحملون ضغنا، ولا يحقدون، ولا يعتدون، وينصرفون لذات أنفسهم يصلحونها، ويراقبونها، ولا يكون منهم للناس إلا ما فيه مصلحتهم، و﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من المفعول، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ في الآية حال من الملائكة، والمعنى يتوفونهم قائلين لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ إيناسا لهم بالتحية ودعوة لهم بالأمن والاطمئنان، وبث روح الأمان، وبشرى لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت] ويقولون مع هذا السلام المؤمن المبشر: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء باء السببية، أى لسبب عملكم الذى عملتموه غير مدخرين في سبيل الخير، وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تدل على استمرار العمل، لأن كان تدل على الماضى مع الدوان فى مثل هذا المقام، كقوله تعالى: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ (٩٩) [النساء]، وقد جمع بين الماضى فى (كان) والمستقبل فى ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فكان دالا على استمرار عملهم، وكان صالحا، والله تعالى يجزيهم أحسن الجزاء.

تفكير المشركين

قال تعالى :

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
 اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَصَابَهُمْ
 سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ
 شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ
 فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

جاءتهم المعجزة الكبرى التى تتحدى الأجيال كلها، وتحداهم الله تعالى بها
 أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، فطلبوا معجزات حسية كمعجزات الأنبياء
 السابقين، فجاءتهم، انشق القمر، فقالوا: سحر مستمر، أى أعينهم سحرت فتبين
 كذبهم، لأن المسافرين رأوه كذلك، وجاءهم بالإسراء من مكة إلى المسجد
 الأقصى، وذكر لهم الأمارات الدالة .

أتى لهم بالمعجزة الكبرى، وهى التى تتناسب مع خلود شريعته، إذ يبقى
 صامداً يقارع الزمان والأقوام ويقيم لهم الدليل على أنه من عند الله، ولكنهم
 أرادوا آية مادية، فجاءتهم الآية تلو الآية، ومع ذلك لم يؤمنوا؛ ولذلك قال تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ .

لقد طلبوا أن يكون معه ملك، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
 وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ (٩) [الأنعام] ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ، أى العذاب

المستأصل، كما نزل بقوم لوط، وعاد وثمرود، وفرعون، وقد ذكر أنه فعل ذلك بالذين من قبلهم وأنهم طلبوه فأجبيوا، فقال: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنهم استهانوا، وكابروا، ولجوا في إنكارهم، وطلبوا استعجال أمر الله فيهم فعجل، ولكنه لم يفعل ذلك مع أمة محمد ﷺ، فهو لم يرسل لجيل يستأصله إذا لم يؤمن، بل أرسل للأجيال كلها فإذا كفر جيل، كان رجاء الإيمان في جيل يليه، كما قال ﷺ في قومه - وقد آذوه -، وبين الله تعالى على لسان الملائكة أنه ينزل بهم ما يريد، فقال خاتم النبيين: «إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله»^(١).

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الاستفهام فيه للإنكار، وهو وصف لحالهم في كفرهم بالآيات، أى حالهم أنهم لا ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم أمر الله.

وقد بين الله أن أمره نزل بمن سبقوهم مثل قوم نوح، وعاد وثمرود، وأصحاب الأيكة، وفرعون ذى الأوتاد أن ذلك لم يكن ظلماً من الله لهم، بل كان ظلماً من أنفسهم لأنفسهم، فقال عز من قائل: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

إن المذنب إذا نزل به عقاب ذنبه لا يقال إن من أنزل به العقاب هو الذى ظلم، إنما الظالم هو من ارتكب سبب العقاب فهؤلاء بارتكابهم سبب العذاب الذى جاء بأمر الله ظلموا أنفسهم، وهنا أمران بيانان نشير إليهما:

الأمر الأول - التعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ فهو دال على استمرارهم فى أسباب ظلم أنفسهم من إنكار وجود ومكابرة.

الأمر الثانى - تقديم كلمة ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾، على ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للإشارة إلى أن مما ارتكبوا من آثام كان يقع على أنفسهم، لا على غيرهم وللاهتمام والتخصيص.

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه.

وقد أكد سبحانه هذا المعنى السامى فقال:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٤).

الفاء فيها بيان ترتيب الإساءة على ما ارتكبوا من سيئات، فهي تبين كيف ظلموا أنفسهم، فقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، أى فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا، فالكلام على تقدير مضاف، وفى هذا التفسير بيان لأنهم ظلموا أنفسهم بأن تسبوا فى العذاب الذى نزل، فكانوا به ظالمين لأنفسهم، وحذف المضاف مع بقاء المضاف إليه للإشارة إلى الجزاء كالسيئات تماما، حتى كأنه هو.

وإن السيئات تترادف يجىء بعضها تلو بعض، حتى تتراكم فيظلم القلب وحيثئذ تفسد كل أسباب الإدراك وتكون قلوبهم غلفا، ويتوالى منهم الفساد، فيكون ذلك سبباً فى أن ينزل بهم عذاب الله، ويكونون ظالمين لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فيه إشارة إلى أن الله لا يأخذهم إلا بالسيئات، وهى ما يسوء فى ذات من الأفعال، وما يسوء الناس، وما يصددهم عن الحق المبين.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾، أى أحاط بقلوبهم عملهم السيئ، حتى أصبحوا لا يدورون إلا فى فلكه، واستعمال (حاق) بمعنى أحاط لا يكون إلا فى السوء، فالحقيق لا يكون إلا فى إحاطة الشر.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أى أحاط بهم القول الذى كانوا به يستهزئون، أى جزاؤه وحذف المضاف للإشارة إلى المساواة بين الجزاء والفعل كأنه هو.

ويصح أن نقول إن المراد، أن يحيط بهم الاستهزاء نفسه تقرعاً ولوماً، وإشعاراً لهم بأنهم المستهزئون المحقرون، ومن كانوا موضع استهزائهم السخيف هم الأكرمون عند الله.

وإن تفكير السيئين دائماً أن يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم، كما جاء سارق فقبل له لم سرقت؟ فقال: ذلك قضاء الله فكأنه يحمل الله تعالى ما ارتكب، كذلك تفكير المشركين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾.

إن الذين أشركوا وكانوا يخاصمون النبي ﷺ قوم خصمون يحتاجون على النبي ﷺ لكل ما يتوهمون أن فيه حجة لهم، غير مدخرين قولاً ولو كان باطلاً في ذاته، ولا يؤمنون به.

قالوا متحدين النبي ﷺ بقولهم أن ينزل بهم عقاب ماحق، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أى لو شاء ألا نشرك، وألا نحرم شيئاً حلالاً مما حرّمنا، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، لأنزل بنا عقوبة رادعة مانعة قاطعة، ولكنه لا ينزل، وينذر ولا ينفذ، فهو تحد للنبي ﷺ أن ينزل بهم ما أنزل الله على الأقوام قبلهم؛ ولذا قال تعالى من بعد ذلك: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أى لا يملك إنزال العذاب، وإنما الذى يملكه الله تعالى، وهو ليس عليه إلا البلاغ، وقد بلغ وأنذر.

هذا تخريج الحافظ ابن كثير، وهو تخريج مستقيم تتناسق فيه العبارات، وتتلاقى المعانى.

وهناك تخريج آخر يقاربه ولا يباعده، وهو أنهم يقولون ذلك استهزاء بالنبي ﷺ وتهكما، بأنه لو كان يستطيع التغيير لغير، ولكن الله رضى لنا ذلك، فيقول الله ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وهو قريب من الأول فى معناه، وإن خالفه بعض المخالفة فى مبناه.

وهناك تخريج ثالث، وهو الذى ضرب على نغمته الزمخشري، وسار فى مساره غيره، وإن خالفوه فى النتيجة، وذلك التخريج أنهم يسندون إلى الله وزرهم فى الشرك فيقولون: إن شركهم بمشيئة الله وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن فلو شاء ألا نعبدهم من دونه ما حرمناء، فكيف نحاسب على أمر شاء الله تعالى، وبذلك يربطون الأمر بالإرادة، فيقولون: إن أمرا يجب أن يكون ملازما لإرادته، ولا يأمر الله بشيء لم يردده، فيقول لهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أى ليس على الرسل إلا البلاغ، وهو تبين أمر الله تعالى فلا تجادلوا، وأنهم قد بينوا الحق فلا سبيل للتخلص من أمر الله، وأنكم تحسون فى ذات أنفسكم بالاختيار وعلى ذلك يكون.

ونقول إن التخريج الأول تكون الآية متناسقة فى ألفاظها وعباراتها ومعانيها، والتخريج الأخير يجعل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وفى ربطه ببقية الآيات تكلف، ولو كان المخرج له إمام البلاغة الزمخشري.

وهنا إشارات بيانية ترجح التخريج الأول ونشير إليها:

الأولى - فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أى فعل ذلك الفعل الذى تفعلون فعل الذين من قبلكم، وهؤلاء لم يفعلوا بل قالوا ولم يقل: وكذلك قال الذين من قبلكم، فدل ذلك على أن ما كان منهم ليس مجرد قول بل هو فعل وهو التحدى أو الاستهزاء، وبذلك يترجح التخريج الأول أو الثانى ولا يترجح الأخير.

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أى ما حرمناء من غير الله من شيء، بل من ذات أنفسنا.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الفاء للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر إذ تقديره إذا كنتم تتحدون وتطلبون إنزال العقاب فليس هذا لنا، إنما علينا البلاغ الواضح المبين الذى لا يترك ريبة لمرتاب،

والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، أى ليس على الرسل إلا البلاغ المبين، أى التبليغ الواضح وهذه الجملة السامية لا تخلو من إنذار، ووصف البلاغ بأنه مبين يفيد أنه معلوم بإنذاره فمن اهتدى فلنفسه ومن عاند وخالف فعليه إثم عناده.

والآية هنا رجحنا أنها للتحدى أو الاستهزاء، وفى سورة الأنعام يرجح أنها لتعلائهم فى إثمهم وشركهم، ولذا كان الرد عليهم: ﴿... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام].

بعث الرسل بالتوحيد والبعث

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن
حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ
كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

بعد أن أشار سبحانه إلى أن على الرسل البلاغ المبين الواضح بأدلته، وآيات الله المقتترنة به، بين سبحانه أنه ما ترك أمة من غير نذير، بل بعث في كل أمة رسولها بالحق، فقال عز من قائل:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾.

أكد سبحانه وتعالى بعثه للرسول بأن بعث لكل أمة رسولا، وأن محمدا ﷺ لم يكن بدعا من الرسل، أكد ذلك باللام وقد، ولقد عين سبحانه رسالة كل رسول من هؤلاء الرسل فقال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

﴿أَنِ﴾ تفسيرية فهي مفسرة بمعنى الرسالة، وهى الأمر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فيه أمر بالوحدانية ودعوة إليها وتحريض عليها؛ لأن عبادة الله تعالى لا تكون إلا إذا كان يعبد وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أى ابعدوا عن أنفسكم الطاغوت، أى جانبوه، والطاغوت فعلوت من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، ويشمل مجاوزة الحد فى العقول فيعبد ما لا ينفع ولا يضر، ويشرك مع الله غيره ويتحكم فيه الأوهام، فيرى الباطل حقا والحق باطلا، ويشمل ظلم العباد، والطغيان عليهم، ويشمل الطغيان فى المعاملات والظلم، وغير ذلك.

فالدعوة أى الوحدانية واجتناب الطاغوت جامعة لكل معانى الرسالة من عقيدة، وتعامل الناس بعضها مع بعض، هذه رسالة رسل الله فى الأرض، اعتقاد سليم، وتعاون وعمل عادل مستقيم.

وقد تلقى الناس رسالة الرسل الهداية المرشدة ما بين مهتد مقتنع مؤمن، وما بين ضال قد حقت عليه الضلالة، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ ومن هدى الله هو الذى سلك طريق الهداية، وأعد قلبه لقبول الحق والاعتناع به، ولم تكن ثمة غواش من حب المادة أو السلطان أو الجاه أو التأثير بما كان عليه الآباء، فيستبع من غير تفكير ولا تدبر بل نقول:

﴿...بَلْ تَتَّبِعْ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾ (١٧٠) [البقرة]، فمن كانت حاله كذلك، وهو في هذا متساق مع الفطرة فإن الله يهديه، ويجعله يتم الصراط التي ابتدأ السير فيها.

وأما من حقت عليه الضلالة، أى ثبتت وتأكدت، فهو الذى لا يتفكر ولا يتدبر لغواش غشيت قلبه من حب الدنيا وجاهها، وسلطانها، وسيطر على عقله التقليد، والعناد والاستكبار، وبذلك تفسد فطرته التى فطر الناس عليها، ولذا حقت عليهم الضلالة.

وإن أولئك أنزل الله تعالى بهم الدمار فى الدنيا، وصاروا عبرة للمعتبرين؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

(الفاء) الأولى دالة على الإفصاح عن شرط مقدر، أو كلام مقدر تقديره فتزل بهم الدمار والهلاك ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فستجدون الآثار لمن أهلكهم الله، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾، أى انظر الحال التى آل إليها أمرهم بسبب تكذيبهم؛ ولذلك أظهر فى موضع الإضمار للدلالة على أن ما أصابهم سببه التكذيب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

كان النبى ﷺ حريصا على أن يهتدى قومه، لرأفته بهم ولرغبته فى مصلحتهم، ولأنه يرى إيمانهم من كمال تبليغ رسالته، ويخشى أن يكون قد قصر فى التبليغ إن لم يؤمنوا، ولأنه - كصاحب كل دعوة - يريد للناس أن يتبعوها فى غير عوجاء ولا اعوجاج، ولكن الهداية ليست بيده، إنما هى بيد الله؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٧).

الخطاب للنبي ﷺ الذى كان حريصا على هداية قومه، والحرص هو الرغبة الشديدة فى أمر من الأمور، وقد كان النبي ﷺ راغبا فى هداية قومه، والضمير فى ﴿هُدَاهُمْ﴾ يعود على الذين قالوا: ما أشركنا نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شىء.

وجواب الشرط فى ﴿إِنْ تَحَرَّصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ ويضل هنا معناها من كتب عليه الضلالة، وقدرها له فى قدره المحتوم، ولوحه المحفوظ، وذلك لأنه سلك سبيل الغواية ولم يتفكر ويتدبر، وسيطرت عليهم أوهام المادة، والجاء والسلطان وحب السيطرة فإنه تكتب عليه الضلالة، ولترك الله تعالى له سادرا فى غلوائه يكون كمن يضلّه.

﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾، أى لا أحد ينصرهم، وهذا يومىء إلى أنهم يعتر بهم عذاب أليم، لا يتقدم منه ولى ولا ناصر لهم، وفيه دلالة على أنهم ما داموا قد رتعوا فى الغنى، فلا يمكن أن يكون لهم هاد مرشد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ (٥٦) [القصص].

وإن هذا الجحود سببه أمران:

الأمر الأول - الاستكبار، وقد تكلمت الآيات القرآنية فى آثاره.

والأمر الثانى - جحود اليوم الآخر، وقولهم: إن هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب، وقد بين الله تعالى حالهم فى جحودهم اليوم الآخر فقال تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)، ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، الجهد مصدر بمعنى الطاعة والقوة، ومعنى أقسموا بالله جهد أيمانهم أى جاهدن بأقصى قوتهم فى تأكيد يمينهم، والمقسم عليه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ مأسورين فى ذلك بالحال التى وقعت، وهى الوقت ويحسبونه فناء لا حياة بعده، ويحسبون أنه لا شىء غير المادة، ولا يؤمنون بالمنشئ الموجد، وإن كانوا يقولون: الله خالق كل شىء، ولكنه قول لا يتغلغل فى قلوبهم، ويستمكن فى نفوسهم، روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال فى حديث قدسى: «كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد»^(١).

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن (٤٥٩٢). كما أخرجه النسائى: الجناز (٢٠٥١)، وأحمد: باقى مسند

رد الله تعالى قسمهم الباطل بقوله تعالى - بلى - وهى تدل على الإجابة بالنفى وهو ما أكدوه، ثم أكد سبحانه وتعالى الجواب بالنفى بقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ووعدا مصدر، ووصفه بأنه حق ثابت مستقر لا مجال لإخلافه، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ﴾، أى أنه سبحانه التزمه، وكيف يترك ما التزمه ولا ملزم له، إنما هو الملتزم.

وبين سبحانه أن أكثر الناس غلبتهم المادة، وسيطرت عليهم الأحوال التى يرونها، وتركوا المغيّب عنهم فلم يدركوه، ولم يؤمنوا بالغيب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا من الوعد المؤكد الثابت الذى ألزم الله تعالى به نفسه، إذ كان الواجب عليهم أن يعلموا من قياس القابل على الحاضر ولكن أكثرهم لا يعلمون، أى ليس من شأنهم أن يدركوا، وأن يعلموا لأنهم لم يؤمنوا بالغيب، ولم يعرفوا قدرة ربهم، وما المراد (بالناس)؟ إن أريد المشركون فكلهم لا يعلمون ذلك، وقيل المؤمنون، وإن أريد الناس جميعا، فإن أكثرهم لا يؤمنون بالعودة، ومن اعتقد منهم لا يذعن، وإلا ما كانت المعاصى التى ترتكب جهاراً، فهى لا ترتكب إلا من غفلة فى الإيمان باليوم الآخر، وقد بين الله تعالى الغاية من البعث، فقال تعالى:

﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾.

(اللام) متعلقة بما قبلها، أى أنها فى مقام التعليل لوعد الله الحق الثابت المؤكد الذى ألزم الله تعالى به ذاته العلية، والمعنى أن الله تعالى ما خلق الناس عبثا كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون]، فالله تعالى لم يخلق الإنسان، ولم يجعله كالبهائم، بل خلقه ومعه عقل يتفكر ويتدبر، وحيث كان التفكير، كان الحساب على الأفعال، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والدنيا لا تتسع لكل حساب الأعمال، فلا بد من أخرى يحاسب فيها على جميع الأفعال، والأناسى منهم المظلوم المحروم، ومنهم الظالم

المجدود^(١)، فلا بد من يوم يستوفى فيه كل ذى حق حقه، ينال كل ثمرة ما كسب، ومن نوع ما كسب.

وذلك هو ما يكون بعد البعث، وهذا معنى ليبين لهم الذى يختلفون فيه من حق وباطل وعدل وظلم، ويكون كل ذلك أمام الحكم الذى يفتح بين الناس، ويفصل بينهم بالحق وهو خير الفاصلين، ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

(اللام) هنا للعاقبة، بينما اللام الأولى للتعليل؛ ولذا كررت اللام لتغاير معناها، ومعنى العاقبة أنهم كانوا يكفرون بالبعث، ويكذبون الرسل فى الدعوة إلى الإيمان، ويشركون ويكذبون الرسل فى الدعوة إلى التوحيد، فإذا كان البعث والحساب والعقاب لمن أنكر وكابر وأشرك، والثواب لمن آمن وأطاع وصبر وجاهد فإن عاقبة ذلك الذى يروونه حسياً أن يعلموا أنهم كانوا كاذبين فى كل ما ادعوا وأنكروا، وباهتوا الرسل والمؤمنين، وعبر بالموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لبيان أن كفرهم هو السبب فى تكذيبهم، وأكد سبحانه وتعالى علمهم بكذبهم، أولاً: بـ«أن» المؤكدة، وثانياً: بـ«كان» الدالة على دوامهم على الكذب بدوام كفرهم، وثالثاً: بالجملة الاسمية، والله سبحانه يعلم الغيب فى السموات والأرض وإليه ترجعون.

وإن السبب فى إنكارهم البعث هو أنهم مأسورون بالمادة والحاضر الذى بين أيديهم وأنهم لا يقدرון قدرة الله تعالى حق قدرها؛ ولذا أشار سبحانه وتعالى إلى كمال قدرته على الخلق والتكوين، وأنه ليس إلا أن يريد الشيء فيكون، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤١).

﴿إِنَّمَا﴾ «أداة قصر» أى أن خلق الله للأشياء محصور فى هذه الطريق السهلة التى لا تمتنع عليه بشيء، ولسنا نبسح فى سر الخلق والتكوين، فنسأل

(١) المجدود: اسم مفعول بمعنى المحفوظ. الصحاح/ جدد.

كيف خلق الله الناس، إنما نتعرف ذلك من قوله سبحانه، وهو يدل على أن الله تعالى يخلق الأشياء بإرادته المختارة، فلم تنشأ عنه الأشياء نشوء المعلول عن علته، فذلك وهم تعالى الله عنه سبحانه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾، أى حاله وشأنه فى قدرته وتكوينه للأشياء ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾، أى إرادته بإرادة حرة مختارة، وأنه فعال لما يريد ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أى احدث وكن شيئاً مذكوراً، فيكون، ومعنى هذا أنه سبحانه وتعالى لا يصعب عليه شئ فى الوجود، فلا يتكلف كائن فى الوجود أكثر من قوله كن فيكون، وهذا تصوير لسهولة الخلق عليه تعالت قدرته، وذلك كقوله تعالى: ﴿... وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ...﴾ (٧٧).

وهذا كله للعاقل المستبصر المدرك، ولقد كانوا يعجبون كيف يعودون. ولقد فنيت أجسام الأموات فقال تعالى مبينا أن شيئاً لا يصعب على إرادته، فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ (٥٠) أَوْ خُلُقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥١) [الإسراء].

المؤمنون

قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَاهَرُوا
لِنُبُوَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ لْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُ أَهْلَ
الَّذِ كُرْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

الهجرة ترك الدار لغاية سامية أو لطلب الرزق، وقد حبيب الله تعالى في هاتين الحالتين، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً...﴾ (١٠٠) [النساء].

وقد كانت هجرتان: هجرة إلى الحبشة فراراً بالدين من الذين ظلموا، ومن هؤلاء عثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب وعدد من الصديقين والصديقات بلغت عدتهم ثمانين أو يزيد، والهجرة الكبرى إلى المدينة وفيها هجرة النبي ﷺ، وإن هذه السورة مكية، أى أنها كانت قبل الهجرة الكبرى فالذين هاجروا فى الآية هم المهاجرون إلى الحبشة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ الفاء هنا للسببية، أى لأجل الله تعالى، وذكر الفاء يومئذ إلى أنهم فنوا فى الله فصاروا لا يفكرون فى غيره، وصار هو ملء قلوبهم ونفوسهم وعقولهم، وأحاسيسهم فكلهم له سبحانه وتعالى لا يفكرون إلا فيه، ويهون كل عذاب فى سبيله.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ و﴿مَا﴾ هنا مصدرية، أى من بعد ظلمهم، وقد كتب الله تعالى لهم الجزاء الحسن لصبرهم على الأذى، ونزول الظلم بهم، وهجرتهم ببعدهم عن الخلان والأحباب، والديار والأموال، وبيع أنفسهم لله تعالى حتى لا يطلبوا إلا مرضاته.

وقد قال تعالى فى جزائهم: ﴿لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، (اللام) لام القسم وهى مؤكدة، والقسم مؤكد، ونون التوكيد مؤكدة، والحسنة الأمر الذى يكون حسناً لا إساءة فيه فى ذاته ولا فى مغيبته، و(نبوئتهم) تمكنهم فى الحسنة كأنهم يفتقدونها ويستمكنون منها، والحسنة فى الدنيا التى نالت المؤمنين والمهاجرين من بعد هـى العيش الحسن، وقد نزلوا من بعد الحبشة المدينة هم ومن كانوا فى مكة يلاقون الظلم والإيذاء بكل أنواعه والاستهزاء والسخرية، فالتقوا فى دار الهجرة.

ومن حسنة الدنيا النصر على الشرك وأهله، وغنائم النصر، والتعاون والإخاء، وإقامة حياة فاضلة فى المدينة.

هذه حسنة الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، (اللام) لام الابتداء للتوكيد، وأجر الآخرة أكبر لأنه نعيم مقيم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فأكل الجنة دائم لا ينتهى، وقال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، والضمير فى يعلمون يعود إلى المؤمنين، و﴿لَوْ﴾ تكون للتمنى، أى ليشهم يعلمون ذلك علم العيان والرؤية، لا علم الخبر والذكر، وفى ذلك بيان لفضله، وعظم شأنه، كأنه فوق الخيال والتصور، واختار الزمخشري أن يكون للكفار ولكنه بعيد، وقد قال تعالى فى سبب استحقاقهم ذلك الجزاء العظيم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢).

﴿الَّذِينَ﴾ عطف بيان للمهاجرين، لقد صبر المهاجرون أبلغ الصبر، صبروا على الذى نزل بهم، والظلم الذى وقع عليهم والاستهزاء والسخرية بهم، وتصغير شأنهم، وتحقير أمرهم، وكأنهم الأزدلون، وهم الأكرمون، وصبروا على ترك الأحباب، وترك الأموال وترك الديار.

صبروا على كل ذلك، وعلى أن المشركين حاولوا أن يسدوا باب الأمل فى نفوسهم لولا فضل من الله ورحمة، ولكنهم مع ذلك كان أمامهم ربهم فتح لهم السدود، بالتوكل عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أى على ربهم وحده، لا على أحد سواه يتوكلون، وعبر بالمضارع لدوام توكلهم، وقدم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص، أى على الله وحده يتوكلون فهو الذى يفتح لهم الأبواب التى يسدها الشرك، ويكون من ورائها الانتصار.

ولقد كان المشركون يعترضون على الرسالة المحمدية بأنها لرجل، ويريدون ملائكة، فبين الله تعالى أن الرسل جميعا من الرجال، فقال عز من قائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢) ﴿

ليس عجبا أن يوحى الله تعالى إلى رجل منكم، وما كان محمد ﷺ بدعا في الرسل، بل كان الرسل من أقوامهم يحسون بإحساسهم، ويتألفونهم ويعرفونهم في ماضيهم الطاهر المنزه، ولم يرسل رسولا إلا إذا كان من قومه وكان رجلا منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾، فما أرسلنا ملكا؛ لأن طبيعته ليست من طبيعة الإنسان، وهو روح غير جسد، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) [الأنعام]، الأمر أهو ملك، أما إنسان، وإن امتياز هذا الرجل الرسول من بينهم أنه يوحى إليه، وينزل عليه جبريل الأمين برسالته؛ ولذا قال: ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾، هذه قراءة بالنون المعظم للمتكلم، وهو الله تعالى، وأى متكلم أكبر وأعظم من رب البرية، وهذا كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى...﴾ (١٠٩) [يوسف]، ولقد قال سبحانه وتعالى على لسان رسوله: ﴿... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) [الإسراء].

ولقد نبههم سبحانه إلى أن عليهم أن يتعرفوا الأمر من أهل المعرفة، فقد كانوا أميين منقطعين عن الرسالة فأراد سبحانه أن يوجههم إلى سؤال أهل المعرفة: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، (الفاء) تفصح عن شرط مقدر، أو واقعة في جواب الشرط ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأهل الذكر هم أهل التفكير والتدبير والعلم بالأشياء على وجهها، ويدخل في هؤلاء أهل الكتاب، أى إن كنتم لا تعلمون هذه الحقائق، فلا تعجبوا في الأمر لمجرد أنه يشير عجبكم واستغرابكم، بل تعرفوا الأمر من أهل الذكر والحكمة والمعرفة وأهل الكتاب ليزول عجبكم واستغرابكم، وذلك مع المعجزة الكبرى التى قدمها لكم، وتحداكم أن تأتوا بسورة من مثله، وما زال يتحداكم وهكذا نرى القرآن الكريم يصرف الآيات ليدركوا وليستينوا الحق.

ولقد أشار سبحانه بعد ذلك إلى ما جاء به الرسل والأنبياء، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾.

بين هذه الجملة وما قبلها تمام الاتصال، لأنها فى معنى البيان لها، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، متعلق بمحذوف دل عليه الكلام السابق، أى أرسلناهم بالبينات، وهى الآيات الدالة على رسالتهم، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الزبر جمع زبور، وهو الكتاب، يقولون زبرت الكتاب إذا كتبه، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾ [القمر] وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء].

والمعنى أن هؤلاء أرسلوا رجالا ولا يكونون إلا رجالا مصحوبين بالبينات أى المعجزات الدالة على أنهم مبعوثون من عند الله، وجاءتهم منهم الكتب التى تبين فيها الشرائع التى أراد الله تعالى أن يعلموها للناس، وقد جئتهم بذلك وبالحق فما لهم يستنكفون عن قبول ما تدعوهم إليه، ويعجبون من أن يجيئهم الحق من الله على لسان رجل منهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾، الذكر هو القرآن الكريم، وسمى القرآن هنا ذكرا، لأنه مذكر الأنبياء السابقين ورسائلهم، ما نسخ منها وما بقى، ولأنه الذكر الدائم إلى يوم القيامة، ولأن الذين نزل فيهم القرآن شهدوا على الناس بأن ما نزل إليهم من شرائع حق، والله شهيد عليهم، ألم تر إلى الذين ادعوا أنهم أتباع عيسى وحرفوا العقيدة، وجعلوها وثنية مثلثة صحح القرآن عقيدتهم وردّها إلى أصلها، وشهد القرآن والمؤمنون بالصادق، وبطل ما صنعوا وحرفوا وثلثوا.

وقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، (اللام) هنا لام العاقبة، لتكون الثمرة والنتيجة والعاقبة أن تبين بالقرآن الذى نزل على قلبك للناس ما نزل إليهم من ربهم فى الماضى والحاضر، وما هو شريعة ربهم الأزلية الخالدة الباقية، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... ﴿١٣﴾ [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى رجاء منهم أن يفكروا ويتدبروا ويتبعدوا عن الجحود والكفر، وكان العطف بالواو للدلالة على أن هذه غاية وثمره للنزول كتبيين النبي ﷺ.

تنبيه وإنذار

قال تعالى:

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَاهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبِّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوْ لَعَبَرُوا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
يَنْفَتِقُونَ أَظْلُلَهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

كان المشركون من وقت أن بعث النبي ﷺ يدعوهم بأمر ربه لا يفكرون فيما اشتملت عليه من حق، ولا فى ماضيه الذى يدل على الصدق والأمانة، وأنه كان الأمين فيهم حتى سمي بذلك، ولا فى حقيقة ما يدعوه إليه، ولا فى حقيقة ما هم عليه من عبادة الأحجار التى لا تضر ولا تنفع لا يفكرون فى شيء من ذلك، إنما يفكرون فى مقاومة الدعوة وصدوا عن غير المقاومة صدودا، ودبروا لإيذاء

المستضعفين، والسخرية بالمؤمنين، والاستهزاء بأهل الحق ويقتلون الذروة والغارب ليقضوا على الدعوة، حتى إنهم ليقْتسمون مداخل مكة، ليشوهوا دعوة النبي ﷺ إذا دعا الحجاج، يفعلون كل ذلك ونسوا أن الله تعالى قد ينزل بهم العذاب؛ ولذا قال تعالى منبها لهم منذرا:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥)﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وهو حالهم التي هم عليها، ولكن تأخرت الفاء؛ لأن الصدارة تكون للاستفهام والمعنى أفعلوا ما فعلوا ودبروا سوء، وآذوا ودبروا الأمور السيئة في نفسها أفأمنوا أن يخسف الله تعالى بهم الأرض، بأن تنحط الأرض حتى تبتلع ديارهم وأموالهم، أغفلوا وأمنوا مكر الله وقد دبروا السيئات وفعلوا وأرادوا، ويميل بعض المفسرين إلى أن السيئات وصف لموصوف محذوف تقديره «أفأمن الذين مكروا المكرات السيئات»، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى تقدير موصوف محذوف؛ لأن المكر وهو التدبير مستجه إلى إنشاء السيئات فهم دبروا السيئات في إيذاء المستضعفين، ودبروا السيئات في الأقوال والأفعال طوال إقامة النبي ﷺ بينهم في مكة، لم يتركوا نوعا من السيئات إلا دبروها.

وهم يعلمون قوة الله القاهرة، وأنه الذي يلجأ إليه في الملمات، فلم يكونوا جاهلين لها، وإن عبدوا مع الله الأحجار والأوهام، فإذا نبههم الله تعالى بأنه قادر على خسف الأرض من تحتهم فهم لا يجهلون ذلك.

وقد قال تعالى منبها لهم، ومثيرا لعلمهم بقدرة الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)﴾ [الملك].

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، (أو) عاطفة ﴿الْعَذَابُ﴾، هو العذاب الدنيوي المدمر كالذي نزل بقوم لوط، فجعل الله عالي الأرض سافلها، أو تأتيهم ريح صرصر عاتية، أو ريح فيها عذاب شديد، يكون

مفاجئاً لهم لا يعلمون بوقوعه، ولا يتوقعونه وهذا معنى لا يشعرون، أى لا يعلمون ولا يتوقعون بل ربما كانوا يرجون الخير، كقوله تعالى فى عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾ [الأحقاف].

ثم يقول تعالى منذراً بالعذاب الشديد:

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلَبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ٤٦﴾.

إن أخذهم وهم لا يشعرون يكونون وهم فى مساكنهم مطمئنون أو قابعون فى ديارهم وهم لا يعرفون آثار مكرهم السيئات وتدبيرهم الفاسد لأهل الإيمان والكرامات، ولذا لا يشعرون، وقد يأخذهم وهم متنقلون فى الأسفار يسرون فى مسارها، ويتنقلون لمتاجرهم، وقد يأخذهم الله وهم كذلك لا يفكرون إلا فى الكسب والخسارة والربح وسائر أبواب التجارة؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلَبِهِمْ﴾، أى فى انتقالهم من بلد لبلد، يتقلبون فى البلاد، والتقلب تعبير عربى قرأنى يؤكد به الانتقال من بلد إلى بلد تاجراً، أو سائحاً، وكأن فى ذلك مجازاً إذ شبه التنقل من بلد إلى بلد بالكرة المتقلبة من وضع إلى وضع، وهى تنقله من مكان إلى مكان.

وإذا كانوا قد أحيط بهم، فهم فى مأمنهم غير آمنين، وفى أسفارهم غير مطمئنين فهم فى قبضة الله تعالى؛ ولذا فما هم بمُعْجِزِينَ الله تعالى أن ينزل بهم ما يريد، فاستقيموا على الطريقة، وإلا أخذكم أخذ عزيز مقتدر، كانت الصور السابقة فى أخذ بالخسف أو العذاب من حيث لا يشعرون، أو وهم فى حال تقلبهم فى البلاد بالمتاجر لا يخافون، فقد ينزل العذاب وهم يتخوفون من العذاب، ولكنهم مصرون على سببه من مكر السيئات، وتدبير المويقات للمؤمنين ضعفائهم وكبرائهم بالاستهزاء والسخرية.

ولذا قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، أى تخوف من العذاب أن ينزل بهم كما نزل بالأقوام قبلهم فهم يعرفون الخوف، ولكن لا يصل إلى حملهم على الإيمان، ولكن يتخوفون أن ينزل بهم، وقد يفسر التخوف بمعنى النقص، أى

ينقص الله من أموالهم شيئاً فشيئاً. كما فعل سبحانه وتعالى بقوم فرعون إذ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) ﴿[الأعراف]، فالتخوف هو النقص حتى يكون الهلاك من بعد ذلك.

ولقد ذكر الزمخشري في ذلك ما نصه: «وقيل هو من قولك: تخوفته إذا تنقصته، قال زهير:

تخوف الرجل منها تأمكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

أي يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضى الله عنه أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها، فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف التنقص قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم قال: شاعرنا وأنشد البيت، فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم، قالوا: وما ديواننا، قال: شعر الجاهلية».

ومعنى النص السامى أن العذاب يأتيهم وهم لا يشعرون وهم في مأمنهم قابعون، أو يأتيهم في متاجرهم ومتقلبهم مقبلين، أو يأتيهم بنقص وهلاك بطيء فيستهون وهم قد عرفوا الابتداء ولم يعرفوا الانتهاء.

وقد ختم الله سبحانه آيات الإنذار بقوله: ﴿فَإِنْ رَكُمُ لَرَّؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى ذاته بالرافة والرحمة مع هذا التهديد الشديد، لأن رافته بهم، ورحمته العامة، اقتضت ألا يعاجلهم بالعقاب، فهو سبحانه يبين لهم أنه قادر على العقاب ينزله بهم في أى باب من هذه الأبواب، ولكنه لم يعجل رافة بهم وهو رحيم رحمة عامة للناس.

وفوق ذلك فإن الإنذار بالعقوبة، بل العقوبة نفسها رحمة بالكافة، فليس من الرحمة بالكافة أن يترك الظالم في غيه يرتع ويلعب ويعبث بالكرامة الإنسانية، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم»^(١)، وقد ثبت في

الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنهم يجعلون لله ولدا وهو يرزقهم ويعافيه»، ويقول ﷺ: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١).

ويوجه سبحانه وتعالى الأنظار إلى الخلق والمخلوقات ففيها الدلالة على وحدانية الخالق، وفيها الدلالة على قدرته القاهرة وإرادته الظاهرة وفيها الدلالة على خضوع الوجود كله له سبحانه ساجدا داخرا صاغرا، فقال عز من قائل:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨).

الهمزة داخلة على فعل محذوف يقدره المقام والمعنى يفعلون ما يفعلون معاندين مجاهرين بالعصيان، ولم يروا ما خلق الله من شيء، و﴿من﴾ بيانية، أو لاستغراق النفي والاستفهام هنا إنكارى؛ لإنكار الوقوع وهو داخل على نفى، ونفى النفي إثبات، والمعنى انظروا (وفكروا) إلى ما خلق من أشياء تتفياً ظلالة، أى لها فىء، ولهذا الفىء ظل، وتتداخل ظلالة، فالجبال لها فىء والأشجار لها فىء، وكل فىء له ظل، فتتفياً هذه الأفياء، ويكون ظلال كما ترى الشجر المتداخل تتفياً الظلال ذات اليمين وذات الشمال، وعبر عن الجانبين المقابلين باليمين والشمال، فقلوه عن اليمين والشمال، عن الجانب اليمين من ناحية الشرق، وعن الشمال من جهة الغرب، وذلك بالنسبة للكعبة فما يكون على شرقها يكون يمينا، وما يكون عن غربيها يكون شمالا، وعبر عن اليمين بالمفرد ويراد به الجمع؛ لأنه أفياء مختلفة تطول ابتداء وتقصر عند الظهيرة، ثم تكون الأفياء ناحية الغرب تبتدئ قصيرة من فىء الزوال ثم تكبر شيئا فشيئا حتى تستطيل طولا كثيرا.

وفى التعبير عن اليمين بالمفرد إشارة إلى نهايته، وإلى أنه لا يرى إلا قصيرا

(١) رواه البخارى (٤٣١٨)، ومسلم: البر واصله تحريم الظلم (٤٦٨٠).

بينما الشمال لا يرى إلا طويلاً، ويزداد شيئاً بعد شيء؛ ولذا عبر فيه بالجمع وهو شمائل، والاثثنان جمع، فهو أفياء كما ذكرنا .

والتعبير بفيء ليضمنها معنى المجاوزة، أى إن تجاوز إلى اليمين أو تجاوز إلى الشمائل تكون أفياء، وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾، أى أن هذه الأفياء ساجدة خاضعة لله تعالى، تسبح بحمده كما يسبح الرعد بحمده، وقوله تعالى: ﴿دَاخِرُونَ﴾، أى صاغرون خاضعون، وجمعت جمع عقلاء، تنزيلاً لها هذه المنزلة لخضوعها وتسبيحها بحمده سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء قدير .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) .

السجود هنا كالسجود فى الآية السابقة الخضوع الكونى لله تعالى والتسبيح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، كما ذكر الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (١٥) [الرعد] .

وذكر سبحانه ما فى هذه الآية لعمومها ما فى السموات من كواكب ونجوم، وشمس وقمر وغير ذلك مما فى السموات ثم قال تعالى: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾، (من) هنا دالة على البيان، أى أن كل دواب الأرض خاضعة تسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .

وقد ذكر سبحانه وتعالى نوعين خاضعين ساجدين له، وهما الأجرام السماوية، وكل ما هو جسم يبدو لنا غير حى، ثم ذكر الأحياء وهى الدواب، ثم ذكر بعد ذلك قسماً ثالثاً، وهم الملائكة الأطهار والأرواح فقال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فالملائكة خاضعون لله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، أو وصفهم الله تعالى بأنهم لا يستكبرون، أى أنهم ليسوا كإبليس الذى أبى واستكبر وكان من الكافرين، وكما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَكْبِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾ (١٧٧) [النساء] .

وقال تعالى فى أحوال الملائكة الأطهار: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَنْ فَوْقَهُمْ﴾، قيل معناها يخافون ربهم أن يرسل عذابا من فوقهم، أو يخافونه، وهو فوقهم بالقهر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ...﴾ (١٨) [الأنعام] ونحن نرى أن الفوقية هنا فوقيتهم هم، لا فوقية الله، والله تعالى فوق كل شىء، ومعنى فوقيتهم علوهم فى الخلق والتكوين، وكونهم أرواحا طاهرة، وإنهم مع هذه الفوقية يخافون الله تعالى، فكلما علوا فى الروحانية كان خوفهم بمقدار علوهم، وبذلك يستقيم الكلام من غير تقدير (يرسل) أو نحو ذلك، ويكون متفقا على ما ختمت به الآية السابقة فى قوله تعالى عنهم: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد أكد سبحانه وتعالى نفى استكبارهم، وخضوعهم، وخوفهم من ربهم الذى خلقهم بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفيه إشارة إلى إبليس الذى استكبر، ولم يفعل ما أمره به ربه.

الله يأمر بالوحدانية

قال الله تعالى:

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ
أَتَيْنِ إِنْ مَأْهُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَأْتِنِى فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصْبَاً أَفْغَرِ اللَّهُ نَنْقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ
نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ
إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

بعد أن أشار الله تعالى إلى خلق السموات والأرض، وخضوع الجميع ساجدين، العقلاء وغير العقلاء، والأحياء والجماد على معنى جامع بينها، وهو الخضوع والتسبيح، وإن كنا لا نفقه تسييحها فخالقها عالم بها.

بعد ذلك بين أنه سبحانه واحد أحد، وهو إله وحده فقال:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإَيَّاءِ فَارْهَبُونَ (٥١)﴾.

هذه الجملة السامية متصلة بما قبلها بالواو العاطفة، والواو العاطفة على ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ...﴾، أى الله الذى يخضع الوجود كله له لا فرق بين حى وجماد، ولا عاقل ولا غير عاقل، يقول لكم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وذكر (اثنين) مؤكدا معنى العدد المفهوم من المثني؛ لأن المثني فى ذاته يدل على المثوية، وكان التأكيد باثنين لأنه موضع النهى، إذ إن موضع النهى هو أن يكون إلهان اثنان، وذكر النهى عن اثنين، لأنه يتضمن النهى عن ثلاثة وأكثر؛ لأنه إذا كان الأقل منهما عنه، فالأكثر أولى بالنهى؛ ولأن اتخاذ إلهين دلت الآية الأخرى على أنه يؤدى إلى الفساد فى السموات والأرض، إذ إن تعدد الآلهة يلغى معنى الألوهية ويفسد السموات والأرض التى دلت الآيات المتلوة والآيات الكونية على أنهما منظمان أبلغ ما يكون النظام، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء]، وإن قياس البرهان على بطلان الشرك المبني على التنارع يفرض إلهين، فيقول لو كان إلهان لتنازعا، ولرجح أحدهما على الآخر على فرض التساوى بينهما، وإذا تنازعا مع هذا التساوى فسد الكون، وإذا لم يفرض على التساوى، كان المتفاضل منهما هو الإله.

ونقول: إن ذكر الإلهين الاثنين فيه إيماء إلى هذا الدليل العقلى، والله

أعلم.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، (هو) دالة على معنى الإله المطلق وهو الله سبحانه، و(إنما) الدالة على القصر، أى قصر الألوهية على إله واحد سبحانه وتعالى.

بعد ذلك التفت عن الخطاب إلى ضمير المتكلم. فقال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ الفاء الأولى للإفصاح والمعنى: إذا كان الإله واحداً، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ والفاء الثانية لربط الكلام، والمعنى إياى أنا وحدى فارهبون؛ لأنه لا إله إلا أنا، وقد انتقل سبحانه من مقام التنبيه والتعليل بذكر أدلة الوحداية فى خلق السموات والأرض والتوجيه، والبرهان إلى التخويف ومن لم يقنعه الخوف والإرهاب.

وقد قال سبحانه وتعالى: إنه له الطاعة، والجزاء عليها والعبادة، والخضوع والعبودية وحده فقال تعالى:

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾.

سبق هذا الكلام الحكيم فى سياق بيانى، قد يؤخذ منه شكل منطقى، فقد قدم سبحانه وتعالى كلامه السامى، بقوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أى له السموات والأرض، وما فيها من أحياء وأجرام، وعقلاء وغير عقلاء، وإذا كان مالكا للوجود كله وهو وحده المتصرف بمقتضى الاختصاص الثابت بالملكية، فله العبادة وحده، وله الطاعة وحده، وهو الذى يملك الجزاء وحده؛ ولذلك قال بعد ذلك ما هو كالنتيجة لهاتين المقدمتين: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ الدين يطلق ويراد منه العبادة وقد يراد منه الطاعة، وكلمة (واصب) قد يراد بها الدائم، وقد يراد المفروض، وقد يراد ما فيه مشقة محتملة، وهذه المعانى تراد جميعها من هذه الآية الكاملة، فله وحده العبادة، وله وحده الطاعة، وله وحده الجزاء، فهو الذى يعجزى كلا بما يستحق، وهو الذى اختص بالله وحده دائم، ومفروض، ومنه تكليف للنفس بما يوجب الصبر، والمجاهدة.

وقد ختم الله تعالى الآية من الإخبار إلى الخطاب فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، الفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، ذلك أنه يترتب على

الوحدانية، فيما ذكرنا الآيتين غير الله تعالى، وأخرت الفاء عن الهمزة، لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتنبيه، وإنكار الوقوع، أى لا تتقون غير الله، وتقدير غير الله على الفعل للدلالة على أنه لا يتقى سواه، والتقوى امتلاء القلب بخشية الله تعالى وجلاله وخوف عقابه فلا يتقى سواه، لأنه له الجزاء وحده.

بعد ذلك أخذ سبحانه وهو المنعم بالوجود يبين بعض نعمه على الناس، فقال تعالت كلماته:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٥٣).

الكلام موصول لبيان نعم الله تعالى، وقد ذكر أولاً نعم الله تعالى على الوجود الكونى كله بخلق السموات والأرض ومن فيهن من أجرام وأحياء، وعقلاء وغير عقلاء، ثم يذكر فى هذه نعمه على الإنسان خاصة، فيقول مخاطباً الناس، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (ما) اسم موصول بمعنى الذى، وهو يكون أحيانا فى معنى الشرط؛ ولذا تدخل الفاء فيما بعده على أنه جواب الشرط الذى تضمنه الموصول، والمعنى على ذلك: الذى بكم من نعمة فى الصحة والعقل والغذاء والكساء والمأوى، والماء الذى تشربون، والدفء الذى به تستدفئون، كل هذا وغيره مما غمركم به من نعم سابغات فمن الله تعالى المنعم المتفضل على غيره، ﴿...وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ (٣٤) [إبراهيم].

وهو مع هذه النعم السابقة كاشف الضر، ورافع الأذى؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (ثم)، هنا للتباعد بين حال النعمة وحال الضر، أى أنه منزل النعم، وكاشف النقم، والضر هو ما يصيب الإنسان من ضرر فى جسمه بمرض، أو يصيبه من تعرض للغرق أو الحرق، وهكذا من أسباب الضرر، ومسكم: أصابكم أو نزل بكم فإليه وحده تضرعون؛ ولذا قال: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، يقال جأر يجأر جؤارا، أى تضرع ولجأ، وصاح لاجئاً إلى الله تعالى، ولفظ جأر تدل الالتجاء إلى الله تعالى لفرع وهلع، فإن كان الذى مسه مرضاً جهش ودعا، وإذا كان الذى مسه ضرراً كان التجاؤ به بصياح كخوار البقر.

ويقول تعالى: ﴿فَالِيهِ تَجَارُونَ﴾، بتقديم الجار والمجرور على الفعل أى إليه وحده تجارون ضارعين.

وإذا كان يقتضى عبادة الله وحده فى السراء، ولكن إذا كشف الضر كان من الناس من يشرك بربه، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا على موضعها اللغوى من التباعد بين ما قبلها وما بعدها؛ إذ إن ذلك كان يقتضى الإيمان، ولا يقتضى الكفر، لقد جأروا إلى الله وحده، ولم يلتجئوا إلى غيره، ولكنهم بعد أن زالت كربتهم، وكشفت غمتهم أشركوا بربهم؛ ولذا قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

هذه (إذا) التى تسمى الفجائية، وهى التى يكون ما قبلها يدل على عدم توقع ما يجرى بعدها، إذ إن كشف الضر يوجب شكر المنعم والتضرع له وإفراده بالعبودية، فإذا كان الإشراك كان على مقتضى ما يتوقع، لقد ضرعوا إليه وحده فى شدتهم، وفى رخائهم كفروا به وأشركوا مع غيره من أحجار أو ما يشبه الأحجار.

وعدل الله فى حكمه أن جعل ذلك الكفر بالنعمة فى بعض منهم، وليس فى كلهم، وهم أولئك المشركون بمحمد، وقد أشار إلى أن هؤلاء ليسوا بكثرة الناس، ولكن دون الكثرة.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾.

اللام هنا لام الأمر، كاللام فى قوله تعالى: ﴿... لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ (٧٧)﴾ [الزخرف] والأمر هنا معناه التهديد، ووصف أفعالهم بأنها سيئة، ومن أشرك بربه بعد نعمته التى أنعمها عليه بأن يؤمر بالسير فى غيه، وهذا كقوله ﷺ، «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١)، فالأمر ليس للطلب، ولكن لبيان أنهم

(١) سبق تخريجه.

قد فسدت فطرتهم وضلت عقولهم، حتى صاروا جديرين ألا يكون منهم إلا الشر.

أو نقول: اللام للعاقبة، ويكون المعنى لتكون العاقبة بأنهم كفروا بما آتيناهم من حق، وكتاب مبارك لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا كانوا على ذلك النحو من الفساد والضلال النفسى فجدير أن يتمتعوا كما تتمتع البهائم من غير تفكر ولا تدبر؛ ولذا ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ (الفاء) للإفصاح إذا كنتم على هذا الضلال وكفران النعمة، والإشراك بربكم ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ والأمر للتهديد، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فيها بيان لما يستقبلهم، وسوف لتأكيد الفعل فى المستقبل، أى إذا كنتم فى حاضرهم متمتعين بما تملكون من متع، فمستقبلكم المغيب عنكم ستعلمونه علم معاينة وهو عذاب شديد، فقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يتضمن تهديدا بعذاب مهين.

وقد بين سبحانه نوعا من الاسترسال فى عبادتهم الأوثان، وهو أن يجعلوا مما رزقهم الله تعالى من بهائم الأنعام نصيبا، فقال تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦).

وذلك أن هؤلاء المشركين يسترسلون فى شركهم، فيحسبون أن من القربى للأوثان أن يندروا لهم نذورا من الأنعام والحرث، فيجعلون هذا بزعمهم لله وللأوثان بزعمهم، ويخافون الأوثان أكثر من خوفهم من الله مع علمهم بأنه لا ينجيهم من كربهم إلا الله تعالى، على ما تبين من قول، وقد قال تعالى فى ذلك فى سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦) [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، يصح أن يكون الضمير عائداً على الأوثان، ويكون المعنى: ويجعلون للأوثان التي هي أحجار لا تعلم شيئاً، ولا تضر ولا تنفع، نصيباً مما رزقناهم، وأعيد الضمير إلى الأوثان على أنه ضمير العقلاء؛ لأنها كذلك في زعمهم، فيكون ذلك تهكما بهم. ويصح أن يعود الضمير إليهم كالضمير في ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ والمعنى على هذا يكون: ويجعلون لما لا يعلمون له حقيقة تسوغ لهم أن يعبدوها، إنما هو وهم قد سيطر عليهم من غير حقيقة ثابتة يعلمونها، أو هي صالحة لأن يعلموها إذ هو لا وجود له إلا على أنه حجر لا يضر ولا ينفع، والخيال الناشئ هو الذي جعل لهم ذلك التصور الباطل.

وإن ذلك أعظم الافتراء على الله وعلى الحقيقة؛ ولذا قال تعالى مؤكداً القول بالقسم بذاته العلية: ﴿تَاللَّهِ لَتَسَّالُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ وهذا تهديد شديد، قد أكده سبحانه بالقسم بذاته العلية وبذلك الصيغة القوية، وهي القسم بالتاء، وباللام، وبنون التوكيد الثقيلة، وأنهم مسئولون عن هذا الافتراء.

وسمى الله سبحانه وتعالى ذلك افتراء وكذباً مقصوداً؛ إذ أشركوا، وكذبوا على الله وعلى أنفسهم، وضلوا إذ نذروا لما لا يعلمون له حقيقة، وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

ظلم البنات

قال تعالى:

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٧﴾

يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ﴿٥٨﴾

أَمَرِيدُسُهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمِثْلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مَآ تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَاجِرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

إن الأوهام إذا كانت هي مصدر علم طائفة من الناس فلا تعجب، والأمثال على ذلك واقعة بين أيدينا في هذا الزمان ومن شأن من تحكمه الأوهام أن يتخيل ثم يظن ثم يتوهم ثم يعتقد، كان العرب يعرفون الملائكة، ويعرفون الله وأنه خالق كل شيء، وأنه المستغاث لكل مستغيث، وأنه الملجأ في الشديد ولكن خلطوا بذلك أوهاما كثيرة أفسدت تفكيرهم، فأشركوا الأوثان مع الله تعالى، ومن ذلك أنهم توهموا أن الملائكة إناث لا ذكور، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات الله تعالى، ثم ذهب بهم فرط أوهامهم إلى أن كان منهم من عبدها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧)﴾، أى أنهم جعلوا لله البنات - تنزه وتقدس عن ذلك - ولهم ما يشتهون، وهم الذكور، ومعنى يشتهون يختارون راغبين ملحفين في الدعوة حتى كأنهم شهوة يشتهونها؛ لأنهم يرونهم امتدادا لوجودهم، ولأنهم يرون فيهم النصرة في الحرب؛ ولذا كان الرجل يكون في قوة بينه ويكون أعز نفرا، ولقد نعى الله تعالى عليهم أن قالوا لله تعالى ولدا، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهم لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢)﴾ [الصافات]، وأن ذهب فرط أوصافهم أن يقولوا ولد الله بنات ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)﴾ [الصافات] ويقول

سبحانه ردا عليهم: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)﴾ [النجم].

هكذا تدرج بهم الوهم من زعم أن الله ولد، وإن هذا الولد من الإناث اللائي لا يرغبن فيهن، ثم استرسل بهم الوهم حتى كان منهم من عبد الملائكة، وهم طائفة من الصابئة كانت تعبد الأرواح.

وإن رغبتهم في الذكور ورغبتهم عن الإناث تدفعهم إلى أن تسود وجوههم عند ولادة الأنثى؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾.

التبشير معناه الإخبار بالأمر السار، أى بالبشارة، وعبر الله تعالى عن ولادة البنت بالتبشير؛ لأنها بشرى بسلامة الأم ولأنها فى ذاتها رزق من الله تعالى، ولأنها قلب يكون له فضل حنان وشفقة لذا كان التعبير بـ ﴿بُشِّرَ﴾، وقد كان يجب أن يُسرَّ لهذه المعانى الكريمة السامية، ولكنه بدل أن يستبشر، بهذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها، وهذا الرزق الذى ساقه الله تعالى يكتئب ويحزن؛ ولذا قال تعالى فى جواب الفعل الذى هو البشرى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أى صار ودام وجهه مسودا، وذلك كناية عن الحزن والكمد والغيط، فكان حال الوجه المكفهر تشبه بحال الوجه الأسود، للقتامة، فالبؤس يوجد سوادا فى القلب.

وقال: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أى وهو ممتلئ غيظا، وحزنا وغما، و﴿كَظِيمٌ﴾ مأخوذ من الكظامة، وهو شد فم القربة، والمهموم الحزين ينطبق فاه فلا يتكلم كمدا، والمشابه حاله بحال الكظامة التى تشد بها القربة، ولكن القربة تسد على الماء وقد يكون قراحا، أما هذا فيشد فمه على أقراح الهم والغم والحزن.

وإنه يكون على هذا الغم محسا بعار، لخشيته على عرضها، ولخشيته من قهرها وذليها، وهى مهما تكن بضعة منه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ﴾ لا يلقاهم خزيا وعاراً من سوء ما بشر به، وهنا جمع سبحانه بين السوء والبشرى، فسماه سوءاً بالنسبة له ولقومه، وسميت بشرى بشر بها فى حقيقتها، لأنها نعمة، والإخبار بالنعمة بشرى.

وتحدثه نفسه فى هذه النكبة فى زعمه الفاسد، وإدراكه الباطل ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾، والضمير فى ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ يعود على لفظ ﴿مَا بُشِّرَبِهِ﴾، فهو يعود على (ما)، ولذا ذُكر الضمير، وإن كان موضوع (ما) هو الأثنى، ﴿عَلَى هُونٍ﴾، أى على ذل وهوان كهذا الميشر به، والهوان فى لغة قريش، وعذاب الهون هو عذاب الهوان والذل، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، أى يدفنه فيه، وعبر سبحانه بـ ﴿يَدُسُّهُ﴾، بدل يدفن، لأن الدفن يكون للميت، وهذه على قيد الحياة وهى الموءودة، وكان يفعل ذلك قبائل من مضر ومن كندة وخزاعة وهى غلظة فى الأكباد، وحمق فى العقول وضلال فى الفكر، وكان بجوار هؤلاء الحمقى القساء، فضلاء عقلاء رفقاء، فكانوا إذا علموا برجل يريد أن يوثد ابتته فدوها بالإبل، وقد قالوا: إن صعصة بن ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحيها، وقد قال الفرزدق مفتخراً بعمه هذا.

وعمى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوده

وإن امتهان المرأة ذلك الامتهان لم يكن عند العرب وحدهم، بل كان عند الفرس، وكان عند الرومان، ولم يكن فى القانون الرومانى أى حماية للمرأة، بل كانت تعد المرأة أمة فى بيت أبيها، لو قتلها لا يسأل لم قتلها، وإذا انتقلت إلى بيت زوجها كانت أمة أيضاً، ولو قتلها لا دية لها، ولا ملام، وقال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ألا للتنبيه وساء فى فعل التعجب فالمعنى ما أسوأ ما يحكمون لأنه سخط وظلم وفساد فى التفكير.

ولما جاء القرآن كرمها وجعل لهن من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات، وواجب تأديبها وتعليمها، فقال ﷺ: «من كانت عنده بنت فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار».

وإن سبب ذلك الانحذار فى التفكير بالنسبة للأئمة هو الكفر باليوم الآخر، ولذا قال تعالى:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)﴾.

إن الإيمان بالآخرة إيمانا صادقا مذعنا يلقى فى النفس الاطمئنان على المستقبل، فلا يكون فى لهج وهلع من الناحية المادية؛ لأنه يعرف أن هناك يوما آخر، يعطى فيه من حرم من ملاذ الدنيا وشهواتها، ولا يكون حريصا شحيحا، ولا يكون خائفا من فقر يتزل به ما دام عاملا، وإن أصابه فقر فالى ميسرة، وأما من لا يؤمن بالآخرة فإنه فى فزع، وخوف وتقتير، ويظن الظنون فى قابله غير معتمد على الله تعالى، فهو فى الولد، يخشى الفقر فيشد البنت ويفرح بالولد؛ لأنه يكفيه عيشه، والبنت يخشى عليها القهر والذل، وفوات الكفء وغير ذلك.

ولذا قال تعالى فى حال البشرى بالبنت، وخشية الفقر والعار والقهر لها مشيرا إلى أن سبب ذلك هو عدم الإيمان بالآخرة، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾، أى حال السوء دائما يخشون الفقر والقهر، والجوع كمثلى الذين يحددون نسلهم الآن خشية الجوع، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ... (٣١)﴾ [الإسراء]، فمن لا يؤمن بالآخرة تكون حاله حال سوء وخوف، وهم دائم، وفى مقابل ذلك من يؤمن بالآخرة، فإنه مطمئن إلى ربه، طالبا رضاه يفوض أموره لله، وهو العزيز الحكيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، والله الحال العليا التى لا سوء

فيها، ولا خوف من الفقر، والمقابلة بين الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبين الله وهى مقابلة بين كان منهم من الإنسانية فى المنزلة الدنيا، والله العلى القدير العزيز الحكيم، وأنى يكون ذلك؟ والجواب عن ذلك: إن المقابلة بين من هم فى أدنى الإنسانية، ومن هم فى أرقاها من بنى الإنسان أيضا؛ لأن الله تعالى يدعوهم إلى أن يكونوا مع الله تعالى. ليؤمنوا بعظمته، ويتوكلوا عليه، فيكونوا فى أحسن حال، وأعلى مثل وصورة، لأنهم يكونون مع الله، متوكلون عليه ومتبعون لأوامره، ومجتنبون لنواهيه.

وختم سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أى وهو الغالب الحكيم الذى قدر كل شىء تقديرا ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا...﴾ (٦) [هود].

وإن الله تعالى يعلم ظلم الناس وظلمهم للنساء؛ ولذا قال تعالت كلماته:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٦١).

إن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو القادر على كل شىء وهو العليم بما يفعله الناس، ولكنه لا يؤاخذ الناس على ظلمهم، وقت نزول الظلم، بل يؤخرهم، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

(لو) حرف امتناع لامتناع، أى امتنع عذاب الله تعالى لأنه سبحانه لا يؤاخذ الناس بظلمهم، وإن الناس منهم من يشركون بالله، وإن الشرك لظلم عظيم ومنهم من يقترب الآثام المخزية المفسدة للجماعات، ومنهم من يعتدى، ولا يعد القوى قويا إلا إذا اعتدى كما قال الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

والظلم ماحق للخير، وإن الله إذا أخذ الناس بظلمهم المستمر المتوالى لعمهم بعذاب من عنده، بريح صرصر عاتية، أو يخسف بهم الأرض، أو يجعل عاليها سافلها، أو بأن تجف السماء فلا تمطر، فيكون الجذب ثم الموت، وبذلك يهلك الناس والدواب، ولم يبق على ظهرها غائية أو راغية، وبذلك يموت الجميع ولا تبقى دابة، وخلاصة المعنى أن الله تعالى لو أخذ الناس لعمهم بعذاب لا يترك منها دابة تدب على وجه الأرض، فنقمة الظالم تعم ولا تخصه، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً...﴾ (٢٥) [الأنفال]، والتعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ...﴾ فيه نفى للمواخظة في المستقبل، كما لم يؤاخذ في الماضي، لأن الله عدل لا يأخذ المطيع بجريمة العاصي، ولا يأخذ العجماء بجريمة الإنسان.

﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، حيث يمكن تمييز الظالم من العادل، والمسيء من المطيع، والمسئول من غير المسئول، فإذا جاء أجلهم الموقوت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، والسين والتاء للطلب، والمعنى ليس لهم أن يطلبوا التأخير والتقديم، بل هو لاحق بهم ما يستقبلهم والله أعلم. وبعد ذلك أشار سبحانه إلى ظلمهم في النساء، وهو ظلم مستمكن في نفوسهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٢).

ويجعلون ما يكرهونه، أى ما كان غير مرغوب فيه منهم يجعلونه لله، فيجعلون لله البنات، لأنهن مكروهات عندهم، ويجعلون مما ذرأ من الأنعام والحرث ما يكرهون، ويجعلون لآلهتهم ما يحبون، ويستخفون برسله لأنهم يكرهونها وفي الجملة كل شيء لا يهونه يجعلونه لله تعالى.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ﴾، أى تقول ألسنتهم الكذب، وعبر عن القول بالوصف لأنهم يصفون الباطل، بأنه حق، فهو قول يتضمن وصفا باطلا، يصفون

﴿أَنْ لَّهُمُ الْحُسْنَى﴾، الحال الحسنى التى لا يعلو عليهم فى الحسن شىء فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنهم قد زين لهم سوء عملهم فأروه حسنا، وما هو بالحسن، وغرهم الغرور فاستطابوا ما هم عليه من فساد، وحسبوا أنهم بظلمهم الأعلون، وغرهم بالله الغرور، وأما فى الآخرة فقد قاسوا حالهم فى الدنيا على حال فى الآخرة، كما قال الله تعالى عن أحدهم: ﴿... وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ...﴾ (٥٠) [فصلت].

وقد رد الله تعالى قولهم بقوله سبحانه: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَّهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾، أى حقا لا كسب لهم من خير أو حسن ﴿أَنْ لَّهُمُ النَّارَ﴾ يدخلونها، وليس لهم الحسنى ينالون خيراتهم، وأكد سبحانه ذلك فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾، أى مقدمون فى النار، كالمفرط إلى الماء أى المقدم، وهذا على قراءة فتح الراء مع تخفيفها، وقرئ بكسر الراء مع التخفيف، ويكون المعنى مفرطين فى الظلم والمعاصى، وبذلك استحقوا النيران، وقرئ بكسر الراء مع التشديد ويكون المعنى أنهم مفرطون فى طاعة الله تعالى أهملوها، وتركوها فتركهم الله تعالى وصاروا نسيا منسيا.

والقراءات الثلاث متواترة، فيصح أن تراد كلها، فهم فى مقدمة أهل النار فيردونها كما يرد القوم إلى الماء، وهم مفرطون فى المعاصى، ومفرطون فى الطاعات، والله من ورائهم محيط.

رسالات الله والعظة فى خلقه

قال الله تعالى:

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ
قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ

الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾
وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا
فِي بُطُونِهِمْ مِّنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَاءِ خَالٍصًا بَٰغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

الكلام مفصول عما قبله باللفظ، وإن كان المقام بيان أحوال الشرك، وكيف
يزين للمشركين سوء عملهم، فيرونه حسناً، وهو السوء فقال تعالى:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٢﴾ أكد سبحانه وتعالى بالقسم، وباللام وبقد، وكان القسم
بالباء، لا بالباء ولمعنى الشدة في مخرجها، كان في القسم بهذه الصيغة تشديداً،
و﴿أَرْسَلْنَا﴾ أضاف الإرسال إليه سبحانه وتعالى وليعلم أن الرسالة من الله سبحانه
وتعالى رب هذا الوجود، والأعلم بما يصلح الناس، وما يخاطبون به، وما يبلغون
الرسالة عن طريقهم، وأنهم رجال يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق،
ويموتون، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّنْهُمْ
الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ إلى أُمَمٍ مختلفة أزمانهم متباينة مشاربهم وأجناسهم، ولكنهم التقوا على أمر جامع بينهم، وهو الشيطان يزين لهم أعمالهم الفاسدة المفرقة لجمعهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ و(الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أن الله تعالى أرسل إليهم الرسل بالهداية، فكان وراء الرسول الهادى تزيين الشيطان يهدم ما يدعو إليه الرسول يزين فى قلوبهم الخبيث فيجعله حسنا فى زعمهم، والله تعالى يقرر على لسان رسوله أنه باطل ما يصنعون.

وتزيين الشيطان لهم، أنه يأتيهم من قبل أهوائهم وشهواتهم فيزين لهم الشر فيما نهى الله عنه، كما قال جد الأبالسة لأبى الخليفة آدم ﴿... مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف].

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ الفاء لترتيب ولايته لهم، أى الولاء والمحبة على التزيين، أى أنه إذ زين لهم الشهوات فحسبوها المصلحة والحقيقة الحسنة العقبى صار صاحب الولاية، والولاء والمحبة منهم يسيرهم كما يشاء.

والضمير فى ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ يصح أن يعود إلى الأُمَم، أى أن الشيطان بعد هذا التزيين صار صاحب الولاية عليهم، يصرفهم اليوم كما يشاء فأسلموا زمامهم له، وفى ذلك سلوى للنبي ﷺ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ويصح أن يكون الضمير يعود على قريش بقياهم على من سبقوهم، وتقرير أنهم أولياء الشيطان بهذا التزيين المستمر، ثم ذكر العاقبة، فقال عز من قائل: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أى مؤلم إيلا ما لا نعرف له فى الدنيا حدودا، وولايتهم على أى حال فى الدنيا، وأما فى الآخرة فيتبرأ منهم.

وقد بين سبحانه وتعالى: أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ ليكون جامعا لما سبقه مبينا الحق فيه فقال:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦).

ولقد بين سبحانه وتعالى أن الكتاب مهيمن على الكتب قبله، وحاكم على الناس فيما اختلفوا فيه، وما يختلفون إلى يوم القيامة، فإن رجعوا إليه اهدوا إلى الحق، وإلا فهم في ضلال بعيد.

قال سبحانه: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فقد اختلفوا في البعث، وقالوا: عيسى ابن الله، وقالوا: عزيز ابن الله، وحرفوا في الرسالات، وبدلوا وغيروا، وأحل اليهود الربا، وقد حرم عليهم وأكلوا السحت والرشا، فكان لا بد من مرجع يرجع إليه في معرفة الحق فيما اختلفوا فيه، فكان محمد الذي نزل القرآن عليه هو المبين، وأسند البيان إلى النبي ﷺ مع أن المبين هو القرآن وذلك لسببين:

السبب الأول: بيان أن النبي ﷺ هو من القرآن، وإن القرآن نزل من عند الله تعالى عليه.

والسبب الثاني: أن القرآن يحتاج إلى مبلغ يبلغ حقائقه، ويعلم الناس به، يبين مجمله، ويخص عمومه، ذلك المبلغ هو النبي ﷺ ولذا أضيف التبين إليه ﷺ، وهو تكليف كلفه.

وقوله تعالى: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هنا أمران في القرآن غير الأمر الأول، وهو أن فيه بياناً للشرائع السائغة، وما اختلفوا فيه حولها، فهو شاهد على الكتب السابقة، ومبين الحقائق في الرسالات الإلهية، وحكم عليها، لأنه آخر لبنة في صرح النبوة، وهو كمال الرسالات كلها.

وهو أيضا هدى ورحمة - ففيه الهداية من الضلال في متاهات الأوهام، فيه التوحيد، وقد زينت الأوهام الشرك، وفيه تحريم ما لم يحله الله، وإحلال الحلال وتبيين الحرام، فهو الهادي المرشد، كما قال الحق: ﴿... إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۚ﴾ [الجن].

وفيه الرحمة، وهى شريعته المحكمة، فهى رحمة للناس، وهى الشفاء لأدوائهم والرحمة بالمهتدين منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ففيها الرحمة بالمجتمع، وفى عقوباتها الزاجرة رحمة بالكافة ووصفه سبحانه بأنه هدى كأنه ذاته هداية ورحمة لفرط ما فيه من هداية ورحمة.

وهنا أمران بيانيان يشير إليهما سبحانه:

الأمر الأول - أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فيه نفى وإثبات، وهو يفيد الحصر، أى ما أنزلنا عليك الكتاب إلا ليان ما جاء به من رسالات للأمم، ولما فيه من هدى ورحمة، وشريعة محكمة صالحة، وفيه إشارة إلى أن هذا الكتاب خاتم الرسالات.

الأمر الثانى - أنه سبحانه وتعالى ذكر الكتاب معرفاً بأل الدالة على كماله، وإنه الكتاب الجدير بأن يسمى كتاباً وحده، وقد بين سبحانه أن هدايته ورحمته لمن يؤمن به ويذل ويدعن لحقائقه، وينفذ أحكامه بحذافيرها لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا نفذها لأنه خير كله، والله أعلم.

بعد أن بين سبحانه ما يحيى النفوس أخذ يذكر سبحانه ما من به على خلقه مما يحيى الأجسام:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٥).

ابتدأ سبحانه بما يحيى النفوس، وكان ذلك بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين رحمة من عنده، وأنزل الكتاب الكريم الذى هو حكم ومهيمن على كل ما أنزل قبله من كتب، وما كان من الناس راشدين أو ضالين، وكيف كان ضلالهم، وكان ابتداءه سبحانه بما يحيى النفوس التى كانت ميتة من غير هداية، واتباع للنبيين كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...﴾ (١٢٢).

[الأنعام]، لأن حياة الروح أزكى وأعلى، وهى التى تليق بالإنسان، وبغيرها يكون سدى، والجسم يشترك فيه مع البهائم التى هى مسخرة لخدمة الإنسان فى هذه الأرض كما خلقها سبحانه.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد ما علا، وأنزل الله السماء من أعلى حيث تتكون السحب الشقال حاملة الماء عذبا فراتا فى بخار يتكاثف، ويصير ماء ينزل مطرا مدرارا، ويكون غيша، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٤٢) [النور].

ينزل الله سبحانه الماء فنبت الزرع، ويسقى به الشجر، ويكون منه الثمر، فمن الماء كل شىء حى، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الإحياء بإنبات الزرع فيكسوها بخضرة ناضرة يجعلها ذات منظر بهيج تزيد به، كأنه حلية لحساء، وتسبق به الباسقات من الأشجار تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

وسمى الله تعالى الأرض من غير نبات بالميتة تشبيها للأرض القفر الجرداء بالميتة؛ لأنه ليس على ظهرها حياة، وجعل الماء سببا لإحيائها، كما قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ...﴾ (٢٠) [الأنبياء].

إن إنزال المطر الذى فيه الحياة لآيات لقوم يسمعون الحق ويتبعونه، ويؤمنون به، وكان ظاهر السياق أن تكون هذه لقوم ينظرون، ولكنه عدل إلى السماع فقال عز من قائل: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ للإشارة إن النظر لا يبصر المعانى إذا لم يكن قد سمع الحق، وأذعن له، وكذلك العقل لا يفكر إذا لم تكن هداية من السماء له، فلا يعتبر بنعم الله تعالى إلا من سمع الحق وآمن به وأذعن له، وإلا فهى غاشية لا يبصر ولا يدرك، إن هو إلا كالأنعام أو أضل سبيلا.

وقد أخذ يقص الله تعالى نعمة الأنعام التي تحيى من إحياء الأرض بالزرع والغراس التى تغرس من أشجار وفاكهة فقال تعالى :

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (١٦)﴾ .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ، الأنعام جمع نعم أو اسم جنس للنعم على كلام سييويه ، والنعم هى الإبل والبقر والغنم ، ويشبهها طائفة لها خواصها ، وطهارة لحمها وأكله مثل الغزال ، وذوات القرون وغيرها من الأنواع التى تشابه بها فى الخلق والتكوين والأكل والمرعى ، والذى كان معروفاً فى الدواجن عند العرب الإبل والبقر والغنم ، وهى التى وجبت فيها الزكاة ابتداء ، وثبتت فى غيرها إذا أمكن اقتناؤها للنماء ، وصارت ذات نتاج يكون ثمنها لها ، فالزكاة سببها أو عاؤها مال نام .

والعبرة التى ذكرها القرآن الكريم فى خلق النعم من نواح كثيرة ، فهى فى خلقها وجمالها حين تريحون وحين تسرحون ، وفى تذليلها للإنسان وإفها له لتذل له وتخضع وتستكين فبها يحرث الحرث وعليها يحمل أثقالاً ومن أروائها يكون السمد الصالح ، ومنها يتخذ الدفء والغطاء ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها يتخذ متاعاً إلى حين .

وهكذا تتكاثر أوجه الانتفاع وكل ذلك بتسخير الله تعالى لمن أراد أن يعتبر ويؤمن بنعم الله تعالى ويشكرها كما أنعم ، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض العبرة فى الخلق والتكوين ، وفيما يكون منها من لبن سائغ للشاربين ، فقال عز من قائل : ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ .

﴿نُسْقِيكُمْ﴾ تقرأ بالضم وفعلها أسقى وهى لغة جاءت فى قوله تعالى : ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن] وهناك قراءة بالفتح وفعلها سقى ، وهى تستعمل بمعنى أسقينا ، وبمعنى أسقى من البئر ، كقوله تعالى :

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤)
[القصص].

وقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

الضمير في ﴿بُطُونِهِ﴾ يعود إلى النعم، أو بعض هذه النعم، وهو الإناث منها، وفي عودته لبعضها لا بد من مسوغ يدل عليه، فنقول: إن (من) الأولى تدل على التبعض فهي تشير إلى أن الضمير يعود على بعض، وإن ذلك وإن كان جائزا هو بعيد في السياق، والأقرب منه أن يعود إلى الأنعام، والأنعام لفظ مفرد عند سيبويه، فصح أن يعود بلفظ المفرد المذكور، وذلك معقول، لأن الأنعام على فرض أنها جمع هي جمع النعم، ونعم اسم جنس يدل على الكثير، ولكن لفظه مفرد فصح أن تكون الأنعام بمعنى نعم، ولكن ورد مثل هذه الآية الضمير بلفظ المؤنث كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١) [المؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾، و﴿مِنْ﴾ للابتداء، أى تكون بين فرث ودم، والفرث فضلات الطعام، وقد قال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طبخته، فكان أسفل فرثا، وأوسطه لبنا وأعلاه دما، وهذا معناه أنه في الوسط بينهما اللبن، وقد يكون ذلك التفسير من الناحية العلمية مقربا، ذلك أن أكل البهائم يهضم، ثم يتمثل جزء منه في الدم، وجزء ينزل لبنا درا.

وقد وصف اللبن بوصفين:

الوصف الأول - أنه خالص ليس فيه اعتكار بدم، ولا بقية من روث، بل هو صاف نقى لا عكرة فيه.

والوصف الثاني - أنه سائغ للشاربين، أى يستسيغونه ولا يمجونه، وفيه إشارة إلى أنه طعام سهل سريع الهضم والتمثيل وكل طعام تقبله معدات بعض

الأشخاص، وتعافه الأخرى، إلا اللبن، فإنه سائغ للجميع، والله ولى النعم، والمستحق وحده لشكرها.

وقد ذكر سبحانه نعمة أخرى للماء ينزل على الأرض فقال:

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾.

فذكر سبحانه وتعالى أن المطر ينزل فيكون الزرع ويكون العشب الكثير ومن هذا العشب يأكل الغنم، وفيها أن الله تعالى يسقينا من بين فرت ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين.

وقد بين بعد ذلك الثمرات التى تؤخذ من الأشجار فقال عز من قائل: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ هنا كلام محذوف تقديره يتخذون ما تتخذون مما يسخر لكم منها فتأخذون ثمرات طيبات وأكلها حلو دائم، وأنكم ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، أى شيئاً مُسَكِّراً، والمسكر مبغض إلى أهل الإيمان، وهى تدل على أن الخمر مشروب غير مباح، وإذا كان قد ترك زمانا فهو فى هذه الأزمان كان محل عفو، حتى جاء التحريم القاطع الذى لا ريب فيه فى آية سورة المائدة، كما بينا ذلك فى موضعه.

وإن السكر مقابل بالرزق الحسن فيكون السكر رزقا غير حسن، وإذا كانت هذه السورة مكية فإن معنى مجيء هذا الكلام فى سورة مكية يدل على أن القرآن الكريم ومحمد ﷺ لم ينظر إلى الخمر نظرة رضا، أو نظرة غير كراهة بل نظرته لها نظرة كراهة من أول مجيء الإسلام إلى أن بين الله فيها بيانا شافيا بالتحريم القاطع.

ويلاحظ أن الله تعالى ذكر النخيل والأعناب فى هذه الآية ولم يذكر غيرهما لأنهما كانا الكثير عند العرب، وهناك نعم أخرى كثيرة فى أغراس كثيرة، كالرمان والتفاح، وغيرهما من الأغراس التى يتخذ منها سكرًا ورزقًا حسنًا. وقد قال

تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، أى فى هذا الذى ذكره الله تعالى لآية دالة على قدرة الخالق ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أى يُعْمِلُونَ عقولهم، وذكر الفعل فى نهاية الآية التى جاء فيها السكر، إيماء إلى ما يفعله السكر فى العقول.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨).

الحيوانات كلها تسير بإلهام الله تعالى، فأم الحيوان ترضع وليدها، وتحنو عليه وترعاه بفطرتها، وكأنها أم مثل أمهات بنى آدم تدفنه وتقيه الحر والبرد.

وإن ذلك الإلهام يصح أن يسمى وحياً؛ لأنه إلهام من الله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٦٨). واختص سبحانه وتعالى النحل بتسمية إلهامها وحياً، لأنها ألهمت نظاماً محكماً دقيقاً يعجز عنه بعض العقلاء، فهى ألهمت أن يكون لها رئيس وهو يسوسها وهو ينصف بينها ويحكم بالعدل، وينفى القذى حتى إنه لو رميت على إحداها نجاسة قتلها تطهيراً للجماعة، وأن تعيش طهوراً، وإذا ظهر فيها رئيس قاتل الأصيل ذلك الرئيس ونصروه عليه، وإنها لتبنى بنيانها بإحكام فتجعله على شكل مسدسات لكى يكون البناء محكماً، ولكى يكون كل فراغ مسدود، وتجتمع جموع النحل، تذهب مجتمعة فى غدوها ورواحها وفى غذائها وفى ربيها حتى إنها تكون ذات منظر بديع يدل على إحكام الاتحاد بحيث لا تنأى عن الجمع واحدة، وهى تراقب نفسها بحيث إذا هلكت إحداها أخرجه، وكأنها تدفعها خارج الأحياء، وهكذا، وفى طبعه النظافة فرجميع النحل يخرجونه خارج الخلية، ويقول الغزالي فى الإحياء «لا يأكل من العسل إلا مقدار شبعه، وإذا قل العسل فى الخلية قذفه بالماء ليكثر، خوفاً على نفسه من نفاذه، وإذا نفد النحل أفسد بيوت الملكات، وبيوت الذكور، وربما قتلت ما كان منها هناك».

ولهذا التنظيم العجيب الذى يعجز عن بعضه أصحاب العقول، قال الله

تعالى بالنسبة للنحل، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وأضاف الإيحاء إلى الرب سبحانه، لأن ذلك الوحي فيه فائدة للإنسان، وهو من مقتضى الربوبية، ومن النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده فيما تخرجه من بطونها من شفاء للناس.

﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، ﴿أَنِ﴾ تفسيرية، وما بعدها تفسير لما قبلها، فالوحي هو أمر الله تعالى لها أن تتخذ من الجبال بيوتا تعيش فى كهوفها، وتبيض بيضها فيها، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾، أى تأخذ من فروع الأشجار بيوتا تصنع فيها ما يصنعه صاحب البيت فيه، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، أى مما يعرشون على سقوفهم، ومما يعرشونه لها من خلايا.

﴿وَمِنْ﴾ للتبعض، أى يتخذون بعض الجبال وبعض الشجر وبعض مما يعرشون، وما يخصص لها من خلايا يكون كله لها بهذا التخصيص، ثم قال تعالى:

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩).

عطف سبحانه وتعالى بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي بين اتخاذ البيوت من الجبال والأشجار ومما يعرشون، وذلك إشارة إلى أنها تبذل فى البيوت نظاما محكما دقيقا مما يأخذ وقتا طويلا، والله تعالى يأمرها بمقتضى الفطرة التى فطرها تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فلا تفرق بين الزهور فكلها طعام لها، فتأخذ من نوار كل زهرة، لا فرق بين زهر مر، وزهر حلوى، وتأخذ من كل الثمرات تأخذ البنفسج والبرتقال والخوخ، والقطن ثم ينساع فى بطنها، ثم تخرجه بعد ذلك عسلا حلوا، مشتببه طعمه ويختلف لونه، ويكون لونه على حسب المرعى، فلون البنفسج يبدو إذا كان غذاؤه من البنفسج، ورائحته تكون مثله، ولون البرتقال إذا كان كذلك، وقال تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا﴾ وهى حال من السبل، أى أن طرائق الله التى ألهمك إياها مذللة سهلة غير مجهولة تغدو من هذه السبل، وتروح منها غير مجهولة لها، ولو ذهبنا فى طلب الرزق إلى آماذ بعيدة.

وهذا كله على أن ﴿ذُلًّا﴾ حال من السبل، ويصح أن تكون حالا من ضمير ﴿فَاسْلُكِي﴾ فيكون حالا من النحل، والمعنى اسلكي سبل ربك حال كونك مذلة لما خلقك الله تعالى وهو أن تأخذى الثمرات وقد تمكنت منها ومن الطريق إليها، مسخرة لما خلقك الله تعالى له سبحانه.

ويقول سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ فما بين أبيض وأصفر وبنفسجي ووردي، وذلك على حسب الغذاء الذى يتغذى به النحل، وعلى حسب سن النحلة التى تخرجه.

وقد قالوا: إن العسل تمجه لعابا، ولا يخرج من بطنها، والجواب عن ذلك أنه ينساغ فى بطونها عسلا ثم تمجه لعابا، وهو يتكون أولا فى البطن، ومع اختلاف ألوانه ورائحته يجتمع فيه وصف الحلاوة له.

وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ والتكثير هنا للتعظيم، أى فيه شفاء عظيم للناس، ولقد قال بعض العلماء إن فيه شفاء عاما؛ لأن التكثير للتعظيم لأن فيه شفاء لكل الأسقام، وعن ابن عمر أنه لا يشكو قرحة إلا جعل عليه عسلا، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا.

وحكى عن بعض التابعين أنه كان يكتحل بالعسل ويتداوى بالعسل فى كل مرض.

وإن النص القرآنى يدل على أن فيه شفاء عظيما، ولكن لا يدل على أنه تعالى يشفى به كل الأمراض، وحسبه أن يكون فيه شفاء عظيم، وكان النبى ﷺ يداوى به أمراض البطن، روى البخارى ومسلم أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: إن أخى استطلق بطنه، فقال ﷺ: «اسقه عسلا»، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا، قال: «أذهب فاسقه عسلا» ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلا» فبرأ^(١).

(١) رواه البخارى: الطب - الدواء بالعسل (٥٢٥٢)، ومسلم، واللفظ له: الطلام - التداوى بسقى العسل

ويقول ابن كثير فى التعليق على هذا الحديث :

قال بعض علماء الطب : كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت فأسرعت فى الاندفاع فزاده إسهالاً فاعتقد الأعرابى أنه يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكدلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة استمسك بطنه وصلاح مزاجه .

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أى أن فى خلق النحل وإلهامه وتدبيره وخروج العسل المصفى من بطونه آية دالة على قدرة الله وعظيم خلقه لقوم يتفكرون ويتدبرون فى آياته وما تدل عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم .

أطوار الإنسان وأحواله

قال تعالى :

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَوَّلِ
الْعُمُرِ لَٰكِن لَّا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادٍّ
رِّزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضُرُّهُ أَلْمَاسٌ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

هذا بيان للأدوار التي يمر بها الإنسان وهي تدل على عظم قدرة الله فيه، وفيها بيان واضح إلى قدرته على الإنشاء والإدبار وقدرته على الإخفاء، وتحلل جسم الإنسان شيئاً فشيئاً حتى يكون الموت، وفي ذلك إيماء إلى قدرته سبحانه على الإعادة ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، خلقكم أى أنشأكم من العدم، وجعل من الطين إنساناً فى الخلق وفى عبارة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ إشارة إلى إنشائه جنينا فى بطن أمه من علقه فمضغة مخلقة وغير مخلقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٤) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٥)﴾ [المؤمنون].

وإن هذا الخلق بعده الوفاة يعيش ما يعيش إن طويلاً، وإن قصيراً والمآل الوفاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتفاوت بين الموت والحياة، ومنكم من يموت فى صباه أو فى شبابه أو كهولته، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾، ومعنى الرد إلى أَرْدَلِ العمر أن يرجع منكوساً إلى ابتدائه، فهو فى أَرْدَلِ العمر يسير فى السن إلى الأمام، ولكن فى القوى يرد إلى الوراء فقواه تضعف، وتفتنى بعض أجزاء جسمه شيئاً فشيئاً، كأنه من قبل الهرم كانت قواه تسير إلى الأمام حتى تقف، فإذا أَرْدَلِ العمر أى أخسّه وأعدم حمده يرجع إلى الصبا الذى لا يعلم شيئاً.

قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أى لتصير حاله ألا يعلم، بل ينسى، وأن يكون كل ما يعلمه من جديد مآله النسيان، فلا يزداد علمه، بعد أن كان عالماً شيئاً، وقد لوحظ أن الذين يصيبهم أَرْدَلِ العمر ينسون ما كسبوه من علم بعد الشيخوخة ولا ينسون ما كان لهم من حوادث قبل ذلك، فهم يتكلمون عن الماضى ولا يتذكرون ما كان من حوادث بعد أن تصيبهم الشيخوخة، ونلاحظ هنا أمرين:

الأمر الأول - أن أرذل العمر يختلف باختلاف الناس، فمنهم من يصيبه الهرم مبكراً، ومنهم من لا يصيبه إلا مؤخراً.

الأمر الثاني - أن بعضهم يصيبه خرف الشيخوخة، والصادقون المؤمنون لا يصيبهم خرف الشيخوخة، وإن كانوا ينسون، ومهما يكن فإن الموت قبل بلوغ أرذل العمر أفضل، ولقد كان النبي ﷺ يدعو ربه ألا يرد إلى أرذل العمر، فقد روى عنه ﷺ أنه كان يدعو «أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر»^(١)، وإن ذلك كله بتقدير الله تعالى وعلمه؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ إن الله بمقتضى علمه قدر كل شيء ونفذه، وهو القادر العليم.

وإن الله تعالى لم يجعل الناس على سواء في الغنى والفقر فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١).

هذه بيان حال الإنسان من الغنى والفقر، والسعة في الرزق، ومن قدر عليه رزقه، وفيه تهيأ الأسباب ليكسب رزقا وفيرا وخيرا عميما فقال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ يسير الأسباب فمنكم من سلك السبيل فنال مالا، ومنكم من لم يكن له سبيل إلى مال فكان فقيرا، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، أى فما الذين أوتوا سعة في المال ومالا كثيرا وخيرا عميما برادى رزقهم أى يجعلهم رزقهم عائدا على ما ملكت أيمانهم من الإماء والعبيد، ليكونوا هم وعبيدهم فى المال على سواء فيكون المال لهم جميعا ويكونون فيه سواء.

يقول الزمخشري: إن هذا ما ينبغي، فالآية تدل على ما ينبغي أى يجب أن تكون النعمة التى ينالونها فى الرزق تكون ثمرتها عامة بينهم وبين ضعفائهم فلا

(١) متفق عليه، رواه بهذا اللفظ: البخارى - تفسير القرآن (٤٣٣٨)، ومسلم: الذكر والدعاء - التعوذ من العجز والكسل وغيره (٤٨٧٩).

يرفلون في النعيم، والضعفاء في الشقاء المقيم، يروى أن أبا ذر الغفاري عندما سمع قول النبي ﷺ بالنسبة للعبيد: «أطعموهم مما تطعمون واكسوهم مما تكتسون»، كان لا يلبس رداء إلا ليس عبده مثله، ولا يلبس إزاراً إلا البسه مثله^(١) وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَمَلِهِ يَجْحَدُونَ﴾ الفاء مؤخرة عن تقديم أفبعملة الله يجحدون ويكفرون، فلا يشكروها فيصرونها في مصارفها، ويضنوا بها عن مواطنها.

هذا هو ظاهر الآية، وقد قال بعض المفسرين: إن المعنى أنكم لا تسوون ما ملكت أيمانكم في الرزق الذي يرزقكم الله تعالى إياه فكيف عبيد الله والمخلوقات التي خلقها الله تعالى في العباد، إنكم تهجدون بهذا ويقولون: إن هذا مثل ضربه الله تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ...﴾ (٢٨) [الروم] وهذا تفسير ابن عباس.

وكان هناك تخريج ثالث، وهو أن المعنى أن الله رازق الناس جميعاً غنيهم وفقيرهم فلا يحسب الموالي أنهم يرزقون، وأنا أرى أن الواضح البين هو الأول، وهو المتسق مع نظام الغنى والفقر، ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: إن الرحمن فضل بعض الناس في الرزق، بلاء يبتلى به كلا فيبتلى من بسط له كيف شكره، وأداؤه في الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وحوله.

وقد بين الله تعالى عمارة الأرض بالوجود الإنساني، فقال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنِّعْمَةِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢).

(١) الحديث بهذا اللفظ رواه مسلم: الزهد والرفائق - حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر (٥٣٢٨) وهو أصح أسانيده. وقد سبق تخرجه.

هذا بيان الخلق والتناسل، وأنه من الزوجين، وأن الله جعل الزوج من الزوج، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، أى خلق لكم من ذات أنفسكم أزواجاً، فتضمنت معنى الخلق، وصيرورتها زوجاً، كما فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... ۝١٨٩﴾ [الأعراف].

وإن هذه الآية وما يماثلها من الآيات تدل على أن الزوجة خلقت من ذات الزوج ونفسه، وأنهما أصل الوجود الإنسانى وأن عمران الأرض ابتدأ بالأسرة، والأسرة هى وحدة الجماعة الإنسانية، واللينة الأولى فى بنانه، وقد ابتدأ بالأسرة ومنها تتوالد الأسر فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، والحفدة جمع حافد ككتبة جمع كاتب، والحافد هو المسرع فى الطاعة والخدمة ومنه قول القانت فى قنوته: «وإليك نسعى ونحفد»، والحفدة تشمل أولاد الأبناء وأولاد البنات.

والكلام فى الذرية الذين يتوالدون من الزوجين، وحكى الزمخشري قولاً غريباً فقد جاء فيه «وقيل وجعل لكم الغنى وجعل لكم حفدة، أى خدماً يحفدون فى مصالحكم ويعينونكم» وهو قول غريب بعيد عن معنى الآية، لأن الآية فى بيان التوالد الإنسانى من الزوجين والبنين والأحفاد كقوله فيما تلونا ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً... ۝١﴾ [النساء] فما مناسبته الخدمة وهم أناسى كسائر الأناسى، ولا يكون نعمة على الجميع أن يكون بعضهم خدماً؟!

وإنه سبحانه وقد عمر الكون الإنسانى بهذا التناسل الذى باركه رب العالمين فلم يخرجهم إلى الوجود غير مرزوقين محرومين، بل خلق معهم أرزاقهم، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، و﴿مِنْ﴾ هنا بيانية، والمعنى رزقكم الطيبات، والطيبات

هى الأطعمة والزينة واللبس، والكسب الحلال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ (٢٢) [الأعراف] والطيبات هى غير الخبائث، وهى الأمور المقززة التى تعافها النفس كالميتة والدم ولحم الخنزير، كما قال الله تعالى فى وصف النبى الأمى فى بشارة التوراة والإنجيل به: ﴿...الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...﴾ (١٥٧) [الأعراف].

ومع أنه أنعم عليهم بنعمة الوجود ونعمة التوالد وأكرمهم بالرزق الطيب الحلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا...﴾ (٦) [هود].

مع كل هذا أشركوا بالله، واتبعوا الباطل وكفروا بالحق، فقال تعالى: ﴿...أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) [العنكبوت]، الفاء للإفصاح عن شرط مقدر وتقديم (بالباطل) على الفعل للإشارة إلى أنهم لا يؤمنون إلا بالباطل، ولا يؤمنون بحق قط، وبنعمة الله نعمة الإيجاد والرزق يكفرون ولا يشكرون، وأكد سبحانه كفرهم بالنعمة بتقديم النعمة على الفعل، وبالضمير ﴿هُمْ﴾ والجملة الاسمية.

قال تعالى فى توضيح باطلهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) هذا باطلهم وهو أوضح باطل آمنوا به يعبدون غير الله من دونه وهو إشارة إلى مقام معبودهم من الله تعالى ما لا يملك لهم رزقا فى السموات والأرض فلا يملك فى السماء مطراً يحيى به الأرض بعد موتها، ولا فى الأرض نباتاً يأكل منه الإنسان والحيوان، ولا النعم الذى تكون فى الأرض، ولا الثمرات التى تثمرها الغراس والأشجار، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أى لا تستطيع تلك المعبودات المزعومة أن تأتى بشيء من هذا، ولكنه ضلال العقل والوهم الذى يسيطر، وأعيد الضمير لمن يعقل تهكما بهم وعلى زعمهم، إذ يعبدونهم.

﴿شَيْئًا﴾ مفعول مطلق، أى أى رزق كان ولو رزقا قليلا، لأنه حجر لا يقدر على شيء وليس فيه حياة فكيف يعبده حتى؟! ويصح أن يكون فى معنى الصفة لرزق، أى لا يملكون فى السموات والأرض شيئا أى: أى قدر كان.

وأنهم إذ يعبدون ما لا يملك رزقا فى السموات والأرض ولا فى شيء، يشبهونهم بالله سبحانه وتعالى، ويجعلونهم مثله تبارك وتعالى عن الشبه والمثيل، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤).

الأمثال جمع مثل أو مثل، ضرب بمعنى بين وجعل والمعنى فلا تبسئوا وتجعلوا لله تعالى الأمثال، وهى الأنداد والأشبه والنظائر فى زعمكم، فالله أعلى وأعظم وأنتم لا تعلمون مكانه بل أنتم جاهلون فى ذات أنفسكم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أى والله تعالى يعلم حالكم، وأوهامكم، وما يجيش فى صدوركم، وأنتم لا تعلمون مغبة زعمكم وإشراككم، وهو العذاب الأليم.

ضرب الأمثال الصادقة

قال الله تعالى:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا
فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَورِي الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

بعد أن نهاهم سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال التي شيدوا فيها الأحجار
التي كانوا يعبدونها أخذ سبحانه وتعالى يبين لهم الأمثال التي تصور الحقيقة
وتهدى إليها، فقال تعالت كلماته:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ
يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ العبد هو
الفتى المملوك، وذكر وصف مملوك ليميز عن الحر، الذي لا مالك له، وكان
التمييز ضروريا؛ لأن الجميع مملوك لله تعالى، يستوى فى المالك، ومن يملكه من
الرقيق، ومعنى ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، أى لا يقدر على التصرف فى شيء من
الأشياء وفى ذلك بيان لأنه مقيد، قد وجد غل الرق فى رقبته، وأثقله، فهو لا
يقدر على شيء مَادى، ولم تكن له إنابة من مالكة أو عقد مكاتبه، يستطيع به
التصرف ليطلق نفسه، بل هو قن مقيد بالرق، ومقيد بأنه لا سلطان له فى
التصرف، أى فيه العجز المطلق.

﴿وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾، (من) هنا نكرة تدل على ما هو فى مقابل
المملوك، وهو إلى المالك لكل تصرفاته التى يقدر على كل شيء، ومع هذه القدرة
التي ثبتت له بمقتضى الحرية رزقه الله تعالى رزقا حسنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن
رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ والحسن هنا معناه الطيب فى ذاته، فليس خبيثا فى سببه
فسببه طيب حلال لا حرام فيه ولا شبهة حرام، وإضافته سبحانه وتعالى إليه لبيان
أنه جاء إليه سهلا ميسرا من غير جهد، وإن كان حلالا، ولبيان أن كل الأرزاق
من الله وليست الأسباب مؤثرة بإيجاد الرزق إنما هى أسباب جعلية وليست بأسباب

حقيقية لأن كل شيء بيد الله سبحانه وتعالى، فليس سبب الزرع والسقى والرعى والبذر وحدهما، بل السبب الأكبر هو رزق الله العليم القدير، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات].

وقد جعل الله تعالى الخير الذي يجيء من الرزق الحسن، فقال تعالى: ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، الإنفاق هو صرف المال في مصارفه التي لا يكون الصرف فيه إسرافا، وأطلق في القرآن على الصرف في سبيل الخير، فإذا أطلقت كلمة الإنفاق لا يكون إلا في الصدقات إلا إذا عني الموضوع غيرها، مثل قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ... (٧)﴾ [الطلاق] فالإنفاق هنا في نفقة الزوجية، وإن كان يومئذ إلى أنها صلة وليست أجرا محضاً، كما يقرر الفقهاء.

وقوله: ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾، يؤكد أنها للصدقات، وإن السرية لها موضعها، وخصوصا لأهل التجمل ذوى المروءات، والجهر في موضعه عندما تكون دعوة إلى البر فإن الجهر يدعو إلى المنافسة ﴿... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين].

ثم قال تعالى مقررًا النتيجة البديهية وهو أنهم لا يستوون فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أى إنكار الواقع، وكان النفي بالاستفهام لتأكيد النفي كأن النفي مقرر بالبداهة، وعند المخاطب، فكأنه قد جاء من عنده، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كان هذا تأكيداً للنفي وهو عدم التساوى، أى أنه يحمد الله تعالى للوصول إلى هذه النتيجة التي أخذت من إقرارهم، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ للإضراب، أى كان الإضراب عن علمهم البدهى الذى طمس فيه الهوى على مداخل الفكر والعلم، وكان القرآن الكريم منصفاً لحكم على الأكثر لا الجميع بأنهم لا يعلمون أى طمس على قلوبهم بغشاء من الهوى المانع من إدراك الحقائق.

وكانت الموازنة بين اثنين فى ظاهر اللفظ، وهما العبد المملوك، ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ولكن لأن (ما) يدخل فى عموم ما تدل عليه كثيرون، كان الذين لا يستون كثيرين فعاد الضمير بالجمع.

وبعد ذلك يقول هذه هى معانى الألفاظ وما تدل عليه بمفرداتها، ولكن ما هو المثل؟ إن المثل تشبيه حال بحال فما موضع التشبيه، وما هو وجه التشبيه؟

قال أكثر المفسرين: إنه تشبيه فى حال عبادة الأوثان، والشرك بالله تعالى بحال من يسوى بين العبد المملوك، العاجز عن كل شىء والحر المالك الذى رزقه الله رزقا حسنا، أنهم لا يستون بالبداهة، فكيف يسوى أولئك المشركون بين الله خالق كل شىء وبين الأحجار التى يعبدونها.

واعترض على تخريج المثل هذا التخرىج الرازى بأن العبد المملوك حى، والأحجار لا حياة فيها، وقد أجيب عن ذلك بأن التشبيه ليس بين الأجزاء، إنما التشبيه بين حالين، لا بين الأحجار والادميين.

وقال ابن عباس: إن التشبيه بين الكافر والمؤمن، فالكافر كالمملوك الذى لا يقدر على شىء وهو عاجز، وبين من رزقه الله تعالى رزقا حسنا، فهو كقوله تعالى: ﴿... هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ... (٥٠)﴾ [الأنعام]، ﴿... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... (٩)﴾ [الزمر]، وكذلك التشبيه فى قوله تعالى فى الآية الآتية: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ...﴾ وهو فيها أوضح وكلاهما واضح، والله أعلم.

ولولا أننا مقيدون إلى حد ما بما قاله من قبلنا لقلنا: إن الله تعالى قال من قبل ذلك بآيتين ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكْتَ أَيْمَانُهُمْ﴾ وفى هذه الآية والتى تليها، يبين سبحانه كيف كان التفضيل فى الرزق، وهو أن الفقير اختبره الله تعالى بالعجز، ويتقدير منه سبحانه وتعالى، فضاقت أمامه السبل، وأن الغنى آتاه الله تعالى قدرة على الكسب ومكن

له من أسباب الرزق، وبذلك ينتهى البيان القرآنى فى زعمنا إلى تقرير حقيقتين ثابتتين:

الحقيقة الأولى - أن العجز والكسب والكَيْس بتقدير من الله وباختيار منه، فليس لأحد أن يستطيل أو يستكبر فالله هو الرازق.

والحقيقة الثانية - أن الفقر والغنى حقيقتان ثابتتان؛ لأن الله تعالى خلق القوى متفاوتة، والفرص متفاوتة، والأسباب فى الحياة مختلفة فكان جهلاً أن يدعى مغرور أنه يذيب الفوارق بين الغنى والفقر، وقد شاع هذا الغرور فى هذه الأزمان كالذى جهل طبائع الإنسان فأفقر ناساً من ذوى الإنتاج، وأغنى العجزة، وكانت أسباب الرزق الحرام طاغية على الحلال المنتج.

قال تعالى فى المثل الثانى، وهو فى معنى الأول، وهو من تصريف الله البيان فى قرآنه المجيد.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾.

وهذا مثل آخر كالمثل الأول، وكان الأول موازنة بين عبد مملوك لا يقدر على شىء، وآخر حر قد رزقه الله وهو ينفع الناس بما رزقه الله تعالى يعطيهم سرا وجهراً على حسب ما يرى، وعلى حسب نيته المحتسبة، والثانى كان موازنة بين رجلين آخرين، ولكن أحدهما عاجز لا يقدر على شىء وهو فى حياته كلٌّ على قريب له هو موله لا نفع منه، وآخر قادر فى عقله مستقيم فى خلقه عادل فى ذاته.

قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾، أى بين جالا لرجلين موازنا بينهما ﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾، أى أخرس لا يستطيع أن ينطق فلا يجيب إذا دعاه الداعى، والأخرس فى أكثر الأحوال ناقص فى مداركه؛ لأنه قد سدت عليه

مسالك العلم ولا يحسن بمعنى الأشياء، والأخرس عادة يفقد النطق لأن النطق بالمحاكاة فهو لا يعلم ولا يستطيع أن يبين هواجسه وخواطره فلا يحسن بما حوله، وقد فقد المجلس والأنس، ولا يجلب لنفسه نفعاً، ﴿وَهُوَ كُلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾، أى حمل وثقل، والمولى هنا القريب أو ذو الصلة به من أى أنواع الصلات الإنسانية، ومن كانت هذه حاله لا ينفع الناس، وقد أشار مع ذلك إلى أنه ناقص المواهب ليس متفتح النفس والإدراك، وعبر الله تعالى عن هذه الحال ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، وثانى الرجلين الموازن بينهما رجل فيه حكمه جعلته يلى بعض الأمر، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أى للنفى المؤكد كأنه سئل السائل وأجيب بالنفى وكان الرجل الثانى الذى ينفى المقابلة بينه وبين الأول قد اتصف بصفتين جليلتين مما يعلو الرجال بهما فى الأوساط الإنسانية:

الصفة الأولى - أنه يأمر بالعدل، ولا يأمر بالعدل إلا إذا كان هو عادلاً فى ذاته، والعدل صفة فى النفس وهى الفضائل التى تدخل فى تكوين المزاج الإنسانى الكامل، فالعدالة فى النفس تركيها وتنميتها وتتجه بها نحو الفضائل، فحيث كانت العدالة النفسية كان الصدق وكان الاعتدال وكانت القدرة على الصبر، فلا تحكمها الشهوات ويكون الانتصاف منها، ويكون تأديب النفس.

وربما يكنى بأنه يأمر بالعدل بتولييه أمور الناس أو بعضهم أو أن يكون الحكم، وهو يشير إلى أنه لا يتولى أمور الناس إلا عدل يأمر بالعدل يأمر كل نوابه وحاشيته ويقوم بالقسطاس المستقيم بين الناس.

الصفة الثانية - من يكون مستقيم النفس مخلص القلب، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أى مستقيم النفس ذو طريق حسن وهذه أعلى صفات الإنسان، فهو مخلص وإخلاصه يوجهه إلى السبيل المستقيم، والإدراك المستقيم، والكلام المستقيم، والعمل المستقيم والسلوك العام المستقيم، وعبر سبحانه وتعالى بعبارة تؤكد استقامته بعدة إشارات:

الإشارة الأولى - أنه عبر بالجملة الاسمية .

الإشارة الثانية - أنه جعله كراكب صراط الاستقامة الجالس عليه ؛ ولذا عبر بـ(على) الدالة على التمكن من صراط الاستقامة .

الإشارة الثالثة - أنه عبر بالصراف ، وهو فى ذاته مستقيم ، إذ إنه الخط المستقيم ، ووصفه مع ذلك بالاستقامة فكان هذا تأكيدا لفظيا لمعنى الاستقامة فى النفس والخلق والعمل .

وإن الأقوال التى ذكرناها فى المثل الأول تقال هنا ، فأكثر المفسرين على أنه سبحانه ضرب حال عبادة المشركين ، بحال من يسوى بين رجلين بينهما تمام التباين ، فيسوى بين الله تعالى والأحجار ، كمن يسوى بين رجل ناقص الإنسانية ورجل آخر كاملها .

وإن كلام ابن عباس ينطبق هنا أيضا ، فيكون نفيا للتساوى بين الكافر المشرك ، والمؤمن الموحد .

وما بدر إلينا من أنه بيان لاختلاف القوى والأحوال ، وتوافر أسباب الرزق وعدم توافرها ، وقدر الله سبحانه وتعالى ، وأنه يرزق هذا ويحرم هذا ، لعدم السير أو عجزه عن السير فى أسباب الثروة ، وأن الوجود الإنسانى يشتمل على هذه الحقيقة ، وأن الناس فيهم الغنى والفقير ومن يقول إنه يعمل على إذابة الفوارق بين الغنى والفقير جاهل مغرور ، وإن فرض ذلك بالقوة كان ظلما غشوما ، وسلب الحقوق ممن يتتجون الحلال ، وترك الباب مفتوحا ، ليغنى طائفة أخرى بالحرام الذى لا يتتج شيئا .

وإنه من بعد ضرب الأمثال ، ومنها يتبين أن الله سبحانه وتعالى يدير العالم بحكمته ، وأنه وحده القادر على كل شيء وأن الحساب يجيء لا محالة ؛ ولذا قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٧٧) .

أحسب أن هذه الآية تشير إلى ما قدره سبحانه وتعالى في علمه المكنون مما كتبه على الناس من غنى وفقر، وإن كل شيء بقدره، وفي غيبه حتى العجز والكيس، ومع ذلك فيها بيان لما يستعجله الناس من وعيد، ومن قيام الساعة مع أنه قريب وأنه ليس بعسير على الله تعالى بل كلمح البصر أو هو أقرب، واللمح النظر السريع، يقال لمحّه لمحًا ولمحانا إذا أدركه بطرف العين أو مجرد حركتها بحركة الرمش، وهو زمن لا يتجاوز ثوانى من دقيقة.

والمعنى وإن أمر الساعة وزمانها وإن استطلتم الزمن الذى يمضى هو عند الله كلمح البصر، أى تحسبونه بعيدا، وهو عند الله تعالى قريب كلمح البصر، فالأزمان تجري عليكم بالطول والقصر، أما عند الله فإنه لا زمان يحكمه، ولا ظرف يحيط إنما ذلك أعراض لا تكون إلا عند الحوادث، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۖ﴾ [المعارج] وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج]، أى إن الزمن لا يحكم إرادة الله، بل إرادة الله تعالى هى الخالقة للأفلاك والأزمان ومعنى ﴿أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ مهما طال زمنها فى نظركم، هو عند الله قريب ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، (أو) للإضراب عن وصف أمرها بأنها كلمح البصر، بل هى أقرب من ذلك إن بالغتم فى الاستغراب.

وإنه يراد مع استطالة الزمن أن الساعة إذا جاءت واضطربت السموات والأرض وكورت الشمس وانفطرت الأرض والكواكب اندثرت، كل ذلك يتم فى لمح البصر أقرب من ذلك، فالله تعالى على كل شيء قدير؛ ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى قدرته بعدة مؤكدات أولها الجملة الاسمية، وثانيها: (إن) الدالة على تأكيد الخبر وهو قدرة الله تعالى، وتقدير ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لأنه يدل على الاهتمام ووصف ﴿قَدِيرٌ﴾، والله أعلم.

وبعد أن بين سبحانه أن الغيب كله فى علمه سبحانه وقدرته، وأن الله تعالى قدير على كل شىء، وأنه خالق العاجزين والقادرين، والمنافقين، ومن لا خير فيه، ﴿أَيُّمَا يُوْجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بين سبحانه أنه خلق الإنسان وعلمه، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾.

(الواو) هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، وقد عطف عليها من قبل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وعطف عليهم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، وما كان بعد كل جملة من هذه المعطوفات، إنما هو لبيان وجه العبرة فيها، وضلال الشرك وأهله، فهى تابعة لمعانيها، فلا يكون ثمة مانع من العطف عليها.

وإذا كانت معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فهى لإثبات أن الغنى والفقر أمران مقدوران لله تعالى، وإن الغنى من فضل الله، ويوجب الشكر، والفقر اختبار الله تعالى ويوجب الصبر، ومع الصبر الجزاء، وهو على صورة الصبر شكر الله تعالى.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، أى شيئاً من العلم بالحياة ومشاربها، ومن العلم بحق الله على عباده من إدراك عظمة خلقه فى تكوينه الإنسان من سلالة من طين، وجعله نطفة فى قرار مكين، وجعل النطفة علقة والعلقة مضغة، وجعل المضغة عظاماً، ثم أخرجه من ضيق الرحم إلى سعة الوجود، وهذا ما يشير إليه قوله: ﴿مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يخرج الجنين من بطن أمه لا يعلم شيئاً من طرق الحياة، ولكن يعطيه الله تعالى أسباب العلم بهذه الحياة وما يجرى فيها، وهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾.

﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾، أى خلق لكم وصيره لكم ﴿السَّمْعَ﴾، والسمع يتضمن النطق؛ لأن النطق لا يكون إلا لسميع، إذ إن النطق لا يكون بالفطرة التى فطر الله

تعالى الناس عليها إلا بالحاكاة، والمحاكاة لا تكون إلا إذا سمع الكلام بحروفه وعباراته، وحاكاها؛ ولذلك من فقد السمع لا يتكلم، وهو الآخرس كما أشرنا من قبل.

وبالسمع يسمع هداية الله تعالى في كلام الرسل والصادقين، وكلام رب العالمين، ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ بها يرى عظمة الله تعالى في خلقه، فيرى السماء وقد زينها للناظرين، والجبال والوهاد، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات لأمر الله تعالى وإن كل هذه المعلومات الحسية يستودع الله تعالى الأفئدة فتدرك، فالسمع والبصر يجمعان المسموعات والمرئيات والأفئدة تعتبر وتقدر وتدرك، وتستبصر، فيكون الإنسان المعامل في الحياة المدرك لمعناه الذى يدرك بالبداهة وجوب شكر المنعم؛ ولذا قال تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن تشكروا لتوافر أسباب الشكر، ودواعيه، والرجاء من العباد، ولا من الله سبحانه وتعالى.

نعم الله تعالى توجب الشكر

قال الله تعالى:

الْمَيْرَ وَالْإِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ
الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوُمَتَّعًا إِلَىٰ حِينٍ
﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُم

الْحَرَّ وَسَرَّيْلَ تَقِيهِمْ بِأَسْكَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

فى هذه الآيات بيان قدرة الله تعالى فى خلقه، وإحكامه وإيداعه، وبيان نعمته على الإنسان ظاهره وباطنه، وكيف سخر الحيوان للإنسان، فتمكن من اتخاذ المأوى، فى الظعن وفى الإقامة، وجعل ظلالا تقيهم الحر والبرد، وسخر لهم النبات يتخذون منه لباسا يقيهم الحر، ومن الحديد سرابيل تقيهم فى يوم البأس، وكان ذلك إتماما لنعمة الله رجاء أن يسلموا، وقد بلغ النبی ﷺ، وبين وأقام الأدلة، وما عليه إلا البلاغ.

ابتدا سبحانه بالإشارة إلى عجائب الخلق، والتكوين فى الطير التى تسبح فى الفضاء، كما تسبح السفائن فى الماء من غير ماء يحملها، إنما خلقها تعالى لتحمل نفسها، وتتوقى السقوط بأجنحتها، وتسير فى الفضاء كما تسير الدواب على الأرض لعاقل يعوقها، ولا عقبات تمنعها، حتى إن الإنسان عندما أراد أن يستخدم الفضاء تعلم منها، ولذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾.

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع، فيكون بمعنى النفى المؤكد بإقرار السامع كأنه سئل وأجاب بالنفى؛ ولذا كان الاستفهام بمعنى النفى المؤكد، وقد دخلت أداة الاستفهام على حرف النفى، ونفى النفى إثبات.

والمعنى لقد رأوا الطير مسخرات، أى مذللات، سخرها الله تعالى لتسير فى الجو، من غير حامل يحملها، ولا محسك يمسكها، وهى مع هذا مسخرة لخدمة الإنسان، فمنها ما يحمل الرسائل من مكان إلى مكان والشقة بينها بعيدة، ولا يزال يستخدم إلى الآن، ومنه ما هو مسخر للإنسان، يأكل الحشرات التى

هى آفة الزرع، وكان كذلك يمنع مغارم التنقية حتى أباده الإنسان ومنها ما يعلم الإنسان، ويحمى الزرع من صغار الطير، وقد أبدناه الآن بالمبيدات التى نسلطها، وصرنا ننفق النفقات الكثيرة، فى الوقاية، ولا وقاء.

وهكذا نجد الطير قد كانت مسخرة فى الجو لسيورها، ومسخرة للإنسان فى نفعها.

وقد خلقها الله تعالى مهية للطيران فى الفضاء، وجعل كل أعضائها مناسبة بين كونها، فلم يخلق لها يدين، وخلق رجلين ليتمكن ارتفاعها من الأرض، وكانت رجلاه واسعة، وأكثر قوته فى صدره، وكان قوتها حبا ييلع؛ ولذا كان لها منقار، ينقى ما تختار، ولأن ما ييلع لا يكون فيه تفتيت بالمضغ، كانت حرارة الحوية هاضمة، وجعل فى أجنحتها ريشا قويا فى خوافيه وقوادمه، حتى تكون الخوافى قوة للقوادم وكانت الأجنحة، لجلب الهواء الذى يحملها، وهى طائفة، فهى ترفرف بها لتجلبه، حتى إذا استوى سارت كأنها تسير على مكان صلب، أو ماء.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو خلق فيها هذه القوى التى تقوى بها على الطيران، ومع ذلك حاطها بكلاءته، وحمايته، كما أحاطها بفطرتها، تبارك الله الخلاق العليم، وقد بين سبحانه أن فى هذا الخلق آيات، لمن يعتبر ويستبصر، ويفكر فى خلق الله تعالى وحكمته فقال تعالى قدرته: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة إلى الخلق والتكوين والتسخير، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ﴾، (لام) التوكيد أو الابتداء بمعنى التوكيد، و(آيات)، أى دلالات قاطعة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أى الجماعة تتضافر على الحق وتطلبه، وتتهدها، وتتعرفه، ومن شأنهم الإيمان بالحق إذا بدت دلائله، وقامت براهينه، وكان التعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يعنى من شأنهم وحالهم الإيمان دائما، أما غيرهم فقد غشيتهم غواشى الباطل وطمس عليهم الهوى، فصاروا كالصم البكم الذين لا يعقلون ولا يدركون.

بعد ذلك بين سبحانه وتعالى نعمه على خلقه فى الأنعام التى يتمكنون منها بتأليفها وغيرها فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، أى صير لكم من بيوتكم التى تتخذوها منها من الحجر والمدر، والأجر، واللين، أى موضع سكون واطمئنان، فهم فى حركة دائبة دائمة كالكوكب والنجوم والأجرام السماوية، ولم يجعلكم فى سكون كالأحجار والجبال، ولو فى مظهرها وإن كانت ذاتها تمور، بل جعلكم فى مضطرب تتحركون وتنامون وتستقرون، فكان من نعمته عليكم أن جعلكم تسكنون وتعملون، فالعمل والسكن كلاهما نعمة من الله، ونرى من هذا التخييج أن جعل لكم ذلك السكن، والاطمئنان بعد اللغوب والتعب، كما أن بناء البيوت من موادها نعمة، وقد يقول قائل: كيف تكون نعمة أسبغها الله، والعبد هو الذى بناها، وتقول: إن النعمة فى أن مكّنه من ذلك، وسخر كل شىء، فببقوله الذى خلقه الله تعالى فدبر وبنى واهتدى إلى أساليبها، والخلاصة أن النعمة فى أمرين:

النعمة الأولى - فى هدايته إلى البناء من مواده، وجعله مأوى، والثانى فى أنه جعله يسكن بعد الكرب والتعب، وهذا يشير إلى أن الراحة لا تكون إلا بعد جهد كما أن السكن لا يكون إلا بعد عمل هذه نعمة كبيرة، وهى نعمة الحياة العاملة الكادحة.

والنعمة الثانية - هى تمكين الإنسان من النعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وقد ذكر الله سبحانه نعمة فيها بعد نعمة أكلها وتأليفها، وتسخيرها للإنسان فى حاجاته، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، الظعن الارتحال والتنقل، وانتجاع مواطن الكلاء، واستخفافها هو طلب خفتها، أى تطلب لحفتها فالسين والتاء للطلب، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن

جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴿٤٣٥﴾، كالأخبية والفساطيط، تستخفونها يوم ظعنكم، فهي بيوت محمولة، وتلك بخلاف البيوت المبنية من الآجر والأحجار واللبن على نحو ما أشرنا من قبل.

وهي خفيفة في الظعن وفي الإقامة فإذا ظعتم جعلتموها على ظهور الإبل أو الخيل ونحوها، وإذا أقمتهم أنزلتموها من فوق ظهور الإبل، فأقمتهم تبتغون الماء والكلأ ما شاء الله تعالى أن تقيموا، ثم ترحلون.

ويشمل ذلك الذين يقيمون في الخيام في الصحراء، فإنها تكون موضع إقامة دائمة لهم، ويسمون «أهل الوبر»، كما يسمى سكان المدائن بـ«أهل المدر» كأهل مكة والمدينة والطائف.

ويثار هنا كلام، وهو أن الخيام والفساطيط، لا تتخذ من الجلود، وهي الأدم فقط، بل تتخذ من الأصواف والأوبار والشعر أيضا، فليس ما يؤخذ من الجلود هو ما يأخذ من الأدم فقط، بل ما يؤخذ من الأخبية، في الأصواف والأوبار والشعر يؤخذ من الجلد أيضا؛ لأنه يجز منه أو يقص، وإنما خصت الأصواف وما يمثلها بالأثاث والمتاع، لأنها لا تؤخذ إلا منها، ولم تكن عند العرب تؤخذ من الأدم، وذلك هو الغالب في عصرنا أيضا.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ الصوف هو للضأن والأوبار للجمال، والأشعار للمعز وهي يتخذ منها أثاث، وهي الثياب والفرش، وقوله متاعا، أى يتنفع فيه بالبيع والشراء والاتجار بشكل عام.

وأظن بأن المتاع هو ما يستمتع به بالنظر والزينة ونحو ذلك مما يكون متعة للإنسان، ونختار ذلك لسببين:

السبب الأول - أن الانتفاع بالاتجار جائر في كل شيء حتى الإبل، ولحمها وعظامها وجلودها وإنما المذكور هو انتفاع شخصي بالاستهلاك لا بالاتجار.

والسبب الثانى - أن الله تعالى ذكر متعة النظر والبهجة، وطيب النعمة فى آية أخرى، فقال تعالى: ﴿أَنَّا وَمَتَاعًا﴾، أى يتخذون من الأصواف والأوبار والأشعار أئانا وزينة، والزينة ليست حراما، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ (الأعراف).

ولعله مما يرشح لهذا المعنى ويقويه تعالى: ﴿إِلَى حِينٍ﴾، أى أن ذلك الاستمتاع بهذه النعم، وخصوصا الاثاث والمتاع إلى حين حتى يجيء وعد الله تعالى فيكون الحساب والعقاب والثواب.

كما أن البيوت تتخذ من الآجر والأحجار، ومن الأصواف والأوبار والأشعار والجلود تتخذ أيضا أكنان من الجبال ولذا قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١).

والله سبحانه وتعالى ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صيّر، بأن خلق لنا أشجارا تظل الناس فى الحرور، وبيوتا يكون ظلها دافعا لوهج الشمس وفى الصحارى تجد الأشجار المظلة، والسحاب المظل، وقال سبحانه وتعالى مما خلق، ولم يذكر شيئا بعينه؛ لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة، فالجئات تنفيا ظلالها بالغدو والآصال والبيوت فيها ظلال، لمن يكون بجوارها، والغمام يكف وهج الشمس وحرارتها، والسحاب تظلل، والنبى ﷺ، وهو فى رحلته إلى الشام كانت السحاب تظله فى سيره، وحيثما انتقل انتقلت معه، وإن هذه الظلال نعمة من الله تعالى فى أرض صحراوية جدداء لا ماء يرطب جوها، ولا نسيم عليل يطفئ حرها؛ ولذلك كانت من نعم الله التى أنعم بها على سكانها الذين آتاهم الله تعالى مع ذلك جلدًا وقوة احتمال، فكانت هذه نعمًا أنعم الله بها عليهم ليستطيعوا أن يعيشوا وأن ينعموا فى خيراتها.

وإن هذه ظواهر طبيعية قد يقول قائل: ما النعمة فيها؟، ونقول فى الجواب عن ذلك: إنها نعم تغمرنا وتغمر سكان الصحارى ولا يحسون، ولكن إذا

حرموها يعرفون مقدار الإنعام، وهى أفعال مختارة يريد وضع الأمور فى مواضعها، وكل شئ عند الله تعالى بمقدار وبميزان محكم.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، وهى الكهوف والمغارات، وأكنان جمع كن، وهو ما يتقى بالاستتار فيه تتبع الأعداء، وتربص المتربصين، كما كمن النبى ﷺ هو وصاحبه أبو بكر فى غار ثور ثلاث ليال سوا، وكما كان ﷺ قبل البعثة يتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد، وإن هذا كله يدل على أنها أكنان، إما استتاراً للعبادة، أو فراراً من عدو متربص، أو كن من مطر غامر، أو استظلال، ولماذا سماها الله تعالى أكنانا، ولم يسمها بيوتا؛ لأن الناس لم يتخذوها بيوتا يسكنون فيها تكون مطمئناً وسكناً لهم تسكن فيها نفوسهم، ويطمئنون بعد تعب ومكان راحة، لأن جبال البلاد العربية لم تكن موضع اطمئنان كالجبال الخضراء، فلم تكن مساكن تكون لسترة حالهم، بل كانت أكنانا للاستتار من عدو أو مطر منهمر، أو اتقاء لحرارة الشمس أو نحو ذلك، وإذا كان من العرب من ينحتون من الجبال بيوتا فارهين كما جاء ذلك فى قصص القرآن الحكيم، فإن ذلك لم يكن عند أهل الحجاز ولجئ ونحوها.

وقد مَنَّ الله تعالى بما هياهم به ومكنهم منه، وهو ما ذكره بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيَكُم بِأَسْكُمُ﴾، (جعل) بمعنى صيرَ وهياً بأن مكنكم من أن تصنعوا ذلك لأنفسكم، و(السرايل) جمع سرايل وهو القميص، وذكر أن هذه السرايل نوعان نوع يتقى به الحر، فلا يكون عارياً يتعرض للجو اللافتح، كما يتعرض العراة من الزوج الذين لم يتمكنوا من قمصان يتقون بها الحر، وقد قيل إن السرايل يتقى بها الحر والبرد، فكيف ذكر الحر فقط، والجواب عن ذلك أن ذكر اتقاء الحر تستدعى لا محالة ذكر اتقاء البرد، وإن لم يذكر بالنص فقد فهم بالاقتضاء، وقد ذكر سبحانه الدفء من قبل فى قوله تعالى، ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وإجابة الزمخشري بأن ذكر الحر يناسبهم

دون البرد لأنهم لا يحتاجون إلى اتقاء البرد، وعندى أن البلاد التى جوها قارى
كبلاد العرب يكون بردها شديدا قارسا.

والواقع أن الكلام كله فى اتقاء الحر، فذكر الظلال والبيوت والاكتنان كل
هذا فى سياق اتقاء الحر فكان المناسب أن يذكر فى مزايا السراييل أن تقى من الحر.

والنوع الثانى من السراييل وهو ما يتقى به البأس، وهو دروع الحرب، إذ
البأس هو الحرب، كما فى قوله: ﴿... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
...﴾ (١٧٧) [البقرة] وأضاف سبحانه وتعالى البأس إليهم، لأنهم فى الجاهلية هم
الذين كانوا يثيرونها حروبا شعواء، تدعو إليها العصبية الجاهلية، وتدفع الحمية غير
المدركة العاقلة كحرب البسوس، وعيس وذبيان، وغيرهما مما كانوا يثيرونه من
حروب، فلم تكن حروبا عادلة؛ ولذا أضيفت إليهم.

وإن هذه النعم كلها بتسخير هذه الأمور لهم، وتهيئتهم بالفطرة لها، وإن
نعم الله تعالى لا تخصص، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت حكمته: ﴿كَذَلِكَ يَتِمُّ
نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أى كذلك التى هيا سبحانه وتعالى لكم ومكنكم،
وهذاكم بفطرتكم إليه من جعل بيوتكم سكنا ومطمئنا، وعن اتخاذكم من جلود
الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم وإقامتكم، ومن اتخاذكم من أصوافها وأوبارها
وأشعارها، أثانا يكون زينة ومتعة، ومن اتخاذكم الظلال مما خلق، ومن جعل
البيوت ومن اتخاذكم السراييل والدروع.

كذلك الذى هيا لكم تكون نعمه الكلية عليكم دائما ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾،
أى تسلمون وجوهكم لله تعالى، وتركون عبادة الأوثان لهذه النعم المتوالية
عليكم، وأفرد سبحانه النعمة، وهى متعددة لأن المفرد المضاف يعم، ولأنها واحدة
باعتبار مصدرها، وهو الله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى بعد ذلك:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢)

تقدير القول فإن علموا هذه النعم التي أسبغت عليهم، ومع ذلك كفروا فما عليك من كفرهم من شيء، و(الفاء) ما بعدها ترتب على ما قبلها، ﴿تَوَلَّوْا﴾، أى أعرضوا ونأوا بجانبهم، وأنكروا هذه النعم المتضافرة، فإن العذاب نازل بهم لا محالة، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، لأنك قد بلغت وأنذرت، وإنما عليك التبليغ البين الواضح الذى لا يمارى فيه عاقل مدرك، و(الفاء) فى ﴿فَإِنَّمَا﴾ واقعة فى جواب الشرط، و(إنما) من أدوات القصر، ﴿عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أى ليس عليك إلا البلاغ الواضح، وإنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.

جزاء الكفر بنعمة الله

قال تعالى:

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ
قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا ندْعُو مِنْ دُونِكَ
فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا
إِلَى اللَّهِ يَوْمَ ذِ السَّعَةِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

ساق الله تعالى ذكر ما أنعم به عليهم، والإنسان كله فى قبض نعمة الله تعالى من يوم حملة جنينا فى بطن أمه إلى أن يولد، ومن بعد أن يولد هو فى حياطة الله تعالى ورحمته، إن مرض كشف عنه الضر، ومنحه العافية، وإذا كان

فى المخاطر تحطه رحمة الله تعالى، وهو فى مأواه، وملبسه، ونعيمه وراحته بعد تعبته فى نعم الله تعالى، وهو يعرف هذه النعم، ويعرف أنها من عند الله تعالى، وبفضل منة وكرمه، والعرب فى عصر النبوة وقبله، كانوا أعرف الناس فى جيلهم لربهم، فهم كانوا يعرفون الله تعالى الذى خلق الكون وما فيه ومن فيه وحده، وهو الواحد فى ذاته وصفاته، ولكنهم بتسلط الأوهام يعبدون معه الأوثان؛ ولذا قال سبحانه:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾.

هم يعرفون الله ومع ذلك يشركون، ويعرفون أنه الضار النافع، وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً وإذا كانوا فى شدة لا يجأرون إلا إليه، ويعرفون هذه النعم واحدة واحدة ثم ينكرونها فما هى هذه المعرفة؟ إن للمعرفة مراتب ثلاث، تبتدىء بتصور الأمور والوقائع، ومنها النعيم فيستصور أن الله رازقه وخالقه، فإذا تجاوز هذه المرتبة، انتقل من التصور إلى الاعتقاد بالصحة، فإذا اجتاز هذه المرحلة انتقل إلى المرحلة العليا وهى الإيمان، والإيمان مراتب، مرتبة التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، ثم مرتبة الإذعان، والخضوع لما اعتقد ثم ينتقل إلى أعلى المراتب، وهى مرتبة العمل.

وهذه هى المعرفة الكاملة، ولقد قرر سقراط فى الأخلاق أن المعرفة هى مقياس الفضيلة والرذيلة وهى المعرفة فى أعلى درجاتها التى يصحبها عمل، وكمال الإيمان تصديق وإذعان وعمل عند العلماء المدركين.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يبدو أنها مرتبة المعرفة الأولى، التصوير، ثم التصديق من غير إيمان وإذعان؛ ولذا ينكرونها، أى أنهم لا يذعنون للاعتقاد بها، وتبدو فى أعمالهم، وثم فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ لبعد ما بين مرتبة المعرفة والإنكار العملى، ولقد قرر سبحانه أن أكثر الكافرين هم من هذا الصنف الذى ينكر بعمله ما عرفه بتصوره وصدقه بواقعه؛ ولذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ

﴿الْكَافِرُونَ﴾ الضمير فى (هم) يعود إلى الذين ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ وهم بعض أهل الجحود وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه تعريف الطرفين، وهو يفيد القصر، أى أن أكثر هؤلاء لا يكونون إلا كافرين، فإن الكفر يكون بإنكار الحق، وعدم الإقرار به كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَضَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾ (١٤) [النمل].

بعد ذلك بين الله تعالى حالهم بعد البعث فقال:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤).

الجملة موصولة بما قبلها، على جزاء للكفر، ومعرفة النعم ثم إنكارها، ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب لفعل محذوف أى اذكر اليوم، وذكر اليوم هو ذكر ما يجرى فيه من أحداث وبعث وتشور، وحساب وعقاب وثواب، فإذا كانوا ينكرون النعمة، فليذكروا اليوم وما يجرى فيه، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ والشاهد هو الرسول الذى بعث لها داعيا إلى الحق معرفا به نذيرا وبشيرا وهاديا إلى الله بإذنه وذكر بعث الرسول، ولم يذكر بعث الأمة لأن بعث الشهيد الذى يشهد لها أو عليها هو بعث للأمة، فكان بعث الرسول عليه الدلالة صراحة، وبعث الأمة كان بدلالة الاقتضاء، أو كان ذكر بعث الرسول صراحة لبيان مقام الرسول عند الله، ولبيان أن الرسول الذى يدعوكم هو الذى يشهد لكم وعليكم وعنكم يوم الحساب فأجيبوا داعى الله إذ يدعوكم له لتنجوا من عذاب الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا الدالة على التعقيب والتراخى للدلالة على أنهم بعد شهادة النبيين طلبوا أن يعتذروا، فلم يقبل منهم، ولمقام هذا الكلام المطوى كان العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخى، فلا يؤذن لهم لأنه لا حاجة إلى مخاصمة كما هو شأنهم فى الدنيا، بل إن الله عليم بهم، وشهادة أنبيائهم فيهم صادقة غير مكذوبة كما كانوا يتوهمون فى الدنيا.

وكما أنهم لا يمكنون من القول والمخاصمة؛ لأن القيامة ليست مثل الدنيا مغالبة بالبيان، كذلك لا يستعتبون، أى لا يمكنون من الاستعتاب، وهو الاسترضاء، إذ الاستعتاب هو طلب العتب، وهى الرضا، فهم لا يمكنون منها، لأنه قد انتهى وقت التكليف والإرضاء ولم يبق إلا الجزاء.

وفى قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهار فى موضع الإضمار، وذلك لأن الموصول جاء فى موضع الضمير، وذلك للإشارة إلى أن السبب فى عدم الإذن لهم بالاعتذار، وأنهم لا يمكنون من الاستعتاب، هو كفرهم الذى عاندوا به النبين وقد قال تعالى فى أحوالهم يوم القيامة:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ جواب (إذا) محذوف يذهب فيه العقل كل مذهب، هالهم الأمر، وأحسوا بمقت الله تعالى عليه، وحاولوا طلب التخفيف، وقد أجابهم الله تعالى بقوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾، فالفاء عاطفة على محذوف مأخوذ من معنى الخوف والرغبة فى التخفيف أو التأجيل عسى أن يعملوا عملاً صالحاً ينجيهم من ذلك العذاب العتيد، الذى كانوا يترقبونه، فالفاء هنا عاطفة على جواب الشرط المحذوف وليس ما بعدها جواب الشرط؛ لأن الفاء لا تقع على لا النافية، إنما تكون بما النافية.

حالهم تدعوهم إلى طلب التخفيف إذ يرون عذاباً لم يكن فى حسابهم فتوجب طلب التخفيف أو التأجيل، فلا يخفف عنهم عذابهم، ولا يؤجلون، لأنهم انتقلوا من دار الابتلاء إلى دار الجزاء، فمعنى (لا ينظرون)، أى لا يؤجلون.

وعبر سبحانه بالذين ظلموا؛ لأنهم أشركوا، وإن الشرك لظلم عظيم، ولأنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وعنادهم، وظلموا عقولهم وإدراكهم، وإذا أشركوا مع الله حجارة لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر وظلموا المؤمنين بإيذائهم

وفسقهم فى دينهم وظلموا الرسول باستهزائهم به، وتسبب هذا التكاثر كان العذاب الهائل الذى لم يعرفوا له حدا ولا نهاية.

هذه حالهم، فما هى حال الأوثان التى يعبدونها لتقربهم إلى الله رلفى، أو لتكون شفعاء لهم، قال الله تعالى عنها فى ذلك اليوم الذى لا تنفع فيه شفاعة الشافعين.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦).

هذه حال الذين ظلموا الناس وظلموا أنفسهم وعقولهم بعبادة الأحجار مع الله تعالى، فما هى حالهم من هذه الأنداد التى اتخذوها آلهة من دون الله، أجاب الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ بالإضافة هنا للملاسة عبادتها شركاء الله، فهى إضافة لأدنى ملاسة، إذا رأى الذين أشركوا ما عبدوه من دونه ظنوا فى ذلك فرجا؛ إذ يتحول جزء من العذاب الذى نزل بهم إليها، وكانوا بذلك ضالين فى الآخرة، كما كانوا ضالين به فى الدنيا، قالوا للأنبياء الذين شاهدوا الله: هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوهم من دون الله. ندعو معناها نعبد، أو نلجأ بأن كنا نحسب ما يقينا عن الله، وكأنهم بهذا يحسبون أنها تكون شريكة فى العذاب، فتكون هذه الشركة مخففة ما هم فيها، وقولهم: ﴿مِنْ دُونِكَ﴾، أى غيرك، فردوا عليهم بأنهم ليسوا شركاء فى العذاب، وإنكم أنتم الذين ارتكبتم بهواكم، ولغلبة الأوهام عليكم، فتصورتم ما ليس بحقيقة، وعليكم وحدكم وزر ما صنعتهم وارتكبتم، وهذا قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ القول هو إنكم لكاذبون، والضمير فى ألقوا يعود إلى الشركاء، أى ألقوا ذلك القول إنكم لكاذبون، والشركاء فيها أحجار وأشخاص، وملائكة، وشياطين، وكل هؤلاء ألقوا تبعة ادعاء غير الله تعالى على المشركين؛ لأن أحدا من هؤلاء الشركاء لم يدع إلى عبادته، فالأحجار لا تنطق ولا تدعو، والأشخاص الذين عبدوهم كعيسى والملائكة يتبرأون منهم، والشیطان، وإن قد أغواهم فهم

الذين غووا، وعليهم تبعه غوايتهم، كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم] وما هو الكذب الذى أسند إليهم، وأكد ذلك التوكيد؟ الكذب فى أنهم ألقوا التبعة عن أنفسهم، وحملوها شركاءهم، والكذب فى تضمن قولهم أن المسئول أولئك الشركاء، وكذبهم فى زعمهم أن أولئك الشركاء أضلوهم، وإنما أضلتهم أوهامهم التى توهموها، وشهواتهم التى أركسوا فيها، حتى حسبوا أنه لا بعث ولا نشور، فهم أضلوا أنفسهم ووجد الشيطان سربا لنفوسهم من وراء هذا الضلال، و(الفاء) فى قوله ﴿فَأَلْقُوا﴾ للترتيب والتعقيب.

وقد أكد شركاؤهم كذبهم بالجملة الاسمية، وباللام، وبيان المؤكدة، وهكذا يتبرأ منهم حتى الشياطين التى استجابوا لها، وصاروا أمام العذاب وجها لوجه. وإذا كانوا أمام العذاب، ولا منجاة لهم فلم يبق إلا أن يستسلموا كارهين، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٨٧).

الضمير يعود على المشركين، أى أنهم بعد استسعفوا بالشركاء فلم يسعفواهم، واستصرخوا بهم فلم يصرخوهم، لم يبق إلا أن يستسلموا لله، وهذا معنى ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾، وتعدي بـ (إلى) لتضمن معنى هذا السلم الاستسلام إليه سبحانه بعد طول العناد ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾، أى غاب عنهم ما كانوا يفترونه من أن الشركاء تقربهم إلى الله، وأنها تكون سعفا عند الله تعالى، و(ما) اسم موصول بمعنى الذى، أو مصدرية، وعلى الأول: غاب عنهم القول الذى كانوا يفترونه، وعلى الثانى: غاب افتراؤهم، ومعنى غيبة الافتراء غيبة موضوع الافتراء، إذ إن موضوع الافتراء، وهو شفاعتهم قد صار لا حقيقة له، فكان جديراً بأن يغيب غيبة منقطعة.

الصد عن سبيل الله ومقام الرسالة المحمدية

قال تعالى:

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
 الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ
 أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى
 هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
 وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

إن المشركين كانوا لا يكتفون بشركهم في عصر النبي ﷺ، بل كانوا يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم، ويستقبلون وفود الحجيج، ليخبروهم عن النبي ﷺ وقد اقتسموا مداخل مكة ليمنعوا الناس عن تصديق النبي ﷺ، فهم لا يكتفون بشركهم، بل كانوا يصدون الناس عن الحق، وهو سبيل الله والطريق الصحيح الموصل لعبادته، فهؤلاء لهم عذابان: عذاب الشرك، وعذاب الصد عن سبيل الله، زاده الله تعالى عليهم؛ لأنهم زادوا على أنفسهم رجسا بعد رجس؛ ولذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨).

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بالرسالة المحمدية، والكفر يشمل الشرك بالله بعبادة الأوثان، وأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبعض من نسميهم أهل كتاب يدخلون في الشرك من باب، وهم الذين يعبدون المسيح، أو يقولون: إنه ابن الله، ويصفونه بالرب ويعبدون روح القدس، ويقولون الله ثالث ثلاثة، فكلمة الذين كفروا يدخل في عمومها أهل

الكتاب كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ [البينة] وقد ذكر الله تعالى ذلك الوصف للمشركين وأهل الكتاب؛ لأن الصد عن سبيل الله وقع من المشركين، ووقع من أهل الكتاب فى عصر تبليغ الرسالة، وهو الآن يقع على أشده من أهل الكتاب.

وقد كان صد المشركين بالأذى ينزل بالضعفاء، وبالسخرية تنزل بأهل الشرف والمروءة، وبالتضليل ما استطاعوا بالرسالة المحمدية، وشاركهم فى ذلك اليهود، وخصوصا بعد الهجرة إلى المدينة الطاهرة، وقد ذكرنا كيف كانوا يقتسمون مداخل المدينة، ليلضلوا الناس عن النبى ﷺ، ومنهم أبو لهب بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ وحفيد هاشم رأس البيت الهاشمى المجيد.

وقد قال تعالى: فى عقاب هؤلاء الصادين: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، أى أنهم يزداد عليهم عذاب بسبب ذلك التضليل والصد عن سبيل الله، وذلك فساد فى الأرض؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، أى بسبب فسادهم، وأى فساد أكبر من الصد عن سبيل الله، وهو سبيل الحق، وتبليغ الرسالة الإلهية.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وقت ذلك العذاب، فقال عز من قائل:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، (يوم) منصوب بفعل محذوف معناه، واذكر يوم نبعث فى كل أمة شهيدا ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، أى منهم، ومن أنفس قومه كما بعث النبى ﷺ فى العرب من أنفسهم، وكلمة ﴿نَبْعَثُ﴾ تدل على أنه يبعثه الله تعالى مع قومه شهيدا لهم أو عليهم يوم القيامة، ويذكر النبى ﷺ بأنه بعث فى كل أمة شهيدا عليهم يبلغهم فى حياته، ويشهد عليهم يوم القيامة ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ والجمع بين المضارع فى قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾

فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَالْمَاضِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ۖ ﴾ يدل على أن البعث في الدنيا بإرسال الرسل مبشرين، ومنذرين، والنبى ﷺ شهيد على كل الرسل؛ لأن رسالته هى الكاملة، وهى المتضمنة لكل الرسالات الإلهية كلها، فالإسلام دين الله، وهو دين النبيين أجمعين، وهو خاتم الرسالات كلها.

وتدل بهذا الجمع بين الماضى والمستقبل بأن الله تعالى يبعث مع كل أمة يوم القيامة شهيداً عليها بأنه أدى الرسالة وشهيدا لمن آمن واتقى، وشاهداً على من كفر وعصى.

وبالنسبة للبعث الدنيوى وشهادة الرسول على الرسل أجمعين ذكر القرآن الكريم الذى نزل مصدقاً لما بين يديه من الكتب وشاهداً للرسل أجمعين قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيَّانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۖ ﴾ . وصفه الله تعالى بأربعة أوصاف كاملة .

الوصف الأول - أنه تبيان كل شىء أى فيه بيان كامل لكل شىء من شئون الرسالات الإلهية للبشر، ففيه خير رسالات النبيين السابقين، وفيه بيان الأحكام المحكمة التى لم يعرُها نسخ من الشرائع الإلهية كلها، وفيه المعجزات التى جاءت بها الرسل معجزة معجزة، ولولا القرآن الكريم ما علمت على درجة اليقين معجزة لنبي أو رسول، لأنه الكتاب المحفوظ المتواتر حقاً وصدقاً.

والوصف الثانى - أنه هدى، فهو يشتمل على الهداية، كما قال قائل الجن : ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ... ﴾ (٢) [الجن] ويبين السبيل الأقوم والطريق المستقيم .

والوصف الثالث - أنه الرحمة؛ لأن شريعته رحمة للعالمين فهى بنظامها واقتصادها وحدودها، وكل عقوباتها رحمة للكافة من الأمة، وإن كانت فيها قسوة أحيانا على الآحاد، ففيها رحمة للعباد .

والوصف الرابع - ﴿وَبُشِّرِ الْمُسْلِمِينَ﴾ فيه التبشير للمؤمنين بالجنة، والإنذار للكافرين بالنار، وذكرت البشري دون النذر لأنها التى تتناسب مع الرحمة، والله ولى المؤمنين.

من الأخلاق القرآنية

قال الله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿١٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ
اللَّهُ بِهٖ ۖ وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٢﴾
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْضِكُمْ بِيُتَاهَا
وَتَذُوقُوا السُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

وصف القرآن الكريم في الآية السابقة بأنه تبيان كل شيء وهدى ورحمة، وهو بذلك يشير إلى أنه جامع للشرعية وفيها الهداية، وفيها الرحمة، وقد بين الله الهداية والرحمة وغيرها فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

العدل يتضمن الرحمة بأعلى معاني الرحمة، وإن كان العدل يوجب الشدة والغلظة على الجناة؛ لأنه إذا كان فيه غلظة على الجاني، ففيه رحمة بالمجموع، والرحمة بالمجرم تشجع الجريمة؛ ولذا قال ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ»^(١)؛ لأن العطف على الجاني إيذاء للكافة، ولقد قال النبي ﷺ في الرحمة المطلوبة: «هي الرحمة بالكافة»^(٢)، وإذا كانت شريعة الله تعالى رحمة للعالمين، فلأن قوامها العدل.

العدالة في الإسلام:

تجربى في الشرائع كلمات ثلاث المصلحة أو المنفعة، والواجب أو الفضيلة، والعدالة، ونجد أن كلمة العدالة أشملها، بل هي تشمل الأمرين الآخرين، فإن العدل يتضمن المصلحة العامة والمنفعة الشاملة، إذ يكون الجميع فى أمن ويمنع الظلم والبغى والعدوان، وهو بذلك يدفع أضرار هذه الموبقات، والعدل فيه حماية للأنفس، وقمع للردائل، فالردائل فى جملتها اعتداء، وكل دفع للاعتداء يكون عدلاً، وإن كل شيء فى الشريعة قام على العدل، حتى عقود المعاملات فإنها قامت على المساواة، فأساس التعاقد هو المساواة بين العوضين، فإذا دخل التعامل

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک (٧٣٨٦) ج٤ / ١٨٥ هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

غُبْنٌ أو تغرير أو مماكسة أثر ذلك في صحة العقد مما أدى إلى كلام طويل بين الفقهاء في ذلك .

والعدل الذى يأمر الله تعالى به ليس هو فقط الإنصاف بين الناس المأمور به فى قوله تعالى: ﴿... وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...﴾ (٥٨) [النساء]، بل إن العدل له شعب ثلاث:

١ - العدل فى حق الله تعالى بشكر نعمته، والقيام بما أمر من فرائض، والانتهاء عما نهى من منهيات، فذلك عدل مع الله؛ لأنه فى جملته من شكر النعمة، وهو عدل لأنه قيام بالواجب نحو ما أعطى سبحانه وتعالى .

٢ - وعدل فى ذات نفسه بأن يكون مستقيم النفس، لا انحراف ولا تجانف، ولا ميل عن الطريق السوى .

٣ - وعدل مع الناس بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك»، وبأن يتصف للناس من نفسه، ولا يلجئهم إلى الحاكم .

ثم أخيراً إنصاف الناس إذا حكم .

وتعجبني كلمة قالها ابن العربى، فقد قال: «العدل بين العبد وربه إثارة حقه تعالى على حق نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتنثال للأوامر، وأما العدل بينه وبين نفسه، فمنعها مما فيه هلاكها، قال الله تعالى: ﴿... وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات]، وعزوب الأطماع عن الاتباع، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى، وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف من نفسه لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، ولا فى سر ولا فى علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى» .

ولم يذكر العدالة في الحكم؛ لأن ذلك أمر لا يحتاج إلى تنبيه بعد نص القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ (٥٨) [النساء].

هذا هو العدل الذي أمر الله تعالى به قد ذكرناه، وإن كان بيانه أعلى مما تشمله عقولنا، وقد ابتدأ سبحانه وتعالى به؛ لأنه يتعلق بالكافة، وهو مطلوب في كل حال، وهو إعطاء كل ذي حق حقه، ثم أمر بعد ذلك بالإحسان وهو أكثر من العدل فيوضاً، وخيره يمتد ويزيد؛ ولذا عقب العدل بالإحسان.

الإحسان:

والإحسان مصدر أحسن، وأحسن تتعدى بنفسها، وتكون بمعنى الإتيان والإحكام، ومنه الإحسان في العبادة كيفاً بأن ينصرف الوجه لله تعالى، ويقرب منه، ومنه أداء النوافل لإتيان الفرائض، ومنه حديث جبريل في التعريف بالإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

وأحسن تتعدى بـ (إلى) بمعنى أعطاه حقه وزاد عليه فضلاً من عنده، حماية لنفسه من الظلم ووقاية له من التعدى، والإحسان بهذا المعنى يكون في المال فيكون بإعطاء الزيادة عما يستحق، ويكون في القول فيقابل القول السيئ بالقول الحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) [فصلت] ويكون بالصفح عمن ظلم، وبالعفو عمن أساء، ويكون بالربط بين الناس بالمودة والعفو فما زاد عبد بعفو إلا عزاء.

والإحسان يكون بين الخلطاء والعشراء، والتعامل الأحادي، ويكون الأمر بالإحسان بعد الأمر بالعدل انتقال من الأمر العام الذي هو صالح وواجب في كل الأحوال، وفي كل الأوقات إلى أمر آحادى تطيب له النفوس، وتتلاقى به بالمحبة والمودة، يكون التآلف والتراحم والتآخي في الجماعة.

(١) سبق تخريجه.

إيتاء ذى القربى:

وبعد ذلك نزلت الأوامر إلى الأسرة بربط أحادها، فقال تعالى: ﴿وَأَيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ والقربى مؤنث أقرب، والمعنى إيتاء الأقربين ومعونتهم، وألا يضمن عليهم بخير يقدمه لهم، وهو صلة الرحم التي أمر الإسلام بها، والإيتاء الإعطاء والأصل المال، ولكنه يشمل كل ما يكون خيراً يسديه إليهم مالا أو معروفاً.

والأسرة في الإسلام ليست مقصورة على الزوجين والفروع، بل هي الأسرة الممتدة الشاملة للأصول والفروع والحواشي من الإخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم، والأخوال والحالات وأولادهم، وقد أوجبت الشريعة الإسلامية وجوب نفقة القريب على قريبه إذا عجز عن الكسب، ولم يكن ذا مال، ووضعت مقياساً دقيقاً أساسه الغرم بالغنم فمن كان يرثه إذا مات، تجب عليه نفقته إذا عجز.

هذه هي التي أمر الله تعالى بها، وعليها يقوم بناء المجتمع الصالح، وبعد ذلك نهى سبحانه عما يخرب ذلك المجتمع وينخر في عظام المجتمع الحمى، فقال تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.

نهى عن أمور ثلاثة هي أدوات الهدم في البناء الاجتماعي:

الأمر الأول - ﴿الْفَحْشَاءِ﴾، وهي بمعنى الزيادة والإفراط فيها، وكل المعاصي فيها إفراط في الزيادة عن مقتضى الفطرة، ويقول البيضاوي في تفسير معنى ﴿الْفَحْشَاءِ﴾: هي الإفراط في متابعة القوى الشهوية كالزنى، فإنه أقبح أحوال الإنسان، ونقول إن الفحشاء تشمل كل متابعة للهوى الجامح الخارج عن حدود الاعتدال كسرب الخمر والقمار والزنى، ومجاوزة الحد في أى أمر من أمور الشهوة حسياً أو معنوياً.

الأمر الثانى - ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ هو ما تنكره العقول المستقيمة، ويخرج به المرء عن حد المعقول كقول الزور والبهتان، والإفراط في الاستهانة بحقوق غيره،

والاندفاع وراء غضب جامع يخرج عن حد المعقول، إلى حد ما ينكره المجتمع ويتجافاه، ويقطع المودة وينقض ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

الأمر الثالث - ﴿وَالْبَغْيُ﴾ هو الاعتداء على الناس، والتجبر والاستعلاء عليهم، وأن يمنهم حقوقهم ويأخذها بغير حق، وإن ذلك من آثار الوهم بأنه من صنف أعلى من صنفهم، فيغالى في الاستهانة بهم، ويغنى عليهم في حقوقهم، ويخسهم حقهم، كما نرى الآن من بغى بعض الناس على بعض باسم أنهم سود، أو باسم أنهم من الأمم النامية، أو باسم الطبقات، فكل ذلك من وهم الاستعلاء والعلو في إعطاء أنفسهم حقوقا ليست لهم، ولكنهم يفرضونها لأنفسهم، وسيبها بغيتهم وظنهم أنهم من صنف فوق الناس وأن الناس دونهم، ولقد قال البيضاوى فى البغى ما نصه: «والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التى بمقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد فى الإنسان شر إلا وهو مندمج فى هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث (أى الشهوة أو الغضب أو الوهمية).

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أى رجاء منكم بأن تذكروا هذه الأوامر فتطيعوها، وهذه المنهيات فتجتنبوها، وتكون لكم موعظة تنعظون بها، وتعتبرون فى اتصالكم بالناس والحياة بها.

لقد قال ابن مسعود: إن هذه أجمع آية لمعانى الإسلام، ويروى عن عثمان ابن مظعون أنه قال: أسلمت حياءً من النبى ﷺ فلما سمعت هذه الآية آمنت بالإسلام حقا وصدقا.

ويروى أن أكثم بن صيفى حكيم بنى تيم وخطيبهم، وكبيرهم فى سنه لما بلغه مخرج النبى ﷺ أراد أن يذهب وقد بلغه الكبر، فأبى عليه قومه، وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأت من يبلغه عنى، ويبلغنى عنه، فدعا رجلين، فأتيا النبى ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى، وهو يسألك: من

أنت، وما أنت؟، فقال الرسول ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩١)»، قالوا: ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب، وسطا فى مضر - أى من أشرف مضر - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعها أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمتها. . كونوا فى هذا الأمر رءوسا، ولا تكونوا أذنانا.

هذا ويجب التنبيه إلى أن أبلغ ما فى المأمورات العدالة، فهى أقواها أثرا فى بناء المجتمع، وأقبح المنهيات البغى، فكلها يمس ناحية فيه، ولقد قال النبى ﷺ فيه وفى قطيعة الرحم: «ما من ذنب أحق أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم»^(١).

العهد فى الإسلام:

دعا الله تعالى فى هذه الآية إلى العدل فى وسط الجماعة الإسلامية، ودعا إلى العدل بين المسلمين وغيرهم، وميزان العدالة الدولية الوفاء بالعهد؛ ولذا جاء الأمر بالوفاء بالعهد بعد الأمر بالعدل، فقال عز من قائل:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١).

أمر الله تعالى بأن يعدل المؤمنون مع غيرهم، ولو كانوا ييغضونهم، فقد قال تعالى: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ...﴾ (٨) [المائدة]، وإذا كان فى بعض الديانات جاء عمن ينسبونها إليه: استغفروا لأعدائكم. فشعار الإسلام: اعدلوا مع أعدائكم، وشعار العدالة أقوى

وأثبت وأليق، وكيف يستغفر للعدو إذا مات على ضلالة، ولكن العدل معه معقول في ذاته، وتحقيقه وهو الأكرم والأنسب.

ومن العدالة مع الأعداء الوفاء بالعهد؛ ولذا قال تعالى: ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٢٤) [الإسراء]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾. قيل إنها جاءت في بيعة المسلم عند دخوله في الإسلام يبايع الله ورسوله على الإسلام، وقيل: أن هذا في النذور، والحق إن الأمر في الآية عام في وجوب الوفاء بالعهد سواء أكان عهدا فرديا أم كان جماعيا أم كان دوليا، والوفاء بالعهد من العدالة، والعهد اتفاق بين طرفين يوجب على كل واحد منهما التزاما، وهو كأي عقد بين طرفين يوجب إلزاما والتزاما، فلا ينقضى إلا بتراضى الطرفين، وليس هذا داخلا في عموم قول النبي ﷺ: «من حلف على شيء، فرأى خيرا منه فليحنت وليكفر»^(١)، فإن ذلك في الأيمان التي هي التزام شخصي كأن يحلف ألا يفعل كذا، أو ألا يصلح بين خصمين، فإن ذلك واقع تحت النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ... (٢٤) [البقرة].

وقد سمى الله تعالى العهد الذي يعاهد عليه، ويكون فيه التزام من الجانبين؛ ولذا كان بصيغة المفاعلة، ﴿عَاهَدْتُمْ﴾، وسماه عهد الله لأنه موثق بيمين الله عادة، ولأنه بين دولة الإسلام وغيرها، فكان كأنه عهد الله الذي وثقه المسلمون في ظل الله تبارك وتعالى.

وهو يشمل كل عهد عاهدته الدولة الإسلامية بعهد الله تعالى، وهو عدل وقوة، أما أنه عدل فلأنه وفاء بما التزموا ومن العدل الوفاء لهم، وكما أنهم ملزمون بالوفاء فيجب علينا أن نلتزم به، وأما أنه قوة، فلأن من يطمئن إلى عدله

يكون آمناً من جانب من عاهدهم، وينصرف لتنمية ثروته، وتمكين قوته، والانفراد بأعدائه الذين لم يعاهدوه، وانظر إلى عهد الحديبية الذى عقده النبي ﷺ مع المشركين، فإنه انصرف فى المدة التى كان فيها عهد الدعوة إلى الإسلام، حتى كان من دخلوا فى الإسلام بعد العهد أضعاف من دخلوا من قبله بل أضعاف أضعاف وانفرد ﷺ لليهود، فغزاهم فى خيبر، وخرج للرومان فى خيبر.

والعهد ليس أبدياً بل ينقض إن كانت خيانة، أو مظنة خيانة كما قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ...﴾ (٥٨) ﴿[الأنفال].

وإن العهد لا يكون بين دولة الإسلام وغيرها من الدول فقط، بل يكون فى داخل الدولة الإسلامية كالإخاء الذى كان بين المهاجرين والأنصار والمهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم مع بعض.

وقد أكد سبحانه الأمر بالوفاء بالنهى عن النقض معللاً النهى، فقال تعالى كلماته: ﴿وَلَا تَنَقُّضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

أى لا تنقضوا العهود لأنها نقض للإيمان بعد توكيدها، والتوكيد هو التأكيد، وهما لغتان جائزتان وتوكيد الإيمان معناها أن تكون باسم الله، وبأن تكون أمام شهود وفى مجالس تقرأ وتؤيدها، والكفيل هنا هو الرقيب الضامن، فمن عاهد بيمين الله، فقد جعل الله تعالى كفيلاً له ضامناً لقوله فعليه أن يحترم، وكفيلاً- هنا تتضمنه معنى الرقابة؛ لأن الكفيل يراقب المكفول، حتى يؤدى ما التزم أدائه.

وقد بين سبحانه مضار النقض، وأشار إلى ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، أى عليم بما فعلتم وقد عقد العهد، ووثقتموه بيمين الله تعالى، وعليم بفعلكم إذا أردتم النقض، وقد أكد سبحانه وتعالى علمه الأزلى بالجملة الاسمية، وبإن، وبلغف الجلالة، وبتقديم الجار والمجرور على الوصف؛ لأنه يفيد مزيد العناية بأفعالكم وشدة رقابته عليها.

وقد أكد الله الأمر بالوفاء وإثبات أن الوفاء قوة فقال عز من قائل :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾ .

الأنكاث: جمع نكث كتنقض الفتل هو الشعر الذى كان مفتولا ثم نقض، وصار أجزاء متفرقة بعد الفتل وشد الفتل، والمعنى أن العهد قوة، وقد شبه القرآن الكريم الذى ينقض عهده بالمرأة التى تقتل غزلها فتلا شديدا، ثم بعد قتله تنقضه أجزاء وصوفا متناثرا، وهو مثل يضرب لكل من يعمل عملا يكون له ثمرة طيبة ثم ينقض ما تم من جهة ويبطل عمله، فتفقد ثمرة العمل الذى عمله بحققها وجهها، وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾، أى بهذا العمل وإبرام العقد وتوثيقه بالإيمان تتخذون الأيمان والحلف بالله ﴿دَخْلًا﴾، أى غشا وخديعة وتضلila بينكم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، ﴿أَرْبَىٰ﴾ أى تكون أكثر عددا، وأوسع أرضا، وأكثر مالا، وأقوى قوة فكلمة ﴿أَرْبَىٰ﴾ تشمل كل هذا.

والأمة التى هى أربى هى الناقضة للعهد بعد الأيمان الموثقة، أو هى المنقوض للعهد بالنسبة لها، وعلى المعنى الأول أن النقض للعهد أو الرغبة فيه سببها إرادة أن تكون أمة هى أربى من أمة، فتنقض العهد ليتسع حيزها، وليكثر عدد من هم فى ولايتها، فمعنى الآية على هذا التخريج لا تكونوا كالتى نقضت غزلها رغبة فى أن تكون أمة هى أربى من أمة، أو إرادة ذلك أى لتكون أربى عددا أو أكثر ولدا وأوسع أرضا، أو أقوى عدة من أمة.

وإذا كان المنقوض عهدها هى الأربى، فمؤدى ذلك أن يكونوا قد عقدوا معها لقوتها، وأنها أربى ويكون قد عقد دخلا وغشا لينقض فى أول فرصة.

وإنى أميل إلى التخريج الأول لأنه أوضح بيانا، وأظهر برهانا، ومؤدى القول أنه لا يصح نقض العهد لإرادة الاستعلاء، كما كان يفعل المشركون، وكما

كان يفعل الذين لا يرقبون في المؤمنين إلاّ ولا ذمة وإن هذا النص السامى يدل على ثلاثة أمور:

الأمر الأول - أن العهد قوة، وأن الوفاء به استمساك بما فيه قوة، وأنه يكون كالحمقاء تفعل ما هو سبب للقوة ثم تنقضه، وأن الأمم مهما تكن قوتها إذا استهانت بالعقود لا يثق الناس فى رجائها، فإذا كانت الشديدة تلفتت فلا تجد أحداً حولها؛ لأنه لا ثقة فيها، وقد رأينا ذلك رأى العين فى أمم شرقت وغربت، ثم تزايدت حتى زال سلطانها.

الأمر الثانى - أن العهد إن تم نقضه غشا وخديعة لا يقدم عليه أهل المروءة والأعزاء، وعبث بأيمان الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث - أن علو الأمم فى الوفاء بعهدا لا يصح أن تتخذ النقض أمة لتنمو وتربو فإنها إن ربت ونمت بالإخلاف بالوعد، فهو نحو يحمل فى نفسه ما يوجب انحلاله وذهاب قوته.

وإن الوفاء بالعهد بين الأمم احترام الإنسانية التى يعقدون معهم، فهم يعدونهم أناسى مثلهم يعرفون حقوقهم ويراعون الواجبات نحوهم، والذين ينقضون العهد تسول لهم قوتهم أنه ليس لأحد حقوق قبلهم، ولا يعاملونهم إلا كمن هم دونهم، وقد رأينا ذلك فى حكومة عاتية أزالها فساد عهودها، ونراها الآن فى وريثة لها تكبر من غير عهد ولا ذمة ولا ضمير ويحسبون الناس قد أباحتهم لهم قوتهم.

وإن الوفاء بالعهد، وهو من مكارم الأخلاق وملاحظة حقوق الإنسان لأخيه، ونقض العهد نقىض ذلك وكثرة الأمم وقتلتها وهو من ابتلاء الله تعالى للأمم وللناس؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى أن تكون أمة أربى من أمة أو إلى نقض العهد لذلك، أى يختبركم الله تعالى بأن تكون أمة كثيرة العدد واسعة

الأرض كثيرة المال وأخرى ضعيفة فإن صبرت القوة الراية واستمسكت بالوفاء زادها الله تعالى، وإن غلب عليها هواها، فاستهانت بالعهد لاستهانتها بمن عقدته معها، فإن مآلها الضعف والخذلان، والله عليم بما يفعلون، هذا عقاب الدنيا، أما عقاب الآخرة، فقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَيَسِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وبيان الله تعالى يوم القيامة يكون مقترنا بجزائه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقد أكد سبحانه وتعالى بيان ذلك الجزاء لهم أولاً بلام القسم، وثانياً بنون التوكيد الثقيلة وبالقسم، وما كانوا يختلفون فيه هو الشرك والإيمان ثم الوفاء والنقض ثم احترام الإنسانية والاستهانة بها، فكل ذلك جزاؤه يوم القيامة، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ولا الإيمان والكفر، ولا الوفاء بالعهد ونقضه.

وإن ذلك الاختلاف بين الحق والباطل هو إرادته سبحانه ليبلوكم أيكم أحسن عملاً؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٢)﴾.

والمعنى لو أراد ذلك سبحانه ولعلقت مشيئته بأن أمة واحدة آخذة بالحق مهديّة لجعلكم كذلك، ولكن خلقكم سبحانه، ولكم إرادات مختارة تسلك الحق أو الضلال، ويختبر أهل الباطل بأن يعطيهم قوة يهتدون بها، أو يضلون، ومعنى أمة واحدة أمة مهديّة أو أمة شقية، وتكونون حيثئذ على سواء في الهداية أو الشقاء، ولكن كانت لكم هذه الإرادات التي بها تضلون إن سرتهم في طريق الضلال، وتهتدون إن سرتهم في طريق الهداية.

ولكن إرادة الله تعالى اتجهت إلى ذلك الاختلاف لتكون الحياة ولتكون المعاقبة بين الخير والشر، ويتنازع أهل الشر مع أهل الخير وليكون الخير بعمل أصحابه، والشر بعمل أصحابه، ويكون الضلال وتكون الهداية؛ ولذا قال: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلال الله هو كتابة العبد في أهل الضلال وهداية الله كتابته في أهل الهدى، وذلك لأن العبد له إرادة يشعر بها،

وأنة ليس بمجبر فيها، وأنه يختار إما الضلالة ليشقى وإما الهداية فيسعد، وما يعملُه مكتوب في اللوح المحفوظ، فهو في هذا اللوح، إما شقى وإما سعيد، وقد غيب عنه المكتوب ليفعل ما يفعل حراً مختاراً، هذا أمر شعورى بدهى، لا يحتاج إلى فلسفة أهل الجبر ولا أهل الاختيار.

والاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ...﴾ إنما هو عن خلقهم أمة واحدة بل هو للتفرقة بين الضلال والهدى فيما يكتبه الله تعالى، ويقدره، ولقد قال سبحانه بعد ذلك ﴿وَلْتَسْأَلْنِ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أى أن أعمالكم باختياركم وبقوتكم الذاتية وتسالون عنها: أهى خير فتسألوا أم هى شر فتعذبوا، وكل أعمالكم مكتوبة عليكم وبكتابتها يضلكم أو يهديكم.

وبعد أن بين سبحانه أن كون أمة أربى من أمة هو بمشيئة الله وإرادته مع بقاء الاختيار للعباد أكد سبحانه وتعالى النهى عن نقض الوفاء بالعهد فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)﴾.

كان النهى عن اتخاذ الأيمان دخلاً أى غشاً وخديعة فى العهود؛ لأن الكلام كان فى العهود ونقضها، إذ ابتدأ القول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ أما النهى فى هذه الآية عن اتخاذ الأيمان دخلاً، فهو نهى عن الحلف الكاذب خديعة وغشاً ومكيدة بعهد كان يعتزم فعل أمر أو يظهر اعتزامه ويوثقه يمين، ولا يتجه إلى المعاهدة عليه، فإن ذلك منهى عنه، أو يؤكد كلامه عن أمر سابق باليمين وهو كاذب فى يمينه، فإن اليمين فى هذه الحال غش وخديعة ويكون ممن لا يطاع ولا يستمع إليه إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حَلَّافٍ مِثْلِهِ (١٠) هَمَّا زِ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)﴾ [القلم].

وعلى ذلك يكون النهى عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة يشمل العهود والبيعات ويشمل توثيق يمين منعقدة لا ينوى التنفيذ فيها، أو يمين غموس هو فيها كاذب، كشهادات الزور، ونحوها مما تتخذ اليمين للغش والخديعة، وضياع الحقوق والدعاء الباطل وتأكيده بهذه الأيمان.

ولقد قال تعالى فيما يترتب على اتخاذ الأيمان الباطلة غشا وخديعة وتثبيتا للكذب ﴿فَتَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، هذا تشبيه جيد وهو استعارة من قبيل تشبيه المعنوى بالحسى أى شبه الانحراف الدينى الذى يؤدى إليه الأيمان الباطلة بعد الإسلام والاستغلال بظله كزلة القدم بعد ثبوتها قوية، فمعنى الزلل الانتقال من الخير إلى الضرر.

﴿وَتَذَوُّقُوا السُّوءَ﴾، والسوء هو الأمر السيئ وشبه بالشئ الذى يذاق كأنه بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ذاق السوء وهو الكفر، ذلك لأن الأيمان الكاذبة تفسد اليقين، وتضعف الإيمان بالحق، وفوق ذلك إذا شاعت ضاعت الثقة بين الناس، وصار الناس لا يؤمنون بشئ، وإن ذلك يؤدى إلى الضلال، والضللال يؤدى إلى الصد عن الحق، والحق هو سبيل الله المستقيم، وصراطه الهادى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتَذَوُّقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإنه لا يضيع الحق ولا يسير الناس فى ضلال من أمورهم إلا الكذب، فإذا وثق بأيمان فاجرة كان الصد عنه بل ضياعه.

ولذا قال تعالى فى عقابه: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أى كبير شديد ونكر لإفادة أنه عظيم أبلغ العظم لا يعرف مقداره، ونكرت ﴿قَدَمٌ﴾ وأفردت لأنه تتعدد الأقدام الزالة بتعدد الأيمان، وأكد سبحانه النهى عن نقض العهد مهما يكن الثمن، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)﴾.

عهد الله تعالى هو عهده سبحانه الذى أمر بالوفاء به فى قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ فكل عهد تعاهد المؤمن أو دولة الإيمان عليه هو عهد الله تعالى لا يصح أن ينقض؛ لأنه يؤدى إلى الخذلان وإلى الصد عن سبيل الله سبحانه، وتشترى هنا معناها تبيعوا؛ لأن الباء داخله على المتروك، وقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قد وصف سبحانه ما يترك لأجله العهد بأنه ثمن قليل مهما يكن مقداره؛ لأن ما يضيع بسبب ترك العهد من فقد الثقة والشك فى العهود والمواثيق أمر كبير لا يقدر بقدر؛ لأنه يكون الوهن والحزى والضياع وقد ضربنا الأمثال على

ذلك كثيرا، وفوق ذلك عذاب الله تعالى يوم القيامة جزاؤه على الوفاء فى الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى أن الذى ادخره الله فى الدنيا والآخرة خير لكم، ففى الدنيا تكون عزة الحق، وقوة الوفاء وهو فى ذاته قوة، وخصوصا إذا كان العقد مع الضعفاء، وفى الآخرة نعيم مقيم.

الله أبقى وخيره أبقى

قال الله تعالى:

وَمَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَدُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

فى الآية السابقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وفى هذه الآيات الكريمات يبين وجه الخيرية لما عند الله تعالى، ولذا قال

تعالى:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)، (ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى الذى عندكم أعراض فانية فإن كانت مالا فإنها تنفذُ ينهيها الزمان مهما يكن الحرص، وإن بقيت فإنما تبقى بقدر حياة الذى يقتنيها، وإن حياته لقصيرة فى أزمان الناس، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، أى والذى عند الله باق يبقى ببقاء الجنة، وإن نعيمها الخالد والذين ينالونها خالدون فيها أبدا، والفرق بين ما عند الناس حلالا وحراما وما عند الله هو الدوام فنعيم الآخرة مقيم، ونعيم الدنيا فأقصى مدته هى مدة الدنيا.

وقد بين سبحانه وتعالى الذين يستحقون ما عند الله وهو الباقي فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، و﴿صَبَرُوا﴾ صلة الموصول، وهى تشير إلى أن الصبر سبب هذا النعيم الباقي الذى لا ينفد، فالصبر وهو ضبط النفس فى ظل الأوامر والنواهي، فضبط النفس عند الأمر بالوفاء بالعهد يوجب ألا يندفع الناس وراء بارقة تحمل على النقص، ويوجب ألا يستطار وراء مطمع فلا يفى، والصبر هو الذى يضبط النفس فيحملها على الطاعة، ويحملها على اجتناب المعاصي، والجهاد بالصبر على كف أهواء النفس ونزعاتها جهاد سماء النبى ﷺ الجهاد الأكبر.

وقال تعالى: ﴿أَجْرَهُمْ﴾ جزاء بأحسن الأعمال التى عملوها فقال: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أى بأحسن الأعمال التى عملوا، يعنى يتخير الله تعالى لهم من أعمالهم أحسنها، ويغفر لهم اللوم والهتات، والجزاء على أحسن الأعمال يتناول الجزاء الأوفى على كل عمل يعملونه، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين، وإن الصابرين لهم أجران: أجر الصبر وهو جهاد، وأجر العمل وهو إحسان، وهنا أمران بيانان:

الأمر الأول - فى المقابلة بين ما عند الناس، وما عند الله، فقد وصف ما عند الناس بأنه ينفد، وما عند الله بأنه باق، أى له صفة البقاء والدوام والاستمرار وفرق بين ما يوجد لىتهى وما يوجد لىبقى.

الأمر الثانى - أن الله تعالى أكد جزاء الصابرين بالقسم ولامه، ونون التوكيد الثقيلة فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وإن الجزاء يتخير فيه أحسن الأعمال ويعفو عن كثير

وقد بين سبحانه وتعالى جزاء العالمين الصابرين فقال عز من قائل:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ .

﴿مَنْ﴾ هنا شرطية أو موصولة، و(الفاء) تدخل فى خبر الموصول لما بينه وبين الشرط من صلة إذ هو فى معناه، و﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى﴾ بيانية ليعمها الجزاء بعد أن عمها الفعل، وذكر ﴿صَالِحًا﴾ والموصوف والعمل غير مذكور سواء أكان مقدرًا أم كان غير مقدر، وذلك لنتجه النظر إلى نية الصلاح والمصلحة فى العمل، فإن الاعتبار للنية ككل خير فى قانون الأخلاق العبرة فيه إلى النية، كما قال ﷺ:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١).

وذكر هنا الذكر والأنثى مع أن الكل تشملهم التكليفات، والخطاب يشمل الذكر والأنثى، فيدخل الذكر ابتداءً، ويدخل الأنثى بقانون الماثلة من حيث التساوى بينهما، ذكر الأنثى فى هذا؛ لأن الجزاء بالحياة الطيبة والاطمئنان وهذه تهم الأنثى بالذات فكان ذكر الأنثى فيه فضل حث وتحضيض للأنثى على عمل الصالح لتطيب حياتها بسعادة واطمئنان فى ظل زوج صالح.

وقال تعالى فى جزاء الصلاح بنيتة المعتزمة للخير، والحال أنه مؤمن ثابت الإيمان قوى اليقين استمر فى إيمانه حتى لقي ربه راضياً مرضياً: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، أى يحييه الله تعالى حياة طيبة فى الدنيا، و(الفاء) فى جواب الشرط أو ما هو فى معنى الشرط، وهو الموصول وقد أكد سبحانه أنه يحييه حياة طيبة بالقسم

وباللام الموطئة للقسم، وينون التوكيد الثقيلة، وما الحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين الذين يعملون العمل الطيب بقلوب قاصدة الخير والصلاح، والصلاح غايتها ومبتغاها؟ الحياة الطيبة هي أن يكون رزقها حلالا، وأن يجملها الله تعالى بالرضا بكل ما يأتي به، والقناعة في حال العسر، والرزق الحلال، أو طلب الحلال في اليسر، والصبر في الضراء والشكر في السراء، وبرد اليقين وذكر الله تعالى دائما، في حال البأساء والضراء وحال السبأس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد]، وفي الجملة الحياة الطيبة هي الحياة الراضية القانعة الشاكرة الصابرة ولا يكون ذلك إلا لمؤمن، وإن هذه الحياة الطيبة جزاء عاجل للإيمان والصلاح من الذكور والإناث فلا سعادة خير من سعادة الرضا بالعمل الصالح، واطمئنان القلب بذكر الله والتوكل عليه في الشديدة والكريهة بعد أخذ الأسباب والاتجاه إلى الله، أما الجزاء الآجل المؤكد الذي لا مرية فيه، فهو في الآخرة، وقد قال تعالى فيه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ولم يذكر في الحياة الطيبة أنها أجر، بل ذكرها على أنها ملازمة للعمل الصالح الصادر من قلب سليم، فهي ثمرة للصلاح كثمرة الشجرة، وكم إنتاج الزرع وحيثما وجد العمل الصالح كانت الحياة الطيبة ولو كانت جهادا مستمرا، ومع ذلك له أجر هو ثواب الآخرة يجزيهم الله تعالى بأحسن ما يعملون، وقد ذكر أنه سبحانه يجازي ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فجعل سبحانه وتعالى عملهم الصالح أو أحسنه هو الجزاء؛ لأنه يماثله أو يساويه كأنه هو، وهو سبحانه وتعالى مانح النعم ومجريها، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد صالح الأعمال والأقوال وهو أعلاها، قراءة القرآن وذكره فقال تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨).

ذكر الله تعالى بعد الصالح من الأعمال والأقوال، والإصلاح بين الناس قراءة القرآن، فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨).

ذلك لأن قراءة القرآن ذكر لله، واستماع لحديث الله وترداد له فهو إصلاح للقلوب وللنفوس، ولم يطلب من النبي ﷺ والمسلمين قراءته بل إن الإيمان يقتضى قراءته؛ لأنه أحسن الحديث، بل كان الأمر بقراءته ضمناً فى ضمن الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، وكان أمراً بالقراءة والاستعاذة معاً، وفيه فائدة أن القراءة لا تجدى جدواها إلا إذا كانت معها الاستعاذة الحقيقية من الشيطان بإبعاد وساوسه فى تمنيات الإنسان إذ إن الأمانى ذريعة الشيطان، يدخل قلب المؤمن من جانبها كما أتى قلبى آدم وحواء بالأمانى، ثم سول لهما الأكل من الشجرة، (الفاء) فى قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ هى فاء الإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا اتجهت بالعمل الصالح والقول الصالح إلى القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ...﴾.

﴿قَرَأْتَ﴾ هنا تطوى فى ذاتها نية القراءة أى إرادتها، فمعنى فإذا قرأت أى أردت القراءة، كما فى قوله تعالى: ﴿... إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾ [المائدة، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا...﴾ [١٥٧] [الأنعام]، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ [النساء]، وقوله فى شأن حجاب نساء النبي ﷺ عن السائلين متاعاً ﴿... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ...﴾ [الأحزاب]، ففى كل هذه الآيات ذكر الفعل وطويت النية والإرادة لأنها ملازمة له ومقترن بها لا بتحقيق من غيرها، بل الإرادة والنية هما الحقيقتان والقول مظهرها ولا ينفصل الباعث عن المظهر إذا كانا متصلين فى الوجود؛ ولذا كانت الاستعاذة مقدمة على القراءة بإجماع العلماء، ومنهم من جوز الاستعاذة بعد القراءة، والاستعاذة معناها الالتجاء إلى الله تعالى، والابتعاد عن وسوسة الشيطان وقت القراءة، ووسوسته تنجى من بث الأمانى فى النفس، وقد قلنا إنها ذريعة الشيطان وطريق دخول الهوى إلى النفس و﴿الرجيم﴾ معناه المطرود الملقى عليه الحجارة، تثبيتها للإبعاد والطرده، والخطاب للنبي ﷺ ابتداءً، ولأمرته تبعاً، وهم من يقتدى ويتبع، فالأمر بالاستعاذة أمر للأمة كلها، وهى بها أجدر وأحق.

وقد أكد سبحانه معنى الاستعاذة ببيان أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا فقال عز من قائل:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾.

يحصن المؤمنين من الشيطان أمور ثلاثة:

الحصن الأول - الاستعاذة منه بالقلب واللسان كما أمر الله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، كما قال النبي ﷺ وقال: «علمنيها جبريل»^(١) فإن الاستعاذة تحصين للقلب من وساوس الشيطان ودخول هذا الحصن قراءة القرآن الكريم.

والحصن الثاني - الإيمان فإن الإيمان حصن الحق من الغرور والأوهام والأهواء، وكلها ذرائع الشيطان؛ ولذا قال في وعيده بالإغواء: ﴿... وَالْأَغْوِيَّتُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر].

والحصن الثالث - التوكل على الله حق توكله، وأخذ الأسباب وتفويض الأمر إليه تعالى، وهو العلي القدير.

وهذا هو مؤدى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والضمير في (إنه) يعود إلى الشيطان المذكور في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والسلطان الحجة والبرهان والاستيلاء على النفس المؤمنة، ولا يمكن أن يكون له ذلك عليها؛ لأنها تعرف أنه عدوها ومردبها ومفسدها، وماضيه في ذلك عندها معروف علمها إياه الحكيم العليم، وهى تتوكل على الله وحده، فلا يمكن أن يستولى عليها، فالنفس المؤمنة ليست فارغة حتى يتولاها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيه تقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد القصر، أى لا يتوكل المؤمنون إلا على الله فليس فى قلوبهم فراغ للشيطان يحتله، والتعبير بـ﴿رَبِّهِمْ﴾ يركى توكلهم؛ لأنه الذى ذراهم ورباهم

وكونهم، وإنما الشيطان يحتل بولايته من لا ولاية له مع الله، وفي نفوسهم فراغ من سلطان الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠)، قصر سبحانه سلطانه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، أى على الذين جعلوا ولايتهم له فاختاروا الهوى على الحق والأوهام على الفعل، وكان سلطانه بمعنى حجته عليهم؛ لأنه أغواهم أولا بالأوهام الضالة والأهواء الجامحة المغيرة فكانت حجته الباطلة رائجة عندهم، وإنما أداة قصر، أى لا سلطان ولا ولاية على غيرهم إذا ضلوا سواء السبيل، فأضلهم وفرغت نفوسهم عن الإيمان فملاها بالأوهام.

وقد قال تعالى فى وصفهم إذ صار سلطانه عليهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ وفى هذا تأكيد لتوليهم له، فهم مشركون بسببه أن اعتقدوا فى الأحجار الوهمية وهى لا تضر ولا تنفع بسببه، وأشركوهم مع الله بسبب تحكمه بأوهامه فيهم.

معجزة القرآن وقولهم فيها

قال الله تعالى:

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ
الَّذِي يُلْحِذُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ

مُتِّعٌ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
 اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٤﴾

كان المشركون لا يعدون القرآن معجزة تساوى معجزات النبيين السابقين
 كعصا موسى وإبراء عيسى للأكمه والأبرص، وإخبار الناس بما فى بيوتهم وما
 يدخرون فيها وإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله وإنزال المائدة من
 السماء ليأكلوا منها، كانوا يطالبون النبى ﷺ بمعجزات مادية حسية، ولا يقنعون
 بأن تكون المعجزة قرآنا يقرأ فبين الله تعالى أنه الذى يأتى بالمعجزات الدالة على أنه
 أرسل الرسل فهى إمارات الرسالة يعلم بها من الرسول بأنه من عنده.

فقال تعالى ردا على طلبهم آية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
 لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا...﴾ (١٣٩) ﴿[الأنعام].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، أى إذا
 جئنا بالقرآن آية على صدق الرسول مكان آية أخرى حسية رفضناها وجئنا بهذه
 الآية المعنوية مكانها، والله صاحب الآيات والرسالات أعلم بالصالح منها،
 و(أعلم) أفعل تفضيل على غير بابه لأنه لا مفاضلة بين علم الله تعالى، وعلم
 غيره.

وعلم الله تعالى بما ينزل البالغ أقصى كمال العلم اقتضى أن تكون معجزته
 قرآنا يقرأ، وبقى يتحدى الأجيال جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة، وهو القادر على
 كل شيء، ؛ لأن المعجزات الحسية، إعجاز وقتى ينقضى بعد وقته، ولا يعجز إلا
 من رآه أو تواتر خبره من بعده، وإن القرآن المعجزة الكبرى الخالدة الباقية إلى يوم
 القيامة هى التى سجلت معجزات النبيين من قبله.

يقولون غير مصدقين معجزة النبى ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، أى إنما أنت
 كذاب قد افتريت الرسالة وادعيتها من غير حجة ولا برهان، وقد رد الله تعالى

قولهم بقوله سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ للرد عليهم، والإضراب عن قولهم الناشئ عنه، وقال سبحانه: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، للدلالة على الذين صدقوا وآمنوا بالمعجزة هم الأقل عدداً، وإن كانوا الأكثرين إدراكاً وعلماً.

ذكرنا في كلامنا أن معنى الآية المعجزة الدالة على رسالة الرسول، وأن الله تعالى يرفع معجزات كانت قد جاءت مؤيدة لرسالات الأنبياء السابقين قد بدلها الله تعالى، وأتى بمعجزة صالحة للبقاء تتناسب مع رسالة خاتم النبيين الذي تكون رسالته حجة على العالمين إلى يوم القيامة فتكون قائمة ثابتة تنادى بحجة ما يدعو إليه يوم القيامة.

ولكن أكثر المفسرين يفسرون الآية بالآية المتلوة حتى الزمخشري، ويقولون إن معنى الآية، وإذا بدّل الله آية فنسخها ورفعها وجاء بآية أخرى لمصلحة في الأولى في حكمها في زمانها، والإتيان بآية أخرى لمصلحة حكمها في هذا الزمان الذي جاءت، وإن ذلك جرى على أقلام أولئك المفسرين لرواج فكرة النسخ تلاوة وحكما، وحكما لا تلاوة، وتلاوة لا حكما كما ادعى في الرجم، وإن ذلك أداهم إلى التساهل في دعوى الرجم، ولو كان الجمع بين الآيتين ممكناً لا تخالف بينهما.

وإن الذي ذكرناه أولاً هو المقبول عندنا، فلا نسخ في هذا الموضع على الأقل في آية من القرآن للوجوه الآتية.

الوجه الأول - أن الكلام في موضوع القرآن ذاته وكونه مفترى أو قام الدليل على صدقه لظاهر قوله عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ فحصره في الافتراء فنفوا الرسالة كلها، ويناسب ذلك أن يكون التبديل في المعجزات السابقة، ووضع القرآن في موضعها.

الوجه الثاني - أنه تعالى قال بعد ذلك رداً على الافتراء وعلى الاعتراض بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ فتبين أن موضوعها القرآن كله، لا نسخ آية، واستبدال آية أخرى بها.

الوجه الثالث - قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٣).

الوجه الرابع - أن هذه السورة مكية، والآيات المكية تتجه نحو التوحيد وإثبات الخالق، وأحكامها قليلة، والتجربة فيها قليلة.

لهذا كله سمحنا لأنفسنا بأن نخالف كثرة المفسرين، وإن كان لهم أجر فيما اجتهدوا، وهو أجر واحد.

وقد رد الله تعالى افتراءهم بأمر النبي ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٤).

الخطاب للنبي ﷺ بالأمر من ربه والضمير في ﴿نَزَّلَهُ﴾ للقرآن المذكور آنفاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨)، و﴿نَزَّلَهُ﴾ مصدره التنزيل، وهو الإنزال المتدرج على حسب المناسبات، وليمكن الذين يكتبون من كتابته، وهم أميون، لا يستطيعون الكتابة الطويلة، وليحفظوه فيسجل في الصدور بدل السطور فيصعب بل لا يمكن تحريفه، وقد تواتر جيلاً بعد جيل، و﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو الروح الطاهر، وهو جبريل عليه السلام، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم حاتم الجود، وعلى البيان، ونحو ذلك، وهذا مبالغة من الله في وصفه بالطهر والصدق، وأنه رسول من الله صادق أمين وهو الذي نزل بالقرآن على قلب النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٦٦) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٦٤) [الشعراء]، وقد ذكر سبحانه أن غاية نزوله أن يزيد الذين آمنوا تثبيتاً على الحق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التثبيت زيادة ما يكون ثابتاً قوة وثباتاً، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين يدركون الحق بمداركهم الفطرية، ويتجهون إليه اتجاه مستقيماً، فيدركونه بمواهبهم، والشرائع السماوية تثبت الحق في قلوبهم، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى﴾، أى أنه ذاته هدى، وهذا

تأكيد لمعنى أنه يهذى، فهو يهذى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وكأنه الهداية ذاتها ﴿وَبَشِّرِ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، أى هو بشرى للذين يسلمون وجوهمهم لله تعالى، ويخلصون للحق من غير مراء ولا جدال.

وهنا إشارات بيانية نشير إليها، فإنها تبين معانى التنزيل:

الإشارة الأولى - قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، أى من الخالق البارئ الذى ربك ورباك، وربى الوجود كله، وهو الحى القيوم.

الإشارة الثانية - فى قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أى متلبسا بالحق، فهو الحق، وما جاء به هو الحق من عند الله، وكان فى ذاته لا يمكن أن تتماذى فيه العقول المستقيمة، فهو فى ذاته حق، كما هو فى ذاته هداية.

الإشارة الثالثة - الإشارة إلى أنه نازل من عند الله تعالى، ونزل به أمين ظهور صادق.

ولقد راعهم ما اشتمل عليه من قصص صادق للنبيين، وعظات مرشدة هادية، وتوجيه إلى الكون، وما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق ونهيه عن ملائم الضلال، وأمره بالوفاء بالعهد، وغير ذلك.

راعيهم ذلك، وبدل أن يذعنوا للحق إذ جاءهم ماروا فيه، فإن المبطل الممارى لا تزيده الحجة إلا عتتا وإمعانا فى الضلال؛ لذلك كذبوا وافتروا، وادعوا أمراً غير معقول، فزادوا بعدا عن الحق، وزادوا ضلالاً؛ ولذا قال عنهم، إذ رأوا القرآن واسترعاهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، ولكن لم يقولوا إنه من عند الله، بل بالغوا فى الكذب، وأوغلوا فى الكفر، ولقد أكد الله تعالى قولهم هذا لأن غرابته تسوغ تكذيبه بادئ ذى بدء، ولذا أكد علمه سبحانه بـ (اللام) وبـ (قد)، وتأكيذاً للمعلوم، والتأكيد حيث مظنة عدم التصديق.

﴿بَشَرٌ﴾، أى لم يَجِئْ من عند الله، فلم يعلمه الله تعالى إياه، ولكن الذى علمه بشر، وعينوا ذلك البشر إنه رجل رومى كان غلاما لبعض العرب، وقيل رجلا كان يصنعان السيوف بمكة، ويقراء الإنجيل والتوراة، وقيل غيرهما من أسماء سماها بعض المفسرين.

وقد رد الله تعالى قولهم بقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، و﴿يُلْحِدُونَ﴾، أى يشيرون إليه مائلين بكلام مضطرب نحوه، والمعنى لسان هذا الرجل أعجمى فكيف يأخذ منه النبي ﷺ علما؟! وإذا كان يأخذ منه علما فكيف يمكن أن يكون هذا الكلام المبين، أى البين فى ذاته، والذى أعجزكم ببيانه حتى إنكم تقولونه فيه، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق.

إن دليلكم يلتوى عليكم بمقدار نتائجه، فلا يجديكم شيئا أى شيء.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك لجاجتهم فى الباطل وسببه، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

آيات الله تعالى ثلاثة أقسام:

القسم الأول - الآيات الكونية وهى الآيات الدالة على أنه وحده الخالق لكل شيء، وفى كل آية دلالة على الوجدانية فالسما والبروجها، والقمر ونوره، والشمس وضياؤها، والليل والنهار، والنعم وما فيه خلق وتكوين، كل هذه آيات الله الكبرى الدالة على أنه فعال لما يريد مختار.

والقسم الثانى - المعجزات التى تقترب بدعوى النبوة ويتحدى بها النبى من يكذبونه أن يأتوا بمثلها كعصا موسى، وبياض يده من غير سوء فى تسع آيات أجراها الله تعالى على يديه لقوم فرعون، فلم يؤمنوا إيماناً مستقراً، وإن كانوا فى

ضعفهم يقولون ادع لنا ربك، فيدعو الله تعالى فيرفع عنهم المقت، ويذهب عنهم السوء، ولكن ما إن يرفعه عنهم ويؤمنهم حتى يعودوا إلى كفرهم المقيت.

والقسم الثالث - الآيات القرآنية، والإيمان بها فرع الإيمان بمحمد ﷺ، لأن الإيمان بها الإيمان بالقرآن، والإيمان بالآيات الذي نفاه القرآن عنهم، وترتب على نفيه نفي الإيمان والهداية هو الإيمان بالآيات الكونية، والإيمان بالمعجزة الكبرى معجزة النبي ﷺ، وهي المعجزة التي تحدهم أن يأتوا بمثلها لعجزوا.

وإنما كان عدم الإيمان بآيات الله مؤديا إلى ألا يهديهم؛ لأن الهداية إنما تكون لمن يفكرون في آيات الله ونعمه، ومن لا يفكر لا يهتدى فلا يهديه، ولأن المعجزة الكبرى ضل من لا يؤمن بها، وهي واضحة بينة، وهي وحدها تدل على أن من يبلغها يبلغ عن الله فلا يهديه الله إلى الحق؛ لأنه ضل سواء السبيل، ولم يبق إلا أن يسير في طريق الضلال إلى نهايته، ويكون له العذاب الأليم يوم القيامة، والأليم: المؤلم.

ولقد قالوا للرسول محمد ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، وهو المعروف بينهم قبل البعثة بالصدق والأمانة، حتى إن اسم الأمين إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، وكان لا ينادى إلا به، حتى بعث رسولا، ولما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، قال: لا. قال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله»^(١).

فلما قال المشركون عن النبي ﷺ إنه مفتر رد الله قولهم بقوله تعالت كلماته:

﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾.

حيثما كان إنكار الحقائق الثابتة كانت مظنة الكذب، فمن لا يؤمن بالآيات الثابتة لا يؤمن بالله ولا يكون صادقا أبدا؛ لأن الكذب مباحته الواقع الثابت، ولا

(١) جزء من حديث هرقل الطويل، وقد أخرجه البخاري: بدء الوحي - بدء الوحي (٦)، والبخاري: الجهاد والسير - كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢).

يسكن الكذب إلا حيث يكون إنكار بدهيات الأمور؛ ولذلك كان الكذوب بهاتا يبهت الناس بغير الواقع، ويكابرون وتشتد مكابرتهم للواقع الثابت بالفطرة.

ولهذا يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، و(إنما) أداة من أدوات القصر، فهي تتضمن نفياً وإثباتاً، أى لا يفتري الكذب إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى فى الكون ومعجزات النبيين الذين يشكون بها إرسال الله تعالى لهم، وهى واضحة لا تحتمل إرباباً المبرر ببصره، والمدرء بقلبه، فحيث كان الإنكار لما هو ثابت بالبرهان يكون الكذب؛ لأن الكذب إخفاء للحقائق، وإنكار الآيات إنكار للحقائق فهما ينسابان من نفع واحد، ويسيران فى خط واحد.

وقد أكد كذب المشركين الذين لا يؤمنون بآيات الله بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ بالإشارة إلى ما هم عليه من إنكار للبهديات التى تومئ إليها الفطرة، والجملة تفيد القصر بأنه مقصور عليهم، ولا يمكن أن يكون الكذب فى المؤمنين، فهذا نفى للافتراء عن النبى ﷺ وتأكيء الكذب عليهم، وإفادتها قصر الكذب عليهم بتعريف الطرفين وبضمير الفصل، وكذبهم أكده سبحانه بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، وبوصفهم الكذب، ولقد قال ﷺ: «ياكم والكذب، فإن الكذب يهءى إلى الفجور، والفجور يهءى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١).

الإكراه لا يمنع الإيمان، والردة كفر بعد إيمان

قال الله تعالى:

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا

(١) سبق تخريجه

فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
 وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ وَأُولَٰئِكَ
 الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَمْ يَأْمُرْهُمْ
 وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي
 الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ
 بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾، (من) هنا شرطية أو
 اسم موصول بمعنى الذي، دخلت الفاء في الحكم، والاستثناء هنا استثناء منقطع؛
 لأن من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان لم يكفر، فلا يمنع في عموم المستثنى منه.
 وجواب الشرط أو الحكم على الموصول هو قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهنا نجد الاستثناء المنقطع المانع من يعد المكره كافراً، ما دام قلبه مطمئناً
 بالإيمان، وقد عطف عليه ما يدل على الكفر الحقيقي وهو ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ
 صَدْرًا﴾، أي فتح قلبه للكفر، ﴿صَدْرًا﴾، تمييز محول عن الفاعل، وكأن
 الكلام، ولكن من شرح صدره بالكفر، وكان في الموضوع حقيقتان لشخصين
 مختلفين؛ أولهما اطمأن قلبه بالإيمان بأن استقر فيه وارتضاء واطمأنت نفسه،
 فقلبه ممتلئ بالإيمان، والآخر لم يعمر قلبه وضاق عنه، وشرح صدره وفتح
 للكفر، فالأول يعد مؤمناً، لم يغادر الإيمان قلبه، بل هو قار فيه، وثابت لا
 يتزلزل.

وإن المعركة بين الكفر والإيمان كانت قائمة بمجرد البعث المحمدي، فكان الإيمان بدلائله يغزو القلوب ويعمرها، وكان الشرك بإيذائه وفتنه، وتحويل الناس عن إيمانهم بالله ورسله والملائكة، والجنة والنار، فحذر الله تعالى المؤمنين من أن يرتدوا بعد إيمان، وذلك ببيان عاقبة ردتهم وكفرهم بعد الإيمان.

ومن الناس من لم تكن لهم همة أهل الإيمان، ولا ثباتهم، ولا مروءتهم وقوة يقينهم فذلوا بعد أن استقاموا، وهانوا بعد أن اعتزوا بالله، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم الحكم الصارم، وهو قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن الناس من استقاموا على الطريقة، وثبتوا وصبروا ولو أداهم ذلك إلى أن يموتوا في سبيل الله تعالى بعذاب أليم - كما قتل آل ياسر - الذين استمروا على الآلام حتى ماتوا من شدة العذاب، ومنهم من نطق بكلمة الكفر تحت شدة العذاب، وهؤلاء هم الذين أخرجوا من زمرة الكافرين لأنهم؛ أكرهوا، وقلبهم مطمئن بالإيمان.

ومنهم من صبروا تحت الآلام فلم ينطقوا بكلمة الكفر، كبلال رضى الله تعالى عنه، فإنه كان يعذب بالوضع فى الرمضاء فى شدة الحر، ويضعون على صدره الصخرة العظيمة فى شدة الحر، ليحملوه على الشرك وهو مصرٌّ على الإيمان مطمئن القلب معذب الجسم وهو فى هذا العذاب المؤلم الممض لا يننى عن أن يقول: أحدٌ أحدٌ، ويصر عليها إغاظه لهم، ويقول رضى الله عنه لهم وهم يعذبونه: لو كنت أعلم كلمة هى أغيط لكم منها لقلتها، واستمر على هذه المغالبة وتحمل الشدة حتى اشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأعتقه فكان ذلك أغيط لهم، وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى عذبه مسيلمة الكذاب لكفره به، وإيمانه بمحمد، فلم يزل يقطعه إربا إربا، وهو ثابت لا يتزعزع.

وإن النبي ﷺ كان يبلغه من نطق بكلمة الكفر، وهو مطمئن بالإيمان، فبلغه خبر عمار، فقال: «إن قلب عمار ملئ بالإيمان ولحمه ودمه».

ويلغخ خبر من صبر حتى قتل، فأثنى عليهم، والحق أن النطق بالكفر مع اطمئنان القلب رخصة مع بقاء العزيمة قائمة، ومن لم ينطق فقد أخذ بالعزيمة، ولكل ثوابه، ولكن ثواب من صبر ثوابان: ثواب الصبر وثواب إغاطة الكفار.

وقد ذكر سبحانه عقاب من كفر بعد إيمان وقد شرح صدرًا للكفر، فذكر له

عقابين:

العقاب الأول - ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، أى أن الغضب ينزل عليهم نزول الصاعقة؛ إذ إنهم شارقوا، فجذبهم الكفر، وولاهم الشيطان فتزل عليهم غضب الله، وذكر الغضب فى هذا المقام، فيه إثارة أى بإرضائهم للمشركين بعودتهم إلى الكفر، قد أغضبوا الله، وشتان بين إرضائهم للكافرين، وإغضابهم لرب العالمين، ولا يرجى، ولا أحق بالرضوان غيره.

العقاب الثانى: أن لهم عذابًا عظيمًا فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ التنكير فى عذاب ووصفه بأنه عظيم يفيد أنه عذاب عظيم جدير بأن يهدد به ويهول أمره، وقوله تعالى: (لهم) فيه إشارة إلى أنهم لا يملكون بهذه الردة خيرا، بل يملكون عذابًا عظيمًا أكبر وأعظم مما كان ينزل بهم من عذاب لو استمروا على الإيمان.

وقد ذكر سبحانه سبب ذلك العذاب فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٧)﴾.

الإشارة إلى الغضب من الله تعالى الذى ينزل بهم، والعذاب العظيم يحل بهم بسبب أنهم ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ استحبوا إنما طلبوا حبها، فاستغرقت نفوسهم، ولم يفكروا فى غيرها، وآثروها على الآخرة، فابتغوها بأى ثمن يقدم، ورضوا بأن يحطوا على هوى المشركين، ولو أغضبوا رب العالمين، وذكر الله سبحانه وتعالى سببا ثانيا، غير استحباب الدنيا وإيثارها على الآخرة وذلك السبب أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وذلك أنهم

ساروا فى طريق واستمروا فى حياة اللهو والعبث وأغواهم الشيطان، حتى سد كل مسالك الهداية إلى قلبه، فكفر بأنعم الله، وأنكرها بعد معرفتها، ولم يشكر، والله لا يهدى القوم الكافرين، فقلوه تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تومئ إلى كل هذا، سبحانه وتعالى، وتقدسست كلماته، وأعجز بيانه.

ذكر الله تعالى ما سجله عليهم، وهو عقاب فى ذاته، وسبب لعقاب، فقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)﴾.

إن أولئك هداهم الله إلى الإيمان، ثم كفروا تمرد نفوسهم على الباطل وتلج فيه، فتفسد فيها مسالك الإدراك؛ ولذا قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٢٧)﴾ [النساء]؛ ولذا وصفهم الله تعالى بقوله.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)﴾.

الإشارة إلى هؤلاء الذين كفروا بعد إيمان، والإشارة إلى الموصوف بصفة إشارة إلى هذه الصفات، والإشارة إلى الصفات تفيد أن هذه الصفات هى علة الحكم، وإن الكفر بعد إيمان إذا تكرر تجعل النفس تمرض بفساد الإدراك لأن الكفر بعد الإيمان من شأنه أن يضعف فى القلب معنى الإيمان، فيضعف إدراك الحق، ويصبح الشخص حائرا باثنا لا يتحرك ضميره، ولا تستيقظ نفسه، ولا يستبصر بما تبصر، ولا يدرك حق الإدراك ما يسمع، فكانه قد طبع على مداركه بطابع يمنع المدارك من أن يصل إليها شئ من الفهم والعلم فيبصر الكائنات ولا يعلم ما تدل عليه، ويستمتع إلى القرآن، ولا يعلم ما يهدى إليه، ويحق عليهم قول الله تعالى:

﴿... لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾ (١٧٩) ﴿[الأعراف].

وإن هذه عقوبة طبيعية لما أركسوا فيه، فهي نتيجة لما تردوا فيه من كفر بعد إيمان، وهي سبيل لعقاب دائم، وعذاب واصب، وهذا يؤدي إلى أن يكونوا في غفلة دائمة عن كل ما يعلو بالإنسان، فهم قد فقدوا معنى الإنسانية العاقلة المدركة التي تتحمل التبعات، وتعرف التكاليفات التي هي ضريبة الإنسانية ومعناها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ حكم الله تعالى عليهم بهذا النص، والإشارة إلى الموصوفين بالكفر بعد الإيمان، والصفة هي علة الحكم، وهو الحكم عليهم بالغفلة الدائمة التي تصير وصفا لهم منحصر فيهم، وهم محصورون فيه، وقد أفاد القصر أى قصرهم فى الغفلة، وقصر الغفلة عليهم، تعريف الطرفين، وتأكيد القول بضمير الفصل، مع تأكيد القصر.

وإنهم مع هذه الغفلة التي صارت وصمة لازمة قد خسروا كل شيء، ولذا قال تعالى:

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٨٠).

﴿لَا جَرَمَ﴾ ذكرنا أصل معناها، وأن تنتهى إلى أن معناها حقا، وهي تأكيد لهم بأنهم فى الآخرة هم الخاسرون، والعبادة تفيد قصرهم على الخسارة، فهم إذا كانوا قد خسروا فى الدنيا مداركهم فطمس عليهم فخسارهم فى الآخرة أشد وأعظم، وهم مقصورون فى الخسارة، والخسارة مقصورة عليهم... اللهم قنا عذاب النار.

إِنْ رِبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحِسَابِ

قال الله تعالى :

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثَمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾
﴿١١١﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٢﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ
الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ ﴿١١٤﴾

ذكر سبحانه وتعالى حال الذين كفروا بعد إيمانهم، وكيف نزل عليهم غضب وطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم. بأنهم غفلوا واستغفرتهم الغفلة، وكانوا هم الخاسرين، وحدهم، بعد ذلك ذكر حال الذين آمنوا وفتنوا، وأوذوا وهاجروا في سبيل الله، فقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثَمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا للعطف، والتباین بين فريقين شرح صدر الكفر آذى غيره، وفريق ثبت على الإيمان، وصبر على الأذى، وهاجر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، فيها معنى الحماية الكاملة، والاعتماد على ركن لا خلل فيه فقط، كما يقول القائل للسارقين ما سرقوا، ولذى المال ما ملكوا، ولكل إنسان ما يملك من مال ونسب، وأما المؤمنون الصادقون في إيمانهم فلهم الجنة، فمعنى هذه الجملة السابقة أن قوتهم وحمايتهم من الله فقط؛ ولذا قدم قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ على الجار والمجرور، لبيان مكانة ناصرهم، وأنه فوق النصراء جميعا، فإذا كان الأقوياء قد آذوهم، وأعتوهم، وحرموا الهناءة، إلا أن تكون قلوبهم عامرة بذكر الله وقوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ ب (اللام) للاختصاص، أى أنهم مختصون به دون غيرهم.

وقال تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا فُتِنُوا﴾ الفتن يكون للمعدن ليخرج ما خالطه من مواد مغايرة لجوهره، وفتن المؤمل تمحيصه، وأن تذهب كل ما عساه يعلق به من أدرا ن الدنيا، والهجرة الواضحة هنا أنها هجرة الأولين إلى الحبشة، ويصح أن يراد الهجرة إلى الحبشة والمدينة وإذا كانت السورة مكية، فهي تنبئنا بالهجرة إلى المدينة التي كانت أول الجهاد ومن كان الجهاد، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا﴾ إخبار أنه سيكون جهاد بحمل السيف، والغزوات المباركة، والسرايا التي كان يبعثها النبي ﷺ للجهاد والدعوة وإن عطف وصبروا على الجهاد مع أن الجهاد عدته الصبر أولا، وإعداد الأدوات بالمحل الثاني، إن هذا العطف يفيد أن المؤمن يختبر بأمرين الصبر، وهو مختبر به دائما، وقد كان قوة المؤمنين وهم بمكة، وثانى الأمرين الجهاد فى سبيل الله بحمل السيف مدافعا، محاربا، وهذا يحتاج الصبر، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران].

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه للمؤمنين، فى مقابل أن الذين كفروا بعد إيمانهم للشيطان ذكر سبحانه أخص صفات الذات العلية وهو أنه غفور رحيم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الضمير فى ﴿بَعْدِهَا﴾ يعود إلى الهجرة، ذلك لأن الهجرة بعد صقل النفوس بالفتنة تتجه إلى الله، وقد سترت كل ذنوبها،

فيكون الخلاص لله تعالى، ومن بعد ذلك يكون الغفران، وتكون الرحمة بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يفيد أموراً أربعة:

الأمر الأول - تكرار الربوبية، وفى ذلك دلالة على أنه مع المؤمنين دائماً ولا يتركهم، وهو ربهم والمتولى أمورهم.

الأمر الثانى - تأكيد هذه الصلة بالعبودية والربوبية بعد الهجرة، كما كانت قبلها.

الأمر الثالث - تأكيد المغفرة والرحمة، فقد أكد بالجملة الاسمية، وإن واللام.

الأمر الرابع - دوام الرحمة والمغفرة؛ ولذا كان بصيغة المبالغة الدالة على دوام رحمة الله بالمؤمنين، وذكر الغفران لما عساهم يكون منه من عبارات موهمة لمطاوعة المشركين وقد خص الغفران والرحمة بيوم لا يجدى فيه غير غفران الله تعالى ورحمته، ولذا قال:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾.

يوم منصوب على الظرفية، للوصفين السابقين، أى إن ربك غفور رحيم، فى هذا اليوم الذى يحاسب كل إنسان على ما قدم فى الدنيا من عمل، وكل إنسان يدافع عن نفسه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾، أى تدافع كل نفس أو تبين كل نفس، والمجادلة: الحاجة، أى تحتاج كل نفس عن نفسها فيما نسب إليها فتحتاج كل نفس بنفسها عن نفسها فلا يكون معها ولى ولا شفيع، ولا نصير، ولا فدية ولا عدل، بل تكون هى المسئولة عما فعلت وارتكبت، وأعمالها محصية ثابتة، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانُهُ

طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾، أى يحضر الأنفس، وتسال عما قدمت، وتنطق عليهم أيديهم وألسنتهم، فالحساب تكون أدلته مهياة ثابتة، ولا يكون إلا الحكم، والحكم لله الواحد القهار فلا نقص لحكمه.

﴿وَتُؤْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، والمراد جزاء ما عملت، ولكن لأن الجزاء عدل وفاق للعمل، ويساويه تمام المساواة عبر بالعمل بدل الجزاء، إذ هى شىء واحد، أو متساويان تساويًا مطلقًا، وأكد الله سبحانه المساواة والوفاق بين العمل وجزائه فقال، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾، أى لا ينقص من عملهم شىء، فلا ظلم؛ لأن الحاكم هو الله، وهو خير الفاصلين.

ولقد ضرب الله تعالى المثل للكفران بالنعمة ومآلها والأمثال تضرب للناس لعلهم يعقلون، فقال:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

جعل حال قرية مثلاً مصوراً لمن يكون فى رغد العيش والأمن والاستقرار، ثم يكفر بنعمة الله لينزل عليه البلاء فيحرم نعمة الاطمئنان، ويستبدل بها خوفاً، أو يحرم رغد العيش، ويستبدل به جوراً، وجعل المثل حال قرية - وهى المدينة الكبيرة لمكة - الدنيوى خسفاً أو زلزالاً، أو أمطار الحجارة فقط، بل قد يكون العقاب الدنيوى ضيقاً فى الرزق بعد السعة، وخوفاً بعد أمن، وهذا مجمل معانى النص القرآنى؛ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ ﴿وَضَرَبَ﴾، أى بين، ﴿مَثَلًا﴾، أى حالاً ثابتة، ﴿قَرْيَةً﴾ وهى مفعول وأخرت عن ﴿مَثَلًا﴾، وهى المفعول الأول؛ وذلك لأن الأوصاف التى تحىء بعد ذلك كانت أوصافاً فى القرية، وهو مورد المثل وموضعه، ولأن ذكر المثل بها ثم ذكر مورده وموضعه يكون بعد ترقب واستشراف فيكون أمكن فى النفس والفؤاد.

وهذه القرية وصفها الله تعالى بأنها كانت آمة كما كانت مكة، فقد كان فيها حرم آمن يتخطف الناس من حوله وكان يأتيها رزقها رغدا واسعا كثيرا إذ كان يجبي إليها من الثمرات استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وإذ قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٢٧)﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى في هذه القرية: ﴿فَكَفَرْتُ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، (الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أنها بدل أن تشكر نعمة الله إذ منحها الأمن والعيش الرغد الهنيء، وهذا أقصى ما يطلب لمثل هذه القرية، بدل هذا كفرت، أى ربت على النعمة الكفر بها، وهذا عكس ما يترقب، ويتوقع منها. فكان هذا فيه معنى التوبيخ أو التهكم بأمرها، والأنعم جمع نعمة، أو جمع نعمى، والمعنى النعم العالية التى بلغت أقصاها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، فى الكلام استعارتان:

الاستعارة الأولى: - أنه شبه الجوع والخوف باللباس السابغ الذى يغشى الداخل والخارج، وذلك بجامع اشتماله على الجسد والنفس، وكل الجوارح، فإن اللباس يغشى الجسم كله، والخوف والجوع يغشيان الجسم كله، فالخوف يغشى الجسم بالاضطراب والهلع والجزع، والجوع يغشاه بالضعف والحاجة، وهى كالعرى، أو كالثوب الذى لا يستر.

والاستعارة الثانية - هى تشبيه الجوع والخوف بالشئ الذى يذاق جريا على ما يجرى على الألسنة من قول فلان ذاق مرارة الجوع، وقد قال فى ذلك إمام البلاغة الزمخشري: «أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة فى البلاء والشدائد، وما يمس الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر.

هذه خلاصة ما يقال فى هذا المثل الرائع، وتلك الحكمة المباركة، وهو مثل يعطى صورة بيانية رائعة لمحكم القول.

وقد أسهب الزمخشري فى بيان الاستعارة حتى قال الناصر أحمد بن المنير الذى يتعقبه بالنقد اللائم: قال أحمد: «وهذا الفصل من كلامه يستحق أن يكتبوه بذوب التبر، لا بالخبير».

وقد ذكر ابن كثير أن المثل ينطبق على أهل مكة، قد كانوا يعيشون آمنين فى رغد، ولكنهم اضطهدوا المؤمنين وآذوهم واستعصوا على رسول الله ﷺ فتزل بهم البلاء، وحق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم]، ودعا عليهم رسول الله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»^(١)، وقد أصابهم الجوع الشديد.

دع عنك أن النبى ﷺ قد سد عليهم مسالك تجارتهم حتى أحسوا بنعمة الله عليهم، وذلك كله بين الله بسببه بقوله تعالت كلماته: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، أى بسبب الذى كانوا يصنعونه من شرك وصد عن سبيل الله تعالى، ولعتهم للمؤمنين، وحملهم على الردة بعد إيمان.

وإنهم مع هذه الحال أرسل إليهم رسولا من أنفسهم فكذبوه، وقد قال تعالى فى ذلك:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾.

جاءهم رسول منهم عرفوا صدقه، وأمانته، إذا انشأ بينهم وليدا عفا لم يُزنَّ بريية، ولم يسجد لصنم حتى بُعث فيهم رسولا، هذا ما تتضمنه كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾،

(١) صحيح البخارى: الأذان - يهوى بالتكبير حين يسجد (٧٦٢)، ومسلم: الجهاد والسير - الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٧١٥).

فليس غريبا عنهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) ﴿[التوبة].

ولقد أكد سبحانه بعثه ﷺ فيهم بـ (اللام) وبـ (قد)، وقال: ﴿جَاءَهُمْ﴾، أى بعث ابتداء فيهم، وتنكير ﴿رَسُولٌ﴾ للتعظيم، وإلى مكانته عند الله، وعندهم لأمانته وعفته ولصدقه، ولكنهم بدل أن يعاجلوا بالإيمان عاجلوا بتكذيبه، فـ (الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أن النتيجة جاءت على نقیض المقدمات؛ إذ أنه كان معروفا بالصدق والأمانة، فكان الواجب أن يبادروا بتصديقه، ولكنهم بادروا بتكذيبه، وعقب التكذيب أخذهم العذاب، إذ أخذوا فى أسبابه، وهو التكذيب والصد عن سبيل الله وإيذاء المؤمنين.

والعذاب هو عذاب الدنيا بالتقتيل فيهم وهزيمتهم، وذهاب سيطرتهم، وقيام الحق رغم أنوفهم، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فبالعذاب الأليم، وإلقائهم فى الجحيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، الواو للحال، أى والحال أنهم ظالمون، فالعذاب نزل بهم، وهم أحق به، فهو بما كسبوه من تكذيب الحق، وتجاوزوا حد التكذيب إلى الظلم إذ صدوا عن سبيل الله وفتنوا المؤمنين فى إيمانهم وعذبوهم، وحاولوا أن يردوهم عن دينهم فارتدوا خاسئين.

الرزق الحلال الطيب

قال الله تعالى:

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا

وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٣٤﴾

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ وَمَا

أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
 الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا أُحْزِمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
 مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

إذا كانت نعمة الله لأهل القرى فى الأمن ورغد العيش، فهى نعم لإباحتها، لا لمنعهم منها ولذا كان النص بإباحتها لستم سبحانه نعمته على عباده، وكان ابتداء القول بالفاء؛ لأنه مترتب على النعمة، فقال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الأمر للإباحة لا للوجوب، إلا إذا كان الأمر يطلب الأكل بالكل لا بالجزء فالأكل بالجزء مباح أى له أن يأكل من نوع كذا أو كذا أو فى وقت كذا، دون وقت كذا فهذا مباح فيه أن يختار ما يشاء، أما ترك الأكل بالكل بألا يأكل قط فحرام؛ ولذا كان الأكل مباحا بالجزء أو النوع، ومطلوبا طلبا لأمر بالكل، كما أنه محرم أن يحرم صنفا معيناً من الحلال على نفسه كالذين حرموا البحيرة والوصيلة والحام، وقد وصف سبحانه وتعالى الأكل الذى وصفه الله تعالى وأعطاه ومكن منه بوصفين:

الوصف الأول - أنه حلال، والثانى: أنه طيب، والحلال أن يكون كسبه لا خبيث فيه، فالكسب بالربا أو الرشوة والميسر، أو التغرير، أو السرقة أو الاغتصاب، أو الخمر كل هذا ليس برزق حلال؛ لأنه كسب خبيث، وكذلك أكل ما سُمى عليه اسم غير الله من صنم أو صليب، أو معبود غير الله أيا كان.

وأما الوصف الثانى - فهو أن يكون فى ذاته طيباً لا خبيثاً فى ذاته، فلا يؤكل الخنزير ولا الميتة، ولا الدم ولا ما تعافه النفوس، ومن ذلك سباع الطير،

وسباع البهائم، فإن لحم هذه وما يشبهه لحم خبيث، فكل ما حرمه سبحانه من مأكول خبيث الذات يضر الجسم وتعافه النفس.

وإن هذه النعم التي هيأها الله تعالى وأباحها توجب الشكر؛ ولذا جاء الأمر بالشكر بعد الإباحة، فقال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وشكرها بالقيام بالواجبات، من عبادة وامتناع عن الشرك، والتصديق منها لله تعالى، وإطعام القانع والمعتز، وأن يكون كل ذلك لوجه الله تعالى لا يبتغى سواه، ولا يطلب إلا وجهه الكريم.

ولذا قال بعد ذلك: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تقديم الضمير يفيد التخصيص فالمعنى إن كنتم لا تعبدون إلا الله سبحانه وتعالى. وذكر الوجدانية بعدها فيه إشارة إلى أن تناول هذه النعم من غير تحريم لبعضها، هو من عبادة الله تعالى، ذلك أن الانتفاع بأي نعمة مع الشعور بعظمة المنعم واستحقاقه الشكر، والتناول طاعة لأمره، واستجابة لطلبه هذا في عباده، ففي الانتفاع بكل نعمة منحها للاستجابة للمنعم عبادة، حتى في بضع أحدكم صدقة.

وبين الله تعالى المحرمات من الخبائث فقال:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٥).

﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر أى أن المحرم عليكم من النعم ونحوها الميتة والدم ولحم الخنزير، إذا أهل لغير الله به، أصناف أربعة هي: الميتة وهى التى كانت قد حبس دمها فيها، ويدخل فيها الموقوذة والنطيحة، فإنها كالتى ماتت حنف أنفها، إذ لم تذك التذكية الشرعية، وحبس الدم فيها ولم يرق، والدم، وهو الدم المسفوح، وقد ذكر هنا مطلقا، وذكر مقيدا فى آية الأنعام فى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ...﴾ (١٤٥) [الأنعام].

ولحم الخنزير إذ إنه نجس بذاته، وما أهل به لغير الله وهو المذبوح لغير الله.

ومن المقررات أنه إذا اتحد المسبب والحكم، وجاء اللفظ في أحد الموضعين مطلقا، وفي الآخر مقيدا حمل المطلق على المقيد.

وهذه الآية الأخيرة تفيد أن تحريم هذه الأشياء لأنه رجس، وفيها ضرر جسمي إذ هي قاذورات خبيثة، وما أهل لسغير الله كان تحريمه لأنه فسوق وخروج عن التوحيد؛ لأنه ذكر غير اسم الله تعالى عليه.

وهذا التحريم في حال الاختيار، أما في حال الاضطرار فإنه يرخص فيه الأكل، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أى فإنه يرخص الأكل، وإن الله تعالى يغفر الإثم لأن الله يرفعه بمغفرته وبرحمته

وقد اشترط للإباحة شرطان، أو ذكر الترخيص مقرونا بوصفين:

الوصف الأول - أن يكون ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ طالب له يشتهي، وهذا الوصف تحقيق للضرورة؛ لأنه إذا كان يتغيه وهو في فسحة من العمل لا يكون مضطرا، ولأنه إذا كان يتغيه يتجاوز حد الضرورة.

والوصف الثانى - ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أى متجاوز حد الضرورة.

وقد قالوا إن هذه رخصة إسقاط؛ لأنه قد سقط عنه التحريم بهذه الضرورة، وقالوا إن الأكل فى هذه الحال واجب، وليس بمباح فقط؛ لأنه يتردد بين أمرين أحدهما أقوى تحريما من الآخر:

الأمر الأول - الأكل.

والأمر الثانى - تلف النفس ولا شك أن تلف النفس أقوى تحريما من الأكل.

وقال أهل الطب إن تحريم هذه الأشياء لما فيها من رجس وقدر، وذلك يضر الجسم، فإذا كان الجسم فى حال جوع شديد ومخمصة كان هذا الجوع مخففا لأضرارها، وكان الأخذ منها لا ضرر فيه لحال الجوع الشديد، فيأخذ من غير تعد ولا شهوة أكل، ولا يتجاوز لحد الضرورة، فإن تجاوزها كان الضرر، وتحقق الرجس والقدر.

وقد كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض المحللات من الأنعام فنهى الله عن ذلك وقال:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾.

كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض ما تخرجه الأرض وبعض النعم، وينسبون ذلك كذبا إلى الله، ولنرجع إلى ما فى سورة الأنعام إذ يقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام]، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِثَّةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾ [الأنعام].

قد بين سبحانه ما أحله وما حرمه، ولكنهم كانوا يحرمون ما أحل الله، وينسبون التحريم إليه سبحانه وقد كذبهم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ نذكر أوجه التخريج النحوى فى الآية الكريمة وننتهى إلى وجهين نذكرهما:

الوجه الأول - أن ﴿الْكَذِبَ﴾ مفعول لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾، أى لا تقولوا الكذب للذى تصفه ألسنتكم، وقوله تعالى: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ و﴿هَذَا﴾ بدل من ﴿الْكَذِبَ﴾، ويكون المعنى ولا تقولوا الكذب للذى تصفه ألسنتكم بالحل والحرم، وهذا حكم عليهم بالكذب فى ادعائهم الحلال والحرام من غير حجة ولا علم.

الوجه الثاني - أن يكون الكذب مفعولاً للمصدر، ويكون المعنى ولا تقولوا لوصفكم الكذب هذا حلال وهذا حرام.

ومؤدى التوجيهين أنه لا يصح أن تقولوا هذا حلال وهذا حرام، فإن ذلك الوصف هو الكذب بعينه ما دام لم يجئ من الله بيان فيه، ولأنه قد ثبت ما أحل وما حرم، فما عدا ما قاله الله باطل باطل، ولذا قال تعالى: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، (اللام) هنا هى لام الصيرورة أو لام العاقبة، والمعنى لا تفعلوا ذلك؛ لأن العاقبة أن تفتروا على الله الكذب. (افترى) أى قصد باهتا الكذب وتعمده وأزاد، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أكد سبحانه بأنه لا يفلح الذين يقصدون الكذب على الله تعالى ويتعمدون ويبهتون الناس بالكذب عليه سبحانه، وذلك لأنهم يكونون قد مردوا على الكذب، وفسدت مداركهم إذ ماعت نفوسهم فصارت لا تستجبه إلى الحقائق ولا تستقر فيها الحقائق، ولا يؤمنون بحق، ولا يرفضون الباطل، إذ من تصل حاله إلى الكذب على الله لا يمكن أن يفوز فى أمر من الأمور؛ ولذا قال: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾، أى ليس من شأنهم أن يفوزوا.

وقد ذكر الموصول للدلالة على أن الصلة هى السبب فى عدم الفوز، وأكد سبحانه عدم الفوز بالجملة الاسمية وإن المؤكدة، وإذا كنا نراهم قد مردوا على الكذب وصار شأننا من شئونهم فلا مانع يمنع من الكذب على الله سبحانه وتعالى، أى كذب أعظم من أن يحرموا ويدعوا أن الله هو الذى حرم عليهم.

وقد بين سبحانه فى تأكيد عدم فوزهم أنهم يحسبون بريق الحياة ومتاعها هو المتاع، وبين الله تعالى أن متاعها قليل؛ لأنه فى ذاته قليل وزمانه قليل ومتاع الآخرة هو الأبقى ومن طلب متاع الدنيا بغير الحق فالآخرة تكون له عذاباً أليماً؛ ولذا قال تعالى كلماته: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١٧).

التنكير فى ﴿مَتَاعٌ﴾ يدل على قلته فى ذاته وقلته فى زمانه وهو بجوار الكذب الذى يكذبونه لا يعد متاعاً؛ لأن المتاع ما يقوم على متاع النفس، والنفس

الكذب تكون فى اضطراب مستمر ولا تملك نفسها كما لا تنضبط فى ذاتها، ودأبها على الكذب يؤدى إلى ضلال الفكر فيها حتى يصيبها خرف الكذب وفساده .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بعد هذا المتاع الضئيل وهو عذاب دائم ليس له وقت محدود بل هو محدود بحدود الله، وما من قارئ يقرأ هذه الهداية إلا امتنع عن الهجوم بقوله حلال وحرام إلا إذا كان النص على التحريم من قرآن أو أحاديث النبوة، ولقد كان إبراهيم النخعى، وهو من أئمة فقه الرأى كان إذا وصل برأيه إلى حكم يفيد التحريم لا يقول: حرام، ولكن يقول أكره، وإذا وصل بقياسه إلى حكم يفيد الحل قال ليس من بأس، أو استحسن هذا متخرجاً أن يقول حراماً أو حلالاً لكى لا يكون ممن دخلوا فى حكم هذه الآية .

وقال ابن العربى: «كره مالك وقوم أن يقول المفتى: هذا حلال، وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا»، وقد رأينا فى هذا الزمان من يقول فى أمور هى حرام بالنص إنها حلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

بين الله ما أحل وما حرم، ثم حرم الله تعالى على اليهود بعض أمور، وكان التحريم خاصاً بهم دون غيرهم فطُما لنفوسهم الشهوانية الظالمة، وقد أشار سبحانه إلى هذه المحرمات فى قوله تعالى:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ .

وقوله تعالى: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾، أى ما أخبرناك بتحريمه من قبل، وهذا يدل على أن هذه الآية فى سورة النحل متأخرة عن التحريم على اليهود فى سورة الأنعام، وذلك النص فى سورة الأنعام:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾ [الأنعام].

وفى هذه الآية التى سبقت فى سورة الأنعام ذكر سبحانه أن ذلك كان فظماً لأهوائهم وشهواتهم وبغْيهم، فكان التحريم تأديباً لهذه النفوس أو تقوية لإراداتهم ومنعاً لأهوائهم وشهواتهم؛ ولذا قال فى الآية الكريمة التى نتولى ذكر معانيها الحكيمة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أى وما ظلمنا بذلك المنع الجزئى، بل هم الذين بغوا، وأكثروا فيها الفساد، وأدى ذلك إلى ظلمهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، الاستدراك هنا لتأكيد نفي الظلم، وإثبات الظلم عليهم هم، وتقديم ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ على ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على الاختصاص، أى لا يظلمون أحداً غير أنفسهم.

التوبة بعد العصيان ومكانة إبراهيم

قال الله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١١﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
 شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
 وَعَآيَتُنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾
 ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب وآمن وعمل صالحا؛ ذلك أن بتوبته في وقتها عبادة، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذى خلق الناس أجمعين ورباهم وهذبهم ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا﴾، أى هو لهم يمنعهم من الاسترسال فى الشرور والفساد، كما تقول: السلطان لفلان هو ينصره، ويحميه من أعدائه ولا يسلمه لهم، وقد ذكر أنه سبحانه لهؤلاء الذين عملوا السوء، بشرطين:

الشرط الأول - أن يكون بجهالة.

والشرط الثانى - أن يتوبوا ويعملوا الصالح بأن يصلحوا فى ذات أنفسهم، بأن يزول من نفوسهم، كل أدران السوء، وترحض عن قلوبهم كل ما عملوا من آثام مبطنة، وأن يذهب ما اربدت به نفوسهم، وتطهر.

والسوء كل ما هو فى ذاته ليس بطيب، ويسوء النفس وغيره، والجهالة هى عدم تدبير الأمر، وعدم تعرف عواقبه بأن يندفع تحت تأثير شهوة جامحة، أو هوى متبع، فإذا تدبر تاب من قريب، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)﴾ [النساء].

وقال تعالى فى الشرط الثانى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾، أى قاموا بحق التوبة النصوح، وهى تقتضى أموراً ثلاثة:

الأمر الأول - الندم على ما حصل من سوء، وذلك علم بالحق بعد الجهالة، وثوب إلى الله تعالى بعد الابتعاد.

والأمر الثانى - العزم على ألا يعود إلى ذنب أبداً، ذلك لأجل غسل ما اعترى القلب من أدران، وتنظيفه من السيئات وآثارها.

والأمر الثالث - أن يكون ذلك من قريب؛ لأن القدم يثبت الشر في النفس، ويجعل إزالة درنه ليس يسيرا.

ثم بعد هذه التوبة بشروطها لا بد من العمل الصالح؛ لأنه لا يزيل عمل السوء إلا العمل الصالح فيحل الخير محل الشر، وإنه عند تحقق هذه الأمور، وتوجهها العمل الصالح كان الغفران وكانت الرحمة، ولذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهنا عدة أمور بيانية:

الأمر الأول - التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ في أول الآية لما بين الذين يصرون على الذنوب ويعاندون الحق، ويسرفون على أنفسهم، وبين الذين يتوبون من قريب عن فعل فعلوه بجهالة، فكان لـ﴿ثُمَّ﴾ موضعها في هذا، وكذلك الأمر في ﴿ثُمَّ﴾ الثانية، ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التراخي بين التوبة والغفران؛ لأنه ليس كل توبة توجب الغفران، بل لا بد من زمن تعتاد النفس فيه فعل الخير حتى يكون الخير منها حالا من أحوالها.

الأمر الثاني - في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ (اللام) تفيد اختصاص الله بهم وأنه قريب منهم.

وإن في ذلك تشجيعا للتوبة لمن يقعون في معصية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...﴾ (٥٦) [الزمر] وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ...﴾ (٣) [غافر].

الأمر الثالث - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ذكر البعدية في هذه الحال فيه معنى الفورية، وأن الله يحب توبة عبده ليغفر له، فإن الله يحب التوبة ويحب المغفرة.

وقد ذكر الله بعد ذلك أبا الأنبياء إبراهيم لأنه أبو العرب وعزهم، ويعيشون ببركة دعائه، ولأنه تواب أواه حلیم، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠).

﴿أُمَّةٌ﴾ إما أن تكون بمعنى إمام، أى أنه عليه السلام كان إمام الموحدين المقتدى بهم أو مذهباً متبعاً، كقول الله تعالى: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

وفسره الزمخشري بأنه وحده أمة كأنه جماعة جمعت الفضائل كلها، وقد قال فى ذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة فى أشخاص كثيرة، كقوله:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وهو رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذى جادل فى المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة، وهذا وجه وقال الزمخشري: والثانى أن يكون أمة بمعنى مأوم أى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مؤتم كأمة كالرحلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فعله بمعنى مفعول، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾ [البقرة] ويروى الشعبى عن نوفل الأشجعى عن ابن مسعود أنه قال: إن معاذاً كان أمة قانتا لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم، فقال: الأمة الذى يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله وكان معاذ كذلك. وعن عمر رضى الله عنه أنه قال حين قيل له استخلف: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، ولو كان معاذ حياً لاستخلفته، ولو كان سالم حياً لاستخلفته، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة قانتا لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله لم يعصه»، وهو ذلك المعنى أى كان إماماً فى الدين؛ لأن الأئمة معلومو الخير.

ونقول: إن الوجهين اللذين ذكرهما الزمخشري يصح أن يرادا معاً، فهو فى ذاته أمة لأنه جامع لكل صفات الكمال البشرى، ومستجمع لكل أسباب الرفعة عند الله، وهو مع ذلك إمام يؤتم ويقصد إذ هو إمام الموحدين والله أعلم؛ ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن والنبوة، وتحريم ما أحله الله، ولأنه كان وحده أمة موحداً، وكان سائر الناس مشركاً.

هذا هو الوصف الأول لإبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، والوصف الثاني: أنه قانت لله أى خاضع مطيع مسلم وجهه لله تعالى، والوصف الثالث: أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾، أى طاهرا نقياً فى نفسه وقلبه مائلا للحق أى متجها بكل نفسه إلى الحق لا ينحرف إلى الباطل، الوصف الرابع: وهو وصف سلبى ناف عنه الشرك؛ ولذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، الوصف الخامس إيجابى، فقال: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١).

كان الذين يدعون الانتساب إليه فى ملته ويقولون إنهم على دين إبراهيم وحنيفيته، يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ويكفرون بها، أما إبراهيم عليه السلام فقد ذكر سبحانه أنه كان فى حاله التى تحيط به، وتستغرق كل أفعاله ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾ وأنعمُ جمع نعمة جمع قلة، وإذا كانت حال شكر دائم لأنعمه القليلة فهو بالأولى شاكر لأنعمه السابغة الكثيرة، وفى هذا دعوة إلى أن يكونوا كأبيهم فى ملته وهديه وحنيفيته السمحة.

وإنه بهذه الصفات العليا من جمعه للفضائل الإنسانية التى كان بها أمة وحده، ومن أنه كان قانتا حنيفا، وشاكرا لأنعمه اصطفاه الله تعالى خليلا، كما قال تعالى: ﴿... وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) [النساء]؛ ولذا قال تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ﴾، أى اصطفاه نبيا مرسلا، وهده إلى صراط مستقيم إلى طريق للحق مستقيم، وهو صراط الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) [الأنعام].

وإنه من ثمرة هذه الخصال الكريمة، وأنه هو الذى وفى، وأتى بكل الطاعات أتاه الله تعالى خير الدنيا والآخرة.

فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٦).

الحسنة هى النعمة التى تحسن فيها أمور الدنيا من حياة فاضلة هى الخير كله، وقد أعطى الله تعالى إبراهيم تلك الحياة الحسنة الطيبة فوزقه الولد، بعد حرمان

طويل، ولم يهبه إلا على الكبر، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ (٣٩) ﴿[إبراهيم]، وشكر النعمة، واختبر بالفداء بذبح ولده فقبل راضياً، ثم فداه رب العالمين بذبح عظيم ووفقه في بناء الكعبة وأمهده بعمر طويل كله كان في الخير وعمل الصالحات، و«خير الناس من طال عمره وحسن عمله»^(١)، وجعله أبا الأنبياء وشعر بذلك في حياته فقد كانوا من أولاده، وقد نالوا منزلة النبوة فكان إسماعيل من ذريته النبي الهاشمي الأمي، ومن ذرية إسحاق كان أنبياء بنى إسرائيل، وجعل الله له كما طلب ﴿... لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) ﴿[الشعراء]، فكان كل أهل الديانات يتولونه، ويعتزون بالنسب إليه وأنه مع النعم التي أنعمها سبحانه وتعالى عليه كان شاكراً لأنعمه.

ولذلك حسنت حياته فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ذكر ذلك الكريم الحنان المنان على أنه خبر لا إيتاء وكأنه نتيجة لما كان منه في الدنيا ولم يذكر أنه عطاء من الله تعالى، وإن الله له المُنُّ والفضل، ولم يذكر ذلك ليسين سبحانه وتعالى أن الله تعالى يعطي الناس على قدر شكرهم: ﴿... لَنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (٧) ﴿[إبراهيم]، وأن خير الآخرة ثمرة عمل الدنيا وكله بفضل الله وعطائه ﴿... وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧) ﴿[يوسف].

وقد أكد أنه في الآخرة من الصالحين بالجملة الاسمية، وإن المؤكدة ولام التوكيد، وأنه في صف الصالحين، والصالحون في الآخرة هم المقربون الذين يفوزون بنعيم الجنة وينظر إليهم ويرضى عنهم ورضوان من الله أكبر.

وإن ما دعا إليه إبراهيم عليه السلام هو ما يدعو إليه محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٢).

(١) أخرجه الترمذي: الزهد - ما جاء في طول العمر للمؤمن (٢٢٥٢)، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٥١٩)، والدارمي: الرقاق: (٢٦٢٥).

إن المشركين كانوا يفاخرون الناس بأنهم من ذرية إبراهيم، فالنبي يقرهم على هذا الشرف النسبي، والله تعالى يدعوهم إلى اتباع النبي ﷺ لأن الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ الأُمى هو ملة إبراهيم ودينه، والقرآن وحى الله تعالى هو الذى يدعو إلى اتباع ملة إبراهيم، فأنتم إذ تشركون، وإذ تعاندون النبي ﷺ تعاندون إبراهيم وتكفرون بشرف انتسابكم إليه عليه السلام، وتمسككم بإقامة نسكه، واعتزازكم ببيت الله الحرام الذى بناه، وجعله الله مثابة للناس وأمانا، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه ثلاثة أمور بيانية تجب الإشارة إليها:

الأمر الأول - فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه أن ما يدعوكم إليه من عدم الشرك هو وحى من الله باتباع إبراهيم الذى يعتزون به، فذلك الوحي هو مما تفخرون وتعتزون فلا تنافروا الداعى ولا تعادوه، وهو على ملة إبراهيم فسيروا فى مفاخركم باتباعها، وهو مائل عن الشرك غير منحرف إليه.

الأمر الثانى - التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ فإن مؤداها أن إحياء الله لنبيه ﷺ باتباع ملة إبراهيم هو سمو بإبراهيم أعلى من كل ما سبق؛ لأن المؤدى فى كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التى تفيد التراخى أنه سما الأمر بإبراهيم أنه علا حتى صار محمد سيد الخلق تابعا له فى ملته، فالتراخى هنا معنوى بالعلو بين مرتبة خاتم النبيين ومرتبة سيدنا إبراهيم، وإنه جده، ولكن محمد فخر نبي عدنان وفخر الإنسانية كلها، أشار إلى ذلك الزمخشري وقال فى التعليق عليه الناصر أحمد:

و(إنما) تفيد ذلك لأن ﴿ثُمَّ﴾ فى أصل وصفها التراخى المعطوف عليه فى الزمان، ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى مرتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى وها هنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرا وأرفع مرتبة، وأبعد رفعة، وهو أن النبي الأُمى ﷺ الذى هو سيد البشر متبع ملة إبراهيم مأمور باتباعه بالوحي

متلو أمره بذلك فى القرآن الكريم العظيم، ففى ذلك تعظيم لهما لكن نصيب النبى ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر.

الأمر الثالث - أن قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (أن) هنا بيانية، أى تبين معنى الوحي، فقوله تعالى اتبع ملة إبراهيم تفسير لأوحينا، فهى أمر باتباع ملة إبراهيم.

وقد ختم الله تعالى النص بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا تحريض للمشركين على منع الشرك؛ لأن إبراهيم لم يكن مشركا من وقت نشأته غلاما صبيا إلى أن توفى بعد عمر مبارك طويل مديد عليه السلام.

الإشارة إلى اليهود والدعوة بالحكمة

قال الله تعالى:

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيمة فيما
كانوا فيه يختلفون ﴿١٢٤﴾ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وخذ لهم بالتي هي أحسن إن ربك
هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴿١٢٥﴾
وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولين صبرتم
لهو خير للصبرين ﴿١٢٦﴾ وأصبر وما صبرك إلا بالله
ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون
﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

بين الله تعالى حال المشركين من كفرهم، وعنادهم وكفرهم بالنعمة يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، أشار سبحانه إلى الذين يماثلونهم في الكفر وإنكار النعمة، وهم يكفرون، وهم اليهود فهم والمشركون أشد الناس بغضا للذين آمنوا، وقد أشار سبحانه إليهم بيوم السبت؛ لأنهم الذين اختصوا بتحريمه وإفراده للعبادة وتحريم الصيد فيه، وفي ذكر المشركين إشارة إلى هذه المماثلة وإلى بيان ما يستقبله النبي ﷺ وأن له أياما منهم كأيام المشركين معه فلتضطرب لهم كما صبر من قبلك من الرسل حتى اليوم. يقول تعالى:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾.

أى صير السبت مانعا لهم من مزاوله شئون الحياة للذين اختلفوا فيه، أى لليهود الذين اختلفوا فيه، والاختلاف أماره أن فيهم من لم يدعوا للحق ويؤمنوا، فإنه حيث كان الاختلاف كان الذين يلوون ألسنتهم بالقول من غير إذعان للحق والإيمان، فإن الإيمان يجعل النفوس تقرر وتطمئن ولا تنازع ولا تلاحي.

منعوا من الصيد فى يوم السبت، وابتلاهم الله بكثرة السمك فيه، فيوم يسبتون يأتيهم الصيد، ويوم لا يسبتون لا يأتيهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١٦٣) [الأعراف] فمن صبر على البلاء وهم قليلون، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿... مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦٦) [المائدة] وكثيرون تمردوا واختلفوا فى تمردهم فمنهم من أعمل الحيلة وفتح قنوات يأوى إليها السمك فى يوم سبتهم ليأخذوها يوم لا يسبتون، ومنهم من تمرد كلياً، ولم يطع من غير محاولة التحايل.

هذا اختلافهم فى يوم السبت بين صابر لا ابتلاء الله، وتمرّد عليه، وتمرّدوا كائناً يخدع الله، وهو معقول فى ذاته ومتفق مع طبائع اليهود المادية الذين يأخذون الأحكام بظاهر من القول والعمل، ويكفرون بالحق فى لبابه وصميمه.

وقد قيل إن اختلافهم كان عندما أمرهم موسى بأن يكون يوم الانفراد للعبادة والامتناع عن الصيد يوم الجمعة فأبوا إلا أن يكون يوم السبت، يروى فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد»^(١)، وإنا نميل إلى الله، ولا نخالف السنة.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وإن الله رب الأنبياء ورب محمد، ورب الوجود ﴿لَيَحْكُمُ﴾، (اللام) فى خبر إن، و﴿لَيَحْكُمُ﴾، أى يفصل وهو خير الفاصلين، وذكر ﴿رَبَّكَ﴾ فى هذا المقام للدلالة على عالم محيط، فحكمه هو الفيصل لعلمه وقدرته وإحاطته بكل شىء علما، وموضوع الحكم قال سبحانه وتعالى فيه: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أى ما كانوا يختلفون فيه بشكل عام، فقد اختلفوا اختلافا كثيرا، فاختلفوا فى عبادة العجل، واختلفوا بين (فروشم)، أى مفسرين وصدوقيين، ومفوضين، واختلفوا على موسى ومن جاء بعده من الأنبياء، ولا يزالون مختلفين، وهم بعيدون عن رحمة الله تعالى.

بعد أن ذكر حال اليهود، وأشار إلى عنادهم، وفصل القول فى حال المشركين وإيذائهم أمر الله رسوله أن يستمر فى دعوته لا يألوا، فهو مكلف بالتبليغ مهما تكن مناوأة المناوئين، فقال تعالت قدرته:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥).

صدع النبى ﷺ بأمر ربه بعد أن أئذر عشيرته وعمت دعوته ربوع البطحاء، وتحاولت أصدائها فى أرض الجزيرة العربية، وصار الناس يتعرفون أمر هذه

(١) رواه البخارى: الجمعة - فرض الجمعة (٨٢٧)، ومسلم: الجمعة - هداية هذه الأمة ليوم الجمعة

(١٤١٢)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الدعوة، وتجردت قريش مناوئة بكل مما أوتيت من قوة آدت الضعفاء وفتنتهم عن دينهم وهاجر إلى الحبشة من هاجر فرارا بدينه وحماية ليقينه، فهل يضعف ذلك من ندائه بقوة الحق والإيمان، وهل يخرج ذلك عن حد الحكمة، بل إنه يستمر هاديا مرشدا؛ ولذا جاء أمر الله بأن يستمر في دعوته بالحكمة والموعظة ولا يخرجها ما يفعلون إلى غير الحكمة، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ادع مبلغا رسالة ربك ومتبعا سبله وهدايته إلى سبيل ربك، وسبيل الله هو الصراط المستقيم وهو التوحيد وشريعته التي لا عوج فيها ولا أمت بل وهو سبيل الحق الهادي المرشد بالحكمة والموعظة، والحكمة هي القول المحكم الذي يشمل على الدليل الهادي والبرهان القاطع، والموعظة هي بيان العبر، وضرب الأمثال بما وقع للماضين، وهي المثالات التي وقعت للناس، والموعظة تشمل هذا وتشمل بيان منافعهم في إجابة دعوة الله، والمضار التي تنزل بهم إن أعرضوا وضلوا عن سواء السبيل.

وبيان الفرق بين الحكمة والموعظة أن الحكمة ذكر الأدلة على التوحيد التي لا يفهمها إلا الراشدون الذين يدركون الدليل ومقدماته، والموعظة ذكر عواقب الضلال من الحوادث الماضية التي وقعت بالضالين المضلين، والقرآن الكريم قد اشتمل على الحكمة والموعظة، ففيه بيان آيات الله في الكون من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمره وإنزال الماء وإنبات النبات وفلق الحب والنوى، فهذا كله من الحكمة، وفيه قصص الأمم السابقة وما نزل بالعصاة من خسف وزلزال وريح صرصر عاتية، وهذا من الموعظة الحسنة؛ ولذا قال بعض المفسرين ﴿بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ القرآن لأنه يشتمل عليهما، ووصفت الموعظة بالحسنة لسهولة قبولها، أو يتخير الرسول أسهلها على النفس، وأحسنها توصيلا للحق الله الهادي إلى سبيل الرشاد.

أمره سبحانه أن يدعوهم بالحكمة والموعظة وأن يجادلهم بالتي هي أحسن فقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي بالطريقة التي هي أحسن في التوصيل إلى الإقناع، فإن لم يكن إقناع فتقريب، فإن لم يكن تقريب لا يكن

تنفير، فهو يبين لهم الحق في غير مخاشنة وإن خاشنوه، وفي غير غضب وإن غاضبوه، فالنبي لا يغضب ولكن يهدى فلا يفجؤهم بما لا يحبون، بل يأتيهم بالحق مما يحبون مادام لم يكن باطلا، ولا يكون جافيا في قول أو خلق، ولا يكون غليظا بادی الغلظة، بل يكون ودودا بادی المودة، من غير أن يكون مداهنا في حق، فإن المشركين يودون أن يكون مداهنا في الحق كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۖ﴾ [القلم].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

أمر الله نبيه بأن يبذل غاية الجهد في الدعوة من غير مغاضبة بل بالمودة والملاينة والرفق في القول والعمل، والمجادلة من غير مشاحنة ولا مخاصمة، بحيث يكونون في جانب، وهو في جانب، ولا يظن أنه بذلك يتأكد إيمانهم فإن منهم من يضل، ومنهم المهتدى، وعليه التبليغ، وليس عليه الهداية؛ ولذا قال: ﴿... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ...﴾ [الرعد]، وقال في هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ هذا النص السامي كأنه جواب عن استفهام مقدر في القول: أبعد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن يكون الإيمان لا محالة؟ فأجاب سبحانه: فيهم من كتب عليه الضلال وفيهم المهتدى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يعلم كل شيء لأنه رب الإنسان والوجود ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أى بمن سلك سبيل الضلالة وأوغل فضل ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ونقول: إن أفعال التفضيل ليس على باب؛ لأنه لا مفاضلة بين علم الله وعلم أحد، وإنما الذى يقصد من أفعال التفضيل أن علمه بلغ أقصى درجات العلم فلا علم فوق علمه سبحانه.

ويلاحظ أنه يعبر عن الضالين بالفعل، ﴿ضَلَّ﴾، وعن الذين هداهم الله تعالى ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ للإشارة إلى أن الضلال مخالف للفطرة حادث عارض لها،

ولذا عبر عنه بالفعل الماضى، وأما الهداية فهي الفطرة، ولذا عبر عنها بالوصف الذى يدل على الدوام، فقال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

وإذا لم تكن هداية لا تكون مغاضبة، بل يكون عقاب إن اعتدوا فقال تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾.

هذه السورة سورة النحل مكية كلها، وقيل إن ثلاث الآيات الأخيرة منها، وهى هذه الآية، واللذان تليانها مدنيات، وهى بالمدنيات أشبه؛ لأن المسلمين لم يملكو القدرة على العقاب إلا بعد الهجرة، وبعد أن أذن لهم بالقتال فى قوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠)﴾ [الحج].

فبعد الهجرة والإذن بالقتال يكون للعقاب موضع؛ إذ كانت لهم القدرة، ويكون معنى الآية على هذا، وإن عوقبتهم أى آذوكم على إيمانكم، وهاجموكم فى دياركم وأموالكم، أو أردتم أن تأخذوا منهم حقكم على إيذاء آذوه فعاقبوهم بمثل ما آذوكم، وتسمية فعلكم عقابا هو من قبيل المشكلة اللفظية، فما كان منهم لم يكن عقابا بل كان إيذاء ابتداء اعتدوا به عليكم كما سمي رد الاعتداء من قبيل المشكلة اللفظية فى قوله تعالى: ﴿... فَمَنْ عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾ [البقرة] فما كان دفع الاعتداء اعتداء إنما كان دفع الاعتداء انتصافا.

وما موضع الصبر فى هذه الحال، وقد أقسم الله تعالى بأنه ﴿خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، ونقول: إن موضعه فى أنه لا يجهز على جريح، ولا يقتل النساء ولا الذرية، ولا تنتهك الفضيلة، وفى ألا يبادروهم بالقتال، ولا ينتهكوا الحرمات ولا

يمثلوا بالقتلى كما يمثلون، روى أنه فى غزوة أحد قتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وقد ذكر الرواة فى السيرة أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد.. بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحداً إلا مثلوا به حتى حمزة عم رسول الله ﷺ فقد مثلوا به، فرآه مسبور البطن، فقال: «أما والذى أحلف به لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك»، ولكن أمر بالنهى عن المثلة.

وموضع الصبر أيضا فى أنه إذا تمكن منهم المسلمون يعرضون عليهم الإسلام، كما يعرضونه قبل القتال، كما قال النبى ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب إلى اليمى كل بمفرده: «لا تقاتلهم حتى تعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فخذ من أغنيائهم صدقة وردھا على فقرائهم، فإن لم يسلموا فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم رجلا فإن قتلوا منكم رجلا، فقولوا لهم: أما كان خيرا من هذا أن تقولوا لا إله إلا الله».

ونرى أن الصبر كان له موضع ليس فى الجهاد بل فى تحمل أذى المشركين عسى أن يهتدوا، هذا إذا كانت الآيات الثلاث مدنية، أما إذا كانت مكية فكيف يكون مبادلة العقاب بعقاب مثله، والمسلمون لم يكن لهم قوة بل كانوا يفرون بدينهم مهاجرين أحيانا ومتحملين أبلغ الأذى أحيانا ومنهم من يُكره قلبه مطمئن بالإيمان، والجواب عن ذلك أن المسلمين لم يكونوا جميعا مستضعفين، بل كان فيهم أقوياء وإن كانوا نادرين، كعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب فإنه عندما أسلم عمر ذهب إلى البيت، ونكل بكل من كان فيه حتى إنه كان فيه رجل من المشركين كان قد آذى أبا بكر الصديق فجاء إليه عمر وصرعه، وجلس عليه وأراد أن يققأ عينيه فاستغاث بالمشركين فما استطاعوا إلى عمر سيلا وهو بارك عليه كما يبرك الفحل، وكان قوى الجسم مديد القامة عملاقا.

ويقول على بن أبى طالب فى هجرة عمر: كان المسلمون يهاجرون خفية إلا عمر فإنه عندما هاجر لبس لأمته وشد عنزته ونادى: شأهت هذه الوجوه، وأرغم

الله هذه المغاطس، من أراد منكم أن تشكله أمه، ويستم ولده وترمل امرأته فليلقني وراء هذا الوادى.

وما أظن أنهم كانوا يستطيعون أن ينالوا من حمزة وأمثاله، وإلا ذاقوا بدل الكأس أكثوسا، ولكن الصبر كان خيرا للصابرين، ولكن ما سبب ذلك؟ السبب أمران:

الأمر الأول - أن هؤلاء الأقوياء كانوا قلة نادرة قد ادخرهم الله للشديدة، ولو استرسلوا لتكاثفوا عليهم وأبلغوا في إيذائهم، ولشغلت مكة بهم عن الاستماع لدعوة النبي ﷺ.

الأمر الثانى - أن وقت المغالبة بالقوة لم يحن بل كانت المغالبة بالمصابرة ليثير الصبر على الأذى قلوب ذوى المروءات كما كان يحدث أحيانا، والنبي ﷺ كان أقوى فى شخصه وهيبته من كل هؤلاء، ولكنه لم يفرض هيئته ليدخل الناس فى الإسلام مختارين غير هيايين.

وقد حجب الله تعالى إليه الصبر فقال: ﴿وَلَمَّا صَبَرْتُمْ لَهَوْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ فأكد سبحانه أولا بالقسم، واللام الدالة عليه، وب (لام) القسم الواقعة فى جوابه، وبالضمير (هو)، وبالإظهار فى موضع الإضمار للدلالة على أن الصبر خير فى ذاته لمن يصبرون.

وقد أمر النبي ﷺ فى عامة أموره وفى دعوته، وفيما يلقاه من المشركين فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧).

أمره الله تعالى بثلاثة أمور:

الأمر الأول - الصبر، والصبر فى الناس ضبط النفس وفى النبي ﷺ تحمل الأذى بصدر رحيب، وقلب مطمئن ورضا بالتكليف ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، أى إلا بتوقيفه وعونه وهو نعم العون ونعم النصير.

الأمر الثاني - ألا يحزن على ما يصيب المؤمنين وكفر الكافرين ﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ...﴾ (٨) ﴿[فاطر].

الأمر الثالث - ألا يضيق صدره بمكرهم فالرسالة توجب تحمل كل ما يجيء في سبيل الدعوة، وضيق صدره بما يمكرون بأن يظن أن لمكرهم، أثر أى أثر في دعوته، فالله غالب على أمره.

وختم الله تعالى السورة بقوله تعالت كلماته بأنه مع المؤمنين دائما .

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).

إن الله مع الذين امتلأت قلوبهم تقوى، وجعلوا بينهم وبين غضب الله وقاية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، وأكد إحسانهم بالضمير وبالجمله الاسمية، وهو معهم بالصحة السامية وبالتأييد والنصر وبالعزة لهم في الدنيا والآخرة، والله ولى المؤمنين.

سورة الإسراء

تمهيد:

سورة الإسراء سورة مكية، وعدد آياتها ١١١ إحدى عشرة ومائة آية، وقد قيل: إنها مكية نزلت بعض آياتها بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَاتَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨).

وقد ابتدئت السورة الكريمة بذكر خبر الإسراء والإشارة إلى المعراج في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) وذكر سبحانه أن أهل مكة وبيت المقدس وغيرهم هم ذرية من حملهم الله مع نوح.

ثم بين سبحانه أنه قضى لبني إسرائيل أن يفسدوا في الأرض، ففي الأولى يبعث الله لهم قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار، ثم يجعل الله تعالى لأهل الإيمان من أتباع محمد ﷺ من رد الكرة عليهم، وأمد الله المؤمنين بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا، فإذا جاء وعد المرة الآخرة من فسادهم يدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة، وخاطب سبحانه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿... لِيَسْؤُرُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (٧) ويشير سبحانه إلى أن سبب ذلك فساد أحوال المسلمين، وأنهم إن صلحوا صلحت الأمور، فيقول ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ

حَصِيرًا (٨) ﴿ وَيُشِيرُ سُبْحَانَهُ إِلَى أَنْ خُسَارَةَ الْمُسْلِمِينَ تَرْجِعَ إِلَى تَرْكِ الْقُرْآنِ ، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) ﴾ وبين أحوال الإنسان فقال : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) ﴾ .

ويذكر الله سبحانه المؤمن المدرك بأنه خالق الليل والنهار ليتغنوا فضلا من ربهم، وليعلموا عدد السنين والحساب، ويذكر الله تعالى الناس بيوم الحساب، وأن كل إنسان يكون معه كتابه قد سجلت فيه حسناته وسيئاته ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .

وبين سبحانه أن هلاك الأمم وضعف المسلمين أمام بنى إسرائيل فى جولاتهم الأخيرة سببه الترف والتراخى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ ، وبين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك سنته فى القرون الماضية الذين أهلكهم الله سبحانه، ويقرر سبحانه أن ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا تُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) ﴾ ونهى سبحانه عن عبادة غير الله مع الله ﴿ فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ .

ويأمرنا سبحانه وتعالى أمرا : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ ، ثم يوصى سبحانه وتعالى بالقرابة كلها، وبالتوسط فى إنفاق المال، ولا ينفقه إلا فى خير، ثم ينهى عن قتل النفس وعن الزنا، وأن قتل النفس يجعل للمولى سلطانا فى طلب الدم، ثم ينهى سبحانه عن أن يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده، ويأمر سبحانه بالوفاء بالعهد وبالوفاء بالكيل والميزان،

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، وأمر سبحانه أن: أَلَا يَقِفُ الْإِنْسَانُ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ،
أو ما لا سبيل إلى العلم، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا﴾.

ويعلم الإنسان الأدب واللياقة حتى لا ينفر الناس منه، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) وإن ذلك له في المجتمع
عواقب سيئة مكروهة مقطعة لأوصال الجماعة.

وينهى سبحانه عن أن يكون مع الله إله آخر، ويندد بعادات أهل الجاهلية في
كراهيتهم للنبات ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا
عَظِيمًا﴾ (٤٠) وقد بين الله تعالى تصرفه سبحانه في القرآن ليتذكر الناس ولكنه
يزيدهم نفورا؛ لأنهم يرون فيه قوة الحق، والمبطل المعاند كلما وضحت الحجة نفر
وما اهتدى، ثم يبين سبحانه أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لنزعوه سبحانه
وتعالى في عرشه فيفسد الكون.

ثم ذكر سبحانه تسبيح كل ما في الوجود له، ثم بين سبحانه هداية القرآن
وضلال الناس: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
مَسْتُورًا﴾ (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في
القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (٤٦) نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك
وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا (٤٧) انظر كيف ضربوا لك
الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا (٤٨) وإن الأمر الذي يشغلهم عن الحق هو
كفرهم بالبعث فهم يقولون: ﴿أَنذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾،
فيرد الله تعالى كلام هؤلاء فيقول: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ (٥٠) أو خلقا مما
يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسيفضون إليك
رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا (٥١).

وبين سبحانه أن هذا كله من نزغ الشيطان بينهم، وإن ربكم أعلم بكم إن
يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم، وما أرسلناك (يا محمد) عليهم وكيلا، وقد بين

سبحانه أنه فضل بعض النبيين على بعض، وأتى الله داود زبوراً، وبين سبحانه عجز الأوثان عن كشف الضر، ويصف المؤمنين فيقول تعالت كلماته: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾.

ويضرب الله تعالى الأمثال بالقرى التي فسقت عن أمر ربها، فيقول سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾.

طلب المشركون آيات حسية بدل القرآن، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۝٦٠﴾.

ثم يشير سبحانه إلى قصة الخلق والتكوين ويذكر تكريم آدم بالأمر بالسجود له، وموقف إبليس، ويأمره سبحانه بأن يبذل أقصى ما يملك: ﴿وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصُورَتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُورًا ۝٦١﴾ وبين سبحانه أن عباده المؤمنين ليس للشيطان عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلًا.

ثم بين سبحانه نعمه في البر والبحر وكشف الضر إذ يستغيثون به، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا وكان الإنسان كفورا.

وأشار سبحانه إلى قدرته القاهرة: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٢﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ تَبِيعًا ۝٦٣﴾ أى مطالبًا ينتصر لكم، ولقد ذكر بعد ذلك تكريم الله تعالى لبنى آدم وذكر أن من تكريمهم أن يسعوا، ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَأُولَئِكَ

يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) ﴿٧٢﴾

ولقد ذكر سبحانه وتعالى محادثة المشركين أن يفتنوا محمدا ﷺ عن دينه، وأنه لولا أن الله ثبته لركن إليهم، ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧١)﴾ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٢) ﴿٧٢﴾

ثم أشار سبحانه إلى أن المشركين يستفزون محمدا وأتباعه ليخرجوه ﴿وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويأمره سبحانه بإقامة الصلاة في أوقاتها فيقول: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ ومن الليل فتَهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (٧٩) ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴿٨١﴾

وبعد ذلك ذكر نزول القرآن وأنه يكون تنزيلا وقتا بعد آخر، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ ﴿٨٢﴾

وبين سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان غير المؤمن، حيث يعرض عن الله عند النعمة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ وكل يعمل على شاكلته ﴿وَلَمَّا شَتَنَّا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦)﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) ﴿٨٧﴾ وبعد ذلك بين القرآن وأن الله سبحانه وتعالى يتحدى به الخليقة إلى يوم القيامة.

ولقد ذكر سبحانه أنهم طلبوا آيات أخرى حسية، طلبوا أن تفجر لهم الأرض ينابيع، وأن تكون لهم جنات من نخيل وعنب، أو أن يسقط السماء عليهم كسفا، أو يأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون له بيت من زخرف، أو يرقى في السماء ويرسل إليهم كتابا من السماء.

وكلها آيات مادية حسية، والنبى ﷺ يجيبهم ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

ولقد كان المشركون يعجبون ويقولون أبعث الله بشرا رسولا! فيقول سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥) ويأمر النبى ﷺ أن يجعل الله شهيدا بينه وبينهم.

وإن من يهديه الله فهو المهتد ومن يضلل الله فلن تجد له أولياء من دونه، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِمًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧) ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا (٩٨).

ثم يذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض فهو قادر على أن يخلق مثلهم، ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَبَّ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩) قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لمسكتكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا (١٠٠).

وإن المشركين يلحون فى أن يأتيهم الرسول بآيات حسية، ولا يقتنعون بالقرآن معجزة مع أنه تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فذكر الله تعالى أن الله آتى موسى تسع آيات بينات ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١٠١) قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مشبورا (١٠٢) فهم مع هذه الآيات التسع لم يؤمنوا، فأخرجهم من الأرض فأغرقه الله ومن معه جميعا.

وقد بين سبحانه وتعالى مقام القرآن والرسالة المحمدية، فقال عز من قائل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٣) وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١٠٤) وأنه لا يغض من شأن القرآن إلا من به

أَشْرِكْ: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾.

وكان المشركون يقولون لا نعرف الرحمن، فقال لهم رب العالمين: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا وَابْتَغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

معاني السورة الكريمة

قال الله تعالى:

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

جهدت نفس النبي ﷺ ولم ييأس من رحمة الله عندما ماتت زوجته المواسية الحانية التي كان يسكن إليها بعد لغوب الحياة ومعاندة المشركين وإيذائهم له وللمؤمنين فهي التي واسته عندما نزل الوحي، وذهب إليها يرجف فؤاده، فقالت له: إنك تكرم الضيف وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر، ولن يضيعك الله أبداً، وذهبت برسول الله ﷺ إلى ابن عمها الذي كان على علم بالكتاب فقال له: إن هذا هو الناموس الذي نزل على موسى من قبل، ليتنى أكون فيها جذعا إذ

يخرجك قومك فقال ﷺ: «أو مخرجي هم» فقال: ما أتى قوم بمثل ما أوتيت إلا أخرجوه^(١).

وفى سنة وفاتها توفي الحامى الحانى أبو طالب الذى كان درة^(٢) من قريش، فسمى النبي ﷺ ذلك العام عام الحزن.

وذهب إلى الطائف يعلن الدعوة فى ثقيف عسى أن يكون منهم النصراء المستجيون ولكنهم ردوه ردا قبيحا وأحس أنه فقد المعين، فقال داعيا ربه: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي إلا أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك أو يحلّ عليّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

استجاب الله تعالى لنيه الكريم فأعطاه القوة بالبراهين الحسية التى لا يمارى فيها إلا المثبورون، فشق له القمر ورآه السارون^(٣) فماروا وقالوا سحر مستمر مع أنه رأى رأى العين، وأعطاه الله قوة الحيلة فتحايل للدخول إلى مكة فى جوار بعض القرشيين، فدخلها بين أولاد من نزل فى جواره، وقد خرجوا ليناصروه، وإذا كان فقد العم البار الحانى، والزوجة المؤنسة الواسية الحانية فإن الله تعالى أشعره بأن الله معه ومؤنسه، وكان ذلك بالإسراء والمعراج، فأنسه الله تعالى فى وحشته.

(١) أخرجه البخارى: بدء الوحى- بدء الوحى(٣)، ومسلم: الإيمان- بدء الوحى(٢٣١).

(٢) الدرّة: الحلقه يتعلّم الطعن والرّمى عليها، وكلّ ما استبرّ به من الصيّد ليخدع. القاموس المحيط(درا)، والدرة كذلك.

(٣) سرى: سار ليلا، والسارون: السارون بليل. الصحاح.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (سبحان): اسم فى معنى المصدر، وهو غير متصرف فلا تجرى عليه وجوه الإعراب وليس له فعل، وقد يعده بعض العلماء مصدرا من سبح يسبح تسبيحا وسبحانا، ومعنى هذه اللغة تنزيه الله تعالى وتقديسه وبراءته من كل نقص لا يليق بالذات العلية المكرمة، وقد روى أن طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة سأل رسول الله ﷺ ما معنى سبحان الله فقال: «تنزيه الله من كل سوء»، وصدرت الآية أو السورة بالتسبيح وتنزيه الله تعالى عن كل عيب؛ لأنه سيكون فيها إسراء ومعراج، واتجاه إلى الله واستشراق بالملأ الأعلى فكان لا بد من الابتداء بما يدل على التنزيه عن التجسيم والأغراض التى لا تليق بذاته الكريمة، و(سبحان) منصوبة على أنها مفعول مطلق؛ لأنه فى معنى المصدر أو مصدر كما ذكر.

وأسرى: أى سار ليلا، فالإسراء لا يكون إلا بالليل، وذكر (ليلا) للتبويض فكان التنكير للدلالة على البعضية، فالإسراء كان فى بعض الليل لا فى الليل كله، فما استغرق الليل كله، بل كان فى بعض، وكان ذكر ليلا للإشارة إلى أنه حين يكون السير ليس سهلا، إذ إن الانتقال إلى مكان بعيد لا يكون ليلا، بل يكون نهارا، ولا يكون بعض الليل بل يكون بعض النهار، فذكر «ليلا» للدلالة على موضع الغرابة، أنه كان بأقصى السرعة، وكان ليلا.

وذكر «عبده» فى قوله تعالى ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، للإشارة إلى قربه من نبيه فقد خلص له، ولم يكن بينه وبينه حجاب إلا العبودية، وأضافه إليه سبحانه لمعنى الاختصاص وأنه صار خالصا لله سبحانه وتعالى، وفى ذلك إشارة إلى معنى دعائه ﷺ: «إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي» فقال له ربه: أنت عبدى، أى أنت لى خالصا.

وقد عين ابتداء السير، وانتهاءه فقال سبحانه: ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ فالابتداء من المسجد الحرام لا من مكة كلها، وصحت الرواية

عن النبي ﷺ بأنه أسرى به من الحجر في المسجد^(١)، وقيل إنه أسرى به من بيت أم هانئ بنت أبي طالب، ونحن نرى أن الأولى أن يكون ابتداء الإسراء من الحجر، لصحة الرواية ولأنها التي تتفق مع النص؛ لأن النص ذكر أنه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومكة وإن كانت حرماً آمناً لأجل المسجد الحرام، فليست كلها الكعبة ولا المسجد الحرام.

والمسجد الأقصى هو بيت المقدس، قيل إن الذي بناه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، ومهما يكن تاريخ بنائه فهو مسجد مقدس كما قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: البيت الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا»^(٢).

وهو إحدى القبلتين - أولهما - اتجه إليه النبي ﷺ في مكة، فقد كان في صلاته يصلي متجهاً إليه غير مستدبر الكعبة، ولما هاجر استمر يتجه إلى بيت المقدس وحده نحو ستة عشر شهراً^(٣).

وكان الإسراء قبل الهجرة بعام، وبعد موت أم المؤمنين خديجة، وعمه أبي طالب، وقد ذكرت في أول القول ما كان للإسراء من أثر نفسي في التسرية عن النبي ﷺ.

وقد ذكر الله تعالى بعد المسجد الأقصى وصفا كريما له فقال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، ففيه آثار النبيين من أولاد إسحاق عليه السلام وفيه كانت الإمامة الكبرى بأرواحهم، وقد قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ يريد سبحانه بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وكانت بركته أيضا في أنه إلى هذا الوقت كان قبلة المسلمين.

(١) عن أنس بن مالك يحدثنا عن ليلة أسرى بالنبي ﷺ من مسجد الكعبة... الحديث. رواه البخاري: المناقب - تمام عينه (٣٠٥)

(٢) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، ورواه بهذا اللفظ البخاري: الصوم - صوم يوم النحر (١٨٥٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه، سبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أى يرى رسول الله ﷺ من آيات ربه الكبرى ومن إمامته لأرواح الأنبياء أو للأنبياء أنفسهم قد أحضرهم الله تعالى له بأجسادهم، كما يبعثهم يوم البعث بأجسادهم، وتلك آيات من آيات الله تعالى، وعرج به إلى السموات العلا، كما قال تعالى فى سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾.

هذه آيات المعراج لا نتعجل الكلام فى ذكر معانيها، فنؤجل ذلك إلى الكلام فى معانى هذه السورة التى تصور الرحلة النبوية إلى السموات العلا سواء أكانت هذه الرحلة بالروح فقط أم بالروح والجسد، والله على كل شىء قدير، بقى أن نتكلم فى الإسراء والمعراج أكان بالروح أم بالجسد والروح؟.

اتفق علماء السلف على أن الإسراء كان بالروح والجسد، وأنه كان ليلا، والنبى ﷺ مستيقظ يرى ويسمع، ولذا وصف عير قريش وذكر أنه يتقدمها جمل أورو.

ولم يخالف فى ذلك إلا ما روى عن عائشة وعن معاوية من الذين لقوا رسول الله ﷺ، ونقول: إن عائشة رضى الله عنها ما كانت رُفَّت إلى رسول الله ﷺ وما كانت فى سن تسمح لها بالرواية، إلا أن تكون قد روت ذلك عن غيرها، ولم تذكر من روت عنه، ومهما يكن فهى الصديقة بنت الصديق، ولكننا لا نأخذ برأيها وقد كان رأيا لنا أن نخالفه، وأما معاوية فماله ولهذا وقد كان هو وأبوه ممن كذبوا النبى ﷺ فى أصل الإسراء، فلم يكن وقت الإسراء إلا مشركا ككل المشركين.

ونحن نرى أن الإسراء كان بالجسد في حال يقظة النبي ﷺ فلم يكن في

منام:

أولاً: لأن الله تعالى قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ والعبد جسد

وروح.

وثانياً: أنه وصف لهم ما رأى وعاین.

وثالثاً: أنهم ما كانوا يختلفون عليه لو كانت الرؤيا منامية.

وأما المعراج، فإن بعض العلماء قال: إنه بالروح دون الجسد، وقد قال في

ذلك القرطبي: «قالت طائفة كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وإلى

السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء^(١)، وإننا نميل

إلى هذا الرأي، والله أعلم.

وختم الله سبحانه وتعالى آية الإسراء بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

الضمير يعود إلى الله تعالى، وذكر ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ في هذا المقام للإشارة إلى

أن الله تعالى عليم علم من يسمع بما قيل لك من مشركى قريش وأهل الطائف،

والعليم علم من يبصر بما رد به سفهاء ثقيف وما أوديت به من أذى رق له قلب

بعض المشركين، وهو تعالى مؤنسك فى وحشتك وناصرك فى وحدتك، فإذا

فقدت النصير من أهل الدنيا والمواسى منهم فالله معك، وهو أعز نصير وأرحم

بك.

تنبيهان:

أولهما: أن المشركين عندما كانوا يطلبون آيات حسية كانوا يريدون الإعانت

لا الإقناع، فهذه الآية الحسية قد جاءتهم فزادوا خسرانا، جاءتهم فى الإسراء وشق

القمر، فزادوا كفرا فقالوا: سحر مستمر.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٤/١٠.

ثانيهما: أن بعض الناس يذكرون الإسراء مع ما يقال الآن في الخروج إلى الفضاء والارتفاع إلى السماء وهذا تهجم على المعجزات، إن الارتفاع إلى الفضاء أو القمر أو المريخ بأسباب حسية مادية هي رافعة كروافع لأحمال لا فرق بين صغيرها وكبيرها، أما معجزة الإسراء فهي انتقال من مكان إلى مكان في وقت كان الانتقال يستغرق أربعين يوما من غير سبب ظاهر، أو دفعة حسية بل بسبب آخر وهو قدرة الله تعالى ولا شيء سوى قدرته ولا يوجد مثل هذا الآن ولا في أى زمان إلا أن يكون معجزة، فلا يستطيع ذلك أحد إلا الله العلى القدير الحكيم العليم^(١).

(١) الإسراء والمعراج: (من كتاب خاتم النبيين ﷺ للإمام محمد أبو زهرة - الجزء الأول، ص ٥٩٦ - ٦١٠).

كان الإسراء في السنة التي كانت قبل الهجرة، وروى البيهقي عن ابن شهاب الزهري أنه كان في السنة التي قبل الهجرة، وروى الحاكم أن الإسراء كان قبل الهجرة بستة عشر شهرا. واختلف على ذلك في الشهر الذي أسرى به فيه، فالسدي قال إنه في ذى القعدة، والزهري قال في ربيع الأول.

وروى عن جابر وابن عباس أنهما قالوا: ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات. وفي رواية أن الإسراء كان في ليلة السابعة والعشرين من شهر رجب، ويقول ابن كثير: «وقد اختاره الحافظ ابن سرور المقدسي، وقد أورد حديثا لا يصح سنده، كما ذكرناه في فضائل شهر رجب، وأن الإسراء كان في ليلة السابعة والعشرين من رجب والله أعلم. ومن الناس من يزعم أن الإسراء كان في أول ليلة جمعة من شهر رجب، وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها الصلاة المشهورة، ولا أصل لذلك، والله أعلم. وقد جاء في نهاية الأرب أن الإسراء كان في ليلة السبت، ليلة سبع عشرة من رمضان، قبل الهجرة بشمانية عشر شهرا، وقد أسرى ﷺ به وستة إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر!!

وننتهي من هذا إلى أن علماء السيرة النبوية مختلفون في تعيين اليوم الذي كان فيه الإسراء، ولكن الواقعة ثابتة. وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الطائف، وردهم له الرد المنكر، وأن كونها في ليلة السابع والعشرين من رجب ثبت بخبر لم يصح سنده في نظر الحافظ المحدث ابن كثير، وقال من بعد ذكره: والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد وجدنا الناس قبلوا ذلك التاريخ، أو تلقوه بالقبول، وما تلقاه الناس بالقبول ليس لنا أن نرده، بل نقبله ولكن من غير قطع ومن غير جزم ويقين.

واتفقت الروايات أيضا على أن الإسراء كان قبل الهجرة بستة على الأقل، ويظهر أنها كانت في السنة التي قبل الهجرة في ثلثها الأول أو الأخير والله سبحانه تعالى أعلم.

= ومن سياق التاريخ ومناسبات الحوادث نرى أن الإسراء كان بعد انشقاق القمر.

وهنا قد يسأل السائل ما المناسبة لمسألة الإسراء والمعراج، وتعين الله تعالى لزمانها، والله سبحانه وتعالى حكيم عليم، يضع الأمور بموازينها وفي أوقاتها، وأجلها المعلوم، ولنا أن نتعرف حكمة الله تعالى من غير أن نقطع بأن هذا هو مراد الله تعالى، فهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة في السماء أو في الأرض.

ونحيط عن هذا التساؤل بما قررنا، وهو أن الله سبحانه وتعالى استجاب لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم في ضارته بالدعاء الذي دعا ربه عقب خروجه من الطائف، شكاً ضعف قوته فأمدّه الله تعالى بالقوة، وقلة الخيلة فأمدّه بحسن التدبير لدخول مكة آمناً مطمئناً، وأيده بآية حسية من نوع ما يطلبون، وإذا كانوا لم يستجيبوا لداعى الله تعالى، فلأن المعاند لا يقنعه الدليل، ولو كان حسيماً، فقالوا سحرنا، مع أن انشقاق القمر رآه الركبان في أسفارها، ثم كان من بعد ذلك الأنس بقاء الله تعالى في المعراج، سواء أقلنا إن لقاءه بالله تعالى، كان بالروح في الرؤيا، أم كان بما هو أكثر من الرؤيا (السيرة العطرة للأستاذ عبد العزيز الدين، ونهاية الأرب ج ١٦، ص ٢٨٣، ٢٨٤).

لقد أحسن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشة بعد وفاة الحبيبين خديجة العطوف، وأبى طالب الشفيق. فقال الله تعالى له بالفعل أنس الله أكبر، ورحمته أعظم، وحياطته أكرم، وإن عنايته بك وبرسالتك هي التي ستبلغك أمرك، وتحقق لك شأوك، وتصل بك إلى غايتك، وهو المهيمن الرؤوف الرحيم، لذلك كان الإسراء، ومن بعده عروجه إلى السماء.

والآن نتقل إلى الآيات الكريمات التي صرحت بالإسراء، ثم كانت الإشارة الواضحة إلى المعراج قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء]. ففي هذا النص الإسراء صريحاً، وكانت الإشارة إلى المعراج بقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٢﴾، فقد ذكر المفسرون أن الرؤيا هي المعراج.

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ١١ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦ مَا رَآهُ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ١٨﴾. ولقد قرر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في المعراج، وإن ذلك لواضح، وإذا كانت العبارات السابقة لم تصرح بالعروج إلى السموات العلا فإن الإشارات واضحة تكاد تكون تصريحاً، والإشارات الواضحة في قوة الدلالة تكون كالألفاظ الصريحة.

وقد قال بعض علماء السيرة: إن الإسراء بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ من شعب أبي طالب، وإن كان السند في ذلك صحيحاً، فإنه يشير إلى أن أبا طالب قد مات، وأن مهمته قد انتهت، وأن الله تعالى وهو الباقي الدائم. الأول والآخر والظاهر والباطن به تكون النصرة الدائمة المتجددة في الشدائد - ولكن الثابت في البخارى أنه ابتدأ من الحطيم بالمسجد الحرام (البداية والنهاية ج ٣، ص ١١).

=الإسراء بالجسم: إن ظاهر الآية القرآنية التي أثبتت الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أن الإسراء كان بالجسد والروح؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، والعبد هو الروح والجسد، وما دام الظاهر لا دليل يناقضه من عقل أو نقل، فإنه يجب الأخذ به، فإنه من المقررات أن الالفاظ تفسر بظاهرها إلا إذا لم يمكن حملها على الظاهر لمعارض، ولا معارض.

وفوق ذلك فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أعلن خبر الإسراء بين قريش ففتن بعض الذين أسلموا وارتد من ارتد، ويقول في ذلك ابن كثير فيما رواه عن قتادة: «انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى مكة، فأصبح يخبر قريشا بذلك؛ فذكر أنه كذب أكثر الناس، وارتدت طائفة بعد إسلامها، وبادر الصديق إلى التصديق، وذكر أن الصديق سأل عن صفة بيت المقدس، وقال: إني لأصدق في خبر السماء بكرة وعشيا، أفلا أصدق في بيت المقدس، فيومئذ سمي أبو بكر الصديق.

وإنه روى أنه عند مروره صلى الله تعالى عليه وسلم على غير لقريش فندبهم لهم نافرا، فأرشدتهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى مكانه، وقد أخبروا أهل مكة بذلك (الروض الأنف، ج١، ص٢٤٤).

وإنه روى أن أهل مكة الذين ردوا القول استوصفوه غيرا لهم فوصفها، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم في إخبارهم، والاستدلال على صدقه: «آية ذلك أني مررت بعير بنى فلان، بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حسن الدابة (هي البراق التي سنذكر الروايات عنه من بعد) فندبهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت، حتى إذا كنت بصحنان مررت بعير بنى فلان، فوجدت القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء، قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن غيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم (هو المكان) البيضاء يقدمهم جبل أورق عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى برقاء، فابتدر القوم الثنية... وسألوهم عن الإناء وعن العير فأخبروه، كما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وإن هذا كله يدل على أن الإسراء كان بالروح والجسد، فإن تلاقي مع المارين بين مكة والشام وأخبر عن التلاقي، وصدق خبره ﷺ، وإذا كانت بعض هذه الروايات في إسنادها كلام، فإن بعضها يقوى الآخر، ونص القرآن ظاهر في تأييد الدعوى، بل لا يدل على غيرها حتى يقوم الدليل.

ولو كان الإسراء بالروح أو الرؤيا الصادقة ما كانت ثمة غرابة تمتع التصديق، ولبادر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بإخبارهم إلى أن ذلك رؤيا في المنام، أو هذا وحى أوحى به إليه.

ولقد كان بجوار هذا القول الذي تنطق به الآية الكريمة قول آخر روى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها الصديق، وروى أيضا عن معاوية بن أبي سفيان، وقد كان إبان ذلك هو وأبوه من المكذبين الذين يناوئون الدعوة، ولكن لعلة نقل عن غيره ممن شاهدوا، وعانوا، كما نقلت عائشة عن غيرها، وما كانت في ذلك إلا بان قد رقت إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد كان معاوية مسلما من بعد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها الصديق، واحتج بقول عائشة هذا، وقد أثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أمر بأن يؤخذ الدين عن عائشة.

ولكن الخبر عنها يحمل في نفسه ما يوهم عدم صدقه عنها، ففيه أنها قالت: «لم تفقد بدنه» وإن ذلك يوهم أنها كانت معه في ميّت واحد، مع إجماع المؤرخين والمحدثين على أنه لم يبق بها إلا في المدينة. =

= وقد استدلل أصحاب هذا القول بما روى الحسن البصري عن أن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ وقالوا إن الرؤيا هي ما يكون في المنام، كما حكى عن سيدنا يعقوب: أنه قال لابنه يوسف بعد أن قص عليه ما رآه في المنام: ﴿... لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ...﴾ [يوسف].

وجاء في كتاب البصائر للفيروزآبادي: «الرؤيا ما رأيته في منامك، والجمع رؤى كهدى، وقد تخفف الهزمة من الرؤيا، فيقال بالواو» (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ج ٣، ص ١٧٧). وهذا وغيره نصوص صريحة فى أن الرؤيا مناسية. ولكن أهى كانت فى الإسراء أم كانت فى المعراج؟ إن رواية الحسن رضى الله عنه تقول: هى ما كان فى ليلة المعراج، نعم إن الليلة كانت واحدة، ولكن النص على ليلة المعراج يدل على أن كلام الحسن ومن معه فى المعراج لا فى الإسراء.

ويستدل أصحاب هذا القول، وهو أن الإسراء كان بالروح بحديث البخارى عن أنس بن مالك قال: ليلة أسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم فى المسجد الحرام. فقال أولهم: أيهم هو، قال أوسطهم: هذا، وهو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم... فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عينه ولا يتنام قلبه، وكذلك الأنبياء تمام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، ولم يكلموه حتى احتملوه فوضعوهم عند زمزم، فتولاه منهم جبريل... والحديث طويل وقال فى آخره واستيقظ وهو فى المسجد الحرام، ويرى صاحب الروض الأتف أنه نص لا إشكال فيه. ونرى أن فيه إشكالا؛ لأنه نص فيه على أنه كان قبل أن يوحى إليه، ونرى أنه لم يتعرض لذكر الإسراء والمعراج، ولعلها كانت إذا صحت الرواية فى موضوع آخر.

ويرى صاحب الروض الأتف أن الأدلة قد تعارضت بالنسبة للإسراء، وأنه يوفق بينها بأن الإسراء كان مرتين: إحداهما بالروح والأخرى بالجسد والروح.

ونحن نرى أن الأدلة لم تتعارض، بل الأدلة على أن الإسراء كان بالجسد والروح هى التى لا ريب فيها، ولا يمكن أن يعارض الضعيف القوى.

ولذا نرى أن الإسراء كان بالجسد والروح، ولا نجد فيما استدلل به على ما يدل على أنه كان بالروح فقط، وإن الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ لا نرى أن موضعها هو الإسراء، بل إن موضوعها هو المعراج.

ولا غرابة فى أن يتقل الله تعالى نبيه من مكة إلى بيت المقدس وأن يعود به فى ليلة واحدة، فإن هذا ليس يبعد على الله تعالى؛ لأن المسافات فى الزمان والمكان، إنما هى بالنسبة للعبيد، ولا تكون قط بالنسبة لله سبحانه وهو القادر على كل شىء، وهو خالق الأماكن والأزمان.

المعراج بالروح: إن الأكثرين من العلماء على أن المعراج كالإسراء كان بالجسد والروح، وأخذوا ذلك من ظواهر الأحاديث الصحيحة التى روتها السنة، ففيها التصريح بأنه لقي آدم فى سماء، وإبراهيم فى مثلها وإدريس، وعيسى ويحيى وموسى، وهذه الظواهر آثروا الأخذ بها.

ولكن أولئك الأكثرين وقفوا عند رؤية الله تعالى، فسقال فريق منهم إنه رأى ربه وخاطبه، وكان ذلك تكريما له لمخاطبة الله تعالى اختص به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتقريبا له، وهو فوق=

= المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾ (٥١) [الشورى] وليس من هذه الثلاثة رؤية الله تعالى، وتلقى الرسول منه مباشرة من غير حجاب.

وقد رأى ذلك الراى الإمام أحمد بن حنبل وقاله أيضا أبو الحسن الأشعري، وقالت طائفة أخرى لم يقع ذلك لحديث مسلم عن أبى ذر رضى الله تبارك وتعالى عنه: «قلت يا رسول الله هل رأيت ربك فقال عليه الصلاة والسلام إنه نور أنى أراه، وفى رواية رأيت نورا».

والذين قالوا إن الإسراء كان بالروح وفى رؤيا صادقة قالوا ذلك فى المعراج، بل هو أولى، فالرحلة كلها كانت رؤيا صادقة، وقد بينا القول فى أدلة هذا الراى بالنسبة للإسراء من قول.

وقد انضم إليهم غيرهم ممن يرون أن الإسراء كان بالجسد والروح، فمنهم من قال إن المعراج كان بالروح وليس فى الموضوع نص قرآنى يدل بظاهره على أنه كان بالجسد والروح، حتى لا يكون مناص من اتباعه أو تأويله، بل نجد اللفاظ تقبل أن يكون المعراج بالروح، وبالظاهر المتبادر، لا بالتأويل المتزعزعا.

ولننظر فى الآيات الكريمات الدالة على المعراج:

دلالة آية الإسراء على المعراج بالإشارة لا بالعبارة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فتلك الآيات التى أراها الله عبده هى المعراج، وإمامة الأنبياء السابقين.

والآيات الأخرى التى دلت على المعراج، كانت ألفاظها لا تدل على المعراج إلا بالإشارات البيانية، ولننظر فيها عبارة عبارة، وكلها من السمو البيانى فى المكان الأعز الذى لا يصل إليه بيان قط.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦)﴾ [النجم]، فقد قالوا إنه جبريل عليه السلام، وإذا كان الله تعالى، فتعليمه ل يكون بالتلقين بل يكون بالإرشاد والإحياء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)﴾ [النجم]، يراد جبريل عليه السلام، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨)﴾ [النجم]، أى نزل وقرب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (٩)﴾ [النجم] عن طريق جبريل، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٠)﴾ [النجم]، وهو جبريل أيضا، وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١)﴾ [النجم] تومىء إلى أن الآيات الكبرى التى رآها كانت بفؤاده لا ببصره، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٢)﴾ [النجم]، أى ما كل وما تجاوز حده، والتقى فيه ما قد يكون لأنه لم تكن رؤية بالبصر، حتى يكل المبصر أو يتجاوز حده، وقد يكون لبيان أن البصر لم يتجاوز حده ليطغى، ويحاول أن يرى ما لا يمكن أن يراه، ويزيغ بأن يكل ويميل، ويلقى فى النفس ما لم ير.

وإننا عند هذا النظر الفاحص ننتهى إلى أن الإسراء إذا كان بالجسد والروح، فإن المعراج كان بالروح فقط، وأنه كان رؤيا صادقة، وقد اتجهنا إلى ترجيح ذلك لما يأتى:

(١) أنه ذكر فى المعراج أنه التقى بالأنبياء آدم وإبراهيم وموسى ويحيى، وغيرهم، والباقي منهم هو أرواحهم، وأجسامهم سيعبثها الله تعالى يوم البعث والنشور، وفرض أنه بعثها ثم أفناها فرض بعيد لم يذكر فى حديث من الأحاديث، ولا خبر من الأخبار، ولو ضعيفا، وكل فرض فى أمر غيبى لا دليل عليه من المنقول فهو رد على قائله إلا أن يكون أمرا يؤدى إليه البرهان العقلى، ولا يوجد شىء لا من المنقول ولا المعقول يقرر إعادة أجسام الأنبياء الكرام أحياء، ثم إعادتها إلى الفناء.

.....

= (ب) إن العبارات القرآنية الواردة في المعراج تومئ بل تصرح بأن الأمر في هذه الرحلة السماوية كان روحياً وأن الإدراك لم يكن بالحس، بل كان بالقلب والفؤاد، فالله تعالى يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢) [النجم]، فالحديث القرآني كله كان في إثبات رؤية الفؤاد، وأنه لا تجوز المماراة فيما رأى الفؤاد الذي لا يكذب، وذلك لا يتحقق إلا بأن تكون الرؤية روحية؛ لأن رؤية القلب لا تكون إلا روحية، وأنه عندما ذكرت حاسة البصر ذكرت بالنفى، لا بالإيجاب، وقد بينا مؤدى النفي في هذا.

(ج) أن أخبار المعراج تصرح بأنه رأى ربه، والرؤية القلبية باستحضار عظمته، وبالسبحات الروحية المتجهة إلى الله سبحانه وتعالى، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه لم ير ربه في حديث أبي ذر الغفاري، فقد قال عليه الصلاة والسلام في إجابة سؤال الصحابي الجليل أبي ذر: «إنه نور، فأني أراه». إننا لا نتعرض في ذلك لكون رؤية الله تعالى يوم القيامة ممكنة، أو غير ممكنة، فذلك يوم القيامة بعد البعث والنشور، وذهاب أهل الجنة إليها، وإبقاء أهل النار فيها، فإن الكلام فيها غير الكلام في الدنيا، ونحن نحس ونرى، فإن كانت رؤية الله الآن فهي بالعين الفانية، ورؤية أهل الجنة عند من يشبونها تكون بالعين الباقية، والله أعلم كيف يرى.

ونتتهى من هذا إلى تقرير حقيقتين نراهما:

الأولى: أن الإسراء كان بالجسد والروح بظواهر النصوص المثبتة، ولا معارض لها.

الثانية: أن المعراج كان بالروح فقط لعدم وجود الأدلة المثبتة أنه كان بالجسد والروح من القرآن، ولوجود المعارض من النقل والفعل.

والآن نعود إلى قصة الإسراء والمعراج كما هي في الصحاح على أن نفسير الألفاظ على ضوء هاتين الحقيقتين اللتين قررناهما.

الإسراء والمعراج في صحاح السنة: كان من الممكن أن نقف بالنسبة للإسراء والمعراج عند هذا الذي قررناه، ولكن يجب أن نستأنس بالنقول عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على أساس أن كل ما ذكر في المعراج أنه بالروح.

وقد رويت روايات مختلفة تتعلق بواقعة الإسراء ثم العروج، نختار منها رواية البخاري.

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال:

«بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحجر - مضجعاً إذ أتاني آت، وسمعته يقول: فشق ما بين هذه إلى هذه، فقلت (أي الراوي) للجارود وهو إلى جنبى ماذا يعنى به، قال من نقرة شعره إلى شعرته، وسمعته يقول من قصه إلى شعرته. «فاستخرج قلبي، ثم آتيت بطشت من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي، ثم حشيت، ثم أعيدت... ثم آتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال الجارود، وهو البراق: قال أنس: نعم. يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبرائيل، حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح قيل من هذا؟ قال: جبرائيل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجرى جاء. ففتح، فلما خلصت فإذا، آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام فقال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثانية، فاستفتح، قيل: من=

.....

«هذا؟ قال: جبرائيل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت، إذا ييحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا ييحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت عليهما فردا ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبرائيل: قيل من هذا؟ قال: جبرائيل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه! قال: نعم قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بى إلى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟، قال: جبرائيل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا إدريس، قيل: فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل، وقد أرسل إليه! قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا بهارون، قال: هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل، وقد أرسل إليه! قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، فلما تجاوزت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى؛ لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من أمتى.

ثم صعد بى إلى السماء السابعة، فاستفتح جبرائيل، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل، وقد أرسل إليه! قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت، إذا إبراهيم. قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم رفعت إلى سدة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: أما الباطنان فهنيران فى الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات، ثم رفع لى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن. قال: هى الفطرة التى أتيت عليها أمتك.

ثم فرض على الصلوات خمسون صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإنى والله قد جربت الناس قبلك، وعابجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك، فسله التخفيف لأمتك فرجعت، فوضع عنى عشرا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله. فرجعت، فوضع عنى عشرا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟،

.....

=فقلت: بخمس صلوات كل يوم. قال: أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإنى قد جريت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحيت، ولكنى أَرْضَى وأسلم، قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فرضيت وخففت عن عبادى.

وفى رواية البخارى فى كتاب التوحيد أنه بعد أن راجع به بمشورة موسى عليه السلام، وجاء فى مراجعة الخامسة أنه قال لربه: «يا رب إن أمتى ضعفاء وأجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأذنانهم، فخفف عنا، فقال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد، قال: لبيك وسعديك. قال: إنه لا يبدل القول لدى، كما فرضت عليك فى أم الكتاب، قال: لكل حسنة بعشر أمثالها، فهى خمسون فى أم الكتاب هى خمس عليك» (البداية والنهاية جـ ٣ والتفسير لابن كثير أول سورة الإسراء).

وإنه من المتفق عليه بين العلماء أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمّ الأنبياء جميعا، وعلى مقتضى الذين قالوا إن الإسراء كان بالروح تكون الإمامة روحية ثبتت بالرؤيا الصالحة، وكذلك يرى الذين قالوا إن المعراج كان روحيا.

ولكن من الرواة ما يدل سياق روايته على أن صلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالأنبياء إماما كان مقدمه إلى المسجد الأقصى، ومن الرواة ما يدل سياق الرواية على أن الإمامة كانت وهو يعرج إلى السموات العلا.

واختار ابن كثير فى تاريخه أن إمامته للأنبياء كانت بعد أن نزل من العروج، ويقول فى ذلك: «وهبط رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بيت المقدس، والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريما له وتعظيما، عند رجوعه من الحضرة الإلهية العظيمة، كما هى عادة الوافدين، لا يجتمعون بأحد قبل الذين طلبوه إليه، ولهذا كان كلما سأل على واحد منهم يقول له جبريل: هذا فلان فسلم عليه، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده ما احتاج إلى تعرفه بهم مرة ثانية، وما يدل على ذلك أنه قال ﷺ: «فلما حانت الصلاة أممتهم، ولم يجر وقت إذ ذاك إلا صلاة الفجر، فتقدمهم إماما بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربه عز وجل» (البداية والنهاية جـ ٣، ص ١٣).

وإن هذا الكلام يدل على أن إمامة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للأنبياء كانت بعد أن تنزل من الأفق الأعلى، وإن المعراج كما انتهينا كان بالروح، وكانا رؤية صادقة.

هذه قصة الإسراء والمعراج، كما نص عليها فى القرآن، وكما جاءت بها السنة الصحيحة، وقد ذكرناها بشيء من الإطناب، لكثرة الكلام حولها، واختلاف الروايات، فكان لا بد من أن نضفى القول فيها. وخصوصا أنها وانسحاق القمر أعظم خوارق للعادات الحسية التى كانت فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومع ذلك لم يتحد بها كما تحدى بالقرآن الكريم؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنما تحدى بما يتناسب مع خلود شريعته، ودوام رسالته وهو ما يبقى مخاطبا الأجيال كلها إلى يوم الدين، وهو القرآن الكريم.

بعد أن ذكر بيت المقدس ذكر موسى الذي أراد أن يدخل الأرض المقدسة فقعده بنو إسرائيل، وقالوا مقالة الجبن والندالة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة].

قال الله تعالى:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (٢).

إن الواو هنا عاطفة وعطف ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ على ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ ويكون المعنى أكرم الله محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، وجعله حجة على الناس، إذ يكفرون بالآيات وقد طلبوها، وأكرم موسى بالكتاب أتاه فيه الشرائع، ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أى كفيلاً، أو ربا تكلون إليه أموركم، أو ولياً ونصيراً.

وإن هنا على قراءة التاء ﴿تَتَّخِذُوا﴾ تفسيرية، أى هو ألا تتخذوا من دونه ولياً، وهناك قراءة بالياء (يتخذوا)^(١) وعلى هذه القراءة يكون المعنى جعلناه هدى لبني إسرائيل فلا يتخذوا من غير الله وكيفاً أى ولياً ورباً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا...﴾ [آل عمران].

وأنه بهذا العطف يتبين أن شرائع الله متصلة وأن أنبياء الله تعالى مكرمون، كما أن الإسراء جمع النبيين عند بيت المقدس فقد جمعهم الله تعالى فى التكريم هذا بالكتاب والإسراء والمعراج، وذاك بالكتاب الذى كان هداية لبني إسرائيل ألا يتخذوا شريكاً، ثم بين سبحانه وتعالى صلة الأنبياء من عهد نوح فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

(١) (ألا يتخذوا) بالياء غيباً: قراءة أبى عمرو، وقرأ الباقون بالتاء خطاباً. غاية الاختصار: ٥٤٤/٢.

هذه الآية الكريمة موصولة بما قبلها للدلالة على أن النبوة متصلة متحدة في غايتها، وفي نهايتها، ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ﴾ منصوب على الاختصاص والمعنى نخص بالذكر ذرية من قد حملنا، ويصح أن تكون نداء، والمعنى يا ذرية من قد حملنا مع نوح، والخطاب لأتباع محمد أو من بعث فيهم محمد ﷺ وبنى إسرائيل، وإنه قد أكد سبحانه وتعالى أنهم من ذرية من حمل مع نوح، وكان الذين حملوا مع نوح في السفينة هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ولم يكونوا مشركين، كما قال تعالى عند النجاة فوق السفينة، ﴿...وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠) [هود].

والمعنى أن أصلكم قد اختاره من بين المشركين ليكون الإيمان هو الباقي، وقد كرم الله من تبع نوحا، والذين آمنوا به بتكريم نوح وذكر فضله فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، الضمير يعود إلى نوح عليه السلام، وذكر له سبحانه وصفين كريمين:

الوصف الأول: أنه كان عبدا يحس بنعمة العبودية لله تعالى فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعا لله سبحانه وتعالى، والخضوع لله تعالى وحده هو العزة التي لا ذل فيها ولا استكبار.

والوصف الثاني: أنه شكور، أى كثير الشكر لله تعالى على نعمائه في سرائه وضرائه، جاء في الكشف للزمخشري ما نصه: «إنه كان إذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى، ولو شاء أجاعنى، وإذا شرب قال: الحمد لله الذى سقانى، ولو شاء أظمأنى، وإذا اكتسب قال: الحمد لله الذى كسانى، ولو شاء أعرانى، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذى حزانى، ولو شاء أحفانى، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذى أخرج عنى أذى فى عافية، ولو شاء حبسه»، وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به، فإن وجدته محتاجا أثره».

وسواء صحت نسبة هذه المعانى إلى أبى البشرية الثانى أم لم تصح فإن هذا الكلام يدل على أن فى كل أمر من أمور الإنسان نعمة توجب الشكر .

وإن ذكر هذه الأوصاف لنوح عليه السلام فيه تعليل لشرف الاتباع له وبيان أن من حملهم معه جديرون بالتكريم ، وفيه مع ذلك دعوة لأن يجعلوه أسوة فقد جعله من حملهم معه أسوة لهم فاتخذوه أيضا أسوة .

بعد ذلك بين الله ما فعله بنو إسرائيل فى المسجد الأقصى ، فقال عز من

قائل :

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَنْفُسِكُمْ وَلَئِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْأَخِرَةِ لِيَسُئَرُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عُلُوًّا تَبِيرًا ﴿٧﴾
عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عَدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾

بعد أن ذكر سبحانه مكانة بيت المقدس وأنه مَسْرَى النبى صلى الله عليه وسلم ومنه عرج بروحه إلى السموات العلا ذكر سبحانه ما صنعه بنو إسرائيل حوله ، وما صنع به

فى حكمهم حتى أسلموه إلى غيرهم، أو انتزعوه منهم، وجاء الإسلام فأنقذه من أعدائهم، وكان فى المسلمين قوة، وكان الإيمان قوتهم، فلما ضعفوا وهانوا كان الحكم من غيرهم، فأذاهم فيه النصارى أولاً ثم تدرع اليهود بدرع غيرهم وتنمروا.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أى تقدم إليهم فى كتابهم الذى نزل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر] وقيل أوحينا إليهم علماً مقطوعاً مبتوتاً، ولا شك أن الوحى هنا توجيه نفسى، وتصريف للقلوب؛ لأنها غوت وضلت، وما كان الله تعالى يوحى بفساد وإنما هو من إغواء الشيطان. والكتاب هو ما قدره الله تعالى فى اللوح المحفوظ.

وقد التفت سبحانه وتعالى فى تصريح بيانه الحكيم من الغيبة إلى الخطاب فقال: ﴿لُتْفُسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وهذا موضع الإعلام الذى هو معنى ما قضاه الله وتقدم به إليهم فى لوحه المحفوظ، واللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة التى تقترن بالقسم وجوباً، والقسم من الله تعالى تأكيد لوقوع الأمر، كما أقسم سبحانه وهو أنهم «يفسدون فى الأرض مرتين» وذكر سبحانه أن فسادهم تكون عاقبته أنه يعم الأرض، أى أرض بيت المقدس، أو يسرى فى الأرض التى تقاربه، أما ما حول بيت المقدس فهو مبارك ببركة الله تعالى، كما قال فى أول السورة: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، والفساد بان لهم، ممن على شاكلتهم فى الأرض، وقال سبحانه وتعالى مقسماً: ﴿وَلِتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فقرن علوهم بفسادهم، وذلك لما استمكن فى قلوبهم من الحسد والحقد، وإن اقتران علوهم بالفساد يفيد أمرين:

الأمر الأول: أن علوهم يعقبه طغيان، والطغيان يعقبه الفساد.

الأمر الثاني: أن علوهم فيه اعتداء فاجر فاعتداؤهم بقتل الأنبياء وأكلهم الربا والسحت وأن يقتل بعضهم بعضاً، ويلاحظ أنه ذكر الفساد مرتين، ولم يذكر عدد العلو لأنه لا عدد له إن وجدت أسبابه.

ووصف الله تعالى علوهم بأنه يكون علواً كبيراً؛ وذلك لأنه يكون على أيدي أنبياء، وسرعان ما تعود إليهم نفوسهم الأئمة فيقتلون ما أعلاهم به الأنبياء إلى فساد وانحراف، ألم تروه بعد أن أنقذهم الله تعالى من فرعون، وأغرقه وملاه رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ﴿... قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ...﴾ [الأعراف]، وعبدوا العجل في غيبة موسى وقد ذهب على موعد من ربه.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ (٥).

أولاهما: هي المرة الأولى التي يفسدون فيها، وأكد الله تعالى الإفساد فيها في ضمن تأكيد الإفساد مرتين.

﴿وَعَدُ﴾ معناها - ميعاد - وعبر سبحانه وتعالى بوعد دون التعبير بميعاد؛ لأن ميعاد اسم للزمن، ويتضمن الوعد؛ وذلك لأن المصدر فيه إيدان بتوكيد ما وعدهم الله به، وقد قرن سبحانه وتعالى فساد المرة الأولى ببعث الجيوش المخربة الهادمة أو المذلة لهم أو المذهبة لاستقلالهم.

وقد جعل سبحانه ﴿بَعَثْنَا﴾ جواب شرط لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ وهي المرة الأولى للفساد، وهذه القضية الشرطية تفيد أن الفساد في الأمم يتردى إلى أن تكون نهبا للمغيرين عليهم، وأن الحصن الحصين لمنع غارات المغيرين هو استقامة الأمة في ذات نفسها وإقامة العدالة والحكم بالأمانة والعدل، وأما فسادها فإنه يؤدي إلى الانهيار وأن تكون طُعْمَةٌ للمغيرين يجدون فيها مغنم يغنمونها.

وقوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ وعبر سبحانه بـ ﴿بَعَثْنَا﴾، أى أنهم جاءوا إليهم كأنهم مبعوثون لهم مسلطون عليهم، وأسند سبحانه البعث إلى ذاته العلية؛ لأنه جاء على سنة الوجود التى سنّها، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهو أن الفساد يغرى بالهجوم على الفاسدين، ولأن المغالبة الإنسانية تجعل القوى ياكل الضعيف ولا ضعف أكثر من استشرء الفساد فإنه يهدم كيانها ويعرضها للفناء، سنة الله تعالى فى الوجود.

وقال تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ هنا إشارتان بيانيتان:

الإشارة الأولى: أنه عبر بـ (عباد) وذلك إشارة إلى أنهم خاضعون لإرادة الله تعالى فيهم.

والإشارة الثانية: إضافتهم له سبحانه وتعالى بما يفيد الاختصاص، ومؤدى ذلك أن الله جعلهم له لا لأجل العبودية والطاعة، بل ليكونوا آلة تأديب وتهذيب لمن يخرجون عن الهداية ويقعون فى الفساد، وهؤلاء الجبارون هم طُغمة لغيرهم إذا فسدوا، وهكذا يتدافع الشر، ويدفعه أخيرا الخير، ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة].

ووصف سبحانه وتعالى أولئك العباد، بأنهم ﴿أُولِي بَاسٍ﴾، البأس: القوة، و﴿شَدِيدٍ﴾، أى فيه بطش وعتو، ولا يرحمون أعداءهم وقد نزعت منهم النواحي الإنسانية العاطفة كالتر فى طغيانهم، وإذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

وإنهم فى حروبهم لا يقنعون بأماكن الجند ومعسكرات الحرب، بل يدخلون المدائن ويجوسون خلال دورها، ويتردون خلال هذه الدور، وفى ذلك إشارة إلى أنهم يقتلون النساء والذرية والضعفاء من العجزة فلا يعرفون قانونا مانعا، ولا نظاما حاجزا، إنما شهوتهم إلى الدماء والمجازر البشرية.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن ذلك كان وعدا مفعولا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، أى كانت غارات هؤلاء الغلاظ الأشداء وعدا؛ لأنه

بمقتضى السنة الإلهية أن من كان فاسدا من الجماعات والأمم يكون فريسة لمن هم أقوى قوة، وأكثر عددا وأشد بأسا، ووصف سبحانه وتعالى الوعد بأنه مفعول، أى واقع وقائم، ومنجز لا يتخلف الإغارة عن الفساد، كما لا يتخلف السبب عن سببه، ولا المقدمة عن نتيجتها.

هذه هى المرة الأولى من الفساد التى ادلهمت على بنى إسرائيل بسببها المدلهمات ونجوا منها بقيادة داود عليه السلام، إذ قتل داود جالوت، كما ذكر القرآن الكريم على بعض الأقوال، ولنشر بكلمة نقبض منها قبضة يسيرة من تاريخهم.

لقد ثبت فى تاريخهم أنه بعد أن قتل داود جالوت، وآتى الله داود حكم بنى إسرائيل ثم خلفه من بعده ابنه سليمان واتسع ملكه واستولى على اليمن، وقدمت إليه ملكتها وسخر الله تعالى له كل شىء. جاء من ذريته من كان سببا فى انقسام الاثنى عشر سبطا، إلى سبطين سيطرت فى حكمهما الوثنية، والعشرة الآخرون ترددوا بين الوثنية أحيانا قليلة والوحدانية أحيانا كثيرة، واستمرت مملكة بنى إسرائيل نحو من ألف وخمسين ومائتى سنة، وفى نهاية فسادهم أغار عليهم ملك آشور وفتح السامرة وأغار على السامرة وسباهم إلى آشور وأحل محلهم قوما من بلاده.

وبعض من الأسباط الذين انفصلوا استمر ملكهم أمدا حتى انقض عليهم - بختنصر - ملك بابل فسباهم وقتل من قتل وحرقت التوراة وبذلك انقرضت مملكة بنى إسرائيل وأقام اليهود فى بابل.

ثم جاء الإسكندر المقدونى ومن بعده، والإسرائيليون أحيانا يكونون تحت حكم غيرهم وأحيانا تحت تسلط سوريا.

ثم استولى الرومان على أرض فلسطين وجرت بينهم وبين الرومان حروب انتهت إلى تسلط الرومان عليهم.

هذه قبضة يسيرة من تاريخهم ثم نعود إلى القرآن.

قال الله تعالى :

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ﴾ (٦).

أكثر المفسرين على أن الخطاب لبني إسرائيل وعلى أن الكُرَّة التي كروا بها على أعدائهم كانت في عهد داود عليه السلام، وأن السلطان آل إليهم وتوطد في عهد سليمان عليه السلام، كما قال تعالى : ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۖ﴾ (٢٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٢٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٢٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴿[ص].

وإن ذلك بلا ريب واضح ولكن مؤداه أن بني إسرائيل تمكنوا في الأرض من بعد انتصار داود على جالوت ولم يكن منهم فساد من بعد، مع أن النص القرآني أثبت أنهم أفسدوا مرتين فما هو الفساد الثاني؛ وإذا لم يكن فساد ثان، أو مرة ثانية فهل تكون الآية غير صادقة! معاذ الله، إنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولذلك نذكر رأياً نميل إليه، وهو أن قوله تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ ويكون في الكلام التفات من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب محمد وأصحابه، ورد الكُرَّة للنبي ﷺ معناه رد الدولة إليه ﷺ، وقوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، والنفير من ينفر مع الرجل من جند وجيش، وقد كان مع محمد وصحبه الأكرمين الأموال من غنائم الحروب والجند الكثيف، والبنون الذين جاءوا من ذرية المؤمنين.

وقد سوغ لنا أن نقول: في هذا القول أمور:

الأمر الأول: تحقيق الفساد من بني إسرائيل مرتين، وأنه لا يتحقق الفساد في المرة الثانية إلا بدخولهم المسجد كما دخلوه أول مرة، وأنهم ما أخرجوا منه في المرة الأخيرة إلا في عهد الرومان.

الأمر الثاني: أن المرة الثانية هي التي دخلوا فيها المسجد مرة ثانية وخربوا ما علوا تخريباً وذلك ما أضافه المسلمون إلى المسجد.

الأمر الثالث: أنه لا يمكن أن يكون المخاطبون اليهود؛ لأنهم ما ساءت وجوههم بدخول المسجد بل ساء وجوه غيرهم، وهم الذين يعلمونهم ساسة المسلمين، وخصوصاً ساسة العرب، وبالأخص ساسة مصر والأردن.

الأمر الرابع: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ لا يمكن أن يكون لليهود إنما يكون للمسلمين لينشطوا من عقال وليرتفعوا بعد عزة، وليذهبوا المذلة.

يقول عز من قائل:

﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (٧).

الخطاب للمسلمين، حثا لهم على أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الذل والعار ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، لأنه يزيل العار ويجلب الفخار، والإحسان إجابة العمل، والاستعداد لإخراج الأشرار من المسجد وتطهيره من طغاة أهل الأرض ورفع المذلة عن أهل إعادة مسرى النبي ﷺ إلى المؤمنين.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، وإن أسأتم فمغبة الإساءة عليكم، وقال سبحانه: (لكم)، ولم يقل عليكم؛ للإشارة إلى تمام التبعة، فكأنهم الذين اجتلبوها لأنفسهم كأنهم طلبوها وأرادوها، بكسلهم وفساد نفوسهم، وتفرق أمرهم وتركهم المعانى الإسلامية مفترطين فى أمرها، بل مفترطين فى أنفسكم لأنه لا قوة لكم إلا بها.

والفاء فى قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾، بعد قوله ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فاء الترتيب والتعقيب. والمعنى «فإذا جاء وعد الآخرة بعد أن أسأتم، ليسوءوا وجوهكم» (ليسوءوا): متعلق بفعل محذوف تقديره جاءوا أى جاءوا ليسوءوا وجوههم، وعبر بالوجه لأن الوجه تبدو عليه مظاهر السوء والكآبة والحزن،

ومعالم العار والخزى من أتباع محمد الذين يدينون بدين العزة والكرامة، والبعد عن الذل والمهانة، وليدخلوا المسجد كما دخلوه، أى ليدخلوه بعد أن أخرجوا منه، إذ أخرجهم الرومان، وأخرجهم المؤمنون فكان من عهد عمر لأهل إيلياء ألا يدخل عليهم اليهود، وقد دخلوه أول مرة حتى أفسدوا فيه، فأخرجهم منه على أيدي النصارى والمسلمين، ﴿وَلْيَتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتَبَرُّوا﴾ التبرير: التخريب، أى مدة علوهم وغلبهم يخربون كل قائم، ويحرقون ويدمرون مدة علوهم وبقائهم فى أرض الله المقدسة، ما بقوا فيها.

وقد قال الله تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (٨).

الخطاب أيضا للمؤمنين ولا يتصور أن يكون لليهود لأنه دعوة إلى الهمة، والأخذ فى أسباب النصر واستنقاذ أرض الله المقدسة من أيدي طغمة اليهود، ومن يعاونونهم من وحوش الأرض الذين لا دين لهم ولا خلق، ولا أية ناحية من النواحي الإنسانية، والرجاء فى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ من الناس، ومعنى الرجاء منهم أن يتخذوا الجهاد سييلا، ويعدوا القوة، ويتسربلوا بالصبر والإقدام، عندئذ يرحمكم الله تعالى بالنصر والتأييد، ﴿وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا﴾، أى وإن عدتم بالإيمان والصبر وإخلاص النية والجهاد لاستنقاذ الأرض الطاهرة عدنا إليكم بالنصر والتأييد والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

ثم ذكر أن اليهود الذين كفروا بالله وقتلوا الأنبياء لهم جهنم فقال تعالى كلماته: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى بساطا مفروشا يتقلبون عليه من جانب إلى جانب، فهو فراش لهم يتقلبون عليه بجنوبهم وفى مضاجعهم، وهو جزاؤهم، وللمؤمنين النصر إن أخذوا فى أسبابه.

القرآن يهدي

قال الله تعالى :

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
 الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾
 وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾
 وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٣﴾
 وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنَاءُ آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
 النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
 السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿٤﴾

ذكر الله تعالى قصة الإسراء، وهى فى ذاتها معجزة حسية مادية لا تقل عن معجزة إحياء الموتى بإذن الله، وقارنها فى الزمن معجزة شق القمر، وإنه انشق قسمين رآه أهل مكة، ورآه المسافرون، ومع ذلك ازدادوا كفرا، وقالوا: ﴿... سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر] وفى معجزة الإسراء ازدادوا كفرا.

ودل هذا على الخوارق التى تحدث ثم تنقضى ولا تدوم لا تكون لخاتم النبیین الذى تكون حجته دائمة بدوام دعوته، واستمرار هدايته، ولا يكون ذلك إلا لقرآن يتلى، ويكون حجة دائمة لا تنقضى؛ لأن محمدا ﷺ خاتم النبیین يتحدى الإنسانية كلها بالمعجزة الكبرى التى تتضاءل عندها كل المعجزات من قبل، وهى القرآن، فقال تعالى بعد الإسراء وما تبعه:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ .

الإشارة ﴿هَذَا﴾ كانت بالقرب، ولم تكن بالبعيد للإشارة إلى قربته من المؤمنين، وقربه إلى أذهان الذين يجادلون في آيات الله تعالى؛ لأنه من وقت البعثة وابتداء نزوله، والمشركون يقتلون الذروة والغارب^(١) ليردوا دعوته، وهو مع ذلك يسرى في أوساطهم سريان النور المبصر في وسط الضلال المظلم فهو قريب من أذهانهم، وإن لم يؤثر في قلوبهم لغلبة الهوى والجاهلية.

وقد ذكر سبحانه الأثر لهذا القرآن الذي يكون وصفا ملازما له فقال تعالى ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أقوم أى أعدل وأكثر استقامة وتوجيها دليلا، فيحمل في نفسه برهان صدقه، والموصوف محذوف ويقدره القارئ بكل ما يكون قويا في ذاته خيرا في نتيجته وهدايته، وقال الزمخشري: إن حذفه يجعل الكلام أعظم وأفخم من ذكره. ونقول: إنه لم يذكر لهذه الإشارة التى أشار إليها إمام البلاغة، ولم يذكر لعموم المحذوف لكل أنواع مناهج الخير والرشاد، فيشمل المحذوف الشريعة التى تهدي للتي هى أقوم، وملة التوحيد التى هى أقوم، ومناهج الخير التى هى أقوم فى سلوك الإنسان، وهكذا يشمل تقدير المحذوف كل ما هو خير فى ذاته، وخير فى دلالته، وقد قدره بعض العلماء بما يقرب من هذا الشمول، فقال يهدى للحال التى هى أقوم لتشمل الحال حال المجتمع، وحال الأسرة، وحال الإنسانية، وكل حال هى خير للإنسان فى عاجلته وآخريته، معاشه ومعاده.

هذا هو الوصف المؤثر فى التوجيه الإنسانى للقرآن، وفيه وصف إيجابى هو السبب فى هدايته مع إعجازه، وهو أنه مبشر ومنذر فهو مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين، فقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ذكر سبحانه وتعالى حالتين أولاهما: الإيمان، وثانيتهما: العمل الصالح، وقرن الإيمان بالعمل الصالح لتلازمهما، وإن الإيمان الكامل والإذعان الصادق

(١) مثل يضرب فى الخلد والمماكرة، والذُرْوَةُ: أعلى السَّامِ، وأعلى كل شئ. أصل قَتَلَ الذَّرْوَةَ فى البعير: هو أن يَخْدَعَهُ صاحبه ويتلف له بقتل أعلى سنامه حكما ليسكن إليه فيستلق بالزمام عليه، قاله أبو عبيدة، معجم الأمثال- الميداني- الباب العشرون- فصل الفاء (٢٧٣٠).

يلزمهما العمل الصالح لا محالة، وقال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بالجمع لتنوعها وكثرتها فهي وإن ضبطها ضابط الصلاح مفترقة متنوعة، فالإصلاح بين الناس، والمعاملة الحسنة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، والبعد عن ضلالها.

وذكر سبحانه أنه يبشر المؤمنين الصالحين بشارتين:

البشارة الأولى: أجر كبير، ونكر الأجر لعظمه، ولتذهب النفس في تقديره مذاهب شتى، مع ملاحظة أنه أجر وثواب، ثم وصفه سبحانه وتعالى بالكبر الذى لا حد له.

البشارة الثانية: وهى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وكيف تكون هذه بشارة لأهل الإيمان؟ الجواب عن ذلك أن البشارة بالنجاة منها، وأنهم لم يتردوا تردية الذين لا يؤمنون بالآخرة، بل وقاهم الله تعالى، وبذلك يتبين أن ذكر عذاب الذين لا يؤمنون جاء تبعا لإيمان الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ونذكر هنا أمرين يتعلقان ببيان الذكر الحكيم:

الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فالباء مقدرة فى قوله: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى وبأن الذين لا يؤمنون، فالبشارة لأهل الإيمان ابتداء، وهى تتضمن الإيذاء للكافرين، فهى قد اشتملت على التبشير والإنذار، ويبدو أن ما سبق له القول هو التبشير، والإنذار جاء بالتضمن.

الأمر الثانى: أنه سبحانه وصف الكافرين بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلم يذكر شركهم وفسادهم وفتنتهم للمؤمنين مع أن هذه جرائم الكفر، والجواب عن ذلك أنه ذكر السبب، وذكر السبب ذكر للمسبب؛ ذلك أن كفر الكافرين وشركهم وعنادهم، وفتنتهم المؤمنين، وغوايتهم، سبب ذلك كله أنهم لا يؤمنون بالبعث

واليوم الآخر، ولو آمنوا به لاتجهوا إلى الحق كما اتجه المؤمنون، وقلنا: إن فيصّل
التفرقة بين قلب المؤمن وقلب الكافر، أن المؤمن سكن قلبه الإيمان بالغيب وما
وراء الحس والمادة واليوم الآخر، أما قلب الكافر فلا يسكنه إلا المحسوس والمادة،
فلا يؤمن باليوم الآخر.

وقد ذكر عذاب الكافرين، فقال سبحانه: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى هيأنا
لهم عذابا أليما أى مؤلما، وهو عذاب الجحيم، وكان التنكير لتكثيره، وتهويلهم
به، وإنه لصادق.

بعد ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى وصفا للطبيعة الإنسانية سواء كانت كافرة
أم مؤمنة، فقال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

كتبت العين مجردة من الواو، أى الواو محذوفة فى الكتابة تبعاً لحذفها فى
النطق بسبب التقاء الساكنين، فحذفت فى الكتابة، وهذا ينبئ عن حقيقة مقررة،
وهو أن القرآن الاعتماد فيه على القراءة، وعلى حفظه فى الصدور، لا فى السطور
وذلك هو الذى حفظه إلى يومنا وحتى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾، أى أن دعاء الشر من الإنسان كدعاء
الخير، لا يتدبر فيه ولا يترىث، ولا يضبط نفسه بالتروى والتدبر، كما يدعو بخير
واضح الخيرية نتيجه حسنة، وثمراته بادية، وقد وصف الله تلك الحال بأنها من
طبيعة الإنسان، فقال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

ونريد أن نقف قليلا عند تفسير معنى «يدعو» ومعنى الشر والخير، أما معنى
الشر فهو كل أمر لا نفع فيه ويسوء، ويؤدى إلى فساد وضرر، كالشرك،
والعذاب، والإيذاء، والفتنة فى الدين، وتعجل كل ما هو مؤذٍ لنفسه أو لغيره،
والخير كل ما فيه نفع عام أو خاص أو رفع ضرر، أو ما هو حق فى ذاته
كالتوحيد، والإيمان بالله ورسوله والملائكة واليوم الآخر، هذا هو معنى الشر
والخير، أو هذا نظر بين يقرب معنى الخير والشر، والشر والخير الحكم الدينى

والخلق فيهما إلى النية المحتسبة، كما قال ﷺ في الحديث المتواتر المعنى: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

ونتكلم في معنى يدعو، أهى من الدعاء، أم من الدعوة. فإذا كانت من الدعاء تكون بمعنى دعاء الله بالشر كدعائه بالخير لا يتروى فيه، ففي الخير المسارعة فيه خير؛ لأنها مبادرة إليه، والمسارعة إليه مطلوبة، لقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾ (١٣٣) [آل عمران] وأما المسارعة بالدعاء إلى الشر فذلك ممقوت، كالدعوة على النفس بالهلاك عند الغضب، وكدعاء إنزال العذاب، كقول الله على لسان المشركين ﴿... فَأَتَيْنَا بِمَا كُنتُمْ تَعِدُونَ إِن كُنتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٦) [الأعراف]، وقد قال تعالى لا تأمنا على ذلك، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١) [يونس].

هذا إذا كان يدعو من الدعاء، أما إذا قلنا إنها من الدعوة وتجيء بمعنى الدعاء فالمعنى أن الإنسان يدعو نفسه وغيره متلبساً بالشر، كدعوته إلى الخير، وإذا كانت الدعوة إلى الخير محمودة العاقبة في ذاتها لأنها خير مآل، ولأنها مرئية في ذاتها فالدعوة المتلبسة بالشر تحتاج إلى تعرف عواقبها ونهايتها، والتروى والتدبر في دواعيها، وإذا فكر وتدبر لا يفعل إلا ما يؤدي إلى النفع، ولكنه لا يفعل، ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وذلك كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ...﴾ (٣٧) [الأنبياء] فهو في طبعه التعجل إلى الأمور، والعقل من يتأني ويتدبر ويصبر، ويدرس الأمور، فإذا كانت العجلة من غرائزه، فالإدراك يهذب هذه الغريزة، ويجعلها متناسقة مع مواهبه، وكذلك كل غريزة تشذب

(١) متفق عليه، سبق تخريجه.

بغيرها من الغرائز، فإذا كانت فيه الغريزة الجنسية، فالعقل يجعلها في الحلال، وإذا كانت غريزة العجلة، فالعقل يضبطها بالصبر.

هذا مقام القرآن، وهذا هو الإنسان، وقد انتقل سبحانه من الإنسان إلى الكون وفيه آيات الوحدانية، وبرهان الألوهية، فقال عز من قائل:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾

ابتدأ سبحانه من الكون بما يمس الإنسان من أوقات فذكر الليل والنهار، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾، أى هما فى ذاتهما آيتان، إذ يقبلان بأمر الله ويذهبان، وإذا كانا يرمزان إلى دوران الشمس حول الأرض، وأن القمر يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس على الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ... ۝٥﴾ [يونس] فإن هذا أبين فى أن الليل والنهار آيتان؛ لأنهما مظهران للفلك السماوى، وهو يسير بقدره الله تعالى وإرادته، وكل شىء عنده بمقدار، ثم هما يقصران ويطولان، فإذا قصر أحدهما طال الآخر، فإذا طال الليل فى الشتاء قصر النهار، والعكس بالعكس.

هذا على أن الليل والنهار ذاتهما آيتان وترمزان إلى آية كونية هى دوران الأرض حول الشمس، وانعكاس ضوء الشمس على الأرض فتجعله منيرا من غير ضياء كالشمس.

وقد يراد بآيتى الليل ما يظهر بالحس فى كل منهما، فالشمس تكون بالنهار، وهى آية، والقمر يكون بالليل، وهو آية، والقمر قدره الله تعالى منازل.

ومعنى محو آية الليل ما قاله الزمخشري: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أى جعلنا الليل محو الضوء مطموسه مظلما لا يستبين فيه شىء، كما لا يستبان ما فى اللوح الممحو.

وقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ في الكلام مجاز على تخريج الزمخشري مؤداه أنه شبه الليل المحو نوره بالكتاب المطموس كتابته لعدم الوضوح والاستبانة فيهما.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أي يبصر الناس فيها، فيكون في الكلام مجاز أيضا فأسند الإبصار إلى الآية باعتبارها منها الإبصار، وذلك مجاز في الاشتقاقات، فأطلق اسم السبب على المسبب، وهو ما يكون فيه من استبانة.

﴿تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي لتطلبوا فيه أسباب رزقكم، ولتقيموا الصناعات، وتسيروا في الأرض وتفلحوا الأرض فتمتلئ بالنبات، والغرس، وتكون منافع هذه الدنيا إذ تتولون أسبابا وفضلا من الله، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وذلك بتجدد الأيام، فيعرف اليوم، ويعرف الشهر، ويعلم عدد السنين وما يجري في حساب الناس.

فبتجدد الليل والنهار يكون السكون وتكون الحركة، وطلب المعاش، والسعى في الأرض، وذلك كله يدل على الفاعل المختار ووحدانيته، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) [الفرقان]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (٥) [الزمر].

بعد أن بين الله طبيعة الإنسان، وأشار إلى ما يحيط به أخذ يشير سبحانه إلى الحساب.

الحساب يوم القيامة

قال الله تعالى:

وَكُلُّ

إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
﴿١٤﴾ مَن آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا ۚ وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَةً ۖ وَزُرْ أُخْرَىٰ ۖ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾

لم يخلق الله تعالى الإنسان سدى، ولم يخرج الحياة لتكون عبثا من غير حساب، بل إن الله تعالى خلق الإنسان مشغولا عما يعمل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ومن فاته حظ الحياة الدنيا مظلوما، فينال في الآخرة حظا موفورا، ومن اكتسب الإثم وأحاطت به خطيئته، فإن له جهنم، إن صلاح الإنسان لا يكون إلا بالشواب والعقاب في الآخرة، كذلك قدر الله تعالى ولذا كان الحساب، وقال تعالى:

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿١٣﴾.

الطائر هنا كناية أو مجاز عن العمل، فالمعنى وكل إنسان أُلزِمناه عمله الذي عمله وطوقنا به عنقه، بحيث لا يمكن الخلاص منه، كما يطوق العنق بأى شيء لا يمكنه الفكك، بل يلزمه ملازمة الطوق للعنق، وقد شبهت ملازمة العمل للنفس حتى تنال جزاءها خيرا أو شرا بملازمة الطوق للعنق حلية أو قيادا.

هذا هو المعنى الإجمالى للآية الكريمة.

وفى التعبير عن العمل بالطائر إشارة إلى ما كان عند العرب من التشاؤم والتفاؤل، فالله سبحانه وتعالى يبين أن العمل كهذا الذى كتمت تتخذونه للتشاؤم والتفاؤل، ولكنه عمل هو خير لكم أو شر عليكم، وعبر عنه بملازمته الأعناق؛ لأن العنق هو الذى تكون به القلائد، فكان ذلك ترشيحا للاستعارة، ولنستعر توضيح هذا المعنى من شيخ المفسرين الطبرى، فهو يقول: إذ أعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم ألزمه ربه طائره فى عنقه نحسا كان الذى ألزمه وشقاء يورده سعيرا، أو كان سعدا يورده جنات عدن، وإنما أضيف إلى العنق، ولم يضاف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد، قيل لأن العنق هو موضع السمات، وهو موضع القلادة والأطوق ونحو ذلك مما يزين به أو يشين، فجرى كلام العرب على نسبة الأشياء الملازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداك، وإن كان الذى يجرى عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله تعالى: ﴿الْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ اهـ بتصرف قليل.

وخلاصته، أن قوله تعالى: ﴿الْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ كناية عن ملازمة أعماله له لا تزياله ولا تفارقه يوم القيامة، وقد أكد سبحانه ذلك المعنى بأن أعماله الملازمة له ملازمة القلادة للعنق محصية عليه إحصاء دقيقا فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فقال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ فيه قراءات لـ (يلقاه) أولها بنون المتكلم العظيم فى نفسه وذاته العلية، وهو الله سبحانه وتعالى، وثانيها بالياء، ويعود بالضمير على الله تعالى، وهو حاضر فى النفس دائما، وهناك قراءة بالقاف المشددة (يلقَّاه)، فيه مبالغة فى لقائه أو حمل له على التلقى، وهذا الكتاب هو صحيفة أعماله التى يحاسب على خيرها، بالجزاء الأوفى، وعلى شرها بالعذاب الأليم، ويفهم من كلام البيضاوى أن هذا الكتاب هو ما ينقش على نفسه من الأعمال التى تكرر، فتكون بتكرارها خطوطا منتقشة، وتعرض هذه النقش صحيفة منشورة مكشوفة، ولننقل عبارته: «هى أى الكتاب صحيفة عمله أو نفسه، المنتقشة بآثار أعماله، فإن الأعمال الاختيارية تحدث فى

النفس أحوالا، ولذلك يفيد تكريرها لها ملكات»^(١)، أى أن الأعمال بتكررها تحدث نقوشا بهذه الأعمال فتكون كتابا يكشفه الله، فتكون كتابا منشورا ظاهرا معلوما مكشوفاً.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾

مقول لقول محذوف، أى يقول الله تعالى أو الملائكة المطهرون: اقرأ كتابك المسجل عليك، الذى هو صادر عن نفسك أو منقوش عليها، فإنه دليل لك أو عليك، ففيه حسناتك وفيه سيئاتك، وحاسب نفسك بمقتضى هذا الكتاب الذى هو صورة منها، قد حفظت وبقيت حتى ظهرت، «كتابا منشورا» أى معروفا، وإنه يكفى حساب نفسك؛ فإنها وحدها كاشفة، وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، أى كفى بنفسك حسيبا عليك يحصى عليك ما عملت إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وحسبها: تتضمن الإحصاء والحساب والرقابة، فضميرك شاهد عليك، ونفسك بما نقش عليها وحفظ أقوى برهان على عملك، والله بعد ذلك يتولى الجزاء، مع قيام الدليل من نفسك أنت.

وقد بين بعد ذلك أن الجزاء من جنس العمل، فقال:

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾.

حقائق تؤكد هذه الآية الكريمة: الحقيقة الأولى: أن الإنسان فى الأعمال الدنيوية إن اهتدى فهدايته عائدة بالخير عليه، وإن ضل فضلاله مغتبه عليه. الحقيقة الثانية: أن الإنسان ليس له إلا ما سعى، فوزره هو الذى يتحمله، ولا يتحمل وزر غيره. الحقيقة الثالثة: أنه لا عذاب إلا بعد الإنذار، ﴿... وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر].

(١) تفسير البضاوى: ج ٣/ ٤٣٥ . وذكره من أئمة التفسير الألوسى، وأبو السعود فى تفسير الآية (١٤).

ولنتكلم فى استخراج هذه الحقائق من نصوص الآية.

الحقيقة الأولى :

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ الفاء هنا مترتبة على ما ذكر قبلها، ذلك أنه إذا كان الحساب بكتاب منشور لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمال الدنيا، إنه من يهتدى فهدايته لنفسه فلا يعذب، وينال الجزاء من عند الله جنات تجري من تحتها الأنهار، ورضوان من الله أكبر، ومن سلك طريق الضلالة وكتبت عليه دونت فى كتابه فإن عاقبة ضلاله تكون على نفسه جزاء لما قدمت يده من عذاب عسير، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب مقيم دائم، لهم جهنم خالدين فيها أبدا بما كانوا يكسبون.

الحقيقة الثانية:

هى كما أشرنا ما دل عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أى لا يحمل إنسان وزر غيره، و﴿وَازِرَةٌ﴾ وصف لنفس، أى لا تحمل نفس وازرة إثم نفس أخرى، وعبر سبحانه عن حمل الوزر بالوزر، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ لأن الوزر سبب حمله، فأطلق السبب وأريد المسبب، ألا يقال كيف ذلك والله تعالى يقول: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّالُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣) [العنكبوت] ونقول فى الجواب عن ذلك، إنما يحملون أثقال غيرهم إذا كانوا سببا فيها كالذين يصدون عن سبيل الله يحملون أثقال من صدوهم؛ لأن نوعا من السببية فى كفرهم بصددهم عن سبيل الله وضلالهم.

ويلاحظ فى النص السامى أمران:

الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أى وزر ضلاله عليها.

الأمر الثانى: أنه سبحانه يقول: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فذكر هنا القصر والاختصاص، للإشارة إلى أن الضلال لهم وحدهم، فلا يجديهم أن يقولوا ﴿إِنَّا

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف]، فعليهم أن يتحملوا تبعه أعمالهم، وأن يقدموا على ما يقدمون عليه بتفكير من غير تقليد، فلا يتحمل من يقلدونهم شيئا من أوزارهم.

والحقيقة الثالثة:

أنه لا عذاب من غير إنذار، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إن العقل يدرك الخير والشر، ولكن لأن الغرائز البشرية متشابكة يؤثر بعضها على بعض، فالغريزة الجنسية توجد الهوى، والهوى يجعل غشاء على القلوب فلا تفقه، وعلى الأذان فلا تسمع سماع هداية، ولا يبصر بصر اعتبار، يكون ذلك، فلا بد من منبه يزيل غشاوة الأعين وضلال القلوب، ووفر الأذان، وهذا هو النذير، والعذاب من غير النذير لا يكون من رحمة الله تعالى بعباده، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ نفى مؤكد حتى تكون الغاية، أى ما كان من شأننا ولا من رحمتنا أن نعذب إلى أن نبعث رسولا يعلم الحق ويبينه، والباطل ويزهقه، وقال تعالى: ﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر].

الترف مآله الدمار

قال الله تعالى:

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ

سَعِيَّهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ
رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

الترف أن يسترخى الإنسان في إرادته وعزيمته وصبره، فيكون كل شيء فيه مسترخيا، لإرادته مسترخية، وعزيمته لا قوة فيها ونفسه غير منضبطة، والشهوات حاکمة، والأهواء جامحة، والمترف يختص بثلاث خصال: ضعف في الإرادة، واندفاع وراء الأهواء والشهوات، وأثرة تجعله يعيش في محيط نفسه ولا يخرج عن دائرتها، ولذا كان المترفون دائما هم أعداء الأنبياء؛ لأنهم أوتوا أثرة مقيته، وكل حق يحتاج إلى فداء، وجهاد وبلاء وجلاد، وكان أتباع النبيين من الفقراء الذين لا يعيشون عيشة راضية، وكان أعداء النبيين من المترفين يقولون: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ...﴾ (٢٧) ﴿[هود].

وهذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (٦٦).

إن إرادة الله تعالى لهلاك الأمة تكون إذا سارت الأمة في أسباب الهلاك، وانتهت إليه، فيريد الله تعالى لها ما أخذت في أسبابه وسارت في طريقه قاصدة الغاية مريدة لها، فمعنى إرادة الله تعالى سيرها في طريق الهلاك حتى ترد موارد الهلكة، وذهبت أسباب قوتها، وحلت محلها أسباب انهيارها.

والقرية: المدينة العظيمة، ويصح أن يراد بها الدولة أو الأمة، أو الجماعة أيا كان عددها، وقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ فيها قراءات ثلاث، وكلها متواترة، وكلها ذات معنى صادق مستقيم:

القراءة الأولى: (أمرنا) بفتح الميم وهمزة من غير مد، والأمر هنا مجازي، ليس المقصود به الطلب، وإنما المقصود تسهيل أسباب الترف، وأسباب الاسترخاء

الذى يلزمه، ولا يفترقان، ويتبعهما سيطرة الأهواء والشهوات، وغمر العقل والإدراك بهما حتى لا يدرك إلا من ورائهما، فإن تسهيل ذلك يكون كالأمر؛ لأنه يؤدي مؤدى الطلب، وقد قال فى ذلك الزمخشري كلمة حكيمة، قال: والأمر مجازى، حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا، وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازا، ووجه المجاز أنه سبحانه صب عليهم النعمة صبا فجعلوها ذريعة إلى المعاصى واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إملاء النعمة فيه وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير، ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاب أقوياء وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم إثارة الطاعة على المعصية فأثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول، وهو كلمة العذاب فدمرهم. هذا هو المعنى على قراءة الفتح بتخفيف الميم.

والقراءة الثانية: هى تشديد الميم، أى (أمرنا) مترفها بأن جعلناها أمراءها، وحكامها فكانوا أمراء أشرار؛ لأن الترف كما بينا يؤدي إلى الشر والأثرة، وحاشما كانت الأثرة بعد الخير، والأمراء الأشرار هم أساس الفساد، ولقد قال النبي محمد ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من باطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»^(١).

والمترفون الذين أترفوا فى ذات أنفسهم، وعمتهم الأثرة، والرخاوة، وحب الشهوات إن كانوا أمراء كانوا، ولقد روى أن النبي ﷺ قال: «إن لكل شىء آفة، وآفة هذا الدين حكامه»^(٢).

القراءة الثالثة: أن الميم مفتوحة بالتخفيف ومد الهمزة أى «أمرنا» ويكون المعنى كثر أى إذا أكثر الله تعالى المترفين فى الأمة عمها الفساد والفسق فدمرها الله تعالى تدميرا.

(١) رواه الترمذى: الفتن - ما جاء فى سب الریح (٢١٩٢).

(٢) مسند الحارث بن أبى أسامة (٦٢) - ج ٢ / ٦٤١، وأورده السيوطى فى الجامع (١٧٢٧٨) ج ٦ / ١٧.

وهنا أمران بيانان نشير إليهما:

الأمر الأول: فى قوله تعالى: مترفيها - فيه إشارة إلى أن السبب فى التدمير هو الترف والاسترخاء، ولذا قال تعالى: «فسقوا» والفاء هنا لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، أى أن تمكين المترفين مؤد إلى الفسق لا محالة.

الأمر الثانى: أن التدمير: الهلاك وهو نوعان: النوع الأول ذهاب قوتها، وأن تكون طُعْمَة سهلة لغيرها، فذلك فناء لشخصية الأمة وضياح لقوتها، وصيرورتها تابعة لغيرها، فتفقد عزتها، والنوع الثانى: أن ينزل الله تعالى عليها عذابا من عنده، كريح حاصب صرصر عاتية، أو يجعل عاليها سافلها، ويمطرهم حجارة من سجيل، كما فعل بقوم لوط، إذ فسقوا عن أمر ربهم.

وأيا كان نوع التدمير، فقد رتب سبحانه على الفسق، وأكده بالمصدر الذى هو مفعول مطلق، فقال سبحانه: ﴿قَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَحَقَّقَ عَلَيْهَا الْقَوْلَ﴾، أى فوجب عليها القول أى أمر الله تعالى بتدميرها، إما بسبب عادى أدى إليه الترف، وإما بعذاب من عنده، والله تعالى أعلم.

وقد أشار سبحانه إلى أن ذلك كان السبب فى هلاك القرون من قبل، فقال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧).

الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال بالأمم السابقة من نوح إلى البعث المحمدى، فإن الترف هو الذى دفع المترفين إلى معاندة الأنبياء، واندفاعهم فى الأهواء والشهوات، ثم دفعهم ذلك إلى أن غشى قلوبهم فأهلكوا بما أترفوا وبما فسقوا و«كم» فى قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ دالة على الكثرة، فهى ليست استفهامية، والمعنى كثيرا أهلكنا من القرون، وموضع (كم) النصب بأهلكنا، و(من) بيانية، والقرون جمع قرن، وهو الجيل من الناس، والمعنى كثيرا أهلكنا من الأجيال التى بعد نوح فى أمم الأنبياء الذين أترفوا وفسقوا وعاندوا الأنبياء

وكفروا بهم وبأمر ربهم، وذكرت الأجيال من بعد نوح؛ لأن نوحا الأب الثاني بعد آدم عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٢).

ولقد أهلكهم على علم بحالهم، واستحقاقهم للهلاك، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ الباء في ﴿بِرَبِّكَ﴾ لتأكيد كفاية علم الله تعالى كقوله تعالى: ﴿... وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩) [النساء]، والباء في قوله تعالى: ﴿بِذُنُوبٍ﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ وقدمت هي ومجرورها على خبيرا بصيرا، لكمال العناية، وللإشارة إلى أن العلم بالذنوب كان دقيقا مبصرا، وذلك لبيان أنه لا ظلم، ﴿... وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٢) [النحل]. والخبرة: العلم الدقيق الذي لا يغيب، وهو علم واضح يبين عنده، كالعلم بالأشياء المبصرة عند الناس، والله المثل الأعلى في السموات والأرض.

وإن الله تعالى هو المعطى الوهاب يعطى عباده ما يريدون من حظوظ الدنيا والآخرة، ولذا قال سبحانه:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (١٨).

﴿كَانَ﴾ هنا للدلالة على الرغبة المستمرة، والإرادة الدائمة ما دام على قيد الحياة، والعاجلة وصف للدنيا أى الدنيا العاجلة ومتعتها، وجعلها غاية، ومرمى همته، ومطرح نظره، ولم يكن له هم سواها، وذكر الوصف دون الموصوف للإشارة إلى سبب الرغبة، وهو كونها قريبة دانية، فصاحب هذه الإرادة لا يريد إلا المنافع العاجلة، وإن كانت زائلة، ولا يريد المنافع الآجلة، وإن كانت هي الباقية، وقد كان جواب الشرط ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾، وفى الكلام جناس بين (عاجلة)، و(عجلنا)، وإنه يتلطف للعاجلة، فيشبع الله تعالى نهمته

بالتعجيل بما أراد، ولكنه سبحانه يُسِّرُ خلقه بحكمة؛ فهو يعطى بحكمة، ويمنع بحكمة، ولذا لم يقل سبحانه إنه يعطيهم من العاجلة بما يشاءون، ولا أنه يعطى الجميع، بل يعطى من يريد تسجيلاً لمشئته ولحكيمته، وتثبيتاً لإرادته واختياره، ولذا قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾، فقيّد العطاء بمشيئته، بالنسبة للعطاء فقد يعطى هذا المال، ولا يعطيه الصحة، وقد يعطيه السلطان، ولا يعطيه العزة، وقد يعطى هذا الجاه، ولا يعطيه إلا الذل والهوان، والعيش الدون فى ذلة، وفى الجملة يعطى العاجلة، ولكن ليست كلها، ولا يعطى العاجلة كل من يريد لها بل يعطيها من اتخذ أسبابها، ولم يتنكب طريقه فيجتمع له مع كفره ذل الدنيا وعذاب الآخرة.

فيعطى طالب الدنيا هذا، وينال ما يشاء الله وبعض ما يتمناه، وهو فى الآخرة ينال الحسرة والعذاب، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾، أى جعلنا له ومن اختصاصه بشكل دائم جهنم يتخذها مشوى دائماً ومستقراً، ويصلى نارها، ويقال له ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) [الدخان] حال كونه ﴿مَذْمُومًا﴾ لا يمدح أبداً، و﴿مَدْحُورًا﴾، أى مطروداً من رحمة الله، ورضاه فلا ينظر الله إليهم، ولا يكلمهم..

هذا من أراد الدنيا، ومن أراد الآخرة قال تعالى فيه:

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩).

من أراد الآخرة، وكان التعبير بالآخرة فى مقابل التعبير بالعاجلة لفرق ما بين الاثنين؛ ذلك يريد أمراً عاجلاً لا يصبر ولا يضبط نفسه، وهذا يريد الآخر، ولو كان مؤجلاً، فينال فضيلة الصبر والعمل، ويترقب الآجل ترقب المدرك العامل.

ولم يكتف بالترقب والانتظار، بل سعى لها سعيها، أى عمل لها العمل المقرب لنعيمها والمبعد عن جحيمها، وفى التعبير بـ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، إشارة

إلى أنه يسير لها، ويعمل ما يطلبه من بر وصدق وأمانة، وحسن معاملة، واستقامة نفس، وسير على صراط مستقيم، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان أصل الأعمال الصالحة ولها وذروتها وسنام الحق، وقد بين الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ الفاء في جواب الشرط، والإشارة في أولئك إلى السابقين الموصوفين بإرادة الآخرة بالسعى بالعمل الصالح، وبالإيمان الداعن الصادق، والإشارة إلى الأوصاف بيان أنها سبب الجزاء، والجزاء هو شكر ذلك السعى الظاهر الفاضل، وشكره من الله تعالى بالجزاء عنه، وهو النعيم المقيم، وبالرضا، وهو أعظم ما يثاب به العبد، وعبر سبحانه بأنه شكور، أى أنه فى ذاته يستحق الشكر، وهاتان الآيتان فى معنى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُزَتْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى].

وإن الله خالق الناس ورب الناس يمدهم بما يريدون من رغبات بما يشاء، ولمن يريد، ولذا قال عز من قائل:

﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠).

أى كل فريق من هؤلاء وهؤلاء، وقالوا: إن التنوين هنا عوض عن المضاف إليه، ونمد نعطى المد، كمدد الجيش، لا تذهب نعمة إلا أمدهم الله تعالى بنعمة أخرى، والإشارة فى ﴿هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ إلى الذين أرادوا العاجلة وتعجيل الله لهم بمشيئته ومن يريد الله أن يعجل له فهؤلاء هم الأولون، والآخرين يعطيهم الله حُرث الآخرة إذا قصدوا ما عند الله وسعوا سعيها بالبر والعمل الصالح، وكان الإيمان يظلمهم، فالإشارة فى الحالين إلى صفات كل منهما فى طلبه، وثنى هؤلاء، فقال: ﴿هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾؛ لأنهما نوعان مختلفان فى الطلب والجزاء والأوصاف، وما ترتب على هذه الأوصاف.

وقال: ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ والإضافة إلى الرب فيه إشارة إلى أنه عطاء لا ينفد ولا ينتهى، فالله هو رب الوجود وهو الذى يمد بالحياة، ويمده بالمدد المستمر

الذى لا ينقطع، ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أى ممنوعاً؛ لأنه ليس فوقه أحد يمنعه، وهو مُعْطٍ لا يمنع، ولكن يجازى كلا بجزائه، فإن شكر كان له النعيم المقيم، وإن كفر بنعمته وأنكرها فإن له عذاب الجحيم.

ونرى من هذا أن الله تعالى فضل بعض الناس بما سلكوا من سبل الخير، وعاقب بعض الناس بما سلكوا من الشر، وكيف من طلب العاجلة أخذ منها بما يشاء ولمن يشاء، ومن طلب الآخرة زاده فى حرثه إن قصد الآخرة، وسعى لها وآمن، ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

أمر من الله تعالى بأن ننظر نظرة تأمل فى الحال التى فضل فيها بعض الناس على بعض فى الرزق والمال، وأن الله سبحانه يعطى فى الدنيا كلا على حسب رغبته مع أن مشيئة الله فوق هذه الرغبة، وأنه بهذا التمكين الربانى يكون من أعطاهم أفضل حالا من غيرهم فيكون من الناس الأغنياء والفقراء، ويفضل بعضهم على بعض فى الرزق من غير أن يتبع تفضيل فى الشرف أمر أو أية تفرقة طبقية، فالناس عند الله سواء وأمام شرعه سواء، ولا فضل لغنى على فقير، ﴿فَمَا الَّذِينَ فَضَّلْنَا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ...﴾ (٧١) [النحل].

وإن ذلك الذى أشار إليه فى الدنيا فقط، أما فى الآخرة فطالبوها ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ والمعنى أن الذين أرادوا حرث الآخرة، فقصدوها مخلصين، وسعوا لها سعيها مؤمنين أكبر درجات أى أعلى وأسبق وهم فى درجات عليا، وكلمة درجات لا تكون إلا فى العلو والشرف الربانى، وكذلك كان التعبير فى قوله تعالى: ﴿.. نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا...﴾ (٢٢) [الزخرف]، أى فى الحياة الآخرة.

وقال ﴿أَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أفعل التفضيل ليس على بابهِ فلا موازنة فى كثرة الفضل، بل المراد أنهم يلقون من الفضل كثرة ليس وراءه فضل لمستزيد، ونفينا

المقابلة؛ لأن طلاب العاجلة لا فضل عندهم، لا بقدر قليل، ولا بقدر كبير، بل هم يوم القيامة في العذاب الهون، والمنزلة الدون.

والاستفهام في «كَيْفَ» للتنبيه، وتقرير تلك الحقائق الثابتة.

وصايا الله وأوامره

قال الله تعالى:

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا ﴿٢٢﴾
 وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا مَّا
 يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
 أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ
 لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
 صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا أَصْلَاحِينَ
 فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ
 كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾
 وَإِذَا تَعَرَّضْتُمْ عَنْهُمْ تَبَتَّغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا
 مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
 كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
 لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

إنه بلا شك كانت أكثر الأحكام بالمدينة حيث اقتضت العدالة وتنظيم الجماعة، وإقامة بنائها على أحكام الله تعالى، وعلى الفضيلة، والخلق العظيم، وكان بمكة أحكام قليلة كلها تمليها خصال المروءة والفضيلة، وإن لم تكن تنظيمًا لأحكام مفصلة تقوم عليها المدينة الفاضلة إلا أنها بمقتضى الفطرة الإنسانية فى مبادئها الأولى، وأولها أفراد الله تعالى بالعبودية، وقد ابتدأها بها لأنه كانت البعثة ابتداءً لأجلها، ثم ثنى بالإحسان إلى الوالدين، وإيتاء ذى القربى، وإقامة الأسرة بالبر والمودة وصلة الرحم؛ لأن الأسرة أصل بناء المجتمع، والأسرة فى الإسلام هى الممتدة لا المقصورة على الزوجين والأولاد كما هو الشأن عند من لا يعرفون الرحمة والبر بهما، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، وقد ابتدأ سبحانه بالوحدانية فقال:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (٢٢)

الخطاب للنبي ﷺ، ونسبى الوحدانية كيف يخاطب بهذا، وهو بعث له ابتداءً، والوحدانية أولى دعوته، ولها أذى، ولها حورب، ولها جاهد، والجواب عن ذلك أنه خطاب له أولاً ولمن بعث فيهم ثانياً، وذكر هو فى القول ليكون مع من يدعوهم على سواء، وأنه مطالب بما تطالبون به، وأنه ما جاء ليكون مسيطراً، فذاته مصونة، لا بل هو مطبق عليه ما يطبق على كل مؤمن، وينذر كما ينذر، ويخاف ويخوف، وهو مستقيم على الطريقة، وفى هذه التسوية التى يطويها الكلام دعوة إلى التوحيد بأقصى البلاغة وتحريض عليها، وقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، أى فتقعّد عن السمو إلى المكارم مذموماً، لأنك لم تسم إلى علو الوحدانية، ويخذلك الله تعالى يوم لا تجد نصيراً سواه.

قد أمر الله تعالى بعبادته سبحانه وحده، وهو مقتضى ألا يجعل مع الله إلهاً آخر، فإذا كان النهى سلبياً فى الآية السابقة فالأمر هنا إيجابى، و﴿قَضَى﴾ هنا بمعنى حكم، وحكم الله تعالى لا يحتاج إلى إبرام مبرم، ولا يتناول إليه نقض ناقض سبحانه وتعالى.

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ هنا باء محذوفة، دل عليها دخولها بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وهى معطوفة على ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ والمعنى حكم الله تعالى حكما دائما ثابتا بأدلتة القاطعة، وآياته البينة ألا تعبدوا إلا إياه فلا يصح عبادة غيره، وهى إذا كان الخطاب للنبي ﷺ فالحكم عام خوطب به الناس أجمعون، وأسند الحكم إلى ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأنه الخالق المنشئ المربى الذى خلقه وربّه، وهو الذى أنزل الآيات، فذكر الرب ليكون الحكم مشتملا على أسبابه، وبعد أن حكم حكما تسجله كل الآيات فى الوجود ألا يعبد إلا الله أعقبه بما يدخل فى مضمونه، وهو الإحسان إلى الوالدين، ونجد دائما النهى عن الإشراك يقترب به دائما الإحسان إلى الوالدين فيقول سبحانه وتعالى مثلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... (١٥٥)﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... (٣٦)﴾ [النساء]، وذلك كثير والحمد لله.

وكانه فى هذا يقرن حق الله تعالى الخالق بديع السموات والأرض، بالمنشئ نسيبا بإذن الله، وهما الأبوان، والإحسان إلى الأبوين ليس هو كفالتهما، وإمدادهما بما يحتاجان إليه فقط، بل هو أعمق من ذلك فى القول والعمل والحيطة بهما، ولعل أجمع تعبير عن ذلك هو تعبير النبي ﷺ بحسن الصحبة، فقد سأل بعض الصحابة من أحق الناس بحسن صحبتي يا رسول الله؟ قال: «أملك» قال: ثم من؟ قال: «أملك» قال: ثم من؟ قال: «أملك»، قال: ثم من؟ قال: «أملك» (١) وتقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ لمزيد الاهتمام بهما ولإثبات أنهما أولى من دون الناس بالإحسان، فلا يكون الرجل كريما مفاخرًا بالعباءة بين الناس، ولا يحسن إلى أبويه.

وقوله: ﴿إِمَّا يَلْتَمِسُ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ (إما) هى إن المؤكدة بما، والتى يبلغ فى تأكيد التعليق مبلغ القسم، ولذا تدخل معها نون التوكيد الثقيلة،

(١) متفق عليه، رواه البخارى: الأدب- من أحق الناس (٥٥١٤)، ومسلم: البر والصلة- بر الوالدين

ولا تكون كذلك من غيرها، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل يبلغن، أو كلاهما معطوفة على أحدهما، والمعنى إن يبلغن عندك الكبير واحد منهما أو الاثنان فلا تقل لهما أف.

والتوكيد في بلوغ الكبير، ذكر لخالهما الضعيفة التي تقتضى الرعاية والإكرام في القول والعمل، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَكَ﴾ للدلالة على أنهما لجأ إليه لضعفهما ولشيخوختهما يعيشان في كنفه وظل قوته، ونعمته يرعاهما، ولا ظل لهما غير ظله، وقد تكون هذه الحياة المستمرة، مع ضعف الشيخوخة، واستقذار بعض ما يكون منهما أو من أحدهما داعياً لبعض الضجر، فتفتلت منه عبارة تضجر أو تأفف، فنهاه سبحانه وتعالى عن مثل هذا فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ﴾ وهو صوت يصدر عن الإنسان في حالة ضجره، فنهى حتى عن ذلك، وإذا كان صوت التأفف أو التضجر منهياً عنه، فغيره أولى، ولذا أردفه بقوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ بأن يلومهما عن بعض ما يقع منهما، فإن ذلك منهى عنه، وذلك لأنهما تضعف مسئوليتهما لضعفهما في كل قواهما، وقال بعض العلماء: إن معنى النهر هو النهى، فهما من مادة واحدة، وكأنه لا يتضجر منهما ولا ينهاهما؛ لأن النهى فيه منافاة لحسن الصحبة، فإن كان منهما ما يوجب النهى لا ينهى، بل يتلطف في القول منبهاً إلى ما يريد من غير مصارحة بالنهى، ولذا قال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بدل التأفف والنهى والنهر، والقول الكريم: هو القول الجميل الذى يكون فيه تنبيه إلى ما يجب من غير أن يظهر من التضجر أو التأفف أو النهر أو النهى، أو اللوم فإنهما قد بلغا سنا علت بهما عن التأديب والنهى. والنهر واللوم من أعمال التربية والتهديب، ولا يليق بهما ذلك، بل يوطئ كنفه فى الفعل والقول، ويصح الاستعاضة فى التنبيه بالإشارة عن العبارة، وألا يتكلم إلا بما يرضيهما.

وإن الحياة واستمرارها فى بيته قد توقعهما فى شىء من ذلك، فلا بد أن يدَّرع بدرع يكون وقاية له من أن يقع فى شىء من هذا، والدرع هو أن يملأ نفسه برحمتها، وعين الرحمة عاطفة، ولا تكون لائمة أبداً ولا تكون متأففة، ولا متضجرة أبداً، ولذا قال تعالى:

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) ﴿

الجناح هنا هو الحياطة والرعاية، وشبهت هذه المعاني بالجناح الذي يكون به قوة الطائر، وإضافة الذل إليه لتكون الرعاية ذلا لهما، وتواضعا من غير استكبار، وإن ذلك التظامن والانكسار من الرحمة لا من الذلة، وكان خفض جناح من ذل، لا من الذلة، بل من الرحمة، وفرق بين ذل الرحمة، فهو عطف ورفق وتظامن، وذل الاستخذاء والمذلة، فهو ذل خنوع، وضعف من غير قوة، وإن هذا التعبير أعلى ما يمكن من تعبير العطف والرحمة، ولكنه كلام الرحمن الرحيم، وإن الله تعالى طلب من عبده أن يقول داعيا لهما بالرحمة في كبرهما، فيقول تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، أى إنك لا تملك أن تصنع لهما ما صنعاه وأنت صغير، فقد حذبا عليك فى محبة يريدان بقاءك وأنت لا تملك هذا فتملك ما يقبله الله منك، وهو الكريم اللطيف الخبير، وهو الدعاء لهما بالرحمة مخلصا طيب النفس راضيا لعشرتهما مهما تكن حالهما من ضعف.

ولقد كتب الزمخشري صفحة فى إكرام الأبوين ننقلها بحروفها لجمال لفظها، وكريم معناها - يقول ﷺ: «ولقد كرر الله تعالى فى كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبى ﷺ «رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما»^(١)، وروى «يفعل البار بوالديه ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة»^(٢)، وروى سعيد بن المسيب أن البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل للنبي ﷺ: «إن أبوى بلغا من الكبر أن ألى منهما ما توليا منى فى الصغر فهل قضيتهما؟» قال: «لا، إنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»^(٣).

(١) رواه الترمذى، ورجح وقفه، وابن حبان فى صحيحه والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وانظر الترغيب والترهيب للمنزى (٣٧٦٨): ٣/ ٢٢١.

(٢) رواه ابن عساکر فى تاريخه، كما فى جامع الأحاديث للسيوطى: (١٨٣٢٤) - ج ٦/ ٢٢٠ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعا.

(٣) راجع الكشف للزمخشري: ٤٤٤/ ٢.

وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله فدعا به، فإذا شيخ يتوكأ على عصا، فسأله فقال: إنه كان ضعيفا وأنا قوى، وفقيرا وأنا غنى فكنت لا أمنعه شيئا من مالى، واليوم أنا ضعيف وهو قوى، وأنا فقير وهو غنى، ويخل على بماله، فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى»، ثم قال للولد: «أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك»^(١)، وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال ﷺ: «لم تكن سيئة الخلق حيث حملتك تسعة أشهر»، قال: إنها سيئة الخلق، قال الرسول الكريم: «لم تكن كذلك حتى أرضعتك حولين»، قال: إنها سيئة الخلق، قال ﷺ: «لم تكن كذلك حين سهرت لك ليلها، وأظلمات نهارها»، قال: لقد جازيتها. قال: «ما فعلت؟»، قال: حججت بها على عاتقى، قال ﷺ: «ما جزيتها». انتهى كلام الزمخشري فى الكشف.

وقال ﷺ: «إياكم وعقوق الوالدين، فإن الجنة توجد ريحها مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها، لا عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان، ولا جار إزاره...»^(٢). وأن بر الأبوين أمر مستتر خفى يظهر فى العمل، فهو إخلاص وفاء وإيمان بالحق، ووفاء وإكرام، وهو دليل على صلاح النفوس، وقد قال تعالى:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾.

إن الله سبحانه وتعالى نهى عن أمور، نهى عن التضجر، وعن النهي لهما عن أى عمل، وأمر بأن يقول لهما قولاً كريماً وربما يكون فيهما المسيء وربما يكون منهما الظالم، فبين الله سبحانه فى هذا المقام وغيره مما يشابهه، فقال سبحانه وتعالى: إن الاعتماد على النفوس، وصلاحها، والله تعالى يغفر هنات الأفعال،

(١) رواه ابن ماجه: التجارات- ما للرجل من مال ولده (٢٢٨٢)، كما رواه أحمد: مسند المكثرين- مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٦٠٨).

(٢) كنز العمل (٤٤٠٠) - ج ١/ ٣٢٩٥.

وما لا تقصد فيه، ولا يعمد فيه إلى الشر مقصودا، وإنما يحاسب على ما تكسبه النفس ويريد به القلب، ولذا قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ وأفعل التفضيل ليس على باب؛ لأنه لا مفاضلة بين علمه سبحانه وعلم غيره، فلا يعلم خفى النفوس إلا خالقها الرقيب على كل شيء، العالم بكل شيء، وإنما المراد من أفعل التفضيل أنه سبحانه عالم بالنفوس علما لا يصل إليه علم قط.

وإذا كان يعلم النفوس، فهو يعلم ما تكسبه النفس، وتسوء به النية ويسود به القلب، ويعلم ما لا يقصد سوءا، وليس فيه إساءة إلا أن تحيى عفو من إيراد الشر، ولا نية.

وصدّر الكلام بقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ للدلالة على علمه الدقيق؛ لأنه هو الذى خلق وأبدع، وربى ونهى، ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ إن تكونوا فى ذات أنفسكم صالحين بقلوبكم وأنفسكم، فإن الله كان للأوابين غفورا، والصالح هو المستقيم النفس، المملوءة نفسه بالإخلاص، والظاهر القلب، فالاستقامة هى الصلاح كله والاستقامة تقتضى النية المخلصة والنفس النيرة، سأل بعض الصحابة النبى ﷺ أن يرشده إلى كلمة يقولها فتهديه، فقال له ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١).

وجواب الشرط ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ هو كما أشرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ الأواب هو الذى يرجع إلى الحق دائما، فإذا ضل عن الطريق آب إليه، وإذا ابتعد قليلا عن العمل الصالح آب إليه، لا يركس نفسه فى شر أبدا، وبذلك يكون سريع التوبة لا يعصى، ولا تريد نفسه معصية، فإن المعصية إذا عرضت على النفس نكتت نكتة سوداء، فإذا تكررت أريد القلب، فالأواب التواب لا تنكت فى قلبه نكتة سوداء، فيتوب، فيغفر له الله، وقد وصف الله تعالى ذاته الكريمة، فقال: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ وقد أكد ذلك سبحانه بيان ويكان، وبصيغة المبالغة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه].

(١) رواه أحمد: مسند المكين - حديث سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه (١٤٨٦٩).

وبعد أن بين سبحانه حق الأبوين، وهو الإحسان في أعلى درجات الإحسان بين حق ذوى القربى فقال:

﴿وَأَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝﴾ (٢٧).

وذو القربى هو ذو القرابة؛ لأن القربى مؤنث الأقرب، أى يعطى ذا القربى الأقرب فالأقرب حقه، وحق ذى القربى نوعان: حق العطاء إن كان فقيرا فإن عليه نفقته إذا احتاج، كما أنه يرثه إذا مات غنيا، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ (٦١).

[النور].

ولا يقتصر العطاء على المحارم، بل ذور الأرحام جميعا لهم حق فى ماله إذا احتاجوا، وقد قال تعالى: ﴿... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ... ۝﴾ (٧٥) [الأنفال].

والنوع الثانى من حقهم أن يصلهم بالمودة الواصلة فيزورهم ويعودهم، ويتعرف أحوالهم، ولو كانوا لا يصلونه، كما قال النبى ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ إنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة»^(١)، ولقد قرر النبى ﷺ أن صلة الرحم تبارك فى الرزق، وتبقى الأثر بعد الموت، وقد قال ﷺ: «من أراد منكم أن يبارك له فى رزقه، وينسأ له فى أثره فليصل رحمه»^(٢). وذكر الزمخشري

(١) رواه البخارى: الأدب- ليس الواصل بالمكافئ (٥٥٣٢)، والترمذى: البر والصلة- ما جاء فى صلة الرحم (١٨٣١)، كما رواه أبو داود وأحمد.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخارى: البيوع- من أحب البسط فى الرزق (١٩٢٥)، ومسلم: البر والصلة- صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤٦٣٨).

حقهم غير المالى فقال: (حقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاودة ونحو ذلك).

هذه إشارات إلى حق ذى القربى، وأما حق المساكين وابن السبيل، فهو إطعامهم، وكسوتهم، وإيواءهم، وذلك بالصدقات يعطيهم، وألا بيت شعبان وغيره جوعان.

ونجد أن النص القرآنى يشير إلى أن الأسرة ممتدة، وإلى أن الضعاف لهم حق فى المال، وهو حق السائل والمحروم وأى مال فى سبيلهم لا يعد تبذيراً ولا إسرافاً، إنما التبذير والإسراف فى غير هذه الحقوق التى يجب سدها، وإن الحق الذى يلى حق الأسرة فى المال حق المساكين وأبناء السبيل والفقراء بشكل عام، سواء أكانوا مساكين أم كانوا متجملين لا يسألون الناس إلحافاً.

وقد نهى سبحانه عن التبذير فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، وتبذير المال ليس هو صرفه فى حقه، بل هو تفريق المال فيما لا ينبغى وبالأولى إنفاقه فى الحرام، ومما لا ينبغى ويعد تبذيراً إنفاقه فى المفاخرات، وكل إنفاق فى حرام أو ما لا يحسن للفخر ولو قليلاً يعد تبذيراً وإسرافاً، ولقد روى عن مجاهد أنه قال: (لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبدراً، ولو أنفق درهما فى غير حق كان مبدراً).

وإن التبذير، وهو كما ذكر: الإنفاق فى غير ما يكون: من سيطرة هوى المفاخرة، والمباهاة، وعدم احترام حق غيره، فلا يسرف من يعرف حق غيره عنده، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)﴾.

والأخوة التى تعقد بين المبذرين والشياطين تكون من وجوه:

الوجه الأول: أن الإسراف يضيع الحقوق، والشياطين يحرضون على ذلك ويرضونه، كما روى عن ابن عباس أنه قال: ما من مسرف إلا وراءه حق مضيع.

الوجه الثاني: أن التبذير إضاعة رزق الله تعالى، في غير نفع، بل في ضرر مؤكد، وهذا يرضى الشيطان، ويقرب المبذر إليه.

الوجه الثالث: أن التبذير كفر للنعمة والشيطان يحث على المعاصي، والمعاصي كلها كفر للنعم، وختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾، أى أنه كافر بنعمة الله كفرًا بلغ فيه أقصاه فلعنه الله.

وإذا كان الإسراف منهيا عنه، فالبخل أيضا منهى عنه، والاعتدال هو المطلوب ولا يكلف إنسان ما لا يقدر عليه، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَمَّا تُعْرِضُنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨)﴾.

الإعراض عن العطاء ألا يعطى، ولا يمنع بل يسكت كأنه المعرض، ولا يستحسن المنع؛ لأن المنع فيه إثناس من العطاء، ولا يريد ذو المروءة ألا يلقي اليأس والرد القاطع المؤيس في نفس طالب، ولكنه لا يعطى عجزا، أو لعدم استحقاق الطالب، والخطاب للنبي ﷺ، ومن وراء خطابه خطاب أمته، والآية تأديب كريم وتوجيه إلى ما يكون عندما لا يكون مال يجب العطاء منه، أو عندما لا يكون موجب للعطاء.

﴿وَأَمَّا﴾ هي (إن) المدغمة في (ما) التى تفيد تأكيد الإعراض بتوكيد حاله أو توكيد موجهه، ولذلك كانت نون التوكيد الثقيلة، كما تكون عند القسم.

وفى قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ تخريجات ثلاثة، وكلها يؤدى إلى معنى سليم فى ذاته:

التخريج الأول: أن يكون ﴿ابْتِغَاءَ﴾ تعليلا للإعراض أى أن الإعراض لتبتغى رحمة بهم من ربك ترجوها؛ كأن ينفقوها فى معصية أو خمر، فالرحمة التى يبتغيها بالإعراض هى منعهم من المعاصى أو عدم تسهيلها لهم، بعدم المعاونة عليها، وهذا حسن فى ذاته، وربما يكون بعيدا بالنسبة للمسكين وابن السبيل، وهو القريب المنقطع عن ماله، وقد يكون مقصودا بالنسبة للقریب، وأولئك هم موضوع الإعراض، لأن الضمير فى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تُعْرِضُنَّ عَنْهُمْ﴾ يعود إلى هؤلاء.

التخريج الثاني: أن يكون قوله تعالى: ﴿إِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ متعلقاً بجواب الشرط، أى فقل لهم قولاً ميسوراً طلباً لرحمة من ربك ترجوها، برجاء يسر بعد عسر، أو لأن الجواب الجميل عند الإعراض فيه رحمة بهم لا تقل عن رحمة العطاء.

والتخريج الثالث: أن يكون قوله تعالى ﴿إِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ متعلقاً بالشرط لا بالجواب، على أن يكون المعنى هكذا: إما تعرضن عنهم لفقد القدرة على العطاء مع رجاء رزق هو رحمة من ربك ترجوها، لتعطيهم عند تحقيق الرجاء وهذا هو أقربها؛ إذ مؤداها أنك ترجو رزقا، وقد طلب منك العطاء في وقت لا مال معك، فلا تردهم ردا قاطعا مانعا، رجاء الرزق.

وجواب الشرط ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾، أى قولاً سهلاً لينا من غير جفوة، بل فى عطف يديهم ولا يبعدهم، والميسور بوصف اسم المفعول من يسر، بالبناء للمجهول كُسِعِدَ فى قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا...﴾ (١٠٨) [هود] والقول الميسور لا يكون فيه قطع عن العطاء بل فيه رجاء لهم، كقوله يسر الله لى ولكم، أو أعطانى الله وأعطاكم.

وبعد أن نهى سبحانه عن التبذير، وأمر بالعطاء أمر بالاعتدال فقال:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩).

معنى النهى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، نهى عن البخل بأبلغ تعبير، وفيه استعارة، وهو تشبيه البخل بمن شد يده بغل من حديد إلى عنقه، فلا تمتد بعطاء قط، ولا تستطيع سد حاجة معوز، ولا إمداد مستغيث بقوت، والجامع فى التشبيه هو عدم العطاء؛ لأن البخل غله بخله فلم يعط، والمشدود شدت يده فلا تتحرك، والبخل يؤدى إلى الذم من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ومعنى بسط اليد فتحها بحيث لا تقبض شيئا يستولى على ما فيها من يستحق ومن لا يستحق فلا ينضبط عطاؤه،

بل ينفق من غير ضابط يضبط، وقد شبه المسرف بمن تبسط يده يؤخذ ما فيها من غير إرادة صاحبها ومن غير تقديره، ومن غير تعرف من يستحق فيعطيه، ومن لا يستحق فيمنعها، بجامع ضياع المال من غير إرادة حكيمة مقدرة، تضع الندى في موضع المندى، وتمنع من يستحق المنع.

وقد بين الله تعالى نتيجة البخل والإسراف، فقال تعالت كلماته، ﴿فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وما قبلها هو البخل والإسراف، فقوله تعالى: ﴿فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾، و(تقعد) هنا أى تصوير فى حال قاعدا فيها ملوما على بخلك، محسورا بضياع مالك فى غير حقه، ففى الكلام لف ونشر مرتب، كما قال ابن كثير: أى فيكون ملوما فى حال البخل، ومحسورا فى حال الإسراف، ومحسورا، أى أصابته الحسرة على ضياع ما فى يده، وصيرورته فقيرا بعد أن كان غنيا، ونقول محسورا من حسر فى السفر لا يستطيع الحركة، ويكون فى الكلام تشبيه حال من أصبح لا مال له بحال المحسور فى السفر، الذى انقطع عن أهله، كما انقطع هذا عن ماله.

أو نقول إنه محسور، أى كليل عاجز كالدابة المحسورة العاجزة، كما فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ٤١﴾ [الملك]، أى كليل.

والواقع أن الإسراف يجعل المسرف فى حسرة على ماله الذى أضاعه ويجعله مقطوعا عما كان له من مال كالمسرف المحسور ويجعله كليلا متعبا؛ لأن الله أعطاه رزقا فأضاعه.

روى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط متفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا»^(١).

(١) متفق عليه، رواه البخارى: الزكاة (١٣٥١)، ومسلم: الزكاة- فى المنفق والممسك (١٦٧٨).

وإن بخل البخيل سببه حرصه على المال، وأنه يضيع إن ذهب، وإسراف المسرف سببه عدم احترامه لحق المال، فبين الله تعالى خطأ البخيل في تقديره، وخطأ المبذر في تبذيره، فقال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)﴾ .

إن الله سبحانه وتعالى هو مانح من يرزقه، وهو مقدر الرزق، وإذا كان الأمر كذلك فلا محل للبخل؛ لأنه يعطى الرزق فرما يعطى خلفا لما ينفق ولا محل للإسراف؛ لأن الإسراف ينافى شكر النعمة، ومعنى يسطر يوسع أى يجعله موسعا مبسوطا، ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أى يجعله محدودا ليس بكثير، وقد قال فى شأن الإنفاق: ﴿لَيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ... (٧)﴾ [الطلاق].

إن الأرزاق بيد الله يعطى من يشاء عن سعة، وهو له مختبر، فإن أنفقها فى خير كان شكرا لها، والله يقول: ﴿... لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد (٧)﴾ [إبراهيم] وإذا كان كله من الله السعة والفقر، فإن ذا السعة لا يغتر فيسرف، أو يبخل، والذي قدر عليه رزقه فليعلم أنه عطاء الله أعطاه لحكمة أرادها، والشكر حيثئذ هو الرضا بها، والصبر، وقد وصف الله تعالى المؤمنين فقال تعالت كلماته: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان].

وإن ذلك لحكمة أرادها، فرما يعطى ليظهر طغيان من أعطاه، أو شكره، ولذا ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ الضمير يعود فى (إنه) إلى الله العليم علم الخبير الذى أنشأ، علم من يرى ويبصر، فهو الذى قدر وأعطى، وهو الذى قدر وقلل، وللغنى الشاكر فضله عند الله، وللفقير الصابر قدره.

وقد صدر الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ...﴾ فذكر الرب المنشئ القائم على كل شىء الذى يعطى كل إنسان قدره من هذه الحياة ويهديه.

نواهى الله لتطهير الجماعة

قال الله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوا
 أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رِزْقُهُمْ وَإِذَا كُنْتُمْ أَقْرَبَ أَنْ تَقْتُلُوا فَاذْكُرُوا أَنَّهُ كَانَ
 خِطْبًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ
 سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ
 قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي
 الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
 هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ
 مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسِ الْمُسْتَقِيمِ
 ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

بين الله أنه لا يصح أن ييخل خوفا على المال وشحا به، وإنه لا يصح أن يسرف، فالإسراف تفريق للمال في غير مصارفه، ثم بين أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأشد أنواع الحرص والخوف من الفقر قتل الولد خشية الفقر، ولذا جاء النهي عن قتل الأولاد خشية الإملاق وتلك مناسبة واضحة بين الآيات، وترى أن الآيات غير مقطعة بعضها عن بعض، بل هى موصولة يأخذ بعضها بحجز بعض، وهنا أمر آخر، وهى أن الآيات السابقة كان فيها بناء الأسرة على المودة والمحبة، وبناء المجتمع على رعاية الضعفاء كما قال ﷺ: «إِغْنُونِي فِي ضَعْفَائِكُمْ، فَإِنَّمَا تَرْزُقُونَ وَتَنْصُرُونَ بضعفائكم»^(١) وبعد بيان

الأسرة وحماية الضعفاء، وفي ذلك بناء المجتمع بناء صالحاً ثابتاً، أخذ ينهى عن آفاته، وابتدأ بأشدها نكراً، وهو قتل الأولاد خشية الإملاق، فقال:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١).

الإملاق هو الفاقة، وشدة الفقر، وأصلها اللغوى أملق الرجل إذا لم يبق له مما يملك إلا الملقات، وهى جمع ملقة، وهى الحجر الأملس الذى لا يقف الماء عليه، ولا ينبت زرعاً، وذلك كناية عن أنه لا يملك ما يقوتهم به.

أى لا تقتلوا أولادكم خشية الفاقة، وألا تملكوا لهم مالا تنفقون عليهم منه، و﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ تفيد أنهم الآن مالكون ما ينفقون منه، ولا يقتلونهم لذلك بل يقتلونهم خشية أن يتكاثروا فيكون الإملاق، ولذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ بتقديم رزقهم عليهم؛ لأنهم يخافون موتهم من جوع، فيسارعون بقتلهم، فالله تعالى أمنهم على رزق هؤلاء الأولاد، وفى تقديم رزق الأولاد إشارة إلى أمرين: أن رزقهم يتبع رزق الأولاد، فإن قتلوهم فقد حرّموا هم أيضاً الرزق ثم إن الأولاد ذاتهم رزق من الله.

وبعد هذا الترغيب، وتسهيل الأمر عليهم، بين أثر ذلك القتل أو أشار إليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أى إثماً، فالخطأ: الإثم والوزر، وقرئ بفتح الحاء^(١) على أنه من الوزر أيضاً، لأنه من خطئ يخطئ خطأ، كإثم يآثم إثماً يقال: إثماً، ويقال خطأ بمعنى الوزر، كما يقال حذراً وحذراً بفتح الحاء والكسر.

ووصفه سبحانه بالكبر منكراً، دليل أنه خطأ عظيم أشد ما يكون الإثم إذ إنه يؤدى إلى فناء الأمة أو ضعف نسلها، وفى ضعف النسل ذهاب ريحها وقوتها.

والقتل المنهى عنه فى الآية يشمل ما كان فى عصر نزول القرآن وما قبله من أعمال الجاهلين، من وأد البنات، وما يقوم به الآن بعض المنحرفين المعاندين الذين

(١) قراءة (خطئاً) بفتح الحاء والطاء: يزيد (أبو جعفر المدني) وابن ذكوان. غاية الاختصار: ٥٤٦/٢.

يمنعون النسل، أو يحددونه، أو يضبطونه، أو ينظمونه، أو غير ذلك من العبارات المقلدة التي يدعون إليها المسلمون ولا يدعون إليها النصارى واليهود. روى في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: «قلت يا رسول الله: أى الذنب أعظم قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»، قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير].

قالوا إن فى الآية نهى عن القتل، وضبط النسل أو تحديده أو تنظيمه، هو بمنع الحمل، لا بالقتل بعد أن يولد حيا، ونقول فى الجواب عن ذلك إن ذلك وأد، لأن النبى ﷺ فى آخر أخبار العزل: «العزل هو الوأد الخفى»^(٢) ومهما يكن فإنه محاربة لإرادة الله وتحد؛ لأن الله هو الرزاق، ومعاندة لصريح الآية ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

ولقد رخص الإمام الغزالى فى العزل لأسباب كثيرة، ولكنه قرر أمرين:

الأمر الأول: أنه لا يجوز العزل لحال الخوف والفقر؛ لأن ذلك يكون مصادمة صريحة للنص القرآنى، وإن الأرض لم تضق بسكانها، فلم ينل من خيرات إلا بعضها القليل، وأرض المسلمين واسعة.

الأمر الثانى: أن العزل فى أى حال رخص فيها مما لا ينبغى أى أنه لا ينبغى بالجزء فلا يجوز بالكل، والله أعلم. بعد النهى عن قتل الأولاد رجاء ما يؤدى إلى قتل الأولاد أو ضياعها أو فيه بشكل عام إضعاف للنسل فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)﴾.

(١) متفق عليه، رواه بنحو من ذلك البخارى: البخارى: تفسير القرآن - قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادا)

(٤١١٧)، كما رواه فى خمسة مواضع أخرى بالفاظ متقاربة، ومسلم: الإيمان - كون الشرك أعظم

الذنوب (١٢٤)، (١٢٥). عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

النهي عن قرب الزنى، وهو يتضمن النهى، فلم يقل سبحانه: لا تزنوا، بل قال: لا تقربوا، وهذا يتضمن النهى عن الزنى وعن كل ما يؤدى - أو يظن أنه يؤدى - إليه، كالقبلة والملامسة، ورؤية الأجزاء المغرية من جسم المرأة، والرقص الذى يثير الغريزة الجنسية، وأصوات النساء المغرية التى تتلوى فيها المرأة بما يثير ويدفع، ونشر الصور العارية، وغير ذلك مما نراه ونسمعه كل يوم، فكل هذا منهى عنه، وهو حرام؛ لأنه قرب من الزنى أو ذريعة إليه، وكل ما كان حراما فى ذاته فذريعته ممنوعة، وهذا باب يسمى فى الفقه سد الذرائع، فكل ما يؤدى إلى حرام لذاته يكون حراما لأنه يؤدى إليه.

والزنى يؤدى إلى ضياع النسل، فإذا كان وأد الأولاد محرما؛ لأنه يضعف النسل، فالزنى يضيع النسل، ويذهب بقوة الأمة، وما كثر الزنى فى أمة إلا عمها الخراب، وضاعت فيها الأنساب بل ضاع نسلها، واعتبر ذلك بالأمم التى تنحل بشيوع الزنى فيها، فإنه يقل عددها، ويضيع نسلها، ويكثر فيها الأولاد الذين لا آباء لهم، وإن البلاد الأمريكية والأوربية لكثرة الزنى فيها، وانحلالها قل نسلها، والمسلمون مهما تكن حالهم فى القرب من الإسلام أو البعد لا تزال هذه الفاحشة ليست كثيرة فيهم ولكثرتها عند الأمريكان والأوربيين يعملون على إضعاف النسل بين الذين تغيطهم كثرتهم بأميرين:

الأمر الأول: إشاعة اللهو والمجون لتفرغ من الحقائق الإسلامية ولتضيع نفوسهم كما ماعوا.

الأمر الثانى: العمل على منع النسل أو منع كثرتهم بدعايات منظمة وأموال يبدرونها فى المسلمين لتعم هذه الدعاية فيهم.

وقد وصف الله الزنى بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وصفه الله سبحانه بأنه فاحشة، أى أنه حال قبيحة مفرطة فى القبح رائدة زيادة فاحشة، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ساء تستعمل بمعنى أفعل التعجب أى ما أسوأه سبيلا وطريقا فى الحياة؛ لأنه اعتداء على الفضيلة، ويؤدى إلى انحلال الأسرة،

وانحلالها انحلال للمجتمع. وبعد بيان أسباب قتل الأمة نهى سبحانه عن القتل المباشر فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٢).

تدرج في النهي، فالنهي الأول كان عن قتل الأولاد، ثم حرم ما يؤدي إلى ضياع الأولاد وموتهم، وضياع النسل وانحلال الجماعة ثم نهى النهي الصريح، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ وعبر بالنفس؛ لأن القتل، وإن اتجه إلى الجسم، غايته الاعتداء عليه، وإزالتها من الوجود، وقد صرح الله تعالى بأنه محرم قتلها، فهو وصف كاشف مبين دل على التحريم القاطع الذي لا مسوغ له، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، استثناء من النهي، وقد صرح الله تعالى ببعض المسوغات أو الحال التي يكون فيها القتل فقال: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (٣٢) [المائدة].

وقد ذكر النبي ﷺ معنى القتل بالحق فقال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، وزنية ثيب، وردة بعد إيمان»^(١).

وإن القتل أشد الجرائم، فقد قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣) [النساء]، والنبي ﷺ فيما رواه الشافعي: «لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل امرئ مسلم بغير حق»^(٢).

ولذلك سوغ الله تعالى لولي المقتول أن يطالب بدمه، ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ وولي هو قريبه بالعصبة، ويكون ولي الأمر وليا في المطالبة

(١) رواه البخاري: الديات - قول الله تعالى أن النفس بالنفس (٦٣٧٠)، ومسلم بنحوه: القسامة والمحاربين - ما يباح من دم المسلم (٣١٧٥).

(٢) كما رواه بنحوه ابن ماجه عن البراء بن عازب، والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو. وقد سبق تخريجه.

بدمه إذا لم يكن له ولي عاصب، وإذا كان قاتله هو ولي الأمر الأكبر وعجز وليه العاصب عن المطالبة بدمه فإن المسلمين جميعاً عليهم أن يطالبوا بالدم، لأنهم أولياؤه؛ ويكونون عصاة مذنبين إذا لم يطالبوا بدم من قتل مظلوماً، ولو كان القاتل هو الخليفة الأعظم، ولو خذلوه، ولم يطالبوا بدمه يكونون آثمين وعصاة، وبترك ذلك الواجب المقدس ذهبت قوة المسلمين.

وقد روى التاريخ الكثير عن قتل الحكام الظالمين لبعض أهل الإيمان، وسكوت المؤمنين، ورأينا في عصرنا من قتل المؤمنين قتلة فاجرة والمسلمون ساكتون ينظرون، ومن يتسربلون بسربال الدين يبررون ويحثون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وإنه من مقررات الإسلام أنه لا يهدر دم في الإسلام، كما روى عن علي كرم الله وجهه أنه لا يُطَلَّ دم في الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾، أى تسلطاً على القاتل، يتبعه حتى يقتضى الحاكم منه، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ بقتل غير القاتل أو بقتل كثيرين فى واحد، كما كان يفعل أهل الجاهلية، ومن الإسراف المثلة، ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾، أى إن الله ناصره، وقد خذله حقه فلا يتجاوز، وقد خيره النبى ﷺ بين القود أو العفو أو الدية فإن زاد عن الثالثة فخذوا على يديه.

وإن الله سبحانه بين حق القرابة، وحق الضعفاء من المساكين وأبناء السبيل، ثم بين بعد ذلك من يجتمع فيهم أحياناً حق القرابة والضعف، وأحياناً لا تكون لهم قرابة راحمة، بل يكونون فى رحمة الله، والجماعة تكنفهم، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٢٤)﴾.

اليتيم إما أن يكون قوة بانية فى الجماعات أو قوة هادمة، فإن روعى حق رعاية، وحفظ عليه بالصيانة والتربية والتنشئة نشأة صالحة يحس بأن من حوله يرعاه، ويكلؤه ويحميه نشأ محباً رحيماً بغيره، لأنه عاش برحمة غيره، وإن نشأ

فى بيت لا يؤنسه ولا يكرمه، ولا يعطيه محبة ورفقة نشأ عدوا للجماعة، وكان فيه ما يسمى عقدة النفس، أو مركب النقص، ولذا عنى به الإسلام أبلغ عناية بنصوص القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۙ﴾ [الضحى]، وقوله تعالى: ﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ...﴾ [البقرة]، وترى القرآن الكريم قد حث على المخالطة لأن المخالطة مع الإكرام تؤنسهم وتبعد عنهم الوحشة، ولقد قال النبى ﷺ: «خير البيوت بيت يكرم فيه يتيم وشر البيوت بيت يقهر فيه يتيم»^(١).

وإن اليتيم إن كان فقيراً كان فى رحمة المجتمع بأمر الله تعالى، ولقد قال تعالى: ﴿فَلَا افْتَحِمِ الْعُقَبَةَ ۙ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ۙ (١٢) فَكُ رَقَبَةً ۙ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۙ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۙ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۙ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۙ (١٧) [البلد].

وإذا كان اليتيم ذا مال، تهافت عليه الطامعون، كما يتهافت الذباب على الطعام الحلو الذى لا حامى له، فتعقد نفس اليتيم بما يحس به من طمع الناس، وأكلهم ماله أكلاً لئماً، ويحس كآته فى مذابئة لثام، ولأنه يناله الحرمان والقهر، وهو ذو مال، ولذا نهى الله تعالى عن أخذ ماله ووجوب رعايته، والمحافظة عليه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ونهى سبحانه عن القرب من ماله إلا بالتي هى أحسن، وذلك يتضمن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ألا يأكله أو ينهبه أو يأخذه بغير حق، وإنه لضعيف سهل أخذ ماله من غير حسيب إلا الله.

الأمر الثانى: أنه إذا قربه يقربه بالتي هى أحسن أى بالطريقة التى أحسن، وأدعى لحفظه، وذلك بالمحافظة عليها وإعطائها اليتامى فى وقت قدرتهم على

إدارتهم، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ...﴾ (٦) [النساء].

الأمر الثالث: أن يعمل على تنميتها، فإن ذلك من الطريقة التي هي أحسن، وأن يدفع زكاة أمواله، ولقد قال النبي ﷺ: «اتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة»^(١).

نهايته أن يبلغ أشده، ويؤنس رشده، ويختلف ذلك باختلاف العصور والمعاملات، فيبلغ الرشد حيث لا تكون المعاملات، معقدة بحجر كبلوغ النكاح، ثم تعلق سن الرشد كلما تعقدت المعاملات وهذا ما يرمى إليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، أى أعلى قواه العقلية والبدنية ويستطيع أن يدير ماله بنفسه من غير رقابة، والأشد هو القوة العالية على صيغة الجمع من غير مفرد وقيل له مفرد وهو شدة بمعنى قوة ولكن لم يعهد جمع فعلة على أفعال، وقيل جمع شد يجمع على أشد مثل كلب وأكلب.

وأطلقت كلمة أشد على بلوغ الأربعين، كما فى قوله تعالى: ﴿... حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً...﴾ (١٥) [الأحقاف]، وهى التى تحمد فيها العادات والتقاليد ويعلو صاحبها عن الردع، ولذا قال بعده: ﴿... وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ...﴾ (١٥) [الأحقاف].

ولقد قال فى ذلك الأصفهاني: «إن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذى هو عليه، فلا يكاد يزايله بعد ذلك». وما أحسن ما قاله الشاعر:

إذا المرء فى الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذى مضى وإن جر أسباب الحياة له العمر

وقد قرن سبحانه النهى عن القرب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن بالأمر بالوفاء بالعهد فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾، العهد هو عهد

الله تعالى بالإيمان به والقيام بحق التكليف، والعهد الذى يعاهد الناس عليه فى معاهدة أو عقد أو غير ذلك مما يرتبط به أمام الناس موثقا العهد بيمين الله تعالى أو غير موثق، وعلل الأمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾، أى أنه يسأل إذا نكث فيه، ويسأل إذا لم يوف به على الوجه الكامل وهو تحت رقابة الله تعالى وكفالاته، فلا يصح التفريط فيه، وقد بينا طلب الإسلام للوفاء بالعهد فى قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل].

وقد يسأل سائل لماذا اجتمع الأمر بالوفاء بالعهد مع النهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن فى آية واحدة؟ ونقول: إن ذلك يشير أولا أن اليتيم مع كافله كأنه فى عهد أمانة عاهد الله تعالى عليه فلا يضيع ذلك العهد، ويشير ثانيا إلى أن العقد فى مال اليتيم يجب الوفاء به كما يجب الوفاء فى مال غيره، ويشير ثالثا إلى أنه مسئول أمام الله عما فعل فى مال اليتيم، والله أعلم.

بعد أن بين الله تعالى ما يقوم عليه بناء الأسرة، والمجتمع وما يحفظه من الآفات بين ما ينميه وهو العدالة فى التعامل فقال:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥).

أوفوا الكيل: قدموه وافيا إذا كلتم، وزنوا بالقسطاس المستقيم، القسطاس هو الميزان، والقسطاس كلمة فى أصلها رومى، ولكنها عربت وما يعرب يكون عربيا، وإن اللغات تنمو بزيادة ألفاظ فيها ولو كانت مستعارة من غيرها، ولا يطعن فى القرآن بأن فيه عربيا على ذلك النحو؛ لأنها صارت عربية بتعريبها ما دام النحو سليما والبناء قويا.

والقسطاس المستقيم أى السوى الذى لا يميل ميلا غير سليم، فيزن بالباطل و﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أى ذلك خير فى ذاته لأنه عدل فى المعاملة، وبه

تستقيم أمور الناس، ويطمثون ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أى أحسن مآلاً، فإن العدل والتساوى فى المعاملة مآله فى الأمم حسن دائماً.

وإن ذكر الكيل والميزان لأنهما حسيان، ولكنهما رمز لكل المعاملات التى تكون بين الجماعة، فالمعاملة العادلة تربط الناس برباط من القوة لا تنفصم، ولقد قال النبى ﷺ: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك»^(١)، فذلك هو القانون العادل الذى يصلح الناس فى هذه الحياة.

طلب الحق هو السبيل إلى الخير

قال الله تعالى:

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾
 وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
 الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾
 ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

هذا بيان للطريق السوى الذى يسلكه المؤمن للوصول إلى الحق، وهو ألا يتبع الأهوام، فما ضل الناس إلا باتباع الأهوام، ووراء الأهوام ودأب العقول غير المدركة تكون الأهواء والشهوات وضلال الأفهام، ووراء ضلال الأفهام عبادة الأوثان، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾.

القفو معناه التتبع، وأصله ما يؤدي إلى الكذب أو القذف أو البهتان، ومنه القائف وهو المتتبع للأثار، وأصله القياس وهو العلم بالحدس والتخمين وإلا كان كما يعبر الشافعي، الظن الذي لا يبنى على أساس علمي، وقد قال تعالى: ﴿... وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم].

والآية تنهى عن أن يتبع ما ليس عنده أسباب للعلم به، أو ما ينافيه العلم الصحيح والوقائع البينة كشهادة الزور، وقذف المحصنات وتتبع عورات المؤمنين ليعلنها، وقد سترها الله تعالى عليهم، ولقد قال ﷺ: «من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج»^(١).

ويقول ابن كثير بعد أن روى أقوال الصحابة في قفو ما ليس له به علم، ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ... (١٢)﴾ [الحجرات]، وإن تتبع الأمور من أخذ العلم من غير مظانه يحل عرى العقل، حتى يتوهم ما ليس بحق، ويفترى ما لم ير، ولم يسمع، ولقد قال ﷺ: «إن أفرى الفرى أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا»^(٢)، وإن نتيجة قفو الإنسان والحكم بغير علم يؤدي إلى ما ذكره النبي ﷺ من أن يرى عينيه ما لم تريا بعين خياله، وإن ذلك هو الخبال، وقد سمعنا في مصر منذ بضع سنين شائعة بين الناس أشاعها النصارى أنهم رأوا صورة العذراء، وادعوا أنهم رأوها، وما رأوها.

وإن اتباع الأوهام يجيء دائما من أن يقفو الرجل ما لم يكن عنده أسباب العلم به، فيتخيل ثم يخال، وذلك هو الخبال، وكذلك تنشأ العقائد الباطلة من عبادة الأوثان، والتثليث، وغير ذلك من العقائد الباطلة التى تنشأ من الأوهام وأن يرى العين ما لم تر، فذلك هو الضلال المبين.

(١) رواه أحمد: مسند الكثيرين (٥٢٨٥).

(٢) رواه أحمد - مسند الكثيرين (٥٤٥٣).

وقد بين الله طريق العلم الهادى المرشد، وهى هبات الله تعالى التى وهبها للإنسان فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، هذه طرائق؛ فالسمع ينقل العلم الغيبى وينقل العلم الحسى، والفؤاد وهو هنا العقل يربط بين ما سمع وأبصر من آيات، ويكون حكمه القطعى الرشيد.

وإنها مسئلة فيسأل السمع لماذا لم يسمع الحق وينصت إليه، ويسأل البصر لماذا لم ير الآيات وينظرها نظرة إدراك وتعرف، والعقل لماذا لم يفكر فيما تنقله إليه الحواس، ولماذا لم يأخذ بأسباب العلم ويتبع الأوهام فيكون الخبال ووراءه الضلال.

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ الإشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، وكل واحد منها كان مسئولا بمفرده، ومسئولا فى جماعته و(أولئك) يشار بها إلى الجمع مذكرا كان أو مؤنثا، أو كان خليطا والله تعالى أعلم.

ونهى الله تعالى بعد ذلك عن العُجب والخيلاء، وهو سبيل الضلال كالأوهام:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨).

«المرح» الخيلاء والعُجب، والفرح بما أوتى من صحة أو مال أو جاه أو سلطان، ومرحاً مصدر أى ذا مرح، وهناك قراءة بالكسر^(١)، وتكون حالا أى مرحاً معجباً مختلاً متزينا معتزاً بما أعطيه.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾، أى تخترقها بوطائك مهما تكن قوتك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، أى لن تناهد السماء وتناصبها، حتى تبلغ طولها، وتعلو عليها، أى إنك مهما تكن فى قوتك لن تكون قادرا على خرق الأرض أو التطاول إلى السماء، وهذا يدل على عجزه مهما زعم نفسه قويا، وأنه

(١) قراءة (مرحاً) بكسر الراء، لم أجدها فى العشر المتواترة.

مهما يتفاخر فهو قميء^(١) لا يقدر على شيء مهما يعط نفسه من فخار، وكأن في الكلام تشبيها لحاله بحالة من يحاول أن يخرق الأرض بقوته أو يعلو إلى السماء بغروره، وإن ذلك مستحيل فكذلك ما يزعمه لنفسه مستحيل.

وإن هذا من الكبر والخيلاء، وهما يؤذيان الناس ولا ينفعان صاحبهما، ولقد قال النبي محمد ﷺ: «من تواضع لله رفعه»^(٢) فهو في نفسه حقير وعند الله كبير، ومن استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وهو عند الله حقير.

وإن الكبر يسئ إلى الناس؛ لأن المتكبر يستعلى عليهم ويضيع حقوقهم، ولا يبالهم ولا يحس بإحساسهم ويشمخ بنفسه كأنه فوق التبعة، ولا يسأل عن فعله وحاله، ولذا قال ﷺ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»^(٣).
﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٢٨)﴾.

الإشارة إلى المذكور قريبا هو المشي مختلا مرحا معجبا بنفسه، ﴿سَيِّئُهُ﴾ يقرأ بالضميم أى يسوء فى ذات نفسه ويسئ لغيره وهو عند الله مكروه مبغوض، فيلتقى فيه أمران مذمومان:

الأمر الأول: أنه فى ذاته عمل سيئ ويسوء الناس.

والأمر الثانى: وهو الأهم: مكروه مبغوض عند الله تعالى.

إن الكبر ينبعث من إحساس بأنه أوتى ما لم يؤت غيره.

وإننا نشاهد ذلك فى بعض المتسبين للعلم، إذ أعطوا لأنفسهم مكانا ليس لهم أو اتصلوا بالحكام الظالمين، وقد رأينا ذلك فى عصرنا، ورأينا يذكرون عن كانوا قبلنا، قال الناصر أحمد الذى مات فى القرن السابع، فقد قال فى قوله

(١) القميء: الدليل الصغير حجما أو قدرا. القاموس المحيط (ق م أ).

(٢) رواه مسلم: البر والصلة والآداب (٤٦٨٩)، كما رواه الترمذى وأحمد ومالك والدارمى.

(٣) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾: وفى هذا من التهكم والتقريع لمن يمشى هذه المشية كفاية فى الزجر عنها، وقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها بعض قراؤنا وفقهاؤنا، فبينما أحدهم قد عرف مائتين أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفا من رياسة الدنيا، إذ هو يتبخر فى مشيته، ويرتفع ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، والله ولى التوفيق:

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٢٩).

الإشارة فى ﴿ذَلِكَ﴾ إلى المذكور من الآيات من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٢٧) وإن الله تعالى ذكر ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة، والحكمة هى العلم النافع، وفى هذا العلم نفع كبير، فقد ابتداء بتطهير العقل والنفس من أدران الشرك، ورجس الأوثان ثم بين بناء المجتمع على دعائم الأسرة، وعلى ألا يجعل يده مغلولة إلى عنقه ولا ييسطها كل البسط ونهى عن الإسراف وما من إسراف إلا ووراءه حق مضيع، ثم طهر المجتمع من أوزاره فنهى عن الفحشاء، وقتل النفس أو قرب مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن، وأمر بأن تقوم العلاقة بين الناس على أساس الوفاء بالعهد، وعلى أن يحب الإنسان لنفسه ما يحب لغيره، وأن العلاقة على أساس المقام الذى لا اعتداء فيه هى خير وأحسن، ونهى عن السير وراء الأوهام، وهذه كلها علوم نافعة؛ لأن فيها نفع الإنسان وإقامة مجتمع صالح قد حُلِّى بمكارم الأخلاق وخلقى من ملائم الناس.

وعن ابن عباس هذه الثمانى عشرة كانت فى الواح، أولها ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ...﴾ إلى هذه الآية.

ويقول الزمخشري فى الكشف: «وسماها حكمة؛ لأنها كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه» وأقول: لأنها معان محكمة لا تقبل النسخ بحال من الأحوال، وقال الزمخشري أيضا: «ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهى عن

الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وأن بذ فيها الحكماء، وبلغ بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم.

وختم الله الآيات بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾، أى يجتمع عليك عذابان:

العذاب الأول: أنك ملوم لأن فعلت فعلا لا يليق بالعقلاء وهو فى ذاته مذموم عند من يدرك الحقائق.

العذاب الثانى: أن تدحر أى تهلك بالإبقاء فى نار جهنم، وقد ابتدأ سبحانه ببيان أن الشرك يقعد به عن الوصول إلى الحق ويقعد مذموما مخذولا، لا ينصره أحد، وختم الآيات بأنه يلقى فى جهنم هالكا مذموما ملوما لا يبرر كفره أحد.

آثار الشرك ضلال العقول

قال الله تعالى:

أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ

بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا

﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ

السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ

لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

إنهم يجرون وراء الأوهام ويقفون ما ليس لهم به علم، فيدعون ما لا دليل عليه من نقل ولا من عقل، ومن ذلك أن جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إناثا،

وكان ذلك غريبا لأن مؤداه أنه سبحانه اصطفى لهم البنين، وجعل له الإناث وهذا غير معقول في ذاته؛ لأن الناس في شئونهم العادية يؤثرون أنفسهم بالخير ويختارون لغيرهم دونه، وكذلك قال سبحانه وتعالى في استفهام إنكارى:

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠ ﴾ .

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى ترتب على أنهم يقفون ما ليس لهم به علم أن ساروا وراء أوهام لم يبنوا علمهم على علم علموه، ولكن على أوهام توهموها.

و(الفاء) مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى مع التوبيخ ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ ﴾، أى اختار لكم الصفو الخالى من الشوب، الذى لا يخالطه ضعف، أى هل اختار لكم البنين واتخذ الملائكة إناثا، وهذا يتضمن ادعاءين ادعوهما بأوهامهم:

الادعاء الأول: أنهم قالوا: إن الملائكة إناثا.

والادعاء الثانى: أنهم بنات الله تعالى، وإنهم بذلك قد افتروا على الله تعالى أعظم الفرية، وزينت لهم أوهامهم أعظم الباطل، إذ جعلتهم فى خيال، ولذا قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾، أى عظيم فى أنه بهتان عظيم؛ لأن الله تعالى ليس من جنس الحوادث، ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ... ١٠١ ﴾ [الأنعام]، وإن الولد من صفة الحوادث، والله سبحانه وتعالى منزّه عن المشابهة بالحوادث، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٤ ﴾ [الإخلاص] وقد أكد سبحانه أن هذا القول منهم عظيم أولا بـ (إن) التى للتوكيد، وثانيا بـ (لام) التوكيد.

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى معجزته الكبرى وهو القرآن فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١ ﴾ .

أكد الله تعالى أنه يصرف القول في القرآن، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾، أى صدقنا عباراته ومعانيه، فأحيانا تكون قصصا فيها العبر، وأحيانا تكون بالأمثال يضربها، وأحيانا يقرر الحقائق بطريق الاستفهام، وأحيانا ينفيها، ويستنكرها، وهو فى كل ذلك يتنقل من إقرار حكيم معجز إلى مثله، وقد قال بعض العلماء فى تصريف القرآن: لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعدا ومحكما ومتشابهة وأخبارا وأمثالا، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال، وهكذا كان التصريف من أسرار الإعجاز وهو أعلى درجات البلاغة وأسرارها.

وإنك وأنت تقرأ القرآن وهو مأدبة الله تعالى تنتقل فيها من طيب سائغ إلى طيب سائغ، فى حلاوة طعم، وجمال منظر وكله هنىء مرىء؛ لأنه مائدة رب العالمين.

وقد صرف الله سبحانه فى القرآن ذلك التصريف ﴿لِيَذْكُرُوا﴾، أى ليملاؤوا قلوبهم بذكر الله وليعتبروا بعبده، وليروا فيه الكلام المعجز الذى يذكرهم برسالة النبى ليؤمنوا.

ولكن المتعنت المعاند لا يقنعه الدليل ولا يزيده إيمانا بل إن عناده وطغيانه يزيده استمساكا بضلاله وإصرارا على كفره، ولذا قال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، أى إلا بعدا عن الحق نافرين منه.

والتذكر هنا هو التدبر كما قال تعالى: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢٦]، والنفور كما أشرنا الإيغال فى الضلال والإمعان فيه، وأى ضلال أشد من النفور من الحق واجتنابه.

ولقد قال تعالى موجها القول إلى النبى ﷺ لإبطال شركهم:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣).

هذه الآية الكريمة متصلة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُقْتَلْ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ وتوسط بينهما وهم أن الملائكة بنات، وتصريف القرآن ليتذكرون وذلك للإشارة إلى أن الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى يتبعون الأوهام ويصيبهم الخبال بهذه الأوهام، ولا يجد الدليل الإيجابي مجازا إلى قلوبهم، فصرف الله تعالى القرآن ليتذكروا فأبوا إلا نفورا كشأن أعداء الحق، ويبين الله تعالى على لسان نبيه بطلان ما يعبدون، فيقول سبحانه:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْعَرْشَ سَبِيلًا (٤٢)﴾.

ذو العرش هو الله تعالى، وعبر بهذا التعبير لبيان كمال سلطانه في ملكه وأنه لا شريك له، فأظهر بعد الإضمار لذلك، والمعنى كما يقرر ابن عباس: لو كان مع الله تعالى آلهة غيره كما يدعون لنارعهو السلطان في الوجود، ولعاندوه في خلقه، ولكن لا يمكن ذلك، وإلا فسد الكون، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء].

ويكون هذا الكلام لإبطال زعمهم بدليل يؤدي إليه من نزاع وذلك باطل، وقد خرج الآية آخرون تخريجا فيه مثل هذه من حيث إنه إبطال الدعوة التي يدعونها، وذلك التخريج الآخر أنهم قالوا: إن المعنى أنه لو كان هناك آلهة كما يقولون ﴿لَأَبْتَغُوا﴾، أى لطلبوا سبيلا لذي العرش ليعبدوه، كما قال تعالى في آية ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ... (٥٧)﴾ فأتى سبحانه ببرهان التوحيد من دعواهم، أى أن التي يدعون لها الألوهية خاضعة لله؛ لأن كل من في الوجود خاضع لله تعالى؛ لأن له السلطان الأعلى في ملكوت السموات والأرض.

ومهما يكن التخريج فإن الآية إبطال لعبادة الأوثان وأنها من الأوهام وأنها من أنهم يقفون ما ليس لهم به علم، فيقعون في الباطل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولقد قال تعالى منزها ذاته العلية عن هذه الأوهام:

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣).

أى تقدست ذاته العلية عن أن له شريكا، وتعالى وسمت. ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، أى علوا بعيدا فى علوه، كبيرا فى ذاته بحيث لا يكون ثمة علاقة بأى نوع من أنواع العلاقة بينه وبين رب البرية؛ لأن الوجود كله يخضع له، ويسبح بحمده، ولذا قال تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤).

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾، أى طبقات النجوم وبروجها، وكل سماء زينت بمصابيح هى نجومها، والتسبيح الخضوع له سبحانه وتعالى، وكونها طائعة له سبحانه فكل الوجود فى قبضته، وإن هذا التسبيح يرشح للتفسير الثانى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، أى الذى يقول: إن المعنى أن آلهتهم خاضعة لله يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة.

والتسبيح هو بمعنى الخضوع الكامل لله تعالى، لا يخرج شىء مما فى الوجود أو أحد عن طاعته سبحانه، ويصح أن يراد بهذا الخضوع مع ذكر الله تعالى بالتزويه عن الشريك وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وإنه يكون خاشعا مسبحا عابدا، وإن كان غير مكلف كما يكلف العقلاء وإن الحجارة طوع يمينه سبحانه، ولقد قال تعالى: ﴿... وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...﴾ (٧٤) [البقرة].

وإذا كانت هذه حال الوجود كله من أنه يسبح الله تعالى، وإن كنا لا ندرك تسبيحه فكان ذلك دليل وجوب عبادته وحده لا يعبد سواه، وقد استدرك الله تعالى على حكمه سبحانه بتسبيح الوجود بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أى لا تنفذ بصائركم ومدارككم إلى إدراك تسبيحه؛ لأنه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) [الملك] سبحانه وتعالى.

ولقد ذكر الزمخشري أن معنى يسبح بحمده أنها تسبح بلسان الحال، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تتعلق بذلك وكأنها تنزه الله عز وجل بما لا يجوز عليه من الشركاء وغيره، ويقول: إن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ خطاب للمشركين من حيث إنهم لم يأخذوا بمقتضى دلالة الحال، وما توجه به من إيمان بالله وحده.

وفى الحق، إن الزمخشري أخرج النص من ظاهره إلى مجاز صحيح فى ذاته، ولكنه بعيد من جهة، ولا ينقل الكلام من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة توجب الخروج، وإلا بتعدّل الحقيقة أو يكون فى المجاز جمال لفظى خاص يليق بمقام البيان القرآنى، وقد فند الناصر كلام الزمخشري بقوله: «ولقائل أن يقول فما تصنع بقوله تعالى: ﴿كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وهو لا يغفر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ المؤمنين والظاهر أن المخاطب المؤمنون، وأما عدم فقهنّا للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه والله أعلم من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى النملة والبعوضة، وكل ذرة من ذرات الكون لوجدها تسبح الله وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره، وعندى أن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ خطاب لكل من هو أهل للخطاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة ويفتح الغفران لمن يتوب، ولو كان مشركاً يتوب عن شركه، كما قال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...﴾ (٣٨) [الأنفال]، وأكد سبحانه وصفه بهذين الوصفين بـ(إن) المؤكدة، وكان الدالة على الاستمرار، وصفة التشبيه الدالة على كمال الاتصاف.

القرآن حجاب مستور عن المشركين لشركهم

قال الله تعالى :

وَإِذَا قَرَأْتَ
الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوُا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا
﴿٤٦﴾ تَخُنُّ أَعْلَامُهُمْ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى
إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾

يقول الله تعالى مخاطبا نبيه الذي يدعو إلى الحق والقرآن بالقرآن :

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ .

وذكر سبحانه الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ لأن الذين لا يؤمنون بالبعث تجمد قلوبهم على الحس فلا يؤمنون بغيره، وتغلظ على الهدى؛ لأنهم يحسبون أنه لا حياة غير هذه الحياة، فيرتقبون ويلعبون ويلهون وكأنما خلق الإنسان عبثا، وذلك أداهم إلى الكفر فصاروا لا يؤمنون بشيء.

﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ : الحجاب هو الحاجز عن الوصول إلى أمر أو اعتقاد، وقال بعض العلماء: إن مستورا معناه ساتر، وإن ذلك مجاز أساسه تلاقي المشتقات، وأحسب أن ذلك مبالغة في ستره، حتى إنه من ستره للحقائق عليهم صار هو كانه مستور عندهم، ويصح أن يقال: إنه مستور عليهم لا يدركونه ولا يعرفونه ويحسبون أنهم يعرفونه، أو أن القرآن مستور عليهم بحجاب، فهم لا يعرفون مغزاه ولا مرماه، أو أن هذا الحجاب ليس بمحسوس بل أمر معنوي مستور

عليهم، وكلها معان تتجه إلى بيان أنهم لا يتتفعون من القرآن ولا يتدبرون معانيه لهذا الحجاب الذي يسترهم عنه، ويسترهم بفعلهم وبأهوائهم أنفسهم، وكان التعبير بقوله تعالى: ﴿مُسْتَوْرًا﴾ إشعار بأنهم الذين صنعوا الحجاب بأعراضهم وهم الذين ستروه عن أنفسهم بأنفسهم، وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى وهو ستره عنهم وكونهم محجوبين عنه بقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٦).

الأكنة جمع كنان، و(جعلنا) معناها صيرنا وأنشأنا أكنة تكون غلافا مانعا قلوبهم عن أن تدرك وتصل إلى النور، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أى صمما وثقلا فيها يمنعها من أن تستمع إلى القرآن الحق، فالأكنة تمنع أن يفقهوه لأن غلافا وضع بينها وبين النور، فلم تفقه أى لم تدرك وتتدبر فى بلاغته، ومعانيه، وقصصه، وعبره، وما فيه من نور الحق فلا تراه، وجعلنا فى آذانهم وقرا عن سماع القرآن وتذوق ألفاظه ونغمه، وجمال عباراته ونسق بيانه.

ويصح أن نقول إن الكلام السامى ممثل لحالهم فى عدم فقههم للقرآن وعدم سماعهم لآياته سماع فهم وتدبر وتعرف لبلاغته بحال من جعل الله تعالى على قلبه غشاوة فلا يصل إلى الحق، وحال من فى آذانه ثقل فلا يسمع، ثم يصور سبحانه نفورهم من الحق وتأثرهم بالأصنام التى جعلتهم يعتقدون فيها الألوهية فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

وإذا ذكرت ربك الذى خلقك وخلقهم وربهم وحده من غير ذكر آلهتهم على أنه المتفرد وحده بالألوهية اعتراهم إعراض أشد، فأعرضوا سائرين على أدبارهم نافرين من الحق كما يفر ذو الرمد من ضوء الشمس، أى يسارعون بالتولى والإعراض نافرين مدبرين، سائرين بظهورهم لا بإقبالهم، وهذا النص يصور شخصا رأى شيئا فهاله ما رأى فولى مدبرا، رجع مدبرا نافرا كأنه رأى شيئا مخيفا، اقشعر له بدنه، وهذا يصور مقدار نفورهم من التوحيد الحق، وإقبالهم

على الوثنية الباطلة، فالأوهام التي استكنت في نفوسهم صورت لهم الحق مخوفا مرهوبا، والباطل طيبا حبسوا فيه السلامة وما وراءه إلا الحسرة والندامة وساء ما كانوا يصنعون.

وإن هذه النفوس التي تنفر من الحق هذا النفور نفوس مريضة، عرتها آفة حولتها عن الحق وصرفت فطرتها وطمست فؤادها فقال تعالى:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا (١٧)﴾.

يتكلم الله تعالى معبرا عن ذاته العلية فيذكر أنه يعلم علما ليس فوقه علم بالحال التي يكونون عليها ومتلبسين بها، إنهم حين يستمعون إليك تكون قلوبهم مصروفة عنك، وعما تقرأ وذلك باستهواء باطل، وهم في نجوى مع إخوانهم الكفار فيودعون نفوسهم المنحرفة، وعقولهم المستهواة بالباطل التي تربهم الباطل حقا والحق باطلا، إذ يقول أولئك الظالمون ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا﴾ هو مريض في ذاته، ﴿مُسْحُورًا﴾ يحتاج لأن يطيب من الخبال الذي أوجد السحر في نفسه.

هذه الخلاصة الواضحة المنيرة لمعنى الآية، وكلام الله تعالى أسمى وأعلى وهو ذروة البيان وأعلاه، ولنخرج باستقاء هذه المعاني من ألفاظها التي هي نور على نور.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ أفعل التفضيل ليس على باب؛ لأنه لا مفاضلة بين علم الله تعالى وعلم أحد من خلقه، وإنما المراد به أقصى العلم الذي ليس فوقه علم، ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ «ما» هنا دالة على الحال، (به) الضمير عائد على لفظ «ما»، ويكون المعنى أعلم بالحال التي يكونون متلبسين بها عند سماعهم هذا القرآن الكريم، وقد صور الله سبحانه وتعالى هذه الحال، إذ يستمعون إليك وهم في نجوى يتذكرون فيها القول الصارف عن الحق، إذ يقول الظالمون في هذه النجوى، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا﴾ والسرية مدرجة الفتنة فهم يسرون إليهم في النجوى

ظالمين للحق وللنبي لا تتبعوه، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا﴾ والمسحور هو الذى أفسد تفكيره السحر، وجعله فى خيال يحتاج إلى طب الأطباء، إن النجوى دائما تكون أفعال فى نفس الذين لا يريدون اتباع الحق، ألم تر أنك إذا أردت أن تخذع إنسانا تخفت فى صوتك، وتتسار معه فيؤثر فيه، هؤلاء الذين ينفرون من الحق نفورا يتولون على أديبارهم لا يكونون فى حال طبيعية بل يكونون قد استهوا بالباطل استهواء، فعندما يذكر الله وحده فى القرآن يولون الأدبار نفورا.

الداء الذى يسبب الكفر عدم الإيمان بالبعث

قال الله تعالى:

أَنْظُرْ

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾
وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفًا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٩﴾
﴿٢٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٢١﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونُ قَرِيبًا ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتُظَنُّونَ أَنْ لَيْسَ لَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٣﴾

إنهم فى نجواهم يقول الظالمون بسبب ظلمهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا﴾، فهم يشبهون حاله بما لا يشابهها، ونقيض ما كانوا يعرفونه عنه من الكمال الإنسانى من صدق وأمانه وعدالة، واستقامة فى القول والعمل، ولقد قال تعالى فى قولهم:

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٤٨).

المثل هو تشبيه حال بحال أو وصف بوصف، وضرره: بيانه، فالمعنى انظر كيف شبه حال الرسول أحيانا بالشاعر، وأحيانا بالساحر، وأحيانا بالمسحور وأحيانا بالكاهن، وكلما ضربوا مثلاً باطلاً أو غلوا في الفساد النفسى والفكرى، وانحرفوا عن الحق، فإن كل مثل بالباطل تنحرف به النفس عن الطريقة المثلى، ولذا قال تعالى مرتباً على كثرة الأمثال الباطلة ﴿فَضَلُّوا﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنهم أكثروا من التشبيهات الباطلة، وكلما ضربوا مثلاً زادوا انحرافاً وضلالاً، وكلما أوغلوا لا يستطيعون سبيلاً فإن مشاركات الضلال تبعد عن الطريق المستقيم فلا يهتدون، وأنهم يعجبون من أن يكون هناك بعث بعد أن يصيروا عظاماً نخرة، ولذا قال تعالى:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩).

العظام هى العظام التى خلت من اللحم الذى كسيت به، وهو عظام الموتى، والرفات ما تكسر وبلى، وعن أبى عبيدة والفراء والأخفش تقول منه رفت الشيء رفتاً أى عظم مرفوت.

وهنا فى الآية الكريمة كأنهم تعجبوا من ثلاثة أمور:

الأمر الأول: التعجب من أنها بعد أن تصير عظاماً مرضوضة مكسورة محطومة تجتمع وتكون إنساناً سوياً.

الأمر الثانى: التعجب من البعث فى ذاته.

الأمر الثالث: أن هذه العظام النخرة تكون خلقاً جديداً.

فالتعجب الأول هو قولهم ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ وأفرده بالاستفهام؛ لأن بعثه خلقاً جديداً بعد أن صار عظاماً ورفاتاً فكان إفراده بالاستفهام مع أنه مع البعث خلقاً جديداً كل مثار تعجب، للإشارة إلى أنه موضع عجب فى ذاته، وكذلك كان إفراد ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

والتعجب فى الأجزاء جزءا جزءا وفى الهيئة الاجتماعية.

والاستفهام إنكارى يفيد الاستبعاد والتعجب، ولا عجب فى خلق الله تعالى، إذ يقول: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف].

وقال تعالى ردا لتعجبهم:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾.

قالوا فى مثلهم الذى ضربوه: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَتِنَا لَمْبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، هذا مثلهم الذى ضربوه ناسين حقائق الوجود وحقيقة نشأتهم كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ... (٧٨)﴾ [يس]، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا ...﴾، أنبعت بعدها؟ فأمر الله تعالى نبيه ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠)﴾ و﴿كُونُوا﴾ هنا من معنى كنا، أى أئذا صرنا عظاما ورفاتا فيكون المعنى صيروا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم، أى إنكم تعودون لا محالة، ولو صرتم حجارة أو حديدا فالله على ذلك قادر، ولا يعجز.

ولنا فى هذه الآية الكريمة نظران غير متباينين:

النظر الأول: أنه يشير سبحانه إلى أنه لا يعجز عن الحجارة والحديد، ومما يكبر فى صدوركم أى فى قلوبكم فتأخذكم به رهبتكم، وإذا كان الله تعالى لا يعجز عن أن يوجد الحياة فى حجارة أو حديد، أو نحو ذلك فأولى أن يعيد الحياة فيكم، وقد كانت من قبل؛ فالإعادة أسهل من الإنشاء فى نظر الإنسان وإن كانت كلها عند الله سواء، هذا هو النظر الأول.

أما النظر الثانى: فهو أن المعنى صيروا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم وادخلوا فى أجزائها وكونوا فى صلابتها، وتظنون أنه يصعب

استخلاصكم منها فإنه سيعيدكم كاملي الأجسام منها، ويقوى هذا قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا...﴾ إلى آخر الآية الكريمة.

وقد بين الله تعالى ما يثير استغرابهم فقال سبحانه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كنا حجارة أو حديدا... فقد أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أى الذى أنشأكم النشأة الأولى وهى الفطرة أول مرة، وإذا كان أنشأ هذا الإنسان الأول فهو على الإعادة أقدر، كما جاء فى سورة «يس» ﴿... قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلِ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ... (٧٩) وبعد أن رد عليهم ذلك الرد المقتنع لمن يتدبر قلبه بالشرك ويتعصب له ويعاند فيه، فإنهم يستمرون فى عجبهم واستغرابهم، ولذا قال الله تعالى عنهم: ﴿فَسَيَنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ ويقولون فى تحد جاهل ﴿مَتَى هُوَ﴾.

والإنغاض تحرك الرأس من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى استغرابا وتعجبا فما زادهم الدليل إلا إغالا فى الاستغراب وما زادهم الحق إلا ضلالا، والفاء فى ﴿فَسَيَنْغِضُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتب على بيان الحق أن استهزءوا وتهكموا، وهؤلاء لا يجدى معهم الدليل ولا يزيدهم إلا خسارا، ويقولون متحدين: ﴿مَتَى هُوَ﴾، أى متى يكون أى يستعجلون تحديا وإمعانا فى الكفر، فأمر الله تعالى نبيه: ﴿قُلِ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾، أى أنه يرجى أن يكون قريبا.

ونرى فى هذه الآيات وما قبلها يأمر الله تعالى نبيه أن يتولى المجاوبة معهم؛ لئله الداعى إلى الحق المبلغ عن الله تعالى الهادى المرشد.

وقد بين الله تعالى ذلك اليوم فقال:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٢).

﴿يَوْمَ﴾ هو جواب للمشركين عن تحديهم ﴿مَتَى هُوَ﴾ ويكون الخطاب للمشركين، ويكون قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ معناه الإشارة إلى

أن إعادتهم لا تكون إلا بأمره سبحانه وإجابتهم كقوله تعالى: ﴿... كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة]، فالدعوة لا مجاز فيها، والاستجابة تكون بالإيجاز كما ذكرنا في الآية الكريمة.

وقالت طائفة من المفسرين وعلى رأسهم الزمخشري: إن هذا كناية عن سرعة الإعادة كما يدعو الداعي فيجيب المدعو فور الدعوة، والاستجابة هنا معناها الرغبة في الإجابة وطلبها كأنهم كانوا وهم خامدون في قبورهم يتوقعونها، ولا يستغربونها، وقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِ﴾، أى حالهم تكون حال الحامد الراغب العالم بقدرة الله تعالى لا حال المستنكر أو المستغرب، وكأنهم يكونون في حال غير الحال التى كانوا عليها فى الدنيا من كفر وإنكار، بل هم على حال الإقرار بالله تعالى وأنه وحده المستحق للألوهية سبحانه وتعالى.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أى أنهم يحسبون أنهم مكثوا قليلا فى الدنيا على حسب ما قرره قتادة وتبعه الزمخشري، فاللبث القليل فى الدنيا، وكما قال قتادة تقاصرت مدة الدنيا فى نظرهم واعتقدوا أنها متاع وأن الآخرة هى الحياة وأنها أبقى، وفى ذلك إيمان بما لم يكونوا آمنوا به قبل، أى أنهم أدركوا الحقائق على وجهها ولكن كان حمدهم وإدراكهم بعد فوات الوقت، فلم ينفعهم فى إبانها ولم ينفعهم حمد، ولا إيمان.

هذا على أن اللبث القليل فى الدنيا، ولكن نرى كما رأى كثيرون من علماء السلف أن اللبث القليل كان فى القبور قبل البعث، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) ﴿[طه]

ونريد أن نقول كلمة فى إعراب قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (إن) نافية، أى «ما لبثتم إلا قليلا» ويكون ذلك خبرا لـ (أن)، وتقدير الكلام ويظنون أنكم ما لبثتم إلا قليلا، والآية بيّنة لا تحتاج فى بيانها إلى هذا الإعراب ولكنه تخريج نحوى ذكرناه حيث لم يذكره المعنيون بإعراب القرآن والله أعلم.

دعوة الله الحق

قال الله تعالى :

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
 أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
 عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْ عَلَيْكُمْ
 حَافِظًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ
 بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
 وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ دُونِي فَلَا
 يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
 رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

كانت العلاقة بين المشركين والمؤمنين إيذاءً مستمرًا من جانب المشركين، وصبرًا ومصابرة من المؤمنين حتى اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين، وقد أفرط المشركون في أذاهم، وربما حسب بعض المؤمنين أن ذلك صغار للمؤمنين، وتفريط في حق الإيمان، فكان منهم من دعا إلى المقاومة، وإن المصابرة حسبها استرخاء يغريهم، وإن من له عصبية لا تسلمه، وروى أن رجلا من المشركين شتم عمر بن الخطاب، فهمَّ عمر بأن يقتله وكان على ذلك قديرا، فأمر الله تعالى نبيه والمؤمنون بأن يصبروا، وأن يقولوا التي هي أحسن، فقال تعالى :

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ .

قل يا محمد مطمئنا ومهدئا لعبادى: ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ويقولوا: مجزوم فى جواب الأمر، وهو فى معنى المعلن لأمر بالقول، أى قل لهم داعيا إلى الصبر، وألا يقابلوا الإساءة بمثلهما، ليقولوا التى هى أحسن، أى الكلمة التى هى أحسن، والفعله التى هى أحسن، وإن رد الإساءة يكون عندما يكون للمسلمين قوة يؤدّبون بها المعتدين، ويحملونهم على الحق وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى، وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة كما يدل السياق، وقد استشرفت النفوس لمعرفة السبب فى ذلك الأمر وفى نتيجته، فهذا الله هذه النفوس المستشرفة بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾، أى إن الشيطان ينزغ بينهم، أى يهيج الشر بينهم فتكون المخاشنة داعية إلى الجفوة والمهاترة، والجفوة تبعد النفوس عن الحق أو تزيدها بعدا، بينما الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، والمودة فى غير إثم تقرب، ولا تنفر، وأكد الله هذا النزغ الشيطانى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، أى إن الشيطان كان مستمرا للإنسان عدوا مبينا للعداوة، ظاهر العداوة وإن حكمة الله تعالى اقتضت كما ذكرنا أن يصبر النبى ﷺ على الأذى لأتباعه، والأذى لشخصه، حتى تستمر المودة من جانبه موصولة، فإن المودة تدنى، وتجعل المؤذى يتردد فى استمرار أذاه، بينما المخاشنة أو المغالبة تجعل للكافر معذرة فيلج فى كفره، وقد كان فى المؤمنين من يستطيع المغالبة بشخصه وعشيرته، ولكن لم يرد الله؛ حتى لا تضع دعوة الحق وسط المنافرة فيكون النفور، وقد خاطب الله تعالى المشركين مقربا منذرا، فقال:

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾

صدر الكلام بقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه الذى خلقهم وربهم، وهو الحى القيوم الذى قام على حياتهم وشئونهم، وهو يهدى؛ لبيان علمه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ... ۝١٤﴾ [الملك]، ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أى يعلم أنفسكم وأحوالكم، وما أنتم إليه علما ليس فوقه علم، وهذا معنى أفعل التفضيل؛ إذ إنه ليس على بابه،

لأنه لا مفاضلة بين علم الله تعالى وعلم غيره، والمراد كما أشرنا يعلم علما لا يسامى ولا يناهد.

وإن مع علمه المحيط بحالهم يعمل بمشيئته المطلقة، ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ﴾ ورحمته سبحانه وتعالى بأن يهديكم إلى السير في طريق الإيمان، وإذا سرتم فيه رحمتكم بالإيمان، وهو أكبر رحمة للإنسانية، ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، بأن تسيروا في طريق الضلالة فتصلوا فيه إلى غايته، فيكون منكم الضلال والشرك، فيكون ذلك الضلال عذابا لكم في الدنيا باضطراب نفوسكم وبعدكم عن الفطرة، وفي الآخرة يكون العذاب الأليم، ألا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم.

ولقد كان النبي ﷺ حريصا على إيمان المشركين، حتى قال له ربه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، أى موكولا إليك أمورهم بقسرهم على الإيمان، بل إنا أرسلناك بشيرا ونذيرا، وقد بشرت وأنذرت فما عليك بعد ذلك تبعة كفرهم وضلالهم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص].

ولقد بين سبحانه بعد ذلك أن الله يعلم من فى السموات ومن فى الأرض، وأنه هو الذى يعلم حيث يجعل رسالته فقال:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (٥٥).

صدر الكلام بـ (ربك) للإشارة إلى أنه الخالق والقائم على خلقه، وهو الذى يعلم ما خلق، وقلنا: إن أفعل بالنسبة لله تعالى لا يكون على بابه؛ لأنه لا مفاضلة بين الذات العلية وغيرها.

وذكر سبحانه علمه بمن فى السموات ومن فى الأرض، وذكر العقلاء فى السموات إشارة إلى الملائكة، وعقلاء الأرض هم بنو الإنس والجن.

يعلم الله تعالى طبيعة من فى السموات، وهم الملائكة أرواح طاهرة مطهرة لا تنزل إلى الأرض بطبعهم وحالهم، بل لو كان ملك فى الأرض لجعله الله تعالى فى صورة إنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) [الأنعام]، ويعلم سبحانه وتعالى من فى الأرض، ويجعل الأنبياء من جنسهم، ليكونوا أقرب إلى إرشادهم، ويتعذر على من فى السماء بمقتضى طبعهم أن ينزلوا، وليس فى طاقة أهل الأرض أن يتلقوا الإرشاد من الملائكة، فالنبي محمد ﷺ كان يتصبب عرقا، عندما يخاطبه جبريل الأمين، وعند أول لقاء به رجع إلى خديجة يرشف فؤاده.

الله يعلم من فى السموات ومن فى الأرض، ولذلك كان اختيار الرسل من أهل الأرض، وبيان الله لعلمه من فى السموات ومن يشير إلى اختياره الأنبياء منهم، ولذا قال بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ ففضل الله تعالى أولى العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، وقد ذكرهم بأسمائهم فى القرآن، فقال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ (٧) وقال تعالى فى سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣).

وإن أولئك الأنبياء أمروا بشرائع إلا ما كان من أمر عيسى، فإنه أحيا شريعة التوراة، وزاد عليها، وإن ثمة كتباً ثلاثة كانت قبل النبي محمد ﷺ، وهى التوراة والإنجيل، وقد ذكرهما القرآن فى عدة مواضع، وذكر التحريف فيهما، وقال سبحانه وتعالى: ﴿... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ (١٣) [المائدة].

ولقد ذكر سبحانه كتاب داوود فقال: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وهو لم يكن فيه أحكام غير التوراة، ولكن كانت فيه أدعية لله تعالى أوحى بها.

وإن داود كان حاكما كما قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...﴾ (٢١) [ص]، وكان له مع شرف الحكم الخلافة من الله في الأرض، قد أنزل عليه الزبور، وهو بهذا شرف أعظم، وأكرم.

وفى ذكر الزبور إشارة إلى التوراة والإنجيل، وكان بعد التوراة وقبل الإنجيل. فى ذكر هذا وذكر تفضيل بعض النبيين، وذكر محمد خاتم النبيين إشارة إلى كمال الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض برسالة محمد خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، والله أعلم.

وإن الأوثان التى يعبدونها، والآلهة التى يقصدونها من ملك أو بشر أو جن لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يغيثون، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦).

من صفات الربوبية القدرة المطلقة، ولا يعبد إلا من يكون قادرا على كشف الضر، والعرب كانوا يعرفون الله تعالى وأنه القادر وحده على كل شيء، فكانوا يستغيثون به إذا أصابهم بأس فى البر والبحر، ويعتقدون أنه لا ينجيهم سواه، وإذا مسهم ضر لا يلجأون إلا إليه كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ...﴾ (١٢) [يونس]. ولكنهم عند العبادة يعبدون مع الله غيره من الأوثان، أو الملائكة، أو عيسى كالصابئة، والنصارى لا يعرفون المسيح على أنه عبد خلقه الله.

لهذا يقول لهم: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ يقول لهم ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾، أى زعمتم أنهم آلهة من دون الله سبحانه وتعالى: ادعوهم ساعة أن ينزل بكم الضر أو الشدة فى البر أو البحر، أو عندما

يداهمكم ريح صرصر عاتية، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾، الفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر يبين ما قبله وبعده بأن يزول عنكم أو تحويله لغيركم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

وإذا كانوا لا يستطيعون لكم جلب نفع، ولا دفع ضرر، فكيف تعبدونهم، والعجز ظاهر حالها، وعجيب أمركم عبادتها مع هذا العجز.

وأن بعض الذين يدعون كالملائكة، والجن، والمسيح، وعزير، وكانت عبادة هؤلاء من صابئة العرب ويهودهم ونصاراهم، يتضرعون إلى الله ويعبدونه، ولذا قال تعالى فيهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾.

يقول ابن جرير الطبري: إن هذه الآية نزلت في بعض مشركى العرب الذين كانوا يعبدون الملائكة وعزير والمسيح وهؤلاء جميعا كانوا في أطراف الجزيرة العربية في اليمن والأقاليم التي تصاقب العراق، من الصابئة وغيرهم الذين كانوا يعبدون النجوم والأرواح، وكانوا إلى النصرانية أقرب، ومنهم إلى المجوسية أقرب.

وهذه المعبودات المزعومة لا تضر ولا تنفع، وينطبق عليها بالنسبة للضرر والنفع ما ينطبق على الأوثان تماما، ولكن فيها عباد مكرمون كالمسيح، فلن يستكف أن يكون عبدا لله، ولا الملائكة المقربون.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ الإشارة إلى المعبودات غير الله تعالى، والمخصوص منهم بالقول من يعبد الله تعالى؛ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ والدعاء هنا بمعنى العبادة أو الالتجاء إلى الله تعالى، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، أى يبتغون الوسيلة إليه وهى الطاعة، والمعنى يبتغون الطاعة، ومجىء الوسيلة بمعنى الطاعة جاءت فى آية أخرى وهى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ... (٣٥)﴾ [المائدة]، أى اطلبوا الطاعة، وهى الوسيلة الموصلة إليه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، «أى» اسم موصول بدل من الواو فى يتتغون والمعنى على هذا من غير افتسيات على النسخ القرآنى الكريم، يتتغون (أخص) الذين هم أقرب، أى أن هؤلاء الذين يتتغون الطاعة ويطلبونها ويريدون عبادة الله وحده هم الأقرب إلى الله.

فإذا كان أولئك المقربون الأطهار يتتغون إليه الطاعة، ويرجونها فكيف تكون حال من يعبدونهم أنهم بذلك أولى أو أجدر.

ثم ذكر سبحانه، وصفين أو حالين ينافيان أن يكونوا معبودين، فقال: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الواو عاطفة، عطفت ﴿يَرْجُونَ﴾ على ﴿يَتَتَّغُونَ﴾، أى أن أولئك العباد المقربين يدعون الله وحده، ويتتغون مزدلفين إليه بالطاعات، ويرجون رحمة الله لأنه هو الغفور الرحيم، ويخافون عذابه، لأنه هو المنتقم الجبار: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ كان من شأنه أن يحذر أن يخاف، وإن مقام الربوبية والعبودية أن يرجو الرحمة ويخاف العذاب، ومن الاتقياء من يغلب الرجاء على العذاب، ومنهم من يغلب الخوف على الرجاء، وكلاهما فى طاعة الله وفى أعلى مقامات العبادة لله تعالى.

وإذا كان ذلك شأن من يعبدونهم، فأولى بالمشركين ثم أولى أن يعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئاً.

العبرة فى الماضين

قال الله تعالى:

وَلَا تَنْفِرْ مِنْ قُرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾
وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ

وَأَيْنَاثُمُودَ الْأَنَاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
 إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
 جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
 فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨).

«إن» هنا نافية، و«من» لاستغراق النفي، والقرية: المدينة العظيمة التي يبعث فيها الأنبياء، والحصص في الهلاك قبل يوم القيامة، أو العذاب في يوم القيامة، إنما هو في القرية الظالم أهلها الذين يكفرون بالنبيين، والهلاك هو اجتثاثهم في الدنيا بخسوف تجعل عاليها سافلها كما فعل بقوم لوط، أو بريح صرصر عاتية، كما فعل بعباد وثمود، أو بالغرق كما فعل بقوم فرعون وملئه، وغير هؤلاء، هذه هي الحال التي يكون فيها الاستئصال وقطع الدابر، وذلك يكون قبل يوم القيامة. الحالة الثانية أن يتركوا في الدنيا يعصون ويفسدون ويرتكبون المآثم، وأولئك لا يهلكون في الدنيا، ولكن يعذبون في الآخرة عذابا شديدا، ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ والكتاب هو اللوح المحفوظ الذي يسجل فيه ما يقضى به بين عباده.

وإن هذا التنوع لحكمة الله تعالى وتقديره، فإنه إذا كانت الدعوة خالدة باقية، وهي دعوة نبينا ﷺ استأثني بهم لأن فيهم الطائعين، وليسوا قليلين، وفيهم من طغى وبغى، وفي ذرية الذين عاصروا النبي ﷺ من كانوا مجاهدين كعكرمة ابن أبي جهل، وكخالد بن الوليد، وغيرهم ممن كان لهم في الجهاد باع مشهور، وقوله: ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أو (معذبوها) فيها تنوع حالهم، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ و«أو» مانعة خلو، لا مانعة جميع، فكان منهم من أهلكوا قبل يوم القيامة ومن عذبوا بعدها، وأمة النبي محمد ﷺ لم يهلكها الله بعاصف يقتلعها من الأرض، ولكن أهلك العصاة لينالوا عذاب الآخرة.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فأوحى إليه قد سمعت الذى قالوا، فإن شئت أن نفعل الذى قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن تستأنى بقومك استأنيت بهم، قال: «يا رب استأن بهم»^(١).

وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، أى أنه مسجل فى اللوح المحفوظ كما أشرنا من قبل، لقد تبين من هذا أن المشركين كانوا يطلبون آيات حسية كآيات النبيين السابقين كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى، وكإخراج الموتى من القبور أيضاً، وقد أجابهم الله تعالى بأنه أنزل هذه الآيات، ومع ذلك لم يؤمنوا، وإن هذه الآيات لا تبقى بقاء المعجزة الكبرى، وهى القرآن الكريم التى ما زالت تغالب كل باطل، وتؤيد كل حق، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩).

المنع هنا هو الترك، وهو لازم لمنع، فأطلق الملزوم، وأريد لازمه وما أحد بمنع رب البرية أنى هو ترك، لحكمة أرادها، وأمر قدره، وهو أنه يعلم - وهو علام الغيوب أن الآيات الحسية لا يؤمنون بها كما لا يؤمن بها من سبقهم، ولأن الآيات الحسية، كحاصب من السماء، أو خسف أو ريح صرصر ينقضى بعد ساعته، ويكون خبراً من الأخبار، ولو أن القرآن سجل معجزات عيسى وموسى ونوح وإبراهيم ما علم بها أحد علماً متواتراً من غير تحريف.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ نُرْسِلَ﴾ مصدر منسبك من «أن» وما بعدها فى المفعول للمنع، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وهم الذين نزلت إليهم، و«أن» وما بعدها فى مصدر منسبك فى موضع الفاعل للمنع، وقد علمت أن المنع أريد به الترك وإنما عبر بالمنع ولا يوجد من يمنع؛ للإشارة إلى أن الحكمة التى أرادها رب

(١) هذه رواية أحمد عن ابن عباس: مسند بنى هاشم - بداية مسند عبد الله بن عباس رضى الله عنهما

العالمين من الآيات هي التي تمنع، فالله تعالى هو الذي منع ذاته العلية، كقوله تعالى: ﴿... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم].

وقد ذكر الله تعالى آية كان العرب يعلمون بها، وقد كانت في أرضهم، وقريبا من دارهم، فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، أى مينة هادية ليصروا بها الحق، ولكنهم بعد أن أبصروه تجنبوه، وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾، أى أنه سبحانه آتاها لثمود، مع أنه آتاها لصالح حجة له، ولكن ذكر الإيتاء لهم، وقد كفروا وضلوا بها، ولأنها نزلت فيهم حجة عليهم؛ لأنهم هم الذين طلبوها.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، أى بسببها، أو تضمن الظلم معنى الكفر، فيكون المعنى فكفروا بها، ولم يصدقوا، ولم يذعنوا لما تهديهم إليه، ويقول: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، أى ما نرسل الرسل مؤيدين بالآيات إلا تخويفا، إلا ليعلموا رسالة الرسل الذين جاءوا مبشرين ومنذرين، فمعنى التخويف هو ما تدل عليه من الرسالة المنذرة المخوفة من عذاب الله تعالى.

ويقول تعالى فى آيات حسية جاء بها النبى ﷺ وكانت فتنة فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾.

«إذ» متعلقة بمحذوف تأويله «اذكر»، أى اذكر الوقت الذى قلنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، الناس إما أن يريد بهم الناس جميعا، وهو الظاهر، فالعام لا يراد به بعض من يشملهم إلا بقرينة تدل على الخصوص، ومعنى الإحاطة العلم أو القدرة أو الإهلاك، فمن العلم قوله تعالى: ﴿... أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (٦٢)﴾ [الطلاق]، والقدرة أى أن كل شىء فى قبضته، والإهلاك مثل ﴿... وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ... (٦٢)﴾ [يونس]، أى تعرضوا للهلاك.

والمعنى إنا أعلمناك بوحي أن الناس قد أحيط بهم، وأنهم فى قبضة الله تعالى، والله عاصمك منهم فبلغ دعوتك غير خائف، فإنه سبحانه وتعالى

عاصمك من الناس كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...﴾ (٦٧) [المائدة].

ويفسر الزمخشري الناس بأنهم أهل مكة، والإحاطة بالإهلاك، وقد بلغ الله نبيه يوم بدر بأن يهلكهم، ويفسر الرؤيا المنامية بأنها رؤياه أنه مهلكهم فى هذه الغزوة، وأنه إن لم يهلكهم بالإبادة فقد أضعف سلطانهم، وقد قال فى ذلك: «واذكر إذا أوحينا إليك أن ربك ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أى بقريش، يعنى بشركناك بوقعة بدر، وبالنصرة عليهم، وذلك قوله: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُ الدَّبِرَ﴾ (٤٥) [القمر]، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ ...﴾ (١٢) [آل عمران] وغير ذلك، فجعله كأنه قد كان وجد، فقال أحاط بالناس على عادته فى إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر، والنبى ﷺ فى العريش مع أبى بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: «اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك»^(١) ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس إلى آخر ما جاء فى أخبار بدر».

وخلاصة تفسير الإمام الزمخشري أنه يفسر الناس بأهل مكة، وأن الرؤيا رؤيا منامية، وأنه رؤيا النبى ﷺ التى رآها عندما التقى الجمعان فى يوم الفرقان، وأن الهلاك ذهاب شوكة المشركين، وإن أخبار القرآن الكريم تكون عن وقائع المستقبل كأنها وقعت الآن، وكان النبى ﷺ قد أخبر بذلك عندما اشتد أذاهم وإثباتهم، وكانت الفتنة فى أنهم كذبوا.

ونحن مع إجلالنا لمقام الإمام الزمخشري فى البيان لا نرى رأيه.

أولاً: لأنه تأويل بعيد، ولأنه لا تكون فتنة، ولم يحدث كفر لهذه المناسبة.

ثانياً: لأن الأصل إطلاق العام على عمومه، حتى يقوم دليل أو قرينة على إرادة التخصيص.

(١) رواه البخارى: الجهاد والسير- ما جاء فى درع النبى ﷺ (٢٦٩٩)، وأحمد: مسند بنى هاشم (٢٨٨٥).

ثالثاً: أن الآية مكية، وقد أجاب عن ذلك بأن الكلام كان تبشيراً بما سيكون يوم بدر، ونقول: إن الألفاظ لا تساعد، ولا تومئ إليه، والقرآن كتاب عربى مبين.

ولذلك نرى أن الله أحاط بالناس، وأنهم فى قبضته، وأنه قادر على كل شىء، وعاصم نبيه منهم، وحافظه حتى يؤدى رسالة ربه تعالى.

ولكن ما هى الرؤيا؟ قال أهل اللغة: الرؤيا تستعمل فى الرؤية البصرية فى اليقظة، والرؤيا المنامية فى النوم، ويصح أن يراد بها هنا البصرية فى اليقظة، وهى الإسراء، «فقد أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى».

وقد كانت فتنة للناس؛ لأن من أهل مكة من ذهب به الاستغراب والدهشة إلى حد الردة بعد الإيمان، أو على الأقل الشك بعد اليقين، ويصح أن يراد الرؤيا التى تكون بالروح، وهى ما كان بالعروج إلى الملأ الأعلى على ما اخترنا واتبعنا فيه كثرة من السلف الصالح.

ونلاحظ هنا أن المشركين كانوا يطالبون بآيات كآيات عيسى وموسى، فلما جاءتهم كفروا، فلما جاءتهم فى انشقاق القمر، قالوا سحر مستمر ولما جاءتهم فى الإسراء كفروا فصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾ [يونس]؛ لأنهم طبع على قلوبهم فلا يفقهون، هذا ما نراه، ولا مانع من أن نذكر أمراً يتعلق بتاريخ الإسلام، وإن كنا لا نرى ذلك فى هذه الآية، وربما نراه فى غيرها.

لقد قال سهل بن سعد: إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله ﷺ كان يرى بنى أمية يتزولون على منبره نزول القردة فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات رسول الله ﷺ^(١). وإن ذلك يؤيده التاريخ، فقد صيروا الحكم ملكا

(١) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير مُصعب بن عبد الله بن الزبير، وهو ثقة، كما رواه البيهقى فى الدلائل، وابن عساكر. كنز العمال (٣١٧٦٣) - ج ١/ ٢٢٦٣.

عضوضاً، وذهبت الشورى، وقد قال الحسن البصرى فى شأن بيعة معاوية ﴿وَأِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١١١) [الأنبياء].

قال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وذلك لسوء مذاقها، وقبح مكانها، وأنها تخرج من أصل الجحيم، فليس معنى لعنها أنها مطرودة كما يطرد العصاة المسئولون؛ لأنها لا توصف بالعصيان والمسئولية، وإنما هى مذمومة، فيقال للطعام القبيح المذاق ملعون، وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ فهى فتنة لهم كما أن الرؤيا كانت فتنة لهم، وقال تعالى مشيراً إلى أنها فتنة: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّاقُومِ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) [الصافات].

وإنها كانت فتنة لهم، لأنهم بدل أن يعتبروا بما فيها من إرهاب، وإفزاز فتنوا بالألفاظ، فقالوا: إنها تخرج فى أصل الجحيم، ونار الجحيم تأكل الحجارة فكيف تنبت فيها الأشجار، وأخذوا مفتونين يرددون هذا القول كأنهم أخذوا على القرآن أمراً مختلفاً، فكانت هى الأخرى فتنة لهم، والضال لا يتجه إلى الحق اتجاهاً مستقيماً، فهو يتعرج به فى المعارج من غير اتجاه إلى صراط مستقيم.

وقد ذكر الزمخشري أن النار ربما لا تحرق فى طبائع الأشياء، فقال: «قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تأكل الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر، وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وأنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل، وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت فى النار، فيذهب الوسخ ويبقى سالماً لا تعمل فيه النار، وترى النعامة تتلع الجمر، وقطع الحديد المحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق فى كل شجرة ناراً فلا تحرقها».

وقد قرب الزمخشري وجود شجر ينبت أصلها بالجحيم بالواقع المشاهد، ولكن تقرر أن قدرة الله تعالى فوق ما يتصور المشركون، وكل شئ عنده بمقدار،

وكل أمر يذكر لغاية يتخذونها على النقيض، ولذا قال عن الشجرة الملعونة، ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ بهذه السخرية والاستهزاء والتهكم على أهل الإيمان.

إبليس والكرامة الإنسانية

قال الله تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
 قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
 كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
 ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
 جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مِنْ أَسْتَطَعْتَ
 مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأُنْجِلِبُ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ
 فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
 غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
 بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

نبه سبحانه وتعالى إلى أصل الخلق والتكوين، ونبه إلى أن أصل عداوة إبليس لآدم هو أنه يحسد آدم على ما آتاه الله تعالى من تكريم حرم إبليس وذريته منه، فناصب آدم العداوة لهذه الكرامة، وحاول أن يفض^(١) فيها بالإغراء بالمعاصي، وبذلك فهم أنه بمقتضى الفطرة أن الكرامة والمعصية نقيضان لا يجتمعان فمن كان

(١) الفض: الكسر بالفرقة. الصحاح.

عاصيا يتفحش فى المعاصى لا كرامة له، وإن ظهر بين الناس متغطرسا طاغيا، فإن الكرامة ليست هى السلطان، إنما هى الحق، فإن كان مع السلطان الحق توافرت الكرامة، وإن خلا منها فهو المهين المتغطرس، وهذا يشير إلى أن المشركين فى إشراكهم لا كرامة لهم، وإن تعصبوا وغلبت عليهم العنجهية الجاهلية.

ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾.

«الواو» لوصل الكلام، إذ إنهم يتغطرسون ويطيعون الشيطان فيبين الله أنهم إذ يطيعونه يذهبون بالتكريم الذى كرمهم الله تعالى، وينزلون برءوسهم وأجسامهم، إلى كرامة أبيهم آدم، و«إذ» متعلقة بمحذوف، ويذكر الله تعالى أمره للملائكة بالسجود مضيفا الأمر إلى ذاته العلية بيانا لمركز آدم، والله تعالى بذاته العلية وجه الأمر إلى الملائكة بالسجود، وإن إبليس كان يدخل فى عموم المخاطبين بهذا الأمر أكان من الملائكة أم كان من الجن، كما صرح بأنه من الجن فى آية أخرى، إذ قال: ﴿... إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...﴾ (٥٠) [الكهف]، والسجود كان لآدم بوصف الآدمية، فكان الآدمية مكرمة لذاتها، والمهانة تعترىها من المعصية، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، أى أطاعوا، وخروا ساجدين إلا إبليس، فقد قمر، وفسق عن أمر ربه، وقال متمردا متعاليا من غير علو، كشأن أتباعه ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع أى النفى، أى: لا أسجد، معترضا على ربه، كما قال سبحانه فى آية أخرى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦) [ص]، وقوله: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، أى لمن خلقته من طين، ولكنه أتى بكلمة (طينا) على أنه حال، أى: أسجد لمن خلقته من طين، أى أنه ينكر أن الله سوأه، وكأنه إلى وقت السجود كان طينا حتى إلى هذه الحال، وكان هذا من مظاهر الاستكبار.

وقد بين نية الشر الذى دفع إليه الحسد، وسبب ذلك الحسد، قال:

﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرُمْتَ عَلَيَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب، ويقول بعض

اللغويين، لا محل لها من الإعراب، وأرى أنه لا مانع من أن تكون فى موضع

المفعول لرأى، والهمزة للاستفهام، ومعنى الكلام أخبرنى أهذا الذى كرمت على، وفى هذا معنى التصغير لآدم، والاستكبار عليه، كأنه يقول ما هذا الذى كرمت على، أى كرمته مفضلاً له على، وأنه لا يستحق التكريم دونى، ويقول إبليس: أنا الجدير بالتكريم، كما توهم أن كونه من نار يجعله أكرم ممن هو من طين، وذلك من فرط الغرور؛ لأن الذى أمر بذلك الأمر الجازم هو الذى جعلك من نار وجعله من طين، وذلك من تغفيله، واستعلائه بالباطل، وكان قياسه هذا باطلاً، واستدل نفاة القياس على بطلانه بقياس إبليس.

ثم يقول متوعداً آدم وذريته، ومتحدياً ربه عن جهالة: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ اللام للقسم، ولأحتنكن جواب القسم، ودخلته نون التوكيد الثقيلة، وهو يؤكد ذلك، كقوله فى آية أخرى: ﴿... ولأغوينهم أجمعين﴾ (٣٩) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) [الحجر]، والاحتناك: الاستئصال، من احتنك الجراد الزرع إذا لم يبق منه شيئاً، وكقولك: الرجل احتنك شاتين أى أكلهما، ويصح أن يكون من احتنكت الفرس وضعت فى فمها الرسن أو الحبل، يجرها منه، والمعنيان يصلحان، إذ يكون المعنى استأصلهم بالإغراء والإغواء حتى يجرهم كما يجر الرجل دابته، ويجعلهم له تبعاً، وقد استثنى من ذريته فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾، أى إلا عدداً قليلاً، وهو كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) [الحجر]، وفى هذه الآية قال: إلا قليلاً، وباجتماع يكون المخلصون من عباد الله عدداً قليلاً.

وكيف علم ذلك؟، نقول: إنه اعتزم أن يفعل ذلك، ويريد أن يكون أتباعه عدداً كبيراً، وأطمعه فى ذلك أن الملائكة عندما قال الله تعالى لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾ (٣٠) [البقرة]، ولأنه أدرك أنه يؤتى من قبل شهوته وهواه وأنه أوتى غيرةً بحيث يكون قابلاً للانخداع لا يستمسك، كما قال الله تعالى فى آدم: ﴿... وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (١١٥) [طه].

ولقد أجاب الله سبحانه إبليس على ما قاله بقوله:

﴿قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ٦٣﴾.

﴿أَذْهَبُ﴾ معناها هنا امض فيما أنت معتزم عليه فإن لهم اختيارا وإرادة، فلا نستمكن منهم إلا بإرادة يريدونها، ويتغونها، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ والغاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إن ذهبت وأغريت، وحاولت السيطرة على نفوسهم فمن تبعك إلى ما تدعوه إليه: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ فمن يتبعك مختارا مستجيبا لإغرائك، فأنت وهم قد صرتم جمعا واحدا، جزاؤك وجزاؤهم واحد، ولذا خاطبهم جميعا باعتبار أنهم جميعا صاروا جمعا واحدا، وكان الخطاب بالجمع؛ لأن الخطاب له ابتداء، ولهم بالتبع، ووصفت بأنها جزاء موفور أى كامل على قدر ما أساءوا، وهى كاملة ووافق لما أجرموا، وقد قال فى وصف جزائهم فى آية أخرى فى قوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر].

وكان الخطاب بالجمع لما ذكرنا من الخطاب لإبليس، وهم له تبع.

وقد دعاه سبحانه لأن يبذل أقصى جهده، لأن الله تعالى قضى أن يهبطوا منها جميعا، بعضهم لبعض عدو، وأنه خلق لإغواء من يستطيع إغواءه من ذرية آدم، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ اسْتِطْعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾.

أى استخفهم، وحرصهم، وحركهم إلى اتباعك ليجيئوا إليك تابعين، لصوتك الداعى، وجاهر به فى الدعوة إلى المعاصى، ﴿وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ﴾، أى صيح عليهم بجلبة وصياح كما يدعى الجيش للقتال، فأعد عدتك وأجلب من يكونون فى جلبه لك ﴿بِخَيْلِكَ﴾ بالذين يناصرونك من خيالة، ﴿وَرَجْلِكَ﴾ اسم جامع لراجل، وفى الكلام تشبيه، وهو تشبيه حال الشيطان فى دعوته الغاوية الضالة

والمستعد للشر والإغواء بحال جيش من الأشرار يستفز الأنصار والأتباع، ويكون جلبة من خيالة وراجلين، فهذه الحال تشبه حال جيش فساد مستعد للإغارة على الخير، وجاء في أمر الله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ في الأموال التي يكتسبونها بالسحت، ومن غير الحلال، وفي الأولاد الذين يجيئون أيضا من غير طريق حلال، وقال الزمخشري في هذه الجلبة وهذا الاستفزاز ما نصه: «مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم وصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم من مراكزهم، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم» أى حتى أزال كل ما فيهم من عناصر، أو غلب عليهم عناصر الشر، ثم تكلم عن المشاركة في الأموال، فقال: «وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها، كالربا والمكاسب المحرمة، والبحيرة والسائبة والإنفاق في الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب».

ومعنى هذه المشاركة في الأموال أنه يشاركهم في إثمها، والعذاب عليها لا أنه يشاركهم فيها بالأخذ، إنه لا يريد منهم إلا الإغواء، فهو يغويهم، ويشاركهم في كل مآثم الإغواء.

﴿وَعِدَّهُمْ﴾ المواعيد الباطلة من المعبودات الأخرى غير الله التي تشفع لهم - في اعتقادهم - عند الله، وتمنع عنهم، وأن ذوى الأنساب هم يوم القيامة لهم المنزلة، كما هي لهم في الدنيا، واذكر لهم أيضا أن الحياة الدنيا هي كل شيء، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، أى إلا أموراً تخدعهم، ولا يكون فيها جزاء، بل هي أوهام فى أوهام، وإن الشيطان يولد فيهم الأوهام الكاذبة فيتصورون غير الواقع واقعا، وبذلك يُدَلَّون بغرور.

هؤلاء هم الذين رضوا بأن يكونوا أتباعا للشيطان حيث أغواهم، أما عباد الله المخلصون فليس للشيطان عليهم سلطان، وقد تخلصوا من غوايته، وقال الله تعالى فيهم:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥).

أحس الشيطان بأنه لا يستطيع إغواء عباد الله المخلصين، وقد قال: ﴿...وَلَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وفى التعبير عنهم بـ ﴿عِبَادِي﴾ فيه إشارتان:

الإشارة الأولى: أن لهم شرف الانتساب إلى الله تعالى؛ لأنهم قاوموا غرور الشيطان وخداعه وإغواءه، فكانوا جديرين بأن يختصهم الله بأنهم عباد، وإن كان الجميع عبادا لأنه خلقهم، فالطائع والعاصى عباد الله، لكن الاختصاص هنا للطائعين.

الإشارة الثانية: الإشارة بأن الآخرين أتباع الشيطان، فهم كعبادهم، ولذلك يقال عنهم عبدة الشيطان وعبدة الطاغوت...

ويقول سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أى تسلط؛ لأنهم تحصنوا بالعزيمة والإرادة والعزم القوى، والاتعاظ بعظات الله تعالى، والاهتداء بهدى رسله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، أى كفى ربك وكيلا يتوكلون عليه، ويكفيهم غرور الشيطان ويرد إغواءه عنهم؛ لأنهم استمسكوا بالعروة الوثقى وارتضوا طريق الخير طريقا.

فى الوجود آيات الله تعالى ونعمه

قال الله تعالى:

رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ
فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ

بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِعًا ﴿٦٩﴾

هذه آيات الله الينات تحوطنا فيما حولنا وفي ذات أنفسنا، وفي مجريات أمورنا توقظنا فلا نستيقظ، وهي تذكير من الله سبحانه وتعالى، وروى عن ابن مسعود أنه جفت الكوفة، فقال: «يا عباد الله إن يستعيبكم فأعتبوه».

ذكر الله تعالى نعمته على الناس في الفلك المشحون فقال سبحانه: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، وإزاء الفلك سوقه وإجراؤه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور].

فكلمة يزجي تتضمن أن الله يسوق السفينة وأحمالها، وهو الذي يجريها في وسط الأمواج المتلاطمة، وهو سبحانه حفيظ عليها في وسط الرياح التي تهزها هزا، والأمواج التي تعلو حتى تكون كالجبال، وتهبط حتى تكون كأنها تسير على بساط الأرض.

وقال تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويصف سبحانه وتعالى الفلك بأنه الفلك المشحون، أي المملوء بالأمعة والبضائع التي تنقلها من بلد إلى بلد، أو إقليم إلى إقليم.

وهنا نذكر معجزة للقرآن الكريم، في إخباره عما يكون في المستقبل، فكل ملم بالتاريخ يعلم أن المتاجر في بلاد العرب كانت تسير بالقوافل في باطن الصحراء، حتى كان المثل: الجمل سفينة الصحراء، ويندر من العرب من كان يرى

البحر، ولكن القرآن تنبأ بأن الفلك ستكون هى الطريق لنقل البضائع من إقليم لإقليم، من أقصى الأرض إلى أقصاها، والآن نرى أن البلد يكون مقدار اقتصاده تبعاً لمقدار سواحله، ومقدار المنشآت التى تمر بمراسيه، وتمخر عباب البحر إليه.

ولا تكاد تجد سورة من القرآن خلت من وصف البحر والجوارى المنشآت، ولقد اطلع بعض البحارة على بعض تراجم القرآن - وإن لم تكن قرأنا - فعجب عندما علم أن محمداً ﷺ لم يركب البحر، فأمن.

وقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، أى لتطلبوا مبتغين مريدين بعض فضله، ومن هنا للتبعيض؛ لأن الفضل الذى يتغى بالسفائن، إنما هو سبب واحد من أسباب الكسب الحلال، وهو الاتجار، ونقل البضائع بين الأمصار عمل ذى أخطار، وهناك فضل كثير لله غيره، فهناك الزراعة، وهناك استخراج المعادن من باطن الأرض، واللائى والجواهر من باطن البحار، فكل أولئك من رحمة الله، ولذا ختم الآية بقوله تعالت كلماته ونعمه: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ الضمير يعود إلى ﴿رَبِّكُمْ﴾ الذى صدر به القول و﴿كَانَ﴾ دالة على الاستمرار، وقدم ﴿بِكُمْ﴾ على ﴿رَحِيمًا﴾ لكمال العناية بخلقه، وللاهتمام بالإنعام وبالرحمة بهم، فالإنسان محوط بنعمه مغمور بها، ولكن قليل الشكور من بين عباده، وكثير الكفور.

وإن الله كما يجرى السفائن فى البحار يحفظ راكبيها من كل ضر يسببه ركوب البحار أو لا يكون به، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾.

الضر هو ما يصيب الإنسان فى جسمه من مرض أو خوف أو اضطراب، وإن أهوال البحر كثيرة، وخصوصاً عندما كان السير فيه بالمراكب الشراعية، ولا تزال الأهوال قائمة، فمنها دوار البحر، ومنها تلاطم الأمواج وعلوها أحياناً

حتى تصوير كالجبال، ومنها المرض حيث يكون منقطعاً عن أهله، فإنه يكون في هذه الحال منقطعاً عن الناس لا يعلم به أحد ممن يستغيثهم فيغيثونه، فهل يذكر الأوثان التي يدعوها من دونه قال سبحانه: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، أى غاب عن خواطركم من تدعونها آلهة وبدت لكم حقيقتها وهى أنها أحجار لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر ولا تغيث ولا تستغاث، ولعلكم لا تذكرون هذه الحقيقة وقت سرايبكم وتغمركم الأوهام التى أضلتكم وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾، أى غاب كل ما تزعمون قوة، ولا يحضر الله سبحانه وتعالى، و(إياه) ضمير منفصل فى محل النصب، والكلام يشير إلى وحدانية الله تعالى فى الخلق والتكوين والعبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ﴾ معناه أصابكم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ﴾ للإشارة إلى أن البحر مخوف مرهوب، فالمس يشمل الإصابة التى تصيب الأبدان، ويشمل خوف الغرق والفرع عندما تضطرب الأمواج ويعلو الفلك وينخفض، وقد وجفت القلوب واضطربت الأفتدة.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

الفاء هنا عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو ترتيب عكسى، أى أنه كان يترتب على هذا الشكر، ولكن ترتب العكس، فهذا دليل على الجحود، وعمقه فى نفوسهم وتغلغله بسبب قلوبهم الكافرة غير الشاكرة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يشير إلى أنهم وهم فى البحر هم فى مخاطره، ولذلك جعلت غاية النجاة البر، ﴿نَجَّكُمْ﴾ فيها معنى الإنقاذ، وأنهم ما داموا فى البحر فهم عرضة لأهواله، وبعد أن جاء عصر البخار الذى تسير به السفن وسائر المراكب من قطر إلى قطر وغيرها ما تزال فى البحر مخاطرة.

ويقول سبحانه: ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، أى انصرفت نفوسكم عن معانى الضراعة ونسيتموها وكأن لم يكن ضر ولا صرف، وكذلك شأن الإنسان دائماً لا يذكر الأهوال إلا وقت نزولها فإذا زالت نسيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝١٦﴾ [هود].

وقد قال البيضاوى فى معنى ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾: اتسعتم، أى صرتم فى سعة بعد ضيق واستشهد بقول ذى الرمة:

عطاء فتى يَمَكِّنُ فى المعالى فاعرض فى المكارم واستظلا

وقد ذكره على أنه احتمال فى المعنى، ونرى أن المعنى بعمومه يشمل.

هذا، وإن السير بالمراكب فى البحار أمر شديد أو كان شديدا جدا فى العصر الأول، وكان يدفع للإيمان إذا كانت النفس مدركة، ويروى أنه عند الفتح الإسلامى لمكة نفر ناس من أن يخضعوا لحكم النبى ﷺ وهربوا وركبوا الفلك إلى الحبشة ومنهم عكرمة بن أبى جهل، فركب البحر، فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة فى نفسه: والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره، اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلاضعن يدى فى يد محمد، فلاجدنه رهوفا رحيمًا، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه.

وإذا كانوا قد أعرضوا بعد أن زالت عنهم شدة البحر، فإن الله يذكرهم، وهو العليم الحكيم أنه ينزل بهم الشدة فى البر أيضا، إذ هم فى قبضة الله تعالى فيقول:

﴿أَفَأَمْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (٦٨).

(الفاء) عاطفة على فعل محذوف تقديره أنجوتهم فأمتتم والهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى إنكار الواقع؛ لأنهم زعموا أنهم إذ نجوا أمنوا الخسف فى الأرض، أو الريح الحاصب من السماء.

وإذا كانوا كذلك فهذا توبيخ لهم على هذا الغرور وظنهم الأمن المطلق بعد النجاة من البحر، وهكذا الغرور دائما تحكمه الساعة التى يكون فيها، وهى التى توحى إليه بالغرور.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِتُّمُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾، أى أن غرورهم ليس فى موضعه وأنهم آمنوا حيث لا مأمن، وظنوا أنهم قد خرجوا عن قدرة الله تعالى مع أنهم قد دخلوا فى قدرته، وما هم بخارجين منها، فإذا نجوا من البحر وأهواله، ففى البر أهوال، والخسف أن تنهار الأرض، ويقال: بثر خسيف إذا انهدم أصلها، وجانب البر ناحية الأرض، والخسوف يقع فى جانب منها، وقال الله تعالى فى قارون عندما بغى على قومه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ...﴾ (٨١) [القصص].

فإذا نجوا من البحر فلن ينجوا من خسف الأرض، أو يرسل الله تعالى حاصبا، أى ريحا شديدة، وهى التى ترمى بالحصباء وهى الحصى الصغيرة، والحجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط، فقد جاء الخسف والحاصب معا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ﴾ (٨٢) مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ (٨٣) [هود].

فجاءهم الخسف، وجاءهم الريح الحاصب معا وكانوا يستحقون.

وقوله تعالى: ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾ منصوب مفعول لـ ﴿يَخْسِفُ﴾، وعلل الزمخشري ذكر الجانب بقوله: «معناه أن الجوانب والجهات كلها فى قدرته، وله فى كل جانب برا كان أو بحرا مرصد من أسباب الهلكة ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك، بل إن كان الغرق فى جانب البحر، ففى جانب البر ما هو مثله وهو الخسف، فهو تغيب تحت التراب كما أن الغرق تغيب تحت الماء».

ويستفاد من هذا أن ذكر الجانب فى البر فى مواجهة الجانب من البحر، وليس جزءا خاصا من الأرض إنما الأرض، كلها جانب فى مقابل جانب البحر كله، وكان على العاقل المدرك أن يعرف أنه لا يغيب عن قدرة الله تعالى فى بر أو بحر.

وإذا فهو تحت سلطان الله تعالى في البحر والبر، فلا يتوهم أن يوجد من ينجيه من عذابه إلا إياه، وليس لأحد قدرة في أن يمنع قدر الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ تتكلمون عليه، ويصرف عنكم ما يقدره عليكم.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (٦٩).

﴿أَمْ﴾ هي أم المعادلة، أأمنتم أن يخسف بكم جانباً من البر، أم أمتم أن يعيدكم إلى البحر تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً إلى آخره، والمعنى واضح أن غير المؤمن في غرور دائم، لا يفكر إلا في الحال الوقتية كشأن كل مادي فيه قصر فكر وإدراك، لا يفكر في العواقب، إنك إذ نجوت من البحر وأهواله، ونجوت من ضره وأسقامه فقد حسبت أن الوجود قد استقام كله لإرادتك وهواك، وإنه لا يجيء ما يجعلك تلجأ إلى الله تعالى وحده، أفأمنت جانب البر أم أمنت أنك لا تعود إلى البحر مرة أخرى فتعرض لعقاب على كفرك.

﴿تَارَةً﴾، أي مرة أخرى لرغبة قوية في نفوسكم أنسيتم ما أصابكم أولاً، كما نسيتم رحمة الله وأن ذلك بإرادة الله فهو وحده الذي يعيدكم بتقوية هذه الرغبة ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ (الفاء) عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، أي أأمنتم أن يعيدكم فيرسل، فهو في قضائه وقدره قد رتب على إعادتكم أن يرسل عليكم قاصفاً؛ وهي الريح التي يكون لها صوت شديد مزعج كأنها تنقص أي تنكسر، وهي لا تمر بشيء إلا قصفته فتهز الدوح^(١) وتكسرهما وكل ما يقف في سبيلها تكسره، ويترتب على قصفها الفلك وشراعها أن تغرق بمن فيها، ولذا قال تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُمْ﴾ ولا منجاة لكم بسبب كفركم بالنعمة التي أنعمها عليكم في النجاة إذ مسكم الضر ويسبب كفركم بالله تعالى.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي مطالباً بحق لكم لأنه لا حق لكم، إنكم بكفركم أخذتم، فالتبعية هو من يتبع الغريم المطلوب منه أداء ما عليه، كقوله

(١) جمع دَوْحَة، وهي الشجرة العظيمة من أي شجر كان. الصحاح.

تعالى: ﴿... فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ...﴾ (١٧٨) ﴿[البقرة]، والمعنى أنهم يصنع بهم ما يصنعه الله فيهم ولا مطالب لهم بحق أو ما يشبهه.

كرامة بنى آدم

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ
أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

كرم الله بنى آدم من وقت أن خلق آدم وأمر الملائكة أن يسجدوا له، ولأن الله خلق شهوة، وملكية فإن غلبت ملكيته فهو أفضل من الملائكة وإن غلبت شهوانيته، فهو أخط من البهائم فكان من تكريمه تكليفه، فإن ذلك التكليف علو به من البهيمية إلى الملكية أو إلى خاصة الإنسانية، ومن هذا التكريم أن كان يُبعث ويُنشر؛ لأن هذه ضريبة العقل، ولا يكون الحساب والعقاب إلا للعقلاء المختارين الذين يميزون بين الخبيث والطيب، وإن العلاقة بين هذه الآيات وما سبقها من آيات أن الآيات السابقة كانت تتعرض لاعتراض إبليس على تكريم الله تعالى لآدم دونه، ثم ذكرت فضل الله ونعمه وكفر المشركين بهذه النعم، وعدم شكرها.

وفى هذه الآية يذكر تكريمه للإنسان فى هذه الدنيا كما كرم أباه منذ النشأة

الأولى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ التكريم يتناول التكريم الأول بأمر الملائكة بالسجود لآدم، فإن ذلك تكريم للخلق الإنساني منذ الابتداء، وليس معناه أن كل إنسان أكرم عند الله من الملائكة، بل معناه أن آدم ذاته قبل أن يعصى كان مستحقاً للكرامة فوق الملائكة، ولكنه بعد ذلك عصى آدم ربه فغوى، وهذا يشير إلى أن آدم يستحق الكرامة التي كرمه بها إلا إذا عصى.

وإن تكريم الله للإنسان ابتداء كما رأيت منذ النشأة الأولى، ثم كان من تكريمه أن خلقه في أحسن تقويم، ثم كان من تكريمه أن أعطاه سبحانه وتعالى العقل المميز، ثم كان من تكريمه أن جعل له إرادة يختار بها الخير والشر فيعلو عن الملائكة إن اختار الخير، وذلك كل الصعوبات التي تعترض طريقه، ثم كان من تكريمه أن سخر له السموات والأرض والنجوم وصار كل من في الوجود له، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ (٢٩) [البقرة].

وذكر الله تعالى من تكريمه أنه تمكن من الأرض يُحمل فيها بالركائب التي سخرها له من بغال وحمير وخيل مسوقة وغير مسوقة وجمال له فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وكان حمله في البحر بالفلك المشحون كما ذكر سبحانه في آيات أخرى.

وإن الحمل في البر يدخل فيه الحمل في الجو بالطائرة التي تسبح في الهواء كما يجري الفلك في الماء، كما قال تعالى: ﴿... وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) [النحل]، وقوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وإن كل المخلوقات التي لم تؤت مثل ما أوتى ابن آدم من عقل مدبر وإرادة للخير والشر وابتلاء بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبِّئُكُمْ بِالْخَيْرِ فَتَنَةً...﴾ (٣٥) [الأنبياء]، كل هؤلاء فضل الإنسان عليهم بالفعل والتميز والإرادة لما يفعل وتحمل التبعة.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾، (من) بمعنى بعض وهم كثرة، فالإنسان من بين ما خلق قليل محدود، وغيره كثير غير محدود، وإن هذه الكرامة يستحقها

الإنسان بوصف كونه إنسانا لا لأنه عربى أو أعجمى أو أبيض أو أسود أو متخلف أو متعلم، فهى حق كل إنسان، وإن البعث والنشور والحساب والعقاب والثواب من أسباب تكريم الإنسان؛ لأنه يكون مسئولاً عما يفعل، والمسئولية تكريم للإنسان لأن غير المسئول همل، والمسئول من له كرامة وأدته إلى الجحيم، ولذا قال تعالى:

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره (اذكر) ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ﴾، ومجىء هذا بعد آية التكريم يدل على أن ذلك له صلة بالتكريم فكان من تكريم الإنسان أنه لم يخلق سدى، بل خلق متحملاً للتبعة التى لا يتحملها إلا الكرماء، فمنكرو البعث رافضون للكرامة التى أكرمهم الله تعالى إياها لو كانوا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أضاف سبحانه الدعاء إليه للإشارة إلى أنهم يلقونه، وقد كذبوا من قبل بقاء ربهم، وخسروا بذلك خساراً مبيناً كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ... (٣١)﴾ [الأنعام]، و(إمامهم) أى بما يأتمون به ويتبعونه من بين هاد أو مرشد أو كتاب تدارسوه واتبعوه، وغير ذلك مما يكونون له تبعاً، وفسره ابن كثير بأنه كتاب أعمالهم، فإنه فى هذا الوقت تكون الأعمال هى الناطقة التى تقدم أصحابها، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)﴾ [الجاثية].

وإنه يرشح لذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ...﴾.

ولكن كيف يسمى كتاب الأعمال فى الدنيا إماماً، وهو نتيجة لاتباع غيره من هاد أو ضال، ولهذا رجح الأكثرون بأن الإمام هو القدوة المتبع هادياً مرشداً، أو غاويًا مضلاً.

وقد يجاب عن الرأي الأول بأن الكتاب سمي بذلك؛ لأنه حجة عليه لا يستطيع معه إنكاراً، ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الفاء تشير إلى أن هناك من يعطى يمينه، ومن يعطى بشماله، أو هي تفصح عن كلام مقدر، ﴿أُوْتِيَ﴾، أى أعطى كتابه يمينه وإعطاء الكتاب يمينه يشير إلى أنه من أهل اليمين وهم أهل الجنة كما قال الله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)﴾ [الواقعة]، ويقول سبحانه عن أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (١٤) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (١٥) وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ (١٦) لَا يَارِدُ وَلَا كَرِيمٍ (١٧)﴾ [الواقعة].

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْتِلِكُمْ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾، أى أنهم يقرءون كتابهم مستمتعين بهذه القراءة مدركين جزاءهم مستوقعين له، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أى مقدار فتيل، وهو ما يكون بين جزأى النواة وهو ضئيل، كما قال تعالى: ﴿... وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾ [مريم]، وكما قال تعالى: ﴿... فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه].

وقد ذكر سبحانه أن أهل اليمين يقرءون كتابهم ولم يذكر أهل الشمال أنهم يقرءون كتابهم؛ لأنهم لا يقرءونه استخزاء من أفعالهم وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وإن هذه حال أهل اليمين، أما حال أهل الشمال فقد أشار سبحانه وتعالى إليها بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾.

العمى هنا هو عدم إدراك النعمة أو عدم شكرها والكفر بها، ففي الكلام استعارة حيث شبه عمى القلب بعمى البصر بجامع عدم الإدراك فى كل، فمن عمى فى الدنيا لا يدرك النعم أو يدركها ولا يشكرها ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أى فهو فى الآخرة أكثر عمىً وأضل سبيلاً، أى أبعد عن إدراك الطريق المستقيم؛ لأنه فى الآخرة قد انتهى وقت العمل وفيها الجزاء، أو لأن عمى الدنيا

قد يعوض بجارحة أخرى كالسمع واللمس، أما عمى الآخرة فلا يوجد فيه معوض عن البصر، ولأن عمى الدنيا قد تدركه التوبة ففي الزمان متسع لها، أما الآخرة فالعمى فيها لا يستدرك بتوبة، إنما زمن الاستدراك في الحياة الدنيا، وإن التعبير بالعمى في الدنيا مجازي كما أشرنا وفي الآخرة هو مجازي أيضاً، وقيل: إن كلمة ﴿أَعْمَى﴾ الثانية هي أفعّل تفضيل ويجوز ذلك في عمى القلب، ولعل ذلك أخذوه من العطف عليها بأضل وهي أفعّل تفضيل.

ولقد روى أنه جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية، فقال اقرأ ما قبلها ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ قال ابن عباس: من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

محمد يحاول هدايتهم وهم يريدون تحويله

قال الله تعالى:

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٣﴾ إِذَا لَا أَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٤﴾
وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٥﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٦﴾

كان محمد ﷺ محبوباً في قومه يألفونه، ويكبرونه ويعدونّه فيهم خيرهم أمانة وصدقا وقوة خلق، حتى إذا بعث رسولا، فرق شعور بعضهم بينه وبينهم بسبب الحق الذي جاء به، وما هم عليه من باطل يستمسكون به، ومحمد ﷺ كان يحب هدايتهم، لأنهم قومه ولأنه داعية الحق يريد أن يؤمن الناس به فهو يحاول أن يستدنيهم ويتمنون بجدة الأنف أن يترك هداية الله إلى ضلالهم، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ۖ﴾ (٧٣).

الكلام موصول لما قبله بالواو، وإن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، واللام هي اللام الفارقة وهي مؤكدة، يفتنونك معناها يزيلونك عما أنت عليه أو يصرفونك، وقال الراغب الأصفهاني إن معناها يوقعونك في الفتنة، بالتزول على ما يريدون.

وأوضح المعاني أن تكون بمعنى يصرفونك عن الذي أوحينا إليك وهو القرآن الكريم، بأن تنصرف عن أحكامه وعن شريعته وعن المبادئ المقررة فيها التي تسوي بين الغني والفقير، ﴿لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا﴾، أي لتكذب على الله وتدعى أنه نزل عليك غيره، وفي هذه الحال تكون خليلهم وحييهم كما كنت، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾، أي إذا كان ذلك منك وتحولت عن الله تعالى إليهم يتخذونك وليا وخليلا، واللام هي الواقعة في جواب (إذا).

ويذكر المفسرون روايات تدل على هذه المحاولة منهم، فيقولون إن ثقيفا حاولوا أن يستنزلوا من أحكام الإسلام ما يهون فأرادوا أن يكون الربا حلالا لهم إذا كانوا دائنين وأن يكون حراما إذا كانوا مدينين، وأن يستمتعوا بعبادة اللات إلى آخر ما ذكروا، ونقول: إن وفد ثقيف الذي طلب ما طلب كان بعد الهجرة بسنين فهو كلام يحمل في نفسه دليل بطلانه.

وقيل: إنهم منعه من استلام الحجر الأسود إلا إذا كان معهم فلان، وهذا أيضا كلام يحمل في نفسه دليل بطلانه ولا يوجد من الصحاح ما يؤيده أو يشير إليه.

ولعل أقرب الروايات في أسباب نزول هذه الآية هو ما ذكر أن قريشا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا، وما زالوا به حتى يقاربهم في بعض ما يريدون فعصمه الله، وخير من هذا هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرده عنا هؤلاء السقاط والموالى حتى نجلس معك ونستمع منك فهم النبي ﷺ بذلك^(١)، هذه أصح الروايات في محاولاتهم، ولها شاهد من القرآن الكريم فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا﴾ ذكر محاولتهم ولم يذكر استجابة النبي ﷺ ومعاذ الله أن يستجيب خاتم النبيين، ولكن رغبة النبي ﷺ في أن يجذبهم إلى الإسلام ربما كانت سببا في أن يقارب بما دون الاستجابة، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)﴾.

(لولا) يقول علماء اللغة أن (لولا) حرف امتناع لوجود، أى امتناع الجواب لوجود، أى امتنع أن تركن إليهم لوجود التثبيت، أى أن إغراءهم لتعدل عن دعوتك دائم مستمر، ولكن لا جدوى لأن تثبيت الله دائم مستمر.

وإن هذا يفيد أمورا ثلاثة:

الأمر الأول: تحريض النبي ﷺ على الاستمرار على دعوته الحق غير مبالهم في شيء وأن يصر على قوله، ولا يتهاون قيد أنمله فيما يدعو إليه.

(١) انظر ما جاء في ذلك في مسلم: فضائل الصحابة - في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ (٤٤٣٤).

الأمر الثاني: أن الله مؤيده فى الحق وفى دعوة الحق المستمرة والله تعالى عاصمه منهم نفسيا وماديا، فهم لا ينالون من جسمه ولا يمكن أن ينالوا من نفسه، فالله معه، وحامى الحق.

الأمر الثالث: أن إرادتك هدايتهم لا يصح أن يأتوك من قبلها.

وقد أكد الله تعالى أن إغراءهم من شأنه أن يميل إليهم، ولكن محمداً فى عصمة ربه وتبتيته، والله تعالى يثبت القلوب كما يثبت الألسنة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم].

ويقول: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾.

أكد سبحانه أنه كاد يميل إليهم، وكان التأكيد باللام وبقد، ولكنه وصف الكيدودة بأنها شئ قليل لم تمل مع النفس، وكان تأكيد الميل لقوة الإغراء وقوة ما يحاولون أن يميل قلب النبى ﷺ، و﴿تَرْكُنْ﴾ معناه تميل، ولم تكن استجابة ولكن مظنة الاستجابة لولا عصمة الله تعالى.

وقد حذر الله تعالى نبيه من هذه الاستجابة بقوله تعالى:

﴿إِذَا لَأَذْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ (٧٥).

﴿إِذَا﴾، أى إذا كان منك أنك ركنت إليهم، وجرك هذا إلى الاستجابة لهم ﴿لَأَذْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ اللام جواب ﴿إِذَا﴾، أذناك عذابا هو ضعف عذاب الحياة بعجزك عن التبليغ والحزى، والهوان والذلة، فيكون عذابا مضاعفا يكون معه الحزى والهوان وهذا ضعف عذاب الحياة، أما ضعف الممات فهو أن العذاب يكون يوم القيامة مضاعفا، والعذاب يكون على مقدار العلم ومقدار ما أوتى من بيان وأى علم أعظم من علم النبوة، وأى آيات أعظم من تأييد الحق، وإن العذاب يكبر بكبر من وقع فى سببه.

ولقد قال الزمخشري في هذا المقام: في ذكر الكيدودة وتقبلها مع إضافة العذاب الشديد المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، وفيه دليل على أن أدنى مدهانة للغواة مضادة لله تعالى، وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر وأن يستشعر الناظر فيها الخشية.

وإنه إذا كان قد ذكر القرآن الكريم أنه كاد يركن، فليس معنى النص يفيد أنه ركن، وقدر ذكر الله عقابا مضاعفا للركون لا لقرب الركون، فمعنى ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ...﴾، أى إذا ركنت أذقناك، وهذا خطاب للنبي ﷺ، ولا يمكن أن يكون منه ركون، وهو تحذير لأمته من أن يخطوا مع الظالمين وأن يركنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ (١١٣) [هود].

ولقد قال تعالى محذراً محمدا وأمته: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾، العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ بعد النصرة إذا كان منه الركون، وقال: ﴿عَلَيْنَا﴾، أى ليس لك علينا أن ننصرك إنما تترك لمن ركنت إليهم، وإن ذلك تحذير للأمة من أن تركن لظالم قط، أو تقع تحت إغوائه، وأنهم كانوا يحاولون إخراج النبي ﷺ من مكة، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦).

كان كفار مكة يكيدون للنبي ﷺ ولأصحابه، فلقد آذوا أصحابه إيذاء بالغا، حتى إن منهم من مات تحت حر العذاب كأم عمار بن ياسر وأبيه، وحتى إن منهم من نطق بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وقد هاجر منهم فرارا من الأذى إلى الحبشة طائفة من المؤمنين استنقادا لإيمانهم وقد هاجروا مرتين، والنبي ﷺ ثابت في مكانه مقيم يشارك من لم يستطع السفر الأذى والمصابرة، ولو خرج لضاقوا في أنفسهم، واشتد بهم الألم بعدم من يشاركونهم، وهو قطب الدعوة.

رأى المشركون ذلك ورأوا أن يزيدوا في إيذائه ليزعجوه ويستفزه ليخرج، وبلغ ذلك أقصاه عندما هموا بقتله أو تثبيته أو إخراجهم، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ (إن) هنا هي المخففة من الثقيلة كما هي في الآية السابقة في التلاوة، واللام لام التوكيد فارقة بينها وبين (إن) النافية، ومعنى استفز، أى طلب الفز بآلا يكون قارا ثابتا، وهؤلاء طلبوا أن يفز النبي ﷺ من الأرض بآلا تكون مستقرا له يأمن فيها ويسكن حتى لا يبقى بها؛ لأنهم علموا أنه لا محالة مضيع شركهم قاضٍ على أوثانهم مزعج لهم فازعجوه منها ليخرج، والأرض هي أرض مكة؛ لأنها المعهودة، ف (أل) للعهد، ولأنها الجديرة بأن تسمى الأرض الحرام؛ لأنها الحرم الآمن الذي يُجبى إليه ثمرات كل شيء ولأنها أم القرى، إنهم يفعلون ذلك ليخرجوك من أرض مكة، ولكنه إن خرج فإنه يبتدئ زوال سلطانهم وهي تضطرب من تحتهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أى أنه نتيجة لخروجه من بينهم لن يستمروا بعده إلا زمنا قليلا فإن دولتهم تأخذ في الزوال، وذلك بأحد أمرين:

الأمر الأول: أن يجد قوما غيرهم يستجيبون لدعوته وتكون له بهم قوة فيردون اعتداءاتهم، وفتنهم وقد كان ذلك، فإن الله تعالى أمره بالهجرة في ميقاتها عندما وجد من استجاب من أهل يثرب، فكانوا هم ومن هاجروا قوة الإسلام استنصفوا منهم، ثم زالت دولة الأوثان بعد ذلك ويثس الشيطان أن يعبد في هذه الأرض.

الأمر الثاني: أن ينزل الله بهم ما أنزل بالذين آذوا أنبياءهم وأخرجوهم أو سدوا سبل الحق عليهم حتى يثسوا من أن يؤمنوا، وقال الله لكل نبي منهم: ﴿... لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ...﴾ (٣٦) [هود]، فإنه ينزل عليهم من آياته خسفا، أو زلزالا، أو حاصبا، أو ريحا صرصرا عاتية.

وقد كان الأول وإن ذلك سنة الأولين، وقد قال تعالى:

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧).

﴿سُنَّةٌ﴾ منصوبة على أنها مفعول مطلق كمصدر، والفعل المحذوف سننا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا، أو نسُنُّ لك سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا، وهو أنه لا يخرج قوم أنبياءهم إلا أدلنا منهم؛ فآل لوط أخرجوا نبيهم فجعل عليهم الأرض عاليها سافلها، وثمود عقروا الناقة وآذوا صالحا فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم، وموسى أخرج فرعون وملؤه فأغرقهم الله تعالى وأدال منهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥٠﴾ [القصص].

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، أى تغييرا؛ لأنها لها منهاجا معلوما لا تتحول عنه، وهو أن ينصر رسله، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا... ٥١﴾ [غافر]، وقد كان الأمر بالنسبة كذلك لمحمد ﷺ فإنه بعد بضع سنين من هجرته دخل مكة محطما أوثانها، وقد آمن أهلها وذهبت دولة الشرك.

فى شريعة محمد دواء النفس ونصر الحق

قال الله تعالى:

أَقِمِ

الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا

أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَنِ أَعْرَضَ وَنَجَّيْنَاهُ ۖ وَإِذَامَسَهُ الشُّرْكَانُ يَتُوسَّأُ
 (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
 سَبِيلًا (٨٤)

نحسب أن هذه الآيات كانت قبيل الهجرة، بل إن سورة الإسراء كلها كانت قبيل الهجرة؛ إذ فيها الإسراء، وقد كان قبيل الهجرة أيناسا للنبي ﷺ بعد أن فقد عمه أبا طالب الذي كان يحميه، وزوجه خديجة التي كانت السكن الموسمية، ولذا نقول: إن قوله تعالى:

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨).

وإن الآيات السابقة تدل على ما كان يحاوله المشركون ليفتنوا المؤمنين في دينهم، وتطاولوا فحسبوا أنهم يفتنون محمدا ﷺ عما أوحى الله تعالى به إليه، ثم أشار إلى ما كانوا يفعلونه لكيلا تكون له مكة مقاما ومستقرا، بعد ذلك أمره بالصلاة مبينا أوقاتها له ولأمته، فقال: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ والصلاة فيها ابتلاء النفس بالقوة لأنها انصراف ولجوء إلى الله تعالى واستحضار ذاته العلية، والصلاة هي ركن الإيمان السديد، ولقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) ﴿ [الحجر]، ويقول تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ (١٣٠) ﴿ [طه]، فكان الأمر بالصلاة والإشارة إلى أوقاتها؛ لأنها مادة الصبر. والإيمان وفيها أعلى درجات السلوان عن متاع الحياة ولأوائها.

اللام في قوله تعالى: ﴿ لِدُلُوكِ ﴾ للتوقيت، كما تقول في توقيت أعمالك أو الحوادث كان هذا لخمس خلون من جمادى أو نحو ذلك، ويصح أن تكون

للتعليل، أى أقم الصلاة لأجل دخول وقت دلوك الشمس إلى غسق الليل
ولهذا يقول علماء الأصول: إن الوقت سبب وجوب الصلاة، من حيث إن الصلاة
لا تجب إلا بدخوله.

وإقامة الصلاة التى هى مصدر أقام، و﴿أَقِم﴾ معناها أداؤها مقومة مستقيمة
مستوفية الأركان الظاهرة، من قيام وركوع وسجود وقراءة ودعاء وأركانها الباطنة
من خشوع واستحضار لمعانيها، ومعانى قراءتها وأدعيتها حتى تكون كلها ذكراً لله
تعالى، وهو لب معناها.

و(دلوك الشمس) معناه ميلا من وقت زوالها، وكونها فى كبد السماء إلى
غسق الليل، وبهذا تشمل الآيات الأوقات كلها؛ لأنها شملت الظهر والعصر
والمغرب والعشاء فى غسق الليل، والفجر فى قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

وفسر بعض الصحابة الدلوك بالغروب لأنه نهاية ميل الشمس؛ إذ تختفى.
ومن فسر الدلوك بميلها فى الزوال، فسرهما بابتدائه، وقال الماوردى: من جعل
الدلوك اسما لغروبها، فلأن الإنسان يدلك عينيه براحتيه لتبينها حالة الغروب،
ومن جعله اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها.

ونرى أن تفسير الدلوك بميلها وقت الزوال هو الأوضح؛ لأن الآية بهذا
التفسير تشمل كل أوقات الصلاة، ولأن (دَلَّكَ) معناها (مال). جاء فى تفسير
البيضاوى ما نصه: «وأصل التركيب للانتقال، ومنه الدلك فلإن الدالك لا تستقر
يده وكذا كل ما تركب من الدال واللام كدَلَج، ودَلَحَ، ودَلَع، ودَلَف».

وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، أى ميلها من الزوال شيئا
فشيئا، فيكون الظهر ثم يشتد الميل فيكون العصر، واتساع الميل علامته طول كل
الأمياء، ويكون العصر، ثم تغيب وينقطع الميل فيكون المغرب وتختفى الشمس
وآثارها، فيكون غسق الليل وهو اجتماع ظلمته، وذهاب كل شفق ينير، فيكون

العشاء ثم نبه سبحانه وتعالى إلى الفجر وصلاته، فقال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ عبر عن صلاة الفجر بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾؛ لأن القراءة ركنها ولأنه يجب أن يكون الجهر بها، ولأنه يندب أن تكون القراءة فيها بطوال السور أو بعضها، ولأن القرآن فيها مشهود مستحسن، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، أى تشهد الملائكة إذا لم تدرن النفس بعوجاء الحياة، واختلافات الأهواء والمنازع؛ ولأن الفجر ينبغى أن يؤدى فى جماعة، ويجب أن يشهده أكثر المؤمنين القريين من المسجد، ولأنه أول ما تستقبل به الحياة، ويصح أن نقول: إن ﴿مَشْهُودًا﴾ كناية عن رفعة ومقامه عند الله وعند المؤمنين، وهذه الأوقات تتلاقى مع قوله تعالى فى سورة الروم المكية: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) [الروم].

وبعد ذكر الله تعالى الفرائض، أشار سبحانه وتعالى إلى النوافل فقال:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (١٧).

من هنا للتبويض، والفاء عاطفة على فعل محذوف وتقدير الكلام قم جزءا من الليل فتهجد به نافلة ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، أى رجاء أن يعثرك ربك مقاما محمودا، والتهجد معناه قطع الليل فى العبادة وخاصة الصلاة، وقالوا: إنه سلب الهجود أى النوم فمادة تفعّل تأتى أحيانا بمعنى سلب الفعل، فالتهجد سلب الهجود وهو النوم والاستراحة كالتائم سلب الإثم أو إبعاده، والتخرج إبعاد الحرج إلى آخر أمثال هذه الألفاظ.

والمقام المحمود هو المقام الذى يحمد قائمه، وهو مقام العبادة، وهو بالنسبة للنبي ﷺ مقام الشفاعة يوم القيامة، فهو المقام الذى يشفع فيه النبي ﷺ لمن يؤمر بالشفاعة، كما قال تعالى: ﴿... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨) [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، أى هذا التهجد نافلة أى زائدة، أى أن هذا التكليف بالتهجد كنافلة زائدة هو لك أنت مثل قوله تعالى: ﴿... وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ

وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٥٠﴾ [الأحزاب]، ولقد قدمت هذه النافلة في الذكر عن قراءة الفجر وتأخرت عن صلاة الغسق، وكانت بينهما؛ لأن التهجد ليس فرضاً على المؤمنين، ولقد قال تعالى في هذه النافلة المطلوبة من النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ وإن العبادة إذا أدت على وجهها وخصوصاً الصلاة كان العبد قريباً من ربه، يدعوه فيستجيب له، ولذا قال تعالى:

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

الإدخال متعدي دخل، والإخراج متعدي خرج، وقيل: إن هذه الآية نزلت عندما أذن للنبي ﷺ أن يخرج من مكة مهاجراً، وأن يدخل المدينة داعياً مستنصراً، ويصح أن يفسر الإدخال والإخراج بهذا المعنى الخاص، ونرى أنه عام في كل أمر يقدم عليه الإنسان ويريد منه خيراً، وهو بالنسبة للنبي ﷺ هو الدخول في تبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى، وأداؤه لها والاستمرار في أدائها والزود عنها، حتى يقبضه الله سبحانه وتعالى إليه.

وما معنى الصدق في هذا المقام، يقال قول صدق، وعمل صدق، وموقعة صدق، ووقف صدق، ونقول: الصدق هو الكمال في الأفعال والأقوال والواقع، والواقع ومعنى صدقها أي يتبدى بها الشخص مخلصاً متجهاً إلى الغاية في أكمل صورها، مالكا الحق في طلبها سلوكاً مستقيماً من غير التواء ولا مراء، معطياً ما يحتاج إليه الأمر من وسائل الاستقامة والخلق الكريم، وفي الصدق صدق النفس بالإخلاص، وصدق العمل بالنية الطيبة، وصدق اللسان والجوارح.

فالدعاء بأن يدخله مدخل صدق، وأن يخرج مخرج صدق دعاء بأن يحاط في المدخل والمخرج بالفضائل الإنسانية، والمكارم كلها، والحق من كل نواحيه،

هذا الدعاء الذى علمه الله تعالى، وكل خطاب للنبي ﷺ هو خطاب لكل أتباعه لأنه الأسوة المتبع.

وآخر الدعاء قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ كان الدعاء الأول بلفظ المتكلم المفرد، أما فى هذا الدعاء فكان بلفظ المتكلم الذى معه غيره، و﴿لَدُنْكَ﴾، أى من عندك، وهى تكاد تكون فى اللغة العربية خاصة بالعندية لدى الذات العلية.

وكان الدعاء بأن يكون للنبي ﷺ ومعه غيره بأن يهبه ومن معه السلطان أى القوة، و﴿نَّصِيرًا﴾، أى قوة تنصره وتؤيده ويستعمل السلطان بمعنى الحجة، وبمعنى التسلط، وبمعنى القوة، وهى فى هذا الموضع تشمل الحجة والقوة الناصرة التى لا تنهزم، وقد أعطاه الله سبحانه وتعالى كل ما طلب، وأعطاه سلطانا له ولمن معه فأجيب دعوته وعصمه الله تعالى من الناس وجعل حزبه هو الغالب وقال: ﴿... فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ [المائدة]، وأظهر دينه على الدين كله، واستخلفهم فى الأرض ونزع الله ملك فارس وممالك أخرى، وهكذا.

ونلاحظ أنه عندما طلب القوة، لم يطلبها لنفسه، بل طلبها لمن معه وهو بينهم، لتكون القوة الجماعية، ومن يطلبها لنفسه فإنما يطلبها للغلبة وقهر المؤمنين كما رأينا من رؤساء المسلمين فى هذا الزمان.

وإن وراء المدخل الصدق والمخرج الصدق، والسلطان للجماعة المؤمنة يكون انتصار الحق، وخذلان الباطل، ولذا قال تعالى:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾.

هذه الآية تؤذن بما سيقع بعد أن يكون الخروج الصدق من مكة بالهجرة والدخول بالمدينة وهو النصرة والإيواء.

ويعد أن أعطاهم السلطان النصير، والقوة ومجابهة الشرك، أمر الله تعالى نبيه أن يقول ذلك مقررًا مثبتًا جاهرًا بهذه الحقيقة وإن لم يكن ذلك ظاهرًا، ولكن

أسباب النصر القريب قد وجدت وتضافرت، وكان اشتدادهم فى الإعانة بشيرا للمؤمنين بقرب الفرج، وكان دعاء النبى ﷺ بأن يدخله مدخل صدق وأن يخرج به مخرج صدق؛ إيذانا بالهجرة التى كان من بعدها النصر المؤزر.

يروى أن المؤمنين ابتدءوا الهجرة من بعد أن بايع النبى ﷺ الأوس والخزرج البيعتين على النصر، وأن يحموا محمدا ودعوته كما يحمون نساءهم وأولادهم^(١)، ومن هذا الوقت ابتدأت الهجرة فرادى وجماعات صغيرة يستخفون بها ولا يعلنون، ويظهر من المساق التاريخى أن دعوة الرسول بأن يدخل مدخل صدق، ويخرج من مكة مخرج صدق كان فى هذا الإبان وكانت قريش تأتمر به لتقتله أو تشبته أو تخرجه وانتهت إلى قتله فى مؤامراتها، وهذا فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال].

هاجر النبى ﷺ وقاتل المؤمنون وقوتلوا ثم كان النصر بأمر الله، فقله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، أى قل مبشرا مثبتا جاء الحق غالبا منصورا وزهق الباطل أى ذهب وضاق من زهوق الروح، ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، أى مضمحلا غير ثابت.

ولو أننا نأخذ من روح النصوص القرآنية ما اقترن بها من حوادث، لقلنا إن هذه الآيات، والنبى ﷺ قد التقى بوفد الأوس والخزرج وبايعهم بعد أن آمن من آمن منهم ولكن لم نجد فى كتب التفسير ما يؤيد ما نقول وحسبنا القرآن مبينا أو مسيرا.

ولقد قال تعالى فى القرآن الذى هو الحق، وبه علا الحق وكل ما فيه حق، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾.

(١) انظر فى ذلك ما رواه أحمد: باقى مسند الكثيرين - مسند جابر بن عبد الله (١٤١٢٦).

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى إشراق النفوس بالحق وطمس الباطل أشار سبحانه إلى مصدر الحق في الإسلام وهو القرآن فليس فيه إلا الحق، ولا يلتمس إلا منه ولا يطلب إلا من آياته، فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾، (من) هنا يقول بعض علماء اللغة: إنها بيانية، أى نزل القرآن الذى هو شفاء للناس ورحمة للمؤمنين؛ لأن القرآن كله شفاء ورحمة، وإذا جعلنا (من) للتبويض يكون معنى الآية أن بعضه ليس فيه شفاء ولا رحمة وذلك باطل فيطل ما يؤدى إليه.

وقال ابن عطية من المفسرين: «إن جعل (من) للتبويض لا ينافى أن القرآن كله شفاء؛ لأن (تنزل) معناه النزول شيئاً فشيئاً فيكون المعنى على هذا «ونزل من القرآن شيئاً فشيئاً ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» فالتبويض فى طريقة النزول لا فى الحكم بأنه كله شفاء ورحمة للمؤمنين».

والشفاء والرحمة للمؤمنين؛ لأنهم الذين يتشفعون به، والشفاء الذى اشتمل عليه القرآن هو شفاء النفوس من أوهام الباطل، وشفاء العقول من رجس الوثنية والأخلاق الجاهلية ومفاسد الأخلاق والرذائل الأثيمة، وتلك تخلية وبعدها التحلية، وتلك هى الرحمة، فتملأ النفوس بمكارم الأخلاق وتنظم المعاملات بين الناس فى شريعة محكمة وحقائق ثابتة، وتنظم أعمال الناس بنظم اجتماعية واقتصادية تحفظ للفرد حقه فى التصرف والامتلاك، وتصريف أموره فى ظل جماعة عادلة رحيمة مترابطة غير متقاطعة، ولا متنازعة لا تسلب فيها الحقوق بكلام لا معنى له.

وإن هذا النص الكريم يتقارب فى مؤاده من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس] وإن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالغذاء الطيب التى يغذى النفوس والدواء الناجع الذى يزيل أمراض القلوب، أما غير المؤمنين فلأنهم أعرضوا عن الحق، وصموا آذانهم عنه إذا سمعوا القرآن لا يشفيهم ولا يُغذيهم بل يزيدهم خساراً، ولذا قال:

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ لأن الكافر لجوج في كفره معاند ولا تزيد الحجة المعاند إلا عندا وخسارا.

ولقد قال في وقع نزول القرآن على المنافقين: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة].

وإن الإنسان تطغيه النعمة فيبطرها ويؤثسه البلاء، إلا الصابرون، وهذا قوله تعالى:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٢)﴾.

﴿الإنسان﴾ (ال) للجنس، أى جنس الإنسان أنه تبطره النعمة وتطغيه، وتؤثسه النعمة وتضعفه، وإن هذه طبيعة الإنسان إلا من هداه الله تعالى بالصبر والإيمان، أو (ال) للعهد، وهو كما يدل عليه آخر الآية السابقة وهو الظالم الذى لا يزيده علم القرآن إلا خسارا، وإن هذه طبيعته الضالة التى جانف بها الفطرة ومال عنها.

ويقول فى توجيه الحق فى ذلك: إن الغريزة الإنسانية تنشأ متفعلة بما أحاطها وما منحت، فإن منحت القوة والصحة والمال ربما تطغى وتعرض عن الحق إلا أن تتهذب بتهذيب الدين، ويصيبها اليأس من روح الله إن أصابها أمر يضرها ويسرها إلا أن تؤمن وتصبر.

وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بنعمة الصحة والمال وتوفير الرزق، والسكن ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾، أى أعرض عن الحق والتطامن له، وعن الطاعة لله تعالى، وقد صور سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾، أى ثنى وجهه واستدبر من يخاطبه وأدار وجهه وواجه بظهره؛ وهذه صورة حسية لمن يعرض مطرحا الأمر وراء ظهره، غير ملتفت إليه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾، أى كان يائسا يأسا شديدا من روح الله وإنقاذه مما نزل به يأسا شديدا، ﴿... إِنَّهُ لَا يَيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف].

والشر هو ما يسوء ويؤلم ولو كانت عاقبته خيرا، وقوله تعالى: ﴿مَسَّهُ﴾ إشارة إلى أنه يصيبه ولو قليلا يجعله يائسا من رحمة الله، فالقوة تغريه وتطغيه، والضعف ولو صغيرا يهده ويؤثسه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾ [هود].

معنى الآيات السابقة والقرآن الكريم فى محكم آياته يبين أن الناس على أصناف شتى فمنهم المهتدى الذى يتجه إلى الحق اتجاها من غير اعوجاج، ومنهم الضال المعرض عن الحق إعراضا، ومنهم المنافق، ومنهم الذين يسلمون ولم يؤمنوا أو يرجى لهم الإيمان، وكل يسير فى طريقه مختارا متنها إلى ما كتب له، وهذا قوله تعالى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤)﴾.

﴿قُلْ﴾ يا نبى الله ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾، أى كل فريق، فالتونين فى ﴿كُلٌّ﴾ قائم مقام المضاف إليه الذى يقدر بما يناسب المقام، والشاكلة الناحية أو الطريقة أو المذهب، أى كل يعمل على ناحيته التى اختارها والمذهب الذى اعتنقه، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون].

لقد حاولوا أن يفتنوا النبى ﷺ عن دينه، فكان هذه الآية رد عليهم؛ ومعناها قد اخترتم ما اخترتموه فاتركوا الناس أحرارا فى اختيارهم، ولا تفتنهم

عن دينهم والحكم في هذه الشواكل عند الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿فَرُبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

وربكم الذى خلقكم ورباكم هو العالم علما ليس فوقه علم بمن هو أهدى
وأسلك طريقا، وهو الذى يحكم بينكم يوم القيامة وهو خير الحاكمين، وأفعل
التفصيل ليس على بابه كما ذكرنا مرارا.

الروح والقرآن

قال الله تعالى:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَذَهَبَنَّ
بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلِ
لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِهَا عِزَابٌ
فَتَفْجُرَ أَلَانَهُرًا تَخْلَلُهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِغًا وَالْمَلَائِكَةُ قِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ

لِرُقِيَّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾

إن المشركين كانوا يعتقدون في أسئلتهم وإجاباتهم، ويستعينون بأهل الكتاب في إحراج النبي ﷺ.

ويروى أنهم قد قالوا لهم: سلوه عن ثلاثة: عن الروح، وعن العبد الصالح، وعن ذى القرنين، فإن أجاب عن بعضها فهو نبي^(١)، وقد بين سبحانه وتعالى حال العبد الصالح الذى صحب موسى، وعن ذى القرنين فى سورة الكهف، وعن الروح فقال:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨٥).

سألوه عن الروح ما ماهيتها أمى عرض أم جوهر، والروح أمى الروح التى تكون فى الأجسام فتجعلها تتحرك بإرادتها وتسير باختيارها، ويقصد من الناس، ويصح أن يراد منها النفس التى تتجه بالحق إلى مقاصده وغاياتها، سألوه عنها فأجاب سبحانه، أو أمر نبيه أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أى أنها خلق من خلقه والعلم بها من شأنه وأمره الخاص به، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أى ما الذى أوتيتموه من العلم إلا قدرا ضئيلا، والعلم بها فوق طاقتكم إنما اختص الخلاق العليم، وعبر بـ ﴿رَبِّي﴾ للإشارة إلى أنها سر خلقه وتكوينه، وقد شرف الله تعالى الروح فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩) [الحج]، فأضاف سبحانه روح آدم إليه تشريفا وتكريما للروح الإنسانية.

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن- ويسألونك عن الروح- (٤٣٥٢)، ومسلم: صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٠٢). العبد الصالح.

وإن التوراة التي بأيدينا فيها النص على أن نفس كل إنسان دمه، أما القرآن كلام الله الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو يقرر الحقيقة الثابتة الخالدة وهي أن الروح من أمر إنشاء الله وخلقه وسر الله تعالى في إبداعه وتكوينه، وما أوتى الإنسان إلا العلم بالمحسوسات واستخدام قواها، وهو لا يعرف حقيقة الأشياء ولكن يعرف مظاهرها وقوانينها الظاهرة لديه، وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو العلم بالمحسوسات وظواهرها البيئية التي تنكشفها العقول وتعرفها الفهوم.

ألم تر الإنسان قد علا من الأرض وجعل النجوم له مراما، ووصل إلى القمر والمريخ، ويحاول أن يتعرف ما وراء هذا الفضاء فهل تراه استطاع أن يخلق ذبابا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج].

قولوا للذين يقتعدون الفضاء وينقلون أجهزة العلم إليه: أيستطيع أحد أن ينشئ روح إنسان أو حيوان أو بعوضة في الأرض أو هامة من هوام الأرض؟ إن ذلك من شأن منشئ الوجود بديع السموات والأرض والأجسام والأنفس والأرواح وكل شيء عنده بمقدار.

وإن القرآن هو روح الشريعة، وأنه من أمر الله ومن شأنه، ولذا جاء ذكره بعد ذكر الروح التي من أمر الله تعالى، فقال تعالى:

﴿وَلَنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦)﴾.

ذهب به يستعملها القرآن الكريم بمعنى أذهبه وكان الباء تنوب عن همزة التعدية، كقوله تعالى: ﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذْهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ... (٢٠)﴾ [البقرة]، أى لأذهبها ذهابا مؤكدا ومعناه ذهب بالذى أوحينا أى محاه وصحبه وأخذه معه فهو يتضمن المحو عند الناس والأخذ به عند الله.

واللام فى قوله تعالى: ﴿وَلَنْ شِئْنَا﴾ اللام الموطئة للقسم، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ هى اللام الواقعة فى جواب القسم، ولنذهبن القسم وهو قائم مقام جواب الشرط.

والمعنى أن الله تعالى يؤكد أن الله تعالى قادر على أن يذهب بهذه المعجزة التى بهرت العقول والأفهام وعجز العرب عن أن يأتوا بمثلها لو شاء ذلك وأراده، ولكنه لم يشأ ولم يرتضيه وقوله: ﴿بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ التعبير بالموصول فيه إشارة إلى أنه لا يشاء ذلك لأنه هو الذى أوحاه سبحانه وتعالى إليه، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا فى موضعها من التراخى المعنوى، أى لو ذهبنا به، بعد أن تجد من يتوكل بإعادته علينا، أى بإلزامنا وبغير مشيئتنا، فالباء متعلقة بـ ﴿وَكِيلًا﴾، أى لا تجد لك وكيلا به يرده إليك علينا من غير مشيئتنا يلزمنا، معاذ الله تعالى أن يكون ذلك.

وإن هذا النص الكريم يفيد أمرين:

الأمر الأول: منزلة القرآن ومكانه العظيم ومنّ الله تعالى على الخلق به؛ لأن فيه الشفاء والرحمة والهداية والموعظة وهو فضل الله على عباده وأنه لو شاء لاسترده.

الأمر الثانى: سنة بقائه إلى يوم القيامة نور الوجود الإنسانى وهاديه ومرشده عندما تفسد الضمائر وتطمس القلوب.

والنص فوق دلالتة المحكمة على مكانة القرآن الكريم وهدايته الدائمة يدل على أنه فاعل مختار وعلى أن قوله تعالى:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧).

﴿إِلَّا﴾ الاستثناء فيها من النفى فى الجملة الأخيرة من الآية السابقة، ويكون المعنى «لا يجد لك علينا به وكيلا» ويكون المعنى لا تجد لك من يوكل باسترداده علينا إلا رحمة من ربك ويكون الاستثناء متصلا، أى أنه إن شاء سبحانه إذهابه لا

يعود، إلا رحمة من الله رب العالمين بنبيه وبالناس ليتفجعوا من شفائه وهدايته ورحمته ومواعظه، فهو القرآن العظيم، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا ويكون متعلقا بالآية السابقة كلها، ولكن (إلا) بمعنى (لكن) ويكون سياق الكلام فيما نعلم هكذا: ﴿وَلَيْنَ شَيْئًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٨٦) لكن رحمة من ربك الذي علمك ما لم تكن تعلم، وشفى صدرك واصطفاك، وهذه الرحمة قامت فلم يشأ أن يذهب به.

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنْ فَضَّلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ وإن فضل الله تعالى على هذه الأمة ونبيها كان عميما بإنزال القرآن الكريم وبقائه حجة قائمة إلى يوم القيامة وبما اشتمل عليه من شفاء ورحمة وهداية، والضمير يعود إلى الله، وقوله: ﴿كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ قدم ﴿عَلَيْكَ﴾ للاهتمام بمنزلة النبي ﷺ وفضل الله تعالى عليه، وقد أكد سبحانه وتعالى فضله بـ (إن) المؤكدة و(كان) الدالة على الاستمرار.

ولماذا أكد سبحانه وتعالى فضله في نزول القرآن على قلبه، وأن يكون معجزته الكبرى؟ الإجابة لأن المشركين حسبوا أن المعجزات الحسية التي انقضت بانقضاء أزمانها مثل معجزات عيسى تدل على فضل هؤلاء الرسل، فبين سبحانه أن فضله عظيم على نبيه في أن اختصه بمعجزة القرآن الخالدة الباقية التي كانت هي المعجزة الكبرى وسجلت كل المعجزات السابقة، فلولا القرآن ما عرفتھا الأجيال التالية.

ثم بين سبحانه أنه معجز للأجيال كلها إنهم وجنهم، فقال:

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨).

الخطاب للنبي ﷺ وهذا الخطاب فيه إعلام النبي ﷺ بمكانة القرآن وأنه ليس كمثله كتاب قط، وأنه معجز يستطيع أن يتحدى به الإنس والجن في كل الأجيال،

ولو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يأتون ولو كان بعضهم يظاهر بعضهم الآخر، وفيه أيضا أن القرآن يعجز الجميع من الجن والإنس لا العرب وحدهم كما توهم بعض الناس أنه لا يعجز غيرهم، ولا يخاطب به غيرهم؛ لأنه ليس بلغتهم وأن حسبه أن يعجز عن الإتيان بمثله العرب.

﴿لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ (اللام) هي الموطئة للقسم، والتي تدل على أن في الكلام قسما مطويا في القول، وجواب القسم لا يأتون، ولولا اللام لكان جواب الشرط؛ لأنه لا يجزم الجواب إذا كان فعل الشرط ماضيا، وقوله اجتمعت يتضمن معنى انقضت واجتمعت في صعيد واحد وأرادوا أن يأتوا بمثله أو كتاب مثله لا يأتون ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، أى لو تعاونوا جميعا ولظاهروا على أن يأتوا بمثله؛ وذلك لأنه معجز بذاته في ألفاظه وعباراته ونظمه ونسقه ونغمه، حتى إن كل جملة من جملة لها نغم وموسيقا منفردة، ولا يوجد في أية لغة من اللغات مثل هذا النغم الذى يسمع في عباراته ومعانيه، وكل ذى ذوق موسيقى يرى فيه من روائع النغم ما ليس فى أى كلام بأى لغة، حتى إن كاتباً أوروبياً كان يعلم العربية بعض العلم حكم بأنه لا يزال معجزاً بتأخى عباراته، وموسيقا فواصله من غير أن تعتدى الألفاظ على المعانى، بل إنه يتأخى فى أداء المعانى، ألفاظه وعباراته وفواصله ونغماته، ولا تدرى أيها أشد تأثيراً فى نفسك، وفوق هذا كل شىء فيه معجز، فشرائعه إذا قيست بشرائع عصره كان معجزاً، وعلمه من أخبار وتنبية إلى الكون معجز لأنه ينبه إلى أمور من شئون الكون لم تكن معلومة عند علماء الكون فى عصره، وغير ذلك مما أحاط به علم القرآن، ثم ذكر سبحانه وتعالى معرض إعجاز القرآن فقال:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨٩).

(اللام) لتوكيد القول، و(قه) لتوكيده، ﴿صَرَّفْنَا﴾ أى حولنا فيه ضروب القول من خبر إلى إنشاء ومن استنكار إلى إقرار ومن قصص فيها الموعظة الحسنة

والعبرة المرشدة إلى أحكام شرعية مصلحة للأحاد والأسر والجماعة والأقاليم، رابطة بين الإنسانية فى مجتمعات إلى آيات مبينة للحقائق الإنسانية والطبائع فى الجواب والكون والإنسان، وكان ذلك التصريف فى هذا القرآن للناس من كل مثل، و(من) هنا بيانية، أى صرفنا لهم كل مثل، أى كل حال ذكرناها لتشاكلها مع الوجود الإنسانى.

وكان حقا على الناس أن يؤمنوا به، ولكنهم لم يؤمنوا، ولذا قال سبحانه: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وموضع الاستثناء هنا أن الإباء دخل على كثير فيقدر هكذا: فأبى أن يكثر كل شيء ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾، أى إلا أن يكونوا كافرين كفورا لازمهم، وصار وصفا من أوصافهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن القرآن معجزة غير مزعجة ولا قارعة، ولكنها مخاطبة للعقل الذى يذعن الحقائق والقلوب المشرقة بنور الهداية ولذا طالب أهله بمعجزات قارعة، لا لنقص فى معجزة القرآن، بل لأنهم لا يؤمنون ولأنهم ناقصون فى مداركهم، ولذا قال سبحانه عنهم:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ (٩١) أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ (٩٣)﴾.

لم تصل أفهامهم إلى القرآن حتى يقتنعوا به معجزة، أو اقتنعوا به معجزة ولكنهم يمارون ويستمسكون بما هم عليه من جهل وضلال، ويستعللون بالرفض وهم فى ذات أنفسهم غير رافضين، أخذوا يطلبون ما يحسبونه يعجز النبى ﷺ، فإذا عجز يعدل عن دعوته ويستريحون منه، ومن هذا الدين الجديد.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ (٩٠)﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ أكدوا بـ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾، أى لن نؤمن مسلمين بصدق ما تدعونا إليه، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، ينبوع العين التى يخرج الماء منها، ﴿تَفْجُرُ﴾، أى تشق لنا هذا ينبوع المستمر، وكانت أرضهم جافة من الماء وهى صخرية فهم يطلبون منه أن يشقق هذه الأرض الصلبة فيخرج منها الماء المستمر الذى يكون كالغيث يشربون منه، ويسقون زرعهم.

فإن لم تكن هذه يكون الأمر الآخر الذى ذكرته الآية التالية:

﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾.

أو تكون لك ﴿جَنَّةٌ﴾ حديقة من نخيل وعنب تجرى خلالها الأنهار لتكون ذات منظر بهيج، والتفجير بالتضعيف يفيد كثرة الأنهار وأنها تجرى من خلال النخيل والكروم.

وإن هذين الطلبين أو أحدهما فيه تشبيه لحال النبى ﷺ بحال موسى إذ ضرب بعصاه، فانفجر من الحجر اثنتا عشرة عينا فهم يطلبون معجزة كمعجزة موسى ﷺ، وقد علموها فهم يطلبون مثلها، وقد جاءتهم الآيات بأقوى منها كشق القمر، فقالوا سحر مستمر، وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ففتنوا الناس فى دينهم، حتى ارتد من ارتد من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب.

هذا الطلب الأول أو أحد مطالبهم، وهو أولها: وهو ذو شعبتين إحداهما فَجْرُ ينبوع يسح بالماء طول الزمان، الثانية: أن تكون حديقة من نخيل وعنب تجرى خلالها الأنهار، وهذه الشعبة يتضمن أن يكون غنيا له حدائق غناء تجرى من تحتها الأنهار ليكون عظيما، والعظمة عندهم بالمال الوفير والتنعيم والترفيه لأنهم حسيون لا يعرفون إلا الحس والمادة والنعيم المادى الحسى.

والمطلب الثالث: الذى جعلوه أحد المطالب وكان التخيير بينها بأمر قد نقل

القرآن تعبيرهم بقوله تعالى:

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا (٩٢)﴾ .

هذا هو التحدى الثالث المخير فيه ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ﴾ والمراد الكسف، وهى بدل بعض من كل من السماء، والكسف جمع كسفة وهى القطعة من السماء التى تنزل فتلقى الرعب، وقد تكون نارا تلهب وتنفزع، وعبر بالسماء ثم البدل منها للإشارة إلى أن نزول القطع تساوى من حيث الرعب والإفزع والإندار نزول السماء كلها، وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ من أن السماء تنشق وتنفطر يوم البعث فى مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)﴾ [الانفطار]، وكما زعمت من أنه فيه نزل ذلك بنا، كما فى قوله تعالى: ﴿... إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ... (٩)﴾ [سبأ]، ﴿أَوْ تَأْتِي بَالِلَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾ وهو اسم جنس جمعى لقبيلة، أى تأتى بهم قبيلة قبيلة ليشهدوا بصدق نبوته ويتضافرون على الحكم بصدقها.

وهذا الطلب فيه تحدُّ للرسول ﷺ من ناحيتين:

الناحية الأولى: أن قوله: ﴿... إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ... (٩)﴾ [سبأ] فيه إنذار فهم يتحدثون بأن يكون ذلك الإنذار.

الناحية الثانية: أنهم يتحدثون النبى ﷺ بأن ينزل عليهم الملائكة قبيلة يشهدون بالصحة وهم يعلمون أن الملائكة لا يتزلون أفواجا بهذا الشكل، وهذان مطلبان وإن كانا فى آية واحدة.

ولقد كان النبى ﷺ فقيرا يتيما، فطلبوا منه للمرة الخامسة واحدا من أمرين كما فى المطلب الرابع: أولهما: أن يكون له بيت من زخرف أو يرقى إلى السماء عارجا، وأن يرسل كتابا يقرؤه، وهذا ما عبر الله سبحانه عنه بقوله تعالى:

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)﴾ .

صدرت الآية بـ ﴿أَوْ﴾ الدالة على التخيير، يتحدثون به النبي ﷺ وكرر (أو)، وكلاهما مزدوج، وهذا الأمر الثالث مكون من جزئين: الجزء الأول أنهم رأوا النبي ﷺ كان يتيما ثم كان فقيرا، وقد حسبوا أن النبوة مقترنة بالثروة، فالنبي يجب أن يكون ثريا ليكون عظيما، فالعظمة عندهم بالمال ولا عظيم من غير مال، ولذا قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أى الطائف أو مكة.

هم يعيرون نبوة محمد بأنه فقير، فيقولون له: أما كان يغنيك بالمال ما دمت فى الأرض، أو يرفعك إلى السماء إذا كنت ذا منزلة عند ربك ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ﴾ الزخرف هو الذهب، أى بيتا مموها بماء الذهب مزخرفا، فإن لم يعطك هذا ويجعلك غنيا من الأغنياء وعظيما من العظماء فليعرج بك إلى السماء ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُوقِيكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ ونعلم منه أنك ارتفعت وعلوت، ونعلم هذا الكتاب رقيق إلى السماء.

والمعنى الذى يتحدثون به رسالة رسول الله ﷺ أنك إن كنت رسولا من أهل الأرض فليجر عليك حكم أهل الأرض وأهل الأرض العظيمة فيهم بالمال والثروة، وليكن لك بيت مزخرف كأهل الترفه والتنعيم، وإن كنت لا تريد أن تكون كأهل الأرض فلتكن من أهل السماء، ولترق إلى السماء لتؤمن برسالتك ولن نسلم بأنك ارتفعت إلى السماء إلا إذا نزل علينا كتاب نقروه.

هذا هو تحديهم وهو إلى الهزل أقرب، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يجيبهم عن هذه المطالب المتحدية بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ تقديست ذات ربي الذى خلقنى وربانى وكملىنى ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، فهو إنكار للوقوع، معناه ما كنت إلا بشرا أرسلت من عند الله تعالى. وكانت صيغة النفى على شكل الاستفهام تقريرا للنفى والإثبات وانحصار الوصف الكامل للنبي ﷺ بأنه بشر رسول، وليس وصف غير هذا وهو أعلى أوصاف الكمال الإنسانى.

هذه اعتراضات المشركين ومطالبهم التي يتحدثون بها النبوة، والآيات الكريمة صور من المجادلات التي كانت تقع بين النبي ﷺ. ولنقبض قبضة من السيرة الطاهرة تبين وقائع هذه الآيات الكريمة الساميات:

ذكر ابن إسحاق في السيرة أن رؤساء قريش الذين كانوا يقودون الشرك اجتمعوا عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلّموه وخاصموه حتى تزعجروا، فبعثوا إليه فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدا لهم بدو، وكان حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، فلما جلس إليهم قالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفّهت الأحلام وفرت الجماعة، فما من أمر قبيح إلا قد جسّته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا نراه غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب شفائك حتى يبرئك منه أو نعذر فيك.

قال لهم رسول ﷺ: ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن بعثني الله إليكم وأنزل على كتابا أمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس من أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا وليسط لنا بلادنا، وليخرق لنا أنهارا كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث قصي بن كلاب فإنه شيخ صدق.

قال لهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه: إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم.

قالوا: سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقدم الأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

قال لهم الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه: ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعث بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا مني ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

قال الرسول ﷺ: ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد فما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك.

وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبلا.

وقد انصرف النبي ﷺ وانفض جمعهم ولكن تبعه بعضهم وهو عبد الله بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ولم يكن قد أسلم، فقال كلاما ختمه بقوله: فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتي ثم تأتي معك بصك معك يصحبك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وإيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنني أصدقك^(١).

(١) البداية والنهاية: فصل في مبالغتهم في الأذية لأحاديث المسلمين المستضعفين - ج ٣ / ١٨٢.

هذه كلمة عبد الله بن أمية بن المغيرة تصور لك أنهم ما طلبوا الذى طلبوا
إلا عتانا، فيقول: إنه إذا أجيب إلى كل ما طلب ما أظنه يؤمن ولكنه من بعد
ذلك آمن وحسن إيمانه.

الرسالة لا تكون إلا من البشر

قال الله تعالى:

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ
فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشِّوْنَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ
مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٦﴾
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ
مِّن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا ۖ وَكُفَّا
وَصَمًّا ۖ وَأَوْتَهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا ۖ خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا
وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا أَوْ نَبْعَثُوهَا لَنُخْلِقَ جَدِيدًا ﴿١٨﴾

إن المشركين لم يكونوا يطلبون حجة غير القرآن لنقص فى الحجة إنما لنقص
فى إدراكهم وعمى فى قلوبهم، إنما يعتنون بما يطلبون، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ
نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ
(٧)﴾ [الأنعام]، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ
يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾ [الحجر].

ولقد رأينا منهم من يقول: لو جاء ما نطلب ما ظننا أننا نؤمن. إنما الداء الذى أمرض نفوسهم هو استبعادهم أن يبعث الله تعالى رسوله من البشر، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ (٩٤).

كان الوحى قد غاب عن العرب أمدا طويلا بعد إبراهيم وإسماعيل ولوط وصالح وهود، فكانوا يجهلون النبوات ولا يعلمون الرسالات السماوية إلا ما بقى لهم من ملة إبراهيم أبيهم، وقد كانت العصية الجاهلية مسيطرة عليهم، وقد جعلتهم أوزاعا متفرقين، وقد جاء محمد ﷺ من أوسطهم نبيا بشيرا ونذيرا، فاستغل الذين ينافسون بنى هاشم الشرف وينافسون بنى عبد مناف الشرف ذلك الاستغراب أن يكون من البشر رسول وأثاروها به عليهم.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ (٩٤).

أى ما منع الناس الإيمان أن يدخل قلوبهم، فـ (أَنْ) وفعلها ينسبك منهما مصدر هو المفعول الثانى، و(الناس) المفعول الأول، والفاعل (أَنْ) التى بعد (إلا) وفعلها هو قولهم، ومعنى الكلام وما منع الناس الإيمان إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا، والاستفهام إنكارى بمعنى النفى، أى ما منع الناس الإيمان إلا قولهم لم يبعث الله بشرا رسولا، وجاء النفى على صورة الاستفهام لبيان معنى الاستغراب والتساؤل الذى أدى إلى النفى، ويلاحظ هنا أمران:

الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ هذه إشارة إلى أنهم لا يؤمنون بالرسالة مع أنها تحمل فى نفسها دليها؛ لأنها هادية مرشدة مقنعة مع ما تقتضيه أحكام العقول ومكارم الأخلاق.

الأمر الثانى: أن نفيهم لأن يكون البشر رسولا إنما هو قولهم لا حقيقة أمرهم، فهم لا يؤمنون بآلا يكون البشر رسولا ولكنهم يقولونه قولا من غير برهان ولا إيمان.

وإذا كانوا مستبعدين أو مستغربين أن يكون البشر رسولا فهلا تكون رسالة أو يكون الرسول من الملائكة، لا جائز أن يترك الإنسان من غير رسالة، وإذن فعلى زعمهم يكون من الملائكة، ولكن الملائكة لا يتجانسون مع البشر فلا يهدوهم، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۝٩٥﴾.

أمر الله نبيه الكريم أن يعلمهم أن الطبيعة الملكية لا يمكن أن تعيش قارة ساكنة مع طبيعة الأرض، وأن كل جنس فى هذا الوجود له ما يشاكله، فالأرض تشاكل الإنسان والملائكة يشاكلهم مكانهم الذى يعيشون فيه، والرسول يكون من بين المرسل إليهم بل من قومهم، ولذا بين الرسالة لهم هذه الاستحالة قال: قل لهم يا نبي الله ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ...﴾، أى لو كان فى الأرض مكان مهيا للأرواح الطاهرة المطهرة يمشون فيه مطمئنين، أى ساكنين سكونا يتفق مع طبائعهم الروحية ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، أى رسولا من الملائكة.

و﴿لَوْ﴾ كما يقول علماء البيان: حرف امتناع لامتناع، أى امتنع أن ينزل الله عليهم ملكا رسولا لامتناع أن يكون لهم فى الأرض مكان يمشون فيه ويسكنون ويتفق مع روحانيتهم.

أما وجه امتناع المقدم، وهو الشرط؛ فذلك لأن الأرض مادة فيها زرع وغرس وفيها أحجار ورمال وغير ذلك من شئون المادة، والملائكة أرواح لا ترى، فكيف يمكن أن يكون لهم مكان فى هذه الأرض المادية يروحون فيه ويغدون

ويخاطبون من أرسلوا إليهم، إنه لا بد من أن تجسد هذه الأرواح ليتمكن أن تُرى وأن تسير في الأرض وفي هذه الحال لا يكون ثمة فارق بينهم وبين الآدميين، وقد قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩).

ولو كان المشركون يريدون أن يخاطبهم وهم أرواح لا يرونها ويسمعونها فإن الأوهام تسيطر عليهم ويقول الضالون المضلون: رثى من الجن خيل لهم.

إذا كان ذلك كذلك، فمن المستحيل أن يجد الملائكة في الأرض ما يصلح لدعوتهم، وألا يكون المرسل إليهم صالحين لخطابهم والاستماع إليهم، وإذا امتنع المقدم (لو) فإن الثاني يمنع أيضا بهذه البدهيات العقلية، يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرشدهم إن كان في قلوبهم متسع للإرشاد ولكنهم لا يطلبون دليلا جديدا لنقص في الدليل، أو تغيير للرسول لعجز فيه، بل يكابرون ويعاندون. وإذا كانوا معاندين فلا جدوى وكفى بالله شهيدا، وقد قامت دلائل شهادته، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩١).

الخطاب للنبي ﷺ لأنه قام الجدل بينهم وبينه، والله من ورائهم محيط، وهو المؤيد والناصر لنبية، ويقول الله تعالى لنبية: قل يا أيها النبي لهؤلاء المعاندين الضالين الذين يطلبون دليلا على رسالتك غير القرآن أو يريدون رسولا من الملائكة ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ الباء هنا لتأكيد معنى الكفاية بشهادة الله تعالى، و﴿شَهِيدًا﴾ إما أن تفسر الشهادة بمعنى الحكم، وهي تستعمل في ذلك، كقوله تعالى: ﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ ...﴾ (٦٦) [يوسف] إلى آخر الآية، ويكون معنى النص السامى، وكفى بالله حاكما بيني وبينكم، بأنى رسول، وأن المعجزة الكبرى وهى القرآن كافية ملزمة وقد ألزمتكم الحجة، وإن حكم الله واضح، وشهادته قائمة بصدق ما جئتمكم به.

وأما أن نقول: إن شهيدا معناه شاهد، للفصل بينى وبينكم، وحاسمة لخلافكم، والشاهد حاكم؛ لأن الحكم بينى على شهادته، كما قال علي كرم الله وجهه: إنما قتلك شاهدك.

والمعنى على ذلك إنما يشهد الله وحده فيما بينى وبينكم، وإن شهادة الله تعالى هى المحكمة، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، أى عليهما علما دقيقا، و﴿بَصِيرًا﴾ علم من يبصر، فيعرف ما يصلح لكم وما لا يصلح، ومن يكون رسولا ومن لا يكون وهو على كل شىء قدير.

ثم قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَأَوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبِثَ رِذَائِهِمْ سَعِيرًا (٩٧)﴾.

بعد أن بين سبحانه أن شهادته كافية لصديق الرسول، وصحة معجزته فى الدلالة على نبوته، أشار سبحانه إلى أنه قد قام الدليل، وما بقى إلا أن يسير المهتدى فى ضوئه، ويتردى الضال فى مهوأة الضلالة ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾. (الواو) عاطفة جملة على جملة، كانت الأولى بمثابة مقدمة الدليل للثانية، ومعنى ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾، أى من اهتدى بنور الحق، وسار فى طريقه، فهو المهتد حقا وصدقا وهو البالغ الكمال فى الهداية، والأخذ بالرشاد، والسالك طريق النجاة، وقد عبر عن هداية المهتدى بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾، أى من سلك سبيل الحق مستقيما فإن الله يهديه، فهداية الله تعالى ليس معناها الإجبار على الهداية، وإلا ما كان الجزاء الوفاق، فإنه لا جزاء إلا مع الاختيار، وإن المهتدى يكون مختاراً فى ابتداء السير، ثم أخذه فى النهاية إلى الطريق الموصل للغاية بلطف الله تعالى وتوفيقه، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ الإضلال ليس معناه الإجبار على الضلال، وإلا ما ساء العقاب بعد

الحساب، وإنما الإضلال معناه أن يسير الضال في طريق الضلال متبعا هواء وإغواء الشيطان، فيصل إلى نهايته بتقدير الله تعالى وكتابتة في سجل الضالين، وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾، أى أنصارا غير الله من الآلهة التى كانوا يعبدونها أو غيرها، إنما هم يهون إهواء فى طريق الضلال من غير منج منه.

والضمير يعود على معنى «مَنْ»، ومعنى (من) جمع، وكان عود الضمير فى ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ على لفظ، وهو مفرد ومعناه جمع، وإنما أعيد فى حال الضلال على المعنى لتعدد الضلال وكثرته وتشعب مسالكه، وأعيد على لفظ (من) فى الهداية لتوحد طريقها، إذ يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ... (١٥٣)﴾ [الأنعام]، ولقلة المهديين بالنسبة لكثرة الضالين، ولأن (أل) التى للجنس تدل على الكمال والعموم، فهى مغنية عن لفظ الجمع.

وجواب الشرط يشير إلى أن أوثانهم لا تجديهم شيئا، ولا يصلحون لاية ولاية، ثم بين بعد ذلك عقاب الله تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فسرهما بعض المفسرين بتقدير محذوف، أى مسحوبين على وجوههم؛ وذلك لأنهم يسحبون فعلا على وجوههم إذلالا لهم وهوانا بهم، وإظهارا لمقت الله تعالى عليهم، وقد سئل النبى ﷺ: أيسرون على وجوههم، فقال ما مؤداه: كما سيرهم على أرجلهم سيرهم على وجوههم^(١)، ويصح أن يكون ذلك مجازا لإذلالهم وأنهم لا إرادة لهم فى سير، بل يدفعون دفعا إلى جهنم.

وقال بعض المفسرين: إن معنى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أنهم يسرون منكسى الرؤوس، خائفين، فالوجه يعبر به عن الذات، وذلك معقول فى ذاته، ويستقيم عليه معنى النص القرآنى السامى.

(١) قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ: بَاقِي مُسْنَدَ الْكَثَرِينَ - بَاقِي مُسْنَدِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٨٢٩٣).

ومعنى قوله: ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أنهم يكونون فى عماء من أمورهم، ولا يسمعون ما تطيب به نفوسهم، ولا يتكلمون بحجة فهم يصيبهم العمى والصمم والبكم، كما عموا عن الحق فلم يبصروه، وعن الاستماع إليه، وعن النطق.

ويقول البيضاوى فى معنى ذلك:

«لا يبصرون ما تقرّ به أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ لهم سماعه ولا ينطقون بما يقبل منهم؛ لأنهم فى دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر، وتصاموا عن استماع الحق، وأبوا أن ينطقوا بالصدق» وقد نقله عن الكشف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٧)﴾

وقد بين سبحانه الغاية من حشرهم، وهو أن يصلوا إلى مأواهم، فقال: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

أى أنهم يسكنون جهنم، والتعبير بالمأوى، وهى عادة موضع القرار والاطمئنان فيه تهكم بهم لأن جهنم لا تكون موضع استقرار واطمئنان بل تكون موضع قلق وآلام.

وإن العذاب فيها مستمر، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾، أى سكنت أو أطفئت لاستغراقها كل العظام ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ وبدلناهم جلودا غيرها، كما قال تعالى: ﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ... (٥٦)﴾ [النساء].

وقد بين الله تعالى سبب ذلك العذاب الأليم المباشر، وغير المباشر فقال:

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا أَتِنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٥٨)﴾.

«ذلك» إشارة إلى ما مضى من جزاء المشركين أنهم يحشرون منكسى الوجوه لا يبصرون ما يلذ لهم أن يبصروه، ولا يسمعون ما يطيب لهم سماعه، ولا ينطقون بما يدفعون له عن أنفسهم، ومأواهم جهنم يذوقون العذاب فيها دفعة بعد

دفعه، والإشارة إلى هذه الصفات تتضمن أنها العقاب، وقد صرح الله فوق الإشارة بالسببية، وهو الكفر بالآيات الدالة على وحدانية الله، والمعجزات الدالة على إرسال الرسل وخصوصا معجزة القرآن، وهو المعجزة الكبرى.

وأشاروا إلى السبب الأصلي لكفرهم بكل الحق، وهو إنكارهم للبعث، وأشار إلى ذلك بقوله تعالى عنهم: ﴿أَنذَأْ كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

أى أنهم ينكرون البعث، ويستغربونه، كيف يعودون وقد صاروا عظاما نخرة، ورفاتا ورميما، أيكونون خلقا جديدا؟! وقد ذكرنا ذلك، ورد الله تعالى ذلك الاستغراب.

قدرة الآيات والكفر بها من المشركين

قال الله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١١﴾
قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُكُمْ خَشِيَّةً
أَلَّا نِفَاقٌ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسُئِلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ
هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَفْرَعَوْتُ مَثُورًا ﴿١٤﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ

فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
اَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

أنكروا الإيمان باليوم الآخر، وعجبوا من أن يُعادوا خلقا جديدا، وقد صاروا عظاما ورفاتا، وأنكروا أن يكون القرآن معجزة، وطلبوا معجزات حسية محادة لله تعالى، ولتكون معجزته ﷺ كمعجزات الأنبياء السابقين فرد الله قولهم في الأمرين، ففي الأمر الأول أشار إلى قدرته على خلق أمثالهم، وأن قدرة الله واسعة ولا يحاسب بها خشية الإنفاق، وفي الأمر الثاني ذكر الله تعالى قدرته أنه أعطى موسى تسع آيات بينات، وقد قال فرعون بعد أن رآها، وعابنها آية بعد آية: ﴿... إِنِّي لَا أَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

قال تعالى في الأمر الأول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ (الواو) عاطفة على فعل مقدر بما يناسب الكلام، وتقديره أقالوا ذلك ولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، والاستفهام داخل على لم يروا، ومعناه النفي مع التنبيه، يعني قد قالوا قولهم، وقد رأوا أن الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، وإذا كان قادرا على أن يخلق مثلهم، فبالأولى وهو قادر على أن يعيد بعضهم أو كلهم، فهذا إثبات لإعادتهم خلقا جديدا بطريق دلالة الأولى، ذكر مقدم الدليل، وترك لهم أن يأخذوا التالي من المقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ (الواو) عاطفة «جعل لهم أجلا» على «خلق السموات والأرض»... فهو جعل لهم أجلا ينتهي ولا يتغير في نهايته، ﴿... فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف]، فمعنى ﴿لَّا رَيْبَ﴾ أنه لا شك فيه؛ لأنهم يرون الناس يتتهون ولا يخلدون، ولا ريب فيه أيضا؛ لأن الله أخبر أن له نهاية ينتهي إلى أجل مسمى، فالنجوم مسخرات لأجل مسمى، وقد قدم سبحانه وتعالى قوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ

يَخْلُقُ ﴿١﴾ على قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ للمبادرة بالنتيجة قبل أوصاف الفعل الأول، لأنها ثابتة بالرؤية والحس، وكل ما في الوجود له دور ينتهي عنده، فالليل والنهار في ميقاته، والشمس والقمر، يظهران كل في ميقاته.

والأجل الذي يذكره الله تعالى أجلان: أحدهما أجل يرى ويحس، وهو أقول النجوم والكواكب، ونحوهما بالنسبة لكل ما تراه في السماء ذات البروج، والموت بالنسبة للإنسان والأحياء بشكل عام، وهو أجل تراه ينتهي كل يوم، والأجل الثاني هو أجل هذه الدنيا فإنها إلى أجل محدود هو يوم القيامة، وقد أقام القرآن الأدلة القاطعة على نهاية هذا العالم، وهو أيضا لا ريب فيه، لقيام الأدلة بالنقل والعقل على أن الدنيا إلى فناء وبعدها الآخرة.

ومع قيام هذه الأدلة القائمة الثابتة لم يؤمن أكثر الناس، ولذا قال تعالى ﴿فَأَنبِئِ الظَّالِمُونَ إِنَّا كُفُّورًا﴾ الفاء هنا للترتيب والتعقيب، وهى بهذه الدلالة فيها توبيخ لهم على كفرهم؛ لأن مؤدى القول أنه كان يترتب على هذا النظر والعلم الذى لا ريب فيه أن يؤمنوا، ولكنهم بدل ذلك كفروا كأنهم يرتبون على الحكم المؤيد بالدليل نقيضه، والناس هنا أهل مكة أو الناس جميعا، فإن أكثر الناس لا يدعون للحق إذا تبين، ﴿فَأَنبِئِ﴾، أى لم يترتب على ذلك أكثر الناس ﴿إِنَّا كُفُّورًا﴾، أى إلا كفرا بهذه الحقائق البينة، فـ ﴿كُفُّورًا﴾ معناه كفر ملح لاح فى الكفر، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

هذه حقائق ونتائجها فى قلوب الكافرين، وهى عند الله أوسع وأعظم هم يضيقون مدلول الآيات التى تحت أيديهم، والله يريد أن يوسعوا عقولهم وتفكيرهم، ولا يقترون فى مداركهم، وإن كان من أوصاف الإنسان أنه قتور ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾.

كان الكلام من الله تعالى؛ لأنه ذكر لحقائق الوجود، ولطبائع الأشياء والخلق والتكوين فلما اتجه سبحانه إلى بيان الطبائع الإنسانية أمر من وجب عليه التبليغ أن يبلغهم طبائعهم، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي...﴾، قل لهم يا رسول الله لو كنتم تملكون خزائن رحمة الله إذا لمسكنكم، أى إنكم تضيقون على أنفسكم دائما ولا توسعون فى مدارككم وتفكيركم، فلو أنتم بهذا التفكير الضيق تملكون أو تسيطرون على خزائن رحمة الله على أصحابها كما ضيقتم عقولكم، ومدارككم وتفكيركم، وخزائن رحمة الله هى الرزق والصحة، والقوة، وكل ما ينعم الله به تعالى على عباده، وقوله: ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾، أى إذا كان ذلك لأمسكنكم، و(اللام) هى الواقعة فى جواب ﴿إِذَا﴾، أى أمسكنكم على الناس ما رزقوا من رحمته ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾، والإنفاق هنا معناه الافتقار بمعنى الإملاق، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ...﴾ (٣١)، أى إنكم تبخلون حتى فى مال غيركم، وتمنعون أصحاب الحقوق من حقوقهم، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾، أى بخيلا، لأنه يطلب دائما المعاضة، وهو بالخير ضنين، وإنه يشعر بالاحتياج دائما؛ لأنه بالنسبة للعالم يخشى النفاد، ويحرص على أن يبقى لنفسه فى كل الأزمان، وهو لا يحض على طعام المسكين خشية الفقر، وهذا فى طبع الإنسان، ولكنه لا يمنع أن المؤمنين منهم الجواد السخي الذى يعطى المال على حبه مسكينا ويتهما وأسيرا، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِقٌ هَلُوعًا﴾ (٩٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (١٠٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) [المعارج]، وإن الإنسان إذا لم يهذه دين الحق، ولا مجتمع فاضل يبدو فيه أمران: حرص شديد ليحفظ لنفسه فى عزمه نفقته فى القابل، وخوف الفقر، حتى تتحقق الحكمة: «الناس من خوف الفقر فى فقر» فهم فقراء فى ذات أنفسهم إذا خافوا الفقر، وإن هذا النص الكريم يدل على أمور ثلاثة:

الأمر الأول: أن خزائن رحمة الله تعالى لا تنفذ تشمل البر والفاجر، وتعم الغنى والفقر، والقادر والعاجز.

الأمر الثاني: أن العبد هو الذى يقتدر، ويحس بالفقر دائما إلا أن يكون مؤمنا يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

الأمر الثالث: أنه على الإنسان أن يهذب غرائزه، فإذا كان قتورا يجب أن يعود السخاء والإيثار.

ذكرنا أن الآيات من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ تدل على قدرة الله على البعث، وإعادة الخلق كما بدأه، وتدل على طبيعة الإنسان وخلقته، وأنه حريص على هذه الحياة الدنيا، ومن حرصه عليها أنه قتور ضنين، ومن ضنه أنه لا يؤمن باليوم الآخر؛ لأنه لا يؤمن إلا بما فى قبضة يده، ويحرص عليه.

وذكر أن الآيات من بعد هذا رد بالوقائع الصادقة على الذين يقولون لو جاءتهم آية حسية لآمنوا، فبين الله تعالى لهم أن من سبقوكم جاءتهم آيات حسية كثيرة.

ولقد ضرب الله مثلا من ذلك فرعون مع موسى فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ۝١٠١﴾.

(الواو) واصلة الكلام بما قبله، وهى عاطفة جملة على جملة، و﴿آتَيْنَا﴾ معناها أعطيناه حجة ودليلا ﴿تِسْعَ آيَاتٍ﴾، أى معجزات بينات فى دلالتها على رسالة موسى إلى فرعون وبني إسرائيل، وتلك الآيات التسع كما ذكرها ابن عباس إجمالا فيما روى عنه هى: العصا التى لقت ما ألقاه السحرة إذ أمره بأن يلقى السحرة حبالهم وعصيهم، ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾ [الشعراء]، واليد إذ قال الله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَى ۝٢٢﴾ [طه]، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ۝١٣٢﴾

[الأعراف]، والآية الثامنة أنه سبحانه وتعالى أخذهم بالجدب والسنين الشديدة،
التي يقل الخير والثمر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) [الأعراف].

والآية التاسعة، فلق البحر، وفتح الطريق لبنى إسرائيل، وكان عليهم أن
يعتبروا بهذه الآية، ولكنهم اغتروا فاتخذوا الشق سبيلا ليتبعوا بنى إسرائيل،
فاتبعوهم فكانوا من المغرقين.

هذه آيات، واجه موسى بها فرعون، ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾، أى
إذ واجه بها موسى فرعون ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، أى أنه
بدل أن يذعن بها ويؤمن بالحق إذ جاءت بينات، كابر واستمر فى غيه، وضلاله
القديم وما أجدت تلك الآيات الحسية شيئا، بل قال مؤكدا، ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾ الظن
هنا بمعنى العلم، وقد أكد علمه بسحر موسى بـ «إن» و«اللام» و﴿مَسْحُورًا﴾ قال
الفراء والزجاج: إنها بمعنى ساحر، وأقول: إن معناها بمعنى مفعول لأن معناها
أنك فيما تدعيه مسحور، أى مخدوع أو مخيل لك، فأنت لا تقول الحق، بل إنك
واهم.

أجابه موسى عليه موسى مستيقنا بما يقول، ومبينا له أنه يناقض حسه بما
زعم من أنه مسحور أو واهم.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا
فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١٠٢).

ضمير الفاعل يعود إليه؛ لأنه المتحدث عنه فى الآيات التى أعطيها ﴿لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائرٍ﴾ (التاء) ضمير المخاطب
بالفتح على قراءة الأكثرين^(١)، وفيه تأكيد موسى لفرعون أنه علم أنه ما أنزل هذه

(١) قراءة (لقد علمت) بفتح التاء، كلهم، ما عدا (الكسائي)، والأعشى عن بكر بن عاصم، فقد قرأها
بضم التاء. غاية الاختصار: ٥٥١/٢.

الآيات إلا رب السموات والأرض بصائر، أى آيات مبصرة، وبصائر جمع بصيرة، أى من شأنها أن تبصر من له بصيرة ينظر فيها بعين قلبه متذكراً متدبراً مؤمناً مدعياً غير متمرّد، وقد يقال: كيف يعلمها وينكرها كافر به وبأنعمه؟ والجواب عن ذلك أنه علم ولم يذعن لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ... (١٤)﴾ [النمل]، من شأنها أن تلقى باليقين فى نفس كل من يراها، ولكن أَلْقَتْ فى نفوسهم بالجحود، والجحود يزداد قوة كلما قويت أسباب العلم.

وقرأ على بن أبى طالب علمتُ بضم التاء على أنها للمتكلم، والمعنى على هذه القراءة لقد علمت أنا بأنها نزلت من رب السموات، والبصائر منيرة للحق، ومعجزات مثبتة للحق، وحسبى الله تعالى شاهداً بها، وأما أنت يا فرعون فقد قدمنا الحجة، ولك أن تؤمن، وإن كفرت فالإثم عليك، ولذا ختم موسى ﷺ بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أى هالكا وملعوناً وناقص الإدراك؛ والشبور الهلاك والمنع من الخير، يقال ثبره الله تعالى يثبره ثبراً، أى أهلكه ومنعه.

وهنا نلاحظ أن قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾ المراد بالظن العلم المحقق، وعبر عن العلم بالظن مجازاً لما جاء عن فرعون، وقد أكد هذا العلم أولاً بـ (إن)، وثانياً بـ (اللام)، وذلك بالقسم.

ويلاحظ أنه ناداه باسمه لأنه إذا كان فرعون قد استعلى بجبروته فموسى قد أعلاه الله تعالى بمقام الرسالة، فحق له أن يخاطبه باسمه الصريح، وألاحظ أن فراعنة هذا الزمان الذين مات آخرهم قريباً كان يظن نفسه أكبر.

زادت فرعون الآيات الحسية عتواً فى الأرض وفساداً، ولم تقنعه، وكذلك لم تقنع أشباه فرعون من طواغيت ملكه، ولقد خرج فرعون عن عهده، فحاول إخراج موسى وبنى إسرائيل بزيادة طغيانه عليه، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٧)﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه ترتب على إتياء موسى الآيات التسع التى أقام بها الحجة أمام فرعون، ترتب عليها أن اشتد طغيان

فرعون، ولم يترك العناد إلى الإيمان، بل ازداد ولوجا في الإعنات، ففيه تهكم بهم، وبمن يسلكون مخرفه، وهو طريق الشيطان. واستفزازهم لإزعاجهم بالأذى، والاستخفاف: القتل والذبح، والنفى في الأرض، وقد هموا بالخروج، فأتبعهم فانفلق البحر، وكان كل فرق كالطود العظيم فدخلوه، وهذا قوله تعالى في سورة الشعراء الآيات المبينة للاستفزاز وتنجية موسى ومعه بنى إسرائيل، قال تعالى:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾.

هذه نتائج الآيات الحسية التسع، فهل آمن فرعون بها، لم يؤمن، ولكن ازداد إعناتا وطغيانا، وكذلك يفعلون، ثم قال تعالى في آل بنى إسرائيل:

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾.

أى بعد أن نجاهم من فرعون إذ خرجوا من البحر ناجين، وغرق هو وجيشه الذى يسيطر به، ويقول لقومه بقوته: ﴿... مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ... (٣٨)﴾ [القصص] مغترا باغترارهم، ومستقويا بضلالهم، يقول قلنا لهم بلسان الحال والواقع من بعده ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ والأرض هنا أهى أرض مصر، ومن يحكمهم فرعون بعد أن زال هو وجنوده، وصاروا عبرة للمعتبرين أم هو جنس الأرض؟.

إننا نميل إلى أرض مصر، لعلهم دخلوها مستباحة لهم ثم عادوا طالبن الأرض؛ لأن ظاهر الآيات في سورة القصص يفيد ذلك، إذ يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [القصص]، وهذا الفساد لبنى إسرائيل وأهل مصر وملا فراعون، والخلق أجمعين لأمد محدود، وهو يوم الآخرة، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وهو الميعاد الذي تنتهي به هذه الدنيا، ويحيى وعد الحياة الآخرة ﴿جِنًا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أى مختلطين من أشتات شتى سود وبيض وصفر وحممر، وحاكم ومحكوم، وطاغ وعادل، فاللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، أى يجىء الأذلاء والطلقاء، والأعزاء والكرماء، وكل يقوم فى مقام، ويحاسبون بميزان الحق الذى لا شطط فيه، ولا نقص ولا بفس، فأما من كان قد جاء بالخير فله الحسنى، وأما من جاء بالآخرى فله عذاب مقيم.

بعد ذلك بين الله مقام القرآن وأنه بعد أن بين أن الآيات الحسية لا تجدى مع

الضلال.

قال الله تعالى:

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾
وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٦﴾
قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا ﴿٢١﴾

بعد أن بين الله تعالى أن المعجزة الحسية لم تُجد مع من سبقوهم، وضرب مثلاً بفرعون وكيف زادته الحجة الحسية التي كثر عددها حتى صارت تسعاً لما تزده إلا إعناتاً واستمراراً في غيه، وهم يقلدون فرعون في طغيانه، فاتخذوه أسوة لهم في كفره بالآيات التسع، وليقصدوا القرآن، فهو حجة الله تعالى الخالدة إلى يوم القيامة، ولذا قال تعالى:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥﴾.

أى بالحق وحده نزل، وأفاد القصر، هو تقديم الجار والمجرور على الفعل أنزلناه، أى أنزلناه من عندنا بالحق حكمة ثابتة أردناها، فإن كل معجزة تكون مناسبة لرسالة الرسول، ولما كانت رسالة محمد ﷺ للناس أجمعين، وهو خاتم النبيين فناسب أن تكون معجزة ليست حادثة تقع، ثم تنقضى بانقضاء زمانها، بل تبقى خالدة باقية تتحدى الأجيال إلى يوم الدين، فالله تعالى هو الذى اختار بحكمته لنبيه هذه المعجزة، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء]، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يفيد الاختصاص، أى نزل مشتملاً على الحق لا بعضه، فقد اختاره الله معجزة لمحمد بالحق، وللحكمة العالية التى قدرها رب العالمين، وهو وحده الذى يشتمل على الحق من بين الكتب السماوية، فهو مهيمن عليها يبقى منها من يستحق البقاء، وينهى ما يبقى من أحكام نسخها، كالتى كانت فرضت على بنى إسرائيل تهديداً لنفوسهم، وفضماً لشهواتهم.

وإذا كانت معجزة القرآن هى التى اختارها سبحانه لك، فما عليك إذا لم يؤمنوا بها، وما عليك إذا لم يهتدوا إذا قام الدليل، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً، أى مبشراً للمؤمنين الذين آمنوا بالحق واهتدوا، ومنذراً للذين كفروا وأصموا آذانهم عن الحق، وعميت أبصارهم عن رؤيته، وضلت أفئدتهم سواء السبيل.

وإن هذا الكتاب الحكيم الذى هو معجزة النبى ﷺ نزل مقروءا ليبقى إلى يوم القيامة حجة خالدة، ويحفظ فى الأجيال بحفظ الله تعالى كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]، ولقد قال تعالى فى نزول القرآن.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦)﴾.

﴿قُرْآنًا﴾ مفعول لفعل محذوف يناسب المقام، ويبينه ما جاء بعده، وتقديره، ونزلنا قرآنًا، أى نزلنا كتابا مقروءا، لا مكتوبا فقط، ولقد علم الله محمدا ﷺ طريق قراءته، وهو ترتيله، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة]، أى إن علينا أن نقرأ القرآن قراءة مرتلة مبينة، كما قال تعالى: ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل].

فالقرآن الكريم محفوظ بكل عباراته، وكلماته وقراءاته، وتلاوته، ومنهاج هذه التلاوة؛ لأن ذلك كله متواتر عن النبى ﷺ تواترا يعدُّ العلم به علما ضروريا لا يرتاب فيه إلا كافر.

والتنكير فى قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا﴾ للتعظيم، وليذهب العقل فى عظمتة كل مذهب، ولأن المقصود وصفه بأنه مقروء غير مكتوب فقط، بل هو محفوظ فى الصدور قبل السطور، وكان حفظه فى الصدور حماية له من التحريف.

وقوله تعالى: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ فيها قراءة بالتخفيف، وأخرى بتشديد الراء، والمعنى واحد، ومتلاق، وهو أنه نزل مفرقا، ولم ينزل دفعة واحدة، بل نزل منجما نجما بعد نجم على حسب ما تقتضيه حكمته تعالى وإرادته فكان ينزل مع الحوادث، وهى تشير إلى بيانه، وليستطيع النبى وصحابته حفظه، ولو نزل دفعة واحدة ما وجد من يكتبه، لأنهم قوم أميون، ولأن الكتابة قد يصيبها التحريف، وما فى الصدور لا يحرف، ولا يصحف، ولا يذهب حفظه كشأن الكتب السابقة التى حرفت، ونسى النصارى واليهود حظا مما ذكروا به.

وذكر سبحانه السبب في نزوله مفرقا بقوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ﴾ أى على تمهل وتطاول فى المدة، فيحفظوه حفظا بدلا أن يلقوا بكتابته على رقاع أو قطع من مواد أخرى كما فى الشجر، وهكذا.

و﴿مَكْثٍ﴾ تتضمن امتداد الزمن امتدادا يمحثون فيه من قراءته وحفظه، وتفهمه، وتعريف غاياته ومراميه، وكان الصحابة كلما جمعوا عدة آيات حفظا وترتيلا، سألوا النبى ﷺ عن جملة معانيها إن كانوا لم يفهموها.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، أى نزلناه متدرجا منجما، وأكد نزل بالمصدر ليعلموا أنه تنزل بمعانيه وألفاظه، ولعل فى هذا ردا على الذين افتروا الكذب، وقالوا إنه نزل بمعناه، والعبارة كيف نزل، ولقد كذبوا فى ذلك وأعظموا الفرية، وإن ذلك من افتراء الكفار عليه، ووهن إيمان بعض من ينتسبون للإسلام.

هذا ما ساقه الله تعالى لبيان مقام القرآن وسط آيات الله تعالى، وأنه أعظم آيات الله تعالى فى الدلالة على رسالة الرسول، وأدومها، وأتقهاها، وبين أن الآيات الحسية قد جاءت فى أحوال كثيرة، ولم تنتج إيمانا بل تبعها من الطغاة عتوا واستكبارا، وتوالى المظالم، وبعد هذا البيان قال الله تعالى:

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)﴾.

أمر الله تعالى أن يبين لهم أن إيمانهم وعدم إيمانهم عند الله على سواء، فما يضير القرآن أن يؤمن به الجهال، ولا يرفعه فوق منزلته التى وضعه الله فيها ألا يؤمنون، ويقول الزمخشري فى هذا: «أمر النبى ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن، وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيرا منهم وهم العلماء الذين قرءوا الكتاب، وعلموا ما الوحي وما الشرائع وقد آمنوا به وصدقوه، وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبهم فإذا تلى عليهم خروا سجدا، وسبحوا الله تعظيما لأمره، وإنجاز ما

وعد في الكتب المنزلة، وبشّر من بعثه محمدا ﷺ وهو المراد بالوعد في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ هذا النص الكريم في مقام التعليل لقوله: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾، أى سيان إيمانكم وعدم إيمانكم بالقرآن، فإنكم إن كفرتم فقد وجد من يؤمن به، ويدرك منزلته، وكان من أولى العلم قبله من يعرف قدره ويؤمن به، وينزل في قلبه المنزلة التي أرادها الله تعالى.

وأولو العلم هم أهل الكتاب كما ذكر الزمخشري وغيره من المفسرين إذ أوتوا علم الكتاب السماوى، وعلم النبوات، والعلم بأنه سينزل كتاب مصدق لما بين يديه، ولعله لا مانع من التوسع في معنى أولى العلم بأنهم أولو الإدراك والتأمل والعلم بكل ما يتعلق بالله تعالى من أهل الكتاب، وأهل الحكمة والمعرفة الذين أوتوا المعرفة، فإن هؤلاء قد يكونون من أوساط لا إيمان فيها كإيمان مؤمن آل فرعون، وكإيمان السحرة وإيمان الأوس والخزرج، وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾، أى من قبل البعث المحمدى، فإن هؤلاء يكونون، حيث يكون العقل والتفكير، لا حيث الكتب السماوية فقط، ولكن الظاهر أنهم أهل الكتاب المدركون.

وقد قال تعالى في وصف أهل العلم عندما يتلى عليهم ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ سجدا جمع ساجد كركع، و﴿يَخِرُّونَ﴾ ينزلون في خشوع وخضوع ساجدين، وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، أى يخرون بوجوههم وهو أعلى موضع شرفهم البدنى والتعبير بـ ﴿يَخِرُّونَ﴾ من قبيل تسمية الكل باسم الجزء، فهو عبر عن الوجه بأبرز أجزائه، وهو الذقن، وهو موضع الشرف، ويظهر أنها الأذقان بما يشتمل عليه من اللحا؛ لأن اللحية من كمال جمال الوجه.

ويقول سبحانه بعد ذلك فى أوصاف أهل العلم:

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ (١٠٨)﴾ .

ذكر سبحانه وتعالى أنهم يخرون ساجدين ، وإنهم مع سجودهم يملك التأثر نفوسهم ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ ، أى تقديسا وتزيها وخضوعا لرنا الذى خلقنا ، وأمدنا برحمته بنزول القرآن ، وذكر الله تعالى باسم ربنا ، بيانا لامثالهم ، وبيانا لأنه رباهم ، وأن القرآن من كمال تهذيبهم ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ و(إن) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، أى إنه الحال والشأن وعد ربنا ، و(اللام) فى قوله ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لام التوكيد ، وهى الفارقة بين (إن) النافية ، و(إن) المؤكدة ، و(كان) دالة على الاستمرار ، ووعد الله تعالى هو بانزل القرآن وبعث محمد ﷺ ، وتكرار ربنا لكمال معنى الخضوع والربوبية والعبودية ، وقوله لمفعولا ، أى واقعا يفعل الله تعالى بإرادته المختارة وهو على كل شىء قدير ، فوعد سبحانه وما أخلف .

الوصف الثالث من أوصاف أولى العلم عندما يستمعون القرآن ذكره سبحانه بقوله :

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝ (١٠٩)﴾ .

هذا هو الوصف الثالث من أوصاف أولى العلم عندما يتلى عليهم القرآن ، وكرر خروهم الأول أى سقوطهم للأذقان باكين من تأثرهم به ، وإحساسهم بأن الله تعالى يخاطبهم بكلامه ، وأنهم يستمعون إليه فيتغلب عليهم البكاء من فرط إدراكهم ، ولعلو إحساسهم ، ويقول : ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ، أى خضوعا لله تعالى وإيمانا بحق عبوديته ، فكلما تلى عليهم ازدادوا علما ، وكلما ازدادوا علما ازدادوا إيمانا وخشوعهم يستمر فى نمو ، وإيمانهم بحق العبودية يزداد كلما تلى عليهم .

وإن هذه الآيات تسلية للنبي ﷺ كما ذكر الزمخشري ، فإذا كان المشركون قد أنكروا آيات الله ، فهناك أهل العلم المدركون الذين يعلمون الوحي ، والرسالة

والرسل، ويدركون نعم الله تعالى، ويعرفون رسالتك، ويقدرُونَ معجزتك حق قدرها فلا تأس عليهم، ولا تلتفت، فالله معك وأهل العلم يشهدون لك.

وإنه بعد بطلان قولهم فيما طلبوا من آيات، وبيان مقام القرآن بين الله سبحانه دعوة الله وأشار إلى أسمائه الحسنى فقال:

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠﴾.

﴿دَعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ ناده باسم الله أو باسم الرحمن، فإنهما صفات الله تعالى، وله أسماء غيرهما تدل على جلاله وكبريائه، واتصافه بكل كمال، وذاته العلية واحدة وقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الأسماء التي تبلغ أعلى درجات الحسنى، التي ليس فوقها درجة، الحسنى مؤنث الأحسن، وأفعل التفضيل ليس على باب؛ لأنه لامفاضلة بين أسماء الله تعالى، وأسماء غيره، ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، ﴿أَيًّا﴾ مفعول لـ ﴿تَدْعُوا﴾، والتنوين عوض عن المضاف المحذوف و﴿مَّا﴾ صلة لتوكيد الكثرة في ﴿أَيًّا﴾، أى أيًّا من الأسماء تدعو مهما يكن قدرها؛ فذلك سائغ لأن له الأسماء فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى، على ما شرحنا.

وكان ذكر الدعاء بالرحمن أنه كالدعاء، واختص ذكر الرحمن بالذكر من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى؛ لأن العرب كما قيل لا يعرفون الرحمن إلا رحمان اليمامة، أو كما روى، وفي صحاح السيرة أن المشركين عندما أخذ علي يكتب العهد في صلح الحديبية قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا أما الرحيم فنعرفه، وأما الرحمن فلا نعرفه اكتب باسمك اللهم^(١)، فالله سبحانه بين بهذا أن الرحمن اسم الله، وأن غيره من الأسماء الحسنى.

(١) انظر ما رواه مسلم: الجهاد والسير - صلح الحديبية في الحديبية (٣٣٣٧)، وأحمد: باقى مسند المكثرين - باقى مسند أنس رضي الله عنه (١٣٣٣٢٥). وراجع رواية البخارى: الشروط - الشروط فى الجهاد (٢٥٢٩)، عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل منهما حديث صاحبه، وفيها طول.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ وفى هذا قرينة على أن الدعاء المذكور فى النص ليس هو مجرد نداء أو دعاء إنما هو عبادة، وقالوا فى سبب نزول هذه الآية، أو هذا النص، إن النبى ﷺ كان يقرأ القرآن فيسب المشركون كلام الله تعالى فأمر النبى ﷺ بالآلا يجهر، ولا يخافت، وروى أن أبا بكر كان يخافت ويقول إنما أنا جى ربى، وهو يعلم حاجتى، وكان عمر يجهر ويقول: أنا أطرده الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبى بكر ارفع قليلاً، ولعمر اخفض قليلاً ﴿وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، أى اطلب طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة، وفى الكلام مجاز، فى إطلاق وسط القراءة التى بين الجهر والخفت على الطريق الوسط.

وقيل تفسير الجهر والخفت بالآلا يجهر المصلى فى كل صلاته، ولا يخافت فى كلها، بل يجهر فى صلاة الليل، ويخافت فى صلاة النهار وذلك هو الوسط بين السبيل البين بعد ذلك.

وقد أنهى سبحانه وتعالى سورة الإسراء بتكبير الله تعالى كما ابتدأت بالإسراء، فقال تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ (١١١).

أمر الله تعالى نبيه أن يحمده ويكبره، فإن لا يوجد من يستحق الحمد والتكبير غيره. قل يا رسول الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أى الحمد كله لله سبحانه وتعالى، فلا يستحق، ولا يختص بالحمد سواه على ما خلق وأنشأ وكون، ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وهذا يشير إلى أنه ليس مماثلاً للحوادث فى أى حال من أحوالهم، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، وقد قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً...﴾ (١١١) [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يشير إلى أن جميع خلقه على سواء، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدُ ﴿٣﴾ [الإخلاص]، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا، فليس هناك أبناء كما ادعى اليهود، وليس عيسى ابنه.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، فهو المالك الخالق لكل شيء، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾، أى لم يكن ولى يناصره ويحميه من الذل، ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾، أى تكبيرا يليق بذاته العلية.

نفى الله تعالى كما ذكرنا عن ذاته العلية ثلاثة أمور، وأثبت بعد هذا النفى وجوب التكبير، أما الأمور الثلاثة، فهي اتخاذها ولدا كما ذكرنا، ونفاه؛ لأن الولد ينبئ عن الحاجة، والله تعالى غنى حميد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر]، ونفى سبحانه أن يكون له شريك فى سلطانه فلا ينازعه أحد؛ لأنه الخالق، وهو المالك ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء]، ونفى أن يكون له ولى من الذل، (الولى) النصير، ومن يكون فى جواره لحمايته، وقال: ﴿مَنْ الذَّلِيلُ﴾، أى بسبب ذله، واحتياجه إلى النصير، وذكر لفظ الذل ليؤكد النفى فإن ذلك محال على الله، ونسبته إليه سبحانه لا يليق بذى الجلال والإكرام، وإن نفى ذلك كله ينتهى بوجوب تكبيره تكبيرا مؤكدا. فالله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا وسبحان الله تعالى بكرة وأصيلا.

سورة الكهف

تمهيد:

سميت هذه السورة بسورة الكهف؛ لأن أهل الكهف وقصتهم أخذت شطرا كبيرا، وعدد آياتها عشرة ومائة آية، وهى مكية، وجاء فى المصحف أن الآية الثامنة والثلاثين مدنية وكذلك الآيات من ٨٣ إلى ١٠١، والله أعلم وكلها قرآنه الحكيم.

ابتدأ سبحانه وتعالى السورة الكريمة بحمد الله تعالى الذى أنزل على عبده الكتاب، كما اختتم سورة الإسراء بالتكبير، ونفى اتخاذ الولد، وبين أنه شئ نكر لا يقع من عقلاء، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ثم أشار سبحانه إلى زينة الأرض.

وبعد ذلك ذكر قصة أهل الكهف، وهى دليل على صبر أهل الحق، وعلى قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الموت، أو شبهه، وعلى عجائب الله تعالى فى خلقه، وقد استغرقت قصتهم وأحوالهم إلى قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨) بين سبحانه وتعالى الحق، وما يكون من عقاب على الباطل: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

ثم بين سبحانه جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات، ويذكر سبحانه وتعالى قصة تصوّر غرور غير المؤمن وإيمان المؤمن وألا يغتر بالله غرورا، وأن نعيم الدنيا عرضة للزوال وينصح المغرور فيقول: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنَّ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ولكنه بعد هذه النصيحة يستمر في غيه وغروره حتى يزول ثمره، ﴿٤٣﴾ وأحيط بثمره فأصبح يُقَلِّبُ قَلْبَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٤﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٥﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ وقد ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما يدل على فنائها وذهاب زخرفها.

ويذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا، وخير أملا، ويذكر لهم سبحانه حالهم يوم القيامة والميزان والحساب.

ثم يذكرهم سبحانه بأصل خلق الإنسان وعداوة إبليس لآدم وذريته، وفسقه عن أمر ربه، وقد اتخذ بنو آدم إبليس وذريته أولياء من دون الله، ﴿٤٨﴾ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٤٩﴾.

إن الله خلق السموات والأرض، وإن لم يشهدوا خلقها، ثم ذكرهم سبحانه بيوم القيامة وما يكون فيه، ورؤية المجرمين النار وظنهم أنهم مواقعوها، ولم يجدوا عنها مصرفًا.

ولقد ذكرهم سبحانه بالقرآن وتصريفه سبحانه فيه، وأنذرهم بسنة الأولين أو أن يأتيهم العذاب قبلًا، ويجادل الذين كفروا بالباطل.

وبين سبحانه وتعالى ظلم من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، ثم ذكر سبحانه ظلم القرى وهلاكها بسبب الظلم.

قصة موسى ﷺ مع العبد الصالح:

ثم ذكر سبحانه وتعالى، ﴿٥٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حَقْبًا ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ حتى وجدا عبدا من عباد الله صالحا، ﴿٥٣﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ

هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ، ثم كانت بينهما المحاورة، وسارا فانطلقا حتى إذا أتيا سفينة فركباها فخرقها، ﴿قَالَ أَخْرِقْهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا﴾ ، ثم سارا ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ ، قال موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ، فانطلقا حتى إذا وجدا أهل قرية فأراد أن يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ، وقد أجابه بعد ذلك عن السفينة بأن ﴿وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ، وعن قتل الغلام بأن أبويه كانا صالحين ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ﴿

ذو القرنين:

بعد ذلك جاء ذكر ذي القرنين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ ، ثم ذكر سبحانه أعماله الصالحة وكيف مكن الله له في الأرض وهيا له الأسباب، وبلوغه مغرب الشمس، وعدله مع من ظلم ومع من عدل، وعندما بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم يجعل لهم من دونها سترا، ثم كان ما من يأجوج ومأجوج، وقد أقام بينه وبينهم سدا، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا ﴿٩٨﴾﴾ .

وقد ذكر سبحانه جزاء جهنم للظالمين وجزاء المتقين، وقال في جزاء الكافرين: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِهِمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ وبين أن جزاء المؤمنين جنة الفردوس خالدين فيها لا ييغون عنها حولا، واختتم السورة بهاتين الآيتين: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ .

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝
 قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
 يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝
 مَتَكَبِّرِينَ ۝
 فِيهِ أَبَدًا ۝
 وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝
 مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
 أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝
 فَلَمَّا كَبُخَ نَفْسِكَ
 عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝
 إِنَّا
 جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
 ۝
 وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝

ابتدأت السورة الكريمة بالتحميد بعد أن ختمت السورة السابقة بالأمر
 بالتكبير، فهو المحمود الكبير الذى ليس فوقه أحد سبحانه وتعالى و«ال» فى
 ﴿الْحَمْدُ﴾ للاستغراق، أى استغراق كل الحمد وأعلاه، فهو المحمود ولا محمود
 بحق سواه وكل آحاد الحمد تعود إليه بإطلاق، وليس لغيره حمد إلا نسبي، وفى
 دائرة محدودة، هى دائرة المخلوق الذى لا يملك شيئاً إلا من الله تعالى، ﴿الَّذِي
 أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ هذه جملة تشير إلى سبب الحمد أو بعض أسبابه، فإن
 الحمد لا يكون إلا بنعمة، وهذه النعمة أجل النعم، وأعظمها؛ لأنها نعمة إنزال
 الكتاب على عبده، وتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ على الكتاب لمزيد
 الاهتمام بكونه عبده. فإنه عبد الله ومبلغ رسالته ومن اختصه لنبوته وهو أعلم

حيث يجعل رسالته، وقوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ﴾ للدلالة على كمال الكتاب في ذاته، فهو الجدير بأن يسمى كتاباً، وليس غيره جديراً بهذه التسمية، وله ذلك الشرف الداني؛ لأنه يشتمل على كل ما يصلح البشر في معاشهم، ومعادهم وما تقوم به مدينة سليمة فاضلة تنفي خبثها، وتدعم خيرها، وله شرف آخر إضافي وهو أنه منزل من الله العزيز الرحيم الرؤوف الغفور الذي رحمته وسعت كل شيء.

هذه صفات ذاتية وإضافية، ومن صفاته الذاتية أيضاً أنه لا عوج فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾، أى أنه سبحانه خلقه متجهاً إلى الحق من غير انحراف، وأنه كالجسم الذى لا يعوج حياً، فإن الجسم قد يكون فى ذاته مستقيماً، ولكن قد يتعرض لبعض الصدمات التى تجعله يسيخ^(١) أو ينقبض، وإن هذا القرآن لا عوج فيه، لا من خارجه ولا من أصل تكوينه، فهو كونه قوياً ولا يمسّه شيء يزيج أو ينحرف، فهو قويم غير قابل للاعوجاج.

﴿قِيَمًا﴾، أى أنه مستقيم فى ذاته كما أنه لم يعره اعوجاج فى أى ناحية من نواحيه، ولا أى معنى من معانيه وهو قيّم على الكتب السابقة كلها؛ لأنه مهيم عليها يبين ما نسخ منها، وما لم ينسخ، وما كان فيه تحريف، وما نسى، وما بقى، وهو قيم على مصالح الناس، ودفع مفاسدها، وقيام بنائها الصالح، ومنظم الجماعات الإنسانية على قواعد الأخلاق والفضيلة، وإبعاد المفاصد والردائل.

وإذا كان لإقامة بناء اجتماعى سليم، وليستقيم الناس فى معاشهم ومعادهم، ففيه بيان الأحكام التكليفية لهم وما يجب يوم القيامة، فإن العصاة لا يستقيمون إلا إذا كان أمامهم عذاب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾، أى أن نزوله بما فيه من أخبار البعث والنشور وبما فيه من أحكام تصلح الناس فى عامة أمورهم، كان لا بد أن ينذر بأساً شديداً، والإنذار له مفعولان وهو هنا له مفعولان: أولهما محذوف مع تقديره فى الكلام، وهو (الناس)، وثانيهما

(١) يسيخ - هكذا بالخاء - يرسخ. القاموس المحيط (ساخ).

موجود، وهو ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾، والمراد العذاب الموصوف بأنه بأس شديد، فأطلق الوصف وأريد الموصوف، وفسر بعض العلماء البأس بأنه العذاب العاجل الذى لا يتأخر لحظة عن ميقاته، وهو آت لا محالة وكل آت فهو لا بد عاجل، لا يتخلف أبدا.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَدُنْهُ﴾ الضمير يعود على الله تعالى؛ من عند الله تعالى، وفى الحكم بأنه صادر عن الله تعالى آت من عنده إرهاب بهذا العذاب؛ لأنه آت من عند الواحد القهار، وبيان لشدته، وتأكد وقوعه، فلا مناص منه، ولا سبيل للابتعاد عن وقوعه.

وكما أنه منذر لمن عصى، فهو مبشر لمن أطاع، فلا جدوى فى الإنذار إن لم يكن معه تبشير؛ لأنه يكون تحذيرا لمن يغوى وتبشيرا لمن يفعل الصالحات، فهو تخويف وتشجيع وتحريض؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ التبشير الإخبار بما يسر ولا يضر، وعبرنا بالموصول للإشارة إلى أن الصلة هى السبب فى هذا الجزاء، والصالحات هى الأعمال التى يقصد بها وجه الله، وطلب الخير والنفع وأن تكون القلوب طيبة سليمة، فهى التى تصلح بها الأعمال وهى التى بها تفسد، ويلاحظ هنا أنه ذكر الأعمال الصالحة ولم يذكر الإيمان؛ لأن الإيمان مقدر لأنه أساس الخيرات، ولأنه عمل القلوب فهو داخل فى عمل الصالحات، وذكر سبحانه الجزاء فقال: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، تكرم الله تعالى فسمى الجزاء أجرا وكأنه ثمن خير قُدِّم مع أن الهداية من فضل الله ورحمته، للإشارة إلى أن الله كريم حلیم، يمن بالخير ويجازى عليه، ووصف الأجر بأنه حسن، أى أجر يستحسن ويحب ويرغب فيه، ويطلب لأنه فى مظهره حسن، وفى حقيقته نعمة دائمة، ولقاء الله ورضوان منه، وهو أعظم، وكل ذلك تشمله كلمة حسن.

وإن هذا الأجر الحسن هو الجنة التى يخلدون ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا... (١٠٨)﴾ [هود]؛ ولذا قال تعالى:

﴿ مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ ﴾ .

المكث البقاء مع الاطمئنان وألا يكون نزاع قط، وإنه دائم ما دامت السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ... ۝١٠٧ ﴾ [هود].

وقد خص سبحانه وتعالى بالذكر من إنذار العصاة إنذار الذين اتخذوا لله ولدا، فقال تعالى:

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾ .

بعد إنذار عامة الكافرين العصاة من وثنيين وغيرهم خص الذين اتخذوا الولد، وقالوا: ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ ﴾؛ لأنهم لم يفهموا ذات الله، ولا خواص الألوهية، وأنها منافية للحوادث منافاة تامة، وعبر سبحانه بقوله: ﴿ قَالُوا ۝٤ ﴾، ولم يقل اعتقدوا؛ لأنهم لا يؤمنون ومن اتبع الأوهام لا يؤمن بشيء، ولا يعتقد اعتقادا جازما، لأن الأوهام تساوره فتزلزل اعتقاده بل هو في ريب دائم مستمر، وعبارة اتخذ الله ولدا، فهم نسبوا الاتخاذ لله، وهي فرية على الله تعالى وتدل على عدم كماله سبحانه؛ لأن اتخاذ الولدان يترتب عليه أمران باطلان لا يليقان بذات الله:

الأمر الأول- مشابهته للحوادث، وأن يكون لله سبحانه نظير مثله، لأن الولد مثيل أبيه، فكيف يكون لله تعالى شبيه ومثيل.

الأمر الثاني- أنه ينبئ عن احتياج الله للولد لنصرته، والله تعالى غنى حميد لا يحتاج لشيء ويحتاج إليه كل شيء سبحانه تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۝٤ ﴾، كلمة ﴿ مِنْ ۝٤ ﴾ هنا لاستغراق النفي، أى ما لهم أى علم، بل يرمون القول من غير تفكر، ولا تدبر، من سيطرة الأوهام التي أوجبتها الفلسفة التي قارنت تحريف النصرانية من مسيحية إلى وثنية متبعين الأفلاطونية

الحديث التي كانت في آخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي، وقد خلت
الوهية المسيح في هذه العقائد المتحرفة حتى سنة ٣٢٥ من الميلاد، وأخذت تسرى
في الجموع النصرانية حتى اختفى الحق وظهر الباطل.

وإن ادعاء النبوة هذا ما نشأ إلا من الجهل، وسيطرة الوهم؛ ولذا قال
سبحانه: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾، إنما هو الهوى والوهم، وهما يفسدان كل تفكير.
وقال تعالى: ﴿ وَلَا لَبَائِهِمْ ﴾ لا لتأكيد النفي، فنفي عنهم العلم لعدّهم
مقلدين متبعين، وعن آبائهم الذين قلدهم لأنهم الذين سهلوا تلك الأوهام في
نفوسهم، فضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

وإن هذه الفرية أشد فرية أضلت العقول حتى أنه بعد ما فهموا بعض الفهم
أخذوا يتأولون، ويدعون أنهم لا يقولونها لا فرار منها ولكن هو تلبيس على
الناس ليدفعوا عن أنفسهم أنهم يتكلمون بغيز معقول.

ولقد قال تعالى في عظم ما توهموا ثم افتروا: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾، ﴿ كَلِمَةً ﴾ تمييز وهي منصوبة على أنها تميز، وهناك قراءة بضم التاء.

وعلى تخريج أن القراءة بنصب التاء تكون بمعنى الذم الشديد، ويكون المعنى
بُست كلمة تخرج من أفواههم، والأحسن أنها تكون بمعنى التعجب، أي ما أكبر
فضاعتها وفسادها، وقوله تعالى: ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾، أي أنها ثقل خروجها
من الأفواه لبعدها عن كل معقول، ونفرة أي فكر منها، ولكنهم يستطيعونها فإن
سألتهن عن مدلولها لم يحيروا جوابا، واضطربوا كل مضطرب إلا أن يقولوا حقا
أو معقولا وسبحان من خلق المهتدي والضال.

﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾، إن للنفي، أي لا يقولون إلا كذبا لا مساغ له من
حق، ولا يقوله مدرك فاهم يعرف حقيقة الألوهية والله في خلقه شئون.

القرآن هو النعمة الكبرى كما هو المعجزة الكبرى ففيه شفاء للناس ورحمة
وهداية وموعظة للمؤمنين، ومن كانت عنده هذه النعمة يريد أن يتنفع بها الناس،

وأن يكون مصدر هذه الرحمة إليهم؛ ولذلك كان حفيا بأن يؤمنوا، ويحسب أن كفرهم ربما يرجع إلى نقص في تبليغه لا إلى نقص في نفوسهم؛ ولذلك قال تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

الفاء تنبيء عن تقدير قولي مطوى، معناه إذا كنت حريصا على إيمانهم فلعلك باخع نفسك إلخ...، والبخع: جهد النفس حتى تتلف، وباخع نفسك، أى مؤدى بها إلى التلف ومهلكها من شدة همك وتحميل نفسك ما لا حاجة إلى تحميله ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾، أى على آثار توليهم؛ لأنك لا تتوقعه، إذ إن نضوح الدليل ووضوح الصدق وقوة الإعجاز يجعلك تتوقع إيمانا، فجاء إعراضا وتوليا عن الحق البين وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ فيه استعارة وترشيح لها، كأنهم محبوب يفارقك فيدفع الفراق إلى ألم ولوعة كأنه باخع نفسه لهذا الألم ولذلك الفراق، وأنه يبرح به البعد والفراق حتى يكاد يبزع نفسه، هذا تخريج الزمخشري أو معناه فى قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ وهو معقول فى ذاته وربما يكون أقرب من هذا التخرّيج أن تقول لعلك باخع نفسك على آثار توليهم وإعراضهم ودخولهم النار ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾، والحديث هو القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ (٢٣) [الزمر].

والإشارة فى قوله سبحانه: ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ إشارة إلى ما سبق فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ فهو كتاب الله الذى سجلت فيه شرائعه، وهو حديث الله إلى رسوله وإلى خلقه المؤمنين، بل إلى الخليقة أجمعين.

و(لعل) معناها الرجاء، والرجاء ما يتوقع وقوعه سواء أكان مرغوبا أم كان مرهوبا، فهو الأمر المتوقع على كلتا حالیه، وهو هنا يبين الله تعالى لنبیه أن حاله حال من يتوقع منه بخع نفسه ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ و﴿أَسَفًا﴾

مفعول لأجله، أى ييخع نفسه هما وحزنا إن لم يؤمنوا، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء] والأسف هو الهم الشديد الذى لا يذهب، بل يبقى كقوله: ﴿... غَضَبَانِ أَسْفًا... (٥٠)﴾ [الأعراف]، أى مهموما هما يسكن فى القلب ولا يكون كالغضب يعرض ثم يزول، كالزوبعة تثور ثم تهدأ، أما الأسف والهم فيبقى.

بعد ذلك بين سبحانه أن الإنسان يرى فى هذه الدنيا العبر، وعجائب الوجود ولكن لا يعتبر؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾.

بعد ذلك ذكر سبحانه وتعالى عذاب القلوب وروح النفوس فأخذ سبحانه يبين غذاء الأجسام ومتعة الأعين، وزخرف الحياة فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ فزروعها وثمارها وبواسقها ودوحاتها، وأوتادها وحيوانها، ترى القطعان تنفث فى المراعى ذاهبة عائدة، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل]، هذه زينة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]، وكما قال تعالى فى سورة ق: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصُرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾.

هذه المتع التى تشرق بها النفس فتجد فيها سعادة النفس وغذاء الجسم مكن الله تعالى بنى آدم منها لغاية، وهو الاختبار؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أى لنعاملكم معاملة المختبر الذى يريد أن يظهر ما قدره لكم محسوسا واقعا، وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أى حالهم حال من يُسأل أيكم أحسن عملا، فالاستفهام هو معنى الابتلاء، فمن اغتر بالدنيا واستولت عليه

زيتها، وبهرته ونسى الآخرة، فإنه لا يحسن عملا، ومن أدرك حقيقتها، وهى أنها ظل زائل، وأنها لهو ولعب، والحياة الآخرة هى الحيوان لو كانوا يعلمون، فإنه هو الذى يحسن العمل ويستحق الجزاء الأوفى.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسِنْ عَمَلًا﴾، أفعّل التفضيل ليس على بابه، والمعنى بلغ أقصى درجات الحسن، أو هو على بابه ويكون الاختبار لتنزيل الناس منا فمن اتجه إلى الخير ناله بقدره، ومن اتجه إلى غيره تردى فى منحدر المعصية.

وإن زينة الدنيا تنتهى كما تنتهى الحياة، وتكون غشاء أحوى؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)، الصعيد التراب: والصعدة الأكمة من التراب، والجُرز بالضم من الجَرَز وهو القطع قطع الزرع والثمار، وغيرها، وتطلق الجُرز على الأرض التى لا نبات فيها ولا شجر، كالصحراء التى لا تنبت. والمعنى فى هذا أن الله تعالى خلق الأنواع كلها، فخلق الأرض التى جعلها الله زينة وفيها الخصب والنماء، وأنها تتحول إلى غشاء أحوى، فكَذلك يخرج الحى من الميت، والميت من الحى، فليس عجيبا أن يعود الناس أحياء بعد موتهم، فلا غرابة ولا عجب فى أن يكونوا ترابا ثم يكونوا من بعد ذلك خلقا جديدا ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) [الأعراف].

قصة أهل الكهف

تصدى القرآن الكريم لبيان أهل الكهف بما لم يتصد به كتاب مقدس، ولا نريد أن نخوض فى أمر لم يخض فيه القرآن فلا نريد أن نرجم بالغيب، ولا أن نسير وراء الظنون، والقرآن ليس كتاب تاريخ ولكنه كتاب عظة واعتبار، وكل ما فيه صدق لا مجال للريب فيه.

أكثر الذين تعرضوا لبيان من هم أهل الكهف يقولون: إنهم من النصارى المؤمنين كانوا فى عهد اضطهاد النصارى، فقد كانوا موضع اضطهاد من وقت انتهاء حياة المسيح فى الدنيا، وجاءت عصور اضطهاد شديدة كانوا يفرون بدينهم،

وكان بعض أباطرة روما يبالغون في الاضطهاد حتى أن نيرون إمبراطور روما كان يجعل جلودهم تطلّى بالقار ويجعل منهم مشاعل إنسانية تسير في موكبه، ازدراء لهم، ومبالغة في إهانتهم، فكان يفر منهم من يفر إلى الكهوف والمغارات فرارا بدينهم وبنفسهم.

وقد جاءت عبارات ابن كثير بما يفيد أنهم من اليهود لا من النصارى، وحجته في ذلك أن اليهود هم الذين سألوا النبي ﷺ عن الروح وعن أهل الكهف، وعن ذى القرنين، وأن ذلك يدل على أن وقائع قصة أهل الكهف كانت قبل النصرانية لا بعدها.

ونقول في الجواب عن ذلك:

أولا - إن التوراة ليس فيها ذكر لأهل الكهف، ولا من كان محيطا بهم.

وثانيا - أن أخبار أهل الكهف المذكورة في شهداء النصارى وفي كتبهم ككتاب «الكنز الثمين».

وثالثا - أن ابن كثير نفسه ذكر أنه في عهد ملوك الرومان وهو دقلديانوس، فقد جاء فيه ما نصه: «لقد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد، اسمه دقلديانوس وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، وعرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد يتخلص من قومه، وينحاز منهم، ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس، وجاء الآخر، والآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان...».

لا يهمننا الخبر كله، وإنما يهمننا منه أنه ذكر دقلديانوس وقد ذكره، وكان من أشد أباطرة الرومان على النصارى وخصوصاً أهل مصر، فقد أوقع بهم مقتلة عظيمة كانت سنة ٢٨٤ من الميلاد، ومنها كان التاريخ القبطى، وهذا يدل على أنهم كانوا بعد النصرانية، ولم يكونوا قبلها.

وما ذكر فى كتب السيرة من أن اليهود حرضوا المؤمنين على أن يسألوا عن الروح وأهل الكهف وذى القرنين فهو متزايد فيه، والثابت برجحان الأسئلة كانت عن الروح، وعن العبد الصالح صاحب موسى وعن ذى القرنين كما ذكرنا أولاً، وأن الاضطهاد للنصارى استمر حتى حرقوا دين المسيح ﷺ، وكانت سيادة التثليث بعد سنة ٣٢٥ عقب مجمع نيقية وكان الاضطهاد قبل ذلك للموحدين، وأهل الكهف منهم، وكانت معجزة الله تعالى فيهم.

ولكن ما عددهم، وما المدة التى مكثوها؟، أما عددهم فكما تدل الآيات سبعة، وحكى الله تعالى عنهم ذلك، فقال عز من قائل: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٢٢﴾.

وربما يكون هذا النص مشيراً إلى أنهم سبعة؛ لأنه ذكر فى الثلاثة والخمسة أنه رجم بالغيب، ولم يذكر ذلك فى السبعة، ولكنه سبحانه وتعالى نهى عن المماراة فى ذلك، وعدم الاستفتاء فيه؛ لأنه لا جدوى فى معرفته، وكل علم لا يترتب عليه اعتقاد أو عمل لا فائدة فيه ولا فى شغل الذهن به.

وأما المدة التى مكثوها فى الكهف، فإنها كما قال الله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ٢٥﴾، أى أنهم مكثوا تسع سنين وثلاثمائة، بالسنين القمرية، وبعض العلماء قدرها بالشمسية بثلاثمائة سنة، ويأتى بعد ذلك فى أى عصر من العصور كانت هذه المدة، وكنا نظنها فى عهد دقلديانوس الذى أشار إليه ابن كثير، ولكن رجّعنا النص القرآنى إلى الحق، وهو تسع وثلاثمائة، ولا يمكن أن يكون ابتداء المكث فى عهد دقلديانوس؛ لأن معنى ذلك أنه استمر

إلى آخر القرن السادس تقريباً، وأنه في هذا الوقت كانت النصرانية قد ثلثت، ولم تعد ديانة توحيد، ولا مسيحية لأن المسيح برىء منها.

وكان حقاً علينا أن نفهم، حيث أفهم القرآن مصدقين مدعين، ولكن لا مانع أن نقول إنها ابتدأت من عهد الاضطهاد الرومانى بعد أن انتهت حياة المسيح في الدنيا، واستمرت المدة التي ذكرها القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت].

قال الله تعالى:

أَمْ حَسِبْتَ

أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ①
 إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
 وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ②
 فَضَرْبَنَا عَلَى أَعْيُنِنَا ③
 فَصَرَبْنَا عَلَى آذَانِنَا فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ④
 ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَّادًا ⑤
 نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ⑥
 وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ⑦
 هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتِيهِمْ
 بَشَاطِنٌ مِنْ رَبِّكَ فَقُلْنَا أَمْ تَتَذَكَّرُونَ ⑧
 أَمْ يَحْسَبُونَ أَنْ نَنْسَاهُمْ أَمْ لَهُمْ حِفْظٌ إِلَى الْكَهْفِ
 وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْذَى إِلَى الْكَهْفِ
 يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ⑨

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

﴿الْكَهْفِ﴾ مكان متسع فى الجبل، و﴿الرَّقِيمِ﴾ اسم للجبل، أو لوح من رصاص رقت فيه أسماؤهم، أو واد بالجبل، وأيا ما كان فهو تعريف بمكان كهفهم بجبله أو بواديه أو رصاص كتبت أسماؤهم عليه.

و﴿أَمْ﴾ للاستفهام مع الإضراب لمن عجبته، وأنها ليست أكثر من عجائب الوجود والخلق بإرادة الله، فليس بقاء أجسام إنسانية حية أمدا طويلا، كما أنه ليس وجودهم راقدين أكثر من ثلاثمائة سنة أمرا عجبا فى ذاته من خلق السموات والأرض وما فيها، أو من خلق الإنسان من طين، أو من أدوار خلق الإنسان من نقطة من ماء إلى علقة إلى مضغة، ليس بقاؤهم أحياء رقودا أعجب من هذا الخلق العظيم.

والاستفهام مقصود منه التنبيه وتوجيه الأنظار أولا إلى أن هذا كان عجبا، أى أحسبتم أن أصحاب الكهف والمقام الذى كان كهفهم على مقربة عجبا من آيات الله، إنها ليست بعجب من آيات الله تزيد على آياته فى خلقه، إن كل خلق الله تعالى آيات لأولى الأبواب، وإذا كان فى أهل الكهف شىء فهو فى دلالة على قدرة الله تعالى فى الإحياء والرقود، وهو دال على البعث بعد الموت؛ لأنه إذا كان قادرا على الإبقاء فهو قادر على الإعادة، وإذا كان قادرا على الإنشاء والإبقاء فهو قادر على الإعادة.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾

عرفهم القرآن الكريم بأوصافهم، وأول وصف من هذه الأوصاف أنهم فتية جمع فتى، أى أنهم شبان فى باكورة أعمارهم، نفوسهم غضة لم ترهقها الأوهام، ولا العادات والتقاليد، وموروثات الآباء العتيقة التى عششت فى رءوس من قبلهم، بل إنهم على الفطرة السليمة، والشباب دائما أسرع الناس إلى الحق إن لم يكن فى توجيههم ما يعوق عنه أو يسد الحجاب دونه، وقد قال فى ذلك الحافظ ابن كثير: الشباب هم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا

وانغمسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ورسوله ﷺ شبابا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل.

هذا هو الوصف الأول الذي وصف الله به أهل الكهف، أما الوصف الثاني، وهي نتيجة لسلام الطوية أنهم اتجهوا إلى الله تعالى بقلب محسّ بقدره الله ومعجزته، وبأنه سبحانه وتعالى المنعم الهادي دون غيره فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ نادوا ربهم قائلين، ﴿رَبَّنَا﴾، أى الذى خلقتنا وكونتنا وطهرت قلوبنا، وخلصت نفوسنا من الشرك وأوهامه، ﴿آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾، من حضرتك القدسية، وخزائنك التى لا تنفذ، ﴿رَحْمَةً﴾ وإنعاما وتوفيقا، وسلوكا مستقيما، ودواما للتوفيق. ورحمة الله وسعت كل شىء وهى تعم كل حياة الإنسان، والدعوة الثانية المنبعثة من إيمان عميق موجه، وإذعان صادق يملأ القلب نورا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أى الأمر الذى اخترناه لأنفسنا من الإيمان فى وسط الوثنية، والرشد هو إدراك الأمور إدراكا مستقيما لا عوج فيه، وهذا الطريق المستقيم يقتضى تجنب الشرك وطلب الحق، والابتعاد عن كل مهاوى الرذيلة، والاتجاه إلى طريق الفضيلة ومحاسن الأخلاق، وألا يكون شطط ولا إفراط، ولا تفريط، إلا أن يدفع إلى ذلك الحق وتجنب الهوى.

يظهر أن أولئك الفتية طوردوا حتى أووا إلى الكهف، فالإيواء لا يكون إلا عن منازعة يحسون فيها بأنهم لا قبل لهم بمن يريدون أن يفتنوه عن دينهم، وقد كان ذلك واقعا فى عهد اضطهاد النصارى، كما أشرنا وكما بينا فى غير هذا الكتاب^(١).

وإن النوم يكون فيه سكون النفس، ولقد أنامهم الله سنين عددا لينجوا بدينهم، وليكونوا حجة حسية على البعث، وليكونوا من آيات الله تعالى فى الوجود.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝﴾

(١) راجع كتاب محاضرات فى النصرانية للإمام محمد أبو زهرة.

كان الإيواء إلى الكهف فرارا من أذى المشركين، ولهم في ذلك الوقت القوة والسلطان، والعذاب مسلط على رقاب المؤمنين، وخصوصا القلة الشابة منهم، ولكن النجاة قد وفرها الله تعالى لهم فأبعدهم عن الأحياء المشركين - وإن كانوا أحياء - ولتتم لهم الطهارة التامة، وتتم بهم الحجة الكاملة، وهو صنيع الله تعالى، فقال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾.

(الفاء) لعطف ما بعدها على ما قبلها من غير تراخ، فهم أووا إلى الكهف فضرب الله على آذانهم وقد عرف الله الفتية فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ وتعريفهم لأنهم معهودون في الذكر في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.

والضرب على الآذان مجاز، فإنه يقال ضرب الحجاب إذا أغلق البيت، ويقال بنى الخباء إذا سده، فكنى بقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾، أى سدنا هذه الآذان بحجاب وضرينا عليه ضربا محكما لكيلا يصل إلى داخلها أى صوت ينبههم من رقادهم، ويصح أن يقال شبهت حالهم فى عدم السماع لأى صوت مع حياتهم بمن سدت آذانهم بحجاب قد ضرب عليها، فلا يصل إليها صوت مهما يكن عاليا أو مزعجا، فهم أحياء لا يحسون بالأحياء، وقوله تعالى: ﴿فِي الْكَهْفِ﴾ فيه إشارة إلى أن فى الكهف ذاته يصعب عليهم فيه الإحساس بما عند الأحياء من عذاب وإيلام، وقد استمر ذلك أمدا طويلا، ليس يوما ولا شهرا، ولا سنة بل سنين عدة؛ ولذا قال تعالى: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ فجعل العدد وصفا للمعدود، أى سنين كثيرة بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله تعالى فهى ليست شيئا المذكورا، ويقول الزمخشري ومن تبعه: إن معنى ﴿عَدَدًا﴾، أى ذوات عدد، أى أنها تعد بالسنين عدا، وقد قالوا إنه إذا قلَّ العدد لا تحتاج إلى عد؛ لأن الأصابع تحصيلها، أما إذا كثر العدد، فإنه يحتاج إلى العد والحساب بعد هذه السنين الطوال التى لا تحصى إلا بالعد والحساب أيقظهم الله من رقادهم فقال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾.

العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في موضعه؛ لأن الزمن تطاول بين دخولهم الكهف وضرب الله تعالى على آذانهم فقد كانت سنين كثيرة لا تعرف إلا بالعدد والإحصاء، وسمى الله تعالى سماعهم بعد أن ضرب على آذانهم بعثاً، مع أنه ليس إلا أن يسمعوا بعد أن لم يسمعوا من غير أن يفقدوا حاسة السمع، ولكن كان هناك حجاب يمنع من السماع بإرادة الله تعالى، وسمى ذلك بعثاً؛ لأنه مظهر الحياة بعد أن اختفت، فمع أنهم أحياء واستمروا أحياء طول هذه المدة، وقد يقال في اللغة: بعثه، إذا أيقظه من نومه، ولقد قال النبي ﷺ في خطبته لأهله وعشيرته: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون»^(١)، فبين البعث واليقظة بعد النوم مشابهة تجعل أحدهما كالآخر، وخصوصاً أن البعث هنا مع بقاء الحياة، وإنما الذي غيَّب الكلام والسماع هو الرقاد.

وإنهم عندما استيقظوا بعد طول الرقاد، اختلفوا على فريقين ففريق منهم قال: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وقالت كثرتهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْنَا﴾، سمي الله تعالى الفريقين حزبين؛ لأن الحزب ما ينحاز إلى أمر معين من دين أو حرب أو نصرة، وحزب الله في دينه هم المفلحون، كما قال تعالى: ﴿... أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة].

كانوا في رقادهم لا يشعرون كم أمضوا من الوقت فقسم حدد وعيّن، وقسم أكثر أرباباً، وأشد تفويضاً لم يهتموا، فالله تعالى بين أن البعث سيعرفهم الحقيقة؛ لأنهم يختبرون بالحياة، ويعلمون في أي زمن يعيشون وفي عهد أي حاكم يكونون بعد هذا الرقاد، ولذا قال تعالى: ﴿لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ إن الله تعالى يعلم كل شيء يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن، فالله تعالى لا يعلم جديداً، ولكن المراد أن يظهر ما يعلمه الله تعالى واقعا يعلمونه، فمعنى ﴿لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾، أي ليظهر علم الله تعالى واقعا محسوسا يعلمه الناس، بعد أن كانوا يظنون ويحسدون.

وإن ذلك تنبيه إلى طول الأمد حتى تظن أهلها، ولرقدوهم الذى يشبه الموت
اختلفوا فيه، وليعلم الناس أن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون، وأن الأزمان
أمرها نسبي وهى بالنسبة لله تعالى ليست بشيء يحصى.

والاستفهام هنا جعل ما بعد ﴿أَيُّ﴾ يَسُدُّ مَسَدَ مفعولين، ومعنى الاستفهام
التنبيه إلى أن الزمن طال حتى اختلفوا فى قدره، وبعثوا من مراقدهم ليتعرفوا
الزمان، وفى أى زمان هم، وبذلك يعرفون أى القائلين أصدق قليلا.

﴿أَحْصَى﴾ قيل: إنها أفعل تفضيل، ولكن أفعل التفضيل لا يكون إلا من
فعل ثلاثى مجرد، ولكنه جاز استثناء، والقرآن لا يحاكم أمام قواعد النحو لأنه
فوقها، وهو يوجهها، ولا توجهه، وقد كثر أفعل التفضيل فى الرباعى كقولهم ما
أعطاه للمال، وآتاه للخير، ويقال إن أفعل التفضيل يجوز بعد تجريده من الزوائد،
إذ يصير ثلاثيا، وفيه معنى الإحصاء، وقوله تعالى: ﴿أَمَدًا﴾ معناه زمانا، أى
أعلم بمقدار الزمن الذى أحصى هذا الذى قال يوما أو بعض يوم، أم الذى
فوض. وقد قص سبحانه وتعالى قصصهم بالحق فقال:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾.

يقص الله سبحانه قصصهم بالحق من وقت أن نشثوا وخوطبوا بالوحدانية
فى وسط الوثنية بعد بعث عيسى عليه السلام ومجىء بعض رجاله إليهم فى الرومان
داعين إلى التوحيد، والنبأ هو الخبر الخطير الشأن، وأى خطر وشأن أكبر من عدد
من الناس ينام نحو ثلاثمائة سنة أو تزيد، وهو حى، ويتكفله الله تعالى حتى
يوقظه من مرقده، وهو لا يدري على التعيين متى رقد، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أى
مصاحبا للحق لا يغادر شيئا من الصدق، ولا يبعد، ثم أخذ سبحانه يقصص ذلك
القصص الذى فيه أدل شيء على القدرة بعامة، والبعث بخاصة ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا
بِرَبِّهِمْ﴾ الجملة منفصلة بيانية عما قبلها؛ لأنها فى مرتبة البيان فهى بيان للقصص
الحكيم، ﴿فِتْيَةٌ﴾ كما ذكرنا جمع فتى، وهو الشاب القوى غض النفس التى
كانت على الفطرة، وهؤلاء فيهم فتوة الشباب وفتوة الإيمان، وهى جماع مكارم

الأخلاق، والابتعاد عن محارم الله تعالى، وإطاعة أوامره، ففيهم فتوة الجسم وفتوة الإيمان، والسلوك القويم، وإن الاستقامة تسير بالملكف في الخط المستقيم.

ولذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ ذلك أنهم سلكوا طريق الحق، وكلما وجدوا صعوبة في اعتناق الحق في وسط الوثنية رأوا ما هداهم الله تعالى إليه، وما عليه غيرهم من عبادة الأوثان، فما اندغموا فيهم، بل أصروا إصرارا، فزادتهم المقارنة بين ما هم عليه وهدوا إليه، وما عليه الوثنيون من عبادة الأحجار، فكلما وازنوا ازدادوا إيمانا وكلما عوقوا وفتنوا صبروا، زادهم الله قوة في دينهم، وإيماننا في صدورهم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، أى بسبب ما سلكوه وأصروا عليه، ومعاناتهم من الفتنة ما عانوا زدناهم هدى، لأن من دخل مكان النور ازدادت الأمور له وضوحا، وازداد ضلال الضالين انكشافا، فكانت الهداية على بينة، وازداد بها علما ووثوقا وجاهروا بالحق، ورضوا بترك الأهل وترك العمران والإقامة في الكهوف والمغاور.

وإن الله سبحانه وتعالى ثبت قلوبهم وجعلهم يقفون أمام جبابرة الأرض؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝١٤﴾.

أى زدناهم هدى، وثبتناهم وربطنا على قلوبهم إذ قاموا، أى وقت أن قاموا مجاهرين بإيمانهم مجابهين طاغية من طواغيت الدنيا، ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ قالوا للطاغية لست ربنا، ولا حَجْرُكُ إلَها، إنما ربنا الذى خلقنا وكوننا عقولا ونفوسا ومدارك، وهو رب هذا الوجود كله، ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿لَنْ نَدْعُو﴾، أى لن نعبد إلها غيره؛ لأنه لا إله غيره، هو الواحد الأحد الحى القيوم، ونراهم بهذا يربطون بين الخلق والتكوين والربوبية والعبادة، فالخالق هو المعبود، ولم يكونوا كالعرب يؤمنون بأن الله خالق السموات والأرض ولكن يعبدون معه أحجارا وأوثانا، أما هؤلاء الفتية، فهم يقولون جازمين

لن ندعو من دونه إلها، أى لن نعبد غيره إلها قط فلا نقر بالعبودية لغيره، ويفرضون أنه وقع منهم ذلك، فيقولون مؤكدين بما يشبه القسم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾، أى قولاً شططاً، والشطط الإفراط فى الظلم والإمعان فيه، من قولهم شطَّ فى القول إذا بعد عن حد المعقول. وهنا ملاحظتان بيانيتان:

الملاحظة الأولى - أن قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا﴾ تدل على قوة ما أودعهم الله تعالى من إيمان لا يتزعزع فقد شبه قلوبهم بالحقبة الممتلئة إيماناً، وقد ربط عليها رباطاً محكماً كالوكاد^(١) يشد عليهم فلا تضطرب أمام جبار كائن من كان، لأنه عامر بالإيمان لا يضطرب.

الملاحظة الثانية - أنهم أكدوا قولهم، وأصروا على إيمانهم بقولهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾، فإن هذا الكلام يشير إلى أمرين:

الأمر الأول - تأكيد القول باللام الموطئة للقسم وقد الدالة على التحقق.

الأمر الثانى - أنهم أكدوا نفى الألوهية عن غير الله سبحانه وتعالى نفياً مؤكداً، فقالوا: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾.

وأنهم لم يكتفوا بمجابهة الجبار بعقيدتهم، بل ذكروا بطلان عقيدة غيرهم فقالوا مبطلين الشرك:

﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَمَيْنَتَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ دُونِهِ قَوْمٌ﴾ (١٥).

﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾، الإشارة إلى الذين عاصروهم من كانوا على دين الجبابرة فى عصرهم الذين يعبدون التماثيل ويعبدون الآلهة بتعدد التماثيل، فيقولون إله الحب، وآلهة العدالة، وغير ذلك من أسماء سموها ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وذكروا قومهم للإشارة إلى ما يربطهم بهم من صلات الجوار والنسب

(١) الوكاد: الوثاق. لسان العرب - وكد.

أحيانا، وفى ذلك إشارة إلى أن واجب هذه الصلوات أن يرشدوهم ويهدوهم، وقالوا: ما يفعل هؤلاء، ﴿اتَّخِذُوا مِن دُونِهِ﴾، أى من غيره ﴿آلِهَةً﴾، يشيرون بذلك إلى أنها ليست آلهة، ولكنهم عدّوها كذلك وليس لها أى قدرة على الخلق والتكوين، ولا تنفع ولا تضر، إنما هى أوهامهم التى زينت لهم أن لهم ألوهية على ما تصوره خيالاتهم، والخالق المستحق للعبودية وحده هو الله الواحد القهار.

وليس عندهم برهان يدل على استحقاقهم للألوهية؛ ولذا قالوا: ﴿لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، أى هلا يأتون ببرهان قاطع منتج يدل على ألوهيتهم، فالسلطان معناه البرهان الدال على هذه الألوهية التى ادعوها، وعبدوها، وهى لا تنفع ولا تضر، فقام الدليل لمنع عبادتها، ولم يقم برهان على جواز عبادتها إنما هى أوهام توهموها.

ولقد أكدوا نفي الدليل بقولهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاء للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، وتقدير الكلام: إذا كانوا قد اتخذوها من غير برهان صحيح، فقد ظلموا، والاستفهام للنفي، أى لا أحد أظلم ممن تعمد الكذب على الله، بنسبة الشريك إليه سبحانه، و﴿كَذِبًا﴾ مفعول افترى، بمعنى قصد إلى الكذب، أو نقول إن ﴿كَذِبًا﴾ حال مؤكدة لمعنى الافتراء.

وإنه إذا كان من كلام هؤلاء الفتية فهو تبكيت مقولهم؛ لأنه لا دليل على الباطل المحال، فهو لوم وتأنيب لهم، ويقول تعالى: ﴿... أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ... (٧١)﴾ [الأعراف] فهى أسماء لا مسميات لها.

وقد خاطبهم الله سبحانه وتعالى بالوحي والإلهام عندما كانت المفارقة الفكرية بينهم وبين قومهم، واعتزالهم لهؤلاء الأقوام أن يجعلهم آية لمن بعدهم فآلهمهم أن يأووا إلى الكهف؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (٦)﴾.

لقد صاروا فى عزلة فكرية، ويخشى أن يغيروا تفكيرهم وقد أصرُّوا على الإيمان إصراراً، كما أصرَّ قومهم على الشرك، و﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بأووا، وهو فى معنى السببية لذلك الاقتران الزمنى بجواب الأمر ﴿يَنْشُرْ﴾.

هذا حديث نفوسهم، وهو إلهام من الله بثلاثة أمور:

الأمر الأول - الإيواء إلى الكهف حيث يتعدون عن أذى الجبارين.

الأمر الثانى - أنهم لقوة إيمانهم بالله أحسوا بأن الله تعالى لن يضيعهم أبداً، بل إنه ينشر لهم من رحمته، إذ ييسط لهم.

الأمر الثالث - أن قوة إيمانهم بالله جعلتهم يحسون بأنه سيجعل لهم مرفقا يرتفقون به فى وسط الكهف الذى لا يأوى إليه الآدميون إلا فرارا من أقوامهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، أى اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم، بل إن اعتزالكم عبادتهم هو السبب الجوهرى، والباعث على اعتزالهم فأيمانكم قد متموه على القرابة والقومية، وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾، قال الزمخشري: استثناء متصل؛ لأنهم كانوا يعبدون الله وغيره، فالاعتزال كان لعبادتهم غير الله، ويحتمل عنده أن يكون الاستثناء منقطعاً، وعندى أن خيراً من هذا ما قاله قتادة أن ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (غير)، من غير تفحم فى المتصل أو المنقطع، ومن غير ادعاء لا دليل عليه، وهو أنهم كانوا يعبدون مع الله غيره، فإن ذلك يحتاج إلى سند تاريخى، كما هو ثابت عند العرب.

وقوله تعالى: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، مجزوم بجواب الأمر، أى إن تأووا إلى الكهف فلا تخافوا جوعاً ولا عطشاً ولا عرياً، فإن الله واسع الرحمة، ييسط لكم من رحمته وينشرها عليكم، وشبه فى هذه الرحمة السالفة بالثوب المبسوط، التى ينشر عليكم فيعمكم ويحفظكم ويستركم، ويقول تعالى: ﴿لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، أى ينشره لأجلكم وهو من رحمته التى وسعت كل شىء.

﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾، أى مكانا ترتفقون، وتجدون فيه كل مرافقكم وحاجاتكم، ويكون مطمئنا لكم، ذلك ما جاشت به نفوسهم، وقد كان لهم ما تصوروا وتمنوا، فقد استراحوا من ملاحاة أقوامهم وطغيان حكامهم، وكفل لهم نوما هادئا اطمأنوا واستغنوا عن حاجات الدنيا وأهلها، وكان خير الله يمد به أوليائه ولا يضيعهم أبدا.

عناية الله بهم فى رقودهم

قال الله تعالى :

وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورًا عَنْ كُهُفِهِمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۝١٧ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا
وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُّهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
بَسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۝١٨ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۝٢٠

إن الله الذي ألهمهم أن يأووا إلى الكهف فرارا بدينهم، وخضوعا لأمره ألهمهم أيضا أن ينزلوا في كهف يحفظ أبدانهم من أن تمزق جلودهم الشمس أو تغير ألوانهم، ألهمهم أن ينزلوا وفتحته إلى الشمال فيجئ إليهم هواء الشمال العليل، وينعش أجسامهم ويرطب أنفاسهم، ولا تمسهم الشمس ولكن تدفئ الكهف من ورائه بمرورها من الشرق إلى الجنوب، حتى تعود إلى الغرب، وقد اجتازت ما وراء الكهف، وإن الشمس تصيبهم بأشعتها الحمراء في الصباح في طرف من الكهف، وتصيبهم بأشعتها الصفراء في طرف من الكهف أيضا في الغروب، وخير الأشعة المنعشة للأجسام الحية تكون في حمرتها في الصباح، واصفرارها في الغروب، وهكذا هو قوله تعالى:

﴿وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ الْفُجُورَ وَمَنْ يُّضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾.

أى أنها إذا طلعت تميل عن الكهف متجهة ناحية اليمين فلا تمسهم الشمس بل تميل عن الكهف، لا ينالهم إلا شعاع قليل منها، لا تلفحهم بسخونة، بل يكون هادئا منيرا، وتسير الشمس من وراء الكهف من جنوبه، حتى تصل نازلة إلى الغروب، مائلة إليه، فقرضهم على شمائلهم، كما تراورت لهم عن أيمنهم في الصباح، ومعنى ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾، أنها تتجاوز بهم قاطعة حتى تصل إلى شمالهم في الغروب، وتقرضهم من القرض بمعنى القطع، أى أنها تقطع جنوب الكهف حتى تصل إلى شماله، والفارسي يقول: إنه من قرض الدراهم والدنانير، والمعنى أنها تعطيهم من تسخينها شيئا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد، ونرى في هذا تكلفا، وخير القول أن تقول: إن معنى تقرضهم تعادل بهم وتتجاوزهم شيئا فشيئا فشيئا حتى يتم الغروب؛ ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ﴾ أى مكان متسع ﴿مِّنْهُ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، أى إن ذلك كله من آيات الله، فإلهامهم الالتجاء إلى الكهف، وإلى كهف مفتوح من الشمال، وكون الشمس تميل إليه ولا تدخله ليحفظ الله أجسامهم من البلى والعفونة، وكونهم أحياء ليكونوا حجة على أن

الحياة بيد الله تعالى، وهو مانحها، يهبها لمن يشاء، كل هذا من آيات الله، وهى تبصر الناس بالحق وتهدى إليه، وإن الآيات البينات كثيرة هادية، ولكن الناس عنها منصرفون ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾، أى من يسلك سبيل الحق يأخذ الله بيده، ويهديه سواء الصراط، وهو المهتدى حقاً وصدقاً ولا أحد يضلّه، ﴿وَمَنْ يُضِلَّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ومن يسلك طريق الضلالة فإن الله تعالى يكتبه من الضالين، ولن تجد له من يتولى أمره ويرشده إلى الصراط السوى.

وإنهم فى الكهف يبدون أيقاظاً وهم نائمون، ولذا قال تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾

من يراهم بادى النظر يحسبهم أيقاظاً، أى يظنهم أيقاظاً، والحقيقة أنهم رقود، والأيقاظ جمع يقظ، والرقود جمع راقد، أو هو مصدر وصف به والمصدر الذى يوصف به يلتزم المصدرية، فلا يثنى ولا يجمع، وإن هؤلاء الفتية عندما أصابهم الرقود كانت عيونهم مفتوحة فيظنهم الناظر أنهم أيقاظ ليسوا نائمين، ولأنهم بإرادة الله يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال، ويقول تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾، أى يتقلبون بإرادة الله تعالى إلى اليمين وإلى الشمال، وتلك حال من يكونون بين اليقظة والنوم، ويقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال لكيلا تتعفن أجسامهم إذا بقوا على حال واحدة، ولأن أحسن الأحوال للنائم ألا ينام مضطجعا ولا يلتزم جانبا واحدا يمينا أو شمالا، بل يتقلب بينهما، لكيلا تكون الأعضاء الداخلية من كبد وقلب ومعدة على ثقل واحد، بل تتغير أثقالتها.

وهم فى هذا القلب الذى يكون كالنائم المعتاد، وما يقوله بعض المفسرين من أنهم كانوا يتقلبون كل سنة أو سنتين أو سنين رجم بالغيب، ولا أساس له من رواية صحيحة ولا نقل عن معصوم.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وكلبهم بفناء الكهف أو على عتبة باسط ذراعيه، يحس الرائي أنه يحرس قوما أيقاظاً، وهكذا كل مظاهر الحياة كانت بادية

أمام الناظرين، والوصيد هو فناء الكهف، أو عتبته، أو على مقربة منه، وهذا الكلب يقال إنه كليب صيد لهم فكان مثلهم، ولقد كان ما يقرب من الكرام يكرم مثلهم، فكرم كما كرموا.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ هذه مظاهرهم، ولو اطلعت أيها المخاطب المعرف بأمرهم، وفحصت حالهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، أى لاثار الاستغراب فى نفسك ما يبعدك عن أحياء ليس فيهم مظاهر الحياة بل فيهم رهبة وهيبة، وما يثير العجب لأنه غير مألوف أن ترى أشخاصا يمشون مئين من السنين على حال لا هى حياة فيها كل مظاهر الحياة من حركة وكلام، ولكنك لا ترى إلا سكونا، ومظاهر الحياة موجودة من عيون يقظة هذه تجعل الناظرين يجعلهم يحسبون أنهم ليسوا أمواتا ولا أحياء وما لا يألفه الإنسان يفر منه فرارا، والخلاصة أنهم لو علموا حالهم، واطلعوا على أمورهم لولوا هاربين فارين منهم يحسبون أنهم ليسوا أناسي.

﴿وَلَمَلِكْتِ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ والخطاب للقارئ أو السامع بأخبارهم المعرف لأحوالهم، هذه حالهم التى لبثوا عليها حتى بعثهم الله تعالى، ولنقرأ خبر بعثهم، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرَقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)﴾

إن الله تعالى ضرب على آذانهم فلم يسمعوا، وربط على قلوبهم عندما خاطبوا جبار عصرهم، وحماهم من البلى سنين تجاوزت ثلاثمائة أو يزيد، كما جعلهم كذلك أحياء وإن كانوا من غير حركة إلا أن يتقلبوا يمينا وشمالا حفظا لأجسامهم، كما من عليهم بكل ذلك وبعثهم من رقودهم، أو كما ظهرت آياته فى كل هذا بعثهم من رقودهم فهى آيات تتراءى آية بعد آية، والبعث ليس هو البعث من موت، إنما هو اليقظة من منام، وإن طال أمداء، ويقول سبحانه:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ يجوز أن تكون اللام للتعليل، أى أننا بعثناهم لكي يتساءلوا بينهم، وليتناقشوا فى مدة لبثهم، فما كانوا ليتساءلوا لو استمروا فى رقودهم، وقد ضربنا على آذانهم، ولكن الأولى ما قاله الأكثرون من المفسرين أن اللام لام العاقبة كاللام فى قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾ [القصص]، فالمعنى بعثناهم لتكون العاقبة أن يتساءلوا فيما بينهم عن المدة التى لبثوها، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، كم من الزمن لبثتم، لقد قالت الأخبار التى لا وجه للظن فيها أنهم ناموا غدوة يوم، وصحوا فى عشية يوم آخر عندما كانت إرادة الله تعالى أن يستيقظوا، ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، إذا لم يحسب الليل يكون نهارا، وقد يعد يوما، وإن حسب الليل يكون بعض يوم، ونسب هذا القول إلى كلهم، فقال: ﴿قَالُوا﴾، ويظهر أنه قاله بعضهم، ورضيه كلهم ظنا منهم، ولكن الريب كان يحيط بهم فاختراروا التفويض لعلم الله تعالى بدل الجزم بقول، ويظهر أن حسهم قد جعلهم يرون تغييرا فيما يحيط بهم، أو أن حرص المؤمن بقدرته الله تعالى جعلهم يعتقدون أن التفويض أولى؛ ولذا قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فوضوا أمر علم الزمن إلى الله تعالى، والله قادر على كل شئ ولكنهم أحسوا بالجوع، بعد هذا اللبث الذى يحتمل أن يكون طويلا، والله به عليم.

ونسب القول إليهم جميعا، ويظهر أن بعضهم قاله ووافق عليه الجميع؛ لأنهم كانوا غير جازمين بزمان معين، والتسليم فى هذه الحال أحوط وأسلم، وأشد إيمانا وتشبيها، وقد أرادوا أن يتركوا الخوض فيما لا علم لهم به، وأن يشغلوا بأنفسهم، فقال تعالى عنهم قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ اجتمعوا على أن يسدوا غلة الجوع، والورق هى الفضة، والمراد النقود المسكوكة منها، و(الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إن كنتم لا تعلمون كم لبثتم، فاشغلوا أنفسكم بأنفسكم، واطلبوا غذاء لكم.

هذه صلة بعث أحدهم بالورق بالمدة التى لبثوها وتناقشوا حولها، وقال بعض المفسرين: إن بعث أحدهم بالورق له صلة بالأمر الذى كانوا يناقشون فيه، إذ كان سبيلا لفحص مدة الزمان وموقته عن طريق النقود المضروب عليها صورة الملك الذى ضربت فى عهده، بدليل الفاء التى تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها، وعلى هذا رأى لا تكون الفاء للإفصاح، إنما تكون لمعنى السببية.

بعثوا أحدهم ليبحث لهم عن غذاء يشتريه بهذا الورق الذى أعطوه ولينظر فى غذاء طيب أزكى وأنى لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾، أى ليتخير ما هو أزكى نماء وأطيب طعاما، والفاء عاطفة، وكذلك الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقٌ مِنْهُ﴾ والرزق القدر الذى يتبلغون به أو يكفيهم، وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا﴾ الإشارة إلى المدينة، والمعنى أى شىء فى المدينة ﴿أَزْكَى طَعَامًا﴾، وأكثر مواد زكية نامية.

وإنه يتعرف أطيب الأطعمة، ويأتى بمقدار منها، يكون فيه سد الرمق، ويكون طيبا، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، أى ليجتهد فى أن يتلطف فى القول، ولا يغلظ فى المساومة حتى لا تعرفوا، أو تفضحوا؛ ولذا قالوا: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، أى لا يأتى عملا من شأنه أن يجعلهم يشعرون بكم وقد فررتم خيفة من طغيانهم.

وقد عللوا عدم شعور أحد بهم بقولهم:

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠)﴾.

هذه الجملة السامية مفصولة فى البيان عن السابقة؛ لأنها فى مقام التعليل، والتعليل بين جملتين من أسباب الفصل البياني بينهما، وإلا فهما منفصلتان فى المعنى؛ إذ العلة متصلة بالعلول، ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، أى يطلعوا عليكم مستظهرين عليكم مستعلين بما معهم من قوة الحاكم الغاشم وجند وغيرهم،

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، أى يقتلوكم بالحجارة، وهى أشد أنواع القتل، وأقساها، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ فى وثنيهم، و﴿أَوْ﴾ هنا فى معنى (إلا)، أى يرجمكم، ولن ينجيكم من الرجم إلا أن تعودوا طوعا أو كرها إلى الوثنية التى فررت منها فرار السليم من الجرب، وفى هذه الحال تكون الخسارة الدائمة إلى يوم القيامة، وقد قالوا فى ذلك: ﴿وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾، و﴿لَنْ﴾ للنفى المؤكد، ويقول الزمخشري للنفى المؤبد: ومهما يكن معنى ﴿لَنْ﴾ فإن النفى مؤبد بقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ وفى التعبير بـ ﴿إِذَا﴾ أى أن عدم الفوز سبب عن عودتكم فى ملتهم، فهو حرمان اقترن به سببه، بعنهم الله تعالى بأن أيقظهم منه كما يبعث الموتى وإن لم يموتوا، وقد تعرفوا العصر الذى بعثوا فيه.

أعثر الله عليهم وعددهم

قال الله تعالى:

وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرَّ بَكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾

بعثهم الله تعالى من منامهم، وما كان يعلم أحد برقودهم، ولا يبعثهم حتى عثروا عليهم فاعلموا ما كان منهم وما آل إليه أمرهم، فلما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة يلتمس لهم طعاما هو أذكى وأطيب وأئمن لهم، وعرضوا ورقهم ويظهر أنه كان نقدا مضروبا على اسم ملك يومئى إلى العهد الذى أووا فيه إلى الكهف، وضرب الله على آذانهم بعد أن ربط على قلوبهم أمام جبروت الطاغوت الذى كان يضطهد أتباع عيسى فى عهدهم، فلما اطلع الناس على هذا الورق فيقال إنه أخذ إلى الملك، ويقولون إن الملك كان نصرانيا مسيحيا يؤمن بالوحدانية، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، وكانت أخبار فتية الكهف كما يبدو تتوارث فى الأوساط النصرانية المسيحية الموحدة؛ لأن أخبار اضطهاد الملوك والمضطهدين تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل، وإن أخبار أهل الكهف معروفة فى الأوساط النصرانية على أنها أخبار لشهداء وصديقين، وقد رأينا ذلك فى كتاب الكنز الثمين، ويقال إن الملك ذهب مع أحدهم الذى كان يشتري لهم الطعام، فأخذه إلى الكهف وذهب إلى الذين كانوا معه ولكنه لم يدخله بينهم.

بهذه الطريقة أعثر الله تعالى عليهم، أى أطلعهم عفا من غير قصد للاطلاع، ذلك أن أحدهم هو الذى عرفهم مصادفة بما معه من نقود تدل على تاريخها، والتاريخ النصرانى العام عرفهم بأمرهم. قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا (٢١)﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، أى أن الإعتار عليهم بعد أن غيبوا وبعثوا ليعلموا بهذه الأدوار أمرين:

الأمر الأول - أن وعد الله تعالى بالبعث والنشور، وأن الناس ينامون كما يموتون وأنهم يعيشون كما يستيقظون، وأنهم للجنة أبدا، أو للنار أبدا - هو وعد حق.

الأمر الثاني - أن الناس لم يخلقوا سدى، وأن الساعة وهى القيامة آتية لا ريب فيها، فلا يرتاب فيها مرتاب يدرك الحياة وغايتها ونهايتها.

ويظهر أنهم لم يعيشوا طويلا، بعد أن أعثر عليهم، بل ماتوا ولم يضرب على آذانهم فقط، وأنهم من بعدهم تنازعوا فى أمرهم، ماذا يصنعون لهم تكريما لشأنهم، وثباتهم فى الحق والبلاء.

ولذا قال: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف زمان للماضى متعلق فى الظاهر بقوله تعالى: ﴿أَعْتَرْنَا﴾، أى أن النزاع فى أمرهم بينون عليهم بنيانا أو مسجدا، إنما كان فى وقت العثور، وهذا يدل على أنهم لم يعيشوا إلا بقدر بعثهم والعثور عليهم ليكونوا حجة قائمة شاهدة حسية بعلمه، وماتوا فور هذا؛ ولذا كان زمن العثور هو زمن النزاع فى أمرهم مما يدل على اتحادهما أو على قربهما قريبا يشبه الوحدة الزمنية.

والتنازع هنا هو الاختلاف الذى يتضمن تعصب كل صاحب رأى لرأيه، حتى وصل إلى درجة النزاع، وقد اتفق الطرفان المتنازعان على ضرورة تكريمهم بإظهار علامة تشير إلى مكانهم ليكون ذلك حافظا على الثبات فى اليقين والفداء للدين، فالتكريم كان لمعنى الصبر فى البلاء مع قتلهم، فإنه كلما قل النصير كان الجهاد والصبر والبلاء المبين.

تنازعوا أمرهم على جانبين، فريق رأى أن يكون بنيانا يقام على قبورهم، ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا﴾ كقباب أو نحو ذلك من الأبنية المعلمة، وإذا كانوا قد تنازعوا فى تكريمهم فهم ليسوا بأعلم بأمرهم من الله الذى حفظ أجسامهم فيها الحياة مع السكون على مر العصور، ويظهر أن الذين اتجهوا إلى بقاء ذكرهم بالبناء كانوا ممن يتأثرون بالرومان فى تخليد موتاهم بالبنيان والأحجار؛ ولذلك اعترض القرآن الكريم على كلامهم بجملة معترضة، فقال عز من قائل: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أى أن ربهم الذى خلقهم ورباهم على التقوى والإيمان وأفرغ فى قلوبهم الصبر أعلم بأمرهم من هؤلاء الذين يريدون أن يبنوا عليهم بنيانا فهو وحده العليم بما هو خليق، وليسوا يكرمون بالبنيان إنما يكرمون بالجزاء الأوفى فى الآخرة.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، الضمير في ﴿أَمْرِهِمْ﴾

يعود إلى المتنازعين، أى أن المتنازعين غلبوا على أمرهم، أن يبنوا مسجداً، وأكدوا بناء المسجد فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، أى فوق الأرض التى دفنوا فيها وأكدوا اتخاذ المسجد بلام القسم، وبالقسم، وبتون التوكيد الثقيلة، أى أنه رأى انتهوا إليه وجزموا به، وحسم النزاع عنده، واتخاذ المسجد منهى عنه إذا اتخذوا قبر النبی أو الرجل الصالح وثنا يعبد، أما إذا كان مجرد مكان للسجود، وإقامة الصلاة فذلك لا يوجد فيه نهى قاطع.

وما عددهم؟.. قال الله تعالى في عددهم:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢).

من هم الذين سيقولون عن عددهم أنه ثلاثة أو خمسة أو سبعة، قالوا إنهم النصارى الذين يعرفون أخبارا من أخبار أهل الكهف، ونستبعد ما قالوه من أن اليهود قالوا أو لم يقولوا لأنهم كانوا بعد التوراة وهم لا يعترفون بأهل الإنجيل، والنصارى الذين كانوا معروفين عند العرب اليعقوبيين، والנساطرة، فقالوا: إن اليعقوبيين قالوا: ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالوا: إن النسطوريين قالوا: خمسة سادسهم كلبهم، وتطرح نسبة القول إلى هؤلاء أو هؤلاء، ولكن نقول إن القول قيل من هؤلاء أو هؤلاء أو غيرهم، وقد وصف القولين ثلاثة وخمسة بأنه رجم بالغيب، أى ظن فى أمر مغيب عنهم لا يعرفون له مصدرا ولا علما، وقد شبهت حال من يقول بغير علم بحال من يرمى سهما أو حجرا فى ضلال من غير هدفه مقصود ولا غاية منشودة، ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾، ويلاحظ عند ذكر السبعة ثلاثة أمور:

الأمر الأول - أنه لم يذكر السنين، فلم يقل وسيقولون سبعة، وحذفت السنين اكتفاء بذكرها فى الأمرين السابقين، أو لعدم التخمين والحدس فيها، ولأن

القول فيها لم يكن كالقول فى الأمرين السابقين، بل كان أقرب إلى الصدق، وإن لم يكن قطعاً.

الأمر الثانى - أنه لم يذكر فيه أنه رجم بالغيب، بل هو نوع آخر، ربما كان أقرب إلى الصدق، أو على الأقل ليس فيه قطع بالكذب، ولا بالظن، وما دام لم يحكم بأنه رجم بالغيب، فاحتمال أن يكون له أساس قائم.

الأمر الثالث - أنه لم يذكر الواو فى الأمرين الأولين فكان النص ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَأَيْبَهُمْ كَلِبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلِبُهُمْ﴾، فكان ذكر الكلب على أنه فى العدد وصف، فهو ليس منفصلاً عنهم فى العدد، أما فى السبعة، فقد ذكر مغايراً لهم؛ لأن العطف يقتضى المغايرة، وعبارات القرآن فيها الدقة والإحكام وأن تكون حروفه وكلماته كل فى موضعه قد كان لغاية مؤداة ولم يكن عبثاً.

وقد استنبط من هذا بعض المفسرين أن العدد الصادق هو سبعة، ونسب ذلك الرأى لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما الذى كان يقال عنه إنه ترجمان القرآن فقد روى عنه، وهو العربى القرشى الهاشمى أنه قال: حين وقعت الواو انتهت المدة، ولأنه فى العديدين السابقين كان الاقتران بقوله تعالى: ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾ فاستأنس بذلك المفسرون وإن قول ابن عباس لا يجوز أن يهمل فى هذا؛ لأنه ليس كغيره من الأقوال إذ هو قول صحابى، وقول الصحابى إذا كان فى أمر لا يُعلم بالاجتهاد المجرد فيحتمل على أنه سمعه من النبى ﷺ ويكون كالمرفوع تماماً، وإن الأمر فى هذا ليس للاجتهاد فيه موضع فيحتمل على أنه مرفوع.

وإنه قد جاء فى كتاب «طبقات شهداء المسيحيين» أن عدتهم سبعة، ونذكر ذلك لا لتقوية ما نقل عن ابن عباس، أو تركيته ولكن لأنه عندهم؛ لأن علم النصارى الذين ثلثوا ليس علماً متواتراً، وليس له سند صحيح يعد ثقة من كل الوجه، فضلاً عن أن يكون متواتراً كما ادعى بعض المفسرين فى السنين الأخيرة، وأقرب الظن أنهم نقلوه من كتاب المسلمين، فبضاعتنا ردت إلينا، ويقول سبحانه آمراً نبيه: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾، أى قل يا رسولى لا تخوضوا فى هذا خوض

المستيقن المذعن، فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم عدتهم بعد مرور هذه القرون على بعثهم من الكهف، وموتهم الموتة الأخيرة التى يكون بعدها البعث والقيامة، والجزاء، ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أى ما كانت حالهم يعلمها عدد كبير تتناقله الأجيال تناقل جمع عن جمع حتى يبلغ حد التواتر المقطوع به، بل كانوا وجهادهم الأول عددا قليلا، وفى انبعاثهم لم يعلمهم إلا عدد قليل؛ الملك ومن يحيط به من حاشية، إن كان الملك قد علم، أو من تولوا إقامة المسجد حول قبورهم.

وإذا كان الذين تحملوا العلم بأمورهم عددا قليلا ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، «الفاء» للإفصاح كما رأيت؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، المراء المجادلة برد ما يقول الخصم، والمراء منهى عنه لأنه يجر إلى قول الباطل ومجاراة الخصم، وكل مراء يجعل كل متكلم متعصبا لما يقول؛ لأنه يستمسك برؤيته هو من غير التفات إلى رؤية غيره، وقد تكون هى الحق، فهو عماية عن النظر الكامل بمعرفة الأمر من كل وجوهه ولكن استثنى المراء الظاهر، وأميل إلى أنه استثناء منقطع، ولكن سمي مراء من قبيل المشاكلة اللفظية، ومعنى المراء الظاهر ألا يحاول تعرف مقدمات قوله، أو الأدلة عليه؛ لأن أسباب العلم غير متوافرة، فليكتف بما ذكر القرآن وهو الصادق الذى لا ريب ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، الضمير فى ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود على ما يعود إليه الضمير فى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ...﴾ والظاهر أنهم أهل الكتاب من نصارى نجران، وغيرهم من أهل الإنجيل.

والاستفتاء معرفة الفتوى، أو الحكم، أو القول الصادق، أى لا تحاول معرفة أحوال أهل الكهف من هؤلاء النصارى الذين يعاصرونك؛ لأنه بعد أن حرفوا ما حرفوا، صارت أخبارهم غير موثوق بها.

وإن أحوال أهل الكهف، وأخبارهم من شأنها أن تربي الإيمان فى قلوب المؤمنين؛ ولذا ناسب هذا أن يأمر الله تعالى بالتفويض، وأن يعلم المؤمن أن الأمور لا تسير إلا بإرادة الله تعالى ومشيته، وأن يذكر الله دائما فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)﴾ .

هذا تأديب من الله تعالى، ولكيلا يفتات إنسان على الله تعالى فيتوهم أنه قادر مسيطر على ما يفعل، وأنه يفعل ما يريد شأه أو لم يشأه سبحانه، وهو المالك لكل شيء الذي يشاء ويختار وحده، ولا خيرة لغيره في أمر خيرة مطلقة، إنما هي مقيدة دائما في حدود ما يشاء الله سبحانه قال: ﴿وَلَا تَقُولُنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ النهي موجه للنبي ﷺ، وموجه من بعده للمؤمنين بالأولى؛ لأن النهي له نهى لغيره، ولأن النهي له حيث لا يترقب منه الافتيات على الله يكون نهيا لغيره بالأولى، إذ النهي عن أمر مترقب الوقوع يكون أقوى من النهي غير المتوقع، وقد أكد سبحانه النهي بنون التوكيد الثقيلة، والنهي عن القول أى الاعتزام على العمل من غير تفويض، والإصرار من غير تعليق على مشيئة الله .

وذكر الغد للإشارة إلى الإصرار؛ لأن تعيين الزمان دليل على العزم والإصرار، فإن الغيب فى علم الله وقدرته، وقد يكون فيه ما لا يمكن معه العمل، وليست إرادة الله فى إرادته إنما إرادته هو فى إرادة الله تعالى، فما لا يريده الله لا يقع أبدا، ولذا كان لا بد من تعليق التنفيذ على مشيئة الله تعالى والتوكل عليه؛ ولذلك كان الاستثناء ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، (أن) وما بعدها مصدر منسبك، وهو فى موضع الجر بالباء، وتحذف كثيرا قبل المصدر المنسبك منها وما بعدها، ويكون التخريج على ذلك، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا بمشيئة الله بأن تقول معلقا عزمك على قولك إن شاء الله .

وهنا أمران بيانان:

الأمر الأول - أن اللام فى قوله تعالى: ﴿لَشَيْءٍ﴾ معناها لعمل شيء وبعض المفسرين قال إن (اللام) بمعنى فى .

الأمر الثاني - أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ﴾ ذكر الفعل المستقبل دون الماضي للإشارة إلى أنه متعلق بالمستقبل، والمستقبل بيد الله وحده وهو علام الغيوب فلا يعلم ما سيكون إنما يعلمه علام الغيوب.

وإن المؤمن يجب أن يكون ذاكرة لله دائما، لتستقيم حياته، ويستقيم أمره مع الناس ويكون مصدر نفع وخير لهم دائما؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أى اجعل ذكر الله تعالى ملء قلبك دائما، فلا تغفل عن ذكره، فإن بذكره تطمئن القلوب به، وتطرب من أدوائها، ومن كان الله تعالى فى نفسه لا يغيب عنه لا يضل ولا يشقى، وإذا غاب عنك أمر أو لم تتمكن من شيء فعسى أن يكون المغيب خيرا مما فات، وعسى أن المدخر له أغنى وأقنى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، (الواو) عاطفة ﴿قُلْ﴾ على ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ فهو عطف الأمر على النهي، أى أنه نهاء سبحانه عن أن يعزم الأمر غدا، بل يعلقه على مشيئة الله تعالى مفوضا إليه سبحانه راجيا الخير، متوقعا له، ويقوله فى إرادته ورغبته.

واستثناؤه بالمشيئة رجاء أن يجعل الله خيرا منه إذا فاته، فالأمور كلها بإرادته سبحانه ومشيئته العليا، ولن يكون شيء فى الوجود إلا بمشيئته، فمعنى ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي...﴾ املا نفسك رجاء بأن يحقق لك أمرا خيرا مما كنت اعتزمت من ناحيتين:

الناحية الأولى - أنه يكون أقرب منالا، وأسهل تحصيلا.

الناحية الثانية - أنه يكون خيرا رشدا وعاقبة، والله تعالى عليم.

مدة لبثهم فى الكهف

قال الله تعالى :

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا
 ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
 فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ
 رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
 وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
 يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
 أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

الكلام فى قصة أهل الكهف موصول بنور الرحمة، وفى الآية الأولى يتكلم سبحانه وتعالى عن مدة لبثهم فى الكهف قد ضرب الله تعالى على آذانهم سنين عدة، ذكرها أولا مجملة، وفى هذه الآية ذكرها سبحانه مبينة بالعدد من السنين، فقال سبحانه :

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥).

وقد قالوا إن هذه السنين كانت بالسنين التى هى أصل العدد فى الإسلام وقد قدروها بثلاثمائة سنة شمسية - بين بسيطة وكييسة - ولنا أن نقول : إنه سبحانه ذكر الثلاثمائة، ثم زاد التسعة للفرقة بين الشمسية والقمرية، وإنك لو أحصيت على أساس أنه كل ثلاث وثلاثين سنة وثلاث تقريبا يزداد العدد سنة قمرية، فإن

الفرق يكون تسع سنين، انظر إلى إشارات القرآن البيانية التى تدل على الإعجاز خصوصا فى أمة أمية لا تعرف الكتابة والحساب، وإن أمر الله يؤكد هذا العدد، وأنه لا يزيد ولا ينقص فقال تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦).

الخطاب للنبي ﷺ ليعلم به المؤمنين، ويستوثقوا من أنه الحق الذى لا ريب فيه، وأفعل التفضيل فى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ليس على بابه؛ لأنه لا يوازن بين علم الله تعالى وعلم أحد، فهو العلم الكامل، والمراد من أفعل التفضيل أن الله تعالى يعلم ذلك علما ليس فوقه علم؛ لأنه علم الله تعالى، وهو بكل شيء عليم، وإن علم الغيبات لا يعلمه إلا خالق لكل شيء؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له وحده الغيب فى السموات، فكل مغيب يعلمه الله تعالى؛ لأنه الخالق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) [المالك]، ثم أكد سبحانه وتعالى علمه الدقيق الذى هو أعلى درجات العلم كعلم البصر، وكأعلى درجات العلم بالسمع، فقال تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ هاتان الصيغتان من صيغ التعجب، فما مؤداهما بالنسبة لله تعالى؟ الجواب عن ذلك أن معناه أن علم الله تعالى بلغ أقصى درجات العلم الدقيق بالبصر، حتى إنه يرى ما لا يراه الخلق، وأعلى درجات العلم بالسمع حتى إنه يسمع دبيب النمل الذى لا يُسمع، وإن نتيجة ذلك علمه سبحانه بالغيب كأنه مرئى مسموع فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض والسماء ﴿مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾، الضمير فى ﴿لَهُمْ﴾ يعود إلى أهل الكهف؛ لأنهم المتحدث عنهم، و﴿مِّنْ﴾ لاستغراق النفى، والمعنى ما لهم بدله من ولى تولى أمورهم وعلم أحوالهم وحاطهم فى غيهم أى ولى كان، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، أى لا يشرك سبحانه أحدا فى سلطانه وملكه وحكمه.

وقبل أن تنتهى من الكلام عن أهل الكهف نذكر كلمة فى مدة لبثهم فى الكهف، فنقول: إن القرآن عين المدة بالسنة الشمسية، وأشار إلى الزيادة التى تزيدها السنة القمرية، وهى تسع سنين، وقد ذكرنا أنه بحساب السنين يتبين أن

الفرق بينهما تسع سنين على أساس أن كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث يزداد سنة واحدة، وبهذا يكون العدد ما ذكره القرآن الكريم بعبارة وإشارته.

متى ابتدأت هذه المدة؟ المتفق عليه أنها ابتدأت بعد المسيح عليه السلام، وإنها ابتدأت عندما أخذ الوثنيون يضطهدون أتباع المسيح عليه السلام، وأن الله تعالى كشف الغمة التي كان ضربها على آذانهم في عصر زال فيه الاضطهاد، أو كان الحاكم أو الجمع الذي حضر يقظتهم من رقودهم كان الاضطهاد لم يكن فيه قائما بدليل العمل على تكريمهم وبناء مسجد على مدافنهم، مع التأكيد من المدة تسع وثلاثمائة، أو ثلاثمائة فقط إذا كانت شمسية، وإنه لهذا يجب أن تمضى هذه المدة بين عصر الاضطهاد، وعصر الأمان مع بقاء المسيحية على ما كانت عليه.

ولقد يقول بعض المفسرين إن اختفاءهم كان في عهد دقلديانوس، وقالت كتابات النصراني في أخبار شهداء النصرانية وفي كتاب الكنز الثمين: إن اختفاءهم في الكهف كان سنة ٢٥٢ ميلادية، وظهورهم كان سنة ٤٤٧، ولا شك أن القرآن يكذب هذا، وهو أصدق قيلا؛ لأنه في سنة ٤٤٧ كانت النصرانية قد سادها الثلاثي، وإن لم يكن استغرق كل أهلها، بل لا تزال منهم أمة مقتصدة.

وقول المفسرين إن التزامهم الكهف كان في عهد دقلديانوس فيه كلام؛ لأن دقلديانوس كان في القرن الثالث في آخره، والواقعة التي أنزلها بنصاري مصر كانت سنة ٢٨٤، فإذا كان الاختفاء في آخر القرن الثالث فيجب أن يكون الظهور في آخر القرن السادس وكانت قد عمت ديانة الثلاثي، اللهم إلا أن يكون صادف ظهورهم ملك لا يزال على دين المسيح، ولا يؤمن إلا بأنه عبد الله ورسوله، ولهذا نحن نميل إلى أن أهل الكهف كانوا على مقربة من عصر المسيح، وأنهم ظهروا قبل أن يسود النصرانية الثلاثي، ومهما يكن الأمر فإننا لا نؤمن في أخبارهم إلا بالقرآن وحده؛ ولذلك لا نتلو إلا القرآن، كما قال تعالى:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾.

قال بعض المفسرين إن هذه الآية آخر ما يتعلق بقصة أهل الكهف، وإنا وإن كنا لا نقول إنها جزء منها، وليست متممة لها، ولكن لها صلة بها من حيث إن

المصدر الصادق الثابت لها هو القرآن فليس ثمة مصدر حق سواه؛ ولذا جاء بعده ما يدل على كمال صدقه وكمال العناية به، وهذه الآية تدعو رسول الله ﷺ ومن تبعه إلى مدارسته، وتلاوته والعكوف عليه وتعرف أحكامه، والأخذ بها أمراً ونهياً، وطاعته في ظاهر نفوسهم وباطنها.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ من هنا بيانية، ﴿وَاتْلُ﴾ معناه اقرأه مرتلاً مثلوا متفهما لمعانيه متيقظاً له ذكر ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ قبل ﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾ للإشارة إلى أن السبب في هذه العناية والدراسة والتلاوة أنه أوحى إليك فهي رسالتك التي حملتها، ووجب عليك تبليغها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ (٦٧) [المائدة].

وذكر سبحانه وتعالى أن الموحى به المتلو هو ﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾، و﴿مِنْ﴾ كما قلنا بيانية، وأنه ثابت قائم كل ما فيه من أحكام حق وكل ما فيه من أخبار صدق ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أى لا مغير لكلمات الله، ولا بدل لها يماثلها صدقاً وحققاً، فلا يوجد مبدل ولا بديل، وهى المعتصم للمؤمن، والحجة الخالدة إلى يوم القيامة، وهو معتصمك يا محمد، وحجتك، وملجؤك الذى تعتمد عليه والله مؤيدك عليه، ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾، أى لن تجد من غيره ملجأً أو موئلاً، فهو سنادك الذى جعله الله تعالى لك عماداً وملجأً وحجة تحتج بها، وهى فى ذاته عماد؛ لأنه الذى اشتمل على كل الدين.

وإن ذلك يوجب أن تعتمد عليه وحده، وعلى من آمن، ولا تستبدل بهم غيرهم، ولا تطع من يحاولون أن يفصلوك عن أهل القرآن أهل الإيمان؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطاً﴾ (٢٨).

كان المشركون يتبرمون بضعاف المؤمنين، ويقولون كما قال أسلافهم لنوح ﷺ: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ ...﴾ (٢٧) ﴿[هود]، وكانوا في عنجهية الشرك وطفوائهم، قالوا عن أتباع محمد ﷺ من الموالي والضعفاء متقزرين: إن هؤلاء تفيح منهم رائحة الضأن، فبين الله تعالى فضل هؤلاء وأنهم أتباع النبيين الذين بهم يقوم عمود الدين، ويكونون العصاة الأولى التي تكون قوته، وأنه يجب على النبي ﷺ أن يحبس نفسه عليهم، ويصبر نفسه عليهم محتسبا ذلك عند الله؛ ولأنهم القوة والدعامة، فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، أى احبس نفسك، واجعلها تصبر على معاشرتهم، وملازمتهم فإنهم قوة الحق وقوة الإيمان، وسيكون منهم الدعامة، والنصرة، وسيركبون بالحق على رقاب هؤلاء، كما سيكون فى بدر ويركب عبد الله بن مسعود على رقبة أبى جهل يحترها.

وعبر بالموصول؛ لأن الصلة وهى قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾؛ لأن هذا السبب فى التزامهم وحبس نفسه عليهم؛ لأنهم بهذا هم الذين أجابوا الدعوة وهم يعبدون الله بالغداة والعشى، وهم لا يريدون جأها ولا مالا ولا سلطانا، ولكن يريدون وجه الله لا يريدون سواه، فهم قد انصرفوا إليه سبحانه، وهم بذلك قد صاروا ريانين خالصين لله تعالى، ثم قال سبحانه بعد أن أمره بأن يكون قريبا منهم: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أى لا تقتحمهم عنك، وتجاوزهم معرضا عنهم تريد الذين يتزينون بزينة الحياة الدنيا، أى تعدوهم عينك بأسمالهم وفقرهم تريد من عندهم زينة الحياة الدنيا، وهذا النهى يتضمن أمرين:

الأمر الأول - الحض على تكريم هؤلاء الضعفاء ومعاونتهم وإعزازهم والاعتزاز بهم.

الأمر الثانى - أن يجعل عينيه تظهر فيها مظاهر الإكبار لا مظاهر الازدراء، ﴿وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

إذا كان قد أمره بأن يتطامن لأولئك الذين يعبدون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأن يقبل عليهم إقبال المقرب المدنى فقد نهاه عن الذين يغفلون عن ذكر الله، نهاه عن طاعتهم بطرد الأطهار الأبرياء الذين لا يعبدون الأوثان وقوله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا﴾، أى أنه لغروره وفساد نفسه شغل قلبه بالدنيا وما فيه وأغفله الله تعالى عن ذكره، وإذا فرغ القلب من ذكر الله تعالى سكنه الشيطان؛ ولذا قال تعالى بعد إغفال ذكر الله، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، أى غلبه هواه وصار عبدا لشهواته، ومن كان كذلك انحلت نفسه؛ ولذا وصفه سبحانه وصفا يفيد الانحلال النفسى فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾، أى أنه كان أمره منحلا مضطربا لا ضابط يضبطه، ولا خلق يكبح جماحه، فهو مهمل مضيع مسرف فى كل أحواله.

الحق بين، وكل له جزاؤه

قال الله تعالى:

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَيِّنَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

أمر الله تعالى نبيه أن يعلن أنه قد تبين الرشد من الغي، وبأن الحق بأدلته، فلا بد أن يعرف كل إنسان ما يختار لنفسه فقال:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾.

أى ﴿وقل﴾ يارسول الله مبلغا صادعا بالحق ﴿وقلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، قد ثبت وقام الدليل عليه من ربكم الذى خلقكم ورباكم ويعرف ما فيه خيركم وصلاحكم، وما فيه ضلالكم وفسادكم، وقد بين الحق، وما بقى إلا أن تتبعوا أو تنحرفوا، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾ باتباع الطريق السوى، ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ بالابتعاد عن الطريق الأمثل، وإن الله أعد لكل جزاء، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما أعدّه للمشركين، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وصفهم سبحانه بأنهم ظالمون؛ لأن الشرك ظلم للنفس وظلم للعقل، مع ظلمات متراكمة من فساد وصد عن سبيل الله تعالى، و﴿أَعْتَدْنَا﴾ يعنى هيأنا وأعدنا ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ شبه حال الذين يدخلون النار، وتحيط بهم من كل جانب يكونون فى سرادق ويحيط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، أو شبهت النار بسرادق أحاطهم، وكله نار لا يخرجون من قطر إلا إلى قطر، وإنهم يكونون فى شدة، والعطش يكوى بطونهم كيا، ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾، والمهل هو المصهور من الفلزات، فإنه شديد الحرارة، وهو ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ شيا، فهو فى حرارة تبلغ درجاتها الألوف من أرقام الحرارة، وروى أن منه غليظا كردى الزيت.

هذه جهنم التى تستقبلهم بسبب مجانبتهم الحق، وانغمارهم فى الباطل انغمارا، وإنها بئس المقام، وبئس شرابها شرابا؛ ولذا قال تعالى: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أى هذا شراب مذموم أشد الذم لأنه يشوى الوجوه إن سكب على الوجوه، لا يستبرد به ولكن تشوى به، ويقطع أمعاءهم، وجهنم ساءت مرتفقا أى ما أسوأها مكانا يرتفق، فلا اطمئنان، ولكن نيران ولظى، هذا جزاء

العصاة عبدة الأوثان فهم حقراء الفكر فى الدنيا، ويصلون النار فى الآخرة، وأصل ارتفق اتكأ على المرتفق، وهو علامة الاطمئنان ولا اطمئنان أبداً.

وأما جزاء المؤمنين الذين اختاروا الحق سييلاً، فهم فى روح وريحان، وقد ذكر الله تعالى جزاءهم فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۖ (٣١)﴾.

بعد أن بين الله تعالى جزاء العصاة عبدة الأوثان ذكر ما يستقبل المؤمنين المطيعين الذين يعملون الصالحات، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ (٣٠)﴾، جعل الله تعالى سبب ما يستقبلهم من النعيم أمراً:

الأمر الأول - إيمان صادق وإخلاص يعمر القلوب فإنه لا ثواب من غير قلب منيب.

الأمر الثانى - عمل صالح نافع بأداء ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه فى استقامة قلب، وكمال قصد واتجاه إلى النفع.

ويلاحظ هنا أنه أظهر فى موضع الإضمار فلم يقل إنا لا نضيع أجرهم، بل ذكر الضمير الذى يربط بين المبتدأ والخبر، بل أظهر بالموصول، فقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾، لبيان أن استحقاقه الأجر بسبب إحسان العمل وإتقانه، وقد أكد الجزاء وأنه لا يضيع عملاً، ولا يظلم الناس أشياءهم فى قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾ أكد الكلام ب(إن) وبإضافة الجزاء إليه جل جلاله.

هنا ذكر الجزاء مبهماً، أو ذكره سلبياً، بأنه سبحانه وتعالى لا يحرمهم من حقوقهم، ولا يضيع عليهم أجورهم، ثم ذكره سبحانه بعد ذلك إيجابياً عطاء

مفصلاً، فقال سبحانه وتعالى ما يدل على نعيمهم من ثيابهم، واطمئنانهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى هؤلاء المتصفين بهاتين الصفتين الإيمان والعمل الصالح، والإشارة إلى الموصوف تدل على أن الصفة سبب الحكم، وفي هذا تأكيد بأن العمل الصالح والإيمان سبب الجزاء، كما أشار سبحانه وتعالى في الآية السابقة، وفي هذا النص جزاءان:

الجزء الأول - الاستقرار والإقامة الدائمة، وذلك بذكر جنات عدن.

والجزء الثانى - طيب النظر وما يكون به ارتياح النفس، وطيب المجلس وهو أن الأنهار تجري من تحتهم فى ظلال أشجارها فـتجـرى الأنهار من تحت الأشجار الملتفة المتصلة، فتلتقى راحة النفس مع جمال المنظر ومع الاستقرار والاطمئنان، وقد أضاف الله تعالى إلى هذا النعيم، نعيم الثياب الذى يكون دليلاً على العز والترف لمن حرموا منه فى الدنيا، فقال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾، وأحسب أن ﴿مِنْ﴾ الأولى والثانية لليان، أى يُحَلَّوْنَ أساور هى ذهب، ويلبسون ثياباً خضراء، والثياب الخضراء تكون فيها نظرة، وتطمئن لها النفس وهى لون الزروع النظرة ﴿مِنْ سُنْدُسٍ﴾، أى حرير خفيف ﴿وَأَسْتَبْرَقٍ﴾، أى حرير كثيف، ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، أى الفراش اللين المبطون فى حجراتهم، وقد مدح الله تعالى ذلك الجزاء، فقال: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾، أى أن هذا الثواب ممدوح بالغ أقصى درجات حسن المنظر والرئى، ﴿وَحَسَنَتٌ مُرْتَفَقًا﴾، أى ما أحسنها مرتفقاً، والضمير فى حسنت يعود إلى جنات عدن، والمرتفق أصله من الاتكاء على المرفق، وهو دليل الاطمئنان والراحة والنعيم.

ويذكر أن الجزاء فى هذه الآية الذى اختص بالحلى، والثياب النظرة الحرير، رقيقها وكثيفها هو أخص متع النساء وخصوصاً حلى الذهب والأساور منه، فلم يعهد ذلك حلياً للرجال، ولكنه متعة للنساء فى الدنيا فيكون متعة المؤمنات الصالحات فى الآخرة، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

مثل رجلين أحدهما عاص والآخر صالح

قال الله تعالى :

وَأَضْرِبْ

لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَهُمَا
 بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاثَتْ أَكْطُهَا وَلَمْ
 تَظْلِمِ مَنَّهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
 لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
 وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ
 أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي
 لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
 أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا
 ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ
 دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا
 أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ
 جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا
 زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾
 وَأُحِيط بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلِبْ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
 عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْسَ لِي بِرَبِّ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ

فَتَنَّا بَنَصْرُوْنَهُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ
لِلّٰهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

وتلك الأمثال يضربها الله تعالى لدى الالباب الذين يعتبرون ويتعظون ويدركون أنفسهم من صورة غيرهم، ويؤدبونها ويصلحونها لرؤية المحاسن وأضدادها في غيرهم.

وهذا مثل ضربه الله تعالى وبينه للفاجر والبار، أعطى كل واحد خيرا ربما يقل أحدهما عن الآخر خيرا، أو لا يقل ولكن أحدهما يستكثر ما أعطاه لا ليشكره، بل ليغتر ويحسب أنه أخذه أخذا ويذهب فرط غروره إلى أنه أخذ بفضل عقله، وأنه لن يضيع أبدا، ثم يذهب ليقمع غروره أو تنطفئ شعله اغتراره، وتبدو له الحقيقة واضحة، وهى أنه لا يملك من الأمر شيئا، أما الثانى صاحبه، يذكره بأصل خلقه وأنه لم يكن شيئا مذكورا، ويوجهه إلى الحمد والشكر على ما أعطى، ولترك القول لرب العالمين فهو البليغ الذى أعجز بكتابه الناس أجمعين.

قال تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)﴾.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا﴾ بين حالا تكون فيها العبرة، وهى حال رجلين مختلفين طاعة وعصيانا ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾، أى جعل الله لأحدهما جنتين من كروم، وأحاطهما بنخل فعل كبار الملاك الذين يجعلون مزارعهم ذات جنات وعيون ونخل يحوطها كأنه سور يطوف بها، فتكون مثمرة، ويكون سورها مشمرا لا يكون حديدا ولا خشبا، ولا بناء بل يكون نخلا حيا مشمرا يؤتى جناه، وجعلنا بينهما زرضا، يتج بقولا وقمحا وأرزا

وذرة، فحيثما نظرت إلى الجنتين وجدت طعاما طيبا، فأكهه وتمرا وبقولا وغيره، مما هو غذاء ومنتعة، ﴿وَكَلَّمْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾، أى ثمرها كاملا موفورا وبانتظام لم تتخلف سنة عن أخرى بل آتت به رتيبا تباعا، ولم تظلم منه شيئا، أى لم تنقص منه شيئا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾، أى شققنا خلالهما نهرا يجرى فيكون السقى يسبح لا بآلة، والماء موفور، لا تصاب الزروع بحرمان من الماء، ولا الأرض بجفاف منه، بل كل شيء ممدد، ولم تكن كلتا الجنتين هما كل ماله، بل له مال آخر وهو مال مثمر من تجارة ونحوها، وكان لهذا المال ثمر إذ كان يثمره ويتيج به كنعم ومتاجر كما ذكرنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ مع الجنات والزروع والنخيل ثمار لأموال أخرى.

وكان حقا عليه أن يشكر هذه، وأن يشعر صاحبه بأن له حق الأخوة والصحبة فيها، ولكنه تكبر وافتخر بها، وإذا دخل الفخار فى نفس من أنعم الله تعالى عليه بنعمة، فإن الفخار وراء الغرور والكبر، إذ الكبر بطر النعمة وغمط الناس؛ ولذا كان صاحبه أول من بادره بالمفاخرة ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، (الفاء) للعطف مع التورية والترتيب، أى قال عقب أن حالت حاله إلى هذه الحال، ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾، وكأنه يقول له أنا أعلى منك منزلة لأنى أكثر منك مالا، ومنازل أهل الدنيا بنيت على المال، وإنه فوق كثرة ماله يحسب أنه أعز، إذ قال: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أى أنه عزيز بعزة الذين تبعوه فى أمواله ولكثرة نسبه، وأكثر أولادا، يعتز بهم ويقوتهم وذهب غروره بهذه الحال التى هو عليها ولم يحسبها فانية؛ لأن الكافر حسى لا يؤمن إلا بالمادة المحسوسة ومن علمت عليهم وجعلها هما، لا يكون تفكيره إلا من الحال القائمة والأمر الموجود أو حكم الواقع كما يقال فى هذا الزمان. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، أى دخل الجنة فى هذه الحال التى استولت عليه حال الغرور، وحال التعالى الكاذب وعدم المبالاة إلا بالساعة التى هو فيها، واندفع بها إلى الشرك، وهو بذلك الغرور والكبر وغمط الناس ظالم لنفسه، فظلمه لنفسه بهذا الذى هو محيط به، وقد أداه إلى الشرك كما ذكرنا وذلك ظلم عظيم، وقد أداه ذلك إلى أن يقول: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، فهو حكم بالحاضر على المستقبل، وذلك شأن المادى الذى يأسر

الحاضر تفكيره، حتى لا يفكر إلا في محيطه، وقد أكد بقاءها بالنفى بـ (ما)، وبـ (أبداً)، وكأنه يحكم على الله، ويتحكم في المقادير وما هو بشيء.

ثم يتناول فينكر البعث، ويفتات في تقديره، فيقول: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ينفي إيمانه بالساعة، ويقول مستهيناً، غير عابئ كأن الأمر لا يوجب اهتمامه ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، والساعة هي ساعة الحساب وهي التي تكون يوم القيامة، وإذا أطلقت الساعة في القرآن لا يراد بها إلا ساعة الحساب والجزاء، وكأنه ليس بجدير بأن يسمى ساعة غيرها.

ويفرض أنه إذا صحت الساعة فإنه سينال ما ينال في الدنيا وأكثر منها، فيقول مغترا: ﴿وَلَنْ رُدُّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ مرجعاً أنقلب إليه، بدلاً مما كنت فيه، وهو في هذا يقسم مطمئناً، فاللام الأولى الممهدة للقسم أو المومنة إليه، واللام الثانية جواب القسم، وقد أكد القول كما رأيت بالقسم، وبنون التوكيد في جوابه، وهو بهذا يقيس الحال المقبلة على الحال الحاضرة، وكأن جنات الدنيا ممتدة إلى الآخرة بل تزيد عليها، وإن هذا أقصى درجات الغرور، فهو يفتات على ربه أو يقسم عليه، وليس من المقربين إليه الذين إذا دلفوا بأعمالهم إليه، وأحبوا عباده، وعادوا بما آتاهم من خير على المحتاجين من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل.

وإنه يلاحظ مما قصه القرآن الكريم من حال الرجل الذي أوتى الجنتين، وكيف هذا الإيتاء تأدى به إلى الكفر والطغيان أن النفس غير المؤمنة ما تعطاء تحسبه حقاً لها، ويدفعها غرورها إلى اعتقاد أنها نالته بكفايتها، أو لمزية اختصت بها، فلا تحسبه عطاء من الله، وكان يمكن أن يكون لغيره بأوفر منه، ولا أن الأسباب لا تؤدي إلى نتائجها إلا بإذن الله ثم يندفع بها الغرور فتحسبه من فضلها على غيرها، وحرمان غيرها من نقصانها الذي لم تبلغ مواهبها ما عندها هي ثم تسترسل في غلوائها، فتحسب أن ذلك من دواعي تفاخرها، وتناولها على غيرها، وتسترسل في غرورها أكثر فتحسب أن ذلك دائم لا يبيد، وأنها تنتقل من ظفر بالخير إلى مثله غير عابئة بشيء، ولا مقدرة لمستقبل، ثم تدفعها غلواؤها في

التقدير فتنكر البعث أو لا تهتم به، وتظن ظنا من الإثم والبهتان على الله أنه إن كان بعث فستنال من الله خيرا من هذا.

وإن هذا الغرور النفسى، والطغيان على الناس هو الذى أدى إلى الكفر والإيغال فيه من غير حساب، هذه هى النفس الطاغية التى تسير فى طريق الكفر.

أما النفس المؤمنة وهى التى تتمثل فى الرجل الآخر الذى هو أحد الرجلين اللذين ضرب بهما المثل، فإنه يتمثل فيها الرجل المؤمن فهى تحس:

أولا - بأن الله هو الخالق، وأنه خلق الإنسان من تراب وأنه الواحد الأحد.
ثانيا - وأنه هو المعطى، والمعطى يستحق الشكر.

ثالثا - والتفويض إلى الله، والإحساس بأن كل شىء عطاء منه بعد اتخاذ الأسباب.

رابعا: وبأنه موضع الرجاء على أن يفوض الأمر إليه، وأن من أعطى يمنع إذا اغتر من أعطاه، ورغب عن طاعته، وأن عليه أن يتذكر المنع عند العطاء، وأن يتذكر حاله إذا فقد النصير وهذا جوابه لما حاوره صاحبه مفاخرًا.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (٣٧).

هذا هو التأكيد الأول يقول له: إنك نسيت خلقك الأول أنشئت من تراب ثم من ماء مهين، ثم كانت أدوارك من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات نطفة فى قرار مكين، ثم مضغة ثم عظاما ثم كسونا العظام لحما ثم صرت رجلا سويا، وخلقت ضعيفا فى كل أدوارك ثم صرت رجلا غرك الغرور، أشار إلى كل هذا فى كلماته الموجزة المشيرة والموضحة، ونبهه إلى أنه كفر بكل هذا فى استسهام إنكارى توييخى؛ لأنه لإنكار ما وقع منه من كفر بربه الذى خلقه فسواه فى أحسن تقويم.

فحاله حال كفر وإنكار للنعمة، وجهل لحقيقة أمره فذكره بذلك كله وأنه بهذا الطغيان والغرور ونسيان البعث وإهماله لطاعات الله تعالى قد كفر بالله أشد الكفر.

أما حاله هو، وهى حال الإيمان، فقد قال فيها:

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢٨).

(لكن) تفيد الاستدراك على ما قاله صاحبه، وبيان أن حاله ليست كحال، إنما حاله حال إذعان لله تعالى وحده على خلاف حال صاحبه من إشراك بالله، واستهانة بالبعث، ونلاحظ فى المصحف أن ألفا بعد النون فى ﴿لَكِنَّا﴾، وهو يتحدث وحده ونحسب أن كتابته ليست عبثاً، أو لغير معنى، بل إن كتابته تنبيه على بعد الحال المستدركة بين الرجلين، فبينما الأول كان طاغياً مفاخرًا مغروراً، فهذا موحد متطامن شاكر لله تعالى أنعمه، فى سرّائه وضرّائه فأمره كله إليه سبحانه، لا يملك من أمره شيئاً أبداً.

وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ تفويض مطلق لذى الجلال والإكرام؛ لأنه ربه الذى خلقه وقام عليه حتى بلغ ما بلغ بين الأحياء؛ لأنه الحى القيوم، وأكد الوجدانية بقوله: ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، وهذا تعريض بالذين يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض وأنه لا خالق سواه، ومع ذلك عند العبادة يشركون به، وقوله تعالى: ﴿بِرَبِّي﴾ يفيد مع ما سبق علة العبادة وعدم الإشراك فيها، ويقولون هو خير لمبتدأ محذوف تقديره لكن الأمر هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً، ويتقل إلى توبيخ صاحبه، وتنبيهه إلى وجوب الشكر فيقول كما حكاه الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَلَأً وَوَلَدًا﴾ (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٤٠).

﴿وَلَوْلَا﴾ للحض، والمبالغة فى الإنكار بمعنى هلا، أى هلا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله و﴿إِذْ﴾ بمعنى وقت، المعنى هلا وقت دخولك جنتك ورؤيتك هذه النعمة قلت ما شاء الله، أى هذا ما شاء الله، وأنه بإرادته ومشئته ولولا مشيئته ما نلتها، وأنه لا قوة لك إنما القوة كلها لله، فهو الذى

أعطاك وإن حق النعمة شكرها لا كفرها ولا التناول بها، والمفاخرة على غيرك والاعتزاز بها من غير عزة الله سبحانه وتعالى.

ثم أخذ بعد ذلك يرد على مفاخرته راضيا راجيا، ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٣٩) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾، ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ حرف شرط وفعله وجوابه، ﴿فَعَسَىٰ﴾ والفاء داخلة فيه؛ لأنه فعل طلب للرجاء، و﴿أَنَا﴾ ضمير الفصل فيه تأكيد لحديث المتكلم عن نفسه، وكان التأكيد لبيان أنه أقل منه في نظره، أى إن ترنى أنا فى نظرك أقل منك، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، لا يمنعه أحد من عطاء يشاؤه، فعسى ربي الذى خلقنى وكفلنى وقام على شئونى أن يؤتيني خيرا من جنتك التى تفاخر بها وتغتر بها، إنى أرجو الله وأرجو ما عنده مؤمنا بأنه هو الذى يعطى ويمنع فإن أعطانا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، وهو خير لنا.

وقال: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، الضمير فى ﴿عَلَيْهَا﴾ يرجع إلى الجنة؛ لأنها المذكورة وحدها فى قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ والحسبان هو العواصف من السماء التى يطلق عليها مرامى السماء والحسبان الصاعقة، ويطلق على العذاب، ولعل أقرب المعانى هو الصاعقة المحرقة للزرع والشجر والنخيل وغيرهما من أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة، ويكون المعنى عسى أن يعطينى الله منه خيرا من جنتك، ويرسل على جنتك صواعق من السماء ﴿فَتَصْبِحُ﴾ الجنة خالية من الأشجار ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، أى صعيد أملس لا شجر فيه، ولا ينبت شجرا، ولا كلاً، و﴿زَلَقًا﴾ هو الذى لا يثبت عليه قدم وهو كناية عن أنه خال من كل نبات وشجر وهو بلقع لا ثمر فيه.

هذا هو حسبان السماء لا يبقى ولا يذر، وعسى أن يجف الماء فلا تنزل صاعقة ماحقة، ولكن يجف الماء، وهو مادة الحياة للنبات، ولذا قال تعالى عن الرجل المؤمن:

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهُ غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٤١).

أى أن ماءها يغور فى الأرض ويختفى من سطح الأرض إن كان ماء عيون وآبار، أى على أعماق بعيدة من باطن الأرض فلن تستطيع الحصول عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾، أى يتعذر عليك طلبه ولا تجده ولا تجد عوضا عنه، لا تجد لها سقيا ولا رعيًا وحيثئذ يجف لك الشجر والزرع ويصير حطاما.

وقد بين سبحانه أن ما توقعه المؤمن صدق، ونزل الدمار بالجتين فقال تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝﴾ (٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ يقال أحاط الجيش بالعدو حتى سد عليه مسالك النجاة، ثم صارت تطلق فى اللغة بمعنى الهلاك مجازا مشهورا وأصبح البعير يحاط به بمعنى تعرضه، ولقد قال تعالى فى الذين يتعرضون للهلاك، ﴿... إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۝﴾ (٦٦) [يوسف]، ويكون فى الكلام مجاز بالاستعارة شبه هلاك الزرع هلاكًا مستغرقًا لم يدع فيه شيئًا قائما بذاته بإحاطة الجيش بعدوه واستئصاله بحيث لم يفلت منهم بالنجاة أحد، والجامع فى المجاز هو الإحاطة والشمول، وفى هذا المجاز إشارة إلى المغرور بهذه المعاندة كأنه فى حرب مع الله سبحانه، وبعد هذه الإحاطة المهلكة المستغرقة لكل الزرع أخذ يعرض بنان الندم، وقال الله تعالى فى ذلك: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ الفاء فاء السببية والعطف المقيد للترتيب والتعقيب، وتقليب الكف كناية عن الإحساس بالندم، وعن الإحساس بالخسارة فهو يقلب كفيه نادما، ويحس بالخسارة فى النفقة التى أنفقها، وهكذا المغتر من غير مبرر للغرور يكون فى ندم على غروره، وفى حسرة على ما أنفق من مال ذهب هباء منثورا، أو أدراج الرياح، ويتمنى الأمانى ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، ليت للتمنى، فهو يتمنى أن لم يكن قد أشرك، ونادى ﴿يَا لَيْتَنِي﴾ كأنه ينادى ليت، كأنه يقول: يا (ليت) تعالى فهذا وقتك الذى

أناديك فيه ﴿لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، كأنه أحس بأن الشرك هو الذى ربى فى نفسه الغرور، وأن الغرور الذى دلّاه إلى هذه الحال من الهلاك.

أهذا التمنى فى الدنيا أم فى الآخرة؟ الأقرب إلى السياق أنه فى الدنيا، وأنه سبيل التوبة، وقد يكون فى الآخرة كما تدل الآية الآتية، وقوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ الضمير يعود إلى الجنة، وذلك من خوت الدار خواء إذا أقرعت وتهدم بناؤها وسقطت عروشها، فخاوية على عروشها معناها ساقطة الكروم على عروشها، أى أن كل ما فيها سقط بعضها على بعضها، فالأشجار جفت، والزرع صار حطاما، وصارت كلها خواء.

كان المغرور المفتون بجنته يعتز بماله، فيقول أنا أكثر منك مالا، وكان يعتز بنفره، ويقول أنا أكثر منك مالا وولدا، وهذا مآله قد آل إلى فناء وخراب، وذهب نفره فلم يكن له نصراء ينصرونه من دون الله؛ ولذا قال سبحانه مبينا عزلته.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (٤٣).

الفئة الجماعة المناصرة، أو العصابة التى تناصره، اعتز بها، ولقد قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فأبعد الله عنه عزة النفر عند إبعاد المال، فلم يكن هناك فئة تنصره على كل حال، بل كانوا فئة تناصر ماله، ولا تناصر شخصه فلا نصير له من دون الله، وقد تخلصى الله تعالى عنه لعصيانه فلم يكن له نصير من غيره، ولم يكن هو منتصرا بذاته، فليس قويا فى ذاته ينتصر لنفسه، وليست قوة من خارجه وما كان ممتنعا بقوة شبه ذلك، وقال قتادة ما كان مستردا بدل ما فقد منه، والفئة مشتقة من الفىء، أى يفىء إليها لتنصره، فهى العشيرة ويظهر أن ذلك يوم القيامة، ولذا قال تعالى:

﴿هَٰئِلِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤).

الإشارة إلى البعيد فى الآخرة؛ ولذا كانت الإشارة بالبعيد باللام والكاف معا، وكلاهما تنبيه للبعيد، أى السلطان الكامل، كما قال تعالى: ﴿... لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) [غافر]، ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ والضمير ﴿هُوَ﴾

يعود لله تعالى، أى خير ثواباً فى الدنيا والآخرة لمن آمن واتقى، ﴿وَحَيْرٌ عَقْبًا﴾، أى خير عاقبة فى الآخرة وهو النعيم المقيم، هذا وإنا نقول إن هذا كله فى الدنيا والآخرة.

ولكن يجب بحث خبر المثل أهو تصوير لحال المستقيم، وحال المنحرف المغرور، وعاقبة كل، وهو تقدير، أم له واقع تاريخى، وإنه كيفما كان مصور لحال المغرور الجاهل المشرك، وحال المستقيم ويقول الزمخشري: إن المثل يصور قصة واقعة فيقول: (وقيل هما مثل لأخوين من بنى مخزوم، مؤمن وهو أبو سلمة عبدالله بن عبد الأشد، وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ، وكافر وهو الأسود ابن عبد الأشد).

وسواء أكان المثل تقديراً صادقاً وتصويراً للنفس الكافرة، أم كان قصة وقعت فهو مبين لنفس الكافر وهى يسودها الاغترار بالعطاء، ووراء الاغترار الضلال والاستكبار، والمفاخرة ونسيان الواجب لحق النعمة، والبطر والكبر وغمط الناس وأن المؤمن من صفاته الرضا والقناعة والاتجاه إلى الله تعالى وشكر النعمة ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) [إبراهيم].

مثل الدنيا والآخرة والبعث

قال الله تعالى:

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا ﴿٤٥﴾
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ
خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى

الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا
 عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ
 أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا الَّذِي كُتِبَ
 لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
 حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
 أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ
 بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (٤٥).

﴿وَأَضْرَبَ﴾ معناها بين لهم ﴿مَثَل﴾ حال ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، في زخرفها
 وبريقها، ﴿كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي فاختلطت به بذور
 الأرض التي صارت نبات، وصارت ريانة به، وجرت فيها الحياة، ولكن استمرت
 أمدا ليس طويلا فأصبحت هشيما، أي حطبا متكسرا، تفتت حتى تذرؤه الرياح،
 ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾. . . إذ أنشأ من الماء حياة في البذور، ففلق الحب
 فكان نباتا قد اختلط بالماء إذ كان مادة نمائه، واستوى به على سوقه، ولكن لم
 يلبث إلا قليلا، حتى تكسر، ثم تفتت فكانت الرياح تحمله وتذرؤه من مكان إلى
 مكان، ثم آل بقدرته إلى ما آل إليه.

والتشبيه هو تشبيه الدنيا بالحال التي تكون من اختلاط الماء بأصول النبات
 والتفافه بعضه ببعضه. ثم تكسره السريع مع تفتته، فليس التشابه بين الحياة الدنيا

والماء، بل بين الدنيا وهذه الحالة من الماء والنبات، ثم سرعة الفناء والتكسر والتفتت العاجل القريب.

وقد صور الله تعالى حال الدنيا بمثل ذلك في آيات أخر، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ... (٢٤)﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ... (٢٥)﴾ [الحديد].

هذه حال الدنيا متاع قليل، وفناء سريع، والآخرة خير وأبقى، وقد ذكر سبحانه أبرز ما في الحياة من زينة ومتاع فقال عز من قائل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾.

بعد أن بين سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من حيث إنها متعة غير باقية، وما فيها من خير هو الفناء لا بقاء فيه - ذكر سبحانه ما فيها من زينة وتفاخر، ومادة للتطاول فقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، الزينة ما يتزين به، وهى مصدر وصف به، والمصدر إذا وصف لا يثنى ولا يجمع، ولذا وصف به المال والبنون، وكان المال والبنون الزينة؛ لأنه كان بهما القوة، فكان المال قوة لما يمكن صاحبه من الحصول على حاجاته، ولما يمكنه من الحصول على مآربه من أعدائه وأوليائه، والبنون لأنهم القوة فى النصر؛ ولذا كانت مفاخرة أحد الرجلين على صاحبه قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ والنفر أكثر ما يكون بالولد، والله تعالى يقول فيمن طغى بماله وولده، ﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَبِيدًا (١٦) سَأَرْهَقَهُ صَعُودًا (١٧)﴾ [المدثر].

وقد سمى الله تعالى القوة بالمال والبنين زينة؛ لأنها موضع تفاخر وتباه كالزينة، وقدم المال على البنين؛ لأن البنين من غير مال لا يكونون زينة، بل

يكونون تكليفاً، وقد يكون مرهقا. وإن أمور العقلاء تجرى على سنة المنفعة، فما يكون أكثر منفعة وأبقى يطلبه العقلاء، وما يكون أقل نفعا، ولا يبقى ينفر منه العقلاء، ولا يقبلون عليه؛ ولذلك بين الله تعالى أن زينة الدنيا وخيراتها غير باقية، إنما الباقيات الصالحات في الآخرة هي الأكثر فائدة وأملا، فقال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ الباقيات وصف لموصوف محذوف، أى والأعمال التى تبقى، ولا تفتنى سريعا، وهى صالحة فى ذاتها عامرة لما بين العبد وربّه أولا، وبينه وبين الناس وبياركها الرب ثانيا، سواء أكانت من شأنها أن تكون ذات أثر باق فى الدنيا، من عمل طيب يبقى أثره بعد الموت، أم كان يرجى خيره فى الآخرة، وفى الجملة الأعمال التى تكون كثيرة النفع فى ذاتها ويبقى أثرها بعدها، كما قال النبى ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فكل ما يحرثه العبد للآخرة يكون باقيا، يقول على كرم الله وجهه: «الحرث حرثان حرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام، وقد حكم سبحانه بأن ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾، أى خير فائدة وعائدة وعاقبة، وتفتح باب الأمل لخير عميم، ونعيم مقيم، وجنة خالدين فيها، وكرر كلمة ﴿خير﴾، لاختلاف نوعهما، فالأول عاجل فى الدنيا، والثانى أمل ورجاء فى الآخرة، وقد ذكر الله تعالى الآخرة، ومقدمات البعث والقيامة فقال عز من قائل:

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧)﴾.

ويوم نسير الجبال، أى نحركها من أماكنها، ونسيرها كما نسير السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ... (٨٨)﴾ [النمل]، و﴿يَوْمَ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر يوم نسير الجبال، أى يوم البعث إذ تتغير الدنيا، والأرض والسموات، وقد خطر بخاطرى أن ﴿نُسِيرُ﴾ متعلق بـ ﴿خير﴾ محذوفة دلت عليها الآية قبلها، أى الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا أملا، وخير يوم نسير الجبال، وترى الأرض.

وتسير الجبال تحريكها من أماكنها، وتكسرها فتكون هذه الأوتاد الشامخة منكسرة متفتتة، كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾ (٦) [الواقعة]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۖ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ ۖ﴾ (٤) [التكوير]، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ۖ﴾، أى ترى فى هذا الوقت صعيد الأرض بارزا، ليس عليه جبال كالأوتاد والأشجار وبرز ما فى باطنها من أحجار وفلزات، وبرز ما فيها من القبور، كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۖ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۖ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۖ﴾ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۖ﴾ (٥) [الانفطار].

وهكذا ينهى الكون باريته، ويذهب هذه الحياة بانيها، ومن بعد ذلك، وقد أبرز كل شىء خالق كل شىء عندئذ يكون الحشر ولا يغادر منهم أحدا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ﴾، أى حشرناهم فى ذلك اليوم لا نترك أحدا، وعبر سبحانه بالماضى لتأكد هذا الحشر، واستعمال الماضى فى مقام المضارع لتأكد الوقوع، وعبر سبحانه بالفعل حشر للإشارة إلى جمعهم غير مريدين، أو مختارين، وأنهم جميعا متلاقون الضالون والمضلون، وأنهم بعد ذلك يعرضون على ربهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۖ﴾ (٤٨).

أى أنهم فى هذا المحشر الذى حشروا فيه لم يكونوا مجهولين، أو أن الازدحام جعلهم غير معروفين، بل إنهم كانوا مع هذا الجمع الحاشد معروفين مميزين عند رب العالمين الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۖ﴾ (١٤) [الملك]، بل إنهم عرضوا صفا كما يعرض الجنود صفوفًا متراسة أمام قائدهم يلتقى إليهم أوامر، فكذلك صفهم الله تعالى صفوفًا متميزة مقرا لهم بأنه يعلمهم، يذكر الله لهم بلسان ملائكته أو إن حال الموقف كأنهم يخاطبون بالقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ

مرّة... ﴿٩٤﴾ [الأنعام]، أكد سبحانه وتعالى مجيئهم بـ (اللام)، و(قد) وأنهم معاينون وقوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه إشارتان:

الإشارة الأولى - أنهم يجيئون مجردين من كل نسب وحال من أحوال الدنيا التي كانوا بها يتفاخرون من مال ونفر، وهيل وهيلمان وسلطان.

والإشارة الثانية - إشارة إلى قدرة الله الكامل المسيطرة، وأنه أعادهم كما بدأهم، كما بدأكم تعودون، وقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ الإضراب هنا بـ ﴿بَلْ﴾ معناه الإضراب عما كانوا عليه في الدنيا وإثبات الواقع المقرر الذي يروونه، و﴿زَعَمْتُمْ﴾، أى ظننتم بزعمكم لا بالحقيقة الثابتة، (أن) هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أى أنهم زعموا نفى البعث بنفى أن الله تعالى جعل لهم موعدا يبعثون فيه، ويحاسبون على ما قدموا من خير وشر، وإنه سيجيء معهم كتاب أعمالهم لم يغادر صغيرة ولا كبيرة، وقال تعالى:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، أى سجلت الصحف التى كتبت عليها أعمالهم، فلا نقص فيها، ولا محو، بل هى ثابتة حجة عليهم دائمة باقية لا ينادون فيها، فالمراد من الكتاب جنس ما يكتب ويقيّد عليهم، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ والفاء للسببية، أى بسبب وضع الكتاب ترى المجرمين الأثمين قد أدركوا آثامهم، وشقت نفوسهم فعلمتها فكانوا مشفقين خائفين مما اشتملت عليه، وأصابتهم الحسرات، وانتهوا لما فرطوا فى جنب الله، ونادوا الهلاك إذ لا مفر منه، وهو نداء الحسرة والالتم ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾، أى يا هلاكنا النار بنا، كما يقول النادم يا حسرتا، وقد كانوا ينادونها ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ...﴾ (٥٦) [الزمر]، وكان ذلك النداء لأنهم رأوا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ما لهذا الكتاب،

أى شىء ثبت لهذا الكتاب، واختص به لا يترك أمرا صغيرا دقيقا، ولا كبيرا إلا أحصاه، أى أنه أحاط إحاطة كاملة بموضوع، وهو أعمالهم ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مهيئا ينادى بآثامهم، وإدانتهم ليستقدموا للحساب العسير الذى نهايته العقاب بالعذاب الأليم.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فلا ينقص من عامل خير، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يخفى شىء من عمل، بل يجازى كل بما كسب إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وكل يجازى بمقدار ما عمل.

وإن ما توعد به إبليس عباد الله فى قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص] يذكر الله عباده المؤمنين بهذه العداوة لاحتباطوا، وليجتنبوا وسوسته فيقول تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف للماضى منصوب بفعل محذوف تقديره، اذكر ذلك الوقت الذى ﴿قُلْنَا﴾ فيه ﴿لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وذكر هذا الزمن بأحداثه وما قيل فيه استحضار لصورته، وكيف عصى إبليس ربه، وعاند فى الخضوع لأمر الله تعالى بالنسبة لآدم، واستحضاره استحضار لعداوته وما هدد به ذريته، وما حاول إغواءهم وكل ذلك يوجب النفرة، وقد كان من الجن وليس من الملائكة الأطهار، فكان يجب تجنبه وألا يستمعوا إلى وسوسته فإنها تؤدي إلى المعصية كما أذلت أباهم آدم للأكل من الشجرة، ولذا قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وقد تأخرت عن الاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والتقدير أفتتخذونه بعد أن علمتم أنه وذريته أولياء نصراء موالون من دون الله وبدل، وهم أعداء ليسوا بأولياء، بئس بدلا لكم أنتم معشر الذين ظلموا أنفسهم، وأظهر فى موضع ضمير الخطاب، فقال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، بدل أن يقول بئس بدلا لكم، للإشارة إلى أنهم بهذا ظلموا أنفسهم، ووضعوا الأمور فى غير مواضعها، وكانوا كافرين ظالمين.

الوجود كله خلقه الله ولم يكن أحد

قال الله تعالى :

مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

الآية السابقة تفيد تحكّم إبليس وذريته في الضالين المشركين، واستنكر الله ذلك التحكّم في نفوس الناس بقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

والضمير يعود إلى إبليس وذريته الذين يضلونهم حتى جعلوهم يتخذون من الحجارة أوثانا يعبدونها، ويجعلونهم يحسبون لها قوة، أو تكون لها شفاععة، أو تكون لها شركة بالله في خلقه، حتى يجعلوها شريكة في العبادة، نفى الله تعالى أن يكون لإبليس وذريته مشاورة أو مشاهدة في خلق السموات والأرض وخلق الأنفس حتى يجعلوكم تشركون الأوثان في العبادة فهؤلاء مخلوقون، فكيف يشركون في إعطاء قوى ليست لهم، فقال تعالى :

﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ (٥١).

والإشهاد، تمكينهم من الحضور، فمعنى ﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ما جعلتهم يشهدون، ويشاورون في خلق السموات والأرض حتى يدعوا الحجر أو شخص قوة في الإنسان ليكون شريكا في الألوهية للخالق الذي أنشأ وأبدع ودبر، إن الله وحده هو الذي خلق فهو وحده المعبود ولا معبود سواه، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾، أى أنهم مخلوقون فعندما خلقهم الله تعالى لم يكونوا شيئا مذكورا وكيف يشهد المخلوق خلق نفسه.

وهذا النص السامى يشير أولا: إلى وجوب الحذر من إغواء إبليس وذريته، وبيان أنهم لا قوة لهم إلا بضعف نفوسكم واستخذائهم، فليس لهم قوة ذاتية، إنما قوتهم من ضعفكم، ويشير ثانيا: إلى أنه لا إرادة لهم فى شيء فى الوجود إلا ما تكسبه الأنفس الضالة، ويؤكد ثالثا: إلى أن الله وحده خالق كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ فى التاء قراءة ثان الأولى: بالضم تكون تاء المتكلم، والثانية: بالفتح للخطاب.

وعلى قراءة الضم يكون التخريج وما كان من شأنى أنا الخلاق العليم أن أتخذ من المضلين عصدا أعتضد به أو أستعينه وأتخذهم معاونا، وكان المعنى إني لا أستعين فى الخلق بأحد، ومن المستحيل أن أتخذ معينا من المضلين، ويكون المعنى رميهم بأنهم يضلون ولا يرشدون، والله سبحانه لا يستعين بضال ولا مضل ولا مهتد.

وعلى قراءة الفتح يكون الخطاب للنبي ﷺ، ويكون المعنى وما كنت يا محمد من شأنك أن تتخذ من المضلين عصدا ونصرا فلا تطمع فى نصرتهم، ولا تحاول أن تستعين بمرضاتهم، وتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه.

وأظهر فى موضع الإضمار فقال: ﴿وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ على قراءة الضم، لبيان وصفهم الحقيقى، وهو الإضلال، إذ إبليس وذريته للإغواء، كما قال: ﴿... لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٦) [ص] قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ

زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ [سبأ]، وقال أيضا: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ [طه]، ثم ذكر سبحانه بحال المضلين مع من أضلّوهم يوم القيامة فقال:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾ ﴿٥٦﴾.

اليوم هو يوم القيامة، والواو متعلقة بفعل محذوف تقديره «واذكر» لهم ذلك اليوم، ودالة على وصل الجملتين، وليستا منفصلتين، والأولى تشير إلى هوانهم ابتداء عند الخلق والتكوين وأنه لا وجود لهم في هذا الإبان، والثانية تشير إلى هوانهم يوم الحساب، وأنهم لا ينفعون بشيء، والضمير في ﴿يَقُولُ﴾ يعود إلى الحق جل جلاله، ومقول القول: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ وأضاف سبحانه وتعالى إليه الشركاء - تعالى عن ذلك - لمسايرة زعمهم، وللتهكم بهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، أى الذين كانوا شركائى فى زعمكم وضلالكم، ويلاحظ أنه ذكرهم ذكر ما يعقل وهى أحجار لا تضر ولا تنفع، ونوجه القول إما بأن نقول إنه تهكم بهم، إذ جعلوها آلهة فوق من يعقل، وإما أن نقول إن المراد إبليس وذريته لأنهم الذين أضلوكم وأوقعوكم فى هذه العبادة الضالة.

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الفاء الأولى هى العاطفة التى تفيد الترتيب والتسبب، والفاء الثانية كذلك، والفعل ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾، فعل ماضٍ، أى دعاهم معاونين لهم من حف معهم من الملائكة، فالخطاب كان بالأمر لأهل النار أو هم الذين دعوهم ليستبين عجزهم إذا لم يستجيبوا لهم، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾، أى جعلنا بين الضالين ومن أضلوهم حاجزا مانعا، يمنع أن يعاون أحد الفريقين الآخر، والموبق الهلاك، من وبق بمعنى هلك، أى جعلنا حاجزا، هو فى ذاته هلاك للفريقين.

وهذا كناية عن أن الهلاك يعم الفريقين، وأنه لا منجاة لأحدهما الذين ضلوا ومن أضلوهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزِئْلًا بِئِنَّهُمْ... (٢٨)﴾ [يونس] ويقول سبحانه في حال المجرمين يوم القيامة:

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٢)﴾.

عابن المجرمون النار بأهوالها، وأنهم لا طاقة لهم بها، وكأنهم رأوا أعمالهم قد استعلت بهم فكانت نارا، وأظهر في موضع الإضمار إذ إنه سبحانه بدل أن يقول: ورأوا النار وعود الضمير ليس ببعيد، قال عز من قائل: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ لبيان وصفهم وهو الإجمام، وأنه سبب استحقاقهم، وأنهم يحسون باستحقاقهم لأنهم أجزموا، ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا﴾، أى مخالطوها وملابسوها، فالمواقعة الملابس التى لا ينفصلون عنها، والفاء هى فاء الترتيب والسببية، أى بسبب حالهم من الإجمام اعتقدوا أنهم مواقعوها، والظن هنا اليقين ولكن لم عبر بالظن دون العلم واليقين؛ وذلك لأنهم إذ رأوا هولها وشدتها كانوا يظنون ولا يستيقنون ليوجدوا لأنفسهم نافذة ولو كوة لاحتمال النجاة، ويصور هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أى لم يجدوا متحولا عنها وأنها آتية لا ريب فيها.

ولقد قال تعالى بعد أن بين حالهم التى آلوا إليها، أنه قدم لهم أسباب الهداية فى إبانها، فأعرضوا عنها وأثاروا الثارات حولها، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤)﴾.

الصرف الرد من حال إلى حال، والتصريف هو التحويل من حال إلى حال، وتصريف القرآن الكريم هو ما اشتمل عليه من أساليب البيان والموعظة

والاعتبار وبيان الأحكام والقصص والعبر، وإيجاز وإطناب من غير فضول أو تطويل، وزجر وترغيب وترهيب، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، أى من كل حال من أحوال الهداية والرحمة وشفاء الصدور مما يجعل الحق واضحا بين أيديهم، فأتى سبحانه فيه بضروب البيان والمعرفة والهداية مما لم يجعل موضعا لريبة مرتاب، أو مرء من القول، ولكن الكافرين أثاروا القول حوله فمرة قالوا: إنه سحر، وأخرى قالوا: إنه شعر، وثالثة قالوا: أساطير الأولين، ورابعة قالوا: علّمه بشر، وهكذا كانت لهم أقوال باطلة فيه بمقدار ما تشيره أهواؤهم، ويثيره جدلهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، أى أكثر شيء من شأنه أن يجادل ويمارى جدلا، وهى منصوبة على التمييز كما هى فى قوله تعالى: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أى أن الإنسان أكثر ذوى الألسنة والقول جدا، فهو أكثر جدلا من الملائكة وغيرهم، بل إن الملائكة لا يجادلون.

وإن الجدل من شأنه أن يضع الحقائق بين المتجادلين، وأن تتبشر الحقائق على الأفواه، فلا يضبط قول، ولا يستقيم فكر؛ ولذلك كان العلماء الربانيون يnehون عن الجدل، وأشد من عرف بذلك الإمام مالك؛ لأن مشارات الجدل هى مشارات الشيطان، وإن الناس دائما يثيرون الجدل حول رسالات المرسلين، ولا يقطع جدلهم إلا أن يأتهم الهلاك أو العذاب؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ۝٥٥﴾.

﴿الناس﴾ هنا قيل إنهم أهل مكة، وأميل إلى أن هذا بيان لطبائع الكافرين، وأخص من ينطبق عليهم المشركون فى مكة فقد أغروا بالجدل والمرااة فى الحقائق، وهم قوم خصمون، كما ذكر القرآن الكريم فى أوصافهم، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾، أى ما منعهم الإيمان، وقد توافرت أسبابه وإذ جاءهم الهدى بالرسول أرسله الله إليهم، وبالكتاب الحكيم نزلّه هاديا مرشدا، ما منعهم

الإيمان إلا طغيان نفوسهم، وازورارهم عن الحق والجدل حوله، فإن علاج هذه الحال أن تأتيهم سنة الأولين، أى الطريقة التى نزلت بالأولين وهى الاستئصال بجعل على الأرض سافلها، أو ريح صرصر عاتية، أو بغرق، أو يامطارهم بحجارة من سجيل.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾، أى عيانا ظاهرة أى انتظار الهلاك بالاستئصال أو انتظار عذاب يوم القيامة معاناة هو الذى يمنعهم من الإيمان بالهدى والاستغفار من ذنوبهم، ونقول إن هذا تصوير محكم لحالهم فى طغيانهم وغلوئهم كأنهم ينتظرون العذاب ولا ينتظرون الهداية فشبّه سبحانه وتعالى حالهم فى الشر، واستمكانه فى نفوسهم واسترسالهم فى الطغيان بحال من يمنعهم الهداية مجرد انتظار العذاب، وهذا تصوير لإمعانهم فى الطغيان والظلم والعدوان ومجاوزة حدود العقل والفكر.

الرسل مع الأقوام

قال الله تعالى:

وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ
الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا الْعَجَلُ لَهُمْ

الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ
مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يبين الله تعالى أن إرسال الرسل للتبشير والإنذار، وأن محاولة الذين كفروا إبطال الحق هو فرار من أن يستمعوا إلى النذير ينذرهم، والبشير يبشرهم، وما ذلك إلا من إمعانهم في الكفر والضلال، ولقد قال تعالى في ذلك:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

«ما» نافية، و«إلا» استثناء، فيكون في الكلام نفى وإثبات، وهذا يفيد القصر، أى ليس إرسال الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالزلفى عند الله، ودخول الجنة، وإنذار الكافرين بالبعد عن الله وعن جنته، وإن ذلك كان يوجب الاعتبار، وتفهم ما جاء به الرسل، والإيمان به لأنه خيرهم ومصلحتهم وتهذيبهم، ولكنهم بدل أن يفتحوا عقولهم للتدبر وفقه الأمور، أخذوا يعملون تفكيرهم في رد الحق فهم بمنأى عن شرع الله، كمن يفرض على شيء علما، فلا يفهمه، ويكون تفكيره في رده، والتحايل على الخروج عنه؛ ولذا قال: ﴿وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾، يجادلون جدال مماراة؛ ولذا قال: ﴿بِالْبَاطِلِ﴾، أى متلبسين في جدلهم بالباطل وتلبسهم بالباطل، لأنهم يدافعون عنه، ولأنهم يثيرون ترايا بهذا الجدل حول الحق، ولأنهم يفكرون في دائرته، وغايته إدحاض الحق؛ ولذا قال: ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، وأصل الدحض الزلق يقال: دحضت رجله، أى زلقت، ودحضت الشمس عن كبد السماء أى زالت، فكان في الكلام مجاز بتشبيه الحق وقد ثارت حوله المثارات بجدلهم، بمن تزلق قدمه فيسقط وإن ذلك غايتهم وباعثهم، ولكنهم لا ينالونه، وهو مبتغى لا يصلون إليه، واللام هنا لام التعليل وبيان الباعث.

وإن هذا الباعث الذي بعثهم على جدلهم، وهو باطل أضافوا إليه أمراً زادهم ضلالاً، وإمعاناً في الفساد، وقال تعالى فيه ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ الآيات هي المعجزات التي جاء بها الرسل للدلالة على الرسالة، وأنهم يتكلمون عن الله تعالى لا من عند أنفسهم، أخذوا يستهزئون، ففرعون استهزأ بالمعجزات وهي تسع آيات ولم يذعن لها، وعاد وثمود وقوم نوح ولوط استهزأوا بالآيات حتى دهمتهم من حيث لا يشعرون، وأنتم معشر العرب سرتهم مسار هؤلاء فاستهزأتم بالقرآن، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله فعجزتم وما أصغيتم بعد عجزكم للحق، بل زدتهم طغياناً، واستهزأوا مع الآيات، استهزأوا بما أنذروا به، وكان استهزاؤهم به بأن لم يلتفتوا إليه، وبأن تهكموا حتى أنه يروى أن أبا جهل كان يقول متهمكاً على النار: إن محمداً يقول لكم إنه يأتيكم بالنار ولأصحابه بجنات كجنات الأردن، وهنا ملاحظة بيانية أنه ذكر الذين يجادلون بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لبيان أن الكفر سيق إلى قلوبهم فسدّ مسامع الإدراك، وليبين أن السبب في جدلهم هو الكفر، وإن هؤلاء ظالمون؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ .

هذا تصوير دقيق للكافرين يتدنون بالإنكار من غير روية وتعرف للأمر من كل وجوهه، فإذا سارع إليهم جحدوا، أو أعرضوا عن الحق وقد بدا نوره، وسدت عليهم كل منافذ الإدراك فلا تسمع آذانهم ولا تفقه قلوبهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أي للنفي المؤكد مع التوبيخ للظالمين والتنديد بهم، أي لا أحد أظلم ممن ذُكِّرَ بِآيَاتِ الله تعالى في الكون، ودلالاتها على الخلق وأنه وحده الذي خلق كل شيء وأنه وحده هو المعبود ولا معبود سواه، ذكر هذا التذكير، فلم يترث

ويتأمل، بل سارع بالإعراض، والتولى عنها، والفاء للترتيب والتعقيب، أى أنه رتب على التذكير الإعراض السريع من غير تأمل فيما ذكر به ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، من كفر وظلم وأكل مال الناس بالباطل، وتطفيف فى الكيل والميزان، نسى هذا فى مقام التذكير بآيات الله تعالى وكمال سلطانه، نسى ما قدمه من شر ولم يفتح بابا للاستغفار والإقلاع، والتعبير بما قدمت يداه، يراد به ما قدم، وعبر باليد وهى الجزء عن الكل - وذلك من المجاز المرسل - لأن ذلك الجزء له مزيد اختصاص من بين الأجزاء لأنه أكثر الشر يكون به.

وقد بين سبحانه حالهم وأنهم يصبحون غير قابلين للهداية، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الأكنة الأغلفة والحجب المانعة، والوقر الثقل فى الأذن، والمعنى فى الإجمال جعلنا حواجز تمنع أن يصل نور الحق إلى القلوب لتفقهه وينفذ إلى إدراكها، والإذعان له، والفقه إدراك الأمر والنفوذ إلى غاياته وما يدعو إليه، وقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ فى مقام المجرور بلام محذوفة، وكثير ما يحذف حرف الجر فى أن وما بعدها، أى جعلنا الحجب المانعة من أن يفهموه.

والكلام فيه تشبيه بالاستعارة التمثيلية، شبهت حالهم فى الإعراض عن الحق بحال من وضع على قلبه حجب تمنع النور أن يصل إليها، وحال من وضع على أذنه ثقل فلا يسمعه، وجرى ذلك مجرى الأمثال فى القرآن الكريم، وجملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ منفصلة عن الجملة قبلها لأنها فى مقام التعليل لها.

وإن النتيجة لذلك أنهم لا يهتدون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أى إذا كانوا على هذه الحال من أن منافذ الحق قد سدت على أسماعهم وقلوبهم، فإن تدعهم إلى الهدى ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾، أى ما داموا على هذه أو ما داموا فى الدنيا وليس هذا تهيئة للنبي ﷺ من إيمانهم فلا يدعوهم، ولكنه بيان له لكى لا يرجو إيمانهم بطرد الذين يدعون

ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، واليأس من إيمان قوم لا يستدعى ترك الدعوة بل يوجب دعوة غيرهم، والاستمسك بمن آمنوا.

وقد بين سبحانه أن الشر كثير في هذه الدنيا، فقال عز من قائل:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا (٥٨)﴾.

﴿وَرَبُّكَ﴾ عبر بربك للإشارة إلى أنه الخالق المربى القائم على عباده، القيوم على أمورهم ﴿الْغَفُورُ﴾ الذى من شأنه المغفرة لعباده يعفو عن كثير ولا يأخذ بكل ما فعلوا، وقدمت المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، فالتطهير مقدم على التجميل، وقوله تعالى: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ و(ذو) بمعنى صاحب، فالمعنى صاحب الرحمة، أى أن الرحمة تلامذته العلية وتختص بها، فلا رحمة إلا منه، وغيره لا رحمة عنده فالله وحده هو الذى يملك الرحمة، وما عند غير الله لا يعد رحمة بالنسبة لما عنده، إنما يكون أمرا نسيا، والرحمة الحق لا تكون إلا من عند الله، فهو خالق الوجود وخالق الرحماء، فكل رحمة هي منه.

وإن من رحمته مغفرته، ومن رحمته أنه يمهل حتى تكون التوبة النصوح، وتوبة العبد أحب إليه، ومغفرته أقرب عنده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ هذه الجملة السامية كالنتيجة لكون الله تعالى غفورا ذا رحمة؛ إذ إنه لذلك لم يؤاخذهم بما كسبوا من شر مستطير وقت أن وقعوا بل أمهلهم وأعطاهم زمنا للتوبة، أو لمضاعفة ما يقتربون، ولأنها نتيجة لما قبلها كانت غير متصلة بها بالعطف، وعبر سبحانه وتعالى بالماضى فى قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ للإشارة إلى أنه كثير يكفى لأشد العقاب، ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ وتعجيل العذاب هو العذاب الدنيوى، وهذا يشير إلى أن أهل مكة ارتكبوا من الشر بالكفر، والإيذاء والفتنة فى الدين والاستهزاء بآيات الله وبما جاء به محمد ﷺ ما يستحقون به أشد العذاب، وأن ينزل بهم ما نزل، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون محمد خاتم النبيين، وأن تكون رسالته دائمة بمن يؤمنون، فلا ينزل سبحانه وتعالى

عقابا يعم، ولا يصيب الذين كفروا خاصة؛ ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ الإضراب في ﴿بَلْ﴾ هو عن نتائج الشرطية السابقة لرد ما بعدها، ﴿لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو أن ينزل بهم العقاب الدنيوى بالجهاد وأن يدبل منهم، ثم بعده العقاب الآخروى، وكلاهما له موعد لا يتقدم، ولا يتأخر، ولا محيص عنه ﴿لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾، أى ملجأ فهو نازل بهم فى ميقاته لا خلاص لهم منه، وأمامهم العبر، يعتبرون بها؛ ولذا نبههم الله تعالى إليها فقال:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾ .

القرى المدن الكبيرة أو الدول الكبيرة، والمراد بالقرى ليست الأماكن، إنما أهلها؛ ولذا قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ لضمير العقلاء لما ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾، أى عند ظلمهم، وجعلنا لمهلكهم موعدا، أى مكناهم من أن يرجعوا عن غيهم وضلالهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، ومهلك مصدر ميمى، وبين أيدينا أخبار الرسل مع أممهم من قوم نوح إلى قوم هود وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٢﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْخُوتَ وَمَا أَنَسَيْتُهُ إِلَّا الشَّيْطَانَ أَنِ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ

فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّ إِلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾

قص الله تعالى في سورة الكهف ثلاث قصص تدل على قدرة الله تعالى في أن يودع الإنسان من القوى ما يكون خارقا، وما يكون دالا على أن الله يدع ما لا يعرفه الناس في أعرافهم وبمقتضى سنة الوجود الإنساني التي سنّها الله تعالى له في هذه الأرض.

أولى القصص الثلاث - قصة أهل الكتاب الذين ناموا لتسع سنين وثلاث مائة، وتراهم أيقاظا وهم رقود، ويقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، وقد تلونا من قبل الآيات الخاصة بهم، وذكرنا ما أدرکنا من معانيها.

والقصة الثانية - قصة عبد صالح آتاه الله من لدنه رحمة، وآتاه بعض العلم بالأسباب فيما يقدره الله سبحانه وتعالى وصاحب نبيا من أولى العزم من الرسل، وهو موسى عليه السلام، وتتلو بين يدي القارئ قصصها إن شاء الله تعالى.

والقصة الثالثة - قصة رجل آتاه الله علما وحكمة وإذا كان لم يؤته علم الغيب فقد آتاه الله تعالى علم الأشياء وما في الأرض وبه ختمت السورة.

وإذا كانت القصة الأولى تنبئ عن قدرة الله تعالى في الإحياء، وفي بقاء الحياة مع اختفاء الحركة، والقصة الثانية تنبئ عن أن لكل شيء سببا، وإن كنا لا نعلمه فأتى الله عبده الصالح علم بعضه، ففي القصة كيف يمكن أن تكون الأرض وما فيها علما للإنسان يأتيه بعقله واختياره فيأتي بالعجائب، بعد هذه المقدمة القصيرة نتناول آيات العبد الصالح.

كان موسى يسير مع فتاه على سيف البحر، يبدو أنه سيف البحر الأحمر من جهة الشرق، وجد العبد الصالح أنه وفتاه يسيران حتى بلغ مجمع البحرين، وإليك الآية الأولى قبل اللقاء بالعبد الصالح:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ۖ﴾ (٦٠).

موسى ﷺ هو موسى بن عمران المذكور فى القرآن، لأنه لم يذكر علم اسمه موسى سوى هذا الرسول الكريم، ومن يقول إنه موسى غيره، فهى دعوى بلا دليل ولا مصدر لها إلا من يشكك فى القرآن بخلق أشياء لا أصل لها حول عباراته، إيعادا لمعانيه عن المراد منها، وقوله ﴿لَا أَبْرَحُ﴾، أى لا أترك السير ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾، وهذا يفيد أن المقصد الأول له أن يبلغ مجمع البحرين أو يسير حُقْبًا، أى زما طويلا، أى ما شاء الله تعالى أن يسير، ويظهر أن ذلك كان من موسى ﷺ لتعرف الأراضى والناس فى مرتحلته، أو ليرتاد لبنى إسرائيل مقاما، وقد سبقهم للارتياح ليكفيهم مئونته أولا، ولينقلهم إليه بعد الاهتداء إليه وتعرفه، وقد وصل إلى مقصده وهو بلوغ مجمع البحرين، ولذا قال تعالى:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ﴾ (٦١).

ومجمع البحرين الذى بلغه نبي الله تعالى موسى - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - يكون فى المكان الذى خرج إليه موسى من أرض مصر، وقد خرج إلى سينا، والأردن، فهذه الأرض كانت المسار الذى يسير فيه، وهنا مجمعان كانا فى ذلك الزمان، فكان هنا مجمع يلتقى فيه الخليج الفارسى بالمحيط الهندى وهنا مجمع يلتقى فيه البحر الأحمر أو بحر القلزم ببحر الأردن، وهو خليج العقبة ولا يهمننا أيهما، إنما يهمننا أن موسى ﷺ كان هدفه الوصول إلى مجمع البحرين أيهما فى هذه المنطقة، وقد يكون قد سار إلى كل واحد منهما فى نوبة من نوبات سيره، ويظهر أنهما فى هذه الرحلة المتعرفة الباحثة التى يرتادها قد أعد للرحلة عدتها، فأخذ معه حوتا، يشويانه هو وفتاه فى رحلتها سداً للجوع، ولما بلغا مجمع البحرين تبين لهما أنهما تركا الحوت نسيانا له ولاشتغالهما بأمر الرحلة، وتعرف طرائقها المعقدة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ والنسيان لم يكن وقت البلوغ ولكن تبين النسيان فى ذلك؛ لأنهما بحثا

عنه، فلم يجداه، ولم يكن الحوت ميتا، بل كان حيا؛ ولذا لما نسياه اتخذ طريقه في البحر سرياً، أى أنه أخذ يتقلب حتى وصل إلى البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، والسرب المسلك، وهو من سرب بمعنى سلك، ويظهر أنه لم يقف عند مجمع البحرين، بل اجتازه.

ولذا قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٦٢).

كأنهما استمرا فى سيرهما حتى جاوزا مجمع البحرين سارا برا؛ حتى وصلا إليه، ثم اجتازاه بعبوره فى قارب حتى وصلا إلى البر الثانى دارسا متعرفا مرتادا. عندئذ أحس بالنصب، والنصب جعلهما يحسان بالجوع، والنصب هو التعب من الجهد المبذول، وأضاف اللقاء إليهما ولم يقل نزل بهما التعب؛ لأنه نصب مختار لهما ولطلبهما.

والفتى هنا هو الخادم أو التابع، والتعبير القرآنى عن التابع أو الخادم بفتى، ولقد قال النبى ﷺ: «لا تقل عبدى وأمتى، بل قل فتاى وفتاتى».

قال ذلك موسى لفتاه، ويظهر أنه قد علم غياب الحوت قبل أن يعلم موسى، ولذا هو الذى أخبر بغيابه، ولعله باشر حاله وهو يتخذ سبيله فى البحر سرياً، ولذلك كان يعلم من بعد مكان غيابه، وهو مكان بجوار صخرة، فقال:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (٦٣).

تبين أنه كان يعلم غيابه وتركه، إذ أوى موسى إلى صخرة، رقد عندهما من التعب كما أرقى التعب الفتى أيضاً، فترك الحوت ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، أى أنه تركه فالنسيان هنا بمعنى الترك والذهول، وما كان يحسب أنه سيتخذ طريقه إلى البحر بطريق ﴿عَجَبًا﴾، فعجبا مفعول مطلق وصف لمصدر، فاتخذ طريقه إلى البحر اتخاذا عجباً، وما كان يحسب أنه سيفعل ذلك، إذ كان فى مكمل فخرج منه وأخذ طريقه إلى البحر.

وقد اعتذر الفتى اعتذاراً كاملاً، فقال: ﴿نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ فاعترف بأنه يتحمل خطأ ذهاب الحوت؛ لأنه ترك الاحتياط وكان يجب أن يكون يقظاً.

ويظهر أن موسى ﷺ كان قد علم من ربه أن العبد الصالح سيلقاه عند الصخرة، ولكنه تركها وهو مار ورقد عندها ولم ينتبه بسبب الرقود عندها أنها الملتقى، ولكن الله تعالى رده إليها، بعد أن تنبه إلى أن الحوت ترك عند الصخرة فكان لا بد من العودة؛ ولذلك قال:

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾.

الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى العودة إلى الصخرة والرجوع إليها و﴿قَصَصًا﴾، أى يتبعان أثرهما مقتفين للطريق الذى مرأ به؛ لأن الصخرة موضع اللقاء بالعبد الصالح.

اللقاء

قال الله تعالى:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُمُ مُّوسَىٰ هَلْ أَتَبِعُكُمْ
عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنْ أَتَبِعْتَنِي فَلَا تَشْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا

لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

التقى موسى بالخضر عليهما السلام، وجاء في البخارى عند لقاء موسى وصحبه بالخضر. وجدا الخضر على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضك من سلام!! من أنت؟ فقال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال جئت لتعلمنى بما علّمت رشدًا^(١).

وقال الثعلبى فى كتاب العرائس، أنه قال عند رد السلام «وأنى بأرضنا السلام، ثم رفع رأسه واستوى قائما، ثم قال: وعليك السلام يا نبي بنى إسرائيل، فقال موسى عليه السلام: وما أدراك بى؟، ومن أخبرك أنى من بنى إسرائيل؟، قال: الذى أدراك بى وذلك على، ثم قال: يا موسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل، قال موسى: إن ربي أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك.

هذا هو اللقاء، بين علم النبوة وعلم القدر الذى آتاه الله بعض أسباب عمله سبحانه وهو الحكيم، وقد اعتمدنا فى خبر اللقاء على المروى لأنه لا تزيد فيه، ولأنه متلاق مع النص القرآنى أشار إليه، ونبه عليه.

الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هى فاء العطف التى للتعقيب والترتيب، أى أنه عقب الوصول إلى الصخرة وجدا عبدا من عبادنا، وجعل سبحانه اللقاء مع موسى وغلّامه لتسوية الصحبة وإعطاء الغلام حقه من

(١) القصة كاملة رواها البخارى: تفسير القرآن - قوله: (فلما بلغا مجمع بينهما)، (٤٣٥٧).

الكرامة، ووصف الله العبد الصالح فقال: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الرحمة النعمة، والرحمة بالناس إذ يفعل ما يكون فيه صالحهم قابلاً، وإن لم يعلموه عاجلاً، والعلم الذى من لدن الله تعالى العلم بعواقب الأمور، بالإدراك الباطنى، وقد وازن بعض المفسرين بين علم موسى، وعلم العبد الصالح الخضر، فقال: علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

والحق أنه يضاف إلى ذلك أن علم الخضر علم الأسباب فى بواعثها، وعلم موسى علم الأسباب فى واقعها، كما سنرى ذلك فى المجاوبة التى كانت بينهما.

طلب موسى ﷺ من أن يأذن له باتباعه، فقال:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦).

سأل موسى ﷺ الخضر سؤال التلطف المستأذن فى الاتباع، فلم يرد أن يظهر بمظهر المقحم لنفسه المتهجم بها، وقد قال القرطبي: «هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك، ويخف عليك» وهذا بلا ريب تعليم لأداب الصحة أنها تكون باتفاق النفوس، وتلاقى القلوب، والاستفهام لبيان إرادة الاتباع فى أبلغ أدب، وبين سبب ذلك الطلب، فقال: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾، و﴿رُشْدًا﴾ مفعول لـ ﴿تُعَلِّمَ﴾، أى أتبعك على أن تعلمنى رشداً مما علمت، و﴿عَلَىٰ﴾ تفيد الشرط، أى أن هذا الاتباع لغاية؛ ولذا كان شرطها أن تعلمنى رشداً مما علمك الله تعالى، وبنى الفعل للمجهول؛ لأن المجهول فى اللفظ معلوم فى الحقيقة، فقد سبق قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وتوقع الخضر ﷺ ألا يصبر؛ لأنه ستقع منه أمور غريبة فى ظاهرها، ولا يصبر أحد على الغريب من غير أن يتعرفه، فقال تعالى:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾ .

أكد أنه لا يستطيع صبرا على ما يقع منه؛ لأنه أوتى علم الوقائع فى صورها الظاهرة، ونتائجها المعروفة، وأكد أنه لا يستطيع الصبر، بـ «إِنْ»، و«لَنْ»، والآية بعدها: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ (٦٨) .

وقوله: ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أى فى صحبتى صبرا؛ لأنك ستجد غرائب بالنسبة لك، ولا تصبر على أمر لم تحط به خيرا، الإحاطة بالخبر العلم به فى واقعه ونتائجه، وأنت ستعلم الواقع. ولا تعلم نتيجة هذا الواقع التى لا يعلمها إلا الله تعالى وقد علمنى بعضه سبحانه، وأحاط بالأمر، أى كان عالما به، كقوله تعالى: ﴿... أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) [الطلاق]، وأحاط به خيرا معناه أحاط متصلا به خيرا، بالاختبار والمعاينة، ومؤدى هذا الكلام أنه يقول موسى عليهما السلام إنك لا تعلم إلا ما تختبره وتعاينه، ولا تعلم نتائج الأعمال الظاهرة التى يقدرها الله سبحانه وتعالى فى علمه المكنون.

وعده موسى ﷺ بالصبر تعليمًا لكل ذى حاجة أن يكون فى طاعة من يحتاج إليه إذا كان فى الخير:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩) .

السين لتأكيد ما يقع فى المستقبل، وهنا نجد كلام كريم الله موسى اشتمل على ثلاثة أمور: أمران فيهما الطاعة، وأمر فيه التعليق على مشيئة الله:

الأمر الأول - وعده بالصبر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي﴾، أى أنى منفذ ما طلبت، وستجد ما طلبت وهو الصبر قائما، على أنه وصف مستمر، ولذا قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ .

الأمر الثانى - أنه تأدب بتأدب تعلق على المشيئة، كما أمر الله نبيه محمدا فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿فهذا تأديب الله تعالى لآبائته وعباده الصالحين .

الأمر الثالث - أنه قال: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وذلك أدب الاتباع، فالاتباع يقتضى الطاعة، والصحبة تقتضى عدم المنافرة والمخالفة.

أخذ العبد الصالح يبين حدود الصبر، وأنه صبر على الامتناع عن السؤال عن سبب الفعل مع غرابة الفعل فى ذاته، وهذه طاقة عالية فى الصبر، فإن العقل طُلعة يريد تعرف سبب كل واقع، وسر كل مجهول، فقال:

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾.

قال العبد الصالح لموسى وقد وعده بالصبر، والفاء للإفصاح عن الاتباع المشروط بالصبر، أى إن صبرت فاتبعتنى فمقتضى ذلك ألا تسألنى عن شىء تستغربه، ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ لعلته، أى لا تسألنى حتى أبادئك بالبيان، وذلك من مقتضيات الصبر، ومن آداب المتعلم أمام المعلم، والتابع للمتبع لا يبادره حتى يبين هو ما عنده، والتعبير بالذكر يشير إلى أن ما يخبر به من بعد هو تذكير بقدرة الله تعالى.

بعد هذه المواثيق بين موسى كليم الله تعالى والعبد الصالح عليهما السلام أخذًا فى السير؛ ولذا قال تعالى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾.

(الفاء) فى ﴿فَانْطَلَقَا﴾ للترتيب والتعقيب، أى أنهما عقب أخذ هذه المواثيق، انطلقا فور ذلك الاتفاق، والتعبير بـ (انطلقا) يومئ إلى أن كليهما فرح بهذه الصحبة وسارا ما شاء الله أن يسيرا إلى أن وجدا سفينة، وكان السير على سيف البحر، ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾، أى أنه خرقها وقت أن ركبها، وفى الصحيحين أنهما لم يدفعا أجرا، وخلع لوحا منها، لم يدرك موسى ﷺ الذى أوتى علم المباح والمنوع، ولم يعط من علم الغيب شيئا، لم يدرك، فقال: ﴿أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ اللام فى ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ لام العاقبة،

أى لتكون النتيجة أن يغرق أهلها، والأمر الإمر: هو الأمر الخطير العظيم فى ذاته من قولهم أمر الأمر إذا عظم، كما قال أبو سفيان متهمًا: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة، عندما رأى هرقل يهتم بأمر النبي ﷺ ويسأل عنه.

لم يسأل موسى ﷺ عن السر، ولكنه أبدى استغرابه، ولم يستطع الصبر، ولذا قال العبد الصالح:

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ﴾ (٧٢).

الاستفهام بمعنى النفى، ونفى النفى إثبات وهو هنا يفيد الاستنكار والتوبيخ، والمعنى لقد قلت لك إنك لن تستطيع معى صبرا؛ أى فى صحبتى صبرا، لأنك تسير مع ما يحكم به على الأشياء والأعمال فى الحياة، والعبد الصالح يعلم علم الحقيقة، وهو نتائج الأعمال فى العلم المغيب عن الناس جميعا فى هذه، فهو يخالف بين العلم بالأحكام التى تحكم بين الناس، والعلم بالحقائق التى يقررها الله تعالى، ونتائجها، فالفرق بين العلمين، العلم بما ينظم الناس عليه أمورهم والعلم برب الوجود، وما قدره الله تعالى.

أدرك كلهم الله تعالى خطأه، واستدرك أمره، فقال معتذرا:

﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ ﴾ (٧٣).

لا تأخذنى بطلب رفع المؤاخذه بسبب النسيان، فـ «ما» وما بعدها مصدر، والنسيان يرفع المؤاخذه ويسقط التبعة، وما تركت من وصيتك من ألا أسألك عن شئ قبل أن تحدث أنت منه ذكرا - إلا للنسيان ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾، أى لا تشدد على فى التعنيف فىكون الإرهاق الشديد، والمعنى اللفظى لا ترهقنى عسرا من أمرى فتغلظ على الصحبة التى أريدها.

ولكنهما سارا مصطحبين، فكان أمر أشد غرابة، وأعنف مظهرا من خرق السفينة، وهو قتل غلام، ولقد قال تعالى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ .

انطلقا سائرين على سيف البحر، ولكن حدث ما أثار استغراب موسى بل استنكاره ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾، أى أن السير استمر إلى غاية، وهو لقاء غلام، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ للتعقيب، أى أنه قتله فور لقائه، وهذا يدل على أنه لم يرتكب ما يسوغ القتل؛ إذ إن القتل كان فور اللقاء.

وهنا يتخالف مع علم الحلال والحرام، وعلم الحقيقة الغيبية فيكون الاستغراب، ويقول موسى الكريم مستغربا لائما ﴿أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، أى طاهرة غير معتدية نامية، لأنها فى باكورة حياتها، إذ التزكية التنمية، بغير مسوغ يسوغ لك هذا الفعل؛ ولذا قال بغير نفس، أى حتى يكون القتل قصاصا لا اعتداء فيه ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، أى أمرا منكرا فى ذاته تستنكره العقول، ويتخالف كل معقول.

وقد كان الفعل شديدا، والاستنكار شديدا، وهو أيضا من التخالف بين علم الحلال والحرام، وعلم الحقيقة الغيبية، وقد وصفه كما ذكرنا بأنه شيء نكر، تنكره العقول وكل عرف إنسانى، وقد كان اللوم على الاستغراب أشد. ولقد قال تعالى فى بقية القصة الصادقة:

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَٰذَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَن يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴿٧٧﴾ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي

وَبَيْنَكَ سَأْنِيَّتُكَ بِنَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلَانُ
فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَن أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

كان استغراب موسى شديداً، وكان معه استنكار ووصف له بالنكر، ولذلك
كان التذكير بأنه لم يستطع صبراً بأسلوب قوى فيه لوم أشد، فقال تعالى:
﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥).

فقد زيد ﴿لَّكَ﴾ عن اللوم السابق الخاص بخرق السفينة، وهى تفيد مزيد
اللوم، إذ إنه يذكره بأن الخطاب كان له، وفى ذلك فضل توكيد اللوم، لأنه لم
يكن الخطاب لغيره، بل كان له ابتداءً، والاستفهام للإنكار بمعنى إنكار الوقوع مع
اللوم وتحقيق القول، والمعنى لقد قلت لك إنك لن تستطيع معى صبراً، وفيه تأكيد
لعدم الاستطاعة بالجملة الاسمية و«إن» الدالة على التوكيد، و«لن» المؤكدة للنفي،
وتنكير الصبر، أى صبراً كان قليلاً أو كثيراً.

لقد قال موسى لصاحبه فى المرة الأولى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾،
أى لا ترهقنى عسراً من أمرى، فتجعلنى فى عسر من صحبتك بل تغاض، وسهل

الصحبة وقربها، أما في هذه المرة فقد أحس بشدته هو على العبد الصالح، إذ قال إن ما فعلته نكر.

أحس موسى - كليم الله تعالى - بشدة اللوم، وأحس بأنه كان منه ما أوجبه، ولذا قال في حال تشبه الاعتذار:

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (٧٦).

اعتزم موسى ﷺ ألا يسأله عن شيء بعد هذه المسألة، وفي الواقع إن ما كان منه اعتراض وليس بسؤال؛ لأن السؤال استفسار، وليس فيه حكم على الفعل بأنه خير أو شر، أو بأنه موضع ملام أم ليس بموضع، وكلام موسى ﷺ كان يحمل معنى اللوم لا الاستفسار ولكنه سماه سؤالاً؛ لأنه أمره بالصبر وخالفه، وتأديبا معه في القول فأراد أن يحمل كلامه على أنه استفسار، وليس باعترض، وقوله تعالى: ﴿بَعْدَهَا﴾ الضمير يعود إلى مفهوم القول، وهو المنكرة التي أنكرها على العبد الصالح؛ إذ رماها بأنها نُكِرُ تستنكره العقول والأفهام، وفي هذا ترشيح للاعتذار عن العبد الصالح، وتهديد لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾، أي فقد كان بلغت عذرا في لومك لي، والمعنى أعذرت لنفسك عندي، و﴿لَدُنِّي﴾ يعني عندي، ولا تكون إلا للعندية في أمر خطير، وأكثر ما تكون للعندية عند الله تعالى كقوله تعالى: ﴿... مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝﴾ [هود].

استمرا في سيرهما مراقبين لأعمال العباد، فقال تعالى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٧٧).

سارا منطلقين إلى الغاية التي أرادها موسى من العبد الصالح؛ لأن الله أتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، وإن الذي يسير لا يأتي أهل القرية أولا، إنما يأتي القرية أولا بمبانيها، وطرقها، ويتعرف أهلها،

ولكنه ذكر الأهل أولاً - لأنهم لهم شأن في هذا اللقاء وهو اللؤم، وفساد النفس كما يبدو مما يأتى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾، أى فور اللقاء معهم طلبوا الطعام، فالسين والتاء للطلب، طلبا الطعام، لأنهما كانا فى جوع شديد، وألأم القرى الذين لا يقرون الضيف ولا يطعمون ابن السبيل الذى يكون فى مكان قد انقطع عنه زاده، وإن كان غنيا فى مكانه، فأجابوهما عن الاستطعام بالامتناع؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ والتضيّف طلب الضيافة بشدة الحاجة، وردها بشدة مع ظهور الحاجة، وهل يكون ظهوراً أشد من الاستطعام وكان تكرار ذكر أهلها؛ للدلالة على لؤم القوم، وفساد المروءة.

ومع ما بدا عليه أهل القرية من بخل رأى جداراً آيلاً للسقوط فأقامه؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾، أى أن موسى والعبد الصالح وجدا جداراً قد تداعى للانهار أو آل للسقوط فأقامه مع أهلها، وقد عبر الله تعالى عن الأيلولة للسقوط بقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾، أى ينهار والإرادة هنا تعبير مجازى، فقد شبه الجدار الذى مال للسقوط بإنسان له إرادة، وأراد أن يقع، وينقض تجريد للإجازة؛ لأنه وصف يناسب المشبه، ولقد أفاض الزمخشري بباعه الطويل فى البلاغة فى هذا المجاز فقال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ استعيرت الإرادة للمداناه والمشاركة، كما استعير الهم والعزم... قال حسان:

إن دهرًا يلف شملَى بِحُمْلٍ لزمان يهم بالإحسان

وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وقول الله تعالى: ﴿... قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت].

وقد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة، لقد أخبرنا الله تعالى أنه أقامه، ولكن لم يبين لنا سبحانه كيف أقامه، أهدمه ثم أقامه من جديد؟ أم أقام أعمدة سنده أم رم ما فيه من ثغرات؟، لم يبين القرآن ذلك، ولا تستطيع معرفته بروايات من غير القرآن إلا أن تكون سنة نبوية ثبتت بسند صحيح، لا مرية فيه، ولا وهن، وإن كنا

نميل إلى أنه هدمه وبناء، كما سيبين في أنه كان لغلّامين يتيمين، وكان تحته كنز لهما.

والأمر أثار استغراب كليم الله تعالى موسى لأنهم أنذال، وكلف نفسه إقامة جدار أراد أن ينقض؛ ولذا قال لصاحبه: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أى أنه عمل نافع لقوم لثام يستحق أجره وهما في حاجة إليها، وقوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾، أى يمكنك أن تأخذ عليه أجرا لو أردت، وهذا بلا ريب اعتراض وإن كان خفيفا؛ لأنه لم يقل أنه أمر إمر، ولا أمر نكر، ومهما يكن فإنه لا يخلو من اعتراض ولوم ورغبة فى أن يأخذ أجرا، ولقد أنهى بعدها الصحبة العبد الصالح، فقال:

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾.

الإشارة إلى الأمر الأخير، وهو قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أى أنه ترك الأجر لقوم غير كرام، بل هم لثام وذلك يدل على أن مغبة عدم الأجر ترجع إليه لأنه لم يشأ أن يطلبه.

كأنه بهذا يشير إلى أن كثرة المجاوبات وعدم الصبر هو الذى كان سبب الفراق بينى وبينك، أى أن هذا هو الحد الفاصل بيننا، ويصح أن تكون الإشارة، إلى النهى عن المصاحبة، إذا سألَه فقد قال موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

ومهما يكن ما يشير إليه اسم الإشارة، فالمعنى أن ذلك هو الحد الفاصل الذى فرق بينهما فى هذه الصحبة، فهو إيدان بانتهاء المصاحبة التى كان منها ذلك التعليم مما علمه الله تعالى.

وبعد أن أنهى المكالمات بينهما، أخبره بسبب ما فعل، أو الغاية والمآل من فعله فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ الإنباء: الإخبار بالأخبار الخطيرة والتأويل معناه معرفة المآل، والسين للإخبار المؤكد فى المستقبل، وقوله

تعالى: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ قدم ﴿عَلَيْهِ﴾ على ﴿صَبْرًا﴾؛ لأن ذلك أدعى للاهتمام.

أخذ بعد ذلك ينبه بالسفينة، ثم بقتل الغلام، ثم بإقامة الجدار، فقال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩).

بعد ذلك أخذ في تفصيل أو تفسير ما فعل وغايته الغيبية أو المال العيني، ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾، المساكين هنا جمع مسكين، وليس هو المسكين القسيم للفقير الذي هو أدنى حالا من الفقير، عند بعض الفقهاء، أو أعلى حالا من الفقير على قول آخرين، إنما المراد الضعيف الذي لا قوة ولا سطوة لقلته في العدد، أو لاستخذاء أمام قوى غالب، والمراد لقوم ضعفاء، كانوا يعملون في البحر بحارة أو تجارا، ولم يكونوا ذوي قوة تغلب أو تقهر، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ورائهم في السير، أى أنهم يسرون ويسبقونه، ويكون هو بعد سيرهم، فهو يستقبلهم، ويغتصب سفيتهم لضعفهم واستكانتهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فهي مقدمة عن تأخير؛ لأن سبب إرادة عيبها أن وراءهم ملكا إلى آخره، والسبب مقدم على المسبب، ولكنه قدم هنا إرادة العيب على سببها؛ لأن إرادة العيب هي سبب لمنع الغصب قدمت عليه، إذ هذا العيب يحمى هؤلاء المساكين وسفيتهم من الغصب، إذ يراها ليست مما يرغب فيه، فيمتنع عن غصبها لا كراهية للغصب في ذاته ولكن استحقاقا لها بعد هذا العيب.

والعيب يمكن إصلاحه، والمهم إنقاذ السفينة من اغتصاب المغتصب.

وإن هذا التأويل يدل على أن ظواهر الأمور قد تكون ضارة بادى النظر، ولكنها في غايتها، خير وفير، ﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ...﴾ (٢١٦) [البقرة].

هذا هو تأويل خرق السفينة أو ببيان مآله، أما قتل الغلام فقد قال فيه كما

حكى الله تعالى عنه:

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ۝﴾ (٨١).

والغلام يطلق على الصبي المراهق الذى لم يبلغ الرشد، وقد قتله كما تلونا، واستنكر موسى - كليم الله تعالى - بعلم الحلال والحرام تلك القتلة، ووصفها بأنها أمر نكر، وهذا تأويل تلك الفعل، أى معرفة مآلها، ونتيجتها، يقول العبد الصالح الذى آتاه الله تعالى علما من لدنه ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾، أى ولم يكن يرجو أن يكون ولدا صالحا تقرُّ به أعينهما بتقواه واستقامته، بل توقع منه الشر أو علمه مما علمه الله تعالى، ولذا قال: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، أى علمنا مما علمنا الله أنه سيكون منه شر كبير، فبسبب ذلك خشينا أن يكون منه إرهاب نفسى ومادى لهما ويظفى عليهما ويكفر، فمعنى ﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾، أى ينزل بهما رهقا ﴿طُغْيَانًا﴾ يظفى به عليهما فلا يكون بارا بهما، بل يكون عاقبا لهما يؤذيهما، ﴿وَكُفْرًا﴾ يكون سبة لهما، ومصدر إيذاء.

قتله لذلك، ولأنه أراد لهما ذرية طيبة طاهرة تقر به أعينهما؛ ولذا قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ۝﴾ (٨١) يتكلم بلغة المتكلم ومعه غيره، وهذا يسير إلى أن الله معه فهى ليست إرادته وحده، إنما هى إرادة الله سبحانه وتعالى، وهو لها منفذ، فلم يجعلها له وحده لأنها ليست إرادته وحده، ولم يجعلها لله تعالى؛ لأنه لم يجد من الأدب أن ينسب القتل لله تعالى.

وهنا يسأل سائل: لماذا قال فى السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ولم يقل بلسان المتكلم ومعه غيره؛ لأن خرق السفينة ليس فى حظ القتل فصيح أن ينسبه لنفسه، وإن كان بأمر الله، أما القتل فأشار إلى أنه بأمر الله تعالى لخطورته، وأسند التبديل إلى الله؛ لأنه لا يكون إلا منه، (الفاء) هنا تفيد السببية الظاهرة، أى أنه بسبب ما يخشاه منه من الكفر والطغيان كانت إرادة التبديل، وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾، أى أن يجعل بدلا منه يحل محله خيرا منه زكاة، أى طاهرا ناميا، وأقرب رحما، الرُّحْم بضم الراء تطلق ويراد منها الرَّحمة، وتطلق ويراد

منها الرَّحِمَ، وعلى الأول يكون المعنى خيرا منه طهارة، وأقرب رحمة، أى أدنى إلى الرحمة والبر من هذا الذى يرهقهما طغيانا وكفرا، وعلى الثانى أقرب رحما، أى أوصل لرحمه، وأحفظ لحق الأبوة، فيكون منه الطهارة والبر بهما، فلا يكون كفر وشرك، ولا طغيان عليهما، ويكون قد دبر لهما الله بالولد الذى لا يرجى منه خير من يرجى خيره وبره وصلته الرحم، ويلاحظ أن الأوصل رحما لا يكون بره لأبويه فقط، بل يكون لأسرته كلها لهما، ولمن يتفرع منهما أو من أجدادهما.

بعد ذلك أجاب عن الجدار، ولماذا أقامه؟

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝﴾ (٨٢).

الغلامان كانا صغيرين كما يدل على ذلك وصفهما باليتيم، فإنه لا يتم بعد البلوغ إلا أن تكون آفة فى العقل أو النفس، واللفظ يطلق على ظاهر ما لم يقم دليل يوجب تحويله عن الحقيقة إلى المجاز، وإطلاق اليتيم على البالغ مجاز، ولقد قال ابن عباس فى هذا المجاز الرجل يتيم ما لم يرشد ولو بلغ الأربعين، ولكن ذلك مجاز لا حقيقة.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ الأب هو الأب القريب؛ لأنه لا يكون يتيما إلا إذا كان قد فقد الأب القريب، ولا يكون الصلاح ممتدا إلى الأبناء كما تشير الآية إلا إذا كان الولد صييا، كما قال النبى ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»^(١) فصلاح الأبناء ينسحب خيرا للأباء، وكذلك صلاح الآباء.

وكان تحت هذا الجدار كنز لهما، ورثاه عن أبيهما الصالح فيما يظهر، والكثر المال الكثير المدفون فى باطن الأرض بدفن الإنسان، وهذا الكنز مضيع إن

(١) سبق تخريجه.

لم يستخرج، وقد أراد الله تعالى أن يستخرج كنزهما، وهذا قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾، والأشد هو القوة، وقد شرحنا اشتقاقه، أى أن يبلغا قوتهما فى الجسم والعقل، والرشد فى التعامل ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾، واستخراج الكنز طلب إخراج، والعمل على ذلك منهما أو من غيرهما ممن له صلة بهما، فالسين والتاء للطلب، وذكر إرادة الله دون إرادته هو، وإن كانت إرادته تابعة لإرادة الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذه الإرادة الإلهية متعلقة بأمر فى المستقبل يتصل بالتكوين وهو بلوغ الأشد، وأن يحصل على كنزهما بعد محاولة استخراجهما ببذل ما يبذل فى سبيل ذلك عادة ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾، أى لأجل الرحمة من ربك الذى هو الحى القيوم الذى يرب الوجود جميعا، أحياء وغير أحياء.

وهنا نجد أن إقامة الجدار كان لأجل استخراج الكنز، وإن ذلك لا يتم فيما يظهر إلا بهدم الجدار أولا ليظهر ما تحته من كنز، ثم إقامته من جديد بعد كشف ما تحته.

ثم أشار العبد الصالح إلى أن ذلك بأمر الله وتكليفه فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، أى ما فعلته صادرا عن أمرى، بل منفذا أمر الله، وليس لأحد أن يعترض على أمر الله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، أصلها ما لم تستطع صبرا عليه، حذفت التاء تخفيفا فى النطق إذ يصعب النطق بالتاء التى يعقبا الطاء لتقاربهما فى المخرج، ولم تحذف فى ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾؛ لأنها متحركات بخلافها هنا فالأولى مفتوحة والثانية ساكنة، الإشارة إلى معرفة المآل فى سر خرق السفينة وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وإن ذلك من أمر الله تعالى؛ لأنه يتعلق بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله ومن يتكلم عن الغيب إنما يأخذ من علم الله الذى علمه بعض عباده الصالحين.

العبرة فى هذه القصة

أجمعت كل الصحاح على أن العبد الصالح هو الخضر، ويلاحظ أن القرآن الكريم ذكر أقواله ومجاوباته مع كلیم الله موسى عليهما السلام ولم يذكر عن شخصه إلا أنه عبد من عباد الله آتاه رحمة، وعلمه من لدنه علما، فإذا ثبت فى الصحاح أن اسمه الخضر، وهو من الخضرة والنضرة نقبله غير معترضين، ولكن راضين خاضعين مذعنين، والعبرة فى القصة بمعانيها، ولا مشادة فى الاسم بالنسبة لها.

وإن القرآن الكريم ذكرت فيه على أنها قصة قد وقعت ومجاوبات قد قامت بين موسى، والعبد الصالح فهى واقعة صادقة، ولا مساع لتفسير بغير أنها خبر قد وقع وثبت.

ولكن قد أثير كلام حول رؤية الخضر أكان مرثيا بالعيان كما ترى الأشخاص، أم أنه كان مرثيا فقط لموسى عليه السلام، وأنه لم ير وهو يخرق السفينة إلا لموسى فقط، ولم ير وهو يقتل الغلام إلا لموسى، وكذلك عندما أقام الجدار، ولو أنه رأى وهو يقتل الغلام لطارده الناس وما تركوه، وكذلك الجدار فإنه يحتاج إلى هدم وإقامة، وينظر الناس إليه وهو يهدم ويبنى، ويظهر الكنز، وكل هذا يحتاج إلى زمن طويل يكون مرثيا فيه للناس.

والى أميل إلى أن الرؤية كانت خاصة بموسى عليه السلام، كما يشاهد الأنبياء الملائكة، ومع ميلنا لهذا نقول: «إن اللقاء الأول كان مرثيا فيه لموسى ولغيره؛ لأن الله يسند فيه الرؤية لموسى ولفثاه»، فيقول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ مَا عَلَّمْنَا (٦٥)﴾.

ولعل السبب فى أن الفتى لم يذكر له خبر فى مسألة السفينة والغلام والجدار وكان يذكر الحديث عن اثنين فقط هما موسى والخضر، ولا يهمنا أين تركه وفى أى مكان افترق عنه فتاه.

وإن القصة تضمن معنى جليلا، وهو أن علم الغيب هو علم الله الذى اختص به سبحانه يعلمه من يشاء، وأن طاقة الإنسان الفكرية لا تكون إلا فى ظواهر الأعمال، والنتائج التى تكون ثمرة الأسباب الظاهرة، فعلى أن نسير فيها على مقتضاها، ونبنى أعمالنا عليها، ولكن مع ذلك نفرض أن الأسباب لا تنتج بذاتها، إنما ينتج بإرادة الله تعالى، وبمقتضى علمه المكنون الذى أحاط بكل شيء علما؛ ولذا أمرنا بعد اتخاذ الأسباب أن نتوكل على الله تعالى، مفوضين الأمور إليه، ولذا يقول الله تعالى: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ (آل عمران).

وأن ما يجريه الله تعالى معنا ربما لا يتفق مع ما نرغب، ولكن قد يكون ما غَيَّبَهُ اللهُ تعالى خيرا لنا، كما رأينا فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار فإنه فى هذه الأمور كان خرق السفينة الذى هو عمل الله تعالى سخر له عبدا صالحا من عباده خفى أمره على الناس.

ومن الفوائد التى اشتملت عليها الآيات أن رحمة الله تعالى تعم دائما ولا تخص، وأن رحمته تكون على الضعفاء، فقد قدر سبحانه وتعالى أن السفينة كانت لمساكين يعملون فى البحر، فقرّر أن تخرق لتكون معيبة، فلا يأخذها الذى يأخذ كل سفينة غصبا، وهذه من رحمة الله تعالى بالمساكين الذين يعملون فى البحر صائدين أو ناقلين لما ينفع الناس.

وإن قدر الله تعالى يجرى على بقاء الصالح، وفناء غير الصالح، ولذا قتل الخضر الغلام الذى خشى أن يرهق أبويه الصالحين طفغيانا ويبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما.

وفى القصة من الآداب الإنسانية، والأخلاق العالية الكثير، فنرى أنه يجب على الإنسان أن يطلب العلم، وأن يبذل الجهد فى طلبه غير مدخر فى ذلك جهدا؛ فهذا موسى عليه السلام يسير فى طلب العلم حتى يلقى النصب.

وفى القصة أيضا ما يجب من ألا يجعل الاستغراب أساسا للحكم على الأشياء فقد يكون الأمر المستغرب أصدق الأمور، وأقربها إلى الحق وأحسنها مآلا، كما رأينا فى السفينة وفى الجدار فلا يُردّ الأمر لأنه غريب، ولكن يرد لضرره، أو لأن مآله ضرر. وفيها أيضا، ما يجب من تطامن طالب العلم لمن يعلمه، كما رأينا فى تطامن موسى ﷺ للعبد الصالح.

وإن السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لوحظ فيها احتمال الضررين بدفع أحفهما، وقد لوحظ ذلك فى السفينة وقتل الغلام فقد خرقت السفينة لمصلحة العاملين فى البحر، ودفع الاغتصاب، وكذلك قتل الغلام لنفع أشمل، وإقامة الجدار فيه نفع كثير بتحمل ضرر قليل، وذلك أصل مقرر فى الشرع يؤخذ به إذا لم يكن نص.

قصة ذى القرنين

قال الله تعالى:

وَيَسْأَلُونَكَ

عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞

فَإَتْبَعَ سَبَبًا ۞

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ

وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذُو الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ

فِيهِمْ حُسْنًا ۞ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ

فِيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ

الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞

ذكر الله تعالى في هذه السورة ثلاثة أمور غريبة:

الأمر الأول - أمر أهل الكهف، وهو رؤية حسية يراها الناس كيف يجعل بعض الناس بين الموت والحياة إكراما لجهادهم، وهو تصوير لشهداء الحق كيف يكونون بين الحياة والموت، حتى ينالوا جزاءهم جزاء موفورا.

الأمر الثاني - كما ذكرنا قصة عبد صالح أتاه الله بعض العلم بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وما يشاء أن يعطيه بعض ما يعلم من عباده الأطهار فأعطى عبده الصالح بعض ذلك، وفي ذلك بيان أن قدر الله تعالى بنى على الحكمة الكاملة فقد يحسبه أهل العلم بالظاهر شرا، وهو عند الله تعالى له عواقب كلها خير.

الأمر الثالث - قصة رجل صالح من نوع غير نوع رجل موسى عليه السلام، وهو رجل خير تهيأت له الأسباب فاختر طريق الخير، وألهم العمل الصالح من غير تعليم من لدن الله، بل بتوفيق الله تعالى وتيسيره، وجهاده وإرادته الخير، ومثل من كان صالحا بهذا العمل الإرادى، والعبد الصالح كمثله اثنين أحدهما أوتى علما من علم القدر يسجل نتائج الأعمال، كما قدرها الله مرتبة على ما فعل، والثانى أوتى قدرة بتوفيق الله تعالى وإذنه على أن يقوم بعمل فيه مصلحة مؤكدة ونفع مؤكد يفعلها قاصدا إليه، وهو فى هذا يكافح أهواءه، ويقصد الخير قصدا واضحا بينا، والكل بفضل الله وإذنه وتوفيقه.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٢).

السائلون هم المشركون بتعليم من اليهود، أو من اليهود مباشرة، فقد جاء فى كتب السيرة أن اليهود قالوا للمشركين، سلوه عن الروح وعن العبد الصالح، وعن رجل ملك وكان صالحا، وجاء أن اليهود سألوا النبى ﷺ عن ذلك وهو بالمدينة.

ونحن نرجح أن المشركين سألوا بتحريض من اليهود؛ لأن السورة مكية فالأقرب أن تكون المجادلة بينه وبين المشركين فى مكة وهم قد يستعينون فى مجادلتهم النبى ﷺ بأهل الكتاب.

ومهما يكن فالسؤال وقع، وسئل النبي ﷺ عن ذلك الملك الصالح المعروف باسم ذى القرنين، فالسؤال كان عن شخص بعينه، وكان من أوصافه كما يدل سياق الآيات على أنه كان ممكناً، وأنه حكم فى مشرق الأرض ومغربها، وأنه ابتداء فى حكمه بالمغرب، وأنه كان عادلاً يجرى المسىء جزاء إساءته، ويجزى المحسن جزاء وفاقاً لإحسانه، وأنه كان مرجع الذين يؤذون من بعض بنى الإنسان، وأنه أقام سداً بين الأشرار ومن يتأذون منهم.

وكان من حقنا أن نكتفى بمعرفة صفاته وأفعاله ولا نحتاج فى فهم ذلك إلى معرفة شخصه أو من أى قبيل هو، فإن ذلك لا يزيد علماً بالقرآن ومعانيه، كما لا يهمننا شخصية فرعون موسى، ولا فى أى قرن من الزمان كان بعثه.

ولكن المفسرين تعرضوا لمعرفة شخصه، فقال قائل: إنه كان فى عصر إبراهيم ولا مستند لهذا القول، وقال آخرون مستندين إلى بعض آثار منسوبة للنبي ﷺ: إنه الإسكندر المقدونى بنى الإسكندرية حوالى سنة ٣٠٠ قبل ميلاد المسيح ﷺ، وعلى هذا رأى أكثر المفسرين الذين تصدوا لذلك، ولكن قام على هذا رأى ثلاثة اعتراضات:

الاعتراض الأول - أن هذه الآثار لم تصح عن النبي ﷺ ذكرها ابن جرير، وكذبها الحافظ ابن كثير.

الاعتراض الثانى - أنه كما ذكر فى عبارات القرآن كان موحداً، حتى ادعى أنه نبي، والإسكندر المقدونى المعروف عنه أنه كان يدين بوثنية اليونان والرومان.

الاعتراض الثالث - أنه سُمى فى القرآن بأنه ذو القرنين، ولم يكن المقدونى ذا قرنين، ولم يسم ذا القرنين.

وقد أجيب عن الثانى بأن كونه كان فى قوم وثنيين لا يقتضى أن يكون وثنياً، فالنجاشى كان فى النصارى، وكان مؤمناً موحداً، فإذا كان القرآن ذكر ذا القرنين مشيراً إلى أنه موحد، فليس فى أخبار المقدونى ما ينفى وحدانيته.

وكون المقدوني لم يكن ذا قرنين لا يدعى أنه كان ذا قرنين، وإن كان اسمه كذلك، على أن المقدوني كان يجوز أن يسمى ذا القرنين، وكان يلقب بذلك؛ لأنه اتخذ شعارا ذا تاجين، إذ إنه عندما فتح مصر لبس تاج الشمال وتاج الجنوب رمزا لاجتماع الإقليمين تحت سلطانه، فكان شبه قرنين.

وفى الحق أنه لو صدقت الرواية عن النبي ﷺ بأنه باني الإسكندرية ما عدلنا عن هذا القول؛ لأنه يكون تفسيراً للقرآن بالسنة وهي الميمنة للقرآن.

وهناك قول قاله العلامة الهندي أبو الكلام زاده وهو أنه غورث الفارسي الذي أنقذ بني إسرائيل من أسرهم في بابل، فقد وصف في التوراة التي بأيدينا في سفر دنيال وغيره بأنه لقب «ذو القرنين» لعظيم قوته واتساع ملكه وقوة سلطانه.

ويقرب هذا أنه ينطبق عليه الوصف المذكور في القرآن، وأن السؤال كما جاء في القرآن الكريم منبعث من اليهود، سواء وجهه اليهود إلى النبي ﷺ مباشرة، أم وجهوه عن طريق المشركين كما اخترنا ورجحنا، وأما ملكه فقد كان في وسط بين غرب آسيا وشرقها وأنه اتجه بسلطانه إلى الغرب، ثم اتجه من بعد ذلك إلى الشرق، كما يومئ القرآن الكريم، إذ إنه ابتداء بذكر عمله في الغرب ثم في الشرق، وإنا لا نختار رأياً لأننا لا نحتاج إليه في تفسير القرآن الكريم لأنه واضح المعنى ولو لم يعرف قبيل ذي القرنين.

هذه هي النظرة إلى شخص ذي القرنين، وإن كانت معرفة شخصه لا تزيد القرآن بيانا، بل العبرة في خبره ثابتة ولو لم يعلم جنسه وقبيله.

وقوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ الخطاب للنبي ﷺ في ﴿قُلْ﴾، والخطاب في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ للمشركين السائلين، للاعتبار؛ لأنه خبر رجل صالح، ممكن فأقام العدل، وأقام المصلحة، ونفع الناس. قوله تعالى: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ﴾، أي من خبره ﴿ذِكْرًا﴾، أي خبرا يكون فيه تذكير لكم بوجوب التوحيد، وترك عبادة الأوثان، وإقامة العدل، ونفع الناس بدل إيذائهم، والتعبير

﴿سَأْتَلُو﴾، أى سأخبركم بخبره وأقص عليكم قصصه، والتعبير بـ (أتلو) يشير إلى أنه قد نزل فيه قرآن وما أقص هو قرآن صادق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ آيَاتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِّأ (٨٤)﴾.

أى جعلناه ممكنا فى الأرض آتيانه حكما ثابت الدعائم قائما على عُمْدٍ ثابتة ممكنة، وآتيانه سببا من كل شىء، السبب هو الطريق الموصل والحبل المربوط الذى يصل بين الأشياء، أى آتيانه سببا من كل شىء، بأن آتيانه علما يوصل لأى شىء يختاره، فآتيانه من السلطان أسبايا، ومن العلم أسبابا، ومن الإصلاح الزراعى والتجارى. والسبب فى الأصل الحبل، فالمعنى آتيانه علما يتخذه سببا لكل ما يرى.

﴿فَاتَّبَعَ سَبِّأ (٨٥)﴾.

أى أنه يردف السبب سببا لشيء آخر، وهكذا تتوارد أسباب العمل سببا يتبع سببا، أى يجرى من بعده تابعا له، وهكذا مكن فى الدنيا، إذ اتخذ سبيل الحق والعدل، يسلك الأسباب الموصلة بما آتاه الله من العلم والإدراك فإذا كان عادلا منصفًا استقر حكمه، وانتظمت الأمور، وإذا انتظمت الأمور قويت الجماعة واستقامت الأخلاق وسادت الفضيلة وانتصرت فى الحروب وإذا انتصرت أنصفت، وجلبت المصالح، ودفعت المضار، وهكذا تترادف الأسباب وتستقيم الأمور، وإنه بتوافر الخير واتخاذ الأسباب المكونة لدولة قوية عادلة، سار فى الأقاليم فاتحا ناشرا لواء العدل.

ولذا سار يجوس خلال الدول فاتحا مظلا الجماعات بلواء العدل.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾.

اتجه فى سيره إلى غرب بلاده أولا؛ لأنها الأقاليم التى تصاقبه، وإن الحاكم العادل يؤمن أرضه من جيرانه أولا، ثم يتجه إلى ما بعدها شيئا فشيئا حتى يصل

إلى أقصاها، وكذلك فعل؛ ولذا قال تعالى عنه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

«الحمئة» أى ذات حمأة، والحمأ الطين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٦) [الحجر].

أى أن الشمس تغرب لترى فى عين من الماء حمئة، أى فيها طين.

وقرئ (حامية)، أى أن هذه العين من الماء حارة شديدة الحرارة، أو حامية أصلها حامئة، أى كثيرة الطين وتتلاقى مع قراءة ﴿حَمِئَةٍ﴾ إذ اللفظ واحد فى جملته وإن جرى فيه قلب.

والمراد أن الشمس ترى كأنها غارية فى عين ماء فيها طين، حمأ، وما المراد من هذه العين؟ المراد منها الماء، ولكن أهو ماء المحيط، أم البحر، أم هو ماء نهر؟ الظاهر لدى أنه ماء نهر، لا ماء محيط؛ لأنه ذكر أنه عين، وماء العيون فى أكثر أحواله ليس ماء ملحا، وإن كان فهو معدنى إلى العذوبة أمل، ولأنه ذكر أنها عين حمئة، أى التى اختلط ماؤها بطين، وتلك تكون فى الأنهار لا فى البحار.

ومهما يكن فقد كان اتجاهه ونهايته إلى الغرب من آسيا وأصقابها كبلاد البلغار، ونحوها.

هذا كان اتجاهها إلى الغرب، ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ وجد ناسا قد تهيأ لحكمهم فعلمه الله تعالى بإلهام الحكمة نوع الحكم الذى يحكم، وردد فى عقله وقلبه كيف يحكم، ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، تردد فى قلبه أيحكمهم بالعنف والقسوة، أو يحكمهم بالرفق، فمعنى قول الله تعالى بهذا التردد أنه ردد فى نفسه وعقله وقلبه بنور الله تعالى أن يكون عمله أحد أمرين، إما العذاب وإما الإحسان بالتهذيب والإرشاد والتوجيه، وهذا معنى ﴿وَأِنَّمَا أَنْتَ تُتَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، أى إحسانا بالعدل وإقامة القسطاس وسن الشرائع الهادية الموجهة وغير المردية، والحسن هو ضد القبيح، واتخاذ الحسن معناه اتخاذ ما ليس

بقبيح في ذاته ولا يستنكره عرف ولا عقل، وهذا هو معنى الإحسان وهو الإتقان وفضل العدل وزيادته.

بعد هذا التردد في النفس الصافية المهدية بهدى الله انتهى إلى القرار العدل الذي تهتدى إليه كل نفس برة تقية، وقد ذكره الله تعالى بقوله سبحانه:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ۖ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝﴾ (٨٨).

هذا قانون العدل وهو أن يجازى المسيء على إساءته، والمحسن بإحسانه، هذا ما استقر عليه أمره واعتزمه؛ ولذا قال معتزما تنفيذه: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾، أى عذابا شديدا بالغاً أقصى أحوال الشدة حتى ينزل بهم ولم يتوقعوه وينكروه لغرابته عليهم، فالنكر هو الأمر المستنكر مما وقع عليه، وقد أكد في القول وقوعه في المستقبل بـ (سوف) الدالة على تأكيد وقوع الفعل في المستقبل.

والظلم يقع على كل المنكرات؛ لأن الظلم يكون بنقص الحقوق، والتفريط فيها، ويكون بمجاوزة حد المعقول، فيقع على الشرك، وإن الشرك لظلم عظيم ويقع على كل المنهيات من المعاصي كالقتل وشرب الخمر والزنى، ورمى المحصنات، والعذاب النكر يكون بالجزاء الذي يملكه ملك عادل جزاء دنيوى.

هذا هو جزاء المسيء في قانون العدل الذى سنه ذو القرنين لنفسه، لا يفلت المسيء، وكذلك لا ينقص المحسن من جزاء حسن؛ ولذا قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى مبتدأ خبره الجار والمجرور، أى فالحسنى له جزاء، فـ ﴿جَزَاءُ﴾ تمييز محول عن الخبر، وكان التمييز متضمنا للبيان بعد الإبهام أو الإجمال، وفى ذلك فضل بيان وبلاغة، وقال: ﴿فَلَهُ﴾ (اللام) للاختصاص، وكان من كرم الله أن جعله حقا للمحسن وليس عطاء يعطى أعطية، وكان ذلك مناً وفضلاً.

وإن هذا الجزاء الذى هو الحسنى فى أعلى درجات الجنة؛ لأنه مؤنث أحسن، لمن قامت به حالان:

الحال الأولى - إيمان صادق تتطهر فيه النفس والعقل والقلب من شرك الجاهلية وأوهامه.

والحال الثانية - عمل صالح يزكى النفس، وينفع الجمع، ويكون فيه خير للناس.

وذكر جزاء ثانياً فوق الحسنى، وهى نِعَم الجزاء، وهو ما جاء فى قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ القول اليسر هو هذا القول الذى ييسر الأمور ويسهلها، وذلك بأن يقربه إليه، ويسهل له أسباب الوصول والتمكين والحكم، والقول المشجع على الخير من ملك عادل يدنى المصلح الصالح، ويبعد المفسد الفاسد.

ولقد أقام العدل فى أقوام الغرب، وأقام ما شاء أن يقيم لثبيت العدل ودعم أركانه، بعد إقامة بنيانه ثم اتجه المصلح العادل من ذلك إلى الشرق؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٨٩)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا فى موضعها؛ لأنها تدل على التراخى إذ إنه حكم أمدا ليس بقصير فى المغرب، وإنه أدنى منه مقاما فإن تثبيت دعائم العدل فى النفوس يحتاج إلى زمن ليستقر ويبقى، ويصبح عادة طيبة فى الأقوام، و﴿اتَّبَعَ﴾، أى أردف إلى الأسباب التى مكنته الله تعالى بها سببا آخر، وهو الذهاب إلى مشرق الأرض، وهكذا أضاف سبحانه إلى تمكينه فى الغرب تمكينه فى الشرق، فسار متجها إليه، ولقد كان ما يستقبله فى المغرب أصعب علاجا، وأقوى مراسا، لأن عمله يتكون من أمور ثلاثة:

الأمر الأول - إقامة العدل.

والأمر الثاني - دفع الفساد.

والأمر الثالث - حماية البلاد من المغيرين عليها.

ولقد قال تعالى في عمله :

حَقَّقْ

إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَلْبَعِ
سَبِيلًا ﴿٩٢﴾ حَقَّقْ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْذِ الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ
قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا
﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطُغْوُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي

حَقًّا ﴿٩٨﴾

مطلع الشمس هو مكان طلوعها، فهو اسم مكان، ومطلع الشمس مكان
نسبي، فهو ربما يكون موضع طلوع بالنسبة لمن يكونون في غربها، ثم هذا المطلع
يكون موضع غروب لمن وراءه من المطالع، والنسبية هنا بين المغرب والمطلع بالنسبة
للوصل بينهما فقد اتجه ذو القرنين إلى المغرب بالنسبة له، ثم بعد أن أقام العدل

بين الناس كشأن الحاكم العادل تأداه إلى المطلع بالنسبة له فأتبع سببا، واتجه إلى المطلع، حتى إذا بلغه، ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾، الضمير يعود إلى الشمس، أى وجد الشمس تطلع على ناس تشرق عليهم لافحة لهم أو غير لافحة، لم يجعل الله لهم من دونها مقاوما لها سترا، يسترهم عنها فلم تكن لهم ظلال تظلهم، وظاهر القول أنهم لم تكن لهم ثياب تسترهم منها فى ظلها وحرورها، وهذا أنهم بدائيون ليسوا متحضرين وليست لهم أى حضارة إنسانية، بل هم على البداوة الأولى، وإن كان لهم بعض القوة أو المصادر المالية، وقد وصف هؤلاء الأقوام بوصف فيهم وفى أرضهم، أما أرضهم فهى أنها ليس فيها بناء يظل، ولا شجر يثمر، وأما أنفسهم، فهو أنهم على البداوة الأولى وقد أفادت الوصفين، الكلمة السامية ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾، أى ساترا يسترهم من حر لافح أو برد قارس.

وجه الله تعالى ذا القرنين إلى هؤلاء الأقوام، كما وجهه إلى المغرب لينشر العدل والأمان والاطمئنان فيهم، وإن هذا التوجه، يكون منه ما كان أولا، ويحمل متاعب؛ ولذلك قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (٩١).

الإشارة إلى ما كان منه أولا من إقامة العدل، ووضع الموازين العادلة بينهما، والتشبيه هو بين ما قام أولا فى المغرب وبين ما يقوم الآن أو ما يجب أن يقوم به الآن فى المشرق، أى أنه بمقتضى ما وهبه الله تعالى من مواهب القوة والقدرة على التنفيذ والشعور بالعدالة الواجبة، ووضع موازين قد كلفه مرة ثانية فى المشرق أن يصلح ويدفع الفساد فى المشرق، كما أصلح فى المغرب، وهكذا يهب الله البشرية فى بعض الأزمان رجلا صالحا ينشر العدل والإصلاح ويمنع الفساد، وفى بعض الأزمان يختبر الله تعالى الناس ليظهر الخيىث من الطيب ببعض رجال الفساد - أو دول الفساد - يسيطر، فيضل ويفسد كما نرى فى عصرنا ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وإن ما يستقبل ذا القرنين في مطلع الشمس أقوى وأشد مما استقبله في مغربها، وذلك لجهلهم، وعدم درايتهم وبدائتهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، أى أحطنا بحاله والواجبات عليه وكفايته لها وما تستلزمه حال الأقوام من واجبات على الحاكم يقوم بها، ولا يتوانى عنها، أحطنا علما دقيقا بذلك، وهو علم الخبير العليم، وفي الكلام في مثل قوله: ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) [الطلاق]، و﴿أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، مجاز بالاستعارة، إذ يشبه علم الله تعالى في استقراءه للمعلوم بمن يحيط بمكان فيعرف كل ما في داخله لا يغيب شيء عن علمه بجامع الإحاطة الكاملة، وقد أحاط علمه كل ما في السموات والأرض.

والمقصود الظاهر من النص أن الله إذ كلف ذا القرنين ذلك التكليف هو محيط علما دقيقا بما لديه من قوى عقلية ونفسية وطاقاة قادرة على ما كلف ومحيط بما يحتاج إليه ما كلفه من جهد في علاج هذه التكليفات.

وقد بين أنه سار في طريقه متحملا أعباء ما حملة: عبء العدالة والإصلاح، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا﴾ (٩٢).

أى أردف إلى الأمور السابقة التى كانت سببا فى تحمل ما تحمل سببا آخر وسلك طريقا آخر، و﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب والتراخى، والتراخى كان فيما بذله من زمن فى تبين حال أولئك الذين يعيشون على الفطرة لم يجعل الله بينهم وبين الشمس سترًا فى ظل ولا حرور، وبعد مضى زمن فى هذه الإصلاحات التى تجعلهم أناسا يعرفون ما لهم وما عليهم، بعد ذلك أردف سببا لواجبات أخرى، فسار:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (٩٣).

السدان المذكوران فى الآية جبلان، قال عطاء أنهما بين أذربيجان وأرمينيا، وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه وجد بين الجبلين قوما ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ هذا

وصف لهؤلاء القوم، وهم كما يبدو أعلى درجة فى الإنسانية من الذين وجدهم فى مطلع الشمس الذين لم يُجعل بينهم وبينها ستر، ومعنى ﴿مِنْ دُونِهِمَا﴾، أى من وراء الجبلين، فهم لم يكونوا بينهم، بل كانوا وراء هذين الجبلين، أو وراء هذه البلاد التى فيها هذان الجبلان، فهم فى مقام أوغر منهما، وهم إلى الشمال أبعد وأعلى.

وقد وصفهم كما أشرنا إلى أنهم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، أى يقاربون ألا يفقهوا قولا، وهذا يدل على أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهونه كله.

وقال بعض المفسرين: إن ذلك سببه أنهم لا يعرفون لغة ذى القرنين ومن معه، ولا يعرف لغتهم، ولكن ذلك لا يعبر عنه بنفى فقه القول؛ لأن فقه القول معرفة أسرارهِ ومراميهِ، فلا ينفى بجهل معرفة اللغة، على أن المترجمين يغنون فى ذلك غناء كبيرا، وذلك إن صح يكون عيبا فيهم، وعيبا فى الذين يخاطبونهم، فلا يختصون بالوصف، والظاهر عندى أن المراد أنهم لا يدركون مرامى الأقوال وأسرارها والأحكام التى تنظم العلاقات بينهم، وهذا الذى يتفق مع ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن الفقه ليس مجرد المعرفة، إنما المعرفة التى يشق فيها غلاف الأمور لإدراك الحقائق، وما وراء الألفاظ، وذلك إلى العلم بالواجبات، وفقه الأقوال أقرب، ويكون المراد ليس عندهم علم بالعدل ونظام الحكم، وما يجب لجلب المنافع ودفع المضار.

ولكنهم مع أنهم لا يعرفون الشرائع، ولا نظم الأحكام يرون المضار تتوالى عليهم من جيران أشد جهالة، ولا يخضعون لنظام، ولا يقرون حقوقا، ولا يخضعون لواجب، وهم يأجوج ومأجوج، وهم يسكنون فى مناطق مغوليا ومنشوريا، أو هم منهم؛ ولذا لما وجدوا ذا القرنين وما يحمل معه من نظم إصلاحية مانعة من الظلم دافعة للفساد.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤).

نادوا ذا القرنين بهذا اللقب مما يدل على أنه كان مشهورا بينهم، وعلى أنه كان متظامنا قريبا، وذلك أول أمارات الحاكم الصالح بأن يكون قريبا منهم يألفهم، ويألفونه لا يكون متحجبا دونهم، حتى لا يصعب على صاحب الحق الوصول إليه

﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبائل ما وراء جبال أرمينية، وهما اسمان ليسا عرييان، وقد كانوا يندفعون من وقت لآخر يفسدون الحرث، ويعبثون بكل قائم ولا يضبطهم أحد ولا قبل لأحد بدفعهم، وقد ذكر مولانا أبو الكلام زاده فى رسالته عن ذى القرنين أن لهم غارات متتالية عبر التاريخ فقال بعنوان: الأدوار السبعة لخروج يأجوج ومأجوج.

سهل علينا خروج هذه القبائل إلى سبعة أدوار:

الدور الأول منها كان قبل العصر التاريخى عندما بدأت هذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقى وتنتشر فى آسيا الوسطى.

وكان **الدور الثانى** فى فجر التاريخ فترى فى ضوئه معالم عبارتين مختلفتين: حياة البداوة، وحياة الاستقرار، فتخلد القبائل المهاجرة إلى السكينة، ومباشرة الحياة الزراعية، إلا أن سيولا جديدة لا تزال تتدفق من الشرق، ومدى هذا الدور من ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ قبل الميلاد.

ويبتدى **الدور الثالث**، من سنة ألف قبل الميلاد، فتجد قوما همجا من البدو فى بلاد بحر الخزر والبحر الأسود، ثم لا تلبث أن تظهر بأسماء مختلفة من جهات مختلفة، وأخذ بعضها يظهر على مسرح التاريخ من سنة ٧٠٠ قبل الميلاد...

أما **الدور الرابع** فينبغى أن نجعله فى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد الزمن الذى ظهر فيه عوزوش.

وكان الدور الخامس فى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تدفق فيه سيل من القبائل المنغولية، وانصب على الصين، وفى هذا العصر بنى الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين، وقد بدأوا بنائه فى سنة ٢٩٤ ق م وأتموه فى مدة عشر سنين . . وعاصر هذا الجدار حملات المغول فى الشمال والغرب توجهوا إلى آسيا الوسطى من جديد.

ثم ذكر الدور السادس والسابع وكان ذلك بعد الميلاد، ولا يهمنا ذكرهما فى مقامنا وإن كان ذلك يهم المؤرخ المتقصى للحقائق المتعرف للأدوار الإنسانية فى عصورها المختلفة.

وإنه باستعراض هذه الأدوار نرى وجهها تاريخيا، لمن قال إنه الإسكندر المقدونى :

أولا - لأنه بنى جدار الصين فى القرن الثالث قبل الميلاد وهو العصر الذى ظهر فيه الإسكندر؛ إذ كانت حياته فى القرن الثالث قبل الميلاد، وكون البناء منسوباً إلى ملك من ملوك الصين لا يمنع الاستعانة بالإسكندر.

وثانيا - ما تضافر عليه المؤرخون العرب من أن باني السد اسمه إسكندر ذو القرنين، وليس ذا القرنين فقط.

وثالثا - ما جاء من آثار من أن منشئ السد هو منشئ الإسكندرية.

ورابعا - أن وصفه بذى القرنين سائغ لأنه جمع بين تاج الجنوب وتاج الشمال لما جاء إلى مصر.

نتهى من هذا إلى أن يأجوج ومأجوج قبائل من المغول، وأنه اشتد سيل فسادهم فى القرن الثالث قبل الميلاد عصر ظهور الإسكندر المقدونى، والله أعلم.

ونعود فنكرر أن معرفة شخص الإسكندر لا يقدمنا فى ذكر معانى ولا يؤخرنا، ما دامت ألفاظه واضحة فى معانيها بينة فى أسلوبها وبيانها.

لقد عرض أولئك القوم الذين كانوا بين السدين على ذى القرنين أو طلبوا منه أن يبنى لهم سداً بعد أن شكوا له أن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض، وعرضوا عليه أن يجعلوا له خرجاً على أن يبنى لهم سداً ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤)، الخرج قالوا إنه ضرائب يفرضونها على أنفسهم، وعبروا عن الضرائب بالخرج لأنها تخرج من أيديهم إليه، ولأنه يكون كخراج الأرض أو الأنفس على حسب ما يراه هو، إما أن يأخذ الضرائب على النفوس أو المال أو العقار، وقد عرضوا ذلك فى عبارات مقربة مذبذبة، فجعلوها على صورة استفهام، فقالوا كما حكى القرآن: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، أى هل يسوغ أن تجعل لك خرجاً، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا مفسدين فاجعل لك خرجاً على أن تبنى لنا سداً.

ولكن ذا القرنين العادل وجد أن من قوانين الحكم العادل أن يقوم بالإصلاح ودفع الفساد من غير أجر يدفع، بل إن عمل الخير ضريبة الحكم الصالح؛ ولذا قال:

﴿قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٩٥).

الردم أقوى من السد، وقد قال فى ذلك الزمخشري: ﴿رَدْمًا﴾، أى حاجزا حصينا موثقاً، والردم أكبر من السد من قولهم ثوب مردم، أى رقاع فوق رقاع، أى أنى أبنى لكم سداً وثيقاً قوى.

والمعنى ما مكنتى فيه ربى ووسع علىّ فيه وبسط لى خير من خَرَجِكُمْ، فلست مستعينا بخرج، ولكنى مستعين بقوة منكم، فأعينونى بقوة تحتمل العمل من رجالكم، أى فلست أحتاج إلى المال، ولكن أحتاج إلى أيدٍ عاملة تعمل، ولقد قال القرطبى فى معنى هذه الآية الكريمة: «ما بسطه الله لى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ولكن أعينونى بقوة الأبدان، أى رجال وعمل منكم بالأبدان والآلة التى أبنى بها الردم وهو السد».

ولقد استنبط من هذا القصص عن ذى القرنين أنه لا يجوز للملك ما دام في قدرة وسعة أن يفرض ضرائب ترهق، ويقول في ذلك: «إن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم من أموالهم التى تفىء عليهم، وحقوقهم التى يجمعها فى خزائهم حتى لو أكلتها وأنفذتها المؤن فكان عليهم جبر ذلك من أموالهم وعليه حسن النظر وذلك بشروط ثلاثة:

الشرط الأول - ألا يستأثر عليهم بشيء.

والشرط الثانى - أن يبدأ بأهل الحاجة.

والشرط الثالث - أن يسوى فى العطاء^(١).

أخذ بعد ذلك ذو القرنين بينى السد محكما لا يتفلت منه أحد إليهم.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٩٦).

﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد الكبيرة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ الصدفان: جبلان جعل السد بينهما، وبعد أن وضع الحديد من قطع كبير علا بها حتى تساوى مع أعلى الجبلين وتنضد الحديد بينهما تنضيدا، جمع الأحطاب، وأشعل فيها النار ليصهر الحديد، ﴿قَالَ انفُخُوا﴾، أى فى الحديد الذى ساوى فيه بين الصدفين، وساماهما، أى انفخوا فى مشعل الأحطاب، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ صهره واحمر انصهر، وصار نارا باحمراره بارتفاع درجة حرارته ارتفاعا شديدا، وصار لونه أحمر شديدا يتلظى بعد هذا العمل، ﴿قَالَ آتُونِي﴾ النداء للعمال الذين قاموا بزبّر الحديد وصهروها، ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، وهو النحاس المصهور المذاب. ولعله جعل النحاس طبقة فوق الحديد تربط أجزاءه وتسوى جدار سطحه.

(١) من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥٥/١١.

ونراه صار مكونا من حديد ممسوكا بالنحاس، فصار قويا ساداً كل الثغرات، وبذلك صار مرتفعاً عالياً فوق طاقتهم أن يرتفعوا إلى أعلاه، وينزلوا إلى أسفله عند الذين استغاثوا منهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧).

إذا كان قد بنى ذلك البناء المحكم، وبأدوات قوية لا تنقض، وبهندسة نضدت زبر الحديد، وأسكب ذوب النحاس، فإن يأجوج ومأجوج لا قبل لهم بالوصول إلى أرضهم يبيدون فيها الحرث والنسل.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾، أى أن يعلو إلى ظهره، لأنه بنى مرتفعاً ارتفاعاً فوق طاقتهم أن يصعدوا إليه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وما استطاعوا أن ينقبوه فى جانب من جوانبه؛ لأنه حديد مصهر ثم تجمد مستقاً.

وبعد أن وفق ذو القرنين ذلك التوفيق.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨).

بعد أن عمل ذلك العمل - الذى لا مثيل له فى تاريخ البشر إلى عصر من عمله - لم ينسبه إلى نفسه، بل جعله من ربه، والإشارة فى ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ إلى أن البناء وتدييره، ومادته، ليس من قدرة الإنسان إنما هو من توفيق الديان وقال: إنه من رحمة الله بعباده؛ لأن من رحمته تعالت قدرته أن الفساد وأهله يُدفع بأهل الخير والصلاح ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١) [البقرة].

ولم ينس اليوم الآخر، والبعث فجعل الحد لزمانه هو يوم البعث، فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، أى يتدكّد ويجعله أرضاً مستوية، لا علو فيها، ولو كان من حديد ونحاس.

ثم أكد البعث فقال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ لا يرتاب فيه عاقل، والله أعلم.

ترك المفسدين إلى يوم الحشر

قال الله تعالى:

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝١١ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٢
 الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَمْعًا ۝١٣ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
 أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٤ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
 أَعْمَالًا ۝١٥ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ
 يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ
 فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٧ ذَلِكَ جَزَاءُ
 جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ۝١٨

انتهت الآيات السابقة ببناء إسكندر ذى القرنين للسد، وكان ذو القرنين صورة للحاكم المجاهد الذى يعمل لمصلحة من يحكمهم يجلب الخير لهم، ويعمل ما يصلحهم، ويدفع الفساد والمفسدين، وقد دفعه وترك يأجوج ومأجوج يفسدون فيما بينهم.

ولقد قال تعالى بعد أن ذكر بناء الحاكم الصالح للسد، وإحكام بنيانه:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾.

الضمير فى ﴿بَعْضُهُمْ﴾ يعود إلى يأجوج ومأجوج، فأنحصر شرهم، ولم يتعد فسادهم إلى غيرهم، فالجماعة الشريرة إذا لم يمكن إصلاحها يكون علاج الناس بالوقاية منها وإبعادهم عنها.

ويصح أن يكون الضمير في بعضهم يعود إلى الخلق على أساس أنه حاضر في العقل معنى المخلوقات، وقد ساق ذلك رأى الزمخشري على أنه هو الظاهر المتبادر، وغيره هو غير الظاهر وغير المتبادر.

ويكون المعنى على أن الضمير يعود إلى الخلق أن الله تعالى خلق الناس بغرائز قد تتعارض رغباتها، فيكون منهم المسىء ويكون المحسن ويتنازعون أو يتخالفون، أو يعتدى بعضهم على بعض حتى يكون يوم الفصل، ودعوة الجميع إلى الحشر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أى فى الدنيا، حيث الاختبار، والتدافع بين الحق والباطل والخيز والشر، والصلاح والفساد، وقوله: ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، أى أن بعضهم يتدافع مع البعض تدافع الأمواج وهى مصطحبة فيتدافع الأخيار مع الأشرار تدافع الأمواج يدفع بعضها بعضا، وهى تعلو وتنخفض.

حتى يدعوا جميعا إلى الله تعالى، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾، أى ناديناهم كما ينادى القائد الجند فينفخ فى الصور فيجمعهم جمعا، لا يتخلف منهم أحد، وقد شبه فى هذا إعادة الناس والبعث والنشور وخروجهم من فورهم من كل حذب ينسلون بالقائد، عندما ينفخ فى البوق للجنود، وفى هذا إشعار بأن البعث لا يكون بأكثر من قول الله تعالى: ﴿... كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)﴾ [غافر] وقوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ فيه أمران بيانان:

الأمر الأول - أنه عبر بالماضى وهو للمستقبل، لتأكيد الوقوع.

الأمر الثانى - أنه ذكر المصدر لتأكيد أن البعث يعم الجميع، ولا يتخلف عنه أحد.

وإنه عقب البعث تكون القيامة وتكون الحقائق مرئية لهم بالعيان؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا (١٠٠)﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو يوم القيامة، أى عرضنا جهنم للكافرين بسبب كفرهم عرضاً، أى يرونها رأى العين من غير غشاوة تحول بينهم وبين رؤيتها، والإتيان بالمصدر لتأكيد أنهم يرون ذلك رأى العين، ولا يخفى عليهم من نتائج أعمالهم شئ من الخفاء.

ونخص الكافرين بذكر العرض مع أنها تكون معلومة للجميع لأنهم أهلها، ولأنهم الذين كانوا يتغافلون، وهم الذين كانوا ينكرون البعث وما وراءه. ولقد قال تعالى كيف كانت حالهم بالنسبة لذكر الله للعذاب والثواب والبعث، فقال عز من قائل:

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾.

الموصول بدل أو عطف بيان، وهو يشير إلى سبب اختصاصهم بالعرض؛ إذ إنهم كانوا لا يرونها بعين الاعتقاد، ولا يستمعون إلى ذكرها بأذن الحق والإنصات إليه.

﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾، الذكر مضاف إلى الله تعالى، أى الأمور التى تذكر بالله تعالى وقدرته الباهرة القاهرة على كل شئ وإلى آياته فى الكون ودلائل قدرته على إعادتهم كما بدأهم، وشبه حالهم فى عدم إدراكهم للحق من آيات الله تعالى بحال من يكون أمام المبصرات، ولكنه وضع على عينيه غطاء يجعله لا يرى ولا يبصر، ويكون قوله تعالى: ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ مقويا لمعنى التشبيه ومع أنهم كانوا لا يرون الآيات للغطاء الذى وضعوه على أعينهم كانوا لا يستمعون إلى الداعى إلى الحق إذا دعاهم فهم قد سدت أمانيتهم كل وسائل الإدراك.

فهم لا يرون الآيات بأنفسهم فهم على أعينهم غطاء، أو كمن يكونون على أعينهم، ولا يستطيعون سماع الحق؛ لأن أهواءهم وشهواتهم وغرورهم بهذه الدنيا التى أغرتهم بغرورها وزخرفها وزينتها قد حالت بينهم وبينه، وشبه إعراضهم عنه

وعدم قبول قول رسلهم بمن أصيب بصمم، ولم يستطع سماع القول الهادى المرشد.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه لن يتركهم فى ضلالهم من غير مرشد، وألا يتخذ لهم عقابا، فقال تعالى:

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٧)﴾.

(الفاء) فى ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مؤخرة عن تقديم، وهى فى معنى السببية لعرض جهنم على الكافرين عرضا، والهمزة قدمت؛ لأن الاستفهام له الصدارة معناه ظنوا، أو بعبارة أدق معناها توهموا؛ لأن الظن يكون له وجه من الصدق، والاستفهام للتوبيخ؛ لأن الكافرين فعلا توهموا ذلك، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب، وما كنا مبعوثين.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى سبب توبيخهم، ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾، أى أنصارا يوالونهم أو آلهة يعبدونها ﴿مِنْ دُونِي﴾، أى من غيرى، وهنا كلام محذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾، أى يحسبون مع اتخاذهم أندادا يعبدونها أو أنصارا يقاومون بهم حكم الله فيهم، ونتركهم من غير مواخذه أو لا نحاسبهم على ما يفعلون، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة]، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾، هذا ذكر للعذاب وبيان له وقد ذكر علته فى قوله: ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾، واعتدنا معناها أعددنا وهيأنا، ونزلا معناه مقاما، وفيه نوع تهكم، لأن النزول يكون عادة مكانا مريحا يثوب إليه الذى نزل فيه، ولكنه جهنم وبئس المهاد. وذكر الكافرين إظهارا فى موضع الإضمار للإشارة إلى سبب نزولهم فى جهنم.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الأخسرين أعمالا هم الكافرون، ذكر في ضمن البيان الحكيم سبب خسرانهم، فقال عز من قائل:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾.

الخطاب للنبي ﷺ والاستفهام للتقرير، فكأنهم سئلوا فأجابوا مقررين بأنهم (الأخسرين أعمالا)، والأخسرون جمع أخسر، وهو أفعل تفضيل، يراد به الذين بلغوا من الخسران أقصاه، فلا خسارة فوق خسارتهم، أو أنهم بالنسبة للمؤمنين أكثر خسارة لأن المؤمنين إن خسروا في الدنيا متاعها، فأولئك خسروا ما هو أعظم وهو متاع الآخرة، وكان في ذلك موازنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين، فالمؤمنون وإن كانوا قد فقدوا بعض متاع الدنيا ففي مقابل ذلك فقد الكافرون متاع الآخرة فكانوا الأخسرين حقا وصدقا، وخسارة المؤمنين لا تذكر بجوار خسارتهم.

وقد ذكر سبحانه ركن الخسارة وقوامها فقال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أى كان عملهم ضلال في ضلال، ووصف العمل بأنه ضلال مع أن الضلال في العامل مبالغة في الضلال، كأنه بضلال النفس انتقل الضلال إلى العمل، للإشارة إلى أن العمل يكون ضلالا بضلال النفس، وفساد القصد، وقال: ﴿سَعِيَّهُمْ﴾ ولم يقل «عملهم»؛ للإشارة إلى أن كل جهد يبذلونه يكون جهدا في ضلال فلا يكون فيه خيرا أبدا.

ومع هذا لا يعتقد أنه ضلال بل يحسبه رشادا؛ ولذا قال: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أى أنهم بضلال الفعل وضلال الفكر، يفعلون الشر، ويظنون أنهم يفعلون الخير فانقلب تفكيرهم فحسب الشر خيرا، وذلك أشد

الضلال إذ يطغى الضلال على تفكيرهم، فينشئه بالباطل ويحسب الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا أشد الضلال ويحسبون، أى يظنون أن ما يفعلونه هو الحسن، و﴿صَنَعًا﴾ حال من فاعل ﴿يَحْسُبُونَ﴾ وهى حال مؤكدة لحسن ما يفعلون بزعمهم.

وإن هذا النص ينطبق على المشركين؛ لأنهم يعبدون الأوثان ويحسبون أن عبادتها صنعٌ حُسْنِيٌّ إذ يتوهمون فيها قُوًى تَعَبُدُ، ويرون الخير فى اتباع آبائهم، وينطبق على رهبان النصارى إذ ينقطعون للعبادة فى زعمهم ولا يقيمون للحياة أى اعتبار، وقيل إنها تنطبق على الخوارج الذين كانوا يستبيحون دماء المؤمنين، ولكن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، وإن الخوارج لا ينطبق عليهم أنهم كفروا بربهم؛ لأنهم يؤمنون بربهم ولكن ضلوا مع إخوانهم المؤمنين، ولقد قال فيهم على: لا تقاتلوهم بعدى، فإن من طلب الحق فأخطأ ليس كمن طلب الباطل فأصابه.

ولقد قال بعد ذلك فى وصف الأخسرين:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥).

إن فساد الفكر يؤدي إلى الكفر، فهؤلاء الذين ضل فكرهم حتى ضلت أعمالهم، وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسناً، هؤلاء هم الذين دفعهم غرورهم إلى أن يكذبوا بآيات ربهم الدالة على أنه الخالق الواحد القهار، المعبود بحق، ولا معبود سواه، وكذبوا بآيات ربهم الدالة على رسالة رسوله النبى الأكرم، وذلك لفرط ضلال فكرهم الذى جعلهم يعتقدون الباطل حقاً، ويزعمون الحق باطلاً.

والإشارة إلى الموصوفين يفيد أن هذه الصفات هى السبب فى الكفر بالآيات وكفروا بسبب غرورهم بالدنيا بلقاء الله تعالى.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾ .

الإشارة إلى غرورهم وكفرهم بآيات ربهم ولقائه، وهو مبتدأ خبره محذوف، والمعنى ذلك حالهم، وأمرهم ثم ذكر سبحانه بعد ذلك جزاءهم فقال: ﴿فَحَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾، ثم ذكر سبحانه السبب وهو قوله ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ فهم ظلموا مرتين:

الأولى - بكفرهم واتخاذهم الأنداد من الأحجار.

الثانية - ظلمهم للحق وأهله ودعائه، فظلموا آيات الله وكفروا واتخذوها ورسول الله هزوا وسخرية، وذلك إيغال في الكفر والضلال.
بعد ذلك ذكر حال المؤمنين يوم القيامة

حال المؤمنين

قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

ذكر سبحانه وتعالى حال الكافرين يوم القيامة وكيف كان ضلالهم في الدنيا مُرديا لهم، وأوداهم في نار جهنم، وذكر من بعد حال المؤمنين الذي صلحوا في أنفسهم فأمنوا وعملوا الصالحات فنالوا جزاءهم في الآخرة، ذكر الموصول للإشارة

إلى أن الصلة هي السبب فى الجزاء، فالإيمان والعمل الصالح هما سبب الجزاء العظيم؛ إذ الإيمان لتطهير القلب وعزيمة النفس، والبعد عن كل أدران الشرك، والعمل الصالح يتضمن القيام بكل ما أمر الله به، والانتهاى عن كل ما نهى الله تعالى عنه، لا فرق بين صغيرة وكبيرة إلا اللبس، فإن الله تعالى يغفره رحمة بعبادة، ويتضمن أيضا القيام بكل عمل صالح فيه نفع للإنسان، ويتضمن الفضائل الإنسانية التى يكمل بها الإنسان.

والجزء ذكره تعالى يقول: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾، اللام للاختصاص، أى أنهم مختصون بها، وهى لهم كما لملك فى مالك وذلك يدل على تأكيد الجزاء. و﴿الْفِرْدَوْسِ﴾ لفظ غير عربى يراد به الحدائق الغناء، وفردوس الجنة أعلاها مكانا، وأوسطها شأنا، وجمعها للدلالة على كثرة فضلها، وتنوع خيرها وتعدد، و﴿نُزُلًا﴾، أى إقامة ثابتة ينزلون فيها راضين بطيب الإقامة وهودء المثوى. وأنها إقامة هادئة طيبة، وهى مساكن، ومعنى ثابتة دائمة مستمرة؛ ولذا قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أى مقيمين فيها إقامة دائمة، ولا يجدون أفضل منها ينتقلون إليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أى لا يطلبون مريدين مبتغين عنها تحوُّلا وانتقاء، فهم ينعمون فيها بنعمة الدوام والبقاء وعدم الإزعاج بالانتقال منها، والنعمة الثانية بلوغ الغاية فى الراحة والاطمئنان فلا يبغيون حولا، بل ينعمون فيها بنعمة الرضا بها، وأنهم لا يجدون خيرا منها.

وإن هذا من فضل الله، وهو تقديره وعلمه المحيط، وقد وسع كل شئ علما، فهو شامل الوجود كله؛ ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾.

الخطاب فى ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ وهو يتضمن أمر الله تعالى لنبىه بأن يعلمهم إحاطة علم الله تعالى بكل شئ ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى السماء والأرض، و(كلمات الله تعالى) هى تصوير لعلمه الذى لا يحصى ولا يحد، فهذه الآية أمر للنبي ﷺ بأن يصور علمه بأنه غير متناه، فلا يحده حد، فالكلمات لا

تحده، ولا تحيط به، ومهما يكن مداد الكلمات ولو كانت المداد ماء البحر، و(ال) للجنس والاستغراق، أى أن البحار كلها ﴿مِدَادًا﴾ وهو ما يكتب به ﴿لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان]، وإن هذا تصوير مقرب لعلم الله الذى أحاط بكل شيء علما، فلو كان علم الله يدون فى مكتوب ما وجد مدادا الذى يدون كلماته، فلو كان البحر مدادا لكلماته سبحانه لنفد البحر وما انتهت كلمات الله تعالى، وهذا تصوير وتقريب، وفيه تشبيه بمفردات معلومات الله بالكلمات، وأنها لا تنتهى أبدا.

وهنا أمور بيانية يجب التنبيه إليها:

الأمر الأول - ذكر كلمات الله تعالى مضافة إلى ربه مرتين، وذلك بيان لشرفها وعلوها، لأن علمه كامل.

الأمر الثانى - المقابلة البيانية فى قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، فإن كلمات الله لا تنتهى، ولكن عبر عن ذلك بالنفاد من قبيل الجناس فى قوله تعالى لنفد البحر.

الأمر الثالث - أنه أظهر فى موضع الإضمار فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩) فذكر البحر ظاهرا، وموضعه الإضمار لتأكيد سعة كلمات الله تعالى؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ يمدّه كما يمد الجيش بالجنود، هذا ما بدر لنا وما بدى بادى الرأى، ولكن وجدنا قراءة أخرى «مدادا» ويكون المعنى الذى تتلاقى معه القراءات، وهو أن المعنى، ولو جئنا بمثله مدادا، أى لو كان مثله حجما، ويصح مع ذلك أن يكون لكل من القراءتين معنى فتكون القراءة الأولى تشير إلى أن البحر الزيادة معين للبحر الأول زائد له، والثانية تفيد المماثلة، والله تعالى أعلم.

وذكرت هذه الآية التي تفيد علم غير المتهى، بل إنه أحاط بكل شيء ومفردات معلوماته لا تنهاى لبيان كمال قدرته، والعلم والقدرة والإرادة صفات كمال فى الخلق والتكوين يصاحب بعضها بعضا، وإنه بها وغيرها من صفات الكمال تستحق العبادة؛ ولذا جاء بعدها قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۖ﴾

الأمر بالقول للنبي ﷺ لأنه جزء من تبليغ رسالة ربه، و﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر أى أنه ﷺ مقصور على البشرية وإنما يوحى إليه، فهو بشر ولا يتجاوز أنه بشر ولكن اختص من بينهم بأنه يوحى إليه فليس واحدا من الملائكة، والوحى به أن ﴿إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، فهو إعلام من الله تعالى بمن هو الإله حقا، فهو الله تعالى، ولا إله غيره، وإنه قد قامت مع هذا الوحى الصادق الذى قامت الدلائل على صدقه، وهو مؤيد بالآيات فى الكون فإن الكون بما فيه من سماء وأرض، وكواكب هى زينة السماء وزروع وثمار ومعادن وكنوز، فيها الآيات البينات على أن الخالق واحد.

وإن الناس فى تلقى هذه الرسالة من عند الله تعالى قسمان:

القسم الأول - يؤمن بالغيب، ولا يأسره الحس وتستغرقه المادة.

والقسم الثانى - استغرقته المادة، حتى لا يؤمن إلا بما هو مادى حسى، والأول هو الذى يرجو لقاء ربه وهو الذى ينادى بفعل الخير، والإيمان بالحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۖ﴾.

وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، أى يستيقن بلقاء ربه، وعبر بالرجاء بدل اليقين؛ لأنه يفيد اليقين مع تمنى اللقاء والرغبة فيه وطلبه بالعمل؛ ولذا كان جواب الشرط ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾؛ لأنه إذا كان يرجو الله



ولقاءه فهو لا يعبد غيره، لأنه أخذ بالرسالة وآمن بها، والشرك في العبادة أن يجعلها لله وحده، فلا يشرك في العبادة وثنا ولا شخصا. وهناك شرك في العبادة بأن يعبد يرأى الناس، وقد قال ﷺ: «من صلى يرأى فقد أشرك، ومن تصدق يرأى فقد أشرك، ومن صام يرأى فقد أشرك»^(١)، وهذا هو الشرك الخفى والشرك الأصغر، وقد قال الزمخشري عند تفسير هذه الآية: والمراد بالنهاى عن الإشراك في العبادة ألا يرأى بعمله، وألا يبتغى إلا وجه الله تعالى خالصا لا يخلط به غيره، وقيل نزلت في جندب بن زهير قال للنبي ﷺ: إني أعمل العمل لله تعالى فإذا أطلع عليه سرنى، فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه»، وروى أنه قال: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»، وذلك إذا قصد أن يقتدى به، وعنه ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء».

سورة مريم

تمهيد:

هذه السورة مكية، وقيل أن آيتي ٥٨، ٧١ مدينتان، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية. وقد ابتدأت هذه السورة الكريمة بذكر معجزات خارقة للعادة في الوجود الإنساني، ذلك أن الفلسفة الأيونية كانت قائمة على أن الأسباب وعلاقتها بالمسيبات لا تخالف قط حتى بنوا نظرية الألوهية على العلية، وقالوا: إن العالم نشأ عن الله تعالى نشوء العلة من المعلول من غير إرادة من الفاعل المختار، فجاءت السورة في كثير من آياتها بما هو خرق لهذه النظرية. إن من أسباب الخلق أن الشيخ الكبير لا ينجب وأن المرأة العاقر لا تلد فإذا أنجب الرجل الهرم من عجوز عاقر، فذلك خرق لنظرية الأسباب، إذ يوجد الولد من عاقر عجوز لا تنجب ومن شيخ هرم لا ينسل.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر نبي الله زكريا ﴿ذَكَرْ رَحِمْتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَٰ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

والله تعالى يجيب دعاءه فيقول سبحانه له: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧) ولكن تأثره بمجرى الأسباب العادية يشير استغرابه فيقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾

ولكن الاستغراب لا يزال يتردد في نفسه فيقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (١٠)

أعطاه ولدا من امرأة عاقر، وكان ذلك خرقا للأسباب في عصر الأسباب، وقد وهبه الله تعالى حبا وحنانا، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً.

ثم جاء بالمعجزة الكبرى الخارقة لمجرد الأسباب والمسببات وبيان أنها لا تلزم الفاعل المختار وهي خلق عيسى من غير أب من عذراء بتول فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦) ﴿وَنَزَلَ إِلَيْهَا رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ الَّذِي شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ أَضَافَهُ إِلَيْهِ﴾ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (١٧) ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (١٨) ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩) ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠) ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (٢١).

جاءها المخاض وأجأها إلى جذع النخلة، وجاءت الخوارق للعادة متوالية تعلن خرق نظرية الأسباب والمسببات، فتهاز جذع النخلة فتساقط رطباً جنباً والماء يجرى من تحتها ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦) ﴿وَلَكِنْهُمْ يَجَابِهُونَهَا بِمَا كَانَتْ تَخْشَى يَقُولُونَ: ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾﴾ (٢٨) ﴿وَلَكِنْ يَجِيءُ سِرْ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ يُشِيرُ لَهُ الْجَمِيعُ، وَهُوَ أَنْ يَتَكَلَّمَ مِنْ هُوَ فِي الْمَهْدِ بِالْحِكْمَةِ، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠) ﴿وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١) ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣).

كان عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة في الحمل به وفي ولادته وفي طفولته في المهد وهو مخلوق عبد لله تعالى، وإذا كان وجوده على غير مجرى العادات فهو بخلقه أدل على قدرة الله تعالى من غيره وإذا عبده النصارى فمن جهلهم ﴿مَا كَانَ

لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَلَكِنْ مِنْ بَعْدِهِ اخْتَلَفَتْ الْفِرَقَ عَلَىٰ نَحْلِ مِتْبَايَنَةٍ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٦﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

ويجىء في السورة أخبار الأنبياء السابقين وما اقترن برسالاتهم من معجزات وما جاءوا به من شرائع، فابتدأ بقصة أبي العرب إبراهيم عليه السلام، وفيها تتجلى محبة الأبناء للآباء فيريد لمحبة أباه أن يجنبه عبادة الأوثان ويدعوه إلى تركها فيقول: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ ويرده أبوه ردا جافيا فيضطر لاعتزاله وقلبه معلق بمحبته وطلبه الهداية له، ويذهب به فرط محبته إلى أن يستغفر له ويقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٦﴾﴾، ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾

ثم ذكرت قصة موسى وكيف وهب الله من رحمته معه أخاه هرون نبيا، ثم ذكر أخبار إسماعيل عليه السلام منفردا عن أولاد إبراهيم عليه السلام، وفي هذا إشارة إلى أنه عمود نسب متفرع من إبراهيم عليه السلام وأنه سيكون منه محمد خاتم النبيين ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ وترجع السورة في التاريخ فتشير إلى إدريس عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ ورفعه مكانا عليا ﴿﴿٥٧﴾﴾، ويشير سبحانه إلى النبيين أجمعين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ وقد أشار سبحانه إلى أن الخلاف جعل منهم الصالحين، والذين أضاعوا الصلاة ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾ وتفصل السورة الكريمة جزاء المتقين وعقاب الكافرين في بيان معجز ككل آيات القرآن وسوره.

وتجىء العبر فى الآيات المختلفة الكثيرة، فيذكر الناس بالبعث ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ
الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثْيًا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ
أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾
ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ .

ويضرب الأمثال للمشركين بالذين مضوا من الذين عادوا النبيين وأهلكهم
الله، وهم أحسن منهم أئاثا ورثا.

ويبين الله اهتداء المهتدين وضلال الضالين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ
لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ
مُّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ
رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ .

وتشرح السورة الكريمة نفس الكافر وغروره: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا
وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) ، ثم بين
سبحانه أن ذلك مكتوب عليه وأنه سيرث أعقاب هذا القول، ويقول: ﴿وَاتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا ﴿٨٢﴾ .

ويبين سبحانه سيطرة الشياطين على الكافرين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ
عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴿٨٤﴾ .

ويذكر الله الناس جميعا بما يكون يوم الآخرة، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى
الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ
اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ .

وبيين مقالة الكافرين ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴿

وختم السورة الكريمة ببيان المؤمنين، وما كتب لهم من جزاء يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴿

وهكذا نجد السورة ابتدأت بأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يخلق يحيى من شيخ هرم امرأته عاقر، ويخالف بذلك الأسباب والمسببات، ثم يأتي سبحانه بخلق عيسى عليه السلام من غير أب ليكون وجوده عليه السلام معجزة، وهو عبد من عباد الله ويختتمها بالمعجزة الكبرى وهو القرآن، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧) ﴿

معاني السورة الكريمة

قال الله تعالى:

كَهَيْعَصَ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ٢
إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ
أُمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ ٦ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَزَكِّرِيَّا

إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا
 ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي
 عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ
 قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
 شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
 تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
 مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١
 يَٰيَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢
 وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ
 يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلْدٍ وَيَوْمَ يَمُوتُ
 وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥

هذا عصر كثرت فيه خوارق العادات، لأنها كانت تصحيفا للعقول. وإزالة
 لفكرة خاطئة وقعت فيها الفلسفة التي كانت سائدة في هذا العصر، وهى نظام
 الأسباب العادية، وترتيب مسيبتها عليها، وأنه هو النظام المطرد المستقر الذى لا
 يمكن تغييره، وهو النظام الموجود، حتى زعموا أن الله خلقت عنه الأشياء،
 منفعة بالعلية، وأنه ليس باختيار من الله تعالى وإرادة، فكل ما فى الوجود، جاء
 منفعا عن علة وهو علة لغيره، حتى يتوالى كله بنظام العلية، فالأب علة لوجود
 ابنه، إذا كان قويا والأم علة لوجود ولدها إذا كانت سليمة قوية ليست عاقرا.

وكان لا بد لتصحيح هذه الفلسفة ولبيان بطلانها أن تكون أشياء بغير أسبابها
 التى استقرت أفهامهم على أنها أسباب طبيعية لها، وفى هذه السورة الكريمة كان

أمران فيهما نقض لنظام الأسباب والمسببات يدل على أن الوجود خلق بإرادة مختار، وأن الله تعالى فعال لما يريد:

الأمر الأول: ولادة عاقر وزوجها بلغ من الكبر عتياً.

والأمر الثاني: ولادة ولد من غير أب وإذا كانت الأولى فيها الولادة من أم غير صالحة للإنجاب، فالثانية ولادة من أم لم يثبت عدم صلاحيتها للإنجاب ولكن من غير أب مطلقاً صالحاً للإنجاب أو غير صالح.

﴿كَهَيْعَصَ ١﴾.

قلنا في الحروف التي تبدأ بها بعض السور: إن معناها قد اختص به علم الله تعالى، ولنا أن نتعرف الحكمة في ابتداء بعض السور بها، وأشرنا إلى أنها تنبه لإعجاز القرآن، وأنه مؤلف من الحروف التي يتألف منها كلامكم ومع ذلك عجزتم أن تأتوا بمثلاً، وأنها تنبه الأذهان للاستماع، وقد كان المشركون تعاهدوا على ألا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْفَوَّاءُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت]، فإذا تليت عليهم تلك الحروف بغتها ومدها نبهتهم فيستمعون إليها، تهجم عليهم الآيات المفهومة المدركة، فيستمعون إليها راغمين غير مختارين وهي أسماء للسور، وذكر للكتاب.

﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢٧﴾.

﴿ذَكَرْ﴾ خبر ﴿كَهَيْعَصَ﴾ وهذا يشير إلى أنها الكتاب أو بعضه، و﴿عَبْدَهُ﴾ منصوبة بالرحمة؛ لأن الرحمة مصدر بمعنى المرة من الرَّحْم، ويصح أن يجعل مفعولاً لـ ﴿ذَكَرْ﴾، على أن تكون إضافة الذكر إلى الرحمة من إضافة المصدر لفاعله، وإنا نرى أن ذلك بعيد ويحتاج إلى تأويل، وما لا تحتاج لتأويل أولى مما يحتاج لتأويل.

وإن ذلك الذكر لهذه الرحمة في وقت نادى ربه بها، ولذا قال تعالى:

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٢٨﴾.

أى دعاه دعاء الضارع الخاضع المتوكل، الذى لا يرجو إلا ربه، وعبر بالنداء لأنه طلب منه، التجأ فيه إليه، وهو طلب لشخصه ولأسرته، وقد كان هذا الطلب فى ذاته دعاء وعبادة، كما قال تعالى: ﴿... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾ (٦٠) [غافر]، ودعاه فى خفاء، ولذا قال سبحانه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣)، و﴿خَفِيًّا﴾ صفة مبالغة من خفى، أى أنه بالغ فى إخفاء دعائه فلا يعلمه قومه؛ ولأنه مناجاة لله وضراعة إليه، وهو لا يلتجئ إلا إليه وحده: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ...﴾ (٢٠٥) [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) [الأعراف]، وفى هذا إشارة إلى أن الدعاء تضرع وفى الجهر به اعتداء؛ لأنه يكون فيه دعوة لغير الله وشكوى للناس من ربه.

وموضوع النداء، بينه بقوله تعالى عنه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا
(٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ (٥).

﴿وَهَنَ الْعَظْمُ﴾، أى ضعف، وهن العظم دليل على وهن الجسم كله؛ لأنه عمود الدين وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منه، كذا قال القرطبي فى تفسيره (١).

ذكر أولا ما دل على الضعف الحقيقى، ثم ذكر ما يدل ظاهرا على الضعف، وهو أنه يعلوه الشيب فقال: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ﴾ الاشتعال الانتشار، و﴿شَيْبًا﴾ تمييز محول عن الفاعل، والمعنى اشتعل شيب الرأس، أى انتشر الشيب فيه، والاشتعال مع أنه بمعنى الانتشار إلا أنه غلب على انتشار النار.

وهنا نجد ثمة استعارة، فقد شبه انتشار بياض الشيب باشتعال النار، إذ يكون الشيب عند انتشاره لامعا كوهج النار، ولأن فيه إفناء الشعر الأسود، كما تحرق

النار ما يكون حطبها، ولأنه أمانة للفناء للعمر كما تفتنى النار ما تحرقه، وأسند الشيب إلى الرأس مع أنه يكون فى الشعر من قبيل اسم المحال وإرادة الحال، إذ جلد الرأس هو منبت الشعر ويكون فيه، وإن فى هذا النص من البلاغ ما يليق بالقرآن الكريم أبلغ القول فى الإنسانية كلها، إذ هو كلام الله تعالى الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن نسبة الاشتعال إلى الرأس ما يثير الاهتمام فيحاول العقل تعرف اشتعال الرأس فيجئ التمييز ﴿شَيْبًا﴾ بما يفيد اشتعال الشعر، ولم يذكر الشعر بل اكتفى بذكر محله.

وقال الله تعالى عن زكريا: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فى هذه الجملة السامية الدلالة على رجائه من الله تعالى، وفيها ذاتها ضراعة، وعبر هنا بالدعاء، وفى الأولى بالدعاء للدلالة على أن النداء استغاثة وتلهف ورجاء، ودعاء وعبادة وتقى، وذكر ﴿رَبِّ﴾ فى هذه لبيان أن نعمه سبحانه وتعالى موصولة دائما منذ خلقه إلى أن يبعثه نبيا، و﴿شَقِيًّا﴾ بالأمر إذا تعب فيه ولم ينل ثمرته، أو طرد من خير، والمعنى لم أكن منذ خلقتنى بدعائك محروما متعبا، بل كانت نعمة واستجابة دعائى قائمة دائمة موصولة، وفى نفى الشقاء فى الدعاء ماضيا تأكيد للرجاء قابلا، وأن ذلك من طرائق الاستجابة والرغبة فيها، وإن ذكر النعمة الماضية شكر لها وإيدان لشكر فاعله.

وصرح بموضوع الدعاء فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝﴾، هذه الجملة حالية، والواو واو الحال، والمعنى أنه فى الحال الذى وهن العظم واشتعل الرأس شيئا ودنا الموت ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، والموالى هم الحواشى والعصبات من قرابته، وسموا موالى؛ لأنهم الذين يلونه على ما يترك من علم ونبوة والأموال التى تورث من بعده، وقوله: ﴿مِنْ وَرَائِي﴾، إما أن يتعلق بالموالى ويكون ظاهر القول إني خفت الموالى الذين يجيئون من ورائى، وإما أن يتعلق بـ﴿خِفْتُ﴾ ويكون ظاهر المعنى: إني خفت من بعد موتى الموالى الذين يجيئون، والمؤدى فى التقديرين واحد. ولماذا

خاف الموالى؟ قيل: لأنهم لم يكونوا أمناء على تركته من بعده إذ كانوا عصاة مسرفين، أو لأنهم قلة، وعلى هذا قرئت (خَفَّت) بفتح الحاء وتشديد الفاء وسكون التاء ويكون طلب الولد لينضم إليه، وقد ورد هنا اعتراضان:

الاعتراض الأول: أنه ورد في الأثر: «إننا معشر الأنبياء لا نورث»^(١).

الاعتراض الثانى: أنه إذ يطلب الولد يرثه إنما يعترض على تقسيم الله تعالى للميراث ويستكثر على الموالى ما يأخذه.

والجواب عن الاعتراض الأول: أن هذا الأثر كان بالنسبة للنبي، وإلا فقد ورث سليمان داود - عليهما السلام - أو على أنه غالب أمرهم، أو على أن الورثة هى وراثه العلم والنبوة ولكن ذلك بعيد.

وأما الجواب عن الاعتراض الثانى: فهو أنه لا مضارة فى الورثة، وإنما أراد أن يضم إليهم فى تحمل أعباء العلم الذى حملة زكريا، ويؤيد ذلك قراءة خَفَّت بفتح الحاء وتشديد الفاء، والمرأة العاقرة التى لا تلد، وقوله: ﴿وَكَاَنَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، أى ثبت عقرها ودوامه يدل عليه التعبير بـ «كان» الدالة على الدوام والاستمرار، أى أنه لا أصل له فى الولادة لكبره وعقمها، ولكن رجاؤه من الله تعالى مسبب الأسباب، ولذا قال متجها إليه؛ لأنه فوق الأسباب الظاهرة ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ «الفاء» لبيان ترتيب ما بعدها على مع ما قبلها، فهو مترتب على رجائه فى الله تعالى، وترك الرجاء من جهة الأسباب العادية وكان التعبير بـ «هب»، أى أنه هبة مجردة من فضلك وإرادتك أنت الفاعل المختار، وكان قوله ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ تأكيد بأنه من قبل الله تعالى لا دخل للأسباب العادية فيه، بل إنه خرق لهذه الأسباب.

﴿وَلِيًّا﴾، أى يلينى ويخلفنى فى مالى وما أوتيت من علم وحكم وحكمة.

(١) رواه أحمد - باقى مسند المكثرين (٩٥٩٣). والنسائى فى الكبرى ٧١/٤ (٦٢٦٦): «إننا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة». كما رواه البخارى ومسلم بلفظ آخر.

ثم قال تعالى فى بيان معنى الولاية:

﴿يُرِثْنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ﴾ (٦)

الولاية مترتبة على أنه ولىّ أو هو معنى ولايته عنه، ولذا انفصلت عن الجملة السامية السابقة؛ لأنها مترتبة عليها أو لأنها بمنزلة السبب، وهذه بمنزلة المسبب، وما الموروث؟ قالوا: إن الولاية تكون وراثة فى الجسم والعقل والغرائز والصفات الفطرية وبعض المكتسبة؛ كى تكون الولاية فى المال والعلم والحكمة والسجايا الفطرية، وقد نفى بعض العلماء الولاية لقول النبى ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»^(١) ولكن الأكثر على أن الولاية فى المال بالنسبة لذكرى ﷺ هى ثابتة، ولعل ما ذكره النبى ﷺ غالب ما عليه الأنبياء أو خاص بالمرسلين أصحاب الشرائع منهم كموسى وعيسى ونوح وإبراهيم - عليهم السلام - وإلى هذا تميل؛ لأنه من المؤكد أنه ورث سليمان داود بنص القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا تدل على الابتداء، أى يرث ميراثا من آل يعقوب.

هذا هو الطلب الأول الذى دعا ربه ضارعا إليه، أما الطلب الثانى فهو أنه خصه بأن يكون مرضيا، أى تكون سجاياه وأعماله وأخلاقه مرضية مستقيمة، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، ﴿رَضِيًّا﴾ هنا فاعل بمعنى مفعول، أى اجعله مرضيا عندك، أى أن أخلاقه وأفعاله وصفاته المكتسبة موضع رضا منك، ولم يقل: وكن راضيا عنه؛ لأنه يطلب ما يطلب فى خلق الولي وتكوينه، أى اجعله فى تكوينه محاولا رضاك، وأن ترضى عنه، بحيث يتخذ الأسباب لينال رضاك أنت العليم الحكيم فلا يكون شقيا، ولا يكون عصيا بل يكون راضيا برا تقيا.

وإن الدعاء صادر من قلب خاشع ضارع، ولذا استجاب سبحانه وكان الخارق للعادة فقال تعالى:

(١) المرجع السابق.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ .

ابتدأ الإجابة بنداؤه باسمه إدناء، وعناية وإظهار المحبة واختصاصه، وتمكيناً لإجابته في نداؤه الضارع، وأردف ذلك النداء المقرب بقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾، ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ أضاف سبحانه التبشير إلى ذاته العلية ذاكراً بضمير المتكلم العظيم فوق كل عظمة الذى لا يتقيد بأسباب الناس وعاداتهم، بل إنه الفعال لما يريد ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾، وتأكيداً للتبشير سماه الله تعالى، فسماه يحيى، ولهذا الاسم مناسبة واضحة بالنسبة لأبويه، فأبوه شيخ فان، وكأنما رد إليه شبابه في حياة ولده فكان له إحياء، وأمه عاقر، كأنما خلق الله تعالى الحياة في رحم جف فلم يرب جنينا، فكان منه الولد، وذلك بلا ريب خرق للأسباب والمسببات العادية التي فرضها فلاسفة اليونان الذين قارنوا ظهور المسيح ﷺ ومريم أمه، وزكريا كافلها، و﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾، أى شبيهاً في خلاله وسجاياء، فقد كان حصوراً من الصالحين وليس له سمي، فالتسمية من الله، وقد سبق يحيى بها كل الأسماء التي سمي بها الرجال.

وهنا نجد نبى الله زكريا، وقد وقف بين حالين: حال الإيمان بالله خالق الأسباب والمسببات الذى لا تقيد إرادته عادة ولا سبب أى سبب، والحال التى تسود الناس، وهى سيطرة الأسباب والمسببات العادية على تفكيرهم، فبالأولى طلب ما طلب علماً أن الله تعالى فوق الأسباب والمسببات، وبالثانية ثار عجه؛ ولذا قال تعالى عنه:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ .

الاستفهام ليس للاستنكار؛ فكيف يستنكر نبى قدرة الله تعالى على الأشياء من غير وسائط وأسباب، وهو خالق الوسائط والأسباب، وإنما كان هذا السؤال للتنبيه إلى موضع الغرابة، وليؤمن من لم يكن آمن بقدرة الله تعالى، وأنه لا

يحتاج في خلقه إلى وسائط وليسمع الناس بيان الله تعالى أنه هين عليه، وأنه ليس بغريب من الله تعالى، فقد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، وأن الله تعالى غنى عن الوسائط والأسباب، وشكراً لنعمة الله في إجابة الدعاء فقد أجاب سبحانه مع ظهور ما يبعد الإجابة، ولكن ليس على الله ببعيد.

وموضع البعد أنه شيخ فإن قد تصلبت عظامه وصار كالخطام الذى لا تحرى فيه الحياة؛ فقد بلغ من الكبر عتياً، وامرأته عاقر لم تنجب ولم يكن من شأن أمثالها في العادة أن تنجب، وقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، أى بلغت من كبر السن حدا صرت فيه صلب العظام معروق اللحم، وقد قال الزمخشري في معنى كلمة (عتى) واشتقاقها: «أى بلغت عتياً وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل، ويقال: عتا العود من أجل الكبر والظعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتياً» اهـ^(١).

وأصل عتى عتوو. كسر ما قبل الواو الأولى فقلبت ثم اجتمعت الواو والياء وكانت إحداهما ساكنة فقلبت ياء وأدغمت الياء فى الياء، وقرئت ﴿عِتِيًّا﴾ بكسر العين وبضمها^(٢).

أجاب الله تعالى زكريا بقوله:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۖ﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره مثلاً الأمر كذلك، وقائل هذا هو الملك الذى تولى الوحي بين زكريا وربّه، أى قال الملك: الأمر كذلك، فقد قدره الله تعالى، وأحكم ما قدر، ثم نقل عن الله تعالى قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وعبر بـ ﴿رَبُّكَ﴾ للإشارة إلى أنه خالقه ومربيّه والقائم على كل أموره، وأنه لا غرابة فى أن يكون هذا من الحى القيوم ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود

(١) الكشف للزمخشري: ٥٠٣/٢، والجساوة: الصلابة والخشونة. لسان العرب-جسا.

(٢) اختلف فى (عتياً)، فحمزة والكسائي وحفص: بكسر العين، وقرأها الباقرن بالضم. الشيخ محمود خليل الحصرى- القراءات العشر من الشاطبية والدرة- الشمولى. مختصراً.

إلى ﴿غُلَامٌ﴾ فى قوله: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وهو يعود إلى الولد مع وجود هذه الأحوال التى تجعله قريباً، و﴿هَيْنٌ﴾، أى سهل لين لا يثير عجباً ولا استغراباً، و﴿هَيْنٌ﴾ تشير إلى أنه لا غرابة فيه، ثم ساق سبحانه بعد ذلك ما يدل على قربهِ، فقال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾، وهذه مقدمة قياسية تزيل الغرابة وتبين أنه لا غرابة على قدرة الله تعالى، وتقديره هذه المقدمة هكذا. وقد خلقتك من قبل هذا ولم تك شيئاً؛ لأننى خلقتك من عدم لا بعد شيء، وإذا كان ذلك ممكناً وواقعاً وقد وقع فبالأولى يكون الخلق من شيء، وإن كان من أب شيخ وأم عاقر فهما شيء، والخلق من شيء أقرب فى الوجود من الخلق من عدم. اطمأن زكريا الرسول إلى بشرى رب العالمين أو قوى اطمئنانه، أو زالت الغرابة من نفسه وبقي أن يوثق البشرى:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٦﴾.

الآية هنا العلامة التى يعرف بها أن امرأته حملت، وأن الولادة آتية لا ريب، فإن الولد قرّة عينه وإنه آت لا محالة لوعده الله تعالى به. وإن الله لا يخلف الميعاد ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، وقد قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝٤١﴾.

وقد ذكر الأيام فى سورة آل عمران، والليالى فى سورة مريم؛ للدلالة على أن العلامة هى ألا يكلم الناس ثلاثة أيام بلياليها، وكان ذكر الليالى فى هذه السورة لأنها مكية، وما كان العرب الأميون فى مكة يعرفون الأيام إلا بالليالى، حيث يرون القمر فهو شهر الأميين، والأيام الثلاثة قد حبس الله تعالى لسانه عن النطق، فما كان يتكلم إلا بالإشارة، كما قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿... أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ... ۝٤١﴾، أى بالإشارة، وأوضح الإشارات الكتابة، وقوله تعالى: ﴿سَوِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿تُكَلِّمُ﴾، أى سوى الخلق سليم

الحواس، أى وحاستك سليمة، ولماذا كانت العلامة الدالة على وفاء الله ببشرائه وتنفيذها بالفعل هى حبسه عن الكلام ثلاثة أيام متتابة، وهو سليم الحواس؟، تلك إرادة الله تعالى ولا يعلم إرادة الله إلا الله سبحانه وتعالى، وقد نتلمس معرفة بعض أسرار ذلك الحبس فنقول إنه سبحانه وتعالى قد أراد به العتب، لذكر غرابة البشرى، وقد يكون إعفاءً لذكرها وأمراته من لاجاة القول عند الفضوليين من الناس، وقد يكون للانصراف إلى العبادة والعكوف فى منزله أو المسجد الأقصى، قد يكون لذلك أو لغيره، والعلم عند الله العليم الخبير. ولما تأكد مجيء الولد وكان على وشك المجيء، كان التسييح والتكبير هو شكر الله تعالى، وكان ذلك منه ومن قومه؛ لأنه ليكون لهم ولى لذكرياء، له حنانه وعطفه ومحبته، ولذا قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

﴿الْمِحْرَابِ﴾ هو المصلى، ويظهر أنه كان يلزمه عندما وعده ربه أو كان قريباً منه دائماً، ولذا كان خروجه مبتدأ منه، وسمى المصلى محراباً؛ لأنه يحارب الشيطان بلزومه فهو مشتق من المحرب، أو يحارب التعب ويأنس فيه بالله والقرب منه، فيكون مشتقاً من الحرب والتعب وجهاد النفس.

ومهما يكن اشتقاقه فهو أشرف مكان خرج على قومه منه وأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيا، ﴿فَأَوْحَى﴾ أى أشار إليهم، وكأنه كان إلى محبوس اللسان، كما يدل على ذلك مخاطبته لقومه بالإشارة والرمز، وقد كان هو فى ذكر دائم، كما قال تعالى: ﴿...وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝٤١﴾ [آل عمران].

وقد دعا قومه للمشاركة فى هذا بالإشارة لشكر الله تعالى لما تأكد من العلامة أن الله تعالى وهبه الولد الذى يكون ولياً.

والتسييح: التقديس، والتسييح فى العشى والإبكار يفيد أنه تسييح طوال النهار وطرفاً من الليل، وكانت دعوة قومه للتسييح معه؛ لأنه ذلك الولى الذى

جعله رضا سيكون مصدر خير لهم، ولأنه يكون خلفا من الإيمان بالأسباب والمسببات إلى الإيمان بالله الفعال لما يريد.

بعد ذلك كان يحيى نبي الله، وقد صار شخصا سويا يخاطب وينادي بما أنعم الله به عليه وعلى أبيه فقال تعالى مخاطبا نبيه يحيى:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾.

ناداه سبحانه بالبعيد إعلاء له وتشريفا، وناداه باسمه محبة له وتقريبا، وقد دل ذلك النداء على أنه بلغ حد الخطاب؛ ولذا تضمن معنى كبر وكمل، وعطف عليه بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، فالواو عاطفة تحمل على ما تضمنه معنى ﴿يَا يَحْيَى﴾ من بلوغ الرشد، واستواء الشخصية الإنسانية وذلك أمر خارق للعادة فإن الصبي يشدو في الكمال حتى يبلغ مبلغ الرجال، فيخاطب كما يخاطب الرجال، ولكنه بلغ مبلغ الرجال، وهو مبلغ من يعطيه الله تعالى الحكم، والحكم هنا الحكمة، وذلك كما في كلام حكيم تميم أكتثم بن صيفي «الصمت حُكْمٌ، وقليل فاعله»، أى الصمت حكمة وقليل فاعله، والكتاب الذى أخذه هو التوراة، فقد كانت التوراة شريعة النبيين الذين جاءوا من بعد موسى يقرأونها وينفذون أحكامها، ويعلمونها للناس ويحكمون بما اشتملت عليه من نظم، فداود وسليمان - عليهما السلام - كانا ينفذان في ملكهما حكم التوراة، وقيمان ما اشتملت من حدود وقصاص من غير تفريط فيها، ومعنى ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أى خذه منفذا له بقوة لا تخشى فيه لومة لائم، ولا معذرة لائم.

وقد ذكر الله سبحانه ما حلاه من صفات بشرية هي صفات البشر الكامل فقال تعالى:

﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾.

ذكر الله تعالى ثلاث صفات هي صفات الكمال لإنسان يعيش في وسط مجتمع يغذيه بماله وعاطفته، ويجنب عنه سوء.

الصفة الأولى: ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَحَنَّانًا﴾، والحنان الشفقة والرأفة والرفق في معاملة الناس، والفيض عليهم من حبه، والحدب عليهم، والواو عاطفة على ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، فذلك بدا فيه منذ كان صبيا، وهو ما أودعه الله تعالى في فطرته، ولذا قال: ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾، أى أن الله تعالى أعطاه تلك الصفة منه لا بتربية ولا تعليم فهو مهدي حنون شفيق بمقتضى تكوينه الفطرى.

والصفة الثانية: الطهارة وذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾، أى طهارة، وهى طهارة إيجابية فهو طاهر فى نفسه، ويفيض بطهارته على غيره، ولذا نقول: إن «زكاة» تتضمن طهارة النفس، والفيض على قومه بالصدقات، فتكون طهارة لذاته وطهارة لمجتمعه من الموبقات، فإن الزكاة طهارة للمجتمع.

والصفة الثالثة: التقوى وقد قال تعالى ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، أى كانت نفسه مملوءة بالتقوى وهى خوف الله تعالى، وخوف الشر لقومه، فكان نبيا، وكان إنسانا كاملا سوى الخلق والنفس، وتحققت فيه أمنية أبيه ولذا قال تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)﴾.

هذان الوصفان يضافان إلى الأوصاف الثلاثة السابقة، أول الوصفين إيجابى، والثانى سلبى.

أما الوصف الأول: فهو أنه كان برا بأبويه، وهو استجابة لذكرايا؛ لأنه كان يخاف الموالى من ورائه، فجاءه البر به وبأمه، والذي به تقرر أعينهما، ولا يجدون شقوة فى عشرته بل يصاحبهما صحبة طيبة كريمة برة.

والوصف الثانى: سلبى، وهو أنه لم يكن جبارا مستكبرا مستطيلا على الناس بقوته أو رهبته، بل كان أليفا متطامنا مطمئن النفس عادلا، لا يرهب، ولا يتجبر، ووصف الجبار بأنه عصى، وكل جبار عصى؛ لأن يعصى بالبعد عن الناس ويعصى بمجافاتهم، ويعصى بعداوتهم، ويعصى بالظلم، فالظلم مرتعه وخيم، ويشقى فوق ذلك بغضب الله تعالى عليه، وحسب الظلم شقاء، فإنه لا يظلم إلا

شقى، ولا يسعى مع ظالم إلا شقى، والعصى فعيل من عَصَى، من العصيان وهو مبالغة، وقد كرم الله تعالى يحيى بتحية كريمة له فقد حيَّاهُ تعالى من وقت أن ولد إلى أن مات فقال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥).

السلام هو الأمن، والأمن يتضمن الأمن من عذاب الله، والظفر برضاه، وهو أكبر ما يأخذه العبد، وهذا الأمن والرضا من وقت ولادته، فهو مبارك آمن يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا.

ولادة عيسى

قال الله تعالى:

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي
أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ
بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

قلنا: إن العصر الذى قارب عيسى هو عصر الإيمان بالأسباب والمسببات العادية حتى ادعى أن الكون نشأ من منشئه على نظام: العلة والمعلول.

وإذا كانت تلك سمة هذا العصر فكان عصر الخوارق المبجلة لذلك التفكير الضال، وقلنا إن يحيى كان حمله خارقا للعادة؛ لأنه كان من أب بلغ من الكبر غيبا وأم كانت عاقرا لا تنجب.

وعيسى كان من غير أب، بل سبق ذلك خوارق أخرى فى الحمل بأمه، وفى كفالتها ومدة حضانتها، فقد كانت وهى فى حضانة زكريا تعيش فى المسجد محررة له كما نذرتها أمها فى أثناء الحمل بها، إذ قالت مخاطبة ربها: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴿[آل عمران].

نرى أن خرق نظام الأسباب والمسببات ابتداء بما كان من رزق مريم الذى أثار عجب زكريا، وقد رأى الأسباب تُطوى ولا تحول بين الله تعالى وما يريد، فدعا ربه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة.

فخرق نظام الأسباب العادية ومسبباتها كان فى أم عيسى قبل أن تحيىء إرهابات ولادته، بل كانت هذه هى الإرهابات الأولى، ولذا كان اصطفاء الله مريم البتول لتكون أم المسيح، إذ قال عز من قائل ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران]، كانت هذه كلها إرهابات لما اختارها الله تعالى له.

قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ابْتَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝﴾ .

الخطاب للنبي ﷺ، والكتاب هو القرآن الكريم، فهو الكتاب الكامل الذى إذا ذكرت كلمة الكتاب انتهت إليه، فهو الجدير وحده بأن يسمى الكتاب؛ لأنه كامل فى نسبه إلى الله تعالى، إذ هو خطابه لعباده، وكامل فيما اشتمل عليه من إعجاز، وكامل فيما اشتمل عليه من شرائع وحكم ومواعظ وقصص.

﴿إِذِ ابْتَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ النبذ: الطرح والرمى، وانتبذ معناه نبذه نبذا شديداً، والمعنى أنها اعتزلت الناس ونبذتهم، وانفردت لعبادة الله وحده، لا تأنس إلا به، ولا يعمر قلبها إلا بذكره، والمعنى انفردت من أهلها ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، أى انفردت من أهلها فى مكان شرقى بيت المقدس الذى كان فيه محرابها، ومحراب كافلها زكريا عليه السلام، وكان وراء هذا الانفراد أن اتخذت حجاباً يحول بينهما.

ولذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾، والفاء للترتيب والتعقيب، أى أنه صاحب الانتباز أو أعقبه أن اتخذت حجاباً من دونهم يحول بينهم وبينها، فلا يرونها فى عزلتها، ولا تراهم، وذلك إحكام للعزلة التى أرادتها بإلهام من الله تعالى، لتكون أما لعيسى، وقد كانت فى هذه الخلوة الروحية على استعداد لتلقى أمر ربها، وقد قال تعالى فى الاصطفاء فى السورة آل عمران مخاطباً لها بالوحى، أو بالإلهام الروحى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران].

فى هذه الخلوة الروحية التى كان يتحدث فيها الملائكة، كان لقاء جبريل الأمين لها، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، الروح هو جبريل، وقد عبر عنه بروح القدس، وأضيفت الروح إلى الله؛ لأنه خالقها؛

ولأنه المختص برسالته إلى خلقه، وكذلك كان التعبير في قوله تعالى: ﴿...فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا...﴾ (٩١) [الأنبياء]، أى جبريل الأمين، والفاء للترتيب، أى أنه بعد أن اتخذت حجاباً بينها وبين الناس منتبذة دونهم مكاناً شرقياً، أرسلنا إليها فى هذه الخلوة الروحية جبريل، فتمثل لها بشراً سوياً، أى ظهر لها فى صورة رجل سوى مستوى الخلق والتكوين حسن الصورة، وقد جاءها كذلك، لأن البشر لا يرون الملك من الملائكة إلا على صورة البشر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) [الأنعام]؛ لأن البشر بحالهم البشرية لا يستطيعون أن يروا ملكاً وهو فى صورته الروحية.

فوجئت البتول مريم - وهى فى مكان قصى شرقى قد انتبذت الناس، واتخذت من دونهم حجاباً - بصورة رجل من البشر يدخل عليها ولا تدرى من أين جاءها، وقد سدت الأبواب، وقام الحجاب، وفى الفزع من المفاجأة، قال الله عنها:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (١٨).

أى ألبأ إلى الله تعالى منك حذرة خائفة، وذكرت الله تعالى بوصف الرحمن كأنها تستغيث من الناس برحمة الله تعالى، وأنها فى هذه الساعة تلجأ إلى رحمة الرحمن الرحيم، ثم تتجه إلى الذى دنا منها مستنجدة بتقواه، فتقول: ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، طاهراً متصوناً مرجواً تخاف الله تعالى وتخشاه، فهى تلجأ إلى الرحمن، وتحته على أن يخافه ويتقيه، ويكون امرأ يخاف عذابه ويرجو ثوابه، هنا يتقدم الملك الذى تمثل بشراً سوياً يعلن حقيقة ومهمته، وأنه ما جاء لينال منها شراً وأن ما سبق إلى وهمها بنفسه نفياً قاطعاً، ويزكيها ويقوى اصطفاء الله تعالى كما جاء فى سورة آل عمران: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩) (١).

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أى لست إلا رسول ربك، أى أنا مرسل من ربك الذى خلقك ويعلم حالك وطهارتك، وأنه اصطفاك من نساء العالمين؛ لتكونى موضع معجزته الكبيرة وهى خلق إنسان من غير أب، وقوله: ﴿لَأَهْبَ لَكَ﴾ اللام متعلقة برسول أى رسالتى لأهب لك، لأكون أداة هبة لله لك، أو طريق هبة الله لك، فليس هو الذى يهب وإنما يهب الله تعالى، وهذا معنى القراءة الأخرى «ليهب لك»^(١) بإسناد الهبة لله تعالى مباشرة، وعلى كلتا القراءتين الهبة من الله تعالى العزيز الوهاب، والرسالة فى قراءة «ليهب لك» موضوعها الرسالة وحدها.

وقوله تعالى: ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾، أى غلاما طاهرا ناميا فى جسمه ونفسه وروحه، وكل ما يتصل بالنمو الإنسانى الكامل.

اعتراها ما اعترى كافلها زكريا من استيلاء الأسباب والمسببات العادية فكانت مستغربة، وحكى الله تعالى عنها أنها قالت:

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾.

﴿أَنَّى﴾ بمعنى كيف وهى للاستغراب لتأثرها بنظرية الأسباب التى كانت سائدة، ولأن هذا هو النظام الذى كانت تعرفه ويعرفه الناس، وموضع الاستغراب أن يكون لها غلام ولم يكن أحد من الرجال قد مسها، أى خالطها مخالطة جنسية بزواج شرعى، أى أنها لم تزف إلى رجل فى الحلال، ولم تك بغيا أى امرأة مبغية مقصودة من الرجال، بل كانت عفيفة نزيهة طاهرة، وبغى: قال بعض الصرفيين: إنها على وزن «فعلول» دخلها الإعلال بأن اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالتسكين فعُلّت وأدغمت الياء، وعندى أنها على وزن «فعيلة» بمعنى مفعول، ولم تلحقها التاء، وذلك مثل قتيل وجريح، والمرأة المتفحشة يقال لها بغى لأنها تُبغى من الرجال ويطلبونها.

(١) قراءة (ليهب لك): أبو عمرو، وروح - وصوب ابن الجزرى فى النشر يعقوب بكمال - وورش، وأبو شيبان عن قالون عن نافع، وقرأ الباقون (لأهب) بهمة مفتوحة. راجع: الهمدانى - غاية الاختصار - تحقيق د/ أشرف محمد فؤاد طلعت (٢/ ٥٦٣)، والنشر فى القراءات العشر (٢/ ٣١٨).

فنفث لذلك السيدة البتول بذلك الزواج، وأن تكون قد زفت لبشر، وأنها لم تكن تبتغى من الرجال، وهذا موضع استبعادها مأسورة بحكم الأسباب العادية، وقد سيطرت النظرية التي تفرض الأسباب والمسببات فى كل الوجود. وقد رد الله سبحانه وتعالى قولها بأنه سبحانه أراد ذلك، وإرادته فوق الأسباب، ولذا قال تعالى :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾ .

﴿قَالَ﴾: أي جبريل، ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أى الأمر كذلك، قد تقرر فى علم الله المكنون وقدره المحتوم، فلا تغيير فيه استبعديه أو لم تستبعديه، ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أى قال ربك الذى خلقك ولم تكونى شيئا وكلاك وحماك ورباك واصطفاك على نساء العالمين؛ لهذه الخاصة التى منحك الله تعالى إياها، هو على الله هين؛ لأنه يكون أى شىء فى الوجود بقوله تعالى: ﴿... كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة]، فليس خلق شىء بعزیز على الله خالق لا شىء ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ «الواو» عاطفة على فعل محذوف يفهم من الكلام ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فثبتت قدرتنا الكاملة فى تغير الأسباب العادية ومسبباتها، وإن إرادتنا لا يقيدنا شىء، وأنه سبحانه الفعال لما يريد، ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، الضمير يعود على الغلام، والآية هى الدلالة على قدرة الله تعالى المطلقة على خرق الأسباب والمسببات، فأى دلالة أقوى فى الدلالة على أن الله تعالى فعال لما يريد، لا تنقيد بالأسباب والمسببات، كما يتوهم الفلاسفة ومن يلف لفهم ويسير فى دروبهم.

﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾، أى أن ذلك الغلام سيكون آية دالة على كمال القدرة الربانية وسيكون رحمة منا؛ إذ نبعثه بالرحمة والراقة والتسامح الإنسانى.

ويقول سبحانه فى بيان أن ذلك أمر محتوم ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ قرنا بحكته، وفى حدود قدرتنا، ونفذناه بحكمتنا العالية التى لا تعلق إليها مدارك البشر، إنه هو العليم الخبير السميع البصير.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)﴾ .

جاء فى بعض الروايات أنها حملت بنفخ جبريل فى بعض ثيابها، فروى أن جبريل ﷺ حين قال لها: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ نفخ فى جيب درعها، وعن ابن عباس أخذ جبريل رذن قميصها^(١) فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى، وإن هذا يتلاقى مع قوله فى سورة الأنبياء: ﴿وَأَلْتَمِسْ أَرْحَامًا فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا... (٩١)﴾ فهو لم ينفخ فى الفرج، ولكن نفخ فى مريم ذاتها، وذلك بالنفخ فى فتحات من قميصها، وعلى أى حال الكلام فى ذلك ليس ذا جداء، فإن جبريل روح من الله تعالى وليست له خواص الآدمى، بل له الخواص الروحية التى لا تتصل بالمادة.

قيل: كان الحمل بعيسى ومريم فى نحو الثالثة عشرة من عمرها، ولا يهمنها مقدار سنها، إنما يهمنها أنها كانت عذراء وأنها حملت من غير زوج مطلقا، بل جاء حملها أمرا خارقا لنظام الأسباب والمسببات الذى كان يؤمن به الفلاسفة، ولا يؤمنون بأن الله فعال لما يريد، فجاءت ولادة عيسى من غير أب أمرا خارقا لهذا النظام؛ ولذا قال الشهرستاني: بحق إن عيسى بوجوده معجزة فى ذاتها.

وعندما أحست بالحمل واعتزلت الناس وانفردت عنهم، وانتبذتهم فى مكان قصى بعيد وشددت فى نبذهم وعدم الانغمار فى جمعهم؛ لأنها صارت تصاحب من نفسها من يؤنسها فى وحدتها، وهو الحمل الذى تسعد به كل امرأة فى هذه الدنيا، ولذا قال تعالى: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾، أى انتبذت مصاحبه له ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾، ﴿مَكَانًا﴾ ظرف، أى فى مكان ﴿قَصِيًّا﴾ بعيد عن الناس حتى لا يروها فيقلقوها بفضولهم، وفى الناس فى كل العصور فضول، يقولون فيه ما لا يعنيههم ولا يهمهم.

ولكن لابد من المواجهة عندما ترجع إليهم حامله معها غلاما طاهرا زكيا ناميا.

(١) الرُّذْنُ، بالضم: أصلُ الكُمِّ، والجمع أرْدَانٌ. القاموس المحيط. وفى العين: مُقَدَّمُ كُمِّ القميص.

ولم يذكر علماء الأخبار شيئاً يتعلق بمدة حملها، فكان ذلك على مجرى المعتاد في الحمل وهو تسعة أشهر حتى يأخذ الجنين أدواره كلها علقه ثم مضغة فعظاماً، ثم تكسى العظام لحماً، وكان الأمر الخارق للعادة أنه لم تكن نقطة في قرار مكين تولدت عنها العلقه، والنفخ في القميص من روح الله جبريل لا يوجد نقطة، ولكن روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال، قال القرطبي: لأن الله تعالى ذكر الانتباز عقب الحمل، ولعله يؤيد ذلك النظر العطف بالفاء في الحمل ثم في الانتباز ثم في مجيء المخاض، ولا مانع عندنا من قبول ذلك، ولكن لا دليل عليه، وإن صح يكون أمراً خارقاً آخر، ولم يذكر ما يدل عليه من القرآن ولا السنة المرفوعة إلى الرسول ﷺ.

وكانت - عليها السلام - قد انتبذت الناس في ذلك المكان القصي، حتى اضطرت إلى الخروج منه وذلك بسبب المخاض الذي هو مقدمة الولادة، ولذا قال تعالى:

فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ

قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا ۝٣٧

فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٣٨

وَهَزَى إِلَيْكِ الْجِذْعُ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۝٣٩

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي

إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝٤٠

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا

نَسِيًّا ۝٣٧﴾.

من إخباره إلى حملها على المجيء وساقه إليه غير مختار فيه، ولذا كان معناه الجأها المخاض وهو الطلق عند النساء أو مقدمة الولادة، وكان إلجأها إلى جذع النخلة؛ لأنها احتاجت إلى شيء تعتمد عليه وتتعلق به لشدة الحمل وكره الولادة

كما قال فى الولادة وصعوبتها ﴿... وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا... (١٥)﴾ [الأحقاف]، وهو صعوبتها واحتمالها بعسر شديد، وهو فى ذاته كره، ولكن الوالدة تتحملة لمحبة الولد وشغفها فيه.

وجذع النخلة عادة يكون يابسا سواء أكانت النخلة مثمرة أم كانت غير مثمرة، وسواء أكانت فى أرض زراعية أم كانت غير زراعية، والنخل يكون فى الأرض غير الزراعية، و«أل» للجنس كقولك: ادخل السوق واشتر شيئا، فليس ثمة سوق معينة، ولا تكون للعهد؛ لأنه لم تذكر من قبل شجرة، ولا يكون فى الدهن شجرة معينة.

وقد كانت مريم العذراء البتول فى كربين:

الكرب الأول: احتملته ورضيته بحكم الفطرة وهو كره الولادة كما ذكرنا.

والكرب الثانى: العار الذى رعمته ويستقبلها، فإنها البريئة الطاهرة تستقبل اتهامها وهى البريئة وذلك عبؤه على البرىء ثقيل، ولذا قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾.

تنادى «ليت» الدالة على التمنى، وكأنها تقول إنها تتمنى الموت، وتنادى أداة تمنى الموت قبل هذا، لأن ذلك وقت تمنى الموت فرارا من عار الاتهام الظالم، وهى البريئة الطاهرة التى اصطفاه رب العالمين.

وأنها ما قالت الذى قالته تمللا مما أراد رب العالمين لها من كرامة، وإنما كان ذلك استشعاراً من ضعفها وصعوبة الاحتمال، وإن كانت راضية بما قضى الله وبما أمر، غير خالعة ربة، ولا متمردة على طاعة، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾، المنسى والنسى: الشئ المنسى، كذبح الشئ المذبوح، ونقص الشئ المنقوص، فالنسى الشئ الذى من شأنه أن ينسى؛ لأنه مهمل فى ذاته، والمنسى بالفعل.

وقد قال الزمخشري فى هذا الأمر الذى كانت عليه العذراء البتول - محللا الألفاظ - وهو إمام البلاغة: المنسى ما من شأنه أن ينسى وي طرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها، كالذبح اسم ما شأنه أن يذبح، قال تعالى: ﴿وَقَدِّسَاهُ بِذَبْحِ

عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ [الصفات]، وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم أى الشيء اليسير نحو العصا والقدح.

تمت لو كانت شيئاً تافها لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى فى العادة، وقد نسى وطرح فوجد فيه النسيان الذى هو من حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء (أى الحال التى توجب الاستحياء) من الناس على حكم العادة البشرية لا كراهة لحكم الله، أو لشدة التكليف عليها إذ بهتوها، وهى عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام، لأنه مقام دحض^(١) قلما تثبت فيه الأقدام: أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم، وفضل باهر تستحق به المدح، ويستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم عيباً يعاب به، أو يعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله تعالى بسببها.

فى هذا الكرب الشديد الذى لا تمرد فيه كانت تحف بها مكارم الله، وخوارق العادات.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَٰذَا إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَنَادَاهَا﴾ الفاء عاطفة، وهى تفيد الترتيب، وضمير الفاعل يعود على جبريل؛ لأنه المذكور، وهو روح الله تعالى الذى أرسله الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وقالوا: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾، أنه كان قد جعله ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ قابلاً للغلام الطاهر عند نزوله كما تستقبل القابلة المولود، وذلك من كلاءة الله تعالى وحمايته لها، إذ كانت معزولة عن النساء وهى عذراء ليس لها تجربة فى الحمل والولادة من قبل، فكان من رعاية الله تعالى أن يسخر لها روح القدس، ليكون القريب منها فى هذه العزلة وهذا الانفراد عن المعاون والقريب، وقيل: إن ضمير الفاعل يعود على عيسى ويكون ذلك النداء خارقاً للعادة ولكن نستبعد هذا، أولاً: لأنه لم يكن هنا ذكر للغلام حتى يعود إليه، وثانياً: لأن الله لم يذكره آية

(١) الدَّحْضُ: الزَّلْقُ، والإِدْحَاضُ: الإِرْلَاقُ. لسان العرب. دحض.

خارقة لنظام الأسباب والمسببات. والنداء ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (أن) المدغمة فى (لا) التفسيرية، أى كان النداء لا تحزنى ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، السرى يطلق بمعنى الأمثل الكامل، ويقولون: السرى من الرجال هو الأمثل الكامل، ولقد قال الحسن فى عيسى عليه السلام: كان والله سرىا من الرجال وإن ذلك استثارة لمحبة الأمومة وعاطفتها، إذ إن بشرها بأنه سيكون له شأن أى الشأن، يسرى عنها، ويذهب بحزنها، فلا يشغلها ما تنتظره من ملامة كما يكون معها من الغلام الأمثل الذى هو الفرححة التى تذهب الترحة، ويفسر بعض العلماء السرى بأنه جدول ماء كان تحت الهضبة التى هى فيها، ونقول ما كان حزنها لطعام وشراب إنما كان حزنها لخشية الملام الذى تتوقعه، وهى البرينة، ونقول ذلك وإن كان ذكر الأكل والشرب قد يرشح لمعنى جدول الماء، وقد روى أن النبى ﷺ قد فسر السرى بجدول الماء^(١)، وقال تعالى: ﴿وَهَزِيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ (الواو) عاطفة، فبعد أن نهى المنادى عن الحزن أخذ يدعوها بعد الانصراف أن تأكل مستريحة مطمئنة، وأن تشرب هنيئا مريئا وتلتفت إلى حاجة الجسم الذى نهكه المخاض وتحتاج إلى تعويضه.

والباء فى قوله تعالى: ﴿وَهَزِيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ يقول الزمخشري أنها صلة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿... وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ... ۝١٩٥﴾ [البقرة]. وأرى أن الباء للدلالة على تسهيل وصول الرطب إليها؛ ذلك أنها تهز فى مكان هو الجذع تتساقط عليها الرطب من عل، وذلك بلا ريب تيسيرا للوصول، فلا تهز من أعلى بل تهز بمكان قريب منها، وهى النفساء التى تتعبها الحركة الكثيرة.

وقوله ﴿إِلَيْكَ﴾ للإشارة إلى قرب المكان الذى تهز منه بشدة إليها، وقال الزمخشري: إن فى قوله تعالى: ﴿تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ تسع قراءات، وكل يتعلق بحركات الفاء، ولا فرق كبير بين معانى هذه القراءات، ولذا لا حاجة إلى

(١) انظر الحاكم فى المستدرک (٣٤٦٠)، وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الطبرانى فى الصغير عن البراء بن عازب مرفوعا، كما فى مجمع الزوائد: ١٤٩/٧ (٥٥١١١).

ذكرها، ولتراجع فى موضعها، والرطب البلح الطيب السهل فى تناوله، والجنى: القريب الجنى، أى أنه لم تمض عليه مدة تفسده، وجاء فى الكشف وقالوا كان من العجوة، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل، وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب.

وقد قال أكثر المفسرين: إن جذع النخلة كان جافاً، وهى جافة، ولم يكن فيها ثمر فأثمرت فكان ذلك خارقاً للعادة، ونقول: إن الآيات الكريمات الخاصة بالحمل بعيسى عليه السلام وولادته ثرية بالخوارق فلا نزيد عليها إلا ما يثبت بالنص، ولا نفرض من غير نص.

وإذا كان الطعام والشراب قد توافر فقد كان حقاً عليها أن تأكل وتشرب، ولذا قال تعالى:

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦).

(الفاء) للإفصاح؛ لأنها نفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانت البراءة متوافرة، وقد تهيأ الطعام والشراب وكان معك غلام سوى سيكون الأمثل بين الرجال، ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، فكلى من الرطب الجنى، واشربى من الجدول السرى، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بما وهبك الله تعالى من غلام زكى، وقرار العين سكونها، وإن الإنسان فى اضطرابه وخوفه تدور عينه ولا تستقر، فكنى بقرار العين عن السكون والاطمئنان، فقرار العين يعلن عن قرار النفس، والأمر بقرار العين وإن لم تكن تحت سلطان الإرادة أمر باطمئنان النفس وإبعاد الهواجس المخيفة، وألا تتوقع سوء؛ لأن الله معها، وقامت الخوارق الدالة على أنه سبحانه وتعالى معها، ومن كان الله معه فإنه يجب أن يكون مطمئناً قريح العين والنفس.

ولقد صرح الملك بما يجب عليها لاتقاء فضول الناس قال الملك: ﴿فَأِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ «إن» حرف شرط، و«ما» تأكيد لفعل الشرط، بدليل التوكيد بالنون الثقيلة، كتوكيد القسم، وهو توكيد لأنها سترى من البشر كثير ولا ترى منهم ومن فضولهم ما لا يسرها،

وأوماً إليها بأن تنذر الله تعالى صوماً عن الكلام ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ وكأنه أشار إليها أن تنذر الصوم عن القول تقرباً إلى الله تعالى، فالسكوت من لغو القول قربة يتقرب بها إلى الله تعالى، وعبر عن الله تعالى بوصفه الكريم «الرحمن»، للإشارة إلى أن ذلك الصوم من رحمة الله تعالى بها وتقريبه إليها. وهى إذ تقول ذلك لقومها تؤكد بُعدها عن لغوهم، وعن سفه سفهائهم، ولذا أكدت النفى بقولها: ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ نِسِيًّا﴾، أى لن أكلم إنساناً قط طيباً أو فاجراً، براً أو بغياً، ولذا قالت: ﴿نِسِيًّا﴾، أى منسوباً للإنس، والعلاقة بينه وبين الإنسان أنه إنسى مجرد من غير نظر إلى حاله فى تقواه أو فجوره.

التقت بهم، وعبر الله تعالى عن لقائها بهم بقوله تعالى:

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَأْتُخْتَ هَزَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) يا أخت هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨).

الفرى العظيم القبح فقوله تعالى: ﴿فَرِيًّا﴾، أى أمراً عظيماً، وهو أنك أتيت بولد لا نسب له، وهو من يكون من زنى، ومن الأدب فى التعبير أن يقول

عن ولد الزنى إنه ﴿فَرِيًّا﴾، والفَرَى القَطْع وهو هنا الكذب المقطوع به، وفي بيعة الرسول ﷺ مع النساء قوله تعالى في مبايعتهن: ﴿... وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مَن يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ...﴾ (١٢) [المتحنة]، أى لا يأتين بزنى يفتريه فعلا وقولا.

وقد أرسلوا القول فى هذا الافتراء الكاذب عليها، وقد أقر الله نفسها به رأت من عناية الله تعالى بها وإجراء خوارق العادات لأجلها وولدها، وهى شاهدة لها ولولدها الغلام الزكى بالكرامة والإكبار.

قالوا منددين لها على حسب مداركهم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (٢٨)، ينفون عن أبويها الشر، فأبوها لم يكن امرا تغفل فيه السوء حتى صار يعرف به فلم يكن قرين سوء، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ ييغونها الرجال لقضاء مآربهم، وتناسوا أنها كانت خالصة لخدمة البيت وتربت فى كفالة نبي الله زكريا ﷺ، وهارون فى ظاهر القرآن ومتضافر الروايات هو هارون أخو موسى، وينادى الرجل برأس قبيله وأبيهم فيقال يا أخا العرب، ويا أخا قريش، ويا أخا تميم، ويا أخا همدان إلى آخر ما يجرى على السنة الناس، ولكنها صمتت ولم ترد، وأشارت إلى من يردّ وهنا ظهر ما يبهتهم ويرد غيهم.

فأشارت إشارة فهموها ليخاطبوا عيسى ﷺ، وذلك بإلهام الله تعالى:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩).

أشارت إليهم ليستمعوا إلى ما عدوه مادة الاتهام ليعرفوا أنه كان الحمل به أمرا من الله، فأثار ذلك عجبهم، وقالوا مستبعدين مستنكرين إشارتها، ولعلمهم جرت فى نفوسهم ما هو أبعد مما اتهموا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ الاستفهام للإنكار أو الاستغراب، أى غريب أن نكلم من كان فى المهد صبيا، وذكرت كلمة ﴿نُكَلِّمُ﴾ للإشارة إلى موضع الاستنكار أو لتفسير معنى ﴿فِي الْمَهْدِ﴾، أو للمبالغة فى الاستنكار، أى أن الاستنكار لأمرين: كونه ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ فهذا عجب، وكونه ﴿صَبِيًّا﴾، وهذا أعجب أيضا، والمراد بـ «المهد» الحِجْر سواء

أكان سريرا أم وسادة أم غيرهما، ولكن استبان لهم أن هذا الصبي أحكم وأعلم منهم، وأنطق بالحق ممن استغربوا.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾ (٢٣).

كان كلامه الحكيم الفيصل بين الحق والباطل وأبلغ ما يكون ردا للاثهام الذى لا يقوم إلا بمجرى العادات، فتبين لهم أنه فوق مجرى العادات الحاكمة التى يحسبها فلاسفتهم أن الأسباب والمسببات قانون لا يقبل التخلف، ونسوا أن خالق الأسباب والمسببات فوق كل نظام؛ لأنه خالق كل نظام وفعال لما يريد.

ونلاحظ قبل أن نتكلم فى معانى هذه الآيات أنها عندما واجهت القوم لم تقل كما أمرت ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، ولكنها نفذت الأمر بالفعل فلم تتكلم معهم بل أشارت إليه أن يرد، فهى نفذت مدلول الأمر ولم تنطق به ولو نطقت لكان ذلك نقضا للصوم الذى نذرتة.

وقد أثار العلماء بحثا حول نطقه صغيرا بهذا الكلام الذى لا ينطق به إلا نبي يوحى إليه، أكان هذا الكلام نتيجة بعثه نبيًا، وأنه بذلك بُعث وهو صبي فى المهد، وقد أجاب الأكثرون عن ذلك بأنه تكلم فى المهد ليتحقق وفاء أمه بنذرهما، ولتحقق براءة أمه من اتهامها بالزنى، وهى البريئة العذراء البتول التى اصطفاها الله على نساء العالمين، ثم عاد إلى ما يكون عليه الأطفال حتى بلغ المبلغ الذى ينطق فيه من يكون فى سن النطق، وأثاروا بحثا حول ما جاء بقوله من أنه أوتى الكتاب، وجعله نبيًا، وإيصائه بالصلاة والزكاة، وبره بأمه ونطقه بقوله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وأجيب عن ذلك بأن كل هذا الذى أخبر به سبق بلفظ الماضى، ومعناه للمستقبل كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ (١) [النحل]، وذلك

لتأكيد الوقوع؛ ولأن الأزمان عند الله واحدة، لا فرق فيها بين ماض وقابل، فكلها في علم الله تعالى واحد، ولكن كون بعضها ماضيا وبعضها قابلا إنما هو بالنسبة لعلمنا نحن وحدنا، فالله في علمه المكنون ألهم عيسى عليه السلام في المهدي أن ينطق بهذه الأمور على أنها واقعة وهي ستكون لا محالة.

أول قول لعيسى في المهدي: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ﴾ (٢٠) ابتداء بإظهار العبودية لله سبحانه وتعالى، وكأنه عليه السلام يرد على الذين أخرجوه من مرتبة العبد الخالص الزكي الطاهر إلى مرتبة الألوهية، وهو لن يستنكف أن يكون عبدا لله. والثاني: أنه آتاه كتابا يدعو الناس إلى اتباعه، وهو التوراة والإنجيل فهو يدعو إلى العمل بهما، والثالث أنه جعله نبيا. وهذا الجعل في علم الله تعالى أكنه إلى أن يبلغ من نبأ ويحمل رسالة، وهو بالنسبة لنا هذا الوقت الذي قاله إخبار بالماضي للدلالة على مؤكد في المستقبل.

والكتاب ذكر بالتعريف بـ (ال)، وقد أشرنا إلى أنه التوراة والإنجيل، فإن الإنجيل لم ينسخ التوراة، ولكن نسخ بعض أحكامها، وما يغير فيها لا يؤخذ به، وما لم ينص عليه فيها يؤخذ بأحكامها.

وقد بين عيسى عليه السلام على لسانه وهو في المهدي أنه سيكون مباركا، فقال تعالى عنه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾ (٢١).

المبارك النافع الهادي المرشد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والداعي إلى الحق والتنزيه، وقد كان عيسى عليه السلام واضح البركات: كان يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكان يبرئ الأكفم والأبرص بإذن الله ويحيى الموتى، وينادي الموتى فيخرجون من قبورهم وأنزل الله تعالى على يديه المائدة من السماء، على أن تكون عيدا لأولهم وآخرهم، فأى بركة أعظم يعطاه مبارك؟!.

ثم قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾، الإيصاء: الأمر المؤكد الواجب الاتباع أوصاه الله تعالى ﴿بِالصَّلَاةِ﴾، ويكنى بها عن إصلاح نفسه

وتطهيرها والتقريب من الله تعالى، وأن يكون ربانيا في ذات نفسه، ﴿وَالزَّكَاةَ﴾ إعطاء الفقير حقه، وتطهير المجتمع من آثام الفقر فكان الإيصال بالصلاة والزكاة إصلاحاً للنفس والمجتمع، فبالصلاة صلاح النفس وتطهيرها لتألف وتؤلف، وبالزكاة يكون التعاون الاجتماعي بين الغنى والفقير.

وقد قرر الغلام الطاهر أن ذلك كتب عليه مادام حياً، لا يترخص في ترك الصلاة ولا يسوغ تركها، ولا مسوغ لترك الزكاة إذا توافرت موجباتها.

وإن جعل هذه الأفعال بالماضي لتأكيد حصوله في المستقبل؛ ولأن الماضي والمضارع والأمر إنما هو بالأزمان التي يتفاوت العلم بها عندنا، أما بالنسبة لله تعالى فعلمه أزلي لا تحده الأزمان.

والأمر الثالث ذكره سبحانه وتعالى عند بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ في هذا النص الكريم أمران جليلان:

الأمر الأول: إيجابى وهو بر أمه، وحسن صحبتها والإحسان إليها جزاء ما قالت بسببه فقد وضعت كرها وحملته كرها، وقالت من الأذى النفس والملام وتحملت ما تحملت فى سبيل ذلك حتى برأها الله تعالى بكلامه هو، ومهما يكن فقد تحملت قبل أذى كثيراً، فكانت جديرة بحسن الصحبة والإحسان، وهو البر الطاهر الكريم، بالآدمية الروحية.

الأمر الثانى: سلبى، وهو قول تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، الجبار هو الظالم المتكبر المتناول على الناس بالحق الذى يؤذى الضعفاء ويستعلى عليهم، وقد كان من نعمة الله تعالى التى أنعم الله تعالى على عيسى عليه السلام أنه لم يجعله جبّاراً، وقد وصف الجبار بأنه شقى مطرود من رحمة الله، وقد كتبت عليه الشقوة فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فهو أنه مبغض إلى الناس يتمنون به النازلات، ويتمنون له الفرض ليردوه، وهو يتوجس بنفسه من الناس وعمن يحيطون به، فهو فى شقاء دائم لفترة الناس منه، فلا سعادة فى نفسه وإن حسبه الناس سعيداً فهو

شقى، ولذا قال: «من مشى مع ظالم فقد أجرم»^(١). ثم بين الغلام الزكى أنه يعيش فى سلام، ولذا قال الله عنه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٢٣)، وفى هذا تقرير لأنه يعيش فى أمن وقد ولد فى أمن وأنه يموت فى أمن، وفى هذا إشارة إلى أنه لن يقتله ولن يصلبه أحد، بل هو ولد آمناً، وعاش آمناً ومات آمناً؛ لأن السلام هو الأمن.

ونكرر ما لاحظناه، وهو أن ما جاء على لسان الغلام الطاهر هو ما سيكون له فى المستقبل بالنسبة لزمان الإنسان.

هذا هو التعريف بعيسى عليه السلام

قال الله تعالى:

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْآخْزَابُ مِنْ
بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

هذا بيان لعيسى عليه السلام، بينت الآيات فيه كيف حملت به أمه، وبينت أن الذى نفخ فيها روح القدس، وهو مخلوق من الله تعالى، فيكون ما ينفخه مخلوقاً

أيضا، فيكون دعوى أنه الله دعوى لا أساس لها من الصحة، بل باطلة في ذاتها، وفيما اقترن بولادته فهو مخلوق كسائر المخلوقات، وإذا كان مخلوقا فهو محدث، وليس بقديم، ولم ينشأ عن الله نشوء العلة من المعلول، كما ينشأ المسبب عن السبب، بل خلقه وأبدعه مختارا مريدا، أنشأه من حيث لم يكن؛ لذا قال تعالى:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٤).

الإشارة إلى المذكور من التبشير به على لسان جبريل عليه السلام ونفخه في مريم من جيب قميصها إلى ولادته ونطقه غلاما زكيا، وإن ذلك كله خارق لنظام الأسباب والمسببات الذي كان يؤمن به فلاسفة الإسكندرية التي ولدت منها ديانة التثليث. ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ هنا قراءتان: قراءة بضم اللام^(١)، ويكون ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بدلا من ﴿عِيسَى﴾، أى أن عيسى هو قول الحق، والإضافة من إضافة الاسم إلى الوصف، كقولهم خاتم حديد، أى خاتم هو حديد، وكان عيسى ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾؛ لأنه نشأ بالقول، إذا قال الله تعالى: «كن» فكان كما قال تعالى: ﴿... وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...﴾ (١٧١) [النساء]، وعلى النصب^(٢) يكون ﴿قَوْلَ﴾ مفعول لفعل محذوف، ويكون حذفه لبيان اختصاصه بأنه قول الحق وتقدير الكلام أخص قول الحق، وأنه خلق بقوله تعالى: «كن فيكون»، كما أشرنا، وكما سيقول الله تعالى فيما يتلو ذلك من آيات بينات، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ الامتراء: الشك المقترن بملاحات ومجادلات بل مهاترات أحيانا.

وكذلك كان شخص عيسى عليه السلام موضع ملاحات وخلافات بين طوائف مسيحية؛ فإنه منذ انعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية والمناقشات جارية حول شخص المسيح عليه السلام، فمن ادعاء بنوته لله تعالى وألوهيته وفرضها على المسيحيين الموحدين، والخلافات والملاحات تجري، فقد ضموا إلى ألوهيته ألوهية روح

(١) قراءة (قول الحق) بالنصب: ابن عامر، وعاصم، ويعقوب، وقرأ الباقون بالرفع. غاية الاختصار

القدس، ثم اختلفوا أهو نشأ من الله أم من المسيح أم منهما، ثم كان الخلاف فى المشيئة أهى من الناسوت واللاهوت أم منهما، إلى آخر ما اختلفوا، ثم ثبت فى النصرانية الأخيرة من قال: إن المسيح شخصية خرافية لا وجود لها، اخترعتها الأفلاطونية الحديثة لتجعل مذهبها دينا من الأديان، فيسهل الإقناع بها، وذلك لتوافق النصرانية المثلثة مع هذه الفلسفة تماما.

وقد بين الله تعالى الحق فى المسيح عيسى عليه السلام وهو أنه عبد من عباد الله تعالى اختاره سبحانه نبيا رسولا، وقد خلق من غير أب، ليكون فى خلقه آية، تبين أن الله سبحانه وتعالى فعال مختار لا يلزمه نظام الأسباب العادية ومسبباتها. ولقد أكد سبحانه ما ذكره من أنه خلق من مخلوقات الله تعالى، لذا قال عز من قائل:

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٣٥ ﴾ .

نفى سبحانه وتعالى أن يكون له ولد مثبتا له سبحانه بلحن القول وبصريحه أن ذلك ليس من شأنه، ولا من صفات الكمال والجلال، اتصف سبحانه وتعالى بها مخالفا لحوادث فقال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾، أى ما ساع، وما استقام أن يتخذ من ولد أى ولد كان، عيسى أو غيره؛ لأنه منزّه عن مشابهته للحوادث؛ ولأنه دليل الاحتياج، والله غنى حميد لا يحتاج لأحد؛ ولأنه خالق الوجود فنسبة كل موجود إليه كنسبة المخلوق للخالق؛ ولأنه لو كان له ولد لكانت له صاحبة تلده، ولذا قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١ ﴾ [الأنعام]، وقد صرح سبحانه بتنزيهه عن ذلك فقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾، أى تقدست ذاته المتصفة بالكمال، والغنى عن كل البشر، والذى ليس كمثله شئ - عن ذلك: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾، أى إذا حكم بوجود أمر أراد أن يوجد تكون إرادته وحده هى الموجدة وحدها من غير أوساط، ولا وسائط، وقد شبه حاله فى ذلك

فى سرعة الإيجاد ومن غير وسائط بما إذا قال كن فىكون لى سرعة الإيجاد، ولأنه وحده الفعال لما يريد، فلا مكان لغير إرادته سبحانه.

وإن الله سبحانه هو المعبود وحده، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦).

هذا من كلام النبى ﷺ أمره الله تعالى بأن يقوله بعد أن قص ولادة عيسى عليه السلام وامترأ الناس فى أمره، وقد ادعوا بنوته وألوهيته، فأمر نبيه أن يقرر الحق فى العبادة فقال، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، أى إن الله تعالى خالقى وخالقكم، والقائم على شئونى وشئونكم، وإن ذلك يقتضى أن نعبد، ولذا بعد أن قرر الربوبية أمر بالعبودية له سبحانه وتعالى وحده؛ لأن الألوهية تلازم الربوبية، وفى ذلك إبطال لأوهام المشركين الذين يقرون لله تعالى بالخلق والربوبية، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما، ومن فيهما، وما فيهما من خلقه، ومع ذلك فى العبادة يشركون به الأوثان ويتخذونها أندادا له سبحانه وتعالى عما يشركون، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد.

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالعبادة مترتبة على الإقرار بالربوبية؛ لأنه الحق، وإن ذلك هو الصراط المستقيم، ولذا قال تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى عبادة الله وحده وتنزهه عن أن يتخذ ولدا، وأنه لا يلىق بذاته المتصفة بالكمال، أى هذا وحده هو الصراط، أى الطريق الموصل إلى الحق، والخط المستقيم هو أقرب الخطوط للحق، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) [الأنعام].

وهنا قراءتان فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ قراءة بكسر ﴿إِنَّ﴾ وقراءة أخرى بفتحها^(١)، وعلى القراءة الأولى كان ما قلناه فى معانى

(١) قراءة كسر همزة (إن): ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وخلف، وروح، وقرأ الباقون بفتح الهمزة.

القرآن، أما على القراءة الثانية فإن هنا محذوفاً، وهو «لام» الجر، أى ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه إلى آخر النص الكريم، وتكون الفاء للتصريح بما تضمنه المحذوف.

وقد بين سبحانه وتعالى اختلاف الناس فى شأن الحقيقة الثابتة، وهى طريق الله تعالى المستقيم الذى ذكره سبحانه فى قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فقال تعالى:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

كانت آخر الآيات السابقة لهذه الآية قوله تعالى على لسان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وإن لم تذكر النسبة إليه لأنه ملاحظ فى كل خطاب فى بيان ما يجب بيانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦)، قد بين سبحانه أن عبادة الله تعالى وحده هى الصراط المستقيم، ومن حاد عنه زاغ وضل عن الهداية، ولكن هل تلقاه الناس بالطاعة والخضوع، فقد ضلوا فى ذلك ضلالاً بعيداً، فمنهم من أشرك، ومنهم من قال أنه اتخذ ولداً، واختلفوا فى ذلك على فرق شتى، ولذا قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾، «الفاء» عاطفة على ما قبلها فى قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهو عطف عملهم واعتقادهم على الاعتقاد المستقيم الذى لا ريب فيه.

و﴿الْأَحْزَابُ﴾ جمع حزب، وهو الجماعة التى تتحلل نحلة وتتميز بها وتناصرها، وتؤيدها وتنحاز بها عن غيرها، وتدافع عنها وتلاحى دونها، والكافرون أحزاب ونحل متباينة، فالنصارى طوائف، واليهود طوائف، والمشركون طوائف، فمنهم عبدة الأوثان، ومنهم عبدة النيران، ومنهم عبدة الشمس، ومع أن الطريق واضح هو المستقيم اختلف الكافرون ذلك الاختلاف، على نواح شتى وأهواء متباينة، فكلمة ﴿الْأَحْزَابُ﴾ ليست مقصورة على فرق النصرانية، إنما المراد بها كل الذين أشركوا مع الله سواء أكان ما أشركوه صنماً أم شمساً أم ناراً أم شخصاً، وحزب الله هم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿... أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾ [المجادلة]، والمؤمنون ليسوا داخلين في هذه ﴿الْأَحْزَابُ﴾، وقد اختلفوا على نحو ما أشرنا، وصدق قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) [الأنعام]، فغير صراط الله تعالى مثرات الشيطان ومنازله.

و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال كثير من المفسرين زائدة، ونحن لا نرى في القرآن حرفاً زائداً، بل نقول إن ﴿مِنْ﴾ تؤدي معنى سليماً فليس قولك «فاختلف الأحزاب بينهم»، كقول الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ إن ﴿مِنْ﴾ تدل على أن اختلاف الأحزاب صادر عنهم هم، ومن بينهم، فإن التناحر بين الأهواء والأوهام الضالة هو الذي صدر عنه الاختلاف من بينهم ومن مضطربهم، وقد حكم الله تعالى بمآلهم في هذا الاختلاف فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالهلاك في المشهود من أوهامهم وأهوائهم، والمشهد هو اسم مصدر بمعنى شهود يوم عظيم في أنه حساب وفيه العقاب، والجزاء بجهنم.

والمعنى الذي يظهر لنا، فهلاك شديد يوم الشهود العظيم، وهو يوم القيامة وقال: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فأظهر في موضع الإضمار لإثبات سبب الهلاك، وهو الكفر والحجود، وتحكم الأوهام وسيطرة الفساد الفكري والضلال المبين.

وإن كانوا يُعرضون عن ذكر البعث والنشور، ولا يبصرون العواقب، ولا يتدبرون ما وراء، وإنهم في هذا اليوم المشهود يكونون أحدّ الناس سمعاً وبصراً وإدراكاً لما أنكروا من قبل، ولذا قال تعالى:

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٨).

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ لفظان يستعملان للتعجب في اللغة العربية، أو لأفعل التفضيل المستفهم به، أي ما أسمعهم وما أبصرهم، فهم حديدو السمع والبصر، والمعنى أن حالهم في قوة سمعهم للحق وقوة بصرهم وإدراكهم للحق حال

المتعجب منه المستغرب وليس ذلك بعجب على الله ولا غريب عليه سبحانه؛ لأنه عليم بكل شيء، فليس شيء بغريب على علمه سبحانه، إنما الغرابة علينا، وهذا غير حالهم اليوم لأنهم اليوم فى ضلال مبين واضح، أى حالهم يوم الشهود، فقد زالت الغفلة وزال الضلال، وزالت الأوهام التى أضلتهم، ولذا قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، المراد به الحياة الدنيا، فهم فى ضلال فى الحياة الدنيا بسبب الأهواء وتحكمها فى مداركهم وأحاسيسهم، والأوهام وسيطرتها على عقولهم، ونقول: وضع الظاهر موضع الضمير، لإثبات أن السبب فى هذا الضلال هو ظلمهم لأنفسهم بعدم الإدراك الصحيح، وظلم العباد للنيين، وفتنة المؤمنين، الاستدراك فى قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ لبيان التفاوت بين حدة سمعهم وبصرهم التى توجب العجب، وحالهم فى هذا اليوم فى الدنيا التى كانوا فيها عمين عن الحق، ووقوعهم فى الضلال المبين السبب الواضح.

وإن الله تعالى أمر نبيه الأمين أن ينذرهم بهذا اليوم المشهود؛ ولأنه يوم الحسرة عليهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، أى أنذرهم بهذا اليوم الذى يكون حسرة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، إذ تبين أمر الله تعالى الذى قضاءه، بأن قدر وجوده ونفذه، و﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بالحسرة، أى أنه الحسرة لأنه قضى الأمر وجاء التنفيذ. والحسرة، لأنهم فرطوا فى أمورهم ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله، والحسرة؛ لأنهم رأوا العذاب وعابنوه، والحسرة لأنهم أنكروه، وهم اليوم قد عابنوه، والحسرة لأنهم خسروا أنفسهم وكذبوا بقاء الله.

وقد وصفهم الله تعالى بوصفين أحدهما ذريعة الآخر:

الوصف الأول: أنهم فى غفلة فقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ الجملة حالية أى والحال أنهم فى هذه الدنيا فى غفلة، والتعبير بقوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ يفيد أنهم قد

استغرقتهم الغفلة واستولت عليهم وحاطتهم كأنها ظرف لهم قد استقروا فيه، والغفلة قد جاءتهم من غرور بالحياة الدنيا، ومن استيلاء الأهواء على نفوسهم، فصاروا لا يصدرون إلا عنها، وجاءتهم من سيطرة الأوهام عليهم، وجاءتهم من أنه لا مرشد ولا هادى، وليس فيهم أمر معروف أو نهى عن منكر.

والوصف الثانى: أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعبر الله سبحانه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه الجملة حالية كأختها، والحال أنهم لا يؤمنون، وكان النفى نفياً للمضارع للإشارة على استمرارهم على الإيمان وهو نتيجة للغفلة التى أحاطتهم وسكنوها؛ لأن الإيمان بصر الحقائق وإدراك لها.

هذا، وإن الغرور المتمكن فى أهل هذه الدنيا أنهم يحسبون فى أعمالهم أنهم باقون، ولا يفكرون فى الموت، وإن فكروا فى الموت لا يفكرون فى البعث، وقد أكد سبحانه وتعالى هاتين الحقيقتين الموت والبعث فقال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾.

أخبر الله تعالى عن نفسه بعبارة تدل على عظمة الله وجلاله، وأكد ضمير ﴿إِنَّا﴾ بـ ﴿نَحْنُ﴾، للدلالة على أنه لا باقى إلا الله تعالى، والجميع ميت، كما قال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠)﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾، أى نحن نرث الأرض ونرث من عليها، فموضع ﴿وَمَنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ النصب بـ ﴿نَرِثُ﴾، ومعنى وراثتها أنه هو وحده الباقى بعد الأرض ومن فيها فكلها إلى نهاية، وقد شبه وجوده العزيز الجبار بأنه يكون بعدها؛ كى يكون الوارث بعد المورث، فالمورث يموت والوارث يموت بعده، ولكن الله حى لا يموت، وليس المعنى ان الله يرث الأرض ويرث ما ترك الناس من المال والنسب، فالله غنى من المخلوقات كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر]، ثم قال: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وهو البعث، وقدم الجار



والمجور عن الفعل الذى يتعلق به؛ لبيان أن المرجع إليه وحده، وهو وحده مالك يوم الدين يوم الجزاء، يوم القيامة، يوم توفى كل نفس ما كسبت.

إبراهيم عليه السلام وأبوه وأولاده

قال الله تعالى:

وَأَذْكُرُ

فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَابَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهَيْتِ
يَا إِبْرَاهِيمُ لِمَ لَمْ تَتَنَّهُ لَئِنْ جُمِنْتُ وَأَهْجُرْتَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعَزَّنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

ذلك طرف من أخبار أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقد ذكرت أخبار إبراهيم فى عدة مواضع من القرآن الكريم، ولا تكرار فيها قط، بل ذكر فى كل موضع جزء من أخباره يخالف الآخر، وفى سورة البقرة كانت أخبار بناء الكعبة وصلة إبراهيم بخاتم النبيين محمد ﷺ، وفى آخرها خبر إحياء الموتى، وفى سورة الأنعام كان تأمله فى النجم والقمر والشمس حتى اهتدى إلى الله، وفى سورة التوبة كان وصف إبراهيم المصور لشخصه الكريم بأنه أواه حليم، وفى سورة إبراهيم كانت دعوته لذريته: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾، وفى السورة نفسها كانت قصة هبة الله له إسماعيل وإسحاق: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ... (٣٩)﴾، وفى سورة الأنبياء كانت قصة تحطيمه الأوثان وإلقائه فى النار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ وهكذا نرى أنه لا تكرار فى القرآن وقصصه، وإذا كانت قصة إبراهيم وموسى ونوح وغيرهم قد تكرر ذكرها فى القرآن فليس تكراراً لأخبار واحدة، وإنما تتناول الأجزاء نواحى مختلفة، ولا تتكرر ناحية.

قال تعالى فى ابتداء قصة إبراهيم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١)﴾.

الأمر للنبي ﷺ، والكتاب هو القرآن، و(ال) للاستغراق، المعنى أى أنه هو الكتاب الجدير بأن يسمى كتاباً، وهو الكامل والمستغرق لكل صفات الكمال، والقصر فيه قصر إضافى، أى أنه لا كتاب يوصف بالكمال المطلق سواه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ والصديق هو البالغ أقصى درجات الصدق فى القول والعمل والإذعان للحق، وهو الذى يصدق الحق إذا ألقى إليه، لا يمارى فيه ولا يمتنع عن الإقرار به والإذعان له، وأى دلالة أبلغ من التصديق والإذعان عندما رأى فى المنام أنه يذبح ابنه فهمَّ بأن يذبحه، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا

تَوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٧) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿ (١٠٩) ﴾ [الصفات] وهو نبي من أولى العزم من الرسل، وَجَدُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ.

وإن هذا الجزء من قصة إبراهيم فيه علاقة الأبوة بإبراهيم واحترامها والتلطف فيها والرفق بها والمحبة لها.

قال تعالى عنه مخاطبا أباه:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) ﴾ .

ابتدأ بندائه بقوله: ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ وهو نداء المحبة العاطفة المقربة، وذلك شأن الداعي الكامل يتندى بما يقرب ولا ينفّر.

و﴿ إِذْ ﴾ متعلقة بـ ﴿ أَذْكُرْ ﴾، أى اذكر حال دعوته لأبيه تلك الدعوة الرفيقة المقربة الميسرة الهادية المرشدة، وأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بأن يذكرها فى الكتاب لتتلى على الناس ويأخذوها سُنَّةً فى الدعوة إلى الحق، وخصوصا الأقربين الأذنين لهم، والتاء فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ عوض عن ياء المتكلم، وذكرها بدل الياء مبالغة فى التلطف والرفق، بل ربما يكون فيها من تدلل الأبناء على الآباء معنى محبب مقرب.

وابتدأ بأن قال غير موجه لوما ولكن ساق إرشاده مساق الاستفهام المستدنى، لا مقام الأمر المستعلى سائلا له سؤال المستفهم فى سياقه، ولكن المنبه بأرفق تعبير: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾، لقد وصف معبوده وهو الصنم بثلاث صفات سلبية:

الوصف الأول: أنه لا يسمع، وكيف يعبد من يسمع ما لا يسمع، فهو أقل كمالا منه وهو عاجز، لأن عدم السماع عجز.

الوصف الثاني: أنه لا يبصر وأنت تبصر، ومن يبصر أكمل مما لا يبصر، فكيف تعبد هذا الذي ينقص عنك، وأنت خير وأفضل منه.

الوصف الثالث: أنه لا يدفع عنه ضرا ولا يجلب له نفعاً، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، أى لا يدفع شيئاً، ومجموع هذه الصفات السلبية تفيد أنه لا يجلب له أى نفع؛ لأنه فاقد لصفات الله التى يكون بها القدرة على النفع.

وقد قال الزمخشري فى ذلك: «انظر حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذى عصى فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز من الغباوة التى ليس بعدها غباوة، كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحا فى ذلك بنصيحة ربه عز وعلا»، حدث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام إنك خليلي، حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أظله تحت عرشى وأسكنه حظيرة القدس وأدنيه جوارى»^(١).

وإنه بعد أن نبه إلى أن الأوثان تتقاصر عن مقام الألوهية، بل حتى الإنسانية، بل الحيوانية أخذ يوجهه إلى الحق الكامل، فقال فى رفق أيضاً كما ابتدأ أولاً مُصَدِّراً القول بخطاب المحبة الراجية ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٢)﴾.

يقول العلماء التحلية قبل التخلية، بين أن الأوثان عاجزة فى ذاتها عن جلب النفع ودفع الضرر، وذلك كافٍ للامتناع عن عبادتها، فإنما يعبد العاقل من هو أعلى منه قدرة وفهما وإدراكاً، وهذه دونه فى الخلق والتكوين، فمن يعبد؟! أخذ يبين له المعبود فقال ببناء المتوسل المتحجب: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ لم

(١) ذكره الزمخشري فى الكشف، وجماعة من المفسرين، ورواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه: مؤمل بن

عبد الرحمن الثقفى، وهو ضعيف. مجمع الزوائد (٢٦٦٢١).

يرم أباه بالجهل، وقد منعه الخلق الودود من ذلك، بل قال له ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فتعفف عن أن يرميه بالجهل، وتعفف عن ادعاء العلم الكامل حتى لا يكون مستظيلاً بفضل علمه على أبيه ومستعلياً عليه، بل قال: ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾، أى بعض العلم، وذلك يجعلنى أدعوك إلى الحق، وذكره العلم داع لأن يتبعه؛ لأن الأب الرفيق العاطف يحب لابنه العلم، ولو كان أعلى منه، وإذا كان له بعض العلم الذى يسره، ولا يضره، فإنه يتبعه، ولذا قال: ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ «الفاء» هنا تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كنت قد أوتيت هذا العلم فاتبعنى أهدك، كما يتبع السائر فى طريق لا يعلمه الرائد الخريت^(١) العارف.

والصراط: الطريق كما ذكرنا، والسوى: المستوى الذى لا عوج فيه ولا أمت، وقد قال الزمخشري فى هذا النداء من ذلك الابن البار بأبيه: «ثنى عليه» بدعوته إلى الحق مترقفاً متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائت، ولكنه قال إن معنى طائفة من العلم شيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فلا تستكف، وهبنى وإياك فى سير وعندى معرفة بالهداية دونك، فاتبعنى أنجيك من أن تضل وتتيه».

وبعد أن نبه إلى أنه لا يليق أن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر وأمره باتباعه؛ لأنه بين له أن هذه الضلالة وهى عبادة ما لا ينفع ولا يضر عبادة للشيطان عدو آدم وذريته فقال:

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤)﴾.

ناداه بالأبوة وكرره تعظيماً وتلطيفاً وتقرباً، وكان النهى ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ وعبادة الشيطان فى أنه أطاع غوايته التى توعد بها عباد الله فقال: ﴿... لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٣)﴾ [ص]، فطاعته فى معنى عبادته، ولأن

(١) الخريت: الدليل الحاذق بالهداية والدلالة (فى الطريق). لسان العرب - القاموس المحيط.

الأهواء والأوهام هي التي سهلت عبادة الأحجار وذلك كله من الشيطان، بل هو من غوايته، والشيطان عدو الله، وعدو آدم فهو عدو الإنسانية يردبها ويوقعها في أشد الضلال، ويبعد من الحق، ولذلك كان النهي، وهو في ذاته يكون بقوة لا تخلو من مساعدة، ثم وصف الشيطان بأنه عاص مبعد عن رحمة الرحمن فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾، عَصَى عَلَى وزن فعيل من عَصَى، أى أنه مبالغ في العصيان، وعبر عن الذات العلية بـ (الرحمن) للإشارة إلى أن عصيان الشيطان رحمة، وطاعته نقمة، فمن عصاه فقد رحم، ومن أطاعه ألقى بنفسه في وهدة الشقوة، وبعد عن السعادة ورحمة الرحمن.

ويقول الزمخشري في ذلك أيضا: «ثم ثلث بتثييطه ونهيه كما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال. وعدو أيك آدم، وجنسك كلهم هو الذي ورطك في هذه الضلالة، وأمرك بها وزينها لك فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته الربانية لم يذكر من جنائتي الشيطان التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته، كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه».

ونقول إن الشرك هو أعظم ما وسوس به إبليس وألقى به الأوهام في نفس، وما دونه قد يناله الغفران، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (٤٨) [النساء].

بعد هذا النهي الصريح القاطع عن عبادة الأوثان، وذكره أن عبادتها عبادة للشيطان، لأنه هو الذى وسوس بها ذكر ما يخاف على أبيه، وذلك استمرار فى الحنان والعطف على أبيه فقال تعالى عنه:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٥).

ناداه أيضا نداء المتلطف المتحبيب المدني ما بينهما ﴿يَا أَبَتِ﴾ قال مفرطا في شفقتة وإن لم يكن في شفقة الابن على أبيه إفراط قط، وخصوصا في مقام الحرص على نجاته، قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾، هنا إشارات بيانية، إذ الظاهر إصابته بالعذاب المقرر للمشركين، وهو أن يدخل الجحيم، ولكنه أولا عبر بالمس، وكأنه لا يريد التهويل على نفسه وعلى أبيه بأنه سيصيبه العذاب لذلك الشرك، والشرك ظلم عظيم، هذه هي الأولى، أما الثانية أنه ذكر أن العذاب كان من الرحمن. إنه كان ممن من شأنه الرحمة، ولكنه آثر الطريق المعوج فكان العذاب، والثالثة أنه يخشى عليه من أن ينهمك في المعاصي فيكون وليا للشيطان في الدنيا، ويكون قرينا له في الآخرة، وكأنه كان مخيرا بين ولاية الرحمن ورحمته، وشقوة الشيطان وولايته فاختر ولاية الشيطان وصار وليه وساء قرينا.

وكانت عبارته في التخويف في أدب، ولم يصرح بالعقاب الشديد، وإن نبه إليه في شدة، بأنه سيكون ولي الشيطان وقرينه، وبشس ولايته، وأن يكون له قرينا. أجاب أبوه إجابة المحقق المغيظ لمحاولته ترك عبادة الأوثان وملته وملة آبائه، فقال كما قال تعالى عنه:

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾.

﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، هذا استفهام إنكارى توبيخى من ذلك الأب المخطئ وكان موضوع التوبيخ هو انصرافه عن آلهته وبعد عنها، وكأنه كان يجب أن يكون مثله منغمرا في ضلال، وهو بذلك يضرب صفحا عن كل ما قاله، ويقول بلسان الحال: سمعنا وعصينا وينقلب عليه بالتوبيخ عن تركه له ولملة آبائه المشركين، وقد أكد التوبيخ بالتأكيد بالضمير بقول: ﴿أَنْتَ﴾ وفي ذلك تأكيد التوبيخ استصغارا لشأنه، وما كان صغيرا، بل كان الكبير بإدراكه وبدعوته إلى الوحداية، وهو يستنكر أن يرغب عن آلهته، ولم يتعرض لما يدعو إليه ويرغب فيه، وكأنه معرض عنه وعن أدلته وآياته.

وقد أعقب التوبيخ بالتهديد، والإنذار الشديد، فى عبارة فيها معنى القسم والتأكيد بمؤكداته ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ الرجم: الرمى بالرجام والحجارة واللام هى الموطئة للقسم واللام فى ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ اللام التى تكون فى جواب القسم، وقد أكد بنون التوكيد الثقيلة وهو تهديد بالقتل بأقسى أنواعه، فهو الضرب بالحجارة حتى يموت إن لم ينته عن هذه الدعوة التى أصابت إيمانه بالأوثان فخيبت رجاءه فيه، وإن كان أمرا غير محمود فى نظره المنحرف الضال.

هذا إيعاد إن عاد، ثم حسم الأمر بقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وقد تضمن التهديد التحذير، كأنه قال له فاحذرنى ولذا عطف على الفعل الذى تضمنه التهديد بالرجم واهجرنى مليا، فهى عطف على الفعل الذى تضمنه التهديد بالرجم.

﴿مَلِيًّا﴾، أى ملاوة من الزمن الطويل، ويدعوه أبوه إلى أن يهجره هجرا غير جميل، ولا يهتم بأمره ولا يجالسه ولا يقاربه، وهذه مبالغة فى الاستنكار، وقد صم أذنيه عن الحق ولا يريد أن يسمعه.

وإنه إذ يعلن هذا النفور الجافى يعلن الابن البار الذى هو مثل سام كريم للأبناء يقول كما قال الله تعالى عنه:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧).

هو يقابل الإساءة بالحسنة، ويعذر أباه فى إساءته؛ لأنه فى ضلال بعيد وإفك أثيم قد استغرق نفسه وأعمى بصيرته، وأصابه بغشاوة على قلبه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾، معناه أمن يفيض عليك وهو تحية له وهو يفارقه ويريد له السلامة فى غيبته، وأن يكون فى أمن، فهو يفارقه على مودة، وإن كان يقول مقالة القطيعة، وقد قال بعض المفسرين أن ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٦٣) [الفرقان].

وربما نرى نحن أن سياق الآية لا يدل على الابتعاد عنه، وليس كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص]، لا نرى ذلك لأنه لا ينسجم مع وعده باستغفار الله تعالى له، كما قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

وقد قال الزمخشري: إن استغفار إبراهيم لأبيه كان مشروطاً فيه التوبة، ونحن نرى أن سياق الآية لا يدل على اشتراط التوبة بل هو استغفار لمشارك، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة].

وهذا النص ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، هو الموعدة التي وعد إبراهيم أباه بها، وقوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ﴾ السين لتأكيد الاستغفار في المستقبل القريب، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ الضمير يعود إلى ﴿رَبِّي﴾ الذي يكون في موضع عناية واستجابة لى، فمعنى ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، أى كنت موضع رحمته وبره، وأنه لهذا يظن أنه سيجيب دعائى، ولكن تبين له من بعد أنه عدو لله فتبرأ منه.

كان لا بد أن يخرج من بينهم نبي الله تعالى ﷺ، فهو لا يريد أن يبقى محكوماً بالوثنية وأرجاسها؛ ولذا قال كما أجبر الله تعالى عنه:

﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾.

«الواو» عاطفة والمعطوف عليه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، أى إنى أخرج عنكم سالماً مستغفراً غير هاجر كما أردت، وفى الوقت أسألكم، ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ﴾، أى أفارقكم مفارقة موادّ محب ولست هاجراً لكم ولا مجافياً، ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١﴾، أى تعبدون، أعترلكم وعبادتكم المشتركة الآثمة لاجئا إلى الله تعالى، ولذا قال: ﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾، أى أعبدوه لأنه ربي الذى خلقنى القائم على كل أمورى.

وإطلاق الدعاء بمعنى العبادة؛ لأنه التجاء إلى الله تعالى، وهى ضراعة إليه، ولقد قال النبى ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»^(١)، وقد ذكر التصريح بالعبادة بعد ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، أى خائبا ضائعا غير مقبول فى دعائى وعبادتى، فإن ذلك هو الشقاء الأكبر، وهذا الرجاء كان لفرط إخلاصه لله تعالى، وخشيته من غضبه وطرده؛ فإن الحبيب دائما يخشى من غضب محبوبه، ويعمل على رضاه ويخشى من غضبه، وخليل الله الذى اختاره الله تعالى خليلا، وقال: ﴿... وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، كان أشد ما يخشاه غضب ربه، وأن يرد عبادته فيشقى بهذا الرد، وقال: ﴿عَسَىٰ﴾ الدالة على الرجاء تواضعا لله واستصغارا لعبادته، وكان بهذا المخلص البر الحبيب المحبوب؛ إذ غلب الخوف ليصلح أمره وأنه إذ اعترلهم حرم من أنس أهله، فوهبه البنين والذرية، ولذا قال تعالى:

﴿فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (٤٩).

«الفاء» عاطفة على ﴿وَأَعْتَرَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فالله عوضه عن الغربة الأنس بالولد والأحفاد، أما الولد فإسحق، وأما الحفيد فيعقوب، وكانوا بذلك فتته التى اعتر بعد الله تعالى بها، وكان أنسه فى هذا الاعتزال، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، أى جعلنا كل واحد منهما نبيا، و«كلا» مفعول مقدم لـ «جعلنا»، وقدم لأهميته، وللإشارة إلى أن بدله من أبيه المشرك الذى نهزه وهدده بالرجم ثم طرده محروما من محبته، بدله من هذا أنبياء من ذريته استأنس بهم بعد وحشة الاعتزال.

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذى فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وقد يقال: لم يذكر سبحانه أنه وهب له إسماعيل وهو أكبر من إسحق، ويظهر أن ذلك كان وهو مقيم وحده مع أمه هاجر في مكة، فلم يكن له أنس القرب، إلا بعد أن ذهب إليه وأخذوا ببناء الكعبة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) [البقرة].

وقد ذكر سبحانه وتعالى كمال البيان في أسرته الموحدة، فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٥٠).

الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ يعود إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب، ولم يذكر الموهوب إعلاء لشأنه ولفخامته، وحسبه أنه هبة الله، وأنه من رحمته سبحانه، فكان العقل يذهب في تقديره أعلى المذاهب التي تليق بهبة الله ورحمته، فهي تشمل النبوة، وتشمل الأموال، وتشمل الجاه والسلطان، وتشمل العزة والكرامة، والعلو في الأرض ووراثتها، والإمامة فيها وكل ذلك كان في ذرية إبراهيم، وفي إسحاق ويعقوب والأسباط.

النعمة الثانية التي أنعمها على إبراهيم وذريته هي قوله تعالى، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾، أى لإبراهيم وذريته ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾، ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ من إضافة الاسم إلى وصفه، أى لسانا صادقاً علياً، رافعاً لهم، وليس خافضاً لمآثرهم، والمراد الكلام الطيب والذكر الطيب، من قبيل إطلاق الآلة على ما يكون، فأطلق اللسان وأريد الكلام، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام إذا قال في دعائه ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) [الشعراء]. وقد أتى الله إبراهيم ذلك فقال تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ...﴾ (٧٨) [الحج]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣) [النحل].

أنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى :

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾
 وَنَذَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ
 رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ
 صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ
 وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

الأمر للنبي ﷺ، أمره سبحانه أن يذكر من ذرية إسحاق ويعقوب موسى وهارون، ومن ذرية إبراهيم إسماعيل وهو أبو العرب ونبى العرب، ومن ذريته محمد ﷺ، وذكر في البشارة به على أنه من أولاد عم بنى إسرائيل لأنه أخو إسحق وهو الكبير، والكتاب هو القرآن، وإذا أطلق الكتاب انصرف إليه؛ لأن المطلق ينصرف إلى الفرد الأكمل، والأكمل بين الكتب هو القرآن، لأنه كتاب الله تعالى بلفظه ومعناه ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء]، وإن الله أمر نبيه أن يذكره في القرآن؛ لأنه سجل الأنبياء ومعجزاتهم، وأخبارهم لا تعرف بطريق متواتر من غير تغيير ولا تبديل إلا عن طريقه. وكذلك معجزاتهم، فإنها أحداث تقضت في وقتها وما عاينها من الأخلاف أحد، ولكنها سجلت في القرآن المتواتر المحفوظ بوعد الله العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، وإن الله لا يخلف الميعاد وذكر موسى هنا في قوله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾﴾.

ذكر موسى هنا لناحية معينة فيه وهى أنه من ذرية إبراهيم، وقد وعد الله إبراهيم أن يؤنسه بأولاده وذريته عندما اعتزل أهله وما يعبدون فكافأه الله تعالى بأنس الولد والذرية، واستجاب دعاءه أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين، وكان من هذا اللسان الصادق أن يكون له ذرية من الأنبياء فكان منهم من أولى العزم موسى وعيسى ومحمد ﷺ.

وفى هذا الجزء من قصص موسى ذكر ما لم يذكر فى مواضع كثيرة من قصصه، وهو صفته التى كانت من أبرز صفاته أنه كان مخلصاً، قرئ (مخلصاً) بكسر اللام، و(مخلصاً) بفتحها والقراءتان متلاقيتان، فقراءة الكسر معناها أنه أخلص نفسه لله، وبدا ذلك فى حياته، فقد نشأ فى بيت فرعون رافعاً بعيشه مستمكناً بسلطان، ومع ذلك نفر من دينه وملته ورضى بأن يكون من بنى إسرائيل المستزلين المستضعفين فى أرض مصر ﴿... يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ...﴾ (٤٩) [البقرة]، ثم هاجر ابن النعمة الفرعونية إلى حيث يستأجر زارعا كادحا، فأى شئ يدل على الإخلاص أكثر من هذا.

وعلى القراءة الثانية، وهى قراءة فتح اللام يكون المعنى أن الله تعالى أخلصه له وجعله كليماً، وذلك ثابت من حياة موسى عليه السلام، فقد ولدته أمه فى وقت فرعون وآله يذبحون أبناءهم، فآلهم سبحانه أم موسى أن تضعه فى تابوت وتلقيه فى اليم، ويلتقطه آل فرعون ليكون فى المستقبل عدواً لهم وحزناً، وقد أرادوه قرّة عين لهم ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ﴾، أى اخته - ﴿... هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (١٢) [القصص]، وبذلك رجع إلى أمه وخلص لها فتربى فى مهدها وكنف فرعون، وبذلك صنع على عين الله، كما قال تعالى: ﴿... وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (٣٩) [طه] فكيف بعدها لا يكون مخلصاً وخالصاً لله، واختاره أن يكون له كليماً.

وكلُّ قراءة قرآن فىكون المعنيان مرادين بمجموع القراءتين، فهو مخلص فى شخصه، وأخلصه الله سبحانه لذاته العلية.

الوصف الذى اصطفاه الله تعالى به أن جعله رسولا نبيا، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، الرسول - فيما يظهر من عبارات القرآن - من أرسل بكتاب مشتمل على أحكام، والنبى من يُنبأ بمخاطبة الله له بالوحى أو يرسل رسولا، أو من وراء حجاب، وقد كان موسى كذلك، فقد أرسل بالتوراة فيها كل الشرائع المصلحة للإنسانية فى رسالته وبعضها باقى سجله القرآن ولم ينسخه.

وقد ذكر سبحانه وتعالى المكان الذى نزل عليه الوحى ابتداء فيه، وهو فى أرض مدين فقال تعالى:

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٧﴾.

كان خطاب الله تعالى لموسى بالكلام، ولذا قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾، أى الجهة اليمنى من الطور، أى أن مناجاة ربه كانت من جهة الطور اليمنى، واليمين ميمون، فهذه إشارة إلى اليمن، وما هنا مجمل مذكور مفصلا فى سورة القصص، فقد قال تعالى بعد أن أنهى الإجارة مع شعيب: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص].

وهذا واضح فى أنه تفصيل لبيان كيف كان النداء، ولم يكن تكرارا، بل كان بيانا لما أجمل هنالك، وبيان المجمل ليس تكرارا، هذه منزلة عالية، وهو أنه كلمه من وراء حجاب، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، أى كان خطاب الله تعالى تقريبا إذ ناجاه وخاطبه ﴿نَجِيًّا﴾، وكأنها مُسَارَة له؛ لأنه لم يسمع ذلك النداء غيره فى ساعة هذا النداء، تعالى الله سبحانه علوا كبيرا.

ولم يكن ذلك التشريف والتكريم فقط لموسى عليه السلام بل آتاه نعمة أخرى بأن أرسل معه أخاه هارون نبيا فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾.

أحس موسى عليه السلام بعظم التكليف الذى كلفه، وهو أن يدعو إلى الإيمان طاغية الدنيا فى عصره، وأنه مهما يكن عظم التكليف فهو راض به قائم بحقه، ولكن طلب أن يكون معه أخوه هارون وزيرا له ومعاوناً ليحمل العبء كاملاً ويعاونه فإن له بيانا ليس لموسى، وقد طلب موسى ذلك فقد قال الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ [طه]، فكان من نعمة الله تعالى على موسى أن جعل له من رحمته أخاه هارون نبيا، والرحمة كانت فى هبته له نبيا، ذهباً معاً إلى فرعون وخاطباه قائلين: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى (٤٧)﴾ [طه].

هؤلاء من ذرية إبراهيم الذين كانوا من إسحق، وقد كان لإبراهيم ذرية أخرى - كان منهم خاتم النبيين - هو إسماعيل عليه السلام، وقد قال تعالى فى ذكر إسماعيل:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾.

وقد أفرد القرآن إسماعيل بالذكر؛ لأنه كان يقيم بالبلاد العربية، وأقام هو وأمه حول الكعبة، لسدانتها وحراستها، وإفراده بالذكر تشريف له وإكرام، فإذا كان أخوه إسحق عليه السلام أبا أنبياء بنى إسرائيل الذين قاموا بتنفيذ التوراة وتفسيرها، فإن من ذرية إسماعيل عليه السلام خاتم النبيين الذى جاء بالكتاب المهيمن على كل الكتب المنزلة، والذى فيه كل الأنبياء ومعجزاتهم.

والكتاب كما ذكر هو القرآن وهو أكمل الكتب كما نوهنا؛ ولأن الخطاب للنبي ﷺ فالكتاب يكون هو الكتاب الذي نزل عليه وهو القرآن، وقد ذكرنا وجوه كماله، وأنه سجل الأنبياء وشرائعهم الباقية ومعجزاتهم، ولا ترى لها مصدرا متواترا صادقا سواه، كما ذكرنا.

وقد وصفه الله تعالى بأربعة أوصاف تدل على الكمال الإنساني الذي لا يعلو عليه كمال.

الوصف الأول: أنه كان ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، أى إذا وعد لا يخيس، ولا يكذب بل ينفذه، وكل الأنبياء كذلك ولكن وصف الله به إسماعيل؛ لأنه كان أخص أوصافه واشتهر به، فإن إبراهيم أباه عندما رأى الرؤيا بذبح إسماعيل لم يجبن إسماعيل بل قال: ﴿... سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصفات]، وصدق وعده، فاستعد لأن يذبح، وقال الله تعالى: ﴿... يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ... (١٠٥)﴾ [الصفات]، فهو الذبيح الأول، وصدق الوعد والوفاء به والرضا بتنفيذه وعدم الحيف فيه، وقد كان إسماعيل كذلك فيما وعد وأوفى.

الوصف الثانى: أنه كان ﴿رَسُولًا نَبِيًّا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ فقد جاء بشرائع ومنحه الله تعالى النبوة فقد كان ينزل عليه الوحي، ويكلمه الله تعالى بإحدى طرق الكلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ... (٥١)﴾ [الشورى]، وقد يقال: إن شريعته كانت شريعة أبيه إبراهيم، ونقول إنه أرسل بها، ولا مانع من أن يخاطب بالشرعية الواحدة رسولان، وقد ذكر الله تعالى أن إبراهيم كان رسولاً وإسماعيل كان رسولاً نبياً.

الوصف الثالث: وهو عملى لأنه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ إن إسماعيل عليه السلام كان حقا عليه أن يأمر قومه من العرب بالصلاة والزكاة، ولكن كان

عليه أن يبدأ بأهله وذوى قرابته والمتصلين به، ثم ينتقل إلى غيرهم مبتدئاً بالأقرب فالأقرب، كما ابتدأ النبي ﷺ لعشيرته الأقربين بأمر الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [الشعراء].

ومن العلماء من قال: إن أهله الذين اتبعوه أجمعون، وذلك القول له وجهه، وقد أمر نبي الله إسماعيل عليه السلام بأمرين: بالصلاة، وهذا رمز للتهذيب للجماعة التى يدعوها والتربية الروحية التى تكون بالصلاة، وما يشبهها فى روحانياتها، وتكون الركن الأول فى المقاصد الدينية، ثم يجىء الأمر الثانى وهو الأمر بالزكاة، فإنها تكون الركن الاجتماعى الذى يكون به التعاون بين الجماعة فى تحقيق الركن الإنسانى فى الصلوات بين الناس، وهذا يمثل الركن الثانى من المقاصد الدينية، ولا بد للثانى من الأول فهو لا يتحقق على وجهه الاكمل إلا بالأول، فالأول هو الرباط الروحى، والثانى رباط مادى لا يؤدى مؤداه إلا بتربية الروح.

الوصف الرابع: وهو أعلى الأوصاف التى وصف بها إسماعيل عليه السلام هو رضا الله تعالى، فقد قال عز من قائل: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ «مرضياً» اسم مفعول من رَضِيَ، وقد زكى الله إسماعيل بأنه مرضى ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فهو رَضِيَ فى ذاته ومرضى عند ربه الذى خلقه وكونه وقام على وجوده، وهذا أعلى ما يصل إليه المؤمن؛ ولذا قال تعالى بعد ذكر نعيم الجنة المقيم ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ... (٧٢)﴾ [التوبة] فرضوان الله أكبر من كل جزاء، ولذا قال: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ و«كان» فى كل أوصاف الله تعالى للدوام والاستمرار، اللهم آدم علينا نعمتك وامنحنا رضاك.

أنبياء ليسوا من ذرية إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى :

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ
 إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
 وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَلَبَيْنَا إِذِ اتَّخَذُوا عَلَيْهِمْ
 عَايَاتٍ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

تلك أخبار النبيين تذكر لما فيها من عبرة، ولما فيها من دعوة إلى الاقتداء
 بهم وسلوك طريقهم، فهم أسوة الأبرار، وطريقهم هو طريق الأخيار، وإذا كان
 طريق إبليس طريق الأشرار، فطريقهم هو طريق الأخيار.

وابتدأ بذكر إدريس فقال عز من قائل :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

الكتاب هو القرآن كما أشرنا من قبل، والخطاب للنبي ﷺ، وإدريس قيل :
 إنه كان قبل نوح، ولا نجد ما يدل على ذلك من كتاب ولا سنة، وإنما هي أخبار
 كتاب قصص الأنبياء.

ورد في تفسير القرطبي «إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم، وأول من خاط
 الثياب ولبس المخيط، وأول من خط في علم النجوم والحساب»، وإذا صح هذا
 فرميا يكون أقدم من نوح، ولكننا في مثل هذا نقول علمه عند الله، وإنه لا يزيل
 إبهاما في القرآن، ولا يأتي بعلم جديد، وإنه لمن أمر فالظن لا يغني عن الحق
 شيئا، ويؤكد الزمخشري أنه جد أبي نوح عليه السلام، ويقول بعض العلماء: إنه إلياس
 المذكور في سورة الصافات، وقد قال عن إلياس عليه السلام في سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَوَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩)﴾ [الصفات].

وإذا صح أن إدريس هو إلياس فتكون سورة الصفات قد بينت دعوته، وأن قومه أنكروا وكذبوا، وقد وصف الله تعالى في هذه الآية إدريس بثلاث صفات:

الوصف الأول والثاني: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾، فهو صديق لا يقول إلا حقا، ويصدق الحق وينفذه ولا يتردد في تنفيذه ومعه الإذعان له من غير تملل، بل باطمئنان ورضا وقبول، وكان نبيا قد كلف بتبليغ رسالة ربه.

الوصف الثالث: أن الله تعالى رفعه منزلة عالية، وقد عبر سبحانه وتعالى من ذلك بقوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾، والرفعة هنا معنوية، والمكان المراد به منزلة عليا، وقد زعم بعض المفسرين أن ذكر المكان يدل على أنها رفعة مادية، ولا نرى وجها لتخصيص ذكر المكان بالرفعة الحسية، فإن ذلك تخصيص من غير مخصص قام الدليل عليه، وإنما نقول: إنها نعمة من الله تعالى على عبده ونبيه الصديق الأمين لأمر اقتضى ذلك في علمه المكنون، ولم يبينه لنا فحق علينا أن نقول ما نعلمه، ونسلم بصدق ما لم نعلمه، والله هو العليم المحيط بكل شيء علما.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾.

الإشارة إلى النبيين المذكورين في هذه السورة زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وأولاده موسى وهارون وإدريس، فهؤلاء جميعا قد ذكروا في هذه السورة، وكلهم من ذرية آدم، قوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ «من» بيانية، وقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾، «من» هنا تبعيضية، فالمذكورون بعض هذه

الذرية، فمن بعض من حمل الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام إبراهيم وهود وصالح وشعيب، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحق ويعقوب، ومن ذرية إسرائيل موسى وداود وسليمان، وهكذا أنعم الله تعالى على هؤلاء بنعمة التوحيد، ونعمة الوحي، ونعمة الاصطفاء على العالمين، ونعمة الجهاد فى دعوة الحق وحرمة.

وقد ذكر الله تعالى أن ممن أنعم الله تعالى من هداهم الله تعالى بهدى الأنبياء والمرسلين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾، «الواو» عاطفة على قوله تعالى: ﴿مَنْ النَّبِيِّينَ﴾ فـ «من» بيانية، والله أنعم على النبيين ومن تبعهم، فقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾، أى الذين اتبعوهم على صراط مستقيم، ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ الذى اخترناهم لنبوة وجهاد كداود، وطالوت الذى جعله الله تعالى رئيسا لبني إسرائيل قادهم إلى الحرية والعزة وإن لم يكن من أبناء كبرائهم.

وإن هؤلاء الأنبياء المصطفين الأخيار والتابعين الأبرار قد صفت نفوسهم واستقامت قلوبهم، وصغت إلى الحق أفندتهم فكانوا إذا تليت عليهم آياته فى كتبه الذى أنزلها الرحمن خروا ساجدين باكين؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ سجدا: جمع ساجد، وبكيا جمع باك، أى أنهم لفرط تأثرهم بآيات الرحمة التى تنزل من عند الرحمن، ولذا اختير ذلك الوصف ﴿الرَّحْمَنِ﴾ فى التعبير عن الذات، فهم سيكون لشعورهم برحمة الله، ويسجدون شكرا لله تعالى على ما أنعم، وإن ذلك كان من شأن الصالحين، فكان أبو بكر بكاءً عند تلاوة القرآن الكريم، وكان الإمام الشافعى إذا صلى بالناس بكى وبكوا عند تلاوته حتى سمي القارئ البكاء، ومن كان من الصالحين لا تدمع عيناه يبكى قلبه. وإن ذلك من الوعى الطيب، إذ يحسن السامع للتلاوة، بأنه يسمع الله تعالى ينادى فيرتجف ويقشعر بدنه، ولقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ (٢٣) [الزمر].

قد ذكر الله تعالى من خلف أولئك الأبرار من النبيين والصديقين.

خلف أولئك الأنبياء

قال الله تعالى:

❁ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ

خَلَفُ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾
 إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
 وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ
 بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا
 وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ
 عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ
 أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ
 هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

❁ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلَفُ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ

غِيًّا ﴿٥٩﴾ ❁.

«الفاء» للترتيب والتعقيب، فهي تفيد أنه جاء عقب هؤلاء الأطهار من تنكبوا طريقهم، وخرجوا عن منهاجهم، وليس معنى ذلك أنه لم يكن فيهم من خالف المنهاج من أقوامهم، بل كان كل نبي من هؤلاء الأنبياء من لقي مقاومة من قومه، فمن قوم إدريس من قاومه، وقالوا: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُادِيَ الرَّأْيِ ...﴾ (٢٧) [هود]، وهذا كان شأن كل المصطفين الأخيار من

قُورِمَ فى عصره، فكيف يقال خلف هؤلاء مع أنهم كان أمثالهم فى عصرهم، ونقول: إن أولئك الأخلاف الذين خالفوا النبيين كانوا فى أقوام من أتباعهم من حرفوا أقوال النبيين، وحرفوا القول عن مواضعه كبنى إسرائيل، والذين حملوا إنجيل عيسى كان منهم من تخلف عن هدايته وتنكب عن سبيله.

وصف الله تعالى الأخلاف الذين انحرفوا بسبب هذا الانحراف ونتيجته، فقال عز من قائل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾، وذكر أسباب انحرافهم فحصره فى أمرين أو ذكر أن أكبر أسبابه أمران:

الأمر الأول: أنهم ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، ومعنى إضاعة الصلاة إضاعة الدين؛ لأنها عمود كل دين، وكما قال النبي ﷺ، «لا دين من غير صلاة»، فهى سمة الدين وشعاره، ومعنى إضاعتها إهمالها، أو الصلاة من غير إقامتها على وجهها، أو الصلاة التى فقدت الخشوع والخضوع، وهذا لبابها، أو الإتيان بصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل تلابسها.

الأمر الثانى: هو اتباع الشهوات، فإنه إذا سيطرت الشهوات على النفس، وصارت سيدا مطاعا انحرف الاعتقاد تبعاً لها، وحيث يتخذون إلههم هواهم وكان معبودهم وسرى ذلك إلى كل أعمالهم.

وقد نبه سبحانه إلى النتيجة من ذلك فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، الغى ضد الرشاد وهو الغواية، وهى تنكب الطريق المستقيم، وإن اتباع الشهوات وجعل الأهواء لها السلطان الأكمل سبيل الفساد والغواية، وبها تنكب الرشاد؛ وذلك أن الهدى والعقل نقيضان لا يجتمعان فى قلب واحد، فإذا كان سلطان الهوى ذهب العقل وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ﴾ «سوف» هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، وقوله تعالى: ﴿يَلْقَوْنَ﴾، أى يجدون أمامهم وهو نتيجة طبيعية لترك الصلاة واتباع الشهوات.

وان الله تعالى الكريم يستثنى المتقين الأبرار؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٠).

الاستثناء هنا منقطع، وليس استثناء متصل؛ ف ﴿مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ لا يدخل فى عموم من اتبعوا الشهوات وأضاعوا الصلاة، ف ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»، وهى مقابلة بين المؤمن وغيره، فالأول يتبع الشهوات، والثانى مؤمن تواب إلى ربه راجع إليه طالب، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ يشمل من غوى منهم الأهواء والشهوات ورجع إلى ربه، ومن لم يسيطر عليه هواه ابتداءً واتبع سبيل الحق، ويكون التعبير عنه بـ ﴿تَابَ﴾ إشارة إلى الإذعان الكامل؛ لأن المؤمن التواب وصل إلى أعلى درجات الإيمان؛ لأنه يستصغر أفعاله أمام الله ويحسب نفسه مقصرا فلا يُدِلُّ بالطاعة، بل يستشعر الخشية الدائمة ويغلب عليه الخوف ولا يغلب عليه رجاء الثواب؛ لأنه يستكثر خطاه، ويستقل طاعته.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، الإشارة إلى التائبين الراجعين إلى الله تعالى، والإشارة إلى الموصوفين بأوصاف تدل على أن هذه الأوصاف سبب الحكم، وهو أنهم ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ التى هى جزاء المتقين، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، أى لا ينقصون أى شىء من النقص، بل يأخذون جزاءهم جزاء وفاقا لما عملوا من طيبات، ولتجردهم من شهوات الدنيا وخلاصهم من أهوائها المردية.

وذكر الله تعالى فى وصف الجنة أنها التى ﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ للإشارة إلى أنها من فضل رحمته بعباده الذين يريد منهم الرشاد، ولا يرضى لهم الكفر والانحراف عن طريق الإيمان، ولذا قال:

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (٦١).

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾: هى جنة الإقامة الدائمة، كما قال تعالى: ﴿...لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة)، وقد وعد الرحمن عباده بالغيب، وذكر ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هنا إشارة إلى أن ذلك من رحمة الله تعالى، إذ كان منه الغفران وهو رحمة، وكان منه

قبول التوبة، وهو رحمة وأن الحسنات يذهبن السيئات، وكان منه عفوه وغفرانه إلا أن يُشرك به.

وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ متعلق بـ ﴿وَعَدَ﴾؛ لأنه وعدهم سبحانه وهم غائبون عنه، وقد آمنوا بهذا الوعد واطمأنوا إليه، وهو غائب، فهم آمنوا بالبعث والجزاء والرحمة وهو غائب عنهم، فكانوا مؤمنين بالغيب وهو سبيل إدراك الحق، والإيمان بحقائق يوم القيامة، وقد أكد سبحانه صدق وعده وأنه لا يخلف الميعاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على ﴿الرَّحْمَنُ﴾، و﴿مَأْتِيًا﴾ اسم مفعول، أى أنه يجعله - سبحانه وتعالى - آتيا لا محالة، وذلك كقوله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران] وبعض المفسرين فسر الوعد بأنه جنة عدن، وهو مأتى لا محالة لمن وعدوا به، ونرى أن الوعد هو ما يتعلق بنعيم الجنة، والله تعالى يمكن عباده من وعده، فيكون آتيا بالنسبة له، ومأتيا منهم إذ يمكنهم سبحانه وتعالى منه، و﴿جَنَّاتٍ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، وهنا يرد سؤال كيف يكون البديل جمعا، والمبديل منه مفردا؟ ونقول: إن اسم الجنس وهو (الجنة) عام يدخل فى عمومه الكثير من الجنات فهو بدل جمع من جمع، وهناك قراءة «جنة عدن»^(١) بالإفراد والله تعالى أعلم.

وقد وصف الله تعالى الحياة الفاضلة فى الجنة فقال عز من قائل:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾.

اللغو هو الكلام الذى لا يكون له فائدة مذكورة عند العقلاء، وهو الذى يؤدى إلى المشاحنة والمنازعة، ومبادلة القول والجدال، وكل ذلك بعيد عن الحياة الفاضلة التى تكون فى الجنة؛ ولذا قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ۝٢٣﴾ [الطور]، وإن اللغو فى الدنيا ليس من دأب الفضلاء، وسماعه ليس

(١) قراءة (جنة عدن)، ليست فى العشر.

من شأن العقلاء. وقال في أوصاف الأبرار: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ الاستثناء فيها منقطع، بمعنى لكن يسمعون سلاما، أى أمانا واطمئنانا وبعدا عن المشاحة والمنازعة والمخاصمة.

هذه هى الحياة المعنوية الطيبة الهادئة التى لا لغو فيها ولا تأثيم، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن الجسم فيها ينال حظه فى مواقيته فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أى أن طعامهم يأتهم فى أوقات منتظمة مستمرة وهى تحيى فى البكور، وفى العشية.

أى على عادة المتناولين لهذه الحياة من غير زهادة ولا إفراط فى الأخذ منها ليترفوا فيها، وفى ذلك الاعتدال تكون استقامة الحياة من غير مرض ولا عناء.

وإن تلك الجنة الطيبة التى تحيا فيها الروح، ويحيا فيها الجسم من غير إسراف ولا تفريط تكون للمتقين؛ ولذا قال تعالى:

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾.

الإشارة هنا للبعيد إعلاء لشأنها وتشريفها وتكريما لها ﴿نُورِثُ﴾، أى يجعلها سبحانه وتعالى ميراثا لمن كان تقيا، وسميت ميراثا أورث الله تعالى به، لأنه خلف للعمل الصالح، ولأنه ترك الأهواء والشهوات فأخذ بديلا لها تلك الجنة وهى أغلى وأدوم، وسمى سبحانه وتعالى ذلك توريثا؛ لأنها خلف، كما يملك الوارث بالخلافة بيد أن ذلك ميراث عن عمل صالح بنعيم دائم فهو دائم بدوام المال الموروث، وقد قال فى هذا الزمخشري ما نصه: «نورث: استعارة أى نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث المال الموروث؛ ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية، وهى الجنة، فإذا دخلوا الجنة أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال».

وقوله تعالى: ﴿نُورِثُ مَنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (مَنْ) مفعول، و(مَنْ) للتبعية وقوله تعالى: ﴿كَانَ تَقِيًّا﴾ تفيد الملازمة للتقوى لا يتحول عنها؛ لأن ﴿كَانَ﴾ تدل على الدوام والاستمرار.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦٤) ﴿

﴿وَمَا نَنْزِلُ﴾ هذا بيان من متكلم ما هو؟ أهو من الملائكة أم من المتقين؟ إن النص يحتملهما، وقد روى أن ذلك من الملائكة، وروى البخارى والترمذى أن الذى قال ذلك جبريل عليه السلام، فإنه قد روى الترمذى والبخارى عن ابن عباس أن النبى ﷺ، قال لجبريل عليه السلام: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»، فزلت هذه الآية^(١)، ومعناها على ذلك، ﴿وَمَا نَنْزِلُ﴾، أى ننزل نحن الملائكة ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الذى خلقك، فلا ننزل من تلقاء أنفسنا بل بإرادة، وروى أنه قال النبى ﷺ: «أنا أشوق إليك».

وقد قيل: إن المشركين قالوا: قلاه الله وودعه، وقد قال تعالى فى سورة الضحى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (٣) ﴿ هذا تخريج تؤيده الرواية الصحيحة، وننزل أى ننزل وقتنا بعد آخر.

وهناك تخريج آخر وهو أن قائل ذلك هم المتقون الذين نزلوا الجنة، وأدخلهم الله تعالى فيها، ويكون معنى النزول إليهم مترفقين، ويكون كلامهم إعلانا لشكرهم لله تعالى.

ونحن نميل إلى التخريج الأول ونرجحه؛ لأنه قد ورد فيه حديث صحيح، وهو معقول فى ذاته؛ ولأن التعبير بالنزول يدل على النزول وقتنا بعد آخر، وذلك يتفق مع نزول جبريل، ولا يتفق مع دخول الجنة؛ لأنه يكون دفعة واحدة، ولأنه

(١) رواه بهذا اللفظ البخارى: تفسير القرآن - (وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) (٤٣٦٢)، والترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة مريم (٣٠٨٣). عن ابن عباس رضى الله عنهما.

هو الذى يناسب نفى النسيان فى قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ «فعيل» من «نسى»، أى ناسيا نسيانا شديدا حتى يترك نبيه، وقد أرسله لبيان شريعته، والدعوة بقرآنه الحكيم الذى هو تنزيل من حكيم حميد.

وقد ذكر الملائكة قدرة الله تعالى، وأنه هو الملك للملائكة والانس والجن، فقالوا كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾، له ما مضى من أمرنا لا يعلمه سواه، وله ما بين أيدينا مما هو مبهما، وما خلفنا مما تركنا، وما بين ذلك هو حاضرننا، وملكيته سبحانه لحاضرننا، وهو ما بين ملك المتصرف العالم علما محيطا.

وقد بين سبحانه وتعالى ملكه للسموات والأرض فقال:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هو رب السموات والأرض الذى يملك كل شىء ما بين أيدينا وما خلفنا ويعلم كل خلقه، هو رب السموات ورب الأرض ورب ما بينهما من فضاء، وإذا كان هو الرب الخالق لكل شىء ولا خالق سواه فإنه وحده الذى يستحق العبادة، ولذا قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، و«الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنه إذا كان الخالق القائم بحق الربوبية، الحى القيوم فهو وحده المستحق للعبادة، ولكن هذه العبادة لا يستقيم لها الإنسان وسط الأهواء والأوهام، وما يآلف الناس من عبادة الأحجار والأشخاص ليس الطريق الإنسانى إليها معبدا، ولذلك كان المؤمن يحتاج إلى صبر فقال تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أصل اصطبر «اصتبر» قلبت تاء الافتعال طاء لقرب التاء من الطاء، ومعنى الافتعال هنا الصبر، وتحمل ما يكلفه النفس من جهود، ونبه سبحانه إلى أنه لا مشابه له من الحوادث، فقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، أى شبيها، والاستفهام للإنكار بمعنى النفى، أى لا تعلم له شبيها فهو

منزه عن الحوادث كقوله تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى]، وهذا النفي بالاستفهام الإنكارى دليل على استحقاقه وحده للعبادة لأنه لا شبه له.

إنكار الإنسان للبعث

قال الله تعالى:

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ
أُخْرِجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَمَّا يَكُنْ شَيْئًا ٦٧ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ حِثًّا ٦٨ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاتًا ٧٠ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَقْضِيًّا ٧١ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ
فِيهَا جِثًّا ٧٢ وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْثَا وَرِيًّا ٧٤

الإنسان ينظر دائما إلى حاضره ولا ينظر إلى قابله، وينكر القابل إذا لم يتفق مع حاضره إلا أن يكون ممن هداهم الله وآمنوا بالغيب إيمانهم بالشاهد، ولم يحصروا علمهم فى المحسوس لا يخرجون عنه، وقد قال تعالى:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ﴾ .

الإنسان المأسور بالحسّ الذي لا ينفذ عقله إلى ما وراء الحس من غيب ستره الله تعالى، ولا يؤمن به إلا بنقل صادق، وعلى ذلك يكون المراد بعض الإنسان لا كل آحاده، وعبر عن هذا البعض باسم الكل؛ لأن ما يقوله بعضهم مساير لإحساس الكثيرين منهم، أو لحال الإنسان قبل أن يجيئه النقل القاطع الجازم، ولأنه مشتق من طبيعة الإنسان المأسور بالحاضر المحسوس، لا القابل المغيّب.

وبعضهم يقول: إن الجنس هو المتحدث عنه، فجنس الإنسان يدرك الحس وحده، إلا من رحم ربك.

ويقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ عبر بالمضارع للإشارة إلى تكراره، وأنه يذكره مرارا، وللإشارة إلى صورة قوله المتكرر ﴿أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ الاستفهام في ظاهر اللفظ ومدلوله داخل على ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وتركيب القول، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى. لسوف أخرج حيا إذا ما مت، وتأخرت ﴿لَسَوْفَ﴾ على «إذا» لأمرين:

الأمر الأول: أن الاستفهام له الصدارة.

الأمر الثاني: أن موضع الإنكار ليس هو الإخراج إنما هو أن يكون بعد الموت وأن يصير رميما، كقوله تعالى ﴿... مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ﴾ (٧٩) [يس].

والمعنى على هذا التخريج: أحقا مؤكدا سوف يخرج حيا مجتمع الأجزاء غير مفروق، و«اللام» لتأكيد الخروج، وسوف لتأكيد الوقوع في المستقبل، ولقد بين سبحانه أنه لا غرابة في الإعادة بعد الموت فقال:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ﴾ .

الواو عاطفة على فعل مذكور مشار إليه فيما سبق، وتقديره، أيقول ذلك ولا يذكر الإنسان...

«أو» الواو عاطفة ومقامها التقديم وأخرت؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، أى: أقول ذلك، ولا يذكر أنه خلق ولم يك شيئاً، فهو توبيخ على هذا النسيان الذى ينسى أصله، وكيف تكون، ولا ينسبه إلا الشيطان، وأظهر الإنسان، وكان مساق القول ألا يظهر، وذلك لانصباب التوبيخ عليه، ولتأكيد النسيان الذى هو طبيعة فى الحياة الإنسانية، إذ هى تنسى ما يغيب عنها ولا تذكر، ولقد قال الله تعالى فى مساق التوبيخ: ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾، أى لا وجود له، ولا شك أن الخلق من غير صورة وابتداء الإنشاء من طين وتصويره نطفة فعلة فمضغة مخلقة وغير مخلقة.. أصعب من إعادته مصورا يمر على هذه الأدوار التكوينية، بل كان بمجرد قوله كن فيكون، وبمجرد النفخ فى الصور، وقد قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف] وإن جمع الأجزاء المتناثرة أقل صعوبة من إنشائها وإبداعها، قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ [الإسراء].

ولقد أكد الله البعث بالقسم برب الوجود مضافا إلى سيد الوجود، فقال:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ (٦٨).

أقسم بذاته العلية الكريمة مضافا إلى نبيه؛ بيانا لإعزازه وإعلانه وتكريمه، وكان القسم بالذات العلية بعنوان الربوبية الكالئة الحامية المتصلة بالإنسان، وبأكرم إنسان وهو محمد ﷺ، وفى ذلك إشارة إلى أن البعث من الربوبية، فهو كما أنشأكم وكلائكم ورباكم يبعثكم، فهو لم يخلقكم عبثاً، و«الفاء» هنا للتعقيب على التوبيخ بتأكيد الأمر الذى قرره وقدره وأنكره بل استنكروه، و«اللام» فى قوله تعالى: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لام القسم الواقعة فى جوابه؛ ولذا أكد بنون التوكيد الثقيلة، و«الواو» واو المعية فى قوله تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾، أى أنهم يحشرون معهم، وهم الذين أضلوههم، وجعلوهم بالأوهام التى بُثَّتْ فيهم يعبدون الأوثان.

ثم ذكر تعالى ما يكون بعد الحشر وهو إحضارهم إلى جهنم، فقال تعالى مقسماً: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة على جواب القسم ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ فهو سبحانه بعد أن يحشرهم مع شياطينهم الذين وسوسوا لهم بعبادة الأوثان يحضرون، وإن ذلك وإن كان خاصاً بالكفرة؛ لأنهم الذين أغواهم الشياطين وأضلّوهم، ولكن أضيفت إلى الجميع الأبرار والفجار؛ لأن الحشر للجميع، والجميع يرون جهنم كى تتلى الآيات من بعد.

والإحضار حول جهنم جائين على ركبهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، والجثى جمع جاث، وهم الجالسون على ركبهم. فقال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً...﴾ (٢٨) [الجاثية]، وذلك يكون فى أحوال تناقلات القول، وذلك من تجائى أهلها على ركبهم، وذلك يكون فى حال الاستفزاز والقلق، وكأنهم لهول ما يرون يتجاثون على ركبهم فزعين قد أصابهم الهلع، ويكونون حول جهنم مترقبين ما يكون من أمرهم فى جزع.

والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ يقتضى فاصلاً بأمدة ليس قصيراً بين الحشر والإحضار، وذلك الأمد يكون فيه الحساب ويكون ما يقرره الله لأهل البر، وما يقرره للفجار، فكل يحضر حول جهنم ثم يكون الأبرار بعد ذلك للجنة إذ يرون ما آل إليه أمر الكفار، كما ستلو قوله تعالى: ﴿وَأَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧١).

ويقول فى أحوال يوم القيامة وأهواله:

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا﴾ (٦٩).

﴿ثُمَّ﴾ عاطفة للترتيب والتراخى؛ لأنه ترتيب أعمال يوم، فيكون الحشر ثم الإحضار إلى جهنم جثياً ثم نزع أشدهم عتوا من الشيع، من كل شيعه أعتاها وأجرؤها على الرحمن، وقوله تعالى: ﴿لَنَنْزِعَنَّ﴾ «اللام» لام القسم التى تكون فى جوابه وهى تنبئ عن قَسَمٍ مقدَّر فى القول، والنزع الاستخراج لا اختيار

للمتزوع فيه، بل متخير مأخوذ أخذا لا اختيار له فيه، الشيعة على وزن «فعللة»، وهى الطائفة المتشايعة فى عنادها وكبرياتها وعصيانها، والنزع من كل طائفة لها هذا التعاون على الشر، وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ والعتي مصدر عتا يعتو عتيا بالضم وعتيا بالكسر، وعتوا، وأشد شرا فيهم، و﴿أَيُّهُمْ﴾ قد تكون فى معنى الاستفهام، والجواب عنه، أى الذى يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن، أى أجراً فى الباطل والظلم والاستكبار، وقيل: أشد على الرحمن عتيا؛ لأنه إذا كان عاتيا على الرحمن جريئا عليه، فهو ممعن فى الشر إمعانا، إذ هو غير شاكِر للرحمة؛ لأنه ممعن فى الاستكبار على مصدرها ومرسلها، وهكذا ينزع الله تعالى يوم القيامة من فئة متشايعة على الشر أشدهم عتوا وتجبرا ثم الذى يليه كل فى طبقته من الشر، وهذا يشير إلى أن من دون هؤلاء عتوا وجحودا، قد يكون فى موضع الغفران إذا تاب، وإن الحسنات يذهبن السيئات، وإنه بعد نزع أشدهم عتوا يكون الصلّى فى نار جهنم، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)﴾.

أى أنه سبحانه وتعالى ينزع أشدهم عتوا من بين الأشرار فئة فئة، والله تعالى أعلم بمن هم أولى بالنار صليا، و﴿صِلِيًّا﴾ مصدر صلى يصلى صليا مثل مضى يمضى مضيا، وهوى يهوى هويا، ومعنى ﴿أَوْلَىٰ﴾، أى أحق بأن يصطلى هذه النار، والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التراخى المعنوى بين النزع من الشيع، وصليتها بالنار فإنه يكون العرض، ثم يكون الإلقاء فى النار إلقاء، وهكذا يختار من الشيع المستغرقة فى الشر المتشايعة فيه أعتاها، ثم يلقي أحقها بالصلّى فى النار، ويعفو الله سبحانه عن بعض العصاة غير المشركين إذا تابوا أو كانت لهم حسنات تكافئ سيئاتهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ... (٤٨)﴾ [النساء]، ويقول: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ... (١١٤)﴾ [هود]، ويقول: ﴿... وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)﴾ [الشورى].

وإن الناس جميعا يرون النار، ليعرف الأبرار مقدار إكرام الله تعالى إذا دخلوا، فيرون الفرق بين الجنة والنار، وبين النعيم المقيم وعذاب الجحيم، ولذا قال تعالى:

﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١)﴾.

(إن) هنا نافية، والمعنى ما منكم إلا واردةا، وقد التفت سبحانه وتعالى من الغيبة إلى الخطاب؛ لمواجهة عباده بما قرر لهم وما قدره سبحانه وتعالى عليهم، والورود ليس معناه الدخول، بل إن المؤمن يردُّها ولا يُلقى ولا يُعذب فيها، وبذلك يوفق بين قوله تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وقوله تعالى بالنسبة للمؤمنين: ﴿... أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾ [الأنبياء]، أى مبعدون من عذابها ولا يلقون فيها ولا يدخلونها، وروى أن المؤمنين يوردون عليها وهى ضاورة^(١)، أى خادمة بالنسبة إليهم لا تمسهم ولا يلقون عذابها.

﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، ﴿كَانَ﴾ ذلك الورود ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ الذى خلفك ورباك ﴿حَتْمًا﴾، أى لازما، ﴿مَقْضِيًّا﴾، أى قضاء الله تعالى وكتبه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ... (٥٤)﴾ [الأنعام]، وإن هذا الكلام لتأكيد الوقوع، وإنه سبحانه وتعالى قد كتبه على ذاته العلية، ولا إلزام عليه من أحد ولا يصح أن يستدل به الذين يقولون بوجوب الصلاح أو الأصلح، فإن هذا ليس من ذلك الباب فى شيء، إنما لتأكيد الوقوع والقضاء منه، وهو الذى يقضى ويقدر وهو العزيز الحكيم.

وبعد أن يردها الجميع يصطفى الله تعالى ممن وردها المؤمنون التقاة، فينجيهم منها؛ ولذا يقول تعالى:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾.

(١) هكذا بالواو، والتَّضَوُّرُ: التَّضَعُّفُ، من قولهم: رجل ضَوْرَةٌ وامرأة ضَوْرَةٌ، و الضُّوْرَةُ، بالضم، من الرجال: الصغير الحقيق الشأن. قاله أبو العباس: لسان العرب - ضور. وقد تكون (ضامرة) بالراء، من الضمور وهو الهزال. وكلاهما يحتمل معنى الحمود، والله أعلم.

العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتفاوت البعيد بين النجاة التى كتبها الله للذين اتقوا، والصلى الذى كان لأولى الناس بالصلى فى علم الله تعالى، والنجاة تكون للذين اتقوا العذاب ولم يشركوا بالله شيئاً فلم يعبدوا الأوثان، ولم يفتنوا أحداً فى دينه، ولم يكفروا بآيات الله تعالى ووحدانيته، وذكر الموصول يدل على أن الصلة وهى التقوى السبب فى الإنجاء أو التنجية، والتنجية هى المبالغة فى النجاة.

هذا بالنسبة للمتقين، أما الكافرون فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾، أى جاثين على ركبهم ذلاً وفزعاً ورعباً وألماً، والجثى تصوير لحالهم بالحس الدال على أنهم فى أشد الفزع والألم، و﴿وَنَذِرُ﴾ معناها نتركهم، وعبر سبحانه وتعالى عن الكافرين بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وإشراكهم، وظلموا الناس بفسادهم، وظلموهم بالفتنة والصد عن سبيل الله فى معاملتهم للمخالفين لهم، وظلموا الحق بجحودهم مع رؤية آياته: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا... (١٤)﴾ [النمل].

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٢)﴾.

هذه أحوالهم فى الآخرة، ولكنهم عنها عمون، فقد حسبوا أن الآخرة - إن كانت فى زعمهم - ستكون لهم كما أن الدنيا تكون لهم؛ ولذا كانوا يستمرئون عنهم؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٢)﴾.

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾، أى يتلى عليهم القرآن المنزل من الله تعالى، أى تقرأ آياته مرتلة واضحة بيّنة فى ألفاظها وعبارات المعجزة ومعانيها الواضحة الزاجرة الواعظة المبشرة المنذرة - أعرضوا عنها واستهزءوا بقراءتها وبالمؤمنين، وقالوا للذين آمنوا فى شأنهم ساخرين منهم مستهزئين بهم ومستهينين بأمرهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمن والكافر، والبر والفاجر ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ ومنزلة ﴿وَأَحْسَنُ

نَدِيًّا ﴿٤٦٨﴾، أى متدى يجتمعون فيه ويسمرون، فهذا للأقوياء الكبراء ذوو المال والجاه والسلطة. وذلك للضعفاء والأرقاء المستذلين. ومؤدى القول أن المؤمنين ضعفاء مستردلون فى ذات أنفسهم ومكانهم فى هذه، والذين يخالفونهم فى متدى طيب ومال وفير وعزة فى النفر، وإذا كانوا كذلك فلا بد أن يكون بعد ذلك كذلك إن كان بعث ونشور، ولا يظنونه، وهذا كقول قوم نوح له: ﴿... وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ ...﴾ (٢٧) ﴿[هود] ولقد قال فى شأن الكافرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ...﴾ (١١) ﴿[الأحقاف]، فهم يتخذون من أن الذين آمنوا ضعفاء دليلا على البطلان، وذلك لغرورهم وضلالهم، وتلك فتنة وقعوا فيها، وذلك أنهم يحكمون على الأمر بأنه باطل لضعف أتباعهم، وبأنهم على حق بقوتهم، وتلك فتنة لهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣) ﴿[الأنعام].

وقد رد الله قولهم ببيان أن العبرة بالعاقبة، لا بالأمر الحاضر، وإن كثيرين من القرون السابقة أهلكهم الله بظلمهم، ونجا الذين استضعفوا، وكان منهم أئمة وكانوا الوارثين؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيَا﴾ (٧٤) ﴿.

(كم) هى العددية، أى وكثير من الأمم أهلكناهم قبلكم، وكانوا أحسن أثاثا، فبيوتهم كانت مملوءة بالمتاع الطيب؛ لأن الأثاث هو متاع البيت، و(الرئى): المنظر الحسن، أى إذا كنتم تفاخرون المؤمنين بأنكم أهل ندى حسن فيه الطنافس^(١) والآرائك والذرايب المبتوثة، وأنهم فقراء يعيشون فى شدة، وليس لهم ندى كنديكم، وأنكم بذلك أهل الحق، والمؤمنون هم أهل الباطل، فقد أنصفهم الله منكم وكان هلاك الله نازلا بكم، والقرن الجماعة أو الأمة من الناس التى تعيش فى زمن من الأزمان، وإذا كان الهلاك لا يكون إلا لأهل الباطل فليس الغنى

(١) جمع طِنْفِية: وهى بساط له خمل رقيق. لسان العرب-طنفس.

والثروة دليلاً على أن الحق في جانبهما، فالحق لا يعرف إلا بالإيمان، وآيات الله تعالى، وكذلك نجي الله المؤمنين الفقراء وأهلك الكفار الأغنياء.

سنة الله تعالى في الضلال والهداية

قال الله تعالى:

قُلْ مَنْ

كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
 إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا
 وَأَضَعُفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى
 وَالْبَاقِيَتْ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾
 أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وُلْدًا
 ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
 سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَزِيئُهُ
 مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
 لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
 عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوْرَهُمْ أَرْأَىٰ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾
 يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ
 إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ
 الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥).

يقول تعالى ردا على المشركين في غرورهم بالمال والبنين ومتعة الجاه والسلطان: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ الخطاب لمحمد ﷺ يأمره سبحانه وتعالى بأن يبين لهم الحق وسنة الله تعالى في أمر الضلالة والهداية، فهو سبحانه يمدُّ الذين أرادوا الضلالة وسلكوا سبيلها وأخذوا في أسبابها، يمدُّهم فيها مدا حتى يحسبوا أن الأمر إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٤٥) [القلم]، يمهّلهم سبحانه ويتركهم في غيهم يعمهون، ويزيدهم بالمال ويعطيهم، حتى يفرقهم الغرور ويجعلهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وقال تعالى بلفظ الأمر: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ جاء الخبر على صيغة الأمر؛ لبيان أن ذلك بإرادة الله وكأنه يأمره به أمرا، وهو استدراج من الله تعالى لهم، كما قال تعالى: ﴿... سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) [القلم]، كما تلونا من قبل.

وأكد سبحانه إمهالهم واستدراجهم بالعتاء بوفرة عليهم بالمصدر ﴿مَدًّا﴾، وأسند سبحانه وتعالى المد إلى الرحمن؛ وذلك لإفادة أن من رحمة الله بعباده أن يمكن كُلا ما يحب، ثم يحاسب كُلا على ما فعل من خير أو شر، فيكافئ كُلا بما فعل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ويستمر الضال في غيه ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾، وما يوعدون هو أحد أمرين إما العذاب في الدنيا بالقتال والجهاد واستئصال الشرك، وقد رآه في جهاد النبي ﷺ وقد اجتث الشرك اجتثاثا، وإن لم يكن الجهاد وضرب الشرك وجعل كلمة الله هي العليا، فإنها تكون الساعة تستقبلهم ويكون العذاب يوم القيامة.

وعند الوصول إلى هذه الغاية المحتومة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾، «الفاء» عاطفة على ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾، و«السين» لتأكيد الفعل في المستقبل

﴿مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا﴾ يوم القيامة حيث يكون في الجحيم، وضعفاء المؤمنين في جنات النعيم، وهو رد على قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾، إذا كان عذابهم في الدنيا فإن أولئك الضعفاء الذين سخرُوا منهم سيكونون جند الله تعالى ويسحقونهم سحقًا، هذا شأن أهل الضلال الذين اتخذوا أسبابه والذين مدوا في ضلالتهم، وأملى لهم استدراجًا، أما الذين سلكوا سبيل الهداية فقال تعالى:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦).

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بأن سلكوا طريق الهداية وأزالوا كل غشاوة ونفذوا إلى نور الحق ﴿هَدًى﴾ بأن يستمسكوا بالحق ويهتدوا بهديه. والآيات التي تنزل تزيدهم إيمانًا فوق إيمانهم، وكل سورة تنزل تزيد قوة في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴿[التوبة].

وإن الذين اهتدوا تشرب قلوبهم حب الإيمان ويستمرثون الطاعة فيسيرون في طريقها، ويصلون إلى الغاية، وما كان من أعمالهم فهو باق له أجره وثوابه ويرد عليهم يوم القيامة، وإن كل خير يبقى، وكل شر يزول فهو كالزبد يكون له مظهر الوجود ولا يبقى، ولقد قال تعالى: ﴿... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ...﴾ (١٧) [الرعد]، والأعمال الصالحة لهذا باقية؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وهي ما تكون ثمرة للإيمان القوى المثمر ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أي خير جزاء وقبولا عند الله، أما غيرها من الأعمال التي لا تكون ثمرة للإيمان فلا خير فيها ولا تبقى، ولقد قال في مثل ما ينفع الكافرون: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧) ﴿[آل عمران].

فالباقيات الصالحات من أهل الإيمان تكون خير جزاء من أعمال الكافرين، ﴿وَيُخَيِّرُ﴾ أفعّل تفضيل، ولكنه ليس على بابيه؛ لأن مقابله لا خير فيه قط، وقوله تعالى: ﴿وَيُخَيِّرُ مُرَدًّا﴾، أى خير ما يرد به المؤمن يوم القيامة فهو يرجع عاريا من كل حلية إلا حلية العمل الذى يكون به الثواب ويكون لغيره العقاب، والخيرية فى أفعّل التفضيل ليست على بابها إذ لا خير فى غيرها إذا كان أفعّل التفضيل ليس على بابيه، فالمراد به أنه بلغ من الخيرية أعلى درجاته فلا خير يعلوه قط.

وإن متشأ الضلالة هو الغرور بهذه الحياة والطمع، وقد صور سبحانه وتعالى هذا الغرور فى قوله:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨)﴾.

إن المشركين مغرورون بالدنيا غرتهم بغرورها، وحسبوا أنها لا حياة بعدها، وقدروا لأنفسهم مقاديرها فهم يستمتعون بحاضرهم، ويحسبون أن قابلهم من جنس حاضرهم بل ذهب بهم فرط غرورهم إلى أن حسبوا أن البعث إن كان يكونون فيه الأعلين كما هم فى الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا (٧٧)﴾، «الفاء» للترتيب والتعقيب، وهى تصور كيف يمد للكافر حتى يصيبه الغرور، وهى مؤخرة عن تقديم وتقدير القول: فأريت، ولكن الاستفهام له الصدارة فقدم على الفاء، والاستفهام للإنكار، إنكار الواقع، وهو بمعنى التنديد لمن كانت حاله كذلك فى غروره، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾، أى جحدها وأنكر دلالتها على وحدانية الواحد الأحد الفرد الصمد، وهذا من الاستنكار الذى أفاده الاستفهام، وقال مقسما قسما هو حاث فيه ﴿لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾، و«اللام» لام القسم الواقعة فى جوابه، ولذا كان التوكيد بنون التوكيد الثقيلة، وما كان له أن يحلف تلك اليمين الفاجرة الآثمة بأن سيكون له مال وولد، وقال فى قسمه الحاث ﴿لَأُوتِينَ﴾، أى أنه بإرادته وقدرته الواهمة سيكون له مال قد اتخذه وأخذه

لنفسه، وقد قال فى بيان أنه مغرور، ولا يكون المغرور صادقا: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) الاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، فهو بمعنى النفى لما دخل الاستفهام عليه ومقابله، فهو لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا.

قال الزمخشري فى قوله: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ معناه ارتقى علم الغيب، من قبل قولهم: اطلع الجليل ارتقاه. وأرى أن قوله: اطلع تتضمن الرؤية، وهنا همزة استفهام، وهمزة الفعل، والمعنى أراى الغيب عيانا، أم اتخذ عهدا عند الله تعالى، وإن شيئا من ذلك لم يحدث، فهو لم ير الغيب عيانا؛ إذ هو مطموس الفكر والنفس والقلب، وهو لا عهد له عند الله، كما قال تعالى: ﴿... لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤) [البقرة].

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩).

ويذكر المحدثون جميعا أن سبب نزول هذه الآية أن خباب بن الأرت المؤمن الذى عذب فى سبيل الله كان قينا، أى حدادا فصنع للعاص بن وائل شيئا فطالبه بأجرته، فلم يعطه حتى يكفر بمحمد فقال: لا، فقال: إنكم تقولون إنكم ستبعثون، وسيكون لى ذهب فإنى معطيك منه، فنزلت هذه الآيات. وقد رد الله تعالى كلامه فقال سبحانه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ وإن ما يقوله مكتوب فى علم الله تعالى الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها فكيف يقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ بالسين التى تؤكد الكتابة فى المستقبل، والله به عليم، وقد أجاب الزمخشري عن ذلك بأن معنى ﴿سَنَكْتُبُ﴾، أى سنظهر المكتوب، وأحسب أن معنى ﴿سَنَكْتُبُ﴾، أى سنكتبه فى كتابه الذى يقرأ عليه والذى ينطق بسيئاته حجة قائمة لا يكون له سبيل لإنكاره، أى نسجله عليه فى صكّه المنشور يوم القيامة.

وغد له فى غروره مدا، وسمى ذلك عذابا؛ لأنه سبب لعذابه، فذكر المسبب وأريد السبب، وذلك جائز فى المجاز المرسل والله تعالى أعلم. ثم يقول تعالى:

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠).

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، أى نجعل ما يقول خلفا يتركه فى الدنيا ويأتينا يوم القيامة فردا: منفردا عن ماله وولده، ﴿مَا يَقُولُ﴾: هو الذى تألى أن يكون له مال وولد ليكونا زينته فى الحياة الدنيا فهو يعطاهما، ولكن يخلفها من بعده ويتركهما حيث كانا فى الدنيا، ويגיע منفردا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ (٩٤) [الأنعام]، فلا مال ولا ولد يبقى، إنما الباقيات الصالحات كما قال تعالى. ويصح أن نقول: إن ما يقول هو دعاء الأنداد والإشراك بالله تعالى، وفتنة المؤمنين فى دينهم، وادعاءؤه أنه أولى بالنجاة من المؤمنين إن كانت، وإنكاره البعث، وقوله: ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ (٥٠) [الرعد]. وهذا الذى يقوله فى الدنيا من افتراء على الله وكذب، وكل هذا سيكون ميراثه يوم القيامة ينال عذابه ويدخل جهنم وبئس المهاد.

وإضافة الميراث لله سبحانه؛ لأنه سبحانه هو الذى يقوم بعمل التورث فى الدنيا، فيورثه أخلافه، على التفسير الأول، وهو الذى يورثه العقاب الأليم على المعنى الثانى وهو الذى نختاره، والله - تعالى - أعلم بمراحه.

وبعد ذلك بين الله أنواع الكافرين، فبعضهم يتخذ آلهة من دون الله، وبعضهم قالوا اتخذ الرحمن ولدا، فأما الأولون فقال سبحانه فيهم:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢).

هذا فريق من الكافرين، وجعل سبحانه وتعالى الضمير يعود إلى جمعهم؛ لأنهم جميعا اتخذوا آلهة، فقوم اتخذوا أصناما آلهة، وآخرون عبدوا النجوم، وغيرهم عبدوا الملائكة وقالوا بنات الله - تعالى - وبعضهم عبدوا الأشخاص، كالهندوس الذين عبدوا كرشنه، والبوذيين الذين عبدوا بوذا. وكل يرى فى معبوده نصيرا ينصره، وشفيعا يشفع له، وعبداء الأصنام كانوا يعبدونهم ليقربوهم إلى الله

زلفى، وقالوا: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ (٣) ﴿[الزمر]، وقد رد الله سبحانه وتعالى ذلك ردا زاجرا، فقال سبحانه: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) ﴿، ﴿كَلَّا﴾ حرف للردع والزجر وبيان الغفلة وسوء التقدير والجهل؛ لأنهم فى الوقت الذى يحتاجون إلى نصرتهم سيكفرون بعبادتهم، والضمير فى قوله تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يعود إلى العابدين، ويكون المعنى أنهم فى يوم القيامة يوم يحتاجون إلى النصير، ويعتزون بالولى يكفرون بعبادة الأوثان التى كانوا يرجون منها النصرة والعزة فى الدنيا؛ إذ تتبين حالهم ويتكشف أمرهم، ويرون أنها لا تملك من أمرها شيئا، ويظهر الصبح، وينجلي الحق ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أى يكون العابدون ضدا عليهم ولا يكونون معهم.

هذا على أن الضمير يعود على العابدين الذين عبدوا آلهة من دون الله - تعالى -، بل يصل الأمر إلى أن ينكروا عبادتهم لهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦) ﴿[الأحقاف]، ويصح أن يعود الضمير على الآلهة التى اتخذوها من دون الله، بتنزيل الأوثان منزلة العقلاء فى زعمهم، والمعنى أن الأصنام التى أرادوها عزا لهم ستكون ضدا عليهم، وتبترأ منهم فلا يكونون عوناً لهم بل يكونون عوناً عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦) ﴿[النحل].

وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ



دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴿

وربما يكون من الممكن أن نقول: إن الضمير يعود إلى العابد والمعبود، فكلما
الفريقين يكفر بالآخر ويكون عليه ضدا، والله أعلم بمراده، ويقول الله تعالى في
إغراء الشياطين:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٢﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا
نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

هذا بيان لتمكين الله الشياطين من الكافرين باستفزازهم وتهيجهم للشر،
﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الاستفهام إنكارى بمعنى النفي، وفيه تنبيه إلى تمكن الشياطين، ونفى
النفي إثبات، والاستفهام الذى بمعنى النفي داخل على منفي بـ «لَمْ»، والمعنى قد
أرسلنا الشياطين، أى مكناهم من الكافرين يغوونهم، ﴿ تَؤْزُهُمْ ﴾، أى تستفزهم
وتهيجهم إلى الشر تهيجا شديدا، وإن ذلك يزيل عجب النبي ﷺ من إصرار
الكافرين على كفرهم واستهزائهم بالنبي ﷺ، واجتماعهم على الباطل ورد الحق،
فالله سبحانه بين أن ذلك من تسليط الشياطين عليهم تستفزهم، وتهيجهم إلى
الشر ليستحقوا نعمة الله كاملة وسخطه عليهم، وأنه سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد،
لا يزيحهم، وأنه يَعدُّ عليهم ما يفعلون عَذًّا، وكلما أمعنوا فى شرهم كان عليهم
العذاب بمقدار إمعانهم، ولذا قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
عَذَابًا ﴿٨٤﴾ ﴾، «الفاء» لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، أى أن الله تعالى أراد لهم
ذلك؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم أن يكونوا عبدة الشيطان فهو يستفزهم دائما،
يرتكبون شرا بعد شر حتى يصلوا إلى أقصى الغاية فيه ويبتغوه، وكله محسوب
عليهم معدود عدا، ﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة قصر، أى إنما يفعل ذلك ليعد عليهم عدا،
وكلما أكثروا كان العذاب على قدر ما يتركبون. وفهم بعض المفسرين أن عَدَّةً عَذًّا
يدل على القلة، ونحن نقول: إن القلة بالنسبة لله تعالى، لا أنه قليل فى ذاته،
ومعنى ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ لا تطلبهم فى عجل من أمرهم إنهم آتون إليك يوم

القيامة أذلاء صاغرين، وفي الدنيا لا تعجل عليهم فسيكون عذابهم على يديك وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥).

﴿يَوْمَ﴾ متعلق بمحذوف معناه نؤجلهم إلى يوم يكون جزاء المتقين وجزاء المجرمين. والمتقون يحشرون مجتمعين على كرم الله تعالى لهم، فيكونون وفداً، أى ركبا مكرما فيكونون وافدين كرماء، كما يفد الركبان على الرؤساء الأجواد، ويحلون محل الكرامة فى ساحتهم، وقوله تعالى: ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾، أى أن الحشر إلى الرحمن الرحيم الذى يرحم عباده المؤمنين بجنة أورثوها بعملهم الطيب، ويستقبلهم عملهم الطيب كأنه رجل له عبير وعرف الأطهار المطمئنين، ويدخلون الجنة تجرى من تحتها الأنهار، أنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من غسل مصفى، وهذا إكرام وفد الأبرار، هذا وفد المتقين.

أما المجرمون فيساقون سَوْقًا إلى جهنم، وهم عطاش يردون وردا يشربون منه فلا يجدون إلا حميما وماء غساقا؛ ولذا قال تعالى فى حالهم يوم البعث ثم القيامة:

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾ (٨٦).

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾، أى ندفعهم مسوقين كالبهائم مهانين غير مكرمين، لا إلى الرحمن رب العالمين، وإنما يساقون إلى جهنم وهم عطاش وكأنهم يذهبون إلى ورد ماء يردونه ولكن يكون السَّوْقُ والدفع إلى جهنم فيكون وِردهم جهنم وبئس الورد المورد لهم، والورد الذهاب إلى الماء، وفى هذا تشبيه، أى أنه شبهت جهنم لهم بالورد الذى يردونه على أنه ماء، فإذا هو جهنم، فهى استعارة تمثيلية.

وهم يلقون فى جهنم لا شفيع يشفع؛ ولذا قال تعالى:

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٨٧).

أى أنهم يكونون منقطعين للنار مخلدين فيها لا يشفع لهم شافع، كما قال تعالى: ﴿... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (١٨) ﴿[غافر]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾، أى لا يتمكنون من أن يشفع شفيع، فلا يقبل عدل، ولا تنفعهم شفاعه، ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، الاستثناء هنا منقطع قد قوبل فيه حالهم بحال المؤمنين، ومعنى الاستثناء هنا: لكن من اتخذ عند الله عهدا يشفع له، والعهد هنا هو شهادة أن لا إله إلا الله، وعبادة الله وحده وهذا العهد تكون به الشفاعه لمن يأذن الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٩) ﴿[طه]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ﴿[الزخرف]، فلا شفاعه لمن لا يشهد بالحق، والشفاعة لمن شهد بالحق لمن يأذن الله تعالى له بالشفاعة، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٢٦) ﴿[النجم].

كفر من قال اتخذ الله ولدا

قال الله تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۖ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُبْغَى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمَنُ وَدَا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

هذا هو القسم الثاني من الكافرين، والأول قد ذكرناه، وهم الذين يعبدون
غير الله من أوثان ونار وكواكب وشمس، وبعد أن بين مآلهم، وعاقبتهم يوم
القيامة، ذكر الذين فجروا وكذبوا على الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ﴾ (٨٨).

سرى هنا إلى الذين قالوا إنا نصارى من الأفلاطونية الحديث، والأفلاطونية
الحديثة أخذتها من الهند، حيث إن البراهمة قالوا: إن كرشنه ابن براهيم، وبوذا
ابن الله، ولقد أعظم الذين قالوا إنا نصارى، أعظموا الأمر وأضلوا أنفسهم،
فرغموا أن الله اتخذ ولدا، أى أراد أن يكون له ولد، واتخذ ولدا؛ لاحتياجه إليه،
ثم أذاعوا بهتاناً عظيماً، فقالوا إنه قديم بقدم الله تعالى ﴿يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً...﴾ (١٠١) [الأنعام]، وذكر الله تعالى بوصف
الرحمة؛ لأنه سبحانه رحيم بالجميع فكيف يكون مختصاً بولد أو بصاحبة،
ورحمته عامة للعالمين.

ولأن ذلك الكلام الذى يقوله النصارى وكفروا به كفرا عظيماً قال الله تعالى
فى وصف هذا بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۖ﴾ (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ
هَدًّا ﴿٩٠﴾ ۖ

أى لقد جئتم بهذا القول شيئا إذا، أى منكرا تنكره العقول، ولا يليق بذات
الله العلية، ولقد قال الراجز:

لقد لقي الأقرانُ مني نُكْرًا

داهيةٌ دَهْيَاءَ إِذَا إِمْرًا

وأى منكر يكون داهية للعقول أن يقول قائل: ﴿تَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.

ويلاحظ أنه انتقل الكلام الكريم من الغيبة إلى الخطاب؛ ليوجه القول الشديد إليهم وينبهمهم إلى عظيم ما ارتكبوا، وأنهم أتوا بأمر تطابقت العقول المدركة على إنكاره، وهو خطير في ذاته لا يقوله إلا مأفون في غفلة عن التفكير السليم المنطقي، ولقد كنا كلما تذاكرنا مع القائلين لهذا القول يقولون: إن ذلك فوق العقول لا تدركه، وما هو بمدرَك في ذاته؛ ولذا شاع بين فلاسفة النصارى كلمة المنطق الديني في مقابل المنطق العقلي البرهان، وقالوا: إن منطق الدين لا تطبق عليه مقاييس البرهان والاستدلال، ويقولون لأنه فوق العقل، ونقول لهم: إن منطقهم الديني أمر منكر في العقول، وهو إذ في العقول، وهو أمر مع أنه نكر، هائل في بطلانه، وأثره في تضليل الأفهام، وغفلة العقول: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠)﴾.

هذا الهول من ذلك القول الذي قاله النصارى مقلدين للفلسفة المشتقة من الديانة الوثنية عند البراهمة والبوذيين، وهو قول يحاولون إدخاله في العقول، وهو بالنسبة للمحسوس ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ التفطر: معناه التشقق أجزاء مختلفة متعددة متكررة، وقرئ (ينفطرن)^(١) من قبيل فعل المطاوعة، وهو من فطره بمعنى شقّه، وانشق مما يحتاج إلى معالجة، ومما يصعب فطره، فلا يقال كسرت القلم فانكسر؛ لأن كسر القلم لا يحتاج إلى معالجة ومحاولة، ولكن يقال: كسرت الحجر فانكسر، أو كسرت الباب فانكسر.

وما المراد من هذا التصوير السامي العالی: أيراد به بيان هول هذه الكلمة، وأنها لو نزلت على السماء والأرض لتفطرت السماء وانشقت الأرض، وهدت

(١) قراءة (يتفطرن) في سورة مريم: بالتاء، وتشديد الطاء: نافع وابن كثير وأبو جعفر، وعلى (الكسائي) وحفص، وقرأ الباقون (ينفطرن) بنون ساكنة، مع كسر الطاء المخففة. غاية الاختصار: ٥٦٦/٢.

الجبال هدا، فالتصوير بيان بطريق التشبيه أو الاستعارة لضخامة البطلان فيها، من حيث إنها لو كانت محسوساً يُحس ونزل على السموات لتفطرت وتقطعت أوصال نجومها، ولو نزلت على الأرض لانشقت وهدت جبالها التي هي كالأوتاد.

ثم إن هذه الكلمة كانت تسوغ تعجيل العقاب عليهم بأن تنفطر السماء عليهم، وتنشق الأرض وتهد الجبال هدا، ولكن الله تعالى يمسك السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١) [فاطر]، وإن ذلك بسبب هذا الافتراء والادعاء الباطل؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢).

﴿أَنْ دَعَا﴾ المصدر المنسبك من «أن» والفعل مجرور بلام التعليل المحذوفة، والمعنى تنفطر السموات والأرض لادعائهم أن للرحمن ولدا، وهو ادعاء ادعوه، ودعاء لهم في عباداتهم، فقد ادعوه افتراء على الله واتخذوه إلها في ضمن آلهة ثلاثة تابعين للمصدر الذي قلده فيها، وهو زعمهم الأب والابن وروح القدس، و﴿وَلَدًا﴾ مفعول لـ ﴿دَعَا﴾، إذ ادعوه بغير علم ولا حجة، غير عارفين لمقام الألوهية، ولا مدركين، وذكر وصف الرحمن في هذا المقام؛ لأن هذا الوصف يحمل دليل بطلان قولهم؛ لأن رحمة الرحمن لكل عباد الله، فلا يختص ابنا مدعى ولا مفترى.

ثم بين سبحانه أنه ليس من المعقول الذي يتفق مع كمال الله وجلاله أن يتخذ الله ولدا، ولذا قال: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢)، أى ما يسوغ ولا يعقل أن يكون للرحمن ولدا، لعدم الحاجة إلى الولد أولا، ولمخالفته للحوادث ثانيا؛ ولأن الولد يحتاج إلى صاحبة ثالثا؛ ولأنه لا قديم إلا الله رابعا؛ لأنه يؤدى كأصله الفلسفى إلى أن الأشياء تنشأ عن الله تعالى كما ينشأ المعلول عن علته، والله فاعل مختار يفعل ما يريد.

﴿يَنْبَغِي﴾ فعل مطاوعة من بغى، أى طلب بشدة لحاجته، وفعل المطاوعة كما ذكرنا هو الفعل بمعالجة، ومحاولة؛ وذلك لا يكون من الله سبحانه وتعالى، وذكر وصف الرحمن جل جلاله؛ لأنه كما ذكرنا ينافى وصف الرحمة للعالمين؛ ولذا قال تعالى فى وصفه بالرحمة للعالمين وأنها تعمهم، ولا يخص بعضهم، ولا يكون ولد بالولادة لأنه لا صاحبة، ولا بالتبني لأنه ليس من جنسه:

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ﴾ (٩٤).

روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه: يقول الله تبارك وتعالى: «كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقلوله لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على إعادته، وأما شتمه إياى فقلوله اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن له كفثاً أحد»^(١)؛ ولذا ما كان ينبغى أن يكون للرحمن ولدا؛ لأنه تطاول على مقام الألوهية من قائله؛ لأن العباد جميعا بالنسبة له على سواء، وعيسى عليه السلام عبد الله ورسوله. وكما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾ (١٧٢) ﴿[النساء]﴾.

و(إن) فى قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ نافية، أى ما كل من فى السموات والأرض إلا آتية عبدا خاضعا خائعا لله سبحانه وتعالى، قائما بالعبودية، فالجميع خاضع له خضوع العبيد الأحياء وغير الأحياء، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (١٥) ﴿[الرعد]﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، إلا آتية مقبلا على الله تعالى إقبال العبد فى خضوع وخنوع، خضوع العابد للمعبود، وهو الله جل جلاله. ويقول الإمام الزمخشري فى تفسير هذه الآية: والمعنى ما من معبود لهم فى السموات

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن- لا ينون أحد، أى واحد (٤٥٩٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه. كما رواه النسائي وأحمد.

والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي الرحمن، أى يأوى إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاضعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد، وكما يجب عليهم لا يدعى لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال، ونحوه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ...﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكلهم منقلبون فى ملكه مقهورون بقهره، وهو مهيمن عليهم، محيط بهم، ويحمل أمورهم، وتفاصيلها، وكيفيتهم، وكميتهم، ومجيئهم، لا يفوته شىء من أحوالهم.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [٩٤]، فيه معنى إحاطة علم الله تعالى بهم وبأحوالهم وبأشخاصهم كما نقلنا عن صاحب الكشاف، وفيه أيضاً إنذار للعصاة المذنبين، بأنه سبحانه وتعالى سيحاسبهم بمقدار تلك الإحاطة الشاملة، والمعرفة المتقضية التى لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا دخلت فى إحصائها، ولذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [٩٥].

أى أتى الله تعالى منفرداً عما كان يعتز به من مال وبنين وعشيرة، ونفر وقوة، ولا شفيع ولا نصير، ولكن يلقون الله تعالى بأعمالهم مجردة، وبأشخاصهم مجردين، وإن ذلك يوم القيامة، يوم يحاسب كل واحد على ما قدمت يده، ويؤتى كتابه فيه إحصاء ما عمل، وتنطق أيديهم وأفواههم بما كانوا يقتربون.

وبعد أن بين الله تعالى حال الكافرين من عبدة الأوثان، ومن كذبوا على الله وقالوا اتخذ الله ولداً، بين الله سبحانه وتعالى حال المؤمنين فى الدنيا فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فسبقوا إلى الإيمان مدعنين لله، وقوا إيمانهم بالعمل الصالح، فالإيمان من غير عمل صالح يزكيه وينميه مآله أن يكون خاوياً فارغاً،

وقال الله تعالى فى ثمرته الاجتماعية بالنسبة لعلاقاتهم الإنسانية: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ بضم الواو وبكسرها، وبهما كانت القراءة، فقرأ بالضم. وقرأ بالكسر، والود المحبة من غير حمل عليها، بل بالنجذاب القلوب المؤمنة، فإن الإيمان يصفى قلوبهم، وينير بصائرهم، فينجذب بعضهم لبعض من غير تحيب، بل بمقتضى الطهر الجامع. والإخلاص الذى يؤلف القلوب، ويؤاخى بين الناس، روى أن النبى ﷺ قال: «إن لله عبادة ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله يوم القيامة» قالوا: ومن هم يا رسول الله، قال: «قوم تحابوا بروح من الله على غير أرحام تربطهم ولا أموال يتعاطون، والله إنهم لنور، وإنهم لعلى نور»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٧) [يونس].

وكذلك كان المؤمنون الأولون، حتى إن الرجل من الأنصار بعد المؤاخاة كان يشاطر أخاه فى ماله غير ضنين، بل إن بعضهم كان ذا زوجتين فهم بأن يطلق أحدهما ليتزوجها أخوه، ولذا وصف الله الأنصارى بقوله تعالى: ﴿... وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ (٩) [الحشر].

ولقد كانت المحبة الصادقة والمودة الرابطة قوة المسلمين فى مكة، حيث لا قوة لهم من مال أو جاه أو سلطان، فقد كانت هذه المودة دافعة أبا بكر لأن يشتري الأرقاء من المؤمنين، ويعتقهم، وقد صاروا فيما بعد قوة المسلمين فى الجهاد وذوى شأن بين أهل الإيمان.

وإنه من وقت زال الود الجامع للمؤمنين زالت وحدتهم، وذهبت قوتهم، ولا أستطيع أن أقول: إنهم خرجوا عن الإيمان، ولكن المؤكد أنهم لم يعملوا عملا صالحا، بل تنابدوا وذهبت ريحهم.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى ما يجمع شملهم ويوحد أمرهم، ويذهب شتاتهم وهو القرآن الكريم. فقال تعالى:

﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧)﴾ .

الضمير في ﴿يَسِرَّنَاهُ﴾ يعود إلى القرآن؛ لأنه حاضر في قلوب المؤمنين يملأ أجواءهم بعطره ونوره فلا يحتاج إلى ذكر معين سابقا؛ لأنه مذكور دائما حاضر في القلوب لا يغيب عنها، و«الفاء» للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كانت حجتك الكبرى هذا القرآن العظيم، فإنما يسرناه بلسانك العربى، وسهّلناه على كل عربى يقرؤه من غير عوج ولا عجمة فيه ولا إبهام، لتبشّر به المؤمنين الذين يدخل الإيمان قلوبهم؛ لأنهم يدعون للحق إذا جاءهم، والناس أقسام ثلاثة:

القسم الأول: قسم آمن بالحق إذ جاءهم كأولئك الذين كانوا خلية الإيمان الأولى من أمثال أبى بكر وبلال وصهيب وزيد بن حارثة.

والقسم الثانى: قسم قلبه منفتح للحق يجيب داعيه، ويحضر ناديه، وهؤلاء ومن سبقهم هم الذين يبشّرهم القرآن بالجزاء الأوفى.

والقسم الثالث: اللُدُّ وهم الذين يجادلون بغير الحق، وهؤلاء ينذرهم القرآن الإنذار الشديد لكيلا يكون لهم عذر فى كفرهم، ولتقوم الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء]، واللسان هو اللغة وهى هنا العربية. واللُدُّ جمع الد وهو الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿... وَهُوَ الدُّ الْخِصَامُ (٢٠٤)﴾ [البقرة].

وقال الشاعر العربى:

أَبَيْتُ نَجِيًّا لِلْهُمُومِ كَأَنِّى
أُخَاصِمُ أَقْوَامًا ذَوِي جَدَلٍ لُّدًّا

ومن شأن أهل الجدل والخصومة أن يكون عقلهم فى انحياز جانبى إلى تفكير، لا يفتحون عقولهم لما يلقى عليهم فلا يستمعون إلى الحق إذا دعوا،

ويسيرون طريقهم غير مدركين حقا، والإنذار يزعج حسهم، وربما يهتدون، وإلا فهم فى طريق الغواية سائرون.

وإن هؤلاء ربما يمهلهم الله إلى يوم القيامة، حيث الحساب ثم العقاب على ما اقترفوا، وقد أئذر المشركين بما عصى الذين من قبلهم فأهلكهم الله تعالى، ولقد قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۖ﴾ (٩٨).

القرن: الجماعة من الناس التى تعيش فى عصر واحد، فالقرن الجماعة، وليس الزمن، والركز هو الصوت الخفى، ومعنى ذلك أنهم أريدوا، وصارت آثارهم تنبئ عنهم ليكونوا عبرة للمعتبرين، وليكونوا المثالات لمن يرتكبون مثل ما فعلوا، والركز يقال لكل شىء مخف، فيقال ركز الرمح، أى اختفى فى الأرض والركاز المال المخفى. كذلك قال الزمخشري فى الكشاف.

وإن هذا بلا ريب إنذار للمشركين فى الدنيا بالهلاك والدمار، كما كان لقوم نوح إذ أغرقهم، ولقوم هود وصالح إذ جاءتهم ريح صرصر عاتية، ولقوم لوط إذ جعل سبحانه وتعالى أرضهم عليها سافلها.

وهكذا، ولكن المشركين لم ينزل سبحانه ذلك بهم، ولكنه ذكره لبيان عاقبة الكفر أولا، وعظيم قدرته ثانيا، وما يتعرضون له ثالثا، أما مشركو مكة فلم ينزل بهم ذلك العذاب المستأصل؛ لأن محمدا ﷺ خاتم النبيين فلا بد أن تبقى طائفة من أمته ظاهرة على الحق داعية إليه سبحانه، وقد كان من أولئك المشركين من هداه الله وكان قوة للمؤمنين وعزاً للإسلام، وكان من ذرية العاتين من صار من نصراء المؤمنين كعكرمة بن أبى جهل، والله بكل شىء عليم.



تمهيد:

هذه السورة مكية وعدد آياتها ١٣٥، وكلها نزلت بمكة، وقيل إلا آية ١٢، ١٣، وقد ابتدأت بخطاب النبي ﷺ بأن الله تعالى ما أنزل عليه القرآن ليشقى بتحمل أعباء الكافرين في كفرهم، وليس هو إلا مذكر، والقرآن تنزيل من قوى قاهر خلق السموات العلا، وهو المسيطر على هذا الوجود. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) وهو يعلم كل شيء، ﴿وَأَن تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧).

وقد تحدث سبحانه بحديث موسى عليه السلام في بعثه وخطاب الله تعالى له، وقد رأى نارا ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ (١١) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)، وبذلك أخبره باختياره نبيا ونبهه إلى معجزته الأولى وهي العصا، قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) وأمره أن يأخذها ولا يخاف، وأعقبها بمعجزة أخرى فقال: ﴿وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيَضاءَ مِثْلَ طَيْرٍ إِذَا فُتِحَتْ يَدَاكَ لِتُخْطَا بِهَا﴾ (٢١) وَأَن تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٢٢) لَنُرِيكَ مِن آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣).

كلفه بعد أن رأى هاتين الآيتين أن يدعو فرعون إلى الهدى فقال سبحانه: ﴿ادْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٢٤) ولكن موسى الكليم يحس بضعفه، وأنه لا يحسن القول فيقول: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي

(٢١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٢٢) كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٢٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٢٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٢٥) ﴿ وَيَجِيبُهُ اللَّهُ ... قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٢٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٢٧) ، وَلَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى مَتْنِهِ الْأُولَى عِنْدَ وَلادته إِذْ أَلْهَمَ أُمَّهُ ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٢٨) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... (٢٩) ، وَيَذْكُرُ سُبْحَانَهُ بَعْضَ قِصَصِهِ قَبْلَ الرِّسَالَةِ وَقَتْلَهُ الْمِصْرَى وَفَتْنَتَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَيَشِيرُ سُبْحَانَهُ إِلَى قِصَّتِهِ فِي أَهْلِ مَدْيَن ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَن ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى (٣٠) وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٣١) 》 .

وقد أمره سبحانه أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون، وأن يترفقا معه في القول ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٣٢) ، ولكنهما يخشيانه لسطوته وجبروته واستهانتته بكل إنسان، وهكذا يبرر سكوت الناس عن الطغاة واستنكار أعمالهم بالقلوب، ولقد قال الله تعالى لهما: ﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٣٣) 》 أمرهما بأن يخبراه بوحى الله تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٤) ، أخذ فرعون يجادلهما، وسألهما من ربيكما؟ قال: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وسألهما: فما بال القرون الأولى؟ قال: علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى، وأخذوا يعرفان فرعون بكمال الله تعالى فى خلقه وبيان قدرة الله تعالى فى الخلق والإعادة ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٣٥) 》 .

ولقد أراه الله تعالى على يد موسى وهارون الآيات الكبرى، وكانت كلها حسية ولكنه لم يؤمن، وحسب أن موسى جاء ليتزع ملك فرعون، لا ليهديه، وكذلك كان يستعين الفراعنة الذين حكموا مصر فى عصور النور: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٣٦) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ... (٣٧) ، وجعلوا بينه وبينهم موعدا، وقد وافق موسى على أن يكون الموعد هو يوم الزينة يوم يحشر الناس ضحى .

التقى موسى بالسحرة فتيين للسحرة أن موسى ليس ساحرا، وأن معجزة موسى أعجزت السحرة فآمنوا، ولكن فرعون بدل أن يؤمن قال للسحرة: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَيْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١)﴾، وهنا تبدو قوة إيمان المصرى إذا آمن: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ مُجَرَّمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَرَكَى (٧٦)﴾.

ذلك إيمان المؤمن، ولقد أخذ موسى يأتى بالآيات حتى بلغت تسع آيات، ولكن لم يؤمن فرعون وملؤه، فأمره بأن يسرى بنى إسرائيل ليلا ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)﴾.

أخرج الله بنى إسرائيل من فرعون وطغيانه، ومكنهم من أرض سيناء، وقال لهم تعالت حكيمته وكلماته: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١)﴾.

عالج موسى أمر فرعون الطاغية وأعانه الله تعالى عليه، ثم أخذ بعد ذلك يعالج بنى إسرائيل وكان علاجهم أشد من علاج فرعون؛ لأن علاج النفوس التى تطغى وتضعف، ومردت على النفاق والضعف، ومعاشرة الكافرين، وتأثر نفوسهم بالكفر والشرك، ولذا صعب أمرهم.

ذهب موسى إلى ربه ففتن بنو إسرائيل بالعجل من بعده فقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٣) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٤)﴾. أضلهم السامرى بأن صنع لهم تمثال عجل من ذهب، ووضعهم لهم فى مهب الريح فإذا هبت صوت

بصوت يشبه الخوار ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا...﴾ (٨٨)، ولتأثرهم بعبادة العجل التي كان المصريون يمارسونها قالوا: ﴿... هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَى...﴾ (٨٨)، ولكن إذا كان له صوت خوار فليس بحى، ولا فيه حياة ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩). فعلوا ذلك فى غيبة موسى عليه السلام، وأخذ هارون يرشدهم ويقول: ﴿... يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩٠). ولكنهم أصروا على عبادته وقالوا: ﴿... لَنْ نُبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (٩١). جاء موسى فوجّه اللوم إلى أخيه هارون عليهما السلام، ولكن اعتذر نبي الله هارون بأنه خشى أن تكون فرقة بين بنى إسرائيل، وقال: ﴿... يَا بَنُوؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٢)، وعلى أى حال فهارون عليه السلام لم يشاركهم فى عبادة العجل، كما قالت التوراة المحرفة غير الصادقة، وكان هذا من أعظم الأدلة على تحريفها، بعد أن عاتب أخاه وحسبه مقصرا اتجه إلى السامري الذى أضلهم فقال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ (٩٣) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ... (٩٤) من الصناعة، صناعة التماثيل، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾، أى من تعاليمه ودعوته إلى التوحيد ﴿... فَبَدَّدْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ (٩٥) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٦)، كان هذا دليلا عمليا على أن ذلك الصنم لا يملك من أمره شيئا، ولذلك قرر ألوهية الله وحده ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨).

هذه أطراف من قصة موسى عليه السلام، وقال تعالى فى ذلك: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩٩).

وبين سبحانه عاقبة من أعرض عن ذكر الله تعالى، وأشار سبحانه إلى يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٠)، مبينا سبحانه حال الناس يوم القيامة وحال الأرض، وما فيها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٠١) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٢) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ

وَحَشَعْتُ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) ﴿

بعد هذا بين سبحانه أن الوجوه كلها تكون عانية خاضعة، وقد خاب من حمل ظلما، بين سبحانه منزلة القرآن وأنه نزل عربيا، وصرف فيه من الوعيد ما تهلع له القلوب، فتعالى الله الملك الحق ﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾.

ويقول سبحانه تذكيرا لابن آدم، وبيان عرضته للخطأ والنسيان، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَافِثِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾، فذكر سبحانه أبانا بأنه حذره من الشيطان وقال له: ﴿... إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٦)﴾، ولكن وسوس إليه الشيطان: ﴿... قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى (١٢٠)﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)﴾ وهبط آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض بعضهم لبعض عدو، وقال لهم رب البرية: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٢)﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥)﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)﴾، وإن العذاب عذابان: عذاب الدنيا بالضلال والعمى عن الحق، وهذا عذاب لأهل العقول، وعذاب في الآخرة وهو أشق وأبقى.

يذكر الله سبحانه بعد ذلك العبر في الماضين الذين أهلكوا وكان يمكن أن ينزل مثل ذلك بالمشركين الذين كفروا بمحمد، وفتنوا المؤمنين، وضلوا، ولكن سبقت الكلمة ببقائهم ليكون من ذريتهم من يعبدون الله تعالى، وقال تعالى في ذلك: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩)﴾، واتجه سبحانه إلى النبي ﷺ يأمره بالصبر على ما يقولون، وأن يسبح الله تعالى ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)﴾.



ولقد نهى النبي ﷺ عن أن يمد عينيه، ويتطلع إلى ما هم متمتعون به من متع
 هى زهرة الحياة الدنيا، وذلك أمر لأمته، فلا تتطلع إلى ما هم فيه من متع فهى
 فتنة، ﴿... وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا
 نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)﴾.

لقد تعللوا فى كفرهم بتعللات ظاهرة البطلان طلبوا آيات حسية، وقالوا:
 ﴿... لَوْلَا يَأْتِينَا بَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣)﴾.

لقد جاءهم الرسول مبشرا ونذيرا، ولكنهم كفروا وعاندوا ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ
 بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤)
 قُلْ كُلُّ مُتْرِيصٍ فَتَرِيصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)﴾.

معانى السورة

طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكُرَ
 لِمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾
 الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَاتُحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرِ الْقَوْلُ
 فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَى ﴿٨﴾

﴿طه﴾ قال أبو بكر الصديق: إنها من أسرار الله تعالى، أى أنها كغيرها من الحروف التى تبدأ بها السور مثل ﴿آلم، المصن، الر﴾ وقد تكلمنا فيما تشير إليه فى عدة سور مما سبق.

ولكن مع ذلك نسرد ما قيل فى ذلك، قيل: إن طه اسم لله تعالى، وقيل: إنها اسم للنبي ﷺ، وربما يسوغ ذلك أن ما بعدها كان خطاباً للنبي ﷺ، فكأنه نودى بذلك، ثم ألقى القول والبيان المنبه إلى ما عليه فى هذه الرسالة، فليس عليه أن يؤمنوا، وإنما عليه التذكيرة فلهذا القول وجه من التوجيه .

وقيل: إنها فعل أمر أصله «طأ» قلبت الهمزة هاء، ويصح أن يقال: إنها قلبت ألفاً ثم جاءت هاء السكت بدلاً عنها، وقيل: إن معناه «يا رجل»؛ لأن طه فى لغة عك^(١) معناها يا رجل . وقيل: هى بهذا المعنى فى لغة الحبشة .

(١) قبيلة باليمن، قال أبو القاسم الزجاجي: سميت بـ«عك» حين نزولها، واشتقاقها فى اللغة جائز أن يكون من العك وهو شدة الحر، وقد اختلف فى نسب عك، فقيل ينتهي نسبها إلى قحطان، وهو قول من نسبته فى اليمن، وقال آخرون: هو عك بن عدنان بن أدّ أخو معدّ بن عدنان . معجم البلدان - عك . (مختصراً) .

وإني أراها كأخواتها من الحروف التي تبدأ بها السور، يقال: إنها أسماء للسور، وإذا كان ثمة احتمال لأن تكون بمعنى ندرته، فلنا نميل إلى أن يكون اسماً للرسول ﷺ.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) وهناك قراءة (ما نزلنا عليك القرآن)، وفي هذه القراءة إشارة إلى تنزيل القرآن منجماً، ولم ينزل دفعة واحدة، بينا ذلك في مواضعه من القول، وقوله تعالى: ﴿لِتَشْقَى﴾ «اللام» لام التعليل، أى ما أنزلناه عليك لتتعب وتذهب نفسك عليهم حسرات إذا لم يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ...﴾ (٦) [الكهف]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...﴾ (١٧٦) [آل عمران]، فالتبى ﷺ كان يحمل همّ كفرهم، ويحسب أن ذلك قد يكون عن تقصير فى دعوته، وذلك لقوة حسّه وشفافية روحه، ولحرصه على إيمانهم قال له ربه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ (٥٦) [القصص]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ (٢٧٢) [البقرة]، هذا تقريب لمعنى ﴿لِتَشْقَى﴾، والكمال لله وحده.

وقال: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (٢) الاستثناء منقطع بمعنى «لكن»، والمعنى ليس عليك أن تهديهم، وإنما عليك أن تذكر من يخشى ويتقى الله تعالى، ولكن لماذا خص من يخشى بالتذكرة مع أن التذكرة تكون لمن يخشى ولمن يعصى، فهو بشير ونذير، وذلك لبيان أنه يجب أن يرجو إيمان الذين يخشون، لا الذين يعصون، فكان حذف إنذار العصاة لبيان أنه لا ينبغي أن ينتظر منهم إيماناً. و﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعول لأجله، ويكون المعنى ولكن أنزلناه لأجل تذكرة من يخشى وحسبك هؤلاء أن يكونوا مؤمنين.

وكان المؤدى النهائى للآيتين: لا تحزن، وحسبك من اتبعك من المؤمنين.

وقد بين سبحانه وتعالى شرف القرآن الإضافى قال: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) هذا بيان الشرف الإضافى

للقرآن، وذلك فوق شرفه الذاتى بما اشتمل عليه من أسباب الإعجاز، وما اشتمل عليه من علوم، ولأنه سجل النبيين ومعجزاتهم، وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره، ونزل تنزيلا، ويلا حظ هنا أمران بيانيان:

أولهما: أنه ذكر «تنزيل» وفعله «نزل»، وهو التنزيل المقرر مجيء القرآن منجما آية بعد آية، أو سورة بعد سورة، حتى يمكن حفظه مرتلا محفوظا فى الصدور، فلا يُحَرَّف ولا يُنسى على مدى الأجيال، بينما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) فذكر بفعل الإنزال لا التنزيل؛ لأنه كانت العبرة فى أنه أنزله كله لينذر به ويبشر، لا ليشقى، فكان التعبير بالإنزال فى موضعه من النزول فى جملة لا فى تفضيله، أما هنا فإنه يحكى الواقع، وهو التنزيل شيئا فشيئا.

الأمر الثانى: أن فى الكلام التفاتا من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، وذلك لتصريف القول؛ ولأنه من قبيل الرفق بالنبي ﷺ، وهو الذى يكون منه التكليف، فكأنه سبحانه يقول، ولكلامه المثل الأعلى، ما أنزلت القرآن وكلفتك ما فيه لتشقى، فهو عليك، ولا تأس على القوم الكافرين، وأما فى هذه الآية فهو يبين صفاته سبحانه وأفعاله، فيناسبها حديث الغائب.

وإن الله سبحانه بين علم ميزة القرآن وقدرته، وأنه جاء مناسبا لمن بعث النبي ﷺ إليهم فهمما تكن لهم من قوة فالله غالب عليهم، وهو القاهر فوق عباده، وقد ابتداء سبحانه بالأرض فقال عز من قائل: ﴿...مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ...﴾ (٤) لأنه سبحانه فى أكثر آى القرآن يقدم فى الخلق السموات على الأرض؛ لأنها أعظم خلقا، ولكن هنا قدم الأرض لأنها التى يدعى المشركون وغيرهم من الطغاة السلطان فيها، فبين الله تعالى أنه خالقها فهو لها أملك، وسلطانه عليها، ثم ذكر سبحانه السموات بصورة عالية فى الفخامة، وهو سبحانه خالقها، وليس لهم أى مكان للسلطان فيها.

ثم قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) العرش: هو المكان الذى يتجلى فيه سلطان الله، ولقد نسب لعلماء السلف أنهم قالوا: إن لله عرشا لا يعرف كيفه، والله تعالى يستوى عليه، وهو أعلم باستوائه ولكنه غير مجسم، ولا مشابهة فيه للحوادث، وقد يقال: إن ذلك دليل على كمال سلطانه وإن الخالق الذى لا

يخرج شيء مما خلق عن سلطانه، كما يقال: وضع الأمير يده على المدينة، وربما يكون مقطوع اليدين، وكما يقال عن البخيل: يده مغلوله، وعن الكريم: يده مبسوطة، وربما لا يكون له يد بل تكون مقطوعة، والله سبحانه وتعالى أعلم، وليس الخوض في هذا مما يمكن الوصول فيه إلى حق جلي، ولذا روى عن الإمام مالك أنه قال: «الخوض فيه بدعة».

بعد ذلك بين سبحانه وتعالى كمال سلطانه بكمال ملكه، فقال عز من قائل: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) في الآية السابقة بين سبحانه أن الرحمن هو الذى استوى على العرش، وعبر عن الذات العلية بالرحمن الذى هو اسم بالذات، وهو يوحى إلى أنه سبحانه وتعالى مدبر عرشه بمقتضى الرحمة التى تعم الوجود كله، فكل ما يكون هو الرحمة، حتى عذاب العصاة يكون رحمة ليستقيم ميزان الوجود كله فإنه فى شريعة الخلاق العليم، لا يستوى الخير والشر، ولا يستوى الظل ولا الحرور.

وقد ذكر سبحانه أن له السموات بأبراجها ونجومها، وكلها مسخرات بأمره وله الأرض بما فيها من نجاد له ووهاد، وجبال شامخات وبحار وما فيها من أسماك وسفن جاريات تمخر عبايه، وما بينهما من فضاء قد سُخِّرَ للإنسان، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ من معادن وفلزات وغير فلزات وجواهر، وهذا كله من نعم الله على عباده يستخرجون من بحارها وترابها زينة، وهو العليم القدير.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد بينت ملكه العظيم الذى لا يخرج عنه شيء - بين سبحانه علمه العظيم الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء أو فى الأرض، وخصوصا الإنسان فقال تعالى مخاطبا نبيه: ﴿وَأَنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) الخطاب للنبي ﷺ، ولكن مضمونه يعم الناس أجمعين فهو سبحانه يعلم الجهر، ويعلم السر وهو ما يسره وينطق به فى خفت، وما هو أخفى من السر، وهو ما تحدث به الأنفس، يعلم الله تعالى كل ذلك، وقد يسأل سائل: ما مناسبة هذا فى هذا الموضع؟ ونجيب عن ذلك، بأنه بيان لعموم علمه ودقته، وهو بعض نتائج ما تقدم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) [الملك]، وهو يناسب الحديث مع النبى الهادى الأمين، يبين له سبحانه أنه يعلم ما

يجهر به من دعوته ويعلم ما يتمناه، ويعلم ما ينطق به سرا من غير إعلان، وهذا يشعره بأنه يعلم دعوته وجهاده في الدعوة، ويعلم ما يتمناه من إسلام قومه حتى يكاد يشقى بهذه التمنيات.

ثم بين صفات الكمال والجلال فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) ﴿اللَّهُ﴾ بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، وصدر القول بلفظ الجلالة؛ لأنه يربى المهابة في النفوس فيملؤها خشوعا وخضوعا لله تعالى، وقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، لأنه خالق كل شيء ومالك كل شيء وهو العليم الخبير، وهو اللطيف بعباده، ولا يملك غيره نفعا ولا ضرا: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي كلها أحسن ما في الأسماء، ولقد كان المشركون يحسبون أن الرحمن إله غيرهم، فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ... (١١١) [الإسراء]، وكل ما ذكر في القرآن الكريم من صفات للذات العلية هي أسماء له سبحانه، وهو سبحانه وتعالى واحد، وأسماءه كثيرة.

من قصة موسى

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا عَلَيَّ إِنِّي كُنتُ مِنْهَا يُقْبَسُ
أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنَّنَا نُوْدِي بِمُوسَى ﴿١١﴾
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ
عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾



هذه قصة موسى كما جاءت في هذه السورة، وقد فصل فيها ما لم يفصله في السور الأخرى، وأجمل فيها ما فصله في السور الأخرى من غير تكرار في القرآن، كما يدل على ذلك الاستقراء والتتبع، فالمقصد مما يذكر في كل موضع يختلف عن المقصود في الموضع الآخر، والعبرة تختلف في موضع عن الآخر، والتفصيل يتبع العبرة، والإجمال يكون فيما يجيء تابعا لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ الاستفهام للتنبيه إلى الخبر الخطير الذي يقصه عن موسى عليه السلام، وكيف كلمه ربه، و(الحديث) ما يتحدث به، والمراد بـ ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ ما يتحدث به عن موسى، فالإضافة لأدنى ملابسة، والاستفهام كما قلنا للتنبيه إلى أمر خطير، وكان الاستفهام عن علمه ﷺ، وإذا لم يكن على علم به فإنه سبحانه سيُعلمه.

والحديث في الوقت الذي كان يطلب فيه نارا رآها يشير إلى ضوئها في ليلة قارة شديدة البرودة والظلام، وكان في ظلام حاله: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾، أى اثبتوا في أماكنكم، ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، أى رأيته واستأنست بها في وحشة ذلك الظلام الحالك وذلك الليل البهيم ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾ فى مكثكم وسعى لها ﴿بِقَبَسٍ﴾ أى جذوة أو شعلة تصطلون بها من قركم وتشعلون بها مشعلا يضيء لكم، ويكشف لكم الظلمة الحالكة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى «عند»، والمعنى أو أجِدُ عند النار هدى أعلم معالم الطريق، ونسير على هدى هذه النار، وهناك من قال: إن الهدى هو الهداية، لأن طالب الحق يكون فى شاغل من أمره بطلب الهداية، وخصوصا مثل الكليم الذى ثار على ظلم فرعون. ولقد ذكرت القصة فى سورة القصص بتفصيل فى ذلك، فقد جاء فى سورة القصص ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾ [القصص]، وهذه مشاق تحملها موسى كليم الله تعالى، وقد تربى منعما مرفها فى بيت فرعون، ولكنه أثر حياة الجد على حياة اللهو والترف فلم يُرد أن يكون من المترفين فكان من النبيين.

ذهب عليه السلام إلى النار فلم يجد الهداية إلى الطريق الحسى، ولا الخبر الذى يتعلق بعيشه فى هذه الأرض، بل وجد الطريق إلى الهلاية والحق، وجد ربه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾، أى فلما أتى النار نودى، والنداء كان ﴿يَا مُوسَى﴾، وكان النداء بـ «يا» التى تكون نداء للبعيد، البعد بين صاحب النداء جل جلاله، وعبد من عباده هو موسى عليه السلام، وقد شرفه الله تعالى بهذا النداء الكريم من رب البرية، وشرفه بأن ذكر اسمه وفيه من المحبة، إذ هو نداء الله الرحمن الرحيم إلى حبيب من أصفياه المخلصين ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ قرئ بفتح الهمزة فى ﴿إِنِّي﴾ وقرئ بالكسر^(١)، ويكون بالفتح تفسيراً للنداء أى النداء أنا ربك، وعلى قراءة الكسر يكون النداء متضمناً معنى القول، و«إن» تكسر بعد القول.

وقد أكد ضمير المتكلم، وهو ياء المتكلم بتأكيدين أولهما: «إِنَّ» المؤكدة، وثانيهما الضمير الظاهر ﴿أَنَا﴾ المؤكّد لىاء المتكلم، وكان التأكيد لغرابة المؤكّد فى ذاته، ولغرابته على موسى عليه السلام، أما الغرابة فى ذاتها فهو أنه من أغرب الغرائب أن يكلم الله أحداً من عباده، فقد يوحى إليه، أما أن يكلمه فذلك أمر غريب لم يكن به عهد حتى عند الأنبياء، وأما الغرابة بالنسبة لموسى فهو أنه خرج من مصر هارباً من مظالم فرعون وقهره، وفرضه على الناس عبادته حتى يقول لهم ما لكم من إله غيرى، وقد خرج محتاجاً يقول: ﴿... رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]، ثم مأجور يزرع ويرعى الغنم، ولكنه يفاجأ بأن يخاطبه ربه من وراء حجاب، ولذا كان التأكيد فى موضعه ليأس بربه وتذهب عنه وحشة الاغتراب، و﴿رَبُّكَ﴾ معناه الذى خلقك، وربك، وأقامك، وقام على رعايتك والعناية بك. ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ «الفاء» فاء الإفصاح، وهى تفصح عن شرط مقدر، أو هى تفيد أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، فإنه يترتب على أنه فى الحضرة

(١) بفتح الهمزة: ابن كثير وأبو عمر، وأبو جعفر المدني عن يزيد، وقرأ الباقون بكسر الهمزة. غاية الاختصار:

القدسية، أن يكون الأمر بخلع نعليه، وذلك الخلع للخشوع والخضوع؛ إذ هو فى الحضرة الربانية، وهو بوادٍ مقدس طاهر، وإن الناس إذا كانوا فى حضرة ملوك الأرض خلعوا نعالهم، فكيف إذا كان موسى فى حضرة ذى الجلال والإكرام والفضل والإنعام، وإن فى هذا الفعل الحسى إشعار للنفس بأن تتفرغ لله تعالى، وأن يكون الله وحده هو شاغلها، فلا يشغلها شئ سواه، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر من الأرجاس الحسية والمعنوية، وهو ﴿طُوى﴾، وهو اسم لواد فى هذه الأرض المقدسة، وحسبه شرفاً أنه قد تجلّى الحق فيه وكلم موسى تكليماً.

يقول تعالى مخاطباً نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كرر الضمير تأكيداً لخطابه سبحانه وتعالى، ولإيناسه، وإزالة الاستغراب و﴿اخْتَرْتُكَ﴾ معناه أنه اختاره لرسالته، كما قال تعالى فى آية أخرى ﴿... إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ الفاء للعطف وللترتيب والتعقيب، فالاستماع لما يوحى الأمر به مترتب على الاختيار له، أو هو موضوع الاختيار ذاته، وما يوحى إليه هو التوراة وما فيها من شرائع وأحكام وأساسها عقيدة صحيحة مستقيمة هى ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [١٤] لهذه الجملة السامية بيان لمعنى ما يوحى الله به مما يجب الاستماع له والأخذ به وتبليغه، وأن يخاطب به فرعون، وما ذكره فى هذا المقام، هو لب التدين، فلبُ التدين هو عبادة الله وحده وإقامة الصلاة لذكر الله تعالى، والخشوع والركوع والسجود، فالصلاة كلها ذكر لله تعالى، وهى شرعت لتمتلى القلوب بالله، ولتكون مطمئنة لذكر الله تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد]. وذكر الله تعالى هو الذى ينقى القلوب من أدران الهوى، والقلوب التى تذكر الله تعالى لا يدخلها الشيطان، ولا يسكن الشيطان إلا القلوب الفارغة من ذكر الله تعالى، ولقد قال الزمخشري فى معنى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، «الذكرى: أى

لتذكرنى فإن ذكرى أن أعبد وليصلى لى، أو لتذكرى فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار . . . أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى، وطلب وجهى لا ترائى بها، ولا تقصد بها غرضا آخر، أو لتكون لى ذاكرا غير ناس، فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل همهم وأفكارهم به، كما قال تعالى: ﴿... لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ...﴾ (٣٧) [النور]. هذه معان متوافقة غير متضاربة لكلمة ﴿لَتَذَكَّرِى﴾ ولتوافقها صح أن تكون كلها داخلة فى معنى هذه الكلمة السامية ﴿لَتَذَكَّرِى﴾.

بعد ذلك ذكر سبحانه لموسى عليه السلام الإيمان بالقيامة والبعث، وما يتصل بالآخرة، وإن هذا يفصل التفرقة بين الإيمان والزندقة، فالإيمان بالبعث وما يعقبه هو قوام الشخصية المؤمنة وهو الإذعان، وبه يكون السير إلى الله، ولذا جعل من أركان الإيمان مع التوحيد والصلاة لامتلاء النفس بذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، أى أنه سبحانه وتعالى أخفاها لأنه لا يبين للناس متى تكون، ولم يعط علمها لنبي، ولا لأحد من الناس، مع تأكيد وقوعها من غير تعيين لزمانها، فكأنه أخفاها، أخفى زمانها وأكد وقوعها، فهو لم يخفها، ولو كان أعلم الناس بها علما كاملا لأعلم متى تكون، ولكنه أكد مجيئها.

وقوله تعالى: ﴿لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ «اللام» متعلقة بـ ﴿آتِيَةٌ﴾، أى أن مجيئها للجزاء فيجزى من عمل عملا صالحا جزاء صالحا، ومن عمل عملا سيئا يجزى جزاء وفاقا لما ارتكب، وهكذا يكون كل مجزيا بعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. فما خلق الإنسان سدى يفعل ما يشاء من غير حساب على ما فعل وجزاء للخير الذى أراده ونواه وفعله، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أى تجزى جزاء بالذى تسعى، «الباء» للمقابلة أى مقابل ما تسعى، أو تجزى بذات ما تسعى وذلك لمساواة السعى مع الجزاء فكأنه هو هو.

ولقد أشار الله سبحانه لنبيه وكليمه موسى إلى أنه سيلقى عنتا من الذين لا يؤمنون بالبعث، وقد نهاه سبحانه عن مطاوعتهم وهو لكل أتباعه، فقال تعالى:

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (١٦) «الفاء» للإفصاح، إذ تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كانت آتية، وإن كان زمانها خافيا، فبين للناس وجوب الإيمان بها، ولا يصدك عنها من لا يؤمن بها فلا يؤمن بالبعث، ويقول: إن هي لإحياتنا الدنيا ثموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، والسبب في عدم إيمانهم بالبعث هو سيطرة أهوائهم عليهم، ولذا قرن بعدم الإيمان باليوم الآخر اتباع الهوى.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرْدَى﴾ الخطاب لموسى عليه السلام، والفاء للسببية، أى الصد عنها سبب الوقوع فى الردى، والنهى فى «لا يصدك»، نهى عن قبول أسباب الصد، وهو محاولة الكافرين، منع الإيمان باليوم الآخر، أى نهى عن تمكينهم من الإغراء به، فكن صلبا فى بث روح الإيمان باليوم الآخر حتى لا يطمع أحد من الكافرين فى أن تصد عنه، والنهى عن ذلك بالنسبة لنبى الله تعالى ليس لاحتمال أن يقع، بل إن ذلك لمكان الإيمان بالبعث من الإيمان والله أعلم.

معجزته

وَمَا تِلْكَ

يَمِينِكَ يَمْوَسَّى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا
وَأَهْشُبُ بِهَا عَلَى غُنَمِي وَلِي فِيهَا مَشَارِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَمْوَسَّى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ
إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾

خاطب الله موسى عليه السلام بأنه اختاره رسولا نبيا، واصطفاه بكلامه، ولكن يظهر أنه كان يخاطب بكلام الله تعالى من وراء حجاب، وأنه كان يوحى إليه بتعليماته وأحكامه، ولذا قال له وهو يكلمه، فاستمع لما يوحى، فكان خطاب الله

تعالى بكلامه من وراء حجاب، وخطابه له بالوحي كغيره من الرسل، خاطبه الله تعالى بالمعجزة وأعطاه ما يدل على صدقه، وهو العصا، وضم يده إلى جناحه وإخراجها من غير سوء، مع آيات أخرى كانت تجيء كل آية فى مناسبتها.

قال تعالى لنبيه وكليمه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٧) الاستفهام للتنبيه إلى حالها التى عليها من أنها خشب شجر، أو نحوها، وإلى ما ستسأل إليه بعد ذلك من أنها حية تسعى، و﴿بِيَمِينِكَ﴾ صلة لموصول محذوف وقامت الصلة مشيرة إليه، أى: وما تلك التى بيمينك، وكان التنبيه والإشارة إلى كونها، ولكن موسى عدل عن بيان ما هى عليه، وعن مادتها إلى بيان ما يستخدمها، واكتفى فى بيان ماهيتها بقوله ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، والياء ياء المتكلم فُتِحَتْ لوقوعها بعد ألف «عصا»، وقرئ بكسرها تخلصا من التقاء الساكنين بالكسر، وهو الأصل فى التخلص من التقاء الساكنين.

وخلاصة القول، أن الاستفهام توجيه لذهن موسى عليه السلام إلى أن ينظر فى حقيقتها لكى يدرك من بعد وجه الإعجاز إذا رأى حالها بعد ذلك فى الحال التى تتحول إليها.

وقد أجاب موسى عليه السلام إلى المنفعة التى ينتفع بها فيها وذكر أمرين وأمر ثالث فيه شتى المنافع، الأمر الأول مما ذكره عبر عنه عليه السلام بقوله: ﴿أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا﴾، أى أعتمد عليها فى متابعتى للغنم، ومراقبتى لها عندما يحل بنا التعب، أو أعتمد عليها فى كل الأحوال فى مراقبتى لها، والأمر الثانى ذكره بقوله: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾، أى أخبط على رأسه خبطا خفيفا، لأبعده عن مواطن تضربه، وذلك من هش الورق إذا خبطه خبطا يسيرا لينظمه، وفى ذلك دلالة على الرفق بهذا الحيوان الضعيف وتوجيهه بأقل ما يكون من توجيه من غير ضرب ولا رجز، ولذا كان النبيون يُعَوِّدُونَ الرفق برعاية الغنم، فهذا نبي الله موسى قبل أن يبعثه الله رسولا نزرعه من قصور فرعون إلى رعاية الغنم، وهو القوى الذى وكز الرجل من آل فرعون ففضى عليه، فكان لابد أن يذوق الفقر ويتعود الرفق فى رعى الغنم. والأمر



الثالث الذى أشار إليه هو قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى﴾ والمآرب جمع مأربة بضم الراء وكسرهما وفتحها، وهى الحوائج والمنافع، وقال ﴿أُخْرَى﴾؛ لأن جمع ما لا يعقل يكون بالمفرد المؤنث كقوله تعالى: ﴿... يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ...﴾ (١٠) ﴿[سبأ]، فقد خوطبت الجبال بالمفرد المؤنث، وقد روى عن ابن عباس أنه عدَّ هذه المآرب فقال: «إذا انتهيت إلى رأس بئر فقصر الرِّشَا وصَلَّتْهُ بالعصا، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها فى الأرض، وألقيت عليها ما يظلنى، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيت ألقىتها على عاتقى، وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة، وأقاتل بها السباع عن الغنم».

وقد أفاض الرسول فى الرد بعض الإفاضة باتجاهه إلى بيان منافعها فبدل أن يقول فى ماهيتها: عود من شجرة، ليستأنس بكلام ربه فهو كلام العلى الأعلى.

وكانت هذه العصا بعد ذلك أداة ظاهرة للمعجزات فيها ضرب البحر فافترق، وكان كل فرق كالطود العظيم، وضرب الحجر فانبعثت منه اثنا عشرة عينا.

ذكر موسى لربه ما يستفيع به من العصا، فصلَّ ما فصلَّ، وأجمل ما أجمل، وقد نبهه الله تعالى إلى منفعة للعصا فوق كل ما ذكر؛ لأنها تكون ليست لغيره، وقد نبهه ربه إلى الإعجاز فيها فقال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ الضمير يعود إلى العصا أى ألق ذات العصا التى بيدك، وهى العود من الخشب، فانظر كيف ينقلب ذلك العود إلى مخلوق آخر، وفى ندائه عند الإلقاء بكلمة ﴿يَا مُوسَى﴾ إثناء إليه وتحبيب له وتقريب، ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (٢٠) الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ يعود إلى العصا التى هى عود من شجر والتى كانت منها المنافع التى ذكرها عليه السلام، ولها تلك الخواص الخشبية تنقلب حية تسعى، أى تكون من لحم يتلوى يمينا وشمالا بعد أن كانت خشبا يتوكأ عليه وله فيها مآرب أخرى وحاجات تكون من الخشب لامن حية، و«الفاء» و«إذا» للمفاجأة، وكانت المفاجأة فى أنها تحولت من خشب جامد إلى حى متحرك، والحية هى الثعبان، ولكن لا يقال لها ثعبان إلا إذا كانت كبيرة، ويقال لها جانّ، وهو الرفيع السريع الحركة من الحيات، وقد جاء فى عبارة

القرآن عن حية موسى التعبيرات الثلاثة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (١٠٧) [الأعراف] وقال تعالى: ﴿... فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ...﴾ (٢١) [القصص] ويظهر أنها كانت تكون على حسب المقامات، فعندما التقى بسحرة فرعون كانت ثعبانا كبيرا يلقف ما يأفكون، ويظهر أن المفاجأة التي اعترت موسى عليه السلام إنما هي من انقلاب الحشب الجامد إلى حية تسعى، والسعى هو المشى السريع، ومن ذلك السعى بين الصفا والمروة، فكانت المفاجأة من الانقلاب حية، وأنها تسير سيرا سريعا شديدا، ويظهر أنه من فرط المفاجأة ولّى مدبرا ولم يعقب، كما قال تعالى في آية أخرى قد تلوناها من قبل، وقد ناداه ربه ﴿... يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ...﴾ (٢١) [القصص]، وهنا قال له تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (٢٢).

ما كان لموسى وهو مضطرب بسبب المفاجأة، لهذا الانقلاب أن يمد يده إليها ليأخذها إلا بعد الاطمئنان، وقرار النفس، ولذا قرن سبحانه وتعالى الأمر بأخذها بالتهى عن الخوف لتقر نفسه وتطمئن، وبين له أن ما أزعجك من الانقلاب زائل، ولذا قال عز من قائل: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾، حيث كنت تستخدمها في التوكؤ عليها والهش على غنمك والمآرب الأخرى التي كنت تتنفع بها، والسيرة اسم هيئة على وزن «فِعْلَةٌ» بكسر الفاء، أى سنعيدها على الهيئة التي كنت تستخدمها فيها قارا مطمئنا، وقد ذكر الزمخشري ثلاثة وجوه «سيرة» أولها أنها ظرف، وثانيها أنها مفعول ثانٍ لـ «أعاد»؛ لأن عاد أصلها متعدية بنفسها من قولهم عاد المريض يعوده، فإذا جاءت همزة التعدية صار يتعدى لمفعولين، والثالث وهو الذى رجحه وقد ذكره بقوله: «وجه ثالث حسن وهو أن ﴿سَنُعِيدُهَا﴾، مستقلا بنفسه غير متعلق بـ ﴿سِيرَتَهَا﴾ بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصى، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشئت أولا، ونصب ﴿سِيرَتَهَا﴾ بفعل مضمر أى تسير سيرتها الأولى»، جملة هذا ما قاله الزمخشري وما كان لنا أن نسير فى هذا التوجيه الإعرابى، ولتمام القول فيه أنه على هذا الإعراب الأخير تكون ﴿سِيرَتَهَا﴾ مع الفعل المحذوف جملة حالية، وقبل أن نترك القول فى الآية الكريمة نقول: إن «سيرة» فعل

هيئة من سار، وهى تطلق ابتداء على السير الحسى وهو هنا قريب من ذلك، ثم أطلقت على المعنويات فقول: سيرة فلان. أى: مسلكه فى الحياة، وقيل: سيرة النبیین، ثم أطلقت على المذهب والطريقة.

سلح الله - تعالى - رسوله وكليمه موسى بالأسلحة التى يدرع بها لإقناع طاغية الدنيا فى عصره بنبوته، فأتى له بآية أخرى إيناسا لموسى وليطمئن فى لقائه بهذا الطاغية بأن الله تعالى معه، فلا يخاف، ولا يضطرب عند لقائه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ (٢٣).

«الجناح» هنا الجانب، وهو تشبيه جانبى الإنسان بجناح الطير لأنهما محسوسان فى جانبيه، وسمى جناحى الطائر بذلك لأنهما يطويان عند الطير، ويميلان على جنبيه، والجناح الميل، وضم اليدين إلى الجانبين معناه وضع اليدين تحت الإبطين، وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ والفعل مجزوم على جواب الأمر، وهما لا يخرجان من تلقاء أنفسهما، بل يخرجهما موسى بإرادة الله تعالى، فليس الضم سبب الخروج، ولكنه شرطه. والسوء ما يسوء الإنسان عند النظر إليه، ولذا أطلق على العورة السوءة، قال الله تعالى عندما أكل آدم وحواء من الشجرة: ﴿... قَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ...﴾ (١٦٦) [طه].

وقالوا: كنى بهذا عن البرص، أى تخرج اليدان بيضاوان من غير ذلك المرض الذى يسوء النظر إليه، ويقول الزمخشري فى ذلك: إن قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ كناية عن البرص، كما كنى عن العورة بالسوءة، والبرص أبغض شئ إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مجأجة، فكان جديرا بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا ألطف، ولا أخرى للمفاصل من كناية القرآن وآدابه.

وإن ذلك كلام قيم فى ذاته، ولكن ذكر البرص فى القرآن الكريم، فلقد ذكر سبحانه وتعالى فى معجزات عيسى فقال تعالى: ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ (١١١) [المائدة] ولقد قال تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ لتبين أن البياض

إشراق وضياء منزهة عن أى مرض، فهو مدح للبياض، وهذه آية أخرى غير آية العصا، ولذا قال تعالى: ﴿آيَةٌ أُخْرَى﴾ والنصب لفعل محذوف مناسب للنص تقديره مثلا: أعطيناك آية أخرى لتذهب إلى من تُرسل إليه مسلحا بالحجة بحيث لا يمارى فيها إلا جاهل أو متجاهل ممن يستيقنون بالآيات، ولكن يجحدونها، وسترى فرعون من هذا النوع.

وإن الله تعالى قد أعطاه فى لقائه الأول آيتين حسيّتين قاطعتين فى إثبات خطاب الله تعالى، وأشار سبحانه وتعالى إلى أنه سيزوده بكل آية ليتمكن من الوقوف أمام فرعون غير هيّاب، ومتحملا لكل ما ينزل به من شدائد أمام طاغوته وجبروته، ولذا قال سبحانه: ﴿لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٣).

«اللام» لام التعليل، وهى متعلقة بفعل محذوف تقديره مثلا: جعلنا لك هاتين الآيتين لنريك من آياتنا الكبرى، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أى لنريك بعض آياتنا الكبرى التى تجابه بها فرعون الطاغى، وإن الله تعالى ممدك بعون من عنده ومزودك بكل الآيات التى تقسيم بها الحق على فرعون، وكان ذلك تأييدا، ولإعطاء موسى الكليم قوة يحتمل بها طاغوت فرعون، ويكون حمولا صابرا يتلقى أذاه بقلب الصابر الحليم المحسّ إحساسا كاملا بأن الله مؤيده، ومعه الحجة والبرهان، وهما سلطان الأنبياء، بعد ذلك التأييد والإشعار بأن الله من ورائه، وسلطانه فوق سلطان الجبابرة، قال له ربه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٢٤) وإن ما سبق من الآيات كان مقدمة، وهذا التكليف نتيجته اذهب إلى فرعون داعيا هاديا مرشدا مقاوما لظلمه بالحجة والبرهان، ولم يذكر ما يدعو إليه، اكتفاء بوصفه الذى وصفه تعالى به. ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى أنه تجاوز الحد، وهذا يتضمن أنه ظلم الناس فقال لهم: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، وذلك حَجَرٌ على العقول أن تفكر وترى، وطفى فظلم العباد وأكل أموالهم وحقوقهم، وطفى فلم يحسب للناس وجودا إلا بوجوده، وطفى وبغى فحسب نفسه إلها، وأمر المصريين أن يعبدوه فعبدوه، وقال لهم، ليس لكم من الله غيرى، وطفى وبغى فحسب أن البلاد ملكه، وقال طاغيا:

ليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي . أرسل الله تعالى إليه موسى فكان العبء كبيرا .

موسى وهارون

قَالَ

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ
لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿٣٦﴾

استجاب موسى لله الذى أكرمه بالكلام معه، ولكنه أحس بالعبء الذى سيحمله، وإذا كان الله العزيز الكريم قد أمدّه بالآيات الدالة على الرسالة فهو فى نفسه طلب من الله تعالى أن يمدّه فى شخصه بالمعونة، وبأن يعطيه من ينصره ويؤيده، وإن العاقل الصافى النفس يعرف عيوبه من غير أن يعرفه غيره، ولقد أحس موسى عليه السلام بأنه يضيق صدره أحيانا وبأن الأمر الذى بعثه الله به خطير عسير ليس ييسير، وأنه ليس فصيح اللسان بحيث يفقه الناس قوله، وبأنه يحتاج إلى من يؤازره، ولذا طلب أمورا أربعة ليسهل عليه التكليف الذى كلفه الله تعالى إياه، فطلب أمورا أربعة:

أولها- قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿٢٥﴾ شرح الصدر توسعته حسا، وما طلب توسعته حسا، إنما طلب أن يكون عنده قدرة على احتمال الرأى الذى يخالفه، والا يكون صدره ضيقا حرجا بمن يخالفه، بل تكون عنده أناة الصابرين،

وإن موسى كان يضيق ذرعا بكل من يخالفه: ولعل ذلك لأنه نشأ وغما في قوم مقهورين يُقتل أبناؤهم، وتُستحيا نساؤهم، ومن التربية الأولى في بيت فرعون، ولأنه كان يحس بأنه وقومه مظلومون، ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص].

ونفس موسى الكليم الشفافة أدركت عيوبها فطلب من ربه أن يبرئه منها علما أنه سيلقى من فرعون عنتا، ولابد أن يلقاه بقلب قوى غير ضجر، ولا سائم، ليتحمل ما حمله، فطلب أن يشرح صدره بجعله قادرا على احتمال المخالفة، بل المعاندة والمهاترة فقال: ﴿رَبِّ اشرحْ لِي صَدْرِي﴾.

الأمر الثاني - أنه أحس بأنه مقدم على أمر خطير جسيم ليس هيئا لنا، هو مجابهة فرعون جبار الدنيا، وطاغية عصره، فطلب أن يسهل أمره معه فقال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ﴿٢١﴾، أى اجعل الأمور ميسرة أمامي، وإضافة الأمر إليه أى الأمر الذى كلفتني، وهو لقاء فرعون فإن كان الطلب الأول خاصا بشخصه، فالثانى خاص برسائله التى حملها، وكلفه الله إياها. وقد اتجه من بعد ذلك إلى الأداة التى يكون بها التبليغ، هو اللسان، ولذا كان الطلب الثالث وهو الذى عبر عنه بقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ ﴿٢٨﴾ العقدة ألا ينطلق اللسان بالقول الفصيح الصحيح، ويقول أكثر المفسرين إنه كان فى لسان موسى رنه، وقد وصفه فرعون مستهينا به مستكرا أن يكون هو الرسول عن الله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿٥٧﴾ [الزخرف] وقد طلب موسى طلبا يسيرا أن يحل عقدة قائمة من لسانه،

وفى هذا الكلام تشبيه لحال من لا يحسن القول بحال من يكون فيه عقدة تمنعه من الانطلاق، وقوله تعالى عنه: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، أى يعلموه ويفهموه فهما دقيقا، يصل إلى لبابه ومقصده ومرماه وغايته، يقال: فقه القول أى أدركه إدراكا مستقيما، و﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ مجزوم فى جواب الأمر، أى أن حل العقدة لغاية وهو أن يفقهوا قولى ويدركوا معناه.

المطلب الرابع الذى طالب به ربه أن يكون معه أخوه هارون ردا له ليكونا معا أمام فرعون جبار الأرض فى زمانه، وقد قال فى ذلك: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤).

الوزير: المعاون، وهو من الوزر بمعنى أنه يحمل أوزار الأمر معه، أو من الوزر - بفتح الواو والزاي - بمعنى الملجأ، وهو بمعنى أنه يلجأ إليه فى المللمات، أو من الموازنة بمعنى المعاونة، والوزير الصادق المخلص فيه هذه المعانى كلها فهو يحمل التبعات، وهو ملجأ فى المللمات، وهو معاون عندما تشتد الأمور وتدلهم، يعين برأيه وتدبيره.

وقد ذكر أن يكون الوزير من أهله، وعين وزيره بالذات وهو أخوه هارون، وقد ابتدأ بذكر الوزير مطلقا، ثم خصه أن يكون من أهله، ثم خصه أخيرا بأن عينه بالذات، ولقد قال فى سورة القصص: ﴿وَأَخِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) [القصص].

وقد طلب موسى عليه السلام فيما يتعلق بأخيه أمرين، أولهما: أنه يشد أزره وهو الظهر، وهو كناية عن أنه يكون قوة له، كما قال فى آية القصص يكون ردا، وثانيهما: قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢)، أى اجعله شريكا لى فى حمل أعباء الرسالة وواجباتها وللتلقى بفرعون مجتمعين غير منفردين، ولعله طالب بأن يكون

معه أخوه هارون، لأنه ليس لفرعون يد عليه، أما موسى فقد رباه فرعون وغيره بذلك، فقال: ﴿... أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] وأنه وإن كان ذلك لا يمس مقام الرسالة فإن هرون ليس لفرعون عليه حق الترية الذى ادعاه فرعون. وإن هذا التآزر الذى دعا موسى ربه أن يجيبه ذكر نتيجته وأولى ثمراته، وهو كثرة التسييح لله تعالى وذكره، أى نسبحك ونقدسك تقديسا كثيرا ونذكرك فى أنفسنا كثيرا، إذ نكون قوة نجهر بتقديسك وذكرك، ويكون معنا من بنى إسرائيل من يسبحك كثيرا، ويذكرك ذكرا كثيرا ويشيع ذكرك فى أرض الفراعنة الذين استبد بهم فرعون فمنع كل الناس من أن يذكروا غير اسمه، وإنك أنت علام الغيوب وأعلم بنا من أنفسنا، ولذا قال عليه السلام: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٢٥)﴾، أى عالما علم من يبصر لا يخفى عليك شئ فى الأرض ولا فى السماء، أجاب الله مطالب موسى الأربعة وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٢٦)﴾.

قال الله تعالى مخاطبا نبيه وكليمه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٢٦)﴾ السؤل بمعنى المستؤل، كالخبز بمعنى المخبوز، والأكل بمعنى المأكول، و﴿أُوتِيتَ﴾ معناه أعطيته، وصار بين يدك ما طلبت، وذلك فى نظرنا أبلغ من أجبت؟ لأن الإجابة قد تكون بالقول، ويتحقق مدلولها بعد، إذ الإجابة لا تقتضى التحقق، بل إنها ربما تكون بينها وبين التحقيق زمن، والمجيب ليس بمخلفه، وإنه بنداؤه سبحانه بالاسم تقريب وإدناء، وإلقاء بالمودة التى لم يحرم منها كليم الله طول حياته، ولئلا يقضى عليه أمر بنى إسرائيل أمدته الله تعالى بكل أسباب الصلاح، ولكنهم كانوا قد مردوا على الذل، ومرضت قلوبهم بالنفاق كما رباهم فرعون على الخنوع الدليل، ولم يجد فيهم من يجيئهم بالرشاد والموعظة الحسنة والولاية الهادية الرشيدة.

ولادته وكفالاته

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٢٧﴾

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٢٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ
فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَالْقَيْتُ
عَلَيْكَ مُحِبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٢٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا
فَلَمِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى ﴿٤٠﴾
وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِثَأْنِي وَلَا نُنَيَا
فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾

كلام لموسى عليه السلام، وكانت تلك المجاورة الرحيمة من الله والمحبة لموسى من وقت أن آتس من جانب الطور نارا وذهب إليها ليأتى لأهله منها بقبس أو يجد على النار هدى، وقد من الله على موسى بأن آتاه سؤله، وذكر موسى بأنه كانت كلاءته الكريمة من وقت أن ولد، ولذا قلل له: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿٢٧﴾ فليست هذه أول ما مننا به عليك، فقد من عليك بمن كثيرة من قبل، وإذا كانت هذه منة تسهيل الرسالة، وتبليغها عليك، فقد مننت عليك بالكفالة والمحبة من وقت ولادتك إلى أن لقيتنى عند الشجرة، ونبتدئ فنلخص هذه المنن الكريمة:

أولها: عند ولادتك فإن أمك الرعوم^(١) خشيت عليك من فرعون الطاغية الذى كان يذبح أبناء بنى إسرائيل، ويستحيى نساءهم ليكونوا خدما فى البيوت أو

(١) الرعوم: المحبة، من رام: رَكَمَتِ الناقةَ ولَدَهَا رِثْمَانًا، إِذَا أَحَبَّتْ. الصحاح للجوهري - فصل الراء.

إماء، وقد قال تعالى فى إنجائه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٢٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي (٢٩)﴾ من كثيرة فى مئة واحدة، وهى إنقاذه من سكين فرعون الظالم القاسى الذى حاول الظالمون القساة أن يقلدوه فى ظلمه لمخالفه، وطغيانه عليهم من غير رحمة أو رافة إنسانية، وقد رأينا ذلك وعيانه فى طاغية كان دون فرعون شأنا ولكنه كان أشد منه غلظة فما رأينا من فرعون فى معاملته لبنى إسرائيل بحسبان أنهم ليسوا من بنى جلدته، وغلظة هذا أشد فى أنه كان يفعله مع بنى جلدته، وهو ظلم وفحش فيه فى الحالين، وإن كانت إحداهما أشد وأغلظ. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٢٨)﴾ «إذ» ظرف للزمن الماضى، وهى متعلقة بـ ﴿مِنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾، و﴿أَوْحَيْنَا﴾ أى بالإلهام أو بالمنام بالرؤيا الصادقة، وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحي وقوله: ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ أى الأمر الذى من شأنه ألا يعلم إلا بالوحي؛ لأنه من الغيب الذى لا يعلم إلا من قبل الله تعالى. كما قال تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ... (٢٧)﴾

[الجن] وقد تعلققت بهذا الوحي مصلحة دينية، وعدل أرضى، أما المصلحة الدينية فهى نجاة من كتب الله تعالى فى غيبه المكنون أن يكون نبيا وكليما ومن المصطفين الأخيار، وأما إقامة العدل الأرضى فهو كف فرعون عن بنى إسرائيل الذى كان يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم، وإن الله يرسل فى الأرض من ينجى عباده من ظلم الظالمين، وفساد والمفسدين.

﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ

لَّهُ﴾ هذا بيان لما أوحى الله تعالى به إلى أم موسى، ويلاحظ أنه سبحانه وتعالى قال ﴿أُمِّكَ﴾ أى أمك الرعوم الشفيقة الرءوفة التى هى أشفق إنسان عليك، ولقوة الإلهام تركتك لا بغضا لك، ولكن محبة، وتركتك لا لتهلك، ولكن لتحيى. وإن فى قوله: ﴿أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أى كان مما أوحى به الأمر بقذفه، والقذف هو الإلقاء، كما قال تعالى: ﴿... وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ... (٢٦)﴾ [الأحزاب] ولا شك أن التعبير



بالقذف يفيد معنى الشدة فى الإلقاء وذلك للمعاناة النفسية التى كانت تعتلج فى قلب الأم الرعوم فكان التردد الشديد، ثم انتهى التردد بالإلقاء، وكأنها تقذف قطعة منها فى تابوت مغلق لا تدرى بالحس ما الله فاعل به .

ألقته فى التابوت بمعاناة نفسية، ثم ألقى التابوت الذى فيه موسى - قطعة نفسها - فى اليم وهى فى ألم مرير، والضمير فى قوله تعالى: ﴿أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ يعود على موسى بلا ريب وأما فى قوله: ﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ يحتمل أن يكون لموسى وأن يكون للتابوت، وفى كلتا الحالتين هى تقذفه وقلبها معلق به، والأوضح أن يكون لموسى، لقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ فالعداوة ليست للتابوت، وإنما هى لشخص الرسول الكريم.

ويلاحظ أن العطف كله بالفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب من غير تراخ زمني؛ ذلك لأن الأم الرعوم تريد المسارعة بنجاة ولدها الحبيب من الذبح، والإلقاء هو السبيل الوحيد أمامها، والله سبحانه وتعالى الذى ألهمها بإلهامه الذى هو وحى، ينقذه قبل أن يموت جوعاً أو تتقاذفه الرياح، يجعل سبحانه وتعالى بالنجاة فالفاء فى الساحل وقوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ مجزوم فى جواب الأمر، وعداوة فرعون لله تعالى واضحة وقت الإلقاء على الساحل، أما عداوة موسى لفرعون فستكون من القابل.

وقد عبر عن وجوده على الساحل بالإلقاء دون القذف؛ لأن القذف يكون من أعلى لأسفل ولأن الإلقاء لم يكن بمعاناة من الأم، بل كان برحمة من الله تعالى.

نجى موسى صغيراً من الذبح الذى كان يترقب كل مولود ذكر من بنى إسرائيل، ثم كانت الثانية وهى حفظه وكفالة أمه له، وأن يكون بين أحضانها وهذا هو المظهر الثانى لمنة الله تعالى فقد ألقى عليه تعالى محبة، فقال تعالى كلماته: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ ألقى الله تعالى عليه محبة منه سبحانه، والمحبة التى ألقاها تعالى ذات عناصر، أولها: أن الله تعالى أحبه، ومن أحبه الله تعالى كان

كريما على الناس، وثانيها: أن الناس بتوفيق الله وتوجيهه أحبوه، فكان محبيا منهم إذ زرع في قلوبهم محبته، وثالثها: أن الله تعالى فتح له القلوب المغلقة، ففتح له قلب فرعون المغلق، وفتح له قلب امرأته، فقالت: ﴿... قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا...﴾ (٩) [القصص] وكما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾ (٨) [القصص]، أى فى المال لا وقت الالتقاط، إذ إنهم فى وقت الالتقاط التقطوه ليكون قرة عين لفرعون وامرأته: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ ﴿لِتُصْنَعَ﴾ أى تترى تحت رقابتي وملاحظتي فلا تقهر، ولا تذلل بل تكون عزيزا كريما، ولتضمن التربية أن تكون تحت رقابة الله تعالى تعدت بـ «على»؛ لأن معنى هذه التعدية أن الله وقد مكن فرعون من تربيته والقيام على شئونه أشار سبحانه إلى أنه على رقابة له.

وإن فى الكلام استعارة تمثيلية، إذ شبه سبحانه وتعالى حال الرقابة على تربيته وصيانيته بحال من يصنع شيئا على مرآه ونظره، وبعض المفسرين قال: إن «على» هنا بمعنى «الباء»، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، «الواو» عاطفة على فعل محذوف تقديره لتنعم بمحبة الله والناس، ولتصنع على عين الله تعالى، وتحت رقابته ومحبته ورعايته سبحانه وتعالى. والمظهر الثالث لمثته الأخرى هو عودته إلى أمه ليتربى فى حضانتها رحمة به وبها؛ لأن أمه ما طابت نفسها بفراقه إلا لنجاته، ولأنها تريده لنفسها، كما تريد كل أم رءوم مُحبة، فرتب الله تعالى لها أن يعود إليها محفوظا مصونا فحرم الله تعالى عليه المراضع، وقد احتار من فى بيت فرعون فى أمره، وقد صار ملء قلوبهم جميعهم، ولكن الله تعالى أرسل إليهم.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾، أى من يقوم بحضانته ورضاعه لكم فتغذيه بلبن الرضاعة، ومن يحمل هم تربيته وخدمته، وبهذه الرعاية الربانية عاد إلى أمه كى تقر عينها برويته، ويذهب اضطراب نفسها على غيبته عنها، ويذهب اضطرابها وخوفها عليه.

وإنه في سورة القصص تفصيل لما أجمل هنا من غير تكرار، فقد ذكر سبحانه حال أمه بعد أن ألقته في البحر فقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٤﴾ [القصص].

وبذلك ترى أن ما أجمل هنا أو أشير إليه إشارة من غير بيان قد وضح هنالك في سورة القصص من غير تكرار، بل جزء سيق في موضعه من غير تكرار لفظ أو معنى.

المظهر للمنة الأخرى ذكره سبحانه وتعالى بقوله عز من قائل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أن الله تعالى قد نجاه من الغم الذي أصابه من قتله نفساً و﴿الْغَمِّ﴾ الحزن الذي يغمر النفس ويصيبها بما يشبه الغمة، وهنا نجد أن الله ذكر النفس ولم يذكر من أى قبيل هو، وفي ذلك إشارة إلى سبب الغم، وهو أنه قتل نفساً، وحسب ذلك موجبا للغم الذي يصيب بكرب شديد من نفس كنفس موسى الطاهرة التي صنعت على عين الله، ولقد قال موسى عندما قتلها: ﴿... قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمَجْرِمِينَ ١٧﴾ [القصص].

هذا هو الغم الذي أصابه بعد قتل النفس، وقد نجاه الله تعالى منه بأن غفر له سبحانه، وكانت هذه نعمة أنعم الله بها عليه، وعاهد الله تعالى ألا يكون ظهيراً للمجرمين.

وبعض المفسرين أو جلهم يقول: إن الغم الذي أصابه هو الخوف من القصاص، وربما يؤيد هذا قول الله تعالى عن موسى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا

يَتَرَقَّبُ... ﴿١٨﴾ [القصص]. وقد نقول: إن الغم كان من الأمرين، عن نفسه اللوامة التي أوجدت كمدا وغما، ومن الخوف من فرعون، أو من الناس وقد قتل منهم واحدا.

المظهر الخامس من منة الله على موسى الكليم عليه السلام عبر الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، أى اختبرناك اختبارا شديدا، و«فتون» مصدر كـ «شكور»، ويكون مصدر التوكيد الفتنة التي فتن الله تعالى موسى، ويصح أن تكون جمع فتن، أما أن الله تعالى أصابه بأنواع من الفتن، ففتنة الاحتياج، وفتنة الغربة، وفتنة العمل، وهو الذى كان مرفهًا مترفًا فى بيت فرعون.

ولكن كيف يكون فتنة الله تعالى له فتنونًا أو بأصناف الفتن مظهر المنة، أو منة؟ ونقول فى جوابنا عن ذلك: إن موسى عليه السلام تربى فى بيت فرعون، فأكفها فى نعيمه، وإن ذلك لا يكون منه نبى، بل لابد أن يعرك الحياة وتعركه، ويعيش بين من يستمع إلى أنبيهم، ولابد أن يتلى ليصل إلى مقام النبوة أو الإرهاص لها، وذلك بأن يفتن بالفتن ويختبر بالحرمان، وقد أدى موسى ذلك ونجح فى الاختبار، ولذلك عُدَّ مظهرًا من مظاهر المنة وأى منة أعظم من أن يهيئه الله تعالى للنبوة، ويخرج من دار فرعون ليجىء إليه نبيا رسولا ينذره بالندر، ويقدم له الآيات تترى آية بعد آية.

ثم قال تعالى مسبينا نتائج هذا الاختبار أنه سبحانه نقله من بيت فرعون إلى بيت رجل صالح، ومن أنه كان يأكل من ترف فرعون فى عيشة رخوة غير راضية، فانتقل إلى حياة عاملة كادحة بأجل من جهد مستمر مع شعيب، وقال تعالى: ﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهى من أرض سيناء على بعد ثمانى مراحل من مصر.

الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتُ﴾ عاطفة وهى للترتيب والتعقيب مع الإشارة إلى السببية فى الفاءات الثلاث، فكان قتل النفس سببا للغم، فنجَّاه الله تعالى منه ثم اختبره الله تعالى ليعده للنبوة، ثم استقر به المقام فى آل مدين عاملا كادحا، وصار ذا زوج طاهرة وبيت وأولاد يحمل أعباءهم. وبذلك قامت أصهار نبوته،



وكلام الله تعالى له: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَأْمُرُ﴾ العطف بـ «ثم» للدلالة على انتقاله من مكان إلى أعلى مكانة، وهى مكانة النبوة فى أعلى درجاتها، إذ كلمه الله تكليما، والقدر هو ما قدره الله تعالى لأن يكون رسولا نبيا كليما.

ولقد صرح الله تعالى بعظيم منزلته فقال تعالى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٤١)، أى اخترتك لتكون لنفسى، والاصطناع افتعال من الصنع، وهو اختياره بالصنع مشددا فى اختباره وهذا موضح بقوله: ﴿وَلِتَصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾، يقال: اصطنع الرجل فلانا لنفسه: جعله فى موضع التكريم عنده، وهذا فيه استعارة، إذ شبه اختيار الله تعالى له نبيا كليما بحال من يصطنعه الأمير لنفسه من الناس ليكون فى موضع الكرامة والشرف، وأى شرف أعلى من أن يكون كليمه، وأن يكلمه تكليما.

بعد هذا الاصطناع لموسى أمره سبحانه وأخاه بأن يقوموا بالعمل العظيم الخطير فقال: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢).

كان أول ما كلفا به أن يذهبا إلى فرعون يدعوانه إلى التوحيد، وعبادة الله تعالى وحده، ولقد زودهما بأمرين ذكرهما:

أولهما: الآيات الدالة على أن الله تعالى بعثهما، وذكر الآيات الدالة على أن الله وحده خالق السموات والأرض، وسرى أنهما ذكرا الآيات الدالة على وجود الله تعالى وخلقها.

والثانى: أن يذكرنا صفات الله تعالى الدالة على أنه وحده الإله الذى يعبد دون سواه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، أى لا تفترا ولا تقصرا فى ذكرى بصفات الكمال والجلال.

وقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِي﴾، أى تصحبكما آياتى، أو معكما آياتى، والعناية بذكر الله تعالى لفرعون؛ لأن فرعون وقومه ما كانوا يعرفون الله كالعرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يعرفون الله وأنه خالق السموات والأرض الذى يلجأ إليه فى الشدائد ويستغيثون به فى الحال التى توجب الاستغاثة.

أما قوم فرعون فما كانوا يعرفون، وكانوا يعبدون الشمس ومظاهر الحياة، فاحتاجوا إلى التعريف بالله سبحانه وتعالى.

الرسالة والتبليغ

أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّتِنَا
لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ لَا رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا
أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ
الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَّىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٢﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَاسْلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُّوا
وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنِّي فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

أمرهما الله تعالى بالأمر القاطع، بأن يذهبا إلى فرعون، كما أمر محمداً ﷺ من بعد أن يصدع بأمر ربه فقال له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) [الحجر].

فقال لهما سبحانه: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) وقد أشرنا إلى نواحي طغيانه في قوله لموسى منفردا ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ...﴾ (٢٤) وفي هذه الآية مخاطبه وأخاه هارون إجابة لطلبه، فقال: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣)، وقد طلب منهما أن يترفقا في القول معه، فقال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٤٤) والقول اللين لا يكون بالملق أو الإدهان أو المواراة، فإن هذه أمور تتجافى مع الحق إلا بالقول الحق، وما كانت رسالة موسى وأخيه إلا الحق وطلب الحق، ولا يطلب الحق إلا بالقول الحق، وإنما لين القول يكون باللين والرفق، حتى لا يُصدم في أمره بالجفوة، ويبان أن الحق يزكى نفسه، ويرفع نفسه فوق ما هي فيه، كأن يقولوا له: هل لك إلى أن تزكي؟ لأن ظاهر القول التساؤل والاستفهام، وأن يتبع الأمر باختياره لا بطلب من أحد، ومن القول اللين ألا يجافيه وأن يخاطبه بما لا يمسّ سلطانه، فإن طواغيت الدنيا لا يجدون شيئا أعز عليهم من سلطانهم في الأرض، فيُصابون في حسهم إذا مُسّ ولو من بعيد، وإن قول موسى قولاً لينا لفرعون يتفق مع أصل التبليغ الصحيح الذي يقتضى اللين في القول، كما قال تعالى مخاطباً محمداً ﷺ: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِيَ لَّهُمْ وَرَأْسُكَ فَهِيَ أَفْضَلُ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّكَ فِي الْبَصَرِ﴾ (١٠٩) [آل عمران]، وإن اللطف فى الدعوة من موسى لفرعون يقتضى الرفق فى القول؛ لأنه ربّاه صغيراً ورعاه، وكانت له به محبة فكان له مثل حق الأبوة، وقد عتب فرعون على موسى حتى هذه الدعوة الرقيقة، وقال له: ﴿... أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أى أن القول يكون معه رجاء الإجابة، فالرجاء منهما لا من الله تعالى، وإن القول اللين ينساب فى النفس كما ينساب النмир العذب فيحیی مواتها، وتثمر ثمراتها، والقول الجافى يصدّها صدّاً، وإن القول اللين يتبعه التأمل والتفكر، ولذا قال: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾، أى يبعث فى الفطرة السليمة الخالية من عنجهية الحكم وطغيانه فيتذكر ضعف الإنسان مهما يكن طغيانه، أمام

قدرة الله تعالى القهار، أو لعل القول اللين يجعله يحس بضعفه أمام قدرة الله تعالى فيخشى بطش الجبار الذى فوق بطشه، وقدرته فوق قدرته، وقهره فوق قهره.

بعد هذا الأمر الصاع الذى لا مثوية فيه استجابا ولكن الحذر لا يفتر بقوته، ولذا قال الله عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ ۝٤٥﴾.

ابتداء كلامهما بالالتجاء إلى الله الذى فوق كل جبار فى الأرض، ولو كان فرعون، قائلين ﴿رَبَّنَا﴾ أى الذى خلقنا وربنا ويعرف ما عندنا من قدرة، وما عنده من طغيان ومدى ما نستطيعه معه، ومدى مسارعته إلى الشر، وعدم تردده فيه.

﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ﴾ والفرط التقدم بالأذى والمسارعة إليه، فالفارط المتقدم السباق، ويقال فرس فارط، أى سابق الأفراس المسابقة، وبذلك يعاجلنا بالإهلاك أو الأذى قبل أن نرشده إلى رسالتك بلين القول أو جفائه ﴿أَوْ أَنْ يَطْفِئَ﴾ إذا سمع ولم يعجل بالإهلاك فيقول فى طغوانه ما لا يليق بمقامه الأعلى، أو يذهب به جبروته إلى منعنا من الدعوة وتضييق سبلها، أو ينزل بنا عقابا لا يمكننا من الاستمرار فى الدعوة، وفى الجملة يتبع معنا طرائق طغيانه من تعذيب وإيذاء مستمر، فطغيانه لا حد له، كما تعلم: قال الله تعالى لهما: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ۝٤٦﴾.

خاطبهما الله تعالى بعزته وجلاله مشيرا إلى أنهما فى حمايته وكلاءته، وأنه يسمع ويصير، فكيف يكون نهى عن الخوف، والنهى عن الخوف كيف يكون وهو فزع من الأمر المخوف إذ هو أمر نفسى لا يقع تحت قبضة الخائف؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن المراد الأمر بالاطمئنان وقرار النفس، وأن يشعرا بجلال الله تعالى، وأنه معهما، ولذلك أعقب سبحانه وتعالى النهى عن الخوف بأنهما فى معية الله تعالى فقال: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أى إننى فى صحبتكما أسمع قوله إذا هدد وأنذر، وأبصر فعله إن حاول سوءا أو أنزل بكما أذى، وإن هذا تبشير بأنه إن حاول أن يبطش بهما نزلت به البطشة الكبرى من رب العالمين.



ولقد كان من موجبات الفطرة أن يعتريهما الخوف، فقد كان جبارا فى الأرض ليس فوقه فى قومه من يرد كيده، ويزيل طغيانه.

اطمأنا إلى قول الله تعالى، وما كان لهما إلا أن يطمئنا بنصرته وتدييره، ونجاتهما من فرط فرعون وطغيانه، ولذا قال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧)﴾.

«الفاء» هنا «فاء الإفصاح» تفصح عن شرط مقدر تقديره: إن ذهب الخوف، واطمأنتما إلى الله ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ فاذهبا إليه، والتعبير بآتيانه يفيد أنهما مدرعان بقوة الله التى ترهب كل مخلوق، ولو كان فرعون طاغية الأرض ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ذكرت رسالتهما معا مكاثرة عليه ومغالبة، ولأنهما رسولا رب العالمين أحدهما بالأصالة والثانى بالمؤازرة والمعاونة، لقد أعطاهما الله تعالى قوة بعد ضعف وأما بعد خوف فأمره ونهيه، وهو الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى، أمره فقالا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ والأمر والنهى يتعلق بسلطانه وقوته وبطشه فهو عيس صميم جبروته ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وتخل عن حكمهم وأخرجهم عن طاعتك وجبروتك وطغيانك ﴿وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ وكان - عليه اللعنة - يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ويكلفهم بأشق الأعمال من حفر الترع وحمل الطوب والآجر والأحجار فى بناء الأبنية الكبيرة مع الإذلال والاستهانة والعنت الشديد، فجمع لهم عذاب الأجسام وإرهاقها، وعذاب الأنفس بإذلالها، وإذاقتهم عذاب الهوان، فكان كلامهما محاربة لطغيانه، ومواجهة له فى قوته وجبروته.

و«الفاء» فى قوله: ﴿فَقُولَا﴾ عاطفة للترتيب والتعقيب من غير تراخ، فبمجرد أن أتياه جابهاه بالقول المر الذى لم يسمعه أبدا، ولكنهما أسمعاه له بقوة الله تعالى وقدرته، وبما ألقاه تعالى فى قلوبهما من قوة الحق الذى جهرا به، ولقد رجعا إلى الله تعالى فى آياته البينة التى تدل على رسالتهما، فقالا: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وهنا انتقل الموقف بهما من خائفين إلى مرهبين، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ﴾ أى جئناك مجابهين مسلحين بآية ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ الذى خلقك ورباك وأعطاك هذا السلطان

والجبروت اختبارا لنفسك، وكل فعل وقول محتسب عليك، وختما قولهما بإلقاء الأمن بعد الإرهاب المفزع له، ولو كان فرعون مصر، فقالا: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى﴾، أى إن الأمن والاطمئنان والدعة وعدم الانزعاج يكون لمن اتبع الهدى، فإن لم تتبع الهدى فلا أمن ولا اطمئنان، بل انزعاج وعدم استقرار، وإرهاب من الله، ولو كنت فرعون، ووحد الآية وهما اثنتان؛ لأن المراد ما به البرهان على الرسالة وواحدة كافية.

أخذا يخاطبانه بالرسالة التى بعثا بها، فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٤٨)، أى أن الرسالة التى بعثنا بها وأوحى إلينا من الله معناها ولبها ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ وأعرض موليا الداعى بوجهه نائيا بجانبه عنه، وهنا إشارتان: إحداهما أن موسى عليه السلام كان ربه يكلمه ويوحى إليه، والثانية: أنهما ابتداء الدعوة بالجزء المخوف منها، وهو العذاب لمن تولى وأعرض ونأى بجانبه عن الدعوة؛ وذلك لأن الجبارة يرهبهم الأمر المغيب عنهم ويفزعهم فيحاولون من بعد إرهابهم الاستماع إلى القول، وإن كانت عاقبة الاستماع فى الاستجابة غير محققة، فالشر ينازع نفوسهم، ويقاوم الخير، فأيهما غلب كانت العاقبة له.

وقد أكد سبحانه الوحي وموضوعه بـ «قد»، و«أن». ولقد كان ذلك الترهيب له أثره فقد اتجه إلى الاستفهام والتعرف...

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ (٤٩) كان الخطاب لهما ولكن اختص موسى بالذكر؛ لأنه المتكلم باسمهما، فما كانا يتكلمان معا، بل كان يتكلم موسى ويوافقه هارون؛ لأن هذا وزير، وذاك الرسول المبعوث، ولأنه كان يأنس موسى؛ لأنه تربى فى كفالته، ورعايته، وهو قريب إلى نفسه مع ما بينهما من بعد بالهداية فى موسى، والكبرياء الضال فى فرعون، وقال الزمخشري: لأنه كان يعلم رثة لسانه ويريد أن يحرجه فى البيان، ويستدل على ذلك بقوله عندما احتدم الخلاف: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ

هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ [الزخرف]، على أى حال مهما يكن السبب اختص موسى بالنداء وعمم خطابهما.

قال: ﴿فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾، أى إذا لم أكن ربكما الأعلى فمن ربكما، فاللقاء واقعة فى جواب شرط مقدر.

أجابه موسى لأن النداء وجه إليه فتعين أن يكون المجيب:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ ﴿رَبُّنَا﴾ الذى خلقنا وربنا الذى قام على شئوننا، وسير أمورنا هو ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾، أى صورته وحاله التى تناسب ما عهد به إليه فهو أعطى كل شىء وجوده وهياً لما أنشأه لأجله، ولقد قال فى ذلك الإمام الزمخشري: «أى أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة به، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد، والرجل واللسان كل واحد مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة». والمعنى أنه أعطى كل موجود الصورة التى اختارها سبحانه وتعالى له، وهياً كل ما فيه من قوى لما أعده الله سبحانه وتعالى له، فكل قوى الإنسان والحيوان صورته الله سبحانه لكى يودى عمله الذى خلقه الله تعالى له، ثم بعد هذا الخلق تكون الهداية العامة فى الحياة وفى الخير وفى الشر، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وكان العطف بـ «ثم» فيه دلالة على البعد بين أصل الخلق والتصوير، وأداء كل عضو مهمته فى الحياة وإدراك معانيها، و﴿هَدَىٰ﴾ أى هدى كل عضو صورة لأداء المنفعة التى خلق لها فهديت العين إلى معرفة الأشياء بالبصر، وهديت الأذن لمعرفة كل ما يعلم عن طريق السماع، وهدى العقل الإنسانى إلى إدراك الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿٥٤﴾﴾ [البلد]، وكما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٥٥﴾﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٥٦﴾﴾ [الشمس].

اتجه فرعون إلى سؤال آخر فقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ فأجابه موسى الحكيم الكليم: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٨﴾﴾.

قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾، أى حالها ومآلها، وما صنع بها، و«الفاء» هنا للإفصاح، والسؤال قال بعض المفسرين: ليصرفه عن الحديث عن الله تعالى، وهو لا يريد السماع عن إله غيره. وإنى أرى أن السؤال كان عن أمر ديني عند المصريين القدماء، إذ إن الديانة المصرية كانت تؤمن بالبعث، ولذا عنوا بالتحنيط لتبقى الأجسام كما هى، وتبعث كما هى، ولهم فى ذلك أقوال بيّنة، حتى إن الكتاب المقدس لديهم هو «كتاب الموتى» يضعونه فى قبر الميت الذى يموت، وهو كتاب يشتمل على فضائل الأخلاق، وعلى ما تلقنه الروح لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب فى اليوم الآخر عندهم، وهو يعدّ الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين، ويتعبدون بقراءته أحياء ويوضع فى قبورهم عند موتهم.

وعلى ذلك إن سؤال فرعون لموسى عن حال القرون أى الأجيال، سؤال نابع من مذهبهم فى الموتى، وإذا كان العرب يفضلون المصريين بأنهم فى جاهليتهم كانوا يعرفون الله الخالق المنزه عن المشابهة للحوادث، ولكنهم يعبدون الأوثان معه، فالمصريون القدماء عرفوا البعث والحساب، الأمر الذى كان يجهله العرب ويقولون: ﴿... أَثَدًا كُنَّا تُرَابًا أَثْنًا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ...﴾ [الرعد].

أجاب فرعون إجابة المفوض أموره لله تعالى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

أى إن علم حال الأموات بعد موتهم مسجل فى كتاب، وهذا تشبيه علم الله تعالى الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها بالعلم المسجل فى كتاب، وإذا كان كالعلم المسجل فإنه ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أى لا يخطئ ولا ينسى؛ لأن المسجل لا يمكن أن يكون فيه خطأ ولا يمكن أن يعروه النسيان.

تعجل فرعون بعد أن ذكر له أن العذاب على من كذب وتولى، فأخذ يسأل متعرجا بعد أن كان لا ينزل إلى التعرف حاسبا أنه الإله الأعلى كما عبر عن نفسه، فسأل ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ فأجابه إجابة مختصرة مفيدة؛ لأنها جامعة لمعنى الخلق فاعترض بقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ صارفا القول، أو متعجلا فى تعرف حال

الأموات الذين كان أمرهم بهم المصيرين لإيمانهم بأنهم يبعثون كما أشرنا، فكان ذلك الاعتراض شاغلا موسى عن أن يتم التعريف بربه، ثم استأنف ذلك التعريف، فقال كما حكى الله تعالى عنه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ (٥٣).

وقد ذكر موسى الكليم من قدرة الله تعالى ما يتصل بفرعون وأرض مصر، فأرض مصر منبسطة هو واد بين جبلين، وعيشها ميسور سهل، وهى أرض زراعية يجرى نيلها مسوطا فى ديارها من جنوبها إلى شمالها ممهدة ليست وعرة، فقال بوحي من ربه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أى ممهدة ليننة سهلة ليست وعرة متعثرة بالأحجار، فهى لأهلها الذين يعيشون فكهين فى نعيمها، كما يعيش الطفل فى مهده، وهذا كناية عن الراحة والاستقرار، ثم بين سبحانه تسهيل الانتقال فيها من مكان إلى مكان فى عيشة راضية ﴿وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ والمعنى خطها خطوطا، وأنشأ فيها سبلا، أى طرقا مختلفة مسلوكة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٦) [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) [نوح]، وإن مصر كذلك مبسوطة الأرض فيها الطرق والوديان حتى الصحراء نجد فيها وسط كشبان الرمال المسالك الصحراوية والواحات التى تعد كالجنات فى وسط الصحارى المجدية ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أى أنزل من السحاب الذى يتكاثف ليعتريه البرد، فينزل ماء مدرارا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْزِقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٤٣) وماء النيل ينزل من السماء مطرا مدرارا، ثم يتجمع فيجرى من جبال الحبشة حتى يصل إلى مصر لا يعوقها عنها عائق.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو من حديث موسى عن ربه قطعاً معرفاً له لمن لا يعرفه، وإن كانت فطرته تناديه معرفة، ولكنه يتجاهلها، ويصم أذنيه عن

صوتها. ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ هنا انتقال من الغيبة إلى المتكلم، ويحتمل أن يكون ضمير المتكلم لموسى، وهو بعيد؛ لأنه ضمير جماعة، وليس ضمير مفرد ويحتمل أن يكون لله تعالى وهو الواضح؛ لأن الله تعالى هو الذى يخرج النبات، وإن كان الزارع هو الذى يحرق، ويلقى البذور بعد الحرث، ويرجو الثمار من الرب، وكان الالتفات إلى المتكلم لأنه تحول القول من موسى إلى ربه الذى يتحدث عنه، والفعل ثابت له، فهو يخرج الحب والنوى وهو الذى أخرج كل شيء، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾، أى بالماء فهو الذى أمدّها بالحياة، كما قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ...﴾ (٢١) [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا﴾ يقول المفسرون: أى أصنافًا، وأرى أن أزواجًا ليست من الأزواج بمعنى الأصناف، بل من الزوجية، أى أنه من كل نبات زوجان كما أن فى الحيوان من كل زوجين، ففى النبات زوجان ذكر وأنثى يجرى التلاقح بينهما وإن كان ربما لا نراه ولكن يجرى بمقدار.

﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾، أى مختلف متنوع فهذا حب مبتراكب، وهذا فى سنابل وهذا للإنسان وذاك للحيوان، وهذا نخيل باسق وهذا كروم، وهذه فاكهة ورمان، و﴿شَتَّى﴾ جمع شتيت كمرضى جمع مريض، وهو على ما قلنا صفة للنبات.

بعد أن ذكر سبحانه أنه الذى أخرج كل شيء من الزرع فى بلد الزرع، وأنه هو الذى أنزل الماء من السماء فى بلد النيل، بعد ذلك ذكر نعمته المباشرة فى هذا فقال عز من قائل: ﴿كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (٥٤).

وهذا التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطبين؛ لبيان النعم التى أنعم بها عليهم، إذ إن هذا النبات فيه طعام لكم ولأنعامكم «والأنعام» جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم؛ لأنها نعم أنعم بها عليكم فى ركوبها، وفى أكلها، وفى أخذ أنواع المنافع منها، من أصوافها، وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين.

وقوله: ﴿كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ الأمر فيها للإباحة لا للوجوب، والأمر بالاكل للإنسان واضح ولا يكون إلا بعد الإعداد من طحين ونخل وعجن وخبز، وبعضها

يؤكل مباشرة كبعض الخضر، وقال بالنسبة للأنعام: ﴿وَأَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ ولم يقل: «لتأكل أنعامكم»، والجواب عن ذلك أن الماشية، لا تخاطب، والنعمة ليست لها، إن النعمة للمالكها، ولذا جعل خطاب الإباحة موجهًا إليهم بقوله جلت عزته: ﴿وَأَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾؛ لأن الرعى ذاته نعمة أنعم بها عليهم؛ إذ ربما تكون لهم أنعام ولا يجدون مرعاها، فلا يمكنهم أن ينتفعوا بها، ومعنى: ﴿وَأَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ مكنوها من الكلاء، والعشب الذى خلقه تعالى، ومعنى رعيها أن يقوم على شئونها، ويتبع بها مواطن الماء والكلاء، وينتقل بها من مكان إلى مكان لسقيها وأكلها، فالمقصود الظاهر هو أكلها، وهو تعبير عن السبب وإرادة المسبب، أو الفعل وإرادة المآل، وذلك مجاز مرسل جائز فى أساليب البيان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ الإشارة إلى المذكور من آيات الله من خلق الأرض وجعلها ممهدة، وخط السبل فيها، وإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإخراج النبات أزواج فى صنوف شتى متفرقة متعددة المنافع متنوعة الأجناس، إن فى ذلك كله لآيات بينات تدل على قدرة الواحد الأحمد، ولكن لا يدركها إلا أولو النهى، أى أولو العقول، وسمى العقل «نُهية»؛ لأنه ينهى عن قبائح الأفعال، كما سُمى العقل عقلا؛ لأنه يعقل النفوس عن الزلل والوقوع فى الأخطاء والخطايا إن استعمل فيما خلقه الله تعالى له، ولم يشطط، ولم يفسد، وفى كل هذا كما أشرنا وحدانية الله؛ لأنه وحده الخالق الوهاب.

العناد والمواجهة بالآية

مِنْهَا

خَلَقْتَكُمْ فِيهَا نَعِيْدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٥ وَلَقَدْ
أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ

فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
سُوءٍ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ
مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا
النَّجْوَى ﴿٦٢﴾

استعلى فرعون على الخلق، واختبر الله به أهل مصر اختباراً شديداً حتى إنه فرض عليهم أن يجعلوه إلهاً فجعلوه، وفرض عليهم عبادة العجل فعبدوه، وأوجب عليهم أن يلغوا عقولهم في عقله، ورأيهم في رأيه، حتى إنه ليقول لهم ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، فبين الله تعالى أنه من الأرض، ويعود إلى الأرض، ثم يكون الحساب الشديد على ما قدم من عمل، ولذا قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (٥٥).

فعظامه ولحمه نبت من تراب، فأدم أبوه، وأبو الخليقة خلق من طين، ثم كان غذاء ذريته من نبات الأرض الذى ينبت فى الطين، ومن حيوان الأرض الذى يتغذى من نباتها، وهكذا كان لحمه، ولقد كان خطاب الله تعالى لفرعون الذى استكبر واستعلى ليخفف من غلوائه.

وما أن تنتهى حياته فى الدنيا حتى يعود إلى الأرض التى نبت منها، وصورة الله من طينها، ولذا قال تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بأن تدفنوا فيها، وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فعُدَى بـ «فى» دون «إلى»؛ للإشارة إلى أنه لم يخرج من محيط الأرض فمنها خلق وفيها يحيى فهو مستمر فيها حياً وميتاً.

وإنه سيخرج بعد ذلك بتجميع أجزائه المتفرقة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ لكن هذا الإخراج ليس خلقاً جديداً كما خلقكم منها، بل هو إعادة بتجميع المتفرق من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٥١)﴾ [الإسراء].

تلك موعظة الله لفرعون، وتلك آياته، ولقد قال تعالى بعد ذلك إنه أبى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦)﴾.

أتى الله تعالى موسى تسع آيات بينات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ... (١٠١)﴾ [الإسراء]، وذلك لرسوخ الكفر في نفس فرعون وقومه، فكان لابد من قوارع جسيمة تفرع حسهم لتخرجهم من كفرهم الذي كثفته السنون المتوالية، وتكشف بالحضارة المستمكنة، والعلم المادى الذى كانوا عليه، ولقد بدأهم موسى بالعصا واليد البيضاء من غير سوء، ثم توالى الآيات: الجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، والرجز، وكل ذلك لم يُجد في القلب الجاسى المتصلب، والقلوب الخائفة التى تحسب أن الخنوع للفراغة دين يتبع، ولذا قال:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ وهذا النص يفيد أن الآيات كلها خوطب بها كل واحدة فى ميقاتها، وعند الحاجة إليها، والوعد بالإيمان إذا رفعها الله، كما وعدوا بالإيمان إذا رفع الله الرجز عنهم، ولكنه رفعه، (فبغوا) وقبل أن نتكلم فى أمر المعجزة الأولى وهى العصا نذكر أمرين، أولهما: أنه سبحانه وتعالى أكد أنه أبى وقد أعطاه الآيات كلها مبينا لها، واحدة بعد الأخرى مع أنه لم يبين هنا إلا آية واحدة وهى العصا، والجواب عن ذلك أن هذا النص الحكيم حكم عام على إباطه وتجبّره واستكباره، وقد جاءته الآيات كلها، والإباء ختام لما قدمه موسى، فقد أكد الله تعالى أنه بين له الآيات كلها بـ «اللام» و«قد»، والتأكيد بكل ذلك حق لا ريب فيه، ولكنه اختص أولى الآيات؛ لأنها التى كانت بها الصدمة الأولى.

الأمر الثاني: لماذا اختص الله سبحانه وتعالى فرعون بالذكر ولم يذكر قومه إلا تابعين، ففي قصة النبي محمد ﷺ كان يذكر المشركون ويشار إلى زعمائهم، أما هنا فيذكر فرعون بالأصالة، وربما يذكر قومه بالإشارة، عندما يكون رجز يعم ولا يخص؟ والجواب عن ذلك أن قريشا كانوا أحرارا في تفكيرهم ولو باطلا، فلم يكن فيهم ملك أو طاغية يفرض رأيه ويقول لهم ما أريكم إلا ما أرى، وأما أهل مصر فقد رضوا أن تندغم إرادتهم في إرادته حتى ساغ له أن يقول: أنا مصر ومصر أنا وتلك خاصته فيهم، وقد رأينا بعضها الآن في عهد طاغية مضى:

عندما قدم موسى أول آية ومعها الحجج الذي أفحمت فرعون، ونقول أرهبت الجبار عندما ذكر له أن العذاب على من كذب وتولى، وذكر آيته الباهرة في الخلق والتكوين، وخص بالذكر ما يتعلق بالزراعة والتيل، عندئذ تقرر أنه إذا كانت فكرة الإيمان قد راودته، ففكرة السلطان قد عاودته، ولا يتخلى ملك ولو كان غير فرعون عن سلطانه طوعا واختيارا فلا بد من مقاومته، وقد خشى أن يتسرب الفكر من المؤمن إلى قومه فجاء المصريين من ناحية ما يحرصون عليه، وهو حرصهم على سلامة أرضهم، وأن يكون الحاكم فيهم منهم، ولو كان فرعون، فقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى (٥٨)﴾.

أتاهم من ناحية ما يحرصون عليه، وهو أرضهم، وأدخل قومه ليثير حميتهم، وقد خشى من موسى عندما انفرد بالقول معه، قد أفزعه بذكر ربه القوى القهار، الذي يُزيل ملك فرعون ونفسه بكلمة إن أرادها، ولقد قال في ذلك الزمخشري كلمة مصورة حاله: «إن فرائضه كانت ترتعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام، وإيقانه أنه على الحق، وأن الحق لو أراد قود الجبال لانقادت، وأن مثله لا يخذل ولا يقل أنصاره، وأنه غالب على ملكه»، وذلك ما كان، فقد أزاله وملكه، وغرق في البحر هو وجنوده الذي تحكم بهم في رقاب المصريين، قال تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ هذا استفهام للتنبيه، وحث الهمم على المقاومة والمحاربة لإنكار الذي جاء به خوفا من أن يتسرب

إلى نفوسهم، كما تسرب لنفسه بالفرع والإرهاب والتخويف، ولكيلا يسرى إلى نفوسهم كما سرى إلى نفسه الفرعونية، وإن كانوا دونه حرصاً؛ لأن ما يملكونه قليل يتفضل به عليهم، وقال: ﴿لَتُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ لتخرجنا من أرضنا يعترف بأنها أرضهم وأرضه، وأنه لا ينفرد بملكيتها، وهو القائل لهم: ﴿... أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ...﴾ (٥١) [الزخرف]، ويقول ﴿بِسِحْرِكَ﴾ كأنه لفرعه وخوفه حسب أن السحر يخرج من الأرض، ولعله كان يعتقد ذلك؛ لأن السحر كان عندهم علماً يغير ويبدل، ولكنه كان يستحث قومه على المقاومة، ولذلك قال ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾.

وهنا يجب الالتفات إلى كلمة قالها في هذه الحوثة من الجدل، فلقد نادى موسى قائلاً ﴿يَا مُوسَى﴾ استدرازا لمحبه، وتذكيراً له بسابق تربيته بينهم، إذ قال من قبل ﴿... أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) [الشعراء]، وهذا يدل على فزعه واضطرابه وتلمس الأمن من أى جانب يكون فيه أمن واطمئنان، ولقد أقسم بما يقسم به عندهم، موثقاً قوله عليهم مطمئناً إليهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ «الفاء» للسببية، أى بسبب سحرك لتأتيناك بسحر يماثل سحرك، أقسم على قومهم استحساناً لهمهم واستدرازا لمعوتهم فى هذا الكرب النفسى، وأكد قوله بـ «نون» التوكيد، وبـ «لام» القسم، وقال ﴿مِثْلِهِ﴾ شعوراً بالضعف، وأنه لا يزيد عليهم فهو ليس عنده طاقة بالزيادة، ولذلك أراد اللقاء فى معركة، ولم يجرؤ على أن يعين هو مكانها وزمانها وترك لموسى أن يعد الأمر ويبين الموعد، فقال: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوْىً﴾، تلطف فرعون الجبار مع موسى الكليم ففوض إليه أن يختار هو الزمان والمكان الذى تكون فيه المغالبة بين سحرهم وعصى موسى، ولا شك أن هذا التلطف كان يمكن أن يكون مطمئناً للإيمان، لولا الملك وطمغيانه، وأن مصر بلد السحر، وأن سحرتها كانوا علماءها، وقوله: ﴿مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوْىً﴾ «مَوْعِدًا» مفعول بـ ﴿فَأَجْعَلْ﴾ وكذلك «مَكَانًا» و«سَوْىً» أى مكاناً عدلاً ووسطاً بين الفريقين لا يشق علينا ولا عليك، وهو صالح



لأن يجتمع فيه الناس. وقوله على لسان فرعون ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾، أى لا نخلف فيه الوعد، وقدم نفسه ومن معه فى عدم الإخلاف تطامنا، وتلطفا فى القول، ثم تحدث عن موسى تلطفاً معه، فقال ﴿وَلَا أَنْتَ﴾. و﴿مَوْعِدًا﴾ مصدر ميمى بدليل ﴿لَا نُخْلِفُهُ﴾ فالوعد هو الذى لا يُخلف، والإخلاف عدم الالتزام، فالالتزام فرعون بالموعد الذى يعينه موسى، والموعد يتضمن التعريف بزمان اللقاء ومكانه، وقد أجاب موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (٥٩).

أجابه موسى عليه السلام مبينا الزمان والمكان، فالزمان هو ضحى يوم الزينة، والمكان هو مكان الاحتفال بيوم الزينة الذى يجتمع فيه الناس لهذا الاحتفال، و«الحشر» هو الجمع، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٢) [الشعراء].

و﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ اسم زمان بدليل أنها محمول وموضوعها يوم الزينة فلا بد أن يتفق المحمول والموضوع فى الماهية، فلا يكون المحمول مكانا، والموضوع زمانا.

وما يوم الزينة؟ لم يبين القرآن ما هو ذلك اليوم، ولم يصح عن السنة ما يدل عليه، فقال بعض التابعين: يوم عاشوراء، وقيل يوم سوق عظيم يتزين فيه الشعب، وأقرب الأقوال إلى العقول، أنه يوم وفاء النيل، فمصر من قديم الزمان تحتفل فيه وتزين سرورا باطمئنانها على السقى والرعى، ولعل كليم الله موسى اختار ذلك اليوم لأنه يكون فيه جمع حاشد، وفيه تذكير برحمة الله تعالى على مصر بهذا النيل السعيد، الذى يفيض رحمة من الله، فيكون الفصل فى قضية الإيمان فى زمان ومكان يكون نعمة الله سابغة على مصر الزراعية.

بعد الاتفاق على الموعد وزمانه لا باليوم فقط بل بجزء من اليوم وهو ضحى يوم الزينة، واختار الضحى ليكون الجمع أحشد، والشهود أكثر، فتكون المقاضاة على الحق أمام أكبر عدد ممكن، وتكون الدعوة والتبليغ لأوفر عدد، بعد هذا الاتفاق



انصرف فرعون وأخذ يتجادل فى رأى مع أحد شوراه، وأهل الرأى والنظر الذين يستنصر بهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ (٦٠) «الفاء» عاطفة، أى بعد هذا الاتفاق على اللقاء ومكانه مباشرة انصرف فرعون، وأخذ يجمع أهل الرأى، ويتعرف الرأى الجامع منهم، وهذا هو التدبير الذى دبره، وسماه الله تعالى كيده؛ لأنه كان يدبر للغلب، يتعرف من يرسل إليه ومن يجيئون، ويتعرف بذلك أخلص الناس له، وأخذ هذا التدبير وقتاً طويلاً، ولذا قال بعده ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ فكان العطف بـ «ثم» التى تدل على التراخى، وهذا يدل على أن جمع الكيد والتدبير أخذ وقتاً طويلاً.

أتى إلى الموعد، وموسى كليم الله تعالى قد أتى، وقد ابتدأ كليم الله - عليه السلام - بإرهابهم بقوة الله تعالى؛ لأنهم مهجورون بقوة فرعون وطاغوته وجبروته، فذكر أن قوة الله أعظم، وسلطانه أكبر فقال:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ﴾ (٦١) «انج» إليهم ببيان قدرة الله تعالى وأنها تستأصل، ليزيل برهبة الله تعالى القادر - رهبة فرعون الذى لا يملك من أمره شيئاً وإنما قوته تخيل ووهم، وهو فى ذاته ضعيف كغيره من الناس.

ومعنى قوله تعالى عن موسى: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ معناه: لا تقطعوا كذباً ولا تقولوه فى مقام الحق، وصدر النهى بقوله: ﴿وَيَلَكُمْ﴾ أى الهلاك النازل بكم إن غيرتم الحق وبدلتموه وآثرتم الباطل عليه مرضاة لفرعون وقومه ممالئين فى الحق وتقولون الباطل، ثم أكد وقوع الهلاك عليهم فقال الله عن موسى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ﴾ الإسحات: الاستئصال، وألا تبقى منهم (باقية)، ومع هذا الاستئصال الخيبة؛ لأن الافتراء أشد الخيبة وأفحشها ولا يلجأ إليه إلا الخائبون فى ذات أنفسهم، يعنى أنكم إن كذبتهم وافتريتهم فإن الهلاك نازل بكم لا محالة، ولا تكونون قد نجحتم فى هذا السباق الذى يكون فيه الاتجاه إلى طلب الحق.

أثرت هذه الكلمات الصادرة عن كريم الله تعالى في نفوسهم تأثيرا قويا، كما أثرت لقاءات موسى مع فرعون في نفسه فجعلته يتطامن في القول، ويبهزه الحق الواضح، ولتأثير هذه الكلمات في أنفسهم أخذوا يتجادلون فيما بينهم، وقال تعالى عنهم: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾.

الفاء للسببية، أى بسبب ذلك القول الرهيب الذى أربهم تنارعوا أمرهم أى تجادلوا مختلفين غير متفقين فى موقفهم من فرعون الذى كلفهم، وموسى الذى أفرعهم إن حادوا عن الصواب وجانبوا الحق، وعبر سبحانه عن تجادلهم بأنهم تنارعوا القول فكان فريق فى جانب، وآخر فى جانب، وتجادلوا وكل مجادلة بين متناقضين فى النظر نزال وتصارع فى الأمر، ولكنهم من بعد غلب عليهم أنهم يريدون السلامة لأنفسهم، وأسروا القول، ولم يريدوا اطلاع الناس على أحاسيسهم وفزعهم، ولذا قال فى وصف حالهم: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أى بالغوا فى إسرار مناجاتهم؛ لأن المناجاة ذاتها إسرار، ومعنى إسرارها المبالغة فيها بحيث لا يستطيع أحد أن يطلع عليهم، ولا يعرف ما أسروه وتناجوا به.

المنازلة

قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ
مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا
كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾
قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلْ أَتَوْا بِذَاتِ جَبَالٍ هُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ

أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا
 كَيْدٌ سَحِيرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا
 قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾

أنهم اختلفوا عندما بين لهم كليم الله موسى - عليه السلام - عاقبة الأمر وتناجوا فيما بينهم وأسروا النجوى مبالغين في الإنكار، وانتهوا إلى أن أعلنوا رأى فرعون اتقاء للشر وتعرفا للأمر بعد وقوعه .

﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ فيها ثلاث قراءات أولاهما وأشهرها بِإَنَّ المشددة والالف في الاسم والخبر، والقراءة الثانية (إِنْ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ) بِإَنَّ المشددة والياء في (هذَيْنِ)، والقراءة الثالثة (إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ) بِـ «إِنْ» المخففة لا المشددة . وإن القراءة الوسطى (الثانية) سائرة على الإعراب المشهور وهو أَنْ (هذَيْنِ) اسم «إِنْ» منصوب بالياء .

وأما القراءة الأولى فقالوا إنها على اللغة التي تلزم المثني الالف في الرفع والنصب والجر كما هي في الأسماء الخمسة، كما قال القائل:

إِنْ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بلغا في المجد غايتها

وأما القراءة الثالثة التي تقرأ بتخفيف «إِنْ» فنقول: إِنْ (إِنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن ويكون التقدير إنه الأمر المقرر الثابت هذان لساحران، وتكون اللام لام التوكيد، وتؤذن بأن تكون «إِنْ» مخففة من الثقيلة، هذه لفظة إلى الإعراب، قد ضل بعض الناس فادعى أنه روى عن عثمان أن في المصحف لحنا تصححه السنة العرب، وهذا الضلال كان هنا في المقام، اللهم إِنْ هذا بهتان عظيم على جامع القرآن ذي التورين رضى الله عنه وعفا عنه وجزاه عن الإسلام خيرا^(١).

(١) قرأ المدنيان، وابن عامر، ويعقوب، والكوفيون إلا حفصا بتشديد (إِنْ)، و(هَذَا) بالالف، وتخفيف النون. وابن كثير بتخفيف (إِنْ)، و(هَذَا) بالالف، وتشديد النون، وحفص كذلك، إلا أنه بتخفيف النون، وقرأ أبو عمرو بتشديد (إِنْ)، و(هذَيْنِ) بالياء، مع تخفيف النون. الشيخ محمود خليل الحصري - القراءات العشر من الشاطبية والدرة - ص ٢٢٥.

ونعود على عَجَل إلى الكلام فى معنى الآية الكريمة، إن السحرة بعد أن أفرغتهم مقولة موسى، وبيان عاقبة قولهم إن حادوا عن الحق وآثروا أن ينطقوا على هوى فرعون حتى يتبين لهم الحق، ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسَاحِرٌ أَوْ يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ (٦٣).

ضربوا على نعمة فرعون ابتداء منجاة بأنفسهم من بطشه، والنفس الإنسانية دائما مأسورة بالأمر الحاضر مؤجلة القابل إلى ميقاته، وكذلك كان هؤلاء ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾، «الباء» هنا للتعدية والمعنى ليذهبا طريقتكُم، وجيء بالباء لتقوية التعدية أى ليذهبا أى إذهاب بطريقتكُم المثلى، أى دينكم الأمثل وكل معتقد يعتقد فى دينه أنه الأمثل فى الأديان، وإن كان ضلالا فى ضلال.

ويظهر أنه كان الخلاف مستحكما ولكن أخفوه، ولذا قالوا.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ (٦٤). الفاء للسببية، أى بسبب أنهم أرادوا بسحرهم أن يخرجاكم من أرضكم، ويذهبا بطريقتكُم المثلى، وهو أمر جامع متفق عليه، فأجمعوا كيدكم أى اعتزموه، وأقدموا مجتمعين غير متفرقين، وآتوا إلى موسى صفا لا خلل فيه ولا افتراق ولا تنازع، واتفقوا على أمور ثلاثة:

أولها: إجماع كيدهم، وهو تدبيرهم، ادخلوا الحومة مجتمعين على تدبير واحد غير متفرقين فإن الإجماع وحده قوة، والفرقة ضعف وعجز، ولا تنازعوا فتفشلوا.

وثانيها: أن يأتوا موسى صفا واحدا لا ثلثة فيه ولا افتراق، فإن ذلك يزرع فى نفسه الهيبة منكم، قالوا ذلك وكأنهم مقدمون على ميدان قتال.

والأمر الثالث: أنهم اتفقوا راغبين فى الاستعلاء وأخذ الأجر من فرعون والاستعلاء بعزته الفرعونية وكبرياته الغاشمة، ولذا قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾، أى فاز برضا فرعون من استعلى على خصمه، والسين والتاء للطلب، أى



طلب العلو فعلا، وهذا حث على أن يشمروا عن ساعد الجدد ليفوزوا برضا فرعون، ويستعلوا عنده باستعلانهم بالانتصار في هذا الميدان السحري، اتجهوا بعد ذلك إلى موسى وقالوا له: ﴿... يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (٦٥).

بادروه باسمه توددا له كما تودد من قبل فرعون؛ ولأنه كان عندهم من بيت فرعون من قبل، فله مكانته فى نفوسهم الفرعونية، وحسن أدب منهم؛ لأنه قد شارفت نفوسهم الحقيقة وإن لم تدخلها، ولذا تنازعوا فيها، خاطبوه بأدب فقالوا ﴿... يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (٦٥)، أى اختر لنفسك أحد الأمرين، إما أن تلقى أنت عصاك التى فى يدك، وإما أن نكون أول من ألقى، قابل موسى الكلام أدبهم بكرمه وقد لمح من كلامهم بإشارة القول أنهم يريدون أن يبدؤوا، إذ قالوا فى تخييره ﴿وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ فنفذ رغبتهم المطوية فى عباراتهم، ولأنه يريد أن يعرف ما عندهم قبل أن يعرفوا ما عنده؛ ولأن الترتيب الذى ألهمه الله تعالى به، أنها ستلقف ما يلقون، فكان الترتيب الطبيعى أن يلقوا هم أولا، فقال موسى ﴿... بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (٦٦) استنفذوا كل جهدهم وطاقتهم، وقد سحروا بفعلهم أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وخيل إلى موسى من سحرهم أن عصيهم تسعى، وما انقلبت حيات تسعى، بل هى على حقيقتها حبال وعصى، ولكن الأعين هى التى سحرت، ولذا قال تعالى فى تأثير ذلك على موسى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ولقد كان ذلك التخييل مفاجأة لموسى، ولذا عبر بـ (إذا) التى للمفاجأة، والمفاجأة ما كانت فى تحول العصى إلى حيات، إنما كانت المفاجأة التى خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وكان موسى عليه السلام تتمثل فيه الطبيعة البشرية، والتخييل يؤثر فى البشر وإن كان عنده الحق المبين، ولكن لا تزول المفاجأة إلا بتأييد من الله، والله معه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا... (٦٩) ﴿فَأَوْجَسَ﴾ معناها أضمر أو أحس أو خاف، وذلك لأنه فوجئ بأمر لم يكن قد ألفه واعتاده، وهو أن يرى تخيلا عصيا وحبالا

تتحول إلى حيات تسعى، ثم يرى الجُماد يسعى ويتحرك يمينًا وشمالًا، وأمامًا ووراء، فهذا التحول المفاجئ للحس يرهب، و﴿خَيْفَةً﴾ «فِعْلَةٌ» من الخوف، قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها وسكونها، أى صار فى حال خوف وهيبة من المفاجأة، ولأنه خشى أن يؤثر ذلك فى الجماهير الحاشدة، فتصدق هذا الإفك، ولقد كان الله معه، وعليما بحاله، فقال له مطمئنا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ولذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ (٦٨) أى أذهب عنك الهواجس التى اعترتك من المفاجأة لأننا معك، والعاقبة لك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ فى هذه المبارزة، وأفعل التفضيل ليس على باب؛ لأنهم لا علو عندهم، وإنما المراد أنك أنت الغالب على فرعون وملئه، وأنت المسيطر فى الجولة، ومعك سلاح الغلب والسلطان، وهو المعجزة التى فى يمينك، ولذا قال له عز من قائل ينبهه إلى معجزته الأولى التى بعجت الحجر وفلقت البحر، وما كان غافلا، بل إن الدهشة التى أوجس منها خيفة جعلته يحتاج إلى أن ينبهه الله تعالى فقال:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ وقالوا: إنما أبهم ولم يذكر أنها العصا تعظيما لأمرها؛ ولأنها هى عود صغير من شجر تأخذ كل هذه الحبال والعصى ولا تبقى شيئا يتخيل، أو لا يتخيل، وأرى أن قوله ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ تنبيه إلى أن فى يده ما يدفع وهمهم، فكيف يوجس خيفة، وهو فى يده، وقوله تعالى: ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ بالجزم جوابا للأمر، أى ألق ما فى يمينك - وهو العصا - وقوله تعالى: ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾، أى تأخذه بسرعة وتبتلعه ولا يكون له أثر. ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ الضمير يعود إلى العصا، ولذا صدر المضارع بالتاء، فكانه إبهام ثم بيان فقال ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ فلم يذكر أنه العصا، ثم بينها يعود الضمير على لفظ العصا بالتاء، وقد علل الله تعالى لقف العصى والحبال، فقال:

﴿... إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (٦٩).

«ما» هنا اسم موصول بمعنى «الذى» وهى اسم «إن» وقوله تعالى ﴿كَيْدٌ سَاحِرٌ﴾ خبر «إن» وأفرد ساحر مع أنهم كانوا كثرة كثرة حتى ادعى فى الأساطير

أنهم كانوا سبعين ألفا والله أعلم بعددهم، وعلى أى حال كانوا عددا غير قليل، أفرد لأن المقصود وصف ساحر؛ ولأن التدبير لا يمكن أن يكون من الجميع، إنما هو من واحد وأقره الجميع عليه، ونكر لأنه واحد من جمعهم لا يهتم معرفة شخصه، وعبر سبحانه بـ ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾؛ لأنه تدبيره فهو ليس قلبا للحقائق، فلم يقلب الجامد إلى حى يسعى، وإنما خيل للأعين فقط، فهو تدبير ماهر، يكد للحق، وليس قلبا للحقائق قط.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ كان التعريف بـ «أل» التى للجنس، ويكون المعنى ولا يفلح من كان عمله السحر فى أى مكان أتى، فكلمة ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ حيث: ظرف مكان، أى من أى مكان أتى، وإلى أى مكان سار، فهو لا فوز له أبدا، ولكن ضلال وتمويه، وتخيل للأعين واسترهاب للنفس.

عندما استعان فرعون بالسحر والسحرة استعان بهم ليغلبوا، ولكنهم كانوا المميزين بين السحر والمعجزة فأدركوا أن عصا موسى ليست من السحر، ولكنها معجزة الله تعالى أعطاها موسى فآمنوا، قال تعالى:

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدًا قَائِلًا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)﴾.

يقول الزمخشري فى عبرة هذه الوقائع: «سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين» اهـ. ونقول: ما أعظم الفرق بين الباطل والحق. وبين الاستجابة للباطل واستجابة للحق جل جلاله.

«الإلقاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وكان ما قبلها هو إلقاء العصا ولقفها كل ما ألقوا وكان شيئا كثيرا إذ امتلأ المكان بالحبال والعصى التى تسعى، حتى كأن الوادى صار أفاعى وحيات فى نظر الرائي، فكان عجبا أن تبتلعها عصا يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، فكان الإيمان بالمعجزة، وهم أهل الخبرة فى معرفة ما هو سحر وما ليس بسحر فآمنوا بالمعجزة وخروا ساجدين.

﴿فَأَلْقَى السُّحْرَةَ سُجْدًا﴾ ﴿سُجْدًا﴾ جمع ساجد، كـ «صَوْم» جمع صائم، وقوله: ﴿فَأَلْقَى﴾ بالبناء للمجهول للإشارة إلى أنهم ألقوا سجدا لوضوح الحق وظهوره، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ آمنوا بالله واكتفوا من التعريف بأن يكون رب هذين الصادقين، وخبر الصادق صادق.

فرعون والسحرة بعد إيمانهم

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

أحس فرعون بأن الأرض تמיד من تحت أقدامه فلبس الجلد الفرعوني، وأخذ يهدد وينذر وينفذ ما قام به من شر؛ لأنه رأى بوادى المخالفة لأمره والمنازعة لرأيه، ولذلك بطش، وانتقل من الاستدراج إليه إلى القهر، وعاد إلى الطغيان.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ﴾ أى أسلمتم له وأذعتم له، ويتضمن معنى المسيرة لموسى والمعاندة له، يقال ءامنتم له وءامتم به، وتتضمن التعدية باللام التسليم له والإذعان له، وتتضمن التعدية بالباء الإيمان بالحق الذى جاء به، وقد جاءت التعديات فى هذا المقام، فهنا التعدية باللام، وفى سورة الأعراف كانت التعدية بالباء فقد قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف].

وفى هذا الاستفهام إنكار للواقع، فهو ينكر إيمانهم الذى وقع، ويوبخهم عليه، وموضع التوبيخ أنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم وهو بذلك يصل بهم إلى أعلى درجات العنت والطغيان، فهو يعلن بهذا أن حكمه يصل إلى فكرهم وقلوبهم، ويحقق فيهم قوله ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

كان فرعون على رأس طريق أخذ يسلكه السحرة، فلم يقل الحق ويذعن، ويسلك سبيل الرشاد، بل أخذ يموه الحق بتمويه من الباطل، فرآهم تبعوا موسى فما أذعن للحق الذى تقاضى مع موسى فيه، بل أخذ يمارى، ولا يقول إنه غلبهم، لأنه على الحق، بل لأنه أكبر منهم قدرة وطاقة، وأنه منهم بمنزلة المعلم الذى علمهم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، فهو أسحر منهم وأعلم، وهم منه بمنزلة التلميذ من المعلم، فلم يغلبهم لأنه المحق وهم المبطلون، وإنما غلبهم لأنه أسحر منهم وأعلم، وهكذا كانت المعاندة لآيات الله وقد برزت.

ولأنهم على رأس طريق جديد وهو الخروج على طاعته ومقاومة جبروته، والاستعلاء بربهم على طغيانه - وضع العقبات وأنزل بهم العذاب الشديد، فقال: ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ «الفاء» للسببية، أى بسبب ما فعلتم لآقطن أيديكم.

فى هذا الكلام قسم بما يُقسم به عنده، و«اللام» لام القسم، ولذا كانت «نون» التوكيد الثقيلة، التى تلازم القسم فى اللغة، والتقطيع للأيدى والأرجل بصيغة التفعيل يدل على كثرة القطع، لكثرة من قطعت أيديهم وأرجلهم، وقوله ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ أى تختلف جهة القطع، فإذا قطعت اليد اليمنى، تقطع الرجل اليسرى،

وهكذا، وقال مقسما أيضا بما يُقسم به عندهم ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، وقالوا: إن ﴿فِي﴾ هنا بمعنى «على»، وعبر بـ «فِي» لبيان تمكن الصلب واستقرارهم على جذوع النخل، وهذا الصلب على الجذوع يومئ إلى بقائهم على الصلب حتى يموتوا فهو قتل وتقطيع، ثم قال مقالة الجهالة والطغيان: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

أقسم الجهول في قوله هذا بما يُقسم به عندهم، و﴿أَنَا﴾ استفهام، وهى تفيد التنبيه في زعمه إلى أنه أشد عذابا وأقسى من موسى، وأبقى أثرا في عذابه من موسى، وهو جهل طاغٍ لأن موسى لا يعذب، ولكن يرشد ويهدي، إنما الذى يعذب هو الله رب موسى وهرون، وعذابه أليم هو جهنم يخلد فيها فرعون ومن يتبعه.

من دخل الإيمان قلبه يعمره الله بنوره ويستهن بالحياة والأحياء ولو كانوا فرعون وقبيله، ولذا أجابوا عن تهديده الذى نفذه بقولهم كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾.

إجابة حاسمة قاطعة تقطع أمله في رجوعهم، والإيمان إذا دخل القلب وأشرب حبه كان أثبت من الرواسى، وهو إيمان بحجة وبينه وبرهان ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾، أى لن نتركه لأجلك أيها الطاغى الباغى، وهذا معنى مؤكد، لأن «لن» تفيد النفي المؤكّد، حتى ادعى الزمخشري أنها تفيد تأييد النفي، فلا تطمع في رجوعنا عن الحق والإيثار والتفضيل، أى لن نفضلك على البيّنات، أى الدلالات الواضحات التى جاءتنا، وفى هذا إشارة إلى أن ما عنده باطل وأوهام، وكيف نفضل الأوهام على الدليل والبرهان؟! وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ عطف على ﴿مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، والذى فطرنا هو الله، يعنى لن نُؤْثِرَكَ على الحق الواضح، ولن نُؤْثِرَكَ على الله تعالى جل جلاله فهو القادر على كل شىء، فلن نُؤْثِرَ الضعيف الظاهر على الله القادر العادل القهار، ويجوز أن يكون

قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾، أى أنشأنا ولم نكن شيئا، الواو للقسم لا للعطف، والمعنى لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والله الذى أنشأنا من عدم، فمن تكون أنت أيها المخلوق الضعيف، ولو كنت فرعون الطاغى المتجبر بصلفك وعتوك؟!

وقد رتبوا على عزمتهم النابعة من قلوب مؤمنة تفويضهم الأمور إلى ربهم والاستهانة بفرعون وبتهديده فقالوا ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ «ما» إن كانت موصولا حرفيا يكون المعنى فاقض قضاءك؛ لأنه قضاء الحياة الدنيا وهى فانية، والآخرة هى الباقية، ويصح أن تكون موصولا اسميا بمعنى فاقض الذى أنت قاض، ويكون الرابط فى الصلة ضمير فاقض ما أنت قاضيه.

وقالوا ما يدل على الاستهانة بحكمه القاصر ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ هذه الحياة الدنيا ظرف، فتقدم فى الكلام، والمعنى: إن قضاءك هو فى هذه الحياة الدنيا، وما موصول حرفى، وإذا قضاؤك هو فى هذه الحياة، فهو قضاء تنفيذه وقت قصير ومن بعده خير طويل، فإنما الحياة الدنيا متاع قليل والآخرة خير وأبقى، وإن هذا يدل على كمال الإيمان بالله، والاستهانة بفرعون وعذابه.

أول أمارات الإيمان الراسخ الإحساس بالتقصير والإذعان لله تعالى، وهذا أمر أولئك المؤمنين الذين كانوا من قبل ساحرين، قالوا مؤكدين إيمانهم ومؤننين فرعون وشيعته: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧٣).

قالوا مؤكدين إيمانهم بـ «إن» أولا، وبالجملة الاسمية ثانيا، ويقولهم ﴿بِرَبِّنَا﴾، أى الذى خلقنا وأنشأنا إنشاء، فكأنهم يوثقون إيمانهم بأنه إيمان بمن خلق وصور لا بمن يظهر قدرته فى العذاب والإيذاء لا فى الخلق والإنشاء.

وذكروا ما يرجون من وراء إيمانهم فقالوا: ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ و«اللام» هنا لام العاقبة، أى لتكون عاقبة إيماننا بربنا أن يغفر لنا خطايانا، والخطايا جمع خطيئة، والخطيئة هى الذنب الذى يحيط بالنفس ويستولى عليه، حتى يصير كأنه صفة من صفات النفس يصدر عنه من غير تدبر ولا تفكر، ولذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ

سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ [البقرة]؛ وذلك أن الإنسان إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تكررت تكررت هذه النكت حتى يرباد فيمتلئ بالخطايا وتصدر عنه أفعالها كأنه غير قاصد لها، وهي للضال تشبه الخطأ من الصالح في ذات نفسه ومن تقع منه يسمى خاطئاً أى آثماً.

وقد ذكر رجاء الغفران من خطاياهم، أى آثامهم، التى كانت منهم، وهم فى ديانة القدماء من المصريين، وقد اعترفوا أنهم كانوا يفعلون هذه الخطايا مختارين، والأمر الثانى الذى اعترفوا به هو السحر، وهو إثم، ولكنهم ذكروا فى هذا أن فرعون كان يكرههم، ولذا قالوا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾.

وإذا كنت يذهب غرورك بأن تقول: ﴿... وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿٧١﴾ فنحن نقول الحق: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، فالله هو الدائم، وهو الخير كله، فلا يكون عنه إلا خير ولا يرضى لنا إلا كل خير.

ولقد بينوا رجاءهم فى الله، وعاقبة المجرمين فقال الله تعالى:

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿٧٤﴾.

الضمير ضمير الشأن أى أنه الحال والشأن المقرر الثابت ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾،

أى مرتكباً الآثام كاسباً لها، قد سيطرت عليه آثامه واستغرقت نفسه، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

وهذا القول يحتمل أن يكون من كلام السحرة الذين آمنوا وذلك ظاهر السياق؛ لأن الكلام فيما ردوا به على فرعون، ويحتمل أن يكون وصفاً لما يجرى على الأشقياء بحكم الله تعالى وقضائه، ويرشح لهذا ما جاء بعد ذلك من ثواب المتقين، وقوله تعالى لمن يدخل جهنم: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ وهذا وصف عميق للذين يخلدون فى النار فهم لا يموتون ليستريحوا راحة الموت، إذ يفقدون الحسّ شقاء أو نعيماً، ولا يحيون حياة كريمة فيها متعة الأحياء، ولكنها عذاب وآلام، فهم لا يموتون فيها ولا يحيون؛ إذ هى حياة الألم المريع المستمر الذى لا ينقطع.

وقد جاء النص من بعد ذلك:

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥)﴾.

الضمير في ﴿يَأْتِيهِ﴾ يعود إلى ربه، ويتضمن معنى الإقرار بالربوبية، والخلق وإنشاء الإنسان، وفي ذلك رد فرعون واستهانة به، وهو الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى. و﴿مُؤْمِنًا﴾ أى مذعنا خاضعا للحق مستقيم النفس والعمل، ولذا قال من بعد ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾، والصلحات الأعمال الصالحة التى تنشر العدل والحق وتقيم النفع وتدفع الفساد فى الأرض، وتحفظ للإنسان كرامته، وتدفع عنه المهانة وتسوى بينه وبين الناس، وقد ذكر سبحانه وتعالى جزاءهم فقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ «الفاء» فى جواب الشرط، والإشارة إلى هؤلاء متصفين بالإيمان والصلاح، والقصد إلى الأعمال الصالحة النافعة غير المفسدة، ﴿لَهُمُ الدَّرَجَاتُ﴾، وهى الارتقاء فى السمو والارتفاع، و﴿الْعُلَىٰ﴾ جمع «عليا» وهى مؤنث «أعلى»، أى الدرجات المرتفعة التى ما فوقها ارتفاع، فلا يرفع المؤمن أن يرضى عنهم فرعون، وهو بشر دونهم؛ لأنهم أطهار وهو مجرم آثم ظالم غشيه الشر وأرداه، فلعنه الله ومن يتشبه به وإن كانوا دونه قوة واقتدارا، ولكنها الغطرسة الحمقاء.

وقد بين سبحانه هذه الدرجات العلى، فقال سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)﴾.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى إقامة، وهى إقامة مريحة ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (٧٣) وَأَنْهَارٌ مُّوَسَّوعَةٌ (٧٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (٧٥) وَزَوَاجٍ مُّبْثُوثَةٌ (٧٦)﴾ [الغاشية]، وفى ذلك تبيكت لفرعون بأنهم ينالون بعملهم الصالح خيرا مما فيه، وإذا كان يقول معتزا بغير الله تعالى: ﴿... أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مُّصْرٌ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ... (٥١)﴾ [الزخرف]، فأولئك السبرة الاتقياء تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات عدن، وإن هذه الجنات يخلدون فيها ويستمرون، وفيها النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾، الإشارة إلى هذا النعيم المقيم جزاء من تطهر من الظلم والمعاصى، ولم يسر وراء الأوهام الفاسدة.

ولقد سرنا على أساس أن الآيتين ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا...﴾ (٧٤) و ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا...﴾ (٧٥) هو من كلام الله تعالى لا من كلام السحرة؛ لأنه معطى النعيم، وهو المعاقب والمثيب فهو أليق به، وإن كان ثمة احتمال أن يكون من كلام السحرة، وإذا كان السياق يسوغه ابتداء فإن ثمة التفاتنا من الحديث عنهم إلى أن يتكلم الله تعالى عن نفسه، فهو مالك يوم الدين.

نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِ فَغَشَّيَهُم مِّنَ اللَّيْمِ مَا غَشَّيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِّنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ
جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا
مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

لم يذكر سبحانه وتعالى إنزال الرجز عليهم، وآيات أخرى، ومجادات لفرعون وملائته وادعائهم التطير بموسى ومن معه، ويلاحظ أنه لم يحاول الفتك بموسى وأخيه هارون، وقد ذكرت هذه الأحوال في سورة الأعراف، وهكذا تتبع قصة موسى مع فرعون وبنى إسرائيل يبدو بادئ الرأي أنها مكررة، وبالتالي تجدها

غير مكررة، وما يذكر في مكان يترك في مكان آخر، وفي كل مكان كانت عبرة قائمة بذاتها يذكر لها جزء من القصة، لتفرد كل عبرة في موضع، فيكون التجدد والتنبيه المستمر والعبرة، استعداد موسى للقاء فرعون، واللقاء بين نبي اختصه الله تعالى بأن كلمه تكليما، وأكبر الطغاة الذي تشبه به كل طاغية في الأرض، وآخرهم من رأينا في مصر، الذي أجرى الله مراحض مصر على جثمانه النجس، ويصور هذا الجزء استدراار الطغاة لعاطفة مخالفيهم، ثم استبداده من بعد أن يغلب كما رأينا في معاملته للسحرة، الذين قال لهم: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾ (٧١) وقطع أيديهم وأرجلهم.

بعد ذلك ترك المجادلات واتجه القرآن الكريم إلى نهاية الطاغوت في الأرض وإغراق صاحبه:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ (٧٧).

أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، «أن» هنا تفسيرية، أى أن الإيحاء كان هو قوله: ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، الإسراء: السير ليلا، وكأنهم خرجوا على استخفاء من فرعون خشية أن يبادرهم بالإيذاء، ولكنه علم بهم، فلحقهم بجنوده، وأمر الله تعالى موسى أن يخط لهم طريقا ييسا جافا من الماء؛ ولأن خط هذا الطريق كان بالضرب بالعصى التى بيده دائما - عبّر عن الأمر بالتخطيط بالضرب، وقد جاء فى سورة الشعراء ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) وَأَزَلَّوْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) وفى هذه الآية أكد سبحانه وحيه لموسى بـ «اللام» و «قد»، وقوله تعالى: ﴿يَبَسًا﴾ مصدر هو وصف للطريق الذى أمر موسى به، وهو مصدر من يَبَس.

وقد طمأن الله موسى ومن معه من بنى إسرائيل الذين ساءهم عباده؛ لأنه خلصهم من فرعون وأهواله، طمأنهم بقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾

والدَّرَك: اللحاق، أى لا تخاف أن يلحقوك، والدرك بالسكون والفتح الإدراك الحسى، وهو الوصول إليك واللاحاق بك، ولا تخشى بأسه، فأنت فى أمن الله تعالى الذى لا يُدرك، مَنْ هو فى آمنه و«لا» هنا للنفى لا للنهى، فالمعنى ليس من شأنك أن تخاف اللحاق بك، ولا تخشى بعد اليوم بطش فرعون وقومه، والجملةتان حاليتان، وإن من يكون فى أمان الله لا يخاف أحدا ولا يخشاه، ولقد بين الله تعالى أن فرعون منعهم وحاول اللحاق بهم، ولكنه لقى حتفه فى هذا اللحاق، ولذا قال تعالى:

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾.

يقال تبع وأتبع بمعنى تبع كما فى الحق، والحق، والمعنى وتبعهم فرعون مصاحبا جنوده وقد أرسل إليهم يدعوهم معه قائلا: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وأنهم لنا لغائظون - اجتمع بكل ما عنده من جند قوى تجبر بهم وعانده، فتبع موسى الذى جمع بنى إسرائيل فكان جمع الأقوياء، وراء جمع الضعفاء، ولكن كان الله مع الضعفاء، فرعون وجنده وراء موسى وبنى إسرائيل، ويحسب المغرور أن البحر حاجزهم، ولكن رب السموات والأرض، ورب البحار والأنهار، شق البحر لهم، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، وكان كل فرق كالطود العظيم، كان البحر الذى يكون الناس فيه كدود على عود اثنى عشر فرقا كان لكل جماعة طريقا، وتبع كل أناس إمامهم، فرأى المغرور الطريق بين يديه ييسا كما هو بين أيدي بنى إسرائيل، وقد ضل هو وجنده، حتى إذا تم دخولهم انطبق عليهم البحر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى غطاهم من البحر ما غطاهم، وهذا من الإيجاز المعجز، وصاروا فى البحر، فلما أدركه الغرق قال: ﴿... آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ... (٩٠)﴾ [يونس]، والإبهام هنا لتذهب فيه النفس بالخيال كل مذهب، وكل خيال فيه دون الحقيقة لأن جندا بأكمله، كان يتجبر به فرعون ويستعلى ويغترر وقد جمعه كله بإرادته، قد ألقاه فرعون فى البحر إلقاء، ولذا قال تعالى من بعد:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ (٧٩).

أوقع فرعون في نفوس جنده أنه مدرِكهم، وأنهم قاتلوهم، إذ هم عَزَلٌ من السلاح وهم شرذمة قليلون كما قال، وما علم هو وهم أن معهم الله تعالى على كل شيء، وكان بهذا إضلالهم إضلالاً حسيماً، ظهرت عاقبته فيه وفيهم بإغراقهم، وإن هذه صورة جلية حسيّة من إضلالهم العقلي والديني، فقد أضلهم فجعل نفسه إلهاً فيهم وأضلهم فأرغمهم في نفسه، وصاروا ليس له معهم وجود إنساني، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وهو الذي كان يقول لهم: ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩) [غافر]، فكان اندغامهم في فكره إبعاداً للهداية وإمعاناً في الغواية.

موسى وبنو إسرائيل

عاش موسى المجاهد في الحق أربعة أدوار: أولها أنه عاش في بيت فرعون تكلؤه المحبة من زوج فرعون، وربما فرعون نفسه الذي لم يكن له ولد، فكان في بيته بمثابة ولده، حتى إذا بلغ أشده وأدرك المجتمع الذي يعيش فيه كان الدور الثاني، فأدرك من هو في مصر ومن قومه، فما ارتضى الظلم في ذاته، ولا ظلم قومه، فكان ربيب نعمة فرعون من شيعة المظلومين المضطهدين، وعندئذ خرج من مصر حراً كريماً رضى بشظف العيش، وجفوة الصحراء وخلص لله، وقال مناجياً ربه: ﴿... إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤) [القصص]، وعاش كادحاً وتزوج من إحدى ابنتي شعيب، واستمر يرعى الأغنام متمتعاً بحرية الصحراء ونسيمها غير الوبيء، وإذا كان قد حُرِمَ رافع^(١) العيش في بيت فرعون، فقد منح حرية النفس وسلامة الاعتقاد، ونعمة الكفاح، وذوق متاع الحياة بجوار نعيمها، فاكتملت بذلك إنسانيته، وعندئذ جاء الدور الرابع من حياته.

وهذا الدور الرابع كان في حقيقته دورين: أولهما: لقاءه هو وأخوه بفرعون، وقد انتهى بغرق فرعون، ونجاة بني إسرائيل، ويستدئ الدور الثاني، وهو دوره مع بني إسرائيل ومحاولة تربيته لهم، لقد ربوا على الاستخذاء والضعف والاستكانة،

(١) والرَّفَاعِيَّةُ: سَعَةُ الْعَيْشِ وَالْخَصْبُ وَالسَّعَةُ. وَعَيْشٌ أَرْفَعُ وَرَافِعٌ وَرَفِيعٌ: خَصِيبٌ وَاسِعٌ طَيِّبٌ. وَرَفَعٌ عَيْشُهُ، بِالضَّمِّ، وَرَفَاعَةٌ: اتَّسَعَ. لِسَانُ الْعَرَبِ - رَفَعُ.

فلا بد أن يربى فيهم العزة والكرامة، وربوا في أحضان الوثنية فلا بد أن تزرع فيهم الوجدانية، وربوا على الختل والاستهانة، فلا بد أن تربى فيهم العناية والخلق الكريم، وهذا أشق الأدوار في حياة موسى.

بعد أن نجا هو وبنو إسرائيل من فرعون، وألقاه الله تعالى في اليم، قال الله تعالى مخاطباً لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠)﴾.

ناداهم الله تعالى مقرباً مدنياً مؤنساً لهم ذاكراً سبحانه نعمته عليهم؛ ليعرفوا حقها عليهم من الشكر فلا يكفروها، ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ الذي تحكم فيكم وأسأمكم سوء العذاب، وإن هذه كانت مظاهر العداوة من ذلك الظالم الغاشم ﴿وَوَعَدْنَاكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أى الإتيان فى جانب الطور الأيمن، فالكلام على حذف مضاف، وحذف لأن المقصود هو ذات الجزء الجانب الأيمن، والإشادة به لأنه الجانب الذى لقي فيه ربه، وأنزلت عليه الألواح العشرة فيه، فهو المكان الذى كانت ذكريات نبوة موسى عليه السلام، وهو من أولى العزم من الرسل، والتوراة من الكتب المقدسة التى تشتمل على الشرائع الخالدة إلا ما نسخه القرآن الكريم.

وقد قال تعالى: ﴿وَوَعَدْنَاكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ وهنا ملاحظتان: إحداهما أن الله تعالى جعلهم طرفاً فى المواعدة وهى مفاعلة تكون من جانبيين، جعلهم الله سبحانه وتعالى طرفاً مقابلاً لذاته، وذلك تكريم لهم، ورفع لنفوسهم التى استخدمت بإذلال فرعون، فأعلاهم رب العالمين ورفع كبوتهم وأزال عنهم خسيصة الذل.

والثانية أن المواعدة كانت مع موسى رسولهم، لا معهم كلهم، ولكن موسى يجيء بهذه الشرائع إليهم، وقد قال تعالى فى هذه المواعدة ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً... (١٤٢)﴾ [الأعراف]؛ ولأن موسى وهو رسولهم الذى أرسل إليهم كانت المواعدة معه مواعدة لهم. ولأن موسى اختار منهم من سيلونهم فى هذا اللقاء، فقد قال تعالى: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا

لَمِيقَاتِنَا... ﴿١٥٥﴾ [الأعراف]، فكان اختيار لهذا الموعد فيه معنى أنهم كانوا مواعدين، وخصوصاً أنهم كانوا يمثلون بنى إسرائيل، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا... ﴿١٥٥﴾ [الأعراف]، أى أنهم كأنهم قوم موسى جميعهم، كان ذلك كله تشريفا وتكريما، ورفعاً لهم مما كانوا فيه من كبرة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى طعامهم فى هذه الصحراء الجرداء، فبدلهم الله بطعام مصر طعاماً أشهى وأمراً وأجدى وهو المن الذى أنزله الله فى الأشجار، والسلوى ذلك اللحم الطرى؛ ولذا قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ ولم يقل «أنزلنا»؛ لأن المن والسلوى لم ينزل عليهم دفعة واحدة، فيغمرهم فيحتاجون إلى وسائل لادخاره وحفظه، بل كان يعرض لهم على حسب حاجتهم شيئاً فشيئاً غير مقطوع فلا يحتاجون إلى الادخار، ولا يقطع عنهم فيكون الجوع، بل يجىء إليهم غير مقطوع ولا ممنوع، بل مستمر رحمة من الله تعالى.

هذا رزق الله تعالى لبنى إسرائيل فى هذه الصحراء الجرداء، وقد نهاهم الله عن الطغيان فى الرزق، فقال عز من قائل:

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿٨١﴾ ذكر الله تعالى رزق بنى إسرائيل بالمن والسلوى فى سيناء فناسب أن يبين - سبحانه - شكر الرزق، وفساد النعمة بالطغيان، فقال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهذا الأمر لبيان إباحة الطيبات، وهو فى معناه يتضمن الطلب؛ لأن الأكل مباح ومطلوب، أما إباحته فلتخير ألوانه الطيبة، وأما طلبه فلمنع الإنسان نفسه من الأكل فيهلك، والطيبات لا بد لها من أمرين: أن تكون كسبا حلالا طيبا لا خبث من طريق الحصول عليه، وأن يكون غير مستقذر كالميتة ولحم الخنزير، والدم المسفوح، وغير ذلك من المحرمات التى حرمت لأنها رجس مستقذر؛ ونهى سبحانه عن الطغيان فى الرزق، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، أى لا تتجاوزوا الحدود فيه، وتجاوز الحدود فيه يكون بضروب شتى، منها: أن يطلبه من غير حلّه، ومنها: أن يأكل السحت والربا، ومنها: أن يمنح الفقير من حقه، ومنها: أن يسرف

فيه إسرافاً، وأن ينفقه في غير موضعه، ومنها الشح والبخل بأن يكون عبد الدينار والدرهم، فكل هذه مجاوزة للحد، وطغيان، وإن الذي يترتب على الطغيان في الرزق وعدم شكره غضب الله تعالى فقال: ﴿فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ «الفاء» فاء السببية، أي بسبب الطغيان ينزل بكم غضبي، وهو أعظم ما يفقد الإنسان معاني العلو، فغضب الله يبعد الشخص من سماء الرفعة، ويهوى في مكان سحيق من المقت، والبعد عن الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي فقد نزل إلى الهاوية السحيقة البعيدة الغور، ومن سقط في الهاوية فإنه يهلك لا محالة، ولذا قالوا: إن ﴿هَوَى﴾ معناها «هلك»، ولذلك فسر الزجاج ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ بمعنى: فقد هلك.

وإن الله تعالى يقرن رحمته بعذابه، ومغفرته بعقابه، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٢)

﴿تَابَ﴾ عما يرتكب من كبائر وهفوات، فالتوبة ضراعة إلى الله، ورجوع إليه، وهي ذاتها عبادة، وإن الله يقبل التوبة من عباده، والتوبة تجب ما قبلها من معاصي، كما أن الإيمان يجب الكفر، و﴿آمَنَ﴾ معناها ملأ الإيمان بجلال قلبه، بأن قرن توبته بإذعان مطلق لله تعالى، وكان عمله كقلبه، ولذا قال: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بأن قام بالعبادة مخلصاً محتسباً، وعمل النافع للناس، وكان يحب الشيء لا يحبه إلا لله.

﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ الاهتداء أن يعلو إلى درجة المهتدين الذين يخلصون عن الداني في عقولهم ونفوسهم، ويكونون ربانيين لا يعرفون إلا ربهم، ويطرحون كل أمور الحياة وراء ظهورهم إلا أن يكون خيراً أمرهم به، وإن الوصول إلى هذه الدرجة وصول إلى مرتقى عال، ولذا كان العطف بـ «ثم» التي تدل على البعد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (٣١) [فصلت].

عبدوا العجل !!

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ
 قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
 رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
 السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسِفًا قَالَ
 يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ
 الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ
 مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا
 أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
 فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
 وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
 يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ
 يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
 أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾

إن هذا هو الدور الأخير من رسالة موسى عليه السلام وهو رعايته لبنى إسرائيل، لقد قيل في الروايات: إن عددهم كان ستمائة ألف، ولكن تربيتهم على العقيدة السليمة عقيدة الوحداية أخذت جهدا كبيرا، ثم إزالة ما علق براءوسهم من

أوهام المصريين أخذ أمدا طويلا. وتربيتهم على النخوة والقوة والعزة كان فوق طاقة موسى عليه السلام، ولذا جعلهم الله يتيهون في الأرض أربعين سنة، ليتربوا فيها على النخوة والبأس والعزة، إن كان فيهم استعداد لها ولتكاليفها، وقال الله تعالى لكليمه موسى مواسيا: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) [المائدة].

أول صدمة لموسى الكليم فتنة العجل، ذهب موسى إلى جانب الطور الأيمن، كما وعده ربه ليتلقى التوراة، وذهب فرحا عجلا؛ لأنه على شوق لمخاطبة ربه، ولأن المسارعة إلى وعد الحبيب ترضيه، وترضى نفسه، وفي غيبة موسى عن قومه لم يكن وقتا طويلا، فتن بنو إسرائيل بعبادة العجل، وربما يكون موضع عتب بهذه المسارعة، لما اقترن بغيبته، وكل شيء بإرادة الله، ولكن على المرشد الهادي أن يراقب النفوس وموضع ضعفها، وموضع الضعف عند الإسرائيليين هو معاشرتهم لأهل فرعون، هو اتباعهم طريق هؤلاء في أوهامهم وعاداتهم وتقاليدهم.

قال الله تعالى لكليمه، وقد جاء مسارعا إليه في مواعده:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (٨٤).

«الواو» وصلت ما بعدها بما قبلها لكمال السياق، وليبان أن الفتنة جاءت بعد الإنعام بالإنجاء، وتنزيل المن والسلوى، والمواعدة على خطاب الله تعالى لموسى، وهذا فيه تقريب لما يقع منهم من بعد، إذ قرنوا تلك النعم السامية بالكفر لا بالشك، وبذلك يتصور القارئ ما سيكون منهم.

كان موسى عليه السلام قد خرج من قومه بمن يمثلونهم، وهم السبعون المختارون الذين يمثلون أسباطهم، ولكنه ككل رئيس قد يسبق من معه يتعرف أمر اللقاء؛ ولأنه في شوق للأنس بكلام ربه؛ ولأنه يرى أن الله تعالى سيخاطبه بشرائع قد بعث بها.

سبقهم إلى الموعد، ولكن الله تعالى قدر ميقاتا محدّد الابتداء والانتهاء لمصلحة قدرها ولم يكن تقديره لغير أمر قدره سبحانه، وإن لبث موسى في قومه قد قدر الله فيه دفع ضرر، والله لا يخلف الميعاد، وكل شيء بقضاء الله، وبتقديره، وفي علمه المكنون فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون.

عتب الله تعالى على كلمته المختار تعجله في ذاته، وعتب عليه أن سبق قومه وتركهم، وهم يحتاجون إلى رعايته ومراقبة خواطرهم ببصيرته وهم قريبو عهد بمعاشرة الفاسقين.

عتب الله تعالى على كلمته هذا، وكان على موسى أن يعتذر عما كان منه، والله عليم بذات الصدور قال: ﴿هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَثَرِي﴾ أشار إليهم، ولم يأت بـ «كاف» الخطاب تأديبا مع الله^(١)، ولأنه سبحانه العليم، فلا يحتاج إلى تنبيه بها إذ هو يخاطب العليم الخبير، ومعنى ﴿أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَثَرِي﴾ أنهم على مقربة مني، ولا يضلون الطريق؛ لأنهم ورائي، ثم قال معتذرا عن تعجله: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾، أي كان الدافع على عجلي إليك محاولتي إرضاءك حاسبا أن المسارعة إليك ترضيك، وقال كلمتين تقربا إليه سبحانه ومشيرا بهما إلى رغبة في ذلك التعجيل وهو أنسا بكلامه معه.

الكلمة الأولى هي ﴿إِلَيْكَ﴾، أي عجلتي كانت إليك، وأنت القريب إلى نفسي آنس بكلامك، والكلمة الثانية هي ﴿رَبِّ﴾ أي القائم على نفسي، ومن صنعتني على عينك فإني أسارع إلى من صنعتني على عينه جل جلاله.

وقد نبهه سبحانه إلى مغبة تعجله فقال عز من قائل:

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥).

فاعل «قال» هو الضمير العائد على الله جلّت قدرته، والفاء للسببية، أي بسبب غيبتك وعدم قيامك بحق الرقابة النفسية عليهم التي مكناك منها، ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي اختبرناهم لتبين مقدار إراداتهم وعقولهم ومداركهم وأضاف

(١) أي لم يقل: هم أولئك، ولكن قال: (أولاء).

الاختبار الذى سماه «فتنة» إلى نفسه، وهو العليم بكل شيء قبل وقوعه، وبعد وقوعه، فالأزمان تكون بالنسبة للناس لا بالنسبة للذات العلية.

وعبر سبحانه فقال: ﴿قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أضاف القوم إليه استحاثا لهمته، وقوة فى عتابه، أى أنهم قومه الذى جاء لإخراجهم من طغواء فرعون، ولكن لم يزل الأثر السيئ فى عقولهم فطغى بتعاليمه عليهم نفسيا، وإن خلعوا الربة، وأزالوا رق الأجساد، فلم يزيلوا رق النفوس، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، أى أوقعهم فى الضلال، والسامرى شخص انتقل معهم من مصر، كان يجيد النحت والتصوير، ولم ينص على أنه من الإسرائيليين أو أهل مصر الأصليين، ويغلب على الظن أنه إسرائيلى اندمج مع المصريين وعرف صناعاتهم، وقيل: إنه كان هنديا يُعبد البقر، ثم اعتنق ديانة بنى إسرائيل.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفْتَالُ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي﴾ (٨٦).

«الفاء» تفيد الترتيب والتعقيب، ففور أن بين الله تعالى ما كان بقومه رجع إليهم فى حال غضب وحزن، ولذا قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ والقوم هنا هم الإسرائيليون جميعا الذين كان منهم الذين عبدوا العجل ولم يكونوا عددا قليلا، بل كانوا كثيرين، وإن لم يكونوا الأكثرين، والغضب هو الثورة النفسية للمفاجأة بأمر مؤلم لم يكن يتوقعه، والأسف: الحزن الذى يسكن النفس بسبب أمر غير مقبول، ولا يوجد له أى مبرر، والحزن من شأنه أن يوجد فى النفس كآبة، وهما وغما، وكذلك كانت حال موسى عليه السلام عندما علم من ربه أن قومه عبدوا العجل، ولكن الحكمة النبوية توجب ألا يسترسل فى الكآبة والغم، والانفعال، بل لابد أن يعالج الموقف باستنكار شديد وحزم الشر واجتثائه من أصله، وكذلك فعل، فقال لاثما مستنكرا:

﴿يَا قَوْمِ﴾ هذا نداء مقرب بأنه منهم يؤله ما يضلهم، ويفرحه ما يكون خيرا لهم ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أى ألم يعدكم ربكم بخيرى الدنيا والآخرة، وهو

وعد حسن يطمئنكم فى حاضرکم وقابلکم، ولم يذكرهم بحاضرهم الذى هم فيه، وما كانوا عليه فى الماضى، وحتى لا يصل اللوم إلى المجافاة، ولأن ذلك إنعام عليه وعليهم، ومنزل النعم وهو الله تعالى هو الذى يذكرهم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ استفهام إنكارى، أى لقد وعدكم ربكم وعدا حسنا مع التثديد الحفى، وعبر بـ ﴿رَبُّكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه وعد محقق لا محالة. لأنه وعد من الله ربكم الذى خلقكم، وهو القيوم على كل أموركم ومالكم نسيتم هذا الوعد ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ العهد أى الزمن، و«الفاء» هنا سببية، والمعنى فأطال عليكم الزمن فنسيتم الوعد الذى وعده الله، والمعنى أسبب طول الأمد نسيتم وعد ربكم؟ وهو توبيخ شديد، فإن الزمن لم يطل، بل كانت الأحداث متلاحقة لا تراخى فيها حتى يكون النسيان، فقد أنجاهم ربكم، وأغرق فرعون، ثم كان الوعد من الله باللقاء، وكانت فتنة العجل على قرب من ذلك.

ثم كانت الجملة الاستفهامية المعادلة ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي﴾ نزل بهم، رفقا بهم من المعاندة لله تعالى، وهى مرتقى صعب لا يريد أن يكونوا فيه، إلى المعاندة له هو، وسارع فتبين أنها هى الأخرى، مغاضبة لله تعالى؛ لأنه عليه السلام لا يتكلم إلا عن الله، ﴿أَمْ﴾ استفهامية للمعادلة، و﴿أَرَدْتُمْ﴾ هنا ليست متجهة إلى أن يحل بهم غضب من ربهم، إنما إرادتهم منصب على السبب الذى يفضى إلى حلول غضب الله تعالى عليهم. وفى هذا إشارة ليست خفية إلى أن ما ارتكبه من عبادة العجل إغضاب لله تعالى، وكفر به، وإن ذلك يؤدى لا محالة إلى أن يحل بهم غضب الله تعالى، وعبر عن الذات العلية بقوله: ﴿مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أنه هو الذى نجاهم من فرعون وأغرقه، وكلاهم بكلاءته ونزل عليهم المن والسلوى.

وقال عن غضب الله بأنه يحل عليهم، والمعنى آثاره من إصابتهم بالبلاء من قتل وذبح وصغار فى الأرض، وقد ذاقوه وتمرسوا عليه فى حياتهم فى مصر، وهذا حث على طلب رضا الله تعالى، بدل أن يسيروا فيما يوجب أن يحل بهم غضبه.

وقد رتب الله تعالى حلول غضب الله على إخلافهم موعده فقال: ﴿فَأَخْلَفْتُمُ مَّوْعِدِي﴾ الموعد هنا مصدر ميمي بمعنى الوعد، وإخلاف الوعد ألا يقوموا بموجبه، وقد وعدوا موسى بالاستقامة والإيمان بالله وحده وترك الأوهام الباطلة التي سيطرت عليهم بسبب مقامهم في أرض فرعون.

وإن هذا الموعد بلا ريب يؤدي إلى إغضاب الله تعالى؛ لأنه يكون إشراكا وتفريطا في جنب الله، فلا بد أن يحل عليهم غضب الله تعالى وأن يعاد إليهم ما ذاقوه من قبل وعرفوه، أجابوا معتردين عن فعلتهم الكبرى.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧).

نفوا أنهم أخلفوا موعدهم مختارين مريدين، بل كانوا تحت تأثير إغراء شديد وتضليل كبير، وعبروا عن فقدهم لإرادتهم الحرة الخالية من الإغراء بقول ﴿بِمَلَكِنَا﴾ قرئت بفتح الميم ويكسرهما وبضمهما^(١)، والمراد أنهم ما أخلفوا وعدك في الوحداية واستقامة النفس والفكر بإرادتهم الحرة المختارة، ولكن بإغراء.

وفي هذا اعتراف بالجريمة، واعتراف آخر بأنهم ارتكبوها وإرادتهم مسلوبة بإغراء شديد، ولو كانوا أمام قاضي من قضاة الدنيا لأخذهم باعترافهم، واعتذارهم بأنهم كانوا مغرورين ومخدوعين لا يخليهم من العقاب بل يقرره عليهم وبشبهته، فالعبرة في الجريمة بالاختيار، وقد كان الاختيار من غير إكراه ولا يُعد الغرور إكراها.

وخصوصا أنهم هم الذين قدموا سبب التضليل، وقالوا: ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

الاستدراك هنا استدراك من اعترافهم يتضمن الاعتذار عن ضعف إرادتهم، وضلال نفوسهم، وهو اعتذار سخيף كشأن بنى إسرائيل في كل الأزمان ﴿حَمَلْنَا﴾ هذا فعل مبني للمجهول لم يذكر من الذي حملهم هذه الأوزار، إنما هم الذين

(١) قرأها بفتح الميم: نافع وأبو جعفر، وعاصم غير جيلة، وبضمها: حمزة والكسائي، وخلف وجيلة، وقرأ الباقون بكسر اللام. غاية الاختصار: ٥٧١/٢.



حَمَلُوهَا أَنفُسَهُمْ، وهناك قراءة (حَمَلْنَا)^(١)، والأوزار جمع وزر، وهو الحمل الثقيل، ويصح أن يكون حمل بعضنا بعضاً ما فى عهده من زينة القوم أى من ذهبهم، وكون الأوزار أحمالاً ثقيلة لا تخلو من إثم؛ لأن الوزر يطلق على الإثم باعتبارها حملاً ثقيلاً على النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت]، وهذه الأحمال كان فيها آثام؛ لأنها من زينة بنى مصر كانوا استعاروها منهم، فما كانوا يملكون مثلها لإيذاء فرعون لهم، وإذلالهم فأخذوا يكثرُونَ من الاستعارة عندما أذن لهم بالرحيل، وقوله ﴿فَقَدْ قَنَاهَا﴾ أى ألقيناها، ولذا قالوا ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾، وتدل الروايات على أن قذفهم لها كان فى النار لتصهر، وفعل السامرى مثلهم، وقد كان دبر ذلك معهم، ويروى أنه قال لهم: إن موسى يلومنا على ما أخذنا من زينة القوم فلنلقها فى النار لتصهر ولا يراها.

وإن هذا يدل على أنه كانت إرادة، وإنه كان إصرار على الجريمة، وأنهم سلكوا الطريق إلى أسبابها من أوله إلى آخره.

وإذا كانت الجريمة عبادة العجل، فقد وضعوا السبب الأول لصناعته، وتولى كبر الصناعة السامرى ودعاهم إلى عبادته فعبدوه.

وقد ذكر سبحانه ما صنعه السامرى فقال عز من قائل عنه:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَنَسِي ۖ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضِراً وَلَا نَفْعاً﴾ (٨٩).

عندما ألقى زينة القوم من الذهب، وكانت أحمالاً ثقالاً، وارتكبوا أوزاراً كباراً لأنها كانت عاريات اغتصبوها، وأموالاً سرقوها؛ لأن جحود العوارى يعد من السرقات. يقول المفسرون إلا من أدركوا العصر الحاضر، وعلموا أخبار المصريين وصناعتهم، قالوا: إن السامرى رأى الأمين جبريل بعد أن صنع العجل، أخذ قبضة من الأرض التى سار عليها جبريل أو فرسه فألقاها فى المصنوع فصار يخور كما يخور العجل، وسرى فى جسمه ماء الحياة، فصار جسداً له خور.

(١) قراءة (حَمَلْنَا) بالبناء للفاعل، وتخفيف الميم: أبو عمر، وعاصم، وحزمة، والكسائي، ويعقوب، وخلف - غير حفص ورويس - وقرأ الباقر بالبناء للمجهول، وتشديد الميم. غاية الاختصار ٥٧١/٢.



ذلك كلامهم وروجوه بأميرين: بأنه جسد أو له جسد، والجسد لا يكون إلا للجسم الحى، فلا يقال عن الحجر إنه جسد، كما لا يقال عن أى جماد إنه جسد، والأمر الثانى: قوله تعالى: ﴿لَهُ خُورٌ﴾ والخوار لا يكون إلا لعجل حى، فما الحيلة فى هذا، لقد أعملوا تفكيرهم مستعينين بالإسرائيليات التى حشرت فى كتب التفسير فانتهوا إلى هذا القول.

ونحن نرى أن ذلك القول غير معقول، فإن ملائكة الله تعالى لا تسير فى صورة حى إلا بأمر من الله، وإلا لنبى، وما كان السامرى نبيا، وما كان ثمة دليل منقول يقرر ذلك القول، وما ادعاه السامرى عندما ناقشه موسى فى هذا البهتان، وإنه عدَّ ذلك الإفك من تسويل النفس وتزيينها الباطل، فكيف يكون تزيينا للباطل، ويكون بتتبع آثار جبريل، وأيضا فإن الحياة تكون بإذن من الله تعالى، ومع ذلك يقول السامرى ﴿... وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦).

وإن الأمر المعقول أن نقول: إن السامرى كما ذكر ألقى الذهب هو ومن معه ذهب من زينة القوم من بنى إسرائيل ألقوها فى النار فصهرت حتى صارت سائلا، وبما تعلمه من الصناعات المصرية صنعه على شكل عجل، ووضع فى مهب الرياح فدخل الهواء فى خروقه بصوت الريح فى أجوافه - فصار له خوار كخوار الثور، وما زلنا نرى فى لعب الأطفال مثل هذه الأصوات فى اللعب.

وما إن رأى الإسرائيليون هذا حتى قالوا يخاطب بعضهم بعضا ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾، أى السامرى، ﴿فَنَسِيَ﴾ هنا معناها ترك، فأطلق النسيان وأريد تركه، ونسب النسيان إليه مع أن عباد العجل جميعا تركوا أو نسوا عبادة الله وحده، ونسوا الحق؛ وذلك لأنه هو الذى أخرجه بصناعته، وفى التعبير بـ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ ما يشير إلى أنه صنعه صناعة.

بقى أن نرد على من فهم أن الجسد لا يكون إلا جسما حيا يجرى فيه الدم فنقول: إن الجسد والجسم لهما معنى يشتركان فيه، ومعنى يختص به الجسم، فالجسم يقال على كل الأشياء ما يتجسد ويصور، وما لا يتجسد ولا يصور فيقال:



إن الماء جسم ولكن لا يقال له جسد، وقد ذكر ذلك الراغب في مؤلفاته، فقد جاء فيه في مادة جسد ما نصه:

«الجسد كالجسم لكنه أخص، قال الخليل: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، وأيضا فإن الجسد ما له لون، والجسم يقال لما لا يبين له لون كالماء والهواء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ...﴾ (٨) [الأنبياء]، يشهد لما قال الخليل. وقال: ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٣٤) [ص]، وباعتبار اللون يقال للزعفران جساد وثوب معجد بالجساد».

وأظن هذا واضحا في أن الجسد يستعمل كالجسم، والجسم أعم من الجسد. فقوله تعالى: ﴿جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾ لا يمنع أنه جسم لا حياة فيه، وربما كان التعبير بالجسد مناسبا لقوله تعالى ﴿لَهُ خُورًا﴾ ولكنه جسم لا حياة فيه. ولذا قال تعالى في بيان أنه ليس فيه حياة قط: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩) الفاء للإفصاح، أى أنهم قالوا ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ وليس له من صفات الألوهية شيء، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ و«الفاء» مؤخرة عن تقديم لأن الاستفهام له الصدارة، والتقدير فالأ يرون أنه لا يرجع لهم قولا، أى يرد لهم قولا ولا يجيبهم فى قول، و«أن» هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الحال والشأن، ورجع القول إجابته فهو لا يرد إجابة سائق يسوقه، ولا قائد يقوده، ولا يعرف قولا كما يعرف الحيوان، فليس فيه أمر يدل على حياته حتى يعد حيا فى أحياء الحيوان، وإذا كان فإنه لا يمكن أن يكون إلها، وإذا كان حيا فلا يمكن أيضا أن يكون إلها، لا يمكن أن يكون إلها لأنه لا ينفع، فهم أخطئوا لأنهم عدوه حيا، وكفروا لأنهم عبدوه إلها، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

موسى وهارون وبنو إسرائيل والسامري

قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٣﴾ أَلَّا تَتَّبِعَ
 أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِحِجَّتِي وَلَا بِرَأْسِي
 إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
 قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
 بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ
 فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
 فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
 مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
 عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

كان موقف هارون وهم يتدلون من مرتبة التوحيد الذي أخرجهم به موسى من ربق الاستعباد والذل إلى مرتبة الوثنية المصرية لتأثرهم بها مدة إقامتهم الطويلة في مصر ضعفاء مستكينين، والضعيف - كما قال ابن خلدون - شغوف دائما بتقليد القوى لحسابه أن ما فيه من قوة سببه ما عنده من أفكار وآراء، ولو كانت باطلة في ذاتها. كان هارون الذي خلف موسى في قومه موقف المرشد الهادي لا موقف الساكت الممالئ، قال لهم عند تدليهم: «يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ» قال لهم بمجرد أن رأى منهم عبادة العجل قبل أن يحضر موسى إليهم، وقبل أن يعرف لموسى أمر فتنهم «إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ» أي اختبر إيمانكم بهذه الصورة صورة العجل، والضمير في «به» يعود إلى العجل الذي هو موضع الحديث، سلبا وإيجابا شداً إلى التوحيد، وجذبا

إلى الكفر، وإنما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، أى أنه ليس له حقيقة أى حقيقة حتى تجعلوه إلها يعبد، ولكنها فتنة نفوسكم التى أثرت فيها إقامتكم فى أرض الفراعنة.

قال لهم نبي الله هارون عليه السلام ذلك فى إبانة، فما قصر فى إرشاد، ولكن لم يؤثر فيهم ذلك القول، كما لو كان من موسى عليه السلام؛ لأن موسى الأصيل فى الرسالة، وهارون رده له، فلم يكن له تأثيره، وكأنهم لا يقرون برياسة إلا لموسى، ومع أنه قرر حقيقة بدهية، وهى أن ربهم الرحمن، وطالبهم بأن يتبعوه ولا يخالفوه فى أمر، مع ذلك أعلنوا ما يفيد أنهم لا يعترفون إلا بموسى رئيسا مطاعا، وقبل أن ننقل قولهم الذى أفاد إصرارهم نقول أولا: إن هارون ناداهم بما يقربهم إليه ويؤنسهم به، فقال: ﴿يَا قَوْمُ﴾ فهذا إشعار بالرباط الذى يربطهم به نسباً، ويدنيههم إليه. ويقول ثانيا مؤكدا الفتنة التى يجب أن يتركوها، والمفتون تزول فتنته عند أول تنبيه إليها، ومع ذلك لم يتركوها ويعودوا إلى الصواب الذى يوافق العقول، ويذكر ثالثا ويتنقل من هذا الإرشاد إلى الأمر الذى يجب أن يأخذوا فيقول: ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وكان يجب أن يطيعوه لأنه رسول مع موسى وردؤه، ومخالفته مخالفة لموسى، ولكن رجس الوثنية قد ثبت فى نفوسهم، ولا ينخلع منه، و«الفاء» فى قوله ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ هى لترتيب هذا الأمر على أن عبادة هذا الصنم فتنة وأن ربكم الرحمن وحده، وعبارة ﴿وَأَنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ﴾ تفيد القصر أى لا معبود غيره لأنه الرب الخالق المدبر لشئونكم الحى القيوم.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ العكوف الإقامة للعبادة فى معبد أو مسجد أو غيره، و﴿لَنْ نَبْرَحَ﴾ من الأفعال التى تفيد الاستمرار على الحال التى هم عليها، ولا بد أن يسبقها حرف النفى، مثل أخواتها: «ما انفك»، وما فتئ، وما زال، والنفى بـ «لن» لتأكيد بقائهم على ما هم عليه من ضلال، فإذا كان هارون قد بلغ أقصى الغاية فى إرشادهم فقد بذلوا أقصى الغاية فى المعاندة، وقولهم ﴿عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ أى مقيمين على عبادته. وتقديم الجار والمجرور لإفادة الاختصار على

عبادته وحده، فلا يعبدون معه غيره، ولو كان الله الرحمن الرحيم، متأثرين في ذلك بقول السامري لهم: إن هذا إلهكم وإله موسى.

وقد ذكروا النهاية التي إليها ينتهى ضلالهم: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

هكذا كان هارون موحدًا غير ممالئ، وما كان لنبي أن يعتنق غير التوحيد، ولا أن يمالئ المشركين، ولكنها التوراة التي في أيدي اليهود جميعًا لعنهم الله تقرر أنه مالا هم وعبدوه كما عبدوه، وتلك فرية على نبي الله تليق بقوم مفترين، ولا تليق بكتاب منسوب لله تعالى، ولكن النصارى واليهود يؤمنون بذلك.

جاء موسى غضبان أسفا، ووجه اللوم ابتداء إلى أخيه يحسب أنه قصر في التوجيه والإرشاد، وما قصر، وكان كما يظهر من قوله أنه كان يرى أن يتبعه إلى المكان الذي ذهب إليه، ورأى هارون أن يبقى معهم، ويكرر إرشادهم، ويرقب حالهم: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٧) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٨)﴾.

خاطب موسى رده وأخاه هارون بتعاطف، فناداه باسمه نداء الأخوة المحبة الاليفة، ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ لهذا الضلال المافون الأحق، و«إذ» للظرف الماضي أى: ما منعك وقت ضلالهم ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾، قالوا: «لا» زائدة، ونحن لا نرى في القرآن حرفا زائدا، فهو كلام الله تعالى المنزه عن الزيادة، بل كل كلمة في موضعها، ونقول: إن المنع بمعنى الحماية، ومنه مكان منيع وحصن منيع. وفلان ذا منعة، أى حماية.

وبتخريج النص السامى على هذا المعنى يكون كلام موسى لأخيه: ما منعك ألا تتبعنى، ما الذى جعلك ذا منعة وحماية على ألا تتبعنى، ويكون المعنى العام للنص ما النصير لك جعلك منيعا على ألا تتبعنى، كأنه يقول له: إنك معاونى وناصرى، فلماذا لا تتبعنى؟ أصرت ذا قوة تحميك وتمنعك، وتجعلك منفصلا عنى، وأنت لى ردة ومعاون غير ممانع، ولذا أردف هذا بقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فباعتمالك وحمايتك من غيرى عصيت أمرى، وقد قال الأصفهاني في مفرداته: ويقال المنع فى الحماية، ومنه مكان منيع، وفلان

ذو منعة أى عزيز تمتنع على من يرومه قال: ﴿... أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٦)﴾ [النساء]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ (١١٤)﴾ [البقرة]، ﴿... مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ... (١٧)﴾ [الأعراف]، أى حملك، وقيل ما الذى حملك وحدك على ترك ذلك.

وهذا قريب مما ذكرنا فى قوله: ﴿... يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٦) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٧)﴾ والله أعلم بمراده.

وإنه فى هذه الآية يبدو متعاطفا مع أخيه أو غير منافر له، ولا غاضب عليه، وفى سورة الأعراف بدا غاضبا شديد الغضب على أخيه، فقد قال الله تعالى: ﴿... بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ [الأعراف].

هذا ما جاء فى سورة طه، وذلك ما جاء فى سورة الأعراف، والتوفيق أن أخذ رأس أخيه يجره كان فى فورة الغضب، والرفق والتعاطف بعد سورة الغضب وحدته، وقد هداً وسكن وعلم أن هذه نفوس بنى إسرائيل.

ولقد أجاب هارون أخاه موسى بعد أن هداً واطمأن، وذهبت عنه حال المفاجأة التى فاجأه بها قومه:

﴿قَالَ يَا بَنُؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾.

فى هذا إشارة إلى أنه أخذ بلحيته، كما ذكر فى سورة الأعراف وقت فورة الغضب، وكان ذكرها على لسان هارون نوعاً من عتب رفيق لطيف فى مودة واصله غير مفرقة.

كان النداء لأخيه ﴿يَا بُنَوُّمُ﴾ وفهم من هذا بعض المفسرين أنهما كانا أخوين لأم، وإلا قال: يا بن أبي، وإنا لا نحسب أن هذا يدل على ما قالوا، وإنما يدل على كمال الحنو، وكمال العطف والمودة والرحمة الغافرة الراضية، فإن هذا يشير إلى أنهما اجتمعا على ثدى واحدة ودرّ عليهما غذاء واحد، وجمعهما عطف أموى واحد وأنهما تغذيا عاطفيا بغذاء واحد، فإذا كانا قد انفصلا أحياء، فإن كليهما قطعتان من أم واحدة، وأحسب أن ذكر الأب الواحد لا يتضمن كل هذه المعانى، ولذا قال النبى * لرجل سأله قائلا: يا رسول من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قالها ثلاثا، وفى كل مرة يقول: «أمك»، حتى إذا قال الرابعة: قال: «أبوك»^(١).

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ هذا نهى ليس للزجر، ولكن للمحبة وللحق، وللبراءة من الاتهام والمؤاخذه، وقوله ﴿وَلَا بِرَأْسِي﴾ يحتمل أنه كان قد أخذه فى غضبه من شعر رأسه، ويحتمل أنه ذكر رأسه كناية عن تفكيره وعمله، ويكون بذلك كنى عن عمله وقوله برأسه التى يفكر بها ويرى ويصير. وعلل سكوته بعد إرشادهم وعدم اللحاق به أو استعمال العنف فيهم بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى إني لم أعنف معهم، ولم ألحق بك بل أخذتهم بالرفق خشية أن يتفرقوا، وخشيت أن تقول لى إني أوقعت فرقة بينهم، وفى الفرقة يكون التلافى والمقاومة، فيقاوم كل فريق الآخر فى قوله، فتكون المجادلة، ثم المحادة، ويضل فريق، ويهتدى فريق، وإنهم بلا شك قد انقسموا: فريق ضل، وفريق هداه الله، فلو قاومت الضالين، لكانت الحدة والمنارعة والمهاترة، فتركتهم حتى تجىء أنت من لقاء الله تعالى، فيكون معك نوره، فتكون الهداية.

وخشيت أن تقول ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى لم تلاحظ قولى اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، وإنه بلا ريب لو تفرقوا وكنت سببا فى هذا التفرق لكنت من المفسدين، فالتفرق فى ذاته فساد وضلال، وإذا كانوا قد ضل بعضهم فهدايتهم ممكنة وعودته إلى الحق قريبة، ولكن عند التفرق يكون التعصب، وتكون



الفتنة بينهم فى جموعهم، وهى تزيد فتنة العبادة حدة، فلا يمكن حينئذ أن يجتمعوا، إذ تتسع هوة الافتراق.

وبعد أن تعاتب الأخوان وتراضيا، وطلب موسى أن يغفر الله له ولأخيه اتجه إلى مصدر الداء، فقال له:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾.

قال موسى متجها إلى السامرى الذى أحدث هذه الفتنة الطحناء، وأوجد ذلك الخطب الخطير فى قوم يعبدون الله تعالى، وقد رأوا آياته فيهم أنفسهم، فكانوا أحق الناس بتوحيد الله سبحانه وتعالى.

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ «الفاء» للإفصاح، أى إذا كان هذا هارون الرسول معى، فما شأنك الخطير الذى كان فى ذاته خطبا، وناداه باسمه ليفيض بنفسه بين يديه، ولا يرهبه ولا يفزع، فلا يكشف كل ما فى نفسه.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾، أى فطنت لما لم يفتنوا، فإن الإبصار يكون بالعين البصرة، والبصر الذى هو مصدر يبصر يكون بالقلب والعقل والفكر، وقد كان السامرى فطنا يعلم صناعة التماثيل، وكان له فى ذلك مهارة فائقة كالمختصين فى هذه الصناعة، وقد قيل إنه صنع من قبل تماثيل من شمع أحدهما لثور، والآخر لثورة، ولعله صنعهما أمام موسى لينعلم موسى مقدار ما بصر به من صناعة التماثيل.

وقوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ والاثر ليس هو اثر جبريل، ولا فرس جبريل، ولكنه اثر معنوى، والرسول ليس هو جبريل، فلم يجئ ذكر لجبريل فى هذا الموضوع حتى يراد بالمعروف بـ «أل»، إنما الرسول الذى تكرر ذكره بالرسالة هو موسى كليم الله، واثر موسى كليم الله تعالى هو دعوته إلى التوحيد، وإلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فذلك هو اثر موسى وهو اثر كل رسول

برسالة سماوية من الله تعالى ﴿فَبَذَلْنَاهَا﴾، أى ألقاها فى مهب الريح، كما تلقى النواة وترمى، واستبدل بالتوحيد الشرك والكفر، وأن يكون على دين من يعبدون البقر لعنهم الله تعالى، وقد بين بعد ذلك أن هذا من هوى النفس وليس قائما على منطق من عقل، ولذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾، أى كذلك الذى رأيتم من فتنة بنى إسرائيل بهذا التضليل زينت لى نفسى، ومعنى التسويل أنه تردد فى هذا الأمر بتساؤل نفسى حتى أختار ما أختار وزينته وحسته. كان لابد له من عقاب يكون به عبرة فى الدنيا، وعقاب الآخرة ثابت له.

ولذا ذكره موسى الكليم بعقاب فى الدنيا، وترك عقاب الآخرة لربه الأعلى.

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧﴾، «الفاء» كما ذكرنا للإفصاح عن شرط مقدر تقديره: إذا كان هذا ما صنعت، فاذهب إلى آخره، وقد ذكر له عقابين كما أشرنا عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، فأما الدنيا، فقد قال فيه: ﴿فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أى فإن الذى يبقى لك فيه أن ينفر الناس منك، وأن تكون فى حال من يمسك فيها يؤلمك أشد الإيلام، فإذا لقيت الناس قلت: لا مساس، أى لا تمسونى، وإن ذلك يدل دلالة قاطعة على أن المساس يؤلمه، فهو مرض يصاب به، ويكون عبرة بين الناس بآفته.

وأقوال الزمخشري تتجه إلى أن قوله لا مساس منع من مخالطة الناس، حتى لا يجرحهم إلى الضلال والفتنة، وقال فى ذلك: عوقب فى الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كلياً، وحرّم عليه ملاقاتهم، ومكالمتهم، ومبايعتهم، ومواجهتهم، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً، وإذا اتفق أن يماس أحدا رجلاً أو امرأة حم المماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم، ومن الوحش النافر فى البرية، هذا هو عقاب السامرى فى الدنيا نفرة من الناس، ونفرة منه لمرض ألم به، ومنع من الناس، ونرى الأول كما أشرنا.

وأما العقاب الآخرى فقد ترك أمره لله تعالى، وقال له موسى ﴿وَأَنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ﴾ أى أنه جاء لا محالة، وهو يوم البعث.

واتجه موسى إلى مادة الجريمة بعد أن اتجه إلى المجرم، وهو صورة العجل، أو تمثاله فقال: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ أمره موسى أن ينظر إليه لبيان أنه ليس شيئاً يعبد، فإن المعبود باق يدوم ولا يفنى، وأمره بالنظر إليه مع التعبير بأنه إلهه الذى يعبده تهكما به، وبمن اتخذه إلهاً ﴿الَّذِي ظَلْتَ مِنْهُ مَخْفَفًا﴾ ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾، أى ظللت مقيماً عابداً لله وحده ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ يقال حرق الشيء إذا برده بالمبرد، حتى صار ذرات تنسف، ومن ذلك قولهم: يحرق الأرم، وإنه بعد برده ينسف فى البحر نسفاً أى يلقي فى البحر ذرات غير متجمعة ولا مجموعة، ومن الخطأ أن يفسر ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بمعنى الإحراق بالنار؛ لأن النار تذيب الذهب وتصهره، ولا تجعله ذرات تنسف، ولأن اللغة تفسر التحريق بالبرد بالمبرد، وهو المعقول المناسب للمقام، والمتفق مع السياق وكلمة النسف.

الواحد الأحد، وعاقبة جحوده

إِنَّمَا

إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا

ذِكْرًا ﴿١٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا

﴿٢٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يُفْخَخُ

فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ ذُرْقَا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ مَنَّا أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

بين الله سبحانه بعد أن كشف موسى لبنى إسرائيل بطلان عبادتهم تمثال
العجل الذى عبدوه، وما نزل بمن ابتدع عبادته، ومآل ذلك التمثيل، أخذ يبين المعبود
الحق، والإله الذى توافرت فيه أسباب الألوهية مخاطبا الناس أجمعين قريشا وغيرهم
من الخليقة وبنى إسرائيل وسواهم، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ أكد سبحانه وحدانية الألوهية فى الله جل جلاله بثلاثة
مؤكدات أولها: ﴿إِنَّمَا﴾ فإنها تدل على الحصر، أى أنها تدل على أنه لا إله غيره،
والثانى: بتعريف الطرفين ﴿إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ جل جلاله فالهكم معرفة، والله جل جلاله
معرفة. والثالث بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا التأكيد كان من مقتضى الحال؛ لأنه
تعقيب على قول ناس ضلوا ضلالا بعيدا، حتى بلغ بهم الوهم أن صنعوا تماثلا
بأيديهم، وعبدوه، فكان فعلهم بهتانا عظيما بهتوا به العقول والمدارك، وعندما يشتد
قول الباطل يكون من مقتضى الحال أن يؤكد بيان الحق ليمحو الأوهام.

ولقد ذكر سبحانه بعد ذلك السبب فى أن الله وحده هو الإله، فقال: ﴿وَسِعَ
كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أى وسع علمه كل شيء فهو سبحانه وتعالى يعلم الوجود كله من
مبتدئه إلى منتهاه ومآله ولا يكون ذلك إلا للمخالق المدبر سبحانه وتعالى، فالله تعالى
كان الإله وحده؛ لأنه خلق كل شيء وحده، فلا يشاركه فى خلقه أحد، وهو بهذا
ليس من نوع ما خلق، بل هو مخالف لكل الحوادث التى أنشأها، وغيره منها، فهو
بمقتضى حكم العقل المعبود وحده، ولا معبود سواه؛ لأن ما عداه حجرا أو شخصا
أو تماثلا ناقص محتاج إلى غيره، ولا يعبد إلا الكامل واجب الوجود المطلق.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿عِلْمًا﴾ فيه تمييز محول من فاعل، أى وسع علمه كل شيء، وكان ذلك التحويل من فاعل إلى تمييز لتمكين نسبة العلم إليه سبحانه إذ إن فى الإبهام فى ﴿وَسِعَ﴾ وبعده البيان تمكين فضل.

ويشير سبحانه وتعالى إلى حكمة القصص وعبرته فيقول عز من قائل:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ﴾ (٩٩).

الإشارة إلى القصص الذى قصه الله تعالى من أخبار موسى وفرعون وبنى إسرائيل وكيف سيطرت الأوهام ودافعت العقول حتى حلت فى العقول، وكيف طغى فرعون وتجبّر وذبح واستضعف، وكيف نجى الله بنى إسرائيل من عذابهم، ثم كيف غلب الوهم القديم فدخل العقول بعد فضل الله عليهم.

و﴿كَذَلِكَ﴾ فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَقُصُّ﴾ والتخريج يكون هكذا: ونقص عليك من أنباء ما قد سبق مثل ذلك القصص الكاشف المبين لمنايات الضلال عند من يضلون، وينابيع الهداية التى يستقون منها الحقائق سقيا.

والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الخطير ذو الشأن العظيم، وأى نبأ أعلى من العبرة من أنباء فرعون ذى الأوتاد، وموسى كليم الله، وبنى إسرائيل الذين كانوا المثل فى طرق الهداية والتمرد عليها، والانفلات منها بأوهامهم التى يتوهمونها.

وقال سبحانه: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ «من» للتبويض، أى بعض أنباء ما قد سبق، وأكد الله تعالى سبقهم بـ «قد» ليتعلم أهل مكة منها، وأنهم ضلوا كما ضل هؤلاء وستكون العقوبة عندهم كالعاقبة التى حلت بهم، وأنه ينزل بهم ما نزل بغيرهم، وبين سبحانه الكتاب المنزل الذى ذكرت فيه هذه العبر، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ الذكر هنا هو القرآن الكريم؛ لأنه المذكر، وهو رسالة محمد ﷺ، وقد عظم الله سبحانه وتعالى القرآن بعبارات سامية، أولا: بأنه عطاء الله



لنبيه ﷺ وبيئته الكبرى، وذكر أنه من لدنه أى من عنده، ووصفه بأنه مذكّر، فهو ذكر القلوب ودواؤها وطبها.

ثم قال تعالى فى جزاء من يعرض عنه أو يجحد: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝١٠٠﴾. القرآن رسالة النبى ﷺ وحجته ومعجزته الكبرى، فمن يعرض عنه فقد أعرض عن رسالة ربه، وعن آياته، وعصى الله، وعصى نبيه، وبذلك يرتكب وزراً أى إثماً كبيراً ثقيلاً تنوء بحمله القوى الإنسانية، ويذهب يوم القيامة وهو حامل ذلك الإثم، ومن ذهب يوم القيامة موزوراً أثماً، فإنه يكون فى عذاب شديد.

وقال سبحانه وتعالى ﴿أَعْرَضَ﴾ ولم يقل «كفر»؛ لأن الإعراض عن فهم معانيه، وتبصرها وإدراك بلاغته، ووجوه إعجازه يؤدى إلى الجحود، لما اشتمل عليه من خيرى الدنيا والآخرة، فعبّر سبحانه بالإعراض الذى هو سبب الجحود، وأراد الجحود بذكر سببه، وذلك لتعظيم شأن الإعراض وخطره، وما يؤدى إليه من أضرار، ونقول إنه أراد بالوزر - بمعنى الإثم - عقابه لأنه يكون ثقيلاً.

ونكر سبحانه وتعالى ﴿وِزْرًا﴾ للتهويل وبيان أنه وزر خطير، وإثم عظيم، وعذابه أليم. وقد وصف سبحانه هذا الوزر فقال:

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾. الضمير فى ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى الوزر، وأثره الخطير، وهو العذاب الدائم، فأراد بالوزر عذابه كما أشرنا، وهو الجحيم، وذكر الوزر وأريد عذابه؛ لأنه يكون على قدره من الثقل، والخطر العظيم الشأن بمقداره، فكانه هو للتساوى بينهما فهو جزاء وفاق له: وهو بهذا حمل سيئ، شديد السوء حتى يتعجب منه عند الناس، ولذا قال تعالى: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾، أى ما أسوأه حملاً، لسوء مغبته، ولأنه يورث السوء، يورث نار جهنم وحسبها من سوء.

وإذا الوزر وهو الحمل الثقيل يتساوى مع نار جهنم، وهى بشس المصير، فهو وزر ثقيل سيئ، وهو يثير التعجب فى مآله، وقد حسبوه (هيناً)، وهو فى ذاته أمر عظيم.

وقد بين الله تعالى مقدمات يوم القيامة فقال تعالى :

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا

عَشْرًا ۝١٠٣﴾ .

﴿يَوْمَ﴾ عطف بيان على قوله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وإن يوم نفخ الصور هو يوم البعث الذى يقدم بعده يوم القيامة، وهنا ثلاث قراءات فى ﴿يُنْفَخُ﴾ فقرأ بالياء المضمومة والبناء للمجهول، وقرأ (تنفخ) وضمير المتكلم لله سبحانه وتعالى؛ لأن النفخ يكون بأمره، والأمر بأمر يعد فاعله، وقرأ (ينفخ) بفتح الباء بالبناء للفاعل، والضمير يعود على الله تعالى؛ لأنه الأمر، والفعل الأمر به كما ذكرنا.

و﴿الصُّورِ﴾ هو البوق، وقد قال الراغب الأصفهاني فى المفردات: «قيل هو مثل قرن ينفخ فيه، فيجعل الله سبحانه ذلك سببا لعود الصور والأرواح إلى أجسادها، وروى فى الأثر أن الصور فيه صور الناس كلهم.

وعلى ذلك يكون للنفخ فى الصور معنيان أحدهما: أنه بوق يجمع الله تعالى بالنفخ فيه الأجزاء المتفتتة فى الأرض فتعود صورها وأرواحها، والثانى: أن صور الأجساد المتفتتة فيه ينفخ فيها فتكون أجسادا حية فيها أرواحها.

وعندى أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ تصوير لجمع الأموات وبعثهم بأنه لا يتجاوز النداء كقوله (كن فيكون) كالقائد ينفخ فى البوق فيجتمع الجند بل إنه أسرع من لمح البصر، إذ يكفى النداء من رب العزة فيجتمع الجميع، وإذا اجتمع الجميع اختص الله المجرمين بالذكر، فقال عز من قائل: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾؛ لأنهم الذين كفروا وعاندوا فكان اليوم عليهم، وعاندوا واستكبروا، وقد قال تعالى: ﴿نَحْشُرُ﴾ أى نجمعهم مكدين كالأشياء لا كرامة لهم بل مهانين غير محترمين، وقال تعالى فى سوء حالهم ﴿زُرْقًا﴾، وزرقا أى أن أعينهم عميت لأن العين إذا عميت كان سواد حجبها أزرق، وذلك تشويه لها وتشويه للوجه وطمس للعين، ويقول البيضاوى تابعا للزمخشري: زرق العيون، وصفوا بذلك؛ لأن الزرقة

أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب؛ لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد، أزرق العين.

ولعل وصف الزرق بالعمى أقرب من ذلك القول، ولا نحسب أن وصفهم بزرق العيون ذما جيدا في ذاته.

ونحن نقول إن القرآن الكريم لم يجعل ﴿زُرْقًا﴾ وصفا للعيون، ولكنه وصف لأجسامهم، ولا شك أن وصفهم بأنهم زرق في أجسامهم ووجوههم وصف لهم بالهلع والفرع، وهو المقصود، فهم هلعون فزعون من هول ذلك اليوم الشديد، والزرق أقرب إلى السواد، فهي أدلّ على الفرع، ومعناه أنهم يجيئون سودا، ويتحقق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾ (١٠٦) [آل عمران].

ويقول سبحانه: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (١٠٣)

الخفت: خفض الصوت، و﴿يَتَخَفَتُونَ﴾: يتبادلون الصوت الخافت الذي يكون بين الجهر والإسرار والنجوى، فهو ليس إسرا ولا نجوى، ولكنه إعلان في خفت، وهذا التخافت من الهلع والفرع، فإن المفزوع الخائف الهالع يكون كلامه خفيضا من شدة فزعه؛ إذ لا يستطيع أعلى منه، ولأنه يحسب أنه محسوب عليه قوله.

واللبث المتحدث عنه في أى حال هو، أهو اللبث في الحياة الدنيا، أم اللبث في القبور بين الموت والبعث؟ اتجه كثيرون من المفسرين إلى أنه اللبث في الحياة الدنيا مستمتعين بلذائذها وزينتها وزخارفها، فإنهم يحسبونه زمنا قليلا ويجتمع عليهم الممان: ألم بشعور قلة متاعهم في الدنيا، والألم الثانى طول عذابهم في الآخرة، أى أنهم يدركون أن الدنيا متاع قليل بجوار عذاب الآخرة الطويل، ومهما تكن حالهم فإنهم يستقلون متعتهم التى يحاسبون فيها بجوار الشقاء الذى يلقونه فى دار الجحيم التى يخلدون فيها، ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) [المؤمنون].

ويتجه بعض المفسرين إلى أن اللبث فى القبور إلى وقت البعث، وذلك أنهم يحسبون أنهم لبثوا وقتا قصيرا ثم استيقظوا بالبعث.

وإنى أميل إلى ذلك الرأى، فإنهم وقت البعث لا يحسبون أنهم قضوا وقتا طويلا فى القبور، وذلك من قدرة الله وضعف الإنسان، والعشر هى عشر ليال بدليل حذف التاء، والشهر العربى يعرف بالليالى، وهو لغة القرآن الكريم.

هذا ما يقدره بعض الناس، ويقدره آخرون بيوم واحد، وهو أمثلهم طريقة، ولقد قال تعالى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾.

المتحدث هو الله تعالى بضمير التعظيم، فهو وحده العظيم الكبير، وقوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ أفعل التفضيل ليس على بابيه بل معناه العليم علما ليس مثله علم، ولا فوقه علم، وقوله تعالى: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى مع تخافتهم وقولهم فى خفت، بصوت غير مسموع إلا لأنفسهم ليس لأحد غيرهم، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ والأمثل هو الأعدل فى القول وفى الإدراك و﴿طَرِيقَةً﴾، أى طريقة التفكير، واتجاه إلى الطريق المستقيم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ «إن» نافية، أى: ما لبثتم إلا يوما أى يوما واحدا.

والله سبحانه تعالى أخبر عن تخافتهم فى وقت الفزع الأكبر، وأنهم فى هولهم يستقلون ما مضى عليهم فى الحياة بجوار ما يستقبلون من أيام شداد غلاظ، أو لوجودهم فى قبورهم غير شاعرين لا يعرفون الزمن الحقيقى الذى لبثوه فى القبور، وذلك دليل قدرة الله - سبحانه وتعالى - على البعث وحكمته فى خلق الإنسان.

حال الأرض والسماء والناس بعد البعث

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ

فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾

لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ

لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا

﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا الَّذِينَ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ،

قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ،

عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ

حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾

كان الإحياء في نظر السائلين سهل بالنسبة للجبال التي هي أوتاد الأرض، فقال تعالى في بيان أنها هينة عند الله لا تحتاج إلى معاناة بل ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾، والنسف يقتضى أن يفتتها ذرات تنسف، ويؤكد سبحانه نسفها، وفي تأكيد النسف تأكيد للتفتيت أيضا.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ «الفاء» عاطفة،

والضمير يعود إلى الجبال أو إلى الأرض على أنها استحضرت في الذهن عند ذكر الجبال، وقد يعود الضمير على مطوى في الذكر مستحضرا في الذهن، كقوله تعالى: ﴿... مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ... ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر] و«القاع» الأرض المستوية، و«الصفصف» الأرض التي لا نبات فيها، أى أن يوم البعث تكون الأرض مستوية لنسف جبالها وملساء لا زرع فيها، أى نزول جبالها ووهادها وزرعها البهيح،

وتكون قاعا صفصفا، ووضح سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ العوج: التعوج. والامت: التلال الصغيرة، أى تصير الأرض بعد نصف جبالها مستوية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع، ويفسر ابن عباس العوج بالميل، والامت الأثر، وروى عنه أنه قال العوج الوادى والامت الراية، وكلها معانٍ متقاربة، وتنتهى جميعها إلى أن الأرض تصير مستوية على نسق واحد، لا تعرف فيها واديا ولا راية، ولا جبلا ولا تلا، فكل ما كان من فروق تفرق بين أجزائها تزول وتبقى شيئا واحدا، وذلك تمهيد لزوال كل الفروق الذى تكون بين الأشخاص إلا أن يكون عملا صالحا، فإنه يعلى صاحبه، أو عملا سيئا فإنه يحطه ويرديه.

ويجب أن ننبه هنا إلى أمر ذكره الزمخشري فإنه قرر أن «العِوَج» بكسر العين يكون فى المعنويات أو ما لا يعرف إلا بالنظر والمقاييسات، و«العَوَج» بفتح العين ما يكون فى الحسيّات، ولكنه عبر هنا بما يدل على المعنويات؛ وذلك ليكون النفى شاملا لكل ما يكون علوا، ولو كان العلو لا يعرف بالنظر المجرد، بل يعرف بالقياس وميزان الماء، فهذا العوج وإن كان فى الحسيّات لم يعرف بالمقاييس والموازين العقلية.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾، أى يومئذ وقت نصف الجبال وأن تكون الأرض قد استوت، ليس بها بناء، ولا ديار ولا حجر ولا مدر، ولا قيعان ملساء، ولا نبات ولا شجر ولا عوج ولا أمت، فى هذا اليوم وفى ذلك الوقت يدعو الداعى فتكون الإجابة من غير اعوجاج كما أن الدعوة لا اعوجاج فيها، فالضمير فى ﴿لَهُ﴾ يعود إلى الداعى، والداعى هو ملكٌ وكُلٌّ إليه أمر دعوة الخلق التى يكون بها البعث ويستجيب لها الجميع من غير تلكؤ مسارعين مستجيبين، ونفى العوج عن الداعى باعتبار أن دعوته مستقيمة لا استثناء فيه، وعن المدعويين أيضا باعتبار أن استجابتهم مستقيمة، لا عوج فيها ويستجيبون سائرين فى خط مستقيم لا التواء فيه، فالدعوة حاسمة والاستجابة لا عصيان فيها، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ﴾ أى خضعت وبدت فيها الاستكانة والخضوع

لله تعالى فكل صوت انخفض، وكل جهازة فى القول، والخصوع ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾، وهو القهار فى ذلك اليوم، ووصف بالرحمة لأنه يوم العدل، والعدل هو الرحمة، فكل يأخذ حقه، ويؤدى ما عليه، ويحاسب على ما قدمت يده، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، إذا كان ذلك الخشوع خشية من الرحمن العادل ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، إلا صوتا خفياً، وقالوا: إنه صوت وقع الأقدام فلا حديث ولا كلام هلعا وفزعاً.

وكل إنسان مقدم على أمر أحس بخطورته، وقد اعترته هيبة اللقاء، وأحس بالحساب ولا يدرى ما الله فاعل به، فالأبرار يستقلون حسناتهم، ويعُدون أخطاءهم كبائر، والأشرار يعرفونهم الإحساس بآثامهم وعظم ما ارتكبوا، ويجدون عملهم محضراً، ويعانون ما أنكروه من قبل، وهو البعث والحساب.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝١٠٩﴾.

«إذ» فى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تشير إلى يوم ينفخ فى الصور، ويكون البعث المراد يوم الحساب، يجيء كل إنسان ومعه أعماله مسجلة عليه فى كتابه قد سجلت حسناته، وسجلت سيئاته، وجوارحه تنطق بما اكتسبت من آثام وتخطئه السيئات ويحاسب على ما عمل، ولا شفيع يشفع ولا فدية تدفع ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾، وهذه الشفاعة تكريماً للشافع وليست استنزالاً لعقاب، أو زيادة فى ثواب، فالله سبحانه يعلم الجزاء حق العلم وإنما هى إظهار لكرامة الكرماء عند الله العزيز الحكيم، الذى علم كل شىء فقدره تقديراً وما قدره فى علمه واقع لا محالة، فإن كان بشفاعة شفيع وقع ما كتب على أنه استجابة لشفاعة اختص بها كريماً مكرماً.

فالشفاعة بالإذن، ويقال للشفيع اشفع تشفع، فهى لا تكون إلا بإذن من الله ولا تكون إلا لمن ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾، كما قال فى آية أخرى، ﴿...إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ۝٢٦﴾ [النجم].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ كأنه لابد من شرطين لقبول الشفاعة وهو إذن الله تعالى، ولا يكون الإذن إلا من مرضى القول مقبول، لأنه تكريم من الله عز وجل لأجل الاستقامة، والعدالة فى القول، فلا يشفع لأثيم،

وقلنا: إن هذا يكون تكريماً للشفيع ولرحمة العباد، وهو مقدّر في علمه المكنون، فالشفاعة لا تغير مقدوراً، ولكن تنفذ المقدور، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ التكريه هنا لتعميم القول لا لتخصيصه، أى رضى الله سبحانه وتعالى له قولاً أى قول، أى كان الصادق الأمين عند الله تعالى، ولا يكون ذلك إلا لرسول من المقربين المصطفين الأخيار.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١١١).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى ما هو أمامهم ويستقبلهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أى ما خلفوه وقاموا به من أعمال، هذا تعبير قرأتى يعبر عن الأمور الحاضرة والمستقبلية بأنها بين الأيدي، وكأن فى الكلام استعارة شبه الأمور التى تقع فى الحاضر أو المستقبل بما يكون مهياً بين أيديهم يفعلونه، والأمر الماضى التى عملوها فى الماضى بما خلفهم؛ لأنهم تركوه فكان فى أعقابهم فالله علم أعمالهم، وما تستحق من جزاء، وما قدره من عقاب، وثواب وغفران ورحمة من عنده إنه هو الغفور الرحيم الودود السميع البصير.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يصح أن نقول إنه يعود على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالله سبحانه وتعالى يعلمه، وهم لا يحيطون بشيء من علم هذا، فالقابل مغيب عنهم لا يعلمونه، والحاضر لا يعلمونه علم إحاطة، بل علم الإحاطة عند الله وحده، وكذلك ما خلفهم لا يعلمونه علم إحاطة، والمراد بعلم الإحاطة علم البواعث والغايات والنافع والضار، ونتائج الأفعال وثمراتها وحقائقها وكنهها وما تسره الأنفس وما تعلنه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ هو كقوله تعالى: ﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ...﴾ (٢٥٥) [البقرة].

ويصح أن نقول: إن الضمير يعود على ذى الجلالة،؛ لأن الله أعلى من أن نعرف ذاته، إلا بما يعرفنا به من صفات، والاحتمال الأول أقرب، وبه نقول، والله أعلم.

﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (١١١).

﴿عَنْتِ﴾ من عنا يعنو إذا خضع، وخشع وخنع، ومنه قولهم عن الأسير أنه العاني، أى الخاضع وهذا الخنوع هل هو فى الدنيا، أم فى اليوم الآخر؟ إنه بلا شك فى اليوم الآخر؛ لأن الله سبحانه هو مالك يوم الدين، وهو مالكة، ففيه لا يكون إرادة إلا إرادة الواحد القهار، وقيل إن هذا فى الدنيا، فإن الله تعالى فى قبضته السموات والأرض فكل الوجود خانع عان له سبحانه.

وأرى أن ذلك فى الدنيا والآخرة: ﴿الْوُجُوهُ﴾ المراد به الذوات كلها، فالوجه يعبر به عن الذوات؛ لأن به المواجهة، وقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، أى الذى يبقى ولا يموت أبداً، فهو الحى الباقى الذى تذلل له كل الوجوه، والقيوم هو القائم على الخلق يديرهم، وهو القائم عليهم يحصى حسناتهم وسيئاتهم، وهو الدائم الباقى ملك الناس فى الدنيا والآخرة.

ولقد قال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

الواو واو الحال، والخيبة: الخسران والفشل والعجز، فهى تشمل فى معناها كل هذه المعانى، وسجل سبحانه وتعالى الخيبة على من حمل ظلماً، وعبر سبحانه وتعالى عن حمل الظلم أو كسبه بقوله تعالى: ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ إشارة إلى أنه وزر كبير ينوء به من يحمله، وإنه يحسبه هينا، وهو حمل ثقيل، وهو تنبيه لمن يظلمون مستهينين بالناس مستخفين بأنهم يحملون ثقلاً ينوء به الناس أمام الله، وقد نكّر ﴿ظُلْمًا﴾ للإشارة إلى أن عموم الظلم عبء كبير، والمعنى حمل ظلماً أى ظلم.

وفى الحديث الصحيح: «يقول الله عز وجل: «وعزتي وجلالى لا يجاوز اليوم ظلم ظالم»^(١) وعن النبى ﷺ: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٢) والخيبة كل الخيبة لمن لقى الله تعالى وهو به مشرك فإن الله يقول: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان] والظلم قل أو كثر خيبة كل الخيبة، لأن من ينال حقه بظلم خائب أمام الله والناس والحق فى ذاته، وناقص فى إنسانيته، والله أعلم.

(١) وعن ثوبان، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يُقْبَلُ الْجَبَّارُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُثْبِتُ رِجْلَهُ عَلَى الْجِسْرِ، فَيَقُولُ: وَعَزَّتِي وَجَلَالَتِي لَا يَجَاوِزُنِي ظُلْمٌ ظَالِمٌ، فَيُنْصَفُ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى إِنَّهُ لَيُنْصَفُ الشَّاةُ الْجَمَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْعُضْبَاءِ بِنَظْحَةٍ تَنْطَحُّهَا». رواه الطبراني، وراجع مجمع الزوائد: (٨١٤٨١).

(٢) بهذا اللفظ: رواه الدارمي: السير - فى النهي عن الظلم (٢٤٠٤)، وهو جزء من حديث رواه أحمد: مسند الكثرين - مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٥٤٢).

الجزاء فى الآخرة وعلم القرآن فى الدنيا

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء الأشرار وحالهم عندما يظهر لهم البعث ويروونه عيانا، وقد أنكروه من قبل وشددوا فى إنكاره حتى حسبه غير معقول، ذكر لهم حال الذين آمنوا به وصدقوه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١١٢).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، أى من يقوم بالعمل الصالح فى علاقته بربه، فلا يخضع إلا له، ويقوم بالعبادة التى كلفه إياها، وينفع الناس استجابة لأمر ربه ويحب نفعهم، ويكون كما قال النبى ﷺ: «أن يحب الشئ لا يحبه إلا لله» (١) فيكون فى عبادة دائمة حتى فى مأكله ومشربه وملبسه وفى بضعه إذ يفعل ذلك استجابة لله تعالى، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «الواو» واو الحال، أى والحال أنه مؤمن، فالعمل الصالح لا يعطى حقه من الجزاء إلا مع الإيمان، لأن معطى الجزاء هو الله تعالى، والإيمان هو الإيمان بالله وكيف يثاب من الله تعالى من لا يؤمن بالله تعالى، إنه حائر بائر ليس له مقصد فى عمله، ولا نية يرنجى الخير بها، وقد قال فى الذين كفروا وفعلوا بعض الأمور النافعة فى الدين: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧) [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، هذا جواب الشرط، ومعناه يعطون أجرهم موفورا غير منقوص ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ الظلم النقص من العمل أو ثوابه، والهضم معناه الكسر، وقد خاض المفسرون في الفرق بينهما، وحيثما اجتمعا وجب ذكر الفرق؛ لأنه يجب أن يكون لكل معنى خاصا به مؤسسا عليه والتأسيس أولى من التأكيد.

ونقرب الفرق بينهما فنقول: إن الظلم هنا هو النقص من الأعمال التي يستحق عليها الثواب، والزيادة من السيئات انتقاص من الأعمال الصالحة، وأما الهضم فهو ألا تعطى الأعمال حقها فتكسر، كما يكسر الطعام في قلب الهضم، والله أعلم.

بعد ذلك ذكر الله تعالى القرآن الكريم في مقام بيان الحق والهداية في الحياة الدنيا وكيف بقي محفوظا إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أى كهذا الإنزال الذي عاينته ونزل على قلبك قرآنا عربيا، والإشارة لبيان شأنه، والمشبه هو ما قدره الله لك معجزة، والمشبه به هو هذا الذي تذكر به، وهنا نلاحظ ملاحظتين:

أولاهما- أنه هنا عبر بـ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، وفي أكثر الآيات كان التعبير بنزلنا، وينزل، فما الفرق ولم كان الاختيار بأنزلناه؟ ونتلمس الحكمة فنقول: إن المراد به القرآن كمعجزة في ذاته سواء أنزل دفعة واحدة أم منجما، فكان التعبير بأنزلنا، وعندما كان ينزل لبيان الشرع ولحفظ آية آية كان التعبير بنزلنا، وهنا بيان أنه معجزة وأنه جاء مبشرا ومنذرا يتنفع به المتقون ويذكر به غيرهم ليكون لهم نذيرا.

الثانية: أنه قال ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وهذه حال من ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ وفيه وصفان أحدهما أنه قرآن والثاني أنه عربي، ووصف قرآن يفيد أنه مقروء متلو يتعبد بتلاوته، وأن النبي ﷺ تلقاه عن جبريل بقراءته وتلاوته، وأنه متواتر بتلاوته وطرق قراءته، وهو محفوظ بقراءته وتلاوته، وأن العناية تتجه إلى قراءته لا إلى تسطيره فهو يحفظ بتواتره جيلا بعد جيل محفوظا في الصدور، وليس متواترا فقط بكتابته في السطور.



والوصف الثاني أنه عربى فلا يعد قرآنا ما ليس بعربى، فترجمة القرآن لا تعد قرآنا بل إنه لا يمكن ترجمته قط كما قرر العلماء، وكما هو الحق فى ذاته، وإذا كان قد روى عن أبى حنيفة أنه أجاز قراءة الفاتحة بالفارسية فذلك على أنها دعاء لا على أن الترجمة قرآن، ولذا لا تجب سجدة التلاوة بقراءة الترجمة، ومع ذلك فالرواية الصحيحة أنه رجح ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى فى شأن القرآن وصفا ثالثا، وهو تصريف الوعيد فيه، من ذكر القصص الذى فيه المثلث، وما نزل بالعصاة، وفيه ذكر يوم القيامة، وما يكون فيه من عقاب وحساب، وفى ذكر الحق فى ذاته، وبيان كماله، وكمال من يتحلى به.

و﴿الْوَعِيدِ﴾ هو الإنذار، وتصريف الإنذار الإتيان به بأساليب مختلفة، كما أشرنا من بيان هول يوم القيامة، أو قصص الماضين، وفيه عبرة لأولى الأبصار، وهول القيامة، والتنبيه للآيات المختلفة الدالة على قدرة الله العلى.

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، أى صرفنا من الوعيد بطرق البيان المختلفة الصادقة ليكونوا فى حال من يرجى تقواهم وإذعانهم للحق، وتصديقهم له، ويتقون بذلك عذاب جهنم وإغصاب الله تعالى. وينالون رضوانه وهو أعظم الثواب، أو يحدث هذا التصريف لهم ذكرا يذكرهم بعذاب العاصين، ويكون لهم نذيرا، وقد أسندت التقوى إليهم؛ لأنها أمر نفسى يتجهون إليه بعد قيام الدليل، وأما من لم يتعظ فالقرآن يحدث لهم ذكرا وإنذارا ولقد قال تعالى:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾.

قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، الفاء للإفصاح عن شرط مقدر تقديره: إذا كان قد أنزل القرآن وصرف من الوعيد ليتقى من يتقى ولينذر من لم يتعظ، فإن هذا يدل على علوه وكمال حكمته. (تعالى) معناها بلغ فى العلو أعلاه، وقد تعالى فى ذاته وصفاته فليس كمثله شىء، وهو منزّه عن الحوادث ومتصف بصفات الجلال والكمال، وهو الملك النافذ الأمر فى خلقه، والمبدع لهذا الوجود

الذى لا سلطان لأحد سواه، وكل سلطان لأحد فى الأرض مضطرب ينتهى إلى زوال، ومحاسب عما يفعل، ومجزى على عمله، وتدبيره وفكره العملى، فالله هو الملك الحق الثابت الذى لا يكون فوقه أحد، وهو العدل الذى يقدر كل شىء حق قدره.

هذا هو الله خالق السموات والأرض وما بينهما، وهو الذى يملك ميزان هذا الوجود: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ (٤١) [فاطر].

ولقد ذكر سبحانه نزول القرآن فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

كان النبى ﷺ يساق الأمين جبريل فى قراءته عندما يوحى إليه بالقرآن فنهاه الله تعالى عن ذلك، وقال هذا النص السامى له تعليما عند تلقى القرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، أى من قبل أن ينتهى وحيه إليك ويحكم بترتيبه وتلاوته، حتى ينقله إلى أمته مرتلا فيتوارثوه مرتلا، وذلك كقوله تعالى: فى سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (٦) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ (٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٩) [القيامة]، وقرءانه الثانية معناها تلاوته وترتيبه، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (٤) [المزمل]، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) [الفرقان].

هذا تعليم من الله تعالى لنبيه فى أمر يتعلق بمعجزته الكبرى ليتحقق حفظ الله تعالى كما وعد، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر]، وقد نبيه سبحانه نبيه إلى ذلك العلم، وأمره بأن يطلب الزيادة فى العلم؛ لأن كمال الإنسان فى العلم وطلب الزيادة فيه فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ الأمر للنبى ﷺ بأن يطلب الزيادة فى العلم بالضراعة إليه سبحانه، وبالسعى فى طلبه، قال الزمخشري فى هذا المقام: «هذا الأمر متضمن للتواضع لله تعالى، والشكر له عندما علم من ترتيب

التعليم ما علمتني يا رب لطيفة في باب التعليم، وأدبا جميلا ما كان عندي، فزدني علما إلى علم، فإن لك في كل شيء حكمة وعلماء، قيل: ما أمر الله تعالى رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

نسيان آدم وعزمه

وَلَقَدْ عَهِدْنَا

إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا

لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ

﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ

مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾

وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ

الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعِدُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ

لَا يَبُلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا

يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾

ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا

جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

هذا وصف الله للطبيعة الإنسانية أنها تنسى، وأنها إذا لم تذكر بشرع من الله يقوى الإرادة برجاء الثواب وخوف العقاب، لا تكون للإنسان عزيمة، وآدم أبو

البشرية فى هذا الوقت الذى نسب الله تعالى إليه أنه نسى، ولم يجد له عزما، كان وهو على الفطرة الأولى التى لم يكن فيها شرائع مدونة قد جاء بها رسل، ولم يكن قد تسلط عليه إبليس اللعين، وتسلط على ذريته، وكل هذا التسلط منه على ذرية آدم بعد أن هبط من الجنة إلى الأرض.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ﴾، أى من قبل الشرائع والرسل، أى من قبل أن يقع، والمعنى عهد الله تعالى لآدم قبل أن يوسوس إليه الشيطان، وهذا العهد هو أمر الله وتكليفه، وإن لم يكن فى دار تكليف، وكل أمر من الله تعالى هو عهد بين العبد وربّه، وذلك العهد هو قوله تعالى: ﴿... وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]، ولقد بين الله تعالى أن ذلك عهد مؤكد، وقد أكدّه سبحانه بـ «اللام»، وبـ «قد»، وبإضافة العهد إليه سبحانه وتعالى، وأنه وثق على آدم أشد توثيق، ولقد ذكر سبحانه وتعالى وصفين لآدم أحدهما إيجابى، والثانى سلبى، أما الأول فهو النسيان فقد قال: ﴿فَنَسِيَ﴾ «الفاء» للعطف. ونسى منصبة على العهد، أى فنسى العهد، ووقع فى المحذور الذى حذره منه، وليس ذلك ما يكون غضاضة على آدم، لأن الله تعالى يصف الطبع الإنسانى، وأنه يعرض له النسيان وتعرض له الغفلة، وما يقع فى ما ينهى عنه إلا وهو ناس غافل، الأمر الثانى، وهو السلبى ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أى عزيمة صادقة تحزم أموره وتقطعها، وعبر سبحانه بهذا القول: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فى الأمر الواقع، والله تعالى يعلم به من قبل أن يقع، فقد قدر الله تعالى كل ذلك، وعلم ما وقع قبل وقوعه فكيف يقول: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وهو الذى خلقه وصوره وقدره، ونقول: إنه وجده واقعا، وهو يعلم علما أزليا لأنه هو الذى خلق وصور.

وإن إبليس وذريته يجيئون إلى ذرية آدم، من نسيانهم وغفلتهم، ونقص عزميتهم، كما جاء إبليس اللعين إلى أبى الإنسانية من جهة نسيانه، وأنه لم يكن له عزم مانع، فليحذر الناس بعد أن جاءتهم الشرائع من وسوسة إبليس وذريته.

ولقد ابتداء الله سبحانه وتعالى جزءاً من قصة آدم يصور كيف بدت عداوة إبليس ونسيها آدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (١١٦).

و﴿إِذْ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره اذكر، والخطاب للنبي ﷺ ليعلن لأمته فتستعصم بالحد من إبليس، كيلا يقعوا في إغوائه الذي توعدهم إذ قال في إصرار: لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين.

و﴿قُلْنَا﴾ ضمير المتكلم لله تعالى، والأمر للملائكة، ويظهر أنه كان داخلاً في عموم هذا الأمر سواء أكان منهم أم لم يكن فهو داخل في عموم الأمر، ولذا كان الاستثناء، فسجدوا طائعين مع معارضتهم ابتداء لخلافته في الأرض، فلما رأوا أن ربهم فضله عليهم بأن علمه الأسماء كلها ولم يعرفوها هم سجدوا، أما إبليس فقد أبى السجود معارضا لرب العالمين، وهنا ذكر أنه ﴿أَبَى﴾ ولم يذكر سبب إباءه، وذكره في آيات أخرى، وهو قوله خلقتني من نار وخلقته من طين، ونسى أن الله الخالق، وكان في استطاعته أن يكون العكس، ولكن الله تعالى فعال لما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقد أخذ يبين الله تعالى العهد وسياقه، فقال عز من قائل:

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧).

«الفاء» فاء السببية؛ لأن ما قبلها سبب لما بعدها، فالحكم بأنه عدو لآدم وزوجه مترتب على امتناعه عن السجود وما سوغ له الامتناع، وهو توهمه أنه خير منه، وأنه يحسده على منزلته عند ربه، وأى عداوة أقوى من ذلك، وإذا كانت العداوة قد بدت فتوقع الشر، والإيذاء يقترب بها لا محالة، ولذا أكد الله هذه العداوة، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ وأكد العداوة بـ «إِنَّ» المفيدة للتوكيد، وبالجملة الاسمية، وبالإشارة؛ لأن الإشارة متجهة نحو ما بدا منه وهو كلامه وامتناعه عن السجود، فالإشارة تشير إلى سبب العداوة، وإذا ثبتت العداوة فلا بد أن يتوقع آدم نتائجها، وهى محاولة إخراجهم من المكان الذى كرم فيه وكان السجود والخضوع فيه، ولذا قال تعالى ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ «لا» ناهية، والنهى

سببه العداوة، وقد أكد النهى بنون التوكيد الثقيلة، وبأن الخروج من الجنة، وأنه يترتب عليه الشقاء، وهنا ملاحظة بيانية، وهو أن النهى كان لهما، ولكن ذكر الشقاء لآدم، ونقول إن الشقاء أيضا لهما، ولكن ذكر آدم وحده، لأن آدم يشقى شقاءين، شقاؤه هو الذى يقع فيه، وشقاؤه إذ يشقى به؛ لأن الرجال يتحملون تبعات عن أنفسهم وعن النساء؛ لأنهم قوامون عليهم، فأوجدت هذا القوامه تبعات عليهم أكثر، وفي طبيعة النساء اليوم تحميل الرجال التبعة حتى على أخطائهن وحدهن.

بين له تعالى المتعة فى الجنة، وهو أنه لا يتحمل تبعات أى أمر، ولا تكليف، فقال تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (١١٩)﴾.

بين الله سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين أن فى الجنة كل ما يطمع فيه الإنسان من حياة هينة فيها كل مرافق قوامه الآدمى من أكل وكسوة، وشرب، وإقامة، وفى ذلك إشارة إلى ما يجب أن يطلبه الإنسان، فإذا كفى هذا فقد أوتى الدنيا بحذافيرها، فإن وراء المطاعم الأخرى من جاه وسلطان وتحكم المصارع، كما قال على كرم الله وجهه: مصارع الرجال تحت بروق المطاعم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَصْحَىٰ﴾ أى لا تبرز، وقد ورد عن ابن عمر أنه رأى رجلا مستظلا عن الشمس قال: اضْحَ لِمَن أَحْرَمْتَ لَهُ^(١)، فضحى بمعنى برز للشمس، ولا يضحى بمعنى لا يبرز لها بأن يسكن فى كنٍّ لا يبرز فيها له، أى فى مسكن، والمعنى على ذلك أنك تجد كفايتك فى الحياة فتجد الطعام الذى تأكله، واللباس الذى يقيك العرى، والماء الذى تشربه، والسكن الذى يؤويك وحسبك ذلك وكفى، وقد قال البيضاوى فى هذا النص القرآنى الكريم: إنه بيان وتذكير لما له فى الجنة من أسباب الكفاية، وأقطاب الكفاف التى هى الشبع والرى والكسوة والسكن، مستغنيا عن اكتسابها، والسعى فى تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها ليطرق بأصناف الشقوة المحذر عنها.

(١) ذكره القرطبي فى الجامع لاحكام القرآن ٢٥٢/١١.

أى أنه ذكر هذه الكفاية، وهى الطعام والكسوة والشراب والمسكن بصيغة النفى؛ لأن عدمها هو موضع التحذير والمنع، ولأن عدمها هو الشقاء فى الجنة، وقد نفى بذلك أنه لا يشقى فى الجنة إنما الشقاء فى غيرها، وإبليس العدو يعمل على شقائكما وكدحكما، إذ أخرجكما من الجنة فلا تطيعاه، وقد أشرنا إلى أن هذه الأمور يجب أن تكون مطلبك يا آدم، وإن فى طلب غيرها التناحر على البقاء، ومعه الشقاء، وهذه موعظة لمن أراد جنة الدنيا دون شقائها.

وفى الآيتين من أساليب البيان، فذكر المطلب الأساسى الإنسانى ﴿إِنَّ لَكَ﴾ مؤكداً أن له الأكل والكسوة والشراب والمأوى، هذا لك وحده ليس لك غيره، وفى الجنة، ويجب الاقتصاد عليها فى الحياة التى تستقبلك. ولقد جاء إبليس إليهما من وراء هذه الأمور، وهو الخلد.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾.

كان نعيم الجنة نعيماً هادئاً آمناً، ولكن لم يذكر أنه خالد، ومن كان فى عيشة راضية تمنى أن تكون باقية، فجاء إبليس من ناحية هذه الأمنية، وقال لآدم: هل أدلك على شجرة الخلد، وملك لا يبلى، وسوس إليهما بقول خفى يشبه وسوسة الذهب^(١)، وأثار التمنى فى نفسه بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الاستفهام هنا للتنبيه أى أن هذه الشجرة التى نهى عن الأكل منها هى شجرة الخلد من أكل منها نال الخلود والبقاء والسلطان والسيطرة، وهذا هو المعنى المذكور فى آية أخرى، إذ قال الله تعالى عنه: ﴿... مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢)﴾ [الأعراف]، وما زال بهما يغريهما بالأكل حتى أكلا، ولقد قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ... (٢٢)﴾ [الأعراف] فكان التدلى بالغرور أن أكلا منها، وكانت العقابة ليست الحسنى، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَرَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾.

(١) الوسوسة والوسواس: الصوت الخفى من ريح. والوسواس: صوت الحلي. لسان العرب - وسس.

«الفاء» عاطفة، أى بعد هذه الوسوسة المستمرة غير المنقطعة أكلا منها، ويلاحظ أنه فى هذه الآية ذكر فيها آدم فقط وفى آية أخرى كانت الوسوسة لهما معا، إذ قاسمهما الشيطان إنه لهما من الناصحين، والآية التى ذكر فيها آدم فقط لا تمنع أن حواء كانت تستمع معه، وأن الإغراء كان لهما؛ لأحدهما بالخطاب وللآخر بالاستماع مع المشاركة فى الخطاب.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ أى من الشجرة التى حرمت عليهما فى قوله تعالى فى الآيات، ... ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]، وبمجرد أن أكلا منها بدت لهما سوءاتهما أى عوراتهما، فالعورة يسوء النظر إليها، وليس النظر إليها سارا عند أهل الطبائع المستقيمة، وكشف السوءتين فى هذا الموضع فُهِمَ منه بعض القارئین للقرآن الكريم أن الشجرة الممنوعة تتعلق بالجنس، ولكن الله تعالى لم يبين ورسوله لم يفسر، فحق علينا ألا نَقْفُ ما ليس لنا به علم.

وقد قال: إنه عقب بدو السوءتين لهما أنهما أخذَا يَخْصِفَانِ عليهما الأوراق فقال تعالى: ﴿طَفِقًا﴾ أخذَا واستمرا، من جرأ كشف عوراتهما واستحيائهما من انكشافها ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

ومهما يكن من حالهما التى انكشفت، فإن آدم الكريم عصى ربه الذى خلقه وأمر الملائكة أن يسجدوا له، ولم يكن فى طاعة تقيه ذلك الانكشاف، وتجنبه إبليس ووسوسته ﴿فَفُغِّرَى﴾ أى ضل ووقع فى الغواية والضلال.

وفى هذا الكلام ما يشير، أولا: إلى أن الإنسان يؤتى من ناحية ما يتمنى، وإبليس وذريته يأتون من ناحية أمانيه، وتشير ثانيا: إلى أن الإرادة القوية هى العزم الصادق، وهى التى تمنع أو تقاوم وسوسة الشيطان.

وتشير ثالثا: إلى أن فتنة الجنس أشد الفتن، وقد أثر عن النبى ﷺ أنه ذكر: أنه ما ترك فتنة أشد من فتنة النساء للرجال^(١).

بعد هذا العصيان من أبينا آدم لم يعد له هو وإبليس مقام فى جنة الله، بل لابد أن ينزلا إلى المعترك فى الأرض، ولكن قبل أن ينزل من جنة الله التى لا

(١) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: 'مَا تَرَكْتُ يَهْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ'. رواه البخاري: النكاح - ما يبقَى من سُؤْمِ المرأة (٤٧٠٦)، ومسلم: الذكر والدعاء والتوبة - أكثر أهل الجنة الفقراء (٤٩٢٣).

تكليف فيها إلى أرض التكليف لابد أن يطهره الله من المعصية التي زل فيها يوسوسة الشيطان.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾.

التعبير بـ «ثم» العاطفة للترتيب والتراخي، للإشارة إلى البعد بين المرتبتين مرتبة العصيان والغواية ومرتبة الاجتباء والهداية.

والاجتباء الاختيار والاصطفاء، وقد اجتباه ابتداء بأن جعله أول خلقه، واجتباه ثانياً بأن اختاره للاختبار، وتاب عليه من هذه المعصية التي عصاها، فرجع الله تعالى إليه بالمغفرة؛ إذ تاب هو بالشعور بالخطأ، وعاد الله تعالى عليه بالمغفرة، ثم بالهداية بعد ذلك.

وهذا المعنى يشير إلى أن الخطأ في طبيعة الإنسان، والتوبة خلق المهديين والله تعالى غفور رحيم.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾.

القاتل هو الله جل جلاله، وقد قدر لهما، أن يكونا مع إبليس في الأرض حيث التكليف والابتلاء، على أن ينزلا إلى الأرض، وقد طهرهما الله تعالى بعد اختبار، واختار لهما الهداية بعد هذا العصيان وغفر لهما العصيان؛ لأن الجنة لم تكن دار تكليف، قال الله لهما ﴿هَبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الهبوط النزول من مكان عال إلى منخفض، ولا شك أن ترك الجنة التي لا تكليف فيها إلى حيث التكليف، فيكون الخير ومعه الثواب، والشر ومعه العقاب، ولا شك أن ذلك هبوط، ولكنه هو سبيل الرفعة مرة أخرى، فالتكليف كما هو نزول، هو طريق للتدرج إلى الرفعة بجهد التنارع بين العلاقة الروحية والطبيعة الأرضية، فإذا علا بعد هذا الجهد فقد وصل إلى السماك^(١) الأعزل من قوة الإيمان، والهبوط أيضا ذريعة إلى انهواء عميق سحق في المعصية، وقد صرح سبحانه وتعالى بأمور ثلاثة بعضها يحتاج إلى توضيح:

(٢٢) السَّمَاءُ نَجْمَانِ نَيْرَانِ أَحَدُهُمَا السَّمَاءُ الْأَعْوَزُ، وَالْآخَرُ السَّمَاءُ الرَّامِحُ، وَاسْمِي أَعْوَزَ لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ، كَالْأَعْوَزِ الَّذِي لَا رَمِيحَ مَعَهُ، وَالرَّامِحُ وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْمَنَازِلِ. لِسَانَ الْعَرَبِ - سَمَك.

أولها: قوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ فإنها تأكيد، والتوكيد يكون لرفع احتمال، ونقول: إن ﴿جَمِيعًا﴾ تشير إلى وجود إبليس معهما، وتدل على هذا قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فما كانت العداوة بين آدم وزوجه، إلا أن تكون الفتنة بين الرجال والنساء، وإنما العداوة هي بين آدم وإبليس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

الأمر الثاني: هو الاختبار والتكليف وبيان عاقبة العصيان، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ و«إما» هي «إن» الشرطية و«ما» المؤكدة لمعنى الاشتراط في فعل الشرط، وأكدته أيضا نون التوكيد الثقيلة، أى أن إتيان الهدى الهادى مؤكد لا مجال للريب فيه، والهدى يجىء على لسان هادٍ هو رسول من رب العالمين، وهو مبشر لمن اتبع الحق منذر لمن ضل عن سبيله، وإن هذا هو موجب التكليف؛ إذ لا تكليف إلا إذا وجد بيان، كما قال تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء].

الأمر الثالث: أن من اتبع هدى الله تعالى فإنه لا يضل ولا يشقى، وكان الشقاء مقترنا بالضلال؛ لأن الضلال يجعل المؤمن فى حيرة لا يدرك فيها حقا، ولا يهتدى، وإن ذلك شقاء أى شقاء، وشقاء الإنسان فى حيرته، وفوق ذلك فإن الضلال يؤدى إلى الشقاء لا محالة فى اليوم الآخر حيث الحساب والعقاب، وإن ثمرة الضلال لا محالة هو العقاب.

ويلاحظ أنه قد ذكر فى هذه الآية الاختبار مجملا، وذكر مفصلا فى سورة البقرة بعض التفصيل، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣١) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٢) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة].

حال العصاة

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى ﴿١٦٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٥﴾

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَا^ط وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ
يُجْزَى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَاوِيَتِ رَبِّهِ^ط وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَى ﴿١٦٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْكِنِهِمْ^ط إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿١٦٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٦٩﴾

بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى حَالِ الَّذِي هَدَاهُ اللَّهُ وَاهْتَدَى بِالْهَادِي الَّذِي أَرْسَلَهُ حَيْثُ لَا
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ سَمَاعِ الْهَدْيِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا، يَحْسُ
فِيهَا بِالضِّيقِ الشَّدِيدِ الدَّائِمِ الَّذِي يَجْعَلُهُ فِي لَهْجٍ دَائِمٍ بِالْحَيَاةِ أَوْ بِنَوْعٍ مِنْهَا، وَهَذَا قَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ الضَّنْكَ: الضِّيقُ، يُقَالُ: مَنْزِلُ
ضَنْكَ أَيْ ضِيقٌ، وَعِيشَ ضَنْكَ، وَمَعِيشَةُ ضَنْكَ أَيْ ضِيقَةٌ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الذِّكْرُ
وَالْأُنْثَى وَالْجَمْعُ وَالْمُنْثَى فَهُوَ وَصْفٌ لَا يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الْمَوْصُوفِ.

وَهُنَا أَمْرَانِ يَحْتَاجَانِ إِلَى بَعْضِ الْبَيَانِ، أَوَّلُهُمَا: أَنَّهُ عَبَّرَ هُنَا عَنِ الْمُرْشِدِ بِـ
﴿ذِكْرِي﴾ وَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ لِفَاعِلِهِ فَهُوَ تَذْكِيرٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبِيدِهِ، أَوْ
بِاعْتِبَارِ أَنَّ الرُّسُولَ مُبَشِّرٌ وَمَذْكَرٌ وَمُنْذِرٌ فَقَطْ، وَأَنَّ مِنْ ذِكْرِ بِالْهَدْيِ لَهُ ثَوَابُهُ إِنْ
اهْتَدَى، وَإِنْ لَمْ يَهْتَدِ فَعَلَيْهِ إِثْمُهُ.

ثانيهما: كيف توصف معيشة العاصي في الحياة بأنها معيشة ضنك، مع أنه قد يكون في بحبوحة من العيش وفي رغد دنيوى يفاخر به، ويقول مفاخرا: ﴿... أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف] فكيف يوصف بأنه في معيشة ضنك؟ والجواب عن ذلك أن الضيق لا يكون من قلة المال فقط، بل يكون في غير ذلك؛ لأن من أعرض عن الهدى، وعن ذكر الله لا يكون في قناعة راضية، بل يكون في طمع مستمر، إذا كان عنده مال وفير استقله فلهب في كثيره، ويريد وجاهة الدنيا وسلطان الحياة، فيكون في ضيق بحياته، فإن حرم ظنها الكارثة، وهكذا هو يحس بالطلب الدائم، ووراء الطلب الإحساس بالضيق. وتعجبني في ذلك كلمة قرأتها في تفسير القرطبي، فقد قال: «ومعنى ذلك أن الله تعالى جعل مع الدين التسليم والقناعة، والتوكل عليه، فصاحبه ينفق مما رزقه الله عز وجل بسماح وسهولة ويعيش عيشا رافعا، كما قال تعالى: ﴿... فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾ [النحل]، والمعرض عن الدين مستولٍ عليه الحرص، الذى لا يزال يطمع به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذى يقبض يده عن الإنفاق فعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم: لا يعرض أحد عن ذكر الله إلا أظلم وقته، وتشوش عليه رزقه».

وفوق أن الإعراض عن ذكر الله تعالى تكون النفس فارغة وحيث فرغت النفوس عن ذكر الله كان الظلم، وحيث كان الظلم كان اضطراب الحياة، وتوقع الشر والانتقام فتكون المعيشة ضنكا وتكون الحياة ضيقة لمن يعرف العواقب. هذا عذاب الإعراض عن ذكر الله في الدنيا، أما في الآخرة، فقد قال تعالى فيه: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ والمراد أنه لا يملك حجة ولا برهانا يبرر به ما فعل وما وقع منه، وفي هذا استعارة تمثيلية، فشبهت حال من تقوم عليه الحجة ولا يحير جوابا، بحال الأعمى الذى لا يبصر الطريق أين تكون النجاة، بجامع الوقوع في الهوة، وعدم البصر بطريق للخلاص أبدا، وإذا كان من في الدنيا أعمى، فهذا الذى حُشِر بين أهل الضلال في الآخرة أعمى البصيرة وهو أشد ضلالا.

قال وقد رأى نفسه قد عمى عليه الدليل، وضلت عليه السبيل.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥)﴾ .

يسأل ربه لم حشرتني أعمى، عاجزا عن الدفاع، وقد عميت عن الدليل، ولم أعرف وجهه مع أنني كنت فى الدنيا أبصر القول ومراميه، وأجادل، وأخاصم، وأنزل وأقام، والآن أنا مستسلم لمن يقودنى كالأعمى، ونادى بـ «رَبِّ» معترفا بأنه خالقه ويارثه، وقد كان من قبل يشرك بربه فى العبادة، ويضل ضلالا بعيدا.

فيرد الله تعالى بلسان الملائكة أو بإلهام الله تعالى الحق له: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ .

كهذا الإيتاء والحشر أعمى لا تستطيع القيام بحجة فى وقت حاجتك إليها - أتتكَ آياتنا فنسيتهَا، أى أنه فى مقابل نسيانك آيات الله تعالى، وتركت إياها كانت غشية العمى عليك وعجزك عن الحجة، وكذلك الذى تركت به آيات الله تنسى أنت فى شخصك وتهمل وتلقى فيما تستحق من عذاب أليم.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)﴾ ذكر الله تعالى عقوبتين لمن أعرض عن ذكر ربه أى عن الداعى لذكر ربه، أولاهما: المعيشة الضنك، أى الضيقة التى تضيق فيها النفوس وتطوع للمطامع التى لا تنال، وإن نيلت طلبت غيرها، وقد بين ابن كثير فى تفسيره كيف كان الخلو من اليقين يجعل المعيشة ضنكا، قال ابن كثير فى معنى الضنك: «أى ضنكا فى الدنيا فلا طمأنينة ولا انشراح صدر بل صدره ضيق حرج لضلالة، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء فإن قلبه لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك فلا يزال فى ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».

هذه هى العقوبة الأولى وقد أشرنا إليها من قبل، أما العقوبة الثانية، فقد أشار سبحانه وتعالى إليها بقوله عز من قائل: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ وذكرنا أن العجز هو عن الحجة والبرهان، حيث يجب الإدلاء بها، فهو عجز فى موضع

الحاجة، ذانكم عقابان أحدهما فى الدنيا، وهو مشتق من ذات الجريمة فهو عقاب من ذات الفعل، والآخر وهو على ما لم يستعد له من الحساب وقد جاء من إنكار البعث، ولو كان قد آمن به لاستعد له، وما فوجئ به وارتج قلبه، فكان هذا عذابا شديدا؛ لأن اللسان يقف حيث الحاجة أشد ما تكون إليه، والبصر يكون عليه غطاء عند إرادة الإبصار.

هاتان العقوبتان قبل عذاب الآخرة الذى يكون بعد الحساب، وتقدير الجزاء، وهذان العقابان يتالان من أسرف فى أمره، وانغمر فى الشهوات، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾.

كهذا العقاب الدنيوى من إحساس بضنك العيش والضيق فيه والتبرم بحياته والإحساس بفقد الاطمئنان لآى شىء، والإسراف على نفسه باللذات، وبالإحساس بالحرمان المتجدد الذى لا يشبع من لذة، ثم يستكبر الأمور، ولذا تجده يكثر الانتحار ويضع النفس عند المسرفين فى المعاصى، والمسرفين على أنفسهم بقلقهم، وعدم اطمئنانهم ومع ذلك يكون إحساسهم بسد الطرق فى وجوههم.

فالإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ وهى إلى المعيشة الضنك، والحشر أعمى ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مفعول لـ ﴿نَجْزِي﴾، والتعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾ للإشارة إلى أن الصلة، وهى الإسراف، سبب لذلك الجزاء.

وقد بين سبحانه أن وراء هذا العذاب عذابا أشد وأبقى، فقال عز من قائل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وهو الذى يكون بعد الحساب، وتقرير أن الجزاء أشد لأنه بالنار، وهو أبقى أى إنهم يكونون فى جهنم خالدين فيها وبئس المهاد.

ولقد ذكر الله تعالى لمشركى مكة ما جاءهم من عبر، وما ساقه من قصص هاد مرشد فقال عز من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨).

الكلام فى هذه الآية يتعلق بمشركى مكة، و«الفاء» عاطفة على فعل محذوف تقديره مثلاً: أستمرون فى عبادة الأوثان مع قيام العبر الدالة على ضلالهم فلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون.

«هدى» تتعدى بنفسها من غير «لام» فيقال هداه ويهديه، واللام لتقوية التعدية والتنبية، وبيان الهداية لهم أولاً وبالذات، أو نقول إن «يهدى» هنا متضمنة معنى «يتبين»، والمعنى أو لم يتبين لهم كم أهلكنا، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الواقع، والمعنى لم يعتبروا بمن أهلكناهم فى عددهم الكثير، وهم يشاهدون آثارهم، ويمشون فى مساكنهم، يبرون عليها فى رحلاتهم إلى الشام والعودة منه، ولقد مر النبى ﷺ بمساكن ثمود وهو مار فى غزوة تبوك^(١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ إن فى هذه العبر عن القرون الماضية، وهى الجماعات السالفة لعبرة لمن عنده اعتبار، وقال تعالى ﴿لِّأُولِي النُّهَى﴾ والنهى جمع نهية، وهى العقل الذى ينهى عن مساوئ الأفكار ويحث على محاسنها، وكان حقاً أن يعتبروا، ولكن ضعفت العقول، وقل الاعتبار.

ولقد كان المشركون لفرط إعراضهم، وصددهم عن سبيل الله يستعجلون العذاب تحدياً أو جهلاً، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ...﴾ [الرعد، ٦] ولكن الله تعالى بين أنه قادر عليهم، ولكن لحكمة آخرهم، فقال:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩).

«لولا» يقول النحويون: إنها حرف امتناع لوجود، والمعنى على هذا امتنع أن يكون العذاب ملازماً للجريمة أى مقترناً بها فى الوقوع كما كان بالنسبة للأمم السابقة أو لبعضها، فإنها إذ كفرت بأنعم الله تعالى، وكفرت بنبيها أنزل الله بها عقابه للزوم المسبب للسبب. امتنعت هذه الملازمة بين إثم الكفر وعقابه؛ لوجود كلمة سبقت من ربك، ولأجل مسمى حدده الله تعالى لحكمة، وهو الحكيم العليم، وتلك الكلمة

(١) عن عبد الله بن عمر قال: مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين؛ حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم؛ ثم زجر فأسرع حتى خلفها. رواه مسلم: الزهد والرقائق - لا تدخلوا مساكن... (٥٢٩٣)، والبخاري مختصراً: الصلاة (٤١٥).

التي وعد الله بها هي أن النبي محمدا ﷺ خاتم النبيين وأن رسالته باقية، وليس هؤلاء وحدهم المخاطبين، بل من بعدهم أجيالهم وكان محمد ﷺ يرجو أن يخرج من أصلاهم من يعبد الله، وقد أجاب الله تعالى رجاء محمد رسوله الكريم فجعل من أصلاهم مجاهدين، فكان منهم خالد بن الوليد، ومن صلب أبي جهل عكرمة، وقد جاهد في سبيل الله وحارب المرتدين، هذه كلمة الله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةً﴾، واللزام الملازمة بملازمة العقاب لإثم الكفر، واقتترانه به اقتتران المسبب بالسبب.

ولهذا التأجيل الذي رجاه النبي ﷺ أمره بالصبر فقال تعالى:

فَاصْبِرْ عَلَىٰ

مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ أَنَايَ أَتْلُو فَلْيُصْبِحْ بِأَرْوَاحٍ لَّيَالِيكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَاهُ مِن زُجْجٍ لَّيَالِيكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣١﴾ وَلَا
لِنَفْتِنِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
وَأَصْطِرِّ عَلَيْهِمُ الْأَسْطِجَالَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي
الْصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٤﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ
لَقَالُوا إِنَّا لَنَوَالُوا رَسُولَ الْيَنَارِ سُلُوكًا فَتَنَّبَعْ أَيْنِكَ مِّن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزِيٰ ﴿١٣٥﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا
فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٦﴾

بعد هذا الإنذار للمشركين بما كان من هلاك الأمم، وأن الله تعالى أجله للمشركين مع استهزائهم بك وسخريتهم بالمؤمنين، وإيذائهم وقولهم عنك ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون، وإنه سبحانه وتعالى مهملهم غير مهملهم: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، و«الفاء» للسببية، أى بسبب أن الله تعالى قد أجلهم ولا يمهلهم، اصبر على ما يقولون، أى تحمل ما يقولون، ولا تُلْقِ بالآ، ولا تحسبن أن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم لأجل غير بعيد، وهو محقق الوقوع، وما هو محقق الوقوع قريب غير بعيد، ولقد بين الله أن تربية النفس على الصبر تكون بالاتجاه إليه واستذكاره فى كل الأوقات، ولذلك قال بعد ذلك: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أى نزهه. و«الباء» للدلالة على مصاحبة الحمد للتزيه، أى نزهه ربك عن أن يتركهم، حامدا ربك على أنه أعطاك القوة وهو لهم قاهر، وتفاءل ولا تتشاءم، واعلم أن الله معك غير متخلّ عنك.

والتسبيح يراد به التزيه المطلق المصحوب بالحمد، وذلك مطلوب فى كل وقت أم المراد الصلاة، ولعلها كانت قد فرضت وأن تلك الآيات نزلت بعد المعراج، وهو الوقت الذى فرضت فيه الصلوات الخمس.

إن الآية يمكن أن تخرج على الأمرين، فيصح أن يكون المطلوب بها أن يلجأ الرسول بعد الصبر مستعينا به على اطمئنان النفس وتزيهه وحده، فى الصباح قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن آناء الليل وساعاته، وفى أطراف النهار، قبل الزوال وبعده، أى يعمم أوقات الصحو كلها فى تزيهه وتقديس، وحمد، وإن ذكر الله يذهب الشدائد، ويعطى النفس قوة، ويمكنها من الصبر، ويعطيها الاطمئنان والقرار، ولذلك قال تعالى فى ختام النص السامى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ راجيا أنت أيها الرسول أن ترضى وتقبل على تبليغ الرسالة قرير العين غير آبه لهم، ولا ملتفت إليهم.

هذا على أن البيان للتسبيح المطلق والحمد والرضا، وقد يراد بالسياق الصلاة، ويكون فى النص السامى إشارات إلى أوقاتها كما فى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾

[الروم] ويكون معنى قوله ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ المراد بالأول صلاة الصبح وأنه مستحسن الإسفار بها بأن تكون وقد زال الغلس، وما قبل الغروب هو صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ﴾ صلاة العتمة - المغرب والعشاء -، وأطراف النهار تأكيد لصلاة الفجر والمغرب، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة]، فهو تكرر لتأكيد الطلب، وإن تأكيد الطلب في صلاة الفجر؛ لأنها وقت الهدوء واستجمام النفس واستجماع كل القوى الروحية، وصلاة المغرب يضيق وقتها، ولذلك ورد في الأثر: المغرب جوهرة فالتقطوها، والفجر قد يتلهى عن صلاته بالنوم، ولذلك من السنة في أذان الفجر، الدعوة إلى الصلاة خير من النوم.

و﴿آثَاءِ﴾ جمع إنى، ومعناها وقت، أى نزه الله تعالى واحمده في كل أوقات الليل، وهنا بعض ملاحظات بيانية، أولها: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ قدم الزمان على الفعل وربط بينهما بالفاء، وذلك لمزيد العناية بالوقت فإنه وقت الهدأة والسكون، والاتصال بالله وحده.

الثانية: أن الفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ لتوكيد الطلب ووصل القول، كقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ...﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ...﴾ [النور].

الثالثة: أن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ الرجاء فيها من النبي ﷺ لا من الله، فإن الله وحده هو الفعال لما يريد، والعليم الخبير، وإن في هذا النص السامى تعليما لاتباع النبي ﷺ أن يلجئوا إلى الله عندما تشتد الشديدة.

ولقد روى أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة^(١) وقد قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة]، وإن الذى يذهب بلب اللبيب النظر إلى متع الحياة الدنيا عند غيره.

(١) عَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى. اشتد عليه وأهمه. والحديث رواه أبو داود: الصلاة - وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم (١١٢٤)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٢١٠).

فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣١).

إن الذي يقض مضجع ذوى الأهواء أنهم ينظرون إلى ما عند غيرهم من أسباب المتع والملاذ، وإنه هو الذى يمنع صبر من يريد الصبر ويتغيا الحقائق، ولذا بعد أن أمر الله تعالى نبيه بالصبر نهاه عما يضعف قوة النفس، والإرادة ليصون الرسول ومن معه نفسه، عن الأسباب التى تضعف الإرادة القوية الباصرة، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

«الواو» عاطفة النهى عن مد العينين على الأمر بالصبر، وفى هذا النهى شحذ الإرادة لتقوى على الصبر كما أشرنا، وإن المعنى الذى يبدو من النص أنه نهى للنبي عن أن يلتفت النبي ﷺ إلى ما هم فيه من استيلاء على زخارف الدنيا، وزينتها ولا يأخذ نفسه ذلك فيحسب أن لهم به منزلة عند الله تعالى، بل إنه دليل خسرانهم، وإذا كان النهى عن أن يلتفت إلى زينة الحياة الدنيا، فهو أمر له عليه الصلاة والسلام، ومن معه أن يتجهوا إلى معالى الأمور ومعنوياتها عن زخارفها.

وفى الكلام مجاز، فقد عبر سبحانه عن عدم الالتفات إلى ما أعطاهم من زخارف بقوله ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ﴾، أى لا تُطِلْ النظر وتسترسل فيه، وذلك يوجب ألا يلتفت، فشبّه حال الالتفات بحال من يمد بصره، وذلك للإمعان فى التأمل وفى ذلك تتبع، ومن ذلك قول النبي ﷺ للفضل بن عباس، وقد أطلال النظر فى امرأة «الأولى لك والثانية عليك»^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ «إلى» هى نهاية المد، كأن البصر يكون ممتدا من العين إلى متعهم، وذلك قد يؤدى إلى النظر إليهم غابطاً لهم، وما هم فى غبطة، أو ما يغبطون عليه و﴿أَزْوَاجًا﴾ معناها أشباها متقابلة كبيرة، و﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مفعول لفعل محذوف أو لـ «مَتَّعْنَا»، بتضمينها «أعطينا»، والتعبير عن هذه الزخارف، وغيرها من أسباب القوة الظاهرة بـ «زَهْرَةَ» تدل على أمرين أحدهما أنها كالزهرة، والزهرة عمرها قصير، فهى لا تبقى طويلاً، والثانى الإشارة

(٢٦) روى الترمذى: الأدب - ما جاء فى نظر المفاجأة (٢٧٠١) عَنْ بُرَيْدَةَ رَفَعَهُ قَالَ: «يَا عَلِيُّ لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأَوَّلَىٰ وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ شَرِيكٍ. كما رواه أحمد، وأبو داود.

إلى أن متعة الدنيا بريق لا يكون بعده قوة حقيقية، فهي متع كالسراج المزهري سرعان ما ينطفئ، وما أنت عليه يا محمد لا ينطفئ نوره أبداً.

وإن غاية هذه الزهراء إلى انطفاء، وهي اختبار لهم، ولذلك قال تعالى:

﴿لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، أي لنعاملهم معاملة المختبرين فيزدادوا طغياناً على طغيانهم. وتنكشف حقيقة أمرهم، ويعرف ما فيهم من غي وشر، والتعدي بقوله ﴿فِيهِ﴾ دون التعبير بالباء، وللإشارة إلى أنهم مغمورين في فتنة دائمة قد أحاطت بهم فهم يسارعون فيها من جنبه إلى جنبه وقد أحيط بهم.

﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ والرزق هو ما يعطيه الله لعباده من أسباب النفقة وقد يطلق على المعاني؛ لأنها غذاء القلوب وقوت العقول، ويكون ذلك من باب المجاز، وقد رزق النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين أنواعاً ثلاثة من الرزق أولها وأعلاها وأكملها الهداية، وثانيها: المال الطاهر النقي، والثالث: القوة في ذات أنفسهم كما بدت في الجهاد.

وهذا خير؛ لأنه أبقي في ذاته، وأبقى لأن له جزاء يوم القيامة، وهو النعيم المقيم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

أمر الله تعالى نبيه بالصبر، وأمره بما يقوله، وهو أن يكون مستحضراً لله تعالى منزلها له حامداً في الصلاة وغيرها، ونهاه عما يضعف الإرادة وهو النظر إلى زخارف الدنيا وزينتها، وما عليه أهلها، ثم بين سبحانه أن الصلاة الدائمة المستمرة هي عدة المؤمنين، وعدة الصابرين، وأنه يجب أن يكون المؤمن في جو الصلاة بأن يكون بيته مقيماً للصلوات فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ قال بعض العلماء: أهل النبي هم أهل بيته أو ذوو قرابته، وذلك ظاهر بين، وأمرهم بجعل بيت النبي جوه كله مقيماً للصلاة، والصلاة والصبر توأمان، كما قال تعالى فيما تلونا: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة]،

وقال آخرون: إن أهل النبي هم الذين اتبعوه، وقد كانوا في مكة والمدينة أسرته المختارة، حتى إنه ﷺ يقول في سلمان الفارسي: «سلمان منّا آل البيت»^(١) والذي أراه من هذين الرأيين أن أهله ﷺ هم أهله الأقربون الذين يعاشرونه، وأمره عليه السلام أمر لأمة، فالله سبحانه وتعالى يأمر كل مؤمن بأن يقيم دعائم بيته على أركان من التقوى والإيمان، والاتجاه إلى الله تعالى، وإنه لو تربى كل بيت على الإيمان والعبادة والاتجاه إلى الله تعالى، وأول أركان العبادة الصلاة لستكون مجتمع صالح من أسر صالحة.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الأمر هو الطلب الحازم القاطع، وأمر الأهل حيث يمكن التنفيذ، يكون بالتنفيذ والقُدوة فيعلم أولاده وأهله الصلاة ويصلي معهم ويرون فيه الأسوة الحسنة التي يتبعوها، وقد أمره بملازمتها بقوله عز وجل: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الاصطبار «افتعال» من الصبر، وهو يدل على أنه يربى نفسه على قوة احتمالها، ورياضة النفس عليها بأدائها كاملة بخشوع وحضور، واستحضار لجلال الله تعالى علام الغيوب، وأنه يراه في عمله، وإن لم يكن هو يراه.

وإن هذه التربية على العبادة التي أجل مظهر لها إقامة الصلاة فإن الصلاة عمود الدين، ولا دين من غير صلاة، كما أشار النبي ﷺ^(٢)، ليست هذه التربية لعائدة تعود على الله تعالى، فإن الله غنى حميد، وإنما لتكوين أسرة صالحة، ومجتمع صالح وجيل صالح، ولذا يقول العزيز الحكيم: ﴿لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وخطابه عليه الصلاة والسلام خطاب لأمة كلها، وهذه الجملة تدل على أن غاية العبادة إصلاح العابدين، ولا يعود على الله منها شيء فهو ليس بمحتاج، والناس يحتاجون إليه، وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله:

(١) عن عمرو بن عوف المزني: أن رسول الله ﷺ خطب الخندق من أحمر السبختين طرف بني حارثة عام حَرْب الأحزاب، حتى بلغ المذاحج، فقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، واحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلاً قويا، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: منا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَلَمَانُ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ».

رواه الطبراني، وفيه: كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد: ٦/١٨٩.

(٢) سبق تخريجه.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإنما الأمر أمر إصلاحكم، وخلاصكم من أعلاق الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، أى والأمر الذى يعقب هذا الأمر بالصلاة، والاصطبار عليها هو للتقوى المهذبة للنفوس الواقية لها من شرور إبليس وعداوته، والتقوى صفة المتقين، وإذا كانت العاقبة لهذه الصفة فهى عاقبة لهم بوجود مجتمع طاهر نقى.

أخذ يبين بعد ذلك إنكار المنكرين، وهو أنهم يحسبون أن محمدا لم يأت بآية تدل على صدقه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٣٣). الواو واصلة بين هذه الآية، وما كان من المشركين وإسرافهم فى أمرهم وكفرهم بربهم، وحسبوا أنه لم تأتهم آية شاهدة على رسالة محمد ﷺ؛ لأنه لم يأتهم بمثل عصا موسى، ولم يبرئ الأكمه والأبرص، ولم يغرقهم كما أغرق قوم نوح وقوم فرعون.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ «لولا» هنا معناها «هلا» الدالة على الحث والتحريض، ويتضمن هذا أنهم ينكرون وجود هذه الآية، وقد رد الله تعالى إنكارهم فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ سُمى القرآن «بَيِّنَةً مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى»، وهى كتب النبيين السابقين من توراة وإنجيل وزبور، وما جاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهم من النبيين والصدّيقين، وهذه البيّنة هى القرآن، وكان يبيتها لأنه الكتاب الخالد الباقي الذى يحمل فى نفسه دليل حجّيته، وهو حجة لنفسه، ولكل النبيين الذين سبقوه؛ لأنه معجزة باقية، وهو المسجل لكل المعجزات السابقة، لأنها كانت أحداثا ستنتضى بوقتها، أما القرآن فهو معجزة باقية تتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله فهو معجزة المعجزات، وهو سجلها الخالد الباقي، روى فى الصحيحين أنه ﷺ قال: «ما من نبي إلا أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله تعالى إلى وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(١) وليس أتباع عيسى وموسى هم الذين سموا اليهود، وسموا أنفسهم

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه بلفظه.

النصارى، إنما هؤلاء هم الذين يؤمنون بموسى رسولا نبيا، وبما اشتملت عليه التوراة من شرائع وتبشير برسل من بعده، وأتباع عيسى هم الذين يقولون إنه عبد لله خلقه كما يخلق البشر، وإن كان خلقه من غير الأسباب العادية لتعليم الناس في عصر كان الفلسفة فيه لا تؤمن إلا بالأسباب والمسببات العادية، فالله تعالى يعلمهم أنه الفاعل المختار المرید، فهل الذين يدعون أنهم أتباع موسى وعيسى يؤمنون بإيمانهم، وما جاءوا به من شرائع؟ إذن فأتباع محمد هم الكثرة، ومحمد عليه الصلاة والسلام، أكثر تابعا يوم القيامة وإنهم يكفرون بالقرآن آية، ويريدون آية غيره، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [العنكبوت].

وإن الله لم يأت بالمعجزات الحسية لأنهم كفروا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ... (٥٩)﴾ [الإسراء]، فهم ليسوا طلاب هداية يريدون الوصول إليها، بل هم مكذبون معاندون جاحدون يبررون جحودهم. وهم إذ جاءتهم الآية كفروا بها، وإذا لم تجتهدهم أيضا برروا كفرهم بأنهم لم تجتهدهم آية، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ وَنُخْزَىٰ (١٣٤)﴾.

إن بعث الرسل كان بمقتضى حكمة الله تعالى حتما لازما، لكيلا يكون للناس حجة، وكانت البيئة المثبتة لرسالة الرسول تكون بإرادة من أرسله وهو سبحانه وتعالى المرسل، والعليم بما يؤمن عليه البشر من آيات تدل على رسالة من أرسله.

ولو أنه سبحانه وتعالى لم يرسل رسلا، وكان الهلاك لقامت لهم حجة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾.

الضمير في ﴿قَبْلَهُ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأن المناقشة مع المشركين، فهو حاضر في الذهن، وإن لم يكن مذكوراً باللفظ، ويصح أن يعود إلى القرآن؛ لأنه البينة المثبتة لكل ما في صحف إبراهيم ونوح وموسى وعيسى وغيرهم، والمعنى لو ثبت أننا أهلكناهم بكفرهم وضلالهم، وأنهم يعيشون في الأرض فساداً لقالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يكون قولهم يوم القيامة ضارعا، إذ ينادون ﴿رَبَّنَا﴾ خالقنا والقائم على أمورنا وحياتنا: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، أى هلا أرسلت إلينا رسولا يرشدنا ويعلمنا، ويجنبنا طريق الباطل، ويهديننا إلى الطريق المستقيم ﴿فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الفاء للسببية، أى بسبب الرسل نتبع آياتك البينات، والمراد الآيات الشرعية التكليفية، أو نتبع خاضعين لموجب ما تدل عليه آياتك في هذا الوجود كله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ باتباع الباطل والهلاك ﴿نَخْزَى﴾ أى نصاب بالخزى والعار في الدنيا والآخرة.

وإن أمر الشرك وأهله لعجب؛ لأن الضلال إذا سيطر كان العجب، فإذا أرسل إليهم رسول جحدوا وعتتوا معه، وعاندوه ولم تعجبهم حجة لفرط إنكارهم لا لنقص في الدليل الذى قدم إليهم برهانا ساطعا، وإن لم يرسل وعذبوا، قالوا هلا أرسل إلينا رسول من قبل أن نذل ونخزى، إنه ليس لهم إلا أن يروا عاقبة جحودهم وعنادهم، ولذا قال عز من قائل:

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٣٥).

الخطاب للنبي ﷺ ومؤدى القول لقد جادلوك وصابرتهم وأحسن جدالهم، فذرهم واتركهم لعاقبة أمرهم، و﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾ التنوين في ﴿كُلُّ﴾ قائم إلى مقام مضاف محذوف تقديره مثلاً كل فريق متربص، أى منتظر عاقبته ليراها محسوسة معلومة، وإن كانت الحقيقة معروفة للنبي ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) [سبا].



﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

«الفاء» تنبئ عن شرط مقدر، فإذا تربصنا فستعلمون من أصحاب الطريق المستقيم، فالصراط هو الطريق السوي أي المستقيم، ومن وصل إلى الهداية وإلى الحق، أي ستعلمون من يكون قد سلك المسلك المستقيم، ومن سار على الطريقة، ومن وصل إلى الحق، واهتدى إليه، والاستفهام للتنبيه والتوجيه، والجملة كلها للتهديد؛ لأن من اهتدى وسلك طريق الحق فقد نال حسن الهداية والتوفيق ونال الجنة والنعيم المقيم ورضوان من الله أكبر، ومن ضل وغوى، وسار في مثرات الشيطان فقد هوى إلى نار جهنم وبئس المصير.

فاللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، وجنبنا سبل الضلالة الموصلة إلى عذاب الجحيم.

سورة الأنبياء

تمهيد:

هي جديرة باسمها؛ لأن فيها قصصا من أخبار النبيين، وهو غير مكرر مع ما ذكر في غيرها من القصص، فكل قصة ليست جزءا من القصة هو عبرة في موضعها غير مكرر مع غيره، وقد نبهنا إلى ذلك من قبل، وضربنا المثل بقصة بدء خلق الإنسان، والمفارقات.

وسورة الأنبياء سورة مكية وآياتها اثنتا عشرة آية ومائة.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر الساعة وقربها وما وراءها من حساب على ما قدمت أيديهم، ﴿اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) ويأخذون الحياة لعبا ولهوا حتى ما يكون تذكيرا باليوم الآخر ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) لاهية قلوبهم ... ﴿وَقَالُوا لِكُلِّ رَسُولٍ جَاءَهُمْ ... هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٣)، واتهموا كل رسول يرسل إليهم بأن كلامه أضغاث أحلام وأن كلامه افتراء افتراه على الله تعالى، ﴿... بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ ...﴾ (٤) ويذكر العبرة في حال من سبقوا ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥)، ويخاطب نبيه فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٧).

ولقد كفر أقوامهم فصدق الله تعالى وعده لأنبيائه فأنجاهم وأهلك الكافرين لأنهم أسرفوا في الضلال، وبين للنبي ﷺ أنه مذكور في الكتب قبله، وأن الكتاب

الذى أنزله الله إليكم فيه ذكركم ورفعتمكم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أهلك الذين من قبلهم لضلالهم، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١)، وقد أحسوا الهلاك النازل بهم عند نزوله ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥).

وقد بين سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض ودلالته على وحدانية الخالق، وأنه مالك السموات والأرض ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٦) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ (٢١).

ولقد جاء إثبات الوجدانية بدليل يجمع بين البلاغة وأعلى درجات المنطق فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)، ولقد تحداهم سبحانه أن يأتوا بما يدل على الوهية غيره سبحانه فقال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤).

وقد أشار سبحانه من بعد إلى أنه قد أرسل رسلا من قبلكم وكانت دعوتهم التوحيد الخالص ونفى سبحانه عن ذاته العلية اتخاذ الولد ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٥) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨). ونفى سبحانه أن يقول أحد ممن ادعوا أنهم أبناء الله، ومن يقل بذلك يجزيه جهنم وكذلك يجزي الله الظالمين.

وقد أتى سبحانه بقضية كونية لم يصل إليها العلم إلا في العصور المتأخرة، وهو أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ، وبين بعد ذلك ما فى الأرض من جبال راسيات، ومن مهاد، ومن فجاج وسبل، وجعل السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون، وبين سبحانه أنه خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون، وأن نهاية النفوس جميعا إلى الموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ، ثم أشار سبحانه إلى استهزاء المشركين يقولون عند رؤية النبى ﷺ ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ ، وقد أشار سبحانه إلى ما فى الإنسان فى طبيعته من الاستعجال، ويستعجلون العذاب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ ، ثم بين سبحانه حال الكافرين ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورهمُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ بل تأتيتهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴿٤٠﴾ ، ولقد ذكر الله تعالى لتسلية النبى ﷺ ما كان يفعله السابقون من السخرية برسلمهم وحق بالذين سخروا ما كانوا به يستهزئون.

ثم نبه سبحانه إلى ما أنعم به عليهم من نعم وهى دائمة ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ، وليس لهم من يمنعهم من الله، وأنه سبحانه متع هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم وظنوا أنه لا حساب، وقد وجدوا عقاب الله تعالى لمشركى مكة بالحرب التى كانت تنقص عليهم الأرض من أطرافها.

ولقد أشار سبحانه إلى موسى وهارون وقد آتاهم ما أضاء الحق وذكر المتقين، وما كان فرقانا بين الهدى والضلال، وهذا ذكر مبارك وهو القرآن، أفأنتم معشر المشركين له منكرون.

ذكر بعد ذلك شيئا من مجاوبة إبراهيم لعباد الأوثان قائلا لهم: ﴿... مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قالوا وجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قالوا أَجئنا بالحق أم أنت من اللّاعين ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللّهِ لَأَكِيدَنَّ

أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُذِيرِينَ ﴿٥٧﴾ . وحطم أصنامهم ووضع الناس التي حطمها بها في عنق كبيرهم، ثم جاءوا وتحروا فوقعت الظنة على إبراهيم فأرادوا أن يحرقوه بالنار فجعلها الله تعالى بردا وسلاما على إبراهيم، وهذا القدر من قصة إبراهيم لم يذكر في أى سورة أخرى، مما يدل على أنه لا تكرر في قصص القرآن، وإن بدا ذلك بظاهر الأمر لمن لم يفحص مرامى القصص وموضع العبرة فيه، وقد جرت بين الشاب وبينهم مجادلات في عبادة الأوثان، حتى انتهى إلى قوله لهم: ﴿أَفَلَا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ .

ونجى الله من كيدهم إبراهيم كما نجى الله تعالى لوطا.

وذكر سبحانه بعد ذلك ما وهبه له من إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعله الله من الصالحين وجعلهم أئمة يهدون بأمره، ويقول سبحانه: ﴿... وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ .

ثم ذكر نوحا: ﴿... إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ .

وذكر سبحانه داود وسليمان، وقضايا سليمان وما فهمه سبحانه وتعالى من الحكم فيها وما علمه لداود من صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون، وما مكّن سبحانه وتعالى لسليمان، وقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ .

وقص سبحانه قصة نبي الله تعالى أيوب وما أصابه من ضر وصبره لما أصابه ﴿... إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ ، وقد استجاب له

الله تعالى، وكشف ما به من ضر وقال سبحانه: ﴿... وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (٨٤).

وأشار سبحانه وتعالى إلى إسماعيل وإدريس وذى الكفل، وكل من الصابرين، وقال سبحانه: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٦)، ثم ذكر سبحانه قصة ذى النون فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨).

وذكر خبر زكريا، ونداءه ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩)، وقد استجاب الله تعالى له ووهب له يحيى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى خبر مريم فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١).

ثم أشار سبحانه إلى أن الناس جميعا أمة واحدة دعيت إلى دين واحد، فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢).

وأشار سبحانه إلى أنه مع هذه الوحدة الجامعة تفرقوا حول الأنبياء الذين دعوا إلى عبادة الله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (٩٣).

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أحوال يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون، وبين سبحانه أن الساعة آتية لا ريب فيها، وقد اقتربت لأن كل آت قريب، وأشار إلى أحوال الناس عند هذه الساعة، وبين أنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، وبين لنا أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى أولئك عن جهنم مبعدون، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتتت أنفسهم خالدون، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون.

وذكر سبحانه وتعالى ما يكون للكون يوم القيامة، وما كتبه الله فى كتبه السماوية أن الأرض يرثها الصالحون، وأمر نبيه أن يقول للمشركين الذين كفروا

برسالته: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَعَلِمَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

وبهذا تنتهي السورة الشريفة، وفيها كما يرى القارئ من هذا العرض أنها تشتمل على إشارات من قصص النبيين، وصلبها الدعوة إلى التوحيد، وما لقيه النبيون في سبيل هذه الدعوة التي هي الحق، وضل من يعاندها.

معانى السورة

تلقى الناس لدعوة الحق

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ أَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمَ بَلْ
أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْ لَنَا آيَةً كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ
﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

ابتدأ الله تعالى السورة الكريمة بذكر القيامة، وأعظم ما في القيامة أثرا هو الحساب الذي يعقب التوجه إلى النعيم، أو التوجه إلى الجحيم، ابتدأ به؛ لأن كل ما يذكر من إعراض عن ذكر الله تعالى في دعوات الأنبياء الذين أشارت إلى قصصهم

سببه الغفلة عن ذكر الله وعدم إدراك معاني التوحيد، والإعراض عن دعوات التوحيد التي تجددت الدعوة إليه على لسان كل نبي من الأنبياء الذين بعثوا إلى الناس عصرا بعد عصر، حتى جاء خاتم النبيين محمد ﷺ.

والناس في قوله تعالى: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قيل عن ابن عباس رضي الله عنه إنهم المشركون؛ لأنهم الذين غفلوا عن يوم البعث، وأعرضوا عما دعا إليه محمد ﷺ، ولكن الظاهر أنهم الناس كافة الذين توالى عليهم النذر وخصوصا غير المؤمنين في أى جيل من الأجيال، بدليل ما تجيء به الآية بعد هذه الآية من قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ نقول: إن معنى الاقتراب تأكد الوقوع كقوله تعالى: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر] إذ إن كل أمر مؤكد الوقوع يصح أن يقال عنه إنه مقرب، وإن الأزمان بالنسبة للقرب والبعد عند الله سواء، فالقرب والبعد بالنسبة للحوادث لا بالنسبة إلى واجب الوجود، ورب البرية، ولأن هذه الآية نزلت على محمد ﷺ وقد كان مبعثه على قرب من القيامة، كما روى عنه أنه قال: «بعثت في نسمة الساعة»^(١) و(اقترب): صيغة افتعال من (قرب) وهي تدل على شدة الاقتراب، واقترب الحساب هو اقتراب الساعة التي يكون فيها الحساب وعبر عنها بالحساب؛ لأن الحساب كما أشرنا هو الفصل بين الخلائق يوم القيامة لأنه هو الذى يعين مصائرهم، إما إلى الجنة أبدا وإما إلى النار أبدا، فذكرت القيامة بأعظم ما فيها، وهو ما يحدد مآل الناس، ولأن ذكره فيه ترهيب للناس وتنبية لهذا اليوم الذى تجزى فيه كل نفس ما كسبت، فذكره تنبيه للغافلين.

والتعدي باللام في قوله تعالى: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ إنها لتوكيد الحساب، وتنبية الأفهام، وتقدير القول: اقرب حساب الناس، فكان النص السامى أبهم الحساب، بأن الاقتراب للناس، ثم بين أنه ليس لذواتهم، بل لحسابهم، وفى

(١) أخرجه الحاكم في المستدرج، والسيوطي عن أبي جيرة رضي الله عنه. الفتح الكبير (٥١٥٤)، ومجمع الزوائد (١٣٢٨١).

التوضيح بعد الإبهام فضل توكيد للمعنى، وزيادة في الترهيب بالإشارة إلى أن الاقتراب منهم.

ويلاحظ أن الاقتراب يتعدى بـ «إلى»، فيقال: اقترب إليه، وبـ «من» فيقال: اقترب منه، فلماذا كان التعدى فى الاقتران باللام؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن التعدية بـ «إلى» أو «من» ربما تدل على المحبة والمودة، وهما لا يصلحان فى هذا المقام، فالاقتراب اقتراب مدة لا قرب رفق ومودة، ويقال فى قرب المبارزة، اقترب المبارز لخصمه، ولا يقال اقترب إليه أو منه؛ ولأن «اللام» تفيد الاختصاص، فالاقتراب للحساب يخصهم ويملكهم.

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة حالية، وقد وصفوا فيها بوصفين: الأول: أنهم فى غفلة عن هذا الحساب إذ هم لا يؤمنون بالبعث بسبب غشاوة جاءت على أعينهم، وقلوبهم غلف، فهم غافلون عن ذلك اليوم مأسورون بالحس، لا يعرفون ما وراءه، وأول مظاهر اليقظة النفسية تعرف ما وراء الحس، فيتساءلون لماذا خلق الإنسان وما غايته؟ وما نهايته؟ ويدركون أنه لم يخلق عبثاً، وهذا فرق ما بين الإنسان والحيوان.

فهم فى غفلة عن هذا، وإذا جاء مذكر موقظ لعقولهم من رسول أو نبي أعرضوا عنه، فكان فى أوصافهم أمران أولهما: غفلة نفسية لا تدرك بذاتها، والثانى أنهم إذا جاء من يذكرهم أعرضوا عنه ونأوا بجانبهم، وقال تعالى: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ بالوصف يدل الفعل للإشارة إلى أن الإعراض ملازمهم ملازمة الغفلة لهم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَنُونَ ۚ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ۚ﴾

الذكر هنا هو الرسول المذكر، وعبر عن الرسول بالذكر؛ لأنه عمله ورسالته، فعبر عنه بأخص أوصافه، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ﴾ [الغاشية]

وكما قال تعالى: ﴿... إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ...﴾ (٤٨) [الشورى] فالذكر هنا هو لب الرسالة، وغايتها، والمعنى أنهم غافلون، وإذا جاء الذكر لا يتذكرون، وقد وصف الذكر بوصفين أولهما: قوله تعالى: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ أضيف الذكر إلى أنه من ربهم الذى خلقهم من العدم وقام على تربيتهم، فهو أعلم بحالهم وما يناسبهم، فقد علم أنه لا يناسبهم ملك من الملائكة ولكن يناسبهم رسول منهم هو من أنفسهم رحيم بهم رءوف عليهم، والوصف الثانى قوله تعالى: ﴿مُحَدَّثٌ﴾ أى أنه تذكير يتجدد لم ينقطع عنهم، فالرسول ومعه الذكر يجرى إليهم آثا بعد آث، غير منقطع حتى خاتم النبيين ﷺ، ونزل معه القرآن الحكيم الذى يذكرهم إلى يوم الدين.

والضمير فى ﴿اسْتَمْعُوهُ﴾ يعود إلى الذكر، وهذا من باب الترشيح للمجاز فى تسمية الرسول بالذكر لما ذكرنا، ويجوز أن نقول كما قال كثير من المفسرين: إن الذكر بمعنى الكتاب الذى جاء به الرسول، أو أريد به القرآن الذى جاء به محمد ﷺ، ومعنى ﴿مُحَدَّثٌ﴾ هو تجدد نزول آياته آية بعد آية مجددة التذكير الذى يهدى الضال ولكن الظالمين لا يهتدون.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اسْتَمْعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حالان، حال بعد حال، والحال الثانية عن سببه عن الحال الأولى، ف ﴿لَاهِيَةً﴾ سببها تلقى الآيات التى تجدد الإيمان لمن له قلب، باللعب والعبث والسخرية وعدم الاعتبار والتبصير والتدبر، مع السخرية والاستهزاء، وبسبب ذلك تلهو قلوبهم، وتنصرف عن الإصغاء إلى الحق، وإنهم وهم فى حال اللهو واللعب والانصراف عن الحق تماما - يعملون على مقاومته فيجتمعون ويتشاورون كيف يردون دعوة الرسول، وماذا يقولون لصد غيرهم عن سبيل الله وقد أضاء الحق فى ظلام الجاهلية، اجتمعوا فى كن من الخفاء، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ النجوى والتناجى: التحدث فى سر لا جهر فيه، ومعنى ﴿أَسْرُوا النَّجْوَى﴾ تشاوروا فى الأمر بعيدا عن الناس، وبالغوا فى الإسرار، لكى يتدبروا الأمر الخطير الذى فوجئوا به، ويصرفوا الناس عنه

ويعودوا إلى دين آبائهم، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من «واو الجمع» في قوله ﴿وَأَسْرُوا﴾ وفائدة ذكر هذا البدل وصفهم بأنهم كانوا ظالمين في هذا التشاور والتأمر على الحق والصد عن سبيل الله، كما كانوا ظالمين في الإعراض عن ذكر الله المتجدد آية بعد آية، ورسولا بعد رسول.

وقد كانت نتيجة تأمرهم قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، والمعنى: ما هذا إلا بشر مثلكم، وهذا تسويغ لإنكارهم؛ لأنهم لا يعتقدون أن الرسول لا يكون من جنس البشر بل يكون من الملائكة، فهم يريدون أن يلقوا في روع الناس أن هذا مثلهم، فلا يمكن أن يكون نبيا مرسلا، والاستفهام الذي يدل على النفي فيه تنبيه لهم، وكأن النفي من السامع لا من المتكلم.

وقد بينوا أن إيمانهم به إيمان بالسحر، فقالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ «الفاء» عاطفة على فعل محذوف تقديره أتصدقونه فتأتون السحر وأنتم تبصرون، ومعنى إتيانهم السحر حضوره ومشاهدته فكأنهم هم الذين أتوه، ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ أى لم يمه على أبصاركم فسحر عيونكم، بل أنتم تدركون بكامل بصركم وترون الأشياء والوقائع.

وفى هذا حكم على القرآن بأنه سحر؛ لأنه يعمل السحر، ولم يجدوا طريقا لإدخال إفكهم على الناس إلا بهذا الادعاء الباطل، وإذا كانوا قد ائتمروا بالنبى ﷺ فى إسرار نجواهم فالله تعالى يعلم ما تناجوا به، وما ائتمروا عليه، ولا يهمه ﷺ أن يعلم ما يتآمرون عليه من قول، وما يدبرونه من صد عن سبيل الله؛ ولذا قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

الضمير الفاعل لـ ﴿قَالَ﴾ يعود على النبى ﷺ؛ لأنه المذكور قبل ذلك، إذ هو الرسول الأخير الذى خاطب المشركين، وأسروا له النجوى، وخرجوا إليه بالظعن فيه، وصرف الذين اتبعوه عنه، فهو يبين فى هذا أن الذى ياتمرون به من نجوى أو جهر يعلمه الله وهو فى معنى التفويض إليه سبحانه؛ لأنه رسوله الذى

أرسله وكل كيد له هو لتعويق الرسالة فهو حافظه وكالته، وهو الذى يحمى الذين اتبعوه عن فتنة القول الذى يدبره هؤلاء المشركون.

﴿قَالَ رَبِّي﴾ الذى أرسلنى ويقوم على حماية رسالتى ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والقول يشمل السر والجهر، وهو يفيد عموم علم الله تعالى لكل قول خفى أو جهير، فى سر أو فى علن، وهو راد كيدهم فى نحورهم ومبطل تدبيرهم، وذكر ﴿السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لعموم علمه بكل قول سواء أكان من ملك كريم أم كان من شيطان رجيم، فهو سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، وختم سبحانه وتعالى الآية بوصفه سبحانه بوصف الكمال، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى أنه يعلم الأقوال كلها جهراً وسراً، وهو محيط بعلمه بكل شئ وذكر ﴿السَّمِيعُ﴾ لأن موضوع العلم فى الآية القول الذى دبروا به كيدهم، وما كيدهم إلا فى ضلال، وقال تعالى عما دبروا من قول يصدون به من آمنوا عن سبيل الحق:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي؛ ينتقلون بقولهم من فرية إلى فرية يحسبونها أقوى صدأ، ثم إلى أقوى منها، انتقلوا من فرية السحر إلى فرية أضغاث الأحلام إلى فرية أنه افتراه على الله إلى فرية أنه شاعر، ثم ينتهون إلى أنهم لا يرضون بهذه الآية الدالة على أنه مرسل من عند الله، كالأيات التى كانت للأنبياء السابقين من المعجزات الحسية كالعصى وإبراء الأكمة والأبرص، و«الأضغاث» جمع «ضغث»، وهو القبض من الريحان والحشيش أو الخطب أو قضبان النبات، كما قال تعالى: ﴿وَاخْذُ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ...﴾ (٤٤) [ص]، وشبهت بها الأحلام المختلطة التى لا تتيقن حقائقها ولا تستبين عند الحالم. انتقلوا من ادعاء أن القرآن سحر ساحر إلى أنه تخاليط أحلام سيطرت على عقل النبى ﷺ إذ هى أخلاط، كالأحلام ليس فيها حق يدرك.

ثم انتقلوا من هذا الادعاء إلى ادعاء آخر أوغل منه في الرد في زعمهم، فقالوا ﴿بَلْ افْتَرَاهُ﴾، أى اخترعه من عنده اختراعا فهو قول مفترى، وهذا هو لب تكذيبهم، وإن لم يقصدوا إليه ابتداء، فهم مكذبون له في كل الأحوال، ثم انتقلوا إلى ادعاء أنه قول ساحر، ولم يقولوا إنه شعر لأنهم يعلمون الشعر في حقيقته، ويفرقون بذوقهم البياني بين القرآن والشعر. ولقد ادعوا أن محمدا شاعر، وأنه من أفانينه، وإن لم يكن شعرا، والشاعر يتفنن في القول نثرا أو سجعا أو شعرا، وكل هذا باطل، وذلك التردد في القول دليل على حيرتهم في الرد، ودليل على لجاجتهم في الجحود، فقالوا مرة: ساحر، ومرة: أضغاث أحلام، ومرة: افتراه، ومرة: إنه شاعر.

وهنا يجىء سؤال: أليسوا في كل أقوالهم يدعون الافتراء، فلماذا خص الافتراء بالذكر؟ ونقول إنهم في الثلاثة الآخر غير الافتراء يتكلمون في النبي ﷺ، وفي الافتراء يتجهون إلى القرآن نفسه، ولقد قال في ذلك الإمام الزمخشري: «هم أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام يفترى، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج والمبطل متحير، رجّاع غير ثابت على قول واحد، ويجوز أنه يكون تنزيلا من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد، وأن قولهم الثانى أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثانى، والرابع أفسد من الثالث».

وهذا الذى اخترناه، ونحن رأينا ابتداء أن هذه الإضرابات الانتقالية حكاية من الله تعالى لغيبهم.

وخلاصة أقوالهم أنهم لا يعدون القرآن آية دالة على أنه رسول من عند الله؛ ولذا طلبوا آية حسية كالأنبياء السابقين فقال: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فرتب على جحودهم بالقرآن آية، قولهم: ليأتنا بآية حسية باهرة فاهرة حسية، كما أرسل الأولون بآيات حسية، التشبيه بين ما يريدون من آيات وآيات الرسل الأولين.



وقد بين سبحانه أن هذه الآيات جاءت كما طلبوا ولم يؤمنوا بها فقال تعالى:

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

إذا كانوا يطلبون آيات كالأيات التي كانت للأولين التي طلبوها هم أيضا، فما آمنوا بعد أن أجيب طلبهم، وقد عاهدوا الله تعالى على أن يؤمنوا إذا جاءتهم، فلما جاءتهم نكثوا في أيمانهم، فحلّ الهلاك بهم، فإذا كنتم تقايسون بين الآيات تطلبونها وآيات الذين سبقوا، ففكروا في نتائج آياتهم، وهي ذات النتيجة التي تكون منكم، فلن تؤمنوا كما لم يؤمنوا؛ لأن الجاحد لا ينفعه دليل ولا تقنعه حجة.

قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ القرية المدينة العظيمة، أو الإقليم، والمعنى: ما آمنوا، بل كذبوا وهلكوا فاعتبروا بهم، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام].

ولذا قال تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء تفصح عن شرط تقديره: إذا جاءتهم الآية هم يؤمنون؟! والاستفهام إنكارى، والمعنى أنهم لا يؤمنون، كما أنه لم يؤمن من كانوا قبلهم، فالجحد، لا يعالجه الدليل وكثرته، إنما يعالجه العقاب وصرامته.

وسياق الآيات الكريمات أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشرا من البشر، ثم واصلوا إنكارهم فادعوا الافتراء، وقالوا في شخصه ساحر، وأن ما جاء به أضغاث أحلام، وأنه مفترٍ وأنه شاعر، ثم قالوا من بعد منكرين للآية الدالة على رسالته، ولم يعقلوا بعقلهم الجحود المنكر أن يكون القرآن معجزة، وإن عجزوا عن الإتيان بمثله بعد أن تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعضه ولو مفترى.

والحقيقة أن الجحود هو الذى أملى الاعتراض عليه، وهو أنسب معجزة لخاتم النبيين؛ لأنه باقٍ متجدد الإعجاز لا تبلى جدته، وهذا يناسب رسالة باقية ما بقى الإنسان على ظهر البسيطة.

الرسل من البشر

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَشَتَّلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَّيَّاكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمْ
الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُشْكِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُبَوِّلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

قال المشركون منكرى رسالة النبي ﷺ: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (٢)
[الأنبياء]، أى ليس هذا إلا بشرا مثلكم فكيف تؤمن بأنه رسول يوحى إليه؟ فرد
الله تعالى قولهم بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

فما اعتمدوا عليه فى تغيير الذين اتبعوا محمدا ﷺ بين الله تعالى بطلانه،
فهو حجة داحضة؛ لأن الرسل جميعا ليسوا إلا رجالا، كما قال الله تعالى فى



آية أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ...﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ...﴾ (١٠٩) [الأحقاف].

فسنة الله تعالى أن يرسل رسله من البشر، ليأنس بهم المدعون، وليأتلفوا معهم، ولأن الملك لا يمكن أن يخاطب البشر إلا إذا صار كالرجل كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (٩) [الأنعام]. وقد نبههم سبحانه إلى أن تلك سنة الله تعالى فيمن يبعثهم، وبين أيديهم ما يعلمون فيه سنة الله في رسله، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام وإسماعيل ابنه كانا من الأنبياء، وإبراهيم عزهم ومناط فخرهم حيث كان رسولا من أولى العزم من الرسل - كان من الرجال ولم يكن من الملائكة، وبنى البيت الحرام الذي كان حرما آمنا ويخطف الناس من حولهم، بناه بقوته البشرية لا بالروح الملكية.

ومع ذلك طلب الله تعالى أن يسألوا من يشايعونهم من اليهود الذين كانوا يناوئون الإسلام كما يناوئونه هم، ويؤذون النبي ﷺ كما يؤذيه المشركون على سواء ولقد قال تعالى: ﴿... وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ...﴾ (١٨٦) [آل عمران] فقال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ «الفاء» واقعة في جواب شرط محذوف دل عليه ما بعده، وأهل الذكر هم أهل العلم بالرسالات، وأهل العلم هم كل من عنده علم بالرسالات الإلهية والرسل المهديين. وفي هذا النص رمى لهم بالجهل، وأن الذين يدعون العلم بأنه لا رسول إلا من الملائكة غير عالمين، ومفسدون، وفي هذا إذلال لهم، ورمى لهم بالجهل المطبق، مع الإرشاد إلى الحق والاحتجاج بعلم أهل الكتاب الذين يناوئون النبي ﷺ مثلهم.

ثم قال تعالى مؤكدا معنى الآية السابقة:

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾

الضمير يعود إلى الرسل، لأنهم مذكورون في الآية السابقة بعبارة تفيد العموم بذكر الرجال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ والنفي داخل على الجسد الذي لا يأكل

الطعام فمن طبيعة الجسد أن يأكل ويشرب ويمشى فى الأسواق، وهذا رد على من زعم أن الرسل ليسوا من البشر، وتجاهلوا ذلك أو جهلوه، ورد على الذين قالوا من المشركين: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق. ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾، وقد رد الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ٢٠﴾ [الفرقان].

نفى الله تعالى بهذه الآيات أن يكونوا جسدا لا يأكلون بل هم أجساد حية تحتاج إلى الغذاء كما يحتاج الجسد فى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ لأن الجسد يدل على الجنس، والجنس يفيد العموم، ولأن الأفراد ملاحظ أيضا، فالمعنى: «وما جعلنا أى رسول جسدا لا يأكل الطعام» وإن الطعام يعوض الجسم البشرى ما يفقد منه يوميا حتى إذا ضعف الجسم عن الغذاء كان الموت؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ لأنه إذا كان الرسول جسدا فإنه تعرفه عوامل الفناء الجسدى، حتى يكون البعث يوم القيام، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ٢١﴾ [الأعراف] فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ تأكيد لمعنى الجسدية التى تأكل الطعام، وقد توهموا من معنى الملائكة أنهم لا يموتون فأكد الله سبحانه وتعالى نفى الملكية عنهم بذكر أنهم ليسوا خالدين كما تزعمون فى أن الرسل من الملائكة لا يفنون، وهكذا أبطل الله تعالى دعواهم أن الرسل لا يكونون من البشر، وأثبت سبحانه بالاستقراء والتبع أن الرسل لا يمكن أن يكونوا إلا من البشر الذين يوحى إليهم.

وإن الله تعالى إذ يرسل الرسل من البشر يحوطهم بعنايته؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾

الضمير فى ﴿صَدَقْنَاهُمْ﴾ يعود إلى الأنبياء الذين مر ذكرهم فى الآيات السابقة، وصدق الوعد معناه الوفاء به بأنه يجىء العمل موافقا للعهد، ومن ذلك قول الرسل صدق، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ٢٢﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ العطف بـ «ثم» يفيد أنه بين الوعد وصدقه شذائد كثيرة نزلت بالأنبياء من ردّ وعناد واستهزاء وسخرية وإيذاء، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠] فكان العطف بـ «ثم» مشيراً إلى هذه الشذائد، وأنه لم يتبين صدق الوعد إلا بعد شذائد ذاقوها، ولم تهز إيمانهم، ولم توجد في قلوبهم يأساً من صدق وعد الله.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ «الفاء» تدل على أنه يجيء فور صدق الوعد الإنجاء للرسل، والإنجاء يشير إلى تضافر القوى ضدهم، ﴿وَمَنْ نَّشَاءُ﴾ هم التابعون للأنبياء الذين آمنوا بما جاءوا، وقد شاء الله تعالى إيمانهم لأنهم اختاروا الهدى، وقد عبر الله تعالى عنهم بقوله ومن نشاء للإشارة إلى أنهم آمنوا؛ لأن الله تعالى شاء لهم الإيمان، وكل شيء في محيط مشيئته وإرادته، فلا يقع شيء إلا إذا تعلق به مشيئة الله ولا يخرج شيء في الوجود عن إرادته.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وهم الذين خالفوا النبيين وعاندوهم ولم يؤمنوا، وكفروا بأنعم الله، وعبر الله عنهم بالمُسرفين، لأنهم أسرفوا على أنفسهم، وأوقعوها في الضلال بكفرهم برسالة الله، وإسرافهم في العناد وإيذاء المؤمنين وإسرافهم في ضلال العقل وعدم الإذعان لأي حجة أو برهان، وإسرافهم في المعاصي، وهى إفساد، والله لا يحب المفسدين.

وإن الله تعالى أهلك المسرفين المفسدين دائماً، ولكن بعد أن يرسل النذر، وقریش اختصت بكتاب فيه علمهم وذكرهم وشرفهم؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

أكد سبحانه نزول الكتاب من عنده إليهم بـ «اللام» التى تفيد التوكيد، و«قد» التى تفيد التحقيق، وكان التأكيد لأصل ما يعود به عليهم ذلك الكتاب العظيم؛ ولذلك قال تعالى فى هذا الكتاب ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ هذا من إضافة المصدر للمفعول، أى فيه تذكير لكم بالحق والمواعظ والأحكام الشرعية العادلة التى تنظم العلاقات بين

العباد آحادا وجماعات ودولا، وفيه المواعظ والقصص والعبر، وكل هذا تذكرة وهداية وإرشاد.

ويقول الزمخشري: إن الذكر هنا هو الشرف، أى أن هذا الكتاب فيه شرف لكم لأنه يشرف من ينزل إليهم، ومن يشيع علمه بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُ لَكْ وَلِقَوْمِكَ...﴾ (٤٤) [الزخرف].

ونقول: إذا كان العرب يتفاخرون بقصيدة يقولها شاعر فى قبيلة فتكون فخرا لها فإن القرآن أعلى كلام فى الوجود، وأبلغه، وما قاله بشر، بل قاله الله تعالى وهو تنزيل من عزيز حميد، لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه لا يعرف قدره إلا من يعلو فى البيان إلى تدبر معانيه، وفصاحة مبانيه، وبلاغة كلامه ومقتضيات الأحوال؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ «الفاء» عاطفة على فعل محذوف يقدر بما يناسب المقام فيقدر مثلاً: أتردونه فلا تعقلون، فلا تدركون بعقولكم حقيقة ما تردون، ويعود بالخير عليكم شرفاً وهداية وإرشاداً ومواعظ وعبراً، والتذكير فى (كتاب) لبيان شرفه أى كتاب أى كتاب.

عاد سبحانه بعد هذا الإرشاد الحكيم بالقرآن الكريم، فقال عز من قائل:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

هذه الآية الكريمة مفصلة بعض التفصيل لما تضمنه هلاك المسرفين فى الآية السابقة ﴿وَكَمْ﴾ بمعنى الكثير، وهى مفعول لـ ﴿قَصَمْنَا﴾، والقصم هو التكسير والتهشيم، الذى تنفصل فيه الأجزاء عن بعضها، وهى تدل على الغضب، والهلاك يكون لأهل القرية، والمعنى وكما قصمنا أهل قرية كانت ظالمة، وإنى أرى كما رأى بعض المفسرين أن القصم كان فى القرية نفسها، كما حدث لقوم لوط، إذ جعل على الأرض سافلها، وكما حصل لثمود، إذ جاءتهم ريح صرصر عاتية دمرتهم وكما حدث لعاد... إلى آخره، وقوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، أى أهلها ظالمون فالظلم

لا يقع من البناء والأحجار، ولكن من الذين يحلون في القرية، فأسند الفعل إلى المحل وأريد الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى أن هذه القرية التي قصمت وحطم بنيانها وأزيلت من الوجود أنشأ بعدها قرية أخرى غير ظالم أهلها يسكنها قوم آخرون، وهنا أمران يوجبان الالتفات.

أولهما - أن الحديث عن القرية ولكنه سبحانه قال إنه لا ينشئ القرية مرة أخرى، إنما ينشئ قوما آخرين، وإنشاء قوم آخرين ينشئ قرية، وليس الأمر أمر البنيان، وإنما الأمر أمر من يسكنون البنيان، ووصفوا بـ ﴿آخَرِينَ﴾ لبيان تباينهم عن الأولين.

الأمر الثاني - التعبير بـ ﴿أَنشَأْنَا﴾، والتعبير بقوله ﴿بَعْدَهَا﴾، فالذكر للبعدية بالنسبة للقرية مع أن الإنشاء للأقوام الآخرين، وكان ذلك لأن الحديث عن قصم القرية، وتكسيرها وتهديمها وهو المظهر الحسى لهلاك الأقوام بهلاك قراهم وأماكنهم التي كانوا بها يعيشون.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣﴾

«الفاء» للتفصيل، ﴿أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ معناها بدت بوادر البأس الشديد والهلاك العتيد، وعلموها بحسهم وقرب نزوله ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ «إذا» للمفاجأة أى أنهم فاجأوا من حولهم بركضهم، والركض هو السرعة، وهو مأخوذ من ضرب الدابة برجلها، وقد شبهوا في سرعة سيرهم وضربهم في الأرض بضرب الدابة في الأرض، وذلك تصوير لفزعهم وهربهم مسرعين لا يلوون، وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ﴾ أى لا تفزعوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه، والإتراف هو الانغماس في النعيم، وأن يكونوا فاكهين فيه ناعمين، وإن ذلك يؤدي إلى بَطْرِ النعمة وغمط الناس والاستكبار، ولكن من القائل لهم ذلك؟ قيل: الملائكة بأمر من الله تعالى، وعندى أنها حال اعترتهم في نزعهم الأكبر، فكان

الخوف يدفعهم إلى الركض والهروب من البأس، والحرص الذى استمكن فى نفوسهم، وحرصهم على ما كانوا عليه يناديهم فى ذات أنفسهم: لا تركضوا وارجعوا إلى منازلكم التى كنتم فيها، وعلى النظر الأول يكون النهى عن الركض والرجوع إلى المتارف والملابس والمساكن التى ارتضوها مثابة لترفعهم نوعا من التهمك عليهم، وكلا الاحتمالين ممكن الحصول، ويجوز أن يراد معا، وقد قال الزمخشري فى الكشف فى تصوير معنى الرجوع إلى مساكنهم، وفى تصوير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ ما نصه: «لعلكم تسألون: تهكم (على التخريج الأول) وتوبيخ، أى ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو: ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجلسكم وتزينوا فى مزاينكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقول لكم: بيم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟ وكيف تأتى وتذر كعادة المتعمين المخدمين، أو يسألكم الناس فى أنديتكم المعاونة فى نوازل الخطوب، ويستشيرونكم فى المهمات والعوارض، ويستشفون بتدابيركم، ويستضيئون بآرائكم ويسألكم الواردون عليكم، ويستمطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف معروفكم وأياديكم، إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رثاء الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء فقليل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخا إلى توبيخ».

هذا تصوير جيد لحال المترفين الذين ينعمون بنعيم الدنيا والسلطان، ويكون معنى ﴿تُسْأَلُونَ﴾ على أن الكلام من الملائكة بأمر الله تعالى، فيكون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ فيه توبيخ أبلغ توبيخ. وعلى نظرنا الذى نقول فيه أنهم هم الذين حدثوا أنفسهم بالنهى عن الركوض فى هذا الهول، فيكون لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ تصوير لما كانوا عليه من عز ورفاهية تجعلهم مقصودين بالسؤال فهم فى حيرة بين الاستجابة لفرعهم بالفرار وبين حرصهم بالبقاء، ومهما تكن هذه الحيرة فهم يحسون بالمرارة الشديدة والهم الأكبر، ويحسون بأنهم كانوا ظالمين ولذا:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

نادوا نداء الحسرة، وأشد الحسرة تكون عند الإحساس بالباطل عندما يكون العقاب عليه ولا يكون مناص منه، ينادون ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أى يا هلاكنا الذى كتب علينا أقبل فهذا وقتك، ومعنى نداءهم بهلاكهم الذى استحقوه هو أنه شعور باستحقاقهم له، وإضافة الويل إليهم؛ لأنهم سببه، وقد استحقوه، وقرروا ذلك بصريح اللفظ بقول: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أكدوا ظلمهم بـ «إِنَّ» المؤكدة، وبـ «كُنَّا» لأنها تدل على استمرار طلبهم، ووصفوا أنفسهم بالظلم، وكان ظلمهم من نواح كثيرة، فهم كفروا برسالة النبيين وجحدوها وعاندوهم، وآذوا المؤمنين، وكفروا بأنعم الله ولم يقوموا بحق شكرها، وهذا ظلم بين، وأشركوا فى عبادتهم، وإن الشرك لظلم عظيم، وعاثوا فى الأرض فسادا، وأكلوا أموال الناس بالباطل وغير ذلك مما يجىء تباعا للكفر بالأنبياء.

وإنهم يستمرون على الشعور بالويل وندائهم والإحساس بالظلم إلى الموت.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾

الإشارة فى ﴿تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ إلى ﴿يَا وَيْلَنَا﴾، وسميت تلك دعوى يدعونها؛ لأنها بصيغتها تفيد نداء ويلهم كأنهم يقولون يا ويلنا ندعوك، الإشارة كما ذكرنا إلى قولهم يا ويلنا، وهى دعوى لأنها طلب لهم، والدعوى تطلب على طلب أمر من الأمور، وأكثر ما تكون أمام القضاء، فهى المطلب الحق ترعمه صاحبه، ويعتقد أنه حق، وسمى طلبهم دعوى مع أنه أقرب إلى الدعاء غير أنهم لا يطلبونه ضارعين مبتهلين حتى يسمى دعاء؛ لأنهم مشركون، إنما يطلبونه لأنه استحقاق لهم بحكم ما ارتكبه من ظلم، وقوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ «الفاء» فاء الإفصاح، و﴿فَمَا زَالَتْ﴾ تدل على استمرار هذه الدعوى وبقائها، واستمرارها يدل على استمرار التحسر والتوجع والشعور بالهلاك، أى أنهم استمروا على الشعور بالتحسر والبكاء على ما كان، وأشد ما يؤلم العاتى الظالم شعوره بعتوه ولقاء معتبه، وقد صرح الله تعالى فى قرآنه العظيم بالنهاية لذلك البكاء الميرير بقوله تعالت كلماته: ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ والحصيد فعيل بمعنى مفعول وهو الزرع المحصود المقطوع

الذى جف عوده شيئا فشيئا حتى يصير حطاما لانقطاع سبب الحياة عنه، وهذا فيه تشبيه لحالهم بحال الزرع المحصود الملقى المقطوع عن أسباب الحياة، كما انقطعت أسباب الحياة عنهم، وهذا تصوير لحلال هلاكهم ونزول الويل الشديد بهم، وأكد حالهم بقوله تعالى: ﴿خَامِدِينَ﴾، والوصفان كناية عن موتهم وهمودهم، وأصل الخمود من قولهم خمدت النار خمودا طفئ لهيبها، ومنه استعير خمدت الحمى، وكان هناك تشبيه آخر بعد تشبيههم بالزرع المحصود، شبههم أيضا بالنار الذى أطفئ لهيبها، وفى ذلك إشارة إلى ما كانوا يشعلونه من إيذاء، وما يوقدون من حروب مفرقة تجمع فيها النفوس عن مواطن الاطمئنان، وليس هنا ثلاثة مفعولات لـ (جعلنا)، إنما هنا مفعولان فقط، و﴿خَامِدِينَ﴾ حال، وليست مفعولا ثالثا، وأضاف سبحانه وتعالى الفعل إليه بالصيغة التى تليق بعظمته ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ إرهابا وإفزاعا، والإشارة بأن الذى يتولى هلاكهم هو الله جل جلاله، وتقدست ذاته وأفعاله.

الله خالق السماء والأرض وبه ثبت وجوده

وَمَا خَلَقْنَا

السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ۞ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ
لَا تَتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ۞ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ
۞ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ۞ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ
۞ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعْنَى
وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

اللعب هو الفعل الذى لا مقصد له، ويقال لعب فلان إذا كان فعله لا مقصد له أو ما قصد به قصدا جديا له غاية تليق بالحكماء، وأصله كما قال الراغب فى مفرداته من اللعاب وهو البزاق السائل الذى لا يكون إلا بمن لا يملك قوة مانعة منه، وغير العقلاء، والله سبحانه وتعالى منزّه عن أن يفعل فعلا لغير مقصد صحيح، وإن كان لا يسأل عما يفعل؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾

﴿السَّمَاءُ﴾ هى كما نعلم طبقات النجوم وأبراجها من شمس وقمر وكواكب ونجوم كل فى مداراتها، تربط بينها نواويس الكون التى تسمى أحيانا بالجاذبية، والقصور الذاتى، ﴿وَالْأَرْضُ﴾ هى التى نعيش على سطحها، وتشمل الماء الذى يقدر بثلاثة أرباعها، واليابس مما فى ظاهرها من جبال هى رواسبها، ووهاد، وأرض مبسوطة، وفيها المزارع الكبيرة، وفى باطنها فلزات وأحجار، وما لا يمكن زرعه ملاء الله تعالى بالخيرات فى باطنه، من معادن سائلة وجامدة.

وفى البحار جواهر ولحم طرى من الأسماك وغيرها من ساكنات الماء حتى كان ما فيها من عوالم الأحياء لا يقل عما هو فى اليابس من حيوان مُتَبَدِّلٌ ومستأنس.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو الفضاء الذى سخر للإنسان، وفيه السحاب المثقل بالماء ينزل ليروى الحرث والغراس، ويقول سبحانه: ﴿لَاعِبِينَ﴾ أى على غير مقصد صحيح نافع هادٍ ومرشد، فهو خلق هذا كله لحكم أرادها ومقاصد قصدها، وذكر اللعب لبيان نزاهة الله تعالى عن العبث، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا... ﴿١١٥﴾ [المؤمنون]، ولأن ما ليس له مقصد نافع صحيح يعد لعبا، والعقلاء بعيدون عنه، فالله جل جلاله منزّه عنه بالأولى، ولقد صرح سبحانه وتعالى بأنه خلق هذه الأمور لمعرفة الإنسان، وتعريفه بطبائع الوجود وليعرف منها خالقه، وكماله، ونزاهته عن أن يكون كالحوادث؛ إذ هو خالقهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَلْوَكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا... ﴿٧﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات]، وقد بين سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

﴿لَوْ﴾ كما يقول النحويون حرف امتناع لامتناع أى امتنع الشرط لامتناع الجواب فهو نفى بدليل، إذ يتضمن شرطها وجوابها بيان امتناع الجواب وامتناع الشرط بتلازم الامتناع فيهما، واللهو ما يشغل عما يعنى به ويهتم له، وهو يعم كل ما يلهى عن الغايات والمطالب، وهو يطلق على الأسباب التى تلهى الإنسان عن الغايات العليا، كالزخارف والطنافس، والسُّقُف المرفوعة المزخرفة، والأثاث والرثي وغير ذلك مما يعنى به أهل الدنيا والسلاطين الذين فى لهوهم يعبثون ويلعبون.

ويقول سبحانه: ﴿لَهَوًا﴾ أى ما يلهى، وذلك مستحيل، لأن الله جل جلاله لا يفعل إلا ما هو كمال، أو يؤدى إلى الكمال وكله خير، وهو معلم الخير، وجواب الشرط ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أى لكان ذلك صادرا عن ذاتنا العليا وصفات الكمال، واللهو لا يمكن أن يصدر عن ذاتنا المتصفة بكل كمال، والمنزهة عن صفات الخصال، فكيف يصدر عنا، و﴿لَدُنَّا﴾ بمعنى «عندنا» ولكنها أخص من «عند»؛ لأنها تدل على الابتداء لنهاية، أى أن اللعب من لدنا مبتدئ، وذلك لا يسوغ ولا يجوز.

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ إن هذه الجملة شرطية وجواب الشرط محذوف دلت عليه الشرطية التى قبلها ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ وفى ذلك تكلف التقدير، ونحس أنه غير مستسق مع النص الأول، وإنى أرى أن ﴿إِنْ﴾ نافية، وتكون تأكيدا للنفى الثابت بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ ويكون: ما كنا فاعلين ذلك؛ لأنه لا يليق بالذات الكريمة ولا يتصور أن يكون منها، والله أعلم.

وقد بين سبحانه وتعالى المقصد الأسمى من خلق السموات والأرض .

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ .

﴿بَلْ﴾ للإضراب النافى لما قبله، لا مجرد الإضراب الانتقالي، والقذف الرمي من بعيد، والرمي من بعيد يكون مؤثرا في الرمي عليه أكثر من القريب، ويكون أدل على شدة الرمي، و«بل» التى للإضراب تدل أشد الدلالة على نفى اللعب عن أفعاله فوق النفى السابق، سبحانه وتعالى عما تتصف به الحوادث من لعب، وترجية الأوقات فهو القادر القهار الذى خلق كل شيء .

وفى قوله تعالى: ﴿نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ تشبيه للحق بالجسم الصلب القوى الشديد، والباطل أمامه بأنه هش ضعيف، وذلك لبقاء الحق وسلامته وصلابته، و﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ معناه يصيبه فى دماغه، ويقال: دمغه إذا أصابه فى دماغه أو كسر دماغه، ووصل إلى تجايف رأسه حتى يصيب مخه فيقتله، وفى ذلك أيضا تشبيه، فشبه سبحانه وتعالى إصابة الحق للباطل بإصابة الدماغ ووراء إصابة الدماغ الموت؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ و«الفاء» و«إذا» للمفاجأة، والمراد من المفاجأة سرعة الإبطال، و«زَاهِقٌ» معناها ميت؛ لأن زهق معناه خرجت روحه، وفى هذا الكلام أيضا تشبيه للباطل إذا زال وذابت دولته بالنفس إذا خرجت ومات صاحبها، وفى ذلك إشارة إلى أن الباطل لا يبقى، والحق باق إلى يوم الخلود، وما يرمونه من باطل فهو ميت فان، وما يشب من حق باق خالد .

وبعد أن قرر سبحانه ذلك مؤكدا خلق السموات والأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل، التفت بالخطاب للمشركين، فقال عز من قائل منذرا لهم: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أى لكم الهلاك الذى يصحبه أنين والم يستمر ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ «ما» موصول حرفى، والمعنى من الوصف الذى تصفونه به، و«من» سببية أى بسبب الوصف الذى تصفونه وأن له شركاء يعبدون، وإنهم يكونون شفعاء عنده، وهذه أوصاف لا تليق بالذات العلية، وهم يقولون باطلا: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ...﴾ [الزمر] .

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

هذا النص مؤيد لمعنى الآية السابقة، وأنه لا أحد يشاركه فى ملكه، فهو وحده المالك للسموات والأرض، وما فيهما ومن فيهما، والعندية هى عندية المنزل، لا عندية المكان؛ لأن الله تعالى ليس له مكان حتى يكون فى هذا المكان أحد، إنما العندية هى العندية المعنوية، وهى المكان، وأولئك هم الملائكة، وهم أزواج مطهرة ليس لها مكان نعرفه وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وذكر العندية كما يفيد ما ذكرنا من أنها عندية معنوية وقرب من الله تعالى، ويفيد أيضا تشريفهم ومكانتهم عنده، ومع هذه المكانة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، أى أنهم خاضعون له تعالى خضوع العبودية له سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ...﴾ [النساء] وإذا كان الملائكة لا يستكفون عن عبادته وهم المقربون فأولى بكم أيها الناس ثم أولى أن تكونوا له عابدين، وهم فى عبادتهم مستمرون لا يكلون ولا يضجرون؛ ولذا قال تعالى نافيا الكلام: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ وهو افتعال من الحسر بمعنى انكشاف قواهم، وظهور مللهم، وكان النفى بصيغة الافتعال الدالة على قوة الكلال مع أن المقام يقتضى نفى أصله لا نفى الكلال القوى منه؛ إذ إن نفى القوى من أمر لا يقتضى نفس الضعيف منه، ولكن نقول كان نفى القوى للإشارة إلى أنهم فى حال كلال قوى، وكان يمكن أن يكلوا، ومع ذلك استمروا دائبين فى عبادتهم مع شدة التعب، ولكن لا تعب فى أمر ما داموا يرضون ربهم، وهنا يسأل سائل لماذا أفردوا بالذكر مع أنهم داخلون فى ملكية الله تعالى، ولما ذكر أنهم عنده؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: أفردوا لتعظيمهم ولقربهم من الله تعالى، ولأن بعض الناس كان يقدرهم، بل يعبدهم، فكان ذكرهم فيه عبرة لمن يعبدون الله تعالى، وذكر أنهم عنده لما ذكرنا تشريفا لهم، ولإشارة إلى قربهم من الله كما هو الشأن فى الملوك، وقال الملا أبو

السعود، إنهم عند الله تعالى بمنزلة المقربين من الملوك، ولله تعالى المثل الأعلى، وهو تقريب ليدركوا معاني القرآن. وقال تعالى في أوصاف الملائكة وأعمالهم:

﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

التسبيح: التقديس والتنزيه، فهم مستمرّون في تقديسهم وتسبيحهم ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أى لا يسكنون، والليل والنهار طرفان للتسبيح، ومعنى ذكر الليل والنهار أنهم لا يسكنون في ليل أو نهار، فهم دائمو التسبيح والتنزيه وعبادته وحده، وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ تأكيد لدوام التسبيح واستمراره، والفتور السكون، وقد جاء في مفردات الراغب في هذه الكلمة ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أى لا يسكنون عن نشاطهم في العبادة، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن فتر إلى ستنى فقد نجا وإلا فقد هلك»^(١) والشرّة: غفوة الباطل وإن الملائكة لا تعترهم شرة، ولا تعترهم فترة، فهم عباد الله تعالى المطهرون.

وقد أشار سبحانه إلى ما وصفوا الله - سبحانه - به من أن له شركاء، فقال عز من قائل:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾

«أم» هي المنقطعة وهي تتضمن الإضراب الانتقالي، فانتقل النص القرآني بهم من إنكارهم الرسل وإنكارهم الآيات، وكل هذه أمور باطلة ولكنها سلبية في ذاتها تعدت إلى أمر إيجابى منهم، وهو باطل كالأمر السلبية على سواء، بل أشد وأعنف، وهو الباعث على إنكار ما أنكروا معه الرسل والآيات، والمعنى اللفظي

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩٣٩)، وابن حبان في صحيحه (١١) - ٧/١، وابن خزيمة في صحيحه (٢١٠٣/٣) ٢٩٣. «الشرّة» بكسر الشين، وتشديد الراء بعدها تاء تأنيث: هي النشاط والهمة. كما في الترغيب والترهيب للمنذري (٩٠) ٤٦/١. «ولكل شرة فترة» أي وهنا وضعفاً وسكوناً، يعني أن العابد يبالي في العبادة أولاً وكل مبالغ تسكن حدته وتفتت مبالغته بعد حين، وقال القاضي: المعنى أن من اقتصد في الأمور سلك الطريق المستقيم واجتنب جانبي الإفراط (الشرّة) والتفريط (الفترة). فيض القدير ١ / ٥٩٢.

للنص السامى، بل اتخذوا آلهة من الأرض، وكان الله يواجههم بإفكهم وافترائهم فى عبادتهم، والاستفهام إنكارى منصب على ثلاثة أمور:

أولها - اتخاذ آلهة غير الله تعالى، فهو فى ذاته ظلم مستنكر وبهتان عظيم.

والثانى - أنها آلهة من الأرض، وفى ذكر الأرض مقابلة بين هذه الآلهة المزعومة والعباد عند الله الذين لا يستكبرون عن عبادته، ويسبحون ليلا ونهارا لا يفترون، والأرض التى اتخذت منها آلهتهم دون من عند الله فكيف يعبدونها، وفى ذكر الأرض استنكار آخر، وهو أن هذه الآلهة المزعومة من حجر من الأرض أو من جماد منها، لا يعقلون ولا يفكرون فكيف تكون آلهة، ومهما يكن فإن ما يكون متخذاً من الأرض دون ما عند الله، ومن عند الله يعبدونه.

والأمر الثالث - أنكر عليهم أيضا بالاستفهام، وهو استفهام جديد وأحسب أنه لإنكار الوقوع ^{لا} لإنكار الواقع، فهم لم يقولوه، وهو فى قوله تعالى: ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أن يحيون الموتى، وأصل نشر من نشر الثوب، ونشر الله تعالى الموتى فيه كشف لهم، وإخراج لهم من قبورهم أحياء، ولا شك أنهم لا يقولون بالنشر والبعث، فهم يحسبون أنه لا يكون قط، ولكن النص أثبت عجز من زعموهم آلهة عنه، والله تعالى الذى يشركون به هذه الأحجار قادر على ذلك وعلى كل شىء، كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف] وفى هذا توبيخ على عدم إيمانهم بالبعث مع ادعاء الألوهية لمن لا يصلح أن يكون إلها لأنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئا يجلب نفعا أو يرفع ضررا.

وقد بين سبحانه بعد ذلك استحالة الشرك بالدليل الفعلى الذى لا يزال حجة التوحيد فقال عز من قائل:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿لَوْ﴾ كما قلنا حرف امتناع لامتناع، أى امتنع الفساد فى الكون لامتناع أن يكون فيهما غير الله، فهو يسير فى نظام لا يتخلف، فالنجوم فى مساراتها، والشمس والقمر يجريان بحسبان، والليل والنهار يتعاقبان من غير تخلف.

و﴿إلا﴾ هنا للوصف بمعنى «غير»؛ لأن الاستثناء في المستغرق يجب أن يكون المستثنى مستغرقا في المستثنى منه، ولا يمكن ذلك للغيرية المطلقة بين الاثنين، فلا ارتباط حتى يجعل أحدهما مستثنى من الآخر، فما قبلها لا يشمل ما بعدها بأي نوع من الشمول، والاستثناء المنقطع فيه نوع قرب وشمول بين المستثنى والمستثنى منه من وجه، والدليل مع أنه لا استثناء رفع لفظ الجلالة، إذ لو كان منقطعا لكان منصوبا، فدل على أنه لا استثناء قط، وعلى ذلك تكون «لا» وصفا بمعنى «غير».

والمعنى أنه امتنع التالى فى هذه الشرطية، وهو الفساد، وإذا بطل التالى لأنه يخالف الحس، والوجود كله قائم شاهد بالصلاح، فالسما والارض كل قائم به الصلاح بدل الفساد، فالسما بأبراجها وكواكبها ونجومها، والشمس سائرة فى أبراجها ومساراتها بانتظام، والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون مما يدل على أن مدبرا للكون يدبره وينظمه، ولا يمكن أن يكون كل ذلك بالمصادفة، والمصادفة لا يفرضها إلا إذا ثبت أنه ليس ثمة موجد منشئ، وذلك باطل، وإن إثبات الوحداية بهذا الدليل العقلى الذى جاء به القرآن هو أقوى دليل جاء به المتكلمون لإثبات الوحداية، وهو الذى يسمى عندنا بدليل التمانع، وقبل أن نقرره كما جاء فى القرآن نقول: إن ذكر الآلهة لذكرها من قبل فى قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ فى الآية السابقة، فليس الدليل لمنع آلهة مع الله، بل هو لمنع أى إله مع الله تعالى العلى القدير.

وما يقرره علماء الكلام مقتبسين من استدلال القرآن أنهم يقولون: لو كان فيهما إلهان لتعارضت إرادتهما، فإن نفذت إرادة أحدهما دون الآخر، وتوالى ذلك فهو الإله دون الثانى، وإن توافقت إرادتهما على الدوام فهو إله واحد، والاتفاق على الدوام غير ممكن لأن كل واحد منهما له إرادة مستقلة عن إرادة الآخر، فإن لم تخالف فى كل أمر بالتخالف لا محالة ثابت فى بعض الأمور، وفوق ذلك عند التوافق، فهو يؤدى إلى أن يكون العقل الواحد يتوارد عليه فاعلان، وذلك مستحيل، إذن فلا بد من فرض التخالف، والتخالف يؤدى إلى تحقق أمرين

متضادين، وذلك محال فما أدى إليه محال أيضا، وإن نفذت الإرادتان بعد التسليم بذلك المحال، فسد الوجود، وهو الصلاح كله، وإذا بطل الفساد بطل ما أدى إليه، فكان الله واحدا أحدا فردا صمدا، وقد قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى يترتب على بطلان التعدد أن يكون الله تعالى هو وحده الواحد، فتزيتها له وتقديسا عما يصفون من الإشراك به، وقد وصف الله تعالى ذاته بقوله: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ أى أن العرش له وحده لا شريك له.

وقد بين سبحانه وتعالى سلطانه الكامل فقال:

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

أى أنه لا رقيب عليه فيما يفعل حتى يُسأل؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الإله وحده، ولأنه خالق الوجود كله، فلا يسأله مخلوق خلقه؛ لأن ذلك قلب للأوضاع العقلية، ولأنه سبحانه لا يخطئ، والمخطئ هو الذى يسأل عن خطئه، والله تعالى فوق كل خطأ، ولأنه الكامل واجب الوجود المطلق وكل من دونه ناقص قد يحسن، وربما لا يحسن، وربما يخطئ، وربما لا يخطئ، فالرقابة من الله تعالى عليه؛ ولذا قال تعالى ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ والضمير يعود إلى المشركين، فهم يسألون عما يقولون وعما يفعلون وعما ينكرون وعما يفسدون، وفى ذلك تهديد لهم، وإنذار بأنهم محاسبون على كل ما يكون منهم من شرك، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أم هنا كالسابقة للإضراب والاستفهام، وهو إضراب انتقالي من اتخاذهم آلهة ليس لها قدرة فى شىء، وأنه لو كان التعدد لكان الفساد. انتقل من هذا بالإضراب إلى بيان أن اتخاذ شريك لله تعالى لا يؤيده العقل بل يخالفه وينكره، وكل دعوى لا بد لها من دليل، ودليلها نقلى أو عقلى، فأين الدليل وقد طالبهم النص السامى بالبرهان.

والاستفهام الذى تتضمنه «أم» لإنكار الواقع أى لتوبيخهم على اتخاذهم آلهة غير الله تعالى، و﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يعنى غيره مع قيام الدليل العقلى على أن ذلك لا يجوز بدليل التمانع فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ومع هذا التوبيخ طالبهم الله تعالى بأن يأتوا ببرهان على صحة ما يدعون، وما يفتاتون، فأمر نبيه ﷺ بأن يطالبهم بالبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وكانت هذه المطالبة من الرسول ﷺ لإفحامهم ولبیان عجزهم عن أى دليل، وأى مبرر معقول أو غير معقول، وإلا فكيف يستطيع العاقل أن يجد دليلاً أو مبرراً يبرر به عبادته لحجر لا ينفع ولا يضر، أو لإنسان خلقه الله تعالى كما خلق كل شىء.

وليس لديهم أى دليل عقلى، ومع ذلك ليس عندهم دليل من النقل، بل الدليل النقلى، وما عليه الرسل يناقض ما يقول؛ ولذا قال الله حكاية عن نبيه: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ «ذكر» بمعنى «تذكير» وهو هنا من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، أى هذا تذكير الذين فيهم وهم من معه، وهو القرآن ليس فيه إلا التوحيد الخالص والشرائع المنزهة الطاهرة عن كل ما فيه شرك بالله ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أى هذا تذكير من كان قبلى من الناس لقد ذكرهم رسلهم بالتوحيد، ودعوا إليه ويصح أن يكون الذكر هو القرآن، وذكر من قبلى هو التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب السماوية والغاية واحدة؛ لأن القرآن يكون فيه الذكر لمن معه، والتوراة والإنجيل والزبور فيها الذكر لمن كان قبله ﷺ.

فقد كان الانتقال من طلب الدليل المثبت إلى تقديم الدليل مما ادعوه واتخذوه من عبادة الأوثان، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ والإضراب بـ «بل» هنا للإشارة إلى أنهم طمس الله على بصيرتهم فصاروا لا يعلمون الحق ولا يدركونه، ولا يعرفون السبيل إليه؛ لأن قلوبهم غلف، ولا سبيل لأن يعرفوا الحق بها ويرشدهم ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ «الفاء» هنا للسببية أى أن ذلك بسبب أنهم معرضون، فهم حائرون باثرون، لا يرشدون بعقولهم، ولا يستمعون إلى مرشد يرشد، بل يعرضون عنه إعراضاً.

الرسل جاءوا بالتوحيد

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

هذه الآيات متصلة بما قبلها، فهي بيان إيجابى يعلم الناس أن النبيين جميعا كانت رسالتهم تدعو إلى التوحيد، وما جاءوا إلا لبيان، فهو تأكيد للدليل الثقلى الذى أشار إليه قول النبى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾.

يقول تعالى مؤكدا هذا المعنى الخاص بالتوحيد:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

هنا نفى وإثبات، وهو نفى مستغرق استغراقا كاملا، فـ (مِنْ) الثانية لاستغراق الرسل وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى الذين سبقوك، فما كنت بدعا من الرسل إذا دعوت إلى التوحيد، فهو لب الرسالات كلها، وما عداه لا يمكن أن يكون ديننا، بل هو أوهام باطلة لا تقوم على دعائم من حق أو عقل فالعقل يمنعها، والحق يجافيها.

﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ بيان أن هذا التوحيد هو أمر من الله، ووحى من عنده، والعرب يعرفون الله تعالى بأنه الخالق الذى يلجأون إليه فى شدائدهم، ولا يعرفون غيره إذا أحيط بهم، فهو الذى أمرهم بالتوحيد على لسان كل الرسل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، الضمير «أنا» فى محل رفع؛ ولذا جاء بضمير الرفع، وقوله تعالى ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ «الفاء» تفيد أن ما بعدها مسبب على ما قبلها، فإذا كان لا إله إلا هو فلا يعبد غيره، ولا يعدد عبد الله تعالى إلا إذا عبده وحده، فالإشراك على أى صورة من صورته ليس فيه عبادة لله تعالى.

ولقد بين سبحانه وتعالى بطلان الذين يعبدون الأشخاص، كما بين بطلان عبادة الذين يعبدون الأوثان، فإن الجميع مشركون فى العبادة، بيد أن الذين يعبدون الأشخاص يسرفون على أنفسهم فيدعون أنهم أبناء الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

قائل هذا بعض المشركين والنصارى منهم؛ لأن ذلك إشراك فى العبادة لا مرية، وقالوا إن الله - تعالى عما يقولون - اتخذ المسيح ابنا له، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ...﴾ (٢٠) ﴿[التوبة]﴾. وطائفة من العرب قيل إنهم من خزاعة قالوا للملائكة بنات الله، ولقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١) ﴿[الأنعام]﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أى جعل له ولدا، وكلامهم يبنى عن احتياجه سبحانه إلى ولد؛ لأن الاتخاذ لا يكون إلا عن حاجة، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى تنزهه وتقديسه عن ذلك ﴿بَلْ﴾ إضراب ورد لقولهم، ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، أى كرمهم الله تعالى وهم عباده، فعيسى عبد لله، ولا يستنكف أن يكون عبدا، والملائكة المقربون لا يستنكفون أن يكونوا عبيدا له.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حالهم فقال عز من قائل:

﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾

وذكر سبحانه وتعالى هذا الوصف لهم، للإشارة إلى أنهم من الله بمنزلة من الطاعة، كمنزلة العبيد من مالِكهم، لا يسبقونه في أمر من أمور الشريعة أو الخلق والتكوين أو القول، بل هم تابعون خاضعون، ليس قول مع قوله سبحانه، فلا يتقدمون أمامه، وقالوا: إن ﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ في مؤدى لا يسبق قولهم قوله، أى لا يقولون قولاً، بل قولهم دائماً مسبوق بإرادة الله سبحانه وتعالى، وليس لهم أن يتقدموا بأمر، ثم قال تعالى في بيان خضوعهم: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ وتقديم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص، والمعنى بأمره وحده لا بأمر غيره يعملون، وفي ذلك تعريض ببطان ما يفعله المشركون إذ يفرضون لأهلهم المزعومة مطالب يؤدونها، وذلك من أوامهم.

وبيّن سبحانه وتعالى أنهم في قبضة يده يعلم حالهم في حاضرهم وماضيهم فيقول سبحانه:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

ذكر الله تعالى أنهم في قبضته، وهو عالم بكل أحوالهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وهذا يكتفى به عن حاضرهم؛ لأنه بين أيديهم يفعلونه ويدورون فيه تحت سلطان إرادته، وعلى مقتضى علمه، وجميع ما يفعلون وما يفكرون تحت عين الله وفي رقابته ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ويعلم سبحانه ما هو خلف أعمالهم، أى ما يجيء في المستقبل، فهو يعلم حالهم في حاضرهم وفي قابلهم الذى يخلف حاضرهم، فهم فى سلطان الله تعالى مع تقيهم وتفضيلهم وتكريمهم. وليس ذلك شأن من يتخذه ولداً، بل هو شأن من يكون من عباده.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أى لا يشفعون لأحد إلا إذا كان مرتضى لله، ورضى الله أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٢٥٥).

[البقرة]، وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ [طه]، فهم في شفاعتهم لا يسبق قولهم قول ربهم إنما قول الله تعالى هو السابق، وهو الذى يأذن لهم بالقول شفاعاة أو غيرها.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وصفا ثالثا، وهو حال دائمة مستمرة لهم فقال: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ الخشية الخوف مع التعظيم والضراعة والاستسلام لله عز وجل؛ ولذا اختصت بالذين يعلمون عظمة الله تعالى وجلاله، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ﴿٢٨﴾ [فاطر]، الذين علموا الله تعالى وعرفوه حق معرفته.

والإشفاق: الخوف مع توقع ما يخافونه، فهو خوف مع عناية بما يجيء به الزمن، وإن ذلك الإشفاق يكون من كمال العلم بالله واستشعار عظمته، وامتلاء النفس بمهابته، وذلك شأن من كانوا خاضعين، وليس شأن من زعموهم آلهة مع الله مناظرين، وإن هذه حال من قربوا من الله فهم أدرك لعظمته، وأكثرهم علما بقدرته، وحكمته وكماله.

وإن هذا التعبير الكريم يدل على دوام هذه الحال؛ لأن الجملة حالية أولا، ولأن الجملة اسمية تدل على الاستمرار ومؤكدة بالضمير، والله سبحانه أعلم بحالهم، فهم المقربون.

ولكنهم مع قربهم من الله تعالى، وأنهم المكرمون، لو انحرفوا عن الطريق لنالهم جزاء الضالين المضلين؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

إن هؤلاء عباد خلقهم الله تعالى للطاعة والتسبيح لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم مجردون من الشهوات التى تضل وتهوى بصاحبها إلى مكان سحيق من المعصية ولتجردهم من الأهواء المردية والمطاولات التى تقع بين أهل الدنيا الذين تسيطر عليهم أحيانا أهواء إبليس عدو آدم - لا يقع منهم ما يخالف إرادته، ومع ذلك لو وقع منهم ما يعاند إرادة الله يكون جزاؤهم جزاء العصاة، فلا

يقول أحد منهم أنه إله من دون الله، فمن قالها منهم فإن جزاءه جزاء العصاة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ «من دونه» أى غير الله، ويعاند الله فى ظاهر حاله والفاء واقعة فى جواب الشرط، والإشارة إلى الذى يقول إنى إله من دونه، والإشارة إلى فاعل فعل هى إشارة إلى الفعل، فهى إشارة إلى أن ذلك القول إجرام، ويكون كقول فرعون ما علمت لكم من إله غيرى، وجهنم للعصاة دائماً، و ﴿كَذَلِكَ﴾ فى ختام الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى أنه كهذا الجزاء الذى ذكر لهم إذا ادَّعوا الألوهية يجزى الله الظالمين.

وفى هذا النص إشارة واضحة إلى أن الذين يعبدون المقربين كعيسى ابن مريم، وكل الملائكة المقربين لا يغضبون الله وحده، بل يغضبون من يعبدونهم ويخالفونهم، فالذين يقولون عيسى ابن الله أو الرب أو إله يعصون أول ما يعصون عيسى عليه السلام، وكذلك الذين يعبدون الملائكة المقربين.

والظلم المذكور فى الآية هو ظلم الإشراك، وظلم المعصية، وظلم تضليلهم، وانهاؤهم عقولهم، والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل.

خلق الله يدل على وحدانية الله

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا
مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ
رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ
آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾

هذا كلام موصول لبطلان الشركاء لله تعالى ببيان إبداعه فى خلقه، سواء أكان أولئك الشركاء المزعومون أحجاراً أم تماثيل أم أوثاناً، أم ادَّعوا أن الله بديع السموات والأرض اتخذهم أبناء، وذلك البطلان ببيان عظمة خلقه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ «الواو» عاطفة، وتقدمها الاستفهام، وتقدير القول: وألم ير الذين كفروا، والاستفهام له الصدارة دائماً، والاستفهام لإنكار الوقوع أى أنهم لم يروا وكان حقهم أن يروا، والرؤية ليست رؤية البصر، ولكن رؤية العلم والبصر والإدراك؛ لأن أحدا لا يرى السموات والأرض رتقا، والرتق: الضم والالتحام خلقة كان أو صنيعة، وقد قال الأصفهاني فى مفرداته: كانتا رتقا أى منضمتين، والمتبع لآيات القرآن فى بيان خلق السموات يرى أن النصوص تتضافر على أنهما كانتا شيئاً واحداً كان كالدخان، أو هو ما يعبر عنه علماء الكون بالسديم، لأنه مثل الدخان، وقد ذكرت شيئاً مثل ذلك فى تفسير ستة الأيام التى جاءت فى عدة سور، وقلنا إنها ستة أدوار، وليست ستة أيام زمنية؛ لأن الأيام مقدره بالليل والنهار وهما كانا بعد خلق السموات والكواكب والنجوم والشمس والقمر، واقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُوا بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ ١٠ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ١١ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ١٢ ﴿[فصلت].

فإن هذه الآيات تشير إلى أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً، وكانت السماء ومعها الأرض دخاناً، وهو ليس الدخان الذى نعرفه؛ لأن الدخان الذى نعرفه هو الناتج من اشتعال نار من حطب أو نحوه من أى حطام، وما كان ذلك قبل السماء والأرض، فإذا قلنا إنه الذى سماه علماء الكون السديم، لا نكون مبايعدين، بل نكون مقربين غير مدعين على القرآن ما ليس فيه، وتكون الأرض قد

خلقت فى ستة أيام أى أدوار فى التكوين بتدبير الله العزيز العليم، فخلق الله الأرض فى يومين هما دور انفصالها عن الكتلة الشمسية، وتكوين طبقتها الأرضية الظاهرة، وبقاء باطنها ملتهبا كأصلها، ويبدو أحيانا شئ منه فى براكين تقذف بالحمم والسعير، وبعد أن تكونت القشرة الأرضية كانت أربعة أدوار أخرى، فيها تكونت الجبال الرواسى، والسبل الفجاج، وتكون السحاب والمياه العذبة، والإنسان والحيوان والزروع والثمار، وكانت الأرض، هذا المهاد والفراش، وانتهى أمر الله بأن جعل من الماء كل شئ حى، فكان النبات والحيوان من الماء العذب، وكانت البحار موطننا ومحيا للسماك اللحم الطرى.

﴿فَفَتَقْنَا هُمَا﴾ «الفاء» عاطفة للترتيب والتعقيب، وكان التعقيب لأنه لم يكن بين الرتق والفتق أمر كونه آخر، وكل شئ من فعل الله تعالى يكون بقوله تعالى: «كن فيكون» ولا فاصل من الزمان بين قول الله «كن» وما يكون.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ كان فيه أدوار أربعة، كما قدر العزيز الرحيم، ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ «الفاء» لترتيب التوبيخ بعدم الإيمان على ما قبلها، و«الفاء» مؤخره عن تقديم، والمعنى: أفلا تؤمنون، والاستفهام لإنكار الواقع وهو عدم الإيمان، وإنكار الواقع بمعنى التوبيخ والتعجب من الكفر مع قيام الأدلة على وجوب الإيمان، فالفاء لترتيب التوبيخ على ما بين الله تعالى من خلق السموات والأرض من خلق الأرض من السماء وخلق الأرض فى ستة أيام.

وقد بين سبحانه الأرض وما يرى فيها بالعين والبصر، لا بالعلم والإدراك كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الرواسى هى الجبال، وهى جمع راسٍ، وفواعل تكون جمعا لما فيه التاء، وتكون جمعا للخالى من التاء، إذا كان وصفا لا يعقل، وهى هنا وصف للجبال.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾ وهنا ذكر الوصف وحذف الموصوف، أى جبالا رواسى أى ثابتة، والجعل خلق لأمر موصوف بوصف معين،

والخلق مجرد الإنشاء، أما الجعل فهو خلق لأمر أَرَادَهُ اللهُ تعالى في التكوين، وهو أن يكون لأمر نافع للعباد، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ...﴾ (١٧) [الإسراء] وعلل الله كونه خلق الجبال وجعلها رواسى بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ والميد الاضطراب الشديد والحركة التى لا يكون معها قرار وثبات، ويتحقق أن تكون فراشا، وأن تكون مهادا، ومستقرا، وتقدير القول كما قال البصريون: كراهة أن تميد فتضطرب، ولا يكون لها قرار تثبت النفوس فيها وتطمئن وتسكن، وقال الكوفيون: إن معنى ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾: لثلا تميد بهم، وهو تقدير لفظى اختلف فيه، ولا يغير من المعنى اختلاف الآراء، بل المعنى فى التقدير أن الجبال رواسى، فلا تضطرب الأرض وتكون فراشا وقرارا ومهادا.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ الضمير فى «فيها» قيل يعود إلى الجبال، والمعنى جعلنا فى الجبال فجاجا فيما بينها، وهى الشُعَبُ التى تكون بين الجبال أو فى الجبال نفسها، فمع أنها راسيات تكون فيها طرق يستطيع السائر أن يسير فيها فى علوها، كما ترى فى جبال الأطلس فى الجزائر وتونس والمغرب.

ولكننا نرى أن الضمير يعود إلى الأرض، أى جعلنا فى الأرض فجاجا أى طرقا واسعة، فالفج هو الطريق الواسع، وهو فى أصل وصفه للطريق بين الجبلين كأنه شق بينهما شقا، وتوسع فيه حتى صار يشمل كل طريق، جاء فى المفردات: الفج شقة يكتنفها جبلان ويستعمل فى الطريق الواسع، وجمعه فجاج، قال تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧) [الحج].

وقد اخترنا - كما ذكرنا - معنى الطريق لأمرين أولهما: أنه سبحانه وصف الفجاج بأنها سبل أى سبل معبدة، وثانيهما: أنه سبحانه وصفها بأن الغاية منها أن تكون طريقا للهداية والتعرف لمسالك الأرض فى غير ضلال فى متاهاتها، وهذا أنسب لمعنى الطريق الواسع.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أى لتدركوا الهداية فى طرائق الأرض، وألا تسيهوا فى متاهاتها، وإنه بهذه الفجاج لعلكم ترجون الهداية، فهم إذا أدركوا

أن الله تعالى جعل لهم الفجاج سبلا ليهتدوا إلى مصالحهم في معاشهم وعامة أمورهم ولكيلا تتيهوا في ضلالها، عساهم يهتدون لوحدايته رب العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾.

أى خلقنا السماء خلقا، وجعلناها محفوظة من أن تتشر لنجومها، إذ تبدو متفرقة غير متماسكة، وهى متماسكة مترابطة بجاذبية كأنها أرسان^(١) تربطها بعضها ببعض، فلا يفصل نجم عن مدار بالنسبة لنجم آخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا...﴾ (٤١) [فاطر] وإمساكهما أن يكون كل منهما فى مكانه، ولقد قال تعالى: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٥٥) [الحج]، وإنها لمحافظة من كل شيطان، كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧) [الحجر] وحفظها سبحانه بأبراجها، وعلوها، وكما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾ (٢) [الرعد] وكما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (٧) [الذاريات] وهى زينة الوجود جديرة بأن تحفظ، وجعلها الله تعالى محفوظة. كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) [ق].

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ وفى السماء آيات متكاثرة، فالبروج والنجوم المتلازمة، والكواكب السيارة، وكل منها مسخر بأمره، فالشمس وما تكون بها من حرارة ودفع وضياء وأشعة تنبت الزرع وتنميه، وما يكون فى دورة الشمس من فصول السنة من صيف وشتاء وما فيها، والقمر من آيات يعرف بها الحساب، وكما قال الله تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ﴾ (٥) [يونس]، وهذه كلها آيات تدل على الخير، وأنه واحد أحد فرد صمد لا إله إلا هو ولكنهم عن كل هذا معرضون.

ومن كان معرضا عن آيات السماء ذات البروج فهو فى أعظم الجهل.

(١) جمع رَسَن، وهو الحبل. وقد سبق.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك أمرا محسوسا يحسونه، وهو من آيات السماء

فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

الضمير لله تعالى، وقال إنه خلق الليل والنهار؛ لأنه خلق سببهما ونظامهما وهي نعمة في ذاتها، فجعل الليل لباسا والنهار معاشا، فالليل يسكنون فيه، والنهار يخرجون فيه، وذكر بعد ذلك ما في الليل من نعمة السكون، والاستمتاع بنور القمر الهادئ الساكن، وما في النهار من الحركة والاستمتاع بضوء الشمس الساطع وحرارتها ودفتها، فقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ...﴾ [يونس].

و﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ التنوين هنا عوض عن المضاف إليه، أى كل من الشمس والقمر في فلک أى فى مدار ﴿يَسْبَحُونَ﴾ وهنا شبه جريانها بالسبح، يسبح فى اليم؛ لأنه يجرى فى فلكه بقدرة أودعها فيه، وبنظام ثابت، والضمير عاد ضمير العاقل ترشيحا للاستعارة؛ لأن السابح عاقل يدخل فى العقلاء عادة، فلما جاء التعبير بالسبح جاء معه وصف من يكون فيه عادة.

وكان الضمير ضمير الجمع للإشارة إلى طوابع الشمس والقمر المتكرر الذى جعلهما جمعا، ولأن الطوابع تختلف معها الشمس، فتكون الشمس قرينة من الأرض فى أحد مطالعها وتكون بعيدة عنها فى مطلع آخر، والقمر يبدو فى النظر هلالا، ثم يكبر حتى يصير بدرا؛ ولذلك كانت الشمس والقمر بمطالعهما متعددين، فصح أن يعود إليهما الضمير ضمير جمع.

الأنبياء ومن يخالطونهم

وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ
 الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
 الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾
 وَإِذْ أَرَأَى الْآلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
 أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرِّحْمَنَ
 هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ
 آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

كان المشركون يتمنون موت النبي ﷺ، ويعيرونه بأنه بشر يموت، وإذا مات فإن آلهتهم تنجو من سبه وتعييهم، فيبين الله تعالى أنه سيموت، وهم يموتون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [الزمر]؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وإن كونك بشرا يقتضى أن تموت وتبعث ككل البشر، فما قدرنا لبشر من قبلك الخلد والبقاء، والجعل هنا التقدير، أى ما جعلنا الخلد لأحد قبلك من آدم إلى عصرك، ولست بدعا من بين البشر، وإذا كانوا يتمنون موتك، فليعلموا أنهم أيضا ميتون، ولا يعلم إلا الله تعالى، من يموت قبلا؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها مع قبلها، أى إذا كنت ستموت لا محالة فهل هم خالدون؟ فالاستفهام الذى فى حيزه الفاء مترتب على نفى الخلود عنه ﷺ، والاستفهام داخل على مضمون الشرطية، وهو استفهام

إنكارى فيه نفى الوقوع، والجملة الشرطية محطها الجواب، والمعنى إن مت لا يخلدون بل يتتهون أيضا، فلا يصح أن يتمنوا موتك، ولا يصح أن تسمتوا فالموت حق على كل نفس؛ ولذا قال تعالى مؤكدا هويتهم وموته ﷺ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

هذا تكميل لبيان مساواتهم مع النبي ﷺ في عدم الخلود، ثم ذكر ذلك في قضية ماسة كلية لا استثناء فيها؛ لأن الموت يلزم البشرية؛ لأنه ما من حي من أحياء الأرض إلا له انتهاء وذكر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ولم يذكر كل إنسان، أو كل البشر؛ لأن النفس هي التي تذوق مرارة فراق الجسد، فالموت ينصب عليها ابتداء، وقوله: ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ عبر عن الفراق بالذوق كأن الموت شيء يذاق، وفيه تشبيه الموت بالذوق لأن كليهما يعتريه ألم ومرارة ﴿وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أى نعاملكم معاملة المختبر؛ بأن نمكنكم من الشر لتفعلوه أو تتجنبوه، ومن الخير لتفعلوه، وقدم الشر على الخير، لأن الاختبار بالشر أشد في ذاته، وإن يبدؤا أخذه حلوا ولكنه مرى، ولأن أكثر الناس يستجيبيون لداعى الشر بإغراء إبليس، وإسناد البلاء إلى الله تعالى لأنه هو الذى يمكنهم ويسهل لهم النجدين نجد الخير ونجد الشر، فقد قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠) [البلد].

و﴿فِتْنَةً﴾ مفعول مطلق؛ لأنه مصدر فى معنى «نبلوكم» وإن لم يكن بلفظه، فالإنسان فى موضع اختبار فى النفع والضرر، فإن أعطى الخير فشكر، فله الجزاء، وإن كان حرمان فصبر فله الجزاء ويختبر بفتنة الضرر، فيلقى إليه الضر ويراه محبوبا، والشهوات لينزع عنها، فيكون فى ابتلاء، إن صبر أجر، وإن رتع فيها رتعا جوزى بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة، والصبر على النعمة بشكرها فيه الثواب، والصبر على النقمة باحتمال آلامها من غير أنين ولا ضجر يستحق به الثواب، ويقول سبحانه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص أى ترجعون إلينا وحدنا، ويكون الملك يومئذ لله فيكون الحساب ثم الجزاء للطائعين والعقاب

للعصاة، وفي هذا إنذار للذين لا يطيعون أمر الله تعالى، وقد صور سبحانه وتعالى إعراضهم في استهزائهم بالنبي ﷺ إذا دعاهم للحق فقال عز من قائل:

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إن الإيمان والكفر يتبديان من أول لقاء أو من أى لقاء، فإذا صحب اللقاء إقبال وتعرف سلك طريق تعرف الحق واهتدى، وإذا كان اللقاء إعراضا، وسدا لينايع الإدراك، ومن أشد مظاهر الإعراض الاستهزاء والسخرية؛ لأن الاستهزاء يبيع النفس، فلا تتجه إلى طلب المعرفة، وتحرق الصواب، ولقد كان الاستهزاء شأن المشركين في لقاء النبي ﷺ وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، (إن) هي النافية، والمعنى لا يتخذونك في اللقاء إلا هزوا، أى إلا مستهزئين منك، غير مقبلين على دعوتك، ولا على شخصك بتعرف ما عندك من قول، والنفي والإثبات بالاستثناء مفيد لاستغراق الاستهزاء كل أحوالهم، فليس عندهم في نفوسهم فراغ لسماع الحق، والإنصات إليه في جد وإقبال، وإنهم إذ يرون النبي ﷺ رءوفا بهم لا يريد إغباتهم متواضعا، وادعًا تغريهم هذه الرؤية بأن يجعلوا هذه الصفات العليا موضع استهزاء ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ وقد ابتدوا في عباراتهم عن كلامهم ذكر الآلهة بسوء، فقالوا: يذكرها، وأنى يكون له أن يعلو إلى ذكرها فضلا عن تسفيه أحلامهم في عبادتها، وهذا استفهام للتعجب والاستهزاء والسخرية، وذلك كقول الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ (٤٢) [الفرقان].

﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ فيها معنى إعلاء آلِهَتهم، وتصغير شأن النبي ﷺ ومثلهم كمثل فرعون من موسى ﴿... هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢) [الزخرف] فهو استفهام للتعجب والاستغراب من أن هذا للتواضع، والتواضع عند أهل الفساد ضعة؛ لأن مقياس الخير والشر عندهم القوة، وقاعدتهم: من لا يظلم الناس يُظلم.

﴿وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾، و﴿يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ﴾ أى تذكير الرحمن لهم فهو من إضافة المصدر إلى فاعله ﴿كَافِرُونَ﴾ أى جاحدون، وهنا أمران يجب الإشارة إليهما:

أولهما - تقديم ﴿يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ﴾ على ﴿كَافِرُونَ﴾ وهو يدل على التخصيص، أى هم بذكر الرحمن وحده كافرون فهم كافرون بالوحدانية.

الأمر الثانى - ذكر الله تعالى موصوفا بصفة الرحمن، وفى ذلك إشارة إلى أن بعث الرسل وخصوصا محمدا ﷺ هو من الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ونقول: إن محمدا ﷺ لم يكن مهينا، وإن كان متواضعا وديعا، متظامنا موطأ الكنف ولكنه كان ذا هبة إذا اشتدت سخريتهم، يروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن يوم من أشد الأيام التى لقيها النبى ﷺ من المشركين أن النبى ﷺ كان يطوف بالبيت والملا من قريش بفناء البيت، فكان إذ مر بهم وهو يطوف غمزوا بالقول، فبدا أثر ذلك فى وجه النبى ﷺ، حتى إذا أتم الطواف التفت إليهم وقال: «شاهت هذه الوجوه، وأرغم الله هذه المعاطس، يا معشر قريش لقد جئت بالذبح»، فما كان إلا من يقول يرفؤه بأحسن القول، ويقول: اذهب أبا القاسم موفورا ما علمنا عنك إلا خيرا^(١) فكان عليه السلام مهيبا، ولم يكن مهينا، ولكن تظامن ليدخل الناس فى الدعوة مختارين اختيارا كاملا لا رهبة فيه.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

العَجَل هو العَجَلَة والتسرع والسبق إلى مخاطر الأمور من غير تفكير، ومعنى أنه خلق من عجل، المبالغة فى عجلته كما يقال خلق من كرم مبالغة فى الكرم،

(١) رواه أحمد: مسند عبد الله بن عمر بن العاص (٧٠١٦)، وابن حبان فى صحيحه (٦٤٥٣) ٢٠١/٢، وراجع مجمع الزوائد، والبداية والنهاية - فصل فى أشد ما صنعه مشركو قريش برسول الله ١٧٨/٣، وتاريخ الطبري ٨٧٣/١.

وكما قال تعالى: ﴿... خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ...﴾ ﴿٥٤﴾ [الروم] وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ نظيره ومؤداه ﴿... وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ﴿١١﴾ [الإسراء] وهذا التعبير فيه تأكيد في عجلته، وكأنه يكون من عجلة، وهذا كناية عن استعجاله للأمور، وفيه مجاز بتشبيه في عجلته وكونها طبعاً له غير منفصل عن ذاته بأنه خلق منها طبعاً له لا تنفصل عنه، وهم يستعجلون دائماً ما أوعد من عذاب، كما قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ...﴾ ﴿٦﴾ [الرعد] فهم يستعجلون العذاب كأنهم يتحدون الله، والله أمهلهم لحكمة يعلمها، وكل شيء عنده بمقدار، وإذا كانوا يتحدون مستعجلين فالله تعالى ينذرهم ويخبرهم بأنه آتيهم لا ريب فيه، ويقول سبحانه: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الآيات هي آيات القدرة والقهر بالنذر التي تومي، بغلبة محمد ﷺ ومن آمن به، وبالريح العاصف التي غلب بها محمد ﷺ في غزوة بدر، هذه آيات بينات على ما ينزل بالكافرين لكفرهم ونصرة الحق عليهم، و«السين» هنا لتأكيد الفعل في المستقبل، وإسناد الفعل إلى الله تعالى فيه تأكيد الوقوع، ورؤيتهم لهذه الآيات هي رؤية معاينة لا رؤية علم و نظر فقط ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي لا تطلبون العجلة من أمر هو واقع فيكم لا محالة، واستأنوا فإن ما تطلبون نازل.

وذكر سبحانه من استعجالهم قوله:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

أي يقولون مستعجلين وعد الله تعالى بالهلاك إن استمروا على كفرهم، ووعد الله المؤمنين بالغلب والقدرة، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الشرك هي السفلى، يقولون ذلك إنكاراً وتحدياً وإعناتاً؛ لأنهم مأسورون بالحاضر لا يدركون شيئاً وراءه، فهم لا يتصورون أن يكون هؤلاء الضعاف الذين يستذلونهم ويفرضون عليهم الذل ويؤذونهم سيكون لهم الغلب يوماً من الأيام، لا يتصورون أن يجلس عبد الله بن مسعود فوق أبي جهل ويحز رقبتة، وأن يقتل بلال من كان سيداً له في مكة، وهو من سادات قريش، لا يتصورون ويستبعدون أيضاً عذاب

يوم القيامة لهم دون المؤمنين، ويظنون أنه إن كان بعث أو عذاب، فلن يكونوا هم وقودها، بل يقيسون الآخرة على الدنيا، ويبلغ بهم التحدى بعد استطالتهم أمد العذاب فيقولون: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والمخاطب محمد ﷺ وأتباعه الكرام، أو المخاطب الدعاة إلى الله من رسل وأتباعهم، ويتهمون ويتحدون الله، ولكنهم ضالون، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

هول يوم القيامة

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَأُكُم بَالِيلٍ وَالنَّهَارِ مِن
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

استطالوا الزمن واستعجلوا العذاب، وتحذوا الله ورسوله أن يأتوا بالعذاب إن كانوا صادقين فبين الله تعالى هوله إذا جاءهم وأنه لا يأتيهم يوم القيامة إلا بغتة، وأنه بعده عذاب لا يتصورونه ولا يدركونه، وإن المشركين كانوا يتحدثون الرسول أن يأتي بما وعد به من عذاب إن كان صادقا، فبين سبحانه أن ذلك التحدى من جهلهم، ثم بين مآلهم من عذاب يلحقونه، وأن القيامة التي يكون وراءها العذاب تأتيهم بغتة وذكر العذاب قبل القيامة مع أنه بعدها وبعد الحساب فقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أى يحيط بهم، وذكر الوجه والظهر لأنه إذا أحاط بهما أحاط بالجانبين لا محالة فلا يصل إلى الظهر إلا إذا أحاط بالشمال واليمين، فالنار تحيط بهم، ولا يستطيعوا كفها وذلك العجز عن كفها لأنه يقتضى الإحاطة بهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ...﴾ [٤١] [الأعراف] وكما قال تعالى: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ تَعْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ...﴾ [٥٠] [إبراهيم]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ...﴾ [١٦] [الزمر].

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة، وهى الجزم المطابق للواقع، وعبر بالمضارع لتصوير حالهم عندما يعاينون العذاب، وينزل بهم العذاب الشديد، وجواب الشرط محذوف يدل على عظيم الهول وتقديره لرأوا هولا لم يدركوا كنهه، ولم يعرفوا أمره، كما فى قوله تعالى: ﴿... وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ...﴾ [١٦٥] [البقرة]، وعبر تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للإشارة إلى أن الكفر هو سبب ذلك الهوان العظيم، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى أن العذاب ينزل بهم لا يستطيعون كفه ولا يوجد من ينصرهم، ويكف عنهم، هذا ما يستعجلونه، ويتحدون أن يكون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تحذوا أن يذكر لهم متى هذا الوعد، وهو يوم القيامة، وقد بادر سبحانه بذكر ما يكون لهم فى هذه مما لا يسوغ لهم أن يستعجلوه، ثم ذكر لهم أنه لا يأتي فى وقت معلوم، بل يأتي فجأة فقال:

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبْتَهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

البغة المفاجأة التي لا تكون متظرة، ويكون وقعها شديداً، والبغت المجيء الذي يكون فيه دهشة وتحير، قال تعالى: ﴿... فَبُتِ الَّذِي كَفَرَ ...﴾ (٢٥٨) [البقرة] أى شدة وتحير، ويطلق البغت على الكذب الذي لا أصل له، ويحير العقول المستقيمة، وتكون كل الظواهر مناقضة كما قال تعالى فى رمى أم المؤمنين عائشة: ﴿... هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦) [النور].

و﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي وتضمن الرد على طالبي ميعاد للوعد، وقد استبطأوه، والمعنى بل تأتيتكم بغتة أى فجأة على غير ترقب وتوقع وانتظار منكم ﴿فَتَبْتَهُمْ﴾ أى تفاجتهم فتدهشهم وتحيرهم، وتحيط بهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى لا يستطيعون دفعها، بل إنها الواقعة التي لا مناص منها، ولا خلاص ولا انكسار عنها، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ لا يمهلون، فلا يستطيعون تأجيلها فهي محدودة، بمقات معلوم عند الله سبحانه وتعالى.

كان النبي ﷺ إذا عرض عليهم الدعوة إلى التوحيد ردوها، وإذا مرّ بهم استهزأوا ساخرين، وإذا رأوه استصغروه، وهو القوى، فواساه الله تعالى بذكر أن الاستهزاء شأن الكافرين، وهو دليل عجزهم، وإن استطالوا بالاستهزاء وأفعالهم. ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أكد الله سبحانه وهو الصادق فى كل قول، ولا يحتاج إلى تأكيد قول، ولكنه أكد لأن الرسول ﷺ أحزنه أن يستهزئ ناس بنبيهم الذى جاء لهدايتهم، ولأن الوحداية حق لا يستهزأ منه، وعبادتهم الأوثان هى الجديرة بالاستهزاء والسخرية، فأكد سبحانه لمواساة النبي ﷺ، وليوقع فى نفسه عليه الصلاة والسلام بأن دعوة الحق لا يعارضها ناس فضلاء، ومن طبيعة الأخساء أن يهبطوا فى خصومتهم إلى دركة الاستهزاء، فقال: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أكد سبحانه استهزاء السابقين بـ «اللام» و «قد»، ونكرت (رسل) لكثرتهم ومقامهم من الله، أى رسل

كثيرون لهم مكآنتهم عند الله وفي أقوامهم، والحق يسخر منه أهل الباطل خصوصا إذا كان واضحا نيرا، والباطل حجته داحضة، ويشعرون بأنها ليست حجة، ومع ذلك يستمسكون بها اتباعا لأوهامهم، ولآبائهم وخضوعا لعادات وتقاليد فاسدة.

وإنهم محاسبون على استهزائهم، لقد حسبه لغوا من الأقوال والأفعال، وهو عند الله عظيم؛ لأنه كفر وعناد وخسة، ولذلك كان له عقابه في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

«الفاء» تدل على أن ما بعدها مسبب لما قبلها، وقد صرح بهذه السببية، فخص سبحانه وتعالى نزول العذاب أو العقاب بالذين سخروا منهم، فذكر الموصول دليل على أن الصلة سبب الحكم، وكان الإظهار في مقام الإضمار، لبيان هذه السببية، و(حاق) معناها نزل بهم وأصابهم، وقد خص الساخرين بعقاب خاص لأنهم في معارضتهم بهذا النوع من المعارضة كانوا أخساء في ذات أنفسهم، فمن ذا الذى يجعل أبا جهل في معارضته للإيمان كأبى سفيان، فالأول خسيس والثاني فيه شرف، ولقد قال وهرقل يسأله عن محمد بن عبد الله: لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت.

وقال تعالى: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ والمراد عذاب الاستهزاء لا ذات الاستهزاء، ولكنه سبحانه عبر بأن الاستهزاء ذاته هو الذى يحقق للإشارة إلى الجزاء وفاق للجريمة فهو هى؛ لبيان المساواة العادلة، و﴿مَا﴾ فى قوله ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مصدرية، أى استهزاءهم.

والجزاء الذى ينزل بهم هلاك فى الدنيا، وقد جاء قصص القرآن بهلاكهم فى آيات كثيرة، وعذاب أليم فى الآخرة.

وإن الله تعالى يذكرهم بنعمة الله تعالى فى حياتهم الخاصة والعامة التى تحوطهم، ولا يشعرون بها، بل يكفرونها.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

هنا التفات، فقد كان الكلام في استهزاء المشركين بالنبي ﷺ واستهزاء من كانوا قبلهم بالأنبياء السابقين، ثم التفت القول إلى المستهزين من قريش، وأمر النبي ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى قل يا رسول الله: من يحميكم ويقيكم ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى من عذابه وعقابه الدنيوى، والكلاءة بكسر الكاف مصدر كالأى هى الحماية والتبقيّة، وقد قال الأصفهاني فى مفرداته: والكلاءة، حفظ الشيء وتبقيته يقال كلاك الله وبلغ بك أكلاً العمر.

والنص السامى يفيد أموراً ثلاثة:

أولها - بيان نعمة الله تعالى عليهم فى حفظهم وتبقيتهم مع عظيم جرائمهم فى مأوى يسكنون فيه، ويقيهم الحر والبرد، ويمدهم بالغذاء والكساء لحفظ أنفسهم من الموت. ولتبقيتهم إلى أن يقضى أمراً كان مفعولاً، فهم فى كلاءة الله تعالى المستمرة حتى ينزل بهم ما هم أهل له.

الثانى - ما يضمنه من إنذار شديد لهم، وأن الله تعالى الذى كالأهم هو المسيطر عليهم منزل بهم ما يستحقون، فهو يهمل ولا يهمل.

الثالث - أن هذه الوقاية من الرحمن أى عذابه، ووصف سبحانه ذاتة العلية بالرحمن؛ للإشارة إلى أن نزول العذاب بهم بعد هذا الاستهزاء من دواعى رحمته؛ لأن عذاب المجرمين من الرحمة، لأنه إذا كان عذاباً للفجار فهو رحمة بالأبرار، فمن الرحمة ألا يسوى بين المحسن والمسيء.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ الإضراب هنا إضراب انتقالي من وصف إلى وصف للمشركين، فهم يستهزئون ويجهلون ولا ينتبهون مع وجود المنبه المرشد الذى يرشدهم إلى ربهم، وبذكره لهم، وأثبت أنهم معرضون عن ذكر ربهم أى تذكره، ف ﴿ذِكْرُ رَبِّهِمْ﴾ من إضافة المصدر للمفعول، وهم فى غفلة مستمرة عنه، مع أنه خالقهم وحافظهم وفى كل حياتهم ما يُذكّرهم، والجملة الاسمية مؤكدة لاستمرار الإعراض، وقلوبهم غلف لا تفتح لذكره سبحانه وذكر آلائه ونعمه، وهنا أمران بيانيان:

أولهما - أن الله تعالى في ذكر نعمة الكلاءة من عذاب الرحمن، وقد ذكر الليل قبل النهار؛ لأن المفاجآت بالعذاب تكون فيه أكثر، ووقعها أشد، ولأن الليل حيث يكون الاطمئنان فالمباغلة تكون فيه أشد.

ثانيهما - أن الاستفهام هنا للتذكير والتنبية، إلى ما هم فيه من نعم واقية، وإيجابية، والله تعالى أعلم.

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يقيهم من العذاب الذى يستحقونه لا آلهتهم؛ ولذا قال:

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ﴾.

﴿أَمْ﴾ هى أم المنقطعة، وهى تدل على الإضراب، وهمزتها للاستفهام، والمعنى بل ألهم آلهة .. والإضراب انتقالى من لوم إلى لوم، لامهم سبحانه على إنكارهم كلاءة الله تعالى لهم، ثم أنكر عليهم اتخاذهم آلهة يحسبون أنها تمنعهم من عذاب أو مما ينزل بالليل والنهار، والاستفهام المستفاد بـ «أَمْ» بمعنى «بل» لهم آلهة، استفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع، وإنكار الواقع تأنيب ولوم، فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ إنكار لما يعتقدون من أن آلهتهم تمنعهم دون أن يمنعهم الله، فقوله: ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ معناها غيرنا، ووصف الآلهة التى زعموها بوصف، ووصفهم بوصف، أما وصف آلهتهم فبقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا نصرا فكيف ينصرون غيرهم، وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا.

وكان الضمير على الأوثان ضمير العقلاء مجازاة لهم فى عبادتهم، وليس اعترافا بأنها تعقل. الوصف الثانى، وصف المشركين، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ﴾ أى يجارون، وهذا تفسير ابن عباس الذى رواه عنه مجاهد، واختاره الطبرى، ونحن نوافقه فى هذا الاختيار، والمعنى على هذا لا تنصرهم أوثانهم، والله لا يصحبهم بجوار يمنعهم لأنهم مشركون، ولا جوار من الله لمن يشرك به ولا يعبد وحده.

ولقد أشار سبحانه إلى السبب فى إصرارهم على الشرك، ومعاذتهم لدعوة التوحيد، فقال عز من قائل:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

هذا إضراب انتقالي من بيان إلى بيان، فبين تعالى حمايتهم من أن يأتيهم العذاب بغتة، وأن آلهتهم لا تغني عنهم من الله من شيء، ثم انتقل سبحانه إلى بيان لبعض ما تآدى بهم إلى الشرك والإصرار عليه، ومعاندة الأنبياء بعامه، ورسولهم محمد ﷺ بخاصة فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أى متع الله سبحانه هؤلاء وكانت متعتهم امتدادا لما متع به آباءهم من قبلهم، متعهم أولا بسلطان فى البلاد العربية، وإن لم يكن ملكا، بل كانوا نفوذا أشبه بالملك، ومتعهم ثانيا بأن كانت إقامتهم فى بيت الله الحرام، وهم آمنون ويتخطف الناس من حولهم، ومتعهم ثالثا بأن كانت لهم متاجر تسير فى البلاد العربية من شمالها إلى جنوبها، ومتعهم رابعا بأن كانوا رؤساء الحج فى أيديهم السدانة والسقاية، ومفتاح الكعبة التى كان يؤمها الناس من كل فج عميق، ومتعهم خامسا بأن فى أيدي الكثيرين منهم المال والبنين وأنهم أكثر نفيرا.

متعوا بكل ذلك، والمتعة من غير إيمان تغرى بالشرك، واستمرارها يؤدى إلى طمس النفس عن المعارف الدينية، ولقد كانت هذه المتع تتسلسل فيها الأبناء عن الآباء؛ ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، و﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي، بأن انتقل من المظاهر التى بدت فى شركهم وإعراضهم عن الله تعالى إلى بيان الحال النفسية التى كانوا عليها حتى أغرتهم بالتطاول على الله وعلى الحق، وسيطرت عليهم الأوهام، وتوارثوها جيلا بعد جيل حتى تحجرت عليها قلوبهم، وصارت قلوبهم غلفا، وصاروا صما عن سماع الحق بكما عن النطق به وركبتهم الطغواء، حتى صاروا لا يرون ما هو واقع، ولا يتوقعون إلا ما يتفق مع أهوائهم، ولا يعرفون أن الأمور التى استكنها الغيب لهم لا ترصيصهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ .

«الفاء» مؤخرة عن تقديم، وهى تدل على أن ما قبلها سبب لما بعدها، والمعنى فالأ يرون أن الأرض تنقص عليهم من أطرافها، والسورة مكية، ولم يكن الجهاد قد قام، واشتجرت السيوف وسار الإسلام من نصر إلى نصر حتى أحيط بهم. وأسند

الإتيان إلى الله تعالى في قوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ للإشارة إلى أن ذلك بإرادة الله تعالى الذى ينصر من يشاء ويعز من يشاء، وإذا كان الله تعالى هو يأتى الأرض ينقصها من أطرافها، فإن جنده هم الغالبون؛ ولذلك كان الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ «الفاء» فاء الإفصاح عن شرط مقدر، تقديره إذا كان الله هو الذى ينقص الأرض من أطرافها فأهم الغالبون، و«الفاء» مؤخرة عن تقديم، أى ليسوا هم الغالبين، وقد أكد النفي المفهوم من الاستفهام. وهذه الآية فى معناها ظاهرها أنها نزلت بالمدينة، وإن التمتع لهم ولآبائهم يجعلها أقرب إلى أن تكون مكية، ولعلها نزلت بمكة، ثم نزلت مرة أخرى بالمدينة، وقد جوز العلماء ذلك.

تلقى الكفار للرسالات

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى الإنذارات فى الآيات السابقة بين سبحانه أن الإنذار بوحي من الله، وأنه ليس من عند محمد الذى يستهزئون به، إنما هو من عند الله خالق السموات والأرض، الذى يلجأون إليه عندما يحاط بهم ويضرعون إليه إذا مسهم الضر، ومن كان ملجأ لهم فى شدائد هو منزل العذاب فى كفرهم، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ﴾

الخطاب للنبي ﷺ يأمره سبحانه بأن يقول لهم ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة للقصر، والمعنى لا أُنذِرُكم إلا بوحي من الله تعالى، فلا أُنذِرُكم من عندي، إنما أُنذِرُكم من عند الله تعالى، وإن ذلك يوجب عليكم ألا تستهزئوا بالإنذار، لأنكم لا تستهزئون بي إنما تستهزئون بالله العلي العظيم الذي تلجأون إليه في شدائدكم في البر والبحر، وفي ذلك تأكيد للإنذار؛ لأنه صادر عن الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد.

ثم بين سبحانه وتعالى إذ لا يسمعون النذر يكونون كالصم إذا ما ينذرون، فشبّه الله تعالى المشركين عند سماع النذر بالصم؛ لأن كلاهما لا يسمع، فالصم في الآية هم المشركون، وهم لا يسمعون إذا أنذروا، والصم جمع أصم والمراد بهم المشركون بالله، والمعنى لا يسمع المشركون الذين شبهوا بالصم لعدم السماع في كل ما ينذرون و﴿مَا﴾ لتأكيد الشرطية في الشرط.

والدعاء: النداء بصوت عال قوى مرتفع صاعد، والمشركون لا تجدى فيهم النذر، وهى من عند الله تعالى العلى القدير، الحكيم العليم.

ومع أنهم يصمون أذانهم عن النذر هم فى أشد الهلع والفرع إذا عاينوا العذاب، أو جاءتهم منه نفحة؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

اللام الموطئة للقسم، والنفحة الريح الطيبة، وتستعمل للخير، وقد تستعمل للشر كما هنا بدليل قوله تعالى: ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، والمعنى أنهم صم عند النذر، ما دامت قولاً منذراً، ولو كان وحياً من الله تعالى، فإذا رأوا الفعل، ولو كان نفحة من ريح فيها عذاب اضطربوا وهلعوا وفرغوا، فلا يؤمنون بالنذر حتى يروا العذاب الأليم، و﴿مَسَّتْهُمْ﴾ معناها أصابتهم إصابة حقيقية ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾

أدركوا هول العذاب، وكان إدراك معنى الإنذار، وأجابوا كما قال الله تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى أنهم إذا أصابتهم نفحة قليلة من العذاب يفزعون، وينادون بالويل والعذاب والهلاك يقولون يا ويلنا أقبل فهذا وقتك، ويدركون ظلمهم، ويؤكدونه فيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، فقد أكدوا ظلمهم بثلاثة مؤكدات: بوصفهم بالظلم أولا، وبـ «إِنَّ» المؤكدة ثانيا، وبـ «كَانَ» الدالة على ظلمهم المستمر ثالثا، ولقد قال الزمخشري فى معنى هذه الآية: «ولئن مستهم فى هذا الذى يندرون به أدنى شىء لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا، وفى المس والنفحة ثلاث مبالغات، لأن النفحة فى معنى القلة والنزارة، يقال نفحته الدابة وهو رمح يسير، ونفحه بعطية؛ رضخه، ولبناء المرة»^(١).

ونقول إن المس إصابة غير غامرة، بل هو لمسة.

وظلمهم هو ظلم لأنفسهم، وبشركتهم، وبفسادهم، وبإعناتهم للرسول وصددهم عن سبيل الله تعالى، وإن ذكر هذه النفحة من العذاب تمهيد لذكر القيامة، وما يكون فيه من عذاب الجحيم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

هذا بيان لحساب يوم القيامة، وأنه لا يذهب منه صغيرة ولا كبيرة إلا كانت موضع حساب، وستجزى كل نفس ما كسبت إن صغيرا وإن كبيرا، وإن خيرا، وإن شرا.

وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ «اللام» هنا بمعنى «فى»، كقول القائل فعلته لخمس خلون من ذى الحجة، أو جاهدت لعشر خلون من رمضان، وبعضهم قدر

مضافا محذوفا، أى لأهل يوم القيامة، والأول أوضح وأبين، ووضع الميزان فى قوله تعالى: ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ هو وضع معنوى، أى رصدنا الأعمال رصدًا وحسبناها حسابًا بخيرها وشرها، للإنسان أو عليه، ويصح أن يكون هناك ميزان محسوس يوم القيامة توزن به الأعمال، ولكننا نميل إلى التفسير الأول، ولقد ذكر ابن عباس أن كل ما يكون يوم القيامة هو من جنس مثله فى الدنيا، ولكنه غيره، وذكره تقريب للعقول، ولا مانع أن يكون محسوسا، ولكنه غير الموازين التى نراها فى الدنيا، وذكرها تقريب لما عندنا، والله أعلم.

ووزن الأعمال يكون بما هو مذكور فى كل كتاب للمكلف، فتوزن صحائفه فى خيره وفى شره، أو تكون الأعمال فى علم الله فى كتاب، لا يفضل ربه ولا ينسى سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أى الموازين التى هى القسط، وهو العدل، وفى هذا مبالغة فى وصف الموازين بالعدالة، كأنها العدالة ذاتها، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

ولقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ إن كان العمل صغيرا يساوى وزنه وزن مثقال حبة من خردل، أى كان الوزن فى ذاته قليلا، وكان الموزون فى ذاته ليس ذا خطر وشأن فإنه يؤتى به ويحاسب عليه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولا يغيب عن علم الله تعالى شىء، ولا عن الحساب شىء من غير جزاء، ولقد حكى سبحانه فى وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان].

وإن المحاسب هو الله الذى يعلم كل شىء، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أى وكنا حاسبين فلا حساب بعد حساب الله ولا أدق منه ولا أعدل.

من قصة موسى وإبراهيم

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ
السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ
مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي
أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا
أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَعَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوبْ
عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى
 أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
 أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْدَرُكَوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

هاتان قصتان لاثنتين من الرسل، قصة موسى وهارون وهما كرسول واحد، وقصة إبراهيم أبى الأنبياء، ويلاحظ:

أولاً - أنه ليس فيهما تكرار لما ذكر منهما في سور أخرى وآيات أخرى، فقصة موسى وأخيه هارون تكلمت الآيات الكريمات فيهما بإشارة لامحة لا تفصيل فيها، وقصة إبراهيم كانت في تحطيمه للأنصام والكيد لعبديتها، ومحاولة إحراقه بالنار، ومعجزة الله تعالى في أن أطفالها وقال لها: ﴿... كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء] وذلك لم يذكر من قبل ولا من بعد، فدل هذا أنه لا تكرار في قصص القرآن، وإن بدا لمن لا يحصون الحقائق غير ذلك.

ثانياً - أنه سبحانه ذكر قصة موسى عليه السلام قبل قصة إبراهيم مع أنه جده الأعلى، وذلك لأنه صاحب شريعة دونت في كتاب، وأنه أتى بهذا الكتاب وأخذ به حتى في النصرانية التي جاءت من بعده، والقرآن ليس كتاب تاريخ حتى

ترتب أخباره ترتيباً زمنياً، كترتيب كتب التاريخ، إنما قصصه عبرة وذكرى لأولى الألباب، وإنما تذكر بمواضع العبرة، ومواطن الموعظة.

ثالثاً - أنه كان تفصيل في قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أبو العرب الذي كانوا يعتزون ويفتخرون به، ويقولون إنهم ضئضي^(١) إبراهيم وإسماعيل، وهم كانوا يعبدون الأوثان، كما كان الذين بعث فيهم إبراهيم يعبدونها هم وآباؤهم، وإن إبراهيم عليه السلام أثبت بالعمل أنهم لا يضررون، ولا يدفعون عن أنفسهم ضرراً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾

«الواو» واصله ما بعدها بما قبلها، ﴿آتَيْنَا﴾ أى أعطيناها ومكناها منه، و﴿الْفُرْقَانَ﴾ هو التوراة لأنها فرقت بين الحق والباطل، وبين قوم ليس لهم سلطان وقانون يحكمهم فى ماضيهم وأن صاروا من بعدها لهم قانون يحكمهم وسلطانهم من أنفسهم، كما قال تعالى منعماً عليهم: ﴿... وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ...﴾ (٢٠) [المائدة] أى مستقلين سلطانكم من أنفسكم.

وقال بعضهم: إن الفرقان هو نجاتهم فى البحر؛ إذ فرق الله البحر فصار كل فرق كالطود العظيم، وفى الحق: إن الفرقان يشمل بعمومه كل فارق بين أمرين، فأتاه الله تعالى أن انفلق البحر بعصاه، وأخرج بنى إسرائيل من الدل والهوان إلى العزة والقوة، وأن يطبقوها، ويتحملوا واجباتها وتبعاتها حتى اضطر موسى لأن يتركهم يتيهون فى الأرض أربعين سنة ليتعودوا حياة البأس والقوة، ومهما يكن فإن الله تعالى آتى موسى كل ذلك، ولعل ذلك هو السر فى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ ولم يقل تعالى: (وأنزلنا الفرقان) وقال: ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الضياء النور الهادى المرشد، وهو هنا المعجزات التسع التى بعث الله تعالى موسى عليه السلام بها، والتعبير عنها بالضياء من قبيل الاستعارة فشبهت بالضياء؛ لأنها مرشدة هادية معرفة كالضياء وهى نور، وهى ذات الضياء، وسماها سبحانه وتعالى ﴿ذِكْرًا﴾ لأنها مذكرة بالحق دائماً، ولكن بشرط أن تكون قلوب مفتحة للحق؛ ولذا

(١) الضئضيُّ و الضؤؤؤؤ: الأصل والمعدن - لسان العرب - ضافاً.

قال تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى الذين امتلأت قلوبهم بالتقوى ومخافة الله سبحانه وتعالى، ولذا قال فى أوصافهم:

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

وصفهم الله تعالى بوصفين أولهما: أنهم يخشونه، أى يخافونه معظمين له مؤمنين بألوهيته مصدقين لكل ما يأمر به، طائعين لأوامره ونواهيه، ووصف الله الذين يخشونه بأنه ربهم الذى خلقهم وربهم وهو القائم على شئونهم، ويخشونه وهو غائب عنهم، علموه بالعقل والنقل فهم يعبدونه كأنهم يرونه وهذا هو الإحسان فى العبادة، وهو حقيقة الخشية.

الوصف الثانى: أنهم يعرفون أن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً، بل لهم بعث وحساب وعقاب، وهم يستشعرون الخوف من نتيجة الحساب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى والثواب، فهم يغلبون الخوف على الرجاء، والساعة هى يوم القيامة، وعبر بالساعة؛ لأنها ساعة شديدة، فهم يخافون الحساب لأنهم يستصغرون حسناتهم ويستكثرون سيئاتهم.

هذا شأن الفرقان الذى أتى الله موسى فيه تذكير للمتقين الذين لهم هذه الأوصاف، ولم يكن بنو إسرائيل على تلك الأوصاف، ولكنه مع ذلك ضياء وذكر للمتقين الذين ربما يوجدون من بعدهم حتى جاء محمد ﷺ.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى النبى ﷺ وإلى القرآن فقال:

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

وسَطَ الله سبحانه بين قصة موسى وهارون، وقصة إبراهيم حاطم الأوثان بالإشارة إلى القرآن ومحمد ﷺ، الذى أزال الأوثان من البلاد العربية؛ لأن القرآن أكمل كتاب للشرائع التى فصلت بعضها التوراة، ونسخ القرآن بعضها، فأخذ شرعه من شرع موسى بعضه، ولكنه خالد دائم لا يعروه نسخ ولا تبديل، ولأن محمداً ﷺ أزال دولة الأوثان فى مستقرها.

﴿هَذَا﴾ الإشارة إلى القرآن الذى يسمعون تلاوته، ويتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزون، ويتحدى الخليفة كلها أن تأتى بمثله فلا تستطيع. ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء].

والإشارة تتضمن كل ما فيه رأوه مثلوا، وعلموه معجزا، وعاینوا آثاره فى إيمان المؤمنين، وقد عرفه الله تعالى بأنه ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾، أى مذكر بالعذاب والثواب، وفيه تذكير بالله تعالى إذا امتلأت القلوب به كان فيها ذكر دائم، وبه تطمئن القلوب، وتذهب الوسوس، ولا تضطرب، ولا تفزع ولا تهلع ولا تجزع، ووصفه سبحانه بأنه ﴿مُبَارَكٌ﴾، البركة: الخير الدائم المستمر الكثير الخيرات، ووصف القرآن بذلك أولا لأنه دائم بالخير والثمرات المرشدة ما دامت السموات والأرض، وهو خالد بخلود خاتم النبيين، ولأنه قد اشتمل على كل شيء يتعلق بالمواعظ والهداية، ولأنه مشتمل على الشريعة الباقية إلى يوم القيامة.

وقد رأى العرب المدركون فيه كل ذلك، ولكن المعاندون لم يدركوه؛ لأنه طمس على قلوبهم ولقد قال تعالى من بعد : ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ «الفاء» ترتب الاستفهام الدال على استنكار الواقع وهو عدم الإيمان فى الوقت الذى كان يجب الإيمان به، والفاء مقدم عن تأخير لأن الاستفهام له الصدارة، والتقدير: فأأنتم له منكرون، أى أنه يترتب على هذه الحقيقة الثابتة للقرآن، وهو مذكر ومبارك سؤالهم أنأنتم له منكرون، وقلنا إن الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فالثابت أنهم منكرون، وتلك جريمة عقلية وهو جحد بما قام الدليل عليه وإشراك، حيث قام الدليل على التوحيد، وإنكار لمعجزة القرآن حيث عجزوا عن الإتيان بمثله.

قصة إبراهيم

اختص هذا الجزء من قصة إبراهيم عليه السلام بمجاہته لقومه، وحطمه أوثانهم ويظهر أنه كان فى شبابه الباكر أو فى أول بعثته، ولا ندرى على وجه التحديد كم كان سنه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.

أكد سبحانه وتعالى ما آتاه لإبراهيم، بـ «اللام» و«قد»، والرشد هو العلم والإدراك والنفاذ إلى الحقائق كما رأينا تعرفه لله تعالى في وسط الجهالة التي كانت غمامة على العقول منعتها من الإدراك السليم، وكيف تعرّف في نجم فرآه قد أفل، ثم في القمر فرآه أيضا أفل، ثم رأى الشمس بازغة، فقال هذا حتى انتهى إلى الوحداية.

هذا كله رشد وإدراك سليم انتهى إلى الإدراك الكامل لمعنى الألوهية المنزهة عن المشابهة للحوادث في أفولها وظهورها، وفي فنائها وبقائها.

وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أى من قبل موسى عليه السلام، وهو أسبق منه، وكان تقديمه لما ذكرنا من أنه جاء بشريعة مفصلة وإن نسخ بعضها وبقي الآخر، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى عالمين كيف ربينا، وكيف صنع على أعيننا، وربينا فيه روح الحق وتتبعه والوصول إليه.

وبعد أن بعثه الله تعالى تقدم لمجاهدة أبيه وقومه المشركين، ابتدأت المجاهدة بقوله:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾

«إذ» هنا للوقت الماضى، وهى مفعول لفعل محذوف تقديره «اذكر»، والخطاب لمحمد ﷺ والمعنى اذكر لقومك من مشركى العرب الذين يفخرون به نسباً، ويدعون اتباعه كيف جاهد قومه فى هذا الشرك، وذكر أباه لأنه داع للحق، وداعى الحق لا يفرق فى دعوته بين قريب وغيره، بل يستدئ بالقريب لأنه أقرب إجابة، ولأن الدعوة إلى الحق خير، فأولى به الدانى، وإبراهيم كان أبوه دانياً إلى قلبه وذكر بعد أبيه قومه، وما قاله لهم هو: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ التماثيل جمع تمثال، وهو الصورة المجسمة للإنسان أو للحيوان، وأكثر ما يكون الآلهة لصورة إنسان، وكانت التماثيل عند اليونان والرومان وكانوا يعدونها أو



يسمونها آلهة، فيقولون: إله الحب، وإله الزرع، وإله العدالة، والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له وعبادته.

والاستفهام منصب على سؤاله عن هذه الأصنام التي عكفوا عليها يعظمونها، ويعبدونها، وهو يتضمن أولا الاستهانة بها وتحقيرها بالإشارة؛ لأن الإشارة تتضمن أنها حجارة محسوسة لا تضر ولا تنفع، ويتضمن ثانيا استنكار العكوف عليها وعبادتها، والاستفهام ليس عن الماهية، بل عن أوصافها، وتنبه إلى أنها لا تضر ولا مسوغ لعبادتها لأنها ليس فيها صفات الألوهية التي توجب العبادة.

لم يجيبوا عن سؤاله لأن ظاهره أنه يطالبهم بمسوخ للعبادة، وقد فروا من الإجابة المسوغة إلى قولهم:

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾.

لم يجدوا مسوغا عقليا ولا نقليا إلا التقليد للأباء، كما قال المشركون لمحمد ﷺ: ﴿... قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة] ١٧٠ أي أن المسوغ أنا وجدنا آباءنا لها عابدين، أي استمروا على عبادتها، وما استمروا عليه فهو حق، ولا دليل عندنا سوى ذلك، ودل النص على استمرار آبائهم بالوصف بـ ﴿عَابِدِينَ﴾؛ لأنه دليل على استمرار عبادتهم لها وحدها، والدليل على استمرار عبادتهم لها وحدها تقديم الجار والمجرور على اسم الفاعل، وهذا الكلام يدل على أنهم لا يعرفون الله، أو يعرفونه ويشركون معه هذه التماثيل من غير حجة ولا برهان.

وما كان لأبي الأنبياء أن يتركهم من غير أن يصف عبادتهم بالضلال، فقال:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الضلال: السير في طريق لا يعرف نهايته، وليس موصلا لغايته، وأطلق على السير في الباطل والوصول إلى مده، فإنه تكون في مشاركات مختلفة من مشاركات الشيطان، و﴿مُبِينٍ﴾ معناه: واضح، وكان واضحا لأنه لا يستند إلى دليل علمي

ويناقض بدائه العقول؛ لأن المعبود يجب أن يكون أعلى وأقوى من عابده، فهل فى تمثال قوة وعلو على الإنسان، فأى ضلال أبين من هذا وأضل عقلا وفكرا.

وأكد سبحانه على لسان إبراهيم ضلالهم بـ «اللام، و«قد»، و«كان» الدالة على الدوام والاستمرار، وبضمير الفصل المؤكّد، وإن إبراهيم جمع بين ضلالهم وضلال آبائهم، فكان جامعا بين ضلال المقلّد والمقلد.

أجابوا عن ذلك الكلام الجاد بقولهم:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾.

لقد استغرق الضلال قلوبهم، وسد مسامع الإدراك فى أفكارهم، فحسبوا أن ذلك هو الحق وهو الضلال بعينه، قالوا مستفهمين ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ﴾ والاستفهام هنا بمعنى النفى، فهو لإنكار الوقوع، ومعناه: ما جئتنا بالحق، بل أنت من اللاعبين، و﴿أَمْ﴾ للإضراب عن كلامه الحق إذ قد صمت آذانهم عنه، ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ واستأنفوا كلاما جديدا، وحكموا بأنه من اللاعبين أى أنه يهزل بهذا الكلام، ولا يجدر، ووصفوه بوصف مستمر وهو أنه من اللاعبين، ولصغره، حيث إنه كان بالنسبة لهم صغير السن، وقد أكدوا لعبه بالجملة الاسمية، وبـ «أنت»، وبإدخاله فى صفوف الهازلين؛ لأنهم لا يعيرون كلامه التفاتا، ولا يجعلون له غاية.

انتقل بهم خليل الله من مرتبة الاستنكار إلى مرتبة الإيجاب؛ لأن التخلية قبل التحلية، فبين لهم من الله الذى يعبده وتجب عبادته.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

﴿بَلْ﴾ للإضراب والرد، وإبطال عبادتهم وبيان أن التماثيل ليست أربابا، بل الرب واحد وهو رب السموات والأرض الذى قام عليهن، وربهما وهو الحى القيوم ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ الذى خلقهن من عدم وأنشأهن فى هذا الوجود، وعبر بقوله: ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ بدل خلقهن للإشارة إلى أنه شق الأرض من السماء، أو شق الوجود كله

من وحدة كانت تجمعهم، كما قال تعالى من قبل في هذه السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٢٠) [الأنبياء] وقد ذكرنا هذا المعنى في هذه الآية.

وقد أكد - عليه السلام - أن هذا هو ربهم، وليست تلك التماثيل بأنه يعلم ذلك، ويؤكد لهم علمه فقال الخليل عليه السلام: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ هذا تأكيد لعلمه بذلك وهو الثقة فيهم والمرشد الأمين عندهم وأنه لا يكذبهم فيما يقول: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يلاحظ فيها أمور ثلاثة:

أولها - أنه قدم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ ذَلِكُمْ﴾ على متعلقها ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ لأهمية هذه الشهادة.

ثانيها - التعبير بالجمع في الخطاب؛ لأن المخاطبين جمع لا فرد، وكذلك كلما كان اسم الإشارة يخاطب به جمع، وإذا لم تكن كذلك بأن كان الخطاب للواحد لا تحيى الميم، وقد حسب بعض الكتاب أن الأمرين جائران، وذلك غير صحيح، إنما تكون إذا كان المخاطب جمعا، وتكون فيما عدا ذلك من غير الميم؛ لأنه إذا لم يكن جمعا كان المخاطب محمدا ﷺ.

والثالث - أن ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ معناها من العالمين علما يشبه علم المشاهدة والمعاينة فالدليل عنده يثبت اليقين كالمعاينة التي يراها ويشهدها.

اعتزم بعد ذلك إبراهيم أن يثبت لهم بالعيان كالعلم الذي أوتي به بأن يحطم أوثانهم فلا ترد له كيدا، فقال:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

أراد أن يثبت لهم بالفعل أنها لا تضر ولا تنفع غيرها، بل لا تنفع نفسها، ولا تدفع عنها فأراد أن يكيد لها، أى يدبر لها أمرا لو فعل مع غيرها يضرها، فقال مقسما: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أى لأفعلن معهم ما يكون كيدا للأحياء إذا توليتهم مدبرين، أى إذا انصرفوا عنها وقد جعلوها وراء أديبارهم أى فى غيبتهم عنها، أو نقول: الكيد لهؤلاء العابدين، ولكن موضع الكيد هو الأصنام

جعل كأن الكيد لها، وهو للعابدين، والتاء للقسم وكان القسم بالتاء لأنه مظهر أشد توثيقا، واللام لام القسم، وروى أن ذلك كان وهم ذاهبون لعيد لهم، روى ذلك ابن مسعود، وقلنا إن ذكر الأصنام وإرادة العابدين لها للإشارة كما ذكرنا إلى أنها لا تدفع عن نفسها، ولا قدرة لها، ومن يعبدونها، إنما يعبدون غير قادر لا يملك من أمره شيئا، فكيف يملك لغيره أى شيء، والله على كل شيء قدير.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

«الفاء» مبينة نوع الكيد، والجذاذ: الفتات، من جذ بمعنى كسر، والجذاذ بالضم أفصح من الكسر، أى أخذ الفأس وأخذ يضرب، كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونِ مَا تَنْحَتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ [الصفات]، جعلهم إبراهيم عليه السلام فتاتا متكسرا، أى أزال هذه الصور وجعلها شيئا مطروحا تظوه الأقدام ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾، أى كبيرا لهذه الأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لعل الأصنام ترجع إليه، أو لعل الناس يرجعون إليه يسألونه عن بقية الحجارة التى صارت فتاتا متكسرا فما مآلها، وماذا أصابها، ويلاحظ أن الضمير كان يعاد دائما بضمير الجمع العاقل مجازاة لزعمهم الفاسد، وعندما عادوا ورأوا آلهم فتاتا متكسرا هالهم الأمر، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ تعبير للتهكم عليهم والسخرية بآلهم.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

جزعوا وأحسوا بضعف آلهم وضعف عبادتهم لها، وأخذوا يسألون مستفهمين متعجبين هلعين ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ متحسرين على ما أصاب هذه التماثيل من الحطم والتفتيت وجعلها فتاتا متكسرا، وقالوا: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أكدوا ظلمه يان وباللام، ويوصفه بأنه ظالم مؤكد ظلمه، معدود فى عداد الظالمين مترب فى بيتهم راضع من لبان الظلم مترب فيه.

تساءلوا فيما بينهم باحثين متعرفين حتى قالوا:

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

أى تناولوا الأمر فيما بينهم حتى قال قائلون منهم ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وعبر عن إبراهيم بقوله ﴿فَتًى﴾؛ لأنه كان أقرب إلى الشباب والفتوة، و﴿يذكرهم﴾ معناه يذكرهم بالاستنكار بعبادتها، وإنكار أن تكون آلهة، وأن الله هو وحده الرب الذى يعبد فى السموات والأرض؛ لأنه الذى خلقهم، وهو وحده المعبود، وفهم ذلك من «يذكر»، فإنه فى هذا المقام الذى تجرى فيه شبهة إتهامه بتكسيورها، وتحطيمها لابد أن يكون الذكر بغير ما يوافقهم فى عبادتها؛ ولذلك اتجه الاتهام إليه، وأرادوا الإثبات.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾.

كانت غيرتهم على آلهتهم شديدة أصابتهم فعلة إبراهيم بحسرة، ثم بلوعة، ثم بحب النعمة والتحفظ بها، فاشتدت عزيمتهم على إنزال الأذى، فاجتمعت جموعهم وقالوا: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾، اعرضوه على الأعين، لتركب صورته على عقولهم، وفوق أعينهم، وفى ذلك مجاز بتشبيه رؤيتهم المدققة المرددة كرتين بالشئ الذى ركب عليها لكيلا تنساه وتنزل فى قلوبهم الحانقة الغاضبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أى يحضرون ويشاهدوا جريمته فى زعمهم، وينزلوا به من العذاب جزاء المعتدى على فعلة الأئيم فى زعمهم، وهو عين الحق عند الله، جىء به، وشاهدوه، وقالوا له:

﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

سألوا إبراهيم عن نسبة الفعل إليه، ولم يسألوه عن الفعل ومبرراته، بل سألوه عن شخصه الفاعل؛ لأن الفعل رأوه، فلا حاجة إلى السؤال عن وقوعه، لأنهم عاينوه ورأوه، ولا عن مبرراته؛ لأنهم لا يعلمون مبررا يسوغ تحطيمها، وهى المقدسة المعبودة فى زعمهم، إنما كان السؤال عن الفاعل؛ ولذا تقدم ضمير الخطاب، لأن الاستفهام منصب عليه انصبابا، ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، والسؤال



يتضمن استفسهما وملاما واستنكارا للفعل؛ ولذا قرن باسم خليل الله تعالى، ففيه لوم شديد، وفي ذكر الاسم نوع من تهويل فعله.

ولكن إبراهيم كان ثبنا صابرا مطمئنا قار النفس.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

إن إبراهيم هو الذى حطم الأصنام، وجعلها فتاتا متكسرا، ووضع آلة الحطم والكسر فى رأس الكبير منها، فكيف يقول: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، و﴿بَلْ﴾ للإضراب عن قولهم الذى يومئ إلى أنه الفاعل، وإن لم يكن صريحا، قال بعض المؤولين من علماء الكلام: إن الضمير فى ﴿فَعَلَهُ﴾ يعود إلى إبراهيم، وإن كان هو المتكلم، كأنه بإيماء القول جرد من نفسه شخصا آخر يخبر عنه، والمعنى أنه فعل، واستؤنف كلام بعد ذلك هو هذا كبيرهم، ولقد دفع بعض المتكلمين إلى هذا التكلف الذى ينافى السياق أنهم لا يريدون أن ينسبوا كذبة إلى أبى الأنبياء، فالنبي ﷺ معصوم عن الكذب والخيانة والظلم، قبل النبوة وبعدها، ولكن فى الصحيحين أن النبى ﷺ نسب إلى إبراهيم ثلاث كذبات أولاها هذه، والثانية أنه قال: إني سقيم، والثالثة أنه قال عن زوجه سارة: إنها أخته^(١).

ونحن نرى أن قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ليس فيه كذب، بل فيها تهكم عليهم وسخرية بآلتههم ولولا الأثر لقطعنا بهذا، ولكنه احتمال نذكره، ولعل الأثر عده كذبة على أساس مظهر القول لا على أساس المقصد لإبراهيم؛ لأن ظاهر القول أنه كذب.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ. ثُنَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ. قَوْلُهُ: (إِنِّي سَقِيمٌ). وَقَوْلُهُ: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا). وَوَاحِدَةً فِي شَأْنِ سَارَةَ. فَإِنَّهُ قَدَّمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ. وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ. فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمَ أَنَّكَ أَمْرَأَتِي، يَغْلِبَنِي عَلَيْكَ. فَإِنْ سَأَلَكَ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكَ أُخْتِي. فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ. فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرِكَ. متفق عليه؛ رواه مسلم (٦٠٩٨) ١٥/١٠٥، والبخاري: كتاب الأنبياء - قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (٣٢٩٣). وراجع اللؤلؤ والمرجان ١/٧٣٦.

والدليل على أنه سيق للتهكم والسخرية بهم وبآلهتهم قوله بعد ذلك ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ «الفاء» عاطفة على إخبارهم بأن رئيسهم الذى فعل، أو «الفاء» للإفصاح، أى إذا كان الفاعل هو أو غيرهم فاسألوهم، وذلك فيه تهكم واضح عليهم؛ لأنهم لا ينطقون فكيف يعبدون، وفى التهكم أخذ اعتراف منهم بأنهم لا ينطقون، وأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، وهذا برهان قاطع على ضلالهم وبطلان ما يعبدون.

إن الصدمة تدفع إلى التفكير، وإذا كانت صدمة حق وإرشاد وتنبيه، فإنها ربما تهدى، وكذلك كان هؤلاء، فقد صدموا بتكسير الأصنام وجعلها جذازا مما جعلهم يتفكرون ابتداء؛ ولذا قال تعالى عنهم:

﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى تراجعوا الأمر فيما بينهم وتقولوا ما بين مستنكر الفعل أى الكسر والحطم، وما بين مسترشد بالحق وقد لاح نوره، وانتهى بأن قالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مؤكداين أنهم هم الظالمون، أى أنهم الظالمون وخدمهم، وقد تأكد الحكم بـ «إن» وبـ «أنتم»، وبالقصر، أى أنتم الظالمون وحدكم لا أحد غيركم؛ لأن تعريف الطرفين أوجب الحكم بالظلم وأكدته، ولكن ما هذا الظلم؟ يحتمل الظلم فى العبادة أو الظلم فى عدم حراسة آلهتهم، ويرجح أنه الظلم فى العبادة؛ ولذلك أكدوه فى سورة حق، ولكنه كان كغشاء ظاهر عارٍ عن صميم القلوب. ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

لم يلبثوا كثيرا حتى عادوا إلى ضلالهم القديم الثابت فى رؤوسهم، ولبدته السنون، حتى صار جزءا من تفكيرهم، وعبر سبحانه عن ذلك بقوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أى بعد أن جعلتهم الصدمة التى بغتتهم يفكرون ويقدرّون نكسوا فى تفكيرهم، وعبر عن ذلك العلى القدير بقوله عز من قائل: ﴿نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أى قلبت أجسامهم فصارت رؤوسهم فى أسفل وأجسامهم فى أعلى، وهذا كناية عن قلب التفكير من الحق إلى الباطل، والرشاد إلى الفساد، وكما شبه

انقلابهم الفكرى بالانقلاب الجسدى، ليتصور القارئ المتدبر كيف عكس تقديرهم، ونكس تفكيرهم، والتعبير بـ «ثم» هنا مع أن الأمر لم يتجاوز الخطاب، للبعد بين الهداية التى بدرت والضلالة التى سيطرت، فكانت «ثم» مصورة لهذا.

ولما نكسوا على رؤوسهم نكس أيضا قولهم فى المجادلة، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ مؤكداين أنه يعلم أن هؤلاء التماثيل لا تنطق، وليس من شأنها أن تنطق لأنها ليست كائنات حيا فضلا عن أن يكون إنسانا ينطق، وأكدوا أنه يعلم ذلك بـ «اللام» وبـ «قد»، وبالنفى بـ «ما» الدالة على النفى بالماضى، وهى واقعة على المضارع المصور لعدم نطقهم فى الحاضر، فهم لا ينطقون فى الماضى ولا ينطقون فى الحاضر ولا القابل، وإن هذا ما نطقوا به معترفين بعجز هذه الأحجار عن النطق فى كل الأحوال، وأى دليل ينفى ألوهيتهم أكثر من هذا؟! إنها أعجز من الإنسان فكيف يعبدها الإنسان وهى لا تنفع ولا تضر؛ ولذا قال خليل الله:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾.

لفظ من أقوالهم الحجة الدالة على بطلان ألوهية الأصنام، لقد قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أى ليست لهم قدرة على الكلام فلا قدرة على شىء فليس منهم نفع مجلوب، ولا ضرر مدفوع، قال خليل الله عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى مخالفين لله تعالى معاندين له سبحانه ﴿مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أى شىئا من النفع أو الضرر، و﴿شَيْئًا﴾ مفعول مطلق قائم مقام المصدر.

وقوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ «الفاء» تدل على أن ما بعدها مترتب على ما قبلها؛ لأنه ترتب على قولهم ﴿مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أنهم يكونوا يعبدون ما لا يك ضرراً ولا نفعاً، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، وهم به جديرون، فأى عاقل يعبد ما دونه، وهو حى وهذا جماد لا يضر ولا ينفع.

وقد ترتب على هذا أن تأفف منهم، فدل هذا التأفف على النفور منهم عقلا، فهى أحجار ولو كانت تماثيل منحوتة نحتا جميلا، فهى أحجار لا تريد على ذلك،

وعقلا لأنها تعبد ممن هو خير منها خلقا وتكويناً، وكان التأفف أيضاً ممن يعبدونها؛ لأنهم حطوا عقولهم عن مستوى التفكير، بل عن مستوى الإنسانية المدركة التي تقدر الأشياء وتعرف النافع والضار؛ ولذا قال عنه عز من قائل:

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَفِ﴾ جاء في مفردات الراغب: «أصل الأف كل مستقذر من وسخ وقلامه ظفر، وما يجرى مجراهما، ويقال لكل مستخف استقذاراً له»، فمعنى ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ استقذار لكم ولما تعبدون والاستقذار هنا معنوي، لقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...﴾ [٢٨] [التوبة]، وكذا الأمر في أحجارهم فهي مستقذرة يتأفف منها كما تأفف من عابديها، وختم سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أى بمعنى النفى مع التوبيخ وتحريض على التفكير والتعقل، وألا يطرحوا عقولهم وراء ظهورهم.

وإن المعرض عن الحق كلما جاء الدليل أعرض ونأى بجانبه ويزداد لاجابة فى باطله، هذا إبراهيم الخليل عليه السلام قد حطم أصنامهم، ورأوا جذاذا عظيماً، وتبين أن هؤلاء لا ينطقون، وكان حقاً عليهم أن يذعنوا للحق إذ جاءهم، ولكنهم لجوا فى الفتنة والضلال وعتوا عتوا كبيراً، وأرادوا إحراق الناطق بالحق.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

أخذوا الأمر أمر ممانعة ومغالبة، وهو وحده والله معه، والحق بحججه يصرخ به فى أوساطه لا يباليهم؛ لأنه يبالي الله وحده، ولا يبالي أحدا سواه، وهم بتماثيلهم وعددهم وقوتهم المادية الغاشمة وملكهم الغاشم، فلما حطم إبراهيم - بتأييد الله تعالى ومعونته - أصنامهم حسبوا بقانون المغالبة أنه غلب أصنامهم، فلا بد أن ينتصروا لها، ولا بد أن ينصروها كأنها شيء يحس ويغالب ويغلب، وكذلك سولت لهم أنفسهم، وكذلك يدخل الضلال العقول، ويذهب برشدها.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ التحريق المبالغة فى الإحراق وإكثار حطبه، وقد جعلوا ذلك

التحريق في مقابل ما قام به من تكسير وتخطيم لأصنامهم، حتى جعلها جذاذًا فتاتا متكسرا تفرقت أجزاؤها؛ ولذا قالوا: ﴿وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، أى خذوا بثأرهم عن الحطّم الذى صغر به أمرهم، وأضعف به شأنهم، وقال قائلهم المتحدث فى جمعهم عنهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى إن كنتم تريدون الثأر لآلهتكم فأحرقوه، وإلا فالمهانة والعار والشنار، وإن ذلك يدل على أنه كان فى بعضهم تردد أو عطف، أو عدم إيمان حازم بما هم فيه من الضلال.

ولكن إبراهيم المؤمن بالله وبالحق لم يعرهم التفاتا، ولم يفزع من تهديدهم؛ لأنه يعلم أن الحق أبقى، ومن لا يفتدى الحق بنفسه لا يستحقه، فلا بد فيه من فداء وقد عرف أبو الأنبياء من بعد بالفداء والبلاء فقد قبل أن يذبح ابنه لرؤيا صادقة رآها، حتى فداه الله بذبح عظيم.

ألقوا بإبراهيم خليل الله فى النار، وهو الصابر الراضى بحكم الله، ألقوه فى أتون النيران، وقد بُنى لها بناء تضطرم فيه، ولكن أمر الله تعالى كان فوق أمرهم وقدرته قاهرة عليهم، فآلقى إبراهيم فى النار وتلقفته فى ساعتها رحمة رب العالمين: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أى كونى بردا أى باردة ليست متوهجة وهو آمن فى سلام لا يجزع من رؤيتها ولا يفزع من لهبها.

ومساق الكلام لا يدل على أنها أطفئت بريح شديدة، ولا مطر انهمر عليها، ولكنها المعجزة أنها بقيت متوهجة ولم تحرقه، فالله تعالى أزال عنها خاصة الحرق بالنسبة لإبراهيم، ومنعت من أن يصل أذاها إليه، كأن بجسمه موانع مانعة وحائلا يحول بينه وبينها.

نجا إبراهيم عليه السلام بهذه المعجزة الباهرة، وكان فيها معنى التحدى لأنهم أرادوا الغلب والانتصار لآلهتهم فلم يؤذ ولا هابها، وكان ذلك إعجازا لهم، وكان حقا عليهم من قبل ومن بعد أن يدعنوا، ولكن غلبت عليهم شقوتهم.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾.

الكيد هنا هو الإضرار الشديد الذى يكون نتيجة الكيد والتدبير الخبيث، فاطلقوا السبب وأرادوا المسبب وهو الضرر، وكيدهم كان فى مغالبتهم له ومجادلتهم، فكانوا هم الخاسرين؛ ولذا قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ فى هذه المغالبة، والأخسرون جمع أخسر، والمراد من بلغوا أقصى درجات الخسران.

خبر النبيين من بعد إبراهيم ومعه

وَنَجَّيْنَاهُ

وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْطَاءُ أَيْتَنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

كان لوط ذا قرابة بإبراهيم عليه السلام؛ ولذا اقترن به فى الذكر، وإنه لما جاء الملائكة مبشرين إبراهيم وامرأته بالولد، ذهبوا من عنده إلى لوط فدكوا قريته دكا لأنها كانت تعمل الخبائث، ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ ولذا قرن نجاة إبراهيم عليه السلام بنجاته، وأنه أخذه معه إلى الأرض المباركة، وقال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

أى نجينا إبراهيم من النار، و لوطا من الدمار، أى نجاهما وأخذهما إلى الأرض المباركة وهنا أمران نذكرهما:

أولهما - التكلم من الله تعالى العلى الأعلى بضمير المتكلم المعظم، لبيان أنها كبيرة تليق بكبر المتكلم، فإخراج من النار أو جعلها عليه باردة وجعلها أمنا لا فزع منها، وإهلاك قرية الفسق بجعل عاليها سافلها، وإرسال عليها حجارة من سجيل منضود.

الأمر الثانى - ما الأرض التى باركها، وانتهى خليل الله وذو قرابته لوط إليها، روى عن أبى بن كعب أنها الشام؛ لأنه كان فيها النبيون من بعده فهى مباركة، وروى ابن عباس ترجمان القرآن وغيره، أنها مكة المكرمة؛ لأن إبراهيم هو الذى رفع بناءها وإسماعيل، ولأن بها أول بيت وضع للناس، ولأنها صارت حرما آمنا، ولأنها كانت مباركة بدعاء إبراهيم عليه السلام، ولأن الله وصف بيتها بأنه مبارك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الجار والمجرور متعلق بـ «نجيناه»، أى حفظناهما إلى أن وصلا إلى الأرض المباركة، وهذا دليل على أنهما فى هجرتهم إلى الأرض المباركة لاقى عنف الصحراء مومة مومة^(١) حتى وصلا سالمين، وهو يدل على أن لوطا قد وصل إلى البيت الحرام وإن لم يكن له ذكر فيه، والبركة ثبوت الخير واستمراره، وقد كانت بركة مكة للعالمين، لكل الناس كانت للعرب حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء، وكانت كذلك للناس أجمعين ففى بطحائها وكلد وظهر خير الخلق محمد ﷺ.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك النبوة فى ذرية إبراهيم، وذكر بعض الأنبياء منهم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

أشار سبحانه إلى هبة الله لإبراهيم ولده إسماعيل، بالإشارة إلى نجاته إلى الأرض المباركة مكة وما حوت، وما حولها من منى وعرفات والمشعر الحرام، وهنا

(١) المومة: المفازة الواسعة الملاء، وتكرارها تأكيد لفظى. وقيل هى الفلاة التى لا ماء بها ولا أنيس. قال: وهى جماع أسماء الفلوات. لسان العرب - موم.

يصرح بأنه وهب لإبراهيم إسحاق، ومن ورائه يعقوب، وجعلهما معا مع أن إسحق أب ويعقوب ابنه، لأنهما كانا نبين، وأن نبوتهما هبة الله، وتوالت النبوة والدعوة إلى هدم الأوثان ابنا عن أب عن جد؛ ليقتلعوا عبادة الأوثان من الرءوس التي استمكنت فيها، والنافلة ولد الولد، و﴿نَافِلَةٌ﴾ وصف ليعقوب لأنه ولد ولده، أى وهبناه لك هبة رائدة فوق الولد؛ لأن إبراهيم دعا ربه، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات].

وهكذا نرى أن الله تعالى أراد لإبراهيم أن تتوارث فيه الدعوة إلى هدم الأوثان، لتذهب روعتها الكاذبة من نفوس الناس، ومحمد ﷺ من بعده قاوم الوثنية وحده، ولم يكن أحد من ذريته من قاومها، ولكن كان من أصحابه والتابعين من قاومها، حتى روى أن النبي ﷺ قال: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»^(١) وقال تعالى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ التنوين قائم مقام المضاف إليه، أى كل واحد من الجد وابنه وحفيده جعلناه من الصالحين، أى المستقيمين فى طريقهم إلى الحق، وذكر أنهم صالحون مع أنهم من المصلحين فى طريق الحق والهداية إليه، وذلك لأن الصالح فى ذات الحق لا بد أن يكون مصلحا؛ لأنه لا يتم الصلاح إلا إذا جعلنا مصلحا هاديا مرشدا داعيا إلى الحق، وإلى صراط مستقيم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ الضمير يعود إلى إسحاق ويعقوب وأعيد الضمير بلفظ الجمع لأنه يجمع كل الذرية بعضهم بصريح اللفظ والآخر بطريق الإشارة والتضمين، وقد جاء الصريح فى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [١٣٢] أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون [١٣٣] تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٣٤] [البقرة].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى وجعلنا إبراهيم وذريته أئمة أى رؤساء يوجهون ويرشدون، ويقتدى بهم، ويكونون قوة للخير والهداية ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أى يدعون بدعاية الله، وإضافة الهداية إلى أمر الله للإشارة إلى طاعتهم أولا، ولبيان صواب ما يدعون إليه وأنه الحق لا ريب فيه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أى ألهمنا نفوسهم وقلوبهم فعل الخيرات وهديناهم إليها، بما أوحينا به لرسلم الذين جاءوا رسولا بعد رسول، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ...﴾ ﴿٤٤﴾ [المؤمنون] أى رسولا بعد رسول، وكل أولئك فى ذرية إبراهيم عليه السلام والخيرات جمع خير، وهو كل ما فيه نفع للناس، ويقصد به فعله لسنعه للناس، ولإرضاء الله تعالى ثم قال سبحانه: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أى أداءها على وجه أكمل من خضوع وخشوع، واستحضار لذات الله كأنهم يرونه، وإذا لم يروه يحسون بأنهم فى حضرته يرجون رحمته ويخافون عذابه ويطلبون محبته ورضوانه، ﴿وَأَيَّاءَ الزُّكَاةِ﴾ ليكون المجتمع كله متعاونا بارا يبر بعضه بعضا ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى كانوا فى كل أحوالهم وأعمالهم عابدين لله تعالى، وكل عمل فيه عبادة إذا قصد بإتقانه إرضاء الله وحده ومحبته سبحانه، كما قال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشئ لا يحبه إلا لله»^(١).

وفى قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ تقديم الجار والمجرور، وهذا يفيد الاختصاص أى لنا وحدنا لا يشركون بى شيئا، والجملة تدل على استمرار العبادة أولا؛ لوجود «كان» الدالة على الاستمرار، وثانيا الوصف ﴿عَابِدِينَ﴾ أى مستمرين حتى تصير العبادة وصفا لهم فهم فى عبادة مستمرة آتاء الليل وأطراف النهار.

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى إشارات بينة إلى إبراهيم وبنيه، ويعقوب وذريته عاد إلى لوط بعد نجاته فقال:

﴿وَلَوْ طَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾.

(١) سبق تخريج ما فى معناه من أحاديث.

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: واذكر لوطا، وخص لوطا بالذكر، ولم يذكر قوم لوط لحقارتهم ومهانتهم وسوء أفعالهم، وخبيثة نفوسهم حتى انحطوا عن مرتبة الحيوانية في شذوذ الفطرة، وفي ذكر لوط منفردا عن قومه تنويه بشأنه، ورفع له لذكوره، وبيان أنه لا يضر النبي ﷺ أن يكون قومه مفسدين غير مهدين، فإنه جاء لهداية الضال وإصلاح الفاسد، فإن لم يصلحوا دمر الله عليهم وأنشأ قوما آخرين.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ الحكم هنا الحكمة والحلم والصبر على معاشره المفسدين، وإلا فأى حكمة أوتيها ذلك النبي الكريم الذى استطاع بها أن يعاشر أولئك الشواذ من الإنسانية يدعوهم ويأخذهم بالهداية والإرشاد والرفق فى القول ويستمر فى رعايتهم هاديا مرشدا من غير سأم ولا ملال، حتى إذا جاءه ملائكة الله يبدو سوء نفوسهم ويظهر حتى يداريهم ليسكتوا فلا يسكتون. ﴿وَعَلِمًا﴾ وهو علم النبوة وبعثه، وما أجدت دعوته فحقت عليهم كلمة العقاب وحقت للوط النجاة، كما تنجو الفضيلة من ردغة^(١) الرذيلة على أقبح صورها، ولذا قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ أى لحينه سالما طاهرا مطهرا ﴿مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ أى المدينة العظيمة، أو المدائن العظيمة، وذكرت بالمفرد لإرادة جنس هذه القرية الموصوفة بذلك الوصف المشثوم البغيض، ﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾، وهى جمع خبيثة، ولا يمكن أن توصف إلا بهذا الوصف أو ما يشبهه، ولقد قال تعالى فيها: ﴿... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف] ووصفت القرية بأنها كانت تأتى الخبائث مع أن الذى يفعلها آحادها، ولكن لأنها عمت وطمت كأنما صارت الأرض ذاتها تفعلها، ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أعيد الضمير على أهل القرية لأنهم الذين فعلوا ما فعلوا حتى صاروا عار هذه القرى الظالمة، وهذه الجملة السامية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ فى مقام سبب ما فعلوا ويفعلون من خبائث. و«السوء» ما يسوء ويؤذى النفس والطباع السليمة، ﴿فَاسِقِينَ﴾ شاذين خارجين على الفطرة الإنسانية إذ انهووا إلى ما دون الحيوان.

(١) الرَّدْغَةُ، مُحَرَّكَةٌ، وَتُسَكَّنُ: الْمَاءُ، وَالطَّيْنُ، وَالْوَحْلُ الشَّدِيدُ. القاموس المحيط - ردغ.

وأكد سبحانه وصفهم بالسوء والفسق أولا، بـ ﴿كَانُوا﴾ أى استمروا عليه، وإضافتهم إلى السوء، كأنما هم أهل له لا يخرجون عن حيّزه، ولا يخرج عنهم ثانيا، والتعبير باسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَاسْقِينِ﴾ وبالجمله الاسمية وتصديرها بـ «إن»، والله عليم بخلقه وشئونه.

نحى الله تعالى لوطا من هذه الدولة الظالمة فقال سبحانه:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

رحمة الله التى شرفها بالنسبة إليه سبحانه، هى هجرته منهم، ونجاته من الهلاك الذى كتب لهم وإيتاؤه حظه فى الآخرين، والتجاؤه له سبحانه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ...﴾ (٢٦) [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا بيان لاستحقاقه رحمته سبحانه، وقد شرفه سبحانه بأن وصفه من بأنه من الصالحين.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ
نَفَشْتَ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّاءِ آلِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا
مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ

إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾

هذا وصل للكلام السابق من أخبار إبراهيم ولوط والأنبياء من ذرية إبراهيم عليهم السلام، وفي قصصهم عبرة لأولى الألباب، وتسرية عن النبي ﷺ عن سوء ما يرتكبه معه المشركون من شطط في القول، وإسراف في استهزائهم، والله مستهزئ بهم، قوله: ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر، أى اذكر نوحا وإيذاء قومه، وقد تشابهت أقوالهم مع أقوال المشركين للنبي ﷺ، لتشابه القلوب والمقاومة وطرائقها، فالناس أولاد الناس، ﴿إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ نادى ربه مستغيثا بالله وذلك فى قوله: ﴿... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ﴿٢٧﴾ [نوح] دعا نوح ربه ذلك الدعاء، أو ناداه ذلك النداء فأجابه سبحانه فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، «الفاء» للترتيب والتعقيب، والمراد بالتعقيب تأكيد الإجابة، وقد قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ الاستجابة شدة الإجابة؛ لأن السين والتاء للطلب، أى أن الطلب طلب الإجابة وأرادها له؛ ولذا كانت التعدية بـ «اللام» مع أن «أجاب» تتعدى بنفسها، ولكن كانت «اللام» لشدة الإجابة؛ لأنها بطلب الله، وتشدده فى الطلب لأجل نوح عليه السلام، وأنه إذ استجاب له سبحانه ونجاه وأهله من الكرب العظيم، وقال سبحانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ حيث أرادوا إيذاءهم، وحيث كان كرب الطوفان؛ إذ أحاط بهم الماء من كل جانب، وركب فى السفينة من أراد الله إنجاءه.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

و(نصرنا) معناها انتصرنا له من القوم الذين كذبوا، فـ «نصرناه» متضمنة انتصرنا؛ لأن «انتصر» تتعدى بـ «من»، وكانت له محذوف دلت عليها ﴿لَهُ﴾ فى

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ والمعنى انتصفنا له منهم إذ ظلّموه بالعناد والسخرية والتحدى والإنكار المستمر، والمجادلة بالباطل حتى يش من إيمانهم، وقال الله تعالى له: ﴿... لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود] وقد بين سبحانه استحقاقهم لما نزل بهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا بيان لاستحقاقهم ذلك الإغراق وإزالتهم من الوجود، وألا يبقى من ذريتهم أحد إذ لا يلدون إلا فاجرا كفارا، والسوء: هو ما يسوء الناس ويؤذيهم، وأضيف السوء إليهم؛ لأنهم لا يصدر عنهم إلا ما يسوء، وبسبب ذلك أغرقهم الله أجمعين، ولم يبق إلا من حملته السفينة المباركة.

قصص أنبياء من أولاد يعقوب كانوا بعد موسى

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

شَاهِدِينَ.

«الواو» وصلة الأخبار فى قصص النبيين، و(داود) منصوب بفعل محذوف تقديره «اذكر»، والمخاطب النبى ﷺ تسرية له فى الشدائد والكروب التى كان فيها وهى تسرية فيها أخبار جدية تبين أحكاما لنظام الحق وإدراكه، فهى ليست تسرية بل هو، بل هى أخبار فيها طرافة، وفيها تنبيه لتنظيم العدالة والتفكير.

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾، «إِذْ» الأولى تتعلق بالفعل

المحذوف «اذكر»، و«إِذْ» الثانية متعلقة بـ ﴿يَحْكُمَانِ﴾، «الْحَرْثِ»: الأرض المزروعة، سميت بمصدر حرث يحرث وهو قلب الأرض، ويطلق «الحرث» على الأرض المحروثة وعلى الزرع نفسه، و«نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ» أى انتشرت فيه الغنم فأتلفته، وأصبح غير ذى قيمة، وقد تحاكم الخصمان صاحب الحرث وصاحب الغنم إلى داود عليه السلام.

وجاءت الروايات بأن داود عليه السلام حكم بأن يأخذ صاحب الحرث الغنم في مقابل ما أثلفت الغنم من الحرث، وكانت القيمتان متقاربتين.

ولكن سليمان - عليه السلام - رأى أن خيرا من هذا أن يأخذ صاحب الحرث الغنم تدر عليه لبنها ويستولى على منافعها، ويأخذ الآخر الأرض يحرقها، وكان أجرة الأرض تكون هي منافع الغنم وردها.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنه هو الذى أفهم سليمان هذا الحكم فقال عز من قائل:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

دل هذا القول على أن حكم سليمان كان بإلهام من الله، ويومئ إلى أنه كان الحق، وإن لم يكن حكم داود كان باطلا، فقد بذل فيه سبيل الاجتهاد، وكان مقاربا، ولم يكن مناقضا للحق، والأحكام تبنى فى الدنيا على المقاربة، ولو كان القاضى نبيا جعله الله تعالى خليفة فى الأرض ما دام الحكم لا شطط فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا﴾ أما العلم فعلم النبوة، وأما الحكم فقالوا إن الحكمة والقدرة على فهم الأمور ودراستها من كل جوانبها، ويصح أن نقول: إن المراد بالحكم أهلية الفصل بين الخصوم، وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه كان شاهدا مقرا لحكمهم.

ويلاحظ هنا أن الحكم الذى أقره الله تعالى أو كان عليه شاهدا، وهو حكم داود عليه السلام وحكم ابنه سليمان هو جزاء مشتق من ذات الاعتداء ولو بالتسبب، فإن صاحب الغنم تركها من غير أن يراقبها ويحفظها فنفتت فى الحرث، فكان الجزاء من ذات موضع الاعتداء، فقدرة داود بأن تؤخذ الغنم فى نظير الزرع لأن قيمتها كانت تساوى الزرع، وبذلك كان الجزاء من جنس الاعتداء وهو مقارب، وأفهم الله تعالى سليمان أن يجعل الاعتداء جزاءه ماثلا ولو فى الظاهر لموضع الاعتداء فكان أن يترك صاحب الحرث لصاحب الغنم يحرقها ويزرعها، حتى إذا

علا واستغلظ أو صار كالأول سلمه ورد الغنم إلى صاحبها وكان صاحب الحرث قد أخذ عوض التأخير بدر الغنم ومنافعها.

وفي هذا الجزاء مقاربة للعدالة والمساواة وفيه تعاون، وفيها فائدتان:

الأولى: أن يكون فضل تعاون، والثانية: أنه مساواة أو مقاربة من المساواة. وقد أثبت علماء البحث في العصر الحاضر أن أقرب الجزاء إلى تهذيب النفوس أن يكون العقاب من جنس الاعتداء؛ لأنه يجعل الجاني أو المهمل يحس بالجزاء وهو يقع في الجريمة أو الخطأ، فيكون ذلك أدعى إلى الامتناع أو التوقي.

وإن قصة هذا الحكم إرشاد للحكام إلى أقرب الطرق إلى تحقيق العدالة في هذه الدنيا، وقال تعالى فيما مكن الله به لداود، فقال عز من قائل:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ كرم الله تعالى داود بأمرين: أولهما: أنه سخر له الجبال تتحرك بإرادته وتسكن، وتسبح بأمره عليه السلام، ولسنا نستغرب شيئاً من ذلك لأننا نؤمن بالقوة الغيبية، ييشها الله، ولا يمارى فيها إلا الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وظواهرها، وكذلك سخر الله تعالى له الطير، وروى أن الجبال كانت تجاوبه في تسيحه، وكذلك الطير، ولا غرابة فقد قال الله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ [الجمعة] وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ...﴾ [الرعد] وقال الله في داود: ﴿... يَا جِبَالَ أُوبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ...﴾ [سبأ]، أي أن هذه إرادة الله، ولا مشاحة^(١) له فيما يريد، وقال تعالى:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾

﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ التعليم هنا الإلهام والتوفيق والمرانة على عمل ما، وهو بتوفيق الله تعالى، وينسب إليه لأنه لا شيء إلا بإرادته وتوفيقه، و«الصناعة» هي الصناعة

(١) والمُشَاحَةُ: الضَّعْفُ. وَتَشَاحًا عَلَى الْأَمْرِ: لَا يُرِيدَانِ أَنْ يَفُوتَهُمَا، وَتَشَاحَ الْقَوْمُ فِي الْأَمْرِ: شَحَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَذَرَ قُوَّتِهِ.

والتفنن فيها وإجادتها، وهى من خواص الإنسان، و«اللبوس»: ما يلبس، وهو هنا الدرع الذى تتقى به ضربات السيوف، والرماح والسهام فلا تنفذ فيه من هذه الأسلحة إلى الجسم، وقد ألان تعالى الحديد لداود عليه السلام ليتمكن من أداء الصنعة على الوجه الأكمل، وقال تعالى: ﴿لَتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ البأس: هو الشدة، وهو هنا الحرب التى يشعلها الإنسان فى هذه الأرض سواء أكانت هجوما معتديا آثما، أم دفاعا عادلا، وتحصنكم مصدرها إحصان وهو المنع والحماية، وهذه نعمة الله تعالى، فإنه كما أوجد للإنسان السيف، أوجد له الدرع فيكون الدفع للاعتداء، وإضافة البأس إلى الناس فيه معنى بلاغى رائع؛ إذ إنهم هم الذين يوقعون أنفسهم فى الشدائد، والله يدبر لهم أمر ردها ودفعها.

وإن ذلك يوجب شكر الله تعالى، وقد دعا سبحانه إلى ذلك فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى بسبب تلك النعم التى أسداها لكم من هذا التدبير المحكم بأن هيا لكم الدواء عند الداء، والدفع عند احتمال الاعتداء. والاستفهام للحض على الشكر؛ ولذا قال علماء البلاغة إن هذا التعبير أدلّ تعبير على الطلب، والله تعالى المنعم ذو الجلال والإكرام أن نشكر ولكننا نكفر.

وأخبر تعالى عن نبي الله داود الذى آتاه الحكم والخلافة فى الأرض أنه قد اتخذ لنفسه صناعة يأكل منها، وأفهمه الله تعالى هذه الصناعة، وما كان أكل الرجل من عمل يده عيبا، إنما العيب أن يكون كلاً على الناس وهو القادر على العمل، ولقد جاء فى تفسير القرطبى ما نصه: هذه الآية فى اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، فالسبب سنة الله فى خلقه، وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حرثا، ونوح نجارا، ولقمان خياطا، وطالوت دباغا، وقيل سقاء، فبالصناعة يكف الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها الضرر، وفى الحديث: «إن الله يحب المؤمن الضعيف المتعفف، ويبغض السائل الملحف»^(١).

(١) الملحف: الحف السائل: ألح. رواه الطبراني عن ابن مسعود عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها. كثر العمال (٤٣٤٨٥) / ١ / ٣٢٥١.

وقد ذكر سبحانه ما مكن الله لسليمان بعد داود فقال:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾.

﴿الرِّيحَ﴾ منصوبة بفعل العطف، أى: وسخرنا لسليمان الريح، كما سخرنا لداود الجبال وقلنا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد، وكذلك سخرنا لسليمان الريح أى جعلناها له ذلولا، فأبوه كانت رواسى الجبال مسخرة له، وهو كانت عواصف الرياح مسخرة له، ومذلة له، والريح العاصفة هى الريح الشديدة فى هبوبها، بحيث تقوض القائم، وقد وصف الله الريح بهذا الوصف للإشارة إلى أنها فى قسوة هبوبها وعصفها لا تذر شيئا أتت عليه إلا أزالته، زلها الله تعالى لسليمان، فكانت تجرى بأمره رخاء، وقال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ مع عنفها تهدأ له، وتسرى بأمره ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وهى هنا مدينة «أورشليم» إذ استردها داود من أيدي التتر^(١)، وكان الحاكم فيها وجاء من بعده سليمان عليهما السلام، وإن ذلك كله بإرادة الله تعالى وعلمه؛ ولذا قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ وقدم الجار والمجرور للاهتمام بعموم علمه سبحانه، والجملة السامية تدل على استمرار علمه سبحانه، وأنه لا يغيب عنه شيء فى السماء ولا فى الأرض، ودل على الاستمرار الوصف ﴿عَالِمِينَ﴾ وتقديم الجار والمجرور، الجملة الاسمية المؤكدة، وكان الدالة على الاستمرار.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾.

«الواو» عاطفة والمعنى وسخرنا له من الشياطين ﴿مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾، أى أن الله تعالى كما سخر الرياح العاصفة فتجربى بأمره رخاء حيث أصاب، كذلك سخر له من الشياطين من يغوصون له، أى يغوصون فى أعماق البحر ليستخرجوا منها اللآلئ والأحجار الكريمة والعنبر وغيرها من منافع الماء، وقد أعطى الله سليمان ملك اليمن التى تمتلئ بحارها بالآلئ وثروات البحر، فكانت الشياطين تغوص فيها، وتخرجها له، وسيجىء ذلك فى سورة النمل إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أى يغوصون لأجله وبأمره ومنافع غوصهم له، ﴿وَيَعْمَلُونَ

(١) التتر هم التار برجاء الرجوع إلى صفحة ٤٩١٧ من هذا التفسير.

عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ، أي غير ذلك، وليس المعنى أقل من ذلك بل كلا العاملين فيه خير؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (٣٧) وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ...﴾ (١٣) [سبأ].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي كنا لهم حافظين مما في جوف البحر، ومؤيدين لأعمالهم ونحب أن نقول: إن الشياطين هنا لا نعتقد أنهم إخوان إبليس أو من ذريته؛ لأن إبليس وذريته متمردون على ربهم فكيف لا يتمردون على سليمان، إنما هم من خلق طائعين، وكانوا مؤيدين من الله، وهو حافظ لهم.

ولو اعتقد بعض الناس أنهم من شياطين الإنس الذين كانوا من شطار الأرض سخرهم الله لسليمان وهو بعيد، والله أعلم.

أنبياء من أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم

وَأَيُّوبَ إِذْ

نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٧﴾

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ

وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٨﴾

وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ

﴿٨٩﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ

﴿٩٠﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ

مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾ وَذَكَرْنَا

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

من أخبار النبيين السابقين في هذه السورة كانت أخبار أولى العزم من الرسل، وجهادهم الشرك، وبيان لمجاهدتهم الكفر، وتعرضهم لأذى الشرك وصبرهم، وكيف صبروا حتى أدوا رسالات ربهم، وذلك تسرية للنبي ﷺ، وتحريض له على تبليغ الرسالة، وبيان أنه سبحانه ناصره كما نصرهم ولن يضيعه الله تعالى بخذلان أبدا.

وقد كان النبي ﷺ يصاب بشدائد من شأنها أن تلقى بالرجل في غم وهم كالذي أصابه يوم ذهب إلى الطائف بثقيف، فأغروا به صبيانهم وشبابهم؛ ولذا ساق الله تعالى أخبار من أصيبوا بضر أو بغم، وكيف أنقذهم الله تعالى، ورفع عنهم.

وقد ابتداء سبحانه من أخبار هؤلاء يخبر أيوب عليه السلام، فقال تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

﴿أَيُّوبَ﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره «اذكر»، والمخاطب النبي محمد ﷺ، وتقديره اذكر يا محمد وتذكر أيوب، و﴿الضرُّ﴾ هو ما يصيب الإنسان في جسمه أو نفسه وأحبائه، وقد أصيب أيوب عليه السلام في جسمه فأصيب بمرض عضال، قيل إنه الجذام، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره فقد جاء فيه: «ذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرون ومنازل مرضية، فابتلى في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلى في جسده، يقال

بالجذام فى كل بدنه؛ ولم يبق منه شىء سليم سوى قلبه ولسان يذكر بهما الله تعالى، حتى عافه الجليس، وانفرد فى ناحية فى البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجه كانت تقوم بأمره، ويقال إنها احتاجت فصارت تخدم الناس لأجله».

ومع هذا المرض الممض المنقر، ومع الانفراد كان صابرا، كما قال الله تعالى: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ٤٤﴾ [ص] ولم يشك لأحد غير الله، والشكوى لله لا تنافى الصبر، وإنما الذى ينافيه الأتین والشكوى للناس، قال لربه: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾، هذه الجملة الهادية، أى أصاب نفسى وحسّى، قال ذلك طالبا رفع الضرر، فقال: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لم يطلب من الله بصريح اللفظ، ولكنه ذكر حاله وكفى، وهو بها عليم، وإن ذكر الرحمة ينبئ عن الطلب، وهو أن يرحمه سبحانه، ولكن لم تتعين الرحمة كاشفة عن الضرر، فقد يكون الضرر من الرحمة، ففى حديث النبى ﷺ: «يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابه زيد فى بلائه»^(١) وصف الله تعالى بأنه ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وأفعل التفضيل ليس على بابه لأنه لا رحم يقارب رحمته، وإنما يفسر على أنه سبحانه وتعالى بلغ فى رحمته أعلى درجاتها.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَّرْنَا لِلْعَابِدِينَ﴾.

«الفاء» للترتيب والتعقيب، أى كان الكشف فور الضراعة له سبحانه وتعالى، وذكر رحمته، وكشف الضر: إزالته، وخصوصا إذا كان الكشف إزالة هذا المرض الذى شوه جسمه، ونفر الناس منه، ولم يكن كشف إلا ياردة، ولا يتعذر شىء إزاء إرادة الله، ولو كان جذاما لا يشفى فى عادة الناس وطبهم، ولقد قال تعالى فى بيان كيف كشفه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ٤١﴾ أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ٤٢ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة

مَنَا وَذَكَرْنِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ [ص] إن أخبار أيوب عليه السلام تفيد أن كل الناس نفروا منه حتى أهله، وذلك أشد على النفس من وقع الحسام المهند، فكان ألم مرضه مع ألم فراق الأحبة؛ ولذا قال سبحانه في منته على أيوب ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ أى أعطيناه أهله الذين نفروا وكان عودتهم عطاء من الله غير مجذوذ، وجاء معهم مثلهم من محبين وموادين، أى أقبل عليه الناس بعد طول نفور، وذلك ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾، وأضافها سبحانه إلى ذاته العلية، فهي رحمة تليق بذاته الكريمة وهو الرحمن الرحيم ﴿وَذَكَرْنِي لِلْعَابِدِينَ﴾ أى تذكيرا دائما للعابدين، بأن الله معهم دائما وإنه معهم لا يتركهم أبدا، يثيبهم فى البلاء، ويرفع عنهم، «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان ذلك خيرا، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك خيرا»^(١)، كما روى الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، فهذه تذكرة لا يدركها إلا العابدون الذين ذاقوا حلاوة العبادة ولو فى أشد الضرر.

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

هؤلاء أنبياء ثلاثة، أو نبيان ورجل صالح وهو «ذو الكفل»، وكل هؤلاء امتازوا بالصبر، ﴿وَأِسْمَاعِيلَ﴾ مفعول لفعل محذوف، وهو «اذكر»، والخطاب للنبي محمد ﷺ، فأخبار الصابرين تلهم بالصبر والافتداء بهم، وأولهم إسماعيل كان عبدا صبوراً عندما أراد أن يذبحه أبوه لرؤيا رآها، قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات] فكان الصبر من الأب والابن عظيما، فالصبر من الأب بأن يرضى بذبح ولده البكر، وقد وهبه له ربه على الكبر هو وأخاه إسحق.

﴿وَادْرِيسَ﴾، ويقولون إنه أكبر من نوح عليهما السلام، وقد ذكر الله تعالى أنه من الصابرين؛ ولم يذكر موضع أو دليل صبره.

(١) رواء أحمد ومسلم، وقد سبق تخريجه.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾، فهم ابن كثير أنه نبي من وجوده في أخبار الأنبياء، وقال بعض المفسرين السلفيين إنه كان رجلاً صالحاً، ومهما يكن من أمره فهو من الصابرين الذين جاهدوا للحق، وجاهدوا أنفسهم وقمعوها عن شهواتها، فإن ذلك يقتضى أثر الصبر، ولذا قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى كل واحد من هؤلاء من الصابرين.

وقد قال فى جزاء صبرهم:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

رحمة الله تعالى تتناول أولاً: محبته ورضاه فهى رحمة لا ينعم بها إلا الأبرار المصطفون الأخيار، وثانياً: اطمئنان نفوسهم ورضاهم عن أفعالهم وذكرهم لربهم، ﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٧٨) [الرعد] وثالثاً: جنات الخلد التى لهم فيها نعيم مقيم، وقد ذكر سبحانه السبب فى ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين استقامت قلوبهم وصلحت أعمالهم، وطابت أقوالهم، وكانوا نافعين قد استنارت قلوبهم، والله هو الهادى إلى الرشاد.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨).

﴿وَذَا النُّونِ﴾، معطوف على ما قبلها، وهى مفعول لفعل محذوف خوطب به النبى ﷺ تقديره: «اذكر»، أى اذكر قصة ذى النون الذى غضب، وليس من شأن النبى الهادى أن يغضب، وقد عاقبه الله تعالى بضيق لتبرمه بقومه وغضبه عليهم لكفرهم، ولم يكن رفيقاً بهم يأخذهم بالهودة، وذو النون هو يونس صاحب الحوت، والحوت اسمه النون، ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ «إذ» متعلق بحال ذى النون، واذكر يونس فى وقت ذهابه مغاضباً، أى متبادلاً الغضب مع قومه لأجل الله تعالى؛ لأنه دعاهم إلى الله وإلى التوحيد فلم يستجيبوا له، فغاضبهم، وذهب عنهم معرضاً، وذلك ليس شأن الداعى، إن المدعوين جهلاء، والداعى هو النبى فلا

يجوز أن يخاصمهم ويغاضبهم وإلا زادهم نفورا، فالرفق يدنى، والغضب يبعد، وهو بهذه المغاضبة خالف ربه، وقد حسب أن النبوة أمر هين لين، بل أشق أعمال البشر.

وقال تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هنا تأويلان لمعنى ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أولهما: أن نقدر فى معنى فقدر عليه رزقه، أى نضيق عليه، فالمعنى: فظن أنه لن نضيق عليه، وحسب أن النبوة ليس فيها ضيق، وقد عاقبه الله تعالى بأن التقمه الحوت ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أى ظلمات جوف الحوت ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ أى تنزهت ذاتك، وفى هذا القول معنى الضراعة الكاملة والالتجاء إلى الله وطلب نصرته، وإنقاذه والاستغاثة به؛ ولذا قال بعد: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾.

التأويل الثانى: أن معنى قوله تعالى: ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أى لا نقدر اليسر والفرج، وأحسب أن التأويل الأول أكثر ملاءمة للآية الكريمة ولمقامه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، أى أجبناه، والسين والتاء للطلب، وهما يدلان على شدة الإجابة وشدة الرفق، وكانت التعدية بـ «اللام»، مع أن «أجاب» تتعدى بنفسها؛ للدلالة على كمال العناية به وترادف النعم عليه، وقال تعالى: ﴿وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ الغم هو الألم الذى يصم النفس ويصيبها بغمة شديدة وهمّ واصب، وذلك من أثر المغاضبة التى غاضب بها قومه، وخرج - عليه السلام - عن سنة النبيين الهادين المرشدين، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى كهذه النتيجة التى نجيها بها صاحب الحوت ننجى المؤمنين، فلا ندع مؤمنا فى غم، بل نفرج عنه.

وهنا أمران بيانان نشير إليهما:

أولهما - أنه حذف من القول ما أنبأ به سياق الكلام، فلم يذكر التقام الحوت له، ولكن أشير إلى ندائه فى ظلمات جوف الحوت ودل على التقامه والشدة الشديدة التى كان فيها يونس، وأنه كان فى ظلمات لا يعرف لها نهاية ولا غاية، وذلك من الإيجاز بالحذف الحكيم.

الأمر الثاني - فى العطف بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، وإضافة النجاة والاستجابة إليه سبحانه للدلالة على أنهما مؤكدان برحمته سبحانه وفضله.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ٩٠﴾.

﴿زَكَرِيَّا﴾ معطوف على ما سبق من أخبار النبيين، وسبقت قصة زكريا عليه السلام للدلالة على أن الله تعالى لا يتقيد فى خلقه وإرادته بالأسباب العادية ومسبباتها، ففى الأسباب العادية لا يأتى الولد من امرأة عاقر، وفى الخبر تسرية عن النبي ﷺ بقصص النبي وتوقع نصره، وإعلاء كلمته على المشركين، وإن كانت ظواهر الأمور لا تنبئ عن ذلك، فالأمر كله لله، ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فردا أى منفردا عن قريب أدنى يرثنى، ولقد كان فى ندائه بالغا أقصى درجات الأدب فى جنب الله، فهو لا يجعل وراثته ذى القرابة القرية أولى من وراثته الله فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ وأفعل التفضيل ليس على باب، بل المعنى ووراثتك أعلى درجات الوراثه وأبقاها.

وهذا التعبير الموجز فى معناه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٩١﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٩٢﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٩٣﴾ [مريم].

وقد أجابه تعالى بقوله هنا:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾.

«الفاء» عاطفة تدل على الترتيب والتعقيب، أى أجبتاه عقب سؤاله، والتعديدية باللام تدل على كمال الاختصاص بالداعى والعناية به، وإصلاح زوجه هو جعلها صالحة للولادة، بعد أن جف جهازها التناسلى، وقد كانت فى ذاتها عاقرا لا تلد، وسبحان الفعال المختار الذى لا تحكمه الأسباب بل يحكمها وهو الفعال المختار.

وقوله ﴿لَهُ﴾ «اللام» معناها لأجله وتكريما له، وعناية به واستجابة لدعائه، وكان زكريا ويحيى خيرا خالصا، وكذلك الأنبياء السابقون جميعا؛ ولذا قال تعالى فى أوصافهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أن يتسارعون إلى الخيرات، كأنهم يتسابقون، وكانت التعدي بـ ﴿فِي﴾ للإشارة إلى أنهم يسارعون يسابق بعضهم بعضا فى دائرة الخيرات لا يخرجون عنها، فالخيرات أحاطت بهم إحاطة الدائرة، و﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الأعمال النافعة التى قصد بها وجه الله والعبادة الخالصة له سبحانه، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، الرغب معناه السعة، والمعنى يدعون ربهم فى حال السعة والرخاء، والرهب الخوف مع الاضطراب والانزعاج، والمعنى يدعونه سبحانه وتعالى فى حال رخائهم، وحال شدتهم وانزعاجهم، فهم يدعونه فى كل الأحوال، لا كأولئك المشركين الذين يدعون الله فى الشدة، فإذا ذهبت إذا هم يشركون، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أى خاضعين خائفين راجين الرحمة.

أفرد سبحانه قصص مريم وابنها فقال:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾

عطف على ما سبق من النبيين، وهى مريم البتول التى اصطفاهم ربها على نساء العالمين حتى قيل إنها نبي أوحى إليها، وذكر الله تعالى أجل وصف للمرأة وأكملها، فقال: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أى صانته وحفظته، وكانت هذه الصيانة ليكون فيه البديعة التى أودعها الله تعالى فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا﴾ أى بسبب إحصانها لفرجها، وأنها طاهرة مطهرة اختارها الله تعالى ليودعها عيسى عبده ورسوله، و﴿رُّوحِنَا﴾ هو جبريل عليه السلام، فهو الذى نفخ فيها ولم ينفخ بظاهر الآية فى فرجها، بل نفخ كما قال المفسرون: «فى بعض ثيابها» وقد قال تعالى فى

تصوير النفخ فقد قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ﴾ (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ﴾ (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ﴾ (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ﴾ (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مُقْضًى ۖ﴾ (٢١) [مریم].

هذا هو نفخ الله تعالى من روحه جبريل الروح القدس الأمين، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أى آية دالة على كمال قدرته، وأنه الفاعل المختار لا تقيد الأسباب والمسببات، بل هو فاعل مختار، فكانت أمه آية فى خرق الأسباب، إذ حملت من غير بعل، وكان ابنها آية إذ خلقه الله تعالى من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم.

تضرق الناس حول الرسالة الإلهية وهى واحدة

إِنَّ هَذِهِ

أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۖ﴾ (١٢)
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۖ﴾ (١٣)
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ ۖ﴾ (١٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۖ﴾ (١٥)

ذكر الله سبحانه وتعالى طائفة من الرسل الذين دعوا إلى الوحدةانية، وإن إجابة الناس كانت واحدة، منهم مؤمنون وهم قليل، ومنهم كفروا وعاندوا وهم

كثير، وإن الذين أشركوا وعاندوا كانوا يستهزئون بالذين آمنوا، وكانوا يقولون هم أراذلنا بادي الرأي، وكانوا ينكرون البعث، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، وكانت المادة تأسرهم، ولا يؤمنون بالغيب، والنبيون يجاهدون في الدعوة إلى الله والحق ويصابرونهم، ويبالغون في الدعوة ليعذروا لأنفسهم عند ربهم، ومن العصاة من يرتكبون أفحش الفواحش سائرين وراء شهواتهم المنحرفة، بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى وحدة البشرية، ووحدة الرسالة؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

الإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الجماعات الماضية رسلا مبشرين ومنذرين وأقوام بعثوا إليهم وعاندوهم أو وافقوهم، والخطاب للذين بعث فيهم النبي محمد ﷺ، و﴿أُمَّةٌ﴾ حال باعتبار الوصف بالوحدة، والمعنى إن هذه الجماعات التي مضت برسلها المصطفين الأخيار حالة كونها أمة واحدة هي أمتكم معشر المخاطبين، والمعنى أن الناس جميعا أمة واحدة في كونهم مؤمنين، وكافرين، ومستقيمين ومنحرفين، وأمة واحدة فيما طبعه الله تعالى عليها، وجعلها على الصفات الإنسانية الواحدة، ما بين ملهمين التقوى وملهمين الفجور، والرسل المختارون يدعون الأبرار والفجار، فيستقيم على الطريقة المثلى الأبرار، وينحرف عن الجادة الأشرار، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (٢١٣) [البقرة].

وبعد أن بين سبحانه وحدة البشرية في الطبائع والجلالات بين وحدة الرسالة، ووحدة الألوهية والربوبية، فقال عز من قائل: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أى أنا خالقكم والقائم عليكم والكالئ لكم ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ الفاء فاء السببية أى بسبب هذه الربوبية الخالصة المبدعة - اعبدون، هنا ياء المتكلم محذوفة مع تقديرها فى الكلام.

وإنه نتج عن هذه الوحدة فى الجبلّة، وتنوع الغرائز وتضاربها وتغالبيها، وتنازع الأهواء والشهوات أن تنازع الناس، وإن اختلفت منازعهم ما بين مهتد رشيد، ومنحرف عنيد؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾

﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ أى تفرقوا مرائق، وفرقا متباينة: هذا مهتد، وهذا ضال، وقد نتج هذا من الوحدة فى الطبائع والغرائز، وفى الغرائز حب الغلب، وفى الغرائز حب السيطرة، وفى الغرائز الشهوات، وإنها إن اختلفت فى أصلها ومنبعها تفترق فى نزوعها واتجاهاتها، فمن وحدتها يكون اختلافها وهذا كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة] فقد قدر فى القول كما أسلفنا بعد قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فكان الاختلاف المقدر الذى تقرر بقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مترتباً على الوحدة فى أصل الغرائز التى تتضارب، والجليلات التى تتناحر.

كذلك هنا كانت وحدة الأمة الإنسانية فى أصول الغرائز وينابيع النفس سبباً فى الاختلاف وتقطع الأمر وتفرقه، وعبر سبحانه عن تفرق الإنسانية بـ «تقطع» للإشارة إلى أن الجسم الإنسانى واحد وقد تقطع أجزاء، فهو تأكيد لأصل الوحدة، وقوله تعالى: ﴿أَمْرُهُمْ﴾ أى الأمر الجامع بينهم، وهو أصل الوحدة ووحدة الغرائز وجماعتهم الجامعة، قطعوها بين غالب ومغلوب ومسيطر ومسيطر عليه، ومهتد وضال.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه كما ابتدأوا وحدة يعودون إلى الله تعالى مجتمعين فى المحشر؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فتقديم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، أى راجعون إلينا وحدنا لا إلى غيرنا.

ثم ذكر سبحانه جزاء الأبرار، ثم جزاء الفجار، فقال عز من قائل:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾

«الفاء» فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا جميعاً إلينا راجعون، فإننا نجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «من» هنا إما للتبعية، أو للاستغراق، ويكون المعنى من يعمل بعض

الصالحات وهو مؤمن بالله حق إيمانه متقربا بها إلى الله تعالى، فإن الله يقبل عمله ويثيبه عليه؛ لأنه لا سلامة للأعمال إلا بأن تكون لله وحده، ولا تكون لله وحده إلا إذا كان مؤمنا به وبرسله والكتاب والملائكة والغيب الذى أخبر الله تعالى.

وإنما ذكر بعض الصالحات؛ لأنه ليس فى الطاقة الإنسانية القيام بكل الصالحات، وكل ميسر لما يستطيعه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ويصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ بيانية، أى ومن يعمل الصالحات بما فى طاقته ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ «الفاء» واقعة فى جواب الشرط، والكفران الستر، وكفران النعمة سترها، وكفران السعى عدم الجزاء عليه، والسعى هو العمل النافع الذى يكون فيه القرب إلى الله تعالى.

وعبر سبحانه عن عدم الجزاء بالكفران، إكراما للساعى وتأكيذا بأنه لن يهمل جزاءه، ومعاذ الله تعالى أن يفعل، كما قال تعالى ﴿... أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ ...﴾ (آل عمران) وقوله تعالى: ﴿... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ...﴾ (الكهف).

وبين سبحانه، أن هذا السعى مكتوب قد أحصاه الله تعالى فقال: ﴿وَأَنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى قد أحصيناه إحصاء، وذكر الكتابة للدلالة على أنه غير ضائع أبداً، والله بكل شىء عليم، وقدم الجار والمجرور لكمال العناية بمن يعمل عملا صالحا، أى كل عامل يقيّد له عمله بخاصة، ويخصى لكل ما يخصه.

هذا جزاء الأبرار، أما غيرهم فقد قال سبحانه فى جزائهم:

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

الحرام: الممنوع من الله تعالى، أو من الطبع، أو نحو ذلك، والحرام هنا ما حرمه الله تعالى على نفسه، وهو تأكيد لرجوع الناس جميعا إليه سبحانه وتعالى، أى حرّم الله تعالى على نفسه ألا يرجع الذين هلكوا، والمعنى: أوجب الله تعالى على نفسه أنهم إليه راجعون، لأنه إذا كان عدم الرجوع فيكون الواجب الرجوع؛ ولذا فسر الكثيرون، حرام بمعنى وجب أن يرجعوا.

والقرية الجماعة المجتمعة في مدائن عظيمة أو مدائن متقاربة، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ إشارة إلى عقاب الدنيا الذي ينال الضالين، وهو الهلاك والدمار، كما أغرق قوم نوح، وأهلك قوم عاد، وكالريح الصرصر العاتية التي أهلكت ثمود.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هلاك الأئمين في الدنيا، وقال تعالى: ﴿كُلُّ إِلَهٍ رَاجِعُونَ﴾ أى أوجب الله على نفسه أن يرجعوا، كما أوجب سبحانه وتعالى الرحمة على نفسه للمتقين الأبرار.

قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور في معنى الاختصاص، أى أنهم لا يرجعون إلا إليه وحده ليتولاهم بعذابه في الآخرة كما تولاهم بالهلاك في الدنيا جزاء ما قدمت أيديهم، فرجوعهم سبحانه وتعالى إليه وحده إنذار بعذابهم على ما اجترموا في جنب الله العزيز الحكيم.

القيامة ومقدماتها

حَقُّ إِذَا فُتِحَتْ

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٦﴾
وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادُوا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَتْ
هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوا هَؤُلَاءِ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

هذا بيان مما أعد للكافرين يوم القيامة، وقد ذكر أنهم إلى الله وحده راجعون وسيحاسبهم على ما أجرموا في حق الله سبحانه، وظلمهم لعباده، وفي هذه الآية يذكر الكافرين بيوم القيامة، وما يختبر به عباده من قوم أشرار يعيشون في الأرض فساداً، وربما يهديهم الله سبحانه وتعالى، ويخف بالهداية شرهم، وهم يأجوج ومأجوج، وقد استغاث الناس بالإسكندر ذى القرنين، فقالوا له: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف].

وقد هيا الله تعالى أن أتم ما وعد، وقد تكلمنا في تفسير هذه في سورة الكهف.

ويظهر أنه فتح لهم جانب من السد^(١)، وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰ﴾ للتفريع من قوله تعالى: ﴿أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن

يأجوج ومأجوج الذين عرفوا في التاريخ بالمغول، أو التتار، وهما في أصلهما واحد، ثم انشعبا من بعد ذلك وكانوا عنصرا واحدا.

وقد ظهر هؤلاء في القرن السادس، وانسابوا في الشرق، حتى وصلوا إلى وسط أوربا، وتلقت البلاد الإسلامية صدمتهم، وقد كانوا يسيرون فاتحين مسرعين في فتحهم حتى إنهم ليقطعون في حروبهم أبعد المسافات فتحا بمقدار سيرهم لا يقف أمامهم شيء، حتى إذا كان القرن السابع تولتهم الجيوش المصرية، فهزمتهم في عين جالوت، ولأول مرة عرفت السيوف مواضعها من أقفيتهم، وقد انحدروا كالصخرة من أعلى الصين، وما زالت تسير لا تلوى على شيء إلا جعلته كالرميم، حتى وصلت إلى فيينا، وكانت الحبالى تجهض من سماع أخبارهم.

(١) عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍ قد اقترب: فتُح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا». وحلَّق بإصبعه وبالي تليها. فقالت زينب: فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث». متفق عليه؛ من رواية الأمام البخاري (٧٩٠٦)، ومسلم - اقتراب الفتن (٧١٧٤).

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك من أخبارهم فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أى فتح سدهم ولم يعد مانعهم، وعبر عن فتحه بـ ﴿فَتِحَتْ﴾ بالبناء للمجهول، أى فتح لهم لأمر يعلمه الله تعالى، وعبر بالبناء للمجهول، وأضيف (الفتح) إليهم للدلالة على هولهم، وكأنهم نيران أو حجارة فتحت على الناس، وكأنهم جهنم الدنيا ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ أى نشر^(١) من الأرض ﴿يَسْلُونَ﴾ يسرعون، مشتق من نسلان الذئب أى سرعته.

هذا أمر وقع، ورآه التاريخ، واستمر يشغل الأرض الإسلامية القرن الثامن الهجرى، وإن الإخبار به قبل يوم القيامة يدل على أمرين: أولهما أنه يكون على مقربة من القيامة، وأنهم هلاك للناس فى الدنيا، وثانيهما أنه معجزة من إعجاز القرآن؛ لأنه سبحانه أخبر عن أمر يقع فى المستقبل، فوقع كما أخبر سبحانه، فكان ذلك دليلا على أنه من علم الله تعالى علام الغيوب، وأنه من قوله الحكيم.

وذكر بعد ذلك سبحانه قرب يوم القيامة فقال عز من قائل:

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾، هو الوعد بالبعث، وما وراءه من قيامة وحساب، وهو حق لأنه صادق وثابت لا يرتاب فيه إلا المبطلون، و«الواو» عاطفة على ﴿فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، وهذا دليل على اقتران فتح ما سُدَّ على يأجوج ومأجوج بالوعد الحق،

(١) الحذب الأكمة، والنشر ما ارتفع من الأرض. وروى مسلم في صحيحه (٧٣٢٢) عن النواس بن سمعان حديثا ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الدجال، إلى أن قال: "... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. فَنَزَلَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ. بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ. وَأَصْعَا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَيْنِ. إِذَا طَاطَا رَأْسُهُ قَطَرَ. وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ. فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ. وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ. فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَدْرُكَهُ بِيَابَ لَدُنْ. فَيَقْتُلُهُ. ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ. فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُخَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَرْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِّي، لَا يَدَّانَ لِأَحَدٍ يَقَاتِلُهُمْ. فَحَرَّرَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَبَيَّعْتُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. (وَمِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)."

وذلك لأن الدنيا تكون قد فسدت واضطربت فيها موازين، واستحكم الشر، فمند الغزوات المغولية، والعالم يموج بالشر، ويمرج بالفساد، فجاءت بعده الغزوات الصليبية الشرسة، ومن بعدها تكون شذاب العالم^(١) فى القارتين الأمريكيتين، وأعطيت الشمالية علم إبليس وعقله، وخلقه الشرير، واتخذت الذرائع التى يمكن بها إبادة العالم، ولا ضمير يمنع، ولا زاجر يردع، وهى من وقت لآخر تهدد بالفناء، حتى صار العالم قاب قوسين من أن ينزل به أشد الخراب بفعل الإنسان، ولعل قيام القيامة يكون بإرادة من الله، ويسخر لها عملا من أعمال الإنسان، وقد ابتداء الخراب بفتح السدود أمام يأجوج ومأجوج، وختم بإخوانهم الأمريكان الذين لم يدعوا قائما من الأخلاق والفضيلة حتى قوضوه.

وقد صور حال الناس عند البعث وقيام القيامة، وقد اضطرب الوجود، ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «الفاء» واقعة فى جواب شرط مقدر، أى إذا جاء الوعد الحق فإذا...، ف «الفاء» و«إذا» الفجائية جواب هذا الشرط المقدر وهى للحال، أى فإذا الحال شاخصة أبصار الذين كفروا، أى واقفة أعينهم لا تتحرك، فمعنى شخوص العين أنها تفتح فلا تطرف، وذلك يكون فى حال الفزع والهلع، وهذا تصوير لحالهم من الفزع فقد شبهت حالهم بحال من تكون أبصارهم شاخصة هلعا وفزعا، والجامع بينهم الفزع.

وذكر الموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للإشارة إلى أن سبب فزعهم كفرهم، فهو فزع لا يعرف له نهاية لسوء ما قدموا، ولسان حالهم يقول: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ فهذا مقول لقول محذوف مفهوم من حالهم، فهم قائلون بلسان الحال: يا ويلنا، ينادون ويلهم، كأنهم ينادون الهلاك؛ لأن هذا وقته، فهم بهذا يتوقعون الهلاك وينادونه كأنهم يستعجلونه، إذ إن من يكون فى حال فزع وهلع يرون أن نزول هذه الحال، ولو بنزول الهلاك العاجل؛ لأن حال الانتظار أشد على النفس وقعا وبقاءها مرير مع الهم الشديد.

(١) رجل شاذب إذا كان مَطْرَحًا، مأبوساً من فلاحه كأنه عَرِيٌّ من الخير، شبه بالشَّذَبِ، وهو ما يُلْقَى من النخلة من الكُرَافِيفِ وغير ذلك.

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أى ربنا كنا غافلين عن هذا البعث، وما كنا نحسب أنه سيكون، وإذا كان لا يكون بهذا الهول العظيم والكرب الشديد، ثم أقروا بظلمهم ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا ولاعتدائنا على المؤمنين، وبكفرتنا بالرسل، ومعاندتنا لهم، وقد أكدوا ظلمهم بالجملة الاسمية، وبوصفهم بالظلم وبالإضراب بقولهم: ﴿بَلْ﴾ أى أنهم يضربون عن قول ويصفون أنفسهم بالظلم المؤكد المستمر، لأن ﴿كُنَّا﴾ للاستمرار فى ظلمهم فى الدنيا.

ثم يقول سبحانه فى عذاب جهنم:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

الضمير للمشركين ومن تبعهم وخدع بأقوالهم وصار مثلهم، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من أوثان وأحجار، وعقلاء رضوا أن يكونوا معبودين كالفراعة وأشباهم ممن عدوا أنفسهم آلهة فى الأرض ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى غير الله ﴿حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ أى أنهم يلقون فى النار كما يلقى الحصب فيها ليزيد اشتعالها، فشبههم فى إلقاتهم فى النار بالحصب إذ يرمى فيها ليزيدها اشتعالا ويهيجهها.

وهنا يرد سؤال: إن النصارى عبدوا المسيح، ومن المشركين من عبدوا الملائكة، فهل يعاقب المسيح وعزير والملائكة بسبب عبادة المشركين لهم، ولا ذنب لهم وقد نهوهم؟ والجواب عن ذلك: إنه لا يدخل فى هؤلاء العقلاء من عباد الله الأبرار، إنما يدخل فقط الأوثان، وهنا يرد سؤال آخر: هذه الأوثان لا تعقل فكيف تعذب، وهى لا تحس عذابا ولا نعيما؟ والجواب عن ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم من هذه الحجارة تنفعهم وتشفع لهم، فالله تعالى يبين أنها لا قوة لها، وأنها تلقى فى النار مثلهم، وإن كانت لا تحس، وإذا كانت لا تنقذ نفسها من النار فأولى ألا تنقذهم.

ثم أكد سبحانه دخولهم فى النار فختم الآية الكريمة بقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الضمير فى ﴿لَهَا﴾ يعود لآلهتهم، أى أنتم لأجلها واردون النار أى

داخلون فيها، أى أنتم لأجل الأوثان واردون النار وهى بئس الورد المورد، والورود: الدخول.

وبين سبحانه أنهم مضللون فى عبادة هذه الأوثان، فقال:

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا دليل شرطى مشتق من الوقائع يوم القيامة، أى لو كانت هذه الأحجار مستحقة للعبادة ما وردت النار وما دخلتها؛ لأنها تكون مسيطرة قوية لا سلطان لأحد عليها حتى يُدخلها النار، ولكنها دخلتها مع من عبدوها فلم تكن آلهة، ﴿وَكُلُّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ التنوين قائم مقام المضاف إليه، أى كل من العابد بالباطل والمعبود خالدين فيها، أى الأحجار التى عبدت والمشركون، كلهم خالدون فى النار، الأحجار إذ تحمى عليها النار فتكون حجارة ملتهبة، والمشركون إذ تزداد التهاوبا يصلون بنارها، والنار خالدة، وهم فيها خالدون، فهو عذاب مقيم دائم.

ثم وصف الله تعالى حالهم فيها فقال:

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

الضمير يعود إلى المشركين، والزفير كما جاء فى مفردات الأصفهاني: تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه، وهو يكون فى حال الضيق وحال السقام، أى أنهم فى حال ضيق وسقام كحال الذى يزفر حتى تنتفخ أضلاعه، وهذا كناية عن شدة الضيق والضجر، وهى حال دائمة، يتألمون، ولا يسرى عنهم شىء يسمعونه، ولا خبر يطمئنون به، بل هم فى ألم مستمر لا تسرية فيه ولا منجاة، ولقد قال تعالى: ﴿... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًىٰ وَبُكْمًا وَصُمًّا...﴾ (٩٧) [الإسراء] أى أنهم يحسون ولكن ليس لهم من حواسهم منافذ تسرى عنهم من مناظر تسرى عنهم أو أحاديث يسمعونها تروّح لنفوسهم، أو يتكلمون بكلمات يشكون بها حالهم وألمهم، لا يرجعون قولاً ولا يرددون فكراً.

حال المتقين يوم القيامة

إِنَّ الَّذِينَ

سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ

خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَوَلَّوْا

أَلْمَلَكَةَ هَذَآ يَوْمَ كُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا

بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الأشرار وأنهم يجزون سيئات ما فعلوا، ذكر سبحانه جزاء الأبرار، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مؤنث أحسن، أى سبقت لهم فى علم وحكمة الخصلة التى هى فى أعلى درجات الحسن، وهى تقوى الله تعالى ومخافة عقابه ورجاء ثوابه، و﴿سَبَقَتْ﴾ أى سبقت فى علم الله تعالى وقدرها لهم، وسلکوا سبيلها، واهتدوا إلى طريقها، فأخذ الله تعالى بأيديهم، فهداهم إلى الطريق الأمثل؛ لأن من سلك طريق الخير وطلبه وفقه الله وهداه، ومن تنكب طريق الخير أضله الله وأرداه، والله يضل من يشاء ويهدى إليه من أتاب.

﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الإشارة إلى أهل التقوى موصوفين بهذه الصفة، وهى سبب نجاتهم من النار وبعدهم عنها، أى إن تقواهم أبعدتهم عن النار وجحيمها وشقائها والتهاب حصبها، حتى يكون جمرات موقدة، وقدم الجار والمجرور لمزيد تأكيد البعد عنها، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

الحسيس حركة النار وحسها، أى أنهم يبعدهم الله تعالى عن النار بحيث لا يسمعون صوت اندلاعها واصطلاء أهلها بها، ولكنهم يعلمون أين هم، وهذا تأكيد لما جاء فى آخر الآية السابقة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فهم مبعدون عنها بحيث لا يسمعونها، وإذا كانوا مبعدين عن النار، فهم ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ والذى تشتهيه نفوسهم نعيم مقيم، وجنات تجرى من تحتها الأنهار وغير ذلك مما ذكره الله تعالى فيما اشتملت عليه الجنة، وما تشتهيه أنفسهم اطمئنان وقرار، وبعد عن اللغو، وحرور عين، وأعظم ما تشتهيه أنفسهم رضوان الله تعالى، فهو أكبر من اللذائذ، بل هو لذة أهل الإيمان الأولى.

وفى التعبير بقوله: ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إشارة إلى أنهم حرموا من شهوات الدنيا الآثمة فنالوها فى الآخرة حلالا طيبا.

وهنا ملاحظتان بيانيتان:

أولاهما - أنه عبر عن نيلهم ما يشتهون بجعل ما يشتهون ظرفا لوجودهم، فما يشتهون أحاط بهم إحاطة الطرف بمظروفه فهم يعيشون فى دائرة ما يشتهون، لا يخرجون عن دائرة إجابة رغائبهم، فلا يحرمون من شىء يرغبونه.

ثانيتها - أن الله أكد تمكنهم من رغائبهم فيها، أكد بـ ﴿هُمْ﴾، وبتقديم ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ للاهتمام والعناية، والله سبحانه يجزى كل نفس ما كسبت وهو العليم الحكيم.

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

الفرع الأكبر هو يوم ينفخ فى الصور فتكون أنظار الذين كفروا شاخصة من شدة الهول، إذ يصيها الفرع، ويقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف]، ولذلك يصابون بالحزن الشديد لأنهم لم يتوقعوه ولم يؤمنوا به، بل أنكروه وكانوا عنه غافلين.

أما أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى، فإنه لا يحزنهم هذا الفرع، بل هو فرع بالنسبة لغيرهم؛ لأنهم توقعوه قبل أن يقع، بل آمنوا بأنه سيقع لا محالة.

وقد يقول قائل: كيف يسمى الفرع الأكبر بالنسبة لهم وهم لم يفرعوا منه؟ والجواب عن ذلك، ذلك إنه فى ذاته أمر مفرع؛ إذ إن الوجود كله يضطرب، فالشمس تتكور، والسماء تنفطر، والجبال تصير هباء منبثا، وكل الدنيا تضطرب بما فيها، فهو فى ذاته فرع، فهو يروعهم بأحداثه ولكن لا يلقي فى قلوبهم حزنا لأنه يوم جزائهم.

وإنه من بعد هذا اليوم المروع فى ذاته، ﴿وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى أنهم مع اطمئنانهم، وبعدهم عن الحزن والغم تتلقاهم الملائكة تلقى الكرماء لضيقاتهم وكأنهم ينزلون فى مضيف لا فى دار حساب وجزاء، وذلك يؤكد أمنهم وسلامهم، والتلقى بالتحية المباركة يزيل كل ما من شأنه حزنهم أو جزعهم، أو غرابة حياتهم الجديدة التى كانوا يتوقعونها ويؤمنون بها ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قدر المفسرون القول، أى قول الملائكة، والمعنى تتلقاهم الملائكة قائلين لهم هذا يومكم. ونحن نرى أن قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ هذا بيان للتلقى؛ لأنه تحية لهم، وتصديق لما اعتقدوا من قبل.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بيان لوعده الله تعالى بالبعث والجزاء والجنة والنعيم والرضوان، وقد ذكر سبحانه ذلك بعبارة تفيد التكرار، واستمرار التذكير، فالتعبير بالمضارع ﴿تُوعَدُونَ﴾ فيه إشارة إلى الوعد المتكرر على السنة الرسل رسولا رسولا، وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ﴾ تفيد استمرار هذا التذكير لمن كان يتذكر، وهم المؤمنون الأبرار.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ هذه متعلقة بـ ﴿الْفَرْعَ الْأَكْبَرُ﴾، فهو ظرف مبين لنوع الفرع الأكبر، وما يكون فيه من أهوال هائلة إذ تطوى السماء كطي السجل للكتب، ويصح أن تنول إن ﴿يَوْمَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿تَوَعَّدُونَ﴾ وأميل إلى الأول؛ لأنه مناسب للفرع الأكبر، والطي معناه درج المكتوب، ويتضمن إخفاءه وطمسه أو التعمية أو محوه، والمعنى أن السماء بكواكبها ونجومها تطوى فتتكدر كواكبها وشموسها ونجومها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير]، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَثَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... ۝٦٧﴾ [الزمر] و﴿السِّجْلِ﴾ هو الصك، وأصلها من السَّجَل، وهو الدلو ويقال: ساجل الرجلُ الرجل إذا نزع كل واحد دلوا في نظير دلو الآخر، ثم استعير للمكاتبات، وقال تعالى بعد بيان زوال الأرض والسماء في يوم الفرع الأكبر ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أى أننا نطوى السماء ونزلزل الأرض لتغيير الكون، وذلك بالإنشاء أولا، ثم الإزالة، ثم الإعادة كشأننا فى بدئنا الخلق ثم إعادته، وهذه العبارة تحمل فى نفسها دليل صدقها، وذلك أن من كان قادرا على الابتداء للخلق قادر على إعادته، كما قال: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ... ۝٣٠﴾ [الأعراف]. ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا﴾ منصوب ﴿وَعَدًا﴾ على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف، والمعنى وعدناه وعدا علينا، وأكده سبحانه بهذا المصدر، وبأنه سبحانه وتعالى ألزم به نفسه وأنه صار حقا عليه، والله عز وجل لا يخلف الميعاد، فلا يمكن أن يخلف وعده، وأكد الوعد مرة أخرى بأنه ينقله من الوعد إلى الفعل، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أى فاعلون الإعادة حتما، لأنه سبحانه لم يخلق الإنسان عبثا، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا﴾

خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون] وقد أكد سبحانه الإعادة بـ (إنَّ) ونسبة الفعل إليه، وهو العزيز الحكيم، وأكدته بالجملة الاسمية، وبالتعبير باسم الفاعل، وهو على كل شيء قدير.

العاقبة للمتقين

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا
لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
﴿١١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ
عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١١٩﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١٢٠﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٢١﴾ قُلْ
رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٢٢﴾

الزبور هو كتاب داود عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿... وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء] والذكر: قالوا: هو التوراة؛ لأنها ذكر للشرائع وبيان لها، نسخ منها ما نسخ بالقرآن، وما بقى استمر محكما وإن كان القرآن حجبها، ولا دليل على صحتها سواء، ولو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ، وذكر الزبور وقد قام داود بتنفيذ ما في التوراة للإشارة إلى أن كتب الله المنزل

تواردت على هذا المعنى وتعاونت على آدابه، وهو ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ﴾ أى أن الأرض كلها بقاصيها ودانيها لله، وأنها ليست لملك طاغ، ولا
لزعيم مفسد ولا لرئيس يقود الناس إلى مراتع الفساد ومواطن التهلكة، إنما هي لله
﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أى يعطيها مالك الملك لعباده الصالحين، وعبر بقوله
﴿يَرِثُهَا﴾ للإشارة إلى أن الصالحين يخلفون من كانوا عليها من فاسدين ظالمين عتاة،
وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا...﴾ (الأعراف) وإن العاقبة تكون دائما للمتقين.

وهنا التفات من الغائب إلى العودة إلى ضمير المتكلم، وهو الله جل جلاله،
فالكلام بلغة المتكلم فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا﴾ فانتقل إلى الغائب ثم عاد إلى المتكلم فى قوله: ﴿عِبَادِيَ﴾، وفى ذلك تأكيد
أن هذا مكتوب فى كتبه سبحانه فى كتبه المنزلة، وإضافة العباد إليه سبحانه.

وإن ذلك وعد سجله سبحانه فى كتبه بأن مآل هذه الأرض لعباده الصالحين،
برغم جنحات المفسدين وغلبتهم وسعيهم بالفساد فى الأرض.

وقد يعترض الذين يأسرهم الزمان الذى يعيشون فيه، ولا تنفذ بصائرهم إلى
ما وراءه بأن المفسدين فى الأرض الذين اتخذوا من العلم بالكون، وسائل تخريب
فى الأرض، وتمكين للظلم، وأن أهل الحق الصالحين مغلوب عليهم مستضعفون،
ونقول: إن ذلك حكم حقبة من الزمان هى التى نعيش، ولكن الله تعالى أخبر أن
المآل للصالحين، والله أعلم بالمفسدين، وإن خبره صادق والمستقبل غيب لا يعلمه إلا
هو، ولنا أن نصدق الله ونكذب حكم الزمان فى القابل.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

اسم الإشارة يشير إلى هذا الخبر الكريم الذى أخبر به الحكيم العليم، وأن
العاقبة للصالحين، والبلاغ يطلق بمعنى المنتهى والكفاية، ويطلق بمعنى التبليغ، وعلى

أن الإشارة إلى الخبر في الآية السابقة، يكون معنى البلاغ هو التبليغ أى أن هذه تبليغ للعابدين الذين امتلأت قلوبهم بعبادة الله تعالى، وصارت العبادة وصفا ملازما لهم لا يفارقونه، وصارت قلوبهم خاضعة وألستهم تترطب دائما بذكره.

ويصح أن تكون الإشارة إلى ما ذكر في السورة من قصص النبيين، ومواعظ وتوجيهات إلى الكون وأسراره، ويكون معنى «بلاغ» متتهى وكفاية يدركها العابدون، ويفهم لبها العاكفون على عبادته سبحانه.

وانى أميل إلى التخريل الأول؛ لأن الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ إشارة إلى القريب، ولو كانت إلى المذكور فى السورة كلها من قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ ...﴾ [الأنبياء] إلى هذه الآية، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ ولكلام الله تعالى المثل الأعلى، وليس لنا أن نتطاول على مقام كتابه المعجز، الحكيم الخالد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

أى أن رسالة محمد ﷺ مقصورة على أن تكون رحمة للعالمين، أى لكل العقلاء، ورحمته ﷺ فى أنه بعث على فترة من الرسل؛ لإنقاذ الناس من الأوهام التى أركسوا فيها، وصاروا بها فى عمياء ضارية عليهم لا يدركون معها حقا من باطل، وأنهم كانوا يتسافكون الدماء، وقد أكلت العداوة كل معانى الخير فى فطرتهم، واشتفت كل ينبيع المودة فى صدورهم، وكان ﷺ رحمة بشريته التى دونت فى القرآن وبينتها السنة النبوية المطهرة، بلسانه وعمله وإقراره حتى ترك الناس على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها، ولقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]، وقد جاءت هذه الشريعة مشتملة على مصالح العباد، فكل ما فيها مصلحة، واستغرقت كل المصالح بالعبادة، وبالإشارة، وبوضع أصول كل نفع إنسانى، والله رءوف بالعباد.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، وهو في كل موضع تبليغ يجعل سبحانه وتعالى كلماته الخطاب للنبي ﷺ ليبلغ رسالة ربه وأول تكليف بتبليغ الرسالة هو في التوحيد، وهو أول ما صدع به ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

كان في الكلام قصران: أولهما: أن التبليغ بالتوحيد كان بإيحاء من الله تعالى لا بأمر من محمد ﷺ، أى أن الله تعالى الذى تجأرون إليه فى الشدائد وتستغيثون به فى المهالك وعندما يحاط بكم - هو الذى يوحى إلى بأن توحدوه، والقصر الثانى: لبيان وحدة الألوهية، وقد دعاهم إلى الإسلام ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الاستفهام للتنبيه والخض على الإسلام، وقال علماء البلاغة إن هذا التعبير أقوى تعبير فى الدعوة إلى الإسلام، و«الفاء» لبيان ترتب الدعوة على الإسلام، على تقدير أن الدعوة إلى الله وحده بإيحاء من الله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ أى عرضوا عن دعوة الحق ولم يجيبوا داعى الإسلام والإذعان وإخلاص وجوههم لله تعالى وحده، والفاء الأولى فاء الإفصاح عن شرط مقدر، ونسق القول: إن دعوتهم فإن تولوا ... إلى آخره، والفاء الثانية فى قوله تعالى: ﴿فَقُلْ﴾ واقعة فى جواب الشرط لأن بعدها طلبا هو الأمر.

و«أَذْنُكُمْ» أى أعلمتكم وبينت لكم الحق، وأنكم ستبعثون وتحاسبون على سواء، أى على تسوية بين الضال والمهتدى، أى كلا محاسب ومبعوث لهذا الحساب.

﴿وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ إن هنا نافية، والمعنى ما أدري أقرب أم بعيد اليوم الذى وعدتم، وهو يوم البعث، وإن النبى ﷺ وهو الذى يوحى إليه القرآن الكريم وحديثه، لا يعلم متى تكون الساعة، وقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ... ﴿١٨٧﴾ [الأعراف] فقد خفى علمها عن كل البشر ولو كان خير البشر، واختص الله وحده بعلم الساعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان].

وإن هذا فيه إنذار لمن أعرضوا، وكان من الترفق بهم في القول، أن ذكر أنهم ومن هداهم الله على سواء فيما يتعلق بالإعلام بالبعث والحساب، وإن اختلف الجزاء.

ثم بين الله تعالى إحاطة علمه الكامل، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

الضمير يعود على ذى الجلال والإكرام، و﴿الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو ما كان يجهر به أهل مكة من قول، هو استهزاء، أو غيره، وذكر علمه سبحانه وتعالى به تهديد بالحساب لقولهم، وهو حساب من لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال، وذكرت الأقوال من جحود وعناد وإيذاء وسخرية وتهكم، ولم يذكر الأفعال من إيذاء للضعفاء وفتنة لهم في دينهم بتعذيبهم، كما فعلوا مع عمار بن ياسر وأبيه، وكما فعلوا مع خباب بن الأرت، ولم يذكر الأفعال، لأن الأفعال أجهر وأبين من الأقوال، لا إذا كان يعلم الأقوال، فأولى أن يعلم الأفعال، وهو بكل شيء عليم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من إحن ومنافسة على الشرف الكاذب كما كان من أبي جهل وأشباهه فيما ينفسون على بنى عبد مناف، وفيما ينفس بنو أمية على بنى هاشم.

ويعلم انحراف الاعتقاد، وعبادة الأوثان، وما يعشش في رءوسهم من خرافات وأوهام، وما يحلون ويحرمون بغير ما أنزل الله السر وأخفى، والجهر وما يعلن، وذكر علمه سبحانه وتعالى بالعصيان إنذار لهم بالحساب ثم العقاب.

وقد يسأل سائل لماذا أمهلهم مع هذا السوء الذى أحاط بهم فى جهرهم
وكتمانهم، فقال الله على لسان نبيه .

﴿وَأِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

إن هنا نافية، والكلام على لسان الرسول ﷺ، لأن الله يدري، والمعنى ما
أدري لماذا أمهلكم الله تعالى تساءل النبي ﷺ .



تمهيد:

سورة الحج مدنية إلا الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية، وسميت الحج فى عرف القراء؛ لأن مناسك الحج كثيرة فيها.

وقد ابتدأت السورة بذكر يوم القيامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ (٣) وأشار سبحانه إلى أن من يتولاه الشيطان فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير، وذكر سبحانه من ينكرون البعث وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْعَمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِّنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾. ويشير إلى أن ذلك التطور التكويني يثبت أن الله هو الحق، وأنه يحيى الموتى، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، ويذكر الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا سلطان مبين، ويتولون معرضين ويضلون عن سبيل الله، وأن عقابهم فى الآخرة عذاب الحريق، وفى الدنيا خزي.

وبعد أن ذكر سبحانه الأشرار الخالسين للشر، ذكر من يترددون، فيعبدون الله على حرف إن أصابهم خير اطمأنوا إليه، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وإن هؤلاء وأولاء

يدعون ما لا يضر ولا ينفع، ومن ضره أقرب من نفعه لبش المولى، ولبش العشير.

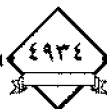
بعد ذلك ذكر سبحانه الذين يعملون الصالحات وجزاءهم، وأبطل سبحانه أوهام الذين يظنون أنه لا ينصرهم الله فقال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ (١٥)﴾، ثم أشار سبحانه إلى آيات الله السينات وأن الله يهدي من يريد، وأشار سبحانه إلى اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والهندوس والذين أشركوا، وأن الله سيفصل بينهم يوم القيامة.

ولقد أشار سبحانه إلى حال الفريقين المهتدى والضال، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾.

وبين بعد ذلك جزاء المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾.

وذكر سبحانه بعض أعمال المشركين من الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴿... الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)﴾.

ويشير سبحانه إلى نبي إبراهيم وتطهير البيت للطائفين والعاكفين، والركع السجود، ثم دعوة إبراهيم إلى الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾، ثم يشير سبحانه إلى بعض مناسك الحج، ويدعو سبحانه إلى تعظيم حرمت الله تعالى،



ويبين أنه أحلت بهيمة الأنعام إلا ما جاء النص بتحريمه، ويدعو سبحانه إلى اجتناب قول الزور، والرجس من الأوثان، وأن يكونوا حنفاء لله غير مشركين به، ويبين سبحانه أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، ويبين أن منسك أهل الحق والإيمان الحج إلى بيت الله الحرام، ثم يذكر سبحانه أن الإبل والبقر وهي البدن من شعائر الله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَشْرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

ثم بين سبحانه شرعية الجهاد بعد هذه الإشارات إلى الحج، وهو من الجهاد، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾، ثم صرح سبحانه وتعالى بالاذن بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾، وقد بين الله تعالى فضل المتقين في إقامتهم الصلاة، وإيتائهم الزكاة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وأشار سبحانه إلى المشركين، وأنهم لم يعتبروا بهلاك من سبقوهم إلى الشرك، واضطهاد أهل الإيمان ومعاندة الرسل، فأشار سبحانه إلى قوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين، وكذَّب موسى ثم قال: ﴿... فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾.

ثم أشار سبحانه إلى هلاك القرى التي أهلكتها سبحانه وهي ظالمة ﴿... فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْسُرُ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُ (٤٥)﴾، ودعا الله المشركين إلى أن يسيروا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، ﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾.

ثم ذكر سبحانه حال المشركين، في استعجالهم العذاب، بدل أن يعملوا للثواب، وبين أنه يملأ لهم ثم يأخذ الآثم بإثمهم، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨)﴾.

وذكر بعد ذلك أن عمل الرسول ﷺ هو الإنذار، والناس بعد ذلك أشقياء أو سعداء ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩)﴾ فالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾.

ثم بين سبحانه أن الأنبياء بشر كسائر البشر، ولكن الله يعصمهم، فإذا وسوس الشيطان في صدورهم نسخ ما يلقي الشيطان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ وما يلقيه الشيطان لا يكون فتنه للأنبياء، ولكن يكون فتنه للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. ثم أشار إلى أن القرآن من عند الله يعلم أهل العلم أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فإنهم في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة، أو يأتيتهم عذاب يوم عقيم، وإن الملك لله يوم القيامة هو الذى يحكم، فالذين كفروا لهم عذاب مهين، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ (٦٠)﴾.

ثم بين سبحانه آياته في الليل والنهار، وهذا يدل على أن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير.

بعد هذا بين سبحانه وتعالى نعمه في أنه ينزل المطر فتصبح الأرض مخضرة، وأنه ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ

السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ .

وإن مناسك الناس مختلفة، ولكل أمة جعلنا منسكا فلا ينازعك في الأمر، ويخاطب نبيه فيقول : ﴿...وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾ .

ولا تجادلهم بعد أن تبين لهم الحق، والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، وإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧٠﴾ .

ثم ذكر عبدة الأوثان وهم مشركو مكة، فقال : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لِيُمْ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتَنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ، وقد ضرب الله تعالى مثلا بالذباب فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ .

ثم بين سبحانه أن خلق الله تعالى بالنسبة له على سواء، ولكنه يصطفى من الملائكة رسلا يكونون لحلقه، واصطفى من الناس رسلا يكونون دعاة للحق، والإخبار عن الله تعالى بينهم، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وإليه ترجع الأمور، ثم أشار سبحانه أن رسالة محمد ﷺ امتداد لرسالة إبراهيم، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ .

معانى السورة الكريمة

هول يوم القيامة وجدل الناس حولها

قال الله تعالى :

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُنِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

ذكر الله تعالى هول يوم البعث حيث تزلزل القلوب والأرض، فإذا زلزلت الأرض زلزالها اضطربت مع هذه الزلزلة القلوب والنفوس، وزاغت الأبصار واضطربت الأفئدة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، النداء للناس أجمعين في عصر النبوة؛ عرب وعجم، أبيض وأسود وأحمر، الحاضرون في عصر النبي ﷺ، ومن جاء بعدهم، فالخطاب لهم بناء على أن ما ثبت للحاضرين يثبت على المقبلين بقانون المساواة الذي يثبت تساوى الناس في التكليف، وإنه لا يرفع الخطاب إلا عن من ليس أهلاً للخطاب، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، أى ادبرعوا لباس التقوى، ولتمتلئ نفوسكم باتقاء عذاب الله تعالى، وخشيته سبحانه، فخشية الله درع المؤمن، ووقايته من النار،

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلة الحركة الشديدة العنيفة وترديدها مرة بعد أخرى، وقيل: إنها تكرار لـ «زال»، أى أنها تتحرك بزوال ثم تعود، فتضطرب الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة].

و﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى ظرفه، أى الزلزلة التى تكون فى يوم الساعة، وهو يوم القيامة، وعبر عن ذلك اليوم بالساعة؛ لأنه يكون ساعة شديدة خطيرة، لها ما بعدها من هول أعظم، وحساب وعقاب، وقد عبر الله سبحانه عن هذه الزلزلة بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، أى أنها شديدة شدة لا يُمكنه كنهها، ولا يعبر عنها إلا بأنها ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فالشئ اسم لكل شديد، أى أن الألفاظ تضيق عن معانيها، فلا يتسع لها لفظ إلا ما يكون لفظا عاما غير محدودة؛ لأن شدتها غير محدودة، ولا يحدها نطاق.

وقد صور الله تعالى هول هذه الزلزلة، فقال عز من قائل:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾.

صور الله تعالى الفزع الذى ينال الناس عند رؤية هذه الزلزلة فيقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، تذهل أى تنسى وتغفل، والذهول شغل يورث حزنا ونسيانا، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، «ما» إما أن تكون بمعنى «الذى»، ويكون المعنى تذهل ناسية طفلها الذى أرضعته، وغذته من لبنها الذى هو قطعة منها، وكأنها فى هذا الحزن الداهم تنسى نفسها أو قطعة من ذاتها، ويصح أن تكون «ما» مصدرية، والمعنى أنها تنسى إرضاعها فتنسى تغذية من هو كشخصها، أو امتداد

لشخصها، ويزكى هذا التخريج التعبير بالماضى، وكلا التخريجين يفيد أنها فى حال هذا الفزع تنسى وتذهل عما لا يمكن أن يُنسى أو يذهل عنه.

وإنه من هول هذا الموقف، وتلك الزلزلة ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ من الرهبة والفزع، فالحبالى ينزل حملهن من الفزع قبل ميعاد وضعه، ووضعه على الرغم منها لفزعها، واضطرابها، وكأن هذه الزلزلة تزلزل الجسم، وتزلزل النفس، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا ... (٢١٤)﴾ [البقرة]، وقد صور الله تعالى حالهم بعامة رجالا ونساء، مرضع وغير مرضع، حبالى وغير حبالى، فقال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾، أى تراهم كالسكارى، ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ فكان هنا استعارة مؤداها أن الناس لفرط ذهولهم، ونسيانهم لأنفسهم شبهوا بالسكارى، فهم فى غفلة وذهاب رشد، وضياع وعى كالسكارى، وإن لم يكونوا فى حقيقة أمرهم سكارى تناولوا مسكرا، كما تقول لشجاع قوى هو أسد وليس بأسد، أى أنه فى شجاعة الأسد، كأنه هو هو، وإن كان رجلا عاقلا، ولعل ذلك يكون أبلغ فى وصفه بالشجاعة.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ الاستدراك هنا لنفى السكر عنهم، وإن كانوا كالسكارى، وبهذا الاستدراك بين سبحانه شدة عذابه الواقع عند الزلزلة، والمتوقع بعدها، وأنهم يستقبلون هولا أشد وقعا، وأعظم إيلاما، فهو ليس إفزاعا عقليا ونفسيا فقط، بل هو مع ذلك إيلام حسى بالنار كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليزدوقوا العذاب.

وإنه مع هذه الزلزلة التى تزلزل العقول والنفوس، هنا ناس فى لهو عن توقع ذلك مع شدة النذير، وكثرة العبر:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣)﴾.

إنه فى الوقت الذى ينذر رسول الله ﷺ بأخبار يوم القيامة الذى تكون فيه السموات غير السموات وتزلزل النفوس والعقول بزلزلة الأرض يكون

ناس من المشركين يجادلون في ذات الله تعالى ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ومجادلتهم في الله سبحانه وتعالى مجادلة في ذات الله تعالى من حيث قدرته على البعث، ومن حيث إرساله الرسل مبشرين ومنذرين، ومن حيث إن له شركاء في العبادة، فهو في لهو مستمر عن الحقائق ولا يتلقون الحقائق التي جاء بها محمد ﷺ بالجدل فيها وحولها من غير إذعان وتسليم، بل بعناد ولحاجة، والجدل في أمر من شأنه أن يذهب لب الحقيقة في وسط شد الجدل وجذبه، ويروى أن الآية نزلت في جدل بعض المشركين وهو النضر بن الحارث، وكان رجلاً جَدلاً خَصْماً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، . . . وهكذا، وعلى أى حال فالآية الكريمة عامة، ونرى هذا الصنف من الناس في كل عصر، يمضغون الحقائق بجدل عقيم يشيرونه حولها، واختص هذا الصنف من الناس اليهود الذين اتبعهم الأوروبيون والأمريكان وحذوا حذوهم؛ لأن ملهمهم واحد وهو الشيطان، فتشابهوا وتشاكلوا، لوحدة المصدر.

ومن يجادلون في ذات الله على النحو الذي أشرنا إليه، كالذى جاء خبره عن النضر بن الحارث لا يكون جدلهم قائماً على علم علموه، أو رسالة بلغوها، ولكنه التقليد المجرد للمبطلين؛ ولذا قال تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ الشيطان هنا عام يشمل شيطان الإنس من القادة والأمراء والرؤساء الضالين المضلين، ويشمل شياطين الجن الذين يوسوسون بالشر، ويزينونه، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْطَانٍ﴾، الكلية تدل على أنهم يتبعون المنحرف من الأفكار والأقوال، فيتبعون أحياناً شياطين الوجودية، وأحياناً شياطين الشيوعية ورئيسها اليهودي، وأحياناً شياطين التحلل من كل خلق كريم، و﴿مَرِيدٍ﴾ معناه المتجرد من كل معنى كريم، والعارى عن الفضائل، جاء في مفردات الأصفهاني ما نصه: «المارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعري من الخيرات في قولهم إذا تعرى عن الورق، ومنه قيل رملة مرد، إذا لم تنبت شيئاً».

فـ «المريد» على هذا التفسير المتجرد من الخيرات، العارى عن كل فضيلة، ومن سيطر عليه شيطان مريد أفسد نفسه، وأرسله إلى جهنم؛ ولذا قال سبحانه عز من قائل:

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) ﴾ .

الضمير فى ﴿ عَلَيْهِ ﴾ يعود إلى الشخص الذى يجادل بغير علم؛ لأنه هو المتحدث عنه؛ ولأن الكتابة التى يقدرها الله تعالى تكون على المكلفين، فالأنسب عود الضمير إلى المجادل بغير علم، ويكون معنى ﴿ تَوَلَّاهُ ﴾ جعل الولاية له على نفسه، واتبعه فيما يوسوس به شيطان الإنس من دعوة إلى الباطل والفجور، وفيما يوسوس شيطان الجن من إغراء بالشهوات والأمنيات الباطلة، أى فمن يجعله له وليا، ويتبعه، ويحسبه نصيرا له، ﴿ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾، أى يوقعه فى الضلالة، ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾، أى يسلك معه الطريق إلى عذاب السعير، أى إلى جهنم وبئس المهاد.

ويجوز أن تجعل الضمير فى ﴿ عَلَيْهِ ﴾ يعود إلى الشيطان المريد، وكذلك الضمير فى ﴿ تَوَلَّاهُ ﴾ يعود إليه، ويكون أن من يتولاه الشيطان ويسيطر عليه ويجعله تابعا له يضلّه، ويوصله إلى عذاب السعير.

وفى الحالين التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾، فيه تهكم، ومؤداه أن الرسل يهدون إلى الجنة، أما الذين يتبعون الشياطين، فإن إغراءهم يوصلهم إلى النار، وتلك هدايتهم إن صح أن تسمى هداية.

القدرة على الابتداء قتل على البعث

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي
رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ

مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ
 وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
 طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى
 وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ
 بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
 الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي
 الْقُبُورِ ﴿٧﴾

النداء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لكل الناس عامة، وللمشركين
 واليهود خاصة، فإن من اليهود طائفة الصدوقين لا يؤمنون بالبعث والنشور، ولا
 يفهمون من الحياة إلا الدنيا.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ تخفيف من الله تعالى لحالهم، فليست حالهم
 حال ريب وشك، بل حالهم حال إنكار، فذكر الله تعالى حال الإنكار، والدليل
 المبين في جواب الشرط يثبت للمرتاب والمنكر، وإن التعبير بالريب كما قلنا
 تخفيف من حال المشركين وغيرهم من المنكرين، وهو أيضا فيه تصوير للنفس التي
 لم تفرط على اليقين، ولا على الإنكار؛ لأنه مغيب لا يعلم، فقد يعتري النفس
 شك لأنه لا يعلم إلا بالنقل، فيكون الخطاب موافقا لكثير من الفطر، إذا كان
 الخطاب يذكر حال الريب دون القطع بالإنكار، وهو فوق ذلك يدعو المنكرين إلى
 أن تكون حالهم حال ريب وتردد لا حال قطع وإنكار، بل انتظار حتى يجيء

الدليل من النقل القاطع، وجواب الشرط هو: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ...﴾ وهو دليل مشتق من الماضى الواقع المستمر الدائم يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة؛ لأن الناس يخلقون كل يوم بل كل ساعة، يخلقون من نطفة، ثم علقه، ثم مضغة... إلى آخر ما ذكر سبحانه.

﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ كان الخلق من تراب مرتين: أولاهما فى أصل الخلق والتكوين فخلق آدم أبا الخليقة من تراب، وقد ذكر سبحانه قصة ذلك الخلق وذلك التكوين، والمرة الثانية أن ذلك متجدد مستمر، فالأب والأم يأكلان مما تنبت الأرض من نبات، وثمرات مختلف ألوانها، ومن حيوان يسرى فيها، وما ينتجه طينها من نبات، فذلك من الأرض بتحويل عناصرها إلى نبات، وأشجار وتوليد الثمار من الأشجار، ثم تحول العناصر المختلفة إلى نطفة، وفى كل الأحوال يكون سبحانه شيئا من شيء فهل يعجز عن تحويل الرميم إلى حى.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهى ماء الرجل يلتقى بخلية المرأة التى ينفثها رحمها فى حال الحيض، وسمى النطفة، لأنه ينطفه أى يقطر منه وقد سماه سبحانه ماء دافقا، كما فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)﴾ [الطارق]، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾، أى أن النطفة صارت علقه، وهى قطعة لحم طرية ثم تجمدت، وصارت مبتدأ لخلق آخر، وهو مضغة؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾، أى انتهت العلقه إلى مضغة، وصارت هذه ابتداء خلق آخر، ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أى مصورة مميزة الأجزاء بالخلق والتكوين، وليست قطعة لحم فقط، بل صارت ذات شكل مميز يشير إلى أجزاء بعد كمال تكوينها، ولا تكون مخلقة قبل هذا التخليق وبيان الأعضاء، ولعل المخلقة هى التى تكون عظاما غير مكسوة بلحم أو مكسوة.

ونجسب غير المخلقة هى التى تكون مضغة لم تتكون عظامها؛ ولذا لم تذكر هنا حال كونها صارت عظاما، كما ذكر سبحانه فى سورة «المؤمنون»، حيث قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]، هذه أدوار خلق الإنسان في بطن أمه، وما كان لأحد علم بهذه الأدوار التكوينية، حتى جاء العلم من بعد بيانها، وعلم الله الذي جاء في القرآن الحكيم فوق كل علم؛ لأنه العالم الخبير المنشئ الخالق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك].

ولقد قال تعالى: ﴿لُبِّينَ لَكُمْ﴾، «اللام» لام التعليل إذا كانت متعلقة بـ«ذكرنا» محذوفة، أى ذكرنا ذلك ﴿لُبِّينَ لَكُمْ﴾، أى نعلمكم بالخلق والتكوين، وتكون اللام النافية إذا كانت اللام متعلقة بقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، أى خلقنا الإنسان ذلك الخلق ليكون المآل والعاقبة أن يتبين لكم، وأن تعلموا بهذا الخلق والتكوين أمرين:

الأمر الأول - عجائب صنع الله تعالى في خلق الكون والإنسان، كما أشار إلى ذلك بقوله جل وعز: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات]، وإن الله وحده هو الذى يخلق الأشياء من عدم، ثم يتولى هو سبحانه وتعالى تحويلها من حال إلى حال، حتى استوى الإنسان خلقا سويا.

الأمر الثانى - أن الذى حول التراب إلى كائنات حية، وتوالت بخلقه الأحياء ليس بقادر على أن يحيى الموتى.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ «الواو» كما يقول المفسرون واو الاستئناف، وإنى أرى أن الواو واو الحال، أى أنه والحال أننا نضع على سبيل القرار فى الأرحام ما نشاء، من نطفة وعلقه ومضغة ومخلقة وغير مخلقة، فإنها فى الأرحام تتحول من نطفة إلى علقه، فمضغة مخلقة بالعظام وغير مخلقة، وتكسى العظام باللحم، وإن قوله تعالى: ﴿مَا نَشَاءُ﴾، أى الذى نشأه فى أدواره المختلفة، فهو

بوضعه بمشيئة الله تعالى وإرادته، لا بما يسمونه بالتفاعل من غير إرادة الفاعل المختار الوهاب، وإن وضعها إلى أجل مسمى هو مدة الحمل التي لا يقدرها إلا الله تعالى.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أى يخرج كل واحد منكم طفلاً لا يقوى على الحياة وحده؛ لأنه يكون ضعيفاً كما قال الله تعالى: ﴿... وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ [النساء]، وأطول مدة لحاجة المولود إلى أبويه من الحيوان هو الإنسان، وفيها يحتاج إلى الرضاعة والحضانة، حتى يستوى شاباً يبلغ أشده، وتكمل قواه، هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾، ثم عاطفة لتبلغوا أشدكم على فعل محذوف، هو فى معنى جزء العلة، وتقديره مأخوذ من الكلام السابق، والمعنى يخرجكم طفلاً لتتربوا وتكبروا شيئاً فشيئاً وتكألون برعاية آبائكم وأمهاتكم، ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾، وكان العطف بـ«ثم»؛ لأن مدة الطفولة، تطول ولا تقصر، فالتراخي ثابت بالزمان، وبالبعد بين الطفولة والرجولة و«أشد» يقول البيضاوى إنها جمع شدة، كأنهم جمع نعمة، والشدة هنا القوة المستمكة التي تعتمد على ذاتها ويكون لها كيان مستقل عن أبويه، ومنكم من يتوفاه الله تعالى فى قوته وشبابه أو كهولته حتف أنفه أو قتلاً فى جهاد أو اعتداء: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى يبلغ أَرْدَلِ الْعُمْرِ؛ لأن بلوغ أَرْدَلِ الْعُمْرِ ليس بلوغ غاية تنغيصاً وصالحة فى ذاتها، وعبر بقوله: ﴿يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾؛ لأنه رجعة إلى الوراء، وعودة إلى الضعف فى جسمه فيهن العظم، ويتقوس الظهر، ويضعف العقل، ويضل الفكر، وينسى بعد أن كان يعلم؛ ولذا قال: ﴿لَكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أى أن ما علمه ينساه، فما كان من علم يذهب، وما كان عنده من تدبير وقدرة على العمل، ووزن للأمور، وسماء تعالى: ﴿أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾، أى العمر المرذول الذى يكون عبثاً على صاحبه.

وقد ذكر سبحانه بعد هذا الدليل الملزم المبين قدرة الله تعالى ذكر دليلاً آخر، وهو فى المطر والنبات كما كان الأول فى الإنسان، وإذا كان فى الأول نعمة الإيجاد، ففى الثانى نعمة الإرث.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

بِهَيْجٍ ۝﴾

تصوير لتغيير الله تعالى الأحياء أو مواضعها من حال إلى حال والخطاب فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ لكل من هو أهل للخطاب؛ لأنه استدلال للجميع على قدرة الله تعالى فى الأشياء من حال إلى حال، وأنه يخرج الحى من الميت، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾، أى جف نباتها وذبل ما فيها ومات، وصارت كالأرض الميتة لا حياة فيها ولا نبات ولا ماء، والهمود واضح أنه يعترى النبات، ووصفت به الأرض؛ لأنه محل هموده، ومحل حياته، فهو من إطلاق اسم الشئ وإرادة محله.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ من السماء أو الأنهار أو العيون، وسمى إنزالاً؛ لأن أكثر الماء الذى يكون غيثاً من السماء وماء الأنهار من الغيث، وماء العيون من ماء الأنهار الدفين فى الأرض، فالأصل هو الإنزال، فيصح أن يطلق على ماء السماء، وماء الأنهار والمياه الجوفية العذبة.

والضمير فى ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى الأرض، و﴿اهْتَزَّتْ﴾، أى اهتز نباتها الأخضر، فيميل يمينا وشمالا بالرياح التى تميله، والاهتزاز للنبات لا للأرض، ولكن أطلقت الأرض وأريد نباتها لأنها محله؛ ولأن الاهتزاز يراه الرائي فى اهتزاز النبات، وهو منبسط بلون سندسى، فيرى كأن الأرض هى التى تهتز لا النبات، ﴿وَرَبَتْ﴾: أى نمت وعلت، والنمو والعلو للنبات، وهذا مجاز على النحو الذى ذكرناه، والعلو وصفت به الأرض؛ لأن الرائي يراه، كأن الأرض هى التى تعلو، وقال تعالى فى إنبات الأرض: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، أى حسن المظهر، يظهر فى الأرض كأن يد راسم رسمته وزخرفته، و﴿زَوْجٍ﴾ المراد به الألوان المتقابلة من أبيض وأزرق، وأحمر وأصفر، فتبارك الله الخلاق العليم.

هذا هو الدليل الثانى، وهو محسوس فى أنه أحيا الأرض بعد موتها، وأثبت فيها ما فيه قوت الأحياء، وفيها من المناظر، وقد حول الله تعالى بهذا الماء، نباتا فيه غذاء الإنسان والحيوان، أفلا يستطيع إعادة الحياة إلى الإنسان كما بدأ.

بعد ذلك أخذ الله سبحانه النتيجة من هذين الدليلين اللذين ينبهان العقول التى تدرك، وتلهمهم بالدليل المزيل لريبهم، إن كانوا يرتابون، ويفحمهم بالدليل القاطع إن كانوا ينكرون.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦).

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى تحويل كون الإنسان من تراب إلى نطفة، ثم إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم قراره فى الرحم حتى يستكمل نموه فى الدور الأول فى بطن أمه، ثم يخرج طفلا فى الوجود، ثم يبلغ أشده، وإنزال الماء والنبات، كل ذلك بسبب أن الله هو الحق، ف «الباء» للسببية ﴿الْحَقُّ﴾، أى الثابت فى ذاته المطلق فى الوجود كله، فهو الموجود واجب الوجود، وكل موجود يستمد وجوده منه، وهو يخلق سبحانه وتعالى الأشياء ابتداء ويخلق بعضها من بعضها، فلا غرابة أن يخلق من الرميم حيا، ولو كانت فى تكوين حجارة أو حديد، أو ما هو أقوى صلابة من هذين، ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾؛ لأنه خلقها ابتداء فأعادتها أسهل عليه، كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) [الأعراف]، ثم ذكر سبحانه وتعالى قدرته عز وجل ب «أن» المؤكدة، وذكر لفظ الجلالة الذى يشتمل على الوصف كماله، والتزويه من كل نقص، وأكدته بتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لأن ذلك يدل على عظيم اهتمامه بخلقه.

وقد قدر سبحانه ما هو قاطع، وهو لب الإيمان، فقال عز من قائل:

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧).

الواو عاطفة على ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، وهى تتضمن القصر، أى الله وحده هو الحق، ولا حق غيره سبحانه، فعطف على ذلك ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ

فِيهَا ﴿٤٩﴾ ، أَى أَنَّهُ كَمَا أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَهُ الْوُجُودُ ، وَأَنَّهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ ، فَكَذَلِكَ السَّاعَةُ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى رَيْبِ الَّذِينَ يَرْتَابُونَ فِيهَا ، وَإِذَا كَانَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرْتَابُونَ ، فَلَا دَلَّةَ قَائِمَةٍ مُثَبَّتَةٍ مُوجِبَةٍ مُزِيلَةٍ لِلرَّيْبِ كَاشِفَةٌ لِلْحَقِّ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ، وَلَوْ تَبَدَّدَتْ أَشْلَاؤُهُمْ ، وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُمْ ، وَتَدَاخَلَتْ فِي أَجْسَامٍ ، فَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الجاحدون ومرضى القلوب والمنافقون

قال الله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي
الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ
وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ
ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِيَتَسَّ الْمَوْلَى وَلِيَتَسَّ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

هذه السورة مدنية ، وفي المدينة التقى النبي ﷺ باليهود ، وغيرهم من أهل الكتاب ، ولم يكن الجدل بين النبي ﷺ لذلك تشعبت المناقشة حول الله تعالى إلى شعب شتى فوق الجدل في عبادة الأوثان والإشراك بالله سبحانه وتعالى ، فكان الجدل حول ما أشاعه العرب من عبادة ، وحول إرسال الرسل من غير بنى

إسرائيل، ومقام الشريعة التى جاء بها محمد ﷺ من الشرائع السابقة، وخصوصا شريعة التوراة بعد أن حرف الكلم عن مواضعه، وقد قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨)﴾ .

المجادلة فى الله تعالى هى المجادلة فى ذاته وصفاته وقدرته وعلمه ووحدانيته، وكل مجادلة حول شركاء له مجادلة فى ذات الله، وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أى بغير علم يثبت بالضرورة، منكراً كل أمر تهدى إليه الفطرة، ومتجاهلاً الحقائق الثابتة بأن يتجاهل أن الأوثان لا تضر ولا تنفع، ومنكر البدهيات، فمعنى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بجهالة، ﴿وَلَا هُدًى﴾، ولا دليل يهدى إلى الحق ويبيّنه، ويسدّ المدارك إلى الحق، ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾، أى ولا كتاب منقول غير الحق، ويوضح السبيل إليه، ومعنى ذلك أنهم حائرون باثرون، لا يأخذون بعلم ضرورى، ولا بعلم يأتى بالنظر والبرهان، ولا بمنقول من كتاب منزل منير، ويهدى إلى سواء السبيل.

والآية السابقة، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ (٣)﴾ مع هذه الآية ليستا واردتين على مورد واحد، فالآية السابقة واردة على الذين يتبعون كل شيطان متمرّد من شياطين الإنس ويقلّدونه ويسيروا وراءه سير التابع وراء المتبوع، وهذه الآية التى نتكلم فى معانيها السامية واردة فى الذين يقولون مستقلين غير تابعين لما رد ولا ذى سلطان، ولكنهم لا يتبعون علما ضروريا، ولا علما نظريا، ولا علما منقولاً عن معصوم ينسب كلامه إلى رب العالمين.

وهذا من شأنه أن يعرض عن الحق، ويضل غيره؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ

الْحَرِيقِ (٩)﴾ .

(العِطْفُ) هو الجانب، و﴿ثَانِي﴾ اسم فاعل من ثنى يثنى، أى لواء مستكبرا

أو معرضاً، أو هما معاً، أى مع أنه يجادل فى الله بغير أى نوع من العلم، بل

بجهالة جهلاء، مع ذلك يلوى عنقه مستكبرا معرضا، مفاخرًا بما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝﴾ [المنافقون]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنِيَ مُسْتَكْبِرًا ۝﴾ [لقمان].

وإنهم بهذا التفاخر بالباطل والكبرياء والاستعلاء يضلون غيرهم لضعفهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أى ليضل غيره عن طريق الحق، فاستعلاء الباطل يغرى باتباعه، وإذلال أهل الحق يغرى بتركه إلا من ربط الله تعالى على قلبه.

وقد ذكر الله تعالى عند مغالبة الحق والباطل، فقال عز من قائل: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، يجعل كلمة الحق هى العليا، وكلمة الباطل هى السفلى، كما كان الخزى فى بدر، والأحزاب، وغيرهما، وذلك لا يعفيهم من عذاب الآخرة ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هو وضعه فى جهنم المحرقة نارها، وعبر بـ ﴿نَذِيقُهُ﴾؛ لأن الإلقاء فى الجحيم من غير أن يذوق حريق النار، ويلهب إحساسه بها - لا يدرك معه حقيقة العذاب؛ لأن العذاب فى ذات الإحساس بالنار. ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۝﴾.

الإشارة فى ﴿ذَلِكَ﴾ للعذاب و«الباء» للسببية، أى بسبب ما قدمت يداك، والمراد بما قدمت أنت، وعبر عن الذات باليد، من قبل التعبير عن الكل باسم الجزء، وهو من المجاز المرسل، إذا كان لذلك مزيد اختصاص فيما يساق له القول كما يعبر عن الجاسوس بالعين، وهنا كذلك عبر عن الذات باليد التى يكون بها الاعتداء بالبطش وسفك الدماء أو الاغتصاب والإيذاء.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، أى يقال له ذلك الذى نزل بك متكافئ مع ما قدمت يداك فما كان الله ظالما، ولكن أنت الظالم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، وأن معطوف على ﴿بِمَا

قَدَّمَتْ يَدَاكَ»، أى بسبب ما قدمت يداك، ويسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، ﴿وَبِظُلَامٍ﴾ صيغة المبالغة من الظلم، للإشارة إلى أن الله تعالى لا يعاقب إلا بذنب، وإنه لو عاقب من غير ذنب - معاذ الله - لكان ظلاما وهو ليس بظلام، إذ يؤاخذ كل نفس بما كسبت، وإنه قد يعفو عن ظالم لخير فعله؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات؛ ولأنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا، ولكن لا يمكن أن يكون ظالما.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾.

هذا صنف من الناس لا يدخل الإيمان قلبه إلى درجة الصبر على البلاء فى إيمانه، بل يكون إسلامه بظاهر، وهو كأولئك الأعراب، الذين قالوا: آمنا، وأمرهم الله تعالى أن يقولوا: أسلمنا، ولما يدخل الإيمان بعد فى قلوبهم، هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾.

«الحرف» هنا هو الطرف، أى يعبد الله على طرف من الدين، كالذى يكون على طرف من الجيش يقر فيه إذا أحس بالنصر ليأخذ من الغنيمة، وإن أحسّ بالهزيمة فر لكيلا يناله القتل وآثار الهزيمة، وقال سبحانه: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، أى على طرف الإيمان، فلا يعبد عبادة من امتلأ قلبه بالإيمان، وذاق بشاشته، وأحس باطمئنان نفس، واستقامة اعتقاد، وهذا تصوير لضعفاء الإيمان الذين اضطرب اعتقادهم، فكأنهم يكونون على حرف مع الإيمان وهو أقرب إلى الكفر، فطرف الشيء هو الأقرب إلى ما يجافيه، وقد قالوا: إنها نزلت فى بعض الأعراب الذين قدموا المدينة وكان بعضهم إذا صح بدنه، ونتج إبله وولدت امرأته وكسب مالا وماشية، قال ما أصبت من هذا الدين إلا خيرا واطمأن، وإن أصابه شر قال ما أصبت وانقلب، وروى عن ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث، وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوه عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما فى ديننا هذا خير، ويصدق على هؤلاء قوله

تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ...﴾ (٩٧) [التوبة]، وهؤلاء وأشباههم من ضعاف الإيمان هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾، أى أصابهم أمر يسرهم، وهو خير اطمأنوا وسكنوا، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾، أى شديدة فيها ابتلاء لإيمانه واختبار لنفسه وتعرف لقوة إيمانه، انقلب على وجهه، أى ارتد بعد إسلام، وكفر بما أعلن الإيمان، وإن كان على طرف، وعبر سبحانه عن رده بقوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وهذا التعبير فيه تشبيه حال المرتد عن دينه بحال من انقلب فوق وجهه فصار رأسه فى أسفله، ورجلاه فى أعلاه أى تصويره بصورة شوهاء، شاه منظرها، وقبحت حقيقتها.

وإن من يكون كذلك خسر الدنيا بما أصابه من فتنه لم يعتبر بها فى دينه، وكانت شرا عليه فى دنياه، إذا لم يستفد بها فى دينه، وخسر الآخرة؛ لأنه يموت كافرا، وذلك الأمر الذى آل إليه هو الخسران المبين الواضح.

وقد وصف الله تعالى من تكون هذه حاله بأنه كعبدة الأوثان على سواء.

﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢).

أى أن هذا الذى انقلب على وجهه وتشاء بالإسلام يعود مرتدا إلى من لا يضر وما لا ينفع، فإذا كان لم يعجبه دين الله تعالى وتشاء إذا أصابته فتنه يختبر بها إيمانه وتسليمه الأمور إلى الله تعالى خالق كل شىء الذى ينفع ويضر، فقد رجا ما لا يضر وما لا ينفع، لقد ترك دعاء الله تعالى وحاد إلى دعاء ما لا يضر وما لا ينفع، و﴿دُونِ اللَّهِ﴾ معناها غير الله، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾، أى الذى لا يضر، أى ليس سبب فيه التشاؤم الذى بغض إليكم دين الحق لأنكم فتتم فيه ليختبر مقدار تسليمكم لله، وقد زعمتم أنه لا يضر إيمانكم به، فهو أيضا لا ينفعكم؛ ولذا كرر اسم الموصول، أى يدعون ما لا يضر، وهو أيضا ما لا ينفع، فالإسلام دين الله الذى يضر وينفع أما غيره فدين ما لا يضر وما لا ينفع.

وإنكم إذ خرجتم من دينكم، فقد خرجتم من الهدى إلى الضلال؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، أى ذلك الذى كان منكم، وهو أنكم تريدون الأقدار على ما تحبون، وتسير على ما تشتهون هو الضلال البعيد، أى الذى تبتدون السير فيه حاسبين أنه هداية، وكلما أوغلتم بعدتم عنها بعدا طويلا، وبذلك تمعنون فى الضلال والتهيه إمعانا.

﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۚ﴾ (١٣).

فى الآية السابقة ذكر سبحانه أنهم يدعون ما لا يضرهم، وما لا ينفعهم، وقلنا: إنه كان لا يضرهم فهو لا ينفعهم، وأن الموصوف واحد، ولكن خطر على عقلى بعد كتابة ما تقدم أنهما واردان على موصوفين أولهما لا يضر، وثانيهما لا ينفع كما يدل تكرار الموصول، وهذا ضلال، ويناسب ما ذكر من بعد أنه الضلال البعيد الموغل فى طريق الضلال، والمعنيان بين يدى القارئ يتخير أحدهما، والقرآن حمال معان كلها بين لا إيهام فيه قط.

وفى هذه الآية التى نتكلم فى معناها، نخجدها تشير إلى أن الذى يدعوه من العقلاء، بدليل التعبير بـ (مَنْ) فى قوله: ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، وتكون الدعوة بمعنى الالتجاء والاستغاثة، أو الموالة والنصرة، والاعتماد عليه، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، تفيد التوكيد، سواء أكانت للتعليق أو للابتداء، فتلك تخريجات نحوية لا تمنع ما تدل عليه من توكيد المعانى و«مَنْ» كما أشرنا تفيد أن من يدعونه من العقلاء، وليس معبودا من الأوثان والجمادات، وأن الدعوة للنصرة والموالة، والمعاونة على الباطل، وكان ضره أكبر من نفعه؛ لأن الاعتماد عليه فيه ضرر عقلى ونفسى؛ لأنه يعتمد على غير الله، والاعتماد على غير الله تعالى رقُّ لهذا المخلوق يحد من الحرية، ويمنع الانطلاق إلى العمل الصالح؛ ولأنه ضعيف مثله، لا ينتصر له، ولأنه يجره إلى الشر، فيكون التعاون بينهما قائما على الإثم والعدوان، ولأن الاعتماد عليه اعتماد على شفير هارٍ ينهار به فى نار جهنم.

﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ «اللام» واقعة في جواب قسم محذوف، فهي تؤكد الحكم، وتثبت، و«لبئس» من الأفعال الجامدة التي تدل على الذم، وهي في مقابل «نعم» التي تدل على المدح، و﴿الْمَوْلَىٰ﴾ النصير الموالي الذي يعتمد عليه من يدعوه، ويندبه للنائبات، ويرجو موالاته في الملمات، و﴿الْعَشِيرُ﴾ صاحب الذي يعاشره، فيجره إلى الضلال، والصاحب الذي يواده، ويتعاون معه على غير الخير، بدليل ذمه، إذ لا يذم من يتعاون على الخير، والله وحده هو المستعان في الشدائد المغيث في الضراء، المحمود في السراء.

وخلاصة القول في معنى هذه الآية الكريمة: أن موضوعها ليس دعوة الأوثان والأحجار، إنما موضوعها الاستنصار بالأشخاص، والاعتماد على أهل الباطل في الولاء، والذين يعاشرهم.

جزاء المتقين والفصل بين الناس

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

أشار سبحانه وتعالى إلى أصناف الناس في ضلالهم، فمنهم من يجادل في الله مقلداً شيطانا مريداً من شياطين الإنس، ومنهم من يجادل في الله غير متبع لغيره، ولكنه يتبع الهوى فلا يفكر بعلم ضرورى أو نظرى، أو نقل من كتاب منير، ومنهم من يعبد الله على طرف يرجو خير الدنيا فقط، وينقلب على وجهه إذا أصابه ما يُختبر به ليتبين مقدار إيمانه بقضاء الله وقدره، وإنه سبحانه هو المتصرف كما يريد هو لا كما يريد ذوو الأهواء ومنهم من يدعو ما لا يضر وما لا ينفع، ومنهم من يستنصرون بالموالى والعشراء، ويحسبون فيهم القوة والنصرة، وكل أولئك فى النار.

بعد ذلك بين سبحانه جزاء أهل الإيمان الصادق، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤).

هذا جزاء المؤمنين الأبرار الذين آمنوا فطهروا قلوبهم وعقولهم من رجس الوثنية، وأزالوا ضلال الناس فى أنفسهم، وفى الاعتماد على غير الله تعالى، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أى عملوا كل ما فيه خير للناس، وخير لأنفسهم، وسلامة اعتقادهم وطاعتهم فى عبادتهم، وإن الله تعالى يسكنهم جنات فيها نعيم دائم مقيم، يلتقى فيها نعيم الجسم بسرور النفس، فالإقامة دائمة فى ریحان الجنة، والأنهار تجري من تحت الأشجار فيكون متعة النظر، وراحة البصر، وإن هذه إرادة الله تعالى، وقد أكد سبحانه هذه الإرادة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أكد سبحانه وتعالى أنه سبحانه فاعل مختار لا تصدر عنه الأشياء صدور العلة عن معلولها، ولا السبب عن سببه، كما ضل الفلاسفة وغيرهم ممن اتبعهم، وقد أكد سبحانه القول بتأكيدات ثلاثة، أولها: «إن»، وثانيها: لفظ الجلالة الذى يتضمن الوصف بكل كمال، وثالثها: التعبير بالمضارع الذى يدل على أنه سبحانه فعل ما أراد، ويفعل دائماً ما يريد.

وإنه سبحانه وتعالى الفعّال لما يريد، إن أراد أمرا قال له كن فيكون، ولا يريد شرا أبدا، وإن نزل بأحد ما يسوؤه فلن يستطيع أحد أن يغيره، وإن نال أحد نفعه فلن يمنعه أحد، وإن أراد نصرة من غيره فلن تكون إلا بإرادة الله؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ (١٥)﴾.

هذه الآية لبطلان وهم من يتوهم أن الله تعالى لن ينصره إذا طلب النصرة العادلة منه، واعتمد على غيره، وذلك رد على من يوالى العباد من الموالى والعشراء فى النصرة، فالله وحده هو نعم المولى ونعم النصير، وبئس من يطلب نصرا من غيره وإنه ناصر نبيه فى الدنيا والآخرة.

والضمير فى ﴿يَنْصُرُهُ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ يعود إلى النبى ﷺ، وإن كان لم يجر ذكره فى الآيات قبله، أو فى الآية السابقة، فإنه حاضر فى نفس القارئ للقرآن، وفى قلب كل مؤمن فهو حاضر دائما، وإن محمداً بعد الهجرة قد قامت حروب بينه وبين المشركين، وبينه وبين اليهود، والله ناصره دائما، ولم يهزم فى موقعة، وإذا كان قد أصيب بجراح وقتل من قتل فى أحد فهو لم يهزم ولم يندحر فيها، وكان ذلك يغيظ الكافرين وخصوصا اليهود الذين كانوا يجاورونه فى المدينة، ويذهب بهم فى طغيانهم إلى أن يتمنوا ألا ينصره الله تعالى، كما يتمنى الحاسد الحقود، وقد بين سبحانه فى هذه الآية أن من المستحيل ألا ينصره الله وليموتوا بغيتهم؛ ولذا قال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ من كان يظن مستمرا فى ظنه الذى لا يصدق، والاستمرار فى هذا الظن هو من التعبير بـ ﴿كَانَ﴾، و«أن» مخففة من الثقيلة، واسمها الحال والشأن، أى من يظن أن الحال والشأن أن لن ينصر الله محمدا، وذلك مستحيل، فليمدد بسبب إلى السماء، والسبب: الحبل الذى يصعد به على النخل، والسماء. روى عن ابن عباس أنه قال: إنه سقف البيت، أى

ليمدد الحبل إلى سقف البيت، فإذا وصل وهو متصل به، مربوط في عنقه، ثم ليقطع ذلك الحبل، فيختنق اختناقاً، قيد هذا الاختناق بذلك الحبل، ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ﴾، والاستفهام بمعنى النفي؛ ولذا كانت نون التوكيد في الفعل، وهى تجيء في الفعل المنفى، تأكيداً للنفي، وهذا تأكيد فوق تأكيد النفي بمجيئه بصيغة الاستفهام.

وهذا تخريج صادق كل الصدق، وهو في مضمونه كقوله تعالى: ﴿... قُلْ مُوتُوا بِغِيظِكُمْ...﴾ (١١٩) [آل عمران]، وإنا نوافق على التخريج ما دام منتجاً معنى سليماً مستقيماً يتفق مع جلال القرآن، ومع سياق القصص في السيرة، ولكن نخالف فقط تفسير السماء بالسقف، فذلك ليس في القرآن، إنما تفسر السماء بما هو فوقك، من السماء ذات البروج، ومعنى «ليمدد»، أى ليمتد بالحبل إلى السماء، ثم ليقطعه فإنه يسقط مختنقاً مجندلاً، و«الكيد» التدبير، وإن الله تعالى ناصر عبده محمداً في الدنيا والآخرة، ولتذهب نفس أعدائه حسرات، وكما أن الله تعالى ناصر نبيه في الدنيا والآخرة. ناصر نبيه: مثبت صدق رسالته بالقرآن المبين، ولذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦).

الإشارة إلى إنزال الآيات البينات الواضحات الهادية الدالة على صدق الرسول، والمشابهة بين ما قدر الله تعالى إنزاله وما أنزله فعلاً، أى أنزلناه في الواقع كما قدرناه في علمنا، وهذا تأكيد لإرادة الله تعالى فى أن تكون معجزة النبى ﷺ من نوع الوحي بآيات بينات، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾، أى كذلك الإنزال أن الله تعالى يهذى إليه من يريد له الهداية ويسلكها، وإنى أرى أن المشابهة ليست بين الإنزال المقدر فى علمه الأزلى، والمنزول الواقعى، وإنما أرى أن المشابهة بين نصر الله لنبيه فى الدنيا والآخرة وإقامة الحجة لرسالته فى الدنيا، حتى يبلغ الأجل، ويكون المعنى كما ننصره فى الدنيا والآخرة أيدناه بالمعجزة الباهرة القاطعة التى تتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله، وأنزلنا آيات بينات

واضحات، وأن الله يهدي بهديه من يشاء، فيهدي الناس ابتداء بها، ويزيد بها الذين اهتدوا، وذلك كما يريد، ومن يريد، وسلك طريق الحق، واتجه إليه غير ملتفت لسواه.

وبين بعد ذلك سبحانه أن الناس جميعا مجزيون بعملهم يستوى فى ذلك المؤمن والمشرک واليهودى، والنصرانى والصابى، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧).

الناس جميعا يوم القيامة تميزهم أعمالهم، وهى التى ينالون بها الجزاء عقابا أو ثوابا، والفاصل بينهم هو أحكم الحاكمين رب العالمين وأعمالهم هى التى تقدمهم.

وقد ذكر سبحانه أصنافا ستة، وهم: المؤمنون، واليهود، والصابئون (وهم عبدة الكواكب الذين ادعوا دخولهم فى النصرانية عندما أرادهم المأمون الخليفة العباسى على أن يدخلوا فى دين كتابى، وهم أخفى الناس لاعتقاد)، ﴿وَالنَّصَارَى﴾ على اختلاف طوائفهم ما بين كاثوليك وأرثوذكس، وإنجيليين، ﴿وَالْمَجُوسَ﴾، وهم عبدة النار، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أى الذين أشركوا مع الله تعالى غيره فى العبادة، وبهذا يدخل فىهم الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، ويدخل البراهمة؛ لأنهم قالوا: إن كرشة ابن الله، وهم يصورون آلهتهم بتمثيل، كما يدخل البوذية؛ لأنهم قالوا إن بوذا ابن الله، ويدخل الكونفوشيوسية الآخذون بتعاليم كونغ فوتس الذى حُرِّفَ بكونفشيوس، وهكذا فهم يدخلون فى المشركين؛ لأن الإشراك غير مقصور على العرب الأقدمين، بل هو فى غيرهم مع ملاحظة أن كونغ فوتس بوذى الديانة ولكن له مذهبا خلقيا أخذ به أهل الصين.

وإن ذكر هؤلاء جميعا فى موضوع واحد متعاطفين يدل على أمرين:

الأمر الأول - أنه لا عبرة فى إجابة النبيين إلى اختلاف الملل والنحل، بل الجميع أمام الرسالات الإلهية على سواء، فمن أسرف وظلم كان حسابه عسيرا، ومن آمن واهتدى كان من الله قريبا، وإن الله سيفصل بينهم.

الأمر الثانى - أن الله وحده هو الذى يبين يوم القيامة: الحق فيثيب أهله، والباطل فيعذب الذين تردوا فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الفصل بين الأشياء والأشخاص إبانة كل بخيره وشره، والفصل بين الأقوال تبين صادقها من كاذبها، وحققها من باطلها، وكذلك الفصل بين النحل وأصحابها، أى بيان الحق فيها والباطل منها، وجزاء أهل الباطل، وثواب أهل الحق، وإن ذلك الفصل هو الحق؛ لأن الفاصل هو الله تعالى، وهو خير الفاصلين؛ ولأنه العالم بكل شئ وبهم جميعا، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أى عالم علم من شاهد وعاین، فهو حكم مؤيد بأسبابه، وشاهده الأكبر، وقوله تعالى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيه التعدية بـ«على» إشارة إلى معنى الرقابة عليهم، والإحاطة بهم، وهو بكل شئ محيط؛ لأن كل شئ خاضع له سبحانه.

خضوع الوجود لإرادته سبحانه

قال الله تعالى:

الَّذِينَ رَأَوْا

يَسْجُدُوا لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ

إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

هذا بيان من الله تعالى لخضوع الناس جميعا والكون كله لإرادته سبحانه، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع بمعنى النفي، وهو داخل على حرف النفي «لم» ونفي النفي إثبات مؤكد، كأنه كان استفهام ثم نفي، والمعنى لقد رأيت أيها القارئ للقرآن الكريم أن الله يسجد له من في السموات والأرض، أى يخضع خضوعا مطلقا كل من في السموات والأرض طوعا أو كرها، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَيَسْجُدُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ (١٣)﴾، إلى أن قال عز من قائل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ (١٥)﴾ والسجود طوعا هو بإرادة العبادة من العقلاء المختارين، والسجود كرها، أى بحكم الخضوع المطلق لإرادة المنشئ للكون الواحد القهار.

و﴿مَنْ﴾ فى قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ظاهر الكلام أن ذلك من العقلاء كالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والعقلاء من الجن والإنس المختارين المريدن، والباقي ممن ذكر من الشمس والقمر والنجوم والجبال والدواب، هؤلاء ينطبق عليهم السجود كرها، فالوجود كله خاضع لله سبحانه، وإن من شئ إلا يسبح بحمده فهم خاضعون له خضوع الشئ لمن أوجده، فالجبال تخر له وتصير هباء منبثا، وتحرك بإرادته وأمره، ثم ذكر سبحانه الظالمين والمهتدين من عباده بالفرقة بين الضال والمهتدى فقال سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾، أى كثير اهتدوا وآمنوا فهم فى ذاتهم ليسوا عددا قليلا، وإن كان الفريق الثانى أكثر عددا، وإن لم يكونوا مهتدين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أى أنه ليس بالمهتدى، بل كان من عبدة الأوثان أو من أهل التثليث، أو من أعداء البشرية اليهود، أو من عبدة النيران، أو من عبدة الكواكب وعبدة الملائكة الذين قالوا عنهم إنهم بنات الله تعالى.

وذكر سبحانه وتعالى هؤلاء الضالين بجزائهم، وهو قوله: ﴿حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ للإشارة إلى أنه ملازمهم، به يعرفون، وبه يعيّنون وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ

عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴿١٠﴾، أى ثبت لهم ولازمهم وكان عذابهم بحق لأنهم ظلموا أنفسهم والناس، وضلوا ضلالا بعيدا بعد أن جاءهم المرسلون، وقد كذبوا، وآذوا المؤمنين، وعاندوا الحق، وجحدوا به واستيقنته أنفسهم.

وإن الله قسم الناس، مهتد مكرم، ومهين قد لازمته الإهانة، ولا يمكن أن يكرمه أحد أبدا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ وإهانة الله تعالى لمن يكتب له فى لوحه المحفوظ وقدره المحتوم، إنما تكون لمن سلك سبيل الغواية، وسد مسامع الهداية، فيأخذه سبحانه إلى مواطن الهوان، فبفعله هان، وبإعراضه عن الحق مريدا مختارا عُدْبٌ، وحق عليه العذاب فما لأحد أن يكرمه، ولا يمكن أن يُمكن من ذلك، ولا قدرة له عليه.

وقد أكد سبحانه إرادته الخالدة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، أى ما يريدُه ويشاؤه ويحبه، وليس لأحد من خلقه عنده إرادة ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وأعمالهم فى سلطان إرادة الله سبحانه وتعالى فلا تخرج حركة عن حركة إلا بإذنه، وهو السميع العليم، وقد أكد سبحانه أن له وحده المشيئة المطلقة، والإرادة المختارة بـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة، وبذكر لفظ الجلالة الذى يدل على الإرادة المطلقة، والاتصال بكل كمال، والله على كل شىء قدير.

الخصمان أمام الله يوم القيامة

قال الله تعالى:

هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا
فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ
مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ
وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْشِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا

أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ
 ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
 أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
 وَهُدًى وَآلِ الطَّيِّبِينَ مِنَ الْقَوْلِ وَهُمْ فِيهَا صِرَاطُ الْحَمِيدِ
 ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ
 وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ
 مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٦﴾﴾

الخصمان هما الذين آمنوا بمحمد ﷺ، والذين كفروا من أهل الكتاب
 والمشركين، وهما خصمان؛ لأنهما في جانبين متقابلين؛ ولأن المؤمنين يؤمنون
 بكل ما جاء عن الله، وغيرهم يجادلون في الله؛ لأن الخصومة في الحق قائمة
 بينهم وهي من جانب الذين اتبعوا محمداً ﷺ هداية وإرشاداً، ومجادلة بالتي هي
 أحسن، ومن جانب المخالفين لهم عناد وإغواء ودس وخيانة، ومجادلة بالباطل،
 وادعاء له.

وواضح أن الخصومة كانت في الدنيا، وفي الآخرة كان الجزاء الوفاق، وكل
 ينال ما يستحق، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
 الْحَمِيمُ﴾، أى تقدر لهم على قدر أجسامهم، وتقطع وتخاط، بحيث تحيط النار
 بأجسامهم ماسة أبدانهم كما يمس الثوب جسم اللابس له، ويحتك بلحمه،

وتكون النار مشتعلة في الثياب والأجسام معا، ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾، وهو الماء الساخن الذي يصل إلى درجة الغليان، فالنار تحرقهم في أجسامهم ورؤوسهم، وتصل إلى داخل أبدانهم، ولذا قال تعالى:

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠)﴾.

الصهر إذابة الحديد، فقوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من أحشاء من معدة وأمعاء وقلب وكبد وغيرها، يذاب هذا كله، وأى عذاب يكون في هذه الحال، ﴿وَالْجُلُودُ﴾ أيضا تذاب من شدة الحرارة، ولا شك أن ذلك كله تصوير للعذاب الذي ينزل بهم، وإنه لواقع، والله هو الذي ينجي المؤمنين بفضل رحمته، وبمن منه، وهو الرؤوف الرحيم.

وقد وصف سبحانه بقية من عذابهم، فقال:

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾.

المقامع جمع مقمع، وهو ما يذلل به، ويدفع، وكان خزنة جهنم من الملائكة الأطهار، وافقون كلما هموا أن يخرجوا من النار ردوهم إليها بهذه المقامع التي ترودهم وتدفعهم، وتردهم إليها؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا﴾ فارين من جهنم ونيرانها وغمها وآلامها ردوا بالمقامع إليها وأعيدوا فيها، وقالوا لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أى عذاب النار التي تحرق أجسامكم في ظاهرها كما شوت أحشاؤكم في باطنها، كما أذقت المؤمنين العذاب في الدنيا، وقوله: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾، أى بسبب غم العذاب وغم البؤس، وشعورهم بأنه أبدى خالد، هذا جزاء الكافرين المعد لهم الذي يرتقبهم، وهو جزاء الخصم الأول، أما الخصم الثانى وهو المؤمن فجزاؤه روح وريحان وجنة النعيم؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾.

بعد أن بين سبحانه حال الخصم الأول، ويشمل الكافرين بشتى أنواعهم الذين يجادلون المؤمنين، بين سبحانه حال الخصم الآخر وهم المؤمنون، وإذا كان الفريق الأول قطعت لهم ثياب من نار، وصب من فوق رؤوسهم الحميم وصهرت أحشاؤهم إذا كان هذا الفريق كذلك، فالفريق المؤمن يُدخله الله تعالى بسبب إيمانه، ولقد عبر بالموصول، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ويجتمع فيها النعيم الحسى، والنفسى، فيكون المنظر البهيج بالأنهار تجري من تحت الجنات، وغرف أهل الجنة، وقد أضاف سبحانه وتعالى الإدخال إليه كأنهم فى ضيافته مكرمون، لا يلقون فى الجحيم مدحورين معذبين.

وإذا كانت ثياب المجرمين قطعت من نار لبسوها؛ فثياب المؤمنين من ذهب ولآلى وحرير؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

يصح أن تكون من تبعيضه، أى يحلون بعض أساور من ذهب، وأساور جمع لسوار، إذ هى جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، ويصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ ابتدائية، أى يحلون، وحليتهم من أساور فتكون بيانية، أى هى من أساور، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾؛ لأن محلها نصب، أو نقول مفعول لفعل محذوف تقديره وترصع لؤلؤا، ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، أى لا يلبسون إلا حريراً، وهذا أقصى أحوال النعيم الحسى، وقد يقال: كيف يذكر ذلك على أنه من نعيم أهل الجنة، وقد وردت الآثار بأن الذهب والحرير حرام على رجال الأمة، فكيف يذكران على أنهما من نعيم أهل الجنة^(١).

والجواب عن ذلك: إن الجنة ليست دار تكليف، إنما هى دار ثواب؛ ولذا كان فيها أنهار من خمر لذة للشاربين، ﴿لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ (١٩).

(١) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حُرِّمَ لِبَاسُ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ عَلَى ذَكَوْرٍ أَمْنَى وَأَحْلَى لِإِنَائِهِمْ». رواه الترمذى: اللباس - ما جاء فى الحرير والذهب. وقال حسن صحيح. وعن حَدِيثِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالْحَرِيرُ وَالذِّيَّاجُ: هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ». رواه البخارى: اللباس - لبس الحرير واقتراشه للرجال (٥٣٨٣)، ومسلم: اللباس والزينة (٣٨٤٩).

[الواقعة]، وفوق ذلك أن الجنة فيها نعيم الرجال والنساء، ولا شك أن الأساور واللائىء والحرير من نعيم النساء، والله سبحانه وتعالى هو المكافئ العلى القدير.

وإنه بجوار هذا النعيم الحسى من كل الجوانب فى الجنة النعيم المعنوى؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾.

هذا وصف لأهل الجنة من أقوالهم وأفعالهم فى الدنيا، أم هو وصف لأقوالهم فى الجنة، وقبل أن نتكلم فى مكان القول نشير إلى بعض ما يدل عليه: القول الطيب هو القول الحق، الذى يتقرب به إلى الله تعالى، والذى يقرر القائل له كمال الله تعالى ووحدة ألوهيته والطاعة لله تعالى، وتكبيره، وتقديسه، وتسيحه، والخضوع المطلق له، وحمده فى كل وقت، و﴿صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، هى طريق الله تعالى بإعلان عبادته وحده لا يشرك به شيئاً، و﴿الْحَمِيدِ﴾، أى المحمود فى كل ما يوصف به، والإضافة إما أن تكون بيانية، كقولهم خاتم حديد، أى خاتم هو حديد، ويكون المعنى صراط هو الحميد المحمود فى كل مسالكه من مبتدئه إلى منتهاه، فهو طريق كل خير، يتقل فيه من مرحلة خير إلى غيرها، فهو مراحل الاستقامة تبتدئ من أولها إلى نهايتها، ويصح أن يكون المراد من ﴿الْحَمِيدِ﴾ ذات الله تعالى لأنه المختص بالحمد، ويكون المعنى، وهدوا إلى طريق الله تعالى البالغة الموصلة له مثل قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ... (١٥٣)﴾ [الأنعام]، وهدوا بالبناء للمجهول فى الفعلين، ولم يذكر الفاعل مع أن الهداية كلها من الله تعالى، فحذف للعلم به؛ ولأن الهداية تعدد مسالكها، فهى تبتدئ بعمل من المهدى بأن يتجه إلى الحق مخلصاً النية، فيأخذ الله بيده ويبلغ به إلى أقصى ما يبلغ به من مراتبه.

بقى أن نتكلم فى زمانها ومكانها، أكانت فى الدنيا، وهى التى أوصلتهم إلى هذا الجزاء الوفاق فى الآخرة، ويكون ذكرها فى الجنة تحقيقاً لها، وتأكيذاً لها

وبيان أن ذلك هو السبب في النعيم الذي آتاهم الله بفضله ومنته، فبعملهم في الدنيا وأقوالهم الطيبة بالتوحيد والعبادة، وسلوكهم الطريق الأقوم نالوا ما نالوا في الآخرة.

وثمة اتجاه آخر، وهو أن هدايتهم إلى القول الطيب، والصراط الحميد هو في الآخرة ويكون من النعيم النفسى، إذ إن أهل الجنة يسمرون ويتبادلون القول الطيب، والسلوك الحميد في الآخرة، فيضاف إلى إنعام الله إنعاماً بالسامرة التي ليس فيها فسوق في القول، بل مبادلة محبة ومحبة، وعندى أنه يجمع بين القولين، فتكون الهداية إلى القول الطيب والطريق المحمود في الدنيا والآخرة، والله أعلم.

بعد أن بين الله تعالى جزاء المؤمنين عاد سبحانه إلى ذكر جزاء الكافرين وأعمالهم التي استحقوا بها هذا الجزاء فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلِمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)﴾.

ابتدأ سبحانه وتعالى القول بذكر الكافرين مؤكداً كفرهم بـ«إن» الدالة على التأكيد، وقد ذكر الموصول لبيان أن الصلة هي سبب هذا الجزاء، والصلة فيها أمور ثلاثة تستدعى الاستنكار والعذاب الشديد:

الأمر الأول - الكفر، وكفر أهل مكة هو الإشراك بالله تعالى بعبادة الأوثان.

الأمر الثانى - الصد عن سبيل الله تعالى بإيذاء المؤمنين ومحاربتهم، ودعوة العرب إلى عدم الإيمان بالله وبرسوله.

الأمر الثالث - بصدهم عن المسجد الحرام، ومنعهم من أداء المؤمنين الحج فيه، ويظهر أن هذه الآية نزلت في فترة الحديبية؛ لأن المسلمين حيل بينهم وبين الوصول إلى المسجد الحرام، وهو للناس جميعاً؛ ولذا وصفه الله تعالى بالموصول

بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، أى أن هؤلاء الناس المصدون عن المسجد الحرام من يريد الحج إليه وقد جعله الله - الذى باركه وأكرمهم به - للناس جميعاً، وليس لقريش وحدها، فهم فيه كغيرهم من الناس، وإن كان الله تعالى كرمهم بأن جعل منهم سدنة البيت والقائمين عليه وعلى خدمته وعمارته، وكلمة ﴿سَوَاءً﴾ قرئت مفتوحة وتكون مفعولاً لجعلناه وهى المفعول الثانى، والأول الهاء، وتكون ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقة بـ ﴿سَوَاءً﴾، وقرئت مضمومة، وتكون مبتدأ، ويكون المعنى مستوفية العاكف والباد، وتكون الجملة فى مقام المفعول الثانى أو حال^(١).

و﴿الْعَاكِفُ﴾ المقيم فى مكة، وعبر عنه بالعاكف إيماء إلى أنه ينبغي أن يكون عاكفا عابداً، لا أن يكون وثنيا مشركا، صاداً عنه مانعاً له، والبادى: المقيم فى البادية، وإذا كان المقيم ببادية يستوى مع المقيم فى مكة حول البيت الحرام فأولى المتحضر المقيم فى الحاضرة؛ ولذا قالوا: إن البادى هو من يكون من غير أهل مكة سواء الحاضر فيها والبادى، والتعبير بالمضارع فى يصدون إشارة إلى استمرارهم على الصد عن سبيل الله.

وخبر «إن» محذوف، دل عليه ما يجىء بعد ذلك من قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ تقديره له عذاب شديد، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾، أى إن الذى يريد فيه إلحاداً وميلاً عن الحق واحترام البيت وصيافته بظلم يرتكبه بالشرك والاعتداء على حرّماته، وصد الناس، ومنعهم من الطواف يذيقه الله تعالى من عذاب أليم ينزل به فى الدنيا بالحروب التى تهزمهم، وفى الآخرة بالنار يذوقون حريقها.

وفى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ أمور بيانية تشير إليها:

(١) كلمة (سواء) منصوبة: قراءة حفص، وجيلة عن الفضل عن عاصم، وقرأ الباقون بالنصب. غاية

الأمر الأول - فى قوله ﴿فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى المسجد الحرام، أى يريد خروجاً عن مبادئ الحق والإيمان متلبساً بالإحاد، و﴿مِنْ﴾ شرطية، وجواب الشرط ﴿نُذِقْهُ﴾ إلى آخره، و«الباء» للملابسة أو الملاصقة أو تقوية التعدية، والإحاد الميل عن الحق والانحراف إلى الباطل، يقال أُلْحِدَ إلى كذا: مال إليه، ويقول الأصفهاني فى مفرداته: الإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافى الإيمان ويبطله، والثانى يوهن عُزْرَاهُ ولا يبطله، ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

ونرى أن الإلحاد هنا من النوع الذى يبطل الإيمان، فهو ميل وانحراف إلى عبادة غير الله تعالى، وقد فعل ذلك المشركون فى المسجد الحرام، فقد كانت الأوثان مادة ذلك الإلحاد فى البيت وموضوعة على الكعبة نفسها.

الأمر الثانى - أن قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾، بيان لنوع الإلحاد، وهو الظلم، والشرك أقطع الظلم وأشدّه، ولقد قال تعالى: ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان] وإن اللفظ المطلق إذا لم يقيد انصرف إلى أكمل أفرادهِ، فهو هنا انصرف إلى الشرك وكان من المشركين مع الشرك الذى هو أشد الظلم ظلّمت أخرى فكان فيهم ظلم الضعفاء وإيذاؤهم، وكان فيهم ظلم الاعتداء المتكرر منهم على المؤمنين، وكان فيهم ظلم الاستهزاء بالنبي ﷺ، وكان فيهم ظلم الغدر والخيانة ونكث العهود، وكانوا لا يرقبون فى المؤمنين إلأى ولا ذمة.

الأمر الثالث - فى قوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا بيانية أو ابتدائية، أى نذقه عذاباً أليماً، أو نذقه ذوقاً مرّاً مأخوذاً من عذاب أليم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

آيات فى الحج

قال الله تعالى :

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

الحج شريعة إبراهيم باني البيت ﷺ؛ لأنه باني الكعبة؛ ولأنه أول من أمره الله سبحانه وتعالى بالدعوة إليه؛ ولأن مناسكه كلها هي مناسك إبراهيم ﷺ؛ لأن ما فيه من هدى يومئذ إلى فدية الله تعالى الذي فدى بها إسماعيل ﷺ عندما هم بذبحه، برؤيا إبراهيم ﷺ، وذكر هنا في هذا المقام إشارة إلى أنه ليس حق الطواف فيه مقصورا على قريش وحدها.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر يا محمد لهؤلاء الذين يصدون عن البيت، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾، بوا بمعنى



هياً وسوى، وهياً المكان سواء وأعده، و«اللام» فى قوله تعالى: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾، «لام» الاختصاص، أى بؤنا المكان وسويناه لإبراهيم يتخذة مكانا للبيت الحرام، ويكون مثابة للناس وأمنا، كما أشارت لذلك الآيات الأخرى الكثيرة، وإن هذه التبوئة والمكان كان مكان عبادة، فهو إشارة إلى الكعبة التى هى أول بيت وضع للناس؛ ولذلك كانت التبوئة من سياق تاريخ إبراهيم وأعماله عليه السلام متضمنة معنى العبادة، وقد فسر الله تعالى العبادة التى أمر الله بها نبيه وخليله إبراهيم بقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (أن) هنا تفسيرية، وهى بيان لما تضمنته معنى التبوئة والتخصيص، وجعله مثابة للناس وأمنا.

فسر الله تعالى العبادة التى طالب الله سبحانه وتعالى خليله بها هى:

أولا - ﴿لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾، أى شيئا من الشرك، أى اجعل عبادتك لى خالصة، فلا تشرك فى عبادتك صنما، ولا كوكبا، ولا شمساً ولا قمراً، ولا ترائى بأى نوع من الرياء فى أى عبادة من العبادات.

وثانيا - تطهير البيت من كل ما فيه فاذورات حسا أو معنى، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، والقائمون هم القائمون للصلاة، فكأنه قد ذكر فيها الأمر بالصلاة، بالأمر بأركان من قيام وركوع وسجود، و﴿الرُّكَّعِ﴾ جمع راعع، و﴿السُّجُودِ﴾ جمع ساجد وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ﴾ وما عطف عليها فيها الطلب بالنهى فى ﴿لَا تُشْرِكْ﴾، وبالطلب فى ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وأضاف سبحانه وتعالى إلى ذاته البيت فى قوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ إلى آخره، تشريفا لهذا البيت زاده الله تشريفا وتكريما، وليبان أن البيت بيت الله تعالى للناس أجمعين، فلا يسوغ لأحد أن يصد عنه؛ لأنه يصد عن أكرم بيوت الله تعالى، فكأن الصد عنه تحداً لله تعالى، ولقد أمر سبحانه بعد الأمر بما أمر، وبما نهى عنه - أمر بأن يؤذن للحج، فقال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ

عَمِيقٍ﴾ (٢٧).

﴿وَأَذِّنْ﴾ أمر من الله تعالى لإبراهيم بنى الكعبة، ﴿وَأَذِّنْ﴾ - من «أذن» بمعنى أجاز - وأعلم كآذن، والتأذين: الإعلام والدعوة، والمؤذن هو الداعي إلى الله تعالى، وخصص - عرفا - بالدعوة إلى الصلاة.

﴿فِي النَّاسِ﴾ إخبار للناس كلهم عربا وعجماء، وهى دعوة عامة إلى حج البيت الحرام، وعدى الفعل بـ«فى»، ولم يقل «الناس»، بل قال تعالى: ﴿فِي النَّاسِ﴾ للإشارة إلى عموم الإعلام فى الناس؛ لأنه إذا لم يذكر (فى)، فقد يفهم أنه يكلم أهل عصره، أو من يمكنه خطابهم فقط، وذكر (فى) يدل على أن الإعلام فى أوساط الناس كلهم، لا فرق بين القريب الدانى والبعيد القاصى، فالجميع يجب أن يبادروا إلى الحج إلى بيت الله؛ لأنه أول بيت وضع للعبادة للناس؛ ولأن التأذين بالحج يتضمن إعلام الناس، أو معناه إعلام الناس تعدى بالباء.

والحج معناه القصد، وخص بالقصد إلى بيت الله الحرام، وخصص عرفا شرعيا، أو اصطلاحا دينيا بالقصد إلى الكعبة طائفا، وإلى الصفا والمروة ساعيا، وإلى عرفة واقفا فى ميفاته، وهو من زوال اليوم التاسع، والبيات بمنى، والوقوف بالمشعر الحرام، وهو المزدلفة، والعود إلى منى ورمى الجمار بها بعد النحر فى أيام ثلاث بعد يوم النحر، وهى أيام التشريق ويكون الهدى، وسيشار إلى كثير من ذلك فى الآيات التى نتكلم فى معانيها من بعد.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، أى إذا ناديت وأعلمتهم بفريضة الحج يأتوك راجلين سائرين على أقدامهم، و﴿رِجَالًا﴾ جمع راجل كصاحب وصحاب، وتاجر وتجار، والراجل هو الماشى على رجله، فى مقابل الراكب، وهنا أمران بيانان:

الأمر الأول - فى قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، والدعوة ليست المجيء إلى إبراهيم، إنما المجيء إلى البيت وما حوله، ولكن ذكر المجيء إلى إبراهيم لأنه المؤذن، ولأنه البانى للبيت.

والأمر الثانى - أن ﴿يَأْتُوكَ﴾، جواب الأمر، وهو يدل على قوة الإجابة، إذ يجمع الناس على الحق والهداية والتعاون وهو بيان لما ينبغى ويجب، ولا يمنع ذلك أن يكون فى الناس عصاة لا يهتدون ولا يجيبون داعى الله تعالى.

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، الضامر: البعير المهزول الذى ضم من شدة التعب، وأجهدته السفر، وهذه الحال تكون عند وصوله مكة وما حولها، ويكون هذا الوصف دليلا على أن الذين جاءوا إلى البيت، وقد صرحت الآية بذلك فى وصف الابتداء الذى ابتدأت به للاتجاه إلى بيت الله تعالى، فقال تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الفج يطلق على الطريق بين جبلين ويطلق على الطريق الواسع، والعَمِيق معناه البعيد، وأطلق على البعيد بعدا رأسيا كالآبار ونحوها، ثم أطلق على البعيد مطلقا، و﴿يَأْتِينَ﴾ يعود الضمير إلى الإبل تكريما لها فى حمل الحجاج إلى بيت الله الحرام.

وإن هذه الدعوة التى قام بها إبراهيم خليل الله ومنشئ أول بيت وضع للناس فى مكة وسط العالم والتى يصلى حولها العباد المسلمون وقد أخذت الآيات الكريمة تشير إلى مناسك الحج من غير بيان تفصيلي.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾.

«اللام» هنا لام العاقبة، أى لتكون عاقبة ذلك السفر الطويل أن يشهدوا منافع لهم، ويذكروا الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، والشهود هو الحضور، أى يحضروا منافع لهم، ويعاينوها، ولكن ما هى هذه المنافع التى تسبق ذكر الله بالعبادة والذبح، قال ابن عباس رضى الله عنه: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع

الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات، وأما منافع الآخرة، فرضوان الله تعالى، وكذا قال مجاهد راوى التفسير عن ابن عباس، ونقول: إنه سبحانه وتعالى ذكر المنافع بلفظ نكرة، والتعبير بالنكرة يدل على أنها منافع عظيمة، لا يقدر قدرها ولا تدرك نهايتها للناس، ونرى أن هذه المنافع مادية ومعنوية وعبادية، وهى سنام المنفعة، أما المنافع المادية فتتبادل بين الأقاليم الإسلامية، فأهل كل إقليم يجلبون معهم من مواردهم ما لا يكون عند غيرهم، فما عند الهنود من خيرات يفيضون به على غيرهم من المسلمين، وما عند المصريين من خيرات يفيضون به على غيرهم ممن ليس عندهم مثلها أو هو قليل، وتعتقد فى مواسم الحج الصفقات الاقتصادية وذلك ليس بممنوع، بل هو مطلوب، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ (١٩٨) ﴿البقرة﴾، وإن ذلك يجيز بل يوجب أن يعقد فى موسم الحج الاتفاقات التجارية، ويتخذ من موسم الحج موعدا للدراسات الاقتصادية بين المسلمين، ولقد كانت فى مكة الأسواق التجارية مثل عكاظ وذى المجاز، وغيرهما.

أما المنافع المعنوية، فدراسة التعاون الإسلامى من كل النواحي الاجتماعية والحرية والتعاونية والتعليمية ويعمل كل إقليم على التعرف ببقية الأقاليم الإسلامية والتعريف بحاجاته من العلم والحرب، وغيرهما وكذلك يشعر كل إقليم بأنه يعيش فى مدن الأقاليم الإسلامية، ولا يشعر بنفرة الانفراد.

أما المنافع الدينية، فهى قضاء النسك الإسلامى فى أماكن النسك، وإن المنافع السابقة لا تخلو من أنها دينية، وأنها تكون عبادة إذا قصد بها وجه الله ورفعة الإسلام، وإيجاد الوحدة الإسلامية وتوثيقها، فالمسلمون جميعا أمة واحدة، وبذلك ينتفع الحاج إلى بيت الله الحرام، وهو مزود بالتقوى والمعرفة والأخوة فى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ذكر الله تسبيحه وامتلاء القلب بالإيمان به، والخضوع له، والخشوع،

والضراعة له، وذكر اسمه لهذا أيضا، ولكن يذكر اسم الله على الذبيحة لتكون لله، وللبعد عن رجس الجاهلية في ذبحهم على النصب، وذكر اسم الأوثان، وذكر اسم الله تعالى هنا على ذبائح الهدى من البدن والغنم، والبدن اسم حبشى جمع للبدنة، وهى الذبائح من الإبل والبقر، فالواحدة منها تكفى عن سبعة.

ونلاحظ أنه ذكر سبحانه أن ذكر اسمه تعالى فى أيام معلومات، وأن الذكر يكون على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فالذكر يكون على بهيمة الأنعام، والإضافة بيانية، أى بهيمة هى الأنعام جمع نَعَم، وهى الإبل والبقر والغنم، وسميت نعما؛ لأنها نعمة الله تعالى، وهى التى تكون هديا فى الحج، لمن يجمع بين الحج والعمرة فى إحرام واحد، أو فى إحرامين بينهما تحلل فى أشهر الحج.

وذكر اسم الله يكون فى أيام معلومات، وهذا يقتضى أن يكون ذبح الهدى فى هذه الأيام المعلومات، ولكن ما هى الأيام المعلومات التى يكون فيها الذبح، وذكر اسم الله تعالى فيها، بالتسبيح والتكبير، وامتلاء النفس والمشاعر المؤمنة به، ما هى هذه الأيام المعلومات، روى أنها الليالى العشر التى تبدئ بיום عرفات، وينتهى بها الحج، والتى جاء فيها النص القرآنى بقوله تعالى: ﴿... فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) ﴾ [البقرة].

وقد وردت الآثار الصحيحة عن النبى ﷺ بفضل ذكر الله ودعائه فى هذه الأيام العشر التى تبدئ من اليوم التاسع، فقد روى ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»^(١).

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد: مسند المكثرين من الصحابة- مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما (٥١٨٩).

وقيل: إن هذه الأيام المعلومات هي الأيام المعدودات في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى... (٢٠٣)﴾ ونيل إلى أنها الأيام العشرة، ولقد قيل: إنها الليالي العشر في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢)﴾ [الفجر].

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، «الفاء» هنا للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا ذبحتموها اذكروا اسم الله تعالى فكلوا منها، فالأكل من الهدى مندوب، وليس فرضاً، ولا ممنوعاً، والبائس هو الذى يكون فى شدة وبؤس شديد من مرض، أو شدة، أو إجهاد فى سفر، والفقير المحتاج، وقد قال العلماء فى الهدى: إن المندوب أن يأكل ما لا يزيد على الثلث، ويهدى ما لا يزيد على الثلث، ويطعم الفقير المحتاج، وقد يكون ثمة فقر شديد، وحاجة ملحة فيزيد فى إطعام البائس الفقير.

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾.

التفت: الأوساخ والأدران التى تكونت بسبب المنع من الاستحمام، وحلق الشعر، والعانة والإبط، مما يوجبه الإحرام، ويستمر به الشخص محرماً، لا يتناول شيئاً مما حرمه الله تعالى، وذلك ليعيش عيشة الفقراء، فيحس بآلام الفقراء، وبؤس المحرومين من زينة الدنيا، وليكون الناس على سواء أمام الله تعالى، وليجيئوا إلى ضيافة الرحمن، كما ولدتهم أمهاتهم، ويخرجوا من الحج، كما ولدتهم أمهاتهم، وقضاء التفت يرمز إليه بحلق الرأس، أو التقصير والاكتفاء بقدر من قص الشعر، وتقليم الأظفار الذى كان ممنوعاً بالتحريم.

والتعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا لإفادة التفاوت بين حال المنع بالإحرام، وحال التحلل منه مثوباً مكرماً، وحين ذلك يكون نحر الهدى لمن وجب عليه الهدى.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمر بالوفاء بالنذور ووقته هو بعد التحلل من إحرام الحج، لأن الوفاء بالنذر، لقول النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(١)، وقد قال الفقهاء: إن النذر يجب الوفاء به بشرط ألا يكون معصية وأن يكون طاعة في ذاته، وأن يكون من جنسه، وكان الوفاء بالنذر بعد التحلل من الإحرام، لكيلا تختلط عبادتان، وليكون إحرام الحج خالصا للحج، ثم قال تعالى: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وشدد سبحانه في الطواف بصيغة الافتعال، تشديدا في الوجوب؛ لأن صيغة الافتعال تفيد التشديد في الفعل، وإن هذا الطواف الذي يكون بعد النحر والوقوف بعرفة والمشعر الحرام هو الركن، وهو ما يسمى بطواف الزيارة، و«البيت» هو المسجد الحرام، وذكره مجرد إشعار بشرفه، ولأنه معرف من غير تعريف، ووصف بالعتيق، «العتيق» معناه القديم، ومعناه المعتق من التعدي على حرماته، فهو أول بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...﴾ (٩٦) ﴿آل عمران﴾، وهو معتق من الاعتداء عليه من عدو مهاجم، وبذلك يتبين الإثم الكبير الذي رمى به الطاغية الأثيم الحجاج بن يوسف الثقفي، وهذا إلحاد في البيت، ولا يبرره أي مبرر، ولكن مع إثم الحجاج قد أعاد الله بيته على يده الهادمة، فكان معتقا أيضا.

تعظيم مناسك الحج

قال الله تعالى:

ذَلِكَ وَمَنْ
يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ
لَكُمْ الْآثَانُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٠﴾

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ
السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢١﴾
ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٢﴾
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْمُلُهَا إِلَى الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ ﴿٢٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْيَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ
فَلَهُ ۖ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ ، الإشارة هنا إلى الحج الذي أذن به خليل الله إبراهيم ، وتكون
﴿ذَلِكَ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف تقديره الحج هو ذلك ؛ لأن الآيات السابقة أشارت
إلى أركانه وواجباته ، إذ أشارت إلى الوقوف بعرفة أول الأيام العشرة ، وأشارت
إلى الطواف بالبيت ، وأشارت إلى محرمات الإحرام ، والتحلل ، وحدت كل
شعيرة من شعائره ، ووقت لها في ميقاتها المعلوم ، ثم حثت الآية الكريمة على
المحافظة على حرمان الحج ، فلا يتحلل قبل ميقاته لمن أحرم بالحج على حسب ما
نوى من حج وعمره أو أحدهما ، ووقت تحلله من إحرامه ، فقال : ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ
حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ ، «الواو» عاطفة على جملة ﴿ذَلِكَ﴾ الدالة على التعريف الموجز
للحج ، والإشارة إلى أركانه ، ومحرماته ، وأوقاته ، و﴿يُعْظَمْ﴾ معناها يعطيها



حقها من الإعظام والإكبار، فلا ينتهك موانع الإحرام، ولا يؤدى الأركان فى مواعيدها، ولا يرفث ولا يفسق ولا يجادل فى الحج، كما قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ... ﴾ (١٩٧) [البقرة]، والحرمت جمع «حرمة»، وهو ما لا يحل انتهاكه مما حرمه الله تعالى فى الحج من بعد الإحرام وهو فرض الحج عليه، وقد روى عن زيد بن أسلم أنه قال: حرمت الحج خمس: الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، وما حرمه الله تعالى على المحرم بعد فرضه الحج على نفسه^(١).

﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾، هذا جواب الشرط ﴿ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ ﴾ و«الفاء» واقعة فى جواب الشرط، وهو قوله: ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾، فيها تأكيد الخيرية أولا: بذكر ضمير الفصل «هو» - وثانيا: بتخصيص الخيرية «له»؛ لأنه قام بمناسك الحج، أدى موجباتها وبعد عن موانعها، وقام بحق ضيافة الله تعالى حق قيامه، وتعاون مع المسلمين وتعرف بهم، وذلك خير له ولكل المؤمنين. وثالثا: بأن أضاف الخيرية بأنها ﴿ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ الكالى له والحامى.

وقد ذكر الحرمت مضافة إلى ذى العزة والجلال حضضا على صيانتها وتكريمها ومراعاتها حق رعايتها، وأحل ما أحل وحرم ما حرم، وإن الحج لا يكون خيرا إلا إذا طهرت النفوس من الآثام واتجهت إلى الديان وحده لا شريك له؛ ولذا قال تعالى عاطفا على ما قبله ﴿ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ ﴾ الإضافة هنا بيانية، أى البهيمة التى هى الأنعام، أى أنها من النعم التى أنعم الله بها عليكم، فتحريمها بغير تحريم الله تعالى كفر بنعمته، واستباحتها بغير إباحة الله تعالى كفر بنعمته أيضا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ وما تلى هو ما جاء فى سورة البقرة والأنعام والمائدة، وآخرها ما جاء فى المائدة، فقد قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ

(١) زيد بن أسلم، العدوى القرشى، وكنيته أبو أسامة، من الطبقة الوسطى من التابعين، وهو ثقة يرسل، أقام بالمدينة وتوفى بها ١٣٦ هـ. راجع الطبقات الكبرى لابن سعد - الطبقة الوسطى - زيد بن أسلم.

الْمَيْتَةِ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخَزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَنِقَّةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّيتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ [المائدة].

هذا ما أحل وهذا ما استثنى من الحلال، وذكرت بهائم الأنعام وإحلالها في هذا المقام لمناسبة الهدى ووجوبه والأكل منه، وإن المشركين كما أشرنا أحلوا ما حرم الله فأكلوا ما أهلك به لغير الله من أوثانهم، وحرّموا ما أحل الله تعالى في تحريم السائبة والوصيلة والحام، ونسبوا التحريم إلى الله تعالى، وذلك زور في القول، والإهلال لغير الله والذبح على النصب والاستقسام بالأزلام، كل ذلك من الوثنية أو الكذب على الله تعالى؛ ولذلك جاء من بعد النهي عن الوثنية وقول الزور، فقال عز من قائل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

﴿الرِّجْسَ﴾ هو الشيء القذر، والقذارة هنا معنوية وليست حسية؛ لأن النفس والعقل يقدران بتقديس الأحجار وعبادتها؛ لأنها تنزّل للفكر، وضلال في العقل، وافتئات على الله جل جلاله، والأوثان جمع وثن، وهو ما يعبد من تماثيل، وأصله من وثن الشيء أى أقامه فى مقامه، فسمى الوثن كذلك؛ لأنه يركز فى مقامه، وهو بطبعه جماد لا يتحرك إلا بمحرك، و﴿مِنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ بيانية، أى اجتنبوا الرّجس، وهو الأوثان، ففى الكلام بيان بعد إبهام وهو يمكن المعنى فى النفس، واجتنبوا معناها ابتعدوا كل الابتعاد، وهو أبلغ فى النهى، وكان النهى عن الأوثان فى هذا المقام؛ لأن الله أحل بهيمة الأنعام، إلا الميتة وما يشبهها، وما أهلك لغير الله به، وقد استباحوا ما أهلك به للأصنام وما ذبح على النصب، واستقسموا بالأزلام، فلا حج لمن كان كذلك، ولا خير له فى حجه.

وعطف الله تعالى الأمر باجتناب قول الزور على اجتناب الأوثان؛ لأنهم كانوا يحرمون على أنفسهم بعض بهائم الأنعام، وينسبون التحريم إلى الله كاذبين مزورين، ولا حج لهؤلاء، ولا خير لهم في تعظيمهم بعض مناسك الحج؛ لأن الخير يكون لمن قام بالواجب، وأبعد موانع القربى إلى الله تعالى.

وقد وصف الله تعالى الذى يكون تعظيم حرمات الله خيرا له عند ربه بقوله تعالى:

﴿حَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٢١).

هذه الآية جزء متمم للآية السابقة متصلة بالفاظها؛ ولذا كانت كلمة ﴿حَفَاءَ﴾ حال من «الواو» فى ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾، أى اجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور حال كونكم خالصين لله تعالى مستقيمين سائرين فى سبيله، و﴿حَفَاءَ﴾ جمع حنيف، وهو المائل من الانحراف إلى الاستقامة، فهؤلاء يخلصون من رجس الأوثان، ومن قول الزور الاستقامة والإخلاص لله تعالى أى يكونون كلهم لله تعالى لا ييغونها عوجا فليس فيهم ضلال قط، ولا إشراك قط، بل خلصوا أنفسهم لله وحده، لا يشركون فى قلوبهم غيره، ولذا قال تعالى مؤكدا معنى إخلاصهم لله تعالى: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾، حال بعد حال، أى غير مشركين به أحدا أو شيئا فى عبادته، وضرب بعد ذلك مثلا للمشركين يصور كيف ينحدر من سماء العقل والفكر، إلى منهوى الأرض، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ شبه الله تعالى من يشرك بالله تعالى قد أضله الشيطان وأغواه بتشبيهين مبينين المنهوى الذى انهوى إليه عقله ومداركه، فشبهه فى الأول بمن خر من السماء هابطا، ففى هبوطه تخطفه الطير، فتقطعه بمناقيرها، والتهمته أجزاء، وذلك لأن من أشرك قد هوى من سماء الإدراك السليم، والفكر المستقيم إلى مهاوٍ توزعت الأهواء، حتى صار ليس له فكر جامع، بل صار موزعا بين ضلال شتت نفسه، وصار موزعا بين أوهام فاسدة لا راشدا يرشده، ولا عقل يهديه.

والتشبيه الثانى هو أن من يشرك بالله فكأنما خر من السماء، وصار كالريشة فى مهب ريح الشك والأوهام فيركب متن ريح هوجاء ألقته فى مكان سحق فى الحق، والهداية، بل صار ينتقل من ضلال إلى ضلال لا إرادة له.

والسَّحْق التفتيت، والمكان السحق، أى البعيد يلقى إليه مع بعده فتاتا مقطوع الفكر موزع الأهواء، ولا فكر يسير ولا عقل يرشد، وقد قسبنا الكلام فى هذين التشبيهين مع التوضيح والتوجيه من كلام الزمخشري، فقد قال: «ويجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركَّب والمفرق فإن كان تشبيها مركبا قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاخطفته الطير فصيرته مزعا فى حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، وشبه الأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به المهاوى المتلفة» اهـ.

ونرى أنه جعله تشبيها واحدا مركبا ومفرقا، ونرى أنه تشبيهان مفرقين أو مركبين، وإن هذا التصوير كما ذكرنا، وكما ذكر الزمخشري هو على ذلك فى الدنيا، لبيان هلاك المشرك، وتخطف الأهواء لمداركة ويبين فساد عقله وضلاله، وإنه لا يكون بالنسبة للدين إلا فى حيرة تسيره الأوهام ولا سلطان له على نفسه، وقد قال بعض المفسرين: إن تحقق هذه الحال المبينة بالتشبيه، إنما هى فى الآخرة لا فى الدنيا. وإننا نرى أن الجميع ممكن بأن تكون هذه حاله فى الدنيا والآخرة، وإنه فى الدنيا يتردى إلى ضلال الأوهام والأهواء من سماء الإيمان، وفى الآخرة يتردى إلى العذاب الأليم الذى يكون فيه خالدا.

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٢٢)

الإشارة إلى الحج، والفاصل كان متعلقا بالحج، فقد كان فيه الأمر باجتناب رجس الأوثان، والكذب على الله بقول الزور والأمر بأن تكون الذبيحة لله، وأن

يكون البعد عن الإشراف، وكل هذا إن لم يكن من الحج ليس بعيداً عنه؛ ولذا كان الاعتراض بما هو متميم للحج، فالمعنى ذلك الحج بما فيه من حرمان، وإذا كانت حرمان الله تعالى يجب أن تكون مصونة غير معتدى عليها، فكذلك شعائر الله تعالى يجب أن تكون مصونة معظمة، وشعائر الله تعالى جمع شعيرة، وهى الأنعام التى وضعت عليها علامة على أنها خصصت للبيت الحرام تذبح فيه؛ ولذا صحت نسبتها إلى الله تعالى أو إضافتها إليه عز وجل، وجاء فى مفردات الراغب الأصفهاني: «ويقال: شعائر الحج الواحد شعيرة... أى ما يهدى إلى بيت الله تعالى، وسمى بذلك؛ لأنها تشعر أى تعلم بأن تدمى بشعيرة أو حديدة يشعر بها»، وكانت واجبة التعظيم، لا لذات البهيمة، بل لأنها لبيت الله تعالى، ولأنها دليل الاتجاه إلى العطاء الكريم فى بيت الله؛ ولأنها تكون لفقراء مكة الذين يكون إطعامهم استجابة لدعاء إبراهيم، وتعظيمها ألا تمس بسوء، وألا يعتدى عليها، وأن يحافظ عليها وعلى الشعار الذى أشعرت به، وأن تختار من خير صنفها فى عظامه وسنامه، وسمنه، وأن يكون لها أكل طيب بالنسبة لها. ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، الضمير فى ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعود إلى الشعائر، و«الفاء» واقعة فى جواب الشرط، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ وكانت الشعائر من تقوى القلوب لأن تخصيصها لفقراء الحرم، والاتجاه بها فى العبادة مظهر حسى يدل على تقوى القلوب، وهى بمقصدها وغايتها نابعة من التقوى، وهى استشعار خشية الله تعالى والشعور بضيقته، ويلتقى بالناس متساوياً معهم فقيراً وغنياً، ومعيناً لفقيرهم، ومكرماً لضيوف الرحمن من الحجيج، وأضيفت التقوى إلى القلوب؛ لأن القلب هو مكان التقوى، وقد قال ﷺ: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى قلبه الكريم^(١).

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تاجسوا، ولا تباعضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بعض، وكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه». رواه مسلم (٦٤٩٣). وقد سبق تخريجه.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٣٣).

الضمير في ﴿فِيهَا﴾ يعود على الشعائر على أساس أن البدن وغيرها من هدايا البيت هي الشعائر، على أساس ما يرمز إليه من تكريم البيت، والمعاونة في ضيافته، ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ بدارها وعملها، وصفوها ووبرها ما دامت في حوزتكم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وهو مدة بقائها في أيديكم إلى أن يحين وقت نحرها في يوم النحر، وفي هذه الحال يكون نسلها لكم، وكل ما يكون لها من نفع، ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتراخي، والتراخي هنا التراخي الزمني، إن كان ثمة تراخ في الزمن، وهو زمن السير في ميقات الحج إلى محلها العتيق، والتراخي المعنوي، وهو أنها تتنقل من دابة لمنافع دنيوية إلى مرتبة دينية تشعر وتكون من شعائر الرحمن، وتحبس للفقراء في البيت، و﴿ثُمَّ﴾ مع دلالتها على التراخي تدل على انتهاء الأجل المسمى والغاية التي تنتهي إليها هذه الشعيرة، وهي المكان الذي تذبح فيه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، أي محل ذبحها ينتهي إلى البيت العتيق، وهو أقدم بيت وأكرم، وهو المعتقد المعصوم من تحكم الملوك وسيطرتهم، فلم يسيطر عليه ملك قط، وما كان من هدم الحجاج الطاغية له مع أنه كان طغيان من لا يهتم لمناسك الله - لم يكن تسلطا من سلطان ملك، وقد بناه من بعد عبد الملك بن مروان الذي كان الحجاج يعمل له.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤).

«المنسك» اسم مكان من «نَسَكَ» وهو مكان العبادة، والعبادة يطلق عليها النسك، وقد اختار الله لأمة محمد البيت الحرام مكانا لنسكها وأداء العبادة في حج البيت الحرام، والإقامة فيما حوله، وأن يكون الذبح، وإطعام الفقراء، ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، أي يذكروا اسم الله تعالى عند ذبحها، شاكرين له نعمته وإذا كان الله تعالى شارع الشرائع قد جعل لكل أمة منسكا هم ناسكوه؛ فذلك لأنه إلهكم أنتم وغيركم إلهها واحدا، فكان للماضين من الأمم

منسك لكل أمة واحد، وإذا كان الله واحداً أحداً، فالمناسك كلها في ماضيها وحاضرها له سبحانه، وهو مبينها للماضين، كما بينها للحاضرين، وجعل منسك أمة خاتم النبيين هي مكة المكرمة التي بها البيت العتيق، أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة.

و«الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَالْهَكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ هي فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، إذ المعنى إذا كان لكل أمة منسك فالله الذي شرع المناسك واحد، وكلها لعبادته والتقرب إليه سبحانه وتعالى، كذلك كان منسككم، وكان للماضين مناسك شرعها ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، «الفاء» عاطفة، ﴿أَسْلَمُوا﴾، أى أذعنوا، وأطيعوا متطامنين غير متمردين، ولا متطاولين ولا مستطيلين على أحد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ بالثواب الجزيل والنعيم المقيم، ورضوان الله تعالى، وهو أكبر الجزاء، فرضا الخالق بديع السموات والأرض غاية أهل الإيمان العليا التي هي فوق كل مبتغى.

والمخبت هو المتطامن المتواضع الذى لا يتعالى، ولا يستطيل على أحد، وقد قال الراغب الأصفهاني في مادة خبت: «الْخَبْتُ الْمُطْمِئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَخْبَتَ الرَّجُلُ قَصَدَ الْخَبْتَ أَوْ نَزَلَهُ نَحْوَ أَسْهَلٍ وَأَنْجَدٍ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ الْإِخْبَاتِ اسْتَعْمَالَ اللَّيْنِ وَالتَّوَاضُّعِ، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، أى: المتواضعين، فالتواضع سمة المؤمنين، والغطرسة سمة الكافرين، والذين لم يشرب قلوبهم حب الإيمان، وهم ليسوا أدلاء، بل هم الأعزاء، ولقد قال محمد ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١).

وقد وصف الله تعالى المخبتين الذين بشرهم سبحانه وتعالى بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾.

(١) رواه مسلم (٦٥٤٤)، وقد سبق تخريجه.

خلال أربع هي جماع خصال المؤمن الذى هذبت نفسه، وتحمل بالصبر، وأقام الصلاة، وأنفق مما رزقه الله تعالى.

الحلة الأولى - ﴿إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، (الوجل) الخوف والخشية من الله، لا لأنهم كثيرو الذنوب، إنما هو لاستصغار حسناتهم، واستكثار سيئاتهم وتصورها، فهم من الله تعالى القوى القهار فى وجل، ومن خاف الله حذر مخالفته، وحاول طاعته، وسعى فى مرضاته، والوجل صفة أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ... (٢٣)﴾ [الزمر].

هذه حال الذين يعرفون الله ويتقونه حق تقاته.

الحلة الثانية - فيها الصبر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾، والصبر ضبط النفس، وسيطرة العقل، فإذا أصابهم أمر من أمور الدنيا المزعجة لا يهلعون ولا يفرعون، ويضبطون أنفسهم، فلا يكون عليهم شهوة جامحة، فلا يكون الهوى سيدا مطاعا، بل تكون الشهوة أمة لا سيطرة لها، وإن كل شىء من مصائب الدنيا يهون أمام الصابر.

والحلة الثالثة - إقامة الصلاة، أى أداؤها مقومة كاملة فى ظاهرها وباطنها، فتكون النفس خاشعة خاضعة قائمة تحس النفس بروعتها، وأنها فى حضرة ذى الجلال والإكرام وتمتلى النفس بهيبته، وتخضع لعظمته؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ عبر باسم الفاعل لبيان أن الصلاة صارت شأنا من شئونه لا يتخلف عنها، والصلاة والصبر فيهما عون للمؤمن على الطاعة، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة].

والخلة الرابعة - الاتجاه إلى التعاون الاجتماعي، وذلك بمعونة الفقير، وسد الحاجات الاجتماعية والحربية، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، والإنفاق يشمل الزكاة المفروضة، والصدقات المشورة، والصدقات تكفر الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «الصدقة تطفى الخطيئة، كما يطفىء الماء النار»^(١)، ويشمل الذنوب والكفارات، ويشمل الإنفاق في الجهاد كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ... (١٩٥)﴾ [البقرة]؛ لأن ترك الإنفاق في الجهاد يؤدي إلى التهلكة والانهزام.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على الفعل؛ لبيان أن الإنفاق مما رزقهم الله وحده فليس من جهودهم ولا أعمالهم ولكن من توفيق الله تعالى، ومن رزقه الذي رزقه إياهم.

وإن الإنفاق بكل أنواعه التي أشرنا إليها هو تعاون اجتماعي في السلم والحرب؛ ولذا سماه الله تعالى الماعون فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]، وهي الزكاة؛ لأنها يكون بها التعاون الدائم المستمر.

أعلى أنواع الهدى

قال الله تعالى:

وَالْبَدَّتْ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ
 اللَّهُ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ فَأذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ
 جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
 لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا

(١) سبق تخريجه.

وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٧﴾

البدن جمع بدنة، وهى تطلق على البدنة من الإبل، وسميت كذلك، لبدانتها، وسمنها وضخامتها، ولا تطلق إلا على الإبل وتعطى البقرة حكمها، فتجزئ عن سبعة كما تجزئ البدنة؛ لأنهما متقاربان فى الحجم، وما يؤخذ منهما من لحم، والبدن من شعائر الله، أى أن سوقها فى الحج من شعائر الله، وهى جمع شعيرة، وهى العبادة المعلمة التى يجمع فيها بين البيئة، والإعلام بمناسك الحج؛ وذلك لأن أيام الحج كلها أيام إعلام، وإشعار بمناسك الحج، يلتقى فيها المظهر الإعلامى، وتقوى القلوب، فهى باعتبارها، وكون العبد قائما فى ضيافة الله، واستشعار عظمته وجلاله فى كل عمل من أعماله، وطاعته، وتكبيره، وإهلاله وترتيبه، فى كل هذا تقوى القلوب؛ ولأنها مظهر حسى، كانت شعيرة معلمة كالقيام والقراءة والركوع والسجود شعائر معلمة؛ ولأنها مناجاة العبد لربه كان فيها تقوى القلوب.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ﴾، وفى قراءة صوافن، وصواف جمع صافة، والصافة هى من رفعت إحدى يديها بالفعل لثلاث تضطرب، والمعنى اذكروا اسم الله تعالى عند إعدادها للذبح، وصافنة كصافة فى المعنى.

والذى أراه أن تُصَفَّ النوق صفوفا عند ذبحها، بحيث تكون مقدمة للذبح فى صفوف متتالية بعضها وراء بعض، وذلك فيه روعة فى المظهر، وظهور للمشعر، وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ﴾ أى مصطفة، وصففت كذا: جعلته على صف واحد، قال تعالى: ﴿... عَلَىٰ سُرٍّ مَّصْفُوفَةٍ ... (٢٠)﴾ [الطور].

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، أى سقطت ذبيحة بعد ذكر اسم الله تعالى، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ

وَالْمُعْتَرِّ ﴿٦٧﴾، «القانع» من القناعة، وهو الفقير الراضى الذى لا يسأل الناس إلحافاً، و«المعتر» افتعل من عَرَّ، وهو الذى يكشف فقره ولا يستتره، ويطلب من الناس، ولا يمتنع عن السؤال، والإعطاء لهؤلاء صدقة مبرورة، وقدم عليها أكله هو لكيلا يحسب الناس أنه لا يصح أن يأكل، ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾، أى أنها مسخرة لكم تقضون عليها حوائجكم، وتنقلكم فى هذه الصحراء المحرقة، وكما يقول الناس: الجمل سفينة الصحراء، إنه ينقل الأحمال فى الصحراء كما تنقل السفينة الأحمال من إقليم إلى إقليم على متن البحار، وسخرها معناها زللها لكم لتكون فى منافعكم، والكاف للتشبيه، أى أن الإبل كما أن الله جعلها من شعائر الله قد سخرها لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن تشكروا الله تعالى على أنعمه التى أنعمها عليكم ولا تكفروها، ﴿... لَفَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) ﴿إبراهيم﴾.

وإن هذا كله لخير العباد، ولإعلان المناسك، ولا يعود على ذات الله تعالى العلية منها شيء.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٧).

نفى الله تعالى نفياً مؤكداً، أن يصل إلى الله تعالى منها شيء؛ لأنه واجد الوجود غير محتاج حتى يحتاج إلى لحم البدن ودماؤها، وإنما يحتاج إلى ذلك من يكون فقيراً إليها، ولا أن تكون مرضاته فى لحومها، ولا فى دماؤها، فإذا كان قد أوجب عليكم نحرها، والتقرب بذبحها، فليس ذلك لأجل رضائه باللحم والدماء، ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾، أى يبلغ مبلغ رضاه وقبوله التقوى منكم، فالله سبحانه لا يرضى بلحم يؤكل ولا تكون مرضاته فى دم يهراق، وإن كان ذلك، وإنما يبلغ مرضاته وقبوله التقوى، وهذه إشارة إلى أمرين:

الأمر الأول - أن الدم المهرق مطلوب فى الحج تذكيراً بفداء إسماعيل.

والأمر الثانى - أن الله تعالى ما طلب شغيرة البدن إلا لأجل التقوى،
ولتكون مظهر هذه التقوى القلبية، وشعار مناسك الحج.

﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ﴾، أى كهذا التسخير من ذبح وأكل وتصدق ﴿سَخَرَهَا لَكُمْ لِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، واللام للعاقبة، أى سخرها لتكون العاقبة أن تكبروا الله فى الحج على هدايتكم إليه سبحانه وتعالى، ولتقيموا شعائره، ولتحسنوا أداء التكليفات التى كلفتموها، ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾، أى أن المحسنين ينالون الخير العميم، والفضل العظيم، والهداية، فبشرهم بالبشرى الطيبة، والجزاء الحسن، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

الاذن بالجهاد

قال الله تعالى :

إِنَّا لِلَّهِ

يُدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن
يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ
صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ...﴾ (٢٥٧) [البقرة]، وإذا كان الذين آمنوا أولياء الله فإنه يتولى الدفاع عنهم، وحمايتهم ما داموا قائمين على الحق يستمسكون بالعروة الوثقى؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٢٨).

لقد دافع الله عن الذين آمنوا فحفظهم في مكة، وإذا كانوا قد تعرضوا للأذى، فقد حماهم الله بالصبر، والهجرة فارين بدينهم إلى الحبشة مرتين، ثم إلى المدينة، وأفرغ عليهم الصبر، واحتموا بحمايته، وهو عدة المؤمنين، ولما هاجروا إلى المدينة خف عنهم الإيذاء وزال، ولكن كتب عليهم الجهاد، وأذن لهم في القتال، فكانت حماية الله تعالى أوضح، ونجد هنا أنه سبحانه عبر بالمضارع والمستقبل، أى أن الله من شأنه أن يدافع عن الذين آمنوا؛ لأنهم أولياؤه، وأحباؤه، ومن نصبهم للدفاع عن الحق ودين الحق، وقد أكد الله دفاعه عن الحق بـ«إن» وذكر لفظ الجلالة الله جل جلاله القوى المستقم، ومن ينصره الله فلا غالب له، وقد أكد سبحانه دفاعه بأنه سبحانه لا يحب أعداءهم، لأنهم أعداء الحق المتألبون عليه؛ ولأنهم خائبون وأشد الناس كفرا، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فهذه الجملة السامية في مقام التعليل لدفاعته سبحانه عن المؤمنين؛ إذ هو سبحانه لا يحب مقاتليهم، قد ذكر وصفين من أوصافهما هما سبب أن الله تعالى لا يحبهم:

الوصف الأول - الخيانة التي بالغوا في الاتصاف بها.

والوصف الثاني - الكفر الذى أوغلوا فيه وأمعنوا؛ ولذا عبر بـ ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، والخيانة تتضمن مخالفة الفطرة، وتتضمن عدم طاعة أوامره ونواهيها، وتتضمن عبادتهم أحجارا، وإشراكهم مع الله، وتتضمن خيانة المؤمنين، ونكث العهود كما كان يفعل اليهود الذين حاربوا النبى ﷺ ومالوا أعداءه وعاونوه،

حتى برز لهم وأجلاهم من ديارهم، وقتل رءوس الفساد فيهم، وغزاهم في خير. و«الكفور» هو الذى أشرك وسيطرت عليه الأوهام، وكفر بنعمة الله تعالى وافترى على الله تعالى، فادعى أن الله حرم وما حرم، وأحل وما أحل.

وقد ذكر سبحانه الكُفْيَةَ فقال: ﴿كُلُّ خَوَّانٍ كَفُورٌ﴾ لعمومهم فى الخيانة آحادًا وجماعات، فليس منهم إلا خَوَّانٌ كفور.

وقال تعالى: ﴿يُدَافِعُ﴾ بصيغة المفاعلة للدلالة على المغالبة بين الحق والباطل، وأن الله معهم فى هذه المغالبة.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٩).

لم يَجِئْ مُحَمَّدٌ ﷺ للقتال، ولكن جاء للحق والدعوة إليه، ولنصرة الفضيلة، وفضيلته إيجابية وليست سلبية، ودينه إيجابى، وليس بسلبى، وما كان ليستخذى أمام الباطل، بل يقاومه، وإلا عمَّ الفساد؛ ولذا قال تعالى: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة)، ولقد كان المؤمنون فى مكة يؤذون فيصبرون، حتى إذا كانوا فى المدينة وكانت لهم قوة حامية أذن لهم فى القتال دفاعا عن كيانهم ودينهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ وعبر سبحانه وتعالى بالبناء للمجهول... و﴿يُقَاتِلُونَ﴾، إشارة إلى أن المؤمنين لم يتدنوا بالقتال، بل ابتدأ غيرهم عندما كانوا يؤذون المؤمنين، وهموا بقتل النبى ﷺ، وأحاطوا بداره ليقتلوه، ولكن الله نجَّاهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال).

وقد علل الله تعالى الإذن بالقتال: بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾، أى بسبب أنهم ظلموا. وانتصار الأمة المظلومة من الظالمين لها أمر يسوغه قانون العدل وقانون الرحمة، فمن الرحمة بالإنسان وقف ظلمه، ورد بغيه عليه، وأن يدافع عن المؤمنين المظلومين كما وعد؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾،

أى أن الله كالنصير، وقادر وقدرته مطلقة على نصرهم إذا أخذوا فى الأسباب، وأعدوا للقتال عدته، وتقدموا بقلوب خاضعة لله تعالى مؤمنة به سبحانه، وقد أكد سبحانه وتعالى نصره لهم بـ «إِنَّ» وبذكر لفظ الجلالة وهو ﴿اللَّهُ﴾ القادر الغالب، وبتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾، وبـ «اللام» فى قوله: ﴿لَقَدِيرٌ﴾، والله ينصر من ينصره، ويؤيد بالحق المؤمنين، ويخزي الكافرين.

وقد ذكر سبحانه كيف ظلم المؤمنين، فقال عز من قائل:

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤﴾﴾

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ﴾، بيان لظلمهم، إذ إن الخروج من الديار والبعد عن الأوطان فى ذاته ظلم، وإذا كان بغير سبب مسوغ أو حق مبرر يكون الظلم، ولذا ذكر هذا الأشر^(١) فقال: ﴿بَغَيْرِ حَقٍّ﴾، أى بغير مبرر إلا أن يكون (ظلمًا)، لأنه إذا لم يكن يسوغ أو يبرر فهو ظلم لا محالة وقد أكد ذلك الظلم، وإنه بغير حق، بل لأمر غير الحق ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وهذا من بدیع القول ففيه تأكيد المدح بما يشبه الذم، وذلك كقول النابغة الذبياني:

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهنَّ فلُولُ من قِراعِ الكتائبِ

والمعنى للنص السامى أن هؤلاء المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يكون ما شأته به عقولهم، وضلت به أفهامهم من إشراك بالله تعالى فى العبادة، وخضوع للأوهام، فيحسبون قول: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ باطلاً وهو الحق، فإنهم ما أنكروه ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ... ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]، وقوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يفيد قصر الربوبية على الله تعالى وحده إذ لا رب سواه، ولا خالق سواه، ولا معبود بحق سواه.

(١) الأشر: البطر. الصحاح.

وإنه نجب محاربة الباطل، ومقاومة الشر، ومداغة الظلم، وإلا تحكم الفساد والطغيان، ولكان الناس تحت طاغوت مستمر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، (لولا) حرف امتناع لوجود، أى لولا وجود الدفع بأمر الله ﴿لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ...﴾، أى دور العبادة لكن لم تهدم بيوت العبادة لوجود منع الله الأخيار للأشرار، والصوامع جمع صومعة، وهى البيوت المخصصة للرهبانية، و«البيع»، وهى كنائس النصارى، و«الصلوات» وهى بيوت العبادة لليهود، قال الزجاج: هى كنائس اليهود وهى بالعبرانية صلوتا، ثم عربت فصارت صلوات.

والنص الكريم يفيد أن دفع الباطل إذا لم يكن لم يستطع أهل دين أن يقيموا عباداتهم، فتهدم صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود وكانت تهدم هذه البيوت، ولا تقام شعائر أهل دين من الأديان السماوية قبل انتساخها، وساد الشرك وتحكم، وهذا النص السامى يفيد أمرين:

الأمر الأول - تمكين أهل كل دين من عبادتهم ببقاء أماكن العبادة لا تهدم ولا تمس.

والأمر الثانى - منع هدم معابد أهل الذمة على ألا يحدثوا جديدا.

﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، ﴿مَسَاجِدُ﴾ معطوف على ﴿صَوَامِعُ﴾، أى لهدمت مساجد يهدمها المشركون إذا استطاعوا، ولكن يدفع الله الناس بعضهم ببعض، فلا يمكنون، ووصف الله تعالى المساجد بأنها ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، كما قال فى آية أخرى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِّنُ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور].

وأخيرا نقرر حكم الله تعالى، وهو أن حكم الله تعالى أنه إن لم يدفع الشر يتحكم، وتهدم بيوت العبادة كلها، وتهدم المساجد على العباد، والله سبحانه يتولى عباده.



﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، هذا قسم من رب العزة جل جلاله، ولذلك كانت «اللام» وكانت «نون» التوكيد الثقيلة، وكان القسم من ذى العزة والجلال أن ينصر من ينصره بأن ينصر دينه ويطيع أوامره، ويجتنب نواهيه، ويكون معليا لكلمة الحق والإيمان، وإنه فى مقابل نصره لله ينصره، فالله لا ينصر من يكون عدوا لله تعالى ولمبادئه ومشركا به أوثانا لا يضررون ولا ينفعون، وإن من ينصره الله غالب لا محالة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فيتنصر من يعمل لإعزاز دينه وهو قوى قاهر قادر على كل شىء، وأكد قوته سبحانه بـ﴿إِنَّ﴾ الدالة على التوكيد، وبـ«اللام» وبذكر لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، ويوصفه بالعزة وهى أنه ذو المنعة الغالب القهار.

وإن أولئك الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إن مكنوا فى الأرض أقاموا العبادة الحق، وأصلحوا، ولا يفسدون؛ ولذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾.

إن الظلم وقع على الذين أخرجوا من ديارهم بحق إلا أن يقولوا ربنا الله، وإن هؤلاء خير البرية ولهم فضل أنهم لا يشركون بالله، وإنهم ليقولون ربنا الله فيحكمون بوحدة الربوبية ووحدة الخلق ووحدة التكوين، وهم إن تمكنوا من الأرض عمروها، وسادتها العبادة الحق والتعاون فى المال والفضيلة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾، هذا وصف ثان للذين أخرجوا من ديارهم، وقد صورهم سبحانه مظلومين أذن لهم بالدفاع عن الحق الذى حملوه، وردع الباطل الذى ظلموا منه، ويصورهم الآن أنهم إن مكنوا فى الأرض عمروها، ونشروا فيها الخير والفضيلة، و﴿إِنْ مَكَّنَّاهُمْ﴾، أى جعلنا لهم مكانا متميزا فى الأرض، ودولة قائمة فى الأرض يظلها العدل والخير والفضيلة، وقد ذكر الله تعالى أعمالا يقومون بها إن وجدت فى جماعة كانت الأمة الفاضلة فى الأرض.

أول هذه الأعمال: إقامة الصلاة التي تقوم بها تلك الجماعة الكريمة تطهير نفوس آحادها، وملؤها بطاعة الله وخشيته، وذلك بإقامة الصلاة فقال: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، أى أتوا بها مقومة تمتلئ فيها القلوب بذكره سبحانه، وتستشعر خشيته وهيبته ومحبته وجلاله، وبذلك تتطهر القلوب، وتعمرها خشية الله تعالى ومحبته، فتحب عبادته، وتحب كل شيء له، ويتحقق فيهم قول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»^(١).

ثاني هذه الأعمال: إيتاء الزكاة، ﴿وَأَتُوا الزُّكَاةَ﴾، وهى حق السائل والمحروم، وهى رمز للتعاون الاجتماعى بين القادر والعاجز والغنى والفقر، ومن ابتلاه الله تعالى بالمال، ومن ابتلاه الله تعالى بالحرمان.

وثالث هذه الأعمال: التعاون على الخير، ودفع الآثام، وذلك يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكوين رأى عام فاضل يحث على الفضيلة، ويمنع الرذيلة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وبها يتكون رأى عام فاضل يشجع الفضلاء، ويقمع الأردلين.

وقال تعالى فى ختام الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، وهو يشير إلى أنهم يؤمنون ببقاء الله تعالى وأنهم لم يخلقوا سدى، فيكون الخير لاهله يوم القيامة جنات النعيم، ولاهل الشر عذاب الحميم.

تكذيب الرسل قبل محمد ﷺ

قال الله تعالى:

وَأِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ

قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

(١) ورد بلفظ: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وهو جزء من حديث صحيح. وقد سبق تخريجه.

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ
 أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
 أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
 وَيَبْنَؤُهَا مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾

هذه إشارات إلى قصص بعض النبيين الذين طغت أقوامهم في البلاد
 وأكثروا فيها الفساد، وكيف كانت عاقبة أمرهم من هلاك لم يتظروه، وشر لم
 يتوقعوه، وذلك تسلية للنبي ﷺ في عناد قومه له، فهو تسرية عن النبي ﷺ
 وإنذار للمشركين الذين جحدوا بآيات الله.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٦﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ
 لُوطٍ ﴿٤٧﴾﴾.

ذكر الله تعالى ما يشير إلى قوم نوح، وقد عاندوه وجادلوه، وتحذوه أن
 ينزل بهم ما هددهم به، وقد أغرقهم الله ولم ينج معه في السفينة إلا من آمن
 وأهله إلا امرأته وابنه إلى آخر ما بينه سبحانه وتعالى في قصصه الحكيم وآياته
 البينات.

وأشار سبحانه إلى قصة عاد قوم نبي الله تعالى هود عليه السلام أن عاندوه وكفروا
 به فجاءتهم ريح صرصر عاتية، وإلى قوم ثمود قوم صالح عليه السلام، الذين عقروا
 الناقة، فدمدم عليهم ربك عذابا ريحا صرصرا عاتية.

وأشار سبحانه إلى قوم إبراهيم عليه السلام الذين أرادوا إحراقه عندما حطم لهم
 الأصنام، وإلى قوم لوط الذين كانوا يأتون الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من
 العالمين، وكيف دمر عليهم ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة
 من سجيل.

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ﴾

نكير (٤٤) ﴿﴾.

وأشار سبحانه إلى تكذيب فرعون لموسى ولأصحاب مدين الذين بعث فيهم شعيب بالتحديد، وبالإصلاح الاقتصادي فقالوا له: ﴿... وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ...﴾ (٩١) ﴿[هود].

وبعد أن أشار سبحانه إلى هؤلاء الأنبياء وأقوامهم الذين عاندوا وكفروا وأفسدوا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾.

«الفاء» هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، «أملت لهم» أعطيتهم ملاوة من الزمان وأمهلتهم، ثم أخذتهم أخذاً شديداً، فانظر كيف «نكير» ياء المتكلم محذوفة، فانظر كيف كان نكيرى عليهم، فكيف كان قوم نوح كما أشرقوا أغرقوا، وقوم لوط أهلكوا، وفرعون والملا معه قد انطبق عليهم البحر، فكانوا من المغرقين.

وعمم سبحانه مآل الجماعات الظالمة، فقال تعالت آياته:

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ

مُشِيدٌ (٤٥) ﴿﴾.

«الفاء» عاطفة على قوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ﴾، و«كأين» بمعنى «كم» الخبرية الدالة على الكثرة، والمعنى فكثير من القرى، وهى المدن العظيمة بمعنى القبيلة المجتمعة فى المداين، أو الإقليم، والمعنى كثير من القرى أهلكها الله تعالى بمعنى أهلك أهلها، وأضيف الهلاك إلى المكان؛ لأنه تخرب وتهدم، وسقطت عروشها على جدرانها وخوى، فكان الهلاك أصابها فى المظهر، وإن كان لا يقع إلا على السكان، وقد ذكر الله سبحانه أن ذلك كان والحال أنها ظالمة، فنسب إليها الظلم، وإن كان من أهلها، وذلك لعموم الظلم فى كل ربوعها، وكل كيانها، فأكل أموال الناس بالباطل، وإشراك بالله، واعتداء على الضعفاء، وعدم إقامة لأى نوع من

أنواع العدل، فلا عدل في قانون، ولا قضاء، ولا اجتماع، بل فساد في فساد، وقال تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، ولم يقل ظالمة، للإشارة إلى أن الهلاك جاءها، والظلم محيط بها لا تخرج عنه؛ ولأن في التعبير بالحال يدل على التلبس به؛ ولأن كلمة «هي» لتأكيد الظلم، ففيه تكرار لذكر القرية، ثم قال تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، «الفاء» عاطفة على ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، و﴿خَاوِيَةٌ﴾ بمعنى الخواء والفراغ وبمعنى السقوط، وإن العذاب الذى كان ينزل بأولئك الظالمين الذين أشركوا بالله، وعاثوا في الأرض فسادا، كان يجيئهم بصواعق تنزل بهم أو أمطار بحجارة من سجيل، أو نحوها كجعل على الأرض سافلها، ومن شأن هذا أن السقوف، وهى العروش المذكورة فى الآية تهوى، ثم تتحطم أو تسقط الجدران من بعد على العروش، ولذا نرجح أن يكون تفسير الخاوية بسقوطها متهدمة على العروش.

﴿وَبَثْرٌ مُّعْطَلَةٌ﴾، معطوفة على ﴿قَرْيَةٌ﴾، وتعطيل البشر كناية عن فناء الذين كانوا يردون إليها يستسقون منها، ومعهم نعمهم، وغيرها، ومعنى هذا أنه لم يكن أحد من أهلها يأخذ الماء ليحى به هو ودوابه، بل ذهب كل ذلك، فتعطلت الحياة والأموال.

﴿وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ مرتفع ومجصص بالجص مزين، أى أنه تعطل كما تعطلت البشر، وأصبح خاويا لا ساكن فيه، وقد بناه للزينة والراحة، فذهب وبقي القصر، أو تهدم كالقرية أو فى ضمنها، وقد أراد له للبقاء.

فى الأرض فى الماضين عبرة

قال الله تعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٦٦﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنِّ مِّنْ
قَرِيبَةٍ أُمْلِيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا إِلَى الْمَصِيرِ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَأَلَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

هذه الآيات الكريمة موضحة لما تضمنته الآيات السابقة، وهي شواهد

حسية، لما أخبر به العليم الحكيم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

و«الفاء» في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها،
وهي تنبههم إلى السير، وهي مؤخرة عن تقديم لأن الاستفهام له الصدارة،
وتقدير الكلام: فآلم يسيروا في الأرض...، وهذا حث لهم على السير للاعتبار
بمن سبقوا والاتعاظ بما نزل، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾،
«الفاء» عاطفة ما بعدها على ما قبلها، والاستفهام حث على السير في الأرض
للاتعاظ والاعتبار بمن مضوا، وهذا حث لهم على التعقل، والتدبر، فيرتب على
السير أن يتدبروا بعقولهم، ويعملوها للوصول إلى الحق وألا يشركوا به شيئا،
ويروا رسوم الديار التي عفت وأهلكها الله بظلم أهلها، ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾،
وهذا حث لهم على تعرف أخبار الديار ومن كانوا فيها، وما جرى منهم من
ظلم، وما جرى عليهم من هلاك، وخراب أرضهم وديارهم.

ولكنهم لم يعتبروا، ولم يتدبروا أمرهم، ولم يعيشوا حاضريهم على ماضى غيرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

هذا النص فيه إشارة إلى أنهم وإن كانوا ذوى أبصار تنظر وترى ولكنها عمت عن الحق، ولم تنظره نظرة اعتبار واستبصار، فهم عمت قلوبهم عن الإدراك وكانت غير مبصرة للحق، ولا نافذة إلى لبه ومعناه، وفي الكلام مجاز بالاستعارة إذ شبه عدم إدراك عقولهم للحق وعدم إذعان قلوبهم بالعمى - بجامع عدم الإدراك فى كل، وقوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ترشيح للاستعارة وإبعاد للأبصار عن أن يكون عماها هو المراد؛ لأنها فى الوجوه دون القلوب، والضمير فى ﴿فَإِنَّهَا﴾ ضمير الحال والشأن أى الحال والشأن لا تعمى الأبصار وإن المشركين مع أن الرسوم والآثار تعلن ما نزل بالغابرين، يتحدثونك فيستعجلون العذاب، فقال تعالى عنهم:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾.

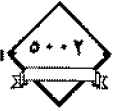
السين والتاء للطلب، والمعنى يطلبون العجلة بالعذاب متحدين زاعمين أن ذلك الإنذار لا يقع كما قالوا: ﴿... فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]، وإن هذا التحدى منشؤه غفلة فى نفوسهم وعقولهم، إذ حسبوا أنه لن يجرى، على حسب زعمهم، فأكد الله تعالى بقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، فهو جاء لا محالة. وكل ما يأتى واقع وقريب مهما يكن تمادى الزمان، وإن الزمان قريب أو بطل، هو بالنسبة للعباد، أما عند الله فإنه لا تحكمه الأزمان والأماكن، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ لأن أزمان أهل الدنيا، أعراض لأحوالهم، أما الزمن عند الله فهو غير مقدور ولا معدود؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فلا تستطيعوا أن تقدرُوا زماناً لما يعدكم به، فلا يقال لكم هو مائة أو مائتان، ولكن هو محكوم بإرادته وتقديره سبحانه، وهذا

تصوير لإمهال الله في تقديره، وهو العظيم الحكيم العلى القدير، وتقديره سبحانه، اليوم عند الله تعالى بألف سنة مما نعهه بالأيام والليالي، إشارة إلى أنه لا يُعدّ وهو فوق تقديركم، والعرب ما كانوا يعرفون إلا الألف ومضاعفاته عدداً، روى أن أعرابيا أعطاه الخليفة ألف دينار، فذكر ذلك لبعض صحبه، فقال له: لو طلبت أكثر لأعطاك، فقال الأعرابي: ما كنت أعرف فوق الألف عدداً، فذكر الألف تقدير بأكبر عدد نعرفه، أو إطلاق للعدد، فالمعنى أنه ليس لكم أن تتصوروا سنين معدودة، بل إن وعد الله بالعذاب سيحييكم لا محالة، ولا تتحدوا رسوله، وإنهم يرونه بعيداً، ونحن نراه قريباً.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨).

فى الآية السابقة استعجلوا العذاب وتحذوا النبى ﷺ أن يأتبهم به قريباً بعد أن ذكر لهم الله القرى التى أهلكت وهى ظالمة، وفى هذه الآية ضرب لهم الأمثال بمن أملى لهم، وأمهلهم من القرى، وأن ذلك الإمهال قد غرهم أو اغتروا به ولم يفلتوا فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، فـ ﴿كَايْنٍ﴾ هنا كأختها السابقة بمعنى (كم) الخبرية الدالة على الكثرة، أى كم من قرية أهلكناها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، والجملة حالية، أى وهى فى حال ظلم قد أحاطوا بأعمالها من شرك وعتو، وكبر وفساد فى الأرض فأمهلها سبحانه مع بقاء هذه الحال، ثم جاءها العذاب من حيث لا يتوقعون بيّاتاً أو هم قائلون، أو ضحى وهم يلعبون.

ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للتراخى ليتناسب التراخى مع الإمهال الذى أملى الله تعالى به لهم، وإضافة الأخذ إليه سبحانه فيه تهديد شديد لأن الأخذ لهم القوى الجبار الذى لا يفلت عن قدرته شىء، ثم قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾، أى أنهم يصيرون إليه سبحانه، وهو الذى أنذر وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وهو شديد المحال، يجزيهم بما اكتسبوا من سوء وإيذاء وإضلال.



وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن الرسالة المحمدية مقصورة على الإنذار، وليس عليه أن يؤمنوا، فقال:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩)﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، وهو أمر له ﷺ، ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تعالى حاسما لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الخطاب للناس كافة، وللمشركين من أهل مكة خاصة، ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ للقصر، والقصر هنا لأنهم طلبوا استعجال العذاب ولضلالهم البعيد، ولاستمكان الغفلة عن الحق في قلوبهم، يقولون للنبي ﷺ ... فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴿[الأعراف]، فيقول لهم النبي ﷺ بأمر ربه: إن عملى فيكم، ورسالتى إليكم، أنى نذير موضح مبين لكم الحق والشرعية، والعذاب أمره إلى الله تعالى وحده، وكذلك الثواب والعقاب إليه وحده، وكل امرئ بما كسب رهين؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)﴾.

«الفاء» تفصح عن شرط مقدر يتبين من الآية السابقة، ومعناه إذا علمتم أنى لكم نذير مبين فقط، فإذا أن تطيعوا فتكونوا مؤمنين، وإما أن تعصوا فتكفروا بآيات الله تعالى ونعمه، والجزاء يذكر للمؤمنين إيماناً صادقاً ويعملون عملاً صالحاً، والعمل الصالح ذكرناه فى موضع أنه الطاعات من أوامر ونواه، والقيام بكل ما هو نافع للناس مرضاة لله تعالى، فلا يقصد بتفعهم إرضاءهم، إنما يقصد إرضاء ربهم، فمن يقصد إرضاء الناس فقط قد يرتكب إثماً فى سبيل إرضائهم.

وسياق الكلام يتجه إلى أن الكلام كلام النبى بأمر ربه يحكيه الله تعالى عنه، وذكر جزاء المتقين بقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، المغفرة تنبئ عن رضا الله تعالى عليهم، وهى ذاتها جزاء؛ لأن المؤمن مهما يكن تقياً له هفوات وهنات يحس بها فى ذات نفسه، وكلما أرفه إحساسه الدينى، وكلما هُذِّبَتْ نفسه بالتقوى أحسَّ بهفواته واستكثرها، واستصغر حسناته، ولقد قال الله تعالى لنبيه:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ...﴾ (٢) [الفتح]، وما كان له ﷺ ذنب، ولكن الله تعالى يخبر نبيه بمحبته، إن المغرورين هم الذين يستكثرون حسناتهم، ويستصغرون سيئاتهم، وحالهم هذه قد تجرهم إلى العصيان والوقوع في الشر، وما دام الرجل يستصغر ما فعل من حسنات، فهو لا يُدَلُّ بها، ولا يَمُنُّ على الله، كما حكى عن بعض الأعراب قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ (١٧) [الحجرات].

والرزق الكريم بعد المغفرة هو دخول الجنة، فهي ذاتها رزق كريم، وفيها كل ما تشتهي الأنفس، وأنهار جارية من تحت أشجارها، وعسل مصفى، وأنهار من خمر لذة للشاربين وحوار عین، وغير ذلك، وكل رزق من الله كريم رزق المتقين إياه، وهو رزق سخى طيب، جزاء ما فعلوا من خير، وكفوا أنفسهم عن الأهواء والشهوات، وهو رزق واسع دائم، ونعيم مقيم.

هذا ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٥١).

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾، أى اجتهدوا فى آياتنا لا لإدراكها ومعرفة ما فيها من حجة وبرهان، بل ليغالبنها فيها ويعاجزونا، أى ليبادلونا المناقشة فى إعجازها، ودلالاتها على رسالة محمد ﷺ وعلى وحدانية الله تعالى جل وعلا، وقد قال الزمخشري فى هذه الآية: «وسعى فى أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه، وعاجزه: سابقه؛ لأن كل واحد منهما فى طلب عجز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل أعجزه وعجَّزه، والمعنى سعوا فى معناها بالإفساد من طعن، حيث سموها سحرا وأساطير الأولين، ومن تثبیط الناس عنها سابقين، أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم، طامعين فى أن كيدهم للإسلام يتم لهم».

والرمى فى هذا الكلام أن هؤلاء المشركين يجتهدون فى آيات الله تعالى متعرفين غايتها ودلالاتها لا بصدق وأمانة وإدراك سليم، بل لغاية، وهى معاجزة المؤمنين، وتحويل الأمر إلى جدل عقيم، يحاولون إعجاز المؤمنين فى حجتهم، والمؤمنون يتحدونهم أن يأتوا، ويتحول الأمر إلى مجادلة ضاعت الحقيقة، وتبعثرت فى وسط لجأجتهم فى القول.

هؤلاء بين الله تعالى جزاءهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الإشارة إلى هؤلاء الذين يسعون لإفساد الحق على أهله، وضياعه في لجاجة من الباطل يثيرونها، ولكن الحق لا يضيع بلجاجة الباطل، أولئك المتصفون بهذه الصفة بسببها يدخلون النار، وهم أصحاب الجحيم الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

الرسول ﷺ بشر صانه الله وعصمه

قال الله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
 أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
 ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ
 مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
 قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
 فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِئَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ
 تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٥٢﴾.

«التمنى» قال فيه الراغب الأصفهاني في مفرداته: «والتمنى تقدير شيء في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن روية، وبناء



على أصل لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك وأكثر التمنى تصور ما لا حقيقة له، والأمنية: الصورة الحاصلة في النفس من تمنى شيء.

و«الرسول» هو الذى يوحى إليه بشرع يكون شريعة للناس، و«النبي» لا يكون له شريعة مستقلة، ولكن يشرح بوحى من الله شريعة رسول كالأنبياء من بنى إسرائيل من بعد موسى، ولقد ورد فى الأثر: «علماء أمتى كأنياء بنى إسرائيل».

وإن هذه الآية الكريمة تصور كيف يدخل الشيطان فى قلب الإنسان، إنه يجيئه من ناحية ما يتمناه، وما يجىء نتيجة لهذا التمنى وهى الأمنية، فإذا تمنى ألقى الشيطان بزيفه وتضليله فى نفس المتمنى، ولو كان رسولا مرسلًا أو نبيا يوحى إليه، لكن ما يلقى الشيطان فى نفس النبي أو الرسول ينسخه الله تعالى أى يزيله، ولا يبقى له فى نفسه أثراً، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض، وليست إرادة تكف لإرادة الأنبياء.

وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، أى إلا إذا قدر لنفسه شيئاً يريد ويحبه ويتمناه إلا وجد الشيطان لنفسه الذريعة التى ينفذ منها بوسوسته، فيلقى ما يوسوس فى أمنيته ما يتمناه، ولكن النبي له إرادة حاکمة، وفى قلبه نور وهدى، وبهذه الإرادة والنورانية التى قذفها الله فى قلبه يزيل بها الله تعالى ما وسوس به الشيطان، ثم يحكم الله آياته، أى ينزلها محكمة لا ريب فيها، وهدى للعالمين، والله سبحانه وتعالى عليم حكيم، يعلم كل شيء ويدبره.

ويذكر بعض علماء الأثر قصة الغرائق العلاء الذى ادعى فيها أن النبي ﷺ سحر، وقال عن اللات والعزى: تلك الغرائق العلاء، وإن شفاعتهن لترجى، فهى قصة باطلة كاذبة مهما يكن راويها، ومنزلته فى الرواية، فتصديقها يؤدى إلى الطعن فى الرسالة المحمدية، وتكذيب راوٍ فى قصة مهلهلة خير من تكذيب الرسالة والرسول، ومن يقبلها فهو فى غفلة لا يلتفت إليه، ويجب أن نبه هنا إلى أمرين:

الأمر الأول - أننا لسنا بالنسبة لرواية أحاديث النبي ﷺ ممن يسبقون بالقول فنقدم الشك في الرواية على تصديقها ما دامت رواية ثقات، ولم يكن من النصوص الثابتة ما يخالفها.

الأمر الثانى - أننا لا نقدم ما يرويه الراوى مهما يكن ثقة على نص قطعى غير قابل للتخصيص، فكيف نقدم رواية تؤدى إلى الطعن فى صدق الرسالة المحمدية كلها ككون النبي ﷺ سحر، وقال عن اللات والعزى: تلك الغرائق العلا، فهذا كذب لا يمتري فى تكذيبه مؤمن.

وننبه أيضا إلى أن الشيطان يأتى قلوب الناس يوسوس فيها من ناحية أمانيتهم، وقد أزال تعالى ذلك عن أنبيائه بالنص القرآنى القاطع، وادعاء سحره يناقض ذلك النص القاطع، أما غيرهم فإنه يغويهم لأنهم ليسوا عباد الله المخلصين، والأنبياء بلا ريب من عباده المخلصين، وقال تعالى:

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٢﴾.

إن الله تعالى عصم الأنبياء؛ لأنهم حملة رسالته إلى خلقه، ويعرفوها نيرة سائغة، أما غير الأنبياء فإنهم أقسام؛ قسم أخلص لله، واستقامت قلوبهم، وهم من عباده المخلصين، وهم الصديقون والشهداء والذين يتبعون النبيين. وقسم آخر فى قلوبهم مرض وضعف إيمان، بما قلدوا واتبعوا أهل الشر، وسلموا أنفسهم لهم، ولم يسلموها لله تعالى. وقسم قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة بما مردوا عليه من نفاق، وقد غلفوا قلوبهم، فلا يدخلها نور الحق، وهم المنافقون واليهود شر البرية وهذان الفريقان هم الذين قال تعالى فيهم هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، «اللام» هى التى تسمى لام العاقبة، أى لتكون نتيجة ترك الشيطان مسلطا على الناس يأتيهم من قبل أمانيتهم، أى يجعل سبحانه ما يلقيه الشيطان من

وسوسة وإغواء بمسايرتهم فيما يتمنونه حتى يصلوا إلى ما يريدهم ﴿فِتْنَةً﴾، أى تعاملهم معاملة المختبر لصنفين من الناس يستهويهم بشره، وقد أقسم ليغوينهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين. والذين فى قلوبهم مرض هم الذين قد استولى عليهم الشك، فالشك مرض القلوب، وهم الذين يتبعون آباءهم، ويقولون: ﴿... بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠) [البقرة]. فالتقليد من غير تفكير، ووزن للأقوال مرض كالشك أو يزيد، والقاسية قلوبهم هم اليهود وغيرهم ممن يستمسكون بما هم عليه من أقوال لا تمت إلى التوراة بسبب، وقد وصفهم الله تعالى بقسوة القلوب، فلا تفتح للحق بل هى مغلقة، تسد كل نور لهداية، فقال تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٥) [البقرة].

وقد رأينا المشركين آمنوا بعد شرك، أما اليهود، فلم يؤمنوا، وعاشوا للدس والخيانة ونقض العهود والمواثيق، وختم الله تعالى الآية الكريمة بذكر أولياء الشيطان فقال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، والظلم وصف يعم ظلم العبادة فيشمل الشرك، وإن الشرك لظلم عظيم، كما قال لقمان الحكيم لابنه، ويشمل ظلم العباد بعضهم لبعض، ويشمل الخيانة والنميمة فعل اليهود. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ﴾، أى كل فريق منهم فى شق يفارق الآخر، فالمشركون فى شق، واليهود فى شق، والمنافقون فى شق، والنفاق ضروب مختلفة، وكل شق بينه وبين الآخر مسافة بعيدة، ولذا وصف الشقاق كله بأنه ﴿بَعِيدٍ﴾، مختلف فى أجزائه.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤).

«الواو» عاطفة، و«اللام» هنا كـ «اللام» هناك، أى لتكون نتيجة إلقاء الشيطان بوسوسته، للاختبار لمرضى القلوب والقساة الغلاظ، ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أتباع النبيين الحق، أى أنهم أوتوا علم النبوة من الأنبياء فنفوا عن

أنفسهم بما ألقى الله تعالى قى قلوبهم من علم بالصدق والصبر الضابط للنفس ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، الضمير يعود على القرآن الذى ذكر الله تعالى أنه أحكمت آياته، بعد دفع إغواء الشيطان ووسوسته عن الرسل والأنبياء من وقت مبعثهم إلى أن قبضهم الله سبحانه وتعالى إليه.

وقوله: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، فيه قصر، لتعريف الطرفين أى أن القرآن الكريم هو الحق، فليس حديثا يفترى ولا أساطير الأولين، ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، ولذلك يؤمنون به و«الفاء» للسببية، أى بسبب علمهم يؤمنون به ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، الإخبات قال فيه الراغب فى مفرداته: الخبت المظمن من الأرض، وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد، ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع، والمعنى تواضعت قلوب المؤمنين، ولم تمار فى الحق قلوبهم، بل أخبتت وسكنت إلى الحق.

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَيُؤْمِنُوا﴾ فاء السببية أو عاطفة على العلم الذى أتوا، وكذلك «الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أى أن الله من شأنه جل جلاله أن يهدى الذين آمنوا بأن سلكوا إلى الطريق الأقوم أو شرعوا فيأخذ الله بأيديهم، والصراط هو الطريق المستقيم، وهو صراط الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ...﴾ (١٥٣) ﴿[الأنعام].

وقد أكد سبحانه هداية الله تعالى المؤمنين إلى الصراط المستقيم بـ«إن» المؤكدة وبـ«اللام» وبـ«الجملة الاسمية».

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥) ﴿.

﴿وَلَا يَزَالُ﴾ معناها استمر، وكأنه كان يتوقع بتوالى الأدلة، وتضافر الإثبات أن يزول ريبهم، ولكنه لم يزل بل استمر، والمرية: الشك، والضمير فى

﴿مَنْهُ﴾ يعود على القرآن، فبينما الذين أوتوا العلم وهبوا اليقين أنه الحق من ربهم وخالفهم وذارئهم، ولا يمكن أن يكون إلا حقاً لتوالى التحدى وتوالى العجز، ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾، وإنهم مستمرّون على هذا الشك ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، أى القيامة وينتهى الكون، وهم فى ضلالهم القديم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾، فى هذا اليوم الذى وصفه الله تعالى بالعقيم، وأنه لا خير فيه، ولا ثمرة تنتج منه، ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويكون عقمه فى أن كل يوم له يوم يعقبه، وكأنه عقبه الذى أنجبه، أما يوم القيامة فليس له تال يكون كالعقب له، والسياق يجافى ذلك؛ لأن الساعة يوم القيامة و﴿أَوْ﴾ تقتضى أن يكون اليوم العقيم غيره، ويحتمل أن يكون يوماً كيوم بدر، ووصف بأنه عقيم؛ لأن فيه قطعت أرحام قطعها المشركون، وفيه حرمت النساء من أولادهن فصاروا كأنهم لم يلدوهم، ولأن يوم بدر وأشباهه يوم حرب، ويوصف رجاله ومقاتلوه بأنهم أبناء الحرب، والحرب لا تنتج، فهى عقيم، ثم هو لا خير فيه للمشركين، فهو يوم عقيم، ويقال كما فى القرآن الكريم: ﴿... الرِّيحُ الْعَقِيمُ (٤١)﴾ [الذاريات]، أى لا مطر فيها ولا خير.

هذا، وإن الكافرين يستمرّون فى مريتهم، والشك حيرة واضطراب، حتى تأتيتهم الساعة أو يأتيتهم يوم يقاتلون فيه، ولا خير فيه يعود عليهم، بل شر مستطير، فهو يوم عقيم، والله يهدى من يشاء بإذنه.

الملك لله يوم القيامة

قال الله تعالى:

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا
لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
الْرَازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ
النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿الْمَلِكُ﴾ في يوم القيامة لله وحده، فليس لأحد في ذلك سلطان ولو
صوريا كسلطان أهل الدنيا، ولا حكم، ولو تحكما، كحال الملوك المستبدين، ولا
رقابة لأحد غير الله تعالى، كل الملك لله وحده فلا طاغوت ولا طغيان، ولا حكم
لغير الله، والتنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ينبنى عن مضاف إليه يناسب المقام، وهو يوم
القيامة والجزاء والحساب، والمعنى على ذلك يكون الملك المطلق يوم تقوم القيامة،
وينصب الميزان، ويكون الحساب ومن بعد الثواب والعقاب، وذلك فيه إنذار شديد
بأن المؤمنين ومخالفهم يلاقون ربهم، ويواجهون أعمالهم، ويفصل بينهم سبحانه
بالحق والقسطاس المستقيم.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، «الفاء» للإفصاح عن
شرط مقدر، والمعنى إذا كان الله تعالى هو الحكم وحده ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾، من عبادات، وطاعات للأوامر والنواهي، وعمل صالح نافع للناس
لا يقصدون به إلا وجه الله، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، الإضافة هنا بيانية، أى في
جنت النعيم الدائم الخالد المقيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

هذا جزاء المؤمنين عندما يلاقون ربهم أما الذين كفروا من المشركين وأهل
الكتاب، وكذبوا بآياتنا، وعبر بالموصول في الكفر والتكذيب بآيات الله؛ للإشارة

إلى أن سبب الجزاء هو كفرهم برسالة محمد ﷺ وتكذيبهم لآيات الله، وتكذيب آيات الله تسجل تكذيبهم للآيات القرآنية، أى تكذيبهم للقرآن مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وتكذيبهم لدلالة الآيات الكونية الدالة على وحدانيته وإبداعه فى خلقه.

وأضاف سبحانه وتعالى الآيات لذاته العلية لبيان عظيم افتراءهم، وأنهم فعلوا ذلك استعلاء واستكباراً، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى العذاب النازل بهم بأنه عذاب مهين مذل ملقٍ بهم فى الهوان؛ لاستعلائهم على الحق وآيات الله. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾.

هذه الآية فيها حث على تجميع المؤمنين فى لواء واحد، وكل مؤمن مدعو للهجرة إلى تجمع المؤمنين، حتى لا يكون المؤمنون مبعثرين فى الأرض، فالمستضعف فى أرض عليه أن يهاجر إلى موضع تجمع المؤمنين، فليس لمؤمن أن يعيش ذليلاً للاستضعاف فى أرض عدو لا يستطيع أن يقيم شعائره الإسلامية فيها، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)﴾ [النساء].

فالهجرة ليصل إلى جماعة المؤمنين أو ليقاتل ويجاهد ما رال بابه مفتوحا وفيه ثواب الجهاد والهجرة، وحديث «لا هجرة بعد الفتح»^(١)، يراد به الهجرة من

(١) رواه البخارى: لا هجرة بعد الفتح (٣٨١٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كما رواه مسلم (٤٧٨٧)، ولفظه عن عائشة، قالت: سئل رسول الله عن الهجرة؟ فقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية. وإذا استنفرتم فانفروا».

مكة إلى المدينة، فقد صارت مكة أرضاً للإسلام، لا يهاجر منها إلا للجهاد في المدينة والتجمع كما يكون في المدينة يكون في مكة.

وإذا كانت الهجرة مطلوبة من أرض فيها ضعف إلى حيث العزة الإسلامية والجهاد، فالذين هاجروا في سبيل الله تعالى ليجمعوا مع المؤمنين ويجاهدوا معهم لهم جزاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أى كانت هجرتهم في سبيل الله، أى إن ذات الهجرة للجماعة الإسلامية جهاد فى ذاته، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾، العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخى فى موضعه؛ لأن قتلهم ليس عقب الهجرة، ولا موتهم، بل إنهم يعيشون مقيمين مع المؤمنين ما شاء الله أن يقيموا مجاهدين حتى يستشهدوا فى قتال أو يموتوا حتف أنوفهم، وقد بين الله تعالى جزاءين أحدهما فى الدنيا، وقد بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

أقسم الله سبحانه بأنه يرزقهم رزقا حسنا، أى طيبا سخيا، يغدق الله تعالى فيه عليهم من خيريه، من الفىء وغنائم الحرب، فإن الله تعالى جعل رزق المجاهدين فى ظلال سيوفهم، وشكاة سلاحهم، وفى سنابك خيلهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، والله أكرم الرازقين. وأفضل التفضيل ليس على بابه، بل إن الله تعالى رزقه فى أعلى درجات الرزق، هذا هو جزاء الدنيا، فإن الهجرة من أرض الذل إلى أرض العزة فى سبيل الله يكون فيه الرزق.

أما الجزاء الأخرى فقد ذكره سبحانه بقوله عز من قائل:

﴿لِيُدْخِلَنَّهُمُ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾.

أقسم سبحانه وتعالى قدرته، فقال: ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمُ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾، أى ليدخلهم الله، وكأنهم ضيوفه يوم القيامة، وأكد ذلك بـ «القسم» و «لامه» و «نون» التوكيد، ﴿مَدْخَلًا﴾، اسم مكان، وصفه بأنهم ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾، يستطيعون نعيمه، ويفكّهون فى خيريه، وهو الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، بأحوال خلقه يعلم مؤمنهم وكافرهم، وهو حلیم يغفر السيئات

بالحسنات، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...﴾ (١١٤) [هود]، والخلق جميعا قبضته يوم القيامة.

نصر الله تعالى وقدرته العليا، وعلمه

قال الله تعالى:

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ
مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ
﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ، هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ
مُخْضِرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ (٦٠).

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ الآية، الإشارة إلى البعيد، من قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ...﴾ (٣٩) إلى آخر ما جاء بعد ذلك من جزاء أهل الحق في الدنيا والآخرة، وجزاء أهل الباطل في الدنيا والآخرة ذكر الله سبحانه وتعالى أن من يرد الاعتداء بمثله، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، أى إذا بُغِيَ عليه بعد ذلك ﴿لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾.

وسمى سبحانه رد الاعتداء عقاباً للجاني، وذلك حق؛ لأنه أودى فيعاقب المؤذى بمقدار، ولكن سمى الاعتداء عقاباً وذلك من قبيل المشاكلة اللفظية، وليتم القصاص بين الجاني والمجنى عليه بالتساوى، وإن الله يذكر أنه بعد العقاب برد الاعتداء بمثله، لا يصح للمعتدى أن يعاود اعتدائه؛ لأن ذلك يكون بغياً وظلماً، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، وكان التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ للإشارة إلى بعد ما بين مرتبة القصاص العادل والبغى الظالم، وإن الله تعالى ينصر العادل على الباغى.

﴿لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ﴾ الضمير يعود إلى من بغى عليه، وقد أكد الله تعالى نصره للمعاقب المقتص، بالقسم و«لام» القسم، وبـ «نون» التوكيد الثقيلة كما يعبر النحويون.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ العفو «فعل» من العفو، أى أنه سبحانه وتعالى كثير العفو، وهو صفة من صفاته جل وعلا، أو اسم من أسمائه، فهو يعفو عن كل تقصير، وكل مخالفة ليست ذنباً، وهو غفور يغفرها إذا كانت مما لم يَأْثَمَ بالنفس، ويكسبها إعتاماً وإظلاماً، بل يكون بجواره حسنات تكشف ظلمتها، وتكون مع ذلك توبة نصوح تَجِبُ السيئات.

وقد قيل: لماذا ختمت الآية بالعفو الغفور، مع أن النصرة لدفع الظلم، وذلك يقتضى اسم القدرة والقهر؟ ومعاذ الله أن يكون المفسرون قد يتناولون على عبارات القرآن الكريم، ونقول: المناسب هو العفو الغفور، بالنسبة للباغى، والمعاقب، ذلك أن الحرب فى عصر النبى ﷺ، وما قام به الصحابة والتابعون من بعده ما كانت حرب دماء وغلب، بل كانت حرب هداية وإرشاد، وتعليم، ورفع للظلم، ورحمة للعالمين؛ ولذلك دعا الله تعالى إلى العفو فيها فقال تعالى: ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل]، وقال تعالى فى هذا المقام أيضاً: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى]، وقال: ﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ [الشورى]،

وهكذا أكثر الآيات التي طالبت بالعفو مع القصاص، فكان القصاص سائغا، والعفو والتسامح والصفح مندوبا إليه، كما قال تعالى ﴿... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر]، ولذا كان ختم الآية بالعفو والغفران له موقعه، وهو من الأسلوب الحكيم الذي لا يعلو إليه متكلم في الأرض، فهو يحث على العفو كما حثت الآيات الأخرى، وهو يبين أن حرب الإسلام العادلة يؤثر الله فيها الصفع من أهل الإيمان ما كان سبيل إليه، إذ إنها ليست للانتقام، وإلا تكررت الحروب، فهذا الفريق يقتص، ثم الفريق الآخر يبغي، ويتوالى القصاص والبغي، وفتح باب العفو يغلق باب الحرب، ما دام الحق يمكن إقامته بغير توالى القتال، القتال عادلا، أو باغيا.

وقد صور الله تعالى دفع الباطل بالحق، وكون النصر والقتال له يكون دولة بإيلاج الليل في النهار، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١)﴾.

الإشارة إلى نصر الله لمن يبغي عليه بعد أن دافع عن نفسه، والولوج الدخول في مضيق كما جاء في قوله تعالى: ﴿... حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ... (٤٠)﴾ [الأعراف]، وجاء في المفردات قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تنبيه على ما ركب الله عز وجل العالم من زيادة الليل في النهار، وزيادة النهار في الليل، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها.

والمعنى أن هذا تنبيه لاختلاف مدار الأرض حول الشمس، وقربها أو بعدها بجعلها قريبة نسبيا بقدر ضئيل، فيطول النهار، وبعيدة نسبيا بمثله فيطول الليل، وكل شيء عند ريك بمقدار، وهو الكبير المتعال المالك لكل شيء، والمسير للكون بإحكام، وينواميس لا تتخلف، كما اختار العزيز الحكيم العالم بكل شيء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ «أن» معطوفة على ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ إلى آخره،

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يجرى فى الكون، يعلم علم من يسمع، و﴿بَصِيرٌ﴾ يعلم علم من يبصر لا يغيب عنه شىء فى السماء ولا فى الأرض.

ويسأل سائل هنا: لماذا ذكر سبحانه وتعالى ذلك فى هذا الموضع من نصره سبحانه وتعالى لمن بغى عليه؟، وأنه سبحانه وتعالى يعفو عمن يترك ما يؤذيه إليه سبحانه، ويغفر له، والجواب عن ذلك أن الله تعالى ذكر أمرين أو أشار إليهما:

الأمر الأول - أن الله سبحانه ينصر من يعى عليه وأكد سبحانه وتعالى نصره، بالتوكيدات التى ذكرناها فى موضعها.

والأمر الثانى - أن الله تعالى يندب إلى العفو والتسامح عند القصاص، وفى هذا النص السامى الكونى يشير سبحانه إلى أنه يجعل النصر والهزيمة دولة بين الناس، والقوة والضعف دولة بين الناس كما يجعل الليل يدخل فى النهار، والنهار يدخل فى الليل، فيزداد هذا تارة وينقص أخرى، فعلى الدولة المنتصرة أن تذكر أنها قد تنهزم، فلا تغالى فى القصاص، بل تفتح زاوية للمعروف من العفو والتسامح.

وبذلك يدعو الإسلام إلى أن لا تكون الحروب الإنسانية قاطعة مانعة لكل سلام، بل يجب أن يشع نور السلام فى وقت الحروب العادلة، إلا أن يكون العدو شرسا كاليهود أعداء الإنسانية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢).

الإشارة إلى معنى الآية السابقة من نصره سبحانه لمن بغى عليه مع دعوته إلى العفو إذا كان له موضع، ويفتح باب السلام ولا يغلقه، ما لم يكن مطمعا للباطل فى الحق، أى كان ذلك بإجازة القصاص مع فتح الباب بالعفو، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أى بسبب أن الله هو الحق، والله تعالى هو الحق لأنه منشئ الكون، وناصر الحق والداعى إليه، وهو المعبود الحق الذى لا إله غيره؛ ولذا وصف بأنه

الحق، وأنه هو الخالق الحق، والواحد في ذاته وصفاته، والمعبود بالحق، لذلك أخبر عنه بأنه الحق، والتعبير بقوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ يفيد القصر، أى أنه لا حق غير الله، فكل ما عداه باطل، لأنه إلى فناء.

﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾، أى ما يعبدون من آلهة غيره باطلة؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، وليس لها من وجود في ذاتها؛ إذ هي جماد، لا يتحرك إلا إن تحرك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ الذى لا يساميه موجود، ولا يناهده أحد، إذ الجميع خلقه، وهو القاهر فوق العباد، وهو ﴿الْكَبِيرُ﴾، فهو واجب الوجود المطلق، وكل شيء يستمد منه وجوده فهو وحده الكبير، والنص السامى يدل على انحصار العلا والكبر بذاته وصفاته فيه وحده، ودل على اختصاصه بذلك التعبير بقوله ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ تعريف الطرفين فإنه يدل على القصر، فكان العلا والكبرياء مقصورين عليه وحده، إذ كل مخلوق سواه مستمد وجوده منه، ووجوده غير باق، فهو سبحانه الباقي وحده، وهو وحده واجب الوجود.

وبين سبحانه نعمه على خلقه، فقال عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٣).

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، الاستفهام هنا للتنبيه، وقد جاء على صيغة الاستفهام الإنكارى الدال على نفى الوقوع، وهو داخل على «لم» النافية ونفى النفى إثبات، والمعنى لقد رأيت بنظرك وعلمك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، والسماء هنا ما علاك، فليست أجرام السماء من شمس وقمر وكواكب فى أبراجها، وتماسكها، إنما المطر ينزل من سحب قريبة دانية أو بعيدة قاصية، وذلك بينه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ

يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾
[النور].

فهذا النص الكريم يوضح نزول المطر من السحاب المتكاثف بقدره الله تعالى وما كانت لتدره إلا بأمر الله، وإنه ينزل المطر إلى الأرض لتعمل أيدي الزراع فتبذر البذور وترجو الثمار من الرب، وتخضر الأرض، ولذا قال تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، «الفاء» عاطفة، وهى للتعقيب، وبظاهر اللفظ يكون الاخضرار عقب نزول المطر بلا تراخ فى الزمن، وكيف يكون وثمة تراخ بإنبات البذر وظهور عيدانه، وصيرورة الأرض مخضرة؟ والجواب عن ذلك أن التراخى فى أعمال العباد، وليس من الله، بل إن إرادة الله لا تراخى فيها، إنما هى أن يقول كن فيكون؛ ولأن التعبير بـ «الفاء» التى تفيد الفورية فيه تنبيه إلى عجائب الله فى الخلق والتكوين، إذ يكون من التلاحق بين الماء والأرض اليابسة نبات مخضر تزدان به الأرض، وتكون ذات منظر بهيج، وقد وصف سبحانه الأرض بأنها مخضرة إذ اختفت طينتها، ولم تبد إلا خضرة زرعها، والاختضرار للزرع لا لها؛ ولكن لأنه فيها سنح أن توصف هى بالاختضرار باعتبار ما فيها، ولأنه صار لها كسوة باهرة زاهرة.

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أى لطيف بعباده عليم علما دقيقا علم خبرة بما ينفعهم ويقوم به عيشهم، فيوفقهم له. وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، فى مقام التعليل لإنعامه بهذه النعم الكثيرة المتوالية نعمة تلو أخرى.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٦٤﴾.

هذه الجملة فى مقام التعليل للآية السابقة، أى أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض اليابسة مخضرة تكون بهجة للناظرين؛ لأن الله تعالى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وله ما فيها، وهو سبحانه وتعالى غنى عن عباده، فهو

غير محتاج إليهم وهم محتاجون إليه فالله هو الغنى، ونحن الفقراء إليه، ولأنها فى معنى التعليل لما تضمنته الآية السابقة كان الفصل بينهما ولم يكن وصل بـ «الواو» و«اللام» للملكية، فالله تعالى مالك لما فى السموات من شمس وقمر ونجوم مسخرات بأمره، ومالك لما فى الأرض من جبال ووهاد، وزروع وثمار، وحيوان وأنعام، وإبل وأفراس، وما فى باطنها من فلزات ومعادن وكنوز، وما فيها من لآلىء وجواهر، ولحم طرى، كل ذلك لله، لأنه خالقه، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وتعريف الطرفين فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يدل على القصر والاختصاص، فالله وحده هو الغنى، وجميع الوجود محتاج إليه سبحانه، والحميد بمعنى المحمود، فهو «فعل» بمعنى مفعول، فهو وحده المستحق لأن يُحمد، ولا يحمد فى الوجود سواه.

وقد تأكد غناه سبحانه جل جلاله، بـ «إِنَّ» الدالة على التوكيد، وبـ «اللام» فى قوله: ﴿لَهُوَ﴾، وبضمير الفصل، وتعريف الطرفين كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر]، وكل الوجود يحتاج إليه سبحانه، وهو لا يحتاج لشيء فى الوجود.

فضل الله على خلقه

قال الله تعالى:

الْقُرْآنَ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِ الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءٌ وَفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٧﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ

فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَأِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يُحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ .

الاستفهام هنا للإنكار بمعنى نفى الوقوع، وهو داخل على «لم» النافية، ونفى النفي إثبات، فهو بيان لأن الله سخر ما في الأرض، والمعنى قد سخر الله لكم ما في الأرض، وكأن الاستفهام هنا مع النفي تنبيه؛ لأن الله تعالى ذلل ما في الأرض لكم، وقدم ﴿لَكُمْ﴾ على المفعول وهو ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾، لبيان أن التسخير من الله تعالى لكم، ليدلل كل ما فيها لإرادتكم ورغباتكم، ومعاشكم، فكل ما فيها طاهرا فوق أرضها من زروع وثمار، وغابات، وجبال ووهاد، وما في باطنها من معادن وكنوز، وفي بحارها من لآلئ، ولحم طرى، كل هذا سخره الله تعالى وذلله لكم، فهي نعم تنادى من أنعم عليه بها بشكرها، وذكر أمرا في الأرض، وخصه بالذكر، لوضوح نعمته تعالى فيه، ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، فهذه الفلك تجرى في البحر بإذن الله وأمره وتسييره لها سبحانه وتعالى أنها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ مع أن كل شيء بأمره، وذلك لأنها في مرأى تسيير في البحر ماخرات عبابه، لا يسيّرُها شيء إلا الهواء، فإن التعبير ﴿بِأَمْرِهِ﴾ في هذا مسايرة لمراى العين ومجرى الريح، وهى آية من آيات الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى] وهى تجرى فى البحر ناقلة ما تحمل من خيرات الأرض إلى أقاليم أخرى، ولذا قال فى آية أخرى: ﴿... وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ... ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة]، فهى تصل الناس بعضهم ببعض بالتاجر، والرحلات والتعارف والاتصال الدائم بينهم.

وإن الله رفع السماء عن الأرض بغير عمد ترونها، ولكنها مربوطة بقوى الجاذبية والقصور الذاتى، وحفظ الله توازن الكون، وإنه بهذه النواميس الكونية التى تسرى بأمره، والتى خلقها سبحانه، بحفظ الكون، ويمسك السماء أن تقع على الأرض؛ ولذا قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، أى يمسك السماء من أن تقع على الأرض، لأنها بغير عمد ترونها، إنما يمسك سبحانه بقوى ونواميس خلقها، «وأن تقع» مجرورة بمن، وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ [الانفطار].

وإن هذا التوازن الكونى بين السماء والأرض ليعيش الناس فى أمن واطمئنان من حوادث الكون، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرءوف من «رؤف»، والرحيم صفة مشبهة للرحمة، والرأفة أصلها رقة القلب، والشفقة بالناس، والرحمة من الناس تشمل معنى الإنعام الذى يناسب الناس، أما الرأفة بالنسبة لله تعالى فهى ما يقتضيه اتصافه بالكمال، وتنزيهه سبحانه عن المشابهة بالحوادث، وهو أنه سبحانه يقدم ما يكون إنعاما عليهم فى مشاعرهم وأحاسيسهم، والرحمة الإنعام والإحسان فى عامة أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، أى يعاملهم معاملة من يراف بهم ويشفق عليهم، ومعاملة من ينعم عليهم ويرحمهم فى عامة أمورهم، وإن هذه الجملة السامية فى مقام التعليل لما سبق من تصرفه فى الكون، وقد أكد سبحانه رأفته ورحمته بهم، بعدة مؤكدات، أولها، ﴿إِنَّ﴾، وثانيها تقديم ﴿بِالنَّاسِ﴾، وثالثها ب «اللام»، ورابعها بالتعبير بالصفة المشبهة، وذكر سبحانه بيان قدرته فيهم فقال عز من قائل:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾.

الضمير يعود على الله جل جلاله، وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾، وقد ذكر سبحانه فضله تعالى، وهو المنشئ المنعم فى ثلاثة أدوار:

الدور الأول - أنه هو الذى أمدنا بالحياة ذاتها فأخرجنا من التراب، ثم من نطفة، إلى أن جعلنا فى أحسن تقويم، وأمدنا بما يبقى حياتنا من نبات وثمار، وحيوان يأكل مما تنبت الأرض، وعبر سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ وقد أشار سبحانه وتعالى إلى عناصر الحياة التى تمدّها بالبقاء بإرادته فى آيات آخر.

الدور الثانى - الموت، بعد أجل مسمى من ابتداء الحياة، وهذا محسوس مرئى يحدث كل يوم، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ وقد عبر بالمضارع؛ لأنه مستمر متجدد يرى كل يوم، ولا يرتاب فيه مراتب، لأنه مرئى بالعيان.

الدور الثالث - الحياة بعد الموت، وهو البعث والنشور، وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك الدور بقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وعبر بالمضارع؛ لأنه واقع فى المستقبل يؤمن به من يؤمن بالغيب، ومن يعلم أن الإنسان لم يخلق عبثاً، ولكن لأن هذا الدور ليس مشاهد الآن بالعيان أنكره الكافرون، لأنهم قالوا: أنذا متنا وكنا تراباً ﴿... أَتُنَبِّئُونَا بِحَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتٍ﴾ [الإسراء، ٤٩]، ولكن الله الذى خلق الإنسان من تراب، وأمهه بكل عناصر الحياة والبقاء أخبر بأنه هو القادر الذى خلقهم وأحياهم، وأنه يعيدهم كما بدأهم ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأنعام، ٢٩]، ولكن المشركون وهم كثيرون لم يؤمنوا بالبعث وكفروا به، ولذا قال تعالى عقب ذلك: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾، أى يجحد الدور الأخير؛ لأنه لا يؤمن إلا بالأمر المحسوس، وإنما ذلك أمر مغيب، والفرق بين الكافر والمؤمن أن المؤمن يؤمن بالغيب، والكافر لا يؤمن إلا بالحس، وقد أكد سبحانه كفر الكافر بالغيب، أولاً بـ ﴿إِنَّ﴾، وثانياً بـ «اللام»، وثالثاً بالصفة المشبهة «كفور».

و﴿الْإِنْسَانُ﴾ هنا هو الذى لا يؤمن بالغيب، ويلاحظ فى التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ أنها للتراخى، ففترة ما بين الحياة والموت ليست قصيرة يعمل فيها ما يحاسب عليه بالعقاب أو الثواب، وكذلك الفترة بين الموت والحياة الثانية.

إن أهل الديانات التى تنتمى لأصل سماوى يعترضون على الإسلام بما اشتمل عليه من أحكام ليست عندهم، فرد الله تعالى كلامهم بقوله تعالى:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧).

المنسك مكان النسك وهو العبادة، أو مصدر ميمي، والمراد العبادة أيضا، ويقرر أكثر المفسرين أن النسك هو شرائع النبيين، كقوله تعالى: ﴿... لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ (٤٨)، فالله تعالى جعل لكل أمة شريعة جاء بها نبيها، وجاءت شريعة مهيمنة على كل الشرائع، وخاتمة لها، وناسخة لما يخالفها، ولو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ؛ لأن شريعته هي خاتمة الشرائع الإلهية، وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أى العابدون الله تعالى على منهاجه، والضمير يعود على النسك، وناسكوه كما أشرنا: سالكون طريق العبادة الذى سن فيه.

﴿فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾، «الفاء» للإفصاح، أى إذا كان لكل أمة دين، فلا ينزعك فى الأمر، و«لا» ناهية، والنهى لمن يحتمل أن يكون للنبي ﷺ ومعناه النهى عن تمكينهم من منازعته، وردهم فى هذه المنازعة والمجادلة، وربما يؤيد هذا قوله تعالى من بعد فى الآية التالية: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨)، فمضمون النهى عن عدم الالتفات إليهم، والسير على منهاجه، ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أى امض فى طريقك داعيا إلى ربك العليم بكل عمل، وبكل قول حقا أو افتراء، وهذا النهى كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ...﴾ (٨٧) [القصص]، ثم أكد سبحانه مضيه وعدم التفاته إليهم بقوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، أى وإنك فى نسكك وشريعته لمستمكن من الهداية المستقيمة تمكين من يعلو على الهداية، فالتعبير بقوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أنك متمكن من هدايتك تمكن من كان فوق الهداية مستمكنا منها كالقائم عليها والجالس عليها ووصف سبحانه الهدى الذى استمكن منه ﷺ واقتعده بالاستقامة، والاستقامة وصف للحق، ولكل هداية.

هذا هو الاحتمال الذى يكون النهى فيه موجهًا للنبي؛ لأنه ﷺ صاحب رسالة الله تعالى، وحاملها، وهو المخاطب بتكليفات الرسالة، وليس المخالفون مخاطبين إلا عن طريقه.

وقد ذكر المفسرون احتمالاً آخر، ورجحه كثيرون، وهو أن يكون النهى للمخالفين المعترضين، ونراه بعيداً، وإذا كان الله ينهاه عن المنازعة؛ لأنه لا موضوع لها إذ لكل دين نسكه وشريعته، وإن شريعة محمد ﷺ عامة ناسخة ما يخالفها، فقد نهاه أيضاً عن الجدل معهم، فقال عز من قائل:

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨)﴾.

الجدل إحكام فتل الحبل، وإحكام البناء، والجدال فى مسائل الحق والباطل إحكام كل مجادل قوله ليستطيع أن يزيف الحق أو أن يزيف كلام خصمه، وإنه شاع فى قول الباطل، والمجادلة فى الحق، وهذا النوع من الجدال من شأنه أن يعثر الحق، ويشكك فيه، وقد كان الإمام مالك رضى الله عنه ينهى عن الجدال فى الحقائق، وكان يقول: كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص مما جاء به محمد ﷺ، وقد أمر الله تعالى ألا يجادل المشركين واليهود، وأن يفوض أمورهم بعد أن تبين لهم الحق الذى يجب اتباعه، ودلائله من آيات الله المتلوة والكونية، وأمره أن يقول لهم: ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وهذا فيه تهديد لهم على عملهم، ومؤداه لا تحاولوا تبرئكم فى أعمالكم بالملاحاة والمجادلة، فالله أعلم بعملكم.

وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه، فلا مفاضلة فى علم الله تعالى، إنما المعنى أن الله يعلم بما تعملون علماً ليس فوقه علم وإن علم الله بأعمالكم سيبيته يوم القيامة، فقال عز من قائل:

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)﴾.

إذا كان الله تعالى هو الذى يعلم عملهم علماً ليس فوقه علم، فهو الذى يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وخاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ

يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ الخطاب للذين جادلوا النبي ﷺ، وأمره الله تعالى بالإعراض عنهم، وألا يلتفت إليهم، وهم كانوا مختلفين فيما بينهم، فاليهود مختلفون مع المشركين، واليهود مختلفون فيما بينهم في عقائدهم؛ فمنهم صدوقيون لا يؤمنون بالبعث، ومنهم ربانيون، ومنهم قراء، والمشركون واليهود مختلفون مع النبي ﷺ، والله تعالى يحكم بين هؤلاء أجمعين، وإن الجحيم مأوى الكافرين به.

الله خالق الكل والعليم بما خلق

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذْ أَتَى عَلَىهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشُرِّهِمْ زَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة أن الله تعالى هو الذى يحكم بين الكافرين والمؤمنين فيما خالفوا فيه، ويحكم بين الكافرين من أهل الكتاب فيما يختلفون فيه فيما بينهم، وكل باطل، بعد هذا الذى ذكره سبحانه بالعبارة وبالإشارة ذكر أنه حكم عالم لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، فقال عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٠).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ معناها: قد علمت، وبيننا كيف استخلص ذلك المعنى السامى، الاستفهام الإنكارى الداخلى على فعل منفى، وسياق القول: قد علمت يا محمد علما مؤكدا يقينا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ من عقلاء وأناس مكلفين، وما مكن لهم فيهما، وماذا فعلوا فيما سخر لهم، فإذا كان هو الله الذى يحكم بينهم فحكمه هو الفصل، وهو خير الفاصلين، وإنه مع علمه سبحانه المحيط، قد سجل ذلك فى كتاب وهو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وقد بين الله تعالى الحكم والإحصاء فى كتاب سهل يسير على الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أى سهل لا يحتاج إلى معاناة من الله العلى الكبير، بل إنه سهل عليه سبحانه، وإن الحكم الفاصل يقع منه فى ساعات أو لحظات.

هذا هو الحق، وإنه سيلاقيهم يوم يعلم كل إنسان ما قدمت يده، ولكن المشركين فى عماء عن الحق؛ ولذا قال تعالت كلماته:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧١).

الضمير فى ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ يعود إلى الكافرين الذين سيطرت عليهم الأوهام والأهواء والتقليد، فيعبدون ما لم تنزل به حجة ترشداهم إلى عبادته، والسلطان فى قوله: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أى حجة نقلية نزلت من عند الله تعالى، وسميت سلطاناً؛ لأنها تكون قوة تجعل لمن نزلت له قوة تجعل ما عنده قويا

كالسلطان ولكن لم ينزل شيء من ذلك، وإذا كان لم ينزل دليل نقلي من عند الله بعبادته، هل لديهم برهان عقلي يتج يقينا؟ نفى الله تعالى ذلك أيضا فقال تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، أى ليس لهم به برهان عقلي يسوغ عبادتهم، بل إن البرهان العقلي يؤدي إلى نقيضه؛ لأنه لا يسمع ولا يبصر، والقانون العقلي يوجب أن يكون المعبود أعظم من العابد، فكيف يعبدون جمادًا، وهم أحياء، وهو لا يعقل، وهم يعقلون؟! .

إذا لم يكن عندهم دليل من عند الله أنزله فكان لهم سلطان، ولا علم عقلي فإن ذلك يكون ظلما؛ ولذا ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾، وإذا كانوا يعبدون ما لا دليل عليه من نقل أو عقل، ويشركون مع خالقهم فى العبادة، وهو الواحد الأحد، فإن ذلك لأنفسهم ولقولهم ضلال وفساد، وقد نفى الله تعالى أن يكون لهم نصير أى نصير؛ إذ لا يمكن أن يكون نصيرا أمام قوة الله .

ومن لاستغراق النفى أى ليس نصير أى نصير من ملك أو إنسان .

ونشير هنا إشارة بيانية فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيه أن كلمة ﴿لَهُمْ﴾ قدمت على ﴿عِلْمٌ﴾، وهى المبتدأ؛ للدلالة على أنهم تهجموا من غير علم فقدم عقابه فى الاهتمام، وللدلالة على ضلالهم، وقدم ﴿بِهِ﴾ على ﴿عِلْمٌ﴾ للدلالة على إمعانهم فى الضلال وظلمهم للحق، والله ولى المؤمنين .

وإن هؤلاء الذين سيطرت عليهم الأوهام، وتحكمت فيهم الأهواء والتقليد الأعمى لا يلقون آيات الله تعالى بما يستحق من عناية، بل يقابلون بالاستنكار والسخرية، فلا يهتدون ولا يفتحون قلوبهم لدخول الهداية، ولذا قال تعالى عنهم:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبئس الْمَصِيرُ (٧٢)﴾ .

إن حال هؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا دليل عندهم يسوغ عبادته إلا أن تكون الأوهام التي تضلل الأفهام - من شأنهم ألا يستمعوا إلى الحق، بل يعرضون عنه إعراضاً؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الآيات هنا آيات القرآن المنكرة فإذا تلى عليهم تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر - يصح أن يفسر المنكر هنا بالإنكار ويكون من قبيل المصدر الميمي، كالمكرم بمعنى الإكرام، وتكون معرفة الإنكار من الوجوه بالتهجم، والغيط، ويصح أن يكون المنكر هو حال وجوههم من التغيط والبسور، والاستفطاع، وسميت هذه الحال، ﴿الْمُنْكَرَ﴾؛ لأنها في ذاتها أمر منكر، إذ لا يتلقون الحق بالتفهم والتدبر، بل يبادرون برده رداً عنيفاً مستكبرين، قد غلظت أعناقهم، وتجهمت وجوههم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ السطو: الوثب للفتك بالذين يتلون، كما حاولوا أن يسطوا بأبي بكر الصديق، وكما حاول الجاهلون بالسطو على المستضعفين من المؤمنين، وقال تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾، مع أنهم سطوا بالفعل، ونقول: إن ذلك حكم عام، والسطو الفعلى كان من بعضهم، لا من جميعهم، وما كان من التلاوة فقط، بل كان من اعتناقهم الإسلام مع هذه التلاوة، فالمقاربة بالنسبة لجميعهم، لا بالنسبة لبعضهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، الإنباء الإخبار بأخبار خطيرة لا تسرهم بل تضرهم، والتنبيه كالإنباء بيد أن اللفظ ينبئ عن خطر ما تضمنه، و«الفاء» في ﴿أَفَأَنْبِئُكُمْ﴾ فاء الإفصاح عن شرط، تقديره مثلاً أئذا كنتم تتجهمون من التلاوة أفأنبئكم بشر من هذه التلاوة، وهذا نوع من التهكم بهم وإنذارهم بالإنذار الشديد، والعقاب العتيد، وبيان لمقابلة التهجم من القرآن والإعراض عنه بأنه يستقبلهم بما يوجب الغيط والتهجم، والبسور أشد وأفطع، وهو النار أنذر الله تعالى بها الذين كفروا، وعبر بالموصول للإشارة إلى أن الصلة وهي الكفر، والإعراض عن الآيات البينات (هي سبب الحكم)، وإنها نار لا نهاية لعذابها، بل

هم خالدون فيها، وهى مصيرهم الذى لا ينتهى، ولذا قال تعالى: ﴿وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ بَس من أفعال الذم، ومع أنها جامدة فهى من الألفاظ الدالة على البؤس، فالنار مصير هو بؤس.

وقد بين الله سبحانه ضلالهم فى اعتقادهم الباطل الذى لم يُن على علم نقلى أو عقلى بمثل عظيم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمْعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣)﴾.

الخطاب عام للناس وقالوا: إنه إذا كان النداء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ كان يعم الناس عامة والمشركون خاصة، وإن موضوع القول، وهو عبادة الأوثان يجعل الخطاب للمشركون أمس وأقرب، و﴿ضُرِبَ﴾ معناها: بُيِّن، والمثل الحال والشأن، ففيه تقريب حال بحال، فحال ضعفهم الشديد صورها سبحانه بأنهم لعجزهم ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ فحالهم حال عجز عن خلق أى حى، ولو اجتمعت الأوثان كلها، وكيف تُعبد، وهى لا تستطيع خلق الذباب، ولو اجتمعت له كل هذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله تعالى، و﴿لَنْ﴾ هى لتأكيد النفى، وذكر ضمير الأوثان ضمير عقلاء على زعمهم وتفكيرهم، وليسوا أحياء فضلا عن أن يكونوا عاجزين، وعبر سبحانه عن حال عجزهم بالمثل، كأنه مثل مضروب سائر، ويبيّن ذلك الزمخشري فقال: «قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة». وإن هذا التصوير السامى الذى سماه جل جلاله مثلا، هو برهان على عدم صلاحيتهم للألوهية؛ لأنها عاجزة محتاجة، والمعبود قادر غير عاجز.

﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾ هذا النص السامى دل على أن هذه الآلهة أعجز من الذباب؛ لأنه يعدو عليها؛ لأنه لو أخذ منها شيئا على سبيل

السلب لا يستطيعون أن يستردوه منه، فهو القادر عليها، و﴿يَسْتَنْقِذُوهُ﴾، السين والتاء للطلب، أى لا يستطيعون بأكثر جهد وطلب أن ينقذوه منه؛ لأنها لا قوة لها فى أى ناحية، فهى جماد لا يتحرك، ولكن الوهم هو الذى جعل لها قوة فى نظرهم الذى لا يبصر، وَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ عِبَادَتَهَا.

ونقف هنا وقفة قصيرة، فنسأل الذين ينكرون وجود الله، وهم ملاحدة هذا الزمان الذين يحسبون إلحادهم يقوم على فلسفة عقلية: لقد اخترتم الكون وعلمتم علمه، وعرفتم النواميس التى خلقها الله، وإن كنتم تحسبونه ظواهر للأشياء، وعلوتم إلى داخل الفضاء حتى وصلتكم إلى القمر وإلى المشتري، وعلمتم تكوين الأشياء وأجزاءها وعناصرها، فهل استطعتم أن تخلقوا ذبابة، إن لله فى كل شىء آية، فأمنوا به ولا تنكروه.

لم تستطع آلهتهم أن تستنقذ ما يسلبه الذباب، ولو بذلت أقصى الجهد إن كان لها جهد، ولذا قال تعالى: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، ﴿الطَّالِبُ﴾ هو الأوثان فإنها لا حياة فيها ولا قوة لها، ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ وهو الذباب فهو حيوان ضعيف يستحققر فى أعين الناس ولكنه مخلوق لله يضرب به المثل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾ (٢٦) [البقرة]، فسر بعض السلف الطالب بالعابد والمطلوب بالصنم، فضعيف الفكر والعقل والإدراك يدعو ضعيفا فى ذاته لأنه جماد، وكلا الرايين معقول.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٧٤).

هذه الآية نتيجة للآيات السابقة؛ ولذلك كان الفصل بدل الوصل، فبينهما ما يشبه علاقة العلة فى الحكم بالمعلول، أو المقدمة والنتيجة.

إن هؤلاء الذين خضعوا لأوهامهم فعبدوا حجارة لا تنفع ولا تضر، وبالأولى لا تخلق ذباباً، ولو اجتمعت أصنام كل أمة وثنية ما عرفوا الله حق المعرفة، ولا أدركوا كماله وجلاله حق الإدراك، ولا عرفوا معنى الألوهية حق

المعرفة، إن الله تعالى هو القادر الخالق، وهو الواحد في ذاته وصفاته، وليس في الأوثان من هذا، والله تعالى قوى قاهر، ولا يمكن أن يكون عاجزاً، ولذا عرف الله تعالى رب العالمين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، أى قوى قادر على كل شيء، عزيز غالب لا يحتاج لشيء، ويحتاج إليه كل شيء، وهو العليم القدير.

وأكد سبحانه قوته بـ ﴿إِنَّ﴾ الدالة على تأكيد الحكم، وبـ «اللام» فى قوله تعالى: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ وبـ «الجملة الاسمية»، سبحانه إنه القاهر فوق عباده.

الرسل مصطفون، والرسالات الإلهية متصلة

قال الله تعالى:

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ
رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ ۖ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾
يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا
رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾
وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ قَلِيلَةٌ أُنِيَّتُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)﴾ .

﴿اللَّهُ﴾ ذو الجلال والإكرام، ﴿يَصْطَفِي﴾، أى يختار من صفوة خلقه ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل الأمين روح القدس، اختاره ليكون رسولا لأنبيائه ورسله الذين اختارهم أيضا من صفوة عباده، فاختار سبحانه من الملائكة من يبلغون عن الله تعالى مصطفين من الناس ليتلقوا رسالة الله إلى الناس، فالذين اختارهم من صفوة الملائكة ما اختارهم تعالى إلا ليلبغوا خلقه، وكل ذلك بأمر الله وباختياره، وإن هؤلاء المختارين من الملائكة يبلغون إما بالوحي وإما برسل يرسلون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا... (٥٦)﴾ [الشورى].

وإن الله تعالى لا يختار لهذا المنصب الأقدس منصب التبليغ عن الله تعالى إلا من كانوا فى أعلى القداسة والنزاهة النقية ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ... (١٢٤)﴾ [الأنعام]، ولذا قال تعالى مبينا أن الله تعالى لا يصطفى إلا عن علم من لا يخفى عليه شئ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، أى أن الله عليم علما يقينيا هو علم من يسمع، فهو السميع، وعلم من يبصر فهو البصير.

ولقد أكد سبحانه إحاطة علمه فقال تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)﴾ .

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو الحاضر المهيأ، وسمى بين أيديهم، لأنه أمامهم، فشبه علم حاضر بما يكون مهيأ معدا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الخلف يطلق على ما هو خلف الإنسان وهو ضد القُدَّام، فهو يطلق على الماضى والقابل، وهو الذى يخلفه من بعده، ولعله من الخلافة، وقد فسر بالقابل الذى لم يقع، ويكون المعنى يعلم حاضرههم، وقابلهم الذى يخلف ذلك الحاضر والضمير فى قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، قيل: يعود إلى الرسل، والظاهر أنه يعود إلى الذين يبلغهم الرسل فالضمير يعود إلى كل الناس، ولذا عقب الآية بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ

الأُمُورُ ﴿١﴾، أى أن الأمور كلها ترجع إليه وحده يوم القيامة، ليحاسب كل نفس بما كسبت، وتجذ كل نفس ما عملت محضراً، من خير أو من شر، ويكون له وحده الجزاء، وفى تقديم الجار والمجرور بيان أن المرجع إليه وحده، وله وحده الحساب، وهو بكل شىء عليم.

بعد ذلك خاطب الله تعالى الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٧).

واضح كل الوضوح أن النداء للرسول وأتباعه، وليس لكل الناس، فالناس يدخلون فى النداء إذا آمنوا ومن يؤمن بالرسالة المحمدية فهذا تكليفها، وهو الصلاة، واختصت بالابتداء لأنها عمود كل دين، ولا دين من غير صلاة وإن اختلفت أشكالها فى الديانات السماوية وكل طريق إلى الله واتجاه إليه سبحانه، ولأن الصلاة هى العبادة التى تنصرف فيها النفس والجوارح إلى الله وحده، ولأنها امتلاء النفس بذكر الله تعالى؛ ولأنها إذا أدت على وجهها من قيام وخشوع كامل، وضراعة صادقة، واستحضار النفس لكل معانيها، لا تقع من الإنسان المنهيات، كما قال تعالى فى خاصتها: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ (٤٥) [العنكبوت]، وخص الركوع والسجود بالطلب مع أن الصلاة لها أركان قراءة وتكبير، وركوع وسجود، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ وذلك لأن الركوع والسجود هما المظهر الحسى للخضوع لله تعالى خضوعاً كاملاً، ولأنهما لا يسقطان عن المكلف قط، فالقراءة قد تسقط عن المكلف إذا كان يصلى مؤتماً بإمام قارئ، وتسقط عند العجز عن القراءة، أما الركوع والسجود فلا يسقطان فإن لم يستطع الصلاة قائماً، صلى قاعداً، وإذا لم يستطع الصلاة بحركات صلى بالإيماء، وإلا فهو فى عفو الله، وروى أن بعض الشافعية أجاز الصلاة بالإيماء بالعينين، ولأنهما لا يسقطان فكانا رمزاً للصلاة كلها.

وبعد الصلاة أمر سبحانه وتعالى بالعبادات كلها، وهذا من قبيل ذكر العام بعد الخاص، فيشمل ذكر العبادة الصوم والحج، والكفارات والندور، والزكاة، والصدقات المنشورة، وأن يعبد الله تعالى في كل عمل يعمل، بأن يقصد به وجه الله تعالى، فالعامل في مصنع أو في متجر أو فلاح الأرض يقصد وجه الله ونفع الناس، فيكون في عبادة مستمرة، ويصدق عليه قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»^(١).

وقد أمر سبحانه وتعالى بفعل الخير أمرا مطلقا غير مقيد ولا محدود فقال عز من قائل: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، الخير كل عمل يكون فيه نفع للناس، ويتفاوت الخير فيه بتقارب مقدار النفع، فالنفع الكثير يكون الخير بقدره، ونفع أكبر عدد يكون الخير كله، مع القيام بالعبادات على شتى فروعها وكل أنواعها.

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أى رجاء أن تفلحوا وتفوزوا في الدارين في الدنيا فتكونوا خير الناس؛ لأن النبي ﷺ يقول: «خير الناس أنفعهم للناس» والرجاء من العباد لا من الله؛ لأن الله تعالى لا يرجو بل يعلم وينفذ. إنه عليم حكيم.

ونرى أن الآية ابتدأت بالأمر بتطهير النفوس بتوجيهها إلى الله تعالى في الصلاة والعبادة، ثم اتجهت الأوامر إلى نفع الجماعة وأن يكون كل واحد عنصر نفع إنساني فيها.

ثم اتجهت من بعد إلى ما فيه حماية الأمة الإسلامية ونشر دعوتها، فقال تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ

(١) سبق قريبا.

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ .

هذا تكميل ما جاء في الآية السابقة، ففي الآية السابقة كان التدرج من الأمر بتطهير النفس، وملئها بالله تعالى في الصلاة والعبادة، ثم فعل الخير لأكبر عدد ممكن في الأمة، وفي هذه الآية المطالبة بالنفع الإنساني بتبليغ الرسالة المحمدية رسالة الإنسانية للناس جميعاً، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، وهو جهاد، وتذليل العقبات في سبيل هذه الدعوة، وإزالة كل المحاجزات التي تحاجز دونها، ولو كان ذلك بالحرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ .

الجهاد مفاعلة يبذل الجهد، فالمؤمن يبذل جهده في الدعوة إلى الله، والمقاوم من الكفار يبذل جهده في الصد عن سبيل الله، ومقاومة الحق.

وقوله تعالى: ﴿فِي اللَّهِ﴾، أى الجهاد لأجل ذات الله وابتغاء مرضاته ﴿فِي﴾ هنا تفيد السببية، كما في الحديث الشريف: «دخلت امرأة النار في هرة»^(١)، والإتيان بـ ﴿فِي﴾ بدل «الباء» أو «من» فيه معنى إحاطة الله تعالى بالجهاد بأن يكون كله لله تعالى، وقوله تعالى: ﴿حَقَّ﴾ الإضافة فيه بيانية، أى الجهاد الحق الذى يكون من غير إرادة الفخر، أو ابتغاء دنيا يصيها، وحق الجهاد أن يخلص النفس من أدران الهوى، وإرادة إراقة الدماء، وأن يجاهد المقاتل نفسه أولاً، فيقيها عن شهواتها، ويبعد عنها نزغات الشيطان، وأن يجاهد للحق ورفعته، ويكون الجهاد أحياناً أمام الحكام الغاشمين، ولقد قال النبي محمد ﷺ: «أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢)، وإذا قتله يكون خير الشهداء.

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما، وعن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض». رواه البخارى: (٣٢٤٨)، ومسلم (٦٩٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وحق الجهاد ألا يرفع السيف في سبيل الدعوة الإسلامية إلا إذا تعذرت الإجابة بالتى هى أحسن، وإلا بعد البيان، ومحاجزة أهل الباطل بين الدعوة المحمدية والناس، ولذلك كان الجهاد فى الإسلام ليس للشعوب، ولكن لمعسكر السلطان الذى يحول بين الدعوة الإسلامية والشعوب، وإذا وصلت الدعوة إلى الشعوب فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإثما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد، فلا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى.

ويقول سبحانه مشيراً إلى الحقائق الإسلامية، ومبيناً أن الأمة الإسلامية هى المختارة لهذه الدعوة فقال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، أى اختاركم من سائر الناس، أى اختاركم واصطفاكم، ونقول هنا: هذا خطاب لكل المسلمين على أنهم الأمة المختارة للتوحيد والدعوة إليه، والجهاد فى سبيله، أم أن المخاطب هم العرب على أساس أن البعثة المحمدية كانت فيهم، وأن الله اختار نبيه منهم، وأنهم الذين حملوا الدعوة، وقد بينا لماذا كان الاجتباء فى كتاب خاتم النبيين.

ومعنى ﴿اجْتَبَاكُمْ﴾، من الجبى بمعنى الجمع، يقال: جبى الخراج، بمعنى جمعه، واجتباؤه، افتعال من جبى، فهو سبحانه وتعالى جمع الناس جمعاً كاملاً، وخص بعض هذه المجموع بالخير، فكان المجتبى، وإن الله تعالى اجتبى العرب أو المسلمين بعامه، ليكونوا حاملي الدعوة، والمجاهدين ابتداءً فى سبيلها، ومنع المحاجزات التى تعترض طريقها بكل طرق الجهاد، وقد قال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم، وألستكم»^(١).

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أعذار الجهاد، فقال عز من قائل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ومع أن هذا النص يشير إلى أن الجهاد مفروض على كل القادرين يشير إلى أصحاب المعاذير كالذين فى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ

(١) سبق تخريجه.

لَتَحْمِلَهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٧) ﴿﴾ [التوبة].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فيه إشارة إلى أن فرضية الجهاد مرفوعة عن أصحاب المعاذير وقت عذرهم، وهى فى الوقت ذاته قاعدة عامة فى معانى الشريعة الإسلامية، والخرج أصله الضيق بين الأشياء المجتمعة فهو الضيق فى صدور الناس وفى تكليفاتهم.

والشريعة الإسلامية جاءت لنفع الناس وجلب الخير لهم، «وخير الدين أيسره»^(١)، كما روى عنه عليه السلام، وقد روت أم المؤمنين عائشة عن أعمال النبى ﷺ، فقالت ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، ذلك أن الشاق يصعب على المؤمن المداومة، والمداومة تربي فى النفس عادة الطاعة، وتكون لها فى النفس مجار تنير الخير، ولذلك روى فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال أدومها وإن قل»، وروى عنه أنه قال: «إن الله يحب الديمة من الأفعال»، ونهى عن التشدد فى الدين، وقال: «لا تشددوا، ولكن سدّدوا وقاربوا»، وقد وصل الله تعالى شريعة محمد ﷺ بشريعة إبراهيم أبى العرب لتقريبها إليهم، فقال:

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، ﴿مِلَّةَ﴾ منصوب على الاختصاص، أى أعنى ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام، وسمى أباً للعرب، وإن كان أباً لبعضهم؛ وذلك لأن العرب جميعاً كانوا يتفاخرون بالانتساب إليه، ولأنه باني البيت الحرام الذى كان مناط عزة العرب أجمعين، ولأنه أب بالفعل لقريش الذين ابتدأت الدعوة المحمدية فيهم، وكان ذكر هذه الدعوة الكريمة تقريبا وتأليفا، وإدناء من الإسلام، ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، الإشارة إلى القرآن، وسماهم المسلمين من قبل فى مثل ما حكاها الله تعالى من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

(١) رواه الطبرانى فى الكبير، عن عمران بن حصين رضى الله عنه، ورجاله رجال الصحيح، ولفظه: «خير دينكم أيسره». مجمع الزوائد (٧٣٨٥).

مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ ... ﴿١٢٨﴾ [البقرة] وسمى القرآن المتبعين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ «اللام» وما بعدها متعلق بقوله تعالى، ﴿وَجَاهِدُوا﴾، والمعنى جاهدوا لأجل أن يكون الرسول شهيدا عليكم بأنكم بلغتكم وأديتم الأمانة التي أودعها الله ونبيه إياكم، فيشهد الرسول بأنكم أديتموها حق أدائها، ورعيتموها حق رعايتها، وإن رسالة نبيكم والقرآن فيهما شهادة للأنبياء أجمعين ومعجزاتهم، ومن أطاعوا ومن كفروا، وأنتم بهذا تكونون شهداء بأن بلغتكم لهم رسالات الله مؤيدة بمعجزاتها، وأن منهم من آمن ومنهم من كفر.

ولأن لهم هذه المنزلة، ومقامهم من رسالة محمد ﷺ والرسائل السابقة أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال تعالى كلماته: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾، «الفاء» للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا كانت لكم هذه المكانة، فادرعوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والاعتصام بالله فأمرهم بإقامة الصلاة وقال: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ اتوا بها مقومة خالصة لوجه الله تعالى بأركانها من ركوع وسجود وقعود خاشعين لله مستحضرين لذاته العلية، إذا ذكرتموه وإذا كبرتم، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾، وقد جمع سبحانه بذلك بين التهذيب الروحي بالصلاة، والتعاون الاجتماعي بالزكاة، ثم أمر بالاتفاق على طاعة الله تعالى فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ الاعتصام الاستمسك، فمعنى الاعتصام بالله الاستمسك به، بأن يكونوا مستمسكين بأوامره ونواهيه، ومستمسكين بذاته العلية لا يفكرون إلا فيه، ولا يبتغون غيره، ويلتفتون حول شريعته غير منفصلين عنه، وهو نعم المولى ونعم النصير؛ ولذا ختم السورة بقوله: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ الذي تكون له ولاية المؤمن لا يوالى غيره ولا يواد من يحاد الله ورسوله، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الناصر، فلا ناصر في الشدائد، ولا منجى سواه.

سورة المؤمنون

تمهيد:

هى سورة مكية نزلت قبل الهجرة، وعدد آياتها ١١٨ (ثمانى عشرة ومائة آية)، قيل أنها نزلت بعد سورة الأنبياء، وقد ابتدأت بأوصاف المؤمنين الذين كتب الله تعالى لهم الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾، ثم بين سبحانه أن رعاية الأمانة والعهد من أوصاف أهل الإيمان، وأشار إلى أن الذين وصفوا بهذه الأوصاف هم ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾.

وبين سبحانه أصل خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم جعله سبحانه نطفة فى قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، ثم خلق من العلقة مضغة، فخلق من المضغة عظاما، فكسا العظام لحما، ثم أنشأه خلقا آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾، ثم إنكم يوم القيامة مبعوثون.

ولقد بين بعد ذلك خلق الكون، فأنشأ فوق الأرض سبع طرائق، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾، ثم بين سبحانه نعمه تعالى فيما أنشأ به الماء من جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه ومنها

تأكلون، ثم ذكر ما أنعم الله به من شجرة الزيتون التي تنبت في سيناء، وبين نعم الله تعالى في الأنعام، والعبرة في أنه سبحانه وتعالى يسقينا ما في بطونها، وما فيها من منافع، ونأكل من لحمها.

وذكر سبحانه وتعالى خبر قوم نوح وكفرهم وما آل إليه أمرهم بعد أن صنع الفلك ونجا هو وأهله ومن اتبعه، ثم بين سبحانه أنه بعد أن أغرق قوم نوح أنشأ من بعدهم قرناً آخرين، وأرسل فيهم رسولا وكذبوه، وكان ما سوغوه لأنفسهم من كفر أنه بشر مثلهم، وأنه ينذرهم بالبعث، فقالوا: ﴿هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾. ورموا رسولهم بالكذب وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)﴾، فاتجه رسولهم إلى ربه يستنصر به، قال: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾.

ثم بين بعد ذلك ما نزل بهم من عذاب ساحق ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾.

بعد ذلك أشار الله تعالى إلى قصة موسى وهارون وإرسالهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾، استغربوا أن يؤمنوا لموسى وهارون، وقومهما مستعبدون لهم، فكذبوهما، وكانوا من المهلكين، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾، وجاء من بعد موسى عيسى ابن مريم، ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾.

وبعد ذلك وجه الله تعالى خطابه للرسل عامة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾ لنبين بذلك وحدة الرسالة الإلهية، ولكن الناس تقطعوا أمرهم وكل حزب بما لديهم فرحون، واغتر الأكثرون بما أوتوا من مال وبنين، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾.

ويذكر سبحانه حال المؤمنين الذين اتبعوا الرسل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾.

ويبين سبحانه بعد ذلك ظلم الظالمين، وأنهم في غمرة من هذا القرآن، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وأن الترف هو الذي أفسد نفوسهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ (٦٤) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُكْرَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ (٧٤)﴾.

وإن الرحمة تطغيهم، وكشف الضر يعميهم، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾، وإنهم يتحIRON إذا أنزل الله تعالى عليهم عذابا.

ومن بعد ذلك يبين سبحانه فضل الإنشاء، وقدرته في الإحياء والإماتة، واختلاف الليل والنهار: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، بل قالوا مثل ما قال الأولون: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)﴾.

يوجه سبحانه وتعالى أنظارهم إلى خلق السموات والأرض وما فيهما، ومن رب السموات السبع والأرض ورب العرش، ومن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير

ولا يجار عليه وسيقولون في كل هذه الأسئلة المنبهة بأنها لله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾.

وقد أمر الله تعالى بأن يدعوهم هو ومن تبعه ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥)﴾، ويأمرهم سبحانه بالدعوة إلى الحق ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا يحاربهم في حقيقهم ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُعْتَدُونَ (١٠٠)﴾.

ثم يذكر بعد ذلك يوم القيامة، وكيف يتبدى بالنفخ في الصور ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾، وإن الميزان بعد ذلك يقام ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾، ويبين لهم كيف كذبوا بآيات الله ويجيبون مدعين، ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٥)﴾، ويتجهون إلى ربهم طالبيين أن يخرجهم، وأنهم لا يعودون، فيجابون: ﴿خَسِرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُوهُمْ (١٠٨)﴾.

ويبين سبحانه وتعالى فريق الصالحين، وأنهم يعاملون بما قدموا، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

ويبين سبحانه أن أمد الدنيا قصير في علم الله مهما يطل في علم الناس، وإنهم لا يحسون معدود ما يلبثون في الدنيا، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)﴾.

وقد بين الله تعالى حكمة البعث فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَشًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾.

وختتم سبحانه وتعالى السورة ببيان واسع سلطانه، وكفر من يشرك به فقال عز من قائل:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

معانى السورة

المؤمنون حقا

قال الله تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
 فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى
 أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
 فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
 لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
 الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

هذه أوصاف المؤمنين حقا وصدقا، وهم الذين يفوزون بجنة الفردوس،
 ويخلدون فيها، وهم الذين يفلحون أمام الله، وقد أكد فلاحهم بقدر، التي لم
 تستعمل فى القرآن الكريم إلا للتحقيق، وتأكيد القول، وقد عبر بالماضى، مع أن
 دخول الفردوس، والفوز سيكون بعد يوم القيامة والحساب؛ إذ من بعد ذلك يكون
 الثواب بالفوز بالفردوس، وذلك لتأكيد الوقوع، وأنه لا محالة سيكون كقوله تعالى :
 ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ (١) [النحل].

وقد ذكر الله تعالى فى هذه صفات للمؤمنين بها تنترز نفوسهم وجوارحهم.

أولي هذه الصفات الخشوع فى الصلاة، وقد قال تعالى فى هذه الصفة :
 ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٢) الخشوع : الضراعة وخضوع القلب، ومن

مظهر الخشوع فى الصلاة ألا يلتفت المصلى يمينا أو شمالا بأن يكون كل اتجاهه إلى الله تعالى قلبا ونفسا وإحساسا، وجوارح، والخشوع فى ذاته محلله القلب، والجوارح مظهره، وروى عن النبى ﷺ أنه رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا الرجل لخشعت جوارحه»^(١). وإن الخشوع يتضمن أن يكون المصلى قد عمر قلبه بذكر الله تعالى، وإذا عمر قلبه استحضر الله فى كل أركان الصلاة وأحس بأنه فى حضرة الله تعالى، فلا يحس بسواه.

وابتدأ بهذا الوصف؛ لأنه الطهارة النفسية والقلبية التى هى الأصل فى تربية المؤمن.

والصفة الثانية: الإعراض عن اللغو، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾ جاء فى مفردات القرآن للراغب الأصفهاني «اللغو من الكلام، ما لا يعتد به وهو الذى يورد لا عن روية وفكر، فيجربى مجرى اللغا، وهو صوت العصافير، ونحوها من الطيور.. قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥)﴾ [الواقعة].

وإن سماع اللغو من القول يهون فى النفس الأمور الخطيرة، ويجعلها فى حال عبث ولهو، ومع الإكثار من سماع اللغو تنمى النفس انمياعا، ولا تقوى على تحمل مشاق التكليفات الشرعية، وما تقتضيه من صبر، وضبط نفس، ولا يكون رجلا نافعا أبدا، وتقديم (عن اللغو) يفيد أهمية الإعراض عن اللغو، وأنه لا يعرض إلا عن اللغو، لتكون كل نفسه للجد من الأمور والمشاركة فى الأعمال النافعة، والإعراض يفيد البعد عن اللاغين، وعن مجالسهم... ألا فليعتبر الذين يجعلون حياتهم لهوا ولعبا وعبثا.

والصفة الثالثة: إيتاء الزكاة، ولقد ذكر سبحانه هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾.

المعروف فى تعبير القرآن الكريم أنه يعبر عن الزكاة بقوله عز من قائل: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، وهو مناسب لمعناها؛ لأن الزكاة عطاء، وفضلها فى إيتائها، ولكن

(١) رواه الحكيم عن أبي هريرة رضى الله عنه. الفتح الكبير (١٠٠٣٠): ج ٤٥/٣.

هنا عبر عنها بـ (فاعلون). قال الزمخشري في هذا لَمْ يُعْطَى، ومعنى من المعاني ينسب للمعطى على أنه فعلها، فهو قد فعل الأمر المعنوى، وهو أنه أخرج الزكاة راضيا بالعطاء، ونقول إنه يشرح لهذا المعنى أن الآيات كلها تتجه إلى النواحي المعنوية، لا إلى مجرد الأعمال الحسية، والزكاة لها ناحيتها المعنوية، وهو أن يدفعها طيبة نفسه، راضية بحسبها مغنما، ولا يعدها مغرمًا، وهذا هو الخير فيها، فإن الأمة تكون بخير ما عدت الزكاة مغنما ولم تعدها مغرمًا، وأن المعطى لها يغنم من العطاء أكثر مما يعطيه المعطى له من مال.

وإن ذلك يكون أعلى درجات الإحساس بالتعاون الإنسانى والاجتماعى والإسلامى.

الوصف الرابع العفة: والمحافظة على النسل، وهذا ما عبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿الَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)﴾.

الفروج جمع فرج، وهو عضو التناسل عند الرجل وعند المرأة، واللام لتقوية التعدية بسبب تقدم الفروج على اسم الفاعل (حافظ)، وحفظ الفروج يتضمن ثلاثة معان:

أولها - معنى الصيانة، فهو يصونها عن رجس الحرام، ورجس الحرام معنوى ومادى. أما المعنوى فهو ما فى الحرام من خبث يطهر نفسه منه، وأما المادى فهو يكون فى الزنى من تعرض لأمراض خبيثة، هى التى جاءت من الأوربيين، والتى يسمى بعضها المرض الإفرنجى، ولا مانع من أن نشير إليها عند تفسير الآية، وإن لم تكن معروفة، ولكنها عرفت. فتمتزل القرآن هو علام الغيوب.

ثانيها - الاستمساك والتحفظ بالعفة، وألا يرمى ماءه فى غير محله، وليحفظ له نسله.

ثالثها - التقيد، أى ليسوا منطلقين يلقونها فى أى مكان، وعلى أى امرأة، كل ينزرو كما تنزرو القردة، وكالحمار ينزرو على كل أتان.

والحفظ عن كل النساء وفى كل الأحوال ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ولتضمن الحفظ معنى الاستمساك والصيانة، كانت الإباحة متعدية بـ (على) فى المستثنى ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾، لا يرسل نفسه إلا على زوجه أو ما ملكت يمينه، أى أنه مرسل على زوجه أو ما ملكت يمينه وأن التعدية بـ «على» جار مجرى قولهم: فلانة تحت فلان، أو فلان تحته فلانة، وربما يكون التعبير مأخوذاً من الواقع الحسى، وفى التعدية بـ «على» إشارة إلى الحقيقة الإسلامية ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾ (٣٤) [النساء].

ويصح أن يكون الاستثناء منقطعاً، ويكون المعنى وصفهم بأنهم يحافظون على فروجهم فى كل الأحوال، وباستمرار، ولكن على أزواجهم وما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين، ولا يمنع ذلك من جواز أن يكون متصلاً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ «الفاء» للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر مأخوذ من الكلام، أى فإذا كان ذلك ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أى ليس حراماً، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ إشارة إلى أن عدم المحافظة والانطلاق موضع لوم فى ذاته مع تحريمه؛ لأنه لا يليق بأهل العقل والحكمة والفضيلة.

والوطء بملك اليمين حلال؛ لأن فيه تكريماً للأمة وإعلاء لمنزلتها كالزوجة، وذريعة لعنتها، ومنع بيعها؛ لأنها إذا صارت أم ولد حرم بيعها، وإذا ولدت عتقت. وإن من سار فى غير ذلك وراء شهوته فهو المعتدى.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٧).

«الفاء» تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان الحلال فى هذه الدائرة فغيره عدوان على الأسر، وعلى المجتمع وعلى النفس، فيترتب على التحريم السابق

منع ابتغاء المحرمات، والابتغاء هو الطلب الشديد الذى يؤدى إلى العدوان؛ لأن الابتغاء افتعال من البغى، والبغى فى ذاته فى معنى التعدى، وأولئك الذين تنحرف طبائعهم، فلا يقفون عند الانحلال يطلبون الشهوات بشدة تؤدى بهم إلى الانحراف عن الجادة، وقوله: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى سواء، وعبر عنه بـ «وراء» إشارة إلى أنه انحطاط فى الرتبة، وإلى أنه وراء الإنسانية المستقيمة، وانحراف فى القصد: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الإشارة إلى هؤلاء الذين يبتغون غير الحلال، والإشارة إلى الموصوف بصفة فيها بيان أن هذه هى علة الحكم، والحكم أنهم عادون، أى ظالمون ومتجاوزون، فقد تجاوزوا حد الحلال وهو واسع: يجوز زواج أربع، والتسرى بمن يشاء من الإماء، وهو ظالم لنفسه بارتكاب الحرام، وظالم لنسله، وظالم للمجتمع، والظلم مرتعه وخيم، ولا شك أن نكاح المتعة مما وراء ذلك؛ لأنها ليست زواجا، ولا ملك يمين، وبها احتجت عائشة على ابن عباس، وأخطأ الزمخشري ومن تبعه إذ عدها زواجا، وما هى بزواج، وما سماها أحد من السلف زواجا.

الوصف الخامس: مراعاة الأمانة، وهكذا انتقلت الآيات من مرتبة النفس إلى التعاون الاجتماعى إلى إقامة الأسرة على أساس العدل، والمحافظة على النسل، ثم بينت بعد ذلك الأسس التى يقوم عليها التعامل الإنسانى، وهو الأمانة، فقال عز من قائل:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨).

الأمانة: ما يؤتمن عليه الإنسان، والعهد ما يكون اتفاقا بين طرفين يتعهد كل واحد لصاحبه، والمحافظة على الأمانة والعهد من صفات المؤمنين، وخيانتهم من صفات المنافقين، وقد ورد فى الحديث الصحيح «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا عاهد غدر»، وزيدت فى رواية أخرى رابعة، «وإذا خاصم فجر».

ورعاية الأمانة - والعهد القيام عليهما وملاحظتهما، والدقة فى المحافظة عليهما، كما يراعى الراعى رعيته، وقال الزمخشري فى ذلك: والراعى القائم على

الشيء يحفظه بهمة وإصلاح كراعى الغنم وراعى الرعية ويقال: مَنْ راعى هذا الشيء أى متوليه وصاحبه.

وإن اللفظ يشمل كل ما يؤتمن عليه الإنسان من مال وشرف، وسر وعرض، وكل ما يطلع عليه الإنسان، ولا يكون من المروءة إعلانه، وكل ما يعاهد عليه، ويكون من البر والخير الوفاء به، ولقد قرن الله تعالى الأمر بأداء الأمانة بالأمر بالعدل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ...﴾ (٥٨) [النساء]، فأداء الأمانات وإقامة العدل يستقيم بهما أمر الناس، ويتعاونون فيما بينهم من غير شطط ولا مجاوزة للحد، ويكون المجتمع فاضلا.

وقرنت خيانة الأمانة بخيانة الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) [الأنفال].

الوصف السادس: هو المحافظة على الصلاة، وهو غير الخشوع، فالأول وصفهم بالخشوع، وهنا الوصف بالمحافظة عليها، وكلاهما لازم، ومطلوب، وهو صفة للمؤمن، فالمؤمن يحافظ على الصلاة، ويخشع فيها، ولكن قدم الخشوع على المحافظة؛ لأن الخشوع لبها، ولأنه أساس كل الفضائل الإسلامية؛ ولأنه روحانية الصلاة؛ ولأنه امتلاء النفس بها، وقال تعالى فى المحافظة عليها:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩).

والمحافظة على الصلاة تقتضى:

أولا - المداومة عليها.

ثانيا - أداؤها فى أوقاتها.

ثالثا - إقامتها بإتيانها مقومة ظاهرة وباطنة، وإن المداومة على الصلاة فى أوقاتها مع إقامتها مصحوبة بذكر الله واستحضاره فى قراءتها وقيامها وركوعها وسجودها، وامتلاء النفس بالخشية تكون مذهبة لصدأ النفوس، يبتدىئ يومه بصلاة

الصباح، ليقبل على اليوم طاهر النفس خاشعا من خشية الله، حتى إذا ابتدأ الصدا يعلوها بمعالجة الحياة وأعمالها جاءت صلاة الظهر، ثم صلاة العصر، ثم صلاتا العشي؛ المغرب والعشاء، ثم ينام طاهرا مطهرا، كما ابتدأ طاهرا، والمحافظة على الصلاة في أوقاتها تجعل المؤمن في خشية دائمة، وهو مشفق منه سبحانه.

تنبيهان:

أولهما - أن الأوصاف التي وصف الله تعالى عباده المؤمنين بها كان سبحانه يذكرها مقرونة بعبارات تفيد اختصاصهم بها، وأنها مقصورة عليهم، وهم مقصرون عليها بدليل اقتران ﴿هُمْ﴾ بكل الأوصاف.

فقال سبحانه في الخشوع: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) ﴿ فهم مختصون من بين عباد الله تعالى من الإنس والجن بأنهم الخاشعون في صلاتهم، وأنهم وحدهم الذين هم عن اللغو معرضون؛ وأنهم الذين هم للزكاة فاعلون راغبين في إعطائها معتبرين ذلك مغنما وليس مغرما، وأنهم هم وحدهم الذين يستمسكون بالمحافظة على أعراضهم، وأنهم وحدهم الذين يداومون على الصلوات، وأنهم هم الذين يراعون العهود والأمانات، وإنه في هذه الأمور يعبر عنهم باسم الفاعل ما عدا الأخير فقد عبر بالمضارع للدلالة على أنه صار لهم صفة.

والثاني - ما أشرنا إليه من أن الآية تدل على المباح من العلاقة بين الرجل والمرأة، وهو ما يكون بالزواج أو بملك اليمين، وعلى ذلك تكون المتعة حراما، وتكون داخلة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٧) وليست زواجا، حتى عند الذين يبيحونها؛ ولذلك احتجت بهذه الآيات عائشة - رضى الله عنها وعن أبيها - على عبد الله بن عباس عندما بلغها أنه يبيح المتعة، وهي لا تتوافر فيها شروط الزواج حتى تكونه؛ لأن من شروط عقد الزواج ألا يكون فيه ما يدل على التوقيت.

وقد ذكر الله سبحانه بعد ذلك جزاء أولئك المتصفين بهذه الصفات، وهم المؤمنون حقا، فقال عز من قائل:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١١﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾.

الإرث انتقال المال من إنسان لإنسان بحكم الخلافة عنه، أو بحكم البقاء دونه، وهذا المعنى هو الظاهر من العبارات، فإن أولئك المشركين كانوا يحسبون أنهم وحدهم الباقون؛ لأنهم أكثر مالا وأعز نفرا، وبقاؤهم في هذه الدنيا؛ لأنهم ما كانوا يؤمنون بالبعث، ويقولون أنذا متنا وكنا ترابا أننا لفي خلق جديد، ويفرضون أنه إن كان بعث فإنهم أصحاب السلطان يوم البعث.

فبين الله تعالى أن أهل هذه الصفات هم الذين يرثون، ويخلفون غيرهم، وأنهم الباقون، وأن كل متع الآخرة تكون لهم؛ لأنهم أبقي وسجاياهم تجعلهم أهل النعيم الباقي، ولذا قال عن ميراثهم: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الفردوس الأرض الواسعة المملوءة بالحدائق الغناء، والمثمرات اللذات، والجنات المزهرة، وينعمون فيها بخيراتها ومناظرها إذ تجرى من تحتها الأنهار، وينعمون مع ذلك بالخلود؛ ولذا قال تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، والضمير في ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الفردوس على أساس معناها، لأن معناها الجنة.

آية الله في خلق الإنسان

قال تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
ءَاخِرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
لَمَيْتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

السلالة: هي صفو الطين هنا، والإنسان دخل في تكوينه صفو الطين مرتين: المرة الأولى - عندما خلق آدم من تراب فكان صفو الطين في تكوينه، والثانية - أن الطين يدخل في تكوينه بعد أن صار كيانا إنسيا؛ ذلك أن غذاءه يتكون من النبات والحيوان وكلاهما من صفو الطين؛ لأن النبات ينبت من اختلاط الطين بالماء، والحيوان أكل من النبات، فكانت سلالة من طين فيه ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ هي ﴿مِنْ﴾ الابتداء التي تدل على أن الإنسان يكون من سلالة طين و﴿مِنْ﴾ الثانية بيانية، أي من سلالة هي طين.

ولقد ذكر سبحانه خلقه بعد أن صار في أصلاب الآباء، ثم أرحام الأمهات، فقال:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾.

العطف بـ «ثم» له موضعه؛ لأنه مر بأصلاب الآباء، ثم دفع الماء الذي هو النطفة في أرحام الأمهات، كما قال تعالى في تكوينه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [الطارق] وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾، الضمير يعود إلى الطين الذي جعل سلالته أي ما ينسل منه - نطفة.

و﴿جَعَلْنَاهُ﴾ هنا بمعنى حولناه في أصلاب الآباء نطفة هي الماء الدافق الذي ألقى في أرحام الأمهات، وهذه الأرحام هي (القرار المكين) فالقرار معناه المستقر، ووصف بأنه مكين، أي أنه محكم، ما استقر فيه لا يمكن أن يخرج منه، ووصف المستقر بأنه مكين من حيث إن ما يدخله يكون ثابتا، بل يتربى في موضعه ويتغذى حتى يحين ميقاته، فوصف الموضع بالاستقرار، والمكانة والثبات مع أن الثابت المستقر هو ما أودعه، كما يوصف الطريق بأنه سائر مع أن السائر هو الماشي فيه.

وإن الله الخلاق العليم يجعل الأرحام عندما يدفق فيها الماء يغلق عليه ويتربى فيه، ويتغذى من الدم، حتى يحين ميعاد الولادة، والأدوار التي يذكرها الله تعالى بعد ذلك وهو في القرار المكين، حتى خلق خلقا جديدا فقال تعالى:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا
ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ .

العطف بـ «ثم» فى خلق العلقه من الماء السائل الأبيض فى موضعه؛ لأنه يكون فى وقت أطول، إذ إنه يتحول إلى لحمه حمراء، ويتحيز فى مكان بعد أن كان سائلا ليس له مكان متحيز فيه يملأ فراغا، وعبر هنا بالخلق، ولم يعبر بالجعل، لأنه أنشأه إنشاءً، إذ إن تحول ما ينسل من الطين إلى ماء هو النطفة تحويل بخلق الخالق؛ ولذا عبر بـ «جعل» التى تدل على الخلق، والتصيير والتحويل، بعد ذلك ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، أى أن العلقه تحولت إلى مُضْغَةٍ، والاصل فى المضغه قدر ما يمضغ فى الفم من اللحم، وابتدئ فى المضغه تشكيل اللحم وتصويره بالصورة التى تكون عليه؛ ولذا جاء فى سورة الحج: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ... (٥)﴾ [الحج] فيبتدئ فى المضغه التخليق، وينتهى بأن يكسى عظاما، والتعبير بـ ﴿خَلَقْنَا﴾ هنا للإشارة إلى أن ذلك التصيير أو التحويل إنما هو بخلق الله تعالى لا بالسببية التى تحول الجنين من نطفة إلى علقه ثم إلى مضغه، فإن الله تعالى هو الخلاق العليم الذى ينشئ الشئ، فلا ينشأ شئ بغير إرادته، إنما إرادة الله تعالى وقدرته هى الفاعلة.

ثم قال سبحانه: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾، أى بعد أن تخلقت المضغه، وتميزت أجزاؤها، جعلها الله تعالى عظاما أى جعل من هذه المضغه عظاما صلبة تتحمل. سبحانه الله تعالى، طين فماء مهين فقطعة لحم، فمضغه مخلقة وغير مخلقة، ثم قال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾، أى جعلنا العظام التى خلقت من المضغه - مكسوة باللحم، وظاهر أن ذلك بخلق الله وتكوينه، ابتدأت بماء مهين، ثم بقطعة لحم ثم بمضغه قدر ما يمضغه الإنسان، ثم بتخليقها، وجعلها عظاما ثم يكسو العظام باللحم، ذلك بقدره العليم الحكيم وخلقه.

وهنا نلاحظ أن العطف كان بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، فى قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾؛ وذلك للدلالة على سرعة

التكوين مع تفاوت هذا التكوين، أو التحول بإرادة الله تعالى وحده، وبذلك يتبين أنه سهلٌ يسيرٌ عليه، وأن إعادته تكون أيسر، وما خلق الإنسان بأكبر من خلق السماء والأرض.

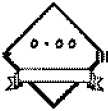
وأما قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتَّقَىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا... (٥٠)﴾.

وكان العطف بـ «ثم» لا بـ «الفاء»؛ لأن السياق لبيان المراحل، كما قال سبحانه: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقد اقتضى هذا أن يكون العطف بما يدل على التراخي، وإن ذلك نسبي، فهو بالنسبة لنا تراخ حقيقي، إذ إن تكون العلقه من النطفة يحتاج إلى زمن، وإن كان عند الله يسيرا، فأيامنا عنده أزمان قصيرة، وإن طالت عندنا.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، أي أوجدنا فيه حالا غير الأحوال السابقة، فقد خرج إلى الحياة طفلا، ثم بلغ أشده ومنهم من يتوفى، ومنهم من يرد إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ؛ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا، وقد جعل الله تعالى لهم سمعا وبصرا وأفئدة، وبذلك صار إنسانا سويا، وأرسل إليه الرسل فَضَّلَ من ضلَّ واهتدى من اهتدى، وكل هذا أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وكان العطف بـ «ثم» له موضعه؛ لأن ذلك الخلق الآخر أخذ أدوارا مختلفة.

وكلمة ﴿آخَرَ﴾ تشير إلى أنه وصل إلى حال هي غير الطين وغير العلقه وغير المضغة، بل إنه خلق كامل، وقد قال في ذلك الزمخشري: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، أي خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعداها حيث جعله حيوانا، وكان جمادا، وناطقا. وكان أبكم، وسميعا، وكان أصم، وبصيرا، وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره، وكل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه عجائب قدرته، وغرائب حكمه لا تدرك بوصف الواصف، ولا بشرح الشارح.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ «الفاء» للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر معناه إذا كان الله هو الذي خلق ذلك الخلق فتبارك الله أحسن الخالقين، وروى أن



عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل عندما سمعا الآية من قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، قالوا: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال النبي ﷺ: هكذا أنزلت^(١)، ونحن لا نرضى هذه الرواية، ولكن ذكرناها؛ لأنها تنبئ عن أن هذه الجملة السامية ثمرة طيبة للخلق السابق.

والبركة أصلها من موضع برك الجمل، وقد أطلقت على كل أمر خير ثابت، ﴿فَتَبَارَكَ﴾ معناها تسامى في البركة وعلا، حتى لا يناهده أحد في خيره الدائم، و﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، أفعّل التفضيل ليس على بابِه إنما معناه أن خلق الله تعالى وصل إلى أعلى درجات الحسن، بحيث لا يناصبه حسن قط، وحقا لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وإن نهاية هذا الإنسان في الدنيا هي الموت، ولم يخلق عبثًا، بل يكون بعد الموت البعث؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦).

العطف بـ «ثم» في موضعه؛ لأن مؤداه أنهم بعد خلقهم في أحسن خلقة، ومنهم من يرده الله تعالى إلى أسفل السافلين، ويستمرون إلى أجل مسمى، ضلوا فيه أو اهتدوا، أخلصوا دينهم لله أو كفروا، وبعث فيهم الرسل مبشرين ومنذرين إنهم، بعد هذا الدور لميتون، وقد أكد سبحانه موت الناس مع أنه واقع مشاهد كل يوم يموت ناس ويولد ناس، وكان التأكيد بـ «أن» وبالجملة الاسمية، وباللام وبالوصف، ﴿مَيِّتُونَ﴾ وكان ذلك التوكيد لكيلا يغتر الناس بغرور هذه الدنيا، وأنها إلى فناء مهما طال، وأن الحياة الآخرة هي الباقية الخالدة في سعادة ونعيم، أو في شقاء وجحيم.

وفي التعبير بالوصف ﴿مَيِّتُونَ﴾ إشارة إلى أن حياتهم في الدنيا كأنها الموت لأنه يترصد لهم، فلا يغتروا بغرورها، وبعد الموت يكون البعث، ولذا قال تعالى:

(١) رواه الطيالسي، وابن أبي حاتم وابن مردويه، وابن عساكر، وهو صحيح. كما في كتر العمال (٣٥٧٤٧): ج ١/٢٥٤٩.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ .

كان العطف بـ «ثم» له موضعه؛ لأن الأجسام تبقى في القبور أو حيث تكون في أجزاء أخرى كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٥١)﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى: البعث لأن الله تعالى لم يخلقنا عبثًا، وقال عز من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ .

أكد الله سبحانه وتعالى البعث ليعظم إنكارهم له، ولقد بالغوا في إنكاره كشأن الذين لا يؤمنون إلا بما يحسون ولا يؤمنون بالغيب، وأكدته سبحانه بـ «أن» وبالجملة الاسمية، وجعل ذلك يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وأبدع، وخلق في الإنشاء، دليل على قدرته على الإعادة.

خلق الكون ونعم الله على الإنسان

قال تعالى:

وَلَقَدْ

خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ
بِهِ لَقَدِيرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ
لَّكُمْ فِيهَا فَاوِكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ
طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لَّلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي
الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾



بعد أن بين الله تعالى خلق الإنسان، وما فيه من عجائب تدل على قدرة الله تعالى - جل وعز - أخذ يبين سبحانه وتعالى خلق ما هو أكبر من الإنسان، وما فيه حياة الإنسان ومعاشه، وما هو مسخر له في السموات والأرض فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧).

الطرائق جمع طريقة، وهي هنا بمعنى مطروقة من طرق النقل من حيث إنها مسالك، ومن طرق الخوافى فى الطير، بمعنى أن كل طبقة منها فوق الطبقة الأخرى، وطرائق السماء أفلاكها، إذ كل فلك فوق الفلك الآخر وكل مربوطة بأرسان^(١) من الجاذبية والنواميس الكونية، بحيث تكون متماسكة، كل نجم وكوكب فيها مشدود بالآخر، كأن حبلا أو سلكا يمسكه، وفسر بعض علماء الفلك هذا النص السامى بأن سبع طرائق سبعة أفلاك لكل سماء طريق يجرى بما فيها من الأقمار والنجوم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى أن هذه الطرائق بما فيها من كواكب ونجوم مسخرات بأمره سبحانه يجرى كل تحت رعاية الله تعالى وعينه، وهو القائم على كل شئ يسيره بأمره سبحانه إنه عليم خبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) [الملك].

ونفى سبحانه وتعالى الغفلة عن ذاته العلية، وهي منفية بحكم علمه الكامل ولكن كان نفى الغفلة كناية عن كمال عنايته بخلقه، وأنه يمسك السموات والأرض أن تزولا، وأن كل الوجود تحت رعايته وعنايته، وأنه يسير بأمره، وعلى مقتضى إرادته النافذة، وحكمته العالمة.

وصيغة النفى تدل على أن الغفلة ليست من شأنه تعالى؛ لأنه نفى الكينونة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾، أى ليس من شأننا أن نغفل عن خلقنا، بل نحن قائمون عليه مراقبون له محافظون عليه.

(١) أرسان جمع رَسَن، وهو الحبل.

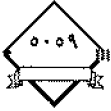
ولقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك نعمه على خلقه فى صلة الأرض بما فوقها، فقال تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (١٨).

يمن الله علينا، وله المن والفضل، بأننا نعيش فى الأرض برخاء، ونجد حاجتنا منها موفورة، وأسبابها قائمة بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾، أى بمقدار مصلح للأرض على أن يكون غيثا لا عتيا، فالطر الزائد كالسيل الجارف لا يكون غيثا بل يكون عتيا، ويهدد الله به الظالمين من الناس، كالسيل الذى أغرق قوم نوح، فقله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى على القدر الذى تعنيه الحاجات، ويكون إصلاحا، ولا يكون فيه فساد للزرع والضرع، ويقول سبحانه: ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى جعلنا فى الأرض مستقرا له، كأنما يسكنها، كما يأوى الآوى إلى مسكنه.

وذلك أن ما تنزله السماء قسمان: قسم عارض ممطر يغيث فى وقت الجذب، ولا ينزل بانتظام كالطر الذى ينزل بالاستسقاء، كما كان النبى ﷺ يستسقى، ومن بعده أهل الصلاح والتقوى، وقسم يجرى فى أنهار ويسلك ينابيع الأرض فى عيون، وهذا يسكنه الأرض، كنهـر النيل، فإنه ينزل على الجبال، وفى البحيرات التى تمده، وهذا يبدو كأنه الساكن فى الأرض، وإن كان فى سير دائم من منبعه إلى مصبه، وهذا وأشباهه يوجد الخصب والنماء بإذن الله تعالى، ومن الناس من اعتقد أنه دائم لا يغيض، ولذا قال تعالى: ﴿وَأِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ أى إنا على إذهابه لقادرون، والباء للتعدية، ولقوة الإذهاب كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة]، وإن مثل الأنهار العيون، فهى ينابيع فى الأرض قد اختزنتها الأرض فى جوفها وهى لله، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠) [المالك].

وقد قال تعالى فى بيان بعض نعم الماء:



﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

الفاء عاطفة، وأنشأنا، خلقنا بإنشاء جديد لا بمجرد التوليد لشيء من شيء، فإن إخراج الحى من الجامد ليس توليدا مجردا، إنما هو إنشاء لمخلوق جديد، وأقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥] ثم يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، من هنا بيانية، فهي بيان لنوع الجنات، ﴿وَأَعْنَابٍ﴾، جمع عنب، وجمعه لأنه أنواع مختلفة فالأعناب بكل أنواعها، خلقها الله تعالى وأنشأها إنشاء، ولم تذكر الحبوب؛ لأنها كانت قليلة فى مكة وما حولها، وإنما كان النخيل والأعناب فيها، وفى الطائف القريبة منها.

وهذان النوعان النخيل والأعناب، فاكهة يانعة يتفكهون بها، وغذاء طيب يستغنون به عن كل الأطعمة، فإذا كان عند الرجل نخلة وناقعة، فعنده الغذاء الوفور من التمر واللبن، ولذا قال تعالى: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أى إنها فاكهة وغذاء، فالعنب يؤكل رطبا وزيبا، والبلح يؤكل رطبا وبسرا، وهو أنواع مختلفة.

وذكر سبحانه وتعالى نوعا ثالثا من الأشجار، وهو الزيتون، فقال تعالى:

﴿وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْلِينَ﴾ [٢٠].

الواو عاطفة، ﴿شَجَرَةٍ﴾ معطوفة على ﴿وَجَنَّاتٍ﴾، أى أنشأنا شجرة، وقال المفسرون جميعا، إنها شجرة الزيتون وهى شجرة مباركة، وتنكيرها لبيان فضل خيراتها، و﴿مِنْ﴾ للابتداء أو بمعنى (فى)، والمعنى شجرة تخرج مباركة فى طور

سيناء، والطور هو جبل الطور، والمراد كل سيناء، وعرفت بأكرم مكان فيها؛ لأن فيه تجلى الله على موسى كليمه، وهى أرض مقدسة من الأراضى التى شرفها الله تعالى بتقديسه، وقد أقسم الله تعالى بها، فقد قال عز من قائل: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝١ وَطُورِ سَيْنِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين] فقرنها فى القسم بالبلد الأمين بيت الله الحرام، وكان ذكرها لتوجيه الأنظار إليها وعدم تركها لقتلة الأنبياء وفسقة الأرض، وليس لليهود أن يطلبوا تراث موسى أو ما خلفه، لأن أحق الناس بموسى عليه السلام محمد ﷺ ومن اتبعه، فلو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعه، فإن يهود هذا الزمان ومن قبلهم مقطوعون عن موسى - عليه السلام - قد قتلوا الأنبياء؛ ولأن شريعة محمد ﷺ قد نسخت شريعة التوراة، وما جاء به موسى إلا ما أبقاء القرآن الكريم كشريعة القصاص.

وإن ذكر طور سيناء منسوبة إليها شجرة الزيتون، لتوجيه عقول المسلمين إليها، إذ الزيتون شجرته فى كثير من أرض الله تعالى، وقد وصف الله تعالى شجرة الزيتون بقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٌ لِلْأَكْلِينَ﴾، أى تنبت هذه الشجرة المباركة مصاحبة للدهن، أى تنبت وقد أودعها الله تعالى الدهن، وإن الذى ينبت هو أخشاب الشجرة، ولكن لأن الدهن خلقه الله تعالى فيها، وتفيض به جعلت كأنها أنبتت الدهن ذاته، أو أن الدهن نبت مع أخشابها، والدهن هو الزيت، وإن فيه شفاء للناس، وقد وصف الله تعالى شجرته بأنها مباركة فقال تعالى فى سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ... ۝٣٥﴾ [النور].

والصبغ، وهو إدام الطعام، وإنه يؤخذ من زيتون الشجرة إذا لم يعصر زيتته إدام للطعام، يسهل تناوله، وذكر سبحانه بعد ذلك نعم الله تعالى التى تحيى ثمرة للنبات الذى أنتجه الله تعالى بالماء.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١).

الأنعام: جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم، وما يشبهها فيما يؤدى مؤداها ما يزلل للإنسان، ويكون تحت سلطانه، ويطوع لإرادته، وأول ما حكم به سبحانه أن فيها عبرة أى اعتباراً بدالاتها على خلق الخالق وقدرته وإبقائه على الإنسان، فهى حيوان مسخر للإنسان، ومع أن له إرادة، وإن لم تكن عاقلة، وكونا مستقلا، سخره الله تعالى للإنسان مطوعة له مستأنسة له، وذكر من هذه العبر ما فى درها من لبن يسقينا إياه رب العالمين، ولكم فيها منافع، فيتخذ من أصوافها، وأوبارها وأشعارها أثاثا، ويتخذ من جلودها بيوتا وأخبية، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى نأكل لحمها فهو حلال طيب، فحياتها كلها خير تدر لبنا، ويؤخذ منها أثاث، وبيوت ومساكن، ولحمها يؤكل، وكل هذه نعم يجب علينا شكرها، ولا يصح أن نكفر بها، ونشرك بالله تعالى المنعم؛ إذ شكر المنعم واجب بحكم العقل والإيمان.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٢٢).

الضمير فى ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود على الأنعام، وليس معناه أن كلها يحمل الإنسان بل إن بعضها، وهو الإبل، والخيل والبغال والحمير إن أدخلناها فى عموم النعم، ومن المؤكد أن بعضها وهو الإبل يتخذ للحمل حتى سموا الإبل سفينة الصحراء، وقد قال ذو الرمة فى الإبل: سفينة بر تحت خدى زمامها.

ولذا ذكرت وراء الإبل من الأنعام الفلك، فإن الفلك تجرى بقدرته الله تعالى حاملة الأمتعة والمنافع من الشرق إلى الغرب، رابطة الأقاليم فى الأرض بعضها إلى بعض، فهى التى تنقل خيرات الأرض بعضها لبعض.

من أخبار الرسل

قال تعالى:

وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ
 غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا
 إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ
 مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
 رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَّا تَتَّبِعُونَ ۖ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
 بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ ۚ بِأَعْيُنِنَا
 وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ
 كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
 مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
 فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَّعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا
 مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ
 الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قص الله تعالى بعد ذلك قصص النبيين تسلياً للنبي ﷺ، وتعليماً له وبيانا
 لتشابه إجابة الكافرين؛ مما يدل على موطن الشك في قلوبهم الذي ينادى بها إلى
 الكفر، وظلم النبيين، وإنكار الحقائق التي تؤيدها الفطرة، وإنهم إذ يتشابهون في
 الكفر قد تشابهوا فيما يتذرعون به من إنكار، كما أن دعوات النبيين واحدة في

ابتدائها وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وهذا نوح الأب الثاني للبشرية يقول الله تعالت كلماته فيه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾.

ناداهم مقربا لنفوسهم مطلفا معهم في القول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ابتداء بذكر أنهم قومه الذين ألفهم وألفوه، وجربوه، ولم يعهدوا عليه كذبا، وما أشبه هذا بقول محمد ﷺ في أول دعوته لقريش: «أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم؛ ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١) قال نوح لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أى وحده فلا عبادة إلا له وحده؛ ولذا قال بعد ذلك ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿مِنْ﴾ لاستغراق النفي، أى ليس لكم أى إله غيره، فلا ألوهية إلا له سبحانه وتعالى، وحرصهم على الطاعة، وخلع عبادة الأوثان، فقال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتب على الأمر بعبادته سبحانه وحده وبطلان عبادة الأوثان التي يعبدونها أن يطلب منهم محرضا تقوى الله واتقاء عذابه، والفاء مؤخرة عن تقديم لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتنبيه، والتحريض على اتقاء العذاب، كما قال النبي ﷺ لقومه في أول دعوته: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا»^(٢).

هذا كلام نوح - عليه السلام - في دعوته قومه، وقد بينا أنه يتشابه مع دعوة النبي ﷺ قومه، وقد كان جواب قومه بعد أن دعاهم عليه السلام مشابها لإجابة قريش لمحمد ﷺ بعد أن أمعن في دعوته، قالوا له عليه السلام:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾.

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن ﴿وانذر عشيرتک الاقربين﴾ (٤٣٩٧) وينحوه مسلم: الإيمان في قوله تعالى: ﴿وانذر عشيرتک الاقربين﴾ (٣٠٧) من رواية ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

كانت إجابتهم إجابة من فوجئ بأمر لم يألفه ولم يعرفه، وكذلك كانت إجابة أهل مكة للنبي ﷺ قالوا أولا - ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، كذلك قال أهل مكة، قالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان]، وقالوا ثانيا - ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى يطلب الفضل عليكم بالرياسة والسلطان، كذلك قال أبو جهل أحد زعماء الشرك وأطغاهم؛ فقد قال فى سبب كفره: تنازعنا وبنى عبد مناف الشرف، اطعموا فاطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى إذا تحاذينا على الركب قالوا منا نبي، فأنى يكون لنا ذلك، والله لا نؤمن به أبداً.

وقالوا ثالثا - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أى لو شاء الله أن ينزل رسالة من عنده لأنزل بها ملكا يخاطبنا، كذلك طلب المشركون أن ينزل عليهم بالرسالة ملك، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْتَرُونَ﴾ (٨) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) [الأنعام].

وقالوا رابعا فى رد دعوة نوح للتوحيد: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، أى إنهم لا يتبعون إلا ما كان عليه آبائهم، كما قال تعالى عن مشركى مكة، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠) [البقرة]، وهكذا نجد رد قوم نوح عليه السلام يشبهه تماما رد المشركين على النبي ﷺ، وقد كانت نتيجة أن أهلك الله تعالى الكافرين من قوم نوح، وكان عليهم أن يتوقعوا مثل ما نزل بقوم نوح، لولا رحمة الله، عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، بل أن يكون منهم من ينصر الحق، ويجاهد مع المجاهدين.

ولقد استمرت دعوة نوح عليه السلام إلى الحق، واستمر عنادهم، ووصفوه بأنه مجنون، وأنهم ينتظرونه حتى يفيق.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٢٥).

﴿جِنَّةٌ﴾ بكسر الجيم، أى ما هو إلا رجل به جنون ﴿فْتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان به جنون فتربصوا به حتى حين، أى إلى حين



يستفيق ويرشد، والتربص انتظار زوال أمر، أو مجيئه، أى انتظروه حتى يفيق، أو يعرض عن هذه الدعوة.

وكذلك قال قوم محمد ﷺ فقالوا مجنون، وقالوا إن كان الذى يأتيك رثيا من الجن بذلنا من أموالنا ما نكشفه عنك، وهكذا تشابهت أقوال الكفار لأنها تنبع جميعا من نفوس غير مؤمنة، وتشك فى القول الحكيم المرشد.

يُخبر نوح من إيمان قومه أو الأكثرين منهم، وقال له الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٦) [هود] فاتجه إلى ربه ضارعا طالبا النصرة.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (٢٦).

أى قال: انصرنى عليهم لأنهم كذبونى ودفعهم تكذيبهم إلى الفساد، وقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧) [نوح].

وهنا نجد الفارق بين نوح عليه السلام، وخاتم النبيين محمد ﷺ، فبينما نوح يدعو لهلاك الكافرين من قومه ويخاطب ربه، فيقول: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧) [نوح]، يقول خاتم النبيين صاحب الرسالة الأخيرة الباقية: «إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»^(١).

استجاب الله تعالى لدعاء نوح، ودبر له الأمر لينجو نوح ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، وقال تعالى:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٧).

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

أوحى الله تعالى إلى نوح أن يصنع الفلك لينجو فيه من أراد الله تعالى نجاته وهم الذين آمنوا وأهل نوح الذين لم يكفروا، أن تفسيرية، لمعنى الإحياء الذى أوحى به إلى نوح عليه السلام، فقله: ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، أى اصنع الفلك برعايتنا ورقابتنا، كمن يكون تحت العين والبصر، ولا يعد ذلك تأويلا، بل إنه ظاهر اللفظ، من غير تأويل، فلا حاجة إلى ما قيل إن هذا تأويل كقول الخلف، ولا إلى القول بأن الله عينا ليست كأعيننا، كما يدعى أنه قول السلف (راجع فى هذا رسالة الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام).

أى أن صناعة الفلك كانت برقابة الله - تعالى - ورعايته ووحيه فى البناء والتصرفات، ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ الفُرْنُ الذى يخبز فيه الخبز، والتعبير عن سبب سير السفينة الذى يقترب بسيرها بقوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ فيه ما يشير إلى أنها كانت تسير ببخار الماء، وقد أشرنا إلى هذا المعنى فى سورة هود.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾، أى أدخل فيها من كل صنفين زوجين ذكر وأنثى، واسلك بمعنى أدخل هى فى اللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [المذثر، ٤٢]، أى ما أدخلكم فيها، وقال تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، أى أدخل أهلك إلا من سبق عليه القول بهلاكهم لأنهم كافرون، وقد خاطبه نوح فى شأن ابنه كما جاء فى سورة هود إذ قال نوح - عليه السلام - إشفافا على ابنه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ [٤٥]، فقال الله تعالى له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾ [٤٦] [هود]. وقوله: ﴿مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ وهو الحكم عليهم بالهلاك، ولذا تعدى بعلَى

وقد التفت الله تعالى حكمه، من بعد ذلك إلى نوح ومن معه مذكرا لهم بعد أن أغرق الكافرين، فقال مخاطبا نوحا:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨).

استويت، أى تمكنت واقتعدت أنت ومن معك مقاعدكم، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وإن ذلك يدل على أن قوم نوح قد ساوروه بالأذى وإرادة

إهلاكه وقومه، حتى أمر بأن يحمده الله تعالى على نجاته منهم وقد كانوا ظالمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥) [الأنعام]، وهكذا أمر الله تعالى نوحاً بأن يحمده الله تعالى إذا استوى كما قال في سورة هود: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) [هود]، كما أمره سبحانه وتعالى أن يدعو الله في قابل أمره شاكراً حامداً، فقال تعالى:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢٩).

الخطاب لنوح عليه السلام، وصوره: ب ﴿رَبِّ﴾ للإشارة إلى أنه إذ نجاه لا يصح أن يلجأ إلا لعنايته وكلاءته وحمايته ﴿أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً﴾ المنزل هنا بمعنى المصدر، لا بمعنى المكان، أى أنزلنى إنزالاً فيه خير ونماء وبركة، بأن يثبت الله تعالى قلوب الذين آمنوا على الحق، وقد رأوا بأعينهم عاقبة الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ومعاندة الحق، وقد بارك سبحانه من معه، فجعل منهم ذرية الخليفة فكان بحق الأب الثانى للإنسانية، وقد آثنى على ربه بما هو حقه، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، أى أنت الذى تنزل منازل أعلى ما يكون الإنزال المبارك.

وقد بين سبحانه وتعالى العبرة فى هذا قصص المحكم الخاص بنوح وقومه، فقال عز من قائل:

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ (٣٠).

أى أن فى ذلك القصص الخاص بنوح وقومه، وكيف أرهقوه من أمر الرسالة عسراً، لآيات وعبر للذين يستبصرون، ويدركون أن الأمور البالية يتعرض أصحابها للمشقات من أهل الباطل والضلال، وقد كان إحجام الضالين أولاً لأنه بشر مثلهم، ولأنهم ينكرون البعث ولا يؤمنون به، ولأنه اتبعه الضعفاء والفقراء الذين ازدرتهم أعين المستكبرين، وهكذا مما ابتليت به أنت، وكانت الآية الأخيرة أن الله تعالى أغرقهم، وقطع دابر الذين ظلموا، وفيه آية سامية فى علوها وهى أن الزلزال عند الله بالحق والإيمان به، لا بالقرابة فهذا ابن نوح كان من المغرقين مع أنه أقرب الناس إلى نوح.

وإن من فضل الله تعالى وشأنه أن يعامل الأخيار معاملة المختبرين، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة، وإنها ضمير الشأن،

والمعنى، وإن الحال والشأن للذات العلية ﴿كُنَّا لَبِيتَلِينَ﴾، و(كان) تدل على الدوام، واللام واقعة في خبر إن مميزة لها، ومبتلين خبر كنا، وهى اسم فاعل، لا اسم مفعول، أى إن الحال والشأن أن نعامل الأبرار معاملة المختبرين لكى يعرف خيرهم، ويظهر استحقاقهم للثواب، وإن المخير لا يأتى عفوا سهلا ميسرا، لا بد له من من جهد، وعلى قدر الجهد يكون الثواب، وكان حقا على محمد ﷺ أن يجاهد المشركين، ولا ييأس من نصر الله، ولله ورسوله الغلبة والعزة.

الرسول بعد نوح لا قوا ما لاقى

قال تعالى:

﴿أَشَانَا﴾

مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٢١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٤﴾ أَعْبَدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ هَهُنَا هَهُنَا لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

ذكر الله تعالى نبذة صغيرة من قصة نوح عليه السلام مشيرة إلى سائرها الذي ذكر مفصلاً في سورة هود، وهي نموذج قرأني لقصة الذين كانوا بين نوح ومحمد ﷺ، من الرسل، في تكذيب أقوامهم، ونوع هذا التكذيب، فهم يحسبون أن الرسول لا يكون بشراً يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويحسبون أنه لا بعث ولا نشور، وأن الأتباع يكونون من الأقوياء لا من الضعفاء الأذلين في زعمهم الفاسدين، وفي ذلك بيان أن ما ينزل بمحمد من بلاء الأقوياء المستكبرين هو صور من صور ما لاقاه النبيون من نوح. فعليه الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٢١)﴾.

العطف بضم لتناول الزمن بين نوح، وبين من جاءوا بعد، والقرن جماعة من الناس، وذكرهم سبحانه وتعالى بالمفرد ولم يذكرهم بالجمع، لتشابه أحوالهم في نوع إنكارهم، وما يدعون إليه رسلهم، فكانوا كقرن واحد، وليسوا قروناً متعددين، وكلمة ﴿آخَرِينَ﴾، أى ليس هم قوم نوح، وإن كانوا على شاكلتهم، وكفروا كفرهم، وضلوا ضلالهم. ولم يذكر سبحانه من هم هذا القرن، ولا شك أنه جاء بعد نوح عاد وثمود، ومدين، وأرسل لهم رسلاً آخرين دعوهم إلى ما دعا إليه نوح عليه السلام، من توحيد، وإيمان بالبعث والنشور، وأن الثواب للمؤمنين، والعقاب للظالمين، ولم يذكر الله تعالى بالتعيين هؤلاء الأقوام، وإن لم يقصص القرآن قصصهم فقد قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨)﴾ [غافر].

وإن أهل هذه القرون أرسل إليهم رسل فقال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٢)﴾.

في هذا النص أنه سبحانه وتعالى أرسل إليهم رسولا، مع أن الذين جاءوا بعد نوح رسل في أقاليم مختلفة، وفي قرون متوالية، رسولا بعد رسول، وربما يكونون عدة رسل في جيل واحد، كإبراهيم ولوط، وكموسى وهارون، ولكن أفرد ذكر الرسول؛ لأنهم جميعاً جاءوا برسالة واحدة وهي التوحيد، والإصلاح، فهم وإن

تعددوا هم كرسول واحد، وذكرت الدعوة بالصيغة التي ذكرت بها دعوة نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ و ﴿أَنْ﴾ هنا تفسيرية؛ لأن ما بعدها تفسير لـ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، أى أرسلناهم بأن يقولوا اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. أى ليس لكم من إله أى إله غيره، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، وقد تقدم ذكر معناها قريباً، ولقد ذكر سبحانه أن الرسول منهم يعرفونه ويألفونه، ويكون من أوسطهم نسباً، وأعلامهم مكانة، ولقد كان رد قومه عليه - وهو مثل من الرسل الذين جاءوا بعد نوح - كرد قوم نوح فقال تعالى عنهم:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)﴾.

وصف الله الذين كفروا وكذبوا بثلاث صفات هى الصفات الملائمة لمعارضى الانبياء ومعانديهم، الصفة الأولى: أنهم من الملائ، أى من أشرف قومه وبطانة الرؤساء والكبراء، وليسوا من الضعفاء ولا الفقراء والعبيد، الصفة الثانية: أنهم كذبوا بلقاء الآخرة، لا يؤمنون بالبعث والنشور؛ لأنهم استغرقتهم المادة، فلا يؤمنون بالبعث، ولا يصدقون إلا المحسوس الذى يرونه، ومن لا يؤمن إلا بما يحس فقلبه أعمى وعقله فى ضلال، وهو كالأنعام بل أضل سبيلاً، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى ظرفه، أى اللقاء الذى يكون فى الآخرة، وهو لقاء الحساب والعقاب والثواب، ولقاء ملائكة العذاب، أى أنه يلقي كل فى الآخرة كل ما هو شقاء مرهوب.

والصفة الثالثة: قوله تعالى ﴿وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والترف التوسع فى النعيم، وأترفوا فى الحياة الدنيا معناها وسع لهم فيها، ونالوا نعيمها، وذكر ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارة إلى أنهم ينعمون فى الحياة الدنيا، ولم يلهموا شكر النعمة فيها؛ لأنهم لو ألهموا الشكر، لو سعت عليهم النعمة فى الدنيا والآخرة.

وذكر الإتراف فى هذه الحياة الدنيا؛ لأن الترف فيها لا يجعلهم يعملون للآخرة؛ إذ تلهيهم أموالهم وأولادهم عن العمل للآخرة، كما قال الله تعالى

للكافرين: ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ [التكاثر]؛ ولأن الترف من غير إيمان يجعل النفس مائعة غير جادة إلا فيما يعنى جمع المال؛ ولأن كثرة المادة تمنع إدراك معانى الإيمان لأن المادة تستغرق الإدراك، وأساس الإيمان هو الإيمان بالغيب، وبما وراء الحس، ولا يكون ذلك إلا بقلب مملوء بالرحمة والمعانى الإنسانية السامية.

ومع هذه الأوصاف نجد سبب إنكارهم أنه بشر مثلهم، فيقولون فى تكذيبهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فهم أولا يحكمون بالمثلية لهم، وفى ذلك إشعار بأنهم ينفسون عليه مكانته من النبوة دونهم، وأن ذلك يومئ بحقدهم عليه، وحسدهم له على ما آتاه الله تعالى من فضله، ووضحوا هذه المثلية بقوله تعالى عنهم: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فأقيستهم مادية صرفة، ولا يؤمنون بمعنى من المعانى العالية، ولقد قرروا خسرانهم إن أطاعوا بشراً مثلهم، فقال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ (٣٤).

أكدوا من فرط حسدهم خسرانهم إن أطاعوا بشراً مثلهم، وأكدوه بلام القسم، وبالتأكيد فى الجواب بـ «إن» ولام التوكيد الواقعة فى جواب (إن)، وإنهم فى زعمهم يخسرون مكانتهم فى قومهم وشرفهم المزعوم فى قبيلهم، وسلطانهم فى أقوامهم، ويصيرون تابعين لثلهم، وهم المتبوعون فى أقوامهم، وذلك كله غرور الترف، وفساد المقاييس، وسيطرة المادة.

ويذكرون بعد ذلك أشد ما يدعوهم استنكاراً، وهو وعدهم بالبعث، فيقول تعالى عنهم:

﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (٣٥).

كانت المادة الأولى لإنكارهم التى سوغت كفرهم أنه بشر مثلهم، ثم كانت المادة الثانية أنه يعدهم بأنهم سيبعثون، قالوا مستكرين ومستبعدين: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أى استنكار هذا الوعد، لإنكار الواقع، فهو فى معنى التوبيخ للنبيين على هذا الوعد الذى وعده، والذى هو جزء من رسالتهم، ويذكرون سبب الإنكار فى أمرين:

أولا - أنهم ماتوا.

والثانى - أنهم صاروا ترابا وعظاما بالية، وهى رميم، وإن ذلك يجعل الإعادة فى نظرهم مستحيلة؛ لأن الأرواح زهقت بالموت، والأجسام بليت، ونسوا أن الذى بدأهم وأنشأهم من العدم، كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) [الأعراف]، وأن الذى فطرهم أولا هو الذى يعيدهم ثانية. ويزيدون فى استبعادهم أو إنكارهم أنهم مخرجون من دفائن القبور إلى ظاهر الوجود، وكل ذلك من سيطرة المادة. ويؤكدون ذلك فيقولون:

﴿هِيَآتَ هِيَآتَ لَمَّا تُوْعَدُونَ﴾ (٣٦).

﴿هِيَآتَ﴾ يقول النحويون: إنها اسم فعل ماضٍ بمعنى بُعد، وقد أكدوا البعد بالتوكيد اللفظى بتكرار الكلمة، كما أكد الاستبعاد باللام فى قوله تعالى: ﴿لَمَّا تُوْعَدُونَ﴾ فكان مضمون الكلام البعد المؤكد لما توعدون، أى الذى توعده من بعث ونشور وعقاب وحساب، كاللام فى قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ...﴾ (٢٣) [يوسف] أى النداء لك أو لإغرائك.

وهكذا قد غشيت المادة تفكيرهم، حتى صاروا لا يفكرون إلا عن طريقها، ويستبعدون بأهوائهم، ولا يفكرون بعقولهم، ويؤكدون إنكار البعث، فيقولون كما حكى الله تعالى عنهم بقوله:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٧).

فصلت هذه الجملة عما قبلها؛ لأنها فى معنى البيان لها، وتوكيدها، وقد انتقلوا من مرتبة الإنكار، إلى مرتبة ادعاء النقيض وادعاء أنه لا حياة بعد هذه الحياة فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فإن نافية، فى الجملة نفى وإيجاب، وهذا يفيد القصر، أى لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، والدنيا مؤنت أدنى، أى هذه الدنيا القريبة وليست الحياة البعيدة ﴿هِيَ﴾ - تفيد التوكيد، إذ مضمونها أن هذه الحياة وحدها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى يولد من يولد، ويموت من يموت، ويحيا بالميلاد من يحيا، كما نرى الموتى والأحياء، فهم يقرون بالواقع المحسوس فقط، ليموت من يموت، ولا يعود، ويولد من يولد فيحيا ثم يموت، ولا عود لمن مات، ولذا حكى عنهم أنهم يقولون: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أكدوا النفي بالباء، ونفى الوصف، أى ليس من شأننا أن نبعث؛ لأن من مات لا يعود؛ ولأنه لا تحيا العظام بعد أن صارت رميما.

بعد هذا الإنكار الذى من شأن الذين كذبوا بقاء الآخرة ينتقلون من مرتبة الإنكار المجرد، إلى مرتبة التهجم على مقام الرسالة، فيقولون:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٨).

الافتراء: الاختلاق؛ لأنه افتعال من فرى بمعنى قطع، أى أنه قطع واشتد فى اختلاق الكذب، بما قال من قول بعيد عن معقولهم وأهوائهم، وادعوا أنه افتراء الكذب على الله تعالى، وهو أعظم الافتراء، ﴿إِنْ﴾ نافية، وبعدها الاستثناء فهو نفى وإيجاب، ومعنى ذلك أنهم قصروا حال الرسول على افتراء الكذب على الله تعالى، وكأن عبارتهم فيها نوع تحقير لرسولهم، إذ يقولون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ من غير أن يذكروا اسمه، أو رسالته، ويحصرونه فى الافتراء عليه سبحانه، ثم يردفون ذلك مؤكدين كفرهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أى ما نحن بمذعنين لقوله ولا مصدقين به، ولتضمن الإيمان معنى الإذعان والتسليم عدى باللام، أى ما نحن بمصدقين، ولا مدعين له.

كان كلامهم هذا إيذانا بالإيذاء، وقد هددوه، ولذا يتجه الرسول إلى من أرسله، فيطلب نصره:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (٣٩).

اتجه الرسول، وهو أى رسول جاء بعد نوح، فهم فى معاندة الكافرين لهم، والتجاهلهم إلى ربهم بسبب صورة واحدة تكررت فى القرون التى جاءت بعده عليه

السلام، تبين طبائع بعض الناس في تلقى الحق، وتبين صبر الرسل، وبقاء العنت من أقوامهم. ونادى ربه الحافظ الكالى الحامى، ﴿انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، أى التكذيب، وما تبع التكذيب من إعانات وإيذاء، ومقاومة عنيفة آثمة، فطلب النصرة لا يكون من التكذيب المجرد، إنما يكون مما يصحبه ويكون ملازما له.

أجابه ربه بأن نصره قريب فقال له:

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ (٤١)﴾.

﴿عَمَّا﴾ هنا لتأكيد القول، وليبيان القلة الزمنية التى تكون حتى ينزل عليهم عذاب الله الساحق الماحق، أى عن قليل من الزمن متجاوزين عنه أى تاركين له أى قلة فى غيهم يرتعون ﴿لِّيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ﴾ على كفرهم وعلى عنادهم، وصددهم عن سبيل الله بعد مقاومتهم للحق.

وقد تأكد نزول العذاب بهم بمؤكدات، فأكد أولا - ب «مَّا» المؤكدة، وثانيا - بالقسم، وثالثا - لام القسم، ورابعا - نون التوكيد الثقيلة، وقد بين سبحانه كيف نزل بهم العذاب، فعبر عن أمر الله بعذابهم بصيغة أرجفت أرضهم وديارهم، وجاءتهم بريح صرصر عاتية، فقال:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾.

«الفاء» عاطفة على القسم السابق جاء ما بعده فوره، أى بعد زمن ليس ببعيد فى علم، والصيحة بالحق هى إرادة الله التى تكون بالحق دائما، فهى كناية عن إرادة الله تعالى التى لا يتخلف حكمها ساعة من زمان، وكانت هذه الإرادة تتجلى فى رجفة تجعل عالى الأرض سافلها، أو تدكدك الديار، أو بريح صرصر عاتية، كما فعل الله مع قوم لوط وعاد وشمود.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ تعبير مجازى مؤداه أنه نزلت بهم آثارها التى أرادها الله تعالى بهم، وقد شبهت الصيحة بسبع: التهمهم وأخذهم؛ لأنها لم تُبقِ منهم ولم تذر، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ الفاء عاطفة على ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾،

أى أن هذه أمور متعاقبة من غير تراخٍ، والغناء الأشياء التى ليس لها كيان ولكن تبدو كأنها شىء موجود له كيان، جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني فى مفردات القرآن، الغشاء غشاء السيل والقدر، وهو ما يطفح ويغرق من النبات اليابس، وزبد القدر، ويضرب به المثل فيما يضيع، ويذهب غير معتد به، ويقال: «غشا الوادى غشوا، وغشت نفسه تغشى غشيانا غشيت».

ومؤدى هذا القول: أن أولئك الذين كانوا يحسبون أنهم كجلاميد الصخر فى عنفهم وعنادهم وإيذائهم قد صاروا شيئا ليس له كيان، وإن كان لهم كيان، فهو لا يبقى زمانين، بل كان رغاء، يعلو ويتنفخ ويزول بنفخة واحدة، وقال تعالى: ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الفاء للإفصاح، أى إذا كانوا قد صاروا غشاء فقد بعدوا وهلكوا فبعدا وهلاكاً لهم، والبعد ضد القرب، والبعد لغير أوبة هلاك وموت؛ لذا يقال: «بعد» بكسر العين بمعنى مات وهلك، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ (٩٥) [هود]، أى هلكت، وأظهر سبحانه فى موضع الإضممار لبيان أن ذلك كان بسبب ظلمهم لأنفسهم، وللناس، وللحقائق، ولتدليهم فى الشرك فعقابهم قصاص من ظلمهم، وما ربك بظلام للعبيد.

القرون من بعدهم

قال تعالى:

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا
كُلٌّ مَأْجَاءَ أُمَّةٍ رُسُولُهَا كَذَبُوهُ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ
هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
 وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ
 ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
 ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَةً آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
 ﴿٥٠﴾

﴿ثم﴾ للترتيب والتراخي، وقد ذكرت هنا للإشارة إلى أنها مهما تتناول الأزمنة، فإنها متعاقبة، لا يخلو جيل من رسول، وقد توالى النذر، و﴿أنشأنا﴾ معناها أوجدنا بعد عدم (الفاستقين) الظالمين قبلهم ﴿قُرُونًا﴾، أى أجيالا آخرين، يجيئون جيلا بعد جيل، يخلف كل جيل ما قبله، والقادر الحكيم العليم هو المنشئ لها جميعا.

وإن كل جيل أمة واحدة تحيى فى ميقاتها تعقب من سبقها، ويسبق من بعدها، والدنيا لا تقف حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، وحتى يبعث الله من فى القبور.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٤٧).

الاجل الوقت المعلوم المحدود لها، فلا توجد أمة قبل ميقاتها تحيى فى وقت، ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، أى ما يطلبون تأخير وقتها فتريد فى عمرها، بل إن ما حده الله تعالى، هو الواقع فى حده، وعاد الضمير إلى الأمة بضمير الجمع العاقل للإشارة إلى أن الأمة مجموعة العقلاء المدركين المكلفين، المخاطبين من الرسل، وإن حد زمن كل أمة محدود برسولها الذى بُعث بخطاب الله تعالى لها، ولذا قال تعالى ذاكرا رسلهم المرسلين إليهم فقال:



﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ٤٤﴾ .

ذكر ﴿ثُمَّ﴾ هنا كما أشرنا لتطاول الأزمنة، وقوله تعالى: ﴿تَتْرًا﴾ أصلها وترى، والألف للتأنيث كما قال الزمخشري أو للإلحاق، وهناك قراءة بالتنوين، أي تترًا^(١)، والمعنى واحد، أي أرسلنا رسلنا وترا، أي واحدا بعد واحد ﴿كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ ومجىء الرسول لأمة هو مجىء دعوته ورسالته التي كلفه الله تعالى بتبليغها، فليس مجىء الرسول مجىء شخصى مجرد، إنما مجيئه بوصف كونه رسولا من الله تعالى، وبهذا الوصف يكون مجىء الرسالة، والتكذيب له فى هذه الرسالة مع أنه فى كل الأحوال معروف بالصدق بينهم، ولا يختار الرسول إلا من الصادقين أهل الأمانة.

﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ الضمير يعود إلى المكذبين، والإتباع إنما هو إتباع المكذبين بالإهلاك أى بعضهم فى الهلاك يتبع من سبقوه، فتوالى الإرسال، وتوالى الجحود، وتوالى الهلاك من بعد ذلك، وقد صاروا بعد الهلاك المتعاقب أحاديث تذكر للعبرة والاعتبار، و(أَحَادِيثَ) اسم جنس لحديث.

والمعنى أنهم بعد هلاكهم المتوالى فى العصور والأزمان صاروا أحاديث للناس يعتبر بها من يعتبر، ويستبصر بها من يستبصر، ويتلهم بها من يتلهم بأخبار الأولين.

﴿فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أى فهلاكا لقوم لا يؤمنون، أى ليس من شأنهم الإيمان والإذعان للحق المبين، والفاء للسببية أى بسبب ذلك التكذيب المتتابع، والهلاك المترادف تكون الدعوة بالهلاك للذين لا يؤمنون، ويتجدد كذبهم آنا بعد آن.

وبعد أن ذكر سبحانه تنابع الرسل فى أرض العرب، أشار سبحانه إلى أنبياء بنى إسرائيل، وابتدأ بموسى وأخيه هارون اللذين أنقذ الله تعالى بنى إسرائيل على أيديهما فقال:

(١) قرأها بالتنوين : ابن كثير وأبو عمرو، ويزيد: أبو جعفر المدني، وقرأ الباقون بغير تنوين. غاية

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي للتراخي لبعد الزمان وبعد المكان، وللاتصال من قوم متشابهين إلى غيرهم، ذكر الله تعالى رسالة موسى وهارون؛ لأن الله تعالى استجاب لموسى عندما دعا ربه أن يجعل له وزيرا من أهله، هارون، وقد خاطبا معا فرعون ذا الأوتاد عندما لقيه.

أرسلهما الله تعالى بآياته، وقد بلغت تسعا، ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى بحجة باهرة، فالسلطان فى لغة القرآن يطلق على الحجة؛ ولأن الحجة سلطان الداعى وقوته، ولا قوة لمن لا حجة له ولو كان فرعون، ووصف الله تعالى السلطان بأنه ﴿مُبِينٍ﴾، أى واضح بين من حيث الحجية؛ إذ إنه غير قابل للنقض، ومعلوم معروف؛ لأنه غير قابل للإنكار.

وقد ذكر الله تعالى من أرسل إليه موسى وأخاه هارون فقال:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فرعون فى عصره كان طاغية الدنيا، وكان المصريون قد استسلموا له وكان ملؤه حكام مصر يحكمون بطغيانه، ويسولون له كل ما يفعل، ويسوغون له ما به يعلو ويسرف، وباسمه عتوا عن أمر العقل والمنطق والحق، بعث الله تعالى موسى وهارون إلى هؤلاء وكل يعتز بعزة فرعون، وكانوا يستفتحون بعزته، فكانوا من منطق الوقائع، لا من منطق الحق والعقل مستكبرين؛ ولذا رتب على حالهم أنهم مستكبرون فقال: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، و(الفاء) فاء السببية، أى بسبب هذه الطغواء استكبروا وكانوا قوما عالين، أى مرتفعين عن الناس، لا فى ذات أنفسهم، بل بحكم واقع الحكم والأمور التى تسير سيرا مطردا، وهم يعلون فى أنفسهم ادعاء وغلوا وطغيانا لا يستمعون إلى الحق، ولا يصغون إلى داعية، يغالون فى رده، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص]، وقد ذكر الله تعالى مضمون ردهم، فكان كرد غيرهم، وهو استبعاد أن يكون الرسول مثلهم، وقد تواضعوا فى ذكر هذه المثلية.

﴿فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (٤٧).

الفاء عاطفة ما بعدها على ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، وقولهم ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الاستفهام هنا للإنكار بمعنى النفي مع الإنكار الشديد، فالمعنى لا تؤمن ولا نذعن لبشرين مثلنا، وقد أسبوا كفرهم بسبيين.

أولهما - أنهما مثلهم في البشرية، وكأنهم تصوروا أن الرسالة الإلهية لا تكون لبشر، وقد لفوا في هذا لف غيرهم من المشركين الذين مر ذكرهم.

والثاني - أن قومهما - وهم بنو إسرائيل - لهم عابدون، أي خاضعون خضوعاً مطلقاً قد استذلوهم وذبحوا أبناءهم واستحيوا نساءهم، وعبدوهم، كما فرض فرعون على المصريين أن يعبدوه، وقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ...﴾ (٢٨) [القصص]، ومهما يكن فهم كانوا يعدونهم دونهم، كما يعد القوى دائماً الضعيف الدليل دونه قدراً ومكاناً.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ (٢٨).

الفاء للإفصاح، والمعنى إذا كان ذلك قولهم فقد كذبوهما، وكفروا برسالة موسى - عليه السلام - مع توالي الآيات المثبتة لرسالته، ومع غلبه عليهم، وقد جمعوا الجموع من المدائن حاشرين، ولذلك كانوا مهلكين، ولذا قال تعالى: ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ أي فرعون وملؤه وجيوشه، فقد فتح البحر لبني إسرائيل، فكان كل فرق كالطود العظيم، فسار فرعون وملؤه وجنده فانطبق عليهم، فكانوا من المغرقين، ونجا المصريون الذين لم يكونوا من ملته ولا من جنده.

وإن حكم فرعون كان يقوم على إرادته المنفردة، فما أراده فهو قانون، يفرض بالقسر والقوة، فعندما بعث فيهم موسى بين لهم أن القانون من الله، لا من فرعون وأشباهه، وأنه أتى لهم بهذا القانون في التوراة، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٤٩).

أكد الله تعالى أنه أعطاهم كتاباً ينظم العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وينظم الأسرة، ويقيم العلاقات بين آحادها، وأكد

سبحانه وتعالى إيتاء موسى هذا الكتاب الذى يعد دستور الحكم لأرض مصر وغيرها، ويقيد فرعون وغيره، ويكفه عن طغيانه، جاء موسى بهذا من عند الله تعالى فى عصر لم يكن يعرف إلا حكم الطاغوت من فرعون وأشباهه من طواغيت أهل مصر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أى رجاء أن يهتدوا إلى العمل الصالح، وأن يعرفوا ما لهم من حقوق إنسانية، وما عليهم من واجبات، وتنظم بها العلاقات بين الناس على أساس من العدل والحق.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن الذى بين أيدينا مما يسمى كتب العهد القديم ليست هى تورا موسى، بل نسوا حظا مما ذكروا به، وزيد فيها أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان بل هى أساطير الأولين.

وبعد موسى جاء أنبياء ينفذون أحكام التوراة التى كانت صادقة، كداود وسليمان وأيوب وغيرهم، ثم جاء من بعدهم عيسى عليه السلام، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾.

أى صيرنا ابن مريم وأمه آية، أى معجزة خارقة للعادة، وعرف عيسى بأنه ابن مريم لبيان أنه ليس له أب، وأن مريم ولدت من غير أب، وكان بذلك هو وأمه آية خارقة لمجرى العادات، ذلك أن مجرى العادات فى الأسباب والمسببات أن الولد يكون من نطفة توضع فى رحم المرأة فيجىء الولد بإذن الله تعالى، كما تبين فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾ إلى آخر الآيات الكريمات، فكانت المعجزة فى أن عيسى جاء من غير أب؛ وذلك لإثبات قدرة الله تعالى وإرادته، وأنه مختار فعال لما يريد، ذلك أن الفلسفة الأيونية التى ظهرت فى آسيا الصغرى، وتولدت منها الفلسفة اليونانية كانت تؤمن إيمانا عميقا - ولو كان باطلا - بأن الدنيا وجدت بالسيبة، أى بوجود المعلول عن علة، حتى قالوا إن الكون كله وجد عن السبب الأول بالعلة، وبولادة عيسى من غير أب تبين أن الله فاعل مختار، رزاق، وهو ذو القوة المتين، وكان عيسى عليه السلام وأمه آية خارقة للعادة، فأمه - عليها السلام - حملت من غير نطفة، وهو ولد من غير أب، فكانت المعجزة فى كليهما، ومكونة منهما.

ويقول تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا﴾، أى جعلنا مأواهما ربوة، أى مكانا مرتفعا، قد أوت إليه مريم عندما فاجأها المخاض إلى جذع النخلة، حتى لا يراها الناس وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿فَاجْأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ٢٣﴾ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ٢٤ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ٢٥ فكللي واشربي وقرري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ٢٦﴾ [مريم].

والربوة مع أنها مرتفع من الأرض ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، أى يمكن القرار فوقها، لأنها مستوية، فيها مهد كالفرش، ﴿وَمَعِينٍ﴾ أى ماء طاهر ثرا. وقال الزجاج: هو الماء الجارى، وقال بعض الباحثين فى اللغة يقال: معن الماء إذا جرى، وهكذا اقترنت ولادة عيسى بمعجزات، فكانت الربوة فى المرتفع عن الأرض، ذات قرار ممهد، وفيها الماء الجارى، وتكلم فى المهد صبيا، وكان هو فى ذاته معجزة.

الأنبياء بشرياكلون، والكفر بهم واحد

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّ عَوَامُّهُمْ فَيْسَهُمْ رُبُورٌ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرُهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ٥٤ أَيْحَسِبُونَ أَنَّ مَا نَعِذُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٦ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ يَشَاءُتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾
 أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَنكَلِفُ
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
 بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
 عَمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ
 ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ النداء للرسل، وهو نداء لبيان حقيقة الرسل، وأنهم من البشر يأكلون الطعام، وكان النداء لهم وقد مضوا إلى ربهم، ولم يكن عند نزول الآية الكريمة إلا محمد ﷺ، وذكر النداء في هذا للدلالة على أنهم كانوا يخاطبون بهذا الخطاب، رسول منهم كان يخاطب بهذا الخطاب، وتباح له طيبات الطعام، والطيبات من الرزق، ويؤمر به كالأمر بكل مباح، والطيبات تتحقق طيبتها بأمور؛ منها: أولهما ألا يكون خبيثا في ذاته كالميتة والدم ولحم الخنزير، وأن يكون قد سمي عليه عند ذبحه، وأن يكون قد كسب من حلال، فيجتمع فيه الحل الذاتي والحل الديني، ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وليس الأمر الذي يكون به متميزا عن سائر البشر إلا العمل الصالح بأن يكون خالصا له، والعمل الصالح هو العمل الطيب الذي يكون خيرا محضا للناس لا يكون معه شر لا في ذاته، ولا في نيته، والعمل الصالح ما يكون فيه النفع لأكبر عدد ممكن، وما تكون فيه سعادة عاجلة لأكثر الناس، أو سعادة آجلة لعامتهم، ويدخل في هذا دعوتهم إلى الهداية والرشاد، والتبليغ عن أمر ربهم.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقد وثق الله تعالى العمل الصالح عليهم ببيان إحاطة علمه تعالى به، فقال: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقد أكد الله تعالى علمه بكل ما

يعملون ليرتقبوا جزاءه الوفاق لأعمالهم، وهم بشر يجزون بالخير على ما يقدمون كغيرهم من البشر.

وقد أشار سبحانه إلى أن الناس جميعاً فطرة واحدة ينبعثون عن غرائز واحدة، ويختلفون عند اصطدام هذه الغرائز، واختلاف النزوع باختلافها، ولذا قال عز من قائل:

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ إن بالكسر، على أن الواو لاستئناف كلام جديد، له وثيق الصلة بالآية السابقة، وقال أكثر المفسرين: إن الأمة بمعنى الدين والملة، وأمة منصوبة بالحال، أى أن هذه أمتكم حال كونها أمة واحدة أى على دين واحد، وهو توحيد الله - تعالى - بلغته الرسل أجمعون، ولكن جاء الاختلاف، فتقطعوا زبراً، وصاروا أحزاباً، ولكن كل حزب بما لديهم فرحون، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، أى أن ربكم واحد، كما أن دينكم واحد، أجمع عليه الرسل الذين بعثوا من عند الله، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ سببية، أى بسبب أنى ربكم الذى خلقكم، ويكلؤكم بالليل والنهار ﴿فَاتَّقُونِ﴾، أى اعبدوه، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية.

هذه على تفسير أمتكم بمعنى دينكم الواجب اتباعه، ولا يصح أن تسمى غير التوحيد ديناً قيماً، وقد عرض لى أن نفس كلمة أمة بما فسرناها به فى سورة البقرة، فى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً... (٢١٣)﴾ [البقرة]، أى صنفاً على طريقة واحدة، وعلى غرائز واحدة وقد تتناحر نوازع نفوس التى تسير وراء الغرائز من غير تهذيب بدين يجىء به نبي مرسل، وبذلك يترتب التقاطع من هذه الوحدة فى الغرائز والطبائع، فإذا كان حب الغلب غريزة، فإنه لا بد من التغلب؛ لأن كلا يجد فى نفسه دافعاً لأن يكون هو الغالب، فيكون التنازع والتقاطع، ويكون التعبير بالفاء فى قوله فى الآية الآتية: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً...﴾، أى أنه جاء التقطع من وحدة الغرائز.

هذا ما بدر لنا، والله أعلم بمrade، وقوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، أى أن النداء بالتقوى لكف الغرائز، وتهذيبها هو الذى يكفها، ويجعلها فى ميزان الاعتدال.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٢).

الزبر جمع زبرة أو اسم جنس جمعى، وهو الذى يفرق فيه بين المفرد والجمع بالتاء أو يياء النسب، كروم ورومى، والزبرة قطعة من الحديد، وقد شبهت الجماعات المختلفة فى نزاعها بزبر الحديد، من حيث إن كل واحدة شديدة فى التمسك بما عندها كأنها صلب الحديد، لا تترك رأيها، كما لا تتفرق زبر الحديد.

أى اختلفوا متقطعين متنازعين غير مجتمعين فى أمرهم، بحيث لا متسع للالتقاء فيما بينهم، يتحزبون فى تفكيرهم: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أى كل جماعة متحيزة متعصبة لما عندها، فرحة به، وتحسب أنه الحق الذى لا ريب فيه، وهو الضلال المبين، وإن التحزب لفكرة يدفع إلى التعصب لها، والتعصب يعمى ويصم، وتقديم الجار والمجرور - بما لديهم - لبيان أهميته عندهم.

وهنا ننبه إلى أن الفاء فى قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ فاء السببية، وهى بهذا المعنى يرجح أن معنى الأمة ما بدر لنا، وتبعاً أن يكون معناها: دين التوحيد؛ لأنه لا يترتب عليه التقاطع والتفرق.

﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٥٤).

الخطاب للنبي ﷺ، والضمير يعود إلى المشركين، فإنهم حاضرون فى ذهن النبي ﷺ فى أنهم فى كفرهم وعنادهم موضوع القول، وتسرية الله لنبيه لأجل أذاهم المستمر اللحوح، والغمرة الماء الكثير الذى يغمر من ينزل فيه، والمراد الجهالة، أى ذرهم فى جهالتهم التى غطت عقولهم وفكرهم كما تغطى الغمرة: التى تغطى أجسامهم، وإن جهالتهم هذه جعلتهم فى حيرة بين حق وأو دلالة، وباطل قد استولى على نفوسهم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى حين ليس ببعيد، وإنه لقريب؛ لأنه واقع، وكل واقع قريب مهما يتباعد زمانه.

والفاء فاء الإفصاح، والمعنى إذا كانوا قد أعرضوا عن الحق، ولجوا فى إعراضهم جهالة وحيرة فذرهم حتى حين، والحين الذى ينتهى عنده انتظار أمر الله

هو ما بعد الهجرة، ولقاؤهم في ميدان القتال، ويكون دفع ظلمهم ووقفهم عند حدودهم، ولا يصح أن يظنوا أن مالهم وأولادهم تغنى عنهم شيئاً، ولذا قال تعالى:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هذه الآية الكريمة متصلة بما قبلها؛ إذ مغزى الآية السابقة أن الله تعالى ينذرهم بأنهم بعد حين سيتسلط عليهم العباد المؤمنون، وإذا كانت نعمة الله تعالى نازلة بهم لا محالة على أيدي عباد الله الصابرين، فلا يصح أن يظنوا أن الله يسارع لهم في الخيرات، ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ الاستفهام للاستنكار بمعنى النفي مع رميهم بالجهل والغرور، أى لا يحسبون أن الذى نمدهم من مال وبنين، وكل أسباب القوة مسارعة لهم فى خير لهم، إنما هو مطاولة، وإمهال من غير إهمال، ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بل للإضراب، أى إضراب عن هذا الزعم الذى يزعمونه، والحسبان الذى يظنون، إنما هم لا يشعرون، أى لا يشعرون بما يرتكبون من جرائم، ولا يشعرون بأن عذاب الله واقع، ولذا لا يستعدون.

ولقد ذكر بعد ذلك المؤمنين فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

الخشية خوف يشوبه تعظيم، والإشفاق خوف تشوبه محبة، وكذلك شأن المؤمن فهو يخاف الله ويعظمه، ويحبه، فهو يحب الله تعالى، ويحبه الله تعالى، وهو يعظم الله تعالى، ويخاف عذابه، فهو يستكثر أخطائه، ويخاف العقاب، ولذلك كان من شأن أهل الإيمان أن يغلب فى نفوسهم خوف العقاب على رجاء الثواب، وقد أكد سبحانه خشية المؤمنين وإشفاقهم بمؤكدات:

أولها - ﴿إِنَّ﴾ فهى لتوكيد الكلام.

وثانيها - ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾.

وثالثها - تقديم الخشية على متعلقها .

ورابعها - التعبير بربهم ، أى القائم على أمورهم وكالئهم ، وحاميهم .

هذا هو الوصف الأول من أوصاف أهل الإيمان الذين يستحقون الثواب ، ولهم الغرفات الآمنة عند ربهم .

وذكر أولا - لأنه يتضمن إذعان القلب ، وامتلاء النفس بهيئته سبحانه ، فيكون قريبا منه ، يفتن لآياته ، ولذا قال سبحانه فى الوصف الثانى :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) ﴾ .

إنهم لخشيتهم من ربهم ، وإشفاقهم ، ومحبتهم لربهم تصفو نفوسهم ، وتذهب الكدرة من أفهامهم ، فإذا رأوا الآيات توجهوا إليها بقلب سليم مشرق ، قذف به نور الإخلاص ، والوإوار عاطفة تعطف صفة على صفة ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون موجب هذه الآيات ، وما تدعو إليه ؛ ذلك أن الإخلاص إذا دخل القلب ملأه بنور الحكمة ، فأدرك به ، ولم تقف حوائل دون الإدراك فيكون الإدراك سليماً ، ولا ينطق اللسان إلا بالحق ، ولقد تأكد الحكم بما تأكد به الوصف الأول ، والتعبير بالمضارع يفيد تجدد الإيمان بتجدد الآيات ، فكلما كانت آية من آيات الله وهى كثيرة زادت المؤمن إيمانا ، فإيمانهم متجدد فى نماء ، ويزيد بزيادة الآيات ، وقال سبحانه فى الوصف الثالث :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾ .

الشرك يعجىء دائما من أوهام تسيطر على النفس الإنسانية ، فتجعلها تعتقد قوة فى حجر ، أو فى شخص ، وقد تكون مسوغات موهمة ، وقد يكون الوهم نفسيا من ذات النفس ، ونفس المؤمن سليمة صافية فيها نور الحق ، قد استضاءت به ، وعمرت بذكر الله تعالى وامتثلت به فلا تضل أبدا ، ولذا قال تعالى : فى الوصف الثالث من أوصاف المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ إنهم يعترفون أن العبادة لا تكون إلا للقادر على كل شىء الذى لا مثيل له الواحد فى ذاته وصفاته وخلقه ، فهم كما عرفوا آياته وأذعنوا ، فهم أيضا يذعنون لمعانى الوحداية ، فلا يشركون به شيئا ، وفى الجملة السامية التوكيدات فى الآيات السابقة وإن من أجل صفات المؤمنين كما أشرنا من قبل أنهم يستصغرون حسناتهم ، ويستكثرون أخطاءهم ، ولذا قال فيهم رب العالمين .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦١).

ذلك هو الوصف الرابع، وهو أنهم في وجل من لقاء ربهم مع ما يعطون من حسنات.

الوجل: الخوف مع الاضطراب الشديد، والإحساس بالقصور، وهذا هو الوصف الرابع لأهل الإيمان، والإيتاء: الإعطاء، والمعنى أن هؤلاء المؤمنين لفرط إحساسهم بخشية ربهم، وإشفاقه يعطون العطاء الكبير ويخشون مع ذلك ألا يقبل منهم لرياء أو نحوه مما يمحى الحسنات، أو لوجود داء يذهب بخير القربات، ولقد قال الحسن البصري سيد أهل البصرة: لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها، ولا شك أن ذلك من تغليب خوفهم على رجائهم، وقوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حال من فاعل يؤتون^(١).

ووجلهم من أنهم إلى ربهم راجعون، وهذا يدل على أمرين:

أحدهما - أنهم ذاكرون دائما لليوم الآخر، ويغلبون خوفهم منه على رجائهم فيه، لفرط إحساسهم بالخشية من الله تعالى.

ويدل ثانيا - على أنهم يرهبون الوقوف أمام الله استصغارا لحسناتهم، واستكثارا لسيئاتهم.

وقد قال تعالى في جزائهم:

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٦١).

الإشارة إلى الحاملين لأوصاف السبق عند الله تعالى، الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم يذعنون لدلائل آيات ربهم، ولا يشركون شيئا في

(١) عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قالت عائشة: أ هم الذين يشربون الخمر ويسرفون؟ قال: لا يا بنت الصديق؛ ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات. رواه الترمذي - تفسير القرآن - ومن سورة المؤمنون (٣٠٩٩)، كما رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٨٨).

العبادة، والذين يقطعون من أموالهم للفقراء، ويوجلون إذ يعلمون أنهم إلى ربهم راجعون، هؤلاء بهذه الصفات التي تسمو بهم يسارعون في الخيرات؛ لأنهم يتنقلون في وسط صفات سامية، فيتنقلون مسرعين في وسط خيرات، ويلاحظ هنا أن التعدية بـ «في» تفيد أنهم ينتقلون من مرتبة خير إلى أعلى منها مسارعين بهذه الصفات السامية، فهم وسط دائرة الخير دائما يتنقلون في درجاتها، أو الخير يمهّد للخير، وكل خير يمهّد إلى أعلى منه: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ الجملة حال من فاعل يسارعون، فهم بهذه المسارعة المتحركة بهم من خير إلى خير يسابقون إليها وكأنما يسبقون إلى الجزاء الأوفى، والتعيم، فجزاء المسارعة في الخير، سبق إليه، والضمير يعود إلى الخيرات، والمعنى أن السبق إلى الخير هو نفسه خير، وينتهي إلى جزائه، فهؤلاء يستدئ جزاؤهم من أعمالهم براحة ضمائرهم، واستمتاعهم برضا ربهم، وإحساسهم بإنسانيتهم الكريمة، فالخير جزاؤه يستدئ من ذات فعله، وينتهي به إلى النعيم يوم القيامة.

وبين سبحانه أن الله تعالى يريد اليسر من عباده، ولا يريد العسر، وأنه لا يكلف سبحانه إلا بما يكون في دائرة الطاقة في يسر ومن غير مشقة، فيقول تعالت حكمته:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٢).

الواو للاستئناف، ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى إلا ما فى طاقتها، وتستطيع القيام به فى سعة من غير إرهاق ولا إجهاد، فلفظ ﴿وُسْعَهَا﴾، يشير إلى أنه تكون عند عمله فى سعة من غير ضيق ولا إحراج، فلا حرج فى الدين ولا ضيق، وكذلك كل تكليفات الإسلام ليس فيها شقة فوق الطاقة، وما يكون فيها شقة ربما تكون شديدة أحيانا لا تكون على الكافة كالجهاد، بل يكون ابتداء فرض كفاية إلا أن يدخل العدو أرضنا، فيكون فرض عين على كل قادر على حمل السلاح؛ لأنه يكون شقة شديدة لدفع شقة أشد، وهى شقة الذل وضياح الدين، وهذه أشد الشقات.

والصفات التى اتصف بها المؤمنون، والأعمال التى يقومون بها فى الطاقة، والعمل عن سعة ويسر وسهولة إلا على الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وإن كل عمل خيرا أو شرا فى إحصاء دقيق لا يتخلف عنه شىء، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ قالوا: إنه كتاب الأعمال الذى يحصى فيه كل عمل خيرا كان أو شرا، ويصح أن نقول: إن ذلك تصوير لعلم الله بما يفعله كل إنسان، ويوم القيامة يجده محضرا يخبر به ويحاسب عليه، لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وصور الله سبحانه وتعالى إحصاء أعماله كله كأنها تنطق به متلبسة بالحق مخالطة له غير بعيدة، وأكد سبحانه أنهم لا يظلمون، فقال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فلا ينقص من خير فعلوه، ولا يزداد على سيئاتهم سيئات، بل إن الله يعفو عن السيئات إذا كثرت الحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾ (١٤٤) [هود].

هذه صفات المؤمنين وعقباها جاء بها سبحانه وسط وصف الكافرين، واستكبارهم ليكون المؤمنون مجال اعتبار، وليمكن لهم، ثم أخذ سبحانه يتمم بيان ضلال الكافرين، فقال تعالى:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (١٣).

الإضراب هنا فيه بيان أنهم لا ينتفعون بالعظمت والعبر، ولا يستبصرون بهداية المهتدين، ولا يتعرفون مآل الحق وأهله، ولا مآل الباطل وأهله ﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ الغمرة أصلها ما يغمر الإنسان من الماء، وقد فسر بعضهم الغمرة بالغفلة التى غمروتهم، وهو تفسير حسن، وقد غفلوا أولا عن الكتاب الذى يكتب الحسنات والسيئات، أو علم الله تعالى الذى لا ينادر صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها، وغفلوا عن رقابة الله تعالى لأعمالهم وغفلوا عن أعمال المؤمنين واستقامة قلوبهم، وهم أناس مثلهم، قد سبقوهم فى الفضل وشرف الإيمان، والمصارعة فى الخيرات والسبق فيها، وأنهم قد سارعوا فى الكفر، كما سارع المؤمنون فى الخيرات، وسبقوا إليها،

فكان لهم فى الكفر أعمال كثيرة منها: أنهم حرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله تعالى، كما حرموا السائبة والوصيلة والبحيرة...، ومنها: أنهم جعلوا للأوثان نصيباً من الحرت، ومنها: أنهم صدوا عن سبيل الله، ومنها: أنهم فتنوا المؤمنين فى دينهم، ومنها: أنهم آذوهم وأخرجوهم، ومنها: أن رءوسهم صارت عشا للخرافات والأوهام؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ وقد أشرنا إلى بعض هذه الأعمال. ومنها: طوافهم بالبيت عراة، وادعائهم أن الله تعالى أمر بها ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا...﴾ (٧٨) [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى الشرك والكفر بآيات الله تعالى، وإنكار التوحيد، و﴿مِّنْ﴾ بيانية، ﴿دُونِ﴾ أى غيرها وأدنى منها درجة فى التكليف، وأنهم مستمرّون، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ فالجملة حالية من ضمير «لهم»، أى والحال أنهم مستمرّون على هذه الأعمال غير منقطعين عنها فهم فى ضلال مستمر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ (٦٤) لا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ (٦٥).

حتى للغاية، والمعنى: فهم فى غفلتهم المستمرة الغامرة الحق بالباطل لا يستبصرون ولا يتيقظون، ولا ينبههم إلا قارعة تفرعهم؛ ولذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ فتفرعهم القارعة، أى أنهم غافلون، حتى تنبههم من الغفلة قارعة تمس المترفين، وخص المترفين بالذكر، مع أن القارعة تعمهم وغيرهم إذ المهلكات تعم، ولا تخص المترفين منهم. خص المترفين؛ لأنهم أصل الإنكار الذين تلهيهم الغفلة عن الحق، أو يلهبهم ما هم فيه من ترف عن أن يدركوا الحق؛ لأنهم لا شدائد تنبههم، فالشدائد ترهف المدارك، وتوقظ الأفهام، ولأنهم لا يصبرون على الابتلاء، بل يخرون صاغرين أمام أى شدة، أو كارثة تكرثهم؛ ولذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ (٦٤) للمفاجأة، والمفاجأة تحوّل حالهم من استكبار واعتزاز وغفلة إلى صغار وتنبيه، وضراعة، فالجوار مصدر جار وهو رفع الصوت بالضراعة والاستغاثة.

والعذاب قيل: هو عذاب الدنيا بكارثة دنيوية أو حرب هازمة لهم، والتعبير ﴿أَخَذْنَا مَثَرِهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ معناها أنزلنا بهم العذاب جزاء ما أجرموا. وكفى عن ذنوبهم بالعذاب الذى استحقوه بها، وقال أخذناهم، كناية عن أنه أخذهم حتى لا يفلتوا منه، وشبه إنزاله بهم بأخذهم إليه أخذًا مصحوبا بالعذاب الشديد.

وإنهم إذ يضرعون ويجأرون يفعلون ذلك فى وقت غير مناسب؛ لأنه قد فات وقت الضراعة والاستغاثة بالله، إذ إن تلك الضراعة كانت وهم فى وقت التكليف؛ ولذا قال تعالى:

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْكُمْ لَا تُنصِرُونَ ٦٥﴾.

هذه الجملة السامية فى مقام التعليل للجملة التى قبلها، أى لا تضرعوا، لأنكم تأييتم فى وقت التكليف واستكبرتم علينا وكفرتم بآياتنا، فلن نصركم، وبقي عليكم أن تذوقوا مغبة أعمالكم، وذلك كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ١٢﴾ [المزمل]، وكقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ ٢﴾ [ص].

حالتهم فى غفلتهم واعراضهم

قال تعالى:

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي

نُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ صَوْنَ ٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرَاتٍ تَهْجُرُونَ ٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَرُّوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ۖ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ قَسَمُ اللَّهُ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ﴿٧٤﴾

الآيات هى الآيات القرآنية بدليل التعبير بقوله: ﴿تَتْلُو﴾، والتلاوة القراءة المرتلة التى تحمى الكلمة تلو الكلمة واضحة فى نطقها متقنة فى صرفها عند النطق مستوفية مدداً وهى الترتيل، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل]، وكما قال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ [الفرقان]، وأن القرآن الكريم قد تواتر كتابة وقراءة وترتيلاً، وهو فى ترتيله قد تلقاه النبى ﷺ عن جبريل، علمه الله تعالى إياه.

وقد أكد سبحانه وتعالى بـ (قَدْ) الدالة على التحقيق و﴿كَانَتْ﴾ تدل على استمرار التلاوة، ولكنهم ما كانوا ليتبعونها، ويتدبرونها، ويتعرفون مراميها وغايتها، معتبرين بعبرها، متأولين مآلها، بل إنهم يستمعون بآذانهم، وقلوبهم لاهية، وعقولهم معرضة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ «الفاء» عاطفة، «كنتم» معناها أن هذه كانت حالاً دائمة مستمرة لا يستمعون إلا بآذانهم، وقلوبهم معرضة، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾، هذا التعبير تصوير للإعراض يظهر حسياً، كيف كان إعراضهم عن الحق ﴿تَنكِصُونَ﴾، أى ترجعون وراءكم، ووجوهكم كأنها مقبلة، فهم يرجعون القهقرى، بأدبارهم، ويسيرون إلى الورا بأعقابهم، وقد جاء فى قراءة شاذة منسوبة لعلى بن أبى طالب «فكنتم على أدباركم»، ولعلها تفسير له رضى الله تعالى عنه، وهذا تشبيه حال بحال، فشبهت حالهم فى أنهم يسمعون بآذانهم دون أن تعيه قلوبهم بحال من يلقون بوجوههم وهم يسيرون القهقرى إلى الورا.

وبين سبحانه أن ذلك كان استكباراً، فقال:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (٦٧).

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من «الواو» في «تَنَكُّصُونَ»، وهى تفرقة واضحة بين حالين، إحداهما تمللهم عند سماع الحق حتى إنهم ينكصون على أعقابهم عند سماعهم، وحالهم وهم يجأرون ضارعين صاغرين عندما يؤخذون ببعض العذاب الذى يستحقون.

وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى القرآن الذى تتلى آياته، مستكبرين استكبارا مصاحبا لسماعه، أى متعالين على القرآن نفسه، أو متعالين بسببه لأنهم لم يذعنوا لحقائقه، ويصح أن يكون متعلقا بـ ﴿سَامِرًا﴾ أى جاعلين القرآن موضع سمرهم حول الكعبة، ﴿تَهْجُرُونَ﴾^(١)، أى يقولون الهجر من القول الفاحش، أى أنهم مع نكوصهم على أعقابهم عند سماع تلاوته يجعلون الطعن فيه وسب النبى ﷺ موضع سمرهم وقولهم الهَجْر من القول الفاحش، وقرئ يُهْجِرُونَ، وبضم الياء وماضيها «أهجر» أى دخل فى هجر القول.

وخلاصة المعنى على هذا أنهم ينكصون معرضين عند سماع التلاوة مستكبرين سامرا به بهجر القول، أى لا سمر لهم إلا السخرية به وبمحمد ﷺ ناطقين بالهجر الفاحش من القول، ومع ذلك يجأرون ضارعين عندما يأخذهم عذاب يفجأهم أو كارثة تكرثهم، وكان حقا عليهم أن يتدبروا القرآن بدل أن يعرضوا عنه ويتخذوه موضوعا لسمرهم وهجرهم.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨).

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة، ومؤدى القول أنهم قد نكصوا على أعقابهم ثم جأروا عندما اشتدت بهم الشديدة، أفما كان أولى من هذا أن يتدبروا القول بأن يتدبروا ما تلى عليهم ويتعرفوا معانيه، أم أنه جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، ف ﴿أَمْ﴾ على هذا هى التى تكون للمعادلة بين أمرين، والاستفهام هنا لاستنكار المعادلة، والمعنى ألم

(١) قراءة (تَهْجِرُونَ) بضم التاء وكسر الجيم: نافع، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم. غاية الاختصار: ٥٨٤/٢.

يتدبروا ما سمعوا من آيات تتلى أم أنهم جعلوا هذه الآية في منزلة ما جاء به آبائهم فمادامت لم ينجئ بها آبائهم فهي في موضع الإنكار، وفي هذا توبيخ لهم من ناحيتين:

أولاهما - أنهم مقلدون لا يفكرون بعقولهم تفكير موازنة بين حق وباطل.

وثانيهما - أنهم مقلدون آباءهم، ولو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٦٩).

﴿أَمْ﴾ تتضمن معنى بل، والاستفهام الإنكاري، و«بل» معناها الإضراب، فالكلام فيه إضراب انتقالي، والمعنى نضرب عن هذا، ونسألهم ألم تعرفوا رسولكم فأنتم له منكرون، ومؤدى هذا التساؤل أنكم قد عرفتم رسولكم، فقد نشأ بينكم، وعرفتم صدقه وعدله واتزان فكره، وسلامة طبعه، وضئى نسبته، وأنه من أوسطكم، وأنه الأمين بينكم فكيف تنكرون رسالته، وتنكرون شخصه، وهو الأمين النسب فيكم، وأرجح رجالكم عقلاً.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٠).

﴿أَمْ﴾ تدل على الإضراب والاستفهام معاً، وهو إضراب انتقالي يضرب بها عن الكلام قبله، وينتقل إلى استفهام جديد، ولا شك أنهم يعرفون أمانته وصدقه، واستقامة نفسه وخلقه وعقله، وطبعه، ولا يتحول ذلك إلا إذا اضطرب كيانه العقلي والنفسى، وأصيب بجنون، والمعنى أيقولون به جنة؟ أى اتحول عن طبيعته، وأصابه جنون، وهو يقول القول الحكيم، ويتصرف التصرف الحكيم، فلم يكن به جنون، بل زاد بالبعث عقلاً وعلماً، وإنما هو الكراهية للحق؛ ولذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن كل ما سبق فهم يعرفون إعجاز القرآن وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وإذا لم يتدبروا القول، فهو يقرعهم بالحجة، وهم يعرفون الأمانة عنده، وهم لا يقولون صادقين إنه مجنون، ليس هذا ولا شيء منه، ولكن الحق ثقل عليهم، وقد جاء به ليبطل عبادة الأوثان وتحريمهم

ما أحل الله، وأكثر أهل مكة كارهون للحق: ﴿وَأِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [الأنعام: ١١٦]، وإن هو إلا الهوى سيطر عليهم واتخذوا إلههم هواهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [٧١].

الهوى ينبعث من مصدرين:

أولهما - الشهوة والسيطرة التي قد تجمع بصاحبها عن مناهج السداد، وموضع الاستقامة، والتي تضل معها الأفهام والعقول.

وثانيهما - سيطرة الأهواء، فيتخيل ثم يخال، وإن هذين الأمرين لا يقوم بهما أمر صالح للبقاء، فالشهوات نزعات ولا تكون معها إلا لذات وقتية لا تدوم، بل تنتهي بانتهاء وقتها؛ فلذة الخمر تنتهي بانتهاء وقتها، وكذلك كل لذة جسمية تنفعل بها النفس لا تدوم، وشهوات الناس مختلفة، فيكون التضاد بين الناس والتنازع المستمر، والتناحر القاتل، كما نرى الآن في أمم أوروبا وخاصة أمريكا، ثم الأوهام من شأنها أن تصور ما ليس واقعا كأنه واقع، ويتخيل الشخص، ثم يخال.

هذا هو الهوى، وأهواء العرب، كانت انحرافا فكريا أدى إلى استحسان الشر، وضعفا عقليا أدى إلى اتباع الآباء ولو كانوا لا يعقلون شيئا، مما أدى إلى تحريم ما أحل الله، وأدى إلى الطواف عرايا، للتخلص من نجاسة الثياب المعنوية، كما توهموا، وأدى إلى قتل أبنائهم ووآد بناتهم، وإلى استباحة أكل أموال الناس بالباطل.

هذه هي الأهواء ما كان معروفا منها بعضه عند العرب، أما الحق فإن مصدره العقل، والعقل يقوم على ثلاثة أمور:

أولها - الميزان بين الأشياء والأفعال فيتخير أنقاها وأثبتها وأصلحها، وأكثرها نفعا.

وثانيها - القسطاس المستقيم الذى يكون ميزان الأشياء، وحكم الموازنة فيها .

وثالثها - أنه يقدر خير الأمور بأنه ما يكون باقيا، ولو كان فى آجل .

على هذا لا يمكن أن يكون الحق متفقا مع الأهواء، وخصوصا أهواء العرب التى أشرنا إلى بعضها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ . أما فساد السموات فلأنها قائمة على تماسك أجرامها بأركان قوية منتظمة لا تتخلف، ولو كانت خاضعة لأهواء أهل الشرك لتزايلت؛ لأن أهواء أهل الشرك تفرق المجتمع، كما كانت الحال بينهم، وأما الأرض فلأنها تعمر باستنباط خيرها، وتعرف إصلاحها والغرائز الإنسانية التى تمد النفوس بشهوة الغلب، وشهوة الجنس، وشهوة المال، وشهوة السلطان والتحكم، وإذا حكمت هذه وأشباهها، فإن الحاكم يعجل بفنائها، ولولا رحمة من ربك ببقاء سلطان الحق ولو فى الأقوال دون الأفعال، لأذنت الدنيا بخراب، قال تعالى فى بيان أن الرسل جميعا جاءوا بالحق وميزانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد] .

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ بل للإضراب عن توبتهم أن الحق يساير أهواءهم، وأتيناهم بما يذكرهم الحق، ويبعدهم عن أهوائهم ويذكرهم بمعنى التذكير، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، أى جئناهم بما يذكرهم، وينبههم إلى خلل تفكيرهم وبعدهم عن الحق وسيطرة أهوائهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ و«الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فرتبوا النقيض على نقيضه، وبنوا إهمال التذكير على التذكير، وذلك من ضلال العقول، فرتبوا الإعراض على التذكير . اللهم أكفنا شر ضلال الأهواء، إن النبى ﷺ يدعوهم إلى الحق الخالص، لا يسألهم أجرا، ولا جزاء ولا سلطانا؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿أَمْ﴾ تتضمن معنى بل، وهمزة الاستفهام، والإضراب إضراب انتقالي، فنقلهم سبحانه من الحكم بأنهم يتبعون أهواءهم، إلى مكانة النبي ﷺ، وأنه لا يطلب منهم مالا، ولا سلطانا، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أى لا يسألكم خرجا والخرج المال الذى يأخذه السلطان من الرعية، والخراج العطاء الكثير، ما سألتهم خرجا حتى يدعوا أنك تريد سلطانا عليهم وجاها، فما أعطاه الله تعالى خيرا، وهو كثير، وهو ربك وكافلك، ومديم العطاء عليك، وهو مغنيك دائما عن الناس، وهو خير الرازقين، وفرقه خير الأرزاق، وافر يتفضل على من وقف على بابه، والمعنى خراجة أى عطاؤه أغلى رزق وعطاء، وليس فوقه رزق لطالب رزق، ويصح أن نقول: إن المراد من خراج الله تعالى نعمة على محمد ﷺ، وهى نعم معنوية، فما كان محمد ﷺ معروفا بالمال، إنما كان معروفا بالسمو الإنسانى الكامل الذى لم يناصبه أحد فيه؛ ولذا اجتباه رب العالمين خاتما للنبيين، وكان آخر لبنة فى صرح الرسائل الإلهية.

ولقد قال الزمخشري كلمة بليغة فى معنى هذه الآية: قد ألزهم الحجة فى هذه الآيات، وقطع معاذيرهم، وعللهم، بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سره وعلنه، خليف بأن يجتنبى مثله للرسالة من بين ظهرائهم، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلما للنيل من دنياهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى الإسلام الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم، وهو إضلالهم بالتدبر والتأمل وتعللهم بأنه معجون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات المنزل، وكراهيتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر. اهـ ملخصا.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣)﴾.

وبعد أن أشار سبحانه إلى أنهم يبتغون الهوى المنبعث من أوهامهم وشهواته وتقليدهم، وأن الحق لا يتبع أهواءهم، بين الله سبحانه وتعالى أن دعوة محمد ﷺ هى دعوة الحق، وأمانة الحق استقامة طريقه فهو لا اعوجاج فيه؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَنْتَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الخط المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين، فالوصول إليه قريب سهل، والصراط هو الطريق المستقيم، ولقد شبه الله تعالى الحق من حيث إنه أقرب طريق للوصول إلى الله تعالى، فإن الله هو الحق، وطريقه الحق، ورسالته الحق، وأكد الله تعالى أن رسوله يدعو إلى الحق، وأن صراطه هو المستقيم بمؤكدات:

أولها - «إن» المؤكدة الدالة على التحقيق.

والثانية - اللام فى خبرها.

والثالثة - الجملة الاسمية.

وهنا نجد تفرقة واضحة بين الحق الذى يدعو إليه النبيون، والهوى الذى يدعو إليه المشركون، فالله يدعو ورسوله إلى طريق مستقيم يتفق مع العقول ولا اعوجاج فيه، ولا أمت، يرتفعون فيه ويتخفصون، بينما الأهواء متفرقة المخارق متفاوتة فى طريق يتنازعون فيها أمرهم.

وإن هؤلاء يتكبون الصراط المستقيم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ (٧٤)﴾.

يقال: نكب عنه أى: مال عنه وانحرف إلى غيره، والصراط هو الصراط المستقيم، وقد مالوا عنه إلى مشارات الشيطان، فالصراط المستقيم هو صراط الله تعالى كما قال تعالى كلماته: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَرُوا بِهِ سَبِيلَهُ ذَلِكَ وَمَا كُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام].

وقد وصف الله سبحانه الذين لا يؤمنون بالآخرة بالميل عن طريق الحق؛ وذلك لأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة، والإنسان روح كماله فى أن يؤمن بالغيب، ولذلك كان من أوصاف المؤمنين: الإيمان بالغيب، وإن الذين لا يؤمنون بالغيب يحسبون أن الحياة الدنيا هى كل شئ فتسلط عليهم أهواؤهم وشهواتهم، والشهوات مردية، والأهواء فاتنة النفوس، والذين لا يؤمنون

بالآخرة يحسبون أنهم خلقوا عبثاً، وأنه لا جزاء لمن أحسن، ولا عقاب على من يسيء، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥).

يذكرون الله في الشدة ولا يذكرونه في الرخاء

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُوفِ طَغَيْنَاهُمْ
يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَنْضَرَعُونَ﴾ (٧٦) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَاهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا
لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣)

إن من شأن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يكون إحساسه خاضعاً للساعة التي يكون فيها لا ينفذ ببصيرته إلى ما وراءها فيقول في كل شيء: ما هي إلا حياتنا الدنيا، ولا يفكر إلا في الحالة التي تظله.

ومن شأنه أنه إذا نالته شدة أحس بسلطان الله تعالى، وأنه كاشف الضر، فإذا زال عنه الضر عاد إلى كفره، وهذا المعنى بصورة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ (١٢) [يونس].

لقد تضرع المشركون لبلاء نزل بهم فرق النبي ﷺ، فقال الله تعالى مبينا سته فيهم وفي أمثالهم:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥).

أى لو غمرناهم برحمتنا فى وقت شدتهم، فأزلنا عنهم الغم، وكشفنا الضر من مرض أو بلاء لاستمروا لاجين فى ظلمهم الطاغى يعمهون، الكشف كناية عن ذهاب الضر؛ لأن الضرر يكون كالغمة، وكشفها إزالة كربها، وما المراد من الرحمة وكشف الضرر أهو زواله بعد النزول، أم أنه يستمر فى الرحمة بأن يتمتع بنعمة الصحة والعافية وعدم وجود الضرر؟ إن الآية تحتلها، وإن الرحمة هى التمتع بمتع الحياة، وعدم نزول الضرر، بل هو مكشوف عنها كل ضرر يحتمل أن يوجد، ويكون المعنى أن النعمة تغرهم فيكفرونها، وعدم نزول ضرر بهم كذلك، فيستمرون فى حالهم لاجين فيها و﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أى فى ظلمهم الطاغى ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أى يترددون ويتحيرون، فإن الطاغى متردد متحير دائما، إذ إن للفطرة العادلة صوتا وإن لم يكن مجلجلا، والظلم للجلج دائما، وإذا رأيت الظالم يعنف دائما، فاعلم أن ذلك لإسكات الصوت الخفى الذى ينبعث خافئا ليسكته.

وعلى الاحتمال الآخر، وهو أن هذا يكون بعد نزول ضرر وكشفه، فإنه واضح، ولكن نحن نرجح الأول لقوله تعالى: ﴿لَلْجُؤُاْ﴾ - إلى آخره؛ لأن اللجاجة استمرار الحال قائمة، والشدة فيها، ويكون المعنى أن استمرار النعمة عليهم تطغيهم بالظلم، وتغريهم بالشر.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٧٦).

الضمير في قوله: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعود إلى مشركي مكة الذين كانوا يعاندون النبي ﷺ، أو يعود إلى الكفار عامة من حيث إنه بيان لحال الكفار، في أنهم إذا نزلت بهم جائحة أو شديدة خنعوا في وقت نزولها، وما استكانوا لها وما تضرعوا لها وما تضرعوا بعدها وآمنوا. كان تفسير الزمخشري على أن موضوع القول، هم كفار مكة نزلت بهم مجاعة، كما جعل موضوع الآية السابقة والآية التالية أهل مكة، وذكر أن ثمامة بن أثال الحنفي منع الميرة عن أهل مكة، وقال: لا أعطيكم حبة حنطة إلا أن يأذن رسول الله، فأخذهم الله تعالى بالسنين فجاء أبو سفيان إلى رسول الله في المدينة، وقال له: أتشدك الله والرحم، ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين. فقال محمد ﷺ بلى، فقال: قتلت الآباء، وجوعت الأبناء فنزلت هذه الآيات الثلاث^(١).

وربما يكون هذا الكلام مستقيماً لو كانت الآيات بعد غزوة بدر، وبعد الغزوات كلها إلى الحديبية، ولكن السورة كلها مكية ونسفها مكى، فكيف تجيء آية بمعان مدنية لم تتحقق إلا في المدينة، ولم يثبت أن هذه الآيات نزلت بالمدينة استثناء من السورة.

ولذا نقول: إن الآيات الثلاث عامة في وصف غير الكفار في كفرهم من أنهم يخنعون عند الشدائد، ويعودون إلى الاستكبار، فيخنعون، ثم يتمردون، اقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْقُوَّةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥)﴾ [الأعراف].

فالله جل علاه كان ينزل الشدائد على الكافرين، فيذلون عند نزولها، ولكن إذا انكشفت الغمة عادوا إلى كفرهم وطغيانهم، كما رأينا في فرعون وملته، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن ذلك شأن كل الكافرين يكشف الله تعالى عنهم الضر إذا أصيبوا به، فيخنعون في وقته، ثم يعودون إلى كفرهم بعد كشفه.

(١) ذكره بنحو من ذلك: الطبري في جامع البيان: ٣٤/١٨، من رواية ابن حميد عن ابن عباس، وراجع سيرة ابن هشام: أسر ثمامة بن أثال الحنفي وإسلامه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِربِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ «الفاء» للإفصاح، والاستكانة معناها كما أشار الراغب، وبين الزمخشري: الانتقال من كون إلى كون، وحال إلى حال، فهي افتعل من كان، أى فيما انتقلوا من الكون الذى هم فيه وهو الكفر إلى الكون الذى يدعوهم رسولهم إليه، وهو الإيمان بالله ورسوله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى لم ينتقلوا إلى كون الإيمان، وما اتجهوا بالضراعة الدائمة المتجددة لله تعالى المستمرة شأن المؤمنين الضارعين لربهم، وكان نفى المضارع لنفى تجدد الضراعة ودوامها فى كل أحوال الشخص، لا فى وقت الشدة فقط.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾، معناها أخذناهم متلبسين بالعذاب، أى أنه سبحانه أخذهم، وهم فى حال العذاب وأنقذهم، ومع ذلك استمروا على كفرهم، وأنهم يستمرون فى غيهم حتى يجيئهم العذاب الذى لا يزول؛ ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾.

سار الزمخشري على المنهاج الذى ارتضاه فى الآيات الثلاث، وهو أن موضوع الآيات أهل مكة، فذكر أن الباب الذى فتحه الله تعالى هو الجوع، وذكر أنه أشد الأبواب.

ونحن على رأينا، وهو أن الآيات وصف للمشركين فى الشدائد تنزل بهم، والكفر المستمر الذى يلبسهم فى كل أحوالهم، ويكون الباب الذى يفتح عليهم من العذاب ولا يغلق - يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ... (٧٧)﴾.

﴿حَتَّى﴾ هنا تقريرية لا غائية أى يتفرع عن هذا اللهو الذى هم فيه سائرون، لا تنزع بهم الشدائد عن شرهم أن يُفاجأوا إذا جاء باب من الشدة لا يغلق، ولا يرجى أن يغلق، وهو يوم القيامة، وسماه سبحانه بابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ؛ لأنه كالباب الذى كان مسدودا، ثم فتحه الله تعالى فلا يسد أبدا، فهو باب ابتداء بالبعث والنشور، ثم ثنى سبحانه بالحساب وأعمالهم تنطق عليهم بأثامهم، وإنها لتتطق

بالحق، ثم ختم بالإلقاء فى الجحيم، وكل هذا تصوير لحالهم من حيث إنهم كانوا كلما نزلت بهم شديدة رجوا بعدها نجاة حتى جاءهم ما لا يتهى ولا يسد أبداً، وهو يوم القيامة، وسمى باباً؛ لأنه يفتح، وينتهى إلى الجحيم التى فيها يسجرون.

ويقول سبحانه: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسُّونَ﴾ الضمير يعود إلى الباب، ويقصد ما وراءه مما يدخلون فيه ﴿مُبَسُّونَ﴾ أى متحIRON، كما يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [١٢] [الروم]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبَسُّونَ﴾ [٧٥] [الزخرف]، والإبلاس كما أشرنا هو الحيرة الشديدة مع اليأس الذى لا رجاء فيه.

بعد ذلك بين سبحانه إنشاء للإنسان، وإنه أنشأ له حواسه التى بها يحس، وعقله الذى به يدرك، ولكنه كفر بهذه النعم، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [٧٨].

بين الله سبحانه وتعالى أنه منحهم أسباب الإدراك، ولم يدركوا، ولم يشكروا الله تعالى على ما أنعم، فهو سبحانه وتعالى أنشأ لكم السمع لتسمعوا الخير وتدركوه، ولتسمعوا آيات الله تعالى فى الرعد، فترهبوه، ولتسمعوا النذر فتتقوا، ولتسمعوا المبشرات فترجوه. والأبصار: وهى جمع بصر، لتبصروا الكون وما فيه، فتبصروا الشمس والقمر، والنجوم فى أبراجها، والماء ينزل فينبت الزرع، وتكون الأرض ذات منظر بهيج، وجمع الأبصار، ولم يأت بها مفردة كالسمع لتعدد المبصرات وتغايرها وتكاثرها، وفى كل مبصر منها آية تدل على وحدانية الله وقدرته، وكل مبصر له حيز وشكل وصور مختلفة، وليبيان أن فى المبصرات مناظر مختلفة تسوغ تعدد البصر لأجلها.

والأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، والعرب كانت تجعل موضع الإدراك والتفكير القلب، وأنه عند التحقيق أوسع إدراكاً من العقل؛ لأن القلب يشعر ويحس ويتصور، وفى الشعور علم، والعقل يدرك ويتصور ويربط الأسباب بالتائج، ويقيس بين الأشياء، وجمع الأفئدة؛ لتعدد المدركات، وسموها أو انحدارها.

وإن هذه الخواص والمدارك هي التي بها علا الإنسان، وقال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿مَا﴾ دالة على تأكيد ما قبلها أى قليلا أى قلة ﴿مَا تَشْكُرُونَ﴾ فلا تقومون بحق هذه النعم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْقِدْتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ...﴾ ﴿٣٦﴾ [الأحقاف] إذ كانوا يجحدون بآيات الله تعالى، وإن أول شكر للنعمة الإقرار بفضل من أنعم، وألا يسوى بغيره مما لا يضر ولا ينفع، وليس له سمع ولا بصر ولا فؤاد، بل هي أحجار لا حياة فيها.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾.

الضمير يعود على ذى الجلال والإكرام، والواو عاطفة، ذرا معناها أظهر ونشر فهو الله جل جلاله هو الذى أظهرنا فى الأرض، ونشرنا فى أقاليم شتى فى الأرض، وجعلنا ألوانا وألوانا مختلفة، وتلك من آيات الله تعالى، كما قال جلّت قدرته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ...﴾ ﴿٢٢﴾ [الروم]، وذكر سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن الانتشار فى عموم الأرض كلها، وإشارة إلى أننا منها وبثنا الله تعالى فيها، وإليها نعود، ثم قال تعالى مبينا المآل: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تقديم الجار فيه معنى الاختصاص، أى إليه وحده تحشرون، لا يكون معكم شيء مما تدعون من دونه، وقال سبحانه: ﴿تُحْشَرُونَ﴾، أى تُجمعون محشورين غير مفرقين، بل يكونون جمعا لا تفاوت فيه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾.

الضمير يعود أيضا إلى الله جل جلاله؛ وذلك لتربية المهابة فى النفس، والمعنى: هو الله الخالق الذى يحيى الإنسان كل يوم وكل ساعة من زمان، فينشئ من يحييه، ويميت من ينتهى أجله، فإذا جاء أجله لا يستأخر ساعة، ولا يتقدم ساعة، ولكل أجل كتاب.



وكما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه يملك الحياة والموت، وأنا نعاين كل يوم من يموت، ومن يولد، ويستقبل الحياة فله سبحانه وتعالى ما هو أعظم وأكبر، له الليل والنهار، وذكر سبحانه وتعالى الليل والنهار باللام على أن ذلك في سلطانه وقبضته سبحانه للإشارة إلى السموات والأرض في قبضته؛ لأن الليل والنهار يجيئان من دوران الأرض حول الشمس أى من صلة الأرض بالسماء وطولهما وقصرهما يتبعان ذلك، فذكر الليل والنهار يومئى إلى سلطان الله تعالى الكامل على السماء والأرض وما بينهما وعلى الوجود كله، وإذا كانت الحياة والموت تصور خلق الأحياء، وأنه فى سلطان الحياة والموت، فإن ذكر اختلاف الليل والنهار يصور سلطانه - سبحانه وتعالى - على كل الوجود.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والاستفهام للتحريض على التفكير بعقولهم، والموازنة بين الحقائق التى يرونها بأعينهم، والمعنى إذا رأيتم ذلك عينا ومحسوسا ألا تدركون بعقولكم أن الله قادر على كل شئ، وعلى الإعادة بعد الموت، وأنتم ترون كل يوم حياة وموتا، والليل والنهار خلفه، ذلك هو الله خالق كل شئ، ولكنهم مع ذلك ينكرون البعث ودلائله قائمة ثابتة تفرح حسهم.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)﴾.

بل للإضراب والانتقال، وهو الانتقال من ذكر أحوال الكافرين المشابهة جيلا بعد جيل، إلى المشركين الذين يعاندون النبى ﷺ، وبيان المشابهة بين قولهم وقول من سبقوهم، وأوضح هذه المشابهة فى كفر الحاضرين بالبعث، كما كفر الماضون، وعقد سبحانه المشابهة فى كفرهم بالبعث، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ الذين غلب على تفكيرهم المادة المحسوسة دون الغيب المعقول، وفسر الله تعالى قولهم الذى شابهوا به من سبقوهم، والتحقوا معهم على مائدة الإنكار لغير المادى المحسوس، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، فى قوله

تعالى عنهم: ﴿أَنذَرْنَا مِتْنًا﴾، وقوله: ﴿أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، فى هذا الاستفهام إشارة إلى موضع استنكارهم، فموضع استنكارهم البعث بعد أن يموتوا ويصيروا ترابا وعظاما، كقولهم: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ... (٧٩) [يس]، وكرر سبحانه الاستفهام للنص على موضع إنكارهم أو استنكارهم، وذلك جهل منهم بالله وهو الخالق، وهو شديد المحال.

وقد أفرط المشركون فى إنكارهم فقالوا:

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣).

إن النبى ﷺ وعدهم بالبعث والنشور فى أول دعوته لهم، فقد قال عندما أمره ربه أن يصدع بأمر ربه، وقال له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) [الحجر]، وعندما قال له عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) [الشعراء] قال ﷺ: «والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون»^(١) واستمر يكرر هذه الدعوة لهم غير وإن ولا مقصر، وبمقدار استمراره كان جحود المشركين؛ ولذا أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أكدوا أنهم وعدوا وآباؤهم الذين أدركوا النبى ﷺ من قبل هذا الزمان، وقد أكدوا أنه وعدهم بقدر، وباللام، ولكن مع تأكيد وعدهم أكدوا إنكارهم له، فقد قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣) [إن] نافية أى ما هذا الوعد المكرر إلا أكاذيب الأولين التى تقال فى موضع السمر والتفكه بفارغ القول، جاء فى مفردات الراغب فى الأساطير: «قال المبرد هى جمع أسطورة، نحو أرجوحة وأراجيح، وأفية وأثافى وأحدوثة وأحاديث»، أى أنها أخبار غير صادقة يتفكه بها، ويقطع الوقت بالسمر عليها، فليست حقا تتبع، ولا جدًّا من القول يتعظ به.

(١) سبق تخريجه.

الكون يخبر بواحدانية الله

قال الله تعالى :

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
 ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
 ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ
 مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾
 بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ
 وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

هذه الآيات كلها توجه للعقول إلى الله تعالى خالق الكون والقوام عليه، وهي استفهامات يتعين الجواب فيها وليس لديهم سبيل لإنكار الجواب، بل الجواب متعين، لا مناص منه، ولا سبيل لغيره؛ لأن العرب كانوا يعلمون أن الله خالق السموات والأرض ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾ (٢٥) [لقمان]، فهم ما كانوا يجهلون الله تعالى، بل كانوا يعلمون أنه خالق السموات والأرض، وأنه الذي يلجأ إليه في الشدائد، ويعلمون أنه واحد في ذاته وصفاته، ولكنهم في العبادة يشركون به غيره، وكأنهم يحسبون أنهم لا يصلون إلى مقام الذات العلية، فيتخذون بأوهامهم الأوثان ذرائع، ويقولون ما تعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

قال الله تعالى مخاطباً نبيه آمراً له: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) الأمر للنبي ﷺ بأن يواجههم بالحقائق وما يترتب على العلم بها، ولِمَنِ الأرض؟ أى من يملك الأرض ومن عليها من العقلاء ملكية كاملة بالخلق والإنشاء والتكوين؟ أمره أن يسألهم عن ذات الأرض، وعن العقلاء فيها، ولكن لم يسأل عن غير العقلاء من الدواب، وما فى باطنها من معادن وفلزات، وما فى بحارها من جواهر كريمة، ونقول: إن كلمة الأرض شملت بعمومها كل ما على ظهرها من نبات وحيوان وجماد، وما فى جوفها من فلزات سائلة وغير سائلة ومعادن أكثرها فى باطنها. ولأن الملكية وإن وقعت على العقلاء باعترافهم فهى على غيرهم تثبت بالأولى؛ لأن غير العقلاء أشياء تشتري وتباع، فهى أولى بالملكية، ويعلق النبى - بأمر الله - الإجابة على علمهم، والتعليق يومئ إلى علمهم وأنه حقيقة، ولكن ذكر بـ «إن» التى تفيد الشك فى وقوع الشرط، للإشارة إلى أن علمهم كلا علم؛ لأنهم يعملون بنقيضه.

ولقد بين الله تعالى إجابتهم، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) السين لتأكيد القول، أى سيكون جوابهم حتماً: لله، لما ذكرنا من أنهم يعلمون أن خالق الكون كله بما فيه ومن فيه هو الله تعالى لا ريب عندهم فى ذلك، ولكنهم يفصلون النتيجة عن مقدماتها، فعلمهم بالخالق كان يوجب عليهم ألا يعبدوا غيره؛ لأن العبادة نتيجة الخلق والتكوين، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ والخطاب للنبي ﷺ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى لترتيب التذكير على إيمانهم بأن الله تعالى خالق الأرض ومن فيها، أى إذا كنتم تعلمون هذا وتؤمنون فلا تذكرون، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، أى أنهم فى الواقع لا يتذكرون، ولا يربطون المقدمات بنتائجها، والذكر هو إدراك موجبات العقل، والحقائق التى تؤمن بها القلوب.

وقد أمر الله تعالى نبيه أن يسألهم فى أمر كونى آخر.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) .

الخطاب أيضا للنبي يأمره أن يسألهم ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ ، والربوبية تقتضى :

أولا - الخلق والتكوين .

وتقتضى ثانيا - الإمداد برحمته .

وتقتضى ثالثا - الرقابة عليه والتنظيم له ، والتسيير له ، والقيام على شئونه ، والسماوات وصفها بأنها سبع ، ثم قال تعالى : ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ، أى صاحب السلطان العظيم المهيمن على الوجود كله .

وإجابتهم لا محالة ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ السين لتأكيد القول فى المستقبل ، وذلك لما ذكرنا من قبل من أنهم يعلمون أنه لا سلطان فى الخلق والتكوين والهيمنة على الوجود إلا لله ، ولكنهم كما قلنا : لا يرتبون النتائج على علمهم ، بل يعبدون غير الله بسيطرة أوهامهم على تفكيرهم ، ونجد هنا افتراقا فى الجواب عن السؤال ، فالسؤال : مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ ؟ والجواب : الله ، وظاهر الجواب أن يكون «الله» من غير لام ، ونقول فى الجواب عن ذلك إن السؤال عن الربوبية يقتضى السؤال عن الملكية والسلطان ، كأنه قيل لمن السلطان والملك فكان الجواب (الله) .

ويلاحظ أنه تكرر لفظ الرب فى قوله تعالى : ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ونقول : إن التكرار لتغاير معنى الربوبية ، ففى الأولى السؤال عن الخالق ، والمنمى ، والقائم بالتدبير ، والتسيير ، والثانى معنى الربوبية السلطان والحكم ، ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الأمر موجه للنبي ﷺ ليقنعهم بخلق الله مع استحقاقه وحده العبودية ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الفاء) كما ذكرنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى أنه إذا كان يجب عليهم أن يتقوا الله ويجعلوا وقاية بينهم وبين عذابه ، ما دام هو رب هذا الوجود كله ، ورب السلطان فيه وحده ، وهو الذى يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء .

ولقد أمره سبحانه أن يسألهم سؤالاً ثالثاً:

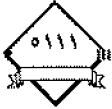
﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨)
 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ الملوك صيغة مبالغة تفيد الملك الممكن الذى لا سلطان إلا له، فالواو والتاء للمبالغة، كجبروت، ورهبوت ورحموت، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، و﴿مَنْ بِيَدِهِ﴾، أى من له السلطان والملك الكامل لأقصى أنواع الملك، وهو يقبضه كما يقبض صاحب الصولجان^(١).

وقد صور الله سبحانه وتعالى اتساع سلطانه، وفرضه على كل إنسان وكل شىء بذى قوة يضم إلى جواره من يشاء، ويمنعه من أن تصل إليه يد معتدية، لا يمكن أن يكون لأحد جوار يمنعه سبحانه من أن ينزل من الهلاك ما شاء لمن شاء؛ لأنه فوق العالمين لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وأنى بـ (إن)؛ لأن حالهم من الشرك تدل على أنهم لا يعلمون، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ التعدية باللام لتضمن السؤال معنى الملك والسلطان، أى أن الملوك كله لله تعالى.

أمر الله تعالى نبيه بقوله: ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ (الفاء) أيضاً لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى يترتب على علمهم بأن الله تعالى خالق الأرض، ومن فيها والسموات السبع، وربوبيته للعرش ولها، وكونه صاحب السلطان الأعظم يترتب على كل هذا أن يسألوا كيف يُسْحَرُونَ، أى ينخدعون ويميلون عن الحق الراكز فى نفوسهم إلى الباطل الذى هو أوهام مخيلة، وليس حقائق ثابتة معلومة لكل ذى فكر وعقل وإدراك، و(أنى) هنا بمعنى كيف، كـ «أنى» فى قوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...﴾ (٢٢٣) [البقرة].

فهذه الآيات تبين كيف تسيطر الأوهام على ذوى الأهواء الذين لا يفكرون، وتقاوم الحقائق الثابتة لديهم، وتسيرهم مع مخالفتها لكل معقول، ولما كان عندهم من علم سابق، ولقد قال تعالى:

(١) الصولجان: فارسى معرَّب، وهو المحجن أى العود الموعج. الذى نراه فى أيدي العظماء والملوك لسان العرب «بتصرف» (صلح).



﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)﴾.

هذا إضراب انتقالي، انتقل الله بهم من المجاورة التي تكون بينهم وبين النبي ﷺ إذ يوجه أنظارهم إلى ما ينبئ عن الحق وهو الوجدانية، يأخذها من نتائج ما يقولون، وإذا كان الأمر كما يقول المناطقة: النتائج متضمنة في مقدماتها، وما البرهان إلا كشف ما تطويه المقدمات من نتائج، فعلمهم بأن الكون كله مخلوق لله تعالى متضمن وحدانيته تعالى في العبادة.

الإضراب الانتقالي هو الانتقال من المجاورة إلى تقرير الحق مبينا بطلان ما يدعون بطريق إثبات بطلانه في ذاته، وبيان صحة نقيضه، قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، أى بالأمر الثابت الذى لا يتطرق إليه الريب، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ جعل وصفهم بالكذب المستمر مقابلا للحق الذى جاءهم الله تعالى به؛ لأن الكذب إذا مردت عليه النفس فسدت، وصارت لا تفرق بين باطل وحق، إذ تكون نفسه غير مؤمنة، لأن الإيمان تصديق وإذعان، فلا بد من الصدق لكى يكون الإيمان، ولقد قال النبي ﷺ: «ياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»^(١).

ولقد ذكر النبي ﷺ أن الإيمان والكذب نقيضان لا يجتمعان، فقد سئل أياكون المؤمن بخيلا؟ قال: يكون، أو يكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم يكون، وسئل: أياكون المؤمن كذابا؟ قال: لا يكون المؤمن كذابا»^(٢).

ولذا كان حقا أن يقابل الحق الذى يجيء به الله تعالى ويتأكد كذبهم، وقد أكد الله تعالى بـ «أن» المؤكدة، وباللام، وبالوصف، بأنهم من شأنهم الكذب، وبالجمله الاسمية.

(١) سبق تخريجه.

(٢) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ»، فَقِيلَ لَهُ: «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ بُخِيلًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ»، فَقِيلَ لَهُ: «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا؟ فَقَالَ: لَا». رواه مالك في الموطأ- الجامع (١٥٧١).

ولا يفتح القلب للأوهام، ووسوسة الشيطان إلا أن يمرد على الكذب؛ لأن الكذب يخفت صوت الحق والبرهان والعقل، ولقد نفى الله تعالى من بعد ذلك أوهامهم، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾.

نفى الله تعالى أن يكون له ولد، وادعاءهم أن الله اتخذ ولدا فالنصارى قالوا: اتخذ الله عيسى ولدا له، وبعض المشركين قالوا: اتخذ الله تعالى الملائكة بنات له، واليهود قالوا: اتخذ الله عزيرا ولدا له، وتعبيرهم بـ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ يشير إلى احتياج الله تعالى للولد، كما يقول النصارى اتخذ الله عيسى ولدا ليقتل ويكفر عن خطيئة آدم، والله سبحانه وتعالى غفار للذنوب قابل للتوب، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر]، أى المحمود على كرمه وإفضاله دائما.

والقسم الثانى من المشركين الذين اتخذوا الأوثان آلهة من دون الله أو معه، وقد نفى الله سبحانه وتعالى ذلك نفيا كاملا مستغرقا، و﴿مِنْ﴾ فى قوله: ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾، و﴿مِنْ إِلَهٍ﴾، لاستغراق النفى، والمعنى ما اتخذ الله من ولد أى ولد كان، فالكل خلق له، ولا تفاوت أمامه، وما كان معه من إله أى إله، ومن أى مادة.

ولقد برهن سبحانه، على بطلان الشرك فقال: ﴿إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى إذا كان هناك آلهة غير الله. فالتنوين فى ﴿إِذَا﴾ ينبئ عن جملة أضيفت إليها (إذا)، وتكون فى معنى الشرط، ولو كان هناك لترتب على ذلك أمران محالان، ولا وجود لهما، وإذا انتفيا انتفى ما أدى إليهما، فنفى اللازم يقتضى نفى الملزوم، والأمران هما:

الأول - أن يذهب كل واحد بما خلق، وبذلك لا يتحقق التناسق فى الوجود، وكله نسق واحد، لا تفاوت فيه.

والثانى - أن يكون بينهما تعالى، فلا يكونان فى قدرة واحدة، بل يكونان على أقدار مختلفة، وفرض التساوى فى القدر يتهدى إلى أن يكونوا كشخص واحد أو كإله واحد، والواحد ضد التعدد، فلكى يستقيم فرض التعدد لابد أن يفرض أن بعضهم يعلو على بعض، وذلك يهدى إلى التنازع، وهذا يهدى إلى الفساد، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) [الأنبياء].

وقال فى هذه الآية، ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أى تقدس سبحانه وتعالى «ما» يصح أن تكون موصولا حرفيا، ويصح أن تكون موصولا اسميا، وعلى الأول يكون المعنى تقدس الله تعالى وتنزهه عن وصفهم له بأن له شريكا أو اتخذ ولدا، وعلى الثانى يكون المعنى تقدس الله عن الذى يصفونه به وهو أن له شريكا، والمؤدى واحد.

وقد بين سبحانه ما يهدى إلى نزاهته نزاهة مطلقة، فقال عز من قائل:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٢).

وقدم الغيب على الشهادة؛ لأن العلم بالغيب أبلغ فى الدلالة على وصف العلم من الشهادة، وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ من غير التعدية بالباء، للإشارة إلى أنه يعلم الغيب كله لا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، لا فى الغيب ولا فى الشهادة، ومن كان كذلك فهو كامل الوجود، ليس له شبيه، ولا مثيل، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، فتعالى الله عما يشركون، أى فتسامى سبحانه عن أن يشركوا به شيئا، و(ما) موصول حرفى، أى تعالى الله عن إشراكهم به، ويصح أن تكون موصولا اسميا.

ما يوعدون من عذاب

قال تعالى :

قُلْ رَبِّ

إِمَّا تُرِيتَنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٥﴾
 أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٦﴾
 وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
 رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
 ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
 هُوقًا لِيَهَاوٍ مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾

فى هذه الآيات الكريمة تهديد بما أعده الله تعالى من عذاب للمشركين بعد أن بين لهم بالأدلة القاطعة أن الشرك باطل . وإن النفوس المنحرفة تخاطب بالدليل الهادى المرشد، فإن لم تجد الهداية المرشدة، والبراهين الساطعة كان الإنذار الشديد، وقد برهن فبقى الإنذار، ابتداءً سبحانه الإنذار الشديد، بأن أشار للنبي ﷺ إلى أنه إنذار لا يقع فى نظر النبي ﷺ مثله، وأنه يحسن أن يطلب رؤيته، فقال : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيتَنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ (١٣) .

ابتداء القول بالنداء بـ ﴿رَبِّ﴾ لبيان أن ذلك الذى ينذر به من مقتضى الربوبية، لأن مقتضى الربوبية؛ أن يجزى المحسن إحسانا، والمسيء بما يستحق، فلا يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور . ﴿إِمَّا تُرِيتَنِي﴾ «إما» - هى «إن» مدغمة فى «ما»، و(ما) جاءت لتوكيد فعل الشرط، ولذلك جاءت نون التوكيد الثقيلة رادفة

لتوكيد «ما» والجواب محذوف لتذهب النفوس فيه كل مذهب، وفي ذلك إشارة إلى هوله وأنه لا تكتنه العقول كنهه، و(ما) في قوله تعالى: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ ما هنا موصولة بمعنى الذى، وإن الله تعالى وعدهم بالعذاب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، أما فى الدنيا فالنصر الذى وعد الله تعالى به نبيه الأمين، والذى كان له فيه الغلب، وكان النصر حليفه دائما ولم يهزم ولا فى أحد، وأما عذاب الآخرة فهو الجحيم خالدين فيها، وبئس المصير.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤)﴾.

ضراعة من النبى ﷺ اتجه بها إلى ربه بأمر ربه، و(الفاء) تفصح عن شرط مقدر، وتقدير القول إذا كان ما يوعدون به من هذا الهول الذى لا يكتنه، ولا يقدر قدره من العذاب، فلا تجعلنى فيهم، وأظهر فى موضع الإضمار لإثبات ظلمهم، وأن ذلك العذاب هو بسبب ذلك الظلم، وهذا النص يتضمن براءة النبى ﷺ من أن يكون ظالما، وأن يكون من الأقوام الظالمين أو فى صفوفهم، فإن الرضا عن الظلم كالظلم، وإن كان دونه جزاء.

﴿وَأَنَا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥)﴾.

يبين الله تعالى أنه سيرى رسوله، ما وعد به الكفار من عذاب فى الدنيا بالغلب والانتصار، وفى ذلك تبشير وإنذار، تبشير للنبى ﷺ بأن ما يعدهم من عذاب على أيدي المؤمنين، وأن الله تعالى قادر على أن يريه لنبهه فى حياته قبل أن يمضى لربه، وقد أكد سبحانه وتعالى قدرته على أن يريه النبى ﷺ فى هذه الدنيا أكدها الله سبحانه بالجملة الاسمية و«إنَّ»، وإضافة الأمر إليه سبحانه بضمير المتكلم العظيم المعظم، وثانيا باللام، وبالوصف بقادر. سبحانه وتعالى.

ولقد أمر الرسول إلى أن يريه عذابهم، ويحين حينه، ألا يكون غليظا فيهم، بل يدفع بالتي هى أحسن، حتى لا يشمس نفوسهم، بل إن التبليغ يوجب عليه أن يدينهم، ولو كانوا مناوئين، ولذا قال الحكيم العليم:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦).

وقد بين الله تعالى لنبيه أنه في سبيل التبليغ لا يدفع السيئة بسيئة مثلها، بل يأخذهم بالصفح، والتجاوز عن الإساءة في سبيل دعوة الحق والإيمان، فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ السيئة مفعول، ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أى الحال التى تكون أحسن الردود رداً مدنياً مقرباً، وليس جافياً مبعداً، والتعبير بـ أفعل التفضيل معناه أن يتخير خير ما يدفع به سفه القول، وحمق الفعل من سخرية واستهزاء وتهكم بدعوته، وبالذين معه من ذكرهم بالسوء وإيذائهم وتعذيبهم، ورد الإساءة بالأمر الحسن فضيلة ذوى السلام من الرجال الصابرين، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، أى نحن نعلم علماً ليس فوقه علم بالأوصاف التى يصفونك بها أنت وأصحابك، فلا تأخذك هذه الأوصاف إلى أن تعاملهم بمثلها، إنك جئت هادياً داعياً إلى الحق ومرشداً، وما جئت مجافياً ولا معادياً، وبالرفق تدنهم وبالجفوة والغلظة تقصيهم، فالفهم، ولا تخاصمهم، وأحمق الدعاة من يوجد خصومة بينه وبين من يدعوهم، فتثور أعصابهم لتقاوم دعوته، وقد بين سبحانه أن مغاضبة من يدعوهم من همزات الشياطين، فقال:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨).

يأمر الله تعالى نبيه بأن يلجأ إليه، ويعوذ به من همزات الشياطين، وأن يحضروه فى معالجة الدعوة الخالصة لله تعالى، وتبليغ الرسالة الإلهية إلى خلقه، والهمزة: هى النخسة التى تكون من وراء، واللمزة هى النخسة التى تكون من الأمام، وهمزات الشيطان هى سورة الغضب وحدته، ونسبت إلى الشيطان؛ لأنها تكون من غير الحكمة، وأمر الله تعالى نبيه بأن يستعيذ من همزات الشياطين هو أمر له بأن يدرع بالصبر وألا ينساق وراء الغضب من أفعال من يدعوهم، بل يسايرهم ويلاينهم ما لم يكن فى ذلك ضياع حق أو علو بالباطل، فالأمر بالدعاء بالالتجاء إلى الله من همزات الشياطين، أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يتئد، ويدعو

بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (١٢٥) [النحل].

﴿أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، أى ألبأ إليك عائذا لا ئذا أن يحضر الشياطين دعوتى إلى الحق، حتى لا أخرج عن جادة الدعوة بالتي هى أحسن، وإن هذا وما سبقه تحريض للنبي ﷺ بالطف عبارة، وأبلغ إشارة بأن يأخذ قومه بالرفق، والأناة، والمواتاة حتى لا ينفروا، وكذلك الشأن فى كل داع لأمر، أو لجديد من الحق لم يألفه الناس لا يغاضبهم ولا ينافرهم، بل يتألفهم، ويقرب منهم، ولا يباعدهم.

وقد أندر سبحانه المشركين بأنهم سيندمون حيث لا ينفع الندم، وأنهم يحاولون أن يصلحوا من أنفسهم حيث فاتهم الأجل وسبقهم الزمن، وما سبقهم لا يعود.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُعْتَوْنَ﴾ (١٠٠).

الضمير فى ﴿أَحَدَهُمْ﴾، يعود إلى المشركين الذين كانوا يرددون: ﴿أَنذًا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّا لَمُبْعُوثُونَ﴾، والذين كانوا يرددون ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، هؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، ورأى رهبته وأدرك معانى الآيات الكونية والقرآنية، والدعوة المحمدية، علم أنه كان فى ضلال، وذكر أحدهم مع أن الأمر يعمهم؛ للإشارة إلى أن الضلال كان من اجتماعهم وتألفهم على الباطل، وتعاونهم على إثمه - ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الخطاب للجماعة التى تقبض الأرواح من الملائكة، أو هو عندما يكون قاب قوسين من الموت، ينادى من حوله أو فى نفسه يقول: ارجعون، كما يقول المستغيث عندما يدلهم عليه الأمر، أو تحدته نفسه بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ...﴾ (٨) [المجادلة].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، أى رجاء أن أعمل صالحا فيما تركت من مال وقوة، وسلطان، وكان الرجاء والتردد لأنه لا يضمن توفيق الله، أو

لأن الرجاء هو ما تقتضيه الكياسة، فهو يطلبه راجياً، وقد رد الله تعالى رجاءه مكذباً له في عزمته على تدارك ما فاتته، وإنما هي أمنية يتمناها ويخالفها كما كان يعد في الدنيا أنه إذا ذهب الكرب عاد إلى ربه مؤمناً، فإذا كشف الله عنه الضر عاد كافراً . رد الله تعالى كلامه بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، أى أن هذا الرجاء كلمة نطق بها، ولا تصادف عقيدة في قلبه، وأكد هذا بقوله تعالى: ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ أى أنه لا يتجاوز النطق بها، ولا معنى لها في القلب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ...﴾ (٧٨) [الأنعام]، ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمٍ يُعْتَنُونَ﴾ البراء تدل على ما يستقبل أى ما يجيئهم بعد قولهم، وهذا كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩) [الكهف].

والضمير في ﴿وَرَائِهِمْ﴾ يعود إلى جماعة المشركين، وما قاله أحدهم هو المتردد على ألسنتهم جميعاً، فعاد الضمير إليهم جميعاً، والبرزخ هو الحاجز المانع، قال الجوهري: البرزخ الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، وقد قالوا: إنه القبر، ونقول: هو القبر لمن يقبر، والله أعلم.

يوم القيامة وما فيه من حساب وعقاب

قال تعالى:

فَإِذَا نُفِخَ

فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا
 رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١١٦﴾ رَبَّنَا
 أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾ قَالَ اخْشَوْا فِيهَا
 وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١١٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا
 ءَامِنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَتَّخَذَتْهُمْ
 سَخِرَاتٍ حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٢٠﴾
 إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١٢١﴾

جاء في المفردات في تفسير كلمة الصور في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الصور مثل قرن ينفخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سببا لعودة الصور والأرواح إلى أجسادها، أى أن السبعث يكون على الله يسيرا، إذ ليس إلا كنفخ القائد في البوق، فيجىء الناس بصورهم وأجسامهم، وأرواحهم تلتقى بأجسامهم بعد جمع متفرق من أماكنها التي كانت فيها متفرقة، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فاء الإفصاح لأنها تفصح عن محذوف، والفاء الثانية: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الواقعة في جواب الشرط، ومعنى فلا أنساب بينهم، أى أنهم يكونون أمام الله تعالى على سواء، فلا أنساب بينهم يتفاخرون بها، ويعلو بعضهم على بعض بشرفهم ولا تفاوت بينهم بسببها، إنما الأعمال هي التي تكون مناط الفخر، وسر الاستكبار: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، أى يكون كل في شغل بنفسه من هول اليوم العظيم، فلا يسأل المرء عن زوجه ولا عن أبيه وأخيه، وابنه، بل ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، وفي هذا الوقت يكون الحكم الذي ترضى حكومته هو العمل، وميزان الأعمال، لذا قال تعالى:

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾.

الفاء للإفصاح أيضاً، وقد صور الله الأعمال بأنها كالمحسوسات توزن فإن كانت جيدة يقبلها الله تعالى فإنها تكون فى الميزان وتنخفض كفتها لثقلها، وإن ذلك تصوير للأعمال الراجحة المقبولة التى كانت مع الحق، ونفعت الناس، وكانت صالحة، وهذا تأويل حسن للميزان، بأنه تصوير دقيق للعدالة الربانية التى لا تبخس الناس أشياءهم، ولا تنقص الناس أعمالهم، والسلفيون الذين لا يؤولون، ولا يفسرون ويقولون: إنه يكون يوم القيامة ميزان حقيقى توزن به الأعمال.

وقد قال تعالى فى جزاء الذين يقبل الله أعمالهم، ويكافئهم عليها ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإشارة إلى ذوى الأعمال الطيبة التى عرفت بالميزان أو كأن ذكر الميزان تصوير للعدالة ودقة الحساب، أى أولئك بسبب هذه الأعمال، والإشارة إليهم موصوفين بعملهم هم المفلحون أى الفائزون بالجنة ونعيمها، ورضوان الله تعالى، وهو أكبر، وفى الكلام قصر، أى هم الفائزون وحدهم، ولو كانوا فى الدنيا ضعفاء، وأرقاء ومساكين، وغيرهم عتاة مستكبرون، وقد دل على القصر تعريف الطرفين فإنه يفيد القصر، على ما هو معروف فى علم البيان، وقد تأكد القصر بضمير الفصل، و﴿هُمْ﴾.

هذا جزاء من ثقلت موازينه، أما من خفت موازينه، فقد قال سبحانه فيه:

﴿وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾.

وإن ذلك تصوير لعدل الله تعالى الذى لا يظلم أحداً، فهو كالميزان الذى توضع فيه الأعمال، فلا يظلم أحد شيئاً، أو يكون ثمة ميزان حقيقى، كما يقول السلفيون الذين يقولون: إن السلف لا يؤول، ولكن يفوض، ويقول ثمة ميزان يناسب اليوم الآخر، وقد ذكر الله تعالى لهم عقابهم، وهو مكون من ثلاثة:

أولها - أنهم خسروا أنفسهم، فقد خسرا المعاني الروحية التي كانت ترفعهم من دركة الحيوانية إلى مرتبة الإنسانية، وخسروا العزاء النفسى الذى كان يكشف عنهم ضراء الحياة ويجعلهم يحتملونها، وخسروا الإيمان الصادق بالله فهو نعمة لا يحس بها إلا المؤمنون.

ثانيها - العذاب الشديد الذى ينزل بهم، وهو الدخول فى جهنم، ولهذا قال الله تعالى فيه: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ وقدم الجار والمجرور؛ لبيان اختصاص جهنم بخلودهم فيها، أى خالدون فى جهنم لا فى غير، فليس عندهم فى هذا الخلود قسمة من نعيم.

والعنصر الثالث - من الجزاء ذكره بقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾.

هذه أوصاف جهنم أو ما يصيب الذين ينزلون فيها ويخلدون، ولفح: معناها أصابتهم بحرًا وسمومها، فأجسامهم حطبتها، ووجوههم تصاب بحرًا وسمومها، ويقال: لفتحته بالسيف إذا ضربته به، فهم فى عذاب دائم مستمر لا يسلم منه جزء من أجسامهم ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ وعن ابن عباس فى تفسير ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ يريد كالذى كلح، وتقلصت شفتاه، وسال صديده، والمعنى الجملى، تشوى وجوههم النار، وتقلص شفاههم وتعبس، ويقال: إن الكالح هو الذى وتقلصت شفتاه، وبدت أسنانه، وفى الجملة شامت منهم الوجوه وتحرق الأجسام ويقول لهم ربهم وهم فى هذه الحال.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)﴾.

الاستفهام داخل على حرف نفى، وهو للإنكار بمعنى عدم الوقوع، ونفى النفى إثبات، والاستفهام مع دلالة على النفى فيه توبيخ وتذكير بجرائمهم، وجحودهم بالحق، وهو أبليج، والمعنى قد كانت آياتى تلى عليكم، والواضح أنها آيات القرآن، لأنها هى التى تلى مرتلة، كما أنزلها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ،

وأضاف سبحانه وتعالى الآيات إلى ذاته العلية؛ لأنها آياته إذ هو كلام الله تعالى، وهو تشريف لها، وبيان عظم جرمهم في تكذيبهم، إذ يكذبون الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿فَكُنْتُمْ﴾ و(الفاء) للترتيب والتعقيب، أى فكنتم فور تلاوتها تسارعون بالتكذيب من غير تأمل وتدبر، وإنهم يكذبونها ويكذبون النبي ﷺ مع إقامته الحجة، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، ويكذبون الله تعالى منزل الخلق، والذي خاطب خلقه، وعدى التكذيب بالباء للإشارة إلى أن موضوع التكذيب آيات الله، أى أنهم كذبوا النبي، وكان موضوع تكذيبهم آيات الله تعالى خالق كل شىء.

وقد أجاب المشركون يوم القيامة:

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦)﴾.

قالوا يوم القيامة عارفين ربهم مخاطبين له بلفظة: ﴿رَبَّنَا﴾ إذعانا لمعنى الربوبية الذى كانت أعمالهم منكراً له، والشقوة بكسر الشين كُرْدَة، معناها الشقاوة والشقاء وهو ضد السعادة، ولعل المراد بالملاذ والأهواء والشهوات الجامحة فهى التى غلبت عليهم وأنستهم أنفسهم والحق، ويكونون قد عبروا عن المسبب وأرادوا السبب على سبيل المجاز المرسل، وكأن المعنى سيطرت علينا ملاذنا التى أدت بنا إلى هذا الشقاء، وقد صرحوا بذلك وبأنها أدت بهم الشهوات إلى الضلال فقالوا: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، أى استمررنا ضالين؛ لأن «كان» تدل على الاستمرار، أى عشنا حياتنا كلها ضالين الحق مجانبين الصواب، وذكر (قَوْمًا) للدلالة على أنهم تعاونوا على الإثم والعدوان، وقاوموا الحق، وضلوا مجتمعين.

أقروا بضلالهم، ولكنهم حسبوا أنهم إن عادوا أصلحوا من أمرهم، قالوا:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)﴾.

ابتدءوا متضرعين متقدمين فى ندائهم بالربوبية الكالئة معترفين (أخرجنا منها) الضمير يعود إلى الجحيم، على ألا يعودوا إلى ما كانوا عليه من كفر وفساد فى الأرض، وخروج عن كل جادة مستقيمة ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾، أى إلى ما كنا عليه من شرك

وعصيان، ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، حكموا على أنفسهم بأنهم يكونون ظالمين، أى يكون الظلم وصفا مستمرا لهم، وكأنهم يومنون إلى أنهم لم يكونوا ظالمين من قبل، أو كأنهم لم يعدوا الإعلام السابق عن طريق النبيين ليس معدوداً في الإعلام، وكأنه لا إعلام إلا بالعذاب، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ...﴾ (٢٨) ﴿[الأنعام].

أجابهم الله في ذلك بقوله: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨).

القائل كما يظهر من ثنايا القول هو الله جل جلاله، ﴿اخْسَئُوا﴾ أى ابعدوا ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، ياء المتكلم محذوفة والمعنى «لا تكلموني»؛ وذلك لأن كلام الله تعالى منزلة من الرضا لا يصل إليها إلا الأبرار المتقون الذين يكلمهم الله وينظر إليهم ويزكيهم، أما هؤلاء فهم مطرودون من رحمته محرومون من رضاه، وذلك رد عنيف لطلبهم أن يخرجوا كأنهم يخدعون ربهم، وحالهم في الدنيا كاشف، وقد كانوا يتضرعون في الشديدة فإذا عادوا كأن لم يتضرعوا من قبل.

وقد ذكر سبحانه أسوأ أحوالهم، وهى السخرية ممن يتضرعون إلى الله تعالى،

فقال:

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩).

وإن الله تعالى ليذكرهم بأعمالهم مع المؤمنين الذين كانوا يضرعون إلى الله تعالى، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ هذه الجملة فى مقام التعليل لإبعاد المشركين وطردهم، ومنعهم من الكلام معه، أى أنه سبحانه وتعالى يعاملهم يوم القيامة بهذه المعاملة المبعدة الطاردة جزاء وفاقا لما كانوا يعملونه مع المؤمنين، والفريق من عباده هم فريق المؤمنين الذين كانوا يؤمنون به وبرسوله ويضرعون إليه، يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾، أى صدقنا وأذعننا، وصرنا ممن اتبعوا رسولك، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾.

وشأن المؤمن الضارع أن يحسب أن ذنوبه قبل حسناته، فيطلب الغفران قبل طلب الجزاء على الطاعة؛ لأنه يحس أنه لم يحم بحق الله تعالى عليه، حتى يطلب بحق له، ﴿أَرْحَمَنَا﴾، أى آمنن علينا بدوام الهداية، وأدخلنا فى رحمتك، دعوا الله تعالى أن يرحمهم ولم يدعوه بأن يكافئهم، بل يحسبون كشأن الأبرار أن ما كان يجزيهم به من خير فهو فضل رحمته ورضوانه، ولا يحسبون أنهم عملوا ما يستحقون عليه جزاء، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، أى وأنت الذى ترحم رحمة ليس فوقها رحمة يا رب العالمين.

ماذا كان لقاء المشركين لهؤلاء المؤمنين؟

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾.

القاء للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا على هذه الضراعة، فلم يقتدوا بهم ويأتسوا، بل اتخذوهم سخرياً. قرئ بضم السين، وقرئ بكسرهما^(١)، وفرق بعض اللغويين بأن القراءة بالضم معناها التسخير، وبالكسر معناها الاستهزاء، ولا يعرف هذه التفرقة الخليل بن أحمد ولا سيبويه ولا الكسائى ولا الفراء بل هما لغتان بمعنى واحد، ولقد كان المشركون يسخرون من الذين آمنوا، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾، أى أن هذه السخرية جعلتهم لا يلتفتون إلى معانى الذكر الحكيم، ولا يتدبرون آياته، ولا يعتبرون بعبره، وإنه بسبب هذا كله ينسون ذكر الله تعالى فلا تمتلئ قلوبهم به، ولا يخشونه، ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، أى كنتم أيها المشركون الساكنون فى جهنم تضحكون منهم، والضحك يميت القلب، ولا تكون معه عبرة ولا استبصار.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

قرئ بفتح همزة «أن»^(١) وتكون مجرورة بلام محذوفة، والمعنى إني جزيتهم (١) قراها بضم السين: نافع وأبو جعفر، وحزمة والكسائى وخلف، ووافق أبو يزيد (عن الفضل عن عاصم) - جبلة، وقرأ الباقون بكسر السين. غاية الاختصار: ٤٨٥/٢.

اليوم الذى تعذبون فيه هذا العذاب الاليم بسبب صبرهم على سخريتكم، وعلى الإيذاء الذى تؤذونهم، وكان ذلك الجزاء اليوم، أى فى الوقت الذى تكونون فيه فى الجحيم يكون هؤلاء الذين كنتم تتخذونهم سخرىا، وكنتم منهم تضحكون فى نعيم مقيم، ورضوان من الله تعالى ينظر إليهم، ويكلمهم، ويزكيهم.

وعلى قراءة كسر همزة «إن»^(١) تكون (إن) جملة فى معنى تعليل الجزاء، أو بيانه، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى هم وحدهم الفائزون، ودل على القصر تعريف الطرفين، والتأكيد بضمير الفصل، والجملة فيها عدة تأكيدات، فهى مؤكدة بـ «أن»، وبالجملة الاسمية، وبـ «هم»، والله سبحانه رءوف رحيم.

مدة البقاء فى الأرض

قال تعالى:

قُلْ

كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَشَا وَآنتُمْ كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾

(١) (إنهم هم الفائزون) بكسر الهمزة، حمزة والكسائي، وقرأ الباقون بفتح همزة «إن». غاية الاختصار: ٥٨٦/٢.

(٢) انظر السابق.

إن هذه الدنيا مع أدوارهم فيها من أجنة في الأرحام إلى الخروج من بطون أمهاتهم أطفالا فشبابة فكهولا يكون الإحساس بها، كأنها يوم أو بعض يوم؛ ولذا يسألون يوم القيامة عن مدة مكثهم ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، أى مدة بقيتم فى الأرض قد اتخذتموها مهادا وفراشا وأفسدتم بها ما أفسدتم وعادين ذلك بالسنين ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ هذا بيان لأصل الاستفهام بعد نوع إيهام، أى كم لبستم من عدد السنين، فالسؤال عن عدد السنين، لا عن عدد الشهور والأيام؛ لأنهم فى ذلك الوقت يكونون قرب الخروج من أرحام الأمهات أطفالا، فالسؤال عن وقت وعيمهم وهو يكون بالسنين.

وقد أجابوا: بأنهم مكثوا يوما أو بعض يوم؛ لأنهم كانوا فيها يتمتعون ويرتعون فى الحرام فكانت قصيرة فى نظرهم، ولذا قالوا:

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ (١١٣):

(الفاء) للإفصاح، أى أنهم يجهلون عدد السنين فلا يستطيعون الإجابة، وأحسوا بأن الذى يسألهم عنده وسائل المعرفة، وعده عليهم من سنين حياتهم فى الدنيا، كما أحصى أعمالهم، ووجدوها محضرة، فمن أحصى الأعمال لابد أن يعرف عدد السنين؛ ولذا ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾، أى الذين من شأنهم أن يعدوا ويحصوا.

وقد أكد سبحانه أنهم ما لبثوا إلا قليلا، والقلة بالنسبة للآخرة، ولذا قال عز من قائل:

﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١٤).

﴿إن﴾ نافية، أى ما لبستم إلا زمنا قليلا؛ لأن الدنيا متاع قليل غير باق، والآخرة خير وأبقى، فمهما تطل الآجال فى الدنيا فهى فانية، والفانى قليل إذا وزن بالباقي الذى لا يفنى، وذلك ما لم يكونوا يعلمونه إذ كانوا يقولون ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أى لو ثبت وقر فى نفوسكم أنكم كنتم تعلمون حقيقة هذه الدنيا، وأنها معبر طال

زمنه أو قصر إلى حياة دائمة باقية، إما أن تكون عذابا مستقرا أو فانية أو نعيما باقيا،
 و(لو) - حرف امتناع لامتناع، أى امتنع علمكم فى الآخرة لامتناع علمكم فى الدنيا
 بأنها سنون قليلة بالنسبة للآخرة، وقد أكد نفى علمهم بـ «إن»، وبـ «كان»، والله فى
 خلقه شئون، وقد انتفى علمهم، لأنهم حسبوا أنه لا حياة بعد الموت؛ ولذا قال عز
 من قائل:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ .

قلنا: إن الآية السابقة فيها إيماء إلى أن الحياة الدنيا أمدّها قصير بالنسبة
 للآخرة، وإنها لجنة أبدا ولنار أبدا، وإن ذلك مع ما سبق يتبين أنه لا بد من البعث،
 وأن حكمة الخلق والإيجاد للإنسان لا تتحقق إلا به، ولذا قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ
 أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (الفاء) تفيد ترتيب السؤال على ما قبلها، وهى مؤخرة عن
 تقديم؛ لأن أداة الاستفهام لها الصدارة، والاستفهام للاستنكار أى إنكار ما وقع،
 فهم حسبوا ذلك، وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين،
 و﴿أَنَّمَا﴾ أداة حصر، أى ما خلقناكم إلا عبثا، أى من غير حكمة باهرة ظاهرة،
 والعبث أى من غير حكمة من الله تعالى، وعبثا منكم أى خلقناكم لعبثوا من غير
 طلب مطلوب منكم، ولا غاية تتجهون إليها، لتلهو أو تلعبوا وتقولوا وما الحياة
 الدنيا إلا لهو ولعب، ولا محاسب يحاسبكم، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ الواو عاطفة
 أى وحسبتكم أنكم إلينا لا ترجعون لتحاسبوا على ما كان منكم من لهو عابث،
 وتقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص والتهديد بالرجوع إليه سبحانه وتعالى
 وحده بحيث لا يكون معهم شفيع يشفع، ولا وكى يتاصر، ولا فدية تعطى، بل
 يؤاخذ كل على ما فعل، إن قليلا، وإن كثيرا، وإن خيرا، وإن شرا، وأكد سبحانه
 وتعالى رجوعهم إليه، بالجملة الاسمية، وبتصديرها بـ «إن» الدال على التحقيق،
 والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ .

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه يترتب على ما ذكر من خلق الإنسان والكون كله أن يكون في علو لا يتسامى إليه أحد في الوجود، وقد وصفه سبحانه بصفات خمس هي لا تكون إلا له سبحانه؛ إذ هو كامل الوجود، وتلك صفات كامل الوجود، وليست إلا له:

الأولى - أنه سبحانه له وحده الملك والسلطان، ولا سلطان فوق رب العالمين.

والصفة الثانية - أنه الحق الثابت الدائم، الذي لا ثبات لغيره، ومملكه قائم على الحق والعدل؛ لأنه قام على كونه خالق الوجود كله، وهو ربه، فهو الملك وهو الحق، وهو قائم على دعائم الحق، ويحكمه سبحانه وتعالى بالعدل.

والصفة الثالثة - أنه هو الله وحده فلا إله غيره؛ سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان الخالق وحده، وله الملك وحده، فهو الإله وحده، وقد أشرنا من قبل إلى أن العرب كانوا يعترفون بأن الله وحده خالق كل شيء، وأنه واحد في ذاته وصفاته، ولكن عند العبادة يعبدون الأوثان، فالله سبحانه يبين أن الخلق ووحدة الذات توجبان وحدة الألوهية.

الصفة الرابعة - أنه رب العرش، أي صاحب السلطان وحده في الدنيا والآخرة فلا سلطان لشخص أو حجر، إنما السلطان له وحده في الدنيا والآخرة.

الصفة الخامسة - أنه الكريم الذي فاض بنعمه الظاهرة والباطنة على الوجود كله، ويغفر ويرحم، والذي يقبل التوبة عن عباده، كما قال عز من قائل: ﴿وَأَنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٨٢) [طه].

وإن المشركين لا برهان عندهم على أن ما يعبدونه استحق العبادة؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧).

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ﴾، أى يعبد مع الله إلها آخر بزعمه من بشر أو حجر «لا برهان له به» أى بَعْدَهُ إلها، أو باستحقاقه لصفة الألوهية، فالضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود على ﴿إِلَهاً آخَرَ﴾، ونفى البرهان يقتضى أولا أنه لا برهان على وجوده بحيث يكون نافعا ضارا، وينفى ثانيا: استحقاقه للعبادة؛ لأن من يعبدّه أغلى تكويننا منه فى كثير من الأحيان، فالإنسان يعبد حجرا، وهو يسمع ويبصر، والحجر لا يسمع ولا يبصر ولا حياة فيه، بل هو جماد، وإذا كان لا برهان يسوغ عبادته، فإنما الوهم لا العقل هو الذى سهل هذه العبادة، وقال تعالى فى جواب الشرط: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (الفاء) واقعة فى جواب الشرط، (إنما) للحصر، أى لا يحاسبه إلا ربه، وفى ذلك إنذار شديد بالعقاب الأليم فحسابه عند ربه الذى خلقه، وقام عليه، وهو القاهر فوق عباده، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وهذه الجملة فى بيان نتيجة الحساب وهو أشد العقاب، والضمير فى ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن، أى أن الحال والشأن لا يفلح الكافرون لكفرهم، ولن يغنى عنهم شىء.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١١٨).

الخطاب للنبي ﷺ يطالبه بأن يدعو ربه ضارعا إليه بالغفران والرحمة فهو ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى الرحمن الذى لا يصل إلى رحمته أحد وقد طلب أن يغفر من غير ذكر المغفور له، وطلب أن يرحم من غير ذكر من يُرحم، وذلك لشمول من يطلب الغفران لهم، والرحمة لهم، فهو الغفور الرحيم الذى سبقت رحمته عذابه، وفى ذلك الطلب من النبي ﷺ تصفية لنفسه من شوائب الحقد، والحسد، ليدنى من يدعوهم، ولا يجافيههم، فإن الجفوة تبعد، والرحمة تقرب، إن الله غفور رحيم.

سورة النور

تمهيد:

هذه سورة مدنية وعدد آياتها (٦٤) أربع وستون آية، وسميت النور لقوله تعالى فيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ... (٣٥)﴾، وإنها لو سميت سورة الأسرة لكانت جديرة بهذا الاسم.

وقد ابتدأ بما هو آفة الأسرة، وحمايتها منه، وهو الزنى، فكان أولها - عقوبة الزناة التي تحمي الأسرة والمجتمع من أشراره ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾.

وأراد الله تعالى أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً نزيهاً لا يترامى بالسوء والفاحشة صيانة للفضيلة، ونصاب الشهادة بالزنى أربعة، فمن رمى محصنة أو محصناً بالزنى يجلد ثمانين جلدة. ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ قرر سبحانه عقوبة مادية بالجلد ثمانين جلدة، وعقوبة أدبية تبعية، وهى ألا تقبل لهم شهادة أبداً.

ولكن قد يرمى الرجل زوجته، وليس معه شهود أربعة، فأوجب اللعان، بأن يتحالفا على البراءة، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾، وإن ذلك فضل من الله ورحمة لأنه حمى المجتمع والأسرة من تلك الآفة الخلقية المخربة، ولأنه منع قول الزور وأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

وقد أشارت السورة إلى حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن أبيها، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾، وعلمنا الأدب عندما نستمع خبر سوء فلا يجوز لنا أن نذيعه بل نظن خيرا بالمؤمنين وخصوصا ما يتعلق ببيت الرسول: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)﴾.

وإن هذا كان جرما عظيما؛ لأن رمى المحصنات أمر عظيم، ورمى زوج النبی ﷺ جرم هو أعظم الحرام، ويقول سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧)﴾، وإن إشاعة قول السوء عن أم المؤمنين تؤدي إلى إشاعة الفاحشة في المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾ ويبين لنا سبحانه أن الخوض في مثل هذا من تشيع خطوات الشيطان.

وينهانا سبحانه عن ذلك، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ... (٢١)﴾.

والأسر لا بد فيها من التراحم، ولو كان بعض آحادها قد شذ، كما شذ بعض ذوى قرابة أبى بكر الذى كان يده بفضل ماله، فخاص فى حديث الإفك على عائشة، فمنعه أبو بكر من فضله، فقال الله تعالى ناهيا أبا بكر، ومن يكون فى مثل حاله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾، وقد بين سبحانه بعد ذلك إثم الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، ﴿... لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾.

وإن الله لا يختار لنبيه إلا الطيب من النساء؛ لأن الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين، والنسبى وزوجه مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم، وقد بين سبحانه وتعالى حرمة البيوت، وتحريم التهجم على الأسرة بغير إذن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾، ويفصل سبحانه بدقة لأحوال الاستئذان، فيقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾.

بعد ذلك أقر الله تعالى بعض الطرف للرجال والنساء، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ

لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾، ويحث على إنكاح الأيامي غير المتزوجات، والصالحين من العباد ولو كانوا فقراء، وإن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، ونهى عن البغاء ووسائله، ونهى عن إكراه الإماماء على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ﴿... وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وتنتقل الآيات إلى تطهير المجتمع على نور من أحكام الله تعالى، وقد ابتدأ بذكر نوره سبحانه، فقال جل شأنه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وإن صلاح المجتمع يبتدئ من بيوت العبادة: بالصلاة، فهي طهارة القلوب، والمجتمع الصالح ما قام إلا على طهارة النفوس، فذكر سبحانه وتعالى المساجد ومكانتها عند الله فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن أعمال الكفار في ضياع ما داموا لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر، وقد شبهها سبحانه وتعالى بعدة تشبيهات، فشبها



بالسراب الذى يكون بقية حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، وشبهه بالظلمات ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (٤٠).

ويوجه الأنظار إلى خلقه سبحانه وتعالى وخضوع الوجود له ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢).

يوجه سبحانه الأنظار إلى السحاب، وكيف يتكون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٤٣) يِقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤).

ثم يوجه سبحانه الأنظار إلى خلق الدواب ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥).

بعد هذا بين كيف أنزل أكبر النعم، وهى نعمة الرسالة، ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦)، ويذكر بعد ذلك أحوال الذين تلقوا هذه الآيات، ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)، وهؤلاء لا يتجاوز النطق بالشهادة حناجرهم، ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠). وهؤلاء كالأعراب الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ،

وكالذين يذكرون فى الأسماء الإسلامية، ويؤمنون بالقوانين الأوربية، ولا يؤمنون بشريعة القرآن ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ومن ضعفاء الإيمان من يقسمون بالله إنهم لمعهم، فيقول لهم الله تعالى: ﴿... لَا تُقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾، وبين من بعد ذلك ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾، ويأمر سبحانه تعالى بعد ذلك بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول رجاء رحمة الله، ويبين بعد ذلك أنه لا يعجزه المشركون في الأرض، ولكن يعلمهم، ومأواهم بعد الإمهال جهنم وبئس المصير.

بعد هذه الآيات المتعلقة بالإيمان، وأخلاق ضعفاء الإيمان ومن في قلوبهم مرض والمشركين، يعود إلى الأسرة وآداب الاستئذان، وقد تكلم في الاستئذان بالنسبة للداخلين في بيوت غير بيوتهم، ثم من بعد ذلك تكلم في استئذان الساكنين من الأسرة في دار واحدة في الاستئذان على الأسرة نفسها في الدخول إلى الحجرات المخصصة للرجل وزوجه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾. الأطفال البالغون الحلم علمهم الاستئذان ككل آحاد الأسرة، لا في أوقات العورات فقط، ولا تترك الآيات أحكام القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة، وإن يستعفن خير لهن والله سميع عليم.

وتكلم سبحانه في نفقات الأقارب فيقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما يجب أن يكون عليه المؤمنون، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ ، ويعلم سبحانه المؤمنين في أدبهم مع الرسول فيقول عز من قائل: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ .

وختم الله سبحانه وتعالى السورة ببيان سلطانه في هذا الوجود كله ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ .

معانى السورة

حد الزنى

قال الله تعالى:

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
 بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ
 عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
 مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

ابتدا سبحانه وتعالى السورة باختصاصها بأنها سورة ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾، وذكرها منكرة لإعلاء شأنها، وحسبها أنها منزلة من عند الله، واختصت بذكر أنها أنزلت من عند الله، وقوله: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، أى فرضنا ما فيها من أحكام تتعلق بحماية الأسرة وعقاب المعتدين على النسل فيها، ولكيلا يتمرد على أحكامها أحد، فهي أحكام مفروضة من عند الله، وهى تطهير للعباد من إثمهم، وكما شرف الله تعالى السورة كلها بنسبة إنزالها إليه، شرف آيات الأحكام فيها بالإنزال؛ تأكيدا للإلزام بأحكامها، والتزام أحكامها، ولو كانت شديدة فهي شديدة على المعتدين، وحفظ للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، أى فرضنا ما اشتملت عليه من أحكام، وأولها وأشد عقوبة: الزنى، وقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أى تذكرون أحكامها، وتعرفون شدتها، فتعرفون قبح الجريمة، وأثرها فى المجتمع الإسلامى، وأنها لا تكون فى قوم إلا كتبت عليهم الذلة، والضعف والاستسلام، والخنوع.



وقد ابتدأ من ذلك بحكم من يرتكبون هذه الجريمة المفرقة بين الجماعات، المضیعة للنسل، فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٤)﴾.

الزنى هو وضع النطفة فى رحم غير حلال له، أو بشكل عام: وضع العضو فى عضو ليس حلالا له، والزنى أقبح الجرائم التى تفتك بالجماعات الإنسانية، ولذا قرن النهى عنه بالقتل إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِئْتُمْ نَزْرُقَهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِي إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣)﴾ [الإسراء]. وترى النهى عن الزنى جاء بعد النهى عن الواد؛ لأنه من بابه، وإذا كان الواد قتلا للولد، فالزنى كذلك؛ لأنه يرمى النطفة، ولذا لوحظ فى الأمم التى تكثر فيها الفاحشة، أنها تفتنى شيئا فشيئا، وأن شيوع الزنى فى أمة يضعف قوتها ونخوتها ويجعلها جماعة لاهية لاعبة.

وهذه الجريمة لما فيها من فحش، وإضعاف لقوة الأمة، وإردائها فى مهاوى الهلكة شدد الله تعالى عقوبتها، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ وهنا ثلاث إشارات بيانية:

أولها: فى تقديم الزانية على الزانى، قالوا: لأن قوة الشهوة الدافعة إلى الزنى عند المرأة أقوى، وربما لا نوافق على ذلك كثيرا؛ لأن الرجل يطلب فى أكثر الأحيان، والمرأة لا تطلب الرجل إلا قليلا، وإن حدثتها نفسها فإن الحياء يكفها إلا إذا خلعت، وقد نقول: إنها إن طلبها الرجل ولم تكن مؤمنة سارعت إليه، ونقول فى تعليل ذلك إن العقوبة قاسية، وقد قدمت المرأة لكى لا يمتنع أحد عن إقامة الحد بدعوى ضعفها، والشفقة عليها والرفق بها؛ لأنها من القوارير.

ثانيتها: أن كلمة الزانى والزانية وصف بالزنى، وذلك يكون فى أكثر الأحوال من تعود هذه الجريمة، ولذلك لا يكون إلا ممن أعلن هذه الجريمة الفاحشة ولذلك

كان لابد من شروط لإقامة هذا الحد: أن يشهد أربعة بها، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الجريمة معلنة مجاهرا بها، وذلك لا يكون إلا ممن تعودوا هذه الجريمة، وقد يكون الزنى فى أول أمره، ولكن يندر أن يحضره أربعة من الرجال العدول، ومع ذلك يطبق الحكم سدا للذريعة.

ثالثتها: أن التعبير عن الضرب بالجلد للإشارة إلى أنه يؤلم الجلد، وذلك بأن يكون الضرب قريبا من الجلد، فلا يستره إلا ثوب عادي، ولا يضرب على خشوة من قطن أو نحوه.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ هى الفاء الواقعة فى جواب الشرط، والتعبير بـ (زانية وزان) يفيد أن من يرتكب هذه الجريمة فاجلدوهم مائة جلدة.

وهذه هى العقوبة الأولى، وقد تبعثها عقوبة أخرى، وهى أن تكون هذه العقوبة فى العلن لا فى السر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أى ليحضر العقوبة التى هى ﴿عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وما حد الطائفة، قيل: اثنان. وقيل: أربعة، ونقول إنها الطائفة التى يكون بها الإعلام، بأن تكون العقوبة فى مكان تكون فيه علنية لا سرية، وسمى الله هذه العقوبة عذابا؛ لأنها عذاب الدنيا، ووراءها عذاب الآخرة، إن لم يتوبوا توبة نصوحا؛ ولأنها قاسية غليظة، والرحمة بالجانى تشجيع على الجناية، والغلظة فى عقابه رحمة بالجماعة الإنسانية.

ولغلظة العقوبة قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ الرأفة انفعال نفسى يدفع إلى الشفقة والألم والتقزز منها والاستنكار النفسى لها، فلا يصح أن تكون الرأفة هى المسيطرة، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾، أى لا يصح أن تستولى عليكم حتى يقال: إنها أخذتكم، فالرأفة بالجانى استهانة بالحكم وتشجيع عليه كما ذكرنا.

والفاظ الآية الكريمة عامة، وأجمعوا على أنها تطبق على البكر، أى غير المتزوج، أى غير المحصن الذى أحصن بالزواج ودخل فى هذا الزواج.



وإنه من المقررات الشرعية أنه لا يخصص اللفظ إلا بمخصص فى قوته، والخفية يعدون العام قطعى الدلالة، وهو الذى عرضناه، فلا يخصصه إلا قطعى مثله قرآناً أو سنة مشهورة تبلغ مبلغ القرآن فى قطعيته، والآية -بلا ريب- قطعية السند؛ لأن القرآن كله متواتر، ومن أنكر ذلك فقد كفر.

ولذا كان لابد أن يكون ما يخصصه من نصوص قطعى السند قطعى الدلالة، وقد ادعى الخفية أن حديث رجم الزانى، وإن كان حديث آحاد فهو مشهور، والشهرة ادعاء له.

ومن أجل أن نبين مقام هذه الآيات من الآيات الواردة فى عقوبة الزنى، نذكر أن قبلها ثلاث آيات فى ترتيب المصحف، ونبه أننا لا نرى فى القرآن منسوخاً قط؛ لأنه سجل الشريعة الذى سجلت الأحكام الدائمة الباقية فى تكليفها إلى يوم الدين.

الآيتان الأوليان ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (١٦) [النساء].

دلت هاتان الآيتان على ثلاثة أمور باقية: أولها: أن الشهادة على الزنى تكون: بأربعة، ولذا قرر قبل هذا المنع الحاجز الصائن الاستشهاد بأربعة، والإمسك فى البيوت لحماية الضعفاء من العبث حتى الموت أو الزواج، وهو السبيل الذى جعله الله تعالى لصيانتهم، وليس الحد سبيلاً، ثانيها: العقوبة للزنى والزانية، ولكنه سبحانه وتعالى ذكر العقوبة مجملة، يبيتها آية سورة النور التى نتكلم فى معانيها، فالإيذاء فى سورة النساء مجمل ببيتة سورة النور، ثالثها: أن التوبة إذا كانت وجب الإعراض عن العقوبة، ولذا قال عز من قائل: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ وتكون العقوبة شرعاً محكماً إذا لم يتوبا، وتكون العقوبة فى سورة

النساء شرطها عدم التوبة في وقتها، وبذلك قال الحنابلة والظاهرية ورواية عن الشافعي رضي الله عنه.

ومن أخطاء بعض المفسرين الواضحة تفسيرهم «اللاتى يأتين الفاحشة» بأنها السحاق، فإن البقاء في البيوت تمكين لها، ولا الفاحشة في الآية الثانية باللوواط، فإن ذلك ينفر منه الذوق السليم، والفاحشة تكاد تكون محصورة في الزنى، وقد قيل: إن ثمة آية تقول (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) ونسخت تلاوة، ولم تنسخ حكما، وهذه رواية بطريق الأحاد، وإن ادعيت شهرة الخبر^(١).

وقد يقول قائل: إن الرجم أقسى عقوبة في الأرض فكيف يثبت ما دونها بالقرآن القطعي بدلالته وسنده، ولا تثبت تلك العقوبة الغليظة إلا بحديث آحاد، وإن ادعيت شهرته، والاعتراض وارد، ولا سبيل لدفع إيراده.

ولقد سأل بعض التابعين الصحابة أكان رجم النبي ﷺ لماعز والغامدية قبل نزول آية النور أم بعدها؟ فقال: لا أدري لعله قبلها، ونحن لا نتهم بالنسخ، ولو كان نسخ السنة، فلسنا ندعى نسخها بالآية الكريمة، ولم يبين أنها نسخته ولا نسمح بنسخ السنة بمجرد الاحتمال، ولا بمجرد التعارض، ولكن يبقى بين أيدينا أن العقوبات كلها مذكورة في القرآن إلا هذه مع أنها أقسى عقوبة، وإذا كان ثمة احتمال النسخ، فهو احتمال ناشئ من دليل وليس احتمالا مجردا أقسى من أشد عقوبات إلا الآية التي فيها محاربة الله ورسوله، وهو القتل والصلب، فإن الرجم: الرمي بالحجارة حتى يموت فهو عذاب حتى الموت، والصلب أهون لأنه بعد الموت حيث لا يكون إحساس، ولا يضر الشاة سلعها بعد موتها، كما قالت ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها، ولعن الله من آذاها في نفسها وفي أبيها وآذى الكعبة معها.

(١) رواه ابن ماجه: الحدود- الرجم (٢٥٣٤) عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأحمد: مسند الأنصار- حديث زر بن حبیش عن أبي بن كعب (٢٠٢٦١)، في مسند الأنصار- حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ (٢٠٦١٣). وراجع البخاري: الحدود (٦٣٢٧)، (٦٣٢٨)، الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٧٧٨)، ومسلم: الحدود (٣٢٠١).



هذه عقوبة الزنى، ونعتقد أن حكم الآية عام، والظاهر من الألفاظ أنها تعم المحصن وغير المحصن، وقالوا: ثبت بالسنة تغريب عام، بعد الجلد على ملأ من الناس لكى يذهب عنه عار الجلد. وروى عن مالك أن المرأة لا تعذب حتى لا تكون عرضة للسقوط مرة أخرى، وفائدة التعذيب بالنسبة للرجل لكى يذهب عنه خزي الجريمة؛ لأن الخزي يجعله يهون فى ذات نفسه، فيهون عليه ارتكاب الجريمة، إذ الجريمة فى ذاتها هوان.

وقد يقول قائل فى هذه المناسبة: إن الدعوة إلى أن يشهد العقوبة طائفة من المؤمنين يناقض الستر الذى دعا إليه النبى ﷺ فى مثل قوله ﷺ: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين»^(١) والجواب عن ذلك أن إعلان العقوبة خير، لأنه ردع عام، أما إعلان الجريمة من غير عقوبة فدعوة إلى الجريمة، وفرق بين دعوة الردع ودعوة الفجور.

لم نذكر الآية الرابعة، وهى إحدى الثلاث غير المذكورة فى سورة النور، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْتُمْ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

إن ظاهر الآية من غير تأويل، ولا تحميل الألفاظ غير ما يحتمل أن الظاهر من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾، أى فإذا تزوجن فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، وإن الرجم لا ينصف، وإذن يكون ما على المحصنات المتزوجات جلدا قابلا للتصنيف، وإن هذا يدل بدلالة الإشارة أو الاقتضاء على أنه لا رجم؛ ولذا

(١) رواه البخارى: الأدب- ستر المؤمن على نفسه (٥٦٠٨)، ومسلم: الزهد والرقائق- النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه (٥٣٠٦). من رواية أبى هريرة رضى الله عنه.

قلنا: إن احتمال نسخ الرجم بآية من سورة النور احتمال ناشئ عن دليل، وما كان النسخ نسخ قرآن، إنما هو نسخ سنة، إذ الرجم لم يثبت إلا بالسنة.

هذه آية سورة النور، وما يرتبط بها، وما يتعلق بأحكام الزنى، قال تعالى بعد ذلك:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾.

إن الرجل النظيف لا يلقى بمائه فى موضع دنس، وأى دنس أخبث من دنس الزنى، أى فهو لا يتزوج زانية، والنكاح هنا بمعنى العقد، لا بمعنى الوطء كما روى عن ابن عباس برواية ضعيفة لم تصح، ويقول الزجاج: إن النكاح لم يذكر فى القرآن إلا بمعنى العقد، فلا ينكح مؤمن زانية قط، ما دامت لم تنب توبة نصوحا، ولم تنخلع من هذه الموبقة، وتطهرها بالتوبة بعد الحد، وإن المؤمنة التقية لا ترضى أن يكون زوجها زان عرفت بالزنى، بل إن الزانى إذا تزوج مؤمنة كان الزواج فاسدا بحكم الكفاءة فى الزواج، وقد أجمع الفقهاء على عد الكفاءة فى التدين وقال فيه مالك رضى الله عنه: إنه زوج.

وكما أن الزانى لا يجد من يقبله زوجا إلا زانية أو مشركة، كذلك الزانية لا تجد زوجا يقبلها إلا إذا كان زانيا أو مشركا، وإن ذلك حكم الطبع السليم الذى تكون فيه النفس غير مهينة، ولا مبتذلة، ولا مدنسة بالرجس والآثام؛ وذلك لأن الزوج عشير يخالط زوجه بالحس، ويخالطه بالنفس، وعدوى النفوس كعدوى الآثام تتلاقح بالأمراض، كما تنتقل الأمراض بين الناس.

جانيك من يجنى عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

وإن ذلك وإن كانت الفطرة تمنعه، فالشرع لا يرضاه، وقد قال: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة إلى النكاح، أى نكاح الزانى بغير الزانية، والزانية بغير الزانى، أى لا يكون دأب النفوس إلا متفاعلا بعضه ببعض، وبظاهر الآية أخذ



بعض الفقهاء، ومنهم الظاهرية والحنابلة أو بعضهم، وبعض قليل من الشافعية والمالكية والحنابلة وأكثر الشافعية على أن نكاح الزناة ليس بفاسد.

ويجب أن نقول: إن الزانية التي وصف الزنى قائم بها، وإذا تابت فإنها تنخلع منه؛ لأن التوبة النصوح تجب ما قبلها، وكذلك الزانى، فإن التوبة تطهر النفس، والإخلاص فى التوبة يوجب الندم، وإن الله هو قابل التوبة، وغفار الذنوب، وكذلك نقرر أنه بالإجماع يجوز الزواج ممن تاب وآمن وعمل صالحاً.

وإن الشريعة كما تطهر الأسرة من الزناة تحميها من الذين يريدون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، فيعاقب الذين يرمون الطاهرات العفيفات بالزنى ووضعت لهم عقاباً رادعاً ثمانين جلدة، فقال تعالت كلماته:

حد القذف

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٥﴾

هذه جريمة القذف، وهو فى الشريعة رمى المحصن بالزنى، والمذكور فى الآية رمى المحصنات، وقد ثبت بقانون المساواة أن هذا حكم رامى الرجال؛ ذلك لأن قانون المساواة الشرعية يجعل حكم الرجل كحكم المرأة، فإننا نرى التكليف كان فى أكثر الأحوال يجرى بمخاطبة الرجال، ثم يدخل النساء بحكم قانون المساواة فى التكليف.

وذكر النساء وحدهن، وإن دخل الرجال بحكم قانون المساواة؛ لأن المحصنات يصيبهن ضرر الرمي بالزنا أكثر من الرجل بحكم العرف في الدنيا؛ ولأنها موضع الأمانة الربانية، فصيانتها أوجب، ورميها يكون أشد، ولأن أول رمى كان لأظهر نساء قريش - بعد فاطمة - زوج محمد رسول الله ﷺ وبنت أبي بكر الصديق، فكان ذكر النساء أولاً.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ لم يقل بالزنى، بل لم يذكر المرمى به تحصناً وإبعاداً لألفاظ الشين عن المحصنات الطاهرات العفيفات، وقوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، الفاء هنا كفاء الشرط لتضمن الموصول معنى الشرط، وفيه مع ذلك إشارة واضحة إلى أن رمى المحصنات هو سبب هذا الحكم القاسي، والإحصان يتضمن معاني ثلاثة: أولها: الإسلام، فلا إحصان لغير مسلم ولا مسلمة، وثانيها: الحرية فلا إحصان لعبد، ولا لأمة، وثالثها: ألا يقع في زنى من قبل، أو يكون قد دخل في عقد فاسد بشبهة تسقط الحد، ولا تمنع بقاء وصف الزنى كالعقد على المحارم ونحوه مما هو مفصل في كتاب «الزواج»، فليرجع إليه^(١).

والعقوبات ثلاث كما أشرنا:

الأولى: الجلد ثمانين جلدة، ووضحنا المعنى في التعبير بقوله ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ من حيث إن المراد ضرب يؤلم الجلد، فلا يكون ثمة حاجز يمنع إيلام الجلد كحشية أو نحو ذلك، وهذه عقوبة بدنية تصيب البدن وتؤلمه، وإذا كانت هذه عقوبة ومن قبل عقوبة الزانية فيها قسوة، فإنها رحمة بالجماعة المؤمنة من أن يفشو فيها الزنى، ويشيع، وفي ذلك فتنة وخراب وفساد كبير، وضياح للأمم، وللنسل، وخيانة للأمانة التي أودعها الله أصلاب الرجال، وأرحام النساء.

الثانية: إهدار أقوال القاذفين بألا تقبل لهم شهادة في قضاء، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ والأبدية توجب ألا تقبل لهم شهادة مطلقاً: تابوا أو لم يتوبوا، وهذا ما قرره الحنفية وأكثر الفقهاء، وقرر الشافعية أن التوبة

(١) ارجع إلى كتاب «عقد الزواج وآثاره» للإمام محمد أبو زهرة.

النصوح تنهى هذه العقوبة؛ لأن التوبة المقبولة تحب ما قبلها من المعاصي؛ ولأن استثناء التوبة في الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ جاء بعد ﴿لَا تَقْبَلُوا﴾، والحكم بالفسق، فيشمل الاستثناء منهما لا من أحدهما، ونحن نميل إلى ما فهمه الحنفية، أولا لأن النص على الأبدية يمنع الاستثناء؛ ولأن ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ جملة مستقلة، والجملة «ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا» قد انتهت، فلا يتعلق الاستثناء بها؛ ولأن هذا هو الذى يلائم أنها عقوبة؛ ولأن إشاعة الفاحشة أعظم جرائم اللسان، فيجب أن تتعلق العقوبة به.

العقوبة الثالثة: الوصف بالفسق فى قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وهذه هى التى دخلها الاستثناء؛ لأنها فى جملته والحكم بالفسق اقترن به الاستثناء، فخرج المستثنى من حكم المستثنى منه.

وشرط تحقق حد القذف، ألا يأتى من يرمى بالزنى بأربعة شهود هو منهم، وبعبارة أدق بثلاثة معه يقرون قوله، ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وكان التعبير فى العطف بـ (ثم) الدالة على التراخى فيه إشارة إلى بعد الحصول على ثلاثة يشهدون معه، فإن إثبات الزنى بأربعة عسير، إلا أن يكون فعلا علنيا، ولا يحدث ذلك إلا فى أفحش الأمم فجورا كاهل أوروبا وأمريكا.

والرمى - لكى يقام حد القذف - يجب أن يكون رميا صريحا بالزنى حتى يقول الفقهاء إنه رآه يضع إحليله فى فرجها كما تضع الميل فى المكحلة، أو نحو هذا التعبير.

ولو عرّض لا يكون رميا بالزنى، ولو كان التعريض كالتصريح وضوحا، وقد رُمى المغيرة بن شعبه الذى صار نصيرا معاوية، فشهد ثلاثة من الأربعة بالرمى الصريح، وعرض زياد ابن أبيه الذى ألحقه معاوية بنسبه لم يصرح، فعَدَّهُم عمر بن الخطاب الذى كان يقضى فى الأمر بنفسه، قاذفين، وعاقبهم عقوبة الجلد.

وما كان ذلك إلا ليحمل الناس الذين يرون تلك الجريمة البشعة ألا ينطقوا بها، حتى لا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويشيع الترامى بالزنى، فيستهين الناس به.

ثم قال الله تعالى في وصف القاذفين ﴿... وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ الإشارة إلى الذين يرمون المحصنات، والإشارة إلى الموصوف بصفة أو القائم بعمل، بين أن ذلك العمل هو سبب الحكم، فالقذف سبب الحكم بالفسق؛ لأنه في ذاته فسق في القول، وقد أكد سبحانه وتعالى الحكم بفسقهم أولاً: بالجملة الاسمية، وثانياً: بضمير الفصل «هم»، وثالثاً: بجعل الفسق وصفا لهم، ورابعاً: بقصرهم على الفسق، أى أنهم لا يخرجون من الفسق، فهم في دائرته لا يخرجون عنها، فهم في شر مستمر دائم لا يخرجون عن دائرته قط إلا إذا تابوا، ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

الاستثناء من الحكم باستغراق الفسق؛ لأن رحمة الله تتسع للعصاة الذين أذنبوا، ولذلك ترفع عن القاذفين عقوبة عدم قبول شهادة، وإن ذلك هو الذى يتفق مع المتبادر من السياق البياني للقرآن الكريم؛ إذ إن الأمر بعدم قبول الشهادة في آية منفردة عن هذه الآية، وهى أمر بهذا العقاب معطوف على أمر بالعقاب البدني، وهما في جملتين إنشائيتين، والحكم بالفسق في جملة خبر.

والرأى الذى فى المذهب الشافعى الذى يجيز قبول الشهادة إن تابوا، قال: إن الاستثناء من الآيتين معاً، وقد قلنا: إننا نميل إلى رأى الجمهور فى الاستثناء من الحكم بالفسق فقط، لذكر كلمة ﴿أَبَدًا﴾ وما كان قول الله لغوا، ولأنه المتبادر.

ولأن منع قبول الشهادة لحق الناس ولصيانة مجلس القضاء.

والاستثناء هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ فالتوبة هى الإقلاع عن هذا والعزم على ألا يعود إليه، والندم على ما وقع، وذلك بالشعور بالحسرة لوقوعه، ولا بد من الإصلاح بدل الإفساد والتخريب، فالذى تغير الفسق،



وذلك بأن يكون صالحا، وخصوصا أن الله جل جلاله سجل عليهم وصف الفسق، فلا يزيله إلا وصف الإصلاح.

وبين قبول توبتهم عن الفسق، فيقول عز من قائل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دليل على قبول التوبة؛ لأن الفاء كالواقعة في جواب الشرط، لتضمن التوبة والإصلاح معنى الشرط، والمعنى فإن الله يقبل توبة هؤلاء الفاسقين لأن الله غفور رحيم يغفر الذنوب لمن يتوب من عباده، ويعفو عن السيئات، وذلك رحمة عباده.

ونقرر أخيرا أن العقوبة بعدم قبول الشهادة أمر دنيوى نظم الله تعالى أهلية الشهادة، والحكم بها، وأما الغفران فأمره إلى الله تعالى، وهو الغفور الرحيم.

اللعان

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

روى أن رجلا قال للنبي ﷺ: «إن الرجل يجسد الرجل مع أهله وإن قتله قتلتموه، وإن تكلم ضربتموه، وإن سكت سكت على غيظ اللهم بين»^(١)؛ فكانت

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: إِنَّا لَنَلْقَى الْجُمُعَةَ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَتَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ أَوْ قَتَلَ قَتَلْتُمُوهُ وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ وَاللَّهُ لَأَسْأَلَنَّ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. . الحديث. رواه مسلم: اللعان- باب (٢٧٤٨)، كما رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.

هذه الآيات علاجاً لذلك وشفاء لغيظه، ورحمة بالناس، وخاصة بالأسرة الإسلامية: لتقوم على الاطمئنان النفسي، والثقة التى تكون بين ركنيها، وهما الزوجان، ولصيانتهما عن القالة.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾، أى لم يكن شهداء غيرهم ولم يذكر عدداً فى الرمى؛ للإشارة إلى ما ينبغى، وهو ألا يعلم أحد بما يلاحظه على زوجه فى هذه التهمة، فأسرار الأسرة لا يصح أن تعلن على الملأ فلا يُسأل: مَنْ شهودك الذين يشهدون بصحة قولك، ولا يقدم هو تهمته، فيعفيه حكم اللعان من تقديم شهادة أو المطالبة بأى شاهد.

وسميت العقوبة عقوبة اللعان، لما اشتملت عليها بعض الأيمان بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وكلمة ﴿شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ الشهادة تطلق، ويراد بها الحضور، ولعل هذا هو المعنى الأصلى، وتطلق ويراد بها الإقرار كقوله تعالى: ﴿... وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا ...﴾ (٨١) [يوسف]، وتطلق ويراد بها الشهادة، وكلمة أشهد بالله تتضمن معنى اليمين، وقال بعض اللغويين: إن كلمة (أشهد) بذاتها من غير اقترانها بكلمة (بالله) تتضمن معنى اليمين.

وكلمة: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ هى جمع شهيد أو شاهد، الظاهر أنه ليس معهم شاهد يشهد إلا أنفسهم؛ لأنه لم يحضر سواهم، أو لم يتقدم للشهادة أحد سواهم، وأنفسهم مستثنى مفرغ من (شهداء)، أى لم يشهد فى الرمى إلا أنفسهم، وقد ذكر الله أربع شهادات ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ونرى أن الشهادة قد اقترنت بالله فكانت الشهادة يميناً، فيحلف أربع مرات متتالية ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وقد أكد صدقه فى يمينه بثلاثة مؤكدات: أولها (إن) التى تفيد التوكيد، واللام المؤكدة دخلت عليه، والثالثة وصفه بأنه من الصادقين، أى من زمرة أهل الصدق، وجماعتهم، وهم المتقون الأبرار.

والشهادة الخامسة، أى اليمين الخامسة يحلف بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، أى يحلف بأن الله تعالى ينزل عليه لعنته إن كان من الكاذبين، فهو يوثق

طلب إنزال لعنة الله به إن كان كاذباً، وهذه الجملة أهي طلبية بمعنى أنه يطلب من الله أن ينزل اللعنة به؟ الظاهر ذلك، ولكن تحتل أن تكون خبرية، بمعنى أنه يحلف أنه يستحق لعنة الله تعالى إن كان من الكاذبين، وذلك ظاهر من التعليق، وإلى هذا نميل.

هذه أيمان الرجل، انتهت بالحلف على استحقاقه اللعنة إن كان كاذباً، أما المرأة فإنها تكون عرضة للعذاب، وهو عقاب الزنى، فإذا كان الرجل صادقاً وأقرت بالزنى، فالعقوبة هي العقوبة المقررة في آيات الزنى، ولكنها لم تقر، فقال تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾.

ويدراً معناها يميل عنها، أو يدفع وتبرأ ساحتها، أن تحلف أربع مرات بالله إنه لمن الكاذبين، وقد تأكد إثباتها لكذبه بما تأكد به إثباته لصدقه، بأن واللام، ودخوله في صفوف الكاذبين، والخامسة حلفها باستحقاقها للعذاب بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، وكونها طلبية أو خبرية، وميلنا إلى أنها خبرية شرطية هو ما قلناه في شهادته الإيجابية المثبتة فيقال هنا في النفي ما قيل في الإثبات.

ولابد هنا من الكلام في أمور:

الأمر الأول: أن نفى نسب الولد يعد من الرمي بشرط ألا يكون منه إقرار بالنسب ولو ضمناً، فلو نفى بسبب الولادة إذا لم يوجد منه ما يدل على رضاه به ونسبته إليه، ولو كان وهو جنين في بطن أمه، فإن النسب يتنفى، ويجب اللعان، وإلا حُدَّ حد القذف، وإذا امتنعت هي عن اللعان سترت بالنفي حُدَّت حد الزنى المقرر في القرآن.

والأمر الثاني: أنه في الآية اشترط رؤية الرجل للزنى، وإن اشترطه قول من لا دليل عنده في هذا، بل الدليل قائم على نفي هذا الشرط، بدليل اللعان عند نفى نسب الولد، وبالدليل جواز اللعان من الأعمى، واشترط علمه بالجلس باليد، كلام غير جدير بالالتفات.



الأمر الثالث: أن الشهادات في اللعان يمين فلا يشترط فيه إلا صلاحية العبادة باليمين، بأن يكون بالغاً عاقلاً، أم أنها شهادة وليست يميناً مجردة، بل الشهادة جزء من أجزائها، فيشترط فيها ما يشترط في الشهادة من أن يكون بالغاً عاقلاً مسلماً حراً. بالأول أخذ مالك والشافعي وأحمد، ولذا لا يشترط في اللعان أن يكون المتلاعنان مسلمين حرين، فلا يجوز اللعان بين الذميين، ولا العبيد، بل يجب التلاعن في الذميين، وغيرهم، وذلك القول يجعل الجماعة الإسلامية نزيهة عن قول الباطل، وعن سماعه من الذميين، والعبيد، وهذا القول كما ترى مبنى على أن هذه الشهادات أيمان خالصة.

والقول الآخر، أنها شهادة فيها يمين، وقد قال أبو حنيفة، وقول عند الشافعي، فلا لعان عند هؤلاء بين الذميين ولا بين العبيد، ولا لعان إذا كان أحد الزوجين ذمياً أو عبداً.

الأمر الرابع: أن الثقة دعامة العلاقة بين الزوجين، فإذا عرض لها ما يزعزعها انفصمت العلاقة الزوجية وأصبح الزواج حراماً وبينهما اللعان ويفرق بينهما، وهي فرقة أبدية لا يحل له أن يتزوجها، وتكون كحرمة المشركة والمشرک، وعلى هذا جمهور الفقهاء.

وقال أبو حنيفة: إنها تحرم عليه إلى أن يكذب نفسه، فإذا كذب نفسه حلت له، وحُدَّ حدُّ القذف، فله أن يتزوجها من جديد وتقوم بينهما عشرة زوجية بعقد ومهر جديدين، وإن هذا الرأي أرفق بالناس، وفي هذا الموضوع كلام فارجع إليه في كتاب الفقه^(١). وإن اللعان فضل من الله تعالى على عباده، وقبل أن نترك الكلام في طريقته نقول: إنه عبر عن اللعنة في جانب الرجال؛ لأنهم أقوى جلدًا وإدراكًا لمعنى الطرد، ولا يؤثر فيهم الغضب بمقدار ما يؤثر الطرد الحسى، لا مجرد الغضب النفسى، وفي جانب النساء عبر بالغضب؛ لأنه يؤثر في نفوسهن، ومجرد الإعراض يؤثر في نفوسهن.

(١) كتاب «أصول الفقه» للإمام محمد أبو زهرة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠).

﴿لَوْلَا﴾ حرف يقول النحويون إنه حرف امتناع لوجود، أى امتنع وقوع الجزاء لوجود الشرط والجزاء؛ لبيان أنه كبير عظيم لا يكتنه كنهه، ولا تتصورون وأنتم تفعلون هذه الأفعال نتائجها، ولو كان القرآن يساير أهواءكم لكان الويل والثبور، وعظائم الأمور، فكنتم تتقاتلون على الأعراض، ولقطعت الأرحام، ولضاعت مصالح الإنسان ولشاعت الفاحشة فى الدين، فجواب الشرط محذوف لسعة عمومه، وكثرة آثامه إذا لم يتداركهم بفضلهم فى أحكامه الرادعة، وأحكامه التى تجمع ولا تفرق، وفضل الله تعالى ظاهر فى أحكامه فى الزنى وفى القذف، وفى جمع شمل الأسرة فى اللعان.

وقد فتح سبحانه وتعالى باب التوبة فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أى لولا فضل الله سبحانه وتعالى فيما شرع وقرر أنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن سيئاتهم ولحكمته فيها قرر وقدر وشرع - لكان الهول العظيم، وضياح الأمور.

ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه تواب، أى كثير التوبة للمذنبين من عباده رحمة بهم، وتهذيباً لنفوسهم؛ وذلك لأن المذنب إذا أذنب وأحس بذنبه، ذهب عنه غروره وتضرع إلى ربه، والإحساس بالمعصية وطلب العفو عنها يقربه من الله تعالى ويدنيه منه؛ ولذا قال بعض حكماء الصوفية: معصية مُدْلَةٌ خير من طاعة مُدْلَةٍ، ومعصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت ذلاً وافتخاراً، والله عفو غفور.

الإفك حول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ
 خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى
 كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنَفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ وَلَوْلَا
 جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَٰئِكَ
 عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
 إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّاتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ
 وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
 قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا امْتِنَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

كان هذا القصص الحق الخاص بالإفك على أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت
 الصديق رضى الله تعالى عنهما، وقد روى أن اللعان نزل فى فتنة هذا الإفك الذى
 حيك حولها رضى الله عنها، ومهما تكن قيمة هذه الرواية فمن المؤكد أنه طبق على
 الذين ردوده، فقد قيل فيما روى أنه طبق على مسطح بن أثال، وحسان بن ثابت،
 وحمنة بنت جحش أخت زينب زوج رسول الله ﷺ وكانت لها منزلة عند رسول
 الله ﷺ تناصى منزلة عائشة رضى الله عنها^(١).

(١) راجع القصة فى صحيح البخارى : الشهادات - تعديل النساء بعضهن بعضا (٢٤٦٧)، ومسلم :
 التوبة - فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٤٩٧٤).

والإفك هو الكذب، كأن الكاذب صرف عن الحق إلى الباطل؛ لأن الإفك أصل معناه الصرف. كأن الأفك يرى الحق واضحا بينا، فيعدل عنه إلى قول الباطل وينصرف إليه، وكذلك الأمر بالنسبة للإفك على عائشة، بين أيديهم أمارات الحق واضحة بينة فينصرفون عنها إلى الباطل الذي لا ريب فيه.

والعصبة: الطائفة المجتمعة التي يشد بعضها بعضا، وكأنهم جماعة يتآمرون فيما بينهم على قول الباطل وترويجه وإشاعته، وقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾، إشارة إلى أنهم يعيشون بينهم، وأنهم يتغلغلون في أوساطكم، وحسبك أن مسطحا هذا له بالصديق قرابة، وكان أبو بكر -رضى الله عنه- يعطيه من فضل ماله، كما تبين ذلك عند الكلام في معاني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَئِ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ (٣٢) [النور].

وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ نفى الله تعالى أن يكون شرا، ونهانا عن أن نظن أنه شر، وقرر مؤكدا أنه خير لكم، وهنا نسأل ما وجه الخيرية لكم، وقرر الله تعالى أنه خير لكم، أى أنه ليس خيرا فى ذاته، ولا يمكن أن يكون خيرا فى ذاته، ونهى عن أن يظن المؤمنون أنه شر لهم، فالشرية والخيرية بالنسبة لجماعة المؤمنين فى عاقبة هذا الإثم ونتائجه، وإن نظرنا هذه النظرة، نجد أن المؤمنين أدركوا أولا: أن فيهم خبثا يحترس منه، ومعرفة الداء الذى يكون فى الجسم لعلاج خيره من إخفائه أو الجهل به، وثانيا: لأن هذا الداء لحق النبى ﷺ، فعالجه بدواء من الله، إذ ناله من الألم ما ينال البشر فى هذه الحال، ولكنه صبر على الأذى، وعالج الأمر بالحكمة والروية، لا بالغضب والتسرع، نعم إن الاتهام سبق إلى نفسه، ولكن لم يسبق بالعمل استجابة للغضب من غير تثبيت واستيقان. وثالثا: أنه لا يصح الإفراط فى الغضب، حتى تنحل قوى النفس، ورابعا: أنه لا يصح أن تتخذ مجالس السمر للحديث فى الأعراض، واتهام الأبرياء والبريئات الطاهرات من النساء، وخامسا: أنه لا يصح أن يتلقى العلم فى الأعراض عن

الأسماع، وتردد ما سمعت الآذان الأفواه، بل إن علم ذلك يكون بالمعينة، وأن الإفشاء شر في ذاته والستر أولى.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قسم الله تعالى الذين تحدثوا في هذا الإفك إلى قسمين - أولهما: من ردد القول ترديدا، ولم يكن هو مخترع القول بل أشاعه. والقسم الثاني: وهو منهم الذى اخترع القول ونشره؛ ولهذا عبر سبحانه وتعالى عنه بأنه (تولى كبره) الكبر الإثم الكبير الذى أنشأه وأشاعه واقتدى به، ولا شك أن ذلك إثمهم أكبر، ولذلك ذكر أن له عذابا عظيما، لا يحد حده إلا أن يراه ويدوقه، فإن عليه وزره، ووزر من تبعه، والآخرى عليهم إثم أنهم نجسوا ألسنتهم بترداده، ولا كنه ألسنتهم واستمروا في مجالسهم غير مقدرين مقام القول فيها - رضى الله عنها - ومقام زوجها ﷺ، ولا متعرفين مصدره، بل صرفوا أنفسهم من الحق إلى الباطل.

وهنا إشارتان بيانيتان:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ وهذه إشارة إلى أنه لم يكن له أصل واقع، ولكن جاءوا مروجين له مرددين سامرين في مجالسهم، يتلهون به.

الثانية: ﴿مِنْكُمْ﴾ إشارة إلى أنهم متغلغلون في أوساطكم ييثون فيها الانحراف الفكرى والنفسى واللسانى، يلهونكم عن جد الأعمال إلى لغو القول الآثم، وإشاعة الفساد والتقاطع بينكم، وتسهيل الفسق؛ لأن تردد القول ونسبة الفعل الفاحش إلى روج محمد ﷺ يروج الفسق بين الفتيات اللاتى ليس لهن مكانة زوج محمد ﷺ وابنة الصديق.

وقد ذكرت أم المؤمنين عائشة فيما روى عنها أن الذى تولى كبر هذا الإثم وأشاعه هو رأس النفاق وكبير المنافقين، عبد الله بن أبى ابن سلول.

ولنقص طرفا من قصة الإفك الأثيم بيانا لموضوع النص الكريم:

كان النبي ﷺ يختار من بين نسائه من يصحبه في غزواته، وفي غزوة بني المصطلق اختار أم المؤمنين عائشة، وبعد أن انتهت الغزوة بانتصار المؤمنين عاد الجيش، وقد كانت عائشة تركت مركبها لحاجة في الصحراء، ورحل القوم في هذه الأثناء، وحملوا هودجها إلى البعير يحسبونها فيه، وشدوه، وقد انطلق الركب به، فلما عادت من حاجتها، لم تجد أحدا فتلحفت بجلبابها، واضطجعت مسلّمة أمرها إلى ربها الذي لا ينام، فمر صفوان بن المعطل السلمى، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض شأنه فرأى سواد عائشة وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله، وقرب منها بعيره فقال اركبى فركبت، ولم يصلوا إلى الناس، وما بحثوا عنها، حتى أصبح الصباح، وعلموا تخلفها ثم حضروها على جمل مع الصالح الذي سار وراءه، وكان حصورا، لا أرب له في النساء، وجدها رأس النفاق مقالا يقوله، فنشر الإثم رأس النفاق وقال مقالته، وقبلها من المهاجرين والأنصار من لا يحصون الأقوال، ويتعرفون نتائجها وغاياتها، ويرجعون ويرمونه جزافا.

وأثر القول في نفس رسول الله ﷺ لأنه بشر، وقد مرضت فرأت من الرسول ما لم تعهده، وانتقلت إلى بيت أبيها لتمررضها أمها، وعرفت ما شاع من حالة السوء، فبكت، وانضاف إلى وجع جسمها وجع نفسها.

عندئذ أعلن الرسول بين المؤمنين ما في نفسه، واستشار صحابته في خاصة أمره، فبادر بعض كبار الصحابة بالبراءة، بما ألهمه به إيمانه، وعلى رأس هؤلاء عمر، ورأى على بن أبي طالب قاضى الصحابة أن يترك رسول الله ﷺ الأمر والنساء غيرها كثيرات، ويحقق، فيسأل جارتها عن أحوالها، فسأل النبي ﷺ جارتها بريرة، فقالت: والله ما أعلم إلا خيرا، وما كنت أعيب على عائشة إلا أنى كنت أعجن عجيني، فأمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله، وإذا كانت الواقعة أنها كانت نائمة وقد عاد الذي ساق بعيرها، فقد ثبت أن عذرها كان من جنس ما اعتادت مع ملاحظة أنها كانت صبية لم تبلغ الخامسة عشر من عمرها.

اطمأن النبي ﷺ إلى أنها فرية مفتراة، وهم بأن يعيدها إلى بيته الكريم، ولكنها أبت أن تعود إلا إذا برأها الله، وما كانت تطمع في أن ينزل قرآن يتلى ببراءتها، ولكن الله تعالى أكرم نبيه بقرآن يتلى ببراءتها، والقرآن الذي نزل ببراءتها قوله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ...﴾ (٢٦) [النور] الآيات^(١).

ولقد بين الله تعالى ما يجب على أهل الإيمان عند شيوع حالة السوء، فقال عز من قائل:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢).

﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض على ظن الخير من المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيرا، فإذا تلقى المؤمن والمؤمنة خبرا احتمل الصدق والكذب، وفيه شر يسارع إلى رده، ويقول: هذا إفك مبين. أى بين واضح، وخصوصا إذا كان ذلك الخبر، يمس من عرف بالطهر والعفاف، ومن يكون من شأنهم الطهر والعفاف والأمانة والإخلاص؛ وذلك أن الناس فى تلقى أخبار السوء قسمان:

أحدهما: يظن فى المؤمن الخير، ويحمل كل أحواله على الصلاح، فلا يقبل الإفك عليه، ويكذبه، ويقول: هذا إفك مبين بين واضح، ويرى من الصلاح فى حال المؤمنين دليلا على الكذب، ودافعا إلى التكذيب.

والقسم الثانى: وهو الخاضع للشيطان يحسبه نهزة فينتهزها لإشاعة السوء، والسمر به فى المجالس، ويجعله ملهاته ويغتاب أخاه المؤمن، ويأكل لحمه، ويعبث بكرامته مستهينا متندرا عابثا، وهذا يكبر أخبار السوء فيشيعها وقد نماها الخيال الفاسد، والعبث العابث.

وفى الآية الكريمة إشارتان بيانيتان.

(١) المرجع السابق.

أولاهما: فى قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فالتعبير ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يشير إلى الأخوة الإسلامية الرابطة التى تجعل إشاعة السوء عن بعضهم إشاعة عن جميعهم، وتوهين للرابطة التى تربطهم، وإشاعة السوء تنبعث من تفكك فى بعض الجماعة وتنتهى إلى تفككها كلها، وتذهب بالذمار الخلقى فيها.

الثانية: ذكر ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ هنا مع أن كل حكم أو أمر يعم المؤمنين والمؤمنات من غير نص على المؤمنات، ولكن نص على المؤمنات هنا؛ لأن النساء كثيرا ما يقعن فى هذا النوع من الغيبة من غير احتراص ولا تحفظ، ألم تر إلى أن حمنة بنت جحش وقعت فى إشاعة هذا الإفك تحسب أن فى ذلك ما يرضى أختها أم المؤمنين زينب، وهذه كانت برة تقيّة، كانت تنفى عن عائشة ولا تقر كلام أختها، بل ترده، وبالتعبير بالوصف فى المؤمنين والمؤمنات يشير - سبحانه - إلى أن الإيمان يقتضى ذلك، والله على كل شىء شهيد.

بعد هذا بين - سبحانه - طريق الثبّت لأهل الدين والتقوى فقال تعالى:

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٣).

﴿لَوْلَا﴾ للحض كالسابقة، والحض حض على الثبّت فى القول، ولا يقبله المؤمن والمؤمنة، إلا أن يكون مثل الشمس وضوحا، وقد قال النبى ﷺ لشاهد جاء يشهد: «على مثلها فاشهد» وأشار إلى الشمس فى رائعة النهار^(١).

وإن الثبّت يكون بأربعة شهداء، فالحض على الثبّت، وليس على جمع الشهود ليشهدوا، فإن ذلك لا يخلو من إشاعة للفاحشة، وقد دل الحض على أمرين:

أولهما: أنه لا يصح التكلم إلا إذا جاءوا بأربعة شهداء يشهدون، فإنه فى هذه الحال يحل التكلم؛ لأنه سيقام الحد ويشهد عليه طائفة من المؤمنين.

(١) ر.أ: أبو سعيد النقاش فى القضاة. كنز العمال (١٧٧٨٢): ج ١ / ١٣١٠

الأمر الثانى : أنه لا يصح المبادرة إلى الكلام، بل يُكفُّ، ويلزم الصمت إذا لم يكن هؤلاء الأربعة من الشهداء، وإلا حق عليه الحد للافتراء، أو كما يعبر الفقهاء حد الفرية، وهو حد القذف، ولذا قال تعالى :

﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ الفاء الأولى فاء الإفصاح أو عاطفة، والفاء الثانية هي الواقعة فى جواب الشرط، والإشارة إلى الذين يرمون من غير بينة، وهذه الإشارة تفيد أن هذه الحال سبب للحكم عليهم بالكذب الملازم الثابت فيهم الذى يمنع أن يقبل منهم قول بعد ذلك، وهم الذين يحدون حد القذف كما بينا، ولا تقبل لهم شهادة أبداً؛ لأن وصف الكذب ملازم لهم، ولا تقبل شهادة كاذب، ويعاقب عقوبة المفترين المبعدين، والتبعية، والأدبية، وهى الحكم عليه بالفسق.

والتعديدية بـ «على» فى قوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ معناها إثبات الإفك إذ الضمير يعود عليه، وإثبات الإفك المراد موضوعه، وهو رمى المحصنة الكريمة بنت الكريم وزوج الكريم، وفى ذلك إشارة إلى أنه غير ممكن، فـ «لولا» تدل مع التحضيض على الاستبعاد، بل الاستحالة لمقام موضوع الافتراء.

وقد بين سبحانه عظم الإثم وضرره فى الجماعة المسلمة، فقال عز من قائل :
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤).

﴿وَلَوْلَا﴾ كما يقول علماء اللغة هنا حرف امتناع لوجود، أى امتنع جوابها وهو أنه يمسهم عذاب عظيم لوجود فضل الله تعالى ورحمته، فأما فضله، فهو ما أنعم به عليهم من نعمة الإيمان التى تجعل نفوسهم متأدبة بآدابه آخذة بأهدابه، وأنهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فعادوا إلى الحق نادمين تائبين مطهرين أنفسهم وألستهم وقلوبهم، وألا يخوضوا من بعد ذلك فى حديث، هذا فضل الله تعالى الذى كانوا فيه بنعمة الإيمان، وما كان إنما هو أمر عارض قد زال بهداية الله تعالى،



وأما رحمته فهي أنه سبحانه وتعالى لم يأخذهم بأمر عارض، بل غفر لهم، وأى رحمة أعظم من غفران لعمل كان منهم بجهالة، ثم تابوا من قريب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ... (١٧)﴾ [النساء].

وجواب الشرط ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ و«مَسَّ» معناها أصاب جلودكم كما يمس الحديد المحمى الجسم الحى فيؤلمه. وفى كلمة ﴿أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ «أفاض» أصلها من فاض الإناء حتى سال، ومعنى ﴿أَفَضْتُمْ﴾ فيه مجاز بالاستعارة، إذ شبه حديثهم الذى خاضوا فيه غير محترسين ولا مفكرين، بالماء الذى يسيل، فلا يضبط، وكأن الحديث يسيل سيلاً زائداً عن حده، وبغير غاية.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ التنكير فيه للتعظيم، أى عذاب لا تدركونه اليوم، وسترونه، ثم صور حالهم فى عدم تفكيرهم فقال سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾، لمسكم العذاب العظيم فى القول ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ تلقون هذا الإفك من الألسنة، وترددونه من غير علم ولا تثبت، واقتران المس بزمته، ينبئ عن أن هذا الذى كان فى الظرف، أو كان الظرف وعاء له، عن أنه هو السبب لولا فضل الله ورحمته. ومعنى ﴿تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، أى وسائل التلقى والعلم لم تكن معاينة ولكن هى الألسنة، وتقولونه مرددين ما سمعتم بأفواهكم، ولم تؤمن به قلوبكم، ولم تعاینوه وتروه، بل انتقلت الكلمات من الألسنة ورددها الأفواه من غير علم أو تثبت، فالألسنة قالت من غير علم، ورددها الأفواه من غير علم، واتخذوه سمرا، يربطون فيه المجالس بالإثم من غير علم، ظنا منهم أنه هين لا أثر له، ولا إثم فيه، وأن التفكه بهذا القول هو أمر هين، ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وذكر اسم الله تعالى توهينا لزعمهم، وبيان عظم الإثم، وفيه توبيخ شديد لهم، فليس ما ارتكبوه هنة صغيرة بل هو جريمة كبيرة

تفتك ببناء الجماعة الإسلامية التي من شأنها أن تقوم على تقوى من الله تعالى ورضوان، فتريد الاتهام يسهل الإجرام، وليس ذلك شأن الجماعات الفاضلة، وهنا إشارتان بيانيتان:

أولاهما: التعبير ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ الخطاب للجميع مع أنه لم يرد هذا إلا عدد قد أقيم عليهم حد القذف، وحدوا، ولكن خوطب الجميع للإشارة إلى أن واجب الفضلاء إذا سمعوا لغو القول الجارح أن يوقفوا قائله ويمنعوه، فإذا سمعوا ولم يتكلموا ولم يشاركوا فكأنهم جميعا تكلموا.

الثانية: أن قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تفيد أنهم يتكلمون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كقوله تعالى: ﴿... يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ...﴾ (١٧) [الفتح] بل هي ألسنة تردد قولاً لا علم لهم به، ومآله على جماعتهم وخيم.

وقد بين سبحانه وتعالى ما ينبغي للمؤمن عند تلقيه خبر السوء، فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧).

الواو واصلة الجملتين، وهو امتداد للتوبيخ للذين خاضوا في هذا الإثم، و(لولا) للتحضيض لاتباع ما ينبغي عند سماع قول السوء في أخيه المؤمن، وخصوصا إذا كان من العلين المكرمين عند الله والناس أجمعين: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾ وهذا حض على أن يقولوا هذا القول مؤمنين به ﴿مَا يَكُونُ لَنَا﴾، أى ليس لنا، وليس بكائن سائق لنا ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، وهذا شأن الإنسان المؤمن الكامل، لا يسمح لنفسه أن يخوض في حديث لا يعلمه، وخصوصا إذا كان يتكلم في الأعراض، عرض أى امرئ كان، فكيف إذا كان ذلك فى عرض الصديقة بنت الصديق، وزوج خير الخلق أجمعين، ولها مكانة من محبة رسول الله ﷺ، وفى الآية نفى للكينونة ﴿مَا يَكُونُ﴾، وهى أبلغ نفى لمثل هذا القول، وأبلغ من النفى المؤكد، وأنه غير سائق فى ذاته لأمرين:

أولهما: تقديس الله تعالى، لتأكيد النفى عن زوج نبيه، ومن لها مكان الاختصاص بمحبة فوق محبة غيرها من أزواجه، وهذا فى معنى التعجب من أن

يكون مثل هذا الفعل وهذا القول مرددا بين المؤمنين، ولم يوقفوه حتى يتفاهم الأمر، وأذى النبي، إذ وصل إلى سمعه الكريم، وأن التنزيه لله سبحانه في هذا المقام إشعار بأنه وحده المنزه، ويقال ذلك في كل موضع يتفاهم فيه الإثم.

﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ الإشارة إلى الإفك، والبهتان: الكذب الذي تدهش له العقول وتتحير لفظاعته وغرابته، وبعده عن كل معقول، وهذا هو الكذب على زوج رسول الله ﷺ.

هذا ما ينبغي للمؤمن إذا نقل إليه خبر السوء الذي لا يعقل ولا يقبل، فيجب عليه أمران. أولهما: ألا يردده لأنه لا يليق بالكامل أن يجعله موضع أحاديثه، لأنه منكر لا يردد، وفحش لا ينطق. الثاني: أن يسارع إلى التكذيب إذا كانت عنده أدلة التكذيب من مقام المفترى عليه بين قومه، ومقام من يتسبب إليه، وبذلك يقف الكذب، ولا يسير في وسط الجماعات، والله بعباده رءوف رحيم.

عظة الله في هذا

قال تعالى:

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنْ الَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ

خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي
 مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

الوعظ زجر مقترن بتخويف من العذاب أو سوء العقاب والمآل في الجماعة الإسلامية - وقال الخليل بن أحمد: هو التذكير بالخير فيميل له القلب، والتعبير بالمضارع لبيان أن ما مضى من قول فيه عظة، والله سبحانه وتعالى مستمر ومجدد لهم العظة آتًا بعد آن، فهو سبحانه وتعالى مديم تجديد الإرشاد والتنبيه إلى ما فيه طهارة جماعتكم، والبعد عن ذمها، ﴿أَنْ تَعُودُوا﴾ المصدر المنسبك من «أن» وما بعده، متعلق بمقدر محذوف مناسب، وهو كراهة أن تعودوا، أى كراهة عودتكم لمثلها أبداً، والضمير يعود إلى الشأن وهو الحال التى كانوا عليها، ووقعوا فيها، والتعبير عنها بـ ﴿لِمِثْلِهِ﴾، مبالغة لأن لا يقعوا فيها، كما تقول لكريم: مثلك لا يبخل: أى أنت لا تبخل؛ لأن فيه سجايا لا تسمح له أن يبخل كما لا تسمح لمثله، فمعنى لا ﴿تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ لمثلها، أى لا تعودوا إليها. وأشباهها، ثم علق القول على الإيمان فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تنبيه إلى أمرين أولهما: إثبات أن الإيمان يتجافى عن رمى المحصنات المؤمنات، وتلقيه وترديده من غير علم ولا تثبت، ويقين، فإن ذلك من أشد أنواع الغيبة وأفحشها، ويؤدى إلى فساد الجماعة بشيوع الترامى بالزنى فيه. والأمر الثانى: هو الحض على الإيمان والتمسك به، وبأخلاق المؤمنين، والله غفور رحيم.

ويقول سبحانه: ﴿وَيَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الواو عاطفة، وقد عطف قوله تعالى: ﴿وَيَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الآيات ظاهر القول أنها هى الآيات القرآنية الدالة على المواظ الشرعية، والرحمة بالجماعة الإسلامية، فإن القرآن موعظة ورحمة وهدى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ

جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ [يونس]
 ويكون المعنى على ذلك وبين لكم الآيات، أى ينزل عليكم سبحانه وتعالى آيات
 مبينة الأحكام الشرعية، والمواعظ الموجهة إلى الخير، والداعية إلى الرشاد، والهادية،
 وتضمن البيان معنى الإنزال؛ لأن الإنزال من الله تعالى هو بيان الحقائق الإسلامية.

وإن هذه الآيات هي الملائمة الرائدة للجماعة الإسلامية المرشدة لها، التي
 تتجه بها نحو سيادة الفضيلة، والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم ما فيه الخير
 والرشاد، ولذا عقب الآية الكريمة بقوله عز من قائل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى أنه
 -سبحانه وتعالى- ينزل عليكم أنه عالم بكل شيء يعلم ما يسر وما يعلن، وأنه
 حكيم يعالج آفات الجماعات بحكمته وتدبيره، ويشرع ما هو جدير بعلمه وحكمته،
 وما يصلح مالههم وعامة أمورهم، ويجعلهم جماعة فاضلة، وأنها خير أمة أخرجت
 للناس.

وبين سبحانه وتعالى أن الذين يروجون الفساد ويتهمون الأبرار يعملون على
 إشاعة الفاحشة ونشرها، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

بين سبحانه فى هذه الآية ما يترتب على رمى البراء، واتهام الأتقياء
 وخصوصا من لهم مكانة فى الإيمان والفضل، وقد بين ما يترتب عليه إشاعة
 الفحشاء ونشرها بين الذين آمنوا؛ وذلك لأنها إذا شاعت فى الأتقياء ذوى المكانة
 سهل ارتكاب الفاحشة، فإذا تسامع من يكون فى قلبه نزعة أن فلانة من أزواج
 الكبراء، قد ارتكبتها فلا تجد حرجا أو لائمة أن ترتكبها، فكان الذين يلوكون
 بالستهم اتهام أزواج الكبراء قاصدين إليها غير متأثرين من ترويجها يحبون أن تشيع
 الفاحشة فى الذين آمنوا؛ لأنهم إذا علموا النتائج المترتبة على قولهم، واستمروا فى
 غيهم، فهم يحبون هذه النتيجة ويسعون بعملهم إليها، وقد ذكر سبحانه ذلك ليعلم
 العابثون إن استمروا أنهم يحبون هذا الفساد، وقد ذكر سبحانه جزاءهم، فقال:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أما عذاب الدنيا فهو العقاب الصارم وهو الحد، والحد كما قلنا يتضمن ثلاثة أنواع لا يكفر إلا آخرها، وهي الجلد ثمانين جلدة، والثاني: ألا تقبل لهم شهادة أبداً، والثالث: الحكم عليهم بأنهم فاسقون، وهذا ما تكفروه التوبة.

وأما عذاب الآخرة فإن الله تعالى اختصه بعلمه، حتى نراه يوم القيامة عياناً، ولا نعلم منه إلا ما أراد الله بيانه في القرآن الكريم من عذاب الكافرين، ثم قال تعالى مؤكداً العواقب الوخيمة من رمى البرينات والبراء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الله وحده يعلم صحة الاتهام إن كان صحيحاً، ومواضع التهمة، ويعلم أثر ذلك في الجماعات من إشاعة الفساد، وانحلال الرابطة الاجتماعية، وإشاعة الأقوال الباطلة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أسرار البيوت ودخائلها، فإن ذلك في كِنٍ مستور، ومن المصلحة ستره، روى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أما رجل حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى لم يزل في سخط الله تعالى حتى ينزع، وأما رجل شد غضبا على مسلم في خصومة لا علم له بها فقد عاند الله حقه وحرص على سخطه، وعليه لعنة الله المتابعة إلى يوم القيامة، وأما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها برىء يشينه بها في الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يذنيه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاذ ما قال»^(١)، وإن هذا الحديث كما روى، جامع لآفات اللسان التي ترمى في نار جهنم. ثم يبين سبحانه أن هذه الآفات تكب الناس على وجوههم في جهنم لولا فضل الله. وأشنعها حديث الإفك. فقال تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠).

﴿لَوْلَا﴾ هنا حرف امتناع لوجود، والجواب الممتنع لوجود فعل محذوف، لتذهب فيه النفس والفكر كل مذهب، وذلك ينبئ عن أنه هول أى هول، وشديد أى شدة يتناسب مع عظم الجرم، وذلك العذاب ممتنع لوجود فضل الله تعالى المنعم

(١) رواه الطبراني عن أبي الدرداء رضى الله عنه، وراجع الترغيب والترهيب للمنذرى (٣٣٩٩):

علينا ببيان شريعته وعفوه عنا، وقد نبهنا إلى مغبة هذا للتردد، ونستغفر، ونقلع عن أهواء النفس، ووسوسة الشيطان، ورحمته بنا من أن نؤخذ بجرمنا فور ارتكابه، وإن كنا نستحقه، وأن الله تعالى من صفته أنه رؤوف رحيم، الرأفة انفعال النفس بالرفق والعطف على من يخشى عليه، وهذا بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة لله تعالى فهي صفة تليق بذاته الكريمة، وهي تقابل ما عند العبيد، ولكنها تتفق مع صفات الكمال التي يتصف بها الله تعالى، والرحمة لطف الله تعالى في الأحكام ووضعها في مواضعها سواء أكانت خفيفة أم كانت غليظة في عقاب، فالعقوبة - مهما كانت شديدة - من رحمة الله تعالى بعباده، وإن رمى الأبرياء من طاعة الشيطان، ولذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

ذكر سبحانه العواقب الوخيمة التي تترتب على تردد الإفاك على السنة الناس وإنه يترتب عليه فساد أمر المؤمنين وتشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وفي هذه الآية يشير إلى أنه من وسوسة الشيطان، ومن اتباع مسالكه، ونهى المؤمنين عن ذلك صيانة لأنفسهم، ولعقولهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ تقرأ بضم الخاء وفتحها، وقراءة الجمهور بضمها، وخطوات الشيطان جمع خطوة، وهي ما يكون بين الرجلين عند السير، وذلك يتضمن النهي عن السير في مسالك الشيطان، وعبر عن طريق الشيطان بخطواته، على أنه تعبير مجازي شبه من يخضع لهواه بمن يتبع الشيطان في خطواته، فيخطو مثله غير متجنب لها، ولا لطريقه.

ثم بين سبحانه سير الشيطان، وأن من يتبعه يتبع الفحشاء والمنكر، فقال عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ والفحشاء: الأمر الزائد في الفحش الذي يتجاوز كل حد، والمنكر: الأمر الذي تنكره العقول، والفطرة المستقيمة، ولا يقبله الناس، ولا يرضاه ذوو الكرامات، والذين يتطهرون في أقوالهم وأفعالهم.

وقوله تعالى ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، ليست جواب الشرط، بل هو يومئ إليه؛ لأنه علة، ويكون مجرى البيان: ومن يتبع خطوات الشيطان فهو منساق إلى الفساد، لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وعبر سبحانه عن وسوسة الشيطان وإغوائه بالأمر لأنه يستولى على من اتبعه، وكأنه سلطان مسيطر يأمره وينهاه، ولا سلطان على نفس الضال غيره؛ لأنه رضى مسلك الشيطان طريقا، وهو ينتهى لا محالة إلى الضلال الذى لا هداية معه قط.

وإن الله سبحانه بفضله ورحمته لا يترك الناس تحت إغواء الشيطان، ودنسه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١).

الزكاة تطلق بمعنى التنمية، وتطلق بمعنى الطهارة، وهنا بمعنى تزكية العقول فى النفس، وامتلأها طهرا، وعافا وإيمانا، أى أنه لولا فضل الله تعالى بالموعظة والهداية وتربية النفوس بالتقوى ورحمته بهدايتكم وقبولكم للحق وتجنبكم مخاوف الشيطان ما طهر منكم من أحد أبدا، وقد أكد سبحانه جواب الشرط وعمومه أولا بـ «من» الدالة على استغراق النفى للأحاد والجماعة، وأكد النفى أيضا بدخول (من) على (أحد)، كما أكد بذكر (أبدا)؛ وذلك لأن الشيطان يأتى النفوس من قبل أهوائها وشهواتها، وشهوات النفس حلوة، ولكنها وبيئة، ولكن الله تعالى لا يترك عباده جميعا تحت غواية الشيطان الرجيم، فهو يجتنب من عباده من يزكيه ويظهره فى قلبه ولسانه ونفسه، ولا يشاء الله تعالى لعبده تلك الطهارة إلا إذا سلك سبيلها، واختار نَجْدَهَا، فَيَأْخُذْهُ إِلَى مَا اخْتَارَ.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أى واسع الرحمة والفضل، عليم بمن يستحقها، فيتوجه إليه سبحانه وتعالى بأن يسلك به طريق الهداية والطهارة.

المعصية لا تسوغ قطع الرحم، والبراءة من الإفك

قال تعالى:

وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ
وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ معناها لا يحلف، من الإلية بمعنى الحلف، وائتلى افتعل من الإلية، ويروى في ذلك أن مسطح بن أثانة كان ابن خالة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، وكان فقيراً مسكيناً، ومهاجراً في سبيل الله. وحضر بدرًا ولكن زلق لسانه فخاض في حديث الإفك مع قرابته من أبي بكر، الذي كان ينفق عليه لفقره وقرابته، وهجرته، وحضوره بدرًا، فلما فعل فعلته، ولاك بلسانه سمعة الصديقة

بنت الصديق منع النفقة، وقال: لا أنفعه بنافعة قط، فنهاه الله تعالى عن ذلك^(١) وكان نهيا عاما لكل من يكون في مثل حال الصديق ومثل حال مسطح، وإن السبب يكون خاصا، ولكن الحكم يكون عاما، وهو نهى عن الحلف، وعن المحلوف به، ومؤداه أنه يجب عليه أن يرد نافعته إليه، ويستمر في النفقة ويحنت في يمينه، كما قال ﷺ: «من حلف على شيء فرأى غيره خيرا منه فليحنت وليكفر»^(٢)، ولا تصح أيمان مانعة من الخير كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ...﴾ (البقرة: ٢٢٤) [البقرة]، أى لا تجعلوها حائلة بينكم وبين أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس.

﴿الْفَضْلُ﴾ هنا هو الخلق الكريم الذى يفيض بالخير على الناس، فالمعنى ولا يأتل أصحاب الفضل الذين لا يشحون بخير على من دونهم، ومن مثل أبى بكر فى الفضل بعد النبيين، الذى كان إذا رأى من يفتن فى دينه اشتراه من وليه وأعتقه، و(السعة)، أى الخير الكثير فى المال، وبذلك يكون أولئك الفضلاء يجمعون بين الخلق الكامل والمال الثرى، يفيض بخلقه، ويعطى من ماله، يطالب هؤلاء بأن يغفروا زلات من يعطونهم، كما يغفر الله لهم زلاتهم وخطيئاتهم إن كانت، فيقول سبحانه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الاستفهام بمعنى النفى والتنبية على وجوب الغفران، أى أنه كما أنكم تحبون أن يغفر الله لكم فاصفحوا واعفوا، فإن الجزء من جنس العمل والوجدان والإحساس، والفرق بين العفو، والصفح، هو أن العفو هو عدم جزاء السيئة بمثلها، ودفع السيئة بالحسنة، والصفح هو محو آثار الإساءة من النفس، وقد أمر الله تعالى رسوله بالصفح الجميل، فقال عز من قائل: ﴿... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥) وهو الصفع مع تجافى ما يذكر بالإساءة.

(١) راجع القصة فى الموضع المشار إليه آنفا من البخارى ومسلم: وكذلك الترمذى: تفسير القرآن- ومن سورة النور (٣١٠٤).

(٢) سبق تخريجه.



وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أى كثير المغفرة
تعم رحمته بكثرتها، وذكر هذين الوصفين فى هذا المقام دعوة للناس بأن يتخلقوا
بصفات الله، وإن كانت لا تليق إلا بذاته وجلاله.

وقد يستنبط الفقهاء من هذا خطأ من يقول إن الزكاة لا تصرف لعاص؛ لأن
ذلك يتنافى مع معنى هذه الآية ومغزاها الكريم؛ ولأن منع العاصى ربما يؤدى إلى
إسرافه فى المعصية، والرفق به قد يقربه ويهديه.

وبعد هذا الأدب الكريم الذى يعم ولا يخص الصديق وابنته - بين بعد ذلك
عقاب الذين يرمون المحصنات، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢).

هذه الآية عامة فى كل من يرمى محصنة، وهى التى عرفت بالتقوى والبعد
عن الحنا، وليس موضوعه مَنْ رُمى عائشة -رضى الله عنها- بل من يكون لسانه
غير منضبط، يرسل القول إرسالاً، بين المؤمنين فى المحصنات، فهى تعم كل من
ليس عفيف اللسان يرمى النساء بالفحش، لأدنى شبهة، وإن الكامل يعف لسانه عن
النطق بالهجر.

والمحصنة هى التى لم ترتكب الحنا، وهى عفيفة عرفت بالعفة، ولم تعرف
بالفجر، ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ الغافلة هى الطيبة الطاهرة التى ليس عندها خبرة، ولا معرفة
بأحوال الناس، وشأن المرأة التقية أن تكون فى غفلة عما يلهو به الناس، لا تعرف
الرذيلة ولا ترتكبها، فيها غرارة، وسذاجة، والمؤمن كما فى الأثر: غير كريم،
والمنافق خب لئيم^(١)، وليس المراد أنها بلهاء، بل تفسر الغافلة بأنها الساذجة
المستقيمة النفس التى تعيش بالسفورة ولا تجانفها. وقد قال الزمخشري فى تفسير
معنى الغافلات: الغافلات السليمات الصدور التقيات القلوب اللاتى ليس فيهن

(١) سبق تخريجه.

دهاء، ولا مكر، لأنهن لا يعرفن الأمور ولم يرزن الأحوال فلا يفتنن لما تفتن له المجريات العارفات.

وإن الغافلات أيضا لا يتبهن لمقالات الأئمين، ولا يعملن على ردها، وسوق الفاسدين إلى القضاء ليقم عليهن حد القذف، وقذف هؤلاء أعظم جرما، وأدل على اللجاجة في الأذى والاستهتار في القول من غير تأثم ولا تحرج، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾، أى اللاتى يجملهن الإيمان، ويزيدهن عفة فوق عفتهن بالفطرة السليمة النقية الطاهرة، وقد ذكر سبحانه عقاب خسة هؤلاء الذين يرمون المحصنات الغافلات فقال: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى طردوا ونبذوا فى الدنيا، فليس لهم فيها ذكر طيب، ولا كرامة لهم، ولا احترام لخساسة نفوسهم، ولعنوا فى الآخرة فهم مبعدون عن رضا الله، وعن أن ينظر إليهم، ولا يكلمهم؛ لأنهم قد دنسوا ألسنتهم بإشاعة هذا الحجر من القول، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو دخولهم فى الجحيم.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤).

﴿يَوْمَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أى أن ذلك العذاب العظيم يكون فى يوم لا يخفى فيه آثم، ويكون كل شيء شاهدا على ما أجرموا، وقد صور الله تعالى ذلك بأن ألسنتهم تشهد عليهم بما اخترصوا فيه، وأرجلهم تشهد بما سعوا فيه بالباطل، وأفسدوا به الناس، وأيديهم تشهد بما بطشوا، وما فعلوا من آثام، وشهادتهم منصبة على ما كانوا يعملون.

هذا كله متعلق بحادث الإفك، ذكر فى بعض الآيات ما هو موضوع الإفك حول أم المؤمنين عائشة، وبعضه عام ذكر لمناسبة الحديث عن هذا الإفك الأثيم، ولقد قال الزمخشري رضى الله عنه فى هذا المقام ما نصه:

«لو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعده به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شيء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله تعالى عليها، ولا أنزل آية من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البالغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه عن طرق مختلفة وأساليب مفتنة،

كل واحد منها كافٍ في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله»^(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢٥).

﴿يَوْمَ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ والآية السابقة كانت مشتملة على الإثبات يوم القيامة وأنه كان من جوارحهم التي تشهد عليهم، وهي شهادة صادقة، وهذه الآية تبين الحكم، وهو العقاب الشديد، والدين هنا هو الجزاء الصارم الشديد، فد (الدين) تحيء بمعنى الجزاء والحساب، يوفيهم جزاءهم الحق الذي استحقوه بأقوالهم الأثمة، وعندئذ في هذا يعلمون الله، وصدق وعيده، فيعلمون أنه سبحانه هو وحده الحق المبين، ويعلمون أن ما أشركوا به كان باطلاً، ولا حق إلا الله، ولا يعبد بحق سواه، تبارك الله وتعالى أحسن الخالقين.

بعد ذلك بين - سبحانه - براءة عائشة من الإفك، فقال عز من قائل:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦).

وهذا برهان منطقي مستمد من واقع الحياة، وما يختاره الله تعالى للناس، وهو التجانس بين الأزواج في الأخلاق والأعمال والأقوال.

الخبِيثَات جمع خبيثة، وهل المراد وصف النساء أم وصف الأقوال؟ قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وجمهور مفسري السلف: ويكون المعنى أن خبيث الأقوال، إنما ينطبق على خبيث الرجال وقد حصرت فيهم، وكذلك الخبيثون انحصروا في خبيث الأقوال لا يعدونها، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾، أى الأقوال الطيبة تنحصر

(١) راجع الكشف للزمخشري: ج ٣/ ٥٧.

فى الطيبين من الرجال، وهم منحصرون فيها لا يتجاوزونها إلى خبيث الأقوال، وقد عد هذا احتمالاً فى الآفة الزمخشري، والاحتمال الثانى الذى ذكره أن المراد بالخبيثات النساء، وكذلك الطيبات، وإلى هذا نميل، فليس موضوع الكلام خبائث الأقوال، وطيباتها، إنما موضوعها البريئات من النساء والبرآء من الرجال الذين يرمون بخبث القول، فهى أولى بأن تفسر بموضوعها.

والخبيث هو من قام به الخبث، وهو الرجس الحسى، وقد شبه الرجس المعنوى، وهو فساد النفوس وارتكابها موبق الأفعال من زنى وشرب خمر وسرقة، واختلاس واغتصاب بالخبث الحسى، كما فى قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...﴾ (٢٨) [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ هو من قبيل القصر؛ لأن فيه تعريفاً للطرفين، ومعنى ذلك أن الخبيثات لا يكن إلا للخبيثين من الرجال، أى لا يمكن أن يكن أزواجا إلا للخبيث من الرجال، إذا لا يقدم عليهن إلا مثلهن، وكذلك كان القصر فى الجملة الثانية، والخبيثون للخبيثات، أى انحصر زواج الخبيثين فى الخبيثات من النساء، أى لا ترضى بواحد منهم زوجا لها تجتاز معه مرحلة الحياة إلا الخبيثات من النساء، فلا ترضى شريفة طيبة برجل خبيث النفس والقول والعمل.

وكذلك الطيبات للطيبين هو أيضا فيه قصر بتعريف الطرفين، أى أن الطيبات من النساء لا يقبلن إلا زواج الطيبين؛ لأن الطيبة الكريمة لا ترضى أن تكون فراشا إلا للطيب الكريم، ولا يرضى ذووها إلا بكريم طيب ذى خلق ودين، والطيبون ذوو الأخلاق الذين لا يختارون إلا كريمة ذات خلق ودين، والشرط الأول كقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ...﴾ (٣) [النور].

﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الإشارة هنا إلى الطيبين والطيبات؛ لأنهم الأقرب فى الذكر ولأنهم الذين يأتهم الخبيثاء بالقول القاذف فيهم، والتبرئة لا تكون إلا لمن يرمى بالقول الخبيث.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أما المغفرة فهي أن الله تعالى يغفر لهم من اللوم، وبعض السيئات بسبب القذف الآثم لهم فإنه ينتقص من سيئات المظلوم بمقدار اعتداء الظالمين، والرزق الكريم هو الحسنات في الدنيا، وجزاؤها في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿... وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٢١)﴾ [الأحزاب].

والآية الكريمة عامة تعم نساء النبي ﷺ، ونساء المؤمنين، وهي مع عمومها تدل على براءة أم المؤمنين عائشة من ناحية التصريح بكل طيبة ترمى، فقد صرح سبحانه بالبراءة، في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وبرأها سبحانه بتضمين القول الدال على انحصار الخيث من القول في الخبثاء والخبثات، وانحصار الطيب من النساء والرجال في الطيب من الأخلاق والأقوال. . وإذا كان زوج كل طيب طيبة فزوج أطيب الرجال في الإنسانية أطيب النساء، والله واسع عليم.

أدب البيوت وصيانتها

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ
قِيلَ لَكُمْ آرِجِعُوا فَآرِجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

كان الكلام السابق فى رمى الأبرياء وحد القذف، واللعان، وحديث الإفك، وما يستوجه رمى المحصنين والمحصنات إذا كان صادقا من شهادة أربعة من الشهداء، وقد يدفع الفضول بعضهم إلى أن يفشى سر البيوت لتأكيد مظنة الزنى، فجاء النص الكريم باحترام حرمة البيوت، دفعا لهذه، ومنعا لغشيان البيوت وانتهاك حرمتها وصيانة الأسر، فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾.

النداء للذين آمنوا، وفى ذلك إشارة إلى ما يطلبه سبحانه من خواص أهل الإيمان، وهو من الأدب الذى يناسب إيمانكم وهو عدم التهجم على الأسر، وتكشف أستارها، وتحاشى إزعاجها، و(تستأذنوا) أى تطلبوا الأئس بأهلها وتزيلوا الوحشة التى تحدثها المفاجأة، والسين والتاء للطلب، وقالوا: إن معنى ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾، حتى تستأذنوا، وقيل إن ثمة قراءة قرءوا حتى تستأذنوا^(١)، ونقول: الاستئناس أدق فى التعريف وأدل على الاستعلام؛ لأن الاستئذان الإذن المجرد، وتحقق الإجابة بالإذن، أما الاستئناس فطلب الأئس وإزالة الوحشة، وذلك لا يتحقق بمجرد الإذن بل لابد لتحقيقه من إيجاد الألفة، وهو يتضمن فى تحقيق طلب الإذن، والاستجابة بالإذن فعلا.

وإن هذا يتضمن فى معناه ومغزاه النهى عن التجسس والتحسس، وظن السوء، وأنه يجب أن يظن خيرا.

وإنه من تمام الاستئناس السلام، ولذا قال تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ ولقد كان النبى ﷺ إذا أراد أن يدخل بيتا سلم ثلاث مرات^(٢)، ولا يكتفى بسلام واحد إعلاما لمن يدخل عليهم، واستئناساً لهم، وإزالة لوحشة المفاجأة، والبيوت: الظاهر أنها ليس الدور، إنما هى محل البيات حيث تكون العورات مظنة أن تكون مكشوفة

(١) قراءة حتى تستأذنوا، ليست من القراءات المتواترة.

(٢) البخارى: الاستئذان- التسليم والاستئذان ثلاثا (٥٧٧٥)، والترمذى: الاستئذان والآداب

(٢٦٤٧). عن أنس رضى الله عنه.

غير مستورة، فإذا كانت الدار ذات بيوت فى كل بيت منها سكن كان الاستئناس والسلام واجبين، وقد ذكر فى أدب السلف الصالح أنه إذا وجد البيت بابه مفتوحاً، يستأذن وهو واقف بجانب منه.

وننبه هنا إلى أمرين:

أولهما: أن السلف الصالح كانوا يذكرون أسماءهم عند الاستئذان والاستئناس، فعمر رضى الله تعالى عنه استأذن على النبي ﷺ فقال عمر، وكذلك أبو موسى الأشعرى، ويكره أن يقول المستأذن: (أنا، من غير ذكر اسمه)^(١).

ثانيهما: أنه يستأذن على محارمه وغيرهم، وروى أن النبي ﷺ سئل من رجل: أيستأذن على أمه؟ فقال: نعم، أترضى أن تراها عارية^(٢).

وفى الحق: إن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب. أولها: أن يكون صاحب البيت ليس على حال يصح للقاء واستقبال الناس. وثانيها: احترام الملكية، سواء أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجراً، وثالثها: إزالة وحشة المفاجأة.

وقد ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله عز من قائل: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الإشارة إلى هذه الآداب الكريمة، والخطاب لمن وجه إليهم الخطاب فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾، وكان الخطاب بلفظ الجمع؛ لأن المخاطبين جمع، وتكون «ذلك» بالخطاب المفرد، إذا كان المخاطب محمداً وحده، وإنه بتقصى ذلك فى القرآن تثبت هذه التفرقة فى الخطاب. وقد خاطب بالإشارة بأمرين:

أولهما: أنه «خَيْرٌ لَّكُمْ»، لكى تصان الأعراض، وتستتر العورات، ولا يكون نطاق اتهام، ونفور بالاستبحاش، وحيث كشفت الأستار كانت الفتن وكان ظن السوء، ففسود القطيعة، والتفاحش، ورمى الأبرياء.

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: أتيت النبي ﷺ فى دين كان على أبى فدققت الباب فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا، فقال: «أنا» أنا!! كأنه كرهها. رواه البخارى: الاستئذان - إذا قال: من ذا؟ قال: أنا (٥٧٨١)، ومسلم: الآداب: كراهة قول المستأذن أنا، إذا قيل له: من هذا.

(٢) رواه مالك فى الموطأ: الجامع - الاستئذان (١٥١٩) عن عطاء بن يسار رضى الله عنه.

ثانيهما: رجاء التذكر وتعريف المصلحة وتحري الاحتشام، حتى من الآباء والأمهات.

وقد ذكر سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨).

الآيتان متصلتان، وهذه الآية تفريع على الآية السابقة، فالسابقة فرض فيها الإذن بعد الاستئناس والسلام، وإن كان فيها أناس استئذنوا، واستئنسوا، وسلموا عليهم، وهذه الآية مفروضة في جزء منها في حال إذا لم يجدوا أحدا، والجزء الثاني مفروض فيه إذا لم يكن إذن، بل كان الأمر بالمنع والرجوع.

فأما الجزء الأول فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فاصبروا حتى يوجد أو يحضر من يأذن لكم من أهل البيت، وقد يقال: إنه لا أحد يخشى الاطلاع على المستور من عوراته، وقد أجاب الزمخشري على ذلك الاعتراض بقوله: «ذلك أن الاستئذان لم يشرع لثلا يطلع الدامر على عورة، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط، إنما شرع لثلا يقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها، ولأنه تصرف في ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه، وإلا أشبه الغصب والتغلب»^(١).

الفرض الأخير هو حال الرجوع، بين سبحانه حال الإذن، وحال خلو البيت وبقيت حال الرد، وطلب الرجوع وعدم الدخول، وهذا كما ترى متشعب عن الاستئناس، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ والفاء واقعة في جواب الشرط، و«أزكى» معناها أظهر وأكرم؛ لأنها لا تصح اللجاجة، فإن ذلك يكون خسة بكم، ولا يليق بكرامة الكريم.

ويقول الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ألا تلحوا في إطلاق الإذن ولا تلحوا في تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الأبواب منتظرين؛

(١) الكشاف للزمخشري: ٥٩/٣. والدامر في قوله: لثلا يطلع الدامر، أى الهالك الذى لا خير فيه. لسان العرب (دمر).

لأن هذا ما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس وخصوصا إذا كانوا ذوى مروءة، ومرتابين بالآداب الحسنة، وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إلى ذلك بعنف، والتصحيح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل من لم يتهذب من الناس.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ بمعنى الطهر، أى هو أطهر لكم، وأكرم، وأتمى لمروءتكم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، أى الله تعالى يعلم ما فيه خيركم وطهركم واليق بكرمائكم، وما يبعد المنافرة بين جماعتكم، وأنتم لا تعلمون خيركم، ولا ما فيه طهارتكم وسموكم، ومعرفة الفاضل من أموركم، أى الله تعالى يعلم ما تعملون من خير وشر ولائق وغير لائق، عليم به، وقدم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾ للأهمية وللإختصاص، وقبل الكلام فى معانى هذه الآية الحكيمة وما قبلها نقول: إنه سبحانه لم يقل: فإن لم يأذنوا، بل قال ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ للإشارة إلى أن عدم الإذن يتضمن الأمر بالرجوع يفهمه ذو الإحساس المرهف المدرك المنفذ لما يكون فيه حفظ للمروءة وصون للكرامة، وذلك يشير إلى منع اللجاجة، وألا يدخلوا بيوتا لا يرغب فى دخولهم أصحابها، وقد بين الله تعالى ما يرخص فيه من دخول بيوت غيرهم، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩).

الجناح الإثم، وتنكيره ليعم، أى ليس إثم فى أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم، أى طعام أو أى شيء يقتنى ويتفنع به من فرش وثياب، وأمتعة، وغيرها، وقيد سبحانه وتعالى أن تكون غير مسكونة، فلا يترتب على الدخول كشف للأستار، ولا انتهاك للحرمات، ولا تهجم، وقد يقال: إن فيها اعتداء على حق الملكية، ونقول: إنه ليس فيها اغتصاب، بل إنه دفع ضرر أكبر من ضرر الدخول، إذ إنه لو لم يتمكن من الدخول ربما يتلف المتاع إذا لم يسارع إلى أخذه، فلصاحب المتاع نفع، ولا ضرر على صاحب البيت مطلقا، وقد وضع محمد ﷺ

بقبس من القرآن أنه يمكن لصاحب الحق من دفع الضرر عنه ما دام ذلك لا يضر أخاه، وقد قالوا: إن ذلك يتحقق في الخانات التي تكون مخصصة لنزول التجار من المسافرين، يتركون فيها بضائعهم، ثم يعودون لأخذها، ونحو ذلك من الدور التي توضع فيها الأمتعة، ولا يسكنها الناس إلا قليلا.

ويبين الله سبحانه وتعالى أنه يعلم الظاهر والباطن ويعلم ما تخفون من نيات تكتُمونها، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، أى يعلم ما تظهرونه من أعمالكم، ويعلم ما تخفونه من نيات وتستبطنونه صدوركم فهو وحده علام الغيوب.

غض البصر

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ
 ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
 يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
 زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
 آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
 أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ
 الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ

وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

غض البصر هو النقص من النظر بحيث لا يعين بالنظر، ولا يحاول أن يتقصى أطراف من ينظر إليه، و(من) في قوله تعالى: ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ إما أن نقول: إنها لتقوى الأمر بالغض، أى غضوا أبصاركم أى غض، فلا تمنع فى شيء من النساء، وإما أن نقول إنها للتبعيض، أى تغض من بعض بصرك، والبعض الذى يغض عنه هو الإمعان والتتبع، والاستمرار فى النظر حتى تغيب عنه، لا ينفلت بنظره عنها، فذلك هو المطلوب من الغض، أما نظر الفجأة فمعفو عنه، ولذا قال النبى ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإنما الأولى لك والثانية عليك»^(١).

ولقد قال ﷺ فى معنى هذا: «ياكم والجلوس فى الطرقات، فقالوا: مالنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها، فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»^(٢).

وابتداً سبحانه وتعالى بالأمر بغض البصر؛ لأنه الباب الأكبر إلى القلب؛ ولأن النظرة المريبة ذريعة إلى أكبر الفحش؛ ولأن النظر المحصف يناقض الحياء؛ ولأنه يؤذى النساء، فيمنعهن من قضاء شئونهن خارج منازلهن، ومالهن بد من أدائها؛ ولأن غض البصر، ينشر اللياقة والحياء العام، والحياء خير كله.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ معطوفة على الأمر بغض الأبصار الذى كان عاماً، ولذا جمعت الأبصار، وذلك لتطهير البيئة الاجتماعية الإنسانية، فإن سلامة البيئة تجعل

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذى، وأبو داود، وأحمد، والدارمى.

(٢) رواه البخارى: الاستئذان - قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا...) (٥٧٦١)، ومسلم: اللباس والزينة - النهى عن الجلوس فى الطرقات (٣٩٦٠). من رواية أبى سعيد الخدرى رضى الله

الرأى العام صالحا طيبا طاهرا فاضلا يحث على الفضيلة، ويمنع الرذيلة، وفوق ذلك أمر بحفظ الفروج، والفروج جمع فرج، وهو سوء المرأة وسوء الرجل، وحفظها بسترها، ومنعها مما حرم الله تعالى، وهو الزنى، فإن الزنى يعرضها للأمراض الخبيثة، ويمنع النسل، والفروج تشمل فروج الرجال والنساء معا، وخوطب الرجال بحفظ فروج النساء بسترهن، ومتعهن بما أحل الله، وألا يؤذوهن بالفاحشة، وألا يعرضوهن لها، ولما حرم الله تعالى، فالرجل مسئول عن حشمة النساء، وهو الحريص عليهن.

﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ ذلك، وهو غض البصر، وحفظ الفروج، أظهر لكم فيكون المجتمع طاهرا نقياً سليماً، والبيوت طاهرة سليمة، وهم فى ذات أنفسهم أطهار طيبون، ويكونون خيراً فى خير يظلمهم الخير دائماً، ويكونون فى قبة من الفضيلة تظلمهم، وتؤدى بهم جميعاً إلى جنة الآخرة، كما كانوا فى ظلة من الفضيلة فى الدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ هذا النص فيه تهديد وتبشير، فيه تبشير للأخيار إن استقاموا على الطريقة المستقيمة وفيه إنذار للفساد؛ لأنه سبحانه عليم علماً دقيقاً بما يصنعه كل واحد من الناس، و﴿يَصْنَعُونَ﴾ أدق فى الدلالة على العمل من: يعملون؛ لأن يصنع معناها يفعل ويصير عادة له كعادة الصانع فى صنعته.

ويلاحظ أن الخطاب كان من الله تعالى للنبي ليأمر المؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم؛ لأن ذلك من تبليغ النبي ﷺ ربه، وقد ذكر الله تعالى أولاً غض البصر للرجال ثم ذكر سبحانه أمره للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يطالب المؤمنات بغض البصر أيضاً، كما طالب المؤمنين فقال عز من قائل:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

الأمر للنبي ﷺ بأن يقول للمؤمنات كما قال للمؤمنين ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ ألا يمعن النظر فى الرجال فإن ذلك يغريهن بالفتنة، كما يغرى الرجال

الإمعان فى النظر إليهن، وقد روى فى بعض الأخبار أن محمداً ﷺ سأل فاطمة ابنته خير نساء المؤمنين: ما عفة المرأة؟ قالت: ألا ترى رجلاً وألا يراها رجل^(١)، وليس معنى ذلك إلا أن تغض بصرها عند رؤية الرجال، وإن نظرات النساء الممعة فيهم تغرى الرجال وتغريها، إذا كان فيمن تنظر إليه ما يحبه للنساء، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بسترها فلا تبدو، ويمنعها مما لا يحل، وحفظها من الأمراض الخبيثة التى تفسد النسل والجسم. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ بأن يتبرجن، ويظهرن فى حلية تغرى، وقد قال تعالى فى معنى هذا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)﴾ [الأحزاب].

واستثنى من النهى عن إبداء ما تظهر منها من غير قصد إلى إظهارها: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من غير قصد الإعلان عن جمالها، وقالوا: إن الوجه والكفين ظهورهما مقبول فى الصلاح لا يمنع صلاحها فيكون ظهورها فى الحياة العامة ليس من إبداء الزينة المحرم، وقال ابن عطية من فقهاء المالكية «يظهر لى بحكم ألفاظ الآية بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى، وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه أو إصلاح شأن» والخلاصة أن الممنوع ما تبديه المرأة من زينة لتلفت الأنظار إلى محاسنها، ومفاتنها، فيكون ذلك إغراء للرجال، أما ما ظهر منها من زينة من غير محاولة إبداء له إغراء، وتبرراً للرجال فإنه لا بأس به.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الجيوب فتحات الصدر التى تبدو منه أجزاء من الجسم، وهذه من العورة، والخمر جمع خمار، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ أى ليضعن الخمر على هذه الجيوب التى ترى منها الصدور، فيستر ذلك الجزء من عورة المرأة؛ لأن عورة المرأة الحرة كل جسمها، ومن النساء فى هذه الأيام من يبدن بعض أجسامهن على أنه من الزينة التى تغرى الرجال.

(١) رواه فى رواية أطول من هذه: الدارقطنى فى الأفراد من رواية الحسن البصرى عن على رضى الله عنه، وقال: هذا حديث حسن غريب. كما فى كنز العمال (١١/٤٦٠): ج ١/ ٣٤٤٠.

هذا أمر عام للنساء بالأبدين شيئاً من الزينة إلا الذى يظهر فى ذاته؛ لأن منع ظهوره فيه ضيق وحرَج، وما جعل عليكم فى الدين من حرج.

وقد استثنى سبحانه وتعالى المحارم الذين يخالطون المرأة من إبداء الزينة أمامهم؛ لأن هؤلاء محرمون عليها؛ ولأنها لو منعت الزينة عن رؤيتهم تكون هى فى حرج، هى وزوجها.

وأول هؤلاء بعولتهن، فإن إبداء الزينة لهن من المستحسن من غير استهجان فإن الرغبة فى زوج تعفه، وتبعده عن الرذيلة.

الطائفة الثانية أبائهن، فإنها قطعة منه، وهو رحم محرم منها، وزينتها تسره، ولا تضره، ولا تغريه.

الطائفة الثالثة: آباء بعولتهن فإن أبا الزوج محرم لها، ولا يغرى بامرأة ابنه إلا لثيم، ومن يخرج عن الفطرة السليمة.

الطائفة الرابعة: أبناءهن فإنهم قطعة منها، ولا يغرى بأمه إلا خبيث النفس.

الطائفة الخامسة: أبناء بعولتهن، فإنه ربيها كابنها.

الطائفة السادسة: إخوانهن، وبنو إخوانهن.

الطائفة السابعة: أخواتهن، وبنو أخواتهن.

الطائفة الثامنة: نساؤهن. أى نساء المؤمنات فإنه يجوز إبداء الزينة أمامهن.

الطائفة التاسعة: أو ما ملكت أيمانهن، «ما» تشمل ما ملكت اليمين من العبيد والإماء، ولكن هنا المختص بما ملكت اليمين الذين تبدى المرأة لهن زينتها الإماء، لأنه لا يصح أن تبدى زينتهن أمام الرجال، وعلى ذلك أكثر فقهاء الأمصار، وروى غير ذلك عن بعض فقهاء الصحابة والتابعين، وعندى ألا يبدى زينتهن للعبيد، فإنهم رجال يشتهون، وليس عندهم من الكرامة ما يحملهم على التعفف، ولعل الدين ليس له تأثير قوى عند أكثرهم، ومن العبيد من يكون ذا جمال تشتهيه النساء، وقد كان بعض النساء فى عهد الإمام عمر -رضى الله عنه- من تأولن آية سورة النساء فى قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ (٢) [النساء]، فملكت

نفسها عبدها من مقايضة النساء على الرجال، وقد منعها عمر، وروى أنه عزرها بمنع زواجها من الأحرار.

لهذا نرى أن قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ الظاهر من تخصيصها بالنساء أما العبيد الرجال، فهن وبقية الرجال على سواء في المنع من ألا يبيدين زينتهن لهم، صونا للبيوت ولكرامة النساء، ولحرمة البيوت الطاهرات.

الطائفة العاشرة: ما ذكرها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾.

﴿الْإِرْبَةِ﴾ معناها الحاجة إلى النكاح، وقد اشترط فيهم أن يكونوا تابعين، وألا يكونوا مشتتهين للنساء، إما لأنه ثبت أنه عنين، أو شيخ فإن قد انتهى أمد شهوته، أو خصي أو مجبوب، وهو تابع في البيوت يؤاكل النساء ويخالطهن، وفي إبعاده حرج لهم ولهن.

وفي الحق: إن الآية ذكرت الوصف، ولم تذكر النوع، فكل من لا يكون له أرب أو شهوة كالشيخ الفاني القاعد في البيت قابعا، وثبت أنه لا أرب له في النساء، ولا يشتهي منهن حتى النظر، فإنه في موضع الاستثناء.

وقد ألحق بهؤلاء غير أولى الإربة المختثين من الرجال الذين كانوا يخدمون في البيوت في المدينة، ويطلعن على عورات النساء، ويبدى النساء زينتهن أمامهم، وشك النبي ﷺ لسماعه أحدهم يصف المرأة قائلا: تقبل بأربع، وتدبر بثمان. وهذا وصف لا يقوله إلا من يمعن النظر، وفي نظرتة شهوة، فأمر بإبعاد المختثين عن البيوت^(١)، والأمر في معرفة غير أولى الإربة إلى الملاحظة واحترام النفس والكرامة.

الطائفة الحادية عشرة: هي ما ذكرها الله سبحانه بقوله: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الطفل اسم جنس أى جمع أطفال، ولذا عاد الضمير

(١) رواه البخارى: المغازي- غزوة الطائف (٣٩٨٠)، ومسلم: السلام- منع المختثين الدخول على الأجانب (٤٠٤٨). من رواية أم سلمة رضى الله عنها.

ضمير جمع فى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، أى لم يعلموا عورات النساء يقال: ظهر عليه أى علمه واطلع عليه، يقال ظهرت على كذا أى علمته، أى يرون المرأة، فلا يفرقون بين العورة وغيرها، وهذا دليل على كمال الغفلة عن العلاقة بين الرجل والمرأة، فهؤلاء يستنون من إبداء الزينة أمامهم، فإن نظراتهم، ليس فيها شهوة منبعثة، وهناك حرج على النساء فى إخفاء زينتهن عنهم، ولا يوجد ما يدعو إلى الوقوع فى الحرج، فسبب المنع غير قائم، والباعث عليه غير موجود.

هذا هو الأمر بالنسبة لإبداء الزينة، ما منع منه، وما استثنى فى أحوال قد تقصيناها حالا، حالا.

وقد قال تعالى بعد ذلك عاطفا على النهي، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾، أى لا تضرب برجلها ليعلم الناس ما تخفيه من خلخال أو زينة على الساق، وإن النهى عن هذا يتضمن النهى عن الضرب فى ذاته بحركة غير محتشمة، تتلوى فيها المرأة تلويا مغريا، ثم إنه يبدى الزينة المغرية المشتهاة، وقد قال الغزالي: إن الصَّبَّ المتيم يثير شهوته سماع صوت الهون تدق به حبيبة.

وفى الجملة: إنه يجب التستر فى كل شيء، فلا يبدو منها ما يثير النظر أو الشهوة، وإن النفوس قد تغفل عن بعض هذا الواجب وهو غض البصر، ولذلك ختم الله تعالى الآيتين بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أمر الله سبحانه وتعالى بالتوبة مما عساه يكون قد غفلوا عنه من أمر الغض الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب، ولتظهر منه السرائر، كما تطهرت المظاهر، وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ ليعم الأمر بالتوبة الذكور والإناث، فقد يدخل البيوت من يظن فيه الخير، وليس خيرا، وقد يكون تأثم من إدخاله إذا تبين فساد نفسه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أى تفوزون، والرجاء من العباد، لا من الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى.

النكاح هو الحصن

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنَّ
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلَيْسَتْ عُفَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا
تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ۚ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنَ لَنُتَبَّغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا
مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴿

كانت الآيات السابقة فيها ما يصون الأسرة في كيانها، وما فيه صيانة النساء من قول السوء، وأن تمس عفتهن بالأنظار الجارحة، فأمر الرجال بغض البصر، وأمر بأن تكون نظرات النساء غير مغرية لأهل السوء، وألا يكون إبداء الزينة مغريا لأهل الدعارة والفساد، وكل هذا كان لحماية النفوس من الشر، وبعد ذلك بين الأمر الإيجابى الذى يصون المرأة، وهو سبيل العفة، وطريقها، وهو النكاح، فقال عز من قائل: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

أنكحوا أى رُوجوا، فالنكاح هو الزواج، والإنكاح هو التزويج، والخطاب للأولياء على النساء الذين لهم ولايتهم بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾ (٣٤) [النساء] ويصح أن يكون الخطاب للأمة فى مجموعها بأن

يسهلوا زواج الأيامي، وتكون الأيامي شاملة للرجال والنساء، ويكون الأمر بالنكاح هو الأمر بتسهيله وإشاعته، وتمكين كل بالغ وبالغة، فإنه حيثئذ يعف النساء والرجال معا، ويكون غض البصر في الطرقات والبيوت، وألا يكون شيء يجبر إلى الشر في المجتمع الإسلامي، فيكون طاهرا متنزها، لا يظهر فيه إلا الخير، وتختفى المنكرات ونحن نميل إلى هذا التخريج.

والأيامي جمع أيّم، وهو غير المتزوج من النساء والرجال، وقال أهل اللغة الأيم في الأصل هو المرأة، ومنه قوله ﷺ: «الأيّم أحق بنفسها من وليها» سواء أكانت بكرًا أم كانت ثيبا، ولقد قال النبي ﷺ: «أما امرأة تأمّت على ولدها الصغار حتى يبلغوا، أو يغنيهم الله من فضله كهاتين في الجنة»^(١)، وأشار بأصبعيه، ولكنه على سبيل المجاز المشهور أطلق على الرجل، وإن ذلك أوضح، وأبين.

أمر الله تعالى في هذه الآية بتسهيل زواج ثلاثة:

أولهم الأيم من الرجال والنساء الأحرار، وذلك بتسهيل الزواج، وألا تكون عوائق من أعراف بين الناس تصعب الزواج من مهور مفحشة، وجهاز مرهق مانع، ومساكن مستعلية في السكن، ويكون كما قال النبي ﷺ: «خير الزواج أيسره كلفة»^(٢).

وثانيهم وثالثهم الصالحون من العباد والإماء، فيزوج السيد عبده إن أراد العبد أن يتزوج، ويكرهه على الزواج إن خشى عليه العنت، أو أن يقع في الزنى إن لم يتزوج فإنه يكون الزواج فرضا، والمستول عن العبد هو مالكة فعلية أن يعفه، ويمنعه من الزنى، ولا طريق للمنع عنه إلا تزويجه، فكان التزويج فرضا على المالك؛ لأن

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبَكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا». رواه مسلم: استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر... (٢٥٤٥)، والترمذي:

النكاح - ما جاء في استثمار الثيب والبكر (١٠٢٦).

(٢) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ النَّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مُؤَنَّةً». رواه أحمد: باقى مسند الأنصار - حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٣٣٨).

الزواج فرض على العبد، وعبر بالصالحين من عبادكم وإمائكم؛ لأنهم الذين يرغبون في الصون والعفاف.

وكذلك الأمر بالنسبة للإماء إن خشى عليهن العنت يكون واجبا عليها أن تتزوج، وهى لا تملك نفسها، بل يملك الولاية عليها مالکها، فيكون التزويج فرضا عليه، فإن لم تره وأراده كان له أن يكرهها، وقد أجمع الفقهاء على أن التزويج على الأمة ولاية إجبار لا اختيار لها فيها.

وعباد جمع عبد، وإماء جمع أمة.

إذا كان واجبا على الجماعة أن تسهل الزواج وتشيعه لأنه سنة الإسلام، فإنه لا يصح أن يحول الفقر منه بين الزواج، فإن المال مال الله غاد ورائح، فقير اليوم قد يكون من بعد غنيا، ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله تعالى يعطى من يشاء، ويغنى من يشاء، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى واسع الرحمة والعطاء، عليم بمكان الحاجة وموضع العطاء.

وإن هذا النص يشمل الأحرار؛ لأنه قد يكون فقيرا، أما العبيد أو الإماء فلا مال يملكونه، وقد يدخل فقراء الملاك في العموم أيضا.

ثم قال تعالى فى علاج حال الفقراء، فقال عز من قائل:

﴿وَلَيْسَتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

اللام لام الأمر، و«يستغفر» السين والتاء للطلب، والمعنى ليطلب العفة ولا يتجافى سبيلها والوصول إليها والحصول عليها، إنما يسلك كل المسالك لطلبها، فهى طلب للجهاد فى العفة والحصول عليها ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أى مهيات النكاح من مهر ونفقة، ومسكن إلى آخر ما يكون سببا للنكاح أو تمهيدا له، فالتعبير بالنكاح ذكر للمسبب وإرادة للسبب، ومن لم يجد مهيات النكاح لا يجد النكاح، وأسباب الاستعفاف كثيرة منها ضبط النفس، ومنها الصيام، ومنها الانشغال بالعبادة وتلاوة القرآن، وقد قال النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة

فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١) الباء تكاليف الزواج التي يمكنه أن يبوء بها في هذه العقدة المباركة، والصوم يتضمن معاني روحانية والتجرد من الملاذ والأهواء، ويتضمن الصبر وضبط النفس، وقرع الشهوات، والوجاء قطع الشهوات، ودفع سيطرتها، فتكون الشهوة أمة ذلولاً، ولا تكون سيداً مطاعاً، تخضع له النفوس وتتطامن، وتخنع.

وإن الاستعفاف يستمر حتى يغنيهم الله من فضله، فهو يستمر ضابطاً نفسه مسيطراً عليها، حتى يغنيه الله تعالى من فضله أى بفضله ورحمته، وهو ذو الفضل العظيم.

وإن هذا الاستعفاف للأحرار من الرجال الذين لا يملكون بقاء النكاح، فما حال الرجال العبيد الذين لا يملكون أسباب النكاح، ولهم فيه رغبة، ولا يزوجه مواليتهم، فما الذى يستطيعونه، شرع الله تعالى لهم المكاتب وطالبهم بأدائها، وأمر المولى أن يجيبوهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾، كلام مستأنف له صلة بالكلام السابق، و﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون راغبين متشددين فى الطلب، والكتاب مصدر كاتَبَ يُكَاتِبُ؛ لأن مصدر فاعل، فعَال أو مُفَاعَلَة كقتال ومقاتلة، وعناد ومعاندة، فمعنى الكتاب المكاتب، أى إن طلبوا المكاتبه ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ والفاء هى كالفاء الواقعة فى جواب الشرط؛ لأن الاسم الموصول، ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ فى معنى فعل الشرط، والمكاتبه اتفاق بين المالك والمملوك على أن يتركه حتى يحصل على قدر من المال يتفقان عليه، فإن أنفذه وأداه عتق، وقد شرع الله ذلك العقد تسهيلاً لفك الرقاب من غير ضياع حق للمالك، وتعليق الأمر بالمكاتبه على قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ والخير هنا الأمانة والاستقامة والقدرة على السعى للحصول على مال المكاتبه، وقال

(١) رواه البخارى: الصوم- الصوم لمن خاف على نفسه العزبة (١٧٧٢)، ومسلم: النكاح- استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه ووجد (٢٤٨٥). من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

الظاهرة وبعض الفقهاء: إن الأمر هنا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ للوجوب بمقتضى ظاهر الأمر، أى إن الأمر هنا للوجوب بمقتضى ظاهر اللفظ.

وإنه من الواجب أو المندوب أن يؤتيهم القادرون ما يستعينون به على فك رقابهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أعطوهم من المال الذى أعطاكم الله تعالى، ونسبة المال إلى الله تعالى فيه حث على الإعطاء؛ لأنه بمال الله الذى جعلكم مستخلفين فيه، فكان حقا عليكم بمقتضى هذا الاستخلاف أن تعطوه لعيال الله تعالى، وهم الفقراء الأرقاء الذين يحتاجون ليفكوا رقبتهم، وقد أوجب الله تعالى ذلك فجعله مصرفا من مصارف الزكاة، وهو يصرف فى الرقاب فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ (٦٠) [التوبة].

وقال الفقهاء: إن سهم الرقاب ينفق فى معاونة المكاتبين حتى يسدوا ما عليهم، وتسارع لهم الحرية.

وقد نهى سبحانه عن إكراه الإماء على البغاء، وهو طلب المرأة للزنى، وقد كان رأس النفاق عبد الله بن أبى ابن سلول عنده ست إماء كان يكرههن على البغاء ويأخذ أجورهن وهو سحت؛ لأن مهر البغايا سحت، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنِ ارَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الفتيات المراد بهن الإماء، وعبر عنهن بالفتيات لنقصد بالقرآن، والنبي ﷺ إذ يقول: «لا تَقْلُ عِبْدِي وَأُمْتِي بِلَ قُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي»^(١) وللحض على عدم إكراههن على البغاء لأنهن فتياته، فلا يسوغ إكراههن؛ ولأن التعبير بالفتاة فيه إيماء إلى صغرهن؛ وأنه مرغوب فيهن مبغى طلبهن ولسن عجائز يرغب عنهن، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ارَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، مبالغة فى اللوم والتأيم، والتحصن إرادة حصن العفة يتحصن به، ولا يجعلن أنفسهن متاعا يستفرشه الرجال فى حرام.

(١) رواه بنحو من هذا مسلم: الألفاظ من الأدب وغيرها- حكم إطلاق لفظ العبد على المولى (٤١٧٧)، والبخارى: العتق (٢٣٦٦) من رواية أبى هريرة رضى الله عنه.

وليس معنى التعليق أنهم إذا كن يسيغن البغاء يكرهن؁ إاما الشرط لتحقيق معنى الإكراه؁ فهو لا يكون إلا حيث تكون إرادة التحصن وهو توبيخ لمالك الأمة التي تفعل؁ فهي الأمة تأبى أن تكون بغيا؁ وهو الذى يريد لها بغيا؁ ويقول سبحانه: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وعرض الحياة الدنيا هو المال من طريقه الرخيص الذى لا يرضاه؁ وهو أدنى طريق وأحقره.

ثم يقول تعالى فى بيان أن الله تعالى يعفو عن هؤلاء المكروهات؁ ويكون إثم الإكراه على مواليهن؁ فقال: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؁ أى إن الله يغفر لهن هذا الذنب الذى كان بإكراهه؁ وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ للإشارة إلى أن الفعل الآثم يكون من بعد الإكراه وبسيبه؁ فالله يغفر ذلك الإثم؁ لأنه غفور رحيم.

هذه الأحكام كلها لصيانة المجتمع الإسلامى وليكون طاهرا لا دنس فيه؁ ولصيانة الأسرة؁ ولصيانة المرأة المسلمة حرة أو أمة؁ والرجل المسلم حرا أو عبدا؁ وهى آيات بينات؁ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

يذكر الله تعالى فى هذه الآية أنه أنزل فى القرآن الكريم ثلاثة أمور.

أولها: ﴿آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾؁ أى آيات مبينة للأحكام الشرعية فى الأسرة والمجتمع الإسلامى والعلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم؁ ففيها الآيات المكونة للأسرة من زواج وأحكام أولاد؁ وحقوق للزوجين فى أثناء قيام الحياة الزوجية وانتهائها؁ وحقوق المرأة وحقوق الرجل؁ ثم فيها ما شرع حماية للأسرة.

والأمر الثانى: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾؁ أى من أمثال الذين خلوا من قبلكم؁ و«مثل» هنا مفرد يدل على الجمع ما دام غير معين؁ وهو القصص الحكيم الذى كان فيه العبر؁ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ... (١١١)﴾ [يوسف].

والأمر الثالث: الموعظة - بيان عقاب الذين يفسدون المجتمع الإسلامي، فذكر من قبل القصاص الذي تكون فيه المساواة بين الجريمة والعقوبة، وساق سبحانه القول في ذلك سوقاً حكيماً، ثم عقاب الذين يفسدون النسل، والذين يشيعون الفاحشة في الذين أسلموا، ففي كل هذا وعقوباته عظات لأولى الألباب يتعظ بها المتقون الذين يخافون عقابه ويرجون ثوابه، أما الذين لا يتقون الله ولا يرجون ما عنده، فالسياط تكوى ظهورهم، والسيوف تقطع رقابهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ...﴾ (٢٥) [الحديد].

نور الله ومساجده

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ
وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَافُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

النور في لغة العرب ضد الظلام وهو الذي يضيء للأبصار فترى الأشياء وتميز بينها، وقد أطلق على سبيل المجاز على ما يميز بين المعانى فيفرق بين الحق والباطل، ولذا وصف به القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) [النساء]، وقال تعالى في وصف الكتاب: ﴿... وَالْكِتَابُ الْمُنِيرُ﴾ (١٨٤) [آل عمران]، وسمى النبي ﷺ نوراً فقال تعالى: ﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) [المائدة].

وأطلق على التدبير المحكم، فيقال في مدح الملوك: الملك نور هذا البلد، وعلى رب البيت أنه نور البيت. وفي كل هذه الأمثلة يكون النور معنويا فاصلا بين الحق والباطل، والسديد وغير السديد، وعلى هذا نذكر معانى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أى الله مدبر الوجود ومنشئه، خلقه ودبره فى أدق نظام، وأعظم إبداع، فربط بين أجزائه برباط محكم لا تنفصل كواكبه، ولا نجومه فتساقط كوكبا بعد كوكب، ونجما بعد نجم، يأبى الله على السموات والأرض أن تزولا، ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ (٤١) [فاطر].

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلمة (نور) من قبيل الاستعارة، إذ شبه إدارة الله تعالى للسموات والأرض وتعليماته للعقلاء، وتسخيرها لغير العقلاء، بنظام رتيب محكم دقيق بالنور المميز، فصح وصف الله تعالى أو الإخبار عنه بالنور على هذا المعنى المجازى المصور لما نرى ونحس، ونور الله فوق ما نبصر وأعلى مما ندرك.

صور الله تعالى نوره المميز للأشياء والعقلاء مقربا له من مداركنا فيما نحس ونعلم ونرى، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ المشكاة هى الكوة فى البيت، والمصباح فى هذه المشكاة أى فى الجدار الذى فتحت فيه الكوة، وهى النافذة الضيقة التى ينبعث منها النور للبيت وهى فى ذاتها منيرة، وينبعث نورها بقوة؛ لضيقها، ويشع داخل الحجرة، ومع ذلك قد وضع فى جدارها مصباح فيه زجاجة، وهى

قنديل الزيت، وهى صافية صفاء واضحاً، ومتألثة، وكأنها كوكب درى، و﴿دُرِّيَّ﴾، كالكواكب الدرية المزهرة المنيرة، و﴿دُرِّيَّ﴾ نسبة للدر المتألق، وذلك إذا قرئت بضم الدال، وتقرأ بكسرها درى، وتكون على وزن فعيل وهى من الدر قلبت الهمزة ياء، وذلك الإعلال كثير فى اللغة العربية، وأدغمت التاء فى الياء لسكون أحدهما^(١). والدرء: الدفع، ويكون معناها أنها تدفع الظلام، وقوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الضمير فى يوقد يعود على ﴿كَوْكَبٍ﴾ المشبه به فى الآية، وهذا على قراءة الياء، وعلى قراءة التاء يعود الضمير إلى زجاجة، وهى المتحدث عنه. ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ «من» للابتداء، أى مصدر الوقود شجرة مباركة، وهذه الشجرة هى شجرة الزيتون، والوقود من زيتها فهو منها، على هذا المعنى، وقد قال تعالى فى هذه الشجرة على أنها من نعم الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلَّكِلَيْنِ (٢٠)﴾ [المؤمنون]، وكانت الشجرة مباركة، وكما قال الزمخشري وصفها سبعون نبيا بأنها مباركة، وحسبها وصف القرآن، وصفها القرآن بأنها مباركة هنا وفى سورة «المؤمنون»، وإذا كانت سورة «المؤمنون» مكية، وسورة «النور» مدنية، فقد أجمع القرآن المكي والمدنى على أنها مباركة، وبركتها فى أنها ذات منافع كثيرة، يكون منها الوقود المضىء، وهو دهن يكون طعاماً طيباً، وهو يدخل فى أدوية الجلد الطبية، وترابه إذا حرق يكون كحلاً للعيون ولا يضرها، وهو إدام، والزيتون نفسه للطعام، وهو الصبغ الذى قال الله فيها: ﴿وَصَبْغٍ لِلَّكِلَيْنِ﴾.

وقال عز من قائل: فى وصف هذه الشجرة المباركة (ريتونة) وهذا بدل من (مباركة)، وهو إيضاح بعد إبهام فى بيان مؤكد، وقد وصفها سبحانه بقوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، أى أنها فى وسط الأرض لا ينقطع عنها ضوء الشمس، إذ الشرقية ينقطع عنها الضوء فى المساء، والغربية ينقطع عنها الضوء فى الصباح، فهى لا تستر عنها الشمس فى المساء أو الصباح، وهذا يساعد على نموها ونمو ثمارها.

(١) قرأها بكسر الدال وتشديد الياء، من غير مد ولا همز: المفضل عن عاصم. وقد شذت هذه القراءة فلا يقرأ بها اليوم، وقرأها بضم الدال وبالد والهمز: حمزة وأبو بكر، وقرأ الباقون بضم الدال وياء مشددة، من غير مد ولا همز. غاية الاختصار: ٥٨٩/٢.

ووصف سبحانه وتعالى زيتها بالصفاء فقال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فهو صاف لا عكرة فيه، ومشرق لا دكنة فيه.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، أى أنه نور يجيء على نور، فنور المشكاة التى تدخل الحجرة نورها فيضيء، ونور المصباح، ونور الزجاجة، التى هى كالكوكب الدرى، ونور الزيت الذى يكاد لصفائه يضيء.

وكل هذا وصف لنور الله الهادى المرشد، فإنه يغمر القلوب التى تفتح له بالهداية، وأما الذين حقت عليهم الضلالة فإنهم لا يهتدون، وسدت القلوب عن أن يصل النور إليها.

ولذا قال تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهو من سلك طريق الهداية، وأبعد عن نفسه الغواية، التى يوسوس بها الشيطان، ويحاول جاهدا أن يغوى عباد الله، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، يبين سبحانه وتعالى الأشباه والنظائر والغايات والنتائج ليهتدوا، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أى بكل شيء عليم، يعلم المهتدين وطريق هدايتهم، ويعلم الضالين وعاقبة ضلالهم، فهذه الجملة فيها تبشير للمؤمنين المهتدين، وإنذار للضالين الذين أغواهم الشيطان.

وقبل أن نترك الكلام فى معانى هذه الآية لابد من ذكر إشارة بيانية، هى أن الله تعالى ذكر ﴿مِصْبَاحٌ﴾ منكرة ثم ذكرها من بعد ذلك معرفة، فيكون المبهم والمعرف واحداً، والذكر بالإبهام تم التعريف فيه بيان بعد إبهام، وفى ذلك فضل بيان وتأکید، وكذلك بالنسبة لزجاجة فقد ذكرت نكرة، ثم ذكرت معرفة، وذلك فيه أيضا بيان وتأکید للبيان، وقد بين سبحانه بعد ذلك مكان النور الربانى، فيكون أشد ما يكون فى المساجد، فقال تعالى:

﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)﴾.

الآيتان مرتبطتان بالآيات التى قبلهما إعزازا لمعني؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ﴾ الجار والمجرور متعلقان بالآية التى قبلها، وفيها عدة أفعال كل فعل فيها يصلح متعلقا، فيصح أن يكون متعلقا بقوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ﴾، ويصح أن يكون متعلقا بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ ويصح أن يكون التعليق بقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فالتعليق يصح أن يكون لفعل من هذه الأفعال، فالمساجد تتعلق بالنور والهداية، وهى بيوت الله تعالى، وفيها النور، وفيها يوقد النور الإلهى، وفيها الهداية.

ونكرت البيوت، لتذهب النفس فى تعرفها كل مذهب، وقد عرفها سبحانه وتعالى بوصفها الذى يجليها، ويزيل إبهامها للنكرة، وهو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّهِ﴾ الإذن الإعلام، ورفعتها هى رفعة مكانتها وقدرها، فالرفعة معنوية لا حسية، ورفعتها المعنوية؛ لأن فيها النور وفيها الهداية، وفيها السمو، وفيها الربانيون الذين لا يريدون إلا رضا الله تعالى، وإنه يقترن بهذه الرفعة، أو بذكر اسم الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَيُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُهُ﴾، أى تذكر القلوب اسم الله تعالى، وتمتلى بهيمته وجلاله، وترتفع إلى مقام التجرد الروحى لله تعالى، فليس المراد كما يظهر ذكر اسم الله بلفظ الجلالة، وترداده فى حلقات ذكر، وما تلهث فيه الأنفاس وتردده من صياح، بل المراد تذكر القلب والعقل لعظمته وامتلاؤهما بجلاله، وتقشعر منه الجلود، لا بمجرد التمايل فى حلقات ربما يتوسطها الشيطان!! ويكون فيها تقديس الله تعالى، وتنزيهه وعبادته كما جاء بها القرآن والسنة، ولذا قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أى فى الصباح، وهو أول اليوم، والآصال، وهى جمع أصيل، وهو آخر اليوم، وربما يدخل فيها ما بعدها، وهو العشى، كما قال تعالى فى آية أخرى ﴿...بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١) [مريم]، والتسبيح هنا يحتمل أن يراد به التنزيه المطلق، ويكون المراد أنه فى هذه البيوت التى يذكر فيها اسم الله تعالى ينزه الله تعالى ويقدسه فيها رجال.. إلى آخره، فهى بيوت الله لا يذكر فيها غيره، ولا يقدر فيها سواه.

ويحتمل أن يراد بالتسبيح الصلاة، وقد عبر سبحانه عن الصلاة بالتسبيح والتنزيه في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ [الروم]، قد جعل الله تعالى الصلاة موضع عبادته وتنزيهه، وهى عمود الدين، ولا دين من غير صلاة، ولكن لم يذكر الله تعالى من أوقات الصلاة إلا الغدو والآصال، ونقول: إن ذكر الآصال والغدو هو ذكر لما بينهما من الظهر، ولما بعدهما من العشى، وأن تفسير التسبيح بالصلاة أنسب للمساجد التى هى بيوت الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) [الجن].

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، إن اتصال هذه الآية بما قبلها إعرابا وبيانا للمعنى واضح، لأن ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، وقد بين سبحانه أحوال هؤلاء الرجال وصفاتهم، فقال: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أما إنهم لا تلهيهم الحياة وما فيها عن ذكر الله، فهم فى ذكر لله دائم، فى تجارتهم يذكرون وفى بيعاتهم يذكرون الله تعالى، فذكر الله يجب أن تملأ به القلوب، لا يغفلون عن ذكره أبدا، وإذا ذكر الله تعالى فى معاملاته الإنسانية كان فى طهارة دائمة فلا يغش، ولا يداهن، ولا يبغض الناس أشياءهم، والصلاة شرعت فى أوقاتها الخمس لدوام ذكر الله تعالى، فصلاة الفجر ملء النفس بذكر الله، فيقبل على الحياة، وهو ممتلىء بذكر الله تعالى، حتى إذا ابتدأ القلب يصدأ جاءت الظهر فجلته وطهرته بذكر الله، حتى صلاة الأصيل ثم صلاة العشاءين، ويختتم اليوم بتسبيح الله تعالى، وامتلاء النفس بذكره، فيستمر ذكر الله فيهم، ولا تلهيهم تجارة ولا بيعات، ولا أعمال الحياة عن ذكر الله أبدا؛ لأنهم فى ذكر دائم بعبادة الله تعالى وخصوصا الصلاة، ولذا ذكر الصلاة وإقامتها، فقال تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام، وإقام الصلاة الإتيان بها مقومة مستقيمة بذكر الله تعالى فى كل أركانها وكل عباراتها. والصلاة كما أشرنا تهذيب الروح واتصالها بالله، والمصلى وهو واقف لإقامتها يحس بأنه واقف فى

الحضرة الربانية، والله يراه وهو العليم بما فى الصدور، وما تخفى الأنفس، وهؤلاء لا تلهيهم مطالب الحياة وغاياتها عن إيتاء الزكاة، وهى التعاون الاجتماعى الذى تقوم على دعائمه الحياة الإنسانية فى الإسلام.

وإن الأساس للخلاص الكامل للمؤمن هو الإيمان بالبعث والنشور والقيامة والحساب، فإن ذلك يجعل الإنسان يحس بأن حياته معنى وغاية، ولم يخلق عبثاً أو سدى، بل إن له يوماً يحاسب فيه على ما قدم وما كسب، ولذا قال فى أوصاف الرجال الذين يعمرون مساجد الله ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، أى يخافون يوم الفزع الأكبر، و﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ تضطرب، والتقلب التحول أى بمعنى تتحول وتنتقل من مكانها ثم تعود، وتكون فى تحول ثم عودة، وهذا يدل على اضطرابها، وفزعها أشد ما يكون الفزع، وإن تقلب القلوب يكون بين الطمع والخوف، والرجاء والهلع، وتقلب الأبصار يكون بأن تقلب حدقة العين فى الحركة من الخوف، وهذا يدل على فزع واضطراب مستمر، كما قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ... (١١٠)﴾ [الأنعام].

والنتيجة لهذا اليوم بينها الله تعالى بقوله :

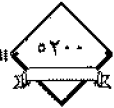
﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٨)﴾.

هذا الجزاء، هو للذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى، فمع عملهم الصالح يخافون لقاء الله ويرهبونه استصغاراً لأعمالهم الصالحة، وخوفاً من هزائهم، وكذلك الطاهرون دائماً؛ لأن نفوسهم نظيفة يخافون أن تلوث، كما يخاف اللامس على ثوبه الطاهر؛ لأن أى دنس يشوه منظره، ويقبح مخبره، فالطيب المستقيم على حق دائماً، وقوله تعالى : ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ اللام هى لام العاقبة، أى لتكون عاقبة هذا اليوم بالنسبة لهؤلاء الأطهار أن يكون جزاء حسناً لأحسن أعمالهم، وجعل سبحانه وتعالى الجزاء لأحسن الأعمال، والجزاء لهم على أعمالهم، وذكر الكلام بهذه الصيغة لبيان أن الجزاء مساو للعمل تماماً، والله قد يزيد

على الأعمال رحمة منه وفضلا، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الرزق هنا هو الثواب الذي يزيد عن العمل، وهو فيض من رحمته، وفضل منه سبحانه، وقوله ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيه إشارة إلى أنه عطاء غير مجذوذ.

أعمال الكفار ونتيجتها

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ
بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفًا هُفًّا فَهُوَ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ
فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ
يَكْدِرْ بِهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ وَفِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفْقَاتٍ كُلُّ قَدْ
عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ



وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾

وصف الله تعالى أعمال الذين كفروا الخيرة في زعمهم وضرب لها مثلا، وأعمال الشر من عبادة الأوثان وما يتعلق بها من نيات، وقد قال تعالى في آية أخرى في وصف أعمال الخير في نظرهم، فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران).

وأن الله تعالى ضرب مثلا في هذه الآيات للأعمال التي يحسبونها خيرا كالعطاء عند الميسر وشرب الخمر، وينون عليها طلب الجزاء يوم القيامة، فإذا جاء لا يجدون، فشبهها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ السراب هو ما يرى في اشتداد الحر كالماء ويسرب ويجرى كالماء، وهو لا حقيقة له في ذاته، ولكنه الظمأ يصوره للظمآن كأنه ماء، والقيعة جمع قاع وهو ما انبسط من الأرض لا زرع فيه ولا شجر، والمعنى أن الذين كفروا يعتمدون على ما يحسبونه خيرا في زعمهم، وهو خير في ذاته كصلة الرحم، ولكن لا قيمة له لعدم الإيمان، والنية الحسنة، ويحسبون به أنه خير قدموه وهو لا وجود له، فهو كالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، ويسير حتى يجده السير، ويسير ثم يسير، ويشد في طلبه حتى إذا جاء إلى ما ظنه عنده لم يجده شيئا، ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ ليحاسبه أشد الحساب، ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، أي أن الله موف الحساب من عذاب الجحيم، وقال: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ للدلالة على تأكد وقوعه، أنه لا يتأخر حتى ينسى، ولا يتصور أن ينسى، بل يجيء سريعا مؤكدا ولا يمكن أن يهمل.

هذا تشبيه ما يظنونه خيرا، كما كانوا يفعلون من أعمال أى لا يريدون بها ما عند الله، بل يريدون التعظيم والتفاخر بها، ولا يحتسبون أنها مقربة لله؛ لأنهم كانوا يشركون به.

أما أعمالهم السيئة وتضافرها وتكاثرها، فقد كانت ظلمات بعضها فوق بعض، ولذا شبهها بالظلمات المتكاثفة، فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ (٤١).

(أو) هنا لبيان الأعمال، وما اختص بعضها من تشبيه بالسراب، بأن كان يرجى منها الخير لو استقامت القلوب، وحسنت النية - فكانت كالسراب، وأعمال لا خير فيها، لا فى ذاتها، ولا فى نياتها، فكانت كالظلمات، فأمره هنا كأمره فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ...﴾ (٢٣) [المائدة]، فهى لبيان اختلاف الحكم باختلاف الجريمة، وهنا تدل (أو) على اختلاف التشبيه باختلاف حال العمل، من ظاهر الخير، وإن لم يكن بنية محتسبة بل بنية التفاخر، والتظاهر بالسلطان، إلى عمل كله شر فى ظاهره وفى نيته، ويحيط به الإثم من كل نواحيه.

﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾: اللجى نسبة إلى اللجة، وهى الماء الكثير، فالبحر كثير الماء، عميق ممتلئ، لا يسبر غوره ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يعلوه، ويستره ﴿مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أى موج متراكب بعضه فوق بعض، فالبحر لجي فيه ظلمات، والموج المتراكب الذى يكون موجا كثيفا بعد موج مضطرب مصطفق، ومن فوق الموج سحب معتم، وغيم شديد، فهى ظلمات بعضها فوق بعض، فظلمة اللجة، وظلمة الموج المتراكب، وظلمة السحاب، كل هذا يوجد ظلاما دامسا لا توجد معه رؤية صحيحة سليمة تكون طريقا للإدراك الصحيح، ولذا قال فى تكميل التشبيه، فقال عز من قائل: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، إذا أخرج يده من جيبه لا يكاد يراها،

مع أنها يده، وأخرجها من جيبه، والعلم بها متحقق؛ لأنها يده، وبعمله أخرجها، ومن مكانه في ثيابه التي يلبسها، ومع ذلك لا يكاد يراها.

وخلاصة هذا التشبيه أن الله تعالى شبه حال الكافر في أفعاله التي تدفعه إلى الباطل، وهى في ذاتها باطل، وإن الباطل يدفع إلى باطل، فهو قد أشرك، وكان الشرك كبحر أُجى، ويدفع إلى أمواج من الباطل متكاثفة ويكون فوقها بسبب الشرك غمة تجعله في ظلام دائم، حتى يصبح غير مفرق بين حق وباطل، وتنسدّ عليه مسالك الإدراك، كما يُسدّ على البصير النور في الغمام، والأمواج واللجج.

وإن هذا التشبيه يصور لنا حال المشرك كيف تتكاثف عليه ظلمات الباطل، فالشرك يكون كلجة دخل بها في بحر من الباطل لا حدود له، وكلما أوغل فيه ازداد إعتاماً، وهكذا تتصافر أسباب إظلام الأمور على العقل، فكلما خطا خطوة انسدّ عليه باب الإدراك انسداداً، تبتدئ بعبادة غير الله، ثم بالذبح لغير الله، ثم بتحريم ما أحل الله وإسناد التحريم، ثم باستباحة ما حرم الله من الخمر وأكل الخنزير، وأكل الموقوذة، والنطيحة، والميتة، وهكذا تتكاثف الظلمة، حتى لا يرى حقاً، ولا باطلاً، ويكون لمن إذا أخرج يده لم يكد يراها، وختم الله الآيتان بقوله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾، وهذا في مقام التجريد للتشبيه؛ لأنه مناسب للمشبه به، وليس بمناسب للمشبه لأن المؤدي، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ يؤديه إلى الحق، كما كان من المشركين الذين أدت أفعالهم إلى ظلمات متكاثفة، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ كان تشبيه ظلمات الكفر بالبحر اللجج، والذي يعلوه ويستره موج من فوقه موج من فوقه سحب، موعزا إلى التكبير في تكوين السحاب ونزول الأمطار، وبذلك الإيعاز الفكرى الذى يكون من آية إلى معانى تالية، ترتبط آيات القرآن الكريم فيكون بعضها آخذاً بحجز بعض في ارتباط عقلى نفسى، ولذا عقب هاتين الآيتين ببيان تسبيح الطير في السماء فقال عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

الاستفهام في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، إنكارى بمعنى النفى مع التنبيه إلى الحقائق لإدراكها، وهو داخل على نفى، وهو «لم»، ونفى النفى إثبات، والمعنى: قد رأيت أن الله يسبح له من فى السموات والأرض، ومعناها يقدره ويخضع له ويسجد، أما تسبيحه فلأنه يدل على كمال الله تعالى، وتنزيهه عن مشابهة الحوادث، وأنه واحد أحد، وأنه صمد ليس بوالد ولا ولد، وأما السجود، فهو الخضوع الكامل لله تعالى.

والتعبير بـ (مَنْ) فى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ مع أن فيها ما لا يعقل؛ فلأنها كلها فى دلالتها على التسبيح أقيمت مقام العاقل؛ ولأن فيها عقلاء وغير عقلاء، غلب فى البيان العقلاء؛ لأنهم أعلى مكانة من غيرهم كالملائكة، فإنهم أعلى من غيرهم، ومثل ذلك عقلاء الإنس والجن المهديون، وغيرهم.

﴿وَالطَّيْرُ﴾ لما فيها من إعجاز من أنها تطير، وتسير فى الفضاء من غير أن يكون سيرها على أجرام جامدة تتحمل ما يسير عليها، بل هى تسير من غير جرم جامد ثقيل تسير عليه، ولذلك خصها بالذكر لفضل ما تدل عليه من إبداع فى الخلق والتكوين، حتى كانت موضع درس للإنسان فأراد أن يقلدها، وتم له ما أراد فكانت الطائرات التى تقطع أجواز الفضاء، وسبحان من خلق كل شيء من غير مثال سبق، وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ﴾، أى تطير فى الفضاء تسير صافات، أى فى صفوف متتالية ومتوازية، الأجنحة وراء الأجنحة، كما ترى فى أسراب الحمام وغيرها من الطير من انتقالها من مكان إلى مكان متأخية منتظمة فى صفوف، وذلك من إلهام العلى الخبير لها، والطير بالرفع عطف على ﴿مَنْ﴾ أى أن الطير تُسبح، كما يُسبح كل من فى السموات والأرض، وذكر مع ذلك إبداع الله تعالى خلقها، وما ألهمها إياه، وما سخر لها من فضاء بالسير لمسافات.

إن فاعل (علم) يعود على الله تعالى أى كل فريق وطائفة، وخلق من خلقه - علم الله تعالى صلاته وتسبيحه، وقالوا: إن الصلاة تكون من العقلاء المهديين، والتسبيح بالخضوع والدلالة بالخلق والإبداع يكون من غير المهديين وغير العقلاء فهم فى صفهم، فهم كالأنعام، بل أضل سبيلا.

وبين الله تعالى بعد ذلك كمال سلطانه، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾.

الملك هو السلطان الكامل، والله تعالى له السلطان على السموات والأرض وحده؛ لأنه هو الذى خلقها، وما فيها ومن فيها، والنص الكريم يفيد الاختصاص بتقديم الجار والمجرور، أى له وحده السلطان الكامل فى الأرض والسماء فلا سلطان لوجود سواه، فالمعبودات التى يعبدونها من أشخاص، وأوثان وشمس ونار، كل هذه لا سلطان لها ولا شفاعة، بل السلطان لله وحده، وإن هذا السلطان يعلمه المؤمنون، وسيراه رأى العيان الكافرون، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أى المآل والنهاية. وتقديم الجار والمجرور أيضا يفيد القصر أى يصيرون إليه، لا إلى أحد سواه، وعندئذ يلقاهم بأعمالهم والجزاء عليها.

بعد ذلك بين الله تعالى كيف يكون السحاب، وهم يرون هذا التكوين، وقد قلنا: إن ذكر البحر اللجى والأمواج المتلاطمة والسحاب توعز بإرادة تعرف خلقها، ولذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾.

الزج السوق والدفع، ومنه قوله: ﴿... وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ... (٨٨)﴾

[يوسف]، أى مدفوعة لا يقبل عليها أحد، والمعنى لقد رأيت أن الله يزجى ... ونقول: الاستفهام فيه إنكارى للتنبيه، ونفى النفى إثبات، و(لم تر) جملة منفية لفظا، والمعنى لقد رأيتم أن السحاب والرؤية هنا علمية، أى لقد علمتم، فهم لم يروا بالحس أن الله يزجى سحابا، لكن علموا بما علمهم أن الله يزجى سحابا، أى يثيرها من بخار الماء، فيتكون من هذا البخار سحاب فيدفعه الله تعالى ويسوقه فى تجمعه حتى يصير ركاما، وإن ذلك لا يكون فور تكوين السحاب، إنما يكون بعد زمن، ولذلك كان العطف بـ «ثم»، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾، ومعنى

(ركام) مجتمع بعضه يكون فوق بعض، ولقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور]، وإنه إذا تراكم السحاب، وصار بعضه فوق بعض كان المطر، ولذا قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، والودق هنا المطر، يقال: ودقت السحاب فهي وادقة - إذا أمطرت - وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ينبئ عن أنه مطر ضعيف لا ينهمر انهمارا، ولا يكون وابلا؛ لأن الوابل تنحل فيه السحاب وتنهمر، ولا يكون ودقا يخرج خلاله من سحاب متراكم، ثم أشار سبحانه إلى الماء المنهمر بعد ذلك بقوله: ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا مِثْرًا﴾، أي ينزل مما علاك من جبال فيها من برد، ﴿مِثْرًا﴾ بدل اشتمال من السماء، أى ينزل مما علاك من جبال فيها من برد، وقد شبه السحاب المتراكم الذى يعلو طبقة فوق طبقة بالجبال لكمال تماسكها وتراكمها، وعلوها حتى صارت كالجبال فى منظرها، وما ركبت الطائرة التى تخلق ونظرت السحاب المتراكم حتى حسبتة جبلا، أو جبالا، وإذا كان محمد ﷺ لم يركب طائرة تمر فوق السحاب، فيكون هذا من دلائل إعجاز القرآن، وأنه لم يكن من عند أحد من البشر، وقوله تعالى: ﴿مِثْرًا مِثْرًا﴾، أى وينزل من الجبال التى تشبهها السحاب، أى ينزل من السحاب بعض البرد الذى فيها، والبرد هو كما قال الراغب فى المفردات، والبرد ما يبرد من المطر فى الهواء فيصلب، وبرد السحاب اختص بالذكر، وهذا قريب مما يقوله علماء الطبيعة من أن الماء يتبخر، فيكون سحابا، ثم يتكون من السحاب قطع صلبة هى البرد.

وتقريب القول بلغة الناس، وإن كان للقرآن المثل الأعلى فى البيان الذى لا يناهد، تقريبه هكذا. وينزل السحاب التى تشبه الجبال فى منظرها، وتكون (من) الثانية بيانية، أو تكون تبعيضية، أى ينزل منها بعض البرد، ونحن نميل إلى أنها بيانية.

وإذا كان ينزل المطر من البرد، فإنه لا ينزل إلا بما يشاء سبحانه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾، فيصيب به من يشاء أى ينزل عليه، وعبر بـ (يصيب)، دون (ينزل)؛ لأن الإصابة قد تكون بالخير، وقد تكون بغيره، فقد يكون

المطر غيثا فيه كرم يغاث فيه الناس، وقد يكون غيثا مدمرا، وصرفا عمن يشاء، قد يكون سببا في القحط، وقد يكون للدمار.

ثم وصف المطر في انهماره بأن يكون فيه برق ورعد، وحيشما كان البرق فإنه يكون الرعد، وقال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، أى أن ضياءه الخاطف يكاد ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، أى يذهبها، وعبر بالباء، للدلالة على أن البريق يأخذ الأبصار مصاحبا لها، فالباء للمصاحبة.

وذكر البرق ذكر للرعد؛ لأن البرق اصطدام سحابتين إحداهما موجبة في كهريتها، والثانية سالبة في كهريتها، فإذا احتكتا تولدت الشرارة فكان البرق، ومن هنا الاحتكاك كان صوت وهو الرعد، وهذا دليل على غزارة المطر، وكثرة انهماره، ثم ذكر بعد ذلك آية أخرى فقال:

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى قدرته وإنعامه على خلقه بالماء، بين نعمته في الليل والنهار، فقال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ والتقلب معناه أن يجعل أحدهما في موضع قلب الآخر، وتقليب الليل والنهار يبدو في أمرين:

أولهما: في أن يكون الليل والنهار خلفه، فيكون أحدهما خلفه للآخر، فيسلك الليل من النهار، والنهار من الليل في نظام مستمر.

ثانيهما: أن يكون النهار أطول صيفا، وأن يكون الليل أطول شتاء، في نظام مستمر لا يتخلف، قد يفسر العلم ظواهره، ولكن لا يستطيع تغييره ولا إنشاءه، فالعلم يحصى الوقائع، ولا يوجددها، ذلك تقدير العزيز العليم، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ العبرة في مدلولها الخاص بمعنى الاعتبار، والمؤدى لها أن تأخذ من الحاضر المشاهد دلالة على الغائب غير المشاهد، فيأخذ المستبصر من رؤية تقلب الليل والنهار، وانتظامه بإحكام ودوامه دليلا على أن إرادة حكيمة متصرفة تفعل ذلك بتدبير وإحكام، وخص أولى الأبصار بالعبرة؛ لأنهم يدركون

ببصرهم ما يحسون وما يرون، ويدركون ببصيرتهم ما وراء هذا الذي يحسون به من قدرة باهرة.

الماء وأثره في الوجود

قال الله تعالى:

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الماء في تشبيه أعمال الكافرين، والماء العذب في تكوينه، وذكر معه إنزاله على من يصيبه، ونعمته في صرفه عنه إن لم تكن الأرض صالحة للزراع، حتى لا يكون غثيا^(١) بدل أن يكون غيثا، فكان في هذه الآية مبينا لنعمة الماء في الحياة والأحياء بشكل عام كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ...﴾ (٣٠) [الأنبياء]، وذلك يعم الحيوان والنبات، والأشجار، من كل حي، وهنا يخص الأحياء من الحيوان، فيقول عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ وصدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة للإشارة إلى اختصاصه بالعبادة؛ لأن لفظ الجلالة يتضمن معنى الألوهية، وكل ما يذكر بعد ذلك من خلقه يكون دليل ألوهيته سبحانه، فالمخلوق يدل على الخالق، وكذلك كل عبادة سامية لله جل جلاله، ودلت على الخلق يكون فيها هذا المعنى الجليل.

والدابة من دب يدب، واسم الفاعل الدابّ، وألحقت به التاء للدلالة على المبالغة، وهى تشمل الحيوان جميعا، فكل حيوان يدب على الأرض، ويسير عليها، بقدرة الله تعالى، وخلقها من الماء معناها أن الماء من الأسباب الجوهرية لحياتها بخلق الله تعالى وإرادته، والماء مصدر حياتها بإذن الله وتمكينه وجعله؛ لأن الماء ربيها، ولا يحيا الحى إلا بشربه، وغذاء الحيوان كله مما ينبت من زرع، ويغرس من أشجار فيها ثمار مختلفة، حتى الحيوانات آكلة اللحوم غذاؤها يعود إلى الماء؛ لأنها تتغذى من النبات، والحيوان كله آكلا ومأكولا من النبات، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ...﴾ (٤) [الرعد].

فالحيوان من الماء، بل الأحياء كلها من حيوان ونبات من الماء، والفرق بين الحيوان والنبات أن النبات غذاؤه من الماء مباشرة، والحيوان يرتوى من الماء، ويأخذ غذاءه من النبات الذى كان تكوينه من الماء.

وبين سبحانه وتعالى تنوع خلقه فى الحيوان لبيان عدم التفرقة فى الخلق بين حيوان يمشى على بطنه زاحفا وبين حيوان على رجلين سائرا، وما يمشى على أربع،

(١) غثيا، غثا السيل المرتفع: جمع بعضه إلى بعض، وأذهب حلاوته.

فقال عز من قائل: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحيات والديدان، وغيرها من الزواحف، ومنهم من يمشى على رجلين، كالإنسان والطيور، ومنهم من يمشى على أربع كالإبل والبقر والغنم، والفيل، والذئب، والأسد والكلب، وهنا ثلاث ملاحظات:

أولاهـا: أن الفاء هنا للإفصاح، فهي بيان أو جواب لشـرط محذوف.

الثانية: التعبير بـ ﴿مَنْ﴾، وهى تشمل العقلاء، وغير العقلاء، وقالوا: إنها إذا كانت للعموم جاز التعبير بـ (مَنْ) عن الجميع، وذلك تعبير عن الأعظم، والأكمل حيوانية، كما يعبر عن الجمع الذى يشمل الذكور والإناث بلفظ الذكور.

ثالثها: أن من الحيوان من يكون ذا أرجل أكثر من أربع، ولم يذكر أو يُشـر إليه، والجواب عن ذلك أن ذا الأرجل الكثيرة مشير إلى أربع منها، فهو مذكور أو نقول إن الآية لم تذكر الكل، أو أشير بذكر الأربع سـيراً للاطراد بالزيادة فذكر أولاً ما لا رجل له، ثم ما له رجلان ثم ما له أربع، ثم بالإشارة ما له أكثر، وخصوصاً أن الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإن ذلك يشير إلى أنه يخلق الأكثر من أربع كما يشاء، وهو قادر على كل شيء.

وهذه كلها آيات دالة على ألوهية الله جل جلاله وحده، وإنه لا يهتدى إلى الوحداية مع قيام دلائلها إلا من سار على الطريق واستقام على الجادة، فيأخذه الله تعالى إلى الهداية، ولذا قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وهداية الله تعالى تكون لمن سلك طريق الحق وأبعد نفسه عن الضلالة، ذلك أن الله تعالى أودع فطرة الإنسان فطرة الاستعداد للحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) [الشمس] وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (٩) [البلد]، أى نجد الحق، ونجد الباطل، فمن سار فى صراط

الحق فإن الله تعالى يأخذه إلى نهايته، ومن سار في طريق الضلالة تركه إلى نهايتها، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ له الهداية إذا اختار نجد الهداية ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أى إلى طريق مستقيم هو طريق الحق، وهو أقصر طريق للهداية؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) [الأنعام].

النفاق وضعف الإيمان

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

بين سبحانه وتعالى الذين استضاءوا بنور الله تعالى وأقاموا الحق فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وأشار إلى أعمال الذين كفروا، وأن ما يحسبونه خيرا منها يكون كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء، وشرهم كظلمات فى بحر لحي، وهنا يبين سبحانه حال الذين لا يمس الإيمان قلوبهم، وتتردد به ألسنتهم، كالأعراب الذين قالوا آمنا ولم يؤمنوا، ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (١٤) [الحجرات].

يؤكدون إعلانهم الإيمان بأنهم يؤمنون بالله وبالرسول، ويؤكدون ذلك بالطاعة، والضمير يعود على المنافقين وضعاف الإيمان، وإن الأمر الذى يختبر به إيمانهم هو طاعتهم لحكم الله تعالى، وهؤلاء يبادرون بإعلان الطاعة بألسنتهم، وقلوبهم غير مؤمنة، ولا خاضعة لحكمه، ولا مذعنة لأمره سبحانه، وإنهم إذ يعلنون الإيمان بالله وبالرسول، ويقولون أطعنا ثم يتولى فريق منهم غير مؤمن للحق ولا مدعن له، ولذا يقول الله تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يتولى أى يعرض غير مؤمن ولا مدعن، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ للبعد بين ما نطقوا وحقيقتهم فى ذات أنفسهم، ولذلك نفى الله تعالى عنهم الإيمان نفيا مؤكدا، فقال: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أولئك إشارة للذين قالوا آمنا بالله وبالرسول، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ﴾

فالإشارة إلى هذا الفريق الذى أظهر الإيمان وأبطن الكفر، نفى سبحانه وتعالى عنهم الإيمان، وأكد النفى بالباء؛ لأن الإيمان يقتضى إذعان القلب وتسليم الفؤاد.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾.

هذا موضع الكشف عن ضمائرهم، وهو الخضوع لحكم الله ورسوله، وإذا دعوا إلى الله ورسوله، والدعوة إلى الله ورسوله، ليحكم بينهم، الضمير يعود عليهم، على أنه ضمير الواحد مع أنهما اثنان الله ورسوله، ولكن لوحدة حكمها، وأنه واحد، عاد الضمير عليهما بالواحد، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... (٨٠)﴾ [النساء]، مع هذا الإيمان الذى أظهره، والطاعة التى أبدوها يفاجأون بأن فريقا منهم يعرض، فإذا الفجائية تدل على المنافرة الشديدة بين ما يعلنون من إيمان وطاعة، وبين ما يظهر من حالهم من معاندة الأحكام وعدم خضوع لها، ووصف سبحانه إعراضهم مؤكدا له بالجملة الاسمية، وتصديره بكلمة (هم)، ووصفهم بالإعراض كأنه حالهم المستمرة، ولا علاقة بين ما أعلنوا وأظهروا، وبين ما أسروا وأخفوا.

هذا إذا كان الحق عليهم، أو كان مرددا بينهم وبين غيرهم، أما إذا كان الحق لهم، ويطمعون فى أن يكون حكم الشريعة لهم فإنهم يبادرون بالخضوع، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾.

إن كان الحق بحكم الشريعة لهم، يأتون إلى النبى ﷺ مذنعين، أى خاضعين له غير مغيرين ولا مبدلين، وكأن الأمر على هواهم إن أيدت الشريعة ما يدعون خضعوا لها، وإن لم تؤيد ما يدعون يتولون معرضين، فهم لا يخضعون إلا لهواهم، وشهواتهم.

وإن الناس الآن، وقد هجروا حكم الشريعة يتنادون بها إن وافقت أهواءهم، وإن لم توافق أهواءهم أبدوا ما زين لهم من قوانين الغرب التى لم تقم على أساس



العدالة المجردة، بل قامت على أساس أعراف الحكام، وما يشتبهى الناس، ولذا عطلت الحدود، وأضاعت حقوق الناس.

ولقد قال الله تعالى مستنكرا حالهم هذه:

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾.

هذا استفهام توبيخي، وهو إنكار للواقع من أمرهم، والمرض الذي يصيب القلب إما النفاق، وإما ضعف الإيمان، فهو تشبيه للمرض النفسى من ضعف الإيمان بالحقائق وعدم الإذعان للأحكام الشرعية، بالمرض الجسمى الذى يضعف فيه الجسم، وقد تدرج سبحانه فى توبيخ من هذا حاله فابتدأ بضعف الإيمان والنفاق، ثم ثنى فى التوبيخ بأنهم واقعون فى الارتياب فى حقائق أصل الدين والإيمان، ثم قال سبحانه ما هو أعظم من ذلك فقال: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، يحيف معناها يجور فى الحكم، ولا يجدون العدل عند الله ورسوله، وهذا انتقال من دركة إلى دركة فى التوبيخ، فوبخوا أولا بضعف الإيمان ومرض القلوب، ثم كان التوبيخ؛ لأنهم يرتابون فى الحقائق الإسلامية ثم كان التوبيخ الأشد؛ لأنهم يحسبون أن الله ورسوله يجوران، فكان ذلك ترقيا فى التوبيخ، حتى وصل أعلاه وهو الكفر البواح برمى الله تعالى بالظلم، وهم الظالمون، ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «بل» للإضراب ورد ما يومئ إليه حالهم، فهم الظالمون لأنفسهم بالضلال الذى اختاروه، وهم الظالمون لأنهم اختاروا الحكم الظالم، وتجانفوا عن الحق للإثم، وقد أكد الله تعالى ظلمهم بالجملة الاسمية، ويقصرهم على الظلم، وقصر الظلم عليهم، وبكلمة (هم) ضمير الفصل المؤكدة لظلمهم.

هذا مقال المنافقين وضعفاء الإيمان، أما مقال المؤمنين، فقد ذكره بقوله تعالت

كلماته:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾.

بعد أن بين سبحانه حال المنافقين وضعاف الإيمان بين أقوال المؤمنين وأحوالهم، فقال سبحانه وتعالى عن أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ «إنما» للحصر وتدل على القصر، و«كان» هنا تدل على الدوام والاستمرار في الماضي والحاضر والقابل، (وقول) خبر كان وقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويكون مؤدى الكلام السامي، إنما كان قول المؤمنين المستمر الدائم، إذا دعوا إلى الله ورسوله، أى حكم القرآن والسنة، وهو حكم الله رسوله هو قولهم ﴿سَمِعْنَا﴾ دعوة الله ورسوله ليحكم بيننا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ قولهما، ووجد الحكم وعاد الضمير عليهما بضمير الواحد؛ لأن الحكم واحد، إذا أمر الله رسوله به نفعه ودعا إليه، ولا قول لهم سوى ذلك، بل قولهم مقصور عليه، وهم مقصرون عليه لا قول لهم غيره، فلا مرض فى قلوبهم، ولا امتراء فى إيمانهم، ولا هوى يتحكم فيهم فيتبعون حكم الله إن صادف أهواءهم، ويعرضون عنه إن لم يصادف هذه الأهواء فهوهم هو الذى يحكمهم، لا الحق هو الذى يحكمهم.

وقد حكم الله تعالى لهؤلاء الذين قالوا: سمعنا وأطعنا بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أى الفائزون، وقد فازوا بالحق؛ لأن الحق فى ذاته قوة واطمئنان وسعادة لمن ذاقه وعرفه، وهو اطمئنان النفوس واستقرارها وفازوا عند الله تعالى برضاه وهو أكبر الفوز، وأعظمه، والإشارة إلى أولئك المتصفين بالطاعة وسماع الحق والإيمان به والإذعان له، وهنا قصر واختصاص، وذلك بتعريف الطرفين أى أولئك وحدهم هم المفلحون، ولا فلاح لسواهم، وقد أكد سبحانه فلاحهم بالقصر.

وهنا نشير بكلمة موجزة عن حال المسلمين بعد ضعفهم، واستخذائهم، وركوب النصارى واليهود عليهم، لقد ارتضوا القوانين الأوروبية بديلاً لأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حاسبين أن ما عند النصارى هو الخير وما عند غيرهم لا خير فيه، حتى إنه لو دعا داع إلى أحكام الله ورسوله فى كتابه وسنة نبيه رموه

بأنه رجعي، وأنه يريد أن يعود بالامة إلى الوراء، ويقولون تقدم الامة أمامها لا وراءها.

وفى الحق: إننا إذا دعونا إلى تطبيق حكم القرآن والسنة، إنما ندعو إلى الحق فى ذاته وإلى العدل، وإن القرآن إذ يدعوهم بالحق والعدل فى ذاته الذى لا يفرق بين الناس، تدعوهم الامة النصرانية إلى تحكيم الأعراف من غير نظر إلى كونه عدلا أو باطلا، ويقولون بل نتبع أعراف الناس، وما أشبه هذا بقول المشركين، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وإننا نترك حكم القرآن وهو النور، وهو الحق وهو العدل وهو الفضيلة، وهو حبل الله الممدود إلى يوم القيامة، ونأخذ بالأحكام التى تبيح الزنى وشرب الخمر والربا والسحت، وأكل أموال الناس بالباطل، وأحكام الله هى العدل كما تشهد الفطرة، وكما يشهد الإنصاف... نترك الحق ونأخذ بالجبت والطاغوت... فهل نحن مؤمنون!!

إنه لا قوة لنا إلا إذا كنا عدولا فيما بيننا، ولا نكون عدولا حقا إلا إذا أقمنا كتاب الله وسنة رسوله، وتركنا وراءنا ظهريا تلك القوانين، فهى الطاغوت، وهى والفضيلة نقيضان لا يجتمعان.

وإن حكم الله تعالى الأخذ به من تقواه، والاعتصام بالعروة الوثقى، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾.

الواو عاطفة استثنائية، لبيان أن من يتقى الله ويخشاه هو الذى يفوز حقا، ونجد هذا الكلام فيه شرط وجزاء، والشرط مكون من أجزاء ثلاثة بعضها مترتب على بعض. أولها: طاعة الله ورسوله، بامتلاء القلب بالطاعة. بحيث يخضع له ظاهرا وباطنا، ويخضع قلبه مع خضوع كل جوارحه، وهذا هو الجزء الأول، أو النقطة الأولى من الخط المستقيم الذى يتبدئ بالطاعة، وامتلاء القلب، ثم ينتقل من الطاعة الخاضعة الخائفة إلى الخشية، خشية الله تعالى، إذ يعلم ذاته وصفاته، ويمتلئ بهيته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ... (٢٨)﴾ [فاطر]،

ويقول الراغب الأصفهاني: والخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك على علم بما يخشى منه، وقال تعالى في صفة العلماء: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ...﴾ (٣٩) [الاحزاب].

وإنه يجيء بعد الخشية الخوف من الله واتقاء عذابه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾، فالتقوى جعل وقاية بين الشخص وعذاب الله تعالى، قال تعالى في وصف المؤمنين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) [المؤمنون].

هذه أجزاء الشرط، أما الجزاء، فهو قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الفاء فاء الجزاء، والإشارة إلى المتصفين بهذه الصفات الجليلة، والإشارة إلى موصوف بصفات تكون الصفات سبب الجزاء، فهذه الصفات سبب الفوز، والآيات تفيد قصر الفوز عليهم ونصرهم، وذلك لتعريف الطرفين، وقد أكد سبحانه وتعالى فوزهم بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل (هم)، ويقصر الفوز عليهم.

استخلاف الله أهل الطاعة

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
 وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
 شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

الجهْدُ الطاقة، أو أقصى درجاتها، وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني في تفسير آية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أى حلفوا واجتهدوا فى الحلف أن يأتوا على أبلغ ما فى وسعهم، وعلى ذلك يكون معنى الجهد فى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أى باذلين أقصى ما وسعهم من تأكيد القول، وباذلين فى اليمين أعلى درجاتها فى تأكيد القول، أى لا يتركون قولاً يؤكدون به عزمهم وإرادتهم إلا سلكوه.

والضمير فى «أقسموا» يعود إلى جماعات المؤمنين، ويكون بهذا يدعوهم إلى ألا يقسموا بل يعملوا ويطيعوا، وعلى ذلك يكون المعنى عاماً، وإن كان يشير إلى المنافقين وضعاف الإيمان، كأنهم مقصودون بالقصد الأول، والعموم مقصود بالقصد الثانى.

وأكثر المفسرين على أن الضمير يعود إلى المنافقين ومرضى القلوب ابتداءً، ويكون تحذيراً للمؤمنين بعامة من أن يكون منهم مثل هذا الذى يحلف بالإيمان الفاجرة، وقد رد الله تعالى هذه الإيمان، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ وهذا فيه إيماء إلى أنها غير صادقة، وفيه تصريح بردها زجراً لهم؛ لأنهم بهذا يرتكبون إثمين إثم التخلف عن الجهاد، وإثم اليمين الفاجرة، وإن بدل الإثم أن يتجهوا إلى الطاعة، ولذا قال سبحانه: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾، أى طاعة حقيقية مشهورة معروفة لا

مجال لإنكارها، ولا للتردد فيها، إذ هي قاطعة؛ لأنها ثابتة بالعيان لا بالقول مجردا، والقسم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى عالم علما دقيقا بما يعملون، أى بما يستمرون عليه من عمل يتفق مع إيمانهم أو لا يتفق، وإنه يعلم ما تبدون وما تكتمون، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض، ولا فى السماء.

وننبه هنا إلى أمور ثلاثة:

أولها: أن قوله تعالى: ﴿لَنْ أَمْرَتَهُمْ لِيُخْرِجُنَّ﴾ فقوله: ﴿لَنْ أَمْرَتَهُمْ﴾ هى القسم، وهى تتضمن فعل الشرط، كأنه يوهم إلى أنهم لم يؤمروا مع أن الأمر عام يدخلون فيه إن كانوا صادقين، وهم كاذبون، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [التوبة]، والحديث عنهم بالغياب، لأنه بيان لقولهم وأحوالهم.

ثانيها: الانتقال إلى الخطاب فى أمر النبى ﷺ: ﴿قُلْ لَأَتَقَسِّمُوا﴾ لمواجهةهم بالأمر والتقصير والنفاق فى القول، والفجر فى الأيمان.

ثالثها: أن الضمير فى (وأقسموا) يعود إلى المنافقين أو إلى المسلمين عامة وفيهم المنافقون وضعاف الإيمان، ولكن لم يكن من قبل ذكر لهؤلاء إلا المؤمنين. ونقول فى الجواب عن ذلك: إن القرآن كان ينزل فى وسط جماعات تدعى إلى الإيمان فلم يكن مفصولا عمن يكونون بحضرة النبى ﷺ عند نزوله، وقد كانت الآيات ذاتها هى التى تعين مع مواقع الضمير، ففى مكة، كان النبى ﷺ يخاطب بالقرآن الكريم المشركين وهم الذين يعاندونه، فكانوا كأنهم حاضرون فيعود الضمير إليهم إذا كان فيه حكاية لعنادهم ومهاتراتهم، فلما انتقل إلى المدينة، فبعد غزوة بدر الكبرى ظهر النفاق، وبدأت أنياب اليهود، فكانت المعاندة من المنافقين واليهود، وظهر ضعاف الإيمان الذين يعبدون الله على حرف، فكانت الآيات التى تشير إلى

معاندة، أو خور، أو نفاق، تعود على هؤلاء، ومعانى الآيات الكريمة تعين من يعبد الضمير إليهم.

ولقد أمر الله تعالى رسوله بأمرهم بالطاعة فى كل الأمور فى الحرب وغيرها من الطاعات، وما تقوم عليه الجماعات فقال:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٥٤﴾

أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك؛ لأن هذا من تبليغ الرسالة، وهو وحده المبلغ، والله هو الذى يكلفه بالتبليغ، وإن الطاعة وحدها هى التى تكشف ما يختفى من نيات، وما يظهر من أمور قد تبين فى لحن القول، والمنافقون يعرفون فى لحن أقوالهم كما قال: ﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ...﴾ [٣٠] ﴿[محمد]، «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ»، أى أطيعوا طاعة من صميم قلوبكم، لا من ظاهر أقوالكم، وذكر الرسول مع الله، للإشارة إلى التلازم بينهما، وإلى أن طاعة الرسول واجبة على الأمة، لكيلا يتملص اليهود، والمنافقون من إجابة الرسول، زاعمين فى نفوسهم الفاسدة الفصل بين طاعة الله وطاعة رسوله، فيعصون الرسول، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، والخطاب للمنافقين ومن فى قلوبهم مرض ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ هذا فعل مضارع حذف فى التاء الأولى، فى «تولوا» حذف لكيلا ينقل على اللسان توالى التاءات، أى فإن تعرضوا ولا تطيعوا وتخضعوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من تكليف بالبلاغ، والدعوة إلى الجهاد والفضيلة، والعبادة الخالصة لوجه الله، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة والاستجابة، والفاء هى الواقعة فى جواب الشرط، والفاء الأولى فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ تفصح عن كلام مقدر، أى إن استحييتم فقد آمتم، وإن تولوا فالعاقبة عليكم، ودل على هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، أى وهو البلاغ، أى ليس عليه إلا ما حمله وهو البلاغ، وقدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، أى عليه ما حمل وهو التبليغ ليس عليه غيره، فهو لا يهديكم، ولكن يرشدكم ويدعوكم، ثم قال تعالى ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من

إجابة للتبليغ، وقيام بحق الطاعة، والإخلاص، وإن لم تقوموا بحق ما حملتم ضل سبيلكم وخاب أمركم، ﴿وَأَنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أى أن السبيل لاهتدائكم، ليست الأيمان التى تخلفونها، وإنما السبيل لذلك هو أن تطيعوا بملء قلوبكم، وخضوع نفوسكم، وليس ذلك إلا ما حملتموه، وما على الرسول أن تهتدوا، إنما عليه أن يرشد، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، المبين الموضح للحقائق من غير مماراة، فإن الجدل وراء الجدل ضياع، والله يهذى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وإن وراء الطاعة المخلصة، والجهاد أن تستخلفوا فى الأرض، ولذا قال سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾.

بعد أن هاجر النبى ﷺ كان فى جهاد مستمر هو ومن معه من المؤمنين، فبين الله تعالى غاية هذا الجهاد أن يكونوا هم الذين يخلفون الكافرين فى السيطرة على الأرض والسلطان عليها، وكما ملئت الأرض فسادا ثملاً لإصلاحها.

كان حال المهاجرين والأنصار جهادا مستمرا، لا توضع سيوفهم فى أغمدتها، والنبى ﷺ يدعو إلى الحق بلسان الحق من غير إكراه على إسلام، فإنه لا إكراه فى الدين، ولكن كان الجهاد ليعلم الرشد من الغى، ولإزالة المحاجزات التى كان يقيمها المتحكمون فى الناس، فما كانت الحرب إلا لإزالة هذه المحاجزات، ولكى يخلو الناس بوجوههم للدعوة الإسلامية، ومن اهتدى بعد ذلك فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التعبير بالموصول للدلالة على أن الصلة سبب هذا المؤكد، والاستخلاف جعلهم خلفاء، والأرض هى أرض العرب وغيرها من أرض الفرس والروم، وما وراءها من المشارق، والمغرب، والسين والتاء



للطلب، وهما يفيدان تأكيد الاستخلاف؛ لأن الطلب من الله، وهو لا يتخلف، وتنصرفان إلى التأكيد المطلق، فجعلهم خلفاء في الأرض لمن كانوا قبلهم، فخلفوهم في السيطرة على الأرض، وكمال سلطانهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ اللام تنبئ عن قسم مضمرة في القول، فالله وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بسبب إيمانهم، وعملهم الصالح في الطاعات والمعاملات الإنسانية وعدهم سبحانه بأن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من بعد نوح كعاد، وغيرهم خلفاء مسيطرين على ما في الأرض، وقد أكد سبحانه وتعالى وعده بالقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، وبالمشابهة بينهم، وبين من سبقوهم ممن جعلهم خلفاء في الأرض.

وإن ذلك تبشير للمؤمنين الذين آمنوا واتبعوا محمداً ﷺ في جهاده، وهو ماض إلى يوم القيامة، وليست الخلافة هي خلافة النبي ﷺ، ولكنها خلافة الله في الأرض بمقتضى الفطرة الإنسانية التي قال تعالى فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ... (٣٠)﴾ [البقرة]، فهي السلطان في الأرض بمقتضى التمكين الإلهي.

ذلك أن النبي ﷺ ما إن جاء بدعوته إلى الهدى، حتى كانت مكة كلها تقاومه بكل أنواع المقاومة، ولهاميم^(١) قريش تكيد له، ولما انتقل إلى المدينة ليدعو إلى دينه، وقد فشا ذكره في أرض العرب، اضطر للجهاد، وأخذ يشق الطريق للدعوة فكان وعد الله تعالى، وهم في هذا الجهاد، وعد الله بأن يكونوا الممكّنين في الأرض، وأن يكونوا مستخلفين فيها، وذلك الوعد يتضمن أمرين أحدهما: نصر مؤزر دائماً ما داموا مؤمنين عاملين الصالحات، والثاني: أن يكون لهم السلطان، وأن يكونوا المسيطرين في الأرض، وإن استخلافهم في الأرض كان معه أمور أعزتهم وأعلتهم، ذكرها سبحانه في قوله تعالى:

(١) اللهاميم: جمع اللُهموم: الجَوَادُّ من الناس والخيول. الصحاح للجوهري: فصل اللام.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وهذا هو الأمر الأول، وهو أساس لما قبله ولما بعده، فالدين يمكن فيما بينهم، فلا يكون ثمة ما يسوغ ضعف اليقين، بل تبقى الحجة للقرآن وحده، ويدركه الناس في دعة واستقرار، ولا يوجد إيذاء ولا استخذاء ولا استهزاء، ولا تهكم على المؤمنين، ولا يستطيعون كما فعلوا من قبل... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَوْهُمُ بِآدِي الرَّأْيِ ... (٢٧) [هود].

والثاني بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، أى يجعل الله تعالى من بعد الخوف المستمر من المشركين أمنا دائما مستقرا، وكان التنكير لبيان عظيم الأمن، وإنه أمن مستقر ثابت، ولقد قال النبي ﷺ: «ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»^(١)، وهنا إشارة بيانية فى قوله تعالى: ﴿دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، أى الذى ارتضاه سبحانه واختاره لهم، ففى هذا إشارة أولا: إلى كمال نعمته عليهم بهذا الدين، وثانيا: بأنه اختاره وارتضاه لهم، وثالثا: بأنه الحق الذى لا ريب فيه.

وقال سبحانه مبينا خاصة هذا الدين الحق، وشعار الذين بدلهم سبحانه من بعد خوفهم أمنا، فقال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، أى يعبدوننى وحدى فى عامة أمورهم، لا يشركون بى شيئا فى عبادة ولا طاعة ولا عمل، فعبادتهم له سبحانه وطاعتهم له وحده، فلا يطيعون حاكما ويتركون طاعة الله، وإذا خيروا بين عصيان الحاكم، وعصيان الله اختاروا عصيان الحاكم، فإن استمروا على ذلك استمر لهم السلطان فى الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أى من كفر وخالف وعصى الله بعد التمكين والأمن والاستقرار ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أى الخارجون الجاثرون البائرون فلا يكون كفرهم مجرد جحود، بل هو الضياع لا محالة، واعتبر

(١) جزء من حديث رواه البخارى: المناقب- علامات النبوة فى الإسلام (٣٣٤٣)، أبو داود: الجهاد (٢٢٧٨). من رواية لحباب بن الارت رضى الله عنه.



بحال المسلمين - فقد نالوا خلافة الأرض، وصار ملكهم فى مشارق الأرض، ومغاربها، وصاروا المسيطرين من الصين إلى بحر الظلمات، فلما فسقوا عن أمر ربهم صاروا قوما بورا، وإنه إذا كان ضياعهم لأنهم ضلوا واتخذوا القرآن قولا مهجورا، فعودتهم إليه فيها عودة عزهم.

وهكذا قد ابتدأ نور الحق يشرق، وفجر الإسلام يملأ نوره الآفاق، والله سبحانه وتعالى هو الهادي.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦).

إن الطريق لإقامة الاستخلاف على أساس من العدل والاستقامة والاتصال بالله تعالى يكون بثلاثة أمور مذكورة فى هذه الآية الكريمة.

الأمر الأول: إقامة الصلاة وقد أمر بها سبحانه فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى صلوا صلاة مقومة تستشعر فيها جلال الله تعالى وكبرياءه، وتحس فيها أنك فى حضرة الله تعالى وكأنك تراه فى مثولك بين يديه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذه تربية روحية، واتصال بالله سبحانه وتعالى فيكون امرأ يألف ويؤلف.

والأمر الثانى: إيتاء الزكاة، أى إعطاؤها لولى الأمر، وهو يصرفها فى مصارفها، وهذا الأمر ذكره بقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾، عبر سبحانه بقوله: ﴿وَأَتُوا﴾ دون «أدوا»، للإشارة إلى أنها عطاء يعطى، ويعطيها المزكى على أنها مغنم لا على أنها مغرم، وهى تعاون اجتماعى لا مذلة فيه لفقير، ولا استطالة لغنى.

والأمر الثالث: طاعة الرسول فى كل ما يأمر به وينهى عنه، وينظم به الدولة الإسلامية، ويقيم دعائم الحكم على أساس من العدل، وتنسيق الأمور، وهذا هو الأمر الثالث، وقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وطاعته فى حياته باتباع أوامره فى تنظيم الدولة، وتوزيع قواها كلها، بحيث يتبع فى توسيد الأمور للقائمين بها، فى الحرب والسلم على سواء، وبعد مماته تكون طاعته باتباع ما أثر عن سنته فهى المحجة الواضحة، والطاعة للأمير الذى ينفذ الحق والعدل، ويقيم

حكمه على دعائم من القرآن كأبى بكر وعمر وعثمان وعليّ، ولا يطيع الذين يخالفون الكتاب والسنة إلا فى طاعة الله، حتى لا تكون الأمور فوضى، ويضطرب ميزان الحق والعدل، وتعطل الحدود، ولا تقام الفرائض ولا تقاد الجيوش، ولا تسد الثغور، ولا يحمى الحمى.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، أى رجاء أن ترحموا ببقاء العزة، وألا تكونوا نهبا مقسوما بين الأمم، وألا تتداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها، والرجاء هنا من الناس لا من الله تعالى، فالله تعالى لا يرجو، لأنه عالم الغيب وما يكنه المستقبل.

وأشار سبحانه إلى أن الذين كفروا مأواهم النار وبئس المصير، فقال عز من

قائل:

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَوْنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ

بين الله تعالى فى الآيتين السابقتين أنه بالجهاد الدائم المستمر يكون للمؤمنين الصالحين الاستخلاف فى الأرض بوعد الله المؤكد، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول والأئمة العادلين من بعده، وفى هذه الآية يبين سبحانه مآل المشركين الذين يحاربون الله ورسوله والمؤمنين، وكان الفصل بين الجملتين وعدم الاتصال بالعطف لكمال الاتصال بين موضوع الآيتين، فالآيتان السابقتان فيهما بيان ما للمؤمنين من منزلة وما تحلوا به من طاعة للرسول، والآية الأخيرة فيها بيان المخالفة والمعاندة، وفوق ذلك الآية الأولى تبين غاية الجهاد، والثانية حال الذين يجاهدون.

والنهي عن الحسبان والظن، وهو فى معنى النفي، أى لا يصح لمثلك يا رسول الحق والتوحيد أن تظن أن الذين كفروا معجزين فى الأرض، بل جاهدوهم وأنت الغالب، والله ناصر، والعاقبة للمتقين الأبرار، لا للكفار الفجار.

والتعبير بالموصول وهو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشير إلى السبب في نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وقوله تعالى: ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، أى أنهم غالبون في الأرض لا يعجزهم شيء، فإن الكافرين يحملون في نفوسهم عوامل عجزهم؛ لأنهم تسيطر عليهم الأهواء وهم بعيدون عن الحق، فمن غالبهم يغلبهم بعون الله تعالى وتأييده، والله يؤيد من يشاء بنصر من عنده.

وإن نتيجة الحياة الدنيا لهم أن يكونوا في الآخرة في جهنم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْاهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ المأوى المكان الذى يأوى إليه المسافر أو العامل الكادح، فالتعبير عن النار بأنها مأوى فيه نوع من التهكم عليهم، و«بئس» لفظ يدل على الذم، والنار تذم لأنها عذاب، ولأنهم خالدون فيها، وقد أكد سبحانه الذم باللام، ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الاستئذان فى داخل البيوت من الأهل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

لَيْسَتْ ذُنُوبُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَفَاتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ
 نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
 غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى الاستئذان عند الدخول على بيوت غير بيوتنا فقال
 الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى
 أَهْلِهَا...﴾ (٢٧) إلى آخر الآيات، ثم ذكر عفة الذين لا يجدون نكاحا، ثم ذكر
 سبحانه وتعالى نور الشريعة ونور الحق، وعاد بعد ذلك إلى ما ينبغي في أدب
 البيوت، وفي الشئون الداخلية، فإذا كانت الآيات السابقة في بيان استئذان الذين
 يدخلون غير بيوتهم، فهذه الآية في بيان استئذان الذين يعيشون في دار واحدة
 لبعضهم من بعض، فذكر سبحانه وتعالى وجوب الاستئذان في ثلاثة أوقات، هذه
 الأوقات هي أوقات التجرد من الثياب وكون الناس يكونون في حال لا يرغبون أن
 يراهم فيها أحد، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلْغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ
 ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ
 ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨).

واضح من هذا أن هذه الآية وآية الاستئناس لم يردا على موضوع واحد، بل
 لكل واحدة موضوع؛ فالسابقة موضوعها الاستئذان للدخول في بيوت غير بيوت
 المستأنس، أما هذه فهي للأهل الذين يسكنون في دار واحدة، وهم مختلطون يدخل

بعضهم بيوت البتوتة من غير حرج أو استئذان، فالآية تعلم الناس أدب الاختلاط، سواء أكانوا ذوى أرحام، أم لم يكونوا، فذكرت الآية الكريمة الآداب المبينة لما يحسن، وما لا يحسن، وما يليق وما لا يليق ﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ذكورا كانوا أو إناثا، فاللفظ عام ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾، أى الأطفال المميزون، وذكر الذين لم يبلغوا الحلم ينبئ عن أنهم مميزون يستطيعون وصف ما يرون ويشاهدون وإذا كان هذا شأن الذين لم يبلغوا الحلم، فبالأولى لابد من استئذان من بلغوا الحلم، وقد صرحت الآية من بعد ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

والأوقات التى ذكرتها الآية هى الأوقات التى يظن فيها العرى والتجرد من الثياب، فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾؛ لأنه وقت امتداد الليل وإنهائه والاستعداد للصلاة، ومظنة ذلك أن يتجرد الرجل وأهله من ثيابهما، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾، أى حين تخلعون ثيابكم، من الظهيرة أى من الحرارة التى تكون فى الظهيرة، فهو وقت تجرد وعرى ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ فهو وقت التجرد لأجل النوم، ثم قال تعالى: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾، أى ثلاثة أوقات فيها تبدو عوراتكم وتكون ظاهرة، وتحبون أن تستروا، وجعلت الأوقات عورات؛ لأن فيها تظهر هذه العورات فهى من تسمية الزمان بما فيه، فهذه الأوقات التى تكون العورات فيها مكشوفة، لا يصح التقحم بالدخول على أصحابها من غير استئذان حتى يستروا، ويستعدوا للقاء هذا الزائر، وأحسب أنه لو كف أهل البيت عن الدخول إلا لضرورة ملحة، ويكون معها الاستئذان لا محالة، فإن ذلك يكون خيرا وهو الأجمل بأهل المروءة، وإنه بعد هذه الأوقات التى تكون مظنة كشف العورات ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ لا جناح عليكم، ولا جناح عليهم، الجناح هنا الإثم، والميل نحوه، أى لا إثم عليكم فى أن تدخلوا، ولا إثم عليهم فى أن تدخلوا عليهم، وفى هذا إشارة إلى أن الإثم يلحق الذين يكشفون عوراتهم ولا يتخذون الأستار، وقاية من أن تنالها الأعين ولو كانت بريئة، وفى ذلك دعوة إلى ضرورة اتخاذ أسباب

الستر، ولا تكون البيوت كبيوت أهل الخنا، وقال تعالى: ﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أى بعد هذه الأوقات.

وبين سبحانه السبب فى رفع الحرج فى غير هذه الأوقات، فهؤلاء الذين ملكت أيمانهم، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون من غير استئذان؛ لأنهم طوافون مترددون فى البيت، ويكون حرج شديد إذا كان الاستئذان فى كل وقت، ويكون حرج على الأمهات إذا كان أطفالهن لا يدخلون إلا باستئذان وهم غير مكلفين.

وما ملكت أيمانهم عامة: أيراد بها كل من ملكت أيمانهم رجالا و نساء. إنه بمقابلة النصوص بعضها ببعض، وتخصيص بعضها ببعض يكون المتفق مع روحها، والفاظها، أنه لا استئذان على الرجال مما ملكت أيمانهم من الرجال والنساء، لا إثم فى ذلك، ولا مظنة لعرى، وأما بالنسبة للنساء فإنه لا يدخل الرجال عليهن إلا بإذن، والإماء قد رفع عنهن الإثم، لأنهن طوافات على النساء (راجع ما قلنا فى تفسير آيات غض البصر) وإنه بمقتضى هذه الآيات يجب أن يكون فى غير هذه الأوقات مستورا دائما ولو كان فى بيته؛ لأنه إذا كان الاستئذان لمظنة ظهور العورة فى الأوقات الممنوعة إلا باستئذان، فمعنى ذلك أنه لا يصح أن يطلع على العورة إذا كشفت حتى الأطفال المميزون ما داموا لم يبلغوا الحلم، وعلى ذلك يجب ستر العورة لكى يكون الاستئذان ولا حرج.

وقال تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، بعضكم بدل من طوافون، أى بعضكم يطوف على بعض. هذه أوامر هى تعليم من الله وإرشاد، وتوجيه إلى ما ينبغى فى بيوتهم، وكذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَسِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أى كهذا البيان فى ذكر ما هو لائق وما تكون عليه الأسرة بين الله تعالى الآيات المتلوة ويوضحها لكم لتقوم الأسر على دعائم من الطهر، والمودة والرحمة، والله تعالى عليم بأحوالكم ظاهرها وباطنها، وحكيم فيما شرع ويأمر. فهو يبين لكم الأحكام، وما يليق بكل حال.

واللام فى قوله تعالى: ﴿لَيْسْتَ أَذِنُكُمْ﴾ هى لام الأمر، والأمر للوجوب إلا إذا كان ثمة ما يخرجها عن معنى الوجوب من نص أو قرينة حال.

وقد نص الله تعالى على حكم الأطفال الذين بلغوا الحلم: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

هذه حال الأطفال الذين يبلغون الحلم، وإنهم إذا بلغوا الحلم صاروا رجالا، وتسميتهم أطفالا باعتبار ما كان، كاليتمى فى قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الَّتِي تَمَى أَمْوَالَهُمْ...﴾ [النساء] وكان تسميتهم أطفالا فى داخل الأسرة؛ لأنهم كانوا يعاملون معاملة الأطفال، حتى طرأت هذه الحال، والرجال لا يعدون من الطوافين، ولكن يعدون من الداخلين على البيت الذين يجب عليهم الاستئذان قبل الدخول، ولو كانوا داخلين على آبائهم وأمهاتهم، حتى أوجب النبى على الرجل أن يستأذن على أمه بالنص منه ﷺ على ذلك، فإن الاستئذان يطلب من الرجال على كل حال، وقال الزهرى المحدث: يستأذن الرجل على أمه؛ وذلك لأن الرجال ليسوا من الذين يلزمون البيت، ويكونون من الطوافين؛ لأن هذا إنما يكون للمتخصصين للبيوت لخدمتها، والقيام بواجبات كالمملوكين.

وبيين الله تعالى حال القواعد من النساء، فقال عز من قائل:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [١٠].

القواعد جمع قاعدة بالنساء، وهى التى لا تحيض، ولا قدرة لها على العمل، ولا تستخدم عادة فى البيوت، وقال بعض اللغويين: القواعد هنا جمع قاعد من غير تاء وهى قعود الكبر، وحذفت التاء ليكون الحذف مميزا لها عن غيرها، كما حذفت التاء فى حامل فى حامله لتمييز عن الحاملة على كتفها كحاملة الخطب.

وإن الآية واردة فى النساء القعود عن العمل فى البيت اللاتى لا يرجون نكاحا، أى لا يطمعن فى زواج؛ لأنهن من الكبر العاتى يجعلهن لا يرجونه، لهذه

السن، ولأنهن في حال لن يقبل الناس على الزواج منهن، وهذه الأوقات التي تكشف فيها عورات غيرهن، لا عبرة لها عندهن، ولا تعد هذه الأوقات عورات لهن، وليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن، أى يلقين عن أنفسهن ثيابهن، كالخمار ونحوه، مما يتستر به الشواوب اللائي يطمع فيهن، ويرجون النكاح لأنهن في سن الزواج، وليس معنى ذلك أن للقواعد أن يتجرذن من الثياب، ويكن في البيت عاريات، بل المراد أنهن يضعن بعض الثياب التي يثقل عليهن حملها، ولذا كانت قراءة ابن مسعود (أن يضعن من ثيابهن)^(١) أى بعض ثيابهن، والبعضية، وإن لم تكن (من) في القراءات الأخريات ملاحظة فيها، وهي مفهومة من سياق القول.

وقد لاحظ الله تعالى في القرآن ما يكون من بعض العجزة من رغبة شديدة في الزينة ناسيات سنهن وما ينبغى لثلهن، ولذا قال: ﴿غَيْرَ مُتَّبِرَّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ التبرج الظهور بالزينة، أى غير مظهرات الزينة، كأن الإسلام تسامح معهن في الزينة، وإن لم تكن في وقتها، بيد أنه لم يرض لهن إكراما لهن بأن يظهرن بها.

وقد فرض الله فيهن الرغبة في الرجال، ولو كان وقتها قد فات، فقال: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرَ لَّهُنَّ﴾ السين والتاء للطلب، والمعنى: وأن يطلبن العفة خير لهن، وفي هذا تنبيه كريم إلى ما ينبغى لهن من غير أن يؤذى إحساسهن، وفيه تذكير بما ينبغى، وبما يليق بهن في رفق قول، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أى علم علما دقيقا هو علم من يسمع، وعليم، فهو محيط بكل شيء علما.

التعاون في الأسرة

قال تعالى:

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا

(١) (أن يضعن من ثيابهن) ليست من العشر المتواترة.

مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
 أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ
 أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
 جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
 تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ
 يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

هذه الآية الكريمة واضحة في بيان التعاون في الأسرة في المال وما توجه به النفقات، وكان مال الأسرة شركة بينهم، وإنها شركة يفرضها التعاون، وسد حاجة المحتاج، بحيث يعطى الغنى القادر من فضل ماله ما يسد حاجة الفقير العاجز، وكأنه يسد حاجة نفسه، وبذلك تكون القرابة والمودة هي الرابطة بين الناس لا النظم التي تسلب الغنى ملكيته، والنبي ﷺ يقول: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه»^(١)، ولا يطمع الفقير في مال لم يكسبه، فيكون أخذه إياه اغتصاباً.

وهذه الآية تقرر أمرين، هما ما يؤخذ بسبب القرابة من نفقة، وما يكون إباحة من ذى مال كصديق، أو رجل فاضل أعطاه مفاتيحه، وعلى ذلك نقول: إن الآية اشتملت على أمرين، أولهما: نفقة القريب، والثاني: الأخذ من مال قد أبيح

(١) جزء من حديث حجة الوداع كما رواه أحمد: أول مسند البصريين - حديث عم أبي حرة الرقاشي

له. وشرط الأمرين أن يكون فقيرا عاجزا عن الكسب؛ ولذلك ابتدأت بذكر ما يوميء عن العجز، والفقر، وقد كان الأمر بالأخذ لا جناح فيه ولا إثم إشارة إلى أن الإعطاء مودة ورحمة، وتبادل لها بين المعطى والأخذ، ونفى الجناح فيه إشارة إلى الاحتياج، بل الاضطرار.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، أى ضيق أو إثم، وهذا فريق الفقراء العاجزين الذين يشترط فيهم مع الفقر العجز عن الكسب، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ولم يذكر فى هذا العجز، بل ذكر مطلقا عن العجز، فهذا يدل على أن العجز ليس بشرط بالنسبة لأنفسكم، والجواب عن ذلك هو شرط بالنسبة للجميع، إلا من يعتبر ماله هو ماله كالأب وولده والأم وولدها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»^(١)، «أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» ذكر البيوت مضافة إلى من يأخذ النفقة، فيه إشارة إلى تشابه بيت طالب النفقة والمطلوب منه، فهما كبيت واحد بالنسبة للمستحق للنفقة، إذ هو كبيته لما بينهما من قرابة أوجبت هذا التعاون.

﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾ ويلاحظ هنا ملاحظتين:

أولاهما: أن (أو) ليست للتخيير المجرد، إنما هي تدل على الترتيب الأقرب فالأقرب، فالأول الآباء، فإن لم يكن فالأمهات بأن كان الآباء عاجزين، وهكذا يتوالى الوجوب الأقرب فالأقرب بشرط أن يكون قادرا على الإنفاق على نفسه وغيره.

الثانية: أن هؤلاء الأقارب لوحظ أنهم أقارب ذوو رحم محرم منه تستحق النفقة، وبذلك اشترط الحنفية لاستحقاق النفقة على القريب أن يكون ذا رحم محرم منه، وعدوا الميراث مرجحا ولم يعدوه شرطا أساسيا، بحيث لو كان قريبا أحدهما

ذو رحم محرم ووارث، يرجع على الآخر إذا كان ذا رحم محرم فقط، وإذا كان وارث كابن العم، وبنت الأخ لا نفقة على الوارث هنا؛ لأنه ليس ذا رحم.

والحنابلة جعلوا الميراث أساس وجوب النفقة لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ...﴾ (٢٣٣) [البقرة] ولأن الغنم بالغرم، فإذا كان يستحق ميراثه إذا مات، فعليه نفقته إذا احتاج، وكان عاجزا.

هذه هي النفقة بين الأقارب، بقى بيان الأخذ من المال الذى يباح للعاجز، وقد ذكر سبحانه وتعالى حالين:

الأولى: ﴿مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾، أى بتمكين من المالك، فأعطاه المفاتيح دليل على الإباحة

الثانية: الصديق، فهو يأخذ نفقة من مال صديقه.

وإن الأخذ فى هاتين الحالتين لا يكون بإلزام قضائى، إنما يكون بتبرع شخصى من المالك ذى الصلة الوثيقة، سواء أكان نائبا عنه فى إدارة أمواله، أم كان صديقا بينهما خلطة تجعل المحبة بينهما مالهما مشتركا.

وقد قال تعالى فى تأكيد معنى التعاون، وشركة الأسرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أى تأكلون مجتمعين، أو أشتاتا جمع شت وهو التفرق، أى تأكلون جماعات وفرادي.

وإن ذلك مظنة الدخول فى بيت من تكون النفقة منه، والاستئذان حيثئذ واجب، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ فالسلام هنا سلام استئذان، وقال: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، أى أن بعضكم من بعض، فهم أنتم وأنتم هم ﴿تَحِيَّةٌ﴾ مصدر، أى يحيى بهذا السلام ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، وكانت ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأنه أمر بها ولأنها يحفها رضا الله وبركته، وطيبه.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، أى كهذا البيان الواضح المبين المرشد، بين الله تعالى لكم الآيات المتلوة، أى يأتى لكم بينة واضحة هادية مرشدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، أى رجاء أن تعقلوا وتدرکوا ما فيه خيركم وصلاح حالكم، وقيام جمعكم، والرجاء من العبد، أى أن الله تعالى قدم لكم ما يرجى به صلاح أموركم، واجتماع على الحق والهداية والتعاون

الإيمان الحق

قال تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

ابتدأت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) وأنزل سبحانه وتعالى ما يكون وقاية للأسر، من عقوبات الزناة، والذين يرمون المحصنات الأطهار، ويريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وبينت أمراً أهم المسلمين جميعاً، وهو حديث الإفك، ثم تكلمت في نور الإيمان وظلمات الكفر، ثم تكلمت على عورات الأسرة في داخلها وحماية آحادها، وانتقلت السورة من حماية الأسرة إلى حماية الجماعة المؤمنة، وحمايتها بطاعة رسول الله ﷺ حياً، وطاعة الإمام العادل الذى يخلفه بشورى المؤمنين، واختبارهم من بعده، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ هنا أداة قصر، أى أن المؤمنين حقاً وصدقا وحدهم دون غيرهم هم الذين يؤمنون بالله ورسوله، إيمان إذعان وتسليم، لا إسلام تردد أو تمرد، كضعاف الإيمان المنافقين الذين فى قلوبهم مرض النفاق وهو أشد أمراض القلوب، بل إنه داؤها الدوى، وأن يكون فى حال تظلمهم، ولا يخرجون عنها، وهذه الحال التى عبر عنها سبحانه بقوله ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

أى إذا كانوا مع الرسول على أمر جامع لهم كشورى فى مصلحة تهم المؤمنين، أو دفع ضرر يعمهم إن وقع، أو مداهمة عدو يغير عليهم، أو الخروج لغزوات اضطرت الأحوال للخروج إليها كغزوة تبوك أو نحو ذلك، يجتمعون حوله لمبادلة النظر، ثم يذهبون إليه مجتمعين على كلمة الحق وأمر الرسول، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾، فإن هذا الكلام يتضمن اجتماعهم، كأنه مطوى كلمة اجتمعوا، ويكون سياق الكلام، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى: وإذا كانوا معه على أمر جامع ودعاهم اجتمعوا له، ولم يذهبوا حتى يستأذِنوه، أى يدخلون فى الأمر الجامع مجتمعين غير متفرقين، وقوله تعالى: ﴿لَمْ

يَذْهَبُوا» «لم» لنفى الماضي، وهذا دليل على أنهم اجتمعوا معه، فهو عطف نفي في الماضي على اجتماع قبله.

وما حدود الأمر الجامع؟ حاول أن يضبطه القرطبي فقال نقلا من بعض الأقوال:

المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس لإذاعة مصلحة من إقامة سنة في الدين، أو لترهيب عدو باجتماعهم، وللحروب، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ... (١٥٩)﴾ [آل عمران] فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور في ذلك^(١).

وخلاصة هذا القول والأقوال التي ساقها من بعد أن يكون أمرا عاما يجمعهم ليتشاور فيه معهم، إذ يكون له أثر في الناس من بعد، ولعلاج حال قائمة، وإن النبي ﷺ كان يفعل ذلك كما شاورهم في غزوة أحد، وفي غزوة الخندق وكما جمعهم لغزوة تبوك.

وكان خلفاؤه كذلك من بعده، فجمعهم أبو بكر لمقاومة الردة، وجمعهم عمر لتقسيم الأراضي بين الغزاة، أو بقائها تحت يد ولي الأمر العادل، وكما جمعهم لاستشارتهم في خروجه بشخصه إلى الحرب، إذ تكاثر الفرس على المؤمنين، فأرادوا أن يخرج إليهم، فجمعهم، ونهاه علي، وبرأيه أخذ المجتمعون رضى الله عنهم أجمعين، وإن الاستئذان لا ينقص الإيمان، ولذا قال: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الفاء للإفصاح ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ بعض أحوالهم الخاصة بهم التي يجدون حرجا عليهم في أن يذهبوا مع الغزاة أو يستمروا مع المجتمعين لأمر ما: ﴿فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الفاء واقعة في جواب ﴿لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ولا يشاء رسول الله ﷺ، والإمام العادل من بعده إلا ما هو خير ومصلحة، فيكون الإذن لمن لا يضر الإذن له، ولمن يعلم حاجته إلى التخلف، ولمن يعلم صدقه، ومن يأذن له يطلب الغفران له، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ السين والتاء للطلب أى اطلب

المغفرة لهم، وظاهر النص أن طلب الغفران لمن أذن لهم، وذلك يومئ إلى أنه كان الأولي بقاؤهم مع المجتمعين على أمر يصح أن نقول: إن طلب الغفران لهم جميعا، ليكونوا جميعا في رحمة الله تعالى، وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور يغفر الذنوب جميعا مع التوبة النصوح، فهو التواب الذى يقبل من عباده التوبة، وهو رحيم، والرحمة صفة من صفاته جل وعز، رحمهم بما بين لهم من شرائع منظمة لجموعهم، وحاكمة بينهم، ورحيم بغفرانه لما يجترحون من سيئات، ويتوبون بعد من قريب.

وقد بين الله سبحانه أدب الاجتماع مع الرسول فى الأمر الجامع، فقال عز من قائل:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ .

هذه الآية لبيان الحال الذى يجتمع فيه المؤمنون فى «أمر جامع»، وصفه الزمخشري بقوله «أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوى رأى وقوة يظاهرونه عليه، ويعاونونه، ويستضىء بأرائهم ومعارفهم، وتجاربهم فى كفايته» (١).

وإنه فى هذا الاجتماع يجب أن تلاحظ مكانة النبى ﷺ، فلا يخاطب كما يخاطب أى شخص، والدعاء: النداء، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، أى لا تنادوا الرسول كما ينادى بعضكم بعضا، واعرفوا حق الاجتماع من أدب القول، واجتماع القلوب، فلا ينفر أحدكم، ولا يتجانف، واعرفوا حق الاجتماع.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ «قد». للتحقيق، و«قد» لا تستعمل فى القرآن إلا للتحقيق، ولا تستعمل للتقليل ولا التكثير، وخصوصا بالنسبة لعلم الله تعالى، (يتسللون)، معناها يخرجون متدرجين فى الخروج واحدا بعد آخر، فهم يخرجون قليلا ﴿لِوَاذًا﴾، أى يلوذ بعضهم ببعض،

(١) الكشف للزمخشري: ٧٨/٣.

حتى يتكاثر جمعهم، وأولئك هم المنافقون الذين يشق عليهم اجتماع المؤمنين، ويشتد غيظهم، كلما رأوهم يتبادلون الأمر فيما بينهم، ولذلك كان أشق الأيام عليهم يوم الجمعة، إذ يجتمع المؤمنون في المسجد يتشاورون في أمورهم الحاضرة والقابلة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الفاء للإفصاح، وهى تومئ إلى شرط مقدر، واللام للأمر، والأمر بالحدز يوجب العمل على الوقاية من شر المخالفة، والضمير فى ﴿أَمْرِهِ﴾ يعود إلى النبي ﷺ، والمعنى ليحذر الذين يخالفون رسول الله ﷺ صادين عن أمره ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. الفتنة هى اضطراب وانحلال الجماعة وتفرقها، والعذاب الأليم هو عذاب يوم القيامة، فمخالفة الرسول فى الأمر الجامع تؤدى إما إلى فتنة مردية، ولا يكون ذلك فى حياة الرسول، بل يحتمل أن يكون فى الأئمة من بعده كما كانت الفتنة فى عهد الإمام عثمان، والإمام على رضى الله عنهما، وانفلت الأمر إلى معاوية فكان ملكا عضوضا.

والعذاب الأليم للمنافقين الذين يفرقون فى الجماعة، ويشيعون عدم الثقة والفساد، يستقبلهم يوم القيامة كما يستقبل كل الكفار، مع ملاحظة أن النفاق ذاته عذاب لذوى النفوس المدركة؛ لأن المنافق يكون مضطربا دائما بين ما يخفيه وما يظهره، وما يناله، ولقد قال ﷺ فى بيان حال المنافق: «مثل المنافق كمثل الشاة الحائرة بين غنمين لا تدرى إلى أيهما تذهب» وهذا عذاب نفسى أليم.

لقد ذكرهم سبحانه بسلطانه فى السموات والأرض، وأن المآل إليه فقال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٤).

أكد الله سبحانه وتعالى ملكيته لكل ما فى السموات من نجوم وكواكب، وبروج مشيدة، وغيرها، وما فى الأرض من إنس وجن، وجبال ووهاد، وما فى باطنها من معادن جامدة وسائللة، وفلزات، وما فيها من بحار، فيها أحياء تشير العجب من إبداع الخلق والتكوين.



وكان الله تعالى يملكها ملكية مطلقة؛ لأنه خالقها، ومبدعها، وهو يعلم كل ما خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ...﴾ (١٤) [الملك].

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ «قد» للتحقيق والتأكيد كما هي في القرآن دائما، وهذا فيه تبشير وترهيب، فهو يعلم ما أنتم عليه من خير وشر، وما تعتزمون، وما تعلنون به، فلا تخفى عليه خافية من أموركم، وهو مجازيكم بما يعلم وما تعملون. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾.

الفاء في قوله تعالى كفاء جواب الشرط، وكفاء الصلة، ويوم يرجعون ينبئهم التنبيه والإخبار بالشئون الخطيرة، وأى خطر أعظم من حساب يوم القيامة عما عملوا في الدنيا جزائهم عليه من نعيم أو جحيم.

والنبيه بما عملوا، جعله حاضرا بين أيديهم، ويجزون عليه جزاء وفاقا، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

سورة الفرقان

تمهيد:

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات هي أرقام ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، وعدد آياتها سبع وسبعون آية .

سميت سورة الفرقان ؛ لأنها ابتدأت بذكر تنزيل القرآن على عبده ، فقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ ، ووصف ذاته العلية بأنه الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ، ثم ذكر شرك المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة لا يَخْلُقُونَ ، وهم يُخْلَقُونَ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، وأنكروا القرآن الكريم مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، وقالوا : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ ﴾ وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ۝٥ ﴾ .

ورد الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٦ ﴾ ، وتحدثوا فى جدلهم بالنبي وأنكروا أن يكون الرسول ﷺ من البشر : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ۝٨ ﴾ .

وقد رد سبحانه افتراءاتهم فقال : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ ﴾ .

بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى قدرته بالنسبة لرسوله، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ١٠﴾ بَلْ كَذَبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ١٢ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ١٣﴾، ويقال حيثئذ ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ١٤﴾.

وقد وازنت الآيات الكريمات بين نعيم المتقين، وعذاب الكافرين: ﴿قُلْ أَذَلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ١٦﴾.

ثم ذكر سبحانه وتعالى حالهم يوم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُم نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ١٩﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى أن المرسلين جميعا كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق فقال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ٢٠﴾.

وقد ذكر سبحانه أنهم كانوا يريدون ملائكة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ٢٢﴾.

وقد بين سبحانه أن أعمالهم باطلة فقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ٢٤﴾ وقد ذكرهم سبحانه بما يكون يوم البعث، ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَتُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ٢٥﴾.

وإنه بعد البعث السلطان ظاهراً وباطناً لله تعالى وحده: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرُّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٦) وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ .

بعد ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى موقف الرسول من هؤلاء الكافرين ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) وبين سبحانه أنه يجعل لكل نبي عدواً من المجرمين: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١) .

ولقد كان المشركون لا يؤمنون بالقرآن، ولكنهم يثيرون الشكوك حوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وقد بين أن ذلك لتثبيته في القلوب، ولإنزاله مرتلاً، وتخفيفه مرتلاً، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ وقد ذكر سبحانه أوصافهم عند الحشر ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٤) .

وقد أشار سبحانه إلى بعض قصص موسى وهارون: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ .

وذكر سبحانه من قصة نوح، وإغراق الكافرين من قومه، وقال ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾ ، وقد بين سبحانه بعد أنهم أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء، أفلم يكونوا يرونها، بل كانوا لا يرجون نشوراً، وبين سبحانه سوء معاملة المشركين للنبي ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤٠) إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ

صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضْلُ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ، ولقد ذكر سبحانه أن دينهم أهواءهم ، فقال ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضْلُ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ .

وبين الله تعالى من بعد مظاهر الإبداع في خلقه وتكوينه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ وبين الله تعالى إنذاره لخلقهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعُمُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ ، ثم بين سبحانه الإبداع في خلقه ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ ، ثم أشار سبحانه إلى الإبداع في تناسل الإنسان، وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا .

ومع هذا الإحكام في الخلق، والإبداع فيه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ .

وبين سبحانه مقام محمد ﷺ في الرسالة وواجهه فقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَاجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ .

ووصف سبحانه بعد ذلك عباد الرحمن ، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ

الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴿

وقد بين الله جزاء من يتصفون بهذه الصفات ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ .

معانى السورة

قال تعالى :

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا
 ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
 يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾
 وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
 وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
 وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آفَاكُ
 أَفْتَرَيْنَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا
 ﴿٤﴾ وَقَالُوا الْمَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى
 عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ أصل ﴿تَبَارَكَ﴾ من البرك وهو صدر البعير، ثم صارت البركة تطلق على كل خير ملازم ثابت، ومنه البركة بكسر الباء تطلق على الماء الثابت، والماء فى ذاته بركة وخير .

وتبارك - معناها التنبيه على ما فى القرآن من خير لا زم مستمر، لا تبلى جدته أبدا، فالبركة فى القرآن، ونسبتها إلى الله تعالى لأنه مصدرها، وموجدتها، فالله تعالى تسامت بركته بإنزال القرآن لعباده، وتعريفهم بما اشتمل عليه من بيان العقائد والأحكام.

﴿عَبْدِهِ﴾ هو محمد ﷺ، فالله تعالى كلماته أنزل القرآن على عبده، ليلغيه لعباده من العالمين، وليكون نذيراً، أى منذراً مبيناً، وهو بشير ونذير، ولكن ذكر النذير فقط لأن كثرة الذين تلقوه كانوا مستحقين للعذاب، إذا استمروا في غيهم وضلالهم، ولذلك ذكر الإنذار، وترك التبشير للآيات الأخرى من غير إهمال فهو الجانب الأحب في ذاته.

والفرقان هو القرآن، وسمى الفرقان لأنه فارق بين الحق والباطل، والهداية والضلال، والعدل والظلم؛ ولأنه نزل مفرقا منجما، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ ۖ﴾ [الإسراء] ، وذكر الزمخشري أن القرآن سمي فرقانا لتفرقة بين الحق والباطل، أو لأنه نزل مفرقا، وأرى أنه لا مانع من الجمع ففيه الأمان فهو مبين للحق والشرعية، وقد نزل مفرقا، فهما ليسا وجهين مختلفين، بل فيه الأمان.

و (العالمون) العقلاء من الجن والإنس المكلفون أحكامه، والمطالبون بتنفيذها.

وبعد أن أشار سبحانه إلى بركته وخيره، ونمائه، شرفه بمُنزله، وهو الله خالق السموات والأرض فقال:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۚ﴾ (٢)

هذا شرف للقرآن ناله، من أن منزله هو منشئ هذا الكون الذي لا يشبه أحدا من الحوادث، ولا يشبهه شيء في الوجود، ﴿الَّذِي﴾ بدل أو عطف بيان للذي الأولى في قوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ﴾ وذكر هذا بعد ذكر إنزال القرآن للدلالة أولا على شرف القرآن بإضافته إلى من له الملك في السموات والأرض، ويبين أن إنزال القرآن من تدبير صاحب الملك للملك، لإصلاح عباده وإرشادهم به.

والملك هو السلطان وهو مطلق لله تعالى لا سلطان لغيره، وهو قسيم السموات والأرض، فالنجوم لا تسير إلا بسلطانه، وكل ما فيها من شمس وقمر، ونجوم مسخرات بأمره وحده، وكذلك الأرضون، كل ما فيها من جبال ووهاد وبحار ونجاد وحيوان وجماد ومعادن وفلزات وغيرها كله مسخر بأمره.

وصف الله سبحانه ذاته العلية بصفيتين سلبيتين، وصفة إيجابية تدل على إثبات السلب، الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وذلك رد على النصارى الذين ادعوا أن عيسى ابن الله، وعلى الهنود والبوذيين الذين أخذ منهم النصارى هذه التحلة، وعلى الذين يعبدون الملائكة، ويقولون إنهم بنات الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أى لم يجعل له من بين خلقه من يتخذه عوناً ونصيراً، والنفي بهذه الصفة يحمل فى نفسه بطلان الاتخاذ، لأن الاتخاذ يدل على الحاجة، والله تعالى لا يحتاج لأحد من خلقه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر].

الصفة السلبية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ هذا نفى مطلق، لأنه لو كان له شريك فى الملك ما استقام الكون، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء].

الصفة الثالثة وهى الإيجابية، وتتضمن فى معناها برهان السلب فى السلبيتين، وقد بينها سبحانه بقوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾، أى أنشأ كل شئ إنشاء مقدرًا بإحكام، هو تقدير العزيز العليم، فالسماوات ذات بروج، والمطر ينزل فينبت الزرع، والحيوان يأكل مما تنبت الأرض، وهكذا يسير الكون بقدرته الله العلى القدير، وتتفاعل الأشياء بعضها من بعض بإرادة الله تعالى العزيز الحكيم.

ومع هذا تضل العقول فى معرفة الله تعالى، وفى الخضوع له وفى عبادته،

فقال:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ .

ومع أن الله الذي خلق السموات والأرض وصاحب السلطان المطلق، وخلق كل شيء فقدره تقديراً فجّر المشركون وجحدوا واتخذوا من دونه، من غيره ما هو دون في ذاته آلهة، وسميت الأحجار آلهة على زعمهم لأنهم يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى. والضمير في ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ يعود على المشركين، لأنهم حاضرون في مواجهة النبي ﷺ.

ومعنى اتخذوا من دونه آلهة أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة عاجزة، وهذا الاتخاذ إفك مبين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ .. (١٧) [العنكبوت]، فالحجارة ليست آلهة، ولكنهم خلقوا إفكا فسموها آلهة، وقد خلقوا إفكا من ناحية تسميتها آلهة، وهم يصنعونها بأيديهم، فتكون الصناعة على أنها آلهة إفك، وانتحال اسم الآلهة لها إفك أيضاً.

وقابل سبحانه بين الهداية والضلال، فالهداية عبادة الله، والضلال عبادة هذه الأحجار، فذكر أن الله خالق وأن هذه الآلهة لا تخلق شيئاً، وهى فى ذاتها مخلوقة، فقال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وأعاد الضمير عليها بضمير ما يفعل مسaire للذين يعبدونها افتراء على أنفسهم

وفوق أن هذه الأحجار مخلوقة لا تملك ضراً ولا نفعاً، فهى لا قدرة لها على شيء ضار أو نافع، وعبادها أقدر منها، وبين سبحانه وتعالى أنها على حال جامدة مستمرة لا تحيى ولا تميت، ولا تبعث ولا تنشر، فهى خالية من أى صفة من صفات الإله المعبود، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ إن هذه الآلهة لا تستطيع دفع ضرر، ولا جلب نفع، ولذا قال سبحانه وتعالى فى وصفها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ .

قال سبحانه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ولم يقل لا تميت ولا

تحى ولا تبعث؛ للإشارة إلى أنها ليست ميتة ولا حية فى نفسها، ولا تبعث ولا تنشر، فهى لا تملك الحياة لنفسها، فلا تملكها لغيرها، فهى جامدة ليست لها حياة، ولا تحى، وهى لا تسمى ميتة؛ لأن الموت إنما يكون لحي، ولا تملك نشورا، فلا تنشر؛ لأن البعث والنشور للأحياء الذين يحاسبون، ويلقون فى الجحيم، أو يجزون بالنعيم.

هذه حال المشركين فى عبادتهم وأوهامهم، وقد جاءهم القرآن بالبركة الروحية والنماء المعنوى فهل اعتدوا بهديه !

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

وقد أظهر هنا، ولم يذكر الضمير مجردا كآلية السابقة؛ لبيان أن الصلة هى السبب فى هذا القول، فالقرآن لم يكن إفكا فى ذاته، فقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا وبيعضه فعجزوا، وبأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وحصروه فى الإفك فلم يقولوا: إفك بل يحصرونه فى الإفك فى قولهم ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (إن) هنا نافية فهنا نفى وإيجاب، أى ما هذا إلا إفك افتراه، أى كذب قصد إلى افترائه، وقد أوغلوا فى الادعاء البهات الكذب فقالوا: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ والقوم الآخرون هم ناس كانوا من الروم بمكة، وقد قال تعالى فى رد كلامهم: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠٣) [النحل]، وقد وصف الله تعالى فعلهم بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (جاءوا) بمعنى أتوا، فيقال جئت المكان وأتيته، الفاء للإفصاح، أى فقد أتوا ظلما بهذا القول، لأنه كفر وشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان]، (وزور) أى كذب يبهت السامع لأنه غريب فى أنه لا أصل له، وقد نكّر - ظلما وزورا - للإشارة إلى عظمة هذا، وكبر هذا الزور، إذ إنه غير معقول فى ذاته بالنسبة لمحمد ﷺ إذ عاش بينهم أربعين سنة قبل الرسالة، واشتهر بالصدق والأمانة، حتى كان الأمين، وقد قال تعالى حكاية.

﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ .

الضمير يعود إلى المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى؛ لأنهم حاضرون في ذهن أهل الإيمان دائماً بجداولهم المستمر، وعنادهم وملاحاتهم للنبي ﷺ، ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ جمع أسطورة، كما قال الزجاج، وهو أخبار السابقين التي تذكر عنهم في السمر والمجالس، وليس لها أصل صحيح، إنما تكون لتزجية الفراغ، وهذا فيه سخرية بالقرآن واستهانة به، وبث الاستهانة عند القارئ له والسامعين ﴿اكتتَبَهَا﴾ هذه صيغة الافتعال من الكتابة، أى كتبها وجود كتابتها، وهذا كلام يحتمله معنى اكتتبها، وقيل إن معناها أنه طلب كتابتها من غيره، لأنه أُمى لا يقرأ ولا يكتب ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، أى تلقى عليه ليكتبها، أو يقرؤها عليه من يكتبها، وأصل تملى تملل قلبت اللام الثانية ياء، وعلى أى حال يملل ويملى بمعنى واحد، وهما مترادفان.

وهؤلاء الكافرون لفرط استهانتهم افتروا على النبي ﷺ ثلاثة أمور:

أولها- أنه إفك مفترى، وقد ذكره سبحانه في الآية السابقة.

والثانية- أنه أساطير الأولين، وأحاديثهم المفتراة.

والثالثة- أنها تملى عليه فيكتبها، أو تملى على النبي ﷺ إملاء، فيحفظها.

وقبل أن ننتهى من القول فى هذه الآية نقول: إن الراغب الأصفهاني فى مفرداته قال: إن اكتتب تكون لكتابة ما هو مختلق لا أصل له، فتكون فى كلمة اكتتب اتهام رابع بالافتراء والاختلاق، ومعنى بكرة وأصيل، أى فى الغدوة والأصيل، أى أنه يملى عليه طول النهار فى أوله وآخره، والأصيل ما يكون قبل الغروب، وبعد الظهيرة .

وقد أمر الله تعالى بأن يرد قولهم بقوله:

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

الأمر للنبي ﷺ، وقد كان الرد الذى أمر الله تعالى به نبيه ليس مجارة لهم، ولكنه بيان لافتراءهم بإثبات نقيض الافتراء، وهو أن الذى أنزله على محمد ﷺ هو الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض، وهذا دليل إيجابى يثبت نقيض ما يفترون من ثلاثة وجوه.

أولها - أن الذى يعلم السر فى السموات والأرض يعلم ما خفى، وما خلق وما أنشأ، وليس بغريب عليه أن ينزل قرآنا كريما فيه الدليل القاطع على رسالة محمد ﷺ، وإن السر الذى فى السموات والأرض فى خلق كل منهما وارتباط كل واحدة بالأخرى، وما يربط النجوم بعضها ببعض من جاذبية شديدة تجعلها بناء واحدا، وإمساك الله تعالى للسموات أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكها أحد من بعده.

ثانيها - أن من يعلم سر السموات والأرض يستلزم أنه أوجدها، ومن أوجد السموات والأرض ليس بغريب عليه أن ينزل قرآنا هو دليل رسالة محمد ﷺ، ومعجزته الكبرى.

ثالثها - أن الذى يعلم السر فى السموات والأرض يعلم كل شىء، فهو الذى يعلم نبيه القرآن، ولا يحتاج إلى من يملئ عليه بكرة وأصيلا.

وننبه هنا إلى أمرين: أولهما - الدليل الذى يدل على أن الله تعالى هو الذى أنزله، هو العجز بعد التحدى الشامخ.

الأمر الثانى - أن الله تعالى الذى يعلم السر فى السموات والأرض فقال المفسرون: إنه ذكر السر، ومن يعلم السر يعلم بالأولى الظاهر البين، وذلك كلام حسن فى ذاته، ولكن بدر إلينا أن معرفة السر فى السموات معناه السر فى ارتباط أجزائها، وبنائها من غير عمد، وذلك وحده دليل القدرة الباهرة، وإشارة إلى التكوين العجيب فى صنعه، وختم الله تعالى الآية بفتح باب التوبة فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾، أى أنه سبحانه وتعالى يغفر للتائبين ويرحمهم.

الرسول من البشر

قال تعالى:

وَقَالُوا
مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ
إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

الضمير في (قالوا) يعود إلى المشركين وهم حاضرون يعاندون ويفتح على النبي ﷺ، وكان ضلالهم أن ظنوا أو توهموا أن النبي لا يكون بشرا، وإن كان بشرا يكون من أعلاهم مادة وسلطانا، وهم أو من يحوطون بهم، ويلوذون بملاذهم .

قالوا مستغربين: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾
والمعنى: أى شأن لهذا الرسول يؤهله لمكانة الرسالة من الله حال أنه يأكل الطعام
كما ناكل، فليس ملكاً من الملائكة، بل هو بشر يأكل الطعام، وليس ملكا تصل
إليه حاجاته بخدمه وعبيده، بل إنه يعيش باحثا عن رزقه وحاجته ككل الناس،
فلا امتياز له على أحد، فكيف يكون رسولا .

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾، أى هلا أنزل منضمّا إليه ملك ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾، الفاء فاء السببية التى ينصب الفعل بعدها، ومعنى السياق هلا ضم إليه وأنزل من عند الله ملك، فيكون معه منذرا.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾

تدرجوا فى الادعاء من أعلى إلى أدنى فاشتروا لاتباعه أن يكون منضمّا إليه ملك ليكون معه نذيرا، فيكون الملك شاهدا بصدق الرسالة، ومن قبل طلبوا أن يكون معه قرطاس، أو أن يكون الرسول ملكا، وقد رد الله تعالى كلامهم، وأنهم لا يؤمنون ويقولون هذا سحر مبين، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) ﴿[الأنعام].

وقد نزلوا عن اشتراط أن يكون معه ملك إلى أمر آخر يمنع أن يمشى فى الأسواق بأن يغنيه عن ذلك شأن الكبراء، بأن يلقى إليه، أى يعطى كنزا يغنيه، وعبر عن إعطاء الكثر بكلمة يلقى إليه للإشارة إلى أن هذا العطاء لا يكلف من أرسله شيئا، لأنه إلقاء من خزائن الله تعالى، وقد كانوا يعرفون الله ولا يعبدونه، فيعرفون أن معه خزائن السموات والأرض، ويكون بهذا الكثر كملوك أهل الأرض فلا ينزل إلى الأسواق كما ينزل دهماء الناس والفقراء.

وتنزلوا من مرتبة الملوك إلى مرتبة أتباعها وحواشيهم، الذين يمنحهم الملك الحدائق والمزارع، فقالوا: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، أى بستان يغنيه بشماره وغلّاته، فيأكل منها بدل أن ينزل الأسواق.

وإن هذا بلا ريب نظرات ناس ماديين لا يؤمنون بالروح، ولا بالمعاني الإنسانية العالية، إنما يؤمنون بالمادة وحدها، والعلو عندهم بالسيطرة الممكنة من لذائذ هذه الحياة، إما بملك قاهر، أو بمتع يلقيها إليهم ملوك قاهرون.

ولكنهم يرون فى محمد ﷺ ما ليس عند الملوك وحواشيهم، يرون القرآن

الذى عجزوا عن أن يأتوا بمثله، ورأوا أتباع محمد ينمون ولا ينقصون، ورأوا ميل بعض كفارهم إلى سماع القرآن وما يدعو إليه محمد ﷺ .

رأوا ذلك، ولم يستطيعوا دفعه، ولكن بدل أن يدعوا للحق إذ تبين لهم، ادعوا أن ما يجيء به هو السحر، فظلموا ظلما كبيرا .

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ .

هنا إظهار في موضع إضمار، وذلك لوصفهم بالظلم أولا، وليبان ظلمهم وعدم إرادتهم الحق هو الذى رفعهم إلى رضى النبی ﷺ بالسحر، وهو يتكلم عن الله تعالى: ﴿إِن تَبْعُونَ﴾ إن هنا نافية، أى لا تتبعون إلا رجلا مسحورا، أى ينطق على لسانه الحق، وهذا يومئ إلى أنهم رأوا عجائب فبدل أن يقولوا إنها من عند الله قالوا: إنه مسحور ينطق على لسانه الجن والشياطين .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنه كان من أهل مكة من يريدون اتباع محمد ﷺ، وقد اتبعه من اتبعه .

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ .

الخطاب للنبي ﷺ، و ﴿ضَرَبُوا﴾ معناها بينوا، والأمثال هى الأحوال المتشابهة فى رعم القائل، أن انظر كيف حاولوا أى تكون الرسالة مع ملك من السماء يكون رداء للرسول فى إنذاره، ثم كيف حاولوا أن يجعلوه كالملك الذى تجرى كنوز الأرض تحت يديه، أو كحواشى الملوك الذين يقطنون الإقطاعات الواسعة، حاولوا عقد المشابهة بين هذه الأحوال والرسالة، وهذه أمور دنيوية تنأى عن معنى الرسالة، ولذا قال تعالى: ﴿فَضَلُّوا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى بسبب رعمهم هذه المشابهات ضلوا وبعدوا عن الحق وأوغلوا فشبهاوا رسالة الله برسالة الناس، وأنه يكون معها شاهد من قبل المرسل، كملك، وشبهاوا الرسول بالملك الغنى أو حاشيته، وكل هذه تشبيهات باطلة فى أصل موضوعها وفى أوصاف الموضوع، فليس الله كأحد من خلقه، إنما معجزته هى الشاهد،

وليس النبي ملكاً أو حاشية لملك، فضلوا بسبب تلك الأمثال، ومن ضل في الطريق يسير في ضلاله إلى أقصى مداه، ولذا قال سبحانه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ الفاء عاطفة، أى أنه يتبع هذا الضلال أن صاروا فى عماية من أمرهم لا يستطيعون الهداية، ولا يستطيعون معرفة سبيل للنجاة من الضلالة التى أوقعوا فيها أنفسهم بعمائتهم وجهالتهم، وذلك لما أصابهم من غشاوة، وضلال وحيرة فى الطرق.

وقد رد الله تعالى عليهم أن أخذوا على النبي ﷺ أنه فقير يمشى فى الأسواق، فقال :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَّكَ قُصُورًا﴾.

تبارك أى تكاثرت وتسامت بركة الله تعالى على أوليائه وعلى المرسلين من عباده، وعلى نبيه محمد ﷺ خاتم النبيين ﴿إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ علقه سبحانه وتعالى على مشيئته التى تكون على مقتضى حكمته، جعل لك خيراً مما يتباهون به، ويتقاضون رسالتك، لأنها لم تكن ذات كنوز، ولا حداثق، و(خيراً) مفعول، و(جنان) بدل من خير، وبإدراك النص بالخيرية لإثبات أن الله تعالى قادر على إعطاء محمد ﷺ ما هو أعظم زينة، والخيرية هنا هى خير المظهر، والنعيم الدنيوى، وأما ما هو خير عند الله تعالى جزاء معنويًا ومادياً فإنه فى الآخرة.

﴿وَيَجْعَلْ لَّكَ﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ والجزم على محل جعل، لأن ﴿جَعَلَ﴾ جواب الشرط فمحله الجزم، فيكون العطف عطف مجزوم على مجزوم، والقصور هى مساكن عطاء الدنيا التى يتباهى بجمالها، ومتانة بنيانها، وزخارفها، وطفانها.

ولكن الله تعالى لم يشأ لأتباعه زخارف الحياة، ولكن اختار لهم مشقة الحياة

وأن يعيشوا على الكفاف، لأنه حيث كان القل من العيش كان الإخلاص والاتجاه الكامل إلى الله تعالى، لا يشغله عنه شاغل من متع هذه الحياة، ولقد كان محمد ﷺ فيما روى عنه يقول: «اللهم أحنني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرنى فى زمرة المساكين»، ولأن الأنبياء قادة الخليقة إلى الله تعالى، فيجب أن يكونوا قريبين من أضعف الناس لا يتجافون عنهم فى مظهر، ولا عرض من أعراض الدنيا، ولأنهم يتجهون إلى معالى الأمور، ولا يتجهون إلى سفاسفها.

إن تكذيب الساعة أوجد الضلال

قال تعالى:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝
 إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۝ وَإِذَا
 أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَبُّقًا مَّقْرَيْنَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝
 لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَّادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ قُلْ
 أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
 لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۝
 كَانَ عَلَى رَيْكٍ وَعَدًا مَسْئُولًا ۝

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، بل للإضراب الانتقالي الذى يكون بانتقال الكلام من مقام إلى مقام، فكان الكلام فى بيان تكذيبهم للنبي ﷺ، وادعائهم على القرآن أنه إفك افتراه الرسول، وقولهم إنا نريد ملكا معه يكون ردا له، وإنه لا يعيش عيشة الملوك وحاشيتهم، فانتقل إلى سبب ذلك كله، وهو كفرهم بالساعة، ذلك

أن كفرهم بالبعث والنشور هو سبب ضلالهم؛ لأنهم لم يؤمنوا بالبعث، ولم يؤمنوا بالغيب، فكانت حياتهم كلها مادية، لا رجاء بعدها، فكان منهم الإيمان بالمادة وحدها.

والساعة هي يوم القيامة، وسميت الساعة؛ لأنها يكون فيها الفصل بين الحق والباطل، والحساب الكامل والجزاء الوفاق للعمل، بجنة النعيم، أو بنار الجحيم، وكل ذلك في ساعة، وهي الساعة الكاملة لكثرة ما يكون من أحداث تتعلق بمصير البشرية، وهي ساعة الفصل، فالألف واللام تدل على الكمال، أى أنها الساعة الجديرة بأن تسمى الساعة.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، أى هيأنا للذين كذبوا بالساعة نارا ملتهبة كبيرة، تشند فى لهيبها تفرع وترعب من رآها، ويحترق بها من يدخلها، وأعدنا معناها أعددنا وهيأنا، وكررت الساعة وكان الإظهار فى موضع الإضمار أولا للإفزاز والتكثير على من أنكر الساعة وكذب الخبر بها، وليبان أن السبب فى السعير هو التكذيب، لأنه كفر فى ذاته، ولأنه أدى إلى الجحود المستمر.

وقد وصف الله سبحانه هول السعير، وشدتها، فقال :

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾.

معنى ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ على ما يقول المفسرون، وإذا كانت على رأى منهم كأنها تراهم ويرونها، من مكان بعيد، أى وكانت الرؤية من مكان ليس بالقرب، ولكنها بعيد بالنسبة للرؤية والسمع ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾، أى هياجا شديدا يكاد مع البعد لهولها، والتغيظ وهو بدو الغيظ الشديد، والهياج العنيف الذى يتقلص الوجه له، والزفير تردد النفس حتى تتنفخ الضلوع منه.

وانى أرى أن السعير شبهت بالإنسان الذى يرمى ويتغيظ ويزفر، ويحس ويشعر، إذا رأى شخصا يريد عقابه، فإنه يتغيظ ويزفر، والمعنى أن السعير تستعد وتتهيا هائجة، لمجىء العصاة إليها، ويسمعون ما يشبه التغيظ والزفير من مكان بعيد.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ .

وإذا ألقوا في النار، في مكان ضيق منها حال كونهم مقرنين، أى قد قرئت أيديهم إلى أعناقهم مصفدين، ووصف المكان بالضيق فيه إشارة إلى الشدة، لأن الضيق يقترب بالشدة، والسعة تقترب بالفرح، و ﴿أُلْقُوا﴾ تفيد أنهم لم يدخلوا مختارين بل ألقوا فيها إلقاء كما تلقى الأشياء، وألقوا وهم مصفدون في الأغلال ليس لهم حركة إرادية قط و ﴿مِنْهَا﴾ أى من النار، و ﴿مَكَانًا﴾ ظرف، منصوب لألقوا، أى ألقوا في مكان ضيق من النار قد غلت أيديهم إلى أعناقهم، وهم في هذه الشديدة المرهقة، يتمنون الموت بدلها، لأن الموت إنقاذ لهم ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ إشارة إلى البعيد، وفيه إثبات شدة ما هم فيه، والإشارة للبعيد، فقد نادوا ثُبُورًا، أى هلاكًا، أى نادوه؛ لأن هذا وقته، إذ بلغت الشدة قواها، فكان الهلاك إنقاذًا لهم مما هم فيه، أو نادوه تحسرا على أنفسهم وعلى ما فرطوا وأساءوا، وقد بين الله تعالى أن هذا الثبور الذى نادوه لاجئين إليه من عظيم الإحساس بالآلام أو متحزين مما نزل بهم، ليس ثُبُورًا واحداً، بل هو هلاك متتال، لا قصور فيه، فقال تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ .

النهى عن أن يدعوا وينادوا ثُبُورًا واحداً ينقذهم من آلامهم، أو يتحسرون به لما هم فيه، بل هو ثبور متوال عليهم وقتا بعد آخر؛ لأن أسبابه قائمة مستمرة باستمرار حالهم وهى إلقاءهم في مكان ضيق، يلقي بضيقه وعذابه ووضع الأصفاة التى تجمع أيديهم إلى أعناقهم، فتستمر دعوة الثبور ونداؤهم ما داموا في جهنم، وهى خالدة إذ هم فيها خالدون، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودا غيرها ليذوقوا العذاب المستمر.

هذه حالهم، وهى حال هلاك مستمر ينادونه ويطلبونها تحسرا، أو إنقاذا مما هم فيه، فهى حياة هلاك متجدد آنا بعد آن، وقد ذكر سبحانه بعد ذلك حال المتقين بعد الساعة.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ .

الخطاب للنبي ﷺ، طلب إليه ربه تعالى بعد أن ذكر لهم ما أعدّه الله تعالى للذين لا يؤمنون بالبعث ويشركون بربهم، أن يبين لهم ما أعدّه للمتقين الأبرار الذين يؤمنون بالبعث مقابلاً بينه وبين ما أعدّ للمشركين، فقال: أذلك السعير الذي أعدّ لهم، والذي ينادون فيه بالهلاك حسرة وندما خير فى مآله ونهايته، أم جنة الخلد والنقاء التى أعدّها للمتقين الأبرار، والمعادلة من حيث إن كلا مستعد هياً الله له ما يستحقه، فهم يستطيعون أن ينالوا الجنة إن اتقوا، كما ينال الذين أنكروا البعث ما يلقون من جهنم وسعير.

وإن الجنة استحقوها جزاء لأعمالهم، وهى مصيرهم ومآلهم الذى كان لهم نهاية، وغاية المتقين الأطهار.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ .

الضمير فى لهم يعود إلى المتقين ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾ ، أى ما يحبون ويريدون من ملاذ، ومن متع أعلى مما فى هذه الحياة، ففيها كل ما يحبون؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وإن الإحساس بالقدرة على تحقيق كل رغباتهم من نعمة هو فى ذاته نعمة، مع ما يتضمن من نعم أخرى ينالها، فالملاذ نعمة، والقدرة المستمرة عليها نعمة أخرى، نعمة التمكين، وهناك نعمة ثالثة تحف بهم، وهى نعمة الخلود والدوام، فهى نعم غير مقطوعة، ولا ممنوعة ساعة من زمان، وقد أكد سبحانه وتعالى وعده بها، وأنه سبحانه كتبها على نفسه بقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ ، أى كان ذلك الوعد الذى كتبه على نفسه مسئولا، أى حقيقاً بأن يسأله ويطلب فضلاً من ربك ورحمة، فقد ألزم نفسه به، ولم يلذ به غيره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو قد كتبه على ذاته العلية.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ يشير إلى أنه من فضل الربوبية ورحمة المنعم القادر على كل شىء، فالمسئولية ليست مسئولية إلزام، إنما

هى مسئولية إنعام نساها، كقوله تعالى كما أمرنا ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ...﴾
 (١٩٤) ﴿[آل عمران] ، وكما يسأل الملائكة لعباد الله المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَا
 وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ...﴾ (٨) [غافر].

حشر الكافرين وما يعبدون

قال تعالى :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
 يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي
 هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
 يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
 وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
 كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
 نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
 وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
 الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
 لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۖ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

الكلام السامى فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ...﴾ بضمير
 الغيبة؛ لأنه حديث عن جلال الله تعالى وعظمته وما يكون يوم القيامة من خطاب
 له سبحانه، وبذاته العلية لمن يشاء أن يكلمهم، وهم الأبرار الذين يسعدهم رب

البرية بكلامه معهم، ونظره سبحانه إليهم نظرة تقريب، وإيناس، وما لا يشاء لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، وما يجرى يوم القيامة فى هذا الحديث هو للذين ينكرون البعث ويشكون، فكانوا غير جديرين لأن يخاطبهم بذاته العلية لأنهم لا يكلمهم ولا ينظر إليهم، فناسب ذلك ضمير الغياب، وهناك قراءة بضمير المتكلم إلقاء للهيبة فى نفوسهم، وليس خطابهم إلا للوم والتأنيب، ويجوز أن يكون الخطاب من الملائكة ونسب إليه سبحانه، لأنه هو الذى أمر، والذين يعبدون يشمل العقلاء الذين عبدوهم كالملائكة، وعيسى وعزير، وكرشنة فى البرهمية، وبوذا فى البوذية، كما يشمل الأوثان والنار، وغيرهما مما لا يعقل.

وقد اتجه القول يوم القيامة إلى المعبودين فى الدنيا من العقلاء وغيرهم، اتجه القول إليهم: ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾، الفاء للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، والسياق هكذا، وإذا حشروا وما يعبدون يقول لهم...، والسؤال أنتم أضللتم عبادى هؤلاء، والإشارة تعود إلى الذين عبدوا غير الله من يهود، ونصارى ووثنيين ورومان وعرب، هذا الشطر الأول من المعادلة، والشطر الثانى أم هم ضلوا السبيل، والسؤال أهؤلاء الذين عبدوكم أنتم أضللتموهم بالدعوة إلى عبادتكم، أم هم ضلوا الطريق الموصل إلى الحق بالأوهام التى غشت عقولهم والشهوات التى أفسدت نفوسهم، والمتع الدنيوية التى ألهمتهم.

ولقد أجاب المعبود بنفى الإضلال عنهم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

غلب فى القول العقلاء على غيرهم، وقيل: أنطق الله الأحجار فنطقت كما نطق العقلاء، وليس ذلك بمعجز على قدرة الله العلى الحكيم، ومهما يكن فقد نطق المعبودون جلهم أو كلهم، قائلين: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وفى قوله تعالى: ﴿نَتَّخِذُ مِنْ دُونِكَ﴾ قراءتان إحداهما نتخذ بالفعل المبني

للفاعل، وقراءة بضم النون الأولى بالبناء لغير الفاعل، ويكون المعنى على القراءة الأولى، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من غيرك أولياء ونصراء، وإذا كان ذلك لا يسوغ لنا، فبالأولى لا نسوِّغه لغيرنا، وكان تدل على الكينونة، أى ما كنا بوجودنا إلا عبادا لا يكون لنا أن نتخذ أولياء غيرك فلا يجوز أن ندعو أحدا إليه.

وعلى القراءة الثانية بالبناء للمفعول ما كان ينبغي لنا أن نرضى بأن نتخذ أولياء ونصراء غيرك، وذلك كقول عيسى عليه السلام عندما يسأله ربه يوم القيامة ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من الأولى معناها من غيرك، وهو دونك مكانة ومقاما، ومن الثانية تدل على الاستغراق، أى ولى نصير معبود فهى لاستغراق النفى وتأكيد.

وإنه يجىء على لسان المعبودين ما هو الحق فى ذاته: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾، أى أن المتعة التى متعتهم بها من سلطان وجاه، وإعطائهم المال والأولاد، والسيطرة والتمكن كما مكنت لفرعون وأشباهه، وإن المتع والأهواء والشهوات تغشى النفس بفساد من الضلال ينسون به ذكر الله، ويتركون ما هو حق فى ذاته إلى ما تمليه الأهواء والأوهام فأنستهم ذكر الله، وألهتهم، وصاروا قوما بورا، البور وصف لأولئك الذين ضلوا، فهم باثرون قد انحلوا من كل وثاق لأهل الإيمان، وأصل بار معناها كسد، ومن ذلك قوله تعالى ﴿... تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر]، والشىء الكاسد يفسد، وهؤلاء قد فسدوا بكلامهم الذى لا أصل له، ولا دعامة يقوم عليها أو أى دليل إلا الوهم والهوى.

وقد بين سبحانه فى خطابه لهم بعد كلام ما عبدوهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ فيها قراءتان إحداهما بالياء ﴿يقولون﴾ والثانية بالتاء وهي المشهورة وهي قراءة الأكثرين والمعنى على القراءة الأولى فقد كذبكم من كنتم تعبدونهم، بما يقولون من أنه ما كان ينبغي لهم أن يتخذوا من دونه من أولياء وإن ذلك ظاهر، وعلى القراءة الثانية، وهي قراءة الجمهور يكون الخطاب ابتداء للكفار، والباء بمعنى فى، وتحيى كثيرا بمعنى فى ويكون توجيه القول، فقد كذبوكم فيما تقولون وتعبدون به الأوثان، وتحسبون أن لكم نصرة من الذين تعبدونهم، إذا مَحَلَّ بكم الدليل وشهد عليكم ما تعبدونهم، فقد تقرر العذاب عليكم، وأن تؤخذوا به أخذ عزيز مقتدر، ولذا قال مرتبا على تكذيب هؤلاء ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾، أى لا تملكون صرف العذاب عنكم ولا نصرا من أحد ينصركم، لأنكم أيها الكفار قد خذلكم من كنتم تعبدونهم، وبينوا بطلان قولكم، ولا نصر من أحد، إذا كنتم ترجون النصرة منهم، وبقيتم وحدكم من غير ناصر ولا عاذر، وتقرر العقاب العتيد عليكم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ ومن يظلم، أى يشرك، ويفتن الناس عن دينهم، وصد عن سبيل الله تعالى، وقد أفردتم عن النصير والمعين ﴿نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾، أى عظيما لا يحده مقداره، ولا يعلم شدته إلا علام الغيوب، والتنكير لبيان هول، وأنه لا يقادر بقدر، ولا يغيا بغاية يعلمها البشر.

وقد عاد القرآن الكريم إلى رد قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، فقال عز من قائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

هذا بيان أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، وذلك ليستطيعوا أن يرشدوهم

ويوجهوهم، ويهديهم الله تعالى بهم، ولا يمكن أن يكون ملكا، لأنه ليس من جنسهم، ولا يمكن أن يكون قدوة؛ لأن المقتدى يكون من جنس المقتدى؛ لتمام القدوة، ولا يكون هنالك ما يكون للقدوة من خواص يختص بها، ولأن الرسول يدعو بعمله، ويتبع في أعماله، فلا بد أن يكون من البشر ليتبع في أعماله، ولأن الناس قد يحال بينهم وبين مواجهته بمحاجزات من الملوك والرؤساء، فلا بد من رفع المحاجزات ليخلو وجه الناس لهم .

لا بد أن يكون الرسل من البشر، وإنهم يدعون الضعفاء والأقوياء، ولا يتبعهم ابتداء إلا الضعفاء، ولتمام الدعوة وسلامتها، لا بد أن يعيشوا كما يعيش الضعفاء، فلا يكونون ملوكا أو من حواشى الملوك، وإذا كان بعض الأنبياء ذكر بالملك كداود وسليمان، فقد كانوا ملوكا فى سلطانهم الحق، ولكن فى عيشهم كانوا يعيشون كالضعفاء، فداود عليه السلام كان يأكل من عمل يده، ولعل ابنه سليمان لم يكن من الملوك الذين يستقلون فى معيشتهم عن رعيته ومن المؤكد أنه لم يكن ملكا مستعليا على رعيته، ولا يعيش عيش ضعفائهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من هنا بيانية، والمعنى ما أرسلنا قبلك من المرسلين ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لْيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾، إنهم ليأكلون الطعام إلى آخره جملة حالية ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ﴾ فى حال يأكلون فيها الطعام أى ما أرسلناهم إلا والحال التى تحيط بهم أنهم يأكلون الطعام، فتلك حالهم، وبعض النحويين يقررون أن فى الكلام محذوفا (هذه صفته) فذكرت الصفة مغنية عن الموصوف المقدر، ويكون سياق القول، وما أرسلنا إلا رسلا إنهم ليأكلون، وأرى أن عد الجملة حالية أولى بالأخذ، لأن ما لا يحتاج لتقدير أولى.

والخطاب فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ للناس أجمعين، والفتنة أصلها ما يفتن به الفلز، ليخرج منه الذى يعلق به، وأطلق على ما تفتن به النفوس من جاه ومال ونفر، وعلو فى الأرض، ومعنى ﴿جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾، جعل الأقوياء فتنة للضعفاء بإيذائهم، والكافرين فتنة للرسل بعنادهم،

والأغنياء فتنة للفقراء باستعلائهم، والضعفاء فتنة للأقوياء بسبقهم إلى الإيمان والحق، وتأخرهم، وهكذا كل من أعطى خيرا دنيويا أو أخرويا يكون فتنة لمن لم يكن مثله، وإن الواجب للمفتون هو الصبر، والواجب على أهل الحق من الأنبياء والصدّيقين أن يصبروا؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ والصبر في الفتنة هو السبيل لاجتياز المحنة والخروج منها مؤمنا خالصا، فالاستفهام هو للتوجيه للصبر، والتحريض، ويلاحظ أن الله تعالى أكد أن الرسل يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق بالجملة الاسمية، وبإيان المؤكدة، وباللام في خبرها ﴿لِيَأْكُلُوا﴾.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ كان دالة على الدوام، وأن الناس تحت رقابة الله دائما، يعلم بحال الصابرين والتمكين منهم علم السميع الذي يسمع، والبصير الذي يبصر، ويكافئ كلا بحسب حاله التي علمها الله تعالى إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فليعملوا عمل ما يرى ويسمع، والله بكل شيء محيط.

إنكار البعث والتهديد به

قال تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُنْزِلْ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةَ
 أَوْنَزِلْ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيْرًا
 ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰٓى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِيْنَ وَيَقُوْلُوْنَ
 حِجْرًا مَّحْجُوْرًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّ اِلٰٓى مَا عَمِلُوْا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰهُ
 هَبٰٓءً مِّنْشُوْرًا ﴿٢٣﴾ اَصْحٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقْرَرًا
 وَاَحْسَنُ مَقِيْلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُنْزِلُ الْمَلٰٓئِكَةُ
 تَنْزِيْلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلٰٓئِكَةُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلٰٓى
 الْكَافِرِيْنَ عَسِيْرًا ﴿٢٦﴾

الكلام موصول فى بيان أحوال المشركين، وتعلاتهم فى كفرهم بالرسول ﷺ ومعجزاته وخصوصا القرآن الذى هو أعظم المعجزات التى جاء بها الرسل، وهو المعجزة الباقية التى تتحدى الأجيال أن يأتوا بمثلها إلى يوم القيامة، وفى هذه الآية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...﴾ يشير سبحانه إلى السبب فى كفرهم وجحودهم بكل شىء، وهو أنهم لا يرجون لقاء الله تعالى فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾.

لا يرجون لقاءنا، أى ينكرون لقاء الله تعالى ولا يؤمنون، وأن لهم هذه الحياة التى يعيشونها فى الدنيا، ولا يؤمنون بغيرها، وعبر سبحانه عن عدم إيمانهم باليوم الآخر ولقائه بقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، أى لا يطمعون ولا يأملون فى لقائنا، للإشارة إلى أن الإيمان باليوم الآخر فيه رجاء الخير، فمن يؤمن به يرجو الخير، لأنه يعلم أن هناك جزاء، وأن أعماله ليست هباء، فإذا كان متعبا فى هذه شقيا فيها، كان رجاء العوض يوم البعث، فينال الخير بدل الحياة الشاقة التى يعيشها، فالمؤمن له رجاء، والكافر بالبعث حاسر، وأضاف اللقاء إليه سبحانه؛ لأنه مفرج الكروب، والمجازى سبحانه بالخير خيرا، وبالشر شرا، وفيه إيناس بأن من يرجو لقاء الله، إنما يرجو لقاء السند القوى، ومن يكفر به، يعدم ذلك السند الذى لا يعتمد عليه غيره، سبحانه عظمت آلاؤه، والتعبير بالموصول: ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه إشارة إلى أن السبب فى لجأتهم فى الكفر وإنكارهم للمعجزات، وعدم تعقلهم للحقائق هو أنهم لا يرجون لقاء الله، ولو رجوا لقاء الله، لعملوا حساب هذا اللقاء واهتدوا بدل الكفران.

﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾.

لولا للتحريض، أى هلا أنزل علينا الملائكة، يخبرون برسالة الله تعالى لهم، ولا يجيئنا واحد منا يأكل مما نأكل ويمشى فى الأسواق كما نمشى، فهذا تحريض على أن يكون ملائكة، أو نرى ربنا، أو تقول لولا - حرف شرط امتناع أى



امتنع إيماننا لأنه لا تنزل ملائكة أو لم نر ربنا، والأظهر أنها للتمنى، أى نطلب متمنين أن ينزل علينا ملائكة أو نرى ربنا، وهذا مؤدى الحض، فهم يتمنون متعللين بهذه الأمنية الباطلة لتبرير كفرهم.

ومعنى قولهم ومؤداه أننا لا نؤمن بأنك رسول، ولو كان الله يرسل رسولا لأرسله من الملائكة، ولماذا لا يخاطبنا، وهكذا سار المشركون على ما سار اليهود من قبلهم، فقد قالوا لموسى عليه السلام لن نؤمن لك حتى نرى الله، إن هذا الذى طلبوه يتضمن فى ذات نفسه خروجاً بهم عن طورهم الإنسانى؛ لأن الرسول يجب أن يكون من جنس من أرسل إليهم، فهم بطلبهم هذا كطلب بنى إسرائيل من قبل قد تعدوا الحدود، ولذا قال تعالى بعد ذلك ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ السين والتاء للطلب، أى طلبوا الكبر فى ذات أنفسهم وتعدوا حدودهم، وحسبوا بكبرهم الذى طلبوه أنهم فوق البشرية، وألفوا الظلم، والنبو عن الحق، والخروج من دائرته، ولا سبيل إلى رجعتهم، وقد أكد الله سبحانه وتعالى استكبارهم عن الحق وبعدهم باللام ويقد، ويوصف بعد عن الحق كبير وضلال بعيد، قد أوغلوا فيه وإذا كانوا يريدون أن يروا الملائكة فسيرونها، ولكن لا على أنهم مبشرون ومنذرون، ورسلا فى الدنيا من قبل رب العالمين، ولكن يرون مبشرين بدخول الجنة فعلا يوم القيامة، أو ملقين لهم ولأشباهم فى الجحيم، ولذا قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

أى أنهم سيرون الملائكة غير نازلين لهم فى الدنيا، فالرسالة من البشر، كما هى سنة الله فى دعوة الخلق إلى الهداية، وكما كان شأن الرسل من قبل محمد ﷺ، كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﴿... قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ...﴾ (٩) ﴿[الأحقاف]، فهم يطلبون محالا فى الدنيا، وستنزل إليهم الملائكة فيرونهم عيانا، ويكون عذاب منهم إليهم، ولذا قال تعالى ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ هذه عبارة

سامية فيها تهديد للمجرمين الذين أجرموا فى جنب الله تعالى، وفيها تبشير للمؤمنين .

فهذه الجملة السامية مع إيجازها المعجز، فيها تبشير وفيها ذكر لعذاب المجرمين، فالمجرمون لا بشرى لهم بدخول جنة النعيم، إذ هم محرومون منها، وفيها - بالمفهوم - بشرى لغير المجرمين، ففيها جزاء المؤمنين بالنعيم المقيم وحرمان المجرمين منه، وهذا أدنى الجزاء، وهو عقوبة سلبية، والعقوبة الإيجابية وهى دخولهم فى الجحيم بدل بشرى النعيم، فهى مذكورة فى آيات كثيرة، وأشير إلى بشرى المؤمنين، لأنهم يرجون لقاء ربهم، فكانوا صفوفًا فى منازل الأبرار.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ الضمير فى ﴿يَقُولُونَ﴾ يصح أن يعود على الملائكة، ويصح أن يعود إلى المجرمين، والحجر معناه المكان المحجور الممتنع كنقض بمعنى منقوض، ومن ذلك حجر إبراهيم، فهو مكان ممنوع، ووصفه بالمحجور تصريح بما تضمنه اللفظ، وتأكيد لمعنى المنع على غير المؤمنين .

وتخريج القول على أن الضمير يعود على الملائكة ويكون المعنى أن الملائكة يقولون لا بشرى يومئذ للمجرمين، أى البشرى بالجنة تكون لغير المجرمين مقصورا ما يشير به على المؤمنين، فأنتم معشر المجرمين ممنوعون منه محرومون .

وإذا كان الضمير فى يقولون يعود إلى المجرمين يكون المعنى أنهم أدركوا أنه لا نصيب لهم بالبشرى فى الجنة، ليقولوا متحسرين نادمين مكبوتين ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى مكان ممنوع علينا منعًا مؤكدًا .

وإن المجرمين يكونون قد أحسنوا فى الدنيا بأن فعلوا أحيانًا ما توجبه المروءة والنجدة، ولكن لأنهم فقدوا الهيئة المحتسبة المخلصة لله تعالى لا يكافئون عليها لأن الأعمال بالنيات، ولذا قال تعالى :

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ .

٢ - الهباء ذرات التراب الرقيقة التى لا تبدو إلا فى ضوء الشمس المنبثق من

كوة مفتوحة، وقد روى عن على كرم الله وجهه أن الهباء المنثور هو شعاع الشمس الذى يبدو من الكوة، ويراد بالهباء ذرات التراب التى لا تظهر إلا فى الضوء الساطع من الكوة لدقته، والمنثور معناه المفرق فى الهواء وكأنه لا وجود له، أو لا يُحس بالبصر متميزاً عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا﴾، أى عمدنا إلى ما عملوا من عمل يروونه برا يكافئون عليه، فجعلناه كالهباء المفرق فى الهواء لا يرى؛ ذلك لأن البر إنما يكون مع النية المحتسبة عند الله، وهؤلاء ليست لهم نية محتسبة لأنهم لا يعبدون الله، بل يعبدون الأوثان، ولا يرجون سواها، فهم آثمون بعملهم لفساد نياتهم.

هذه حال المشركين فيما يعملون من أعمال يحسبون أن فيها خيراً، وهى ضلال فى ضلال لفساد النية، أما الذين لهم البشرى فهم أصحاب الجنة.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَذِ خَيْرٍ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

أصحاب الجنة هم المتقون كقوله تعالى ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وعبر سبحانه عن المتقين بأنهم أصحاب الجنة، أى الذين اختصوا بها ويلازمونها، كما اختصت بملازمتهم، وأفضل التفضيل ليس على بابه لأنه لا خير لغيرهم يفاضلون به بينهم وبين أهل الجنة، إنما المعنى الظاهر أن أصحاب الجنة أتاهم فى الاستقرار والبقاء خير لا يقادر قدره، ولا علو لغیره، ولا يعلوه شئ فى الوجود، والمقيل اسم مكان من قال يقيل، أى أنه استراح فى القيلولة، وأفضل التفضيل على غير بابه، أى أن لهم استراحة فى وقت القيلولة، ليس هناك ما يماثلها فى حسنها وراحتها، وعبر عن راحة الجنة باستراحة وقت القيلولة؛ لأن الراحة فى هذا الوقت تكون متعة فى ذاتها، وقد شبهت راحة الجنة بهذه الراحة لحسنها، ومتعتها؛ ولأن الجنة مقابلة بالنار، فكانت كأنها الراحة فى وسط القيلولة، أى أن المجرمين فى وقت راحة الجنة واستمتاعهم يكونون فى ستار من الجحيم، وعذاب الخلد.

﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّ ﴾ معطوفة على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى فى هذا اليوم الذى تنزل الملائكة ويرونها، وهى تعويل لهم، يكون معه يوم آخر، وهو يوم تشقق السماء بالغمام، تشقق أصلها تشقق حذفت إحدى التاءين تخفيفاً، كقوله تعالى : ﴿ تَلْطِئُ ﴾ والباء هنا للملاصقة أو الظرفية، أى تشقق السماء بتشقق الغمام، وهذا كناية عن أن السماء تضطرب، وتتقطع أجزاؤها، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١ ﴾ [الإنشاق]، وكقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ ١ ﴾ وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انشَرتْ ٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ٤ ﴾ [الإنفطار]، والمعنى إذا اضطرب الكون بما فيه ومن فيه يكون يوم البعث، وفى هذه الحال تنزل الملائكة فوجاً بعد فوج للحساب وتقرير المصير إلى النعيم أو الجحيم، ولذا قال تعالى : ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ والتزليل النزول فريقاً بعد فريق، أى أنه لا يكون حساب واحد، بل حساب بعد حساب، ومن شدد عليه الحساب عذب، وهذه الآية فى معناها كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ٢١٠ ﴾ [البقرة].

وإن هذه الآية وأشباهاها فى سموها ومعانيها تهديد بيوم البعث الذى أنكروه، وإنه يوم يضطرب فيه الكون، ويكون فيه الهول، وإن السلطان حينئذ يكون لله تعالى وحده، ولذا قال عز من قائل :

﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ .

﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، أى السلطان الكامل، ودل على الكمال بآل الدال على كمال الاستغراق كأنه لا ملك غيره، ولا يسمى ملكاً سواه، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه الحق، أى الثابت الذى لا يتخلف حكمه، ولا يكون لغيره أبداً.

وهذا الملك الثابت الكامل ﴿ لِلرَّحْمَنِ ﴾ جلت رحمته، ووصف الله تعالى هنا بصفة الرحمن مع أن ذلك اليوم شديد عسير على الكافرين، كما سيذكر

سبحانه ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ لأن حكم الله سيكون شديد الحمل عسيرا عليهم، وصف الله تعالى بالرحمة؛ للإشارة إلى أنه سيكون رحيمًا بالمؤمنين؛ عسيرا على الكافرين، فرحمته في ظاهر العبارة خاصة بالمؤمنين، وأما الكافرين فسيكون عسيرا عليهم، ولعل الأصوب أن نقول: إنه في بشرائه بالجنة للمؤمنين، والعذاب العسير للكافرين، وهو الرحيم؛ لأن الرحمة الحقيقية تقتضى تعذيب الكافرين، وإثابة المتقين؛ لأن موجب الرحمة ألا يتساوى المسيء مع المحسن، ولا الأعمى مع البصير، وألا يستوى الذين لا يعلمون والذين يعلمون.

حال المشركين يوم القيامة

قال تعالى :

وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذُ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ
يَرَبِّ إِنِّي قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ أَنَّهُ جُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ هذا معطوف على ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾، وقوله تعالى ﴿يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾، هذا التعبير كناية عن تحسره

وغيظه وندمه على أن فاته وقت العمل، وقد ووجه بعاقبة ما أهمل، وإنكاره ليوم البعث الذى رآه رأى العين، وشاهده وهو الآن يلقي ويلاته وآلامه.

ولسان حاله يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ويا هنا ليست للنداء، ولكنها للتنبيه على ما يتمناه نفسه وقد فات وقت الأمانى، وتمنى الأمانى، وقد فات وقتها، وسجل عليه فواتها، أو نقول إن يا للنداء، وتنادى فيه الأمانى التى فاتته نادما، ولات حتى يندم.

والأمنية التى كان يتمناها، وهى قوله: ﴿اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ، أى لم أفارقه، ولم أعانده، ولم أكذبه، وقد كان الصديق الأمين، والرسول هو محمد ﷺ، وإن البيان كمال شخصه ورسالته، ومعنى ﴿اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أى سرت فى مساره غير مفارق سبيله الذى اختار، وتنكير سبيلا للإشارة إلى كرم طريق الرسالة والهداية الذى فارقه، ولم يسر فيه، بل ضل عنه ضلالا بعيدا.

والظالم هو من اتصف بالظلم فى عبادته فأشرك، وإن الشرك لظلم عظيم، أو آذى المؤمنين أو كان يعثوا فى الأرض فسادا، فليس المراد شخصا أو أشخاصا، وإن كانت الآية قد اقترن نزولها بظلمهم.

﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

ويلتا : الألف مقلوبة عن ياء المتكلم، والويلة بمعنى الهلاك، فهو ينادى هلاكه الذى نزل به، وذلك للشعور بما نزل به، فكانه ينادى بهلاكه إيماء إلى نزوله به، وكأنه يناديه تحسرا، وكأنه يقول يا هلاكى أقبل فهذا وقتك، فإنك نازل لا محالة، وفيه إشعار بأنه يستحقه، ولقد كان فى الآية السابقة يتمنى أن يتخذ مع الرسول السبيل الجيد المستقيم، فهنا يتمنى أنه لم يتخذ فلانا خليلا صادقا يخاله ويوده، ويقترن به ويتبعه، ليت وهل ينفع شيئا ليت، وفلان كناية عن صاحبه وأصحابه، ويتمنى أن لو كان لم يتخذهم أخلاء له، ويتحقق قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف].

وهذه الآية وإن كان موضوعها فى اليوم الآخر، يشير إلى سبب الفساد بين الناس فى دار الابتلاء، والسبب يتلخص فى أمرين: أولهما - صحة سوء، فإن صاحب سوء أخو الشيطان يسهل للشيطان سبيله، ثانيهما - رأى الفاسد، فإنه يكثر فيه خلان سوء ودعاة الشر، والتخذيل عن الخير، ولقد قال سبحانه فى وصف خليل سوء، ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ اللام واقعة فى جواب قسم مقدر، وهى والقسم المقدر تفيدان التوكيد، وقد تفيد التوكيد أيضا، و﴿أَضَلَّنِي﴾ أى أبعدنى وأوقعنى فى الضلالة منصرفا عن الذكر الذى يذكرنى بربى وهو القرآن والنبي ﷺ، وما اشتمل قوله ﷺ من تذكير بالله والإيمان، فالذكر يشمل القرآن والنبي، وما اشتملت عليه الدعوة المحمدية من تذكير مستمر بالله تعالى، فقرين سوء أبعدته عن الحق والتذكير به إيعادا تاما.

وحدَّ وقت الذكر، وهو وقت مجيئه الذى يكون فيه الهدى والضلال، وفى ذكر هذا الوقت إيذان بأنه قد جاء المذكر، ولم يجب داعيه، وإيذان أيضا بأنه لا سبيل له إلى استعادة ما فات، وتغليظ لفساد صحة صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ هذه الجملة السامية من كلام الله تعالى وأحكامه من كلام الذى يقول: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

فإن كانت من كلام الله تعالى فهو سبحانه وتعالى يقرر حقيقة ثابتة فى الناس، والشيطان هنا هو الخليل الذى يدعو إلى سوء؛ لأنه يكون كالشيطان تسرى نفثاته فى نفسه كما تسرى نفثات الشيطان، والشيطان خذول للإنسان يخذله عن السير فى طريق الخير وهدايته.

وعلى أن هذا من كلام الكافر يوم القيامة، يكون رميا لخليله الذى أضله بأنه كالشيطان أفسد قلبه وإدراكه وخذله عن أن يسلك مسلك النبي ﷺ، ويتخذ سبيله ﷺ الحق والذكر والمعرفة، والهداية والبعد عن الضلال، وخذول صيغة مبالغة من خاذل، وهو الذى يجعل الشخص المقدم على أمر يتردد فيه ولا يفعله، والمراد هنا هو التخذيل عن فعل الخير، وسلوك الطريق الأقوم، والأهدى سبيلا.

هذا ما يكون من أمر الظالمين فى الآخرة، وقد ذكر من بعد ذلك جهاد الرسول، وقد ضلوا بإغوائهم بعضهم بعضاً، فقال :

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ .

هذه حال الرسول ورسالته وإعراضهم عنها فى الدنيا مما يوقعهم فى حالهم التى صورها سبحانه وتعالى فى الآخرة، وعبر سبحانه بالرسول للإشارة إلى حق الرسالة عليه من الاتباع والدعوة، وحقه عليهم من الاستجابة والطاعة له .

وقد نادى ربه ضارعا له أن ينصره ويؤيده فقال: يارب؛ ليشكو بثه وحزنه إليه، إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا. وعبر بقومى لإبداء الغرابة من إنكارهم، لأنهم عرفوه صادقا أميناً، وعاشروه وعرفوا أنه الأمين، ليس بالكذاب ومعه الحجة المثبتة لرسالته التى لا تدع ارتيابا لمرتاب .

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الإشارة إلى القرآن الذى عرف بصفاته العالية من أنه هدى ورحمة وشفاء لما فى الصدور، وهو نور يهذى إلى صراط مستقيم وبلاغته تبعد عن كل قول وفيه الشريعة، اتخذوا القرآن صاحب الصفات العليا مهجورا، أى شيئا مهجورا، هجرته القلوب، وهجروه بذواتهم فكانوا يقولون: ﴿... لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٢٦) [فصلت]، وقالوا الهجر والفحش ما يدل على فحشهم وهجر أفعالهم، وقد استغرب النبى ﷺ من حالهم المناقضة لرشددهم .

هذه شكوى الرسول ﷺ من قومه، وقد عزى الله نبيه بأن الباعث على هذا هو العداوة، والعداوة من شأنها أن تؤدى إلى المهاترة، وهجر الأقوال والأفعال، وهؤلاء أعداء كما كان للرسول من قبلك أعداء .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ .

إنه منذ هبط آدم وإبليس إلى الأرض، والخير والشر فى نزاع مستمر؛ تحقيقا

لقله تعالى: ﴿... وَقَلْنَا اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة)، فإذا كان من سنة الله تعالى في خلقه أن يبعث النذير والداعى إلى الخير، فإنه تكون وسوسة الشيطان دائمة مستمرة، والإنسان فى غلاب مستمر بين نوازع الشر، ودواعى الخير، وبين الداعى إلى الخير ودعاة الشر دائماً، ولذلك جعل الله للنبيين أعداء من المجرمين، ليتحقق للنبي فضل الجهاد، وليتحقق الابتلاء الذى يبتلى به النبيون، كما قال تعالى: ﴿... وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ (الأنبياء)، ولذلك كان لكل نبي عدو من المجرمين، وإلا ما كان فضل الجهاد، وفضل الاختبار الشديد لأهل الإيمان.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الإشارة إلى ما قوبل به النبي ﷺ من عداوة كبار المشركين، كأبى لهب، وأبى جهل، ولجأتهما فى العداوة والإحـن مع قرب القرابة، والرحم الواصلة، والمعنى كهذه العداوة التى تلقاها من بعض المجرمين من قومك، وجعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين، وعدوا تشمل الجمع والواحد أى يكون لنبي عدو، فرادى وجماعات؛ لأن تلك سنة الحياة التى سنّها الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر)، و (من) هنا ابتدائية، أى يكونون من المجرمين دون غيرهم.

وإذا كان ذلك شأن الوجود الإنسانى أن يكون الإنسان فى متنازع الخير والشر، فإن النبي ﷺ غالب، لأن الله تعالى ناصره ومعه، ولذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الباء لتأكيد كفاية الله تعالى له، وإنه معه يغنيه عن الاستعانة بغيره، والتعبير ﴿بَرِّكَ﴾ أى كالثك وحافظك ومريك، والقائم على شئونك، ﴿هَادِيًا﴾ إلى أقوم سبل الحياة الفاضلة، ﴿وَنَصِيرًا﴾ نصرا مؤزرا دائماً، وليستخلفن فى الأرض المؤمنين الصالحين.

تنزيل القرآن وضرب الأمثال

قال تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
 وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾
 وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٣﴾
 الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ
 مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ
 وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٢٦﴾ وَقَوْمُ
 نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلَالًا
 سَافِلًا ﴿٢٧﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٨﴾ وَعَادًا وَثُمُودًا
 وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٢٩﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
 لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
 الَّتِي آمَنَتْ مَطَرِ السَّوْءِ فَأُكْذِبُوا فَيُغَارِبُونَ فِيهَا بِالْجُمُوحِ
 كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٣١﴾

أدى جحود المشركين لمعنى النبوة والرسالة الإلهية إلى أن يتقحموا فى كلام غير معقول، وأداهم تكذيبهم للنبي ﷺ ومعجزته إلى أن يقولوا كلاما لا موضوع له إلا أن يريدوا توهينه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿لَوْلَا﴾ هنا للحض والتحريض على قدر ما تدركه عقولهم، وكأنهم في هذا يعيبون القرآن؛ لأنه نزل مفرقا، ولم ينزل دفعة واحدة، ويعيبون إعجازه، لأنه نزل أجزاء مفارقة، وكل ذلك لتسويغ أفكارهم وكفرهم، وقد رد سبحانه قولهم بقوله عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، وقد ذكر سبحانه وتعالى حكمتين في نزوله مفرقا على أجزاء تنزل في أوقات متفرقة: أولا هما- هي إيناس النبي ﷺ، وثبتت قلبه على الدعوة باستمرار الوحي نازلا بالقرآن لا ينقطع، وهذه الحكمة أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى أنزلناه كذلك لنثبت به فؤادك فتعرف بالوحي المستمر أن الله معك، الثانية- أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ والترتيل هو قراءة القرآن الكريم على نسق منسق مصور للمعاني الجليلة فى التلاوة، فيتلقاه النبي ﷺ مرتلا، ثم يقرؤه لغيره من القراء من أصحابه كذلك، وبذلك يتواتر القرآن مرتلا، كما أقرأه جبريل للنبي ﷺ، وكما قرأه النبي ﷺ على أصحابه، فالقرآن الكريم ليس متواترا بلفظه فقط، بل بلفظه وترتيله، فقد علم جبريل النبي ﷺ، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴿[القيامة]، وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ..﴾ (١٦) ﴿[الإسراء].

وإن العرب كانوا أمة أمية، فما كان فيها كاتب عنده القدرة على أن يكتب القرآن كله، ولأن الله تعالى تكفل أن يحفظ كتابه من غير تحريف ولا تبديل، ليحفظه إلى يوم القيامة، فكان ذلك بحفظه فى الصدور، وإن ما يحفظ على قرطاس يسهل تحريفه أو تبديله أو حذف جزء منه، أما ما يحفظ فى الصدور فإنه يكون فى وعى لا يغير ولا يبدل، ولما أراد اليهود فى أفريقيا أن يحرفوا فى كتابة المصحف كان الحفاظ وراءهم، وقد ردوا كيدهم فى نحورهم.

وقد حسب المشركون لجهلهم وجحودهم أن ذلك ينال من الذكر الحكيم،

فبين الله تعالى الحكمة واضحة نيرة موضحة مفسرة وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

إنهم قد سدت عليهم المسالك كشأن كل مبطل يريد أن يشير لجاجة في القول والريب حول حقيقة ثابتة لا مجال للريب فيها، فهم أنكروا أن يكون آية وطلبوا غيره مع عجز صارخ عن أن يأتوا بمثله، وجاءوا بعد إلى أمر شكلى حوله يريدون أن يتخذوا منه سبيلا لأن يقولوا إن محمدا اصطنعه اصطناعا بعد أن قالوا: إنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، قالوا لماذا لا ينزل جملة واحدة، فبين الله تعالى حكمته العليا في أنه نزل مفرقا، وقال ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ المثل الحال والصورة، أى لا يأتونك بحال يتوهمون أنها تلقى بريب أو شك، إلا جئناك بالأمر الثابت الذى لا ريب فيه، فيلقمهم الحجة ويزداد الحق نصوعا وسطوعا وبيانا يقطع جهيزة كل متكلم، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أفعل التفضيل ليس على بابه، لأنهم ليس لهم تفسير للحقائق حتى يكون بيان القرآن أحسن منه، إنما الظاهر أن بيان الحقائق فى القرآن لا يوجد بيان أعلى منه ولا أجمل ولا أوضح، فالتفسير البيان، وكأن الله سخرهم باعتراضهم لتزداد حجة النبى ﷺ وضوحا، والله عليم حكيم، وقد ذكر سبحانه من بعد ذلك عاقبة لجاجتهم، فقال :

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

موضع ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ النصب على الاختصاص، وبيان عاقبة أمرهم بعد هذا الذى يثيرونه حول الحجة الكبرى للرسالة الخالدة إلى يوم القيامة، وقد عبر سبحانه عن حشرهم يوم القيامة بصورة تجعل القارئ يدرك منها مقدار المهانة التى تلحقهم يوم الحشر، الذى كانوا ينكرونه ويبالغون فى إنكاره، إذ إنهم يقبلون على وجوههم التى كانت لا تتجه فى الدنيا إلا إلى الأسفل، فهم يسحبون سحباً، ويجرون جراً على وجوههم، وهذا يشير إلى أنهم يساقون ولا يكون لهم اختيار، ويساقون على أقبح حال، فبدل ما كان يدعون لأنفسهم فى الدنيا من سيطرة،

وسلطان يتحكمون به فى رقاب العباد، ويفتون الناس فى عقائدهم يكونون على هذه الصورة من الذل والهوان، وأنهم يؤخذون أخذاً إلى جهنم، ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإشارة إلى المشركين محملين بهذه الصفات التى كانت لهم فى الدنيا من غطرسة وكبرياء واستنكار عن الحق ولجاجة فى الباطل، وإلى ما آل إليه أمرهم من السحب على وجوههم إلى جهنم سحباً، و (شر) فى معنى أفعال التفضيل هو ليس على باب، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ...﴾ (٦٠) [المائدة]، والمعنى من بلغ فى الشر أقصى حالاته.

لقد كان المشركون يعيرون النبى ﷺ على أن أتباعه العبيد والفقراء، وهم فى نظرهم الأراذل من قومه، فبين سبحانه أنهم إذ يسحبون إلى النار على وجوههم مع صفاتهم السابقة شر مكاناً، أى مكانهم الحقيقى والمعنوى شر هو الشر كله، وغيرهم كان هادياً يهذى فى الدنيا، وخير مثوبة فى الآخرة، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أى أبعد عن السبيل الحق فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا بإنكارهم للحق، حتى وصلوا إلى درجة العمى، وبالموازنة بين ما كانوا يدعون لأنفسهم، وما آل إليه أمرهم يتبين أولاً - أنهم كانوا فى ضلال وهم فى الدنيا، والأردلون فى زعمهم كانوا أهدي سبيلاً، ويتبين لهم ثانياً - أنهم فى الآخرة يسحبون على وجوههم إلى جهنم، والمتقون كانوا سائرين إلى النعيم .

من قصص الأنبياء

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ .

ذكر سبحانه وتعالى طغيان المشركين وضلالهم، وتحديهم وعنادهم، ثم مآلهم، ثم ذكر سبحانه بعد ذلك العبر التى سبقتهم، وما آل إليه الطغيان والكفر، مشيراً غير مفصل - التفصيل فى مواضع أخرى - ، وابتدأ بقصة فرعون وملته،

وقومه، وقد كان أشد طاغية في عصره، لبيان أنه لا يستعصى على الله تدمير عاص مهما يكن طغيانه، وهو الذي كان يعبد، ويقول لهم ﴿... مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ..﴾ (٢٨) [القصص]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة، وقد أكد سبحانه وتعالى نزوله صادقا باللام وبقد، فهذا يدل على صدق النزول، ولا يدل على صدق البقاء فقد نسوا حظا مما ذكروا به، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وأفرد موسى بأنه أوتى الكتاب، ولم يكن معه أخوه هارون، فهو الذي تلقى الألواح العشرة، وهارون كان مؤازرا له، معينا في أداء الرسالة، والذي تلقاها كاملة هو موسى، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا﴾ أي مؤازرا معاونا استجابة لطلب موسى في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) [طه].

وقد أرسلنا معا إلى فرعون: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ الفاء عاطفة للترتيب في أنه عند إرادة الجعل وزيرا لموسى كلفهما بالتبليغ معا، فقال لهما، وأضاف سبحانه القول إلى ذاته العلية تشريفا لهما وتنويعا بأمرهما، وقوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الأمر بالذهاب يومئ إلى أنهما مقدمان على أمر جليل في شأنه، خطير في ذاته؛ لأنه لقوم عتاة، يسبقون إلى الكفر بدل السبق بالإيمان.

وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم كذبوا بآيات الله مع التكذيب بعد الذهاب، وبعدهما أتى الله تعالى موسى تسع آيات مبينات، فكيف يكونون موصوفين بذلك عند الذهاب، والجواب عن ذلك أنه أخبر بالماضي، لبيان تأكيد الدفوع منهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴾ (١) [النحل]، وكما في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) [القمر]، عند بعض المفسرين الذين يقولون: إن انشقاق القمر يوم البعث.

والتدمير إدخال الهلاك في الشيء، أو الهلاك، والفاء أيضا للعطف

والترتيب والتعقيب، قد يقال كيف كان التدمير عقب الذهاب، وقد لبث موسى فيهم يدعو سنين، ونقول: إن الزمن في ذاته لم يكن طويلا، وإن كان عند الناس طويلا؛ ولأن التكذيب يتبعه لا محالة التدمير.

وذكر القوم، ولم يذكر فرعون مع أنه الرأس الطاغى، ونقول في الجواب عن ذلك، إنه لولا حاشيته وقومه ما طغى وتجبر، وكذلك الشأن في كل طاغية جبار ملؤه هم الذين يقرونه ويشجعونه.

بعد ذلك ذكر سبحانه وتعالى قوم نوح فقال تعالى :

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر قوم نوح، والرسل هنا يراد بهم نوح عليه السلام إذ إنهم كذبوه، فقد كذبوا رسالة الله تعالى إلى خلقه، فكأنهم يكذبون الرسل جميعا الذين جاءوا قبل نوح، والذين جاءوا بعده، لأنهم كذبوا أصل الرسالة الإلهية، ولذا كان العقاب بأن استؤصلوا وأنشأ من بعدهم قوما آخرين، وكان ذلك بالإغراق الذي اجتث شأفتهم أجمعين، ولم يبق إلا من آمن بنوح، وما آمن معه إلا قليل، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾، أى جعلناهم آية معلمة لصدق الرسالة، وهلاك المكذبين الضالين، وقدم للناس على آية إشارة إلى أنه يعتبر بهذه الآية، ومن لم يعتبر فهو لا يعد من الناس؛ لضلاله وفساد إدراكه.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أى هيأنا للظالمين بسبب ظلمهم، الذى يشمل الشرك والفساد فى الأرض، والاعتداء على الناس، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى مؤلما، ففعل بمعنى اسم الفاعل، كبدع بمعنى البدع، وعبر بالوصف بالظلم، ليشير إلى أنه سبب العذاب المؤلم ﴿وَعَادًا وَنُوحًا وَآصْحَابَ الرُّسُلِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾.

وعادا معطوفة على قوم نوح، وعاد هم قوم هود الذين كفروا، فأنزل الله بهم عذابه في الدنيا بريح فيه عذاب شديد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾ [الأحقاف].

وتمود هم قوم صالح أهلكوا بريح صرصر عاتية.

وأما أصحاب الرس، فقد اختلفت الروايات عن السلف في تفسيرها أو من هم، وأصل الرس كما قال الأصفهاني في مفرداته: الأثر القليل الموجود في الشيء يقال: سمعت رسا من خبر، ورس الحديث في نفسى، أى أثره، وروى أن الرس اسم لبئر، وهكذا وردت روايات كثيرة عن أصحاب الرس، وأحسن ما روى في ذلك روايتان هما أن أصحاب الرس وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب الذين دعاهم إلى التوحيد، ومبادئ الأخلاق، وتنظيم المعاملة والعدالة في الكيل والميزان

والثانية ما رواه ابن جرير واختاره، وهم أصحاب الأخدود الذين هلكوا يالقائهم في أخاديد ألقيت فيها النيران، وأصحاب الأخدود الذين هلكوا هم الذين فعلوا بالمؤمنين ذلك كما جاء في سورة البروج في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨﴾ .

وإن هؤلاء قد بلغوا أقصى غايات القسوة في معاملة المؤمنين، وقد أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وذكرهم في هذه المناسبة؛ لبيان عتوهم، وأنهم قد انتقم منهم كما انتقم من فرعون، وكما ينتقم من كل المشركين، وإنا نميل إلى الرواية الأولى، وهى أنهم قوم شعيب؛ لأن سنة القرآن الكريم في قصصه أن يعرض قصة شعيب بعد عاد وتمرود، فبمقتضى هذا المنهاج القويم نميل إلى أنه سبحانه وتعالى أشار إلى قصة شعيب بهذه الإشارة.

الإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إلى الزمن الذى كان بين نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس، والقرن هو الجيل من الناس، أى أن أجيالا بين هؤلاء الأنبياء كثيرا كانت فيها العبر، ولكن قل الاعتبار، و ﴿كَثِيرًا﴾ وصف لمحدوف تقديره عدد، أو وصف لقرون نفسها.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

وهذه القرون الكثيرة التى بعث لها النبيون بين نوح وموسى، حذرهم الله وأنذرهم، وضرب الأمثال من قصص النبيين، وكيف هلك الأقوام، إذ كذبوا الرسل، وبيّن الله كيف أهلكهم وفتتهم، وأذلهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ كلا، الضمير قائم مقام مضاف إليه، أى كل قرن من هذه القرون الكثيرة بينا له الأمثال من الذين سبقوه، وكذبوا رسلهم، وكيف كانوا عبرة لهم، ولكن لم يعتبروا، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فسر الراغب الأصفهاني التتبير بالإهلاك، والمعنى: وكلا أهلكناهم إهلاكاً، وكانوا عبرة، ولكن لم يكن اعتبار، فعم الفساد، وضلوا ضلالاً بعيداً، إلا من هدى الله، وآمن واهتدى.

وقال الزمخشري وتبعه فى هذا كل المفسرين الذين أخذوا أن التتبير هو التكسير والتفتيت، أى أن الله تعالى كسرهم حتى صاروا فتاتا، متقطعا متجزئا.

والمعنيان متلاقيان يصح الجمع بينهما بأن أهلكهم بطريق كسرهم وتفتيتهم، حتى صاروا فتاتا مندثرا.

وإن المشركين لم يعتبروا بما بين أيديهم من آثار الذين ظلموا مثل ظلمهم، وعليهم أن يعدوا أنفسهم لمثل المآل الذى آل من سبقوهم، وإنهم يمرون على ديارهم، ولا يعتبرون بهم، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

القرية هى المدينة العظيمة، وهى هنا قرية قوم لوط، ومطر السوء هو

الحجارة، وهذا تشبيه للحجارة التي كانت مقصودة بالمطر، لأنها نزلت عليهم منهمرة انهمارا، ولكنه لم يكن مطر ماء مغيث، ولا ماء مغيث، بل مطر حجارة حاطمة، فهو سوء، أى سىء فى ذاته مؤلم، وهو سىء فى عقباه، أفلم يروها ولم يروا ما نزل بها فيعتبروا ويتدبروا، ولكنهم مروا ولم يروا روعة اعتبار.

أتوا هذه القرية أى مروا عليها فى رحلاتهم إلى الشام، ولم يعتبروا، وقال أتوها، ولم يقل مروا، للإشارة إلى أنه كان يجب أن يأتوا، ويعتبروا بها، ويخشون أن ينزل بهم لما ارتكبوا من آثام مثلها، أو أشد منها، وإن لم تكن من نوعها.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ بل هنا للإضراب الانتقالي، أى أنه لا يتوقع منهم اعتبار بالسابقين؛ لأنهم لا يرجون نشورا، لا يتوقعون أن ينشروا ويعنوا ويحاسبوا، لأن من فقد ذلك الشعور لا يأبه لشيء ولا يفكر فى عبرة أو اعتبار، إذ يحسب أنها الحياة الدنيا وحدها ويقول: ما هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب وما نحن بمبعوثين.

النبي والمشركون

قال تعالى :

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ
إِلَّا هُزُوا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنَّكَ كَادَ
لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

المشركون كشأن كل ضال أن يكون مصروفا بقلبه عن الحق منصرفا عن المعانى إلى الظاهر، وعن الحقائق الثابتة إلى الأمور الحسية، لقد رأوا النبي يأكل

كما يأكلون، ويمشى فى الأسواق كما يمشون، فصرفتهم هذه المشابهات الحسية عن معانيه ﷺ التى سمى من أجلها الأمين بينهم، فاستهزءوا لمظهر حاضره، ونسوا حقيقة ماضيه العامر بالجود والفضائل، بل نسوا معنى الرسالة ومعجزتها.

الضمير فى ﴿رَأَوْكَ﴾ يعود إلى المشركين، لأنهم حاضرون دائما بمجادلتهم ومهاتراتهم، وفستتهم للمؤمنين، أى إذا رآك المشركون داعيا موجهها مرشدا ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إن هنا نافية، وفى الكلام معنى القصر والتخصيص، فالنفي والاستثناء يفيدان القصر، إنهم إذا رأوك لا ينظرون إليك إلا نظر المستهزئ الساخر، فلا يفكرون فى الدعوة أهى حق أم باطل، أو أهى فى أخلاق الناس وإرشادهم أمر حسن أم أمر باطل، وفى دليلها، أهو ساطع قاطع، وفى تحديه لهم، أهم عاجزون أم قادرون، وفى ماضيه أهو كريم أم غير كريم، لا يفكرون فى شىء من هذا، بل يغلبهم الإعراض والاستهزاء قائلين ساخرين ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أى أهذا الذى يعيش كما نعيش، ليس معه ملك وليس له كثر، وليس له بستان يغنيه، بعثه الله رسولا، وضمير الصلة محذوف ودل عليه الكلام، والاستفهام فى قوله أهذا الذى بعث الله رسولا، استفهام إنكارى للتهم، يفيد نفى الرسالة، لعدم لياقته لهم فى زعمهم وكذبهم على الله العزيز الحكيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

ويستمررون فى غيهم، فيقولون:

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾.

إن - مخففة من إن، واسمها ضمير الشأن محذوف تقديره إن الحال والشأن أنه كاد إلى آخره، أى أنه بماضيه وظهور صدقه، وعدم الدليل على كذبه فى حججه المتوالية التى كانت تحيى دليلا ردف دليل قارب أن يبعدنا عن آلِهتنا، أى يبعدنا عن عبادة آلِهتنا، ويجنبنا إياها، ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أى لولا أن حبسنا

أنفسنا عليها، فصبر هنا بمعنى حبس، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ (٧٨) [الكهف].

وإن هذا النص الكريم الحاكى لأحوالهم النفسية يدل على أمرين: أولهما- أنهم كانوا فى مغالطة نفسية، بين باطل اعتنقوه وحق لاح نوره بين أيديهم بحججه وأدلتة الناصعة المنيرة، والثانى- أنهم لتقليدهم وتعصبهم لما كانوا عليه وما وجدوا عليه الآباء فكانوا يحاولون إبطال الحق وتأيد الباطل، فحبسوا أنفسهم على الباطل حبسا، وأنهم كانوا يتبعون الحق لولا أنهم حبسوا أنفسهم على الباطل، ولولا - شرطها صبرنا، وجوابها محذوف دل عليه ما قبلها.

وهكذا المبطل دائما يكون غير مستقر على فكرة، بل الأوهام تسيطر، وتضع على الإدراك غشاء مانعا من أن يصلوا إلى الحقائق ويؤمنوا بها، ولا تحسبن الضالين يؤمنون بشيء.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ سوف هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، أى سيعلمون علما مؤكدا فى أى جانب كان الضلال، أكان مع الهادى المرشد الأمين، أم منكم، وأنتم تعبدون أحجارا لا تنفع ولا تضر، وقد حبستم أنفسكم عليها حبسا لا تخرجون من دائرة سلطانه الموهوم، وإنكم ستعرفون الحق الواضح الأبلج الناصع فى نوره وبياضه عندما ترون العذاب، فالنفوس الضالة لا يهديها إلى الحق الحجة الدامغة، بل تزيدهم إصرارا على باطلهم، ويعلمون حيثئذ الحق فى وقته، إذ يعلمونه فى وقت نزول العذاب، وهو علم ندم، ولات حين مندم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ استفهام لإنكار حالهم وتوبيخهم على جهلهم مع مجازاتهم على ما كان منهم فى جنب النبى فى الدنيا، ﴿أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أى أبعد عن الطريق المستقيم، والله بكل شىء عليم، وإن هذا القول الذى حكاه سبحانه وتعالى عنهم يدل على أنهم يختارون من الآلهة ما يتجه إليه هواهم دون عقولهم، ولذا قال سبحانه:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ .

ترتب على حبسهم أنفسهم على الضلالة لا يتجاوزونها، ولو بدا لهم الحق لانحاسنوا أنهم يريدون آلهتهم على ما يهودون ويحبون، لا على ما يدركون بعقولهم، وتبين به الآيات الباهرة، وعظمة الله تعالى القاهرة، والمعنى لقد رأيت من اتخذ إلهه هواه، وقالوا: إن المفعول الأول هواه، وأخر للاهتمام بمعنى الألوهية التي لا تكون هوى قط، وكأن سياق القول، أفرايت من اتخذ هواه إلها يعبد، والإله هو الواحد الأحد النافع الضار الذي يملك كل شيء في الوجود، ولا سلطان لأحد عليه، والاستفهام هنا للتوبيخ، لأنه إنكار لفعلهم الذي فعلوه، ويفعلونه، ويلجئون فيه من غير تفكير، ولا تعرف للحق.

﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الوكيل الحفيظ المتصرف المحامي عليه، لقد كان النبي ﷺ حريصا على هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. (٥٦)﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]، فهذه الآية وسابقتها تدل على أنهم يعبدون ما يحبون لا ما يعلمون ويدركون، وأنهم قد انغمروا في ضلال لا منجاة لهم منه، ولذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي إذا كانوا يتخذون هواهم إلها، فأنت تكون عليهم حفيظا تهديهم، وتخرجهم من الظلمات إلى النور، إن فسادهم في ذات أنفسهم، فإن حفظتهم عن أن يضلوا غيرهم، فكيف تحفظهم من ذات أنفسهم، إن ضلالهم في ذات أنفسهم، والاستفهام للتنبيه إلى ضلالهم، وقال تعالى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

أم - هي أم المنقطعة الدالة على الإضراب والاستفهام معا، أي أنها تدل على الإضراب والانتقال من أمر شديد، إلى أشد، فالأمر الأول كان يفرض أنهم

يسمعون، ويعقلون واختاروا الهوى إليها، أما الاستفهام فى هذه الآية فهو على إنكار أنهم يسمعون.

﴿تَحَسَّبُ﴾ معناها تظن وتقدر أنهم يسمعون ويعقلون، وإنكار أنهم يسمعون؛ لبيان أنهم لا يسمعون الحق ولا يهتدون ولا يتدبرون، فكانوا كمن لا يسمعون أصلا، لأن الله وهب لنا السمع لتتقى به أضرار المفاجآت، ولنكون فى يقظة، فإذا لم يفد السماع إدراك الحق فهو لم يسمع، ففى الكلام مجاز، وكذلك من عنده عقل ولا يستعمله فكانه سلبه.

وقال سبحانه: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لأن الله عدل فى حكمه دائما، فمنهم من يؤمن، ويكون من المجاهدين، ومنهم من كان يستنكر فى نفسه ما يفعله هؤلاء، فليسوا جميعا كأبى جهل وأبى لهب، وإن هؤلاء الكثرة كانوا هم المسيطرون على الجو الفكرى حتى أдал الله تعالى من دولة الكفر، وكانت الكلمة العليا لله ولرسوله وللمؤمنين، فأخذ الإسلام يغزو القلوب قلبا قلبا، وفقد الهوى سلطانه إلا فى بعض الأعمال دون العباد، ويشس الشيطان أن يعبد فى أرض العرب، وبين سبحانه أن هذه الكثرة أضل من الأنعام فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

هنا نفى وإثبات، وإن نافية، أى ليسوا إلا كالأنعام، فى أنهم لا يعقلون الحق ولا يدركونه، وفى الكلام مجاز، إذ شبهوا بالأنعام، لجامع الجهالة وعدم الفهم، وقد أكد الله جهلهم بقوله ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أى أنهم أضل طريقا وهداية؛ لأن الأنعام تتبع هاديا، ومن يأخذها إلى متنجع الكلا والماء، أما هم فلا يهتدون ولا يتبعون هاديا مرشدا، فهم جائرون باثرون، ولقد قال الزمخشري فى هذا المعنى :

« إن الأنعام تنقاد لأمر من يرعاها ويتعهدا، وتعرف من يحسن إليها، ومن يسىء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتهتدى لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولا يتقون العذاب الذى هو

أشد المضار، والمهلك، ولا يهتدون بالحق الذي هو المشرع الهني، والعذب الروى».

وهكذا كان الذين يحسبون الهداية ضلالا، والعكوف على الأوثان والتمسك بها صبرا، يحمدون عليه، وليس هوانا يحسب عليهم، والله الهادى.

آيات الله فى الكون

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ أَلَيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ
مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

الرؤية هنا بصرية نظرية، ذلك أنه من ينظر ببصره الظل وهو يمدُّ، والمد: الجر والسحب، يراه رأى العين يجر شيئا فشيئا من انبلاج الفجر، إلى طلوع الشمس يرى ذلك بالنظر، ثم يتدبر بالفكر فى صانعه، ولذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ والرؤية بالبصر تكون فى مد الظل شيئا فشيئا، والرؤية النظرية فى سر ذلك وسببه، ولذا وجهت الرؤية إلى الله خالق الأكوان والقادر على كل شيء، والرؤية

حينئذ رؤية علمية إلى صانع المد، وما يكون حتى مطلع الشمس، والمد كما قلنا هو السحب والجِر، و الظل وهو ما لا تظهر فيه الشمس، سواء أكانت في حال إشراقها، أم في حال زوالها، وهو هنا ما قبل إشراقها، وهو يمتد شيئا فشيئا، فالفجر ينبج، ثم يكون الإسفار متدرجا حتى تطلع الشمس فهو كقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)﴾ [التكوير]، إذ يمتد الظل شيئا فشيئا، ويبرز الناس إلى الحياة متدرجين في بعث الحياة في الأعمال، وكأنه يتنفس تنفسا.

هذا توجيهه إلى تعرف بدائع الخلق، وإنه في هذه الحال، تكون الراحة النفسية، واستقبال الحياة مبشرا، وإن ذلك صنيع الله تعالى خالق كل شيء ومبدعه، خلقه سبحانه بإرادته المختارة، التي ينشئ بها كل شيء في الوجود، فلا تصدر عنه صدور العلة عن معلولها، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾، أى باقيا مقيما، وتكون كلمة ساكنا وضعا من السكنى، وعندئذ لا تبعث الراحة والسعادة والاستبشار، وقد قال تعالى في آية أخرى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧١)﴾ [القصص]، فسبحان مقلب الأحوال، وسبحان مقلب القلوب.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ انتقل السياق القرآني من الغيبة إلى المتكلم؛ لبيان إرادة الله الواضحة، وأنه هو الفاعل المختار، ولتربية المهابة في النفوس بخطابه بذاته العلية خطابا واضحا معلما، والعطف بشم للإشارة إلى التفاوت بين الظل والشمس الساطعة، وكانت الشمس دليلا على الظل، لأن إشراقها نهايته؛ ولأن ضوء الشمس يدخل في ظلام الليل شيئا فشيئا من انبثاق الفجر، فهو الدليل الواضح للظل، حتى يكون الصباح.

وإنه بعد الإشراق يأخذ الظل في الانقباض حتى يكون الظلام الحالك، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ قَبْضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ وإنه بعد إشراق الشمس يكون الظل والحرور، ويستمر طول النهار مصطحبا مع الشمس المشرقة والنور حتى يكون في الغروب وتختفى الظلال والأضواء ويكون الظلام الدامس، والليل الذي تستكن فيه

النفوس، وترخى أستار الظلام، وهذا قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ أى نسخاه وأزلناه، وشبه زوال الظل بجوار الضياء بشيء يقبض، وأضيف القبض إليه سبحانه لأنه يكون بإرادته، وبالنظام الثابت الذى وضعه الله تعالى للكون، فجعل سبحانه الأرض تدور حول الشمس، وبهذا الدوران يكون الليل والنهار، وثم هنا فى موضعها؛ لأن القبض مستمر طول النهار، ويتم فى آخره، فالتعبير بثم فى موضعه.

والقبض اليسير هو القبض المتدرج آنا بعد آن، وساعة بعد ساعة، فالقبض للظل مستمر من شروق الشمس إلى غروبها، وهو يتناقص شيئاً فشيئاً حتى ينتهى النهار.

وإن هذا النص يثبت أن الأرض كروية، ويومئ إلى دوران الأرض حول الشمس.

ولقد صرح سبحانه بأنه خالق الليل والنهار بعد أن أشار إلى بعض الأسباب.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾.

فى هذه الآية الكريمة يذكر ما جعله الله تعالى من خواص الليل، وما جعله من خواص النهار، فجعل الليل كاللباس للناس، لأنه يستر عوراتهم، ولا يكشف، ويكونون فى كِنٍ من الظلام سائر غير كاشف، فشبه سبحانه الليل باللباس الساتر بجامع ستره للمورات وما لا يصح إبداءه، وقوله تعالى ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى جعلنا النوم قاطعاً عن العمل منهياً للحركة، وفى ذلك الراحة اليومية، وتجديد القوى للعود للعمل؛ وذلك لأن السبات من السبت وهو القطع، وسمى السبت سبتاً لأنه قاطع عن عمل الأسبوع، ومَنِّه له، وإخلاء إلى الراحة من بعده، وذلك فى عقيدة اليهود إذ كانوا فى السبت ينقطعون عن العمل والصيد، ويستجمعون، والنوم فى ذاته موت للحس، وقعود عن الحركة، ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ..﴾ (٦٥) ﴿[الأنعام].

وجعل النهار نشورا، أى جعل النهار فيه النشور، أى الانتشار للحركة والعمل، وفى كلمة نشور إشارة إلى أمور ثلاثة: أولها - إبعاد إلى لباس الليل وإنهاء لسباته، وثانيها - الحركة العاملة التى بها يعمر الكون، وثالثها - الكسب فى الحياة وظهور الأعمال خيرا وشرا، ولذا قال تعالى فى الآية التى تلونا، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أى كسبتم بالنهار، وسمى الله تعالى النهار نشورا، فسمى الزمان باسم ما يقع عليه، وهذا مجاز علاقته الظرفية، وفى ذلك ما يفيد أنه زمن حركة وعمل، وليس زمن توان وكسل، وهذه دعوة إلى العمل، فالعمل حياة، والكسل موت.

وهذه الآية متصلة بما قبلها، فالآية السابقة شرحت عجائب فى خلق النهار من الليل كيف يتبدى بمد الظل، ولو شاء لجعله ساكنا، وكيف جعل الشمس مشرقة داعية إلى العمل والحياة، وكيف قبض الظل متدرجا حتى جاء الليل، وفى هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا...﴾ بين سبحانه حكمته فى خلق الليل والنهار، إذ يبدأ النهار بمد الظل، ثم يقبضه متدرجا فى قبضه، حتى يجئ الليل، ومن الليل النهار، وجعلهما خلقة.

بعد بيان نعمته على عباده فى الليل والنهار، وبيان أن النفوس تستروح الراحة فى الليل، وتنهض للعمل فى النهار لطلب الرزق بين سبحانه أنه يرزق الناس بما يكون مادة عملهم، وفيه معاشهم، فقال الحكيم العليم الخلاق العظيم:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

الضمير لله جل جلاله الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل الرياح أطلقها، كأنها مقيدة بإرادته سبحانه ثم أرسلها، والرياح جمع ربح، وهى تتلاقى فى استقامتها مع الراحة، كما تتلاقى فى وقائعها مع الراحة أيضا، وإن كانت المعانى ليست واحدة، أطلقها سبحانه وتعالى لتكون مبشرة للناس بنزول الماء الطهور، ولذا قال تعالى: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وبشرا مخففة من بشر بضم

الاثنين، جمع بشور، أى مُبَشَّرٌ، والمعنى على ذلك مبشرات برحمته، وهو إنزال الماء الطهور، الذى يطهر من الأرجاس، ويسقى الزرع والغرس والحيوان، والإنسان، ويصح أن تكون جمعا لبشرى، وهى فى نظرنا أظهر والمؤدى واحد، وهو أنها مبشرات، وقد تكون الرياح عواصف جذباء، وليست هذه التى تكون بشرا، بل إنه يكون نذيرا من النذر كما وقع لعاد قوم هود، ولثمود قوم صالح، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى أنها مقدمة لرحمته تليها الرحمة الإلهية لخلقها، وفى هذا الكلام تشبيه حسن باستعارة تمثيلية، فقد شبهت الرياح الممطرة غيثا بمن يسير وأمامه فى سيره رحمة مباركة طيبة، ورشحت وقويت الاستعارة بقوله بشرا فإنها تقوى معنى المشبه به، والاستعارة إذا كانت مقواة بما يكون فيه معنى المشبه به كانت مرشحة أى مقواة. وقول ﴿بُشْرًا﴾ قرئت بالنون، أى نشر جمع نشور، كما جمع رسل من رسول، والمعنى أنها تنتشر وتعم لتعم الرحمة، ونذهب إلى أن القراءتين المتلاقيتين فى المعنى نجمع بينهما فيكون المعنى أن الرياح فيها وصفان أحدهما أنها مبشرة بالخير، والثانى أنها منتشرة وعامة.

ويكون المؤدى أن كل قراءة آية قائمة بذاتها، وهى قراءة، والجمع بينهما يكون الجمع بين آيتين، فى أوجز لفظ، وبالجمع تكون الرياح مبشرات ومنتشرات، والله هو الرزاق ذو القوة المتين.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ والسما هنا جهة العلو، أنزلنا من السحاب الذى حملته الرياح المبشرة المنتشرة ماء طهورا، والطهور هو الطاهر فى نفسه المطهر لغيره، وإن أظهر الماء هو ماء المطر؛ لأنه فوق خلوه من الأنجاس الحسية والقاذورات هو خال خلوا تاما من جراثيم الأمراض الباثية وغيرها، ووصفه بطهور ينبئ عن ذلك، وإنه ينزل كذلك ثم يكون تلوثه بجراثيم الأمراض بعد ذلك بمكوثه فى الأرض واستقراره بها.

وإنه فى الشريعة يطهر الإنسان طهارة حسية بإزالة الأنجاس الحسية، وطهارة

معنوية بالاغتسال والوضوء، وإنعاش الأجسام بالاستحمام، والاستراحة من وعناء الأعمال، وكل هذه نعم تعم البر والفاجر.

وقد بين سبحانه غاية هذه الماء الطاهرة، أو عاقبة نزوله بإرادة الله تعالى وأمره الذى لا معقب له، ولا راد لفضله، فقال ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا﴾.

اللام لام العاقبة، وليست لام التعليل فى نظرنا لأن أفعال الله جل جلاله لا تعلل، ولكنها لام العاقبة وبيان اقتران نعمة الله تعالى بهذا الخير العميم، وقد ذكر الله تعالى ثلاث نعم كل نعمة تشير إلى ما وراءها.

النعمة الأولى - إحياء موات الأرض، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ البلدة الميتة هى الخالية من الزرع والمالحة من الغرس، ولا يتتفع بها فى بناء أو غيره، بل هى معدة للزرع والغرس، وإحيائها هو سقيها، وإزالة أسباب بوارها، وزرعها أو غرسها، والماء هو حياة الزرع والغرس، وخلق الله تعالى من الماء كل شئ حي، يلاحظ هنا أن كلمة «بلدة» مؤنث لفظى، وهو دال فى ذاته على البقعة، فكيف يوصف بكلمة ميتة الخالية من التاء، قال علماء البيان: إنه أريد بالبلدة مكانها، فميتة وصف للمكان وهو الذى يوصف بأنه محل خاؤ من الزرع والضرع، فكان حذف التاء، فيه إيحاء إلى ما يجرى فيه الإحياء وهو المكان وليس البلدة التى تتكون من البيوت والدور، وهى لا تكون إلا حيث يحييها الله تعالى بالزرع، وإن إيراد المكان بالبلدة هو الذى يتفق مع السياق، والبيان.

وقال علماء البيان أيضا: إن الوصف بميت من غير تاء فيه مبالغة فى محلها، وجذبها وخلوها من النبات، وما به ينبت، أى أن الجذب حال مستمرة باقية يراها الناس كذلك، وذلك وجه معقول كسابقه.

وسمى الله تعالى وجود الزرع والغرس، وما يتبعهما من إحياء، تشبيها بالحياة، أى أن الأرض فى حال جذبها كالميت، وفى حال زرعها واستغلالها

كالخى، وكل بفضل من الله تعالى، ذلك أنه إذا كانت الأرض ماحلة لا حياة لها بزرع أو غرس، فإنه قد يكون باطنها عامرا بالمعادن فلزات وغير فلزات كما نرى فى الصحارى فى بلاد الحجاز، وفى الصحراء الغربية فى تخوم ليبيا والجزائر، ومصر، وفى العراق وإيران، وغيرها من أرض الله تعالى العليم القدير.

النعمة الثانية- سقى الحيوان من الأنعام وغيرها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا﴾ أشار فى هذه الآية إلى ثلاث نعم فى ضمن نعمه أولها: السقى ذاته فهو نعمة، وثانيها: أن الأنعام يسقين خلق الله تعالى، وهى تكون حاملة وعاملة، وثالثها: أنها حيوان هى نعم فى ذاته، ولذا سميت الأنعام. ورابعها: سقى الأناسى، وهى جمع إنس بمعنى الإنسان، وهذه نعمة أخيرة، وهى نعمة الرى، ودفع العطش القاتل، إنه هو المنعم الكبير.

التصريف فى القرآن والنذر

قال تعالى :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ
لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ
وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّتَّحُجِّرًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

اللام لام قسم محذوف، وهى لتأكيد القول، وقد للتأكيد، والضمير يعود إلى القرآن، وهو حاضر فى نفوس المؤمنين والكافرين، فأما المؤمنون فلأنه زاد تقواهم، وأما الكافرون فلأنه موضوع لجأجتهم وافترائهم، وقولهم على الله بغير الحق، وافترائهم عليه، وتحديهم أن يأتوا بمثله فعجزوا عن أن يأتوا، وبدل أن يخنعوا بعد هذا العجز يمارون فى الحق بعد أن يتعبوا، وهذا على أن الضمير يعود إلى القرآن وهو حاضر فى كل الأذان، وتصريفه تحويل بيانه من باب فى الإعجاز إلى باب آخر، فمن قصص حكيم فيه عبرة لأولى الأبصار إلى بيان الشرائع وما فيها من إصلاح، إلى الكون وما فيه من بيان لقدرة الله تعالى وإبداعه، وكأن هذا التصريف بينهم؛ ليعت فيهم الذكرى، وهذا قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ وأذكر افتعال من الذكر، أى أعملوا عقولهم ليذكروه دائما، ولكنهم كفروا، ولم يجعلوا للذكر موضعا فى قلوبهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وهم المشركون، والفاء عاطفة وتشير إلى السببية، أى أنهم بدل أن يجعلوا القرآن سبيلا لتذكيرهم وتدبرهم جعلوه سبيلا لكفرهم وبعدهم عن الحق، وأكثر الناس هم المشركون، وقد كانوا فى مكة والكثرة الكاثرة، والمؤمنون كانوا القلة المستضعفة، ولكنها القوة بالحق فهو عز المؤمنين، وذل الكافرين مهما يكن عددهم.

هذا على أن الضمير يعود إلى القرآن، وإن الضمير يعود إلى الماء الطهور الذى ينزله الله تعالى ليحى به موات الأرض، ويسقى بها الأنعام التى خلقها الله تعالى وأناسى، والعود إليه ظاهر؛ لأنه أقرب مذكور، ﴿صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾، أى ورعناه بينهم، فهو مرة يكون غيشا فى الشرق، وأخرى فى الغرب، وأحيانا فى الوسط، وأحيانا فى الجنوب، ورابعة فى الشمال، وكل يفيض عليه رزق الله تعالى، وكل يسقيه الله تعالى بقدر، وكان حقا عليهم أن يتذكروا هذه النعم ويشكروها؛ لأنه سبحانه وتعالى خلقهم، وكفل أرزاقهم، ومكنهم من أن يعملوا ويقوموا على الحرث والنسل، ويستخرجوا من الأرض خيرها، ولكن أبى أكثر الناس إلا كفورا وجحودا .

هذا، وإنا نميل إلى أن الضمير يعود على القرآن؛ لأنه حجة النبي ﷺ الذي بعثه الله تعالى بشيرا ونذيرا، ولقد قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝ ﴾

إن الله تعالى رحيم بعباده رفيق بهم، ولكنه خلق لهم أعينا يبصرون بها وأذنا يسمعون بها، وقلوباً يفقهون بها، وجعل لهم علما وإدراكا، وممكنهم من أن يصلحوا في الأرض ولا يفسدوها، وصالحها بأن يقوموا بكمارم الأخلاق، وجعل لهم بعثا ونشورا، وحسابا وجزاء وعقابا، ولكنه علت قدرته لا بد أن يعطيهم النذر مرشدة، حتى لا يتردوا بأهوائهم في الضلال، فبعث إليهم محمدا بشيرا ونذيرا، بالنذر العامة التي تعم القرى والمدائن، ولو شاء لجعل في كل قرية نذيرا، والقرية المدينة العظيمة، أو القبيل الكبير، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝ ﴾ ، أى منذرا يخصصها، ويبين الحق بيانا كاملا، ويبين ما يعقب الكفر من عذاب الجحيم، وما يكون بعد الإيمان من جنات النعيم.

لو - حرف امتناع لامتناع، أى امتنع الجواب لامتناع الشرط، أى امتنع أن يجعل الله تعالى في كل قرية نذيرا، لامتناع مشيئته سبحانه ذلك، وله سبحانه وتعالى في ذلك حكمة وإرادة، وعلى أن الناس متشابهون خلقا وتكويناً وإرادة، وسيطرة الأهواء الشيطانية على بعضهم، والعقل على آخرين اصطفاهم الله تعالى، وبهده اقتدوا، فكان الإعلام بالرسالة والنذير، إعلاما لهم أجمعين، ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وكان إنذار محمد ﷺ عاما للناس أجمعين، وكان التبليغ الكامل حقا عليه وعلى من تبعه من بعده، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... ﴾ (١٧) [المائدة].

وإذا كان إنذار الناس أجمعين حقا على النبي واجبا عليه، كان لا بد من الجهاد، ولذا قال تعالى :

﴿فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ .

الفاء للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، وقد أمره تعالى بأمرين:

الأمر الأول - ألا تطع الكافرين؛ لأنه منذر لهم، والطاعة تكون بتخاذله في الدعوة، وعملاتهم فيما يعبدون، وذلك مستحيل أن يكون من محمد المبعوث رحمة للعالمين والذي جاء لإصلاحهم، فلا يصح أن يعود إلى مدهانتهم في الحق، وإنما ذلك أمر لاتباعه ﷺ من بعده، ومن هم معه في حال حياته، وذكر الكافرين بالاسم الظاهر لبيان أن طاعتهم طاعة للكفر، فكان ذلك تأكيد النفي ببيان سببه.

والأمر الثاني - جهادهم، والجهاد بذل الجهد في مقاومة ضلالهم، وبيان الحق الذي يدعو إليه، والإصرار عليه، والجهاد كان في مكة بالصبر على الدعوة إلى الإيمان، والأذى في سبيلها، والاستهزاء والسخرية بها، وألا ينسحب عن الإعلام بها لمن لم يكن يعلم، وقد حقق النبي وأصحابه ذلك في مكة، فقد صبروا وصابروا، وتعرض النبي ﷺ للقبائل بعد أن ذهب إلى الطائف وردوه ردا منكرا، تعرض للقبائل في موسم الحج، حتى كان الأوس والخزرج من أهل يثرب، إذ وجدوا فيه منجاتهم مما هم فيه من عدا بينهم، وحرب مع اليهود، فهاجر إليهم، فكانوا له أنصارا، وكان الجهاد بالمنازلة بعد الجهاد بالمصابرة.

ووصف الله تعالى المطلوب بأنه جهاد كبير، لأن المصابرة أمر عظيم، وبها قام المسلمون، وتكونت الخلية الأولى من أهل الوجدانية. وحملوا مع النبي ﷺ عبء الجهاد في دوره الثاني، وكان الجهاد كبيرا؛ لأنه كان في كل أدواره بالصبر، وقوله: ﴿بِهِ﴾ أى القرآن ببيانه والتمسك به، فإنه في ذاته قوة، وإنه بهذا يشير إلى وجوب الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيلها والمصابرة، وهو أمر كبير إلا على الخاشعين، وإن كبر الجهاد ليس بكثرة القتولين، وإنما كبره يكون بالصبر عليه، وإرادة الله تعالى فيه، وتحمل الأذى والرضا بالأذى، ما دام يوصل إلى الغاية، وهي أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا.

وقد ذكر سبحانه آياته في خلقه الدالة على قدرته القاهرة، وإبداعه الباهر، فقال عز من قائل:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

الضمير يعود إلى الله جل جلاله، ومرج، لها معنيان وردا في لغة العرب، المعنى الأول - خلّى وأرسل، والمعنى الثاني - خلط من غير امتزاج، وإدخال أحدهما في الآخر، وقبل أن نخوض في معنى الكلمات والأسلوب نقرر أن هذه الآية من دلائل الإعجاز؛ لأن محمدا لم ير البحار التي تمخر عابها السفن، فذكره سبحانه وتعالى لخواصها في القرآن دليل على أنه ليس من عند محمد ﷺ الذي لم يرها ولم يعرفها، ودليل على أن الكلام لله تعالى خالق البحر واليابس، والأنهار والبحار، وهو بكل شيء عليم.

والمعنيان للمرج يستعملان في هذا المقام، فالله سبحانه وتعالى خلّى البحرين يجريان كل منهما في مجراه من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر، وهما غير متجاورين أحيانا، وأحيانا يكونان متجاورين يختلطان ويتجاوران ولا يمتزجان، والبحران هما النهر العظيم كاللدجلة والفرات والنيل وسيحون وجيحون وغيرها من الأنهار العظيمة الذي يخليها الله تعالى ويرسلها في المروج، فتنبت الزرع نباتا وغراسا، ويشرب منها الناس، ويسقون دوابهم وأنعامهم، والبحر الثاني هو البحر الملح، كبحر الروم وبحر القلزم، وبحر الهند، وبحر الظلمات وغيرها، والأول عذب فرات، والثاني ملح أجاج، أى ملح شديد الملوحة، وفيه أحيانا دفاء، وفيه نعم لا تحد، ففيه الجواهر والياقوت والمرجان، وفيه اللحم الطيب، وهواؤه فيه مواد مطهرة للصدر، فيه البود، ومنه تنبعث الريح، وفيه تجرى البواخر كالأعلام وفي هذا بيان نعمة الله تعالى في الماء العذب الفرات الذي يكون لسقى الأرض وإحياء نباتها وغرسها.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير عجائب الله تعالى في البحر الأجاج، فذكر ما

يكون فيه من مد وجزر تبعا للقمر، فقال رضى الله تعالى عنه فى تفسير ﴿وَهَذَا مَلْحٌ أُجَاجٌ﴾ : أى مالح مرّ زعاق لا يستساغ كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب والبحر المحيط.

وأخذ يضرب الأمثال حتى قال: وما يشابهها من البحار الساكنة التى لا تجرى ولكن تموج وتضطرب وتلتطم فى زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففى أول كل شهر يحصل مد وفيض فإذا شرع الشهر فى النقصان جزرت حتى ترجع إلى حالتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد ليلة الرابعة عشرة، ثم شرع فى النقص فأجرى الله سبحانه وتعالى تلك العادة.

وإن نعم الله تعالى فى البحار كما ذكرنا عظيمة، وقد سئل النبى ﷺ عن ماء البحر فقال: « هو الطهور ماؤه الحل ميتته ».

وقد أشار سبحانه إلى أن كلا من البحرين العذب الفرات والملح الأجاج كلاهما محجوز عن صاحبه، بل يأخذ الإنسان من كل منهما منفعه ونعمه من غير أن يختلط أحدهما بالآخر، فيختلط الملح بالعذب الفرات، فلا ينتفع الإنسان بشربه، ولا الزرع بسقيه.

ولذا قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى جعل بينهما حاجزا مانعا، وحجرا، أى حداً، وهو بمعنى محجوز، كنعقض بمعنى منقوض، وأكد سبحانه المنع، فقال: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى حداً ممنوعاً لا يمكن أن يعدو أحدهما.

وقد قلنا إن ﴿مَرَجَ﴾ هنا بمعنى خلا وأرسل، وقد بينا معنى مرج البحرين على ذلك المعنى، وهى أيضا بمعنى خلط وجاور من غير أن يمتزج الماءان كل منهما بالآخر مع أن الماء سريع السيران، ويتم الامتزاج فيه، لكن فى النوعين من الماء نجد هما يتجاوران مختلطين بالجوار غير سائل أحدهما فى الآخر، فتجد فى مصبات الأنهار حيث يختلط ماء النهر وتجاور ماء البحر، تجد بينهما مانعا حسيا يكون كل واحد منهما متميزا بحيزه لا يعدوه؛ لأن ماء النهر خفيف، والماء المالح

ثَقِيلٌ فَكَلَاهُمَا لَا يَمْتَزَجُ بِالْآخِرِ، وَإِنْ كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ عَلَى مَاءِ النَّهْرِ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى : فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ الْمَرْجِ ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن].

وبعد أن بين سبحانه ما في الكون من عجائب وبدائع بادية للعيان، ويدرك بعضها الجنان عاد بنا إلى الإنسان المخاطب بالتكليف فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله جل جلاله خالق الوجود كله جليلة ودقيقه، وفي هذه الآية يقول عز وجل أنه خلق من الماء بشرا، ونجد في النص تفاوتاً بين الماء المخلوق، والمخلوق منه البشر، فهذا ماء ظاهر أنه لا حياة فيها يكون منه بشر له حياة وحس ظاهر وخفى، والماء لا يتألم، والبشر يتألم، ومع هذا التغير الظاهر كان المخلوق والمخلوق منه موجودين في كيان واحد، وما ذلك إلا بقدرة العليم الحكيم الذي يُغَيِّرُ وَلَا يَتَغَيَّرُ، ويحول ولا يتحول، وقد خلق البشر الحى الحساس من الماء مرتين: أولاهما - أنه ككل حى متحرك ينمو كان من الماء، فالماء كان منه الزرع والثمار وغيرهما، والإنسان كان من النبات، ونما من الحيوان، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (٢٠)﴾ [الأنبياء]، وخلق من الماء وهو المنى، وما هو إلا ماء مهين، لا يعبا به النظر، وأشار سبحانه إلى أن هذا الذى كان منه الماء يتوالد، ويتلاحم البشر فى الأسر والقبائل، والشعوب، ولذا قال مشيراً إلى هذا التوالد، فقال: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ وهذا فيه إشارة إلى الصلات الإنسانية التى تربط الإنسان، وتكون منها المودة الراحمة الواصلة. إما بتوالد نسبى يجمعه الأصل، والنسب، وإما بسبب صهرى، ولقد ذكر الزمخشري أن ذكر النسب والصهر والسبب إشارة إلى أن العلاقة الإنسانية تكون بنسب الرجال، أو بالمصاهرة التى تكون بالنساء إذ تكون بالزوجة، والمرأة هى السبب فى علاقتها، كما قال تعالى ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٢١)﴾ [القيامة].

وإن ذلك كله بقدرة الله تعالى وإبداعه في هذا الوجود، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله عز من قائل، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ وكان ربك خالقك الذي أنشأك ويكلؤك ويرعاك قادرا قد علت قدرته كأقصى ما يتصور العقلاء، و (كان) هنا هي الدالة على الاستمرار والدوام، أو الكينونة الدائمة.

ومع هذه القدرة القاهرة، والعجائب الباهرة، وكما رأيت من مد الظلال، وخلق الليل والنهار، ومرج البحرين، وخلق الإنسان من ماء، مع كل هذا تجد الذين سيطرت أوهامهم يعبدون حجارة لا تنفع ولا تضر، ولذا قال سبحانه عقب ذلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾. ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ الواو هنا واو الحال، والمعنى: هذه قدرة الله القاهرة الباهرة مع أنهم لم يعتبروا ولم يدركوها، والحال أنهم يعبدون من دون الله أحجارا، أو ما يشبهها لا تنفعهم بشيء قط بحيث يعبدونها رجاء، ولا تستطيع ضررا لهم فتكون العبادة دفعا لهذا الضرر، فهي لا حياة لها، وهي دونهم، ولكن الوهم جعلهم يعبدونها، مع هذه الحال.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ روى عن مفسرى السلف، أن ظهيرا معناها أن الكافر يظاهر الشيطان على الله تعالى، إذ يدليه بغروره فلا يعبد الله، ويعبد الحجارة، وهذه المظاهرة على الله تعالى ربه الذي خلقه وأنعم عليه، وأسبغ عليه ظاهرا وباطنا، وذكر الكافر بالوصف، للإشارة إلى أن سبب ذلك هو ضلال الكفر وطمسه لبصيرة عابد الأوثان.

وفسر بعض العلماء ﴿ظَهِيرًا﴾ أى مهينا، والمعنى هينا على ربه لا يضره كفره، وقالوا إن ذلك من قولهم ظهرت عليه، أى جعلته وراء ظهري، لا ألتفت إليه، ولا أهتم به، وذلك قريب من قوله تعالى: ﴿... وَأَتَّخِذُ مَوْرَهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا...﴾ [٩٢] [هود]، وهذا القول قاله أبو عبيد، وهو قائم على أن ظهير بمعنى مظهر أى ملقى وراء ظهره.

والمعنيان متلاقيان، فالكافر حليف الشيطان هو الذي يدفعه دفعا إلى معاندة الله تعالى، وهو هين على الله تعالى وليس له عند الله إلا مكان الهون.

الله يؤيد الرسل

قال الله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

إن المشركين أثاروا من أوهامهم أمورا حول النبي ﷺ، فزعموا أنه يريد مالا، وزعموا أنه مجنون، وأنه ساحر إلى آخر ما أوحى به أوهامهم، فبين الله سبحانه أنه ما كان إلا بشرا رسولا، وقال :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

الجملة السامية الأولى دالة على القصر بالنفى والإثبات أى ما أرسلنا ذا سلطان، ولا ذا مال، لا لآى عرض من أعراض الدنيا، ولكن أرسلنا مبشرا بالحق داعيا إليه منذرا من يتمسك بالباطل أو يدعو إليه، أرسلناك فقط لتبشير من يبتغون الحق بالنعيم المقيم وجنة الفردوس، ومن يصرون على الباطل لهم عذاب الجحيم.

ومعنى هذا القصر الثابت بالنفى المستغرق، والاستثناء الموضح أنه ﷺ هاد مرشد، فلا تعبثوا بهذه الحقيقة بما تثيرون من أوهام باطلة، وتصدون عن سبيل الله تعالى بهذه الترهات الفاسدة.

وأمر الله تعالى نبيه أنه لا يريد أجرا إلا الهداية واتباع الحق، فقال عز من قائل:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

الأمر فى ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يقول ذلك القول؛ لأنهم قالوا وأشاروا وصرحوا أنه يريد سيادة دنيوية فى جاه يبتغيه، أو مال يتموله، فهو ﷺ الذى يتولى الرد، ويبان أنه لا يريد إلا الهداية ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ من - هنا دالة على استغراق النفى، أى لا أسئلكم على هذا الإرشاد والتوجيه الذى أدعوكم به إلى ترك الأوثان وعبادة الله تعالى وحده أى أجر، وإن فائدة هذه الدعوة مغبتها عليكم إذا اهتديتم، وتعود عليكم بالعقاب إن كفرتم.

ثم قال تعالى مستثنيا من الأجر ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

هذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا، ويحتمل أن يكون منقطعا، وعلى أنه متصل يكون المعنى ظاهرا والمعنى لا أسألكم أجرا تدفعونه، أو تؤدونه، إلا ابتغاء من شاء أن يتخذ إلى ربه منهاجا مستقيما، وطريقا موصلا إلى ربه، فإن ذلك هو الأجر الذى أبتغيه، وهو نعم الأجر ونعم الجزاء، فيكون الكلام دالا على مطلبه ﷺ، ودالا على شرف الغاية التى يبتغيها، فليس يطلب مالا ولا جاها، ولكن يطلب هداية وتوفيقا وإرشادا.

ويكون معنى النص السامى على أن الاستثناء منقطع، لا أسألكم عليه أجرا، لكن من شاء اتخذ إلى ربه سبيلا هو مطلبى وغايتى، وموضع دعايتى ودعوتى.

ومهما يكن من تخريج، فالمعنى أنه لا جزاء للنبي إلا أن يتبعوا الحق، ويهتدوا به، ويوحدا العباد.

وفى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ إشارات بيانية ثلاث.

الأولى - التعبير بقوله: ﴿مَنْ شَاءَ﴾ إشارة إلى أن الشواب لا يكون إلا بالإرادة الحرة المختار، إذ هى أساس التكليف.

الثانية - التعبير بقوله: ﴿يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ التعبير بالرب توجيه إلى أنه الخالق المربى القائم على الخلق، ففى ذلك دعوة للاتباع المدرك، شكرا لنعمة الله تعالى عليه.

الثالثة - وصف الهداية بأنها اتخاذ السبيل؛ لأنه المنهاج، وهو ﴿سَبِيلًا﴾، وكان التنكير لبيان أن السبيل المطلوب هو ما كان إلى الله تعالى.

وبعد أن أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم ما قال أمره سبحانه بأن يتجه إلى الحق معتمدا عليه سبحانه وتعالى وحده فقال:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾.

أمر الله تعالى نبيه بالتوكل عليه بعد أن ينس من المشركين، ليكون خالصا للدعوة إليه، وليكون معتمدا عليه وحده، وليكون ذلك تبشيرا للنبي ﷺ بالنصر عليهم، وأن الله تعالى معطيه ومن معه القوة الدافعة، والتوكل معناه اعتماد القلب على الله تعالى، واتخاذ الأسباب الظاهرة، وإن لم تكن هى وحدها الناصرة إنما هى وسائط، أمر سبحانه وتعالى باتخاذها من غير اعتماد عليها وحدها، وقد ذكر

سبحانه وتعالى وصفين لذاته العلية يؤكدان أنه لا يعتمد إلا عليه: الأول - أنه الحى الكامل الموجود. الثانى أنه سبحانه لا يموت فهو الباقي، ومن يعتمد على من يموت لا يكون له معتمد بعد موته، أما من يعتمد على الباقي فمعتمده باقٍ لا يفنى.

وبعد أن أمر سبحانه بالتوكل عليه وحده أمر بالتسبيح، وهو التنزيه بوصفه بصفات الكمال المطلق من قدرة وإرادة ووحدانية وغيرها من الصفات التى لا يشبهه فيها أحد من خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، العلى الكبير.

وقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِ﴾، أى مصاحباً بالحمد بالثناء عليه بما هو أهله، فكان الأمر بالتنزيه، وأمرنا بالثناء عليه سبحانه بما أنعم، وشكره على ما أجزل من عطاء غير مجذوذ.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾، أى الكفاية به سبحانه وتعالى وحده، والباء لتأكيد معنى الكفاية والاعتماد على ذاته وحده، ومن توكل عليه لا يحتاج إلى غيره ولا يغنى عنه أحد من خلقه، وقوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرٌ﴾ بذنوب، جار ومجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾، والخير هو ذو العلم الدقيق الذى لا يعلمه غيره، وقدم الجار والمجرور ﴿بِذُنُوبِ﴾ على متعلقه لبيان الاهتمام بالعلم بهذه الذنوب، وأنهم مجزيون بها، فإذا كانوا قد عاندوا وضلوا وصدوا عن سبيل الله تعالى فإنهم مأخوذون بذنوبهم، وخيراً - حال من ضمير به، ومؤدى القول الكريم، وكفى به خبيراً بذنوبهم، وهى خبرة وراءها جزاؤهم عليها، وهذا تهديد شديد، وإنذار بليغ.

وذكر سبحانه خلق السموات والأرض فى ستة أيام، فقال عز من قائل: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾.

بدل أو عطف من الحى، وذكر ذلك بعد هذا الوصف الجليل لبيان أن

التوكل على القادر المنشئ للوجود كله، وستة الأيام التى فى هذه الآية التى ذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ليست هى الأيام التى نعرفها الآن بينما، لأن أيامنا مربوطة بالشمس والأرض، ودوران الأرض حول الشمس، فيكون الليل والنهار خلقة يخلف أحدهما الآخر، وقبل السموات والأرض لم تكن الشمس ولا الأرض، ولذلك تفسر الأيام بالأدوار الكونية التى يخلق الله بها السموات والأرض، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى سورة فصلت، فقال عز وجل:

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩ ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٢ ﴾ [فصلت].

وإن هذا النص السامى يدل على أن الأرض أخذت أربعة أدوار منها الدوران الأولان، والسماء قضاهن سبحانه سبع سموات فى يومين.

وإن لعلماء الكون جولات علمية فى معانى هذه الآيات، وما تدل عليه من حكمة اللطيف الخبير.

بعد أن خلق سبحانه وتعالى السموات السبع والأرض فى ستة أدوار كونية، جلس سبحانه على عرش الكون؛ لأنه سبحانه وتعالى خالقه فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هذا كناية عن كمال سلطانه فى خلقه يدبره كما شاء، ففى الكلام تشبيه، إذ شبه سبحانه وتعالى سلطانه على الكون يقوم عليه ويدبره، لأنه سبحانه وتعالى الحى القيوم، بمن يجلس على عرش مملكته يدبرها ويقوم على مصالحها، والله المثل الأعلى.

وقال سبحانه ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾، التعبير بـ (ثم) فى موضعه، لأنه سبق ذلك أدوار كونية لا يعلمها إلا الله، ووصف سبحانه وتعالى سلطانه على العرش، فقال عز من قائل ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أى أنه يدبره ويسيطر عليه

برحمته، فكل عمل منه سبحانه في عرش السموات والأرض رحمة في ذاته الرحمن الرحيم.

وإن المتبع لهذا الخلق وذلك التكوين، والقيام عليه بقدرته تعالى يرى بقلبه رحمته سبحانه، ولذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر إذا أردت أن تعرف فاسأل به خبيراً، والباء - فيما أحسب - بمعنى في، والمعنى فاسأل خبيراً أى عليماً يعلم علماً دقيقاً، فإنه ينبئك عن جلال الله تعالى في الخلق والتكوين والرحمة.

بعد ذكر هذا الخلق، وهذا التكوين العجيب، والإشارة إلى خلق الله تعالى الوجود كله في أدواره المحكمة أعاد بيان حال المشركين في مكة التي يتعلقون بالفاظ يدورون حولها غير متعقلين ولا مدركين، فقال عز من قائل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

لم يكونوا يذكرون الله تعالى بلفظ الرحمن، فهم لا يعرفونه إلا باسم الله تعالى، فلما ذكره باسم الرحمن استنكروا هذا الاسم، وكأنهم لا يقرونه، قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ الواو عاطفة على محذوف، كأنهم يقولون سمعنا قولك من قبل، وما هذا الذي تريده وتسميه الرحمن، كأنهم يحسبون أنه شيء غير الله تعالى، أتريد أن نسجد لما تأمرنا، وكأنهم يقولون تأمرنا ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، وتريد أن تأمرنا أيضاً بأن نسجد لهذا الرحمن، كأن المسألة بيننا وبينك ليس أمر التوحيد تدعو إليه، إنما أنت تعادى آلهتنا بآلهة أخرى، ومزماهم أنك تتحكم في عبادتنا، ولا تخالفنا في شركنا، ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾، أى زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفورا، لأن من لا يدرك يزداد نفورا بجهالته، وعدم معرفته، لأنهم ضلوا، وعقولهم الضالة تزداد نفورا، كما أن نزول السورة يزيدهم كفرا.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ عبر بالفعل المبني للمجهول، ولم يذكر الفاعل، وقد علم من البعض، لأنهم قالوا للنبي ﷺ ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا

تَأْمُرُنَا ﴿٥٣﴾ والسجود هنا العبادة، أو الصلاة من بينها؛ لأن أظهر مظاهر العبادة الخضوع وأظهر مظاهره السجود لله سبحانه وتعالى .

وذكر الفعل مبنيًا للمجهول للإشارة إلى نفورهم من أصل تسمية الله بالرحمن، وكانوا يحسبونه غير الله تعالى ويقولون رحمن اليمامة أى إله أرض أخرى .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾

تبارك - أى تعالت بركته سبحانه، فالضمير يعود إلى الله تعالى الذى يمتلئ الوجود كله بذكره وتسبيحه، وإن كل بركة ونفع فى هذا الوجود يرجع إليه سبحانه، ولذا تتعالى بركته فى هذا الوجود الإنسانى كله، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض مظاهر بركته، وفيض رحمته فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ البروج جمع برج، وهو القصر العظيم، كما قال تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ...﴾ (٧٨) [النساء]، ولقد قال مجاهد: البروج فى الآية الكريمة هى الكواكب العظام وكأنها شبهت فى عظم مرآها وجمالها، وكمالها بالقصور المشيدة التى تأخذ بالأنظار تقريباً للأنفس، وليس المعنى أنها مشبهة بالقصور فى تكوينها، فإن خلقها أقل من خلق الكواكب العظيمة، والمشبه به يكون أقوى من المشبه، وليس الأمر كذلك فى هذا التشبيه، إنما التشبيه للتقريب لإدراكنا .

وخص سبحانه وتعالى من الكواكب بالذكر الشمس والقمر، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ الضمير فى فيها يعود إلى البروج، أى جعل فى البروج أى فى عمومها سراجاً، والسراج هو الشمس كما عبر سبحانه وتعالى فى آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (١٣) [النبا]، وكما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ [نوح].

وهنا نقول: شبهت الشمس بالسراج تقريباً لأفهامنا على سبيل الاستعارة،

وذلك إشارة إلى أنها مصدر الضوء والنور لما حولها من الكواكب، ووصف القمر بأنه منير، أى أن من شأنه أن ينير فى الظلام، ولكن الشمس، جعلها الله تعالى المصدر؛ لأنها سراج هذا الوجود، وقد قال فى ذلك علماء الكون: إن الشمس تضيء الأرض فيكون النهار، ومن انعكاس أشعتها على الأرض يكون نور القمر، فالأصل كما خلق الله تعالى كان من الشمس، وأضاء الأرض، وبانعكاس ضوءها على القمر كان القمر منيرا.

ولهذه الصلة بين الشمس والأرض والقمر قال تعالى بعد ذكر الشمس :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝﴾ .

الضمير يعود للذات الإلهية التى يجب أن يكون ذكرها فى قلب كل مؤمن، وهو الذى يسبح له الرعد بحمده، ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أى يخلف كل واحد منهما الآخر، كأنه يذهب عن الوجود ليكون الثانى خليفة له فى إحكام ودقة، وانتظام وتداول بينهما، فالإنسان بين ليل يغشاه، وليل يبرزه، وبين حياة هادئة ساكنة يستروح فيها راحة الحياة واستقرارها، وبين لغوب وعمل وكد وعناء، وقال تعالى : ﴿لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ يذكر أصلها ليتذكر، أى أنه فى هدأة الليل يتذكر نعم الله تعالى نعمة نعمة، ويعتبر أمره عبرة بعد عبرة، وأخذ مواعظه عظة بعد عظة .

وقوله تعالى : ﴿لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ اللام حرف جر متعلق بجعل، أى هذا الليل والنهار خليفة لتكون مادة اعتبار وإدراك لمن أراد أن يتذكر، ويعرف قدرة الله تعالى وخلق، وإبداعه فى التكوين، فيذكر قدرة الله تعالى الخلاق العليم، وأنه ليس كمثله شئ، وأنه خالق كل شئ، والمنعم على كل شئ، وأراد أن يُشكر على ما أنعم بالطاعة .

وفى هذا التعبير الحكيم إشارة إلى تبعة الإنسان فى إهماله أو اعتباره، لأنه سبحانه قال ﴿لِّمَنۢ أَرَادَ﴾ فأرادته هى الموجهة له بعلم الله العلى الكبير، وبهذه الإرادة يستحق الثواب ويستحق العقاب، والله تعالى يهدى من أراد الهداية بالتذكر

وشكر النعمة، و - أو - هنا للدلالة على التردد بين أمرين . أولهما - التذكر وهي تذكرة دائمة، أو الخطوة الأخرى التي تكون بعد التذكر، وهو الشكور، وهي مصدر شكر، فمصدر شكر الشكر، والشكور، كمصدر كفر الكفر والكفور.

واذكر أصلها تذكر، سكنت التاء وادغمت في الذال وجاءت همزة الوصل ليتمكن النطق بالساكن، وإن الليل والنهار من تعاقب الشمس والقمر في الحس، وهما مستمران في دأب وتوال، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٢) ﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿ ... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ... (٥٤) ﴾ [الأعراف] صدق الله تعالى .

صفات المؤمنين المتذكرين

قال تعالى :

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ

مُهَاجِرًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِلْمُنَافِقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

هذه الآيات الكريمات تصور صفات المؤمنين التي يتكون منها المؤمن الصادق، وهي تجمع بين أمور ثلاثة من الصفات: أولها- الصفات الموجبة المكونة معنى الإيمان، والتي هي خلال أهل الإيمان الذين تعلق الإنسانية بهم، ولا يستعملون عليها، وهي من أول الآيات إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وثانيها - صفات سلبية، وهي التي تبتدئ من هذه الآية الأخيرة.

وثالثها- الذين يبتغون الحياة الزوجية بالطهر والعفاف، وختم سبحانه الآية

ببيان الجزاء الأوفى.

الصفات الإيجابية

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

وصفهم الله تعالى بأنهم عباد الرحمن، وهذا الوصف يشعر بأنهم رحماء فيما بينهم، لا يجافون، ولا يتناحرون، بل هم في اطمئنان وسلام، وروحانية، لا يجعلون للمادة من حياتهم إلا أن تكون غذاء طيبا يأخذون منه القوة للقيام بواجبهم، وهم في أوصافهم الظاهرة والباطنة يتطامنون، ولا يستكبرون، والهون مصدر هان يهون هونا، وهو المشى في غير عنف، حولا تجبر، وهو وصف محمود، وهو ضد الهوان الذي يذل صاحبه للقوى أو المتغطرس، ويهون عليه، وهو من عذاب، ومعنى هونا أى يمشى في سكينه ووقار وفي قصد وتؤدة، وتلك أخلاق الأنبياء والذين يقتدون بهم، فالمؤمن يسير في رفق، وقد وصف الله مشى النبي بأنه كان يمشى في هون ورفق، تبدو في مشيته قوة الماشى غير المصطنع المتخاذل، وغير المختال المرح المتعالي، وكما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧)، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ والجاهلون هم الحمقى الذين لا يعرفون ما أحله الشرع، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أى سلما وأمنا، فهم لا يعلون على الناس، ولكن يسألونهم، وإذا رأوا حمقى لا يحاورونهم، ولا يخاطبونهم على مقتضى قولهم، وإن ذلك دأب الحكماء المتقين، يهدون، ولا يجهلون، ولقد كان النبي ﷺ لا تزيده شدة الجاهل إلا حلما .

ولقد روى أن إبراهيم بن المهدي كان ناصيبا يعادى، وكان المأمون علويا معتدلا، فقال إبراهيم بن المهدي رأيت في رؤيا عليا فتكلم، فما رأيت في كلامه بلاغة، قال فماذا قال لك إذ خاطبتة؟ قال: سلام، قال إذن فقد رأيت عليا، يشير إلى أن عليا خاطبه بما تؤدب به الآية، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، وقد

قال تعالى في وصف المتقين في آية أخرى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص].

الوصف الثاني من أوصاف أهل الإيمان الإيجابية: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا﴾.

هذا عمل إيجابي، وإذا كان العمل الأول معناه التظامن للناس، وألا يكون بينهم وبينهم شغب، حتى إذا خاطبهم السفهاء بما لا يصدر إلا عنهم، لا يبادلونهم السفه بسفه مثله، بل يقدمون لهم السلام والأمن ويطمثون، ولا يشاغبون. وهذا عملهم مع الناس، أما هم بالنسبة لله، فقد ذكر سبحانه ذلك في بيانهم، وهو السجود لله تعالى والقيام له، والخضوع له تعالى، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا﴾ هذا عطف على الجملة السابقة في بيان عملهم لله، وكذلك ما يجيء من بعده من أحوال لهم، واللام في قوله ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ متعلقة بـ ﴿سُجْدًا﴾ أى أنهم يبتغون ساجدين لربهم خاضعين، وقائمين له، وقدم قوله تعالى ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لبيان قصر السجود عليه، فلا يسجدون لغيره إذ لا يعبدون غيره، ولا يسجدون لسواه.

والسجود والقيام كناية عن الصلاة، فهم يتهجدون مطيعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء].

وإن معنى الآية أنهم يبتغون على هذه الحال، تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿تَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... (٦٦)﴾ [السجدة] وقال تعالى: ﴿أَمْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ... (٩)﴾ [الزمر].

هذه بعض أحوال عباد الرحمن: اتجاء إلى الله وإغضاء عن مساوئ الناس، ويكون الله تعالى في بيئاتهم فيكونون لله تعالى في مبيتهم، وفيما يجرحون من أعمال بالنهار.

وإن من كانت هذه أحوالهم يظنون التقصير في ذات أعمالهم، ويتربصون العقاب، ويغلب عليهم الخوف، ولذا يقولون:

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

لقد توقعوا النار وأيقنوا بعذابها، وعملوا ما يجنبهم إياها، ولكنهم مع ذلك أيقنوا أن أعمالهم لا تكفي لتجنبهم، فضرعوا إلى ربهم أن يصرفها عنهم عالمين أن الجنة من فضل الله، وليست بعمل عملوه ولكن برضا من الله عما عملوه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ والتعبير بالمضارع يفيد أن هذا حال ملازمة لهم يكررونها دائما، بالخضوع والخشوع والحذر الدائم المستمر، فهم في حذر دائم مستمر، فيكونون مع الله بحذرهم لا يفترون، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أى كان أمرا ملازما، فالغرام هو الأمر الملازم الذى يكون خسارا وشرا، ولذا فسر بعض التابعين الغرام بالشر الملازم وكل غرام يزول عن صاحبه أو يفارق صاحبه إلا غرام جهنم، وإن المؤمن الحق يؤتى الله حقه، ولا يحسبه قد أوفى، ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ... (٦٦)﴾ [المؤمنون].

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ساءت بمعنى بش، فهي لذم جهنم، والمستقر هو مكان الاستقرار، والمقام هو مكان الإقامة، والمعنى بشس الورد إليها على جهة الاستقرار، والإقامة فيها، والجمع بينهما للإشارة إلى أنه ليس استقرارا عارضا ولكنه إقامة دائمة.

بعد أن ذكر حال عباد الله مع الله، ومع الناس أخذ سبحانه وتعالى يذكر حالهم في أنفسهم، ودنياهم وأسرهم، فقال عز من قائل:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

الإنفاق هو الصرف فيما يقيم الأود ويدفع الجوع، والإسراف هو الإنفاق في غير الحاجة بالزيادة عليها، والإسراف المنهى عنه هو الإنفاق في غير حق لله أو

للناس أو لنفسه، ولقد قال ابن عباس: «من أنفق مائة ألف في حقه فليس بمسرف، ومن أنفق درهما في غير حقه فهو مسرف، ومن منع من حق عليه قتر».

وظاهر الآية أن عباد الرحمن قد أخذوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء]، والقتر هو التضيق على النفس بحيث يكون في قدرة، ويحرم نفسه من أقل مطالب الحياة، أو يضيق فيها، والإقتار الفقر أو الضيق في المادة، كما قال تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسَىٰ قُدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قُدْرُهُ...﴾ [البقرة]، ومعنى الآية أنه ينفق في حلال بمقدار طاقته وقدرته، ولا يضيق على نفسه في الحلال، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أى عدلا بين الإسراف والقتر.

وإن النص الكريم يفهم منه أمران: أحدهما - ألا ينفق في حرام قط، وألا يضمن عن حلال موجود إلا تربية للنفس وتهذيبا، وفطما لها عن الشهوات، ولذا كان عمر رضى الله عنه يعد من يطلب كل ما يشتهى مسرفا؛ لأنه إذا حق الأمر لا يستطيع قلع نفسه عن شهواتها.

الأمر الثانى - أن الإنفاق بين الإسراف والقتر يختلف باختلاف أحوال الأشخاص، فإذا كان الرجل كسوبا عليه أن ينفق في الحلال والجهد بمقدار كسبه وطاقته ما دام ينفق في مطلوب، وما دام كسبه واسعا، ولقد قبل النبى ﷺ من أبى بكر كل موفور ماله لأنه تاجر كسوب، يعرف مواضع الكسب والخسارة، ولم يقبله من غيره، وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...﴾ [البقرة]، أى السهل اللين الذى لا يجهد ذا المال إنفاقه ولا يصعب عليه.

هذه أحوال إيجابية هى التى صورت شخصية عباد الرحمن والتى كونت فيهم الإيمان والعمل الصالح، والجمع بين سلامة القلب، واستقامة العمل، وتكوين الإنسان النافع، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك ما يتجنبونه لكيلا يكون ما يعوق هذه الأخلاق العالية، فقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ .

إن أولئك الأبرار الذين رضى الله سبحانه وتعالى أن يضيفهم إلى ذاته العلية، فقال وعباد الرحمن، قد اتصفوا بالكمالات البشرية فهم لا يستعلون على الناس، ويرفقون بهم، ولا يشاكسون بل تكون علاقتهم بالناس دائما أمنا وسلاما، وامتلات قلوبهم بالتقوى والخوف من العذاب، والذين قد اترنوا في حياتهم لا يسرفون ولا يقترون، أولئك قد اتصفوا بصفات، وهى ذاتها تحمل جزاء، فالكريم إذا اتصف بمعالى الصفات، كان جزاؤه هو هذه الصفات ذاتها، وهى نعم الجزاء، ولذا لم يذكر سبحانه وتعالى جزاءها، وإن كان لها الجزاء الأوفى .

وقد ذكر سبحانه ما اجتنبوه، وهو كبريات المساوى الإنسانية، كما أنهم تحلوا بأعلى المناهج الكمالية، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ .

وهذا أول معصية تحط من قدر الإنسان، وتنزل به إلى أكبر المهاوى الإنسانية ﴿يَدْعُونَ﴾ يعنى يعبدون، لأن العبادة دعاء لله تعالى وضراعة إليه، وتسليم كل أمورهم فى جنب الله، والدعاء مخ العبادة، كما قال ﷺ، والإنسان يهبط فى درجة الإنسانية إذا عبد غير الله، وأى كرامة إنسانية لمن يعبد حجرا لا يضر ولا ينفع، أو يعبد إنسانا مثله، أو يعبد ما يصوره وهمه كالملائكة يتصور أنها تعبد، أو نارا، أو غيرها، إن هذا انهواء إنسانى، ومن يعبد شيئا من هذا، إنما يعبد وهما تدفع إليه شهوة منحرفة، فقد اتخذ إلهه هواه .

هذا هو الانحراف الأول الذى تجنبه عباد الرحمن، أما الانحراف الثانى الذى تجنبوه فقد نفاه الله تعالى عنهم بقوله عز من قائل: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا وصف للعاصين، وهو المشاكسة التى تؤدى إلى القتل، فهذا مقابل للسلام فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الجار والمجرور متعلق ﴿لَا يَقْتُلُونَ﴾ الحق هو الأمر الثابت الذى يسوغ القتل من اعتداء أئيم، أو زنى أو ردة بعد إيمان، وهذا النص يفيد أن

الأصل فى النفوس الصيانة، وألا يعتدى عليه، ويحفظ أمنها، وأنه لا تستباح الأنفس، إلا بحق كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (٣٢) [المائدة].

والأمر الثالث الذى نفاه الله تعالى عن عباد الرحمن الاعتداء على النسل بالزنى، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾؛ لأن إشاعة الزنى تضعيع النسل، ولا تجعل الناس فى أمن ودعة، وتضعف الوحدة الإنسانية، ويكون الناس فى تناحر، وتنزل بالقيمة الإنسانية إلى دركة الحيوانية، ولقد قال محمد ﷺ: «وما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة فى رحم امرأة لا تحل له».

وقال ﷺ: «إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق، وتدع الخالق، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك، وينهاك أن تزنى بحليلة جارك».

وقد ذكر سبحانه وتعالى عقاب هذه المآثم التى هى أمهات الرذائل فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ الآثام جزاء الإثم وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أى أنه جزاء من نوع ما ارتكب، ولكنه جزاء كبير، وإطلاق الآثام بمعنى جزاء الإثم، وارد فى اللغة العربية، فقد جاء فى الكشف هذا البيت من الشعر:

جزى الله ابن عروة حيث أمسى عقوقا، والعقوق له أثم

وإن هذا الأثم شديد، حتى إنه ليحسب أنه مضاعف الإثم ليس مثله، ولذا قال تعالى فى بيان هذا الأثم وتوضيحه: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

إن الله تعالى عدل، يجازى السيئة بمثلها، ورحيم يجازى الحسنة بعشرة أمثالها، فكيف يجعل العقاب ضعف الذنب، أجاب عن ذلك صاحب الكشف بأن المضاعفة لأنه عقاب الشرك، وعقاب الذنب الذى ارتكب من قتل نفس وزنى، ونقول حيثئذ لا مضاعفة.

والذى يبدو لى - غير متناول على مقام الزمخشري - أن العذاب شديد

عنيف حتى إنه ليبدو لدى المعاقب، كأنه مضاعف للذنب، وإن المذنب دائما يحس بالجزاء كأنه أكثر من الذنب، فالله تعالى يصور له العقاب كأنه مضاعف، ولأنه يتجدد آنا بعد آن، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودا غيرها، فهو عذاب بعد عذاب، وبهذا التكرار الدائم يكون كأنه مضاعف.

وإنه عذاب دائم مستمر، ولذا قال تعالى: ﴿وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾، أى أنه مستمر مع مهانته الشديدة الواضحة الدائمة المستمرة، وكذلك يستبدل الله بخطرستهم الجاهلية، واعتزازهم الظالم العاتى مهانة دائمة مستمرة، وقد استثنى العادل الحكيم الذين يتوبون فى الدنيا، فقال:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

هذا الاستثناء من العذاب السابق ذكره فى الآية السابقة، وقد ذكر سبحانه وتعالى ثلاثة أمور تخرج الشخص من دركة الكفر والطغيان إلى درجة الإحسان واستحقاق الثواب.

وأول هذه الأمور- التوبة، وثانيها- الإيمان، وثالثها- العمل الصالح فقال:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

أما أولها: وهى التوبة فهى أعلى درجات الاعتذار عن العمل السيئ، وقد قال فى ذلك الراغب الأصفهاني فى مفرداته: «التوبة ترك الذنب على أكمل وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه، إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا أو فعلت وأساءت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتوبة فى الشرع ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمن اجتمعت له هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة».

ولا شك أن من تكون له هذه الإنابة يغسل قلبه من أدران الشر، ويرحض

عنه كل ما كان من المآثم التي ارتكبها في حال غيه، ولذلك يغفر الله ما قد سلف، ويتبدئ التائب صفحة جديدة تحل محل صفحة سوء، ويبدل مكان السيئات حسنات، ويقول الله تعالى في ذلك: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...﴾ (٣٨) [الأنفال].

هذا هو الأمر الأول، وهو الأساس للأميرين الآخرين، بل هو النور الهادي لهما، أما الأمر الثاني: فهو الإيمان بأن يتنقل من دركة المعصية إلى درجة الوحدانية، ومن دركة الكفر بمحمد والقرآن والعناد إلى درجة الإذعان للحق والإيمان به والجهد في سبيله.

وأما الأمر الثالث، فهو العمل الصالح، وقد قال تعالى: ﴿وَعَمِلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وإن ذلك العمل يؤكد الإيمان ويوثقه، لأن والعمل ثمرة الإيمان، أو هو جزء منه، كما أن ثمرة العلم العمل، والإيمان أعلى درجات العلم، إذ هو علم وتصديق وإذعان وتسليم، وقد أكد سبحانه وتعالى العلم فقال ﴿وَعَمِلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وذلك بذكر المصدر تأكيداً لمعنى العمل، وليكون ذلك العمل بعد الإيمان مقابلاً للعمل الذي كان في جاهليتهم، وليبين أنهم يعملون عمل عباد الرحمن، الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

وقد بين سبحانه وتعالى جزاء هذه المثوبة الكاملة، وذلك العمل الصالح، والإيمان الكامل فقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْعُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، أو ما هو في معنى الشرط؛ لأن الموصول في معنى الشرط، وأولئك إشارة إلى الذين كانت فيهم هذه الأحوال من توبة وإيمان وعمل صالح، والإشارة إلى الموصوف بصفات إشارة إلى هذه الصفات، وإلى أنها سبب الحكم، ولم تجد الحكم جزاء بالنعيم، وسيجيء ذلك من بعد، إنما الجزاء أن يبدل سيئاتهم حسنات، والتبديل هو التغيير، أي أنه سبحانه وتعالى يغير سيئاتهم، ويضع محلها حسنات، وإن ذلك بلا ريب واضح من التوبة؛ ذلك أن التوبة كما قررنا ترخص النفوس، وتزيل عنها أدرانها، وتجعلها مجلوة مصقولة، وصالحة لأن يحل محلها

الطهر والنقاء، والعمل الصالح المجدى، ألم تر إلى عمر بن الخطاب الذى مكث يكابر ويغلظ فى عناده، ويشتد على المؤمنين بضع سنين بعد البعث المحمدى، كيف تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، ألا تراه قد زالت مآثمه من قلبه وأحل الله تعالى محلها عملاً صالحاً، فَحَلَّتْ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ ذَاتَ الْأَثَرِ الْبَعِيدِ فِي الْإِسْلَامِ محل ما كان منه فى الجاهلية، ولذا قال سبحانه ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ فالتبديل على هذا هو تغيير ما كان فى النفس من أدران السيئات، وإحلال طيبات الأعمال والنيات محلها.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ هاتان صفتان من صفات الله تعالى أنه يغفر السيئات ويسترها، ويرحم عباده بهذا الغفران، وكذلك شأنه الأعلى، شأنه سبحانه يقرب عباده بالغفران والرحمة وفتح باب التوبة لمن أراد من عباده الصالحين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

فى هذا النص السامى يبين الله تعالى أن من يؤمن تائباً، ويعمل العمل الصالح ضارعاً، فإنه يعود إلى الله تعالى راضياً مرضياً، ويركن إلى الله تعالى، وحسبه أنه ركن إلى الله تعالى القوى القهار الغالب، يأمن بجانب الله تعالى شر كل مخلوق، ومتاب - أحسب أنه اسم مكان، أى أنه يعود إلى مكان التوبة وملجئها الحصين الذى لا يذل من يلجأ إليه، ويجعله حصنه الحصين، وركنه الركين، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ﴾ الفاء واقعة فى جواب الموصول؛ لأنه فى معنى الشرط كما ذكرنا، وإن ذلك هو الثمرة الكبرى للتوبة.

وقال سبحانه وتعالى فى الأحوال النافية لعباد الرحمن :

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

الزور: هو كل باطل مزور مزخرف بحيث يؤثر فى النفس مرآه، وهو زخرف باطل، ف سيدخل فى ذلك اللهو العابت والقول الماجن، والكذب والفحش

وفسوق القول، فعباد الله الرحمن الذين شرفوا بالانتساب إليه لا يحضرون هذا النوع من الباطل، لأنه من سوق الخطائين الذين تروج بضاعته بينهم، وبهذا تفسر الآية الآية، فلا يشهدون أى لا يحضرون، فهم لا يجلسون فى مجالس الزور من الأقوال والأفعال، بل تستغرقهم مجالس العبادة، ومجالس الجد والأفعال الحميدة التى تعود بالنفع على الناس، وتدرس فيها الحقائق الكونية والمصلحية، وتروى فيها السنة النبوية، وتعرف فيها معانى الذكر الحكيم، والقرب من رب العالمين.

هذا تفسير للنص القرآنى، ولقد قال الزمخشري فى هذا المعنى على أنه احتمالى: «يحتمل أنهم يتفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين، فلا يحضرونها، ولا يقربونها تحرزا عن مخالطة الشر وأهله صيانة لدينهم عما يثلمه، لأن مشاهدة الباطل شركة فيه، ولذا قيل فى النظارة إلى ما لا تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه فى الإثم، لأن حضورهم ونظرهم دليل على الرضا به، وسبب وجوده والزيادة فيه، لأن الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم فى النظر إليه، وفى مواعظ عيسى عليه السلام: «ياكم ومجالسة الخطائين» وهذا نظر حسن، واتجاه سليم فإنه من المقررات أن أول الشر استحسانه، وأول الباطل حضوره.

هذا احتمال فى معنى الآية وهو معنى حكيم سليم مرشد، وهو يليق بحال عباد الرحمن، وهناك احتمال آخر، وهو أنهم لا يشهدون شهادة الزور، ويكون الكلام على حذف مضاف، فمعنى ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أى لا يشهدون شهادة الزور وسميت الشهادة فى هذه الحال الزور؛ لأنها كذب، وهى تكون فى مجالس الظلم أو معاونة للظالم، أو معاونة على الظلم، ويصح لنا أن شهادة الزور التى يروج فيها الباطل، ويُتصر الظالم، وتؤكل أموال الناس بالباطل تكون داخلية فى شهادة الزور، وحضور مجالسه.

ويقال للكذب زور لأنه مائل بالنفس عن قول الحق، وكأن طبيعة النفس ألا تقول إلا صدقا، والكذب انحراف بها وميل عن الصراط المستقيم؛ لأن القلب

المخلص يتجه اتجاهها مستقيماً، ثم ينطق نطقاً مستقيماً، فينطق بالصدق، ثم يسير في خط الاستقامة إلى أقصى مداه، وهو خط الحكمة والفطرة الإنسانية.

ولقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ اللغو من الكلام ما لا يعتد به وهو الذى يورد من غير روية وفكر، ليجرى مجرى اللغا، وهو صوت الطير الذى يكون له معنى محدود، وكما يقصر اللغو على القول الذى لا يكون له قصد معقول يقره العقلاء، كذلك يطلق على الأفعال العابثة، والمقايح التى يلهو بها بعض الناس فى جلوسهم على المقاهى، وأهل اللغو من شأنهم أن يعيبوا غير المعيب، ويسخروا من أهل الفضل، ولا يجاريهم إلا من يكون على شاكلتهم فى الأفعال والأقوال، ويقطعون الساعات فى غير عبادة مقررة، ولا عمل نافع يقصد إليه، فعباد الرحمن لا يخوضون مع هؤلاء فى قول أو فعل، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أى مروا معرضين، كما يقول الله تعالى: ﴿وَأِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ... (٥٥)﴾ [القصص]، وكراما تدل أولاً: على أنهم ينكرونه بقلوبهم لا ينكرون ما يفعله أهله بألسنتهم، حتى لا يخوضوا معهم فى حديث يجرحهم إلى أن يجيء على مسامعهم رفث القول وفسوقه، وثانياً: يكتفون بالاستنكار السلبي، وذلك يفعل فى النفوس ما لا تفعله الأقوال، وهو موعظة واستنكار للأشخاص والأفعال، والأقوال، وثالثاً: ينصرف إلى نفسه، فيهربها عن اللغو، وذلك فى ذاته دعوة إلى الجد، والابتعاد عن العبث وانصراف إلى المجد.

وسماهم فى هذه الحال كراماً؛ لأن الكريم يعلو بنفسه عن مواضع العبث والهذر والسخف، يقال تكرم فلان عما يشينه، وأكرم نفسه عن القبح، وفى ذلك إشعار بأن الخوض فى العبث أو مشاركة أهله فيه هو مهانة كل المهانة، وحط كل الحطة.

ومن أحوال المؤمن السلبية، وإن جاء بشكل فيه مظهر إيجاب ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ .

ذكروا بآيات ربهم بأن تليت عليهم آياته إن كانت متلوة أو ذكروا بآية كونية في خلقه السموات والأرض، وإبداعه في خلق الإنسان ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ الخرور في اللغة يطلق على السقوط الذى يكون صوتا أو النزول من أعلى إلى أسفل نسبيا بصوت، كخرور الماء فإنه نزول من مكان يعلو نسبيا إلى ما دونه، والخرور قد يكون معنويا بالسجود لله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وإن خرور السجود حسي معنوى، فهو ينزل ساجدا لله تعالى فيلتقى فيه الخرور الحسى والخرور المعنوى.

ومعنى النص السامى أنهم إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ الله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ والصمم والعمى هنا يراد به عدم الاعتبار بالآيات، فكأنهم صم لم يسمعوا، أو عميان لم يروا، وهذه أخلاق المشركين فهم الذين يخرون كالصم والعمى لا يعتبرون ولا يدركون، وليس المراد وصف المشركين بهذا الوصف السلبي، فقط، بل إنه وصف المؤمنين عباد الرحمن بأنهم على نقیض وصف الظالمين يخرون سجدا وبكيا، فهم ليسوا كأخلاق هؤلاء لا يعتبرون، بل يعتبرون ويخرون لله فى كل آية يسمعونها، وفى كل عبرة يعتبرونها، وينظرون إلى خلق الله تعالى نظرة مدركة مستبصرة مستهدية طالبة الرشاد، فهذا النص يشتمل على نفى الحال التى يكون عليها المشركون، فهم لا يخرون صما وعميانا، بل يخرون ناظرين مدركين متفهمين، كقول العرب: مثلك لا يبخل، فالمراد به فى كلام العرب: أنت لا تبخل.

وهنا إشارة بيانية نذكرها، وهى أن الله تعالى يقول: لا يخرون صما وعميانا بنفى الخرور، وفى ذلك إشارة إلى أن الآيات التى تتلى أو توجه الأنظار فى المخلوقات من شأنها أن تجعل من يتأملها ويسمعها أن تجعله يخر خرورا لوضوح إعجازها ودلالاتها، لكن عباد الرحمن يخرون سجدا وبكيا، والكافرون يخرون صما وعميانا.

ذكر الله تعالى بعد ذلك وصفا يدل على إخلاص قلوبهم لمن يجيء بعدهم من ذرياتهم، إذ يريدون أن تمتد التقوى في أعقابهم من بعدهم، فيقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

هذا النص السامى يدل على أن أخلاق عباده أن يطلبوا الولد صالحا تقيا مؤمنا صادق الإيمان لا أن يطلبوا النعم؛ لأن عمارة هذا الوجود بالولد، ولذا طلبوا هبته، ولم يطلبوا الحرمان، كما يطلب فجرة هذا الزمان المشثوم، كرر طلب الولد الصلبى فى قوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾؛ لأن الولد المنسوب إلى الأزواج وهو جمع زوج هو الولد الصلبى، وأما الولد من الذرية فهو من بعد الولد الصلبى، والذرية الأولاد من الظهور كالابن وابن الابن وبنت الابن، وذلك على اصطلاح الفقهاء، وهو مشتق من اللغة، ونرى أن النص يومئ إلى أنه من يكون من دمه، سواء أكان من أولاد الظهور، أم من أولاد البطون، ومهما يكن الخلاف فى هذا فإنه لا جدوى فيه من موضوعنا لأنه إن اقتصر فى ناحية على أولاد الظهور، فمن ناحية أخرى يطلب غيره من يكون من أولاد الظهور له، وتعم الدعوة السلالات أجمعين إذا خلصت كل النفوس، وكانوا عباد الرحمن.

كان طلب عباد الله الصالحين، أن تكون لهم أعقاب صالحة، عبروا عنها فى دعوتهم بقوله ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ القررة من القرار وهو الاستقرار والثبات، ويقول الأصفيهانى فى مفرداته: إن الأصل فيه أنه من القر بضم الراء وهو البرد؛ لأن العين فى حال تستقر، وتهدأ، إذ كانوا يرهبون الحر، لأنه عندهم يكون شديدا، وقالوا برد المتقين وغيرهم يقول حرار الإيمان، والمفهوم من قررة العين أن تكون مطمئنة بذكر الله وأن يكونوا فى سكينة الإيمان، وقرار العين مظهر من مظاهر سكون النفس، واطمئنان الفؤاد.

وقالوا فى دعائهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أى اجعلنا معشر عباد الرحمن -

إماما - أى يقتدى بنا ونتبع فى الهداية والتوفيق، وإمام معناها أئمة؛ لأن إمام مصدر يوصف به الواحد والجمع والذكر والأنثى.

ولقد بين سبحانه وتعالى جزاء من يكونون فى هذه الأحوال الموجبة والسالبة، والمشبهة، فقال عز من قائل:

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

يقول المفسرون الذين يتجهون إلى الإعراب ابتداء إن قوله أولئك ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ...﴾ خبر لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، وما يليها من صفات وأحوال، وأنا أقول، إن قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هو مبتدأ وخبره، وما جاء بعد ذلك من معطوفات على الخبر، والمؤدى واحد، فليس الاختلاف اختلافا فى المعنى، إنما اختلاف فى الإعراب.

والإشارة هنا إلى أصحاب هذه الأحوال والصفات، ومن المعروف أن الإشارة إلى الموصوف تومئ إلى أن هذه الأوصاف سبب الحكم، وهو هنا الجزاء فهذه الصفات سبب ذلك الجزاء، وقد قال القرطبي فى عبارة جامعة لهذه الصفات: «وأوصافهم من التخلّى، وصفات التخلّى هى إحدى عشرة، التواضع والحلم، والتهجد والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهاال إلى الله تعالى».

والغرفة تطلق على عليّة البيت، واستعيرت للجنة أو لعلية الجنة أى أعلى مكان فيها؛ لأن هذه الصفات رفعتهم إلى أعلى درجات الإنسانية، فاستحقوا أعلى جزاء وهو الجنة أو أعلاها.

وإنهم يجدون فى الجنة التى تسنموا أعلاها، وكانوا فى الذروة الترحاب والأنس والكمال ويجدون مع هذا كله الأمن والسلام والاطمئنان والقرار، ولذا قال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ لقى هى مضعف لقى أى يلقون فى قوة

راحمة تحية طيبة، وهى اللقاء الطيب، مع الأئس والاحترام والإقبال، كما قال تعالى: ﴿.. وَلَقَاهُمْ نَصْرُهُ وَرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان]، والسلام الأمن والاطمئنان، فلا يزعجون بشيء مما يزعج به أهل الدنيا، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد].

وهنا إشارة بيانية فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾، أى أن هذا الجزاء الموفور الذى هو أعلى درجات الجنة بما صبروا، أى بسبب صبرهم وذكر ذلك تصويراً لصبرهم الدائم المستمر؛ وذلك لأن هذه الطاعات تحتاج إلى إرادة قوية صابرة، فإنها قمع لشهوات التعالى فى الدنيا، والغطسة والسلطان، وغيرها من الغرائز الإنسانية، فقد قمعوا هذه الغرائز وشذبوها، وجعلوها فى ناحية الخير لا تعدوها.

وإن الله سبحانه وتعالى كَمَّلَ هذه النعمة بدوامها، وبقائها، وخلودهم فيها فقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إذ النعم ينقصها فناؤها، وهذه نعمة كاملة لا تنفى ويخلد فيها أصحابها، وكما قال سبحانه وتعالى فى عذاب جهنم ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ قال فى هذه ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، أى هذه الغرفة العالية فى الجنة نعم هى مستقرا فيها حين يستقرون ونعم هى مقام طيب خالد.

قال تعالى مخاطبا الخارجين عن طاعته، وفيه التفات من عباد الرحمن إلى المشركين:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

الخطاب للنبي ﷺ ليوجه إلى المشركين خطاب الله تعالى، وقد أمر النبي ﷺ بأن يخاطبهم بهذا الخطاب؛ لأنه نبيهم المرسل؛ ولأنهم يعاندونه ويتحدونه، ويكفرون، فأمره سبحانه بأن يذكر لهم أن الله تعالى لا يبالى بهم، ولا يهتم لهم لولا تصحيح اعتقادهم.

وما نافية، ومعنى ما يعبأ لا يبالي، ولا يحمل عبثكم لولا دعاؤكم، أى لولا عبادتكم عبادة صحيحة تؤمنون فيها بالواحد، فالدعاء هنا العبادة، ودعاء الله عبادته، أى أنه سبحانه لا يهتم بكم إلا لأجل تصحيح عبادتكم، ويصح أن يقال إن الدعاء هنا هو دعوتهم إلى العبادة الصحيحة والمؤدى واحد، وفى الأول يكون «دعاؤكم» الدعاء منهم لله تعالى، وفى الثانى يكون الدعاء من الله ورسوله إليهم ليعبدوه سبحانه وتعالى.

وجعل بعضهم اللفظ يحتمل هذا المعنى لولا دعاؤكم الأوثان وعبادتهم، وذلك ضلال فى عقولكم، وأفن فى أنفسكم، والله لا يرضى لعباده هذا الضلال، ونحسب أن التخريج بعيد فى تأويله وتفسيره.

وقال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ الفاء للسببية، أى لا يبالي سبحانه بكم لولا أنه يدعوكم بالحق، وبسبب تكذيبكم لا يعبأ بكم لا يبالي ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ الفاء عاطفة وسوف لتأكيد الوقوع فى المستقبل، والزام مصدر لازم، فمصدر فاعل فعال ومفاعلة، وهو ملازمة العذاب لهم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩) ﴿طه﴾.

ومعنى النص فى الآية الكريمة السامية لا يبالي بكم ربكم لولا دعاؤكم أن نعبدوا الله وحده، ولكن كذبتهم دعوة الحق وأصررتهم على تكذيبكم، فسوف يكون العذاب ملازماً لكم وتكونون خالدين فيه .

سورة الشعراء

تمهيد:

هي سورة مكية نزلت بمكة إلا آية ١٩٥ ، وآية ٢٢١ ، وعدد آياتها ٢٢٧ ، وسميت الشعراء ؛ لأن في آخرها قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ (٢٢٤) .

وسورة الشعراء أكثرها خصص للنبيين ، والعبرة فيهم .

ابتدأت السورة بالحروف المتقطعة التي لا يعلمها إلا الله ، ثم ذكرت حرص النبي ﷺ على إيمان المشركين من قريش ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) وإن الله تعالى خالقهم قدر لهم ما هم ، فلن تغير ﴿ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٤) ، وقد وصف سبحانه وتعالى حالهم فقال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ (٥) فقد كذبوا قبل أن يأتيتهم أنباء ما كانوا به يستهزون ، وقد نبههم سبحانه إلى أنهم كذبوا والآيات تخبرهم بإبداع الخالق ووحدانيته ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٨ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٩ ﴾ .

وقد ذكرهم سبحانه بالذين كانوا أقوى منهم سلطاناً ، وابتداً بذكر فرعون ، ويلاحظ هنا أنه سبحانه لم يكرر ما ذكر في خبر هذا الموضع من أنباء موسى وفرعون ، إلا ما يقتضيه السياق عما ذكر في غيره ، فهنا ذكر ما كان بين فرعون وموسى في مرباه في بيته ، ولم يذكر من قبل ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿ ١١ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿ ١٢ ﴾ وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿ ١٣ ﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿ ١٤ ﴾ قَالَ كَلَّا فَادْخُلْ بَايَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿ ١٥ ﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ١٦ ﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ ١٧ ﴾ .

هنا يتدئ ذكر تربية موسى ، ولم يذكر من قبل : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ، هنا يعترف الرسول بفعله ، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ، أخذ فرعون يسأل عن رب العالمين ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ، فأجاب موسى ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ هنا يرميه بالجنون كما قالت قريش ولكن موسى يصبر على التعريف بربه فيقول : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وعند ذلك يهدد فرعون موسى بسجنه إِنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَهُ ﴿ قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴿٣٣﴾ بهره الأمر ، ولكنه لم يدعن ، وظن أنه سحر ، وقال ﴿ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٤) ، ولم يكن غريبا ذلك ، لأن السحرة كانوا علماءهم ، والتفت إلى أصحابه والملا حول ، ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ وكأنه كان يتردد في جمع الناس ، حتى لا يؤثر فيهم ما يأتي به موسى ، اجتمعوا والسحرة وطلب السحرة أجرا على ما يفعلون إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فوعدم بالأجر ، وأكثر من الأجر ، وهو أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ ، لكن السحرة ، خيبوا ظنه ، وآمنوا برب موسى وهارون ، فقال : ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٩) ، قالوا وقد ملا الإيمان قلوبهم ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (٥٠) .

احتدم الخلاف ، موسى يدعو إلى ربه ، وفرعون يعذب ، فأوحى الله تعالى : ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ ، وأرسل فرعون يستنصر بقومه الذين لم يعاينوا خذلانه ، وشهادة السحرة عليه ﴿ إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ (٥١) وَإِنَّهُمْ لَنَا

لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴿ وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ ، وَأَنْجَى اللَّهُ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَغْرَقَ الْآخَرِينَ .

بعد هذه الأجزاء من قصة موسى وفرعون، والمتأمل فيها يجد أنها ليست مكررة إلا بما يقتضى المقام ذكره، وما يذكر يجد المتأمل فيه نوع اختلاف وتوجيه، لم يذكر فى غير هذا الموضع، وكل كلام الله تعالى له حلاوة، وعليه طلاوة.

وجاء من بعد ذلك قصص أبى الأنبياء إبراهيم، وفيه يتدنى إبراهيم باستنكار عبادة الأوثان، ويبين لقومه أنها لا تصلح أن تكون معبودا، لأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٧) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٨) ﴾ ويردون قوله بأنهم وجدوا آباءهم يفعلون، فينذر بهم إبراهيم ويقول إنهم عدو لى إلا رب العالمين، ويصف ربه تعالى، وأفعاله فيقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرَضْتُ هُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ .

ويتجه من بعد إلى ربه يدعو ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْخَفِيَّ بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفِرْ لِأَيُّبَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾ ثم بين سبحانه وتعالى ما يكون يوم القيامة عندما يلتقى الكافرون وما يعبدون من دون الله : ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٢) فَكُيِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

بعد ذلك أشار إلى قصص نوح وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾، وقد اتبعه الضعفاء فقالوا: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِمَا نَبُوءُ بِكَ وَنَحْنُ نَكُونُ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ثم أشار سبحانه إلى عاد ورسولهم هود، وقد دعاهم كما دعا نوح، وكذبوه كما كذب قوم نوح، فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾، قالوا ملحين في الكفر، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك قصة ثمود وبنبيهم صالح، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ (١٤٦) فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)﴾.

ثم يذكر سبحانه مشيراً إلى قصة نبي الله لوط، وقومه الفاسقين فقد نصحهم وأرشدهم إلى عيبتهم الفاسق الفاجر، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وقد لجوا في طغيانهم يعمهون ﴿قَالُوا لَنْ نَمُوتَ أَبَدًا يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ولقد ذكر بعد ذلك قصة شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة قال لهم شعيب ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٦) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ نَمُوتَ أَبَدًا يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وبعد هذا البيان القصصى الذى فيه عبرة ببيان أحوال من سبقوهم من أهل الكفر وتشابه أقوالهم، ذكر سبحانه القرآن الحجة الكبرى، والمعجزة الخالدة المستمرة إعجازها فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، ثم بين سبحانه أن العذاب يجيئهم من حيث لا يشعرون، ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٢)﴾، ثم يذكر سبحانه أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ (٢٠٧)﴾.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد إنذارها فقال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾.

ويدعو الله تعالى نبيه ومن معه، ومن أرسل إليهم، فيقول: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٢) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وبين سبحانه وتعالى من تنزل عليه الشياطين، ﴿تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ وبين بعد ذلك أنه بمنأى عن الشعراء والشعراء، فقال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَلِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾.

معاني السورة

القرآن مبين، والنبي منذر ومبشر

قال الله تعالى :

طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ
 أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن شَأْنُنَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ
 أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ
 إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
 كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿طسّم﴾ هذه حروف ابتدأت بها السورة، وقد ذكر أن معناها على الحقيقة لا نعلمها، بل اختص بها علم الله تعالى والله بكل شيء عليم، وقد نعرف حكمتها على قدر طاقتنا، وهي الإشارة إلى أن القرآن مكون من الحروف التي تنطقون بها، ولكنكم تعجزون عن أن تأتوا بمثله؛ لأنه من عند الله، ولأن النبي ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، فهو يعرف الكلمات ولا يعرف الحروف، فذكرها في القرآن دليل على أنه ليس من عند ذلك الأمي إنما هو من العالم بكل شيء الذي لا يغيب عن علمه شيء في السماء ولا في الأرض، ولأن كبار المشركين قالوا فيما بينهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، فإذا ابتدأت السورة بهذه الحروف الصوتية استراحهم صوتها، فجاءوا متلهفين للاستماع، ويذهب عنهم ما اتفقوا.

ولذا كانت أكثر السور المفتحة بهذه الأحرف، يعقبها ذكر القرآن، وهنا جاء بعد هذه الحروف الصوتية قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾.

- الإشارة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ للسورة أو آيات مضافة إلى الكتاب، والإضافة بمعنى (من) أى آيات من الكتاب، وأضيفت إلى الكتاب كأنها كل الكتاب؛ لأن كل آية من الكتاب فيها خصائصه من إعجاز، وبيان وروعة، وكانت الإشارة ﴿بتلك﴾ التى تدل على البعد لعلو منزلتها، وارتفاع قدرها، وسمو مكانها، و﴿المبين﴾ معناها البين فى ذاته والمبين للسرائع والتوحيد، وهداية البشر، وما من شيء يتعلق بالإيمان وشرائعه إلا بينه، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فهذا الكتاب أو بعضه واضح الدلالة على أنه من عند الله تعالى بإعجازه، ولقد كان محمد الصدوق طول حياته حتى إنه ما عرفت له كذبة قط، وهو الشفيق على قومه حريص على أن يؤمنوا به، حتى لا تفوته فضيلة التصديق، ولا يفوتهم خير الإيمان، ولذا قال تعالى:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢)﴾.

البخع قطع خيط العنق، أى إصابة النخاع الشوكى الذى يسير فى فقرات العنق، فإن ذلك نهاية الفرج ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الضمير المنسبك من أن وما بعدها فاعل باخع، أى يبخلك ويقتلك ألا يكونوا مؤمنين، وهذا كقوله تعالى فى أول سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ وقلنا إن فاعل: باخع هو ألا يكونوا مؤمنين، بعدا عن التأويل، لأن ما لا يحتاج إلى التأويل أولى بالأخذ مما يحتاج إلى تأويل، ولأن التأويلات فيها بعد، وفيها خروج عن معنى الآية الظاهر.

وقوله: ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى أن بخع نفس الرسول ﷺ؛ لأنهم لم يكونوا مؤمنين أى لم يؤمنوا، والضمير كينونتهم أنهم من المؤمنين، فيكونوا قوة، وهم أقرب الناس إليه، وهو عليهم شفيق.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الله أراد أن يكونوا مختارين فى إيمانهم، فيؤمنوا بعد الموازنة بين حالهم، وما يدعوهم إليه النبي، فيكون التكليف بعد الاختيار والموازنة، ويكون الجزاء على الإيمان، والجزاء على الامتناع.

قال عز من قائل: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ .

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ ، أى معجزة من السماء قاهرة تقسرهـم على الإيمان قسرا بحيث لا يكون لديهم احتمال التكذيب أو الرد، أو التفكير، فيؤمنوا مقهورين مقسورين، غير مفكرين، وما كانت مثل هذه الآية من عند بعث أى رسول، بل كانت عقابا عاجلا فى الدنيا على كفرهم على الاختيار، وبها ينتهى أمرهم وجدلهم.

والتعليق - بأن - يومئ إلى أن الله لا يغفل جلّت قدرته؛ لأنه سبحانه كما تدل أعماله، يريد التكليف لا مجرد الامتناع عن الشر والعصيان.

وقال سبحانه ما يدل على أن الآية التى لو شاء لأنزلها قاهرة مانعة من المخانعة، ولذا قال (عليهم) الدالة بكلمة (على) على القهر والقسرة، وذلك غير ما أودعه الله الإنسان من علم وفكر أراد له به الخلافة فى الأرض، وفضله على الخلق أجمعين، حتى على الملائكة، إن استقام وسار على الجادة.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ، أى فظلوا واستمروا لها خاضعين، وعبر عن خضوعهم بالأعناق على سبيل المجاز المرسل، إذ عبر باسم الجزء عن الكل، لأن لهذا الجزء مزية فى هذا المقام عن بقية الأجزاء ، إذ هو مظهر الخضوع والخنوع، وللإشارة إلى أن استكبار الكافرين هو الذى منعهم من الإيمان فعبر بهذا للدلالة على أنهم يخضعون ولأن العنق يعبر به عن الكبرياء المتجبرين، فيقال عنق القوم أى كبارهم المسيطرون أو المتغطرسون، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ . وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ . وعبر بخاضعين التى هى وصف العقلاء بدل خاضعات التى هى مقتضى السياق للدلالة على أن المقصود من ذلك هو الأشخاص.

ومما يجب التنبيه إليه أنه عبر بالماضى فى معنى المضارع للدلالة على تأكيد خضوعهم وأنهم يظلون خاضعين غير متمردين، ولكنه أراد الاختيار تكريما لبني آدم فى الأرض كما أراد أن يجعله خليفة.

وقد بين سبحانه وتعالى تلقى المشركين للقرآن، فقال عز من قائل:

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۖ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۚ﴾.

- الذكر هنا ليس القرآن كله، إنما هو بعض ما ينزل من مواعظ مذكرة، وقصص وأحكام تذكر، وعبر بلفظ، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ﴾ على أن ذلك قريب محدث مجرد لمعنى التذكر والتفكر لمن هو أهل لذلك، إلا كانت حالهم حال إعراض، فالاستثناء من أعم الأحوال، والجملة بعد (إلا) منصوبة فى معناها على الحال. وإن هذا الذكر من الرحمة بهم؛ لأن التذكير رحمة، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى من الله تعالى الذى هو مصدر الرحمة، والذى لا يكون منه إلا ما هو رحمة، فهم يعرضون عن الذكر وهو رحمة بهم، فكل شيء منه رحمة جزاؤه رحمة، وعقابه رحمة، ومواعظه وشرائعه رحمة، و(من) فى قوله تعالى: ﴿مِّنْ ذِكْرٍ﴾ لبيان عموم الاستغراق، ومن الثانية للابتداء وبيان من صدر عنه التذكير الذى هو رحمة للعباد، وكانوا دالة على استمرارهم فى الإعراض كانه شأن من شئونهم، وحال دائمة من أحوالهم، وتقديم ﴿عَنْهُ﴾ عن متعلقها، وهى (معرضون) لأن التقديم يفيد معنى الاختصاص، أى كأنهم لا يعرضون إلا عن الحق، ومن فساد نفوسهم لا يعرضون عن باطل، بل لا يعرضون إلا عن الحق لأنه يلائم فساد نفوسهم، وضلال تفكيرهم.

وقال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فإنه يترتب على هذا الإعراض التكذيب، أى بسبب ذلك الإعراض قد كذبوا الحق لما جاءهم، وبسبب ذلك سيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر العظيم الشأن الذى يؤثر فى شأنهم، وإن المواعظ، والذكر الحكيم كان فيه إنذار بما يقع لهم فى العاجلة والآجلة، ففى العاجلة يجعل الله

كلمة الذين كفروا السفلي، وكلمة الحق هي العليا بتوالى هزائم الشرك حتى تظهر منه أرض العرب، وفي الآخرة بعذاب الجحيم، ولذا قال تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الفاء كما أشرنا لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها والسبب لتأكيد الوقوع في المستقبل، والأنباء هنا الوقائع التي أنبأ عنها القرآن الكريم، والنبى الحكيم، فهم يرون هذه الأخبار وقائع تقرر حسهم، وتنبه غافلهم، وتوجه اليقظ إلى الحق الصريح الواضح البين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ توبيخ لهم على استهزائهم، وقد كان له هذه الوقائع القارعة، وتقديم الجار والمجرور على يستهزئون فيه اختصاص نسبي، أى لا يستهزئون إلا بالحق، وقلوبهم معرضة، ونفوسهم مصروفة عن الحق إلى الباطل، فلا يستهزئون له، وهذا تصوير نفسى لانحرافهم عن الجادة، والتواء تفكير، حتى لا يكون منهم إلا الباطل وتأنيده، ونصرتة.

وإن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) ﴿[الأنعام].

مع لجأجتهم فى الكفر والتكذيب والاستهزاء يذكرهم تعالى بنعمه عليهم بإيجاز فيقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴿.

- الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى التوبيخ، والواو عاطفة على فعل محذوف تقديره فى القول افعلوا ذلك، ولم ينظروا، وهذا توبيخ على فعلهم؛ لأنهم استهزءوا بالحق، ونعم الله تحوطهم وتستغرقهم ﴿يَرَوْا﴾ معناه يرون، ولكنها هنا نظرة تأملية متبعة وليست نظرة عاجلة خاضعة، بل ترجع البصر حيناً بعد حين؛ ولذا كانت التعديدية للدلالة على التتبع متبصرين إلى الأرض كيف ينبت

فيها النبات، ويستغلظ سوقه، ويقوى عوده حتى يصير طعاما فى ذاته أو حبا متراكبا، وهكذا، ولذا قال تعالى: ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ كم- هنا هى الخبر الدال على الكثرة، وموضعها فى الإعراب النصب أى كثيرا ما أنبتنا فيها ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ من بيانية، أى أنبتنا من زوج أى شيئين متقابلين فى اللون أو الذكورة والأنوثة، وغير ذلك من كل شيئين متقابلين فى الألوان والطعوم، وكريم- أى كثير المنافع فى الأكل والملبس، والمأوى، وإن هذه الجملة السامية فيها من دلائل الإعجاز بإيجاز القصر، الذى تكثر فيه المعانى مع قلة الألفاظ، فهذه الجملة شملت كل ما فى معانى الإنبات، وثماره من زرع وغراس نخيل وعنب، وفواكه من كل ما تشمله الألفاظ، وتراه الأعين.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ الإشارة إلى الإنبات، أى إن فى ذلك لآية، أى لعلامة تدل على قدرة القادر، ونراها كل يوم فى حياتنا الخاصة والعامة، وهى حولنا تنبتنا بالعلم الخبير، القادر على كل شيء، فحولنا السنخيل والأعنان، وحولنا الحب المتراكب، والزرور والحشائش التى تأكل منها أنعامنا، وتدر علينا الدر الوفير، ولكن مع هذه الآية الباهرة والدلائل القاهرة أكثرهم لا يؤمنون، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (كان) هى الدالة على الاستمرار، أى وقد استمر أكثرهم غير مؤمنين؛ لأنهم لم تدرك عقولهم، ولم يتدبروا ولم يتفكروا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

الواو عاطفة على ما ذكر من آيات بينات. والتعبير بربك للإشارة إلى معانى الخلق والربوبية والكلاءة والحفظ والرعاية والقيام على الحياة والأحياء، لأنه الحى القيوم (لهو) اللام لام التوكيد، (العزیز) أى الغالب (الرحيم) المتصف بصفة الرحمة الدائم، فهو رحيم بهذا الخلق والتكوين، ورحيم بهذه الرسائل التى أرسلها على أيدى الرسل، ورحيم بالبعث والنشور، ورحيم بكل ما ورد به الرسل من معجزات دالة على رسالاتهم، ورحيم بالعقاب والثواب، لأن ذلك حمل على الخير، وجزاء عليه.

من قصة موسى عليه السلام

قال تعالى :

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتَيْتَ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ
كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِيئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾
قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَانَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣١﴾ فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعِيدهُ
 فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ
 عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّائِنِ خَشِيرِينَ
 ﴿٣٦﴾ يَا قُوتُكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ
 لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
 لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 قَالُوا الْفِرْعَوْنَ أَينَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنِ كُنْتُمْ إِلَّا لَمِنَ الْمُفْرِّقِينَ ﴿٤٢﴾

هذه قصة موسى وفرعون، والمقالة التي جرت بين موسى الكليم، وفرعون
 الجبار العنيد، وإن فيها جزءاً لم يذكر في قصة موسى وهارون، وهي المجاورة
 التي كانت بين كليم الله ومربيه حتى بلغ رشده، وفيها عتّب المربي ودفاع من
 تربى ومجاوبته بالحق القوي الصريح، وجاء ما هو مذكور في غير هذا الموضع من
 قصة العصا، ثم قصة النجاة، التي سنذكرها في موضعها فيما يلي، وإن ذكر
 التربية هو الذي اختصت به القصة، وجاء ذكر المعجزة، وأعمال السحرة تابعاً،
 ولا يعد ذلك تكراراً لأصل القصة، إن كان طاغوت فرعون يذكر فيما تشبه
 التكرار تنبيهاً على الظلم والطغيان، كما يكرر ذكر طلب التوحيد، والنهي عن
 الشرك.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾﴾.

الواو عاطفة هذا الكلام على ما سبقه، أو دالة على الاستئناف و﴿إِذْ﴾ متعلقة بمحذوف، تقديره اذكر، أى اذكر لقومك قصة موسى، والتعبير بربك إشارة إلى أنه الكالى الحامى المدير القيوم على كل شيء، أن- حرف تفسير للنداء، نداء الله تعالى جلت قدرته، فالنداء ﴿ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وصفوا بالظلم؛ لأنهم هم الذين مكثوا فرعون من ظلمه، فكانوا ظالمين؛ لأنهم الذين أقاموه، وأيدوه، وطأعوه، ومهدوا، وصاروا آلة طيعة لتنفيذ مظالمه، وإنه لا يسأل العامة عن ظلم الخاصة، حتى يروا الظلم فلا يستنكروه، وكذلك كان أهل مصر، وعبر عنهم بقوم فرعون لأنهم كانوا له تبعاً، وقد فنى وجودهم فى وجوده، ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ هذه جملة مستأنفة دالة على أنهم لم يتقوا، وأفرطوا فى اتباع فرعون، وكان إسرافهم على أنفسهم، إذ إنهم لما لم يستنكروا أوغل هو فى الطغيان بمقدار إسرافهم فى الخضوع، فرد الطغاة وقاية للأنفس، واتقاء لله، و﴿أَلَا﴾ دالة على التحريض والحث على التقوى، وهنا التفات من الخطاب إلى الغيبة، للدلالة على الغضب عليهم، وهناك قراءة بالخطاب ألا تتقون، ويكون النص محرضاً لهم على التقوى.

وإن ذلك النص بعد فوات قرون، فيكون معناه أنهم كانوا فى حال كان يجب أن يحرضوا فيها على التقوى، وأن موسى عليه السلام حرضهم عليها، ولم يتركهم لأنفسهم، وفى ذلك إشارة إلى أنه يجب أن يقمع كبراء قريش، وألا يستسلم الناس لهم، ويخنعوا لعبادة الأوثان.

وهناك قراءة بكسر نون ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وتكون منية عن ياء المتكلم، أى ألا تتقون الله رب العالمين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

هذا جواب موسى لربه ، وقد فصلت هذه الجملة لأنها جواب عن سؤال مقدر ، وكيف أجاب موسى ، وصدر كلامه بالنداء لربه ، للدلالة على شعوره بأنه في كلاءته ، وأنه سيعمل في رعايته وحمايته ، ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ بكسر النون للإشعار بأن ياء المتكلم محذوف ، والخوف هنا لا يتضمن معنى النكوص عن الاستجابة لربه ، إنما يتضمن معنى تقدير الموقف وإرادة الاستعداد ، والشعور بعظم المهمة التي كلفه الله تعالى إياها ، وإنها تحتاج إلى جمع كل ما عنده من قوة ، وقد أحس بموضع الضعف فيه ، وهو البيان مع توقع الضيق والخرج ، ولذا قال : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ (١٣) .

ضيق الصدر هو من التكذيب والمباهة في قوة من فرعون ، وطغيانه ، فيكون في شدة من هجوم الباطل المؤزر بالطغيان الفرعوني ، مع حبة اللسان فلا يستطيع رد إنكار أولئك الكاذبين المكذبين المزودين بطغيان عظيم ، ولذا استغاث بربه قائلاً : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ والفاء لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها ، أي فإنه يترتب على هذه الحال التي أكون عليها أن أطلب إليك أن ترسل إلى أخى هارون بأن تجعل له رسالة معي ، و(إلى) تدل على أن النهاية أن يكون رسولا معي ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي زَوْجًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) .

أجاب الله تعالى طلب موسى عليه السلام ، وقال في آية أخرى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ (٣٦) ولكن موسى عليه السلام ذكر أن له عندهم ذنبا ، وأنه يخاف أن يقتلوه فقال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ والنون مكسورة منيية عن ياء متكلم محذوفة ، والذنب ليس إثما ذاتيا ، إنما هو ذنب عندهم ، فهو ذنب لهم ، قد قدر موسى الكليم أن يشطوا عليه ويقتلوه ، وذلك الذنب أنه قتل واحدا من المصريين ، لاعتدائه على إسرائيلى من قومه ، وقد قال تعالى فى ذلك فى سورة القصص ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ

هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴿

هذا هو الذنب، وستكلم في مقدار كونه ذنباً عندما نتكلم على هذا في سورة القصص قريباً إن شاء الله تعالى.

أجابهما الله تعالى على طلب هارون، وعلى بث روح العمل، ودفع الخوف، فقال:

﴿كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ﴿١٥﴾

كلا- حرف للرد مع ردع، أو قوة في الرد، والفاء للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، أي إذا كان ذلك ما تخاف فادها، والخطاب بالثنية دليل على أنه أجيب سؤله بالنسبة لهارون ﴿فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ أي محملين بالآيات التي تدل على الرسالة، فإنه إذا كان قويا بسلطانه، فأنتما قويان بالحق الثابت بالآيات الباهرة القاهرة التي لا يمارى فيها إلا أثيم، ثم طمأنهما على أنه لا يؤذيهما، فقال: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى نصرتهما بثلاث مؤكدات أولها - إن الدالة على التوكيد، والثاني المعية، في الله معهما، ومن كان الله معه لا يغلب ولا يرهب أبداً، والثالثة أنه مستمع لما يجري مرتب عليه ما يستحقه أهل الطغيان، وهذا كقوله في سورة طه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴿

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن المترتب على الأمر بالذهاب أن يأتيه ويخاطبهما بأنهما رسول رب العالمين، وأفردت رسالتهما بالتعبير برسول رب العالمين للإشارة إلى أن الرسالة التي أرسلها بها واحدة، وأنهما كرسول واحد، وأن موسى يتلقى أمر ربه ويعاونه هارون في التوضيح والتبيين، فهما رسولان لرسالة واحدة، وقد ذكر أنهما رسولان في سورة طه، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]

على أساس أنهما رسولان، وإن كانت الرسالة واحدة، وأسندت إلى رب العالمين أى ربك ورب آبائك الأولين، ورب الناس أجمعين، فهو خطاب يوجب الخضوع لله تعالى من فرعون طاغية الأرض، ومن معه من قومه الذين يماثلونه، ويشجعونه.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أن هنا تفسيرية، أى أن تفسير القول هو هم أرسل معنا بنى إسرائيل، ويلاحظ هنا أن الرسالة ليست لبنى إسرائيل خاصة؛ إنما هى دعوة إلى التوحيد، ورفع الظلم، وابتدئ بنى إسرائيل، لأن ظلمهم صارخ، إذ هو يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم.

هذا الكلام الذى سبق كله كان أمر الله تعالى لموسى، وكان كلام موسى وهارون لفرعون، فبماذا أجاب فرعون؟

﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَيتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢).

ابتدأ الكلام بعتب، واتهام بكفر النعمة، أو كفره بالوهيته، قال فرعون ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا﴾ الاستفهام إنكارى بمعنى النفي. والمعنى: لقد ربيناك فينا، أى فى وسطنا مكرما فينا عزيزا، أى خلطناك بأنفسنا خلطا وكأنك منا، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أى أقمت فينا مختلطا بنا سنين، الظاهر أنه بقى فيهم حتى بلغ الرشد، وصار شابا سويا، يدبر أموره، ويعرف غاياته، ومقام رب العالمين، وخصوصا أن جزءا من التربية كان مع أمه، كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ ويقال إنه مكث فى بيت فرعون إلى أن بلغ ثلاثين سنة، والراجح عندنا أنه مكث حتى صار رجلا سويا، بدليل ما آناه الله من قوة عندما استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه.

ثم ذكر بعد المودة المقربة، ما فيه لوم له ﴿وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكَ﴾ قرئت بفتح الفاء فى فعلتك وكسرهما، وعلى الفتح تكون للمرة وعلى الكسر تكون للهيئة،

والمعنى فى كلتا القراءتين القتلة التى قام بها الرجل القبطى، إذ استغاثه الذى من شيعته، قال فرعون: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أى الكافرين بالوحيته، وبأنه لم يكن ليدعن له كما يدعن الذين يعدونه إلها، ويقول لهم ليس لكم من إله غيري، وقال بعض المفسرين: المراد كفر النعمة، ولا نحسب أن فرعون يرى من كفر نعمته قتل واحد من الرعايا، ولو كان ذا صلة به كخادم أو نحوه، فموسى فيما أحسب كان أقرب إليه من كل الخدم، إذ امرأة فرعون قد اتخذته لها وله ولدا.

لم ينكر نبي الله تعالى أنه فعلها كما وصف، ولكن أنكر أنه ملوم لكفره به، فقال:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

فعلتها إذ ذاك وأنا من الضالين، ضللا بريئا، والضلال البرئ يكون بالجهل والنسيان والبعد عن التأنى والصبر، وأخذ الأمور، والاكتفاء فى الدفاع عن الحق بأقل الأضرار التى ينزلها بالمعتدي، فبنى الله النقى يعترف بأنه لم يسلك طريق الجادة المستقيمة، وهذه حال موسى عليه السلام وإذاً معناها إذ ذاك، فالتنوين عوض عن المضاف إليه مرتبا الواقعة على مقدماتها من شر فى القبطى أو المصري، معترفا بأنه ضال ضللا بريئا كما ذكرنا.

ولما فعلها فرّ، فقال: ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ الفاء عاطفة، وقد ذكر سبحانه وتعالى أسباب الفرار وكيف كان فى سورة القصص، فقال عز من قائل ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عاطفة، والحكم هو الحكمة أى التجربة، وبعد أن كان غفلا فى النعمة فى قصر فرعون اكتسب حكمة وتجربة، وعمل وكسب، فإن الشدة تصقل النفس، وتربى الحكمة ووزن الأمور والأفعال، ويصح أن يكون الحكم بمعنى الرسالة، والأول أولى؛ لأن التأسيس أولى من التأكيد، وجعلنى رسولا من المرسلين الذين أرسلهم رب العالمين، فقد جعله الله تعالى من أولى العزم من الرسل.

ثم بين كليم الله أن النعمة التي يمن بها عليه هي نعمة سببها أشد النقم؛ لأنها كانت بسبب إيدائك المطلق لبنى إسرائيل مما جعل أمه تلقيه في تابوت في اليم فيكون في قصر فرعون ، فلولا هذه النعمة الفاجرة ما كانت تلك النعمة التي تمن بها ، وتستطيل على بذكرها ، ولذا قال : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢٢) الإشارة إلى نعمة التريبة وليدا وإنه لبث فيهم من عمره سنين ﴿ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ أى تمن بها عليّ أنك عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وفى هذا إشارة إلى سبب النعمة ، وهو أنه عَبْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وأذلهم وذبح أطفالهم ، واستحيا نساءهم فاضطرت أمه إلى ما كان مؤديا بإنعام الله إلى قصره ، وإشارة أيضا إلى أنه يقابل هذه النعمة إذلاله لقومه بنى إسرائيل .

اتجه فرعون من بعد ذلك إلى السؤال عن رب العالمين :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ .

- الاستفهام من فرعون عن الذات العلية يتعرف ماهيتها وحقيقتها ، فلاستفهام بم يدل على ذلك؟ أى ما هو؟ ما ذاته ؟ قال موسى مجيبا ، إجابة هادية مرشدة إلى أن الذات لا يستفسر عنها ، إنما يعرف رب العالمين بخلقه ، فقال : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٢٤) ورب السموات تتضمن أنه خالقهما وموجودهما والقائم عليهما ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ وما بينهما هو الفضاء القائم ، والذي تكون فيه السحاب وينزل منه المطر ، وذكر السموات فيه إشارة إلى أن الله رب الشمس التي كانوا يعبدونها باطلا باسم رع ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ، أى إن كنتم تريدون الحق الذى تسبغون عليه فى طريق اليقين والإذعان ، ولكن فرعون خشى على قومه من أن يتأثروا بقول موسى الكليم ، فأراد أن ينبههم إلى سلطانه ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ النص تحريض منه لمن حوله على الاستماع والتأمل وهو جدير بالنظر والتفكر ، موهما لهم أن ذلك لا يناقض ألوهيته ولا يعارضها ، ولكنه جدير بالنظر ، وقد يكون ذلك استنكارا لأن يكون لأجرام السموات والأرض موجه غيره

مما جعل موسى عليه السلام يوجه للتعريف برب العالمين إلى مقام آخر، يبين عظم ربوبيته على الماضين والحاضرين وإنكم وفرعون لستم إلا طبقة من طبقات الوجود الإنساني: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾.

التفت فرعون لمن حوله كأنه ينبههم إلى إنكار موسى لآلوهيته المقررة الثابتة عندهم، فنبههم موسى أولا: إلى أن الله ربكم الذى خلقكم وأنشأكم، وخلق آباءكم الأولين ورباهم وكونهم، فهل فرعون خلق وقدر، وهو المخلوق الذى لا يخلق، ولا يقدر، وثانيا: إلى أن الله رب آبائكم الأولين قبل أن يوجد فرعون، وثالثا: إلى أن الرب يجب أن يكون قديما باقيا، ولا يكون محدثا فانيا، كفرعون.

- كان كلام موسى عليه السلام متضمنا حجة قوية لإبطال ألوهية فرعون، وإنه بشر كسائر البشر، لا يملك خلقا ولا إنشاء، ولذلك اتجه فرعون إلى رمى موسى بالجنون أولا، وتهديده بالسجن، فقال:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴿.

أول رمية رمى فرعون بها موسى هى الجنون، كما كان المشركون يقولون ذلك عن النبى ﷺ، وفى ذلك تسرية عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأكد فرعون جنون موسى بأن، وبلاد التوكيد، وبالجملة الإسمية، وذكره بوصف الرسالة تهكما وإمعانا فى الإنكار والتنفير، وأنه مع جنونه المدعى أرسل إليكم، وفى ذلك تحريض على استنكار رسالته كأنه يقول: اختير لكم رسول مجنون.

ولكن موسى كليم الله لم يرعه ذلك الكلام الباطل، ولم يهتز له، بل استمر فى بيان بطلان ألوهية فرعون، فقال أن ربه رب الكون: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى أن أقصى سلطان فرعون أن يكون فى مصر، ومصر ليست إلا جزءا من الأرض، والرب الخالق يكون رب الجميع من سكان الأرض، والسموات، والشرق والغرب، فهل تستطيع أن تدعى هذا؟ بل إنك لا يمكن أن

تتطاول إلا على أهل مصر، الذين تعودوا الخنوع لحكامهم فى ماضيهم وحاضرهم، فقول موسى عليه السلام لطاغوت مصر عن رب العالمين ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إبطال واضح لآلوهية فرعون المدعاة، وقد التفت موسى إلى من حوله الذين ينادون بآلوهيته فقال محرضا لهم على التفكير بعقولهم، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى إن كنتم ذوى عقل تعقلون، وتعلمون أن الآلوهية ليست أجزاء مجزأة، إنما هى سلطان على الوجود كله.

عندئذ أيقن فرعون أنه ينكر ألوهيته، وأنه يحرض من حوله على إنكارها، ويدعوهم إلى إعلان بطلانها، هذا وفى ذكر المشرق والمغرب بيان لقدرة الله تعالى الباهرة، وتنبيه إلى ما يشاهدونه كل يوم من شروق الشمس وغروبها فى المغرب، والشمس بذلك تنتقل فى مداراتها، فهل فرعون يفعل هذا، إنه ليس برب، ولا بإله.

اتجه فرعون إلى حجته التى يحسبها دامغة، وهى ذريعة الطغيان فقال:

﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾ .

اللام هى الممهدة للقسم، وقد أكد تهديده بقول يشبه القسم، أو أقسم بما يقسم به مثله فى طغوانه، واتخذت معناها: جعلت لك إلها غيرى، وكأن الآلوهية أمر يجعل، وليس إذعانا لحقيقة ثابتة فى الوجود يخضع لها العبد بسلطان الربوبية و بسلطان الفطرة المدركة الواعية، وذلك ضلال كل من كان الطاغوت ديدنهم الذى لا يخالفونه، ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ هذا تهديد لموسى عليه السلام، أى لألقين بك فى السجن، حيث لا تستطيع قولاً، وتكون فى ضمن المسجونين الذين لا يسمع لهم صوت، ولا قول.

ولكن موسى كلم الله لم يرعه ذلك، ولم يرهبه، بل أخذ يدير القول إلى الحجة والبرهان فقال لفرعون: ﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾ .

كان فرعون رجلاً يؤمن بالأمر المحسوس، فجاراه موسى عليه السلام فيما يؤمن فقال ما قال: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو عاطفة على فعل محذوف تقديره يناسب

المقام، وكأن سياق القول أَسْجَنِي، ولو جِئْتُكَ بشيء مبین، أى بحجة واضحة مبينة لرسالتی، ولِبْطَلانِ آلوهیتك وعجزك، والشیء هو المعجزة الكبرى التى جاء بها موسى فى ضمن تسع آیات بینات، وعبر بشیء فى هذا المقام لأن العصا، وما معها شیء، ولتقريب القول إلى فرعون، ولتكون الحجة نتيجة لما يقاولة ویبطل قوله.

وفرعون یحسب أنه یعجز عن أن یأتی، فیقول: ﴿قَالَ قَاتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) أى إِنْ كَانَ شَأْنُكَ أَنَّكَ صَادِقٌ فِى زَمْرَةِ الصَّادِقِينَ وَلَسْتَ كَذَّابًا وَلَا بُهَاتًا، وَلَا مَفْتَرِيًا عَلَى فِرْعَوْنَ وَالْوَهِيْتِ.

المعجزة ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴿

الفاء عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، أى أنه بمجرد أن طلب الدليل جاءه تباعاً معقبا للطلب، وكان الجواب عملاً وليس قولاً، ألقى عصاه فى الأرض، فإذا هى ثُعْبَانٌ، (إذا) للمفاجأة أى فوجئ الناظر، فوجدها ثُعْبَانًا مُبِينًا أى واضحاً بيناً، وأتبعه بمعجزة أخرى، وأخرج يده، ففوجئ أيضاً بأنها بيضاء للناظرين، وكان قد أخرجها من جيبه، فإذا هى بيضاء من غير سوء، كما قال تعالى فى سورة القصص ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٣٢) [القصص].

ويظهر أنه لم تكن يده فى أصل خلقاته بيضاء ناصعة البياض، فتغير لونها مفاجأة إلى ناصعة يعد معجزة حسية فى ذاتها، وهى تومئ إلى أن يده ستكون مقدم خير على بنى إسرائيل، وعلى مصر، إذ تكون قاضية على طغيان فرعون، ثانياً حيرت المعجزة أو المعجزتان فرعون فرمى موسى بأنه ساحر ماهر عليم بالسحر، وأنه يريد بهذا السحر أن يخرج أهل مصر من أرضهم ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ

إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ آثَارَ نَخْوَتِهِمُ الْوَطْنِيَّةِ ، أَوِ الْعِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهَكَسُوسِ ، فَقَالَ : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

حملة فرعون حماية لطغيانه أمرين :

الأمر الأول : أنه بهذا لا يريد هداية وتعليما وإرشادا وإصلاحا ، ولكن يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، والإخراج يكون بالألا يكون لكم سلطان في الأرض ، بل يكون الأمر لغيركم وتكونون عبيدا تعيشون على هامش الحياة فيها .

الأمر الثاني : أن يكون له سلطان عليكم ، وذلك ذهاب لسلطانكم ، وإخراج لكم من دياركم ، وإن ذلك كله بسحره ، وهذا ينبئ عن الفزع ، ولكنه فزع يتصور الويل والشور وعظائم الأمور ، وإلا ما كان السحر ذاته مزيلا للملك ، ومخرجا من الديار .

وإنه في هذا يستحث قومه على معاندة موسى ، وألا يميلوا كل الميل له ، لأنه عدو الديار ، ويكل الأمر إليهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يطلب استشارتهم متطامنا خاضعا ، وقد أحس أن الأمر يخرج عن سلطانه ، فيقول في استشارتهم فماذا تأمرون ، أى ما الذى تأمرون به ، وإنى أنفذه .

أجابوا عن ذلك بأنهم يستفزون الشعب كله ، وكأنهم توهموا أن فى سحر موسى ما يخرج من الديار .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمَّا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أى أرجئه وأخاه ، وحذفت الهمزة فى آخر الكلمة تخفيفا ، والهاء ضمير يعود على موسى عليه السلام ، والمعنى أرجئه وأرجئ أخاه أمدا ، وقيل أنه حبسهما ، وليس عندنا ما يدل على ذلك ، إنما الذى يدل عليه القول هو أنه أجلهما أمدا معلوما ليختبر الدليل الذى قدما ، ولا نحسب أنه كان عنده قوة على الحبس ، فقد اضطرب أمره ، وتحير تدبيره ، وكان فى فزع قد فوجئ بأسبابه ، فاختلف ميزان طاغوته ، هذه هى الوصية الأولى التى تقدموا بها ،

والثانية: هي قولهم، وابتعث في المدائن حاشرين. المدائن- جمع مدينة، وحاشرين- جمع حاشر، أى جامع للناس يجمعهم في ميقات يوم معلوم، وسمى حاشرا للدلالة على أنه يجمع أكبر عدد ويحشرهم حشرا، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، (يأتوك) جواب الأمر فهو مجزوم لذلك، وفعل الشرط، (ابتعث)، (والسحار) صيغة مبالغة من السحر، أى أنهم يارعون في السحر، لا يغلبون، علماء بأسبابه، وما يكون فيه، بحيث لا يغيب عنهم باب من أبوابه ولا طريق من طرائقه، ولا منهاج من مناهجه.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب النسبي، أى فجمع السحرة باتخاذ الطريق الذى رسموه، والمنهاج الذى حفظوه، واللام بمعنى في، وهى كاللام فى قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ...﴾ (٧٨) [الإسراء].

وهذا الميقات المعلوم كان باقتراح موسى عليه السلام، كما قال تعالى فى سورة طه: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) [طه].

وإن هذا يدل على أنه لم يكن مسجونا كما ادعى بعض المفسرين:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ القائل للناس مجهول غير مذكور، فمن هو القائل أهو فرعون؟ أم هم الحاشرون الذين بعثوا ليجمعوا الناس؟ وكان هذا الاستفهام للتأكد من اجتماعهم أجمعين وأنه لم يتخلف أحد، وللدلالة على العناية بالاجتماع لخطر موضعه، ولشدة حاجة فرعون إليه.

وقال الداعى غير المذكور أو الذى جهل ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠) ﴿لَعَلَّ لِلرَّجَاءِ﴾ وهو يدل على أنهم غير متأكدين من علمهم، كما أنه وجد أيضا أمر آخر، يدل على الشك فى القلب، وهو التعبير فى التعليق بأن الدالة على الشك، لا بإذا الدالة على التحقيق، وفى تعبيرهم ﴿نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ يشير إلى أنهم يسرون وراءهم فى حكمهم إن غلبوا.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٤٢).

لم يكونوا مؤمنين بفرعون الإيمان كله ، بدليل أنهم طلبوا منه أجرا على عملهم ، وكان عدولا في طلبهم ؛ لأن حدودا الأجر بالوصول إلى الغاية كالطبيب الذى يطالب بالأجر على الشفاء لا على العلاج والعمل ، ولذا قالوا مؤكدين فى حال الغلب ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ فأكدوا الأجر فى حال الغلب بعدة مؤكدات أولها كنا ، لأن كان تدل على الكينونة الثابتة المستمرة التى تكون بعد المعركة والمغالبة ، وثانيها - نحن - فهى تأكيد للضمير فى كنا ، وثالثها- ذكر الغالين بالوصف والتعريف ، أى ولم نهزم أمام موسى ، بل غلبناهم ، وهكذا ابتدءوا .
اجابهم فرعون بقوله : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أقر طلبهم أولا ، بقوله (نعم) الدالة على استحقاقهم ، وعدالة طلبهم ، وقرر جزاءين :

الجزء الأول : الأجر ، وقال : إن لكم أجرا مؤكدا الأجر بأنه لهم واستحقاقهم ، وإنه أجر كبير لتأكيد أجرا ، أى أجرا عظيما لا يقادر قدره .

والجزء الثانى : الذى يعد جزاء كبيرا عند الملوك والطغاة ، وهو أن يكونوا مقربين ، وهذا التقريب إليه ، يتضمن مزايا معنوية فى نظرهم ، وهو الرضا السامى ، كما كنا نسمع من عبارات الثناء على المقربين عند الملوك والذين كانوا يقلدون فرعون فى طغوانه ، وإن كانوا فى معاملة الرعية شرا منه ، ويتضمن مزايا أخرى بأنهم ينالون جزاء مما يسلط على العباد بتسليطهم ، ويتضمن مكاسب مادية من السعاية والإفساد ، وقد أكد قربهم منه بمؤكدات أولها : إن ، وثانيها : اللام ، وثالثها : الحكم بأنهم يكونون من ذوى الزلفى المحيطين به ، فيكونون فى ظلامه وظلمه ، وبين أن ذلك نتيجة عملهم وذلك بالتعبير ب (إذن) أى أنه نتيجة عملكم ، حثا لهم على الجد والعناية .

اللقاء

قال الله تعالى :

قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ
 ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
 ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ حَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَمْ نَارِيبُ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ أَمْنُتُمْ لَهُ فَقُلْ أَنْ أَدْنِ لَكُمْ إِنَّهُ
 لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^٤ لَا تُقِطْعَنَّ أَيْدِيكُمْ
 وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبَتْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَرِيرَ لَنَا
 إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا
 أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

التقى السحرة بموسى، وقال لهم: ﴿الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ فهو يعطيهم حق الابتداء ليأتوا بكل ما عندهم، وممكنهم من أن يكون بدء الرمي لهم ليسترهبوا الناس الحاشدين المجتمعين، ويكتسبوا من ذلك حماسة وقوة اندفاع، وهو يعلم أن الله معه، وهو غاليهم بنصر الله تعالى وقوة الحق الذى لا يمكن الله تعالى الباطل منه أبدا.

﴿فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ﴾ الفاء للعطف والتعقيب، أى أنهم سارعوا بإلقاء حبالهم وعصيتهم، وكان لهم أثر شديد فى نفوس المجتمعين كما جاء فى سورة

الأعراف ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ (١١٦) وقالوا وهم يلقون الحبال والعصى التى سحروا بها أعين الناس ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ أى متيمين مقسمين بعزة فرعون مؤكدين بذلك أن الغلب لهم وأكدوا عليه أولا بأن، وباللام، وبنحن المؤكدة للضمير تأكيدا لفظيا، ويقصر الغلب عليهم بتعريف الطرفين أى أنهم وحدهم الغالبون دون غيرهم، ولن يغلب موسى وقد قالوا ذلك بعد التأكد من الأجر الكبير والتقريب.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) والفاء أيضا للعطف والتعقيب أى سارع موسى عليه السلام معتمدا على الله تعالى، وعلى عزته، وقدرته سبحانه القاهرة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ هى للمفاجأة، أى أنه كانت المفاجأة الكبرى لهم وللحشد المجتمع، تبتلع ما يَأْفِكُونَ، أى تلتقف الحبال والعصى التى كانوا يكذبون بها ويصرفون عن المعجزة بسحر أعين الناس واسترهابهم، والإفك يتضمن معنى الكذب والصرف عن الحق الواضح الجلى، وهنا تبدو المعجزة جلية بينة لأهل الخبرة فى السحر، ويعلمون أن ما جاء به موسى ليس من نوع السحر، بل هو إعجاز الله تعالى، ولذا قال تعالى عنهم:

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨).

والفاء كما قلنا لترتيب والتعقيب أى أنهم فور ما رأوا أن العصا تلتقف ما يَأْفِكُونَ، فتبتلع مادة سحرهم التى تسحر العيون، ووجدوا حقيقة لا تخيلا ولا وهما، فكان الحق فأسرعوا بالسجود، وقوله تعالى ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، مبنى للمفعول إشارة إلى أن إيمانهم وإذعانهم للحق هو الذى ألقاهم ساجدين، وكأنهم غير مختارين ولا مريدين، فالسجود كان مساوقا للعلم الذى أوتوه من معجزة موسى عليه السلام، و ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لأنه المنشئ القاهر القدير الكالى الحامى ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

وإن هذا يدل على صفاء نفوس هؤلاء، وقد أشرنا فى الآيات السابقة إلى أنهم لم يكونوا مذعنين لما يدعيه فرعون، كما يبدو من لحن أقوالهم.

وإن أولئك آمنوا حقاً وصدقاً، إذ إنهم تركوا الأجر، وكان كبيراً، وتركوا الازدلاف إلى فرعون والقرب منه والتحكم باسمه، ورضوا بأن يقطعوا ويصلبوا وذلك هو الإيمان حقاً وصدقاً.

طغى طغيان فرعون، وظهر حمقه، فبدل أن يدعن للحكم الذى اختاره ثار عليهم وقال :

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٩).

داهية نزلت بالوهية فرعون، وتأثيره فى قومه، وبطلان حجته فى رد موسى أمام حشد مجتمع، من مدائن مصر كلها ليشهدوا نصرته، فشهدوا بطلان حجته، وهزيمته، فاستخدم الطغيان ليحول الأذهان، ولتكون رهبته محل حجته ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ إذا جعلنا همزة استفهام، فى القول، وإذا لم يكن استفهام يكون ذكر الإيمان قبل الإذن منه، هو الاستنكار، كأنه ملك قلوبهم وأجسادهم وخواطرهم ونوازع نفوسهم، وهذا شأن كل جبار مستحكم، كأنه ملك الأفتدة والعقول والنفوس؛ لأن الذين حوله يوعزون له بذلك، وبأن هذا حق الله فرضته الطاعة، ثم الألوهية الباطلة، وقوله تعالى - له - أى مدعين خاضعين له.

ولم يفرض أنه الحق بموجب علمهم، وتفريقهم بين باطل السحر، ومعجزة الحق، بل فرض أنه كبيرهم الذى علمهم السحر ليموه على الناس، فقال إنه لكبيركم الذى علمكم السحر، فأنتم تتبعون معلمكم ولا تتبعونى.

ثم انتقل من التضييل إلى التهديد كشأن الطغاة دائماً إذا ما حل بهم الدليل يسترون عجزهم بالتهديد، فيقول: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، واللام تفيد تأكيد التهديد، وسوف - لبيان تأكيد العلم فى المستقبل، وهو علم معاينة لا علم إخبار، ولذا ذكر ما هدد به نافذا واقعاً ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ أى : يد من جانب، ورجل من جانب، ﴿ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إن التصليب يكون مقارناً للقتل، فكأنه هددهم بأمور ثلاثة أولها

التعذيب بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، وثانيها- القتل، وثالثها- التصليب؛ ليكونوا عبرة لغيرهم، إذ هم أول من شقوا عصا الطاعة، ونبذوا ألوهيته وراء ظهورهم.

هذا صوت التهديد الفرعونى فلنسمع صوت الإيمان، فقد أجابه المؤمنون بقولهم:

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

الضير : المضار وإيقاع الضرر، أى لا تملك أن تضارنا، فإننا قد عرفنا ما عندك، وقدرة ربنا ، وأن ما عندك أمر ضئيل إلى زمن محدود، وما عند الله باق لا ينتهي، وضورك ضرر عاجل موقوت ندفعه ويدفعه الله عنا بخير دائم غير موقوت، وكأنهم لقوة إيمانهم يقولون : ما أنت، وما عذابك؟ إنه أذى ساعة، وما عند الله خير دائم : ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ انقلب إليه، أى ترك ما هو فيه راجعا إلى الخير العظيم، و ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ متعلق بمنقلبون، وكان تقديمه لبيان الاختصاص وأنهم يرجعون إلى ربهم، لا إلى غيره من أشباه فرعون.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾﴾ إيمان قوى وصبر على البلاء، ورجاء ما عند الله العزيز الحكيم، وذكروا طمعهم فى غفرانه، ولم يذكروا تأكدهم منه؛ لأن شأن المؤمن الذى يذكر سيئاته أن يرجو ولا يطمع، ويخاف ولا يتأكد، ولتذكرهم لما أخطئوا به فى جنب الله لم يذكروا فى طمعهم إلا أن يغفر لهم خطاياهم، والخطايا جمع خطيئة، وهو الإثم الذى استغرق النفس حتى امتلأ بالباطل ، وكذلك كانوا فى عهد الرحمن، وأى خطيئة أعظم من أن يعبدوا فرعون وهو الجبار حتى طمع فيهم وأذلهم ، وأذل أرض مصر ومن فيها.

وقد قالوا فى الخير الذى فعلوه مقابلين به الطمع فى الغفران ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل مصر قوم فرعون، وأن وما بعدها مصدر فى موضع جر باللام المحذوفة . وتقدير القول ، لأن كنا أول المؤمنين أى لكوننا أول المؤمنين .

النجاة

قال تعالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَيْتَهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

الواو استئنافية، وهي استئناف لبقية القصة الصادقة قصة موسى وفرعون الصادقة المصورة لوقوف الحق أمام جبروت أطفى الطغاة، وفي هذا الجزء من القصة خبر النجاة للمظلومين أمام الظالم وملئه.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ (٥٢) ﴿ الإسراء هو السير ليلاً، وقد صرح بالليل في القصة في بعض السور، وعبادى جمع عبد، والمراد بهم

بنو إسرائيل الذين كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، والتعبير بعبادى فيه إشارة إلى أن الله عامل على إنقاذهم من فرعون وقومه ، وأنه سبحانه وتعالى منقذهم كما شاء سبحانه .

ساروا متجهين إلى البحر ، وأدرك فرعون أنهم عاملون على الإنقاذ ، فخاف ، وتوقع الأذى من بعد ما كان منه لموسى وهارون ، وللسحرة الذين عاندوه ، وقاوموا طغيانه ورفضوا ألوهيته ، ولجئوا إلى الله تعالى ، وظهر خوفه وتوقعه الضرر ، فأرسل رسله ، كما قال تعالى ، وعلل سبحانه السير ليلاً بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿ الفاء للترتيب والتعقيب والمعنى سارع فور انفصالهم وأرسل - حاشرين - أى جامعين للناس من كل مدائن مصر ، وذلك ليلاحقهم بالأذى والقتل ، وبرر دعوتهم لحربهم أو بالأحرى لقتلهم وسهل أمرهم بقوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ (٥٣) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿ (٥٤) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿ (٥٥) .

الشِرْذِمَةُ الجماعة المنقطعة التى لا ناصر لها ، وقد وصفهم بالقلة ، فقال قليلون ، وبذلك ذكر فيهم وصفين لاستضعافهم :

أولهما - أنهم منقطعون عن قومهم ، ونصرائهم .

الثانى - قليلون ، وذلك ليشجع قومه على اتباعهم وإهلاكهم ، ويبين خوفه منهم ، وإن حالهم مع انقطاعهم ، وإنهم قليلون ، وذكر غيظه منهم قائلاً : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ ، وأنهم قليلون يتوجب الحذر منهم ، فقال : ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ أى نخشى شرهم ونتوقعه ، وذلك كما بدا من ضعفه أمامهم ، فإن الحق يرهب أقوى الأقوياء ولو كان فرعون ذا الأوتاد ، وقد أكد حذره وحذر من معه بعدة مؤكدات منها (إنَّ) الدالة على التحقيق ، والتأكيد بجميع - والثالث - اللام . ورابعها - التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الاستمرار ، كان إيذاناً ، لنخوفهم ، وضياح الأمر من أيديهم ، وإن أمر مصر يتساقط من جموحهم ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿ (٥٨) .

الفاء للعطف مع الترتيب والتعقيب، أى أنه سبحانه بعد هذا الفرع بين مآل أمرهم، وقد يقال: يكون إغراقهم معقبا لقول فرعون مع أن بينهما حوادث، والجواب عن ذلك الإشارة إلى أن الله تعالى قدر ذلك واقعا وتكويناً، عندما أخذ فرعون الطاغى ومعه ذلك الذعر، فكانه وقع عقبه، لتأكد وقوعه.

الجنات - هى مصدر ذاتها، فكانها لعموم زرعها وثمارها، وأنها فى وسط الصحارى من حولها شرقا وغربا، كأنها جنات فى أعلاها وأدناها، وعيون، جمع عين، وهى الماء الثر النابع من جوف الأرض، وفى ذلك إشارة إلى نيلها السعيد الذى يجرى من أعلاها لأدناها، وقد كانت الآبار بين مصر وليبيا، تجرى فيها عيون الماء، فتخصبها، وكانت الأرض بينها وبين تونس، وكانت تسمى أفريقيا، وكانت أرضها مملوءة فى باطنها بالمعادن والفلزات، وكنوز من سبقوهم من الفراعنة، كما لا تزال آثار من قبل فرعون موسى، مملوءة بالآثار الدالة على قوة سلطانهم وثرانهم، والكنوز، الآثار أو كل ما استيطته الأرض من معادن وكنوز - ومقام كريم - أى المقام اسم مكان من قام يقوم، أى مقام طيب حسن مع الاحترام والإجلال، وهى المنازل المشيدة.

ولمن تكون هذه المنازل بعدهم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ۖ﴾ أى أخرجناهم ذلك الإخراج من الجنات والعيون والكنوز، والمقام الكريم لنورثها بنى إسرائيل، فنجعلهم ورثتهم، وقد كانوا يستضعفونهم، ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وكان ذلك ظلما، فأورث الله المظلوم ظلمه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ﴾ [القصص].

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۖ﴾ لم يحس قوم فرعون بهم إلا فى الصباح، ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ أى ساروا وراءهم ولحقوهم، يقال اتبعه أى لحقه، وسار سيرا مسرعا وراءه، و﴿مُشْرِقِينَ﴾، أى وقت الشروق متجهين شرقا وراءهم، فقد اتجهوا إلى ناحية البحر الأحمر، حيث المعجزة الظاهرة الباهرة، وهو فلق البحر كل فرق كالطود العظيم، وقد جد جيش فرعون الذى دعا فيه بالنفير العام حتى تراءى لهم ففرع بنو إسرائيل منهم؛ لأن سابق الأذى خلع قلوبهم خلعا، ولذلك كان الخوف الشديد وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ۖ﴾.

الفاء فاء الإفصاح عن شرط مقدر، تقديره نحو فإذا تقاربنا، وتراءى الجمعان أى صار كل واحد منهما على مرأى الآخر؛ لأن الترائى تفاعل الرؤية من الجانبين، بحيث صار كل واحد منهما يرى الآخر، قال بنو إسرائيل من فرط جزعهم ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ وقد أكدوا أنهم مدركوهم بيان وباللام، وبالجمله الاسمية، وهى جملة خبرية فى ظاهرها، وفى حقيقتها كشف عن هلعهم وفرعهم، وكان على موسى أن ينبئهم بما يذهب عنهم الخوف ، فقال الله تعالى عنه:

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ .

قال موسى عليه السلام ردا ومنعاً: ﴿ كَلَّا ﴾ وهذه نفى لأن يدركوهم أو نفى لما يترتب على لحاقهم بهم ، وقوله: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ هى لإذهاب الخوف من نفوسهم ، فإذا كانوا يرهبون بعزة فرعون الموهومة ، فتحن فى كلاءة الله تعالى، ورعايته، الله تعالى ربى الذى أنشأنى وحاطنى بحمايته وكلاءته، وهو الحى القيوم رب السموات والأرض، ويهدينى إلى طريق النجاة منهم، والسين لتأكيد هداية الله لطريق النجاة فى المستقبل وكانت النجاة.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ .

الفاء للترتيب والتعقيب، أى كان عقب طلب الاستهداء كان الإيحاء استجابة لموسى عليه السلام، كان الإيحاء لموسى أن اضرب بعصاك، أن تفسيرية، ضرب موسى بعصاه البحر، ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾، الفلق هو شق الشيء حتى ينفصل بعضه عن بعضه، ويصير كل قسم منفصلاً عن الآخر فى كيانه، والفرق القسم المفروق عن الآخر، والطود هو الجبل العالى ووصفه بالعظيم لضخامته ومتانته وقوته، وهذا إعجاز حسى يجعل كل قلب يؤمن بالحق، ولو كان قلب فرعون طاغية الأرض، وكان هذا هاديا موسى أن يتقدم بنى إسرائيل، فيدخلون فى البحر، وهو يبس لا يعوق سائرا وهو طريق معبد ، يسرون فيه بيسر وسهولة .

الله سبحانه وتعالى جرّ الآخرين بتقليدهم أن يسروا وراءهم ، ولذا قال عز من قائل: ﴿ وَأَرْلَفْنَا لَهُمُ الْآخِرِينَ (٦٤) ﴾ .

وأزلنا ، أى قربنا إليهم الآخرين ، وهم فرعون وقومه ، قربوا حاسبين أنهم ناجون كما نجا بنو إسرائيل ، وحسبوها نعمة لهم
 وثم ، ظرف بمعنى مكان ، الآخرون هم قوم فرعون ، ووصفوا كذلك لأنهم متأخرون فى اعتقادهم وعملهم وجاءوا متأخرين فى سيرهم .
 ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

أنجى الله موسى ومن معه من بنى إسرائيل ، وربما من قد آمن معهم من أهل مصر ، كما آمن السحرة ، ولذا أكد سبحانه وتعالى بما يفيد إغراقهم جميعا .
 وكان التعبير يتم للدلالة على فرق ما بين النجاة والإغراق والرشاد والضلالة ، والعدالة والطغيان .

وإن هذه آية حسية عظيمة ، ولذا قال تعالى :

﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةٍ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أى آية دالة على رسالة موسى عليه السلام ، وعلى قدرة الله تعالى القوى القهار ، وأنه وحده القادر على كل شيء ، وأن الكون كله قبضة يمينه ، و(آية) جىء بها نكرة لعظمها ، وأنه لا يقادر قدرها ، ولا يعاظم أمرها ، ولكن هل آمن كلهم ، أو جلهم ، قال تعالى :
 ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه الجملة تدل بظاهر اللفظ أن الأكثرين لم يؤمنوا ، فلم تأخذهم هذه الآية الباهرة إلى الإيمان واليقين ، وتدل بمطوبها أن من المصريين من آمن واتبع موسى عليه السلام .
 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ .

استأنف الله تعالى القول ببيان قدرته الظاهرة ، وحكمته الباهرة ، فقال :
 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى إن الله تعالى الذى خلقك ، وقام بربوبيته لحمايتك ، وهو الحى القيوم ، لهو العزيز ، الغالب ، الرحيم ، فيما يعمل مما يسوء الظالمين ويكافئ المحسنين ، وقد أكد الله تعالى عزته ورحمته بعدة مؤكدات هى إن ، وذكر الربوبية ، وباللام ، وبضمير الفصل ، وإن رحمته بادية فى نظام هذا

الوجود، وبادية فى عدم تسويته بين المحسن، ومن لا يحسن، ومن يعلم، ومن لا يعلم ومن يعدل ومن يظلم، والله رءوف بالعباد.

- يلاحظ هنا أربعة أمور:

الأمر الأول - أن ما يتعلق بذكر التربية على لسان فرعون عاتبا أو لائما قد انفردت بذكره هذه السورة، وكذلك ما يتعلق بالإشارة إلى قتله رجلا من المصريين، واستحقاقه العقوبة عليه؛ لأنه كان ظالما.

الأمر الثانى - بيانه لرب العالمين، وسؤال فرعون عنه متهما، أو مستنكرا، لم يذكر بهذا التفصيل مرة أخرى وفى ذلك البيان تنبيه وإنكار لألوهية فرعون المزعومة الباطلة، وكذلك التهديد بالسجن إذا اتخذ إلها غيره، فإنه لم يذكر بهذا التأكيد فى موضع آخر.

الأمر الثالث - أنه ذكرت معجزة العصا، وما ترتب عليها من إيمان السحرة، ثم إنذارهم بأن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، قد ذكر فى آيات أخرى مع اختلاف فى العبارات والسياق، وحذف فى بعضها، ولكن مذكورة، ولا يعد الاختلاف فى التعبير والتصوير مع زيادة أو نقص، لا يعد تكرارا، وهذه المعجزة الحسية الباهرة ذكرها ضرورى لبيان أن المعجزات الحسية التى يطلب المشركون من محمد ﷺ مثلها لا تجدى ما دام القلب جاحدا، وما دام الكفر يسبق الإيمان فى قلوب الجاحدين.

الأمر الرابع - أنه ذكر فلق البحر الذى صار كالطود العظيم، وهى معجزة، وهو فى ذات الوقت أمرها شديد، ونذير للكافرين، وذكر مع اختلاف العبارات، وهو ضرورى لبيان أن مآل المشركين كمال فرعون أو أشد.

قصة إبراهيم أبي الأنبياء

قال تعالى :

وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم

نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا

نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّهَا عَافِيَا ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ

تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَادُوا لِي إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ

﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ

يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ

﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾

وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ

النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لَأَيِّئِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ

يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

جاءت في هذه السورة قصة إبراهيم بعد قصة من قصص موسى عليه السلام، لأن قصة موسى تسلية للنبي ﷺ بهلاك فرعون في طغيانه، وكيف غرق فرعون ومن معه من معاونين المالكين؛ لكي يكون ذلك بشارة بنصره على قريش، مهما يكن طغيانهم، فلن يكونوا كفرعون ذي الأوتاد.

وفي قصة أبي الأنبياء إبراهيم بيان لهم بما كان عليه أبو العرب الذي يفخرون بالانتساب إليه، وإنه محتدهم، وإنهم ضئضى إبراهيم وذريته.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾.

الوإو في معنى العاطفة، إذ فيها عطف قصة على قصة، والنبا الخبر الخطير ذو الشأن العظيم، واتل أى اقصص عليهم قصة إبراهيم متلوة يتلو بعضها بعضا مرتبة منسقة ليروا فيها العبرة التى يعتبرون بها إن كانوا فرحين، جاء إبراهيم فرآهم يعبدون الأصنام فقال لهم مستنكرا لائما:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)﴾ وإذ متعلقة بـ (اتل)، أى اتل عليهم ماذا كان فى ذلك الوقت، وقرب أبيه لقومه لبيان أن أباه فى قرن معهم مساو لهم فى الدعوة، وإذا كان قد طلب الغفران له ثم تاب عن ذلك، فهو معهم فى الدعوة على سواء، والاستفهام إنكارى أو للتنبيه وطلب الإجابة، ونقول: إن الأول هو الأظهر والأبين.

أجابه بقولهم: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾

لقد أجابه، لأنهم لم يفهموا وجه استنكاره أو ظنوا أنه لا وجه للاستنكار، والأصنام هى الحجارة التى نحتت تماثيل ليعبدوها، وقد جاءت بعض الروايات تقول: إن أباه كان يصنعها، ولعل ذلك وجه من ذكر أبيه مع قومه ابتداء.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَنَظُلُّ﴾ فاء الإفصاح، لأنها تفصح عن شرط محذوف، ونظلل هنا بمعنى ندوم على عبادتها ﴿عَاكِفِينَ﴾ أى مستمرين فى عبادتها لا ننى عن ذلك ليلا ولا نهارا، لا فى وقت معين.

وهنا نجد إبراهيم يبين لهم بطلان هذه العبادة، لأن المعبود يجب أن يكون أغلى من العابد كيانا، وأنفع وأضر، فقال لهم خليل الله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾.

أول سؤال إنكارى وجهه إليهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ وتنادونهم عابدين، و(إذ) ظرف دال على الماضى، وتتعلق بيسمعونكم، وكان الظرف ماضيا دالا على مضارع لتصوير جهالتهم، إذ يدعون مالا يستطيعون جوابا، وما لا يستطيع أقل فى الكون والوجود ممن يدعوه، إذ الداعى سميع مبصر، وهذه لا تسمع ولا تبصر، ويصح أن نقول إن ﴿تَدْعُونَ﴾ معناها تعبدون، وكأنهم يعبدون ما لا يسمع، ووجودهم أقل، إذ هم أحياء يسمعون، وهؤلاء جماد لا حياة فيه.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أو عاطفة، أى هل ينفعونكم أو يضررون؟ هل يملكون نفعاً أو ضرراً، وكأنه يقول لهم إن المعبود يكون موجوداً، أو يكون نافعا أو ضارا يعبد رجاء نفعه أو اتقاء ضرره، ولا شيء من ذلك فكيف تعبدونهم؟ إنه ضلال العقل.

أجابوا متخلصين من الجدل الكاشف لجهلهم إنهم ما درسوا نفعهم ولا ضررهم، ولكن تبعوا آباءهم الأولين، فقالوا: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٤).

بل، للإضراب الانتقالي من أسئلة إبراهيم، وإحراجهم وتقدير ما عندهم من حال سوء: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لم يسموا ما أخذوه عن آبائهم عبادة، وكأنهم لا يفهمون معنى العبادة، ولا يدركون مرمى أفعالهم، كذلك، الإشارة إلى فعلهم الذى فعلوه، أى وجدنا آبائنا يفعلون مثل فعلنا، كقول العرب فى عبادة الأوثان، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠) [البقرة].

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أنتم وآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦).

الفاء فاء الإفصاح وهى مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتنبية، والمعنى فيما يفهم من كلام الله تعالى، أفأريتم أى أشاهدتم ما تعبدون أنتم وآبَاؤُكُمْ الأولون إنه ضلال لا أوافق عليه ولا أرضاه، ولذا ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى بسبب ذلك الضلال، والضمير فى أنهم ضمير الحال. أى أن أنتم وهذه الحال التى هى

عبادة الأوثان، وتقليد الآباء عدو لى أناهضها وأقاومها إلا عبادة رب العالمين .
فمعنى ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ على حذف مضاف إلا عبادة رب العالمين، وقد ذكر عليه السلام صفات رب العالمين التى أوجبت عبادته والإذعان له، فقال:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾

بعد أن ذكر لهم أن العاقل يعادى عبادة الأوثان، ولا يرضى إلا بعبادة الديان، أخذ إبراهيم يصف ربوبية الله تعالى له فى حياته من خلقه إلى موته، ثم بعثه، وأنها منبه دائم إلى استحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله إلا هو، وفى ذلك توجيه للعرب سلالة إبراهيم عليه السلام إلى نعمه تعالى التى تغمرهم فى حياتهم اليومية، والمستمرة، ما داموا فى قيد الحياة، فذكر أول نعمة، وهى الخلق والهداية، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ التون مكسورة إشارة إلى أن ياء المتكلم مطوية فى الكلام طيا، والفاء لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، فالهداية مترتبة على الخلق والتكوين، وقد يقول قائل، كيف يكون ذلك، والناس منهم شقى ضال، وسعيد مهدي، ولو كانت الهداية مترتبة على الخلق لكان الناس جميعا فى هداية غير مقطوعة ولا ممنوعة؟ والجواب عن ذلك إن الله تعالى خلق الناس مختارين يريدون، ويفعلون ويتحملون تبعات أعمالهم، إن شرا فشر، وإن خيرا فخير، ولكنه هيا فىهم أسباب الهداية ودعاهم إليها، فقال: ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس] وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد] نجد الخير ونجد الشر، وإذا كان سبحانه قد خلق فى النفس المسلكين بالاستعداد لهما، فإنها إذا سلكت طريق الهداية فالهادى هو الله سبحانه وتعالى بما خلق من أسباب الهداية، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣] ومن يضل يسلك مختارا طريق الضلالة.

وإذا كان إبراهيم الرسول خليل الله فإنه سلك طريق الهداية فالله تعالى أرسله هاديا مرشدا، وجعله من أولى العزم من الرسل.

والنعمة الثانية ذكرها إبراهيم بقوله تعالى كما حكى الله تعالى عنه، ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ هذه نعمة أخرى من مظاهر الربوبية العالية، وهي أنه يطعم عباده، أى أنه سبحانه وتعالى هيا لهم أسباب الطعام وأسباب الشراب، فطعام الإنسان لحم شهى، أو سمك طري، أو خبز، أو ثمر جنى، وكل ذلك من الله، فهو الذى أنبت النبات، وأثمر الغراس، وتغذى من النبات الأنعام، وهو سبحانه الذى خلق الأنهار والبحار التى تعيش فيها الأسماك، وهو الذى ينزل الأمطار فيشرب منها الإنسان والحيوان، وهكذا هو الذى يطعم ويسقى، بتضافر الأسباب سببا بعد سبب.

والنعمة الثالثة نعمة الشفاء من المرض، وحكى الله تعالى فيها قول إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقد ذكر المرض وشفاء الله تعالى منه بعد الطعام والسقى للإشارة إلى أن بعض الأمراض سببها الإفراط فى الطعام، كما ورد فى بعض الآثار: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء. ومهما يكن من الطب والعلاج فالشفاء دائما من الله واهب القوى، والقادر على كل شيء، وكثيرا ما يقول الطبيب وقد عجز: إن الشفاء بمعجزة، ويفوض الأمر إلى الله تعالى القادر على كل شيء.

الأمر الرابع الذى تبدو فيه ربوبية الله تعالى الكاملة ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ هذا شعور قوى بكمال الربوبية من خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام، فهو وحده الذى يميت، ولو كان الإنسان فى بروج مشيدة، وللناس آجال، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وإنه بعد الموت البعث، وهو الحياة الأخرى الجديرة بأن تكون الحياة حقا وصدقا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت] وعطف بثم فى موضعها، لأن البعث لا يكون عقب الموت، بل يكون بينهما تراخ فى الزمن حسا ومعنى، أما الحس فظاهر، وأما المعنوى فهو التفاوت بين حياة لاغية مكدودة، وحياة بالنسبة لخليل الله تعالى حياة هادئة لا لغوب فيها، بل هى جنات النعيم.

الحال الخامسة هو ما يرجوه إبراهيم الذي كان فى حياته أمة ، كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ۖ وَهُوَ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ ﴾ أى أنه يطمع ويسمى طلبه طمعاً ، استصغاراً لحسناته ، واستكباراً لسيئاته كشأن أهل الورع الذين يتقون ويخافون ، وتستشعر نفوسهم الخوف دائماً ، كما كانت حال محمد ﷺ فقد كان لعظيم مكانته يطلب رحمة الله بالمغفرة لا بالجزاء . والخطيئة هى الذنب الذى يستغرق النفس ، ويستولى عليها ، وقد كان إبراهيم كسائر النبيين يحسب ذنبه كبيراً ، وحسناته صغيرة ، ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء .

ويتمه إبراهيم إلى ربه راجياً داعياً ضارعاً قائلاً :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ۖ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ (٨٢) وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ (٨٤) وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۖ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۖ (٨٦) ۖ ﴾

ضرع إبراهيم إلى ربه فدعاه بما يدعو به الرجل الصالح الذى يريد أن يعاونه الله تعالى فى الخط المستقيم الذى يسلكه ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ۖ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ ﴾

اتجه إلى ربه جل جلاله منادياً بالربوبية لأنها هى التى توجه وتربى النفوس ، وتجعل الرجل ربانياً ، وأول ما طلبه هو الحكم ، وهو الحكمة الضابطة المانعة للنفوس من التردى فى مهاوى الهوى ، ومنازع الشيطان ، والحكيم هو الذى يمنع نفسه ويحكم عليها بالتزام الجادة وسواء السبيل ، ولقد قال أكثم بن صيفى : الصمت حكم وقليل فاعله ، ونسب بعض الناس ذلك للنبي ﷺ ، وإن الرجل المستقيم مبتدئ بنفسه فيروضها على الحكمة النافعة المهذبة ، فإذا امتلأ قلبه بها اتجه اتجاهها مستقيماً ، ونطق بالحق ، وسلك طريق الحق ، فكان الخلق المستقيم ، وكانت المعاملات المستقيمة ، وكانت الاستقامة فى كل حياته ، وقد دعا إبراهيم أن يهبه الله حكماً ، يكون أولاً على نفسه ، وقال : ﴿ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ ﴾ أى وفقنى لكل أسباب الكمال ، والعلو فى النفس والخلق لألحق بأهل الكمال والصلاح وأعد فى زمرة الأبرار .

والدعوة الثانية هي دعوة بالعاقبة، وهي قوله ضارعا إلى ربه: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ الآخرين أى الذين يجيئون بعده، و﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ فيه إضافة اللسان للصدق أى بأن يكون الصدق مستغرقا له، بحيث لا يقال عنه إلا ما هو صدق، وأن يكون اللسان صادقا دائما، وأن يمتد الصدق منه وفيه إلى ما بعده، وإن لسان الصدق يكون بعده يكون بأمور، منها أن يكون ذكره حسنا صادقا من بعده، بأن يكون أثرا محمودا من بعده، ويكون نافعا بعد مماته كما كان نافعا في حياته، ومنها أن تكون دعوته إلى الحق باقية من بعده يرددها الناس، ويدعون إليها، ومنها أن تكون له محبة ومودة بين الناس من بعده، كما كانوا يودونه في حياته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦) [مريم].

هذا، وإن النص الكريم يدل على أن حب المحمودة بين الناس ليس أمرا غير صالح ما دام يقصد إليها النفع والخير، وعموم الإصلاح وما دام لا يتعالى ولا يستطيل على الناس.

والدعوة الثالثة، هي ما ذكرها بقوله: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أى اجعلنى فى جنة النعيم، وعبر بهذا التعبير للإشارة إلى أن جنة النعيم تكون ميراثا للعمل الصالح، وطلبها من الله تعالى مع أنه عمل عملا صالحا، للإشارة إلى أن عمله لا يعطيه ذلك الحق إنما هبة من الله تعالى ومنة وفضلاً، فلا يستحق عامل بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته.

بعد ذلك اتجه إلى ربه بالدعاء يصلح به نفسه، اتجه إلى ربه فى شأن أبيه وقد وعده بأن يدعو له، كما جاء فى سورة مريم: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧) [مريم] أنجز خليل الله وعده، وقال ضارعا إلى ربه: ﴿وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٨٦) طلب ذلك من الله، ولكنه لم يصر عليه، وإن كان قد أنجز وعده، ولكن تبرأ من هذا الاستغفار، كما قال فى آية أخرى، ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤) [التوبة].

هذه الدعوات كلها مطالب من إبراهيم الخليل المخلص إلى ربه، وهى مطالب إيجابية، اتجه بعد ذلك إلى مطالب سلبية مانعة، فقال عليه السلام:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴿

الواو عاطفة، والجملة التماس من الله تعالى ألا يخزيه يوم البعث، وذات البعث لا خزيان فيه، إنما الخزي يوم الحساب ويوم تشهد عليهم أعضاؤهم بما فعلوا، وتنطق أعمالهم بما ارتكبوا، ولا ننسى أن الدعاء من خليل الله، وكيف يتصور أن يخزيه الله تعالى وهو رسوله، ولكن لفرط إحساسه بحق الله تعالى يظن في نفسه القصور، ومعه الخزي، فإن دقة الإحساس تجعله يستصغر حسناته في جنب الله تعالى العزيز الحكيم، وكلما قرب الإنسان من الله تعالى أحس بقصوره، ولا يحس بعظمة ما فعل، ويحسب أنه من المقصرين، لا من المقربين الصادقين.

وبين سبحانه وتعالى على لسان خليله الصافي نفسه وقلبه، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ يوم، بدل أو عطف بيان من يوم يبعثون، أى أنه فى هذا اليوم لا ينفع المال ولا البنون اللذان هما عز هذه الحياة الدنيا وزينتها، كما قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ...﴾ [الكهف: ٤٦] فالمال والبنون هما الزينة التى أعدت للفخر بها من أهل الدنيا.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

القلب السليم هو القلب الخالى من أوشاب الوهم والشهوة والضلال، والاستثناء هنا يصح أن يكون متصلا بأن يكون من عموم نفى النفع بالمال والبنين إلا من كان ذا مال وبنين، وأعطى المال حقه، ورعى البنين وأحسن تربيتهم فكانوا له عملا صالحا دائما؛ لأنه إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له. فمع المال والولد ينفع الإنسان إذا أتى الله بقلب سليم من كل المفاسد فى الدنيا، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى لكن، ويكون المعنى لا ينفع مال ولا بنون، ولكن من أتى الله بقلب سليم من مطامع المال وغطرسة البنين، لا يعتز إلا بالله، وقد سلم قلبه وكل أحاسيسه له سبحانه.

قال تعالى :

وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿١٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١١﴾

أزلفت، أى قربت إلى الزلفة وهى الخطوة الحسنة، فمعنى ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ﴾ أى قربوا إلى موضع حظوتهم وجزائهم على الحسنى حسنى مثلها أو أكبر منها، وقوله تعالى: ﴿لِلْمُنْفِقِينَ﴾، أى للذين عرفوا الله تعالى واتقوه وخافوا عذابه، ورجوا رحمته، وهذه الجنة هى جزاؤهم جزاء موفورا.

وإذا كان هذا جزاء المؤمنين قد قرب إليهم زلفة وخطوة، فقد برزت الجحيم، وهى نار الله الموقدة للكافرين، ولذا قال عز من قائل: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أى ظهرت واضحة، لأن برز معناها: ظهرت وقربت منهم، والتسفعيل مبالغة فى الظهور أى رأوا الجحيم رؤيا العيان فعلموا مآلهم ونهايتهم بالسيان، والغاؤون هم الضالون الكافرون.

بعد ذلك البيان فى قصة إبراهيم، وما فيها هنا لم يذكر فى سور أخرى إلا بعض ما يتعلق بعبادة الأصنام ذكر سبحانه بعض ما يكون يوم القيامة.

قال تعالى :

وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ
أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

هذه النصوص السامية مصورة لحال الكافرين وما أضلّوهم في يوم القيامة وأول اتجاه إلى مجاوبتهم، وقد كانوا يتخذونها شفعا تقربهم إلى الله زلفى، أن يسألوا عن هذا الادعاء أهو ظاهر فيها اليوم فيقال لهم:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾

أين الأصنام أو الأشخاص التي حكم أوهامكم أن تعبدوها من دوني هل أمدتكم بنصر أو شفاعة أو تقريب زلفة أو حظوة، ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أو هنا لمعنى الإضراب، فليست قائمة مقام - أم - والمعنى فيها الإضراب عن أن ينصروكم، أهم ينتصرون، بأن تحمي نفسها من عذاب واقع أو متوقع، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فهو للتوبيخ، إذ كانوا يحسبون أن لها قوة تنصر، فتبين أنها لا تنصر غيرها، ولا تنصر لنفسها.

﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا لَهُمُ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾

الكب إلقاء الشيء على أعلاه أو على وجهه، والكبكية، تساقط الشيء في هوة بتدهور، ويقول الزمخشري: الكبكية توالى الكب، فهو يكب ثم يكب أخرى، ويتوالى الكب، وهكذا حتى يصل إلى القاع.

والفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا لا ينصرون، ولا ينتصرون، فإنهم كبكبوا فيها هم، والغاوى - الواقع فى الغواية والضلالة، أى أنه يكب فيها ما كانت تعبد، هى والذين ضلّوا، وهذا التعبير كناية عن أن من كانوا يحسبونه شفيعا لا قدرة له، وإنه يلقي فى النار ولو كان لا يحس ولا يشعر.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ الجند هو ما يستعان به فى القتال، أو مادته، وإبليس قال لربه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٧) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٨)﴾ [ص] وجنود إبليس أشخاص من الإنس، قد أشربوا فى أنفسهم شره، فكانوا له جندا، ويصح أن يكون من جنوده المطامع والأهواء والشهوات والأوهام، فكل هؤلاء يكبكبون فى النار، وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك تأكيدا لفظيا بقوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ فالنار لا يتخلف عنها عاص ولا تذره.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ

الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)﴾

كان الاختصاص بين المعبود الباطل والعابد في جهنم، وكأنا وهب الحجارة أن تتكلم وتبين، أو هو بيان للحال التي كانوا عليها وقد تكشفت الأمور، وزال زيغ الباطل، والضمير يعود إلى الكافرين الذين أزلهم الشيطان، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ جملة حالية، أى قال المشركون، وهم يختصمون مع ما عبدوهم، ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إن هنا هي المخففة من إن الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أى إنه الحال والشأن كنا لفي ضلال مبين، اللام للتوكيد، وقد أكدوا ضلالهم بها، وبأن الضلال استغرقهم كما يستغرق الظرف ما فيه، أى احتواهم، وصاروا يسارعون فى أرجائه من ضلال إلى ضلال، وهو بين واضح يدرکه العقلاء، ولكن ضاعت ألبابهم فى وسط ذلك التيه من الضلال، وقد قرروا الحق الآن، فقال: ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذ، ظرف متعلق بكنا، وإذ ظرف دال على الماضى وذكر مع المضارع لتصوير حالهم فى الماضى، والتسوية بين آلهتهم ورب العالمين. موضع استنكارهم فى ذلك اليوم لأنهم أدركوا أن هذه حجارة لا تعبد، بل يرمى بها، وهذا رب العالمين الذى خلق العقلاء جميعا، وقام على ربوبيتهم، فهو الحى القيوم اللطيف الخبير، ثم أقروا بمن كانوا خاضعين لهم، قالوا: ﴿وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ما نافية، أى ما أضلنا إلا المجرمون الذين اتبعناهم، وفى الواقع، إن الجو كله كان جوا إجراميا، فهم يترامون بالإجرام، وكان الإجرام فيهم جميعا؛ لأنهم اشتركوا جميعا فى تكوين رأى عام فاسد، يروج فيه الباطل، ويختفى فيه الحق الصاعد، فكانوا فى ضلال يترامون به، ولا يخلص منه واحد منهم.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) .

الفاء فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، وتقدير القول، إذا كان الذين صاحبونا وشجعونا مجرمين، فما لنا من شفيع يشفع لنا، ويضم صوته إلى صوتنا، ولا صديق حميم يتألم معنا، ويرفع عنا مقت ربنا، أو يشاركنا، فينقص منا ما يصيبنا من مقت وسوء عاقبة، ويتمنون نادمين، ولات حتى مندم، وعدد الشافعين، لأنهم فى الشدة يكونون كثيرين، وذكر الصديق مفردا لأن الصديق الحميم يكون قليلا، وليس كثيرا.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

الفاء أيضا للإفصاح لأنها سدت عليهم كل منافذ النجاة، فتمنوا رجعة إلى الدنيا كرة أخرى يؤمنون فيها، ويدركون الحق ويدعون له، (لو) هنا للتمني، وهو تمنى أن يعودوا إلى الدنيا كرة أخرى، والفاء فاء السببية، وأن مضمرة بعدها، أي فنكون بسبب ذلك من المؤمنين المذنبين للحق الذين لا يمارون فيه.

كان الكلام في يوم الآخرة عندما قال عليه السلام يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ولقد أشار سبحانه من بعد ذلك إلى تمة القصة، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

الإشارة إلى قصص إبراهيم، وما جاء فيها على لسان إبراهيم من بيان فضل الربوبية، والإذعان لحقها، وقد جاء في البيضاوي تلك العبارات المدركة في بيان معنى (آية) لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير، ويتبعه التأمل فيها لغزارة علمه، لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وحسن مخالفتهم ومعهم وكمال إشفاقه عليهم، وتصور الأمر في نفسه وإطلاق الوعد، والوعيد على سبيل الحكاية؛ تعريضا وإيقاظا لهم ليكون أدعى للاستماع والقبول.

ومع هذه الحجة الباهرة، والوصايا التي تقنع بذاتها، وتلزم بحقيقتها، كان أكثرهم غير مؤمنين، ولذا قال: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ وإذا كان الأكثرون غير مؤمنين، فمعنى ذلك أن المؤمنين كانوا الأقل عددا؛ وذلك لأن الشيطان يتحكم في الكثرة، ويعاون أهل الشر بعضهم بعضا.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الغالب الرحيم مع أنه القادر القاهر على كل

شيء هو الرحيم وكان رحيفا بهم في أنه لم يعجل بالعذاب، بل أمهل أهل الشر حتى يكون اليوم، وكان رحيفا بهم في أن وضع عذابا للمجرمين، لكيلا يوغلوا في إجرامهم، ففي هذا الوصف بالرحمة إنذار وتبشير؛ لأن العالم لا يقوم على المساواة بين الخير والشر، ولكل موضعه.

من قصص قوم نوح

قال تعالى :

كَذَّبَتْ

قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمْرًا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا عَمْرًا ﴿١١٠﴾ * قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
 قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي
 لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا أَنْذِرُ مُبِينٌ
 ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
 رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَاوِيَجْنِي وَمَنْ
 مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ
 ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

جاءت قصة إبراهيم بعد قصة موسى ؛ لأن موسى قاوم أشد طواغيت الدنيا
 وأهلكه الله تعالى بعد المعركة ، وذلك فيه إيذان بأن محمداً سيهزم الجمع من
 المشركين ، ويولون الدبر ، وجاء بعده قصص من إبراهيم تأديبا للعرب ، لأنه
 أبوهم الذي يشرفون بمحتده ويحتمون بمسجده أول بيت وضع للناس ، ولعلمهم
 يهتدون بهديه ، ويطيعون بطاعته ، ويتأدبون بأديه .

وجاء من بعد بقصص من قصص نوح الأب الثاني للخليقة ، وفيه ذكر شذوذ الكافرين من العرب ، ولذلك ابتداء سبحانه القصص بتكذيبهم ، ولم يبتدئه برسالة نوح عليه السلام ، فقال تعالى :

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) ﴾ .

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ابتداء القول الكريم بتكذيب قوم نوح للمرسلين ، أى أن طبعهم ، وما آل إليه أمرهم أنهم يكذبون الرسالة الإلهية على لسان رسول يبشر وينذر ، فهم لا يكذبون نوحا وحده ، وإنما يكذبون أصل الرسالة الإلهية لأنهم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة ، ولا يؤمنون بالغيب ، ولب الإيمان هو الإيمان بالغيب ، فلا إيمان لمن لا يؤمن بالغيب .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إذ ظرف للماضى متعلق بقوله : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كأنهم جابها نوحا عليه السلام ، وهو يقول لهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ بإنكار أصل الرسالة ، وكأنهم يقولون : مالنا ورسالتك ، ورسالة غيرك وقوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا للتحريض والحث علي التقوى ، وما أجدر كل منكر جبار ، أن يطالب بالتقوى ، واتخاذ وقاية لأنه يكون مغرورا ، وكل من يتدلى بالغرور ، يطالب باتخاذ وقاية ليمتلئ بالتقوى ووراء التقوى الإيمان .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أكد رسالته لهم بأن المؤكدة ، وتقديم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ أى لكم خاصة ، ووصف نفسه بالأمانة ، والأمانة تقتضى ألا يكذب على الله ، فيدعى عليه الرسالة ، وهو لم يرسله ، وتقتضى الأمانة فيما يخبرهم ، ومع الأمانة الرعاية والمحبة والإخلاص لهم ، والبر بهم .

ولأنه رسولهم الذى أرسل إليهم طالبهم بتقوى الله والطاعة فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ ؛ أى أطيعونى لأن هنا ياء المتكلم مقدره فى القول بدليل كسر النون المنبئ عنها ، طالبهم بأمرين : تقوى الله ، لأن قلوبهم جامدة جافية عن ربها ، إذ ليس فيهم إيمان بشيء ، ولا خوف من حاضر ولا غائب ، ولا علاج للنفس اللاهية الجافية إلا بالتقوى ، أو الدعوة إليها ، والأمر الثانى طاعة الرسول ، ولا سبيل لطاعته إلا أن تمتلئ نفوسهم بالتقوى ، ومهابة الله والخضوع له .

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى بسبب أن الرسول أمين لكم اتقوا الله وأطيعون .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ من لاستغراق النفي ، أى لا أسألكم على هذا التبليغ أى أجر مما يتعلق بالدنيا ، لا أسألكم جاهاً ، ولا رياسة ، ولا سلطاناً ، ولا غاية ، ولا مالاً ، ولا أى عرض من أعراض الدنيا ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إن نافية ، أى ليس لى أجر إلا عند الله تعالى ، وعبر بعلی للإشارة إلى علو هذا الأجر وهو يعلو عليكم ، ولا يمكن أن تتساموا إليه ؛ لأنه من رب العالمين الذى يدين له العالمون أجمعون بالربوبية والطاعة والخضوع .

وإذا كنت لا أجد منكم جزاء ولا شكورا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ الفاء للإفصاح ، لأنها تفصح عن شرط مقدر كأنه هو: إذا كنت أميناً لكم ولا أريد عرضاً من أعراض الدنيا ، فاتقوا الله ، وأطيعوني ، لفضل الإخلاص والأمانة - أجابه قومه على هذه الدعوة المخلصة إلى الحق بالتمرد .

﴿قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَدُنْكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الأرذلون جمع أرذل أى الذى بلغ أقصى المهانة فى نظرهم ، وهم الفقراء والضعفاء والعبيد ، وكأنهم يتخذون قوة الحق من قوة معتنقيه ، وحالهم ، ولأنهم لا يريدون أن يتساوا بهم ، ودعوة الرسل المساواة بين القوى والضعيف . والغنى والفقير ، والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع ، أى لا يقع منا اتباع لك ، بحيث نتساوى مع الأرذلين الذين اتبعوك ، وكذلك فعلت قريش مع النبي ﷺ ، لقد ذكروا ذلك للنبي ﷺ ونهى الله نبيه أن يلتفت إليهم ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٢)﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾ [الأنعام] وفى قراءة وأتباعك جمع تبع أى ليس معك إلا الأرذلون .

أجابهم نوح على امتناعهم عن الإيمان بسبب إيمان الضعفاء والفقراء والعبيد، وهذا من سخف تفكيرهم ، وتفكيرهم المادى الذى بنوا فيه تقدير الناس على أساس قوتهم المادية الجسمية ، وأموالهم ، أجاب عليه السلام بقوله:

﴿ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١١٢) **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ** (١١٣) **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** (١١٤) **إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** (١١٥) .

الاستفهام هنا للتنبيه إلى أنه لا يعلم ما كانوا يعملون لنيل رزقهم، وأنه لا يهتم به، إنما يهمه فقط إجابة دعوته، وما يحرضهم عليه من تقوى وهداية، أى أنه عليه السلام لا يهتم بالذى كانوا يعملونه وهم مستمررون على عمله سواء كانوا يمتنون صناعات صغيرة، أو صناعات كبيرة، إن ذلك لا يعنيه، ﴿ **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ** ﴾ أى ما حسابهم إلا على ربى لو شعرتهم بالحق وأدركتموه.

﴿ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ نفى عن نفسه أن يكون من شأنه أن يطرد من استجاب وآمن بالحق واستجاب دعوته، أى أنه ما أرسل لتوزيع الأعمال على الناس، إنما أرسل لدعوة الحق والإيمان، وترى أن النفى لوصفه بطرد المؤمنين، فهو نفى عن شأنه بوصف كونه رسولا داعيا إلى الحق، لا يهمه إلا استجابة دعوته.

﴿ **إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ إن نافية، أى ما أنا إلا نذير مبين، أى إلا منذر مبين، فلا يهمنى إلا بيان ما فيه الإنذار، وبيان ما فيه من تبشير، ويلاحظ أن قول نوح عليه السلام فيه تهديد لهم، ولذا اقتصر على ذكر الإنذار، ولم يذكر التبشير، مع أن أصل الرسالة للأمرين.

وقد أمر الله تعالى محمدا ﷺ وقد جوبه من المشركين بما جوبه به نوح عليه السلام، وقال الله تعالى له:

﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (٥٢) [الأنعام].

وهكذا توافقت أقوال المشركين من عهد نوح الأب الثانى للخلق إلى عهد قوم محمد خاتم النبيين، وكان الجواب واحدا أخرج قوم نوح والمبطل إذا أخرج هدد وأنذر.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ .

يسئوا من رده، وهو يحجهم بالحجة تلو الحجة، فانتقلوا من الجدل العقيم منهم إلى التهديد بالرجم بالحجارة، وقد فقدوا كل عناصر الود، وأعلنوا القطيعة وقالوا مصرين على الكفر: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ اللام هي الدالة على القسم، بأنه إذا لم ينته يكون الرجم جزاءه، وطريق معاملته، ويتنقلون من حال الرجم بالقول إلى حال الرجم بالحجارة، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ هذا جواب القسم، واللام واقعة فيه مؤكدة، والتوكيد أيضا بنون التوكيد الثقيلة، وبذلك بلغوا أقصى حدود التكذيب مع التهديد العنيف. عندئذ اتجه إلى ربه قائلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذُوبُونَ﴾ بكسر النون للإيماء إلى ياء المتكلم المحذوفة، وصدر القول بالنداء إلى ربه للإشارة بالنداء إلى طلب النصر والعون، والمدد الكريم منه جلت قدرته، وهو الذى أظلمهم بنعمة الربوبية، وقوله: ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذُوبُونَ﴾ فيه إيماء إلى أنهم كذبوه، فى حال كان يرجو إيمانهم؛ لأنهم أولا قومه، وعرفوا صدقه، وخوفه عليهم، ورفقه بهم، ورغبته لخيرهم، ومع كل هذا كذبوه وقطعوا صلته وأعلنوا عداوته، وهددوه بالرجم، وإن لم يذكره لربه، لأنه عليم بهم يرى ويسمع.

اتجه إلى ربه يدعو إلى أن يفصل بينه وبينهم: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وقد كان تهديدهم له بالرجم خطا فاصلا بينه وبينهم، وأخبره الله تعالى بقوله تعالى: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود] والفاء للإقصاص، وتقدير القول إذا كانوا كذبوك ولا يؤمن إلا من قد آمن فلا تبتئس .

والفتح معناه الحكم والفصل بالآلا يمكنهم منه، ومن آمن معه وما آمن معه إلا قليل.

وقد أجابه الله تعالى إلى مطلبه فور دعائه إليه.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ .

الفاء عاطفة للترتيب والتعقيب ، أى أنه فور دعائه أجابه ، ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أى الذين معه فى الإيمان والإذعان والتصديق وناصروه ، وإن كانوا قليلا ، وقوله تعالى : ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ الذى حمل فيه كل ما يحتاجون حتى تستوى على بر السلامة ، وهذا قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤٠) [هود].

هذه عاقبة نوح ، ومعه أهل الإيمان من قومه ، والطائعين له من أهله ، أما الباقون فقد قال تعالى فيهم : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ .

والعطف بثم فى موضعه ؛ لأن التفاوت بين الحالين ثابت ، إذ هو بعد وتفاوت بين الإنجاء والإهلاك ، ولأنه تفاوت بين غضب الله على الباقين ، ورضاه على المؤمنين ، وقوله - بعد - فيها إشارة إلى أن الغرق كان بعد صناعة الفلك ، وركوبه ، ومجىء السيول المغرقة التى كان الموج فيها كالجبال ، وغير ذلك مما هو مذكور بتفصيل فى سورة هود .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى لمعجزة قاهرة دالة على رسالة نوح عليه السلام ، وعلى قوة صبره ، وعلى إيمانه بربه ، ومع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين ، بل ما آمن معه إلا عدد قليل ، وهذا دليل على أن المعجزة الحسية التى كانوا يطالبون بها وقتا بعد آخر ، ليس من شأنهما أن تحملهم على الإيمان حملا ، إذا لم تكن النفوس راضية مرضية ، متجهة إلى الإيمان من غير معوق من سلطان أو مال ، أو غرور مبین وقوة دنيوية .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى الغالب ، والرحيم ، الذى يرحم عباده باختبارهم ، وعقاب المسئى وثواب المحسن ، وإمهالهم حتى لا يكون أمل فى رجوعهم إلى ربهم ، وإنابتهم إلى خالقهم .

عاد وهود

قال تعالى :

كَذَّبَتْ

عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا لَأَخْلُقَ الْآوَلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَكُمُوهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

إن هذه الآيات الكريمات ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴿

هى التى قدمت بها قصة نوح عليه السلام، وذكرها هنا ليس تكرارا من غير معان واضحة بينة، وهى تدل أولا على أن الكافرين بالرسول لا يعارضون الآيات، وينكرونها، إنما هم لجحودهم ينكرون أصل الرسالة الإلهية إلى البشر، فهم لا يؤمنون بالله تعالى، إذ لا يؤمنون بالغيب، وإنما يؤمنون بالأمور المحسوسة فقط، والإيمان بالغيب هو التدين، كما قال تعالى فى أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب.

وتدل ثانيا - على أن الرسل أمناء الله تعالى على خلقه، وإرشادهم وتقويمهم، كما كان يقول كل رسول: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وهم يكونون من المعروفين بالأمانة فى أقوالهم، لتكون شهرتهم بالأمانة دليلا على صدقهم ابتداء، فلا يفاجئون بما يتوهم كذبه.

وتدل ثالثا - على أن رسل الله لا مطمع لهم فى أمر دنيوى، إنما يريدون الهداية والتقوى والإيمان، وأنهم لا يرجون أجرا إلا من رب العالمين يوم تجزى كل نفس ما كسبت.

وتدل رابعا - على أن التقوى مطلب النبيين أجمعين؛ ولذلك قال كل منهم فى مبدأ دعوته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

وتدل خامسا - على أن طاعة الرسول واجبة لأنها طاعة لله تعالى، وكما قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٨٠) [النساء] وإن ذلك ليس تكرارا، ولكنه تأكيد بيان طبائع المشركين وبيان هداية الرسل.

ويظهر أن عادًا كانوا يعنون بالبناء والتشييد، ولذا قال لهم نبيهم:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١)﴾.

الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، إذ إنهم بنوا فعلا، والريع، اسم جنس جمعى لريعة، وهو الذى يفرق بينه وبين مفردة بالتاء المربوطة، أو ياء النسبة، والريع ما ارتفع من الأرض، وقيل: أبراج الحمام، لأنها تبنى على مرتفع وتكون

مرتفعة، وآية معناها علامة، وليس المراد منها آية الكون أو الكتاب، بل المراد مطلق علامة. ومعناها هنا أنهم اتخذوا علامات للطرق في الجبال أو فجاج الجبال، وكانوا يتخذونها ليهتدوا في البر وفي السير، فيتعرفوا بها للطرق حيث ساروا.

وجه العبث في بنائها أنهم يغالون في الارتفاع بها مفاخرة، فهم يعيشون، ولا يكتفون بقدر الحاجة، وكل ما يزيد عن قدر الحاجة يكون عبثا، وكل ما يدفع إلى البطر فهو عبث، أيا كان نوعه.

وذكر الزمخشري أن العبث فيها أنه لا حاجة إلى هذه العلامات، لأن تهديهم إلى الطرق، وكان لهم بها علم، وقد قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل].

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩) أي تبنون أماكن وقصورا مشيدة مصنوعة صناعة محكومة تبقى على الأزمان وتناطح الدهر، لعلكم تخلدون، أي ترجون لها أن تخلدوا فيها، والمصانع جمع مصنع، وهو مكان الصنع الجيد، والصنع إتقان العمل، ويقال للحاذق المجيد صنعٌ بفتحين، وللحاذقة المجيدة صناع، ويقال صنّاع، فالمصانع، القصور المجدد بناؤها، المزخرف طلاؤها، وكأنهم يرجون أن تكون جنتهم التي يخلدون فيها.

وقد بين سبحانه، أنهم يبنون، ويستعلون عابثين، ويبنون القصور المشيدة لعلهم يخلدون، وذلك لتكون لهم السلطة والقهر والغلب، ولذا قال في وصفهم عز من قائل:

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

الخطاب لعاد قوم هود، وهو وصف لحالهم وهو أنهم جبابة في طغيانهم، والتجبر، يدفع إلى الأذى والسيطرة بالباطل، والتدابير والتقاطع وإن هذه حالهم؛ القوى فيهم يأكل الضعفاء، فالحقوق مهضومة، والباطل رافع رأسه فيهم،

وخاطبهم، بذلك نبيه هود عليه السلام عن ربه العليم الحكيم . والبطش السطو، والعسف قتلا بالسيوف ، أو ضربا بالسياط ، والجبار المتسلط العاتي، وقد نفى الله تعالى عن نبيه أن يكون جبّارا فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ومعنى النص أنكم يا عاد طغاة جبارون إذا بطشتم عاسفين كان بطشكم بطش جبارين يسومون الضعفاء الذل والهوان .

ويجب أن تتخلفوا عن هذا الوصف الذميم، وترفقوا بأنفسكم، ولذا قال لهم هود ذاكرا عن ربه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ الفاء للإفصاح ، أى إذا كنتم كذلك غير مترفقين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أى اجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية، واجعلوا التقوى شعاركم يذهب غروركم بالقوة، وأطيعوا فيما أنقل لكم من شرع الله تعالى والنظام المحكم .

ولقد أخذ هود عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم، وأنها توجب أن يملأوا أنفسهم بتقواه خوفا من عذابه، وشكرا لنعمته ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) .

الواو عاطفة، وقد أمرهم بالتقوى عامة، وبالطاعة كذلك، وهنا يأمرهم بتقوى صاحب النعمة التى أنعمها عليهم، والذى أمدّهم بالنعم التى كانت بها قوتهم فى الأرض وقدرتهم على البطش كالجبارين، والأمر بالتقوى يتحقق بأن تمتلئ نفوسهم بتقواه وللحمل على الوقاية، وأن تكون قلوبهم خاشعة مملوءة بمهابته، ومخافته ، لا أن يكون أمرهم بورا، ولا يرهبون، ولا يقدرّون، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ علما محسوسا تروّنه، وتبجحون فيه، وما اتخذتموه قوة للبطش والظلم، ولم تتخذوه قوة للعدل وإقامة القسطاس المستقيم .

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ - أى أمدكم بكل أسباب القوة ، أمدكم بالأنعام، وهى رمز لقوة المال، وفيها رغد العيش، ومتعة النفوس، كما قال تعالى فى سورة

النحل ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٤٤) والبنون هم قوة النفر، وبها يكون السلطان القوى، وبالمال والبنين تكتمل زينة الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (٤٦) [الكهف].

فإذا كنتم تبطشون بهذا الخير أمدكم ، فاذكروا فى أوقات ببطشكم من أعطاكم ما اتخذتموه سببا ، واجعلوه سببا للتقوى وشكر النعمة .

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ والجنان جمع جنة، وهى تشمل النخيل والكروم، والعيون عيون الماء التى يكون بها سقيهم ورعيهم ، ونباتهم وكلؤهم التى ترعى فيها أنعامهم، فكل هذه نعم توجب الشكر، وتوجب امتلاء القلوب بتقوى من أمدهم بها، ومكنهم بمعاش فى الأرض جعلت لهم قوة، فلا يصح أن يبطشوا ، بل يشكرونها ، وتمتلى بخوف معطيها ، لأن من يمنح يمنح ، ولأنه يريد السعادة للناس، ولذا قال لهم : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكرهم بنعمه أولا، وأشار إلى أنهم اتخذوا هذه النعم ذريعة ليكونوا أقوياء باطشين، لا أن يكونوا شاكرين، وقد أئذرهم بعد بعذاب الله تعالى التى ينزل بمن يظلمون ويفسدون فى الأرض، فإنه لا يفسد الأرض غير الظلم والطغيان، قال الرسول الشفيق بقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ مشفقا عليكم منذرا لكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، يوم لا ينفعهم مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد أكد العذاب بإن، ويوصف العذاب بأنه عظيم لا يقادر قدره، وكان تنكيهه ليبان كبره وشدته ، وأنه فوق التقدير والوصف .

ذكرهم بالنعمة، ثم أئذرهم بالجزاء، ولكن لم يرعوا، ولم يستيقظوا، وكانوا فى عمياء ضالة ، ولذا رأوا هذا وقالوا:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (٢٣٦) إِنَّ هَذَا إِلا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (٢٣٧).

الوعظ يجمع بين معنى التذكير بالخير، وإثارة النفس إلى الخير، والزجر المقترن بالتخويف، وقد جمع كلام نبي الله هود على المعنيين، فهو أولا ذكرهم بالنعم التي هي خير محض، ثم أُنذَرهم بالعذاب الشديد، فقالوا مصرين على ما هم عليه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ، أى تساوى عندنا حالك إذا كنت الواعظ المذكر بالنعم، والمنذر بالنقم، أم لم تكن من الواعظين، بأن تركتنا فى أمورنا، وحالنا.

ولم يكتفوا بذلك بل تهجموا على ما يدعو إليه ، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ وإن نافية، أى ما هذا إلا خلق الأولين، وفى النص الكريم قراءتان: إحداهما - بضم الخاء واللام ، والمعنى على هذا يتضمن أولا أن ما هم عليه من شرك، وقد اتبعوا فيه آباءهم، كما قال المشركون، وجدنا عليه آباءنا، ويتضمن ثانيا أن ما هم عليه من بطش جعلهم جبارين هو خلق الأولين من قومهم، ولذا عبروا بخلق بدل دين ليشملهما معا.

والقراءة الثانية هى خلقُ بفتح الخاء وسكون اللام، ويكون المعنى إن هذا الوعظ إلا ما اختلقه الأولون وافترأهم، كما قال المشركون عن القرآن الكريم، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام].

ولشدة غرورهم وعظم تكذيبهم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ الباء لتأكيد نفى التعذيب، وإن ذلك النفى يتضمن ثلاثة أمور: أولها - أنهم لغرور يقررون أنهم لا يعذبون، وليس من شأنهم أن يعذبوا ، ويتضمن ثانيا إنكار البعث وتلك خلة الكافرين، ويتضمن ثالثا ، أنه إن كان بعث فلن يكون العذاب نصيبهم ، بل تكون حالهم فى الآخرة هى حالهم فى الدنيا ، ذلك ما يأفكون به ، وهم الضالون.

ولقد كان الهلاك هو نهايتهم، ولذا قال تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ .

- الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتب على ما قالوا الحكم بتكذيبهم، والفاء الثانية عاطفة للترتيب والتعقيب، أى عقب تكذيبهم، فأهلكوا بريح صرصر عاتية، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ ، أى إن فى هلاكهم بعد التكذيب، ونفيهم للتعذيب والبعث، وبطشهم وقوتهم وغرورهم لآية دالة على قدرة الله تعالى، وأنه يأخذ الظالمين فى قدرتهم، ولا يعجزون الله، فما كانوا معجزين.

ثم حكم الله تعالى عليهم باستمرار كفر أكثرهم، وكانوا بذلك مستحقين لما نزل بهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فما كان الهلاك للمؤمنين بل كان للكثرة الكافرة، وما أغنى عنهم طغيانهم وبطشهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ، والخطاب للنبي ﷺ لهو العزيز الغالب الذى هو فوق كل شيء، الرحيم فى أحكامه، وإمهاله، ومن رحمته ألا يتساوى المحسن مع المسيء، ولا الأعمى والبصير، والله هو العليم الحكيم ، وقد أكد سبحانه وتعالى عزته ورحمته بآن المؤكدة ، وباللام، وبضمير الفصل ، وبأنه وحده المختص بالعزة والرحمة.

وقد كان سبحانه يعقب قصة كل نبي بهاتين الآيتين.

صالح وشمود

قال الله تعالى :

كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
 لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالَتُنْقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ
 إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَاءَ آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾
 فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
 وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
 هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
 بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا
 نَدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ رَيْتَ لَهُوَ الْعَرِيزَ الرَّحِيمَ ﴿١٥٩﴾

ابتداء الله تعالى قصة صالح مع ثمود بما ابتداء به قصة نوح وإبراهيم ، وعاد
 قوم هود ، من بيان أنهم يكذبون المرسلين ، وكأنهم لا يؤمنون برسالة الله تعالى
 إلى أهل الأرض ، ويأن الرسول أخوهم ومنهم كشأن الرسل دائما يرسلون إلى
 أقوامهم ، وإنهم يعرفون بالأمانة والصبر بينهم ، وإن أول مطلب لهم منهم

يقربهم إلى الله زلفى هو أن يملشوا نفوسهم بالتقوى ، حتى يعمر قلوبهم بالإيمان به ، ويتعدوا عن التمرد ، ويتقلوا من طريق الشر إلى طريق الخير ، فيأمرهم بتقوى الله وطاعته ؛ لأن طاعته طاعة الله تعالى ، وقد أشرنا إلى ذلك فى معنى الآيات الأولى لقصة هود وعاد ، وهذا هو معنى الآيات الخمس الأولى من قصة صالح وشمود ، وهى قوله تعالى :

﴿ كَذَبَتْ شُؤدُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ۞ ﴾

ابتداً سبحانه وتعالى بأن خاطبهم أخوهم صالح ، يذكر لهم أنهم قد أوتوا نعماً ، فلا يمكن أن يتركوا هملاً من غير مسئولية على ما حملوا من نعم ، فبقدر النعمة تكون النعمة ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ۞ ﴾ [المؤمنون] فقال لهم ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۞ ﴾

أتركون - الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى نفى الوقوع ، أى لا تتركون فيما هاهنا ، أى فى هذا المكان آمين ، أى لا تتركون فى هذا المكان آمين من الموت والحساب والعقاب أو الثواب إن حبستم أنفسكم ، ولكن الموت حق عليكم وهو يأتيكم بكل الأسباب ، وذلك يستدعى أن تفكروا فى عواقب أموركم ، ولا تحسبوا أنها نعمة لا حساب عليها ، ولا عواقب تعقبها ، إن خيراً فالنعيم بعدها ، وإن شراً فالعذاب الأليم من ورائها .

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ ﴾ الجار والمجرور متعلق بترككون ، أو بآمين ، والجنان جمع جنة والعيون عيون الماء المشمرة كما أشرنا من قبل ، والجنان الأشجار الباسقة من كروم ، وتفاح ورماني وغيرها ، وزروع ، جمع زرع وهو النبات الذى يكون منه الحب المتراكب ويتغذى منه الإنسان ، والذى يكون منه السنبال من قمح وأرز وغير ذلك من النعم التى أنعم بها على الإنسان فى غذائه ، ويشمل النبات والحشائش التى تكون كالأعنام ، وخص النخل بالذكر ، لأنه كان غذاء العرب ،

حتى سمي العرب أمة التمر واللبن، وكان ذكره بعد النبات لبيان إنعام الله تعالى على الإنسان بالغذاء بكل أنواعه، فأهل المدر غذاؤهم من النبات ذى الحب المتراكب، وفري السنابل، وأهل الوبر غذاؤهم من النخل فى أكثره، والله هو المنعم للفريقين.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا هَظِيمٌ﴾ يعود على النخل ؛ لأن النخل أنثى ، أو لأنه جمع ما لا يعقل، إذ النخل اسم جنس جمعى للنخلة ، ويفرق بين المفرد والجمع بالتاء أو ياء النسب ، وقد فرق بينهما هنا بالتاء.

والطلع ، ما يطلع من جوف النخل كنصل السيف، والهضم اللطيف المنضم المتلاصق فى وعائه فى الجوف قبل أن يظهر ، وهو اليانع النضيج، وهذه الأوصاف تكون بحسب الحال ، وبحسب المآل إذ يكون منه البلح الرطب، وأجود التمر.

بعد ذلك ذكر نعمة عليهم ، ولهم فيها عمل بتهيئة الأسباب، فقال تعالى: ﴿وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ فى فارهين هذه القراءة، وفيها قراءة أخرى فَرِهين، وكلاهما بمعنى واحد، ولا اختلاف فى المعنى بين القراءتين، أى يبنون فى الجبال بيوتا ، لا بلبنات ينقلونها، بل بنحت فيه تسوية وبرد ، وإذهاب أجزاء وإبقاء أجزاء ، ﴿فَارِهِينَ﴾ حال ومعناها حاذقين متحصنين بها معجيين متجبرين.

وهذا الكلام من الله سبحانه وتعالى يفيد أنهم فى نعم بما فى الأرض من جنات وعيون، وزروع ونخل طيب ويوت تنحتونها وتسوونها من الجبال، ويحسبون أنهم متروكون ويأكلون ويشربون ، ويتلهون متجبرين عابثين.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٥) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥٦) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٧)﴾.

الفاء هنا للإفصاح، أى إذا كنتم على هذه الحال من النعم التى أحاطت بكم، فاتقوا الله، أى فاملثوا أنفسكم بتقوى الله ومهابته شكرا للنعمة، وتوقعا

لحساب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأطيعونى فيما أنقل إليكم من شرائع ربكم التى فيها استقامة أموركم، وصلاح أحوالكم.

وإن الناس هم الذين يفسدون الناس ، ويخلقون فى الأرض أجواء فاسدة ، وأولئك هم المسرفون ، ولذا قال بعد هذا ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ .

والمسرفون هم الذين يخرجون بطبيعتهم البشرية عن حد الاعتدال، إلى حد الإسراف، فيسرفون فى شهواتهم حتى يصيروا عبيدا للشهوات، ويسرفون فى أوهامهم، فيحسبون ما تدفع إليه الأوهام حقيقة، وليست إلا وهما باطلا، ويسرفون فى طلب السلطان فلا يحسبون أنه لإقامة العدل والقسطاس المستقيم، ويسرفون فى القوة فلا يحسبونها لحماية الضعفاء ، بل يظنونها للاستعلاء والاستكبار عليهم ، وليجعلوهم عبيدا أذلاء.

وهكذا كان المسرفون مفسدين لنفوسهم ولمجتمعهم؛ ولذا قال تعالى فى وضعهم العام : ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ .

وصف الله تعالى المسرفين فى ذات أنفسهم أنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، ذلك بأنهم بإسرافهم على أنفسهم فى شهواتهم ، وقواتهم ، وغرائزهم يميلون إلى الأثرة فيجعلون كل ما وهبهم الله لأنفسهم، وليس لغيرهم حق من الحقوق، فيكون الاعتداء الظالم، ويكون التغالب لسيطرة الباطل، وهضم الحقوق، وأى فساد للناس أكثر من أن يكون قانون الغابة هو الحكم بين الناس ، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١) [البقرة] فالمسرفون يفسدون دائما ولا يصلحون ، قرر الله لهم وصفين : إيجابى، وهو الفساد المترتب على إسرافهم، والوصف الثانى سلبى فقال : ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أى لا يمكن أن يكون منهم إصلاح كالذى يدعيه الطغاة من الحكام، والأقوياء من الأمراء من أنهم يصلحون بين الناس، وإن الوجود فى حاجة إليهم، ولا نشعر، فهذا النص السامى يرد كلامهم فى أعناقهم ، إلا أن يخرجوا عن إسرافهم فى نفوسهم ، وعلى مجتمعهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ﴾ بدل من المسرفين، أو عطف.
ونلاحظ ملاحظة بيانية، وهى أنه تعالى عبّر عن الإسراف بالوصف للإشارة إلى أن الإسراف إذا استمكن فى النفس ترتب عليه ذلك الفساد وعدم الإصلاح.

وبماذا أجاب المشركون تلك الموعظة الهادية الزاجرة

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)﴾.

يظهر أن هذا القول الطيب سرى فى نفوسهم، ولكنهم بدل أن ينطقوا بالحق ويدعنوا له نطقوا بالباطل، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ المسحر هو الذى أوتى علم السحر، فكانت له قدرة على الإتيان بالقول الخادع الذى يوجد تخيلات الحق وليس بحق، وإنك بهذا التسخير الذى علمته تصرف الأنظار عن الحق، فتسحر فكر الناس كما يسحر الساحر أعين الناس ويسترهبهم بفعله، وقولهم هذا فيه قصر له على أنه من المسحرين، وذلك لأن (إنما) من أدوات الحصر، ولقد رمى المشركون كتاب الله تعالى، فقالوا إنه قول ساحر.

وأكد ذلك بقولهم من بعد كما أكدوا جحودهم بقولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أى لا يمكن أن تكون رسولا، لأنك لست إلا بشرا مثلنا، وكذلك قال المشركون لمحمد ﷺ، قالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (٧)﴾ [الفرقان].

أى أنه لا يكفى لإثبات رسالتك ما قلت ما دمت بشرا مثلنا فأت بآية، أى دليل يدل على أنك رسول من قبل رب العالمين إن كنت من الصادقين، ويظهر أنهم كانوا زراعا، ذوى أنعام وإبل، فجاءت المعجزة من قبل ما يألّفون، ويربّون، وهو أنه أتى لهم بناقة هى ناقة الله، وقد كان على علم بالجمال وخواصها، وخصوصا إنائها كما كان قوم فرعون على علم بالسحر، يعلمون ما هو سحر، وما ليس بسحر، كذلك هؤلاء يعلمون ناقة الله من بين نوق البشر، قال لهم صالح.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)﴾.

الشرب الحظ من الماء المشروب، وهذا هو حق الشرب، والشرب في اصطلاح الفقهاء حظ الزرع من الماء، والمراد قدر شرب الناقة، وقوله: ﴿وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى أن لهذه الناقة المخصوصة شرب يوم معلوم ولكم شرب يوم معلوم.

وهذه الناقة ناقة مولودة كسائر النوق، أم أن الله تعالى أتى لهم بناقة خاصة لم تولد مثل سائر النوق؟، ظاهر الآية أنها ناقة ولدت كسائر النوق، ولكن كان لها خواص معلومة، ففي شربها تشف شربها ولا تبقى منه شيئا وتدر في آخر النهار لبنا خالصا سائغا للشاربين، والإعجاز، فى هذا، ولكن روى عن ابن عباس أن الله تعالى جعل لهم ناقة خرجت من الجبل حمراء عشاء قد مضى لحملها عشرة أشهر ترد الماء فتشربه، وتأتى بقدره تماما لبنا، وهو كلام مقبول إذا ورد عن المبعوث محمد ﷺ، فهو مبين القرآن وموضحه ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل] وإنى أميل إلى أن أترك النص على عمومته، ولكن لا بد أن نفرض أن لهذه الناقة خواص وصفات فيها ما يبهر العقول، ويوجه الأنظار إلى قدرة الله تعالى، وليكن من خواصها أن تشرب الماء فى الغداة وفى العشى تعطى لبنا بقدره، وهذا دال على قدرة الله تعالى، وعلى أنها آية من آياته لها دلالتها وإعجازها وإثبات رسالة صالح عليه السلام.

وإذا كانت ناقة لها صفة المعجزة وأنها دليل الرسالة، فإنه يجب إشعارها بصفة خاصة بها، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. نهوا عن أن يمسوها بأى سوء أو أذى، لأن الله حارسها وحاميتها، وهى معجزة نبيه، ولأن النفس الطيبة لا تؤذى الطيب، وهذه ناقة تشرب الماء فتحوله إلى لبن بقدرة الله تعالى وعلمه لإظهار معجزة نبيه، وآية نبوته، ولكن الوسواس الخناس يجرى فى الدم البشرى. واليوم العظيم- ووصفه بالعظيم لعظم العذاب فيه، وهو يوم فى الدنيا بهلاكهم بسببه، وفى الآخرة بالعذاب المقيم لعصيانته، إذ يلقون فى الجحيم.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أى نحروها ، وذلك لوسوسة الشيطان لهم ؛ ولأن النفس تحاول معرفة الغريب من الأشياء ، وهى مولعة بالغريب من الأمور ، ولقد كان وجودها بينهم فوق أنها دلالة النبوة ، ومعجزة النبی مثيرة لاستغرابهم ، وحملهم على الضبط ، فلما عقروها ، وقدروا خواصها ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على فعلتهم ، لما فاتهم من خيرها ، ولأنهم رأوا خواصها ، ولأنهم توقعوا العقاب الأليم بعدها ، ولذا قال تعالى فيهم : ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ، أى أن الندم استغرقهم ، وصار حالا دائمة لهم .

والعاقر بلا ريب بعضهم ، ولكنه برضاهم ؛ لأنهم لم ينهوه ، فنسب الفعل إليهم ، لأنهم لم يتناهوا عن هذا المنكر الذى نهوا بالنهى عنه تنبيها شديدا وأنذروا بعذاب يوم عظيم .

ولم يمنع الندم العذاب عنهم ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى أن العذاب سيطر عليهم كأنه أخذهم إليه أخذا . وقال الحافظ ابن كثير فى هذا العذاب : هو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديدا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا فى ديارهم جائمين .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة إلى الناقة وهى معجزة ، وعقرها ، ونزول العذاب بعده ، وهذه كلها آيات بينات على نبوة صالح ، وعلى قدرة الله الباهرة ، وعلى فرض الضلالة الظاهرة .

ومع هذه الآيات ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بل كان المؤمنون هم القلة الظاهرة ، لأن إبليس يجرى فى نفوس أتباعه مجرى الدم ، والله بكل شئ عليم .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ ليسليه بهذا القصص الحكيم المشتمل على العبر ليصبر كما صبر قبله النبيون ، وليعلم أن المعجزات الحسية لا تتبعها الهداية الختمية ، والقرآن هو المعجزة الكبرى ، وإن لم تكن فى إعجازها حسية ، والعزیز هو الغالب القوى العليم بالنفوس وشقوتها وسعادتها ، وهدايتها وضلالها .

قصة لوط وقومه

قال تعالى :

كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ
 ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
 أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ
 مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنلُوطُ
 لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
 رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مَعَ الْعَامِلِينَ ﴿١٦٩﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
 إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
 مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

الآيات الخمس في قوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ .

قد ذكرنا أن هذه الآيات الخمس الحكيمة تنبئ أولا - عن أن الضالين يسارعون إلى التكذيب، وينكرون رسالة الله إلى أهل الأرض، يدل على ذلك ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وكذلك قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط .

وتدل ثانيا، على أن الرسول يكون من بينهم، ولذلك عبر عنه بأنه أخوهم وقبل ذلك فى نوح وهود وصالح ، ويقال فى لوط أيضا .

وتدل ثالثا، على أمانة من أرسل إليهم، وأنهم عرفوا بين أقوامهم بذلك، وتدل رابعا، على أنهم لا يطلبون أجرا من جاه أو من مال إنما يطلبون الأجر من عند الله وحده .

وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، وقد خاطب بعد ذلك نبي الله لوط قومه مستنكرا أفعالهم، فقال عليه السلام فيما حكاه الله عنه من ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

الذكران جمع ذكر كذكور، ولكن جاء النص كذلك ليكون تشبيها أشد ، وأحسب أنه لا يكون ذكرانا جمعا إلا لذكور الإنسان، وفى التعبير ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ كناية لطيفة، والاستفهام لاستنكار الواقع بمعنى التوبيخ وبيان شناعة العمل، لأنه ضد الفطرة، وعبر بالإتيان كإتيان الرجل المرأة ، ولكنه فى دبره، فهو إفساد للفطرة، وأحسن من عبّر عنه بالشذوذ الجنسى؛ لأنه دليل على فساد الفطرة وشناعة الفعل فى ذاته، وقوله تعالى ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى من أهل المعرفة والعلم ، ولا يرضى بذلك إلا من هو أشد فسادا من الفاعلين، وإن ذلك يشيع ويكثر كلما فسدت الفطر، وقد كثر فى الماضى فى قوم لوط، وكثر فى الحاضر فى أهل أوربا وأمريكا، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإنهم ليتركون الفطرة، ولذا قال تعالى: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ تذرون ، فعلها الماضى لا يذكر ، ولكن الزمخشري ذكره فى كتابه أساس البلاغة ونص على أنه يقال: ذروا هذا الأمر، فيقولون وذرناه .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ تدل على الترك والإهمال، وتلك إحدى الكبر، كأنهم يرتكبون أمرين: أولا الفعل مع الذكران، وإهمال الأزواج، ولذلك قالوا إن التعبير بـ ﴿ تَذَرُونَ ﴾ أبلغ من تتركون، والآية تدل على أن الفطرة

هى ما يكون مع الأزواج ، والآخر ضد الفطرة ، ثم صرح الله تعالى بأنهم ظالمون وعادون ، فقال عز من قائل: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ بل للإضراب الانتقالي بأن انتقل من وصف عملهم الآثم ، إلى وصف أشخاصهم ، و(عادون) جمع عاد ، وهو الظالم المعتدى الذى تجاوز الحد ، فقد تجاوزوا حد الفطرة ، وخرجوا عليها ، وشذوا عن الإنسانية .

بعد هذه الموعظة الزاجرة ، أجابوه إجابة الغواية الفاجرة ، هددوه بالرجم (كما ورد فى آية أخرى) أو الإخراج من البلد والنفى فى مكان بعيد ، كما فى هذه الآية .

﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لَوْطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) .

قالوا مصممين موثقين قولهم باليمين ، ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهَ﴾ اللام هى اليمينية ، أى أقسموا بما يقسمون به إذا لم تنته ، وكان النداء لتأكيد أن الخطاب له ، ولم تكن لمودة بجمعهم ، إنما هو لنفرة شديدة لتفرقهم ، لأنه يحول بينهم وما يشتهون من خروج على الفطرة والطبع الإنسانى ، والمقسم به لتكونن من المخرجين أو المرجومين ، واللام واقعة فى جواب القسم ، وقد أكدوا الإخراج أو الرجم بها ، وبأن يصير فى عداد المرجومين أى أنه يرجم ويقبر ، ويكون فى عداد الأموات الذين يموتون بالرمى بالحجارة ، حتى ماتوا ، وأكدوا الرجم أيضا بتون التوكيد الثقيلة وكذلك التأكيد على إخراجه فيكون بعيدا عنهم ويرتاحوا من مواعظه .

وكانوا فى فجورهم الذى لجوا فيه واستمرءوه ، وهو لا يستمر إلا عند ذوى الطباع الشاذة الخارجة عن الفطرة وهم فاسقون أقوياء جبارون ، فلم يسع نبي الله إلا أن يعلن استنكاره لفعالهم الذى يجافى الفطرة الإنسانية .

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ .

عملهم هو هذا الفجور الذى أصروا عليه ولم يتركوه ، وأرادوا قتل النبي الذى بين قبحه لهم بأقبح وأفجر قتلة وهو الرجم ، أعلن النبي الأمين بغضه الشديد له عساهم يرتدعون ، أو يقلعون عنه إن كان فيه بقية من الإنسانية قال

لهم: ﴿إِنِّي لَمَعْلُكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أى المبغضين له بغضا شديداً، يقال قلى فلان الأمر أبغضه بغضا شديداً وعافه وقدم الجار والمجرور لعظيم النفرة من عملهم، وقد أشار إلى أن الناس جميعا يبغضون ذلك؛ لأنه مناف للفطرة، بقوله: ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ أى المبغضين له بغضا شديداً، أى اجعلنى فى تعداد الناس الذين استقبحوه ونفروا منه .

ولقد علم عقبى فعلهم، والأثر السيء الذى يعقبه ، فقال:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ .

انجبه إلى ربه ضارعا أى مناديا ﴿رَبِّ﴾ أى كالتى ومن يحميني، ومن أنعم على بربوبيته وكلايته، نجنى وأهلى مما يعملون، أى من أثر ما يفعلون من معصية تخر لها الجبال الشواهق، فإنه قد نجاه فعلا من هذه الفعلة الفاجرة، لأنه قلاها وأبغضها، إنما الذى يضرع إليه، أن ينجو من آثار هذه الفعلة الشنعاء ، وقد أجابته الله تعالى إلى دعائه فقال:

﴿فَنَجِّينَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣)﴾ .

فنجاه الله تعالى من أثر هذه الجريمة الفاجرة، وعقوبتها الصارمة هو وأهله أجمعين إلا امرأة عجوزا كانت فى الغابرين وهى امرأة لوط ، فقد كانت فيها ممالئة لهم ، ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى الذين ردغوا فى حماة الرذيلة ، وقد أمطر الله عليهم مطرا من الحجارة ، فساء، أى ما أسوأ من هؤلاء المنذرين، وقد ذكر سبحانه العقاب تفصيلا فى سورة هود فقال عز من قائل فى لقاء الملائكة وأعقابيه .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ

مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكُ أَنْهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ
عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ .

هذه كانت آيات الله تعالى لآل لوط، وما آمن أكثرهم ، ولذا قال تعالى :
﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ .
أى إن فى ذلك الإهلاك الذى أهلكهم به ، وما كان لهم من مواعظ زاجرة
لآية منبهة مرشدة لهم وللمشركين من بعدهم ممن يعاصرونكم ، وبيان لأن الفساد
والطغيان مرتعه هلاك لا ريب فيه ، وما كان أكثرهم عند هلاكهم مؤمنين ، فالله لا
يهلك المؤمنين بجزاء من عنده ، ولكن يهلكون باعتماد البشر إن لم يتخذوا
الأسباب والله ناصرهم ومؤيدهم .

وختم آيات قصة قوم لوط بما ختم به قصة إبراهيم ونوح وهود وثمود ببيان
عزته ورحمته وربوبيته فقال~ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أكد عزته ورحمته بذكر
أن ذلك من مقتضى الربوبية ، وأنه غالب ، وأنه رحيم فى إمهاله ، وأن يفرق بين
المحسن والمسيء كما يكون الفرق بين الأعمى والبصير ، والظلمات والنور .

شعيب وأصحاب الأيكة

كَذَّبَ أَصْحَابُ

لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
 مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
 فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يُّومِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

الأيك الشجر الملتف واحده أيكة ، والمراد أصحاب الشجر الملتف الذي صار
 أيكة يعاش في ظلها ، ونرى سيدنا شعبيا نبي الله أحيانا يذكر أنه بعث إلى مدين
 قومه ، وأحيانا يذكر أنه بعث لأصحاب الأيكة ، ويظهر أن المؤدى واحد ، لأن
 مدين كانت تسكن حول هذه الأشجار الملتفة ، فهي متفّع بها ، وذكرت الأيكة
 دون مدين لأنها موضع نعمتهم ، وقال بعض المفسرين إنه بعث إلى أمتين مدين
 وأصحاب الأيكة ، وإنى أميل إلى الأول ، وهو الأوضح الذى يسبق إلى الذهن .

والآيات الخمس من قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧٦) إِذْ
 قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) .

قلنا من قبل إن هذه الآيات تصور وحدة الشرك فى أنه لا يؤمن بالرسالة
 الإلهية ، وأنهم ينكرون أن يكون الرسول بشراً ، كما يبدو من جحودهم ، وأن
 الرسول يكون منهم ، وأنه معروف فيهم بالأمانة والصدق ، وأنه كان محل صدق
 عندهم ، لا يكذبونه ، وأنه بهذه الأمانة والثقة والإرسال من الله تعالى يدعوهم ،
 وأنه لا يطلب جاها ولا مالا ، ولا ملكا ، وإنما يطلب الجزاء والرضا من الله

تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى ليس أجرا إلا ما يكون من الله تعالى، بثواب من عنده، ورضا من لدنه، وهو أكبر من كل جزاء.

ابتدأ شعيب دعوته فى قومه بعد ذكر الأمانة التى توجب التصديق، فقال:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾.

يظهر أن مدين أو أصحاب الأيكة كانوا قوما تجارا، وإن الشرائع السماوية جاءت لمنع الاعتداء على المال، وعلى الأنفس، وإذا كانوا تجارا، كأهل مكة فإن أخص ما يدعون به ألا يطففوا الكيل والميزان، ولذا كانت أخص دعوة شعيب بعد التوحيد ألا يطففوا الكيل والميزان حتى لا ينالهم الويل الذى هدد به فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين].

قال شعيب لقومه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾.

أوفوا الكيل، أعطوه فى معاملتكم وافيًا، كامل الوفاء غير منقوص، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ المخسر هو الذى ينقص المكيال، فيدفع معاملته إلى الخسران، بالأى يخسره ولا يعطيه حقه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أبلغ فى الدلالة من ولا تخسروا، لأن معنى لا تكونوا من الطائفة التى اعتادت الإخسار، لا تكونوا فى صفوفهم فتصاب تجارتكم بالكساد، لأن الناس لا يقبلون على الشراء، إلا بمن استقام فى طريقته، وأعطى المتعاملين حقوقهم، ولأن الإخسار أكل مال الناس بالباطل، ولأنه ظلم، والظلم نتيجته وخيمة دائما.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾

القسطاس، الميزان الذى يوزن به، ومعنى ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾، أى زنوا بالميزان المستقيم الذى لا يظلم فى ميزانه، بل يكون فى اعتدال واضح، وهو

يتضمن نوعين من النهى : أولهما- ألا يكون الميزان غير منتظم فى رفعه وخفضه ،
والثانى- ألا يعتمد الخلل فيه ، فيخفضه ويرفعه كما يريد كما يكتال ظلما ، وكما
يكيل ظلما ، وإن ذلك إفساد للثقة التى هى أساس التعامل العادل ، وأكل لمال الناس
بالباطل ، وظلم مبین ، وإفساد للعلاقات الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض .

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

الأموال من حيث تقديرها تنقسم إلى قسمين : أموال مثلية وحداتها متحدة
فى القيمة إذا توافر اتحاد الجنس والنوع والصفة فى جودة أو رداءة ، وهذه تقدر
بالكيل أو الوزن ، وقد نهى سبحانه على لسان نبيه شعيب عليه السلام من
التطفيف فيها .

والقسم الثانى أموال قيمة لا يحد قيمتها الكيل والوزن ، ولكن يحد قيمتها
تقويم المقومين ، وهنا يجرى فيها البخس والشطط ، ولقد نهى سبحانه فى هذا
النص عن البخس بأن تقوم بأقل من قيمتها ، وكل نقص فى القيمة هو نقص فى
المالية فىكون فيه الظلم ، وأكل أموال الناس ، ولذا قال الله تعالى على لسان
شعيب .

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾

أى لا تنقصوا قيمة ما عند الناس ، والمعنى الظاهر لا تبخسوا أشياء الناس ،
ولكن عبر ذلك التعبير القرآنى السامى العميق لفائدتين جليلتين - أولاها - أن
بخس قيم الأشياء بخس للناس أنفسهم ، فمن بخس تقدير القيم ، فقد ظلم ،
وأعظم الجريمة . الفائدة الثانية - أن فى ذلك إبهاما ثم بيانا ، فىكون ذلك توكيدا
للمعنى فضل توكيد .

وبعد أن نهى عن تطفيف الكيل والميزان ، وبخس قيم الأشياء . نهى عن
الاعتداء بشكل عام ، فقال عز من قائل :

﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

وذلك يشمل إفساد زرع غيره، أو منع الماء عنه، أو إتلافه ، أو ألا يعطيه حقه من الماء، أو ما يجرى بين المختلطين من مساحة، والعثى أو العثو ، الفساد النفسى أو المادى، وغيل إلى العثى النفسى، والمعنى القصد إلى العثو مفسدين حال مؤكدة لمعنى العثو، لأن العثو يؤدى إلى الفساد فى الجماعة ، فيستقاطعون، ويتدابرون.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾

الواو عاطفة، أى خلقكم وخلق الجبلية الأولين، والجبلية الجماعات المجبولة على سير وأخلاق سبقوا إليها ، سواء أكانت خيرا أم كانت شرا، والسياق يقول اتقوا الله، واملئوا قلوبكم بالخوف منه، أنتم والذين سبقوكم، وجبلوا على ما سلكوه واتبعوه، والأمر بالتقوى لهم، ولمن جبلوا عليه، ليصادرهم فى دعواهم، إنهم يتبعون ما كان يعبد آبائهم، فالتقوى مطلوبة منكم، ومن سبقوكم ، وإن كانوا يجأرون بالشرك فإنهم مطالبون بالتقوى كما تطلبون.

دعاوى واضحة فى إقامة العدل فى المعاملات الإنسانية التى تقوم عليها المعيشة ليستقيم أمر الناس فى هذه الحياة العاملة الكادحة، والتى يقرها أهل العقول جميعا، ولكن قومه يقولون متمردين:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُنْظُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

المُسَحَّر - الذى سحر أى صار مسحورا بقوة ، والتضعيف لتشديد وقوعه تحت السحر، كما قال تعالى عن بعض الرسل ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا (٤٧)﴾ [الإسراء] وقيل : المسحَّر الذى يملأ سحرته وهى الرئة، وبذلك يشيرون إلى أنه محتاج إلى طعام يأكله ، ولذا كانت كل أوامره فى الكيل والوزن.

والأول هو الواضح الأوضح، وأكثر الأنبياء لقوة نفوسهم، وسيطرتهم على العامة من أقوامهم رموا بالسحر، وقد رمى به محمد ﷺ، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أى لست أنت إلا بشرا مثلنا، وكيف تكون من بيتنا رسولا ونبيا ، أى أنه فى نظرهم لا يكون الرسول منهم أو مثلهم يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون، وذكروا النتيجة ، وهى أنه ما دام منهم أو مثلهم فليس نبيا، ولذا قالوا بعد ذلك ﴿وَأَنْ تَنْظُنَّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة ، واسمها هو ضمير الشأن والحال أى إنه الحال والشأن نظنك لمن الكاذبين، والدليل على أنها مخففة من الثقيلة اللام فى قوله تعالى لمن الكاذبين، وقد أكدوا رميهم له بالكذب بـإن وباللام، وبعده فى صفوف الكاذبين البهاتين.

والظن هنا معناه العلم القطعي، ولكن عبروا بالظن أو باقى القول ، وإن أرادوا العلم، وكان من أدب العرب فى القول أن يؤثروا الظن على القطع ، وإن كانوا ظالمين.

وطلبوا معجزة، فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

الكسف، جمع كِسْفَةٍ أى قطع من السماء، فلم يطلبوا رسالة مع ملك أو نحو ذلك، بل كانوا قساة من طبعهم ماديين، طلبوا أن ينزل عليهم قطعا من السماء ، وقد أشبههم فى هذه من بعدهم كفار قريش، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَآبِ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) [الأنفال] وإن ذلك أشد الحمق وأفحشه ، فكانوا مثلهم.

أجابهم الله تعالى بعذاب شديد من جنس ما طلبوا وهو سحابة كانت من ورائها صيحة شديدة، فكانوا فى ديارهم جاثمين، ولقد قال لهم نبي الله مفضا الأمر إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه الجملة السامية فيها تفويض وتهديد، أما التفويض فهو أنه قال: ربي أعلم بما تعملون ، فهو يفوض الأمر لله سبحانه.

وأما التهديد فهو أيضا فى هذه الجملة السامية من حيث إنه يعلم وحده بكافة ما تعملون من تطفيف فى الكيل والميزان ، وبخس للناس أشياءهم وعثو فى

الأرض فسادا بالاعتداء على حقوق العباد وأموالهم فى زرع يزرعون، و غرس يغرسونه، وماء يسقون به زرعهم، ما يعثون فيه بفسادهم وظلمهم وضلالهم. وقد جعل الله تعالى عقابهم من جنس ما طلبوا، إذ طلبوا كسفا من السماء.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ للإفصاح، أى إذا كنت مرسلا وأنت بشر مثلنا، ﴿فَأَسْقِطْ﴾ وهو طلب دال على الاستهانة بالرسالة. أنزل الله العذاب من جنس ما طلبوه، فقال:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾.

الظلة السحابة التى تكون مظلة لما تحتها، وقد تكون ذات حرارة شديدة، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وإن السحابة إذا كانت حارة فيها نار يكون العذاب شديدا، والألم مريرا، لأنه تكون النار حيث يرجى الظل لا الحرور، وقالوا إنه فى يوم الظلة أحسوا بالحر، فلجئوا إلى ظل سحابة، فكانت الظلة القاتلة، ووراءها الدمار، فأصبحوا فى عذاب وبذلك كان العذاب الساحق الماحق من جنس ما طلبوا، وهو كسفا من السماء.

وكانت هذه آية من الله مرشدة هادية لمن يعيشون مثل عيشهم ظلما وعدوانا، وأكلا لمال الناس بالباطل والعدوان، والعثر فى الأرض فسادا، وهى دالة على أن شعيبا كان يدعوهم بالحق، وهم المبتلون.

وإذا أنزل عليهم هذه الساحقة ما أنزلها علي كثرة مؤمنة، بل أنزلها على كثرة فاسقة ضالة ظالمة، ولذا قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وإن ربك الكالى الحافظ القائم على خلقه برؤيته هو العزيز الغالب القوى الرحيم الذى يرحم عباده، ولا يسوى بين المحسن والمسيء، وقد أكد سبحانه عزته ورحمته بإن، وباللام ويضمير الفصل.

القرآن عربي مبين

قال تعالى :

وإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَتَرَكَنَ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ
عُلَمَاؤُنَا أَنِّي بِإِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ
فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾

كان هذا القصص الكريم الذي شمل بعضا من قصة موسى الكليم وإبراهيم الخليل، وقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الأيكة مصورا لطبائع المفسدين ومقاومة النبيين، وطلب المعجزات المادية واستجابة الله تعالى لهم في معجزاتهم، وكفر أكثرهم من غير ارتداع، أخذ يبين سبحانه من بعد ذلك المعجزة الكبرى الخالدة، وهى القرآن الكريم، فقال :

﴿وإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ .

الضمير فى قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على القرآن الكريم؛ لأنه وإن لم يكن له ذكر فى اللفظ هو مذكور فى نفوس المؤمنين والمشركين، أما ذكره فى قلوب المؤمنين، فلأنها عامرة به سامعة لتلاوته وتتشعر أبدانهم لسماعه، ويطمنون بتلاوته، وأما ذكر الجاحدين له فلأنهم فى حيرة من بلاغته، وأصاب قلوبهم

فصاحته، وهم في ردهم له يخالط نفوسهم بحلاوته وجلاله فهو مذكور عند المؤمن به، والجاحد له.

وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بثلاث صفات معلية له مشرفة بنسبته فوق شرفه الذاتى من بلاغة وشمول الشرع.

الأولى - أنه تنزل من رب العالمين، والتنزيل النزول جزءا بعد جزء منجما مقطعا، ليسهل حفظه، وليرتل ترتيلا، وليعلم النبى قراءته وتلاوته، ويتعلمها منه أصحابه، وبذلك تكون تلاوة القرآن مرتلا متواترة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، وقد أشرنا إلى ذلك فى عدة مواضع عند ذكر معانى الذكر الحكيم.

الثانية - أنه نزل بالوحي نزل به الروح الأمين على قلبك، الروح الأمين هو جبريل، وهو روح القدس، نزل بهذا القرآن، وكان نزوله على قلبك، فاتصل به ووعاه، وحفظه مرتلا ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ لأنك تعلمت علمه، وأوتيت حكمته، وعلمت شريعته لتكون من المنذرين أهل الضلالة عن غوايتهم، ودعوتهم إلى التوحيد، ولما ذكر المنذر دون المبشر، وهو بشير ونذير، لأن هداية المشركين تكون أولا بالإنذار، والتبشير يكون بالإقلاع عن الشرك، ولذلك كان أول دعوته بالإنذار، إذ قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٤٦﴾ [سبا] عندما استجاب لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾ وقد كان النبى ﷺ يقول: أنا النذير العريان.

الثالثة - أنه باللغة العربية، ولذا قال عز من قائل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

اللسان هنا اللغة، لأنها تكون باللسان، وهو متميزها، وأداتها، وأطلق اللسان وأريد المسبب له وهو اللغة، وكل لغة تخص لسانا فى أدائها ونغمتها وصوتها. وأداؤها فى القرآن الكريم كان باللغة العربية فليس بقرآن مالا يكون باللغة العربية، فترجمة القرآن إن كانت ممكنة (وهى ليست ممكنة) ليست قرآنا، وقوله: ﴿مُبِينٍ﴾ أى واضح فى تميزه ومعانيه، ومقاصده، ومعانيه وهى فى أعلى درجات الإعجاز بهذا البيان، ولغيره مما اشتمل عليه.

الرابعة - أن أكثر ما فيه من معانٍ وقصص، وشرائع في زبر الأولين، أى أن القرآن الكريم بعضه فى كتب الأولين، والزبر جمع زبور، وهو الكتاب، وإن ذلك يكون على أن الضمير يعود إلى الكتاب ومقتضى السياق، ويكون المعنى على هذا إن هذا الكتاب مشار إليه فى الكتب السابقة، وهو مهيمن عليها مبین للصحيح، كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة].

ويصح أن يكون الضمير عائداً على النبى ﷺ، لأنه مبشر به فى التوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾.

الواو عاطفة على فعل، وسياق القول الحكيم أينكرون، ولم يكن لهم آية تدل على الصدق أن يعلمه علماء بنى إسرائيل وهم أهل علم بالكتاب، والضمير يعود إلى القرآن فى ﴿يَعْلَمُهُ﴾ أى إذا كنتم مدعين جهلكم أو لم تكن عند دلالة على الصدق أن يعلم خبره علماء بنى إسرائيل، وما كفروا به إلا عنادا وطغيانا، أو نقول كما قال بعض التابعين: المراد من علماء بنى إسرائيل العدول الذين آمنوا واهتدوا كعبد الله بن سلام، وقيل: وسلمان الفارسي، وابن عباس اختار التعميم حتى يشمل من آمن، ومن لم يؤمن، وقد قال تعالى فى بنى إسرائيل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩) بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ [البقرة] فهم كانوا يعلمون القرآن ومحمداً، وكانوا يستفتحون به جيرانهم من أهل المدينة الذين كانوا يشركون.

وقيل أن الضمير في ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ يعود على محمد ﷺ، ولكن الأظهر هو ما قرنا.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ .

الضمير يعود على القرآن الكريم، لو نزل الله على بعض الأعجمين الذين لا يعرفون العربية لكان أعجمياً بغير العربية، فقرأه عليهم بالأعجمية ما فهموه وما آمنوا به، واستمر عدم إيمانهم به، وتقديم الجار والمجرور (به) على متعلقه لبيان أهمية عدم الإيمان، وإن عدم الإيمان لسببين: أولهما أنه جاء من رجل أجنبي عنهم، ومن نعم الله أن كان الرسول منهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة].

الثاني أنه لا ينزل عليهم بالعربية فلا يفهمون كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُّونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾ [فصلت].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

المشبه هو ما عليه الشرك من تكذيب وجحود، وسلكناه أى أدخلناه، والظاهر، أن المعنى، كهذا الجحود والكفر والتكذيب أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، فهم لا ينظرون إليه نظرة هداية واسترشاد وتعرف للحقيقة وأوجه إعجاز، بل ينظرون إليه نظراً فيه عور لا يعرفون حقيقته، ولا يدركون الغاية، ولا يعرفون الحق لا عوجاج نظرهم.

ومن كان هذا نظرهم لا يمكن أن يؤمنوا، ولذا قال تعالى في أمرهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أى إن ذلك شأنهم ، ولذلك كان النفى داخلا على المضارع ، لأن فيه تصويرا لعدم إيمانهم ، إذ هم ماديون حسيون لا يؤمنون إلا بالحس ، وما يشبهه ، هذا معنى قوله: ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ المؤلم الشديد فى إيلامه ؛ أى لا يؤمنون إلا بما يحسون ، وكذلك شأن الكافرين لا يؤمنون بالغيب ، بل يؤمنون بما يرون ويحسون فقط ، والفرق بين الإيمان والكفر هو الإيمان بالغيب ، فالكافر لا يؤمن إلا بالحس والتجربة المحسة .

قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الفاء فاء السببية ، أى يترتب ما بعدها على ما قبلها ، وهى عاطفة على يروا ، أى أنهم فى جهالتهم عمون عن الحق لا يدركونه ، ولا يتوقعونه ، ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ والضمير يعود إلى الساعة ؛ لأنها فى أذهانهم جميعا مؤمنين بها أو جاحدين لها ، فهى مستولية عليهم إيمانا أو استغرابا ، فتأتيهم مباغطة لهم حيث يستمرثون الحياة الدنيا وما فيها من متع غافلة غير شاعرة ، وقد ألهمتهم لواهيها ، وتكاثرها .

وإنهم إذ يكونون فى الآخرة يحسون بطلب العودة ، وقال تعالى فى حالهم فيها .

فَيَقُولُوا

قال تعالى :

هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٧﴾ أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٨﴾ أَفَرَأَيْتَ
 إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
 مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا
 لَمَّا مُنْذِرُونَا ﴿٣٢﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ
 الشَّيَاطِينُ ﴿٣٤﴾ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّهُمْ
 عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٣٦﴾

يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، ولقد كانوا وهم في غرور الدنيا ولهوها يكذبون النبي الذي يخوفهم بعذاب الله ويتحدونه، فيستعجلونه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ [الرعد] ولكنهم في الآخرة وقد رأوه عيانا يطلبون التأجيل، ويعجبون من الاستعجال، فيقولون: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿.

الاستفهام هنا يدل على التمنى، أى يتمنون أن يكونوا منظرين، أى مؤجلين، وقد كانوا يهددون ويخوفون فى الدنيا أن يكون ما يرون تهديدا وتخويفا، وينظرون فيه حتى يكون منهم البر، ويستدركون ما فاتهم، ولكن لات حين مناص، ويترتب على رجائهم الانتظار والتأجيل التعجيل بالعذاب، فيقولون ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ والفاء دالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخرة عن تقدم، وتقدير القول فأبعذابنا يستعجلون أى يترتب عن تمنى الانتظار التعجب من الاستعجال، والاستفهام الثانى لاستنكار التعجيل، وبعذابنا تتعلق بالاستعجال، وتقدم عليه، لأنه يخيل إليهم أن الاستعجال خاص بعذابهم وحدهم، ونسوا ما فعلوا من ظلم، وما اجترحوا من سيئات.

وإن ذلك العذاب منطقى، فقد متعوا سنين وأوعدوا، وذكر لهم ما يوعدون، وهذا وقت الجزاء، ولذا قال:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦)﴾.

يذكر سبحانه العجب من حالهم، وإنكارهم ما ذكروا به فى تمتعهم سنين، والفاء مؤخرة عن تقديم الاستفهام، لأن الاستفهام له الصدارة دائما، والاستفهام للتعجب، والمعنى فأريتهم كيف متعناهم بزخارف الدنيا سنين مهما تكثر فهى معدودة محدودة، وإذا تحقق ما يوعدون من عذاب يطلبون التأجيل، ويعجبون من التعجيل أو الاستعجال، ولا استعجال أبدا بل كل شيء فى وقته المحدود وأمدته المعلوم، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ العطف بـثم له معناه فإن ما بين البعث والتمتع سنين محدودة كبير فى نظرهم، والتفاوت بين المتعة والعذاب يسوغ التفاوت والبعد بـثم، ونحوها؛ لأنه ثمة فارق وتفاوت بين المتعة وما ينزل لهم من عذاب دائم مقيم.

وإن المتعة التي يعقبها عذاب أليم لا تجدى ولا تنفع ولا ترفع ، ولقد كانوا يتوهمون أن ما هم فيه من تمتع يكفيهم ، ولكن ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ .

ما هنا موصول حرف ، وليست موصولا اسميا بمعنى الذي ، لأن الصلة في الموصول الاسمي يجب أن تشتمل على ما يربطها بالاسم من ضمير ، أو نحوه ، ولا ضمير يربطها ، فهي إذن موصول حرفي يكون وما بعده مصدرا منسبكا ، وتقديره : وما كان تمتعهم هذه السنين طالت أو قصرت مغنيا عنهم في الآخرة رافعا عذابهم الشديد النازل بهم ، كما كانوا يتوهمون أنه لا بعث ، وأنه إن كان بعث فليس بمعقول أن يعاقبوا ، وأن يكون أولئك الضعفاء المردولون والعبيد المهينون هم المثويين ، وكانوا دائما معتمدين على دوام تمتعهم في السنين المحدودة والأمد المعلوم .

وأنهم قد أُنذروا ، فالللام في عقوبتهم عليهم هم وحدهم ، ولذا قال عز من قائل : ﴿ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ (٢٠٨) ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ (٢٠٩) ﴾

أى ما أهلكنا أى قرية ، والقرية المدينة العظيمة أو القبيل ، ومن دالة على عموم النفي واستغراقه ، إلا كان لها منذرون بالعذاب الشديد من رسل الله تعالى الذين يتكلمون عن الله تعالى ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر] .

وإن الرسول يذكرهم دائما ، وتبقى في رءوس المعتبرين منهم ذكرى دائمة باقية حتى يجنبهم ما أُنذروا به ، ولذا قال تعالى : ﴿ ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى أن ذلك الإنذار على السنة الرسل تذكير لهم أن اعتبروا واخلشوا وخافوا ، وأكد سبحانه أنه لا يظلمهم ، فيأتيهم بالعذاب من غير إنذار ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (كان) هنا دالة على النفي الدائم ، أو نفي الشأن ، أى وما كان من شأننا الظلم ، كما قال تعالى في آية أخرى ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت] ولقد قال فى إنذارهم ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ (٤٤) [إبراهيم] .

ولقد كانوا يتوهمون أن القرآن قول كاهن، ولم ينزل من الله ، ولكن نزل من الشياطين ، كما ينزلون على الكهان، وذلك زعم باطل فى أصله ، وفى تطبيقه على القرآن الكريم، ونفى الله ذلك نفياً مؤكداً فقال: ﴿وَمَا تَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ (٢١٢)﴾ .

لقد ادعوا أن القرآن قول كاهن ، وأقوال الكهان تنزل بها الشياطين، وهى جمع شيطان وهم إخوان إبليس أو أتباعه وزمرته، وقد نفى الله تعالى ذلك بثلاثة أمور.

أولها - أنه ما ينبغى لهم؛ لأنهم محرضون على الفساد، والقرآن هاد مرشد، وذلك احتجاج عليهم بحقيقة القرآن، فلا يمكن أن يتلاقى مع وساوس الشياطين ومفاسدهم ، فما يصح أن يكون منهم.

والثانى - أنهم لا يستطيعونه، لأنه معجز، وهو يعجز الجن والإنس كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨)﴾ [الإسراء].

والثالث - أنهم لا يمكن أن ينقلوه أو يسرقوه ، ويتنزلوا به على أهل الكهانة ، لأنهم معزولون عن ذلك، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ ، وقد أكد سبحانه وتعالى عزلهم بأن الدالة على التوكيد، وباللام ، وبالجملة الاسمية.

ولقد تكلم الحافظ ابن كثير فى هذه الأمور الثلاثة المانعة من أن تنزل به الشياطين ، فقال رضى الله عنه « ذكر سبحانه أنه يمتنع عنهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ما ينبغى لهم، أى ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم ، لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ، أى ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك . قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل حين استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا فى مدة نزول القرآن على رسول الله ﷺ ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد ، ولم يجد منه لثلا يشتبه الأمر ، وهذا من رحمته بعباده وحفظه لشريعته ، وتأييده لكتابه ولرسوله ، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ وكل هذا على أن الضمير فى (به) من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ يعود على القرآن ، وهو فى النفوس المؤمنة يملؤها ، والمشركة يساورها ، ولا احتمال سواه .

التوحيد لب الإيمان

قال تعالى :

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ
 مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿١١٧﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَخْفِضْ
 جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي
 بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١١٧﴾ الَّذِي
 يَرِيكَ جِئْنَ تَقُومُ ﴿١١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينِ ﴿١١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿١٢٠﴾

الفاء للإفصاح عن شرط وتقديره إذا كان القرآن هو الحق ، وهو يدعو إلى التوحيد ، فلا تدع مع الله إلهاً آخر ، والدعاء هنا الالتجاء إليه والعبادة أى لا تعبد مع الله إلهاً آخر ، وتلجأ إليه ﴿ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ ، أى فتكون بسبب ذلك من المعذبين ، الفاء للسببية ، ولذا نصب الفعل بعدها ، ولقد كان النهى موجهاً إلى نبي الوحداية ، ليقترن به غيره ، وليعلم كل إنسان أن العذاب لاحق بمن يعبد مع الله إلهاً آخر ، فقلب العبادة : الوحداية ، ولب الإيمان ألا يكون مع الله إله آخر .

بعد ذلك أمر سبحانه وتعالى أمرين متعلقين بالدعوة ، فقال :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

العشير القرابة القريبة ، والأقربين جمع أقرب ، وهو الأشد قرابة ، وقد جاء فى مفردات الراغب ما نصه :

والعشير أهل الرجل الذين ينكثرون بهم ، أى يصيرون له بمنزلة العدد الكامل ، وذلك أن العشرة هى العدد الكامل ، والمعنى أن العشير الأقارب الذين يعتز بهم ، ويحس بأنه منهم ، وأنهم منه ، أنه ﷺ قد جاء فى كتب السيرة وكتب السنة أنه عندما نزلت هذه الآية داعية إنذار عشيرته صار النسي ﷺ إلى الصفا ، ودعا قريشاً ، ومنهم من حضر بشخصه ، ومن لم يحضر بشخصه وبعث من يسمع عنه وقال لهم : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى : أرايتم لو أخبرتكم بأن عيرا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمنى؟ قالوا : نعم ، قال : فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

دعاهم عليه السلام هذه الدعوة ، وهى أولى الدعوات ، وكانت الدعوات قبل ذلك دعوات خاصة للزوجة والأهل والأصدقاء ، فهذه أول دعوة عامة ، أو شبه عامة وعمومها جزئى على أى حال .

هذه دعوة من لم يكن مؤمناً ، وقد أرشده سبحانه إلى الرفق بالمؤمنين ، لأنهم قوام الدعوة ، وعماد الحق ، وقد تعرضوا للأذى باتباع النبي ﷺ فقال له

لتعينهم على الإيمان ويروا الرحمة بجوار الأذى والعذاب ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من: هنا بيانية، والمعنى اخفض جناحك لمن اتبعك، وهم المؤمنون، وخفض الجناح فيه استعارة فيها تشبيه، فشبّه الخاني العطوف على من معه من المؤمنين بالطائر الذي يخفض جناحه ويحوط به فراخه، حتى ينضجوا ويستغنوا عن كلاءته، وحمايته.

هذا شأن من أطاعه من عشيرته ومن معه من المؤمنين، وقال فيمن عصاه:

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢١٦).

الفاء للإفصاح، والضمير في عصوك يعود إلى الأقربين، وإلى المؤمنين، وربما غيل إلى أن تكون على المؤمنين فقط، لأنه أقرب مذكور، ولأن خفض الجناح لهم مشروط بأنهم مؤمنون لا يعصون، فإن عصوك أيها الرسول فتبرأ منهم، فإنك تخفض الجناح لتريتهم وتهذيبهم، وإبقائهم على الحق لا يخرجون عنه، فإن خرجوا فتبرأ منهم، وقل ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ويكون فيه عصيان لي، ولا يعتمد عليهم في هذا العصيان، والاعتماد كله يكون على الله، ولذا قال من بعد.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلِّبَكَ فِي

السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠).

التوكل هو تفويض الأمر لله تعالى بعد أخذ الأسباب، فلا يظن أن الأسباب وحدها كافية، بل إنه لا بد من الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ في الأسباب، والعناية بها، والتوكل هو على الله العزيز القوي الذي لا يغلب، الرحيم بعباده في شدتهم والذي يجيب مطالبهم العادلة بفضل رحمته سبحانه، وقد وصف الله تعالى بثلاث صفات، تبين أن الاعتماد عليه هو اعتماد على المحيط بكل شيء علما، فوصفه بثلاث صفات تفيد كمال العلم والعزة، وكمال السلطان والقهر.

الصفة الأولى: أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من

منامك متجها إلى الله تعبدته، وإلى الناس تنفعهم وإلى نفسك تهذبها، وإلى صلاتك تقيمها.

والصفة الثانية - أنه يعلم تقلب النبي ﷺ ، ولذا قال: ﴿ وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أى خرورك ساجدا لرب العالمين متقلبا من القيام إلى السجود، أى أنه يعلم أحوالك فى صلاتك ، فهو سبحانه وتعالى يعلمك فى كل أحوالك ، من وقت قيامك إلى سجودك فى صلاتك .

الثالثة - ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى الذى يعلم كل شيء منك علم من قد أحاط بكل شيء علما .

نبذات الشياطين

قال تعالى :

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ شِيمٍ ﴿٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٣٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أُوْىَىٰ سَعَاءُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَىٰ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٧﴾

ادعى المشركون أن القرآن الكريم تنزلت به الشياطين، كما يزعمون أنها تنزل على الكهان وأشباههم ، فنفى الله تعالى ذلك ، وأخذ يبين صفات من تنزل عليهم الشياطين ، وذكر أصنافا من هؤلاء الذين تنزل عليهم الشياطين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ الاستفهام للتنبية ، والتنبية الإخبار بما له شأن ، وللنفس به اهتمام ، والتنزل النزول ، ولا يقال عن الله تعالى ، وإنما يقال عن الملائكة فيقال تنزل كما قال تعالى : ﴿ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ (٤) سلام هي حتى مطلع الفجر (٥) [القدر] وهو

ما يثبت في النفوس من البشري والاطمئنان ، والشياطين لا يقال في المفترى أو
الآثم إلا التنزل، وقد جاء في المفردات للراغب الأصفهاني «لا يقال في المفترى
والكذب وما كان من الشيطان إلا التنزل وعلى من تنزل الشياطين إلى آخر الآية
والتنزل من الشياطين ، هو ما يوسوسون به ، ويوجهونها نحو الشر والإثم
المبين ، ويلاحظ أن تنزل محذوفة التاء ، وأصلها تنزل.

ثم قال تعالى: ﴿تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ﴾ الآفاك هو المفترى الكاذب الذي
يصرف عن الحق، ويضل النفس ويذهب بالاطمئنان، والآثيم الذي تمرست نفسه
بالإثم ، وصار عنده استعداد للاستماع إلى الإفك الصارف والكذب البين.
والوصف الثاني لمن تنزل عليهم الشياطين هو ما بينه سبحانه بقوله
﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾.

يقال ألقى السمع إليه، أصغى إليه وجعل سمعه كله إليه لا يسمع سواه
والضمير في ﴿يُلْقُونَ﴾ يعود إلى كل آفاك أثيم ، أى من صفة هؤلاء أنهم يصغون
إليه، ويضعون سمعهم يلقونه إليه، وأكثرهم كاذبون، أى من صفات الكثرة
الكائرة منهم الكذب ، فهم يستملون الشياطين ويروجونه بين الناس مبالغين في
كذبهم.

وإن من هؤلاء : الشعراء الذين يقولون الكذب ويفترونه ، ويتخيلونه ،
وليسوا كلهم بدليل هذا الاستثناء الذى سيجىء ، ومن الشعراء الذين استثنوا فى
الجاهلية زهير بن أبى سلمى ، وفى الإسلام حسان بن ثابت الذى كان يدعو النبى
للرد على المشركين ، ووصفه النبى ﷺ بأن روح القدس يؤيده .

قال تعالى : ﴿الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ .

الغاوون جمع غاو وهو الصالح ، وأولئك الذين يهيمون فى ذكر النساء ،
وتصور وقائع كاذبة قد تنزل بها الشياطين عليهم حتى كانوا يقولون لكل شاعر
شيطان ، وقد أيد الله تعالى تنزل الشياطين عليهم بقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾ .

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع فنفي النفي إثبات ، والمعنى قد رأيتهم في كل واد من أودية القول يهيمون ، أى يقولون ، فقالوا فى الغزل ، والتشبيب بالنساء وذكرهن وما يخفى من أجسامهن ، وما يكون بينها وبين الرجل مما يجب ستره ، والكلام فيه موقوف فيقول ، كما ترى فى معلقة امرئ القيس ، وكما ترى فى قصائد الفرزدق الذى كان يحاكي منهاجه ، ويتفحش فى القول ، ولقد كانوا يتخيلون المآثم ، ولا يفعلونها ، كما كنت ترى من بعد فى شعر عمر بن أبى ربيعة من غزل ، وهكذا . وإن ذلك كله من تنزل الشيطان على الشعراء .

وإذا كان من كبار التابعين من كان يذكر فى درسه بالمسجد الحرام شيئا من هذا الشعر كابن عباس فيما يروى عنه رضى الله عنهما - فإنما كان ذلك لكى تستمر رواية شعر العرب .

وإن الشعر العربى فيه خير كثير ، وفيه شر كبير ، فلا يذم كله ، ولا يمدح كله ، وإنه ككل كلام عربى جيد فى مبناه بليغ فى ذاته يحمد لسنه ، ويذم واسده فى المعنى .

ويلاحظ أن ذكر الشعر بأنه تنزل به الشياطين لإبعاده عن القرآن ، فالقرآن وحى الله تعالى الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ بلسان عربى مبين .

وقد استثنى سبحانه وتعالى من الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون الذين ءامنوا ، أو استثنى الذين آمنوا من الغاوين الضالين الذين يتبعون الشعراء فقال عز من قائل :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ .

ظاهر اللفظ أن الاستثناء من الشعراء ، ويكون الاستثناء متصلا ، والمعنى أن الشعراء يتبعهم الضالون ؛ لأنهم فى كل واد يهيمون ، ويقولون ما لا يفعلون

فيستثنى من هؤلاء الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وامتألت قلوبهم بذكر الله ، وذكروا الله كثيرا ، كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وأولئك انتصروا للحق وناصروه ، وكانوا يدفعون الهجاء عن النبي ﷺ ومنهم من قاد الجيوش ، واستشهد أمام الروم في غزوة مؤتة ، وهو عبد الله بن رواحة .

ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا ، ومستثنى من الضالين ، ويكون معنى (إلا) لكن ، والمعنى : والشعراء يتبعهم الغاؤون إلى آخره ، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا بأن امتألت قلوبهم بذكره ، وانتصروا أى انتصفوا من المشركين من بعد ظلموا فإنهم يتبعون الحق ويتبعهم أهل الحق .

وقوله تعالى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ (٢٢٧) ، (ما) مصدر حرفى أى من بعد ظلمهم ، وإرهاقهم فى أمرهم ، وكل هذا كان بيانا لنصرة الله تعالى من بعد الأذى فى مكة ، وإشارة إلى وعد الله تعالى بالنصر المبين ، وانتصر معناها انتصف بنيله النصر ، بعد جهاد فى سبيل الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

السين هنا لتأكيد الفعل فى المستقبل ، والعلم الذى سيعلمونه هو علم المعاينة ، إذ سيرون العذاب ، وسيحسونه نازلا بهم ، إذ يكونون فى جهنم ، ويثنى المهاد ، والتعبير بالموصول لبيان أن الصلة هى سبب ما ينزل بهم من عذاب شديد ، لا يعرفونه الآن ، وسيعرفونه من بعد ، وقد ظلموا أولا بالشرك ، وثانيا بتكذيب الرسل ، وثالثا بإنكارهم للقرآن ، ورميهم له بأنه تنزل به الشياطين ، وأنه كأقوال الكهان ، وغير ذلك مما ظلمت به العقيدة ، والحقائق ، وقد أضافوا إلى ذلك ظلم العباد ، والصد عن سبيل الله تعالى ، والمنقلب هو انقلابهم من الطغيان إلى المهانة ، ومن رغد العيش إلى شدته ، وقد أبهم هذا المنقلب ، تأكيدا للتهديد ، والإنذار الشديد .



تمهيد :

هذه سورة مكية نزلت بمكة . وسميت النمل ؛ لأن قصة سليمان مع النمل أخذت حيزا كبيرا منها، وعدد آياتها ٩٣ آية .

وقد ابتدأ سبحانه بحروف مفردة هي الطاء والسين، وقد ذكرنا حكمة ذكرها في سورة الشعراء وما سبقها، وقد كانت أول آية تتعلق بالقرآن، كشأن الأكثر في السور المبتدأة بحروف مفردة، تلك آيات القرآن الكريم، وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم بالآخرة هم يوقنون .

ثم بين سبحانه أحوال الذين لا يؤمنون بالآخرة، وأنه تزين لهم أعمالهم، وأنهم في أعمالهم يعمهون ، وأنهم هم الذين لهم سوء العذاب، وأنهم في الآخرة هم الأخسرون .

وقد بين مقام النبي ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٦) .

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك جزءا من قصة موسى في مدين: إذ ذهب يبحث لأهله عن نار، ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٧)، وكان أن كلمه ربه، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

(١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَإِنَّمَا رَاعَتْهُمْ الْمُعْجَزَةُ، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤).

ولقد كان ذلك الجزء الصغير من قصة موسى عليه السلام تمهيدا لقصة داود وسليمان، وخصوصا سليمان فإنهما نبيان من أنبياء بنى إسرائيل جاءا لإحياء شريعة التوراة فيمن جاء لذلك من الرسل.

ولقد قال تعالى في ذلك ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾.

وقد أوتى سليمان ملكا لم يكن لأحد من بعده ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧) ﴿كَمَا أَوْتَى عِلْمَ مَنَظِقِ الطَّيْرِ، فَقَدْ أَوْتَى أَيْضًا عِلْمَ مَنَظِقِ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذِبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ولكنه بعد ذلك أتى بخبر غريب كان له ما يفيد في سياسة سليمان ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾.

سمع سليمان الملك الحكيم الخبر فلم يصدقه بادئ ذي بدء ولم يكذبه، بل أخذ يتفحصه قائلاً: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، وكلفه أن يذهب بكتابه إليهم.

ذهب الكتاب إليها، فجمعت ملأها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ فردت قائلة: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾.

جاء الرد والهدية إلى سليمان الملك العظيم قال: ﴿أَتُمَدِّدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾.

وقبل أن يذهب إليهم بجنده أراد أن يعرف عرشها وسلطانها، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٨) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾.

جاءت الملكة إليه: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا

ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ .

وبعد ذلك ذكر سبحانه بعضا من قصة ثمود وصالح، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، ولقد استعجلوا العذاب إذ دعاهم فقال لهم ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وقد تقاسموا مع المفسدين على أن يهلكوه وأهله، ويقولوا لوليه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ .

وقد ذكر سبحانه عاقبة الأمر على ثمود قوم صالح.

ثم ذكر سبحانه قصة لوط، وذكر لهم لوط ما عندهم من فواحش خرجوا بها عن الفطرة، قائلا لهم: ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ فَأَجْنَحْنَاهُ وَآهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى الدلائل الكونية الدالة على وحدانية الخالق، وأنه ليس كمثله شيء، فقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ..﴾ ﴿٦٠﴾ .

ثم بعد أن بين هذه الحقيقة سألهم مستنكرا فعلهم ﴿.. أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ .

ثم نبههم سبحانه إلى الأرض، وما في خلقها من عجائب، ووجه الانظار

إلى عجائبها، وقرارها وأنهارها وجبالها، وأنه جعل بين البحرين حاجزا، ثم استفهم منكرا موبخا إله مع الله بل أكثرهم هم لا يعلمون. وذكر بعد ذلك تفضله سبحانه عليهم بإجابة المضطر إذا دعاه وكشفه سوء، وجعل الإنسان خليفة في الأرض، ويسأل سبحانه مستنكرا حالهم من الشرك ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ (٦٢) ويذكرهم سبحانه بهدأيته لهم في ظلمات البر والبحر وإرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، ويسألهم من بعد ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣).

ويذكر سبحانه بذاته العلية، إذ يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزقه سبحانه وتعالى من السماء والأرض، ثم يسألهم مستنكرا حالهم ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤).

ويأمر نبيه الكريم بأن ينبههم إلى أنه لا يعلم من في السماء والأرض غيره، وشعورهم عندما يبعثون وإنهم يتداركون جهلهم عندما يبعثون، ويعلمون ما لم يكونوا علموه من قبل بالعيان، لا بالأفهام. ويأمرهم سبحانه وتعالى أن يسيروا في الأرض ليعلموا مكانهم فيها، والعبر من أهلها، إذ طغوا وأكثروا فيها الفساد.

ويذكر لنبيه أنه ليس عليه إيمانهم، إنما عليه تبليغهم: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠) وذكر سبحانه بعد ذلك، استعجالهم لما يوعدون به من عذاب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ويذكر سبحانه بعد ذلك عموم علمه في السماء والأرض، ويقول عز من قائل: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٥).

ويذكر من بعد مقام القرآن الكريم، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) ﴿ وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) ﴾ .

وبعد ذلك يذكر سبحانه ما يكون قرب البعث، وما يكون بعده: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾ ويبين سبحانه بالإشارة الواضحة حال الناس يوم الحشر وحالهم وهم يقدمون على العذاب .

ثم يذكرهم سبحانه بغفلتهم عن آياته: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾ .

ويذكر سبحانه يوم الهول العظيم يوم البعث، ثم يذكر الحساب والثواب والعقاب: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾ .

وإن عبادة الله وحده هي الغاية الأولى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ .

ذكر معاني السورة

قال الله تعالى :

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّاتُهُمْ
أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَلْقَى الْقُرْآنِ مِنَ
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

ابتدأت السورة بالحروف الهجائية المفردة، ولا يعرف لها معنى معين ولكن لوجودها حكمة يقررها المدركون، وقد أشرنا إلى أن منها الإعجاز ليشير لهم بأن القرآن مكون من الحروف التي يتكون منها كلامكم في شعركم وخطبكم وخطاباتكم، ومع ذلك كان معجزا يتحداكم ذلك التحدى الشامل، وتقفون وتسكتون ومنها أنهم قد تفاهموا على ألا يستمعوا لهذا القرآن، وأن يلغوا فيه، فإذا ابتدئ بترتيل هذه الحروف الصوتية أصغوا إليه غير مختارين، ثم يهجم عليهم القرآن بمعانيه وعباراته، وما فيها من بلاغة وفصاحة تحير عقولهم، وفوق ذلك فإن النبي كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، فكيف ينطق بهذه البلاغة التي لا ينطق بها إلا كاتب قارئ. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١). الإشارة إلى ما جاء في السورة من آيات مستلوة، وفي ذلك بيان أن هذه الحروف يحتمل أن تكون اسما للسورة، وقد ذكر للقرآن وصفان :

أحدهما أنه كتاب مقروء متلو، يتلى، وتلاوته عبادة، وقد علمنا سبحانه وتعالى كيف نتلوه، وعلم نبينا تلاوته ليعلمها للناس أجمعين، فهو متواتر بلفظه، ومتواتر بتلاوته، كما قال تعالى ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٢٢) [الفرقان]، وكما قال تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (٤) [المزمل]، وكما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ (٧) [القيامة].

والوصف الثانى أنه كتاب مبين أى بين فى ذاته، ومبين لكل ما اشتمل عليه من دلائل التوحيد، ودلائل النبوة وأحكام شرعية، وهداية للناس، كما قال تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) [يونس].

وقد ذكر سبحانه وصفا ثالثا ورابعا، فقال تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾، أى أنه هو ذاته يهدى فهو بإعجازه وبلاغته وعباراته المحكمة، يهدى النفوس الطالبة للحق المهدية التى تتجه إلى الحق، كما تتجه إبرة البوصلة إلى قطبها، فهو فى ذاته هداية، وهو أيضا مشتمل على الهداية، ففيه دعائم التوحيد، وصور الكون الهادية، وآيات الله البيّنات فى الأحكام الشرعية، والمواعظ والعبر، وقصص الماضين من الأنبياء، وإن فى قصصهم لعبرة لأولى الأبصار. والقرآن نور لا يرى نوره إلا المبصر، وغذاء للأرواح، ولكن لا يتغذى به إلا الأصحاء، وشفاء، ولكن لا يشفى به إلا من كان قابلا للشفاء، ولذا قال فيمن يتفجعون ببشراه، وهى الوصف الثانى الذى معناه أنه يبشر المؤمنين بالجنة والنعيم فقال: للمؤمنين.

وقد قال -عز من قائل- من بعد ذلك فى التعريف بالمؤمنين.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٣).

ذكر للمؤمنين أمورا ثلاثة هى:

الصفة الأولى: أنهم يقيمون الصلاة، أى يؤدونها، مستوفية أركانها الحسية والروحية، والمصلّى يستشعر عظمة الله تعالى وجلاله، ويحس أنه فى حضرة الله تعالى، وذلك كله يتضمنه معنى الإقامة؛ لأن الإقامة إقامة الشئ مستويا مستقيما

لا عوج فيه، ولا اضطراب، بل يتجه إلى أعلى اتجاها مستقيما، وفي ذكر إقامة الصلاة إشارة إلى المعاني الروحية في العبادات الإسلامية من صلاة وصوم وحج، فهو ابتداء تطهير للنفوس من أدرانها، وإقامة للعلاقات الإنسانية على هذه الطهارة من أدران الأحقاد والأضغان.

والصفة الثانية: أنهم يؤتون الزكاة، وهي الفريضة المادية الروحية، والتي يقوم عليها التعاون الاجتماعي بين الغنى والفقر، ولذا سميت الزكاة بالماعون، أى ما يكون به العون، كما قال تعالى فى وصف الضالين: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]، والماعون هو الزكاة التى هى أساس للتعاون الإنسانى.

والصفة الثالثة: وهى الأصل للأولين، وهى الإيمان باليوم الآخر، فهو لب الدين، وهو توجيه الإنسان إلى حقيقة معناه فقال سبحانه ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

بالآخرة - تتعلق بالفعل يوقنون، أى يؤمنون مدعين غير مترددين؛ لأن العلم اليقيني يدفع الإنسان إلى عمل الخير، ولو كان تناله المشقة منه فى الحياة، فإن ذلك يكون دافعا إلى الاستمرار مؤمنا بأن جزاءه يستقبله، وكلما زادت المشقة فيه، زاد الأجر، وما عند الله خير وأبقى.

ولقوة هذه الخصلة الكريمة للمؤمنين وكونها لب الإيمان أكد الله تعالى إيمان المؤمنين باليوم الآخر بعدة مؤكدات، أولها بتقديم الجار والمجرور، وثانيها بالجملة الاسمية، وذكر ضمير الفصل مرتين فى صدر الجملة وآخرها.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك حال الذين لا يؤمنون بالآخرة، فقال سبحانه وتعالى كلماته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ (٥)﴾.

أكد سبحانه أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم فى الدنيا أمران أحدهما سبب للآخر، ولهم فى الآخرة سوء العذاب، وهم فى الآخرة هم الآخسرون.

ولتتكلم مستشرفين لمعانى القرآن الكريم فى الأمرين فى الدنيا والآخرة، وقبل أن نخوض فيها خوضاً نقرر أنه كما أن اليقين باليوم الآخر خلة المؤمن الدافعة إلى الخير، والتي تجعله يتحمل متاعب هذه الحياة راجياً ما وراءها فإن فقد الإيمان باليوم الآخر ينسى الإنسان نفسه فيعتقد أن هذه الحياة هي وحدها الحياة، ولا حياة بعدها، ويحسب أنه خلق عبثاً، ولذا قال سبحانه: ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أى حَسَنَ اللهَ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ، فحسبوا وحدها الخير، ولا يحسبون أن أعمالهم كلها زينة وأمر حسن، فهم دائماً ممن زين لهم أعمالهم فأروه حسناً، فكل أعمالهم لا ينظرون إليها إلا من وراء نفوسهم غير المستقيمة، ولا يعترفون بإرشاد مرشد، ولا هداية هاد؛ واعظ أو زاجر، فهم فى لهو دائم عن الحق، وإن من كانت حاله كذلك، قد ضرب على آذانه، فلا يسمع الحق، ولا يهتدى بهديه، قد أهمل عقله وتفكيره، وما أعطاه الله تعالى من مواهب، وفطرة مستقيمة، ولذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ الفاء لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، أى ترتب على هذا التزين لكل الأعمال التي يعملون، ويحسبونها زينة يترتب على ذلك أنهم يعمهون.

والعمه: التردد والخيرة، أى ترتب على أن أعمالهم زينتها لهم نفوسهم، أن صاروا فى حيرتهم لفطرتهم السليمة التي تريهم الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتزين نفوسهم للباطل حقاً، وللحق باطلاً، فتكون الخيرة بين الفطرة الهادية والشر المتحكم، والضلال المظلم.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذه الحال بمؤكدات: أولها بأن المؤكدة، وبإضافة التزين إليه سبحانه، وأن ما يريد الله لا يتخلف، ولا يمكن أن يتخلف، ولكن التزين ابتداءً من أنفسهم، وتمكن الشيطان منهم وإغوائهم، وقد ذكر سبحانه بعد وصف حالهم فى الدنيا، وهو أن الدنيا تكون لهم مضطرباً فسيحاً، فإن من الخيرة والاضطراب حالهم فى الآخرة، فذكر أمرين أولهما سوء العذاب، وثانيهما أنهم وحدهم الأخسرون، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ

العَذَابِ ﴿١﴾ الإشارة إلى المتصفين بعدم الإيمان باليوم الآخر، وتزيين العمل السيئ لهم، فحسبوه حسنا، وما هو بحسن، وهذه الأحوال هي سبب العذاب لأن ذكر الإشارة إلى الصفات يومئذ إلى أن هذه الصفات هي سبب الحكم، وسوء العذاب هو العذاب الذى يسوء النفوس، ويشوى الوجوه، وهو النار الدائمة، والعذاب المقيم الدائم ما شاء الله تعالى أن تدوم، خالدين فيها أبدا. وقال الله تعالى فى بيان حالهم: ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾ الآخسرون جمع أخسر، وهو أفل تفضيل على غير بابه، أى هم الذين خسروا خسارة ليس فوقها خسارة أبدا، وفيه تأكيد للقول الكريم، وقد أكد ثانيا بـ (هم) التى تكررت، وأكد ثالثا بالقصر لتعريف الطرفين، أى هم وحدهم الآخسرون، ولا يخسر أحد سواهم.

بعد ذلك بين الله تعالى معدن الهداية، وهو القرآن الكريم فقال:

﴿وَأَنْكَ تَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦)

وتلقى معناها يلقي إليك بقوة فتلقاه راضيا بقوة متحملا ما يوجهه تحمله وتلقيه من صبر دائم، وجهاد مستمر ومصابرة لأعدائه، وتلقيه هو من عند الله تعالى الحكيم الذى يعطى كلاما هو صالح، وهو عليم بالنفوس يطب لأدرانها بما يزيل أسقامها.

وهو وصف للقرآن الكريم بأحكم الصفات وأعمقها فى معناها.

فهو أولا من عند الله، ولا يجيء من عند الله إلا ما هو خير، وقد شرفه الله تعالى بذلك الذى لا يقدر قدره، وهو الحكيم الذى يشرع للناس ما يصلحهم فى معادهم ومعاشهم، وما يجمع ويصلح، ولا يفرق ويشتت، وهو العليم بكل شىء، قد أحاط بكل شىء علما.

وقد أكد الله تعالى القول، بخطاب النبى، وحمله عبء القرآن الكريم.

إشارة إلى بعض قصة موسى عليه السلام

قال تعالى :

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ
 مِنْهَا بَخْبَرٍ أَوْ أَنِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
 جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ
 فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّى عَقِبٌ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ
 إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ
 سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ
 مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
 ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾
 وَحَدِّثْ بِهِمْ وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

إذ ظرف دال على الزمان، وهو متعلق بتلقى في الآية السابقة، أي أنك
 تتلقى القرآن من حكيم عليم صادق في الوقت الذي جرت فيه أحداث قصة
 موسى وفرعون، فهي قصة صادقة من لدن حكيم عليم، هو الله سبحانه الذي
 أحاط بكل شيء علما.

ونجد أن قصة موسى هنا في جملتها ليست مكررة مع غيرها، وقد فصلت
 جزءا لم يفصل في موضع آخر، فصل فيه بعض حياته مع أهله، وفصل فيه لقاءه

بريه، والكلام الذى كان بينهما، وذكر ارتباطه بالرسالة، ودليلها وهو العصا وإخراج اليد من الجيب بيضاء من غير سوء، وكونها فى تسع آيات قدمها لفرعون برهانا على الرسالة، وإذا كانت بعض الأمور ذكرت مكررة كالعصا؛ فلأن المقام اقتضاها، وليست ثابتة بالقصد الأول، بل هى جاءت تابعة لإثبات الرسالة لموسى نفسه، لا لإثباتها لغيره، وهو فرعون وقومه، أى لإثبات أن الذى يخاطبه من وراء الشجرة ربه، لا أحد غيره.

كان موسى وأهله فى ليلة ليلاء قرور شديد بردها، يلتمسون ما يستدفنون من نار، فنظر فى الجوى، فحسب أنه رأى نارا فقال لأهله: إني آتست نارا أى رأيت نارا قال وهو يتمناها، ويرعاها، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء]، ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أى إني ذاهب إليها لعلى آتيكم منها بخبر نستفيد منه علم ما لم نكن نعلم، أو شهاب، والشهاب هو الشعلة المشتعلة من نجم أو نار أو نحوها - وقبس بدل أو عطف بيان، والقبس هو القطعة من جذوة النار، أى آتيكم بقطعة من النار شديدة الاشتعال فنلقيا حول أحطاب نستدفئ منها، وهذا معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى تستدفنون بها، فيقال من صلى قلبت التاء طاء؛ لأنها من حروف الإطباق أى رجاء أن تستدفنوا، ومؤدى ذلك أنهم كانوا فى برد شديد، وهكذا عاش من تربي فى بيت فرعون فهو يذوق الحر والبرد فى صحراء، فى هذا الوقت، وفى هذه الشديدة، بعث موسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨).

(مَنْ) هنا للعاقل، فالبركة ليست فى شئ يتعلق بما يلهبها، إنما البركة والنماء والزيادة فيمن هو ذاهب إلى النار، ويوشك أن يكون فيها، وهو كلم الله تعالى موسى عليه السلام؛ ولأنها بقعة مباركة فيها الملائكة، واختار الله تعالى أن يخاطب نبيه الكليم الأمين فيها، عليه وعلى نبينا أزكى السلام.

ومن حولها من ملائكة أطهار، فهي أرض طاهرة مقدسة منها كانت رسالة موسى، كما كانت رسالة عيسى عليه السلام من ساعير، ورسالة محمد عليه السلام في فاران. وهي، كما ترى ذلك في التوراة حتى بعد تحريفها في هذه الأيام، وهذه البقعة المباركة. كما صرح سبحانه بذلك في سورة القصص ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾ [القصص].

والبركة نماء الخير وزيادته، وجعلت البركة في النار؛ لأن النار سبب مجيء موسى إليها، فهو جاء على أنها نار، وليست شجرة مباركة خضراء، ولذا فسر بعض المفسرين النار بأنها النور، وكذلك كانت تلك الشجرة الخضراء نورا إذ بعث فيها رسول من أولى العزم من الرسل، وهو موسى عليه السلام.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بتسبيح الله الواجب على عباده، فقال ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى التسبيح الخالص لله رب العالمين الخالق والمنعم عليهم بربوبيته الكاملة سبحانه، ولا يدركها إلا العالمون العقلاء المدركون إن استقامت مداركهم، واتجهوا إلى الحق وحده غير مضطربين، ولا معوجين، وأن فى قوله ﴿أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هى تفسير للنداء من الحق جل جلاله، فالنداء هو ذكر الله تعالى لهذه البركة النامية المتجددة فى كل حين.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)﴾.

النداء المتكرر من الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام ليؤنسه بذاته العلية، وليشعر بنصرته له أمام من سيرسل إليه، وهو فرعون طاغية الأرض فى عصره، ومن تأله، وملك أخصب أرض الله تعالى، وكان يقول أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من حولى.

الضمير فى ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ تدل على قصر الألوهية على ذاته العلية، وذلك بتعريف الطرفين، فليس فرعون الذى تذهب إليه إلها أو شبه

إله، كما يدعى لنفسه بين المصريين، ويقول مستخفا لهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (٣٨)﴾ [القصص] ووصف ذاته العلية بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أى القوى الغالب على كل شيء، الحكيم الذى يدبر الوجود كله على مقتضى علمه الذى أحاط بكل شيء علما، وفى ذلك إشعار بأن فرعون الطاغية لن يرهبه، ولن يفزعه، إذا احتدم الأمر.

ولكن موسى يود أن يطمئن إلى أن الله تعالى هو الذى يخاطبه ويمنحه ذلك الشرف، ولذا أمره بأن يلقى عصاه حجة تدل على أن الله تعالى هو الذى يخاطبه، فقال:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾.

كان موسى فى حال من يكون فى حيرة من أمره، يخاطبه الله، فالله جل جلاله أزال عنه هذه الخشية، بدليل قاطع يدل على أن الله تعالى يخاطبه، وأنه رسول من عنده، بالعصا - ألقاها، فتحولت العصا إلى شيء يهتز ويضطرب كأنه حية تسعى، والجنان هنا حية تهتز وتحرك، فلما رآها كذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾، أى سائرا إلى الخلف، وظهره كأنه وجهه ولم يعقب، أى لم يرجع، كالجندي الذى يقاتل يرتد إلى الوراء ليحسن الهجوم، فيعقب على خصمه يضربه، ولكن رجوع موسى عليه السلام كان رجوع الخائف الفرع الوجل، ليس من شأنه أن يقدم بعد إحجامه، بل يحجم لغير غاية، ولذا قال تعالى علما بخوفه: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أمره سبحانه ألا يخاف تأنيلا له وتقريبا، وبيانا له بأنه كالثور وحاميه، ولا يخاف من الله ناصره، وقال تعالى ما هو بمنزلة السبب للنهى ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ إني لا يمكن أن يخاف عندى المرسلون؛ لأننى مانع كل شر عنهم، ولا يمكن أن ينالهم عندى إلا الأمان الذى لا يكون بعده أمان، فكيف تخاف، وأنت فى حضرة المولى جل جلاله، ثم فوق ذلك أنت مرسل من قبلى للدعوة إلى الهداية، وكيف يخاف مرسل أرسله مع المرسلين.

ولكن موسى عليه السلام كان قد قتل مصريا مناصرة لإسرائيلى، وقال شاعرا بخطئه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧) [القصص] وإن هذه الفعللة هى التى ألبأته إلى مدين، بين الله تعالى أنه غافرها، ما دام قد عمل حسنا بعدها، فقال:

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَأَنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١).

الاستثناء هنا استثناء منقطع، فما كان ثمة فى الآية السابقة رمى بسوء حتى يكون الاستثناء، فيتعين أن يكون منقطعا بمعنى لكن من ظلم، بقتله نفسا بغير حق، ولكن كانت ظالمة عاتية، ثم تاب عما ارتكب، ولم يكتف بالتوبة المجردة، بل اتجه إلى الخير مستقيما مدركا، وبذل حسنا بعد سوء، أى وضع فى تصرفاته مكان السوء حسنا فإن الله يغفر له لأنه غفور من شأنه المغفرة الدائمة لمن تاب، رحيم دائم الرحمة بالناس ومن شأن الرحيم أن يتقدم عباده لعباده بفعل الخير رحمة بالناس لكى يسود الخير بينهم.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَأَنِّي غَفُورٌ﴾ واقعة فى جواب مَنْ؛ لأنها شرط أو فى معنى الشرط، وثم للتراخى، لأنه ثمة تراخ بين الظلم والغفران.

وذكر سبحانه معجزة أخرى لموسى

﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢).

هذه آية أخرى ليأس موسى ربه، وأنه الذى خاطبه، وأنه رسول من رب العالمين إلى الناس، وهى أن يدخل يده فى جيب قميصه بلونها الطبيعى الظاهر، المتوافق مع سائر جسمه، ويخرجها من الجيب فيراها بيضاء ناصعة البياض من غير سوء من بهق أو نحوه، وتلك آية أخرى هى واحدة من تسع آيات إلى فرعون وقومه، ثم ذكر ما يدل على العناية بهم فى الاستدلال بتسع، إنهم كانوا قوما فاسقين، و(كانوا) تدل على استمرارهم فى التوغل فى الفسق، وهو الخروج عن كل معقول، ورفض كل مقبول، وأنهم قوم لا يفقهون حديثا.

وفى ذكر هذه الآيات عند بعثه إلى فرعون وقومه دلالة على أنه يذهب إليه مزودا بآيات تترى آية بعد آية وكل آية حجة عليهم، ودليل قاطع، ولكنهم أصروا على كفرهم حتى أغرقوا.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ .

الفاء للإفصاح، أى أنهم لما جاءت الآيات التسع مبصرة موضحة مبينة كأنها الأبصار التى تبصر، وهى ذاتها بصائر بينة واضحة، قالوا هذا سحر مبين، ومبين معناها واضح بين، وذلك لقصر مداركهم، وقد كانوا يظنون العصا سحرا، وجمع السحرة فى المدائن حاشرين، وأيقنوا أنها آية الله وليست بسحر، ثم كان اختبارهم بالقمل والضفادع، والدم آيات مفصلات، فهل كانت سحرا، لعلهم لغلبة الأوهام عليهم، ولعدم إيمانهم ولعدم إدراكهم الفرق بين الحق والباطل قالوا أيضا: إنها سحر، فقد كان غالبا على تفكيرهم، ويعدون السحرة علماء لهم.

وهم فى هذا الادعاء كانوا ضالين يدركون الحقائق، وتدعن أفهام لها، ولكنهم يجحدونها، وهى بينة واضحة يذعن لها أهل الحق، ولذا قال تعالى فى حالهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾، والجحود نفى ما يثبت فى العقل، وإثبات ما ينفى فى العقل، فهؤلاء يجحدون الحق بعقولهم وأقوالهم، ولكن نفوسهم مستيقنة لأنها لا سبيل لها لأن تنكر وتجدد، فهم بتوارد الأدلة المختلفة، وتكاثرها، ولأن نفوسهم فطرية يستيقنون ويدعنون ولكن يعارضهم جو عام وبيء، فنفسهم مستيقنة بالحق، وتدعن له لولا مقاومة التيارات الفاسدة التى تدفعهم إلى الجحود دفعا.

وقد بين سبحانه وتعالى ذلك مشيرا إليه بأنه الظلم، فقال: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، وهما مفعول لأجله، من فعل (وجحدوا)، أى جحدوا وأنكروا، وخالفوا نفوسهم، وفطرتهم، لأجل الظلم، أى استمرارهم فى الظلم والطغيان، ومعاضدتهم لفرعون فى ظلمه وعدوانه وإرادتهم العلو فى الأرض، وقد أدى ذلك

الطغيان الآثم، والعلو الباطل إلى فساد الأرض، وإلى غرضهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ أى انظر كيف كان مآل الفساد، وهو الخراب والغرق، والفساد كان فى الظلم، وإرادة العلو بالباطل، إنه لا يفسد الجماعات إلا الظلم أولاً، والتعالى بالباطل ثانياً، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو الغرق والهلاك، وهو عاقبة الجحود الظالم المستعلى المفسد.

من قصة سليمان

قال تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ
وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَخَشَرَ
لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰ إِذَا اتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أَخْلُو
مَسْكَنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالدِّيقِ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ هَذَا أَمْ كَانَ مِنْ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ

أُولَئِكَ يَنْتَظِرُ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
 أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
 إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
 عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
 فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ
 أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا
 فَالِقَةَ الْيَنَمِّ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ
 اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنِّي وَأَتُونِي مِنْ مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
 قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
 تَشْهَدُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
 فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
 أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
 وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ يُمِرُّ بِيَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ اتِمِدُّوْنِي بِمَالٍ فَمَاءَ اتَيْنِ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا
 ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّنَهُمْ
 بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
 يَأَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيْكُم بِرَأْيِي بَعَرِشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
 قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي
 عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ
 بِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا
 مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
 لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا
 نَنظُرُ أَنَّنَدَىٰ أَمْرًا كَوْنٌ مِّنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ
 أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۖ وَأَوَيْنَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
 ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ
 ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
 سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
 ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَنِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

أتينا بما ذكر القرآن الكريم من قصة سليمان في سورة النمل، وقد ذكرناها كلها جملة واحدة، وقد ذكر سبحانه قصة سليمان وأشار إلى قصة أبيه داود عليهما السلام، وكانا ملكين قد أعطاهما الله تعالى سلطانا وعلمًا، ليعلم ما يجب أن يكون عليه الحكام من أخلاق، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥).

الواو لاستئناف قصة نبيين من الأنبياء امتازا بتمكين الله تعالى لهما في الأرض بما لم يكن مثله لأحد من الأنبياء قبلهما، فقد كان إبراهيم وأبناؤه من الأنبياء يقاومون الملوك الظالمين، وقد رأينا فيما قصه الله تعالى علينا من قصة موسى كيف كان يقاوم فرعون، وأناه بتسع آيات بينات فما ارتدع وآمن، حتى أغرقه الله، فقال عند الغرق الآن آمنت برب هرون وموسى وبني إسرائيل، وليست هذه توبة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨) [النساء]. أما داوود وسليمان فقد كانا ملكين، وإذا كانت الملوك الذين بعث فيهم الأنبياء صورة للعصاة المنحرفين عن الحق فقد كان داوود وسليمان صورة عالية للملك الذي يخاطبه الوحي ويهديه ويرشده، كما قال تعالى لداوود: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢٦) [ص].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أكد الله سبحانه أنه أعطى داوود وابنه سليمان علما، باللام ويقدر فإنها تدل على التحقيق، ونكر سبحانه ﴿عِلْمًا﴾ للإشارة إلى أنه علم عظيم لا يقدر قدره، فقد أعطى داوود علم القيادة، وعلم إدارة الدولة، وعلم صناعة أدوات كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ (٨) [الأنبياء] وأعطى سليمان علم منطق الطير، كما ستشير الآيات لذلك، وعلم الابن ثمرته تعود على الأب، فهو شخصه ممتد، وكسبه كسب له كما هو مقرر بحكم الفطرة، ولذلك حمدا الله على ما آتاهما من فضله: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكان التفضيل أولا بالعلم، وثانيا بالسلطان والحكم، وهذا يستوجب الحمد والشكر لا الظلم والطغيان، ونقول إن الله أعطاهما الذي أعطاه، وهو نعمة، وتكليف، فالؤمن يحسب النعمة تكليفا، والتكليف بالنسبة للحكام العدل، وقد قص سبحانه وتعالى

قصص سليمان الذى ورث ملك داوود بالموارثة الملكية فقال:

﴿وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦).

ذكر الله تعالى وراثته سليمان لأبيه فى ملكه، فقد ورث هذا السلطان، ولم يرث الرعية، فالرعية لا تورث ولا يمكن أن تورث، وهذا خطأ بعض الذين تولوا الملك بالوراثة، فحسبوا أن الرعية شىء يورث، إنما الذى يورث هو الحكم ولا يكون إلا بوراثته يقرها الشرع، كوراثته سليمان لداوود، وقد أباحها الحكم الربانى ليجتمع شمل بنى إسرائيل أمام من ظلموهم، وأرهقوهم من أمرهم عسرا.

أخذ سليمان يبين لقومه ما أعطاه الله تعالى من مؤهلات الحكم، وما اختصه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾، أى علم لغة الطير، وعرف ما تدل عليه أصواتها من معان تقصدها وتريدها، وذلك يدل على مقدار تمكين الله تعالى له فى ملكه وفى سلطانه عليهم، وأن الطير والدواب أمم أمثالنا لها لغة ولها منطق وعبارات مفهومة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٢٨) [الأنعام]. وقد ذكر الضمير ضمير الجمع لبيان مكانته من السلطان، وما أعطاه الله من قوة، وذكر أنه لم يؤته الله تعالى منطق الطير فقط، بل آتاه من كل شىء ولذا قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى من كل شىء علما، فعلمنا منطق النمل، ومنطق الأحياء كلها، وأوتينا علم القيادة، وعلم الحكم العادل، والضمير ضمير الجمع لبيان سيطرة السلطان العادل، وقيل الضمير له ولأبيه، ولكن لم يرد فى القرآن ما يدل على معرفة داوود منطق الطير، والنمل، وغيرهما من الأحياء، والله ذو الفضل العظيم، ولذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أى أن هذا العلم لهو الفضل الواضح المبين للحق والسلطان، وقد أكد سبحانه فضل الله تعالى عليه، وعلى أبيه من قبله بأن، وباللام، وبضمير الفصل.

جمع سليمان جنده، وقال تعالى فى هذا الجمع:

﴿وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ .

حشر: أى جمع لسليمان جنوده، ولم يكونوا من الإنس فقط، بل كانوا من الجن والإنس، والجن هم من العالم الذى لا يرى فى الظاهر، ولا غرابة فى ذلك فإن الذى علمه منطق الطير، يمدّه بالجن والإنس، وقد يقال: إن المراد بالجن طوائف من الناس ليسوا فى أرضه، ولكنهم جاءوا إليه مناصرين له، فهم يوزعون، الناء للإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر، أى إذا اجتمعوا فهم لم يكونوا مفرقين غير محكومين ولا مضبوطين، بل كانوا مدفوعين، إلى التجمع المنظم طوائف، بل كانوا متحرفين للقتال: جاء فى مفردات الراغب الأصفهاني فى كلمة وزع: قال وزعته عن كذا كففته عنه قال تعالى: ﴿وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فقوله يوزعون إشارة إلى أنهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مهملين، ومبعدين، كما يكون الجيش الكثير المتأذى بمعرفتهم، بل كانوا مسومين ومقموعين، وقيل فى قوله يوزعون أى حبس أولهم على آخرهم .

والمعنى الجملى لهذا أن هذا الجيش الذى جمع القريب والبعيد والمؤتلف والمختلف قد كان مسوسا، ملتصقا بقيادة حكيم، وقد سار الجيش سيرا حثيثا، وأحس به النمل، فتكلم ليرتب أمره، فقال تعالى عنهما .

﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ .

أتوا بمعنى أقبلوا على وادى النمل، ولذا كان التعدى بعلى، وقالوا إنه واد بالشام، ونقول: إن كل أرض فيها النمل، ويتخذ له مكانا يقيم فيه، ويكون كالوادي له، وحطم معناها كسر، ومعنى ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، أى ليسير من فوقكم، فيحطم عظامكم، وقد أكدت النملة القول بما يشبه القسم، ولذا كانت اللام وكانت نون التوكيد الثقيلة، وأسندت الحطم أولا لسليمان باعتباره قائد

الجند، والجند جنده، فهو الذى يسند إليه الحطم أولا وبالذات، ولغيره بالتبع، وهم لا يشعرون بما يمرون عليهم من نمل.

سمع سليمان كلامها: ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وضاحكا حال مؤكدة لمعنى القسم، وهو يتضمن معنى التعجب من حرصها واهتمامها إلى النتيجة لمرور الجيش عليها، وعلى صواحبها، وإن ذلك دفعه لأن يتجه إلى ربه الذى أعطاه وأباه ما أعطى فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

لم يغتر، ولم يفخر، ولم يفاخر، بل عرف حق النعمة واتجه إلى شكرها، ودعا ربه ثلاثا.

أولا: ضرع إلى ربه أن يدفعه، فقال أوزعنى أى ادفعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها على، وعلى والدى، فإن هذه نعمة تحتاج إلى الالتجاء إليك لآتمكن من شكرها، وهى على، وعلى والدى فقد كان نبيا آتيته ما آتيت ولده سليمان، فكان ما أنا فيه نعمة على وعلى.

ثانيا: دعا ربه أن يوفقه للخير فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، أى أن أعمل عملا هو صالح فى ذاته وأن ترضاه بأن يكون خاليا من كل غرض غير رضاك سبحانه، إنك أنت المعطى، والمانع.

ثالثا: أن يكون فى ضمن عباد الله الصالحين، فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، أى أن الدخول فى الصالحين من عباده سبحانه هو برحمته سبحانه، لا بعمل قدمه، فكل عمل هو من فضله، وكل جزاء هو من رحمته.

رأى من النملة ما رأى، وكان بعد ذلك الطير.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢١).

يظهر أنه كان عند طائفة من الطير يتعهدها، ويسألها عن مآل أمرها،

ففقدها بتعرف حالها، فلم يجد من بينها الهدهد وسأل عنه، وهذا قوله تعالى عنه: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أى تعهدا، وتعرفها وتعرف حالها، فلم يجد الهدهد، فقال متعجبا ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ﴾، وكان حفيا بأن يعرف، ويسأل مالى لا أرى الهدهد أهو غائب عن عيني متخف بين إخوانه من الطير ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ بأن كان غائبا عن جماعة الطير التى كانت فى حوزته، وتحت قبضته، وإن له عقابا، ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ف (أو) لبيان تنوع المعاملة بتنوع الحال مثل قوله تعالى لذى القرنين، ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٦) [الكهف]، فإذا كان قد غاب مستهينا مستهترا فإنى أعذبه عذابا شديدا، وإن كان متمردا فإنى أذبحه، وأكد العذاب والتذيع بما يشبه القسم وباللام وبنون التوكيد الثقيلة، وإن كان غائبا لحاجة، فليأتينى بسلطان مبين أى بحجة بينة مبينة لأمر جديد.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ﴾ هى فاء الإفصاح، أى إذ تعهد الطير لم يجد الهدهد وإذا لم يجده فقال:

ولكن الهدهد كان ماكثا فى مكان غير بعيد.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (٧٢) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴿٧٣﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، الفاء عاطفة ما بعدها على ما قبلها، أى فمكث غير بعيد أو زمانا غير بعيد، أى لم يقض وقتا طويلا مديدا فى مكثه، بل جاء فور التهديد الذى هدد به نبي الله سليمان عليه السلام، وجاء إليه يقول له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أى علمت علم إحاطة ومعاينة، لأمر لم تحط به، ولم تعلم به علم معاينة، وهكذا كان حظ الطير الضعيف أن يخاطب العظيم الذى أوتى كل شيء بالحرية وبالحق، ليعلم الحكام الجهلة، أن من واجبه أن يواجهوا الحاكم بكل ما يعلمون وفيه مصلحة الدولة، وأن عليهم أن يتقبلوا شديد القول كما يتقبلون لينه ﴿جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾.

النبا هو الخبير العظيم الشأن البعيد الأثر، وهو يقين في علمه، إذ علمه عن عيان ومشاهدة، وحضور، والنبأ الخطير الشأن العظيم، هو أنه وجد امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء، أى أن قومها آتوها من كل أسباب الحكم بالخضوع والطاعة، والاستسلام ما جعلها ملكة عليهم، ولها في هذا الملك عرش عظيم ذو أبهة وروتق، وإشعار بعظم السلطان، وهذا قوله تعالى في كلام الهدد ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وقد أكد كلامه باللام وقد، وقال إنها تملكهم للإشارة إلى أن خضوعهم لها كخضوع العبيد لمن يملكهم، وبنى للمجهول إيتاؤها كل شيء، وهذا يفيد أن قومها آتوها أمرهم، ووضعوا رقابهم تحت سلطانها. وسبأ من خير أرض الله تعالى وأمكنها بخيراته، وقد قال تعالى فيها وفيهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)﴾ [سبأ] ويقول الحافظ ابن كثير: وسبأ هم حمير وفيهم ملوك اليمن والمرأة التي كانت تحكمهم هي بلقيس بنت شرجيل وكانت ملكة لسبأ.

وقال الهدد الخبير الصادق الأمين:

﴿وَجَدْتُنَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾.

كان في هذا العصر أقوام عظموا الشمس لما فيها من دفء، ومن أشعة تحيي زرعهم، ولذلك شاعت عبادة الشمس في أهل مصر، لأنهم أهل زرع، وفي سبأ، لأنهم أيضا أهل زرع وأهل حدائق غلب، فشاعت فيهم عبادة الشمس ضلالا

لعقولهم، وفسادا لتفكيرهم، واستجابة لدعاة السوء بينهم، وفعلوا هذه العبادة من دون الله، أى إنهم عبدوها دون أن يعبدوا خالقها الذى خلقها، وخلق كل ما يكون مما جعلها الله تعالى سببا لنمائه، وهو وحده الخلاق العليم.

وذلك لاستيلاء الشيطان على قلوبهم، ولذا قال عز من قائل: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

إنه من الحقائق النفسية الثابتة أن أول الشر استحسانه، فالشيطان يزين أعمال السوء للفاعل ويحسنها له، ويظن أنها الخير وحدها، وأن ما عداها باطل، وفرق بين المهتدى وغير المهتدى، أن من هداه الله يميز الخبيث من الطيب، فلا يتردى فى باطل، وإن تردى فيه سرعان ما يعود إلى الحق، ولا يقبل وسوسة الشيطان بالشر، وليس قلبه موضع لتزيينه، ثم قال ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، أى أنهم بسبب تزيين الشيطان لهم قد مكنوه من أنفسهم، فصدتهم عن السبيل، أى لعلمهم يعرضون عن الطريق المستقيم فى ابتدائه، ومن ضل فى أول الطريق سار فى ضلال إلى آخره، ولذا قال مرتبا على ذلك: فهم لا يهتدون، أى فهم يسرون فى ضلال غير مهتدين إلى الحق إلى النهاية، حتى يكون الحساب والعقاب: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم.

يصح أن نقول إن قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ حرف جر محذوف، وحذفه كثير قبل أن وما بعدها.

والمعنى كان ذلك التزيين والصد وعدم الاهتداء فى ذاته لأن لا يهتدوا إلى عبادة الخالق الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض.

ويصح أن نقول: إنه متعلق بـ ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى أنه حسن ذلك فى قلوبهم ليصرفهم عن السبيل، ويكون التركيب هكذا زين لهم ألا يهتدوا إلى عبادة الله تعالى الذى يخرج الخبء... إلى آخره.

و(الخبء) ما ستره الله تعالى حتى يخرج له للناس، فخبء السموات مطرها، حتى يحين حينه، ويدرك إبانها، وكل شيء عند ربك بمقدار.. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وصف الله تعالى المعبود بحق بثلاث صفات هي أعلى الصفات لواجب الوجود، وكل صفاته عليا.

الصفة الأولى: أنه هو الذى يخرج خبء السموات بالمطر الذى ينبت الزرع والنخيل والأعناب، ويخرج به خبء الأرض، بفلق الحب والنوى، وإخراج المتراكب الذى يكون به غذاء الأحياء.

الصفة الثانية: أنه يعلم ما يسر وما يعلن الإنسان، فهو علیم بحاله فى حركاته وسكناته، وما يفعل من خير وشر، ومجازيه على كل ما يفعل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وفيها تبشير بالجزاء، وإنذار بالعقاب.

الصفة الثالثة: أنه لا إله إلا هو، فهو وحده المتصف بصفات الكمال التى توجب عبادته، وهو صاحب السلطان رب العرش العظيم.. صاحب السلطان الكامل فى هذا الوجود.

سمع سليمان الملك العظيم الذى آتاه الله تعالى علم منطق الطير والنمل، وسائر الأحياء كما يبدو من عظم حكمه، وتكميل الله تعالى لسلطانه، فلم يحكم بمجرد السماع، بل قال كما حكى الله تعالى عنه:

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ .

كان سليمان ملكا حكيما لا يجعل علمه قيما يقضى فيه من سمعه فقط، فإن ذلك أضل الملوك، وهو الذى يوصف بأنه أذُن فتكون الحاشية وليه الذى يسيطر عليه، ولذا قال للهدهد: سننظر أى أننا نؤكد أننا سننظر فى حقيقة ما جئت به إلينا، أصدقت أم كنت من الكاذبين. الاستفهام فيه إيماء إلى تغليب

الكذب؛ لأنه فى معادلة الكذب تكلم بما يوهم أنه ربما يكون كاذبا، فقال ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فقد ذكر احتمال الكذب بما يفيد قرب، فأكد بالوصف بالكذب، ويكان الدالة على الدوام، وبكونه أن يكون من صفوف الكاذبين.

وانتقل نبي الله الملك، إلى مقام التيقن فقال له: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

كما كان الهدهد هو المخبر بحالهم جعله حاملا رسالته إليهم قال له: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ﴾ والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقدير القول فيه، فألقه موصلا له إليهم.

ولم يتعرض القرآن لبيان طريق توصيل كتاب سليمان إليهم، وقد قيل إنه أوصله من الكوة التى تشرق عليها الشمس منها لتعبدتها فيها، وقيل: إنه جاء إلى جمعهم، وألقى الكتاب المختوم بخاتم الملك لسليمان، فألقاه عليهم وهم يجتمعون، والله تعالى وحده العليم كيف أوصل إليهم الكتاب، ولا نتعرض لبيان، لأنه لو لم يعلمنا به الله فحق علينا التوقف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء، ٣٦]، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ العطف بـ (ثم) فى موضعه، أى ألقه متأكدا، وصوله إليهم، وبعد تأكيد ذلك تول عنهم وانصرف غير بعيد لتكون مترقبا ماذا يرجعون، أى ماذا يرجعون أو يردون ذلك الخطاب، والواقع أنهم لا يرجعون الكتاب، إنما يرجعون ما تضمنه الكتاب من دعوة لعبادة الله وحده، والاستسلام لسليمان والخضوع لحكمه كما يبين مضمون هذا الكتاب عند استفتاء قومها.

وصل إليها الكتاب، فعرضته على قومها:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٩) **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)**.

جمعت قومها تستفتيهم فى الأمر الذى جد وكانت حكيمة إذ جمعتهم وفوضت الأمر إليهم ليروا فيه ما يرون، عرضت عليهم صيغته ووصفته بأنه كتاب

كريم، فقدمت القول الحسن، الاحترام والتجلة، ووصفت الكتاب بأنه كريم طيب داع إلى خير لا فساد، وتلت عليهم الكتاب وهذا نصه:

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾ ابتداءً بذكر المرسل واكتفى باسمه، ويظهر أنه كان معروفًا بين ملوك الأرض، لأنه أقواهم، وأعظمهم قدرا وأوسعهم سلطانا، وعلمًا ومعرفة، وهل هناك علم أعلى من أنه يعرف منطق الطير، ومنطق الأحياء، وإنه أوتى من كل شيء قوة وعلمًا، قوله: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أن هنا مخففة من الثقلية، أي أنه الحال والشأن لا تعلوا على وتستكبروا وتتعاظموا على حين تكون مغالبة، واتتوني مسلمين، وفي كلمة مسلمين إيراد الإيمان بالله وإسلام وجوههم لله تعالى، قال بعض المفسرين ذلك، وقال بعض المفسرين: المراد أن يستسلموا له ويخنعوا له، وبعد ذلك تكون دعوة الإيمان والإسلام، وأميل إلى هذا، لأنه المناسب لقوله: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾.

وقد استرسلت الملكة العاقلة فقالت:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾.

جمعت قومها، واتخذت خطابها مع أشرافهم وذوى الرأى فيهم الذين يولون ويعزلون، وقالت لهم: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾. وأضافت الأمر إليها، إذ هي المستولة عنهم، والمخاطبة بأمر القوم عنهم، وأخبرتهم أنهم لا تبت في أمر وتقطع فيه برأيها منفردة دونهم ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون، حتى تشهدوا الأمر وتعاینوه، ونكون معاً، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم محذوفة أي حتى تشهدوني، أي حتى تحضروا معي وأتبادل الأمر معكم لنعرف ما يكون فيه خيركم. أجابوها بما يقوى عزمها ويشد أزرها ويطمئن حكمها كشأن حاشية الملوك، ومدبرى الأمر معهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ أجابوا بثلاثة أمور مطمئنة ملقية في نفسها روح الاطمئنان على حكمها وسلطانها.

أول هذه الأمور الثلاثة ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً﴾، أى أصحاب قوة فى استعدادنا من حيث العدد والذخيرة، وكل ما يحتاج إليه الجند القوى المستعد، وثانى هذه الأمور أنهم ﴿أَوْلُوا بَأْسًا﴾، أى أهل همة ونجدة وشجاعة لا نفرط فى الدفاع أو الجهاد إذا دعا داعيه، وإن بأسنا شديد، لا نتخاذل فى حرب .

الأمر الثالث: أن القيادة كلها (الأمر إليها)، ولذا قالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ﴾، أى نحن نتعاون طائعون فالأمر إليك، ﴿فَأَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين، أى انظري فى نفسك الذى تأمرين به؛ لأن الاستعداد كامل تنفيذ الذى تأمرين به كاملا غير منقوص .

قالت لهم بعد أن دبرت أمرها، وتعرفت مآل أمرها، وحالها .

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾ .

قدّرت ودبرت ورأت المسألة بدل المقاومة رهبا فى الملك، ورغبا فى موادته، قالت محذرة من غلوائهم ومقدرة أمرها وأمرهم: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ والقرية هى المدينة العظيمة التى تكون مكونة من جموع كثيرة متكاثفة، ودخولهم القرية العظيمة يكون بحرب جائحة تأكل الأخضر واليابس، وهذا هو الفساد والخراب، فلو أمكن، وفى شر ذلك ما قد يكون خيرا، وذكرت أمرا آخر يفعلهُ الملوك، وهو أن يجعلوا أعزة أهلها أذلة، إنما يقلبون الأوضاع فيها فيجعلون من هم فى موطن العزة والسلطان، هم الذين يكونون فى موطن الذلة والهوان وإنها فى ذلك تشير إلى خوفها على نفسها من أنها فى السنام منهم قد تكون غير ذلك، وأنهم لها ميم قومهم قد يكونون فى غير مواضعهم، وسجلت أن ذلك حال الملوك دائما وهو شأنهم، ولذا قالت: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أى ذلك شأنهم دائما. وكان التعبير بالفعل المضارع لتصور حالهم المستمرة الدائمة كأنها شأن من شئونهم، وغاية لهم .

اتجهت بعد ذلك إلى الملاينة والمسالمة بالإهداء، والإهداء من المحبة، ويؤدي إليها إذا لم يكن من ترسل إليه الهدية ملكا ولذا قالت للملثا: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهِدِيَّةٍ﴾ ذكرتهم بصيغة الجمع، لأن الملك يكون معه جيش وأقوام، وهى ترسل إليهم جميعا بهدية، ويظهر أنها لا تتوقع الأمان المطلق، بل كانت تتوجس منهم خيفة، ولذا قالت: ﴿فَنَازِظُهُ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ والفاء عاطفة، نازرة بمعنى منتظرة مترتبة الأمر الذى يرجع به المرسلون، أسلام وأمان، أم حرب ودمار.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٣٦).

هذا وقع الهدية فى نفس نبي الله وملك الأرض الذى علمه الله تعالى منطق الطير، وجاء لسليمان أى جاء الوفد وقابل سليمان، ومعه الهدية التى أرسلتها الملكة، خاطب نبي الله وملك الأرض الوفد مستحقرا الهدية، ومستهيئا بتفكير مرسلها ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، أى اتجعلون المدد الواصل بينى وبينكم مالا والمال هين على وهو عندى بل عندى ما هو خير منه، ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ آتانى الملك العظيم القوى، وآتانى العلم بكل شىء ومن شئون الدنيا آتانى علم منطق الطير والأحياء، وآتانى من كل شىء، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، بل للإضراب الانتقالى ورد للهدية، أنتم تفرحون بهديتكم، ولا تفرحون بغيرها، لأنكم ماديون، لا تفرحون إلا بالمادة وما يتصل بها من أمثالها. وتقدير الجار والمجرور بهديتكم - للقصر والاختصاص، أى لا تفرحون إلا بها، ثم هددهم نبي الله بالجيوش الجارة، فقال:

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٧).

كان الخطاب بالمفرد؛ لأنه الوفد الذى يخبرهم بأمر سليمان، وما استعد به لهم، فلنأتينهم الفاء عاطفة دالة على الترتيب والتعقيب أى فور رجوعهم لنائينهم، وقد أكد غزو الشرك بالقسم، ولام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، وقد أكد إرسال

الجيش، وأكد نتيجته، بقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّهُمْ﴾ والإخراج يصح أن يكون المعنى إبعادهم عن سلطان الحكم، فلا يكون لهم رأى ولا إرادة، وكأنهم المخرجون، وأذلة أى كونهم أذلاء صاغرين أى منحطين إلى المنزل الدون راضين بذلك؛ لأنه لا قدرة عندهم على تغيير حالهم، والتفكير فى أمرهم، كان هذا رد الملك النبى، وما كان ليسكت عن قوم يعبدون الشمس ومشركين، فهو ملك نبى ونبوته لا تتأخر، بل هى العامل الأول المسير للملكه دائما.

بعد ذلك أخذ يفكر فى تعرف حالهم، وإظهار القدرة التى من الله بها عليه، فأراد أن يختبر ذكاءها قال:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨).

العرش كرسى السلطان، وقد سبق أن وصف الهدهد ذلك العرش بأنه عرش عظيم، قد أوتى من الأبهة والزخرفة الكثير، وإنه دليل على كمال السيطرة، وكمال الثروة، وما الذى يطلبه نبى الله الملك من الملأ من قومه أهو أن يأتوه به ذاته، ذلك ظاهر القول، ولو يوجد ما ينفى الظاهر، ونحن نأخذ بظاهر القول ما لم يوجد من الاستحالة العقلية ما يخرجنا من الظاهر إلى غيره، فالأمر كله لا غرابة فيه، فالنمل يتكلم، ويسمع كلامه ويفهم، والطير يتكلم ويفهم، ويرسل فى رسائل وكتب إذن فلا غرابة فى أن يأتى بعض الملأ بذات العرش.

وقد قال بعض الذين يتكلمون فى معانى الذكر الحكيم. إن الذى طلبه نبى الله تعالى هو أن يأتوه بصورة العرش لا ذاته، ونحن نرى أن هذا التأويل وإن كان محتملا لا نرضاه؛ لأنه غير ظاهر اللفظ، وظاهر اللفظ يسير فى مؤداه ما دام لا يستحيل، وقوله قبل أن يأتونى مسلمين يقول إن الإسلام هنا هو الخضوع، ويصح أن يكون المعنى الإسلام الحقيقى، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وإنا نميل إلى الأول؛ لأن الإسلام بشهادة الحق جاء بعد ذلك عندما قالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤).

أخذ الملأ من حول سليمان يعملون على إجابة طلبه.



﴿ قَالَ عِزْرِيتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٣٩) .

العفريت، قال ابن قتيبة إنه الموثق الخلق أى القوى فى بنيانه، وقد كان الجن من جيش سليمان، ونسير بالكلام على ظاهره من غير محاولة تأويل، لأنه ليس عندنا مسوغاته، ولا نعمل الفكر فيما لا يسوغ فيه، قال القوى من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك أى من مجلسك هذا، وإنى عليه لقوى أمين، وقد أكد قوته وأمانته بعدة مؤكدات، أولها بأن والثانى باللام، والثالث بكلمة عليم، وفيها إشارة إلى أنه فى قبضة يده.

ولم تبين الآية كيف يكون ذلك، ولنسلم بظاهر الآية، غير متكلفين، فالله تعالى أمر بعدم التكلف فقال ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) [ص].

ولكن الملك نبى الله عليه السلام استطال هذه المدة، فتقدم عليه بعض الذين أوتوا علم الكتاب.

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٤٠) .

وصف الذى أتاه قبل أن يرتد إليه طرفه بأن عنده علم الكتاب، فما هو هذا الكتاب، أهو السجل المحفوظ، أم كتاب من كتب العلم والمعرفة، ومن أى جنس، أهو من الإنس أم من الملائكة، لم يبين القرآن قبيله ولا كتابه، فكان حقا علينا الا نتعرف ما لم يعرفنا الله به، إذ لا سبيل لذلك، ولم يرد عن السنة ما يوضح ذلك بخبر صحيح يمكن الاعتماد عليه.

وإن هذه سمعيات يجب التصديق بها والإذعان لها، وكثير من قصة سليمان أمور غيبية توجب الإذعان ويكتفى بالإيمان بظواهرها، غير متأولين، ولا قافين ما

لا نعلم، وقد نقول إن علم الكتاب علم رباني يؤتيه الله من فضله من يشاء من عباده إنه عليم خبير.

وارتداد الطرف أن ينظر إلى أمر بتحديد عين، ثم يرد إليه بعد النظر المتحدق، وهو لا يتسع لزمن قل أو كثر؛ ولذا قال بعد ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ الفاء للعطف والتعقيب، أى أنه عقب قول صاحب علم الكتاب رآه مستقرا عنده، أى موجودا قارا ثابتا عنده، لا يتصور بعده عنه بعد ذلك، كانت هذه نعمة على سليمان تستوجب الشكر، ولذا قال معلنا أن ذلك اختبار من الله، قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ يقرر فى هذه الجملة السابقة - ما يقرره النبى الملك، يقرر أولا أنه فضل من الله ليس إلا نعمة أعطاها عطاء ومنا من غير سابق طلب، ويقرر ثانيا أنه يعامله معاملة من يختبره أياكون من الشاكرين للنعمة القائمين بحققها، أم الكافرين الذين يجحدون، ويغترون ويعاندون ويحسبون أن ذلك استحقاق وليس عطاء ثم يقول: ﴿مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، أى فإن شكره يكون عائدا على نفسه، لأنه يفعل الخير، ويشابر عليه وثمرة ذلك تعود عليه، ولأن من يشكر النعمة يزيده الله منها، كما قال تعالى: ﴿لَنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم] أى ومن يكفر ليغتر ويجحد ويعاند، فإنه يضر نفسه، ولكن لا يقطع بفضل الله ولا منه وفضله وكرمه، فالله غنى لا يحتاج شكر عباده، وكريم يعطى دائما والحساب فى الآخرة.

يظهر أنهم قد حاولوا أن يكونوا قرييين من سليمان، أو أن يحضروا مستسلمين، أو أنها أعلنت المجيء إليه مستسلمة، ولذا قال الله عن سليمان:

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٢).

التنكير جعل العرش فى وضع أو حال بحيث لا يعرف، ولذا قيل: إنه وضع فى وسط أمتعة متفرقة مختلفة بحيث يصعب تعرفه فى وسطها، وروى ابن

عباس ومن أخذ عنه أنهم غيروا فى ألوانه، وأخذوا بعض ما فيه من جواهر، ونرى أنهم لم يغيروه، ولكن نكروه، ننظر جواب الأمر أى لننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون، أى لننظر فاحصين ذاتها، ألها نظرات ثاقبة، تصل من ورائها إلى الحقيقة محصين مدركين واصلين، أم هى من أهل الغفلة الذين لا يهتدون، ولا يمحسون ولا يدركون.

وقد تبين من الاختبار أنها واعية مدركة، وأن النساء يدركن دائما ما يتعلق بالفراش وزينة الحياة الدنيا، ولذا علمت، وإذا كان قد اعتراها نوع تشكك، فلغربة أن يجيء إلى نبي الله سليمان قبل مجيئها.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لم تقل إنه هو من قبيل الجرح؛ لأنها رأته بعينها ولكن كانت الغربة فى أنه جاء قبلها فتساءلت فى ذات نفسها، كيف جاء، وبأى طريق وصل، هذا هو الذى تحتس من أن تقول هو هو - بل قالت كأنه، وقال سليمان مؤكدا أنه هو: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ أى أوتينا العلم به المستيقن المحسوس من قبل مجيئها، وقد يعلل بهذا من قال: «إنها صورة العرش لا ذاته» وما كان لنا أن نترك الظاهر الذى يبين اليقين بعبارة موهمة غير قاطعة ثم قال: سليمان: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أى مدعين للحق ببيناته.

وإن هذه الأحوال كلها خوارق للعادات مثبتة نبوة سليمان، وفى الحق أن سلطان سليمان قد قام كله على خوارق للعادات، وكان الزمن زمن المادة والأسباب، والمسببات، فكان هذا الملك قرعا لأسماع الماديين المتعلقين بالأسباب والمسببات العادية، ويحسبون مخطئين أنها قانون الوجود.

وذكر سبحانه وتعالى حالها فقال:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٦)﴾.

وهنا نجد كتاب الله تعالى الذى ينصف فى كل أحكامه، لا تجد فيه عوجا ولا أمتا، فالله سبحانه يبين على لسان نبيه الملك أنه صدها عن سبيل الله ما كانت

تعبده من دون الله تعالى من الشمس التى هى من خلق الله تعالى الدالة على كمال قدرته سبحانه، وقال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وهذه الجملة السامية فى مقام التعليل: الشيطان يصدها عن السبيل القويم أى أنها كانت فى بيئة كفر؛ لأن قومها وأجدادها قد توارثوا الكفر، فكانوا أبعد الناس عن إيمان، فمرنت على الكفر، واعتنقته، وعبدت ما يعبدون من دون الله.

بين الله من بعد ذلك على لسان سليمان ما يرغب أمثالها من النساء، وهو أن الملك يملك من زخارف الحياة ما ليس عندها، وما يبتهر فقال:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾.

الصرح، القصر العالى المزخرف، ودخلت الصرح، فدخلت صحنه، وهو ممرد أى مملس ملمسه ناعم وله بريق بسبب تمرده، وإزالة كل خشونة فيه حتى يحسبه الرائي لتنسيقه، وكأنه لجة من الماء، فحسبته ماء فى صحن الصرح وخشيت على ثيابها المزخرفة فرفعتها، وكشفت عن ساقها، فنبهها سليمان إلى أنه ليس بماء وإنما هو صرح ممرد من زجاج يبدو بادئ الرأى كأنه لجة ماء وما هو بماء، فقال لها: إنه صرح ممرد من قوارير، أى من زجاج تكون منه القوارير، وهى جمع قارورة.

أدركت السيدة بلقيس، وهى تروعها الزخارف كما تروع كل النساء، فكرت فى ماضيها إذ كانت تعبد الشمس، وسليمان يعبد الله تعالى، وقد آتاه الله من النعم ما لا يمكن أن يكون لأحد غيره، فاهتزت، وعلمت أنها كانت على باطل،

وأنها ظلمت نفسها بما كانت عليه، قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أقرت بأنها ظلمت نفسها بعبادتها الشمس، فالشرك

ظلم للنفس وطمس للقلب، وأى طمس للعقل أكبر من أن يعبد الشمس. وهى مخلوقة لله تعالى، ويترك الخالق وهو الله سبحانه وتعالى ونادت الله تعالى بلفظ الرب إيماناً بالربوبية الكاملة. وأكدت ظلمها للنفس بأن الدالة على التأكيد، وجعل الظلم واقعا على نفسها، وإذا كانت قد علمت أن الشرك ظلم عظيم للنفس، فقد خلصت لله تعالى، ولذا قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أى سلمت نفسى مع سليمان لله رب العالمين، وذكر معيتها مع سليمان؛ لأنه هو الذى دعاها وأرشدتها، وذكر الله تعالى موصوفا بأنه رب العالمين، أى الخالق القائم على العالمين بالتدبير الحكيم.

من قصة صالح وثمود

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيزْنَا بِكَ وَيَمَنُ مَعَكَ قَالَ طَئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجَاعَةٌ رَهَطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَقَاسِمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

﴿٥١﴾ فِتْلِكَ يُوْتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَكَاوَيْنَا ثَقُوفَ

بعد ذكر قصة سليمان ملك الأنبياء، وكيف كانت حياته وملكه ونبواته معجزات متواليه، وكل شيء كان يجرى بأمر خالد، ذكر سبحانه قصص بعض الأنبياء، وابتدأ من بعده بصالح، وهو صورة لنبي لم يكن ملكا بل كان من الشعب، هم قومه أن يقتلوه.

وليس في قصة صالح وثمرود تكرارا، بل ذكر فيه ما لم يذكر في غير هذا الموضع، ولم يذكر فيه ما ذكر في غيره، لم تذكر المعجزة وهي الناقة، وما كان منهم من اعتداء عليها، وذكر هنا الائتمار على قتل صالح وامراته، ولم ينجه منهم إلا إنزال العذاب بهم، وما ترك العذاب فيهم من عبر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥).

الواو استثنائية أكد الله تعالى الإرسال حيث دعت دواعيه، وأكد باللام، وقد، وإضافة الإرسال إلى ذاته العلية، وذكر سبحانه أن الإرسال كان بإرسال أخيه أي أنه واحد منهم يعرف أمرهم وحالهم، وهو رءوف عليهم شفيق بهم قد عرفوا صدقه وأمانته وحبه لهم، والفهم به، وكانت الرسالة هي عبادة الله تعالى وحده؛ ولذا قال: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أن تبشير لمعنى الرسالة، وعبادة الله لا تتحقق إلا بأن تكون العبادة لله تعالى وحده، لا يشرك به شيئا، فإذا عبد مع الله غيره فقد أشرك ولم يعبد الله تعالى، لقد كانوا يعبدون الأوثان فلم يكونوا يعبدون الله فكان أمرهم بعبادة الله وحده متضمنا لنهيهم عن عبادة غيره من الأوثان وغيرها،

وإن الشرك أمر تنكره العقول المستقيمة، وتعافه النفوس القويمة، ولذا كانت المفاجأة ألا يختلفوا في عبادة الله فمنهم من اهتدى ومنهم من حقت عليه الضلالة، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، الفاء وإذا للمفاجأة الفاء واقعة لترتيب ما بعدها على نقيض ما قبلها، ولذا كانت المفاجأة بها ويأذا بعدها، فريقان: فريق أطاع واهتدى، وفريق ضل وغوى، وهم يختصمون أى يختلفون ويكون كل فريق خصما للآخر يجادله لإثبات الحق والدعوة إلى الحق، ويستمسك الباقون على شركهم بما كان عليه آبائهم.

وقد أندر صالح الضالين بالعذاب الشديد، وأن الله تعالى أخذ بالنواصي، فقالوا كما فى آيات أخرى: اثنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ولكنه يرجو لهم الهداية بدل العذاب.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦).

قال لهم صالح رافة بهم، وإن كانوا يرافون بأنفسهم، ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، ابتداء بالأمر الذى يربطه بهم، ويوجب محبتهم والحدب عليهم، وهو أنهم قومه الذين يرتبط نسبه بنسبهم، تنبيها لهم إلى ما فيه رحمتهم ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، أى تطلبون فى استعجال الأمر الذى يسوء وهو العذاب الاليم الذى يهددون به، وهو العذاب الذى يسوء، وتقدمون ما يسوء على الحسنة، وهو الإيمان الذى هو حسن فى ذاته، وحسن لكم إذ من ورائه الثواب بدل العذاب، والاستفهام هنا للاستغراب، وللتوبيخ، وليبان أنهم يطلبون ما فيه الأذى بدل ما فيه الإكرام والثواب، وينبههم إلى ما يجب أن يطلبوه، وهو مغفرة الله والإيمان به، فهو طريق الخير، فيقول: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ و(لولا) هنا للحض على طلب المغفرة، أى هلا تطلبون مغفرة الله رجاء منكم أن ترحموا بالإيمان بالله وحده، وترك الشرك، والإذعان لله تعالى، ففى هذا رحمتكم، وأن توقوا عذاب الجحيم، ولكنهم يلجئون فى الكفر، ويتهمون نبيهم بأن دعوته شؤم عليهم.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧).

التطير تعرف مستقبل الأمر عن طريق بأن تثار الطير من وكنتها، وباتجاهها يتفألون أو يتشاءمون، وهو هنا التشاؤم، أى أنك يا صالح كنت أنت ومن معك من المؤمنين سببا لتشاؤمنا منكم بوجودكم، كأنهم يقولون لهم أنتم نحس علينا، فلا يصح أن تدعونا إلى ما تدعوننا إليه، فرد عليهم صالح بأن تعرفهم الغيب بالطيرة أمر باطل إنما علم الغيب الذى تتعرفونه بالطير هو عند الله تعالى وحده فلا يعلم الغيب إلا الله وحده، ولا يعلم أحد إلا بإعلامه، فمعنى طائرکم عند الله، علم الطائر الذى تدعونه لأنفسكم عند الله وحده علام الغيوب، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أى تمتحنون بتلك الأوهام عليكم فتحتسبون التطير يسعدكم أو يشقيكم، وأنتم تمتحنون وتعذبون بالسير فى طريق العذاب الذى يستقبلكم، فالفتنة هنا معناها الاختبار وتسلط الأوهام عليكم، وسيؤدى هذا الامتحان حتما إلى العذاب الأليم، عذاب الدنيا والآخرة.

استمر صالح فى دعوته تبليغا لرسالة ربه، ومعه الفريق المؤمن الذى يخاصمه الفريق الكافر إلى أن تمللوا به، وبمن معه، وأرادوا قتله، وأن يتورع دمه، وهذا قوله تعالى.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩) وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠).

الرهط الجماعة من الناس، والإضافة بيانية، والمعنى وكان فى المدينة التى كانت مبعث صالح تسعة رهط أى جماعة متحدة المشاعر والأحاسيس يجمعها العداء للرسالة، والتآمر عليها، وهذه الجماعة من أوصافها أنها تفسد ولا تصلح، وقد كانت الرسالة الإلهية لإصلاح هؤلاء، ومنع لإفسادهم عن الجماعة، ولا يهمننا أكانوا من الكبراء أم كانوا من الأصغرين بيد أن عملهم يكشف عن فسادهم، ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ﴾، قالوا تقاسموا، أى أن قولهم هو

التقاسم على موته وأهله، فهما بدل ومبدل منه أو الثانى عطف بيان للأول، ومعنى تقاسموا أن كل واحد منهم تبادل القسم مع الباقين، والقسم بالله، ولا غرابة فى ذلك فقد كانوا يعرفون الله وأنه خالق كل شىء ولا خالق غيره، ولكنهم يعبدون الأوثان لتكون زلفى إليه سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وموضوع القسم ﴿لَنَبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى لنجيثنهما بياتا وهم نائمون، ويقتلونهم، ويهلكونهم، ويجيئون يمين كاذبة يقولون ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. يقولون لولى دمه من أهل وعشيرة، ويدعون أنهم صادقون، وإنهم لكاذبون وهم بذلك يدبرون جريمة، ولكن الله راد كيدهم فى نحرهم، وهو محيط بهم، ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠﴾.

دبروا هذا التدبير الآثم وسماه الله تعالى مكرًا، وقد أحكموا التدبير، وأحاطوه بما يضمن التنفيذ بإحكام، ولذا أكدوه بالمفعول المطلق مكرًا، والله من ورائهم محيط، ولذا دبر لعبده، وسمى تدبيره الحكيم مكرًا من قبيل المشاكلة اللفظية؛ ولأن المكر هو التدبير، ويكون فى الخير والوقاية من الشر، كما يكون فى تدبير السوء كما كان منهم، ومكر الله تعالى لإحباط تدبيرهم الخبيث، وهو القضاء على الفساد والمفسدين، وهم لا يشعرون أن الله محيط عملهم، و مبطل تدبيرهم وذلك بالقضاء عليهم قبل أن ينفذوا.

أصابتهن صيحة خربت ديارهم، وأفسدت تدبيرهم، ولذا قال سبحانه:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾.

الفاء للإفصاح، أى إذا كان الله قد دبر لرسوله كما دبروا آثمين، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، وأن ما أنزله الله تعالى من عذاب مدمر كان بسبب اعتزامهم قتل صالح وأهله، وما كان الله تعالى لينذر رسوله نهبا لهم يفتالونه، بل إنه سبحانه لهم بالمرصاد، قتلهم قبل أن يقتلوه، فجاءتهم الصيحة، فأصبحوا فى

دارهم جائمين، ﴿ذَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وصار الذين كانوا يهددونهم مساقط الأحجار، وموطئ المارين.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣).

الفاء أيضا للإفصاح، أى إذا كانوا قد مكروا ودبرنا لحماية الحق فتلك بيوتهم خاوية، والإشارة إلى البقاع التى كانت لشمود، وقد أهلكهم الله تعالى بالصيحة، وخواوية أى فارغة لا ساكن فيها، ولا أحد يجىء إليها، ويكون من خوى إذا فرغ، وخلا ويكون تشبيها لأرضهم فى خلوها من أهل، بالبطن إذا خلت من الطعام، وكان المآل الهلاك والبوار، فإن المكان الخالى من السكان مآله البعد، وأما إن خوى بمعنى سقط، فهى ساقطة متهدمة، من قولهم خوى النجم إذا سقط تهدم.

ولقد استغلظت قريش فى معاملتها للمؤمنين الذين كانوا الخلية الأولى للإيمان، واستهانوا بهم، وحسبوا أنفسهم الأقوياء على الرسول، وهذا الذى فعله سبحانه مع ثمود آية لهم دالة على أن هلاكهم يسير إذا أراد الله، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أى آية دالة، ما يعقب الكفر والاعتداء لقوم يعقلون، وهذا دعوة لقريش ليعقلوا ويتدبروا عاقبة أمرهم.

هذا هلاك الكافرين المعتدين أما الذين آمنوا فقد نجاهم الله فقال: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أى الذين أذعنوا للحق وآمنوا به، وهدموا الأوثان، وكان من شأنهم التقوى وخوف الله تعالى ووقاية أنفسهم من غضب الله، ورجاء رحمته، وعبر بالمضارع لتصوير حالهم فى تقواهم.

كان ينتهى الجزء التاسع عشر عند قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، أى قوم لوط، وبها يستدئ الجزء المتمم للعشرين، ولكننا آثرنا أن يبتدئ الجزء بقصة لوط.

من قصة لوط

قال تعالى:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
 أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ
 الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾
 ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ
 لُوطِ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَطْهَرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾

الواو عاطفة وتكون كلمة لوطا معطوفة على صالحا، ويكون المعنى ولقد أرسلنا لوطا إلى قومه، وإذ متعلقة بالفعل المنوى ذكره لعطف النسق، أى أرسلنا لوطا إذ قال لقومه، أتأتون الفاحشة أى الفعل الفاحشة البينة الزائدة عن أن تدرك فى أى عقل، والحال أنكم تبصرون مدركين فحشها عالمين قبحها، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فهو توبيخ على وقوع فعلهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن البصر يكفى لإثبات قبحه فهو قبيح حسا وطبعا وعقلا، إذ هو بالحس وضع للشئ فى غير موضعه، واستعمال للمكان فى غير ما خصص له بمقتضى الفطرة السليمة، وقد وضع لوط عليه السلام لهم قبح فعلهم بالتوضيح الواضح، بعد التلويح اللائح، فقال:

﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

الاستفهام داخل على أمر مؤكد وقوعه، فالاستفهام ليس لشك فى وقوع

الأمر بل لغرابة فى الوقوع المؤكد، فالاستفهام بلا ريب يفيد استغراب هذا الواقع المؤكد، وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ووجه الغرابة: أولاً أنهم يجعلون الرجال فى موضع النساء، وذلك فساد فى الفطرة أى فساد، ووجه الغرابة ثانياً، أن الإتيان لأجل الولد، وهذا ليس موضع الحرث المنتج، ووجه الغرابة ثالثاً، أنه فاحشة فى ذاته، إذ هو فساد، وقال سبحانه بعد ذلك: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

بل للإضراب الانتقالي، وكأنه إضراب عن بيان غرابة أفعالهم، لأنه لا غرابة ممن شأنه أن يجهل ولا يتحرى الصواب فى أفعاله، بل إنه حائر بائر، لا يفعل إلا ما يجهل، ولذا عبر بالمضارع المصور لحال الجهل الذى لا تصدر عنه أفعالهم إلا وهم يجهلون، وسجل سبحانه وتعالى عليهم أنهم لا يفعلون إلا ما هو مجهول عند أهل العقول السليمة، أولاً بالجملة الاسمية وبالخطاب المواجه المصور الموبخ، وبالتعبير بالمضارع الدال على تصوير الجهل المستمر الذى يدل على أن الجهل حال دائمة لا تنفصل عنهم.

وإن الباطل ينفر من الحق، ولا يستطيع أن يواجهه، ولذا اتجهوا إلى إخراج لوط ومن معه من الأطهار من بينهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾.

الفاء للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا ما كانوا على هذه الحال من سيطرة الجهل، فإن الجهل لا يطبق الطهارة والتطهر، ولذا كان جوابهم، وإن قالوا مصرين أخرجوا آل لوط من مدينتكم العظيمة؛ لأنه لا تجتمع الطهارة العفيفة مع الدناسة الجاهلة، وقد عللوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾، أى من شأنهم الطهارة والبعد عن هذا الدنس المخالف للفطرة، والطبع السليم، وقد صور سبحانه بما جاء على ألسنتهم يتطهرون أى أن لوطاً ومن معه من شأنهم الطهارة المستمرة، وعبر بفعل المضارع للدلالة على تصوير حال الطهارة المستمرة فيهم، كان عذاب الله

تعالى لا بد أن ينزل بهم لكى لا يستمر فسادهم؛ ولأنهم يقبلون الفطرة، كما نرى الآن فى إنجلترا وأمريكا، إذ تفاقم الشر، وفحشت الفواحش، ومسخت الطباع، فكان لا بد من النازلة، جعل الله على أرضهم سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل مسومة منضودة.

ولقد بين سبحانه نجات لوط ومن معه إلا امرأته، فقال:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)﴾.

الفاء للترتيب والتعقيب، أى أنه سبحانه قرر هلاكهم وقرر النجاة للوط وآله، فكان معقبا أو مقارنا لتقرير الهلاك، وهو أقرب من التعقيب، وإليك خبر الهلاك، وطلب النجاة فقد جاء فى سورة هود من مخاطبة الملائكة للوط عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود].

أنجى الله تعالى لوطا وأهله بأن أمرهم بأن يسروا من البلد ليلا، واستثنى امرأته لأنها من الغابرين من الماضين، وظاهر أن ما كان منها هو الشرك، وعدم إنكارها لأفعالهم الخبيثة، فعدم الإنكار لجريمة بشعة معلنة قد جاهرُوا رضا بها، فهى معهم فى الشرك أو الرضا، بتلك الفاحشة الفحشاء، ولذا قال قدرناها من الغابرين، أى عددناها منهم.

وبعد هلاك القرية، وجعل عاليها سافلها، أمطر عليهم سبحانه مطرا وهو حجارة حاطمة رؤوسهم مهلكة، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾، أى أنزلنا عليهم من السماء حجارة هى أشبه بالمطر فى وابلها وتراكمه، ولقد بين أنه أسوأ مطر «فساء مطر المنذرين» أى ما أسوأ مطر المنذرين الذين أنذرهم.

وقد بين سبحانه في آيات أخر أنه مطر حجارة لا مطر ماء، فقال في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ (٨٢) مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ ﴿ (٨٣) 》 .

هذه أقوام أشركت، وبين الله تعالى عاقبة إشراكها، إذ همت بالاعتداء على نبيها، ولم يكن له قبل بها، والآيات قائمة والأدلة معلمة، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض هذه الآيات .

من آيات الله على الوحداية

قال تعالى :

﴿ ٥٨ ﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ أَللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ ٥٩ ﴾
 أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٌ يُعَذِّبُونَ ﴿ ٦٠ ﴾
 أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَدُنَّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٦١ ﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلُوفَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَلِيلًا مَّا نَذَكَّرُونَ ﴿ ٦٢ ﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشَرَابٍ يَدْرِي

رَحْمَتِهِ ۖ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾
 أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾
 قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
 فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

بعد أن ذكر سبحانه من أخبار الرسل، ما لم يكن مكررا في أخبار سبقت،
 فمثلا أولئك الرهط التسعة الذين ائتمروا بقتل صالح عليه السلام لم يذكرنا من
 قبل، وهكذا، نجد في كل قصة تجد ذكرها شيئا لم يذكر من قبل. بعد هذا
 القصص قال الله لنبيه ورسوله ﷺ أن يقول لهم الحمد لله.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩).

قل لهم يا محمد الحمد لله، أقدم القول بحمد الله تعالى والثناء عليه بما هو
 أهله أن أمدني بهذا القصص الصادق، وإنني ما كنت بدعا من الرسل، وإنني ما
 جئتكم بأمر من عندي، وأن المثلاث قد سبقت لقومي بما أدى إليه كفرهم، وتحية
 سلام للذين اصطفاهم الله تعالى واختارهم، وأرسلهم تترى وتلقوا الصدمات من
 أقوامهم صدمة بعد صدمة وصبروا حتى بدل من بعد خوفهم أمنا ومن غطرسة
 أقوامهم هلاكا، وهانذا أتلقى الصدمة والله مبدل خوفاً أمنا إن شاء الله تعالى
 والقضية التي كان حولها الإيذاء والتعنت والدعوة الحق، ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا
 يُشْرِكُونَ﴾، أي أن الذي كان حوله النزاع بين الحق والباطل عبادة الله وحده خير
 أم الذي يشركون به، وجعلت الصيغة الموازنة بين ذات الخالق البارئ المُنشئ من
 العدم خير، أم الأوثان التي يجعلونها شريكة في عبادته، وهي موازنة ظاهرة

البطلان أو كيف يوازن بالخالق والمخلوق، والمنشأ ومن أنشأه. تعالى الله عما يشركون، ولا يستويان فلا يستوى الخالق والأوثان. ثم ذكر سبحانه من بعد ذلك أدلة الوحداية وأن الله تعالى هو المعبود وحده فقال عز من قائل:

﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ يَلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ١٠﴾.

ذكر سبحانه وتعالى في الآية السابقة ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، بالاستفهام، وهو نفى للمعادلة، وفي هذه الآية يوضح بطلان الموازنة بين خالق السموات والأرض، والموازن معه محذوف مع تقديره في القول، وحذف استهانة به مع ذكر مدلوله في الجملة، والمقصود الأول التعريف بالذات العلية جل جلاله، والمعنى أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وأنزل لكم من السماء ماء خيرا أما تشركون، وذكرت النتيجة أعله مع الله.

وأم في قوله أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فهي للإضراب الانتقالي، وهو يدل على التوبيخ والتبكيت، وفي قوله أَمْ ما تشركون قراءة بالتاء وتكون للخطاب، وقراءة بالياء وتكون للغائب، والمعنى ظاهر في القراءتين، وهو آية أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... كأنها تكون تبكيها صريحا، بعد أن كان في الآية السابقة تبكيها ضمنا، وتصريح بسبب العبادة وموجب الإذعان والخضوع، وَمَنْ مَبْتَدَأُ، والإضراب الانتقالي فيه معنى الاستفهام، والمعنى ننتقل إلى أمر واضح: أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، خيرا أم ما تعبدونهم. وجاء بجملة تحمل محل نفس المساواة في المعادلة فقال أعله مع الله.

وقال سبحانه: خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فيه تعميم لبيان أن خالق الوجود كله: السموات والأرض وما فيها، ثم تخصيص النعم القريبة بالذكر، وهي التقاء السماء بما فيها والأرض بما فيها من خير للإنسان والحيوان. وتكلم عنها بالغيبة، لأن الإخبار، والإعلام به، وهو واضح بين؛ لأن الخلق، وإنزال الماء إلى الأرض، وهو من التزاوج بين السماء والأرض، ولكن عند

نبات الزرع والشجر، كان إسناد الإنبات إليه سبحانه، لكيلا يظن أحد أن ذلك الإنبات من الأخذ بالأسباب والمسببات، وأنه فعل طبائع الأشياء، وبين الله تعالى أن ذلك الإنبات منه، وهو فوق الأسباب والمسببات، سبحانه بديع السموات والأرض، والخالق لكل شيء على غير مثال سبق، وقال بعد ذلك سبحانه: أأله مع الله، أى يتساوى الخالق والمخلوق بل أدنى مخلوق، والله خير من أوثانهم، ودل على عدم التساوى بتوبيخهم على أن يجعلوا مع الله إلها آخر، مع هذا التفارق، وأنه لا يكون المخلوق كالخالق أبداً، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أى يعدلون عن حكم العقل، وحكم المنطق، والطريق المستقيم، وكان التعبير بالمضارع لتصوير عدولهم عن الحق إلى الباطل، ومن العقل إلى الهوى، ألا ساء ما يقولون، وما يفعلون.

وقوله بالنسبة لإنبات الحدائق فيه إشارتان بيانيتان.

الأولى: أنه عبر بالإنبات للأشجار مع أنه فى آيات أخريات كان يضيف الإنبات إلى الزرع ويعبر عن خلق الأشجار، بقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥] وذكر الإنبات هنا بالنسبة للحدائق ذات الأشجار الوارفة الظلال؛ لبيان عظيم قدرته فى أنه ينبت هذه الدوحات والأشجار العظام، ويتعهد من حال النبات، حتى يصير فيحاء ذات بهجة وزينة، ويسر الناظرين مرآها، ويسر الناظرين ثمرها اليانع، وقطوفها الدانية.

الثانية: هى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ كان هى كان الناقصة، ونفيها معناها نفى الكينونة، أى ليس فى وجود ولا كيان، أن لكم، أى فى قدرتهم، أن تنبتوا شجرها، إنما ينبتها العزيز الرحيم، والخالق العظيم.

﴿أَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦١].

أم للإضراب الانتقالي، ودالة على الاستفهام المتضمن معنى المعادلة والموازنة، بين الله تعالى خالق الكون وما فيه ومن فيه، وأوثانهم التى يعبدونها.

وإن الإضراب الانتقالي مؤداه أنه انتقال من لوم وتوبيخ إلى لون آخر فيه أشد تأنيبا، وأبعد استنكارا وكلمة ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ﴾، أى خلق الأرض، ومهدا تمهيدا، بحيث جعلها ذات قرار وإقامة، واستمكنا للأحياء يمكنون فيها ويتخذون مساكن، من البناء أو الأخبية، وجعل من خلالها أنهارا أى فى أوساطها وأجزاء منها أنهارا مياه عذبة تكون ذات مناظر بهيجة، وتلطف حرارتها، وترطبها، وتذهب بجفافها، وتكون منها المياه العذبة، منها إنبات الزرع وفلق الحب والنوى، والكلا الذى يأكل منه الحيوان، وتتغذون به، وتكون منه إبلكم التى فيها جمال حتى تريحون، وحين تسرحون.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أى جبالا رواسى ثابتة تثبت الأرض، وهى لها كالأوتاد، وتحتون فيها بيوتا، ويكون فيها مزارع وأشجار ونخيل، بل غابات تحمى الأنفس، كما نرى فى جبال الجزائر وجبال الشامات، وفيها جبال جرد وغرايب سود، أى أن فيها متعة ومنعة، وقوة بأس.

وما فى الأرض اجتماع المياه العذبة والمياه التى فيها ملح أجاج، وتجاورهما من غير أن يختلط أحدهما بالآخر، بل يكون العذب الفرات بجوار الملح الأجاج، ومع تجاورهما لا يختلطان كأن بينهما بقدرة الله القادر القهار، حاجزا يحجز أحدهما ذا الثقل وهو الملح عن الآخر الخفيف، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أى جعل بين بحر العذب الفرات والبحر الأجاج حاجزا ربانيا لا يجعل أحدهما يختلط بالآخر، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن].

هل يستوى خالق هذا، ومبدع الأرض ذلك الإبداع مع أوثان لا تضر ولا تنفع، ولذا قال تعالى نافيا عنها الألوهية ﴿أَلَا مَعَ اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع، والمعنى لا إله مع الله، بل هم قوم لا يعلمون، ومن للإضراب الانتقالي وهم لا يعلمون، أى لا علم لهم، ويتجدد جهلهم بتجدد أفعالهم، ولذلك كان التعبير بالمضارع الدال على التصوير، وتجدد الفعل بتجدد أفعالهم وإنكارهم.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢).

أيضا للإضراب الانتقالي، وفيها معنى الاستفهام، والمضطر افتعال من الضرر، والافتعال دال على شدة الضرر، والمعنى من يقع في الضرر الملجئ للالتجاء إلى الله تعالى ولا يجد منقذا للمستصرخ سواه. أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه، ولجأ إليه ضارعا مستغيثا به داعيا له، وإذا دعاه كشف عنه الأمر الذي يسوءه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أى أنه ينعم عليكم بنعمتين أولاهما كشف الضر، والثانية يجعلكم الورثة لهذه الأرض ترثون سكانها وزرعها وثمارها، وسلطانها، فتكونون من المحكمين المصلطين فيها، وهذه نعمة عليكم إن شكرتموها، فقمتم في حقها بالعدل والقسطاس المستقيم، وهى نقمة الله تعالى إن ظلمتم، وأفسدتم وأقمتم الباطل بدل الحق، أ يكون من مكنكم ذلك التمكن خيرا، أم الأوثان، وقد دل على الحق بقوله سبحانه أله مع الله، أى لا إله مع الله، ولكنكم لا تذكرون الحق، ولا تعتبرون، ولذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والتأكيد قلة التذكر، أى قليلا أى قلة تذكرون وتعتبرون وتدركون فضل العقل على الهوى، والفكر على الإهمال.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣).

أم أيضا للإضراب الانتقالي، ومن دالة على الاستفهام مع تضمن أم له، ومعنى الهداية فى ظلمات البر والبحر أن النجوم المسخرة فى السماء تكون هادية مرشدة فى البر والبحر، وفى البر تهديكم وأنتم فى مراكز الصحراء، التى تعد كسفن فيها، وفى البحر تهدى السفن الماخرة فى عباب البحر الجارية على سطح الماء. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أى أن الله هو الذى يرسل الرياح من الشرق والغرب مبشرة بالماء الطاهر الذى يكون من المطر، الذى يخرج الخبء، وتبنت به النبات بإذن الله تعالى، وإن ذلك كله بعمل الله سبحانه

وتعالى، وإذا كان بخار الماء يتصاعد، ويعلو حتى يكون سحابة مملوءة بالماء، فيرسلها الله تعالى إلى حيث أراد فذلك بفضلته ونعمته على عباده، يرسلها من أرض إلى أرض، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ (٥٨) [الأعراف]، وقوله تعالى ﴿بَيْنَ يَدَيَّ رَحْمَتِي﴾، مجاز مشهور، أى أن الله تعالى يجعل تبشير الرياح بالماء مقدمة لرحمته مهيئة لها كما يهيئ من بين يديه الرحمة المتمكن منها، والتي فى قبضته سبحانه وتعالى، وهو القابض الباسط، الرزاق ذو القوة المتين ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ الاستفهام لإنكار الوقوع أى لا إله مع الله تعالى، ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أى تقدست ذاته، وتعالى علوا كبيرا عما يشركون أى عن شركهم، فهم بهذا الشرك معتدون ظالمون، وإن الشرك لظلم عظيم.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤).

أم للإضراب، ومن للاستفهام، أى أن الإضراب انتقالى، انتقل من السؤال عن أصل خلق الكون وما اشتمل وما توالى عليه من نعم الماء، والإنبات وتصريف الرياح لتكون مبشرة بين يدي رحمته، بعد ذلك سألهم عن أصل خلقهم، وعن مآلهم، وهو أمر متعلق أشد التعلق، والمعنى من الذى خلقكم ابتداء، وجعل لكم أجلا مسمى، وتكفل برزقكم فى الدنيا، وعبر سبحانه عن بدء الخلق بقوله ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾، مع أنه بدأه وخلق فى الماضى، فهو قد ذكر المضارع دون الماضى لأمرين: أولهما. تصوير البدء واستمراره، فالمضارع يدل على ذلك، والثانى أن البدء فى الخلق مستمر فهو فى الحاضر والقابل كما كان فى الماضى، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ التعبير بـثم فى موضعه؛ لأن بين الإعادة والبدء أعمار الناس، وليس ذلك زما قصيرا، وذكر البدء فى هذا المقام إنذار لهم وتذكير، والحياة عابثة إذ لم يكن بها تذكير باليوم الآخر، وإنما مستمر، وسبحانه وتعالى يذكره دائما لكى لا ينسوه، وفيه إنذار لهم وتبشير.

وإنه مع أن البعث جاء لا محالة تكفل سبحانه وتعالى، برزقهم في الفترة التي يعيشونها، فرحمة الله سابعة دائما، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى يرزقكم من السماء بنجومها المسخرات التي تهديكم فى ظلمات البر والبحر، والشمس بأشعتها الواقية والهادية، والقمر بنوره الذى ينير لكم فى جوف الليل البهيم، والمطر الذى ينزل من السحاب فنحى الأرض، ويرزقكم من الأرض بمعدنها وأفلاذها، ونباتها، وحدائقها ذات البهجة والجمال.

لا يستوى الله الخالق المبدع مع الأوثان، ثم قال تعالى: ﴿أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ﴾ أى لا إله مع الله، وقد انتقل القرآن من بيان ما يوجب عبادة الله تعالى إلى مطالبتهم بأن يأتوا بدليل يسوغ عبادة الأوثان، أمرا نبيه بأن يطالبهم بدليل يسوغ حالهم التى هم فيها من عبادة غيره. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البرهان هو الدليل العقلى المنطقى، أى هاتوا دليلا فعليا منطقيا يسوغ لكم عبادتها إن كنتم صادقين فى استحقاقها للعبادة.

طالبهم القرآن الكريم بالبرهان العقلى، ولكنهم لا يمكن أن يأتوا به، لأنه لا يمكن أن يكون ثمة دليل علمى منطقى يسوغ عبادة أحجار لا تملك نفعا، ولا ضررا، وهى فى ذاتها أقل فى وجودها ممن يعبدونها، ولكنه ضلال الأوهام.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ﴾ (٦٥).

علم الإنسان حسى حاضرا غير مغيب، لأنه لم يؤت علم الغيب إلا الله تعالى، ومن يشاء سبحانه أن يعطيه أحدا من عباده والعلم بالغيب هو العلم مما أكنه الله تعالى فى الوجود فى قابل الأمور، لا فى ماضيها، فلماضى يعرف بالكتابة أو القراءة أو نحو ذلك، وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يبين لقومه أنه لا يعلم الأمور الغيبية إلا الله، فقال: ﴿قُلْ﴾، أى يا رسولى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ومن هنا للعاقل، وإذا انتفى الغيب عن العقلاء فهو عن غيرهم أنفى، والغيب مفعول به ومن هنا تشمل العقلاء جميعا من يكونون فى

السموات والأرض فيدخل في العموم الملائكة، والجن والإنس، والاستثناء متصل فهو ليس منقطعاً، بمعنى لكن، وإن كان قد ادعى بعض المفسرين ذلك، وإن علم الإنسان في محيط وجوده وهو يحسب أن علمه هو ما يشعر به وحده ولا أحد غيره، حتى إن الأعمى، ما كان يشعر بعلم المبصرين لولا تضافر الناس على نقص علمه، وكذلك الأصم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أى فى أى وقت يبعثون، لا يشعرون فى أى وقت يبعثون، والشعور علم يقارب الحس المتلمس، أى ما يحسون فى أى وقت يبعثون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان]. وإنه يستفاد من هذا أن علم الغيب هو العلم بما يقع فى المستقبل لا بما هو واقع فى الماضى أو الحاضر.

يروى فى ذلك أنه دخل على الحجاج بن يوسف الثقفى منجم فاعتقله، فأخذ حصوات فعدها، ثم قال: كم فى يدى من حصاة، فحسب المنجم، ثم قال: كذا، فأصاب، ثم اعتقله فأخذ حصوات لم يعدهن ثم قال: كم فى يدى، فحسب وأخطأ، ثم قال أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها، وقال: لا، قال فإنى لا أجيد العد. قال فما الفرق؟ قال إن ذلك أحصيته فخرج عن حد الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب، ولا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله.

ولقد أخرج مسلم عن عائشة أنها قالت: «من زعم أن محمداً يعلم ما فى غد، فقد أعظم الغيبة على الله تعالى، يقول ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾».

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾.

فيها عدة قراءات فى لفظ ادرك فقرئت من غير مد أدرك وقرئت أدرك، وكلها قراءات يتقارب معناها، ولا يتباعد، ولنا أن ادراك أصلها تدارك قلبت التاء دالا وأدغمت الدال فى الدال وأتى بهمزة الوصل ليتمكن الابتداء بالساكن، ومعنى ادراك تلاحق وتضافر العلم، ولنا فيها تخريجان، وكلاهما معقول:

أولهما أن تلاحق العلم فى الدنيا، فقد تلاحت الأدلة على إمكان البعث، والحياة فى الآخرة مثل قوله تعالى ﴿.. كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٧٩)﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿.. مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ. (٧٩)﴾ [يس] وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. (٥١)﴾ [الإسراء]. وهكذا كثير من الآيات الكريمة التى تبين قرب العودة، وأنها غير مستحيلة، بل إنها واجبة؛ لأن الله ما خلق الإنسانية عبثاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون] إنها واجبة.

التخريج الثانى أن يكون ذلك العلم المتدارك المتلاحق فى الآخرة، إذ يكون الحس بالبعث، ويكون الحساب والثواب والعقاب، وتشهد عليهم ألسنتهم وسائر جوارحهم، ويكون العلم اليقيني فى الآخرة، ويرشح لهذا قوله تعالى فى الآخرة لأنه يفيد أن ذلك التلاحق العلمى فى الآخرة.

وبل للإضراب الانتقالى، وهو الانتقال من موضوع إلى موضوع، أو الانتقال من عدم الشعور بالبعث إلى العلم به علم يقين، وبل الثانية للإضراب الانتقالى، وهو الانتقال من العلم المتلاحق الذى سيكون الآن أو من الآن إلا أنهم فى حال شك من الإيمان، لا اليقين، ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾، أى أنه مع هذا العلم المتوافر المثبت لليقين بالبعث كانوا فى شك منه، وقد أكد سبحانه الشك فى قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ وكان التوكيد ببل المفيدة للإضراب، وبالضمير، وبأن الشك أحاط بهم كما تحيط الدائرة بقطرها، فهم سيغرقون فيه لا يخرجون عنه، ولا يتركونه إلى يقين أيضاً، والضمير يعود إلى الآخرة التى يرتابون فيها ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ جمع عم أى أنهم عمى عن الآخرة، أى أنها واقعة لا ريب، ولكنهم عمون عن حقائقها، وما يكون فيها، فالحقائق ثابتة بأدلتها السمعية والنقلية، ولكنهم عمون عنها غافلون، وليس العيب فى حقائق يوم القيامة، إنما العيب فى عماهم عنها.

وتقدم الجار والمجرور لمعنى الاختصاص، أى أنهم عمون عن الحياة الآخرة وليسوا عمسين عن غيرها، وهى أعراض الدنيا، وما فيها من لهو ولعب، وملاذ، وشهوات، وأكد الحكم بالإضراب وبالضمير، وبالجملة الاسمية.

أقوال الكفار المنكرين

قال تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَاؤُنَا آبَاءُنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
 هَٰذَا نَحْنُ وَءِذَا بَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى
 أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾

بعد أن بين حقيقة البعث، وأن الأدلة قائمة عليه، وأن العقل يثبت إمكانه والنقل يثبت وجوده، ذكر سبحانه وتعالى قول الذين كفروا فيه، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَاؤُنَا آبَاءُنَا لَمُخْرَجُونَ﴾ يذكرون في تفكير الحسى الذى يؤمنون فيه بالمادة وحدها مانعين حسيين فى زعمهم الباطل، والمانع الأول هو الموت، وهو فى زعمهم مانع حسى كيف يعود الميت حيا، وهم لم يالفوه، ولم يروه فهو وحده كاف للمنع، وقد أضيف المانع الثانى، وهو أنهم يصيرون ترابا، وكان هنا بمعنى صار، وكنا ترابا أى صرنا ترابا، وتحللت الأجزاء الحية من أجسامنا، وأبعدت عنا الحياة بحقيقتها ومظاهرها، كيف تبصر بعد ذلك أن نحيا

بعد أن ندفن، ولذا قال تعالى عنهم: ﴿أَتَأْتِ الْمُخْرَجُونَ﴾، أى أننا نخرج من القبور، بعد أن دفنا فيها، وصرنا فى ضمن أجزائها، ولا منفصل عنها، فكيف يتميز خلقنا عن خلقها، وقد أكدوا عدم الخروج بتكرار الاستفهام، كأنه فى ذاته أمر غريب، وزكوا الاستفهام المانع باللام والوصف، أى أنكون مخرجين حقا وصدقا، وخروجا مؤكدا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كان الإظهار فى موضع الإضمار، فلم يقل وقالوا؛ وذلك لأن الصلة وهى الجحود والكفر هما الإنكار، واستغراق المادة لهم، حتى إنهم لا يفكرون قط فى أمر معنوى، ولا أمر غيبى فقد استغرقتهم المادة حتى صاروا لا يؤمنون إلا بها.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨).

هذه الآية تدل على أن المشركين فى مكة كانت عندهم بقايا من الديانات، وخصوصا ملة إبراهيم، ولكن نفوسهم مرتت على الإنكار واستمرت الجحود، واستغرقتهم المادة، فلا يؤمنون إلا بما يوائمها ويوافقها، وذلك بقولهم ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾، أى قبل أن يجرى محمد، وأكد الوعد باللام، وبقد، ويستقلون من الإنكار المطلق إلى ادعاء كذب هذا الوعد، وكان من أبيهم مكان شرفهم الذى يعتزون، به ويقولون ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إن نافية، والمعنى ما هذا إلا أساطير الأولين اكتسبها، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.

وهكذا يشتطون فى القول حتى ليصلوا إلى اتهام إبراهيم مناط شرفهم وعزتهم بأنه يأتى بأساطير. بقى أن يذكرهم سبحانه بما نزل بمن كانوا على إنكارهم فقال عز من قائل:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩).

الأمر للنبي ﷺ، وهو أمر للتذكير بالعذاب الذى نزل بإخوانهم، وقريب منهم آثار عاد وثمود وأصحاب الأيكة، وقوم لوط وغيرهم.

والسير فى أراضى هؤلاء للاعتبار والعظة، والعلم بما أنزله الله تعالى بهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَانظُرُوا﴾ نظرات عظة واعتبار ومعرفة بأنه سينزل بهم مثل ما نزل بهؤلاء لأنه إذا تساوت الأسباب فالنتيجة واحدة.

وقوله ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، الفاء عاطفة للترتيب والتعقيب أى أن نتيجة السير أن تنظر نظرات اعتبار إلى عاقبة المجرمين، وما آل إليه أمرهم بعد أن طغوا فى البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وعبر بالمجرمين لبيان آثار إجرامهم فى الأرض ونهايته، ولبيان أن المؤمنين مهما يكونون ضعفاء لا يمكن أن يكونوا مجرمين.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)﴾.

إذا كانوا يسيرون فى الأرض ليريبهم عاقبة المجرمين فذلك إعلام لهم بأنهم مثلهم وسينزل بهم مثل ما نزل بغيرهم، ولأنهم ضالون مثلهم، ولا شك أن ذلك يحزن النبى ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [الشعراء]؛ ولذا نهى النبى ﷺ، إذ هم قومه وعشراؤه، إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قيل أى لا تحزن، على كونهم، وإنى أرى أن الحزن عليهم هم لأنهم قومه، وقد قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة].

﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ الضيق الحرج الشديد، ومما يَمْكُرُونَ أى يدبر التدبير الخبيث من إيذاء المؤمنين والاستهزاء بالنبى ﷺ، وتدبير المكائد من مثل مقاطعتهم للنبى ﷺ، وعزل المؤمنين الموالين لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى شعب قريش ونحو ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧)﴾ [المائدة]. إن الله عاصمك مهما تماثلوا عليك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾.

الضمير يعود إلى الكفار وهو يدل على تعنتهم، وإعنايتهم لأنفسهم، ويتحدون الله ورسوله، أن ينزلوا بهم ما وعدهم من عذاب ويستفهمون قائلين، متى هذا الوعد؟ والاستفهام لا يخلو من استنكار وتهكم على الوعد، إن كنتم صادقين في إيعادكم، وشككوا في صدقهم ولذا كان التعليق بأن التي لا تدل على تحقق الشرط، وإن النبي ﷺ يرجو الإيمان من أصلاهم، ومن غير المعقول أن ينزل الله بهم عذابا دنيويا ساقيا، والنبي بينهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾ (٢٣) [الأنفال].

وقد ذكر سبحانه أنه سينالهم عذاب شديد، ليس من قبيل السحق والإبادة، بل يكون من قبيل المنازلة، ولذا قال سبحانه:

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢).

أى قل لهم يا محمد: لا تستعجلوا العذاب، وعسى أن يكون ردف لكم، أى دنا منكم، وصار ردفا لكم قريبا منكم بعض الذى تستعجلون. وذكر بعض الذى يستعجلونه دون العذاب الساق الماحق، كما كان لعاد وثمود وأصحاب الأيكة؛ لأن الله تعالى يتولى تأديبهم فى الحياة الدنيا، بالغزوات المؤدبة لهم كغزوة بدر، والخذق، والحديبية وفتح مكة، لأنه سبحانه يريد أن يجعل من ذريتهم من يعبد الله ويجاهد فى سبيله كما كان خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما.

والتعبير بعسى، ولعل، ونحو ذلك من العبارات يراد به تأكيد الوقوع كما تجرى عبارات الرؤساء والأقوياء، وأهل السلطان، وقد بين سبحانه أن نزول بعض ما تستعجلون من فضله ورحمته، فقال:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

أى أن نزول بعض ما يستعجلون هو من فضل الله على الناس من المشركين من أهل مكة، ورحمة بهم ليكون فى لاحقهم إن تعذر أن يكون فى بعض حاضرهم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون تلك النعمة المزجاة إليهم؛ ولا يعرفون حقها، والله من ورائهم محيط ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤).

أكد سبحانه علم الله وفضله في هذه الآية الكريمة كما أكد فضله في الآية السابقة بأن والتعبير بربك القائم عليك بفضل الربوبية واللام فيها، فإنها تؤكد موضعها فضل تأكيد. ﴿مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ﴾ هو ما أكنوه من أسرار يخفونها ولا يبدونها، ومن تدبر وفكر، واتجاه إلى المكر السيئ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوة صريحة واستهزاء بالمؤمنين، وصد عن سبيل الله وهذا تهديد لهم بأن الله تعالى محاسبهم عليه، وإن ربك بالمرصاد لهم.

* * *

عقد الإمام محمد أبو زهرة في أواخر عام ١٩٧٣ وأوائل عام ١٩٧٤ العديد من الندوات والاجتماعات بجامعة القاهرة والإسكندرية وفي جمعية الشبان المسلمين لمحاربة التعدي على الشريعة الإسلامية، وكانت له صولات وجولات في مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بخصوص تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات والطلاق في مشروع قانون الأحوال الشخصية لوزارة الشؤون الاجتماعية، وقرر فضيلة الإمام رحمه الله إقامة مؤتمر شعبي لمناقشة هذا الأمر في سرادق كبير في شارع العزيز بالله أمام منزله بضاحية الزيتون، أقامه الإمام رحمه الله على نفقته الخاصة وقام فضيلته بمعاينة المكان وإنشاء السرادق مبكرا في صباح يوم الجمعة ١٢/٤/١٩٧٤ ثم عاد إلى حجرة المكتب بالدور العلوي وشرع في إكمال تفسير سورة النمل حتى أذان الظهر، وأثناء نزول فضيلته حاملا القلم والمصحف مفتوحا على آخر ما وصل إليه في التفسير وأيضا الورق الذي به ما كتب من التفسير تعثر رحمة الله عليه وسقط ساجدا على المصحف وعلى أوراق التفسير، ثم فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغرب. وهكذا شاءت إرادة الله العظيم أن يكون هذا السرادق الذي أشرف فضيلته على إقامته لمؤتمر شعبي هو سرادق العزاء للإمام.

رضى الله عن شيخ مشايخ عصره، الإمام محمد أبو زهرة وأرضاه، وأسكنه فسيح جناته وأجمل فراديسه، وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أسرة الإمام الجليل محمد أبو زهرة